الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الاربعون

الاجزاء من ٧٩٣ الى ٨١٧

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
793	سورة القيامة	الآية 16 الى الآية 40	2
794	سورة الانسان	فصول مهمة	585
795	=	الآية 19 الى الآية 31	952
796	سورة المرسلات	فصول مهمة	1573
797	=	الآية 41 الى الآية 50	1851
798	سورة النبأ	فصول مهمة	2152
799	=	الآية 31 الى الآية 40	2553
800	سورة النازعات	فصول مهمة	2949
801	=	الآية 34 الى الآية 46	3353
802	سورة عبس	فصول مهمة	3741
803	=	الآية 33 الى الآية 42	4020
804	سورة التكوير	فصول مهمة	4335
805	=	الآية 22 الى الآية 29	4619
806	سورة الانفطار	فصول مهمة	4939
807	سورة المطففين	فصول مهمة	5223
808	=	الآية 29 الى الآية 36	5529
809	سورة الانشقاق	فصول مهمة	5860
810	سورة البروج	فصول مهمة	6291
811	سورة الطارق	فصول مهمة	6762
812	سورة الاعلى	فصول مهمة	7111
813	سورة الغاشية	فصول مهمة	7695
814	سورة الفجر	فصول مهمة	8093
815	=	الآية 21 الى الآية 29	8413
816	سورة البلد	فصول مهمة	8842
817	سورة الشمس	فصول مهمة	9304

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والتسعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من (سورة القيامة)

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ آخر السورة

(4/793)

قوله تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان معنى هذا كله أن الإنسان محجوب في هذه الدار عن إدراك الحقائق بما فيه من الحظوظ والكسل والفتور ، لما فيه من النقائص ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبرءاً من ذلك لخلق الله له كاملاً وترقيته بعد ميلاده كل يوم في مراقي الكمال حتى صار إلى حد لا يشغله عن العلوم شيء فكان بحيث يرى مواقع الفتن خلال البيوت كمواقع القطر ، ويرى من

ورائه كما يرى من أمامه ، ويقول : " والله لا يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم إني أراكم من وراء ظهري " وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى في أشد الظلام وغير ذلك مما له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من رقة الجوهر الذي لم ينله أحد غيره ، وذلك مما يدل على الكشف التام ولكنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتعظيمه لهذا القرآن لما له في نفسه من الجلالة ولما فيه من خزائن السعادة والعلوم التي لا حد لها فتستقصى ، ولأنه كلام الملك الأعظم ، وبأمره نزل إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع رسوله جبريل عليه الصلاة والسلام ، يعالج عند سماعه أول ما يأتيه شدة ، فكان يحرك به لسانه استعجالاً بتعهده ليحفظه ولا يشذ عنه منه شيء ، وكان قد ختم سبحانه ما قبلها بالمعاذير ، وكانت العجلة مما يعتذر عنه ، وكان الحامل على جميع ما يوجب الملامة والاعتذار ما طبع عليه الإنسان من حب العاجل ، قال سبحانه نتيجة عن هذه المقدمات الموجبة لانكشاف الأشياء للإنسان الموجب للإخبار بها والخوف من عواقبها لئلا يميل إلى العاجلة ولا يقع في مخالفة لولا ما شغله به من الحجب إعلاماً بأنه سبحانه وتعالى قد دفع عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلك الحجب وأوصله من رتبة " لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً " إلى أنها ها ، وأنه قادر على ما يريد من كشف ما يريد لمن يريد كما يكشف لكل إنسان عن أعماله في القيامة حتى يصير يعرف ما قدم منها وما أخر ، وتنبيهاً على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا كسب له في هذا القرآن بغير حسن التلقي إبعاداً له عن قول

(5/793)

البشر وتمهيداً بما يحرك من لسانه بالقرآن قبل تمام الإلقاء لذم ما طبع عليه الإنسان : ﴿ لا تحرك به ﴾ أي القرآن الذي هو تذكرة من شاء ذكره لولا حجاب المشيئة ، وقد كشف سبحانه وتعالى حجاب المشيئة لهذا النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشاء أن يذكره حين قال

﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ [الإنسان : 30] لأنه ما نزله إليه بغير اكتساب منه إلا وقد شاء ذلك ﴿ لسانك ﴾ الذي ليست له حركة إلا في ذكر الله تعالى .

(6/793)

ولما لم يكن لهذا التحريك فائدة مع حفظ الله له على كل حال إلا قصد الطاعة بالعجلة ، وكانت العجلة هي الإتيان بالشيء قبل أوانه الأليق به ، وإن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثاباً على ذلك أعظم الثواب لأنه لا حامل له عليه إلا حب الله وحب ما يأتي منه ، وجعلها الله سبحانه وتعالى علة وإن لم تكن مقصودة فقال : ﴿ لتعجل به ﴾ أي بحمله

وأخذه قبل أن يفرغ من إلقاءه إليك رسولنا جبريل عليه الصلاة والسلام مخافة أن ينفلت منك ، لأن هذه العجلة وإن كانت من الكمالات بالنسبة إليك وإلى إخوانك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ [طه : 84] لأنها من النفس اللوامة التي تلوم على ترك المبادرة إلى أفعال الخير فغيرها من أفعال المطمئنة أكمل منها ، فنقل ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مقام كامل إلى أكمل منه ، وكان هذا الكلام المتعلق بالقرآن والذي بعده فرقاناً بين صفتي اللوامة في الخير واللوامة في الشر ، والآية ناظرة إلى قوله تعالى في المدثر حكاية " إن هذا إلا قول البشر " وما بينهما اعتراض في وصف حال القيامة جر إليه قوله تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ [المدثر : 26] أي أن الذي خيل به المتقول في القرآن أمران : أحدهما أنه سحر والآخر أنه قول البشر ، والعلم اليقين حاصل بانتفاء الأول ، وأما الثاني فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخشى أن لا يتقن حفظه فتدخل عليه كلمة مثلاً فيكون من قول البشر فنهاه الله تعالى عن العجلة وضمن له الحفظ ، ثم علل هذا النهي بقوله مؤكداً لأنه من مجراته : ﴿ إن علينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، لا على أحد سوانا ﴿ جمعه ﴾ أي في صدرك حتى نثبته ونحفظه ﴿ وقرآنه ﴾ أي إطلاق لسانك به وإثباته في رتبته من الكتاب حال كونه مجموعاً أتم جمع ميسراً حسن تيسير فأرح نفسك مما تعالج في أمره من المشقة وتكابده من العناء .

ولما نهاه أمره فقال : ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي أقدرنا جبريل عليه الصلاة والسلام على تأديته إليك كما حملناه إياه بما لنا من العظمة وعلى حسبها ﴿ فاتبع ﴾ أي بغاية جهدك بإلقاء سمعك وإحضار ذهنك ﴿ قرآنه ﴾ أي قراءته مجموعة على حسب ما أداه إليك رسولنا وجمعناه لك في صدرك ، وكرر تلاوته حتى يصير لك به ملكة عظيمة واعمل به حتى يصير لك خلقاً فيكون قائدك إلى كل خير ، فالضمير يجوز أن يكون للقرآن ، يكون القرآن هنا بمعنى القراءة ، عبر به عنها تعظيماً لها ، أي اتبع قراءة القرآن أي قراءة جبريل عليه السلام له ، ولو كان على بابه لم يكن محذوراً ، فإن المراد به خاص وبالضمير عام ، ويجوز أن يكون الضمير لجبريل عليه السلام أي اتبع قراءته ولا تراسله .

(8/793)

ولما كان بيان كلماته ونظومه على أي وجه سمعه من مثل صلصلة الجرس وغيرها وبيان معانيه وما فيه من خزائن العلم من العظمة بمكان يقصر عنه الوصف ، أشار إليه بأداة التراخي ، فقال دالاً على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة ، مشعراً بأنه كان يعجل بالسؤال عن المعنى كما كان يعجل بالقراءة : ﴿ ثم ﴾ وأكد ذلك إشارة إلى

أنه لعظمه مما يتوقف فيه فقال : ﴿ إن علينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ بيانه ﴾ أي بيان ألفاظه ومعانيه لك سواء سمعته من جبريل عليه الصلاة والسلام على مثل صلصلة الجرس أو بكلام الناس المعتاد بالصوت والحرف ، ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمتك ، والآية مشيرة إلى ترك مطلق العجلة لأنه إذا نهى عنها في أعظم الأشياء وأهمها كان غيره بطريق الأولى ، روى البخاري في تفسير الآية في أول صحيحه وآخره عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : "كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعالج من التنزيل شدة ، كان يحرك شفتيه ، قال سعيد بن جبير : قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحركهما " فأنزل الله عز وجل الآية حتى قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ [القيامة : 18] قال : فاستمع له وأنصت ثم إن علينا أن تقرأه ، قال فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام استمع مطرقاً فإذا انطلق جبريل عليه الصلاة والسلام قرأه النبي - صلى الله عليه وسلم - كما أقرأه جبريل عليه الصلاة والسلام كما وعده الله بكفالة قوله تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ [الجن : 27 - 28] .

(9/793)

ولما كان سبحانه وتعالى قد ختم الكلام في المكذبين بأن أعمالهم محفوظة ، وأن كل أحد على نفسه شاهد ، لأنه يعلم جميل ما يفعل من قبيحه وإن اعتذر ، ولولاه ما اشتد اتصاله به ، وختم بضمان البيان للقرآن ، فكان شاهداً بيناً على كل إنسان بما له من عظيم البيان .

(10/793)

قال نافياً لما يظن من جهلهم بقبيح أفعالهم الذي اقتضاه اعتذارهم مشعراً بأن الآدمي مطبوع على الاستعجال بعد النهي عن العجلة في أعز الأشياء وأعلاها وأهمها وأولاها ، لأنه أصل الدين ليكون ذلك مؤكداً للنهي عن العجلة بالقرآن ومؤكداً لذمهم بحب العاجلة مغلظاً لتوبيخهم على الميل مع الطبع وترك ما يقتضيه العلم والعقل : ﴿كلا﴾ أي لا يجهل أحد منهم قبائح ما ارتكبه وإن اعتذر وما ارتكب شيئاً منها عن جهل ﴿بل﴾ هم ﴿يحبون﴾ أي محبة متجددة مستمرة على تجدد الزمان ﴿العاجلة﴾ بدليل أنهم يقبلون غاية الإقبال عليها فيأخذونها ، وحبّها أوجب لهم ارتكاب ما يعلمون قبحه فإن الآخرة والأولى ضرتان من أحب إحداهما فعل ولا بد ما يباعده عن الأخرى ، فإن " حبك للشيء يعمي ويصم " وهذا بخلاف نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مطلق العجلة فكيف

بالعاجلة فإنما طبعناه على الكمال ، فكان يعالج من العجلة بالقراءة شدة فحين نهيناه عن ذلك انتهى رجوعاً إلى طبعه الكامل الذي لا يشوبه نقص ، وكذا كان أمره تكويناً لا إباء معه ولا كلفة ، فإن نفسه المطمئنة هي الغالبة ولها السلطان الأكبر ، ولأجل تضارر الدارين وكونهم يحبون العاجلة قال : ﴿ وتذرون ﴾ أي يتركون على أي وجه كان ولو أنه غير مستحسن ﴿ الآخرة ﴾ لانهم يبغضونها لارتكابهم ما يضربهم فيها ، وجمع الضمير وإن كان مبنى الخطاب مع الإنسان نظراً نظراً للمعنى إشارة إلى أنه لا يسلم من العجلة المذمومة إلا أفراد حفظهم الله بقدرته الباهرة ، والآية من الاحتباك : ذكر الحب أولاً دليلاً على البغض ثانياً ، والترك ثانياً دليلاً على الإقبال والأخذ أولاً ، فأنفسهم اللوامة تلومهم على التقصير في الشر كما أن نفسك تحثك على الازدياد من الخير والمبادرة إليه ، فنعم النفس هي ولتعلين مقامها ، وأما أنفسهم فإنها تحثهم لأجل اللوم على التقصير في الشر على الإخلاد إلى العاجل الفاني والإقلاع عن الباقي لكونه غائباً فبئس الأنفس هي .

(11/793)

ولما ذكر الآخرة التي أعرضوا عنها ، ذكر ما يكون فيها بياناً بجهلهم وسفههم وقلة عقلهم ، ترهيباً لمن أدبر عنها وترغيباً لمن أقبل عليها لطفاً بهم ورحمة لهم فقال : ﴿ وجوه ﴾ أي من

المحشورين وهم جميع الخلائق ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ تقوم القيامة ﴿ ناضرة ﴾ من النضرة بالضاد ، وهي النعمة والرفاهية أي هي بهية مشرقة ظاهر عليها أثر النعمة بحيث يدل ذلك على نعمة أصحابها ﴿ إلى ربها ﴾ أي المحسن لها خاصة باعتبار أن عُدّ النظر إلى غيره كلا نظر ﴿ ناظرة ﴾ أي دائماً هم محدقون أبصارهم نحو جوده بالتجلي لا غفلة لهم عن ذلك فإذا رفع الحجاب عنهم أبصروه بأعينهم بدليل جوده بالتجلي لا غفلة لهم عن ذلك فإذا رفع الحجاب عنهم أبصرره بأعينهم بدليل التعدية ب " إلى " وذلك ، النظر جهرة من غير اكتتام ولا تضامّ ولا زحام – كما قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وأكثر المفسرين وجميع أهل السنة ، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأحاديث الصحاح من وجوه كثيرة بحيث اشتهر غاية الشهرة ، وتكون الرؤية كما مثلت في الأحاديث

(12/793)

" كما يرى القمر ليلة البدر " كل من يريد رؤيته من بيته مخلياً به – هذا وجه الشبه ، لا أنه في جهة ولا في حالة لها شبيه – تعالى الله عن التشبيه ، وهكذا رؤية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام من الأشخاص المستكثرة في البلاد المتباينة في الوقت الواحد ، وقدم الجار الدال على الاختصاص إشارة إلى هذا النظر مباين للنظر إلى غيره فلا يعد ذلك نظراً

بالنسبة إليه ، وإلى أن تلك الوجوه مستغرقة في مطالعة جماله بحيث لا تفتر عن ذلك ، ولا يعد نظرها إلى ما سواه شيئاً ، وهي آمنة من أن يفعل بها فاقرة ، وعبر بالوجوه عن أصحابها لأنها أدل ما يكون على السرور ، وليكون ذكرها أصرح في أن المراد بالنظر حقيقته ، وزاده صراحة بالتعدية ب " إلى " فإن الانتظار لا يعدى بها ، قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب المحبة من الإحياء بعد أن جوّز أن يخلق الله النظر في الجهة وغيرها : والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة – انتهى ، وأهل الجنة متفاوتون في النظر : روي أن منهم من ينظر إلى الله بكرة وعشية ، وفي خبر آخر ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ، ومتفاوتون في مقدار الكشف في الجمال والأنس والبهجة التي يكون عنها اللذة بحسب أعمالهم .

ولما ذكر أهل النعمة ، أتبعه أضدادهم من أهل النقمة فقال : ﴿ ووجوه يومئذ ﴾ أي في ذلك اليوم بعينه ﴿ باسرة ﴾ أي شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه فرسبت بعد أن سبرت أحوالها ، فلم يظهر لها وجه خلاص ، والباسل أبلغ من الباسر لكنه غلب في الشجاع لاشتداد كلوحه عند العراك ، وتلك الوجوه عن ربها محجوبة ، وإلى أنواع العذاب ناظرة .

(13/793)

ولما كان ظن الشر كافياً في الحذر منه والمبالغة في استعمال ما يحمي منه ، قال دالاً على أنه عبر بالوجه عن الجملة : ﴿ تظن ﴾ أي تتوقع بما ترى من المخايل : ﴿ أن يفعل ﴾ بناه للمفعول لأن المحذور وقوع الشر لا كونه من معين ﴿ بها ﴾ أي بهم فإنه إذا أصيب الوجه الذي هو أشرف ما في الجملة كان ما عداه أولى ﴿ فاقرة ﴾ أي داهية تكسر الفقار وهو عظم سلسلة الظهر الذي هو أصلب ما في العظام فتكون قاصمة الظهر ، فالآية من الاحتباك : ذكر النظر في الأولى دليل على ضده في الثانية ، وذكر الفاقرة في الثانية دليل على ضدها في الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 248 . 253 ﴾

(14/793)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

زعم قوم من قدماء الروافض أن هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه ، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك .

واعلم أن في بيان المناسبة وجوهاً أولها : يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه ، إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه ، فلا جرم .

(15/793)

نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت ، وقيل له : لا تحرك به لسانك لتعجل به وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئاً ، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً ، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يميناً وشمالاً ثم يعود إلى الدرس ، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه ، فمن لم يعرف السبب يقول : إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب ، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب وثانيها : أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة ، وذلك هو قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسانُ لِيَفْجُرَ

أَمَامَهُ ﴾ [القيامة : 5] ثم بين أن التعجيل مذموم مطلقاً حتى التعجيل في أمور الدين ، فقال : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وقال في آخر الآية : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ [القيامة : 20] ، وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة : 14 ، 15] فههنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل ، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان ، فكأنه قيل له : إنك إذا أتيت بهذا العذر لكنك تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانته فاترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءانَهُ ﴾ [القيامة : 16 ، 17] ورابعها : كأنه تعالى قال : يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم لكن لا حاجة إلى هذا فإن الإنسان على نفسه بصيرة وهم بقلوبهم يعلمون أن الذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث منكر باطل ، فإذا كان غرضك من هذا التعجيل أن تعرفهم قبح ما هم عليه ، ثم إن هذه المعرفة حاصلة عندهم ، فحينئذ لم يبق لهذا التعجيل فائدة ، فلا جرم قال : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ وخامسها : أنه

تعالى حكى عن الكافر أنه يقول : أين المفر ، ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إلى ربّك يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ [القيامة : 11 ، 12] فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره فقيل : لمحمد إنك في طلب حفظ القرآن ، تستعين بالتكرار وهذا استعانة منك بغير الله ، فاترك هذه الطريقة ، واستعن في هذا الأمر بالله فكأنه قيل : إن الكافر يفر من الله إلى غيره ، وأما أنت فكن كالمضاد له فيجب أن تفر من غير الله إلى الله وأن تستعين في كل الأمور بالله ، حتى يحصل لك المقصود على ما قال :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءانَهُ ﴾ [القيامة : 17] وقال في سورة أخرى : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رّبى زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] أي لا تستعن في طلب الحفظ بالتكرار بل اطلبه من الله تعالى وسادسها : ما ذكره القفال وهو أن قوله : ﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ليس خطاباً مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له : ﴿ اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : 14] فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به ، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال ، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب

عقوبته ، وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أن المراد منه أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التفصيل ، وفيه أشد الوعيد في الدنيا وأشد التهويل في الآخرة ، ثم قال القفال : فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به .

(17/793)

المسألة الثانية :

احتج من جوز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية ، فقال : إن ذلك الاستعجال إن كان بإذن الله تعالى فكيف نهاه عنه وإن كان لا بإذن الله تعالى فقد صدر الذنب عنه

الجواب : لعل ذلك الاستعجال كان مأذوناً فيه إلى وقت النهي عنه ، ولا يبعد أن يكون الشيء مأذوناً فيه في وقت ثم يصير منهياً عنه في وقت آخر ، ولهذا السبب قلنا : يجوز النسخ .

المسألة الثالثة :

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ ، فأنزل تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ أي بالوحي والتنزيل والقرآن ، وإنما جاز

هذا الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه ، كما أضمر في قوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ونظير قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] وقوله : ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي لتعجل بأخذه .

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

كلمة على للوجوب فقوله : إن علينا يدل على أن ذلك كالواجب على الله تعالى ، أما على مذهبنا فذلك الوجوب بحكم الوعد ، وأما على قول المعتزلة : فلأن المقصود من البعثة لا يتم إلا إذا كان الوحي محفوظاً مبرأ عن النسيان ، فكان ذلك واجباً نظراً إلى الحكمة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ معناه علينا جمعه في صدرك وحفظك ، وقوله : ﴿ وَقُرْءانَهُ ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن المراد من القرآن القراءة ، وعلى هذا التقدير ففيه احتمالان أحدهما : أن يكون المراد جبريل عليه السلام ، سيعيده عليك حتى تحفظه

والثاني : أن يكون المراد إنا سنقرئك يا محمد إلى أن تصير بحيث لا تنساه ، وهو المراد من قوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] فعلى هذا الوجه الأول القارىء جبريل عليه السلام ، وعلى الوجه الثاني القارىء محمد صلى الله عليه وسلم والوجه الثاني : أن يكون المراد من القرآن الجمع والتأليف ، من قولهم : ما قرأت الناقة سلاقط ، أي ما جمعت ، وبنت عمرو بن كلثوم لم تقرأ جنيناً ، وقد ذكرنا ذلك عند تفسير القرء ، فإن قيل : فعلى هذا الوجه يكون الجمع والقرآن واحداً فيلزم التكرار ، قلنا : يحتمل أن يكون المراد من الجمع جمعه في نفسه ووجوده الخارجي ، ومن القرآن جمعه في ذهنه وحفظه ، وحينئذ يندفع التكرار .

فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته ، وهذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام ، ونظيره في حق محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] .

المسألة الثالثة :

قال ابن عباس : معناه فإذا قرأه جبريل فاتبع قرآنه ، وفيه وجهان الأول : قال قتادة : فاتبع

حلاله وحرامه والثاني : فاتبع قراءته ، أي لا ينبغي أن تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبريل ، لكن يجب أن تسكت حتى يتم جبريل عليه السلام القراءة ، فإذا سكت جبريل فخذ أنت في القراءة ، وهذا الوجه أولى لأنه عليه السلام أمر أن يدع القراءة ويستمع من جبريل عليه السلام ، حتى إذا فرغ جبريل قرأه ، وليس هذا موضع الأمر باتباع ما فيه من الحلال والحرام .

(19/793)

قال ابن عباس : فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية أطرق واستمع فإذا ذهب قرأه .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الآية تدل على أنه عليه السلام كان يقرأ مع قراءة جبريل عليه السلام وكان يسأل في أثناء قراءته مشكلاته ، ومعانيه لغاية حرصه على العلم ، فنهى النبي عليه السلام عن الأمرين جميعاً ، أما عن القراءة مع قراءة جبريل فبقوله : ﴿ فَإِذَا قرأناه فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ [القيامة :

18] وأما عن إلقاء الأسئلة في البيان فبقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

المسألة الثانية :

احتج من جوز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية .

وأجاب أبو الحسين عنه من وجهين الأول : أن ظاهر الآية يقتضي وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب وأنتم لا تقولون به الثاني : أن عندنا الواجب أن يقرن باللفظ إشعاراً بأنه ليس المراد من اللفظ ما يقتضيه ظاهره ، فأما البيان التفصيلي فيجوز تأخيره فتحمل الآية على تأخير البيان التفصيلي ، وذكر القفال وجهاً ثالثاً : وهو أن قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 13 17] والجواب عن الأول : أن اللفظ لا يقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان ، وعندنا الأمر كذلك لأن وجوب البيان لا يتحقق إلا عند الحاجة وعن الثاني : أن كلمة ثم دخلت مطلق البيان فيتناول البيان المجمل والمفصل ، وأما سؤال القفال فضعيف أيضاً لأنه ترك للظاهر من غير دليل .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يدل على أن بيان المجمل واجب على الله تعالى أما عندنا فبالوعد والتفضل .

وأما عند المعتزلة فبالحكمة .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21)

وفيه مسألتان :

(20/793)

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿كَلاَّ﴾ ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ في ذلك باتباعه قوله : ﴿بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة﴾ كأنه قال : بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ، ومن ثم تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ، وقال سائر المفسرين : ﴿كَلاَّ﴾ معناه حقاً أي حقاً تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ، والمعنى أنهم يحبون الدنيا ويعملون لها ويتركون الآخرة ويعرضون عنها .

المسألة الثانية :

قرىء تحبون وتذرون بالتاء والياء وفيه وجهان الأول : قال الفراء : القرآن إذا نزل تعريفاً لحال قوم ، فتارة ينزل على سبيل المخاطبة لهم .

وتارة ينزل على سبيل المغايبة ، كقوله تعالى : ﴿حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [

يونس : 22] الثاني : قال أبو علي الفارسي : الياء على ما تقدم من ذكر الإنسان في قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ [القيامة : 3] والمراد منه الكثرة ، كقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ [المعارج : 19] والمعنى أنهم يحبون ويذرون ، والتاء على قل لهم ، بل تحبون وتذرون .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22)

قال الليث : نضر اللون والشجر والورق ينضر نضرة ، والنضرة النعمة ، والناضر الناعم ، والنضر الحسن من كل شيء ، ومنه يقال للون إذا كان مشرقاً : ناضر ، فيقال : أخضر ناضر ، وكذلك في جميع الألوان ، ومعناه الذي يكون له برق ، وكذلك يقال : شجر ناضر ، وروض ناضر .

ومنه قوله عليه السلام : " نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها " الحديث .

أكثر الرواة رواه بالتخفيف ، وروى عكرمة عن الأصمعي فيه التشديد ، وألفاظ المفسرين مختلفة في تفسير الناضر ، ومعناها واحد قالوا : مسرورة ، ناعمة ، مضيئة ، مسفرة ، مشرقة بهجة .

وقال الزجاج : نضرت بنعيم الجنة ، كما قال : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] .

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)

اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة .

أما المعتزلة فلهم ههنا مقامان أحدهما : بيان أن ظاهره لا يدل على رؤية الله تعالى والثاني : بيان التأويل .

أما المقام الأول : فقالوا : النظر المقرون بحرف إلى ليس اسماً للرؤية ، بل لمقدمة الرؤية وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماس لرؤيته ، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة ، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع ، فكما أن نظر القلب مقدمة للمعرفة ، والإصغاء مقدمة للسماع ، فكذا نظر العين مقدمة للرؤية ، قالوا : والذي يدل على أن النظر ليس اسماً للرؤية وجوه الأول : قوله تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 198] أثبت النظر حال عدم الرؤية ، فدل على أن النظر غير الرؤية والثاني : أن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية ، يقال : نظر إليه نظراً شزراً ، ونظر غضبان ، ونظر راض ، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال ، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك ، فلا يقال : رآه شزراً ، ورآه رؤية غضبان ، أو رؤية راض الثالث : يقال : انظر إليه حتى تراه ، ونظرت إليه فرأيته ، وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر

، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية الرابع : يقال : دور فلان متناظرة ، أي متقابلة ، فمسمى النظر حاصل ههنا ، ومسمى الرؤية غير حاصل الخامس : قوله الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر . . إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

أثبت النظر المقرون بحرف إلى مع أن الرؤية ما كانت حاصلة السادس : احتج أبو علي الفارسي على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية ، التي هي إدراك البصر ، بل هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو الجهة التي فيها الشيء الذي يراد رؤيته ، لقول الشاعر :

فيا مي هل يجزي بكائي بمثله . . مراراً وأنفاسي إليك الزوافر

(22/793)

وأنى متى أشرف على الجانب الذي . . به أنت من بين الجوانب ناظراً

قال : فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه ، لأن المحب لم يطلب الثواب على رؤية المحبوب ، فإن ذلك من أعظم مطالبه ، قال : ويدل على ذلك أيضاً قول الآخر :

ونظرة ذي شجن وامق . . إذا ما الركائب جاوزن ميلا

والمراد منه تقليب الحدقة نحو الجانب الذي فيه المحبوب ، فعلمنا بهذه الوجوه أن النظر المقرون بحرف إلى ليس اسماً للرؤية السابع : أن قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ معناه أنها تنظر

إلى ربها خاصة ولا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ [القيامة : 12] ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ [القيامة : 30] ﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأمور ﴾ [الشورى : 53] ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 8] ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى : 10] كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله ، ودل العقل على أنهم يرون غير الله ، علمنا أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية

الثامن : قال تعالى :

﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران : 77] ولو قال : لا يراهم كفى ، فلما نفى النظر ، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة ، فثبت بهذه الوجوه ، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية .

(23/793)

المقام الثاني : في بيان التأويل المفصل ، وهو من وجهين الأول : أن يكون الناظر بمعنى المنتظر ، أي أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله ، وهو كقول القائل ، إنما أنظر إلى فلان في حاجتي والمراد أنتظر نجاحها من جهته ، وقال تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ [النمل : 35] وقال : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : 280] لا يقال : النظر المقرون بحرف إلى غير مستعمل في معنى الانتظار ، ولأن الانتظار غم وألم ، وهو لا يليق بأهل السعادة يوم القيامة ، لأنا نقول : الجواب : عن الأول من وجهين الأول : النظر المقرون بحرف إلى قد يستعمل بمعنى الانتظار ، والتوقع والدليل عليه أنه يقال : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، والمراد منه التوقع والرجاء ، وقال الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك . . والبحر دونك زدتني نعما

وتحقيق الكلام فيه أن قولهم في الانتظار نظرت بغير صلة ، فإنما ذلك في الانتظار لمجيء الإنسان بنفسه ، فأما إذا كان منتظراً لرفده ومعونته ، فقد يقال فيه : نظرت إليه كقول الرجل ، وإنما نظري إلى الله ثم إليك ، وقد يقول ذلك من لا يبصر ، ويقول الأعمى في مثل هذا المعنى : عيني شاخصة إليك ، ثم إن سلمنا ذلك لكن لا نسلم إن المراد من ﴿ إلى ﴾ ههنا حرف التعدي .

بل هو واحد الآلاء ، والمعنى : وجوه يومئذ ناضرة نعمة ربها منتظرة .

وأما السؤال الثاني : وهو أن الانتظار غم وألم ، فجوابه أن المنتظر إذا كان فيما ينتظره على يقين من الوصول إليه ، فإنه يكون في أعظم اللذات .

(24/793)

التأويل الثاني : أن يضمر المضاف ، والمعنى إلى ثواب ربها ناظرة ، قالوا : وإنما صرنا إلى هذا التأويل ، لأنه لما دلت الدلائل السمعية والعقلية على أنه تعالى تمتنع رؤيته وجب المصير إلى التأويل ، ولقائل أن يقول : فهذه الآية تدل أيضاً على أن النظر ليس عبارة عن تقليب الحدقة ، لأنه تعالى قال : لا ينظر إليهم وليس المراد أنه تعالى يقلب الحدقة إلى جهنم فإن قلتم : المراد أنه لا ينظر إليهم نظر الرحمة كان ذلك جوابنا عما قالوه .

التأويل الثالث : أن يكون معنى : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله ، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام :

" اعبد الله كأنك تراه " فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه الجواب : قوله : ليس النظر عبارة عن الرؤية ، قلنا : ههنا مقامان :

الأول : أن تقيم الدلالة على أن النظر هو الرؤية من وجهين : الأول : ما حكى الله تعالى عن

موسى عليه السلام وهو قوله : ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي ، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكاناً وذلك محال الثاني : أنه جعل النظر أمراً مرتباً على الإرادة فيكون النظر متأخراً عن الإرادة ، وتقليب الحدقة غير متأخر عن الإرادة ، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئي .

المقام الثاني : وهو الأقرب إلى الصواب ، سلمنا أن النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته ، لكنا نقول : لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسببه وهو الرؤية ، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار ، لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ولا تعلق بينه وبين الانتظار ، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار .

أما قوله : النظر جاء بمعنى الانتظار ، قلنا : لنا في الجواب مقامان :

الأول : أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن ، ولكنه لم يقرن ألبتة بحرف إلى كقوله تعالى : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد : 13] وقوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ

تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف : 53] ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله ﴾ [البقرة : 210] والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف إلى المعدي إلى الوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر ، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك .

وأما قول الشاعر :

وجوه ناظرات يوم بدر . . إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

قلنا : هذا الشعر موضوع والرواية الصحيحة :

وجوه ناظرات يوم بكر . . إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة ، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء ، وأما قول الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك . . فالجواب : أن قوله : وإذا نظرت إليك ، لا يمكن أن يكون المراد منه الانتظار ، لأن مجرد الانتظار لا يستعقب العطية بل المراد من قوله : وإذا نظرت إليك ، وإذا سألتك لأن النظر إلى الإنسان مقدمة المكالمة فجاز التعبير عنه به ، وقوله : كلمة إلى ههنا ليس المراد منه حرف التعدي بل واحد الآلاء ، قلنا : إن إلى على هذا القول تكون اسماً للماهية التي يصدق عليه أنها نعمة ، فعلى هذا يكفي في تحقق مسمى هذه اللفظة أي جزء فرض من أجزاء النعمة ، وإن كان في غاية القلة والحقارة ، وأهل الثواب يكونون في جميع مواقف القيامة في النعم العظيمة المتكاملة ، ومن كان حاله كذلك كيف يمكن أن يبشر

بأنه يكون في توقع الشيء الذي ينطلق عليه اسم النعمة ، ومثال هذا أن يبشر سلطان الأرض بأنه سيصير حالك في العظمة والقوة بعد سنة ، بحيث تكون متوقعاً لحصول اللقمة الواحدة من الخبز والقطرة الواحدة من الماء ، وكما أن ذلك فاسد من القول : فكذا هذا .

(26/793)

المقام الثاني : هب أن النظر المعدي بحرف إلى المقرون بالوجوه جاء في اللغة بمعنى الانتظار لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه ، لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا ، فلا بد وأن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره في معرض الترغيب في الآخرة ، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول ، لأن ذلك معلوم بالعقل فبطل ما ذكروه من التأويل .

وأما التأويل الثاني : وهو أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة ، فهذا ترك للظاهر ، وقوله : إنما صرنا إليه لقيام الدلائل العقلية والنقلية على أن الله لا يرى ، قلنا : بينا في الكتب العقلية ضعف تلك الوجوه ، فلا حاجة ههنا إلى ذكرها ، والله أعلم .

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)

(27/793)

الباسر : الشديد العبوس والباسل أشد منه ، ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه ، والمعنى أنها عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها وعدمت آثار السرور والنعمة منها ، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله ، ولما سودها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار ، وقد تقدم تفسير البسور عند قوله : ﴿ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ [المدثر : 22] وإنما كانت بهذه الصفة ، لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل ، وهو قوله : ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ والظن ههنا بمعنى اليقين ، هكذا قاله المفسرون ، وعندي أن الظن إنما ذكر ههنا على سبيل التهكم كأنه قيل : إذا شاهدوا تلك الأحوال ، حصل فيهم ظن أن القيامة حق ، وأما الفاقرة ، فقال أبو عبيدة : الفاقرة الداهية ، وهو اسم للوسم الذي يفقر به على الأنف ، قال الأصمعي : الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم ، أو قريب منه ، ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها ، ومنه قيل : عملت به الفاقرة ، قال المبرد : الفاقرة داهية تكسر الظهر ، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر ، وقال ابن قتيبة : يقال فقرت الرجل ، كما يقال رأسته وبطنته فهو مفقور ، واعلم أن من المفسرين من فسر الفاقرة بأنواع العذاب في النار ، وفسرها الكلبي فقال : الفاقرة هي أن تحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 196 . 203 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾

في الترمذي : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرّك به لسانه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : فكان يحرّك به شفتيه " وحرّك سفيان شفتيه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولفظ مسلم عن ابن جُبير عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدّة ، كان يحرّك شفتيه ، فقال لي ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّكهما ؛ فقال سعيد : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحرّكهما ، فحرك شفتيه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال جمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ قال فاستمع له وأنصت .

ثم إن علينا أن نقرأه ؛ قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل

عليهما السلام استمع ، وإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبيّ صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ خرّجه البخاري أيضاً .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] وقد تقدّم .

وقال عامر الشَّعْبي : إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له ، وحلاوته في لسانه ، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع ؛ لأن بعضه مرتبط ببعض .

وقيل : "كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه ، فنزلت ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] ونزل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ونزل : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ " قاله ابن عباس .

"وقرآنه" أي وقراءته عليك .

(29/793)

والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران .

وقال قتادة : "فاتبع قُرْآنَهُ" أي فاتبع شرائعه وأحكامه .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام ؛ قاله قتادة .

وقيل : ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما .

وقيل : أي إن علينا أن نبيّنه بلسانك .

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ قال ابن عباس : أي إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه .

وقيل : أي "كَلاَّ" لاَ يُصَلّون ولا يزكّون يريد كفّار مكة .

﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ﴾ أي بل تحبون يا كفار أهل مكة ﴿ العاجلة ﴾ أي الدار الدنيا والحياة فيها ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ أي تَدَعون ﴿ الآخرة ﴾ والعمل لها .

وفي بعض التفسير قال : الآخرة الجنة .

وقرأ أهل المدينة والكوفيون "بَلْ تُحِبُّونَ" "وتَذَرُونَ" بالتاء فيهما على الخطاب واختاره أبو عبيد ؛ قال : ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء ؛ لذكر الإنسان قبل ذلك .

الباقون بالياء على الخبر ، وهو اختيار أبي حاتم ، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان ﴾ وهو بمعنى الناس .

ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتقريع ؛ لأن ذلك أبلغ في المقصود ؛ نظيره : ﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان : 27] .

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

الأوّل من النّضْرة التي هي الحسن والنّعمة .

والثاني من النظر أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة ؛ يقال : نَضَرهم اللَّهُ يَنضرُهم نَضْرة ونَضَارة وهو الإشراق والعيش والغنى ؛ ومنه الحديث : "نَضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها " "إِلَى رَبِّهَا" إلى خالقها ومالكها "نَاظِرَةٌ" أي تنظر إلى ربها ؛ على هذا جمهور العلماء .

وفي الباب حديث صُهَيب خرجه مسلم وقد مضى في "يونس" عند قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] .

(30/793)

وكان ابن عمر يقول : أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وَعشية ؛ ثم تلا هذه الآية : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23] .

وروى يزيد النحوي عن عِكْرمة قال : تنظر إلى ربها نظراً .

وكان الحسن يقول : نضرت وجوههم ونظروا إلى ربّهم .

وقيل : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب .

وروي عن ابن عمر ومجاهد .

وقال عِكرمة : تنتظر أمر ربها .

حكاه الماوردِيّ عن ابن عمر وعِكرمة أيضاً .

وليس معروفاً إلا عن مجاهد وحده .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103]

وهذا القول ضعيف جدًّا ، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار .

وفي الترمذيّ عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جِنانه وأزواجه وخَدمه وسُرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدْوة وعَشيّة" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَة ﴾ " قال هذا حديث غريب .

وقد روي عن ابن عمر ولم يرفعه .

وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزّ إلا رِداء الكبرياء على وجهه في جَنّة عدن "

وروى جرير بن عبد الله قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوساً ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم سترون ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر ، لا تُضَامون في رؤيته ؛ فإن استطعتم ألاّ تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ثم قرأ

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ﴾ [ق : 39] متّفق عليه .

وخرجه أيضاً أبو داود والترمذيّ وقال حديث حسن صحيح .

(31/793)

وخرج أبو داود عن أبي رَزِين العُقَيليّ قال : قلت " يا رسول الله أكلّنا يرى ربه ؟ قال ابن معاذ : مُخْلِياً به يوم القيامة ؟ قال : "نعم يا أبا رَزِين" قال : وما آية ذلك في خَلْقه ؟ قال : "يا أبا رَزِين أليس كلّكم يَرَى القمر" قال ابن معاذ : ليلة البدر مُخْلِياً به .

قلنا : بلى .

قال : "فالله أعظم" قال ابن معاذ قال : "فإنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم" "

وفي كتاب النسائيّ عن صُهَيب قال : " فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر ، ولا أقرّ لأعينهم " وفي التفسير لأبي إسحاق الثَّعلبيّ عن (أبي) الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يتجلّى ربّنا عزّ وجلّ حتى ينظروا إلى وجهه ، فيخرّون له سُجَّداً ، فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عِبادة " قال الثّعلبيّ : قول مجاهد إنها بمعنى تنتظر الثواب من ربّها ولا يراه شيء

من خلقه ، فتأويل مدخول ؛ لأن العرب إذا أرادت بالنظر الإنتظار قالوا نظرته ؛ كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ [الزخرف : 66] ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف : 53] ، و ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس : 49] وإذا أرادت به التفكر والتدبر قالوا : نظرت فيه ، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى ، وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعِيان .

وقال الأزهريّ : إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربّها خطأ ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل : نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، كذلك تقوله العرب ؛ لأنهم يقولون نظرت إليه : إذا أرادوا نظر العين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرته ؛ قال :

فإنَّكُمَا إنْ تَنْظُرانِي سَاعةً . . .
مِن الدَّهْرِ تَنْفَعَنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبِ

(32/793)

لما أراد الإنتظار قال تنظراني ، ولم يقل تنظران إليّ ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه ؛ قال :

نظرتُ إليها والنُّجُومُ كأنَّها . . .

مَصابِيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّالِ

وقال آخر :

نظرتُ إليها بالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى . . .

ولِي نَظَرٌ لولا التَّحَرُّجُ عارِمُ

وقال آخر :

إنّي إليكَ لِمَا وَعَدتَ لَنَاظِرٌ . . .

نَظَرُ الفقيرِ إلى الغنيِّ المُوسِرِ

أي إني أنظر إليك بذلّ ؛ لأن نظر الذلّ والخضوع أرقّ لقلب المسؤول ؛ فأما ما استدلوا به من قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] فإنما ذلك في الدنيا .

وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفًى .

وقال عطية العوفي : ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، ونظره يحيط بها ؛ يدل عليه : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] قال القشيريّ أبو نصر : وقيل : "إلَى" واحد الآلاء : أي نعمه منتظرة وهذا أيضاً باطل ؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء ، ثم الآلاء : نعمه الدُّفَّع ، وهم في الجنة لا ينتظرون دفع نقمة عنهم ، والمنتظر للشيء مُتَنغِّص العيش ، فلا يوصف أهل الجنة بذلك .

وقيل : أضاف النظر إلى الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [البقرة : 25] والماء يجري في النهر لا النهر .

ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾ [يوسف : 93] أي على عينيه .

ثم لا يبعد قلب العادة غداً ، حتى يخلق الرؤية والنظر في الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ ﴾ [الملك : 22] ، " فقيل : يا رسول الله ! كيف يمشون في النار على وجوههم ؟ قال : "الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم" " ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أي وجوه الكفار يوم القيامة كالحة كاسفة عابسة .

(33/793)

وفي الصحاح : وبَسَر الفحلُ الناقةَ وابتسرها : إذا ضربها من غير ضَبَعَة .

وبَسَر الرجلُ وجهَه بسُوراً أي كَلَح ؛ يقال : عَبَس وبَسَر .

وقال السّديّ : "بَاسِرَةٌ" أي متغيرة والمعنى واحد .

﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي توقن وتعلم ، والفاقرة : الداهية والأمر العظيم ؛ يقال :

فقرتْه الفاقرة : أي كسرت فَقَار ظهره .

قال معناه مجاهد وغيره .

وقال قتادة : الفاقرة الشرّ .

السُّديّ : الهلاك .

ابن عباس وابن زيد : دخول النار .

والمعنى متقارب .

وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلص إلى العظم ، قاله الأصمعي .

يقال : فَقَرتُ أنف البعيرِ : إذا حززتَه بحديدة .

ثم جعلتَ على موضع الحزِّ الجَرِيرَ وعليه وَتَرٌ مَلْويّ ، لِتذلِّله بذلك وتَرُوضَه ؛ ومنه قولهم : قد عُمِل به الفاقرة .

وقال النابغة :

أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يَزالُ مُقَابِلِي . . .

وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رَأْسِيَ فَاقِرَهْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(34/793)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

إدخالُ لاَ النافيةِ عَلى فعلِ القسمِ شائعٌ وفائدتُها توكيدُ القسمِ قالُوا إنَّها صلةٌ مثلُها في قولِه تعالَى لئَّلا يعلمَ أهلُ الكتابِ وقيلَ : هيَ للنفِي لكنْ لا لنفي نفسِ الإقسامِ بلْ لنفي ما ينبىءُ هُو عنْهُ منْ إعظامِ المقسمِ بِهِ وتفخيمِه كأنَّ مَعْنى لا أقسمُ بكَذَا لاَ أعظمُه بإقسامِي بِهِ حَقَّ إعظامِه فإنَّه حقيقٌ بأكثرَ منْ ذلكَ وأكثرَ وأما مَا قيلَ : من أنَّ المَعْنى نفيُ اللإقسامِ لوضوحِ الأمرِ فقدْ عرفتَ مَا فيهِ فِي قَوْلِه تعَالَى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ وقيلَ : إنَّ لاَ نفيٌ وردَ لكلامٍ معهودٍ قبلَ القسمِ كأنَّهم أنكرُوا البعثَ فقيلَ لاَ أيْ ليسَ الأمرُ كذلكَ ثمَّ قيلَ : أقسمُ بيومِ القيامةِ كقولِك لا واللهِ إنَّ البعثَ حقٌّ وأيا ما كانَ ففِي الإقسامِ على تحققِ البعثِ بيومِ القيامةِ منَ الجزالةِ ما لاَ مزيدَ عليهِ وقَدْ مرَّ تفصيلُه في سورةِ يس وسورةِ الزخرفِ ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ أَيْ بالنَّفسِ المتقيةِ التي تلومُ النفوسَ يومئذٍ عَلى تقصيرهنَّ فِي التَّقوى ففيهِ طَرفٌ منَ البَراعةِ التي في القسمِ السَّابقِ أوْ بالنفسِ التي لا تزالُ تلومُ نفسَها وإنِ اجتهدتْ في الطاعاتِ أو بالنفسِ المطمئنةِ اللائمةِ للنفسِ الأمارةِ وقيلَ : بالجنسِ لَما رُوي أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ : " ليسَ منْ نفسٍ برةٍ ولا فاجرةٍ إلا وتلومُ نفسَها يومَ القيامةِ إنْ عملتْ خيراً قالتْ كيفَ لَمْ أزددْ وإنْ عملتْ شَراً قالتْ ليتني كنتُ قصرتُ " ولا يَخفَى ضعفُه فإنَّ هذَا القدرِ منَ اللومِ لا يكونُ مداراً للإعظامِ بالإقسامِ وإنْ صدرَ عنْ النفسِ

المؤمنةِ المسيئةِ فكيفَ منَ الكافرةِ المندرجةِ تحتَ الجنسِ وقيلَ : بنفس آدمَ عليهِ السَّلامُ فإنَّها لا تزالُ تتلومُ عَلى فعلِها الذَّي خرجتْ بهِ منَ الجنةِ وَجَوابُ القسمِ ما دلَّ عليهِ قولُه تعالَى :

(35/793)

﴿ أَيحْسَبُ الإنسان أَن لَنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ وهُو ليبعثن ، والمرادُ بالإنسان الجنسُ والهمزةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه وأنْ مخففةٌ منَ الثقيلةِ وضميرُ الشأنِ الذي هُو اسُمها محذوفٌ أيْ أيحسبُ أنَّ الشأنَ لنْ نجمعَ عظامَهُ فإنَّ ذلكَ حسبانٌ بَاطِلٌ فإنَّا نجمعُها بعدَ تشتتها ورجُوعِها رَميماً ورُفاتاً مختلطاً بالترابِ وبعدَ مَا سفتَها الرِّياحُ وطيرتها في أقطارِ الأرضِ وألقتها في البحارِ وقيلَ : إنَّ عديَّ بنَ أبي ربيعةَ ختَنَ الأخنسِ بن شُريق وهُمَا اللذانِ كانَ النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ فيهَما : " اللَّهم اكفِني جاريْ السوءِ " قالَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم : يا محمدُ حدثنى عنْ يومِ القيامةِ مَتَى يكونُ وكيفَ أمرُهُ فأخبرَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : لو عاينتُ ذلكَ اليومَ لَمْ أصدقكَ ، أوَ ويجمعُ الله هذِهِ العظامَ .

﴿ بلى ﴾ أيْ نجمعُهَا حالَ كونِنَا ﴿ قادرين على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أيْ نجمعُ سُلامَياتِه

ونضمُّ بعضَها إلى بعضٍ كما كانتْ صغرِها ولطافتِها فكيفَ بكبارِ العظامِ أو عَلى أنْ نسويَ أصابَعُه التي هيَ أطرافُه وآخرُ مَا يتمُّ بِهِ خلقُه وقُرِىءَ قادرونَ ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانِ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ عطفٌ عَلى أيحسبُ إمَّا على أنَّه استفهامٌ مثلُه أضربَ عنِ التوبيخِ بذلكَ إلى التوبيخِ بَهذا أوْ عَلى أنَّه إيجابٌ انتقلَ إليهِ عنْ الاستفهامِ أيْ بلْ يريدُ ليدومَ على فجورِه فيمَا بين يديهِ منَ الأوقاتِ وما يستقبلُه منَ الزمانِ لاَ يرعَوى عَنْه ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ أيْ متى يكونُ استبعاداً أو استهزاءً .

(36/793)

﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ أيْ تحيرَ فزعاً من برقَ الرجلُ إذَا نظرَ إلى البرقِ فدُهشَ بصرُه وقُرِىءَ بفتحِ الراءِ وهيَ لغةٌ أو منَ البريقِ بمَعْنى لمعَ منْ شدةِ شخوصِه وقُرىء باق أي انفتحَ وانفرجَ ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ أيْ ذهبَ ضوؤه وقُرِىءَ عَلى النباءِ للمفعولِ ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ بأنْ يطلعهما الله تعالَى من المغربِ وقيلَ : جُمِعا في ذهابِ الضوءِ وقيلَ : يجمعانِ أسودينِ مكورينِ كأنَّهما ثورانِ عقيرانِ في النَّارِ وتذكيرُ الفعلِ لتقدمِه وتغليبِ المعطوفِ ﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ ﴾ أيْ يومَ إذْ تقعُ هذهِ الأمورُ ﴿ أَيْنَ المفر ﴾ أي الفرارُ يأساً منْهُ وقُرِىءَ بالكسرِ أيْ موضعِ الفرارِ وقدَ جُوِّزَ أنْ يكونَ هُو أيضاً مصدراً كالمرجعِ .

﴿ كَلاَّ ﴾ رَدعٌ من طلبِ المفرّ وتمنيهِ ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ لاَ ملجأ ، مستعارٌ منْ الجبلِ وقيلَ : كُلُّ ما التجأتَ إليهِ وتخلصتَ بهِ فهُو وزرُك ﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ أيْ إليهِ وحْدَهُ استقرارُ العبادِ أو إلى حُكمِه استقرارُ أمرهم أَوْ إلى مشيئَتِه موضعُ قرارِهم يُدخلُ مَنْ يشاءُ الجنةَ ومَنْ يشاءُ النّارَ ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ ﴾ أيْ يُخبرُ كلُّ امرىءٍ براً كانَ أو فاجراً عندَ وزنِ الأعمالِ ﴿ بِمَا قَدَّمَ ﴾ أيْ عملَ منْ عملٍ خيراً كانَ أو شراً فيثابُ بالأولِ ويعاقبُ بالثاني ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ أيْ لَمْ يعملْ خيراً كانَ أو شراً فيعاقبُ بالأولِ ويثابُ بالثانِي أو بما قدمَ منْ حسنةٍ أوْ سيئةٍ وبما أخّرَ منْ سنةٍ حسنةٍ أوْ سيئةٍ فعملَ بها بعدَهُ أو بما قدمَ منْ مالٍ تصدقَ بهِ في حياتِه وبما أخّرَ فخلفَهُ أو وقفَهُ أو أوْصَى بهِ أو بأولِ عملِه وآخرِه ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ أيْ حجةٌ بينةٌ على نفسِه شاهدةٌ بما صدرَ عنْهُ منَ الأعمالِ السيئةِ كما يعربُ عنْهُ كلمةُ على وما سيأتِي منَ الجملةِ الحاليةِ وصفتْ بالبصارةِ مجازاً كما وصفتْ الآياتُ بالأبصارِ في قولِه تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا مُبْصِرَةً ﴾ أوْ عينٌ بصيرةٌ أوِ التاءُ للمبالغةِ ومَعْنى بَلْ الترقِي أيْ ينبأُ الإنسانُ بأعمالِه بلْ هُو يومئذٍ عالمٌ بتفاصيلِ أحوالِه شاهدٌ على نفسِه لأنَّ جوارحَهُ تنطقُ بذلكَ وقولُه تعالَى : ﴿ وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أيْ ولَو

جاءَ بكُلِّ معذرةٍ يمكنُ أنْ يعتذرَ بها عن نفسِه حالٌ من المستكنِ في بصيرةٍ أو منْ مرفوعٍ ينبأُ أيْ هُو بصيرةٌ علَى نفسِه تشهدُ عليهِ جوارحُه وتُقبلُ شهادتُها ولو اعتذرَ بكُلِّ معذرةٍ أو ينبأُ بأعمالِه ولو اعتذرَ الخ والمعاذيرُ اسمُ جمعٍ للمعذرةِ كالمناكيرِ اسمُ جمعٍ للمنكرِ وقيلَ : هو جمعُ معذارٍ وهُو الستر أيْ ولوْ أرْخى

(38/793)

ستورَهُ . كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذَا لقِّن الوحيَ نازعَ جبريلَ عليهِ السَّلامُ القراءةَ ولَم يُصبرْ إلى أنْ يتمَّها مسارعةً إلى الحفظِ وخوفاً منْ أنْ ينفلتَ منْهُ فأُمرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأن يستنصتَ لَهُ ملقياً إليهِ قلبَه وسمعَه حتَّى يُقضى إليهِ الوحيُ ثمَّ يقفّيهِ بالدراسةِ إلى أنْ يرسخَ فيهِ ﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ ﴾ أيْ بالقرآنِ ﴿ لِسَانَكَ ﴾ عندَ إلقاءِ الوَحْى ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي لتأخذَهُ على عجلة مخافة أنْ ينفلتَ منكَ .

(39/793)

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرِك بحيثُ لا يذهبُ عليكَ شيءٌ مِنْ معانيهِ ﴿ وَقُرْءانَهُ ﴾ أي إثباتَ قراءتِه في لسانِكَ ﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ أي أتممنا قراءتَهُ عليكَ بلسانِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ وإسنادُ القراءةِ إلى نونِ العظمةِ للمبالغةِ في إيجابِ التأنِّي ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ فكُن مقفّياً لَهُ ولا تراسلُه ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي بيانَ ما أشكلَ عليكَ من معانيهِ وأحكامِه ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن عادةِ العجلةِ وترغيبٌ لهُ في الأناةِ وأكَّد ذلكَ بقولِه تعالَى : ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة * وَتَذَرُونَ الأخرة ﴾ على تعميمِ الخطابِ للكُلِّ أيْ بَلْ أنتُم يا بَنِي آدمٍ لما خلقتُم مِنْ عجلٍ وجبلتُم عليهِ تعجلونَ في كُلِّ شيءٍ ولذلكَ تحبونَ العاجلةَ وتذرونَ الآخرةَ وقيلَ : كَلاَّ ردعٌ للإنسانِ عنْ الاغترارِ بالعاجلِ فيكونُ جمعُ الضميرِ في الفعلينِ باعتبارِ مَعْنى الجنسِ ويؤيدُه قراءةُ الفعلينِ على صيغةِ الغيبةِ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أيْ وجوهٌ كثيرةٌ وهيَ وجوهُ المؤمنينَ المخلصينَ يومَ إذْ تقومُ القيامةُ بهيةٌ متهللةٌ يشاهدُ عليهَا نضرةُ النعيمِ علَى أنَّ وجوهٌ مبتدأٌ وناضرةٌ خبرُهُ ويومئذٍ منصوبٌ بناضرةٌ ، وناظرةٌ في قولِه تعالَى : ﴿ إلى ربّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدإِ أو نعتٌ لناضرةٌ وإلى ربِّها متعلقٌ بناظرةٌ ، وصحةُ وقوعِ النكرةِ مبتدأً لأنَّ المقامَ مقامُ تفصيلٍ لا على أنَّ ناضرةٌ صفةٌ لوجوهٌ والخبرُ ناظرةٌ كمَا قيلَ لما هُو المشهورُ مِنْ أنَّ حقَّ الصفةِ أنْ تكونَ معلومةَ الانتسابِ إلى الموصوفِ عندَ السامعِ وحيثُ لمْ يكُنْ ثبوتُ النضرةِ للوجوهِ كذلكَ فحقُّه أنْ

يخبَر بهِ ومَعْنى كونِها ناظرةً إلى ربّها أنَّها تراهُ تعالَى مستغرقةً في مطالعةِ جمالِه بحيثُ تغفلُ عَمَّا سواهُ وتشاهدُه تعالَى بلا كيفٍ ولا على جهةٍ

(40/793)

وليسَ هذا في جميعِ الأحوالِ حَتَّى ينافيَهُ نظرُهَا إلى غيرِه وقيلَ : منتظرةٌ إنعامَهُ ورُدَّ بأنَّ الانتظارَ لا يسندُ إلى الوجْهِ وتفسيرُه بالجملةِ خلافُ الظاهرِ وأنَّ المستعملَ بمعناهُ لا يُعدَّى بإلى .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ شديدةُ العبوسِ وهيَ وجوهُ الكفرةِ ﴿ تَظُنُّ ﴾ يتوقعُ أربابُها ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ داهيةٌ عظيمةٌ تقصمُ فقارَ الظهرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(41/793)

وقال الآلوسى :

الخطاب في قوله تعالى :

﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم والضمير للقرآن لدلالة سياق الآية نحو ﴿ انا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر : 1] أي لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي لتأخذه على عجلة مخافة أي ينفلت منك على ما يقتضيه كلام الحبر وقيل لمزيد حبك له وحرصك على أداء الرسالة وروي عن الشعبي ولا ينافي ما ذكر والباء عليهما للتعدية .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه ﴿ وَقُرْءانَهُ ﴾ أي إثبات قراءته في لسانك بحيث تقرأه متى شئت فالقرآن هنا وكذا فيما بعد مصدر كالرجحان بمعنى القراءة كما في قوله

: ضحوا باشمط عنوان السجود به . . .

يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

مضاف إلى المفعول وثم مضاف مقدر وقيل قرآنه أي تاليفه والمعنى ان علينا جمعه أي حفظه في حياتك وتأليفه على لسانك وقيل قرآنه تأليفه وجمعه على أنه مصدر قرأت أي جمعت ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد ما قرأت سلى قط وقول عمرو بن كلثوم

.

ذراعي بكرة أدماء بكر . . .

هجان اللون لم تقرأ جنينا

ويراد من جمعه الأول جمعه في نفسه ووجوده الخارجي ومن قرآنه بهذا المعنى جمعه في ذهنه صلى الله عليه وسلم وكلا القولين لا يخفى حالهما وان نسب الأول إلى مجاهد .

﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ أن اتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام المبلغ عنافا فالاسناد مجازي وفي ذلك مع اختيار نون العظمة مبالغة في إيجاب التأتي ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ فكن مقفياً له لا مباريا وقيل أي فإذا قرأناه فاتبع بذهنك وفكرك قرآنه أي فاستمع وأنصت وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس وعنه أيضاً وعن قتادة والضحاك أي فاتبع في الأوامر والنواهي قرآنه وقيل اتبع قرآنه بالدرس على معنى كرره حتى يرسخ في ذهنك .

(42/793)

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه على ما قيل واستدل به القاضي أبو الطيب ومن تابعه على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب لمكان ثم وتعقب بأنه يجوز أن يراد بالبيان الاظهار لا بيان المجمل وقد صح من رواية الشيخين وجماعة عن الحبر انه قال في ذلك ثم ان علينا أن نبينه بلسانك وفي لفظ علينا أن تقرأه ويؤيد ذلك أن المراد بيان جميع القرآن والمجمل بعضه .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20)

﴿ كَلاَّ ﴾ ارشاد لرسوله صلى الله عليه وسلم وأخذ به عن عادة العجلة وترغيب له عليه الصلاة والسلام في الاناة وبالغ سبحانه في ذلك لمزيد حبه إياه باتباعه قوله تعالى :

(43/793)

﴿ وَتَذَرُونَ الآخرة ﴾ تعميم الخطاب للكل كأنه قيل بل أنتم يا بني آدم لما خلقتم من عجل وجبلتم عليه تجعلون في كل شيء ولذا تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ويتضمن استعجالك لأن عادة بني آدم الاستعجال ومحبة العاجلة وفيه أيضاً أن الإنسان وان كان مجبولاً على ذلك إلا أن مثله عليه الصلاة والسلام ممن هو في أعلى منصب النبوة لا ينبغي أن يستفزه مقتضى الطباع البشرية وأنه إذا نهى صلى الله عليه وسلم عن العجلة في طلب العلم والهدى فهؤلاء ودينهم حب العاجلة وطلب الردى كأنهم نزلوا منزلة من لا ينجع فيهم النهي فإنما يعابت الأديم ذو البشرة ومنه يعلم أن هذا متصل بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة : 5] فإنه ملوح إلى معنى بل تحبون الخ وقوله عز وجل ﴿ لا تحرك ﴾ الخ متوسط بين حبي العاجلة حبها الذي تضمنه بل يريد تلويحاً وحبها الذي آذن به بل تحبون تصريحاً لحسن التخلص منه إلى المفاجأة والتصريح ففي ذلك تدرج ومبالغة

في التقريع والتدرج وان كان يحصل لو لم يؤت بقوله سبحانه لا تحرك الخ في البين أيضاً إلا أنه يلزم حينئذ فوات المبالغة في التقريع وانه إذا لم تجز العجلة في القرآن وهو شفاء ورحمة فكيف فيما هو فجور وثبور ويزول ما أشير إليه من الفوائد فهو استطراد يؤدي مؤدى الاعتراض وأبلغ وأطلق بعضهم عليه الاعتراض وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ومجاهد والحسن وقتادة والجحدري يحبون ويذرون بياء الغيبة فيهما وأمر الربط عليها كما تقدم وهي أبلغ من حيث أن فيها التفاتاً وإخراجاً له عليه الصلاة والسلام من صريح الخطاب بحب العاجلة مضمناً طرفاً من التوبيخ على سبيل الرمز لطفاً منه تعالى شأنه في شأنه صلى الله عليه وسلم وأما القراءة بالتاء ففيها تغليب المخاطب والالتفات وهو عكس الأول هذا خلاصة ما رمز إليه جار الله على ما أفيد وقد أندفع به قول بعض الزنادقة وشرذمة من قدماء الرافضة أنه لا وجه لوقوع لا تحرك به

(44/793)

لسانك الخ في أثناء أمور الآخرة ولا ربط في ذلك بوجه من الوجوه وجعلوا ذلك دليلاً لما زعموه من أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه وللعلماء حماة المسلمين وشهب سماء الدين في دفع كلام كثير منه ما تقدم وللإمام أوجه فيه منها الحسن ومنها ما ليس كذلك

بالمرة وقال الطيبي إن قوله تعالى كلا بل تحبون العاجلة متصل بقوله تعالى ولو ألقى معاذيره أي يقال للإنسان عند القاء معاذيره كلا أن أعذارك غير مسموعة فإنك فجرت وفسقت وظننت أنك تدوم على فجورك وان لا حشر ولا حساب ولا عقاب وذلك من حبك العاجلة والاعراض عن الآخرة وكان من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إذا لقن القرآن ان ينازع جبريل عليه السلام القراءة وقد اتفق عند التلقين للآيات السابقة ما جرت به عادته من العجلة فلما وصل إلى قوله تعالى

(45/793)

﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ [القيامة : 15] أوحى إلى جبريل عليه السلام بأن يلقى إليه عليه الصلاة والسلام ما يرشده إلى أخذ القرآن على أكمل وجه فألقى تلك الجمل على سبيل الاستطراد ثم عاد إلى تمام ما كان فيه بقوله تعالى كلا بل تحبون الخ مثاله الشيخ إذا كان يلقن تلميذه درساً أو يلقى إليه فصلاً وراآه في أثناء ذلك يعجل ويضطرب يقول له لا تعجل ولا تضطرب فإني إذ فرغت إن كان لك إشكال أزيله أو كنت تخاف فوتاً فأنا أحفظه ثم يأخذ الشيخ في كلامه ويتممه انتهى فما في البين مناسب لما وقع في الخارج دون المعنى الموحى به وخصه بعضهم لهذا بالاستطراد وأطلق آخر عليه الاعتراض بالمعنى اللغوي وهذا عندي

بعيد لم يتفق مثله في النظم الجليل ولا دليل لمن يراه على وقوع العجلة في أثناء هذه الآيات سوى خفاء المناسبة وقال أبو حيان يظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه سبحانه لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته وانه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله تعالى وحفظها وتلقنها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها ليظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله تعالى ومن يرغب عنها وبضدها تتبين الأشياء .

(46/793)

انتهى وفيه ان هذا إنما يحسن بعد تمام ما يتعلق بذلك المنكر والظاهر أن ﴿ لا تحرك ﴾ [القيامة : 16] الخ وقع في البين وقال القفال قوله تعالى لا تحرك الخ خطاب للإنسان المذكور في قوله تعالى ﴿ ينبؤ الإنسان ﴾ [القيامة : 13] وذلك حال إنبائه بقبائح أفعاله يعرض عليه كتابه فيقال له ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 14] فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة فقيل له لا تحرك به لسانك لتعجل به فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك وان نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قراءته بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال أو التأمل فيه ثم إن علينا

بيانه أي بيان أمره وشرح عقوبته والحاصل على هذا أنه تعالى يوقف الكافر على جميع أعماله على التفصيل وفيه أشد الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخرة انتهى فضمير به وكذا الضمائر بعد للكتاب المشعر به قوله تعالى ينبؤ الإنسان بما قدم وأخر وكذا قوله تعالى ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة : 14] على قول من تفسير البصيرة بالكتابين ولعل الجملة على هذا الوجه في موضع الحال من مرفوع ينبؤ بتقدير القول كأنه قيل ينبؤ الإنسان يومئذ عند أخذ كتابه بما قدم وأخر مقولاً له لا تحرك به لسانك الخ فالربط عليه ظاهر جداً ومن هنا اختاره البلخي ومن تبعه لكنه مخالف للصحيح المأثور الذي عليه الجمهور من أن ذلك خطاب له صلى الله عليه وسلم والظاهر أن التحريك قبل النهي إنما صدر منه عليه الصلاة والسلام بحكم الإباحة الأصلية فلا يتم احتجاج من جوز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية وقال الإمام لعل ذلك الاستعجال إن كان مأذوناً فيه عليه الصلاة والسلام إلى وقت النهي وكأنه أراد بالإذن الاذن الصريح المخصوص وفيه بعد ما وعن الضحاك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب ذلك وشق عليه فنزل لا تحرك به الخ وليس

بالثبات ولعل ظاهر الآية لا يساعده ثم أنه ربما يتخيل في الآية وجه غير ما ذكر عن القفال الربط عليه ظاهر أيضاً وهو أنه يكون الخطاب في لا تحرك الخ لسيد المخاطبين حقيقة أو من باب إياك أعني واسمعي أو لكل من يصلح له وضمير به ونظائره ليوم القيامة والجملة اعتراض جيء به لتأكيد تهويله وتفظيعه مع تقاضي السباق له فكأنه لما ذكر سبحانه مما يتعلق بذلك اليوم الذي فتحت السورة بإعظامه ما يتعلق قوي داعي السؤال عن توقيته وأنه متى يكون وفي أي وقت يبين لا سيما وقد استشعر أن السؤال عن ذلك إذا لم يكن استهزاء مما لا بأس به فقيل لا تحرك به أي بطلب توقيته لسانك وهو نهي عن السؤال على أتم وجه كما يقال لا تفتح فمك في أمر فلان لتعجل به لتحصل علمه على عجلة إن علينا جمعه ما يكون فيه من الجمع وقرآنه ما يتضمن شرح أحواله وأهواله من القرآن فإذا قرأناه قرأنا ما يتعلق به فاتبع قرآنه بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له ثم إن علينا بيانه اظهاره وقوعاً بالنفخ في الصور وهو الطامة الكبرى وحاصله لا تسال عن توقيت ذلك اليوم العظيم مستعجلاً معرفة ذلك فإن الواجب علينا حكمة حشر الجمع فيه وإنزال قرآن يتضمن بيان أحواله ليستعد له وإظهاره بالوقوع الذي هو الداهية العظمى وما عدا ذلك من تعيين وقته فلا يجب علينا حكمة بل هو مناف للحكمة فإذا سألت فقد سألت ما ينافيها فلا تجاب انتهى وفيه ما فيه وما كنت أذكره لولا هذا التنبيه واللائق بجزالة التنزيل ولطيف إشاراته ما أشار إليه ذو اليد الطولى جار الله تجاوز الله تعالى عن تقصيراته فتأمل فلا حجر على فضل الله عز وجل ولما

ردع سبحانه عن حب العاجلة وترك الأخرة عقب ذلك بما يتضمن تأكيد هذا الردع مما يشير إلى حسن عاقبة حب الآخرة وسوء مغبة العاجلة فقال عز من قائل .

(48/793)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أي وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة بهية متهللة من عظيم المسرة يشاهد عليها نضرة النعيم على أن وجوه مبتدأ وناضرة خبره ويومئذ منصوب بناضرة وناظرة في قوله تعالى :

﴿ إلى ربّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ خبر ثان للمبتدأ أو نعت لناضرة وإلى ربها متعلق بناظرة وصح وقوع النكرة مبتدأ لأن الموضع موضع تفصيل كما في قوله :

فيوم لنا ويوم علينا . . .

ويوم نساء ويوم نسر

(49/793)

لا على أن النكرة تخصصت بيومئذ كما زعم ابن عطية لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثث ولا على أن ناضرة صفة لها والخبر ناظرة كما قيل لما أن المشهور الغالب كون الصفة معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع وثبوت النظرة للوجوه ليس كذلك فحقه أن يخبر به نعم ذكر هذا غير واحد احتمالاً في الآية وقال فيه أبو حيان هو قول سائغ ومعنى كونها ناظرة إلى ربها انها تراه تعالى مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه وتشاهده تعالى على ما يليق بذاته سبحانه ولا حجر على الله عز وجل وله جل وعلا لتنزه الذاتي التام في جميع تجلياته واعترض بأن تقديم المعمول يعني إلى ربها يفيد الاختصاص كما في نظائره في هذه السورة وغيرها وهو لا يتأتى لو حمل ذلك على النظر بالمعنى المذكور ضرورة انهم ينظرون إلى غيره تعالى وحيث كان الاختصاص ثابتاً كان الحمل على ذلك باطلاً وفيه ان التقديم لا يتمحض للاختصاص كيف والموجب من رعاية الفاصلة والاهتمام قائم ثم لو سلم فهو باق بمعنى أن النظر إلى غيره تعالى في جنب النظر إليه سبحانه لا يعد نظراً كما قيل في نحو ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 2] على أن ذلك ليس في جميع الأحوال بل في بعضها وفي ذلك لالتفات إلى ما سواه جل جلاله فقد أخرج مسلم والترمذي عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألن تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الله تعالى الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم " وفي حديث

جابر وقد رواه ابن ماجه " فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم " ومن هنا قيل :

فينسون النعيم إذا رأوه . . .

فيا خسران أهل الاعتزال

(50/793)

وكثيراً ما يحصل نحو ذلك للعارفين في هذه النشأة فيستغرقون في بحار الحب وتستولي على قلوبهم أنوار الكشف فلا يلتفتون إلى شيء من جميع الكون .

فلما استبان الصبح أدرج ضوءه . . .

باسفاره أنوار ضوء الكواكب

وقيل الكلام على حذف مضاف أي إلى ملك أو رحمة أو ثواب ربها ناظرة والنظر على معناه المعروف أو على حذف مضاف والنظر بمعنى الانتظار فقد جاء لغة بهذا المعنى أي إلى أنعام ربها منتظرة وتعقب بأن الحذف خلاف الظاهر وما زعموا من الداعي مردود في محله وبأن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بإلى بل بنفسه وبأنه لا يسند إلى الوجه فلا يقال وجه زيد منتظر والمتبادر من الإسناد إسناد النظر إلى الوجوه الحقيقية وهو يأبى إرادة

الذات من الوجه وتفصى الشريف المرتضى في الدرر عن بعض هذا بأن إلى اسم بمعنى النعمة واحد الآلاء وهو مفعول به لناظره بمعنى منتظرة فيكون الانتظار قد تعدى بنفسه وفيه من البعد ما فيه والزمخشري إذا تفقت كلامه رأيته لم يدع أن النظر بمعنى الانتظار ليتعقب عليه بما تعقب بل أراد أن النظر بالمعنى المتعارف كناية عن التوقع والرجاء فالمعنى عنده أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة الا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه سبحانه وتعالى ويرد عليه أنه يرجع إلى إرادة الانتظار لكن كناية والانتظار لا يساعده المقام إذ لا نعمة فيه وفي مثله قيل الانتظار موت أحمر والذي يقطع الشغب ويدق في فروة من أخس الطلب ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والذار قطني وابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(51/793)

" أن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجه غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " فهو تفسير منه عليه الصلاة والسلام ومن المعلوم

أنه أعلم الأولين والآخرين لا سيما بما أنزل عليه من كلام رب العالمين ومثل هذا فيما ذكر ما أخرجه الدارقطني والخطيب في تاريخه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة فقال والله ما نسخها منذ أنزلها يزورون ربهم تبارك وتعالى فيطعمهون ويسقون ويطيبون ويحلون ويرفع الحجاب بينه وبينهم فينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل وهذا الحجاب على ما قال السادة من قبلهم لا من قبله عز وجل وأنشدوا :

وكنا حسبنا أن ليلى تبرقعت . . .

وأن حجاباً دونها يمنع اللثما

فلاحت فلا والله ما ثم حاجب . . .

سوى أن طرفي كان عن حسنها أعمى

ثم إن أجهل الخلق عندهم المعتزلة وأشدهم عمى وأدناهم منزلة حيث أنكروا صحة رؤية من لا ظاهر سواه بل لا موجود على الحقيقة إلا إياه وأدلة إنكارهم صحة رؤيته تعالى مذكورة مع ردودها في كتب الكلام وكذا أدلة القوم على الصحة وكأني بك بعد الإحاطة وتدقيق النظر تميل إلى أنه سبحانه وتعالى يرى لكن لا من حيث ذاته سبحانه البحت ولا من حيث كل تجل حتى تجليه بنوره الشعشعاني الذي لا يطاق وقرأ زيد بن علي وجوه يومئذ نضرة بغير ألف .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أي شديدة العبوس وباسل أبلغ من باسر فيما ذكر لكنه غلب

في الشجاع إذا استدت كلوحته فعدل عنه لا يهامه غير المراد وعني بهذا الوجوه وجوه الكفرة.

(52/793)

﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي داهية عظيمة تقصم فقار الظهر من فقره أصاب فقاره وقال أبو عبيدة فاقرة من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار وفاعل نظن ضمير الوجوه بتقدير مضاف أي تظن أربابها وجوز أن يكون الضمير راجعاً إليها على أن الوجه بمعنى الذات استخداماً وفيه بعد والظن قيل أريد به اليقين واختاره الطيبي وان المصدرية لا تقع بعد فعل التحقيق الصرف دون فعل الظن أو ما يؤدي معنى العلم فتقع بعده كالمشددة والمخففة على ما نص عليه الرضى وقيل هو على معناه الحقيقي المشهور والمراد تتوقع ذلك واختاره من اختاره ولا دلالة فيه بواسطة التقابل على أن يكون النظر ثم بالمعنى المذكور كما زعمه من زعمه وتحقيق ذلك إن ما يفعل بهم في مقابلة النظر إلى الرب سبحانه لكون ذلك غاية النعمة وهذا غاية النقمة وجيء بفعل الظن ههنا دلالة على أن ما هم فيه وإن كان غاية الشر يتوقع بعده أشد منه وهكذا أبداً وذلك لأن المراد بالفاقرة ما لا يكتنه من العذاب فكل ما يفعل به من أشده استدل منه على آخر وتوقع أشد منه وإذا كان ظاناً كان

أشد عليه مما إذا كان عالماً موطناً نفسه على الأمر على أن العلم بالكائن واقع لا بما يتجدد آنا فآنا فهذا وجه الإتيان بفعل الظن ولم يؤت في المقابل بفعل ظن أو علم لأنهم وصلوا إلى ما لا مطلوب وراءه وذاقوه ثم بعد ذلك التفاوت في ذلك النظر قوة وضعفاً بالنسبة إلى الرائي على ما قرره فلعل هذا حجة على الزاعم لا له أسبغ الله تعالى علينا برؤيته فضله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(53/793)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)

قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

قال أبو عبيدة ، وجماعة المفسرين : إن "لا" زائدة ، والتقدير : أقسم .

قال السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى ﴿ لا أقسم ﴾ : أقسم ، واختلفوا في تفسير " لا " ، فقال بعضهم : هي زائدة ، وزيادتها جارية في كلام العرب ، كما في قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] يعني : أن تسجد ، و : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] ومن هذا قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتقطع

وقال بعضهم : هي ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم ، أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفرّاء ، وكثير من النحويين ، كقول القائل : لا والله ، فلا ردّ لكلام قد تقدّمها ، ومنه قول الشاعر :

فلا وأبيك ابنة العامري . . . لا يدّعى القوم أني أفر

وقيل : هي للنفي ، لكن لا لنفي الإقسام ، بل لنفي ما ينبيء عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه ، كأن معنى لا أقسم بكذا : لا أعظمه بإقسامي به حقّ إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من ذلك .

وقيل : إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر ، وقد تقدّم الكلام على هذا في تفسير قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] .

وقرأ الحسن ، وابن كثير في رواية عنه ، والزهري ، وابن هرمز : " لأقسم " بدون ألف على أن اللام لام الابتداء ، والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال ، وقد اعترض عليه الرازي بما لا يقدح في قوّته ، ولا يفتّ في عضد رجحانه ، وإقسامه سبحانه بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه ، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ ذهب قوم إلى أنه سبحانه أقسم بالنفس اللوّامة ، كما أقسم بيوم القيامة ، فيكون الكلام في " لا " هذه كالكلام في الأولى ، وهذا قول الجمهور .

وقال الحسن : أقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوّامة .

قال الثعلبي : والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً ، ومعنى النفس اللوامة : النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره ، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها .

قال الحسن : هي والله نفس المؤمن ، لا يرى المؤمن إلاّ يلوم نفسه ما أردت بكذا ما أردت بكذا ، والفاجر لا يعاتب نفسه .

قال مجاهد : هي التي تلوم على ما فات وتندم ، فتلوم نفسها على الشرّ لم تعمله ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ قال الفرّاء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلاّ وهي تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيراً قالت : هلا ازددت ، وإن كانت عملت سوءاً قالت : ليتني لم أفعل .

وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس ، فيكون الإقسام بها حسناً سائغاً .

وقيل : اللوّامة هي الملومة المذمومة ، فهي صفة ذمّ ، وبهذا احتج من نفى أن يكون قسماً ، إذ ليس لنفس العاصي خطر يقسم به .

قال مقاتل : هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله .

والأوّل أولى .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن لَنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ المراد بالإنسان الجنس .

وقيل : الإنسان الكافر ، والهمزة للإنكار ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، والمعنى : أيحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً ، فنعيدها خلقاً جديداً ، وذلك حسبان باطل ، فإنا نجمعها ، وما يدلّ عليه هذا الكلام هو جواب القسم .

قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوّامة ليجمعنّ العظام للبعث ، فهذا جواب القسم .

وقال النحاس : جواب القسم محذوف ، أي : ليبعثنّ ، والمعنى : أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان ، وإنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق .

(55/793)

﴿ بلى قادرين على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ بلى إيجاب لما بعد النفي المنسحب إليه الاستفهام ، والوقف على هذا اللفظ وقف حسن ، ثم يبتدىء الكلام بقوله : ﴿ قادرين ﴾ وانتصاب ﴿ قادرين ﴾ على الحال ، أي : بلى نجمعها قادرين ، فالحال من ضمير الفعل المقدّر .

وقيل المعنى : بل نجمعها نقدر قادرين .

قال الفراء : أي نقدر ونقوى قادرين على أكثر من ذلك .

وقال أيضاً : إنه يصلح نصبه على التكرير ، أي : بلى فليحسبنا قادرين .

وقيل التقدير : بلى كنا قادرين .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وابن السميفع (بلى قادرون) على تقدير مبتدأ ، أي : بلى نحن قادرون ، ومعنى : ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ : على أن نجمع بعضها إلى بعض ، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها ، فكيف بكبار الأعضاء ، فنبه سبحانه بالبنان ، وهي الأصابع على بقية الأعضاء ، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق ، فهذا وجه تخصيصها بالذكر ، وبهذا قال الزجاج ، وابن قتيبة .

وقال جمهور المفسرين : إن معنى الآية : أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئًا واحداً ، كخف البعير وحافر الحمار صفيحة واحدة لا شقوق فيها ، فلا يقدر على أن ينتفع بها في الأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة ونحوهما ، ولكنا فرقنا أصابعه لينتفع بها .

وقيل المعنى : بل نقدر على أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم ، فكيف في صورته التي كان عليها ، والأوّل أولى ، ومنه قول عنترة :

وإن الموت طوع يدي إذا ما . . . وصلت بنانها بالهندوان

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ هو عطف على ﴿ أيحسب ﴾ ، إما على أنه استفهام مثله ، وأضرب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا ، أو على أنه إيجاب انتقل إليه من الاستفهام .

(56/793)

والمعنى : بل يريد الإنسان أن يقدم فجوره فيما بين يديه من الأوقات ، وما يستقبله من الزمان ، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة .

قال ابن الأنباري : يريد أن يفجر ما امتدّ عمره ، وليس في نيته أن يرجع عن ذنب يرتكبه .

قال مجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، والسديّ ، وسعيد بن جبير : يقول سوف أتوب ، ولا يتوب حتى يأتيه الموت .

وهو على أشرّ أحواله .

قال الضحاك : هو الأمل ، يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ، ولا يذكر الموت ،

والفجور أصله : الميل عن الحقّ ، فيصدق على كل من مال عن الحق بقول أو فعل ، ومنه قول الشاعر :

أقسم بالله أبو حفص عمر . . . ما مسها من نقب ولا دبر

اغفر له اللَّهم إن كان فجر . . . وجملة ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ مستأنفة لبيان معنى يفجر ، والمعنى : يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ أي : فزع وتحير ، من برق الرجل : إذا نظر إلى البرق فدهش بصره .

قرأ الجمهور : ﴿ برق ﴾ بكسر الراء .

قال أبو عمرو بن العلاء ، والزجاج وغيرهما : المعنى تحير فلم يطرف ، ومنه قول ذي الرّمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرّضت . . . لعينيه ميّ سافرا كاد يبرق

وقال الخليل ، والفراء : ﴿ برق ﴾ بالكسر : فزع وبهت وتحير ، والعرب تقول للإنسان المبهوت : قد برق ، فهو بارق ، وأنشد الفرّاء :

ونفسك فانع ولا تنعني . . . وداو الكلوم ولا تبرق

أي : لا تفزع من كثرة الكلوم التي بك .

وقرأ نافع ، وأبان عن عاصم : " برق " بفتح الراء ، أي : لمع بصره من شدة شخوصه للموت .

قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت ، وقيل : برق يبرق شق عينيه وفتحهما .

وقال أبو عبيدة : فتح الراء وكسرها لغتان بمعنى ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ خسف ﴾ بفتح الخاء والسين مبنياً للفاعل .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وعيسى ، والأعرج ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة بضم الخاء وكسر السين مبنياً للمفعول ، ومعنى ﴿ وخسف القمر ﴾ : ذهب ضوؤه ، ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا ، ويقال : خسف : إذا ذهب جميع ضوئه ، وكسف : إذا ذهب بعض ضوئه .

﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ أي : ذهب ضوؤهما جميعاً ، ولم يقل " جمعت " لأن التأنيث مجازيّ .

قاله المبرد .

وقال أبو عبيدة : هو لتغليب المذكر على المؤنث .

وقال الكسائي : حمل على معنى جمع النيران .

وقال الزجاج ، والفراء : ولم يقل " جمعت " لأن المعنى جمع بينهما في ذهاب نورهما .

وقيل : جمع بينهما في طلوعهما من الغرب أسودين مكوّرين مظلمين .

قال عطاء : يجمع بينهما يوم القيامة ، ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى .

وقيل : تجمع الشمس والقمر فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار .

وقرأ ابن مسعود : " وجمع بين الشمس والقمر " .

﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ أي : يقول عند وقوع هذه الأمور : أين المفرّ ؟ أي :

الفرار ، والمفرّ مصدر بمعنى الفرار .

قال الفراء : يجوز أن يكون موضع الفرار ، ومنه قول الشاعر :

أين المفرّ والكباش تنتطح . . . وكل كبش فرّ منها يفتضح

قال الماوردي : يحتمل وجهين : أحدهما ابن المفرّ من الله سبحانه استحياء منه .

والثاني أين المفرّ من جهنم حذراً منها .

وقرأ الجمهور : ﴿ أين المفرّ ﴾ بفتح الميم والفاء مصدراً ، كما تقدّم .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة بفتح الميم وكسر الفاء على أنه اسم مكان ، أي : أين مكان الفرار .

وقال الكسائي : هما لغتان مثل مدب ومدب ، ومصح ومصح ، وقرأ الزهري بكسر الميم وفتح الفاء على أن المراد به الإنسان الجيد الفرار ، ومنه قول امرىء القيس :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا . . . كجلمود صخر حطه السيل من عل

أي : جيد الفرّ والكرّ .

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ أي : لا جبل ولا حصن ولا ملجأ من الله .

وقال ابن جبير : لا محيص ولا منعة .

والوزر في اللغة : ما يلجأ إليه الإنسان من حصن أو جبل أو غيرهما ، ومنه قول طرفة :

ولقد تعلم بكر أننا . . . فاضلوا الرأي وفي الروع وزر

وقال آخر :

لعمري ما للفتى من وزر . . . من الموت يدركه والكبر

قال السديّ : كانوا إذا فزعوا في الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال لهم الله : لا وزر يعصمكم مني يومئذٍ ، وكلاّ للردع أو لنفي ما قبلها ، أو بمعنى حقاً ﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ أي : المرجع والمنتهى والمصير لا إلى غيره .

وقيل : إليه الحكم بين العباد لا إلى غيره .

وقيل المستقر : الاستقرار حيث يقرّه الله ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي : يخبر يوم القيامة بما عمل من خير وشرّ .

وقال قتادة : بما عمل من طاعة وما أخر من طاعة فلم يعمل بها .

وقال زيد بن أسلم : بما قدّم من أمواله وما خلف للورثة .

وقال مجاهد : بأوّل عمله وآخره .

وقال الضحاك : بما قدّم من فرض وأخر من فرض .

قال القشيري : هذا الإنباء يكون يوم القيامة عند وزن الأعمال ، ويجوز أن يكون عند

الموت .

قال القرطبي : والأوّل أظهر ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ارتفاع بصيرة على أنها خبر الإنسان ، على نفسه متعلق ببصيرة .

قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل : أنت حجة على نفسك .

وقيل المعنى : إن جوارحه تشهد عليه بما عمل ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] وأنشد الفرّاء :

كأن على ذي العقل عينا بصيرة . . . بمقعده أو منظر هو ناظر

فيكون المعنى : بل جوارح الإنسان عليه شاهدة .

قال أبو عبيدة ، والقتيبي : إن هذه الهاء في بصيرة هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة ، كما في قولهم : علامة .

وقيل : المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير وشرّ ، والتاء على هذا للتأنيث .

وقال الحسن : أي : بصير بعيوب نفسه ﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي : ولو اعتذر وجادل عن نفسه لم ينفعه ذلك .

يقال : معذرة ومعاذير .

قال الفرّاء : أي وإن اعتذر فعليه من يكذب عذره .

وقال الزجاج : المعاذير الستور ، والواحد معذار ، أي : وإن أرخى الستور يريد أن يخفي نفسه فنفسه شاهدة عليه ، كذا قال الضحاك ، والسديّ .

والستر بلغة اليمن يقال له : معذار ، كذا قال المبرد ، ومنه قول الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة . . . علينا وأطت يومها بالمعاذر

والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، وابن زيد ، وأبو العالية ، ومقاتل ، ومثله قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر : 52] .

وقوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] .

وقول الشاعر :

فما حسن أن يعذر المرء نفسه . . . وليس له من سائر الناس عاذر

﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، أي : لا تحرّك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي لتأخذه

على عجل مخافة أن يتفلت منك ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] الآية ، ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك حتى لا يذهب عليك منه شيء ﴿ وَقُرْءانَهُ ﴾ أي : إثبات قراءته في لسانك .

قال الفرّاء : القراءة والقرآن مصدران .

وقال قتادة : ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ أي : شرائعه وأحكامه .

﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ أي : أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ أي : قراءته .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي : تفسير ما فيه من الحلال والحرام ، وبيان ما أشكل منه .

قال الزجاج : المعنى علينا أن ننزله عليك قرآناً عربياً فيه بيان للناس .

(60/793)

وقيل المعنى : إن علينا أن نبينه بلسانك .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ كلا للردع عن العجلة ، والترغيب في الأناة .

وقيل : هي ردع لمن لا يؤمن بالقرآن وبكونه بيناً من الكفار .

قال عطاء : أي : لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه .

قرأ أهل المدينة ، والكوفيون : ﴿ بل تحبون ﴾ ﴿ وتذرون ﴾ بالفوقية في الفعلين جميعاً .

وقرأ الباقون بالتحتية فيهما ، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لهم تقريعاً وتوبيخاً ، وعلى القراءة الثانية يكون الكلام عائداً إلى الإنسان لأنه بمعنى الناس ، والمعنى : تحبون الدنيا ، وتتركون ﴿ الأخرة ﴾ فلا تعملون لها .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أي : ناعمة غضة حسنة ، يقال : شجر ناضر ، وروض ناضر ، أي : حسن ناعم ، ونضارة العيش حسنه وبهجته .

قال الواحدي ، والمفسرون : يقولون مضيئة مسفرة مشرقة ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ هذا من النظر ، أي : إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة ، أي : تنظر إليه ، هكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون ربهم يوم القيامة ، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر .

قال ابن كثير : وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام .

وقال مجاهد : إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب ، وروي نحوه عن عكرمة .

وقيل : لا يصح هذا إلاّ عن مجاهد وحده .

قال الأزهري : وقول مجاهد خطأ ؛ لأنه لا يقال : نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول

القائل : نظرت إلى فلان ليس إلاّ رؤية عين ، إذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرته ، كما في قول الشاعر :

فإنكما إن تنظراني ساعة . . . من الدهر تنفعني لدى أمّ جندب

فإذا أرادوا نظر العين قالوا : نظرت إليه ، كما قال الشاعر :

نظرت إليها والنجوم كأنها . . . مصابيح رهبان تشب لقفال

وقال الآخر :

إني إليك لما وعدت لناظر . . . نظر الفقير إلى الغنيّ الموسر

(61/793)

أي : انظر إليك نظر ذلّ كما ينظر الفقير إلى الغنيّ ، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جدّاً .

و﴿ وجوه ﴾ مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة ؛ لأن المقام مقام تفصيل ، وناضرة صفة لوجوه ، ويومئذٍ ظرف لناضرة ، ولو لم يكن المقام مقام تفصيل لكان وصف النكرة بقوله : ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ مسوّغاً للابتداء بها ، ولكن مقام التفصيل بمجرّده مسوّغ للابتداء بالنكرة .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أي : كالحة عابسة كئيبة .

قال في الصحاح : بسر الرجل وجهه بسوراً ، أي : كلح .

قال السديّ : باسرة أي : متغيرة .

وقيل : مصفرّة ، والمراد بالوجوه هنا وجوه الكفار ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ الفاقرة : الداهية العظيمة ، يقال : فقرته الفاقرة ، أي : كسرت فقار ظهره .

قال قتادة : الفاقرة الشرّ ، وقال السديّ : الهلاك ، وقال ابن زيد : دخول النار .

وأصل الفاقرة : الوسم على أنف البعير بحديدة ، أو نار حتى تخلص إلى العظم ، كذا قال الأصمعي ، ومن هذا قولهم : قد عمل به الفاقرة .

قال النابغة :

أبا لي قبر لا يزال مقابلي . . . وضربة فأس فوق رأسي فاقره

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه ، قلت : ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ قال : النفس اللؤوم .

قلت : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن لَنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بلى قادرين على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ قال : لو شاء لجعله خفاً أو حافراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه .

﴿ اللوامة ﴾ قال : المذمومة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : التي تلوم على الخير والشرّ تقول : لو فعلت كذا وكذا .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : تندم على ما فات وتلوم عليه .

(62/793)

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال : يمضي قدماً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : هو الكافر الذي يكذب بالحساب .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : يعني الأمل ، يقول : أعمل ثم أتوب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذمّ الأمل ، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً في الآية قال : يقدّم الذنب ويؤخر التوبة .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عنه أيضاً : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يقول : سوف أتوب ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ قال : يقول متى يوم القيامة ؟ قال : فبين له ﴿ إِذَا بَرِقَ البصر ﴾ .

وأخرج ابن جرير عنه قال : ﴿ إِذَا بَرِقَ البصر ﴾ يعني : الموت .

وأخرج عبد ابن حميد ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ قال : لا حصن .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ قال : لا حصن ولا ملجأ ، وفي لفظ : لا حرز ، وفي لفظ : لا جبل .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ قال : بما قدّم من عمل ، وأخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شرّ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : بما قدّم من المعصية وأخر من الطاعة فينبؤ بذلك .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر من طرق عنه في قوله : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال : شهد على نفسه وحده ﴿ وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ قال : ولو اعتذر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال : سمعه وبصره ويديه ورجليه وجوارحه ﴿ وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ قال : ولو تجرّد من ثيابه .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرّك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءانَهُ ﴾ قال : يقول إنّ علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أن نبينه بلسانك ، وفي لفظ : علينا أن نقرأه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق .

وفي لفظ : استمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ قال : بيناه ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ يقول : اعمل به .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود في قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ قال : عجلت لهم الدنيا شرّها وخيرها ، وغيبت الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ قال : ناعمة .

وأخرج ابن المنذر ، والآجري في الشريعة ، واللالكائي في السنة ، والبيهقي في الرؤية عنه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ قال : يعني : حسنها ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : نظرت إلى الخالق .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : تنظر إلى وجه ربها .

(64/793)

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : " ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ، ولا حدّ محدود ، ولا صفة معلومة " وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال الناس : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : " هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب " قالوا : لا يا رسول الله ، قال : " فهل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب " قالوا : لا يا رسول الله ، قال : " فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك " وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه .

وقد قدّمنا أن أحاديث الرؤية متواترة فلا نطيل بذكرها ، وهي تأتي في مصنف مستقلّ ، ولم يتمسك من نفاها واستبعدها بشيء يصلح للتمسك به لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والدارقطني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه ، وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة ، وعشية " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وأخرجه أحمد في المسند من حديثه بلفظ : " إن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرّتين " وأخرج النسائي ، والدارقطني وصححه ، وأبو نعيم عن أبي هريرة قال : قلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا ؟ قال : " هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه ، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها ؟ " قلنا : نعم ، قال : " فإنكم سترون ربكم عزّ وجلّ ، حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة ، فيقول : عبدي هل تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : ألم تغفر لي ؟ فيقول : بمغفرتي صرت إلى هذا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 334 . 340 ﴾

(65/793)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) ﴾

[وحي القرآن ووحي السنة . . هذا غير ذاك] قوله تعالى : « لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » .

تبدو مناسبة هذه الآيات ، للآيات التي قبلها ، ثم للآيات التي بعدها . تبدو المناسبة بعيدة فى ظاهر الأمر ، حيث أن هذه الآيات حديث خاص إلى النبىّ ، فى شأن من شئون تلقّيه الوحى . . وما بعد هذه الآيات وما قبلها ، هو عرض

(66/793)

للمشركين والضالين فى موقف الحساب والجزاء يوم القيامة . . فما سرّ وضع هذه هذه الآيات هنا ؟ وما المناسبة الجامعة بينها وبين ما تقدمها ، وما جاء بعدها ؟

نقول والله أعلم : إن هذا الترتيب الذي جاء عليه نظم هذه الآيات ، يشير إلى أكثر من دلالة ، ويومىء إلى أكثر من مقصد :

فأولا : هذا القطع لنسق النظم ، فى صورة فجائية ، وبلا مقدمات . هو إلفات قاهر ، لا إرادى ، لأولئك المشركين الذين يكذبون بيوم الدين ، ويكذبون بما تلا عليهم رسول الله من

آيات اللّه ، وما تحمل إليهم هذه الآيات ، من أخبار هذا اليوم ، وأحداثه . . وفى هذه اللفتة القاهرة يرون النبي فى مقام التلقّى عن ربه ، وفى مجلس التلقين ، والتعليم منه ، سبحانه ، وأنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يتعلم مما علمه اللّه ، وأن هذا العلم لا يستأثر به وحده ، وإنما هو مأمور بحمله وعرضه على الناس جميعا ، ليأخذوا حظهم كاملا منه . . ولا شك أن هذا من شأنه أن يخفف كثيرا مما فى قلوب المشركين من مشاعر الحسد للنبى ، والغيرة منه ، كما أن هذا الموقف يفتح عيون كثير من المكذبين والمعاندين على وجه الحق الذي غاب عنهم فى دخان الحسد المنبعث من صدورهم ، حيث يرون النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يتلقى هذا التحذير والتأديب فى مقام التعلّم ، وأنه ليس هناك أمام عظمة اللّه عظيم . . إن اللّه سبحانه هو رب العالمين ، وكلهم مربوبون له ، منقادون لأمره ، وأن ما جاءهم به النبي قد احتمل فى سبيله جهدا أو مشقة ، وهم يتلقونه منه دون أن يسألهم عليه أجرا . .

وثانيا : الطبيعة البشرية يغلب عليها حب التملك ، ومن أجل هذا كان شأن الناس إيثار العاجل على الآجل ، والحاضر على الغائب ، وكان من هذا

أن صرف كثير من الناس أعينهم عن الحياة الآخرة ، وأقاموا بينهم وبينها سدودا من الخداع ، والتضليل ، حتى لا يروا لها أثرا يلفتهم إليها ، ويقطع مشاعرهم المنصرفة كلها إلى الحياة الدنيا ، وما هم فيه منها . .

وفى عرض النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - فى هذا الموقف الذي يستعجل فيه النطق بكلمات الآية وحفظها ، قبل أن تفلت منه - فى هذا ما يكشف المشركين عن أن حب العاجل طبيعة مركوزة فى الناس ، كما يقول سبحانه وتعالى : « خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ » (37 : الأنبياء) وأن العجلة غير محمودة حتى فى مقام الإحسان ، وفى طلب الخير . . بل إن الرفق ، والتوسط فى الأمور هو المحمود ، وهو الذي يتيح للإنسان فرضه التروي والتعقل ، ووزن الأمور بميزان الروية والعقل . . فكيف بالمشركين وهم يخوضون خوضا فى متاع الحياة الدنيا ؟ أفلا يكون منهم تمهل فى هذا الجري اللاهث وراء هذا الحطام الزائل ؟ ثم ألا يكون منهم وقفة مع هذا الذي يدعوهم النبي إليه ؟

وثالثا : إذا كان على النبي أن يصغى إلى الوحى ، ولا يحرك لسانه قبل أن ينتهى رسول الوحى من إلقاء بإلقاء ما يوحى به إليه ، وذلك لتكتمل صورة المعاني المراد إلقاؤها على النبي ، ولتقع من نفسه موقعا واضحا متمكنا - إذا كان على النبي أن يفعل هذا ، مع كلمات اللّه - أفما كان على الذين يستمعون من النبي لآيات اللّه ، أن يصغوا إليها ، وألا يفتحوا أفواههم بكلمة وهم بين يديها ، حتى ينتهى عرضها ، ليكون لهم سبيل إلى فهم معانيها ،

وإدراك بعض أسرارها ؟ . .

قيل إن النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ كان وهو يتلقى سورة القيامة من الوحى ، وذلك فى أوائل اتصال النبي بالوحى ـ كان يخشى أن تفلت منه بعض الكلمات ، أو يختلف عليه نظامها ، فيبادر ـ حرصا منه ـ بتلقف

(68/793)

الكلمة من جبريل ، قبل أن يتم الآية . . فلما بلغ معه الوحى إلى قوله تعالى : «بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ»

ـ نزل عليه قوله تعالى : «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»

. .

ولا شك أن هذا شاهد من شهود القرآن التي لا تحصى ، على أن هذا القرآن من عند اللّه ، وأن ليس لمحمد إلا تلقيه من الوحى ، وحمله إلى الناس . .

وإلا لو كان هذا القرآن من كلام محمد ـ أكان محمد يلبس هذه الشخصيات جميعها ، فيكون مخاطبا وغائبا ، وناهيا ومنهيّا ، كل ذلك فى حال واحدة ، وموقف واحد ؟ .

أيعقل فى هذا الموقف الذي يواجه فيه المشركين بهذه النذر المطلة عليهم من يوم القيامة ـ

أيعقل فى هذا الموقف ، أن يقطع محمد هذا العرض ، ثم يتحول إلى نفسه ، محاسبا ، وناصحا وموجها ؟ وما شأن الناس بهذا ، لو كان محمد هو صاحب هذا الموقف ، والمصور له بكلماته ؟ . .

إن صاحب الموقف - وهو اللّه سبحانه وتعالى - هو الذي يملك أن يقطع هذا العرض ، وأن يلقى على المتلقى عنه ، ما يشاء من توجيه ، وإرشاد ، حتى يجىء العرض واضحا ، كاملا . . إن الذي يملك الموقف كله ، قوة قائمة على محمد ، وعلى من يلقاهم محمد بهذا الحديث . . وتلك القوة هى التي تدير الخطاب ، وتوجهه كيف تشاء إلى أىّ من المخاطبين ، أفرادا ، أو جماعات . .

وقوله تعالى : « لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ »

نهى يراد به النصح والتوجيه إلى ما ينبغى أن يكون عليه النبي مع الوحى ، وهو ألا يحرك لسانه بكلمات القرآن ، قبل أن ينتهى جبريل من الوحى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً » (114 : طه) . .

فإن كل كلمة يوحى بها إلى النبي ، هى علم يزداد به علمه ، فلا يعجل يقطع هذا المدد الذي تهمى عليه غيوثه .

وقوله تعالى : « لِتَعْجَلَ بِهِ »

بيان للسبب الذي من أجله كان يسرع النبي بترديد الكلمات التي يسمعها من جبريل . . إنه - لشدة شوقه ، إلى كلمات ربه - لا يكاد يسمع الكلمة تقع فى قلبه من جبريل ، حتى يسرع بالنطق بها ، ليذوق حلاوتها على لسانه ، كما ذاق حلاوتها فى قلبه . .

وقوله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ »

. .

هو تطمين النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - من أنه لن يفوته حفظ شىء مما يوحى إليه من آيات ربه ، فإن اللّه سبحانه وتعالى ، هو الذي يتولى جمع هذا القرآن كله فى صدره - صلوات اللّه وسلامه عليه - كما سيتولى سبحانه ، حفظه على الزمن ، قرآنا تعمر به قلوب المؤمنين ، وترتله ألسنة الحافظين ، كما يقول سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ » (9 : الحجر) . .

قوله تعالى : « فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » .

وفى إسناد القراءة إلى اللّه سبحانه وتعالى ، تشريف ، وتكريم النبي ، الذي يسمع آيات اللّه متلوة عليه من ربه ، وإن كان جبريل عليه السلام ، هو الذي ينقلها إلى النبي . .

وهذا يعنى أن الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - إذ يتلقى آيات اللّه ، من جبريل عليه السلام ، يجد فيها نداء الحق سبحانه وتعالى له ، ويسمع خطابه سبحانه وتعالى إليه . .

ونقول - واللّه أعلم - إن النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - حين كان يوحى إليه بآيات اللّه ، يسمع ما يوحى إليه لفظا من جبريل ، ومعنى من اللّه سبحانه وتعالى . . وعلى هذا المعنى يكون الضمير « نا » فى قوله تعالى : « قرأناه » عائدا إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وإلى جبريل ، أي أن الحق سبحانه وتعالى يقول للنبى : إذا قرأت القرآن عليك بمعناه ، وقرأه جبريل عليك بألفاظه ، فلا تعجل بتحريك لسانك . بترجمة هذه المعاني إلى ألفاظ ، بل تمهل وخذ الألفاظ التي يلقيها عليك جبريل ، حتى تتحقق الصورة الكاملة ، للمطابقة بين اللفظ والمعنى ! ! .

وعلى هذا المعنى يكون قوله تعالى : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »

أي اتبع قراءة رسول الوحى جبريل ، وقف عند حدود الألفاظ التي يلقيها إليك ، ولا تنازعه بما يسبق إليه خاطرك من كلمات تريد أن تمسك بها من هذه المعاني التي قذفها اللّه سبحانه وتعالى فى قلبك ، قبل أن تفلت منك . .

وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه ، هو معنى لا نظن أحدا من المفسرين قد التفت إليه ، على كثرة ما توارد على هذه الآية من مختلف الآراء . .

فنرجو أن يكون هذا الرأى أقرب إلى الحق ، وأدنى إلى الصواب . .

ولعل هذا يفسر لنا تلك الحال التي كانت تعرو النبي فى أثناء الوحى ، وما كان يغشاه من شدة ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد كما تقول السيدة عائشة رضى اللّه عنها ! !

(71/793)

وليست هذه الحال التي كان يعانيها النبي من الوحى - دون سائر الأنبياء - ليست إلا لأن اللّه سبحانه وتعالى يتجلى على النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - فى كلماته القرآنية ، ساعة تلقيها من جبريل . .

ونقول إن تلك المعاناة التي كان يعانيها النبي من الوحى ، هى خاصة به وحده ، دون ما نعرف من الوحى الذي يوحى إلى الأنبياء ، والرسل ، لأن الذي يقصه القرآن علينا من أمر الرسل ، وصلتهم بالوحى ، هو أن - رسول الوحى ، أو رسل الوحى ، كانو يجيئون إليهم فى صورة بشرية كاملة ، يلتقون بهم فيها كما يلتقى الناس بالناس ، ويتحدثون إليهم كما يتحدث

الناس إلى الناس . . فلم يكن الرسول من هؤلاء الرسل الكرام ، يشعر بأن قوة خفية دخلت عليه ، أو خالطت وجدانه ، ومدركانه ، وذلك على غير ما كان فى حال الوحى مع رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه ، وما كان يلقى فى تلقّى الوحى من شدّة .

فقد جاء الوحى إلى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل فى صورة رؤيا رآها فى المنام . . كما يقول سبحانه على لسانه : « يا بُنَيَّ . . إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ . . فَانْظُرْ ما ذا تَرى » (102 : الصافات) . . كذلك جاء الوحى إليه فى صورة جماعة من الضيوف ، نزلوا عليه : « هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ، قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » (24 . 30 : الذاريات)

(72/793)

كذلك جاء ، الوحى إلى لوط عليه السلام ، فى صورة هؤلاء الضيف الذين نزلوا على إبراهيم . . وفيهم يقول لوط لقومه : « إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا

تُخْزُونِ» (68 ـ 69 : الحجر) . . ويقولون هم ـ أي الملائكة ـ الوط : «يا لُوطُ . . إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ» . .

وإذا كان من الرسل من تلقّى الوحى على صورة أشبه بالصورة التي تلقى عليها النبي كلمات ربه ـ فهو موسى عليه السلام . .

ونقول أشبه بالصورة التي تلقّى عليها النبىّ كلمات ربّه ، ولا نقول مثلها ، لأن موسى ـ عليه السلام ـ كان يسمع من ربّه حقائق المعاني التي يلقيها إليه ، ثم يصوغها هو فى الألفاظ التي يراها مناسبة لها . . ولهذا ، فإنّ موسى ـ وإن أخذه جلال التجلي لكلمات اللّه عليه . . فإن ذلك كان أخفّ عليه وطئا مما كان يأخذ النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، لأنّ النبىّ مع وقوعه تحت سلطان هذا التجلّى ، كان واقعا من جهة أخرى تحت غشيان الرّوح السماوىّ له ، وتلبسه به ، ونقل كلمات اللّه إليه . . فالنبىّ هنا واقع تحت سلطان التجلّى من اللّه سبحانه وتعالى عليه ، وتحت تلبّس الملك السماوىّ ـ جبريل ـ به . . ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ، يعانى من شدّة الوحى أكثر مما كان يعانى موسى عليه السلام . . أما الشريعة الموسوية ، فقد تلقاها موسى عليه السلام مكتوبة فى الألواح . .

وما كنّا نريد أن نذهب إلى هذا الذي ذهبنا إليه فى مفهومنا لتلك الآيات مخالفين بذلك أكثر المفسرين ، فى فهمها على غير هذا الفهم .

ثم ما كنا نريد أن نذهب إلى أبعد من هذا الذي ذهبنا إليه . . ولكن الأمر ليس إلينا ، ونحن بين يدى آيات اللّه . . إنها هى التي تشدنا إليها ،

(73/793)

وتبسط سلطانها علينا ، فلا تملك أن نبرح ساحتها إلا باستئذان ، وإذن ، منها ، وإنه لكفران بالإحسان أن نبرح هذا المنزل الكريم الذي نزلناه من تلك الآيات ، وأن نقطع هذا الرزق الموصول إلينا من بين يديها ، وأن نعجل بقطع هذا الخير الذي تلقانا به .

فنحن سنمضى معها على هذا الطريق إلى غايته ، نرجو مزيدا من العطاء ونلتمس مزيدا من النور . .

ويلقانا هنا سؤال :

لما ذا لم يجىء الوحى إلى النبىّ فى صورة بشرية ، على نحو ما كان يأتيه عليه فى بعض الأحيان . . فيكون ذلك أخفّ وطئا عليه ، من الصورة الملكية التي كان يأتيه عليها فى معظم الحالات ، والتي كان يعانى منها ما يعانى من شدّة ؟

والجواب على هذا ـ واللّه أعلم ـ هو أن الأحوال التي كان يأتى عليها الموحى به قرآنا ، كان الوحى صورة خاصة ، لا تتبدّل ، ولا تختلف ، وإن كان الموحى به حديثا قدسيا ، جاء

الوحى على صورة خاصة أيضا ، وإن كان الموحى به حكمة ، وهى السنة القولية أو الفعلية ، كما يشير إليه قوله تعالى : « ذِلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » (39 : الإسراء) . نقول إذا كان الموحى به حكمة ، جاء الوحى على صورة خاصة كذلك . . وهكذا . .

روى أن الحارث بن هشام سأل النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : يا رسول اللّه : كيف يأتيك الوحى ؟ قال : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس . .

(74/793)

وهذا أشده علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل الملك رجلا فأعى ما يقول » .

فالحال التي كان يأتى فيها الوحى مثل صلصلة الجرس ، هى الوحى الذي ينزل بالقرآن ، حيث لا يستطيع رسول الوحى ، جبريل عليه السلام ، أن يبلّغ كلمات القرآن إلا وهو فى حال الملكية ، وهنا يجذب النبىّ إلى الخروج من حالة البشرية إلى حال هو أقرب فيها إلى عالم الملائكة ، وهذا لا يكون إلا عن مجاهدة عظيمة ، وإلا بعد معاناة ، يجد منها النبىّ كربا ، ويعانى منها شدة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا ، فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ

أَوْ أَدْنى » (8 ـ 9 : النجم) .

أمّا فى حال تمثّل الملك رجلا ، فإن الملك هو الذي يحاول الخروج من صورته الملكية إلى صورة بشرية ، فيلتقى بالنبيّ ، كما يلتقى الإنسان بالإنسان . . وهذه الكيفية من الوحى ، تكون فيما يوحى به إلى النبىّ من الأحاديث والسنن القولية أو الفعلية ، أو التقريرية ، التي أثرت عن النبىّ . .

من قول أو فعل أو تقرير . . فى حال التشريع ، وهو وحي من عند اللّه كذلك ، وهذا مما يشير إليه قوله تعالى : « وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى » (3 : النجم) .

وقد ثبت من تاريخ نزول القرآن ، أن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، كثيرا ما كان ينزل عليه الوحى وهو بين أصحابه ، فيغشاه ما يغشاه من شدّة ، حتى إذا قضّى الوحى ، كان أول ما يتحدث به الرسول إلى أصحابه وكتّاب وحيه ، هو ما نزل به الوحى عليه من آيات ربّه . . وهكذا ، فى جميع ما يروى من الأخبار الثابتة . . كل حال كان يأتى فيها الوحى إلى النبىّ مثل صلصلة الجرس ، كان الموحى به إليه فى تلك الحال ، قرآنا كريما ، لا حديثا قدسيا ، ولا سنة قولية أو فعلية . .

كذلك ثبت من تاريخ السنّة النبوية . . القولية ، والتقريرية . . أن ما كان يوحى به إلى النبىّ فى هذا المقام ، إمّا بإلهام من اللّه ، وإمّا بوساطة رسول الوحى يتمثل النبىّ فى صورة بشرية . .

فقد ثبت أنه حيث فرضت الصلاة ، جاء جبريل إلى النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، وأخذ بيده ، ثم همز الأرض بقدمه ، فتفجر الماء ، فتوضأ ، وتوضا النبىّ معه . . ثم صلى به الصبح . . وفعل كذلك مع النبىّ عند صلاة الظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء . . وبيّن له أوقاتها ، وعدد ركعاتها . . وكما فعل جبريل مع النبىّ ، فعل النبىّ مع المؤمنين ، وصلّى بهم الصلوات المفروضة ، ثم قال : « صلّوا كما رأيتمونى أصلّى » .

يروى عن ابن عباس قال : « لما افترضت الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . أتاه جبريل ، فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظلّه مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ، ثم جاءه فصلى به الظهر من غده ، حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها فى الأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلاث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق . . ثم قال : « يا محمد ، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس » . .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : « سلونى ، فهابوا أن يسألوه ، فجاء رجل فجلس عند ركبته ، فقال :

« يا رسول اللّه : ما الإسلام ؟ قال : لا تشرك باللّه شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان » قال : صدقت ! قال : « يا رسول اللّه : ما الإيمان ؟

(76/793)

قال : أن تؤمن باللّه وملائكته وكتابه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ، وتؤمن بالقدر كله » قال صدقت ! قال يا رسول اللّه : « ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك ! . . قال صدقت ، ثم قام الرجل ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « ردّوه علىّ » فالتمس فلم يجدوه ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « هذا جبريل ، أراد أن تعلّموا إذ لم تسئلوا » ! ومن ذلك أيضا ، ما روى من أن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، دعا الناس ، فقال هلّموا إلىّ ، فأقبلوا إليه ، فقال : « هذا رسول رب العالمين ، جبريل ، نفث فى روعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، وإن أبطأ عليها ، فاتقوا اللّه ، وأجملوا فى الطلب » .

ولا يعترض على هذا بما كان من أول لقاء لجبريل مع النبىّ فى غار حراء ، وأنه جاءه ـ كما

يقال ـ فى صورة بشرية ، وأنه أقرأه قوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » ـ فكيف إذن يتفق هذا مع القول بأن الوحى القرآنىّ إنما كان ينزل به جبريل على النبي فى صورته الملكية ، دائما ، وفى جميع الأحوال ؟

وردّنا على هذا ، أن جبريل إذا كان فى أول لقاء له مع النبىّ ، قد جاء فى صورة بشرية ـ فإنه لم يلقه بالقرآن من أول الأمر ، وإنما الذي حدث ـ كما هو ثابت فى تاريخ القرآن ـ أن جبريل دعا النبي إلى أن يقرأ ، فقال له : « اقرأ » . .

هكذا قراءة مطلقة ، وأن النبي أجابه الجواب الذي تقتضيه داعية الحال ، فقال :

« ما أنا بقارئ » .

. وهكذا تردد الأمر بين جبريل والنبي ، ثلاث مرات ، فلما

كانت الرابعة غطّه جبريل غطّا شديدا ، كاد يفقد معه وعيه . . ثم قال له :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . . » الآيات .

فهذا هو القرآن الذي أوحى به جبريل إلى النبي ، وقد أوحاه إليه فى صورة خرج بها عن

حاله التي تمثل فيها له بشرا . . فإن هذه الغطة غيّرت الموقف تغيرا تاما ، فجمعت بين جبريل ، وبين النبي فى كيان ملكى بشرى . . فكان النبي بشرا يقترب من الملك ، وكان جبريل ملكا يقترب من البشر ! وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الوحى القرآنى ، كان دائما على تلك الصورة التي لا يتمثل فيها جبريل رجلا ، يخا ؟ ؟ ؟ ب النبىّ بلسان بشرىّ ، وإنما كان يأتيه مثل صلصلة الجرس . .

والذي نريد أن نصل إليه من حديثنا هذا ، هو أن القرآن الكريم ، كان يتلقاه النبي من الوحى على صورة خاصة ملازمة دائما ، وهى أن جبريل كان فيها لا يخرج عن صورته الملكية إلا بالقدر الذي يستطيع فيه أن يلتقى مع النبي وهو ساع إلى لقائه فى صورة ملائكية ، بشرية ، كما كان النبي يرتفع إلى أعلى أفق نحو الملائكية ، ولا ينسلخ انسلاخا كاملا من ثوب البشرية ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » (8 ـ 9 : النجم) على ما ذهبنا إليه فى تفسير هذه الآيات فى سورة النجم ، وعلى أن الضمير فيها عائد إلى جبريل عليه السلام .

وهذا يعنى أن جبريل عليه السلام ، كان فى تلك الحال التي ينزل فيها بالقرآن واقعا تحت تجلّى اللّه سبحانه وتعالى عليه بكلماته التي يوحيها إلى النبي .

فجبريل إذ يتصل بالنبي ، فى مقام تنزل آيات اللّه عليه ـ يكون فى حال أشبه بحال النبي . .

كلاهما يتلقى تجليات آيات اللّه عليه ، وإن كان جبريل هو الذي يتلقى صدمة الصعقة أولا ، حتى يخّف على النبي وقعها . . وهذا يعنى أن النبي -

(78/793)

صلوات اللّه وسلامه عليه - إنما يسمع كلام اللّه سبحانه وتعالى له ، من خلال جبريل ، أي أن جبريل عليه السلام يكون أشبه - مع المفارقة البعيدة فى صورتى التشبيه - بجهاز استقبال وإرسال معا . . يتلقى كلام اللّه سبحانه وتعالى ، فتنطبع عليه صورته ، ثم يذيعه كما انطبع عليه . .

ولهذا كان يسمع النبي - الوحى - فى تلك الحال - كصلصلة الجرس ، أي أنه يأتيه من جميع الجهات ، لأن المتكلم به هو اللّه سبحانه ، ولو كان جبريل هو المتكلم بالقرآن لسمع النبي كلامه من جهة واحدة ، كما كان يحدث فيما يوحى به جبريل من أحاديث قدسية ، أو أحاديث نبوية . . واللّه أعلم .

هذا ، وبعد أن فرغت من تقرير هذا الرأى ، اطلعت على رأى لعالم جليل من علماء سلفنا الصالحين ، هو الدباغ ، فى كتابه « الإبريز » الذي تلقاه عن ابن المبارك . . وفى هذا الرأى يذكر الدباغ فروقا دقيقة بين القرآن الكريم ، والحديث القدسي ، والحديث النبوي ، ومن

هذه الفروق تتبين الأحوال التي كان عليها النبي ، وهو يتحدث بالقرآن ، أو بالحديث القدسي ، أو الحديث النبوي .

وقد رأينا أن ننقل كلمات الدباغ « 1 » ، لأنها تلقى أضواء كاشفة على موضوعنا هذا ، الذي قررنا فيه أسلوب الوحى القرآنى ، وكيف كان يوحى به إلى النبي . .

سئل الدباغ عن الفرق بين القرآن ، والحديث القدسي ، والحديث النبوي . . فقال :

« الفرق بينها ، وإن كانت كلها خرجت من بين شفتيه صلى اللّه عليه وسلم ، وكلها معها أنوار من أنواره صلى اللّه عليه وسلم . أن النور الذي فى

---

(1) نقلا عن كتاب : « مع الفكر الإسلامى فى بعض قضاياه » . للعالم الرباني الأستاذ محمد شاهين حمزة

القرآن قديم ، من ذات الحق سبحانه ، لأن كلامه تعالى قديم . . والنور الذي فى الحديث القدسي من (روحه) صلى اللّه عليه وسلم ، وليس هو مثل نور القرآن ، فإن نور القرآن قديم ، ونور هذا . أي الحديث القدسي . ليس بقديم . .

والنور الذي فى الحديث الذي ليس بقدسى من (ذاته) صلى اللّه عليه وسلم . . فهى

أنوار ثلاثة ، اختلفت بالإضافة . . فنور القرآن من ذات الحق ، ونور الحديث القدسي من روحه صلى الله عليه وسلم ، ونور ما ليس بقدسى ، من ذاته صلى الله عليه وسلم . .

فلما سئل الدباغ : ما الفرق بين نور الروح ، ونور الذات ؟ أجاب :

الذات خلقت من تراب ، ومن التراب خلق سائر العباد ، والروح من الملأ الأعلى ، وهم - أي الملأ الأعلى - أعرف الخلق بالحق سبحانه . . وكل واحد - أي من الذات والروح - يحنّ إلى أصله ، فكان نور الروح متعلقا بالحق سبحانه ، ونور الذات متعلقا بالخلق ، فلذا ترى الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه ، بتبيين عظمته أو إظهار رحمته ، أو بالتنبيه على سعة ملكه ، وكثرة عطائه ، فمن الأول ، حديث : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . . »

ومن الثاني ، حديث : « أعددت لعبادى الصالحين . . » ومن الثالث حديث :

« يد الله ملأى . . . » وهذه من علوم الروح فى الحق سبحانه . . أما الأحاديث التي ليست بقدسية ، فتتكلم على ما يصلح البلاد والعباد ، بذكر الحلال والحرام ، والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد . .

ثم يمضى الدباغ فى حديثه عن الفرق بين القرآن والحديث القدسي ، والحديث النبوي يقول :

إن الأنوار من الحق سبحانه ، تهبّ على ذات النبي صلى اللّه عليه وسلم ، حتى تحصل له مشاهدة خاصة ، وإن كان دائما فى المشاهدة . .

(80/793)

فإن سمع من الأنوار كلام اللّه سبحانه ، ونزل عليه ملك ، فذلك هو القرآن . .

وإن لم يسمع كلاما ، ولا نزل عليه ملك ، فذلك وقت الحديث القدسىّ ، فيتكلم عليه الصلاة والسلام ، ولا يتكلم حينئذ إلا فى شأن الربوبية بتعظيمها ، وذكر حقوقها . .

وأما الحديث الذي ليس بقدسى ، فإنه يخرج من النور الساكن فى ذاته عليه السلام ، الذي لا يغيب عنه أبدا ، وذلك أنه عز وجل أمدّ ذاته عليه السلام بأنوار الحق ، كما أمد جرم الشمس بالأنوار المحسوسة . . فالنور لازم الذات النبوية الشريفة ، لزوم نور الشمس لها .

ثم يزيد الدباغ الأمر وضوحا فيقول :

« إذا تكلم النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وكان الكلام بغير اختياره فهو القرآن . . وإن كان باختياره ، فإن سطعت حينئذ أنوار عارضة ، فهو الحديث القدسي ، وإن كانت الأنوار الدائمة ، فهو الحديث الذي ليس بقدسى ، ولأن كلامه صلى اللّه عليه وسلم لا بد أن يكون معه أنوار الحق سبحانه ، كان جميع ما يتكلم به وحيا يوحى . . وباختلاف أحوال الأنوار

افترق إلى الأقسام الثلاثة » .

وهذه الأنوار القدسية التي يشير إليها « الدباغ » والتي يستمد منها النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - القرآن والحكمة - هى أنوار النبوة المفاضة عليه من ربه ، فكان صلوات اللّه وسلامه عليه نورا من نور الحق ، كما كانت كلماته من كلمات اللّه سبحانه . . وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله :

« يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

(81/793)

وَسِراجاً مُنِيراً »

(45 - 46 : الأحزاب) . . فهو - صلوات اللّه وسلامه عليه سراج منير ، وهو نور هذا السراج كما يشير إليه قوله تعالى : « قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ » (15 : المائد) قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ » . .

هو تطمين للنبى - صلى اللّه عليه وسلم - بأنه لن يفوته شىء مما تجلّى عليه من آيات اللّه ، وما قذف اللّه سبحانه وتعالى فى قلبه من معانيها ، التي كان يريد النبي أن ينطق بها ، ويصورها كما وقعت له . . فليقف النبىّ إذن عند حدود الألفاظ التي يلقيها عليه جبريل ، وإن

كانت هذه الألفاظ لا تكشف كل ما وقع فى قلبه من معنى ، فإنه ما زال الوحى يتنزل ، وما زالت آيات اللّه تجىء بتفصيل ما أجمل من أحكام ، وأحداث ، وقصص . . ولعل هذا هو السر فى العطف بالحرف « ثمّ » التي تفيد التراخي ، حيث إن البيان إنما تمّ فى زمن متباعد ، ينتظم فترة الوحى كلها ، من مبدأ أول آية نزلت إلى أن تم نزول القرآن كله .

فمثلا قصة موسى مع فرعون . . جاءت أولا فى كلمات معدودة ، وفى صورة مصغرة جدا ، مثل قوله تعالى : « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ » (10 ـ 13 : الفجر) .

ومثل قوله سبحانه : « هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى فَكَذَّبَ وَعَصى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى فَحَشَرَ فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى » (15 ـ 25 : النازعات)

(82/793)

ففى هذا العرض الموجز لقصة موسى ، كان النبي يرى فى كلمات اللّه تلك ، ـ بما قذف اللّه سبحانه وتعالى فى قلبه من أنوار الحق ـ كان يرى القصة كاملة ، تتحرك على مسرح الحياة ،

بأحداثها ، وأشخاصها ، وأمكنتها . . ثم كان يحاول فى أول الوحى أن يمسك بالصورة كاملة ، كما وقعت له ، فجاء الأمر الرباني :

«لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . . إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ »

قوله تعالى : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » هو بيان للطبيعة البشرية التي يغلب عليها حب العاجل من الأمور ، والتطلع إلى الثمرة قبل الغرس . . وترى هذه الطبيعة واضحة فى موقف آدم من الشجرة التي نهاه اللّه سبحانه وتعالى عن الأكل منها ، مع إطلاق يديه جميعا للأكل من كل فواكه الجنة . . ولكنه زهد فى هذه الفواكه كلها ، ومدّ يده إلى تلك الفاكهة المحرمة ، فأكل منها ، وعصى أمر ربه ، وتعرض لما يتعرض له العصاة ، من اللوم والعقاب . .

ولم تكن هذه الشجرة ، بأكرم أشجار الجنة ، ولا أطيبها فاكهة ، ولكنه حبّ الاستطلاع ، والرغبة فى الحصول على كل شىء فى اليوم الحاضر ، دون نظر إلى الغد . .

وحب العاجل كما يكون فى المذموم ، يكون فى المحمود . . كالسبق إلى الخير ، والمبادرة بالأعمال الصالحة . . فهذا من مطالب النفوس الطيبة ، ومن شهواتها ، إن صح هذا التعبير . . إنها تشتهى الخير ، والإحسان ، وتستكثر منه فى يومها ، كما تستكثر النفوس الخبيثة من الخبيث فى حاضرها ، غير مبقية

شيئا لغدها ، كما يقول سبحانه عن أصحاب هذه النفوس التي استنفدت كل جهدها فى الحياة الدنيا : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » (20 : الأحقاف)

والمخاطبون بقوله تعالى : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » هم المشركون ، والكافرون ، وأصحاب الضلالات ، الذين كفروا بالحياة الآخرة وأخلوا مشاعرهم من التعلق بها ، والإعداد لها . .

وقد حسنت مواجهة المنكرين للبعث ، الذين يؤثرون العاجلة ، ويذرون الآخرة . حسنت مواجهتهم فى هذا المقام ، الذي يكشف عن أنفسهم ، وهم فى مواجهة الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ، وحبه لعاجل الأمور فى مقام تفصيل الخير ، والاستزادة من العلم . .

فهذا مقام ، وذاك مقام ، وإن اشتركا معا فى أن حبّ العاجلة قسمة بينهما . .

وفى هذه المفارقة البعيدة ، يرى المشركون مدى استغراقهم فى الضلال ، وأنهم إنما ينهون عن الاستزادة من المنكر ، والضلال ، على حين ينهى غيرهم عن الاستزادة من الخير والإحسان ، حتى لا يشق على نفسه ، ولا يكلفها فوق ما تطبق . . فالرسول يدعو إلى

شريعة قائمة على السماحة ورفع الحرج ، وإنه لأولى عباد اللّه بالأخذ لنفسه من سماحتها ويسرها . .

قوله تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ » .

هو عرض لأحوال الذين يؤمنون بالآخرة ، ويعملون لها . .

فها هى ذى الآخرة ، وهذه هى أحوال أهلها ، وما يقع للناس فيها . .

(84/793)

فالناس هناك فريقان : مؤمنون ، وكافرون . .

والمنازل هناك منزلان : الجنة . . والنار فالمؤمنون منزلهم الجنة ، والكافرون مأواهم النار . .

وفى عرض أصحاب الجنة يومئذ بما يكشف عن وجوههم وحدها ، هو عرض لحالهم جميعها ، ظاهرها ، وباطنها ، حيث تبدو على الوجه أحوال الإنسان ، وما يكون عليه من نعيم أو شقاء ، ومن طمأنينة أو جزع . .

ونضارة الوجوه ، تحدّث عن النعمة التي يعيش فيها أصحابها ، وعن الخصب والخير الذي يحفّ بهم ، حتى لقد فاضت الوجوه نضارة وبشرا ، وحتى لكأنها الزهر المتفتح على

أنسام الربيع فى روض أريض .

وقوله تعالى : « إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ » أكثر المفسرون من المقولات التي تقال فى تأويل الوجوه الناظرة إلى ربها ، وهل فى الإمكان رؤية اللّه ؟ إن الرؤية معناها تحديد المرئىّ وتجسيده ، واللّه سبحانه منزه عن التحديد والتجسيد . . فكيف يمكن رؤيته ؟

وهذه قضية استنفدت كثيرا من جهد العلماء ، من المتكلمين وأهل السنة ، ولو أنصف هؤلاء وهؤلاء عقولهم ، لأمسكوا بها عن الخوض فى لجج هذا البحر الذي لا ساحل له ، فإن عقولنا تلك ، إنما خلقت لهذا العالم الأرضى ، ولكشف ما فيه من حقائق ، أما عالم الآخرة ، فعقولنا بمعزل عنه ، فكيف بذات اللّه سبحانه وتعالى ؟ وكيف بعقولنا المحدودة القاصرة يراد لها أن تحتوى هذا الجلال الذي لا حدود له ، والذي وسع كرسيه السموات والأرض ؟

ولهذا ، فإن خير ما يحمل عليه قوله تعالى : « إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ » هو ما ذهب إليه السلف من أن المراد بالنظر إلى اللّه ، هو النظر إلى رحمة اللّه ،

(85/793)

والطمع فى رضوانه ، والتعلق بالرجاء فيه ، فى ذلك اليوم الذي ينقطع فيه كل رجاء إلا منه جلّ وعلا . . وهذا النظر إلى رحمة اللّه ، لا يختلف عن معنى الرغبة إلى اللّه ، والرجوع إليه ، كما يقول سبحانه : « إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ » (32 : القلم) وكما يقول جل شأنه : « وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ » (156 : البقرة) أما النظر فى وجه اللّه سبحانه وتعالى فى الآخرة ، وأما إمكانه وكيفيته ، فذلك - إن صحت الأخبار المروية عنه - مما نؤمن به غيبا ، ولا نبحث عنه صورة وكيفا ! ! قوله تعالى : « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ . . » وهو عطف حال على حال ، ومقام على مقام . . فهناك وجوه ناضرة إلى ربها ناظرة ، تقابلها فى الجانب الآخر ، وجوه باسرة ، أي كالحة مغبرّة ، تتوقع أن يفعل بها الفواقر ، وهى الدواهي والمهلكات . .

والوجوه الناضرة ، الطامعة فى رحمة ربها ، هى وجوه المؤمنين ، والوجوه الكالحة المتوقعة الهلاك ، هى وجوه المشركين ، والضالين . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن جـ 15 صـ 1319 . 1339 ﴾

(86/793)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) ﴾

هذه الآية وقعت هنا معترضة .

وسبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس أنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يُحرك به لسانه يُريد أن يحفَظَه مخافةَ أن يتفَلَّتَ منه ، أو من شدة رغبته في حِفْظه فكان يلاقي من ذلك شدة فأَنزَل الله تعالى : ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسانك لتَعْجَل به إنَّ علينا جمعَه وقرآنه ﴾ .

قال : جَمْعَه في صدرك ثم تَقْرَأُه فإذا قرأناه فاتّبعْ قُرْآنه قال فاستَمِعْ له وأَنْصِتْ ، ثم إن علينا أن نبيّنه بلسانك ، أي أن تقرأه" أ هـ .

فلما نزل هذا الوحي في أثناء نزول السورة للغرض الذي نزل فيه ولم يَكن سورةً مستقلة كان ملحقاً بالسورة وواقعاً بين الآي التي نَزَل بينها .

فضمير ﴿ به ﴾ عائد على القرآن كما هو المعروف في آيات كثيرة .

وقوله : ﴿ فإذا قرأناه ﴾ ، أي إذا قَرأه جبريل عنا ، فأُسْنِدَتْ القراءةُ إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي ، والقرينة واضحة .

ومعنى ﴿ فاتَّبع قرآنه ﴾ ، أي أَنْصِتْ إلى قِرَاءتِنَا .

فضمير ﴿ قَرأناه ﴾ راجع إلى ما رجع إليه ضمير الغائب في ﴿ لا تُحرك به ﴾ وهو

القرآن بالمعنى الأسمي ، فيكون وقوع هذه الآية في هذه السورة مثل وقوع ﴿ ومَا نتنزّل إلاّ بأمر ربك ﴾ في سورة مريم (64) ، ووقوع ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاةِ الوسطى في أثناء أحكام الزوجات ﴾ في سورة البقرة (238) .

قالوا : نزلت هذه الآية في أثناء سورة القيامة : هذا ما لا خلاف فيه بين أهل الحديث وأيمة التفسير .

(87/793)

وذكر الفخر عن القفال أنه قال : إن قوله : لا تُحرك به لسانك ﴾ ليس خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو خطاب مع الإِنسان المذكور في قوله : ﴿ ينبَّأ الإِنسان ﴾ [القيامة : 13] فكان ذلك للإِنسان حا لَما يُنَبَّأُ بقبائح أفعاله فيقال له : اقرأ كتابك ، فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه فيقال له : لا تحرك به لسانك لتعجل به فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك وأن نقرأها عليك فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإِقرار ، ثمّ إن علينا بيان مراتب عقوبته ، قال القفال : فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به أ هـ .

وأقول : إن كان العقل لا يدفعه فإن الأسلوب العربي ومعاني الألفاظ تنبو عنه .

والذي يلوح لي في موقع هذه الآية هنا دون أن تقع فيما سبق نزوله من السور قبل هذه السورة : أن سور القرآن حين كانت قليلة كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يخشى تفلّت بعض الآيات عنه فلما كثرت السور فبلغت زهاء ثلاثين حسب ما عَده سعيد بن جبير في ترتيب نزول السور ، صار النبي صلى الله عليه وسلم يخشى أن ينسى بعض آياتها ، فلعله صلى الله عليه وسلم أخذ يحرك لسانه بألفاظ القرآن عند نزوله احتياطاً لحفظه وذلك من حرصه على تبليغ ما أنزل إليه بنصه ، فلما تكفل الله بحفظه أمره أن لا يكلف نفسه تحريك لسانه ، فالنهي عن تحريك لسانه نهي رحمة وشفقة لمَا كان يلاقيه في ذلك من الشدة .

و(قرآن) في الموضعين مصدر بمعنى القراءة مثل الغُفران والفُرقان ، قال حسان في رثاء عثمان بن عفان:

يقَطِّع الليلَ تسبيحاً وقُرآنا . . .

ولفظ ﴿ علينا ﴾ في الموضعين للتكفل والتعهّد .

و﴿ ثم ﴾ في ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ للتراخي في الرتبة ، أي التفاوتِ بين رتبة الجملة المعطوف عليها وهي قولُه ﴿ إنَّ علينا جَمْعه وقرآنه ﴾ ، وبين رتبة الجملة المعطوفة وهي ﴿ إِن علينا بيانه ﴾ .

ومعنى الجملتين : أن علينا جمع الوحي وأن تقرأه وفوق ذلك أن تبينه للناس بلسانك ، أي نتكفل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك ، أي عن ظهر قلبك لا بكتابة تقرأها بل أن يكون محفوظاً في الصدور بيّناً لكل سامع لا يتوقف على مراجعة ولا على إحضار مصحف من قُرب أو بُعد .

فالبيان هنا بيان ألفاظه وليس بيان معانيه لأن بيان معانيه ملازم لورود ألفاظه .

وقد احتج بهذه الآية بعض علمائنا الذين يرون جواز تأخير البيان عن المبيّن متمسكين بأن ﴿ ثم ﴾ للتراخي وهو متمسَّك ضعيف لأن التراخي الذي أفادته ﴿ ثم ﴾ إنما هو تراخ في الرتبة لا في الزمن ، ولأن ﴿ ثم ﴾ قد عَطفت مجموع الجملة ولم تعطف لفظ ﴿ بيانه ﴾ خاصة ، فلو أريد الاحتجاج بالآية للزم أن يكون تأخير البيان حقاً لا يخلو عنه البيان وذلك غير صحيح .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21)

رجوع إلى مَهيع الكلام الذي بنيت عليه السورة كما يرجِع المتكلم إلى وَصل كلامه بعد أن قطعه عارض أو سائل ، فكلمة ﴿ كلاّ ﴾ ردع وإبطال .

يجوز أن يكون إبطالاً لما سبق من قوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه إلى قوله : ولو ألقى معاذيره ﴾ [القيامة : 3 15] ، فأعيد ﴿ كَلاّ ﴾ تأكيداً لنظيره ووصلاً

للكلام بإعادة آخر كلمة منه .

والمعنى : أن مَزَاعِمَهُم باطلة .

وقوله : ﴿ بل تحبون العاجلة ﴾ إضراب إبطالي يُفصِّل ما أجمله الردع بـ ﴿ كلّا ﴾ من إبطال ما قبلها وتكذيبِه ، أي لا معاذير لهم في نفس الأمر ولكنهم أحبوا العاجلة ، أي شهوات الدنيا وتركوا الآخرة ، والكلام مشعر بالتوبيخ ومناط التوبيخ هو حب العاجلة مع نبذ الآخرة (فأما لو أحب أحد العاجلة وراعى الآخرة ، أي جرى على الأمر والنهي الشرعيين لم يكن مذموماً .

قال تعالى فيما حكاه عن الذين أوتوا العلم من قوم قارون ﴿ وابتغِ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : 77] .

(89/793)

ويجوز أن يكون إبطالاً لما تضمنه قوله : ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ [القيامة : 15] فهو استئناف ابتدائي .

والمعنى : أن معاذيرهم باطلة ولكنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة ، أي آثروا شهواتهم العاجلة ولم يحسبوا للآخرة حساباً .

وقرأ الجمهور ﴿ تحبون ﴾ و ﴿ تذرون ﴾ بتاء فوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في موعظة المشركين مُواجَهة بالتفريع لأن ذلك أبلغ فيه .

وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بياء تحتية على نسق ضمائر الغيبة السابقة ، والضمير عائد إلى ﴿ الإنسان ﴾ في قوله : ﴿ بل الإِنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة : 14] جاء ضمير جمع لأن الإِنسان مراد به الناس المشركون ، وفي قوله : ﴿ بل تحبون ﴾ ما يرشد إلى تحقيق معنى الكسب الذي وُفق إلى بيانه الشيخ أبو الحسن الأشعري وهو الميل والمحبة للفعل أو الترك .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)

المراد بـ ﴿ يومئذٍ ﴾ يوم القيامة الذي تكرر ذكره بمثل هذا ابتداءً من قوله : ﴿ يقول الإِنسان يومئذٍ أين المفر ﴾ [القيامة : 10] ، وأعيد مرتين .

والجملة المقدرة المضاف إليها (إذْ) ، والمعوَّضُ عنها التنوين تقديرها : يوم إذ بَرَق البصر .

وقد حصل من هذا تخلص إلى إجمال حال الناس يوم القيامة بين أهل سعادة وأهل شقاوة .

فالوجوه الناضرة وجوه أهل السعادة والوجوه الباسرة وجوه أهل الشقاء ، وذلك بين من كلتا الجملتين .

وقد علم الناس المعنيَّ بالفريقين مما سبق نزوله من القرآن كقوله في سورة عبس (40 42) : ﴿ وَوُجوه يومئذٍ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ فعُلم أن أصل

أسباب السعادة الإِيمان بالله وحده وتصديق رسُوله والإِيمان بما جاء به الرسول ، وأن أصل أسباب الشقاء الإشراك بالله وتكذيب الرسول ونبذ ما جاء به .

(90/793)

وقد تضمن صدر هذه السورة ما ينبىء بذلك كقوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] وقوله : ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ [القيامة : 5] .

وتنكير ﴿ وجوه ﴾ للتنويع والتقسيم كقوله تعالى : ﴿ فريقٌ في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : 7] وقول الشاعر وهو من أبيات "كتاب الآداب" ولم يعزُه ولا عَزَاهُ صاحبُ "العُباب" في شرحه:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا . . .

ويومٌ نُساء ويوم نُسَر

وقول أبي الطيب:

فيوماً بخيل تَطْرُد الروم عنهم . . .

وَيْومٌ بِجُود تَطرد الفَقر والجَدْبا

فالوجوه الناضرة الموصوفةُ بالنضْرة (بفتح النون وسكون الضاد) وهي حسن الوجه من

أثر النعمة والفرح ، وفعله كنصَر وكرُم وفرِح ، ولذلك يقال : ناضر ونَضير ونَضِر ، وكُني بنضرة الوجوه عن فرح أصحابها ونعيمهم ، قال تعالى في أهل السعادة ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين : 24] لأن ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره .

وأخبر عنها خبراً ثانياً بقوله : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ وظاهر لفظ ﴿ ناظرة ﴾ أنه من نظَر بمعنى : عايَن ببصره إعلاناً بتشريف تلك الوجوه أنها تنظر إلى جانب الله تعالى نظراً خاصاً لا يشاركها فيه من يكون دون رتبهم ، فهذا معنى الآية بإجماله ثابت بظاهر القرآن وقد أيدتها الأخبار الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة "أن أناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هَل تُضَارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ قلنا : لا ، قال : فإنكم لا تُضَارُّون في رؤية ربكم يومئذٍ إلاّ كما تضارون في رؤيتهما " .

وفي رواية "فإنكم ترونه كذلك" وساق الحديث في الشفاعة .

(91/793)

وروى البخاري عن جرير بن عبد الله قال : "كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُون في رؤيته" وربما قال : "سترون ربكم عياناً" .

وروى مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تعالى : تُريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : أَلم تبيّض وجوهنا ألم تُدْخِلْنا الجنة وتنجّنا من النار ، قال : فيَكْشِف الحجابَ فما يُعطَوْن شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم "

فدلالة الآية على أن المؤمنين يرون بأبصارهم رؤية متعلقة بذات الله على الإجمال دلالة ظنية لاحتِمَالها تأويلات تأوّلَها المعتزلةُ بأن المقصود رؤية جلاله وبهجة قدسه التي لا تخوّل رؤيتها لغير أهل السعادة .

ويلحق هذا بمتشابه الصفات وإن كان مقتضاه ليس إثبات صفة ، ولكنه يؤول إلى الصفة ويستلزمها لأنه آيل إلى اقتضاء جهة للذات ، ومقدارٍ يُحَاطُ بجميعه أو ببعضِه ، إذا كانت الرؤية بصرية ، فلا جرم أن يُعد الوعد برؤية أهل الجنة ربَّهم تعالى من قبيل المتشابه .

(92/793)

ولعلماء الإِسلام في ذلك أفهام مختلفة ، فأما صدر الأمة وسلفها فإنهم جَروا على طريقتهم التي تخلقوا بها من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من الإِيمان بما ورد من هذا القبيل على إِجماله ، وصرف أنظارهم عن التعمّق في تشخيص حقيقته وإدراجه تحت أحد أقسام الحكم العقلي ، فقد سمعوا هذا ونظائره كلَّها أو بعضَها أو قليلاً منها ، فيما شغلوا أنفسهم به ولا طلبوا تفصيله ، ولكنهم انصرفوا إلى ما هو أحق بالعناية وهو التهمّم بإقامة الشريعة وبثّها وتقرير سلطانها ، مع الجزم بتنزيه الله تعالى عن اللوازم العارضة لظواهر تلك الصفات ، جاعلين إِمامهم المرجوع إليه في كل هذا قولَه تعالى : ﴿ ليسَ كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] ، أو ما يقارب هذا من دلائل التنزيه الخاصة بالتنزيه عن بعض ما ورد الوصف به مثل قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] بالنسبة إلى مقامنا هذا ، مع اتفاقهم على أنّ عدم العلم بتفصيل ذلك لا يقدح في عقيدة الإِيمان ، فلما نبعَ في علماء الإِسلام تطلّب معرفة حقائق الأشياء وألْجأهُم البحثُ العلمي إلى التعمق في معاني القرآن ودقائق عباراته وخصوصيات بلاغته ، لم يروا طريقة السلف مقنعة لأَفهام أهل العلم من الخَلف لأن طريقتهم في العلم طريقةُ تمحيص وهي اللائقة بعصرهم ، وقارِن ذلك ما حدث في فرق الأمة الإِسلامية من النِحل الاعتقادية ، وإلقاء شبه الملاحدة من المنتمين إلى الإسلام وغيرهم ، وحَدَا بهم ذلك إلى الغوص والتعمق لإِقامة المعارف على أعمدة لا تقبل التزلزل ، ولدفع شبه المتشككين ورد مطاعن الملحدين ، فسلكوا مسالك الجمع بين المتعارضات من أقوال

ومعان وإقرارِ كلِّ حقيقة في نصابها ، وذلك بالتأويل الذي يقتضيه المقتضي ويعضده الدليل .

(93/793)

فسلكت جماعات مسالك التأويل الإِجمالي بأن يعتقدوا تلك المتشابهات على إجمالها ويوقنوا التنزيه عن ظواهرها ولكنهم لا يفصّلون صَرفها عن ظواهرها بل يُجملون التأويل ، وهذه الطائفة تُدعى السلفية لقرب طريقتها من طريقة السلف في المتشابهات ، وهذه الجماعات متفاوتة في مقدار تأصيل أصولها تفاوتاً جعلها فرقاً : فمنهم الحنابلة ، والظاهرية ، الخوارج الأقدمون غير الذين التزموا طريقة المعتزلة .

ومنهم أهل السنة الذين كانوا قبل الأشعري مثل المالكية وأهل الحديث الذين تمسكوا بظواهر ما جاءت به الأخبار الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم مع التقييد بأنها مؤوَّلة عن ظواهرها بوجه الإِجمال .

وقد غلا قوم من الآخذين بالظاهر مثل الكَرامية والمشبهة فألحقوا بالصنف الأول .

ومنهم فِرق النُّظَّارين في التوفيق بين قواعد العلوم العقلية وبين ما جاءت به أقوال الكتاب والسنة وهؤلاء هم المعتزلة ، والأشاعرة ، والماتريدية .

فأقوالهم في رؤية أهل الجنة ربَّهم ناسجة على هذا المنوال:

فالسلف أثبتوها دون بحث ، والمعتزلة نفوها وتأولوا الأدلة بنحو المجاز والاشتراك ، وتقدير محذوف لمعارضتها الأصول القطعية عندهم فرجحوا ما رأوْه قطعياً وأَلْغَوْها .

والأشاعرة أثبتوها وراموا الاستدلال لها بأدلة تفيد القطع وتبطل قول المعتزلة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك المبلغ المطلوب .

وما جاء به كل فريق من حجاج لم يكن سالماً من اتجاه نقوض ومُنُوع ومعارضات ، وكذلك ما أثاره كل فريق على مخالفيه من معارضات لم يكن خالصاً من اتجاه مُنُوع مجردة أو مع المستندات ، فطال الْأخذ والرد .

ولم يحصل طائل ولا انتهى إلى حد .

ويحسن أن نفوض كيفيتها إلى علم الله تعالى كغيرها من المتشابه الراجع إلى شؤون الخالق تعالى .

وهذا معنى قول سلفنا : إنها رؤية بلا كيف وهي كلمة حق جامعة ، وإن اشمأزّ منها المعتزلة .

(94/793)

هذا ما يتعلق بدلالة الآية على رؤية أهل الجنة ربهم ، وأمّا ما يتعلق بأصل جواز رؤية الله تعالى فقد مضى القول فيها عند قوله تعالى : ﴿ قال لن تراني ﴾ في سورة الأعراف (143) .

وتقديم المجرور من قوله : إلى ربها ﴾ على عامله للاهتمام بهذا العطاء العجيب وليس للاختصاص لأنهم ليرون بهجات كثيرة في الجنة .

وبين ﴿ ناضرة ﴾ و ﴿ ناظرة ﴾ جناس محرف قريب من التامّ .

وسوغ الابتداء بالنكرة في قوله : ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناضرة ﴾ أنها أُرِيدَ بها التفصيل والتقسيم لمقابلِته بقوله : ﴿ ووجوهٌ يومئذٍ باسرة ﴾ ، على حد قول الشاعر :

فيوم علينا ويومٌ لنا . . .

ويومٌ نُساء ويوم نسر

وأما الوجوه الباسرة فنوع ثان من وجوه الناس يومئذٍ هي وجوه أهل الشقاء .

وأعيد لفظ ﴿ يومئذٍ ﴾ تأكيداً للاهتمام بالتذكير بذلك اليوم .

و ﴿ باسرة ﴾ : كالحة مِن تيقن العذاب ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ثم عبس وبسر ﴾ في سورة المدثر (22) .

فجملة تَظُنّ أن يُفْعَل بها فاقرة ﴾ استئناف بياني لبيان سبب بسورها .

و ﴿ فاقرة ﴾ : داهية عظيمة ، وهو نائب فاعل ﴿ يُفعل بها ﴾ ولم يقترن الفعل بعلامة

التأنيث لأن مرفوعهُ ليس مؤنثاً حقيقياً ، مع وقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه ، وكلا الأمرين يسوغ ترك علامة التأنيث .

وإفراد ﴿ فاقرة ﴾ إفراد الجنس ، أي نوعاً عظيماً من الداهية .

والمعنى : أنهم أيقنوا بأن سيلاقوا دواهي لا يُكتنه كنهها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(95/793)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [22-23]

قال : من قتله حبه فديته رؤيته .

ثم قال : جزاء الأعمال الجنة ، وجزاء التوحيد النظر إلى الحق عزَّ وجلَّ .

وحكي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : سيروا للبلاء وتجهزوا للفناء واستعدوا للقاء .

وكانت رابعة رضي الله عنها تقول : إلهي ، إني أحب الدنيا لأذكرك فيها ، وأحب الآخرة

لأراك فيها .

إلهي ، كل ساعة تمر علي لا يكون لساني فيها رطباً بذكرك فهي مشؤومة .

إلهي ، لا تجمع عليّ أمرين ، فإني لا أطيقهما ، الإحراق بالنار والفراق منك . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 182 ﴾

(96/793)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر محبتهم للعاجلة بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار ، فاقتضى ذلك أنه حب غيره منفك التجدد أصلاً ، أخبر أنه ينقطع عن هول المطلع مع الدلالة على تمام القدرة ، وأنه لا يرد قضاؤه ، فقال رادعاً لمن يظن عدم انقطاعه : ﴿ كلا ﴾ أي لا يدوم هذا الحب بل لا

بد أن ينقطع انقطاعاً قبيحاً جداً .

ولما كان المحب للدنيا هو النفس ، أضمرها لذلك ولدلالة الكلام عليها فقال ذاكراً ظرف ما أفهم حرف الردع تقديره من عدم المحبة : ﴿ إذا بلغت ﴾ أي النفس المقبلة على العاجلة بأمر محقق - بما أفهمته أداة التحقق ﴿ التراقي ﴾ أي عظام أعالي الصدر ، جمع ترقوة وهي العظام التي حول الحلقوم عن يمين ثغرة النحر وشمالها بين الثغرة وبين العاتق ، ولكل إنسان ترقوتان ، وهو موضع الحشرجة ، لعله جمع المثنى إشارة إلى شدة انتشارها بغاية الجهد لما هي فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصي البدن إلى هناك وضيق المجال عليها كأنها تريد أن تخرج من أدنى موضع يقرب منها ، وهذا كناية عن الإشفاء على الموت وما أحسن قول حاتم الطائي وأشد التئامه مع ما هنا من أمر الروح :

أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى . . .

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

ولما كان أهل الميت يشتد انزعاجهم إذ ذاك ويشتد تطلبهم لما ينجي المحتضر من غير أن يفيدهم ذلك شيئاً ، فكان قولهم كأنه لا قائل له على التعيين ، بني للمفعول قوله :

﴿ وقيل ﴾ أي من كل قائل يعز عليه الميت استفهام استبعاد : ﴿ من راق ﴾ أي من هو الذي يتصف برسوخ القدم في أمر الرقى الشافية ليرقيه فيخلصه مما هو فيه فإنه صار إلى حالة لا يحتمل فيها دواء فلا رجاء إلا في الرقى ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن

هذا القول من بعض الملائكة للاستفهام عمن يرقى بروحه إلى السماء : أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ فالأول اسم فاعل من رقى يرقى بمعنى الرقية بالفتح في الماضي والكسر في المضارع ، والثاني الذي بمعنى الصعود بالكسر في الماضي والكسر في المضارع .

(97/793)

ولما كان الإنسان مطبوعاً على الترجح بين الأمور الممكنة تتعلق لما يغلب عليه من طبع الإلف وشدة الركون لما يألفه بأدنى شيء ، عبر عما هو أهل للتحقق بالظن فقال : ﴿ وظن ﴾ أي المحتضر لما لاح له من أمور الآخرة أو القائل " هل من راق " من أهله ﴿ أنه ﴾ أي الشأن العظيم الذي هو فيه ﴿ الفراق ﴾ أي لما كان فيه من محبوب العاجلة الذي هو الفراق الأعظم الذي لا فراق مثله ، ففي الخبر أن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وأن مفاصله ليسلم بعضها على بعض يقول : السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة : ﴿ والتفت الساق ﴾ أي هذا النوع ﴿ بالساق ﴾ أي انضمت إليها واتصلت بها ودارت إحداهما بالأخرى فكانتا كالشيء الواحد ، وهو كناية عن الموت لأن المشي لا يكون إلا مع انفصال إحدى الساقين عن الأخرى ، أو عن اشتداد الأمر جداً وبعده عن الخلاص ، فإن العرب لا تذكر الساق في مثل هذا السياق إلا في أمر شديد مثل " شمر عن

ساق " وإذا اشتد حراب المتحاربين : " دنت السوق بعضها من بعض " فلا افتراق إلى عن موت أحدهما أو أشد من موته من هزيمته ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه كناية عن اختلاط شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ، وجواب إذا محذوف تقديره : زال تعلقه الذي كان بالدنيا وحبه لها وإعراضه عن الآخرة .

(98/793)

ولما صور وقت تأسفه على الدنيا وإعراضه عنها ، ذكر غاية ذلك فقال مفرداً النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب إشارة إلى أنه لا يفهم هذا حق فهمه غيره : ﴿ إلى ربك ﴾ أي موعد وحكم المحسن إليك بإرسالك وتصديقك في جميع ما بلغته عنه ونصرك على كل من ناواك ، لا إلى غيره ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ وقع هذا الأمر ﴿ المساق ﴾ أي السوق وموضع السوق وزمانه ، كل ذلك داخل في حكمه ، قد انقطعت عنه أحكام أهل الدنيا ، فإما أن تسوقه الملائكة إلى سعادة بينة وإما إلى شقاوة بينة ، أو هو كناية عن عرضه بعد الموت على الله تعالى فلا ينفعه إذا حقق له الوعظ بالموت قوله : أموت فأستريح ، فإنه يرجع بالموت إلى سيده ، فإن كان مطيعاً لقيه بما يرضيه ، وإن كان عاصياً لقيه بما يلقى به العبد الآبق على قدر إباقه .

ولما ذكر كراهته للآخرة ذكر أن سببه إفساده ما آتاه الله من قوى العلم والعمل بتعطيلهما عن الخير واستعمالهما في الشر فقال مبيناً عمل العبد الموافق والآبق ، عاطفاً على ﴿ يسأل أيان ﴾ [القيامة : 6] الذي معناه جحد البعث : ﴿ فلا صدق ﴾ - أي هذا الإنسان الذي الكلام فيه - الرسول فيما أخبره بما كان يعمل من الأعمال الخبيثة ، ولا إيمانه بالإنفاق في وجوه الخير التي ندب إليها واجبة كانت أو مسنونة ، وحذف المفعول لأنه أبلغ في التعميم . ولما ذكر أصل الدين ، أتبعه فروعه دلالة على أن الكافر مخاطب بها فقال : ﴿ ولا صلّى ﴾ أي ما أمر به من فرض وغيره ، فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل إلى حبل الخلائق على حد ما شرع ما .

(99/793)

ولما نفى عنه أفعال الخير ، أثبت له أفعال الشر فقال : ﴿ ولكن ﴾ أي فعل ضد التصديق بأن ﴿ كذب ﴾ أي بما أتاه من الله ﴿ وتولى ﴾ أي وفعل ضد الصلاة التي هي صلة بين المخلوق والخالق ، فاجتهد في خلاف ما تدعوه إليه فطرته الأولى المستقيمة من الإعراض عن الطاعة من الصلاة وغيرها حتى صار له ذلك ديدناً ، فصارت الطاعة لا تخطر له بعد ذلك على بال لموت الفطرة الأولى وحياة النفس الأمارة بالسوء ، وليس هذا بتكرار لأنه لا

يلزم من عدم التصديق التكذيب .

ولما كان الإصرار على هذا عظيماً يبعد كل البعد أن يعمله أحد فكيف بالافتخار به والتكبر لأجله ، أشار إليه بأداة البعد ، فقال مؤذناً بأن الحال على التكذيب الكبر ، والحامل على الكبر الترف ، وسبب ذلك الانقياد أولاً مع الطبع في إفساد القوتين : العملية والعلمية حتى نشأ عنهما هذا الخلق السيىء ، وهو عدم المبالاة ، ولم يزل به ذلك حتى صار ملكة يفتخر به ﴿ ثم ذهب ﴾ أي هذا الإنسان بعد توليه عن الحق ﴿ إلى أهله ﴾ غير مفكر في عاقبة ما فعل من التكذيب حال كونه ﴿ يتمطّى ﴾ أي يفتخر افتخاراً بتكذيبه وإعراضه وعدم مبالاته بذلك ، من المط ، أبدل الحرف الثاني ألفاً تخفيفاً فصار من المطي وهو الظهر كأنه يساعده على مد الخطى ، أو أن المتبختر إذا مشى لوى ظهره ، وإنما فعل هذا لمرونه على المعصية بدل الاستحياء والخجل والانكسار .

(100/793)

ولما كان هذا غاية الفجور ، وكان أهل الإنسان يحبونه إذا أقبل إليهم لا سيما إذا كان على هذه الحالة عند أغلب الناس ، أخبر بما هو حقيق أن يقال له في موضع " تحية أهله " من التهديد العظيم فقال : ﴿ أولى لك ﴾ أي أولاك الله ما تكره ، ودخلت اللام للتأكيد الزائد

والتخصيص ، وزاد التأكيد بقوله : ﴿ فأولى ﴾ أي ابتلاك الله بداهية عقب داهية ، وأبلغ ذلك التأكيد إشارة إلى أنه يستحقه على مدى الأعصار ، فقال مشيراً بأداة التراخي إلى عظيم ما ارتكب وقوة استحقاقه لهذا التأكيد : ﴿ ثم أولى لك ﴾ أي أيها الذي قد أحل نفسه بالغفلة دون محل البهائم ﴿ فأولى ﴾ أي وصلت إلى هذا الهلاك بداهية تعقبها تارة متوالياً وتارة متراخياً ، وبعضها أعظم من بعض ، لحقك ذلك لا محالة ، فإن هذا دعاء ممن بيده الأمر كله ، ويجوز أن يكون المعنى : أولى لك أن تترك ما أنت عليه وتقبل على ما ينفعك ، وقال ابن جرير في تفسير المدثر : إن أبا جهل لما استهزأ على جعل خزنة النار تسعة عشر أوحى الله إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيه فيأخذ بيده في بطحاء مكة فيقول له : أولى لك – إلى آخرها ، فلما قال ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو جهل : والله لا تفعل أنت وربك شيئاً ، فأخزاه الله يوم بدر – انتهى .

ويمكن تنزيل الكلمات الأربع على حالاته الأربع : الحياة ثم الموت ثم البعث ثم دخول النار ، فيكون المعنى : لك المكروه الآن وفي الموت والبعث ودخول النار .

قال البغوي : وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " إن لكل أمة فرعوناً ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل " وقد أفهمت الآية أن من أصلح قوتي علمه وعمله بأن صدق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأقبل وأقام الصلاة فتبعتها جميع الأعمال التي هي عمادها ، فنشأ عن ذلك خلق حسن وهو الوجل مع الطاعة ، فهنالك يقال له : بشرى لك

فبشرى ثم بشرى لك فبشرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 253 .

256 ﴾

(101/793)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ قال الزجاج : كلا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل : لما عرفتم صفة سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة ، وعلمتم أنه لا نسبة لها إلى الدنيا ، فارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين ، وقال آخرون : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي حقاً إذا بلغت التراقي كان كذا وكذا ، والمقصود أنه لما بين تعظيم أحوال الآخرة بين أن الدنيا لا بد فيها من الانتهاء والنفاد والوصول إلى تجرع مرارة الموت .

وقال مقاتل : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لا يؤمن الكافر بما ذكر من أمر القيامة ، ولكنه لا يمكنه أن يدفع أنه لا بد من الموت ، ومن تجرع آلامها ، وتحمل آفاتها .

ثم إنه تعالى وصف تلك الحالة التي تفارق الروح فيها الجسد فقال : ﴿ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المراد إذا بلغت النفس أو الروح ، أخبر عما لم يجر له ذكر لعلم المخاطب بذلك ، كقوله : [القدر : 1] والتراقي جمع ترقوة .

وهي عظم وصل بين ثغرة النحر ، والعاتق من الجانبين .

واعلم أنه يكنى ببلوغ النفس التراقي عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد بن الصمة :

ورب عظيمة دافعت عنها . . وقد بلغت نفوسهم التراقي

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] .

المسألة الثالثة :

قال بعض الطاعنين : إن النفس إنما تصل إلى التراقي بعد مفارقتها عن القلب ومتى فارقت النفس القلب حصل الموت لا محالة ، والآية تدل على أن عند بلوغها التراقي ، تبقى الحياة حتى يقال فيه : من راق ، وحتى تلتف الساق بالساق والجواب : المراد من قوله : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ أي إذا حصل القرب من تلك الحالة .

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(102/793)

في راق وجهان الأول : أن يكون من الرقية يقال : رقاه يرقيه رقية إذا عوذه بما يشفيه ، كما يقال : بسم الله أرقيك ، وقائل هذا القول على هذا الوجه ، هم الذين يكونون حول الإنسان المشرف على الموت ، ثم هذا الاستفهام ، يحتمل أن يكون بمعنى الطلب كأنهم طلبوا له طبيباً يشفيه ، وراقياً يرقيه ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، كما يقول القائل عند اليأس : من الذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت الوجه الثاني : أن يكون قوله : ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ من رقى يرقي رقياً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ [الإسراء : 93] وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة .

قال ابن عباس : إن الملائكة يكرهون القرب من الكافر ، فيقول ملك الموت من يرقى بهذا الكافر ، وقال الكلبي : يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة ، وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت ، فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض ، أيهم يرقى بروحه إلى السماء فهو ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

قال الواحدي إن إظهار النون عند حروف الفم لحسن ، فلا يجوز إظهار نون من في قوله : ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ وروى حفص عن عاصم إظهار النون في قوله : ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ و ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ [المطففين : 14] قال أبو علي الفارسي ، ولا أعرف وجه ذلك ، قال الواحدي ، والوجه أن يقال : قصد الوقف على من وبل ، فأظهرها ثم ابتدأ بما بعدهما ، وهذا غير مرضي من القراءة .

وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28)

قال المفسرون : المراد أنه أيقن بمفارقته الدنيا ، ولعله إنما سمي اليقين ههنا بالظن ، لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقاً ببدنه ، فإنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ [القيامة : 20] ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة ، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم .

(103/793)

واعلم أن الآية دالة على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن ، لأنه تعالى سمى الموت فراقاً ، والفرق إنما يكون لو كانت الروح باقية ، فإن الفراق والوصال صفة ، والصفة تستدعي وجود الموصوف .

وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29)

الالتفاف هو الاجتماع ، كقوله تعالى : ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : 104] وفي الساق قولان : القول الأول : أنه الأمر الشديد ، قال أهل المعاني : لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه ، فقيل للأمر الشديد : ساق ، وتقول العرب : قامت الحرب على ساق ، أي اشتدت ، قال الجعدي :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها . . وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ثم قال : والمراد بقوله : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي التفت شدة مفارقة الدنيا ولذاتها وشدة الذهاب ، أو التفت شدة ترك الأهل ، وترك الولد ، وترك المال ، وترك الجاه ، وشدة شماتة الأعداء ، وغم الأولياء ، وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة ، كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على الله ، أو التفت شدة ترك الأحباب والأولياء ، وشدة الذهاب إلى دار الغربة والقول الثاني : أن المراد من الساق هذا العضو المخصوص ، ثم ذكروا على هذا القول وجوهاً أحدها : قال الشعبي وقتادة : هما ساقاه عند الموت أما رأيته في النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى والثاني : قال الحسن وسعيد بن المسيب : هما ساقاه

إذا التفتا في الكفن والثالث : أنه إذا مات يبست ساقاه ، والتصقت إحداهما بالأخرى .

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)

المساق مصدر من ساق يسوق ، كالمقال من قال يقول ، ثم فيه وجهان أحدهما : أن يكون المراد أن المسوق إليه هو الرب والثاني : أن يكون المراد أن السائق في ذلك اليوم هو الرب ، أي سوق هؤلاء مفوض إليه .

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه .

(104/793)

أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين ، ولكنه كذب به ، وأما ما يتعلق بفروع الدين ، فهو أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض ، وأما ما يتعلق بدنياه ، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ، ويتبختر ، ويختال في مشيته ، واعلم أن الآية دالة على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة كما يستحقهما بترك الإيمان .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ حكاية عمن ؟ فيه قولان : الأول : أنه كناية عن الإنسان في قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : 3] ألا ترى إلى قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : 36] وهو معطوف على قوله : ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ [القيامة : 6] والقول الثاني : أن الآية نزلت في أبي جهل .

المسألة الثالثة :

في يتمطى قولان : أحدهما : أن أصله يتمطط أي يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه ، فقلبت الطاء فيه ياء ، كما قيل : في تقصى أصله تقصص والثاني : من المطا وهو الظهر لأنه يلويه ، وفي الحديث : " إذا مشت أمتي المطيطي " أي مشية المتبختر .

المسألة الرابعة :

قال أهل العربية : ﴿ لا ﴾ ههنا في موضع لم فقوله : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ أي لم يصدق ولم يصل ، وهو كقوله : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ [البلد : 11] أي لم يقتحم ، وكذلك ما روي في الحديث : " أرأيت من لا أكل ولا شرب ، ولا استهل " قال الكسائي : لم

أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها حتى تتبعها بأخرى ، إما مصرحاً أو مقدراً ، أما المصرح فلا يقولون : لا عبد الله خارج حتى يقولون ، ولا فلان ، ولا يقولون : مررت برجل لا يحسن حتى يقولوا ، ولا يجمل ، وأما المقدر فهو كقوله : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ ثم اعترض الكلام ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ [البلد : 12 ، 14] وكان التقدير لا فك رقبة ، ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة ، ومنهم من قال التقدير في قوله : ﴿ فَلاَ اقتحم ﴾ أي أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم .

أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35)

قال قتادة والكلبي ومقاتل : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبي جهل .

(106/793)

ثم قال : ﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ توعده ، فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني ؟ لا تستطع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، وإني لأعز أهل هذا الوادي ، ثم انسل ذاهباً ، فأنزل الله تعالى كما قال له الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى قوله : ﴿ أولى لَكَ ﴾ بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه ، بأن يليه ما يكرهه ، قال القاضي : المعنى بعد ذلك ، فبعداً (لك) في أمر دنياك ، وبعداً لك ، في أمر أخراك ، وقال آخرون : المعنى الويل لك مرة بعد ذلك ، وقال

القفال : هذا يحتمل وجوهاً أحدها : أنه وعيد مبتدأ من الله للكافرين والثاني : أنه شيء قاله النبي صلى الله عليه وسلم لعدوه فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك والثالث : أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه ، بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ [القيامة : 33] فقل له : يا محمد : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ أي احذر ، فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 203 . 206 ﴾

(107/793)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) ﴾

الضمير في ﴿ به ﴾ عائد على كتاب الله تعالى ولم يجر له ذكر ، ولكن القرائن تبينه ، فهذا كقوله تعالى : ﴿ توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] ، وكقوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾ يعني النفس ، واختلف المتأولون في السبب الموجب أن يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ، فقال الشعبي : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرصه على أداء الرسالة والاجتهاد في ذات الله تعالى ربما أراد النطق ببعض ما أوحي إليه قبل

كمال إيراد الوحي ، فأمر أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يفضى إليه وحيه . وجاءت هذه الآية في هذا المعنى . وقال الضحاك . كان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق ، فنزلت الآية في ذلك ، وقال كثير من المفسرين وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه ، فنزلت الآية بسبب ذلك وأعمله الله تعالى أنه يجمعه له في صدره ، ﴿ وقرآنه ﴾ يحتمل أن يريد به وقراءته أي تقرأه أنت يا محمد ، والقرآن مصدر كالقراءة ومنه قول الشاعر [حسان بن ثابت] في عثمان رضي الله عنه وأرضاه : [البسيط]

ضحوا بأشمط عنوان السجود به . . . يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

ويحتمل أن يريد ﴿ إن علينا جمعه ﴾ وتأليفه في صدر صدرك فهو مصدر من قولك قرأت أي جمعت ، ومنه قولهم في المرأة التي لم تلد ما قرأت سلا قط ، ومنه قول الشاعر [عمرو بن كلثوم] : [الوافر]

ذراعي عيطل أدماء بكر . . . هجان اللون لم تقرأ جنينا

(108/793)

وقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ أي قراءة الملك الرسول عنا . وقوله تعالى : ﴿ فاتبع ﴾ يحتمل أن يريد بذهنك وفكرك ، أي فاستمع قراءته وقاله ابن عباس ، ويحتمل أن يريد ﴿ فاتبع ﴾ في الأوامر والنواهي ، قاله ابن عباس أيضاً وقتادة والضحاك وقرأ أبو العالية : " قرته " ، " فإذا قَرَته فاتبع قَرَته " بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثالثة ، وقوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ، قال قتادة وجماعة معه : معناه أن نبينه لك ونحفظكه ، وقال كثير من المتأولين معناه أن تبينه أنت ، وقال قتادة أيضاً وغيره معناه أن نبين حلاله وحرامه ومجمله ومفسره ، وقوله تعالى : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾ رجوع إلى مخاطبة قريش ، فرد عليهم وعلى أقوالهم في رد الشريعة بقوله : ﴿ كلا ﴾ ليس ذلك كما تقولون . وإنما أنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها ، فأنتم تحبونها حباً تتركون معه الآخرة والنظر في امرها .

(109/793)

وقرأ الجمهور " تحبون " بالتاء على المخاطبة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن ومجاهد والجحدري وقتادة " يحبون " بالياء على ذكر الغائب وكذلك " يذرون " ولما ذكر الآخرة أخبر بشيء من حال أهلها بقوله : ﴿ وجوه ﴾ رفع بالابتداء وابتداء بالنكرة لأنها

تخصصت بقوله ﴿ يومئذ ﴾ و﴿ ناضرة ﴾ خبر ﴿ وجوه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر ، وقال بعض النحويين : ﴿ ناضرة ﴾ نعت ل ﴿ وجوه ﴾ ، و﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ خبر عن ﴿ وجوه ﴾ ، فعلى هذا كثر تخصص الوجوه فحسن الابتداء بها . و﴿ ناضرة ﴾ معناه ناعمة ، والنضرة النعمة وجمال البشرة ، قال الحسن : وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق ، وقوله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ حمل هذه الآية أهل السنة على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالى ، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد كما هو معلوم ، موجود لا يشبه الموجودات كذلك هو لا يشبه المرئيات في شيء ، فإنه ليس كمثله شيء لا إله إلا هو ، وروى عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " حدثتكم عن الدجال أنه إعور وأن ربكم ليس بأعور وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته " ، وقال الحسن : تنظرون إلى الله تعالى بلا إحاطة ، وأما المعتزلة الذين ينفون رؤية الله تعالى ، فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى إلى رحمة ربها ناظرة أو إلى ثوابه أو ملكه ، فقدروا مضافاً محذوفاً ، وهذا وجه سائغ في العربية كما تقول ، فلان ناظر إليك في كذا ، أي إلى صنعك في كذا ، والرواية إنما تثبتها بأدلة قاطعة غير هذه الآية ، فإذا ثبتت حسن تأويل أهل السنة في هذه الآية وقوي ،

وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله ﴿ إلى ﴾ ليست بحرف الجر وإنما هي إلى واحد الآلاء فكأنه قال نعمة ربها منتظرة ، أو ﴿ ناظرة ﴾ من النظر بالعين ، ويقال

(110/793)

نظرتك بمعنى انتظرتك ، ومنه قول الحطيئة : [البسيط]

وقد نظرتكم أبناء عائشة . . . للخمس طال بها حبسي وتبساسي

(111/793)

والتبساس أن يقال للناقة بس بس لتدر على الحالب ، وفسر أبو عبيدة في غريبه هذا البيت على رواية أخرى وهي : طال بها حوزي وتنساسي بالنون وهو السير الشديد فتأمله ، و" الباسرة " العابسة المغمومة النفوس . والبسور أشد العبوس ، وإنما ذكر تعالى الوجوه لأنه فيها يظهر ما في النفس من سرور أو غم ، والمراد أصحاب الوجوه ، وقوله تعالى : ﴿ تظن أن يفعل ﴾ إن جعلناه بمعنى توقن فهو لم يقع بعد على ما بيناه وأن جعلنا الظن هنا على غلبته ، فذلك محتمل ، و" الفاقرة " : المصيبة التي تكسر فقار الإنسان ، قال ابن المسيب :

هي قاصمة الظهر ، وقال أبو عبيدة : هي من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار ، وقوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت ﴾ زجر آخر لقريش وتذكير لهم بموطن من مواطن الهول وأمر الله تعالى الذي لا محيد لبشر عنه وهي حالة الموت والمنازعة التي كتبها الله على كل حيوان ، و﴿ بلغت ﴾ يريد النفس ، و﴿ التراقي ﴾ ترقوة وهي عظام أعلى الصدر ، ولكل أحد ترقوتان ، لكن من حيث هذا الأمر في كثير من جمع ، إذ النفس المرادة اسم جنس ، و﴿ التراقي ﴾ هي موازية للحلاقيم ، فالأمر كله كناية عن حال الحشرجة ونزاع الموت ، يسره الله علينا بمة ، واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ من راق ﴾ فقال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو قلابة : معناه من يرقى ويطب ويشفى ونحو هذا مما يتمناه أهل المريض ، وقال ابن عباس أيضاً وسليمان التيمي ومقاتل وابن سليمان : هذا القول للملائكة : والمعنى من يرقى بروحه ، أي يصعد إلى السماء أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقرأ حفص عن عاصم بالوقف على ﴿ من ﴾ ويبتدىء ﴿ راق ﴾ وأدغم الجمهور ، قال أبو علي : لا أعرف وجه قراءة عاصم ، وكذلك قرأ " بل ران " وقوله تعالى : ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ يريد وتيقن المريض أنه فراق الأحبة والأهل والمال والحياة ، وهذا يقين فيما لم يقع بعد ولذلك استعملت فيه لفظة الظن ، وقرأ ابن عباس " أيقن أنه الفراق " ،

وقال في تفسيره ذهب الظن واختلف في معنى قوله ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ ، فقال ابن عباس والحسن والربيع بن أنس وإسماعيل بن أبي خالد هذه استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها لأنه بين الحالين قد أختلطا له ، وهذا كما تقول شمرت الحرب عن ساق ، وعلى بعض التأويلات في قوله تعالى :

﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ [القلم : 42] وقال ابن المسيب والحسن : هي حقيقة ، والمراد ساق الميت عند تكفينه أي لفهما الكفن ، وقال الشعبي وأبو مالك وقتادة : هو التفافهما بشدة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذا على هذا ، وقال الضحاك : المراد أسوق حاضريه من الإنس والملائكة لأن هؤلاء يجهزون روحه إلى السماء وهؤلاء بدنه إلى قبره ، وقوله تعالى : ﴿ إلى ربك ﴾ معناه إلى حكم ربك وعدله ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، و﴿ المساق ﴾ مصدر من السوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(113/793)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقي ﴾

"كَلاَّ" رَدْع وزَجْر ؛ أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ؛ ثم استأنف فقال : ﴿ إِذَا بَلَغَتِ التراقي ﴾ أي بلغت النفس أو الروح التراقي ؛ فأخبر عما لم يجر له ذكر ، لعلم المخاطب به ؛ كقوله تعالى : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] وقد تقدّم .

وقيل : "كَلاَّ" معناه حقاً ؛ أي حقًّا أن المساق إلى الله "إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ" أي إذا ارتقت النفس إلى التراقي .

وكان ابن عباس يقول : إذا بلغت نفس الكافر التراقي .

والتراقي جمع تَرْقُوة وهي العظام المكتنفة لنُقْرة النَّحر ، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر ، موضع الحَشْرجة ؛ قال دُرَيْد بن الصِّمّة .

ورُبَّ عَظِيمةٍ دافَعْتَ عَنْهُمْ . . .

وقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِي

وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي ، والمقصود تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ اختلف فيه ؛ فقيل : هو من الرقية ؛ عن ابن عباس

وعِكرمة وغيرهما .

روى سِمَاك عن عِكرمة قال : مَن راقٍ يَرْقِي : أي يَشْفِي .

وروى ميمون بن مِهران عن ابن عباس : أي هل من طبيب يَشْفِيه ؛ وقاله أبو قِلابة وقتادة ؛

وقال الشاعر :

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ . . .

أَمْ هَلْ لَه مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِ

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس ؛ أي من يقدر أن يَرْقِيَ من الموت .

وعن ابن عباس أيضاً وأبي الجوزاء أنه من رَقِيَ يَرْقَى : إذا صَعِدَ ، والمعنى : من يَرقَى بروحه إلى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل : إن مَلَك الموت يقول مَن راقٍ ؟ أي من يَرْقَى بهذه النفس ؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ، فيقول ملَكَ الموت : يا فلان اصعد بها .

(114/793)

وأظهر عاصم وقوم النون في قوله تعالى : ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ واللام في قوله : "بَلْ رَانَ" لئلا يشبه مَرَّاق وهو بائع المَرْقة ، وبَرَّان في تثنية البرّ .

والصحيح ترك الإظهار ، وكسرة القاف في ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ وفتحة النون في "بَلْ رَانَ" تكفي في زوالِ اللبس .

وأمثل مما ذُكِر : قصد الوقف على "مَنْ" و"بَلْ" ، فأظهرهما ؛ قاله القشيريّ .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ ﴾ أي أيقن الإنسان ﴿ أَنَّهُ الفراق ﴾ أي فراق الدنيا والأهل والمال والولد ، وذلك حين عاين الملائكة .

وقال الشاعر :

فرَاقٌ ليس يُشبهُهُ فِرَاقُ . . .

قد انقطع الرجاءُ عن التَّلاَقِ

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي فاتصلت الشدّة بالشدّة ؛ شدّة آخر الدنيا بشدة أوّل الآخرة ؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما .

وقال الشعبي وغيره : المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدّة الكرب .

وقال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى .

وقال سعيد بن المسيِّب والحسن أيضاً : هما ساقا الإنسان إذا التفّتا في الكفن .

وقال زيد بن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت .

وقال الحسن أيضاً : ماتت رجلاه ويبست ساقاه فلم تحملاه ، ولقد كان عليهما جوّالاً .

قال النحاس : القول الأوّل أحسنها .

وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : آخرَ يوم من الدنيا وأوّل يوم من الآخرة ، فتلتقي الشدّة بالشدّة إلا من رحمه الله ؛ أي شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع ؛ والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ إلى ربِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾

وقال مجاهد : ببلاء ببلاء .

يقول : تتابعت عليه الشدائد .

وقال الضحاك وابن زيد : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يُجهِّزون جسده ، والملائكة يُجهِّزون رُوحه ، والعرب لا تذكر الساق إلا في المِحن والشدائد العظام ؛ ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق .

قال الشاعر :

وقامِت الحربُ بنا على ساق . . .

(115/793)

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة ﴿ ن والقلم ﴾ .

وقال قوم : الكافر تُعَذِّب روحه عند خروج نفسه ، فهذه الساق الأولى ، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده : ﴿ إلى ربِّكَ ﴾ أي إلى خالقك ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿

المساق ﴾ أي المرجع .

وفي بعض التفاسير قال : يسوقه مَلَكه الذي كان يحفظ عليه السيئات .

والمَسَاق : المصدر من ساق يسوق ، كالمقال من قال يقول .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾

أي لم يصدّق أبو جهل ولم يصلّ .

وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان في أوّل السورة ، وهو اسم جنس .

والأوّل قول ابن عباس .

أي لم يصدّق بالرسالة "وَلاَ صَلَّى" ودعا لربّه ، وصلَّى على رسوله .

وقال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ، ولا صلَّى لله .

وقيل : ولا صدّق بمال له ، ذخراً له عند الله ، ولا صلَّى الصلوات التي أمره الله بها .

وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .

قال الكسائي : "لاَ" بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره ؛ تقول العرب : لا عبدُ الله خارج ولا فلان ، ولا تقول : مررت برجل لا مُحْسِن حتى يقال ولا مُجْمِل ، وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ [البلد : 11] ليس من هذا القبيل ؛ لأن معناه أفلا اقتحم ؛ أي فهلا اقتحم ، فحذف ألف الاستفهام .

وقال الأخفش : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ أي لم يصدّق ؛ كقوله : ﴿ فَلاَ اقتحم ﴾ أي لم يقتحم ،

ولم يشترط أن يُعْقِبه بشيء آخر ، والعرب تقول : لا ذهب ، أي لم يذهب ، فحرف النفي ينفي الماضي كما ينفي المستقبل ؛ ومنه قول زهير :

فَلاَ هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدّمِ . . .

قوله تعالى : ﴿ ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ أي كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ أي يتبختر ، افتخارا بذلك ؛ قاله مجاهد وغيره .

مجاهد : المراد به أبو جهل .

وقيل : "يَتَمَطَّى" من المَطَا وهو الظَّهْر ، والمعنى يَلْوِي مَطَاه .

(116/793)

وقيل : أصله يتمطط ، وهو التمدّد من التكسّل والتثاقل ، فهو يتثاقل عن الداعي إلى الحق ؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف ، والتمطي يدل على قلة الاكتراث ، وهو التمدّد ، كأنه يمدّ ظهره ويلويه من التبختر .

والمَطِيطة الماء الخاثر في أسفل الحوض ؛ لأنه يتمطى أي يتمدّد ؛ وفي الخبر : " إذا مشت أمّتي المُطَيْطَاءَ وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم " والمُطَيْطاء : التبختر ومدّ اليدين في المشي .

قوله تعالى : ﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ : تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ، أي فهو وعيد أربعة لأربعة ؛ كما روي أنها نزلت في أبي جهل الجاهِل بربّه فقال : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى * ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ أي لا صدّق رسول الله ، ولا وقف بين يديّ فصلّى ، ولكن كذّب رسولي ، وتولّى عن التصلية بين يديّ .

فتَرْك التصديق خَصْلة ، والتكذيب خَصْلة ، وترك الصلاة خَصْلة ، والتولي عن الله تعالى خَصْلة ؛ فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة .

والله أعلم .

لا يقال : فإن قوله ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ خَصْلَة خامسة ؛ فإنّا نقول : تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولّي ، فأخبر عنها .

وذلك بَيِّنٌ في قول قتادة على ما نذكره .

وقيل : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد ، مما يلي باب بني مخزوم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فهزّه مرّةً أو مرتين ثم قال : "أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى" فقال له أبو جهل : أتهددُني ؟ فوالله إني لأَعَزُّ أهل الوادي وأكرمه .

ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال لأبي جهل "

وهي كلمة وعيد .

قال الشاعر :

فَأَوْلَى ثم أَوْلَى ثم أَوْلَى . . .

وهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

(117/793)

قال قتادة : " أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر ، فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده فقال :

﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ .

فقال : ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً ، إني لأعزُّ مَنْ بين جبليها .

فلما كان يوم بَدْر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعْبَد اللَّهُ بعد هذا اليوم أبداً .

فضرب الله عنقه ، وقتله شر قِتْلة " وقيل : معناه : الويل لك ؛ ومنه قول الخنساء :

هَمَمْتُ بنفسيَ كُلَّ الهُمُومِ . . .

فَأَوْلَى لِنَفْسِيَ أَوْلَى لَهَا

سَأَحْمِلُ نفسي على آلةٍ . . .

فإِمَّا عليها وإِمَّا لَهَا

الآلة : الحالة ، والآلة : السرير أيضاً الذي يحمل عليه الميت ؛ وعلى هذا التأويل قيل : هو

من المقلوب ؛ كأنه قيل : أَوْيَل ، ثم أخر الحرف المعتل ، والمعنى : الويل لك حيًّا ، والويل لك ميتاً ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار ؛ وهذا التكرير كما قال :

لَكَ الْوَيْلاَتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي . . .

أي لك الويل ، ثم الويل ، ثم الويل ، وضعف هذا القول .

وقيل : معناه الذم لك أولى من تركه ، إلا أنه كثير في الكلام فحذف .

وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب .

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى : قال الأصمعي : "أَوْلَى" في كلام العرب معناه مُقَاربة الهلاك ، كأنه يقول : قد وَلِيتَ الهلاك ، قد دَانَيْتَ الهلاكَ ؛ وأصله من الوَلْي ، وهو القُرْب ؛ قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار ﴾ [التوبة : 123] أي يَقرُبُون منكم ؛ وأنشد الأصمعي :

وَأَوْلَى أن يكون له الولاَءُ . . .

أي قارب أن يكون له ؛ وأنشد أيضاً :

أَوْلَى لِمَنْ هاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْمَدَا . . .

أي قد دنا صاحبها من الكمد .

وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعيّ ويقول : ليس أحد يفسّر كتفسير الأصمعي .

النحاس : العرب تقول أولى لكَ : كِدتَ تَهلِك ثم أفْلَت ، وكان تقديره أَوْلَى لك وأولى بك الهلكة .

(118/793)

المهدويّ قال : ولا تكون أوْلَى (أَفْعَل منك) ، وتكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : الوعيد أولى له من غيره ؛ لأن أبا زيد قد حكى : أَوْلاَةُ الآن : إذا أوْعَدُوا .

فدخول علامة التأنيث دليل على أنه ليس كذلك .

و"لَكَ" خبر عن "أَوْلَى" .

ولم ينصرف "أَوْلَى" لأنه صار علماً للوعيد ، فصار كرجل اسمه أحمد .

وقيل : التكرير فيه على معنى ألزم لك على عملك السَّيىء الأوّل ، ثم على الثاني ، والثالث ، والرابع ، كما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(119/793)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إيثار العاجلة على الآخرة كأنه قيل ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا لما بين أيديكم من الموت الذي تنقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة من العلاقة ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي النفس أو الورح الدال على سياق الكلام كما في قول حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى . . .

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

ونحو قول العرب أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يقولون أرسلت السماء نعم قد يصرح فيما هنا بالفاعل فيقال بلغت النفس ﴿ التراقى ﴾ أي أعالي الصدر وهي العظام المكتنفة ثغرة النحر عن يمين وشمال جمع ترقوة وأنشدوا لدريد بن الصمة .

ورب عظيمة رافعت عنهم . . .

وقد بلغت نفوسهم التراقي

(120/793)

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي قال من حضر صاحبها من يرقيه وينجيه مما هو فيه من الرقية وهي ما يستشفي به الملسوع والمريض من الكلام المعد لذلك ومنه آيات الشفاء ولعله أريد

به مطلق الطبيب أعم من أن يطب بالقول أو بالفعل وروي عن ابن عباس والضحاك وأبو قلابة وقتادة ما هو ظاهر فيه والاستفهام عند بعض حقيقي وقيل هو استفهام استبعاد وانكار أي قد بلغ مبلغاً لا أحد يرقيه كما يقال عند اليأس من ذا الذي يقدر أن يرقي هذا المشرف على الموت وروي ذلك عن عكرمة وابن زيد وقيل هو من كلام ملائكة الموت أي أيكم يرقي بروحه أملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب من الرقي وهو العروج وروي هذا عن ابن عباس أيضاً وسليمان التيمي والاستفهام عليه حقيقي وتعقب بأن اعتبار ملائكة الرحمة يناسب قوله تعالى بعد ﴿ فلا صدق ﴾ [القيامة : 31] الخ ودفع بأن الضمير للإنسان والمراد به الجنس والاقتصار بعد ذلك على أحوال بعض الفريقين لا ينافي العموم فيما قيل ووقف حفص رواية عن عاصم على من وابتدا راق وادغم الجمهور قال أبو علي لا أدري ما وجه قراءته وكذلك قرأ ﴿ بل ران ﴾ [المطففين : 14] وقال بعضهم كأنه قصد أن لا يتوهم أنها كلمة واحدة فسكت سكتة لطيفة ليشعر انهما كلمتان والا فكان ينبغي أن يدغم في من راق فقد قال سيبويه ان النون تدغم في الراء وذلك نحو من راشد والادغام بغنة وبغير غنة ولم يذكر الإظهار ويمكن أن يقال لعل الاظهار رأي كوفي فعاصم شيخ حفص يذكر أنه كان عالماً بالنحو واما ﴿ بل ران ﴾ [المطففين : 14] فقد ذكر سيبويه في ذلك أيضاً ان اظهار اللام وادغامها مع الراء حسنان فلعل حفصاً لما أفرط في إظهار الاظهار فيه صار كالوقف القليل واستدل بقوله تعالى ﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ [

القيامة : 26] على أن النفس جسم لا جوهر مجرد إذ لا يتصف بالحركة والتحيز وأجاب بعض بأن هذه النفس المسند إليها بلوغ التراقي هي النفس الحيوانية لا الروح الأمرية وهي الجوهر المجرد دون

(121/793)

الحيوانية وآخر بأن المراد ببلوغها التراقي قرب انقطاع التعلق وهو مما يتصف به المجرد إذ لا يستدعي حركة ولا تحيزا ولا نحوهما مما يستحيل عليه وزعم أنه لا يمكن إرادة الحقيقة ولو كانت النفس جسماً ضرورة أن بلوغها التراقي لا يتحقق إلا بعد مفارقتها القلب وحينئذ يحصل الموت ولا يقال من راق كما هو ظاهر على الوجه الأول فيه ولا يتأتى أيضاً ما يذكر بعد على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى فيه والذي عليه جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إن النفس وهي الروح الامربة جسم لطيف جداً ألطف من الضوء عند القائل بجسميته والنفس الحيوانية مركب لها وهي سارية في البدن نحو سريان ماء الورد في الورد والنار في الفحم وسريان السيال الكهربائي عند القائل به في الأجسام والأدلة على جسميتها كثيرة وقد استوفاها الشيخ ابن القيم في كتاب "الروح" وأتي فيه بالعجب العجاب ثم الظاهر أن المراد ببلوغ التراقي مشارفة الموت وقرب خروج الروح من البدن سلمت الضرورة التي في كلام

ذلك الزاعم أم لم تسلم لقوله تعالى وقيل من راق .

وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28)

أي وظن الإنسان المحتضر أن ما نزل به الفراق من حبيبته الدنيا ونعيمها وقيل فراق الروح الجسد والظن هنا عند أبي حيان على بابه وأكثر المفسرين على تفسيره باليقني قال الإمام ولعله إنما سمي اليقين ههنا بالظن لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت بل الظن الغالب مع رجاء الحياة أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم .

وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29)

(122/793)

أي التفت ساقه بساقه والنوت عليها عند هلج الموت وقلبه كما روي عن الشعبي وقتادة وأبي مالك وقال الحسن وابن المسيب هما ساقا الميت عند ما لفا في الكفن وقيل المراد بالتفافهما انتهاء أمرهما وما يراد فيهما يعني موتهما وقيل يبسهما بالموت وعدم تحرك إحداهما عن الأخرى حتى كأنهما ملتفتان فهما أول ما يخرج الروح منه فتبردان قبل سائر الأعضاء وتيبسان فالساق بمعناهما الحقيقي وأل فيها عهدية أو عوض عن المضاف إليه

وقال ابن عباس والربيع ابن أنس واسمعيل بن أبي خالد وهو رواية عن الحسن أيضاً التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة واختلطنا ونحوه قول عطاء اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق وشدة القدوم على ربه جل شأنه لا يدري بماذا يقدم عليه فالساق عبارة عن الشدة وهو مثل في ذلك والتعريف للعهد وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك التفت أسوق حاضريه من الانس والملائكة هؤلاء يجهزون بدنه إلى القبر وهؤلاء يجهزون روحه إلى السماء فكأنهم للاختلاف في الذهاب والاياب والتردد في الأعمال قد التفت أسوقهم وهذا الالتفاف على حد اشتباك الاسنة .

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)

أي إلى الله تعالى وحكمه سوقه لا إلى غيره على أن المساق مصدر ميمي كالمقال وتقديم الخبر للحصر والكلام على تقدير مضاف هو حكم وقيل هو موعد والمراد به الجنة والنار وقيل ليس هناك مضاف مقدر على أن الرب جل شأنه هو السائق أي سوق هؤلاء مفوض إلى ربك لا إلى غيره والظاهر ما تقدم ثم ان كان هذا في شأن الفاجر أو فيما يعمه والبر يراد بالسوق السوق المناسب للمسوق وهذه الآية لعمري بشارة لمن حسن ظنه بربه وعلم أنه الرب الذي سقت رحمته على غضبه .

قالوا غدا نأتي ديار الحمى . . .

وينزل الركب بمغناهم

ففقلت لي ذنب فما حيلتي . . .

بأي وجه أتلقاهم

قالوا أليس العفو من شأنهم . . .

لا سيما عمن ترجاهم

(123/793)

ثم إن جواب إذ محذوف دل عليه ما ذكر أي كان ما كان أو انكشفت للمرء حقيقة الأمر أو وجد الإنسان ما عمله من خير أو شر .

﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ أي ما يجب تصديقه من الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي أنزل عليه ﴿ وَلاَ صلى ﴾ ما فرض عليه أي لم يصدق ولم يصل فلا داخلة على الماضي كما في قوله

: أن تغفر اللهم تغفر جما . . .

وأي عبد لك لا ألما

والضمير في الفعلين للإنسان المذكور في قوله تعالى أيحسب الإنسان والجملة عطف على قوله سبحانه ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ [القيامة : 6] على ما ذهب إليه الزمخشري

فالمعنى بناء على ما علمت من أن السؤال سؤال استهزاء واستبعاد استبعد البعث وأنكره فلم يأت بأصل الدين وهو التصديق بما يجب تصديقه به ولا بأهم فروعه وهو الصلاة ثم أكد ذلك بذكر ما يضاده بقوله تعالى :

﴿ ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ نفيا لتوهم السكوت أو الشك أي ومع ذلك أظهر الجحود والتولي عن الطاعة .

(124/793)

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ يتبختر افتخاراً بذلك ومن صدر عنه مثل ذلك ينبغي أن يخاف من حلول غضب الله تعالى خطاه فيمشي خائفاً متطامناً لا فرحاً متبخراً فثم للاسبعاد و﴿ يتمطى ﴾ من المط فإن المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط قلبت الطاء فيه حرف علة كراهة اجتماع الامثال كما قالوا تظنى من الظن وأصله تظنن أو من المطا وهو الظهر فإن المختبر يلوي مطاه تبختراً فيكون معتلاً بحسب الأصل وفي الحديث " إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم وسلط شرارهم على خيارهم " وجعل الطيبي هذه الجملة للتعجب على معنى يسأل أيان يوم القيامة وما استعد له إلا ما يوجب دماره وهلاكه ، وقال إن قوله تعالى : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ [

القيامة : 7] الخ جواب عن السؤال أقحم بين المعطوف عليه لشدة الاهتمام وان قوله سبحانه ﴿ لا تحرك ﴾ [القيامة : 16] الخ استطراد على ما سمعت وجعل صدق من التصديق هو المروى عن قتادة وقال قوم هو من التصدق أي فلا صدق ماله ولا زكاه قال أبو حيان وهذا الذي يظهر نفي عنه الزكاة والصلاة وأثبت له التكذيب كما في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المصلين وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ [المدثر : 43-46] وحمله على نفي التصديق يقتضي أن يكون ولكن كذب تكراراً ولزم أن يكون استدراكاً بعد ولا صلى لا بعد ﴿ فلا صدق ﴾ [القيامة : 31] لأنهما متوافقان وفيه نظر يعلم مما قررناه ثم أنه استبعد العطف على قوله تعالى يسأل الخ وذكر أن الآية نزلت في أبي جهل وكات تصرح به في قوله تعالى يتمطى فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم وكان يكثر منها ولو يبين حال العطف على هذا وأنت تعلم أن العطف لا يأبى حديث النزول في أبي جهل وقد قيل أن قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن لَنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : 3] نازل فيه

أيضاً والحكم على الجنس بأحكام لا يضر فيه تعين بعض أفراده في حكم منها نعم لا شك في بعد هذا العطف لفظاً لكن في بعده معنى مقال ولعل فيما بعد ما يقوى جانب العطف على ذاك .

﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ من الولي بمعنى القرب فهو للتفضيل في الأصل غلب في قرب الهلاك ودعاء السوء كأنه قيل هلاكاً أولى لك بمعنى أهلكك الله تعالى هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك وهذا كما غلب بعداً وسحقاً في الهلاك وفي "الصحاح" عن الأصمعي قاربه ما يهلكه أي نزل به وأنشد

فعادى بين هاديتين منها . . .

وأولى أن نزيد على الثلاث

أي قارب ثم قال قال ثعلب ولم يقل أحد في أولى أحسن مما قاله الأصمعي وعلى هذا أولى فعل مستتر فيه ضمير الهلاك بقرينة السياق واللام مزيدة على ما قيل وقيل هو فعل ماض دعائي من الولي أيضاً إلا أن الفاعل ضميره تعالى واللام مزيدة أي أولاك الله تعالى ما تكرهه أو غير مزيدة أي أدنى الله تعالى الهلاك لك وهو قريب مما ذكر عن الأصمعي وعن أبي علي أن أولى لك علم للويل مبني على زنة أفعل من لفظ الويل على القلب وأصله أويل وهو غير منصرف للعلمية والوزن فهو مبتدأ ولك خبره وفيه أن الويل غير منصرف فيه ومثل يوم أيوم مع أنه غير منقاس لا يفرد عن الموصوف البتة وأن القلب على خلاف الأصل لا يرتكب إلا

بدليل وإن علم الجنس شيء خارج عن القياس مشكل التعقل خاصة فيما نحن فيه وقيل اسم فعل مبني ومعناه وليك شر بعد شر واختار جمع أنه أفعل تفضيل بمعنى الأحسن والأحرى خبر لمبتدأ محذوف بقدر كما يليق بمقامه فالتقدير هنا النار أولى لك أي أنت أحق بها وأهل لها فأولى .

﴿ ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾

(126/793)

تكرير للتأكيد وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر والظاهر أن الجملة تذييل للدعاء لا محل لها من الإعراب وجوز أن تكون في موضع الحال بتقدير القول كأنه قيل ثم ذهب إلى أهله يتمطى مقولاً له أولى لك الخ ويؤيده ما أخرج النسائي والحاكم وصححه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن قول الله تعالى أولى لك فأولى أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه أم أمره الله تعالى به قال بل قال من قبل نفسه ثم أنزله الله تعالى واستدل بقوله سبحانه ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : 31] الخ على أن الكفار مخاطبون بالفروع فلا تغفل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 29 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) ﴾

ردع ثان على قول الإنسان ﴿ أَيَّانَ يوم القيامة ﴾ [القيامة : 6] ، مؤكِّد للردع الذي قبله في قوله : ﴿ كَلاَّ بل تحبّون العاجلة ﴾ [القيامة : 20] .

ومعناه زجر عن إحالة البعث فإنه واقع غير بعيد فكل أحد يشاهده حين الاحتضار للموت كما يؤذن به قوله : ﴿ إلى ربك يومئذٍ المَساق ﴾ أُتبع توصيف أشراط القيامة المباشرة لحلوله بتوصيف أشراط حلول التهيُّؤ الأول للقائه من مفارقة الحياة الأولى .

وعن المغيرة بن شعبة يقولون : القيامة القيامةُ ، وإنما قيامة أحدهم موته ، وعن علقمة أنه حضر جنازة فلما دفن قال : "أمَّا هذا فقد قامت قيامته" ، فحالة الاحْتضار هي آخر أحوال الحياة الدنيا يَعقبها مصير الروح إلى تصرف الله تعالى مباشرةً .

وهو ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل : ارتدعوا وتنبهوا على ما بَيْن أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة وتنتقلون إلى الآجلة ، فيكون ردعاً على محبة العاجلة وترك العناية في الآخرة ، فليس مؤكداً للردع الذي في قوله : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾ [

القيامة : 20] بل هو ردع على ما تضمنه ذلك الردع من إيثار العاجلة على الآخرة .

و﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ متعلق بالكون الذي يُقدر في الخبر وهو قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ .

والمعنى : المساق يكون إلى ربك إذا بلغت التراقي .

وجملة ﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ بيان للردع وتقريب لإِبطال الاستبعاد المحكي عن منكري البعث بقوله : ﴿ يسأل أيّان يوم القيامة ﴾ [القيامة : 6] .

و﴿ إذا ﴾ ظرف مضمن معنى الشرط ، وهو منتصب بجوابه أعني قوله : ﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ .

وتقديم ﴿ إلى ربك ﴾ على متعلقه وهو ﴿ المساق ﴾ للاهتمام به لأنه مناط الإِنكار منهم .

وضمير ﴿ بلغت ﴾ راجع إلى غير مذكور في الكلام ولكنه معلوم من فعل ﴿ بلغَتْ ﴾ ومن ذكر ﴿ التراقي ﴾ فإن فعل ﴿ بلغت التراقي ﴾ يدل أنها روح الإنسان .

(128/793)

والتقدير : إذا بلغت الروحُ أو النفس .

وهذا التقدير يدل عليه الفعل الذي أسند إلى الضمير بحسب عرف أهل اللسان ، ومثله

قول حاتم الطائي :

أمَاوِيَّ ما يغني الثَّراء عن الفتى

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بهَا الصدر . . .

أي إذا حشرجت النفس .

ومن هذا الباب قول العرب "أرْسَلَتْ" يريدون : أرسلت السماء المطر ، ويجوز أن يقدر في الآية ما يدل عليه الواقع .

والأنفاسُ : جمع نفَس ، بفتح الفاء ، وهو أنسب بالحقائق .

و﴿ التراقي ﴾ : جمع تَرْقُوة (بفتح الفوقية وسكون الراء وضم القاف وفتح الواو مخففة وهاء تأنيث) وهي ثُغرة النحر ، ولكل إنسان ترقوتان عن يمينه وعن شماله .

فالجمع هنا مستعمل في التثنية لقصد تخفيف اللفظ وقد أُمِن اللبس ، لأن في تثنية ترقوة شيئاً من الثقل لا يناسب أفصح كلام ، وهذا مِثل ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ في سورة [التحريم : 4] .

ومعنى بلغتْ التراقي ﴾ : أن الروح بلغت الحُنْجُرة حَيث تخرج الأنفاس الأخيرة فلا يسمع صوتها إلاّ في جهة الترقوة وهي آخر حالات الاحتضار ، ومثله قوله تعالى:

﴿ فلولا إذا بلغت الحُلقوم الآية ﴾ [الواقعة : 83] .

واللام في ﴿ التراقي ﴾ مثل اللام في المساق فيقال : هي عوض عن المضاف إليه ، أي

بلغت روحه تَرَاقِيَه ، أي الإِنسانِ .

ومعنى ﴿ وقيل مَنْ رَاقٍ ﴾ وقال قائل : من يَرْقِي هذا رُقْيَات لشفائه ؟ أي سأل أهلُ المريض عن وِجْدَانِ أحد يرقي ، وذلك عند توقع اشتداد المرض به والبحث عن عارف برقية المريض عادة عَربية ورد ذكرها في حديث السَرِيَّة الذين أَتَوْا على حيّ من أحياء العرب إذْ لُدغ سيد ذلك الحي فعَرض لهم رجل من أهل الحي ، فقال : هل فيكم مِن راق ؟ إن في الماء رجلاً لديغاً أو سليماً .

رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس في الرقيا بفاتحة الكتاب .

(129/793)

والرقيا بالقصر ، ويقال بهاء تأنيث : هي كلام خاص معتقَد نفعه يقوله قائل عند المريض واضعاً يده في وقت القراءة على موضع الوَجَع من المريض أو على رأس المريض ، أو يكتبه الكاتب في خرقة ، أو ورقة وتعلق على المريض ، وكانت من خصائص التطبب يزعمون أنها تشفي مِن صَرَعِ الجنون ومن ضُر السموم ومن الحُمَّى .

ويختص بمعرفتها ناس يزعمون أنهم يتلقونها من عارفين فلذلك سَمَّوا الراقي ونحوه عَرَّافاً ، قال رؤبة بن العجاج :

بَذَلْتُ لعَرَّاف اليَمامة حُكْمَهُ

وعَرَّافِ نجدٍ إنْ هُمَا شَفَيَانِي . . .

فما تركَا من عُوذَة يعرفانها

ولا رُقْيَةٍ بهَا رَقَيَاني . . .

وقال النابغة يذكر حالةَ من لدغته أفعى :

تناذرها الراقُون من سُوء سمعها

تُطلقه طَوْراً وطَوراً تُراجع . . .

وكانَ الراقي ينفث على المَرْقِيّ ويتفُل ، وأشار إليه الحريري في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله : "ثم إنه طَمَس المكتوب على غَفلة ، وتَفَلَ عليه مِائَةَ تَفْلَة" .

وأصل الرقية : ما ورثه العرب من طلب البركة بأهل الصلاح والدعاء إلى الله ، فأصلها وارد من الأديان السماوية ، ثم طرأ عليها سوء الوضع عند أهل الضلالة فألحقوها بالسحر أو بالطب ، ولذلك يخلطونها من أقوالٍ ربما كانت غير مفهومة ، ومن أشياءَ كأحجار أو أجزاء من عظم الحيوان أو شعره ، فاختلط أمرها في الأمم الجاهلة ، وقد جاء في الإِسلام الاستشفاء بالقرآن والدعوات المأثورة المتقبلة من أربابها وذلك من قبيل الدعاء .

والضمير المستتر في ﴿ ظَنَّ ﴾ عائد إلى الإِنسان في قوله : ﴿ بل يريد الإِنسان ﴾ [القيامة : 5] أي الإِنسان الفاجر .

والظن : العلم المقارب لليقين ، وضمير ﴿ أنه ﴾ ضمير شأن ، أي وأيقن أنه ، أي الأمر العظيم الفراقُ ، أي فراق الحياة .

(130/793)

وقوله : ﴿ والتفَّت الساقُ بالساق ﴾ إن حمل على ظاهره ، فالمعنى التفافُ ساقَي المحْتضر بعد موته إذ تُلَفُّ الأَكفان على ساقيْه ويُقرن بينهما في ثوب الكفن فكُلُّ ساق منهما ملتفة صحبةَ الساق الأخرى ، فالتعريف عوض عن المضاف إليه ، وهذا نهاية وصف الحالة التي تهيَّأ بها لمصيره إلى القبر الذي هو أول مراحل الآخرة .

ويجوز أن يَكون ذلك تمثيلاً فإن العرب يستعملون الساق مثلاً في الشدة وجِدّ الأمر تمثيلاً بساق الساعي أو الناهض لعمل عظيم ، يقولون : قامت الحرب على ساق .

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31)

تفريع على قوله : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ [القيامة : 6] .

فالضمير عائد إلى الإِنسان في قوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] أي لجهله البعث لم يستعد له .

وحذف مفعول ﴿ كذّب ﴾ ليشمل كلَّ ما كذب به المشركون ، والتقدير : كذب الرسولَ

والقرآنَ وبالبعث ، وتولى عن الاستجابة لشرائع الإِسلام .

ويجوز أن يكون الفاء تفريعاً وعطفاً على قوله : ﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ [القيامة : 30] ، أي فقد فارق الحياة وسيق إلى لقاء الله خالياً من العُدّة لذلك اللقاء .

وفي الكلام على كلا الوجهين حذف يدل عليه السياق تقديره : فقد علم أنه قد خسر وتندم على ما أضاعه من الاستعداد لذلك اليوم .

وقد ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ إذا دُكّت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملَك صفاً صفاً وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإِنسان وأنّى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ [الفجر : 21 24] .

وفعل ﴿ صَدَّق ﴾ مشتق من التصديق ، أي تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو المناسب لقوله : ﴿ ولكن كذّب ﴾ .

والمعنى : فلا ءامن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبَعض المفسرين فَسَّر ﴿ صدَّق ﴾ بمعنى أعطى الصَّدَقة ، وهو غير جار على قياس التصريف إذ حقه أن يقال : تَصَدق ، على أنه لا يساعد الاستدراك في قوله : ﴿ ولكن كذب ﴾ .

وعُطف ﴿ ولا صلّى ﴾ على نفس التصديق تشويهاً له بأن حاله مبائن لأحْوَال أهل الإِسلام.

والمعنى : فلم يؤمن ولم يسلم.

و﴿ لا ﴾ نافية دخلت على الفعل الماضي والأكثر في دخولها على الماضي أن يعطف عليها نفي آخر وذلك حين يقصد المتكلم أمرين مثل ما هنا وقول زهير:

فَلا هو أخفاها ولم يتقدم . . .

وهذا معنى قول الكسائي " (لا) بمعنى (لَم) ولكنه يقرن بغيره يقول العرب : لا عبدُ الله خارج ولا فلان ، ولا يقولون : مررت برجل لاَ محسن حتى يقال : ولا مجمل" انتهى انتهى . ا هـ فإذا لم يعطف عليه نفي آخر فلا يؤتى بعدها بفعل مُضِيَ إلاّ في إرادة الدعاء نحو : "لا فُضَّ فُوك" وشذ ما خالف ذلك.

وأما قوله تعالى : ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ العقَبَةَ ﴾ [البلد : 11] فإنّه على تأويل تكرير النّفي لأنّ مفعول الفعل المنفي بحرف ﴿ لا ﴾ وهو العقبة يتضمن عدة أشياء منفية بيَّنها قوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة فكّ رقبة أو إطعام إلى قوله : ﴿ من الذين ءامنوا ﴾ [البلد : 12 17].

فلما كان ذلك متعلق الفعل المنفي كان الفعل في تأويل تكرير النفي كأنه قيل : فَكَّ رقبة ولا أطعَم يتيماً ولا أطعم مسكيناً ولا آمن.

وجملة ﴿ ولكن كذب ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فلا صدّق ﴾ .

وحرف ﴿ لكن ﴾ المخفف النون بالأصالة أي الذي لم يكن مُخفَّفَ النون المشددة أختَ (إنّ) هو حرف استدراك ، أي نقض لبعض ما تضمنته الجملة التي قبله إما لمجرد توكيد المعنى بذكر نقيضه مثل قوله تعالى:

﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم ﴾ [الأحزاب : 5] ، وإما لبيان إجمال في النفي الذي قبله نحو ﴿ ما كان محمدٌ أبَا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله ﴾ [الأحزاب : 40] .

(132/793)

وحرف ﴿ لكن ﴾ المخفف لا يعمل إعراباً فهو حرف ابتداء ولذلك أكثر وقوعه بعد واو العطف وجُملة ﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أفادت معنيين : أحدهما توكيد قوله ﴿ فلا صدَّق ﴾ بقوله : ﴿ كَذب ﴾ ، وثانيهما زيادة بيان معنى ﴿ فَلا صدق ﴾ بأنه تولَّى عمداً لأنّ عدم التصديق له أحوال ، ونظيره في غير الاستدراك قوله تعالى : ﴿ إلاّ إبليس أبى واستكبر ﴾ [البقرة : 34] .

والتكذيب : تكذيبه بالبعث وبالقرآن وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم

والتولي : الإِعراض عن دعوته إلى النظر والتدبر في القرآن .

وفاعل ﴿ صَدق ﴾ والأفعال المذكورة بعده ضمائر عائدة على الإِنسان المتقدم ذكره .

و﴿ يتمطّى ﴾ : يمشي المُطَيْطَاءَ (بضم الميم وفتح الطاء بعدها ياء ثم طاء مقصورة وممدودة) وهي التبختر .

وأصل ﴿ يتمطى ﴾ : يتمطط ، أي يتمدد لأن المتبختر يُمدّ خطاه وهي مشية المعجب بنفسه .

وهنا انتهى وصف الإِنسان المكذب .

والمعنى : أنه أهمل الاستعداد للآخرة ولم يعبأ بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وذهب إلى أهله مزدهياً بنفسه غير مفكر في مصيره .

قال ابن عطية : قال جمهور المتأولين : هذه الآية كلها من قوله : ﴿ فَلا صدّق ولا صلّى ﴾ نزلت في أبي جهل بن هشام ، قال : ثم كادت هذه الآية تصرح به في قوله تعالى : ﴿ يتمطى ﴾ فإنها كانت مشية بني مخزوم وكان أبو جهل يكثر منها أ هـ .

وفيه نظر سيأتي قريباً .

فقوله : ﴿ أولَى لك ﴾ وعيد ، وهي كلمة تَوعُّد تجري مَجرى المَثَل في لزوم هذا اللفظ لكن تلحقه علامات الخطاب والغيبة والتكلم ، والمراد به ما يراد بقولهم : ويل لك ، من دعاء على المجرور باللام بعدها ، أي دعاء بأن يكون المكروه أدنى شيء منه .

﴿ فأَوْلى ﴾ : اسم تفضيل من وَلِي ، وفاعله ضمير محذوف عائد على مقدر معلوم في العرف ، فيقدره كل سامع بما يدل على المكروه ، قال الأصمعي : معناه : قاربكَ ما تَكره ، قالت الخنساء :

همَمْتُ بنفسيَ كُلَّ الهموم . . .

فأولى لنفسيَ أولى لها

(133/793)

وكان القانص إذا أفلتَه الصيدُ يخاطب الصيد بقوله : ﴿ أولى لك ﴾ وقد قيل : إن منه قوله تعالى : ﴿ فأولى لهم ﴾ من قوله : ﴿ فأولى لهم طاعة وقول معروف ﴾ في سورة القتال (20 ، 21) على أحد تأويلين يجعل طاعة وقول معروف ﴾ مستأنفاً وليس فاعلاً لاسم التفضيل ، وذهب أبو علي الفارسي إلى أن ﴿ أولى ﴾ عَلم لمعنى الوَيل وأن وزنه أفْعل من الويل وهو الهلاك ، فأصل تصريفه أوْيَل لك ، أي أشدُّ هلاكاً لك فوقع فيه القلب (لطلب التخفيف) بأن أخرت الياء إلى آخر الكلمة وصار أوْلَى بوزن أفلَحَ ، فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفاً فقالوا : أولى في صورة وزن فَعْلى .

والكاف خطاب للإِنسان المصرح به غير مرة في الآيات السابقة بطريق الغيبة إظهاراً

وإضماراً ، وعدل هنا عن طريق الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات لمواجهة الإنسان بالدعاء لأن المواجهة أوقع في التوبيخ ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : أولَى له .

وقوله : ﴿ فأولى ﴾ تأكيد ل ﴿ أَوْلى لك ﴾ جيء فيه بفاء التعقيب للدلالة على أنه يدعي عليه بأن يعقبه المكروه ويعقب بدعاء آخر .

قال قتادة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد فاستقبله أبو جهل على باب بني مخزوم فأخذ رسول الله فلبَّبَ أبا جهل بثيابه وقال له ﴿ أولى لك فأولى ثم أولَى لك فأولى ﴾ قال أبو جهل : يتهددني محمد (أي يستعمل كلمة الدعاء في إرادة التهديد) فوالله إني لأَعَزُّ أهلِ الوادي .

وأنزل الله تعالى ﴿ أولى لك فأولى ﴾ كما قَال لأبي جهل .

وقوله : ﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ تأكيد للدعاء عليه ولتأكيده السابق .

وجيء بحرف ﴿ ثم ﴾ لعطف الجملة دلالة على أن هذا التأكيد ارتقاء في الوعيد ، وتهديد بأشدَّ مما أفاده التهديد الأول وتأكيدُه كقوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [التكاثر : 3 ، 4] .

وأحسب أن المراد : كُلُّ إنسان كافر كما يقتضيه أول الكلام من قوله ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ إلى قوله : ﴿ بل الإِنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة : 3 14] ، وما أبو جهل إلاّ مِن أولهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم توعده باللفظ الذي أنزله الله تهديداً لأمثاله .

وكلمات المتقدمين في كون الشيء سبب نزول شيء من القرآن كلمات فيها تسامح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(135/793)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كلا)

وهى ، عند سيبويه والخليل والمبرّد والزجّاج وأَكثر نحاة البصرة ، حرف معناه الرَّدع والزجر ، لا معنى له سواه ؛ حتى إِنهم يجيزون الوقف عليها أَبداً والابتداءَ بما بعدها ، حتى قال بعضهم : إِذا سمعت / كَلاَّ فى سورة فاحكم بأَنها مكيَّة ، لأَن فيها معنى التهديد والوعيد ، وأَكثر ما نزل ذلك بمكَّة ؛ لأَن أَكثر العتوّ كان بها .

وفيه نظر ؛ لأَن لزوم المكّيّة إنما يكون عن اختصاص العتوّ بها لا عن غلبته .

ثم إنه لا يظهر معنى الزجر فى كَلاَّ المسبوقة بنحو ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ ، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ، وقول من قال : فيه ردع عن ترك الإيمان بالتصوير فى أَيِّ صورة شاءَ الله ، وبالبعث ، وعن العجلة بالقرآن ، فيه تعسف ظاهر .

ثم إن أَول ما نزل خمس آيات من أَول سورة العلق ، ثم نزل : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ فجاءَت فى افتتاح الكلام .

والوارد منها فى التنزيل ثلاثة وثلاثون موضعا كلها فى النصف الأَخير .

ورأى الكسائىّ وجماعة أَن معنى الردع ليس مستمرًّا فيها ، فزادوا معنى ثانيا يصحّ عليه أَن يوقف دونها ، ويبتدأ بها .

ثم اختلفوا فى تعيين ذلك المعنى على ثلاثة أَقوال : فقيل : بمعنى حقًّا ، وقيل : بمعنى أَلاّ الاستفتاحية ، وقيل : حرف جواب بمنزلة إِى ونَعَمْ ، وحملُوا عليه : ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ ﴾ ، فقالوا : معناه : إِى والقمر .

وهذا المعنى لا يتأَتَّى فى آيتى المؤمنين والشعراء .

وقول من قال بمعنى حقا لا يتأَتَّى فى نحو : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴾ ، ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن

رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، لأَنَّ (إِنَّ) تكسر بعد أَلا الاستفتاحية ، ولا تكسر بعد حقًّا ولا بعد ما كان بمعناها ، ولأَن تفسير حرف بحرف أَولى من تفسير حرف باسم .

(136/793)

وإِذا صلح الموضع للردع ولغيره جاز الوقف عليها والابتداء بها على اختلاف التقديرين .

والأرجح حملها على الردع ؛ لأَنه الغالب عليها ، وذلك نحو : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَانِ عَهْداً * كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ ، ﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ .

وقد يتعيَّن للردع أَو الاستفتاح نحو : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ ﴾ لأَنها لو كانت بمعنى حقًّا لما كُسرت همزة إِنَّ ، ولو كانت بمعنى نعم لكانت للوعد بالرجوع ، لأَنها بعد الطلب ، كما يقال : أَكرم فلانا فتقول : نعم .

ونحو : ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، وذلك لكسر إِنَّ ، ولأَنَّ نَعَمْ بعد الخبر للتصديق .

وقد يمتنع كونها للزجر والردع ، نحو : ﴿ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ * كَلاَّ وَالْقَمَرِ ﴾ إِذ ليس قبلها ما يصحّ ردّه .

وقرئ: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بالتنوين، إما على أنّه مصدر كَلَّ إذا أعيا، أى كَلُّوا فى دعواهم وانقطعوا، أو من الكَلّ وهو الثِقْل أى حَمَلُوا كَلاًّ.

وجوّز الزمخشرىّ كونه حرفَ الردع نُوِّن كما فى (سَلاَسِلاً) ورُدّ عليه بأنّ (سلاسلا) اسم أَصله التنوين فرُدّ إلى أَصله.

ويصحّح تأْويل الزمخشرىّ قراءة من قرأَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ بالتنوين إذا الفعل ليس أَصله التنوين.

وقال ثعلب: كَلاَّ مركب من كاف التشبيه ولا النافية، وإنما شدّدت لامها لتقوية المعنى ولدفع توهُّم بقاء معنى الكلمتين.

وعند غيره بسيطة؛ كما ذكرنا.

والله أَعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 381.383﴾

(137/793)

قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا فعل من أعرض عن الله أصلاً فلم يخطر شيئاً من عظمته على باله ، فكان ظاناً أنه مهمل لا مالك له وأنه هو السيد لا عبودية عليه ، فلا يؤمر ولا ينهى ولا يعمل إلا بمقتضى شهواته ، قال منكراً عليه معبراً بالحسبان الذي الحامل عليه نقص العقل :

﴿ أيحسب ﴾ أي أيجوز لقلة علقه ﴿ الإنسان ﴾ أي الذي هو عبد مربوب ضعيف عاجز محتاج بما يرى في نفسه وأبناء جنسه .

ولما كان الحامل على الجراءة مطلق الترك هملاً ، لا كون الترك من معين ، قال بانياً للمفعول :

﴿ أن يترك ﴾ أي يكون تركه بالكلية ﴿ سدى ﴾ أي مهملاً لاعباً لاهياً لا يكلف ولا يجازى ولا يعرض على الملك الأعظم الذي خلقه فيسأله عن شكره فيما أسدى إليه ، فإن ذلك منافٍ للحكمة ، فإنها تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن المساوىء والجزاء على كل منهما ، وأكثر الظالمين والمظلومين يموتون من غير جزاء ، فاقتضت الحكمة ولا بد البعث للجزاء .

(138/793)

ولما كان الإنسان يجري على ما في طبعه من النقائص فيغفل عما خلق له فتتراكم عليه ظلماته فيبعد عن علم ذلك إما بجهل بالحكمة أو بجهل بالقدرة ، رحمه سبحانه بإعادة البرهان على المعاد بأمر يجمع القدرة والحكمة ، وذلك أنه لا يجوز في عقل عاقل أن صانعاً يصنع شيئاً ويتركه ضياعاً وهو حكيم أو حاكم فكيف بأحكم الحكماء والحاكمين فقال منكراً عليه ظنه أنه يهمله سبحانه مع علمه بصنائعه المحكمة فيه ، مقرراً أحوال بدايته التي لا يسوغ معها إنكار إعادته لأنها أدل على أنه لا مانع منها أصلاً ، حاذفاً نون الكون إعلاماً بأن الأمر في هذه النتيجة العظمى ضاق عن أقل شيء يمكن الاستغناء عنه كراهية التمادي من الموعوظ على ما وعظ لأجله فيحصل له الهلاك ، وإشارة إلى مهانة أصله وحقارته : ﴿ ألم يك ﴾ أي الإنسان ﴿ نطفة ﴾ أي شيئاً يسيراً جداً ﴿ من مني ﴾ أي ماء من صلب الرجل وترائب المرأة مقصود ومقدر من الله للابتلاء والاختبار مثاله المنية التي هي الموت ﴿ تمنى ﴾ أي سبب الله للإنسان المعالجة في إخراجها بما ركب فيه من الشهوة وجعل له من الروح التي يسرها لقضاء وطره منها حتى أن وقت صبها في الرحم انصبت منه بغير اختياره حتى كأنه لا فعل له فيها أصلاً ، ولذلك بنى الفعل لما لم يسم فاعله ، ولما كان تكثير تلك النطفة وتحويلها أمراً عظيماً عجيباً ، أشار إليه بأداة البعد مع إفادتها للتراخي في الزمان أيضاً فقال : ﴿ ثم كان ﴾ أي كوناً محكماً ﴿ علقة ﴾ أي دماً أحمر عبيطاً شديد الحمرة والغلظة ﴿ فخلق ﴾ أي قدر سبحانه عقب ذلك لحمه وعظامه

وعصبه وغير ذلك من جواهره وأعراضه ﴿ فسوى ﴾ أي عدل عن ذلك خلقاً آخر غاية التعديل شخصاً مستقلاً .

(139/793)

ولما كان استبعادهم للقيامة إما لاستبعاد القدرة على إعادة الأجزاء بعد تفرقها أو لاستبعاد القدرة على تمييز ترابها من تراب الأرض بعد الاختلاط ، وكان تمييز النطفة إلى ذكر وأنثى كافياً في رد الاستبعادين قال : ﴿ فجعل ﴾ أي بسبب النطفة ﴿ منه ﴾ أي هذا الماء الدافق أو المخلوق المسوى وهما شيء واحد ﴿ الزوجين ﴾ أي القرينين اللذين لا يمكن الانتفاع بأحدهما إلا بالآخر ، ثم بينهما بقوله : ﴿ الذكر والأنثى ﴾ وهما كما تعلمون متباينان في الطباع مختلفان في أوصاف الأعضاء والآلات والمتاع ، كما لم يترك النطفة حتى صيرها علقة ولا ترك العلقة حتى صيرها مضغة ولا ترك المضغة حتى صيرها عظاماً ولم يترك العظام حتى صيرها خلقاً آخر إلى تمام الخلقة لتمام الحكمة الظاهرة وفصلها إلى ذكر وأنثى وهي ماء ، تمييز ما يصلح منه للذكر وما يصلح منه للأنثى أشد وأخفى من تمييز تراب الميت من تراب الأرض ، فكذلك لا يترك الجسم بعد موته حتى يعيده ثم يبعثه إلى آخر ذلك لتمام الحكمة الباطنة وهي الجزاء والحكم الذي هو خاصة الملك .

ولما تقرر من حيث إتقان الاصطناع أنه لا يجوز معه الإهمال وانقطاع النزاع ، وكان ربما توقف من حيث ظن عدم القدرة على ذلك بعد الموت ، قال منبهاً على تمام القدرة مقرراً عليه منكراً على من يتوقف فيه موبخاً له مرتباً على ما قام على القدرة على الإعادة من دليل القدرة الشهودي على البداية : ﴿ أليس ذلك ﴾ أي الخالق المسوي الإله الأعظم الذي قدر على هذه الإنشاءات وصنع هذه الصنائع المتقنة التي لا يقدر غيره على شيء منها ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ بقادر ﴾ أي عظيم القدرة ﴿ على أن يحيي ﴾ أي كيف أراد دفعة أو في أوقات متعاقبة ﴿ الموتى ﴾ فيقيم القيامة بل وعزته وجلاله وعظمته وكماله إنه على كل ما يريد قدير ، وقد رجع آخر السورة على أولها أتم رجوع ، والتأم به أتم التئام ، فتمت معانيها أعظم تمام بجمع العظام وإيجاد القيام ليوم التغابن والزحام - أعاننا الله فيه بحسب الختام ، روى البغوي بسنده من طريق أبي داود عن أعرابي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ [التين : 1] فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : 8] فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة : 1] فانتهى

إلى قوله ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [القيامة : 40] فليقل بلى ، ومن قرأ المرسلات فقرأ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ [المرسلات : 50] فليقل : " آمنا بالله " ورواه الترمذي وقال في آخر القيامة أن يحيي الموتى : " بلى وعزة ربنا " وقال الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد : وروى أحمد وفيه رجلان لم أعرفهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من قرأ : والمرسلات عرفاً فبأي حديث بعده يؤمنون ، ومن قرأ : والتين والزيتون ، فليقل : وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ : أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، فليقل بلى " والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 258.256 ﴾

(141/793)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) ﴾

أي مهملاً لا يؤمر ، ولا ينهى ، ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب بعمله في الآخرة ، والسدى في

اللغة المهمل يقال : أسديت إبلي إسداء أهملتها .

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة ، قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : 3] أعاد في آخر السورة ذلك ، وذكر في صحة البعث والقيامة دليلين الأول : قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : 36] ونظيره قوله : ﴿ إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ﴾ [طه : 15] وقوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضياً بقبائح الأفعال ، وذلك لا يليق بحكمته ، فإذاً لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة .

الدليل الثاني : على صحة القول بالحشر الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة ، وهو المراد من قوله تعالى .

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

النطفة هي الماء القليل وجمعها نطاف ونطف ، يقول : ألم يك ماء قليلاً في صلب الرجل وترائب المرأة ؟ وقوله : ﴿ مّن مَّنِىّ يمنى ﴾ أي يصب في الرحم ، وذكرنا الكلام في يمنى عند قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ [النجم : 46] وقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة : 58] فإن قيل : ما الفائدة في يمنى في قوله : ﴿ مّن مَّنِىّ يمنى ﴾ ؟ قلنا : فيه إشارة إلى حقارة حاله ، كأنه قيل : إنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة ، فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى ، على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى ومريم : ﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام ﴾ [المائدة : 75] والمراد منه قضاء الحاجة .

المسألة الثانية :

في يمنى في هذه السورة قراءتان التاء والياء ، فالتاء للنطفة ، على تقدير ألم يك نطفة تمنى من المني ، والياء للمني من مني يمنى ، أي يقدر خلق الإنسان منه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي الإنسان كان علقة بعد النطفة .

أما قوله تعالى : ﴿ فَخَلَقَ فسوى ﴾ ففيه وجهان الأول : فخلق فقدر فسوى فعدل الثاني : فخلق ، أي فنفخ فيه الروح ، فسوى فكمل أعضاءه ، وهو قول ابن عباس ومقاتل .

ثم قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي من الإنسان ﴿ الزوجين ﴾ يعني الصنفين .

ثم فسرهما فقال : ﴿ الذكر والأنثى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ والمعنى أليس ذلك الذي أنشأ هذه الأشياء بقادر على الإعادة ، روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال : " سبحانك بلى " والحمد لله رب العالمين .

وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 206 . 207 ﴾

(143/793)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) ﴾

قال جمهور المتأولين : هذه الآية كلها إنما نزلت في أبي جهل بن هشام .

قال القاضي أبو محمد : ثم كادت هذه الآية أن تصرح له في قوله تعالى : ﴿ يتمطى ﴾ فإنها كانت مشية بني مخزوم ، وكان أبو جهل يكثر منها ، وقوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ تقديره فلم يصدق ولم يصل ، وهذا نحو قول الشاعر [طرفة بن العبد] : [الطويل]

فأي خميس فإنا لا نهابه . . . وأسيافنا يقطرن من كبشه دما

وقول الآخر [أبي خيراش الهذلي] : [الرجز]

إن تغفر اللهم تغفر جمّا . . . وأي عبد لك لا ألَّما

﴿ فلا ﴾ في الآية عاطفة ، و﴿ صدق ﴾ معناه برسالة الله ودينه ، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة ، والأول أصوب ، و﴿ يتمطى ﴾ معناه يمشي المطيطى وهي مشية بتبختر قال زيد بن أسلم : كانت مشية بني مخزوم ، وهي مأخوذة من المطا وهو الظهر لأنه يتثنى فيها ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا مشت أمتي المطيطى وخدمتهم الروم وفارس سلط بعضهم على بعض " وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أبي جهل . وقوله تعالى : ﴿ أولى لك ﴾ وعيد ثان ثم كرر ذلك تأكيداً ، والمعنى ﴿ أولى لك ﴾ الازدجار والانتهاء وهو مأخوذ من ولى ، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأولى لهم طاعة ﴾ [محمد : 20] ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبب أبا جهل يوماً في البطحاء وقال له : " إن الله يقول لك ﴿ أولى لك فأولى ﴾ " ، فنزل القرآن على نحوها . وفي شعر الخنساء : [المتقارب]

سئمت بنفسي كل الهموم . . . فأولى لنفسي أولى لها

(144/793)

وقوله تعالى : ﴿ أيحسب ﴾ توقيف وتوبيخ ، و﴿ سدى ﴾ معناه مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ثم قرر تعالى على أحوال ابن آدم في بدايته التي إذا تؤملت لم ينكر معها جواز البعث من القبور عاقل . وقرأ الجمهور : " ألم يك " بالياء من تحت ، وقرأ الحسن : " ألم تك " بالتاء من فوق " و" النطفة " : القطعة من الماء . يقال ذلك للقليل والكثير ، و" المني " معروف ، وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وأبو عمرو بخلاف وابن محيصن والجحدري وسلام ويعقوب : " يمنى " بالياء ، يراد بذلك المني ، ويحتمل أن يكون يمنى من قولك أمنى الرجل ، ويحتمل أن يكون من قولك منى الله الخلق ، فكأنه قال : من مني تخلق ، وقرأ جمهور السبعة والناس . " تمنى " بالتاء ، يراد بذلك النطفة ، و" تمنى " يحتمل الوجهين اللذين ذكرت ، و" العلقة " : القطعة من الدم ، لأن الدم هو العلق ، وقوله تعالى : ﴿ فخلق فسوى ﴾ معناه فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة فسواه شخصاً مستقلاً ، وفي مصحف ابن مسعود " : يخلق " بالياء فعلاً مستقبلاً ، و﴿ الزوجين ﴾ النوعين ، ويحتمل أن يريد المزدوجين من البشر ، ثم وقف تعالى توقيف التوبيخ وإقامة الحجة بقوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ وقرأ الجمهور بفتح الياء الأخيرة من " يحييَ " ، وقرأ طلحة بن مصرف وسليمان والفياض بن غزوان بسكونها ، هي تنحذف من اللفظ لسكون اللام من ﴿ الموتى ﴾ ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : " سبحانك اللهم وبحمدك وبلى " ، ويروى أنه كان يقول : " بلى " فقط .

نجز تفسير سورة ﴿ القيامة ﴾ والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(145/793)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾

أي يظن ابن آدم ﴿ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي أن يُخَلَّى مُهمَلاً ، فلا يُؤمَر ولا يُنهَى ؛ قاله ابن زيد ومجاهد ، ومنه إبل سُدًى : ترعى بلا راعٍ .

وقيل : أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يُبعَث .

وقال الشاعر :

فأُقسِمُ بالله جهدَ اليَمِينِ . . .

ما تَرَكَ الله شيئاً سُدَى

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ أي من قطرة ماء تُمنَى في الرَّحِم ، أي تُراق فيه ؛ ولذلك سمّيت (مِنًى) لإراقة الدماء .

وقد تقدّم .

والنطفة : الماء القليل ؛ يقال : نَطَف الماء : إذا قطر .

أي ألم يك ماءً قليلاً في صُلْب الرجل وترائب المرأة .

وقرأ حفص "مِن مَنِيٍّ يُمْنَى" بالياء ، وهي قراءة ابن محيصن ومجاهد ويعقوب وعَيَّاش عن أبي عمرو ، واختاره أبو عبيد لأجل المنيّ .

الباقون بالتاء لأجل النطفة .

واختاره أبو حاتم .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي دماً بعد النطفة ، أي قد رَتبه تعالى بهذا كله على خِسَّة قدره .

ثم قال : ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فقدّر ﴿ فسوى ﴾ أي فسوّاه تسويةً ، وعدّله تعديلاً ، بجعل الروح فيه ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي من الإنسان .

وقيل : من المنيّ .

﴿ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أي الرجل والمرأة .

وقد احتج بهذا من رأى إسقاط الخُنثى .

وقد مضى في سورة "الشورى" أن هذه الآية وقرينتها إنما خرجتا مخرج الغالب .

وقد مضى في أوّل سورة "النساء" أيضاً القول فيه ، وذكرنا في آية المواريث حكمه ، فلا معنى لإعادته ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ ﴾ أي أليس الذي قدَر على خلق هذه النَّسَمة من

قطرة من ماء ﴿ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ أي على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البِلَى .

(146/793)

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها قال : " سبحانك اللّهم ، بَلَى " وقال ابن عباس : من قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] إماماً كان أو غيره فليقل : "سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى" .

ومن قرأ ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ إلى آخرها إماماً كان أو غيره فليقل : "سبحانك اللَّهُمَّ ، بَلَى" ذكره الثعلبيّ من حديث أبي إسحاق السَّبِيعيّ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

ختمت السورة والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(147/793)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقي ﴾

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ عنْ إيثارِ العاجلةِ عَلى الآخرةِ أيْ ارتدعُوا عنْ ذلكَ وتنبهُوا لما بينَ أيديكُم منَ الموتِ الذي ينقطعُ عندهُ ما بينكُم وبينَ العاجلةِ منَ العلاقةِ ﴿ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ أيْ بلغتْ النفسُ أعاليَ الصَّدرِ وهيَ العظامُ المكتنفةُ لثغرِه والنَّحرِ عنْ يمينٍ وشمالٍ ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أيْ قالَ مَن حضرَ صاحبَها مِنْ يرقيهِ وينجيهِ مما هُو فيهِ مِنَ الرقيةِ وقيلَ : هُو مِنْ كلامِ ملائكةِ الموتِ أيكُم يَرقَى بروحِه ملائكةُ الرحمةِ أو ملائكةُ العذابِ مِنَ الرُّقيِّ ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ وأيقنَ المحتضرُ أنَّ ما نزلَ بهِ للفراقِ مِنَ الدنيا ونعيمِها ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ والتفتْ ساقُه بساقِه والتوتْ عليهَا عندَ حلولِ الموتِ وقيلَ : هُما شدةُ فراقِ الدُّنيا وشدةُ إقبالِ الآخرةِ وقيلَ : هما ساقاهُ حينَ تلفانِ في أكفانِه ﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ أيْ إلى اللهِ وإلى حكمِه يساقُ لا إلى غيرِه ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ ما يجبُ تصديقُه منِ الرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ والقرآنِ الذي نزلَ عليهِ أو فلاَ صدقَ مالَه ولا زكَّاهُ ﴿ وَلاَ صلى ﴾ ما فُرضِ عليهِ والضميرُ فيهمَا للإنسانِ المذكورِ في قولِه تعالَى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ وفي دلالةٌ على أنَّ الكفارَ مخاطبونَ بالفروعِ في حقِّ المؤاخذةِ كما مرَّ ﴿ ولكن كَذَّبَ ﴾ مَا ذُكرَ منَ الرسولِ والقرآنِ ﴿ وتولى ﴾ عنِ الطاعةِ ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ يتبخترُ افتخاراً بذلكَ منَ المطِّ فإن المتبخترَ يمد خطاهُ فيكونُ أصلُه يتمطط أو منَ المَطَا وهو الظهرُ فإنَّه يلوذُ بهِ .

﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾

أيْ ويلٌ لكَ وأصلُه أَوْلاكَ اللهُ ما تكرهُه واللامُ مزيدةٌ كما في ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ أوْ أَوْلى لكَ الهلاكُ وقيلَ : هُو أفعلُ منَ الويلِ بعدَ القلبِ كأدْنى من دُون أو فَعْلى من آلَ يؤولُ بمَعنى عقباكَ النارُ ﴿ ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ أيْ يتكررُ عليهِ ذلكَ مرةً بعدَ أُخْرَى .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أيْ يخلى مُهملاً فلاَ يكلَّفُ ولا يُجزى وقيلَ : أنْ يتركَ في قبرِه ولا يبعثَ وقولُه تعالَى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ الخ ، استئنافٌ واردٌ لإبطالِ الحسبانِ المذكورِ فإنَّ مدارَهُ لَمَّا كانَ استبعادُهم للإعادةِ استدلَّ على تحققِها ببدءِ الخلقِ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أيْ بقدرةِ اللهِ تعالَى لقولِه تعالَى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فقدرَ بأنْ جعلَها مضغةً مخلقةً ﴿ فسوى ﴾ فعدَّلَ وكمَّلَ نشأتَهُ ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ منَ الإنسانِ ﴿ الزوجين ﴾ أيِ الصنفينِ ﴿ الذكر والأنثى ﴾ بدلُ الزوجينِ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ العظيمُ الشأنِ الذي أنشأَ هَذا الإنشاءَ البديعَ ﴿ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِ الموتى ﴾ وهُو أهونُ من البدءِ في قياسِ العقلِ .

رُوي أنَّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم كانَ إذَا قرأَها قالَ : " سُبْحانكَ بَلَى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾

أي مهملاً فلا يكلف ولا يجزى وقيل أن يترك في قبره فلا يبعث ويقال إبل سدى أي مهملة ترعى حيث شاءت بلا راع وأسديت الشيء أي أهملته وأسديت حاجتي ضيعتها ولم أعتن بها قال الشاعر

: فاقسم بالله جهد اليم . . .

ين ما خلق الله شيئاً سدى

ونصب سدى على الحال من ضمير يترك وأن يترك في موضع المفعولين ليحسب والاستفهام إنكاري وكان تكريره بعد قوله تعالى أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه لتكرير إنكار الحشر قيل مع تضمن الكلام الدلالة على وقوعه حيث أن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح والرذائل والتكليف لا يتحقق إلا بمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة وجعل بعضهم هذا استدلالاً عقلياً على وقوع الحشر وفيه بحث لا يخفى

وقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ الخ

استئناف وارد لإبطال الحسبان المذكور فإن مداره لما كان استبعادهم للإعادة دفع ذلك ببدء الخلق وقرأ الحسن ألم تك بباء الخطاب على سبيل الالتفات وقرأ الأكثر تمنى بالتاء الفوقية فالضمير للنطفة أي يمنيها الرجل ويصبها في الرحم وعلى قراءة الياء وهي قراءة حفص وأبي عمرو بخلاف عنه ويعقوب وسلام والجحدري وابن محيصن للمني .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي بقدرة الله تعالى كما قال تعالى ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ [المؤمنون : 14] ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي فقدر الله عز وجل بأن جعلها سبحانه مخلقة ﴿ فسوى ﴾ فعدل وكمل .

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي من الإنسان وقيل من المني ﴿ الزوجين ﴾ أي الصنفين ﴿ الذكر والانثى ﴾ بدل من الزوجين والخنثى لا يعدوهما وقرأ زيد بن علي الزوجان بالألف على لغة بني الحرث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون ألمثنى بالألف في جميع حالاته .

(150/793)

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ العظيم الشأن الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿ بِقَادِرٍ ﴾ أي قادراً وقرأ زيد يقدر مضارعاً ﴿ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ وهو أهون من البدء في قياس العقل

وقرأ طلحة بن سليمان والفيض بن غزوان على أن يحيى بسكون الياء وأنت تعلم أن حركاتها حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف وقد جاء في الشعر حذفها بدونه وعن بعضهم يحيى بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء قال ابن خالويه لا يجيز أهل البصرة سيبويه وأصحابه إدغام يحيى قالوا لسكون الياء الثانية ولا يعتدون بالفتحة فيها لأنها حركة إعراب غير لازمة والفراء أجاز ذلك واحتج بقوله تمشي بشدة فتعي يريد فتعايا وبالجملة القراءة شاذة وجاء في عدة أخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال سبحانك اللهم وبلى وفي بعضها سبحانك فبلى وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ [التين : 1-8] فليقل بلى ﴿ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ ومن قرأ ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] فانتهى إلى ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ فليقل بلى ومن قرأ ﴿ والمرسلات ﴾ فبلغ ﴿ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات : 50] فليقل آمنا بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 29 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) ﴾

قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر ، أي : بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة ، ثم استأنف ، فقال : ﴿ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ أي : بلغت النفس أو الروح التراقي ، وهي جمع ترقوة ، وهي عظم بين ثغرة النحر والعاتق ، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت ، ومثله قوله : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] وقيل : معنى ﴿ كَلاَّ ﴾ : حقاً ، أي : حقاً أن المساق إلى الله إذا بلغت التراقي ، والمقصود : تذكيرهم شدّة الحال عند نزول الموت .

قال دريد بن الصمة :

وربّ كريهة دافعت عنها . . . وقد بلغت نفوسهم التراقي

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي : قال من حضر صاحبها : من يرقيه ويشتفي برقيته ؟ .

قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئًا ، وبه قال أبو قلابة ، ومنه قول الشاعر :

هل للفتى من بنات الموت من واقي . . . أم هل له من حمام الموت من راقي

وقال أبو الجوزاء : هو من رقى يرقى إذا صعد ، والمعنى : من يرقى بروحه إلى السماء

أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل : إنه يقول ذلك ملك الموت ، وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قربها ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ أي : وأيقن الذي بلغت روحه التراقي أنه الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي : التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به .

وقال جمهور المفسرين : المعنى تتابعت عليه الشدائد .

وقال الحسن : هما ساقاه إذا التفتا في الكفن .

وقال زيد بن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت .

وقيل : ماتت رجلاه ويبست ساقاه ولم تحملاه ، وقد كان جوّالاً عليهما .

وقال الضحاك : اجتمع عليه أمران شديدان : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه .

وبه قال ابن زيد .

والعرب لا تذكر الساق إلاّ في الشدائد الكبار والمحن العظام ، ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق .

وقيل : الساق الأوّل تعذيب روحه عند خروج نفسه ، والساق الآخر شدّة البعث وما بعده .

﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ أي : إلى خالقك يوم القيامة المرجع ، وذلك جمع العباد إلى الله يساقون إليه .

﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ أي : لم يصدّقَ بالرسالة ولا بالقرآن ، ولا صلى لربه ، والضمير يرجع إلى الإنسان المذكور في أوّل هذه السورة .

قال قتادة : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلى لله .

وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .

قال الكسائي : لا بمعنى لم ، وكذا قال الأخفش : والعرب تقول : لا ذهب ، أي : لم يذهب ، وهذا مستفيض في كلام العرب ، ومنه :

إن تغفر اللَّهم تغفر جما . . . وأيّ عبد لك لا ألما

﴿ ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ أي : كذّب بالرسول وبما جاء به ، وتولى عن الطاعة والإيمان .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ أي : يتبختر ويختال في مشيته افتخاراً بذلك .

وقيل : هو مأخوذ من المطي ، وهو الظهر ، والمعنى : يلوي مطاه .

وقيل : أصله يتمطط ، وهو التمدّد والتثاقل ، أي : يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق

﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ أي : وليك الويل ، وأصله : أولاك الله ما تكرهه

، واللام مزيدة ، كما في ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] .

وهذا تهديد شديد ، والتكرير للتأكيد ، أي : يتكرر عليك ذلك مرة بعد مرة .

قال الواحدي : قال المفسرون : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبي جهل ، ثم قال : ﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ فقال أبو جهل : بأيّ شيء تهدّدني ، لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا ، وإني لأعزّ أهل هذا الوادي ، فنزلت هذه الآية .

وقيل معناه : الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هممت بنفسي بعض الهمو . . . م فأولى لنفسي أولى لها

وعلى القول بأنه الويل .

قيل : هو من المقلوب كأنه قيل : أويل لك ، ثم أخر الحرف المعتل .

(153/793)

قيل : ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات ، والويل لك حياً ، والويل لك ميتاً ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار .

وقيل المعنى : إن الذمّ لك أولى لك من تركه .

وقيل المعنى : أنت أولى وأجدر بهذا العذاب ، قاله ثعلب .

وقال الأصمعي : أولى في كلام العرب معناه مقاربة الهلاك .

قال المبرّد : كأنه يقول : قد وليت الهلاك وقد دانيته ، وأصله من الولي ، وهو القرب ، وأنشد الفراء :

فأولى أن يكون لك الولاء . . . أي : قارب أن يكون لك ، وأنشد أيضاً :

أولى لمن هاجت له أن يكمدا . . . ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي : هملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يحاسب ولا يعاقب .

وقال السدي : معناه المهمل ، ومنه إبل سدى ، أي : ترعى بلا راع .

وقيل المعنى : أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث ، وجملة : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيّ يمنى ﴾ مستأنفة : أي : ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منيّ يراق في الرحم ، وسمي المنيّ منياً لإراقته ، والنطفة : الماء القليل ، يقال نطف الماء إذا قطر .

قرأ الجمهور : ﴿ ألم يك ﴾ بالتحتية على إرجاع الضمير إلى الإنسان .

وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه توبيخاً له .

وقرأ الجمهور أيضاً : ﴿ تمنى ﴾ بالفوقية على أن الضمير للنطفة .

وقرأ حفص ، وابن محيصن ، ومجاهد ، ويعقوب بالتحتية على أن الضمير للمنى ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ، واختارها أبو حاتم ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي : كان بعد النطفة علقة ، أي : دماً ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي : فقدّر بأن جعلها مضغة مخلقة ﴿ فسوى ﴾ ، أي :

فعدّله وكمل نشأته ، ونفخ فيه الروح .

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ أي : حصل من الإنسان .

وقيل : من المنيّ ﴿ الزوجين ﴾ أي : الصنفين من نوع الإنسان .

ثم بين ذلك فقال : ﴿ الذكر والأنثى ﴾ أي : الرجل والمرأة .

(154/793)

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ أي : ليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه ﴿ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِ الموتى ﴾ أي : يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا ، فإن الإعادة أهون من الابتداء ، وأيسر مؤنة منه .

قرأ الجمهور : ﴿ بقادر ﴾ وقرأ زيد بن عليّ : " يقدر " فعلاً مضارعاً ، وقرأ الجمهور : ﴿ يحيي ﴾ بنصبه بأن .

وقرأ طلحة بن سليمان ، والفياض بن غزوان بسكونها تخفيفاً ، أو على إجراء الوصل مجرى الوقف ، كما مرّ في مواضع .

وقد أخرج ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قال : تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه .

قيل : من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة ، وملائكة العذاب أيهم يرقى به .

وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ قل : من راق يرقى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ يقول : آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة ، فتلقى الشدّة بالشدّة إلاّ من رحم الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ يتمطى ﴾ قال : يختال .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل من قبل نفسه ، أم أمره الله به ؟ قال : بل قاله من قبل نفسه ، ثم أنزله الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ قال : هملاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن الأنباري عن صالح أبي الخليل قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآية ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ قال : " سبحانك اللَّهم ، وبلى " وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحانك ربي ، وبلى " وأخرج ابن النجار في تاريخه عن أبي أمامة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند قراءته لهذه الآية : " بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين " وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ منكم : ﴿ والتين والزيتون ﴾ [التين : 1] ، فانتهى إلى آخرها : ﴿ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ [التين : 8] فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

ومن قرأ ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] ، فانتهى إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ فليقل : بلى ، ومن قرأ : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ [المرسلات : 1] فبلغ : ﴿ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 85] فليقل : آمنا بالله " وفي إسناده رجل مجهول .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " إذا قرأت ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ فبلغت : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ فقل : بلى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 341 .

343 ﴾

(156/793)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) ﴾

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وهو ما ابتُدِئ به فارتبط بقوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] فكأنه قيل : أيحسب أن لن نجمع عظامه ويحسبُ أن نتركه في حالة العدم .

وزيد هنا أن مقتضى الحكمة الإلهية إيقاعُه بقوله : ﴿ أن يُترك سُدى ﴾ كما ستعلمه .

والاستفهام إنكاري مثل الذي سبقه في قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] .

وأصل معنى الترك : مفارقة شيء شيئاً اختياراً من التَّارك ، ويطلق مجازاً على إهمال أحد شيئاً وعدم عنايته بأحواله وبتعهده ، وهو هنا مستعمل في المعنى المجازي .

والمراد بما يترك عليه الإِنسان هنا ما يدل عليه السياق ، أي حالَ العدم دون إحياء مما دل عليه قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] وقوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسان يومئذٍ بما قدَّم وأخر ﴾ [القيامة : 13] .

وعُدل عن بناء فعل يَترك للفاعل فبني للنائب إيجازاً لأجل العلم بالفاعل من قوله السابق : ﴿ أن لن نجمع عظامه فكأنه قال : أيحسب الإِنسان أن نتركه دون بعث وأن نهمل أعماله سدى .

فجاء ذِكر سُدى ﴾ هنا على طريقة الإِدماج فيما سيق له الكلام ، إيماء إلى أن مقتضى حكمة خلق الإِنسان أن لا يتركه خالقه بعد الموت فلا يحييه ليجازِيه على ما عَمِله في حياته الأولى .

وفي إعادة ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ تهيئة لما سيعقب من دليل إمكان البعث من جانب المادة بقوله : ﴿ ألم يك نطفة ﴾ [القيامة : 37] إلى آخر السورة .

فقوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن يترك سدى ﴾ تكرير وتعداد للإِنكار على الكافرين تكذيبهم بالعبث ، ألا ترى أنه وقع بعد وصف يوم القيامة وما فيه من الحساب على ما قدّم الإِنسان وأخّر .

ومعنى هذا مثل قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] .

و ﴿ سُدى ﴾ بضم السين وبالقصر : اسم بمعنى المهمل ويقال : سَدى بفتح السِّين والضمُّ أكثر وهو اسم يستوي فيه المفرد والجمع يقال : إبل سُدًى ، وجمل سُدًى ويشتق منه فعل فيقال : أسْدى إبله وأسديت إِبلي ، وألفه منقلبة عن الواو .

ولم يفسر صاحب "الكشاف" هذه الكلمة وكذلك الراغب في المفردات ووقع ﴿ سُدى ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يُترك ﴾ .

فإن الذي خلق الإِنسان في أحسن تقويم وأبدَعَ تركيبه ووهبه القوى العقلية التي لم يعطها غيره من أنواع الحيوان ليستعملها في منافعَ لا تنحصر أو في ضد ذلك مِن مفاسد جسيمة ، لا يليق بحكمته أن يهمله مثل الحيوان فيجعل الصالحين كالمفسدين والطائعين لربهم كالمجرمين ، وهو العليم القدير المتمكن بحكمته وقدرته أن يجعل إليهِ المصير ، فلو أهمله لفاز أهل الفساد في عالم الكساد ، ولم يلاق الصالحون من صلاحهم إلاّ الأَنكاد ، ولا يناسب حكمة الحكيم إهمال الناس يَهِيمُون في كل وادي ، وتركُهم مَضرباً لقولِ المثل "فإنّ الريح للعادِي" .

ولذلك قال في جانب الاستدلال على وقوع البعث ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] ، أي لا نعيد خلقه ونبعثَه للجزاء كما أبلغناهم ، وجاء في جانب

حكمته بما يشابه الأسلوب السابق فقال : ﴿ أيحسب الإِنسان أن يُترك سُدى ﴾ مع زيادة فائدة بما دلت عليه جملة ﴿ أن يترك سدى ﴾ ، أي لا يحسب أنه يترك غير مَرعِيّ بالتكليف كما تُترك الإِبل ، وذلك يقتضي المجازاةَ .

وعن الشافعي : لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمتُ أن السُّدَى الذي لا يؤمر ولا ينهى أ هـ .

وقد تبين من هذا أن قوله : ﴿ أن يترك سدى ﴾ كناية عن الجزاء لأن التكليف في الحياة الدنيا مقصود منه الجزاء في الآخرة .

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37)

(158/793)

استئناف هو علة وبيان للإِنكار المسوق للاستدلال بقوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن يُترك ﴾ [القيامة : 36] الذي جعل تكريراً وتأييداً لمضمون قوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه الآية ، أي أنَّ خلق الإِنسان من مادة ضعيفة وتدرجه في أطوار كيانِهِ دليل على إثبات القدرة على إنشائه إنشاء ثانياً بعد تفرق أجزائه واضمحلالها ، فيتصل معنى الكلام هكذا : أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه ويُعد ذلك متعذراً .

ألم نَبْدأ خلقه إذْ كوَّنَّاه نطفة ثم تطوَّر خلقُه أطوَاراً فماذا يعجزنا أن نعيد خلقه ثانياً كذلك ، قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] .

وهذه الجمل تمهيد لقوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ .

وهذا البيان خاص بأحد معنيي التَّرك في الآية وهو تركه دون إحياء وأكتفي ببيان هذا عن بيان المعنى الآخر الذي قيَّده قوله : ﴿ سُدًى ﴾ [القيامة : 36] أي تركه بدون جَزاء على أعماله لأن فائدة الإِحياء أن يجازى على عمله .

والمعنى : أيحسب أن يترك فانياً ولا تجدد حياته .

ووقع وصف ﴿ سدى ﴾ في خلال ذلك موقع الاستدلال على لزوم بعث الناس من جانب الحكمة ، وانتُقل بعده إلى بيان إمكان البعث من جانب المادة ، فكان وقوعه إدماجاً .

فالإِنسان خُلق من ماء وطُوِّر أطواراً حتى صار جسداً حيّاً تامّ الخلقة والإِحساسسِ فكان بعضه من صنف الذكور وبعضه من صنف الإِناث ، فالذي قدر على هذا الخلق البديع لا يعجزه إعادة خلق كل واحد كما خلقه أول مرة بحكمة دقيقة وطريقة أخرى لا يعلمها إلاّ هو .

والنُطفة : القليل من الماء سمي بها ماء التناسل ، وتقدم في سورة فاطر .

واختلف في تفسير معنى ﴿ تُمنَى ﴾ فقال كثير من المفسرين معناه : تراق .

ولم يُذكر في كتب اللغة أن فعل : مَنَى أو أمْنَى يطلق بمعنى أراق سوى أن بعض أهل اللغة قال في تسمية (مِنًى) التي بمكة إنها سميت كذلك لأنها تُراق بها دماء الهدي ، ولم يبينوا هل هو فعل مجرد أو بهمزة التعدية .

وأحسب هذا من التلفيقات المعروفة من أهل اللغة من طلبهم إيجاد أصل لاشتقاق الأعلام وهو تكلف صراح ، فاسم (مِنى) عَلَم مرتجل ، وقال ثعلب : سميت بذلك من قولهم : منَى الله عليه الموت ، أي قدَّره لأنها تنحر فيها الهدايا ومثله عن ابن شميل وعن ابن عيينة .

وفسر بعضهم ﴿ تُمنى ﴾ بمعنى تخلق من قولهم منَى الله الخلق ، أي خلقهم .

والأظهر قول بعض المفسرين أنه مضارع أمنى الرجل فيكون كقوله : ﴿ أفرأيتم ما تُمْنُون ﴾ في سورة الواقعة (58) .

والعلقة : القطعة الصغيرة من الدم المتعقد .

وعطف فعل كان علقة ﴾ بحرف ﴿ ثم ﴾ للدلالة على التراخي الرتبي فإنّ كَوْنه علقة أعجب من كونه نطفةً لأنه صار علقة بعد أن كان ماءً فاختلط بما تفرزه رحم الأنثى من

البويضات فكان من مجموعهما عَلقة كما تقدم في فائدة التقييد بقوله في سورة النجم (46)

﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾

ولما كان تكوينه علقة هو مبدأ خلق الجسم عطف عليه قوله : فخلق ﴾ بالفاء ، لأن العلقة يعقبها أن تصير مضغة إلى أن يتم خلق الجسد وتنفخ فيه الروح .

وضمير ﴿ خلق ﴾ عائد إلى ﴿ ربك ﴾ [القيامة : 30] .

وكذلك عطف ﴿ فسَوّى ﴾ بالفاء .

والتسوية : جعل الشيء سواء ، أي معدلاً مقوماً قال تعالى : ﴿ فسواهن سبع سماوات ﴾ [البقرة : 29] وقال : ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ [الأعلى : 2] ، أي فجعله جسداً من عظم ولحم .

ومفعول (خلق) ومفعول (سوى) محذوفان لدلالة الكلام عليهما ، أي فخلقه فسوّاه .

وعُقب ذلك بخلقه ذكراً أو أنثى زوجين ومنهما يكون التناسل أيضاً .

وقرأ الجمهور ﴿ تُمنى ﴾ بالفوقية على أنه وصف ل ﴿ نطفة ﴾ .

وقرأه حفص ويعقوب بالتحتية على أنه وصف ﴿ مَنِيّ ﴾ .

(160/793)

وجملة ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل لأن خلق جسم الإِنسان من عدم وهو أمر ثابت بضرورة المشاهدة ، أحق بالاستبعاد من إعادة الحياة إلى الجسم بعد الموت سواء بقي الجسم غير ناقص أو نقص بعضُه أو معظمه فهو إلى بَثِّ الحياة فيه وإعادةِ ما فنِيَ من أجزائه أقرب من إيجاد الجسم من عدم .

والاستفهام إنكار للمنفي إنكارَ تقرير بالإِثبات وهذا غالب استعمال الاستفهام التقريري أن يقع على نفي ما يراد إثباته ليكون ذلك كالتوسعة على المقرَّر إن أراد إنكاراً كناية عن ثقة المتكلم بأن المخاطب لا يستطيع الإِنكار .

وقد جاء في هذا الختام بمحسّن ردّ العجز على الصدر ، فإن السورة افتتحت بإنكار أن يحسب المشركون استحالة البعث ، وتسلسلَ الكلام في ذلك بأفانين من الإِثبات والتهديد والتشريط والاستدلال ، إلى أن أفضى إلى استنتاج أن الله قادر على أن يحييَ الموتى وهو المطلوب الذي قدم في قوله : ﴿ أيحسب الإِنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّي بَنَانه ﴾ [القيامة : 3 ، 4] .

وتعميم الموتى في قوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ بعدَ جريان أسلوبِ الكلام على خصوص الإِنسان الكافر أو خصوص كافر معيّن ، يجعل جملة ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ تذييلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(161/793)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾

قال الشافعي رضى الله عنه أي مهملا لا يؤمر ولا ينهى وقال غيره لا يثاب ولا يعاقب والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهى فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهى في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة فأنكر سبحانه على من زعم أنه يترك سدى إنكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 12 ﴾

(162/793)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة القيامة وفي لفظ : نزلت ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت سورة ﴿ لا أقسم ﴾ بمكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : حدثنا أن عمر بن الخطاب قال : من سأل عن يوم القيامة فليقرأ هذه السورة والله أعلم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ يقول : أقسم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه قلت : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوّامة ﴾ قال : من النفس الملومة . قلت : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّي بنانه ﴾ قال : لو شاء لجعله خفاً أو حافراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ قال : يقسم الله بما شاء من خلقه ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوّامة ﴾ الفاجرة قال : يقسم بها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالنفس اللوّامة ﴾ قال : المذمومة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ بالنفس اللوامة ﴾ قال : التي تلوم على الخير والشر تقول لو فعلت كذا وكذا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ بالنفس اللوامة ﴾ قال : تندم على ما فات وتلوم عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ بالنفس اللوامة ﴾ قال : تندم على ما فات وتلوم عليه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن الحسن ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ قال : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديثي نفسي ، ولا أراه إلا يعاتبها ، وإن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه .

(163/793)

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ قال : نجعلها كفاً ليس فيه أصابع .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ قال : لو شاء لجعله كخف البعير أو كحافر الحمار ، ولكن جعله الله خلقاً

سوياً حسناً جميلاً تقبض به وتبسط به يا ابن آدم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ قال : يجعل رجليه كخف البعير فلا يعمل بها شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ قال : إن شاء رده مثل خف البعير حتى لا ينتفع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ قال : يجعل رجليه كخف البعير فلا يعمل بهما شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ قال : إن شاء رده مثل خف الجمل حتى لا ينتفع به .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ قال : على أن نجعل يديه ورجليه مثل خف البعير .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ فقال : إن الله أعف مطعم ابن آدم ولم يجعله خفاً ولا حافراً فهو يأكل بيديه فيتقي بها وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : يمضي قدماً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : هو الكافر يكذب بالحساب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ يعني الأمل يقول : أعمل ثم أتوب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الأمل والبيهقي في شعب الإِيمان عن عباس رضي الله عنهما ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : يقدم الذنب ويؤخر التوبة .

(164/793)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : يمضي أمامه راكباً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : يمشي قدماً في معاصي الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ بل يريد الإِنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : لا تلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قدماً قدماً إلا من عصم الله وفي قوله : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ يقول : متى يوم القيامة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ قال : يقول سوف أتوب ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ قال : يقول متى يوم القيامة . قال : فبين له ﴿ فإذا برق البصر ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ يعني الموت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فإذا برق البصر ﴾ يعني الموت .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ فإذا برق البصر ﴾ قال : شخص البصر ﴿ وخسف القمر ﴾ يقول : ذهب ضوءه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ قال : عند الموت ﴿ وخسف القمر وجمع الشمس والقمر ﴾ قال : كورا يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ قال : كورا يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن يسار في قوله : ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ قال : يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن خالد قال : قرأها ابن عباس

﴿ أين المفر ﴾ بنصب الميم وكسر الفاء . قال : وقرأها يحيى بن وثاب ﴿ أين المفر ﴾ بنصب الميم والفاء .

(165/793)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا حصن ولا ملجأ ، وفي لفظ لا حرز ، وفي لفظ لا جبل .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ لا وزر ﴾ قال : الوزر الملجأ . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عمرو بن كلثوم وهو يقول :

لعمرك ما إن له صخرة . . . لعمرك ما إن له من وزر

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأهوال وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا حصن .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعطية وأبي قلابة مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ كلا لا وزر ﴾ قال : كانت العرب إذا نزل

بهم الأمر الشديد قالوا : الوزر الوزير ، فلما أن جاء الله بالإِسلام قال : ﴿ كلا لا وزر ﴾ قال : لا جبل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : كان الرجل يكون في ماشيته فتأتيه الخيل بغتة فيقول له صاحبه : الوزر الوزير أي أقصد الجبل فتحصن به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا جبل .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي قلابة ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا غار لا ملجأ .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا جبل محرزة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا وزر يعني الجبل بلغة حمير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مطرف ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا جبل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال ﴿ لا وزر ﴾ قال : لا جبل ولا حرز ولا ملجأ ولا منجى ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ قال : المنتهى ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم ﴾ قال : من طاعة الله ﴿ وأخر ﴾ قال : وما ضيع من حق الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وإبراهيم ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ قال : بأول عمله وآخره .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في الآية قال : بما قدم من الذنوب والشر والخطايا وما أخر من الخير .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ بما قدم من عمله وما أخر من سنة عمل بها من بعده من خير أو شر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ قال : بما عمل قبل موته وما يسن فعمل به بعد موته .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح في قوله : ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ قال : قدم من حسنة أو أخر من سنة حسنة عمل بها بعده علماً علمه صدقة أمر بها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ يقول : بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة فينبأ بذلك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين عن الحسن في قوله : ﴿ ينبأ الإِنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ قال : ينزل ملك الموت عليه مع حفظة فيعرض عليه الخير والشر فإذا رأى حسنة هش وأشرق ، وإذا رأى سيئة غض وقطب .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن مجاهد قال : بلغنا أن نفس المؤمن لا تخرج حتى يعرض عليه عمله

خيره وشره .

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر من طريق عن ابن عباس في قوله : ﴿ بل الإِنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال : الإِنسان شهيد على نفسه وحده ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ قال : ولو اعتذر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ بل الإِنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال : شاهد عليها بعملها ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ قال : واعتذر يومئذ بباطل لم يقبل الله ذلك منه يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ قال : لو جادل عنها هو بصير عليها .

(167/793)

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ قال : حجته .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمران بن جبير قال : قلت لعكرمة : ﴿

بل الإِنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ فسكت وكان يستاك ، فقلت : إن الحسن قال : يا ابن آدم عملك أحق بك ، قال : صدقت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ بل الإِنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال : إذا شئت رأيته بصيراً بعيون الناس غافلاً عن عيبه ، قال : وكان يقال في الإِنجيل : مكتوب يا ابن آدم أتبصر القذاة في عين أخيك ولا تبصر الجذل المعترض في عينك ؟ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ بل الإِنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال : سمعه وبصره ويده ورجليه وجوارحه ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ قال : ولو تجرد من ثيابه .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ قال : ستوره بلغة أهل اليمن .

أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتلفت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال : يقول إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرؤه ﴿ فإذا قرأناه ﴾ يقول : إذا أنزلناه عليك ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فاستمع له وأنصت ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ بينه بلسانك ، وفي لفظ علينا أن نقرأه فكان رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق . وفي لفظ استمع فإذا ذهب قرأكما وعده الله عز وجل .

(168/793)

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن تعجل بقراءته ليحفظه فنزلت هذه الآية ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم ختم سورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفتر عن القرآن مخافة أن ينساه فقال الله : لا تحرك به لسانك ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أن نجمعه لك ﴿ وقرآنه ﴾ أن تقرأه فلا تنسى ﴿ فإذا قرأناه ﴾ عليك ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ يقول : إذا يتلى عليك فاتبع ما فيه ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ يقول : حلاله وحرامه فذلك بيانه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرن تعجل بقراءته ليحفظه فنزلت هذه الآية ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم ختم سورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن

الرحيم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفتر عن القرآن مخافة أن ينساه فقال الله : لا تحرك به لسانك ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أن نجمعه لك ﴿ وقرآنه ﴾ أن تقرأه فلا تنسى ﴿ فإذا قرأناه ﴾ عليك ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ يقول : إذا يتلى عليك فاتبع ما فيه ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ يقول : حلاله وحرامه فذلك بيانه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فإذا قرأناه ﴾ قال : بيناه ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ يقول : اعمل به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ قال : كان يستذكر القرآن مخافة النسيان ، فقيل له : كفيناكه يا محمد .

(169/793)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه بالقرآن مخافة النسيان . فأنزل الله ما تسمع ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ يقول : إن علينا حفظه وتأليفه ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ يقول

اتبع حلاله واجتنب حرامه ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ قال : بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21)

أخرج سعيد بن منصور عن مجاهد أنه كان يقرأ ﴿ كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ "كلا بل تحبون العاجلة" بالتاء "وتذرون الآخرة" بالتاء .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة ﴾ قال : اختار أكثر الناس العاجلة إلا من رحم الله وعصم .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود في قوله : ﴿ كلا بل يحبون العاجلة ﴾ قال : عجلت لهم الدنيا سناها وخيرها وغيبت عنهم الآخرة .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : ناعمة .

وأخرج ابن المنذر والآجري في الشريعة واللالكائي في السنة والبيهقي في الرؤية عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : يعني حسنها ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : نظرت إلى الخالق .

وأخرج ابن المنذر والآجري عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة

﴿ قال : نضر الله تلك الوجوه وحسنها للنظر إليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم واللالكائي عن مجاهد ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : مسرورة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : بهجة لما هي فيه من النعمة .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : النضارة البياض والصفاء ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : ناظرة إلى وجه الله .

(170/793)

وأخرج ابن المنذر والآجري واللالكائي والبيهقي عن عكرمة ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : ناضرة من النعيم ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنظر إلى الله نظراً .

وأخرج الدارقطني والآجري واللالكائي والبيهقي عن الحسن في الآية قال : النضرة الحسن نظرت إلى ربها فنضرت بنوره .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ يقول : حسنة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنظر إلى الخالق .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : مسرورة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : انظر ما أعطى الله عبده من النور في عينيه أن لو جعل نور أعين جميع خلق الله من الإِنس والجن والدواب وكل شيء خلق الله فجعل نور أعينهم في عيني عبد من عباده ثم كشف عن الشمس ستراً واحداً ودونها سبعون ستراً ما قدر على أن ينظر إلى الشمس ، والشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر . قال عكرمة : انظروا ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه أن نظر إلى وجه الرب الكريم عياناً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنظر إلى وجه ربها .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ قال : " ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حد محدود ولا صفة معلومة " .

(171/793)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية والحاكم وابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أدنى أهل الجنة منزلاً لمن ينظر إلى جناته وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : البياض والصفاء ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله " .

(172/793)

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي والدارقطني في الرؤية والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال : " قال الناس يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا

فإذا أتانا ربنا عرفناه فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه . ويضرب جسر جهنم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأكون أول من يجيز ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، وفيه كلاليب مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمتها إلا الله فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ، ثم ينجو حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرجه ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفونهم بآثار السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في جميل السيل . ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، فيقول : يا رب قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فأصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعوا الله فيقول لعلي : إن أعطيتك ذلك تسألني غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره . فيصرف وجهه عن النار ، ثم يقول بعد ذلك : يا رب قربني إلى باب الجنة فيقول : أليس قد زعمت لا تسألني غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك فلا يزال يدعو فيقول لعلي : إن أعطيتك ذلك تسألني غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره . فيعطي الله من عهود ومواثيق

(173/793)

أن لا يسأله غيره ، فيقربه إلى باب الجنة ، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت فيقول : رب أدخلني الجنة . فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك . فيقول : رب لا تجعلني أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله عز وجل ، فإذا ضحك منه أذن له في الدخول فيها ، فإذا دخل فيها قيل له : تمنّ من كذا فيتمنى ، ثم يقال له : تمنَّ من كذا فيتمنى حتى تنقطع به الأماني ، فيقول : هذا لك ومثله معه . قال أبو هريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة . قال : وأبو سعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لا يغير عليه شيئاً من حديثه حتى انتهى إلى قوله : هذا لك ومثله معه . قال أبو سعيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هذا لك وعشرة أمثاله " قال أبو هريرة : حفظت ومثله معه " .

(174/793)

وأخرج الدارقطني في الرؤية عن أبي هريرة قال : " سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : فهل تضارون في رؤية الشمس عند الظهيرة ليست في سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون

في رؤية ربكم عز وجل كما لا تضارون في رؤيتهما ، فيلقى العبد فيقول : يا عبدي ألم أكرمك ؟ ألم أسودك ؟ ألم أزوجك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإِبل ، وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب . قال : فاليوم أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول : ألم أسودك ؟ ألم أزوجك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإِبل ؟ وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب . قال : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ قال : لا يا رب . قال : فاليوم أنساك كما نسيتني . قال : ثم يلقى الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقال له : ألا نبعث عليك شاهداً فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي ؟ قال : فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فينطق فخذه ولحمه وعظمه بما كان يعمل ذلك المنافق وذلك بعذر من نفسه ، وذلك الذي يسخط الله عليه ، ثم ينادي منادٍ : ألا اتبعت كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع أولياء الشيطان الشيطان ، واتبعت اليهود والنصارى أولياءهم إلى جهنم ، ثم نبقى أيها المؤمنون فيأتينا ربنا عز وجل ، وهو ربنا ، فيقول : علام هؤلاء قيام فيقولون : نحن عباد الله المؤمنون عبدناه وهو ربنا وهو آتينا ومثيبنا وهذا مقامنا ، فيقول الله عز وجل : أنا ربكم فامضوا فيوضع الجسر وعليه كلاليب من نار تخطف الناس ، فعند ذلك حلت الشفاعة أي اللهم سلم ، فإذا جاوز الجسر فمن أنفق زوجاً من المال مما يملك في سبيل الله وكل خزنة الجنة يدعوه يا عبد الله يا مسلم هذا خير فتعال . قال أبو بكر : يا رسول الله إن ذلك العبد لا ترى عليه

يدع باباً ويلج من آخر فضرب النبي صلى الله عليه وسلم منكبيه وقال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون منهم " .

وأخرج الدارقطني في الرؤية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء الرب عز وجل إلى المؤمنين ، فوقف عليهم والمؤمنون على كوم فيقول : هل تعرفون ربكم عز وجل ؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه . فيقول لهم الثانية : هل تعرفون ربكم ؟ فيقولون : إن عرفنا نفسه عرفناه . فتجلى لهم عز وجل فيضحك في وجوههم فيخرون له سجداً " .

وأخرج النسائي والدارقطني وصححه عن أبي هريرة قال : " قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا ؟ قال : هل ترون الشمس في يوم لا غيم فيه ، وترون القمر في ليلة لا غيم فيها ، ؟ قلنا : نعم قال : فإنكم سترون ربكم عز وجل حتى إن أحدكم ليحاضر ربه محاضرة ، فيقول عبدي : هل تعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : ألم تغفر لي ؟ فيقول : بمغفرتي صرت إلى هذا " .

وأخرج الدارقطني عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ترون الله عز وجل

يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر أو كما ترون الشمس ليس دونها سحاب " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارقطني عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن الله ليتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : " قلنا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس فيه سحاب ؟ قلنا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيه سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : ما تضارون في رؤيته يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما " .

(176/793)

وأخرج عبد بن حميد والدارقطني وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجمع الله الأمم يوم القيامة بصعيد واحد ، فإذا أراد الله عز وجل أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يقحموهم النار ، ثم يأتينا ربنا عز وجل ونحن على مكان رفيع ، فيقول : من أنتم ؟ فيقولون : نحن المسلمون ، فيقول : ما تنتظرون ؟ فيقولون : ننتظر ربنا عز وجل . فيقول : وهل تعرفونه إن رأيتموه ؟

فيقولون : نعم ، فيقول : كيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون : نعرفه إنه لا عدل له . فيتجلى لنا ضاحكاً ثم يقول : أبشروا يا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا جعلت له مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً " .

وأخرج ابن عساكر عن أبي موسى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا ، ويبقى أهل التوحيد ، فيقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : إن لنا لرباً كنا نعبده في الدنيا لم نره . قال : وتعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال لهم : وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبيه له . قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تبارك وتعالى فيخرون له سجداً ، ويبقى أقوام في ظهورهم مثل صياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ [القلم : 42] ويقول الله عز وجل : عبادي ارفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل وفي لفظ فداء كل رجل منكم رجلاً من اليهود أو النصارى في النار " .

وأخرج الدارقطني عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد إلا ويخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر " .

وأخرج الدارقطني عن عبد الله بن عمرو قال : ليخلون الله عز وجل بكم يوم القيامة واحداً واحداً في المسألة حتى تكونوا في القرب منه أقرب من هذا ، وأشار إلى شيء قريب .

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله عز وجل " .

وأخرج أحمد ومسلم والدارقطني من طريق أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الورود فقال : نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد ، الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول : ما تنتظرون ؟ فيقولون : ننتظر ربنا . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : حتى ننظر إليك ، فتجلى لهم يضحك فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان منهم نوراً .

وأخرج الدارقطني عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يتجلى لنا ربنا عز وجل ينظرون إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول : ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة " .

وأخرج الدارقطني عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر الصديق خاصة " .

وأخرج الدارقطني والخطيب عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم اقرأه هذه الآية ﴿

وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ قال : والله ما نسختها منذ أنزلها يزورون ربهم تبارك وتعالى فيطعمون ويسقون ويتطيبون ويحلون ويرفع الحجاب بينه وبينهم فينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل ، وذلك قوله : عز وجل

﴿ لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ [مريم : 62] .

وأخرج الدارقطني عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم عز وجل فاحد ثم عهداً بالنظر إليه في كل جمعة ويراه المؤمنات يوم الفطر ويوم النحر " .

(178/793)

وأخرج الدارقطني عن أنس قال : بينما نحن حول رسول صلى الله عليه وسلم إذ قال : " أتاني جبريل وفي يده كالمرآة البيضاء في وسطها كالنكتة السوداء ، قلت يا جبريل : ما هذا ؟ قال : هذا يوم الجمعة يعرض عليك ربك ليكون لك عيداً ولأمتك من بعدك . قلت يا جبريل : فما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هذه الساعة وهي تقوم في يوم الجمعة ، وهو سيد أيام الدنيا ، ونحن ندعوه في الجنة يوم المزيد . قلت يا جبريل : ولم تدعونه يوم المزيد ؟ قال : لأن الله عز وجل اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة ينزل ربنا

على كرسي إلى ذلك الوادي وقد حف العرش بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر ، وقد حفت تلك المنابر بكراسي من نور ، ثم يأذن لأهل الغرفات فيقبلون يخوضون كثائب المسك إلى الركب ، عليهم أسورة الذهب والفضة ، وثياب السندس والحرير ، حتى ينتهوا إلى ذلك الوادي ، فإذا اطمأنوا فيه جلوساً بعث الله عز وجل عليهم ريحاً يقال لها المثيرة ، فثارت ينابيع المسك الأبيض في وجوههم وثيابهم ، وهم يومئذ جرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين يضرب جمامهم إلى سررهم على صورة آدم يوم خلقه الله عز وجل ، فينادي رب العزة تبارك وتعالى رضوان ، وهو خازن الجنة ، فيقول : يا رضوان ارفع الحجب بيني وبين عبادي وزواري ، فإذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هبوا له سجوداً فيناديهم عز وجل بصوت : ارفعوا رؤوسكم فإنما كانت العبادة في الدنيا ، وأنتم اليوم دار الجزاء ، سلوني ما شئتم فأنا ربكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي ، فهذا محل كرامتي فسلوني ما شئتم . فيقولون : ربنا وأيّ خير لم تفعله بنا ألست الذي أعنتنا على سكرات الموت ، وآنست منا الوحشة في ظلمات القبور ، وآمنت روعتنا عند النفخة في الصور ؟ ألست أقلتنا عثراتنا ، وسترت علينا القبيح من فعلنا ، وثبت على جسر جهنم أقدامنا ؟ ألست الذي ادنيتنا في جوارك ، وأسمعتنا من لذاذة منطقك ، وتجليت لنا بنورك ؟

فأي خير لم تفعله بنا ؟ فيعود عز وجل فيناديهم بصوته ، فيقول : أنا ربكم الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، فسلوني ، فيقولون : نسألك رضاك . فيقول : رضاي عنكم أقلتكم عثراتكم وسترت عليكم القبيح من أموركم ، وأدنيت مني جواركم ، وأسمعتكم لذاذة منطقي ، وتجليت لكم بنوري ، فهذا محل كرامتي فسلوني . فيسألونه حتى تنتهي مسألتهم ، ثم يقول عز وجل : سلوني ، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم . ثم يقول عز وجل : سلوني فيقولون : رضينا ربنا وسلمنا ، فيزيدهم من مزيد فضلة وكرامته ، ويزيد زهرة الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر ، ويكون كذلك حتى مقدار متفرقهم من الجمعة . قال أنس : فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله وما مقدار تفرقهم ؟ قال : كقدر الجمعة إلى الجمعة . قال : يحمل عرش ربنا العليون معهم الملائكة والنبيون ، ثم يؤذن لأهل الغرفات ، فيعودون إلى غرفهم ، وهم غرفتان زمردتان خضروان ، وليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى ويوم الجمعة لينظروا إلى ربهم ، وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته "

قال أنس : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بيني وبينه أحد .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والحاكم عن لقيط بن عامر أنه خرج وافداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم ، قال : فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من صلاة الغداة فقام في الناس خطيبا فقال : " يا أيها الناس ألا إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام لأسمعكم ، ألا فهل من امرىء بعثه قومه ؟ فقالوا اعلم لنا ما يقول رسول الله الاتم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه ، أو يلهيه الضلال ، ألا إني مسؤول هل بلغت ألا اسمعوا تعيشوا ، ألا اجلسوا ، ألا اجلسوا . قال : فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلنا يا رسول الله ما عندك من علم الغيب ؟ فضحك لعمر الله وهز رأسه وعلم أني الفتى ، فقال : ضن ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله ، وأشار بيده . قلت وما هن ؟ قال : علم المنية قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه . وعلم ما في الغد ما أنت طاعم غداً ولا تعلمه ، وعلم يوم الغيم يشرف عليكم إذا قنطتم مشفقين فيظل يضحك قد علم أن غيركم إلى قريب . قال لقيط : قلت لن نعدم من رب يضحك خيراً وعلم يوم الساعة . قلت يا رسول الله : علمنا ما يعلم الناس وما يعلم صاحبي ، فإنا في قبيل لا يصدقون تصديقنا من أحد مذحج التي قربوا علينا ، وخثعم التي توالينا ، وعشيرتنا التي نحن منها . قال : تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ، ثم تلبثون ما لبثتم ،

ثم تبعث الصائحة لعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك عز وجل ، فأصبح ربك عز وجل يطوف في البلاد ، وقد خلت عليه البلاد ، فأرسل ربك السماء بمهضب من عند العرش ، ولعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصدع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت الأرض عنه حتى تجعله من عند رأسه فيستوي جالساً يقول ربك مهيم لما كان فيه . يقول يا رب أمس اليوم ولعهده بالحياة يحسبه حديثاً بأهله فقلت يا رسول

(181/793)

الله : كيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟ قال : أنبئك بمثل ذلك من آلاء الأرض أشرفت عليها وهي مذرة بالية فقلت : لا تحيا أبداً ثم أرسل ربك عليها السماء ، فلم تلبث عنك إلا أياماً حتى أشرفت عليها وهي سرية واحدة ، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعهم من الماء وعلى أن يجمعهم من نبات الأرض ، فيخرجون من الأصواء أو من مصارعهم ، فينظرون إليه ، وينظر إليهم . قلت : يا رسول الله : وكيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه ؟ قال : أنبئك بمثل ذلك من آلاء الله الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة ، وتريانهما لا تضارون في رؤيتهما ،

ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم ، وترونه أو ترونهما ويريانكم لا تضارون في رؤيتهما .

قلت يا رسول الله فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟ قال : تعرضون عليه بادية له صفحاتكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك بيده غرفة من ماء ، فينضح قبلكم بها ، فلعمر إلهك ما يخطىء وجه أحد منه قطرة ، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الربطة البيضاء ، وأما الكافر فتخطمه بمثل الحميم الأسود . ألا ثم ينصرف نبيكم صلى الله عليه وسلم ويصرف على أثره الصالحون فيسلكون جسراً من النار فيظل أحدكم يقول : حس ، يقول ربك : أو أنه فتطلعون على حوض الرسول على أظمأ والله ناهلة قط رأيتها ، ولعمر إلهك ما يبسط واحد منكم يده إلا وقع عليها قرح بطهره من الطرف والبول والأذى ويحبس الشمس والقمر ولا ترون منهما واحداً . قلت يا رسول الله : فيم نبصر ؟ قال : بمثل بصرك ساعتك هذه ، وذلك قبل طلوع الشمس في يوم أشرقت الأرض . قلت يا رسول الله : فما يجزي من حسناتنا وسيئاتنا ؟ قال : الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إلا أن يعفو ربك ، قلت يا رسول الله : ما الجنة وما النار ؟ قال : لعمر إلهك أما للنار فسبعة أبواب ما منهن باب إلا يسير الراكب فيها سبعين عاماً . قلت يا رسول الله : فعلام نطلع من الجنة ؟ قال :

على أنهار من عسل مصفى وأنهار من كأس ما بها من صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله معه ، وأزواج مطهرة . قلت يا رسول الله : ولنا فيها أزواج ؟ قال : الصالحات للصالحين تلذونهم بمثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لا توالد . قال لقيط : فقلت : أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه ؟ قلت يا رسول الله : علام أبايعك ؟ فبسط النبي صلى الله عليه وسلم يده ، وقال : على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وزيال الشرك ، وأن لا تشرك بالله شيئاً غيره . قلت : وإن لنا ما بين المشرق والمغرب . فقبض النبيّ صلى الله عليه وسلم يده ، وبسط أصابعه وظن أني مشترط شيئاً لا يعطينيه . قلت : نحل منها حيث شئنا ولا يجني على أمرىء إلا نفسه . فبسط يده وقال : ذلك لك تحلة حيث شئت ، ولا يجني عليك إلا نفسك : قال : فانصرفنا وقال لنا : إن هذين لعمر إلهك من أتقى الناس في الدنيا والآخرة . فقال له كعب : من هم يا رسول الله ؟ قال : بنو المنتقف أهل ذلك . فانصرفنا وأقبلت عليه فقلت يا رسول الله : هل لأحد فيما مضى من خير في جاهليتهم ؟ قال : قال رجل من عرض قريش : والله إن أباك المنتقف لفي النار . قال : فلكأنه وقع من بين جلدي ووجهي مما قال لأبي على رؤوس الناس ، فهممت أن أقول وأبوك يا رسول الله . ثم قلت يا رسول الله : وأهلك ؟ قال : وأهلي لعمر الله ، ما أتيت عليه من قبر عامري أو قرشي مشرك فقل أرسلني إليك محمد فأبشرك بما يسوءك تجر على وجهك وبطنك في النار . قلت يا رسول الله : ما فعل بهم ذلك

وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه وقد كانوا يحسبون أنهم مصلحون ؟ قال : ذلك بما قال : بأن الله بعث في آخر كل سبع أمم نبياً فمن عصى نبيه كان من الضالين ، ومن أطاع نبيه كان من المهتدين " .

(183/793)

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة عن أبي رزين قال : " قلت يا رسول الله : أكلنا يرى ربه يوم القيامة مخلياً به ؟ قال : نعم . قلت : وما آية ذلك قال : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به ؟ قالت : بلى . قال : فالله أعظم " .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : أول من ينظر إلى الله تبارك وتعالى الأعمى .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن موسى بن صالح بن الصباح رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله فيقومون بين يديه ثلاثة أصناف ، فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليها . فيقول : عبدي إنما عملت للجنة فادخلها ، ومن فضلي

عليك أن أعتقك من النار ، فيدخلها هو ومن معه . ثم يؤتى بالصنف الثاني فيقول : عبدي لما عملت ؟ فيقول : يا رب خلقت ناراً وخلقت أغلاها وسعيرها وسمومها ويحمومها وما أعددت لأعدائك ولأهل معصيتك فيها ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري خوفاً منها . فيقول : عبدي إنما عملت خوفاً من النار ، فإني أعتقتك من النار ومن فضلي عليك أدخلتك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة ، ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول : عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : ربي حباً لك وشوقاً إليك ، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليك وحباً لك ، فيقول الله : عبدي إنما عملت شوقاً إليّ وحباً لي فيتجلى له الرب ، فيقول : ها أنا ذا أنظر إليّ . ثم يقول : فضلي عليك أن أعتقك من النار ، وأبيحك جنتي ، وأزيرك ملائكتي ، وأسلم عليك بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة .

(184/793)

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والبيهقي في الأعمال والصفات عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهؤلاء الدعوات : " اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحكم في

الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا يبيد وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإِيمان ، واجعلنا هداة مهتدين " .

(185/793)

وأخرج البيهقي " عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه دعاء ، وأمره أن يتعاهده ويتعاهد به أهل كل يوم ، قال : حين تصبح لبيك الله لبيك لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وبك وإليك ، الله ما قلت من قول أو حلفت من حلف أو نذرت من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير ، اللهم ما صليت من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعن فعلى من لعنت . أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين . أسألك اللهم الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . أعوذ بك أن أظلم ، أو أظلم أو أعتدي أو يعتدى عليّ ، أو أكسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره . اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ،

ذا الجلال والإِكرام فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك ، وكفى بك شهيداً أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك لك الملك ، ولك الحمد ، وأنت على كل شيء قدير . وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور ، وأشهد أنك أن تكلني إلى نفسي تكلني إلى وهن وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال : حسنة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنتظر الثواب من ربها .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنتظر منه الثواب .

أخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ قال : كالحة قاطبة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عبيد بن الأزرق وهو يقول :

صبحنا تميماً غداة النسا . . . ر شهباء ملمومة باسرة

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ قال : كالحة ﴿ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ قال : أن يفعل بها شر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ قال : كاشرة ﴿ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ قال : داهية .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ قال : الحلقوم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وقيل من راق ﴾ قال : من طبيب شاف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي قلابة رضي الله عنه ﴿ وقيل من راق ﴾ قال : التمسوا الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً ﴿ وظن أنه الفراق ﴾ قال : استيقن أنه الفراق ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : ماتت ساقاه فلم تحملاه ، وكان عليهما جوّالاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وقيل من راق ﴾ قال : هو الطبيب .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وقيل من راق ﴾ قال : من راق يرقي .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وقيل من راق ﴾ قيل : تنتزع نفسه حتى إذا كانت في تراقيه قيل من يرقى بروحه ؟ ملائكة الرحمة ، أو ملائكة العذاب ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي العالية في قوله : ﴿ وقيل من راق ﴾ قال : يختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيهم يرقى به ؟ .

وأخرج ابن جرير عن أبي الجوزاء رضي الله عنه في قوله : ﴿ وقيل من راق ﴾ قال : قالت الملائكة بعضهم لبعض من يصعد به أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ .

(187/793)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ : " وأيقن أنه الفراق " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ يقول: آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال: التف أمر الدنيا بأمر الآخرة عند الموت.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال: لفت ساق الآخرة بساق الدنيا، وذكر قول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق... وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والربيع وعطية والضحاك مثله.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال: بلاء ببلاء.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال: اجتمع فيه الحياة والموت.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال: تلف ساقاه عند الموت للنزع.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال: التفت ساقاه عند

الموت .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : أما رأيت إذا حضر ضرب برجله رجله الأخرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : الناس مجهزون بدنه والملائكة مجهزون روحه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه أنه سئل عن قوله : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال : هما ساقاه إذا التفتا في الأكفان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ قال : في الآخرة .

(188/793)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا صدق ﴾ قال : بكتاب الله ﴿ ولا صلى ولكن كذب ﴾ بكتاب الله ﴿ وتولى ﴾ عن طاعة الله ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ قال : يتبختر ، وهو أبو جهل بن هشام كانت مشيته . ذكر لنا أن نبي الله أخذ بمجامع ثوبه فقال : ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى

﴿ وعيداً على وعيد ، فقال : ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبليها ، وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ قال : يتبختر ، وهو أبو جهل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يتمطى ﴾ قال : يختال .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس عن قول الله : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل من قبل نفسه ، أم أمره الله به ؟ قال : بلى . قاله من قبل نفسه ، ثم أنزله الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أن يترك سدى ﴾ قال : هملاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أن يترك سدى ﴾ قال : باطلاً لا يؤمر ولا ينهى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد " عن قتادة في قوله : ﴿ أن يترك سدى ﴾ قال : أن

يهمل ، وفي قوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قرأها : " سبحانه وبلى " " .

(189/793)

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن صالح أبي الخليل قال : " كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآية ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان ربي وبلى " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال : " سبحانك اللهم وبلى " " .

وأخرج البخاري في تاريخه عن أبي أمامة قال : " صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حجته فكان يكثر من قراءة ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فإذا قال ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ سمعته يقول : " بلى وأنا على ذلك من الشاهدين " " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والبيهقي في سننه عن موسى بن أبي عائشة قال : كان رجل يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال : سبحانك فبلى ، فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل : بلى ، ومن قرأ ﴿ والمرسلات ﴾ فبلغ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ فليقل : آمنا بالله " .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأت ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فبلغت ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فقل : بلى " .

(190/793)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس قال : إذا قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقل : سبحان ربي الأعلى ، وإذا قرأت ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فقل : سبحانك وبلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 342 . 364 ﴾

(191/793)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

أجمع أهل التفسير أن معناه أقسم ، واختلفوا في تفسير لا .

قال بعضهم : والكلام زيادة للزينة ، ويجري في كلام العرب زيادة لا ، كما في آية أخرى .

قال : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12] يعني : أن تسجد .

وقال بعضهم : لا رد لكلامهم ، حيث أنكروا البعث .

فقال : ليس الأمر كما ذكر .

ثم قال : ﴿ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ ويقال : معناه أقسم برب يوم القيامة إنها كائنة .

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ يعني : أقسم بخالق النفس اللوامة ، وهي نفس ابن آدم ، يلوم نفسه .

كما روي عن ابن عباس ، وعن عمر رضي الله عنهم : ما من نفس برة وفاجرة ، إلا تلوم نفسها ، إن كانت محسنة تقول : يا ليتني زدت إحساناً ، وإن كانت سيئة تقول : يا ليتني تركت .

ولم يذكر جواب القسم ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، وهو قوله ﴿ بلى قادرين ﴾ ومعناه : ولا أقسم بالنفس اللوامة ، لتبعثن بعد الموت .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ يعني : أيظن الكافر ﴿ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ يعني : أن لن يبعث الله بعد الموت .

نزلت في أبي بن خلف ، ويقال : في عدي بن الربيعة ، لإنكار البعث بعد الموت .

يقول الله تعالى : ﴿ بلى قادرين ﴾ يعني : إن الله تعالى قادر ﴿ على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ يعني : يجعل أصابعه ملتزقة ، وألحق الراحة بالأنامل .

وهذا قول ابن عباس .

وقال القتبي : فكأنه يقول : أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه في الآخرة ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه ، يعني : أن نجمع ما صغر منه ، ونؤلف بينه .

أي : نعيد السلاميات على صغرها ، ومن قدر على جمع هذا ، فهو على جمع كبار العظام أقدر .

وقال مجاهد : على أن نسوي خفه كخف البعير ، لا يعمل به شيئاً .

(192/793)

وقال سعيد بن جبير يعني : كنف البعير ، أو كحافر الدابة والحمر ، لأنه ليس من دابة ، إلا وهي تأكل بفمها غير الإنسان .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يعني : يقدم ذنوبه ، ويؤخر توبته ويقول : سوف أتوب ، ولا يترك الذنوب ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه .

وقال عكرمة : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يعني : يريد الذنوب في المستقبل .

وقال القتبي : بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، فقد كثرت فيه التفاسير .

وقال سعيد بن جبير سوف أتوب ، وقال الكلبي : يكثر الذنوب ، ويؤخر التوبة .

وقال آخرون : يتمنى الخطيئة ، وفيه قول آخر على طريق الإنكار ، بأن يكون الفجور بمعنى : التكذيب بيوم القيامة ، ومن كذب بالحق ، فقد فجر ، وأصل الفجور : الميل .

فقيل : للكاذب والمكذب والفاسق فاجر ، لأنه مال عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ يعني : يسأل متى يوم القيامة ، تكذيباً بالبعث .

فكأنه قال : بل يريد الإنسان أن يكذب بيوم القيامة ، وهو أمامه ، وهو يسأل متى يكون .

فبين الله تعالى في أي يوم يكون فقال : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ يعني : شخص البصر ، وتحير .

قرأ نافع ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ بنصب الراء ، والباقون بالكسر .

فمن قرأ بالنصب ، فهو من برق يبرق بريقاً ، ومعناه : شخص فلا يطرق من شدة الفزع .

ومن قرأ بالكسر ، يعني : فزع وتحير .

وأصله : أن الرجل إذا رأى البرق تحير ، وإذا رأى من أعاجيب يوم القيامة ، تحير ودهش .

﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ يعني : ذهب ضوؤه ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ يعني : كالثورين المقرنين .

ويقال : برق البصر ، وخسف القمر .

قال كوكب العين ذهب ضوؤه .

وروى علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه أنه قال : يجعلان في نور الحجاب .

ويقال : جمع الشمس والقمر ، يعني : سوى بينهما في ذهاب نورهما ، وإنما قال : وجمع الشمس والقمر ، ولم يقل وجمعت ، لأن المؤنث والمذكر إذا اجتمعا ، فالغلبة للمذكر .

(193/793)

﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ يقول : أين الملجأ من النار ؟ قرىء في الشاذ ، أين المفر بالكسر للفاء ، على معنى : أين مكان الفرار .

وقراءة العامة بالنصب ، يعني : أين الفرار .

ثم قال : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ يعني : حقاً لا جبل يلجؤون إليه ، فيمنعهم من النار ، ولا شجر

يواريهم .

والوزر في كلام العرب ، الجبل الذي يلتجىء إليه ، والوزر والستر هنا ، الشيء الذي يستترون به .

وقال عكرمة : ولا وزر .

يعني : منعه .

وقال الضحاك : يعني : لا حصن لهم يوم القيامة .

ثم قال عز وجل : ﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ يعني : المرجع ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ يعني : يسأل ويبين له ، ويجازى بما قدم من الأعمال وأخر ، من سنة صالحة أو سيئة .

قوله عز وجل : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يعني : جوارح العبد شاهدة عليه .

ومعناه على الإنسان من نفسه شاهد ، يشهد عليه كل عضو بما فعل .

ويقال يعني : جوارح ، العبد شاهدة عليه ، ومعناه رقيب بعضها على بعض .

والبصيرة أدخلت فيها الهاء للمبالغة ، كما يقال : رجل علامة .

وقال الحسن : على نفسه بصيرة ، يعني : بعيوب غيره ، الجاهل بعيوب نفسه ﴿ وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ يعني : ولو تكلم بعذر لم يقبل منه .

ويقال : ولو أرخى ستوره ، يعني : أنه شاهد على نفسه ، وإن أذنب في الستور .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ يعني : لا تعجل بقراءة القرآن ، من قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءته وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا نزل عليه القرآن ، تعجل به للحفظ فنزل : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ يعني : حفظه في قلبك ﴿ وَقُرْءانَهُ ﴾ يعني : يقرأ عليك جبريل ، حتى تحفظه ﴿ فَإِذَا قرأناه فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ يعني : إذا قرأ عليك جبريل فاقرأ أنت بعد قراءته وفراغه وقال محمد بن كعب : فاتبع قراءته ، يعني : فاتبع حلاله وحرامه .

وقال الأخفش : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ يعني : تأليفه ﴿ فَإِذَا قرأناه فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ يعني : تأليفه ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يعني : بيان أحكامه وحدوده .

ويقال : علينا بيانه ، يعني : شرحه .

ويقال : بيان فرائضه ، كما بين على لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم نزل بعد هذه الأحكام ، قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ يعني : تحبون العمل للدنيا ﴿ وَتَذَرُونَ الآخرة ﴾ يعني : تتركون العمل للآخرة .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بل يحبون بالياء ، على معنى الخبر عنهم .

والباقون بالتاء ، على معنى المخاطبة .

ثم بين حال ذلك اليوم فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أي : حسنة مشرقة مضيئة ، كما قال في آية أخرى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] ﴿ وَإِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يعني : ناظرين يومئذ إلى الله تبارك وتعالى .

وقال مجاهد : ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يعني : تنتظر الثواب من ربها .

وهذا القول لا يصح ، لأنه مقيد بالوجوه ، موصول بإلى ، ومثل هذا ، لا يستعمل في الانتظار .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ يعني : عابسة .

ويقال : كريهة .

(195/793)

ويقال : كاسفة ومسودة ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ يعني : تعلم أنه قد نزل بها العذاب والشدة .

يعني : تعلم هذه الأنفس .

ويقال : الفاقرة الداهية ، ويقال : قد أيقنت أن العذاب نازل بها .

ثم قال عز وجل : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ يعني : حقاً إذا بلغت النفس إلى الحلقوم .

يعني : خروج الروح ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ يعني : يقول من حضر عند الموت ، هل من طبيب حاذق يداويه ؟ ويقال : من راق ، يعني : من يشفي من هذا الحال .

ويقال : من راق ، يعني : من يقدر أن يرقي من الموت .

يعني : لا يقدر أحد أن يرقي من الموت .

والعرب تقول : من الرقية ، رقى يرقي رقيةً ، ومن الرقيّ وهو الصعود ، رقي يرقى رقياً ، فهو راق منهما .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ يعني : استيقن أنه ميت ، وأنه يفارق الروح من الجسد .

ويقال : وقيل من راق ، أن الملائكة الذين حضروا لقبض روحه يقول : بعضهم لبعض ، من راق يعني من يصعد منا بروحه إلى السماء ، فأيقن عند ذلك أنه الفراق ﴿ والتفت الساق بالساق إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ قال ابن عباس : يعني : التفت شدتان أخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من الآخرة .

وروى وكيع ، عن بشير بن المهاجر قال : سمعت الحسن يقول : والتفت الساق بالساق ، قال : هما ساقان إذا التفتا في الكفن ، إلى ربك يومئذٍ المساق يعني : يساق العبد إلى ربه .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ وهو أبو جهل بن هشام ، يعني : لم يصدق

بتوحيد الله تعالى ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يصل لله تعالى .

ويقال : ﴿ وَلاَ صلى ﴾ يعني : ولا أسلم .

(196/793)

فسمي المسلم مصلياً ﴿ ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ يعني : كذب بالتوحيد ، وتولى يعني : أعرض عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ قال القتبي : يعني : وأصله في اللغة يتمطط فقلبت الطاء ياء فصار يتمطى يعني : ذهب إلى أهله يتمطى يعني : ويتبختر في مشيته ﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ وعيد على أثر وعيد ، يعني : احذر يا أبا جهل .

﴿ يتمطى أولى لَكَ ﴾ أي : قرب لك يا أبا جهل .

وقال سعيد بن جبير : قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي جهل : أولى لك فأولى ﴿ ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ ثم نزل به القرآن .

وقال الزجاج : معناه أولى لك يعني : يوجب لك المكروه يا أبا جهل ، والعرب تقول أولى بفلان ، إذا وعد له مكروهاً .

وقال القتبي : أولى لك تهديد ووعيد كما قال : فأولى لهم ثم ابتدأ فقال : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأمر فَلَوْ صَدَقُواْ الله لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ [محمد : 21] .

ثم قال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ يعني : أن يترك مهملاً ، لا يؤمر ولا ينهى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيّ يمنى ﴾ يعني : أليس قد خلق من ماء مهين .

قرأ ابن عامر وحفص ، عن عاصم ، من منى يمنى بالهاء ، والباقون بالتاء على معنى التأنيث ، لأن النطفة مؤنثة .

ومن قرأ بالياء ، انصرف إلى المعنى وهو الماء ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ يعني : صارت بعد النطفة علقة ﴿ فَخَلَقَ فسوى ﴾ يعني : جمع خلقه في بطن أمه مستوياً ، معتدل القامة ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ يعني : خلق من المني ﴿ الزوجين ﴾ يعني : لونين من الخلق ﴿ الذكر والانثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التقرير ، يعني : أن هذا الذي يفعل مثل هذا ، هو قادر .

على أن يحيي الموتى .

(197/793)

وذكر عن ابن عباس ، أنه كان إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ قال : سبحانك اللهم بلى قادر ، والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 498.502 ﴾

وقال الثعلبي :

سورة القيامة

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

قراءة العامة مقطوعة الألف مهموزة .

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ مثلها ، وقرأ الحسن وعبد الرحمن الأعرج لاقسم بغير ألف موصله . ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس ﴾ بالألف مقطوعة على معنى أنه أقسم باليوم ولم يقسم بالنفس ، ومثله روى القواس عن شبل عن ابن بكير ، والصحيح أنه قسم بهما جميعاً ومعنى قوله لا أقسم بيوم القيامة اختلفوا فيه فقال : بعضهم ﴿ لاَ ﴾ صلة أي أقسم بيوم القيامة وإليه ذهب سعيد بن جبير وقال أبو بكر بن عباس : هو تأكيد للقسم كقولك لا والله ، وقال الفراء في قوله ﴿ لاَ ﴾ : رد لكلام المشركين ثم ابتدأ القسم فقال أقسم بيوم القيامة ، وقال : وكل يمين قبلها رد فلابد من تقديم ﴿ لاَ ﴾ قبلها ليفرّق بين اليمين التي تكون جحداً واليمين التي تستأنف ، ألا ترى أنك تقول مبتدئاً : والله إن الرسول لحق ، فإذا قلت : لا والله إن الرسول لحق ، فكأنك أكّدت قوماً أنكروه .

أخبرنا عقيل أن المعافى أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثنا أبو كريب قال : حدّثنا وكيع عن سفيان ومسعر عن زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال : لا يقولون القيامة القيامة وإنما قيامة أحدهم موته ، وبه عن سفيان ومسعر عن أبي قيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته .

﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ قال : سعيد بن جبير وعكرمة : تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء والضراء . مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه وتقول لو فعلت ولو لم أفعل .

(199/793)

قتادة : اللوامة : الفاجرة . ابن عباس : هي المذمومة ، وقال الفراء : ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلاّ وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً قالت : هلاّ زدت ، وإن كانت عملت سوءاً قالت : يا ليتني لم أفعل . الحسن : هي نفس المؤمن ، قال : إنّ المؤمن والله ما تراه إلاّ يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلتي ما أردت بحديث نفسي وإنّ الفاجر يمضي قُدماً لا يحاسب نفسه ولا [يعاتبها] . مقاتل : هي نفس الكافر تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله في الدنيا ، وقيل : لومها قوله سبحانه : ﴿ يَقُولُ يالَيتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي

﴿ [الفجر : 24] و ﴿ ياحسرتا على مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] أي في أمر الله . سهل : هي الإمارة بالسوء وهي قرينة الحرص والأمل .

أبو بكر الورّاق : النفس كافرة في وقت منافقه في وقت مرائية على الأحوال كلّها هي كافرة ؛ لأنها لا تألف الحق ، وهي منافقة لأنها لا تفي بالعهد ، وهي مرائية لأنها لا تحبّ أن تعمل عملاً ولا تخطو خطوة إلاّ لرؤية الخلق ، فمن كانت هذه صفاته فهي حقيقة بدوام الملامة لها .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ نزلت في عدي بن ربيعة بن أبي سلمة حليف بني زهرة ختن الأخنس ابن شريف حليف بني زهرة وكان النبي (عليه السلام) يقول :

" اللهم اكفني جاريّ السوء " يعني عدياً والأخنس وذلك أن عدي بن ربيعة أتى النبي (عليه السلام) فقال : يا محمد حدّثني عن يوم القيامة متى يكون ، وكيف يكون أمرها وحالها فأخبره النبي (عليه السلام) بذلك ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدّقك ولم أؤمن به ، أو يجمع الله العظام ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ يعني الكافر .

(200/793)

﴿ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ بعد تفريقها وبلائها فنجيبه ونبعثه بعد الموت ، يقال : إنّه ذكر العظام ، والمراد بها نفسه كلّها لأن العظام قالب الخلق ولن يستوي الخلق إلاّ باستوائها ، وقيل : هو خارج على قول المنكر أو يجمع الله العظام كقول الآخر : ﴿ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] .

ثم قال سبحانه : ﴿ بلى قَادِرِينَ ﴾ أي نقدر استقبال صرف إلى الحال ، قال الفراء : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ نصب على الخروج من ﴿ نَّجْمَعَ ﴾ كأنك قلت في الكلام : أيحسب أن لن يقوى عليك ، بلى قادرين على أقوى منك ، يريد بلى نقوى مقتدرين على أكثر من ذا ، وقرأ ابن أبي غيلة قادرون بالرفع ، أي بلى نحن قادرون ، ومجاز الآية : بلى نقدر على جمع عظامه وعلى ما هو أعظم من ذلك ، وهو : ﴿ على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أنامله فيجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحد كخف البعير ، أو كظلف الخنزير ، أو كحافر الحمار ، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء ، ويقبض إذا شاء ويبسط إذا شاء فحسنّا خلقه . هذا قول عامة المفسرين .

وقال القبيسي : ظن الكافر أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام البالية ، فقال الله سبحانه : بلى قادرين أن نعيد السلاميات على صغرها ونؤلف بينها حتى نسوي البنان ، ومَنْ يقدر على هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر وهذا كرجل قلت له : أتراك تقدر على أن تؤلف من هذا الحنظل في خيط ويقول نعم وبين الخردل .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ يقول تعالى ذكره : ما يجهل ابن آدم أن ربّه قادر على جمع عظامه بعد الموت ، ولكنّه يريد أن يفجر أمامه ، أي يمضي قدماً في معاصي الله راكباً رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب ، هذا قول مجاهد والحسن وعكرمه والسدي ، وقال سعيد بن جبير : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، يقول : سوف أتوب حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوأ أعماله ، وقال الضحاك : هو الأمل يأمل الإنسان يقول : أعيش وأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت ، وقال ابن عباس وابن زيد : يكذّب بما أمامه من البعث والحساب ، وقال ابن كيسان : يريد أن تأتيه الآخرة التي هي أمامه فيراها في دار الدنيا .

وأصل الفجور : الميل ، ومنه قيل للكافر والفاسق والكافر : فاجر ، لميلهم عن الحق ، وقال السدي أيضاً : يعني ليظلم على قدر طاقته ، وقيل : يركب رأسه في هواه ويهتم حيث قادته نفسه .

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ فبيّن الله له ذلك فقال عزّ من قال : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن أبي إسحاق : ﴿ بَرِقَ ﴾ بفتح الراء وغيرهم بالكسر .

أخبرنا محمد بن نعيم قال : أخبرنا الحسن بن الحسين بن أيوب ، أخبرنا علي بن عبد العزيز قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا حجاج عن هارون قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عنها فقال : برق بالكسر يعني جار قال : وسألت عنها عبد الله بن أبي إسحاق فقال : برَق بالفتح ، وقال : إنّما برق الحنظل اليابس ، وبرق البصر قال : فذكرت ذلك لأبي عمرو فقال : إنما برق الحنظل والنار والبرق ، وأما البصر فبرق عند الموت ، قال : فأخبرت بذلك ابن أبي إسحاق فقال : أخذت قراءتي عن الأشياخ نصر بن عاصم وأصحابه فذكرت ذلك لأبي عمرو فقال : لكني لا آخذ عن نصر ولا عن أصحابه كأنه يقول أخذ عن أهل الحجاز فقال : قتادة ومقاتل : شخص البصر فلا يطرف مما يرى من العجائب مما كان يكذب به في الدنيا إنّه غير كائن ، وقال الفراء والخليل : برق بالكسر فزع ، وأنشدا لبعض العرب :

فنفسك قانع ولا تتغي . . . وداو الكلوم ولا تبرق

أي لا تفزع من الجرح الذي بك .

قال ذو الرمّة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرّضت . . . لعينيه ميّ سافراً كاد يبرق

وبرَق بفتح الراء : شقّ عينه وفتحها ، وأنشد أبو عبيدة :

لما أتاني ابن عمير راغباً . . . أعطيته عيساً صهاباً فبرق

أي فتح عينه ، ويجوز أن يكون من البرق .

﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ أظلم وذهب ضوءه ، قال ابن كيسان : ويحتمل أن يكون بمعنى غاب كقوله سبحانه ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [القصص : 81] ، وقرأ [ابن أبي اسحاق وعيسى والأعرج] : وخُسف بالضم لقوله : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] أسودين مكوّرين كأنهما ثوران عقيران ، وهي في قراءة عبد الله : وجمع بين الشمس والقمر ، وقيل : وجمع بينهما في ذهاب الضياء ، وقال عطاء بن يسار : يجمعان يوم القيامة ، ثم يقذفان في البحر ، فيكونان نار الله الكبرى ، وقال علي بن أبي طالب وابن عباس : يجعلان في نور الحجب .

(203/793)

﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ المهرب ، وقرأها العامة ﴿ المفر ﴾ بفتح الفاء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم قالا : لأنه مصدر ، وقرأ ابن عباس والحسن بكسر الفاء ، قال الكسائي : هما لغتان مثل مدَب ومدِب ومصَح ومصِح ، وقال الآخرون : بالفتح المصدر

وبالكسر موضع الفرار مثل المطلع والمطلع .

﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ لا حصن ولا حرز ولا ملجأ ، قال السدي : لا جبل ، وكانوا إذا فزعوا نحوا إلى الجبل فتحصّنوا به فقال الله سبحانه : لا جبل يومئذ يمنعهم .

﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ أي مستقر الخلق وأعمالهم وكل شي ، وقال مقاتل : المنتهى فلا يجد عنه مرحلا نظيره ﴿ وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 42] وقال يمان : المصير والمرجع ، وهو قول ابن مسعود نظيره ﴿ إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى ﴾ [العلق : 8] و ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] وقوله سبحانه ﴿ أَلاَ إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ﴾ [الشورى : 53] .

﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة " 13] قال ابن مسعود وابن عباس : قدم قبل موته من عمل صالح أو طالح وما أخر بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها . عطية عن ابن عباس : بما قدّم من المعصية وأخّر من الطاعة . مجاهد : بأول عمل عمله وآخره . قتادة : بما قدّم من طاعة الله وأخّر من حقّ الله فضيّعه . ابن زيد : بما قدّم من عمل من خير أو شر وما أخّر من العمل بطاعة الله فلم يعمل به . عطاء : بما قدّم في أول عمره وما أخّر في آخر عمره . زيد بن أسلم : بما قدم من أمواله لنفسه وما أخّر خلّف للورثة ، نظيره ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الإنفطار : 5] .

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا سعيد بن أبي بكر بن أبي عثمان يقول : سمعت أبي يقول : سمعت أبا عثمان يقول : خمس مصائب في الذنب أعظم من الذنب :

(204/793)

أوّلها : خذلان الله لعبده حتى عصاه ولو عصمه ما عصاه .

والثانية : أن سلبه حلية أوليائه وكساه لباس أعدائه .

والثالثة : أن أغلق عليه أبواب رحمته وفتح عليه أبواب عقوبته .

والرابعة : نظر إليه وهو يعصيه .

والخامسة : وقوفه بين يديه يعرض عليه ما قدّم وأخّر من قبائحه .

فهؤلاء المصائب الخمس في الذنب أعظم من الذنب .

﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال عكرمة ومقاتل والكلبي : معناه بل الإنسان على نفسه من نفسه رقبا يرقبونه بعمله ويشهدون عليه به وهي : سمعه وبصره ويداه ورجلاه وجميع جوارحه وهذه رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

قال القبسي : أقام جوارحه مقام نفسه لذلك رأت ويجوز أن يكون تأنيثه للإضافة إلى النفس كما تقول في الكلام : ذهبت بعض أصابعه ، و ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ مرفوعة بخبر حرف

الصفة وهي قوله ﴿ على نَفْسِهِ ﴾ ، ويحتمل أن يكون معناه بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ثم حذفت حرف الجر كقوله :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تسترضعوا أَوْلادَكُمْ ﴾ [البقرة : 233] أي لأولادكم ، ويصلح أن يكون نعتاً لاسم مؤنث أي بل للإنسان على نفسه عين بصيرة وأنشد الفراء :

كأن على ذي العقل عيناً بصيرة . . . بمقعده أو منظر هو ناظره

يحاذر حتّى يحسب الناس كلهم . . . من الخوف ولا تخفى عليه سرائره

قال أبو العالية وعطاء : بل الإنسان على نفسه شاهد ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، والهاء في ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ للمبالغة ، وقال الأخفش : هي كقولك فلان عبرة وحجة ، ودليل هذا التأويل قول الله تعالى : ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] وقال ابن تغلب : البصيرة والبينة والشاهد والدليل واحد .

(205/793)

﴿ وَلَوْ أَلقى ﴾ عليه ﴿ مَعَاذِيرَهُ ﴾ يعني أنه يشهد عليه الشاهد ولو أعتذر وجادل عن نفسه . نظيره قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر : 52] وقوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن

جبير وابن زيد وأبو العالية وعطا . قال الفراء : ولو اعتذر فعليه من نفسه من يكذّب عذره . مقاتل : ولو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك .

ومعنى الإلقاء : القول نظيره : ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [النحل : 86] ﴿ وَأَلْقَوْا إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم ﴾ [النحل : 87] . الضحاك والسدي : يعني ولو أرخى الستور وأغلق الأبواب ، قال : وأهل اليمن يسمّون الستر المعذار ، وقال بعض أهل المعاني : المعاذير إحالة بعضهم على بعض .

﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وذلك أن رسول الله (عليه السلام) كان لا يفتر من قراءة القرآن مخافة أن ينساه ، وكان إذا نزل عليه جبرائيل بالقرآن لم يفرغ جبرائيل من الآية حتى يقرأ رسول الله (عليه السلام) أولها ويحرك لسانه بها في نفسه مخافة أن ينساها فأنزل الله سبحانه ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] وأنزل ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] وأنزل ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ أي بالوحي لسانك به أي تلاوته لتحفظه ولا تنساه ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك حتى تحفظه ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ وقراءته عليك حتى تعيه وقيل أراد بقوله : ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ وجمعه في صدرك وهو مصدر كالرجحان والنقصان .

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ عليك ﴿ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ أي ما فيه من الأحكام ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ بما فيه من الحدود والحلال والحرام . ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة * وَتَذَرُونَ الآخرة ﴾ قرأهما أهل المدينة والكوفة بالتاء وغيرهم بالياء أي يختارون الدنيا على العقبى نظيرها في سورة الإنسان ﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان : 27] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ . قال ابن عباس : حسنة . قال الحسن : حسّنها الله بالنظر إلى ربها . مجاهد : مسرورة . ابن زيد : ناعمة . مقاتلان : بيض يعلوها النور . السدي : مضيئة . يمان : مسفرة . الفراء : مشرقة بالنعيم . الكسائي : بهجة . قال الفراء والأخفش : يقال نضر الله وجه فلان فلا يتنضر نضيراً فنضر وجهه ننضّرُ نضّرة ونضارة قال الله سبحانه :

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها " ، ونظر في هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : 38-39] .

﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وأكثر الناس تنظر إلى ربّها عياناً .

قال الحسين بن واقد : أخبرني يزيد بن عكرمة وإسماعيل بن أبي خالد وأشياخ من أهل الكوفة قالوا : تنظر إلى ربّها نظراً ، وقال الحسن : تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق ، وقال عطية العوفي : ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ودليل هذا التأويل ما أخبرنا الحسن بن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجه قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن مندة الأصفهاني قال : حدّثنا الحسين بن حفص قال : حدّثنا إسرائيل بن يونس عن ثوير بن أبي ناختة قال : سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وزوجاته ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف عام ، وإن أكرمهم على الله لمن ينظر إلى وجهه تبارك وتعالى غدوة وعشية ثم قرأ رسول الله (عليه السلام) ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو النفخ محمد بن الحسن الأزدي الموصلي قال : حدّثني أحمد بن عيسى بن السكين قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن عمر بن يونس اليمامي قال : حدّثنا قال : أخبرنا رباح بن زيد الصنعاني قال : أخبرني ابن جريج قال : أخبرني زياد بن

سعد أن أبا الزبير أخبره عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يتجلّى ربّنا عزّوجل حتى ينظروا إلى وجهه فيخرّون له سجداً فيقول : إرفعوا رؤسكم فليس هذا بيوم عبادة " .

وروى الحسن عن عمار بن ياسر قال : كان من دعاء النبي (عليه السلام) : " اللهم أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلّة " يعني أنّها تنتظر الثواب من ربّها ولا تراه من خلفه شي .

(208/793)

قلت : وهذا تأويل مدخول ؛ لأنّ العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا : نظرته ، كما قال الله سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة ﴾ [محمد : 18] هل ينظرون إلاّ نار الله ؟ و ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس : 49] وإذا أردت به التفكّر والتدبير قالوا : نظرت فيه فأمّا إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلاّ بمعنى الرؤية والعيان .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ عابسة كالحة متغيّرة مسودة ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قال مجاهد : داهية ، سعيد بن المسيب : قاصمة الظهر وأصلها الفقرة والفقار ، يقال : فقره

إذا كسر فقاره ، كما يقال : رأسه إذا ضرب رأسه ، وقال قتادة : الفاقرة : الشرّ ، وقال ابن زيد : تعلم أنها ستدخل النار ، وقال أبو عبيدة : الفاقرة : الداهية يقال : عمل بها الفاقرة وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو بنار حتى يخلص إلى العظم ، وقال الكلبي : منكرة من العذاب وهي الحجاب .

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ يعني النفس كناية عن غير مذكور ﴿ التراقي ﴾ فيحشرج بها عند الموت ، والتراقي : العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ، وقال دريد بن الصمة :

ورُبَّ عظيمة دافعت عنهم . . . وقد بلغت نفوسهم التراقي

﴿ وَقِيلَ ﴾ وقال من حضره ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ هل من طبيب يرقيه ويداويه فيشفيه . قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء شيئاً .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا السني أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي قال : حدّثنا مسدّد بن مسرهد عن خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه كوى غلاماً له فقلت أتكوى قال : نعم هوّدوا العرب .

(209/793)

أخبرنا ابن مسعود أن رسول الله (عليه السلام) قال : " إن الله سبحانه لم ينزل داء إلاّ وقد أنزل معه دواء جهله من جهله وعلمه من علمه " ، وقال سليمان التيمي ومقاتل بن سليمان : هذا من قول الملائكة يقول بعضهم لبعض من يرقى بروحه فيصعد بها ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهذه رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس . قال أبو العالية : يختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيّهم يترقّى بروحه .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ فراق ليس يشبهه فراق قد انقطع الرجاء عن التلاق .

أخبرنا الربيع بن محمد الخاتمي ومحمد بن عقيل الخزاعي قالا : أخبرنا علي بن محمد بن عقبة الشيباني قال : أخبرنا الخضر بن أبان القرشي قال : حدّثنا ابن ميثم بن هدية عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (عليه السلام) : " إنّ العبد ليعالج كرب الموت وسكراته وإنّ مفاصله يسلّم بعضها على بعض يقول عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة "

.

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ قال الربيع بن أنس : الدنيا بالآخرة ، وهي رواية أبي الجوزاء وعطية عن ابن عباس ، ورواية عوف ومنصور عن الحسن ، وروى الوالي وبادان عن ابن عباس قال : أمر الدنيا بأمر الآخرة ، فكان في آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال : إسماعيل ابن أبي خالد : عمل الدنيا بعمل الآخرة ، وقال الضحاك : الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه ، وروى

سفيان عن رجل عن الحسن عن مجاهد قالا : اجتمع فيه الحياة والموت . قتادة : الشدّة بالشدّة . بشر بن المهاجر عن الحسن قال : هما ساقاك إذا لفّتا في الكفن ، وإليه ذهب سعيد بن المسيّب .

(210/793)

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أبو محمد المزني قال : حدّثنا مطين قال : حدّثنا نصر بن علي فقال : حدّثنا خالد بن قيس عن قتادة عن الحسن قال : ماتت رجلاه ولم تحملاه وكان عليهما جوّالا ، وروى شعبة عن قتادة قال : أمر أتاه إذا ضرب برجله الأخرى . أبو مالك : يلبسهما عند الموت . عكرمة : خروج من الدنيا إلى الآخرة . أبو يحيى عن مجاهد : بلاء ببلاء . القرطبي : الأمر بالأمر . زيد بن أسلم : ساق الكفن بساق الميت . سعيد بن جبير : تتابعت عليه الشدائد . السدي : لا يخرج من كرب إلاّ جاءه أشدّ منه ، والعرب لا تذكر الساق إلاّ في المحن والشدائد ، ومنه مثلهم السائر : (لا يرسل الساق إلاّ ممسكاً ساقاً) ، وقال أميّه بن أبي الصلّت :

وقد أرقت لهمَ بات يطرقني . . . والنفس ذات حزازات وطرّاق

مستجذ بالقراة حين . . . آرقني ليل التمام أقاسيه على ساق

أي على تعب وشدة .

وقال ابن عطاء : اجتمع عليه شدّة مفارقة الوطن من الدنيا والأهل والولد وشدّة القدوم على ربّه لا يدري بماذا يقدم عليه لذلك قال عثمان بن عفان : ما رأيت منظراً إلاّ والقبر أفضع منه ؛ لأنّه آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة ، وقال يحيى بن معاذ : إذا دخل الميت القبر قام على شفير قبره أربعة أملاك واحد عند رأسه والثاني عند رجليه والثالث عن يمينه والرابع عن يساره ، فيقول الذي عند رأسه : يا ابن آدم انفضّت الآجال وانقطعت الآمال ، ويقول الذي عن يمينه : ذهبت الأموال وبقيت الأعمال ، ويقول الذي عن يساره : ذهب الأشغال وبقي الوبال ، ويقول الذي عند رجليه : طوبى لك من كسبك إن كان كسبك من الحلال وكنت مشتغلاً بخدمة ذي الجلال .

(211/793)

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ المنتهى والمرجع تسوق الملائكة روحه حيث أمرهم الله سبحانه وتعالى . ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ يعني أبا جهل ﴿ وَلاَ صلى * ولكن كَذَّبَ وتولى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ يتبختر ، قال زيد بن أسلم : هي مشية بني مخزوم وأصله من

المطا وهو الظهر أي يلوي مطاه تبختراً ، وقيل : أصله يتمطط أي يتمدد ، والمط هو المد فجعلت أحدى الطاءت يا ، وقد مضت هذه المسألة وتمطى الإنسان إذا قام من منامه فتمدّد .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن علي بن الحسين الهمداني قال : حدّثنا محمد بن علي بن مخلد الفرقدي قال : حدّثنا سليمان بن داود الشاذكوني قال : حدّثنا سفيان بن عتبة عن يحيى بن سعيد الأنصاري سمع شيخاً قديماً يقال له بجنس مولى الزبير يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم الروم وفارس سلط بعضهم على بعض " قال سفيان : فأخبرت بهذا الحديث ابن أبي نجيح فقال هل تدرون ما المطيطاء ؟ هو مثل قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ يتبختر .

﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ هذا وعيد من الله سبحانه على وعيد أبي جهل وهي كلمة موضوعة للتهدّد والوعيد قالت الخنساء :

هممت بنفسي كل الهموم . . . فأولى لنفسي أولى لها

وأنشدني أبو القيّم السدوسي قال : أنشدني أبو محمد عبد الله بن محمد البلوي الأدبي قال : أنشدنا أحمد بن يحيى بن تغلب :

يا أوس لو نالتك أرماحنا . . . كنت كمن تهوى به الهاويه

القيتا عيناك عند القفا . . . أولى فأولى لك ذا واقيه

وقال بعض العلماء : معناه أنك أجدر بهذا العذاب وأحقّ وأولى ، يقال للرجل يصيبه مكروه يستوجبه ، وقيل : هو كلمة يقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من الولي وهو القرب ، قال الله سبحانه : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ ﴾ [التوبة : 123] ويقال ثمّ الذي يليه أي يقرب منه . قال الشاعر :

(212/793)

فصالوا صولة فيمن يليهم . . . وصلنا صولة فيمن يلينا

وقال آخر :

هجرت غضوب وحب من يتجنّب . . . وَعَدَتْ عواد دون وليك تشعب

وحكى لنا الإستاذ أبو القيم الحلبي أنه سمع أبا الهيثم الجمي وكان عارفاً بالمعاني يقول حاكياً عن بعض العلماء : أن قوله ﴿ أولى ﴾ من المقلوب مجازه : أويل من الويل ، كما يقال : ما أطيبه وأيطبه وعاقني وعقاني وأيم وأيامي وأصله أيايم وقوس وقسي وأصله قؤوس ، ومعنى الآية كأنه يقول لأبي جهل : الويل لك يوم تموت ، والويل لك يوم تبعث ، والويل لك يوم تدخل النار وتخلد فيها .

وقال قتادة : ذكر لنا أن النبي (عليه السلام) لمّا نزلت هذه الآية اخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له : ﴿ أولى لَكَ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ فقال أبو جهل : اتوعدني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئاً وأني لأعزّ من مشى بين جبليها ، فلمّا كان يوم بدر أشرف عليهم وقال : لا نعبد الله بعد اليوم ، فصرعه الله شرّ مصرع ، وقتله أسوأ قتلة ، أقعصه ابنا عفراء وأجهز عليه ابن مسعود ، قال : وذكر لنا أن أبا جهل كان يقول : لو علمت أن محمداً رسول الله ما أتبعت غلاماً من قريش قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

" إنّ لكل أمّة فرعوناً وأن فرعون هذه الأمة أبو جهل " .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ هملا لا يؤمر ولا ينهى يقال : أسديت حاجتي أي ضيّعتها ، وأبل سدى ترعى حيث شاءت بلا راع . ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ قرأ الحسن وابن محيص وأبو عمرو ويعقوب وسلام بالياء وهي رواية المفضل وحفص عن عاصم واختيار أبي عبيد لأجل المنى ، وقرأ الباقون بالتاء لأجل النطفة وهو اختيار أبي حاتم .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى ﴾ خلقه ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى * أَلَيْسَ ذَلِكَ ﴾ الذي فعل هذا ﴿ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا الكندي قال : حدّثنا سعيد بن بنان الصفار قال : حدّثنا شعبة قال : حدّثني يونس الطويل جليس لأبي إسحاق الهمداني عن البراء بن عازب قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الموتى ﴾ قال رسول الله (عليه السلام) : " سبحانك وبلى " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم الربيعي قال : حدّثنا إبراهيم بن عبد الله ابن أيوب المخزومي قال : حدّثنا صالح بن مالك قال : حدّثنا أبو نوفل علي بن سليمان قال : حدّثنا أبو إسحاق السبيعي عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال : من قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] إماماً كان أو غيره فليقل : سبحان ربي الأعلى ، ومن قرأ : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ فإذا انتهى إلى آخرها فليقل : سبحانك اللهم بلى ، إماماً كان أو غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 81.92 ﴾

(214/793)

وقال الزمخشري :

سورة القيامة

مكية ، وآياتها 40 [نزلت بعد القارعة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القيامة (75) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ

(3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4)

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6)

(215/793)

إدخال «لا» النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم . قال امرؤ القيس :

لا وأبيك أبنة العامريّ لا يدّعى القوم أنّى أفرّ «1»

وقال غوثة بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى «2»

وفائدتها توكيد القسم ، وقالوا إنها صلة مثلها في لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ وفي قوله :

في بئر لا حور سرى وما شعر «3»

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوّله ، وأجابوا بأنّ القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد . ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته . والوجه أن يقال : هي للنفي . والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له يدلك عليه قوله تعالى فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ فكأنه بإدخال حرف النفي يقول : إنّ إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن «لا» نفى لكلام

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 692 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) إذا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى

فسيرى ما بدا لك أو أقيمي فأيا ما أتيت ففي نقالى

لغوثة بن سلمى بن ربيعة ، يقول : إذا أظهرت أمامة محبوبتى أمارات الارتحال عنى لتحزننى ، فأطلق النداء على ذلك مجازا . ويروى «ألا» بدل «إذا» ولا زائدة قبل القسم ، لأن المعنى فبحقك وحياتك ما أبالى ولا أحزن ، وحسن زيادتها : أنها في الغالب مسلطة على دعوى الخصم نافية لها ، وفي القسم بمحبوبته على عدم المبالاة ببعدها عنه نوع تهكم بها .

وقيل : المعنى فلا يقع ما أبالى على الدعاء ، وهذا إنما يظهر على رواية : فلا بك ما أبالى ، وأصله يكن ، أى : يحصل ، فحذفت النون عند الجزم تخفيفا . وما موصولة . ويروى : فآبك ، أى : أبعدك اللّه : دعاء أيضا . والتقالى : التباغض ، أى : فسيرى ما دام يظهر لك المسير ، أو أقيمى ، فهما منك سواء ، وأى شيء تفعلينه فهو ناشئ عن تباغض بيني وبينك ، ومع ذلك لا أعتنى بشأنك لأنى مشغول بأهم منك : وهو موت أقاربه ، والتفت إليها بالخطاب ليصدعها بالجواب .

(3) في بئر لا حور سرى وما شعر بافكه حتى إذا الصبح حشر

«لا» زائدة بين المضاف والمضاف إليه شذوذا . والحور - بالضم - : الهلكة جمع حائر أى هالك ، كبزل وبازل ، ونزل ونازل . وقيل : الحور بمعنى الهلاك ، وجمعه : أحور ، أى : سرى في بئر هلاك وما درى بذلك . وقوله «بافكه» يجوز تعلقه بشعر ، ويجوز تعلقه بسرى ، وشبه سبب الهلاك بالبئر على طريق التصريح التحير والضرر بالوقوع في كل ، ولذلك قال : سرى ، وهو يناسب الظلمة والحيرة ، لأنه بمعنى سار ليلا . والافك : الباطل ، واستعار الصبح الحق على طريق التصريحية ، وحشر : أضاء واتضح ، فحينئذ تبين كذبه ، أى : دام على كذبه حتى ظهر الحق

وردّ له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ، أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة . فإن قلت : قوله تعالى فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ والأبيات التي أنشدتها : المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أنّ «لا» التي قبل القسم زيدت موطئة النفي بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ها هنا منفيا ، كقولك لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، لا تتركون سدى ؟

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول ماغ ، ولكنه لم يقصر . ألا ترى كيف لقى لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ بقوله لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وكذلك فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ بقوله إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ وقرئ : لأقسم ، على أنّ اللام للابتداء . وأقسم خبر مبتدإ محذوف ، معناه : لأنا أقسم . قالوا : ويعضده أنه في الإمام بغير ألف بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس فيه أى في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان . وعن الحسن : إن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه ، وإنّ الكافر يمضى قدما لا يعاتب نفسه « 1 » . وقيل : هي التي تتلوّم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة .

وعلى التفريط إن كانت مسيئة . وقيل : هي نفس آدم ، لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة . وجواب القسم ما دل عليه قوله أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ

وهو لتبعثن . وقرأ قتادة : أن لن نجمع عظامه ، على البناء للمفعول . والمعنى : نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميما ورفاتا مختلطا بالتراب ، وبعد ما سفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض . وقيل إن عدى ابن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق «2» وهما اللذان كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول فيهما : «اللهم اكفني جارى السوء» «3» قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره ؟ فأخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أو من به أو يجمع اللّه العظام ، فنزلت بَلى أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع ، فكأنه قيل بَلى نجمعها . وقادِرِينَ حال من الضمير في نجمع ، أى : نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول ، إلى أن نسوى بنانه أى : أصابعه التي هي أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . أو على أن نسوى بنانه ونضم سلاميا ته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام . وقيل : معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه

---

(1) . قوله : «وأن الكافر يمضى قدما لا يعاتب» في الصحاح مضى قدما - بضم الدال - : لم يعرج ولم ينثن اه . (ع)

(2) . قوله «ختن الأخنس بن شريق» في الصحاح «الختن» بالتحريك : كل من كان من قبل

المرأة مثل الأب والأخ، وعند العامة: ختن الرجل زوج ابنته. (ع)

(3). ذكره الثعلبي والبغوي، والواحدي بغير إسناد. [. . . . .]

(217/793)

ورجليه، أى نجعلها مستوية شيئا واحدا كخف البعير وحافر الحمار لا تفرق بينها، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال، والبسط والقبض، والتأتى لما يريد من الحوائج. وقرئ قادرون، أى: نحن قادرون، بَلْ يُرِيدُ عطف على أَيَحْسَبُ فيجوز أن يكون مثله استفهاما، وأن يكون إيجابا على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر. أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب لِيَفْجُرَ أَمامَهُ ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه. وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. يقول: سوف أتوب، سوف أتوب: حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوإ أعماله يَسْئَلُ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة في قوله أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ ونحوه: ويقولون متى هذا الوعد.

[سورة القيامة (75): الآيات 7 إلى 15]

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ

أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لا وَزَرَ (11)

إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15)

بَرِقَ الْبَصَرُ تحير فزعا ، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . وقرئ : برق من البريق ، أى لمع من شدة شخوصه . وقرأ أبو السمال : بلق إذا انفتح وانفرج . يقال : بلق الباب وأبلقته وبلقته : فتحته وَخَسَفَ الْقَمَرُ وذهب ضوؤه ، أو ذهب بنفسه . وقرئ :

وخسف على البناء للمفعول وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حيث يطلعهما اللّه من المغرب . وقيل :

وجمعا في ذهاب الضوء «1» وقيل : يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران في النار . وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر ، فيكون نار اللّه الكبرى الْمَفَرُّ بالفتح المصدر ، وبالكسر :

المكان . ويجوز أن يكون مصدرا كالمرجع . وقرئ بهما كَلَّا ردع عن طلب المفرّ لا وَزَرَ لا ملجأ ، وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك إِلى رَبِّكَ

خاصة يَوْمَئِذٍ

مستقرّ العباد ، أى استقرارهم ، يعنى : أنهم لا يقدرون أن يستقرّوا إلى غيره وينصبوا إليه .

أو إلى حكمه «2» ترجع أمور العباد ، لا يحكم فيها غيره ، كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ أو إلى ربك مستقرّهم ، أى : موضع قرارهم من جنة أو نار ، أى : مفوض ذلك إلى مشيئته ، من شاء أدخله

---

(1) . قوله «و قيل وجمعا في ذهاب الضوء» لعله : وقيل جمعا . (ع)

(2) . قوله «و ينصبوا إليه أو إلى حكمه» في الصحاح «نصب القوم» : ساروا يومهم ، وهو سير لين ، ونصب الرجل - بالكسر - نصبا : تعب . (ع)

الجنة ومن شاء أدخله النار بِما قَدَّمَ

من عمل عمله وَبِما أَخَّرَ

منه لم يعمله أو بما قدم من ماله فتصدق به ، أو بما أخره فخلفه . وبما قدم من عمل الخير والشر ، وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده . وعن مجاهد : بأوّل عمله وآخره . ونحوه : فينبئهم بما عملوا أحصاه اللّه ونسوه بَصِيرَةٌ

حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً أو عين بصيرة . والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ، ففيه ما يجزئ عن

الإنباء ، لأنه شاهد عليها بما عملت ، لأنّ جوارحه تنطق بذلك يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ

ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها . وعن الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وقال : المعاذير الستور ، واحدها معذار ، فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب ، كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب . فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير ؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها ، ونحوه : المناكير في المنكر .

[سورة القيامة (75) : الآيات 16 إلى 25]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20)

وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (25)

الضمير في بِهِ

للقرآن ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا لقن الوحى نازع جبريل القراءة ، ولم يصبر إلى أن يتمها ، مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن يتفلت منه ، فأمر بأن يستنصت له ملقيا إليه بقلبه وسمعه ، حتى يقضى إليه وحيه ، ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه . والمعنى : لا تحرّك لسانك بقراءة الوحى ما دام جبريل صلوات اللّه عليه يقرأ لِتَعْجَلَ بِهِ

لتأخذه على عجلة ، ولئلا يتفلت منك . ثم علل النهى عن العجلة بقوله إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ

في صدرك وإثبات قراءته في لسانك فَإِذا قَرَأْناهُ

جعل قراءة جبريل قراءته : والقرآن : القراءة فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

فكن مقفيا له فيه ولا تراسله ، وطأ من نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ ، فنحن في ضمان

تحفيظه ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ إذا أشكل عليك شيء من معانيه ، كأنه كان يعجل في الحفظ

والسؤال عن المعنى جميعا ، كما ترى بعض الحراص على العلم ، ونحوه وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ

قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، كَلَّا ردع لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن عادة العجلة

وإنكار لها عليه ، وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله

(219/793)

ص : 662

بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ كأنه قال : بل أنتم يا بنى آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون

في كل شيء ، ومن ثم تحبون العاجلة وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ وقرئ بالياء وهو أبلغ . فإن قلت :

كيف اتصل قوله لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ

إلى آخره ، بذكر القيامة ؟ قلت : اتصاله به من جهة هذا للتخلص منه ، إلى التوبيخ بحب

العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة. الوجه: عبارة عن الجملة «1». والناضرة:

من نضرة النعيم إلى ربّها ناظِرَةٌ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول. ألا ترى إلى قوله إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ

، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ، إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإنّ المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا «2» إليه:

محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى، تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما «3»

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم، ويأوون إلى مقائلهم. تقول:

عيينتى نويظرة إلى اللّه وإليكم، والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه، والباسر: الشديد العبوس، والباسل: أشد

---

(1). قال محمود: «الوجوه كناية عن الجملة، وقدم إلى ربها ليفيد الحصر... الخ» قال

أحمد : ما أقصر لسانه عند هذه الآية ، فكم له يدندن ويطبل في جحد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويتعمق ، فلما فغرت هذه الآية فاه :

صنع في مصادمتها بالاستدلال ، على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول ، لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية اللّه تعالى ، وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه اللّه تعالى لا يصرف عنه طرفه ، ولا يؤثر عليه غيره ، ولا يعدل به عز وعلا منظورا سواه ، وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثله شيء ، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظه ، ولم يؤثر عليه ، فكيف بالمحب للّه عز وجل إذا أحظاه النظر إلى وجهه الكريم ، نسأل اللّه العظيم أن لا يصرف عنا وجهه ، وأن يعيذنا عن مزالق البدعة ومزلات الشبهة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(2) . قوله «لو كان منظورا إليه» عدم كونه منظور إليه تعالى مبنى على مذهب المعتزلة ، وهو عدم جواز رؤيته تعالى . ومذهب أهل السنة جوازها . ويجوز أن يكون تقديم المفعول هنا للاهتمام بذكر المنظور إليه ، الذي يقتضى النظر إليه نضرة وجوه الناظرين ، لا للاختصاص . (ع)

(3) . يقول : وإذا رجوت مكارمك زدتني نعما فالنظر إليه كناية عن ذلك . ويجوز أن المعنى : بمجرد نظري إليك تجيبني فوق مسئولى ، ولا تحتاج إلى التصريح بالطلب . ومن

ملك : تمييز مقترن بمن . والبحر دونك : جملة اعتراضية أو حالية ، أى : أقل منك في الخيرات والمكارم .

(220/793)

منه ، ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه تَظُنُّ تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدّته وفظاعته فاقِرَةٌ داهية تقصم فقار الظهر ، كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير .

[سورة القيامة (75) : الآيات 26 إلى 30]

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

كَلَّا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين . والضمير في بَلَغَتِ للنفس وإن لم يجر لها ذكر ، لأنّ الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها ، كما قال حاتم :

أماويّ ما يغنى الثّراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصّدر «1»

وتقول العرب : أرسلت ، يريدون : جاء المطر ، ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء التَّراقِيَ

العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال . ذكرهم صعوبة الموت الذي هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها : وقال حاضر وصاحبها - وهو المحتضر - بعضهم لبعض مَنْ راقٍ

أيكم يرقيه مما به ؟ وقيل : هو من كلام ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه ؟

ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وَظَنَّ المحتضر أَنَّهُ الْفِراقُ أَنّ هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة وَالْتَفَّتِ ساقه بساقه والتوت عليها عند علز «2» الموت . وعن قتادة : ماتت رجلاء فلا تحملانه ، وقد كان عليهما جوالا . وقيل : شدّة فراق الدنيا بشدّة إقبال

---

(1) أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر

لحاتم الطائي ، والهمزة النداء ومأوى : مرخم ، أصله : ماوية ، اسم أمه وهي بنت عفير ، وكانت تلومه . وأصله :

نسبة للماء ، لأنها تشبهه في اللين والرقة والصفاء والثراء . والثروة : الغنى . والحشرجة : تردد صوت النفس في الصدر . والضمير النفس وإن لم تذكر ادعاء لشهرتها . روى أنه لما احتضر أبو بكر رضى اللّه عنه قالت له عائشة لعمرك ما يغنى . . . البيت» فقال : لا تقولي هذا يا بنية وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وهي قراءة منسوبة إليه وكرر نداء ماوية

التقريع ، وغاد ورائح : آت وذاهب . وقوله «من المال» أي من آثاره ، ولو كفت «علم» عن العمل في المفعول وعبر عن نفسه بالظاهر ، لأن هذا الكلام تتحدث به نفوس الأقوام ، فاعتبر صدوره منهم .

وثراه المال : الغنى به ، أو جمعه . والوفر : الزيادة والمال الكثير .

(2) . قوله «علز الموت» هو كالرعدة تأخذ المريض . (ع)

(221/793)

الآخرة ، على أن الساق مثل في الشدّة . وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفان في أكفانه الْمَساقُ أي يساق إلى اللّه وإلى حكمه .

[سورة القيامة (75) : الآيات 31 إلى 35]

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35)

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى يعنى الإنسان في قوله أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ألا ترى إلى قوله أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً وهو معطوف على يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ أي : لا يؤمن بالبعث ، فلا صدق بالرسول والقرآن ، ولا صلى . ويجوز أن يراد : فلا صدق ماله ، بمعنى

: فلا زكاه. وقيل: نزلت في أبى جهل يَتَمَطَّى يتبختر. وأصله يتمطط، أى:

يتمدد، لأنّ المتبختر يمدّ خطاه. وقيل: هو من المطا وهو الظهر، لأنه يلويه. وفي الحديث:

«إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم» «1» يعنى:

كذب برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتولى عنه وأعرض، ثم ذهب إلى قومه يتبختر

افتخارا بذلك أَوْلى لَكَ بمعنى ويل لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره.

[سورة القيامة (75): الآيات 36 إلى 40]

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً

فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (39) أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ

يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

فَخَلَقَ فقدر فَسَوَّى فعدل مِنْهُ من الإنسان الزَّوْجَيْنِ الصنفين أَلَيْسَ ذلِكَ الذي أنشأ هذا

الإنشاء بِقادِرٍ على الإعادة. وروى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه

---

(1). أخرجه الترمذي وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى. وابن عدى من رواية موسى

بن عبيدة عن عبد اللّه ابن دينار عن ابن عمر. وموسى ضعيف. وروى الترمذي أيضا

والبزار عن محمد بن إسماعيل عن أبى معاوية عن يحيى بن سعيد عن عبد اللّه بن دينار

نحوه. قال الترمذي: ليس له أصل. وإنما المعروف حديث موسى بن عبيدة.

وقال البزار: لا نعلم أحدا تابع عليه محمد بن إسماعيل وإنما يعرف عن موسى. واختلف

فيه على يحيى بن سعيد .

فرواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عنه عن عبيد عن خولة بنت قيس . ورواه الطبراني في الأوسط من رواية ابن لهيعة عن عمارة بن خزيمة عن يحيى بن بحنس مولى الزبير عن أبى هريرة . ورواه الأصبهانى في الترغيب من طريق فرج بن فضالة عن يحيى بن بحنس مرسلا .

(222/793)

وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى «1» .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمنا بيوم القيامة» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 657 665.﴾

---

(1) . أبو داود : من رواية موسى بن أبى عائشة عن رجل سمعه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ورواه الحاكم من رواية إسماعيل بن أمية عن أبى اليسع عن أبى هريرة نحوه «قلت» راويه عن إسماعيل عند الحاكم يزيد بن عياض متروك . ولكن أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي من طريق سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن رجل عن أبى هريرة . واختلف فيه

على إسماعيل على أوجه أخرى ذكرتها في حاشية الأطراف .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(223/793)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ لا أُقسِم بيومِ القيامةِ ﴾

اختلفوا في " لا " المبتدأ بها في أول الكلام على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها صلة دخلت مجازاً ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة ، قاله ابن عباس وابن جبير وأبو عبيدة ، ومثله قول الشاعر :

تَذكّرْت ليلى فاعْتَرْتني صَبابةٌ . . . وكاد ضمير القلْبِ لا يتَقطّع .

الثاني : أنها دخلت توكيداً للكلام كقوله : لا والله ، وكقول امرىء القيس :

فلا وأبيكِ ابنةَ العامريّ . . . لا يدّعي القوم أني أَفِرْ .

قاله أبو بكر بن عياش .

الثالث : أنها رد لكلام مضى من كلام المشركين في إنكار البعث ، ثم ابتدأ القسم فقال : أقسم بيوم القيامة ، فرقاً بين اليمين المستأنفة وبين اليمين تكون مجدداً ، قاله الفراء .

وقرأ الحسن : لأَقْسِمُ بيوم القيامة ، فجعلها لاماً دخلت على ما أُقسم إثباتاً للقسم ، وهي قراءة ابن كثير .

﴿ ولا أُقْسِم بالنّفْسِ اللوّامةِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه تعالى أقسم بالنفس اللوامة كما أقسم بيوم القيامة فيكونان قَسَمَيْن ، قاله قتادة .

الثاني : أنه أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، قاله الحسن ، ويكون تقدير الكلام : أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة . وفي وصفها باللوامة قولان :

أحدهما : أنها صفة مدح ، وهو قول من جعلها قسماً :

الثاني : أنها صفة ذم ، وهو قول من نفى أن يكون قسماً .

فمن جعلها صفة مدح فلهم في تأويلها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها التي تلوم على ما فات وتندم ، قاله مجاهد ، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته ، وعلى الخير أن لم تستكثر منه .

الثاني : أنها ذات اللوم ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أنها التي تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها .

فعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون اللوامة بمعنى اللائمة .

ومن جعلها صفة ذم فلهم في تأويلها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها المذمومة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها التي تلام على سوء ما فعلت .

(224/793)

الثالث : أنها التي لا صبر لها على محن الدنيا وشدائدها ، فهي كثيرة اللوم فيها ، فعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون اللوامة بمعنى الملومة .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ يعني الكافر .

﴿ أَنْ لن نَجْمَعَ عِظامَه ﴾ فنعيدها خلقاً جديداً بعد أن صارت رفاتاً .

﴿ بلى قادِرِينَ على أَنْ نُسوّيَ بَنانه ﴾ في قوله " بلى " وجهان :

أحدهما : أنه تمام قوله " أن لن نجمع عظامه " أي بلى نجمعها ، قاله الأخفش .

الثاني : أنها استئناف بعد تمام الأول بالتعجب بلى قادرين ، الآية وفيه وجهان :

أحدهما : بلى قادرين على أن نسوي مفاصله ونعيدها للبعث خلقاً جديداً ، قاله جرير بن عبد العزيز .

الثاني : بلى قادرين على أن نجعل كفه التي يأكل بها ويعمل حافر حمار أو خف بعير ، فلا يأكل إلا بفيه ، ولا يعمل بيده شيئاً ، قاله ابن عباس وقتادة .

﴿ بل يريد الإنسان ليَفْجُرَ أمامَه ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه أن يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، قاله القاسم بن الوليد .

الثاني : يمضي أمامه قدُماً لا ينزع عن فجور ، قاله الحسن .

الثالث : بل يريد أن يرتكب الآثام في الدنيا لقوة أمله ، ولا يذكر الموت ، قاله الضحاك .

الرابع : بل يريد أن يكذب بالقيامة ولا يعاقب بالنار ، وهو معنى قول ابن زيد .

ويحتمل وجهاً خامساً : بل يريد أن يكذب بما في الآخرة كما كذب بما في الدنيا ، ثم وجدت ابن قتيبة قد ذكره وقال إن الفجور التكذيب واستشهد بأن أعرابياً قصد عمر بن الخطاب وشكا إليه نقب إبله ودبرها ، وسأله أن يحمله على غيرها ، فلم يحمله ، فقال الأعرابي :

أقسم بالله أبو حفصٍ عُمَرْ . . . ما مسّها مِن نَقَبٍ ولا دَبَرْ

فاغفر له اللهم إنْ كان فجَرْ . . . يعني إن كان كذبني بما ذكرت .

﴿ فإذا بَرِقَ البصرُ ﴾ فيه قراءتان :

إحداهما : بفتح الراء ، وقرأ بها أبان عن عاصم ، وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : يعني خفت وانكسر عند الموت ، قاله عبد الله بن أبي إسحاق .

الثاني : شخص وفتح عينه عند معاينة ملك الموت فزعاً ، وأنشد الفراء :

فنْفسَكَ فَانْعَ ولا تنعَني . . . وداوِ الكُلومَ ولا تَبْرَقِ .

أي ولا تفزع من هول الجراح .

الثانية : بكسر الراء وقرأ بها الباقون ، وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : عشى عينيه البرق يوم القيامة ، قاله أشهب العقيلي ، قال الأعشى :

وكنتُ أرى في وجه مَيّةَ لمحةً . . . فأبرِق مَغْشيّاً عليّ مكانيا .

الثاني : شق البصر ، قاله أبو عبيدة وأنشد قول الكلابي :

لما أتاني ابن عمير راغباً . . . أعطيتُه عيساً صِهاباً فبرق .

﴿ وخَسَفَ القمرُ ﴾ أي ذهب ضوؤه ، حتى كأنّ نوره ذهب في خسفٍ من الأرض .

﴿ وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه جمع بينهما في طلوعهما من المغرب [أسودين مكورين] مظلمين مقرنين .

الثاني : جمع بينهما في ذهاب ضوئهما بالخسوف لتكامل إظلام الأرض على أهلها ، حكاه ابن شجرة .

الثالث : جمع بينهما في البحر حتى صارا نار الله الكبرى .

﴿ يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أين المفرُّ ﴾ أي أين المهرب ، قال الشاعر :

أين أفِرّ والكباشُ تنتطحْ . . . وأيّ كبشٍ حاد عنها يفتضحْ .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : " أين المفر " من الله استحياء منه .

الثاني : " أين المفر " من جهنم حذراً منها .

ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين :

أحدهما : أن يكون من الكافر خاصة من عرصة القيامة دون المؤمن ، ثقة المؤمن ببشرى ربه .

الثاني : أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوه منها .

ويحتمل هذا القول وجهين :

أحدهما : من قول الله للإنسان إذا قاله " أين المفر " قال الله له " كلاّ لا وَزَرَ " الثاني : من قول الإنسان إذا علم أنه ليس له مفر قال لنفسه " كلا لا وَزَرَ " ﴿ كلاّ لا وَزَرَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أي لا ملجأ من النار ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا حصن ، قاله ابن مسعود .

الثالث : لا جبل ، [قاله الحسن] .

الرابع : لا محيص ، قاله ابن جبير .

﴿ إلى ربِّك يومئذٍ المُسْتَقَرُّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المستقر المنتهى ، قاله قتادة .

الثاني : أنه استقرار أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، قاله ابن زيد .

﴿ يُنَبّأ الإنسان يوميئذٍ بما قدَّمَ وأَخّرَ ﴾ يعني يوم القيامة وفي " بما قدم وأخر " خمسة تأويلات :

أحدها : ما قدم قبل موته من خير أو شر يعلم به بعد موته ، قاله ابن عباس وابن مسعود .

الثاني : ما قدم من معصية ، وأخر من طاعة ، قاله قتادة .

الثالث : بأول عمله وآخره ، قاله مجاهد .

الرابع : بما قدم من الشر وأخر من الخير ، قال عكرمة .

الخامس : بما قدم من فرض وأخر من فرض ، قاله الضحاك .

ويحتمل سادساً : ما قدم لدنياه ، وما أخر لعقباه .

﴿ بل الإنسانُ على نَفْسِه بَصيرةٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه شاهد على نفسه بما تقدم به الحجة عليه ، كما قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

الثاني : أن جوارحه شاهدة عليه بعمله ، قاله ابن عباس ، كما قال تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِمُ

على أفواههم وتُكَلِّمنا أيديهم وتشْهدُ أرجُلُهم بما كانوا يكْسِبون ﴾ .

الثالث : معناه بصير بعيوب الناس غافل عن عيب نفسه فيما يستحقه لها وعليها من ثواب وعقاب .

والهاء في " بصيرة " للمبالغة .

﴿ ولو أَلْقَى معاذيرَه ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه لو اعتذر يومئذ لم يقبل منه ، قاله قتادة .

الثاني : يعني لو ألقى معاذيره أي لو تجرد من ثيابه ، قاله ابن عباس .

الثالث : لو أظهر حجته ، قاله السدي وقال النابغة :

لدىّ إذا ألقى البخيلُ معاذِرَه . . . الرابع : معناه ولو أرخى ستوره ، والستر بلغة اليمن معذار ، قاله الضحاك ، قال الشاعر :

ولكنّها ضَنّتْ بمنزلِ ساعةٍ . . . علينا وأطّت فوقها بالمعاذرِ

ويحتمل خامساً : أنه لو ترك الاعتذار واستسلم لم يُترك .

﴿ لا تُحرِّكْ به لسانَكَ لِتعْجَلَ به ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه القرآن حرك به لسان يستذكره . مخافة أن ينساه ، وكان ناله منه شدة ، فنهاه الله تعالى عن ذلك وقال : ﴿ إنّ علينا جَمْعَه وقرآنه ﴾ ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حبه له وحلاوته في لسانه ، فنهي عن ذلك حتى يجتمع ، لأن بعضه مرتبط ببعض ، قاله عامر الشعبي .

﴿ إنّ علينا جَمْعَهُ وقُرْآنَه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إن علينا جمعه في قلبك لتقرأه بلسانك ، قاله ابن عباس .

الثاني : عيلنا حفظه وتأليفه ، قاله قتادة .

الثالث : عيلنا أن نجمعه لك حتى تثبته في قلبك ، قاله الضحاك .

﴿ فإذا قرأناه فاتّبعْ قُرْآنَه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فإذا بيّناه فاعمل بما فيه ، قاله ابن عباس .

الثاني : فإذا أنزلناه فاستمع قرآنه ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : فإذا تلي عليك فاتبع شرائعه وأحكامه ، قاله قتادة .

﴿ ثم إنْ علينا بَيانَه ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : بيان ما فيه من أحكام وحلال وحرام ، قاله قتادة .

الثاني : علينا بيانه بلسانك إذا نزل به جبريل حتى تقرأه كما أقرأك ، قاله ابن عباس .

الثالث : علينا أن نجزي يوم القيامة بما فيه من وعد أو وعيد ، قاله الحسن .

﴿ كلاّ بل تُحِبُّونَ العاجلةَ * وتذَرُونَ الآخِرَة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تحبون ثواب الدنيا وتذرون ثواب الآخرة ، قاله مقاتل .

الثاني : تحبون عمل الدنيا وتذرون عمل الآخرة .

﴿ وُجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني حسنة ، قاله الحسن .

الثاني : مستبشرة ، قاله مجاهد .

الثالث : ناعمة ، قاله ابن عباس .

الرابع : مسرورة ، قاله عكرمة .

﴿ إلى ربِّها ناظرةٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : تنظر إلى ربها في القيامة ، قاله الحسن وعطية العوفي .

الثاني : إلى ثواب ربها ، قاله ابن عمر ومجاهد .

الثالث : تنتظر أمر ربها ، قاله عكرمة .

﴿ ووجوهُ يومئذٍ باسرةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كالحة ، قاله قتادة .

الثاني : متغيرة ، قاله السدي .

﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بها فاقِرَةٌ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الفاقرة الداهية ، قاله مجاهد .

الثاني : الشر ، قاله قتادة .

الثالث : الهلاك ، قاله السدي .

الرابع : دخول النار ، قاله ابن زيد .

﴿ كلا إذا بَلَغَتِ التّراقِيَ ﴾ يعني بلوغ الروح عند موته إلى التراقي ، وهي أعلى الصدر ، واحدها ترقوه .

﴿ وقيلَ مَنْ راقٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : قال أَهْله : من راقٍ يرقيه بالرُّقى وأسماء الله الحسنى ، قاله ابن عباس .

الثاني : مَنْ طبيبٌ شافٍ ، قاله أبو قلابة ، قال الشاعر :

هل للفتى مِن بنات الدهرِ من واقى . . . أم هل له من حمامِ الموتِ من راقي

الثالث : قال الملائكة : مَن راقٍ يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

﴿ وظَنَّ أنّه الفِراق ﴾ أي تيقن أنه مفارق الدنيا .

﴿ والْتَفّتِ الساقُ بالساقِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : اتصال الدنيا بالآخرة ، قاله ابن عباس .

الثاني : الشدة بالشدة والبلاء بالبلاءِ ، وهو شدة كرب الموت بشدة هول المطلع ، قاله عكرمة ومجاهد ، ومنه قول حذيفة بن أنس الهذلي :

أخو الحرب إن عضّت به الحربُ عضّها . . . وإن شمّرتْ عن ساقها الحرب شمّرا .

الثالث : التفّت ساقاه عند الموت ، وحكى ابن قتيبة عن بعض المفسرين أن التفاف الساق بالساق عند الميثاق ، قال الحسن :

ماتت رجلاه فلم تحملاه وقد كان عليهما جوّالاً .

الرابع : أنه اجتمع أمران شديدان عليه : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه ، قاله ابن زيد .

﴿ إلى ربّك يومئذٍ المساقُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المنطلق ، قاله خارجة .

الثاني : المستقر ، قاله مقاتل .

﴿ فلا صَدّقَ ولا صَلّى ﴾ هذا في أبي جهل ، وفيه وجهان :

أحدهما : فلا صدّق بكتاب الله ولا صلّى للَّه ، قاله قتادة .

الثاني : فلا صدّق بالرسالة ولا آمن بالمرسل ، وهو معنى قول الكلبي .

(229/793)

ويحتمل ثالثاً : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .

﴿ ولكن كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كذب الرسول وتولى عن المرسل .

الثاني : كذب بالقرآن وتولى عن الطاعة .

﴿ ثم ذَهَبَ إلى أَهْلِه يَتَمَطَّى ﴾ يعني أبا جهل ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يختال في نفسه ، قاله ابن عباس .

الثاني : يتبختر في مشيته ، قال زيد بن أسلم وهي مشية بني مخزوم .

الثالث : أن يلوي مطاه ، والمطا : الظهر ، وجاء النهي عن مشية المطيطاء وذلك أن الرجل يلقي يديه مع الكفين في مشيه .

﴿ أَوْلَى لك فأَوْلَى * ثم أَوْلَى لك فأَوْلَى ﴾ حكى الكلبي ومقاتل : أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل ببطحاء مكة وهو يتبختر في مشيته ، فدفع في صدره وهمزه بيده

وقال :

" أوْلى لك فأولى " فقال أبو جهل :

إليك عني أوعدني يا ابن أبي كبشة ما تستطيع أنت ولا ربك الذي أرسلك شيئاً ، فنزلت هذه الآية .

وفيه وجهان :

أحدهما : وليك الشر ، قال قتادة ، وهذا وعيد على وعيد .

الثاني : ويل لك ، قالت الخنساء :

هَممْتُ بنفسي بعض الهموم . . . فأوْلى لنَفْسيَ أوْلَى لها .

سأحْمِلُ نَفْسي على آلةٍ . . . فإمّا عليها وإمّا لها .

الآلة : الحالة ، والآلة : السرير أيضاً الذي يحمل عليه الموتى .

﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : فهل لا يفترض عليه عمل ، قاله ابن زيد .

الثاني : يظن ألا يبعث ، قاله السدي .

الثالث : ملغى لا يؤمر ولا ينهى ، قاله مجاهد .

الرابع : عبث لا يحاسب ولا يعاقب ، قال الشاعر :

فأُقسِم بالله جهدَ اليمين . . . ما ترك الله شيئاً سُدى

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن معنى يُمنى يراق ، ولذلك سميت منى لإراقة الدماء فيها .

الثاني : بمعنى ينشأ ويخلق ، ومنه قول يزيد بن عامر :

فاسلك طريقك تمشي غير مختشعٍ . . . حتى تلاقيَ ما يُمني لك الماني .

الثالث : أنه بمعنى يشترك أي اشتراك ماء الرجل بماء المرأة .

(230/793)

﴿ ثم كان عَلَقَةً ﴾ يعني أنه كان بعد النطفة علقة .

﴿ فخَلَقَ فسوَّى ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : خلق من الأرحام قبل الولادة وسوي بعدها عند استكمال القوة وتمام الحركة .

الثاني : خلق الأجسام وسواها للأفعال ، فجعل لكل جارحة عملاً ، والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 150 . 160 ﴾

(231/793)

وقال ابن الجوزى :

سورة القيامة

قوله تعالى : ﴿ لا أقسم ﴾

اتفقوا على أن المعنى "أقسم" واختلفوا في "لا" فجعلها بعضهم زائدة ، كقوله تعالى : ﴿ لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] وجعلها بعضهم رداً على منكري البعث .

ويدل عليه أنه "أقسم" على كون البعث .

قال ابن قتيبة : زيدت "لا" على نية الرد على المكذبين ، كما تقول : لا والله ما ذاك ، ولو حذفت جاز ، ولكنه أبلغ في الرد .

وقرأ ابن كثير إلا ابن فليح "لأقسم" بغير ألف بعد اللام ، فجعلت لاما دخلت على "أقسم" ، وهي قراءة ابن عباس ، وأبي عبد الرحمن ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن محيصن ، قال الزجاج : من قرأ "لأقسم" فاللام لام القسم والتوكيد .

وهذه القراءة بعيدة في العربية ، لأن لام القسم لا تدخل على الفعل المستقبل إلا مع النون ، تقول : لأَضربنَّ زيداً .

ولا يجوز : لأَضْرِبُ زيداً .

قوله تعالى : ﴿ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْس اللَّوامة ﴾ قال الحسن : أَقسمَ بالأولى ولم يقسم بالثانية .

وقال قتادة : حكمها حكم الأولى .

وفي "النفس اللّوامة" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها المذمومة ، قاله ابن عباس .

فعلى هذا : هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم .

والثاني : أنها النفس المؤمنة ، قاله الحسن .

قال : لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال .

والثالث : أنها جميع النفوس .

قال الفراء : ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها ، إن كانت عملت خيراً .

قال : هلا زِدْت .

وإن كانت عملت سوءاً قال : ليتني لم أفعل .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ المراد بالإنسان هاهنا : الكافر .

وقال ابن عباس : يريد أبا جهل .

وقال مقاتل : عدي بن ربيعة ، وذلك أنه قال : أيجمع الله هذه العظام ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم له : "نعم" ، فاستهزأَ مِنْه فنزلت هذه الآية .

(232/793)

قال ابن الأنباري : وجواب القسم محذوف ، كأنه : لَتُبْعَثُنَّ ، لَتُحَاسَبُنَّ ، فدل قوله تعالى : "أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه" على الجواب ، فحذف .

قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ وقف حسن .

ثم يُبتدأ "قادرين" على معنى : بلى نجمعها قادرين .

ويصلح نصب "قادرين" على التكرير بل فَلْيَحْسَبْنَا قادرين ﴿ على أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾

وفيه قولان .

أحدهما : أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفّ البعير ، وحافر الحمار ، فيعدم الارتفاق بالأعمال اللطيفة ، كالكتابة والخياطة ، هذا قول الجمهور .

والثاني : نقدر على أن نسوي بنانه كما كانت ، وإن صغرت عظامها ، ومن قدر على جمع صغار العظام ، كان على جمع كبارها أقدر ، هذا قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقد بينا معنى البنان في [الأنفال : 12] .

قوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يكذب بما أمامه من البعث والحساب ، قاله ابن عباس .

والثاني : يقدِّم الذنب ويؤخِّر التوبة ، ويقول : سوف أتوب ، قاله سعيد بن جبير .

فعلى هذا : يكون المراد بالإنسان : المسلم .

وعلى الأول : الكافر .

قوله تعالى : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أي : متى هو ؟ تكذيباً به ، وهذا هو الكافر ﴿ فإذا برق البصر ﴾ قرأ أهل المدينة ، وأبان عن عاصم "بَرَق" بفتح الراء ، والباقون بكسرها .

قال الفراء : العرب تقول : بَرِق البصر يبرَق ، وبَرَق يبرُق ، إذا رأى هولاً يفزع منه ، و"بَرِق" أكثر وأجود قال الشاعر :

فَنَفْسَكَ فَانْعَ ولا تَنْعَني . . .

ودَاوِ الكُلُومَ ولاَ تَبْرَقِ

بالفتح .

يقول : لا تفزع من هول الجراح التي بك .

قال المفسرون : يشخص بصر الكافر يوم القيامة ، فلا يَطْرِفُ لما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا ، وقال مجاهد : برق البصر عند الموت .

قوله تعالى : ﴿ وخسف القمر ﴾ قال أبو عبيدة : كَسَف وخَسَف بمعنى واحد ، أي : ذهب ضوؤه .

قوله تعالى : ﴿ وجُمِعَ الشَّمسُ والقمر ﴾ إنما قال "جمع" لتذكير القمر ، هذا قول أبي عبيدة .

وقال الفراء : إنما لم يقل : جُمِعَتْ ، لأن المعنى : جمع بينهما .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : جمع بين ذاتَيْهما .

وقال ابن مسعود : جمعا كالبعيرين القرينين .

وقال عطاء بن يسار : يُجْمَعَان ثم يُقْذَفَان في البحر .

وقيل : يُقْذَفَان في النار .

وقيل : يجمعان ، فيطلعان من المغرب .

والثاني : جمع بينهما في ذهاب نورهما ، قاله الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان ﴾ يعني : المكذِّب بيوم القيامة ﴿ أين المفر ﴾ قرأ الجمهور بفتح الميم ، والفاء ، وقرأ ابن عباس ، ومعاوية ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : بكسر الفاء قال الزجاج : فمن فتح ، فالمعنى : أين الفرار ؟ ومن كسر ، فالمعنى : أين مكان الفرار ؟ تقول : جلست مجلَساً بالفتح ، يعني : جلوساً .

فإذا قلت : مجلِساً بالكسر ، فأنت تريد المكان .

قوله تعالى : ﴿ كلا لا وزر ﴾ قال ابن قتيبة : لا ملجأ .

وأصل الوزر : الجبل .

الذي يمتنع فيه ﴿ إِلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي : المنتهى والمرجع .

﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يومئذ بما قَدَّم وأَخَّر ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : بما قدَّم قبل موته ، وما سنَّ من شيء فعُمِل به بعد موته ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس .

والثاني : يُنَبَّأُ بأوَّل عمله وآخره ، قاله مجاهد .

والثالث : بما قدَّم من الشَّرِّ وأخَّر من الخير ، قاله عكرمة .

والرابع : بما قدَّم من فرض ، وأخَّر من فرض ، قاله الضحاك .

والخامس : بما قدَّم من معصية ، وأخَّر من طاعة .

والسادس : بما قدَّم من أمواله ، وما خلَّف للورثة ، قاله زيد بن أسلم .

قوله تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ قال الفراء : المعنى : بل على الإنسان من نفسه بصيرة ، أي : رقباء يشهدون عليه بعمله ، وهي : الجوارح .

قال ابن قتيبة : فلما كانت جوارحه منه ، أقامها مقامه .

وقال أبو عبيدة : جاءت الهاء في "بصيرة" في صفة الذكر ، كما جاءت في رجل "راوية" ، و"طاغية" ، وعلاَّمة .

قوله تعالى : ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ في المعاذير قولان .

أحدهما : أنه جمع عذر ، فالمعنى : لو اعتذر ، وجادل عن نفسه ، فعليه من يكذِّب عذره ، وهي : الجوارح ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن المعاذير جمع معذار ، وهو : الستر .

والمعاذير : الستور .

فالمعنى : ولو أرخى ستوره ، هذا قول الضحاك ، والسدي ، والزجاج ، فيخرج في معنى "ألقى" قولان .

أحدهما : قال ، ومنه ﴿ فأَلْقَوا إليهم القول ﴾ [النحل : 36] ، وهذا على القول الأول :

والثاني : أرخى ، وهذا على القول الثاني .

قوله تعالى : ﴿ لا تحرِّك به لسانك ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان يشتد عليه حِفظه ، وكان إذا نزل عليه الوحي يُحرِّك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي ، مخافة أن لا يحفَظه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومعناها : لا تحرك بالقرآن لسانك لتعجل بأخذه ﴿ إِن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال ابن قتيبة : أي : ضمَّه وجمعه في صدرك ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي : جمعناه ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أي : جمعه .

قال المفسرون : يعني : اقرأ إذا فرغ جبريل من قراءته .

قال ابن عباس : فاتّبِع قرآنه ، أي : اعمل به .

وقال قتادة : فاتبع حلاله وحرامه ﴿ ثم إنَّ علينا بيانه ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : نبيّنه بلسانك ، فتقرؤه كما أقرأك جبريل .

وكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب ، قرأه كما وعده الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : إِن علينا أن نجزيَ به يوم القيامة بما فيه من وعد ووعيد ، قاله الحسن .

والثالث : إِن علينا بيان ما فيه من الأحكام ، والحلال ، والحرام ، قاله قتادة .

والرابع : علينا أن ننزّله قرآناً عربياً ، فيه بيان للناس ، قاله الزجاج .

(235/793)

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ قال عطاء : أي : لا يؤمن أبو جهل بالقرآن وبيانه ، وقال ابن جرير : المعنى : ليس الأمر كما تقولون من أنكم لا تُبْعَثُون ، ولكن دعاكم إلى قِيلِ ذلك مَحَبَّتُكم

للعاجلة .

قوله تعالى : ﴿ بل تحبون العاجلة ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو "بل يحبون العاجلة ويذرون" بالياء فيهما .

وقرأ الباقون بالتاء فيهما .

والمراد : كفار مكة ، يحبونها ويعملون لها "ويذرون الآخرة" أي : يتركون العمل لها إيثاراً للدنيا عليها .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ أي : مشرقة بالنعيم ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ روى عطاء عن ابن عباس قال : إلى الله ناظرة .

قال الحسن : حق لها أن تَنْضَر وهي تنظر إلى الخالق ، وهذا مذهب عكرمة .

ورؤية الله عز وجل حق لا شك فيها .

والأحاديث فيها صحاح ، قد ذكرتُ جملة منها في "المغني" و"الحدائق" .

قوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ قال ابن قتيبة : أي : عابسة مقطِّبة .

قوله تعالى : ﴿ تظن ﴾ قال الفراء : أي : تعلم ، و"الفاقرة" الداهية .

قال ابن قتيبة : إنه من فَقارة الظهر ، كأنها تكسره ، يقال فَقَرْتُ الرجل : إذا كسرتَ فَقارَه ، كما يقال : رَأَسْتُه : إذا ضربتَ رأْسَه .

وبَطَنْتُه : إذا ضَرَبْتَ بَطْنَه .

قال ابن زيد : والفاقرة : دخول النار .

قال ابن السائب : هي أن تُحْجَبَ عن ربها ، فلا تنظر إليه .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ قال الزجاج : "كلا" ردع وتنبيه .

المعنى : ارتَدِعوا عما يؤدّي إلى العذاب .

وقال غيره : معنى "كلا" : لا يُؤْمِنُ الكافر بهذا .

قوله تعالى : ﴿ إذا بلغت ﴾ يعني : النفس .

وهذه كناية عن غير مذكور .

و"التراقي" العظام المكتنفة لنُقْرَة النَّحر عن يمين وشمال .

وواحدة التراقي : تَرْقوة ، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت ، ﴿ وقيل مَنْ راق ﴾ فيه قولان .

(236/793)

أحدهما : أنه قول الملائكة بعضهم لبعض : من يرقى روحه ، ملائكة الرحمة ، أو ملائكة العذاب ؟ رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، ومقاتل .

والثاني : أنه قول أهله : هل مِنْ رَاقٍ يَرْقيه بالرُّقى ؟ وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه

قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو قلابة ، وقتادة ، وابن زيد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج.

قوله تعالى : ﴿ وظن ﴾ أي : أيقن الذي بلغت روحه التراقيَ ﴿ أنه الفِرَاق ﴾ للدنيا ﴿ والتفَّت الساق بالساق ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : أمر الدنيا بأمر الآخرة ، رواه الوالبي عن ابن عباس : وبه قال مقاتل .

والثاني : اجتمع فيه الحياة والموت ، قاله الحسن ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : التفت ساقاه في الكفن ، قاله سعيد بن المسيب .

والرابع : التفت ساقاه عند الموت ، قاله الشعبي .

والخامس : الشدة بالشدة ، قاله قتادة .

قال الزجاج : آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أي : إلى الله المنتهى ﴿ فلا صدّق ولا صلَّى ﴾ قال أبو عبيدة : "لا" ها هنا في موضع "لم" .

قال المفسرون : هو أبو جهل ﴿ ولكن كذَّب وتولَّى ﴾ عن الإيمان ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطَّى ﴾ أي : رجع إليهم يتبختر ويختال .

قال الفراء "يتمطَّى" أي يتبختر ، لأن الظهر هو المَطَا ، فيلوي ظهره متبختراً .

وقال ابن قتيبة : أصله يتمطط ، فقلبت الطاء فيه ياء ، كما قيل : يتظنّى ، وأصله : يتظنن

، ومنه المشية المُطَيْطَاء .

وأصل الطاء في هذا كله دال .

إنما هو مد يده في المشي إذا تبختر .

يقال : مَطَطتُ ومَدَدتُ بمعنى .

قوله تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ﴾ قال ابن قتيبة : هو تهديد ووعيد .

وقال الزجاج : العرب تقول : أولى لفلان : إذا دعت عليه بالمكروه ، ومعناه : وليك المكروه يا أبا جهل .

(237/793)

قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ يعني : أبا جهل ﴿ أن يُتْرَكَ سُدى ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يهمل فلا يؤمر ولا ينهى ولا يعاقب ، يقال : أسديت الشيء ، أي : أهملته .

ثم دل على البعث بقوله تعالى : ﴿ ألم يك نطفةً من مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي وأبو بكر عن عاصم "تُمْنَى" بالتاء .

وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب "يُمْنَى" بالياء .

وعن أبي عمرو كالقراءتين .

وقد شرحنا هذا في [النجم: 24] ﴿ ثم كان علقةً ﴾ بعد النطفة ﴿ فَخَلَق ﴾ فيه الروح، وسَوَّى خلقه ﴿ فجعل منه ﴾ أي: خَلَقَ من مائه أولاداً ذكوراً وإناثاً ﴿ أليس ذلك ﴾ الذي فعل هذا ﴿ بقادرٍ؟ ﴾ وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري "يقدر" ﴿ على أن يحيي الموتى؟! ﴾ وهذا تقرير لهم، أي: إن من قَدَر على الابتداء قَدَر على الإعادة.

قال ابن عباس: إذا قرأ أحدكم هذه الآية، فليقل: اللهم بلى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 415.426 ﴾

(238/793)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾

اتفقوا على أن المعنى أقسم، واختلفوا في لفظ لا فقيل إدخال لفظة لا على القسم مستفيض في كلام العرب وأشعارهم، قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري . . .

لا يدعي القوم أني أفر

قالوا : وفائدتها تأكيد القسم كقولك لا والله ما ذاك كما تقول تريد والله فيجوز حذفها .

لكنه أبلغ في الرّد مع إثباتها ، وقيل إنها صلة كقول الله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ وفيه ضعف لأنها لا تزاد إلا في وسط الكلام لا في أوله .

وأجيب عنه بأن القرآن في حكم السّورة الواحدة بعضه متصل ببعض يدل عليه أنه قد يجيء ذكر الشيء في سورة ، ويذكر جوابه في سورة أخرى كقوله : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وجوابه في سورة ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ وإذا كان كذلك كان أول هذه السورة جارياً مجرى الوسط وفيه ضعف أيضاً لأن القرآن في حكم السّورة الواحدة في عدم التناقض لا أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز ، وقيل لا رد لكلام المشركين المنكرين للبعث أي ليس الأمر كما زعموا ، ثم ابتدأ فقال أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس اللّوامة ، وقيل الوجه فيه أن يقال إن لا هي للنفي ، والمعنى في ذلك كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم ولا بتلك النّفس إلا إعظاماً لهما فيكون الغرض تعظيم المقسم به وتفخيم شأنه ، وقيل معناه لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب فإنه إثباته أظهر من أن يقسم عليه .

وروى البغوي في تفسير القيامة عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون القيامة وقيامة أحدهم موته وشهد علقمة جنازة فلما دفنت قال أما هذا فقد قامت قيامته وفيه ضعف لاتفاق المفسرين على أن المراد به القيامة الكبرى لسياق الآيات في ذلك .

وقوله ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ قيل هي التي تلوم على الخير والشر ولا تصبر على السراء والضراء ، وقيل اللوامة هي التي تندم على ما فات فتقول لو فعلت ولو لم تفعل وقيل ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً تقول هلا ازددت وإن عملت شراً تقول يا ليتني لم أفعل وقال الحسن : هي نفس المؤمن إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلي ، وإن الكافر يمضي ولا يحاسب نفسه ، ولا يعاتبها ، وقيل هي النّفس الشّريفة التي تلوم النّفوس العاصية يوم القيامة بسبب ترك التّقوى ، وقيل هي النّفس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة وقيل هي النّفس الشّقية العاصية يوم القيامة بسبب ترك التقوى ، وقيل هي النفس الشقية تلوم نفسها حين تعاين أهوال يوم القيامة فتقول

﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ ومعنى أيحسب الإنسان أيظن هذا الكافر أن العظام بعد تفرقها ورجوعها رميماً ، ورفاتاً مختلطة بالتراب وبعد ما نسفتها الريح فطيرتها في أباعد الأرض أن لن نجمع عظامه ، أي لا يمكننا جمعها مرة أخرى وكيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد ، وما علم أن القادر على الإبداء قادر على الإعادة نزلت هذه الآية في

عدي بن ربيعة حليف بني زهرة وهو ختن الأخنس بن شريق الثقفي وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول " اللهم اكفني جاري السوء " يعني عديّاً والأخنس وذلك أن عديّاً أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال يا محمد حدثني متى تكون القيامة وكيف أمرها وحالها فأخبره النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال عدي بن ربيعة لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ، ولم أؤمن بك أو يجمع الله العظام فأنزل الله .

(240/793)

أيحسب الإنسان يعني هذا الكافر أن لن نجمع عظامه يعني بعد التفرق والبلاء فنحييه ما كان أول مرة ، وقيل ذكر العظام وأراد بها نفسه جميعها لأن العظام قالب النّفوس ، ولا يستوي الخلق إلا باستوائها ، وقيل إنما خرج على وفق قول هذا المنكر ، أو يجمع الله العظام بلى قادرين يعني على جمع عظامه ، وتأليفها وإعادتها إلى التركيب الأول والحالة ، والهيئة الأولى وعلى ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن نسوي بنانه يعني أنامله فنجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير ، أو كحافر الحمار ، فلا يقدر أن يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال اللطيفة كالكتابة والخياطة وغيرهما ، وقيل معناه أظن الكافر أن لن نقدر على عظامه بلى نقدر على جمع عظامه حتى نعيد السّلاميات على صغرها إلى

أماكنها ، ونؤلف بينها حتى نسوي البنان فمن يقدر على جمع العظام الصغار ، فهو على جمع كبارها أقدر وهذا القول أقرب إلى الصواب ، وقيل إنما خص البنان بالذكر لأنه آخر ما يتم به الخلق .

قوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ أي ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان ما عاش لا ينزع عن المعاصي ولا يتوب وقال سعيد بن جبير يقدم الذّنب ويؤخر التوبة ، ويقول سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت وهو على سوء حاله وشر أعماله ، وقيل هو طول الأمل يقول أعيش فأصيب من الدّنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت وقال ابن عباس : يكذب بما أمامه من البعث والحساب ، وأصل الفجور الميل وسمي الكافر والفاسق فاجراً لميله عن الحق .

(241/793)

﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أيّ متى يكون يوم القيامة والمعنى أن الكافر يسأل سؤال متعنت مستبعد لقيام السّاعة قال الله تعالى : ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي شخص البصر عند الموت فلا يطرف مما يرى من العجائب التي كان يكذب بها في الدنيا ، وقيل تبرق أبصار الكفار عند رؤية جهنم ، وقيل برق إذا فزع وتحير لما يرى من العجائب ، وقيل برق أي شق

عينه وفتحها من البريق وهو التلألؤ ﴿ وخسف القمر ﴾ أي أظلم وذهب ضوءه ، ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ يعني أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران ، وقيل يجمع بينهما في ذهاب الضّوء ، وقيل يجمعان ثم يقذفان في البحر فهناك نار الله الكبرى ﴿ يقول الإنسان ﴾ يعني الكافر المكذب ﴿ يومئذ ﴾ أي القيامة ﴿ أين المفرّ ﴾ أي المهرب وهو موضع الفرار ﴿ كلا ﴾ أي لا ملجأ لهم يهربون إليه وهو قوله ﴿ لا وزر ﴾ أي لا حرز ولا ملجأ ولا جبل ، وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به ، فقيل لهم لا جبل لكم يومئذ تتحصنون به وأصل الوزر الجبل المنيع ، وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو وزر ومنه قول كعب بن مالك .

الناس آلت علينا فيك ليس لنا . . .

إلا السيوف وأطراف القنا وزر

(242/793)

ومعنى الآية أنه لا شيء يعصمهم من أمر الله تعالى لا حصن ولا جبل يوم القيامة يستندون إليه من النار ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ يعني مستقر الخلق وقال عبد الله بن مسعود : إليه المصير والمرجع وهو بمعنى الاستقرار ، وقيل إلى ربك مستقرهم أي موضع قرارهم من

جنة أو نار ، وذلك مفوض إلى مشيئته فمن شاء أدخله الجنة برحمته ومن شاء أدخله النار بعدله ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس : بما قدم قبل موته من عمل صالح أو سيىء وما أخر بعد موته من سنة حسنة ، أو سيئة يعمل بها ، وعن ابن عباس أيضاً بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة ، وقيل بما قدم من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه ، وقيل بأول عمله وآخره وهو ما عمله في أول عمره وفي آخره ، وقيل بما قدم من ماله لنفسه قبل موته وما أخر من ماله لورثته .

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ أي بل الإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله وهي سمعه وبصره وجوارحه ، وإنما دخلت الهاء في البصيرة لأن المراد من الإنسان جوارحه ، وقيل معناه بل الإنسان على نفسه عين بصيرة وفي رواية عن ابن عباس بل الإنسان على نفسه شاهد فتكون الهاء للمبالغة كعلامة ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ يعني ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه ، فإنه لا ينفعه لأنه قد شهد عليه شاهد من نفسه ، وقيل معناه ولو اعتذر فعليه من نفسه ما يكذب عذره ، وقيل إن أهل اليمن يسمون السّتر معذاراً وجمعه معاذير ، فعلى هذا يكون معناه ولو أرخى السّتور وأغلق الأبواب ليخفي ما يعمل ، فإن نفسه شاهدة عليه ، وهذا في حق الكافر لأنه ينكر يوم القيامة فتشهد عليه جوارحه بما عمل في الدنيا .

قوله : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ (ق) عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ قال كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يعالج من التّنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه قال ابن جبير : قال ابن عباس أنا أحركهما كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحركها فحرك شفتيه فأنزل الله ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه .

قال فاستمع وأنصت ثم إن علينا أن تقرأه ، قال فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أتاه جبريل بعد ذلك استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي (صلى الله عليه وسلم) كما قرأه ، وفي رواية كما وعده الله تعالى لفظ الحميدي ، ورواه البغوي من طريق البخاري وقال فيه : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، كان مما يحرك لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، وكان يعرف منه فأنزل الله الآية ، التي في لا أقسم بيوم القيامة لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، قال إن علينا أن نجمعه في صدرك ، وتقرأه فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، فإذا أنزلناه فاستمع ثم إن علينا بيانه علينا أن نبينه بلسانك .

(244/793)

قال فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى ؛ وفي رواية كان يحرك شفتيه إذا نزل عليه يخشى أن ينفلت منه فقيل له لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، أيّ نجمعه في صدرك وقرآنه أن تقرأه ، ومعنى الآية لا تحرك بالقرآن لسانك ، وإنما جاز هذه الإضمار وإن لم يجر له ذكر لدّلالة الحال عليه لتجعل به أي بأخذه ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أي جمعه في صدرك وحفظك إياه ﴿ وقرآنه ﴾ أي قراءته علينا والمعنى سنقرئك يا محمد بحيث تصير لا تنساه ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ أي لا تكن قراءتك مقارنة لقراءة جبريل عليك بل اسكت حتى يتم جبريل ما يوحى إليك ، فإذا فرغ جبريل من القراءة ، فخذ أنت فيها ، وجعل قراءة جبريل قراءته لأنه بأمره نزل بالوحي ونظيره .

﴿ وجوه يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ناضرة ﴾ من النضارة ، وهي الحسن قال ابن عباس : حسنة وقيل مسرورة بالنعيم ، وقيل ناعمة ، وقيل مسفرة مضيئة ، وقيل بيض يعلوها نور وبهاء وقيل مشرقة بالنعيم .

﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب قال الحسن حق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق سبحانه وتعالى ، وروي عن مجاهد وأبي صالح أنهما فسرا النّظر في هذه الآية بالانتظار قال مجاهد تنتظر من ربها ما أمر لها به وقال أبو صالح : تنتظر الثّواب من ربها ، قال الأزهري : ومن قال إن معنى قوله ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ بمعنى منتظرة فقد أخطأ لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته إنما تقول

نظرت فلاناً أي انتظرته ومنه قول الحطيئة :

وقد نظرتكم أعشاء صادرة . . .

للورد طال بها حوري وتنساسي

(245/793)

فإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين ، وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكر فيه وتدبر بالقلب ، وهذا آخر كلامه ويشهد لصحة هذا أن النظر الوارد في التّنزيل بمعنى الانتظار كثير ولم يوصل في موضع بإلى كقوله ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وقوله ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ﴾ والوجه إذا وصف بالنظر وعدي بإلى لم يحتمل غير الرؤية ، وأما قوله أنظر إلى الله ثم إليك على معنى أتوقع فضل الله ثم فضلك ، فيكون النّظر إلى الوجه لم يحتمل نظر القلب إنما يجوز هذا إذا لم يسند إلى الوجه ، فإذا أسند النظر إلى الوجه لم يحتمل نظر القلب ، ولا انتظار وإذا بطل المعنيان لم يبق لبقاء الرّؤية كلام وإن شق ذلك عليهم ، والأحاديث الصحيحة تعضد قول من فسر النظر في هذه الآية بالرؤية وسنذكرها إن شاء الله تعالى .

(فصل : في إثبات رؤية المؤمنين ربهم سبحانه وتعالى في الآخرة)

قال علماء أهل السنة رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً ، وأجمعوا على وقوعها في الآخرة ، وأن المؤمنين يرون الله سبحانه ، وتعالى دون الكافرين بدليل قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ وزعمت طوائف من أهل البدع كالمعتزلة والخوارج ، وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه ، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً ، وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى ، وقد رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وآيات القرآن فيها مشهورة ، واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبتها مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة ، وكذلك باقي شبههم وأجوبتها مشهورة مستفاضة في كتب الكلام ، وليس هذا موضع ذكرها ، ثم مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه ، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ، ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك .

(246/793)

وأما الأحاديث الواردة في إثبات الرّؤية فمنها ما روي عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه ، وأزواجه ، ونعيمه

وخدمه ، وسروره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ " أخرجه التّرمذي وقال : هذا حديث غريب ، وقال : وقد روي عن ابن عمر ولم يرفعه (ق) عن جرير بن عبد الله قال "كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشّمس ، وقبل الغروب " قوله "لا تضامون " روي بفتح التاء وتشديد الميم وقد تضم التاء مع التّشديد أيضاً ومعناه لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدحمون وقت النظر إليه ، وروي بتخفيف الميم ومعناه لا ينالكم ضيم في رؤيته فيراه بعضكم دون بعض وقوله : " إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر " معناه تشبيه الرّؤية بالرّؤية في الوضوح وزوال الشّك والمشقة لا تشبيه المرئي بالمرئي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه " أن أناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هل تضارون في القمر ليلة البدر ، قالوا : لا يا رسول الله قال : هل تضارون في الشّمس ليس دونها سحاب ، قالوا : لا يا رسول الله قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإنكم سترونه كذلك " أخرجه أبو داود وأخرجه التّرمذي .

وليس عنده في أوله أن أناساً سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا قوله ليس دونها

سحاب .

قال الترمذي وقد روي مثل هذا الحديث عن أبي سعيد وهو صحيح ، وهذا الحديث طرف من حديث طويل قد أخرجه البخاري ومسلم ، ومعنى تضارون وتضامون واحد .

(247/793)

عن أبي رزين العقيلي قال : " قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة ؟ قال نعم قلت وما آية ذلك في خلقه ؟ قال يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به قلت بلى قال : فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله أجل وأعظم " أخرجه أبو داود (م) عن صهيب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال

﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أي مرجع العباد إلى الله تعالى يساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم .

قوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ يعني أبا جهل لم يصدق بالقرآن ، ولم يصلِّ لله تعالى : ﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أي أعرض عن الإيمان والتصديق ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أي يتبختر ويختال في مشيته ، وقيل أصله يتمطط أي يتمدد من المط ، وقيل من المطا وهو الظهر لأنه يلويه .

﴿ أولى لك فأولى ﴾ هذا وعيد على وعيد من الله تعالى لأبي جهل .

وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد ومعناه ، ويل لك مرة بعد مرة وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ، وقيل معناه أنك أجدر بهذا العذاب .

وأحق وأولى به .

يقال ذلك لمن يصيبه مكروه يستوجبه قال قتادة : ذكر لنا " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما نزلت هذه الآية أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء وقال له أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى " فقال أبو جهل أتوعدوني يا محمد والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبليها فلما كان يوم بدر صرعه وقتله أشد قتلة .

وكان نبي الله يقول (صلى الله عليه وسلم) " إن لكل أمة فرعوناً وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل " ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أي هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف في الدنيا ولا يحاسب في الآخرة ﴿ ألم يك نطفة ﴾ أي ماء قليلاً ﴿ من مني يمنى ﴾ أي يصيب في الرحم ، والمعنى كيف يليق بمن خلق من شيء قذر مستقذر أن يتكبر ويتمرد عن الطاعة .

﴿ ثم كان علقة ﴾ أي صار الإنسان علقة بعد النطفة ﴿ فخلق فسوى ﴾ أي فقدر خلقه وسواه وعدله وقيل نفخ فيه الروح وكمل أعضاءه ﴿ فجعل منه ﴾ أي من الإنسان ﴿ الزوجين ﴾ أي الصنفين ثم فسرهما فقال ﴿ الذكر والأنثى ﴾ أي خلق من مائة أولاداً ذكوراً وإناثاً ﴿ أليس ذلك ﴾ أي الذي فعل وأنشأ الأشياء أول مرة ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ أي بقادر على إعادته بعد الموت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ ، فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ، فليقل بلى ومن قرأ ﴿ والمرسلات فبلغ ، فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ فليقل آمنا بالله " أخرجه أبو داود وله عن موسى بن أبي عائشة قال " كان رجل يصلي فوق بيته ، فكان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال سبحانك بلى فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 181.188 ﴾

(249/793)

وقال النسفي :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

أي أقسم .

عن ابن عباس : و "لا" كقوله ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ [الحديد : 29] وقوله :

في بئر لا حور سرى وما شعر . . .

وكقوله :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . .

وكاد ضمير القلب لا يتقطع

وعليه الجمهور وعن الفراء : "لا" رد لإنكار المشركين البعث كأنه قيل : ليس الأمر كما تزعمون ثم قيل : أقسم بيوم القيامة .

وقيل : أصله لأقسم كقراءة ابن كثير على أن اللام للابتداء و ﴿ أُقْسِمُ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي لأنا أقسم ويقويه أنه في "الإمام" بغير الألف ثم أشبع فظهر من الإشباع ألف ، وهذا اللام يصحبه نون التأكيد في الأغلب وقد يفارقه ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ الجمهور على أنه قسم آخر .

وعن الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة فهي صفة ذم وعلى القسم صفة مدح أي النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى وقيل : هي نفس آدم لم تزل تلوم على

فعلها التي خرجت به من الجنة ، وجواب القسم محذوف أي لتبعثن دليله ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ أي الكافر المنكر للبعث ﴿ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ بعد تفرقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب .

﴿ بلى ﴾ أوجبت ما بعد النفي أي بلى نجمعها ﴿ قادرين ﴾ حال من الضمير في ﴿ نَّجْمَعَ ﴾ أي نجمعها قادرين على جمعها وإعادتها كما كانت ﴿ على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أصابعه كما كانت في الدنيا بلا نقصان وتفاوت مع صغرها فكيف بكبار العظام .

(250/793)

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسان ﴾ عطف على ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ فيجوز أن يكون مثله استفهاماً ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ تحير فزعاً وبفتح الراء : مدني شَخَصَ ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ وذهب ضوؤه أو غاب من قوله ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ ﴾ [القصص : 81] وقرأ أبو حيوة بضم الخاء ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ أي جمع بينهما في الطلوع من المغرب أو جمعاً في ذهاب الضوء ويجمعان فيقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى ﴿ يَقُولُ الإنسان ﴾ الكافر ﴿ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ هو مصدر أي الفرار من

النار أو المؤمن أيضاً من الهول .

وقرأ الحسن بكسر الفاء وهو يحتمل المكان والمصدر ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن طلب المفر ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ لا ملجأ ﴿ إلى رَبِّكَ ﴾ خاصة ﴿ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ مستقر العباد أو موضع قرارهم من جنة أو نار مفوّض ذلك لمشيئته ، من شاء أدخله الجنة ومن شاء أدخله النار .

﴿ يُنَبَّؤُاْ الإنسان يَوْمَئِذٍ ﴾ يخبر ﴿ بِمَا قَدَّمَ ﴾ من عمل عمله ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ ما لم يعمله .

﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ شاهد .

والهاء للمبالغة كعلامة أو أنثه لأنه أراد به جوارحه إذ جوارحه تشهد عليه ، أو هو حجة على نفسه والبصيرة الحجة قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأنعام : 104] وتقول لغيرك أنت حجة على نفسك .

و ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ على نَفْسِهِ ﴾ تقدم عليه والجملة خبر الإنسان كقولك : زيد على رأسه عمامة .

والبصيرة على هذا يجوز أن يكون الملك الموكل عليه ﴿ وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أرخى ستوره والمعذار الستر .

وقيل : ولو جاء بكل معذرة ما قبلت منه فعليه من يكذب عذره .

والمعاذير ليس بجمع معذرة لأن جمعها معاذر بل هي اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر

﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ بالقرآن .

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ في القرآن قبل فراغ جبريل كراهة أن يتفلت منه فقيل له : لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ لتأخذه على عجلة ، ولئلا يتفلت منك .

ثم علل النهي عن العجلة بقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُ ﴾ وإثبات قراءته في لسانك ، والقرآن القراءة ونحوه ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] ﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ أي قرأه عليك جبريل فجعل قراءة جبريل قراءته ﴿ فاتبع قُرْءَانَهُ ﴾ أي قراءته عليك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إنكار البعث أو ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن العجلة وإنكار لها عليه ، وأكده بقوله ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ كأنه قيل : بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء ومن ثم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها ﴿ وَتَذَرُونَ الآخرة ﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها والقراءة فيهما بالتاء : مدني وكوفي ﴿ وُجُوهٌ ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ حسنة ناعمة ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بلا كيفية ولا جهة ولا ثبوت مسافة .

وحمل النظر على الانتظار لأمر ربها أو لثوابه لا يصح لأنه يقال : نظرت فيه أي تفكرت ، ونظرته انتظرته ، ولا يعدى ب "إلى" إلا بمعنى الرؤية مع أنه لا يليق الانتظار في دار القرار ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ كالحة شديدة العبوسة وهي وجوه الكفار ﴿ تَظُنُّ ﴾ تتوقع ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا ﴾ فعل هو في شدته ﴿ فَاقِرَةٌ ﴾ داهية تقصم فقار الظهر ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون إلى الآجلة التي تبقون فيها مخلدين ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي الروح وجاز وإن لم يجر لها ذكر لأن الآية تدل عليها ﴿ التراقى ﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال جمع ترقوة ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ يقف حفص على ﴿ مَنْ ﴾ وقيفة أي قال حاضر والمحتضر بعضهم لبعض أيكم يرقيه مما به من الرقية من حد ضرب ، أو هو من كلام الملائكة : أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب من الرقي من حد علم .

﴿ وَظَنَّ ﴾ أيقن المحتضر ﴿ أَنَّهُ الفراق ﴾ أن هذا الذي نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ التوت ساقاه عند موته .

وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفان في أكفانه .

وقيل : شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة على أن الساق مثل في الشدة .

(253/793)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هما همّان : همّ الأهل والولد وهمّ القدوم على الواحد الصمد ﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ هو مصدر ساقه أي مساق العباد إلى حيث أمر الله إما إلى الجنة أو إلى النار ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ بالرسول والقرآن ﴿ وَلاَ صلى ﴾ الإنسان في قوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة : 3] ﴿ ولكن كَذَّبَ ﴾ بالقرآن ﴿ وتولى ﴾ عن الإيمان أو فلا صدق ماله يعني فلا زكاه ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ يتبختر وأصله يتمطط أي يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة .

﴿ أولى لَكَ ﴾ بمعنى ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ﴿ فأولى * ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ كرر للتأكيد كأنه قال : ويل لك فويل لك ثم ويل لك فويل لك .

وقيل : ويل لك يوم الموت ، وويل لك في القبر ، وويل لك حين البعث ، وويل لك في النار .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أيحسب الكافر أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا

يبعث ولا يجازى ؟ ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ بالياء : ابن عامر وحفص أي يراق المني في الرحم ، وبالتاء يعود إلى النطفة ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي صار المني قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً ﴿ فَخَلَقَ فسوى ﴾ فخلق الله منه بشراً سوياً ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾ من الإنسان ﴿ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أي من المني الصنفين ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ أليس الفعّال لهذه الأشياء بقادر على الإعادة ؟ وكان صلى الله عليه وسلم إذا قرأها يقول : " سبحانك بلى " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 316.313 ﴾

(254/793)

وقال ابن جزى :

سورة القيامة

﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾

(255/793)

في الموضعين معناه أقسم ، ولا زائدة لتأكيد القسم ، وقيل : هي استفتاح كلام بمنزلة ألا .

وقيل : هي نفي لكلام الكفار ﴿ بالنفس اللوامة ﴾ هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب ، أو التقصير في الطاعات ، فإن النفوس على ثلاثة أنواع : فخيرها النفس المطمئنة وشرها النفس الأمارة بالسوء وبينهما النفس اللوامة ، وقيل : اللوامة هي المذمومة الفاجرة ، وهذا بعيد لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات ، ويستقيم إن كان لا أقسم نفياً للقسم ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ الإنسان هنا للجنس ، أو الإشارة به للكفار المنكرين للبعث ، ومعناه أيظن أن لن نجمع عظامه للبعث بعد فنائها في التراب ؟ وهذه الجملة هي التي تدل على جواب القسم المتقدم ﴿ بلى ﴾ تقديره نجمعها ﴿ الإنسان ﴾ منصوب على الحال من الضمير في نجمع ، والتقدير : نجمعها ونحن قادرون ﴿ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ البنان الأصابع ، وفي المعنى قولان : أحدهما أنه إخبار بالقدرة على البعث أي قادرين على أن نسوي أصابعه أي نخلقها بعد فنائها مستوية متقنة ، وإنما خص الأصابع دون سائر الأعضاء لدقة عظامها وتفرقها ، والآخر أنه تهديد في الدنيا ، أي قادرين أن نجعل أصابعه مستوية ، ملتصقة كيد الحمار وخف الجمل ، فلا يمكنه تصريف يديه في منافعه . والأول أليق بسياق الكلام ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ هذه الجملة معطوفة على أيحسب الإنسان ، ويجوز أن يكون استفهاماً مثلها أو تكون خبراً ، وليست بل هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطائه ؛ وإنما هي للخروج منه إلى ما بعده ،

وليفجر : معناه ليفعل أفعال الفجور ، وفي معنى أمامه ثلاثة أقوال : أحدها أنه عبارة عما يستقبل من الزمان ، أي يفجر بقية عمره ، الثاني أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته ، يقال : مشى فلان قدامه إذا لم يرجع عن شيء يريده ، والضمير على هذين القولين يعود على الإنسان ، الثالث أن الضمير

(256/793)

يعود على يوم القيامة . والمعنى يريد الإنسان أن يفجر قبل يوم القيامة .

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ أيان معناها متى وهذا السؤال على يوم القيامة هو على وجه الاستخفاف والاستعداد .

﴿ بَرِقَ البصر ﴾ هذا إخبار عن يوم القيامة ، وقيل : عن حالة الموت ، وهذا خطأ ؛ لأن القمر لا يخسف عند موت أحد ، ولا يجمع بينه وبين الشمس ، وبَرِق بفتح الراء معناه لمع وصار له برق وقُرِئ بكسر الراء ومعناه تحيَّر من الفزع ، وقيل : معناه شَخَصَ فيتقارب معنى الفتح والكسر ﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ ذهب ضوؤه ، يقال : خسف هو وخسفه الله الخسوف للقمر والكسوف للشمس ، وقيل : الكسوف ذهاب بعض الضوء ، والخسوف : ذهاب جميعه ، وقيل : بمعنى واحد ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ في جمعهما ثلاثة أقوال :

أحدها أنهما يجمعان حيث يطلعهما الله من المغرب ، والآخر أنهما يجمعان يوم القيامة ، ثم يقذفان في النار ، وقيل : في البحر ، فتكون النار الكبرى . الثالث أنهما يجمعان فيذهب ضوؤهما .

﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ أي لا ملجأ ولا مغيث .

﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي يجمع أعماله ما قدّم منها في أول عمره وما أخر في آخره ، وقيل : ما تقدم في حايته وما أخر من سنة أو وصية بعد مماته ، وقيل : ما قدم لنفسه من ماله وما أخر منه لورثته .

(257/793)

﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ في معناه قولان : أحدهما : أنه شاهد على نفسه بأعماله ، إذ تشهد عليه جوارحه يوم القيامة ، والآخر : أنه حجة بينه لأن خلقته تدل على خالقه ، فوصف بالبصارة مجازاً لأن من نظر فيه أبصر الحق ، والأول أليق بما قبله وما بعده ، كأنه قال : ينبؤ الإنسان يومئذ بأعماله بل هو يشهد بأعماله وإن لم ينبأ بها ، وكذلك يلئتم مع قوله : ولو ألقى معاذيره ، ويكون هو جواب لو حسبما نذكره ﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن المعاذير الأعذار أي الإنسان يشهد على نفسه بأعماله ولو اعتذر عن

قبائحها ، والآخر أن المعاذير : الستور ، أي الإنسان يشهد على نفسه يوم القيامة ولو سدل الستور على نفسه في الدنيا ، حين يفعل القبائح .

(258/793)

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ الضمير في به يعود على القرآن دلت على ذلك قرينة الحال ، وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يحرك به شفتيه ، مخافة أن ينساه لحينه ، فأمره الله إن يُنصت ويستمع ، وقيل : كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك ، وشق عليه فنزلت الآية والأول هو الصحيح . لأنه ورد في البخاري وغيره ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ضمن الله له أن يجمعه في صدره ، فلا يحتاج إلى تحريك شفتيه عند نزوله ، ويحتمل قرآنه هنا وجهين ، أحدهما : أن يكون بمعنى القراءة فإن القرآن قد يكون مصدراً من قرأت ، والآخر : أن يكون معناه تأليفه في صدره فهو مصدر من قولك : قرأت الشيء أي جمعته ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ أي إذا قرأه جبريل ، فاجعل قراءة جبريل قراءة الله ؛ لأنها من عنده ، ومعنى اتبع قرآنه اسمع قراءته واتبعها بذهنك لتحفظها ، وقيل : اتبع القرآن في الأوامر والنواهي ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي علينا أن نبينه لك ونجعلك تحفظه ، وقيل : علينا أن نبين معانيه

وأحكامه ، فإن قيل : ما مناسبة قوله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ الآية ، لما قبلها ؟

فالجواب : أنه لعله نزل معه في حين واحد فجعل على ترتيب النزول .

﴿ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ أي تحبون الدنيا ، وهذا الخطاب توبيخ للكفار ، ومن كان على مثل حالهم في حب الدنيا ، وكلا ردع عن ذلك .

(259/793)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ بالضاد أي ناعمة ، ومنه ﴿ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ هذا من النظر بالعين ، وهو نص في نظر المؤمنين إلى الله تعالى في الآخرة ، وهو مذهب أهل السنة ، وأنكره المعتزلة وتأولوا ناظرة بأن معناه منتظرة ، وهذا باطل ؛ لأن نظر بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف جر ، تقول نظرتك أي انتظرتك ، وأما المتعدي بإلى فهو من نظر العين ، ومنه قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 43] وقال بعضهم : إلى هنا ليست بحرف جر وإنما هي واحد الآلاء بمعنى النعم ، وهذا تكلف في غاية البعد ، وتأوله الزمخشري بأن معناه كقول الناس ؛ فلان ناظر إلى فلان إذا كان يرتجيه ويتعلق به ، وهذا بعيد وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في النظر إلى الله أحاديث صحيحة مستفيضة صريحة المعنى لا تحتمل التأويل فهي تفسير الآية ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ أي

عابسة تظهر عليها الكآبة والبسور أشد من العبوس ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي مصيبة قاصمة الظهر ، والظن هنا يحتمل أن يكون على أصله أو بمعنى اليقين .

(260/793)

﴿ إِذَا بَلَغَتِ التراقي ﴾ يعني حالة الموت ، والتراقي جمع ترقوة وهو عظام أعلى الصدر ، والفاعل ببلغت نفس الإنسان دل على ذلك سياق الكلام ، وهو عبارة عن حال الحشرجة وسياق الموت ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي قال أهل المريض : من يرقيه عسى أن يشفيه ؟ وقيل : معناه أن الملائكة تقول : من يرقى بروحه أي يصعد بها إلى السماء ؟ فالأول من الرقية وهو أشهر وأظهر ، والثاني من الرقيّ وهو العلو ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ أي تيقن أن ذلك الحال فراق الدنيا وفراق أهله وماله ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ هذا عبارة عن شدة كرب الموت وسكراته ، أي التفت ساقه على الأخرى عند السياق ، وقيل هو مجاز كقوله كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتدت ، وقيل : معناه ماتت ساقه فلا تحمله ، وقيل : التفت أي لفها الكافر إذا كفر ، وفي قوله : الساق والمساق ضرب من ضروب التجنيس ﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ هذا جواب إذا بلغت التراقي ، والمساق مصدر من السوق كقوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] .

﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ لا هنا نافية وصدّق هنا يحتمل أن يكون من التصديق بالله ورسله أو من الصدقة ، ونزلت هذه الآية وما بعدها في أبي جهل ﴿ يتمطى ﴾ أي يتبختر في مشيته ، وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء ، وكانت هذه المشيئة معروفة في بني مخزوم الذين كان أبو جهل منهم ﴿ أولى لَكَ ﴾ وعيد وتهديد ﴿ فأولى ﴾ وعيد ثان ثم كرر ذلك تأكيداً ، وروي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبَّبَ أبا جهل وقال له : إن الله يقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى . فنزل القرآن بموافقة ذلك " .

(261/793)

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ هذا توبيخ ومعناه أيظن أن يترك من غير بعث ولا حساب ولا جزاء ، فهو كقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] ، والإنسان هنا جنس ، وقيل نزلت في أبي جهل ، ولا يبعد أن يكون سببها خاصاً ومعناها عام ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ النطفة النقطة وتمنى من قولك : أمني الرجل ، ومعنى الآية : الاستدلال بخلقة الإنسان على بعثه ، كقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ياسين : 79] والعلق : الدم لأن المني يصير في الرحم دماً ﴿ فَخَلَقَ فسوى ﴾ أي خلقه بشراً فسوى صورته أي أتقنها ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾

هذا تقرير واحتجاج، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ آخر هذه السورة قال: بلى. وفي رواية: سبحانك اللهم بلى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 163.166﴾

(262/793)

وقال البيضاوى:

سورة القيامة

مكية وآيها أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾

إدخال ﴿ لا ﴾ النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلامهم قال امرؤ القيس:

لاَ وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِي . . . لاَ يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أَفِرْ

وقد مر الكلام فيه في قوله: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ وقرأ قنبل "لأقسم" بغير ألف بعد اللام وكذا روي عن البزي.

﴿ ا ولاَ أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس المقصرة في التقوى يوم

القيامة على تقصيرها ، أو التي تلوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة أو النفس المطمئنة اللائمة للنفس الأمارة أو بالجنس . لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة ، إن عملت خيراً قالت كيف لم أزدد وإن عملت شراً قالت يا ليتني كنت قصرت " أو نفس آدم فإنها لم تزل تتلوم على ما خرجت به من الجنة ، وضمها إلى يوم القيامة لأن المقصود من إقامتها مجازاتها .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ يعني الجنس وإسناد الفعل إليه لأن فيهم من يحسب ، أو الذي نزل فيه وهو عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة ، فأخبره به فقال " لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك " أو يجمع الله هذه العُظام . ﴿ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ بعد تفرقها ، وقرىء "أن لن يجمع" على البناء للمفعول .

﴿ بلى ﴾ نجمعها . ﴿ قادرين على أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ بجمع سلاميا ته وضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام ، أو ﴿ على أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ الذي هو أطرافه فكيف بغيرها ، وهو حال من فاعل الفعل المقدر بعد ﴿ بلى ﴾ ، وقرىء بالرفع أي نحن قادرون .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسان ﴾ عطف على ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً لجواز أن يكون الإِضراب عن المستفهم وعن الاستفهام. ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ متى يكون يوم القيامة استبعاداً له أو استهزاء.

﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ تحير فزعاً من برق فدهش بصره، وقرأ نافع بالفتح وهو لغة، أو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه، وقرىء "بلق" من بلق الباب إذا انفتح.

﴿ وَخَسَفَ القمر ﴾ ذهب ضوؤه وقرىء على البناء للمفعول.

﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوف فإنه مستعار للمحاق، ولمن حمل ذلك أمارات الموت أن يفسر الخسوف بذهاب ضوء البصر والجمع باستتباع الروح الحاسة في الذهاب، أو بوصوله إلى من كان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس، وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف.

﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ﴾ أي الفرار يقوله قول الآيس من وجدانه المتمني، وقرىء بالكسر وهو المكان.

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن طلب المفر. ﴿ لاَ وَزَرَ ﴾ لا ملجأ مستعار من الحبل واشتقاقه من الوزر وهو الثقل.

﴿ إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ ﴾ إليه وحده استقرار العباد، أو إلى حكمه استقرار أمرهم،

أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار .

﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمله ، أو بما قدم من عمل عمله وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة عمل بها بعده ، أو بما قدم من مال تصدق به وبما أخر فخلفه ، أو بأول عمله وآخره .

﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ حجة بينة على أعمالها لأنه شاهد بها ، وصفها بالبصارة على المجاز ، أو عين بصيرة فلا يحتاج إلى الإنباء .

(264/793)

﴿ وَلَوْ أَلقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر ، أو جمع معذرة على غير قياس كالمناكير في المنكر فإن قياسه معاذر وذلك أولى وفيه نظر .

﴿ لاَ تُحَرِّكْ ﴾ يا محمد ، ﴿ بِهِ ﴾ بالقرآن . ﴿ لِسَانَكَ ﴾ قبل أن يتم وحيه . ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك . ﴿ وَقُرْءانَهُ ﴾ وإثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي .

﴿ فَإِذَا قرأناه ﴾ بلسان جبريل عليك . ﴿ فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ قراءته وتكرر فيه حتى

يرسخ في ذهنك .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ بيان ما أشكل عليك من معانيه ، وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره ، أو بذكر ما اتفق في أثناء نزول هذه الآيات . وقيل الخطاب مع الإِنسان المذكور والمعنى أنه يؤتى كتابه فيتلجلج لسانه من سرعة قراءته خوفاً ، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به فإن علينا بمقتضى الوعد جمع ما فيه من أعمالك وقراءته ، فإذا قرأناه فاتبع قراءته بالإقرار أو التأمل فيه ، ثم إن علينا بيان أمره بالجزاء عليه .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للرسول عن عادة العجلة أو للإِنسان عن الاغترار بالعاجل . ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة ﴾ .

﴿ وَتَذَرُونَ الآخرة ﴾ تعميم للخطاب إشعاراً بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال وإن كان الخطاب للإِنسان ، والمراد به الجنس فجمع الضمير للمعنى ويؤيده قراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالياء فيهما .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ بهية متهللة .

﴿ إلى ربّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ تراه مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه ولذلك قدم المفعول ، وليس هذا في كل الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره ، وقيل منتظرة إنعامه ورد بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر ، وأن المستعمل بمعناه لا يتعدى بإلى وقول الشاعر :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِن مَلِكٍ . . . وَالبَحْرُ دُونَك زِدْتَنِي نِعَماً

بمعنى السؤال فإن الانتظار لا يستعقب العطاء .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ شديدة العبوس والباسل أبلغ من الباسر لكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه .

﴿ تَظُنُّ ﴾ تتوقع أربابها . ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ داهية تكسر الفقار .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة .

﴿ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ إذا بلغت النفس أعالي الصدر وإضمارها من غير ذكر لدلالة الكلام عليها .

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ وقال حاضر وصاحبها من يرقيه مما به من الرقية ، أو قال ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة ، أو ملائكة العذاب من الرقي .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ﴾ وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا ومحابها .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما ، أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة .

﴿ إلى ربّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ سوقه إلى الله تعالى وحكمه .

﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ ما يجب تصديقه ، أو فلا صدق ماله أي فلا زكاة . ﴿ ولاَ صلى ﴾ ما فرض عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور في ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان ﴾ .

﴿ ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ عن الطاعة .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ﴾ يتبختر افتخاراً بذلك من المط ، فإن المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط ، أو من المط وهو الظهر فإنه يلويه .

(266/793)

﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ ويل لك من الولي ، وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ أو ﴿ أولى لَكَ ﴾ الهلاك . وقيل أفعل من الويل بعد القلب أدنى من أدون ، أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار .

﴿ ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ﴾ أي يتكرر ذلك عليه مرة بعد أخرى .

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ مهملاً لا يكلف ولا يجازى ، وهو يتضمن تكرير

إنكاره للحشر والدلالة عليه من حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح ، والتكليف لا يتحقق إلا بالمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى ﴾ فقدره فعدله .

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين ﴾ للصنفين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ وهو استدلال آخر بالإبداء على الإعادة على ما مر تقريره مراراً ولذلك رتب عليه قوله :

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه كان إذا قرأها قال سبحانك بلى " وعنه صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً به " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 424.419 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة القيامة

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) ﴾

تقدّم الكلام في ﴿ لا أقسم ﴾ .

والخلاف في لا ، والخلاف في قراآتها في أواخر الواقعة .

أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله .

و﴿ لا أقسم ﴾ ، قيل : لا نافية ، نفى أن يقسم بالنفس اللوّامة وأقسم بيوم القيامة ، نص على هذا الحسن ؛ والجمهور : على أن الله أقسم بالأمرين .

واللوّامة ، قال الحسن : هي التي تلوم صاحبها في ترك الطاعة ونحوها ، فهي على هذا ممدوحة ، ولذلك أقسم الله بها .

وروي نحوه عن ابن عباس وعن مجاهد ، تلوم على ما فات وتندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لم تستكثر منه .

وقيل : النفس المتقية التي تلوم النفوس في يوم القيامة على تقصيرهنّ في التقوى .

وقال ابن عباس وقتادة : هي الفاجرة الخشعة اللوّامة لصاحبها على ما فاته من سعي الدنيا وأعراضها ، فهي على هذا ذميمة ، ويحسن نفي القسم بها .

والنفس اللوّامة : اسم جنس بهذا الوصف .

وقيل : هي نفس معينة ، وهي نفس آدم عليه السلام ، لم تزل لائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة .

قال ابن عطية : وكل نفس متوسطة ليست بمطمئنة ولا أمّارة بالسوء فإنها لوّامة في الطرفين

، مرّة تلوم على ترك الطاعة ، ومرّة تلوم على فوت ما تشتهي ، فإذا اطمأنت خلصت وصفت . انتهى .

والمناسبة بين القسمين من حيث أحوال النفس من سعادتها وشقاوتها وظهور ذلك في يوم القيامة ، وجواب القسم محذوف يدل عليه يوم القيامة المقسم به وما بعده من قوله : ﴿ أيحسب ﴾ الآية ، وتقديره لتبعثن .

وقال الزمخشري : فإن قلت : قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي ، وكان قد أنشد قول امرىء القيس :

لا وأبيك ابنة العامري . . .

لا يدعي القوم إني أفرّ

وقول غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحتمالي . . .

لتحزنني فلا بك ما أبالي

(268/793)

قال : فهلا زعمت أن لا التي للقسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً ، نحو قولك : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ، لا تتركون سدى ؟

قلت : لو قصروا الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكنه لم يقسم .

ألا ترى كيف لقي ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ بقوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾

وكذلك ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ثم قال الزمخشري : وجواب القسم ما دل عليه قوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ ، وهو لتبعثن .

انتهى ، وهو تقدير النحاس .

وقول من قال جواب القسم هو : ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ .

وما روي عن الحسن أن الجواب : ﴿ بلى قادرين ﴾ ، وما قيل أن لا في القسمين لنفيهما ، أي لا أقسم على شيء ، وأن التقدير : أسألك أيحسب الإنسان ؟ أقوال لا تصلح أن يرد بها ، بل تطرح ولا يسود بها الورق ، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها .

والإنسان هنا الكافر المكذب بالبعث .

روي أن عدي بن ربيعة قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا محمد ، حدّثني عن يوم القيامة متى يكون أمره ؟ فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن به ، أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها ، فنزلت .

وقيل : نزلت في أبي جهل ، كان يقول : أيزعم محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يجمع الله

هذه العظام بعد بلاها وتفرّقها فيعيدها خلقاً جديداً ؟

وقرأ الجمهور : ﴿ نجمع ﴾ بنون ، ﴿ عظامه ﴾ نصباً ؛ وقتادة : بالتاء مبنياً للمفعول ، عظامه رفعاً ، والمعنى : بعد تفرّقها واختلاطها بالتراب وتطيير الرياح إياها في أقاصي الأرض .

وقوله : ﴿ أيحسب ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ ، حيث ينكر قدرة الله تعالى على إعادة المعدوم .

﴿ بلى ﴾ : جواب للاستفهام المنسخب على النفي ، أي بلى نجمعها .

وذكر العظام ، وإن كان المعنى إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة ، لأن العظام هي قالب الخلق .

(269/793)

وقرأ الجمهور : ﴿ قادرين ﴾ بالنصب على الحال من الضمير الذي في الفعل المقدر وهو يجمعها ؛ وابن أبي عبلة وابن السميفع : قادرون ، أي نحن قادرون .

﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ : وهي الأصابع ، أكثر العظام تفرّقاً وأدقها أجزاء ، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها ، وهذا عند البعث .

وقال ابن عباس والجمهور : المعنى نجعلها في حياته هذه بعضة ، أو عظماً واحداً كخف البعير لا تفاريق فيه ، أي في الدنيا فتقل منفعته بها ، وهذا القول فيه توعد ، والمعنى الأول هو الظاهر والمقصود من رصف الكلام .

وذكر الزمخشري هذين القولين بألفاظ منمقة على عادته في حكاية أقوال المتقدمين .

وقيل : ﴿ قادرين ﴾ منصوب على خبر كان ، أي بلى كنا قادرين في الابتداء .

﴿ بل يريد الإنسان بل ﴾ : إضراب ، وهو انتقال من كلام إلى كلام من غير إبطال .

والظاهر أن ﴿ يريد ﴾ إخبار عن ما يريده الإنسان .

وقال الزمخشري : ﴿ بل يريد ﴾ عطف على ﴿ أيحسب ﴾ ، فيجوز أن يكون قبله استفهاماً ، وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر ، أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب . انتهى .

وهذه التقادير الثلاثة لا تظهر ، وهي متكلفة ، بل المعنى : الإخبار عن الإنسان من غير إبطال لمضمون الجملة السابقة ، وهي نجمعها قادرين ، لنبين ما هو عليه الإنسان من عدم الفكر في الآخرة وأنه معني بشهواته ؛ ومفعول ﴿ يريد ﴾ محذوف يدل عليه التعليل في ﴿ ليفجر ﴾ .

قال مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي : معنى الآية : أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً راكباً رأسه مطيعاً أمله ومسوفاً بتوبته .

قال السدي أيضاً : ليظلم على قدر طاقته ، وعلى هذا فالضمير في ﴿ أمامه ﴾ عائد على الإنسان ، وهو الظاهر .

(270/793)

وقال ابن عباس : ما يقضي أن الضمير عائد على يوم القيامة أن الإنسان في زمان وجوده أمام يوم القيامة ، وبين يديه يوم القيامة خلفه ، فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة ، وهو لا يعرف القدر الذي هو فيه ؛ والأمام ظرف مكان استعير هنا للزمان ، أي ليفجر فيما بين يديه ويستقبله من زمان حياته .

﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ : أي متى يوم القيامة ؟ سؤال استهزاء وتكذيب وتعنت .

وقرأ الجمهور : ﴿ برق ﴾ بكسر الراء ؛ وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم وعبد الله بن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وابن مقسم ونافع وزيد بن علي وأبان عن عاصم وهارون ومحبوب ، كلاهما عن أبي عمرو ، والحسن والجحدري : بخلاف عنهما بفتحها .

قال أبو عبيدة : برق بالفتح : شق .

وقال ابن إسحاق : خفت عند الموت .

قال مجاهد : هذا عند الموت .

وقال الحسن : هو يوم القيامة .

وقرأ أبو السمال : بلق باللام عوض الراء ، أي انفتح وانفرج ، يقال : بلق الباب وأبلقته وبلقته : فتحته ، هذا قول أهل اللغة إلا الفراء فإنه يقول : بلقه وأبلقه إذا أغلقه .

وقال ثعلب : أخطأ الفراء في ذلك ، إنما هو بلق الباب وأبلقه إذا فتحه . انتهى .

ويمكن أن تكون اللام بدلاً من الراء ، فهما يتعاقبان في بعض الكلام ، نحو قولهم : نثرة ونثلة ، ووجر ووجل .

وقرأ الجمهور : ﴿ وخسف ﴾ مبنياً للفاعل ؛ وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويزيد بن قطيب وزيد بن علي : مبنياً للمفعول .

يقال : خسف القمر وخسفه الله ، وكذلك الشمس .

قال أبو عبيدة وجماعة من أهل اللغة : الخسوف والكسوف بمعنى واحد .

وقال ابن أبي أويس : الكسوف ذهاب بعض الضوء ، والخسوف جميعه .

﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ : لم تلحق علامة التأنيث ، لأن تأنيث الشمس مجاز ، أو لتغليب التذكير على التأنيث .

وقال الكسائي : حمل على المعنى ، والتقدير : جمع النوران أو الضياءآن ، ومعنى الجمع بينهما ، قال عطاء بن يسار : يجمعان فيلقيان في النار ، وعنه يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر ، فيكونان نار الله الكبرى .

وقيل : يجمع بينهما في الطلوع من المغرب ، فيطلعان أسودين مكورين .

وقال علي وابن عباس : يجعلان في نور الحجب ، وقيل : يجتمعان ولا يتفرقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر ، فكأن المعنى : يجمع حرهما .

وقيل : يجمع بينهما في ذهابه الضوء ، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار .

وقرأ الجمهور : ﴿ المفر ﴾ بفتح الميم والفاء ، أي أين الفرار ؟ وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب ، والحسن بن زيد ، وابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني وكلثوم بن عياض ومجاهد وابن يعمر وحماد بن سلمة وأبو رجاء وعيسى وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزهري : بكسر الفاء ، وهو موضع الفرار .

وقرأ الحسن : بكسر الميم وفتح الفاء ، ونسبها ابن عطية للزهري ، أي الجيد الفرار ، وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل ، نحو قوله :

مكر مفر مقبل مدبر معاً . . .

والظاهر أن قوله : ﴿ كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ من تمام قول الإنسان .

وقيل : هو من كلام الله تعالى ، لا حكاية عن الإنسان .

﴿ كلا ﴾ : ردع عن طلب المفر ، ﴿ لا وزر ﴾ : لا ملجأ ، وعبر المفسرون عنه بالجبل .

قال مطرف بن الشخير : هو كان وزر فرار العرب في بلادهم ، فلذلك استعمل ؛ والحقيقة أنه الملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غيره .

﴿ إلى ربك يومئذ ﴾ : أي إلى حكمه يومئذ تقول أين المفر ، ﴿ المستقر ﴾ : أي الاستقرار ، أو موضع استقرار من جنة أو نار إلى مشيئته تعالى ، يدخل من شاء الجنة ، ويدخل من شاء النار .

﴿ بما قدم وأخر ﴾ ، قال عبد الله وابن عباس : بما قدم في حياته وأخر من سنة يعمل بها بعده .

وقال ابن عباس أيضاً : بما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات .

(272/793)

وقال زيد بن أسلم : بما قدم من ماله لنفسه ، وبما أخر منه للوارث .

وقال النخعي ومجاهد : بأول عمله وآخره .

وقال الضحاك : بما قدم من فرض وأخر من فرض ؛ والظاهر حمله على العموم ، أي يخبره بكل ما قدم وكل ما أخر مما ذكره المفسرون ومما لم يذكروه .

﴿ بصيرة ﴾ : خبر عن الإنسان ، أي شاهد ، قاله قتادة ، والهاء للمبالغة .

وقال الأخفش : هو كقولك : فلان عبرة وحجة .

وقيل : أنث لأنه أراد جوارحه ، أي جوارحه على نفسه بصيرة .

وقيل : بصيرة مبتدأ محذوف الموصوف ، أي عين بصيرة ، وعلى نفسه الخبر .

والجملة في موضع خبر عن الإنسان ، والتقدير عين بصيرة ، وإليه ذهب الفراء وأنشد :

كأن على ذي العقل عيناً بصيرة . . .

بمقعده أو منظر هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس كلهم . . .

من الخوف لا تخفى عليهم سرائره

وعلى هذا نختار أن تكون بصيرة فاعلاً بالجار والمجرور ، وهو الخبر عن الإنسان .

ألا ترى أنه قد اعتمد بوقوعه خبراً عن الإنسان ؟ وعلى هذا فالتاء للتأنيث .

وتأول ابن عباس البصيرة بالجوارح أو الملائكة الحفظة .

والمعاذير عند الجمهور الأعذار ، فالمعنى : لو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه فإنه هو الشاهد عليها والحجة البينة عليها .

وقيل : المعاذير جمع معذرة .

وقال الزمخشري : قياس معذرة معاذر ، فالمعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها ، ونحو المناكير في المنكر . انتهى .

وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع ، وإنما هو من أبنية جمع التكسير ، فهو كمذاكير وملاميح والمفرد منهما لمحة وذكر ؛ ولم يذهب أحد إلى أنهما من أسماء الجموع ، بل قيل : هما جمع للمحة وذكر على قياس ، أو هما جمع لمفرد لم ينطق به ، وهو مذكار وملمحة .

وقال السدي والضحاك : المعاذير : الستور بلغة اليمن ، واحدها معذار ، وهو يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب .

وقاله الزجاج أيضاً ، أي وإن رمى مستورة يريد أن يخفي عمله ، فنفسه شاهدة عليه .

(273/793)

وأنشدوا في أن المعاذير الستور قول الشاعر :

ولكنها ضنت بمنزل ساعة . . .

علينا وأطت فوقها بالمعاذر

وقيل : البصيرة : الكاتبان يكتبان ما يكون من خير أو شر ، أي وإن تستر بالستور ؛ وإذا

كانت من العذر ، فمعنى ﴿ ولو ألقى ﴾ : أي نطق بمعاذيره وقالها .

وقيل : ولو رمى بأعذاره واستسلم .

وقال السدي : ولو أدلى بحجة وعذر .

وقيل : ولو أحال بعضهم على بعض ، كقوله تعالى : ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ والعذرة والعذرى : المعذرة ، قال الشاعر :

ها إن ذي عذرة إن لا تكن نفعت . . .

وقال فيها : ولا عذر لمجحود .

﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ : الظاهر والمنصوص الصحيح في سبب النزول أنه خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) على ما سنذكر إن شاء الله تعالى .

وقال القفال : هو خطاب للإنسان المذكور في قوله : ﴿ ينبأ الإنسان ﴾ وذلك حال تنبئه بقبائح أفعاله ، يعرض عليه كتابه فيقال له : اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . فإذا أخذ في القراءة تلجلج من شدّة الخوف وسرعة القراءة ، فقيل له : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ ، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك .

﴿ فإذا قرأناه ﴾ عليك ، ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ بأنك فعلت تلك الأفعال .

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ : أي بيان أمره وشرح عقوبته .

وحاصل قول هذا القول أنه تعالى يقرر الكافر على جميع أفعاله على التفصيل ، وفيه أشد الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخرة .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس : أنه عليه الصلاة والسلام كان يعالج من التنزيل شدّة ، وكان بما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه لحينه ، فنزلت .

وقال الضحاك : السبب أنه كان عليه الصلاة والسلام كان يخاف أن ينسى القرآن ، فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق ، فنزلت .

(274/793)

وقال الشعبي : كان لحرصه عليه الصلاة والسلام على أداء الرسالة والاجتهاد في عبادة الله ربما أراد النطق ببعض ما أوحي إليه قبل كمال إيراد الوحي ، فأمر أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى .

والضمير في به للقرآن دل عليه مساق الآية .

﴿ إن علينا جمعه ﴾ : أي في صدرك ، ﴿ وقرآنه ﴾ : أي قراءتك إياه ، والقرآن مصدر كالقراءة ، قال الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به . . .

يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

وقيل : وقرآنه : وتأليفه في صدرك ، فهو مصدر من قرأت : أي جمعت ، ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد : ما قرأت سلاقط ، وقال الشاعر :

ذراعي بكرة أدماء بكر . . .

هجان اللون لم تقرأ جنينا

﴿ فإذا قرأناه ﴾ : أي الملك المبلغ عنا ، ﴿ فاتبع ﴾ : أي بذهنك وفكرك ، أي فاستمع قراءته ، قاله ابن عباس .

وقال أيضاً هو قتادة والضحاك : فاتبع في الأوامر والنواهي .

وفي كتاب ابن عطية ، وقرأ أبو العالية : فإذا قرته فاتبع قرته ، بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة ، ولم يتكلم على توجيه هذه القراءة الشاذة ، ووجه اللفظ الأول أنه مصدر ، أي إن علينا جمعه وقراءته ، فنقل حركة الهمزة إلى الراء الساكنة وحذفها فبقي قرته كما ترى .

وأمّا الثاني فإنه فعل ماض أصله فإذا قرأته ، أي أردت قراءته ؛ فسكن الهمزة فصار قرأته ، ثم حذف الألف على جهة الشذوذ ، كما حذفت في قول العرب : ولو تر ما الصبيان ، يريدون : ولو ترى ما الصبيان ، وما زائدة .

وأمّا اللفظ الثالث فتوجيهه توجيه اللفظ الأول ، أي فإذا قرأته ، أي أردت قراءته ، فاتبع

قراءته بالدرس أو بالعمل .

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ، قال قتادة وجماعة : أن نبينه لك ونحفظكه .

وقيل : أن تبنيه أنت .

وقال قتادة أيضاً : أن نبين حلاله وحرامه ومجمله ومفسره .

وفي التحرير والتحبير قال ابن عباس : ﴿ إن علينا جمعه ﴾ : أي حفظه في حياتك ،

وقراءته : تأليفه على لسانك .

(275/793)

وقال الضحاك : نثبته في قلبك بعد جمعه لك .

وقيل : جمعه بإعادة جبريل عليك مرة أخرى إلى أن يثبت في صدرك .

﴿ فإذا قرأناه ﴾ ، قال ابن عباس : أنزلناه إليك ، فاستمع قراءته ، وعنه أيضاً : فإذا يتلى عليك فاتبع ما فيه .

وقال قتادة : فاتبع حلاله واجتنب حرامه .

وقد نمق الزمخشري بحسن إيراده تفسير هذه الآية فقال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا لقن الوحي ، نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ

وخوفاً من أن يتفلت منه ، فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه وحيه ، ثم يعقبه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه .

والمعنى : لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ .

﴿ لتعجل به ﴾ : لتأخذه على عجلة ولئلا يتفلت منك ، ثم علل النهي عن العجلة بقوله :

﴿ إن علينا جمعه ﴾ في صدرك وإثبات قراءته في لسانك .

﴿ فإذا قرأناه ﴾ : جعل قراءة جبريل قراءته ، والقرآن القراءة ، فاتبع قراءته : فكن مقفياً له فيه ولا تراسله ، وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ ، فنحن في ضمان تحفيظه .

﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ : إذا أشكل عليك شيء من معانيه ، كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً ، كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . انتهى .

وذكر أبو عبد الله الرازي في تفسيره : أن جماعة من قدماء الروافض زعموا أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه ، وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وما قبلها ، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك .

(276/793)

ثم ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه ، ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته وأنه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها ، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها .

وبضدها تتميز الأشياء . . .

ولما كان عليه الصلاة والسلام ، لمثابرته على ذلك ، كان يبادر للتحفظ بتحريك لسانه أخبره تعالى أنه يجمعه له ويوضحه .

كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة .

لما فرغ من خطابه عليه الصلاة والسلام ، رجع إلى حال الإنسان السابق ذكره المنكر البعث ، وأن همه إنما هو في تحصيل حطام الدنيا الفاني لا في تحصيل ثواب الآخرة ، إذ هو منكر لذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ بل تحبون العاجلة وتذرون ﴾ بتاء الخطاب ، لكفار قريش المنكرين البعث ، و ﴿ كلا ﴾ : رد عليهم وعلى أقوالهم ، أي ليس كما زعمتم ، وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها .

وقال الزمخشري : ﴿ كلا ﴾ ردع ، وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه .

وقرأ مجاهد والحسن وقتادة والجحدري وابن كثير وأبو عمرو : بياء الغيبة فيهما .

ولما وبخهم بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة ، تخلص إلى شيء من أحوال الآخرة فقال :

﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ ، وعبر بالوجه عن الجملة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ناضرة ﴾ بألف ، وزيد بن علي : نضرة بغير ألف .

وقرأ ابن عطية : ﴿ وجوه ﴾ رفع بالابتداء ، وابتدأ بالنكرة لأنها تخصصت بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ و ﴿ ناضرة ﴾ خبر ﴿ وجوه ﴾ .

وقوله : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر . انتهى .

وليس ﴿ يومئذ ﴾ تخصيصاً للنكرة ، فيسوغ الابتداء بها ، لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة ، إنما يكون ﴿ يومئذ ﴾ معمول لناضرة .

(277/793)

وسوغ جواز الابتداء بالنكرة كون الموضع موضع تفصيل ، و ﴿ ناضرة ﴾ الخبر ، و ﴿ ناضرة ﴾ صفة .

وقيل : ﴿ ناضرة ﴾ نعت لوجوه ، و ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ الخبر ، وهو قول سائغ .

ومسألة النظر ورؤية الله تعالى مذكورة في أصول الدين ودلائل الفريقين ، أهل السنة وأهل

الاعتزال ، فلا نطيل بذكر ذلك هنا .

ولما كان الزمخشري من المعتزلة ، ومذهبه أن تقديم المفعول يدل على الاختصاص ، قال هنا : ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر في محشر يجمع الله فيه الخلائق ، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال ، فوجب حمله على معنى لا يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي ، يريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك . . .

والبحر دونك زدتني نعماء

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون مقائلهم تقول : عيينتي ناظرة إلى الله وإليكم ، والمعنى : أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه .

انتهى .

وقال ابن عطية : ذهبوا ، يعني المعتزلة ، إلى أن المعنى إلى رحمة ربها ناظرة ، أو إلى ثوابه أو ملكه ، فقدروا مضافاً محذوفاً ، وهذا وجه سائغ في العربية .

كما تقول : فلان ناظر إليك في كذا : أي إلى صنعك في كذا . انتهى .

والظاهر أن إلى في قوله : ﴿ إلى ربها ﴾ حرف جر يتعلق بناظرة .

وقال بعض المعتزلة : إلى هنا واحد الآلاء ، وهي النعم ، وهي مفعول به معمول لناظرة بمعنى منتظرة .

﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ : يجوز أن يكون ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ خبره ﴿ باسرة ﴾ وتظن خبر بعد خبر وأن تكون باسرة صفة وتظن الخبر .

والفاقرة قال ابن المسيب قاصمة الظهر ، وتظن بمعنى توقن أو يغلب على اعتقادها وتتوقع ﴿ أن يفعل بها فاقرة ﴾ : فعل هو في شدة داهية تقصم .

وقال أبو عبيدة : فاقرة من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار .

(278/793)

﴿ كلا ﴾ : ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة وتذكير لهم بما يؤولون إليه من الموت الذي تنقطع العاجلة عنده وينتقل منها إلى الآجلة ، والضمير في ﴿ بلغت ﴾ عائد إلى النفس الدال عليها سياق الكلام ، كقول حاتم :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى . . .

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وتقول العرب : أرسلت ، يريدون جاء المطر ، ولا نكاد نسمعهم يقولون السماء .

وذكرهم تعالى بصعوبة الموت ، وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها .

وقيل : مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون القائل حاضروا المريض طلبوا له من يرقي ويطب ويشفي ، وغير ذلك مما يتمناه له أهله ، قاله ابن عباس والضحاك وأبو قلابة وقتادة ، وهو استفهام حقيقة .

وقيل : هو استفهام إبعاد وإنكار ، أي قد بلغ مبلغاً لا أحد يرقيه ، كما عند الناس : من ذا الذي يقدر أن يرقي هذا المشرف على الموت قاله عكرمة وابن زيد .

واحتمل أن يكون القائل الملائكة ، أي من يرقي بروحه إلى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ قاله ابن عباس أيضاً وسليمان التيمي .

وقيل : إنما يقولون ذلك لكراهتهم الصعود بروح الكافر لخبثها ونتنها ، ويدل عليه قوله بعد : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ الآية .

ووقف حفص على ﴿ من ﴾ ، وابتدأ ﴿ راق ﴾ ، وأدغم الجمهور .

قال أبو علي : لا أدري ما وجه قراءته .

وكذلك قرأ : ﴿ بل ران ﴾ انتهى .

وكان حفصاً قصد أن لا يتوهم أنها كلمة واحدة ، فسكت سكت لطيفاً ليشعر أنهما كلمتان .

وقال سيبويه : إن النون تدغم في الراء ، وذلك نحو من راشد ؛ والإدغام بغنة وبغير غنة ، ولم يذكر البيان .

ولعل ذلك من نقل غيره من الكوفيين ، وعاصم شيخ حفص يذكر أنه كان عالماً بالنحو .

وأمّا ﴿ بل ران ﴾ فقد ذكر سيبويه أن اللام البيان فيها ، والإدغام مع الراء حسنان ، فلما أفرط في شأن البيان في ﴿ بل ران ﴾ ، صار كالوقف القليل .

(279/793)

﴿ وظن ﴾ ، أي المريض ، ﴿ أنه ﴾ : أي ما نزل به ، ﴿ الفراق ﴾ : فراق الدنيا التي هي محبوبته ، والظن هنا على بابه .

وقيل : فراق الروح الجسد .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ ، قال ابن عباس والربيع بن أنس وإسماعيل بن أبي خالد : استعارة لشدّة كرب الدنيا في آخر يوم منها ، وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها ، لأنه بين الحالين قد اختلطا به ، كما يقول : شمرت الحرب عن ساق ، استعارة لشدتها .

وقال ابن المسيب والحسن : هي حقيقة ، والمراد ساقا الميت عندما لفا في الكفن .

وقال الشعبي وقتادة وأبو مالك : التفافهما لشدّة المرض ، لأنه يقبض ويبسط ويركب هذه

على هذه .

وقال الضحاك : أسوق حاضريه من الإنس والملائكة ؛ هؤلاء يجهزونه إلى القبر ، وهؤلاء يجهزون روحه إلى السماء .

وقيل : التفافهما : موتهما أولاً ، إذ هما أول ما تخرج الروح منهما فتبردان قبل سائر الأعضاء .

وجواب إذا محذوف تقديره وجد ما عمله في الدنيا من خير وشر .

﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ : المرجع والمصير ، والمساق مفعل من السوق ، فهو اسم مصدر ، إمّا إلى جنة ، وإمّا إلى نار .

﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ ، الجمهور : إنها نزلت في أبي جهل وكادت أن تصرح به في قوله : ﴿ يتمطى ﴾ .

فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم ، وكان يكثر منها .

وتقدم أيضاً أنه قيل في قوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ أنها نزلت في أبي جهل .

وقال الزمخشري : يعني الإنسان في قوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ، وهو معطوف على قوله : ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ : أي لا يؤمن بالبعث ؟ ﴿ فلا صدق ﴾ بالرسول والقرآن ، ﴿

ولا صلى ﴾ .

ويجوز أن يراد : فلا صدق ماله ، يعني فلا زكاة . انتهى .

وكون ﴿ فلا صدق ﴾ معطوفاً على قوله : ﴿ يسأل ﴾ فيه بعد ، ولا هنا نفت الماضي ، أي لم يصدق ولم يصل ؛ وفي هذا دليل على أن لا تدخل على الماضي فتنصبه ، ومثله قوله :

(280/793)

وأي جميس لا أتانا نهابه . . .

وأسيافنا يقطرن من كبشه دما

وقال الراجز :

إن تغفر اللهم تغفر جماً . . .

وأيّ عبد لك لا ألما

وصدق : معناه برسالة الله .

وقال يوم : هو من الصدقة ، وهذا الذي يظهر نفي عنه الزكاة والصلاة وأثبت له التكذيب ، كقوله : ﴿ لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب

بيوم الدين ﴾ وحمل ﴿ فلا صدق ﴾ على نفي التصديق بالرسالة ، فيقتضي أن يكون ﴿ ولكن كذب ﴾ تكراراً .

ولزم أن يكون لكن استدراكاً بعد ﴿ ولا صلى ﴾ لا بعده ﴿ فلا صدق ﴾ ، لأنه كان يتساوى الحكم في ﴿ فلا صدق ﴾ وفي ﴿ كذب ﴾ ، ولا يجوز ذلك ، إذ لا يقع لكن بعد متوافقين .

﴿ وتولى ﴾ : أعرض عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكذب بما جاء به .

﴿ وتولى ثم ذهب إلى أهله ﴾ : أي قومه ، ﴿ يتمطى ﴾ : يبختر في مشيته .

روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لبب أبا جهل يوماً في البطحاء وقال له : " إن الله يقول لك أولى فأولى لك " فنزل القرآن على نحوها ، وقالت الخنساء :

همت بنفسي كل الهمو . . .

م فأولى لنفسي أولى لها

وتقدم الكلام على ﴿ أولى ﴾ شرحاً وإعراباً في قوله تعالى : ﴿ فأولى لهم طاعة وقول معروف ﴾ في سورة القتال ، وتكراره هنا مبالغة في التهديد والوعيد .

ولما ذكر حاله في الموت وما كان من حاله في الدنيا ، قرر له أحواله في بدايته ليتأمّلها ، فلا ينكر معها جواز البعث من القبور .

وقرأ الجمهور : ﴿ ألم يك ﴾ بياء الغيبة ؛ والحسن : بتاء الخطاب على سبيل الالتفات .

وقرأ الجمهور : تمنى ، أي النطفة يمنيها الرجل ؛ وابن محيصن والجحدري وسلام ويعقوب وحفص وأبو عمر : بخلاف عنه بالياء ، أي يمنى هو ، أي المني ، فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة .

﴿ فسوى ﴾ : أي سواه شخصاً مستقلاً .

(281/793)

﴿ فجعل منه الزوجين ﴾ : أي النوعين أو المزدوجين من البشر ، وفي قراءة زيد بن عليّ : الزّوجان بالألف ، وكأنه على لغة بني الحارث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالألف في جميع أحواله .

وقرأ أيضاً : يقدر مضارعاً ، والجمهور : ﴿ بقادر ﴾ اسم فاعل مجرور بالباء الزائدة .

﴿ أليس ذلك ﴾ : أي الخالق المسوي ، ﴿ بقادر ﴾ ، وفيه توقيف وتوبيخ لمنكر البعث .

وقرأ طلحة بن سليمان والفيض بن غزوان : بسكون الياء من قوله : ﴿ أن يحيِي ﴾ ، وهي حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف ، وقد جاء في الشعر حذفها .

وقرأ الجمهور : بفتحها .

وجاء عن بعضهم يحيي بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء .

قال ابن خالويه : لا يجيز أهل البصرة سيبويه وأصحابه إدغام يحيي ، قالوا لسكون الياء الثانية ، ولا يعتدون بالفتحة في الياء لأنها حركة إعراب غير لازمة .

وأما الفراء فاحتج بهذا البيت :

تمشي بسده بينها فتعيى . . .

يريد : فتعيي ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(282/793)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) ﴾

التفسير : المشهور أن " لا " في ﴿ لا أقسم ﴾ صلة زائدة كما مر في قوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] واعترض عليه بوجوه أحدها : أنه يوجب الطعن في القرآن بحيث أنه لا يبقى الوثوق بنفيه وإثباته قلت : إذا عرف من استعمالات العرب زيادة لا في هذا الفعل المخصوص لم يبق للطاعن مجال على أن الحكم بزيادتها إنما هو بالنظر إلى أصل المعنى وإلا فلها في التركيب معان : الأول كأنها نفي لكلام قبل القسم وذلك أنهم

أنكروا البعث كما أخبر الله في آخر السورة المتقدمة فقيل : ليس الأمر على ما ذكرتم ثم أقسم بكذا وكذا إنه لواقع . والثاني أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له فكأنه بإدخال حرف القسم يقول : إن إعظامي له بإقسامي به كلا اعظام إنه يستأهل فوق ذلك . الإعتراض الثاني أن هذا الحرف إنما يزاد في وسط الكلام لا في أوّله وأجيب بالمنع ، ألا ترى أن أمرأ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته :

فلا وأبيك ابنة العامري . . . لا يدّعي القوم أني أفّر

وفائدة الزيادة كما تقرر . وقد يجاب بأن القرآن كله في حكم كلام واحد متصل بعضه ببعض ولا سيما هذه السورة وآخر السورة المتقدمة عليها ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا تجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ، فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنّا قادرون عليه .

(283/793)

وقيل : المعنى على الاستفهام الإنكاري والتقدير : ألا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة على أن الحشر حق . وهذا التأويل يعضده قراءة من قرأ ﴿ لأقسم ﴾ على أن اللام للابتداء . وقال بعضهم : على هذه القراءة إنه أقسم بالقيامة تعظيماً لها ولم يقسم بالنفس اللوامة تحقيراً لها لأنها إما كافرة بالقيامة مع عظم أمرها ، وإما فاسقة مقصرة في العمل . أما

تفسير النفس اللوامة فقد سبق لنا في سورة يوسف في قوله ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [الآية : 53] بيان سبب تسمية النفس تارة بالأمارة وأخرى باللوامة ثم بالملهمة ثم بالمطمئنة . والذي ذكره المفسرون ههنا وجوه منها ما قال ابن عباس : كل نفس فإنها تلوم نفسها يوم القيامة على ترك الازدياد من الطاعة إن كانت محسنة ، أو على التفريط إن كانت مسيئة . وضعف بعضهم هذا النقل بناء على أن أهل الجنة لا يكون لهم مثل هذه الخواطر وإلا لدام حزنهم . وعن الحسن أن هذا اللوم في الدنيا والمؤمن لا تراه إلا لائماً نفسه وإن الكافر يمضي على سيرته لا يعاتب نفسه . ومنها أنها النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة بسبب أنها تركت التقوى . ولا يخفى وجه المناسبة بين القسمين أعني بين القيامة وبين النفس اللوامة على هذه الوجوه . وخص النفس اللوامة بعضهم بآدم عليه السلام وذلك أنه لم يزل يتلوم على فعله الذي خرج به من الجنة . وقيل : أن الإنسان خلق هلوعاً فأي شيء طلبه إذا وجده مله فيلوم نفسه على أني لم طلبت فلكثرة هذا العمل سميت باللوامة . والجمهور على أن جواب القسم محذوف وهو لتبعثن دل عليه قوله ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ وفي الأقسام بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة مزيد تقرير وتأكيد لوقوعه فإن الأقسام بالمعدوم لا يعقل معناه ، وفي ضم النفس الوامة إليه تنبيه على أن الغرض من القيامة وهو إظهار أحوال النفس ومراتبها في السعادة وضدها . قال جمع من الأصوليين : الإنسان في الآية هو

المكذب بالبعث على الإطلاق وقال ابن عباس : هو أبو جهل . وقال آخرون : إن عدي بن ربيعة ختن الأخنس بن شريق وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : اللهم اكفني جاري السوء . قال : يا محمد حدثنا عن يوم القيامة كيف أمره فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أؤمن به ، أو يجمع الله العظام ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ الآية . قوله ﴿ قادرين ﴾ حال مؤكدة لأنه يستحيل جمع العظام بدون القدرة الكاملة التي نبه عليها بقوله ﴿ أن نسوي بناته ﴾ لأن من قدر على ضم سلاميات الأصبع مع صغرها ولطافتها كما كانت ، كان على ضم العظام الكبار أقدر ، وإنما خص البنان وهو الأنملة بالذكر لأنه آخر ما يتم به خلقه فذكره يدل على تمام الأصبع يدل على تمام سائر الأعضاء التي هي أطرافها .

وقيل : معنى التسوية جعلها شيئاً واحداً كخف البعير وحافر الحمار بحيث لا يقدر على البطش ، والمراد أنه قادر على رد العظام والمفاصل إلى هيأتها الأولى وعلى ضد ذلك قوله ﴿ بل يريد ﴾ إضراب عن قوله والظاهر أنه إيجاب ويجوز أن يكون استفهاماً مقدراً . ومعنى ﴿ ليفجر أمامه ﴾ ليدوم على فجوره في الأوقات التي بين يديه وهي المستقبلة . وهذا فحوى قول سعيد بن جبير يقدم الذنب ويؤخر التوبة حتى يأتيه الموت على شر أحواله . قال أهل النظم : وإن إنكاراً البعث يتولد تارة من الشبهة بأن يستبعد اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وتلاشيها ، وأخرى من التهور بأن ينكر المعاد باسترسال الطبع والميل إلى الفجور ، فأشار إلى الجواب عن الشبهة بقوله ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ إلى قوله ﴿ بناته ﴾ وأنكر على الثني بقوله ﴿ بل يريد ﴾ أن يكذب بما أمامه من البعث والحساب لئلا تنتقص عنه اللذات العاجلة ﴿ يسئل ﴾ سؤال تنعت ﴿ أيان يوم القيامة ﴾ ثم ذكر من أمارات الساعة أموراً أولها ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي تحير فزعاً وأصله من برق الرجل بالكسر إذا تأثر ناظره من تأمل البرق ، ثم استعمل في كل حيرة . ومن قرأ بفتح الراء فهو من البريق أي لمع من شدة شخوصه كقوله ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] وثانيها ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوءه كما يشاهد في الدنيا وقت خسوفه أو ذهب بنفسه من قوله ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ [القصص : 81] وهذا التفسير عندي لا يلائم ما بعده أن الجمع بينه وبين الشمس بعد انعدامه غير

معقول ظاهراً . وثالثها ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ قيل : أي في اطلاعهما من المغرب . وقيل : في ذهاب الضوء . وقيل : يجتمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران كما جاء في الحديث ، ولعل ذلك لأنهما عبدا من دون الله ، و الثور مثل في الذل والبلادة فإذا كان عقيراً أي جريحاً كان أبلغ في ذلك . وقيل : يجمعان ثم يقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى . طعن الملاحدة في الآية

(286/793)

بأن خسوف القمر لا يحصل باجتماع الشمس والقمر . وأجيب بأنه تعالى قادر على خسف القمر في غير حالة المقابلة وحيلولة الأرض . والأولى عندي أن يجاب بأن اجتماعهما بمعنى آخر غير ما هو المعهود بين أهل التنجيم كما مر من الأقوال . ولئن سلمنا أن المراد هو الإجتماع المعهود فالقمر حينئذ في المحق وهو خسفه ، أو لعل القمر خسف في وسط الشهر والاجتماع يكون في آخره فإن اتحاد الزمان في هذه الأمور غير مذكور .

(287/793)

ومنهم من جعل هذه الأمور من علامات الموت ، أما شخوص البصر تحيره حين الموت فظاهر ، وأما خسوف القمر فمعناه ذهاب ضوء البصر بعد الحيرة : يقال : عين خاسفة إذا فقئت فغارت حدقتها في الرأس . وأما جمع الشمس والقمر فكناية عن اتصال الروح بعالم الآخرة ، فالروح كالقمر وعالم الآخرة وهو عالم الأنوار والكشوف كالشمس وكما أن القمر يقبل النور من الشمس فالروح تقبل نور المعارف من ذلك العالم وهذا التفسير بالتأويل أشبه . قال الفراء : إنما قال ﴿ جمع ﴾ ولم يقل "جمعت" مع أن التأنيث أحسن لأن المراد أنه جمع بينهما في زوال النور . وقال الكسائي : المعنى جمع النوران والضيا آن . وقال أبو عبيدة : القمر شارك الشمس في الجمع فغلب جانب التذكير ﴿ يقول الإنسان ﴾ المنكر للقيامة ﴿ أين المفر ﴾ والاستفهام على أصله وهو إقرار منه بأنه لا مفر كما إذا أيس من وجدان زيد فيقول : أين زيد ﴿ كلا ﴾ ردع عن طلب مكان الفرار وهذا أصح عند أهل اللغة . قال الأخفش والزجاج : المصدر من يفعل بكسر العين مفتوح العين ، وبالكسر المكان . وجوز بعضهم أن يكون المفتوح موضعاً . وأصل الوزر المحل المنيع ثم استعمل لكل ما التجأت إليه وتحصنت به ، والمعنى أنه لا شيء يعتصم به وقتئذ من أمر الله إلا الله فلذلك قال ﴿ إلى ربك ﴾ خاصة دون غيره ﴿ يومئذ المستقر ﴾ أي إستقرار العباد ولا بد من تقدير مضاف أي إلى حكم ربك أو إلى جنته أو ناره . ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم ﴾ من عمل ﴿ وأخر ﴾ فلم يعلمه ، أو بما قدم من ماله وتصدق به وما أخر فخلف

أو بما قدم من عمل الخير والشر وما أخر من سنة حسنة أو سيئة . وعن مجاهد بأول عمله وآخره أي بجميع أعماله . والأظهر أن هذا الإنباء إنما هو في يوم القيامة . وجوز أن يكون عند الموت حين رأى مقعده من الجنة والنار . ثم بين أن الإنسان لأعماله بصير وإن لم ينبأ فقال ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ أي حجة بينة . وقال أبو عبيدة : التاء للمبالغة كعلامة . قال

(288/793)

الأخفش : جعله في نفسه بصيرة كما يقال " فلان جود وكرم " وذلك أنه يعلم بالضرورة متى رجع إلى عقله أن طاعة خالقه واجبة وعصيانه منكر فهو حجة على نفسه بعقله السليم . قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومقاتل : إن المراد شهادة جوارحه عليه . قوله ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ تأكيد أي ولو جاء بكل معذرة يحاج بها عن نفسه فإنها لا تنفعه لأنه لا يخفى شيئاً من أفعاله فإن نفسه وأعضاءه تشهد عليه . وقال الواحدي والزمخشري : المعاذير اسم جمع للمعذرة كالمناكير للمنكر ، ولو كان جمعاً لقيل معاذر بغير ياء . وعن الضحاك والسدي أن المعاذير جمع معذار وهو الستر ، والمعنى إنه إن أسبل الستور لن

يخفى شيء من عمله قال جار الله : إن صح هذا النقل فالسبب في التسمية أن الستر يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب .

(289/793)

فمدار التركيب على الحجب والمنع ومنه العذران قال الإمام فخر الدين الرازي : زعم قوم من قدماء الشيعة أن هذا القرآن مغير بالزيادة والنقصان ، ومن جملة إستدلالاتهم أنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين قوله عقيبها ﴿ لا تحرك به ﴾ أي بالقرآن الذي نتلوه عليك ﴿ لسانك لتعجل به ﴾ أي بأخذه . روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد عليه حفظ التنزيل فكان إذا نزل عليه الوحي حرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبرائيل مخافة النسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك ، نظيره ما مر في " طه " ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ [الآية : 114] وهذا من قبيل ترك الأولى ، أو لعل هذا كان مأذوناً فيه أولاً ثم ورد النهي ناسخاً له ﴿ أن علينا ﴾ بحكم الوعد أو بالنظر إلى الحكمة ﴿ جمعه ﴾ في صدرك ﴿ وقرآنه ﴾ سيعيده عليك جبرائيل أو توقيفك لدراسته وحفظ لقوله ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] فالقارىء على الأول جبرائيل ، وعلى الثاني محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أراد بالجمع ترتيبه على

ما هو عليه في الخارج وبالقرآن جمعه في ذهنه ، والتركيب يدل على الضم ومنه القرء ﴿ فإذا قرأناه ﴾ بقراء جبرائيل ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ قال قتادة : أي حلاله وحرامه وضعف بأن هذا ليس موضع الأمر باتباع الحلال والحرام بل المراد أنه لا ينبغي أن تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبرائيل عليه السلام لكن يجب أن تسكت حتى يتم جبرائيل القراءة ثم تأخذ أنت في القراءة . قال ابن عباس : فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا نزل عليه جبرائيل أطرق واستمع فإذا ذهب قرأ . ثم إنه صلى الله عليه وسلم كما كان حريصاً على القراءة حتى لا ينسى لفظه كان حريصاً على فهم المعنى ، وكان يسأل جبرائيل في أثناء الوحي عن المعاني المشكلة فنهي عن هذا أيضاً بوعد البيان وهو قوله ﴿ إن علينا بيانه ﴾ قال بعضهم : وفيه دليل على أن تأخير البيان عن وقت الخطاب جائز . إذا عرفت تفسير

(290/793)

الآية فاعلم أن العلماء استنبطوا للنظم وجوهاً منها : أن هذا الإستعجال لعله اتفق النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآيات فلا جرم نهي عن ذلك في الوقت كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئاً من العلم وأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً فيقول

المدرس في أثناء درسه : لا تلتفت يميناً وشمالاً ، ثم يعود إلى الدرس مع هذا الكلام في أثنائه اشتبه وجه المناسب على من لم يعرف الواقعة . ومنها أنه علت كلمته أخبر عن الإنسان أنه يحب السعادة العاجلة فيفجر لذلك أمامه ، فبين بين ذلك أن التعجل مذموم مطلقاً ولو في أمور الدين فقال ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ ورتب على ذم الإستعجال قوله ﴿ كلا بل تحبون العاجلة ﴾ ومنها أنه لما قال ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يظهر التعجيل في القراءة خوف النسيان قيل له : إنك وإن أتيت بهذه المعذرة لكنك يجب أن تعلم أن الحفظ لا يحصل إلا بتوفيق الله وإعانته فاترك هذا التعجيل واعتمد على هدايتنا ، ولا تستعن في طلب الحفظ بالتكرار ، وفيه أن الكافر كان يفر من الله إلى غيره حين قال ﴿ أين المفر ﴾ فعلى المؤمن أن يضاده ويفر من غير الله إلى الله ولا يستعين في كل أموره إلا به .

(291/793)

ومنها أنه تعالى كأنه قال : يا محمد إن غرضك من هذا هو التبليغ لكنه لا حاجة إليه فإن الإنسان على نفسه بصيرة يعرف قبح الكفر مهما رجع إلى نفسه . وقال القفال : يجوز أن يكون المخاطب بهذا هو الإنسان المذكور في قوله ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾

كأنه حين عرض كتابه يقال له ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 14] فإذا أخذ في القراءة ينبأ بقبح أعماله فيتلجلج لسانه من الفزع ويسرع له القراءة فيقال له ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ فإنه يجب علينا بحكم الوعد والحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك ، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالاعتراف والإقرار ، ثم أن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته . قوله سبحانه . ﴿ كلا بل تحبون ﴾ قال بعضهم : هو بمعنى حقاً . وقال جار الله : هو ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وحيث له على الأناة والتؤدة وقد بالغ في ذلك باتباعه قوله ﴿ بل تحبون العاجلة ﴾ كأنه قيل : بل أنتم يا بني آدم خلقتم من عجل تعجلون في كل شيء ، ومن ثم تحبون الدنيا وتتركون الأخرى . ثم وصف اليوم الآخر بقوله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ ذات نضارة وبهاء . والوجه عبارة عن الجملة قاله في الكشاف : والأولى عندي تقليلاً للمجاز أن راد بالوجوه العيون فيكون من إطلاق الكل على الجزء لا عكسه ﴿ إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة ﴾ شديدة العبوس ﴿ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ فعل هو في شدته وفظاعته فاقرة أي داهية تقصم فقار الظهر كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير . قال الأصمعي : الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم أو يقرب منه ثم يجعل فيه خشبة يجر بها البعير ، ومنه قيل : عملت به الفاقرة . وقال الكلبي : هي أن تحجب عن رؤية ربها فلا تنظر إليه . وأعلم أن أهل السنة استدلوا بالآية على إمكان رؤية

الله تعالى في الآخرة بل على وجوبها بحكم الوعد وحاصل كلامهم أن النظر إن كان بمعنى الرؤية فهو

(292/793)

المطلوب ، وإن كان بمعنى تقليب الحدقة نحو المرئي فهذا في حقه تعالى محال لأنه منزه عن الجهة والمكان فوجب حمله على مسببه وهو الرؤية وهذا مجاز مشهور وأما المعتزلة فزعموا أن النظر المقرون ب " إلى " إنما يراد به تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً للرؤية فقد تحصل الرؤية وقد لا تحصل كما قال سبحانه ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ ويقال : دور فلان متناظرة أي متقابلة ولا ريب أن تقليب الحدقة نحو الشيء يستدعي جهة لذلك الشيء وهذا في حق الله تعالى محال فوجب حمل النظر على الانتظار أي منتظرة ثواب ربها كقولك : أنا ناظر إلى فلان ما يصنع فيّ .

(293/793)

والانتظار إذا كان في شيء متيقن الوقوع لا يوجب الغم والحزن بل يزيد اللذة والفرح.

واعترض بأن النظر إذا كان بمعنى الانتظار لا يعدّى ب "إلى" كقوله ﴿ أنظرونا نقتبس من نوركم ﴾ [الحديد : 13] ﴿ وهل ينظرون إلى تأويله ﴾ [الأعراف : 53] وأجيب بأن ذلك إنما يكون إذا كان منتظراً للشخص، أما إذا كان منتظراً لرفده ومعونته فإنه يستعمل مقروناً بإلى كقول الرجل : إنما نظري إلى الله ثم إليك. وقد يقول الأعمى : عيني ناظرة إليك. سلمنا لكن لم لا يجوز أن يكون "إلى" واحد الآلاء أي نعمة ربها منتظرة، وتقديم المفعول لأجل الفاصلة أو للاختصاص أي لا ينتظرون إلا إلى نعمة الله ورحمته، قال في الكشاف : وهذا المعنى أعني إفادة الاختصاص أحد الدلائل الدالة، على أن النظر ههنا ليس بمعنى تقليب الحدقة ولا بمعنى الرؤية لأنهم ينظرون إلى أشياء ويرون أشياء لا تدخل تحت الحصر فلا بد من حمل النظر على معنى يصح معه الإختصاص وهو التوقع والرجاء. وحين وصف القيامة الكبرى أتبعه نعت القيامة الصغرى فروّعهم عن إيثار العاجلة على الآجلة. وذكرهم حالة الموت التي هي أول منزلة من منازل الآخرة. والضمير في ﴿ بلغت ﴾ للنفس لدلالة قرينة الحال والمقال كما في قوله ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] والتراقي العظام المكتنفة ثغرة النحر من الجانبين واحدها ترقوة، والمراد زهوق الروح لأن متعلق النفس هو الروح الحيواني الذي منبعه القلب فإذا فارق المنبع لم يبق من آثاره في حواليه إلا قليل كما لو غارت العين لم يبق في نواحيها إلا أثر قليل من النداوة فيزول

عن قرب . قوله ﴿ وقيل من راق ﴾ إن كان من الرقية يقال رقاه يرقيه إذا عوذه بما يشفيه ومنه " بسم الله أرقيك من كل يؤذيك " فالقائل هم بعض أصحاب الميت وأقاربه ، والاستفهام إما على أصله لأن العادة جارية على طلب الطبيب والراقي في وقت ما يشتد المرض ، وإما بمعنى الإنكار أي من الذي يقدر أن يرقي هذا

(294/793)

الإنسان المشرف على الموت ، وإن كان اشتقاقه من الرقي الصعود ومنه المرقاة قال الله تعالى

﴿ ولن نؤمن لرقيك ﴾ [الإسراء : 93] فالقائل بعض الملائكة يعني أيكم يرقي بروح هذا المحتضر ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب . وعنا بن عباس : إن الملائكة يكرهون القرب من الكافرين فيقول ملك الموت : من يرقى بروح هذا الكافر ؟ وقال الكلبي : يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة العذاب مع ملك الموت فإذا بلغت نفس العبد التراقي نظر بعضهم إلى بعض أيهم يعرج بروحه إلى السماء ﴿ وظن ﴾ المحتضر أي تيقن ﴿ أنه ﴾ وقت ﴿ الفراق ﴾ عن الدنيا وأوان الفطام عن مألفواتها . وفي التعبير عن اليقين ههنا بالظن تهكم بالميت وإشارة إلى أن الإنسان لتهالكه على الدنيا وحرصه على الحياة

العاجلة لا يكاد يقطع بحلول الأجل وإن لم يبق منه إلا حشاشة يسيرة ، غايته أنه يغلب على ظنه الموت مع رجاء الحياة العاجلة لا يكاد يقطع بالموت . واستدل بهذه الآية على أن النفس باقٍ بعد خراب البدن لأن الله سمى الموت فراقاً والفراق والوصال صفة والصفة تستدعي وجود الموصوف . ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه كناية عن الشدّة كما مر في قوله ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ [القلم : 42] أي اتصلت شدة فراق الدنيا وترك الأهل والولد والجاه وشماتة الأعداء وحزن الأولياء وغير ذلك بشدّة الإقبال على أحوال الآخرة وأهوالها . الثاني أن الساق هي العضو المخصوص . قال الشعبي : أما رأيته في النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى ؟ قال الحسن وسعيد بن المسيب : هما ساقاه التفتا في أكفانه . وقيل : التفاف ساقيه وهو أنه إذا مات يبست ساقاه ولصقت إحدهما بالأخرى .

(295/793)

وقريب منه قول قتادة ماتت رجلاه فلا يحملانه وقد كان عليهما جوالاً ﴿ إلى ربك ﴾ أي حكمة خاصة ﴿ يومئذ المساق ﴾ أي السوق . وقيل : أراد أن سوقه وقتئذ يفوض إلى الله دون غيره ، والفرق أن الرب أي حكمه في الأول هو المسوق إليه وهو في الثاني سائق

يسوقه إلى الجنة أو إلى النار . قوله ﴿ فلا صدّق ولا صلى ﴾ الضمير فيه عائد إلى الإنسان المذكور في قوله ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ وقد سبق أن تعينه صنفيّ أو شخصي أخبر الله سبحانه عن اختلال حال أعماله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه قائلاً ﴿ فلا صدق ﴾ أي فلا صدّق بالرسول أو بالقرآن أو بالبعث ﴿ ولا صلى ﴾ ﴿ ولكن كذب ﴾ بالحق ﴿ وتولى ﴾ عن الطاعة ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ متبختراً مفتخراً بذلك وأصله يتمطط أي يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه ، قلبت الطاء الأخيرة ياء كما في " تقضى البازي " . ويحتمل أن يكون من مطا الظهر لأن المتبختر يلوي ظهره . قال أهل العربية " لا " ههنا بمعنى " لم " وقلما تقع لا الداخلة على الماضي إلا مكررة ومنه الحديث " لا أكل ولا شرب ولا استهل "

(296/793)

أما قوله عز من قائل ﴿ فلا أقتحم العقبة ﴾ [البلد : 11] فسيجيء قال قتادة والكلبي ومقاتل : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبي جهل ثم قال له ﴿ أولى لك فأولى ﴾ يوعده ويدعو عليه بالهلاك والبعد عن الخير والقرب من المكاره ، وقد مر في قوله ﴿ فأولى لهم ﴾ [محمد : 20] وذلك في سورة القتال . فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني ؟

لا تستطيع أنت ولا بك أن تفعلا فيّ شيئاً وأني لأعز أهل هذا الوادي ثم سل يده ذاهباً فأنزل الله كما قال الرسول . قال القفال : هذا محتمل ، ويحتمل أن يكون أيضاً وعيداً مبتدأ من الله للكافر على طريقة الإلتفات . ويحتمل أن يكون أمراً من الله لنبيه بأن يقوله لعدو الله فيكون القول مقدراً أي فقلنا لك يا محمد قل له هذا . ثم قال دليلين على صحة الخبر الأول ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أي هملاً لا يكلف ولا يحاسب بعمله وهذا خلاف الحكمة نظيره ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] الثاني الاستدلال بالخلق الأول على الإعادة و ﴿ منيّ يمنى ﴾ يراق في الرحم . من ذكّر فللمني ، ومن أنّث فللنطفة . والنطفة اسم لما ينطف كالقبضة لما يقبض والغرفة لما يغرف إلا أنها غلبت على الماء المخصوص الذي هو للحيوان بمنزلة البذر للنبات . والمني " فعيل " بمعنى " مفعول " من المني بالسكون وهو الدفق غلب أيضاً على الماء المخصوص فقوله ﴿ من مني ﴾ أي من هذا الجنس كالتأكيد لها . وقوله ﴿ يمني ﴾ تأكيد على تأكيد وفيه إشارة إلى حقارة الإنسان في ذاته وأنه لا يليق به التمطي والفخر والإستكبار عن طاعة خالقه فإنه مخلوق من المني الذي جرى على مجرى النجاسة نظيره في عيسى وأمه ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ [المائدة : 75] والمراد به قضاء الحاجة . قوله ﴿ فخلق فسوى ﴾ أي قدّر فعدّل أركانه . وقيل : خلق فيه الروح فصير أعضاءه متناسبة ﴿

فجعل منه ﴿ أي من الإنسان ﴿ الزوجين ﴾ الصنفين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ عن رسول الله

(297/793)

صلى الله عليه وسلم أنه اكن إذا قرأ خاتمة السورة قال عقيبها : سبحانك بلى . والله الموفق وإليه المصير والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 399 . 407 ﴾

(298/793)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة القيامة

مكية وهي تسع وثلاثون آية ، ومائة وسبع وتسعون كلمة ، وستمائة واثنان وخمسون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الجلال والكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بنعمة الإيجاد أهل الهدى والضلال ﴿ الرحيم ﴾ الذي سدد أهل العناية في الأفعال والأقوال .

واختلف في لا في قوله تعالى:

﴿ لا أقسم ﴾ على أوجه:

أحدها : أنها نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث أي : ليس الأمر كما زعموا ثم ابتدأ أقسم ﴿ بيوم القيامة ﴾ قال القرطبي : إن القرآن جاء بالردّ على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، فجاء الإقسام بالردّ عليهم كقولك : لا والله لا أفعل فلا ردّ لكلام قد مضى كقولك : لا والله إن القيامة لحق كأنك أكذبت قوماً أنكروه .

الثاني : أنها مزيدة مثلها في ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ (الحديد :)

واعترضوا هذا بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوّله . وأجيب : بأنّ القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض يدل على ذلك أنه قد يجيء ذكر الشيء في سورة ويذكر جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (الحجر :)

وجوابه في سورة أخرى ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ (القلم :)

وإذا كان كذلك كان أوّل هذه السورة جارياً مجرى الوسط ، وردّ هذا بأنّ القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض لا أن تقرن سورة بما بعدها ، فذلك غير جائز .

الثالث : قال الزمخشري : إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم ، قال امرؤ القيس:

*لا وأبيك ابنة العامريّ** لا يدّعي القوم أني أفر*

وفائدتها : توكيد القسم ، ثم قال الزمخشري بعد أن ذكر وجه الزيادة والاعتراض : والجواب كما تقدّم والوجه أن يقال : هي للنفي ، والمعنى في ذلك : أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ (الجمعة :).

(299/793)

فكأنه بإدخال حرف النفي يقول : إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك . قال بعضهم : قول الزمخشري : والوجه أن يقال إلى آخره تقرير لقوله : إدخال لا النافية فيه على فعل القسم مستفيض إلى آخره . وحاصل كلامه يرجع إلى أنها نافية وأنّ النفي متسلط على فعل القسم بالمعنى الذي شرحه ، وليس فيه نفع لفظاً ولا معنى ، وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزي بغير ألف بعد اللام والهمزة مضمومة والباقون بالألف ويعبر عن قراءة ابن كثير بالقصر وعن قراءة الباقين بالمدّ .

ولا خلاف في قوله تعالى : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامّة ﴾ في المدّ والكلام في لا المتقدّمة وجرى الجلال المحلي على أنها زائدة في الموضعين . واختلف في النفس اللوامّة فقيل : هي

نفس المؤمن الذي لا تراه يلوم إلا نفسه تقول : ما أردت بكذا ولا تراه يعاتب إلا نفسه . وقال الحسن رضي الله عنه : هي والله نفس المؤمن ما ترى المؤمن إلا يلوم نفسه ما أردت بكلامي ما أردت بأكلي ما أردت بحديثي ، والفاجر لا يحاسب نفسه . وقال مجاهد رضي الله عنه : هي التي تلوم على ما فات ، فتلوم نفسها على الشرّ لم فعلته ، وعلى الخير لم لا تستكثر منه ، وقيل : تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها . وقيل : المراد آدم عليه السلام لم يزل لائماً نفسه على معصيته التي أخرج بها من الجنة . وقيل : هي الملومة فتكون صفة ذمّ وهو قول من نفى أن تكون قسماً ، وعلى الأوّل صفة مدح فيكون القسم بها سائغاً . وقال مقاتل رضي الله عنه : هي نفس الكافر يلوم نفسه تحسراً في الآخرة على ما فرّط في جنب الله تعالى .

(300/793)

وجواب القسم محذوف أي : لتبعثنّ دل عليه قوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ أي : هذا النوع الذي جبل على الأنس بنفسه والنظر في عطفية وأسند الفعل إلى النوع كله ؛ لأنّ أكثرهم كذلك لغلبة الحظوظ على العقل إلا من عصم الله تعالى ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها ﴿ ألن ﴾ أي : أنا لا ﴿ نجمع ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ عظامه ﴾ أي : التي هي قالب بدنه فنعيدها كما كانت بعد تمزقها وتفتتها

للبعث والحساب .

وقيل : نزلت في عدي بن ربيعة حليف بني زهرة خال الأخنس بن شريق الثقفي وذلك أن عدياً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد حدّثني عن القيامة متى تقوم ؟ وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك ، أَوَيجمع الله العظام بعد تفرّقها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطاً بالتراب وبعد ما نسفتها الرياح وطيرتها في أباعد الأرض ولهذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهمّ اكفني جاري السوء عدي بن ربيعة والأخنس بن شريق" وقيل : نزلت في عدوّ الله أبي جهل أنكر البعث بعد الموت وذكر العظام ، والمراد نفسه كلها لأنّ العظام قالب الخلق .

تنبيه : ألن هنا موصولة وليس بين الهمزة واللام نون في الرسم كما ترى .

(301/793)

وقوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد النفي المنسحب عليه الاستفهام وهو وقف حسن ، ثم يبتدئ بقوله تعالى : ﴿ قادرين ﴾ وقيل : المعنى : بل نجمعها قادرين مع جمعها ﴿ على أن نسوي بنانه ﴾ أي : أصابعه وسلاميا ته وهي عظامه الصغار التي في يده ، خصها

بالذكر لأنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه أي : نجمع بعضها على بعض على ما كانت عليه قبل الموت لأنا قدرنا على تفصيل عظامه وتفتيتها ، فنقدر على جمعها وتوصيلها ، وقدرنا على جمع صغار العظام فنحن على جمع كبارها أقدر ، وقال ابن عباس وأكثر المفسرين : على أن نسوي بنانه أي : نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخف البعير أو كحافر الحمار أو كظلف الخنزير ، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئاً ، ولكنا فرّقنا أصابعه حتى يفعل بها ما شاء . وقيل : نقدر أن نصير الإنسان في هيئة البهائم فكيف في صورته التي كان عليها وهو كقوله تعالى : ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ (الواقعة : ـ)

وقوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ﴾ عطف على أيحسب فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون جواباً لجواز أن يكون الإضراب عن المستفهم وعن الاستفهام ﴿ ليفجر أمامه ﴾ أي : ليدوم على فجوره فيما يستقبله من زمان لا يبرح عنه ولا يتوب ، هذا قول مجاهد رضي الله عنه . وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : يقدّم الذنب ويؤخر التوبة ، فيقول : سوف أتوب سوف أعمل حتى يأتيه الموت على أشرّ أحواله وأسوأ أعماله . وقال الضحاك رضي الله عنه : هو الأجل يقول : أعيش فأصيب من الدنيا كذا وكذا ولا يذكر الموت . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يكذب بما أمامه من البعث والحساب ، وأصل الفجور الميل وسمي الكافر والفاسق فاجراً لميله عن الحق .

﴿ يسأل ﴾ أي : سؤال استهزاء أو استبعاد ﴿ أيان ﴾ أي : أي وقت يكون ﴿ يوم القيامة ﴾ .

(302/793)

ولما كان الجواب يوم يكون كذا وكذا عدل عنه إلى ما سبب عن استبعاده لأنه أهول فقال تعالى ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي : شخص ووقف لما يرى مما كان يكذب به هذا على قراءة نافع بفتح الراء وأما على قراءة كسرها فالمعنى : تحير ودهش مما يرى وقيل : هما لغتان في التحير والدهشة .

﴿ وخسف القمر ﴾ أي : أظلم وذهب ضوءه ، وقد اشتهر أنّ الخسوف للقمر والكسوف للشمس . وقيل : يكونان فيهما ، يقال : خسفت الشمس وكسفت ، وخسف القمر وكسف . وقيل : الكسوف أوّله والخسوف آخره .

ولم تلحق علامة التأنيث في قوله تعالى ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ لأنّ التأنيث مجازي ، وقيل : لتغليب التذكير ، وردّ لأنه لا يقال : قام هند وزيد عند الجمهور من العرب . وقال الكسائي : حمل على جمع النيران . وقال الفرّاء : لم يقل جمعت لأنّ المعنى : جمع بينهما قال الفرّاء والزجاج : جمع بينهما في ذهاب ضوئهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد

خسوفه . وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم : قرن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكوّرين مظلمين مقرّنين كأنهما ثوران عقيران في النار ، وقال عطاء بن يسار رضي الله عنه : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى ، وقيل : يجمعان في نار جهنم لأنهما قد عبدا من دون الله تعالى ولا تكون النار عذاباً لهما ، لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكفار وحسرتهم .

(303/793)

وقوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان ﴾ أي : لشدّة روعه جرياً مع طبعه جواب إذا من قوله تعالى ﴿ فإذا برق البصر ﴾ . ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذا كانت هذه الأشياء ، وقوله تعالى : ﴿ أين المفرّ ﴾ منصوب المحل بالقول والمفرّ مصدر بمعنى الفرار . قال الماوردي : ويحتمل وجهين : أحدهما : أين المفرّ من الله تعالى استحياء منه . والثاني : أين المفرّ من جهنم حذراً منها . ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما : أن يكون من الكافر خاصة في عرصة القيامة دون المؤمن لثقة المؤمن ببشرى ربه تعالى . والثاني : أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة لهول ما شاهدوا منها . وقيل : أبو جهل خاصة .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع عن طلب المفرّ ﴿ لا وزر ﴾ أي : لا ملجأ ولا حصن استعير

من الجبل . قال السدّي : كانوا في الدنيا إذا فزعوا تحصنوا في الجبال ، فقال الله تعالى لهم : لا وزر يعصمكم مني يومئذ واشتقاقه من الوزر وهو الثقل ﴿ إلى ربك ﴾ أي : المحسن إليك بأنواع الإحسان لا إلى شيء غيره ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ كانت هذه الأمور ﴿ المستقر ﴾ أي : استقرار الخلق كلهم ناطقهم وصامتهم ومكان قرارهم وزمانه إلى حكمه سبحانه ومشيئته ظاهراً وباطناً لا حكم لغيره بوجه من الوجوه في ظاهر ولا باطن كما هو في الدنيا . وقال ابن مسعود : المصير والمرجع ، قال الله تعالى ﴿ إلى ربك الرجعى ﴾ (العلق :)

و﴿ إليه المصير ﴾ (المائدة :)

وقال السدّي : المنتهى ، نظيره ﴿ وإنّ إلى ربك المنتهى ﴾ (النجم :)

(304/793)

﴿ ينبأ ﴾ أي : يخبر تخبيراً عظيماً ﴿ الإنسان يومئذ ﴾ أي : إذا كان الزلزال الأكبر ﴿ بما قدّم ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله تعالى عنهم : بما قدّم قبل موته من عمل صالح وسيء ﴿ وأخر ﴾ بعد موته من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها . وقال ابن عطية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بما قدّم من المعصية وأخر من الطاعة ، وقال قتادة : بما قدم

من طاعة الله وأخر من حق الله فضيعه . وقال مجاهد : بأوّل عمله وآخره . وقال عطاء : بما قدم في أوّل عمره وما أخر في آخر عمره . وقال يزيد بن أسلم : بما قدّم من أموال نفسه وما أخر خلفة للورثة ، والأولى أن يقال ينبأ بجميع ذلك إذ لا منافاة بين هذه الأقوال .

﴿ بل الإنسان ﴾ أي : كل واحد من هذا النوع ﴿ على نفسه ﴾ أي : خاصة ﴿ بصيرة ﴾ أي : حجة بينة على أعماله والهاء للمبالغة يعني : أنه في غاية المعرفة بأحوال نفسه ، فيشهد عليه بعمله سمعه وبصره وجوارحه قال الله تعالى : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (الإسراء :)

.

قال البغوي : ويحتمل أن يكون معناه : بل للإنسان على نفسه يعني جوارحه ، فحذف حرف الجر كقوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ (البقرة :) أي : لأولادكم ، ويجوز أن يكون نعتاً لاسم مؤنث أي : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة .

(305/793)

﴿ ولو ألقى ﴾ أي : ذكر بغاية السرعة ذلك الإنسان من غير تلعثم دلالة على غاية الصدق والاهتمام والتملق . وقوله تعالى : ﴿ معاذيره ﴾ جمع معذرة على غير قياس قاله الجلال

المحلي . أي : لو جاء بكل معذرة ما قبلت منه . وقال الزمخشريّ : المعاذير ليس بجمع معذرة ، وإنما هو اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر ا .ه . قال أبو حيان : وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع وإنما هو من أبنية جموع التكسير ا .ه . وقيل : معاذير جمع معذار وهو الستر ، والمعنى : ولو أرخى ستوره والمعاذير الستور بلغة اليمن قاله الضحاك . وحكى الماورديّ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أي : ولو تجرّد من ثيابه .

ولما كان صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحي نازع جبريل عليه السلام القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن ينفلت منه أمره الله تعالى بأن ينصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي الله تعالى وحيه ثم يعقبه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه بقوله تعالى: ﴿ لا تحرك به ﴾ أي : بالقرآن ﴿ لسانك ﴾ ما دام جبريل عليه السلام يقرؤه ﴿ لتعجل به ﴾ أي : لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك ، فإنّ هذه العجلة وإن كانت من الكمالات بالنسبة إليك وإلى إخوانك من الأنبياء عليهم السلام كما قال موسى عليه السلام : ﴿ وعجلت إليك ربّ لترضى ﴾ (طه :)

نقل صلى الله عليه وسلم من مقام كامل إلى أكمل منه .

ثم علل النهي عن العجلة بقوله تعالى : ﴿ إنّ علينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة لا على أحد

سوانا ﴿ جمعه ﴾ أي : في صدرك حتى تثبته وتحفظه ﴿ وقرآنه ﴾ أي : قراءتك إياه يعني جريانه على لسانك .

(306/793)

﴿ فإذا قرأناه ﴾ عليك بقراءة جبريل عليه السلام ﴿ فاتبع ﴾ أي : بغاية جهدك بإلقاء سمعك وإحضار قلبك ﴿ قرآنه ﴾ أي : قراءته مجموعة على حسب ما أداه رسولنا وجمعناه لك في صدرك ، وكرر تلاوته حتى يصير لك به ملكة عظيمة ، ويصير لك خلقاً ، فيكون قائدك إلى كل خير . وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل بالوحي كان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، وكان يعرف منه فأنزل الله تعالى الآية التي في لا أقسم بيوم القيامة ﴿ لا تحرّك به لسانك ﴾ الآية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق . فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى" قال سعيد بن جبير : قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما فأنزل الله عز وجل الآية .

﴿ ثم إن علينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ بيانه ﴾ أي : بيان ألفاظه ومعانيه لك سواء

أسمعته من جبريل عليه السلام على مثل صلصلة الجرس أم بكلام الناس المعتاد بالصوت والحروف ، ولغيرك على لسانك وعلى ألسنة العلماء من أمّتك ، والآية مشيرة إلى ترك مطلق العجلة ؛ لأنه إذا نهى عنها في أعظم الأشياء وأهمها كان غيره بطريق الأولى ، والمناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنّ تلك تضمنت الإعراض عن آيات الله تعالى ، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ استفتاح بمعنى : ألا . وقال الزمخشري : ردع للنبيّ صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة ، وقال جماعة من المفسرين : حقاً ، والأوّل جرى عليه الجلال المحلي وهو أظهر . ﴿ بل يحبون ﴾ متجدّدة على تجدد الزمان ﴿ العاجلة ﴾ بدليل أنهم يقبلون غاية الإقبال عليها وحبها أوجب لهم ارتكاب ما يعلمون قبحه ، فإنّ الآخرة والأولى ضرتان من تقرب من أحدهما لا بدّ من تباعده عن الأخرى ، فإن حبك للشيء يعمي ويصم .

(307/793)

﴿ ويذرون ﴾ أي : يتركون على أي وجه كان ولو أنه غير مستحسن ﴿ الآخرة ﴾ لأنهم يبغضونها لارتكابهم ما يضرّهم فيها وجمع الضمير وإن كان مبنى الخطاب مع الإنسان

للمعنى . وقرأ ﴿ يحبون ﴾ و ﴿ يذرون ﴾ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة فيهما حملاً على لفظ الإنسان المذكور أوّلاً ؛ لأنّ المراد به الجنس ، لأنّ الإنسان بمعنى الناس والباقون بتاء الخطاب فيهما إما خطاباً لكفار قريش أي : تحبون يا كفار قريش العاجلة أي : الدار الدنيا والجاه فيها وتتركون الآخرة والعمل لها ، وإما التفاتاً عن الإخبار عن الجنس المتقدّم والإقبال عليه بالخطاب .

ولما ذكر تعالى الآخرة التي أعرضوا عنها ذكر ما يكون فيها بياناً لجهلهم وسفههم وقلة عقولهم وترهيباً لمن أدبر عنها وترغيباً لمن أقبل عليها لطفاً بهم ورحمة لهم فقال تعالى : ﴿ وجوه ﴾ أي : من المحشورين وهم جميع الخلائق ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ تقوم الساعة ﴿ ناضرة ﴾ من النضرة بالضاد وهي النعمة والرفاهية أي : هي بهية مشرقة عليها أثر النعمة بحيث يدل ذلك على نعمة أصحابها .

﴿ إلى ربها ﴾ أي : المحسن إليها خاصة باعتبار أن عد النظر إلى غيره كلا نظر ﴿ ناظرة ﴾ أي : دائماً هم محدقون أبصارهم لا غفلة لهم عن ذلك ، فإذا رفع الحجاب عنهم أبصروه بأعينهم بدليل التعدّي بإلى ، وذلك النظر جهرة من غير اكتتام ولا تضامّ ولا زحام كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهم ، وأكثر المفسرين ، وجميع أهل السنة ، وروي عن النبيّ عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحيحة من وجوه كثيرة بحيث اشتهر غاية الشهرة ، وتكون الرؤية كما مثلت في الأحاديث كما يرى القمر ليلة البدر أي : كل من

يريد رؤيته من بيته يراه مجلياً له ، هذا وجه الشبه ، لا أنه في جهة ولا في حالة لها شبيه تعالى الله الكريم عن التشبيه .

(308/793)

فمن تلك الأحاديث ما روي عن جرير بن عبد الله قال : "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال صلى الله عليه وسلم إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ " (طه :)

وفي كتاب النسائي عن وهب قال : "ينكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبّ إليهم من النظر ولا أقر لأعينهم" .

وعن جابر قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجلى ربنا عز وجل حتى ننظر إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول تعالى : ارفعوا رؤوسكم ، فليس هذا يوم عبادة" .

وقدم الجارّ الدال على الاختصاص إشارة إلى أنّ هذا النظر مباين للنظر إلى غيره ، فلا يعد ذلك نظراً بالنسبة إليه وعبر بالوجوه عن أصحابها ؛ لأنها أدل ما يكون على السرور ،

وليكون ذكرها أصرح في أنّ المراد بالنظر حقيقته .

روى مسلم في قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس :)

كان ابن عمر يقول : أكرم أهل الجنة على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ثم تلا هذه الآية .

وأنكر الرؤية المعتزلة ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ (الأنعام :)

ويقولون : النظر المقرون بإلى ليس اسماً للرؤية بل لمقدّمة الرؤية وهي تقليب الحدقة نحو المرئيّ التماساً لرؤيته ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة وكالإصغاء بالنسبة إلى السمع ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ (الأعراف :)

فأثبت النظر حال عدم الرؤية ، فتكون الرؤية غاية النظر وأنّ النظر يحصل والرؤية غير حاصلة . قالوا : ويمكن أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ ناظرة ﴾ منتظرة كقولك أنا أنظر إليك في حاجتي .

(309/793)

وأجيب عن استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ بأن لا تدركه بالإحاطة والجهة فلا يكون ذلك مانعاً للرؤية على هذا الوجه وعن بقية استدلالهم بما ذكروه بجوابين:

أحدهما : أن نقول : النظر هو الرؤية لقول موسى عليه السلام ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ (الأعراف :)

فلو كان المراد تقليب الحدقة نحو المرئي لاقتضت الآية إثبات الجهة والمكان ، ولأنه أخر النظر عن الإراءة فلا يكون تقليب الحدقة .

الجواب الثاني : سلمنا ما ذكرتموه من أنّ النظر تقليب الحدقة تعذر حمله على الحقيقة فيجب حمله على الرؤية إطلاقاً لاسم السبب على المسبب وهو أولى من حمله على الانتظار لعدم الملازمة ؛ لأن تقليب الحدقة كالسبب للرؤية ، ولا تعلق بينه وبين الانتظار .

وأمّا قولهم بحمله على الانتظار فأجيب عنه أيضاً بأن الذي هو بمعنى الانتظار في القرآن غير مقرون بإلى ، كقوله تعالى : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم هل ينظرون إلا أن ﴾ (الحديد :)

والذي ندعيه أن النظر المقرون بإلى ليس إلا بمعنى الرؤية ؛ لأنّ وروده بمعنى الرؤية ظاهرة فلا يكون بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك .

ولما ذكر تعالى أهل النعمة أتبعه أضدادهم من أهل النقمة فقال سبحانه وتعالى:

﴿ ووجوه يومئذ ﴾ أي : في ذلك اليوم بعينه ﴿ باسرة ﴾ أي : شديدة العبوس والكلوح

والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه . وقال السدي : ﴿ باسرة ﴾ متغيرة . ﴿ تظن ﴾ أي : يتوقع أربابها بما ترى من المخايل ﴿ أن يفعل بها ﴾ أي : بهم فإنه إذا أصيب الوجه الذي هو أشرف ما في الجملة كان ما عداه أولى ﴿ فاقرة ﴾ وهي الداهية العظيمة ، قال أبو عبيدة : سميت بذلك لأنها تكسر فقار الظهر يقال : فقرته الفاقرة أي : كسرت فقار ظهره ومنه سمي الفقير لانكسار فقاره من القل . وقال قتادة : الفاقرة الشر ، وقال السدي : الهلاك . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : دخول النار . وقال الكلبي : هي أن تحجب عن رؤية الربّ عز وجل .

(310/793)

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري ، وزاد الزمخشري كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا إلى ما بين أيديكم من الموت الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنقلبون إلى الآجلة التي تبقوا فيها مخلدين ﴿ إذا بلغت ﴾ النفس ﴿ التراقي ﴾ وأضمر النفس وإن لم يجر لها ذكر ؛ لأنّ الكلام الذي وقعت فيه يدل عليها كما قال حاتم:

*أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى **إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر*

وتقول العرب : أرسلت ، يريدون جاء المطر ، ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء .

والتراقي : جمع ترقوة وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ، ولكل إنسان ترقوتان . قال البقاعي : ولعله جمع المثنى إشارة إلى شدة انتشارها بغاية الجهد لما فيه من الكرب لاجتماعها من أقاصي البدن إلى هناك ا .ه . وهذا كناية عن الإشفاء على الموت ذكرهم صعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها .

﴿ وقيل ﴾ أي : قال حاضر وصاحبها وهو المحتضر بعضهم لبعض ﴿ من راق ﴾ أي : أيكم يرقيه مما به ليحصل له الشفاء . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو من كلام ملائكة الموت ، أي : أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، فالأول اسم فاعل من رقى يرقى بمعنى الرقية بالفتح في الماضي والكسر في المضارع . والثاني : الذي بمعنى الصعود بالكسر في الماضي والفتح في المضارع .

(311/793)

﴿ وظن ﴾ أي : أيقن المحتضر لما لاح له من أنوار الآخرة ، وقيل : القائل من راق من أهله ﴿ أنه ﴾ أي : الشأن العظيم الذي هو فيه ﴿ الفراق ﴾ لما كان أي : فيه من محبوب العاجلة الذي هو الفراق الأعظم الذي لا فراق مثله ، ففي الخبر إن العبد ليعالج كرب الموت

وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة ، وسمي اليقين هنا بالظن لأنّ الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه ، فإنه يطمع في الحياة لشدّة حبه لهذه الحياة العاجلة ولا ينقطع رجاؤه عنها ، أو أنّ المراد الظن الغالب إذ لا يحصل يقين الموت مع رجاء الحياة . وقيل : سماه بالظن تهكماً قال الرازي : وهذه الآية تدل على أن الروح جوهر قائم بنفسه باق بعد موت البدن لأنه تعالى سمى الموت فراقاً ، والفراق إنما يكون إذا كانت الروح باقية ، فإنّ الفراق والوصال صفة والصفة تستدعي وجود الموصوف .

﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أي : اجتمعت إحداهما بالأخرى إذ الالتفاف الاجتماع ، قال تعالى : ﴿ جئنا بكم لفيفاً ﴾ (الإسراء :)

ومعنى الكلام اتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والحسن وغيرهما . وقال الشعبي : التفت ساق الإنسان عند الموت من شدة الكرب . قال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى ، وقال سعيد بن المسيب : هما ساقا الإنسان إذا التفتا في الكفن . وقال زيد بن أسلم : التفت ساق الكفن بساق الميت . وقال الضحاك : الناس يجهزون جسده والملائكة يجهزون روحه . وقال السدي : لا يخرج من كرب إلا جاءه أشد منه ، وأول الأقوال كما قال النحاس : أحسنها ، والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد والمحن العظام ، ومنه قولهم

قامت الحرب على ساق ، قال أهل المعاني : لأنّ الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقيه ، فقيل للأمر الشديد : ساق . قال الجعدي:

*أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها ** وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا*

(312/793)

ولما صور وقت تأسفه على الدنيا وإعراضه عنها ذكر غاية ذلك ، فقال تعالى مفرداً النبيّ صلى الله عليه وسلم بالخطاب إشارة إلى أنه لا يفهم هذا حق فهمه غيره ﴿ إلى ربك ﴾ أي : المحسن إليك بجميع ما أنت فيه ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ وقع هذا الأمر ﴿ المساق ﴾ أي : السوق إلى حكمه تعالى فقد انقطعت عنه أحكام الدنيا فإما أن تسوقه الملائكة إلى سعادة وإمّا إلى شقاوة .

والضمير في قوله تعالى : ﴿ فلا صدّق ﴾ راجع للإنسان المذكور في ﴿ أيحسب الإنسان ﴾ أي : فلا صدّق النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما أخبره به بما كان يعمل من الأعمال الخبيثة ولا في ماله بالإنفاق في وجوه الخير التي ندب إليها واجبة كانت أو مندوبة . وحذف المعمول لأنه أبلغ في التعميم .

﴿ ولا صلى ﴾ أي : ما أمر به من فرض وغيره فلا تمسك بحبل الخالق ولا وصل حبل

الخلائق ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لم يصدق بالرسالة ولا صلى ، أي : دعا لربه عز وجلّ وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة : فلا صدق بكتاب الله تعالى ولا صلى لله جل ذكره .

﴿ ولكن ﴾ أي : فعل ضد ما أمر به بأن ﴿ كذب ﴾ أي : بما أتاه به النبيّ صلى الله عليه وسلم من قرآن وغيره ﴿ وتولى ﴾ أي : أعرض عنه وهذا الاستدراك واضح إذ لا يلزم من نفي التصديق والصلاة التكذيب والتولي . وقال القرطبي : معناه : كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان . وقيل : نزلت في أبي جهل .

﴿ ثم ذهب ﴾ أي : هذا الإنسان أو أبو جهل ﴿ إلى أهله ﴾ غير متفكر في عاقبة ما فعل من التكذيب حالة كونه ﴿ يتمطى ﴾ أي : يتبختر افتخاراً بتكذيبه وإعراضه وعدم مبالاته بذلك وأصله يتمطط أي : يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه ، وإنما أبدلت الطاء الثانية ياء كراهة اجتماع الأمثال ، وقيل : هو من المطا وهو الظهر لأنه يلويه تبختراً في مشيته .

وقوله تعالى : ﴿ أولى لك ﴾ فيه التفات من الغيبة والكلمة اسم فعل واللام للتبيين أي : وليك ما تكره ﴿ فأولى ﴾ أي : فهو أولى بك من غيرك .

(313/793)

وقوله تعالى : ﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ تأكيد وقيل : هذه الكلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه ، وأصلها من الولي وهو القرب . قال الله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم ﴾ (التوبة :)

وقال قتادة : ذكر لنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية "أخذ بمجامع ثوب أبي جهل بالبطحاء ، وقال له : ﴿ أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ﴾ فقال أبو جهل : أتوعدني يا محمد فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، وإني والله لأعز من مشى بين جبليها" . فلما كان يوم بدر صرعه الله شر مصرع وقتله أسوأ قتلة ، قال : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "لكل أمة فرعون ، وإن فرعون هذه الأمة أبو جهل" .

﴿ أيحسب ﴾ أي : يجوّز لقلة عقله ﴿ الإنسان ﴾ أي : الذي هو عبد مربوب ضعيف عاجز محتاج بما يرى من نفسه وأبناء جنسه ﴿ أن يترك ﴾ أي : يكون تركه بالكلية ﴿ سدى ﴾ أي : هملاً لاغياً لا يكلف ولا يجازى ولا يعرض على الملك الأعظم الذي خلقه فيسأله عن شكره فيما أسدى إليه ، فإنّ ذلك مناف للحكمة فإنها تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن المساوئ والجزاء على كل منهما ، وأكثر الظالمين والمظلومين يموتون من غير جزاء فاقتضت الحكمة أنه لا بدّ من البعث للجزاء .

﴿ ألم يك ﴾ أي : الإنسان ﴿ نطفة ﴾ أي : شيئاً يسيراً ﴿ من منيَ ﴾ أي : ماء من صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ يمنى ﴾ أي : تصب في الرحم سبب الله تعالى للإنسان المعالجة في

إخراجها بما ركب فيه من الشهوة ، وجعل له من الزوج التي يسرها لقضاء وطره حتى إنّ وقت صبها في الرحم تصب منه بغير اختياره حتى كأنه لا فعل له فيها أصلاً .

فإن قيل : ما فائدة ﴿ يمنى ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ من منيَ ﴾ ؟

(314/793)

أجيب : بأن فيه إشارة إلى حقارة حاله كأنه قيل : إنه مخلوق من المني الذي يجري على مجرى النجاسة فلا يليق بمثل هذا أن يتمرد عن طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى عليه السلام وأمه مريم ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ (المائدة :)

والمراد منه قضاء الحاجة .

﴿ ثم كان ﴾ أي : كوناً محكماً ﴿ علقة ﴾ أي : دماً أحمر غليظاً شديد الحمرة والغلظ ﴿ فخلق ﴾ أي : قدر سبحانه عقب ذلك لحمه وعظامه وعصبه وغير ذلك من جواهره وأعراضه ﴿ فسوى ﴾ أي : عدّل من ذلك خلقاً آخر غاية التعديل شخصاً مستقلاً .

﴿ فجعل ﴾ أي : بسبب النطفة ﴿ منه ﴾ أي : من المنيّ الذي صار علقة ، أي : قطعة دم ثم مضغة أي : قطعة لحم ﴿ الزوجين ﴾ أي : النوعين ﴿ الذكر والأنثى ﴾ يجتمعان تارة

وينفرد كل منهما عن الآخر تارة. قال القرطبيّ: وقد احتج بهذه الآية من رأى إسقاط الخنثى، وأجيب بأن هذه الآية وقرينتها خرجت مخرج الغالب أو أنه في نفس الأمر ذكر أو أنثى.

﴿ أليس ذلك ﴾ أي: الخالق المسوي الإله الأعظم الذي قدر على تمييز ما يصلح من ذلك للذكر وما يصلح منه للأنثى ﴿ بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ أي: أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البلى. "روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال: سبحانك اللهم بلى" رواه أبو داود والحاكم، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من قرأ سبح اسم ربك الأعلى إماماً كان أو غيره فليقل سبحان ربي الأعلى ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة إلى آخرها فليقل سبحانك اللهم بلى إماماً كان أو غيره. وروى البغوي بسنده من طريق أبي داود عن أعرابيَ عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ (التين:)

(315/793)

فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ والمرسلات فبلغ ﴿ فبأي

حديث بعده يؤمنون ﴾ (المرسلات :)

فليقل : آمنا بالله" . وروي أنّ رجلاً كان يصلي فوق بيته فكان إذا قرأ ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال : سبحانك اللهم بلى ، فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أن كان مؤمناً" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 183.196 ﴾

(316/793)

وقال القاسمي :

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

قال القاشانيّ : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، في القسم بهما ، تعظيماً لشأنهما ، وتناسباً بينهما ؛ إذ النفس اللوامة هي المصدقة بها ، المقرة بوقوعها المهيئة لأسبابها ، لأنها

تلوم نفسها أبداً في التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة في الخير ، وأعمال البر ، تيقناً بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسياناً .

ومر الكلام على ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ في مواقعه قبل هذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ عليه ، وهو لتبعثُنَّ . قال القاشانيّ : المراد بالقيامة ، هاهنا الصغرى ، لهذه الدلالة بعينها .

﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أي : بلى ! نجمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التي هي أطراف خلقته وتمامها ، على صغرها ولطافتها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟

﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ أي : ليدوم على الفجور ، فيما يستقبله من الزمان ، ولا يثنيه عنه شيء ، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب :

﴿ أَمَامَهُ ﴾ ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام ولاستمرار ؛ لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر في المستقبل ، على أن إرادته وحسبانه هما عين الفجور . وفي إعادة المظهر ما لا

يخفى من التهديد ونعي قبيح ما ارتكبه ، وأن الْإِنْسَانية تأباه . وقيل : حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الْإِنْسَانْ أن يستمر على فجوره ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

(317/793)

وقال القاشانيّ : أي : ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية ، غارزاً رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها ، واحتجابه بها عن الآجلة ، سائلاً عنها ، متعنتاً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : متى يكون ؟ استبعاداً وهزؤاً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله : يفجر ، أو بدل منه والاستئناف بيانيّ ، كأنه قيل : لِمَ يريد الدوام على الفجور ؟ قيل : لأنه أنكر البعث واستهزأ به ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ أي : تحير ودهش ، أي : لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أي : عند الموت . ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أي : ذهب ضوؤه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أي : جمع بينهما في ذهاب الضوء ، فلا ضوء لواحد منهما . وقيل : إنهما يجتمعان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ

كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] ، قال ابن زيد : جمعا فرمي بهما في الأرض .

﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أي : الفرار . أي : يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقول قول الآيس لعلمه بأنه لا قرار حينئذ .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن طلب المفر ، ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أي : لا ملجأ .

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أي : مستقر العباد ، من نار أو جنة . أي : مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم

﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ ﴾ أي من عمله الذي يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ أي : منه ففرط وقصر فيه ولم يعمله .

قال الشهاب :

(318/793)

﴿ مَا قَدَّمَ ﴾ كناية عما عمل ، وما ﴿ أَخَّرَ ﴾ ما تركه ولم يعمله . وهو مجاز مشهور فيما ذكر . أو ما قدمه ، ما عمله ، وما أخره ، عمل من اقتدى به بعده عملاً له ، كأنه وقع منه .

﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ قال القاشانيّ : أي : حجة بينة ، يشهد بعلمه ، لبقاء

هيئات أعماله المكتوبة عليه في نفسه ، ورسوخها في ذاته ، وصيرورة صفاته صور أعضائه ، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب :

﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ مجاز عن الحجة الظاهرة . أو ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ بمعنى بينة ، وهي صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فالإسناد مجازي . أو هي بمعنى دالة مجازاً . أو هو استعارة مكنية وتخييلية . و ﴿ الْإِنسَانُ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾ خبره ، و ﴿ عَلَى ﴾ متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة حجة . ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أي : ولو ألقى أعذاره مجادلاً عن نفسه بكل معذرة . وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تنكره قلوبهم ، وأنهم في دفاعهم يجادلون بالباطل . ولا غرو أن ينكر القلب ما تدفعه الفطرة السليمة ، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجيء بالعذر بإلقاء الدلو في البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المرويّ للعطش .

وقوله تعالى :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي : لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي ، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلت منك .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أي : في صدرك ، وإثبات حفظه في قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شيء .

﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي : أن تقرأه بعدُ فلا تنسى ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي : أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي : كن مقفياً له ولا تراسله .

(319/793)

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي : بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شيء من معانيه ، أو أن نُبَيِّنَهُ على لسانك .

تنبيهات :

الأول : ما ذكرناه في تأويل الآية هو المأثور في "الصحيحين" وغيرهما ، ولفظ البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : <كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه إذا أنزل عليه> ، فقيل له : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ يخشى أن يتفلت منه ﴿ انا علينا جمعه ﴾ أن نجمعه في صدرك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي : تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ يقول أنزل عليه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أن نبيّنه على لسانك . زاد في رواية : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبي صلى الله

عليه وسلم كما قرأه .

قال ابن زيد : أي : لا تكلم بالذي أوحينا إليك حتى يقضى إليك وحيُه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتكلم به . يعني : أن هذه الآية نظير قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] .

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد ، أن هذه الآية نزلت في ذلك ، وأنها تعليم من الله عز وجل لرسوله كيفية تلقيه الوحي .

الثاني : ذكروا في مناسبة وقوع الآية معترضة في أحوال القيامة – على تأويلهم المتقدم – وجوهاً :

منها : تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الْإِنْسَانْ – والمرء مفتون بحب العاجل – حتى جعل مخلوقاً من عَجَل ، ومن محبة العاجل ، وإيثاره على الآجل ، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة ، الذي هو منشأ الكفر والعناد ، المؤدي إلى إنكار الحشر والمعاد ؛ فالنهي عن العجلة في هذا يقتضي النهي فيما عداه ، على آكد وجه . وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه ، قاله الشهاب .

ومنها : أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال في الكهف :

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] ، إلى أن قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ [الإسراء : 89] الآية . وقال في طه : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] ، إلى أن قال : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] .

ومنها : أن أول السورة لما نزل إلى قوله :

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ صادف أنه صلى الله عليه وسلم في تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذي نزل ، وحرّك به لسانه من عجلته خشية من تفلته ، فنزلت : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم انا علينا بيانه ﴾ ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازي : ونحوه ما لو ألقى المدرِّس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشيء عرض له فقال له : ألق إليّ بالك ، وتفهم ما أقول ، ثم كمّل المسالة ، فمن لا يعرف السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسب للمسالة ، بخلاف من عرف ذلك . قاله الحافظ

ابن حجر في " فتح الباري " .

الثالث : استدلوا على التأويل السابق بقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه ﴿ ثُمَّ ﴾ من التراخي . وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضي أبو بكر بن الطيب ، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى ، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان ، فلا !

(321/793)

قال الآمدي : يجوز أن يراد البيان التفصيلي ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالي ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين : الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله : ﴿ بَيَانَهُ ﴾ جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك . قاله الحافظ في " الفتح " .

وجوز القفال أن تكون ﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب في الإخبار . أي : إنا نخبرك بأن علينا بيانه ، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب . وضعفه الرازي بأنه ترك للظاهر من غير دليل .

الرابع : ما قدمناه من معنى قوله تعالى :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ إلخ ، وما استفيد منه ، وما قيل في مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول القفال معنى فقال كما نقله عنه الرازي : إن قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ليس خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم بل هو خطاب مع الْإِنْسَانْ المذكور في قوله : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] ، فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله ، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] . فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف ، وسرعة القراءة ، فيقال له : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك ، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال ، ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته .

وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ، أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد في الدنيا ، وأشد التهويل في الآخرة .

ثم قال القفال : فهذا وجه حسن ، ليس في العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق .

وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة أي : ولما بيّن الأئمة المناسبة التي أثرناها عنهم ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه – هو فيما يظهر – فيه غاية القوة والارتباط به قبله وما بعده ، مما يؤثر على المأثور ، الذي قد يكون مدركه الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيد ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الحال ؛ لأن الظاهر أن ذلك كان في مبدأ البعث النبوي ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع – كما قال ابن حجر – أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك بعد ، فيراه ابن عباس ، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة ، والله أعلم .

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ أي : الدنيا العاجلة ، بإيثار شهواتها ﴿ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أي : بالإعراض عن الأعمال التي تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ أي : حسنة جميلة من النعيم .

﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي : مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما

وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أي : كالحة ، لجهامة هيئاتها ، وهول ما تراه هناك من الأهوال ، وأنواع العذاب والخسران .

﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي : داهية تفصِم فقارَ الظهر ، لشدتها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن في عود الضمير من ﴿ بِهَا ﴾ إلى الوجوه – مراداً بها الذوات – شبه استخدام ، ولم أر من نبَّه عليه .

(323/793)

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ ﴾ أي : بلغت النفس أعالي الصدر . وإضمارها – وإن لم يجر لها ذكر – لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

~أماويّ مَا يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتَى إذا حَشرَجَتْ يَوْماً وَضاقَ بِها الصدَّرُ

قال الرازي : يكنى ببلوغ النفس التراقي ، عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد ابن الصمة :

~ورب عظيمة دافعتُ عنها وقد بلَغَتْ نفوسُهُمُ التَّراقِي

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة : 83] ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾

قال ابن جرير : أي : وقال أهله : من ذا يَرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداويين ، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل به شيئاً . أي : فالاستفهام بمعنى الطلب لراقٍ أو طبيب . وجوز كونه بمعنى الإنكار ، يأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .

لطيفة :

قال الواحدي : إن إظهار النون عند حروف الفم لحن ، فلا يجوز إظهار نون ﴿ مَنْ ﴾ في قوله :

﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ وروى حفص بن عاصم إظهار النون في قوله :

﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ و ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ قال أبو علي الفارسي : ولا أعرف وجه ذلك . قال الواحدي : والوجه أن يقال : قصد الوقف على ﴿ مَنْ ﴾ و ﴿ بَلَ ﴾ فأظهرهما ، ثم ابتدأ بما بعدهما . وهذا غير مرضي من القراءة . انتهى .

نقله الرازي .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ أي : وأيقن الذي قد نزل ذلك به أنه فراق الدنيا والأهل والمال .

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أي : الْتوَت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما ساقاه ، إذا التفتا في الكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر في سورة القلم . والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الكشف عن الساق ، ووجه ظاهر ، لأن المصاب يكشف عن ساقه ، فكيف ينزل هذا عليه ؟

(324/793)

قلت : الأمر كما ذكرت ، لكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من السياق وحده ، حتى صار عبارة عن كل أمر فظيع ، كما أشار إليه الراغب ، انتهى .

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أي : سوقه إلى حكمه تعالى .

﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ أي : بالدِّين والكتاب . أو صدق ماله ، أي : ما زكَّاه ﴿ وَلَا صَلَّى ﴾ أي : الصلاة التي هي رأس العبادات ، التي سها عنها .

﴿ وَلَكِن كَذَّبَ ﴾ أي : بدل التصديق ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي : بدل الصلاة التي بها كمال التوجه إلى الله تعالى : ﴿ ثُمَّ ﴾ أي : مع هذه التقصيرات في جنب الله تعالى :

﴿ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أي : يتبختر في مشيته . وأصله يتمطط ، أي : يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

تنبيهات :

الأول : الضمير في الآيات للإنسان المتقدم في قوله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ ﴾

الثاني : قال الرازي : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ما صدق بالدين, ولكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى ، ولكنه تولى ، وأعرض . وأما ما يتعلق بدنياه ، فهو أنه ذهب على أهله يتمطى ويختال في مشيته .

الثالث : دلت الآية على أن الكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع : قال الرازي : قال أهل العربية : لا ها هنا في موضع لم ، فقوله :

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴾ أي : لم يصدق ولم يصلّ ، وهو كقوله :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ [البلد : 11] ، أي : لم يقتحم .

وكذلك ما روي : < أرأيت من لا أكل ولا شرب ولا استهل > . قال الكسائي : لم أر العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى ، إما مصرحاً بها ، أو مقدراً . أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا : ولا فلان ، ولا يقولون : مررت برجل لا يحسن ، حتى يقولوا : ولا يجمل . وأما المقدر فهو كقوله :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ [البلد : 11] ، ثم اعترض الكلام فقال :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ ، وكان التقدير : لا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير في قوله :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ ﴾ أي : أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم . انتهى .

﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ أي : ويل لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاءً متكرراً متضاعفاً .

وقيل : المعنى بُعْداً لك ، فبعداً في أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً في أمراً أخراك ، حكاه الرازي عن القاضي ، ثم قال : قال القفال : هذا يحتمل وجوهاً .

أحدها : أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثاني : أنه شيء قاله النبي صلى الله عليه وسلم لعدوه – يعني أبا جهل – فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث : أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يا محمد : أولى لك فأولى ، أي : احذر , فقد قرب منك ما لا قِبل لك به من المكروه . انتهى . والأظهر هو الأول .

لطيفة :

تفسير ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾ بـ ويل لك ، قال الشهاب : هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمعي أنها تكون للتحسُّر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد لها . وأما الكلام في لفظها فقيل : هو فعل ماض دعائي من الوَلي ، واللام مزيدة . أي : أولاك الله ما تكرهه . أو غير مزيدة ، أي : أدنى الهلاك لك . وقريب منه قول الأصمعي : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

(326/793)

وقيل : إنه اسم وزنه أفعل ، من الويل ، فقلب . وقيل فَعْلَى ، ولذا لم ينون . ومعناه ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و ﴿ لَكَ ﴾ الخبر . وقيل : إنه اسم فعل مبنيّ ، ومعناه وِلَيك شر بعد شر .

ونقل الزمخشري عن أبي عليّ أنه عَلَمٌ لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل .

وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل يوم أيوم ، غير منقاس ، ولا يفرد عن الموصوف .

وادعاء القلب من غير دليل لا يسمع ، وعلم الجنس خارج عن القياس ، فما ذكر بعيد من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه ، فالتقدير

هنا : النار أولى لك ، يعني : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي : همَلاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ، مع أنه الْإِنْسَانْ الذي أودع العقل وعلّم البيان ، وغرز في طبعه أن يعيش مجتمعاً ، وخص من المواهب ما فضل على غيره . فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته ، وإعلامه بسبيل هدايته ، وأن لا يترك خابطاً في متائه جهالته ، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴾ أي : يصبّ في الرحم ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي : دماً ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي : قدّر أعضاءه ﴿ فَسَوَّى ﴾ أي : سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّلها . ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ ﴾ أي : الصنفين ﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ أي : لبقاء نوعه ، يعمر الدنيا إلى الأجل الذي كتبه وقدره .

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أي : فيوجدهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة .

(327/793)

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال : < سبحانك ، فبَلَى > - رواه أبو داود عن رجل من الصحابة . ورواه أيضاً عن أبي هريرة بلفظ : من قرأ : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فانتهى إلى ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ فليقل :

بلى . ورواه الإمام أحمد والترمذي أيضاً ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 276.286 ﴾

(328/793)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة القيامة

الدرس الأول 1 - 15 القسم على حقيقة القيامة وبعض مشاهدها

لا أقسم بيوم القيامة , ولا أقسم بالنفس اللوامة , أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ? بلى قادرين على أن نسوي بنانه , بل يريد الإنسان ليفجر أمامه , يسأل:أيان يوم القيامة ? فإذا برق البصر , وخسف القمر , وجمع الشمس والقمر . . يقول الإنسان يومئذ :أين المفر ? كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر , ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر , بل الإنسان على نفسه بصيرة , ولو ألقى معاذيره . .

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع في الحس من القسم المباشر ; وهذا الوقع هو المقصود من العبارة , وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص , الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن . . ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة .

وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير في مواضعه في السورة . فأما النفس اللوامة ففي التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها . . فعن الحسن البصري: إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاتب نفسه . . وعن الحسن: ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة . . وعن عكرمة: تلوم على الخير والشر: لو فعلت كذا وكذا ! كذلك عن سعيد بن جبير . . وعن ابن عباس: هي النفس اللؤوم . وعنه أيضا: اللوامة المذمومة . وعن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه . . وعن قتادة: الفاجرة . . وقال جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى , والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر , وتندم على ما فات .

ونحن نختار في معنى (النفس اللوامة) قول الحسن البصري: " إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاتب نفسه " . .

فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها , وتتلفت حولها , وتتبين حقيقة هواها , وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله , حتى ليذكرها مع القيامة . ثم هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدما في الفجور , والذي يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تحرج ولا مبالاة !

(لا أقسم بيوم القيامة , ولا أقسم بالنفس اللوامة) . . على وقوع هذه القيامة , ولكنه لما عدل عن القسم , عدل عن ذكر المقسم به , وجاء به في صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث بعد التنبيه إليه بهذا المطلع الموقظ:

أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ? بلى قادرين على أن نسوي بنانه . .

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية , الذاهبة في التراب , المتفرقة في الثرى , لإعادة بعث الإنسان حيا ! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدا وقوعه:(بلى ! قادرين على أن نسوي بنانه) . . والبنان أطراف الأصابع ; والنص يؤكد عملية جمع العظام , بما هو أرقى من مجرد جمعها , وهو تسوية البنان , وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه , وإكماله بحيث لا تضيع منه

من الاية 5 الى الاية 15

بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

(330/793)

بنان , ولا تختل عن مكانها , بل تسوى تسوية , لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو , مهما صغر ودق !

ويكتفي هنا بهذا التقرير المؤكد , وسيجيء في نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية في هذا الحسبان , وتوقع عدم جمع العظام . . إن هذا الإنسان يريد أن يفجر , ويمضي قدما في الفجور , ولا يريد أن يصده شيء عن فجوره , ولا أن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث , ويستبعد مجيء يوم القيامة:

(بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟) . .

والسؤال بأيان – هذا اللفظ المديد الجرس – يوحي باستبعاده لهذا اليوم . . وذلك تمشيا

مع رغبته في أن يفجر ويمضي في فجوره , لا يصده شبح البعث وشبح الآخرة . . والآخرة لجام للنفس الراغبة في الشر , ومصد للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هذا المصد , وإزاحة هذا اللجام , لينطلق في الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب .

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها , سريعا خاطفا حاسما , ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم , وجرس الألفاظ . وكان مشهدا من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية , والمشاهد الكونية:

(فإذا برق البصر . وخسف القمر , وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ?) .

فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامهما الفلكي المعهود , حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق . . وفي وسط هذا الذعر والانقلاب , يتساءل الإنسان المرعوب: (أين المفر ?) ويبدو في سؤاله الارتياع والفزع , وكأنما ينظر في كل اتجاه , فإذا هو مسدود دونه , مأخوذ عليه !

ولا ملجأ ولا وقاية , ولا مفر من قهر الله وأخذه , والرجعة إليه , والمستقر عنده ; ولا مستقر غيره:

(كلا ! لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر) . .

وما كان يرغب فيه الإنسان من المضي في الفجور بلا حساب ولا جزاء , لن يكون يومئذ , بل سيكون كل ما كسبه محسوبا , وسيذكر به إن كان نسيه , ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضرا :

(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) . .

بما قدمه من عمل قبل وفاته , وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيرا كان أم شرا . فمن الأعمال ما يخلف وراءه أثارا تضاعف لصاحبها في ختام الحساب !

ومهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه , فلن يقبل منها عذر , لأن نفسه موكولة إليه , وهو موكل بها , وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها :

(بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) . .

ومما يلاحظ أن كل شيء سريع قصير : الفقر . والفواصل . والإيقاع الموسيقي . والمشاهد الخاطفة . وكذلك عملية الحساب : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) هكذا في سرعة وإجمال . . ذلك أنه رد على استطالة الأمد والاستخفاف بيوم الحساب !

من الاية 16 الى الاية 21

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21)

الدرس الثاني: 16 - 19 توجيهات للرسول بشأن تلقيه القرآن ثم تجيء الآيات الأربع الخاصة بتوجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في شأن الوحي وتلقي هذا القرآن: (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) . .

(332/793)

وبالإضافة إلى ما قلناه في مقدمة السورة عن هذه الآيات , فإن الإيحاء الذي تتركه في النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن: وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ; وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته . ليس للرسول (صلى الله عليه وسلم) من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لهفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ; وأخذه مأخذ الجد الخالص , وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة , مما كان يدعوه إلى متابعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية وكلمة كلمة يستوثق منها أن شيئا لم يفته , ويتثبت من

حفظه له فيما بعد !

وتسجيل هذا الحادث في القرآن المتلو له قيمته في تعميق هذه الإيحاءات التي ذكرناها هنا وفي مقدمة السورة بهذا الخصوص .

الدرس الثالث: 20 - 25 التوجيه لطلب الآخرة وحالة الوجوه الناظرة والوجوه الباسرة فيها

ثم يمضي سياق السورة في عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة , فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيها من حب للدنيا وانشغال , ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ; ويواجههم بموقفهم في الآخرة بعد هذا وما ينتهي إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هذا الموقف في مشهد حي قوي الإيحاء عميق الإيقاع:

(كلا . بل تحبون العاجلة , وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة , إلى ربها ناظرة ; ووجوه يومئذ باسرة , تظن أن يفعل بها فاقرة) . .

وأول ما يلحظ من ناحية التناسق في السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلة في هذا الموضع . ففضلا عن إيحاء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها - وهو الإيحاء المقصود - فإن هناك تناسقا بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق المعترض في السياق , وقول الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) (لا تحرك به لسانك لتعجل به) . . فهذا التحريك وهذه

العجلة هي أحد ظلال السمة البشرية في الحياة الدنيا . . وهو تناسق في الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآني في الطريق !

(333/793)

ثم نخلص إلى الموقف الذي يرسمه هذا النص القرآني الفريد :

(وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) . .

إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها ; كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها . ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة . حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم !

هذه الوجوه الناضرة . . نضرها أنها إلى ربها ناظرة . .

إلى ربها . . ? ! فأي مستوى من الرفعة هذا ? أي مستوى من السعادة ?

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس , تراها في الليلة القمراء . أو الليل الساجي . أو الفجر الوليد . أو الظل المديد . أو البحر العباب . أو الصحراء المنسابة . أو الروض البهيج . أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الإيمان الواثق . أو الصبر الجميل . . إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود . . فتغمرها

النشوة , وتفيض بالسعادة , وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى

من الاية 22 الى الاية 25

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)

عنها أشواك الحياة , وما فيها من ألم وقبح , وثقلة طين وعرامة لحم ودم , وصراع شهوات وأهواء . .

فكيف ? كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله - ولكن إلى جمال ذات الله ?

ألا إنه مقام يحتاج أولا إلى مد من الله . ويحتاج ثانيا إلى تثبيت من الله . ليملك الإنسان نفسه , فيثبت , ويستمتع بالسعادة , التي لا يحيط بها وصف , ولا يتصور حقيقتها إدراك !

(وجوه يومئذ ناضرة . . إلى ربها ناظرة) . .

ومالها لا تنضر وهي إلى جمال ربها تنظر ?

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض . من طلعة بهية , أو زهرة ندية , أو جناح رفاف , أو روح نبيل , أو فعل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه , فيبدو فيها الوضاءة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقا من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام , إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال ! كل شائبة لا فيما حولها فقط , ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله . .

فأما كيف تنظر ؟ وبأي جارحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ . . فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني , في القلب المؤمن , والسعادة التي يفيضها على الروح , والتشوف والتطلع والانطلاق !

فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة ؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق , لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته ؟ !

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة , هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور – مجرد تصور – كيف يكون ذلك اللقاء .

وإذن فقد كان جدلا ضائعا ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم

ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام .

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ; ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض ; ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال .

(335/793)

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة . فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات . فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان . فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات , وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ! فما لنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات ؟ !

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ , وفيض الفرح المقدس الطهور , الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك . ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ; فهذا التطلع ذاته نعمة . لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم . .

(ووجوه يومئذ باسرة , تظن أن يفعل بها فاقرة) .

من الاية 26 الى الاية 30

كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)

وهي الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة , المحجوبة عن النظر والتطلع , بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسها . وهي التي يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر , المحطمة للفقار . . الفاقرة . وهي من التوقع والتوجس في كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص . .

فهذه هي الآخرة التي يذرونها ويهملونها ; ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويحفلونها .

ووراءهم هذا اليوم الذي تختلف فيه المصائر والوجوه , هذا الإختلاف الشاسع البعيد ! ! ! من وجوه يومئذ ناضرة , إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة , تظن أن يفعل بها فاقرة ! ! !

الدرس الرابع: 26 – 35 مشهد الإحتضار ثم العذاب للكافر

وإذا كانت مشاهد القيامة . . إذا برق البصر , وخسف القمر , وجمع الشمس والقمر , وقال الإنسان يومئذ أين المفر . ولا مفر . وإذا اختلفت المصائر والوجوه , ذلك الإختلاف الشاسع البعيد , فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة , ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة . .

إذا كانت تلك المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها في النفس , من قوة الحقيقة الكامنة فيها , وقوة الأداء القرآني الذي يشخصها ويحييها , فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور , لا تمر لحظة حتى يواجههم في هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل !

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي , والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق الأحبة , ويمضي في طريقه لا يتوقف , ولا يتلفت , ولا يستجيب لصرخة ملهوف , ولا لحسرة مفارق , ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام , ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه:

(كلا ! إذا بلغت التراقي , وقيل: من راق ? وظن أنه الفراق , والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق) . .

إنه مشهد الاحتضار , يواجههم به النص القرآني كأنه حاضر , وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة !

(337/793)

(كلا إذا بلغت التراقي) . . وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير , وتكون السكرات المذهلة , ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار . . ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب: (وقيل: من راق ؟) لعل رقية تفيد ! . . وتلوى المكروب من السكرات والنزع . . (والتفت الساق بالساق) . . وبطلت كل حيلة , وعجزت كل وسيلة , وتبين الطريق الواحد الذي يساق إليه كل حي في نهاية المطاف: (إلى ربك يومئذ المساق) . .

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم حركة . وكل فقرة تخرج لمحة . وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة , التي لا دافع لها ولا راد . . ثم تظهر النهاية التي لا مفر منها . . (إلى ربك يومئذ المساق) . . ويسدل الستار على المشهد الفاجع , وفي العين منه صورة , وفي الحس منه أثر , وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب .

من الاية 31 الى الاية 35

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35)

وفي مواجهة المشهد المكروب الملهوف الجاد الواقع يعرض مشهد اللاهين المكذبين , الذين لا يستعدون بعمل ولا طاعة , بل يقدمون المعصية والتولي , في عبث ولهو , وفي اختيال بالمعصية والتولي:

(فلا صدق ولا صلى , ولكن كذب وتولى , ثم ذهب إلى أهله يتمطى) ! . .

وقد ورد أن هذه الآيات تعني شخصا معينا بالذات , قيل هو أبو جهل "عمرو بن هشام" . . وكان يجيء أحيانا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه , فلا يؤمن ولا يطيع , ولا يتأدب ولا يخشى ; ويؤذي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالقول , ويصد عن سبيل الله . . ثم يذهب مختالا بما يفعل , فخورا بما ارتكب من الشر , كأنما فعل شيئا يذكر . .

(338/793)

والتعبير القرآني يتهكم به , ويسخر منه , ويثير السخرية كذلك , وهو يصور حركة اختياله بأنه(يتمطى !)يمط في ظهره ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها !

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوة إلى الله , يسمع ويعرض , ويتفنن في الصد عن سبيل الله , والأذى للدعاة , ويمكر مكر السيئ , ويتولى وهو فخور بما أوقع من الشر والسوء , وبما أفسد في الأرض , وبما صد عن سبيل الله , وبما مكر لدينه وعقيدته وكاد !

والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد :

(أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) . .

وهو تعبير اصطلاحي يتضمن التهديد والوعيد , وقد أمسك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخناق أبي جهل مرة , وهزه , وهو يقول له:(أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) . . فقال عدو الله:أتوعدني يا محمد ? والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا . وإني لأعز من مشى بين جبليها ! ! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبرب محمد القوي القهار المتكبر . ومن قبله قال فرعون لقومه: (ما علمت لكم من إله غيري) . . وقال: (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ?) . . ثم أخذه الله كذلك .

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوات يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه ; ويحسبها شيئا ; وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بعوضة , وأحقر من ذبابة . . إنما هو الأجل

الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر .

الدرس الخامس: 36 – 40 الإستدلال بخلق الإنسان على يقين البعث بعد الموت

وفي النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية في حياتهم , لها دلالتها على تدبير الله وتقديره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التي ينكرونها أشد الإنكار . ولا مفر من مواجهتها , ولا حيلة في دفع دلالتها :

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ? ألم يك نطفة من مني يمنى ? ثم كان علقة فخلق فسوى ? فجعل منه الزوجين: الذكر والأنثى ? أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ?) . .

(339/793)

وهذا المقطع الأخير العميق الإيقاع , يشتمل على لفتات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان المخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم في ذلك الزمان . وأولى هذه اللفتات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير في حياة الإنسان:

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى) . .

فلقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية . . أرحام تدفع وقبور تبلع . . وبين هاتين لهو ولعب , وزينة وتفاخر , ومتاع قريب من متاع الحيوان . . فأما أن

يكون هناك ناموس , وراءه هدف ,

من الاية 36 الى الاية 38

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38)

ووراء الهدف حكمة ; وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة , وأن ينتهي إلى حساب وجزاء , وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء . . أما هذا التصور الدقيق المتناسق , والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة , تفعل كل شيء بقدر , وتنهي كل شيء إلى نهاية . . أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم , في ذلك الزمان .

والذي يميز الإنسان عن الحيوان , هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات .

وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني , ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته , ودقة تصوره لوجود الناموس , وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة , ولا حادثة حادثة , بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثا ولا تتركهم سدى .

وهذا هو التصور الكبير الذي نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد , نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التي عرفتها الفلسفة قديما وحديثا .

وهذه اللمسة: (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) . . هي إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشري , كي يتلفت ويستحضر الروابط والصلات , والأهداف والغايات , والعلل والأسباب , التي تربط وجوده بالوجود كله , وبالإرادة المدبرة للوجود كله .

وفي غير تعقيد ولا غموض يأتي بالدلائل الواقعة البسيطة التي تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى . . إنها دلائل نشأته الأولى:

(ألم يك نطفة من مني يمنى ? ثم كان علقة فخلق فسوى ? فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ?) .

فما هذا الإنسان ? مم خلق ? وكيف كان ? وكيف صار ? وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ?

ألم يك نطفة صغيرة من الماء , من مني يمنى ويراق ? ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة

صغيرة إلى علقة ذات وضع خاص في الرحم , تعلق بجدرانه لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذي ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذي أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذي وجهها هذا الإتجاه ؟

ثم من ذا الذي خلقها بعد ذلك جنينا معتدلا منسق الأعضاء ؟ مؤلفا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية , وهو في الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟ والرحلة المديدة التي قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوي – وهي أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته – والتغيرات التي تحدث في كيانه في الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث في رحلته من مولده إلى مماته ! فمن ذا الذي قاد هذه الرحلة المديدة , وهو خليقة صغيرة ضعيفة , لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟ !

(341/793)

ثم في النهاية . من ذا الذي جعل من الخلية الواحدة . . الذكر والأنثى ؟ . . أي إرادة كانت لهذه الخلية في أن تكون ذكرا ؟ وأي إرادة لتلك في أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذي يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟ !

من الاية 39 الى آخر السورة

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التي قادت النطفة المراقة في طريقها الطويل , حتى انتهت بها إلى ذلك المصير . . (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) . .

وأمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضا على الحس البشري , يجيء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التي تعالجها السورة:

(أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) . .

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى !

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى !

بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضا .

وهكذا تنتهي السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم , القوي العميق , الذي يملأ الحس ويفيض , بحقيقة الوجود الإنساني وما وراءها من تدبير وتقدير . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3768 . 3775 ﴾

(342/793)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) ﴾

قال ابن جرير : اختلف القراء في قراءة قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ ، فقرأت ذلك عامة قراء الأمصار ، لا أقسم مفصولة من أقسم سوى الحسن والأعرج ، فإنه ذكر عنهما أنهما كانا يقرآن ذلك : لأقسم بيوم القيامة . بمعنى أقسم بيوم القيامة .

ثم دخلت عيهم لام القسم والقراءة التي لا أستجيز غيرها في هذا الموضع لا مفصولة ، أقسم مبتدأة على ما عليه قراء الأمصار بإجماع الحجة من القراء عليه .

وقد اختلف الذين قرؤوا ذلك على وجه الذي اخترنا قراءته في تأويله ، فقال بعضهم : لا صلة ، إنما معنى الكلام : أقسم بيوم القيامة ، وعزاه إلى سعيد بن جبير .

وقال آخرون : بل دخلت لا توكيداً للكلام .

وذكر عن أبي بكر بن عياش في قوله : لا أقسم . توكيد للقسم كقوله : لا والله .

وقال بعض نحويي الكوفة : لا ، رد لكلام قد مضى من كلام المشركين الذين كانوا ينكرون الجنة والنار .

ثم ابتدئ القسم ، فقيل : ﴿ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ وكان يقول : كل يمين قبلها رد كلام ، فلا بد من تقديم لا قبلها ، ليفرق بذلك بين اليمين التي تكون جحداً واليمين التي تستأنف ، ويقل : ألا ترى أنك تقول مبتدئاً : والله إن الرسول لحق ، وإذا قلت : لا والله ، إن الرسول لحق ،

فكأنك أكذبت قوماً أنكروه ، واختلفوا أيضاً في ذلك هل هو قسم أم لا .

وذكر الخلاف في ذلك ، والواقع أن هذه المسألة من المشكلات من حيث وجود اللام ، وهل هي نافية للقسم أم مثبتة ؟ وعلى أنها مثبتة فما موجبها ؟ هل هي رد لكلام سابق أم تأكيد للقسم ؟ وهل وقع إقسام أم لا ؟ كما ذكر كل ذلك ابن جرير .

(343/793)

وقد تناولها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في كتابه دفع إيهام الاضطراب في موضعين الاول في هذه السورة . واثاني في سورة البلد عند قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهذَا البلد ﴾ [البلد : 1] ، فبين في الموضع الأول أنها أي لا : نافية لكلام قبلها فلا تتعارض مع الإقسام بيوم القيامة فعلاً في قوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ [البروج : 2] .

والثاني أنها صلة ، وقال : سيأتي له زيادة إيضاح ، والموضع الثاني : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهذَا البلد ﴾ [البلد : 1] ساق فيه بحثاً طويلاً مهماً جداً نسوق خلاصته .

وسيطبع الكتاب إن شاء الله مع هذه التتمة فليرجع إليه . خلاصة ما ساقه رحمة الله تعالى علينا وعليه :

قال : الجواب عليها من أوجه . الأول ، وعليه الجمهور أن لا هنا صلة على عادة العرب ،

فإنها ربما لفظت بلفظة لا من غير قصد معناها الأَّلي ، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده كقوله :

ما منعك إذا رأيتهم ضلوا ألا تتبعني . يعني أن تتبعني .

وقوله : لئلا يعلم أهل الكتاب .

وقوله : فلا وربك لا يؤمنون .

وقول امرئ القيس :

فلا وأبيك ابنة العامري . . . لا يدع القوم أني أفر

يعني وأبيك ، وأنشد الفراء لزيادة لا في الكلام الذي فيه معنى الجحد ، قول الشاعر :

ما كان يرضى رسول الله دينهم . . . والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر ، وأنشد الجوهري لزيادتها قول العجاج :

في بئر لا حور سرى وما شعر . . . فإفكه حتَّى رأى الصبح شجر

والحور : الهلكة : يعني في بئر هلكة ، وأنشد غيره :

تذكرت ليلى فاعترَتني صبابة . . . وكاد صميم القَلب لا يتقطع

والوجه الثاني : أن لا نفي لكلام المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله : أقسم : إثبات مستأنف .

وقيل : إن هذا الوجه ، وإن قال به كثير من العلماء ، إلا أنه ليس بوجيه عندي ، لقوله تعالى في سورة القيامة ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ ، لأن قوله ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة ﴾ يدل على انه لم يرد الإثبات المستأنف بعد النفي بقوله أقسم والله تعالى أعلم .

الوجه الثالث : أنها حرف نفي أيضاً ووجهه أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به . فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية . والمراد أنه لا يعظم بالقسم ، بل هو في نفسه عظيم أقسم به أولاً . وهذا القول ذكره صاحب الكشاف وصاحب روح المعاني ، ولا يخلو عند يمن نظر .

الوجه الراعب : أن اللام لام الابتداء ، أشبعت فتحتها . والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف والكسرة بياء والضمة بواو . ومثاله في الفتحة قول عبد يغوث الحارث :

وتَضحك مني شيخة عبشمية . . . كأن لم ترى قَبلي يَسيرا يمانيا

فالأصل : كأن لم تر ، ولكن الفتحة أشبعت .

وقول الراجز :

إذا العجوز غضبت فطلق . . . ولا ترضاها ولا تملق

وقول عنترة في معلقته :

ينباع من ذفري غضوب جسرة . . . زيافة مثل العتيق المكدم

فالأصل ينبع ، يعين العرق ينبع من الذفري من ناقته ، فأشبعت الفتحة فصارت ينباع ، وقال : ليس هذا الإشباع من ضرورة الشعر .

ثم ساق الشواهد على الإشباع بالضمة والكسرة ، ثم قال : يشهد لهذا لوجه قراءة قنبل : لأقسم بهذا البلد بلام الابتداء ، وهو مروي عن البزي والحسن . والعلم عند الله تعالى اه . ملخصاً .

فأنت ترى أنه رحمة الله قدم فيها أربعة أوجه صلة ، ونفي الكلام قبلها ، وتأكيد للقسم ، ولام ابتداء . واستدل له بقراءة قنبل أي لأقسم متصلة ، أما كونها لام ابتداء لقراءة قنبل والحسن ، فقد تقدم أن ابن جرير لا يستجيز هذه القراءة لإجماع الحجة من القراء على قراءتها مفصولة ﴿ لا ﴾ أقسم .

ولعل أرجح هذه الأوجه كلها أنها لتوكيد القسم ، كما ذكر ابن جرير عن نحويي الكوفة والله تعالى أعلم .

(345/793)

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3)

هذا الحسبان قد جاء به في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي

العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] .

وجاء الجواب : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] الآية .

بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)

كل المفسرين على أن المعنى نجعل بنانه متساوية ملتحمة كخف البعير ، أي لا يستطيع أن يتناول بها شيئاً ولا يحسن بها عملاً .

وهذا في الواقع لم نفهم له وجهاً مع السياق ، فهو وإن كان دالاً على قدرة الله وعجز العبد . ولكن السياق في إنكار البعث واستبعاده ومجيء نظير لك في سورة يس ، يرشد إلى أن سبحانه قادر بعد موت العبد وتلاشيه في التراب وتحول عظامه رميماً ، فهو قادر على أن يعيده تماماً ، كما أنشأه أول مرة ، ومن ضمن تلك الإعادة أن يسوي بنانه ، أي يعدلها وينشؤها كما كانت أول مرة ، والعلم عند الله تعالى .

ويرشد له قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] ، ومن الخلق ما كان عليه خلق ، خلق هذا الإنسان المكذب المعترض ، فهو سبحانه يعيده على ما كان عليه تماماً ، وهذا أبلغ في القدرة وأبلغ في الإلزام يوم القيامة . والعلم عند الله .

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11)

قرئ برق بكسر الراء وفتحها فبالكسر فزع ، ودهش أصله من برق الرجل ، إذا نظر إلى

البرق فدهش بصره ، ومنه قول ذي الرمة :

لو أن لقمان الحكيم تعرضت . . . لعينيه ميّ صافراً كاد يبرق

وقول الأعشى :

وكنت أرى في وجه مية لمحة . . . فأبرق مغشياً على مكانيا

وبرق بالفتح شق بصره ، وهو من البريق ، أي لمع بصره من شدة شخوصه

(346/793)

قال أبو حيان : والواقع أنه لا مانع من إرادة المعنيين ما دامت القراءتان صحيحتان ، وقد يشهد لهذا النص في صورة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبصار مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم : 42 – 43] .

قال ابن كثير : ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب .

وقوله : ﴿ يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة : 10 – 11] تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة ص على قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص : 3] .

يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)

المراد بما قدم هنا هو ما قدمه من عمل ليوم القيامة ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسان وأنى لَهُ الذكرى يَقُولُ ياليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : 23 - 24] وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند قوله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ [الزمر : 48] من سورة الزمر .

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

بينه قوله تعالى : ﴿ 1649;قْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ الإسراء : 14] وقوله : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ [الكهف : 49] وتقدم في سورة الكهف .

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

أي أنها لا تنفعه آنذاك ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر : 52] .

وقد بين تعالى بعض معاذيرهم تلك في مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] .

وقوله : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [الصافات : 32] .

وقوله : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 106 - 108] .

وقوله : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 10 - 11] .

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17)

فيه النهي عن تحريم لسانه صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن الله تعالى عليه جمعة وقرآنه ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان لشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ، يحرك لسانه عند الوحي فنهى عن ذلك .

وقد بين تعالى مدى هذا النهي ومدة هذه العجلة في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] وفيه الإيماء إلى حسن الاستماع والإصغاء عند الإيحاء به كما في آداب الاستماع ﴿ فاستمعوا لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : 204] .

وقوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 17] قد بين تعالى أن جمعه وقراءته عليه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

تنبيه

إن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه ﴾ فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقاً ، وإشارة إلى جمعه على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من الله تعالى وتحقيقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه ﴾ ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه ، كما تعهد تعالى بذلك : والله تعالى أعلم .

وقال أبو حيان : إن علينا جمعه في صدرك . وقرآنه أي تقرأه .

(348/793)

فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18)

تقدم للشيخ بيانه عند قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] من سورة النجم .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19)

قد نبه تعالى كما جاء في مقدمة الأضواء أنه ما من مجمل إلا وجاء تفصيله في مكان آخر ، وقد نص تعالى على هذا في كثير من الآيات ، كما في قوله ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت : 3] ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في أول فصلت .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22)

تقدم بيانه للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف : 143] .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)

لم يبين ما هي التي بلغت التراقي ولكنه معلوم أ ، ها الروح ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 83 - 84] - إلى قوله - ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : 87] ، فهذه حالات النزع والروح تبلغ الحلقوم وتبلغ التراقي . وقد يترك التصريح للعلم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] أي الشمس ، وهكذا هنا فلمعرفتها بالقرائن ترك التصريح بالروح أو النفس ، وقد صرح تعالى بذلك في قوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ [الأنعام : 93] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَن رَاقٍ ﴾ .

اختلف في معنى راق هذه ، فقيل من الرقية أي من حوله : من يرقيه هل من طبيب يرقيه ؟ أي حالة اشتداد الأمر عليه رجاء لشفاه أو استبعاداً بأنه لا ينفعه ، وقيل : من الرقى أن تقول الملائكة من الذي سيرقى بروحه أملاكه العذاب أم ملائكة الرحمة ؟

ولكن في ال

آية قرينة على أن الأول أرجح ، لأن قول الملائكة يكون في حق الشخص المتردد في أمره ، وهذا هنا ليس موضع تردد لأن نهاية السياق فيه ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى وَلَكِن كَذَّبَ وتولى ﴾ [القيامة : 31- 32] إلى ما بعده .

وقال أبو حيان : على أنه من قول الملائكة من يرقى بروحه ، يكون ذلك كراهية . منهم أن يصعدوا بها ، وفي هذا نظر ، لأن الله تعالى جعل ملائكة للمشركين وهم ملائكة العذاب ، وملائكة للمؤمنين ، وهم ملائكة الرحمة . ولا يستكره فريق منهما أن يصعد بما تخصص له ، بل قد لا يسمح للآخر بما يخصه .

كما في حديث الذي قتل مائة نفس ، وأدركته الوفاة في منتصف الطريق ، فحضرته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب يختصمون أيهم يصعد بروحه ، كل يريد أن يتولى قبض روحه أولئك يقولون : إنه قتل مائة نفس ولم يعمل خيراً قط ، وأولئك يقولون : إنه خرج تائباً إلى الله تعالى .

وهذا كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه من ترجيح أحد المعنيين المختلف فيهما

بين المفسرين لوجود قرينة في الآية . وقد وجدت القرينة وهي ما في آخر الآية والسياق من أنه ليس موضع تردد ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ الآية . والله تعالى أعلم .

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36)

رد على زعم أنه خلق سدى وهملاً ، وأنه لا يحاسب ولا يسأل وبالتالي لا يبعث .

(350/793)

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ الملك الحق لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 115 - 116] أي تعالى الله عن العبث ، وقد ساق الشيخ الأدلة الوافية هناك .

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)

بلى إنه على كل شيء قدير ، مجيء هذا الاستفهام الإنكاري أو التقريري ، بعد أيحسب الإنسان أن يترك سدى . وسوق هذه الآيات . العظيمات الدالة على القدرة الباهرة ، فيه رد على إنكار ضمني وهو أنه لا يعتقد وجوده سدى ولا حساب عليه إلا من استبعد

البعث .

ولو أقر بالبعث لآمن بالجزاء واعترف بالسؤال وعلم أنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى .

ولكن لما أنكر البعث ظن وحسب أنه يترك سدى ، فجاء تذكيره بأصل خلقته وتطوره ليستخلص منه اعترافه ، لأن من قدر على خلقه من منىً يمنى ، وتطويره إلى علقة ثم إلى خلق سوي ، فهو قادر على بعثه مرة أخرى .

وقد بين الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه الأطوار في أكثر من موضع ، وأحال عليها عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ [النجم : 45 - 47] في سورة والنجم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(351/793)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ؛

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : " شَاهِدٌ عَلَى نَفْسِهِ " ، وَقِيلَ : " مَعْنَاهُ بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ جَوَارِحُهُ شَاهِدَةٌ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " لَوْ اعْتَذَرَ وَقَبِلَ شَهَادَةَ نَفْسِهِ عَلَيْهِ أَوْلَى مِنْ اعْتِذَارِهِ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا احْتَمَلَ اللَّفْظُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَيْهَا ؛ إذْ لَا تَنَافِيَ فِي هَذَا ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ مَقْبُولٌ عَلَى نَفْسِهِ ؛ إذْ جَعَلَهُ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى نَفْسِهِ وَشَاهِدًا عَلَيْهَا ، وَلَمَّا عَبَّرَ عَنْ كَوْنِهِ شَاهِدًا عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَأْكِيدِ أَمْرِ شَهَادَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَثُبُوتِهَا ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ جَوَازَ عُقُودِهِ وَإِقْرَارَهُ وَجَمِيعَ مَا اعْتَرَفَ بِلُزُومِ نَفْسِهِ .

آخِرُ سُورَةِ الْقِيَامَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(352/793)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

فِيهَا أَرْبَع آيَات

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قَبُولِ إقْرَارِ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهَا شَهَادَةٌ مِنْهُ عَلَيْهَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَلَا خِلَافَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ إخْبَارٌ عَلَى وَجْهٍ تَنْتَفِي التُّهْمَةُ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَكْذِبُ عَلَى نَفْسِهِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ .

وَهُوَ فِي الْآثَارِ كَثِيرٌ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا ؛ فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا ﴾ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ لَا يَصِحُّ إقْرَارٌ إلَّا مِنْ مُكَلَّفٍ لَكِنْ بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ مَحْجُورًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْحَجْرَ يُسْقِطُ قَوْلَهُ إذَا كَانَ لِحَقِّ نَفْسِهِ ، فَإِنْ كَانَ لِحَقِّ غَيْرِهِ كَالْمَرِيضِ كَانَ مِنْهُ سَاقِطٌ وَمِنْهُ جَائِزٌ ، وَبَيَانُهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

وَلِلْعَبْدِ حَالَتَانِ فِي الْإِقْرَارِ إحْدَاهُمَا فِي ابْتِدَائِهِ ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُتَقَدِّمِ .

وَالثَّانِيَةُ فِي انْتِهَائِهِ ، وَذَلِكَ مِثْلُ إبْهَامِ الْإِقْرَارِ وَلَهُ صُوَرٌ كَثِيرَةٌ .

وَأُمَّهَاتُهَا سِتٌّ : الصُّورَةُ الْأُولَى أَنْ يَقُولَ لَهُ : عِنْدِي شَيْءٌ ؛ قَالَ الشَّافِعِيُّ : لَوْ فَسَّرَهُ بِتَمْرَةٍ أَوْ كِسْرَةٍ قُبِلَ مِنْهُ .

وَالَّذِي تَقْتَضِيهِ أُصُولُنَا أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ إلَّا فِيمَا لَهُ قَدْرٌ ، فَإِذَا فَسَّرَهُ بِهِ قُبِلَ مِنْهُ ، وَحَلَفَ عَلَيْهِ .

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ أَنْ يُفَسِّرَهَا بِخَمْرٍ أَوْ خِنْزِيرٍ ، وَمَا لَا يَكُونُ مَالًا فِي الشَّرِيعَةِ ، لَمْ يُقْبَلْ بِاتِّفَاقٍ ، وَلَوْ سَاعَدَهُ عَلَيْهِ الْمُقَرُّ لَهُ .

الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ أَنْ يُفَسِّرَهُ بِمُخْتَلَفٍ فِيهِ ، مِثْلُ جِلْدِ الْمَيْتَةِ ، أَوْ سِرْجِينٍ ، أَوْ كَلْبٍ ، فَإِنَّ الْحَاكِمَ يَحْكُمُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِمَا يَرَاهُ مِنْ رَدٍّ وَإِمْضَاءٍ ، فَإِنْ رَدَّهُ لَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِ حَاكِمٌ آخَرُ غَيْرُهُ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ قَدْ نَفَذَ بِإِبْطَالِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ : يَلْزَمُ الْخَمْرُ وَالْخِنْزِيرُ ، وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إذَا قَالَ لَهُ : عَلَيَّ شَيْءٌ لَمْ يُقْبَلْ تَفْسِيرُهُ إلَّا بِمَكِيلٍ أَوْ مَوْزُونٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ بِنَفْسِهِ إلَّا هُمَا .

وَهَذَا ضَعِيفٌ ، فَإِنَّ غَيْرَهُمَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ ؛ إذْ وَجَبَ ذَلِكَ إجْمَاعًا .

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ إِذَا قَالَ لَهُ : " عِنْدِي مَالٌ " قُبِلَ تَفْسِيرُهُ بِمَا يَكُونُ مَالًا فِي الْعَادَةِ ، كَالدِّرْهَمِ وَالدِّرْهَمَيْنِ ، مَا لَمْ يَجِئْ مِنْ قَرِينَةِ الْحَالِ مَا يَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَكْثَرَ مِنْهُ .

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : عِنْدِي مَالٌ كَثِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ .

فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يُقْبَلُ فِي الْحَبَّةِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُقْبَلُ إِلَّا فِي نِصَابِ الزَّكَاةِ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا مُخْتَلِفَةً ، مِنْهَا نِصَابُ السَّرِقَةِ ، وَالزَّكَاةِ ، وَالدِّيَةِ .

وَأَقَلُّهُ عِنْدِي نِصَابُ السَّرِقَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُبَانُ عُضْوُ الْمُسْلِمِ إِلَّا فِي عَظِيمٍ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الْحَنَفِيَّةِ .

وَمَنْ تَعَجَّبَ فَيَتَعَجَّبُ لِقَوْلِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ : إِنَّهُ لَا يُقْبَلُ فِي أَقَلَّ مِنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ دِرْهَمًا ، وَقِيلَ لَهُ : وَمِنْ أَيْنَ تَقُولُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ .

وَغَزَوَاتُهُ وَسَرَايَاهُ كَانَتْ ثِنْتَيْنِ

وَسَبْعِينَ ، وَهَذَا لَا يَصِحُّ ؛ لِأَنَّهُ أَخْرَجَ حُنَيْنًا مِنْهَا ، فَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقُولَ : يُقْبَلُ فِي وَاحِدٍ وَسَبْعِينَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ .

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ إذَا قَالَ لَهُ : عَلَى عَشْرَةٍ أَوْ مِائَةٍ أَوْ أَلْفٍ ، فَإِنَّهُ يُفَسِّرُهَا بِمَا شَاءَ وَيُقْبَلُ مِنْهُ ، فَإِنْ قَالَ : أَلْفُ دِرْهَمٍ ، أَوْ مِائَةُ عَبْدٍ ، أَوْ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ دِرْهَمًا فَإِنَّهُ تَفْسِيرُ مُبْهَمٍ ، وَيُقْبَلُ مِنْهُ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنْ عَطَفَ عَلَى الْعَدَدِ الْمُبْهَمِ مَكِيلًا أَوْ مَوْزُونًا كَانَ تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ دِرْهَمًا ؛ لِأَنَّ الدِّرْهَمَ تَفْسِيرٌ لِلْخَمْسِينَ ، وَالْخَمْسِينَ تَفْسِيرٌ لِلْمِائَةِ .

وَقَالَ ابْنُ خَيْرَانَ وَالْإِصْطَخْرِيُّ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ : إنَّ الدِّرْهَمَ لَا يَكُونُ تَفْسِيرًا فِي الْمِائَةِ وَالْخَمْسِينَ إلَّا لِلْخَمْسِينَ خَاصَّةً ، وَيُفَسِّرُ هُوَ الْمِائَةَ بِمَا شَاءَ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ تَحْقِيقَ ذَلِكَ ، وَيَتَرَكَّبُ عَلَى هَذِهِ الصُّوَرِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً ، وَهَذِهِ أُصُولُهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : مَعْنَاهُ لَوْ اعْتَذَرَ بَعْدَ الْإِقْرَارِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ رَجَعَ بَعْدَ مَا أَقَرَّ فِي الْحُدُودِ الَّتِي هِيَ خَالِصُ حَقِّ اللَّهِ ؛ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ مِنْهُمْ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : يُقْبَلُ رُجُوعُهُ بَعْدَ الْإِقْرَارِ .

وَقَالَ بِهِ مَالِكٌ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ .

وَقَالَ فِي الْقَوْلِ الْآخَرِ : لَا يُقْبَلُ إلَّا أَنْ يَذْكُرَ لِرُجُوعِهِ وَجْهًا صَحِيحًا وَالصَّحِيحُ جَوَازُ الرُّجُوعِ مُطْلَقًا ؛ لِمَا رَوَى الْأَئِمَّةُ ، مِنْهُمْ الْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدَّ الْمُقِرَّ بِالزِّنَا مِرَارًا أَرْبَعًا ، كُلَّ مَرَّةٍ يُعْرِضُ عَنْهُ .

وَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ دَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبِك جُنُونٌ ؟ قَالَ : لَا .

قَالَ : أَحْصَنْت ؟ قَالَ : نَعَمْ ﴾ .

وَفِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ : ﴿ لَعَلَّك قَبَّلْت أَوْ غَمَزْت أَوْ نَظَرْت ﴾ .

وَفِي النَّسَائِيِّ ، وَأَبِي دَاوُد : ﴿ حَتَّى قَالَ لَهُ فِي الْخَامِسَةِ : أَنَكْتَهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : حَتَّى غَابَ ذَلِكَ مِنْك فِي ذَلِكَ مِنْهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : كَمَا يَغِيبُ الْمِرْوَدُ فِي الْمُكْحُلَةِ وَالرِّشَاءُ فِي الْبِئْرِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

ثُمَّ قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا الزِّنَا ؟ قَالَ ، أَتَيْت مِنْهَا حَرَامًا مِثْلَ مَا يَأْتِي الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِهِ حَلَالًا .

قَالَ : فَمَا تُرِيدُ مِنِّي بِهَذَا الْقَوْلِ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي ؟ قَالَ : فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ .

﴾ قَالَ التِّرْمِذِيُّ ، وَأَبُو دَاوُد : ﴿ فَلَمَّا وَجَدَ مَسَّ الْحِجَارَةِ فَرَّ يَشْتَدُّ فَضَرَبَهُ رَجُلٌ بِلَحْيِ

جَمَلٍ ، وَضَرَبَهُ النَّاسُ حَتَّى مَاتَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ ﴾ قَالَ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيُّ : تَثَبَّتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّا لِتَرْكِ حَدٍّ فَلَا ، وَهَذَا كُلُّهُ طَرِيقٌ لِلرُّجُوعِ ، وَتَصْرِيحٌ بِقَبُولِهِ .

وَفِي قَوْلِهِ : لَعَلَّك غَمَزْت

(357/793)

، إشَارَةٌ إلَى قَوْلِ مَالِكٍ : إنَّهُ يُقْبَلُ رُجُوعُهُ إذَا ذَكَرَ فِيهَا وَجْهًا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أَيْ سُتُورَهُ ، بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ ، وَاحِدُهَا مِعْذَارٌ ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ : وَاحِدُهَا مَعْذِرَةٌ .

الْمَعْنَى أَنَّهُ إذَا اعْتَذَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنْكَرَ الشِّرْكَ ، لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَيُخْتَمُ عَلَى فَمِهِ ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَوَارِحُهُ ، وَيُقَالُ لَهُ : كَفَى بِنَفْسِك الْيَوْمَ عَلَيْك حَسِيبًا .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَهَذَا فِي الْحُرِّ الْمَالِكِ لِأَمْرِ نَفْسِهِ .

وَأَمَّا الْعَبْدُ فَإِنَّ إقْرَارَهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ قِسْمَيْنِ : إمَّا أَنْ يُقِرَّ عَلَى بَدَنِهِ ، أَوْ عَلَى مَا فِي يَدِهِ وَذِمَّتِهِ ؛ فَإِنْ أَقَرَّ عَلَى بَدَنِهِ فِيمَا فِيهِ عُقُوبَةٌ مِنْ الْقَتْلِ فَمَا دُونَهُ نَفَذَ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ : لَا يُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ ، لِأَنَّ بَدَنَهُ مُسْتَرَقٌّ بِحَقِّ السَّيِّدِ .

وَفِي إقْرَارِهِ إتْلَافُ حُقُوقِ السَّيِّدِ فِي بَدَنِهِ ، وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ : مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ الْحَدَّ ﴾ .

(358/793)

الْمَعْنَى أَنَّ مَحِلَّ الْعُقُوبَةِ أَصْلُ الْخِلْقَةِ وَهِيَ الدُّمْيَةُ فِي الْآدَمِيَّةِ ، وَلَا حَقَّ لِلسَّيِّدِ فِيهَا ، وَإِنَّمَا حَقُّهُ فِي الْوَصْفِ وَالتَّبَعِ ، وَهِيَ الْمَالِيَّةُ الطَّارِئَةُ عَلَيْهِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أَقَرَّ بِمَالٍ لَمْ يُقْبَلْ ، حَتَّى قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنَّهُ لَوْ قَالَ : سَرَقْت هَذِهِ السِّلْعَةَ إنَّهُ تُقْطَعُ يَدُهُ وَيَأْخُذُهَا الْمُقَرُّ لَهُ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : السِّلْعَةُ لِلسَّيِّدِ ، وَيُتْبَعُ الْعَبْدُ بِقِيمَتِهَا إذَا عَتَقَ ؛ لِأَنَّ مَالَ الْعَبْدِ لِلسَّيِّدِ إجْمَاعًا ، فَلَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِيهِ ، وَلَا إقْرَارُهُ عَلَيْهِ ، لَا سِيَّمَا وَأَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ : إنَّ الْعَبْدَ لَا مِلْكَ لَهُ وَنَحْنُ وَإِنْ قُلْنَا : إنَّهُ يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ ، وَلَكِنَّ جَمِيعَ مَا فِي يَدِهِ لِسَيِّدِهِ بِإِجْمَاعٍ عَلَى الْقَوْلَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَقَدْ قِيلَ : إنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ؛ أَيْ عَلَيْهِ مَنْ يُبْصِرُ أَعْمَالَهُ ، وَيُحْصِيهَا ، وَهُمْ الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ ؛ وَهَذِهِ كُلُّهَا مَقَاصِدُ مُحْتَمِلَةٌ لِلَّفْظِ ، أَقْوَاهَا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَك لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

(359/793)

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ شَفَتَيْهِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَرِّكُهُمَا .

وَقَالَ سَعِيدٌ : أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْت ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا ، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قَالَ : جَمْعُهُ لَك فِي صَدْرِك وَتَقْرَؤُهُ .

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ .

قَالَ : فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ .

﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ : ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَقْرَأَهُ .

فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَقْرَأَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذَا يُعَضِّدُ مَا تَقَدَّمَ : فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ .

وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَلَقِّنَ مِنْ حُكْمِهِ الْأَوْكَدِ أَنْ يُصْغِيَ إلَى الْمُلَقِّنِ بِقَلْبِهِ ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِلِسَانِهِ ، فَيَشْتَرِكُ الْفَهْمُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، فَيَذْهَبُ رُوحُ التَّحْصِيلِ بَيْنَهُمَا ، وَيَخْزَلُ اللِّسَانَ بِتَجَرُّدِ الْقَلْبِ لِلْفَهْمِ ؛ فَيَتَيَسَّرُ التَّحْصِيلُ ؛ وَتَحْرِيكُ اللِّسَانِ يُجَرِّدُ الْقَلْبَ عَنْ الْفَهْمِ ، فَيَتَعَسَّرُ التَّحْصِيلُ بِعَادَةِ اللَّهِ الَّتِي يَسَّرَهَا ؛ وَذَلِكَ مَعْلُومٌ عَادَةً فَيَتَحَقَّقُ لِذِي مُشَاهَدَةٍ .

قَالَ الْإِمَامُ : كُنْت أَحْضُرُ عِنْدَ الْحَاسِبِ بِتِلْكَ الدِّيَارِ الْمُكَرَّمَةِ ، وَهُوَ يَجْعَلُ الْأَعْدَادَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ الْحَاسِبِينَ ، وَأَفْوَاهُهُمْ مَمْلُوءَةٌ مِنْ الْمَاءِ ، حَتَّى إذَا انْتَهَى إلْقَاؤُهُ ، وَقَالَ : مَا مَعَكُمْ رَمَى كُلُّ وَاحِدٍ بِمَا فِي فَمِهِ ، وَقَالَ مَا مَعَهُ لِيُعَوِّدَهُمْ خَزْلَ اللِّسَانِ عَنْ تَحْصِيلِ الْمَفْهُومِ عَنْ الْمَسْمُوعِ .

وَلِلْقَوْلِ فِي التَّعَلُّمِ سِيرَةٌ بَدِيعَةٌ ؛ وَهِيَ أَنَّ الصَّغِيرَ مِنْهُمْ إذَا عَقَلَ بَعَثُوهُ إلَى الْمَكْتَبِ ، فَإِذَا عَبَرَ الْمَكْتَبَ أَخَذَهُ بِتَعْلِيمِ الْخَطِّ وَالْحِسَابِ وَالْعَرَبِيَّةِ ، فَإِذَا حَذَقَهُ كُلَّهُ أَوْ حَذَقَ مِنْهُ مَا قُدِّرَ لَهُ خَرَجَ إلَى الْمُقْرِئِ فَلَقَّنَهُ كِتَابَ اللَّهِ ، فَحَفِظَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ رُبْعَ حِزْبٍ ، أَوْ نِصْفَهُ ، أَوْ حِزْبًا ، حَتَّى إذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ خَرَجَ إلَى مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ أَوْ تَرْكِهِ .

وَمِنْهُمْ وَهُمْ الْأَكْثَرُ مَنْ يُؤَخِّرُ حِفْظَ الْقُرْآنِ ، وَيَتَعَلَّمُ الْفِقْهَ وَالْحَدِيثَ ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ فَرُبَّمَا كَانَ إمَامًا ، وَهُوَ لَا يَحْفَظُهُ ، وَمَا رَأَيْت بِعَيْنِي إمَامًا يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ، وَلَا رَأَيْت فَقِيهًا يَحْفَظُهُ إلَّا اثْنَيْنِ ، ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ الْمَقْصُودَ حُدُودُهُ لَا حُرُوفُهُ ؛ وَعُلِّقَتْ الْقُلُوبُ الْيَوْمَ بِالْحُرُوفِ ، وَضَيَّعُوا الْحُدُودَ ، خِلَافًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكِنَّهُ إنْفَاذٌ لِقَدَرِ اللَّهِ ، وَتَحْقِيقٌ لِوَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَبْيِينٌ لِنُبُوَّتِهِ ، وَعَضُدٌ لِمُعْجِزَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ الْبَارِي سُبْحَانَهُ يَجْمَعُ الْقُرْآنَ فِي قَلْبِ الرَّسُولِ تَيْسِيرًا لِلتَّبْلِيغِ ، وَيَجْمَعُهُ فِي قَلْبِ غَيْرِهِ ؛ تَيْسِيرًا لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ شِفَاءً لِمَا يَعْرِضُ فِي الصُّدُورِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَمًى فِي الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِلْمِ بِهِ رَيْنٌ ، فَيَبْقَى تَالِيًا ، وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِنْ الْمَعْرِفَةِ ثَانِيًا ، وَهُوَ أَخَفُّهُ حَالًا وَأَسْلَمُهُ مَآلًا ، وَقَدْ

حَقَّقَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ وَعْدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ ؛ وَهُوَ خَبَرٌ ، وَلَيْسَ بِأَمْرٍ مَعْنَوِيٍّ لِثُبُوتِ الْيَاءِ فِي الْخَطِّ إجْمَاعًا ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي بَعْدَ هَذَا تَأْوِيلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُعَارِضُهُ جِبْرِيلُ الْقُرْآنَ مَرَّةً فِي كُلِّ شَهْرِ رَمَضَانَ ، حَتَّى كَانَ الْعَامُ الَّذِي قَبَضَهُ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِ عَارَضَهُ مَرَّتَيْنِ ؛ فَفَطِنَ لِتَأْكِيدِ الْحِفْظِ وَالْجَمْعِ عِنْدَهُ ، وَقَالَ : مَا أَرَاهُ إلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي ﴾ إذْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ بَعْثِهِ إلَى الْخَلْقِ تَبْلِيغُ الْأَحْكَامِ وَتَمْهِيدُ الشَّرْعِ ، ثُمَّ يَسْتَأْثِرُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْخَلْقِ ، وَيَظْهَرُهُ بِرَفْعِهِ إلَيْهِ عَنْهُمْ ، وَيَنْفُذُ بَعْدَ ذَلِكَ حُكْمُهُ فِيهِمْ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ انْتَهَى النَّظَرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْمٍ مِنْ الرُّفَعَاءِ مِنْهُمْ قَتَادَةُ إلَى أَنْ يَقُولُوا فِي قَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أَيْ تَفْصِيلَ أَحْكَامِهِ ، وَتَمْيِيزَ حَلَالِهِ مِنْ حَرَامِهِ ، حَتَّى قَالَ حِينَ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ : إنَّ مِنْهُ وُجُوبَ الزَّكَاةِ فِي مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ مَسَاقُ الْآيَةِ فَلَا يَنْفِيهِ عُمُومُهَا ، وَنَحْنُ لَا نَرَى تَخْصِيصَ الْعُمُومِ بِالسَّبَبِ وَلَا بِالْأَوْلَى مِنْ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ ، وَلَا بِالْمَسَاقِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

(363/793)

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ : وَهِيَ مَا تَقَدَّمَ فِي نَظِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَكُونُ الْوَلَدُ مِنْ أَحْوَالِ التَّخْلِيقِ وَلَدًا : مِنْ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ بِظَاهِرِهَا تَقْتَضِي أَنَّ الْمَرْتَبَةَ الثَّالِثَةَ بَعْدَ الْعَلَقَةِ [وَتَكُونُ] خَلْقًا مُسَوًّى ، فَتَكُونُ بِهِ الْمَرْأَةُ أُمَّ وَلَدٍ ، وَيَكُونُ الْمَوْضُوعُ سِقْطًا ، وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ

وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِ كَمَا سَبَقَ ، وَهَذِهِ التَّسْوِيَةُ أَوَّلُهَا ابْتِدَاءُ الْخِلْقَةِ ، وَآخِرُهَا اسْتِكْمَالُ الْقُوَّةِ ، وَالْكُلُّ مُرَادٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ : وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذَا مَنْ رَأَى إسْقَاطَ الْخُنْثَى ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ الشُّورَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَقَرِينَتَهَا إنَّمَا خَرَجَتَا مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ هُنَا لَك ، فَلْيَجْتَزِئْ بِهِ اللَّبِيبُ فَإِنَّهُ وَفَّى بِالْمَقْصُودِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(364/793)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة القيامة

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1)

قوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ : العامَّةُ على " لا " النافيةِ . واختلفوا حينئذٍ فيها على أوجهٍ ، أحدُها : أنها نافيةٌ لكلامٍ متقدّمٍ ، كأنَّ الكفارَ ذَكروا شيئاً . فقيل لهم : لا ، ثم ابتدأ اللَّهُ تعالى قَسَماً . الثاني : أنها مزيدةٌ . قال الزمخشري : " وقالوا إنها مزيدةٌ ، مِثْلُها في : ﴿ لِئَلاَّ

يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] وفي قوله :

4402 في بِئْرٍ لاحُورٍ سَرَى وما شَعَرْ . . . واعترضوا عليه : بأنها إنما تُزاد في وسط الكلام لا في أوله . وأجابوا : بأنَّ القرآنَ في حُكْمِ سورةٍ واحدةٍ متصلٍ بعضُه ببعضٍ . والاعتراضُ صحيحٌ ؛ لأنها لم تقَعْ مزيدةً إلاَّ في وسط الكلامِ ، لكن الجوابَ غيرُ سديدٍ . ألا ترى إلى امرىء القيسِ كيف زادَها في مستهلِّ قصيدِته ؟ قلت : يعني قولَه :

4403 لا وأبيك ابنةَ العامريْ . . . يِ . . . . . .

. . . . . .

كما سيأتي ، وهذا الوجهُ والاعتراضُ عليه والجوابُ نقله مكي وغيرُه . الوجه الثالث : قال الزمخشري : " إدخالُ " " لا " النافيةِ على فعلِ القسمِ مستفيضٌ في كلامِهم وأشعارِهم . قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنةَ العامريْ . . . يِ لا يَدَّعِي القومُ أَنِّي أَفِرّْ

وقال غُوَيَّةُ بن سُلْميٍّ :

4404 ألا نادَتْ أُمامةُ باحْتمالِ . . . لِتَحْزُنَني فلابِك ما أُبالي

(365/793)

وفائدتُها توكيدُ القسم " ثم قال بعد أَنْ حكى وجهَ الزيادةِ والاعتراضَ والجوابَ كما تقدَّمَ " والوَجهُ أَنْ يُقال : هي للنفي ، والمعنى في ذلك : أنه لا يُقْسِمُ بالشيءِ إلاَّ إعظاماً له يَدُلُّكَ عليه قولُه تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 75-76] فكأنه بإدخالِ حرفِ النفي يقول : إنَّ إعظامي له بإقسامي به كلا إعظامٍ ، يعني أنه يَسْتَأْهِلُ فوق ذلك . وقيل : " إنَّ " لا " نفيٌ لكلامٍ وَرَدَ قبل ذلك " . انتهى . فقولُه : " والوجهُ أَنْ يُقال " إلى قولِه : " يعني أنه يستأهِلُ فوق ذلك " تقريرٌ لقولِه : " إدخالُ " لا " النافيةِ على فعلِ/ القسمِ مستفيضٌ " إلى آخره . وحاصلُ كلامِه يَرْجِعُ إلا أنَّها نافيةٌ ، وأنَّ النفيَ مُتَسَلِّطٌ على فعل القسمِ بالمعنى الذي شَرَحَه ، وليس فيه مَنْعٌ لفظاً ولا معنىً ثم قال : فإن قلتَ : قولُه تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء : 65] والأبياتُ التي أَنْشَدْتُها المُقْسَمُ عليه فيها منفيٌّ ، فهلا زَعَمْتَ أنَّ " لا " التي قبلَ القسمِ زِيْدَتْ موطئةً للنفيِ بعدَه ومؤكِّدةً له ، وقَدَّرْتَ المقسم عليه المحذوفَ ههنا منفيّاً ، كقولِك : لا أُقْسم بيومِ القيامةِ لا تُتركون سُدى ؟ قلت : لو قَصَروا الأمرَ على النفيِ دونَ الإثباتِ لكان لهذا القول مَساغٌ ، ولكنه لم يُقْصَرْ . ألا ترى كيف لُقِيَ ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] بقولِه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ وكذلك قولُه : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ [الواقعة : 75] بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ وهذا من محاسنِ كلامِه فتأمَّلْه . وقد تقدَّمَ الكلامُ على هذا النحوِ في سورة النساءِ ، وفي آخر الواقعة ، ولكنْ هنا مزيدُ هذه الفوائدِ .

وقرأ قنبل والبزي بخلافٍ عنه " لأُقْسِمُ بيوم " بلامٍ بعدَها همزةٌ دونَ ألفٍ . وفيها أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها جوابٌ لقسمٍ مقدرٍ ، تقديرُه : واللَّهِ لأُقْسِمُ ، والفعلُ للحالِ ؛ فلذلك لم تَأْتِ نونُ التوكيدِ ، وهذا مذهبُ الكوفيين . وأمَّا البصريُّون فلا يُجيزون أَنْ يقعَ فعلُ الحالِ جواباً للقسم ، فإنْ وَرَدَ ما ظاهرُه ذلك جُعل الفعل خبراً لمبتدأ مضمرٍ ، فيعودُ الجوابُ جملةً اسميةً قُدِّرَ أحدُ جزأَيها ، وهذا عند بعضِهم من ذلك ، التقديرُ واللَّهِ لأنا أُقْسِمُ . الثاني : أنه فعلٌ مستقبلٌ ، وإنما لم يُؤْتَ بنونِ التوكيدِ ؛ لأنَّ أفعالَ اللَّهِ حقٌّ وصدقٌ فهي غنيةٌ عن التأكيدِ بخلاف أفعالِ غيره . على أنَّ سيبويهِ حكى حَذْفَ النونِ إلاَّ أنَّه قليلٌ ، والكوفيون يُجيزون ذلك مِنْ غيرِ قلةٍ إذ مِنْ مذهبهم جوازُ تعاقُبِ اللامِ والنونِ فمِنْ حَذْفِ اللامِ قولُ الشاعر :

4405 وقتيلِ مَرَّةَ أَثْأَرَنَّ فإنَّه . . . فَرْعٌ وإنَّ أخاكم لم يُثْأَرِ

أي : لأَثْأَرَنَّ . ومِنْ حَذْفِ النونِ وهو نظيرُ الآيةِ قولُه :

4406 لَئِنْ تَكُ قد ضاقَتْ عليكم بيوتُكُمْ . . . لَيَعْلَمُ ربي أنَّ بيتيَ واسعُ

الثالث : أنها لامُ الابتداءِ ، وليستْ بلامِ القسمِ . قال أبو البقاء : " نحو : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ

لَيَحْكُمُ ﴾ [النحل : 124] والمعروفُ أنَّ لامَ الابتداءِ لا تَدْخُل على المضارع إلاَّ في خبر "إنَّ" نحو : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ ﴾ وهذه الآيةُ نظيرُ الآيةِ التي في يونس [الآية : 16] ﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ فإنهما قرآها . بقصر الألف ، والكلامُ فيها قد تقدَّم . ولم يُخْتَلَفْ في قولِه : "ولا أُقْسِم" أنه بألفٍ بعد "لا" ؛ لأنه لم يُرْسَمْ إلاَّ كذا ، بخلاف الأولِ فإنه رُسِمَ بدون ألفٍ بعد "لا" ، وكذلك في قولِه : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ لم يُختلَفْ فيه أنَّه بألفٍ بعد "لا" .

(367/793)

وجوابُ القسمِ محذوفٌ تقديرُه : لتُبْعَثُنَّ ، دلَّ عليه قولُه : "أيحسَبُ الإنسانُ" . وقيل : الجوابُ أَيَحْسَبُ . وقيل : هو "بلى قادِرين" ويُرْوَى عن الحسن البصري . وقيل : المعنى على نَفْيِ القسم ، والمعنى : إني لا أُقْسِم على شيء ، ولكن أسألُك : أيحسَبُ الإنسانُ . وهذه الأقوالُ شاذَّةٌ مُنْكَرَةٌ لا تَصِحُّ عن قائليها لخروجِها عن لسانِ العرب ، وإنما ذكرْتُها للتنبيهِ على ضَعْفِها كعادتي .

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3)

قوله : ﴿ أَلَّن ﴾ : هذه هي المخففةُ ، وحكمُها معروفٌ مِمَّا تقدَّم في المائدةِ وغيرِها . و"

لن " وما في حَيّزها في موضع الخبرِ ، والفاصلُ هنا حرفُ النفيِ ، وهي وما في حَيّزها سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولَيْ " حَسِبَ " أو مفعولِه على الخلافِ . والعامَّةُ على " نجمعُ " بنونِ العظمة/ و " عظامَه " نصبٌ مفعولاً به . وقتادة " تُجْمع " بتاءٍ مِنْ فوقُ مضمومةٍ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، " عظامُه " رفعٌ لقيامِه مَقامَ الفاعلِ .

بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4)

قوله : ﴿ بلى ﴾ إيجابٌ لِما بعد النفيِ المنسَحِب عليه الاستفهامُ . والعامَّة على نصبِ " قادِرين " . وفيه قولان ، أشهرُهما : أنَّه منصوبٌ على الحالِ مِنْ فاعلِ الفعلِ المقدَّرِ المدلولِ عليه بحرفِ الجواب ، أي : بلى نجمعُها قادرِين ، والثاني : أنه منصوبٌ على خبرِ " كان " مضمرةً أي : بلى كُنَّا قادرين في الابتداءِ ، وهذا ليس بواضح . وقرأ ابن أبي عبلة وابن السَّمَيْفَع " قادرون " رفعاً على خبر ابتداءٍ مضمر أي : بلى نحن قادرون .

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5)

(368/793)

قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ " بلى " لمجردِ الإضرابِ الانتقالي مِنْ غيرِ عطفٍ ، أَضْرَبَ عن الكلامِ الأولِ وأخذ في آخرَ . والثاني : أنها عاطفةٌ . قال

الزمخشريُّ : " بل يريد " عطفٌ على " أَيَحْسَبُ " فيجوز أَنْ يكونَ مثلَه استفهاماً ، وأن يكونَ إيجاباً على أَنْ يَضْرِبَ عن مُسْتَفْهَمٍ عنه إلى آخرَ ، أو يَضْرِبَ عن مستفهمٍ عنه إلى مُوْجَبٍ " . قال الشيخ بعد ما حَكَى عن الزمخشري : " وهذه التقاديرُ الثلاثةُ متكلفةٌ لا تظهر " . قلت : وليس هنا إلا تقديران .

ومفعولُ " يريد " محذوفٌ يَدُلُّ عليه التعليلُ في قوله : " لِيَفْجُرَ أمامَه " والتقدير : يريد شَهَواتِه ومعاصِيَه ليمضيَ فيها أبداً دائماً و " أمامَه " منصوبٌ على الظرفِ ، وأصلُه مكانٌ فاسْتُعير هذا للزمان . والضميرُ في " أمامَه " الظاهر عَوْدُه على الإنسان . وقال ابن عباس : " يعودُ على يوم القيامة بمعنى : أنه يريد شهواتِه ليَفْجُرَ في تكذيبِه بالبعث بين يَدَيْ يومِ القيامة " .

يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6)

قوله : ﴿ يَسْأَلُ ﴾ : هذه جملةٌ مستأنفةٌ . وقال أبو البقاء : " تفسيرٌ لِيَفْجُرَ " فيُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ مستأنفاً مُفَسِّراً ، وأَنْ يكونَ بدلاً من الجملةِ قبلَها ؛ لأنَّ التفسيرَ يكون بالاستئنافِ وبالبدلِ ، إلاَّ أنَّ الثاني منع منه رَفْعُ الفعلِ ، ولو كان بدلاً لَنُصِبَ . وقد يُقال : إنه أبدلَ الجملةَ من الجملةِ لا خصوصيةَ الفعلِ من الفعلِ وحدَه . وفيه بحثٌ وتقدَّم نظيرُ هذا في الذاريات وغيرها .

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7)

قوله : ﴿ بَرِقَ ﴾ : قرأ نافِع "بَرَقَ" بفتحِ الراء ، والباقون بالكسرِ فقيل : لغتان في التحيُّرِ والدَّهْشة . وقيل : بَرِقَ بالكسر تَحَيَّر فَزِعاً . قال الزمخشري : "وأصلُه مِنْ بَرِقَ الرجلُ : إذا نَظَر إلى البَرْقِ فَدُهِشَ بَصَرُه" . قال غيرُه : كما يقال : أَسِدَ وبَقِرَ ، إذا رأى أُسْداً وبَقَراً كثيرةً فتحيَّر من ذلك . قال ذو الرمَّة :

4407 ولو أنَّ لُقْمانَ الحكيمَ تَعَرَّضَتْ . . . لعينَيْهِ مَيٌّ سافِراً كاد يَبْرِقُ

وقال الأعشى :

4408 وكنتُ أَرَى في وجهِ مَيَّةَ لَمْحَةً . . . فأَبْرَقُ مغشِيّاً عليَّ مكانيا

وأنشد الفراء :

4409 فنَفْسَكَ فانْعَ ولا تَنْعَني . . . وداوِ الكُلومَ ولا تَبْرَقِ

وبَرَق بالفتح مِن البريق أي : لَمَعَ من شدةِ شخوصه . وقرأ أبو السَّمَّال "بَلَقَ" باللام . قال أهلُ اللغة إلاَّ الفراء . معناه فَتَحَ . يقال : بَلَقْتُ البابَ وأَبْلَقْتُه أي : فتحتُه وفَرَجْتُه . وقال الفراء : "بمعنى أَغْلَقْتُه" . قال ثعلب : "أخطأ الفراءُ في ذلك" ثم يجوز أَنْ يكونَ "بَلَقَ" غيرَ مادةِ بَرَقَ ، ويجوز أَنْ يكونَ مادةً واحدةً ، أُبْدِل فيها حرفٌ مِنْ آخرَ ، وقد جاء إبدالُ

اللامِ من الراءِ في أحرف ، قالوا : نَثَرَ كِنانته ونَثَلَها . وقالوا : وَجِلَ ووَجِرَ ، فيمكن أن يكونَ هذا منه ، ويؤيِّدُه أَنَّ بَرَقَ قد أتى بمعنى : شَقَّ عيْنيْه وفَتَحَها ، قاله أبو عبيدة . وأنشد :

4410 لَمَّا أتاني مِنْ عُمَيْرٍ راغباً . . . أَعْطَيْتُه عِيساً صِهاباً فبرَقْ

أي : ففتح عينيْه ، فهذا مناسِبٌ ل "بَلَقَ" في المعنى " .

وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8)

(370/793)

قوله : ﴿ وَخَسَفَ ﴾ : العامةُ على بنائِه للفاعلِ . وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويزيد بن قطيب " خُسِفَ " مبنياً للمفعول ؛ وهذا لأن خَسَفَ يُستعمل لازماً ومتعدياً يقال : خَسَفَ القمرُ وخَسَفه الله ، وقد اشْتُهر أن الخُسوفَ للقمرِ والكُسوفَ للشمسِ . وقال بعضهم : بل يكونان فيهما ، يُقال : خَسَفَتِ الشمسُ وكَسَفَتْ ، وخَسَفَ القمرُ وكَسَفَ . وتأيَّد بعضُهم بالحديث : " إنَّ الشمسَ والقمرَ / آيتان مِنْ آياتِ اللَّهِ لا يُخْسَفان لموتِ أحدٍ " فاستعملَ الخُسُوْفَ فيهما . وعندي فيه نَظَرٌ ؛ لاحتمالِ التغليبِ وهل هما بمعنىً واحدٍ أم لا ؟ فقال أبو عبيدٍ وجماعةٌ : هما بمعنىً واحدٍ . وقال ابن أبي أويس : " الخُسوفُ ذهابُ كلِّ ضَوْئِهما ، والكُسوفُ ذهابُ بَعْضِه " .

وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10)

قوله : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ : لم تَلْحَقْ علامةُ تأنيثٍ ؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ . وقيل : لتغليبِ التذكيرِ . وفيه نظرٌ ؛ لو قلت : " قام هندٌ وزيدٌ " لم يَجُزْ عند الجمهورِ من العربِ . وقال الكسائيُّ : " حُمِل على معنى : جُمِعَ " النَّيِّران " . و " يقولُ الإنسانُ " جوابٌ " إذا " مِنْ قولِه : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر ﴾ . و " أينَ المفرُّ " منصوبُ المحلِّ بالقولِ : والمَفَرُّ : مصدرٌ بمعنى الفِرار . وهذه هي القراءةُ المشهورة .

وقرأ الحَسَنان ابنا علي رضي الله عنهم وابنُ عباس والحسن ابن زيد في آخرين بفتح الميمِ وكسرِ الفاءِ ، وهو اسمُ مكانِ الفرارِ أي : أين مكانُ الفِرار ؟ وجَوَّزَ الزمخشريُّ أَنْ يكونَ مصدراً . قال : " كالمَرْجِعِ . وقرأ الحسنُ عكسَ هذا أي : بكسرِ الميمِ وفَتْحِ الفاءِ ، وهو الرجلُ الكثيرُ الفِرارِ ، وهذا كقولِ امرىءِ القَيْسِ يَصِف جَوادَه :

(371/793)

4411 مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً . . . كجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السيلُ مِنْ عَلِ

وأكثرُ استعمالِ هذا الوزنِ في الآلاتِ .

كَلَّا لَا وَزَرَ (11)

قوله: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾: تقدَّم الكلامُ في "كلا" وخبر "لا" محذوفٌ أي لا وَزَرَ له. وهل هذه الجملةُ مَحْكِيَّةٌ بقول الإنسان فتكونُ منصوبةَ المحلِّ، أو هي مستأنفةٌ إخباراً من الله تعالى بذلك؟ والوَزَرُ: المَلْجأ مِنْ حِصْنٍ أو جَبَلٍ أو سلاحٍ. قال:

4412 لَعَمرُكَ ما للفتى مِنْ وَزَرْ ... من الموتِ يُدْرِكُه والكِبَرْ

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)

قوله: ﴿ المستقر ﴾: مبتدأٌ، خبرُه الجارُّ قبلَه. ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً بمعنى الاستقرار، وأَنْ يكونَ مكانَ الاستقرار. "ويومَئذٍ" منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ، ولا يَنْتَصِبُ بمُسْتقر؛ لأنَّه إنْ كان مصدراً فلتقدُّمِه عليه، وإنْ كان مكاناً فلا عَمَلَ له البتةَ.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

قوله: ﴿ بَصِيرَةٌ ﴾: يجوزُ فيها أوجهٌ، أحدُها: أنَّها خبرٌ عن "الإنسانُ" و"على نفسِه" متعلِّقٌ ب "بَصيرةٌ" والمعنى: بل الإنسانُ بَصيرةٌ على نفسِه، وعلى هذا فلأيِّ شيءٍ أُنِّث الخبرُ؟ وقد اختلف النَّحْويون في ذلك، فقال بعضهم: الهاءُ فيه للمبالغةِ. وقال الأخفش: "هو كقولِك: فلانٌ عِبْرَةٌ وحُجَّةٌ". وقيل: المرادُ بالإنسان الجوارحُ، فكأنَّه قال: بل جوارِحُه بصيرة أي: شاهدةٌ. والثاني: أنها مبتدأٌ، و"على نفسِه" خبرُها. والجملةُ خبرٌ عن "الإنسانُ"، وعلى هذا ففيها تأويلاتٌ أحدُها: أنْ يكونَ "بصيرةٌ" صفةً لمحذوفٍ أي: عينٌ بصيرةٌ، قاله الفراء. وأنشد:

4413 كأن على ذي العقْل عَيْناً بَصيرةً . . . بمَقْعَدِه أو مَنْظَرٍ هو ناظرُهْ

يُحاذِرُ حتى يَحْسَبَ الناسَ كلَّهمْ . . . من الخوف لا تَخْفَى عليهمْ سرائِرُهْ

(372/793)

الثاني : أنَّ المعنى : جوارح بَصيرة . الثالث : أنَّ المعنى : ملائكةٌ بصيرة ، والتاءُ على هذا للتأنيثِ . وقال الزمخشري : "بَصيرة : حُجَّةٌ بَيِّنة ، وُصِفَتْ بالبصارة على المجاز كما وُصِفَتْ الآياتُ بالإبصار في قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ [النمل : 13] . قلت : هذا إذا لم تَجْعَلِ الحُجَّة عبارةً عن الإنسانِ ، أو تَجْعَلْ دخولَ التاء للمبالغةِ . أمَّا إذا كانَتْ للمبالغةِ فنسبةُ الإبصارِ إليها حقيقةٌ . الثالث من الأوجه السابقة : أَنْ يكونَ الخبرُ الجارَّ والمجرورَ ، و " بصيرةٌ " فاعلٌ به ، وهو أرجحُ مِمَّا قبلَه لأنَّ الأصلَ في الإخبارِ الإفرادُ .

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

قوله : ﴿ وَلَوْ أَلقى ﴾ : هذه الجملةُ حاليةٌ . وقد تقدَّم نظيرُها غيرَ مرةٍ . والمعاذير/ : جمع مَعْذِرة على غيرِ قياس ، كمَلاقيح ومَذاكير جمع لَقْحَة وذَكَر . وللنَّحويين في مثلِ هذا قولان ، أحدهما : أنه جمعٌ لملفوظٍ به ، وهو لَقْحَة وذَكَر . والثاني : أنه جمعٌ لغيرِ ملفوظٍ به بل لمقدرٍ

أي : مَلْقَحَة ومِذْكار . وقال الزمخشري : " فإن قلتَ : أليسَ قياسُ المَعْذِرَة أَنْ يُجْمَعَ معاذِرَ لا معاذير ؟ قلت : المعاذيرُ ليسَتْ بجمع مَعْذِرة ، بل اسمُ جمعٍ لها ، ونحوُه : المَناكير في المُنْكر " . قال الشيخ : " وليسَ هذا البناءُ من أبنيةِ أسماءِ الجُموع ، وإنما هو مِنْ أبنيةِ جموعِ التكسيرِ " انتهى ، وهو صحيحٌ . وقيل : مَعاذير : جمعُ مِعْذار ، وهو السِّتْرُ ، فالمعنى : ولو أرخى سُتورَه . والمعاذِيْرُ : السُّتور بلغةِ اليمن ، قاله الضحاك والسُّدّي وأُنشد على ذلك :

4414 ولكنَّها ضَنَّتْ بمَنْزِلِ ساعةٍ . . . علينا وأَطَّتَ فوقَها بالمَعَاذِرِ

(373/793)

وقد حَذَفَ الياءَ من " المعاذير " ضرورةً . وقال الزمخشري : " فإنْ صَحَّ يعني أنَّ المعاذير السُّتور فلأنَّه يَمْنَعُ رؤيةَ المُحْتَجِب كما تَمْنَعُ المعذرةُ عقوبةَ المُذْنِب " . قلت : هذا القولُ منه يُحتمل أَنْ يكونَ بياناً للمعنى الجامع بين كَوْنِ السُّتورَ ، أو الاعتذاراتِ ، وأَنْ يكونَ بياناً للعلاقةِ المُسَوِّغةِ في التجوُّز .

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17)

قوله : ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ : أي : قراءَتَه ، فهو مصدرٌ مضافٌ للمفعولِ . وأمَّا الفاعلُ فمحذوف . والأصلُ : وقراءَتَك إياه ، والقرآن : مصدرٌ بمعنى القراءة . قال حَسَّان رضي الله عنه :

وقال ابن عطية : " قال أبو العالية : " إنَّ علينا جَمْعَه وقُرَانَه . فإذا قَرَنَه فاتَّبِعْ قُرانَه " بفتح القافِ والراء والتاءِ ، مِنْ غيرِ همزٍ ولا ألفٍ " . قلت : ولم يَذْكُرْ توجيهاً . فأمَّا توجيهُ قولِه : " جَمْعَه وقُرانَه " ، وقوله : " فاتَّبِعْ قُرانَه " فواضحٌ مِمَّا تقدَّمَ في قراءةِ ابن كثير في البقرة ، وأنه هل هو نَقْلٌ ، أو مِنْ مادةِ قَرَن ، وتحقيقُ القولَيْن مذكورٌ ثَمَّةَ فعليك بالالتفاتِ إليه . وأمَّا قولُه : " بفتحِ القافِ والراءِ والتاء " فيعني في قولِه : " فإذا قَرَنَه " يُشير إلى أنه قُرِىء شاذاً هكذا ، وتوجيهُها : أنَّ الأصلَ : " قَرَأْتَه " فعلاً ماضياً مُسْنداً لضمير المخاطب أي : فإذا أَرَدْتَ قراءتَه ، ثم أبدلَ الهمزةَ ألفاً لسكونِها بعد فتحةٍ ، ثم حَذَفَ الألفَ تخفيفاً كقولِهم : " ولو تَرَ ما الصبيانَ " أي : ولو تَرَى الصبيانَ و " ما " مزيدة ، فصار اللفظُ " قَرَنَه " كما ترى .

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20)

(374/793)

قوله : ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو و " يُحِبُّون " و " يَذَرون " بياءِ الغَيْبة حملاً على لفظِ الإنسانِ المذكور . أولاً ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ ، والباقون بالخطابِ فيهما : إمَّا

خِطاباً لكفارِ قريش ، وإمَّا التفاتاً عن الإخبار عن الجنسِ المتقدّمِ والإقبالِ عليه بالخطاب

.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22)

قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ : فيه أوجهٌ أحدُها : أَنْ يكون " وجوهٌ " مبتدأً ، و " ناضِرةٌ " نعتٌ له ، و " يومَئذٍ " منصوبٌ ب " ناضِرة " و " ناظرةٌ " خبرُه ، و " إلى ربِّها " متعلِّقٌ بالخبرِ ، والمعنى : أنَّ الوجوهَ الحسنة يومَ القيامة ناظرةٌ إلى اللَّهِ تعالى ، وهذا معنىً صحيحٌ وتخريجٌ سَهْلٌ . والنَّاضرةُ : من النُّضْرَةِ وهي : التنعُّمُ ، ومنه غُصْنٌ ناضِر . الثاني : أَنْ يكونَ " وجوهٌ " مبتدأً أيضاً ، و " ناضِرةٌ " خبرُه ، و " يومَئذٍ " منصوبٌ بالخبرِ كما تقدَّم . وسَوَّغَ الابتداءَ هنا بالنكرةِ كَوْنُ الموضعِ موضعَ تفصيلٍ كقولِه :

4416 . . . . . فثوبٌ لَبِسْتُ وثوبٌ أَجُرُّ

(375/793)

ويكون " ناظرةٌ " نعتاً لوجوه ، أو خبراً ثانياً ، أو خبراً لمبتدأ محذوفٍ . و " إلى ربِّها " متعلقٌ ب " ناظرة " كما تقدَّم . وقال ابنُ عطية : " وابتدأ بالنكرة / لأنها تخصَّصَتْ بقوله " يومئذٍ " . وقال أبو البقاء : " وجاز الابتداءُ هنا بالنكرةِ لحصول الفائدةِ " . قلت : أمَّا قولُ ابنِ

عطيّةَ ففيه نظرٌ ؛ لأنَّ قولَه : " تخصَّصَتْ بقولِه : " يومئذٍ " هذا التخصيصُ : إمَّا لكونِها عاملةً فيه ، وهو مُحالٌ ؛ لأنها جامدةٌ ، وإمَّا لأنَّها موصوفةٌ به وهو مُحال أيضاً ؛ لأنَّ الجُثَثَ لا تُوْصَفُ بالزمان كما لا يُخْبَرُ به عنها . وأمَّا قولُ أبي البقاءِ فإنْ أرادَ بحصولِ الفائدةِ ما قدَّمْتُه من التفصيل فصحيحٌ ، وإنْ عَنَى ما عناه ابنُ عطيةَ فليس بصحيحٍ لما عَرَفْتَه .

الثالث : أَنْ يكونَ " وجوهٌ " مبتدأً ، و " يومئذٍ " خبرَه ، قاله أبو البقاء . وهذا غَلَطٌ مَحْضٌ من حيث المعنى ، ومِنْ حيثُ الصناعةُ . أمَّا المعنى فلا فائدةَ في الإخبارِ عنها بذلك . وأمَّا الصناعةُ فلأنَّه لا يُخْبَرُ بالزمانِ عن الجُثَثِ ، وإنْ وَرَدَ ما ظاهرُه ذلك تُؤُوِّل نحو : " الليلةَ الهلالُ " الرابع : أَنْ يكونَ " وجوهٌ " مبتدأً و " ناضرةٌ " خبرَه ، و ﴿ إلى ربِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ جملةً في موضعِ خبرٍ ثانٍ ، قاله ابن عطية . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّه لا يَنْعَقِدُ منهما كلامٌ ، إذ الظاهرُ تعلُّقُ " إلى " ب " ناظرة " ، اللهمَّ إلاَّ أَنْ يعنيَ أنَّ " ناظرةٌ " خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ ، أي : هي ناظرةٌ إلى ربِّها ، وهذه الجملةُ خبرٌ ثانٍ . وفيه تَعَسُّفٌ .

(376/793)

الخامس : أَنْ يكونَ الخبرُ لوجوه مقدراً ، أي : وجوهٌ يومئذٍ ثَمَّ ، و " ناضرةٌ " صفةٌ ، وكذلك " ناظرةٌ " ، قاله أبو البقاء . وهو بعيدٌ لعدمِ الحاجةِ إلى ذلك . ولا أدري ما الذي حَمَلهم

على هذا مع ظهورِ الوجهِ الأولِ وخُلُوصِه من هذه التعسُّفاتِ ؟ وكونُ " إلى " حرفَ جرّ ، و " ربِّها " مجروراً بها هو المتبادَرُ للذِّهْنِ .

وقد خَرَّجه بعضُ المعتزلةِ : على أَنْ تكونَ " إلى " اسماً مفرداً بمعنى النِّعْمَةِ مضافاً إلى الرَّبِّ ، ويُجمع على " آلاء " نحو : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] وقد تقدَّم أنَّ فيه لغاتٍ أربعاً ، و " ربِّها " خفضٌ بالإضافةِ ، و " إلى " مفعولٌ مقدمٌ ناصبُه " ناظرةٌ " بمعنى مُنْتَظرة . والتقدير : وجوهٌ ناضِرةٌ منتظرةٌ نعمةَ ربِّها . وهذا فِرارٌ من إثباتِ النظر للَّهِ تعالى على مُعْتَقَدِهم .

والزمخشريُّ تمحَّل لمذهب المعتزلة بطريق أخرى من جهةِ الصناعةِ النحويةِ فقال بعد أن جَعَلَ التقديمِ في " إلى ربها " مُؤْذِناً بالاختصاص " والذي يَصِحُّ معه أَنْ يكونَ مِنْ قولِ الناس : " أنا إلى فلانٍ ناظرٌ ما يَصْنَعُ بي " يريد معنى التوقعِ والرجاءِ . ومنه قولُ القائل :

4417 وإذا نَظَرْتُ إليك مِنْ ملكٍ . . . والبحرُ دونَك زِدْتَني نِعَما

(377/793)

وسمعتُ سَرَوِيَّةً مُسْتجديَةً بمكة وقت الظهرِ حين يُغْلِقُ الناسُ أبوابَهم ويَأْوُوْن إلى مقايلهم تقول : " عُيَيْنتي ناظِرَةٌ إلى اللَّهِ وإليكم " والمعنى : أنهم لا يتوقعون النعمةَ والكرامةَ إلاَّ مِنْ

ربِّهم " قلت : وهذا كالحَوْمِ على قولِ مَنْ يقولُ : إنَّ " ناظرة " بمعنى مُنْتظرة . إلاَّ أنَّ مكيّاً قد رَدَّ هذا القولَ فقال : " ودخولُ " إلى " مع النظر يَدُلُّ على أنه نَظَرُ العَيْنِ ، وليس من الانتظار ، ولو كان من الانتظارِ لم تَدْخُلْ معه " إلى " ؛ ألا ترى أنَّك لا تقول : انتظرتُ إلى زيدٍ ، وتقول : نظرْتُ إلى زيد ، ف " إلى " تَصْحَبُ نظرَ العينِ لا تصحَبُ نَظَرَ الانتظار ، فَمَنْ قال : إن " ناظرة " بمعنى مُنتظرة فقد أخطأ في المعنى وفي الإعراب ، ووَضَعَ الكلامَ في غيرِ موضعِه " .

والنُّضْرَةُ : طَراوةُ البَشَرةِ وجمالُها ، وذلك مِنْ أثرِ النِّعمةِ يُقال : نَضِر وَجْهُه فهو/ ناضِرٌ . وقال بعضهم : مُسَلَّمٌ أنه مِنْ نَظِرِ العينِ ، إلاَّ أنَّ ذلك على حَذْفِ مضافٍ ، أي : ثوابَ ربِّها ، ونحوُه . قال مكي : " لو جاز هذا لجازَ : نَظَرْتُ إلى زيد ، أي : إلى عطاءِ زيدٍ . وفي هذا نَقْضٌ لكلامِ العربِ وتَخْليطٌ في المعاني " . ونَضَره اللهُ ونَضَّره مخففاً ومثقلاً ، أي : حَسَّنه ونَعَّمه ، وفي الحديث : " نضرَ اللَّهُ امرأً سَمِع مقالتي فوَعَاها ، فأدَّاها كما سَمِعَها " يُرْوَى بالوجهَيْنِ . وقيل للذهب : " نُضار " من ذلك . ويُقال له : النَّضْرُ أيضاً ، وأخضرُ ناضِرُ ، كأسودُ حالكٌ ، وقَدَحٌ نُضارٌ ونُضارٍ ، يُرْوَى بالإتباع والإضافة .

والعامَّة على " ناضِرَة " بألفٍ . وقرأ زيدُ بن علي " نَضِرَة " بدونها ، كفَرِحَ فهو فَرِحٌ .

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)

قوله : ﴿ فَاقِرَةٌ ﴾ : هي الداهيةُ العظيمةُ ، سُمِّيَتْ بذلك لأنها تكسِرُ فَقارَ الظَّهْرِ . قال النابغة :

(378/793)

4418 أَبَى لِيَ قَبْرٌ لا يزالُ مُقابِلِيْ . . . وضَرْبَةُ فَأْسٍ فوقَ رَأْسِيَ فاقِرَهْ

أي : داهِيَةٌ مُؤَثِّرَةٌ ، ومنه سُمِّي الفقيرُ لانكسارِ فَقارِه من القُلِّ ، وقد تقدَّم في البقرة .

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26)

قوله : ﴿ التراقي ﴾ : مفعولُ "بَلَغَتْ" ، والفاعلُ مضمرٌ [يعود] على النفسِ ، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ، كقولِ حاتم :

4419 أماوِيَّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عن الفتى . . . إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ

أي : حَشْرَجَتِ النفسُ . وقيل في البيت : إنَّ الدالَّ على النفس ذِكْرُ جُمْلَةِ ما اشتملَ عليها ، وهو الغِنى ، فكذلك هنا ذِكْرُ الإنسانِ دالٌّ على النفسِ . والتَّراقِي : جمع تَرْقُوَة ، أصلُها تَراقِوُ ، قُلِبَتْ واوُها ياءً لانكسار ما قبلها . والتَّرْقُوَة إحدى عِظامِ الصدرِ ، كذا قال الشيخ ، والمعروفُ غيرُ ذلك . قال الزمخشري : " ولكلِّ إنسانٍ تَرْقُوَتان " فعلى هذا تكونُ مِنْ باب : غليظِ الحواجب وعريضِ المناكب . والتراقِي : موضِعُ الحَشْرَجَةِ . قال :

4420 ورُبَّ عظيمةٍ دافَعتُ عنها . . . وقد بلغَتْ نفوسُهُمُ التراقِيْ

وقال الراغب : " التَّرْقُوَةُ عَظْمٌ وُصِلَ ما بين ثُغْرَةِ النحرِ والعاتِق " انتهى . وقال الزمخشري : " العِظامُ المكتنِفةُ لثُغْرَةِ النَّحْرِ عن يمينٍ وشِمالٍ " ووزنها فَعْلُوة ، فالتاءُ أصلٌ والواوُ زائدةٌ ، يَدُلُّ عليه إدخالُ أهل اللغةِ إياها في مادة " تَرَق " . وقال أبو البقاء : " والتراقي : جمع تَرْقُوَة " وهي فَعْلُوة ، وليست تَفْعُلَة ، إذ ليس في الكلام " رقو " ، وقُرِىء " التراقي " بسكونِ الياء ، وهي كقراءةِ زيدٍ " تُطْعِمون أهالِيْكم " [المائدة : 89] وقد تقدَّم توجيهُها .

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27)

(379/793)

قوله : ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ . وهذ الجملةُ هي القائمةُ مَقامَ الفاعلِ ، وأصولُ البَصْريين تَقْتَضي أَنْ لا تكونَ ؛ لأنَّ الفاعلَ عندهم لا يكونُ جملةً ؛ بل القائمُ مَقامَه ضميرُ المصدرِ ، وقد تقدَّمَ تحقيقُ هذا أولَ البقرة ، وهذا الاستفهامُ يجوزُ أن يكونَ على بابِه ، وأَنْ يكونَ استبعاداً وإنكاراً . وراقٍ اسمُ فاعلٍ : إمَّا من رَقَى يَرْقَى من الرُقية وهو كلامٌ مُعَدٌّ للاستشفاء ، يُرْقَى به المريضُ لِيُشْفَى . وفي الحديث : " وما أدراكَ أنها رُقْيَةٌ " ؟ يعني الفاتحةَ وهو مِنْ أسمائِها ، وإمَّا مِنْ رَقِيَ يَرْقَى ، من الرُّقِيِّ وهو الصعودُ ، أي : إنَّ الملائكةَ

لِكراهتِها في رُوْحِه تقول : مَنْ يَصْعَد بهذه الروح؟ يقال : رَقَى بالفتحِ من الرُّقْيَةِ ، وبالكسرِ من الرُّقِيّ . ووقف حفص على نون " مَنْ " سكتةً لطيفةً ، وتقدَّم هذا في أولِ الكهف وتحقيقُه . وذكرَ سيبويه إنَّ النونَ تُدْغَمُ في الراءِ وجوباً بغنَّةٍ وبغيرِها نحو : مَنْ راشِدٌ .

والعاملُ في " إذا بلغَت " معنى قولِه : ﴿ إلى ربِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ﴾ أي : إذا بلغَتِ الحُلْقومَ رُفِعَتْ إلى الله " ويكونُ قولُه : " وقيل : مَنْ راقٍ " معطوفاً على " بَلَغَت " .

والمِساقُ : مَفْعَل من السَّوْقِ وهو اسمُ مصدرٍ .

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31)

قوله : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ : " لا " هنا دَخَلَتْ على الماضي ، وهو مُسْتَفيضٌ في كلامِهم بمعنى : لم يُصَدِّق ولم يُصَلِّ . قال :

4421 إنْ تَغْفِرِ اللهمَّ تَغْفِرْ جَمَّا . . . وأيُّ عبدٍ لكَ لا أَلَمَّا

وقال آخر :

4422 وأيُّ خَميسٍ لا أَفَأْنا نِهابَه . . . وأسيافُنا مِنْ كَبْشِه تَقْطُرُ الدِّما

واستدلَّ بعضُهم أيضاً على ذلك بقولِ امرىء القيس :

4423 كأنَّ دِثاراً حَلَّقَتْ بلُبُوْنِه . . . عُقابُ تُنُوْفَى لا عُقابُ القواعِلِ

/ فقوله : " لا عُقابُ " عطفٌ على " عُقابُ تَنُوفَى " وهو مرفوعٌ بحلَّقَتْ ، وفي البيتَيْنِ الأَوَّلَيْنِ غُنْيَةٌ عن هذا .

وقال مكي : " لا " الثانيةُ نفيٌ ، وليستْ بعاطفةٍ ، ومعناه : فلم يُصَدِّقْ ولم يُصَلِّ " . قلت : كيف يُتَوَهَّمُ العطفُ حتى يَنْفِيَه ؟ وجعل الزمخشريُّ ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ عطفاً على الجملة مِنْ قولِه : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ﴾ قال : " وهو معطوفٌ على قوله : " يَسْأَل أَيَّان " ، أي : لا يُؤْمِنُ بالبعثِ فلا صَدَّقَ بالرسول والقرآن " ، واستبعده الشيخ .

وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32)

قوله : ﴿ ولكن كَذَّبَ ﴾ : الاستدراكُ هنا واضحٌ ؛ لأَنَّه لا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ التصدُّقِ والصلاةِ التكذيبُ والتولِّي ؛ لأنَّ كثيراً من المسلمين كذلك ، فاسْتَدْرَكَ ذلك : بأنَّ سببَه التكذيبُ والتولِّي ، ولهذا يَضْعُفُ أَنْ يُحْمَلَ نَفْيُ التصديقِ على نَفْيِ تصديقِ الرسولِ ؛ لئلا يَلْزَمَ التكرارُ ، فتقعَ " لكنْ " بين متوافقَيْن ، وهو لا يجوزُ .

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33)

قوله : ﴿ يتمطى ﴾ : جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعل " ذَهَبَ " ، وقد يجوز أَنْ يكونَ بمعنى : شرع في التمطي كقوله :

4424 فقامَ يَذُوْدُ الناسُ عنها . . . . . .

. . . . . .

(381/793)

وتمطَّى فيه قولان ، أحدُهما : أنَّه مِنْ المَطا ، والمطا : الظهرُ ، ومعناه : يَتَبَخْتَرُ ، أي : يَمُدُّ مَطاه ويَلْويه تَبَخْتُراً في مِشْيته . والثاني : أنَّ أصلَه : يَتَمَطَّطُ ، مِنْ تَمَطَّط ، أي : تَمَدَّد ، ومعناه : أنَّه يتمدَّدُ في مِشْيَتِه تَبَخْتُراً ، ومِنْ لازِمِ التبختُرِ ذلك ، فهو يَقْرُبُ مِنْ معنى الأول ويفارِقُه في مادِته ؛ إذ مادةُ المَطا : م ط و ، ومادةُ الثاني : م ط ط ، وإنما أُبْدِلَتِ الطاءُ الثالثةُ ياءً كراهةَ احتمالِ الأمثالِ نحو : تَظَنَّيْت وقَصَّيْتُ أظفاري ، وقولِه :

4425 تَقَضِّيَ البازِيْ إذا البازِيْ كَسرْ . . . والمُطَيْطاء : التَّبَخْتُرُ ومَدُّ اليَدَيْن في المَشْيِ ، والمَطيطة : الماء الخاثِرُ أسفلَ الحوضِ ؛ لأنه يتمطَّطُ ، أي : يمتَدُّ فيه .

أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34)

وتقدَّم الكلامُ على قوله : ﴿ أولى لَكَ فأولى ﴾ في آخر سورة القتال مُشبعاً ، وإنما كُرِّرَ هنا مبالغةً في التهديد والوعيد . وقالت الخنساء :

4426 هَمَمْتُ بنفسِيَ كلَّ الهمومِ . . . فأَوْلَى لنفسِيَ أَوْلَى لها

وقال أبو البقاء هنا : " وزنُ أَوْلَى فيه قولان ، أحدُهما : فَعْلَى ، والألفُ فيه للإلحاقِ لا للتأنيثِ ، والثاني : هو أَفْعَلُ ، وهو على القولَيْن هنا [عَلَم] ولذلك لم يُنَوَّنْ ، ويَدُلُّ عليه ما حكى أبو زيدٍ في " النوادر " : " هي أَوْلاةُ " بالتاءِ غيرَ مَصْروفٍ ، فعلى هذا يكونُ " أَوْلى " مبتدأً ، و " لك " الخبرُ . والثاني : أَنْ يكونَ اسماً للفعل مبنياً ومعناه : وَلِيَكَ شَرٌّ بعد شَرّ ، و " لك " تبيينٌ " .

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36)

قوله : ﴿ سُدًى ﴾ : حالٌ مِنْ فاعلِ "يُتْرَكُ" ومعناه : مُهْمَلاً يقال : إبلٌ سُدَى ، أي : مُهْملة . قال الشاعر :

4427 وأُقْسِمُ باللهِ جَهْدَ اليمينِ . . . ما خَلَقَ اللَّهُ شيئاً سُدَى

(382/793)

أي : مُهْملاً . وأَسْدَيْتُ حاجتي ، أي : ضَيَّعْتُها . ومعنى "أَسْدَى إليه معروفاً " ، أي : جعله بمنزلةِ الضَّائع عند المُسْدى إليه لا يذكره ولا يَمُنُّ به عليه .

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37)

قوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً ﴾ : العامَّةُ على الياءِ مِنْ تحتُ في " يك " رجوعاً للإنسان .

والحسن بتاءِ الخطابِ على الالتفاتِ إليه توبيخاً له .

قوله : ﴿ يمنى ﴾ قرأ حفص "يُمْنى" بالياء مِنْ تحتُ ، وفيه وجهان : أحدُهما : أنَّ الضميرَ عائدٌ على المنيِّ ، أي : يُصَبُّ ، فتكونُ الجملةُ في محلِّ جر . والثاني : أنه يعودُ للنُّطفةِ ؛ لأنَّ تأنيثَها مجازيٌّ ، ولأنَّها في معنى الماءِ ، قاله أبو البقاء ، وهذا إنما يتمشَّى على قولِ ابنِ كيسان . وأمَّا النحاةُ فيجعلونه ضرورةً كقوله :

4428 . . . . . ولا

أرضَ أبْقَلَ إبْقالَها

وقرأ الباقون " تُمْنَى " بالتاءِ مِنْ فوقُ على أنَّ الضميرَ للنُّطفة . فعلى هذه القراءةِ وعلى الوجهِ المذكورِ قبلَها تكونُ الجملةُ في محلِّ نصبٍ ؛ لأنها صفةٌ لمنصوبٍ . /

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39)

قوله : ﴿ الذكر والأنثى ﴾ : يجوزُ أنْ يكونا بَدَلَيْنِ مِنْ " الزَّوْجَيْن " ، وأنْ يكونا منصوبَيْن بإضمارِ " أعني " على القطع ، والأصلُ عَدَمُه . وقرأ العامَّةُ " الزوجَيْن " وزيدٌ بن علي " الزوجان " على لغة مَنْ يُجْري المثنى إجراءَ المقصورِ ، وقد تقدَّم تحقيقُه في طه ، ومَنْ تُنْسَبُ إليه هذه اللغةُ ، والاستشهادُ على ذلك .

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)

وقرأ العامَّةُ أيضاً " بقادرٍ " اسمَ فاعلٍ مجروراً بباءٍ زائدةٍ في خبرِ " ليس " . وزيدُ بن علي " يَقْدِرُ " فعلاً مضارعاً . والعامَّةُ على نصب " يُحْيِيَ " ب " أَنْ " لأنَّ الفتحةَ خفيفةٌ على حرفِ العلةِ . وقرأ طلحةُ بن سليمان والفياض بن غزوان بسكونها : فإمَّا أَنْ يكونَ خَفَّفَ حرفَ العلةِ بحَذْفِ حركةِ الإعرابِ ، وإمَّا أَنْ يكونَ أجرى الوصلَ مُجْرى الوقفِ .

وجمهورُ الناسِ على وجوبِ فَكِّ الإدغامِ . قال أبو البقاء : " لئلا يُجْمَعَ بين ساكنَيْن لفظاً أو تقديراً " . قلت : يعني أنَّ الحاءَ ساكنةٌ ، فلو أَدْغَمْنا لسَكَنَّا الياءَ الأولى أيضاً للإدغام فيَلْتقي ساكنان لفظاً ، وهو مُتَعَذَّرُ النطقِ ، فهذان ساكنان لفظاً . وأمَّا قولُه : " تقديراً " فإنَّ بعضَ الناسِ جوَّزَ الإدغامَ في ذلك ، وقراءتُه " أَنْ يُحِيَّ " وذلك أنه لَمَّا أراد الإدغامَ نَقَلَ حركةَ الياءِ الأولى إلى الحاء ، وأدغمها ، فالتقى ساكنان : الحاءُ لأنها ساكنةٌ في التقدير قبل النقلِ إليها والياءُ ؛ لأنَّ حركتَها نُقِلَتْ مِنْ عليها إلى الحاءِ ، واستشهد الفراءُ لهذه القراءةِ : بقوله :

4429 . . . . . تَمْشِي لسُدَّةِ بيتها فَتُعِيُّ

وأمَّا أهلُ البصرةِ فلا يُدْغِمونه البتَّةَ ، قالوا : لأنَّ حركةَ الياءِ عارضةٌ ؛ إذ هي للإعرابِ .

وقال مكي : " وقد أجمعوا على عَدَمِ الإدغامِ في حالِ الرفع . فأمَّا في حالِ النصبِ فقد أجازه الفراءُ لأجلِ تحرُّكِ الياء الثانيةِ ، وهو لا يجوزُ عند البَصْريين ؛ لأنَّ الحركةَ عارضةٌ "

قلت : ادعاؤُه الإجماعَ مردودٌ بالبيتِ الذي قَدَّمْتُ إنشاده عن الفراءِ ، وهو قوله : " فَتَعِيَّ " فهذا مرفوعٌ وقد أُدْغِمَ . ولا يَبْعُدُ ذلك ؛ لأَنَّه لَمَّا أُدْغِم ظهرَتْ تلك الحركةُ لسكونِ ما قبل الياءِ بالإِدغام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 561.587 ﴾

(384/793)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة القيامة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة عزيزة من سمعها بشاهد العلم استبصر ، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحير . . .

فالعلماء في سكون برهانه ، والعارفون في دهش سلطانه .

. أولئك في نجوم علومهم ، فأحوالهم صحو في صحو ، وهؤلاء في شموس معارفهم :

فأوقاتهم محو في محو . . .

فشتان ما هما .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

أي : أقسم بيوم القيامة .

﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ .

أي : أقسم بالنفس اللَّوَّامة ، وهي النَّفْسُ التي تلوم صاحبَها ، وتعرِف نقصانَ حالِها .

ويقال : غداً . . . كلُّ نَفْسٍ تلوم نَفْسَها : إمَّا على كُفْرِها ، وإمَّا على تقصيرها – وعلى هذا فالقَسَمُ يكون بإضمار " الرَّب " أي : أقسم بربِّ النفس اللوامة . وليس للوم النَّفْسِ في القيامةِ خطرٌ – وإنْ حُمِلَ على الكُلِّ ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلِّ النفوس غداً – ستكون على هذه الجُملة . وجوابُ القسَم قولُه : ﴿ بَلَى ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ .

أيظن أنَّا لن نبعثَه بعد موته ؟

﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ نصب على الحال ؛ أي بلى ، نسوي بنانه في الوقت قادرين ، ونقدر أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وظلف الشاة . . فكيف لا نقدر على إعادته ؟ !

﴿ بَل يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ .

يُقدِّم الزّلّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته ، وبهذا لا تَنْحَلُّ – في الوقت – عقدةُ الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبتُه ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعودَ إلى مثل ما عَمِلَ . فإذا كان استحلاءُ الزّلةِ في قلبه ، ويفكر في الرجوع إلى مثلها – فلا تصح ندامتُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ .

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ .

﴿ بَرِقَ ﴾ بكسر الراء معناها تحَيَّرَ ، ﴿ وَبَرْقٌ ﴾ بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقى مَلَكٌ ولا رسول إلاَّ وهو يقول : نفسي نفسي !

﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ كأَنهما ثوران عقيران .

ويقال : يجمع بينهما في ألاَّ نورَ لهما .

﴿ يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ ؟ والمفرّ موضع الفرار إليه ، فيقال لهم :

﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ .

اليومَ ، ولا مَهْربَ من قضاءِ الله .

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ .

أي : لا مَحِيدَ عن حُكْمِه .

﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ .

أي : يَعْرِف ما أَسْلَفَه من ذنوب أحصاها اللَّهُ – وإن كان العبدُ نسيَها .

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمِله .

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجّةٌ على نفْسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أَنه كان جاحداً كافراً ، ولو أَتى بكلِّ حجةٍ فلن تُسْمع منه ولن تنفعه .

(386/793)

قوله جلّ ذكره : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ .

لا تستعجِلْ في تَلَقُّفِ القرآنِ على جبريل ، فإنَّ عينا جَمْعَه في قلبك وحِفْظَه ، وكذلك علينا تيسيرُ قرءاته على لسانك ، فإذا قرأناه أي : جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقرائك

جَمْعَه .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

نُبيِّنُ لك ما فيه من أحكام الحلال والحرام وغيرها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعجل في التلقفِ مخافةَ النسيان ، فنُهِيَ عن ذلك ، وضمن اللَّهُ له التيسير والتسهيل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الأَخِرَةَ ﴾ .

أي : إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا ، أي : يحبون البقاء في الدنيا .

﴿ وَتَذَرُونَ الأَخِرَةَ ﴾ : أي : تتركون العملَ للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ : أي مشرقة حسنة ، وهي مشرقة لأنها إلى ربها " ناظرة " أي رائية لله .

والنظر المقرون ب " إلى " مضافاً إلى الوجه لا يكون إلاَّ الرؤية ، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قَلْبِ العادة ، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى .

ويقال : العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله .

ويقال : الوجهُ لا ينظر ولكنَّ العينَ في الوجهِ هي التي تنظر ؛ كما أنَّ النهرَ لا يجري ولكنَّ الماءَ في النهر هو الذي يجري ، قال تعالى : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [البقرة : 25] .

ويقال : في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتداخلهم حيرة ولا دَهَش ؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتمُّ من اللقاء .

(387/793)

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي ، وعندهم استهلاكُ العبدِ في وجود الحقّ أتمُّ ؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ : أي كالحةٌ عابسة . ﴿ فَاقِرَةٌ ﴾ أي : داهية وهي بقاؤهم في النار عَلَى التأبيد . تظن أن يخلق في وجوههم النظر .

ويحتمل أن يكون معنى ﴿ تَظُنُّ ﴾ : أي يخلق ظنّا في قلوبهم يظهر أَثَرُه على وجوههم .

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ .

أي ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بلغت نفوسُهم التراقيَ ، ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ . أي يقول مَنْ حَولَه : هل أحدٌ يَرْقيه ؟ هل طبيبٌ يداويه ؟ هل دواءٌ يشفيه ؟

ويقال : مَنْ حَوْله من الملائكة يقولون : مَنْ الذي يَرْقى بروحه ؛ أملائكةُ الرحمة أو ملائكة

العذاب ؟ .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ : وعلم الميت أنه الموت ! .

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ : ساقا الميت . فتقترنُ شِدَّةُ آخرِ الدنيا بشدَّةِ أوَّلِ الآخرة .

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أي الملائكةُ يسوقون روحَه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه : إمّا إلى عليين – ثم لها تفاوت درجَات ، وإمّا إلى سجّين – ولها تفاوت دَرَكات .

ويقال : الناسُ يُكَفِّنون بَدنَ الميت ويغسلونه ، ويُصَلُّون عليه . . والحقُّ سبحانه يُلْبِسُ روحَه ما تستحق من الحُلَلِ ، ويغسله بماء الرحمة ، ويصلي عليه وملائكتُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .

يعني : الكافر ما صدَّقَ اللَّهَ ولا صلَّى له ، ولكن كذَّب وتولَّى عن الإيمان . وتدل الآيةُ على أنَّ الكفارَ مُخَاطَبون بتفصيل الشرائع .

(388/793)

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ .

أي : يتبختر ويختال .

﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ .

العَربُ إذا دَعَتْ على أحدٍ بالمكروه قالوا : ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾ وهنا أتبع اللفظَ اللفظَ على سبيل المبالغة .

ويقال : معناه الويلُ لَكَ يومَ تَحيا . والويلُ لكَ يوم تَموت ، والويلُ لكَ يومَ تُبْعَث ، والويلُ لكَ يومَ تدخل النار .

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

مُهمَلاً لا يُكلَّفُ ! ؟ . ليس كذلك .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ .

﴿ مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴾ أي تُلْقى في الرَّحم ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أَي : دماً عبيطاً ، فسوَّى أَعضاءَه في بطن أُمه ، وركَّبَ أجزاءَه على ما هو عليه في الخِلْقَة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ ، وإن شاء خَلَقَ الأنثى ، وإن شاء كليهما .

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)

أَليس الذي قدر على هذا كلِّه بقادر على إحياء الموتى ؟ فهو استفهام في معنى التقرير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 654.659 ﴾

(389/793)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4)

الإعراب :

(لا) زائدة " 1 " ، (بيوم) متعلّق بـ (أقسم) ، ومثلها (لا أقسم بالنفس . . .) ،

جملة : " أقسم . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أقسم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة . . وجواب القسم لكلا الجملتين محذوف دلّ عليه ما بعده أي : لتبعثنّ .

---

(1) قيل (لا) ليست بزائدة فهي للنفي ، وفي تفسير ذلك توجيهان : الأول نفي للقسم بيوم

القيامة وبالنفس اللوّامة والثاني هي ردّ لكلام مقدّر ، كأنّهم قالوا أنت مفتر على اللّه في البعث فقال لا ثمّ ابتدأ بالقسم . . وله نظير في كلام العرب .

(390/793)

---

3 – (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ التوبيخيّ (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف " 1 " .

وجملة : " يحسب الإنسان . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لن نجمع . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

والمصدر المؤوّل (أن لن نجمع . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسب .

4 – (بلى) حرف جواب لإيجاب السؤال المنفيّ أي بلى نجمعها (قادرين) حال منصوبة من فاعل الفعل المقدّر (أن) حرف مصدريّ ونصب . . .

والمصدر المؤوّل (أن نسوّي . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (قادرين) .

وجملة : " (نجمعها) قادرين " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نسوّي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(اللوّامة) ، مؤنّث اللوّام ، صيغة مبالغة من الثلاثيّ لام ، وزنه فعّال والمؤنّث فعّالة بفتح الفاء .

البلاغة

---

(1) يجوز أن يكون اسمها ضمير متكلّم الجمع للتعظيم أي : أنّنا لن نجمع . . .

فن صحة الأقسام أو التناسب بين المعاني : قوله تعالى " لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ " .

فهذه الآية تعدّ من محاسن التقسيم ، لتناسب الأمرين المقسم بهما ، فقد أقسم بيوم البعث أولا ، ثم أقسم بالنفوس المجزية فيه ، على حقيقة البعث والجزاء .

[سورة القيامة (75) : الآيات 5 إلى 6]

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (اللام) زائدة (يفجر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (أمامه) ظرف أستعير للزمان - وكان للمكان - منصوب " 1 " ، (أيّان) اسم استفهام في

محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (يوم) .

جملة : " يريد الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفجر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أن يفجر . . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل يريد – وهو المحلّ البعيد –

وجملة : " يسأل . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يفجر " 2 " .

وجملة : " أيّان يوم . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل يسأل المعلّق بالاستفهام بتقدير حرف الجرّ .

الصرف :

(5) أمامه : اسم ظرف للمكان – أستعير في الآية للزمان – وزنه فعال بفتح الفاء .

(6) أيّان : اسم استفهام – وقد يكون للشرط – مستعمل للدلالة على الزمان ، وزنه فعّال بفتح الفاء .

---

(1) أي يريد الإنسان أن يدوم على فجوره في ما يستقبله من الزمان .

(2) يجوز أن تكون استئنافا بيانيّا . . أو بدل من جملة يريد .

[سورة القيامة (75) : الآيات 7 إلى 10]

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (يومئذ) ظرف منصوب - أو مبنيّ - متعلّق بـ (يقول) وإذ اسم ظرفيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أين) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (المفرّ) .

جملة : " برق البصر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " خسف القمر . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة برق البصر .

وجملة : " جمع الشمس . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة برق البصر .

وجملة : " يقول الإنسان . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أين المفرّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(المفرّ) ، مصدر ميميّ من الثلاثيّ فرّ " 1 " ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، نقلت حركة العين إلى الحرف قبلها لمناسبة التضعيف .

[سورة القيامة (75) : الآيات 11 إلى 13]

كَلَّا لا وَزَرَ (11) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر عن طلب الفرار (لا) نافية

---

(1) لا يجوز أن يكون اسم مكان لأنه يجب أن يكون على مفعل - بكسر العين - مضارعه يفرّ . .

(393/793)

للجنس ، والخبر محذوف تقديره موجود (إلى ربّك) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (المستقرّ) ، (يومئذ) ظرف متعلّق بالخبر المحذوف " 1 " ، و(يومئذ) الثاني متعلّق بـ (ينبّأ) ، (بما) متعلّق بـ (ينبّأ) . .

جملة : " لا وزر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إلى ربّك . . المستقرّ . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ينبّأ الإنسان . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " قدّم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أخّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(وزر) ، اسم بمعنى الملجأ أو الحصن ، وزنه فعل بفتحتين .

[سورة القيامة (75) : الآيات 14 إلى 15]

بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15)

الإعراب :

(بل) للإضراب (على نفسه) متعلّق بـ (بصيرة) " 2 " وهو الخبر و(التاء) للمبالغة " 3 " ، (الواو) حالية .

جملة : " الإنسان . . بصيرة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ألقى . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في بصيرة . .

وجواب الشرط محذوف تقديره : ما قبلت منه .

---

(1) لا يجوز تعليقه بالمستقرّ ، فإن كان مصدرا ميمّيا فلا يتقدّم عليه المعمول ، وإن كان اسم مكان فلا عمل له . [. . . . .]

(2) أو هو خبر مقدّم للمبتدأ بصيرة بحذف موصوف أي عين بصيرة أو جوارح بصيرة ، والجملة خبر عن المبتدأ الإنسان .

(3) كما يقال فلان حجّة أو عبرة . . ويجوز أن يقدّر الإنسان بالجوارح .

الصرف :

(ألقى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله ألقي - بياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(معاذير) ، جمع معذرة على غير قياس " 1 " ، وهو اسم جمع على رأي الزمخشريّ . .

[سورة القيامة (75) : الآيات 16 إلى 19]

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (به) متعلّق بـ (تحرّك) ، (اللام) للتعليل (تعجل) مضارع منصوب بأن مضمرة .

والمصدر المؤوّل (أن تعجل) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تحرّك) .

(به) الثاني متعلّق بـ (تعجل) ، (علينا) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (الفاء) عاطفة ، والثانية

رابطة للجواب.

جملة: "لا تحرّك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "تعجل . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

---

(1) انظر الآية (165) من الأعراف.

وجملة: "إنّ علينا جمعه . . . "لا محلّ لها تعليل للنهي.

وجملة: "قرأناه . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "اتّبع . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

19 - (ثمّ) حرف عطف (علينا) متعلّق بخبر إنّ الثاني (بيانه) اسم إنّ منصوب . .

وجملة: "إنّ علينا بيانه "لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة.

الصرف:

(قرآنه)، مصدر الثلاثيّ قرأ، مضاف إلى المفعول أي قراءتك إيّاه، وزنه فعلان بضمّ فسكون.

الفوائد:

- حرص النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) على حفظ القرآن : أشارت هذه الآية إلى حرص النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) الشديد على حفظ آيات الوحي ، حتى لا تتفلت منه ، فقد ورد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : كان النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فأنزل اللّه عز وجل (لا تحرك به لسانك) ، فكان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) إذا أتاه جبريل بعد ذلك استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) كما قرأ وفي رواية : كما وعده اللّه تعالى . هذا لفظ الحميدي . ورواه البغوي من طريق البخاري ، وقال فيه : كان النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، كان مما يحرك لسانه وشفتيه ، فيشتد عليه ، وكان يعرف منه ، فأنزل اللّه وعز وجل الآية : (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) . قال : إن علينا أن نجمعه في صدرك ونقرأه (فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)

(396/793)

فإذا أنزلناه فاستمع (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ) علينا أن نبينه بلسانك . فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده اللّه تعالى . وفي رواية : كان يحرك شفتيه إذا نزل عليه ، يخشى أن يتفلت منه ، فقيل له : (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)

أي نجمعه في صدرك ، وقرآنه أي تقرأه .

[سورة القيامة (75) : الآيات 20 إلى 21]

كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21)

الإعراب :

(كلّا) للردع (بل) للإضراب (الواو) للعطف .

وجملة : " تحبّون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تذرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة القيامة (75) : الآيات 22 إلى 25]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (25)

الإعراب :

(وجوه) مبتدأ مرفوع " 1 " نعت بـ (ناضرة) ، (يومئذ) ظرف منصوب - أو مبنيّ - مضاف إلى اسم ظرفيّ إذ . . متعلّق بالنعت ناضرة (إلى ربّها) متعلّق بالخبر (ناظرة) ، (الواو) عاطفة (وجوه يومئذ باسرة) مثل الآية الأولى (بها) متعلّق بالمبنيّ للمجهول (يفعل) ، (فاقرة) نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يفعل . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يظنّ .

جملة : " وجوه . . . إلى ربّها ناظرة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " وجوه . . تظنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة .

وجملة : " تظنّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (وجوه) الثاني .

وجملة : " يفعل بها فاقرة " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(22) ناضرة : مؤنّث ناضر ، اسم فاعل من (نضر) الثلاثي وزن فاعل وهي فاعلة .

(24) باسرة : مؤنّث باسر ، اسم فاعل من (بسر) بمعنى عبس ، وزنه فاعل .

---

(1) جاز البدء بالنكرة لأنها وصفت .

---

(25) فاقرة : اسم للداهية . . وفي المصباح فقرت الداهية الرجل نزلت به ، وزنه فاعلة .

الفوائد :

- هل يرى المؤمنون ربهم في الآخرة ؟

قال علماء أهل السنة : رؤية اللّه سبحانه وتعالى ممكنة ، غير مستحيلة عقلا ، وأجمعوا على وقوعها في الآخرة ، وأن المؤمنين يرون اللّه سبحانه وتعالى دون الكافرين ، بدليل قوله

تعالى : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) . وزعمت طوائف من المعتزلة والخوارج والمرجئة أن اللّه تعالى لا يراه أحد من خلقه ، وأن رؤيته مستحيلة عقلا ، لكن قولهم هذا لا يستند إلى دليل من الكتاب أو السنة ، وإنما يقوم على الرأي والظن ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة ، وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف الأمة ، على إثبات رؤية اللّه تعالى ، وقد رواها نحو من عشرين صحابيا عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، وآيات القرآن فيها مشهورة ، واعتراض المعتزلة لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة ، وليس هنا موضع ذكرها ثم مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها اللّه في خلقه ، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ، ولا مقابلة المرئي ، ولا غير ذلك .

وأما الأحاديث

فقد روي عن ابن عمر رضي اللّه عنهما : أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على اللّه من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)

و

عن جرير بن عبد اللّه قال : كنا عند رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) فنظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) .

هذا وقد وردت أحاديث أخرى صحيحة بهذا الصدد لا مجال لعرضها جميعا .

[سورة القيامة (75) : الآيات 26 إلى 30]

كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30)

الإعراب :

(إذا) متعلّق بالجواب الذي دلّ عليه قوله (إلى ربّك يومئذ المساق) ، وفاعل (بلغت) محذوف دلّ عليه السياق وهو الروح أو النفس (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره (راق) ، وهو مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (بالساق) متعلّق بـ (التفّت) ، (إلى ربّك) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (المساق) ، (يومئذ) ظرف زمان منصوب - أو مبنيّ - متعلّق بما تعلّق به الظرف إذا فهو بدل منه . .

والمصدر المؤوّل (أنّه الفراق . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّ .

جملة : " بلغت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بلغت .

وجملة : " من راق . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " ظنّ . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بلغت . .

وجملة : " التفّت الساق . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بلغت . .

وجملة : " إلى ربّك . . . المساق " لا محلّ لها تفسير لجواب إذا المقدّر أي :

إذا بلغت التراقي . . تساق إلى حكم ربّها .

---

(1) هي في الأصل مقول القول .

الصرف :

(التراقي) جمع ترقوة ، اسم للعظم الأعلى الممتدّ من القصّ إلى الكتف ، أو هو مقدم الحلق في أعلى الصدر حيث ترقى فيه النفس ، وزنه تفعلة بفتح التاء والعين واللام ، ووزن التراقي تفاعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله التراقو ، جاء ما قبل الواو مكسورا قلبت ياء .

(راق) ، اسم فاعل من (رقي) أو من (رقى) ، الأول بمعنى صعد باب فرح ، والثاني قرأ عليه ليشفيه باب ضرب ، وزنه فاع ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، فهو منقوص .

(المساق) ، مصدر ميميّ من الثلاثيّ ساق ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، وفيه إعلال بالقلب أصله مسوق بفتح الميم والواو بينهما ساكن . .

نقلت فتحة الواو إلى السين وسكّنت الواو - إعلال بالتسكين - تحرّكت السين بالفتح قبل الواو قلبت الواو ألفا - إعلال بالقلب -

البلاغة :

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ " .

في الآية الكريمة استعارة تمثيلية ، لشدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق ، وشدة القدوم على ربه جلّ شأنه . وقد التفّت الشدتان ببعضهما ، كما تلتف الساق على الساق . ويقال : شمرت الحرب عن ساق استعارة لشدّتها .

[سورة القيامة (75) : الآيات 31 إلى 33]

فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لا) نافية في الموضعين (لكن) حرف استدراك مهمل (إلى أهله) متعلّق

بـ(ذهب) .

جملة : "لا صدّق . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "لا صلّى . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كذّب . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تولّى . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب .

وجملة : " ذهب . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب أو تولّى .

(400/793)

وجملة : "يتمطّى . . . "في محلّ نصب حال من فاعل ذهب .

الصرف :

(صلّى) ، الألف منقلبة عن ياء وأصلها واو لأنّ جمع الصلاة صلوات . . تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه فعّل .

(يتمطّى) ، الألف منقلبة عن ياء وأصلها واو ، فهي مأخوذة من المطا وهو الظهر ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه يتفعّل .

[سورة القيامة (75) : الآيات 34 إلى 35]

أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35)

الإعراب :

(أولى) خبر لمبتدأ محذوف تقديره العقاب أو الهلاك " 1 " ، (لك) متعلّق بـ (أولى) ، (الفاء) عاطفة (أولى) الثاني خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي التهديد أو الشرّ (ثمّ) حرف عطف . .

جملة : " (العقاب) أولى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (هو) أولى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أولى لك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة للتوكيد .

وجملة : " (هو) أولى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولى لك .

---

(1) حكى المحلّي أنّ (أولى) اسم فعل ماض بمعنى وليك شرّ بعد شرّ ، والفاعل ضمير مستتر يعود على ما يفهم من السياق أي شرّ أو ما تكره ، اللام في (لك) للتبيين فهي زائدة ، وضمير المخاطب مفعول به ، وأولى الثاني خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي مضمون معنى أولى الأول .

[سورة القيامة (75) : آية 36]

أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (سدى) حال منصوبة من ضمير يترك .

والمصدر المؤوّل (أن يترك) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسب .

جملة : "يحسب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يترك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

الصرف :

(سدى) ، صفة مشتّقة للواحد والجمع يقال : إبل سدى أي مهملة . . و(الألف) منقلبة عن ياء . . وقال العكبري : الألف منقلبة عن واو . . وجاء في المصباح سديت الأرض فهي سدية من باب تعب كثر سداها وسدا الرجل سدوا من باب قال مدّ يده نحو الشيء ، وسدا البعير سدوا مدّ يده في السير . . وأسديته تركته سدى أي مهملا .

[سورة القيامة (75) : الآيات 37 إلى 40]

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (39) أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (يك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف (من منيّ) متعلّق بنعت لـ (نطفة) ، والضمير اسم (كان) يعود على المنيّ ، وفاعل (خلق) ضمير يعود

على اللّه وكذلك (سوّى) و(جعل) ، (منه) متعلّق بـ (جعل) بتضمينه معنى خلق (الذكر) بدل من الزوجين منصوب .

جملة : " لم يك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يمنى . . . " في محلّ جرّ نعت منيّ .

وجملة : " كان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يك .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان .

وجملة : " سوّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان .

40 - (الهمزة) مثل الأولى (قادر) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس (أن) حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤوّل (أن يحيي . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (قادر) .

وجملة : " ليس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(منيّ) ، اسم لماء الذكر المقذوف في الرحم ، وزنه فعيل .

(يمنى) ، فيه إعلال بالقلب أصله يمني ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(سوّى) ، فيه إعلال بالقلب أصله سوّي - بالياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(الموتى) جمع ميّت . . انظر الآية (28) من سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 29 صـ 167.180 ﴾

(402/793)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(75) سورة القيامة

مكيّة وآياتها أربعون

[سورة القيامة (75) : الآيات 1 إلى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ

(3) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (4)

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (5) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (6) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9)

يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لا وَزَرَ (11) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)

وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (15) لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (19)

اللغة :

(بَنانَهُ) البنان أطراف الأصابع جمع أو اسم جمع لبنانة قولان وفي المختار : " البنانة واحد البنان وهي أطراف الأصابع ويقال بنان مخضّب لأن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فإنه يؤنّث ويذكّر " .

(بَرِقَ) يبرق من باب دخل برقا وبروقا وبرقانا وبريقا البرق : ظهر والشيء : لمع وتلألأ والسماء : بدا منها البرق والرجل : توعّد وبرق يبرق من باب تعب برقا تحيّر ودهش فلم يبصر وقد قرئ بهما معا .

(خَسَفَ) أظلم وذهب ضوءه .

(وَزَرَ) ملجأ يتحصن به وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك .

الإعراب :

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ) قال الزمخشري : إدخال لا على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم قال امرؤ القيس :

(403/793)

ولا وأبيك ابنة العامريّ لا يدّعي القوم أني أفرّ

وإنما كان دخول لا النافية قبل القسم شائعا في لسان العرب لأنه غالبا يكون لردّ دعوى الخصم ونفيها فالتقدير : ولا يحصل ذلك وحق أبيك ، وقال غوية بن سلمى :

ألا نادت أمامة باحتمال لتحزنني فلا بك ما أبالي

وقال الزمخشري : " وفائدتها توكيد القسم وقالوا إنها صلة مثلها في " لئلا يعلم أهل الكتاب " واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله ، وأجابوا بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض والاعتراض صحيح لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ولكن الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته والوجه أن يقال هي للنفي والمعنى أنه

لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له يدلك على ذلك قوله تعالى : " فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم " فكأنه بإدخال حرف النفي يقول :

(404/793)

إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام يعني أنه يستأهل فوق ذلك وقيل إن لا نفي لكلام وردّ له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا أي ليس الأمر على ما ذكرتم ثم قيل أقسم بيوم القيامة " وقيل هي ردّ لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين . وقد تقدم الكلام عليها في الواقعة فجدّد به عهدا . وأقسم فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا وبيوم القيامة متعلقان بأقسم (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) عطف على الجملة السابقة واللوّامة نعت للنفس أي التي تلوم نفسها في يوم القيامة على ما فرط منها من قصور أو التي لا تزال تلوم نفسها في الدنيا ، وقد روي أنه عليه السّلام قال : " ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة إن عملت خيرا قالت : كيف لم أزدد وإن عملت شرّا قالت : ليتني كنت أقصرت عن الشر " وجواب القسم محذوف أي لتبعثنّ دلّ عليه ما بعده وهو : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ويحسب فعل مضارع مرفوع والإنسان فاعل

وأن مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن وما في حيّزها في موضع الخبر والفاصل هنا حرف النفي وأن المخففة وما في حيّزها سادّة مسدّ مفعولي يحسب وعظامه مفعول نجمع للبعث والإحياء . قال النحّاس : وإنما خصّ العظام لأنها قالب الخلق .

(بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ) بلى حرف جواب وهو إيجاب لما بعد

(405/793)

النفي المنسحب عليه الاستفهام وقادرين حال من فاعل الفعل المقدّر المدلول عليه بحرف الجواب أي بلى نجمعها قادرين وهذا هو الوجه ، وقال بعضهم هو منصوب على أنه خبر كان مضمرة أي بلى كنّا قادرين في الابتداء وليس بذاك . وقرئ قادرون رفعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي بلى نحن قادرون ، وعلى حرف جر وأن المصدرية وما في حيّزها في تأويل مصدر مجرور بعلى والجار والمجرور متعلقان بقادرين وفاعل نسوّي ضمير مستتر تقديره نحن وبنانه مفعول به . وعند سيبويه تنتصب قادرين بفعل مقدّر تقديره نجمعها قادرين . (

(406/793)

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ) بل حرف عطف للإضراب الانتقالي ويريد معطوف على أيحسب فيجوز أن يكون مثله استفهاما وأن يكون إيجابا ويجوز أن تكون بل لمجرد الإضراب الانتقالي من غير عطف كأنه أضرب عن الكلام الأول وأخذ في آخر ، ويريد الإنسان فعل مضارع وفاعل ومفعول يريد محذوف والمعنى بل يريد الإنسان الثبات والديمومة على ما هو عليه من عدم التقيد بقيد الإيمان ليسترسل على فجوره ويدوم على غيّه واللام للتعليل ويفجر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر تقديره هو يعود على الإنسان وأمامه ظرف مكان استعير للزمان أي ليستمر في فجوره ويدوم عليه فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه ولا يتنصّل منه ولام التعليل متعلقة بيريد ، وأعربه الجلال وغيره على وجه آخر خلاصته أن اللام زائدة ويفجر منصوب بأن مقدرة والمصدر المنسبك منه ومن أن مفعول يريد ولا داعي لزيادة اللام فالوجه الأول هو الصحيح (يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ) الجملة في موضع نصب على الحال أي يريد أن يستمر في فجوره في حال كونه سائلا على سبيل الاستهزاء أيان يوم القيامة وقيل مستأنفة وقال أبو البقاء تفسير ليفجر فتكون مفسّرة مستأنفة أو بدلا من الجملة قبلها لأن التفسير يكون بالاستئناف وبالبدل وأيان اسم استفهام في محل نصب على الظرفية

الزمانية وهو متعلق بمحذوف في محل رفع خبر مقدّم ويوم القيامة مبتدأ مؤخر (فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ) الفاء استئنافية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بالجواب وهو يقول وجملة برق البصر جملة فعلية في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) عطف على برق البصر وهو فعل ماض وفاعل (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) عطف أيضا داخل في حيز فعل الشرط وجمعهما من آيات اللّه الكبرى (يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) جملة يقول الإنسان لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ويوم ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بيقول والتنوين عوض عن جملة أي يوم إذ برق البصر إلخ وأين اسم استفهام في محل نصب ظرف مكان والظرف متعلق بمحذوف في محل رفع خبر مقدم والمفر مبتدأ مؤخر والمفر مصدر ميمي بمعنى الفرار او اسم مكان للفرار والأول مفتوح الفاء والثاني مكسورها وقد قرئ بهما (كَلَّا لا وَزَرَ) كلا حرف ردع وزجر عن طلب الفرار ولا نافية للجنس ووزر اسمها المبني على الفتح وخبرها محذوف أي موجود متاح لهم (إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)

إلى ربك خبر مقدم ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بفعل مقدّر دلّ عليه المستقر أي يستقر الأمر إلى ربك يوم إذ كانت هذه الأمور المذكورة ولا يجوز أن يتعلق بالمستقر لأنه إن

كان مصدرا فلتقدمه وإن كان مكانا فلا عمل له البتّة ، والمستقر مبتدأ مؤخر (يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

(408/793)

الجملة تفسيرية مستأنفة كما تقدم وينبأ فعل مضارع مبني للمجهول والإنسان نائب فاعل ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بينبأ وبما في موضع المفعول الثاني وجملة قدّم وأخّر المعطوفة عليها لا محل لها لأنها صلة ما أي يخبر الإنسان يوم إذ كانت هذه الأمور الثلاثة وهي برق البصر وخسف القمر والجمع بين الشمس والقمر بما قدّم من عمل عمله وبما أخّر منه لم يعمله (بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

بل حرف عطف وإضراب انتقالي والإنسان مبتدأ وعلى نفسه متعلقان ببصيرة وبصيره يجوز فيها أن تكون خبرا للإنسان وهو الأرجح والمعنى بل الإنسان بصيرة على نفسه و على هذا يرد السؤال الآتي : لما ذا أنّث الخبر ؟ وقد اختلف النحاة في الإجابة فقال بعضهم الهاء فيه ليست للتأنيث بل للمبالغة وقال الأخفش : هو كقولك فلان عبرة وحجّة وقيل : المراد بالإنسان الجوارح فكأنه قال : بل جوارحه بصيرة أي شاهدة ويجوز أن تكون بصيرة مبتدأ مؤخرا وعلى نفسه خبرا مقدما والجملة خبر عن الإنسان وعلى هذا تكون بصيرة

صفة لمحذوف أي عين بصيرة أو جوارح والتاء على هذا الوجه للتأنيث وإلى هذا ذهب الزمخشري فقال : " بصيرة : حجة بيّنة وصفت بالبصارة على المجاز كما وصفت الآيات بالإبصار في قوله : فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ، أو لأعين بصيرة " ويجوز أن يكون على نفسه خبرا وبصيرة فاعل به والأصل في الإخبار الإفراد والأوجه الثلاثة متساوية في القوة والأرجحية . (وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ)

(409/793)

الواو حالية من الفاعل المستكن في بصيرة ولو شرطية وألقى فعل ماض وهو فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره هو ومعاذيره مفعول به وجواب الشرط محذوف أي ما ساغت وما قبلت والمعاذير جمع معذرة على غير قياس كملاقيح ومذاكير جمع لقحة وذكر ، وللنحويين في هذا ونحوه قولان : أحدهما أنه جمع للملفوظ به وهو لقحة والثاني أنه جمع لغير بملفوظ به بل مقدّر أي ملقحة ومذكار قال الزمخشري : " فإن قلت أليس قياس المعذرة أن يجمع على معاذر معاذير ؟ قلت المعاذير ليست جمع معذرة بل اسم جمع لها ونحوه المناكير في المنكر " وقال أبو حيان معقبا : " وليس هذا البناء من أبنية اسم الجموع وإنما هو من أبنية جمع التكسير فهو كمذاكير وملاميح والمفرد منهما لمحة وذكر ولم يذهب أحد إلى أنهما من أسماء

الجموع وقيل هما جمع للمحة وذكر على غير قياس أو هما جمع لمفرد لم ينطق به وهو مذكار وملمحة " (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)

الجملة مقول قول محذوف مستأنف ولا ناهية وتحرك فعل مضارع مجزوم بلا وبه متعلقان بتحرك ولسانك مفعول به واللام لام التعليل وتعجل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واللام وما في حيّزها متعلقة بتحرك وبه متعلقان بتعجل والضمير للقرآن أي بقراءته وحفظه على عجلة لئلا يفلت منك ، ثم علّل النهي عن العجلة بقوله : إن علينا جمعه . وإن وخبرها المقدّم واسمها المؤخر وقرآنه عطف على جمعه (فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ)

(410/793)

الفاء عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملته قرأناه في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاء رابطة لجواب إذا واتبع فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وقرآنه مفعول به أي فكن مقفيا فيه ولا تراسله وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وإن حرف مشبه بالفعل وعلينا خبر إن المقدّم وبيانه اسم إن المؤخر .

البلاغة :

في قوله : " لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة " فن " صحة الأقسام " وسمّاه صاحب المثل السائر " التناسب بين المعاني " وقد مرّت أمثلة كثيرة منه في هذا الكتاب كما تحدّثنا عنه بإسهاب والآية التي نحن بصددها تعدّ من محاسن التقسيم لتناسب الأمرين المقسم بهما ، فقد أقسم بيوم البعث أولا ثم أقسم بالنفوس المجزية فيه على حقيقة البعث والجزاء ، فسبحان المتكلم بهذا الكلام .

[سورة القيامة (75) : الآيات 20 إلى 40]

كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (22) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (24)

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (25) كَلاَّ إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ راقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29)

إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (30) فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى (31) وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34)

ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (37) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (39) أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (40)

اللغة :

(ناضِرَةٌ) من النضرة حسنة مضيئة والنضرة هي التنعم ومنه غصن ناضر ، يقال : نضر ينضر من باب دخل ونضر ينضر من باب تعب ونضر ينضر من باب ظرف نضرا ونضرة ونضرا ونضورا ونضارة الوجه أو اللون أو الشجر وغيرها : نعم وحسن وكان جميلا فهو ناضر ونضر ونضير ، وأنضر العود أيضا قال الكميت :

ورت بك عيدان المكارم كلها وأورق عودي في ثراك وأنضرا

وفي الأساس : " ولها سوار من نضر ونضار وهو الذهب وقيل : كل خالص نضار من ذهب وغيره ، وقدح من نضار وهو أثل ورسيّ اللون بغور الحجاز ، ومن المجاز : نضر وجهه : حسن وغضّ وجارية غضة

ناضرة وغلام غضّ : ناضر ونضر اللّه وجهه وأنضره : حسّنه وقد يقال نضره بالتخفيف ووجه منضور وليس بذاك ، قال :

نضّر اللّه أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

وفي الحديث " نضّر اللّه من سمع مقالتي فوعاها " ونجار نضار : خالص ، قال الأفوه :

كرم الفعل إذا ما فعلوا ونجار في اليمانين نضار "

(فاقِرَةٌ) داهية عظيمة تكسر الظهر أو فقاره والفقار بفتح الفاء كما في القاموس وهو جمع

فقارة بفتح الفاء وفي المصباح : " وفقرت الداهية الرجل فقرا من باب قتل نزلت به فهو فقير فعيل بمعنى مفعول وفقارة الظهر بالفتح الخرزة والجمع فقار بحذف الهاء مثل سحابة وسحاب ، قال ابن السكيت : ولا يقال فقارة بالكسر والفقرة لغة في الفقارة وجمعها فقر وفقرات مثل سدرة وسدر وسدرات " وفي القاموس : " والفقر بالكسر والفقرة والفقارة بفتحهما ما يتصل من عظام الصلب من لدن الكاهل إلى العجب " .

(التَّراقِيَ) جمع الترقوة وهي العظم الذي في أعلى الصدر بين ثغرة النحر والعاتق وهما ترقوتان والجمع التراقي والترايق ويقال : ترقاه ترقاة أي أصاب ترقوته وقد بلغت روحه التراقي إذا شارف الموت .

(راقٍ)

(412/793)

اسم فاعل إما من رقي بالفتح في الماضي والكسر في المضارع من الرقية وهي كلام معد للاستشفاء يرقى به المريض ليشفى وفي الحديث : وما أدراك أنها رقية يعني الفاتحة وهي من أسمائها وإما من رقي بالكسر في الماضي والفتح في المضارع من الرقي وهو الصعود أي إن الملائكة تقول : من يصعد بهذه الروح .

(يَتَمَطَّى) مضارع تمطى وفيه قولان : أحدهما أنه من المطا وهو الظهر ومعناه يتبختر أي يمدّ مطاه ويلويه تبخترا في مشيته والثاني أن أصله يتمطط من تمطط أي تمدّد ومعناه أنه يتمدد في مشيته تبخترا ومن

لازم التبختر ذلك فهو يقرب من معنى الأول ويفارقه في مادته إذ مادة المطا م ط وو مادة الثاني م ط ط وإنما أبدلت الطاء الثانية ياء كراهة اجتماع الأمثال والمطيطاء التبختر ومدّ اليدين في المشي والمطيط الماء الخاثر أسفل الحوض لأنه يتمطط أي يمتد فيه وفي الحديث : إذا مشيت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم وفي كتب اللغة : ومن المجاز تمطي الليل إذا طال قال امرؤ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازا وناء بكلكل

وقال بيهس :

كلما قلت قد تقضّى تمطّى حالك اللون دامسا يحموما

(سُدىً) هملا لا يكلف بالشرائع يقال إبل سدى أي مهملة وأسديت حاجتي أي ضيعتها ومعنى أسدى إليه معروفا أنه جعله بمعنى الضائع عند المسدى إليه لا يذكره ولا يمنّ به عليه ، وفي المصباح " والسدى وزان الحصى من الثوب خلاف اللحمة وهو ما يمدّ طولا في النسج وأسديت الثوب أقمت سداه والسدى أيضا ندى الليل وبه يعيش الزرع وسديت الأرض فهي سدية من باب تعب كثر سداها وسدا الرجل سدوا من باب قال : مدّ يده نحو الشيء

وسدّ البعير سدوا مدّ يده في السير وأسديته بالألف تركته سدى أي مهملا وأسديت إليه معروفا اتخذته عنده " .

(413/793)

وفي اللسان والأساس وغيرهما : " جمل سدى وإبل سدى مهملة وقوم سدى وأرض سدى لا تعمر ووقع السندي والسدى وهو ما يقع بالليل وهذا الثوب سداه حرير ، وأسديته وأسدى الحائك الثوب وسدّاه ومن المجاز : قد أسديت فألحم ، وأسرجت فألجم وأسدى إليه معروفا وسدّى منطقا حسنا وسدّى عليه الوشاة ، قال عمر بن أبي ربيعة :

وإنّا لمحقوقون أن لا تردّنا أقاويل ما سدّوا علينا ولصّقوا

وأسدى بين القوم : أصلح وما أنت بلحمة ولا سداة : لا تضرّ ولا تنفع والريح تسدي المعالم وتنيرها ، قال عمر بن أبي ربيعة :

لمن الديار كأنهنّ سطور تسدي معالمها الصبا وتنير

وتسداه : علاه وأخذه من فوقه كما يفعل سدى الليل قال :

وما أبو سمرة بالرث ألوان يوم تسدى الحكم بن مروان

وذلك أنه أخذ بناصيته وهو على فرس .

(تَمَنًى) تصب في الرحم ، والمني : ما يخرج عن الجماع من الماء الدافق .

الإعراب :

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ) حرف ردع وزجر وبل إضراب انتقالي وتحبون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والخطاب لكفّار قريش والإنسان عموما وقرىء بالتاء على سبيل الالتفات وبالياء على طريق الغيبة والعاجلة مفعول به أي الدنيا (وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) عطف على الجملة السابقة وقرىء بالتاء والياء أيضا على ما تقدم (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ) وجوه مبتدأ وناضرة نعت له ويومئذ منصوب على الظرفية بناضرة وإلى ربها متعلقان بناظرة وناظرة خبر وجوه والمعنى أن الوجوه الحسنة يوم القيامة ناظرة إلى ربها وهذا معنى صحيح وتخريج سهل ، ويجوز أن يكون وجوه مبتدأ أيضا وناضرة خبره ويومئذ ظرف منصوب بناضرة وسوّغ الابتداء بالنكرة هنا كون الموضع موضع تفصيل ويكون ناظرة نعتا لوجوه أو خبرا ثانيا أو خبرا لمبتدأ محذوف وإلى ربها متعلقان

(414/793)

بناظرة ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله والتنوين عوض عن جملة أي يوم إذ تقوم القيامة ، وسيأتي مزيد من الكلام على هاتين الآيتين في باب الفوائد (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ

يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ) عطف على ما تقدم وقد تقدم القول في الإعراب ولا بدّ من التنبيه إلى أن يومئذ ليست تخصيصا للنكرة فيسوغ الابتداء بها لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثة وإنما هو معمول لباسرة كما ذكرنا أنه معمول لناضرة فيما تقدم وجملة تظن يجوز أن تكون خبرا على الوجه الأول أو خبرا بعد خبر وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي تظن وبها متعلقان بيفعل وفاقرة نائب فاعل ليفعل ومعنى الظن هنا الإيقان أو التوقع مع غلبة الاعتقاد وذلك لأنه وقت رفع الشكوك (كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ) كلا ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة وتذكير لهم بما يئولون إليه من الموت الذي تنقطع العاجلة عنده وينتقل منها إلى الآجلة ، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة بلغت في محل جر بإضافة الظرف إليها وفاعل بلغت مستتر تقديره هي يعود إلى النفس الدّال عليها سياق الكلام وإن لم يجر لها ذكر كما قال حاتم :

أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وتقول العرب أرسلت يريدون جاء المطر ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء . والتراقي مفعول به (وَقِيلَ مَنْ راقٍ)

الواو عاطفة وقيل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو أي من حوله ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وراق خبره وهو مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين وجملة من راق مقول القول ولا أدري معنى قول السمين

" وهذه الجملة هي القائمة مقام الفاعل " (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ) الواو عاطفة وظن فعل ماض معناه أيقن وسمي اليقين ظنا لأن الإنسان ما دامت روحه في بدنه فإنه يطمع في

(415/793)

ديمومة الحياة لشدة حبه لها وتعلقه بها ، وأن واسمها والظرف خبرها وأن وما في حيّزها في موضع نصب سدّت مسدّ مفعولي ظن (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) عطف أيضا ، وسيأتي المزيد من معناه في باب البلاغة (إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدّم ويومئذ ظرف متعلق بالمساق وقد أضيف إلى مثله والتنوين عوض عن جمل أربع : وهي بلغت الروح التراقي ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والتفّت الساق بالساق . والمساق مبتدأ مؤخر وجواب إذا الذي هو العامل فيها يدل على قوله إلى ربك يومئذ المساق أي تساق إلى حكم ربها ومشيئته والمساق مفعل من السوق فهو اسم مصدر (فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى) عطف على قوله أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ولا نافية وصدق فعل ماض وهو دليل على جواز دخول لا النافية على الماضي وفاعله مستتر تقديره هو أي الإنسان ولا صلّى عطف على فلا صدق وقيل عطف على جملة يسأل أيّان يوم القيامة (وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) عطف أيضا ولكن مخففة مهملة وكذب فعل ماض أي

الإنسان وتولى عطف عليه (ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي والسر الاستبعاد لأن من صدر عنه مثل ذلك ينبغي أن يخاف من حلول غضب اللّه فيمشي خائفا متطأمنا ولكن هذا يمشي متبخترا متعجرفا يطاول أعنان السماء وهو أهون قدرا وأخسّ مكانا ، وإلى أهله متعلقان بذهب وجملة يتمطى حالية من فاعل ذهب (أَوْلى لَكَ فَأَوْلى) تقدم الكلام مطولا حول إعراب هذه الكلمة في سورة القتال (ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى) عطف على ما تقدم والتكرير للتأكيد وزيادة التهديد ، وقد تشبثت الخنساء بأهداب هذا التكرير فقالت :

هممت بنفسي كل الهموم فأولى لنفسي أولى لها

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) الهمزة للاستفهام الإنكاري

(416/793)

و يحسب الإنسان فعل وفاعل وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي يحسب ونائب الفاعل مستتر تقديره وهو سدى حال من الضمير في يترك (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى) الهمزة للاستفهام التقريري الإنكاري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويك فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون المقدّرة على النون المحذوفة للتخفيف واسم يك مستتر

تقديره هو أي الإنسان ونطفة خبرها ومن مني نعت وجملة يمنى بالبناء للمجهول نعت لمني وقرىء بالتاء (ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى) عطف على ما تقدّم وعطف بثم للتراخي وامتداد المدة لأن بين الخلق الثاني الذي هو خلق النسل وبين الخلق الأول تراخيا وأمدا بعيدا فوجب عطفه بثم ، وكان واسمها المستتر وعلقة خبرها والفاءان للترتيب مع التعقيب (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى) عطف أيضا وفيه التعقيب وجعل فعل ماض ومنه في موضع المفعول الثاني والزوجين مفعول جعل الأول والذكر بدل والأنثى عطف عليه (أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى) الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريري وذلك اسم ليس أي الفعال والباء حرف جر زائد وقادر مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس وعلى أن يحيي الموتى متعلقان بقادر .

البلاغة :

1 – الاستعارة التمثيلية في قوله : " والتفّت الساق بالساق " استعارة تمثيلية لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها لأنهما يومان قد التفا ببعضهما واختلطا بالكرب كما تلتف الساق على الساق كما يقال شمّرت الحرب عن ساق استعارة لشدّتها وقيل التفافهما لشدّة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذه على هذه ، وعبارة الزمخشري : " والتفّت ساقه بساقه والتوت عليها عند علز الموت " وهو الرعدة تأخذ المريض .

2- وفي قوله : " والتفّت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق " التجنيس الناقص المسمى أيضا جناس التبديل وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى وجميع حروف الأخرى يوجد في أختها على استقامتها وهو ثلاثة أقسام : قسم تقع الزيادة منه في أول الكلمة كزيادة الميم في المساق وقسم تقع الزيادة وسط الكلمة كقوله تعالى : وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ، وقسم تقع الزيادة منه في آخر الكلمة كقوله تعالى : ثم كلي من كل الثمرات .

الفوائد :

لا نطيل في مسألة رؤية اللّه تعالى يوم القيامة فهي مسألة مذكورة في أصول الدين ، ودلائل الطريقين أهل السنّة وأهل الاعتزال معروفة ، ولما كان الزمخشري من المعتزلة ومذهبه أن تقديم المفعول به يدل على الاختصاص قال في صدد قوله تعالى " إلى ربها ناظرة " : " ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا إليه محال فوجب حمله على معنى يصحّ معه الاختصاص والذي يصحّ معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما

يصنع بي يريد معنى التوقع والرجاء ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهيرة حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول : عيينتي ناظرة إلى اللّه وإليكم والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه " قال ابن عطية : " ذهبوا يعني المعتزلة إلى أن المعنى إلى رحمة ربها ناظرة أو إلى ثوابه أو ملكه

فقدّروا مضافا محذوفا وهذا وجه سائغ في العربية كما تقول فلان ناظر إليك في كذا أي إلى صنعك " .

(418/793)

وقد عقب ابن المنير كعادته على الزمخشري فقال : " ما أقصر لسانه عند هذه الآية فكم له يدندن ويطيل في جحد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويتعمق فلما فغرت هذه الآية فاه صنع في مصامتها بالاستدلال على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية اللّه تعالى وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه اللّه تعالى لا يصرفه عنه طرفه ، ولا يؤثر عليه غيره ، ولا يعدل به عزّ وجلّ منظورا سواه ،

وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثله شيء ، ونحن نشاهد العاشق في الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظة ولم يؤثر عليه فكيف بالمحب للّه عزّ وجلّ إذا أخطأه النظر إلى وجهه الكريم نسأل اللّه العظيم أن لا يصرف عنّا وجهه وأن يعيذنا من مزالق البدعة ومزلّات الشبهة وهو حسبنا ونعم الوكيل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 294 . 309 ﴾

(419/793)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/794)

الجزء الرابع والتسعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الإنسان)

(4/794)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الإنسان)

(5/794)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الإنسان

وتسمى هل أتى والأمشاج والدهر .

مقصودها ترهيب الإنسان بما دل عليه آخر القيامة من العرض على الملك الديان بتعذيب العاصي في النيران وتنعيم المطيع في الجنان بعد جمع الخلائق كلها الإنس والجان والملائكة والجان وغير ذلك من الحيوان ، ويكون لهم مواقف طوال وأهوال وزلزال ، لكل منها أعظم شأن ، وأدل ما فيها على ذلك الإنسان بتأمل آيته وتدبر مبدئه وغايته ، وكذا تسميتها بهل أتى وبالدهر وبالأمشاج من غير ميل ولا اعوجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 259 ﴾

(6/794)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . هل أتى على الإنسان)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها إِحدى وثلاثون .

وكلماتها مائتان وأَربعون .

وحروفها أَلْف وخمسون .

وفواصل آياتها على الأَلِف ، ولها ثلاثة أَسماء : سورة (هل أَتى) ؛ لمفتتحها ، وسورة الإِنسان ؛ لقوله ﴿ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ ، وسورة الدّهر ؛ لقوله : ﴿ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان مُدّة خِلقة آدم ، وهداية الخَلْق بمصالحهم ، وذكر ثواب الأَبرار ، فى دار القرار ، وذكر المِنّة على الرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأَمره بالصّبر ، وقيام اللَّيل ، والمِنَّة على الخَلْق بإِحكام خَلْقهم ، وإِضافة كلّيّة المشيئة إلى الله ، فى قوله : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ .

الناسخ والمنسوخ

فيها من المنسوخ ثلاث آيات : م ﴿ أَسِيرًا ﴾ فى قوله ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ﴾ م ، والصّبر من قوله ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ م ، والتخيير من قوله : ﴿ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ ﴾ ن آية السّيف .

المتشابهات

قوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وبعده : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ إِنَّما ذكر الأَوّل بلفظ المجهول ؛ لأَنَّ المقصود ما يطاف به له الطَّائفون .

ولهذا قال : ﴿ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ ثمّ ذكر الطَّائفين ، فقال : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ وبعدها : ﴿ زَنْجَبِيلاً ﴾ ؛ لأَنَّ الثَّانية غير الأُولى .

وقيل : ﴿ كَافُوراً ﴾ اسم عَلَم لذلك الماءِ ، واسم الثانى زنجبيل .

وقيل اسمها : سلسبيل .

قال ابن المبارك : معناه : سَلْ من الله إليه سبيلاً .

ويجوز أَن يكون اسمها زنجبيلاً ، ثمّ ابتدأَ فقال : سلسبيلا .

ويجوز أَن يكون اسمها هذه الجملة ، كقوله : تأَبَّط شرًّا ، وشاب قرناها .

(7/794)

ويجوز أَن يكون معنى تُسمّى : تُذكر ، ثمّ قال الله : سل سبيلا ، واتصاله فى المصحف لا يمنع هذا التأْويل ؛ لكثرة أَمثاله فيه .

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث المنكَرة حديثُ أُبيّ : مَنْ قرأَها كان جزاؤه على الله

جَنَّة وحريراً ، وحديث عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ ﴾ أَعطاه الله من

الثواب مثلَ ثواب آدم ، وكان في الجنَّة رفيق آدم ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب سيّدَيْ

شباب أَهل الجنَّة الحسن والحسين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ

494.493 ﴾

(8/794)

فصل في متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الإنسان

457.مسألة :

قوله تعالى (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) ولم يقل شكورا لمطابقة كفورا ؟

جوابه :

أنه جاء باللفظ الأعم لأن كل شكور شاكر وليس كل شاكر

شكورا ، أو قصد المبالغة في جانب الكفر ذماً له لأن كل كافر كفور بالنسبة إلى نعم الله

عليه .

458 – مسألة :

قوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ) (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا) لما لم يسم فاعله ثم قال تعالى : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) بصيغة الفاعل ؟ .

جوابه :

أن القصد بالأول : وصف الآنية والمشروب ، والمقصود

بالثاني : وصف الطائف .

459 – مسألة :

قوله تعالى : (كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا)

وقال تعالى بعد ذلك : (مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا)

جوابه :

أشار بالأولى إلى برودتها وطيبها .

والثانية : إلى طعمها ولذتها ، لأن العرب كانت تستطيب الشراب البارد ، وتستلذ طعم الزنجبيل ، وذكرت ذلك في أشعارها ، فظاهر القرآن أنهما أسماء عينين في الجنة ، فقيل : الكافور للإبراد ، والزنجبيل يمزجون بها أشربتهم ، ويشربها

المقربون صرفا .

460 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ) وفى المدثر : (إِنَّهُ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ) .

جوابه :

أن المراد هنا هذه السورة أو الآيات . وفى المدثر : المراد

القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 369 . 371 ﴾

(9/794)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الإنسان

سميت في زمن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (سورة هل أتى على الإِنسان) . روى البخاري في باب القراءة في الفجر من (صحيحه) عن أبي هريرة قال : (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في الفجر ب) ألم السجدة وهل أتى على الإِنسان ((الإنسان : 1) .

واقتصر صاحب (الإِتقان) على تسمية هذه السورة (سورة الإنسان) عند ذكر السور

المكية والمدنية ، ولم يذكرها في عداد السور التي لها أكثر من اسم .

وتسمّى (سورة الدهر) في كثير من المصاحف .

وقال الخفاجي تسمى (سورة الأمشاج) ، لوقوع لفظ الأمشاج فيها ولم يقع في غيرها من القرآن .

وذكر الطبرسي : أنها تسمى (سورة الأَبرار) ، لأن فيها ذكر نعيم الأبرار وذكرهم بهذا اللفظ ولم أره لغيره .

(10/794)

فهذه خمسة أسماء لهذه السورة .

واختلف فيها فقيل هي مكية ، وقيل مدنية ، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني ، فعن ابن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل : هي مكية ، وهو قول ابن مسعود لأنه كذلك رتبها في مصحفه فيما رواه أبو داود كما سيأتي قريباً . وعلى هذا اقتصر معظم التفاسير ونسبه الخفاجي إلى الجمهور .

وروى مجاهد عن ابن عباس : أنها مدنية ، وهو قول جابر بن زيد وحكي عن قتادة أيضاً . وقال الحسن وعكرمة والكلبي : هي مدنية إلاّ قوله : (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) (

الإنسان : 24) إلى آخرها ، أوْ قولَه : (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم ((الإنسان : 24) الخ . ولم يذكر هؤلاء أن تلك الآيات من أيّة سورة كانت تعد في مكة إلى أن نزلت سورة الإنسان بالمدينة وهذا غريب . ولم يعينوا أنه في أية سورة كانَ مَقْرُوءاً .

والأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلاّ ما روي من أن آية) يُطعمون الطعام على حبّه ((الإنسان : 8) نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكيناً ليلةً ، ويتيماً أخرى ، وأسيراً أخرى ، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب ، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري ، وكثيراً ما حملوا نزول الآية على مُثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول كما بيناه في المقدمة الخامسة .

وعدّها جابر بن زيد الثامنة والتسعين في ترتيب نزول السور . وقال : نزلت بعد سورة الرحمن وقَبْل سورة الطلاق . وهذا جريٌ على ما رآه أنها مدنية .

فإذا كان الأصح أنها مكية أخذاً بترتيب مصحف ابن مسعود فتكون الثلاثين أو الحادية والثلاثين وجديرة بأن تعد قبل سورة القيامة أو نحو ذلك حسبما ورد في ترتيب ابن مسعود .

روي أبو داود في باب تَحْزيب القرآن من (سُننه) عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال : (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ النظائر السورتين وعدّ سوراً فقال : و) هل أتى ولا أقسم بيوم القيامة في ركعة . قال أبو داود : هذا تأليف ابن مسعود (أي تأليف مصحفه) :

واتفق العادُّون على عد آيها إحدى وثلاثين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ 369.370 ﴾

(12/794)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الإنسان

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية , ولكنها مكية ; ومكيتها ظاهرة جدا , في موضوعها وفي سياقها , وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي . . تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة , وصور العذاب الغليظ , كما يشي به توجيه الرسول (صلى الله

عليه وسلم) إلى الصبر لحكم ربه , وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ; مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة , مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الحق الذي نزل عليه , وعدم الميل إلى ما يدهنون به . . كما جاء في سورة القلم , وفي سورة المزمل , وفي سورة المدثر , مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة . . واحتمال أن هذه السورة مدنية – في نظرنا – هو احتمال ضعيف جدا , يمكن عدم اعتباره !

والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة , والالتجاء إلى الله , وابتغاء رضاه , وتذكر نعمته , والإحساس بفضله , واتقاء عذابه , واليقظة لابتلائه , وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . .

وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري: أين كان قبل أن يكون ? من الذي أوجده ? ومن الذي جعله شيئا مذكورا في هذا الوجود ? بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ?) . .

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته , وحكمة الله في خلقه , وتزويده بطاقاته ومداركه: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق , وعونه على الهدى , وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) . .

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية , وما تثيره في القلب من تفكير عميق , ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام , ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار . وترغيبه في طريق الجنة , بكل صور الترغيب , وبكلهواتف الراحة والمتاع والنعيم . والتكريم: إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . .

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهانئ الرغيد :(يوفون بالنذر , ويخافون يوما كان شره مستطيرا , ويطعمون الطعام – على حبه – مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) . .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف , الخائفين من اليوم العبوس القمطرير , الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام , يبتغون وجه الله وحده , لا يريدون شكورا من أحد , إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعيم اللين الرغيد :

(14/794)

فوقاهم الله شر ذلك اليوم , ولقاهم نضرة وسرورا , وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا , عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانئ الودود اتجه الخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ; والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق : [إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا .

واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) . .

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ; والذي يخافه الأبرار ويتقونه , والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله , الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة , وهو قادر على الذهاب بهم , والإتيان بقوم آخرين ; لولا تفضله عليهم بالبقاء , لتمضي مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء : إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله , إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما . .

(15/794)

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة , على أساس الابتلاء , وتختم ببيان عاقبة الابتلاء , كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير , لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك , وهو مخلوق ليبتلى , وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم , وهو نعيم حسي في جملته , ومعه القبول والتكريم , وهو بتفصيله هذا وحسيته يوحي بمكيته , حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية , شديدي التعلق بمتاع الحواس , يبهرهم هذا اللون ويعجبهم , ويثير تطلعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس , ويصلح جزاء لهم يرضي أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلقه ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم , وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أعلى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) . . والله أعلم بما يصلح للعباد في كل حال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3777 . 3779 ﴾

(16/794)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الإنسان

مدنية وآياتها إحدى وثلاثون آية

بين يدي السورة

* سورة الدهر من السور المدنية ، وهي تعالج أمورا تتعلق بالآخرة ، وبوجه خاص تتحدث عن نعيم المتقين الأبرار ، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم ، ويكاد يكون جو السورة هو جو السور المكية لايحاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار ، وتهيئته ليقوم بما كلف به من أنواع العبادة ، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس [هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا] الآيات .

* ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة [إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا] الآيات .

* ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الاسهاب ، فوصفتهم بالوفاء بالنذر ، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله ، والخوف من عذاب الله ، وذكرت أن الله تعالى قد آمنهم من ذلك اليوم العبوس ، الذى تكلح فيه الوجوه [يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا] الآيات .

* وأشادت بعد ذكر أوصافهم بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة ، وبما حباهم الله من الفضل والنعيم يوم الدين [وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها

على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا] الآيات .

(17/794)

---

* وتتابعت السورة في سرد نعيم أهل الجنة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء [ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديرا ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي ، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره [إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 489.490 ﴾

(18/794)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الإنسان

هل : أي قد ، حين : أي طائفة محدودة من الزمان ، والدهر : الزمان غير المحدود ، أمشاج : أي أخلاط واحدها مشج (بفتحتين) ومشيج ، نبتليه : أي نختبره ، السبيل : الطريق ، أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات .

أعتدنا : أي هيأنا وأعددنا ، والأغلال : واحدها غلّ (بالضم) وهو القيد ، والسعير : النار الموقدة ، والأبرار : واحدهم برّ . قال فى الصحاح : جمع البر الأبرار ، وجمع البارّ البررة ، والأبرار هم أهل الطاعة والإخلاص والصدق وقال قتادة : هم الذين يؤدون حق اللّه ويوفون بالنذر ، وقيل هم الصادقون فى إيمانهم ، المطيعون لربهم ، الذين سمت همتهم عن المحقرات ، فظهرت فى قلوبهم ينابيع الحكمة ، والكأس : هى الإناء الذي فيه الشراب ، وقد يطلق الكأس على الخمر نفسها وهو للمراد كما قال أبو نواس :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال عمرو بن كلثوم :

صبنت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

والمزاج : ما يمزج به كالحزام لما يحزم به ، أي يكون شوبها وخلطها بماء الكافور كما قال :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

وجعلت كالكافور لما فيه من البياض وطيب الرائحة والبرودة ، بها : أي منها ، يفجرونها :

أي يجرونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا ، يوفون بالنذر : أي يؤدون ما أوجبوه

على أنفسهم من الطاعات ، شره : أي شدائده ، مستطيرا : أي فاشيا منتشرا فى الأقطار

من قولهم : استطار الحريق والفجر إذا انتشر ، عبوسا :

أي تعبس فيه الوجوه ، قمطريرا : أي شديد العبوس ، تقول العرب يوم قمطرير وقماطر ،

وأنشد الفراء :

بنى عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذ

وقاهم : أي دفع عنهم ، لقّاهم : أي أعطاهم ، نضرة :

أي حبورا . قال الحسن ومجاهد : نضرة فى وجوههم ، وسرورا فى قلوبهم .

الأرائك : واحدتها أريكة ، وهو السرير فى الحجلة (الناموسية) والزمهرير :

(19/794)

البرد الشديد ، دانية : أي قريبة ، ظلالها : أي ضلال أشجارها ، وذلّلت : أي سخرت

ثمارها وسهل أخذها وتناولها ، والقطوف : الثمار ، واحدها قطف (بكسر القاف)

وآنية : واحدها إناء ، وهو ما يوضع فيه الشراب ، والأكواب : واحدها كوب ، وهو كوز لا عروة له ، والقوارير : واحدتها قارورة ، وهى إناء رقيق من الزجاج ، قدّروها تقديرا : أي قدرها السقاة على قدر ريّ شاربها ، كأسا : أي خمرا ، والزنجبيل : نبت فى أرض عمّان وهو عروق تسرى فى الأرض وليس بشجر ، ومنه ما يأتى من بلاد الزنج والصين وهو الأجود ، قاله أبو حنيفة الدينوري ، وكانت العرب تحبه فى الشراب ، لأنه يحدث لذعا فى اللسان إذا مزج بالشراب ، قال الأعشى .

كأن القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأريا مشورا والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، تقول العرب : هذا شراب سلسل وسلسال وسلسبيل :

أي طيب الطعم لذيذه ، وتسلسل الماء فى الحلق : جرى ، مخلدون : أي دائمون على البهاء والحسن لا يهرمون ولا يتغيرون ، ثمّ : أي هناك ، والسندس : ما رقّ من الديباج ، والإستبرق : ما غلظ منه ، والأساور : واحدها سوار .

نزّلنا عليك القرآن تنزيلا : أي أنزلناه عليك مفرقا منجما ، حكم ربك : هو أخير نصرك على الكفار إلى حين ، والآثم : هو الفاجر المجاهر بالمعاصي ، والكفور : هو المشرك المجاهر بكفره ، بكرة وأصيلا : أي أول النهار وآخره ، والمراد بذلك جميع الأوقات ، أسجد : أي صلّ ، سبحه : أي تهجد ، وراءهم : أي أمامهم ، شددنا أسرهم : أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، بدّلنا أمثالهم : أي أهلكناهم وبدلنا

أمثالهم فى شدة الخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 159 .

173 ﴾ . باختصار .

(20/794)

وقال الفراء :

سورة (الإنسان)

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ . . . ﴾ .

معناه: قد أتى على الإنسان حين من الدهر . "وهل" قد تكون جحدا ، وتكون خبرا .

فهذا من الخبر ؛ لأنك قد تقول: فهل وعظتك ؟ فهل أعطيتك ؟ تقرره بأنك قد أعطيته

ووعظته والجحد أن تقول: وهل يقدر واحد على مثل هذا ؟ .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً . . . ﴾ .

يريد : كان شيئا ، ولم يكن مذكورا . وذلك من حين خلقه الله من طين إلى أن نفخ فيه الروح .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ . . . ﴾ .

الأمشاج: الأخلاط، ماء الرجل، وماء المرأة، والدم، والعلَقة، ويقال للشيء من هذا إذا [/ب] خلط: مشيج؛ كقولك: خليط، وممشوج، كقولك: مخلوط.

وقوله: ﴿ نَّبْتَلِيهِ . . . ﴾ والمعنى والله أعلم: جعلناه سميعا بصيرا لنبتليه، فهذه متقدَّمة معناها التأخير، إنما المعنى: خلقناه وجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ . . . ﴾.

وإلى السبيل، وللسبيل. كل ذلك جائز فى كلام العرب. يقول: هديناه: عرّفناه السبيل، شكر أو كفر، و (إما) ها هنا تكون جزاء، أى: إن شكر وإن كفر، وتكون على (إما) التى مثل قوله: ﴿ إِما يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ فكأنه قال: خلقناه شقيا أو سعيدا.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً . . . ﴾.

(21/794)

كتبت "سلاسل" بالألف، وأجراها بعض القراء لمكان الألف التى فى أخرها. ولم يجر بعضهم. وقال الذى لم يجر: العرب تثبت فيما لا يجرى الألف فى النصب، فإذا وصلوا

حذفوا الألف ، وكلٌّ صواب . ومثل ذلك قوله: ﴿ كَانَتْ قَوَارِيراً ﴾ أثبتت الألف فى الأولى ؛ لأنها رأس آية ، والأخرى ليست بآية . فكان ثباتُ الألف فى الأولى أقوى لهذه الحجة ، وكذلك رأيتها فى مصحف عبد الله ، وقرأ بها أهل البصرة ، وكتبوها فى مصاحفهم كذلك . وأهل الكوفة والمدينة يثبتون الألف فيهما جميعا ، وكأنهم استوحشوا أن يكتب حرف واحد فى معنًى نصب بكتابين مختلفين . فإن شئت أجريتهما جميعا ، وإن شئت لم تجرهما ، وإن شئت أجريت الأولى لمكان الألف فى كتاب أهل البصرة . ولم تجر الثانية إذ لم يكن فيها الألف .

﴿ إِنَّ الأَبرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً . . . ﴾ .

يقال: إنها عين تسمى الكافور ، وقد تكون كان مزاجها كالكافور لطيب ريحه ، فلا تكون حينئذ اسماً ، والعرب [/١] تجعل النصب فى أى هذين الحرفين أحبوا . قال حسان:

كأنَّ خبيئَةً من بيت رأْسٍ * يكونُ مِزاجُها عَسلٌ وماءُ

وهو أبين فى المعنى: أن تجعل الفعل فى المزاج ، وإن كان معرفة ، وكل صواب . تقول: كان سيدَهم أبوك ، وكان سيدُهم أباك . والوجه أن تقول: كان سيدَهم أبوك ؛ لأن الأب اسم ثابت والسيد صفة من الصفات .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿عَيْناً . . . ﴾ .

إن شئت جعلتها تابعة للكافور كالمفسِّرة ، وإن شئت نصبتها على القطع من الهاء فى "مزاجها" .

وقوله عز وجل: ﴿يَشْرَبُ بِهَا . . . ﴾ ، و "يَشْرَبُهَا" .

سواء فى المعنى ، وكأن يشرب بها : يَروَى بها ، وينقَع . وأما يشربونها فبيّن ، وقد أنشدنى بعضهم:

شَرِبْنَ بِمَاءِ البحرِ ثمَّ تَرَفَّعتْ * مَتى لُججٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

(22/794)

ومثله: إنه ليتكلم بكلام حسن ، ويتكلم كلاماً حسناً .

وقوله عز وجل: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً . . . ﴾ .

أيها أحب الرجل من أهل الجنة فجرها لنفسه .

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ . . . ﴾ .

هذه من صفاتهم فى الدنيا ، كأن فيها إضمار كان: كانوا يوفون بالنذر .

وقوله عز وجل: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً . . . ﴾ .

ممتد البلاء ، والعرب تقول: استطار الصدع فى القارورة وشبهها ، واستطال .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ عَبُوساً قَمْطَرِيراً . . . ﴾ .

والقمطرير: الشديد ، يقال: يوم قمطرير ، ويوم قماطر ، أنشدنى بعضهم:

بَنِى عمّنا ، هل تذكُرونَ بَلاءَنَا * عليكُمْ إذا ما كانَ قُمَاطِرُ

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾

وقوله عز وجلك ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا . . . ﴾ .

منصوبة كالقطع . وإن شئت جعلته تابعاً للجنة ، كأنك قلت: جزاؤهم جنة متكئين فيها .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾

وقوله جل ذكره: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا . . . ﴾ .

(23/794)

يكون نصباً على ذلك: جزاؤهم جنة متكئين فيها ، ودانيةً ظلالها . وإن شئت جعلت: الدانية تابعة للمتكئين على سبيل القطع الذى قد يكون رفعاً على [/ب] الاستئناف .

فيجوز مثل قوله: ﴿ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ "وشيخٌ" ، وهى فى قراءة أبى: "ودانٍ عليهم ظلالها" فهذا مستأنف فى موضع رفع ، وفى قراءة عبد الله: "ودانياً عليهم ظلالها" ، وتذكير الدانى وتأنيثه كقوله: ﴿ خَاشِعاً أَبْصَارُهم ﴾ فى موضع ، وفى موضع ﴿ خاشعةً أبصارهم ﴾ . وقد تكون الدانيةُ منصوبة على مثل قول العرب: عند فلان جاريةٌ جميلةٌ ، وشابةً بعد طرية ، يعترضون بالمدح اعتراضاً ، فلا ينوون به النسق على ما قبله ، وكأنهم يضمرون مع هذه الواو فعلا تكون به النصب فى إحدى القراءتين: "وحوراً عيناً" . أنشدنى بعضهم:

ويأوى إلى نسوة عاطلاتٍ * وشُعثا مراضيعَ مثل السعالِى

بالنصب يعنى: وشعثا ، والخفض أكثر .

وقوله عز وجل: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . . . ﴾ .

يجتنى أهل الجنة الثمرة قياماً وقعوداً ، وعلى كل حال لا كلفة فيها .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا . . . ﴾ .

يقول: كانت كصفاء القوارير ، وبياض الفضة ، فاجتمع فيها صفاء القوارير ، وبياض الفضة .

﴿ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ قَدَّرُوهَا . . . ﴾ .

قدروا الكأس على رِى أحدهم لا فضل فيه ولا عجز عن ريه ، وهو ألذ الشراب .

وقد رَوى بعضهم عن الشعبى: (قُدِّروها تَقْدِيراً) . والمعنى واحد ، والله أعلم ، قدِّرت لهم ، وقدِروا لها سواء .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾

وقوله: ﴿ كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً . . . ﴾ .

(24/794)

إنما تسمى الكأس إذا كان فيها الشراب ، فإذا لم يكن فيها الخمر لم يقع عليها اسم الكأس .

وسمعت بعض العرب يقول للطبق الذى يُهدى عليه الهدية: وهو المِهْدَى ، ما دامت عليه الهدية ، فإذا كان [/ا] فارغا رجع إلى اسمه إن كان طبقاً أو خواناً ، أو غير ذلك .

وقوله عز وجل: ﴿ زَنْجَبِيلاً . . . عَيْناً . . . ﴾ .

ذكر أن الزنجبيل هو العين ، وأن الزنجبيل اسم لها ، وفيها من التفسير ما فى الكافور .

وقوله عز وجل: ﴿ تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . . . ﴾ .

ذكروا أن السلسبيل اسم للعين ، وذكر أنه صفة للماء لسلسلته وعذوبته ، ونرى أنه لو كان

اسما للعين لكان ترك الإجراء فيه أكثر ، ولم نَر أحدا من القراء ترك إجراءها وهو جائز فى العربية ، كما كان فى قراءة عبد الله: ﴿ وَلاَ تَذَرُنّ وَدًّا ولا سُوَاعاً ولا يَغُوثاً ويَعُوقاً ﴾ بالألف . وكما قال: "سلاسلا" ، و"قواريرا" بالألف ، فأجروا ما لا يجرى ، وليس بخطأ ، لأن العرب تجرى ما لا يجرى فى الشعر ، فلو كان خطأ ما أدخلوه فى أشعارهم ، قال متمم بن نويرة:

فما وجد أظآرٍ ثلاثٍ روائمٍ * رأين مَجَرًّا من حُوارٍ ومصْرعَا

فأجرى روائم ، وهى مما لا يجرى فيما لا أحصيه فى أشعارهم .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مُّخَلَّدُونَ . . . ﴾ .

يقول: محلّون مُسَورون ، ويقال: مُقَرطون ، ويقال: مخلدون دائم شبابهم لا يتغيرون عن تلك السنن ، وهو أشبهها بالصواب. والله أعلم. وذلك أن العرب إذا كبر الرجل ، وثبت سواد شعره قيل: إنه لمخلد ، وكذلك يقال إذا كبر ونبتت له أسنانه وأضراسه قيل: إنه لمخلد ثابت الحال . كذلك الوُلدانُ ثابتة أسنانهم .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً . . . ﴾ .

يقال: إذا رأيت ما ثَمّ رأيت نعيما ، وصلح إضمار (ما) كما قيل: ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ . والمعنى: ما بينكم ، والله أعلم . ويقال: إذا رأيت [/ب] ثم ، يريد : إذا نظرت ، ثم إذا رميت ببصرك هناك رأيت نعيما .

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ . . . ﴾ .

نصبها أبو عبد الرحمن وعاصم والحسن البصرى ، جعلوها كالصفة فوقهم . والعرب تقول: قومك داخل الدار ، فينصبون داخل الدار ؛ لأنه مَحَل ، فعاليهم من ذلك . وقد قرأ أهل الحجاز وحمزة: "عَالِيهم" بإرسال الياء ، وهى فى قراءة عبد الله: "عاليتُهم ثيابُ سُنْدُسٍ" بالتاء . وهى حجةٌ لمن أرسل الياءَ وسكنها . وقد اختلف القراء فى: الخضر والسندس ، فخفضهما يحيى بن وثاب أراد أن يجعل الخضر من صفة السندس ويكسر على الاستبرق ثيابَ سندس ، وثيابَ استبرق ، وقد رفع الحسن الحرفين جميعاً . فجعل الخضر من صفة الثياب ، ورفع الاستبرق بالرد على الثياب ، ورفع بعضهم الخضر ، وخفض الاستبرق ورفع الاستبرق وخفض الخضر ، وكل ذلك صواب . والله محمود .

وقوله عز وجل: ﴿ شَرَاباً طَهُوراً . . . ﴾ .

يقول: طهور ليس بنجس كما كان فى الدنيا مذكوراً بالنجاسة.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً . . . ﴾ .

(وُ) ها هنا بمنزلة (لا) ، وأو فى الجحد والاستفهام والجزاء تكون فى معنى (لا) فهذا من ذلك. وقال الشاعر:

لا وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجدْتُ وَلا * وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ

أَوْ وَجْدُ شيخٍ أصَلَّ ناقَتَهُ * يَوْمَ توافَى الحجيجُ فاندفعُوا

(26/794)

أراد: ولا وجد شيخ وقد يكون فى العربية: لا تطيعن منهم من أثم أو كفر. فيكون المعنى فى (أو) قريباً من معنى (الواو). كقولك للرجل: لأعطينك سَألت، أو سكتَّ معناه: لأعطينك على كل حال.

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾

وقوله [/١] عز وجل: ﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ . . . ﴾ .

والأسر؛ الخَلْق. تقول: لقد أُسِر هذا الرجل أحسنُ الأسر، كقولك: خُلِقَ أحْسَنَ الخَلْق.

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَاذِهِ تَذْكِرَةٌ . . . ﴾ .

يقول: هذه السورة تذكرة وعظة. ﴿ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً . . . ﴾ وجهة وطريقاً إلى الخير.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ . . . ﴾ .

جواب لقوله: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتّخذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم، فقال: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ ذلك السبيل ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ لكم، وفى قراءة عبد الله ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ﴾ والمعنى فى (ما) و (أن) متقارب.

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ . . . ﴾ .

نصبت الظالمين؛ لأن الواو فى لها تصير كالظرف لأعدّ. ولو كانت رفعاً كان صوابا، كما قال: ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ بغير همز، وهى فى قراءة عبد الله: "وللظالمين أعد لهم" فكرر اللام فى (الظالمين) وفى (لهم)، وربما فعلت العرب ذلك. أنشدنى بعضهم:

أقول لها إذا سألت طلاقا * إلامَ تسارعين إلى فراقى

وأنشدنى بعضهم:

فأصبحْنَ لا يَسلنهُ عن بما به * أصعَّد فى غاوى الهَوى أم تصوَّبا ؟

(27/794)

فكرر الباء مرتين. فلو قال: لا يسلنه عما به، كان أبين وأجود. ولكن الشاعر ربما زاد ونقص ليكمل الشعر. ولو وجهت قول الله تبارك وتعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عن النَّبَإِ الْعَظِيم﴾ إلى هذا الوجه كان صواباً فى العربية.

وله وجه آخر يراد: عم يتساءلون يا محمد! ثم أخبر، فقال: يتساءلون عن النبإ العظيم، ومثل هذا قوله فى المرسلات: ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ تعجباً، ثم قال: ﴿ليوم الفصل﴾ أى: أجلت ليوم الفصل. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 213. 221﴾

(28/794)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الإنسان

(هل أتى على الإنسان) [1] يمكن تقدير هل على وضعه في الاستفهام [ها هنا] ، كأنه[ـه] سؤال عن الإنسان: هل أتى عليه هذا ؟ فلا بد في جوابه من "نعم" ملفوظاً أو مقدراً ، ثم يكون المعنى: /إن الأمر كما أنه كذلك ، فينبغي للإنسان أن يحتقر نفسه ، ولا يرتكب ما قبح له . ويبين هذا ما عدد عليه من النعم بعده . وقوله: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) [2] المشج: الخلط وهي ماء الرجل والمرأة .

قال صلى الله عليه: "أي الماءين سبق أو علا فمنه يكون الشبه" .

(نبتليه) [2] نختبره حالاً بعد حال . (إما شاكراً وإما كفوراً) [3] الفعول للمبالغة والكثرة ، وشكر الإنسان قليل بالإضافة إلى كثرة النعم عليه . وعلى العكس فإن كفره [وإن قل] كثير بالإضافة إلى الإحسان إليه . (إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً) [4] بالتنوين بمشاكلة قوله: (أغلالاً وسعيراً) . أو أجرى السلاسل مجرى الواحد ، فيكون الجمع "سلاسلات" ، كما في الحديث: "إنكن صواحبات يوسف" .

وكذلك قوله: (قواريرا) ، إذ جمعها قواريرات ، ولأنها خاتمة الآية ، فصرفت ليتفق النظام . وليس هذا المعنى في (قواريرا) الثانية . قال أبو عبيد : رأيت حك الألف في "قوارير" الثانية في المصحف الإمام .

(كان مزاجها كافوراً) [5] أي: في طيب الجنة. قال قتادة: "مزج بالكافور، وختم بالمسك". (يفجرونها) [6] يجرونها كيف شاؤوا. (مستطيراً) [7] منتشراً. (قمطريراً) [10] شديداً طويلاً. (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) [13] أي: حراً وبرداً. قال المتلمس:

1364- من القاصرات سجوف الحجال لم تر شمساً ولا زمهريراً. (قواريرا من فضة) [16] أي: كأنها في بياضها من فضة، على التشبيه بالفضة، وإن لم يذكر حرفه، كما قال/: 1365- حلبانة ركبانة صفوف 1366- تخلط بين وبر وصوف. أي: كأن يديها في إسراعها يدا خالط وبراً بصوف.

(29/794)

وعن ابن عباس: إن قوارير كل أرض من تربتها، وأرض الجنة فضة، فقواريرها من فضة". (كان مزاجها زنجبيلاً) [17] أي: في [لذاذة] المقطع، لأن الزنجبيل [يحذي] اللسان، وهو عند العرب من أجود الأوصاف للخمر، قال الأعشى: 1367- كأن القرنفل والزنجبيلا باتاً بفيها وأرياً [مشوراً]. وقال ابن مقبل: 1368- مما تفتق في الحانوت ناطفها بالفلفل الجون والرمان مختوم.

وقال حسان: 1369- كأن فاها قهوة مزة حديثة العهد بفض الختام 1370- من خمر بيسان تخيرتها درياقة تسرع فتر العظام. (سلسبيلاً) [18] سميت به لسهولتها وسلاستها. (عاليهم) [21] نصبه على أنه صفة جعلت ظرفاً، كقوله تعالى: (والركب أسفل منكم).

(وشددنا أسرهم) [28] خلقهم.

[تمت سورة الإنسان]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1597.1605 ﴾

(30/794)

وقال الأخفش:

سورة (الإنسان)

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾

قال ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ واحدها: "المَشَج".

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾

وقال ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ كذلك ﴿ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ كأنك لم تذكر "إمَّا" [180] وان شئت ابتدأت ما بعدها فرفعته.

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾

وقال ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ فنصبه من ثلاثة أوجه ، ان شئت فعلى قوله ﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ [5] " ﴿ عَيْناً ﴾ " وان شئت فعلى ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ ﴿ عَيْناً ﴾ وان شئت فعلى وجه المدح كما يذكر لك الرجل فتقول انت: "العاقلَ واللبيبَ" أي: ذكرتَ العاقلَ اللبيبَ. على "أَعْنِي عَيْناً" .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾

[وقال] ﴿ وَلاَ شُكُوراً ﴾ ان شئت جعلته جماعة "الشُكْر" وجعلت "الكُفُور" جماعة "الكُفْر" مثل "الفَلْس" و"الفُلُوس" . وان شئت جعلته مصدرا واحدا في معنى جميع مثل: "قَعَد قُعُودا" و"خَرَج خُروجا" .

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾

(31/794)

وقال ﴿ مُّتَّكِئِينَ ﴾ على المدح أو على: "جَزَاهُمْ جَنَّةً مُتَّكِئِينَ فيها" على الحال . وقد تقول "جَزَاهُم ذلك قِياماً" وكذلك ﴿ وَدَانِيَةً ﴾ على الحال أو على المدح ، انما انتصابه

بفعل مضمر . وقد يجوز في قوله ﴿ وَدَانِيَةً ﴾ أن يكون على وجهين على "وجزاهمْ دانيةً ظِلاَلُها" تقول: "اَعطَيْتُكَ جَيْداً طَرَفاهُ" و"رأينا حَسَناً وَجْهُهُ" .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾

وقال ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ فنصب العين على اربعة وجوه على "يُسْقَوْنَ عَيْناً" أو على الحال ، أو بدلاً من الكأس أو على المدح والفعل مضمر . وقال بعضهم "إن" "سلسبيل" صفة للعين بالسلسبيل . وقال بعضهم: "إنّما أراد" "عَيْناً تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً" أي: تسمى من طِيبها ، أيْ: تُوصَفُ للناسِ كما [180 ب] تقول: "الأعوجيّ" و"الأَرْحَبِيّ" و"المَهْرِيّ من الإبِل" وكما تنسب الخيل اذا وصفت الى هذه الخيل المعروفة والمنسوبة كذلك تنسب العين الى أنها تسمى [سَلسبيلا] لأن القرآن يدل على كلام العرب . قال الشاعر وانشدناه يونس هكذا : [من الكامل وهو الشاهد الرابع والسبعون بعد المئتين]:

صَفْراءُ مِنْ نَبْعٍ يُسَمَّى سَهْمُها * مِنْ طُولِ ما صَرَعَ الصُّيُودَ الصَّيِّبُ

فرفع "الصيِّب" لأنه لم يرد "يسمى سهمها بالصيِّب" انما "الصيِّب" من صفة الاسم والسهم . وقوله "يسمى سهمها" : يُذْكَرُ سهمُها . وقال بعضهم: "لا بل هو اسم العين وهو معرفة ولكن لما كان رأس آية [و] كان مفتوحاً زدت فيه الألف كما كانت ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴾ [15] .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾

وقال ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً ﴾ يريد ان يجعل "رأَيْتَ" لا تتعدى كما يقول: "ظننت في الدار خيرٌ" لمكان ظنه وأخبر بمكان رؤيته. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 559. 561 ﴾

(32/794)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الدهر

«1»

1 - هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ قال المفسرون: «أراد: قد أتي على الإنسان».

2 - أَمْشاجٍ: أخلاط، يقال: مشجته فهو مشيخ. يريد:

اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، نَبْتَلِيهِ . . . : . أي إنا جعلناه سمعيا بصيرا، لنبتليه بذلك.

7 - كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً أي فاشيا منتشرا. يقال: استطار الحريق، إذا انتشر. واستطار الفجر: إذا انتشر الضوء.

10 - يَوْماً عَبُوساً أي يوما تعبس فيه الوجوه. فجعل عبوسا من صفة اليوم، كما قال: :

فِي يَوْمٍ عاصِفٍ [سورة إبراهيم آية: 18]، أراد: عاصف الريح.

و(القمطرير): الصعب الشديد. [يقال]: يوم قمطرير وقماطر، [إذا كان صعبا شديدا

أشدّ ما يكون من الأيام، وأطوله في البلاء]. ويقال:

المعبس الوجه.

14 - وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا أي أدنيت منهم. ممن قولك: حائط

---

(1) هي مدنية. وتسمى سورة الإنسان.

ذليل، إذا كان قصير السّمك.

ونحوه قوله: قُطُوفُها دانِيَةٌ. و«القطوف»: الثمر، واحدها:

«قطف».

و(التذليل) أيضا: تسوية العذوق. يقول أهل المدينة: ذلّل النخل، أي سوي عذوقه.

15 - و(الأكواب): كيزان لا عري لها. واحدها: كوب.

16 - قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ مفسر في كتاب «تأويل المشكل».

قَدَّرُوها تَقْدِيراً على قدر الرّيّ.

17 - و18 - كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا يقال: هو اسم العين. وكذلك (السلسبيل): اسم العين «1».

قال مجاهد: «السلسبيل: الشديد [ة] الجرية».

وقال غيره: «السلسبيل: السّلسة اللّيّنة».

وأمّا «الزنجبيل»: فإن العرب تضرب به المثل وبالخمر ممتزجين. قال المسيّب ابن علس يصف فم المرأة:

وكان طعم الزنجبيل به - إذ ذقته - وسلافة الخمر

21 - و(السندس) و(الإستبرق) قد تقدم ذكرهما.

28 - وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ

أي خلقهم. يقال: امرأة حسنة الأسر، أي حسنه الخلق: كأنها أسرت، أي شدّت.

وأصل هذا من «الإسار» وهو: القدّ [الذي يشدّ به الأقتاب].

يقال: ما احسن ما اسر قتبه! أي ما احسن ما شدّه [بالقد]! وكذلك امرأة حسنة العصب، إذا كانت مدمجة الخلق: كأنها عصّبت، أي شدت. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 429. 430 ﴾

---

(1) قاله الزجاج.

وقال الغزنوى :

ومن سورة الإنسان

2 أَمْشاجٍ : المشج : الخلط «1» ، وهي ماء الرّجل والمرأة .

قال عليه السّلام «2» : «أيّ الماءين سبق فمنه الشّبه» .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 214 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 502 ، وتفسير الطبري :

29/ 203 ، والمفردات للراغب : 469 .

(2) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 149 ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ، وأخرجه - أيضا - الإمام مسلم في صحيحه :

1/ 250 ، حديث رقم (311) كتاب الحيض ، باب «جواز نوم الجنب . . .» .

3 إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً : ال «فعول» للمبالغة والكثرة «1» ، وشكر الإنسان قليل وكفرانه كثير .

4 سلاسلا : بالتنوين «2» لتشاكل أَغْلالًا وَسَعِيراً أو أجرى «السّلاسل» مجرى الواحد «3» والجمع «السّلاسلات» ، وفي الحديث «4» :

«إنكنّ صواحبات يوسف» .

5 كانَ مِزاجُها كافُوراً : مزج بالكافور وختم بالمسك «5» .

6 يُفَجِّرُونَها : يجرونها كيف شاؤوا «6» .

7 مُسْتَطِيراً : منتشرا «7» .

10 قَمْطَرِيراً : شديدا طويلا «8» .

---

(1) تفسير الماوردي : 4/ 368 ، والبحر المحيط : 8/ 394 .

(2) قراءة نافع ، والكسائي ، وشعبة بن عاصم .

السبعة لابن مجاهد : 663 ، والتبصرة لمكي : 366 ، والتيسير للداني : 217 .

(3) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 258 ، والكشف لمكي : 2/ 352 ، والبحر المحيط :

.394/8

(4) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: 4/ 122، كتاب الأنبياء، باب قول اللّه تعالى: لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ عن عائشة رضي اللّه عنها مرفوعا.

وأخرجه - أيضا - الإمام مسلم في صحيحه: 1/ 313 حديث رقم (418) كتاب الصلاة، باب «استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر...».

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 29/ 207 عن قتادة.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 8/ 369، وعزا إخراجه إلى ابن المنذر، وعبد بن حميد عن قتادة. [.....]

(6) ينظر تفسير الطبري: (29/ 207، 208)، وتفسير الماوردي: 4/ 369، وتفسير البغوي:

4/ 428، وتفسير ابن كثير: 8/ .312

(7) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 502، وتفسير الطبري: 29/ 209، واللسان: 4/ 513 (طير).

(8) معاني القرآن للفراء: 3/ 216، وتفسير الطبري: 29/ 211، والمفردات للراغب: 413، واللسان: 5/ 116 (قمطر).

16 قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ : أي : كأنها في بياضها من فضة على التشبيه من غير أداة أراد به .

قال ابن عبّاس «1» : «قوارير كلّ أرض من تربتها وأرض الجنة فضة» .

17 مِزاجُها زَنْجَبِيلًا : أي : في لذاذة المقاطع ، والزّنجبيل يحذى اللّسان ، وهو عند العرب من أجود أوصاف الخمر «2» .

21 عالِيَهُمْ : نصبه على أنه صفة جعلت ظرفا «3» ، كقوله»

:

وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ .

28 أَسْرَهُمْ : خلقهم «5» . قال المبرد «6» : الأسر القوى كلها ، وأصله القدّ يشدّ به الأقتاب . وقيل : أسير لأنّه مشدود بالقدّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 854.856 ﴾

---

(1) أورده الماوردي في تفسيره : 4/ 372 .

(2) قال ابن دحية في تنبيه البصائر : 53/ ب : العرب تضرب المثل بالخمر إذا مزجت بالزنجبيل ، وكانوا يستطيبون ذلك ، فخاطبهم اللّه - تعالى - على ما يعرفون .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 503 ، واللسان : 11/ 312 (زنجبيل) .

(3) معاني القرآن للفراء : 3/ 218 ، ومعاني الزجاج : 5/ 262 ، وإعراب القرآن للنحاس :

5/ 104 ، والبحر المحيط : 8/ 399 .

(4) سورة الأنفال : آية : 42 .

(5) معاني الفراء : 3/ 220 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 504 ، وتفسير الطبري :

29/ 226 ، ومعاني الزجاج : 5/ 263 ، والمفردات للراغب : 18 .

(6) الكامل : (964 ، 965) .

(37/794)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الإنسان

عدد 12 - 98 و76

نزلت بالمدينة بعد سورة الرّحمن ، وهي إحدى وثلاثون آية ، ومئتان وأربعون كلمة ، وألف وأربعمائة وخمسون حرفا ، وتسمى سورة الدّهر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "هَلْ أَتى " قال أكثر المفسرين معناه قد مضى .

وظاهره استفهام للحمل على الإقرار بما دخلت عليه هل الاستفهامية ، أي مضى عليه زمن كثير ولم يدر ما هو على المعنى الأول ، والمقرر به من ينكر البعث لأنهم يقولون مضى على انسان دهور وهو كذلك ، أي قولوا

لهم إن الذي أوجده بعد أن لم يكن ، كيف يمتنع عليه إعادته بعد موته ؟ ثم بين كيف كان وما آل إليه فقال عز قوله مرّ "عَلَى الْإِنْسانِ" آدم عليه السّلام في بداية خلقه "حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ" مدة كثيرة وهي من معاني الحين "لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً" (1) ولم يدر ما هو وما يراد به لأنه عبارة عن هيكل مصنوع من طين لا حراك به .

(38/794)

وهذا الاستفهام على المعنى الثاني تقريري يجاب ببلى أي أنه مر عليه زمن طويل وهو مجندل مصور من الطّين لم يذكره ولم يعلم بأنه سيكون بشرا ، وتتولد منه هذه الخلائق وما قيل أن آدم صور وطرح بين مكة والطّائف ينفيه ما رواه مسلم عن أنس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما صور اللّه آدم في الجنّة تركه ما شاء اللّه أن يتركه ، فجعل إبليس

يطوف به وينظر إليه فلما رآه أجوف علم أنه خلق لا يتمالك أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشّهوات ، وإذا كان كذلك فمن الممكن التسلط عليه وإغواؤه ، قال تعالى "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ" المذكور بعد أن كوناه من التراب جعلنا ذريته مخلوقة "مِنْ نُطْفَةٍ" حقيرة "أَمْشاجٍ" ممزوجة من ماء المرأة والرّجل يقال مشجت الشّيء بمعنى مزجته وخلطته ، وإنا بعد أن خلقناه على هذه الصّورة "نَبْتَلِيهِ" فنختبره ونمتحنه بأوامرنا ونواهينا بعد أن نركب فيه العقل ونصيّره قادرا على تمييز الخير من الشّر "فَجَعَلْناهُ" بعد تمام خلقه وكمال حواسه على الصّورة المبينة في الآية 17 فما بعدها من سورة المؤمن ج 2 "سَمِيعاً بَصِيراً" (2) قدم السّمع على البصر لأنه أفضل منه ، لأن الأعمى يمكن التفاهم معه بخلاف الأطرش ، وخصّ هاتين الحاستين من بين الحواس العشر المشار إليها في الآية 73 من سورة يوسف ج 2 لعظم فضلهما "إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ" السوي في دنياه وبينا له عاقبة الخير والشّر وأعطيناه عقلا يميز به النّفع من الضّر ، وجعلنا له الخيار فيما يريد "إِمَّا شاكِراً" يكون لنعمنا هذه مقدرها حق تقديرها موحدا لإلهيتنا مؤمنا بقدرتنا آخذا بإرشاد رسلنا "وَإِمَّا كَفُوراً" (3) بذلك جحودا لما أوليناه من النّعم كافرا برسلنا وكتبنا .

هذا ، وقال ابن عباس إنه بقي مئة وعشرين سنة ، يريد أربعين سنة طينا وأربعين صلصالا ، وأربعين حمأة ، وقال الفخر إن الحين له معنيان الأوّل أنه طائفة

من الزمن الطّويل الممتد وغير مقدر في نفسه ، والثاني مقدر بأربعين سنة وبالنظر للأحاديث الواردة في هذا الشّأن المعبرة للأول وهو الأولى ، واللّه أعلم "إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ" بنا في الآخرة "سَلاسِلَ" يوثقون بها بأرجلهم "وَأَغْلالًا" تربط بها أيديهم وأعناقهم "وَسَعِيراً" (4) نارا موقدة تحرقهم "إِنَّ الْأَبْرارَ" الشاكرين لنعمنا قد هيأنا لهم الجنّة يدخلونها مع الشّهداء "يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ" راجع معناه في الآية 18 من سورة الواقعة في ج 1 "كانَ مِزاجُها كافُوراً" (5) من حيث بياضه ورائحته وبرده وهذا اسم لعين الماء التي يخلط بها شرابهم لا الكافور المعروف ، لأنه لا يشرب ، ومما يدل على ما ذكرناه قوله تعالى "عَيْناً" بدل من كافور "يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً" (6) إلى حيث شاءوا وأرادوا من قصورهم وخيامهم ، لأن التفجير شق الشّيء بان يجروها جداول إلى حيث شاءوا في مساكنهم وغيرها بمجرد إشارتهم إليها ، وقد أعطوا هذا الشّيء العظيم في الآخرة لأنهم في الدّنيا كانوا "يُوفُونَ بِالنَّذْرِ" الذي أوجبوه على أنفسهم لذلك فإن اللّه تعالى وفّى لهم ما وعدهم به وأوجبه على نفسه تفضلا منه إذ لا واجب عليه .

مطلب في الحين والنّذر والكرم وأنواعه وثوابه وأول من سنه :

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال استفتى سعد بن عبادة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فأمره أن يقضيه عنها وفي هذا دليل

على وجوب الوفاء بالنّذر أما إذا كان معصية فلا ، فقد روى البخاري عن عائشة قالت سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من نذر أن يطيع اللّه فليف بنذره ، ومن نذر أن يعصيه فلا يف به .

(40/794)

وعنها قال ، لا نذر في معصية اللّه وكفارته كفارة يمين - أخرجه الترمذي - وأبو داود والنّسائي "وَيَخافُونَ يَوْماً" عظيما لأن تنكيره يدل على هول ما فيه من الفزع "كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً" (7) منتشرا على الخلائق والسّموات والأرضين وما فيهما "وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ" في الدّنيا قصد الثواب ابتغاء مرضاة اللّه تعالى "عَلى حُبِّهِ" وحاجتهم إليه ويؤثرون على أنفسهم "مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً" (8) ويقولون لمن يتفضلون عليهم "إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً"

(9) لئلا يعزم المحتاجون على مكافتهم وتكون طيبة أنفسهم ويتأثمون من المن والأذى بنفقاتهم قائلين "إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً" وجه أهله المفرطين بدنياهم "قَمْطَرِيراً"

(10) شديد الاكفهرار تتغير فيه الوجوه حتى لا تكاد تعرف وعليه قوله :

واصطليت الحروب في كلّ يوم باسل الشّر قمطرير الصّباح

أي إنما يقصدون بإحسانهم الوقاية من هول ذلك اليوم فقط لا لأمر آخر

(41/794)

"فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ" جزاء إطعامهم واعتقادهم وإحسانهم للوقاية من هوله وحسن ظنهم بالله والله عند حسن ظن عبده "وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً" بهاء وبهجة في وجوههم "وَسُرُوراً" (11) في قلوبهم أشرق لمعانه على وجوههم ، لأن فرح القلب يبعث الانطلاق على الوجه فيظهر الابتسام عليه وهو نوره "وَجَزَاهُمْ بِما صَبَرُوا" على إيثار الفقراء على أنفسهم وعلى فعل الطّاعات والكف عن المعاصي وأذى النّاس إليهم "جَنَّةً وَحَرِيراً" (12) يلبسونه في تلك الجنّة "مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ" الأسرة الجميلة خلال الحجال ، ولا تسمى أريكة إلّا وهي فيها "لا يَرَوْنَ فِيها" أي تلك الجنّة "شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً" (13) لا حرا ولا بردا مزعجين وليسوا بحاجة إلى ضوء الشّمس والقمر لأن الجنّة مضيئة بنفسها بنور ربها المشرق عليها قال تعالى وأشرقت الأرض (أي أرض الجنّة) بنور ربها الآية 69 من سورة الزمر ج 2 ، والزمهرير هو القمر على لغة طيء وعليه قولهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

أي ما درّ وما طلع "وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها" الحاصلة من أشجارها بدليل قوله "وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا" (14) أي سخرت للتناول تسخيرا كما يشاء طالبها بحيث يتمكن من قطعها على أي حالة كان راجع الآية 54 من سورة الرّحمن المارة ، وقيل المراد بتذليلها ثقل حملها وليس بشيء إذ لا فضل لهم به ، والقصد هنا تفضيلهم وإكرامهم حتى في مثل هذا "وَيُطافُ عَلَيْهِمْ" بواسطة الجوار الحسان "بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ" كؤوس ملأى من الشّراب اللّذيذ لها عرى "وَأَكْوابٍ" كيزان لا عرى لها "كانَتْ" هذه الأوان والأكواب "قَوارِيرَا" (15)

(42/794)

شفافة لطيفة ليست بجام بل هي "قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ" جامعة بين بياض الفضة وحسنها وصفاء الجام ولطافته بحيث يرى الشّراب من خارجها وتتلون بلون ما فيها "قَدَّرُوها تَقْدِيراً" (16) لدى الرّجل الواحد بلا زيادة ولا نقص وهذا يكون في غاية اللّذة ، وهكذا كلّ ما في الجنّة كامل طيب "وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً" ملأي خمرا لم تمزج بماء بل "كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا" (17) اسم لعين ماء خاص لمزج شراب الأبرار ، ولهذا أبدل منه "عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا" (18) كانت العرب تضع الزنجبيل في شرابهم لما فيه من الرّائحة واللّذع ، قال المسيب ابن علس :

وكأن طعم الزنجبيل إذا ذقته وسلافة الخمر

وقال الأعشى :

كان القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأره مشورا

الأرى العسل ، والمشور المستخرج من بيوت النّحل .

وقد ذكره اللّه تعالى لأنه كان مستطابا عند العرب ، والآن يضعون اليانسون في شرابهم قبح اللّه شاربيه إذا ماتوا مدمنين عليه ، وسميت هذه العين سلسبيلا كأنها تقول لأهل الجنّة اختاروا أي طريق تريدون أن أجري فيه إلى قصوركم وخيامكم .

(43/794)

وقدمنا وصف خمرة الآخرة في الآية 18 من سورة الواقعة في ج 1 والآية 25 من المطففين في ج 2 فراجعهما "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ" راجع الآية 17 من سورة الواقعة المذكورة في معنى مخلدون ، لأن معنى الخلد هنا لا يتم عن كبير معنى ، لأن الخلود في الجنّة لمن فيها محقق وكلّ ما فيها خالد فلا حاجة لذكر خلود خدمها وهي دار الخلد ، بل معناه مقرطون ، وقيل مسوّرون أي لابسون أقراطا وأسورة من ذهب كالمخدومين ، راجع الآية 24 من سورة الحج الآتية فيشابهون أسيادهم من هذه الجهة ، وان إلباس العبيد يشير إلى

عظمة الأسياد في الدّنيا ، لأنا نرى بعض الشيوخ يلبسون عبيدهم أحسن منهم ، فلأن يكون في الآخرة من باب أولى "إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً" (19) في البياض والحسن والكثرة و"إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ" هناك يا سيد الرّسل في تلك الجنان الباهرة "رَأَيْتَ نَعِيماً" عظيما لا يوصف بهاؤه "وَمُلْكاً كَبِيراً" (20) لا يقدر قدره وإن أهل هذه الجنان

(44/794)

"عالِيَهُمْ" لباسهم الفوقي كالعباءة والملحفة والجبة وهو مبتدأ خبره "ثِيابُ سُنْدُسٍ" هو ما ، رقّ من الحرير "خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ" هو أثخنه "وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ" وقد مر في سورة فاطر يحلون فيها من أساور من ذهب الآية 23 في ج 2 وفي آية الحج الآتية في ذهب ولؤلؤ الآية 23 ، وعليه يكون المعنى أن كلا من أهل الجنّة يلبس اسورة من فضة وذهب ولؤلؤ ، ومن هنا تعلم أن أهل الدّنيا لما صاروا يوسون اللّؤلؤ بالذهب ويتحلون به أخذوه من كتاب اللّه "وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً" (21) لم تلمسه يد ولم تدنسه رجل ، لأنه صنع اللّه بكلمة كن "إِنَّ هذا" المذكور كله وأضعافه "كانَ لَكُمْ" أيها المؤمنون "جَزاءً" لأعمالكم الصّالحة "وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً" (22) عند ربكم محمودا مرضيا ، لأن أعمالكم في الدّنيا كانت مرضية عنده ، ولأنكم قلتم للفقراء لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، لمثل هذا

فليعمل العاملون أيها النّاس ، وبه فليتنافس المتنافسون .

نعمت جزاء المؤمنين الجنه دار الأمالي والمنى والمنه

من الزرابي فرشها أي صاح ترى بها الحرام كالمباح

(45/794)

و هذه الآيات عامة في كلّ مؤمن يعمل مثل هذا العمل ، وإن سبب نزولها على ما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن عليا كرم اللّه وجهه كان عمل ليهودي بشعير ، فأصلحوا هو وزوجته فاطمة رضي اللّه عنهما وخادمته فضة قسما منه ليأكلوه ، فجاءهم مسكين فأعطوه إياه ، ثم أصلحوا القسم الآخر فجاءهم يتيم فأعطوه إياه ، ثم أصلحوا باقيه وعند ما تم نضجه أتاهم أسير فدفعوه له ، وباتوا طاوين شاكرين اللّه على ذلك ، لأنهم تصدقوا بما عندهم مع احتياجهم إليه ، وهذا معنى قوله تعالى (عَلى حُبِّهِ) إذا صح لا يخصصها فيه عليه السّلام دون غيره بل يشمل عمومها كل من عمل عمله لعموم اللّفظ ، ويدخل فيها هو دخولا أوليا ، كيف وهو من بيت الكرم ، لأن أول من سن القرى جده ابراهيم عليه السّلام وأول من هشم الثريد جده هاشم ، وأول من أفطر جيرانه على مائدته في الإسلام عمه عبد اللّه

بن عباس ، وهو أول من وضع الموائد على الطّريق وكان إذا خرج الطّعام من بيته لا يرد منه شيئًا بل يتركه لمن يأكله وهو أول من وضع الطّعام على الطّرق للمسافرين والقافلين ، وهذه سنة لم يسبقه بها أحد من أجواد الجاهلية والإسلام مثل حاتم وهرم بن سنان وكعب بن مامه وغيرهم .

قالوا وقد جدد هذه السّنة الأخيرة من أكارم العرب صفوك الجرياء شيخ عشائر شمر في الجزيرة جد مشعل باشا الموجود الآن وجد عجيل الياور القاطن في الموصل كثر اللّه الكرام وأدام نعمه عليهم في الدنيا والآخرة .

ومما قاله معدن الكرم عبد اللّه بن عباس :

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى واعمل فكر اللّيل واللّيل عاكر

وباكرني في حاجة لم يجد بها سواي ولا من نكبة الدّهر ناصر

فرجت بما لي همه من مقامه وزايله هم طروق مسافر

وكان له فضل عليّ بظنه بي الخير إني للذي ظن شاكر

(46/794)

و من مروءة ابن عمه عبد اللّه بن جعفر أنه أسلف الزبير الف درهم ، فلما توفي الزبير قال ابنه عبد اللّه له اني أجد في كتب أبي أن له عليك الف الف درهم قال هو صادق فاقبضها إن شئت ، ثم لقيه بعد ذلك ، فقال يا أبا جعفر اني واهم المال لك على أبي ، قال فهو له ، فقال لا أريد ذلك ، قال فاختر إن شئت فهو له ، وإن كرهت ذلك فلك فيه نظرة ما شئت ، فانظروا أيها النّاس أين هؤلاء الكرام ألا يوجد من يتأسى بهم فينال الثناء من النّاس في الدّنيا والثواب من اللّه في الآخرة ، ولكن النّاس ويا للأسف حرصوا على الدّنيا بحبّهم لحطامها الذي يسهل لهم كلّ شيء كما قيل :

وإذا رأيت صعوبة في مطلب فاحمل صعوبته على الدّينار

وابعثه فيما تشتهيه فإنه حجر يلين قوة الأحجار

فخير للناس من أن يجمعوه ويتركوه فيحاسبوا عليه أن يصرفوه في طرق الخير ، وينالوا ثوابه ، اللهم وفقنا لما فيه خيرنا وفلاحنا .

قال تعالى "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا" (23) كثيرا ، المرة بعد المرة لأن التشديد يفيد التكثير والتضعيف ، إذ أنزل آية آية ، وخمس خمس ، وسورة سورة ، كما اقتضته حكمة اللّه .

وفي هذه الآية ردّ على الكافرين والمنافقين القائلين إنه سحر وكهانة وشعر واختلاق وتعلم وخرافات "فَاصْبِرْ" يا حبيبي على أذى قومك وتحمل ثقلهم ، فقد آن أن يأتيك الفرج العام

والنّصر المبين ، فانتظر "لِحُكْمِ رَبِّكَ" بهذا إلى أن يأتي الوقت المقدر للفتح العظيم الذي وعدناك به "وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً" (26) وإنما وصمهم بهاتين الخصلتين لأنهم أحد رجلين : إما كثير الإثم كأهل الكتابين أو مشرك كأهل مكة وحلفاهم من العرب ، وإن كلا منهم يدعو إلى ما هو عليه .

(47/794)

هذا ولا يصح نزول هذه الآية في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة أو في أبي جهل كما قاله بعض المفسرين ، لأنهم قتلوا قبل نزولها ولا قائل بأنها مكية أو أن هذه الآية مستثناة منها ، وكون مجيئها مسوقة على ما كان منهم عند حدوث ذكرهم بعيد أيضا ، ولهذا فإنها عامة مطلقة في كلّ من هو كذلك .

قال تعالى "وَاذْكُرِ" يا سيد الرّسل "اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً" (25) أول النّهار وآخره ، وهذا إشارة إلى صلاة الصّبح والظّهر والعصر "وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً" (26) وهذه اعلام بصلاة المغرب والعشاء والتطوع ، والقصد منها إدامة ذكر اللّه تعالى ليل نهار وفي كلّ حال ، واعلم يا سيد الرّسل "إِنَّ هؤُلاءِ" الكفرة والمنافقين "يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ" متوغلين في الدّنيا متهالكين عليها ولذلك يعرضون عنك لأنك تدعوهم إلى ضدها ،

ولكنهم لا يريدون الآخرة التي تدعوهم إليها لأنهم لم يصدقوا بوجودها ويرون إجابة طلبك بالرشد والنّصح صعبا عليهم قال :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلّب في الماء جذوة نار

وهيهات ذلك لأن الآخرة لمن يؤمن بالغيب الذي تخبر به وهم جاحدون له كافرون به مقتصرون على الدّنيا "وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا" (27) عليهم وقعه شديدا بلاؤه ، ولو علموه لجعلوه أمامهم صباح مساء ولكن لم يعرفوه فتركوه وراءهم ، ولم يلتفتوا إليه ، قال تعالى "نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ" مفاصلهم بالأعصاب ليتمكّنوا من القيام والقعود والأخذ والدّفع والقبض والبسط ولو لا هذا الرّبط المحكم بهذا النّظام البديع لما انتفعنا بجوارحنا وحق لمن فعل هذا معنا أيها النّاس الشّكر والطّاعة لا الكفر والمعصية "وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا"

(48/794)

---

(28) فجعلناهم على صور أخرى وأهلكناهم وخلقنا قوما غيرهم يشكرون ويطيعون ليعلموا أنا قادرون على إحيائهم بعد الموت ، كما نحن قادرون على تبديلهم الآن ، وهذه الآية بمعنى الآية 27 من سورة النّساء المارة "إِنَّ هَذِهِ" الآيات المندرجة في هذه السّورة

"تَذْكِرَةٌ" عظيمة وعظة بليغة لمن يوفقه اللّه لامتثالها والقيام بمقتضاها "فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا" (29) بالتذكر فيها واتباع سبيل النّجاح الموصل إلى النّجاة "وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" لأن الأمر كله له وحده فلا تقدرون على طاعته إلّا بتوفيقه وإرادته ولا ينكفون عن معصيته إلّا بمشيئته وأمره "إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً" بأحوال خلقه وما يؤل إليه حالهم في الدّنيا والآخرة "حَكِيماً" (30) مصيبا بما يفعله بخلقه

"يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ" بهدايته لدينه القويم وتأهيله لها "وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ" باختيارهم المعاصي وظلمهم أنفسهم وغيرهم "عَذاباً أَلِيماً" (31) في الآخرة لا تطيقه قواهم لأنه علم إصرارهم على الكفر فلم يوفقهم للتوبة ولم يهديهم لسلوك طريقة السّوي فاستحقوا العذاب الدّائم بسوء نيتهم.

هذا واللّه أعلم.

وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

والحمد للّه رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 67.75﴾

(49/794)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الإنسان

مكية أو مدنية

مذكورا كاف نبتليه تام عند بعضهم بصيرا حسن كفورا تام وكذا سعيرا تفجيرا حسن مستطيرا صالح وكذا ولاشكور لقطريرا تام وسرورا صالح وكذا على الأرائك وتذليلا وهو أصلحها كانت قواريرا كاف وكذا تقديرا وسلسبيلا والعامة تقف على إذا رأيت ثم وليس بشيء لان الجواب بعده كبيرا صالح وإستبرق كاف من فضة صالح طهورا كاف مشكورا تام تنزيلا حسن وكذا كفورا وأصيلا تام وكذا ثقيلا أسرهم كاف تبديلا تام تذكرة صالح سبيلا حسن حكيما كاف في رحمته تام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(50/794)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الإنسان

مكية أو مدنية إحدى وثلاثون آية إجماعاً وكلمها مائتان واثنتان وأربعون كلمة وحروفها ألف وأربعة وخمسون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً إجماعاً خمسة مواضع السبيل ومسكيناً ويتيماً ومخلدون ورأيت نعيماً

مذكوراً (كاف)

(51/794)

أمشاج (حسن) عند بعضهم ونبتليه جواب بعد سؤال سائل قال كيف كان خلق الإنسان فقال نبتليه أي نختبره فجعلناه سميعاً بصيراً وقال جمع أمشاج نبتليه آخرون الوقف على آخر الآية على التقديم والتأخير أي فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه وهو الكافي و الأمشاج الأخلاط واحدها مشج بفتحتين أو مشج كعدول أعدال أو مشيج كشريف وأشراف قاله ابن الأعرابي قال الزمخشري ومشجه ومزجه بمعنى والمعنى من نطفة امتزج فيها الماء قاله السمين وقيل عروق النطفة وقيل ألوانها وقيل ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان فماء الرجل أبيض ثخين وماء المرأة أصفر رقيق وأيهما علا ماؤه كان الشبه له قال أبو حاتم الوقف التام نبتليه وبه يتم المعنى لأَنَّه في موضع الحال من فاعل خلقنا أي خلقناه حال كوننا مبتلين له أو من الإنسان وقال الفراء ليس بتام لأنَّ المعنى على التقديم والتأخير أي فجعلناه سميعاً

بصيراً لنبتليه في الدنيا بالتكليف وغلط في هذا لأنَّ الآية ليس فيها لام ولا المعنى على ما قاله وقد يبتلى ويختبر وهو صحيح وإن لم يكن سميعاً بصيراً وردَّ عليه بعين ما علل به لأنَّ من شرط التام أن لا يتعلق بما بعده وتتم الفائدة بما دونه فإذا جعل على التقديم والتأخير فكيف يتم الوقف على نبتليه وأبى بعضهم هذا الوقف وجعل موضع نبتليه نصباً حالاً أي خلقناه مبتلين له أي مريدين ابتلاءه كقولك مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي قاصداً به الصيد غداً قال أبو عثمان أمشاج نبتليه ابتلى الله الخلق بتسعة أمشاج ثلاث مفتنات وثلاث كافرات وثلاث مؤمنات فالمفتنات سمعه وبصره ولسانه والكافرات نفسه وهواه وشيطانه والمؤمنات عقله وروحه وملكته فإذا أيد الله العبد بالمعونة سلط العقل على القلب فملكه وأسرت النفس الهوى فلا يجد إلى الجراءة سبيلاً فجانست النفس الروح وجانس الهوى العقل وصارت كلمة الله هي العليا وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة سميعاً بصيراً (حسن)

(52/794)

كفوراً (تام) ومثله وسعيراً ولا يوقف على كافوراً لأنَّ عيناً منصوب بدلاً من كافوراً أي وماء عين أو بدلاً من محل من كأس أو مفعول يشربون أو حالاً من الضمير في مزاجها وإن

نصب على الاختصاص جاز الوقف على كافوراً

عباد الله (جائز)

تفجيراً (حسن)

بالنذر (جائز)

ويخافون يوماً ليس بوقف ونصب على أنَّه مفعول به فليس هو بمعنى في

مستطيراً (حسن)

على حبه ليس بوقف لأنَّ ما بعده مفعول ثان ليطعمون فلا يقطع منه وهو مصدر مضاف

للمفعول أي على حب الطعام فهو حال من الطعام أو من الفاعل

وأسيراً (حسن) ومثله لوجه الله وكذا ولا شكوراً لأنَّ الكلام متحد في صفة الأبرار

قمطريراً (تام)

شرّ ذلك اليوم (حسن) ومثله وسروراً ولا يوقف على حريراً لأنَّ متكئين حال من مفعول

جزاهم ولا يجوز أن يكون صفة لجنة عند البصريين لأنَّه كان يلزم بروز الضمير فيقال متكئين

هم فيها لجريان الصفة على غير من هي له خلافاً للزمخشري حيث جوز أن يكون متكئين

ولا يرون ودانية كلها صفات لجنة ولا يجوز أن يكون حالاً من فاعل صبروا لأنَّ الصبر كان في

الدنيا واتكاؤهم إنَّما هو في الآخرة قاله مكي انظر السمين

على الأرائك (حسن) على استئناف ما بعده ولا يوقف على زمهريرا لأنَّ ودانية منصوب

بالعطف على جنة كأَّنه قال جزاؤهم حنة ودانية عليهم ظلالها أي وشجرة دانية عليهم ظلالها وانظر قول السمين ودانية عطف على محل لا يرون مع أَّنه لا يعطف إلاَّ على محل الحرف الزائد وما هنا ليس كذلك

تذليلاً (جائز) ومثله كانت قوارير (كاف) أي أنَّ أهل الجنة قدَّروا الأواني في أنفسهم على أشكال مخصوصة فجاءت كما قدورها تكرمة لهم جعلها السقاة على قد رويّ شاربيها زنجبيلاً ليس بوقف لأنَّ عيناً بدل من زنجبيلاً فلا يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف وإن نصبت عيناً على الاختصاص جاز

(53/794)

سلسبيلاً (كاف) وأغرب بعضهم ووقف على وإذا رأيت ثم فكأَّنه حذف الجواب تعظيماً لوصف ما رأى المعنى وإذا رأيت الجنة رأيت ما لا تدركه العيون ولا يبلغه علم أحد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر وما أرادوه ليس بشيء لأنَّ ثم ظرف لا يتصرف فلا يقع فاعلاً ولا مفعولاً وغلط من أعربه مفعولاً لرأيت لأَّنه لا مفعول لها لا ظاهراً ولا مقدراً خلافاً للأخفش والفراء ليكون أشيع لكل مرئي وزعم الفراء أن تقديره إذا رأيت ما ثم وهذا غير جائز عند

البصريين لأنَّ ثم صلة لما ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة بل تقديره إذا وجدت الرؤية في الجنة رأيت نعيماً

وكبيراً (جائز) لمن قرأ عاليهم بإسكان الياء مبتدأ خبره ثياب وهو حمزة ونافع والباقون بنصبها ظرفاً أو حالاً من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم أي يطوف عليهم ولدان مخلدون عالياً للمطوف عليهم ثياب أو حسبتم لؤلؤاً عاليهم ثياب ومحلها نصب حال وليس بوقف لمن قرأ عاليهم بالنصب على الحال مما قبله

واستبرق (كاف) على القراءتين أعني برفعه أو جره فمن رفعه عطفه على ثياب ومن جره عطفه على سندس وهمزة استبرق همزة قطع

من فضة (حسن) على استئناف ما بعده

طهوراً (كاف)

جزاء (جائز)

مشكوراً (تام)

تنزيلاً (كاف)

لحكم ربك (جائز)

أو كفوراً (حسن)

وأصيلاً (كاف)

فاسجد له (جائز)

طويلاً (كاف)

العاجلة (حسن)

ثقيلاً (كاف)

أسرهم (حسن) ومعناه خلقهم

تبديلاً (تام)

تذكرة (حسن) للابتداء بالشرط مع الفاء

سبيلاً (كاف)

إلا أن يشاء الله (حسن) على استئناف ما بعده

حكيماً (كاف) وقيل تام على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل متصلاً بما قبله

في رحمته (كاف) والظالمين منصوب بمقدر أي وعذب الظالمين ولا يجوز أن يكون معطوفاً

على من أي يدخل من يشاء في رحمته ويدخل الظالمين أو وعذب الظالمين أعدَّ لهم وتام

على قراءة الحسن والظالمون بالرفع

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الإنسان :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "وَاسْتَبْرَق" ، بوصل الألف ، وفتح القاف – ابن محيصن .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على هذا عند قول الله تعالى : ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] ﴾ وغيره .

ومن ذلك قراءة عبد الله بن الزبير وأبان بن عثمان : "والظالمون أعدّ" ، بالواو .

قال أبو الفتح : هذا على ارتجال جلمة مستأنفة ، كأنه قال : الظالمون أعد لهم عذابا أليما ، ثم إنه عطف الجملة على ما قبلها . وقد سبق الرفع إلى مبتدئها ، غير أن الذي عليه الجماعة أسبق ، وهو النصب . ألا ترى أن معناه يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين ؟ فلما أضمر هذا الفعل فسره بقوله : ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، وهذا أكثر من أن يؤتى له بشاهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 344 ﴾

---

1 انظر الصفحة 304 من هذا الجزء .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الإنسان

مكية وقيل مدنية إلا آية ولا تطع الخ وقيل من فاصبر الخ وآيها إحدى وثلاثون مشبه الفاصلة خمسة (السبيل وقوارير) الثاني (مخلدون نعيما) وعكسه (قوارير) الأول القراآت أمال أتى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (سلاسل) الآية 4 فنافع وهشام من طريق الحلواني والشذائي عن الداجوني وأبو بكر والكسائي وأبو جعفر ورويس عن طريق أبي الطيب بالتنوين للتناسب لأن ما قبله منون منصوب وقال الكسائي وغيره من الكوفيين إن بعض العرب يصرفون جميع ما لا ينصرف إلا أفعل التفضيل وعن الأخفش يصرفون مطلقا وهم بنو أسد لأن الأصل في الأسماء الصرف والوقف في هذه القراءة بالألف بدل التنوين وعن الحسن والشنبوذي كذلك والباقون بالمنع من الصرف على الأصل بلا تنوين لكونه جمع تكسير بعد ألفه حرفان كمساجد وهو رواية زيد عن الداجوني وهؤلاء في الوقف على ثلاث فرق منهم من وقف بالألف بلا خلاف وهو أبو عمرو وروح من طريق المعدل وافقه اليزيدي ومنهم من وقف

بغير ألف كذلك وهم حمزة وخلف وزيد عن الداجوني عن هشام ورويس من غير طريق أبي الطيب وروح من غير طريق المعدل وافقهم المطوعي واختلف عن الباقين وهم ابن كثير وابن ذكوان وحفص وافقهم ابن محيصن فروى الحمامي عن النقاش عن أبي ربيعة وابن الحباب عن البزي وابن شنبوذ عن قنبل وغالب العراقيين عن ابن ذكوان وأكثر المغاربة عن حفص كل هؤلاء بالألف عمن ذكر ووقف عنهم بغير ألف باقي أصحاب النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وابن مجاهد عن قنبل والنقاش عن الأخفش عن ابن ذكوان والعراقيون عن حفص وأطلق الوجهين عنهم في التيسير وأمال فوقاهم الله ولقاهم وجزاهم وتسمى و سقاهم وحمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وحذف أبو جعفر همز متكئين كوقف حمزة في أحد وجهيه والثاني بين بين على القياس

(56/794)

واختلف في ﴿ قوارير قوارير) ﴾ الآية 15 فنافع وابو بكر والكسائي وأبو جعفر بتنوينها معا لأنهما كسلاسل جمعا وتوجيها غير أن السلاسل على مفاعل وقوارير على مفاعيل ووقفوا عليهما بالألف للتناسب موافقة لمصاحفهم وافقهم الحسن والأعمش وعن الأعمش وجه آخر رفعهما بلا تنوين على إضمار مبتدأ أي هي وقرأ ابن كثير وخلف عن

نفسه بالتنوين في الأول وبدونه في الثاني مناسبة لرؤوس الآي في الأول ووقفا بالألف في الأول وبدونها في الثاني وافقهما ابن محيصن وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحفص وروح بغير تنوين فيهما ووقفوا على الأول بالألف لكونه رأس آية بخلف عن روح في الوقف وعلى الثاني بدونها إلا هشاما فاختلف عنه في الثاني من حيث الوقف من طريق الحلواني فوقف عليه بالألف عنه المغاربة وبدونها عنه المشارقه وافقهم اليزيدي وقرأ حمزة ورويس بغير تنوين فيهما أيضا ووقفا بغير ألف فيهما ومرضم هاء عليهم لحمزة ويعقوب ويوقف لحمزة على لؤلؤا بوجه واحد وهو إبدال الأولى واوا ساكنة والثانية واوا مفتوحة وافقه في الأولى أبو عمرو بخلفه وأبو بكر وأبو جعفر ويوقف لرويس على ثم بهاء السكت بخلفه

واختلف في (عاليهم) الآية 21 فنافع وحمزة وأبو جعفر بسكون الياء خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر وافقهم ابن محيصن والحسن وعن المطوعي كذلك مع ضم الهاء والباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه حال من الضمير المجرور في عليهم أو من مفعول حسبتهم أو على الظرفية خبرا مقدما لثياب كأنه قيل فوقيهم

واختلف في ( ) خضر وإستبرق (الآية 21 فنافع وحفص بالرفع فيهما فرفع (خضر)
على النعت لثياب (وإستبرق) نسقا على ثياب على حذف مضاف أي وثياب إستبرق
وافقهما الحسن لكنه بغير تنوين في إستبرق وهمزة القطع وقرأ ابن كثير وأبو بكر بخفض الأول
ورفع الثاني فخضر نعت لسندس وفيه وصف المفرد بالجمع وأجازه الأخفش وأجيب
عنه بأنه اسم جنس وقيل جمع لسندسه واسم الجنس يوصف بالجمع قال تعالى السحاب
الثقال وإستبرق نسق على ثياب على ما مر وافقهما ابن محيصن إلا أنه لم ينونه وعنه بخلف
وصل همزة القطع وقرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب برفع الأول وخفض الثاني
فخضر نعت لثياب وإستبرق نسق على سندس أي ثياب خضر من سندس ومن إستبرق
وافقهم اليزيدي وقرأ حمزة والكسائي وخلف بخفضهما فخضر نعت لسندس على ما مر
وإستبرق نسق على سندس وافقهم الأعمش
واختلف في ( ) وما تشاؤون (الآية 30 هنا فابن كثير وأبو عمر وابن عامر بخلف عنه من
روايتيه بالياء من تحت وافقهم ابن محيصن والحسن واليزيدي والباقون بالتاء من فوق
والوجهان صحيحان عن ابن عامر من روايتي هشام وابن ذكوان كما في النشر أي من
طريقي كل منهما كما يفهم منه وخرج موضع التكوير المتفق على الخطاب فيه
المرسوم في كل الرسوم (سلاسل و) كانت قواريرا (بألف مكان التنوين واختلفوا في ( )

قوارير من فضة ( ) ففي بعضها بألف وفي بعضها بدونها واتفقوا على حذف ألف (عليهم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(58/794)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الدهر "

" نبتليه ، بصيرا " شاكرا ، وسعيرا ، كأس ، يفجرونها تفجيرا ، مستطيرا ، وأسيرا قمطريرا ، وحريرا ، زمهريرا ، عليهم ، تقديرا كأسا ، لا يخفى ما فيه .

" وسلاسل " قرأ المدنيان وهشام وشعبة والكسائي التنوين وصلا ويإبداله ألفا وقفا ، والباقون بحذف التنوين وصلا .

واختلفوا في الوقف فوقف أبو عمرو وروح بالألف وحمزة وقنبل ورويس وخلف من غير ألف مع إسكان اللام . ولحفص والبزي وابن ذكوان وجهان وقفا : الأول كأبي عمرو وروح ، والثاني كحمزة ومن معه .

" متكئين " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة في الحالين ولحمزة في الوقف عليه وجهان : الأول كأبي جعفر والثاني التسهيل بين بين .

" قوارير قوارير " قرأ المدنيان وشعبة والكسائي بالتنوين فيهما وبإبداله ألفا وقفا ، وقرأ ابن كثير وخلف في اختياره بالتنوين في الأول وبتركه في الثاني ووقفا على الأول بالألف وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء ، وأبو عمرو وابن عامر وروح وحفص بترك التنوين فيهما ووقفوا على الأول بالألف وعلى الثاني بحذفها مع إسكان الراء إلا هشاما فوقف على الثاني بالألف أيضا . وقرأ حمزة ورويس بترك التنوين فيهما وإذا وقفا حذفا الألف فيهما مع إسكان الراء .

" سلسبيلا " آخر الربع .

الممال

" رؤوس الآي الممالة " :

صلى ، وتولى ، يتمطى ، فأولى معا ، سدى ، يمنى ، فسوى ، والأنثى ، الموتى ، وهي معدودة إجماعا ، وقد أمالها كلها الأخوان وخلف ووافقهم شعبة على إمالة شعبة على إمالة سدى فقط وقللها كلها البصري وورش بلا خلاف عنهما .

" ما ليس برأس آية " :

بلى ، وألقى ، وأولى معا ، وأتى ، وفوقاهم ، ولقاهم ، وجزاهم وتسمى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه للكافرين بالإمالة للبصري والدوري رويس وبالتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " بل تحبون للأخوين وهشام .

" الكبير " لا أقسم بيوم ، ولا أقسم بالنفس ، نجمع عظامه ، الدهر لم ، يشرب بها .

(59/794)

" لؤلؤا " أبدل الهمزة الأولى ووا ساكنة شعبة والسوسي وأبو جعفر مطلقا وكذلك حمزة إن وقف ويبدل حمزة أيضا الثانية عند الوقف واوا محضة .

" ثم " وقف عليه رويس بهاء السكت وغيره بتركها .

" عاليهم " قرأ المدنيان وحمزة باسكان الياء ويلزمه كسر الهاء وغيرهم بنصب الياء ويلزمه ضم الهاء .

" خضر وإستبرق " قرأ نافع وحفص برفع الراء والقاف . وابن كثير وشعبة بخفض الأول ورفع الثاني وأبو جعفر والبصريان والشامي برفع الأول وخفض الثاني ، والأخوان وخلف بخفضهما .

" القرآن ، وسبحه ، شئنا ، تذكرة ، جلي .

" تشاءون " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة وغيرهم بتاء الخطاب وثلاثة البدل لورش واضحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 340 . 342 ﴾

(60/794)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الإنسان

قوله تعالى ﴿ سلاسل ﴾ يقرأ بالتنوين وتركه فالحجة لمن نون انه شاكل به ما قبله من رؤوس الآي لانها بالالف وان لم تكن رأس آية ووقف عليهما بالالف والحجة لمن ترك التنوين قال هي على وزن فعالل وهذا الوزن لان ينصرف الا في ضرورة شاعر وليس في القرآن ضرورة وكان ابو عمرو يتبع السواد في الوقف فيقف بالالف ويحذف عند الادراج

قوله تعالى ﴿ كانت قواريرا قوارير ﴾ يقرآن معا بالتنوين وبالالف في الوقف وبطرح التنوين فيهما والوقف على الاول وعلى الثاني بغير ألف الا ما روي عن حمزة انه كان يقف عليهما بغير الف فالحجة لمن قرأهما بالتنوين انه نون الاولى لانها رأس آية وكتابتها في السواد بألف وأتبعها الثانية لفظا لقربها منها وكراهية للمخالفة بينهما وهما سيان كما قال الكسائي ﴿

ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ فصرف الثاني لقربه من الاول والحجة لمن ترك التنوين انه اتى بمحض قياس العربية لأنه على وزن فواعيل وهذا الوزن نهاية الجمع المخالف لبناء الواحد فهذا ثقل وهو مع ذلك جمع والجمع فيه ثقل ثان فلما اجتمع فيه ثقلان منعاه من الصرف

فأما الوقف عليه في هذه القراءة بالالف فاتباع للخط ولان من العرب من يقول رأيت عمرا فيقف على ما لا ينصرف بالالف ولزم حمزة القياس وصلا ووقفا

وأراد بقوله ﴿ من فضة ﴾ صفاء لونها وانها تؤدي ما داخلها كما يؤدي الزجاج

قوله تعالى ﴿ عاليهم ﴾ يقرأ بفتح الياء وسكونها فالحجة لمن فتح انه جعله ظرفا من المكان لان الثاني فيه غير الاول كما تقول فوقك السقف وامامك الخير والحجة لمن اسكن انه جعله اسما واراد به ان الاول هو الثاني كما تقول فوقك رأسك وامامك طهرك فهذا فرق ما بين الظرف والاسم في هذا القبيل وما اشبهه فمن فتح الياء ضم الهاء ومن اسكنها كسر الهاء

قوله تعالى ﴿ خضر وإستبرق ﴾ يقرآن بالرفع والخفض فالحجة لمن رفع انه جعل الخضر نعتا للثياب وعطف الاستبرق عليها ودليله قوله يلبسون ثيابا خضرا على النعت والحجة لمن خفض انه جعل الخضر نعتا للسندس وجعل الاستبرق عطفا على سندس واصله بالعجمية استبره فعربته العرب فقالت استبرق وهو الديباج الغليظ

قوله تعالى ﴿ وما تشاؤون ﴾ يقرأ بالياء والتاء وقد تقدم ذكره فيما سلف . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 358 . 359 ﴾

(62/794)

وقال ابن زنجلة :

76 - سورة الإنسان

إنا أعتدنا للكفرين سلسلا وأغللا وسعيرا

قرأ نافع وأبو بكر والكسائي سلاسلا بالتنوين

وقرأ الباقون سلاسل بغير تنوين لأن فعالل لا تنصرف وكل جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدد أو حرفان خفيفان أو أكثر فإنه لا ينصرف في معرفة ولا نكرة نحو مساجد قال الله تعالى مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا

وحجة من صرف أمران أحدهما ذكر الفراء فقال إن العرب

تجري ما لا يجري في الشعر فلو كان خطأ ما أدخلوه في أشعارهم فكذلك هؤلاء اجروا

سلاسلا قال الشاعر . . . فما وجد أظآر ثلاث روائم . . .

فأجرى روائم والوجه الثاني أنهم اتبعوا مرسوم المصاحف في الوصل والوقف لأنها مكتوبة

بالألف وإن لم تكن رأس آية فهي تشاكل رؤوس الآي لأن بعده أغلالا وسعيرا وأكواب كانت

قواريرا قواريرا من فضة قدروها تقديرا 16 , 15

قرأ نافع وأبو بكر والكسائي قواريرا قواريرا منونا كلاهما وإذا وقفوا وقفوا عليهما بالف

اتباعا للمصحف ولأن الأولى راس آية وكرهوا أن يخالفوا بين لفظين معناهما واحد كما قرأ

الكسائي ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود فصرف الثاني لقربه من الأول

قرأ ابن كثير قواريرا منونا و قوارير من فضة بغير تنوين وهو الاختيار لأن الأولى رأس آية

وليست الثانية كذلك

فمن قرأ قواريرا قواريرا بإجرائهما جميعا كانت له ثلاث حجج إحداهن أن يقول نونت

الأولى لأنها رأس آية ورؤوس

الآيات جاءت بالتنوين كقوله مذكورا سميعا بصيرا فنون الأولى ليوافق بين رؤوس الآيات

ونون الثاني على الجوار للأول

والحجة الثانية أن العرب تجري ما لا يجرى في كثير من كلامها من ذلك قول عمرو بن كلثوم

. . . كأن سيوفنا فينا وفيهم . . . مخاريق بأيدي لاعبينا . . .

فأجرى مخاريق والثالثة اتباع المصاحف وذلك أنهم جميعا في مصاحف أهل الحجاز والكوفة بالألف

(63/794)

وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص قوارير قوارير بغير تنوين وهو محض العربية لأن فواعل لا تنصرف في معرفة ولا نكرة ووقفوا على الأولى بالألف لأنها رأس آية وآيتها على الألف ووقفوا على ا لثانية بغير ألف لأنها ليست ب رأس آية ووقف حمزة بغير ألف فيهما قوله كانت قوارير قوارير من فضة يقول كانت كصفاء القوارير وبياض الفضة فاجتمع فيها صفاء القورايرو بياض الفضة قدروها تقديرا أي قدروا الكأس على ري أحدهم لافضل فيه ولا عجز عن ريه عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق 21

قرأ نافع وحمزة عاليهم ساكنة الياء وهي في موضع رفع على الابتداء وخبره ثياب سندس لأن العالي هو الثياب

وقرأ الباقون عاليهم بفتح الياء على الحال قال الزجاج نصب على الحال من شيئين أحدهما من الهاء والميم المعنى يطوف على الأبرار ولدان مخلدون على الأبرار ثياب سندس لأنه قد

وصفت أحوالهم في الجنة فيكون المعنى يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء ويجوأن يكون حالا من الولدان المعنى إذا رأيته حسبتهم لؤلؤا منثورا في حال علو الثياب إياهم وقال قوم نصب على الظرف بمعنى فوقهم

وقرأ ابن كثير وأبو بكر ثياب سندس خضر خفضا وإستبرق رفعا

وقرأ أبو عمرو وابن عامر خضر رفع وإستبرق خفض وقرأ نافع وحفص بالرفع فيهما

وقرأ حمزة والكسائي بالخفض فيهما

فمن قرأ خضر بالرفع فهو أحسن لأنه يكون نعتا للثياب ولفظ الثياب لفظ الجمع و خضر لفظها لفظ الجمع

ومن قرأ خضر فهو من نعت السندس والسندس في المعنى راجع إلى الثياب

ومن قرأ إستبرق بالرفع فهو نسق على ثياب المعنى وعليهم إستبرق ومن خفض فهو نسق على السندس وثياب إستبرق

ويكون المعنى عليهم ثياب من هذين النوعين ثياب سندس وإستبرق

وأجود هذه الوجوه قول أبي عمرو ومن معه فرفع الخضر لأنه صفة مجموعة لموصوف مجموع فأتبع الخضر الذي هو جمع مرفوع الجمع المرفوع الذي هو ثياب وأما إستبرق فجر من حيث كان جنسا أضيف إليه الثياب كما اضيف إلى سندس فاضاف الثياب إلى الجنسين كما تقول ثياب خز وكتان ويدل على ذلك قوله تعالى ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق وأما خفض خضر وإستبرق بالرفع فإنه أجرى الخضر وهو جمع على السندس لما كان المعنى أن الثياب من هذا الجنس

وأجاز أبو الحسن الأخفش وصف بعض هذه الأجناس بالجمع فقال تقول أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض والصفر والبيض جمعان والدرهم لفظه واحد أراد به الجنس وما تشاءون إلا أن يشاء الله 30

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وما يشاؤون بالياء ردوه على قوله ويذرون وراءهم 27 ونحن خلقناهم وشددنا أسرهم فجعلوا قوله يشاؤون خبرا عنهم إذ أتى في سياق الخبر عنهم ليأتلف الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون وما تشاءون بالتاء على الخطاب وإنما خاطبهم

بذلك بعد انقضاء الخبر عنهم ولأن الخطاب يدخل فيه معنى الخبر فهو أوعب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ حجة القراءات صـ 737 . 742 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الإنسان 76

مكية وقال جابر بن زيد هي مدنية وقد ذكر نظيرتها في المدني الأخير والمكي ولا نظير لها

في غيرهما

وكلمها مئتان واثنتان وأربعون كلمة

وحروفها ألف وأربعة وخمسون حرفا

وهي إحدى وثلاثون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل أربعة مواضع (﴿ السبيل ﴾ مسكينا ويتيما) (﴿ مخلدون ﴾

رأيت نعيما) ورؤوس الآي

مذكورا

1 بصيرا

2 كفورا

3 وسعيرا

4 كافورا

5 تفجيرا

6 مستطيرا

7 وأسيرا

8 شكورا

9 قمطريرا

10 وسرورا

11 وحريرا

12 زمهريرا

13 تذليلا

14 قواريرا

15 تقديرا

16 زنجبيلا

17 سلسبيلا

18 منثورا

19 كبيرا

20 طهورا

21 مشكورا

22 تنزيلا

23 أو كفورا

24 وأصيلا

25 طويلا

26 ثقيلا

27 تبديلا

28 سبيلا

29 حكيما

30 أليما

31 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 260﴾

(66/794)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

في (هل) وجهان: أحدهما هي بمعنى قد .

والثانى هي استفهام على بابها والاستفهام هنا للتقرير أو التوبيخ ، و (لم يكن شيئا) حال من الإنسان ، و (أمشاج) بدل أو صفة ، وهو جمع مشيج ، وجاز وصف الواحد بالجمع هنا لأنه كان في الإصل متفرقا ثم جمع: أي نطفة أخلاط ، و (نبتليه) حال من الإنسان ، أو من ضمير الفاعل .

قوله تعالى (إما شاكرا) إما ها هنا لتفصيل الأحوال ، وشاكرا وكفورا حالان أي يناله في كلتا حالتيه .

قوله تعالى (سلاسل) القراءة بترك التنوين ، ونونه قوم أخرجوه على الأصل ، وقرب ذلك عندهم شيئان: أحدهما إتباعه ما بعده .

والثانى أنهم وجدوا في الشعر

مثل ذلك منونا في الفواصل ، وإن هذا الجمع قد جمع كقول الراجز: * قد جرت الطير أيا منينا * قوله تعالى (من كأس) المفعول محذوف: أي خمرا أو ماء من كأس ، وقيل " من " زائدة ، و (كان مزاجها) نعت لكأس ، وأما (عينا) ففي نصبها أوجه: أحدها هو بدل من موضع من كأس .

والثانى من كافور: أي ماء عين أو خمر عين .

والثالث بفعل محذوف: أي أعنى والرابع تقديره: أعطوا عينا .

والخامس يشربون عينا وقد فسره ما بعده .

قوله تعالى (يشرب بها) قيل الباء زائدة ، وقيل هي بمعنى " من " وقيل هو حال أي يشرب ممزوجا بها ، والأولى أن يكون محمولا على المعنى ، والمعنى يلتذ بها ، و (يفجرونها) حال .

قوله تعالى (يوفون) هو مستأنف ألبتة .

قوله تعالى (متكئين فيها) يجوز أن يكون حالا من المفعول في جزاهم ، وأن يكون صفة لجنة ، و (لا يرون) يجوز أن يكون حالا من الضمير المرفوع في متكئين وأن يكون حالا أخرى ، وأن يكون صفة لجنة ، وأما (ودانية) ففيه أوجه: أحدها أن يكون معطوفا على لا يرون أو على متكئين ، فيكون فيه من الوجوه ما في المعطوف عليه .

(67/794)

والثانى أن يكون صفة لمحذوف تقديره: وجنة دانية ، وقرئ ودانية بالرفع على أنه خبر ، والمبتدأ (ظلالها) وحكى بالجر: أي في جنة دانية ، وهو ضعيف لأنه عطف على المجرور من غير إعادة الجار ، وأما ظلالها فمبتدأ ، وعليهم الخبر على قول من نصب دانية أو جره ،

لأن دنا يتعدى بإلى ، ويجوز أن يرتفع بدانية لأن دنا وأشرف بمعنى ، وأما (وذللت) فيجوز أن يكون حالا: أي وقد ذللت ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (قواريرا قوارير) يقرآن بالتنوين وبغير التنوين وقد ذكر ،

والأكثرون يقفون على الإول بالإلف لأنه رأس آية .

وفي نصبه وجهان: أحدهما هو خبر كان والثانى حال ، وكان تامة: أي كونت ، وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها ، ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف ، و (قدروها) يجوز أن يكون نعتا لقوارير ، وأن يكون مستأنفا ، و (عينا) فيها من الوجوه ما تقدم في الأول والسلسبيل كلمة واحدة ووزنها فعليل (1) مثل إدريس .

---

(1) قوله (ووزنها فعليل) أي لأن الباء زائدة كما في البيضاوى اه .

(*)

قوله تعالى (عاليهم) فيه قولان: أحدهما هو فاعل ، وانتصب على الحال من المجرور في عاليهم ، و (ثياب سندس) مرفوع به: أي يطوف عليهم في حال علو السندس ، ولم يؤنث

عاليا لأن تأنيث الثياب غير حقيقي والقول الثاني هو ظرف لأن عاليهم جلودهم ، وفي هذا القول ضعف ، ويقرأ بسكون الياء إما على تخفيف المفتوح المنقوص ، أو على الابتداء والخبر ، ويقرأ " عاليتهم " بالتاء وهو ظاهر ، و (خضر) بالجر صفة لسندس ، وبالرفع لثياب (وإستبرق) بالجر عطفا على سندس ، وبالرفع على ثياب .

قوله تعالى (أو كفورا) أو هنا على بابها عند سيبويه ، وتفيد في النهى المنع من الجميع ، لأنك إذا قلت في الإباحة جالس الحسن أو ابن سيرين كان التقدير : جالس أحدهما ، فإذا نهى قال لاتكلم زيدا أو عمرا ، فالتقدير : لاتكلم أحدهما .

فأيهما كلمه كان أحدهما فيكون ممنوعا منه ، فكذلك في الآية ، ويئول المنع إلى تقدير : فلا تطع منهما آثما ولا كفورا .

قوله تعالى (إلا أن يشاء الله) أي إلا وقت مشيئة الله أو إلا في حال مشيئة الله عزوجل

(والظالمين) منصوب بفعل محذوف تقديره: ويعذب الظالمين ،

وفسره الفعل المذكور ، وكان النصب أحسن لأن المعطوف عليه قد عمل فيه الفعل وقرئ بالرفع على الابتداء ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ

﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الإنسان

[سورة الإنسان (76) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1)

"هَلْ أَتى " حرف استفهام للتشويق وماض و"عَلَى الْإِنْسانِ" متعلقان بالفعل و"حِينٌ" فاعل أتى و"مِنَ الدَّهْرِ" متعلقان بمحذوف صفة حين والجملة ابتدائية لا محل لها . و"لَمْ يَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلم واسمه مستتر و"شَيْئاً" خبر يكن و"مَذْكُوراً" صفة والجملة حال .

[سورة الإنسان (76) : آية 2]

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2)

"إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ" إن واسمها وماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر إنا والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها و"مِنْ نُطْفَةٍ" متعلقان بالفعل و"أَمْشاجٍ" صفة نطفة و"نَبْتَلِيهِ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال . و"فَجَعَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول و"سَمِيعاً" مفعول به ثان و"بَصِيراً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإنسان (76) : آية 3]

إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3)

"إِنَّا هَدَيْناهُ" إن واسمها وماض وفاعله ومفعوله الأول و"السَّبِيلَ" مفعوله الثاني والجملة الفعلية خبر إنا والجملة الاسمية تعليل لا محل لها و"إِمَّا" أداة شرط وتفصيل و"شاكِراً" حال "وَإِمَّا كَفُوراً" معطوف على ما قبله.

[سورة الإنسان (76) : آية 4]

إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (4)

"إِنَّا أَعْتَدْنا" إن واسمها وماض وفاعله والجملة الفعلية خبر إنا والجملة الاسمية مستأنفة و"لِلْكافِرِينَ" متعلقان بالفعل و"سَلاسِلَ" مفعول به "وَأَغْلالاً وَسَعِيراً" معطوفان على ما قبلهما.

[سورة الإنسان (76) : آية 5]

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (5)

"إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ" إن واسمها ومضارع مرفوع والواو فاعله و"مِنْ كَأْسٍ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول محذوف والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة و"كانَ

مِزاجُها كافُوراً" كان واسمها وخبرها والجملة صفة كأس .

[سورة الإنسان (76) : آية 6]

عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (6)

"عَيْناً" بدل من كافورا و"يَشْرَبُ" مضارع و"بِها" متعلقان بالفعل و"عِبادُ اللَّهِ" فاعل مضاف إلى لفظ الجلالة والجملة الفعلية صفة عينا و"يُفَجِّرُونَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة حال و"تَفْجِيراً" مفعول مطلق .

[سورة الإنسان (76) : آية 7]

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7)

"يُوفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"بِالنَّذْرِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة و"وَيَخافُونَ" مضارع وفاعله و"يَوْماً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها و"كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً" كان واسمها وخبرها والجملة صفة يوما .

[سورة الإنسان (76) : آية 8]

وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8)

"وَيُطْعِمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"الطَّعامَ" مفعول به أول والجملة معطوفة على ما قبلها و"عَلى حُبِّهِ" متعلقان بالفعل و"مِسْكِيناً" مفعول به ثان و"يَتِيماً وَأَسِيراً" معطوفان على ما قبلهما .

[سورة الإنسان (76) : آية 9]

إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً (9)

(71/794)

"إِنَّما نُطْعِمُكُمْ" كافة ومكفوفة ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول قول مقدر و"لِوَجْهِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه و"لا" نافية و"نُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر و"مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل و"جَزاءً" مفعول به والجملة حال "وَلا" نافية و"شُكُوراً" معطوف على جزاء .

[سورة الإنسان (76) : آية 10]

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)

"إِنَّا نَخافُ" إن واسمها ومضارع فاعله مستتر و"مِنْ رَبِّنا" متعلقان بالفعل و"يَوْماً" مفعول به و"عَبُوساً" صفة يوما و"قَمْطَرِيراً" صفة ثانية والجملة الفعلية خبر إنا والجملة الاسمية تعليل .

[سورة الإنسان (76) : آية 11]

فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11)

"فَوَقاهُمُ اللَّهُ" الفاء حرف استئناف وماض ومفعوله الأول ولفظ الجلالة فاعل و"شَرَّ ذِلكَ" مفعول به ثان مضاف إلى اسم الإشارة و"الْيَوْمِ" بدل من اسم الإشارة والجملة مستأنفة "وَلَقَّاهُمْ" معطوف على فوقاهم "نَضْرَةً" مفعول به ثان و"سُرُوراً" معطوف على نضرة.

[سورة الإنسان (76) : آية 12]

وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12)

"وَجَزاهُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها و"بِما صَبَرُوا" الباء حرف جر وما مصدرية وماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالباء والجار متعلقان بالفعل و"جَنَّةً" مفعول به ثان و"حَرِيراً" معطوف على جنة.

[سورة الإنسان (76) : آية 13]

مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (13)

"مُتَّكِئِينَ" حال منصوبة و"فِيها" متعلقان بما قبلهما و"عَلَى الْأَرائِكِ" متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر بمتكئين. و"لا" نافية و"يَرَوْنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"فِيها" متعلقان بالفعل و"شَمْساً" مفعول به "وَ" الواو حرف عطف و"لا زَمْهَرِيراً" معطوف على

شمسا والجملة حال.

[سورة الإنسان (76) : آية 14]

وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14)

"وَدانِيَةً" معطوفة على متكئين و"عَلَيْهِمْ" متعلقان بدانية و"ظِلالُها" فاعل دانية و"وَذُلِّلَتْ" ماض مبني للمجهول و"قُطُوفُها" نائب فاعل و"تَذْلِيلًا" مفعول مطلق والجملة معطوفة على دانية.

[سورة الإنسان (76) : آية 15]

وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15)

"وَيُطافُ" مضارع مبني للمجهول و"عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل و"بِآنِيَةٍ" متعلقان بالفعل و"مِنْ فِضَّةٍ" صفة آنية والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَكْوابٍ" معطوف على ما قبله "كانَتْ" ماض ناقص اسمه مستتر و"قَوارِيرَا" خبره والجملة الفعلية صفة أكواب.

[سورة الإنسان (76) : آية 16]

قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (16)

"قَوارِيرَا" بدل مما قبله و"مِنْ فِضَّةٍ" صفة قوارير و"قَدَّرُوها" ماض وفاعله ومفعوله و"تَقْدِيراً" مفعول مطلق والجملة حال.

[سورة الإنسان (76) : آية 17]

وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17)

"وَيُسْقَوْنَ" حرف عطف ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل و"فِيها" متعلقان بالفعل و"كَأْساً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها و"كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً" كان واسمها وخبرها والجملة صفة كأسا .

[سورة الإنسان (76) : آية 18]

عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18)

(73/794)

"عَيْناً" بدل من زنجبيلا و"فِيها" صفة عينا و"تُسَمَّى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر و"سَلْسَبِيلاً" مفعول به ثان والجملة صفة ثانية لعينا .

[سورة الإنسان (76) : آية 19]

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19)

"وَيَطُوفُ" مضارع مرفوع و"عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل و"وِلْدانٌ" فاعل و"مُخَلَّدُونَ" صفة ولدان والجملة معطوفة على ما قبلها . و"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"رَأَيْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة و"حَسِبْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول

و"لُؤْلُؤاً" مفعول به ثان و"مَنْثُوراً" صفة لؤلؤا والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة الإنسان (76) : آية 20]

وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20)

"وَإِذا" الواو حرف عطف و"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"رَأَيْتَ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"ثَمَّ" ظرف مكان و"رَأَيْتَ" ماض وفاعله و"نَعِيماً" مفعول به "وَمُلْكاً" معطوف على نعيما و"كَبِيراً" صفة والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة الإنسان (76) : آية 21]

عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (21)

"عالِيَهُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم و"ثِيابُ" مبتدأ مؤخر مضاف إلى "سُنْدُسٍ" و"خُضْرٌ" صفة ثياب والجملة الاسمية مستأنفة و"إِسْتَبْرَقٌ" معطوف على ثياب . "وَحُلُّوا" الواو حالية وماض مبني للمجهول ونائب فاعل و"أَساوِرَ" مفعول به ثان و"مِنْ فِضَّةٍ" صفة أساور والجملة حالية . "وَسَقاهُمْ" ماض ومفعوله الأول و"رَبُّهُمْ" فاعل و"شَراباً" مفعول به ثان و"طَهُوراً" صفة شرابا والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإنسان (76) : آية 22]

إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22)

"إِنَّ هذا كانَ" إن واسمها وماض ناقص اسمه مستتر و"لَكُمْ" متعلقان بالخبر "جَزاءً" خبر وجملة كان خبر إن

والجملة مقول قول محذوف "وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإنسان (76) : آية 23]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23)

"إِنَّا" إن واسمها و"نَحْنُ" ضمير فصل و"نَزَّلْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إنا والجملة الاسمية مستأنفة و"عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل و"الْقُرْآنَ" مفعول به و"تَنْزِيلاً" مفعول مطلق .

[سورة الإنسان (76) : آية 24]

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24)

"فَاصْبِرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر و"لِحُكْمِ" متعلقان بالفعل و"رَبِّكَ" مضاف إليه والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . و"وَلا تُطِعْ" مضارع مجزوم بلا فاعله مستتر و"مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل و"آثِماً" مفعول به و"أَوْ" حرف عطف و"كَفُوراً" معطوف على آثما

والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإنسان (76) : آية 25]

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25)

"وَاذْكُرِ" أمر فاعله مستتر و"اسْمَ" مفعول به مضاف إلى "رَبِّكَ" مضاف إليه "بُكْرَةً" ظرف زمان "وَأَصِيلًا" معطوف على بكرة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإنسان (76) : آية 26]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26)

"وَمِنَ اللَّيْلِ" متعلقان باسجد و"فَاسْجُدْ" الفاء زائدة وأمر فاعله مستتر و"لَهُ" متعلقان بالفعل و"وَسَبِّحْهُ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها و"لَيْلًا" ظرف زمان و"طَوِيلًا" صفة .

[سورة الإنسان (76) : آية 27]

إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)

"إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ" إن واسمها ومضارع مرفوع والواو فاعله و"الْعاجِلَةَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل ، "وَيَذَرُونَ" مضارع وفاعله "وَراءَهُمْ" ظرف مكان و"يَوْماً" مفعول به و"ثَقِيلًا" صفة يوما والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإنسان (76) : آية 28]

نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28)

"نَحْنُ خَلَقْناهُمْ" مبتدأ وماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَإِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"شِئْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"بَدَّلْنا" ماض وفاعله و"أَمْثالَهُمْ" مفعول به و"تَبْدِيلًا" مفعول مطلق والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة الإنسان (76) : آية 29]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (29)

سبق إعرابها في الآية - 19 - من سورة المزمل .

[سورة الإنسان (76) : آية 30]

وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (30)

"وَما" نافية و"تَشاؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مستأنفة و"إِلَّا" حرف حصر

"أَنْ يَشاءَ اللَّهُ"

مضارع منصوب بأن ولفظ الجلالة فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بالإضافة لظرف محذوف أي إلا وقت مشيئة اللّه و"إِنَّ اللَّهَ كانَ" إن واسمها وماض ناقص اسمه مستتر و"عَلِيماً حَكِيماً" خبران والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية.

[سورة الإنسان (76) : آية 31]

يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31)

(76/794)

"يُدْخِلُ" مضارع فاعله مستتر و"مَنْ" مفعول به والجملة حال و"يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر و"فِي رَحْمَتِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة من "وَالظَّالِمِينَ" مفعول به لفعل محذوف تقديره يعذب والجملة معطوفة على ما قبلها و"أَعَدَّ" ماض فاعله مستتر و"لَهُمْ" متعلقان بالفعل و"عَذاباً" مفعول به و"أَلِيماً" صفة والجملة مفسرة لما قبلها. انتهى انتهى. اهـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 406. 410﴾

(77/794)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْإِنْسَان

ذكره فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1441 - الحَدِيث الأول

عَن الْحسن قَال كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُؤْتَى بالأسير فيدفعه إِلَى بعض الْمُسلمين فَيَقُول أحسن إِلَيْهِ فيكون عِنْده الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَة فَيُؤْثِرُهُ عَلَى نَفسه

1442 - الحَدِيث الثَّانِي

وَسَمَّى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْغَرِيم أَسِيرًا قَال غريمك أسيرك فَأحْسن إِلَى أسيرك

1443 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن ابْن عَبَّاس أَن الْحسن وَالْحُسَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما مَرضا فَعَادَهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي نَاس مَعَه فَقَالُوا يَا أَبَا الْحسن لَو نذرت عَلَى ولدك فَنَذر عَلّي وَفَاطِمَة وَفِضة جَارِيَة لَهما إِن برئا مِمَّا بهما أَن يَصُومُوا ثَلَاثَة أَيَّام فشفيا وَمَا مَعَهُمَا شَيْء فَاسْتَقْرض عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه من شَمْعُون الْخَيْبَرِيّ الْيَهُودِيّ ثَلَاثَة آصع من شعير فَطحنت فَاطِمَة

صَاعا واختبزت خَمْسَة أَقْرَاص عَلَى عَددهمْ فَوَضَعُوهَا بَين أَيديهم لِيُفْطِرُوا فَوقف عَلَيْهِم سَائل فَقَالَ السَّلَام عَلَيْكُم أهل بَيت مُحَمَّد مِسْكين من مَسَاكِين الْمُسلمين أَطْعمُونِي أَطْعمكُم الله من مَوَائِد الْجنَّة فَآثَرُوهُ

(78/794)

وَبَاتُوا وَلَم يَذُوقُوا إِلَّا المَاء وَأَصْبحُوا صياما فَلَمَّا أَمْسوا وضعُوا الطَّعَام بَين أَيديهم لِيُفْطِرُوا فَوقف عَلَيْهِم سَائل فَقَالَ يَتِيم من أَيْتَام الْمُسلمين أَطْعمُونِي أَطْعمكُم الله من مَوَائِد الْجنَّة فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا لم يَذُوقُوا شَيْئًا إِلَّا المَاء فَأَصْبحُوا صياما فَلَمَّا أَمْسوا وضعُوا الطَّعَام لِيُفْطِرُوا فَوقف عَلَيْهِم سَائل وَقَالَ أَسِير من أَسَارِي الْمُسلمين أَطْعمُونِي أَطْعمكُم الله من مَوَائِد الْجنَّة فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا وَلَم يَذُوقُوا إِلَّا المَاء فَلَمَّا أَصْبحُوا أَخذ عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه بيد الْحسن وَالْحُسَيْن وَأَقْبلُوا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا رَآهُمْ يَرْتَعِشُونَ كَأَنَّهُمْ الْفِرَاخ من شدَّة الْجُوع قَالَ مَا أَشد مَا يسوءني مِمَّا أرَى بكم وَقَامَ فَانْطَلق مَعَهم فَرَأَى فَاطِمَة فِي مِحْرَابهَا قد الْتَصق ظهرهَا ببَطْنِهَا وَغَارَتْ عيناهَا فساءه ذَلِك فَنزل جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام وَقَالَ خُذ يَا مُحَمَّد هَنَّأَك الله فِي أهل بَيْتك فَأَقْرَأَهُ السُّورَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْقَاسِم بن بهْرَام عَن لَيْث عَن مُجَاهِد عَن ابْن

عَبَّاس وَمن حَدِيث مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس فِي قَول تَعَالَى يُوفونَ بالنذر وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَره مُسْتَطِيرا قَالَ فرض الْحسن وَالْحُسَيْن فَعَادَهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره وَزَاد فِي أَثْنَائِهِ شعرًا لعَلي وَفَاطِمَة

(79/794)

وَقَالَ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي كِتَابه نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل الرَّابِع وَالْأَرْبَعِينَ وَمن الْأَحَادِيث الَّتِي تنكرهَا الْقُلُوب حَدِيث رَوَوْهُ عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى يُوفونَ بالنذر قَالَ مرض الْحسن وَالْحُسَيْن فَعَادَهُمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى آخر الْحَدِيث بِشعره ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث مُزَوق مفتعل لَا يروج إِلَّا عَلَى أَحمق جَاهِل وَكَيف يظنّ بعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه مثل هَذَا فَيجْهد نَفسه وَعِيَاله وَأَطْفَالًا صغارًا عَلَى جوع ثَلَاثَة أَيَّام وَقد قَالَ تَعَالَى يَسْأَلُونَك مَاذَا يُنْفقُونَ قل الْعَفو وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام خير الصَّدَقَة مَا كَانَ عَن ظهر

غنى وَقَالَ كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَن يضيع من يقوت انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من حَدِيث أبي عبد الله السَّمرقَنْدِي عَن مُحَمَّد بن كثير الْكُوفِي عَن الْأَصْبَغ بن نَبَاته قَالَ مرض الْحسن وَالْحُسَيْن . . . إِلَى آخِره فَذكره

بشعره وزيادة ألفاظ ثمّ قال وهذا حديث لا يشك في وضعه ولو لم يدل عليه إلّا هذه الألفاظ الركيكة والأشعار الرديئة والأفعال الّتي تنزه عنها أولئك السادة قال ابن معين أصبغ بن نباته لا يساوي شيئا وقال احمد حرقنا حديث محمّد بن كثير وأما أبو عبد الله السمرقندي فلا يوثق به

1444 - الحديث الرابع

قوله وفي الحديث هواء الجنّة سجسج لا حر ولا قر

(80/794)

قلت رواه ابن أبي شيبة في مصنفه في باب صفة الجنّة من قول ابن مسعود فقال ثنا أبو أسامة ثنا زكريّا عن أبي إسحاق عن عبد الرّحمن بن عوسجة عن علقمة عن عبد الله قال الجنّة سجسج لا حر بها ولا قر انتهى

ورواه عبد الله بن احمد بن حنبل في كتاب الزّهد لأبيه عن ابن أبي شيبة بسنده المذكور ورواه الإمام أبو محمّد قاسم بن ثابت السرقسطي في كتابه غريب الحديث من حديث سفيان الثوريّ عن أبي إسحاق عن علقمة عن عبد الله . . . فذكره وقال السجسج من الزّمان الذي ليس فيه برد ولا رد يؤذيان انتهى

قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله هَذَا حَدِيث رَوَاهُ زَكَرِيَّا عَن أبي إِسْحَاق عَن عبد الرَّحْمَن بن عَوْسَجَة عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله بن مَسْعُود وَخَالفهُ الثَّوْرِيّ فَرَوَاهُ عَن أبي إِسْحَاق عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ وَقَول زَكَرِيَّا أصح انْتَهَى

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي عَن حَدِيث رَوَاهُ إِسْرَائِيل عَن أبي إِسْحَاق عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله . . . فَذكره هَل سمع أَبُو إِسْحَاق من عَلْقَمَة

فَقَالَ لَا وَلَكِن هَكَذَا رَوَاهُ وَقد رَوَاهُ زَكَرِيَّا بن أبي زَائِدَة فَقَالَ عَن أبي إِسْحَاق عَن عبد الرَّحْمَن بن عَوْسَجَة عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله انْتَهَى

وَقَالَ فِي مَوضِع آخر من علله وَرَوَاهُ مَالك بن إِسْمَاعِيل وَعَمْرو بن خَالِد عَن زُهَيْر بن مُعَاوِيَة عَن أبي إِسْحَاق عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله ثمَّ قَالَ وَقد رَوَاهُ جرير عَن مَنْصُور عَن أبي إِسْحَاق عَن عَلْقَمَة من قَوْله لم يُجَاوز بِهِ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَلّي بن الْجَعْد عَن زُهَيْر بن مُعَاوِيَة عَن أبي إِسْحَاق عَن عَلْقَمَة من قَوْله انْتَهَى

(81/794)

قَالَ فِي الصِّحَاح يَوْم سَجْسَج لَا حر فِيهِ وَلَا برد وَفِي الحَدِيث الْجنَّة سَجْسَج انْتَهَى

1445 - الحَدِيث الْخَامِس

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام من قَرَأَ سُورَة هَل أَتَى كَانَ جَزَاؤُهُ عَلَى الله جنَّة وَحَرِيرًا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا بَاقِل بن أَرقم ثَنَا مُحَمَّد بن شَادَّة ثَنَا مُحَمَّد بن احْمَد بن الْحسن ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثَنَا سلم بن قُتَيْبَة عَن شُعْبَة عَن عَاصِم عَن زر عَن أبي قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 133.136 ﴾

(82/794)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة الإنسان :

قوله تعالى : (وَأَسِيراً) ، الآية/ 8 .

يدل على أن إطعام المشرك يتقرب به إلى اللّه تعالى ، غير أنه صدقة التطوع ، وأما المفروض فلا دليل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 428 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة هل أتى على الإنسان» (76)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ» (1) مجازها : قد أتى على الإنسان ، ليس باستفهام ويحقّق ذلك

قول أبى بكر : ليتها كانت تمّت فلم نبتل «1» . .

«أَمْشاجٍ» (2) خلطين قال رؤبة :

من دم أمشاج

«2» [923] وقال أبو ذؤيب :

كأن الرّيش والفوقين منه خلاف النّصل سيط به مشيج

«3» [924] .

«شَرُّهُ مُسْتَطِيراً» (7) فاشيا . .

«عَبُوساً» العبوس (10) والقمطرير (10) والقماطر والعصيب والعصيب أشد ما

يكون من الأيام وطوله فى البلاء «4» .

---

(1) . - 4 «ليتها . . . نبتل» : قال القرطبي (19/ 118 : وقال أبو بكر رضى اللّه عنه لما قرأ هذه الآية : ليتها . . . نبتلى . أي ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئا مذكورا أتت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده .

(2) . - 923 : تمام الشطر : لم يكس جلدا من دم أمشاج ، فى ديوانه ص 32 والطبري 29/ 109 والقرطبي 19/ 118 .

(3) . - 924 : البيت ليس لأبى ذؤيب كما زعم أبو عبيدة وتبعه الطبري 29/ 109 بل هو لعمرو بن الداخل الهذلي من قصيدته فى ديوان الهذليين 3/ 104 وانظر الطبري والقرطبي 19/ 118 واللسان (مشج) .

(4) . - 10 - 11 «والقمطرير . . . البلاء» : هذا الكلام فى البخاري وقال ابن حجر هو كلام أبى عبيدة بتمامه (فتح الباري 8/ 526) .

«وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها» (14) ثمارها . .

«سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً» (22) عملكم . .

«لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً» (24) ليس ها هنا تخيير أراد آثما وكفورا . .

«وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا» (27) أي قدّامهم قال مساور «1» بن حمّان من بنى ربيعة ابن كعب :

أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا

(387) أي قدامى .

«أَسْرَهُمْ» (28) شدة الخلق ، يقال للفرس : شديد الأسر شديد الخلق وكل شىء شددته من قتب أو من غبيط فهو مأسور «2» . .

«يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً» (31) انتصب بالجوار ولا يدخل الظالمين فى رحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 279 . 280 ﴾

---

(1) . - 4 «مساور» : وقد ورد اسمه فى إحدى الروايات لأبى عبيدة سوار ابن المضرب وهو من بنى ربيعة بن كعب أيضا غير أن البيت معزو فى المجاز إلى الشعراء المختلفين فانظر رقم 387 من الجزء الأول .

(2) . - 8 - 9 «أسرهم . . . مأسور» : نقله البخاري عن معمر وقال ابن حجر هو أبو عبيدة معمر بن المثنى وظن بعضهم هو معمر بن راشد . . . (فتح الباري 8/ 526) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «هل أتى على الإنسان»

[سورة الإنسان (76) : آية 7]

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7)

قوله سبحانه : وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً [7] وهذه استعارة . وحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة . يقال : طار الطّائر ، واستطرته أنا إذا بعثته على الطيران . ويقولون أيضا من ذلك على طريق المجاز : استطار لهيب النار . إذا انتشر وعلا ، وظهر وفشا . فكأنه سبحانه قال : يخافون يوما كان شرّه فاشيا ظاهرا ، وعاليا منتشرا .

[سورة الإنسان (76) : آية 10]

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)

وقوله سبحانه : إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً [10] وهذه استعارة . لأن العبوس من صفة الإنسان القاطب المعبّس . فشبّه سبحانه ذلك اليوم- لقوّة دلائله

على عظيم عقابه ، وأليم عذابه- بالرجل العبوس الذي يستدلّ بعبوسه وقطوبه على إرصاده بالمكروه ، وعزمه على إيقاع الأمر المخوف . وأصل العبوس تقبيض الوجه ، وهو دليل السخط ، وضده الاستبشار والتطلّق وهما دليلا الرضا والخير .

وكما سمّت العرب اليوم المحمود طلقا ، فكذلك سمّت اليوم المذموم عبوسا . ويقال : يوم قمطرير وقماطر «1» إذا كان شديدا ضرّه ، طويلا شرّه .

[سورة الإنسان (76) : آية 14]

وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14)

وقوله سبحانه : وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها ، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا [14] وهذه استعارة .

والمراد بتذليل القطوف- وهى عناقيد الأعناب وواحدها قطف «2»- أنها جعلت قريبة من أيديهم ، غير ممتنعة على مجانيهم ، لا يحتاجون إلى معاناة فى اجتنائها ، ولا مشقة فى اهتصار أفنانها ، فهى كالظّهر الذلول الذي يوافق صاحبه ، ويواتى راكبه .

والتذليل هاهنا مأخوذ من الذّلّ بكسر الذال ، وهو ضد الصعوبة . والذّل- بضم الذال- ضدّ العز والحميّة .

[سورة الإنسان (76) : آية 27]

إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)

وقوله سبحانه : إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ ، وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا [27] وهذه استعارة . وقد مضى الكلام على نظيرها فيما تقدم . والمراد باليوم الثقيل ها هنا : استثقاله من طريق الشدة والمشقة ، لا من طريق الاعتماد بالأجزاء الثقيلة . وقد يوصف الكلام بالثقيل على هذا الوجه ، وهو عرض من الأعراض ، فيقول القائل : قد ثقل علىّ خطاب فلان . وما أثقل كلام فلان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 356 . 357 ﴾

---

(1) قماطر : بضم القاف .

(2) القطف بكسر القاف : العنقود ساعة يقطف ، أو اسم للثمار المقطوفة . والجمع قطوف ، وقطاف .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الإنسان

مر ركب مسرع ببعض المقابر ، فقال أحدهم لزميله: أتدرى ما تقول هذه القبور عنا ؟ فقال: ماذا تقول ؟ أجاب: تقول: كما أنتم كذا كنا ، كما نحن تكونون . وقد تساءلت أنا عن نفسى: ماذا كنت قبل مائة عام ؟ وماذا كان أغلب الجيل الذى أعيش فيه ؟ ولم أجد ردا أصدق من قوله تعالى " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " . إننا لم نكن شيئا ، ثم خلقنا الله نسمع ونبصر ، ثم استعادنا إليه وخلت الأرض منا ! لكن على أى نحو نعود ؟ قال فى سورة الإنسان " إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا " . وقال ! "إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله" . والملاحظ فى هذه السورة أنها اختصرت وصف العذاب "إن الذى يلقاه الكفار على حين أفاضت فى وصف النعيم والعظمة التى تنتظر المؤمنين " وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا " . ثم قيل لهم – تذكيرا بما مضى " إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا " . ونصف السورة الأخير يتحدث عن الرسالة الخاتمة ودورها فى صنع الحياة العامة . ذلك أن أثر البيئة فى الأخلاق خطير وتأثرنا بها لا يمكن إنكاره . فإذا استطاع الرسول أن يغير اتجاه مجتمع ، وأن يملأ بالوحى قلوبا كانت فارغة ، فقد صنع أمة تمحو وتثبت وتهدى الناس إلى صراط مستقيم . ومن هنا قيل له " إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا " . والتذكير المستمر بالله يتناول أول النهار وآخره "

واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا" . كما يتناول سحابة الليل " ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا " .

(88/794)

ووصف القرآن الكريم طباع البشر على عهد الرسالة وقبله وبعده فقال: " إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا " . والحق أن الناس يكادون يفقدون رشدهم مع سكرة الحياة ومطالبها ولذاتها . وفى عصرنا الحاضر ، يكاد ذكر الآخرة يكون محظورا ، كما أن ذكر الموت وعظ بارد ! ! ولست أحب النواح والتشاؤم والنعيق ، ولكنى أكره الغفلة وهزائم الفكر الإنسانى أمام الهوى الجامح . أريد أن يعرف الناس من أين جاءوا وإلى أين يعودون " إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا " . والله يزيد الذين اهتدوا هدى ويزيح من أمامهم العوائق . أما الناسون لله العمون عن آياته فهو يذرهم فى طغيانهم " يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 492.491 ﴾

(89/794)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الإنسان

أقول: وجه اتصالها بسورة القيامة في غاية الوضوح فإنه تعالى ذكر في حر تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة ، ثم ذكر مثل ذلك في مطلع هذه السورة ، مفتتحاً بخلق آدم أبي البشر ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قال هنا (فجَعلَ منهُ الزوجينِ الذكرَ والأُنثى) ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قال هنا (فجعلناهُ سميعاً بصيراً) ، فعلق به غير ما علق بالأول ، ثم رتب عليه هداية السبيل ، وتقسيمه إلى شاكر وكفور ، ثم أخذ في جزاء كل

ووجه آخر ، هو أنه لما وصف حال يوم القيامة في تلك السورة ، ولم يصف فيها حال النار والجنة ، بل ذكرهما على سبيل الإجمال ، فصلهما في هذه السورة ، واطنب في وصف الجنة ، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك (وجوهٌ يَومَئذٍ ناضِرة) وقوله هنا (إنّا أَعتدنا

للكافِرينَ سَلاسِلَ وأَغلالا وسَعيراً) شرح لقوله هناك (تظنُ أَن يُفعل بها فاقرة) وقد ذكر هناك (كلا بل يحبونَ العاجِلة ويَذَرونَ الآخِرة) وذكر هنا في هذه السورة (إن هؤلاء يحبون العاجِلة ويَذرونَ وراءهم يوماً ثقيلا) وهذا من وجوه المناسبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 144.145 ﴾

(91/794)

قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الذي خلق الخلائق لمعرفة أسمائه الحسنى (الرحمن) الذي عمهم بنعمة الظاهرة فرادى ومثنى (الرحيم) الذي خص منهم من اختاره لوداده بالنعمة الباطنة والمقام الأسنى .

(92/794)

ولما تقدم في آخر القيامة التهديد على مطلق التكذيب ، وأن المرجع إلى الله وحده ، والإنكار على من ظن أنه يترك سدى والاستدلال على البعث وتمام القدرة عليه ، تلاه أول هذه بالاستفهام الإنكاري على ما يقطع معه بأن لا يترك سدى ، فقال مفصلاً ما له سبحانه عليه من نعمة الإيجاد والإعداد والإمداد والإسعاد : ﴿ هل أتى ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ على الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي شغله عما يراد به ويراد له لعظم مقداره في نفس الأمر الأنس بنفسه والإعجاب بظاهر حسه والنسيان لما بعد حلول رمسه ﴿ حين من الدهر ﴾ أي مقدار محدود وإن قل من الزمان الممتد الغير المحدود حال كونه ﴿ لم يكن ﴾ أي في ذلك الحين كوناً راسخاً ﴿ شيئاً مذكوراً ﴾ أي ذكراً له اعتبار ظاهر في الملأ الأعلى وغيره حتى أنه يكون متهاوناً به غير منظور إليه ليجوز أن يكون سدى بلا أمر ونهي ، ثم يذهب عدماً ليس الأمر كذلك ، بل ما أتى عليه شيء من ذلك بعد خلقه إلا وهو فيه شيء مذكور ، وذلك أن الدهر هو الزمان ، والزمان هو مقدار حركة الفلك – كما نقله الرازي في كتاب اللوامع في سورة " يس " عند قوله تعالى " ولا الليل سابق النهار " فإنه قال : الزمان ابتداؤه من حركات السماء فإن الزمان مقدار حركات الفلك – انتهى وآدم عليه السلام تم الخلق بتمام خلقه في آخر يوم الجمعة أول جمعة كانت ، وكانت طينته – قبل ذلك بمدة مخمرة هو فيها بين الروح والجسد ، قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : خلق الله آدم

عليه السلام من تراب فأقام أربعين سنة ثم من طين أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة ثم من حمإ مسنون أربعين سنة ثم خلقه بعد ستين ومائة سنة ، وقال البغوي : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ثم خلقه بعد عشرين ومائة سنة : فحينئذ ما أتى عليه زمان إلا وهو شيء مذكور إما بالتخمير وإما بتمام التصوير ، فالاستفهام على بابه وهو إنكاري ، وليست " هل " بمعنى " قد " إلا إن قدرت قبلها الهمزة ، وكان الاستفهام

(93/794)

إنكارياً لينتفي مضمون الكلام ، والمراد أنه هو المراد من العالم ، فحينئذ ما خلق الزمان إلا لأجله ، فهو أشرف الخلائق ، وهذا أدل دليل على بعثه للجزاء ، فهل يجوز مع ذلك أن يترك سدى فيفنى المظروف الذي هو المقصود بالذات ، ويبقى الظرف الذي ما خلق إلا صواناً له ، والذي يدل على ذلك من أقوال السلف أنه روي أن رجلاً قرأها عند ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فقال : يا ليت ذلك لم يكن .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ [الإنسان : 1] تعريف الإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له

للكبر واعتقاد السيادة لنفسه ، وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه

(94/794)

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : 53] ولما تقدم في القيامة إخباره تعالى عن حال منكري البعث عناداً واستكباراً وتعامياً عن النظر والاعتبار ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] وقوله بعد ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ [القيامة : 31 - 33] أي يتبختر عتواً واستكباراً ومرحاً وتجبراً ، وتعريفه بحاله التي لو فكر فيها لما كان منه ما وصف ، وذلك قوله ﴿ ألم يكن نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾ [القيامة : 37 - 38] أتبع ذلك بما هو أعرق في التوبيخ وأوغل في التعريف وهو أنه قد كان لا شيء فلا نطفة ولا علقة ، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالى من طور إلى طور فجعله نطفة من ماء مهين في قرار مكين ثم كان علقة ثم مضغة إلى إخراجه وتسويته خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، فمن اعتبر اتصافه بالعدم ثم تقلبه في هذه الأطوار المستنكف حالها والواضح فناؤها واضمحلالها ، وأمده الله تعالى بتوفيقه عرف حرمان من وصف في قوله : " ثم ذهب إلى أهله يتمطى "

فسبحان الله ما أعظم حلمه وكرمه ورفقه ، ثم بين تعالى ما جعله للإنسان من السمع والبصر ابتلاء له ، ومن أدركه أدركه الغلط وارتكب الشطط – انتهى .

(95/794)

ولما ذكر مطلق خلقه ، وقرر أنه خلاصة الكون ، شرع يذكر كيفية خلقه ويدل على ما لزم من ذلك من أنه ما خلق الخلق إلا لأجله وأنه لا يجوز أن يهمل فقال معلماً بالحال التي هي قيد الجملة ومحط الفائدة أنه ما خلق إلا للآخرة ، مفصلاً أمر الإيجاد بالفاعل والصورة والمادة والغاية وأكده لإنكارهم له : ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ خلقنا ﴾ أي قدرنا وصورنا ، وأظهر ولم يضمر لأن الثاني خاص والأول عام لآدم عليه الصلاة والسلام وجميع ولده فقال : ﴿ الإنسان ﴾ أي بعد خلق آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ من نطفة ﴾ أي مادة هي ماء جداً من الرجل والمرأة ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة وهي المادة التي هي السبب الحامل للقوة المولدة .

(96/794)

ولما كان خلقه على طبائع مختلفة وأمزجة متفاوتة أعظم لأجره إن جاهد ما يتنازعه من المختلفات بأمر ربه الذي لا يختلف ، وكانت أفعاله تابعة لأخلاقه وأخلاقه تابعة لجبلته قال : ﴿أمشاج﴾ أي أخلاط – جمع مشج أو مشيج مثل خدن وخدين وأخدان ، وخلط وخليط وأخلاط ، من مشجت الشيء – إذا خلطته ، لأنه من مني الرجل ومني المرأة ، وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام والخواص تجتمع مع الأخلاط وهي العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له ، وما كان من عصب وعظم فمن نطفة الرجل ، وما كان من دم ولحم وشعر فمن ماء المرأة ، وقال يمان : كل لونين اختلطا فهو أمشاج ، وقال قتادة : هي أطوار الخلق من النطفة وما بعدهما ، وكما يشبه ما غلب عليه من باطن الأمشاج من الطيب والخبث ، وكيفية تمشيجه أن الماء إذا وصل إلى قرار الرحم اختلط بماء المرأة ثم بدم الطمث وخثر حتى صار كالرائب ثم احمر وحينئذ يسمى علقة ، فاذا اشتد ذلك الامتزاج وقوي وتمتن حتى استعد لأن يقسم فيه الأعضاء سمي مضغة ، فإذا أفيضت عليه صورة الأعضاء وتقسم كساه حينئذ مفيضه عز وجل لحماً ، فأفاض عليه القوة العاقلة ، ويسمى حينئذ جنيناً ، وذلك بعد تقسم أجزائه إلى عظام وعروق وأعصاب وأوتار ولحم ، فدور الرأس وشق في جانبيه السمع وفي مقدمه المبصر والأنف والفم ، وشق في البدن سائر المنافذ ثم مد اليدين والرجلين وقسم رؤوسها بالأصابع ، وركب الأعضاء الباطنة من

القلب والمعدة والكبد – والطحال والرئة والمثانة ، فسبحان من خلق تلك الأشياء من نطفة سخيفة مهينة كوّن منها العظام مع قوتها وشدتها وجعلها عماد البدن وقوامه وقدرها بمقادير وأشكال مختلفة ، فمنها صغير وكبير ، وطويل وقصير ، وعريض ومستدير ، ومجوف ومصمت ، ودقيق وثخين ، ولم يجعلها عظماً واحداً لأن الإنسان محتاج إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ثم جعل بين تلك

(97/794)

العظام مفاصل ثم وصلها بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقها بالطرف الآخر بالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة ، وفي الآخر حفراً موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها ، وخلق الرأس مع كريته من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال وألف بعضها مع بعض ، فجعل في القحف ستة وفي اللحى الأعلى أربعة عشر ، واثنان للأسفل ، والباقي في الأسنان ، وجعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات فيها تجويفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ، وركب الظهر من أربع وعشرين خرزة وعظم العجز من ثلاثة أجزاء ، وجعل من أسفله عظم العصعص أو اللفة من ثلاثة أجزاء مختلفة ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وغيرها حتى بلغ مجموع

عظام بدن الإنسان مائتي عظم وثمانية وأربعين عظماً سوى العظام التي حشا بها خلل المفاصل ، وخلق سبحانه آلات التحريك للعظام وهي العضلات وهي خمسمائة وسبع وعشرون عضلة كل منها على قدر مخصوص ووضع مخصوص لو تغير عن ذلك أدنى تغير لاختلت مصالح البدن ، وكذا الأعصاب والأوردة والشرايين ، ثم انظر كيف خلق الظهر أساساً للبدن ، والبطن حاوياً لآلات الغذاء والرأس مجمعاً للحواس ، ففتح العين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وأحكمها بحيث ينطبع في مقدار عدسة منها صورة السماوات على عظمها ، وحماها بالأجفان لتسترها وتحفظها ، ثم أودع الأذنين ماء مراً يدفع عنها الهوام وحاطهما بصدفين لجمع الصوت ورده إلى الصماخ وليحس بدبيب الهوام وجعل فيها تعريجاً لتطويل الطريق فلا تصل الهوام إلى جرم الصماخ سريعاً ، ثم رفع الأنف في الوجه وأودع فيه حاسة الشم للاستدلال بالروائح على الأطعمة والأغذية ولاستنشاق الروائح الطيبة لتكون مروحة للقلب ، وأودع الفم اللسان وجعله على كونه لحمة واحدة معرباً عما في النفس ، وزين الفم بالأنسان فحدد بعضها لتكون آلة للنقب وحدد بعضها لتصلح للقطع ، وجعل بعضها عريضاً مفلطحاً صالحاً للطحن وبيض

ألوانها ورتب صفوفها وسوى رؤوسها ونسق ترتيبها حتى صارت كالدر المنظوم ، ثم أطبق على الفم الشفتين وحسن لونهما لتحفظا منفذه وهيأ الحنجرة لخروج الصوت ، وخالف أشكال الحناجر في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة والرخاوة والطول والقصر ، فاختلفت الأصوات بسببها ليميز السامع المصوّتين بسبب تمييز أصواتهم فيعرفهم وإن لم يرهم ، وسخر كل عضو من أعضاء الباطن لشيء مخصوص ، فالمعدة لإنضاج الغذاء ، والكبد لإحالته إلى الدم ، والطحال لجذب السواد ، والمرارة لجذب الصفراء ، والكلية لجذب الفضلة المائية ، والمثانة لخدمة الكلية بقبول الماء عنها ثم إخراجه من طريقه ، والعروق لخدمة الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ، وكان مبدأ ذلك كله النطفة على صغرها في داخل الرحم في ظلمات ثلاثة ولو كشف الغطاء وامتد البصر إليه لرأى التخطيط والتصوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً ولا يرى المصور ولا الإله ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه ، فيا لله العجب ممن يرى نقشاً حسناً على جدار فيتعجب من حسنه وحذق صانعه ثم لا يزال يستعظمه ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ويحيره جلاله وحكمته .

(99/794)

ولما كان الإنسان مركباً من روح خفيف طاهر وبدن هو مركب الحظوظ والشهوات واللوم والدنيات ، فكان الروح بكماله والبدن بنقصانه يتعالجان ، كل منهما يريد أن يغلب صاحبه ، قوى سبحانه الروح بالشرع الداعي إلى معالي الأخلاق ، الناهي عن مساويها ، المبين لذلك غاية البيان على يد إنسان طبعه سبحانه على الكمال ليقدر على التلقي من الملائكة ، فيكمل أبناء نوعه ، فدل على ذلك بحال بناها من ضمير العظمة فقال مبيناً للغاية : ﴿ نبتليه ﴾ أي نعامله بما لنا من العظمة بالأمر والنهي والوعظ معاملة المختبر ونحن أعلم به منه ، ولكنا فعلنا ذلك لنقيم عليه الحجة على ما يتعارفه الناس ، فإن العاصي لا يعلم أنه أريد منه العصيان ، وكذا الطائع ، فصار التكليف بحسب وهمه لما خلق الله له من القوة والقدرة الصالحة في الجملة .

ولما ذكر الغاية ، أتبعها الإعدادات المصححة لها فقال : ﴿ فجعلناه ﴾ أي بما لنا من العظمة بسبب ذلك ﴿ سميعاً ﴾ أي بالغ السمع ﴿ بصيراً ﴾ أي عظيم البصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره وسماع الآيات بسمعه ، ومعرفة الحجج ببصيرته ، فيصح تكليفه وابتلاؤه ، فقدم العلة الغائية لأنها متقدمة في الاستحضار على التابع لها من المصحح لورودها ، وقدم السمع لأنه أنفع في المخاطبات ، ولأن الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية ، قال الرازي في اللوامع وإلى هنا انتهى الخبر الفطري ثم يبتدىء منه الاختبار الكسبي – انتهى .

وذلك بنفخ الروح وهي حادثة بعد حدوث البدن بإحداث القادر المختار لها بعد تهيئة البدن لقبولها ، ثم أفاض سبحانه على الجملة العقل ، وجعل السمع والبصر اللتين له ، ولعله خصهما لأنهما أنفع الحواس ، ولأن البصر يفهم البصيرة وهي تتضمن الجميع ، وجعل سبحانه له ذلك لاستقراء صور المحسوسات وانتزاع العلوم الكلية منها ، وبذلك يكمل علمه الذي منه الدفع عن نفسه التي جعلها الله تعالى محل التكليف ليكمل تكليفه ، وذلك أنه سبحانه ركبه من العناصر الأربعة ، وجعل صلاحه بصلاحها ، وفساده بفسادها لتعاليها ، فاضطر إلى قوى يدرك بها المنافي فيجتنبه والملائم فيطلبه ، فرتب له سبحانه الحواس الخمس الظاهرة ، فجعل السمع في الأذن ، والبصر في العين ، والذوق في اللسان ، والشم في الأنف ، وبث اللمس في سائر البدن ، ليدفع به عن جميع الأعضاء ما يؤذيها ، وهذه الحواس الظاهرة تنبعث عن قوة باطنة تسمى الحس المشترك بجمل ما أدركته فيرتسم هناك وهو في مقدم البطن الأول من الدماغ وينتقل ما ارتسم هنا إلى خزانة الخيال وهي في مؤخر هذا البطن من الدماغ فتحفظ فيها صورته وإن غابت عن الحواس ، وثم قوة أخرى من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات الشخصية كعداوة زيد وصداقته

تسمى الوهم ومحلها الدماغ كله والأخص بها التجويف الأوسط وخصوصاً مؤخره ، وقوة أخرى أيضاً شأنها خزن ما أدركته القوة الوهمية من المعاني الجزئية تسمى الحافظة باعتبار ، والذاكرة باعتبار ، ومحلها التجويف المؤخر في الدماغ ، وقوة أخرى من شأنها تفتيش تلك الخزائن وتركيب بعض مودعاتها مع بعض وتفصيل بعضها مع بعض ومحلها وسلطانها في أول التجويف الأوسط ، وتلك القوة تسمى مخيلة باعتبار تصريف الوهم لها ومفكرة باعتبار استعمال النفس لها ، وقد اقتضت الحكمة الربانية تقديم ما يدرك الصور الجرمية وتأخير ما يدرك المعاني الروحانية ، وتوسيط المتصرف فيهما بالحكم والاسترجاع للأمثال المنمحية من

(101/794)

الجانبين ، ثم لا تزال هذه القوى تخدم ما فوقها كما خدمتها الحواس الخمس إلى أن تصير عقلاً مستفاداً ، وهو قوة للنفس بها يكون لها حضور المعقولات بالفعل ، وهذا العقل هو غاية السلوك الطلبي للإنسان وهو الرئيس المطلق المخدوم للعقل بالفعل ، وهو القوة التي تكون للنفس بها اقتدار على استحضار المعقولات – الثانية وهو المخدوم للعقل الهيولاني المشبه بالهيولى الخالية في نفسها عن جميع الصور ، وهو قوة من شأنها الاستعداد المحض

لدرك المعقولات باستعمال الحواس في تصفح الجزئيات واستقرائها المخدومات كلها للعقل العملي ، وهو القوة النظرية المخدوم للوهم المخدوم لما بعده من الحافظة وما قبله من المتخيلة المخدومتين للخيال المخدوم للحس المشترك المخدوم للحواس الظاهرة .

ولما كان كأنه قيل : هبه خلق هكذا فكان ماذا ؟ قال شفاء لعيّ هذا السؤال وبياناً لنعمة الإمداد : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ هديناه ﴾ أي بينا له لأجل الابتلاء ﴿ السبيل ﴾ أي الطريق الواضح الذي لا طريق في الحقيقة غيره ، وهو طريق الخير الذي من حاد عنه ضل ، وذلك بما أنزل من الكتب وأرسلنا من الرسل ونصبنا من الدلائل في الأنفس والآفاق ، وجعلنا له من البصيرة التي يميز بها بين الصادق والكاذب وكلام الخلق وكلام الخالق والحق والباطل وما أشبهه .

ولما كان الإنسان عند البيان قد كان منه قسمان ، وكان السياق لبيان تعظيمه بأنه خلاصة الكون والمقصود من الخلق ، قال بانياً حالاً من ضميره في " هديناه " مقسماً له مقدماً القسم الذي أتم عليه بالبيان نعمة الهداية بخلق الإيمان ، لأن ذلك أنسب بذكر تشريفه للإنسان ، بجعله خلاصة الوجود وبقوله : " إن رحمتي سبقت غضبي " في سياق ابتداء الخلق ، معبراً باسم الفاعل الخالي من المبالغة ، لأنه لا يقدر أحد أن يشكر جميع النعم ، فلا يسمى شكوراً إلا بتفضل من ربه عليه : ﴿ إما شاكراً ﴾ أي لإنعامه ربه عليه .

ولما كان الإنسان ، لما له من النقصان ، لا ينفك غالباً عن كفر ما ، أتى بصيغة المبالغة تنبيهاً له على ذلك معرفاً له أنه لا يأخذه إلاّ بالتوغل فيه ليعرف نعمة الحلم عنه فيحمله الخجل على الإقبال على من يرضى منه بقليل الشكر ، ويحتمل أن يفهم ذلك أن من كفر نعمة واحدة فقد كفر الجميع فصار بليغ الكفر فقال : ﴿ وإما كفوراً ﴾ أي بليغ الكفر بالإعراض والتكذيب وعبادة الغير والمعاندة فإحسانه غير موف إساءته مفرطة ، وبدأ بالشكر لأنه الأصل ، روى الشيخان عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " الحديث ، ورواه أحمد بن منيع عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، ورواه الإمام أحمد عن جابر ـ رضى الله عنه ـ ولفظه : "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً " رواه الإمام أحمد أيضاً وأبو يعلى عن الأسود بن سريع ـ رضى الله عنه ـ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 259 ـ 265 ﴾

(103/794)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ سلاسلاً ﴾ بالتنوين والوقف بالألف : أبو جعفر ونافع وعلي وأبو بكر وحماد وهشام ﴿ سلاسل ﴾ في الحالين : ابن كثير وحمزة وخلف وسهل ويعقوب يصلون بغير ألف ويقفون بالألف ﴿ قواريرا قواريرا ﴾ غير مصروفين في الحالين : حمزة ويعقوب كلاهما بالتنوين والوقف بالألف والثاني بغير الألف في الحالين . الباقون كلاهما بغير تنوين والوقف على الأول بالألف . ﴿ لؤلؤاً ﴾ بالواو في الأول : شجاع ويزيد وأبو بكر وحماد . الآخرون : بهمزتين . ﴿ عاليهم ﴾ بسكون الياء وكسر الهاء : أبو جعفر ونافع وحمزة والمفضل الباقون : بفتح الياء وضم الهاء ﴿ خضر واستبرق ﴾ بالرفع فيهما ﴿ وإستبرق ﴾ بالخفض : ابن كثير والمفضل وأبو بكر وحماد . الآخرون : بالخفض فيهما ﴿ وما يشاؤن ﴾ على الغيبة : ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو .

(104/794)

الوقوف : ﴿ مذكوراً ﴾ ه ﴿ أمشاج ﴾ لا قد قيل يوقف عليه لئلا يوهم أن ﴿ نبتليه ﴾ صفة له لأنه حال من ﴿ خلقنا ﴾ أي خلقناه مريدين ابتلاءه والوهم المذكور زائل لأن

ضمير المفعول في ﴿ نبتليه ﴾ واحد والأمشاخ جمع . ﴿ بصيراً ﴾ ه ﴿ كفوراً ﴾ ه ﴿ سعيراً ﴾ ه ﴿ كافوراً ﴾ ه ج لاحتمال أن يكون ﴿ عيناً ﴾ بدلاً ﴿ تفجيراً ﴾ ه ﴿ مستطيراً ﴾ ه ﴿ شكوراً ﴾ ه ﴿ قمطريراً ﴾ ه ﴿ سروراً ﴾ ه ج ﴿ على الأرائك ﴾ ط لاحتمال ما بعده الحال والإستئناف ﴿ زمهريراً ﴾ ه ج لما يعرف في التفسير ﴿ تذليلاً ﴾ ه ﴿ كانت قوارير ﴾ ه لا وقيل : بوقف عليه وليس به لأن الثانية بدل من الأولى ﴿ تقديراً ﴾ ه ﴿ زنجبيلاً ﴾ ه ج لما مر في ﴿ كافوراً ﴾ ﴿ سلسبيلاً ﴾ ه ج ﴿ مخلدون ﴾ ه بناء على أن ﴿ حسبتهم ﴾ صفة الولدان والظرف عارض ﴿ منثوراً ﴾ ه ﴿ كبيراً ﴾ ه ﴿ واستبرق ﴾ ك لاختلاف الجملتين مع أن وجه الحال في الواو واضح أي وقد حلوا ﴿ فضة ﴾ ج لأن الواو ويحتمل الحال والإستئناف وهذا أولى لإفراد هذه النعمة العظيمة عن سائر النعم ﴿ طهوراً ﴾ ه ط ﴿ مشكوراً ﴾ ه ﴿ تنزيلاً ﴾ ه ج للآية مع الفاء ﴿ أو كفوراً ﴾ ه ﴿ أصيلاً ﴾ ه ج لما ذكرنا ﴿ طويلاً ﴾ ه ﴿ ثقيلاً ﴾ ه ﴿ أسرهم ﴾ ج ﴿ تبديلاً ﴾ ه ﴿ تذكرة ﴾ ج ﴿ سبيلاً ﴾ ه ﴿ أن يشاء الله ﴾ ط ﴿ حكيماً ﴾ ه والوصل أوجه بناء على أن الجملة صفة ﴿ في رحمته ﴾ ط ﴿ أليماً ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 408 . 409 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

اتفقوا على أن ﴿ هَلْ ﴾ ههنا وفي قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ [الغاشية : 1] بمعنى قد ، كما تقول : هل رأيت صنيع فلان ، وقد علمت أنه قد رآه ، وتقول : هل وعظتك هل أعطيتك ، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته ، وقد تجيء بمعنى الجحد ، تقول : وهل يقدر أحد على مثل هذا ، وأما أنها تجيء بمعنى الاستفهام فظاهر ، والدليل على أنها ههنا ليست بمعنى الاستفهام وجهان الأول : ما روي أن الصديق رضي الله عنه لما سمع هذه الآية قال : يا ليتها كانت تمت فلا نبتلي ، ولو كان ذلك استفهاماً لما قال : ليتها تمت ، لأن الاستفهام ، إنما يجاب بلا أو بنعم ، فإذا كان المراد هو الخبر ، فحينئذ يحسن ذلك الجواب الثاني : أن الاستفهام على الله تعالى محال فلا بد من حمله على الخبر .

المسألة الأولى :

اختلفوا في الإنسان المذكور ههنا فقال : جماعة من المفسرين يريد آدم عليه السلام ، ومن ذهب إلى هذا قال : إن الله تعالى ذكر خلق آدم في هذه الآية ثم عقب بذكر ولده في قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : 2] ، والقول الثاني : أن المراد

بالإنسان بنو آدم بدليل قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فالإنسان في الموضعين واحد ، وعلى هذا التقدير يكون نظم الآية أحسن .

المسألة الثانية :

(106/794)

﴿ حِينٍ ﴾ فيه قولان : الأول : أنه طائفة من الزمن الطويل الممتد وغير مقدر في نفسه والثاني : أنه مقدر بالأربعين ، فمن قال : المراد بالإنسان هو آدم قال المعنى : أنه مكث آدم عليه السلام أربعين سنة طيناً إلى أن نفخ فيه الروح ، وروى عن ابن عباس أنه بقي طيناً أربعين سنة وأربعين من صلصال وأربعين من حمأ مسنون فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ، فهو في هذه المدة ما كان شيئاً مذكوراً ، وقال الحسن : خلق الله تعالى كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البر والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والأرض وآخر ما خلق آدم عليه السلام وهو قوله : ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ فإن قيل : إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنساناً ، والآية تقتضي أنه قد مضى على الإنسان حال كونه إنساناً حين من الدهر مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً ، قلنا : إن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الإنسان ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ

فيه الروح وسيصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان ، والذين يقولون الإنسان هو النفس الناطقة ، وإنها موجودة قبل وجود الأبدان ، فالإشكال عنهم زائل واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث ، ومتى كان كذلك فلا بد من محدث قادر .

المسألة الثالثة :

لم يكن شيئاً مذكوراً محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور أو الرفع على الوصف لحين ، تقديره : هل أتى على الإنسان حين لم يكن فيه شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

المشج : في اللغة الخلط ، يقال : مشج يمشج مشجاً إذا خلط ، والأمشاج الأخلاط ، قال ابن الأعرابي : واحدها مشج ومشيج ، ويقال للشيء إذا خلط : مشيج كقولك : خليط وممشوج ، كقولك مخلوط .

قال الهذلي :

كأن الريش والفوقين منه . . خلاف النصل شط به مشيج

يصف السهم بأنه قد بعد في الرمية فالتطخ ريشه وفرقاه بدم يسير ، قال صاحب "الكشاف" : الأمشاج لفظ مفرد ، وليس يجمع بدليل أنه صفة للمفرد وهو قوله : ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ ويقال أيضاً : نطفة مشيج ، ولا يصح أن يكون أمشاجاً جمعاً للمشج بل هما مثلان في الإفراد ونظيره برمة أعشار أي قطع مسكرة ، وثوب أخلاق وأرض سباسب ، واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة فالأكثرون على أنه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ [الطارق : 7] قال ابن عباس هو اختلاط ماء الرجل وهو أبيض غليظ وماء المرأة وهو أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما ، فما كان من عصب وعظم وقوة فمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة ، قال مجاهد : هي ألوان النطفة فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء ، وقال عبد الله أمشاجها عروقها ، وقال الحسن : يعني من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة وذلك أن المرأة إذا تلقت ماء الرجل وحبلت أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم ، وقال قتادة : الأمشاج هو أنه يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ثم يصير مضغة ، وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة ، ومن حال إلى حال .

وقال قوم : إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والتقدير من نطفة ذات أمشاج فحذف المضاف وتم الكلام ،

قال بعض العلماء : الأولى هو أن المراد اختلاط نطفة الرجل والمرأة لأن الله تعالى وصف النطفة بأنها أمشاج ، وهي إذا صارت علقة فلم يبق فيها وصف أنها نطفة ، ولكن هذا الدليل لا يقدح في أن المراد كونها أمشاجاً من الأرض والماء والهواء والحار .

أما قوله تعالى : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(108/794)

نبتليه معناه لنبتليه ، وهو كقول الرجل : جئتك أقضي حقك ، أي لأقضي حقك ، وأتيتك أستمنحك ، أي لأستمنحك ، كذا قوله : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي لنبتليه ونظيره قوله : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] أي لتستكثر .

المسألة الثانية :

نبتليه في موضع الحال ، أي خلقناه مبتلين له ، يعني مريدين ابتلاءه .

المسألة الثالثة :

في الآية قولان : أحدهما : أن فيه تقديماً وتأخيراً ، والمعنى فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه والقول الثاني : أنه لا حاجة إلى هذا التغيير ، والمعنى إنا خلقناه من هذه الأمشاج لا للبعث

، بل للابتلاء والامتحان .

ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ، فقال : ﴿ فَجَعَلْنَا سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ والسمع والبصر كنايتان عن الفهم والتمييز ، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ﴾ [مريم : 42] وأيضاً قد يراد بالسميع المطيع ، كقوله سمعاً وطاعة ، وبالبصير العالم يقال : فلان بصير في هذا الأمر ، ومنهم من قال : بل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان .

والله تعالى خصهما بالذكر ، لأنهما أعظم الحواس وأشرفها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ أخبر الله تعالى أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى والضلال ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(109/794)

الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل والأمر كذلك لأن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء ، إلا أنه أعطاه آلات تعينه على تحصيل تلك المعارف ، وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، فإذا أحس بالمحسوسات تنبه لمشاركات بينها

ومباينات ، ينتزع منها عقائد صادقة أولية ، كعلمنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان وأن الكل أعظم من الجزء ، وهذه العلوم الأولية هي آلة العقل لأن بتركيباتها يمكن التوصل إلى استعلام المجهولات النظرية ، فثبت أن الحس مقدم في الوجود على العقل ، ولذلك قيل : من فقد حساً فقد علماً ، ومن قال : المراد من كونه سميعاً بصيراً هو العقل ، قال : إنه لما بين في الآية الأولى أنه أعطاه العقل بين في هذه الآية ، أنه إنما أعطاه العقل ليبين له السبيل ويظهر له أن الذي يجب فعله ما هو .

والذي لا يجوز ما هو .

المسألة الثانية :

السبيل هو الذي يسلك من الطريق ، فيجوز أن يكون المراد بالسبيل ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك ، ويكون معنى هديناه ، أي عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له ، كقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] ويكون السبيل اسماً للجنس ، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر : 2] ويجوز أن يكون المراد بالسبيل ، هو سبيل الهدى لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق ، فأما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] وإنما أضلوهم سبيل الهدى ، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله : ﴿ هديناه ﴾ أي أرشدناه ، وإذا أرشد لسبيل الحق

، فقد نبه على تجنب ما سواها ، فكان اللفظ دليلاً على الطريقين من هذا الوجه .

المسألة الثالثة :

(110/794)

المراد من هداية السبيل خلق الدلائل ، وخلق العقل الهادي وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب ، كأنه تعالى قال : خلقتك للابتلاء ثم أعطيتك كل ما تحتاج إليه ليهلك من هلك عن بينة وليس معناه خلقنا الهداية ، ألا ترى أنه ذكر السبيل ، فقال : ﴿ هديناه السبيل ﴾ أي أريناه ذلك .

المسألة الرابعة :

قال الفراء : هديناه السبيل ، وإلى السبيل وللسبيل ، كل ذلك جائز في اللغة .

قوله تعالى : ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الآية أقوال :

الأول : أن شاكراً أو كفوراً حالان من الهاء ، في هديناه السبيل ، أي هديناه السبيل كونه شاكراً وكفوراً ، والمعنى أن كل ما يتعلق بهداية الله وإرشاده ، فقد تم حالتي الكفر

والإيمان .

والقول الثاني : أنه انتصب قوله شاكراً وكفوراً بإضمار كان ، والتقدير سواء كان شاكراً أو كان كفوراً .

والقول الثالث : معناه إنا هديناه السبيل ، ليكون إما شاكراً وإما كفوراً أي ليتميز شكره من كفره وطاعته من معصيته كقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : 7] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ [العنكبوت : 3] وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ [محمد : 31] قال القفال : ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل ، قد نصحت لك إن شئت فأقبل ، وإن شئت فاترك ، أي فإن شئت فتحذف الفاء فكذا المعنى : إنا هديناه السبيل فإما شاكراً وإما كفوراً ، فتحذف الفاء وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد أي إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر ، فإنا قد أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا ، كقوله : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

(111/794)

القول الرابع : أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه السبيل ، أي إما سبيلاً شاكراً ، وإما سبيلاً كفوراً ، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز .

واعلم أن هذه الأقوال كلها لائقة بمذهب المعتزلة .

والقول الخامس : وهو المطابق لمذهب أهل السنة ، واختيار الفراء أن تكون إما هذه الآية كإما في قوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 106] والتقدير : إنا هديناه السبيل ثم جعلناه تارة شاكراً أو تارة كفورًا ويتأكد هذا التأويل بما روي أنه قرأ أبو السمال بفتح الهمزة في ﴿ أَمَّا ﴾ ، والمعنى أما شاكراً فبتوفيقنا وأما كفوراً فبخذلاننا ، قالت المعتزلة : هذا التأويل باطل ، لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية تهديد الكفار فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سلاسل وأغلالا وَسَعِيراً ﴾ [الإنسان : 4] ولو كان كفر الكافر من الله وبخلقه لما جاز منه أن يهدده عليه ، ولما بطل هذا التأويل ثبت أن الحق هو التأويل الأول وهو أنه تعالى هدى جميع المكلفين سواء آمن أو كفر ، وبطل بهذا قول المجبرة أنه تعالى لم يهد الكافر إلى الإيمان ، أجاب أصحابنا بأنه تعالى لما علم من الكافر أنه لا يؤمن ثم كلفه بأن يؤمن فقد كلفه بأن يجمع بين العلم بعدم الإيمان ووجود الإيمان وهذا تكليف بالجمع بين المتنافيين ، فإن لم يصر هذا عذراً في سقوط التهديد والوعيد جاز أيضاً أن يخلق الكفر فيه ولا يصير ذلك عذراً في سقوط الوعيد وإذا ثبت هذا ظهر أن هذا التأويل هو الحق ، وأن التأويل اللائق بقول المعتزلة : ليس بحق ، وبطل به قول المعتزلة .

المسألة الثانية :

أنه تعالى ذكر نعمه على الإنسان فابتدأ بذكر النعم الدنيوية ، ثم ذكر بعده النعم الدينية ، ثم ذكر هذه القسمة .

(112/794)

واعلم أنه لا يمكن تفسير الشاكر والكفور بمن يكون مشتغلاً بفعل الشكر وفعل الكفران وإلا لم يتحقق الحصر ، بل المراد من الشاكر الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه عليه والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه ، إما لأنه ينكر الخالق أو لأنه وإن كان يثبته لكنه ينكر وجوب الشكر عليه ، وحينئذ يتحقق الحصر وهو أن المكلف ، إما أن يكون شاكراً وإما أن يكون كفوراً ، واعلم أن الخوارج احتجوا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين المطيع والكافر ، قالوا : لأن الشاكر هو المطيع ، والكفور هو الكافر ، والله تعالى نفى الواسطة وذلك يقتضي أن يكون كل ذنب كفراً ، وأن يكون كل مذنب كافراً ، واعلم أن البيان الذي لخصناه يدفع هذا الإشكال ، فإنه ليس المراد من الشاكر الذي يكون مشتغلاً بفعل الشكر فإن ذلك باطل طرداً وعكساً ، أما الطرد فلأن اليهودي قد يكون شاكراً لربه مع أنه لا يكون مطيعاً لربه ، والفاسق قد يكون شاكراً لربه ، مع أنه لا يكون مطيعاً لربه ،

وأما العكس فلأن المؤمن قد لا يكون مشتغلاً بالشكر ولا بالكفران ، بل يكون ساكناً غافلاً عنهما ، فثبت أنه لا يمكن تفسير الشاكر بذلك ، بل لا بد وأن يفسر الشاكر بمن يقر بوجوب الشكر والكفور بمن لا يقر بذلك ، وحينئذ يثبت الحصر ، ويسقط سؤالهم بالكلية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 208.212 ﴾

(113/794)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

"هَلْ" : بمعنى قد ؛ قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة .

وقد حكي عن سيبويه "هَلْ" بمعنى قد .

قال الفراء : هل تكون جَحْداً ، وتكون خبراً ، فهذا من الخبر ؛ لأنك تقول : هل أعطيتك ؟ تُقَرِّره بأنك أعطيته .

والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا ؟ وقيل : هي بمنزلة الاستفهام ، والمعنى : أتى .

والإنسان هنا آدم عليه السلام ؛ قاله قتادة والثَّوريّ وعِكرمة والسّديّ .

وروي عن ابن عباس .

﴿ حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أربعون سنة مرّت به ، قبل أن ينفخ فيه الروح ، وهو ملقى بين مكة والطائف .

وعن ابن عباس أيضاً في رواية الضحاك أنه خلق من طين ، فأقام أربعين سنة ، ثم من حَمَإٍ مسنون أربعين سنة ، ثم من صَلْصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة .

وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ، ثم نفخ فيه الروح .

وقيل : الحين المذكور ها هنا : لا يُعْرف مقدارُه ؛ عن ابن عباس أيضاً ، حكاه الماورديّ .

﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : لا في السماء ولا في الأرض .

وقيل : أي كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً ، لا يُذكَر ولا يُعرَف ، ولا يُدرَى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نُفِخ فيه الرُّوح ، فصار مذكوراً ؛ قاله الفراء وقطرب وثعلب .

وقال يحيى بن سلاّم : لم يكن شيئاً مذكوراً في الخَلْق وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً .

وقيل : ليس هذا الذِّكر بمعنى الإخبار ، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم ، بل هذا الذِّكر بمعنى الخطر والشرف والقدر ؛ تقول : فلان مذكور أي له شرف وقدر .

وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] أي قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قَدْر عند الخليقة .

ثم لما عَرَّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة ، وحمَّله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال ، ظهر فضله على الكل ، فصار مذكوراً .

قال القُشيريّ : وعلى الجملة ما كان مذكوراً للخلق ، وإن كان مذكوراً لله .

وحكى محمد ابن الجهم عن الفراء : "لَمْ يَكُنْ شَيْئاً" قال : كان شيئاً ولم يكن مذكوراً .

وقال قوم : النفي يرجع إلى الشيء ؛ أي قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئاً يذكر في الخليقة ؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة ، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين .

والمعنى : قد مضت عليه أزمنة وما كان آدم شيئاً ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة .

وهذا معنى قول قتادة ومقاتل : قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقة الله جل ثناؤه خليقة كانت بعد الإنسان .

وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ، ولم يخلق بعده حيواناً .

وقد قيل : "الإنسان" في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ ﴾ عُنِيَ به الجنس من ذرّية آدم ، وأن الحين تسعة أشهر ، مدّة حمل الإنسان في بطن أمه ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ : إذ كان علقة ومضغة ؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له .

وقال أبو بكر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية : ليتها تَمَّت فلا نُبْتَلى .

أي ليت التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مَذْكُوراً تَمَّت على ذلك ، فلا يلد ولا يُبْتَلى أولادُه .

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ فقال ليتها تَمَّت .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان ﴾ أي ابن آدم من غير خلاف ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي من ماء يقطُر وهو المنيّ ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة ؛ كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه :

مالي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ . . .

(115/794)

هل أنتِ إلاَّ نُطْفَةٌ في شَنَّهْ

وجمعها : نَطف ونِطَاف .

﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ : أخلاط .

واحدها : مِشْج ومَشِيج ، مثل خِدْن وخَدِين ؛ قال : رؤبة :

يَطْرحْن كُلَّ مُعْجَلٍ نَشَّاجِ . . .

لَمْ يُكْسَ جِلْداً في دَمٍ أَمْشَاجِ

ويقال : مَشَجتُ هذا بهذا أي خلطته ، فهو مَمْشوج ومَشِيج ؛ مثل مَخْلوط وخَلِيط .

وقال المبرّد : واحد الأمشاج : مشيج ؛ يقال : مشج يمشِج : إذا خلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم ؛ قال الشَّمَّاخ :

طَوَتْ أَحْشَاء مُرْتجَةٍ لوَقْتٍ . . .

على مَشَجٍ سُلاَلَتُهُ مَهِينُ

وقال الفراء : أمشاج : أخلاط ماء الرجل وماء المرأة ، والدم والعَلَقة .

ويقال للشيء من هذا إذا خُلط : مَشِيج كقولك خَلِيط ، ومَمْشوج كقولك مَخْلوط .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : الأمشاج : الحمرة في البياض ، والبياض في الحمرة .

وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة ؛ قال الهُذليّ :

كَأَنَّ الرِّيشَ والْفُوقَيْنِ مِنْهُ . . .

خِلاَفَ النَّصْلِ سِيطَ به مَشِيجُ

وعن ابن عباس أيضاً قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوّة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة .

وقد روي هذا مرفوعاً ؛ ذكره البزار .

وروي عن ابن مسعود : أمشاجها عروق المضغة .

وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان .

وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة خضراء وصفراء .

وقال ابن عباس : خلق من ألوان ؛ خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم .

ونحوه قال قتادة : هي أطوار الخلق : طور وطور علقة وطور مضغة عظام ثم يكسو العظام لحماً ؛ كما قال في سورة "المؤمنون"

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] الآية .

(116/794)

وقال ابن السِّكِّيت : الأمشاج الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة .

وقال أهل المعاني : والأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد ؛ لأنه نعت للنطفة ؛ كما يقال : بُرْمَةٌ أَعشَار وثوبٌ أخلاقٌ .

وروي عن أبي أيوب الأنصاريّ : قال " جاء حبر من اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة ؟ فقال : "ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا عَلاَ ماء المرأة آنَثَتْ وإذا عَلاَ ماءُ الرجل أَذْكَرَتْ" فقال الحبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله " وقد مضى هذا القول مستوفًى في سورة "البقرة" .

﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ أي نختبره .

وقيل : نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار .

وفيما يختبر به وجهان : أحدهما نختبره بالخير والشر ؛ قاله الكلبي : الثاني نختبر شكره في السَّراء وصبره في الضَّرَّاء ؛ قاله الحسن .

وقيل : "نَبْتَلِيهِ" نُكلّفه .

وفيه أيضاً وجهان : أحدهما بالعمل بعد الخلق ؛ قاله مقاتل .

الثاني بالدِّين ليكون مأموراً بالطاعة ومنهيًّا عن المعاصي .

وروي عن ابن عباس : "نَبْتَلِيهِ" : نصرفه خلقاً بعد خلق ؛ لنبتليه بالخير والشر .

وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال: المعنى والله أعلم ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ لنبتليه، وهي مُقدَّمة معناها التأخير.

قلت: لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخِلْقة.

وقيل: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾: يعني جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى، وبصراً يبصر به الهدى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ أي بيّنا له وعَرَّفناه طريق الهدى والضلال، والخير والشرّ ببعث الرسل، فآمن أو كفر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد: 10].

وقال مجاهد: أي بيّنا له السبيل إلى الشَّقاء والسَّعادة.

وقال الضحاك وأبو صالح والسّديّ: السبيل هنا خروجه من الرحم.

(117/794)

وقيل: منافعه ومضارّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله.

﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ أي أيهما فعل فقد بيّنا له.

قال الكوفيون: "إِن" ها هنا تكون جزاء و "ما" زائدة أي بيّنا له الطريق إن شَكَر أو كَفَر.

واختاره الفراء ولم يجزْه البصريون ؛ إذ لا تدخل "إِنْ" للجزاء على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل .

وقيل : أي هديناه الرشد ، أي بيّنا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه ؛ ثم إن خلقنا له الهداية اهتدى وآمن ، وإن خذلناه كَفَر .

وهو كما تقول : قد نصحت لك ، إن شئت فاقبل ، وإن شئت فاترك ؛ أي فإن شئت ، فتحذف الفاء .

وكذا ﴿ إِمَّا شَاكِراً ﴾ والله أعلم .

ويقال : هديته السبيل وللسبيل وإلى السبيل .

وقد تقدّم في "الفاتحة" وغيرها .

وجمع بين الشاكر والكفور ، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة ؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى ، فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ، فقَلَّ شكره ، لكثرة النِّعم عليه وكَثُرة كفره وإن قَلّ مع الإحسان إليه .

حكاه الماورديّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(118/794)

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ أَتى عَلَى الإنسان حِينٌ مّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

أصله على ما قيل أهل على أن الاستفهام للتقرير أي الحمل على الإقرار بما دخلت عليه والمقرر به من ينكر البعث وقد علم أنهم يقولون نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك فيقال فالذي أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته وهل بمعنى قد وهي للتقريب أي تقريب الماضي من الحال فلما سدت هل مسد الهمزة دلت على معناها ومعنى الهمزة معاً ثم صارت حقيقة في ذلك فهي للتقرير والتقريب واستدل على ذلك الأصل بقول زيد الخيل

: سائل فوارس يربوع بشدتنا . . .

أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

وقيل هي للاستفهام ولا تقريب وجمعها مع الهمزة في البيت للتأكيد كما في قوله

ولا للما بهم أبداد واه . . .

(119/794)

بل التأكيد هنا أقرب لعدم الاتحاد لفظاً على أن السيرافي قال الرواية الصحيحة أم هل رأونا على أن أم منقطعة بمعنى بل وقال السيوطي في "شرح شواهد المغني" الذي رأيته في نسخة قديمة من ديوان زيد فهل رأونا بالفاء وعن ابن عباس وقتادة هي هنا بمعنى قد وفسرها بها جماعة من النحاة كالكسائي وسيبويه والمبرد والفراء وحملت على معنى التقريب ومن الناس من حملها على معنى التحقيق وقال أبو عبيدة مجازها قد أتى على الإنسان وليس باستفهام وكأنه أراد ليس باستفهام حقيقة وإنما هي للاستفهام التقريري ويرجع بالآخرة إلى قد أتى ولعل مراد من فسرها بذلك كابن عباس وغيره ما ذكر لا أنها بمعنى قد حقيقة وفي "المغنى" ما تفيدك مراجعته بصيرة فراجعه والمراد بالإنسان الجنس على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس والحين طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل والدهر الزمان الممتد الغير المحدود ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين والزمان عام للكل والدهر وعاء الزمان كلام فلسفي وتوقف الإمام أبو حنيفة في معنى الدهر منكراً أي في المراد به عرفاً في الايمان حتى يقال بماذا يحنث إذا قال والله لا أكلمه دهراً والمعرف عنده مدة حياة الحالف عند عدم النية وكذا عند صاحبيه والمنكر عندهما كالحين وهو معرفاً ومنكراً كالزمان ستة أشهر إن لم تكن نية أيضاً وبها ما نوى على الصحيح وما اشتهر من حكاية اختلاف فتاوي الخلفاء الأربعة في ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام مستدلاً كل بدليل وقوله صلى الله عليه وسلم بعد الرفع إليه أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم

اهتديتم إلا أنه اختار فتوى الأمير كرم الله تعالى وجهه بأن الحين يوم وليلة لما فيه من التيسير لا يصح كما لا يخفى على الناقد البصير ولو صح لم يعدل عن فتوى الأمير معدن البسالة والفتوة بعد أن اختارها مدينة العلم ومفخر الرسالة والنبوة والمعنى هنا قد أتى أو هل أتى على جنس الإنسان قبل زمان قريب

(120/794)

طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد لم يكن شيئاً مذكوراً بل كان شيئاً غير مذكور بالإنسانية أصلاً أي غير معروف بها على أن النفي راجع إلى القيد والمراد أنه معدوم لم يوجد بنفسه بل كان الموجود أصله مما لا يسمى إنساناً ولا يعرف بعنوان الإنسانية وهو مادته البعيدة أعني العناصر أو المتوسطة وهي الأغذية أو القريبة وهي النطفة المتولدة من الأغذية المخلوقة من العناصر وجملة لم يكن الخ حال من الإنسان أي غير مذكور وجوز أن تكون صفة لحين بحذف العائد عليه أي لم يكن فيه شيئاً مذكوراً كما في قوله تعالى :
﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : 48] وإطلاق الإنسان على مادته مجاز بجعل ما هو بالقوة منزلاً منزلة ما هو بالفعل أو هو من مجاز الأول وقيل المراد بالإنسان آدم عليه السلام وأيد الأول بقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فإن الإنسان فيه معرفة معادة فلا يفترقان كيف وفي إقامة الظاهر مقام المضمر فضل التقرير والتمكين في النفس فإذا اختلفا عموماً وخصوصاً فاتت الملايمة ولا شك أن الحمل على آدم عليه السلام في هذا لا وجه له ولا نقض به على إرادة الجنس بناء على أنه لا عموم فيه ولا خصوص نعم دل قوله سبحانه من نطفة على أن المراد غيره أو هو تغليب وقيل يجعل ما للأكثر للكل مجازاً في الإسناد أو الطرف ورويت إرادته عن قتادة والثوري وعكرمة والشعبي وابن عباس أيضاً وقال في رواية أبي صالح عنه مرت به أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف وفي رواية الضحاك عنه أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون فأقام أربعين سنة ثم من صلصال فأقام أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح وحكي الماوردي عنه أن الحين المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره وروي نحوه عن عكرمة فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر أنه قال : إن من الحين حين لا يدرك وتلا الآية فقال والله ما يدري كم أتى عليه حتى خلقه الله تعالى ورأيت لبعض المتصوفة أن هل للاستفهام الإنكاري فهو في معنى النفي

أي ما أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا وظاهره القول بقدم الإنسان في الزمان على معنى أنه لم يكن زمان إلا وفيه إنسان وهو القدم النوعي كما قال به من قال من الفلاسفة وهو كفر بالإجماع ووجه بأنهم عنوا شيئية الثبوت لقدم الإنسان عندهم بذلك الاعتبار دون شيئية الوجود ضرورة أنه بالنسبة إليها حادث زمانا ويرشد إلى هذا قول الشيخ محيي الدين في الباب 358 من الفتوحات المكية

(122/794)

لو لم يكن في العالم من هو على صورة الحق ما حصل المقصود من العلم بالحق أعني العلم الحادث في قوله سبحانه كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني فجعل نفسه كنزاً والكنز لا يكون إلا مكتنزاً في شيء فلم يكن كنز الحق نفسه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزاً فلما ألبس الحق الإنسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الإنسان الكامل بوجوده وعلم أنه كان مكنوزاً فيه في شيئية ثبوته وهو لا يشعر به انتهى ولا يخفى أن الأشياء كلها في شيئية الثبوت قديمة لا الإنسان وحده ولعلهم يقولون الإنسان هو كل شيء لأنه الإمام المبين وقد قال سبحانه

(123/794)

﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ [يس : 12] والكلام في هذا المقام طويل ولا يسعنا أن نطيل بيدانا نقول كون هل هنا للإنكار منكر وإن دعوى صحة ذلك لإحدى الكبر والذي فهمه أجلة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الآية الاخبار الإيجابي أخرج عبد بن حميد وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه سمع رجلاً يقرأ هل أتى على الإنسان شيء من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً فقال ليتها تمت وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سمع رجلاً يتلو ذلك فقال يا ليتها تمت فعوتب في قوله هذا فأخذ عموداً من الأرض فقال يا ليتني كنت مثل هذا .

(124/794)

﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ جمع مشج بفتحتين كسبب وأسباب أو مشج بفتح فكسر ككتف وأكتاف أو مشيج كشهيد وأشهاد ونصير وأنصار أي أخلاط جمع خلط بمعنى مختلط ممتزج يقال مشجت الشيء إذا خلطته ومزجته فهو مشيج وممشوج وهو صفة لنطفة ووصف بالجمع

وهي مفردة لأن المراد بها مجموع ماء الرجل والمرأة والجمع قد يقال على ما فوق الواحد أو باعتبار الإجزاء المختلفة فيهما رقة وغلظاً وصفرة وبياضاً وطبيعة وقوة وضعفاً حتى اختص بعضها ببعض الأعضاء على ما أراده الله تعالى بحكمته فخلقه بقدرته وفي بعض الآثار إن ما كان من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة والحاصل أنه نزل الموصوف منزلة الجمع ووصف بصفة أجزائه وقيل هو مفرد جاء على أفعال كإعشار وأكياش في قولهم برمة أعشار أي متكسرة وبرد أكياش أي مغزول غزله مرتين واختاره الزمخشري والمشهور عن نص سيبويه وجمهور النحاة أن أفعالاً لا يكون جمعاً وحكى عنه أنه ذهب إلى ذلك في إنعام ومعنى نطفة مختلطة عند الأكثرين نطفة اختلط وامتزج فيها الماءان وقيل اختلط فيها الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقيل الأمشاج نفس الأخلاط التي هي عبارة عن هذه الأربعة فكأنه قيل من نطفة هي عبارة عن أخلاط أربعة وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال أمشاج أي ألوان أي ذات ألوان فإن ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اختلطا ومكثا في قعر الرحم اخضرا كما يخضر الماء بالمكث وروى عن الكلبي وأخرج عن زيد بن أسلم أنه قال الأمشاج العروق التي في النطفة وروى ذلك عن ابن مسعود أي ذات عروق وروى عن عكرمة وكذا ابن عباس أنه قال أمشاج أطوار أي ذات أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة وهكذا إلى تمام الخلقة ونفخ الروح وقوله تعالى : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ حال من فاعل خلقنا والمراد مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد

على أن الحال مقدرة أو ناقلين له من حال إلى حال ومن طور إلى طور على طريقة الاستعارة لأن المنقول يظهر في

(125/794)

كل طور ظهوراً آخر كظهور نتيجة الابتلاء والامتحان بعده وروى نحوه عن ابن عباس وعلى الوجهين ينحل ما قيل أن الابتلاء بالتكليف وهو يكون بعد جعله سميعاً بصيراً لا قبل فكيف يترتب عليه قوله سبحانه : ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ وقيل الكلام على التقديم والتأخير والجملة استئناف تعليلي أي ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ﴿ لنبتليه ﴾ وحكى عن الفراء وعسف لأن التقديم لا يقع في حاق موقعه لا لفظاً لأجل الفاء ولا معنى لأنه لا يتجه السؤال قبل الجعل والأوجه الأول وهذا الجعل كالمسبب عن الابتلاء لأن المقصود من جعله كذلك أن ينظر الآيات الآفاقية والأنفسية ويسمع الأدلة السمعية فلذلك عطف على الخلق المقيد به بالفاء ورتب عليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾

لأنه جملة مستأنفة تعليلية في معنى ﴿ إِنَّا هديناه ﴾ أي دللناه على ما يوصله من الدلائل السمعية كالآيات التنزيلية والعقلية كالآيات الأفاقية والأنفسية وهو إنما يكون بعد التكليف

والابتلاء ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ حالان من مفعول هدينا وأما للتفصيل باعتبار تعدد الأحوال مع اتحاد الذات أي هديناه ودللناه على ما يوصل إلى البغية في حالتيه جميعاً من الشكر والكفر أو للتقسيم للمهدي باختلاف الذوات والصفات أي هديناه السبيل مقصوماً إليه بعضهم شاكر بالاهتداء للحق وطريقه بالأخذ فيه وبعضهم كفور بالإعراض عنه وحاصله دللناه على الهداية والإسلام فمنهم مهتد مسلم ومنهم ضال كافر وقيل حالان من السبيل أي عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً على وصف السبيل بوصف سالكه مجازاً والمراد به لا يخفى وعن السدي أن السبيل هنا سبيل الخروج من الرحم وليس بشيء أصلاً وقرأ أبو السمال وأبو العاج أما بفتح الهمزة في الموضعين وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب وهي التي عدها بعض الناس على ما قال أبو حيان في حروف العطف وأنشدوا

: تلقحها أما شمال عرية . . .

(126/794)

وأما صبا جنح العشي هبوب

وجعلها الزمخشري أما التفصيلية المتضمنة معنى الشرط على معنى أما شاكراً فبتوفيقنا

وأما كفوراً فبسوء اختياره وهذا التقدير إبراز منه للمذهب قيل ولا عليه أن يجعله من باب ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [البقرة: 26] كأنه قيل أما شاكراً فبهدايتنا أي دعائنا أو اقدارنا على ما فسر به الهداية وأما كفوراً فبها أيضاً لاختلاف وجه الدعاء لأن الهداية ههنا ليست في مقابلة الضلال وهذا جار على المذهبين وسالم عن حذف ما لا دليل عليه وجوز في الانتصاف أن يكون التقدير أما شاكراً فمثاب وأما كفوراً فمعاقب وإيراد الكفور بصيغة المبالغة لمراعاة الفواصل والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما وإنما المؤاخذ عليه الكفر المفرط. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(127/794)

وقال ابن عاشور:

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

استفهام تقريري والاستفهام من أقسام الخطاب وهو هنا موجَّه إلى غير معين ومُسْتعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالاً لإشْراك المشركين.

وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام .

فجملة ﴿ هل أتى على الإِنسان ﴾ تمهيد وتوطئة للجملة التي بعدها وهي ﴿ إنا خلقنا الإِنسان من نطفة أمشاج ﴾ [الإنسان : 2] الخ .

و﴿ هل ﴾ حرف يفيد الاستفهام ومعنى التحقيق ، وقال جمعٌ أصل ﴿ هل ﴾ إنها في الاستفهام مثل (قَدْ) في الخبر ، وبملازمة ﴿ هل ﴾ الاستفهامَ كثير في الكلام حذف حرف الاستفهام معها فكانت فيه بمعنى (قد) ، وخصت بالاستفهام فلا تقع في الخبر ، ويَتطرق إلى الاستفهام بها ما يَتطرق إلى الاستفهام من الاستعمالات .

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلاّ أن يَأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ في سورة [البقرة : 210] .

وقد علمت أن حمل الاستفهام على معنى التقرير يحصّل هذا المعنى .

والمعنى : هل يقر كل إنسان موجودٍ أنه كان معدوماً زماناً طويلاً ، فلم يكن شيئاً يذكر ، أي لم يكن يسمى ولا يتحدث عنه بذاته (وإن كان قد يذكر بوجه العُموم في نحو قول الناس : المعدوم مُتوقف وجوده على فاعل .

وقول الواقف : حبست على ذريتي ، ونحوه فإن ذلك ليس ذِكراً لمعين ولكنه حكم على الأمر المقدَّر وجودُه) .

وهم لا يسَعهم إلاّ الإقرار بذلك ، فلذلك اكتفي بتوجيه هذا التقرير إلى كل سامع .

وتعريف الإِنسان ﴾ للاستغراق مثل قوله : ﴿ إِن الإِنسان لفي خسر إلاّ الذين ءامنوا ﴾ الآية [العصر : 2 ، 3] ، أي هل أتى على كل إنسان حينُ كان فيه معدوماً .

(128/794)

و ﴿ الدهر ﴾ : الزمان الطويل أو الزمان المقارن لوجود العالم الدنيوي .

والحين : مقدار مُجمل من الزمان يطلق على ساعة وعلى أكثر ، وقد قيل إن أقصى ما يطلق عليه الحين أربعون سنة ولا أحسبه .

وجملة ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ يجوز أن تكون نعتاً ل ﴿ حين ﴾ بتقدير ضمير رابط بمحذوف لدلالة لفظ ﴿ حين ﴾ على أن العائد مجرور بحرف الظرفية حذف مع جاره كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ [البقرة : 48] إذ التقدير : لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً ، فالتقدير هنا : لم يكن فيه الإِنسان شيئاً مذكوراً ، أي كان معدوماً في زمن سبق .

ويجوز أن تكون الجملة حالاً من ﴿ الإنسان ﴾ ، وحذف العائد كحذفه في تقدير النعت .

والشيء : اسم للموجود .

والمذكورُ : المعيّن الذي هو بحيث يُذكر ، أي يعبّرُ عنه بخصوصه ويخبر عنه بالأخبار والأحوال .

ويعلَّق لفظه الدال عليه بالأفعال .

فأمّا المعدوم فلا يذكر لأنه لا تعيّن له فلا يذكر إلاّ بعنوانه العام كما تقدّم آنفاً ، وليس هذا هو المراد بالذّكر هنا .

ولهذا نجعل ﴿ مذكوراً ﴾ وصفاً ل ﴿ شيئاً ﴾ ، أريد به تقييد ﴿ شيئاً ﴾ ، أي شيئاً خاصاً وهو الموجود المعبر عنه باسمه المعيّن له .

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)

استئناف بياني مترتب على التقرير الذي دل عليه ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ [الإنسان : 1] لما فيه من التشويق .

والتقرير يقتضي الإِقرار بذلك لا محالة لأنه معلوم بالضرورة ، فالسامع يتشوف لما يرد بعد هذا التقرير فقيل له : إن الله خلقه بعد أن كان معدوماً فأوجَد نطفة كانت معدومة ثم استخرج منها إنساناً ، فثبت تعلُّق الخلق بالإِنسان بعد عدمه .

وتأكيد الكلام بحرف (إنَّ) لتنزيل المشركين منزلة من ينكر أنّ الله خلق الإِنسان لعدم جريهم على موجَب العلم حيث عبدوا أصناماً لم يخلقوهم .

والمراد بـ ﴿ الإنسان ﴾ مثل ما أريد به في قوله : ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الإنسان : 1] أي كل نوع الإِنسان .

وأُدمج في ذلك كيفية خلق الإِنسان من نطفة التناسِل لما في تلك الكيفية من دقائق العلم الإلهي والقدرة والحكمة .

وقد تقدم معنى النطفة في سورة القيامة .

و﴿ أمشاج ﴾ : مشتق من المشج وهو الخلط ، أي نطفة مخلوطة قال تعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يس : 36]

وذلك يفسر معنى الخلط الذي أشير إليه هنا .

وصيغة ﴿ أمشاج ﴾ ظاهرها صيغة جمع وعلى ذلك حملها الفراء وابن السكيت والمبرد ، فهي إما جمع مِشْج بكسر فسكون بوزن عِدْل ، أي ممشوج ، أي مخلوط مثل ذِبح ، وهذا ما اقتصر عليه في "اللسان" و"القاموس" ، أو جمع مَشَج بفتحتين مثل سَبب وأسباب ، أو جمع مَشِج بفتح فكسر مثل كَتِف وأكتاف .

والوجه ما ذهب إليه صاحب "الكشاف" : أن ﴿ أمشاج ﴾ مفرد كقولهم : بُرمة أعشار وبُرد أكياش (بهمزة وكاف وتحتية وألف وشين معجمة الذي أعيد غزله مرتين) .

قال : "ولا يصح أن يكون أمشاج جمع مَشَج بل هما (أي مَشج وأمشاج) مِثلان في الإِفراد أ

هـ .

وقال بعض الكاتبين : إنه خالف كلام سيبويه .

وأشار البيضاوي إلى ذلك ، وأحسب أنه لم يَرَ كلام سيبويه صريحاً في منع أن يكون ﴿ أمشاج ﴾ مفرداً لأن أثبت الإِفراد في كلمة أنعام والزمخشري معروف بشدة متابعة سيبويه .

فإذا كان ﴿ أمشاج ﴾ في هذه الآية مفرداً كان على صورة الجمع كما في "الكشاف" . فوصف ﴿ نطفة ﴾ به غير محتاج إلى تأويل ، وإذا كان جمعاً كما جرى عليه كلام الفراء وابن السكيت والمبرد ، كان وصف النطفة به باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص ، (فلذلك يصير كل جزء من النطفة عضواً) فوصفُ النطفة بجمع الاسم للمبالغة ، أي شديدة الاختلاط .

وهذه الأمشاج منها ما هو أجزاء كيمائية نباتية أو ترابية ومنها ما هو عناصر قوى الحياة .

(130/794)

وجملة ﴿ نبتليه ﴾ في موضع الحال من الإِنسان وهي حال مقدرة ، أي مريدين ابتلاءه في المستقبل ، أي بعد بلوغه طور العقل والتكليف ، وهذه الحال كقولهم : مررتُ برجل معه

صِقر صائداً به غداً .

وقد وقعت هذه الحال معترضة بين جملة ﴿ خلقنا ﴾ وبين ﴿ فجعلناه سَميعاً بصيراً ﴾ لأن الابتلاء ، أي التكليف الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير ، فكان مقتضى الظاهر أن يقع ﴿ نبتليه ﴾ بعد جملة ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ [الإنسان : 3] ، ولكنه قدم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة والشقاوة .

وجيء بجملة ﴿ إنا هديناه السبيل بياناً لجملة نبتليه ﴾ تفنناً في نظم الكلام .

وحقيقة الابتلاء : الاختبار لتُعرف حال الشيء وهو هنا كناية عن التكليف بأمر عظيم لأن الأمر العظيم يظهر تفاوت المكلفين به في الوفاء بإقامته .

وفُرع على خلقه ﴿ من نطفة ﴾ أنه جعله ﴿ سميعاً بصيراً ﴾ ، وذلك إشارة إلى ما خلقه الله له من الحواس التي كانت أصل تفكيره وتدبيره ، ولذلك جاء وصفه بالسميع البصير بصيغة المبالغة ولم يقل فجعلناه : سامعاً مبصراً ، لأن سمع الإِنسان وبصره أكثر تحصيلاً وتمييزاً في المسموعات والمبصرات من سمع وبصر الحيوان ، فبالسمع يتلقَّى الشرائع ودعوة الرسل وبالبصر ينظر في أدلة وُجود الله وبديع صنعه .

وهذا تخلص إلى ما ميز الله به الإِنسانَ من جعله تجاه التكليف واتباع الشرائع وتلك خصيصية الإِنسان التي بها ارتكزتْ مدنيته وانتظمت جامعاته ، ولذلك أعقبت هذه

الجملة بقوله : ﴿ إنا هديناه السبيل الآيات .

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

استئناف بياني لبيان ما نشأ عن جملة ﴿ نبتليه ﴾ [الإنسان : 2] ولتفصيل جملة ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ [الإنسان : 2] ، وتخلُّصٌ إلى الوعيد على الكفر والوَعد على الشكر .

وهداية السبيل : تمثيل لحال المرشدِ .

(131/794)

و ﴿ السبيل ﴾ : الطريق الجادة إلى ما فيه النفع بواسطة الرُسل إلى العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة التي هي سبب فوزه بالنعيم الأبدي ، بحال من يدل السائر على الطريق المؤدية إلى مقصده من سَيْره .

وهذا التمثيل ينحل إلى تشبيهاتِ أجزاءِ الحالة المركَّبَة المشبَّهة بأجزاء الحالة المشبَّه بها ، فالله تعالى كالهادي ، والإنسان يشبه السائر المتحير في الطريق ، وأعمال الدين تشبه الطريق ، وفوز المتبع لهدي الله يشبه البلوغ إلى المكان المطلوب .

وفي هذا نداء على أن الله أرشد الإنسان إلى الحق وأن بعض الناس أدخلوا على أنفسهم

ضلالَ الاعتقاد ومفاسدَ الأعمال ، فمن بَرَّأَ نفسه من ذلك فهو الشاكر وغيره الكفور ، وذلك تقسيم بحسب حال الناس في أول البعثة ، ثم ظهر من خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للرد على المشركين الذين يزعمون أن ما يدعوهم إليه القرآن باطل .

و﴿ إِما شاكراً وإما كفوراً ﴾ حالان من ضمير الغيبة في ﴿ هديناه ﴾ ، وهو ضمير ﴿ الإِنسان ﴾ [الإنسان : 2] .

و﴿ إما ﴾ حرف تفصيل ، وهو حرفٌ بسيط عند الجمهور .

وقال سيبويه : هو مركب من حرف (إِنْ) الشرطية و (مَا) النافية .

وقد تجردت (إنْ) بالتركيب على الشرطية كما تجردت (مَا) عن النفي ، فصار مجموع ﴿ إِما ﴾ حرف تفصيل ، ولا عمل لها في الاسم بعدها ولا تمنع العامل الذي قبلها عن العمل في معموله الذي بعدها فهي في ذلك مثل (الْ) حرفِ التعريف .

وقدر بعض النحاة ﴿ إما ﴾ الثانية حرفَ عطف وهو تحكم إذ جعلوا الثانية عاطفة وهي أخت الأولى ، وإنما العاطف الواو و ﴿ إِما ﴾ مقحمة بين الاسم ومعموله كما في قول تأبط شراً :

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسارٍ ومِنَّةٍ . . .
وإِمَّا دَمٍ والموتُ بالحُرِ أجْدَرُ

فإن الاسمين بعد (إما) في الموضعين من البيت مجروران بالإضافة ولذلك حذفت النون من قوله : هما خطتَا ، وذلك أفصح كما جاء في هذه الآية .

(132/794)

قال ابن جنيّ : "أما من جرَّ (إسار) فإنه حذف النون للإضافة ولم يَعتد (إمَّا) فاصلاً بين المضاف والمضاف إليه ، وعلى هذا تقول : هما إما غلاما زيدٍ وإما عمرو ، وأجودُ من هذا أن تقول : هما خطتَا إسارٍ ومنةٍ وإما خطتا دم ثم قال : وأما الرفع فطريق المذهب ، وظاهر أمره أنه على لغة من حذف النون لغير الإضافة فقد حُكي ذلك" الخ .

ومقتضى كلامه أن البيت روي بالوجهين : الجر والرفع وقريب منه كلام المرزوقي وزاد فقال "وحَذف النون إذا رفعتَ (إسارُ) استطالة للاسم كأنه استطال خطتا ببدَله وهو قوله : إما إسار" الخ .

والمعنى : إنا هديناه السبيل في حال أنه متردد أمره بين أحد هذين الوصفين وصفِ شاكر ووصفِ كفور ، فأحدُ الوصفين على الترديد مقارنٌ لحال إرشاده إلى السبيل ، وهي مقارنةٌ عرفية ، أي عَقب التبليغ والتأمل ، فإن أخذ بالهدى كان شاكراً وإن أعرض كان كفوراً كمن لم يأخذ بإرشاد من يهديه الطريق فيأخذ في طريق يلقى به السباع أو اللصوصَ ،

وبذلك تم التمثيل الذي في قوله : ﴿ إِنا هديناه السبيل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(133/794)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الدهر)

الدّهر : الزَّمان ، قاله شمر وأَنشد :

*إِن دهرا يلُفُّ شَمْلِى بجُمْل * لزمان يَهُمّ بالإِحسان*

وقيل : الدّهر الأَبد لا ينقطع .

قال الأَزهرى : الدّهر يقع عند العرب على بعض الدّهر الأَطول ، ويقع على مُدّة الدّنيا كلِّها ، وقيل : الدّهر مدّة [الدنيا] كلَّها من ابتدائها إلى انقضائها .

وقال آخرون : بل دَهْر كلِّ قوم زمانهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ .

وقول النبىّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم "لا تسبوا الدّهر فإِن الدّهر هو الله" وروى "فإِنَّ الله هو

الدّهر" قِيل : الدّهر اسم من أَسماءِ الله تعالى .

وقال الزَّمخشرى : الدّهر هو الزَّمان الطَّويل ، وكانوا يعتقدون فيه أَنَّه الطَّارق بالنَّوائب ، ولذلك اشتَقُّوا من اسمه دَهَر فلاناً خَصْبٌ إذا دهاه ، وما زالوا يَشْكونه ويذمُّونه ، قال حُريثُ بن جَبَلة وقيل أَبو عُيينة المهلبى :

*إذا هو الرَّمْسُ تعفوه الأَعاصير * والدّهر أَيَّتَمَا حالٍ دها دير *

أَى دواهٍ وخطوب مختلِفة .

وهو بمنزلة عباديد فى أَنَّه لم يستعمل واحدُه .

وقال رجل من كلب :

*لَحَى الله دهرا شرُّه قبل خيره * تقاضى فلم يُحسن إلينا التقاضيا *

وقال يحيى بن زياد :

*عَذِيرىَ من دهر كأَنى وتَرْته * رهين بحبل الوُدّ أن يتقطَّعا *

فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذمّ الدّهر ، وبيّن لهم أَنَّ الطَّوارق الَّتى تنزل بهم مُنْزلها الله عَزَّ سلطانه دون غيره ، وأَنَّهم متى اعتقدوا فى الدّهر أَنَّه هو المُنْزِل ثمَّ ذمّوه كان مرجع المذمّة إلى العزيز الحكيم ، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

والَّذى يُحقِّق هذا الموضع ويَفصل بين الرّوايتين هو قوله "فإِنَّ الدّهر هو الله" حقِيقتُه : فإِن جالبَ الحوادث هو الله لا غيره ، فوضع الدّهر موضع جالب الحوادث ، كما تقول : إِن أَبا حنيفة أَبو يوسف ، تريد أَنَّ النهاية فى الفقه هو أَبو يوسف لا غيره ، فيضع أَبا حنيفة موضع ذلك لشهرته بالتناهى فى فقهه ، كما شُهِر عندهم الدهر بجَلْب الحوادث .

ومعنى الرّواية الثانية : إِنَّ الله هو الدّهر ، فإِنَّ الله هو الجالب للحوادث .

لا غيره الجالب ، ردّا لاعتقادهم أَنَّ الله ليس مِن جَلْبها فى شئ وأَنَّ جالبها هو الدّهر ، كما لو قلت إِنَّ أَبا يوسف أَبو حنيفة كان المعنى أَنَّه النِّهاية فى الفقه لا المتقاصر .

"هو" فصل أَو مبتدأٌ خبره اسم الله أَو الدّهر فى الرّوايتين .

وقال بعضهم : الدّهر الثانى فى الحديث غير الأَوّل وإِنما هو مصدر بمعنى الفاعل ومعناه أَنَّ الله هو الداهر أَى المصرِّف المدبّر المُفِيض لما يَحْدُث .

وقال الأَزهرى فى قول جَرِير :

*أَنا الدّهر يَفْنى الموتُ والدّهر خالد * فجئنى بمثل الدّهر شيئاً يطاوله*

جعل الدّهر الدّنيا والآخرة لأَنَّ الموت يَفنى بعد انقضاءَ الدّنيا .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ وقد يستعار الدّهر للعادة الباقية

مدّة الحياة ، فقيل : ما دهري بكذا .

والدّهر أَيضاً الغَلَبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 609. 611 ﴾

(135/794)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الزمان والدهر والأجل والمدة والسنة والعام وما يجري مع ذلك

الفرق بين الدهر والمدة

أن الدهر جمع أوقات متوالية مختلفة كانت أو غير مختلفة ولهذا يقال الشتاء مدة ولا يقال دهر لتساوي أوقاته في برد الهواء وغير ذلك من صفاته ويقال للسنين دهر لأن أوقاتها مختلفة في الحر والبرد وغير ذلك وأيضا من المدة ما يكون اطول من الدهر ألا تراهم يقولون هذه الدنيا دهور ولا يقال الدنيا مدد والمدة والأجل متقاربان فكما أن من الأجل ما يكون دهورا فكذلك المدة

الفرق بين المدة والزمان

أن اسم الزمان يقع على كل جمع من الأوقات وكذلك المدة إلا أن أقصر المدة أطول من اقصر الزمان ولهذا كان معنى قول القائل لآخر إذا سأله أن يمهله أمهلني زمانا آخر غير معنى قوله

مدة أخرى لأنه ل لاخف بين أهل اللغة أن معنى قوله مدة آخرى أجل أطول من زمن ومما يوضحا فرق بينهما أن المدة أصلها المد وهو الطول ويقال مده إذا طوله إلا أن بينها وبين الطول فق وهو أن المدة لا تقع على أقصر الطول ولهذا يقال مد الله في عمرك ولا يقال لوقتين مدة كما لا يقال لجوهرين إذا ألفا إنهما خط ممدود ويقال لذلك طول فإذا صح هذا وجب أن يكون قولنا الزمان مدة يراد به أنه أطول الأزمنة كما قلنا للطويل إنه ممدود كان مرادنا أنه أطول من غيره فأما قول القائل آخر الزمان فمعناه أنه آخر الأزمنة لأن الزمان يقع على الواحد

والجمع فالستثقلوا أن يقولوا آخر الأزمنة والأزنان فاكتفوا بزمان

الفرق بين الزمان والوقت

أن الزمان أوقات متوالية مختلفة أو غير مختلفة فالوقت واحد وهو المقدر بالحركة الواحدة من حركات الفلك وهو يجري من الزمان مجرى الجزء من الجسم والشاهد أيضا أنه يقال زمان قصير وزمان طويل ولا يقال وقت قصير

(136/794)

الفرق بين الوقت والميقات

أن الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال والوقت وقت الشيئ قدره أو لم يقدره ولهذا قيل مواقيت الحج للمواضع التي قدرت للإحرام وليس الوقت في الحقيقة غير حركة الفلك وفي ذلك كلام كثير ليس هذا موضع ذكره

الفق بين العام والسنة

أن العام أيام والسنة جمع شهور ألا ترى أنه لما كان يقال أيام الزنج قيل عام الزنج ولما لم يقل شهور الزنج لم يقل سنة الزنج ويجوز أن يقال العالم يفيد كونه وقتا لشيء والسنة لاتفيد ذلك ولهذا يقال عام الفيل ولا يقال سنة الغيل ويقال في التاريخ سنة مائة وسنة خمسين ولا يقال عام مائة وعام خمسين إذا ليس وقتا لشيء مما ذكر من هذا العدد ومع هذا فإن العام هو السنة والسنة هي العام وإن اقتضى كل واحد منهما ما لا يقتضيه الآخر مما ذكرناه كما أن الكل هو الجمع هو والجمع هو الكل وإن كان الكل إحاطة بالأبعاض والجمع إحاطة بالأجزاء

الفرق بين السنة والحجة

أن الحجة تفيد أنها يحج فيها والحجة المرة الواحدة من حج يحج والحجة فعله مثل الجلسة والقعدة ثم سميت بها السنة كما يسمى الشيء باسم ما يكون فيه

الفرق بين لحين والسنة

أن قولنا حين اسم جمع أوقاتا متناهية سواء كان سنة أو شهورا أو أياما أو ساعات ولهذ جاء في القرآن لمعان مختلفة وبينه وبين فرق وو أن الدهر يقتضي أنه أوقات متوالية مختلفة على ما ذكرنا ولهذا قال الله عز وجل حاكيا عن الدهريين (وما يهلكنا إلا الدهر) أي يهلكنا الدهر باختلاف أحواله والدهر أيضا لا يكون إلا ساعات قليهة ويكون الحين كذلك

الفق بين الدهر والعصر

أن الدهر ما ذكرناه والعصر لكل مختلفين معناهما واحد مثل الشتاء والصيف والليلة واليوم والغدة والسحر يقال لذلك كله العصر وقال المبرد في تأويل قوله عز وجل (والعصر أن الإنسان لفي خسر) قال العصر ههنا الوقت قال ويقولون أهل هذا العصر كما يقولون أهل هذا الزمان والعصر اسم للسنين الكثيرة قال الشاعر من المنسرح

(أصبح مني الشباب قد نكرا

إن بان مني فقد ثوى عصرا)

(137/794)

وتقول عاصرت فلانا أي كنت في عصره أي زمن حياته

الفرق بين الوقت والساعة

أن الساعة هي الوقت المنقطع من غيره والوقت اسم الجنس ولهذا تقول إن الساعة عندي ولا تقول الوقت عندي

الفرق بين البكرة والغداة والمساء والعشاء والعشي والأصيل

أن الغداة اسم لوقت والبكرة فعله من بكر يبكر بكور ألا ترى أنه يقال صلاة الغداة وصلاة الظهر والعصر فتضاف إلى الوقت ولا يقال صلاة البكرة وإنما يقال جاء في بكرة كما تقول جاء في غدوة وكلاهما مثل النقلة ثم كثر استعمال البكرة حتى جرت على الوقت وإذا فاء الفيء سمي عشية ثم أصيلا بعد ذلك ويقال فاء الفيء إذا زاد على طول على طول الشجرة ويقال أتيته عشية أمس وسأتيه العشية ليومك الذي أنت فيه وسآتيه عشي غد بغير هاء وسآتيه بالعشي والغداة أي كل عشي وكل غداة والطفل وقت غروب الشمس والعشاء بعد ذلك وغذا كان بعيد العصر فهو المساء ويقال للرجل عند العسر إذا كان يبادر حاجة قد أمسيت وذلك على المبالغة

الفرق بين الزمان والحقبة والبرهة

أن الحقبة اسم للسنة إلا أنها تفيد غير ما تفيده السنة وذلك أن لسنة تفيد أنها تجمع شهور ولاحقبة تفيد أنها ظرف لأعمال ولأمور تجري فيها مأخوذ من الحقيبة وهي ضرب من

الظروف تتخذ من الأدم يجعل الراكب فيها متاعة وتشد خلف رحله أو سرجه وأما البرهة فبعض الدهر ألا ترى أنه يقال برهة من الدهر كما يقال قطعة من الدهر وقال بعضهم هي فارسية معربة

الفرق بين المدة والأجل

أن الأجل الوقت المضروب لانقضاء الشيء ولا يكون أجلا بجعل جاعل وما علم أنه يكون في وقت فلاأجل له إلا أن يحكم بأنه يكون فيه وأجل الإنسان هو الوقت لانقضاء عمره وأجل الدين محله وذلك لانقضاء مدة الدين وأجل الموت وقت حلوله وذلك الانقضاء مدة الحياة قبله فأجل الأخرة الوقت لانقضاء ما تقدم قبلها قبل ابتدائها ويجوز أن تكون المدة بين الشيئين بجعل جاعل وبغير جعل وكل أجل مدة وليس كل مدة أجلا

(138/794)

الفرق بين النهار واليوم

أن اسم للضياء المنفسح الظاهر الحصول الشمس بحيث ترى عينها أو معظم ضوئها وهذا حد النهار وليس هو في الحقيقة اسم للوقت واليوم اسم لمقدار من الأوقات يكون فيه هذا السنا ولهذا قال النحويون إذا قلت سرت يوما فأنت مؤقت تريد مبلغ ذلك ومقدراه وإذا

قلت سرت اليوم أو يوم الجمعة فأنت مؤرخ فإذا قلت سرت نهارا أو النهار فلست بمؤرخ ولا بمؤقت وإنما

المعنى سرت في الضياء النفسح ولهذا يضاف النهار إلى اليوم فيقال سرت نهار يوم الجمعة ولهذا لا يقال للغلس والسحر نهار حتى يتضيء الجو

الفق بين الدهر والأبد

أن الدهر أوقات متوالية مختلغة غير متناهية والأبد عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود وهو في المستقبل خلاف قط في الماضي وقوله عز وجل (خالدين فيها أبدا) حقيقة وقولك أفعل هذا أبدا مجاز والمراد المبالغة في إيصال هذا الفعل

الفرق بين الوقت وإذ

وهما جميعا اسم لشء واحد أنه تمكن أحدهما ولم يتمكن الآخر أو مضمن اليه لكون البيان غير معناه بحسب ذلك المضاف اليه والوقت مطلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 286.290 ﴾

(139/794)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسمهم إلى القسمين ، ذكر جزاء كل قسم فقال مستأنفاً جواب من يسأل عن ذلك مبشراً للشاكر الذي استعد بعروجه في مراقي العبادات إلى ملكوت العلويات لروح وريحان وجنة نعيم ، ومنذراً للكافر الذي استعد بالهبوط في دركات المخالفات إلى التقيد بالسفليات لنزل من حميم وتصلية جحيم ، مقدماً للعاصي لأن طريق النشر المشوش أفصح ، وليعادل البداءة بالشاكر في أصل التقسيم ليتعادل الخوف والرجاء ، وليكون الشاكر أولاً وآخراً ، ولأن الانقياد بالوعيد أتم لأنه أدل على القدرة لا سيما في حق أهل الجاهلية الذين بعدت عنهم معرفة التكاليف الشرعية ، وأكثر في القرآن العظيم من الدعاء بالترغيب والترهيب لأنه الذي يفهمه الجهال الذين هم أغلب الناس دون الحجج والبراهين ، فإنها لا يفهمها إلا الخواص ، وأكد لأجل تكذيب الكفار : ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ أعتدنا ﴾ أي هيأنا وأحضرنا بشدة وغلظة ﴿ للكافرين ﴾ أي العريقين في

الكفر خاصة ، وقدم الأسهل في العذاب فالأسهل ترقياً فقال : ﴿ سلاسلاً ﴾ يقادون ويرتقون بها ، وقراءة من نوّن مشيرة إلى أنها عظيمة جداً ، وكذا وقف أبي عمرو عليه بالألف مع المنع من الصرف ﴿ وأغلالاً ﴾ أي جوامع تجمع أيديهم إلى أعناقهم فيها فيها نون بها ﴿ وسعيراً ﴾ أي ناراً حامية جداً شديدة الاتقاد .

(140/794)

ولما أوجز في جزاء الكافر ، أتبعه جزاء الشاكر وأطنب فيه تأكيداً للترغيب ، فإن النفوس بعد كسر الوعيد لها تهتز لأدنى وعد وأقله فكيف بأتمه وأجله ، فقال مستأنفاً مؤكداً لتكذيب الكافر مبيناً بذكر الخمر على هذه الصفة أنهم في أنهى ما يكون من رغد العيش لأنه يلزم من شربها جميع مقدماتها ومتمماتها : ﴿ إن الأبرار ﴾ بخصوصهم من عموم الشاكرين جمع بر كأرباب جمع رب ، أو بار كأشهاد جمع شاهد ، وهم الذين سمت هممهم عن المستحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فأنفقوا من مساكنة الدنيا ﴿ يشربون ﴾ أي ما يريدون شربه ﴿ من كأس ﴾ أي خمر - قاله الحسن وهو اسم لقدح تكون فيه ﴿ كان مزاجها ﴾ أي الذي تمزج به ﴿ كافوراً ﴾ أي لبرده وعذوبته وطيب عرفه ، وذكر فعل الكون يدل على أن له شأناً في المزج عظيماً يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد .

ولما كان الكافور أعلى ما نعهده جامداً ، بين أنه هناك ليس كذلك ، فقال مبدلاً من "كافور" : ﴿ عيناً يشرب بها ﴾ أي بمزاجها كما تقول : شربت الماء بالعسل ﴿ عباد الله ﴾ أي خواص الملك الأعظم وأولياؤه أي شراب أرادوه .

ولما كان المزاج يتكلف لنقله قال : ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ أي حال كونهم يشققونها ويجرونها بغاية الكثرة إجراء حيث أرادوا من مساكنهم وإن علت وغيرها .

ولما ذكر جزاءهم على برهم المبين لشكرهم ، أتبعه تفصيله فقال مستأنفاً بياناً لأن شكرهم بالتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله وعمارة الظاهر والباطن لأنهم جمعوا بين كرم الطبع ولطافة المزاج الحامل على تجويز الممكن المقتضي للإيمان بالغيب :

﴿ يوفون ﴾ أي على سبيل الاستمرار ﴿ بالنذر ﴾ وهذا كناية عن وفائهم بجميع أنحاء العبادة لأن من وفى بما أوجبه على نفسه كان بما أوجبه الله من غير واسطة أوفى ، ويجوز أن يكون النذر كل ما تقدم إليهم فيه سبحانه .

(141/794)

ولما دل وفاؤهم على سلامة طباعهم ، قال عاطفاً دلالة على جمعهم للأمرين المتعاطفين فهم يفعلون الوفاء لا لأجل الخوف بل لكرم الطبع : ﴿ ويخافون ﴾ أي مع فعلهم للواجبات

﴿ يوماً كان ﴾ أي كوناً هو في جبلته ﴿ شره ﴾ أي ما فيه من الشدائد ﴿ مستطيراً ﴾ أي موجود الطيران وجوداً كأنه بغاية الرغبة فيه فهو في غاية الانتشار ، والخوف أدل دليل على عمارة الباطن ، قالوا : وما فارق الخوف قلباً إلا خرب ، من خاف أدلج ، ومن أدلج المنزل ، فالخوف لاجتناب الشر والوفاء لاجتلاب الخير .

ولما كان من خاف شيئاً سعى في الأمن منه بكل ما عساه ينفع فيه ، وكان قد ذكر تذرعهم بالواجب ، أتبعه المندوب دلالة على أنهم لا ركون لهم إلى الدنيا ولا وثوق بها ، فقد جمعوا إلى كرم الطبع بالوفاء ورقة القلب شرف النفس بالانسلاخ من الفاني فقال : ﴿ ويطعمون الطعام ﴾ أي على حسب ما يتيسر لهم من عال ودون على الدوام .

(142/794)

ولما كان الإنسان قد يسمح بما لا يلذ له قال : ﴿ على حبه ﴾ أي حبه إياه حباً هو في غاية المكنة منهم والاستعلاء على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه كما قال تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : 92] ليفهم أنهم للفضل أشد بذلاً ، ولهذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم أي الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م – ولا نصيفه " لقلة الموجود إذ ذاك وكثرته بعد

﴿ مسكيناً ﴾ أي محتاجاً احتياجاً يسيراً ، فصاحب الاحتياج الكثير أولى ﴿ ويتيماً ﴾ أي صغيراً لا أب له ذكراً كان أو أنثى ﴿ وأسيراً ﴾ أي في أيدي الكفار أي أعم من ذلك ، فيدخل فيه المملوك والمسجون والكافر الذي في أيدي المسلمين ، وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز ، وكان الخبز إذ ذاك عزيزاً حتى كان ذلك الأسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه إلى الإسلام ، وذلك لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما دفعهم إليهم قال : " استوصوا بهم خيراً " ومن حكم الأسير الحقيقي كل مضرور يفعلون ذلك والحال أنهم يقولون بلسان الحال أو القال إن احتيج إليه إزاحة لتوهم المن أو توقع المكافأة مؤكدين إشارة إلى أن الإخلاص أمر عزيز لا يكاد أحد يصدق أنه يتأتى لأحد : ﴿ إنما نطعمكم ﴾ أيها المحتاجون ﴿ لوجه الله ﴾ أي لذات الملك الذي استجمع الجلال والإكرام لكونه أمرنا بذلك ، وعبر به لأن الوجه يستحيى منه ويرجى ويخشى عند رؤيته .

(143/794)

ولما أثبتوا بهذا الإخلاص ، حققوه بنفي ما يغير فيه ، وفسروه لما لا يكون إلا به فقالوا : ﴿ لا نريد منكم ﴾ أي لأجل ذلك ﴿ جزاء ﴾ أي لنا من أعراض الدنيا ﴿ ولا

شكوراً ﴾ بشيء من قول ولا فعل ، وكأنه اختير هذا المصدر المزيد كالدخول والخروج والقعود إيماءً إلى أن المنفي ما يتكلف له ، وأما مثل المحبة والدعاء فلا ، ولو أرادوا شيئاً من ذلك لما كان لله ، وروي في سبب نزول هذه الآية : " أن علياً وابنيه وأمهما فاطمة ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين آثروا على أنفسهم ثلاثة أيام ، وأصبحوا الرابع يرتعشون ، فلما رآهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساءه ذلك ، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه السورة مهنئاً له بها " ولا يستبعد الصبر على الجوع هذه المدة لأنه ربما كانت للنفس هيئة قوية من استغراق في محبة الله تعالى أو غير ذلك ، فهبطت إلى البدن فشغلت الطبيعة عن تحليل الأجزاء فلا يحصل الجوع كما أنا نشاهد الإنسان يبقى في المرض الحاد مدة من غير تناول شيء من غذاء ولا يتأثر بدنه لذلك ، فلا بدع أن تقف الأفعال الطبيعية في حق بعض السالكين وهو أحد القولين في قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 266 ـ 268 ﴾

(144/794)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

4- سبب نزول مشهور على ما هو موضوع :

ومن ذلك ما يذكره غالب المفسرين في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ ؛ فقد روي عن ابن عباس ، أن الحسن والحسين مَرِضَا ، فعادهما جدهما رسول الله ، ومعه أبو بكر وعمر ، وعادهما من عادهما من الصحابة ، فقالوا لعلي كرم الله وجهه : لو نذرت على ولديك ، فنذر علي ، وفاطمة ، وجارية لهما إن برءا أن يصوموا ثلاثة أيام شكرًا لله ، فألبس الله الغلامين ثوب العافية ، فاستقرض سيدنا علي ثلاثة آصع ، فجاء بها ، فقامت السيدة فاطمة إلى صاع ، فطحنته ، وخبزت منه خمسة أقراص على عددهم ، فوقف بالباب سائل ، فقال : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا مسكين ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة ، فآثروه ، وباتوا لم يذوقوا شيئًا ، وفي اليوم الثاني : جاء يتيم فأعطوه الأقراص الخمسة كذلك ، وفي اليوم الثالث : جاء أسير فعل مثل الأولين ، وقد اشتمل الخبر على شعر ركيك ، فهبط جبريل على النبي ، فقال : خذها يا محمد ، فأقرأه : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ﴾ السورة . وقد أخرج هذا الخبر معظم المفسرين ، ويكاد لم يسلم تفسير منه ، حتى إن الحافظ السيوطي ذكره في : "الدر" مع أنه وافق على ضعفه في اللآلئ : وقد نبه على وضعه : الحكيم الترمذي ، والحافظ ابن الجوزي ، وابن حجر في :

الإسرائيليات والموضوعات

سبب نزول مشهور على الألسنة وهو موضوع

"التخريج" ، وقال : آثار الوضع لائحة عليه لفظا ومعنى ، فبناء سيدنا علي بالسيدة فاطمة كان بالمدينة في السنة الثانية ، مع أن السورة مكية ، كما روي عن ابن عباس والجمهور 1 ، فليس من المعقول أن يكون هذا هو السبب ، ومن العجيب : أن الإمام الآلوسي قد حاول إثبات الخبر بالخلاف في مكيتها ومدنيتها ، وبأن ابن الجوزي متساهل في الحكم بالوضع . ومعظم التفاسير ذكرت هذا السبب ؛ لأن الحكم بوضعه يخفي إلا على الحافظ الناقد البصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 328 . 329 ﴾

---

1 هذا يدل على أن المحدثين كانوا يعنون بنقد المتون عنايتهم بنقد الأسانيد ، وهذا يرد ما تقوّله عليه المستشرقون وأتباعهم .

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سلاسل وأغلالا وَسَعِيراً ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر الفريقين أتبعهما بالوعيد والوعد ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الاعتداد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً متى احتيج إليه ، كقوله تعالى : ﴿ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 23] وأما السلاسل فتشد بها أرجلهم ، وأما الأغلال فتشد بها أيديهم إلى رقابهم ، وأما السعير فهو النار التي تسعر عليهم فتوقد فيكونون حطباً لها ، وهذا من أغلظ أنواع الترهيب والتخويف .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الجحيم بسلاسلها وأغلالها مخلوقة ، لأن قوله تعالى : ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ إخبار عن الماضي ، قال القاضي : إنه لما توعد بذلك على التحقيق صار كأنه موجود ، قلنا : هذا الذي ذكرتم ترك للظاهر فلا يصار إليه إلا لضرورة .

المسألة الثالثة :

قرىء (سلاسلاً) بالتنوين ، وكذلك ﴿ قَوَارِيرَاً * قَوَارِيرَاً ﴾ [الإنسان : 15 ، 16] ومنهم من يصل بغير تنوين ، ويقف بالألف فلمن نون وصرف وجهان أحدهما : أن

الأخفش قال : قد سمعنا من العرب صرف جميع ما لا ينصرف ، قال : وهذا لغة الشعراء لأنهم اضطروا إليه في الشعر فصرفوه ، فجرت ألسنتهم على ذلك الثاني : أن هذه الجموع أشبهت الآحاد ، لأنهم قالوا صواحبات يوسف ، فلما جمعوه جمع الآحاد المنصرفة جعلوها في حكمها فصرفوها ، وأما من ترك الصرف فإنه جعله كقوله : ﴿ لَّهُدِّمَتْ صوامع وَبِيَعٌ وصلوات ومساجد ﴾ [الحج : 40] وأما إلحاق الألف في الوقف فهو كإلحاقها في قوله : ﴿ الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] و ﴿ الرسولا ﴾ [الأحزاب : 66] و ﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] فيشبه ذلك بالإطلاق في القوافي .

(147/794)

ثم إنه تعالى ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ الأبرار جمع بر ، كالأرباب جمع رب ، والقول في حقيقة البر قد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكن البر مَنْ ءامَنَ بالله ﴾ [البقرة : 177] ثم ذكر من أنواع نعيمهم صفة مشروبهم ، فقال : ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ يعني من إناء فيه الشراب ، ولهذا قال ابن عباس ومقاتل : يريد الخمر ، وفي الآية سؤالان :

السؤال الأول : أن مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذاً ، فما السبب في ذكره ههنا ؟

الجواب : من وجوه أحدها : أن الكافور اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده ، ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرته ، فالمعنى أن ذلك الشراب يكون ممزوجاً بماء هذه العين وثانيها : أن رائحة الكافور عرض فلا يكون إلا في جسم ، فإذا خلق الله تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب سمي ذلك الجسم كافوراً ، وإن كان طعمه طيباً وثالثها : أي بأس في أن يخلق الله تعالى الكافور في الجنة لكن من طعم طيب لذيذ ، ويسلب عنه ما فيه من المضرة ؟ ثم إنه تعالى يمزجه بذلك المشروب ، كما أنه تعالى سلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضار .

السؤال الثاني : ما فائدة كان في قوله : ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كافورا﴾ ؟ الجواب : منهم من قال : إنها زائدة ، والتقدير من كأس مزاجها كافوراً ، وقيل : بل المعنى كان مزاجها في علم الله ، وحكمه كافورا .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)

المسألة الأولى :

إن قلنا : الكافور اسم النهر كان عيناً بدلاً منه ، وإن شئت نصبت على المدح ، والتقدير أعني عيناً ، أما إن قلنا : إن الكافور اسم لهذا الشيء المسمى بالكافور كان عيناً بدلاً من محل من كأس على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل : يشربون خمراً خمر عين ، ثم حذف

المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

المسألة الثانية :

(148/794)

قال في الآية الأولى : ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ [الإنسان : 5] وقال ههنا : ﴿ يشرب بها ﴾ ، فذكر هناك من وههنا الباء ، والفرق أن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته .

وأما العين فبها يمزجون شرابهم فكأن المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ عام فيفيد أن كل عباد الله يشربون منها ، والكفار بالاتفاق لا يشربون منها ، فدل على أن لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان ، إذا ثبت هذا فقوله : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ [الزمر : 7] لا يتناول الكفار بل يكون مختصاً بالمؤمنين ، فيصير تقدير الآية ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، فلا تدل الآية على أنه تعالى لا يريد كفر الكافر .

قوله تعالى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ معناه يفجرونها حيث شاؤا من منازلهم تفجيراً سهلا

لا يمتنع عليهم واعلم أنه سبحانه لما وصف ثواب الأبرار في الآخرة شرح أعمالهم التي بها استوجبوا ذلك الثواب .

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7)

فالأول قوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بالنذر﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الإيفاء بالشيء هو الإتيان به وافياً ، أما النذر فقال أبو مسلم : النذر كالوعد ، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر ، وإن كان من الله تعالى فهو وعد ، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن يقول لله عليّ كذا وكذا من الصدقة ، أو يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل أن يقول : إن شفى الله مريضي ، أو رد غائبي فعليّ كذا كذا ، واختلفوا فيما إذا علق ذلك بما ليس من وجوه البر ، كما إذا قال : إن دخل فلان الدار فعليّ كذا ، فمن الناس من جعله كاليمين ، ومنهم من جعله من باب النذر ، إذا عرفت هذا ، فنقول للمفسرين في تفسير الآية أقوال : أولها : أن المراد من النذر هو النذر فقط ، ثم قال الأصم : هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات .

لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان بما أوجبه الله عليه أوفى ، وهذا التفسير في غاية الحسن وثانيها : المراد بالنذر ههنا كل ما وجب عليه سواء وجب بإيجاب الله تعالى ابتداء أو بأن أوجبه المكلف على نفسه فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات ، وذلك لأن النذر معناه الإيجاب وثالثها : قال الكلبي : المراد من النذر العهد والعقد ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : 40] فسمى فرائضه عهداً ، وقال : ﴿ أَوْفُواْ بالعقود ﴾ [المائدة : 1] سماها عقوداً لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان .

المسألة الثانية :

هذه الآية دالة على وجوب الوفاء بالنذر ، لأنه تعالى عقبه بيخافون يوماً وهذا يقتضي أنهم إنما وفوا بالنذر خوفاً من شر ذلك اليوم ، والخوف من شر ذلك اليوم لا يتحقق إلا إذا كان الوفاء به واجباً ، وتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الإيمان ﴾ بعد توكيدها [النحل : 91] وبقوله : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] فيحتمل ليوفوا أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم .

المسألة الثالثة :

قال الفراء : وجماعة من أرباب المعاني .

كان في قوله : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ [الإنسان : 5] زائدة وأما ههنا فكان محذوفة ، والتقدير كانوا يوفون بالنذر .

ولقائل أن يقول : إنا بينا أن كان في قوله : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ [الإنسان : 5] ليست بزائدة ، وأما في هذه الآية فلا حاجة إلى إضمارها ، وذلك لأنه تعالى ذكر في الدنيا أن الأبرار يشربون أي سيشربون ، فإن لفظ المضارع مشترك بين الحال والاستقبال ، ثم قال : السبب في ذلك الثواب الذي سيجدونه أنهم الآن يوفون بالنذر .

النوع الثاني : من أعمال الأبرار التي حكاها الله تعالى عنهم قوله تعالى : ﴿ ويخافون يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ .

(150/794)

واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل ، فلما حكى عنهم العمل وهو قوله : ﴿ يُوفُونَ ﴾ حكى عنهم النية وهو قوله : ﴿ ويخافون يَوْماً ﴾ وتحقيقه قوله عليه السلام :

" إنما الأعمال بالنيات " وبمجموع هذين الأمرين سماهم الله تعالى بالأبرار وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : أحوال القيامة وأهوالها كلها فعل الله ، وكل ما كان فعلاً لله فهو يكون حكمة وصواباً ، وما كان كذلك لا يكون شراً ، فكيف وصفها الله تعالى بأنها شر ؟ الجواب :

أنها إنما سميت شراً لكونها مضرة بمن تنزل عليه وصعبة عليه ، كما تسمى الأمراض وسائر الأمور المكروهة شروراً .

السؤال الثاني : ما معنى المستطير ؟ الجواب : فيه وجهان أحدهما : الذي يكون فاشياً منتشراً بالغاً أقصى المبالغ ، وهو من قولهم : استطار الحريق ، واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر ، فإن قيل : كيف يمكن أن يقال : شر ذلك اليوم مستطير منتشر ، مع أنه تعالى قال في صفة أوليائه : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] ، قلنا : الجواب من وجهين الأول : أن هول القيامة شديد ، ألا ترى أن السموات تنشق وتنفطر وتصير كالمهل ، وتتناثر الكواكب ، وتتكور الشمس والقمر ، وتفرغ الملائكة ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وتنسف الجبال ، وتسجر البحار وهذا الهول عام يصل إلى كل المكلفين على ما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] وقال : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] إلا أنه تعالى بفضله يؤمن أولياءه من ذلك الفزع والجواب الثاني : أن يكون المراد أن شر ذلك اليوم يكون مستطيراً في العصاة والفجار .

(151/794)

وأما المؤمنون فهم آمنون ، كما قال : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف : 68] ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 44] إلا أن أهل العقاب في غاية الكثرة بالنسبة إلى أهل الثواب ، فأجرى الغالب مجرى الكل على سبيل المجاز .

القول الثاني : في تفسير المستطير أنه الذي يكون سريع الوصول إلى أهله ، وكأن هذا القائل ذهب إلى أن الطيران إسراع .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ كان شره مستطيراً ﴾ ، ولم يقل : وسيكون شره مستطيراً ؟

الجواب : اللفظ وإن كان للماضي ، إلا أنه بمعنى المستقبل ، وهو كقوله : ﴿ وَكَانَ عَهْدُ الله مسؤلا ﴾ [الأحزاب : 15] ويحتمل أن يكون المراد إنه كان شره مستطيراً في علم الله وفي حكمته ، كأنه تعالى يعتذر ويقول : إيصال هذا الضرر إنما كان لأن الحكمة تقتضيه ، وذلك لأن نظام العالم لا يحصل إلا بالوعد والوعيد ، وهما يوجبان الوفاء به ، لاستحالة الكذب في كلامي ، فكأنه تعالى يقول : كان ذلك في الحكمة لازماً ، فلهذا السبب فعلته .

النوع الثالث : من أعمال الأبرار قوله تعالى :

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)

اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين التعظيم لأمر الله تعالى ، وإليه الإشارة بقول : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ [الإنسان : 7] والشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام ﴾ وههنا مسائل .

المسألة الأولى :

(152/794)

لم يذكر أحد من أكابر المعتزلة ، كأبي بكر الأصم وأبي علي الجبائي وأبي القاسم الكعبي ، وأبي مسلم الأصفهاني ، والقاضي عبد الجبار بن أحمد في تفسيرهم أن هذه الآيات نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام ، والواحدي من أصحابنا ذكر في كتاب "البسيط" أنها نزلت في حق علي عليه السلام ، وصاحب "الكشاف" من المعتزلة ذكر هذه القصة ، فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما : "أن الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما ، إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا

صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه وجاءهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد الحسن والحسين ودخلوا على الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال : " ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم " وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : خذها يا محمد هنّاك الله في أهل بيتك فأقرأها السورة" والأولون يقولون : إنه تعالى ذكر في أول السورة أنه إنما خلق الخلق للابتلاء والامتحان ، ثم بين أنه هدى الكل وأزاح عللهم ثم بين أنهم انقسموا إلى شاكر وإلى كافر ثم ذكر وعيد الكافر ثم أتبعه بذكر وعد الشاكر فقال : ﴿ إِنَّ الأَبرارَ يَشْرَبُونَ ﴾ [الإنسان : 5] وهذه صيغة جمع فتتناول جميع الشاكرين

(153/794)

والأبرار ، ومثل هذا لا يمكن تخصيصه بالشخص الواحد ، لأن نظم السورة من أولها إلى هذا الموضع يقتضي أن يكون هذا بياناً لحال كل من كان من الأبرار والمطيعين ، فلو جعلناه مختصاً بشخص واحد لفسد نظم السورة والثاني : أن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع كقوله : ﴿ إِنَّ الأَبرارَ يَشْرَبُونَ . . . . . .

يُوفُونَ بالنذر ويخافون . . . . . مِنْ وَيُطْعِمُونَ ﴾ [الإنسان : 5 ، 7 ، 8] وهكذا إلى آخر الآيات فتخصيصه بجمع معنيين خلاف الظاهر ، ولا ينكر دخول علي بن أبي طالب عليه السلام فيه ، ولكنه أيضاً داخل في جميع الآيات الدالة على شرح أحوال المطيعين ، فكما أنه داخل فيها فكذا غيره من أتقياء الصحابة والتابعين داخل فيها ، فحينئذ لا يبقى للتخصيص معنى ألبتة ، اللهم إلا أن يقال : السورة نزلت عند صدور طاعة مخصوصة عنه ، ولكنه قد ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المسألة الثانية :

(154/794)

الذين يقولون : هذه الآية مختصة بعلي بن أبي طالب عليه السلام ، قالوا : المراد من قوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ هو ما رويناه أنه عليه السلام أطعم المسكين واليتيم والأسير ، وأما الذين يقولون الآية عامة في حق جميع الأبرار (فإنهم) قالوا : إطعام الطعام كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأي وجه كان ، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه ، ووجه ذلك أن أشرف أنواع الإحسان هو الإحسان بالطعام وذلك لأن قوام الأبدان بالطعام ولا حياة إلا به ، وقد يتوهم إمكان الحياة مع فقد ما سواه ،

فلما كان الإحسان لا جرم عبر به عن جميع وجوه المنافع والذي يقوي ذلك أنه يعبر بالأكل عن جميع وجوه المنافع ، فيقال : أكل فلان ماله إذا أتلفه في سائر وجوه الإتلاف ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] وقال : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أموالكم بَيْنَكُم بالباطل ﴾ [البقرة : 188] إذا ثبت هذا فنقول : إن الله تعالى وصف هؤلاء الأبرار بأنهم يواسون بأموالهم أهل الضعف والحاجة ، وأما قوله تعالى : ﴿ على حُبِّهِ ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أن يكون الضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه ونظيره ﴿ وَآتَى المال على حُبِّهِ ﴾ [البقرة : 177] ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] فقد وصفهم الله تعالى بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم على ما قال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] والثاني : قال الفضيل بن عياض على حب الله أي لحبهم لله : واللام قد تقام مقام على ، وكذلك تقام على مقام اللام ، ثم إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم ، وهم ثلاثة أحدهم : المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه والثاني : اليتيم وهو الذي مات كاسبه فيبقى عاجزاً عن الكسب

لصغره مع أنه مات كسبه والثالث : الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوك (ه) رقبته الذي لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلة ، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى ههنا هم الذين ذكرهم في قوله : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 11 - 16] وقد ذكرنا اختلاف الناس في المسكين قبل هذا ، أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال : أحدها : قال ابن عباس والحسن وقتادة : إنه الأسير من المشركين ، روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم ، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو فداء أو استرقاق ، ولا يمتنع أيضاً أن يكون المراد هو الأسير كافراً كان أو مسلماً ، لأنه إذا كان مع الكفر يجب إطعامه فمع الإسلام أولى ، فإن قيل : لما وجب قتله فكيف يجب إطعامه ؟ قلنا : القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى ، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر ، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل ثم هذا الإطعام على من يجب ؟ فنقول : الإمام يطعمه فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين وثانيها : قال السدي : الأسير هو المملوك وثالثها : الأسير هو الغريم قال عليه السلام :

" غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك " ورابعها : الأسير هو المسجون من أهل القبلة وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ، وروى ذلك مرفوعاً من طريق الخدري أنه عليه السلام قال : ﴿ مِسْكِيناً ﴾ فقيراً ﴿ وَيَتِيماً ﴾ لا أب له ﴿ وَأَسِيراً ﴾ قال المملوك : المسجون وخامسها : الأسير هو الزوجة لأنهن أسراء عند الأزواج ، قال عليه الصلاة والسلام : " اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم أعوان " قال القفال : واللفظ يحتمل كل ذلك لأن الأصل الأسر هو الشد بالقد ، وكان الأسير يفعل به ذلك حبساً له ، ثم سمي بالأسير من شد ومن لم يشد فعاد المعنى إلى الحبس .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن الأبرار يحسنون إلى هؤلاء المحتاجين بين أن لهم فيه غرضين أحدهما : تحصيل رضا الله .

وهو المراد من قوله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ والثاني : الاحتراز من خوف يوم القيامة وهو المراد من قوله : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ إلى قوله : ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه أحدها : أن يكون هؤلاء الأبرار قد قالوا : هذه الأشياء باللسان ، إما لأجل أن يكون ذلك القول منعاً لأولئك المحتاجين عن المجازاة بمثله أو بالشكر ، لأن إحسانهم مفعول لأجل الله تعالى فلا

معنى لمكافأة الخلق ، وإما أن يكون لأجل أن يصير ذلك القول تفقيهاً وتنبيهاً على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله حتى يقتدي غيرهم بهم في تلك الطريقة وثانيها : أن يكونوا أرادوا أن يكون ذلك وثالثها : أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئاً .

وعن مجاهد أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى عليهم .

المسألة الثانية :

(157/794)

اعلم أن الإحسان من الغير تارة يكون لأجل الله تعالى ، وتارة يكون لغير الله تعالى إما طلباً لمكافأة أو طلباً لحمد وثناء وتارة يكون لهما وهذا هو الشرك والأول هو المقبول عند الله تعالى ، وأما القسمان الباقيان فمردودان قال تعالى :

﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صدقاتكم بالمن والأذى كالذى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء الناس ﴾ [البقرة : 264]

وقال : ﴿ وَمَا ءاتَيْتُمْ مّن رِباً لّيَرْبُوَاْ فِى أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ الله وَمَا ءاتَيْتُمْ مّن زكواة تُرِيدُونَ وَجْهَ الله فأولئك هم المضعفون ﴾ [الروم : 39] ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى .

إذا عرفت هذا فنقول : القوم لما قالوا : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك ، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله : ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُوراً ﴾ .

المسألة الثالثة :

الشكور والكفور مصدران كالشكر والكفر ، وهو على وزن الدخول والخروج ، هذا قول جماعة أهل اللغة ، وقال الأخفش : إن شئت جعلت الشكور جماعة الشكر وجعلت الكفور جماعة الكفر لقول : ﴿ فأبى الظالمون إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء : 99] مثل برد وبرود وإن شئت مصدراً واحداً في معنى جمع مثل قعد قعوداً وخرج خروجاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 212.217 ﴾

(158/794)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً ﴾

بين حال الفريقين ، وأنه تعبَّد العقلاء وكلَّفهم ومكَّنهم مما أمرهم ، فمن كَفَر فله العقاب ، ومن وَحَّد وشكَر فله الثواب .

والسلاسِل : القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضى في "الحاقة" .

وقرأ نافع والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر "سَلاَسِلاً" منوّناً .

الباقون بغير تنوين .

ووقف قُنْبُل وابن كثير وحمزة بغير ألف .

الباقون بالألف .

فأما "قوارِير" الأوّل فنوّنه نافع وابن كثير والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم ، ولم ينوّن الباقون .

ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف .

والباقون بالألف .

وأما "قَوَارِير" الثانية فنوّنه أيضاً نافع والكسائيّ وأبو بكر ، ولم ينوّن الباقون .

فمن نوّن قرأها بالألف ، ومن لم ينوّن أسقط منها الألف ، واختار أبو عُبيد التنوين في الثلاثة ، والوقف بالألف اتباعا لخط المصحف ؛ قال : رأيت في مصحف عثمان "سَلاَسِلاً" بالألف و "قَوَارِيراً" الأوّل بالألف ، وكان الثاني مكتوباً بالألف فَحُكَّت فرأيت أثرها هناك بَيِّناً .

فمن صرف فله أربع حجج : أحدها أن الجموع أشبهت الآحاد فجمعت جمع الآحاد ، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت .

الثانية أن الأخفش حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أَفْعَل منك ، وكذا قال

الكسائيّ والفراء : هو على لغة من يُجرِ الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرونه ؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كُلْثوم :

كَأَنَّ سُيوفَنَا فِينا وفِيهِمْ . . .

مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لاَعِبِينَا

وقال لَبيد :

وجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعوتُ لِحَتْفِها . . .

بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

وقال لَبيد أيضاً :

فَضلاً وذو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى . . .

سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

فصرف مَخَاريق ومَغَالق ورَغَائب ، وسبيلها ألا تُصرَف .

(159/794)

والحجة الثالثة أن يقول نوّنت قوارِير الأوّل لأنه رأس آية ، ورؤوس الآي جاءت بالنون ، كقوله جلّ وعزّ : ﴿ مَّذْكُوراً ﴾ ﴿ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ فنوّنا الأوّل ليوقف بين رؤوس الآي ، ونوّنا

الثاني على الجوار للأوّل .

والحجة الرابعة اتباع المصاحف ، وذلك أنهما جميعاً في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف .

وقد احتج من لم يصرفهنّ بأن قال : إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدّد لم يُصَرف في معرفة ولا نكرة ؛ فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك : قناديل ودنانير ومناديل ، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل : ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ ﴾ [الحج : 40] لأن بعد الألف منه حرفين ، وكذلك قوله : ﴿ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ﴾ [الحج : 40] والذي بعد الألف منه حرف مُشَدّد شَوَابّ ودَوَابّ .

وقال خلف : سمعت يحيى بن آدم يحدّث عن ابن إدريس قال : في المصاحف الأوَل الحرف الأوّل بالألف والثاني بغير ألف ؛ فهذا حجة لمذهب حمزة .

وقال خلف : رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة ابن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف .

وأما أَفْعَل مِنْك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك منوّناً ؛ لأن مِن تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف ؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين ؛ قاله الفراء وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْلاَلاً ﴾ جمع غُلّ تُغلّ بها أيديهم إلى أعناقهم .

وعن جُبَير ابن نُفَير عن أبي الدراء كان يقول : ارفعوا هذه الأيدي إلى الله جلّ ثناؤه قبل أن تُغلّ بالأغلال .

قال الحسن : إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار ؛ لأنهم أعجزوا الربّ سبحانه ولكن إذلالاً .

﴿ وَسَعِيراً ﴾ تقدّم القول فيه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾

الأبرار : أهل الصدق واحدهم بَرٌّ ، وهو من امتثل أمر الله تعالى .

(160/794)

وقيل : البرّ الموحّد والأبرار جمع بارّ مثل شاهد وأشهاد ، وقيل : هو جمع بَرّ مثل نَهْر وأنهار ؛ وفي الصحاح : وجمع البر الأبرار ، وجمع البار البَرَرة ، وفلان يَبَرُّ خالقَه ويَتَبَرّره أي يُطِيعه ، والأم بَرّةٌ بولدها .

وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سمّاهم الله جل ثناؤه الأبرار لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء ، كما أن لوالدك عليك حقًّا كذلك لولدك عليك حقًّا "

وقال الحسن : البَرّ الذي لا يؤذي الذَّرّ .

وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدّون حقّ الله ويوفون بالنَّذْر .

وفي الحديث : " الأبرار الذين لا يؤذون أحداً " ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ أي من إناء فيه الشراب .

قال ابن عباس : يريد الخمر .

والكأس في اللغة الإناء فيه الشراب : وإذا لم يكن فيه شراب لم يسمّ كأساً .

قال عمرو بن كُلْثوم :

صَبَنْتِ الكأسَ عَنَّا أُمَّ عَمرٍو . . .

وكان الْكَأْسُ مَجْرَاها الْيَمِينَا

وقال الأصمعيّ : يقال صَبَنْتَ عنّا الهديةَ أو ما كان من معروف تَصبِنُ صَبْنا : بمعنى كَفَفْتَ ؛ قاله الجوهري .

﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي شَوْبها وخلطها ؛ قال حسّان :

كَأَنَ سَبِيئَةً مِن بيْتِ رَأْسٍ . . .

يكونُ مِزَاجَها عَسلٌ وماءُ

ومنه مِزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة .

﴿ كَافُوراً ﴾ قال ابن عباس : هو اسم عين ماء في الجنة ، يقال له عين الكافور .

أي يمازجه ماء هذه العين التي تسمّى كافوراً .

وقال سعيد عن قتادة : تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم بالمسك .

وقاله مجاهد .

وقال عِكرمة : مِزَاجها طعمها .

وقيل : إنما الكافور في ريحها لا في طعمها .

وقيل : أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبَرْده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ [الكهف : 96] أي كنارٍ .

وقال ابن كَيْسان : طُيِّب بالمسك والكافور والزنجبيل .

وقال مقاتل : ليس بكافور الدنيا .

(161/794)

ولكن سمَّى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب .

وقوله : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ "كَانَ" زائدة أي من كأس مِزاجُها كافورٌ .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ قال الفراء : إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة ؛ ف "عَيْناً" بدل من كافور على هذا .

وقيل : بدل من كأس على الموضع .

وقيل : هي حال من المضمر في "مِزاجها" .

وقيل : نصب على المدح ؛ كما يُذكَر الرّجل فتقول : العاقلَ اللبيبَ ؛ أي ذكرتم العاقلَ اللبيبَ فهو نصب بإضمار أعني .

وقيل يشربون عيناً .

وقال الزجاج : المعنى من عين .

ويقال : كافور وقافور .

والكافور أيضاً : وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُرَّي ؛ قاله الأصمعيّ .

وأما قول الراعي :

تَكْسُو الْمَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذَا أَرَجٍ . . .

مِن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافورِ دَرَّاجِ

فإنّ الظبي الذي يكون منه المسك إنما يَرْعي سُنْبَل الطِّيب فجعله كافوراً .

﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ قال الفراء : يشرب بها ويشربها سواء في المعنى ، وكأنّ يشرب بها يَرْوَي بها ويَنْقع ؛ وأنشد :

شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم تَرَفَّعتْ . . .

مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيج

قال : ومثله فلان يتكلم بكلام حسن ، ويتكلم كلاماً حسناً .

وقيل : المعنى يشربها والباء زائدة .

وقيل : الباء بدل "مِن" تقديره يشرب منها ؛ قاله القتبيّ .

﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ فيقال : إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره ، وبيده قضيب يشير به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود ، ويتبعه حيثما صعد إلى أعلى قصوره ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي يُشقّقونها شَقّاً كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد .

وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ يقودونها حيث شاؤوا ، وتتبعهم حيثما مالوا مالت معهم .

(162/794)

وروى أبو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ والأخرى الزنجبيل والأخريان نَضّاختان من فوق العرش

إحداهما التي ذكر الله ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ والأخرى التَّسْنيم " ذكره الترمذيّ الحكيم في "نوادر الأصول" .

وقال : فالتسنيم للمقربين خاصة شربا لهم ، والكافور للأبرار شربا لهم ؛ يمزج للأبرار من التسنيم شرابهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مِزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذكر ذلك لمن هي شرب ، فما كان للأبرار مِزاج فهو للمقربين صِرف ، وما كان للأبرار صِرف فهو لسائر أهل الجنة مِزاج .

والأبرار هم الصادقون ، والمقرَّبون : هم الصديقون .

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾

أي لا يُخلِفون إذا نَذَروا .

وقال مَعْمَر عن قتادة : بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم والحج والعُمْرة وغيره من الواجبات .

وقال مجاهد وعكرمة : يوفون إذا نذروا في حقّ الله جل ثناؤه .

وقال الفرّاء والجرجاني : وفي الكلام إضمار ؛ أي كانوا يوفون بالنذر في الدنيا .

والعرب قد تزيد مرة "كان" وتحذف أخرى .

والنذر : حقيقته ما أوجبه المكلّف على نفسه من شيء يفعله .

وإن شئت قلت في حَدِّه : النذر : هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم

يوجبه لم يلزمه .

وقال الكَلْبيّ : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ أي يتممون العهود والمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] أي أعمال نسكهم التي ألزموها أَنفسهم بإحرامهم بالحج .

وهذا يقوّي قول قتادة .

وأن النذر يندرج فيه ما التزمه المرء بإيمانه من امتثال أمر الله ؛ قاله القُشيري .

وروى أشهب عن مالك أنه قال : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ هو نذر العتق والصيام والصلاة .

(163/794)

وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ قال : النذر : هو اليمين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ أي يحذرون ﴿ يَوْماً ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ أي عالياً داهياً فاشياً وهو في اللغة ممتدّاً ؛ والعرب تقول : استطار الصدع في القارورة والزجاجة واستطال : إذا امتد ؛ قال الأعشى :

وبَانَتْ وقد أَسْأَرَتْ في الفُؤَا . . .

دِ صَدْعاً على نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَا

ويقال : استطار الحريق : إذا انتشر .

واستطار الفجر إذا انتشر الضوء .

وقال حسان :

وهَانَ على سَرَاة بِني لُؤَيٍّ . . .

حرِيقٌ بالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

وكان قتادة يقول : استطار واللَّهِ شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

وقال مقاتل : كان شره فاشياً في السموات فانشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وفي الأرض نُسِفت الجبالُ وغارت المياهُ .

قوله تعالى : ﴿ ويُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : على قِلّته وحبّهم إياه وشهوتهم له .

وقال الداراني : على حبّ الله .

وقال الفُضَيل بن عِياض : على حبّ إطعام الطعام .

وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال : أطعموه سُكَّراً فإن الربيع يحب السكر .

﴿ مِسْكِيناً ﴾ أي ذا مسكنة .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو الطوّاف يسألك مَالَكَ ﴿ ويَتِيماً ﴾ أي من يتامى

المسلمين .

وروى منصور عن الحسن : أن يتيماً كان يحضر طعام ابن عمر ، فدعا ذات يوم بطعامه ، وطلب اليتيم فلم يجده ، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه فلم يجد الطعام ، فدعا له بسَوِيق وعسل ؛ فقال : دونك هذا ، فوالله ما غُبِنتَ ؛ قال الحسن وابن عمر : والله ما غُبِن .

﴿ وَأَسِيراً ﴾ أي الذي يؤسر فيحبس .

فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم .

وقاله قتادة .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الأسير هو المحبوس .

(164/794)

وكذا قال سعيد بن جُبير وعطاء : هو المسلم يُحبس بحقّ .

وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وابن عباس .

قال قتادة : لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم ، وأن أسراهم يومئذ لأَهلُ الشّرِك ، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه .

وقال عِكرمة : الأسير العبد .

وقال أبو حمزة الثُّمَالي : الأسير المرأة ، يدلّ عليه قوله عليه السلام : " استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عَوَانٍ عندكم " أي أسيرات .

وقال أبو سعيد الخُدري : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ فقال : "المسكين الفقير ، واليتيم الذي لا أب له ، والأسير المملوك والمسجون" " ذكره الثعلبي .

وقيل : نسخ إطعام المسكين آية الصدقات ؛ وإطعام الأسير (آية) السيف ؛ قاله سعيد بن جُبير .

وقال غيره : بل هو ثابت الحكم ، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلاّ أن يتخير فيه الإمام .

الماورديّ : ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل ؛ لأنه في أسر خَبْله وجنونه ، وأسر المشرك انتقام يقف على رأي الإمام ، وهذا بِرٌّ وإحسان .

وعن عطاء قال : الأسير من أهل القبلة وغيرهم .

قلت : وكأنّ هذا القول عام يجمع جميع الأقوال ، ويكون إطعام الأسير المشرك قربة إلى الله تعالى ، غير أنه من صدقة التطوع ، فأما المفروضة فلا .

والله أعلم .

ومضى القول في المسكين واليتيم والأسير واشتقاق ذلك من اللغة في "البقرة" مستوفًى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ أي يقولون بألسنتهم للمسكين واليتيم والأسير ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ في الله جلّ ثناؤه فزعاً من عذابه وطمعاً في ثوابه .

﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾ أي مكافأة .

﴿ وَلاَ شُكُوراً ﴾ أي ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال ابن عباس : كذلك كانت نياتهم في الدنيا حين أطعموا .

(165/794)

وعن سالم عن مجاهد قال : أما إنهم ما تكلّموا به ولكن علمه الله جلّ ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ؛ ليرغب في ذلك راغب .

وقاله سعيد بن جُبير حكاه عنه القُشيريّ .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في مُطْعِم بن ورقاء الأنصاريّ نذر نذراً فوفَّى به .

وقيل : نزلت فيمن تكفّل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين : أبو بكر وعمر وعليّ والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضي الله عنهم ؛ ذكره الماورديّ .

وقال مقاتل : نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

وقال أبو حمزة الثُّمَالي : بلغني " أن رجلاً قال يا رسول الله أطعمني فإني واللَّهِ مجهود ؛ فقال : "والذي نفسي بيده ما عندي ما أطعمك ولكن اطلب" فأتى رجلاً من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته فسأله ، وأخبره بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت المرأة : أطعمه واسقه .

ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يتيم فقال : يا رسول الله ! أَطعمني فإني مجهود .

فقال : "ما عندي ما أطعمك ولكن اطلب" فاستطعم ذلك الأنصاريّ فقالت المرأة : أطعمه واسقه ، فأطعمه .

ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم أسير فقال : يا رسول الله ! أطعمني فإني مجهود .

فقال : "والله ما معي ما أطعمك ولكن اطلب" فجاء الأنصاريّ فطلب ، فقالت المرأة : أطعمه واسقه .

فنزلت : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ "

ذكره الثعلبيّ .

وقال أهل التفسير : نزلت في عليّ وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة .

قلت : والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار ، ومَن فعل فعلاً حسناً ؛ فهي عامة .

وقد ذكر النقاش والثّعلبيّ والقشيريّ وغير واحد من المفسّرين في قصة عليّ وفاطمة

وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس : في قوله عزّ وجلّ : ﴿ يُوفُونَ بالنذر وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً .

(166/794)

وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ قال : مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادهما عامة العرب ؛ فقالوا : يا أبا الحسن ورواه جابر الجُعْفيّ عن قَنْبَر مولى عليّ قال : مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبا الحسن رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم لو نذرتَ عن ولديك شيئاً ، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء .

فقال رضي الله عنه : إن بَرأَ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً .

وقالت جارية لهم نوبية : إن بَرأَ سيِّداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً .

وقالت فاطمة مثل ذلك .

وفي حديث الجُعْفيّ فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك فألبِس الغلامان العافية ، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير ، فانطلق عليّ إلى شمعون بن حاريا الخيبريّ ، وكان يهودياً ،

فاستقرض منه ثلاثة أصوُع من شعير ، فجاء به ، فوضعه ناحية البيت ، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته ، وصلّى عليٌّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه .

وفي حديث الجُعْفيّ : فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص ، لكل واحد منهم قرص ، فلما مضى صيامهم الأوّل وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش ؛ إذ أتاهم مسكين ، فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهلَ بيت محمد في حديث الجُعْفي أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا والله جائع ؛ أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة .

فسمعه عليّ رضي الله عنه ، فأنشأ يقول :

فاطمَ ذاتَ الفضلِ واليقينْ . . .

يا بنتَ خير الناسِ أجمعينْ

أما تَرَينَ البائسَ المسكينْ . . .

قد قام بالباب له حنينْ

يشكو إلى الله ويستكينْ . . .

يشكو إلينا جائعٌ حزينْ

كل امرىء بكسبه رهينْ . . .

وفاعل الخيرات يستبِينْ

موعِدُنا جَنّة عِلّيينْ . . .

حرّمها الله على الضَّنِينْ

(167/794)

وِللبخيل موقِفٌ مهِين . . .

تَهوِي بِهِ النار إلى سِجّينْ

شرابه الحميم والغِسْلينْ . . .

من يفعلِ الخيرَ يقم سمينْ

ويَدْخُل الجنةَ أيّ حِينْ . . .

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول :

أمرُكَ عندي يا بن عَمٍّ طاعهْ . . .

ما بِيَ من لُؤْم ولا وَضَاعهْ

غَدَيْتُ في الخبز له صناعهْ . . .

أُطعِمه ولا أُبالي السَّاعهْ

أرجو إذا أَشبعتُ ذا المَجَاعهْ . . .

أَنْ أَلحقَ الأخيارَ والجَمَاعهْ

وأدخلَ الجنةَ لي شَفاعهْ . . .

فأطعموه الطعام ، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح ، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحنته واختبزته ، وصلّى عليٌّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ؛ فوقف بالباب يتيم فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العَقَبة .

أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة .

فسمعه عليّ فأنشأ يقول :

فاطِمَ بنتَ السّيدِ الكريمْ . . .

بنتَ نبيٍّ ليس بالزَّنيمْ

لقد أتى الله بِذِي اليتيمْ . . .

من يرحم اليوم يكن رحِيمْ

ويدخل الجنة أي سلِيمْ . . .

قد حرم الخلدُ على اللئيمْ

ألاَّ يَجوزَ الصراطَ المستقيمْ . . .

يزلّ في النار إلى الجحيمْ

شرابُه الصديدُ والحميمْ . . .

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول :

أطعِمه اليوم ولا أبالِي . . .

وأوثر اللَّهَ على عيالي

أَمَسوْا جياعاً وَهُمُ أَشْبَالي . . .

أصغرُهم يُقتَلُ في القِتالِ

بِكَرْبَلاَ يُقتَلُ باغتيال . . .

يا ويلُ للقاتِل مَعْ وَبَالِ

تَهوى به النار إلى سِفالِ . . .

وفي يديهِ الغُلُّ والأغلال

كبولة زادت على الأكبالِ . . .

(168/794)

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح؛ فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته، وصلّى عليٌّ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم؛ إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، تأسروننا وتَشُدُّوننا ولا تطعموننا أطعموني فإنّي أسير محمد.

فسمعه عليّ فأنشأ يقول:

فاطم يا بنتَ النبيِّ أحمدْ . . .

بنت نبيٍّ سيّدٍ مُسَوَّدْ

وسماه الله فهو محمد . . .

قد زانه الله بحسنٍ أغيدْ

هذا أسِيرٌ للنبيّ المهتدْ . . .

مُثقَّلٌ في غُلِّه مُقيَّدْ

يَشكو إلينا الجوعَ قد تمددْ . . .

من يُطعِمِ اليومَ يجِده في غدْ

عند العليّ الواحِدِ الموحَّدْ . . .

ما يزرع الزارِعُ سوف يَحصُدْ

أعطيه لا لا تجعلِيهِ أقعد . . .

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول :

لمَيْبقَ مِمّا جاء غيرُ صاعْ . . .

قد ذهبت كَفِّي مع الذِّراعْ

ابناي والله هُمَا جِيَاعْ . . .

يا ربّ لا تتركهما ضياعْ

أبوهما للخير ذو اصطناع . . .

يَصطنِع المعروفَ بابتداعْ

عَبْلُ الذِّراعين شديد الباعْ . . .

وما على رأسِيَ مِن قِناعْ

إلاَّ قناعاً نَسْجهُ أُنْسَاعْ . . .

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القَرَاح ، فلما أن كان في اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده اليمنى الحسن ، وبيده اليسرى الحسين ، وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع ؛ فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم انطلق بنا إلى ابنتي فاطمة "

فانطلقوا إليها وهي في محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدة الجوع ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال : " واغوثاه يا الله ، أهُل بيت محمد يموتون جوعاً " فهبط جبريل عليه السلام وقال : السلام عليك ، ربك يقرئك السلام يا محمد ، خذه هنيئاً في أهل بيتك .

قال : " وما آخذ يا جبريل " فأقرأه ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول : فهذا حديث مُزوَّق مُزيَّف ، قد تَطرَّف فيه صاحبه حتى تَشبَّه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يَعَضُّ شفتيه تلهفاً ألاّ يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ؛ وقد قال الله تعالى في تنزيله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن " خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى " .

" وابدأ بنفسك ثم بمن تعول " وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يَقُوت " أفيحسب عاقل أن عليًّا جهل هذا الأمر حتى أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ست على

جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ حتى تَضوَّروا من الجوع ، وغارت العيون منهم ؛ لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد .

(170/794)

هَبْ أنه آثَرَ على نفسه هذا السائل ، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ ! وهَبْ أنّ أهله سمحت بذلك لعليّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ ! ما يُروج مثل هذا إلا على حَمْقى جهّال ؛ أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعليّ مثل هذا .

وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن عليّ وفاطمة ، وإجابة كل واحد منهما صاحبه ، حتى أدّاه إلى هؤلاء الرواة ؟ ! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى .

بلغني أن قوماً يُخلَّدون في السجون فيبقون بلا حيلة ، فيكتبون أحاديث في السَّمَر وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة ، فإذا صارت إلى الجهابذة رمَوا بها وزَيَّفوها ، وما من شيء إلا له آفة ومكيدة ، وآفة الدِّين وكيده أكثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(171/794)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ للكافرين ﴾ من إفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿ سلاسل ﴾ بها يقادون ﴿ وأغلالا ﴾ بها يقيدون ﴿ وَسَعِيراً ﴾ بها يحرقون وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما في الذكر كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 106] الآية ولأن الانذار أنسب بالمقام وحقيق بالاهتمام ولأن تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن على أن وصفهم تفصيلاً ربما يخل تقديمه بتجارب أطراف النظم الكريم وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر والأعمش سلاسلاً بالتنوين وصلاً وبالألف المبدلة منه وقفاً وقال الزمخشري وفيه وجهان .

أحدهما : أن تكون هذه النون بدلاً عن حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف والثاني أن يكون صاحب القراءة ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف وفي الأول أن الإبدال من حروف الإطلاق في غير الشعر قليل كيف وضم إليه إجراء الوصل مجرى الوقف وفي الثاني تجويز القراءة بالتشهي دون سداد وجهها في العربية والوجه أنه لقصد الازدواج والمشاكلة فقد جوزوا لذلك صرف ما لا ينصرف لا سيما الجمع فإنه سبب ضعيف لشبهه بالمفرد في جمعه كصواحبات يوسف ونواكسي الأبطار

ولهذا جوز بعضهم صرفه مطلقاً كما قيل :

والصرف في الجمع أتى كثيرا . . .

حتى ادعى قوم به التخييرا

وحكى الأخفش عن قوم من العرب أن لغتهم صرف كل ما لا ينصرف إلا أفعل من وصرف سلاسلاً ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة وفي مصحف أبي وعبد الله بن مسعود وروى هشام عن ابن عامر سلاسل في الوصل وسلاسلاً بألف دون تنوين في الوقف .

(172/794)

﴿ إِنَّ الأبرار ﴾ شروع في بيان حسن حال الشاكرين إثر بيان حال سوء الكافرين وإيرادهم بعنوان البر للإشعار بما استحقوا به ما نالوه من الكرامة السنية مع تجديد صفة مدح لهم والابرار جمع بر كرب وأرباب أو بار كشاهد وأشهاد بناء على أن فاعلاً يجمع على أفعال والبر المطيع المتوسع في فعل الخير وقيل من يؤدي حق الله تعالى ويوفي بالنذر وعن الحسن وهو الذي لا يؤذي الذر ولا يرضي الشر ﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ مِن كَأْسٍ ﴾ هي كما قال الزجاج الإناء إذا كان فيه الشراب فإذا لم يكن لم يسم كأساً وقال الراغب

الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً والمشهور أنها تطلق حقيقة على الزجاجة إذا كانت فيها خمر ومجازاً على الخمر بعلاقة المجاورة والمراد بها ههنا قيل الخمر فمن تبعيضية أو بيانية وقيل الزجاجة التي فيها الخمر فمن ابتدائية وقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ أظهر ملاءمة للأول والظاهر أن هذا على منوال ﴿ كان الله عليماً حكيماً ﴾ [النساء : 17] والمجيء بالفعل للتحقيق والدوام وقيل كان تامة من قوله تعالى ﴿ كن فيكون ﴾ [يس : 82] والمزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به فهو اسم آلة وكافور على ما قال الكلبي علم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور وعرفه وبرده وصرف لتوافق الآي والكلام على حذف مضاف أي ماء كافور والجملة صفة كأس وهذا القول خلاف الظاهر ولعله إن لم يصح فيه خبر لا يقبل وقرأ عبد الله قافوراً بالقاف بدل الكاف وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة كقولهم عربي قح وكح وقوله تعالى :

(173/794)

﴿ عَيْناً ﴾ بدل من كافور وقال قتادة يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك وذلك لبرودة الكافور وبياضه وطيب رائحته فالكافور بمعناه المعروف وقيل أن خمر الجنة قد أودعها الله تعالى إذ خلقها أوصاف الكافور الممدوحة فكونه مزاجاً مجاز في الاتصاف بذلك

فعينا على هذين القولين بدل من محل كأس على تقدير مضاف أي يشربون خمراً خمر عين أو نصب على الاختصاص بإضمار أعني أو أخص كما قال المبرد وقيل على الحال من ضمير ﴿ مزاجها ﴾ وقيل من كأس وساغ لوصفه وأريد بذلك وصفها بالكثرة والصفاء وقيل منصوب بفعل يفسره ما بعد أعني قوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ على تقدير مضاف أيضاً أي يشربون ماء عين يشرب بها الخ وتعقب بأن الجملة صفة عيناً فلا يعمل فعلها بها وما لا يعمل لا يفسر عاملاً وأجيب بمنع كونها صفة على هذا الوجه والتركيب عليه نحو رجلاً ضربته نعم هي صفة عين على غير هذا الوجه والباء للإلصاق وليست للتعدية وهي متعلقة معنى بمحذوف أي يشرب الخمر ممزوجة بها أي بالعين عباد الله وهو كما تقول شربت الماء بالعسل هذا إذا جعل ﴿ كافور ﴾ علم عين في الجنة وأما على القولين الآخرين فقيل وجه الباء أن يجعل الكلام من باب :

شع يجرح في عراقيبها نصلي . . .

لإفادة المبالغة وقيل الباء للتعدية وضمن يشرب معنى يروي فعدى بها وقيل هي بمعنى من وقيل هي زائدة والمعنى يشربها كما في قول الهذلي :

شربن بماء البحر ثم ترفعت . . .

متى لجج خضر لهن نئيج

ويعضد هذا قراءة ابن أبي عبلة يشربها وقيل ضمير بها للكاس والمعنى يشربون العين بتلك الكأس وعليه يجوز أن يكون عيناً مفعولاً ليشرب مقدماً عليه وعباد الله المؤمنين أهل الجنة ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ صفة أخرى لعينا أي يجرونها حيث شاؤا من منازلهم إجراء سهلاً لا يمتنع عليهم على أن التنكير للتنويع أخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" عن ابن شوزب أنه قال معهم قضبان ذهب يفجرون بها فيتبع الماء قضبانهم وفي بعض الآثار أن هذه العين في دار رسول الله صلى الله عليه وسلم تفجر إلى دور الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين .

﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ استئناف مسوق لبيان ما لأجله يرزقون هذا النعيم مشتمل على نوع تفصيل لما ينبىء عنه اسم الأبرار إجمالاً كأنه قيل ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك المرتبة العالية فقيل يوفون الخ وأفيد أنه استئناف للبيان ومع ذلك عدل عن أوفوا إلى المضارع للاستحضار والدلالة على الاستمرار والوفاء بالنذر كناية عن أداء الواجبات كلها العلم ما عداه بالطريق الأولى وإشارة النص فإن من أوفى بما أوجبه على نفسه كان إيفاء ما أوجبه الله تعالى عليه أهم له وأحرى وجعل ذلك كناية هو الذي يقتضيه ما روى عن قتادة وعن عكرمة ومجاهد إبقاؤه على الظاهر قالا أي إذا نذروا طاعة فعلوها ﴿ ويخافون يَوْماً كَانَ شَرُّهُ ﴾ عذابه ﴿ مُسْتَطِيراً ﴾ فاشياً منتشراً في الأقطار غاية الانتشار من استطار

الحريق والفجر وهو أبلغ من طار لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وللطلب أيضاً دلالة على ذلك لأن ما يطلب من شأنه أن يبالغ فيه وفي وصفهم بذلك إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي .

(175/794)

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ أي كائنين على حب الطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه فهو من باب التتميم ويجاوبه من القرآن قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] وروى عن ابن عباس ومجاهد أو على حب الإطعام بأن يكون ذلك بطيب نفس وعدم تكلف وإليه ذهب الحسن بن الفضل وهو حسن أو كائنين على حب الله تعالى أو إطعاماً كائناً على حبه تعالى ولوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته عز وجل وإليه ذهب الفضيل بن عياض وأبو سليمان الداراني فعلى حبه من باب التكميل وزيفه بعضهم وقال الأول هو الوجه ويجاوبه القرآن على أن في قوله تعالى : ﴿ لِوَجْهِ الله ﴾ [الإنسان : 9] بَعْدَ غنية عن قوله سبحانه : ﴿ نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ وفيه نظر بل لعله الأنسب لذاك وذكر الطعام مع أن الإطعام يغني عنه لتعيين مرجع الضمير على الأول ولأن الطعام كالعلم فيما فيه قوام البدن واستقامة البنية وبقاء النفس ففي التصريح به تأكيد

لفخامة فعلهم على الأخيرين ويجوز أن يعتبر على الأول أيضاً ثم الظاهر أن المراد بإطعام الطعام حقيقته وقيل هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأي وجه كان وإن لم يك ذلك بالطعام بعينه فكأنه ينفعون بوجوه المنافع ﴿ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ قيل أي أسير كان فعن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه وقال قتادة كان أسيرهم يومئذ المشرك وأخوك المسلم أحق أن تطعمه وأخرج ابن عساكر عن مجاهد أنه قال لما صدر النبي صلى الله عليه وسلم بالأسارى من بدر انفق سبعة من المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح على أسارى مشركي بدر فقالت الأنصار قتلناهم في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلم وتعينونهم بالنفقة فأنزل الله تعالى فيهم عشرة آية أن

(176/794)

الأبرار يشربون إلى قوله تعالى ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ [الإنسان : 5-18] ففيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشرك حسن ويرجى ثوابه والخبر الأول قال ابن حجر لم يذكره من يعتمد عليه من أهل الحديث وقال ابن العراقي لم أقف عليه

والخبر الثاني لم أره لفرد غير ابن عساكر ولا وثوق لي بصحته وهو يقتضي مدنية هذه الآيات وقد علمت الخلاف في ذلك نعم عند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات وقال ابن جبير وعطاء هو الأسير من أهل القبلة قال الطيبي هذا إنما يستقيم إذا اتفق الإطعام في دار الحرب من المسلم لأسير في أيديهم وقيل هو الأسير المسلم ترك في بلاد الكفار رهينة وخرج لطلب الفداء وروى محيي السنة عن مجاهد وابن جبير وعطاء أنهم قالوا هو المسجون من أهل القبلة وفيه دليل على أن إطعام أهل الحبوس المسلمين حسن وقد يقال لا يحسن إطعام المحبوس لوفاء دين يقدر على وفائه إنما امتنع عنه تعنتاً ولغرض من الأغراض النفسانية وعن أبي سعيد الخدري هو المملوك والمسجون وتسمية المسجون أسيراً مجاز لمنعه عن الخروج وأما تسمية المملوك فمجاز أيضاً لكن قيل باعتبار ما كان وقيل باعتبار شبهه به في تقييده بأسار الأمر وعدم تمكنه من فعل ما يهوى وعد الغريم أسيراً لقوله صلى الله عليه وسلم " غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك " وهو على التشبيه البليغ إلا أنه قيل في هذا الخبر ما قيل في الخبر الأول وقال أبو حمزة اليماني هي الزوجة وضعفه ههنا ظاهر .

(177/794)

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ على إرادة قول هو في موضع الحال من فاعل ﴿ يطعمون ﴾ أي قائلين ذلك بلسان الحال لما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص وعن مجاهد أما أنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله تعالى منهم فأثنى سبحانه به عليهم ليرغب فيه راغب أو بلسان المقال إزاحة لتوهم المن المبطل للصدقة وتوقع المكافأة المنقصة للأجر وعن الصديقة رضي الله تعالى عنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصاً عند الله عز وجل وجوز أن يكون قولهم هذا لهم لطفاً وتفقيهاً وتنبيهاً على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله تعالى وليس بذاك وقوله سبحانه : ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء ﴾ بالأفعال ﴿ وَلاَ شُكُوراً ﴾ ولا شكراً وثناء بالأقوال تقرير وتأكيد لما قبله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 29 صـ ﴾

(178/794)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) ﴾

أريد التخلص إلى جزاء الفريقين الشاكر والكفور .

والجملة مُستأنفة استئنافاً بيانياً لأن قوله : ﴿ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً ﴾ [الإنسان : 3]

يثير تطلع السامعين إلى معرفة آثار هذين الحالين المترددِ حالُه بينَهما ، فابتدىء بجزاء الكافر لأن ذكره أقرب .

وأكد الخبر عن الوعيد بحرف التأكيد لإِدخال الروْع عليهم لأن المتوعّد إذا أكَّد كلامه بمؤكِّد فقد آذن بأنه لا هوادة له في وعيده .

وأصل ﴿ أعتَدْنا ﴾ أعدَدنا ، بدالين ، أي هيأنا للكافرين ، يقال : اعتدّ كما يقال : أعَدَّ ، قال تعالى : ﴿ وَأَعتَدتْ لهن متّكَأً ﴾ [يوسف : 31] .

وقد تردد أئمة اللغة في أن أصل الفعل بدالين أو بتاء ودال فلم يجزموا بأيهما الأصل لكثرة ورود فعل : أعدّ ، وفعل اعْتَدَّ في الكلام والأظهر أنهما فعلان نشآ من لغتين غير أن الاستعمال خصّ الفعل ذا التاء بعُدة الحرب فقالوا : عَتَاد الحرب ولم يقولوا عدَاد .

وأما العُدة بضم العين فتقع على كل ما يعد ويهيأ ، يقال : أعد لكل حال عُدة .

ويطلق العَتاد على ما يُعدّ من الأمور .

والأكثر أنه إذا أريد الإِدغام جيء بالفعل الذي عينه دال وإذا وجد مقتضى فك الإِدغام لموجب مثل ضمير المتكلم جيء بالفعل الذي عينه تاء .

والسلاسل : القيود المصنوعة من حَلق الحديد يقيد بها الجناة والأسرى .

والأغلال : جمع غُلّ بضم الغين ، وهو حلقة كبيرة من حديد توضع في رقبة المقيَّد ، وتناط بها السلسلة قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71]

فالأغلال والسلاسل توضع لهم عند سَوْقهم إلى جهنم .

والسعير : النار المسعرة ، أي التي سعَّرها الموقِدون بزيادة الوَقود ليشتد التهابها فهو في الأصل وصف بمعنى اسم المفعول جعل علماً على جهنم .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ كلَّما خبَتْ زدناهم سعيراً ﴾ في سورة الإسراء (97) .

(179/794)

وكتب سلاسلا ﴾ في المصحف الإِمامِ في جميع النسخ التي أرسلت إلى الأمصار بألف بعد اللام الثانية ولكن القراء اختلفوا في قراءته ، فنافع والكسائي وهشام عن ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر قرأوا ﴿ سَلاسلاً ﴾ منوناً في الوصل ووقفوا عليه كما يوقف على المنون المنصوب ، وإذ كان حقه أن يمنع من الصرف لأنه على صيغة منتهى الجمع تعين أن قراءته بالتنوين لمراعاة مزاوجته مع الاسمين اللذيْن بعده وهما ﴿ أغلالاً ﴾ و ﴿ سعيراً ﴾ ، والمزاوجة طريقة في فصيح الكلام ، ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم لنساءٍ " ارجِعْنَ مَأزورات غير مأجورات " فجعل "مأزورات" مهموزاً وحقه أن يكون بالواو لكنه هُمز لمزاوجة مأجورات ، وكذلك قوله في حديث سؤال الملكين الكافر "فيقال له : لاَ دريْت ولا تلَيْت" ، وكان الأصل أن يقال : ولا تَلوت .

ومنه قول ابن مُقْبِل أو القَلاَّحُ:

هتَّاكُ أَخْبيَةٍ ولاَّجُ أَبْوِبَةٍ . . .

يُخَالطُ البِرُّ منه الجِدَّ واللِّينا

فقوله (أبوبة) جمع باب وحقه أن يَقول أبواب .

وهذه القراءة متينة يعضدها رسم المصحف وهي جارية على طريقة عربية فصيحة .

وقرأه الباقون بدون تنوين في الوصل .

واختلفوا في قراءته إذا وقفوا عليه فأكثرهم قرأه في الوقف بدون ألف فيقول ﴿ سلاسلْ ﴾ في الوقف .

وقرأه أبو عمرو ورويس عن يعقوب بالألف على اعتباره منوناً في الوصل .

قرأه البَزي عن ابن كثير وابنُ ذكوان عن ابن عامر وحفصٌ عن عاصم في الوقف بجواز الوجهين بالألف وبتركها .

فأما الذين لم ينونوا ﴿ سلاسلا ﴾ في الوصل ووقفوا عليه بألف بعد لامه الثانية .

وهما أبو عمرو ورويس عن يعقوب فمخالفة روايتهم لرسم المصحف محمولة على أن الرسم جرى على اعتبار حالة الوقف وذلك كثير فكتابة الألف بعد اللام لقصد التنبيه على إشباع الفتحة عند الوقف لمزاوجة الفواصل في الوقف لأن الفواصل كثيراً ما تعطى أحكام القوافي والأسجاع .

وبعدُ فالقراءات روايات مسموعة ورسم المصحف سُنة مَخصوصة به وذكر الطيبي : أن بعض العلماء اعتذر عن اختلاف القراء في قوله : ﴿ سَلاسلا ﴾ بأنه من الاختلاف في كيفية الأداء كالمَدّ والإمالة وتخفيف الهمزة وأن الاختلاف في ذلك لا ينافي التواتر .

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5)

هذا استئناف بياني ناشىء عن الاستئناف الذي قبله من قوله : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا ﴾ [الإنسان : 4] الخ .

فإن من عرف ما أعد للكَفُور من الجزاء يتطلع إلى معرفة ما أعد للشاكر من الثواب .

وأخر تفصيله عن تفصيل جزاء الكفور مع أن ﴿ شاكراً ﴾ [الإنسان : 3] مذكور قبل ﴿ كفوراً ﴾ [الإنسان : 3] ، على طريقة اللف والنشر المعكوس ليتسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة ، تقريباً للموصوف من المشاهدة المحسوسة .

وتأكيد الخبر عن جزاء الشاكرين لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنون خيراً منهم في عالم الخلود ، ولإفادة الاهتمام بهذه البشارة بالنسبة إلى المؤمنين .

و﴿ الأبرار ﴾ : هم الشاكرون ، عُبر عنهم بالأبرار زيادة في الثناء عليهم .

و﴿ الأَبرار ﴾ : جمع بَر بفتح الباء ، وجمعُ بَار أيضاً مثل شاهد وأشهاد ، والبار أو البَرّ المكثر من البِرّ بكسر الباء وهو فعل الخير ، ولذلك كان البَرّ من أوصاف الله تعالى قال تعالى : ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البَر الرحيم ﴾ [الطور : 28] .

ووصف بَرَ أقوى من بارّ في الاتصاف بالبِرِ ، ولذلك يقال : الله بَر ، ولم يُقل : الله بَار .

ويجمع برّ على بَرَرَة .

ووقع في "مفردات الراغب" : أن بررة أبلغ من أبرار .

وابتدىء في وصف نعيمهم بنعيم لذة الشرب من خمر الجنة لما للذة الخمر من الاشتهار بين الناس ، وكانوا يتنافسون في تحصيلها .

(181/794)

والكأس : بالهمزة الإِناء المجعول للخمر فلا يسمى كأساً إلاّ إذا كان فيه خمر ، وقد تسمى الخمر كأساً على وجه المجاز المرسل بهذا الاعتبار كما سيجيء قريباً قوله تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجُها زنجبيلاً ﴾ [الإنسان : 17] فيجوز أن يراد هنا آنية الخمر فتكون ﴿ مِن ﴾ للابتداء وإفراد ﴿ كأس ﴾ للنوعية ، ويجوز أن تراد الخمر

فتكون ﴿ مِن ﴾ للتبعيض .

وعلى التقديرين فكأس مراد به الجنس وتنوينه لتعظيمه في نوعه .

والمزاج : بكسر الميم ما يمزج به غيرُه ، أي يخلط وكانوا يمزجون الخمر بالماء إذا كانت الخمر معتقة شديدة ليخففوا من حدتها وقد ورد ذكر مزج الخمر في أشعار العرب كثيراً .

وضمير ﴿ مزاجها ﴾ عائد إلى ﴿ كأس ﴾ .

فإذا أريد بالكأس إناء الخمر فالإِضافة لأدنى ملابسة ، أي مزاج ما فيها ، وإذا أريدت الخمر فالإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله .

والكافور : "زيت يستخرج من شجرة تشبه الدِفْلَى تنبت في بلاد الصين وجَاوة يتكون فيها إذا طالت مدتُها نحواً من مائتي سنة فيُغلَّى حَطَبها ويستخرج منه زيت يسمى الكَافور .

وهو ثخِن قد يتصلب فيصير كالزُبْد وإذا يقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذاً يتخمر فيصير مسكراً .

والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش .

فقيل إن المزاج هنا مراد به الماء والإِخبار عنه بأنه كافور من قبيل التشبيه البليغ ، أي في اللون أو ذكاء الرائحة ، ولعل الذي دعا بعض المفسرين إلى هذا أن المتعارف بين الناس في طيب الخمر أن يوضع المسك في جوانب الباطية قال النابغة:

وتسقى إذا ما شئت غير مُصرَّد . . .

بزوراء في حافاتها المسك كارع

ويختم على آنية الخمر بخاتم من مسك كما في قوله تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿ يُسْقَوْن من رحيق مختوم ختامه مسك ﴾ [المطففين : 25 ، 26] .

وكانوا يجعلون الفلفل في الخمر لحسن رائحته ولذعة حرارته لذعة لذيذة في اللسان ، كما قال امرؤ القيس:

صُبِّحْنَ سلافاً من رحيق مُفلفل . . .

(182/794)

ويحتمل أن يكونوا يمزجون الخمر بماء فيه الكافور أو بزيته فيكون المزاج في الآية على حقيقته مما تمزج به الخمر ولعل ذلك كان من شأن أهل الترف لأن الكافور ثمين وهو معدود في العطور .

ومن المفسرين من قال : إن كافور اسم عين في الجنة لأجل قوله عقبه ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ وستعلم حق المراد منه .

وإقحام فعل ﴿ كان ﴾ في جملة الصفة بقوله : ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ لإفادة أن ذلك مزاجها لا يفارقها إذ كان معتاد الناس في الدنيا ندرة ذلك المزاج لغلاء ثمنه وقلة وجدانه .

وانتصب ﴿ عيناً ﴾ على البدل من ﴿ كافوراً ﴾ أي ذلك الكافور تجري به عين في الجنة من ماء محلول فيه أو من زيته مثل قوله : ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾ [محمد : 15] .

وعدي فعل ﴿ يشرب ﴾ بالباء وهي باء الإلصاق لأن الكافور يمزج به شرابهم .

فالتقدير : عيْناً يشرب عباد الله خمرهم بها ، أي مصحوباً بمائها ، وذهب الأصمعي إلى أن الباء في قوله تعالى : ﴿ يشرب بها عباد الله ﴾ بمعنى (من) التبعيضية ووافقه الفارسي وابن قتيبة وابن مالك ، وعَدّ في كتبه ذلك من معاني الباء ونُسب إلى الكوفيين .

و ﴿ عبادُ الله ﴾ مراد بهم : الأبرار .

وهو إظهار في مقام الإِضمار للتنويه بهم بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى إضافةَ تشريف .

والتفجير : فتح الأرض عن الماء أي استنباط الماء الغزير وأطلق هنا على الاستقاء منها بلا حدّ ولا نضوب فكان كل واحد يفجر لنفسه ينبوعاً وهذا من الاستعارة .

وأكد فعل ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ ترشيحاً للاستعارة .

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7)

اعتراض بين جملة ﴿ يَشْربون من كأس ﴾ [الإنسان : 5] الخ وبين جملة ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة ﴾ [الإنسان : 15] الخ .

وهذا الاعتراض استئناف بياني هو جواب عن سؤال من شأن الكلام السابق أن يثيره في نفسه السامع المغتبِط بأن ينال مثل ما نالوا من النعيم والكرامة في الآخرة .

فيهتم بأن يفعل مثل ما فعلوا ، فذكر بعض أعمالهم الصالحة التي هي من آثار الإِيمان مع التعريض لهم بالاستزادة منها في الدنيا .

والكلام إخبار عنهم صادر في وقت نزول هذه الآيات ، بعضُه وصف لحالهم في الآخرة وبعضه وصف لبعض حالهم في الدنيا الموجب لنوال ما نالوه في الآخرة ، فلا حاجة إلى قول الفراء : إن في الكلام إضماراً وتقديره : كانوا يُوفُون بالنذر .

وليست الجملة حالاً من ﴿ الأبرار ﴾ [الإنسان : 5] وضميرهم لأن الحال قيد لعاملها فلو جعلت حالاً لكانت قيداً ل ﴿ يشربون ﴾ [الإنسان : 5] ، وليس وفاؤهم بالنذر بحاصل في وقت شربهم من خمر الجنة بل هو بما أسلفوه في الحياة الدنيا .

والوفاء : أداء ما وجب على المؤدي وافياً دون نقص ولا تقصير فيه .

والنذر : ما يعتزمه المرء ويعقد عليه نِيته ، قال عنترة:

والنَّاذِرَيْنِ إذا لم أُلْقهما دَمي . . .

والمراد به هنا ما عقدوا عليه عزمهم من الإِيمان والامتثال وهو ما استحقوا به صفة ﴿ الأبرار ﴾ [الإنسان : 5] .

ويجوز أن يراد ﴿ بالنذر ﴾ ما ينذرونه من فعل الخير المتقرَّب به إلى الله ، أي ينشئون النذور بها ليوجبوها على أنفسهم .

وجيء بصيغة المضارع للدلالة على تجدد وفائهم بما عقدوا عليه ضمائرهم من الإِيمان والعمل الصالح ، وذلك مشعر بأنهم يكثرون نذر الطاعات وفعل القربات ولولا ذلك لما كان الوفاء بالنذر موجباً الثناء عليهم .

والتعريف في (النذر) تعريف الجنس فهو يعم كل نذر .

وعطف على ﴿ يوفون بالنذر ﴾ قوله : ﴿ ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً ﴾ لأنهم لما وصفوا بالعمل بما ينذرونه أتبع ذلك بذكر حسن نيتهم وتحقق إخلاصهم في أعمالهم لأن الأعمال بالنيات فجمع لهم بهذا صحة الاعتقاد وحسن الأعمال .

(184/794)

وخوفهم اليوم مجاز عقلي جرى في تعلق اليوم بالخوف لأنهم إنما يخافون ما يجري في ذلك اليوم من الحساب والجزاء على الأعمال السيئة بالعقاب فعلق فعل الخوْف بزمان الأشياء المخوفة .

وانتصب ﴿ يوماً ﴾ على المفعول به ل ﴿ يخافون ﴾ ولا يصح نصبه على الظرفية لأن المراد بالخوف خوفهم في الدنيا من ذنوب تجر إليهم العقاب في ذلك اليوم ، وليس المراد أنهم يخافون في ذلك اليوم فإنهم في ذلك اليوم آمنون .

ووُصِف اليومُ بأن له شرّاً مستطيراً وصفاً مشعراً بعلة خوفهم إياه .

فالمعنى : أنهم يخافون شر ذلك اليوم فيتجنبون ما يُفضي بهم إلى شره من الأعمال المتوعد عليها بالعقاب .

والشر : العذاب والجزاء بالسوء .

والمستطير : هو اسم فاعل من استطار القاصر ، والسين والتاء في استطار للمبالغة وأصله طار مثل استكبر .

والطيران مجازي مستعار لانتشار الشيء وامتداده تشبيهاً له بانتشار الطير في الجو ، ومنه قولهم : الفجر المستطير ، وهو الفجر الصادق الذي ينتشر ضوؤه في الأفق ويقال : استطار الحريق إذا انتشر وتلاحق .

وذكر فعل ﴿ كان ﴾ للدلالة على تمكن الخبر من المخبر عنه وإلاّ فإن شر ذلك اليوم ليس واقعاً في الماضي وإنما يقع بعد مستقبل بعيد ، ويجوز أن يجعل ذلك من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه .

وصيغة ﴿ يخافون ﴾ دالة على تجدد خوفهم شّر ذلك اليوم على نحو قوله : ﴿ يوفون

بالنذر ﴾ .

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)

خصص الإِطعَام بالذكر لما في إطعام المحتاج من إيثاره على النفس كما أفاد قوله ﴿ على حبه ﴾ .

(185/794)

والتصريح بلفظ الطعام مع أنه معلوم من فعل ﴿ يطعمون ﴾ توطئةٌ ليبنى عليه الحال وهو ﴿ على حبه ﴾ فإنه لو قيل : ويطعمون مسكيناً ويتيماً وأسيراً لفات ما في قوله ﴿ على حبه ﴾ من معنى إيثار المحاويج على النفس ، على أن ذكر الطعام بعد ﴿ يطعمون ﴾ يفيد تأكيداً مع استحضار هيئة الإِطعام حتى كأنَّ السامع يشاهد الهيئة .

و ﴿ على حبه ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يطعمون ﴾ .

و ﴿ على ﴾ بمعنى (مع) ، وضمير ﴿ حبه ﴾ راجع للطعام ، أي يطعمون الطعام مصحوباً بحبه ، أي مصاحباً لحبهم إياه وحب الطعام هو اشتهاؤه .

فالمعنى : أنهم يطعمون طعاماً هم محتاجون إليه .

ومجيء ﴿ على ﴾ بمعنى (مع) ناشىء عن تَمَجز في الاستعلاء ، وصورته أن مجرور

حرف ﴿ على ﴾ في مثله أفضل من معمول متعلقها فنزل منزلة المعتلي عليه .

والمسكين : المحتاج .

واليتيم : فاقد الأب وهو مظنة الحاجة لأن أحوال العرب كانت قائمة على اكتساب الأب للعائلة بكدحه فإذا فُقد الأب تعرضت العائلة للخصاصة .

وأما الأسير فإذ قد كانت السورة كلها مكية قبل عِزّة المسلمين ، فالمراد بالأسير العبد من المسلمين إذ كان المشركون قد أجاعوا عبيدهم الذين أسلموا مثل بلال وعمار وأمه وربما سيَّبوا بعضهم إذا أضجرهُم تعذيبهم وتركوهم بلا نفقة .

والعبودية تنشأ من الأسر فالعبد أسير ولذلك يقال له العاني أيضاً قال النبي صلى الله عليه وسلم " فُكّوا العاني " وقال عن النساء "إنهن عَوانٍ عندكم" على طريقة التشبيه وقال سحيم عبد بني الحسحاس:

رأتْ قَتَباً رَثّاً وسَحْق عِمامةٍ . . .

وأسْودَ هِمّاً يُنكِرُ الناسُ عَانِيا

يريد عبداً .

وذكر القرطبي عن الثعلبي : قال أبو سعيد الخدري "قرأ رسول الله : ﴿ ويطعمون الطعام على حُبّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ فقال : المسكينُ الفقير ، واليتيم : الذي لا أب له ،

والأسير : المملوك والمسجون" .

ولم أقف على سند هذا الحديث .

(186/794)

وبهذا تعلم أن لا شاهد في هذه الآية لجعل السورة نزلت بالمدينة وفي الأسارى الذين كانوا في أسر المسلمين في غزوة بدر .

وجُملة ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف تقديره : يقولون لهم ، أي للذين يُطعمونهم فهو في موضع الحال من ضمير ﴿ يُطعمون ﴾ ، وجملة : ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ مبيِّنة لمضمون جملة ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ .

وجملة ﴿ إنا نخاف من ربنا ﴾ إلى آخرها واقعة موقع التعليل لمضمون جملة ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ .

والمعنى : إنهم يقولون ذلك لهم تأنيساً لهم ودفعاً لانكسار النفس الحاصل عند الإِطعام ، أي ما نطعمكم إلاّ استجابة لما أمر الله ، فالمطعم لهم هو الله .

فالقول قول باللسان ، وهم ما يقولونه إلاّ وهو مضمر في نفوسهم .

وعن مجاهد أنه قال : ما تكلموا به ولكن عَلِمه الله فأَثنى به عليهم .

فالقصر المستفاد من ﴿ إنما ﴾ قصر قلب مبني على تنزيل المطعَمين منزلة من يظن أن من أطعمهم يمنّ عليهم ويريد منهم الجزاء والشكر بناء على المتعارف عندهم في الجاهلية .

والمراد بالجزاء : ما هو عوض عن العطية من خدمة وإعانة ، وبالشكور : ذكرهم بالمزية .

والشُكور : مصدر بوزن الفُعول كالقُعود والجلوس ، وإنما اعتبر بوزن الفُعول الذي هو مصدر فعَل اللازم لأن فعل الشكر لا يتعدى للمشكور بنفسه غالباً بل باللام يقال : شكرت لك قال تعالى : ﴿ واشكروا لي ﴾ [البقرة : 152] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(187/794)

لطيفة فى حرف الباء

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(الباب الثالث – فى الكلمات المفتتحة بحرف الباء)

(بصيرة فى الباء)

وقد ورد فى القرآن ، وفى كلام العرب ، على وجوه :

الأول : حرف مِن حروف المتهجى بها .

ومخرجه من انطباق الشفتين قرب مخرج الفاء .

ويمدّ ويُقصر .

والنسبة باوىّ وبائِى .

وبيّب باء حسنة ، وحسنا .

وجمع المقصور أَبواء (كذَا وأَذْواءٍ) وجمع الممدودِ باءَات كحالات .

الثانى : اسم لعدد اثنين فى حساب الجُمَّل .

الثالث : الباءُ الأَصلى ؛ كباء برك ، وكبر ، وركب .

الرّابع : باءُ الإِلصاق .

ويكون حقيقة ؛ كأَمسكْتُ بزيد ، ومجازاً ؛ كمررت به .

الخامس : يكون للتعدية ؛ نحو ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ .

السّادس : باءُ السّببية : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ ، وقال الشاعر :

قد سُقِيت آبالهم بالنّار

وفى الحديث : "لن يدخُل أَحدكم الجنّة بعمله" .

السّابع : باءُ الاستعانة ؛ كباءِ بسم الله الرّحمن الرّحيم ، وقولك : نَجَرتُ بالقدوم ، وكتبت بالقلم .

الثامن : باءُ العِوَض ؛ كقول الشاعر :

*ولا يواتيك فيما ناب من حدَث * إلاَّ أَخُو ثِقَة فانظر بمن تثق*

أَراد مَن تثق به فزادها عوضاً عنه .

التَّاسع : باءُ المصاحبة : ﴿ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ ﴾ ، ﴿ وَقَدْ دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ ﴾ ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، سبحانك الله وبحمدك .

العاشر : باءُ المقابلة : ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقولك : كافأْت إِحسانه بضعف .

اشتريته بأَلف .

الحادى عشر : باءُ المجاوزة : ﴿ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ ، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ ﴾ ﴿ السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ .

الثانى عشر : باءُ الغاية ، وهى الَّتى بمعنى إِلى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ .

الثالث عشر : باءُ البدل :

*فليت لى بهمُ قوما إِذا ركبوا * شَنُّوا الإِغارة فرساناً وركباناً*

الرابع عشر : باءُ الاستعلاءِ بمعنى عَلى : ﴿ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ بدليل ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ وقال :

*أَربّ يبول الثُعْلبان برأسه * لقد ذَلّ من بالت عليه الثعالب*

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ﴾ ، زَيْد بالسطح .

الخامس عشر : باءُ التبعيض : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ أَى منها .

شربن بماءِ النحر ثم ترفعتْ

وقول الآخر :

*فلثِمْتُ فاها آخِذاً بقرونها * شُرب النزيف ببرْد ماءِ الحَشْرج*

السّادس عشر : باءُ القسم : أَقسم بالله .

السّابع عشر : باءُ التعليل : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ .

الثامن عشر : باء الظرفيّة : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ ﴿ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ وقال الشّاعر :

*ويُستخرجُ اليربوع من نافقائه * ومن جُحْرِه بالشَّيْخَة اليُتقصّع*

التَّاسع عشر : الباءُ الَّتى تدخل على الاسم لإِرادة التشبيه ، كقولهم : لقيت بزيد الأَسد ، ورأَيت بفلان القمر .

والصحيح أَنها للسبب

العشرون : باءُ التقليل ، كقول الشاعر :

*فلئن صرت لا تُحير جوابا * لما قد تُرى وأَنت خطيب*

الحادى والعشرون : الباءُ الزَّائدة ، وهى المؤكِّدة .

وتزاد فى الفاعل .

﴿ كَفى بِاللهِ شَهيداً ﴾ أَحْسِنْ بزيد ، أَصله حَسُن زيد ، وقال الشاعر :

*كفى ثعلا فخراً بأَنَّك منهم * ودهرٌ لأَن أَمسَيْت من أَهله أَهل*

وفى الحديث "كفى بالمرءِ كذباً أَن يحدّث بكلّ ما سمع" ويزاد ضرورة كقوله :

*أَلم يأْتيك والأَنباءُ تَنْمى * بما لاقت لبونُ بنى زياد*

وقوله :

*مهما لى الليلة مهما ليه * أَودى بنعلىّ وسِرْباليه*

وتزادُ فى المفعول ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ .

نضرب بالسّيف ونرجو بالفرج

(189/794)

سود المحاجر لا يقرأْن بالسور

وقلَّت فى مفعول ما يتعدّى لاثنين ؛ كقوله :

تَبَلَتْ فؤادَكَ فى المنام خَرِيدَةٌ تسقى الضَّجيعَ ببارِدٍ بسّامِ*

ويزاد فى المبتدأ : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ ، بحسبك درهم ، خرجت فإذا بزيدٍ .

ويزاد فى الخبر ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ ﴾ ، ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ .

ومنعكها بشئ يستطاع

ويزاد فى الحال المنفىّ عاملها :

فما رجعت بخائبة ركاب حكيم بن المسيّب منتها ها*

وليس بذى سيف وليس بنبَّال

ويزاد فى التوكيد بالنَّفس والعين ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ .

ومن أقسام الباءِ الباءُ المبدلة ؛ كمكَّة وبكَّة ، ولازم ولازب ، والباءُ المكرّرة ، كباءِ الرّب ، وكبّر ، وتكبّر .

ومنها باءُ الاستقامة ﴿ آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ أى استقمنا ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ .

ومنها باءُ التعبير .

وتكون متضمّنة لزيادة العلم : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ ومنها الباءُ اللُّغوى ، وهو الرّجل الشَّبق .

الباءُ أَيضاً : النكاح.

وكذلك الباءَة والباه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 190.

﴿ 195

(190/794)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الأنفس مجبولة على حب الجزاء والثناء ، فكان لا يكاد يصدق أحد أن أحداً يفعل ما لا يقصد به شيئاً من ذلك ، وكان الله سبحانه وتعالى قد منَّ علينا بأن جعل العبادة لأجل خوفه ورجائه لا يقدح في الإخلاص ، عللوا قولهم هذا على وجه التأكيد بقولهم : ﴿ إنا نخاف ﴾ ولما كان الخوف من المحسن بالنظر إلى إحسانه موجباً للخوف منه بالنظر

إلى عزه وجبروته وسلطانه من باب الأولى قالوا : ﴿ من ربنا ﴾ أي الخالق لنا المحسن إلينا ﴿ يوماً ﴾ أي أهوال يوم هو – في غاية العظمة ، وبينوا عظمته بقولهم : ﴿ عبوساً ﴾ أي ضيقاً – قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، نسبوا العبوس إليه لأنه في شدته كالأسد الغضوب ، فهو موجب لعبوس الوجوه فيه أو هو لعبوس أهله ك " ليله قائم ونهاره صائم وعيشة راضية " ﴿ قمطريراً ﴾ أي طويلاً – قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، أو شديد العبوس مجتمع الشر كالذي يجمع ما بين عينيه – مأخوذ من القطر لأن يومه يكون عابساً ، وزيد فيه الميم وبولغ فيه بالصيغة ، وهو يوم القيامة ، يقال : اقمطر اليوم فهو مقمطر – إذا كان صعباً شديداً .

(191/794)

ولما كان فعلهم هذا خالصاً لله ، سبب عنه جزاءهم فقال مخبراً أنه دفع عنهم المضار وجلب لهم المسار : ﴿ فوقاهم الله ﴾ أي الملك الأعظم بسبب خوفهم ﴿ شر ذلك اليوم ﴾ أي العظيم ، وأشار إلى نعيم الظاهر بقوله : ﴿ ولقّاهم ﴾ أي تلقية عظيمة فيه وفي غيره ﴿ نضرة ﴾ أي حسناً ونعمة تظهر على وجوههم وعيشاً هنيئاً ، وإلى نعيم الباطن بقوله : ﴿ وسروراً ﴾ أي دائماً في قلوبهم في مقابلة خوفهم في الدنيا وعبوس الكفار في

الآخرة وخزيهم – وهذا يدل على أن وصف اليوم بالعبوس للدلالة على المبالغة في عبوس أهله ، وأشار إلى المسكن بقوله : ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي بسبب ما أوجدوه من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة واجتناب المعصية ومنع أنفسهم الطيبات وبذل المحبوبات ﴿ جنة ﴾ أي بستاناً جامعاً يأكلون منه ما يشتهون جزاء على ما كانوا يطعمون .

ولما ذكر ما يكسو الباطن ، ذكر ما يكسو الظاهر فقال : ﴿ وحريراً ﴾ أي هو في غاية العظمة .

ولما ذكر أنه كفاهم المخوف وحباهم الجنة ، أتبعه حالهم فيها وحالها فقال دالاًّ على راحتهم الدائمة : ﴿ متكئين فيها ﴾ أي لأن كل ما أرادوه حضر إليهم من غير حاجة إلى حركة أصلاً ، ودل على الملك بقوله ﴿ على الأرآئك ﴾ أي الأسرة العالية التي في الحجال ، لا تكون أريكة إلا مع وجود الحجلة ، وقال بعضهم : هي السرير المنجد في قبة عليه شواره ونجده أي متاعه ، وهي مشيرة إلى الزوجات لأن العادة جارية بأن الأرائك لا تخلو عنهن بل هي لهن لاستمتاع الأزواج بهن فيها .

(192/794)

ولما كانت بيوت الدنيا وبساتينها تحتاج إلى الانتقال منها من موضع إلى موضع لأجل الحر أو البرد ، بين أن جميع أرض الجنة وغرفها سواء في لذة العيش وسبوغ الظل واعتدال الأمر ، فقال نافياً ضر الحر ثم البرد : ﴿ لا يرون فيها ﴾ أي بأبصارهم ولا بصائرهم أصلاً ﴿ شمساً ﴾ أي ولا قمراً ﴿ ولا ﴾ أي ولا يرون فيها أيضاً ببصائرهم أي لا يحسون بما يسمى ﴿ زمهريراً ﴾ أي برداً شديداً مزعجاً ولا حراً ، فالآية من الاحتباك : دل بنفي الشمس أولاً على نفي القمر ، لأن ظهوره بها لأن نوره اكتساب من نور الشمس ، ودل بنفي الزمهرير الذي هو سبب البرد ثانياً على نفي الحر الذي سببه الشمس ، فأفاد هذا أن الجنة غنية عن النيرين ، لأنها نيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين إلى معرفة زمان لأنه لا تكليف فيها بوجه ، وأنها ظليلة ومعتدلة دائماً لأن سبب الحر الآن قرب الشمس من مسامته الرؤوس ، وسبب البرد بعدها عن ذلك .

ولما كانت ترجمة هذا كما مضى : جنة ظليلة ومعتدلة ، عطف عليه بالواو دلالة على تمكن هذا الوصف وعلى اجتماعه مع ما قبله قوله : ﴿ ودانية ﴾ أي قريبة من الارتفاع ﴿ عليهم ظلالها ﴾ من غير أن يحصل منها ما يزيل الاعتدال ﴿ وذللت قطوفها ﴾ جمع قطف بالكسر وهو العنقود واسم للثمار المقطوفة أي المجنية ﴿ تذليلاً ﴾ أي سهل تناولها تسهيلاً عظيماً لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك لكل من يريد أخذها على أي حالة كان من اتكاء وغيره ، فإن كانوا قعوداً تدلت إليهم ، وإن كانوا قياماً وكانت على الأرض ارتقت

إليهم ، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 269 . 270 ﴾

(193/794)

فصل

قال الفخر :

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم والثاني : أنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة ، فإن قيل : إنه تعالى حكى عنهم الإيفاء بالنذر وعلل ذلك بخوف القيامة فقط ، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين بطلب رضاء الله وبالخوف عن القيامة فما السبب فيه ؟ قلنا : الإيفاء بالنذر دخل في حقيقة طلب رضاء الله تعالى ، وذلك لأن النذر هو الذي أوجبه الإنسان على نفسه لأجل الله فلما كان كذلك لا جرم ضم إليه خوف القيامة فقط ، أما الإطعام ، فإنه لا يدخل في حقيقة طلب رضا الله ، فلا جرم ضم إليه طلب رضا الله وطلب الحذر من خوف القيامة .

المسألة الخامسة :

وصف اليوم بالعبوس مجازاً على طريقتين أحدهما : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم : نهارك صائم ، روي أن الكافر يحبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران والثاني : أن يشبه في شدته وضراوته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل .

المسألة السادسة :

قال الزجاج : جاء في التفسير أن قمطريراً معناه تعبيس الوجه ، فيجتمع ما بين العينين ، قال : وهذا سائغ في اللغة يقال : اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها يعني أن معنى قمطر في اللغة جمع ، وقال الكلبي : قمطريراً يعني شديداً وهو قول الفراء وأبي عبيدة والمبرد وابن قتيبة ، قالوا : يوم قمطرير ، وقماطر إذا كان صعباً شديداً أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء ، قال الواحدي : هذا معنى والتفسير هو الأول .

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11)

(194/794)

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين طلب رضا الله والخوف من القيامة بين في هذه الآية أنه أعطاهم هذين الغرضين ، أما الحفظ من هول القيامة ، فهو المراد

بقوله : ﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ وسمى شدائدها شراً توسعاً على ما علمت ، واعلم أن هذه الآية أحد ما يدل على أن شدائد الآخرة لا تصل إلا إلى أهل العذاب ، وأما طلب رضاء الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة في الوجه وسروراً في القلب ، وقد مر تفسير ﴿ ولقاهم ﴾ في قوله : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً ﴾ [الفرقان : 75] وتفسير النضرة في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة : 23] والتنكير في ﴿ سروراً ﴾ للتعظيم والتفخيم .

وقوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾

والمعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري ، بستاناً فيه مأكل هنيء وحريراً فيه ملبس بهي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : 23] أقول : وهذا يدل على أن المراد من قوله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ [الإنسان : 9] ليس هو الإطعام فقط بل جميع أنواع المواساة من الطعام والكسوة ، ولما ذكر تعالى طعامهم ولباسهم ، وصف مساكنهم ، ثم إن المعتبر في المساكن أمور :

أحدها : الموضع الذي يجلس فيه فوصفه بقوله : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ وهي السرر في الحجال ، ولا تكون أريكة إلا إذا اجتمعت ، وفي نصب متكئين وجهان الأول : قال الأخفش : إنه نصب على الحال ، والمعنى وجزاهم جنة في حال اتكائهم كما تقول : جزاهم ذلك قياماً ، والثاني : قال الأخفش : وقد يكون على المدح .

والثاني : هو المسكن فوصفه بقوله : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ وفيه وجهان

أحدهما : أن هواءها معتدل في الحر والبرد والثاني : أن الزمهرير هو القمر في لغة طيء

هكذا رواه ثعلب وأنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر . . قطعتها والزمهرير ما زهر

(195/794)

والمعنى أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر .

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14)

والثالث : كونه بستاناً نزهاً ، فوصفه الله تعالى بقوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها ﴾ وفي الآية سؤالان الأول : ما السبب في نصب ﴿ وَدَانِيَةً ﴾ ؟ الجواب : ذكر الأخفش والكسائي والفراء والزجاج فيه وجهين أحدهما : الحال بالعطف على قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ كما تقول في الدار : عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال ، لأنه حيث قال : عليهم رجع إلى ذكرهم والثاني : الحال بالعطف على محل : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ [الإنسان : 13] والتقدير غير رائين فيها شمساً ولا زمهريراً ودانية عليهم ظلالها ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والبرد ، ودنو الظلال عليهم والثالث : أن يكون دانية نعتاً للجنة ، والمعنى : وجزاهم جنة

دانية ، وعلى هذا الجواب تكون دانية صفة لموصوف محذوف ، كأنه قيل : وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، وذلك لأنهم وعدوا جنتين ، وذلك لأنهم خافوا بدليل قوله : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ﴾ [الإنسان : 10] وكل من خاف فله جنتان ، بدليل قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] وقرىء : ﴿ وَدَانِيَةً ﴾ بالرفع على أن ﴿ ظلالها ﴾ مبتدأ ﴿ وَدَانِيَةً ﴾ خبر ، والجملة في موضع الحال ، والمعنى : لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً والحال أن ظلالها دانية عليهم .

السؤال الثاني : الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس ، فإن كان لا شمس في الجنة فكيف يحصل الظل هناك ؟ والجواب : أن المراد أن أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مظلله منها .

(196/794)

قوله تعالى : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ ذكروا في ذللت وجهين الأول : قال ابن قتيبة : ذللت أدنيت منهم من قولهم : حائط ذليل إذا كان قصير السمك والثاني : ظللت أي جعلت منقادة ولا تمتنع على قطافها كيف شاءوا .

قال البراء بن عازب : ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا ، فمن أكل قائماً لم يؤذه ومن

أكل جالساً لم يؤذه ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 217.219 ﴾

(197/794)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾

"عَبُوساً" من صفة اليوم ، أي يوماً تعبِس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى نخاف يوماً ذا عبوس .

وقال ابن عباس يعبس الكافر يومئذ حتى يسيلَ منه عرَق كالقطران .

وعن ابن عباس : العَبُوس : الضَّيِّق ، والقَمْطَرِير : الطويل ؛ قال الشاعر :

شدِيداً عبوساً قَمْطَرِيراً . . .

وقيل : القَمْطرير الشديد ؛ تقول العرب : يوم قَمْطرير وقُمَاطِر وعَصِيب بمعنًى ؛ وأنشد الفرّاء :

بِني عَمِّنَا هل تَذْكُرونُ بَلاءَنا . . .

عليكُم إذا ما كان يومٌ قُمَاطِرُ

بضم القاف .

واقمطر إذا اشتد .

وقال الأخفش : القمطرير : أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء ؛ قال الشاعر :

ففرُّوا إذا ما الحرب ثار غُبارُها . . .

ولَجَّ بها اليومُ العَبُوسُ القُمَاطِرُ

وقال الكسائي : يقال اقمطر اليومُ وازمهر اقمطرارا وازمهرارا ، وهو القمطرير والزمهرير ،

ويوم مُقْمَطِرّ إذا كان صعباً شديداً ؛ قال الهذليّ :

بَنُو الحرْبِ أُرْضِعْنا لهم مُقْمَطِرَّةٌ . . .

ومَنْ يُلْقَ مِنّا ذلكَ اليومَ يَهْرُبِ

وقال مجاهد : إنّ العُبوس بالشفتين ، والقمطرير بالجبهة والحاجبين ؛ فجعلها من صفات

الوجه المتغيّر من شدائد ذلك اليوم ؛ وأنشد ابن الأعرابيّ :

يَغْدُو على الصَّيْدِ يَعُودُ مُنْكَسِرْ . . .

ويَقْمَطِرُّ ساعةً ويَكْفَهِرُّ

وقال أبو عبيدة : يقال رجل قَمْطرير أي متقبض ما بين العينين .

وقال الزجاج : يقال اقمطرت الناقةُ : إذا رَفَعت ذنَبها وجَمَعت قُطْرَيها ، وزمَّت بأنفها ؛

فاشتقه مِن القُطْر ، وجعل الميم مزيدة .

قال أسد بن ناعِصة :

واصطليت الحروبَ في كلّ يومٍ . . .

باسِلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّباحِ

(198/794)

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللهُ ﴾ أي دفع عنهم ﴿ شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ أي بأسه وشدته وعذابه ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أي أتاهم وأعطاهم حين لقُوه أي رأوه ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي حسناً ﴿ وَسُرُوراً ﴾ أي حبوراً .

قال الحسن ومجاهد : "نَضْرَةً" في وجوههم "وَسُرُوراً" في قلوبهم .

وفي النضرة ثلاثة أوجه : أحدها أنها البياض والنقاء ؛ قاله الضحاك .

الثاني الحسن والبهاء ؛ قاله ابن جبير .

الثالث أنها أثر النعمة ؛ قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾

على الفقر .

وقال القرظيّ : على الصوم .

وقال عطاء : على الجوع ثلاثة أيام وهي أيام النذْر .

وقيل : بصبرهم على طاعة الله ، وصبرهم على معصية الله ومحارمه .

و"ما" : مصدرية ، وهذا على أن الآية نزلت في جميع الأبرار ومن فعل فعلاً حسناً .

وروى ابن عمر .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر فقال : " الصبر أربعة : أوّلها الصبر عند الصدمة الأولى ، والصبر على أداء الفرائض ، والصبر على اجتناب محارم الله ، والصبر على المصائب " ﴿ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير .

أي يسمى بحرير الدنيا وكذلك الذي في الآخرة (وفيه) ما شاء الله عزّ وجلّ من الفضل .

وقد تقدم : أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وإنما أُلبسه من أُلبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ؛ ونصب "مُتَّكِئِينَ" على الحال من الهاء والميم في "جَزَاهُمْ" والعامل فيها جزي ولا يعمل فيها "صَبَرُوا" ؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة .

وقال الفرّاء .

وإن شئت جعلت "مُتَّكِئِينَ" تابعاً ، كأنه قال جزاهم جنة ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ .

﴿ على الأرائك ﴾ السُّرُر في الحِجَال وقد تقدم .

وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات : أحدها الأريكة لا تكون إلا في حَجَلة على سرير ، ومنها السَّجْل ، وهو الدّلو الممتلىء ماءً ، فإذا صَفِرت لم تُسمَّ سَجْلاً ، وكذلك الذَّنُوب لا تُسمَّى ذَنُوباً حتى تُملأ ، والكأس لا تسمى كأساً حتى تُتْرَع من الخمر .

وكذلك الطَّبَق الذي تُهدَى عليه الهدية مِهْدَى ، فإذا كان فارغاً قيل طَبَق أو خِوان ؛ قال ذو الرُّمَّة :

خُدُودٌ جَفَتْ فِي السَّيْرِ حتَّى كأَنَّمَا . . .

يُبَاشِرْنَ بِالْمَعْزَاءِ مَسَّ الأَرائِكِ

أي الفرش على السرر .

﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً ﴾ أي لا يرون في الجنة شدة حرٍّ كحرِّ الشمس ﴿ وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ أي ولا برداً مفرطاً ؛ قال الأعشى :

مُنَعَّمَةٌ طَفْلَةٌ كَالْمَهَا . . .

ةِ لَمْ تَرَ شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً

وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

اشتكت النارُ إلى ربّها عزّ وجلّ قالت : يا ربّ أَكَلَ بعضي بعضاً ، فجعل لها نَفَسين نَفَساً في الشتاء ونَفَساً في الصّيف ، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدّة ما تجدون من الحرّ في الصيف من سَمُومها " وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن هواء الجنة سَجْسَج : لا حرٌّ ولا بردٌ " والسَّجْسَج : الظِّل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

وقال مُرَّة الهَمْداني : الزمهرير البرد القاطع .

وقال مقاتل بن حيان : هو شيء مثل رؤوس الإبر ينزل من السماء في غاية البرد .

وقال ابن مسعود : هو لون من العذاب ، وهو البرد الشديد ، حتى إن أهل النار إذا أُلْقوا فيه سألوا الله أن يعذِّبهم بالنار ألف سنة أهونَ عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً .

قال أبو النَّجْم :

أو كُنتُ ريحاً كُنتُ زَمْهَريراً . . .

وقال ثعلب : الزَّمْهرير : القمر بلغة طيِّيء ؛ قال شاعرهم :

وليلةٍ ظَلاَمُهَا قدِ اعتكر . . .

قَطَعْتُهَا والزِّمْهَرِيرُ ما زَهَرْ

(200/794)

ويروى : ما ظهر ؛ أي لم يطلع القمر .

فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمراً كقمر الدنيا ، أي إنهم في ضياء مستديم ، لا ليل فيه ولا نهار ؛ لأن ضوء النهار بالشمس ، وضوء الليل بالقمر .

وقد مضى هذا المعنى مجوداً في سورة "مريم" عند قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] .

وقال ابن عباس : بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا نوراً ظنوه شمساً قد أشرقت بذلك النور الجنة ، فيقولون : قال ربنا : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ فما هذا النور ؟ فيقول لهم رضوان : ليست هذه شمس ولا قمر ، ولكن هذه فاطمة وعليّ ضحكا ، فأشرقت الجنان من نور ضحكهما ، وفيهما أنزل الله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ وأنشد :

أنا مَوْلىً لِفَتَى . . .

أُنْزِلَ فيه هَلْ أَتَى

ذاكَ عليٌّ المُرْتَضَى . . .

وابن عَمِّ المصطفَى

قوله تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ﴾ أي ظل الأشجار في الجنة قريبة من الأبرار ، فهي مُظِلّة عليهم زيادة في نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثَمَّ ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة ، وإن كان لا وسخ ولا شَعَث ثَمَّ .

ويقال : إن ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام ، فإذا اشتهى وليّ الله ثمرتها دانت حتى يتناولها .

وانتصبت "دَانِيَةً" على الحال عطفاً على ﴿ مُّتَّكِئِينَ ﴾ كما تقول : في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال .

وقيل : انتصبت نعتاً للجنة ؛ أي وجزاهم جنةً دانيةً ، فهي صفة لموصوف محذوف .

وقيل : على موضع ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ ويرون دانيةً .

وقيل : على المدح أي دنت دانيةً .

قاله الفراء .

"ظِلاَلُهَا" الظلال مرفوعة بدانية ، ولو قريء برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لجاز ، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في "وجَزَاهُمْ" وقد قريء بذلك .

(201/794)

وفي قراءة عبد الله "وَدَانِيًا عَلَيْهِمْ" لتقدم الفعل .

وفي حرف أُبيّ "وَدَانٍ" رفع على الاستئناف ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ أي سُخِّرت لهم ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ أي ثمارها ﴿ تَذْلِيلاً ﴾ أي تسخيراً ، فيتناولها القائم والقاعد والمضطجع ، لا يرد

أيديهم عنها بُعدٌ ولا شوك ؛ قاله قتادة .

وقال مجاهد : إن قام أحد ارتفعت له ، وإن جلس تدلّت عليه ، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها .

وعنه أيضاً : أرض الجنة من وَرِق ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر ، وأصول شجرها ذهب وورِق ، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والثمر تحت ذلك كله ؛ فمن أكل منها قائماً لم تؤذِه ، ومن أكل منها قاعداً لم تؤذِه ، ومن أكل منها مضطجعاً لم تؤذِه .

وقال ابن عباس : إذا همَّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد ، وتذليل القطوف تسهيل التناول .

والقطوف : الثمار ، الواحد قِطف بكسر القاف ، سمّي به لأنه يُقطَف ، كما سمّي الجَنَى لأنه يُجنى .

﴿ تَذْلِيلاً ﴾ تأكيد لما وصف به من الذّل ؛ كقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] .

الماورديّ : ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها ، وتخلص لهم من نواها .

قلت : وفي هذا بعدٌ ؛ فقد روى ابن المبارك ، قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة : جذوعها زُمُرُّد أخضر ، وكَرَبُها ذهب أحمر ، وسَعَفها كُسْوة لأهل الجنة ، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القِلال والدِّلا ، أشدّ

بياضاً من اللَّبَن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم .

قال أبو جعفر النحاس : ويقال المذلَّل الذي قد ذلّله الماءُ أي أرواه .

(202/794)

ويقال المذلّل الذي يُفَيِّئُه أدنى ريح لنَعْمته ، ويقال المذلَّل المُسَوَّى ؛ لأن أهل الحجاز يقولون : ذِلِّلْ نَخْلكَ أي سَوِّه ، ويقال المُذلَّل القريب المتناوَل ؛ من قولهم : حائط ذَليلٌ أي قصير .

قال أبو جعفر : وهذه الأقوال التي حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها في قول امرىء القيس :

وساقٍ كَأُنبوبِ السَّقِيّ المُذَلَّلِ . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(203/794)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً ﴾

أي عذاب يوم فهو على تقدير مضاف أو إن خوفه كناية عن خوف ما فيه ﴿ عَبُوساً ﴾

تعبس فيه الوجوه على أنه من الإسناد المجازي كما في نهاره صائم فقد روى عن ابن عباس أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران أو يشبه الأسد العبوس على أنه من الاستعارة المكنية التخييلية لكن لا يخفى أن العبوس ليس من لوازم الأسد وإنما اشتهر وصفه به ففي التخييلية ضعف ما وقيل أنه من التشبيه البليغ ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ شديد العبوس ويقال شديداً صعباً كأنه التف شره بعضه ببعض وقيل طويلاً وهو رواية عن ابن عباس وجاء قماطر وأنشدوا لأسد بن ناغصة

: واصطليت الحروب في كل يوم . . .

باسل الشر قمطرير الصباح

وقول آخر

: بني عمنا هل تذكرون بلائنا . . .

عليكم إذا ما كان يوم قماطر

(204/794)

وإلى الأول ذهب الزجاج فقال القمطرير الذي يعبس حتى يجتمع ما بين عينيه ويقال اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وزمت بأنفها وجمعت قطريها أي جانبيها كأنها تفعل ذلك

إذا لحقت كبراً وقيل لتضع حملها فاشتقاقه عنده على ما قيل من قطر بالاشتقاق الكبير والميم زائدة وهذا لا يلزم الزجاج فيجوز أن يكون مشتقاً كذلك من القمط ويقال قمطه إذا شده وجمع أطرافه وفي "البحر" يقال اقمطر فهو مقمطر و ﴿ قمطرير ﴾ وقماطر إذا صعب واشتد واختلف في هذا الوزن وأكثر النحاة لا يثبتون أفمعل في أوزان الأفعال وهذه الجملة جوز أن تكون علة لإحسانهم وفعلهم المذكور كأنه قيل نفعل بكم ما نفعل لأنا نخاف يوماً صفته كيت وكيت فنحن نرجو بذلك أن يقينا ربنا جل وعلا شره وأن تكون علة لعدم إرادة الجزاء والشكور أي إنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة وإلى الوجهين أشار في "الكشاف" وقال في الكشف الثاني أوجه ليبقى قوله ﴿ لوجه الله ﴾ [الإنسان : 9] خالصاً غير مشوب بحظ النفس من جلب نفع أو دفع ضر ولو جعل علة للإطعام المعلل على معنى إنما خصصنا الإحسان لوجهه تعالى لأنا نخاف يوم جزائه ومن خافه لازم الإخلاص لكان وجهاً .

﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه وقرأ أبو جعفر فوقاهم بشد القاف وهو أوفق بقوله تعالى : ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب .

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم على مشاق الطاعات ومهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرمات وإيثار الأموال ما كلا وملبسا ﴿ جَنَّةُ ﴾ بستاناً عظيماً يأكلون منه ما شاؤا ﴿ وَحَرِيراً ﴾ يلبسونه ويتزينون به ومن رواية عطاء عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما جدهما محمد صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وعادهما من عادهما من الصحابة فقالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما أن برآهما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام شكراً فالبس الله تعالى الغلامين ثوب العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير فانطلق علي كرم الله تعالى وجهه إلى شمعون اليهودي الخيبري فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير فجاء بها فقامت فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى صاع فطحنته وخبزت منه خمسة أقراص على عددهم وصلى علي كرم الله تعالى وجهه مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف بالباب سائل فقال السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم أنا مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا شيئاً إلا الماء وأصبحوا صياماً ثم قامت فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى صاع آخر فطحنته وخبزته وصلى علي كرم الله تعالى وجهه مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف يتيم

بالباب وقال السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم يتيم من أولاد المهاجرين أطعموني أطعمكم الله تعالى من موائد الجنة فآثروه ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح وأصبحوا صياماً فلما كان يوم الثالث قامت فاطمة رضي الله تعالى عنها إلى الصاع الثالث وطحنته وخبزته وصلى علي كرم الله تعالى وجهه مع النبي صلى الله عليه وسلم المغرب فأتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فوقف أسير بالباب

(206/794)

فقال السلام عليكم يا أهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم أنا أسير محمد عليه الصلاة والسلام أطعموني أطعمكم الله فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء القراح فلما أصبحوا أخذ علي كرم الله تعالى وجهه الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال يا أبا الحسن ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم وقام فانطلق معهم إلى فاطمة رضي الله تعالى عنها فرآها في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها من شدة الجوع فرق لذلك صلى الله عليه وسلم وساءه ذلك فهبط جبريل عليه السلام فقال خذها يا محمد هناك الله تعالى في أهل بيتك قال وما آخذ يا جبريل فاقرأه

﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الإنسان : 1] السورة وفي رواية ابن مهران فوثب النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل على فاطمة فأكب عليها يبكي فهبط جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿ إن الأبرار يشربون ﴾ [الإنسان : 5] إلى آخره وفي رواية عن عطاء أن الشعير كان عن أجرة سقي نخل وأنه جعل في كل يوم ثلث منه عصيدة فآثروا بها وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في قوله سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ﴾ الخ نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذكر القصة والخبر مشهور بين الناس وذكره الواحدي في كتاب البسيط وعليه قول بعض الشيعة :

إلام آلام وحتى متى . . .

أعاتب في حب هذا الفتى

وهل زوجت غيره فاطم . . .

وفي غيره هل أتى هل أتى

(207/794)

وتعقب بأنه خبر موضوع مفتعل كما ذكره الترمذي وابن الجوزي وآثار الوضع ظاهرة عليه لفظاً ومعنى ثم إنه يقتضي أن تكون السورة مدنية لأن بناء علي كرم الله تعالى وجهه على

فاطمة رضي الله تعالى عنها كان بالمدينة وهي عند ابن عباس المروى هو عنه على ما أخرج النحاس مكية وكذا عند الجمهور في قول وأقول أمر مكيتها ومدنيتها مختلف فيه جداً كما سمعت فلا جزم فيه بشيء وابن الجوزي نقل الخبر في تبصرته ولم يتعقبه على أنه ممن يتساهل في أمر الوضع حتى قالوا أنه لا يعول عليه في هذا الباب فاحتمال أصل النزول في الأمير كرم الله تعالى وجهه وفاطمة رضي الله تعالى عنها قائم ولا جزم بنفي ولا إثبات لتعارض الأخبار ولا يكاد يسلم المرجح عن قيل وقال نعم لعله يترجح عدم وقوع لكيفية التي تضمنتها الرواية الأولى ثم إنه على القول بنزولها فيهما لا يتخصص حكمها بهما بل يشمل كل من فعل مثل ذلك كما ذكره الطبرسي من الشيعة في "مجمع البيان : راوياً له عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه وعلى القول بعدم النزول فيهما لا يتطامن مقامهما ولا ينقص قدرهما إذ دخولهما في الأبرار أمر جلي بل هو دخول أولى فهما هما وماذا عسى يقول أمرؤ فيهما سوى أن علياً مولى المؤمنين ووصى النبي وفاطمة البضعة الأحمدية والجزء المحمدي وأما الحسنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجنان وليس هذا من الرفض بشيء بل ما سواه عندي هو الغي .

أنا عبد الحق لا عبد الهوى . . .

لعن الله الهوى فيمن لعن

ومن اللطائف على القول بنزولها فيهم أنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وإنما صرح عز

وجل بولدان مخلدين رعاية لحرمة البتول وقرة عين الرسول لئلا تثور غيرتها الطبيعة إذا أحست بضرة وهي في أفواه تخيلات الطباع البشرية ولو في الجنة مرة ولا يخفى عليك أن هذا زهرة ربيع ولا تتحمل الفرك ثم التذكير على ذلك أيضاً من باب التغليب وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه جازاهم على وزن فاعل .

(208/794)

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ حال من هم في ﴿ جزاهم ﴾ والعامل جزى وخص الجزاء بهذه الحالة لأنها أتم حالات المتنعم ولا يضر في ذلك قوله تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الإنسان : 12] لأن الصبر في الدنيا وما تسبب عليه في الآخرة وقيل صفة الجنة ولم يبرز الضمير مع أن الصفة جارية على غير من هي عليه فلم يقل متكئين هم فيها لعدم الإلباس كما في قوله

: قومي ذرى المجد بانوها وقد علمت . . .

بكنه ذلك عدنان وقحطان

وأنت تعلم أن هذا رأي الكوفية ومذهب البصرية وجوب إبراز الضمير في ذلك مطلقاً وفي البيت كلام وقيل يجوز كونه حالاً مقدرة من ضمير صبروا وليس بذاك والأرائك جمع أريكة

وهي السرير في الحجلة من دونه ستر ولا يسمى مفرداً أريكة وقيل هو كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصة وكان تسميته بذلك لكونه مكاناً للإقامة أخذاً من قولهم أرك بالمكان أروكاً أقام وأصل الأروك الإقامة على رعي الأراك الشجر المعروف ثم استعمل في غيره من الإقامات وقوله تعالى : ﴿ لاَيَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ إما حال ثانية من الضمير أو حال من المستكن في متكئين وجوز فيه كونه صفة لجنة أيضاً والمراد من ذلك أن هواءها معتدل لا حر شمس يحمي ولا شدة برد يؤذي وفي الحديث هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر فقصد بنفي الشمس نفيها ونفي لازمها معاً لقوله سبحانه ولا زمهريراً فكأنه قيل لا يرون فيها حراً ولا قراً وقيل الزمهرير القمر وعن ثعلب أنه في لغة طيء وأنشد

: وليلة ظلامها قد اعتكر . . .

قطعتها والزمهرير ما زهرر

(209/794)

وليس هذا لأن طبيعته باردة كما قيل لأنه في حيز المنع بل قيل أنه برهن على أن الأنوار كلها حارة فيحتمل أن ذلك للمعانه أخذاً له من ازمهر الكوكب لمع والمعنى على هذا القول أن هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس ولا قمر وفي الحديث " أن الجنة لا خطر بها هي

ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد " الحديث ثم أنها مع هذا قد يظهر فيها نور أقوى من نورها كما تشهد به الأخبار الصحيحة وفي بعض الآثار عن ابن عباس بينا أهل الجنة في الجنة إذ رأوا ضواً كضوء الشمس وقد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنة يا رضوان ما هذا وقد قال ربنا لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً فيقول لهم رضوان ليس هذا بشمس ولا قمر ولكن علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما ضحكا فأشرقت الجنان من نور ثغريهما .

(210/794)

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها ﴾ عطف على الجملة وحالها حالها أو صفة لمحذوف معطوف على ﴿ جنة ﴾ فيما سبق أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها على أنهم وعدوا جنتين كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] وقرأ أبو حيوة دانية بالرفع وخرج على أن دانية خبر مقدم لظلالها والجملة في حيز الحال على أن الواو عاطفة أو حالية أو في حيز الصفة على أن الواو عاطفة أيضاً أو للإلصاق على ما يراه الزمخشري وقال الأخفش ظلالها مرفوع بدانية على الفاعلية واستدل بذلك على جواز عمل اسم الفاعل من غير اعتماد نحو قائم الزيدون وقد علمت أنه لا يصلح للاستدلال لقيام

ذلك الاحتمال على أنه يجوز أن يكون خبر المبتدأ مقدر فيعتمد أي وهي دانية عليهم ظلالها وقرأ أبي ودان كقاض ولا يتم الاستدلال به للأخفش أيضاً وإن كان بينه وبين ما تقدم فرق ما وقرأ الأعمش ودانياً عليهم نحو خاشعاً أبصارهم والمراد أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم زيادة في نعيمهم ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ أي سخرت ثمارها لمتناولها وسهل أخذها من الذل وهو ضد الصعوبة قال قتادة ومجاهد وسفيان إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وإن كان قاعداً أو مضطجعاً فكذلك فهذا تذليلها لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك والجملة حال من ضمير دانية أي تدنو ظلالها عليهم مذللة لهم قطوفها أو معطوفة على ما قبلها وهي فعلية معطوفة على اسمية في قراءة دانية بالرفع ونكتة التخالف أن استدامة الظل مطلوبة هنالك والتجدد في تذليل القطوف على حسب الحاجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(211/794)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

حكى الواحدي عن المفسرين ، وأهل المعاني أن ﴿ هَلْ ﴾ هنا بمعنى قد ، وليس

باستفهام ، وقد قال بهذا سيبويه ، والكسائي ، والفراء ، وأبو عبيدة .

قال الفراء : هل تكون جحداً ، وتكون خبراً ، فهذا من الخبر ؛ لأنك تقول : هل أعطيتك تقرّره بأنك أعطيته ، والجحد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا وقيل : هي وإن كانت بمعنى قد ، ففيها معنى الاستفهام ، والأصل : أهل أتى ، فالمعنى : أقد أتى ، والاستفهام للتقرير والتقريب ، والمراد بالإنسان هنا آدم ، قاله قتادة ، والثوري ، وعكرمة ، والسديّ وغيرهم ﴿ حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ قيل : أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح .

وقيل : إنه خلق من طين أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة .

وقيل : الحين المذكور هنا لا يعرف مقداره .

وقيل المراد بالإنسان بنو آدم ، والحين مدّة الحمل ، وجملة : ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ في محل نصب على الحال من الإنسان ، أو في محل رفع صفة لحين .

قال الفراء ، وقطرب ، وثعلب : المعنى أنه كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً لا يذكر ، ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ، ولا ما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً .

وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئًا مذكوراً في الخلق ، وإن كان عند الله شيئًا مذكوراً .

وقيل : ليس المراد بالذكر هنا الإخبار ، فإن إخبار الربّ عن الكائنات قديم ، بل هو الذكر بمعنى الخطر والشرف ، كما في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

قال القشيري : ما كان مذكوراً للخلق وإن كان مذكوراً لله سبحانه .

قال الفراء : كان شيئًا ولم يكن مذكوراً .

فجعل النفي متوجهاً إلى القيد .

(212/794)

وقيل المعنى : قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئًا ، ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة .

وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً ؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ، ولم يخلق بعده حيوان .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ المراد بالإنسان هنا : ابن آدم .

قال القرطبي : من غير خلاف ، والنطفة : الماء الذي يقطر ، وهو المنيّ ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة ، وجمعها نطف ، و ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ صفة لنطفة ، وهي جمع مشج أو مشيج ، وهي الأخلاط ، والمراد : نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما .

يقال : مشج هذا بهذا ، فهو ممشوج ، أي : خلط هذا بهذا فهو مخلوط .

قال المبرد : مشج يمشج إذا اختلط ، وهو هنا اختلاط النطفة بالدم .

قال رؤبة بن العجاج :

يطرحن كل معجل مشاج . . . لم يكس جلداً من دم أمشاج

قال الفراء : أمشاج : اختلاط ماء الرجل وماء المرأة ، والدم والعلقة ، ويقال مشج هذا : إذا خلط .

(213/794)

وقيل الأمشاج : الحمرة في البياض والبياض في الحمرة .

قال القرطبي : وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة .

قال الهذلي :

كأن الريش والفوقين منه . . . حلاف النصل نيط به مشيج

وذلك لأن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فيخلق منهما الولد .

قال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط لأنها ممتزجة من أنواع يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة .

وقيل : الأمشاج لفظ مفرد كبرمة أعشار ، ويؤيد هذا وقوعه نعتاً لنطفة ، وجملة : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا ، أي : مريدين ابتلاءه ، ويجوز أن يكون

حالاً من الإنسان ، والمعنى : نبتليه بالخير والشرّ وبالتكاليف .

قال الفراء : معناه والله أعلم ﴿ جعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ نبتليه ، وهي : مقدّمة معناها التأخير ؛ لأن الابتلاء لا يقع إلاّ بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا تكون هذه الحال مقدّرة .

وقيل : مقارنة .

وقيل : معنى الابتلاء : نقله من حال إلى حال على طريقة الاستعارة ، والأوّل أولى .

ثم ذكر سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه الابتلاء ، فقال : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ أي : بينا له ، وعرّفناه طريق الهدى والضلال ، والخير والشرّ ، كما في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] قال مجاهد : أي بينا السبيل إلى الشقاء والسعادة .

وقال الضحاك ، والسديّ ، وأبو صالح : السبيل هنا خروجه من الرحم .

وقيل : منافعه ومضارّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله ، وانتصاب ﴿ شاكراً ﴾ و ﴿ كفوراً ﴾ على الحال من مفعول ، ﴿ هديناه ﴾ أي : مكناه من سلوك الطريق في حالتيه جميعاً .

وقيل : على الحال من سبيل على المجاز ، أي : عرّفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً .

وحكى مكيّ عن الكوفيين أن قوله : ﴿ إمّا ﴾ هي إن شرطية زيدت بعدها ما ، أي : بينا له الطريق إن شكر وإن كفر .

(214/794)

واختار هذا الفرّاء ، ولا يجيزه البصريون ؛ لأن إن الشرطية لا تدخل على الأسماء إلا أن يضمر بعدها فعل ، ولا يصح هنا إضمار الفعل ؛ لأنه كان يلزم رفع ﴿ شاكراً ﴾ و ﴿ كفوراً ﴾ .

ويمكن أن يضمر فعل ينصب شاكراً وكفوراً ، وتقديره : إن خلقناه شاكراً فشكور ، وإن خلقناه كافراً فكفور ، وهذا على قراءة الجمهور : ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ بكسر همزة إما .

وقرأ أبو السماك ، وأبو العجاج بفتحها ، وهي على الفتح إما العاطفة في لغة بعض العرب ، أو هي التفصيلية ، وجوابها مقدّر .

وقيل : انتصب شاكراً وكفوراً بإضمار كان ، والتقدير : سواء كان شاكراً أو كان كفوراً .

ثم بيّن سبحانه ما أعدّ للكافرين فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سلاسل وأغلالا وَسَعِيراً ﴾ قرأ نافع ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وهشام عن ابن عامر : " سلاسلاً "

بالتنوين ، ووقف قنبل عن ابن كثير ، وحمزة بغير ألف ، والباقون وقفوا بالألف .

ووجه من قرأ بالتنوين في سلاسل مع كون فيه صيغة منتهى الجموع أنه قصد بذلك التناسب ؛ لأن ما قبله وهو : ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ ، وما بعده وهو : ﴿ أغلالا وَسَعِيراً ﴾ منوّن ، أو على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف ، كما حكاه الكسائي ، وغيره من الكوفيين عن بعض العرب .

قال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف ؛ لأن الأصل في الأسماء الصرف ، وترك الصرف لعارض فيها .

قال الفراء : هو على لغة من يجرّ الأسماء كلها إلاّ قولهم : هو أظرف منك ، فإنهم لا يجرّونه ، وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا فينا وفيهم . . . مخاريق بأيدي لاعبينا

ومن ذلك قول الشاعر :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم . . . خضع الرقاب نواكس الأبصار

بكسر السين من نواكس ، وقول لبيد :

وحسور أستار دعوني لحتفها . . . بمعالق متشابه أعلاقها

وقوله أيضاً :

فضلاً وذو كرم يعين على الندى . . . سمح لشوب رغائب غنامها

وقيل : إن التنوين لموافقة رسم المصاحف المكية والمدنية والكوفية فإنها فيها بالألف .

وقيل : إن هذا التنوين بدل من حرف الإطلاق ، ويجري الوصل مجرى الوقف ، والسلاسل قد تقدّم تفسيرها ، والخلاف فيها هل هي القيود ، أو ما يجعل في الأعناق ، كما في قول الشاعر :

. .

. .

. .

. .

ولكن . . . أحاطت بالرقاب السلاسل والأغلال

جمع غلّ تغلّ به الأيدي إلى الأعناق .

والسعير : الوقود الشديد ، وقد تقدّم تفسير السعير ، ثم ذكر سبحانه ما أعدّه للشاكرين ، فقال : ﴿ إِنَّ الأَبرارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ الأبرار : أهل الطاعة والإخلاص ، والصدق ، جمع برّ أو بارّ .

قال في الصحاح : جمع البرّ الأبرار ، وجمع البارّ البررة ، وفلان يبرّ خالقه ويبرره ، أي : يطيعه .

وقال الحسن : البرّ الذي لا يؤذي الذر .

وقال قتادة : الأبرار الذين يؤدون حق الله ويوفون بالنذر .

والكأس في اللغة هو الإناء الذي فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه الشراب لم يسمّ كأساً ، ولا وجه لتخصيصه بالزجاجة ، بل يكون من الزجاج ومن الذهب والفضة والصيني وغير ذلك ، وقد كانت كاسات العرب من أجناس مختلفة ، وقد يطلق الكأس على نفس الخمر ، كما في قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة . . . وأخرى تداويت منها بها

﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ أي : يخالطها ، وتمزج به ، يقال : مزجه يمزجه مزجاً ، أي : خلطه يخلطه خلطاً ، ومنه قول الشاعر :

كأن سبية من بيت رأس . . . كان مزاجها عسل وماء

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أمّ عمرو . . . وكان الكأس مجراها اليمينا

معتقة كأن الخصّ فيها . . . إذا ما الماء خالطها سخينا

ومنه مزاج البدن ، وهو ما يمازجه من الأخلاط ، والكافور قيل : هو اسم عين في الجنة يقال

لها : الكافوري تمزج خمر الجنة بماء هذه العين .

وقال قتادة ، ومجاهد : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك .

وقال عكرمة : مزاجها طعمها .

وقيل : إنما الكافور في ريحها لا في طعمها .

(216/794)

وقيل : إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده ، لأن الكافور لا يشرب ، كما في قوله :

﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ [الكهف : 96] أي : كنار .

وقال ابن كيسان : طيبها المسك والكافور والزنجبيل .

وقال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا ، وإنما سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب ، والجملة في محل جرّ صفة لكأس .

وقيل : إن كان هنا زائدة أي : من كأس مزاجها كافوراً .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ انتصاب ﴿ عيناً ﴾ على أنها بدل من ﴿ كافوراً ﴾ ؛ لأن ماءها في بياض الكافور .

وقال مكي : إنها بدل من محل ﴿ مِن كَأْسٍ ﴾ على حذف مضاف كأنه قيل : يشربون خمراً خمر عين .

وقيل : إنها منتصبة على أنها مفعول يشربون أي : عيناً من كأس ، وقيل : هي منتصبة على الاختصاص ، قاله الأخفش .

وقيل : منتصبة بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أي : يشربون عيناً يشرب بها عباد الله ، والأوّل أولى ، وتكون جملة ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ صفة ل ﴿ عيناً ﴾ .

وقيل : إن الباء في ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ زائدة .

وقيل : بمعنى من قاله الزجاج ، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله .

وقيل : إن يشرب مضمن معنى يلتذّ .

وقيل : هي متعلقة ب ﴿ يشرب ﴾ ، والضمير يعود إلى الكأس .

وقال الفراء : يشربها ويشرب بها سواء في المعنى ، وكأنّ يشرب بها يروى بها ، وينتفع بها وأنشد قول الهذلي :

شربن بماء البحر ثم ترفعت . . . قال : ومثله تكلم بكلام حسن ، وتكلم كلاماً حسناً ﴿ يُفَجّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي : يجرونها إلى حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يريدون وصوله إليه ، فهم يشقونها شقاً ، كما يشقّ النهر ويفجر إلى هنا وهنا .

قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا مالت معهم ، والجملة صفة أخرى ل ﴿ عيناً ﴾ ، وجملة ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر ، وكذا ما عطف عليها ، ومعنى النذر في اللغة : الإيجاب ، والمعنى : يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات .

قال قتادة ، ومجاهد : يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما .

وقال عكرمة : يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه ، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه ، فالمعنى : يوفون بما أوجبوه على أنفسهم .

قال الفراء : في الكلام إضمار ، أي : كانوا يوفون بالنذر في الدنيا .

وقال الكلبي : يوفون بالعهد ، أي : يتممون العهد .

والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص ﴿ ويخافون يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ المراد يوم القيامة ، ومعنى استطارة شرّه : فشوّه وانتشاره ، يقال : استطار يستطير استطارة ، فهو مستطير ، وهو استفعل من الطيران ، ومنه قول الأعشى :

فباتت وقد أثارت في الفؤا . . . د صدعاً على نأيها مستطيرا

والعرب تقول : استطار الصدع في القارورة والزجاجة : إذا امتدّ ، ويقال استطار الحريق : إذا انتشر .

قال الفراء : المستطير المستطيل .

قال قتادة : استطار شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات ، والأرض .

قال مقاتل : كان شرّه فاشياً في السموات ، فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة ، وفي الأرض نسفت الجبال وغارت المياه .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ أي : يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف الطعام على حبه لديهم وقلته عندهم .

قال مجاهد : على قلته ، وحبهم إياه وشهوتهم له ؛ فقوله : ﴿ على حبه ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : كائنين على حبه ، ومثله قوله : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] وقيل : على حبّ الإطعام لرغبتهم في الخير .

(218/794)

قال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام .

وقيل : الضمير في حبه يرجع إلى الله أي : يطعمون الطعام على حبّ الله ، أي : يطعمون

إطعاماً كائناً على حبّ الله ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ والمسكين ذو المسكنة ، وهو الفقير ، أو من هو أفقر من الفقير ، والمراد باليتيم يتامى المسلمين ، والأسير الذي يؤسر فيحبس .

قال قتادة ، ومجاهد : الأسير المحبوس .

وقال عكرمة : الأسير العبد .

وقال أبو حمزة الثمالي : الأسير المرأة .

قال سعيد بن جبير : نسخ هذا الإطعام آية الصدقات ، وآية السيف في حق الأسير الكافر .

وقال غيره : بل هي محكمة ، وإطعام المسكين واليتيم على التطوّع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام .

وجملة : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول ، أي : يقولون إنما نطعمكم ، أو قائلين إنما نطعمكم يعني : أنهم لا يتوقعون المكافأة ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك .

قال الواحدي : قال المفسرون : لم يستكملوا بهذا ، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم ، وعلم من ثنائه أنهم فعلوا ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُوراً ﴾ أي : لا نطلب منكم المجازاة على هذا الإطعام ، ولا نريد منكم الشكر لنا ، بل

هو خالص لوجه الله ، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها ؛ لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ، ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ أي : نخاف عذاب يوم متصف بهاتين الصفتين ، ومعنى ﴿ عَبُوساً ﴾ : أنه يوم تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى : أنه ذو عبوس .

قال الفراء ، وأبو عبيدة ، والمبرد : يوم قمطرير وقماطر : إذا كان صعباً شديداً ، وأنشد الفراء :

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا . . . عليكم إذا ما كان يوم قماطر

(219/794)

قال الأخفش : القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء ، ومنه قول الشاعر :

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارها . . . ولج بها اليوم العبوس القماطر

قال الكسائي : اقمطرّ اليوم وازمهرّ : إذا كان صعباً شديداً ، ومنه قول الشاعر :

بنو الحرب أوصينا لهم بقمطرة . . . ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

وقال مجاهد : إن العبوس بالشفتين ، والقمطير بالجبهة والحاجبين ، فجعلهما من صفات

المتغير في ذلك اليوم لما يراه من الشدائد ، وأنشد ابن الأعرابي :

يقدر على الصيد بعود منكسر . . . ويقمطر ساعة ويكفهر

قال أبو عبيدة : يقال : قمطرير ، أي : منقبض ما بين العينين والحاجبين .

قال الزجاج : يقال اقمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها ما يسبقها من القطر ، وجعل الميم مزيدة .

﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ أي : دفع عنهم شرّه بسبب خوفهم منه وإطعامهم لوجهه

﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ أي : أعطاهم بدل العبوس في الكفار نضرة في الوجود وسروراً في القلوب .

قال الضحاك : والنضرة البياض والنقاء في وجوههم .

وقال سعيد بن جبير : والحسن والبهاء .

وقيل : النضرة أثر النعمة .

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي : بسبب صبرهم على التكاليف .

وقيل : على الفقر .

وقيل : على الجوع .

وقيل : على الصوم .

والأولى حمل الآية على الصبر على كل شيء يكون الصبر عليه طاعة لله سبحانه ، و " ما "

مصدرية ، والتقدير : بصبرهم ﴿ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ أي : أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ، وهو لباس أهل الجنة عوضاً عن تركه في الدنيا امتثالاً لما ورد في الشرع من تحريمه ، وظاهر هذه الآيات العموم في كلّ من خاف من يوم القيامة وأطعم لوجه الله وخاف من عذابه ، والسبب وإن كان خاصاً ، كما سيأتي ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويدخل سبب التنزيل تحت عمومها دخولاً أوّلياً .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ قال : كل إنسان .

(220/794)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ قال : أمشاجها عروقها .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ قال : العروق .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ قال : ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ ألوان : نطفة الرجل بيضاء

وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وحمراء .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الأمشاج الذي يخرج على أثر البول كقطع الأوتار ، ومنه يكون الولد .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ قال : فاشياً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَأَسِيراً ﴾ قال : هو المشرك .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ مِسْكِيناً ﴾ قال : " فقيراً " ﴿ وَيَتِيماً ﴾ قال " لا أب له " ﴿ وَأَسِيراً ﴾ قال : " المملوك والمسجون " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام ﴾ الآية قال : نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ يَوْماً عَبُوساً ﴾ قال : ضيقاً ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ قال : طويلاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ قال : " يقبض ما بين الأبصار " وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر من طرق عن ابن عباس قال : القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه .

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ قال : نضرة في وجوههم ، وسروراً في صدورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 343 . 349 ﴾

(221/794)

وقال ابن عاشور :

وأما قوله : ﴿ إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾

فهو مقول لقول يقولونه في نفوسهم أو ينطق به بعضهم مع بعض وهو حال من ضمير ﴿ يخافون ﴾ [الإنسان : 7] أي يخافون ذلك اليوم في نفوسهم قائلين : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ﴾ ، فحكي وقولهم : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ وقولهم : ﴿ إنا نخاف ﴾ الخ .

على طريقة اللف والنشر المعكوس والداعي إلى عكس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم ليكون الانتقال من ذكر الإِطعام إلى ما يقولونه للمطعمين ، والانتقال من ذكر خوف يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إياهم من شر ذلك اليوم وما يلقونه فيه من النضرة والسرور والنعيم .

فيجوز أن يكون ﴿ من ربنا ﴾ ظرفاً مستقراً وحرف ﴿ مِن ﴾ ابتدائية وهو حال من

﴿ يوماً ﴾ قُدم عليه ، أي نخاف يوماً عبوساً قمطريراً حال كونه من أيام ربنا ، أي من أيام تصاريفه .

ويجوز أن تكون ﴿ مِن ﴾ تجريدية كقولك : لي من فلان صديق حميم .

ويكون ﴿ يوماً ﴾ منصوباً على الظرفية وتنوينه للتعظيم ، أي نخافه في يوم شديد .

و ﴿ عَبوساً ﴾ : منصوباً على المفعول لفعل ﴿ نخاف ﴾ ، أي نخاف غضبان شديدَ الغضب هُو ربنا ، فيكون في التجريد تقوية للخوف إذ هو كخوف من شيْئَينِ (وتلك نكتة التجريد) ، أو يكون ﴿ عبوساً ﴾ حالاً ﴿ من ربنا ﴾ .

ويجوز أن تجعل ﴿ مِن ﴾ لتعدية فعل ﴿ نخاف ﴾ كما عدي في قوله تعالى : ﴿ فمن خاف مِن موصٍ جَنفاً ﴾ [البقرة : 182] .

وينتصب ﴿ يوماً ﴾ على المفعول به لفعل ﴿ نخاف ﴾ فصار لفعل ﴿ نخاف ﴾ معمولانِ .

و ﴿ عبوساً ﴾ صفة ل ﴿ يوماً ﴾ ، والمعنى : نخاف عذاب يوم هذه صفته ، ففيه تأكيد الخوف بتكرير متعلّقه ومرجع التكرير إلى كونه خوف الله لأن اليوم يوم عدل الله وحكمه .

والعبوس : صفة مشبهة لمن هو شديد العبس ، أي كُلُوحُ الوجه وعدم انطلاقه ، ووصف اليوم بالعبوس على معنى الاستعارة .

شُبه اليوم الذي تحدث فيه حوادث تَسُوءهم برجل يخالطهم يكون شرس الأخلاق عبوساً في معاملته .

والقمطرير : الشديد الصعب من كل شيء .

وعن ابن عباس : القمطرير المقبض بين عينيه مشتق من قمطر القاصر إذا اجتمع ، أو قمطر المتعدي إذا شد القربة بوكاء ونحوه ، ومنه سمي السفط الذي توضع فيه الكتب قمطرا وهو كالمحفظة .

وميم قمطرير أصلية فوزنه فعلليل مثل خَنْدَرِيس وزنْجبيل ، يقال : قمطر للشر ، إذا تهيأ له وجمع نفسه .

والجمهور جعلوا ﴿ قمطريراً ﴾ وصف ﴿ يوماً ﴾ ومنهم من جعلوه وصف ﴿ عبوساً ﴾ أي شديد العبوس .

وهذه الآية تعمّ جميع الأبرار وعلى ذلك التحم نسجها ، وقد تلقفها القصاصون والدعاة فوضعوا لها قصصاً مختلفة وجاؤوا بأخبار موضوعة وأبيات مصنوعة فمنهم من زعم أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما في قصة طويلة ذكرها

الثعلبي والنقاش وساقها القرطبي بطولها ثم زيفها .

وذكر عن الحكيم الترمذي أنه قال في "نوادر الأصول" : هذا حديث مروّق مزيف وأنه يشبه أن يكون من أحاديث أهل السجون .

وقيل نزلت في مُطعم بن ورقاء الأنصاري ، وقيل في رجل غيره من الأنصار ، وقد استوفى ذلك كله القرطبي في تفسيره فلا طائل تحت اجتلابه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله أهل لأن ينزل القرآن فيهم إلاّ أن هذه الأخبار ضعيفة أو موضوعة .

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11)

تفريع على قوله : ﴿ يُوفُون بالنذر إلى قمطريراً ﴾ [الإنسان : 107] .

وفي هذا التفريع تلوين للحديث عن جزاء الأبرار وأهل الشُكور ، وهذا برزخ للتخلص إلى عَود الكلام على حسن جزائهم أن الله وقاهم شرّ ذلك اليوم وهو الشر المستطير المذكور آنفاً ، وقاهم إياه جزاءً على خوفهم إياه وأنه لقاهم نضرة وسروراً جزاء على ما فعلوا من خير .

وأُدمج في ذلك قوله : ﴿ بما صبروا ﴾ الجامع لأحوال التقوى والعمل الصالح كله لأن جميعه لا يخلو عن تحمل النفس لترك محبوب أو فعل ما فيه كلفة ، ومن ذلك إطعام الطعام على حبه .

و ﴿ لقَّاهم ﴾ معناه : جعلهم يَلْقَون نضرة وسروراً ، أي جعل لهم نضرة وهي حسن البشَرة ، وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية العيش قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة ﴾ [القيامة : 22] فمُثل إلقاء النضرة على وجوههم بزجّ أحد إلى لقاء أحد على طريقة التمثيل .

وضمير الغائبةِ و ﴿ نضرة ﴾ مفعولا (لَقى) من باب كَسَا .

وبين (وَقَاهم) و ﴿ لَقَّاهم ﴾ الجناس المحرَّف .

وجملة ﴿ وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً ﴾ ، عطف على جملة ﴿ فوقاهم ﴾ وجملة ﴿ ولقاهم ﴾ لتماثل الجمل الثلاث في الفعلية والمُضيّ وهما محسنان من محسنات الوصل .

والحرير : اسم لخيوط من مفرزات دودة مخصوصة ، وتقدم الكلام عليه في سورة فاطر .

وكان الجزاء برفاهية العيش إذ جعلهم في أحسن المساكن وهو الجنة ، وكساهم أحسن الملابس وهو الحرير الذي لا يلبسه إلاّ أهل فرط اليسار ، فجمع لهم حسن الظرف الخارج وحسن الظرف المباشر وهو اللباس .

والمراد بالحرير هنا : ما ينسج منه .

و﴿ متكئين ﴾ : حال من ضمير الجمع في ﴿ جزاهم ﴾ ، أي هم في الجنة متكئون على الأرائك .

والاتكاء : جَلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه وهي جلسة ارتياح ، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " أمَّا أنا فلا آكل متكئاً " وتقدم ذلك في سورة يوسف (31) عند قوله تعالى : ﴿ وأعْتَدَتْ لَهُن مُتَّكَئاً ﴾

والأرائك ﴾ : جمع أريكة بوزن سفينة .

والأريكة : سرير عليه وسادة معها ستر وهو حَجَلَتُه ، والحجلة بفتحتين وبتقديم الحاء المهملة على الجيم : كِلَّة تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس ، ولا يسمى السرير أريكة إلاّ إذا كان معه حَجَلَة .

(224/794)

وقيل : كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة وإن لم تكن له حَجَلَة ، وفي "الإِتقان" عن ابن الجوزي : أن الأريكة السرير بالحبشية فزاده السيوطي على أبيات ابن السبكي

وابن حجر في "جمع المعرب في القرآن" .

وجملة : ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ حال ثانية من ضمير الغائب في ﴿ جزاهم ﴾ أو صفة ﴿ جنة ﴾ .

والمراد بالشمس : حرّ أشعتها ، فنفي رؤية الشمس في قوله : ﴿ لا يرون فيها شمساً ﴾ فيكون نفي رؤية الشمس كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزمه انتفاء حرّ شعاعها فهو من الكناية التلويحية كقوله:

ولا تَرى الضب بها ينجَحِرْ . . .

أي لا ضب بها فتراه ولا يكون انجحاره .

والزمهرير : اسم للبرْد القوي في لغة الحجاز ، والزمهرير : اسم البرد .

والمعنى : أن هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال .

وفي كلام الرابعة من نساء حديث أم زرع "زوجي كلَيْلِ تِهامهْ ، لا حرَّ ولا قُرّ ولا مخافةَ ولا سآمهْ" .

وقال ثعلب : الزمهرير اسم القمر في لغة طيء ، وأنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر . . .

قطعتها والزمهريرُ ما زهَر

والمعنى على هذا : أنهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس ولا ضوء القمر ، أي ضوء النهار

وضوء الليل لأن ضياء الجنة من نور واحد خاص بها .

وهذا معنى آخر غير نفي الحر والبرد .

ومن الناس من يقول : المراد بالشمس حقيقتها وبالزمهرير البرد وإن في الكلام احتباكاً ، والتقديرُ : لا يرون فيها شمساً ولا قَمراً ولا حَرّاً ولا زمهريراً وجعلوه مثالاً للاحتباك في المحسنات البديعية ، ولعل مراده : أن المعنى أن نورها معتدل وهواءَها معتدل .

﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ انتصب ﴿ دانية ﴾ عطفاً على ﴿ متكئين ﴾ لأن هذا حال سببي من أحوال المتكئين ، أي ظلال شجر الجنة قريبَة منهم .

و﴿ ظلالها ﴾ فاعل ﴿ دانية ﴾ وضمير ﴿ ظلالها ﴾ عائد إلى ﴿ جنة ﴾ .

(225/794)

ودنو الظلال : قربها منهم وإذ لم يعهد وصف الظل بالقرب يظهر أن دنوّ الظلال كناية عن تدلّي الأدواح التي من شأنها أن تظلل الجنات في معتاد الدنيا ولكن الجنة لا شمس فيها فيستظلَّ من حرّها ، فتعين أن تركيب ﴿ دانيةً عليهم ظلالُها ﴾ مثَل يطلق على تدلِّي أفنان الجنة لأن الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنوّ ولا بعد ، وقد يكون ﴿ ظلالها ﴾ مجازاً مرسلاً عن الأفنان بعلاقة اللزوم .

والمعنى : أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم وذلك مما يزيدها بهجة وحسناً وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ قُطُوفها دانية ﴾ [الحاقة : 23] .

ولذلك عطف عليه جملة ﴿ وذُلِّلت قطوفها تذليلاً ﴾ .

أي سخرت لهم قطوف تلك الأدواح وسهلت لهم بحيث لا التواء فيها ولا صلابة تتعب قاطفها ولا يتمطَّون إليها بل يجتنونها بأسهلِ تناول .

فاستعير التذليل للتيسير كما يقال : فرس ذَلول : أي مِطواع لراكبه ، وبقرة ذَلول ، أي ممرنة على العمل ، وتقدم في سورة البقرة .

والقُطوف : جمع قِطف بكسر القاف وسكون الطاء ، وهو العنقود من التمر أو العنب ، سمّي قِطفاً بصيغة من صيغ المفعول مثل ذِبح ، لأنه يقصد قَطفه فإطلاق القطف عليه مجاز باعتبار المآل شاع في الكلام .

وضمير ﴿ قطوفها ﴾ عائد إلى ﴿ جنة ﴾ أو إلى ﴿ ظلالها ﴾ باعتبار الظلال كناية عن الأشجار .

و ﴿ تذليلاً ﴾ مصدر مؤكّد لذلك ، أي تذليلاً شديداً منتهياً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(226/794)

قوله تعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الدوران بالآنية متجدداً ، عبر فيه بالمضارع ، وبناه للمفعول أيضاً لأنه المقصود مطلقاً من غير تعيين طائف فقال : ﴿ ويطاف ﴾ أي من أيّ طائف كان لكثرة الخدم ﴿ عليهم بآنية ﴾ جمع إناء جزاء على طوافهم على المحتاجين بما يصلحهم .

ولما كان مقصود هذه السورة ترهيب الإنسان الموبخ في سورة القيامة من الكفر ، وكان الإنسان أدنى أسنان المخاطبين في مراتب الخطاب ، اقتصر في الترغيب في شرف الآنية على الفضة دون الذهب المذكور في فاطر والحج المعبر فيهما بالناس ، فلعل هذا لصنف وذاك لصنف – أعلى منه مع إمكان الجمع والمعاقبة ، وأما من هو أعلى من هذين الصنفين من الذين آمنوا ومن فوقهم فلهم فوق هذين الجوهرين من الجواهر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فقال : ﴿ من فضة ﴾ أي اسمه ذلك ، وأما الحقيقة فأين الثريا من يد المتناول .

ولما جمع الآنية خص فقال : ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له ، فيسهل الشهرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول إلى إدارة ﴿ كانت ﴾ أي تلك الأكواب كوناً هو من جبلتها ﴿ قواريراً ﴾ أي كانت بصفة القوارير من الصفاء والرقة والشفوف والإشراق والزهارة ، جمع قارورة وهي ما قر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف ، وقيل : هو خاص بالزجاج .

ولما كان هذا رأس آية ، وكان التعبير بالقارورة ربما أفهم أو أوهم أنها من الزجاج ، وكان في الزجاج من النقص سرعة الانكسار لإفراط الصلابة ، قال معيداً للفظ أول الآية الثانية ، تأكيداً للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج وبياناً لنوعها : ﴿ قواريراً من فضة ﴾ أي فجمعت صفتي الجوهرين المتباينين : صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه وبياض الفضة وشرفها ولينها ، وقراءة من نوّن الاثنين صارفاً ما من حقه المنع مشيرة إلى عظمتها وامتداد كثرتها وعلوها في الفضل والشرف ، وقراءة ابن كثير في الاقتصار على تنوين الأول للتنبيه على أنه رأس آية والثاني أول التي بعدها مع إفهام العظمة لأن الثاني إعادة للأول لما تقدم من الإفادة ، فكأنه منون ، ووقف أبو عمرو على الأول بالألف مع المنع من الصرف لأن ذلك كاف في الدلالة على أنه رأس آية .

ولما كان الإنسان لا يجب أن يكون الإناء ولا ما فيه من مأكول أو مشروب زائداً عن حاجته ولا ناقصاً عنها قال : ﴿ قدروها ﴾ أي في الذات والصفات ﴿ تقديراً ﴾ أي على مقادير الاحتياج من غير زيادة ولا نقص لأن ما أراد كل منها كان ، لا كلفة ولا كدر ولا نقص .

ولما ذكر الأكواب ، أتبعها غايتها فقال تخصيصاً بالعطف على ما تقديره : يسقون فيها ما تشتهي أنفسهم وتلذ أعينهم : ﴿ ويسقون ﴾ ممن أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة ﴿ فيها ﴾ أي الجنة أو تلك الأكواب ﴿ كأساً ﴾ أي خمراً في إناء ﴿ كان مزاجها ﴾ على غاية الإحكام ﴿ زنجبيلاً ﴾ هو في غاية اللذة ، وكانت العرب تستلذ الشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم والنكهة .

ولما كان الزنجبيل عندنا شجراً يحتاج في تناوله إلى علاج ، أبان أنه هناك عين لا يحتاج في صيرورته زنجبيلاً إلى أن تحيله الأرض بتخميره فيها حتى يصير شجراً ليتحول عن طعم الماء إلى طعم الزنجبيل خرقاً للعوائد فقال : ﴿ عيناً فيها ﴾ أي الجنة يمزج فيها شرابهم كما يمزج بالماء .

ولما كان الزنجبيل يلذع الحق فتصعب إساغته قال : ﴿ تسمى ﴾ أي لسهولة إساغتها ولذة طعمها وسمو وصفها ﴿ سلسبيلاً ﴾ والسلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غاية في السلاسة ، زيدت فيه الباء دلالة على المبالغة في هذا المعنى ، قالوا :

وشراب الجنة في برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 270 . 272 ﴾

(228/794)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما وصف طعامهم ولباسهم ومسكنهم وصف بعد ذلك شرابهم وقدم عليه وصف تلك الأواني التي فيها يشربون فقال :

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15)

في الآية سؤالات :

السؤال الأول : قال تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بصحاف مّن ذَهَبٍ وأكواب ﴾ [الزخرف : 71] والصحاف هي القصاع ، والغالب فيها الأكل فإذا كان ما يأكلون فيه ذهباً فما يشربون فيه أولى أن يكون ذهباً لأن العادة أن يتنوق في إناء الشرب ما لا يتنوق في إناء الأكل وإذا دلت هذه الآية على أن إناء شربهم يكون من الذهب فكيف ذكر ههنا أنه من الفضة والجواب : أنه لا منافاة بين الأمرين فتارة يسقون بهذا وتارة بذاك .

السؤال الثاني : ما الفرق بين الآنية والأكواب ؟ الجواب : قال أهل اللغة : الأكواب الكيزان التي لا عرى لها ، فيحتمل أن يكون على معنى أن الإناء يقع فيه الشرب كالقدح ، والكوب ما صب منه في الإناء كالإبريق .

السؤال الثالث : ما معنى ﴿ كانت ﴾ ؟ الجواب : هو من يكون في قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] أي تكونت قوارير بتكوين الله تفخيماً لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين .

(229/794)

السؤال الرابع : كيف تكون هذه الأكواب من فضة ومن قوارير ؟ الجواب : عنه من وجوه أحدها : أن أصل القوارير في الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله تعالى قادر على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية ، فكذلك هو قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة ، فالغرض من ذكر هذه الآية ، التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا ، فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين ، فكذا بين القارورتين في الصفاء واللطافة وثانيها : قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء وإذا كان كذلك فكمال الفضة في بقائها ونقائها وشرفها إلا أنه كثيف

الجوهر ، وكمال القارورة في شفافيتها وصفائها إلا أنه سريع الانكسار ، فآنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها ، وشرف جوهرها ، ومن القارورة ، صفاؤها وشفافيتها وثالثها : أنها تكون فضة ولكن لها صفاء القارورة ، ولا يستبعد من قدرة الله تعالى الجمع بين هذين الوصفين ورابعها : أن المراد بالقوارير في الآية ليس هو الزجاج ، فإن العرب تسمي ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة ورق وصفاً قارورة ، فمعنى الآية وأكواب من فضة مستديرة صافية رقيقة .

السؤال الخامس : كيف القراءة في ﴿ قَوَارِيرَاْ * قَوارِيرَ ﴾ ؟ الجواب : قرئا غير منونين وبتنوين الأول وبتنوينهما ، وهذا التنوين بدل عن ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفي الثاني لاتباعه الأول لأن الثاني بدل من الأول فيتبع البدل المبدل ، وقرىء : ﴿ قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ بالرفع على هي قوارير ، وقدروها صفة لقوارير من فضة .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال المفسرون معناه : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ على قدر ريهم لا يزيد ولا ينقص من الري ليكون ألذ لشربهم ، وقال الربيع بن أنس : إن تلك الأواني تكون بمقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها .

المسألة الثانية :

أن منتهى مراد الرجل في الآنية التي يشرب منها الصفاء والنقاء والشكل .

أما الصفاء فقد ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ كَانَتْ قَوَارِير ﴾ وأما النقاء فقد ذكره بقوله : ﴿ من فضة ﴾ ، وأما الشكل فقد ذكره بقوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ .

المسألة الثالثة :

المقدر لهذا التقدير من هو ؟ فيه قولان : الأول : أنهم هم الطائفون الذين دل عليهم قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك أنهم قدروا شرابها على قدر ري الشارب والثاني : أنهم هم الشاربون وذلك لأنهم إذا اشتهوا مقداراً من المشروب جاءهم على ذلك القدر .

واعلم أنه تعالى لما وصف أواني مشروبهم ذكر بعد ذلك وصف مشروبهم ، فقال :

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17)

العرب كانوا يحبون جعل الزنجبيل في المشروب ، لأنه يحدث فيه ضرباً من اللذع ، فلما كان كذلك وصف الله شراب أهل الجنة بذلك ، ولا بد وأن تكون في الطيب على أقصى الوجوه .

قال ابن عباس : وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن مما في الجنة ، فليس منه في الدنيا إلا الاسم ، وتمام القول ههنا مثل ما ذكرناه في قوله : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ [الإنسان : 5] .

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(231/794)

قال ابن الأعرابي : لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن ، فعلى هذا لا يعرف له اشتقاق ، وقال الأكثرون : يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل أي عذب سهل المساغ ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ، ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج : السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة ، والفائدة في ذكر السلسبيل هو أن ذلك الشراب يكون في طعم الزنجبيل ، وليس فيه لذعة لأن نقيض اللذع هو السلاسة ، وقد عزوا إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أن معناه : سل سبيلاً إليها ، وهو بعيد إلا أن يراد أن جملة قول القائل : سلسبيلا جعلت علماً للعين ، كما قيل : تأبط شراً ، وسميت بذلك ، لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح .

المسألة الثانية :

في نصب عيناً وجهان أحدهما : أنه بدل من زنجبيلاً وثانيهما : أنه نصب على

الاختصاص .

المسألة الثالثة :

سلسبيلاً صرف لأنه رأس آية ، فصار كقوله ﴿ الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] و ﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] ، وقد تقدم في هذه السورة بيان ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 219 . 221 ﴾

(232/794)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

﴿ هل ﴾ في كلام العرب قد يجيء بمعنى " قد " حكاه سيبويه ، لكنها لا تخلو من تقرير وبابها المشهور الاستفهام المحض والتقرير أحياناً . فقال ابن عباس وقتادة هي هنا بمعنى " قد " ، و ﴿ الإنسان ﴾ يراد به آدم عليه السلام ، و " الحين " : هي المدة التي بقي طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح ؛ أي أنه شيء ولم يكن مذكوراً منوهاً به في العالم وفي حالة العدم المحض قبل ﴿ لم يكن شيئاً ﴾ ولا ﴿ مذكوراً ﴾ ، وقال أكثر المتأولين : ﴿ هل ﴾ تقرير ، و ﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس ، أي إذا تأمل كل إنسان نفسه علم بأنه قد مر ﴿ حين من الدهر

﴿ عظيم ﴿ لم يكن ﴾ هو فيه ﴿ شيئاً مذكوراً ﴾ ، أي لم يكن موجوداً ، وقد يسمى الموجود ﴿ شيئاً ﴾ فهو مذكور بهذا الوجه ، و" الحين " هنا : المدة من الزمن غير محدودة تقع للقليل والكثير ، وإنما تحتاج إلى تحديد الحين في الإيمان ، فمن حلف أن لا يكلم أخاه حيناً ، فذهب بعض الفقهاء إلى أن الحين سنة ، وقال بعضهم : ستة أشهر ، والقوي في هذا أن ﴿ الإنسان ﴾ اسم جنس وأن الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الصانع له قادر على إعادته .

(233/794)

وقوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ هو هنا اسم الجنس بلا خلاف ، لأن آدم لم يخلق ﴿ من نطفة ﴾ ، و ﴿ أمشاج ﴾ معناه أخلاط وأحدها مَشَج بفتح الميم والشين قاله ابن السكيت وغيره ، وقيل : مشج مثل عدل وأعدال ، وقيل : مشيج مثل شريف وأشراف ، واختلف في المقصود من الخلط ، فقيل هو ﴿ أمشاج ﴾ ماء الرجل بماء المرأة ، وأسند الطبري حديثاً وهو أيضاً في بعض المصنفات " إن عظام ابن آدم وعصبة من ماء الرجل ، ولحمه وشحمه من ماء المرأة " وقيل هو اختلاط أمر الجنين بالنقلة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى غير ذلك . فهو أمر مختلط ، وقيل هو اختلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء

فيه ، و﴿ نبتليه ﴾ معناه نختبره بالإيجاد والكون في الدنيا هو حال من الضمير في ﴿ خلقنا ﴾ كأنه قال : مختبرين له بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه ﴾ عطف جملة تعم على جملة تعم ، وقال بعض النحويين إنما المعنى فنبتليه جعلناه ﴿ سميعاً بصيراً ﴾ ، ثم ترتب اللفظ موجزاً متداخلاً كأنه قال ﴿ نبتليه ﴾ فلذلك جعلناه ، والابتلاء على هذا أنما هو بالإسماع والإبصار لا بالإيجاب وليس ﴿ نبتليه ﴾ حالاً ، وقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ يحتمل أن يريد ﴿ السبيل ﴾ العامة للمؤمن والكافر فذلك يختلق الحواس وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالة على الصانع ، ف ﴿ هديناه ﴾ على هذا بمعنى أرشدناه كما يرشد الإنسان إلى الطريق ويوقف عليه ، ويحتمل أن يريد ﴿ السبيل ﴾ اسم الجنس ، أي هدى المؤمن إيمانه والكافر لكفره ف ﴿ هديناه ﴾ على هذا معناه أريناه وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإيمان ، وقوله تعالى : ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ حالان وقسمتهما ﴿ إما ﴾ قاله أبو عمرو الداني ، وقرأ أبو العاج " إما شاكراً وإما كفوراً " وأبو العاج كثير بن عبد الله السلمي شامي ولى البصرة لهشام بن عبد الملك ، و﴿ أعتدنا ﴾ معناه أعددناه ، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم " سلاسلاً " بالصرف

وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما يصرف إلا أفعل وهي لغة الشعراء .

ثم كثر حتى جرى في كلامهم ، وقد علل بعبة وهي أنه لما كان هذا الضرب من الجموع يجمع لشبه الآحاد فصرف ، وذلك من شبه الآحاد موجود في قولهم صواحب وصاحبات وفي قول الشاعر [الفرزدق] : [الكامل]

(235/794)

نواكسي الأبصار . . . بالياء جمع نواكس ، وهذا الأجراء في " سلاسلاً وقواريراً " أثبت في مصحف ابن مسعود ومصحف أبيّ بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة " سلاسلَ " ، على ترك الصرف في الوقف والوصل ، وهي قراءة طلحة وعمرو بن عبيد ، وقرأ أبو عمرو وحمزة فيما روي عنهما : " سلاسل " في الوصل و " سلاسلاً " دون تنوين في الوقف ، ورواه هشام عن ابن عامر لأن العرب من يقول رأيت عمراً يقف بألف ، وأيضاً فالوقوف ، بالأف " سلاسلا " اتباع لخط المصحف ، و ﴿ الأبرار ﴾ جمع بار كشاهد وأشهاد ، وقال الحسن هم الذين لا يؤذون الذر ، ولا يرضون

الشر ، و" الكأس " : ما فيه نبيذ ونحوه مما يشرب به ، قال ابن كيسان : ولا يقال الكأس إلا لما فيه نبيذ ونحوه ، ولا يقال ظعينة إلا إذا كان عليها امرأة ولا مائدة إلا وعليها طعام وإلا فهي خوان . والمزاج : ما يمزج به الخمر ونحوها ، وهي أيضاً مزاج له لأنهما تمازجاً مزاجاً ، قال بعض الناس : " المزاج " نفس الكافور ، وقال قتادة نعم قوم يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك ، وقال الفراء : يقال إنه في الجنة عين تسمى ﴿ كافوراً ﴾ وقال بعض المتأولين إنما أراد ﴿ كافوراً ﴾ في النكهة والعرف كما تقول إذا مزجت طعاماً هذا الطعام مسك .

وقوله تعالى : ﴿ عيناً ﴾ هو بدل من قوله ﴿ كافوراً ﴾ ، وقيل هو مفعول بقوله ﴿ يشربون ﴾ ، أي ﴿ يشربون ﴾ ماء هذه العين من كأس عطرة كالكافور ، وقيل نصب ﴿ عيناً ﴾ على المدح أو بإضمار أعني ، وقوله ﴿ يشرب بها ﴾ بمنزلة يشربها فالباء زائدة ، وقال الهذلي : شربن بماء البحر . أي شربن ماء البحر ، وقرأ ابن أبي عبلة : " يشربها عباد الله " ، و ﴿ عباد الله ﴾ هنا خصوص في المؤمنين الناعمين لأن جميع الخلق عباده ، و ﴿ يفجرونها ﴾ معناه يبثقونها بعود قصب ونحوه حيث شاؤوا ، فهي تجري عند كل أحد منهم ، هكذا ورد الأثر ، وقال الثعلبي ، وقيل هي عين في دار النبي صلى

الله عليه وسلم تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين ، وهذا قول الحسن .

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7)

وصف الله تعالى حال الأبرار أنهم كانوا ﴿ يوفون بالنذر ﴾ ، أي بكل ما نذروه وأعطوا به عهداً ، يقال وفى الرجل وأوفى ، و" اليوم " المشار إليه يوم القيامة ، و﴿ مستطيراً ﴾ معناه متصلاً شائعاً كاستطارة الفجر والصدع في الزجاجة ، وبه شبه في القلب ، ومن ذلك قول الأعشى : [المتقارب]

فبانت وقد أسأرت في الفؤاد . . . صدعاً على نأيها مستطيرا

وقول ذي الرمة : [الوافر]

أراد الظاعنون لحيزنوني . . . فهاجوا صدع قلبي فاستطاروا

(237/794)

وقوله تعالى : ﴿ على حبه ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الطعام ، أي وهو محبوب للفاقة والحاجة ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ويحتمل أن يعود على الله تعالى أي لوجهه وابتغاء مرضاته ، قاله أبو سليمان الداراني . والأول أمدح لهم لأن فيه الإيثار على النفس . وعلى الاحتمال الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر ، وقال الحسين بن الفضل : الضمير عائد على

الإطعام ، أي محبين في فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف ، و" المسكين " الطواف المتكشف في السؤال ، و" اليتيم " الصبي الذي لا أب له من الناس . والذي لا أم له من البهائم وهي صفة قبل البلوغ ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يتم بعد حلم " و" الأسير " معروف ، فقال قتادة : أراد أسرى الكفار وإن كانوا على غير الإسلام ، وقال الحسن : ما كان أسراهم إلا مشركين ، لأن كل كبد رطبة ففيها أجر . وقال بعض العلماء : هذا إما نسخ بآية السيف وإما أنه محكم لتحفظ حياة الأسير إلى أن يرى الإمام فيه ما يرى ، وقال مجاهد وابن جبير وعطاء : أراد المسجونين من الناس ، ولهذا يحض على صدقة السجن ، فهذا تشبيه ، ومن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول . وروى الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الأسير هنا بالمملوك والمسجون ، وقال : أراد أسرى المسلمين الذين تركوا في بلاد الحرب رهائن وخرجوا في طلب الفداء ، وقال أبو حمزة الثمالي : الأسير هنا المرأة ، ودليله قوله صلى الله عليه وسلم : " استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوانٍ عندكم " ، وقوله تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ المعنى يقولون لهم عند الإطعام ، وهذا إما أن يكون المطعم يقول ذلك نصاً فحكي ذلك . وإما أن يكون لك مما يقال في الأنفس وبالنية فمدح بذلك ، هذا هو تأويل ابن مجاهد وابن جبير ، وقرأ أبو عمرو في رواية عباس بجزم الميم من " نطعمْكم " ، قال أبو علي أسكن تخفيفاً ، و" الشكور " : مصدر الشكر ، ووصف اليوم بعبوس هو

على التجوز ، كما تقول ليل نائم أي فيه نوم ، و" القمطرير " والقماطر : هو في معنى العبوس والارتداد ، تقول اقمطر الرجل إذا جمع ما بين عينيه غضباً ، ومنه قول الشاعر [القرطبي] : [الطويل]

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا . . . عليكم إذا ما كان يوم قماطر

وقال آخرون :

ففروا إذا ما الحرب ثار غبارها . . . ولج بها اليوم العبوس القماطر

وقال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه مثل القطران . وعبر ابن عباس عن " القمطرير " بالطويل . وعبر عنه ابن الكلبي بالشديد ، وذلك كله قريب في المعنى . وقرأ الجمهور " فوقَاهم " بتخفيف القاف . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " فوقّاهم " بشد القاف . و" النضرة " جمال البشرة ، وذلك لا يكون إلا مع فرح النفس وقرة العين ، وقرأ علي بن أبي طالب " وجازاهم " بألف ، وقوله ﴿ بما صبروا ﴾ عام عن الشهوات وعلى الطاعات والشدائد ، ففي هذا يدخل كل ما خص الناس من صوم وفقر ونحوه و ﴿ متكئين ﴾ حال من الضمير المنصور في ﴿ جزاهم ﴾ وهو الهاء والميم ، وقرأ أبو جعفر

وشيبة " متكيين " بغير همز ، و﴿ الأرائك ﴾ السرر المستورة بالحجال ، هذا شرط لبعض اللغويين ، وقال بعض اللغويين : كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو فهو أريكة وإن لم يكن في حجلة ، وقوله تعالى : ﴿ لا يرون فيها ﴾ الآية عبارة عن اعتدال مس هوائها وذهاب ضرري الحر والقر عنها ، وكون هوائها سجسجاً كما في الحديث المأثور ومس الشمس وهو أشد الحر ، و" الزمهرير " : هو أشد البرد ، وقال ثعلب : " الزمهرير " بلغة طّيىء القمر .

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14)

(239/794)

اختلف النحويون في إعراب قوله تعالى : ﴿ ودانية ﴾ ، فقال الزجاج وغيره : هو حال عطفاً على ﴿ متكئين ﴾ [الإنسان : 13] وقال أيضاً : ويجوز أن يكون صفة للجنة ، فالمعنى وجزاهم جنة دانية ، وقرأ جمهور الناس " دانية " وقرأ الأعمش " ودانياً عليهم " وقرأ أبو جعفر " ودانيةٌ " بالرفع وقرأ أبيّ بن كعب " ودانٍ " مفرد مرفوع في الإعراب ، ودنوا الظلال بتوسط أنعم لها ، لأن الشيء المظل إذا بعد فترة ظله لا سيما من الأشجار والتذليل أن تطيب الثمرة فتتدلى وتنعكس نحو الأرض ، و" التذليل " في الجنة هو بحسب إرادة

ساكنيها ، قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وإن كان قاعداً فكذلك ، وإن كان مضطجعاً فكذلك . فهذا تذليلها لا يرد عنها بعد ولا شوك . ومن اللفظة قول امرىء القيس : [الطويل]

(240/794)

كأنبوب السقي المذلل . . . ومنه قول الأنصاري : والنخل قد ذللت فهي مطوقة بثمرها . و﴿ القطوف ﴾ : جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ونحوه . والعنب ونحوه . و﴿ آنية ﴾ جمع إناء . و﴿ الكوب ﴾ ما لا عروة له ولا أذن من الأواني ، وهي معروفة الشكل في تلك البلاد . وهو الذي تقول له العامة القب ، لكنها تسمي بذلك ما له عروة . وذلك خطأ أيضاً . وقال قتادة : الكوب القدح . والقوارير : الزجاج . واختلف القراء فقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم " قواريراً قواريراً " بالإجراء فيهما على ما قد تقدم في قوله " سلاسلاً " ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي " قراريرَ قراريرَ " بترك الإجراء فيهما ، وقرأ ابن كثير " قواريراً " بالإجراء في الأول " قواريرَ " بترك الإجراء في الثاني ، وقرأ أبو عمرو " قواريرا " ، ووقف بألف دون تنوين " قواريرَ " بترك الإجراء في الثاني ، وقوله تعالى : ﴿ من فضة ﴾ يقتضي أنها من زجاج ومن فضة وذلك متمكن لكونه من زجاج في شفوفه

و﴿ من فضة ﴾ في جوهره ، وكذلك فضة الجنة شفافة ، وقال أبو علي جعلها ﴿ من فضة ﴾ لصافئها وملازمتها لتلك الصفة وليست من فضة في حقيقة أمرها . وإنما هذا كما قال الشاعر [البعيث] : [الطويل]

ألا أصبحت أسماء جاذمة الوصل . . . وضنت عليها والضنين من البخل .

وقوله تعالى : ﴿ قدروها ﴾ يحتمل أن يكون الضمير للملائكة ، ويحتمل أن يكون للطائفين ، ويحتمل أن يكون للمنعمين ، والتقدير إما أن يكون على قدر الأكف قاله الربيع ، أو على قدر الري قاله مجاهد ، وهذا كله على قراءة من قرأ " قَدروها " بتخفيف القاف ، وقرأ ابن أبزى وعلي الجحدري وابن عباس والشعبي وقتادة " قُدِروها " بضم القاف وكسر الدال ، قال أبو علي : كأن اللفظ قدروا عليها ، وفي المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم فهي مثل قوله :

(241/794)

﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة ﴾ [القصص : 76] ، ومثل قول العرب : إذا طلعت الجوزاء ، ألفى العود على الحرباء ، حكاه أبو علي ، وكون الزنجبيل مزاجها هو على ما ذكرناه في العرف ولذع اللسان ، وذلك من لذات المشروب ، و" الزنجبيل " : طيب حار ،

وقال الشاعر [الأعشى] : [الرجز]

كأن جنياً من الزنجبيل . . . بات بفيها وأرياً مشورا

وقال المسيب بن علس : [الكامل]

وكأن طعم الزنجبيل به . . . إذ ذقته وسلافة الخمر

وقال قتادة : " الزنجبيل " ، اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة ، و﴿ عيناً ﴾ بدل من كأس أو من عين على القول الثاني ، و﴿ سلسبيلاً ﴾ قيل هو اسم بمعنى السلس المنقاد الجرية ، وقال مجاهد : حديدة الجرية ، وقيل : هي عبارة عن حسن إيساغها ، قال ابن الأعرابي : لم أسمع هذه اللفظة إلا في القرآن ، وقال آخرون : ﴿ سلسبيلاً ﴾ صفة لقوله ﴿ عيناً ﴾ وتسمى بمعنى توصف وتشهر وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفة للعين لا اسماً ، وقال بعض المقرئين والتصحيح من الألوسي : ﴿ سلسبيلاً ﴾ أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته بسؤال السبيل إليها ، وهذا قول ضعيف لأن براعة القرآن وفصاحته لا تجيء هكذا ، واللفظة معروفة في اللسان وأن السلسل والسلسبيل ، بمعنى واحد ومتقارب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾

أي يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشراب ﴿ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء ؛ أي ما في الجنة أشرف وأعلى وأنقى .

ثم لم تنف الأواني الذهبية بل المعنى يسقون في أواني الفضة ، وقد يسقون في أواني الذهب .

وقد قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف : 71] .

وقيل : نَبّه بذكر الفضّة على الذهب ؛ كقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] أي والبرد ؛ فنبّه بذكر أحدهما على الثاني .

والأكواب : الكِيزان العظام التي لا آذان لها ولا عُرًى ، الواحد منها كوب ؛ وقال عَدِيّ :

مُتَّكِئًا تُقْرَعُ أبوابُهُ . . .

يَسْعَى عليهِ العبدُ بِالكُوبِ

وقد مضى في "الزخرف" .

﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا .

قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ أي في صفاء القوارير وبياض الفضة ؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضّة .

وقيل : أرض الجنة من فضّة ، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها .

ذكره ابن عباس وقال : ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه ، إلا القوارير من فضة .

وقال : لو أخذت فضَّة من فضّة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذُّبَاب لم تر من ورائها الماء ، ولكن قوارير الجنة مثل الفضّة في صفاء القوارير .

﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ قراءة العامة بفتح القاف والدال ؛ أي قَدّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم .

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أتوا بها على قدر ريِّهم ، بغير زيادة ولا نقصان .

الكلبي : وذلك ألذ وأشهى ؛ والمعنى : قدّرتها الملائكة التي تطوف عليهم .

وعن ابن عباس أيضاً : قدّروها على مِلء الكف لا تزيد ولا تنقص ، حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر .

وقيل : إن الشاربين قَدّروا لها مقادير في أنفسهم ، على ما اشتهوا وقَدّروا .

وقرأ عبيد ابن عمير والشَّعْبي وابن سيرين "قُدِّروها" بضم القاف وكسر الدال ؛ أي جعللت لهم على قدر إرادتهم .

وذكر هذه القراءة المهدويّ عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما ؛ وقال : ومن قرأ "قُدِّرُوهَا" فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى ، وكأنّ الأصل قُدِّروا عليها فحذف الجر ؛ والمعنى قُدِّرت عليهم ؛ وأنشد سيبويه :

آلَيْتَ حَبَّ العِراقِ الدّهْرَ آكُلُهُ . . .

والْحَبُّ يأكُلُه في القَرْيَةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق .

وقيل : هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ أي لا يفضل عن الرِّيِّ ولا ينقص منه ، فقد أُلهِمت الأقداحُ معرفةَ مقدار رِيِّ المشتهى حتى تغترف بذلك المقدار .

ذكر هذا القول الترمذيّ الحكيم في "نوادر الأصول" .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً ﴾ وهي الخمر في الإناء .

﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ "كَانَ" صلة ؛ أي مزاجها زنجبيل ، أو كان في حكم الله زنجبيلاً .

وكانت العرب تستلذ من الشراب ما يُمزج بالزنجبيلِ لطيب رائحتِه ؛ لأنه يَحْذُو اللسان ،

ويهضم المأكول ، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النّعمة والطيب .

وقال المسيَّب بن عَلَس يصف ثَغْر المرأة :

وكَأَنَّ طَعْمَ الزنجبيل بِهِ . . .

إِذْ ذُقْتَهُ وَسَلافَةَ الخَمْرِ

ويروي : الكَرْم .

وقال آخر :

كَأَنَّ جَنِيًّا مِن الزَّنْجَبِي . . .

لِ بَاتَ بِفِيهَا وأَرْيًا مشُوراً

ونحوه قول الأعشى :

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِي . . .

لَ بَاتَا بِفِيهَا وأَرياً مَشُوراً

وقال مجاهد : الزنجبيل اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار .

وكذا قال قتادة : والزّنجبيل اسم العين التي يشرب بها المقربون صِرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة .

وقيل : هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل .

وقيل : إنّ فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل .

والمعنى كأنّ فيها زنجبيلاً .

﴿ عَيْناً ﴾ بدل من كأس .

ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عيناً .

ويجوز نصبه بإسقاط الخفاض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ .

﴿ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ السَّلْسبيل الشراب اللذيذ ، وهو فَعْلَلِيل من السَّلاَلَة ؛ تقول العرب : هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَال وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيل بمعنىً ؛ أي طيّب الطعم لذيذه .

وفي الصحاح : وتسلسل الماء في الحلق جرى ، وسَلْسَلْتُه أنا صببته فيه ، وماء سَلْسَل وسَلْسَال : سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه ، والسُّلاسل بالضم مثله .

وقال الزجاج : السَّلْسَبيل في اللغة : اسم لما كان في غاية السَّلاَسة ؛ فكأنّ العين سمّيت بصفتها .

وعن مجاهد قال : سَلْسَبيلا : حديدة الجَرْية تسيل في حلوقهم انسلالا .

ونحوه عن ابن عباس : إنها الحديدة الجَرْي .

ذكره الماورديّ ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عليهمُ . . .

بَرْدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميّت سَلْسَبيلاً ؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم ، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة .

وقال قتادة : سلسة منقاد ماؤها حيث شاؤوا .

ونحوه عن عِكرمة .

وقال القَفَّال : أي تلك عين شريفة فَسَلْ سَبِيلاً إليها .

وروي هذا عن عليّ رضي الله عنه .

وقوله : "تسمَّى" أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم .

وصرف سلسبيل ؛ لأنه رأس آية ؛ كقوله تعالى : ﴿ الظنونا ﴾ و "السَّبِيلاً" . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أتى ﴾

استفهامُ تقريرٍ وتقريبٍ فإنَّ هَلْ بمَعْنى قَدْ والأصلُ أَهَلْ أَتَى ﴿ عَلَى الإنسان ﴾ قبلَ زمانٍ قريبٍ ﴿ حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ أي طائفةٌ محدودةٌ كائنةٌ من الزمنِ الممتدّ ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ بلْ كانَ شيئاً منسياً غيرَ مذكورٍ بالإنسانية أصلاً كالعنصرِ والنطفةِ وغيرَ ذلكَ . والجملةُ المنفيةُ حالٌ من الإنسان أي غيرَ مذكورٍ أو صفةٌ أُخرى لحينٌ على حذف العائدِ إلى الموصوف أي لمْ يكُن فيه شيئاً مذكُوراً . والمرادُ بالإنسان الجنسُ فالإظهارُ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ لزيادة التقريرِ ، أو آدمُ عليه السَّلامُ ، وهو المرويُّ عن ابن عباسٍ وقتادة والثوريِّ وعكرمةَ والشعبيِّ . قالَ ابنُ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ عنْهُ : مرتْ به أربعونَ سنةً قبلَ أنْ يُنفخَ فيه الروح وهو مُلقى بين مكةَ والطائفِ وفي روايةِ الضحاكِ عنه أنَّه خُلقَ من طينٍ فأقامَ أربعينَ سنةً ثمَّ من حمإٍ فأقامَ أربعينَ سنةً ثمَّ من صلصالٍ فأقامَ أربعينَ سنةً فتمَّ خلقُه بعدَ مائةٍ وعشرينَ سنةً ثمَّ نُفخَ فيهِ الرُّوحُ ، وحكَى الماوَرْدِيُّ عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا أنَّ الحينَ المذكورَ هاهنا هو الزمنُ الطويلُ الممتدُّ الذي لا يُعرفُ مقدارُه فيكونُ الأولُ إشارةً إلى خلقه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهذا بياناً لخلقِ بنيهِ ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاطٌ ، جمعُ مشجٍ أو مشيجٍ ، منْ مشجتَ الشيءَ إذا خلطتَهُ . وصف النطفةَ بهِ لما أنَّ المرادَ بها مجموعُ الماءينِ ، ولكلَ منهُمَا أوصافٌ مختلفةٌ من اللون والرقةِ والغِلَظِ ، وخواصٌ

متباينةٌ فإنَّ ماءَ الرجلِ أبيضُ غليظٌ فيه قوّةُ العقدِ وماءَ المرأةِ أصفرُ رقيقٌ فيهِ قوةُ الانعقادِ يُخلقُ منهُمَا الولدُ فمَا كانَ من عصبٍ وعظمٍ وقوةٍ فَمِنْ ماءِ الرَّجُلِ وما كانَ منْ لحمٍ ودمٍ وشعرٍ فَمِنْ ماءِ المرأةِ. قالَ القرطبيُّ: وقد رُويَ هذا مرفوعاً ،

(246/794)

وقيلَ: مفردٌ كأعشارٍ وأكياشٍ ، وقيلَ: أمشاجٌ ألوانٌ وأطوارٌ فإنَّ النطفةَ تصيرُ علقةً ثمَّ مضغةً إلى تمامِ الخِلقةِ. وقولُه تعالَى: ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ حالٌ منْ فاعلِ خلقنَا أيْ مريدينَ ابتلاءَهُ بالتكليفِ فيما سيأتي ناقلينَ له من حالٍ إلى حالٍ على طريقةِ الاستعارةِ كما رُويَ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا نصرّفه في بطنِ أمه نطفةً ثمَّ علقةً إلى آخرِه ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ليتمكنَ من استماعِ الآياتِ التنزيليةِ ومشاهدةِ الآياتِ التكوينيةِ فهو كالمسببِ عن الابتلاءِ فلذلكَ عُطِفَ على الخلقِ المقيدِ به بالفاءِ ورُتّبَ عليهِ قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ بإنزالِ الآياتِ ونصبِ الدلائلِ ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ حالانِ من مفعولِ هديناَ أي مكّناهُ وأقدرناهُ على سلوكِ الطريقِ الموصلِ إلى البُغيةِ في حالتيهِ جميعاً ، وإمَّا للتفصيلِ أو التقسيمِ ، أيْ هديناهُ إلى ما يوصلُ إليها في حاليهِ جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضُهم شاكرٌ بالاهتداءِ والأخذِ فيهِ وبعضُهم كفورٌ بالإعراضِ عنْهُ وقيلَ: من السبيلِ أي

عرفناهُ السبيلَ إما سبيلاً شاكراً أو كفوراً على وصفِ السبيلِ بوصفِ سالكِه مجازاً .
وقُرِىءَ أَمَّا بالفتحِ على حذفِ الجوابِ ، أي أمَّا شاكراً فبتوفيقِنا ، وأَمَّا كفوراً فبسوءِ اختيارِه لا بمجردِ إجبارِنا من غيرِ اختيارٍ منْ قِبَلِه ، وإيرادُ الكفورِ لمراعاةِ الفواصلِ والإشعارِ بأنَّ الإنسانَ قلَّما يخلُو من كفرانٍ مَا وإنَّما المؤاخذُ عليه الكفرُ المفرطُ .
﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين ﴾

(247/794)

من أفراد الإنسان الذي هديناهُ السبيلَ ﴿ سلاسلا ﴾ بهَا يُقادُون ﴿ وأغلالا ﴾ بها يُقيَّدونَ ﴿ وَسَعِيراً ﴾ بهَا يُحرقُون ، وتقديمُ وعيدِهم معَ تأخرهم للجمع بينهُمَا في الذكر كما في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ الآيةَ ، ولأنَّ الإنذارَ أهمُّ وأنفعُ وتصديرُ الكلامِ وختمُه بذكرِ المؤمنينَ أحسنُ على أنَّ في وصفِهم تفصيلاً ربَّما يُخلُّ تقديمُه بتجاوبِ أطرافِ النظمِ الكريمِ . وقُرِىءَ سلاسلاً للتناسب .

(248/794)

﴿ إِنَّ الأبرار ﴾ شروعٌ في بيان حسنِ حالِ الشاكرينَ إثرَ بيانِ سوءِ حالِ الكافرينَ وإيرادُهم بعنوانِ البرِّ للإشعارِ بمَا استحقُّوا بهِ ما نالُوه من الكرامةِ السنيةِ . والأبرارُ جمعُ بَرَ أو بارَ كربَ وأربابٍ وشاهدٍ وأشهادٍ . قيلَ : هُو من يبرُّ خالقَهُ أي يطيعُهُ وقيلَ : من يمتثلُ بأمرِه تعالى وقيلَ : من يؤدّي حقَّ الله تعالى ويوفّي بالنذرِ ، وعنِ الحسنِ البرُّ منْ لا يُؤذِي الذرَّ ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ هي الزجاجةُ إذا كانتْ فيها خمرٌ وتُطلقُ على نفسِ الخمرِ أيضاً فمِنْ على الأولِ ابتدائيةٌ وعلى الثانِي تبعيضيةٌ أو بيانيةٌ ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي ما تمزجُ به ﴿ كافورا ﴾ أي ماءَ كافورٍ وهو اسمُ عينٍ في الجنّةِ ماؤُها في بياضِ الكافورِ ورائحتِه وبردِه . والجملةُ صفةُ كأسٍ . وقولُه تعالَى : ﴿ عَيْناً ﴾ بدلٌ من كافُوراً وعنْ قتادةَ : تمزجُ لهم بالكافورِ وتختمُ لهم بالمسكِ ، وقيلَ : تخلقُ فيها رائحةُ الكافورِ وبياضُه وبردُه فكأنَّها مُزجتْ بالكافورِ ، فعيناً على هذينِ القولينِ بدلٌ منْ محلِّ (منْ كأسٍ) على تقديرِ مضافٍ أي يشربونَ خمراً خمرَ عينٍ أو نَصبٌ على الاختصاصِ . وقولُه تعالى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ صفةُ عيناً أي يشربونَ بها الخمرَ لكونِها ممزوجةً بهَا وقيل : ضُمّن يشربُ مَعْنى يلتذُّ وقيل : الباءُ بمَعْنى مِنْ وقيلَ : زائدةٌ ويعضدُه قراءةُ ابنِ أبي عبلةَ يشربُها عبادُ الله وقالَ : الضميرُ للكأسِ والمَعْنى يشربونَ العينَ بتلكَ الكأسِ ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي يُجرونها حيثما شاؤوا من منازلِهم إجراءً سهلاً لا يمتنعُ عليهم بَلْ يَجْري جرياً بقوةٍ واندفاعٍ والجملةُ

صفةٌ أُخرى لعيناً .

وقولُه تعالى : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾

(249/794)

استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما لأجلِه رُزقُوا ما ذُكِرَ من النعيمِ مشتملٌ على نوع تفصيلٍ لما ينبىءُ عنه اسمُ الأبرارِ إجمالاً كأنَّه قيلَ : ماذا يفعلونَ حتَّى ينالُوا تلكَ الرتبةَ العاليةَ ؟ فقيلَ : يُوفون بما أَوجبُوه على أنفسِهم فكيفَ بما أوجبَهُ الله تعالَى عليهم ﴿ ويخافون يَوْماً كَانَ شَرُّهُ ﴾ عذابُه ﴿ مُسْتَطِيراً ﴾ فاشياً مُنتشراً في الأقطارِ غايةَ الانتشارِ ، من استطارَ الحريقُ والفجرُ وهُو أبلغُ من طارَ بمنزلة استنفرَ منْ نفرَ ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبّهِ ﴾ أي كائنينَ على حُبِّ الطَّعامِ والحاجةِ إليهِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ أي على حُبِّ الإطعامِ بأنْ يكونَ ذلكَ بطيبِ النفسِ أو كائنينَ على حُبِّ الله تعالَى أو إطعاماً كائناً على حُبّه تعالَى وهُو الأنسبُ لما سيأتِي من قولِه تعالَى لوجهِ الله ﴿ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ أيَّ أسيرٍ فإنَّه كانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُؤتَى بالأسيرِ فيدفعُه إلى بعضِ المسلمينَ فيقولُ : " أَحْسِنْ إليهِ " أو أسيراً مؤمناً فيدخلُ فيه المملوكُ والمسجونُ وقد سَمَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الغريمَ أسيراً فقال : " غَريمُكَ أسيرُكَ فأحسِنْ إلى أسيرِكَ "

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ على إرادة قولٍ هو في موقع الحالِ من فاعلِ يطعمونَ أي قائلينَ ذلكَ بلسانِ الحالِ أو بلسانِ المقالِ إزاحةً لتوهمِ المنِّ المبطلِ للصدقةِ وتوقعِ المكافأةِ المنقصةِ للأجرِ . وعن الصديقةِ رضيَ اللهُ تعالَى عنها أنَّها كانتْ تبعثُ بالصدقةِ إلى أهلِ بيتٍ ثم تسألُ الرسولَ ما قالُوا ؟ فإذَا ذكرَ دعاءَهُم دعتْ لَهُم بمثلِه ليبقَى ثوابُ الصدقةِ لها خالصاً عندَ اللهِ تعالَى ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُوراً ﴾ وهو تقريرٌ وتأكيدٌ لما قبلَهُ .

(250/794)

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً ﴾ أي عذابَ يومٍ ﴿ عَبُوساً ﴾ يعبسُ فيه الوجُوه أو يُشبه الأسدَ العَبُوسَ في الشّدةِ والضَّراوةِ ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ شديدَ العُبوسِ فلذلكَ نفعلُ بكُم ما نفعلُ رجاءَ أنْ يقينَا ربُّنا بذلكَ شرَّه ، وقيلَ : هو تعليلٌ لعدمِ إرادةِ الجزاءِ والشكورِ أي إنَّا نخافُ عقابَ اللهِ تعالى إنْ أردناهُمَا ﴿ فوقاهم اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ بسببِ خوفِهم وتحفظِهم عنه ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ أي أعطاهُم بدلَ عبوسِ الفُجَّارِ وحُزنِهم نضرةً في الوجوه وسُروراً في القلوبِ .

(251/794)

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرِهم على مشاقِّ الطاعاتِ ومهاجرةِ هَوَى النفسِ في اجتنابِ المُحرَّماتِ وإيثارِ الأموالِ ﴿ جَنَّةً ﴾ بستاناً يأكلُون منه ما شاءُوا ﴿ وَحَرِيراً ﴾ يلبسونَهُ ويتزينونَ به . وعنِ ابن عباسٍ رضيَ الله عنهما : (أنَّ الحسنَ والحسينَ رضيَ الله تعالَى عنهُمَا مَرِضا فعادهُما النبيُّ صلى الله عليه وسلم في ناسٍ معَهُ فقالُوا لعليَ رضيَ الله عنهُ : لو نذرتَ على شفاءِ ولدكَ فنذرَ عليٌّ وفاطمةُ رضيَ الله تعالى عنهُمَا وفضةُ جاريةٌ لهما إنْ برئَا مما بهمَا أنْ يصومُوا ثلاثةَ أيامٍ فشُفيا وما معهُم شيءٌ فاستقرضَ عليٌّ رضيَ الله عنْهُ من شمعونَ الخيبريِّ ثلاثة أصوعٍ من شعيرٍ فطحنتْ فاطمةُ رضيَ الله تعالى عنها صاعاً واختبزتْ خمسةَ أقراصٍ على عددِهم فوضعُوها بين أيديهِم ليُفطِرُوا فوقفَ عليهم سائلٌ فقالَ : السَّلامُ عليكم أهلَ بيتِ محمدٍ مسكينٌ من مساكينِ المسلمينَ أطعمُوني أطعمكُم الله تعالَى من موائدِ الجنةِ فآثرُوه وباتُوا لم يذوقُوا إلا الماءَ وأصبحُوا صياماً فلمَّا أمسَوا ووضعُوا الطعامَ بينَ أيديهِم وقفَ عليهم يتيمٌ فآثرُوه ثم وقفَ عليهم في الثالثةِ أسيرٌ ففعلُوا مثلَ ذلكَ فلما أصبحُوا أخذ عليٌّ بيدِ الحسنِ والحسينِ رضيَ الله عنهُم فأقبلُوا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهُم وهُم يرتعشونَ كالفراخِ من شدةِ الجُوعِ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " ما أشدَ ما يسوؤُني ما أَرَى بكُم " وقامَ فانطلقَ معهُم فرَأى فاطمةَ في محرابِها قد التصقَ ظهرُها ببطنِها وغارتْ عيناهَا فساءَهُ ذلكَ فنزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ

وقالَ : خُذْها يا محمدُ هنّأكَ اللهُ تعالى في أهلِ بيتكَ) فأقْرأَهُ السورةَ ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ حالٌ مِنْ هُمْ فِي جَزَاهُمْ والعاملُ فيها جَزَى وقيلَ : صفةٌ لجنةً من غيرِ إبرازِ الضميرِ . والأرائكُ هي السُّررُ في الحجالِ .

(252/794)

وقولُه تعالَى : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ إمَّا حالٌ ثانيةٌ من الضميرِ أو المستكنِّ في متكئينَ والمَعْنى أنَّه يمرُّ عليهم هواءٌ معتدلٌ لا حارٌّ محمٌّ ولا باردٌ مؤذٍ وقيلَ : الزمهريرُ القمرُ في لُغةِ طَيِّيءٍ والمَعْنى أنَّ هواءَهَا مضيءٌ بذاتِه لا يحتاجُ إلى شمسٍ ولا قمرٍ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها ﴾ عطفٌ على ما قبلَها حالٌ مثلُها أو صفةٌ لمحذوفٍ معطوفٍ على جنةً أي وجنةً أخرى دانيةً عليهم ظلالُها على أنَّهم وُعدوا جنتينِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وقُرِىءَ دانيةٌ بالرفعِ على أنه خبرٌ لظلالِها والجملةُ في حيزِ الحالِ والمعنى لا يَرَون فيها شمساً ولا زمهريراً والحالُ أنَّ ظلالَها دانيةٌ . قالُوا : معناهُ أنَّ ظلالَ أشجارِ الجنةِ قريبةٌ من الأبرارِ مظلةٌ عليهم زيادةً في نعيمِهم على مَعْنى أنه لو كانَ هناكَ شمسٌ مؤذيةٌ لكانتْ أشجارُهَا مظلةً عليهم مع أنَّه لا شمسَ ثمةَ ولا قمرَ ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ أي سُخرتْ ثمارُها لمتناوليها وسُهلَ أخذُها من الذُّلِّ وهو ضدُّ الصعوبةِ . والجملةُ حالٌ من

دانيةً أي تدنُو ظلالُها عليهم مُذلَّلة لهم قطوفُها . أو معطوفةٌ على دانيةً أي دانيةً عليهم ظلالُها ومذللةً قطوفُها ، وعلى تقديرِ رفعِ دانيةً فهيَ جملةٌ فعليةٌ معطوفةٌ على جُملةٍ اسميةٍ .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾

(253/794)

الكوبُ الكوزُ العظيمُ الذي لا أُذنَ له ولاَ عُروةَ ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ أي تكونتْ جامعةً بين صفاءِ الزجاجةِ وشفيفِها ولينِ الفِضَّةِ وبياضِها ، والجملةُ صفةٌ لأكواب . وقُرِىءَ بتنوينِ قواريرَ الثانِي أيضاً ، وقُرِئَا بغيرِ تنوينٍ ، وقُرِىءَ الثَّانِي بالرَّفعِ على هيَ قواريرُ ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ صفةٌ لقواريرَ ومعنى تقديرِهم لها أنَّهم قدَّروها في أنفسِهم وأرادُوا أنْ تكونَ على مقاديرَ وأشكالٍ معينةٍ موافقةً لشهواتهم فجاءتْ حسبمَا قدَّرُوها ، أو قدَّرُوها بأعمالِهم الصالحةِ فجاءتْ على حسبِها ، وقيلَ : الضميرُ للطائفينَ بهَا المدلولِ عليهم بقولِه تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ فالمعنى قدَّروا شرابَها على قدرِ اشتهائِهم ، وقُرِىءَ قُدِّرُوها على البناءِ للمفعولِ أي جُعلوا قادرينَ لها كما شاءوا من قَدَرَ منقولاً من قَدَّرتُ الشيءَ .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ أي ما يشبهُ الزنجبيلَ في الطعمِ وكان

الشرابُ الممزوجُ به أطيبَ ما تستطيبُه العربُ وألذَّ ما تستلذُّ به ﴿ عَيْناً ﴾ بدلٌ من زنجبيلاً ، وقيلَ : تمزجُ كأسُهم بالزنجبيلِ بعينِه ، أو يخلقُ الله تعالى طعمَهُ فيها ، فعيناً حينئذٍ بدلٌ من كأساً كأنَّه قيلَ : ويُسقَون فيها كأساً كأسَ عينٍ ، أو نصبٌ على الاختصاص ﴿ فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ لسلاسة انحدارِها في الحَلْقِ وسهولةِ مساغِها ، يقالُ : شرابٌ سلسلٌ وسلسالٌ وسلسبيلٌ ، ولذلكَ حُكمَ بزيادةِ الباءِ ، والمرادُ بيانُ أنَّها في طعم الزنجبيلِ ، وليسَ فيها لذعةٌ بل نقيضُ اللذعِ هو السلاسةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(254/794)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ ﴾

جمع إناء ككساء وأكسية وهو ما يوضع فيه الشيء والأواني جمع الجمع ﴿ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهو قدح لا عروة له كما قال الراغب وفي "القاموس" كوز لا عروة له أو لا خرطوم له وقيل الكوز العظيم الذي لا أذن له ولا عروة ﴿ كَانَتْ ﴾ أي تلك الأكواب ﴿ قَوَارِيرَا ﴾ جمع قارورة وهي إناء رقيق من الزجاج يوضع فيه الأشربة ونصبه على

الحال فإن كان تامة وهو كما تقول خلقت قوارير وقوله تعالى :

﴿ قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ بدل والكلام على التشبيه البليغ فالمراد تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولين الفضة وبياضها وأخرج عبد الرازق وسعيد بن منصور والبيهقي عن ابن عباس قال لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لمير الماء من ورائها ولكن قوارير الجنة ببياض الفضة مع صفاء القوارير وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر بتنوين قوارير في الموضعين وصلاً وإبداله ألفاً وقفا وابن كثير يمنع صرف الثاني ويصرف الأول لوقوعه في الفاصلة وآخر الآية وقف عليه بألف مشاكلة لغيره من كلمات الفواصل والتنوين عند الزمخشري في الأول : بدل من ألف الإطلاق كما في قوله

: يا صاح ما هاج العيون الذرفن . . .

وفي الثاني : للاتباع فتذكر والقراءة بمنع صرفهما لحفص وابن عامر وحمزة وأبي عمرو وقرأ الأعمش الثاني قوارير بالرفع أي هي قوارير ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ أي قدروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءت حسب ما قدروا لا مزيد على ذلك ولا يمكن أن يقع زيادة عليه وفي معناه قول الطائي

: ولو صورت نفسك لم تزدها . . .

على ما فيك من كرم الطباع

فإنه ينبىء عن كون نفسه خلقت على أتم ما ينبغي من مكارم الصفات بحيث لا مزيد على ذلك فضمير قدروها للأبرار المطاف عليهم أو قدروا شرابها على قدر الري وهو ألذ للشارب قال ابن عباس أتوا بها على الحاجة لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً وعن مجاهد تقديرها أنها ليست بالملأى التي تفيض ولا بالناقصة التي تغيض فالضمير على ما هو الظاهر للسقاة الطائفين بها المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإنسان : 15] وقد روى عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس أنه قال قدرتها السقاة وقيل المعنى قدروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها والضمير على هذا قيل للملائكة وقيل للسقاة وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس والسلمي والشعبي وقتادة وزيد بن علي والجحدري والأصمعي عن أبي عمرو وابن عبد الخالق عن يعقوب وغيرهم قدروها على البناء للمفعول واختلف في تخريجها فقال أبو علي كان اللفظ قدروا عليها وفي المعنى قلب لأن حقيقته أن يقال قدرت عليهم فهو نحو قوله تعالى ﴿ ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ [القصص : 76] وقول العرب إذا طلعت الجوزاء ارتقى العود على الحرباء وقال الزمخشري : وجه ذلك أن يكون من قدرت الشيء بالتخفيف أي بينت مقداره فنقل

إلى التفعيل فتعدى لاثنين أحدهما : الضمير النائب عن الفاعل والثاني : ها والمعنى جعلوا قادرين لها كما شاؤا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا وقال أبو حاتم قدرت الأواني على قدر ريهم ففسر بعضهم هذا بأن في الكلام حذفاً وهو أنه كان قدر على قدر ريهم إياها فحذف على فصار قدر نائب الفاعل ثم حذف فصار ريهم نائب الفاعل ثم حذف وصاروا والجمع نائب الفاعل واتصل المفعول الثاني بقدر فصار قدروها وقال أبو حيان الأقرب أن يكون الأصل قدر ريهم منها تقديراً فحذف المضاف وهو الري وأقيم الضمير مقامه فصار قدروا منها ثم اتسع في الفعل فحذفت من ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه فصار قدروها

(256/794)

فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتساع في المجرور ولا يخفى أن القلب زيف وما قرره البعض تكلف جداً وفي كون ما اختاره أبو حيان أقرب مما اختاره جار الله نظر ولعله أكثر تكلفاً منه وقوله تعالى :

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ يجري فيه معظم ما جرى في قوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ [الإنسان : 5

] الخ من الأوجه والزنجبيل قال الدينوري نبت في أرض عمان وهو عروق تسري في الأرض وليس بشجرة ومنه ما يحمل من بلاد الزنج والصين وهو الأجود وكانت العرب تحبه لأنه يوجب لذعاً في اللسان إذا مزج بالشراب فيلتذون ولذا يذكرونه في وصف رضاب النساء قال الأعشى :

كان القرنفل والزنجبيل . . .

باتا بفيها واريا مسورا

وقال عمر والمسيب بن علس :

وكان طعم الزنجبيل به . . .

إذ ذقته وسلافة الخمر

(257/794)

وعده بعضهم في المعربات وكون الزنجبيل اسما لعين في الجنة مروى عن قتادة وقال يشرب منها القربون صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة والظاهر أنهم تارة يشربون من كاس مزاجها كافور وتارة يسقون من كاس مزاجها زنجبيل ولعل ذكر يسقون هنا دون يشربون لأنه الأنسب بما تقدمه من قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإنسان : 15] الخ ويمكن أن

يكون فيه رمز إلى أن هذه الكأس أعلى شأناً من الكأس الأولى وعن الكلبي يسقي بجامين الأول : مزاجه الكافور والثاني : مزاجه الزنجبيل والسلسبيل كالسلسل والسلسال قال الزجاج : ما كان من الشراب غاية في السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق وقال ابن الأعرابي لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن وكان العين إنما سميت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها قال عكرمة : عين سلسل ماؤها وقال مجاهد : حديدة الجري سلسلة سهلة المساغ وقال مقاتل عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاؤا وهي على ما روي عن قتادة عين تنبع من تحت العرش من جنة عدن تتسلسل إلى الجنان وفي "البحر" الظاهر أن هذه العين تسمى سلسبيلاً بمعنى توصف بأنها سلسلة في الانسياغ سهلة في المذاق ولا يحمل سلسبيل على أنه اسم حقيقة لأنه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية وقد روي عن طلحة أنه قرأه بغير ألف جعله علماً لها فإن كان علماً فوجه قراءة الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل كما قيل في ﴿ سلاسلاً ﴾ و ﴿ قواريراً ﴾ وزعم الزمخشري أن الباء زيدت فيه حتى صارت الكلمة خماسية فإن عنى أنها زيدت حقيقة فليس بجيد لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة وإن عنى أنها حرف جاء في سنح الكلمة وليس في سلسل ولا في سلسال صح ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة انتهى وفي "الكشف" لا يريد الزيادة المصطلحة ألا ترى إلى قوله حتى صارت خماسية وهو أيضاً من

الاشتقاق الأكبر فلا تغفل وقال بعض المعربين سلسبيلاً أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ولامته بسؤال السبيل إليها

(258/794)

وعزوه إلى علي كرم الله تعالى وجهه وهو غير مستقيم بظاهره إلا أن يراد أن جملة قول القائل سلسبيلاً جعلت اسماً للعين كما قيل تأبط شراً وذرى حباً وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع وعزوه إلى مثل الأمير كرم الله تعالى وجهه أبدع ونص بعضهم على أنه افتراء عليه كرم الله تعالى وجهه وفي شعر ابن مطران الشاشي :

سلسبيلاً فيها إلى راحة النفس . . .

براح كأنها سلسبيل

وفيه الجناس الملفق واستعمله غير واحد من المحدثين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(259/794)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) ﴾

عطف على جملة ﴿ يَشربون من كأس ﴾ [الإنسان : 5] الخ كما اقتضاه التناسب بين جملة ﴿ يشربون ﴾ وجملة ﴿ يطاف عليهم ﴾ في الفعلية والمضارعية ، وذلك من أحسن أحوال الوصل ، عاد الكلام إلى صفة مجالس شرابهم .

وهذه الجملة بيان لما أجمل في جملة ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس ﴾ [الإنسان : 5] ، وإنما عطفت عليها لما فيها من مغايرة مع الجملة المعطوف عليها من صفة آنية الشراب ، فلهذه المناسبة أعقب ذكر مجالس أهل الجنة ومُتكآتِهم ، بذكر ما يستتبعه مما تعارفه أهل الدنيا من أحوال أهل البذخ والترف واللذات بشرب الخمر إذ يُدير عليهم آنية الخمر سقاةٌ .

وإذ قد كان ذلك معروفاً لم تكن حاجة إلى ذكر فاعل الطواف فبُني للنائب .

وهذا وعد لهم بإعطاء متمناهم في الدنيا مع مَزيد عليه من نعيم الجنة "ما لا عيْن رأت ولا خَطَر على قلب بَشَر" .

والطواف : مشي مكرر حولَ شيءٍ أو بين أشياء ، فلما كان أهل المتكأ جماعة كان دوران السقاء بهم طوافاً .

وقد سمَّوا سقي الخمر : إدَارةَ الخمرِ ، أو إدارة الكأس .

والسَّاقي : مدير الكأس ، أو مدير الجام أو نحو ذلك .

والآنية : جمع إِناء ممدوداً بوزن أفْعِلة مثل كساء وأكسية ووِعاء وأوعية اجتمع في أول الجمع همزتان مزيدة وأصلية فخففت ثانيتهمَا ألفاً .

والإِناء : اسم لكل وعاء يرتفق له ، وقال الراغب : ما يوضع فيه الشيء انتهى انتهى . ا هـ فيظهر أنه يطلق على كل وعاء يقصد للاستعمال والمداولة للأطعمة والأشربة ونحوهما سواء كان من خشب أو معدن أو فَخار أو أديم أو زجاج ، يوضع فيه ما يُشرب أو ما يؤكل ، أو يُطبخ فيه ، والظاهر أنه لا يطلق على ما يجعل للخزن فليست القِربة بإناء ولا الباطيةُ بإناء ، والكأسُ إناء والكوزُ إناء والإِبريق إناء والصحفة إناء .

(260/794)

والمراد هنا : آنية مجالس شرابهم كما يدل عليه ذكر الأكواب وذلك في عموم الآنية وما يوضع معه من نُقْل أو شِواء أو نحو ذلك كما قال تعالى في آية الزخرف (71) ﴿ يطاف عليهم بصِحاف من ذهب وأكواب ﴾

وتشمل الآنية الكووسَ .

وذكر الآنِية بعد كأس ﴾ [الإنسان : 5] من قوله : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس ﴾ [

الإنسان : 5] من ذكر العام بعد الخاص إلاّ إذا أريد بالكأس الخمر .

والأكواب : جمع كوب بضم الكاف بعده واو ساكنة .

والكوب : كوز لا عروة له ولا خرطوم له ، وتقدم في سورة الزخرف .

وعطف ﴿ أكواب ﴾ على (آنية) من عطف الخاص على العام لأن الأكواب تحمل فيها الخمر لإِعادة ملءِ الكؤوس .

ووصفت هنا بأنها من فضة ، أي تأتيهم آنيتهم من فضة في بعض الأوقات ومن ذهب في أوقات أخرى كما دلّ عليه قوله في سورة الزخرف (71) ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذَهب وأكواب ﴾ لأن للذهب حسناً وللفضة حسناً فجعلت آنيتهم من المعدنين النفيسين لئلا يفوتهم ما في كل من الحسن والجمال ، أو يطاف عليهم بآنية من فضة وآنية من ذهب متنوعة متزاوجة لأن ذلك أبهج منظراً مثل ما قال مرة

﴿ وحلّوا أساور من فضة ﴾ [الإنسان : 21] ، ومرة ﴿ يُحَلّون فيها من أساور من ذهب ﴾ [الكهف : 31] ، وذلك لإِدخال المسرَّة على أنفسهم بحسن المناظر فإنهم كانوا يتمنونها في الدنيا لِعزة وجودها أو وجود الكثير منها ، وأوثر ذكر آنية الفضة هنا لمناسبة تشبيهها بالقوارير في البياض .

والقوارير : جمع قارورة ، وأصل القارورة إناء شبه كوز ، قيل : لا تسمى قارورة إلاّ إذا

كانت من زجاج ، وقيل مطلقاً وهو الذي ابتدأ به صاحب "القاموس" .

وسميت قارورة اشتقاقاً من القَرار وهو المكث في المكان وهذا وزن غريب .

(261/794)

والغالب أن اسم القارورة للإِناء من الزجاج ، وقد يطلق على ما كان من زجاج وإن لم يكن إناء كما في قوله تعالى : ﴿ قَال إنه صرح ممرّد من قوارير ﴾ [النمل : 44] وقد فسر قوله : ﴿ قواريراً ﴾ في هذه الآية بأنها شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والرقة حتى كأنها تشفّ عما فيها .

والتنافس في رقة آنية الخمر معروف عند شاربيها قال الأعشى:

تريك القذى من دونها وهي دونه . . .

إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

وفعل ﴿ كانت ﴾ هنا تشبيه بليغ ، والمعنى : إنها مثل القوارير في شفيفها ، وقرينة ذلك قوله : ﴿ من فضة ﴾ ، أي هي من جنس الفضة في لون القوارير لأن قوله ﴿ من فضة ﴾ حقيقة فإنه قال قبله ﴿ بآنية من فضة ﴾ .

ولفظ ﴿ قواريرا ﴾ الثاني ، يجوز أن يكون تأكيداً لفظياً لنظيره لزيادة تحقيق أن لها رقة

الزجاج فيكون الوقف على ﴿ قواريرا ﴾ الأول .

ويجوز أن يكون تكريراً لإفادة التصنيف فإن حسن التنسيق في آنية الشراب من مكملات رونق مجلسه ، فيكون التكرير مثل ما في قوله تعالى : ﴿ والمَلكُ صَفّاً صفّاً ﴾ [الفجر : 22] وقول الناس : قرأت الكتاب باباً باباً فيكون الوقف على ﴿ قواريراً ﴾ الثاني .

وكتب في المصحف ﴿ قواريرا قواريرا ﴾ بألف في آخر كلتا الكلمتين التي هي علامة تنوين .

r

وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ﴿ قواريرا ﴾ الأول والثاني منونين وتنوين الأول لمراعاة الكلمات الواقعة في الفواصل السابقة واللاحقةِ من قوله ﴿ كافوراً ﴾ [الإنسان : 5] إلى قوله ﴿ تقديرا ﴾ وتنوين الثاني للمزاوجة مع نظيره وهؤلاء وقفوا عليهما بالألف مثل أخواتهما وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ سلاسلا وأغلالاً ﴾ [الإنسان : 4] .

وقرأ ابن كثير وخلف ورويس عن يعقوب ﴿ قوايراً ﴾ الأول بالتنوين ووقفوا عليه بالألف وهو جار على التوجيه الذي وجهنا به قراءة نافع والكسائي .

وقرآ ﴿ قواريرا ﴾ الثاني بغير تنوين على الأصل ولم تراع المزاوجة ووقفا عليه بالسكون .

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم بترك التنوين فيهما لمنع الصرف وعدم مراعاة الفواصل ولا المزاوجة .

والقراءات روايةٌ متواترة لا يناكدها رسم المصحف فلعلّ الذين كتبوا المصاحف لم تبلغهم إلاّ قراءة أهل المدينة .

وحدّث خلف عن يحيى بن آدم عن ابن إدريس قال : في المصاحف الأول ثبتَ ﴿ قواريرا ﴾ الأول بالألف والثاني بغير ألف ، يعني المصاحف التي في الكوفة فإن عبد الله ابن إدريس كوفي .

وقال أبو عبيد : لرأيتُ في مصحف عثمان ﴿ قواريرا ﴾ الأول بالألف وكان الثاني مكتوباً بالألف فحُكَّت فرأيتُ أثرها هناك بيناً أ هـ .

وهذا كلام لا يفيد إذ لو صحّ لما كان يُعرف من الذي كتَبه بالألف ، ولا مَن الذي مَحا الألف ولا متى كان ذلك فيما بين زمن كتابة المصاحف وزمن أبي عبيد ، ولا يُدرى ماذا عنى بمصحف عثمان أهو مصحفه الذي اختص به أم هو مصحف من المصاحف التي نسخت في خلافته ووزعها على الأمصار ؟ .

وقرأ يعقوب بغير تنوين فيهما في الوصل .

وأما في الوقف فحمزة وقف عليهما بدون ألف .

وهشام عن ابن عامر وقفا عليهما بالألف على أنه صلة للفتحة ، أي إشباع للفتحة ووقف أبو عمرو وحفص وابن ذكوان عن ابن عامر ورويس عن يعقوب على الأول بالألف وعلى الثاني بدون ألف ووجهه ما وجهت به قراءة ابن كثير وخلف .

وقوله : ﴿ قدّروها تقديراً ﴾ يجوز أن يكون ضمير الجمع عائداً إلى ﴿ الأبرار ﴾ [الإنسان : 5] أو ﴿ عباد الله ﴾ [الإنسان : 6] الذي عادت إليه الضمائر المتقدمة من قوله ﴿ يفجرونها ﴾ [الإنسان : 6] و ﴿ يوفون ﴾ [الإنسان : 7] إلى آخر الضمائر فيكون معنى التقدير رغبتَهم أن تجيء على وفق ما يشتهون .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى نائب الفاعل المحذوف المفهوم من بناء ﴿ يطاف ﴾ للنائب ، أي الطائفون عليهم بها قدَّروا الآنية والأكوابَ ، أي قدروا ما فيها من الشراب على حسب ما يطلبه كل شارب منهم ومآله إلى معنى الاحتمال الأول .

(263/794)

وكان مما يعد في العادة من حِذق الساقي أن يعطِيَ كلَّ أحد من الشَّرْب ما يناسب رغبته .

و ﴿ تقديراً ﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله للدلالة على وفاء التقدير وعدم تجاوزه المطلوب ولا تقصيره عنه .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17)

أتبع وصف الآنية ومحاسنها بوصف الشراب الذي يحويه وطِيبه ، فالكأس كأس الخمر وهي من جملة عموم الآنية المذكورة فيما تقدم ولا تسمى آنية الخمر كأساً إلاّ إذا كان فيها خمر فكون الخمر فيها هو مصحح تسميتها كأساً ، ولذلك حسن تعدية فعل السقْي إلى الكأس لأن مفهوم الكأس يتقوم بما في الإِناء من الخمر ، ومثل هذا قول الأعشى:

وكأسسٍ شربتُ على لذة . . .

وأُخرى تداويتُ منها بها

يريد : وخمر شربتُ .

والقول في إطلاق الكأس على الإِناء أو على ما فيه كالقول في نظيره المتقدم في قوله : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ [الإنسان : 5] .

ومعنى الآية أن هذه سقْية أخرى ، أي مرة يشربون من كأس مزاجها الكافور ومرة يسقون كأساً مزاجها الزنجبيل .

وضمير ﴿ فيها ﴾ للجنة من قوله : ﴿ جنة وحريراً ﴾ [الإنسان : 12] .

وزنجبيل : كلمة معربة وأصلها بالكاف الأعجمية عوض الجيم .

قال الجواليقي والثعالبي : هي فارسية ، وهو اسم لجذور مثل جذور السُّعْد بضم السين وسكون العين تكون في الأرض كالجَزَر الدقيق واللفت الدقيق لونها إلى البياض لها نبات له

زهر ، وهي ذات رائحة عِطرية طيبة وطعمها شبيه بطعم الفُلفل ، وهو ينبت ببلاد الصين والسند وعُمان والشحر ، وهو أصناف أحسنها ما ينبت ببلاد الصين ، ويدخل في الأدوية والطبخ كالأفاويه ورائحته بهارية وطعمه حريف .

وهو منبه ويستعمل منقوعاً في الماء ومربى بالسّكر .

وقد عرفه العرب وذكره شعراء العرب في طيب الرائحة .

أي يمزجون الخمر بالماء المنقوع فيه الزنجبيل لطيب رائحته وحسن طعمه .

(264/794)

وانتصب ﴿ عيناً ﴾ على البدل من ﴿ زنجبيلاً ﴾ كما تقدم في قوله : ﴿ كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الإنسان : 5 ، 6] .

ومعنى كون الزنجبيل عيناً : أن منقوعه أو الشراب المستخرج منه كثير كالعين على نحو قوله تعالى : ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ [محمد : 15] ، أي هو كثير جداً وكان يعرف في الدنيا بالعزة .

و(سلسبيل) : وصف قيل مشتق من السلاسة وهي السهولة واللين فيقال : ماء سلسل ، أي عذب بارد .

قيل : زيدت فيه الباء والياء (أي زيدتا في أصل الوضع على غير قياس) .

قال التبريزي في "شرح الحماسة" في قول البعيث بن حُرَيْث:

خَيالٌ لأمِّ السَّلْسبيل ودُونَها . . .

مسيرة شهر للبريد المذبذب

قال أبو العلاء : السلسبيل الماء السهل المَساغ .

وعندي أن هذا الوصف ركب من مادتي السلاسة والسَّبَالة ، يقال : سبلت السماء ، إذا أمطرت ، فسبيل فعيل بمعنى مفعول ، رُكب من كلمتي السلاسة والسبيل لإِرادة سهولة شربه ووفرة جريه .

وهذا من الاشتقاق الأكبر وليس باشتقاق تصريفي .

فهذا وصف من لغة العرب عند محققي أهل اللغة .

وقال ابن الأعرابي : لم أسمع هذه اللفظة إلاّ في القرآن ، فهو عنده من مبتكرات القرآن الجارية على أساليب الكلام العربي ، وفي "حاشية الهمذاني على الكشاف" نسبة بيت البعث المذكور آنفاً مع بيتين بعده إلى أمية بن أبي الصلت وهو عزو غريب لم يقله غيره .

ومعنى ﴿ تسمى ﴾ على هذا الوجه ، أنها توصف بهذا الوصف حتى صار كالعلم لها كما قال تعالى : ﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة تسميةَ الأنثى ﴾ [النجم : 27] أي يصفونهم بأنهم إناث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هل تعلم له سَمِيّاً ﴾ [مريم : 65] أي لا مثيل له .

فليس المراد أنه علَم .

ومن المفسرين من جعل التسمية على ظاهرها وجعل ﴿ سلسبيلاً ﴾ علماً على هذه العين ، وهو أنسب بقوله تعالى : ﴿ تسمَّى .

﴾ وعلى قول ابن الأعرابي والجمهور : لا إشكال في تنوين ﴿ سلسبيلاً ﴾ .

(265/794)

وأما الجواليقي : إنه أعجمي سمّي به ، يكون تنوينه للمزاوجة مثل تنوين ﴿ سلاسلا ﴾ [الإنسان : 4] .

وهذا الوصف ينحلّ في السمع إلى كلمتين : سَل ، سَبيلا ، أي اطلُب طريقاً .

وقد فسره بذلك بعض المفسرين وذكر أنه جُعل عَلَماً لهذه العين من قبيل العلَم المنقول عن جملة مثل : تَأبط شراً ، وذَرَّى حَبّاً .

وفي "الكشاف" أن هذا تكلف وابتداع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ

﴾

(266/794)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والتسعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من (سورة الإنسان)

وحتى الآية ﴿ 31 ﴾ آخر السورة

(4/795)

قوله تعالى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر المطوف به لأنه الغاية المقصودة ، وصف الطائف لما في طوافه من العظمة المشهودة تصويراً لما هم فيه من الملك بعد ما نجوا منه من الهلك : ﴿ ويطوف عليهم ﴾ أي بالشراب وغيره من الملاذ والمحاب ﴿ ولدان ﴾ أي غلمان هم في سن من هو دون البلوغ " أقل أهل الجنة من يخدمه ألف غلام " ﴿ مخلدون ﴾ أي قد حكم من لا يرد حكمه بأن يكونوا

كذلك دائماً من غير غلة ولا ارتفاع عن ذلك الحد مع أنهم مزينون بالخلد وهو الحلق والأساور والقرطة والملابس الحسنة ﴿ إذ رأيتهم ﴾ أي يا أعلى الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنت أثبت الناس نظراً أو أيها الرائي من كان في أي حالة رأيتهم فيها ﴿ حسبتهم ﴾ من بياضهم وصفاء ألوانهم ولمع أنوارهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض وانبثاثهم في المجالس ذهاباً وإياباً ﴿ لؤلؤاً منثوراً ﴾ وذلك كناية عن كثرتهم وانتشارهم في الخدمة وشرفهم وحسنهم ؛ وعن بعضهم أن لؤلؤ الجنة في غاية الكبر والعظمة واختلاف الأشكال ، وكأنه عبر بالحسبان إشارة إلى أن ذلك مطلق تجويز لا مع ترجيح ، قال بعض المفسرين : هم غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين .

وقال بعضهم : هم أطفال المشركين لأنهم ماتوا على الفطرة ، وقال ابن برجان : وأرى والله أعلم أنهم من علم الله سبحانه وتعالى إيمانه من أولاد الكفار يكونون خدماً لأهل الجنة كما كانوا لهم في الدنيا سبياً وخداماً ، وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم سناً وملكاً سروراً لهم ، ويؤيد هذا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام " إن له لظئراً يتم رضاعه في الجنة " فإنه يدل على استقبال شأنه فيما هنالك وتنقله في الأحوال كالدنيا ، ولا دليل على خصوصيته بذلك .

ولما ذكر المخدوم والخدم شرع في ذكر المكان فقال : ﴿ وإذا رأيت ﴾ أي أجلت بصرك ، وحذف مفعوله ليشيع ويعم ﴿ ثم ﴾ أي هناك في أي مكان كان وأي شيء كان ﴿ رأيت نعيماً ﴾ أي ليس فيه كدر بوجه من الوجوه ، ولما كان النعيم قد يكون في حالة وسطى قال : ﴿ وملكاً كبيراً ﴾ أي لم يخطر على بال مما هو فيه من السعة وكثرة الموجود والعظمة أدناهم وما فيهم دني الذي ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ومهما أراده كان .

ولما ذكر الدار وساكنيها من مخدوم وخدم ، ذكر لباسهم بانياً حالاً من الفاعل والمفعول : ﴿ عليهم ﴾ أي حال كون الخادم والمخدوم يعلو أجسامهم على سبيل الدوام ، وسكن نافع وحمزة الياء على أنه مبتدأ وخبر شارح للملك على سبيل الاستئناف ﴿ ثياب سندس ﴾ وهو ما رق من الحرير ﴿ خضر ﴾ رفعه الجماعة صفة لثياب ، وجره ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم صفة لسندس حملاً على المعنى فإنه اسم جنس ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج يعمل بالذهب ، أو هو ثياب حرير صفاق نحو الديباج – قاله في القاموس ، رفعه ابن كثير ونافع وعاصم نسقاً على ثياب ، وجره الباقون على سندس .

(6/795)

ولما كان المقصود لأرباب اللباس الفاخر الحلية ، أخبر عن تحليتهم ، وبني الفعل للمفعول دلالة على تيسر ذلك لهم وسهولته عليهم فقال : ﴿ وحلّوا ﴾ أي وجدت تحلية المخدومين والخدم ﴿ أساور من فضة ﴾ وإن كانت تتفاوت بتفاوت الرتب ، وتقدم سر تخصيص هذه السورة بالفضة والأساورة بجمع ما فيها من لذة الزينة لذة اتساع الملك فإنها كناية عنه فإنه – كما قال الملوي – كان في الزمن القديم إذا ملك ملك أقاليم عظيمة كثيرة لبس سواراً وسمي الملك المسور لاتساع مملكته وعظمتها وكثرة أقاليمها ، وإن لم تجمع أقاليم لم يسور فما ظنك بمن أعطى من ذلك جمع الكثرة ، وهي بالغة من الأعضاء ما يبلغ التحجيل في الوضوء كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " فلذا كان أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ يرفع الماء إلى المنكبين وإلى الساقين .

(7/795)

ولما كان ربما ظن بما تقدم من ذلك الممزوج شيء من نقص لأجله يمزج كما هو في الدنيا ، وكان قد قال أولاً ﴿ يشربون ﴾ بالبناء للفاعل ، وثانياً (يسقون) بالبناء للمفعول ، قال بانياً للفاعل بياناً لفضل ما يسقونه في نفسه وفي كونه من عند الإله الأعظم المتصف بغاية الإحسان على صفة من العظمة تليق بإحسانه سبحانه بما أفاده إسناد الفعل إليه :

﴿ وسقاهم ﴾ وعبر بصفة الإحسان تأكيداً لذلك فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي الموجد لهم المحسن إليهم المدبر لمصالحهم ﴿ شراباً طهوراً ﴾ أي ليس هو كشراب الدنيا سواء كان من الخمر أو من الماء أو من غيرهما ، بل هو بالغ الطهارة والوصف بالشرابية من العذوبة واللذة واللطافة ، وهو مع ذلك آلة للتطهير البالغ للغير فلا يبقى في بواطنهم غش ولا وسواس ، ولا يريدون إلا ما يرضي مليكهم مما أسس على غاية الحكمة وفاق كامل وسجايا مطهرة وأخلاق مصطفاة لا عوج فيها ، ولا يستحيل شيء من شرابهم إلى نجاسة من بول ولا غيره ، بل يصير رشحاً كرشح المسك ويعطي الرجل شهوة مائة رجل في الأكل وغيره ، فإذا أكل شرب فطهر باطنه ورشح منه المسك فعادت الشهوة ، بل الحديث يدل على أن شهوتهم لا تنقضي أصلاً فإنه قال :

" يجد لآخر لقمة من اللذة ما يجد لأولها " يفعل بهم هذا سبحانه قائلاً لهم مؤكداً تسكيناً لقلوبهم لئلا يظنون أن ما هم فيه على وجه الضيافة ونحوها فيظنوا انقطاعه ﴿ إن هذا ﴾ أي الذي تقدم من الثواب كله ﴿ كان ﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿ لكم ﴾ بتكويني إياه من قبل موتكم

﴿ جزاء ﴾ أي على أعمالكم التي كنتم تجاهدون فيها أنفسكم عن هواها إلى ما يرضي ربكم فكنتم كلما عملتم عملاً كونت من هذا ما هو جزاء له ﴿ وكان ﴾ أي على وجه الثبات ﴿ سعيكم ﴾ ولما كان المقصود القبول لأن القابل الشاكر هو المعمول له ، بني للمفعول قوله : ﴿ مشكوراً ﴾ أي لا يضيع شيئاً منه ويجازى بأكثر منه أضعافاً مضاعفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 272 . 274 ﴾

(8/795)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك من يكون خادماً في تلك المجالس .

فقال : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾

وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة والأقرب أن المراد به دوام كونهم على تلك الصورة التي لا يراد في الخدم أبلغ منها ، وذلك يتضمن دوام حياتهم وحسنهم ومواظبتهم على الخدمة الحسنة الموافقة ، قال الفراء : يقال مخلدون مسورون ويقال : مقرطون .

وروى نفطويه عن ابن الأعرابي مخلدون محلون .

والصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ وفي كيفية التشبيه وجوه

أحدها : شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللؤلؤ المنثور ، ولو كان صفاً لشبهوا باللؤلؤ المنظوم ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثرين وثانيها : أنهم شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا انتثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء وثالثها : قال القاضي : هذا من التشبيه العجيب لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على البعض فيكون مخالفاً للمجتمع منه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر تفصيل أحوال أهل الجنة ، أتبعه بما يدل على أن هناك أموراً أعلى وأعظم من هذا القدر المذكور فقال :

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ رأيت ﴾ هل له مفعول ؟ فيه قولان : الأول : قال الفراء : المعنى وإذا رأيت ما ثم وصلح إضمار ما كما قال : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] يريد ما بينكم ، قال الزجاج : لا يجوز إضمار ما لأن ثم صلة وما موصولها ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة الثاني : أنه ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر والغرض منه أن يشبع ويعم ، كأنه قيل : وإذا وجدت الرؤية ثم ، ومعناه أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير ، و ﴿ ثم ﴾ في موضع النصب على الظرف يعني في الجنة .

المسألة الثانية :

اعلم أن اللذات الدنيوية محصورة في أمور ثلاثة .

قضاء الشهوة ، وإمضاء الغضب ، واللذة الخيالية التي يعبر عنها بحب المال والجاه ، وكل ذلك مستحقر فإن الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها ، فالملك الكبير الذي ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الحقيرة ، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت متحلية بجلال حضرة اللاهوت ، وأما ما هو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم فبين تعالى في الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع وبين في هذه الآية حصول التعظيم وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم ، وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس : لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه .

ويقال : إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه ، وقيل : لا زوال له وقيل : إذا أرادوا شيئاً حصل ، ومنهم من حمله على التعظيم .

فقال الكلبي : هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان .

المسألة الثالثة :

(10/795)

قال بعضهم قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ خطاب لمحمد خاصة ، والدليل عليه أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن دخلت الجنة أترى عيناي ما ترى عيناك ؟ فقال نعم ، فبكى حتى مات ، وقال آخرون : بل هو خطاب لكل أحد .

قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وحمزة عاليهم بإسكان الياء والباقون بفتح الياء أما القراءة الأولى : فالوجه فيها أن

يكون عاليهم مبتدأ ، وثياب سندس خبره ، والمعنى ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس ، فإن قيل : عاليهم مفرد ، وثياب سندس جماعة ، والمبتدأ إذا كان مفرداً لا يكون خبره جمعاً ، قلنا : المبتدأ ، وهو قوله : ﴿ عاليهم ﴾ وإن كان مفرداً في اللفظ ، فهو جمع في المعنى ، نظيره قوله تعالى : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامرا تَهْجُرُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ القوم ﴾ [المؤمنون : 67] كأنه أفرد من حيث جعل بمنزلة المصدر أما القراءة الثانية : وهي فتح الياء ، فذكروا في هذا النصب ثلاثة أوجه الأول : أنه نصب على الظرف ، لأنه لما كان عالي بمعنى فوق أجرى مجراه في هذا الإعراب ، كما كان قوله : ﴿ والركب أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال : 42] كذلك وهو قول أبي علي الفارسي والثاني : أنه نصب على الحال ، ثم هذا أيضاً يحتمل وجوهاً أحدها : قال أبو علي الفارسي : التقدير : ولقاهم نضرة وسروراً حال ما يكون عاليهم ثياب سندس وثانيها : التقدير : وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً حال ما يكون عاليهم ثياب سندس وثالثها : أن يكون التقدير ويطوف على الأبرار ولدان ، حال ما يكون الأبرار عاليهم ثياب سندس ورابعها : حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، حال ما يكون عاليهم ثياب سندس ، فعلى الاحتمالات الثلاثة الأول : تكون الثياب الأبرار ، وعلى الاحتمال الرابع تكون الثياب ثياب الولدان الوجه الثالث : في سبب هذا النصب ، أن يكون التقدير : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس .

المسألة الثانية :

قرأ نافع وعاصم : خضر واستبرق ، كلاهما بالرفع ، وقرأ الكسائي وحمزة : كلاهما بالخفض ، وقرأ ابن كثير : خضر بالخفض ، واستبرق بالرفع ، وقرأ أبو عمرو وعبد الله بن عامر : خضر بالرفع ، واستبرق بالخفض ، وحاصل الكلام فيه أن خضراً يجوز فيه الخفض والرفع ، أما الرفع فإذا جعلتها صفة لثياب ، وذلك ظاهر لأنها صفة مجموعة لموصوف مجموعة ، وأما الخفض فإذا جعلتها صفة سندس ، لأن سندس أريد به الجنس ، فكان في معنى الجمع ، وأجاز الأخفش وصف اللفظ الذي يراد به الجنس بالجمع ، كما يقال : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض إلا أنه قال : إنه قبيح ، والدليل على قبحه أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد وذلك قولهم : حصى أبيض وفي التنزيل ﴿ مِّنَ الشجر الأخضر ﴾ [يس : 80] و ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] إذ كانوا قد أفردوا صفات هذا الضرب من الجمع ، فالواحد الذي في معنى الجمع أولى أن تفرد صفته ، وأما استبرق فيجوز فيه الرفع والخفض أيضاً معاً ، أما الرفع فإذا أريد به العطف على الثياب ، كأنه قيل : ثياب سندس واستبرق وأما الخفض فإذا أريد إضافة الثياب إليه كأنه قيل : ثياب سندس واستبرق ، والمعنى ثيابهما فأضاف الثياب إلى الجنسين كما يقال : ثياب خز وكتان ، ويدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف : 31] واعلم أن حقائق هذه الآية قد تقدمت في سورة الكهف .

المسألة الثالثة :

(12/795)

السندس ما رق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه ، وكل ذلك داخل في اسم الحرير قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : 23] ثم قيل : إن الذين هذا لباسهم هم الولدان المخلدون ، وقيل : بل هذا لباس الأبرار ، وكأنهم يلبسون عدة من الثياب فيكون الذي يعلوها أفضلها ، ولهذا قال : ﴿ عاليهم ﴾ وقيل هذا من تمام قوله : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ ومعنى ﴿ عاليهم ﴾ أي فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس ، والمعنى أن حجالهم من الحرير والديباج .

قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : قال تعالى في سورة الكهف : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [الكهف : 31] فكيف جعل تلك الأساور ههنا من فضة ؟ والجواب : من ثلاثة أوجه أحدها : أنه لا منافاة بين الأمرين فلعلهم

يسورون بالجنسين إما على المعاقبة أو على الجمع كما تفعل النساء في الدنيا وثانيها : أن الطباع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب ، فالله تعالى يعطي كل أحد ما تكون رغبته فيه أتم ، وميله إليه أشد وثالثها : أن هذه الأسورة من الفضة إنما تكون للوالدان الذين هم الخدم وأسورة الذهب للناس .

(13/795)

السؤال الثاني : السوار إنما يليق بالنساء وهو عيب للرجال ، فكيف ذكر الله تعالى ذلك في معرض الترغيب ؟ الجواب : أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد أن يحلوا ذهباً وفضة وإن كانوا رجالاً ، وقيل : هذه الأسورة من الفضة والذهب إنما تكون لنساء أهل الجنة وللصبيان فقط ، ثم غلب في اللفظ جانب التذكير ، وفي الآية وجه آخر ، وهو أن آلة أكثر الأعمال هي اليد وتلك الأعمال والمجاهدات هي التي يتوسل بها إلى تحصيل المعارف الإلهية والأنوار الصمدية ، فتكون تلك الأعمال جارية مجرى الذهب والفضة التي يتوسل بهما إلى تحصيل المطالب ، فلما كانت تلك الأعمال صادرة من اليد كانت تلك الأعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة ، فسميت الأعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة ، وعبر عن تلك الأنوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ

شَرَاباً طَهُوراً ﴾ وبالجملة فقوله : ﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا ﴾ وقوله : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : 69] فهذا احتمال خطر بالبال ، والله أعلم بمراده .

(14/795)

قوله تعالى : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ الطهور فيه قولان : الأول : المبالغة في كونه طاهراً ، ثم فيه على هذا التفسير احتمالات أحدها : أنه لا يكون نجساً كخمر الدنيا وثانيها : المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة يعني ما مسته الأيدي الوضرة ، وما داسته الأقدام الدنسة وثالثها : أنها لا تؤول إلى النجاسة لأنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك القول الثاني : في الطهور أنه المطهر ، وعلى هذا التفسير أيضاً في الآية احتمالان أحدهما : قال مقاتل : هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد ، وما كان في جوفه من قذر وأذى وثانيهما : قال أبو قلابة : يؤتون الطعام والشراب فإذا كان في آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ، ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك ، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور ، مطهراً لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة ، والأشياء المؤذية ، فإن قيل

: قوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربُّهُمْ ﴾ هو عين ما ذكر تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور ، والزنجبيل ، والسلسبيل أو هذا نوع آخر ؟ قلنا : بل هذا نوع آخر ، ويدل عليه وجوه أحدها : دفع التكرار وثانيها : أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه ، فقال : ﴿ وسقاهم ربُّهُمْ ﴾ وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره وثالثها : ما روينا أنه تقدم إليهم الأطعمة والأشربة ، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون ، فيطهر ذلك بطونهم ، ويفيض عرقاً من جلودهم مثل ريح المسك ، وهذا يدل على أن هذا الشراب مغاير لتلك الأشربة ، ولأن هذا الشراب يهضم سائر الأشربة ، ثم له مع هذا الهضم تأثير عجيب ، وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقاً يفوح منه ريح كريح المسك ، وكل ذلك يدل على المغايرة ورابعها : وهو أن الروح من عالم الملائكة ، والأنوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة ، وعظمائهم على

(15/795)

هذه الأرواح مشبهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوي البدن ، وكما أن العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة ، فكذا ينابيع الأنوار العلوية مختلفة ، فبعضها تكون كافورية على طبع البرد واليبس ، ويكون صاحبها في الدنيا في مقام الخوف والبكاء والانقباض ، وبعضها

تكون زنجبيلية على طبع الحر واليبس ، فيكون صاحب هذه الحالة قليل الالتفات إلى ما سوى الله تعالى قليل المبالاة بالأجسام والجسمانيات ، ثم لا تزال الروح البشرية منتقلة من ينبوع إلى ينبوع ، ومن نور إلى نور ، ولا شك أن الأسباب والمسببات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المطلق جل جلاله وعز كماله ، فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب من ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربة المتقدمة ، بل فنيت ، لأن نور ما سوى الله تعالى يضمحل في مقابلة نور الله وكبريائه وعظمته ، وذلك هو آخر سير الصديقين ، ومنتهى درجاتهم في الإرتقاء والكمال ، فلهذا السبب ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار على قوله : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما تمم شرح أحوال السعداء ، قال تعالى :

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)

(16/795)

اعلم أن في الآية وجهين الأول : قال ابن عباس المعنى أنه يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ، ومشاهدتهم لنعيمها : إن هذا كان لكم جزاء قد أعده الله تعالى لكم إلى هذا الوقت ، فهو كله لكم بأعمالكم على قلة أعمالكم ، كما قال حاكياً عن الملائكة : إنهم يقولون لأهل الجنة

: ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 24] وقال : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الأيام الخالية ﴾ [الحاقة : 24] والغرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورهم ، فإنه يقال للمعاقب : هذا بعملك الرديء فيزداد غمه وألم قلبه ، ويقال للمثاب : هذا بطاعتك ، فيكون ذلك تهنئة له وزيادة في سروره ، والقائل بهذا التفسير جعل القول مضمراً ، أي ويقال لهم : هذا الكلام الوجه الثاني : أن يكون ذلك إخباراً من الله تعالى لعباده في الدنيا ، فكأنه تعالى شرح جواب أهل الجنة ، أن هذا كان في علمي وحكمي جزاء لكم يا معاشر عبادي ، لكم خلقتها ، ولأجلكم أعددتها ، وبقي في الآية سؤالان :

السؤال الأول : إذا كان فعل العبد خلقاً لله ، فكيف يعقل أن يكون فعل الله جزاء على فعل الله ؟ الجواب : الجزء هو الكافي ، وذلك لا ينافي كونه فعلاً لله تعالى .

(17/795)

السؤال الثاني : كون سعي العبد مشكوراً لله يقتضي كون الله شاكراً له والجواب : كون الله تعالى شاكراً للعبد محال إلا على وجه المجاز ، وهو من ثلاثة أوجه الأول : قال القاضي : إن الثواب مقابل لعلمهم ، كما أن الشكر مقابل للنعم الثاني : قال القفال : إنه مشهور في كلام

الناس ، أن يقولوا : للراضي بالقليل والمثني به إنه شكور ، فيحتمل أن يكون شكر الله لعباده هو رضاه عنهم بالقليل من الطاعات ، وإعطاؤه إياهم عليه ثواباً كثيراً الوجه الثالث : أن منتهى درجة العبد أن يكون راضياً من ربه مرضياً لربه على ما قال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : 27 ، 28] وكونها راضية من ربه ، أقل درجة من كونها مرضية لربه ، فقوله : ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾ إشارة إلى الأمر الذي به تصير النفس راضية من ربه وقوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ إشارة إلى كونها مرضية لربه ، ولما كانت هذه الحال أعلى المقامات وآخر الدرجات لا جرم وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 221.225 ﴾

(18/795)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾

بيّن مَن الذي يطوف عليهم بالآنية ؛ أي ويخدمهم ولدان مُخلَّدون ، فإنهم أخفُّ في الخدمة .

ثم قال : ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي باقون على ما هم عليه من الشَّباب والغَضَاضة والحُسْن ، لا يَهْرَمون ولا يتغيّرون ، ويكونون على سنّ واحدة على مَر الأزمنة .

وقيل : مُخلَّدون لا يموتون .

وقيل : مُسوَّرون مُقَّرطون ؛ أي مُحلَّون والتخليد التحلية .

وقد تقدم هذا .

﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم : لؤلؤاً مفرقاً في عَرْصة المجلس ، واللؤلؤ إذا نُثِر على بساط كان أحسن منه منظوماً .

وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بُوران بنت الحسن بن سهل ، وهو على بساط منسوج من ذهب ، وقد نَثَرت عليه نساءُ دار الخليفة اللؤلؤَ ، فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال : للَّهِ دَرُّ أبي نُواس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأنَّ صُغْرى وكُبْرى مَن فَقَاقِعها . . .

حَصْبَاءُ دَرٍّ على أرضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل : إنما شبههم بالمنثور ؛ لأنهم سراع في الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههنّ باللؤلؤ المكنون المخزون ؛ لأنهنّ لا يُمتهنَّ بالخدمة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ "ثَمَّ" : ظرف مكان أي هناك في الجنة ، والعامل في "ثَمَّ" معنى "رَأَيْتَ" أي وإذا رأيت ببصرك "ثَمَّ" .

وقال الفرّاء : في الكلام "ما" مضمرة ؛ أي وإذا رأيت ما ثَمّ ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] أي ما بينكم .

وقال الزجاج : "ما" موصولة ب"ثم" على ما ذكره الفرّاء ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصّلة ، ولكن "رَأَيتَ" يتعدّى في المعنى إلى "ثَمَّ" والمعنى : إذا رأيت ببصرك "ثَمَّ" ويعني ب "ثَمَّ" الجنة ، وقد ذكر الفرّاء هذا أيضاً .

(19/795)

والنعيم : سائر ما يُتنعمّ به .

والمُلْك الكبير : استئذان الملائكة عليهم ؛ قاله السُّديّ وغيره .

قال الكلبيّ : هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكُسْوة والطعام والشراب والتحف إلى وليّ الله وهو في منزله ، فيستأذن عليه ؛ فذلك المُلْك العظيم .

وقاله مقاتل بن سليمان .

وقيل : المُلْك الكبير : هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجباً ، حاجباً دون حاجب ، فبينما وليّ الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه مَلَك من عند الله ، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتحفةٍ من ربّ العالمين لم يرها ذلك الوليّ في الجنة قطّ ، فيقول

للحاجب الخارج : استأذن علي وليّ الله فإن معي كتاباً وهدية من ربّ العالمين .

فيقول هذا الحاجب للحاجب الذي يليه : هذا رسول من ربِّ العالمين ، معه كتاب وهديّة يستأذن على وليّ الله ؛ فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذي يلي وليّ الله فيقول له : يا وليّ الله ! هذا رسول من ربّ العالمين يستأذن عليك ، معه كتاب وتُحْفة من ربّ العالمين أفيؤذن له ؟ فيقول : نعم ! فأذنوا له .

فيقول ذلك الحاجب الذي يليه : نَعَم فأذنوا له .

فيقول الذي يليه للآخر كذلك حتى يبلغ الحاجب الآخر ، فيقول له : نَعَم أيها المَلَك ؛ قد أذن لك ، فيدخل فيسلّم عليه ويقول : السَّلامُ يُقرئك السَّلام ، وهذه تحفة ، وهذا كتاب من رب العالمين إليك .

فإذا هو مكتوب عليه : من الحيّ الذي لا يموت ، إلى الحيّ الذي يموت .

فيفتحه فإذا فيه : سلام على عبدي ووليي ورحمتي وبركاتي .

يا وليي أما آن لك أن تشتاق إلى رؤية ربّك ؟ فيستخفه الشوق فيركب البُرَاق فيطير به البُرَاق شوقاً إلى زيارة علام الغيوب ، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقال سفيان الثوريّ : بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ .

سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 24] وقيل : المُلْك الكبير كون التّيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك .

وقال الترمذيّ الحكيم : يعني مُلْك التكوين ، فإذا أرادوا شيئاً قالوا له كن .

وقال أبو بكر الورّاق : مُلْك لا يتعقبه هُلْك .

وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنّ الملك الكبير هو أنّ أدناهم منزلة ينظر في مُلْكه مسيرة ألفي عام ، يَرَى أقصاه كما يرى أدناه " قال : " وإن أفضلهم منزلة مَن ينظر في وجه ربّه تعالى كل يوم مرتين " سبحان المنعم .

قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ قرأ نافع وحمزة وابن محيصن "عالِيهِم" ساكنة الياء ، واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود وابن وثاب وغيرهما "عَالِيَتُهُمْ" وبتفسير ابن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يعلوها أفضل منها .

الفراء : وهو مرفوع بالابتداء وخبره "ثِيَابُ سُنْدُسٍ" واسم الفاعل يراد به الجمع .

ويجوز في قول الأخفش أن يكون إفراده على أنه اسم فاعل متقدّم و"ثيابُ" مرتفعة به وسَدّت مسدّ الخبر ، والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يَخُصّ ، وابتدىء به لأنه

اختص بالإضافة .

وقرأ الباقون "عَالِيَهُمْ" بالنصب .

وقال الفراء : هو كقولك فَوْقَهم ، والعرب تقول : قومُك داخلَ الدارِ فينصبون داخل على الظرف ، لأنه مَحلّ .

وأنكر الزجاج هذا وقال : هو مما لا نعرفه في الظروف ، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء ، ولكنه بالنصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم في قوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الأبرار "وِلْدَانٌ" ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ عالياً الأبرارَ ثيابُ سندسٍ ؛ أي يطوف عليهم في هذه الحال ، والثاني أن يكون حالاً من الولدان ؛ أي ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ في حال علوّ الثياب أبدانهم .

(21/795)

وقال أبو عليّ : العامل في الحال إمّا ﴿ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ وإمّا ﴿ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ قال : ويجوز أن يكون ظرفاً فصُرِف .

المهدوي : ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفاً ؛ كقولك هو ناحيةً من الدار ، وعلى أن عالياً لما كان بمعنى فوق أُجْرِي مُجْراه فجعل ظرفاً .

وقرأ ابن محيصن وابن كثير وأبو بكر عن عاصم "خُضْرٍ" بالجر على نعت السُّنْدُس ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ بالرفع نَسْقاً على الثياب ، ومعناه عاليهم ثيابُ سندس وإستبرقٌ .

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب "خُضْرٌ" رفعاً نعتاً للثياب "وَإِسْتَبْرَقٍ" بالخفض نعتاً للسُّنْدس ، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لجودة معناه ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة ، وأحسن ما عطف الإستبرق على السُّنْدس عطف جنس على جنس ، والمعنى : عاليَهم ثيابٌ خُضْرٌ مِن سندس وإستبرقٍ ، أي من هذين النوعين .

وقرى نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون ﴿ خُضْرٌ ﴾ نعتاً للثياب ؛ لأنهما جميعاً بلفظ الجمع "وإِسْتَبْرَقٌ" عطفاً على الثياب .

وقرأ الأعمش وابن وَثّاب وحمزة والكسائيّ كلاهما بالخفض ويكون قوله : "خُضْرٍ" نعتاً للسُّندس ، والسُّندس اسم جنس ، وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على استقباح له ؛ وتقول : أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهمُ البِيضُ ؛ ولكنه مستبعد في الكلام .

والمعنى على هذه القراءة : عالِيهم ثيابُ سُندسٍ خضرٍ وثيابُ إِستبرقٍ .

وكلهم صرف الإستبرق إلا ابن محيصن ، فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ "وإستبرقَ" نصباً في موضع الجر ، على منع الصرف ، لأنه أعجمي ، وهو غلط ؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من

الثياب .

وقرىء "واستبرق" بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمِّي باستفعل من البريق ، وليس بصحيح أيضاً ؛ لأنه مُعَرَّب مشهور تعريبه ، وأن أصله استبرك والسُّندس : ما رَقّ من الديباج .

(22/795)

والإستبرق : ما غَلُظ منه .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وحلوا ﴾ عطف على "وَيَطُوفُ" .

﴿ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وفي سورة فاطر ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ وفي سورة الحج ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ ، فقيل : حُليّ الرجل الفضة وحُليّ المرأة الذهب .

وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضّة .

وقيل : يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضّة وسواران من لؤلؤ ، ليجتمع لهم محاسن الجنة ؛ قاله سعيد بن المسيّب .

وقيل : أي لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم .

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ قال عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مرّوا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان ، فيشربون من إحداهما ، فتجري عليهم بنضرة النَّعيم ، فلا تتغير أبشارهم ، ولا تتشعث أشعارهم أبداً ، ثم يشربون من الأخرى ، فيخرج ما في بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خَزنة الجنة فيقولون لهم : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] .

وقال النَّخَعيّ وأبو قِلابة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طَهَّرهم ، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسْكٍ ، وضَمَرت بطونهم .

وقال مقاتل : هو من عينٍ ماء على باب الجنة ، تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غِلّ وغشٍّ وحسدٍ ، وما كان في جوفه من أذًى وقذر .

وهذا معنى ما روي عن عليّ ، إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعلاً للمبالغة ، ولا يكون فيه حجة للحنفي أنه بمعنى الطاهر .

وقد مضى بيانه في سورة "الفرقان" والحمد لله .

وقال طَيِّب الجمَّال : صَلَّيْتُ خَلْف سهل بن عبد الله العَتَمة ، فقرأ "وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً" وجعل يُحرِّك شفتيه وفمه ، كأنه يَمصُّ شيئاً ، فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ أي يقال لهم : إنما هذا جزاء لكم أي ثواب . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم ﴾ أي عملكم ﴿ مَّشْكُوراً ﴾ أي من قبل الله ، وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه .

وروى سعيد عن قتادة قال : غفر لهم الذَّنب وشَكَر لهم الحُسْنى .

وقال مجاهد : "مَشْكُوراً" أي مقبولاً والمعنى متقارب ؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره ، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل ، إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم .

روي " عن ابن عمر : أن رجلاً حَبَشِيًّا قال : يا رسول الله ! فُضِّلتم علينا بالصُّوَر والألوان والنبوّة ، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنت به ، وعملت بما عملت ، أكائن أنا معك في الجنة ؟ قال : "نعم والذي نفسي بيده إنه ليُرَى بياض الأسود في الجنة وضياؤه من مسيرة ألف عام" ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عَهْد ، ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة" فقال الرجل : كيف نهلك بعدها يا رسول الله ؟ فقال : "إن الرجل ليأتي يوم القيامة

بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله .

فتجيء النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفذ ذلك كله إلا أن يلطف الله برحمته" .

قال : ثم نزلت ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾

قال الحبشيّ : يا رسول الله ! وإن عينيّ لترى ما ترى عيناك في الجنة ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "نعم" فبكى الحبشيّ حتى فاضت نَفْسه .

(24/795)

وقال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُدْليه في حفرته ويقول : ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ قلنا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : "والذي نفسي بيده لقد أوقفه الله ثم قال أي عبدي لأبيضنّ وجهك ولأُبَوّئَنّك من الجنة حيث شئت ، فنعم أجر العاملين" " انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(25/795)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾

أي للخدمة ﴿ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي دائمون على ما هم فيه من الطراوة والبهاء وقيل مقرطون بخلدة وهي ضرب من القرطة وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن أنس مرفوعاً أنهم ألف خادم وفي بعض الآثار أضعاف ذلك

.

والجود أعظم والمواهب أوسع . . .

ويختلف ذلك قلة وكثرة باختلاف أعمال المخدومين ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض وقيل شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء وعليه هو من تشبيه المفرد لأن الانبثاث غير ملحوظ والخطاب في رأيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل واقف عليه وكذا في قوله تعالى :

(26/795)

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي هناك يعني في الجنة وهو في موضع النصب على الظرف ورأيت منزل منزلة اللازم فيفيد العموم في المقام الخطابي فالمعنى أن بصرك أينما وقع في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ عظيم القدر لا تحيط به عبارة وهو يشمل المحسوس والمعقول وقال عبد الله بن عمرو الكلبي عريضاً واسعاً يبصر أدناهم منزلة في الجنة في ملك مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه وذلك لما يعطى من حدة النظر أو هو من خصائص الجنة وقال مجاهد : هو استئذان الملائكة عليهم السلام فلا يدخلون عليهم إلا بإذن وقال الترمذي : وأظنه كما ظن أبو حيان الحكيم لا أبا عيسى المحدث صاحب الجامع هو ملك التكوين والمشيئة إذا أرادوا شيئاً كان وقيل هو النظر إلى الله عز وجل وقيل غير ذلك وقيل الملك الدائم الذي لا زوال له وزعم الفراء أن المعنى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ مَا ثَمَّ رَأَيْتَ ﴾ الخ وخرج على أنه أراد أن ثم ظرف لمحذوف وقع صلة لموصول محذوف هو مفعول رأيت والتقدير ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ مَا ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً ﴾ الخ فحذف ما كما حذف في قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] أي ما بينكم وتعقبه الزجاج ثم الزمخشري بأنه خطأ لأنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة وأنت تعلم أن الكوفيين يجيزون ذلك ومنه قوله : فمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه فحذف الموصول وأبقى صلته وقد يقال أن ذلك إنما يرد لو أراد أن

الموصول مقدر أما لو أراد المعنى وأن الظرف يغني غناء المفعول به فهو كلام صحيح لأن الظرف والمرئي كليهما الجنة وقرأ حميد الأعرج ثم بضم الثاء حرف عطف وجواب إذا على هذا محذوف يقدر بنحو تحير فكرك أو بنحو رأيت عاملاً في نعيماً .

(27/795)

﴿ عاليهم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ قيل عاليهم ظرف بمعنى فوقهم على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر والجملة حال من الضمير المجرور في عاليهم فهي شرح لحال الأبرار المطوف عليهم وقال أبو حيان : إن عالى نفسه حال من ذلك الضمير وهو اسم فاعل وثياب مرفوع على الفاعلية به ويحتاج في إثبات كونه ظرفاً إلى أن يكون منقولا من كلام العرب عاليك ثوب مثلاً ومثله فيما ذكر عالية وقيل حال من ضمير ﴿ لقاهم ﴾ أو من ضمير ﴿ جزاهم ﴾ وقيل من الضمير المستتر في ﴿ متكئين ﴾ والكل بعيد وجوز كون الحال من مضاف مقدر قبل ﴿ نعيماً ﴾ أو قبل ﴿ ملكاً ﴾ أي رأيت أهل نعيم أو أهل ملك عاليهم الخ وهو تكلف غير محتاج إليه وقيل صاحب الحال الضمير المنصوب في ﴿ حسبتهم ﴾ فهي شرح لحال الطائفين ولا يخفى بعده لما فيه من لزوم التفكيك ضرورة أن ضمير سقاهم فيما بعد كالمتعين عوده على الأبرار وكونه من التفكيك مع القرينة المعينة

وهو مما لا بأس به ممنوع واعترض أيضاً بأن مضمون الجملة يصير داخلاً تحت الحسبان وكيف يكون ذلك وهم لابسون الثياب حقيقة بخلاف كونهم لؤلؤاً فإنه على طريق التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ أن يحسبوا لؤلؤاً وأجيب بأن الحسبان في حال من الأحوال لا يقتضي دخول الحال تحت الحسبان ورفع خضر على أنه صفة ثياب واستبرق على أنه عطف على ثياب والمراد وثياب استبرق والسندس قال ثعلب ما رق من الديباج وقيل ما رق من ثياب الحرير والفرق أن الديباج ضرب من الحرير المنسوج يتلون ألواناً وقال الليث هو ضرب من البزيون يتخذ من المرعز وهو معرب بلا خلاف بين أهل اللغة على ما في "القاموس" وغيره وزعم بعض أنه مع كونه معرباً أصله سندي بياء النسبة لأنه يجلب من السند فأبدلت الياء سيناً كما قال في سادي سادس وهو كما ترى والاستبرق قيل ما غلظ من ثياب الحرير وقال أبو إسحاق الديباج الصفيق الغليظ الحسن وقال ابن دريد ثياب حرير نحو الديباج وعن ابن عبادة هو

(28/795)

بردة حمراء وقيل هو المنسوج من الذهب وهو اسم أعجمي معرب عند جمع أصله بالفارسية استبره وفي "القاموس" معرب استروه وحكي ذلك عن ابن دريد وأنه قال : إنه

سرياني وقيل معرب استفره وما في صورة الفاء ليست فاء خالصة وإنما هي بين الفاء والباء وقيل عربي وافقت لغة العرب فيه لغة غيرهم واستصوبه الأزهري وكما اختلفوا فيه هل هو معرب أو عربي اختلفوا هل هو نكرة أو علم جنس مبني أو معرب أو ممنوع من الصرف وهمزته همزة قطع أو وصل والصحيح على ما قال الخفاجي أنه نكرة معرب مصروف مقطوع الهمزة كما يشهد به القراءة المتواترة وسيعلم إن شاء الله تعالى حال ما يخالفها وفي "جامع التعريب" أن جمعه أبارق وتصغيره أبيرق حذفت السين والتاء في التكسير لأنهما زيدتا معاً فأجري مجرى الزيادة الواحدة وفي المسألة خلاف أيضاً مذكور في محله ولم يذكر لون هذا الاستبرق وأشار ناصر الدين إلى أنه الخضرة فخضر وإن توسط بين المعطوف والمعطوف عليه فهو لهما وعلى كل حال هذه الثياب لباس لهم وربما تشعر الآية بأن تحتها ثياباً أخرى وقيل على وجه الحالية من ضمير ﴿ متكئين ﴾ أن المراد فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس الخ وحاصله أن حجالهم مكللة بالسندس والاستبرق وقرأ ابن عباس بخلاف عنه والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن ونافع وحمزة عاليهم بسكون الياء وكسر الهاء وهي رواية أبان عن عاصم فهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء على أنه مبتدأ وثياب خبره وعند الأخفش فاعل سد مسد الخبر وقيل على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر وأخبر به عن النكرة لأنه نكرة وإضافته لفظية وهو في معنى الجماعة كما في

﴿ سامراً تهجرون ﴾ [المؤمنون : 67] على ما صرح به مكي ولا حاجة إلى التزامه على رأي الأخفش وقيل هو باق على النصب والفتحة مقدرة على الياء وأنت تعلم أن مثله شاذ أو ضرورة فلا ينبغي أن يخرج عليه القراءة المتواترة وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة وزيد بن علي عاليتهم بالياء والتاء مضمومة وعن الأعمش أيضاً وأبان عن عاصم فتح التاء الفوقية وتخريجهما كتخريج عاليهم بالسكون والنصب وقرأ ابن سيرين ومجاهد في رواية وقتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وأبان أيضاً عليهم جاراً ومجروراً فهو خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر وقرأت عائشة علتهم بتاء التأنيث فعلاً ماضياً فثياب فاعل وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة ثياب سندس بتنوين ثياب ورفع سندس على أنه وصف لها وهذا كما يقول ثوب حرير تريد من هذا الجنس وقرأ العربيان ونافع في رواية واستبرق بالجر عطفاً على سندس وقرأ ابن كثير وأبو بكر بجر خضر صفة لسندس وهو في معنى الجمع وقد صرحوا بأن وصف اسم الجنس الذي يفرق بينه وبين واحده بتاء التأنيث بالجمع جائز فصيح وعليه ﴿ ينشىء السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12] ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق : 10] وقد جاء سندسة في الواحدة كما قاله غير واحد وجوز كونه صفة لثياب

وجره للجوار وفيه توافق القراءتين معنى إلا أنه قليل وقرأ الأعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو بخلاف عنهما وحمزة والكسائي خضر واستبرق بجرهما وقرأ ابن محيصن واستبرق بوصل الألف وفتح القاف كما في عامة كتب القراآت ويفهم من "الكشاف" أنه قرأ بالقطع والفتح وأن غيره قرأ بما تقدم وهو خلاف المعروف وخرج الفتح على المنع من الصرف للعلمية والعجمة وغلط بأنه نكرة يدخله حرف التعريف فيقال الاستبرق وقيل إن ذاك كذا والوصل مبني على أنه عربي مسمى باستفعل من البريق يقال برق واستبرق كعجب واستعجب فهو في الأصل فعل ماض ثم جعل علماً لهذا النوع من الثياب فمنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل دون العجمة وتعقب بأن كونه

(30/795)

معرباً مما لا ينبغي أن ينكر وقيل هو مبني منقول من جملة فعل وضمير مستتر وحاله لا يخفى واختار أبو حيان أن استبرق على قراءة ابن محيصن فعل ماض من البريق كما سمعت وأنه باق على ذلك لم ينقل ولم يجعل علماً للنوع المعروف من الثياب وفيه ضمير عائد على السندس أو على الأخضر الدال عليه خضر كأنه لما وصف بالخضرة وهي مما يكون فيها لشدتها دهمة وغيش أخبر أن في ذلك اللون بريقاً وحسناً يزيل غبشه فقيل واستبرق أي

برق ولمع لمعاناً شديداً ثم قال معرضاً بمن غلطه كأبي حاتم والزمخشري وهذا التخريج أولى من تلحين قارىء جليل مشهور بمعرفة العربية وتوهيم ضابط ثقة قد أخذ عن أكابر العلماء انتهى وقيل الجملة عليه معترضة أو حال بتقدير قد أو بدونه ﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع سوار وهو معروف وذكر الراغب أنه معرب دستواره ﴿ مِن فِضَّةٍ ﴾ هي فضة لائقة بتلك الدار والظاهر أن هذا عطف على

(31/795)

﴿ يطوف عليهم ﴾ [الإنسان : 19] واختلافهما بالمضي والمضارعة لأن الحالية مقدمة على الطواف المتجدد ولا ينافي ما هنا قوله تعالى : ﴿ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [فاطر : 33] لإمكان الجمع بتعدد الأساور لكل والمعاقبة بلبس الذهب تارة والفضة أخرى والتبعيض بأن يكون أساور بعض ذهباً وبعض فضة لاختلاف الأعمال وقيل هو حال من ضمير عاليهم بإضمار قد أو بدونه فإن كان الضمير للطائفين على أن يكون عاليهم حالاً من ضمير ﴿ حسبتهم ﴾ جاز أن يقال الفضة للخدم والذهب للمخدومين وجوز أن يكون المراد بالأساور الأنوار الفائضة على أهل الجنة المتفاوتة لتفاوت الأعمال تفاوت الذهب والفضة والتعبير عنها بأساور الأيدي لأنه جزاء ما عملته أيديهم ولا يخفى أن هذا مما لا

يليق بالتفسير وحري أن يكون من باب الإشارة ثم أن التحلية إن كانت للولدان فلا كلام ويكونون على القول الثاني في ﴿ مخلدون ﴾ مسورين مقرطين وهو من الحسن بمكان وإن كانت لأهل الجنة المخدومين فقد استشكل بأنها لا تليق بالرجال وإنما تليق بالنساء والولدان وأجيب بأن ذلك مما يختلف باختلاف العادات والطبائع ونشأة الآخرة غير هذه النشأة ومن المشاهد في الدنيا أن بعض ملوكها يتحلون بأعضادهم وعلى تيجانهم وعلى صدورهم ببعض أنواع الحلى مما هو عند بعض الطباع أولى بالنساء والصبيان ولا يرون ذلك بدعاً ولا نقصاً كل ذلك لمكان الإلف والعادة فلا يبعد أن يكون من طباع أهل الجنة في الجنة الميل إلى الحلى مطلقاً لا سيما وهم جرد مرد أبناء ثلاثين وقيل أن الأساور إنما تكون لنساء أهل الجنة والصبيان فقط لكن غلب في اللفظ جانب التذكير وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى ﴿ وسقاهم ربُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ هو نوع آخر يفوق النوعين السابقين وهما ما مزج بالكافور وما مزج بالزنجبيل كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين ووصفه بالطهورية قال أبو قلابة يؤتون بالطعام والشراب فإذا كان آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور

(32/795)

فيطهر بذلك قلوبهم وبطونهم ويفيض عرقاً من جلودهم مثل ريح المسك وعن مقاتل هو ماء عين على باب الجنة من ساق شجرة من شرب منه نزع الله تعالى ما كان في قلبه من غش وغل وحسد وما كان في جوفه من قذر وأذى أي إن كان فالطهور عليهما بمعنى المطهر وقد تقدم في ذلك كلام فتذكر وقال غير واحد أريد أنه في غاية الطهارة لأنه ليس برجس كخمر الدنيا التي هي في الشرع رجس لأن الدار ليست دار تكليف أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها أو لأنه لا يؤل إلى النجاسة لأنه يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك وقيل أريد بذاك الشراب الروحاني لا المحسوس وهو عبارة عن التجلي الرباني الذي يسكرهم عما سواه

.

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا . . .

ونور ولا نار وروح ولا جسم

ولعل كل ما ذكره ابن الفارض في خمريته التي لم يفرغ مثلها في كأس إشارة إلى هذا الشراب وإياه عنى بقوله

: سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا . . .

جبال حنين ما سقوني لغنت

ويحكى أنه سئل أبو يزيد عن هذه الآية فقال سقاهم شراباً طهرهم به عن محبة غيره ثم قال إن لله تعالى شراباً ادخره لأفاضل عباده يتولى سقيهم إياه فإذا شربوا طاشوا وإذا طاشوا طاروا وإذا طاروا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر وحمل بعضهم جميع الأشربة على غير المتبادر منها فقال إن الأنوار الفائضة من جواهر أكابر الملائكة وعظمائهم عليهم السلام على هذه الأرواح مشبهة بالماء العذب الذي يزيل العطش ويقوي البدن وكما أن العيون متفاوتة في الصفاء والكثرة والقوة فكذا ينابيع الأنوار العلوية مختلفة فبعضها كافورية على طبع البرد واليبس ويكون صاحب ذلك في الدنيا في مقام الحزن والبكاء والانقباض وبعضها يكون زنجبيلياً على طبع الحر واليبس ويكون صاحبه قليل الالتفات إلى السوي قليل المبالات بالأجسام والجسمانيات ثم لا يزال الروح البشري منتقلاً من ينبوع إلى ينبوع ومن نور إلى نور ولا شك أن الأسباب والمسببات متناهية في ارتقائها إلى واجب الوجود الذي هو النور المطلق جل جلاله فإذا وصل إلى ذلك المقام وشرب ذلك الشراب انهضمت تلك الأشربة المتقدمة بل فنيت لأن نور ما سوى الله يضمحل في مقابلة نور جلال الله سبحانه وكبريائه وذلك آخر سير الصديقين ومنتهى درجاتهم في الارتقاء والكمال ولهذا ختم الله تعالى ذكر ثواب الأبرار بقوله جل وعلا

وسقاهم ربهم شراباً طهوراً .

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)

(34/795)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي ذكر من فنون الكرامات الجليلة الشأن ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾ بمقابلة أعمالكم الصالحة التي اقتضاها حسن استعدادكم واختياركم والظاهر أن المجيء بالفعل للتحقيق والدوام وجوز أن يكون المراد كان في علمي وحكمي وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ أي مرضياً مقبولاً أو مجازى عليه غير مضيع والكلام على ما روي عن ابن عباس على إضمار القول أي ويقال لهم بعد دخولهم الجنة ومشاهدتهم ما أعد لهم أن هذا الخ والغرض أن يزداد سرورهم فإنه يقال للمعاقب هذا بعملك الردىء فيزداد غمه وللمثاب هذا بطاعتك وعملك الحسن فيزداد سروره ويكون ذلك تهنئة له وجوز أن يكون خطاباً من الله تعالى في الدنيا كأنه سبحانه بعد أن شرح ثواب أهل الجنة قال : إن هذا كان في علمي وحكمي جزاءً لكم يا معشر عبادي وكان سعيكم مشكوراً قيل وهو لا يغني عن الإضمار ليرتبط بما قبله وقد ذكر سبحانه من الجزاء ما تهش له الألباب وأعقبه جل وعلا بما يدل على الرضا الذي هو أعلى وأغلى لدى الأحباب

.

إذا كنت عني يا منى القلب راضيا . . .

أرى كل من في الكون لي يتبسم

وروي من طرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه السورة وقد أنزلت عليه وعنده رجل من الحبشة أسود فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة خرجت نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(35/795)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾

منصوب على الحال من مفعول جزاهم ، والعامل فيها جزى ، ولا يعمل فيها صبروا ؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا ، وجوّز أبو البقاء أن يكون صفة لجنة .

قال الفرّاء : وإن شئت جعلت متكئين تابعاً ، كأنه قال : جزاهم جنة ﴿ متكئين ﴾ فيها .

وقال الأخفش : يجوز أن يكون منصوباً على المدح ، والضمير من ﴿ فيها ﴾ يعود إلى الجنة ، والأرائك : السرر في الحجال ، وقد تقدّم تفسيرها في سورة الكهف ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من مفعول جزاهم ، فتكون من الحال المترادفة ، أو من الضمير في متكئين ، فتكون من الحال المتداخلة ، أو صفة أخرى لجنة ، والزمهرير : أشدّ البرد ، والمعنى : أنهم لا يرون في الجنة حرّ الشمس ولا برد الزمهرير ، ومنه قول الأعشى :

منعمة طفلة كالمها . . . لم تر شمساً ولا زمهريراً

وقال ثعلب : الزمهرير القمر بلغة طيّ ، وأنشد لشاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر . . . قطعتها والزمهرير ما زهر

ويروى .

ما ظهر ، أي : لم يطلع القمر ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة مريم .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ دانية ﴾ بالنصب عطفاً على محل لا يرون ، أو على متكئين ، أو صفة لمحذوف ، أي : وجنة دانية ، كأنه قال : وجزاهم جنة دانية .

وقال الزجاج : هو صفة لجنة المتقدم ذكرها .

وقال الفرّاء : هو منصوب على المدح .

وقرأ أبو حيوة : (ودانية) بالرفع على أنه خبر مقدّم ، وظلالها مبتدأ مؤخر ، والجملة في

موضع النصب على الحال ، والمعنى : أن ظلال الأشجار قريبة منهم مظلة عليهم زيادة في نعيمهم ، وإن كان لا شمس هنالك .

قال مقاتل : يعني : شجرها قريب منهم .

وقرأ ابن مسعود : (ودانياً عليهم) .

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ معطوف على دانية كأنه قال : ومذللة .

(36/795)

ويجوز أن تكون الجملة في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، والقطوف الثمار ، والمعنى : أنها سخرت ثمارها لمتناوليها تسخيراً كثيراً بحيث يتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك .

قال النحاس : المذلل القريب المتناول ، ومنه قولهم حائط ذليل ، أي : قصير .

قال ابن قتيبة : ذللت أدنيت ، من قولهم حائط ذليل أي : كان قصير السمك .

وقيل : ذللت ، أي : جعلت منقادة لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي : تدور عليهم الخدم إذا أرادوا الشراب بآنية الفضة ، والأكواب جمع ركوب ، وهو : الكوز العظيم الذي لا أذن له ولا عروة ، ومنه

قول عديّ :

متكىء تقرع أبوابه . . . يسعى عليه العبد بالكوب

وقد مضى تفسيره في سورة الزخرف ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي : في وصف القوارير في الصفاء وفي بياض الفضة ، فصفاؤها صفاء الزجاج ، ولونها لون الفضة .

قرأ نافع ، والكسائي ، وأبو بكر : (قوارير قوارير) بالتنوين فيهما مع الوصل ، وبالوقف عليهما بالألف ، وقد تقدّم وجه هذه القراءة في تفسير قوله : ﴿ سلاسل ﴾ [الإِنسان : 4] من هذه السورة ، وبيّنا هنالك وجه صرف ما فيه صيغة منتهى الجموع فارجع إليه .

وقرأ حمزة بعدم التنوين فيهما ، وعدم الوقف بالألف ، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما ممتنعان لصيغة منتهى الجموع .

وقرأ هشام بعدم التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالألف ، وقرأ ابن كثير بتنوين الأوّل دون الثاني ، والوقف على الأوّل بالألف دون الثاني .

وقرأ أبو عمرو ، وحفص ، وابن ذكوان بعدم التنوين فيهما ، والوقف على الأوّل بالألف دون الثاني ، والجملة في محل جرّ صفة لأكواب .

قال أبو البقاء : وحسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلها .

قال الواحدي : قال المفسرون : جعل الله قوارير أهل الجنة من فضة ، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير .

قال الزجاج : القوارير التي في الدنيا من الرمل ، فأعلم الله فضل تلك القوارير أن أصلها من فضة يرى من خارجها ما في داخلها ، وجملة ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ صفة لقوارير .

قرأ الجمهور : ﴿ قدّروها ﴾ بفتح القاف على البناء للفاعل ، أي : قدّرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زياد ولا نقصان .

قال مجاهد وغيره : أتوا بها على قدر ريهم بغير زيادة ولا نقصان .

قال الكلبي : وذلك ألذّ وأشهى .

وقيل : قدّرها الملائكة .

وقيل : قدّرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم ، فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص .

وقرأ عليّ ، وابن عباس ، والسلمي ، والشعبي ، وزيد بن عليّ ، وعبيد بن عمير ، وأبو عمرو في رواية عنه : " قدّروها " بضم القاف ، وكسر الدال مبنياً للمفعول ، أي : جعلت لهم على قدر إرادتهم .

قال أبو علي الفارسي : هو من باب القلب ، قال : لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدّرت عليهم لا قدّروها ؛ لأنه في معنى قدروا عليها .

وقال أبو حاتم : التقدير قدّرت الأواني على قدر ريهم ، فمفعول ما لم يسمّ فاعله محذوف .

قال أبو حيان : والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة أن يقال : قدّر ريهم منها تقديراً ، فحذف المضاف ، فصار قدّروها .

وقال المهدوي : إن القراءة الأخيرة يرجع معناها إلى معنى القراءة الأولى ، وكأن الأصل قدّروا عليها فحذف حرف الجرّ ، كما أنشد سيبويه :

آليت حبّ العراق الدهر آكله . . . والحب يأكله في القرية السوس

أي : آليت على حبّ العراق .

(38/795)

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ قد تقدّم أن الكأس هو الإناء فيه الخمر ، وإذا كان خالياً عن الخمر ، فلا يقال له كأس ، والمعنى : أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ، ممزوجة بالزنجبيل وقد كانت العرب تستلذّ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته .

وقال مجاهد ، وقتادة : الزنجبيل اسم للعين التي يشرب بها المقرّبون .

وقال مقاتل : هو زنجبيل لا يشبه زنجبيل الدنيا .

﴿ عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ انتصاب ﴿ عيناً ﴾ على أنها بدل من ﴿ كأساً ﴾ .

ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدّر ، أي : يسقون عيناً ، ويجوز أن تكون منصوبة بنزع الخافض ، أي : من عين ، والسلسبيل : الشراب اللذيذ ، مأخوذ من السلاسة ، تقول العرب : هذا شراب سلس ، وسلسال ، وسلسبيل ، أي : طيب لذيذ .

قال الزجاج : السلسبيل في اللغة اسم لماء في غاية السلاسة حديد الجرية يسوغ في حلوقهم ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم . . . كأساً يصفق بالرحيق السلسل

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ووصف آنيتهم ، ووصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب ، ومعنى ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ : باقون على ما هم عليه من الشباب ، والطراوة ، والنضارة ، لا يهرمون ، ولا يتغيرون .

وقيل معنى ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ : لا يموتون .

وقيل : التخليد التحلية ، أي : محلون ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ : إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم ، وصفاء ألوانهم ، ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرّقاً .

قال عطاء : يريد في بياض اللون وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان

أحسن منه منظوماً .

قال أهل المعاني : إنما شبّهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة ، ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم .

وقيل : إنما شبههم بالمنثور ؛ لأنهم سراع في الخدمة ، بخلاف الحور العين .

(39/795)

فإنه شبههنّ باللؤلؤ المكنون ؛ لأنهنّ لا يمتهنّ بالخدمة .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ أي : وإذا رميت ببصرك هناك ، يعني : في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف ، وملكاً كبيراً لا يقادر قدره ، وثم ظرف مكان ، والعامل فيها رأيت .

قال الفرّاء : في الكلام ما مضمرة ، أي : وإذا رأيت ما ثم ، كقوله : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] أي : ما بينكم .

قال الزجاج معترضاً على الفراء : إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن رأيت يتعدّى في المعنى إلى ثم .

والمعنى : إذا رأيت ببصرك ثم ، ويعني بثمّ : الجنة .

قال السديّ : النعيم ما يتنعم به ، والملك الكبير : استئذان الملائكة عليهم ، وكذا قال

مقاتل ، والكلبي .

وقيل : إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ، ولا مقدّر ولا منويّ ، بل معناه : أن بصرك أينما وقع في الجنة رأيت نعيماً وملكاً كبيراً .

﴿ عاليهم ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ قرأ نافع ، وحمزة ، وابن محيصن : (عاليهم) بسكون الياء وكسر الهاء على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، أو على أن عاليهم مبتدأ ، وثياب مرتفع بالفاعلية ، وإن لم يعتمد الوصف ، كما هو مذهب الأخفش .

وقال الفراء : هو مرفوع بالابتداء ، وخبره : ثياب سندس ، واسم الفاعل مراد به الجمع .

وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف في محلّ رفع على أنه خبر مقدّم ، وثياب مبتدأ مؤخر ، كأنه قيل فوقهم ثياب .

قال الفرّاء : إن عاليهم بمعنى فوقهم ، وكذا قال ابن عطية .

(40/795)

قال أبو حيان : عال وعالية اسم فاعل ، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب ، وقد تقدّمه إلى هذا الزجاج وقال : هذا مما لا نعرفه في الظروف ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الياء ، ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم في قوله : ﴿

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على الأبرار ﴿ ولدان ﴾ عالياً الأبرار ﴿ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ أي : يطوف عليهم في هذه الحال .

والثاني أن يكون حالاً من الولدان ، أي : إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً في حال علوّ الثياب أبدانهم .

وقال أبو عليّ الفارسي : العامل في الحال إما لقاهم نضرة وسروراً ، وإما جزاهم بما صبروا .

قال : ويجوز أن يكون ظرفاً .

وقرأ ابن سيرين ، ومجاهد ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : (عليهم) ، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة .

واختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود : (عاليتهم) .

وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس .

وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة بتنوين ثياب ، وقطعها عن الإضافة ، ورفع سندس ، و ﴿ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ على أن السندس نعت للثياب ؛ لأن السندس نوع من الثياب ، وعلى أن ﴿ خضر ﴾ نعت لسندس ؛ لأنه يكون أخضر وغير أخضر ، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس ، أي : وثياب إستبرق ، والجمهور من القرّاء اختلفوا في خضر وإستبرق مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه ؛ فقرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن

عاصم ، وابن محيصن بجرّ خضر نعتاً لسندس ، ورفع إستبرق عطفاً على ثياب أي : عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر برفع خضر نعتاً لثياب ، وجرّ إستبرق نعت لسندس .

واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وأبو عبيد ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتاً للثياب فهي مرفوعة ، والإستبرق من جنس السندس .

وقرأ نافع ، وحفص برفع ﴿ خضر وإستبرق ﴾ لأن ﴿ خضر ﴾ نعت للثياب ، وإستبرق عطف على الثياب .

(41/795)

وقرأ الأعمش ، وحمزة ، والكسائي بجرّ (خضر وإستبرق) على أن ﴿ خضر ﴾ نعت للسندس ، وإستبرق معطوف على سندس .

وقرءوا كلهم بصرف إستبرق إلاّ ابن محيصن ، فإنه لم يصرفه ، قال : لأنه أعجمي ، ولا وجه لهذا ؛ لأنه نكرة إلاّ أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب .

والسندس : ما رقّ من الديباج .

والإستبرق : ما غلظ منه ، وقد تقدّم تفسيرهما في سورة الكهف .

﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ عطف على ﴿ يطوف عليهم ﴾ .

ذكر سبحانه هنا أنهم يحلون بأساور الفضّة ، وفي سورة فاطر : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ [فاطر : 33] وفي سورة الحج : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ [الحج : 23] ولا تعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤ ، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة ، وسوارات الفضة تارة ، وسوارات اللؤلؤ تارة ، أو أنه يلبس كل أحد منه ما تميل إليه نفسه من ذلك ، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ هذا نوع آخر من الشراب الذي يمنّ الله عليهم به .

قال الفرّاء : يقول هو طهور ليس بنجس ، كما كان في الدنيا موصوفاً بالنجاسة .

والمعنى : أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا .

قال مقاتل : هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غشّ ، وغلّ ، وحسد .

قال أبو قلابة ، وإبراهيم النخعي : يؤتون بالطعام ، فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور ، فيشربون فتضمر بطونهم من ذلك ، ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾ أي : يقال لهم : إن هذا الذي ذكر من أنواع النعم كان لكم جزاء

بأعمالكم أي : ثواباً لها ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ أي : كان عملكم في الدنيا بطاعة الله مرضياً مقبولاً ، وشكر الله سبحانه لعمل عبده هو قبوله لطاعته .

(42/795)

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : الزمهرير هو البرد الشديد . وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشتكت النار إلى ربها فقالت : ربّ أكل بعضي بعضاً ، فجعل لها نفسين : نفساً في الصيف ، ونفساً في الشتاء ، فشدّة ما تجدون من البرد من زمهريرها ، وشدّة ما تجدون في الصيف من الحرّ من سمومها " وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وهناد بن السريّ ، وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في قوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها ﴾ قال : قريبة ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ، ومضطجعين وعلى أيّ حال شاءوا .

وفي لفظ قال : ذللت فيتناولون منها كيف شاءوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : ﴿ ءَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ ﴾ وصفاؤها كصفاء القوارير ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ قال : قدّرت للكف .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، والبيهقي عنه قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا ، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : ليس في الجنة شيء إلاّ وقد أعطيتم في الدنيا شبهه إلاّ قوارير من فضة .

وأخرج الفريابي عنه أيضاً في قوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ قال : أتوا بها على قدر الفم لا يفضلون شيئاً ، ولا يشتهون بعدها شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ قال : قدّرتها السقاة .

(43/795)

وأخرج ابن المبارك ، وهناد ، وعبد بن حميد ، والبيهقي في البعث عن ابن عمرو قال : إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ،

وتلا هذه الآية : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 349. 353 ﴾

(44/795)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : « وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ . . . » .

أي ومن نعيم الأبرار فى الجنة ، أنه يطاف عليهم فيها بأوان من فضة ، قد ملئت بألوان النعيم ، من مأكول ومشروب ، كما يطاف عليهم بأكواب لم ترها عين فى الحياة الدنيا ، فهى أكواب من فضة ، ولكنها فى شفافية الزجاج ، حتى ليحسبها الرائي قوارير ، أي زجاجا . . والواقع أنها من الفضة ، والفضة مهما رقّت لا تشفّ أبدا ، فلو استطاع صانع أن يصنع من درهم فضة إبريقا ، أو دلوا ، لما شف هذا الإناء عما فى داخله كما يشفّ الإناء من الزجاج . .

وقوله تعالى : « قَدَّرُوها تَقْدِيراً » .

. الضمير فى قدروها يعود إلى السقاة الذين يطوفون بتلك الآنية ، وهذه الأكواب . . وأنهم جعلوها بمقادير وأحجام مقدرة بحسب طلب كل طالب . . كما يصح أن يعود هذا

الضمير على الشاربين ، وأنهم إذا رغبوا فى الشراب انتصبت فى الحال بين أيديهم تلك الأكواب ، فكانت على قدر ما رغبوا .

ومما يساق إلى الأبرار من نعيم ، أنهم يسقون فى هذه الأكواب ـ التي أصبحت بالشراب كأسا ـ يسقون كأسا قد امتزج فيها طعم الزنجبيل بمذاق الخمر . .

والزنجبيل : عروق نبات تمتد فى الأرض ، نقيعه حرّيف الطعم ، يكون أشبه بالتفكهة لشارب الخمر . .

فالضمير في « فيها » من قوله تعالى : « يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً » يعود إلى تلك الأكواب التي هى قوارير من فضة . .

فالأكواب ، وصف لكئوس الشراب وهى فارغة ، والكأس مسمّاها وهى ملأى بالشراب . .

(45/795)

وقوله تعالى : « عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » أي ويسقون عينا فى هذه الكأس تسمّى سلسبيلا . .

فقوله تعالى : « عَيْناً فِيها » عطف بيان لقوله تعالى : « كَأْساً » .

. فالعين هى الكأس ، والكأس هى الأكواب . . يرون هذا المشهد يمرّ بهم فى لحظة خاطفة . . فأداة الشرب ، وهى الكوب ، تبدو أولا ، ثم ـ وفى لحظة لازمنية ـ ترى كأسا ملأى بالشراب . . ثم ـ وفى لحظة لازمنية أيضا ـ ترى هذه الكأس عينا تفجر تفجيرا ، لا ينفد شرابها ، مادامت الكأس على فم الشارب ، فإذا أخذ حاجته منها غاضت هذه العين ، وغاب وجه الساقي القائم على خدمتها ، ليفسح المكان لألوان أخرى من النعيم . . لا تنتهى أبدا . .

والسلسبيل : الدائم الجريان ، السائغ الطعم ، فيجرى فى الحلق جريان الماء فى منحدر الوادي . وبه سميت العين ، من تسمية الموصوف بصفته . .

وقد جمعت الأكواب ، حتى إذا امتلأت بالشراب ، أفردت ، فكان لكل شارب كأسه الذي يشرب منه ، والعين التي تفيض من هذه الكأس . .

وهذا من إعجاز القرآن الكريم فى جلال التصوير ، وروعة الأداء ، وصدق العرض . .

ولا تظنن أنا ذهبنا مذهب الشطط ، أو الشطح فى تأويل هذه الآيات . .

فما ذلك إلا شعاعة من سناها العلوي ، الذي يملأ الوجود كله . . وإن هذا الترف الذي يبدو من الصورة التي عرضناها لمجلس الشراب ، هو صورة باهتة هزيلة للحقيقة الواقعة التي يعيش فيها أهل هذا المجلس ، فى الجنة . .

قوله تعالى : « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً »

أي أن الذين يطوفون بهذا الشراب ، ويقومون على خدمة الشاربين ، هم ولدان ، أي غلمان فى أول بواكير الشباب ، إذا رآهم راء حسبهم لؤلؤا منثورا . . صفاء ، ورونقا ، ونضارة ، وإشراقا . .

وفى مجىء نظم الآية فى صورة خطاب ـ بعث لأشواق المخاطب ، ودعوة له إلى مشاهدة هذه الأحوال ، ثم العمل على أخذ مكانه مع هؤلاء الذين ينظر إليهم .

والمخلدون : الذين لا يتحولون عن حالهم تلك أبدا ، ولا يتأثرون بمرور الدهور والأزمان . . وهو من الخلد : أي الثبات ، وعدم التحول ، والانتقال من مكان إلى مكان . . يقال ، أخلد فلان فى مكانه ، أي لزمه ، وأخلد إلى الراحة أي أقام فى ظلها . . ومنه جنّة الخلد ، أي الخلود والدوام فيها .

واللؤلؤ المنثور ، هو اللؤلؤ المتناثر الحبات ، الذي لم ينتظمه عقد . . واللؤلؤ المنثور أبهى منظرا ، وأبهر موقعا فى العين ، منه لو كان منضّما بعضه إلى بعض . .

كالمنثور من الزهر فى الروض ، تتنقل العين فى محاسنه من زهرة إلى زهرة ، على خلاف ما لو ضمّ بعضه إلى بعض لأخذته العين كله بنظرة واحدة ! ! قوله تعالى : « وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ

رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً » ثم : أي هناك ، فى الجنة ، وما يلقاه أهلها فيها من نعيم . .

إنك لو كنت هناك ـ جعلنا اللّه وإياك من أهلها ـ لرأيت نعيما لا حدود له ، وملكا كبيرا قائما بين يدى أصحاب النعيم .

والمراد بالملك الكبير هنا ، السلطان العظيم الذي هو مظهر من مظاهر الملك ، وسمة من سماته . .

وأي سلطان أعظم من سلطان أهل الجنة ، حيث تمضى إرادتهم فى كل

شىء ، وتنفذ مشيئتهم فى كل شىء ؟ إن خطرات النفوس ، وهمسات الخواطر ـ أيّا كانت هذه الخطرات ، وأيّا كانت هذه الهمسات ـ تتمثل لهم واقعا حاضرا بين أيديهم ، قبل أن يكتمل ميلاد الخطرة ، أو تتشكل صورة الهمسة ! ! فمن فى هذه الدنيا بلغ من نفوذ سلطانه معشار هذا السلطان ؟

وتاء الخطاب فى قوله تعالى : « إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ » وفى قوله سبحانه : « وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ » ـ هو لكل مستمع لهذه الآيات ، أو تال لها ، وفى هذا ما يبعث أشواقه إلى الجنة ، ويشدّ عزمه على العمل لها ، ليكون من أهلها ، المنعمين بنعيمها ، لا أن يكون من

المشاهدين لهذا النعيم من بعيد ، كما يشهد أصحاب النار أصحاب الجنة ! ! وهذا عندنا ـ والله أعلم ـ أولى من القول بأن هذا الخطاب للنبى صلوات الله وسلامه عليه . . فالنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مخاطب بالقرآن كله ، ثم إنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد رأى الجنة ونعيمها ، كما رأى أكثر من الجنة ونعيمها ، فى مسراه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفى عروجه إلى الملأ الأعلى :

« لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » (18 : النجم) قوله تعالى : « عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » أي أن هؤلاء الأبرار ، يطعمون أطيب المطاعم ، ويشربون ألذ وأمرأ المشارب ، وهم فى حال اتكاء واسترواح ، وبين أيديهم اللؤلؤ المنثور من الغلمان يقومون على خدمتهم ، وإذ يفيض عليهم من هذا النعيم ، ما تشرق به وجوههم

(48/795)

من رضا ورضوان ـ تراهم وقد ألبسوا أفخر الثياب ، وحلّوا بأثمن الحلي ، وأكرمها . . فهذا مما يتم به النعيم ، وتكمل به المسرات . .

والسندس ، ضرب من نسيج الحرير الرقيق ، والإستبرق نسيج أغلظ من نسيج السندس

. . أي أن السندس يكون شعارا ، والإستبرق يكون دثارا . .

و« عاليهم » ظرف ، بمعنى فوقهم ، أي تعلوهم ثياب سندس خضر . .

وفى التعبير بلفظ « عاليهم » بدلا من عليهم - هو - والله أعلم - إشارة إلى أن هذه الملابس لا تلتصق بأجسامهم كما تلتصق ثيابنا على أجسادنا فى هذه الدنيا ، وإنما هى ألوان من النور ، أشبه بألوان الطيف ، تنعكس على هذه الأجسام النورانية . . وهذا يعنى أن الحياة فى الجنة حياة روحية ، لا يخالطها شىء من عالم المادة إلا كان فى شفافية الروح وصفائها . .

وقوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » - هو إشارة إلى عظم ما يساق إلى هؤلاء الأبرار من نعيم ، حيث يتناولون هذا الشراب الطهور من ربهم ، بعد أن يكونوا قد تذوقوا ألوان النعيم الأخرى . . فكان هذا الشراب من يد البر الرّحيم ، هو النشوة الكبرى ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يعرف كنهها إلا من أكرمه اللّه بها . .

فما أضل الذين ولّوا وجوههم إلى غير ربهم ، وما أخسر صفقة الذين اشتروا الدنيا كلها ، بقطرة من قطرات هذا الرضوان ! ! قوله تعالى : « إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً » هو من تحية اللّه سبحانه وتعالى لعباده الأبرار المكرمين ، وهو يسقيهم

من هذا الشراب الطّهور . . فهم إذ يتناولون هذا الشراب من ربهم ، يتناولونه محمّلا بهذه التحية المباركة من المنعم المتفضل عليهم إذ يقال لهم هذا جزاء ما عملتم ، وهو ثمرة ما سعيتم ، إن سعيكم كان مشكورا لكم من ربكم ، وهذه التحية من ربكم هى تحية شكر وحمد لسعيكم .

[الجنة ونعيمها . . بين الروحي والجسدى] ونريد هنا أن نقف وقفة قصيرة مع تلك الأوصاف التي ذكرها القرآن الكريم لنعيم الجنة ، والتي تبدو كأنها صورة من النعيم الدنيوي ، بما فيه من ألوان المآكل ، والمشارب ، والدور ، والقصور ، والملابس ، والحلّى ، والأوانى والأمتعة ، والجواري والغلمان ، والعيون والأنهار ، والأشجار والثمار ، إلى غير ذلك مما اعتاد الناس فى الدنيا أن يروه ، أو يعيشوا فيه . .

وهذا مما دعا بعض الأدعياء أو الأغبياء إلى أن القول بأن هذه الجنة مما يحلم به المحرومون ، ومما يغذّى به الدين هذه الأحلام الجائعة ! ولنسلم - جدلا - من أول الأمر بأن نعيم الجنة هو من هذا النعيم الذي يعرفه الناس فى الدنيا ، ويجدّون فى طلبه ، ويشقون فى تحصيله ، ثم يفوتهم كله ، أو الكثير منه - فأى قصور يلحق هذا النعيم ، وأي مطلب يعوز الذين ينزلون منازل هذه الجنة فيجدون كل ما كانت تشتهى أنفسهم فى الدنيا حاضرا بين أيديهم ، لا يتكلفون له جهدا ، ولا يريقون من أجله دما أو عرقا ؟ أهذا نعيم تزهد فيه النفوس ؟ وأ

هذا مقام يبغى إنسان التحول عنه ؟ ولم إذن استبدت الرغبة فى هذا النعيم بنفوس الناس فى الدنيا ؟ ولم أفنوا أعمارهم فى طلبه ؟ ولم أراقوا دماءهم في سبيله ؟

فلتكن الجنة عالما ماديّا ، ولتكن كلها سوقا حشدت فيه كل ما فى هذه الدنيا من متع ولذاذات ومسرات ومباهج ؟ أليس هذا العالم هو حلم

(50/795)

الإنسانية الذي لم ولن يتحقق لها على هذه الأرض ؟ فماذا لو وجدت عالما آخر يتحقق لها فيه هذا الحلم البعيد المنال ؟ وأي إنسان يزهد فى هذا النعيم إذا أتيح له ، ووجد السبيل إليه ؟ ولا تمدن عينيك هنا إلى أولئك الذين يقال إنهم زهدوا فى نعيم الحياة المادية من الفلاسفة والحكماء ، والمتصوفة ، وغيرهم ممن عفّوا ، أو عافوا متعة الجسد ، وراحوا يعيشون على قوت أرواحهم ، وعرائس أفكارهم . . فهؤلاء جميعا - إن صدقت أحوالهم - إنما أقاموا لأنفسهم عالما من الوهم ، والخيال ، تتراقص فيه طيوف رؤاهم وأحلامهم ، بكل ما قصرت عنه أيديهم من متع مادية استبدّ بها غيرهم . . ومن زهد منهم فى تلك المتع ، وقد أتيحت له - فإنما لأنه استقصر حياته معها ، أو توقع فرارها من يده ! ولو كان هذا النعيم دائما ، وكان لمن يعيش فيه ضمان بالخلود معه ، لكان الحكماء ، والفلاسفة ،

والمتصوفة أكثر الناس طلبا ، وازدحاما على مورده . .

ومع هذا ، فإن ما جاء فى القرآن الكريم من أوصاف الجنة ونعيمها ، ليس هو كل ما فيها من نعيم ، وإنما ذلك هو معرض من معارضها ، وإشارة دالة على ما وراء هذا النعيم مما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . . إنه هو الجزء القليل الذي يمكن أن يقع فى مفهوم الناس ، وهم فى هذا العالم الدنيوي ، حتى يكون للجنة التي يوعدون بها تصور ، وحتى يكون لدعوتهم إليها استجابة . . ولو جاءتهم الجنة غير مألوفة لهم ، لما وقعت من أنفسهم موقعا ، ولما وجدت لها فى مشاعرهم ووجداناتهم مكانا . .

ولا يقال - كما قيل فعلا - إن هذا النعيم الأخروى ، هو نعيم جسدى ، يشبع أحلام الجوعى والمحرومين ، ويرضى مطالب البيئات الفقيرة

(51/795)

المجدبة . . وهذا بدوره يعنى أن الدّين الذي يعد أهله بمثل تلك الجنة فى الآخرة ، إنما هو دين على مستوى هذه الحياة البدائية فى الصحراء ، التي لا تبعد الحياة فيها كثيرا عن حياة الغابة ، وأن الدين ليس إلا أكذوبة خادعة تستهوى الجوعى والمحرومين بهذه الموائد الممدودة لهم فى عالم الرؤى والأحلام .

فهذا القول ، إن كان من جاهل ، فهو جهل يفصح أهله ويخزيهم ، وإن كان من عالم فهو زور وبهتان ، يتخرص به المتخرصون فى غير خجل أو حياء ، ممن يكيدون للإسلام ، من مستشرقى أوربا وأمريكا : « يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » (8 : الصف) .

إن نعيم الجنة المادي ، وما جاء فى القرآن مما أعد اللّه سبحانه وتعالى منه لأهلها ، من حور عين ، وولدان مخلدين ، ولحم طير مما يشتهون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ومن أنهار من ماء ولبن ، وخمر ، وعسل - إن هذا - كما قلنا - هو من مطلوب الحياة الإنسانية ، وبه قوام حياة الإنسان ، وسعادته ، مادام الإنسان إنسانا بشرا ، لم يتحول إلى عالم الملائكة ، ولم يصبح روحا هائما لا ذاتية له . .

وإن الإنسان ، هو الإنسان ، فى الدنيا ، أو الآخرة . . هذا ما يجب القطع به . . إذ لا بد أن يجد الإنسان ذاته ووجوده الإنسانى كله فى الآخرة ، وإلا لكان مخلوقا غريبا ، ليس بينه وبين الإنسان الذي عاش فى هذه الدنيا من صلة ، ثم لكان حسابه وجزاؤه فى الآخرة ليس حسابا ، ولا جزاء لهذا الإنسان الذي كان فى الدنيا . .

وإنه لكى يظل الإنسان إنسانا ، وليلقى حسابه وجزاءه ، الحسن أو السيّء ، ويحد طعمه الحلو أو المر - ينبغى أن يكون على طبيعته ، فى جميع أحواله ،

وكل حيواته . . الدنيوية ، والأخروية . . إنه ينبغى أن تظل هذه « الذاتية » مع الإنسان ، وأن تصحبه تلك الشخصية المشخصة له فى عالم الدنيا والآخرة جميعا . .

أما أن تتفكك هذه الشخصية ، أو تنحلّ ، أو تخرج عن طبيعتها جملة ، فإنها لن تكون ذلك الإنسان ، الذي عرف فى وقت ما ، أوفى حال ما ، أنه فلان ؟ ابن فلان ! . .

نعم ، قد تعلو ذاتية الإنسان وتصفو مشاعره وعواطفه ، وقد تنزل ، وتسفّ ، وتكدر . . ولكن ذلك لا يخرج بالإنسان - فى أي حال من الأحوال - عن دائرة الإنسانية - ولا يلحقه بعالم الملائكة أو الشياطين . .

إن الإنسان ليتنقل فى أطوار شتى . . من الولادة إلى الطفولة ، والصبا والشباب ، والشيخوخة . .

وهو فى كل طور من أطوار حياته ، هو تلك « الذات » أو « الشخصية » التي لا يجد فيها صاحبها أن طفولته أو صباه أو شبابه أو شيخوخته - أوصال مقطعة من « ذاته » .

. بل إنه هو هو ، فى كل طور من هذه الأطوار ، وإن تغيرت بعض ملامحه ، وزادت معارفه ، واتسعت آفاقه . . وشتان ما بين الطفولة والشباب ، وشتان بين « سقراط » الطفل وسقراط الفيلسوف . . ولكنه هو هو سقراط ، طفلا ، وصبيا ، وشابا ، وشيخا ! ! .

ثم مالنا ندفع مطاعن الأوربيين عن شريعة الإسلام ، وما جاء فى تلك الشريعة من

أوصاف حسية لنعيم الجنة ـ ما لنا ندفع هذا ، والحال أنهم هم مطالبون أن يدفعوا هذه المطاعن ذاتها عن المسيحية ، إن كانوا يؤمنون بها ،

(53/795)

أو يدفعوا بها إليها إن كانوا غير مؤمنين بها . . فإن المسيحية ـ على الرغم من أنها تلبس لباس الروحانية ـ حين تحدثت عن النعيم الذي يلقاه أهل الجنة ـ نجدها تعرض صورا حسية من هذا النعيم ، مثل تلك الصور التي جاء بها القرآن ، سواء بسواء ! .

فقد ذكر المسيح ـ عليه السلام ـ لتلاميذه ، أنهم سيشربون معه من ابنة العنب فى ملكوت السموات : يقول لهم : « إنى لست شاربا من ابنة هذه الكرمة حتى أشربها معكم فى ملكوت السموات « 1 » » .

فأخبر بأن فى الملكوت شرابا ، وشرابا من خمر ، وحيث يكون شراب ، لا يستنكر المأكل . . فيقول السيد المسيح : « ستأكلون وتشربون على مائدة أبى « 2 » » .

ثم هناك إلى جانب الأكل والشرب ، غرف لأهل الجنة . . يقول السيد المسيح : « ما أكثر الغرف والمساكن عند أبى « 3 » » .

فالقرآن إذن لم يكن بدعا بين الكتب السماوية ، فيما جاء فيه عن النعيم الحسىّ فى الجنة

. . فلم تتهم شريعة الإسلام وحدها بأنها شريعة الجسد ، وبأنها الشريعة التي تغرى أتباعها بهذه الألوان التي يسيل لها لعابهم ، وتستيقظ لها حيوانيتهم ؟ .

إنها تهمة ظالمة باطلة . . !

---

(1) إنجيل متى (26 : 29) .

(2) إنجيل متى : (22 : 3) .

(3) إنجيل يوحنا (14 : 2) . [. . . . .]

(54/795)

أما أنها ظالمة ، فلأنها تتجه إلى الإسلام وحده ، دون الشرائع والديانات التي تقول بما يقول به الإسلام فى وصف هذا النعيم . .

وأما أنها باطلة ، فلأنها تقوم على فهم خاطئ للإنسان ، وللوحدة الذاتية ، التي ينبغى أن يحتفظ له بها فى الحياة الآخرة . . تلك الوحدة التي تجمع الروح والجسد معا . . فلا يكون الإنسان إنسانا إلا بجسد وروح ، ولا يعرف الإنسان السعادة أو الشقاء إلا إذا كان لكلّ من الجسد والروح نصيب مما يسعد به الناس أو يشقون ! .

إن أهل الجنة يحملون معهم نفوسا بشريّة ، لها رغباتها ، ومنازعها ، ومن شأن نعيم الجنة ،

الذي يحقق النعيم الكامل - من شأنه أن يشبع - فى غير ملل - هذه الرغبات وتلك النوازع ، وإلا كان نعيما غير كامل . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ » (31 : فصلت) .

وعلى هذا فإن لنا أن نقول إن نعيم أهل الجنة - هذا النعيم الحسى ، الذي جاء فى القرآن ، من مطاعم ، ومشارب ، وملابس ، ومساكن - هو نعيم مطلوب للإنسان ، لا يتم نعيمه إلا إذا أخذ حظه منه ، وهو نعيم خالص من الشوائب ، التي تعلق بكل نعيم دنيوى . .

ثم إن وراء هذا النعيم الحسى ، نعيما روحيّا . . فهناك مسرات الروح التي لا حدود لها . . وإنها لمسرات لا يمكن أن توصف بألفاظ وعبارات ، ولا يمكن أن تضبط لها صورة ، وغاية ما يمكن أن يقال عنها إنها بهجة النفس ولذة الروح . .

(55/795)

أما مادة تلك اللذة ، وهذه البهجة ، فلا يمكن أن توصف بألفاظنا ، أو تدرك بعقولنا المحدودة القاصرة . .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى بعض دلالات هذا النعيم الروحي ، ولكنه لم يكشف عن مادة

هذا النعيم وعناصره . . فهناك نضرة النعيم التي تسفر بها وجوه أهل الجنة : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » (24 : المطففين) .

وهناك الأمن والاطمئنان من كل ما يزعج النفس أو يقلقها من حاضر أو مستقبل : « ادْخُلُوا الْجَنَّةَ . . لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ » (49 : الأعراف) ثم أليس الخلاص من جهنم ، وأليست السلامة منها ، مصدر نعيم نفسى لا ينفد أبدا ؟ إنها لسعادة غامرة ، وهناءة كاملة ، أن يرى أهل الجنة عذاب السعير ، وهم فى مأمن من هذا العذاب . . « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » (185 : آل عمران) ومن أجل هذا كان من حمد أهل الجنة لله سبحانه وتعالى أن أنقذهم من عذاب النار ، هو ما ذكره الله سبحانه من قولهم « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » (35 : فاطر) أليس هذا نعيما للنفس ، وروحا للروح . . يتجدد فى كل نظرة ينظر بها أصحاب الجنة إلى أصحاب الجحيم ؟

ثم ماذا يطلب الإنسان من النعيم ، غير أن يجد فيه السعادة المطلقة . .

(56/795)

السعادة التي لا يدخل عليها ما يقطعها ، أو ينقص منها ، أو يفسد طعمها ؟ إن سعادة الجنة ، هى سعادة دائمة خالدة ، لا تنفصل عن أهلها ، ولا ينفصلون عنها ، وذلك هو نعيم أهل الجنة ، سواء أكان ماديّا أو معنويّا ، جسديّا أو روحيّا . .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ، خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا » (108.107 : الكهف) .

وحسب هذا النعيم أنه غير زائل عن أهله ، وحسب المنعمين به أن يقيموا عليه ، ولا يبغون عنه حولا .

وأعجب ما فى هذه القضية ، أن يجىء الإنكار على الإسلام لهذا النعيم الجسدى الذي يعد به أتباعه فى الآخرة . من عجب أن يجىء هذا الإنكار من أوربا وأمريكا ، التي فنيت شعوبها فناء مطلقا فى عالم المادة ، حتى لقد كادت تتغير الطبيعة الإنسانية فى هذه المجتمعات ، وتختفى المشاعر والعواطف . . حتى بين الآباء والأبناء . . وإنه لو كان لتلك الشعوب أن تحلم بجنة فى الآخرة ، لما كانت جنة أحلامهم تلك إلا أنهارا تجرى من خمر ، وإلا حانات تعج بالراقصين والراقصات ، وإلا موائد ممدودة للطعام والشراب ، والقمار . . فإن هذا الذي بلغته شعوب أوربا وأمريكا من تقدم فى العلوم والفنون ، وإنما كان وسيلة إلى تحقيق هذا النعيم المادىّ الذي إن فات أحدهم حظه منه ، ولم يستطع الوصول إليه ، ضاقت الدنيا فى عينيه ، واستولى عليه الكرب والهم . . ثم لم يكن له بدّ من أن يركب

أحد طريقين : فإما أن يلبس ثوب الوجودية ، ويتحول إلى حيوان يعيش فى غابة ، فلا يغير من ثيابه ، ولا يصلح من هندامه ، ولا يقص شعرا ولا ظفرا ، ولا يغطى جسدا ولا يستر عورة . . وهو بهذا يخرج عن عالم الناس ، ومن ثمّ فلا يعنيه أن يملك مثل ما يملكون ، أو يتمتع مثل ما يتمتعون . .

إن له متعته الخاصة التي هى على غير ما يتمتع به الناس . . وهل يلذ للذئاب مثلا

(57/795)

أن تجلس إلى مائدة ، وأن تتناول مما يطعم منه الناس . ؟

أما من لم يجد له مكانا فى هذا العالم فثمة طريق آخر . . طريق المنتحرين . .

وليس ثمة طريق ثالث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1368 . 1381 ﴾

(58/795)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾

هذا طواف آخر غير طواف السُقاة المذكورِ آنفاً بقوله : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة ﴾ [الإنسان : 15] الخ فهذا طواف لأداء الخِدمة فيشمل طواف السقاة وغيرهم .

و ﴿ وِلْدَان ﴾ : جمع وليد وأصل وليد فعيل بمعنى مفعول ويطلق الوليد على الصبي مجازاً مشهوراً بعلاقة ما كان ، لقصد تقريب عهده بالولادة ، وأحسن من يتخذ للخدمة الوِلدان لأنهم أخف حركةً وأسرع مشياً ولأن المخدوم لا يتحرج إذا أمرهم أو نهاهم .

ووصفوا بأنهم ﴿ مخلَّدون ﴾ للاحتراس مما قد يوهمه اشتقاق ﴿ وِلدان ﴾ من أنهم يشبون ويكتهلون ، أي لا تتغير صفاتهم فهم وِلدان دَوْماً وإلاّ فإن خلود الذوات في الجنة معلوم فما كان ذكره إلاّ لأنه تخليد خاص .

وقال أبو عبيدة ﴿ مخلَّدون ﴾ : محلَّون بالخِلدَة بوزن قِرَدَة .

واحدها خُلْد كقُفل وهو اسم للقُرط في لغة حِمير .

وشُبهوا باللؤلؤ المنثور تشبيهاً مقيّداً فيه المشبه بحال خاص لأنهم شبهوا به في حسن المنظر مع التفرق .

وتركيب ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم ﴾ مفيد للتشبيه المرادِ به التشابُهُ والخطاب في ﴿ رأيتَ ﴾ [الإنسان : 20] خطاب لغَير معين ، أي إذا رآه الرائي .

والقول في معنى الطواف تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويُطاف عليهم بآنية من فضة ﴾ الآية [الإنسان : 15] .

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20)

الخطاب لغير معين .

و ﴿ ثَمّ ﴾ إشارة إلى المكان ولا يكون إلاّ ظرفاً والمشار إليه هنا ما جرى ذكره أعني الجنة المذكورة في قوله : ﴿ وجزاهم بما صبروا جَنة ﴾ [الإنسان : 12] .

وفعل ﴿ رأيتَ ﴾ الأول منزل منزلة اللازم يدل على حصول الرؤية فقط لا تعلُّقِها بمرئي ، أي إذا وجهت نظرك ، و ﴿ رأيتَ ﴾ الثاني جواب ﴿ إذا ﴾ ، أي إذا فتحت عينك ترى نعيماً .

(59/795)

والتقييد بـ ﴿ إذا ﴾ أفاد معنى الشرطية فدل على أن رؤية النعيم لا تتخلف عن بصر المبصر هنالك فأفاد معنى : لا ترى إلاّ نعيماً ، أي بخلاف ما يرى في جهات الدنيا .

وفي قوله : ﴿ ومُلْكاً كبيراً ﴾ تشبيه بليغ ، أي مثل أحوال المُلك الكبير المتنعِّم ربه .

وفائدة هذا التشبيه تقريب المشبهِ لمدارك العقول .

والكبير مستعار للعظيم وهو زائد على النعيم بما فيه من رفعة وتذليل للمصاعب .

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21)

هذه الأشياء من شعار الملوك في عرف الناس زمانئذ ، فهذا مرتبط بقوله ﴿ ومُلكاً كبيراً ﴾ [الإنسان : 20] .

وقرأ نافع وحمزة وأبو جعفر ﴿ عَاليهم ﴾ بسكون الياء على أن الكلام جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لجملة ﴿ رأيتَ نعيماً ومُلْكاً كبيراً ﴾ [الإنسان : 20] ، ف ﴿ عاليهم ﴾ مبتدأ و ﴿ ثياب سندس ﴾ فاعلُه سادٌّ مسدّ الخبر وقد عمل في فاعله وإن لم يكن معتمداً على نفي أو استفهام أو وصف ، وهي لغة خَبير بنو لهب وتكون الجملة في موضع البيان لجملة : ﴿ رأيت نعيماً ﴾ [الإنسان : 20] .

وقرأ بقية العشرة ﴿ عَالِيَهم ﴾ بفتح التحتية على أنه حال مفرد ل ﴿ الأبرار ﴾ [الإنسان : 5] ، أي تلك حالة أهل الملك الكبير .

وإضافة ﴿ ثياب ﴾ إلى ﴿ سندس ﴾ بيانية مثل : خَاتَم ذَهَبٍ ، وثَوْبِ خَزَ ، أي منه .

والسندس : الديباج الرقيق .

والإستبرق : الديباج الغليظ وتقدما عند قوله تعالى : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من

سندس وإستبرق ﴾ في سورة الكهف (31) وهما معرَّبان .

فأما السندس فمعرب عن اللغة الهندية وأصله (سندون) بنون في آخره ، قيل : إن سبب هذه التسمية أنه جلب إلى الإسكندر ، وقيل له : إن اسمه (سندون) فصيره للغة اليونان سندوس (لأنهم يكثرون تنهية الأسماء بحرف السين) وصيّره العرب سُندساً .

(60/795)

وفي اللسان ﴾ : أن السندس يتخذ من المِرْعِزَّى (كذا ضبطه مصححه) والمعروف المِرْعِز كما في "التذكرة" و"شفاء الغليل" .

وفي "التذكرة" المِرْعز : ما نَعُم وطال من الصوف أ هـ .

فلعله صوف حيوان خاص فيه طول أو هو من نوع الشعَر ، والظاهر أنه لا يكون إلاّ أخضر اللون لقول يزيد بن حذاق العبدي يصف مرعى فَرسه:

وداوِيَّتُها حتى شَتَتْ حَبَشِيَّةً . . .

كأنَّ عليها سُندساً وسُدُوساً

أي في أرض شديدة الخضرة كلون الحَبشي .

وفي "اللسان" : السدوس الطيلسان الأخضر .

ولقول أبي تمَّام يرثي محمد بن حميد النبهاني الطوسي:

تَرَدَّى ثيَابَ الموتتِ حُمْراً فما أتَى . . .

لها الليلُ إلاَّ وهْيَ من سُندس خُضْرُ

وأما الإِستبرق فنسج من نسج الفرس واسمه فارسي ، وأصله في الفارسية : استقره .

والمعنى : أن فوقهم ثياباً من الصنفين يلبسون هذا وذاك جمعاً بين محاسن كليهما ، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثروَة .

ولون الأخضر أمتع للعين وكان من شعار الملوك ، قال النابغة يمدح ملوك غسان:

يَصونُون أجْساداً قديما نعيمها . . .

بخَالصةِ الأردَان خُضْر المَنَاكِب

والظاهر أن السندس كان لا يصبغ إلاّ أخضر اللون .

وقرأ نافع وحفص ﴿ خضرٌ ﴾ بالرفع على الصفة ل ﴿ ثياب ﴾ .

و ﴿ إستبرقٌ بالرفع أيضاً على أنه معطوف على ثياب ﴾ بقيد كونها من سندس فمعنى عاليهم إستبرق : أن الإِستبرق لباسُهم .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ﴿ خُضْرٍ ﴾ بالجر نعتاً ل ﴿ سندس ، ﴾ و ﴿ إستبرق ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ ثياب .

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب خُضْرٌ ﴾ بالرفع و ﴿ إستبرقٍ ﴾ بالجر

عطفاً على ﴿ سندس ﴾ بتقدير : وثياب إستبرق .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ خُضرٍ ﴾ بالجر نعتاً ل ﴿ سندسٍ ﴾ باعتبار أنه بيان للثياب فهو في معنى الجمع .

وقرأ و ﴿ إستبرقٍ ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ سندس .

(61/795)

والأساور : جمع سِوار وهو حَلي شكله اسطواني فارغ الوسط يلبسه النساء في معاصمهن ولا يلبسه الرجال إلاّ الملوك ، وقد ورد في الحديث ذكر سواري كسْرى .

والمعنى : أن حال رجال أهل الجنة حال الملوك ومعلوم أن النساء يتحلّيْنَ بأصناف الحلي .

ووصفت الأساور هنا بأنها من فضة .

﴿ وفي سورة الكهف (31) بأنها ﴿ من ذهب ﴾ في قوله : يُحلَّون فيها من أساور من ذهب ، أي مرة يحلَّون هذه ومرة الأخرى ، أو يحلونهما جميعاً بأن تجعل متزاوجة لأن ذلك أبْهج منظراً كما ذكرناه في تفسير قوله : ﴿ كانت قواريرا قواريرا من فضة ﴾ [الإنسان : 15 ، 16] .

هذا احتراس مما يوهمه شُربهم من الكأس الممزوجة بالكافور والزنجبيل من أن يكون فيها ما

في أمثالها المعروفة في الدنيا ومن الغَوْل وسوءِ القول والهذيان ، فعبر عن ذلك بكون شرابهم طَهوراً بصيغة المبالغة في الطهارة وهي النزاهة من الخبائث ، أي منزهاً عما في غيره من الخباثة والفساد .

وأسند سقيه إلى ربهم إظهاراً لكرامتهم ، أي أمر هو بسقيهم كما يقال : أطعَمهم ربُّ الدار وسقاهم .

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)

هذا الكلام مقول قول محذوف قرينته الخطاب إذ ليس يصلح لهذا الخطاب مما تقدم من الكلام إلاّ أن يكون المخاطَبون هم الأبرارَ الموصوفَ نعيمهم .

والقول المحذوف يقدر فعلاً في موضع الحال من ضمير الغائب في ﴿ سقاهم ﴾ [الإنسان : 21] ، نحو : يُقال لهم ، أو يَقول لهم ربهم ، أو يقدر اسماً هو حال من ذلك الضمير نحو : مَقولاً لهم هذا اللفظ ، أو قائلاً لهم هذا اللفظ .

والإِشارة إلى ما يكون حاضراً لديهم من ألوان النعيم الموصوف فيما مضى من الآيات .

والمقصود من ذلك الثناء عليهم بما أسلفوا من تقوى الله وتكرمتهم بذلك وتنشيط أنفسهم بأن ما أنعم به عليهم هو حق لهم جزاء على عملهم .

وإقحام فعل ﴿ كان ﴾ للدلالة على تحقيق كونه جزاء لا منًّا عليهم بما لم يستحقوا ، فإن من تمام الإِكرام عند الكرام أن يُتبعوا كرامتهم بقول ينشط له المكرَم ويزيل عنه ما يعرض من خجل ونحوه ، أي هو جزاء حقاً لا مبالغة في ذلك .

وعطف على ذلك قوله : ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ علاوة على إيناسهم بأن ما أغدق عليهم كان جزاء لهم على ما فعلوا بأن سعيهم الذي كان النعيمُ جزاء عليه ، هو سعي مشكور ، أي مشكور ساعِيه ، فأسند المشكور إلى السعي على طريقة المجاز العقلي مثل قولهم : سَيْل مُفْعَم .

ولك أن تجعل ﴿ مشكوراً ﴾ مفعولاً حقيقة عقلية لكن على طريقة الحذف والإِيصال ، أي مشكوراً عليه .

وإقحام فعل ﴿ كان ﴾ كإقحام نظيره آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 29 صـ ﴾

(63/795)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

(سورة الإنسان)

قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ .

لا يعارضه قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ الآية ووجه الجمع ظاهر وهو أنهما جنتان أوانيهما وجميع ما فيهما من فضة ، وأخريان أوانيهما وجميع ما فيهما من ذهب والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 305 ﴾

(64/795)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر أنه بين للناس السبيل فانقسموا إلى مبصر شاكر وأعمى كافر ، وأتبعه جزاء الكافرين والشاكرين ، وختمه بالشراب الطهور الذي من شأنه أن يحيي ميت الأراضي كما أن العلم الذي منبعه القرآن يحيي ميت القلوب ، وسكن القلوب بتأييد الجزاء ، وختم الكلام بالشكر كما بدأه به ، وكان نصب ما يهدي جميع الناس أمراً لا يكاد يصدق قال ذاكراً لما شرف به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدنيا قبل الآخرة ، وجعل الشراب الطهور جزاء له لما بينهما من المناسبة على سبيل التأكيد ، وأكده ثانياً بما أفاد التخصيص لما لهم من الإنكار ولتطمئن أنفس أتباعه بما حث عليه من الصبر إلى وقت الإذن في القتال : ﴿ إنا نحن ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي لا نهاية لها ، لا غيرها ﴿ نزلنا عليك ﴾ وأنت أعظم الخلق إنزالاً استعلى حتى صار المنزل خلقاً لك ﴿ القرآن ﴾ أي الجامع لكل هدى ، الحافظ من الزيغ ، كما يحفظ الطب للصحيح صحة المزاج ، الشافي لما عساه يحصل من الأدواء بما يهدي إليه من العلم والعمل ، وزاد في التأكيد لعظيم إنكارهم فقال : ﴿ تنزيلاً ﴾ أي على التدريج بالحكمة جواباً للسائل ورفقاً بالعباد فدرجهم في وظائف الدين تدريجاً موافقاً للحكمة ، ولم يدع لهم شبهة إلا أجاب عنها ، وعلمهم جميع الأحكام التي فيها رضانا ، وأتاهم من المواعظ والآداب والمعارف بما ملأ الخافقين وخصصناك به شكراً على سيرتك الحسنى التي كانت قبل النبوة ، وتجنبك كل ما يدنس ، فلما كان بتنزيلنا كان جامعاً للهدى لما لنا من إحاطة العلم والقدرة ، فلا عجب في كونه جامعاً لهدى الخلق كلهم ، لم يدع

لهم في شيء من الأشياء لبساً ، وهي ناظرة إلى قوله في القيامة ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ [القيامة : 16] الملتفتة إلى ما في المدثر من أن هذه تذكرة ، الناظرة إلى ﴿ أنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ المشيرة إلى ما في سورة الجن من أمر القرآن ، فالحاصل أن أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن ، فإنه المقصود بالذات

(65/795)

من أمر الآية الكبرى التي إذا ثبتت تبعها جميع المراد من الشريعة وتفريق تقرير شأنه أتقن ما يكون في إحكام أمره ، وذلك أن الحكيم إذا اهتم بشيء افتتح الكلام به ، فإذا رأى من ينكره انتقل إلى غيره على قانون الحكمة ، ثم يصير يرمي به في خلال ذلك ، رمياً كأنه غير قاصد له ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يتقرر أمره غاية التقرير ويثبت في النفس من حيث لا يشعر .

ولما تقرر أن من الناس من ترك الهدى الذي هو البيان ، فعمي عنه لإعراضه عنه ، سبب عن هذا الإنزال وذاك الضلال قوله منبهاً على أمراض القلوب ، ومرشداً إلى دوائها :

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي المحسن إليك بتخصيصه لك بهذه النعمة على ضلال من حكم بضلاله ، وعلى كل ما ينوبك وأطعه في التعبد له بجميع ما أمرك به من الرفق إلى أن

يأمرك بالسيف ، واستعن على مر الصبر باستحضار أن المربي الشفيق يربي بما يشاء من المر والحلو على حسب علمه وحكمته ، والصبر : حبس النفس وضبطها على مقاومة الهوى لئلا تنقاد إلى شيء من قبائح اللذات .

(66/795)

ولما أمره سبحانه بالصبر ، وكان الأمر به مفهماً وجوده للمخالف ، وكان المخالفون له ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم القسم المضاد للشاكر وهم الكفرة ، وكان ما يدعونه إليه تارة مطلق إثم ، وأخرى كفراً وتارة غير ذلك ، ذكر النتيجة ناهياً عن القسمين الأولين ليعلم أن المسكوت عنه لا نهي فيه فقال : ﴿ ولا تطع منهم ﴾ أي الكفرة الذين هم ضد الشاكرين ﴿ آثماً ﴾ أي داعياً إلى إثم سواء كان مجرداً عن مطلق الكفر أو مصاحباً له ﴿ أو كفوراً ﴾ أي مبالغاً في الكفر وداعياً إليه وإن كان كبيراً وعظيماً في الدنيا فإن الحق أكبر من كل كبير ، وذلك أنهم كانوا مع شدة الأذى له ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبذلون له الرغائب من الأموال ، والتمليك والتزويج لأعظم نسائهم على أن يتبعهم على دينهم ويكف عما هو عليه والنهي عن الأحد المبهم نهي عن كل منهما ، فإن كلاًّ منهما في أنه يجب اجتنابه في رتبة واحدة ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ [الأنعام : 120] وكذا الانتهاء عنه لا يتحقق

إلا بالانتهاء عن كل منهما ، ولو عطف بالواو لم يفد ذلك لأن نفي الاثنين لا يستلزم نفي كل منهما ، وأفهم ترتيب النهي على الوصفين أنه إذا دعاه الكفار إلى ما لا يتعلق به إثم ولا كفر جاز له قبوله .

(67/795)

ولما نهى عن طاعتهما القاطعة عن الله ، أمر بملازمة الموصل إلى الله وهو الذكر من غير عائق الذي هو دواء لما عساه يلحق من الأدواء لمجرد رؤية الآثم أو الكفور لأرباب القلوب الصافية ، والذكر مقدم على كل عبادة وإن وضع العباد لما كان طلباً للتوصل إلى نيل معرفة الله سبحانه ، وكان التصور بحسب الاسم أول مراتب التصور طبعاً بدأ به وضعاً ، وذلك لأن النفس تحب السفول لما لها من النقائص ، فاحتاجت إلى سبب مشوق لها إلى الأعلى فوضعت لها العبادات ، وأجلها العبادة المشفوعة بالفكر ، لأنه السبب الموصل إلى المقصود ولا تفيد العبادة بدونه فقال : ﴿ واذكر ﴾ أي بلسانك ﴿ اسم ربك ﴾ أي المحسن إليك بكل جميل ﴿ بكرة ﴾ عند قيامك من منامك الذي هو الموتة الصغرى وتذكرك أنه يحيي الموتى ويحشرهم جيمعاً ﴿ وأصيلاً ﴾ عند انقراض نهارك وتذكرك انقراض دنياك وطي هذا العالم لأجل إيجاد يوم الفصل ، وفي ذكر الوقتين أيضاً إشارة إلى دوام

الذكر ، وذكر اسمه لازم لذكره ، ويجوز أن يكون أمراً بالصلاة لأنها أفضل الأعمال البدنية لأنها أعظم الذكر لأنها ذكر اللسان والجنان والأركان فوظفت فيها أذكار لسانية وحركات وسكنات على هيئة مخصوصة من عادتها ألا تفعل إلا بين أيدي الملوك ، فكان تنبيهها على وجود الصانع والاعتراف بإلهيته وتفرده أكثر فكانت أفضل ، فيكون هذا على هذا أمراً بصلاتي الصبح والعصر ، فإنه لم يكن أمر في أول الإسلام بغيرهما وبهما أمر من كان قبلنا ، وهما أفضل الصلوات وكانتا ركعتين ركعتين ، ويجوز أن يكون أمراً بصلاتي الصبح والظهر والعصر فإن الأصيل يتناول وقتيهما لأنه مطلق العشي ، وأما المغرب والعشاء ونافلة الليل فدخلت في قوله : ﴿ ومن الّيل ﴾ أي بعضه والباقي للراحة بالنوم ﴿ فاسجد له ﴾ أي فصل له صلاتي المغرب والعشاء ، وذكرهما بالسجود تنبيهاً على أنه أفضل الصلاة ، فهو إشارة إلى أن الليل موضع الخضوع ، وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة

(68/795)

والخلوص ومزيد الفضيلة لأن الالتفات فيه إلى جانب الحق أتم لزوال الشاغل للحواس من حركات الناس وأصواتهم وسائر الأحوال الدنيوية ، فكان أبعد عن الرياء فكان الخشوع فيه واللذة التامة بحلاوة العبادة أوفى ﴿ وسبحه ﴾ أي بالتهجد ﴿ ليلاً طويلاً ﴾ نصفه أو

أكثر منه أو أقل ، ولعله سماه تسبيحاً لأن مكابدة القيام فيه وغلبة النوم تذكر بما لله من العظمة بالتنزه عن كل نقيصة ، ولأنه لا يترك محبوبه من الراحة بالنوم إلا من كان الله عنده في غاية النزاهة ، وكان له في غاية المحبة .

ولما أنهى أمره بلازم النهي ، علل النهي بقوله محقراً بإشارة القريب مؤكداً لما لهم من التعنت بالطعن في كل ما يذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ إن هؤلاء ﴾ أي الذين يغفلون عن الله من الكفرة وغيرهم فاستحقوا المقت من الله ﴿ يحبون ﴾ أي محبة تتجدد عندهم زيادتهم في كل وقت ﴿ العاجلة ﴾ أي ويأخذون منها ويستخفون لما حفت به من الشهوات زمناً قليلاً لقصور نظرهم وجمودهم على المحسوسات التي الإقبال عليها منشأ البلادة والقصور ، ومعدن الأمراض للقلوب التي في الصدور ، ومن تعاطى أسباب المرض مرض وسمي كفوراً ، ومن تعاطى ضد ذلك شفي وسمي شاكراً ، ويكرهون الآخرة الآجلة ﴿ ويذرون ﴾ أي يتركون منها على حالة هي من أقبح ما يسوءهم إذا رأوه ﴿ وراءهم ﴾ أي أمامهم أي قدامهم على وجه الإحاطة بهم وهم عنه معرضون كما يعرض الإنسان عما وراءه ، أو خلفهم لأنه يكون بعدهم لا بد أن يدركهم ﴿ يوماً ﴾ أي منها .

ولما كان ما أعيا الإنسان وشق عليه ثقيلاً قال : ﴿ ثقيلاً ﴾ أي شديداً جداً لا يطيقون حمل ما فيه من المصائب بسبب أنهم لا يعدون له عدته ، فالآية من الاحتباك : ذكر الحب

والعاجلة أولاً دلالة على ضدهما ثانياً ، والترك والثقل ثانياً دلالة على ضدهما أولاً ، وسر ذلك أن ما ذكره أدل على سخافة العقل بعدم التأمل للعواقب .

(69/795)

ولما كان تركهم لليوم الثقيل على وجه التكذيب الذي هو أقبح الترك ، وكان تكذيبهم لاعتقادهم عدم القدرة عليه قال دالاً على الإعادة بالابتداء من باب الأولى : ﴿ نحن خلقناهم ﴾ ، بما لنا من العظمة لا غيرنا ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ أي قوينا وأتقنا ربط مفاصلهم الظاهرة والباطنة بالأعصاب على وجه الإحكام بعد كونهم نطفة أمشاجاً في غاية الضعف ، وأصل الأسر ، القد يشد به الأقتاب أو الربط والتوثيق ، ولا شك أن من قدر على إنشاء شخص من نطفة قادر على أن يعيده كما كان لأن جسده الذي أنشأه إن كان محفوظاً فالأمر فيه واضح ، وإن كان قد صار تراباً فإبداعه منه مثل إبداعه من النطفة ، وأكثر ما فيه أن يكون كأبيه آدم عليه السلام بل هو أولى فإنه ترابه له أصل في الحياة بما كان حياً ، وتراب آدم عليه السلام لم يكن له أصل قط في الحياة والإعادة أهون في مجاري عادات الخلق من الابتداء ، ولذلك قال معبراً بأداة التحقق : ﴿ وإذا شئنا ﴾ أي بما لنا من العظمة أن نبدل ما نشاء من صفاتهم أو ذواتهم ﴿ بدلنا أمثالهم ﴾ أي بعد الموت في الخلقة وشدة

الأسر ﴿ تبديلاً ﴾ أو المعنى : جئنا بأمثالهم بدلاً منهم وخلائف لهم ، أو يكون المراد – وهو أقعد – بالمثل الشخص أي بدلنا أشخاصهم لتصير بعد القوة إلى ضعف وبعد الطول إلى قصر وبعد البياض إلى سواد وغير ذلك من الصفات كما شوهد في بعض الأوقات في المسخ وغيره ، وكل ذلك دال على تمام قدرتنا وشمول علمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 274. 278 ﴾

(70/795)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) ﴾

اعلم أنه سبحانه بين في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم بقوله : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان : 1] ثم بين أنه سبحانه خلقه من أمشاج ، والمراد منه إما كونه مخلوقاً من العناصر الأربعة أو من الأخلاط الأربعة أو من ماء الرجل والمرأة أو من الأعضاء والأرواح أو من البدن والنفس أو من أحوال متعاقبة على

ذلك الجسم مثل كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ، وعلى أي هذه الوجوه تحمل هذه الآية ، فلذلك يدل على أنه لا بد من الصانع المختار جل جلاله وعظم كبرياؤه .

(71/795)

ثم بين بعد ذلك أني ما خلقته ضائعاً عاطلاً باطلاً ، بل خلقته لأجل الابتلاء والامتحان ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : 2] وههنا موضع الخصومة العظيمة القائمة بين أهل الجبر والقدر ، ثم ذكر تعالى أني أعطيته جميع ما يحتاج إليه عند الابتلاء والامتحان ، وهو السمع والبصر والعقل ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان : 2] ولما كان العقل أشرف الأمور المحتاج إليها في هذا الباب أفرده عن السمع والبصر ، فقال : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ [الإنسان : 3] ثم بين أن الخلق بعد هذه الأحوال صاروا قسمين : منهم شاكر ، ومنهم كفور ، وهذا الإنقسام باختيارهم كما هو تأويل القدرية ، أو من الله على ما هو تأويل الجبرية ، ثم إنه تعالى ذكر عذاب الكفار على الاختصار ، ثم ذكر بعد ذلك ثواب المطيعين على الاستقصاء ، وهو إلى قوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان : 22] واعلم أن الاختصار في ذكر العقاب مع الإطناب في شرح الثواب يدل على أن جانب الرحمة أغلب وأقوى ، فظهر مما بينا أن السورة من أولها

إلى هذا الموضع في بيان أحوال الآخرة ، ثم إنه تعالى شرع بعد ذلك في أحوال الدنيا ، وقدم شرح أحوال المطيعين على شرح أحوال المتمردين .

أما المطيعون فهم الرسول وأمته ، والرسول هو الرأس والرئيس ، فلهذا خص الرسول بالخطاب .

(72/795)

واعلم أن الخطاب إما النهي وإما الأمر ، ثم إنه تعالى قبل الخوض فيما يتعلق بالرسول من النهي والأمر ، قدم مقدمة في تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإزالة الغم والوحشة عن خاطره ، وإنما فعل ذلك ، لأن الاشتغال بالطاعة والقيام بعهدة التكليف لا يتم إلا مع فراغ القلب ثم بعد هذه المقدمة ذكر نهيه عن بعض الأشياء ، ثم بعد الفراغ عن النهي ، ذكر أمره ببعض الأشياء ، وإنما قدم النهي على الأمر ، لأن دفع الضرر أهم من جلب النفع ، وإزالة ما لا ينبغي مقدم على تحصيل ما ينبغي ، ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك أحوال المتمردين والكفار على ما سيأتي تفصيل بيانه ، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن هذه السورة ، وقعت على أحسن وجوه الترتيب والنظام ، فالحمد لله الذي نور عقل هذا المسكين الضعيف بهذه الأنوار ، وله الشكر عليه أبد الآباد .

ولنرجع إلى التفسير ، فنقول : أما تلك المقدمة فهي ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾ واعلم أن المقصود من هذه الآية تثبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكر الله تعالى أن ذلك وحي من الله ، فلا جرم بالغ وكرر الضمير بعد إيقاعه اسماً ، لأن تأكيداً على تأكيد أبلغ ، كأنه تعالى يقول : إن كان هؤلاء الكفار يقولون : إن ذلك كهانة ، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة إن ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي ، وهذا فيه فائدتان :

إحداهما : إزالة الوحشة المتقدمة الحاصلة بسبب طعن أولئك الكفار ، فإن بعض الجهال وإن طعنوا فيه إلا أن جبار السموات عظمه وصدقه .

والثانية : تقويته على تحمل التكليف المستقبل ، وذلك لأن الكفار كانوا يبالغون في إيذائه ، وهو كان يريد مقاتلتهم فلما أمره الله تعالى بالصبر على ذلك الإيذاء وترك المقاتلة ، وكان ذلك شاقاً عليه ، فقال له : ﴿ إِنَا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾ فكأنه قال له : إني ما نزلت عليك هذا القرآن مفرقاً منجماً إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، ولقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال ، فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة

المحضة المبرأ عن العيب والعبث والباطل .

ثم إنه تعالى لما قدم هذه المقدمة ذكر النهي فقال تعالى :

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24)

فإما أن يكون المعنى : فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال ونظيره ﴿ فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ﴾ [الأعراف : 87] أو يكون المعنى عاماً في جميع التكاليف ، أي فاصبر في كل ما حكم به ربك سواء كان ذلك تكليفاً خاصاً بك من العبادات والطاعات أو متعلقاً بالغير وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك ، ثم في الآية سؤالات :

(74/795)

السؤال الأول : قوله : ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ دخل فيه أن ﴿ لاَ تُطِعِ آثماً أَوْ كَفوراً ﴾ فكأن ذكره بعد هذا تكريراً .

الجواب : الأول أمر بالمأمورات ، والثاني نهى عن المنهيات ودلالة أحدهما على الآخر بالالتزام لا بالتصريح فيكون التصريح به مفيداً .

السؤال الثاني : أنه عليه السلام ما كان يطيع أحداً منهم ، فما الفائدة في هذا النهي ؟

الجواب : المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد ، لأجل ما تركب فيهم من الشهوات الداعية إلى الفساد ، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإمداده وإرشاده ، لكان أحق الناس به هو الرسول المعصوم ، ومتى ظهر ذلك عرف كل مسلم ، لأنه لا بد له من الرغبة إلى الله والتضرع إليه في أن يصونه عن الشبهات والشهوات .

(75/795)

السؤال الثالث : ما الفرق بين الآثم والكفور ؟ الجواب : الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت ، والكفور هو الجاحد للنعمة ، فكل كفور آثم ، أما ليس كل آثم كفوراً ، وإنما قلنا : إن الآثم عام في المعاصي كلها لأنه تعالى قال : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾ [النساء : 48] فسمى الشرك إثماً ، وقال : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] وقال ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام : 120] وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة : 219] فدلت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصي ، واعلم أن كل من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان ، لأنه لما عبد غيره ، فقد عصاه وجحد إنعامه ، إذا عرفت هذا فنقول في الآية قولان : الأول : أن المراد شخص معين ، ثم منهم من قال : الآثم ،

والكفور هو شخص واحد وهو أبو جهل ، ومنهم من قال : الآثم هو الوليد والكفور هو عتبة ، قال القفال : ويدل عليه أنه تعالى سمى الوليد أثيماً في قوله : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [القلم : 10 - 12] وروى صاحب الكشاف أن الآثم هو عتبة .

والكفور هو الوليد لأن عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق والوليد كان غالياً في الكفر ، والقول الأول أولى لأنه متأيد بالقرآن ، يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ولدي فإني من أجمل قريش ولداً وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فإني من أكثرهم مالاً ، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات من أول حم السجدة إلى قوله

(76/795)

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 1 - 13] فانصرفا عنه وقال أحدهما ظننت أن الكعبة ستقع علي .

القول الثاني : أن الآثم والكفور مطلقان غير مختصين بشخص معين ، وهذا هو الأقرب إلى الظاهر ، ثم قال الحسن الآثم هو المنافق والكفور مشركوا العرب ، وهذا ضعيف بل الحق

ما ذكرناه من أن الآثم عام والكفور خاص .

السؤال الرابع : كانوا كلهم كفرة ، فما معنى القسمة في قوله : ﴿ آثماً أَوْ كفوراً ﴾ ؟ الجواب : ﴿ الكفور ﴾ أخبث أنواع الآثم ، فخصه بالذكر تنبيهاً على غاية خبثه ونهاية بعده عن الله .

السؤال الخامس : كلمة أو تقتضي النهي عن طاعة أحدهما فلم لم يذكر الواو حتى يكون نهياً عن طاعتهما جميعاً ؟ الجواب : ذكروا فيه وجهين : الأول : وهو الذي ذكره الزجاج واختاره أكثر المحققين أنه لو قيل : ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما لأن النهي عن طاعة مجموع شخصين لا يقتضي النهي عن طاعة كل واحد منهما وحده ، أما النهي عن طاعة أحدهما فيكون نهياً عن طاعة مجموعهما لأن الواحد داخل في المجموع ، ولقائل أن يقول : هذا ضعيف ، لأن قوله : لا تطع هذا وهذا معناه كن مخالفاً لأحدهما ، ولا يلزم من إيجاب مخالفة أحدهما إيجاب مخالفتهما معاً ، فإنه لا يبعد أن يقول السيد لعبده : إذا أمرك أحد هذين الرجلين فخالفه ، أما إذا توافقا فلا تخالفهما .

والثاني : قال الفراء : تقدير الآية لا تطع منهم أحداً سواء كان آثماً أو كفوراً كقول الرجل لمن يسأله شيئاً : لا أعطيك سواء سألت أو سكت .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا النهي عقبه بالأمر ، فقال :

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25)

وفي هذه الآية قولان :

الأول : أن المراد هو الصلاة قالوا : لأن التقييد بالبكرة والأصيل يدل على أن المراد من قوله : ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ الصلوات .

(77/795)

ثم قالوا : البكرة هي صلاة الصبح والأصيل صلاة الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ﴾ المغرب والعشاء ، فتكون هذه الكلمات جامعة الصلوات الخمس وقوله : ﴿ وَسَبّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ المراد منه التهجد ، ثم اختلفوا فيه فقال بعضهم : كان ذلك من الواجبات على الرسول عليه السلام ، ثم نسخ كما ذكرنا في سورة المزمل واحتجوا عليه بأن قوله : ﴿ فاسجد لَهُ وَسَبّحْهُ ﴾ أمر وهو للوجوب لا سيما إذا تكرر على سبيل المبالغة ، وقال آخرون : بل المراد التطوع وحكمه ثابت .

القول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ إلى آخر الآية ليس هو الصلاة بل المراد التسبيح الذي هو القول والاعتقاد ، والمقصود أن يكون ذاكراً لله في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً بقلبه ولسانه ، وهو المراد من قوله : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً وَسَبّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب : 41] .

واعلم أن في الآية لطيفة أخرى وهي أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴾ [الإنسان : 23] أي هديناك إلى هذه الأسرار ، وشرحنا صدرك بهذه الأنوار ، وإذ قد فعلنا بك ذلك فكن منقاداً مطيعاً لأمرنا ، وإياك وأن تكون منقاداً مطيعاً لغيرنا ، ثم لما أمره بطاعته ، ونهاه عن طاعة غيره قال : ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ وهذا إشارة إلى أن العقول البشرية ليس عندها إلا معرفة الأسماء والصفات ، أما معرفة الحقيقة فلا ، فتارة يقال له : ﴿ واذكر اسم ربّكَ ﴾ وهو إشارة إلى معرفة الأسماء ، وتارة يقال له : ﴿ واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ [الأعراف : 205] وهو إشارة إلى مقام الصفات ، وأما معرفة الحقيقة المخصوصة التي هي المستلزمة لسائر اللوازم السلبية والإضافية ، فلا سبيل لشيء من الممكنات والمحدثات ، إلى الوصول إليها والاطلاع عليها ، فسبحان من اختفى عن العقول لشدة ظهوره واحتجب عنها بكمال نوره .

(78/795)

واعلم أنه تعالى لما خاطب رسوله بالتعظيم والنهي والأمر عدل إلى شرح أحوال الكفار والمتمردين ، فقال تعالى :

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27)

والمراد أن الذي حمل هؤلاء الكفار على الكفر ، وترك الالتفات والإعراض عما ينفعهم في الآخرة ليس هو الشبهة حتى ينتفعوا بالدلائل المذكورة في أول هذه السورة ، بل الشهوة والمحبة لهذه اللذات العاجلة والراحات الدينية ، وفي الآية سؤالان :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ وراءهم ﴾ ولم يقل : قدامهم ؟ الجواب : من وجوه أحدها : لما لم يلتفتوا إليه ، وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم وثانيها : المراد ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل فأسقط المضاف وثالثها : أن تستعمل بمعنى قدام كقوله : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ [إبراهيم : 16] ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف : 79] .

السؤال الثاني : ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل ؟ الجواب : استعير الثقل لشدته وهوله ، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله ونحوه ﴿ ثَقُلَتْ فِي السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 187] .

ثم إنه تعالى لما ذكر أن الداعي لهم إلى هذا الكفر حب العاجل ، قال :

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28)

والمراد أن حبهم للعاجلة يوجب عليهم طاعة الله من حيث الرغبة ومن حيث الرهبة ، أما من حيث الرغبة فلأنه هو الذي خلقهم وأعطاهم الأعضاء السليمة التي بها يمكن الانتفاع باللذات العاجلة ، وخلق جميع ما يمكن الانتفاع به ، فإذا أحبوا اللذات العاجلة ، وتلك اللذات لا تحصل إلا عند حصول المنتفع وحصول المنتفع به ، وهذان لا يحصلان إلا بتكوين الله وإيجاده ، فهذا مما يوجب عليهم الانقياد لله ولتكاليفه وترك التمرد والإعراض ، وأما من حيث الرهبة فلأنه قدر على أن يميتهم ، وعلى أن يسلب النعمة عنهم ، وعلى أن يلقيهم في كل محنة وبلية ، فلأجل من فوت هذه اللذات العاجلة يجب عليهم أن ينقادوا لله ، وأن يتركوا هذا التمرد ، وحاصل الكلام كأنه قيل لهم : هب أن حبكم لهذه اللذات العاجلة طريقة مستحسنة ، إلا أن ذلك يوجب عليكم الإيمان بالله والإنقياد له ، فلو أنكم توسلتم به إلى الكفر بالله ، والإعراض عن حكمه ، لكنتم قد تمردتم ، وهذا ترتيب حسن في السؤال والجواب ، وطريقة لطيفة : وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال أهل اللغة : الأسر الربط والتوثيق ، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقد وفرس مأسور الخلق وفرس مأسور بالعقب ، والمعنى شددنا توصيل أعضائهم بعضاً ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب .

المسألة الثانية :

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم ﴾ أي إذا شئنا أهلكناهم وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم ، وهو كقوله : ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ أمثالكم ﴾ [الواقعة : 61] والغرض منه بيان الاستغناء التام عنهم كأنه قيل : لا حاجة بنا إلى أحد من المخلوقين ألبتة ، وبتقدير أن تثبت الحاجة فلا حاجة إلى هؤلاء الأقوام ، فإنا قادرون على إفنائهم ، وعلى إيجاد أمثالهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِن يَشأ * يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً ﴾ [النساء : 133] وقال : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : 19 ، 20] ثم قيل : ﴿ بدلنا أمثالهم ﴾ أي في الخلقة ، وإن كانوا أضدادهم في العمل ، وقيل : أمثالهم في الكفر .

المسألة الثالثة :

قال صاحب الكشاف في قوله : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ إن حقه أن يجيء بأن لا بإذا كقوله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد : 38] ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ [النساء : 133] واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن ، وهو ضعيف لأن كل واحد من إن وإذا حرف الشرط ، إلا أن حرف إن لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، فلا يقال : إن

طلعت الشمس أكرمتك ، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع ، تقول : آتيك إذا طلعت الشمس ، فههنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة ، لا جرم حسن استعمال حرف إذا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 225.230 ﴾

(81/795)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرآن تَنزِيلاً ﴾

ما افتريته ولا جئتَ به من عندك ، ولا من تلقاء نفسك ، كما يدّعيه المشركون .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبل أُنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعيد ، بيّن أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه ، فليس بسحر ولا كهَانة ، ولا شِعر ، وأنه حقّ .

وقال ابن عباس : أنزل القرآن متفرّقاً : آية بعد آية ، ولم ينزل جملة واحدة ؛ فلذلك قال "نَزَّلْنَا" وقد مضى القول في هذا مبيناً والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي لقضاء ربك .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اصبر على أذى المشركين ؛ هكذا قضيت .

ثم نسخ بآية القتال .

وقيل : أي اصبر لما حكم به عليك من الطاعات ، أو انتظر حكم الله إذا وعَدَكَ أنه ينصرك عليهم ، ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة .

﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً ﴾ أي ذا إثم ﴿ أَوْ كَفُوراً ﴾ أي لا تطع الكفار .

فروى مَعْمَر عن قتادة قال : قال أبو جهل : إن رأيتُ محمداً يُصلّي لأطأنّ على عنقه .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ .

ويقال : نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة ، وكانا أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعرضان عليه الأموال والتزويج ، على أن يترك ذكر النبوّة ، ففيهما نزلت : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ .

قال مقاتل : الذي عرض التزويج عُتبة بن ربيعة ؛ قال : إن بناتي من أجمل نساء قريش ، فأنا أزوّجك ابنتي من غير مهر وارجع عن هذا الأمر .

وقال الوليد : إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال ، فأنا أعطيك من المال حتى ترضى وارجع عن هذا الأمر ؛ فنزلت .

ثم قيل : "أو" في قوله تعالى : ﴿ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أَوْكَد من الواو ؛ لأن الواو إذا قلت : لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص ؛ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين ، فإذا قال : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ ف"أو" قد دلّت على أن كل واحد منهما أهل أن يُعصَى ؛ كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت : هذان أهل أن يُتَّبعا وكل واحد منهما أهل لأن يُتَّبع ؛ قاله الزجاج.

وقال الفرّاء : "أو" هنا بمنزلة "لا" كأنه قال : ولا كفوراً ؛ قال الشاعر :

لاَ وَجْدُ ثَكْلَى كما وَجَدْتُ وَلاَ . . .

وَجْدُ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبَعُ

أَوْ وَجْدُ شيخٍ أَضَلَّ ناقَتَهُ . . .

يَوْمَ تَوافَى الحجيجُ فاندفعوا

أراد ولا وجد شيخ .

وقيل : الآثم المنافق ، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر ؛ أي لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً .

وهو قريب من قول الفراء .

قوله تعالى : ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي صلّ لربّك أول النهار وآخره ، ففي أوّله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر .

﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة .

﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ يعني التطوّع في الليل ؛ قاله ابن جبيب .

وقال ابن عباس وسفيان ؛ كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة .

وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان في الصلاة أو في غيرها .

وقال ابن زيد وغيره : إن قوله : ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ منسوخ بالصلوات الخمس .

وقيل : هو ندب .

وقيل : هو مخصوص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدّم القول في مثله في سورة "المزمل" وقول ابن حبيب حسن .

وجمع الأصيل : الأصائل والأُصُل ؛ كقولك سَفَائن وسُفُن ؛ قال :

ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ . . .

وقال في الأصائل ، وهو جمع الجمع :

لَعَمْرِي لأَنْتَ البيتُ أُكْرِمَ أَهْلَهُ . . .

وأَقعدُ في أَفْيَائِهِ بالأَصَائِلِ

(83/795)

وقد مضى هذا في آخر "الأعراف" مستوفًى .

ودخلت "مِن" على الظرف للتبعيض ، كما دخلت على المفعول في قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [نوح : 4] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ :

توبيخ وتقريع ، والمراد أهل مكة .

والعجلة الدنيا ﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ أي ويدعون ﴿ وَرَآءَهُمْ ﴾ أي بين أيديهم ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ أي عسيراً شديداً كما قال : ﴿ ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 187] أي يتركون الإيمان بيوم القيامة .

وقيل : "وَرَاءَهُمْ" أي خلفهم ، أي ويذرون الآخرة خلف ظهورهم ، فلا يعملون لها .

وقيل : نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوّته .

وحبهم العاجلة : أخذهم الرّشا على ما كتموه .

وقيل : أراد المنافقين ؛ لاستبطانهم الكفر وطلب الدنيا .

والآية تعمّ .

واليوم الثقيل يوم القيامة .

وإنما سمّيَ ثقيلاً لشدائده وأهواله .

وقيل : للقضاء فيه بين عباده .

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أي من طين .

﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ أي خَلْقَهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم .

والأَسْر الخَلْق ؛ قال أبو عُبيد : يقال فرس شديد الأَسْر أي الخَلْق .

ويقال أسره الله جلّ ثناؤه إذا شَدَّد خَلْقه ؛ قال لبيد :

ساهِمُ الوجهِ شدِيدٌ أَسْرُهُ . . .

سَلِسِ القِيادِ تَخالُهُ مُخْتَالاَ

وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب .

وقال مجاهد في تفسير الأَسْر : هو الشَّرْج ، أي إذا خرج الغائط والبول تَقَبَّضَ الموضعُ .

وقال ابن زيد القوّة .

وقال ابن أحمر يصف فرساً :

يَمشِي بِأَوْظِفَةٍ شِدَادٍ أَسْرُهَا . . .

صُمِّ السِّنَابِكِ لا تَقِي بِالْجَدْجَدِ

واشتقاقه من الإسار وهو القِدّ الذي يشد به الأقتاب ؛ يقال : أَسَرْتُ القَتَبَ أَسْراً أي شددته وربطته ؛ ويقال : ما أحسن أَسْرَ قَتَبِه أي شدّه وربطه ؛ ومنه قولهم : خذه بِأَسْرِه إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله ؛ كأنهم أرادوا تَعْكِيمه وشدّه فم يُفتَح ولم يُنقَص منه شيء .

ومنه الأسير ، لأنه كان يُكتَف بالإسار .

والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنِّعَم حين قابلوها بالمعصية .

أي سَوَّيتُ خَلْقك وأحكمته بالقوى ثم أنت تكفر بي .

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ قال ابن عباس : يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم .

وعنه أيضاً : لغيّرنا محاسنهم إلى أسمج الصُّوَر وأقبحها .

كذلك روى الضحاك عنه .

والأوّل رواه عنه أبو صالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(85/795)

وقال الآلوسى :

ولما ذكر سبحانه أولاً حال الإنسان وقسمه إلى الطائع والعاصي وأمعن جل شأنه فيما

أعده للطائع مشيراً إلى عظم سعة الرحمة ذكر ما شرف به نبيه صلى الله عليه وسلم إزالة لوحشته وتقوية لقلبه فقال عز قائلاً :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23)

أي أنزلناه مفرقاً منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة لحكم بالغة مقتضية له لا غيرنا كما يعرب عنه تكرير الضمير مع إن سواء كان المنفصل تأكيداً أو فصلاً أو مبتدأ .

(86/795)

﴿ فاصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بتأخير نصرك على الكفار فإن له عاقبة حميدة ﴿ وَلَا تُطِعِ ﴾ قلة صبر منك على اذاهم وضجراً من تأخر نصرك ﴿ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ قيل إن أو لأحد الشيئين في جميع مواقعها ويعرض لها معان أخر كالشك والإباحة وغيرهما فيكون أصل المعنى هنا ولا تطع منهم أحد النوعين ولما كان أحد الأغلب عليه في غير الإثبات العموم واحتمال غيره احتمال مرجوح صار المعنى على النهي عن إطاعة هذا وهذا ولم يؤت بالواو لاحتمال الكلام عليه النهي عن المجموع ويحصل امتثاله بالانتهاء عن واحد دون الآخر فلا يرد أن لا تطلع أحد النوعين يحصل الامتثال به بترك إطاعة واحد مع إطاعة الآخر إذ يقال لمن فعل ذلك إنه لم يطع أحدهما ومن هنا قيل إن أو في الإثبات تفيد أحد

الأمرين وفي النفي تفيد نفي كلا الأمرين جميعاً ولعل ما ذكر في معنى كلام ابن الحاجب حيث قال إن وضع أو لإثبات الحكم لأحد الأمرين إلا أنه إن حصلت قرينة يفهم معها أن أحد الأمرين غير حاجر عن الآخر مثل قولك جالس الحسن أو ابن سيرين سمي إباحة وان حجر فهو لأحد الأمرين واستشكل بعضهم وقوعها في النهي كلا تطع منهم آثما أو كفوراً إذ لو انتهى عن أحدهما لم يمتثل ومن ثم حملها بعضهم يعني أبا عبيدة على أنها بمعنى الواو والأولى أن تبقى على بابها وإنما جاء التعميم فيها من وراء ذلك وهو النهي الذي فيه معني النفي لأن المعنى قبل وجود النهي تطيع آثماً أو كفوراً أي واحداً منهما فإذا جاء النهي ورد على ما كان ثابتاً في المعنى فيصير المعنى ولا تطع واحداً منهما فيجيء التعميم فيهما من جهة النهي وهي على بابها فيما ذكر لأنه لا يحصل الانتهاء عن أحدهما حتى ينتهي عنهما بخلاف الإثبات فإنه قد يفعل أحدهما دون الآخر انتهى وعليه ما قيل إن إفادة العموم في النفي والنهي الذي في معناه لما أن تقيض الإيجاب الجزئي السلب الكلي وقريب من ذلك قول الزجاج أن أو ههنا أوكد من الواو لأنك إذا

(87/795)

قلت لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاص فإذا أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل لأن يعصى ويعلم منه النهي عن إطاعتهما معاً كما لا يخفى وأفاد جار الله إن أو باقية على حقيقتها وإن النهي عن إطاعتهما جميعاً إنما جاء من دلالة النص وهي المسمى مفهوم الموافقة بقسميه الأولى والمساوي فتأمل والمراد بالآثم والكفور جنسهما وتعليق النهي بذلك مشعر بعلية الوصفين له فلا بد أن يكون النهي عن الإطاعة في الاثم والكفر لا فيما ليس باثم ولا كفر والمراد ولا تطع مرتكب الاثم الداعي لك إليه أو مرتكب الكفر الداعي إليه أي لا تتبع أحداً من الآثم إذا دعاك إلى الاثم ومن الكفور إذا دعاك إلى الكفر فإنه إذا قيل لا تطع الظالم فهم منه لا تتبعه في الظلم إذا دعاك إليه ومنع هذا الفهم مكابرة فلا يتم الاستدلال بالآية على عدم جواز الاقتداء بالفاسق إذا صلى إماماً ثم إن التقسيم باعتبار ما يدعوان إليه من الكفر والإثم المقابل له لا باعتبار الذوات حتى يكون بعضهم آثماً وبعضهم كفوراً فيقال كيف ذلك وكلهم كفرة والمبالغة في كفور قيل لموافقة الواقع وهذا كقوله تعالى

﴿ ولا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] واعتبار رجوعها إلى النهي كاعتبار رجوعها إلى النفي على ما قيل في قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] كما ترى وقيل الآثم المنافق والكفور المشرك المجاهر وقيل الآثم عتبة بن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة لأن عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق وكان

الوليد غالياً في الكفر شديد الشكيمة في العتو وعن مقاتل أنهما قالا له صلى الله عليه وسلم ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج فنزلت وقيل الكفور أبو جهل الآية نزلت فيه والأولى ما تقدم وفي النهي مع العصمة إرشاد لغير المعصوم إلى التضرع إلى الله تعالى والرغبة إليه سبحانه في الحفظ عن الوقوع فيما لا ينبغي .

(88/795)

﴿ واذكر اسم ربّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ وداوم على ذكره سبحانه في جميع الأوقات أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل قد يطلق على ما بعد الزوال إلى المغرب فينتظمهما .

﴿ وَمِنَ الليل ﴾ أي بعضه ﴿ فاسجد ﴾ فصل ﴿ لَهُ ﴾ عز وجل على أن السجود مجاز عن الصلاة بذكر الجزء وإرادة الكل وحمل ذلك على صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف للاعتناء والاهتمام لما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص ﴿ وَسَبّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ وتهجد له تعالى قطعاً من الليل طويلاً فهو أمر بالتهجد على ما اختاره بعضهم وتنوين ليلاً للتبعيض وأصل التسبيح التنزيه ويطلق على مطلق العبادة القولية والفعلية وعن ابن زيد وغيره أن ذلك كان فرضاً ونسخ فلا فرض اليوم إلا الخمس وقال قوم هو محكم في شأنه عليه

الصلاة والسلام وقال آخرون هو كذلك مطلقاً على وجه الندب وفي تأخير الظرف قيل دلالة على أنه ليس بفرض كالذي قبله وكذا في التعبير عنه بالتسبيح وفيه نظر وقال الطيبي الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه صلى الله عليه وسلم عن إطاعة الآثم والكفور وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلاً ونهاراً بالصلوات كلها من غير اختصاص وبالتسبيح بما يطيق على منوال قوله تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين انتهى وهو حسن .

(89/795)

﴿ إِنَّ هَؤُلَآء ﴾ الكفرة ﴿ يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ وينهمكون في لذاتها الفانية ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ ﴾ أي أمامهم ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ هو يوم القيامة وكونه أمامهم ظاهر أو يذرون وراء ظهورهم يوماً ثقيلاً لا يعبؤن به فالظرف قيل على الأول حال من يوماً وعلى هذا ظرف يذرون ولو جعل على وتيرة واحدة في التعلق صح أيضاً ووصف اليوم بالثقيل لتشبيه شدته وهوله بثقل شيء قادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة والجملة كالتعليل لما أمر به ونهى عنه كأنه قيل لا تطعهم واشتغل بالأهم من العبادة لأن هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا فاترك أنت

الدنيا وأهلها للآخرة وقيل إن هذا يفيد ترهيب محل بالعاجل وترغيب محل الآجل والأول علة للنهي عن إطاعة الآثم والكفور والثاني علة للأمر بالعبادة .

(90/795)

﴿ نَّحْنُ خلقناهم ﴾ لا غيرنا ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أي أحكمنا ربط مفاصلهم بالاعصاب والعروق والأسر في الأصل الشد والربط وأطلق على ما يشد به ويربط كما هنا وإرادة الأعصاب والعروق لشبهها بالحبال المربوط بها ووجه الشبه ظاهر ومن هنا قد يقول العارف من كان أسره من ذاته وسجنه دنياه في حياته فليشك مدة عمره وليتأسف على وجوده بأسره والمراد شدة الخلق وكونه موثقاً حسناً ومنه فرس ماسور الخلق إذا كان موثقه حسناً وعن مجاهد الأسر الشرج وفسر بمجرى الفضلة وشد ذلك جعله بحيث إذا خرج الأذى انقبض ولا يخفى أن هذا داخل في شدة الخلق وكونه موثقاً حسناً ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم ﴾ أي أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق ﴿ تَبْدِيلاً ﴾ بديعاً لا ريب فيه يعني البعث والنشأة الأخرى فالتبديل في الصفات لأن المعاد هو المبتدأ ولكون الأمر محققاً كائناً جيء بإذا وذكر المشيئة لإبهام وقته ومثله شائع كما يقول العظيم لمن يسأله الأنعام إذا شئت أحسن إليه ويجوز أن يكون المعنى وإذا شئنا أهلكناهم وبدلنا غيرهم ممن

يطيع فالتبديل في الذوات وإذا لتحقق قدرته تعالى عليه وتحقق ما يقتضيه من كفرهم المقتضي لاستئصالهم فجعل ذلك المقدور المهدد به كالمحقق وعبر عنه بما يعبر به عنه ولعله الذي أراده الزمخشري بما نقل عنه من قوله إنما جاز ذلك لأنه وعيد جيء به على سبيل المبالغة كان له وقتاً معيناً ولا يعترض عليه بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد : 38] لأن النكات لا يلزم إطرادها فافهم والوجه الأول أوفق بسياق النظم الجليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(91/795)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) ﴾

من هنا يبتدىء ما لا خلاف في أنه مكي من هذه السورة .

وعلى كلا القولين فهذا استئناف ابتدائي ، ويجيء على قول الجمهور أن السورة كلها مكية وهو الأرجح ، أنه استئناف للانتقال من الاستدلال على ثبوت البعث بالحجّة والترهيب والوعيد للكافرين به والترغيب والوعد للمؤمنين به بمرهبّات ومرغّبات هي من الأحوال التي تكون بعد البعث ، فلمّا استوفى ذلك ثُنِي عِنانُ الكلام إلى تثبيت الرسول صلى الله

عليه وسلم والربطِ على قلبهِ لدفاع أن تلحقه آثارُ الغمّ على تصلب قومه في كفرهم وتكذيبهم بما أُنزل عليه مما شأنه أن يوهن العزيمة البشرية ، فذكَّره الله بأنه نزل عليه الكتاب لئلا يعبأ بتكذيبهم .

وفي إيراد هذا بعد طُول الكلام في أحوال الآخرة ، قضاء لحق الاعتناء بأحوال الناس في الدنيا فابتدىء بحال أشرف الناس وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بحال الذين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين من ﴿ يحبون العاجلة ﴾ [الإنسان : 27] ومن ﴿ اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ [الإنسان : 29] فأدخلهم في رحمته .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للاهتمام به .

وتأكيد الضمير المتصل بضمير منفصل في قوله : ﴿ إنا نحن ﴾ لتقرير مدلول الضمير تأكيداً لفظياً للتنبيه على عظمة ذلك الضمير ليفضي به إلى زيادة الاهتمام بالخبر إذ يتقرر أنه فِعْلُ من ذلك الضميرَانِ له لأنه لا يفعل إلا فعلاً منوطاً بحكمة وأقصى الصواب .

وهذا من الكناية الرمزية ، وبعدُ فالخبر بمجموعه مستعمل في لازم معناه وهو التثبيت والتأييد فمجموعُه كناية ومزية .

(92/795)

وإيثار فعل ﴿ نزّلنا ﴾ الدال على تنزيله منجماً آياتٍ وسُوراً تنزيلاً مفرقاً إدماجٌ للإيماء إلى أن ذلك كان من حكمة الله تعالى التي أومأ إليها تأكيد الخبر بـ (إن) وتأكيدُ الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، فاجتمع فيه تأكيد على تأكيد وذلك يفيد مُفاد القصر إذ ليس الحصر والتخصيصُ إلاّ تأكيداً على تأكيد كما قال السكاكي ، فالمعنى : ما نزّل عليك القرآن إلاّ أنا .

وفيه تعريض بالمشركين الذين قالوا : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة ﴾ [الفرقان : 32] فجعلوا تنزيله مفرقاً شبهة في أنه ليس من عند الله .

والمعنى : ما أنزله منجّماً إلاّ أنا واقتضت حكمتي أن أنزله عليك منجّماً .

وفرع على هذا التمهيد أمره بالصبر على أعباء الرسالة وما يلقاه فيها من أذى المشركين ، وشدُّ عزيمته أن لا تخور .

وسمى ذلك حكماً لأن الرسالة عن الله لا خيرة للمرسَل في قبولها والاضطلاعِ بأمورها ، ولأن ما يحفّ بها من مصاعب إصلاح الأمة وحملِها على ما فيه خيرها في العاجل والآجل ، وتلقي أصناف الأذى في خلال ذلك حتى يتمّ ما أمر الله به ، كالحكم على الرسول بقبولِ ما يبلغ منتهى الطاقة إلى أجلٍ معين عند الله .

وعدي فعل (اصبر) باللام لتضمن الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق ، وقد يعدّى بحرف (على) كما قال تعالى:

﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] .

ومناسبة مقام الكلام ترجح إحدى التعديتين كما تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ في سورة المدثر (7) .

ولما كان من ضروب إِعراضهم عن قبول دعوته ضربٌ فيه رغبات منهم مثل أن يَترك قرعهم بقوارع التنزيل من تأفين رأيهم وتحقير دينهم وأصنامهم ، وربما عرضوا عليه الصِهْر معهم ، أو بذْلَ المال منهم ، أُعقب أمره بالصبر على ما هو من ضروب الإِعراض في صلابة وشدة ، بأن نهاه عن أن يطيعهم في الضرب الآخر من ضروب الإِعراض الواقع في قالَب اللين والرغبة .

(93/795)

وفي هذا النهي تأكيد للأمر بالصبر لأن النهي عنه يشمل كل ما يرفع موجبات الصبر المراد هنا .

والمقصود من هذا النهي تأييسهم من استجابته لهم حين يقرأ عليهم هذه الآية لأنهم يحسبون أن ما عرضوه عليه سيكون صارفاً له عما هو قائم به من الدعوة إِذْ هم بُعَداء عن إدراك ماهية الرسالة ونزاهة الرسول .

والطاعة : امتثال الطلب بفعل المطلوب وبالكف عن المنهي عنه فقد كان المشركون يعمدون إلى الطلب من النبي أن يفعل ما يرغبون ، مثل طرد ضعفاء المؤمنين من المجلس ، والإِتيان بقرآن غير هذا أو تبديله بما يشايع أحوالهم ، وأن يكف عما لا يريدون وقوعه من تحقير آلهتهم ، والجهرِ بصلاته ، فحذره الله من الاستماع لقولهم وإياسهم من حصول مرغوبهم .

ومقتضى الظاهر أن يقول : ولا تطعهم ، أو ولا تطع منهم أحداً ، فعدل عنه إلى آثماً أو كفوراً ﴾ للإِشارة بالوصفين إلى أن طاعتهم تفضي إلى ارتكاب إثم أو كفر ، لأنهم في ذلك يأمرونه وينهونه غالباً فهم لا يأمرون إلاّ بما يلائم صفاتهم .

فالمراد بالآثم والكفور : الصنفان من الموصوفين وتعليق الطاعة المنهي عنها بهذين النوعين مُشعر بأن الوصفين علة في النهى .

والآِثم والكفُور مُتَلازِمَانِ فكان ذكر أحد الوصفين مغنياً عن الآخر ولكن جُمع بينهما لتشويه حال المتصف بهما قال تعالى : ﴿ والله لا يحب كل كفّار أثيم ﴾ [البقرة : 276] .

وفي ذكر هذين الوصفين إشارة أيضاً إلى زعيمين من زعماء الكفر والعناد وهما عُتبة ابن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، لأن عتبة اشتهر بارتكاب المآثم والفسوق ، والوليد اشتهر بشدة الشكيمة في الكفر والعتوّ .

وقد كانا كافرَيْن فأشير إلى كل واحد منهما بما هو علَم فيه بين بقية المشركين من كثرة المآثم لأولهما .

والمبالغةُ في الكفر لثانيهما ، فلذلك صيغت له صيغة المبالغة (كَفور) .

(94/795)

قيل عرض عتبة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوة الناس إلى الإسلام ويزوجه ابنته وكانت من أجمل نساء قريش .

وعرض الوليد عليه أن يعطيه من المال ما يرضيه ويرجع عن الدعوة ، وكان الوليد من أكثر قريش مالاً وهو الذي قال الله في شأنه:

﴿ وجعَلْتُ له مالاً ممدوداً ﴾ [المدثر : 12] .

فيكون في إيثار هذين الوصفين بالذكر إدماج لذمهما وتلميح لقصتهما .

وأيّاماً كان فحرف ﴿ أو ﴾ لم يعْدُ أصل معناه من عطف تشريك أحد شيئين أو أشياء في خبر أو طَلب ، وهذا التشريك يفيد تخييراً ، أو إباحةً ، أو تقسيماً ، أو شكاً ، أو تشكيكاً بحسب المواقع وبحسب عوامل الإعراب ، لتدخل ﴿ أو ﴾ التي تُضمر بعدها (أنْ) فتنصبُ المضارع .

وكون المشرَّك بها واحداً من متعدد مُلازم لمواقعها كلها .

فمعنى الآية نهي عن طاعة أحد هذين الموصوفين ويعلم أن طاعة كليهما منهي عنها بدلالة الفحوى لأنه إذا أطاعهما معاً فقد تحقق منه طاعة أحدهما وزيادة .

وموقع ﴿ منهم ﴾ موقعُ الحال من ﴿ آثماً ﴾ فإنه صفة ﴿ آثماً ﴾ فلما قدمت الصفة على الموصوف صارت حالاً .

و(مِنْ) للتبعيض .

والضمير المجرور بها عائد للمشركين ، ولم يتقدم لهم ذكر لأنهم معلومون من سياق الدعوة أو لأنهم المفهوم من قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ أي لا كما يزعم المشركون أنك جئت به من تلقاء نفسك ، ومن قوله : ﴿ فاصبر لحكم ربك ، ﴾ أي على أذى المشركين .

ويؤول المعنى : ولا تطع أحداً من المشركين .

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25)

أي أَقْبِلْ على شأنك من الدعوة إلى الله وذِكر الله بأنواع الذكر .

وهذا إرشاد إلى ما فيه عون له على الصبر على ما يقولون .

والمراد بالبُكرة والأصيل استغراق أوقات النهار ، أي لا يصدك إعراضهم عن معاودة الدعوة وتكريرها طرفي النهار .

ويدخل في ذكر الله الصلوات مثل قوله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [هود : 114 ، 115] .

وكذلك النوافل التي هي من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم بين مفروض منها وغير مفروض .

فالأمر في قوله : ﴿ واذكر ﴾ مستعمل في مطلق الطلب من وجوب ونفل .

وذِكر اسم الرب يشمل تبليغ الدعوة ويشمل عبادة الله في الصلوات المفروضة والنوافل ويشمل الموعظة بتخويف عقابه ورجاء ثوابه .

وقوله : ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ يشمل أوقاتَ النهار كلها المحدودَ منها كأوقات الصلوات وغيرَ المحدود كأوقات النوافل ، والدعاء والاستغفارِ .

و ﴿ بكرة هي أول النهار ، وأصيلاً عشياً .

وقوله : ومن الليل فاسجد له ﴾ إشارة إلى أن الليل وقت تفرغ من بث الدعوة كما تقدم في قوله : ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً ﴾ إلي قوله : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ الآية [

المزمل : 2 20] وهذا خاص بصلاة الليل فرضاً ونفلاً .

وقوله : ﴿ وسبّحْه ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿ من الليل فاسجد له ﴾ فتعين أن التسبيح التنفل .

والتسبيح : التنزيه بالقول وبالاعتقاد ، ويشمل الصلوات والأقوال الطيبة والتدبر في دلائل صفات الله وكمالاته ، وغلب إطلاق مادة التسبيح على الصلاة النافلة ، وقال تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ [الطور : 48] ، أي من الليل .

وعن عبد الملك بن حبيب : و ﴿ سبحه ﴾ هنا صلاة التطوع في الليل ، وقوله ﴿ طويلاً ﴾ صفة ﴿ ليلاً ﴾ وحيث وصف الليل بالطول بعد الأمر بالتسبيح فيه ، عُلم أن ﴿ ليلاً ﴾ أريد به أزمان الليل لأنه مجموعُ الوقت المقابل للنهار ، لأنه لو أريد ذلك المقدارُ كلُّه لم يكن في وصفه بالطول جدوى ، فتعين أن وصف الطول تقييد للأمر بالتسبيح ، أي سبحه أكثرَ الليل ، فهو في معنى قوله تعالى : ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً إلى أو زد عليه ﴾ [الإنسان : 2 ، 4] أو يتنازعه كل من (اسجد) و ﴿ سبحه ﴾ .

(96/795)

وانتصب ﴿ ليلاً ﴾ على الظرفية ل ﴿ سبحه ﴾ .

وعن ابن عباس وابن زيد : أن هاتين الآيتين إشارة إلى الصلوات الخمس وأوقاتها بناء على أن الأصيل يطلق على وقت الظهر فيكون قوله : ﴿ وسبّحْه ﴾ إشارة إلى قيام الليل .

وهذه الآية جاءت على وفق قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ [الحجر : 97 ، 98] وقوله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتَّل إليه تبتيلاً رب المشرق والمغرب لا إله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً واصبر على ما يقولون ﴾ [المزمّل : 8 10] .

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27)

تعليل للنهي عن إطاعتهم في قوله : ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ [الإنسان : 24] ، أي لأن خلقهم الانصباب على الدنيا مع الإِعراض عن الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث فلو أعطاهم لتخلق بخلقهم قال تعالى : ﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء ﴾ الآية [النساء : 89] .

فموقع ﴿ إنّ ﴾ موقع التعليل وهي بمنزلة فاء السببية كما نبه عليه الشيخ عبد القاهر .

و ﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى حاضرين في ذهن المخاطب لكثرة الحديث عنهم ، وقد استقريْتُ من القرآن أنه إذا أطلق ﴿ هؤلاء ﴾ دون سبْقِ ما يكون مشاراً إليه فالمقصود به المشركون ، وقد ذكرتُ ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها

قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ في سورة الأنعام (89) وقوله تعالى : ﴿ فلا تكُ في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ في سورة هود (109) .

وقد تنزه رسول الله عن محبة الدنيا فقال : ما لي وللدنيا فليس له محبة لأمورها عدا النساء والطيب كما قال : حُبِّب إليّ مِن دنياكم النساء والطيب .

(97/795)

فأما النساء فالميل إليهن مركوز في طبع الذكور ، وما بالطبع لا يتخلف ، وفي الأنس بهن انتعاش للروح فتناوله محمود إذا وقع على الوجه المبَرَّأ من الإِيقاع في فساد ومَا هو الأمثل تناول الطعام وشرب الماء قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رُسُلاً مِن قبلك وجعلْنا لهم أزواجاً وذُرِّية ﴾ [الرعد : 38] .

وأما الطيب فلأنه مناسب للتزكية النفسية .

وصيغة المضارع في ﴿ يحبّون ﴾ تدل على تكرر ذلك ، أي أن ذلك دأبهم وديدنهم لا يشاركون مع حب العاجلة حب الآخرة .

و ﴿ العاجلة ﴾ : صفة لموصوف محذوف معلوم من المقام تقديره : الحياة العاجلة ، أو الدار العاجلة .

والمراد بها مدة الحياة الدنيا .

وكثر في القرآن إطلاق العاجلة على الدنيا كقوله : ﴿ كلا بل تُحِبُّون العاجلة وتَذرُون الآخرة ﴾ [القيامة : 20 ، 21] فشاع بين المسلمين تسمية الدنيا بالعاجلة .

ومتعلق ﴿ يحبّون ﴾ مضافٌ محذوف ، تقديره : نعيمَ أو منافعَ لأن الحب لا يتعلق بذات الدنيا .

وفي إيثار ذكر الدنيا بوصف العاجلة توطئة للمقصود من الذم لأن وصف العاجلة يؤذن بأنهم آثروها لأنها عاجلة .

وفي ذلك تعريض بتحميقهم إذ رضُوا بالدون لأنه عاجل وليس ذلك من شيم أهل التبصر ، فقوله : ﴿ ويذرون ورآءهم يوماً ثقيلاً ﴾ واقع موقع التكميل لمناط ذمهم وتحميقهم لأنهم لوْ أحبُّوا الدنيا مع الاستعداد للآخرة لما كانوا مذمومين قال تعالى حكاية لقول الناصحين لقارون : ﴿ وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : 77] .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم : 7] إذ كان مناط الذم فيه هو أن قصروا أنفسهم على علم أمور الدنيا مع الإِعراض عن العلم بالآخرة .

ومُثلوا بحال من يترك شيئاً وراءه فهو لا يسعى إليه وإنما يسعى إلى ما بين يديه .

وإنما أعرضوا عنه لأنهم لا يؤمنون بحلوله فكيف يسعون إليه .

(98/795)

وصيغة المضارع في ﴿ يذرون ﴾ تقتضي أنهم مستمرون على ذلك وأن ذلك متجدد فيهم ومتكرر لا يتخلفون عن ذلك الترك لأنهم لا يؤمنون بحلول ذلك اليوم ، فالمسلمون لا يذرون وراءهم هذا اليوم لأنهم لا يَخلُون من عمل له على تفاوت بينهم في التقوى .

واليومُ الثقيل : هو يوم القيامة ، وُصف بالثقيل على وجه الاستعارة لشدة ما يحصل فيه من المتاعب والكروب فهو كالشيء الثقيل الذي لا يستطاع حمله .

والثقل : يستعار للشدة والعسر قال تعالى : ﴿ ثقُلت في السماوات والأرض ﴾ [الأعراف : 187] وقال : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28)

لما كان الإِخبار عنهم بأنهم ﴿ يذرون وراآءهم يوماً ثقيلاً ﴾ [الإنسان : 27] يتضمن أنهم ينكرون وقوع ذلك اليوم كما قدمناه وكان الباعث لهم على إنكاره شبهةُ استحالة إعادة الأجسادِ بعد بِلاها وفنائها ، وكان الكلام السابق مسوقاً مساق الذم لهم والإِنكار

عليهم جيء هنا بما هو دليل للإنكار عليهم وإبطال لشبهتهم ببيان إمكان إعادة خلقهم يُعيده الذي خلقهم أول مرّة كما قال تعالى : ﴿ فسيقولون من يُعيدنا قُلِ الذي فطركم أول مرة ﴾ [الإسراء : 51] وغيرِ ذلك من الآيات الحائمة حول هذا المعنى .

وافتتاح الجملة بالمبتدإ المخبر عنه بالخبر الفِعلي دون أن تفتتح بـ ﴿ خلقناهم ﴾ أو نحن خالقون ، لإفادة تقوّي الخبر وتحقيقه بالنظر إلى المعنِيّينَ بهذا الكلام وإن لم يكن خطاباً لهم ولكنهم هم المقصود منه .

وتقويةُ الحكم بناءٌ على تنزيل أولئك المخلوقين منزلة من يشك في أن الله خلقهم حيث لم يجْرُؤوا على موجِب العلم فأنكروا أن الله يعيد الخلق بعد البِلَى ، فكأنهم يسندون الخلق الأول لغيره .

(99/795)

وتقوِي الحكم يترتب عليه أنه إذا شاء بدّل أمثالهم بإعادة أجسادهم فلذلك لم يُحتج إلى تأكيد جملة : ﴿ وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم ﴾ ، استغناء بتولد معناها عن معنى التي قبلها وإن كان هو أولى بالتقوية على مقتضى الظاهر .

وهذا التقوّي هنا مشعر بأن كلاماً يعقبه هو مصب التقوِي ، ونظيره في التقوِي والتفريع قوله

تعالى : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تُمْنُون إلى قوله : وما نحن بمسبوقين على أن نبدّلِ أمثالكم فإن المفرع هو أفرأيتم ما تمنون وما اتصل به .

وجملة ﴿ فلولا تُصَدّقون ﴾ معترضة وقد مضى في سورة الواقعة (57 - 61) .

فأمثالهم ﴾ : هي الأجساد الثانية إذ هي أمثال لأجسادهم الموجودةِ حين التنزيل .

والشدّ : الإِحكام وإتقان ارتباط أجزاء الجسد بعضها ببعض بواسطة العظام والأعصاب والعروق إذ بذلك يستقلّ الجسم .

والأسر : الربط ، وأطلق هنا على الإِحكام والإِتقان على وجه الاستعارة .

والمعنى : أحْكمنا ربط أجزاء أجسامهم فكانت مشدوداً بعضها إلى بعض .

وقوله : ﴿ وإذا شئنا بَدَّلْنا أمثالهم ﴾ إخبار بأن الله قادر على أن يُبدلهم بناس آخرين .

فحذف مفعول ﴿ شئنا ﴾ لدلالة وجواب ﴿ إذَا ﴾ عليه كما هو الشأن في فعل المشيئة غالباً .

واجتلاب ﴿ إذا ﴾ في هذا التعليق لأن شأن ﴿ إذا ﴾ أن تفيد اليقين بوقوع ما قُيد بها بخلاف حرف (إنْ) فهو إيماء إلى أن حصول هذه المشيئة مستقرب الوقوع .

فيجوز أن يَكون هذا بمنزلة النتيجة لقوله : ﴿ نحن خلقناهم ﴾ الخ ، ويُحمل الشرط على التحقق قال تعالى : ﴿ وإن الدين لَوَاقع ﴾ [الذاريات : 6] .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم ﴾ تهديداً لهم على إعراضهم

وجحودهم للبعث ، أي لو شئنا لأهلكناهم وخلقنا خلقاً آخر مثلهم كقوله تعالى : ﴿ إنْ يشأ يُذْهِبْكُم ويَأتِ بخَلْق جديد ﴾ [إبراهيم : 19] .

(100/795)

ويكون ﴿ إذا ﴾ مراداً به تحقق التلازم بين شرط ﴿ إذا ﴾ وجوابها ، أي الجملةِ المضافِ إليها ، والجملةِ المتعلَّق بها .

وفعل التبديل يقتضي مبدَّلاً ومبدَّلاً به وأيُّهما اعتبرتَه في موضع الآخر صح لأن كل مُبَدَّل بشيء هو أيضاً مُبدَّلٌ به ذلك الشيءُ ، ولا سيما إذا لم يكن في المقام غرض ببيان المرغوب في اقتِنَائه والمسموح ببذله من الشيئين المستبدَلين ، فحُذف من الكلام هنا متعلِّق ﴿ بدَّلنا ﴾ وهو المجرور بالباء لأنه أولى بالحذف ، وأُبقي المفعول .

وقد تقدم نظيره في سورة الواقعة (61) في قوله : ﴿ على أنْ نُبَدل أمثالكم ﴾ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنا لقادرون على أن نبدّلَ خيراً منهم ﴾ في سورة المعارج (40 ، 41) فالتقدير : بَدَّلْنا منهم .

والأمثال : جمع مِثْل وهو المماثل في ذاتٍ أو صفة ، فيجوز أن يراد أمثالهم في أشكال أجسادهم وهو التبديل الذي سيكون في المعاد .

ويجوز أن يراد أمثالهم في أنهم أُمم ، وعلى الوجه الأول فهو يدل على أن البعث يحصل بخلق أجسام على مِثال الأجساد التي كانت في الحياة الدنيا للأرواح التي كانت فيها .

وانتصب تبديلاً ﴾ على المفعول المطلق المؤكِّد لعامله للدلالة على أنه تبديل حقيقي ، وللتوصل بالتنوين إلى تعظيمه وعجوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(101/795)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البدل)

وهو الشىّ يكون مكان آخر .

وهو أَعمّ من العوَضِ ، فإِنَّ العوض هو أَن يصير لك الثانى بإِعطاءِ الأَوّل .

والتَّبديل ، والإِبدال ، والاستبدال : جعل الشَّىءِ مكان آخر .

وقد ورد فى القرآن على وجوه :

الأَوّل : بمعنى الهلاك ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ *

عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أَى نهلك .

الثانى : بمعنى نسْخ الشريعة والآية : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾ أَى نسخنا ، ﴿ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِي ﴾ .

الثالث : بمعنى التغيير : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ أَى يغيّرونه ، ﴿ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ ومنه قوله – تعالى ﴿ فَأُوْلَائِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ وقيل : هو أَن يعملوا أَعمالاً صالحة تُبطل ما قدّموه من الإِساءَة .

وقيل : هو أَن يعفو – تعالى – عن سيئاتهم ، ويحتسب بحسناتهم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ أَى تغيّر عن حالها .

وقوله : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أَى لا يغيّر ما سبق فى اللَّوح المحفوظ ؛ تنبيهاً على أَن ما علمه أَن سيكون يكون على ما قد علمه ، لا يتغيّر عن حاله .

وقيل : لا يقع فى قوله خُلْف .

وعلى الوجهين قوله : ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ ﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ وقيل : معناه : النهى عن الخِصاءِ .

الرّابع : بمعنى تجديد الحالة : ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ أَى جدّدنا .

الخامس : بمعنى اختيار الكفر ، والنكرة على الإِيمان ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ ﴾ .

السّادس : بمعنى إبليس فى طريق الظلم والضلالة : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ .

والأَبدال : قوم صالحون ، يجعلهم الله تعالى مكان آخرين مثلهم ماضين .

(102/795)

وحقيقته : قوم بدّلوا أَحوالهم الذميمة (بأَحوالهم الحميدة) .

قيل : وهم المشار إليهم بقوله : تعالى - ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ2 صـ216.217 ﴾

(103/795)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا دليلاً عظيماً على القدرة على البعث مخزياً لهم ، قال مؤكداً لإنكارهم عناداً : ﴿ إن هذه ﴾ أي الفعلة البدائية ، أو المواعظ التي ذكرناها في هذه السورة وفي جميع القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أي موضع ذكر عظيم للقدرة على البعث وتذكر عظيم لما فعلت في الإنشاء أولاً ، وموعظة عظيمة فإن في تصفحها تنبيهات عظيمة للغافلين ، وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر نفسه ، وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه ، فمن أقبل هذا الإقبال علم أنا آتيناه من الآلات والدلائل ما إن سلك معه مجتهداً وصل دون ضلال ولذلك سبب عن كونها تذكرة قوله من خطاب البسط : ﴿ فمن شاء ﴾ أي أن يجتهد في وصوله إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ اتخذ ﴾ أي أخذ بجهده من مجاهدة نفسه ومغالبة هواه ﴿ إلى ربه ﴾ أي المحسن إليه الذي ينبغي له أن يحبه بجميع قلبه ويجتهد في القرب منه ﴿ سبيلاً ﴾ أي طريقاً واسعاً واضحاً سهلاً بأفعال الطاعة التي أمر بها لأنا بينا الأمور غاية البيان وكشفنا اللبس وأزلنا جميع موانع أنفسهم عمن شئنا وركزنا ذلك في الطباع ، ولم يبق مانع من استطراق أصلاً غير مشيئتنا ، والفطرة الأولى أعدل شاهد بهذا .

(104/795)

ولما أثبت لهم المشيئة التي هي مناط التكليف ، وهي الكسب ، وكان ربما ظن ظان أو ادعى مدع في خلق الأفعال كما قال أهل الاعتزال ، قال نافياً عنهم الاستقلال ، لافتاً القول إلى خطابهم ، وهو مع كونه خطاب قبض استعطافاً بهم إلى التذكر في قراءة الجماعة وبالغيب على الأسلوب الماضي في قراءة ابن كثير وابن عامر : ﴿ وما تشاءون ﴾ أي في وقت من الأوقات مشيئة من المشيئات لهذا وغيره على سبيل الاختراع والاستقلال ﴿ إلا ﴾ وقت ﴿ أن يشاء الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ، ولا أمر لأحد معه ، فيوجد المعاني في أنفسكم على حسب ما يريد ويقدر على ما يشاء من آثارها ، وقد صح بهذا ما قال الأشعرية وسائر أهل السنة من أن للعبد مشيئة تسمى كسباً لا تؤثر إلا بمشيئة الله تعالى وتحريكها لقدرة العبد ، وانتفى مذهب القدرية الذين يقولون : إنا نحن نخلق أفعالنا ، ومذهب الجبرية القائلين : لا فعل لنا أصلا ، ومثَّل الملوي ذلك بمن يريد قطع بطيخة فحدد سكيناً وهيأها وأوجد فيها أسباب القطع وأزال عنها موانعه ثم وضعها على البطيخة فهي لا تقطع دون أن يتحامل عليها التحامل المعروف لذلك ، ولو وضع عليها ما لم يصلح للقطع كحطبة مثلاً لم تقطع ولو تحامل ، فالعبد كالسكين خلقه الله وهيأه بما أعطاه من القدرة للفعل ، فمن قال : أنا أخلق فعلي مستقلاً به ، فهو كمن قال : السكين تقطع بمجرد وضعها من غير تحامل ، ومن قال : الفاعل هو الله ، من غير نظر إلى العبد أصلاً كان كمن قال : هو يقطع البطيخة بتحامل يده أو قصبة ملساء من غير سكين ،

والذي يقول : إنه باشر بقدرته المهيأة للفعل بخلق الله لها وتحريكها في ذلك الفعل كان كمن قال : إن السكين قطعت بالتحامل عليها ، بهذا أجرى سبحانه عادته في الناس ، ولو شاء غير ذلك فعل ، ولا يخفى أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، ثم علل ذلك بإحاطته بمشيئتهم قائلاً : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ كان ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿ عليماً

(105/795)

حكيماً ﴾ أي بالغ العلم والحكمة ، فهو يمنع منعاً محكماً من أن يشاء غيره ما لم يأذن فيه ، فمن علم في جبلته خيراً أعانه عليه ، ومن علم منه الشر ساقه إليه وحمله عليه ، وهو معنى ﴿ يدخل من يشاء ﴾ أي من علمه أهلاً للسعادة ، ليس بظالم ﴿ في رحمته ﴾ بحكمته فييسر له اتخاذ السبيل الموصل إليه بأن يوفقه للعدل ، ويعد له ثواباً جسيماً .

ولما بشر أهل العدل بالفعل المضارع المؤذن بالاستمرار ، ولم يجعله ماضياً لئلا يتعنت متعنت ممن هو متلبس بالضلال فيقول : أنا لا أصلح لأنه ما أدخلني ، عطف عليه ما لأضدادهم في جملة فعلية بناها على الماضي إعلاماً بأن عذابهم موجود قد فرغ منه فقال : ﴿ والظالمين ﴾ أي وأهان العريقين في وصف المشي على غير سنن مرضى كالماشي في الظلام فهو يدخلهم في نقمته وقد ﴿ أعد لهم ﴾ أي إعداداً أمضاه بعظمته ، فلا يزاد فيه

ولا ينقص أبداً ﴿ عذاباً أليماً ﴾ فالآية من الاحتباك : ذكر الإدخال والرحمة أولاً دلالة على الضد ثانياً ، والعذاب ثانياً دلالة على الثواب أولاً ، وسر ذلك أن ما ذكره أولى بترغيب أهل العدل فيه وإن ساءت حالهم في الدنيا ، وبترهيب أهل الظلم منه وإن حسنت حالهم في الدنيا ، فقد رجع هذا الآخر المفصل إلى السعادة والشقاوة على أولها المؤذن بأن الإنسان معتنى به غاية الاعتناء ، وأنه ما خلق إلا للابتلاء ، فهو إما كافر مغضوب عليه ، وإما شاكر منظور بعين الرضى إليه – فسبحان من خلقنا ويميتنا ويحيينا بقدرته والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 278 . 280 ﴾

(106/795)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال السعداء وأحوال الأشقياء قال بعده : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ والمعنى أن هذه السورة بما فيها من الترتيب العجيب والنسق البعيد والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، تذكرة

للمتأملين وتبصرة للمستبصرين ، فمن شاء الخيرة لنفسه في الدنيا والآخرة اتخذ إلى ربه سبيلاً .

واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه ، واعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي تلاطمت فيها أمواج الجبر والقدر ، فالقدري يتمسك بقوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ ويقول : إنه صريح مذهبي ونظيره : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] والجبري يقول : متى ضمت هذه الآية إلى الآية التي بعدها خرج منه صريح مذهب الجبر ، وذلك لأن قوله : ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ يقتضي أن تكون مشيئة العبد متى كانت خالصة فإنها تكون مستلزمة للفعل ، وقوله بعد ذلك : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ يقتضي أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد ومستلزم المستلزم مستلزم ، فإذا مشيئة الله مستلزمة لفعل العبد ، وذلك هو الجبر ، وهكذا الاستدلال على الجبر بقوله : ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ لأن هذه الآية أيضاً تقتضي كون المشيئة مستلزمة للفعل ثم التقرير ما تقدم .

واعلم أن الاستدلال على هذا الوجه الذي لخصناه لا يتوجه عليه كلام القاضي إلا أنا نذكره وننبه على ما فيه من الضعف ، قال القاضي : المذكور في هذه الآية اتخاذ السبيل إلى الله ، ونحن نسلم أن الله قد شاءه لأنه تعالى قد أمر به ، فلا بد وأن يكون قد شاءه .

وهذا لا يقتضي أن يقال العبد : لا يشاء إلا ما قد شاءه الله على الإطلاق ، إذ المراد بذلك الأمر المخصوص الذي قد ثبت أنه تعالى قد أراده وشاءه .

واعلم أن هذا الكلام الذي ذكره القاضي لا تعلق له بالاستدلال على الوجه الذي ذكرناه ، وأيضاً فحاصل ما ذكره القاضي تخصيص هذا العام بالصورة التي مر ذكرها فيما قبل هذه الآية ، وذلك ضعيف ، لأن خصوص ما قبل الآية لا يقتضي تخصيص هذا العام به .

لاحتمال أن يكون الحكم في هذه الآية وارداً بحيث يعم تلك الصورة وسائر الصور ، بقي في الآية سؤال يتعلق بالإعراب ، وهو أن يقال : ما محل ﴿ أن يشاء الله ﴾ ؟ وجوابه النصب على الظرف ، وأصله إلا وقت مشيئة الله ، وكذلك قراءة ابن مسعود : "إلا ما شاء الله" لأن ما مع الفعل كأن معه ، وقرىء أيضاً يشاءون بالياء .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أي عليماً بأحوالهم وما يكون منهم حيث خلقهم مع علمه بهم .

ثم ختم السورة فقال :

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

اعلم أن خاتمة هذه السورة عجيبة ، وذلك لأن قوله : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الإنسان : 30] يدل على أن جميع ما يصدر عن العبد فبمشيئة الله ، وقوله : ﴿ يُدْخِلُ

مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابا أَلِيماً ﴾ يدل على أن دخول الجنة والنار ليس إلا بمشيئة الله ، فخرج من آخر هذه السورة إلا الله وما هو من الله ، وذلك هو التوحيد المطلق الذي هو آخر سير الصديقين ومنتهى معارجهم في أفلاك المعارف الإلهية ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(108/795)

قوله : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ إن فسرنا الرحمة الإيمان ، فالآية صريحة في أن الإيمان من الله ، وإن فسرناها بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق ، وذلك لأنه لو ثبت الاستحقاق لكان تركه يفضي إلى الجهل والحاجة المحالين على الله ، والمفضي إلى المحال محال فتركه محال فوجوده واجب عقلاً وعدمه ممتنع عقلاً ، وما كان كذلك لا يكون معلقاً على المشيئة ألبتة ، وأيضاً فلأن من كان مديوناً من إنسان فأدى ذلك الدين إلى مستحقه لا يقال : بأنه إنما دفع ذلك القدر إليه على سبيل الرحمة والتفضل .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يدل على أنه جف القلم بما هو كائن ، لأن معنى أعد أنه علم ذلك وقضى به ، وأخبر عنه وكتبه في اللوح المحفوظ ، ومعلوم أن التغيير على هذه الأشياء محال ، فكان الأمر على ما بيناه وقلناه .

المسألة الثالثة :

قال الزجاج : نصب الظالمين لأن قبله منصوباً ، والمعنى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين وقوله : ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ كالتفسير لذلك المضمر ، وقرأ عبد الله بن الزبير : والظالمون ، وهذا ليس باختيار لأنه معطوف على يدخل من يشاء وعطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية غير حسن ، وأما قوله في حم عسق : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ والظالمون ﴾ فإنما ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصبه في المعنى ، فلم يجز أن يعطف على المنصوب قبله ، فارتفع بالابتداء ، وههنا قوله : ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يدل على ذلك الناصب المضمر ، فظهر الفرق والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 230 . 231 ﴾

(109/795)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾

و﴿ مخلدون ﴾ قال جمهور الناس : معناه باقون من الخلود ، وجعلهم ولدانا لأنهم في هيئة الولدان في السن لا يتغيرون عن تلك الحال ، وقال أبو عبيدة وغيره ﴿ مخلدون ﴾ معناه مقرطون ، والخلدات حلي يعلق في الآذان ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

ومخلدات باللجين كأنما . . . أعجازهن أقاوب الكثبان .

وشهرة هذه اللغة في حمير ، وشبههم ب " اللؤلؤ المنثور " في بياضهم وانتشارهم في المساكين يجيئون ويذهبون وفي جمالهم ، ومنه سميت المرأة درة وجوهرة ، ثم كرر ذكر الرؤية مبالغة ، و﴿ ثم ﴾ ظرف والعامل فيه ﴿ رأيت ﴾ أو معناه ؟ وقال الفراء التقدير : ﴿ رأيت ﴾ ما ﴿ ثم ﴾ وحذفت ما ، وقرأ حميد الأعرج " ثُم " بضم الثاء ، و" النعيم " : ما هم فيه من حسن عيش ، و" الملك الكبير " قال سفيان : هو استئذان الملائكة وتسليمهم عليهم وتعظيمهم لهم ، فهم في ذلك كالملوك ، وقال أكثر المفسرين : " الملك الكبير " اتساع مواضعهم ، فروي عن عبد الله بن عمر أنه قال : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه ، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر من ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه .

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ

قرأ نافع وحمزة وأبان عن عاصم : " عاليهم " على الرفع بالابتداء وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة وابن محيصن وابن عباس بخلاف عنه ، وقرأ الباقون وعاصم " عاليَهم " بالنصب على الحال ، والعامل فيه ﴿ لقاهم ﴾ [الإنسان : 11] أو ﴿ جزاهم ﴾ [الإنسان : 12] ، وهي قراءة عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن ومجاهد والجحدري وأهل مكة ، وقرأ الأعمش وطلحة : " عاليتهم " ، وكذلك هي في مصحف عبد الله ، وقرأ أيضاً الأعمش " عاليَتهم " بالنصب على الحال ، وقد يجوز في النصب في القراءتين أن يكون على الظرف لأنه بمعنى فوقهم ، وقرأت عائشة رضي الله عنها " علتهم " بتاء فعل ماض ، وقرأ مجاهد وقتادة وابن سيرين وأبو حيوة " عليهم " و " السندس " : رقيق الديباج والمرتفع منه ، وقيل " السندس " : الحرير الأخضر ، و " الاستبرق " والدمقس هو الأبيض ، والأرجوان هو الأحمر ، وقرأ حمزة والكسائي " خضر واستبرقٍ " بالكسر فيهما وهي قراءة الأعمش وطلحة ، ورويت عن الحسن وابن عمر بخلاف عنه على أن " خضر " نعت للسندس ، وجائز جمع صفة الجنس إذا كان اسماً مفرداً كما قالوا : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم الأبيض ، وفي هذا قبح ، والعرب تفرد اسم الجنس وهو جمع أحياناً

فيقولون : حصى أبيض ، وفي القرآن ﴿ الشجر الأخضر ﴾ [يس : 80] و ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر : 20] فكيف بأن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع " واستبرق " في هذه القراءة عطف على ﴿ سندس ﴾ ، وقرأ نافع وحفص عن عاصم والحسن وعيسى " خضرٌ واستبرقٌ " بالرفع فيهما ، " خضرٌ " نعت ل ﴿ ثياب ﴾ و " استبرق " عطف على الثياب . وقرأ أبو عمرو وابن عامر " خضرٌ " بالفع صفة ل ﴿ ثياب ﴾ ، " واستبرق " خفضاً ، عطف على ﴿ سندس ﴾ ، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر " خضرٍ " خفضاً " وإستبرقٌ " رفعاً فخفش " خضرٍ " على ما تقدم أولاً ، " واستبرقٌ " على الثياب . والاستبراق غليظ الديباج ، وقرأ ابن محيصن : " واستبرقَ

(111/795)

" موصولة الألف مفتوحة القاف كأنه مثال الماضي من برق واستبرق وتجب واستعجب . قال أبو حاتم : لا يجوز ، والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً ، ويؤيد ذلك دخول اللام المعرفة عليه والصواب فيه الألف وإجراؤه على قراءة الجماعة ، وقرأ أبو حيوة " عليهم ثيابٌ " بالرفع " سندسٌ خضرٌ واستبرقٌ " رفعاً في الثلاثة ، وقوله تعالى : ﴿ وحلوا ﴾ أي جعل لهم حلي ، و ﴿ أساور ﴾ جمع أسورة وأسورة جمع سوار وهي من

حلي الذراع ، وقوله تعالى : ﴿ شراباً طهوراً ﴾ قال أبو قلابة والنخعي معناه لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك ، وهنا محذوف يقتضيه القول تقديره يقول الله لهم والملائكة عنه : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا ﴾ الآية تثبيت لمحمد عليه السلام وتقوية لنفسه على أفعال قريش وأقوالهم وحكم ربه وهو أن يبلغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأذى ليعذر الله إليهم ، وقوله تعالى : ﴿ آثماً أو كفوراً ﴾ هو تخيير في أن يعرف الذي ينبغي أن لا يطيعه بأي وصف كان من هذين لأن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور ، ولم تكن الأمة حينئذ من الكثرة بحيث يقع الإثم على العاصي .

قال القاضي أبو محمد : واللفظ أيضاً يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور من المشركين ، وقال أبو عبيدة : ﴿ أو ﴾ بمعنى الواو وليس في هذا تخيير ، ثم أمره تعالى بذكر ربه دأباً ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة ، ويحتمل أن يريد قول سبحان الله ، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس منهم ابن حبيب وغيره ، فالبكرة : صلاة الصبح ، والأصيل : الظهر والعصر ﴿ ومن الليل ﴾ : المغرب والعشاء ، وقال ابن زيد وغيره كان هذا فرضاً ونسخ فلا فرض إلى الخمس ، وقال قوم هو محكوم على وجه الندب .

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27)

الإشارة ب ﴿ هؤلاء ﴾ إلى كفار قريش ، و ﴿ العاجلة ﴾ الدنيا وحبهم لها ، لأنهم لا يعتقدون غيرها ، ﴿ ويذرون وراءهم ﴾ معناه فيما يأتي من الزمن بعد موتهم ، وقال لبيد : [الطويل]

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . . أدب مع الولدان إن خف كالنسر

ووصف اليوم بالثقل على جهة النسب ، أي : ذا ثقل من حيث الثقل فيه على الكفار ، فهو كليل نائم ، ثم عدد النعم على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشدِّ خلقتهم ، والأسر : الخلقة واتساع الأعضاء والمفاصل ، وقد قال أبو هريرة والحسن والربيع الأسر : المفاصل والأوصال ، وقال بعضهم الأسر : القوة : ومنه قل الشاعر : [الوافر]

فأنجاه غداة الموت مني . . . شديد الأسر عض على اللجام

وقول آخر [الأخطل] : [الكامل]

من كل محتدب شديد أسره . . . سلس القياد تخاله مختالا

قال الطبري ومنه قول العامة : خذه بأسره يريدون خذه كله .

قال القاضي أبو محمد : وأصل هذا في ما له شد ورباط كالعظم ونحوه ، وليس هذا مما

يختص بالعامة بل هو من فصيح كلام العرب . اللهم إلا أن يريد بالعامة جمهور العرب ومن اللفظة الإسار وهو القيد الذي يشد به الأسير ، ثم توعد تعالى بالتبديل واجتمع من القولين تعديد النعمة والوعيد بالتبدل احتجاجاً على منكري البعث ، أي من هذا الإيجاد والتبديل إذا شاء في قدرته ، فكيف تتعذر عليه الإعادة ، وقوله تعالى : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يحتمل أن يشير إلى هذه الآية أو إلى السورة بأسرها أو إلى الشريعة بجملتها وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ ﴾ ليس على جهة التخيير بل فيه قرينة التحذير ، والحض على اتخاذ السبيل ، و" السبيل " هنا : ليس النجاة ، وقوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ نفي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في نفوسهم ، ولا يرد هذا وجود ما لهم من الاكتساب والميل إلى الكفر .

(113/795)

وقرأ عبد الله " وما تشاؤون إلا ما شاء الله " وقرأ يحيى بن وثاب " تِشاؤون " بكسر التاء . وقوله تعالى : ﴿ عليماً حكيماً ﴾ معناه يعلم ما ينبغي أن ييسر عبده إليه ، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو ﴿ والظالمين ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره ويعذب الظالمين أعد لهم ، وفي قراءة ابن مسعود " وللظالمين أعد لهم " بتكرير اللام ، وقرأ جمهور السبعة "

وما تشاؤون " بالتاء على المخاطبة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " يشاؤون " بالياء ، وقأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وبان أبي عبلة " والظالمون " بالرفع ، قال أبو الفتح : وذلك على ارتجال جملة مستأنفة . (انتهى) .

نجز تفسير سورة ﴿ الإنسان ﴾ بحمد الله وعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(114/795)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذه ﴾

أي السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي طَرِيقاً موصلاً إلى طاعته وطلب مرضاته .

وقيل : "سَبِيلاً" أي وسيلة .

وقيل وجهة وطريقاً إلى الجنة .

والمعنى واحد .

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ أي الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾

فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، وأنه لا تنفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدّم ، إلا أن تتقدّم مشيئته .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "وَمَا يَشَاءُونَ" بالياء على معنى الخبر عنهم .

والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه .

وقيل : إن الآية الأولى منسوخة بالثانية .

والأشبه أنه ليس بنسخ ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته .

قال الفرّاء : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ جواب لقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال : "وَمَا تَشَاءُونَ" ذلك السبيل "إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" لكم .

﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً ﴾ بأعمالكم ﴿ حَكِيماً ﴾ في أمره ونهيه لكم .

وقد مضى في غير موضع .

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي يدخله الجنة راحماً له ﴿ والظالمين ﴾ أي ويعذّب الظالمين فنصبه بإضمار يعذّب .

قال الزجاج : نصب الظالمين لأن قبله منصوب ؛ أي يدخل من يشاء في رحمته ويعذّب الظالمين أي المشركين ويكون ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ تفسيراً لهذا المضمر ؛ كما قال الشاعر :

أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ . . .

أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

وَالذِّئْبَ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ . . .

وَحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالْمَطَرَا

أي أخشى الذئب أخشاه .

قال الزجاج : والاختيار النصب وإن جاز الرفع ؛ تقول : أعطيت زيداً وعمراً أعددت له بِراً ، فيختار النصب ؛ أي وبَرَرْت عمراً أو أبرّ عمراً .

(115/795)

وقوله في ﴿ حم* عسق ﴾ : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ والظالمون ﴾ [الشورى : 8] ارتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى ؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء .

وها هنا قوله : ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً ﴾ يدل على ويعذّب ، فجاز النصب .

وقرأ أبان بن عثمان "وَالظَّالِمُونَ" رفعاً بالابتداء والخبر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ .

﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي مؤلماً موجعاً .

وقد تقدم هذا في سورة "البقرة" وغيرها والحمد لله .

ختمت السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(116/795)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾

أي دائمونَ على ما هُم عليه من الطراوةِ والبهاءِ ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ لحُسنِهم وصفاءِ ألوانِهم وإشراقِ وجوهِهم وانبثاثِهم في مجالسهم ومنازِلهم وانعكاسِ أشعةِ بعضِهم إلى بعضٍ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ ليسَ له مفعولٌ ملفوظٌ ولا مقدرٌ ولا منويٌّ ، بل معناهُ أنَّ بصرَكَ أينمَا وقعَ في الجنةِ ﴿ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ أي هنيئاً واسعاً . وفي الحديثِ " أدنَى أهلِ الجنةِ منزلةً ينظُرُ في مُلكِه مسيرةَ ألفِ عامٍ يَرى أقصاهُ كما يَرى أدناهُ " وقيلَ : لا زوالَ له ، وقيلَ : إذَا أرادُوا شيئاً كانَ ، وقيلَ : يُسلمُ عليهم الملائكةُ ويستأذنونَ عليهم ﴿ عالِيهِمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ ﴾ قيلَ : عالِيَهُم ظرفٌ على أنَّه خبرٌ مقدمٌ وثيابُ مبتدأٌ مؤخرٌ ، والجملةُ صفةٌ أُخرى لولدانٌ كأنَّه قيلَ : يطوفُ عليهم ولدانٌ فوقَهُم ثيابُ الخ ، وقيلَ : حالٌ من ضميرِ عليهم أو حسِبتَهم ، أي يطوفُ عليهم ولدانٌ عالياً للمطوف عليهم ثيابٌ الخ ، أو

حسبتَهُم لؤلؤاً منثوراً عالياً لهم ثيابُ الخ . وقُرِىءَ عاليهم بالرفعِ على أنَّه مبتدأٌ خبرُهُ ثيابُ أي ما يعلُوه من لباسِهم ثيابُ سندسٍ . وقُرِىءَ خضرٍ بالجرّ حملاً على سندسٍ بالمَعْنى لكونِه اسمَ جنسٍ ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ بالرفعِ عطفاً على ثيابُ .

وقُرِىءَ برفعِ الأولِ وجرِّ الثانِي ، وقُرِىءَ بالعكسِ ، وقُرِىءَ بجرِّهِما ، وقُرِىءَ واستبرقَ بوصلِ الهمزةِ والفتحِ على أنه استفعلَ من البريقِ جُعل عَلَماً لهذا النوعِ من الثيابِ .

(117/795)

﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ عطفٌ على يطوفُ عليهم ولا ينافيهِ قولُه تعالى : ﴿ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ لإمكانِ الجمعِ والمعاقبةِ والتبعيضِ ، فإنَّ حُلِيَّ أهلِ الجنةِ يختلفُ حسبَ اختلافِ أعمالِهم فلعلَّه تعالَى يفيضُ عليهم جزاءً لما عملُوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوتُ تفاوتَ الذهبِ والفضةِ أو حالٌ من ضميرِ عاليَهم بإضمارِ قَدْ ، وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ هذا للخدمِ وذاكَ للمخدومينَ .

﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ هو نوعٌ آخرُ يفوقُ النوعينِ السالفينِ كما يرشدُ إليهِ إسنادُ سقيهِ إلى ربِّ العالمينَ ووصفُه بالطَّهوريةِ فإنَّه يطهرُ شاربَهُ عن دَنَسِ الميلِ إلى الملاذِّ

الحسيةِ والركونِ إلى ما سِوى الحقّ فيتجردُ لمطالعةِ جمالِه ملتذاً بلقائِه باقياً ببقائِه ، وهي الغايةُ القاصيةُ من منازلِ الصدّيقينَ ولذلكَ خُتمَ بها مقالةُ ثوابِ الأبرارِ .

(118/795)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ على إضمارِ القولِ أي يقالُ لهم إنَّ هَذا الذي ذُكرَ من فنون الكراماتِ ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾ بمقابلة أعمالِكم الحسنةِ ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ مرضياً مقبُولاً مُقابَلاً بالثوابِ . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾ أيْ مُفرقاً مُنجَّماً لِحكَمٍ بالغةٍ مقتضةٍ له لا غيرُنَا كما يعربُ عنه تكريرُ الضميرِ معَ إنَّ ﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بتأخير نصرك على الكفَّارِ فإنَّ له عاقبةً حميدةً . ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أي كلَّ واحدٍ من مرتكبِ الإثمِ الدَّاعِي لكَ إليهِ ومن الغالِي في الكُفر الدَّاعِي إليهِ ، وأو للدلالة على أنَّهما سيَّانِ في استحقاق العصيانِ والاستقلالِ به ، والتقسيمُ باعتبار ما يدعُونَهُ إليه فإنَّ ترتبَ النَّهي على الوصفين مشعرٌ بعلِّيتِهما له فلا بُدَّ أنْ يكونَ النهيُ عن الإطاعةِ في الإثمِ والكفرِ فيما ليسَ بإثمٍ ولا كُفرٍ ، وقيلَ الآثمُ عُتبةُ فإنَّه كانَ ركَّاباً للمآثمِ متعاطياً لأنواعِ الفسوقِ والكفورِ ، والوليدُ فإنَّه كان غالباً في الكُفر شديدَ الشكيمةِ في العُتوّ ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ وداومْ على ذكره في جميعِ الأوقاتِ أو دُمْ على صلاة الفجرِ والظهرِ

والعصرِ فإنَّ الأصيلَ ينتظمُهما .

﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ﴾ وبعضَ الليلَ فصلِّ له ولعلَّه صلاةُ المغربِ والعشاءِ ، وتقديمُ الظرفِ لما في صلاةِ الليلِ من مزيد كلفةٍ وخلوصٍ ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ وتهجدْ له قِطَعاً من الليلِ طويلاً .

(119/795)

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ الكفرةَ ﴿ يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ وينهمكونَ في لذاتِها الفانيةِ ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ ﴾ أي أمامَهم لا يستعدونَ أو ينبذون وراءَ ظُهورهم ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ لا يعبأونَ به ووصفُه بالثقل لتشبيه شدتِه وهولِه بثقل شيءٍ فادحٍ باهظٍ لحامله بطريقِ الاستعارةِ وهو كالتعليل لما أُمرَ به ونهيٌ عنه . ﴿ نَّحْنُ خلقناهم ﴾ لا غيرُنا ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أي أحكمنَا ربطَ مفاصِلهم بالأعصابِ . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم ﴾ بعدَ إهلاكِهم ﴿ تَبْدِيلاً ﴾ بديعاً لا يبَ فيهِ هو البعثُ كما ينبىءُ عنه كلمةُ إذَا أو بدّلنا غيرَهُم ممن يطيعُ . كقولِه تعالى : ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ وإذَا للدلالةِ على تحققِ القُدرةِ وقوةِ الداعيةِ . ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ إشارةٌ إلى السورةِ أو الآياتِ القريبةِ ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي فَمنْ شاءَ أنْ يتخذَ إليهِ تعالى سبيلاً أي وسيلةً توصلُه إلى ثوابِه اتخذَهُ أي تقربَ إليهِ

بالعمل بمَا في تضاعيفِها . وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ تحقيقٌ للحقّ ببيان أنَّ مجردَ مشيئتِهم غيرُ كافيةٍ في اتخاذ السبيلِ كما هُو المفهومُ من ظاهر الشرطيةِ أي وما تشاءونَ اتخاذَ السبيلِ ولا تقدرونَ على تحصيله في وقتٍ من الأوقات إلا وقتَ مشيئتِه تعالى تحصيلَه لكُم ، إذ لا دخلَ لمشيئة العبدِ إلا في الكسب وإنَّما التأثيرُ والخلقُ لمشيئة الله عزَّ وجلَّ . وقُرِئَ يشاءونَ بالياءِ وقُرِئَ إلاَّ ما يشاءُ الله . وقولُه تعالَى : ﴿ إنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ بيانٌ لكون مشيئتِه تعالى مبنيةً على أساس العلمِ والحكمةِ والمَعْنى أنَّه تعالَى مبالغٌ في العلم والحكمةِ فيعلمُ ما يستأهلُه كلُّ أحدٍ فلا يشاءُ لهم إلا ما يستدعيهِ علمُه وتقتضيهِ حكمتُه . وقولُه تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ بيانٌ لأحكام

(120/795)

مشيئتِه المترتبةِ على علمه وحكمتِه أي يدخلُ في رحمتِه مَن يشاءُ أنْ يدخلَهُ فيها وهُو الذي يصرِفُ مشيئتَهُ نحوَ اتخاذِ السبيلِ إليهِ تعالى حيثُ يوفقُه لَما يَؤدّي إلى دخول الجنةِ من الإيمانِ والطاعةِ ﴿ والظالمين ﴾ وهم الذينَ صَرفوا مشيئتَهم إلى خلافِ ما ذُكِرَ ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ أي متناهياً في الإيلامِ . قالَ الزجاجُ نصبَ الظالمينَ لأنَّ ما قبلَهُ منصوبٌ أي

يُدخلُ من يشاءُ في رحمته ويعذبُ الظالمينَ ، ويكونُ أعدَّ لَهُم تفسيراً لهَذا المضمرِ ، وقُرِىءَ بالرفعِ على الابتداءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(121/795)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾

إشارة إلى السورة أو الآيات القرآنية ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي فمن شاء أن يتخذ إليه تعالى سبيلاً أي وسيلة توصله إلى ثوابه اتخذه أي تقرب إليه بالطاعة فهو توصل أيضاً السبيل للمقاصد .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30)

(122/795)

﴿ وَمَا ﴾ أي شيئاً أو اتخاذ السبيل ﴿ تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ أي إلا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئتكم وقال الزمخشري أي وما تشاؤن الطاعة إلا أن يشاء الله تعالى قسركم

عليها وهو تحريف للآية بلا دليل ويلزمه على ما في الانتصاف أن مشيئة العبد لا يوجد إلا إذا انتفت وهو عن مذهب الاعتزال بمعزل وأبعد منزل والظاهر ما قررنا لأن المفعول المحذوف هو المذكور أولاً كما تقول لو شئت لقتلت زيداً أي لو شئت القتل لا لو شئت زيداً ولا يمكن للمعتزلة أن ينازعوا أهل الحق في ذلك لأن المشيئة ليست من الأفعال الاختيارية وإلا لتسلسلت بل الفعل المقرون بها منها فدعوى استقلال العبد مكابرة وكذلك دعوى الجبر المطلق مهاترة والأمر بين الأمرين لإثبات المشيئتين وحاصله على ما حققه الكوراني أن العبد مختار في أفعاله وغير مختار في اختياره والثواب والعقاب لحسن الاستعداد النفس الأمري وسوئه فكل يعمل على شاكلته وسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وفي "التفسير الكبير" هذه الآية من الآيات التي تلاطمت فيها أمواج القدر والجبر فالقدري يتمسك بالجملة الأولى ويقول إن مفادها كون مشيئة العبد مستلزمة للفعل وهو مذهبي والجبري يتمسك بضم الجملة الثانية ويقول إن مفادها أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد فيتحصل من الجملتين أن مشيئة الله تعالى مستلزمة لمشيئة العبد وإن مشيئة العبد مستلزمة لفعل العبد كما تؤذن به الشرطية فإذن مشيئة الله تعالى مستلزمة لفعل العبد لأن مستلزم المستلزم مستلزم وذلك هو الجبر وهو صريح مذهبي وتعقب بأن هذا ليس بالجبر المحض المسلوب معه الاختيار بالكلية بل يرجع أيضاً إلى أمر بين أمرين وقدر بعض الأجلة مفعول يشاء الاتخاذ والتحصيل رداً للكلام على الصدر فقال إن قوله سبحانه وما تشاؤن

الخ تحقيق للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية أي وما تشاؤن اتخاذ السبيل ولا تقدرون

(123/795)

على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى اتخاذه وتحصيله لكم إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وفيه نوع مخالفة للظاهر كما لا يخفى نعم قيل أن ظاهر الشرطية أن مشيئة العبد مطلقاً مستلزمة للفعل فيلزم أنه متى شاء فعلاً فعله مع أن الواقع خلافه فلا بد مما قاله هذا البعض وجعل الجملة الثانية تحقيقاً للحق وأجيب بأنها للتحقيق على وجه آخر وذلك أن الأولى أفهمت الاستلزام والثانية بينت أن هذه المشيئة المستلزمة لا تتحقق إلا وقت مشيئة الله تعالى إياها فكأنه قيل وما تشاؤن مشيئة تستلزم الفعل إلا وقت أن يشاء الله تعالى مشيئتكم تلك فتأمل وأنت تعلم أن هذه المسألة من محار الأفهام ومزال أقدام أقوام بعد أقوام وأقوى شبه الجبرية أنه قد تقرر أن الشيء ما لم يجب لم يوجد فإن وجب صدور الفعل فلا اختيار وإلا فلا صدور وبعبارة أخرى أن جميع ما يتوقف عليه الفعل إذا تحقق فأما أن يلزم الفعل فيلزم الاضطرار أولاً فيلزم جواز تخلف المعلول عن علته التامة بل مع الصدور الترجح بلا مرجح فقد قيل إنها نحو

شبهة ابن كمونة في التوحيد يصعب التفصي عنها وللفقير العاجز جبر الله تعالى فقره ويسر أمره عزم على تأليف رسالة إن شاء الله تعالى في ذلك سالكاً فيها بتوفيقه سبحانه أحسن المسالك وإن كان الكوراني قدس سره لم يدع فيها مقالاً وأوشك أن يدع كل من جاء بعد فيها بشيء عليه عيالاً والله تعالى الموفق وقرأ العربيان وابن كثير وما يشاؤن بياء الغيبة وقرأ ابن مسعود إلا ما يشاء الله وما فيه مصدرية كأن في قراءة الجماعة وقد أشرنا إلى إن المصدر في محل نصب على الظرفية بتقدير المضاف الساد هو مسده وهو ما اختاره غير واحد وتعقبه أبو حيان بأنهم نصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر المصرح فلا يجوز أجيئك أن يصيح الديك أو ما يصيح الديك وإنما يجوز أجيئك صياح الديك وكأنه لهذا قيل إن أن يشاء بتقدير حرف

(124/795)

الجر والاستثناء من أعم الأسباب أي وما تشاؤن بسبب من الأسباب إلا بأن يشاء الله تعالى .

﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً ﴾ مبالغاً في العلم فيعلم مشيئات العباد المتعلقة بالأفعال التي سألوها بألسنة استعداداتهم ﴿ حَكِيماً ﴾ مبالغاً في الحكمة فيفيض على كل ما هو الأوفق

باستعداده وما هو عليه في نفس الأمر من المشيئة أو أنه تعالى مبالغ في العلم والحكمة فيعلم ما يستأهله كل أحد من الطاعة وخلافها فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه سبحانه وتقتضيه حكمته عز وجل وقيل عليماً أي يعلم ما يتعلق به مشيئة العباد من الأعمال حكيماً لا يشاء إلا على وفق حكمته وهو أن يشاء العبد فيشاء الرب سبحانه وتعالى لا العكس ليتأتى التكليف من غير انفراد لأحد المشيئتين عن الأخرى وفيه بحث وقوله تعالى :

(125/795)

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِى رَحْمَتِهِ ﴾ الخ بيان لما تضمنته الجملة قيل أي يدخل سبحانه في رحمته من يشاء أن يدخله فيها وهو الذي علم فيه الخير حيث يوفقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الايمان والطاعة ﴿ والظالمين ﴾ أي لأنفسهم وهم الذي علم فيهم الشر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ متناهياً في الإيلام ونصب الظالمين بإضمار فعل يفسره أعد الخ وقدر يعذب وقد يقدر أوعد أو كافأ أو شبه ذلك ولم يقدر أعد لأنه لا يتعدى باللام وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة والظالمون على الابتداء وقراءة الجمهور أحسن وإن أوجبت تقديراً للطباق فيها وذهابه في هذه إذ الجملة عليها اسمية والأولى فعلية ولا يقال

زيادة التأكيد في طرف الوعيد مطلوبة لأنا نقول الأمر بالعكس لو حقق لسبق الرحمة الغضب وقرأ عبد الله وللظالمين بلام الجر فقيل متعلق بما بعد على سبيل التوكيد وقيل هو بتقدير أعد للظالمين أعد لهم والجمهور على الأول ثم إن هذه السورة وأن تضمنت من سعة رحمة الله عز وجل ما تضمنت إلا أنها أشارت من عظيم جلاله سبحانه وتعالى إلى ما أشارت أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والضياء في المختارة والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي ذر قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هل أتى الإنسان ﴾ [الإنسان : 1] حتى ختمها ثم قال إني أرى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل وهذا كالظاهر فيما قلنا نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الأبرار والمقربين الأخيار فيرزقنا جنة وحريراً ويجعل سعينا لديه مشكوراً بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته المطهرين من الرجس تطهيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(126/795)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾

أي : فرّقناه في الإنزال ، ولم ننزله جملة واحدة .

وقيل المعنى : نزلناه عليك ، ولم تأت به من عندك ، كما يدّعيه المشركون .

﴿ فاصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي : لقضائه ، ومن حكمه ، وقضائه تأخير نصرك إلى أجل اقتضته حكمته .

قيل : وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أي : لا تطع كل واحد من مرتكب لإثم وغال في كفر ، فنهاه الله سبحانه عن ذلك .

قال الزجاج : إن الألف هنا آكد من الواو وحدها ؛ لأنك إذا قلت : لا تطع زيداً ، وعمراً ، فأطاع أحدهما كان غير عاص ؛ لأنه أمره أن لا يطيع الاثنين ، فإذا قال : لا تطع منهم آثماً أو كفوراً دلّ ذلك على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى ، كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، فقد قلت إنهما أهل أن يتبعا ، وكل واحد منهما أهل أن يتبع .

وقال الفرّاء : "أو" هنا بمنزلة لا ، كأنه قال : ولا كفوراً .

وقيل المراد بقوله : ﴿ ءاثِماً ﴾ عتبة بن ربيعة ، وبقوله : ﴿ أَوْ كَفُوراً ﴾ الوليد بن المغيرة ؛ لأنهما قالا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ارجع عن هذا الأمر ، ونحن نرضيك بالمال والتزويج .

﴿ واذكر اسم ربّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أي : دم على ذكره في جميع الأوقات .

وقيل المعنى : صلّ لربك أوّل النهار وآخره ، فأوّل النهار صلاة الصبح ، وآخره صلاة العصر .

﴿ وَمِنَ اليل فاسجد لَهُ ﴾ أي : صلّ المغرب والعشاء .

وقيل : المراد الصلاة في بعضه من غير تعيين ، ومن للتبعيض على كل تقدير ﴿ وَسَبّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ أي : نزّهه عما لا يليق به ، فيكون المراد : الذكر بالتسبيح سواء كان في الصلاة ، أو في غيرها .

وقيل : المراد التطوّع في الليل .

قال ابن زيد ، وغيره : إن هذه الآية منسوخة بالصلوات الخمس .

وقيل : الأمر للندب .

وقيل : هو مخصوص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

(127/795)

﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ يعني : كفار مكة ومن هو موافق لهم .

والمعنى : أنهم يحبون الدار العاجلة ، وهي دار الدنيا ، ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾

أي : يتركون ، ويدعون وراءهم ، أي : خلفهم ، أو بين أيديهم وأمامهم يوماً شديداً عسيراً ، وهو يوم القيامة ، وسمي ثقيلاً لما فيه من الشدائد والأهوال .

ومعنى كونه يذرونه وراءهم : أنهم لا يستعدّون له ، ولا يعبئون به ، فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به ، واستخفافاً بشأنه ، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم .

﴿ نَّحْنُ خلقناهم ﴾ أي : ابتدأنا خلقهم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن كمل خلقهم ، ولم يكن لغيرنا في ذلك عمل ولا سعي لا اشتراكاً ولا استقلالاً

﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ الأسر : شدّة الخلق ، يقال شدّ الله أسر فلان ، أي : قوّى خلقه .

قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، وغيرهم : شددنا خلقهم .

قال الحسن : شددنا أوصالهم بعضاً إلى بعض بالعروق ، والعصب .

قال أبو عبيد : يقال فرس شديد الأسر ، أي : الخلق .

قال لبيد :

ساهم الوجه شديد أسره . . . مشرف الحارك محبوك القتد

وقال الأخطل :

من كل مجتنب شديد أسره . . . سلس القياد تخاله مختالا

وقال ابن زيد : الأسر القوّة ، واشتقاقه من الإسار ، وهو القدّ الذي تشدّ به الأقتاب ، ومنه قول ابن أحمر يصف فرساً :

يمشي بأوطفة شداد أسرها . . . شمّ السبائك لا تفي بالجدجد

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم تَبْدِيلاً ﴾ أي : لو شئنا لأهلكناهم ، وجئنا بأطوع لله منهم .

وقيل المعنى : مسخناهم إلى أسمج صورة ، وأقبح خلقة .

﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : إن هذه السورة تذكير وموعظة ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي : طريقاً يتوسل به إليه ، وذلك بالإيمان ، والطاعة .

والمراد إلى ثوابه ، أو إلى جنته .

(128/795)

﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ أي : وما تشاءون أن تتخذوا إلى الله سبيلاً إلاّ أن يشاء الله ، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم .

والخير والشرّ بيده ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، فمشيئة العبد مجرّدة لا تأتي بخير ولا تدفع شرّاً ، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ، ويؤجر على قصد الخير ، كما في حديث : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى " قال الزجاج أي : لستم تشاءون إلاّ بمشيئة الله ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ في أمره ونهيه ، أي : بليغ العلم والحكمة .

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي : يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، أو يدخل في جنته من يشاء من عباده ، قال عطاء : من صدقت نيته أدخله جنته ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ انتصاب الظالمين بفعل مقدّر يدل عليه ما قبله ، أي : يعذب الظالمين ، نصب الظالمين ؛ لأن ما قبله منصوب ، أي : يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين ، أي : المشركين ، ويكون أعدّ لهم تفسيراً لهذا المضمر ، والاختيار النصب ، وإن جاز الرفع ، وبالنصب قرأ الجمهور ، وقرأ أبان بن عثمان بالرفع على الابتداء ، ووجهه أنه لم يكن بعده فعل يقع عليه .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال : خلقهم .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال : هي المفاصل . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 353.354 ﴾

(129/795)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾

استئناف ابتدائي للانتقال من بسط التذكير والاستدلال إلى فذلكة الغرض وحوصلته ،

إشعاراً بانتهاء المقصود وتنبيهاً إلى فائدته ، ووجه الانتفاع به ، والحث على التدبر فيه ، واستثمار ثمرته ، وباعتبار ما تفرع عن هذه الجملة من قوله : ﴿ فمن شاء اتخذ ﴾ الخ يقوَى موقع الفذلكة للجملة وتأكيد الكلام بحرف ﴿ إن ﴾ لأن حال المخاطبين عدم اهتمامهم بها فهم ينكرون أنها تذكرة .

والإِشارة إلى الآيات المتقدمة أو إلى السورة ولذلك أُتي باسم الإِشارة المؤنث .

والتذكرة : مصدر ذَكَّره (مثل التزكية) ، أي أكلمه كلاماً يذكره به ما عسى أن يكون نسيه أطلقت هنا على الموعظة بالإِقلاع عن عمل سيِّىء والإِقبال على عمل صالح وعلى وضوح الخير والشر لمن تذكر ، أي تبصر بتشبيه حالة المعرض عن الخير المشغول عنه بحالة الناسي له لأن شأنه ألا يُفرِّط فيه إلاّ من كان ناسياً لما فيه من نفع له .

وفرع عليه الحث على سلوك سبيل مرضاة الله بقوله : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ ، أي ليس بعد هذه التذكرة إلاّ العمل بها إذا شاء المتذكر أن يعمل بها .

ففي قوله : ﴿ مَن شاء ﴾ حثّ على المبادرة بذلك لأن مشيئة المرء في مكنته فلا يمنعه منها إلاّ سوء تدبيره .

وهذا حثّ وتحريض فيه تعريض بالمشركين بأنهم أَبوا أن يتذكروا عناداً وحسداً .

واتخاذ السبيل : سلوكه ، عُبّر عن السلوك بالاتخاذ على وجه الاستعارة بتشبيه ففي قوله : ﴿ اتَّخَذَ إلى ربه سبيلاً ﴾ استعارتان لأن السبيل مستعار لسبب الفوز بالنعيم والزُّلفى .

ويتعلق قوله : ﴿ إلى ربه ﴾ بـ ﴿ سبيلاً ﴾ ، أي سبيلاً مُبلغة إلى الله ، ولا يختلف العقلاء في شرف ما يوصل إلى الرب ، أي إلى إكرامه لأن ذلك قَرارة الخيرات ولذلك عبر برب مضافاً إلى ضمير ﴿ من شاء ﴾ إذ سعادة العبد في الحظوة عند ربه .

(130/795)

وهذه السبيل هي التوبة فالتائب مِثل الذي كان ضالاً ، أو آبقاً فاهتدى إلى الطريق التي يرجع منها إلى مقصده ، أو سلك الطريق إلى مولاه .

وقد تقدم نظير هذه الآية في سورة المزمل .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30)

لما ناط اختيارهم سبيلَ مرضاة الله بمشيئتهم أعقبه بالتنبيه إلى الإقبال على طلب مرضاة الله للتوسل برضاه إلى تيسير سلوك سبل الخير لهم لأنهم إذا كانوا منه بمحل الرضى والعناية لطف بهم ويسَّر لهم ما يعسُر على النفوس من المصابرة على ترك الشهوات المُهلكة ، قال تعالى : ﴿ فسَنُيَسِّره لليسرى ﴾ [الليل : 7] فإذا لم يسعوا إلى مرضاة ربهم وكَلَهم إلى أحوالهم التي تعوّدوها فاقتحمت بهم مهامه العماية إذ هم محفوفون بأسباب الضلال بما استقرت عليه جِبلاّتهم من إيثار الشهوات والاندفاع مع عصائب الضلالات ، وهو الذي

أفاده قوله تعالى : ﴿ فسنيسّره للعُسْرى ﴾ [الليل : 10] ، أي نتركه وشأنَه فتتيسر عليه العسرى ، أي تلحق به بلا تكلف ومجاهدة .

فجملة ﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ﴾ يجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ [الإنسان : 29] أو حالاً من ﴿ مَن يشاء ﴾ [الإنسان : 31] وهي على كلا الوجهين تتميم واحتراس .

وحذف مفعول ﴿ تشاءون ﴾ لإِفادة العموم ، والتقدير : وما تشاءون شيئاً أو مشيئاً وعموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة ، أي ما تشاءون شيئاً في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال .

وقد عُلل ارتباط حصول مشيئتهم بمشيئة الله ، بأن الله عليم حكيم ، أي عليم بوسائل إيجاد مشيئتهم الخير ، حكيم بدقائق ذلك مما لا تبلغ إلى معرفة دقائقه بالكُنْهِ عقول الناس ، لأن هنالك تصرفات عُلوية لا يبلغ الناس مبلغ الاطلاع على تفصيلها ولكن حَسبهم الاهتداء بآثارها وتزكية أنفسهم للصد عن الإِعراض عن التدبر فيها .

(131/795)

و ﴿ مَا ﴾ نافية ، والاستثناء من عموم الأشياء المشيئة وأحوالها وأزمانها ، ولما كان ما بعد أدَاة الاستثناء حرف مصدر تعين أن المستثنى يقدر مصدراً ، أي إلاَّ شَيْءَ الله (بمعنى مشيئته) ، وهو صالح لاعتبار المعنى المصدري ولاعتبار الحالة ، ولاعتبار الزمان ، لأن المصدر صالح لإِرادة الثلاثة باختلاف التأويل فإن قدر مضاف كان المعنى : إلاّ حالَ مشيئة الله ، أو إلاّ زمن مشيئته ، وإن لم يقدر مضاف كان المعنى : لا مشيئة لكم في الحقيقة إلاّ تبعاً لمشيئة الله .

وإيثار اجتلاب ﴿ أن ﴾ المصدرية من إعجاز القرآن .

ويجوز أن يكون فعلا ﴿ تشاءون ﴾ و ﴿ يشاء الله ﴾ منزلين منزلة اللازم فلا يقدر لهما مفعولان على طريقة قول البحْتري:

أنْ يَرَى مُبْصِر ويَسْمَع وَاعٍ . . .

ويكون الاستثناء من أحوال ، أي وما تحصل مشيئتكم في حال من الأحوال إلاّ في حال حصول مشيئة الله .

وفي هذا كله إشارة إلى دقة كنه مشيئة العبد تجاه مشيئة الله وهو المعنى الذي جمعَ الأشعريُّ التعبيرَ عنه بالكسب ، فقيل فيه "أدق من كسب الأشعري" .

ففي الآية تنبيه الناس إلى هذا المعنى الخفي ليرقبوه في أنفسهم فيجدوا آثاره الدالة عليه قائمة متوافرة ، ولهذا أطنب وصف هذه المشيئة بالتذييل بقوله : ﴿ إن الله كان عليماً

حكيماً ﴾ فهو تذييل أو تعليل لجملة

﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ [الإنسان : 31] ، أي لأنه واجب له العلم والحكمة فهو أعلم فمن شاء أن يدخله في رحمته ومن شاء أبعده عنها .

وهذا إطناب لم يقع مثله في قوله تعالى في سورة عبس (11 ، 12) : ﴿ كلاّ إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ لأن حصول التذكر من التذكرة أقرب وأمكن ، من العمل بها المعبِر عنه بالسبيل الموصلة إلى الله تعالى فلذلك صُرفت العناية والاهتمامُ إلى ما يُلَوِّح بوسيلة اتخاذ تلك السبيل .

وفعل كان ﴾ يدل على أن وصفه تعالى بالعلم والحكمة وصف ذاتي لأنهما واجبان له .

(132/795)

وقد حصل من صدر هذه الآية ونهايتها ثبوت مشيئتين : إحداهما مشيئة العباد ، والأخرى مشيئة الله ، وقد جمعتهما هذه الآية فكانت أصلاً للجمع بين متعارض الآيات القرآنية المقتضي بعضُها بانفرادِه نَوْطَ التكاليف بمشيئة العباد وثوابَهم وعقابهم على الأفعال التي شاءوها لأنفسهم ، والمقتضي بعضُها الآخر مشيئةً لله في أفعال عباده .

فأما مشيئة العباد فهي إذا حصلت تحصل مباشرةً بانفعال النفوس لفاعليَّة الترغيب

والترهيب ، وأما مشيئة الله انفعالَ النفوس فالمراد بها آثار المشيئة الإلهية التي إن حصلتْ فحصلت مشيئة العبد عَلِمْنا أن الله شاء لعبده ذلك وتلك الآثار هي مجموع أمور تتظاهر وتتجمع فتحصل منها مشيئة العبد .

(133/795)

وتلك الآثار هي ما في نظام العالم والبشرِ من آثار قدرة الله تعالى وخلقه من تأثير الزمان والمكان وتكوين الخلقة وتركيب الجسم والعقل ، ومدى قابلية التفهم والفهم وتسلط المجتمع والبيئة والدعاية والتلقين على جميع ذلك ، مِما في ذلك كله من إصابة أو خطأ ، فإذا استتبت أسباب قبول الهدى من مجموع تلك الآثار وتَلاءَم بعضُها مع بعض أو رجَح خَيْرها على شرها عَرَفْنا مشيئة الله لأن تلك آثار مشيئته من مجموع نظام العالم ولأنه تعالى عالم بأنها تستتب لفلان ، فعلمُه بتوفرها مع كونها آثار نظامه في الخلق وهو معنى مشيئته ، وإذا تعاكست وتنافر بعضُها مع بعض ولم يرجح خيرها على شرها بل رجح شرها على خيرها بالنسبة للفرد من الناس تعطل وصول الخير إلى نفسه فلم يشأه ، عرفنا أن الله لم يشأ له قبول الخير وعرفنا أن الله عالم بما حفّ بذلك الفرد ، فذلك معنى أن الله لم يشأ له الخير ، أو بعبارة أخرى أنه شاء له أن يَشاء الشر ، ولا مخلص للعبد من هذه الرِبقة إلاّ إذا توجهت إليه عنايةُ

من الله ولطف فكَوَّن كائنات إذا دخلت تلك الكائناتُ فيما هو حاف بالعبد من الأسباب والأحوال غَيَّرَتْ أحوالَها وقلَبت آثارهما رأساً على عَقب ، فصار العبد إلى صلاح بعد أن كان مغموراً بالفساد فتتهيأ للعبد حالة جديدة مخالفة لما كان حافاً به ، مثل ما حصل لعمر بن الخطاب من قبول عظيم الهُدى وتوغله فيه في حين كان متلبساً بسابغ الضلالة والعناد .

(134/795)

فمثل هذا يكون تكرمة من الله للعبد وعناية به ، وإنما تحصل هذه العناية بإرادة من الله خاصة : إما لأن حكمته اقتضت ذلك للخروج بالناس من شر إلى خير كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهمّ أعز الإِسلام بأحدِ العُمرين " وإما بإجابة دعوة داع استجيب له فقد أسلم عُمر بن الخطاب عقب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة ودخل في الإِسلام عقب قول النبي صلى الله عليه وسلم له : " أما آن لك يا ابن الخطاب أن تُسلم " ألا ترى أن الهداية العظمى التي أوتيها محمّد صلى الله عليه وسلم كانت أثراً من دعوة إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ ربنا وابْعَثْ فيهم رسولاً منهم ﴾ [البقرة : 129] الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم " أنا دَعْوَةُ إِبراهيم "

فهذا ما أمكن من بيان هاتين المشيئتين بحسب المستطاع ولعل في ذلك ما يفسر قول الشيخ

أبي الحسن الأشعري في معنى الكسب والاستطاعة "إنها سلامة الأسباب والآلات" .

وبهذا بطل مذهب الجبرية لأن الآية أثبتت مشيئة للناس وجعلت مشيئة الله شرطاً فيها لأن الاستثناء في قوة الشرط ، فللإنسان مشيئته لا محالة .

وأما مذهب المعتزلة فغير بعيد من قول الأشعري إلاّ في العبارة بالخَلْق أو بالكسب ، وعبارة الأشعري أرشَق وأعلق بالأدب مع الله الخالِق ، وإلاّ في تحقيق معنى مشيئة الله ، والفرق بينها وبين الأمر أو عدم الفرق وتفصيله في علم الكلام .

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب ﴿ وما تشاءون ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وخلف بياء الغائب عائداً إلى ﴿ فمَن شاء ﴾ [الإنسان : 29] .

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

(135/795)

يجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة ﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ﴾ [الإنسان : 30] إذْ يتساءل السامع على أثر مشيئة الله في حال من اتخذ إلى ربه سبيلاً ومن لم يتخذ إليه سبيلاً ، فيجاب بأنه يُدخل في رحمته من شاء أن يتخذ إليه سبيلاً

وأنه أعد لمن لم يتخذ إليه سبيلاً عذاباً أليماً وأولئك هم الظالمون .

ويجوز أن تكون الجملة خبر ﴿ إنَّ ﴾ في قوله : ﴿ إن الله ﴾ [الإنسان : 30] وتكون جملة ﴿ كان عليماً حكيماً ﴾ [الإنسان : 30] معترضة بين اسم ﴿ إن ﴾ وخبرها أو حالاً ، وهي على التقديرين منبئة بأن إجراء وصفي العليم الحكيم على اسم الجلالة مراد به التنبيه على أن فعله كله من جزاء برحمةٍ أو بعذاب جارٍ على حسب علمه وحكمته .

وانتصب ﴿ الظالمين ﴾ على أنه مفعول لفعل محذوف يدل عليه المذكور على طريقة الاشتغال والتقدير : أوْعد الظالمين ، أو كَافأ ، أو نحوَ ذلك مما يقدره السامع مناسباً للفعل المذكور بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(136/795)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

أخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة الإنسان بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزلت بمكة سورة ﴿ هل أتى على الإِنسان ﴾ .

وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة الإِنسان بالمدينة .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر قال : " جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سل واستفهم ، فقال : يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والصور والنبوّة أفرأيت إن آمنت به ، وعملت بمثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة ؟ قال : نعم ، والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام ، ثم قال : من قال لا إله إلا الله كان له عهد عند الله ، ومن قال : سبحان الله وبحمده كتبت له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ، ونزلت عليه هذه السورة ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر ﴾ إلى قوله : ﴿ ملكاً كبيراً ﴾ فقال الحبشي : وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة ؟ قال : نعم ، فاشتكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه في حفرته بيده " .

وأخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال : " حدثني الثقة أن رجلاً أسود كان يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن التسبيح والتهليل ، فقال له عمر بن الخطاب : مه أكثرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مه يا عمر ، وأنزلت على رسول الله صلى

الله عليه وسلم ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر ﴾ حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مات شوقاً إلى الجنة " .

(137/795)

وأخرج ابن وهب عن ابن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه السورة ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر ﴾ وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود ، فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنة " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي ذر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر ﴾ حتى ختمها ثم قال : " إني أرى ما لا ترون ، وسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء ، وحق له أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، لخرجتم إلى الصعدات تجارون " .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر ﴾ قال : الإِنسان أتى عليه حين من الدهر ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ قال : إنما

خلق الإِنسان ههنا حديثاً ما يعلم من خليقة الله خليقة كانت بعد إلا هذا الإِنسان .

وأخرج ابن المبارك وأبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ فقال عمر : ليتها تمت .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يتلو هذه الآية ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ فقال ابن مسعود : يا ليتها تمت فعوتب في قوله : هذا ، فأخذ عوداً من الأرض فقال : يا ليتني كنت مثل هذا .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر ﴾ قال : إن آدم آخر ما خلق من الخلق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ هل أتى على الإِنسان ﴾ قال : كل إنسان .

(138/795)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : إن من الحين حيناً لا يدرك . قال الله : ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ والله ما يدري كم أتى عليه حتى خلقه الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه تلا هذه الآية ﴿ هل أتى على الإِنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ قال : أي وعزتك يا رب فجعلته سميعاً بصيراً وحياً وميتاً .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن مسعود قال : إذا جئناكم بحديث أتيناكم بتصديقه من كتاب الله إن النطفة تكون في الرحم أربعين ، ثم تكون مضغة أربعين ، فإذا أراد الله أن يخلق الخلق نزل الملك فيقول له اكتب ، فيقول ماذا أكتب ؟ فيقول : اكتب شقياً أو سعيداً ذكراً أو أنثى ، وما رزقه ، وأثره ، وأجله ، فيوحي الله بما يشاء ، ويكتب الملك ، ثم قرأ عبد الله ﴿ إنا خلقنا الإِنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ ثم قال عبد الله : أمشاجها عروقها .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أمشاج ﴾ قال : العروق .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ قال : من ماء الرجل وماء المرأة حين يختلطان .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ قال : هو نزول الرجل والمرأة يمشج بعضه ببعض .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ من نطفة

أمشاج ﴾ قال : اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقع في الرحم .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت أبا ذؤيب وهو يقول :

كأن الريش والفوقين منه . . . خلال النصل خالطه مشيج

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال مشج ماء الرجل بماء المرأة فصار خلقاً .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع قال : إذا اجتمع ماء الرجل وماء المرأة فهو أمشاج .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال : الأمشاج إذا اختلط الماء والدم ، ثم كان علقة ثم كان مضغة .

(139/795)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في الآية ، قال : خلق من نطفة مشجت بدم ، وذلك الدم الحيض إذا حملت ارتفع الحيض .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ قال : مختلفة الألوان .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ قال : ألوان نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأمشاج الذي يخرج على أثر البول ، كقطع الأوتار ومنه يكون الولد .

وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم قال : الأمشاج العروق التي في النطفة .

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله : ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ قال : ألوان الخلق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ قال : طوراً نطفة وطوراً علقة وطوراً مضغة وطوراً عظماً ﴿ ثم كسونا العظام لحماً ﴾ وذلك أشد ما يكون إذا كسي اللحم ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال : أنبت له الشعر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فأنباه الله مم خلقه ، وأنباه إنما بين ذلك ليبتليه بذلك ، ليعلم كيف شكره ومعرفته لحقه ، فبين الله له ما أحل له وما حرم عليه ثم قال : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً ﴾ لنعم الله ﴿ وإما كفوراً ﴾ بها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : الأمشاج منه العظام والعصب والعروق من الرجل واللحم والدم والشعر من المرأة .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عكرمة في قوله : ﴿ أمشاج ﴾ قال : الظفر والعظم والعصب من الرجل ، واللحم والشعر من المرأة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ قال : السبيل الهدى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ قال : الشقاوة والسعادة .

وأخرج ابن المنذر عن عطية العوفي ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ قال : الخير والشر .

(140/795)

وأخرج أحمد وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مولد يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً والله تعالى أعلم" .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ قال : تمزج به ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ قال : يقودونها حيث يشاؤوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ قال : قوم يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ قال : يستفيد ماؤهم يفجرونها حيث شاؤوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ كان مزاجها ﴾ قال طعمها : ﴿

يفجرونها تفجيراً ﴾ قال : الأنهار يجرونها حيث شاؤوا .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن إسحق قال في قراءة عبد الله : "كأساً صفراً كان مزاجها .".

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن شوذب في قوله : ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ قال : معهم قضبان ذهب يفجرون بها تتبع قضبانهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ يوفون بالنذر ﴾ قال : كانوا يوفون بطاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم ، فسماهم الله الأبرار لذلك ، فقال : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ قال : إستطاروا لله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يوفون بالنذر ﴾ قال : إذا نذروا في حق الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ يوفون بالنذر ﴾ قال : كل نذر في شكر .

(141/795)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والطبراني عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي فقال : إني نذرت أن أنحر نفسي ، فشغل النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهب الرجل ، فوجد يريد

أن ينحر نفسه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من يوفي بالنذر ، ويخاف ﴿ يوماً كان شره مستطيراً ﴾ أهد مائة ناقة " .

وأخرج ابن عساكر عن مجاهد قال : لما صَدَرَ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسارى عن بدر أنفق سبعة من المهاجرين على أسارى مشركي بدر منهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح ، فقالت الأنصار : قتلناهم في الله وفي رسوله وتوفونهم بالنفقة ، فأنزل الله فيهم تسع عشرة آية ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ إلى قوله : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ كان شره مستطيراً ﴾ قال : فاشياً .

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد في قوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ قال : وهم يشتهونه ﴿ وأسيراً ﴾ قال : هو المسجون ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ الآية ، قال : لم يقل القوم ذلك حين أطعموهم ، ولكن علم الله من قلوبهم فأثنى عليه به ليرغب فيه راغب .

وأخرج سعيد بن المنصور وابن أبي شيبة وابن مردويه عن الحسن قال : كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية ، قال : لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم ، وأنهم يومئذ لمشركون ، فوالله لأخوك المسلم أعظم عليك حرمة وحقاً .

وأخرج أبو عبيد في غريب الحديث والبيهقي في شعب الإِيمان في قوله : ﴿ وأسيراً ﴾ قال : لم يكن الأسير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من المشركين .

(142/795)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية ، قال : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يأسر أهل الإِسلام ، ولكنها نزلت في أسارى أهل الشرك كانوا يأسرونهم في الفداء ، فنزلت فيهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالإِصلاح لهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأسيراً ﴾ قال : هو المشرك .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ وأسيراً ﴾ قال : ما أسرت العرب من الهند وغيرهم ، فإذا حبسوا فعليكم أن تطعموهم وتسقوهم حتى يقتلوا أو يفدوا .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي رزين قال : كنت مع شقيق بن سلمة فمر عليه أسارى من المشركين فأمرني أن أتصدق عليهم ، ثم تلا هذه الآية ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير وعطاء ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ قالا : من أهل القبلة وغيرهم .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي سعيد " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله : ﴿ مسكيناً ﴾ قال : فقيراً ﴿ ويتيماً ﴾ قال : لا أب له ﴿ وأسيراً ﴾ قال : المملوك والمسجون " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ الآية ، قال : نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن سعد عن أم الأسود سرية الربيع بن خيثم قالت : كان الربيع يعجبه السكر يأكله ، فإذا جاء السائل ناوله فقلت : ما يصنع بالسكر الخبز له خير ، قال : إني سمعت الله يقول : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوماً عبوساً ﴾ قال : ضيقاً ﴿ قمطريراً ﴾ قال : طويلاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ قال : يقبض ما بين الأبصار " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق ابن عباس قال : القمطرير الرجل المنقبض ما بين عينيه ووجهه .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ قال : الذي ينقبض وجهه من شدة الوجع . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر وهو يقول :

ولا يوم الحسار وكان يوماً . . . عبوساً في الشدائد قمطريراً

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ ولا زمهريراً ﴾ قال : كذلك أهل الجنة لا يصيبهم حر الشمس فيؤذيهم ، ولا البرد . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الأعشى وهو يقول :

برهوهة الخلق مثل العتيق . . . لم تر شمساً ولا زمهريراً

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ قال : يوماً تقبض فيه الحياة من شدته .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ يوماً ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ عبوساً ﴾ قال : العابس الشفتين ﴿ قمطريراً ﴾ قال : تقبض الوجوه بالسوء ، وفي لفظ انقباض ما بين عينيه ووجهه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ قال : نضرة في وجوههم وسروراً في صدورهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ﴿ ولقاهم نضرة ﴾ قال : في الوجوه ﴿ وسروراً ﴾ قال : في الصدور والقلوب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ قال : نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ قال : الصبر صبران صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ قال : كنا نحدث أنها الحجال على السرر ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ قال : علم الله تبارك وتعالى أن شدة الحر تؤذي ، وأن شدة البرد تؤذي ، فوقاهم الله عذابهما جميعاً . قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدث أن جهنم اشتكت إلى ربها فنفسها في كل عام نفسين ، فشدة الحر من حرها ، وشدة البرد من زمهريرها .

(144/795)

وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه عن الزهري في قوله : ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ قال : حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "

اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : يا رب أكل بعضي بعضاً فنفسني ، فجعل لها في كل عام نفسين نفساً في الشتاء ، ونفساً في الصيف . فشدة البرد الذي تجدون من زمهرير جهنم ، وشدة الحر الذي تجدون من حر جهنم " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشتكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضاً ، فجعل لها نفسين نفساً في الشتاء ، ونفساً في الصيف ، فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها ، وشدة ما تجدونه في الصيف من الحر من سمومها " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا زمهريراً ﴾ قال : برداً مقطعاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : الزمهرير هو البرد الشديد .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : الزمهرير إنما هو لون من العذاب ، إن الله تعالى قال : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ .

(145/795)

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد الخدري أو أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا كان يوم حار ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وأهل الأرض ، فإذا قال العبد لا إله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم ! اللهم أجرني من حر جهنم ، قال الله عز وجل لجهنم إن عبداً من عبيدي استجار بيّ منك ، وإني أشهدك أني قد أجرته ، وإذا كان يوم شديد البرد ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وأهل الأرض ، فإذا قال العبد : لا إله إلا الله ، ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله لجهنم : إن عبداً من عبيدي استجارني من زمهريرك ، وإني أشهدك أني قد أجرته . فقالوا وما زمهرير جهنم ؟ قال كعب : بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : الجنة سجسج لا قر فيها ولا حر .

أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد بن السري وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب في وقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ قال : قريبة ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حال شاؤوا ، وفي لفظ قال : ذللت لهم فيتناولون منها كيف شاؤوا .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ قال : إن قعدوا نالوها .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ قال : أدنيت منهم يتناولونها وهم متكئون .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ قال : أدنيت منهم يتناولونها إن قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلت حتى ينالها ، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها ، فذلك تذليلها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال : يقول غلمان أهل الجنة من أين نقطف لك ؟ من أين نسقيك ؟ .

(146/795)

وأخرج ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال : أرض الجنة ورق ، وترابها مسك ، وأصول شجرها ذهب وورق ، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والورق والثمار بين ذلك ، فمن أكل قائماً لم يؤذه ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه ، ومن أكل جالساً لم يؤذه ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ وفي لفظ إن قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلت حتى ينالها ، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها فذلك تذليلها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة ﴾ الآية ، قال : صفاء القوارير في بياض الفضة ﴿ قدروها تقديراً ﴾ قال : قدرت على قدر رأي القوم .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي أنه كان يقرأ ﴿ قدرها ﴾ برفع القاف .

وأخرج عن الحسن أنه قرأها بنصب القاف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث من طريق العوفي عن ابن عباس قال : آنية من فضة وصفاؤها كصفاء القوارير ﴿ قدروها تقديراً ﴾ قال : قدرت للكف .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقي في البعث من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء عن ورائها ، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا ﴿ قوارير من فضة ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : لو اجتمع أهل الدنيا على أن يعملوا إناء من فضة يرى ما فيه من خلفه كما يرى في القوارير ما قدروا عليه .

وأخرج الفريابي من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ قدروها تقديراً ﴾ قال : أتوا بها على قدرهم ، لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن مجاهد قال : الآنية الأقداح ، والأكواب

الكوكبات ، وتقديرها أنها ليست بالملأى التي تفيض ، ولا ناقصة بقدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ قدروها تقديراً ﴾ قال : قدرتها السقاة .

(147/795)

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي في قوله : ﴿ قوارير من فضة ﴾ قال : صفاؤها صفاء القوارير وهي من فضة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ قال : يمزج لهم بالزنجبيل .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ قال : يأثر لهم ما كانوا يشربون في الدنيا فيجيء إليهم بذلك .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ والأخرى الزنجبيل ، وعينان نضاختان من فوق إحداهما التي ذكر الله سلسبيلاً والأخرى التسنيم " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد في قوله : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ قال : حديدة الجرية .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ قال : عين الخمرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ تسمى سلسبيلاً ﴾ قال : تجري سلسلة السبيل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ قال : سلسلة فيها يصرفونها حيث شاؤوا ، وفي قوله : ﴿ حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ قال : من حسنهم .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : بينا المؤمن على فراشه إذ أبصر شيئاً يسير نحوه ، فجعل يقول : لؤلؤ فإذا ولدان مخلدون كما وصفهم الله ، وهي الآية ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أولهم خروجاً إذا خرجوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا مستشفعهم إذا جلسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، الكرامة والمفاتيح بيدي ، ولواء الحمد بيدي ، وآدم ومن دونه تحت لوائي ، ولا فخر ، يطوف عليهم ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور " .

وأخرج ابن المبارك وهناد وعبد بن حميد والبيهقي في البعث عن ابن عمرو رضي الله عنه قال : إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم كل واحد على عمل ليس عليه صاحبه .

وأخرج الحاكم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر ركب أهل الجنة ثم تلا ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ قال : هو استئذان الملائكة لا تدخل عليهم إلا بإذن .

وأخرج ابن جرير عن سفيان في قوله : ﴿ وملكاً كبيراً ﴾ قال : بلغنا أنه استئذان الملائكة عليهم .

وأخرج ابن وهب عن الحسن البصري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أدنى أهل الجنة منزلة الذي يركب في ألف ألف من خدمة من الولدان المخلدين ، على خيل من ياقوت أحمر ، لها أجنحة من ذهب ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : " دخل عمر بن الخطاب رضي الله

عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راقد على حصير من جريد قد أثر في جنبه ، فبكى عمر ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت كسرى وملكه وقيصر وملكه وصاحب الحبشة وملكه ، وأنت رسول الله على حصير من جريد ، فقال : أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فأنزل الله ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي الجوزاء أنه كان يقرأ ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر ﴾ قال : علت الخضرة أكثر ثياب أهلها الخضرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ شراباً طهوراً ﴾ قال : ما ذكر الله من الأشربة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ شراباً طهوراً ﴾ قال : ما ذكر الله من الأشربة .

(149/795)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن أبي قلابة رضي الله عنه ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ قال : إذا أكلوا أو شربوا ما شاء الله من الطعام والشراب دعوا الشراب الطهور فيشربون ، فيطهرهم فيكون ما أكلوا وشربوا جشاء بريح مسك يفيض من جلودهم

، ويضمر لذلك بطونهم .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي في هذه الآية ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ قال : عرق يفيض من أعراضهم مثل ريح المسك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم التيمي قال : بلغني أنه يقسم للرجل من أهل الجنة شهوة مائة رجل من أهل الدنيا ، وأكلهم ونهمتهم ، فإذا أكل سقي شراباً طهوراً يخرج من جلده رشحاً كرشح المسك ثم تعود شهوته .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ فقال : لقد شكر الله سعياً قليلاً .

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ قال : حدثنا أنها نزلت في عدوّ الله أبي جهل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه أنه بلغه أن أبا جهل قال : لما فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة وهو يومئذ بمكة : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه . فأنزل الله في ذلك ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله : ﴿ آثماً أو كفوراً ﴾ قال : كان أبو

جهل يقول : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على رقبته ، فنهاه أن يطيعه ، وفي قوله : ﴿ يوماً ثقيلاً ﴾ قال : عسراً شديداً .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ قال : خلقهم .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ قال : هي المفاصل .

(150/795)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ قال : مفاصلهم .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ قال : خلقهم ، وفي قوله : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ قال : هذه السورة تذكرة والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لعن الله القدرية ، وقد فعل لعن الله القدرية ، وقد فعل . لعن الله القدرية ، وقد فعل . ما قالوا كما

قال الله ؟ ولا قالوا كما قالت الملائكة ، ولا قالوا كما قالت الأنبياء ، ولا قالوا كما قالت أهل الجنة ، ولا قالوا كما قالت أهل النار ، ولا قالوا كما قال الشيطان . قال الله ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ وقالت الملائكة : ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ [البقرة : 32] وقالت الأنبياء في قصة نوح : ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ [هود : 34] وقالت أهل الجنة : ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ [الأعراف : 43] وقال أهل النار ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : 106] وقال الشيطان : ﴿ رب بما أغويتني ﴾ [الحجر : 39] " .

وأخرج ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن سالم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إذا خطب كل ما هو آت قريب ، لا بعد لما يأتي ، ولا يعجل الله لعجلة أحد ، ما شاء الله لا ما شاء الناس ، يريد الناس أمراً ويريد الله أمراً ما شاء الله كان ، ولو كره الناس . لا مباعد لما قرب الله ولا مقرب لما باعد الله . لا يكون شيء إلا بإذن الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 365 . 379 ﴾

(151/795)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾

يعني : قد أتى على أدم ﴿ حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ يعني : أربعين سنة ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ يعني : لم يدر ما اسمه ، ولا ما يراد به إلا الله تعالى .

وذلك أن الله تعالى ، لما أراد أن يخلق آدم ، أمر جبريل عليه السلام ، أن يجمع التراب فلم يقدر .

ثم أمر إسرافيل فلم يقدر ، ثم أمر عزرائيل عليهم السلام ، فجمع التراب من وجه الأرض ، فصار التراب طيناً ، ثم صار صلصالاً ، وكان على حاله أربعين سنة ، قبل أن ينفخ فيه الروح.

وروى معمر ، عن قتادة قال : كان آدم آخر ما خلق من الخلق ، خلق كل شيء قبل آدم .

ثم قال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ يعني : مختلطاً ماء الرجل وماء المرأة ، لا يكون الولد إلا منهما جميعاً .

ماء الرجل أبيض ثخين ، وماء المرأة أصفر رقيق ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ يعني : لكي نبتليه بالخير والشر ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ يعني : جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى ، وبصراً يبصر به الهدى .

وقال مقاتل : في الآية تقديم ، يعني : جعلناه سميعاً بصيراً ، يعني : جعلنا له سمعاً لنبتليه ، يعني : لنختبره .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ يعني : بينا له ، وعرفناه طريق الخير وطريق الكفر .

ويقال : سبيل السعادة والشقاوة ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ يعني : إما أن يكون موحداً ، وإما أن يكون جاحداً لوحدانية الله تعالى .

ويقال : إما شاكراً لنعمه ، وإما كفوراً لنعمه .

ثم بين ما أعد للكافرين فقال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين ﴾ يعني : في الآخرة ﴿ سلاسل وأغلالا ﴾ يعني : هيئنا لهم أغلالاً ، تغل بها أيمانهم إلى أعناقهم ﴿ وَسَعِيراً ﴾ يعني : وقوداً .

(152/795)

ثم بيّن ما أعد للشاكرين فقال : ﴿ إِنَّ الابرار ﴾ يعني : الصادقين في إيمانهم ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ يعني : من خمر ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كافورا ﴾ يعني : على برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل ليس ككافور الدنيا ولا كمسكها ولكنه وصف بها حتى يهتدى به القلوب

أو يقال : الكافور اسم عين في الجنة يمزج بها الخمر ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ يعني : عين الكافور يشرب بها أولياء الله تعالى في الجنة ﴿ يُفَجّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ يعني : يمزجونها تمزيجاً .

وقال ابن عباس : ﴿ يُفَجّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ في قصورهم وديارهم ، وذلك ، أن عين الكافور ، يشرب بها المقروبون صرفاً غير ممزوج ، ولغيرهم ممزوجاً .

ويقال : ﴿ يُفَجّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ يعني : يفجرون تلك العين في الجنة كيف أحبوا ، كما يفجر الرجل النهر الذي يكون له في الدنيا هاهنا ، وهاهنا حيث شاء .

ثم بين أفعالهم في الدنيا فقال : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ يعني : يتمون الفرائض .

ويقال : أوفوا بالنذر ﴿ ويخافون يَوْماً ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ يعني : عذابه فاشياً ظاهراً ، وهو أن السموات قد انشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وفارت المياه ثم قال عز وجل : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبّهِ ﴾ يعني : على قلته وشهوته وحاجته ﴿ مِسْكِيناً ﴾ وهو الطائف بالأبواب ﴿ وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ يعني : من أسر من دار الشرك .

ويقال : أهل اليمن .

وذكر أن الآية نزلت في شأن علي بن أبي طالب ، وفاطمة رضي الله عنهما وكانا صائمين فجاءهما سائل وكان عندهما قوت يومهما فأعطيا السائل بعض ذلك الطعام ثم جاءهما

يتيم فأعطياه من ذلك الطعام ثم جاءهما أسير فأعطياه الباقي فمدحهما الله تعالى لذلك ، ويقال : نزلت في شأن رجل من الأنصار ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ يعني : ينوون بأدائهم ، ويضمرون في قلوبهم وجه الله تعالى .

(153/795)

ويقولون : ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُوراً ﴾ يعني : لا نريد منكم مكافأة في الدنيا ، ولا ثواب في الآخرة ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ يعني : العبوس الذي تعبس فيه الوجوه ، من هول ذلك اليوم ، والقمطرير الشديد العبوس .

ويقال : عبوساً ، أي : يوم يعبس فيه الوجوه ، فجعل عبوساً من صفة اليوم .

كما قال : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ [إبراهيم : 18] أراد عاصف الريح والقمطرير الشديد .

يعني : ينقبض الجبين وما بين الأعين ، من شدة الأهوال .

ويقال : قمطريراً نعت ليوم .

ويقال : يوم قمطرير ، إذا كان شديداً .

يعني : يوماً شديداً صعباً .

ثم قال عز وجل : ﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ يعني : دفع الله عنهم عذاب ذلك اليوم ﴿ ولقاهم ﴾ يعني : أعطاهم ﴿ نَضْرَةَ ﴾ حسن الوجوه ﴿ وَسُرُوراً ﴾ يعني : فرحاً في قلوبهم قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ يعني : أعطاهم الثواب بما صبروا في الدنيا ﴿ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ يعني : لباسهم فيها حرير .

ويقال : بما صبروا على الطاعات .

ويقال : على المصائب .

وقوله عز وجل : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ يعني : ناعمين في الجنة ﴿ على الارائك ﴾ يعني : على السرر ، وفي الجمال واحدها أريكة ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً ﴾ يعني : لا يصيبهم فيها حر الشمس ﴿ وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ يعني : ولا برد الشتاء .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها ﴾ يعني : قريبة عليهم ظلال الشجر .

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ يعني : قربت ثمارها ويقال سخرت قطوفها يعني : مجنى ثمرها تذليلاً يعني : قريباً ينالها القاعد والقائم .

(154/795)

وروى بن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : أرض الجنة من فضة ، وترابها مسك ، وأصول شجرها ذهب وفضة ، وأغصانها لؤلؤ وزبرجد ، والورق والثمر تحت ذلك ، فمن أكل قائماً لم يؤذه ، ومن أكل جالساً لم يؤذه ، ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه .

ثم قرأ ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ وقال أهل اللغة .

ذللت أي : أدنيت منهم ، من قولك : حائط ذليل إذا كان قصير السمك .

والقطوف والثمرة واحدها قطف ، وهو نحو قوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 23] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ وهي كيزان مدققة الرأس ، لا عرى لها ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ ﴾ يعني : في صفاء القارورة ، وبياض الفضة .

وروي عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا ، فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم تر الماء من ورائه ، ولكن قوارير الجنة من فضة في صفاء القوارير ، كبياض الفضة .

قرأ نافع ، وعاصم ، والكسائي سلاسلاً وقواريراً ، كلهن بإثبات الألف والتنوين .

وقرأ حمزة بإسقاط الألف كلها ، وكان أبو عمرو يثبت الألف في الأولى من قوارير ، ولا يثبتها في الثانية .

قال أبو عبيد : رأيت في مصحف عثمان ، رضي الله عنه الذي قال له مصحف الإمام

قواريرا بالألف ، والثانية كان بالألف ، فحكت ورأيت أثرها بيناً هناك ، وأما السلاسل فرأيتها قد رست .

وقال بعض أهل اللغة : الأجود في العربية ، أن لا ينصر فيه سلاسل وقواريرا ، لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان أو ثلاثة ، أوسطها ساكن ، فإنه لا ينصرف ، فأما من صرفه ونون ، فإنه رده إلى الأصل في الازدواج إذا وقعت الألف بغير تنوين ثم قال : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ يعني : على قدر كف الخدم ، ويقال : على قدر كف المخدوم ولا يحجز ، ويقال : على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه .

(155/795)

ويقال : على مقدار الذي لا يزيد ولا ينقص ليكون الري لشربهم ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً ﴾ يعني : خمراً وشراباً ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ يعني : خلطها ﴿ زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ وقال القتبي : والزنجبيل اسم العين ، وكذلك السلسبيل ويقال : إن السلسبيل اللبن والزنجبيل طعمه ، والعرب تضرب به المثل .

وقال مقاتل : إنما سمي السلسبيل ، لأنها تسيل عليهم في الطريق وفي منازلهم ، وقال أبو صالح : بلغني أن السلسبيل شديد الجرية .

وقال بعضهم : معناه ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً يعني : عيناً تسمى الزنجبيل وتم الكلام ثم قال : سلسبيلاً يعني : سل الله تعالى السبيل إليها .

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ يعني : لا يكبرون ، ويكونون على سن واحدة ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ قال قتادة : كثرتهم وحسنهم ، كاللؤلؤ المنثور ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً ﴾ يعني : إذا رأيت هناك ما في الجنة ، رأيت نعيماً ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ يعني : على رؤوسهم التيجان ، كما يكون على رأس ملك من الملوك .

ويقال : ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ يعني : لا يدخل رسول رب العزة ، إلا بإذنهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ عاليهم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ ﴾ يعني : على ظهورهم ثياب سندس .

قرأ نافع ، وحمزة بجزم الياء وكسر الهاء .

والباقون بنصب الياء وضم الهاء .

فمن قرأ بالجزم ، فمعناه الذي يعلوهم ، وهو اسم فاعل ، من علا يعلو .

ومن قرأ بالنصب نصبه على الظرف ، كما قال : فوقهم ثياب .

وروي عن ابن مسعود ، أنه قرأ عاليتهم ثياب ، يعني : الوجه الأعلى .

ثم قال : ثياب سندس ، خضر بالكسر ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ قرأ نافع ، وعاصم في رواية حفص ، خضر واستبرق كلاهما بالضم .

والباقون كلاهما بالكسر ، فمن قرأ بالضم ، لأنه نعت الثياب .

يعني : ثياباً خضراً .

(156/795)

ومن قرأ بالكسر ، فهو نعت للسندس ، ومن قرأ واستبرق بالضم ، فهو نسق على الثياب .

ومعناه : عليهم سندس واستبرق ، ومن قرأ بالكسر ، يكون عليهم ثياب من هذين النوعين .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وهو جمع السوار ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ يعني : الذي سقاهم خدمهم .

ويقال : الذين يشربون من قبل أن يدخلوا الجنة .

ثم قال : ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾ يعني : الذي وصف لكم في الجنة ، ثواباً لأعمالكم ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ يعني : عملكم مقبولاً .

يعني : يبشرون بهذا إذا أرادوا أن يدخلوا الجنة .

ثم قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾ يعني : أنزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، يعني : إنزالاً فالمصدر للتأكيد .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ يعني : استقم على أمر الله تعالى ونهيه .

ويقال : اصبر على أذى الكفار .

وقال : على تبليغ الرسالة ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ آثماً يعني : فاجراً وهو الوليد بن المغيرة ، أو كفوراً يعني : ولا كفوراً ، وهو عتبة بن ربيعة .

قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن فعلت هذا لأجل المال ، فارجع حتى أدفع إليك من المال ، ما تصير به أكثر مالاً من أهل مكة .

فنزلت هذه الآية ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً وَلاَ كَفُوراً ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ ﴾ يعني : صلِ باسم ربك ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ يعني : بكرة وعشياً يعني : صلاة الفجر ، وصلاة الظهر والعصر ﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ﴾ يعني : فصلِّ لله المغرب والعشاء ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ يعني : بعد المكتوبة ، فهذا للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

ويقال له ولأصحابه : وهذا أمر استحباب ، لا أمر وجوب .

(157/795)

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ يعني : يختارون الدنيا ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ ﴾ يعني : يتركون العمل لما هو أمامهم ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ يعني : ليوم ثقيل وقال مجاهد : وراءهم يعني : خلفهم .

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ خلقناهم وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ يعني : قوينا خلقهم ليطيعوني ، فلم يطيعوني .

ويقال : شددنا مفاصلهم بالعصب ، والعروق والجلد ، لكي لا ينقطع المفاصل وقت تحريكها .

ويقال : شددنا أسرهم ، أي : قبلهم ودبرهم ، لكي لا يسيل البول والغائط ، إلا عند الحاجة ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ يعني : إذا أردنا ﴿ بَدَّلْنَا أمثالهم تَبْدِيلاً ﴾ يعني : أي نخلق خلقاً أمثل منهم ، وأطوع لله ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : هذه السورة عظة لكم .

ويقال : هذه الآيات ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ يعني : فمن شاء أن يتعظ فليتعظ ، فقد بينا له الطريق .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ يعني : إلا أن يشاء لكم فيوفقكم . يعني : إن جاهدتم فيوفقكم كقوله : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ المحسنين ﴾ [العنكبوت : 69] الآية .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ﴿ وَمَا يَشَآءونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم .

والباقون بالتاء على معنى المخاطبة .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ يعني : كان عليماً قبل خلقكم ، من يتخذ السبيل ، ولم يشرك ويوحد ﴿ حَكِيماً ﴾ حكم بالبداية لمن كان أهلاً لذلك .

قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ يعني : يكرم بالإسلام من كان أهلاً لذلك .

ويقال : يدخل من يشاء في رحمته ، يعني : في نعمته وهي الجنة ، في رحمته وفضله ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني : يدخل الظالمين في عذاب أليم .

ويقال : يعذب الظالمين .

وقرىء في الشاذ والظالمون ، وقراءة العامة والظالمين بالنصب .

(158/795)

ومعناه : ويعذب الظالمين ، ويكون لهم عذاباً أليماً ، تفسيراً لهذا المضمر .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 503.508 ﴾

(159/795)

وقال الثعلبي :

سورة الإنسان

﴿ هَلْ أتى ﴾

قد أتى ﴿ عَلَى الإنسان ﴾ آدم (عليه السلام) ، وهو أول من سمّي به ﴿ حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ أربعون سنة ملقى بين مكة والطائف قبل أن ينفخ الروح فيه ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ولا ما يراد به ، وروى أن عمر سمع رجلا يقول ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ فقال عمر : ليتها تمت ، وقال عون بن عبد الله : قرأ رجل عند ابن مسعود الآية فقال : إلاّ ليت ذلك .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان ﴾ يعني ولد آدم ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني من منيّ الرجل ومنيّ المرأة ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة ، كقول عبد الله بن رواحة : هل أنت إلاّ نطفة ، وجمعها نطاف ونُطف ، وأصلها من نطف إذا قطر . ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط ، واحدها مشج مشيج مثل حذن وحذين قال رؤبة :

يطرحن كلّ معجّل نسّاج . . . لم يكس جلداً في دم أمشاج

ويقال مشجت هذا بهذا أي خلطته فهو ممشوج ومشج ، مثل مخلوط وخليط ، قال أبو دوم :

كأن الريش والفوقين منه . . . خلاف النصل سبطيه مشيج

قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد والربيع : يعني ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما جميعاً الولد ، وماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا صاحبه كان الشبه له ، وقال قتادة : هي أطوار الخلق : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم لحماً ثم عظاماً ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر .

وقال الضحاك : أراد اختلاف ألوان النطفة نطفة ، الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء فهي مختلفة الألوان ، وهي رواية الوالي عن ابن عباس وابن أبي نجح عن مجاهد ، وكذلك قال عطاء الخراساني والكلبي : الأمشاج الحمرة في البياض والبياض في الحمرة أو الصفرة .

(160/795)

وقال عبد الله بن مسعود وأسامة بن زيد : هي العروق التي تكون في النطفة ، وروى ابن جريج عن عطاء قال : الأمشاج الهن الذي كإنه عقب ، وقال الحسن : نعم والله خلقت من نطفة مشجت بدم وهو دم الحيضة فإذا حبلت أرفع الحيض ، وقال يمان : كل لونين اختلطا فهما أمشاج ، وقال ابن السكيت : الأمشاج : الأخلاط ، لأنها ممتزجة من أنواع فخلق الإنسان ذا طبائع مختلفة ، وقال أهل المعاني : بناء الأمشاج بناء جمع وهو في معنى الواحد

لأنه نعت النطفة وهذا كما يقال : برمة أعشار وثوب أخلاق ونحوهما .

وسمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : سُئلت وأنا بمكّة عن قول الله سبحانه : ﴿ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ فقلت ابتلى الله الخلق تسعة أمشاج : ثلاث مفتنات وثلاث كافرات وثلاث مؤمنات ، فأما الثلاث المفتنات فسمعه وبصره ولسانه ، وأما الثلاث الكافرات فنفسه وهواه وشيطانه ، وأما الثلاث المؤمنات فعقله وروحه وملكه ، فإذا أيّد الله العبد بالمعونة فقرّ العقل على القلب فملكه واستأسرت النفس والهوى فلم يجد إلى الحركة سبيلا ، فجانست النفس الروح وجانس الهوى العقل وصارت كلمة الله هي العليا :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة : 193] .

(161/795)

﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ نختبره بالأمر والنهي وقال بعض أهل العربية : هي مقدمة معناها التأخير مجازها : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ لنبتليه ؛ لأن الابتلاء لا يقع إلاّ بعد تمام الخلقة . ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ أي بيّنا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة وعرّفناه طريق الخير والشرّ وهو كقوله ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] . ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً

﴿ أما مؤمناً سعيداً وأما كافراً شقيّاً يعني خلقناه أما كذا وأما كذا ، وقيل معنى الكلام : الجزاء ، يعني بيّنا له الطريق إن شكر وكفر ، وهو اختيار الفرّاء ، ثم بين الفريقين فقال عز من قال ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاَ ﴾ كل سلسلة سبعون ذراعاً .

﴿ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم عن حفص والأعمش والكسائي وأيوب كلهن : ﴿ سَلاَسِلاَ ﴾ بإثبات الألف في الوقف والتنوين في الأصل ، وهو اختيار أبي عبيد ، ورواية هشام عن أهل الشام ، ضده حمزة وخلف [وقنبل] ويعقوب برواية [. . . . .] وزيد ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : قواريراً الأولى بالألف والثاني بغير ألف .

قال أبو عبيد : ورأيت في مصحف الإمام عثمان ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴾ الأولى بالألف مبنية والثانية كانت بالألف فحكّت ، ورأيت أثرها بيّنا هناك .

﴿ إِنَّ الأبرار ﴾ يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربّهم ، وقال الحسن : هم الذين لا يؤذون الذر ولا ينصبون الشرّ ، وأحدهم بار ، مثل شاهد وأشهاد وناصر وأنصار وصاحب وأصحاب ويراد بها مثل نهر وأنهار وضرب وأضراب .

(162/795)

﴿ يَشْرَبُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ مِن كَأْسٍ ﴾ خمر ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك ، وقال عكرمة : مزاجها طعمها ، وقال أهل المعاني : أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده ، لأن الكافور لا يشرب ، وهو كقوله ﴿ حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ [الكهف : 96] أي كنار ، وقال ابن كيسان : طيّبت بالكافور والمسك والزنجبيل ، وقال الفرّاء : ويقال : إنّ الكافور اسم لعين ماء في الجنة ، وفي مصحف عبد الله من كأس صفراء كان مزاجها قافورا والقاف والكاف يتعاقبان ؛ لأنّهما لهويتان ، وقال الواسطي : لمّا اختلفت أحوالهم في الدنيا اختلفت أشربتهم في الآخرة فكأس الكافور بردّت الدنيا في صدورهم .

﴿ عَيْناً ﴾ نصب لأنها تابعة للكافور كالمفر له وقال الكسائي : على الحال والقطع ، وقيل : يشربون عيناً ، وقيل من عين ، وقيل : أعني عينا ، وقيل : على المدح وهي لهذه الوجوه كلّها محتملة .

﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ أي شربها والباء صلة وقيل منها . ﴿ عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي يقودونها حيث شاءوا من منازلهم وقصورهم كما يفجر الرجل منكم النهر يكون له في الدنيا هاهنا وهاهنا إلى حيث يريد .

﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ قال قتادة : بما فرض الله سبحانه عليهم من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وغيرها من الواجبات ، وقال مجاهد وعكرمة : يعني إذا بدروا في طاعة الله وفوا

به . ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ ممتداً قاسيا يقال استطار الصدع في الزجاجة واستطال إذا امتد ، ومنه قول الأعشى :

وبانت وقد أُسأرت في الفؤاد . . . صدعاً على نأيها مستطيراً

(163/795)

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ قال ابن عباس : على قلّته وحسبهم أياه وشهوتهم له ، وقال الداري : على حبّ الله ، وقال الحسين بن الفضل : على حبّ إطعام الطعام . ﴿ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ وهو الحربي يؤخذ قهراً أو المسلم يحبس بحق . قال قتادة : بعد أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم ، وأنّ أسراءهم يومئذ لأهل الشرك فأخوك المسلم أحقّ أن تطعمه ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير وعطا : هو المسجون من أهل القبلة . أخبرني الحسن قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن ناجية قال : حدّثنا عباد بن أحمد العرزمي قال : حدّثنا عمي عن أبيه عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي (عليه السلام) " ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً ﴾ قال : " فقيراً " ﴿ وَيَتِيماً ﴾ قال : " لا أب له " ﴿ وَأَسِيراً ﴾ قال : " المملوك والمسجون " ، وقال أبو حمزة الثمالي : الأسير المرأة ، ودليل هذا التأويل قول النبي (

عليه السلام) : " استوصوا بالنساء خيراً فإنّهن عندكم عوان " .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ فيه وجهان : أحدهما أن يكون جمع الشكر كالفلوس بجمع الفلس ، والكفور بجمع الكفر ، والآخران يكون بمعنى المصدر كالفعول والدخول والخروج .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أمّا أنهم ما تكلموا به ، ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً ﴾ في يوم ﴿ عَبُوساً ﴾ تعبس فيه الوجوه من شدّته وكثرة مكارهة فنسب العبوس إلى اليوم كما يقال : يوم صائم وليل نائم ، وقال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، وقيل : وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدّة والهول كالرجل الكالح البائس .

(164/795)

﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : العبوس : الضيق ، والقمطرير : الطويل . الكلبي : العبوس : الذي لا انبساط فيه والقمطرير : الشديد . وقال قتادة ومجاهد ومقاتل : القمطرير : الذي يقلّص الوجوه ويقبض الحياة وما بين الأعين من

شدته . قال الأخفش : القمطرير أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء يقال : يوم قمطرير وقماطر إذا كان شديداً لكربها . قال الشاعر :

ففرّوا إذا ما الحرب ثار غبارها . . . ولج بها اليوم العبوس القماطر

وأنشد الفرّاء :

بني عمّنا هل تذكرون بلانا . . . عليكم إذا ما كان يوم قماطر

وقال الكسائي : أقمطرّ القوم وأزمهرّ أقمطراراً وازمهراراً وهو الزمهرير والقمطرير ، ويوم مقمطر إذا كان صعباً شديداً . قال الهذلي :

بنو الحرب أرضعنا لهم مقمطرّة . . . فمن تلق منا ذلك اليوم يهرب

﴿ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ الذي يخافون ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ في وجوههم ﴿ وَسُرُوراً ﴾ في قلوبهم ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ على طاعة الله وعن معصيته ، وقال الضحاك : على الفقر . القرطبي : على الصوم . عطاء : على الجوع .

وروي سعيد بن المسيب عن عمر قال : سئل رسول الله (عليه السلام) عن الصبر فقال : " الصبر أربعة أولها الصبر عند الصدمة الأولى والصبر على أداء الفرائض ، والصبر على اجتناب محارم الله ، والصبر على المصائب " ﴿ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ قال الحسن : أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير . ﴿ مُّتَّكِئِينَ ﴾ نصب على الحال ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ على الأرائك ﴾ السرر في الحجال لا تكون أريكة إذا اجتمعا . قال الحسن : وهي لغة أهل

اليمن كان الرجل العظيم منهم يتخذ أريكة فيقال : أريكه فلان .

وقال مقاتل : الأرائك : السرر في الحجال من الدر والياقوت موضونة بقضبان الذهب والفضة وألوان الجواهر . ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ أي شتاء ولا قيضاً .

(165/795)

قال قتادة : علم الله سبحانه أن شدّة الحر تؤذي وشدة القرّ تؤذي فوقّاهم الله أذاهما جميعاً ، وقال مرة الهمداني : الزمهرير البرد القاطع . مقاتل بن حيّان : هو شي مثل روس الابر ينزل من السماء في غاية البرد . ابن سمعود : هو لون من العذاب وهو البرد الشديد .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا بكر أحمد بن عمران السوادي يقول : سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلب وسئل عن قوله ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ قال الزمهرير القمر بلغة طي . قال شاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر . . . قطعتها والزمهرير ما زهر

أي لم يطلع القمر .

واختلف العلماء في سبب نزول هذه الآيات فقال مقاتل : نزلت في رجل من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكيناً ويتيماً وأسيراً وكانت قصته .

أخبرنا ابن فتجويه قال : حدّثنا محمد بن خلف بن حيّان قال : حدّثنا إسحاق بن محمد بن مروان قال : حدّثنا إبراهيم بن عيسى قال : حدّثنا على بن علي بن أبي حمزة الثمالي قال : " بلغنا أن مسكيناً أتى رسول الله (عليه السلام) فقال : يا رسول الله أطعمني فقال : " والذي نفسي بيده ما عندي ما أطعمك ولكن أطلب " فأتى رجلاً من الأنصار وهو يتعشى وامرأته فقال له : أني أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : أطعمني فقال : ما عندي ما أطعمك ولكن أطلب ، فقال : الأنصاري لأمرأته : ما ترين ؟ فقالت : أطعمه وأسقه ثم أتى رسول الله (عليه السلام) يتيم فقال يا رسول الله أطعمني فقال : " ما عندي ما أطعمك ولكن أطلب " فأتى اليتيم الأنصاري الذي أتاه المسكين فقال له : أطعمني فقال لامرأته : ما ترين ؟ قالت : أطعمه فاطعمه ، ثم أتى رسول الله (عليه السلام) أسير فقال : يا رسول الله أطعمني ، فقال : " والله ما معي ما أطعمك ولكن أطلب " فأتى الأسير الأنصاري فقال له : أطعمني ، فقال : لامرأته ما ترين فقالت : أطعمه ، وكان هذا كلّه في ساعة واحدة ، فأنزل الله سبحانه فيما صنع الأنصاري من إطعامه المسكين واليتيم والأسير ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ " .

وقال غيرهما : نزلت في علي بن أبي طالب وفاطمة وجارية لهما يقال لها فضة وكانت القصة فيه .

(167/795)

وأخبرنا الشيخ أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد بن علي الشيباني العدل قراءة عليه في صفر سنة سبع وثمانين وثلثمائة قال : أخبرنا ابن الشرقي قال : حدّثنا محبوب بن حميد النصري قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الخوار ابن عم الأحنف بن قيس سنة ثمان وخمسين ومائتين وسأله عن هذا الحديث روح بن عبادة قال : حدّثنا القيم بن مهرام عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المزني قال : حدّثنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن سهيل بن علي بن مهران الباهلي بالبصرة قال : حدّثنا أبو مسعود عبد الرحمن بن فهد بن هلال قال : حدّثنا الغنيم بن يحيى عن أبي علي القيري عن محمد بن السائر عن أبي صالح عن ابن عباس قال : أبو الحسن بن مهران وحدّثني محمد بن زكريا البصري قال : حدّثني سعيد بن واقد المزني قال : حدّثنا القاسم بن بهرام عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ يُوفُونَ بالنذر وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ قال : مرض الحسن

والحسين فعادهما جدّهما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وعادهما عامّة العرب فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً وكل نذر لا يكون له وفاء فليس بشيء .

(168/795)

فقال علي رضي الله عنه : إن برأ ولداي مما بهما صمتُ ثلاثة أيام شكراً ، وقالت فاطمة رضي الله عنها : إن برأ ولداي مما بهما صمت لله ثلاثة أيام شكراً ما لبس الغلامان العافية ، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير ، فانطلق علي رضي الله عنه إلى شمعون بن جابا الخيبري ، وكان يهودياً فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير ، وفي حديث المزني عن ابن مهران الباهلي فانطلق إلى جار له من اليهود يعالج الصوف يقال له : شمعون بن جابا ، فقال : هل لك أن تعطيني جزّة من الصوف تغزلها لك بنت محمد صلى الله عليه وسلم بثلاثة أصوع من الشعير قال : نعم ، فأعطاه فجاء بالسوق والشعير فأخبر فاطمة بذلك فقبلت وأطاعت قالوا : فقامت فاطمة رضي الله عنها إلى صاع فطحنته وأختبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرصاً وصلى علي مع النبي (عليه السلام) المغرب ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه اذ أتاهم مسكين فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد

، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني أطعمكم من موائد الجنة ، فسمعه علي رضي الله عنه فأنشأ يقول :

فاطم ذات المجد واليقين . . . يا ابنة خير الناس أجمعين

أما ترين البائس المسكين . . . قد قام بالباب له حنين

يشكوا إلى الله ويستكين . . . يشكوا إلينا جائع حزين

كل امرء بكسبه رهين . . . وفاعل الخيرات يستبين

موعدنا جنة عليين . . . حرمها الله على الضنين

وللبخيل موقف مهين . . . تهوى به النار إلى سجين

شرابه الحميم والغسلين . . . من يفعل الخير يقم سمين

ويدخل الجنة أي حين . . . فأنشأت فاطمة :

أمرك عندي يا ابن عمّ طاعه . . . ما بي من لؤم ولا وضاعه

غذيت من خبز له صناعة . . . أطعمه ولا أبالي الساعه

أرجو إذ أشبعت ذا المجاعه . . . أن ألحق الأخيار والجماعه

(169/795)

وأدخل الخلد ولي شفاعه . . . قال : فأعطوه الطعام ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً إلاّ الماء القراح ، فلمّا كان اليوم الثاني قامت فاطمة إلى صاع فطحنته فاختبزته وصلّى علي مع النبي (عليه السلام) ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فأتاهم يتيم فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، يتيم من أولاد المهاجرين ، استشهد والدي يوم العقبة ، أطعموني أطعمكم الله على موائد الجنة فسمعه علي رضي الله عنه فأخذ يقول :

فاطم بنت السيد الكريم . . . بنت نبي ليس بالزنيم

لقد أتى الله بذي اليتيم . . . من يرحم اليوم يكن رحيم

موعده في جنّة النعيم . . . قد حرّم الخلد على اللئيم

ألا يجوز الصراط المستقيم . . . يزل في النار إلى الجحيم

فأنشأت فاطمة :

أطعمه اليوم ولا أبالي . . . وأوثر الله على عيالي

أمسوا جياعاً وهم أشبالي . . . أصغرهم يقتل في القتال

بكربلا يقتل باغتيال . . . للقاتل الويل مع الوبال

تهوى به النار إلى سفال . . . وفي يديه الغل والأغلال

كبوله زادت على الأكبال . . . . قال : فأعطوه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً

إلاّ الماء القراح ، فلمّا كان في اليوم الثالث قامت فاطمة رضي الله عنها إلى الصاع الباقي فطحنته واختبزته وصلى علي مع النبي (عليه السلام) ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسرونا [وتشدوننا] ولا تطعمونا ، أطعموني فإني أسير محمد أطعمكم الله على موائد الجنة ، فسمعه علي فأنشأ يقول :

فاطم يا بنة النبي أحمد . . . بنت نبي سيد مسوّد

هذا أسير للنبي المهتد . . . مكبّلٌ في غلّه مقيّد

يشكو إلينا الجوع قد تمدد . . . من يطعم اليوم يجده من غد

عند العلي الواحد الموحّد . . . ما يزرع الزارع سوف يحصد

فأنشأت فاطمة تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع . . . قد ذهبت كفي مع الذراع

ابناي والله من الجياع . . . يارب لا تتركهما ضياع

(170/795)

أبوهما للخير ذو اصطناع . . . يصطنع المعروف بابتداع

عبل الذراعين طويل الباع . . . وما على رأسي من قناع

إلاّ قناعاً نسجه انساع . . .

قال : فاعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلاّ الماء القراح فلما أن كان في اليوم الرابع وقد قضوا نذرهم " أخذ علي رضي الله عنه بيده اليمنى الحسن وبيده اليسرى الحسين وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع فلمّا نضر به النبي (عليه السلام) قال : يا أبا الحسن ما أشدّ ما يسؤني ما أرى بكم ، أنطلق إلى ابنتي فاطمة فانطلقوا إليها وهي في محرابها وقد لصق بطنها بظهرها من شدة الجوع وغارت عيناها ، فلما رأها النبي (عليه السلام) قال : " واغوثاه بالله ، أهل بيت محمد يموتون جوعاً " فهبط جبرائيل (عليه السلام) فقال : يا محمد خذها ، هنّأك الله في أهل بيتك قال : " وما أخذنا يا جبرائيل " فاقرأه ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ إلى قوله ﴿ وَلاَ شُكُوراً ﴾ إلى آخر السورة " .

قتادة بن مهران الباهلي في هذا الحديث : فوثب النبي (عليه السلام) حتى دخل على فاطمة فلما رأى ما بهم انكب عليهم يبكي ، ثم قال : أنتم من منذ ثلاث فيما أرى وأنا غافل عنكم ، فهبط جبرائيل (عليه السلام) بهذه الآيات ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ

مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ قال : هي عين في دار النبي (عليه السلام) تفجر إلى دور الأنبياء (عليهم السلام) والمؤمنين .

(171/795)

﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ يعني علياً وفاطمة والحسن والحسين وجاريتهم فضة ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ يقول على شهوتهم للطعام ، وإيثارهم مسكيناً من مساكين المسلمين ويتيماً من يتامى المسلمين ، وأسيراً من أسارى المشركين ، ويقولون إذا أطعموهم ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ قال : والله ما قالوا لهم هذا بألسنتهم ، ولكنهم أضمروه في نفوسهم ، فأخبر الله سبحانه بإضمارهم يقولون : لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، فيتمنون علينا به ولكنا أعطيناكم لوجه الله وطلب ثوابه قال الله سبحانه : ﴿ فَوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ في الوجوه ﴿ وَسُرُوراً ﴾ في القلوب ﴿ وَجَزَاهُمْ ﴾ بما صبروا ﴿ جَنَّةً ﴾ يسكنونها ﴿ وَحَرِيراً ﴾ يلبسونه ويفترشونه ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ .

قال ابن عباس : وبينا أهل الجنة في الجنة إذا رأوا ضوءاً كضوء الشمس وقد أشرقت

الجنان لها فيقول أهل الجنة : يا رضوان قال : ربّنا عزّوجل ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ فيقول : لهم رضوان : ليست هذه بشمس ولا قمر ولكن هذه فاطمة وعلي ضحكا ضحكاً أشرقت الجنان من نور ضحكهما ، وفيهما أنزل الله سبحانه : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ .

وأنشدت فيه :

أنا مولى لفتى . . . أنزل فيه هل أتى

(172/795)

وعلى هذا القول تكون السورة مدنية ، وقد اختلف العلماء في نزول هذه السورة فقال مجاهد وقتادة : هي كلّها مدنية ، وقال الحسن وعكرمة : منها آية مكّية وهي قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ والباقي مدني ، قال الآخرون : هي كلّه مكّية والله أعلم .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ﴾ أي قريبة منهم ظلال أشجارها ، وفي نصب الدانية أوجه : أحدها العطف بها على قوله متكئين ، والثاني على موضع قوله : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً ﴾ ويرون دانية ، والثالثة على المدح ، وأتت دانية لأن الظلال جمع وفي قراءة عبد الله

ودانياً عليهم ليقدم الفعل ، وفي حرف أبيّ ودان رفع على الإستئناف .

﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ سخّرت وقرّبت ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها ﴿ تَذْلِيلاً ﴾ يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين ينالونها ويتناولونها كيف شاءوا على أي حال كانوا .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حامد بن محمد قال : حدّثنا موسى بن إسحاق قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : أرض الجنة من ورق وترابها مسك وأصول شجرها ذهب وفضّة وأفنانها لؤلؤ وزبرجد وياقوت ، والورق والثمر تحت ذلك فمن أكل قائماً لم يؤذه [ومن أكل جالساً لم يؤذه] ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه فذلك قوله سبحانه : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ قال المفسرون : أراد بياض الفضة في صفاء القوارير فصفاؤها صفاء الزجاج وهي من فضة .

(173/795)

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا مكّي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشر قال : حدّثنا سفيان وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا محمد بن حمدويه قال : حدّثنا محمود ابن آدم قال : حدّثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس في قوله

سبحانه : ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ﴾ قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم تر الماء من ورائها ، ولكن قوارير الجنة في بياض الفضة في صفاء القارورة .

وقال الكلبي والثمالي : إن الله سبحانه جعل قوارير كلّ قوم من تراب أرضهم وإن تراب الجنة من فضة فجعل من تلك الفضة قوارير يشربون فيها . ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ على قدر رتبهم لا يزيد ولا ينقص ، وقال الربيع والقرطبي : على قدر الكفّ ، وقراءة العامّة بفتح القاف والدال قدرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم .

وأخبرني بن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا أبو حامد المستملي قال : أخبرنا محمد بن حاتم الرقي قال : أخبرنا هشام قال : أخبرنا إسماعيل بن سالم عن الشعبي قال : سمعته قرأها قدروها بضم القاف وكسر الدال أي قدرت عليهم فلا زيادة فيها ولا نقصان . قال : وسمعت غيره قدّروها في أنفسهم فأتتهم على ما قدروا لا يزيد ولا ينقص .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ سوق ومطرب من غير لدع ، والعرب تستحب الزنجبيل قال شاعرهم :

كأن جنيا من الزنجبيل خالط . . . فاها وأريا مشورا

وقيل : هو عين في الجنّة توجد منها طعم الزنجبيل .

قال قتادة : شربها المقرّبون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة .

﴿ عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ قال قتادة : سلسة منقادة لهم يصرفونها حيث شاءوا ، وقال مجاهد : حديدة الجرية . يمان : طيبة الطعم والمذاق ، تقول العرب : هذا شراب سلس وسلسل وسلسبيل ، أبو العالية ومقاتل بن حيان : سميت سلسبيلا ؛ لأنها يتسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن الى أهل الجنان على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك ، ومعنى ﴿ تسمى ﴾ توصف ؛ لأن أكثر العلماء على أن سلسبيل صفة الإسم .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ وهو أن أدناهم يعني أهل الجنة منزلة ينظر من ملكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وقيل : هو استئذان الملائكة عليهم ، وقيل : ﴿ وَمُلْكاً ﴾ لا زوال له . قال أبو بكر الورّاق : ملكاً لا يتعقبه هلك ، وقال محمد بن علي الترمذي : يعني ملك التكوين إذا أراد شيئاً كان .

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ قرأ قتادة ومجاهد وابن سيرين وعون العقيلي وابن محيص وأبو جعفر ونافع والأعمش وحمزة وأيوب ﴿ عَالِيَهُمْ ﴾ بتسكين الياء على أنه اسم

موصوف بالفعل يقول علاهم فهو عاليهم ، واختاره أبو عبيد إعتباراً بقراءة ابن مسعود وابن وثاب وغيرهما (عاليتهم) ، وتفسير ابن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثياب يعلوها أفضل منها ، وقرأ الباقون بنصب الياء على الصفة أي فوقهم وهو نصب على الظرف ، وقيل : هو كقوله : ﴿ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 3] وقد مضى ، ذكرنا تقديم الصفة على الموصوف ، وقيل : معناه عالياً لهم ثيابها كقوله : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] ونحوها .

(175/795)

﴿ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ اختلف القراء فيهما فقرأ ابن كثير وابو بكر والمفضل خضر بالخفض على نعت السندس والاستبرق بالرفع على نعت الثياب ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضده واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، وقرأ نافع وأيوب وحفص كليهما بالرفع ، وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وخلف كليهما بالجر .

﴿ وحلوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ طاهر من الأقذار لم تدنسه الأيدي ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا قال أبو قلابة وإبراهيم : يعني أنه لا يصير نجساً ولكنه يصير رشحاً في أيديهم كريح المسك ، وأن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة

رجل من أهل الدنيا وأكلهم ونهمتهم ، فإذا أكل ما شاء سُقي شراباً طهوراً فيطهر بطنه ويصير ما أكل رشحاً يخرج من جلده أطيب ريحاً من المسك الأذفر ويضمر بطنه وتعود شهوته ، وقيل : يطهرهم من الذنوب والأدناس والأنجاس ويرشحهم للجنّة .

وقال جعفر : يطهّرهم به عن كلّ شيء سواه ، إذ لا طاهر من تدنّس شيء من الأكوان .

وقال أبو سليمان الداراني سقاهم ربّهم على حاشية بساط الود ، فأرواهم من صحبة الخلق وأراهم رؤية الحقّ ، ثمّ أقعدهم على منابر القدس وحيّاهم بتحيّة المزمّل وأمطر التأييد ، فسالت عليهم أودية الشوق فكفاهم هموم الفرقة وحيّاهم بسرور القربة .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا عبد الله محمّد بن علي الشاشي يقول : سمعت الحسن بن علوية الدامغاني يقول سئل أبو يزيد البسطامي عن قوله سبحانه ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ قال : طهّرهم به عن محبّة غيره ثم قال : إنّ لله شراباً ادّخره لأفاضل عباده يتولى سقيهم فإذا شربوا طاشوا وإذا طاشوا طاروا وإذا طاروا وصلوا وإذا وصلوا اتّصلوا فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

(176/795)

وسمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت طيّب الحمّال يقول : صلّيت خلف سهل بن عبد الله العتمة فقرأ قوله : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ فجعل يحرّك فمه كأنّه يمصّ شيئاً ، فلمّا فرغ من صلاته قيل له : إتشرب أم تقرأ ؟ قال : والله لو لم أجد لذّته عند قراءته كلذّتي عند شربه ما قرأته .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا هارون قال : حدّثا حازم بن يحيى الحلواني قال حدّثنا محمّد ابن عبد الله بن عمار الموصلي قال : حدّثنا عفيف بن سالم عن أيّوب بن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال : " جاء رجل من الحبشة إلى النبي (عليه السلام) عليه السلام يسأله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " سل واستفهم " .

فقال : يا رسول الله فضلتم علينا بالصوَر والألوان والنبوّة أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به وعملت بمثل ما عملت به أأني لكائن معك في الجنّة ؟ قال : " نعم " ثمّ قال النبي (عليه السلام) : " والذي نفسي بيده ليرى بياض الأسود في الجنّة مسيرة ألف عام " ، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قال لا إله إلاّ الله كان له بها عهد عند الله ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة " .

قال رجل : كيف نهلك بعدها يا رسول الله ؟

قال : " إنّ الرجل ليأتي يوم القيامة لو وضع على جبل لأثقله ، قال : فتقوم النعمة من نعم الله سبحانه فيكاد أن تستنفد ذلك كلّه إلاّ أن يتطوّل الله تعالى برحمته " قال : ثمّ نزلت ﴿ هَلْ

أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ إلى قوله ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ الآيات .

قال الحبشي : وإن عيني لتريان ما ترى عيناك في الجنّة .

قال النبي (عليه السلام) : " نعم " فاشتكى الحبشي حتى فاضت نفسه . فقال ابن عمر : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليّه في حفرته بيده " .

(177/795)

﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرآن تَنزِيلاً ﴾

قال ابن عبّاس : متفرّقاً آية بعد آية ولم ينزله جملة فلذلك قال (نزلنا) .

﴿ فاصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ يعني وكفوراً . الألف صلة ، وقال الفرّاء : أو معنى [. . . .] كقول الشاعر :

لا وجد ثكلى كما وجدت ولا . . . وجد عجول أضلها ربعُ

أو وجد شيخ أضلّ ناقته . . . يوم توافى الحجيج فاندفعوا

أراد : ولا وجد شيخ .

قال قتادة : الآثم : الكفور ، نهى الله سبحانه وتعالى نبيّه عن طاعة أبو جهل لما فُرضت على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ، وهو يومئذ بمكّة نهاه أبو جهل عنها وقال : لئن

رأيتُ محمداً يصلي لوطأت على عنقه . فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وقال مقاتل : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾ يعني من مشركي مكّة أنها تعني عتبة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت صنعت ما صنعت من أجل النساء فقد علمت قريش أن بناتي من أجملها بنات فأنا أزوّجك بنتي وأسوقها إليك بغير مهر وأرجع عن هذا الأمر .

﴿ أَوْ كَفُوراً ﴾ يعني الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد إن كنت صنعت من أجل المال فقد علمت قريش أني من أكثرهم مالا فأنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾ أنها تعني عتبة ﴿ أَوْ كَفُوراً ﴾ تعني ولا كفوراً وهو الوليد بن المغيرة .

﴿ واذكر اسم رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ﴾ تعني صلاتي العشاء ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ يعني التطوّع ﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ ﴾ أمامهم وقدّامهم كقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف : 79] وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ [المؤمنون : 100] .

(178/795)

﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ وهو يوم القيامة ، ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ ﴾ . قوّينا وحكمنا . ﴿ أَسْرَهُمْ ﴾ قال مجاهد وقتادة ومقاتل : خلقهم ، وهي رواية عطية عن ابن عباس يقال : رجل حسن الاسّر أي الخلق ، وفرس شديد الأسّر ، وقال أبو هريرة والربيع : مفاصلهم ، وقال الحسن : أوّصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب وروى عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه ﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ قال : الشرج وأصل الأسر الشكّ يقال : ما أحسن ما أسَر قتبه أي شدّه ، ومنه قولهم : خُذه بأسره إذا أرادوا أن يقولوا : هو لك كلّه كأنهم أرادوا بعكة وشدة لم تفتح ولم تنقص منه . قال لبيد :

ساهم الوجه شديد اسّره . . . مغبط الحارك محبوك الكفل

وقال الأخطل :

من كلّ مجتنب شديد أسره . . . سلس القياد تخاله مختالا

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً * إِنَّ هذه ﴾ السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي وسيلة بالطاعة . ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ . بالياء ابن كثير وأبو عمرو ومثله روى هشام عن أهل الشام ، غيرهم بالتاء . ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ لأن الأمر إليه لا إليكم وفي أمره عند الله إلاّ ما شاء الله ، ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ والظالمين ﴾ ، وقرأ أبان بن عثمان والظالمون . ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 93 . 107 ﴾

وقال الزمخشرى :

سورة الإنسان

مدنية ، وآياتها 31 [نزلت بعد الرحمن] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإنسان (76) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1)

هل بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة ، والأصل : أهل ، بدليل قوله :

أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم

فالمعنى : أقد أتى ؟ على التقرير والتقريب جميعا ، أى : أتى على الإنسان قبل زمان قريب

حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ

فيه شَيْئاً مَذْكُوراً أى كان شيئا منسيا غير مذكور نطفة في الأصلاب والمراد بالإنسان :

جنس بنى آدم ، بدليل قوله إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ . حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ طائفة من الزمن

الطويل الممتد . فإن قلت : ما محل لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ؟ قلت : محله النصب على الحال

من الإنسان ، كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور . أو الرفع على الوصف لحين ، كقوله يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وعن بعضهم : أنها تليت عنده فقال : ليتها تمت ، أراد : ليت تلك الحالة تمت ، وهي كونه شيئا غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف .

(180/795)

[سورة الإنسان (76) : آية 2]

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2)

نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ كبرمة أعشار «1» ، وبرد أكياش : وهي ألفاظ مفردة غير جموع ، ولذلك وقعت صفات للأفراد . ويقال أيضا : نطفة مشج ، قال الشماخ :

طوت أحشاء مرتجة لوقت على مشج سلالته مهين «2»

ولا يصحّ أمشاج أن يكون تكسيرا له ، بل هما مثلان في الإفراد ، لوصف المفرد بهما . ومشجه ومزجه : بمعنى . والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماءان . وعن ابن مسعود : هي عروق النطفة . وعن قتادة : أمشاج ألوان وأطوار ، يريد : أنها تكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة نَبْتَلِيهِ في موضع الحال ، أى : خلقناه مبتلين له ، بمعنى : مريدين ابتلاءه ، كقولك : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، تريد : قاصدا به الصيد غدا . ويجوز أن يراد :

ناقلين له من حال إلى حال ، فسمى ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة . وعن ابن عباس : نصرفه في بطن أمّه نطفة ثم علقة . وقيل : هو في تقدير التأخير ، يعنى : فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه ، وهو من التعسف .

[سورة الإنسان (76) : آية 3]

إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3)

شاكرا وكفورا : حالان من الهاء في هديناه «3» ، أى : مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعا . أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع : كان معلوما منه «4» أنه يؤمن أو يكفر ، لإلزام الحجة . ويجوز أن يكونا حالين من السبيل ، أى : عرفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا كقوله وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز . وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة

---

(1) . قوله «كبرمة أعشار» في الصحاح «برمة أعشار» إذا انكسرت قطعا قطعا وقلب أعشار : جاء على بناء الجمع ، كما قالوا : رمح أقصاد اه ، ولم يذكر أكباش ولا مادته فيه ، فلينظر في غيره . (ع)

(2) . للشماخ. ورتجت الباب وأرتجته : إذا أغلقته . والرتاج : الباب . ومشج الشيء : مزجه . والمشج - كسبب - : الممزوج. ومثله : أمشاج ، فهو مفرد على صورة الجمع كأخلاق . وقيل : جمع مشج . والسلالة - في الأصل : ما ينسل من بين الأصابع من الطين

المائع . والمهين : الحقير ، يصف امرأة قبلت المنى في فرجها وطوت قبلها عليه . ومرتجة صفة للأحشاء : أى مغلقة إلى وقت تمام الحمل . على منى مختلط من منى الرجل ومنيها ، سلالته :

أى ما انسل وتدفق منه : مهين : حقير . وفعيل : يوصف به المذكر والمؤنث ، والواحد والمتعدد .

(3) . قال محمود «هما حالان من الهاء في هديناه . . . الخ» قال أحمد : هذا من تحريفه المنكر وهو عند أهل السنة على ظاهره . [. . . . .]

(4) . قال محمود : «أو يكون معناه إنا دعوناه إلى الايمان كان معلوما منه . . . الخ» قال أحمد : واستحسانه لقراءة أبى السمال لتخيله أن في التقسيم إشعارا بغرضه الفاسد ، وليس كذلك ، فان التقسيم يحتمل الجزاء إما شاكرا فمناب ، وإما كفورا فمعاقب ، ويرشد إليه ذكر جزاء الفريقين بعد .

(181/795)

في إِمَّا وهي قراءة حسنة . والمعنى : أما شاكرا فبتوفيقنا ، وأما كفورا فبسوء اختياره «1»

[سورة الإنسان (76) : آية 4]

إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (4)

ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد . وقرئ : سلاسل ، غير منون . وسلاسلا ، بالتنوين «2» . وفيه وجهان : أحدهما أن تكون هذه النون بدلا من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف . والثاني : أن يكون صاحب القراءة به ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 5 إلى 10]

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (5) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً (9)

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)

الْأَبْرارَ جمع برّ أو بارّ ، كرب وأرباب ، وشاهد وأشهاد . وعن الحسن : هم الذين لا يؤذون الذرّ «3» . والكأس : الزجاجة إذا كانت فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها : كأسا مِزاجُها ما تمزج به كافُوراً ماء كافور ، وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور «4» ورائحته

(1) . قوله «فيسوء اختياره» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يخلق الشر ، أما عند أهل السنة فهو خالق الخير والشر ، كالشكر والكفر . (ع)

(2) . قال محمود : «قرئ بتنوين سلاسل فوجهه أن تكون هذه النون بدلا من ألف الإطلاق . . . الخ» قال أحمد : وهذا من الطراز الأول لأن معتقده أن القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في تفاصيلها ، وأنها موكولة إلى اجتهاد القراء واختيارهم بمقتضى نظرهم كما مر له ، وطم على ذلك ها هنا فجعل تنوين سلاسل من قبيل الغلط الذي يسبق إليه اللسان في غير موضعه لتمرنه عليه في موضعه ، والحق أن جميع الوجوه المستفيضة منقولة تواترا عنه صلى اللّه عليه وسلم ، وتنوين هذا على لغة من يصرف في نثر الكلام جميع ما لا ينصرف إلا أفعل ، والقراآت مشتملة على اللغات المختلفة ، وأما قوارير قوارير : فقرئ بترك تنوينهما وهو الأصل ، وتنوين الأول خاصة بدلا من ألف الإطلاق لأنها فاصلة ، وتنوين الثانية كالأولى اتباعا لها ، ولم يقرأ أحد بتنوين الثانية وترك تنوين الأولى ، فانه عكس أن يترك تنوين الفاصلة مع الحاجة إلى المجانسة ، وتنوين غيرها من غير حاجة .

(3) . قوله «لا يؤذون الذر» في الصحاح «الذر» النمل . (ع)

(4) . قال محمود : «كافورا عين في الجنة اسمها كذلك في لون الكافور ورائحته وبرده . . . الخ» قال أحمد : هذا الجواب على القولين الأولين ، وأما على القولين الآخرين وهو أن العين

بدل من الكأس . ومعنى مزاجها بالكافور :

إما اشتمالها على أوصافه ، وإما أن يكون الكافور المعهود كما تقدم ، فلا يتم الجواب المذكور ، فيجاب عن السؤال بأنه لما ذكر الشراب أولا باعتبار الوقوع في الوجود ، ذكره ثانيا مطمئنا للالتذاذ به ، وكأنه قال : فيشربون منها فيلتذون بها ، وعليه حمله أبو عبيدة .

(182/795)

وبرده . وعَيْناً بدل منه . وعن قتادة : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك . وقيل : تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده . فكأنها مزجت بالكافور . وعَيْناً على هذين القولين : بدل من محل مِنْ كَأْسٍ على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل : يشربون فيها خمرا خمر عين . أو نصب على الاختصاص . فإن قلت : لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أوّلا ، وبحرف الإلصاق آخرا ؟ قلت : لأنّ الكأس مبدأ شربهم وأوّل غايته ، وأما العين فبها يمزجون شرابهم ، فكان المعنى : يشرب عباد اللّه بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل يُفَجِّرُونَها يجرونها حيث شاءوا من منازلهم تَفْجِيراً سهلا لا يمتنع عليهم يُوفُونَ جواب من عسى ، يقول :

ما لهم يرزقون ذلك ، والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات ، لأنّ من

وفي بما أوجبه هو على نفسه لوجه اللّه كان بما أوجبه اللّه عليه أو في مُسْتَطِيراً فاشيا منتشرا بالغا أقصى المبالغ ، من استطار الحريق ، واستطار الفجر . وهو من طار ، بمنزلة استنفر من نفر عَلى حُبِّهِ الضمير للطعام ، أى : مع اشتهائه والحاجة إليه . ونحوه وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ، لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وعن الفضيل بن عياض : على حب اللّه وَأَسِيراً عن الحسن : كان رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : أحسن إليه ، فيكون عنده اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وعند عامة العلماء : يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات . وعن قتادة : كان أسيرهم يومئذ المشرك ، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه . وعن سعيد بن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وعن أبى سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون . وسمى رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم الغريم : أسيرا ، فقال «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك» إِنَّما نُطْعِمُكُمْ على إرادة القول . ويجوز أن يكون قولا باللسان منعا لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر ، لأن إحسانهم مفعول لوجه اللّه ، فلا معنى لمكافأة الخلق ، وأن يكون قولهم لهم لطفا وتفقيها وتنبيها ، على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص للّه . وعن عائشة رضى اللّه عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ، ثم تسأل الرسول ما قالوا ؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند اللّه .

ويجوز أن يكون ذلك بيانا وكشفا عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئا . وعن مجاهد :

(183/795)

أما إنهم ما تكلموا به ، ولكن علمه اللّه منهم فأثنى عليهم . والشكور والكفور : مصدران كالشكر والكفر إِنَّا نَخافُ يحتمل إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم ، لا لإرادة مكافأتكم ، وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب اللّه تعالى على طلب المكافأة بالصدقة .

ووصف اليوم بالعبوس . مجاز على طريقين : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء ، كقولهم :

نهارك صائم : روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، وأن يشبه في شدته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل : والقمطرير : الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه . قال الزجاج : يقال : اقمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وزمت بأنفها «1» ، فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة «2»

واصطليت الحروب في كلّ يوم باسل الشّرّ قمطرير الصّباح «3»

[سورة الإنسان (76) : الآيات 11 إلى 22]

فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (13) وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14) وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15)

قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (16) وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19) وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20)

عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (21) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22)

---

(1) . قوله «وجمعت قطريها وزمت بأنفها» القطر : الناحية والجانب . وزق الطائر فرخه : أطعمه بفيه .

والزقرة : ترقيص الطفل ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «قال أسد بن ناعصة» من النعص : وهو التمايل . (ع)

(3) . لأسد بن ناعصة . وصلى النار واصطلاها إذا ذاق شدة حرها وتدفأ بها ، فشبه

الحرب بالنار على طريق المكنية ، والاصطلاء تخييل ، والباسل : الشجاع إذا اشتد كلوحه . والقمطرير : الشديد العيوس الذي يجمع ما بين عينيه ، يقال : اقمطرت الناقة ، إذا جمعت قطريها فرفعت ذنبها وزمت بأنفها ، فهو من القطر ، والميم زائدة ، ووصف الشر والصياح بذلك مجاز .

(184/795)

وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً أى : أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرورا في القلوب ، وهذا يدل على أنّ اليوم موصوف بعبوس أهله بِما صَبَرُوا بصبرهم على الإيثار . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أنّ الحسن والحسين مرضا ، فعادهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في ناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن ، لو نذرت على ولدك «1» ، فنذر علىّ وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما : أن يصوموا ثلاثة أيام ، فشفيا وما معهم شيء ، فاستقرض علىّ من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم ، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال :

السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين ، أطعمونى أطعمكم اللّه من

موائد الجنة ، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صياما ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم ، فآثروه ، ووقف عليهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أخذ على رضى اللّه عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال : ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم ، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها . فساءه ذلك ، فنزل جبريل وقال : خذها يا محمد هنأك اللّه في أهل بيتك فأقرأه السورة . فإن قلت : ما معنى ذكر الحرير مع الجنة ؟ قلت : المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدّى إليه من الجوع والعرى بستانا فيه مأكل هنىّ ، وحريرا فيه ملبس بهىّ . يعنى : أن هواءها معتدل ، لا حرّ شمس يحمى ولا شدّة برد تؤذى . وفي الحديث : هواء الجنة سجسج «2» ، لا حرّ ولا قرّ . وقيل : الزمهرير القمر .

وعن ثعلب : أنه في لغة طيئ . وأنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزّمهرير ما زهر «3»

---

(1) . أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن بهرام عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عباس ومن رواية الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس في قوله تعالى يُوفُونَ بِالنَّذْرِ – الآية فذكر تمامه . وزاد في أثنائه أشعارا لعلى وفاطمة . قال الحكيم الترمذي في الرابع والأربعين : ومن الأحاديث التي تنكرها القلوب حديث رووه عن مجاهد عن ابن عباس فذكره

بشعره. ثم قال: هذا حديث مزوق مفتعل لا يروج إلا على أحمق جاهل. ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق أبى عبد اللّه السمرقندي. عن محمد بن كثير عن الأصبغ بن نباتة. قال: مرض الحسن والحسين. إلى آخره فذكره بشعره وزيادة ألفاظ. ثم قال: وهذا لا نشك في وضعه.

(2). قوله «هواء الجنة سجسج» تفسيره ما بعده، كما يفيده الصحاح. (ع)

(3). أى: ورب ليلة ظلامها قد تراكم واختلط وكثر، قطعتها وأمضيتها بالسير، والحال أن الزمهرير ما زهر أى: ما ظهر وأضاء. والزمهرير في لغة طيئ: القمر، وهذه الحال مؤكدة لاعتكار الظلام.

(185/795)

والمعنى: أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها شمس وقمر. فإن قلت: وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها علام عطفت؟ قلت: على الجملة التي قبلها، لأنها في موضع الحال من المجزيين، وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم في عليهم، إلا أنها اسم مفرد، وتلك جملة في حكم مفرد تقديره: غير رائين فيها شمسا ولا زمهريرا، ودانية عليهم ظلالها، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم، كأنه قيل: وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد

عن الحرّ والقرّ ودنوّ الظلال عليهم وقرئ : ودانية ، بالرفع ، على أن ظلالها مبتدأ ، ودانية خبر ، والجملة في موضع الحال ، والمعنى :

لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، والحال أن ظلالها دانية عليهم ، ويجوز أن تجعل مُتَّكِئِينَ ولا يَرَوْنَ ودانِيَةً كلها صفات لجنة . ويجوز أن يكون وَدانِيَةً معطوفة على جنة ، أى :

وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، على أنهم وعدوا جنتين ، كقوله وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ لأنهم وصفوا بالخوف : إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا . فإن قلت : فعلام عطف وَذُلِّلَتْ ؟ قلت : هي - إذا رفعت وَدانِيَةً - : جملة فعلية معطوفة على جملة ابتدائية ، وإذا نصبتها على الحال ، فهي حال من دانية ، أى : تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها لهم . أو معطوفة عليها على : ودانية عليهم ظلالها ، ومذللة قطوفها ، وإذا نصبت وَدانِيَةً على الوصف ، فهي صفة مثلها ، ألا ترى أنك لو قلت : جنة ذللت قطوفها : كان صحيحا ، وتذليل القطوف : أن تجعل ذللا لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا . أو تجعل ذليلة لهم خاضعة متقاصرة ، من قولهم : حائط ذليل إذا كان قصيرا قَوارِيرَا قَوارِيرَا قرئا غير منونين ، وبتنوين الأول ، وبتنوينهما . وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق ، لأنه فاصلة ، وفي الثاني لإتباعه الأوّل ، ومعنى قوارير من فِضَّةٍ أنها مخلوقة من فضة ، وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها . فإن قلت : ما معنى كانت ؟ قلت : هو من «يكون» في قوله كُنْ فَيَكُونُ أى : تكوّنت قوارير ، بتكوين اللّه تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن ،

الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين . ومنه كان في قوله : كان مزاجها كافورا . وقرئ : قوارير من فضة ، بالرفع على : هي قوارير قَدَّرُوها صفة لقوارير من فضة . ومعنى تقديرهم لها : أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم ، فجاءت كما قدّروا . وقيل : الضمير للطائفين بها ، دل عليهم قوله ويُطافُ عَلَيْهِمْ على أنهم قدروا شرابها على قدر الري ، وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز . وعن مجاهد : لا تفيض ولا تغيض . وقرئ : قدّروها ، على البناء للمفعول . ووجهه أن يكون من قدر ، منقولا من قدر . تقول : قدرت الشيء وقدرنيه فلان : إذا جعلك قادرا له .

ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاءوا . وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا ، سميت العين زنجبيلا لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه .

(186/795)

قال الأعشى :

كأنّ القرنفل والزّنجبيل باتا بفيها وأريا مشورا «1»

وقال المسيب بن علس «2»

وكأنّ طعم الزّنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر «3»

وسَلْسَبِيلًا لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها ، يعنى : أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة . يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . ودلت على غاية السلاسة . قال الزجاج :

السلسبيل في اللغة : صفة لما كان في غاية السلاسة . وقرئ : سلسبيل ، على منع الصرف ، لاجتماع العلمية والتأنيث ، وقد عزوا إلى على بن أبى طالب رضى اللّه عنه أن معناه سل سبيلا إليها ، وهذا غير مستقيم على ظاهره . إلا أن يراد أن جملة قول القائل : سل سبيلا ، جعلت علما للعين ، كما قيل : تأبط شرا ، وذرّى حبا ، وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح ، وهو مع استقامته في العربية تكلف وابتداع ، وعزوه إلى مثل على رضى اللّه عنه أبدع .

وفي شعر بعض المحدثين :

سل سبيلا فيها إلى راحة النّفس براح كأنّها سلسبيل «4»

وعَيْناً بدل من زَنْجَبِيلًا وقيل : تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه . أو يخلق اللّه طعمه فيها . وعَيْناً على هذا القول : مبدلة من كَأْساً كأنه قيل : ويسقون فيها كأسا كأس عين . أو منصوبة على الاختصاص . شبهوا في حسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم

ومنازلهم باللؤلؤ المنثور

---

(1) . للأعشى ، شبه رائحة فمها وطعمه بالقرنفل والزنجبيل ، لأن العرب تستطيبهما وتستلذهما ، وشبه طعم ريقها بطعم الأرى : وهو العسل . والمشور : اسم مفعول ، من شاره شورا إذا جناه . والشور : موضع تعسل فيه النحل .

(2) . قوله «المسيب بن علس» العلس في الأصل : القراد الضخم . وبه سمى الرجل ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . للمسيب بن علس ، وإجراء التشبيه هنا في طعم الزنجبيل يفيد أنه في البيت السابق كذلك ، وضمير به للفم وإذ ذقته : أى حين ذقت ريقه ، فهو مجاز ، وسلافة الخمر : أول ما يعصر من العنب ويتخمر ، وتشبه طعم الريق بهما في مطلق الاستلذاذ لا يفيد أن فيه حرافة كما فيهما . وسلافة : عطف على طعم . ويجوز أن ضمير «به» للريق وهو المذوق ، ومعنى كون السلافة به : أنها ممزوجة فيه . [. . . . .]

(4) . اطلب طريقا فيها إلى راحة نفسك ، براح : أى بخمر . والسلسبيل والسلسال والسلسل : عين في الجنة سهلة الانحدار في الحلق ، سلسة المساغ . وزيدت الباء مبالغة في الدلالة على السلاسة والسهولة . وشبه الخمر بها لما هو معلوم وثابت بين الناس أن شراب الجنة أعلى الشراب .

وعن المأمون : أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ . فنظر إليه منثورا على ذلك البساط ، فاستحسن المنظر وقال : للّه درّ أبى نواس ، وكأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأنّ صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذّهب «1»

وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه ، لأنه أحسن وأكثر ماء رَأَيْتَ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم ، كأنه قيل : وإذا أوجدت الرؤية ، ثم . ومعناه : أن بصر الرائي أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير . وثَمَّ في موضع النصب على الظرف ، يعنى في الجنة ومن قال : معناه «ما ثم» فقد أخطأ ، لأن «ثم» صلة لما ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة كَبِيراً واسعا وهنيئا . يروى : أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه . وقيل لا زوال له . وقيل : إذا أرادوا شيأ كان . وقيل : يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم . قرئ : عاليهم ، بالسكون ، على أنه مبتدأ خبره «2» ثِيابُ سُندُسٍ أى ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس . وعاليهم . بالنصب ، على أنه حال من الضمير في يَطُوفُ عَلَيْهِمْ أو في حَسِبْتَهُمْ أى يطوف عليهم ولدان

عاليا للمطوف عليهم ثياب . أو حسبتهم لؤلؤا عاليا لهم ثياب . ويجوز أن يراد : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب . وعاليتهم : بالرفع والنصب على ذلك . وعليهم . وخضر . وإستبرق : بالرفع ، حملا على الثياب بالجر على السندس .

وقرئ : وإستبرق ، نصبا في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمى ، وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ، تقول : الإستبرق ، إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علما لهذا الضرب من الثياب . وقرئ : وإستبرق ، بوصل الهمزة والفتح : على أنه مسمى باستفعل من البريق ، وليس بصحيح أيضا ، لأنه معرب مشهور تعريبه ، وأنّ أصله : استبره وَحُلُّوا عطف على وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ . فإن قلت : ذكر ها هنا أنّ أساورهم من فضة ، وفي موضع آخر أنها من

---

(1) . لأبى نواس ، يصف الخمر بأن حبابها الذي يعلوها كالقوارير يشبه الدر ، وبأنها تشبه الذهب ، وهو من التشبيه المركب . وحكى أنه لما زفت بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون بن الرشيد كان على بساط منسوج بالذهب ونثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ ، فنظر إليه وقال : للّه در أبى نواس حيث قال : كأن صغرى . . . البيت ، وقد عيب عليه استعمال صغرى وكبرى مجردتين من أل والاضافة ، مع أنهما عن أفعل التفضيل ، وهو إذا جرد وجب تذكيره .

(2) . قال محمود : «قرئ بالسكون على أنه مبتدأ خبره ثياب . . . الخ» قال أحمد : في

هذا الوجه الآخر نظر ، فانه يجعله داخلا في مضمون الحسبان ، وكيف يكون ذلك وهم لابسون السندس حقيقة ، لا على وجه التشبيه باللؤلؤ ، بخلاف كونهم لؤلؤا ، فانه على طريق التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ إلى أن يحسبوا لؤلؤا . ويحتمل أن يصحح هذا الوجه لكن بعد تكلف مستغنى عنه بالأول .

(188/795)

ذهب . قلت : هب أنه قيل : وحلوا أساور من ذهب ومن فضة ، وهذا صحيح لا إشكال فيه ، على أنهم يسوّرون بالجنسين : إما على المعاقبة ، وإما على الجمع ، كما تزاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلي وتجمع بينها ، وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران : سوار من ذهب ، وسوار من فضة شَرَاباً طَهُوراً ليس برجس كخمر الدنيا ، لأنّ كونها رجسا بالشرع لا بالعقل ، وليست الدار دار تكليف . أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدى الوضرة «1» ، وتدوسه الأقدام الدنسة ، ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها . أو لأنه لا يئول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقا من أبدانهم له ريح كريح المسك . أى : يقال لأهل الجنة إِنَّ هذا وهذا إشارة إلى ما تقدّم من عطاء اللّه لهم : ما جوزيتم به على أعمالكم وشكر به سعيكم ، والشكر مجاز .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 23 إلى 26]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26)

تكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لإنّ : تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص اللّه بالتنزيل ، ليتقرّر في نفس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أى وجه نزل إلا حكمة وصوابا ، كأنه قيل : ما نزّل عليك القرآن تنزيلا مفرقا منجما إلا أنا لا غيرى ، وقد عرفتني حكيما فاعلا لكل ما أفعله بدواعى الحكمة ، ولقد دعتني حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمكافة والمصابرة ، وسأنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح ، وتأخيره نصرتك على أعدائك من أهل مكة ، ولا تطع منهم أحدا قلة صبر منك على أذاهم وضجرا من تأخر الظفر ، وكانوا مع إفراطهم في العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونه إلى أن يرجع عن أمره ويبذلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم إن أجابهم . فإن قلت : كانوا كلهم كفرة ، فما معنى القسمة في قوله آثِماً أَوْ كَفُوراً ؟ قلت : معناه ولا تطع منهم راكبا لما هو إثم داعيا لك إليه . أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه ، لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر ، أو غير إثم ولا كفر ، فنهى أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث . وقيل : الآثم

عتبة ، والكفور :

الوليد ، لأنّ عتبة كان ركابا للمآثم ، متعاطيا لأنواع الفسوق ، وكان الوليد غالبا في الكفر

---

(1) . قوله «فتمسه الأبدى الوضرة» من الوضر : وهو الدرن والدسم . أفاده الصحاح .

(ع)

(189/795)

شديد الشكيمة في العتوّ . فإن قلت : معنى أو : ولا تطع أحدهما ، فهلا جيء بالواو ليكون نهيا عن طاعتهما جميعا ؟ قلت : لو قيل : ولا تطعهما ، جاز أن يطيع أحدهما ، وإذا قيل :

لا تطع أحدهما ، علم أنّ الناهي عن طاعة أحدهما : عن طاعتهما جميعا أنهى . كما إذا نهى أن يقول لأبويه : أف ، علم أنه منهى عن ضربهما على طريق الأولى وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ودم على صلاة الفجر والعصر وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وبعض الليل فصل له . أو يعنى صلاة المغرب والعشاء ، وأدخل مِنَ على الظرف للتبعيض ، كما دخل على المفعول في قوله لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ . وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا وتهجد له هزيعا طويلا «1» من الليل : ثلثيه ، أو نصفه ، أو ثلثه .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 27 إلى 28]

إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27) نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28)

إِنَّ هؤُلاءِ الكفرة يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ يؤثرونها على الآخرة ، كقوله بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا . وَراءَهُمْ قدّامهم أو خلف ظهورهم لا يعبئون به يَوْماً ثَقِيلًا استعير الثقيل لشدّته وهوله ، من الشيء الثقيل الباهظ لحامله . ونحوه : ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الأسر : الربط والتوثيق . ومنه : أسر الرجل إذا أوثق بالقدّ وهو الإسار . وفرس مأسور الخلق . وترس مأسور بالعقب «2» . والمعنى : شددنا توصيل عظامهم بعضها ببعض ، وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب . ومثله قولهم : جارية معصوبة الخلق ومجدولته وَإِذا شِئْنا أهلكناهم وَبَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ فِي شدّة الأسر ، يعنى : النشأة الأخرى . وقيل : معناه : بدلنا غيرهم ممن يطيع . وحقه أن يجيء بإن ، لا بإذا ، كقوله وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 29 إلى 31]

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31)

---

(1) . قوله «و تهجد له هزيعا طويلا» في الصحاح : مضى هزيع من الليل ، أى : طائفة .

(ع)

(2) . قوله «و ترس مأسور بالعقب» في الصحاح: العقب - بالتحريك - : العصب : الذي تعمل منه الأوتار ، الواحدة عقبة ، تقول منه : عقبت السهم والقدح والقوس : إذا لويت شيئا منه عليه . (ع)

(190/795)

هذِهِ إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة فَمَنْ شاءَ فمن اختار الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخاذ السبيل إلى اللّه عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة وَما تَشاؤُنَ الطاعة «1» إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ بقسرهم عليها «2» إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً بأحوالهم وما يكون منهم حَكِيماً حيث خلقهم مع علمه بهم . وقرئ : تشاؤن ، بالتاء . فإن قلت : ما محل أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ؟ قلت النصب على الظرف ، وأصله : إلا وقت مشيئة اللّه ، وكذلك قراءة ابن مسعود : إلا ما يشاء اللّه . لأنّ ما مع الفعل كأن معه يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ هم المؤمنون ونصب الظَّالِمِينَ بفعل يفسره . أعدّ لهم ، نحو : أوعد وكافأ ، وما أشبه ذلك . قرأ ابن مسعود : وللظالمين ، على : وأعدّ للظالمين وقرأ ابن الزبير : والظالمون على الابتداء ، وغيرها أولى لذهاب الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها ، مع مخالفتها للمصحف .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على اللّه جنة وحريرا» «3» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 665.676﴾

---

(1) . قال محمود : «معناه وما تشاؤن الطاعة إلا أن يشاء اللّه . . . الخ» قال أحمد : وهذا من تحريفاته للنصوص وتسوره على خزائن الكتاب العزيز ، كدأب الشطار واللصوص ، فلنقطع يد حجته التي أعدها ، وذلك حكم هذه السرقة وحدها ، فنقول : اللّه تعالى نفى وأثبت على سبيل الحصر الذي لا حصر ولا نصر أوضح منه . ألا ترى أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النفي والإثبات ، لأن هذا النظم أعلق شيء بالحصر وأدله عليه ، فنفى اللّه تعالى أن يفعل العبد شيئا له فيه اختيار ومشيئة ، إلا أن يكون اللّه تعالى قد شاء ذلك الفعل ، فمقتضاه ما لم يشأ اللّه وقوعه من العبد لا يقع من العبد ، وما شاء منه وقوعه وقع ، وهو رديف : ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، وانظر إدخاله القسر في تعطيل الآية لا تأويلها كيف ناقض به ، فان معنى الآية عنده : أن مشيئة العبد الفعل لا تكون إلا إذا قسره اللّه عليها ، والقسر مناف للمشيئة ، فصار الحاصل أن مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت ، فإذا لا مشيئة للعبد البتة ولا اختيار ، وما هو إلا فر من إثبات قدرة للعبد غير مؤثرة ومشيئة غير خالقة ، ليتم له إثبات قدرة ومشيئة مؤثرين ، فوقع في سلب القدرة والمشيئة أصلا ورأسا ، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال : انحرف بالكلية إلى الطرف الأقصى متحيزا إلى الجبر ، فيا بعد ما توجه بسوء نظره . واللّه الموفق .

(2) . قوله «إلا أن يشاء اللّه أن يقسرهم عليها» إرادته تعالى تستلزم وجود المراد ، ولكن لا تستلزم كون العبد مقسورا ومجبورا على الفعل إلا عند المعتزلة . وأما أهل السنة فقد أثبتوا للعبد للكسب ، مع كون اللّه هو الخالق لفعل عندهم ، وتفصيل ذلك في التوحيد .

(ع)

(3) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(191/795)

وقال الماوردى :

سورة الإنسان

قال ابن عباس ومقاتل والكلبي ويحيى بن سلام : هي مكية ، وقال آخرون فيها مكي من قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزّلنا عليك القرآنَ تنزيلاً ﴾ إلى آخرها وما تقدم مدني .

قوله تعالى : ﴿ هلْ أتَى على الإنسان حينٌ من الدهْرِ لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ﴾

في قوله " هل " وجهان :

أحدهما : أنها في هذا الموضع بمعنى قد ، وتقدير الكلام : " قد أتى على الإنسان " الآية ، على معنى الخبر ، قاله الفراء وأبو عبيدة .

الثاني : أنه بمعنى " أتى على الإنسان " الآية ، على وجه الاستفهام ، حكاه ابن عيسى .

وفي هذا " الإنسان " قولان :

أحدهما : أنه آدم ، قاله قتادة والسدي وعكرمة ، وقيل إنه خلقه بعد خلق السموات والأرض ، وما بينهما في آخر اليوم السادس وهو آخر يوم الجمعة .

الثاني : أنه كل إنسان ، قاله ابن عباس وابن جريج .

وفي قوله تعالى : ﴿ حينٌ من الدهر ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه أربعون سنة مرت قبل أن ينفخ فيه الروح ، وهو ملقى بين مكة والطائف ، قاله ابن عباس في رواية أبي صالح عنه .

الثاني : أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ، ثم نفخ فيه الروح ، وهذا قول ابن عباس في رواية الضحاك .

الثالث : أن الحين المذكور ها هنا وقت غير مقدر وزمان غير محدود ، قاله ابن عباس أيضاً .

وفي قوله ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ وجهان :

أحدهما : لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق ، وإن كان عند الله شيئاً مذكوراً ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أي كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً ، لا يذكر ولا يعرف ، ولا يدري ما اسمه ، ولا ما يراد به ، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً ، قاله الفراء ، وقطرب وثعلب .

وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ، لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيواناً .

﴿ إنّا خلقْنا الإنسانَ من نُطْفَةٍ أمْشاجٍ ﴾ يعني بالإنسان في هذا الموضع كل إنسان من بني آدم في قول جميع المفسرين .

وفي النطفة قولان :

(192/795)

أحدهما : ماء الرجل وماء المرأة إذا اختلطا فهما نطفة ، قاله السدي .

الثاني : أن النطفة ماء الرجل ، فإذا اختلط في الرحم وماء المرأة صارا أمشاجاً .

وفي الأمشاج أربعة أقاويل :

أحدها : أنه الأخلاط ، وهو أن يختلط ماء الرجل بماء المرأة ، قاله الحسن وعكرمة ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

يطرحن كل مُعْجَل نشاجِ . . . لم يُكْسَ جلداً في دم أمشاج .

الثاني : أن الأمشاج الألوان ، قاله ابن عباس ، وقال مجاهد :

نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وصفراء .

روى سعيد عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما سبق أو علا فمنه يكون الشبه " .

الثالث : أن الأمشاج : الأطوار ، وهو أن الخلق يكون طوراً نطفة ، وطوراً علقة ، وطوراً مضغة ، ثم طوراً عظماً ، ثم يكسى العظم لحماً ، قاله قتادة .

الرابع : أن الأمشاج العروق التي تكون في النطفة ، قاله ابن مسعود .

وفي قوله ﴿ نَبْتَلِيه ﴾ وجهان :

أحدهما : نختبره .

الثاني : نكلفه بالعمل .

فإن كان معناه الاختبار ففيما يختبر به وجهان :

أحدهما : نختبره بالخير والشر ، قاله الكلبي .

الثاني : نختبر شكره في السراء ، وصبره في الضراء ، قاله الحسن .

ومن جعل معناه التكليف ففيما كلفه وجهان :

أحدهما : العمل بعد الخلق ، قاله مقاتل .

الثاني : الدين ، ليكون مأموراً بالطاعة ، ومنهياً عن المعاصي .

﴿ فَجَعَلْناه سميعاً بصيراً ﴾ ويحتمل وجهين :

أحدهما : أي يسمع بالأذنين ويبصر بالعينين أمتناناً بالنعمة عليه .

الثاني : ذا عقل وتمييز ليكون أعظم في الامتنان حيث يميزه من جميع الحيوان .

وقال الفراء ومقاتل : في الآية تقديم وتأخير أي فجعلناه سميعاً بصيراً أن نبتليه ، فعلى هذا التقديم في الكلام اختلفوا في ابتلائه على قولين :

أحدهما : ما قدمناه من جعله اختباراً أو تكليفاً .

الثاني : لنبتليه بالسمع والبصر ، قاله ابن قتيبة .

(193/795)

﴿ إنّا هَدَيْناه السّبيلَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : سبيل الخير والشر ، قاله عطية .

الثاني : الهدى من الضلالة ، قاله عكرمة .

الثالث : سبيل الشقاء والسعادة ، قاله مجاهد .

الرابع : خروجه من الرحم ، قاله أبو صالح والضحاك والسدي .

ويحتمل خامساً : سبيل منافِعِه ومضارِّه التي يهتدي إليها بطبعه ، وقيل : كمال عقله .

﴿ إمّا شاكراً وإمّا كَفوراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إما مؤمناً وإما كافراً ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : إما شكوراً للنعمة وإما كفوراً بها ، قاله قتادة .

وجمع بين الشاكر والكفور ولم يجمع بين الشكور والكفور – مع إجتماعهما في معنى المبالغة – نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر ، لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ، فقل شكره لكثرة النعم عليه ، وكثر كفره وإن قل مع الإحسان إليه .

﴿ إن الإبرار يَشْربونَ ﴾ في الأبرار قولان :

أحدهما : أنهم الصادقون ، قاله الكلبي .

الثاني : المطيعون ، قاله مقاتل .

وفيما سُمّوا أبراراً ثلاثة أقاويل :

أحدها : سمّوا بذلك لأنهم برّوا الآباء والأبناء ، قاله ابن عمر .

الثاني : لأنهم كفوا الأذى ، قاله الحسن .

الثالث : لأنهم يؤدون حق الله ويوفون بالنذر ، قاله قتادة .

وقوله ﴿ مِن كأسٍ ﴾ يعني الخمر ، قال الضحاك : كل كأس في القرآن فإنما عنى به الخمر .

وفي وقوله ﴿ كان مِزاجها كافوراً ﴾ قولان :

أحدهما : أن كافوراً عين في الجنة اسمها كافور ، قاله الكلبي .

الثاني : أنه الكافور من الطيب فعلى هذا في المقصود منه في مزاج الكأس به ثلاثة أقاويل :

أحدها : برده ، قال الحسن : يبرد الكافور وطعم الزنجبيل .

الثاني : بريحه ، قاله قتادة : مزج بالكافور وختم بالمسك .

الثالث : طعمه ، قال السدي : كأن طعمه طعم الكافور .

(194/795)

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بها عبادُ اللَّهِ ﴾ يعني أولياء اللَّه ، لأن الكافر لا يشرب منها شيئاً وإن كان من عباد الله ، وفيه وجهان :

أحدهما : ينتفع بها عباد الله ، قاله الفراء .

الثاني : يشربها عباد الله .

قال مقاتل : هي التسنيم ، وهي أشرف شراب لاجنة ، يشرب بها المقربون صِرفاً ، وتمزج لسائر أهل الجنة بالخمر واللبن والعسل .

﴿ يُفَجِّرونَها تفْجيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يقودونها إلى حيث شاءوا من الجنة ، قاله مجاهد .

الثاني : يمزجونها بما شاءوا ، قاله مقاتل .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن يستخرجوه من حيث شاءوا من الجنة .

وفي قوله " تفجيراً " وجهان :

أحدهما : أنه مصدر قصد به التكثير .

الثاني : أنهم يفجرونه من تلك العيون عيوناً لتكون أمتع وأوسع .

﴿ يُوفُونَ بالنّذْرِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يوفون بما افترض الله عليهم من عبادته ، قاله قتادة .

الثاني : يوفون بما عقدوه على أنفسهم من حق الله ، قاله مجاهد .

الثالث : يوفون بالعهد لمن عاهدوه ، قاله الكلبي .

الرابع : يوفون بالإيمان إذا حلفوا بها ، قاله مقاتل .

ويحتمل خامساً : أنهم يوفون بما أُنذِروا به من وعيده .

﴿ ويَخافون يوْماً كان شَرُّه مُسْتَطيراً ﴾ قال الكلبي عذاب يوم كان شره مستطيراً ، وفيه وجهان :

أحدهما : فاشياً ، قاله ابن عباس والأخفش .

الثاني : ممتداً ، قاله الفراء ، ومنه قول الأعشى :

فبانتْ وقد أَوْرَثَتْ في الفؤادِ . . . صَدْعاً على نأيها مُستطيرا

أي ممتداً .

ويحتمل وجهاً ثالثاً يعني سريعاً .

﴿ ويُطْعمونَ الطعامَ على حُبِّهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : على حب الطعام ، قاله مقاتل .

الثاني : على شهوته ، قاله الكلبي .

الثالث : على قلته ، قاله قطرب .

﴿ مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ في الأسير ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه المسجون المسلم ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه العبد ، قاله عكرمة .

الثالث : أسير المشركين ، قاله الحسن وسعيد بن جبير .

(195/795)

قال سعيد بن جبير : ثم نسخ أسير المشركين بالسيف ، وقال غيره بل هو ثابت الحكم في الأسير بإطعامه ، إلا أن يرى الإمام قتله .

ويحتمل وجهاً رابعاً : أن يريد بالأسير الناقص العقل ، لأنه في أسر خبله وجنونه ، وإن أسر

المشركين انتقام يقف على رأي الإمام وهذا بر وإحسان .

﴿ إنّما نُطْعِمُكم لوجْهِ اللهِ ﴾ قال مجاهد : إنهم لم يقولوا ذلك ، لكن علمه الله منهم فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب .

﴿ لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شُكوراً ﴾ جزاء بالفعال ، وشكوراً بالمقال وقيل إن هذه الآية نزلت فيمن تكفل بأسرى بدر ، وهم سبعة من المهاجرين أبو بكر وعمر وعلي والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعيد وأبو عبيدة .

﴿ إنّا نخافُ من ربِّنا يوماً عَبوساً قمْطريراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن العبوس الذي يعبس الوجوه من شره ، والقمطرير الشديد ، قاله ابن زيد .

الثاني : أن العبوس الضيق ، والقمطرير الطويل ، قاله ابن عباس ، قال الشاعر :

شديداً عبوساً قمطريراً تخالهُ . . . تزول الضحى فيه قرون المناكب .

الثالث : أن العُبوس بالشفتين ، والقمطرير بالجبهة والحاجبين ، فجعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم ، قاله مجاهد ، وأنشد ابن الأعرابي :

يَغْدو على الصّيْدِ يَعودُ مُنكَسِرْ . . . ويَقْمَطُّر ساعةً ويكْفَهِرّ .

﴿ فَوَقاهمُ اللهُ شَرَّ ذلك اليومِ ولَقّاهُمْ نَضْرةً وسُروراً ﴾ قال الحسن النضرة من الوجوه ، والسرور في القلوب .

وفي النضرة ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها البياض والنقاء ، قاله الضحاك .

الثاني : أنها الحسن والبهاء ، قاله ابن جبير .

الثالث : أنها أثر النعمة ، قاله ابن زيد .

﴿ وجَزاهم بما صَبروا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بما صبروا على طاعة الله .

الثاني : بما صبروا على الوفاء بالنذر .

﴿ جَنَّةً وحريراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : جنة يسكنونها ، وحريراً يلبسونه .

(196/795)

الثاني : أن الجنة المأوى ، والحرير أبد العيش في الجنة ، ومنه لبس الحرير ليلبسون من لذة العيش .

واختلف فيمن نزلت هذه الآية على قولين :

أحدهما : ما حكاه الضحاك عن جابر أنها نزلت في مطعم بن ورقاء الأنصاري نذر نذراً فوفاه .

الثاني : ما حكاه عمرو عن الحسن أنها نزلت في علي وفاطمة . . . رضي الله عنهما – وذلك أن علياً وفاطمة نذرا صوماً فقضياه ، وخبزت فاطمة ثلاثة أقراص من شعير ليفطر علّي على أحدها وتفطر هي على الآخر ، ويأكل الحسن والحسين الثالث ، فسألها مسكين فتصدقت عليه بأحدها ، ثم سألها يتيم فتصدقت عيله بالآخر ، ثم سألها أسير فتصدقت عليه بالثالث ، وباتوا طاوين .

﴿ مُتّكِئينَ فيها على الأرائك ﴾ وفيها مع ما قدّمناه من تفسيرها قولان :

أحدهما : أنها الأسرّة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها كل ما يتكأ عليه ، قاله الزجاج .

﴿ لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زَمْهَريراً ﴾ أما المراد بالشمس ففيه وجهان :

أحدهما : أنهم في ضياء مستديم لا يحتاجون فيه إلى ضياء ، فيكون عدم الشمس مبالغة في وصف الضياء .

الثاني : أنهم لا يرون فيها شمساً فيتأذون بحرها ، فيكون عدمها نفياً لأذاها .

وفي الزمهرير ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه البرد الشديد ، قال عكرمة لأنهم لا يرون في الجنة حراً ولا برداً .

الثاني : أنه لون في العذاب ، قاله ابن مسعود .

الثالث : أنه من هذا الموضع القمر ، قاله ثعلب وأنشد :

وليلةٍ ظلامُها قد اعتكَرْ . . . قطْعتها والزمهريرُ ما ظَهَرْ

وروي ما زهر ، ومعناه أنهم في ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ، لأن ضوء النهار بالشمس ، وضوء الليل بالقمر .

﴿ . . . وذُلِّلتْ قُطوفُها تذْليلاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد ، قاله قتادة .

الثاني : أنه إذا قام ارتفعت ، وإذا قعد نزلت ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها وتخلص من نواها .

(197/795)

﴿ . . . وأَكْوابٍ كانت قَواريرَا * قواريرَا من فِضّةٍ ﴾ أما الأكواب فقد ذكرنا ما هي من جملة الأواني .

وفي قوله تعالى : " قوارير من فضة " وجهان :

أحدهما : أنها من فضة من صفاء القوارير ، قاله الشعبي .

الثاني : أنها من قوارير في بياض الفضة ، قاله أبو صالح .

وقال ابن عباس : قوارير كل أرض من تربتها ، وأرض الجنة الفضة فلذلك كانت قواريرها

فضة .

﴿ قَدَّرُوها تقْديراً ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم قدروها في أنفسهم فجاءت على ما قدروها ، قاله الحسن .

الثاني : على قدر ملء الكف ، قاله الضحاك .

الثالث : على مقدار لا تزيد فتفيض ، ولا تنقص فتغيض ، قاله مجاهد .

الرابع : على قدر ريهم وكفايتهم ، لأنه ألذ وأشهى ، قاله الكلبي .

الخامس : قدرت لهم وقدروا لها سواء ، قاله الشعبي .

﴿ ويُسْقَونَ فيها كأساً كان مِزاجُها زنْجبيلاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : تمزج بالزنجبيل ، وهو مما تستطيبه العرب لأنه يحذو اللسان ويهضم المأكول ، قاله السدي وابن أبي نجيح .

الثاني : أن الزنجبيل اسم للعين التي فيها مزاج شراب الأبرار ، قاله مجاهد .

الثالث : أن الزنجبيل طعم من طعوم الخمر يعقب الشرب منه لذة ، حكاه ابن شجرة ، ومنه قول الشاعر :

وكأن طعْمَ الزنجبيلِ به . . . اذْ ذُقْتُه وسُلافَةَ الخمْرِ

﴿ عيْناً فيها تُسَمّى سَلْسَبيلاً ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : أنه اسم لها ، قاله عكرمة .

الثاني : معناه سلْ سبيلاً إليها ، قاله علّي رضي الله عنه .

الثالث : يعني سلسلة السبيل ، قاله مجاهد .

الرابع : سلسلة يصرفونها حيث شاءوا ، قاله قتادة .

الخامس : أنها تنسلّ في حلوقهم انسلالاً ، قاله ابن عباس .

السادس : أنها الحديدة الجري ، قاله مجاهد أيضاً ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يَسْقُون من وَرَدَ البريصَ عليهم . . . كأساً تُصَفّقُ بالرحيق السّلْسَلِ

وقال مقاتل : إنما سميت السلسبيل لأنها تنسل عليهم في مجالسهم وغرفهم وطرقهم .

(198/795)

﴿ ويَطوفُ عليهم وِلْدانٌ مُخَلّدونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : مخلدون لا يموتون ، قاله قتادة .

الثاني : صغار لا يكبرون وشبابٌ لا يهرمون ، قاله الضحاك والحسن .

الثالث : أي مُسَوَّرون ، قاله ابن عباس ، قال الشاعر :

ومُخَلّداتٍ باللُّجَيْنِ كأنما . . . أعْجازُهنّ أقاوزُ الكُثْبانِ .

﴿ إذا رَأَيْتَهم حَسِبْتَهم لُؤْلُؤاً مَنْثوراً ﴾ فيه قولان :

أحدها : أنهم مشبهون باللؤلؤ المنثور لكثرتهم ، قاله قتادة .

الثاني : لصفاء ألوانهم وحسن منظرهم وهو معنى قول سفيان .

﴿ وإذا رأَيتَ ثمَّ ﴾ يعني الجنة .

﴿ رأَيتَ نَعيماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يريد كثرة النعمة .

الثاني : كثرة النعيم .

﴿ ومُلْكاً كبيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لسعته وكثرته .

الثاني : لاستئذان الملائكة عليهم وتحيتهم بالسلام .

ويحتمل ثالثاً : أنهم لا يريدون شيئاً إلا قدروا عليه .

﴿ وسقاهم ربُّهم شَراباً طَهوراً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه وصفه بذلك لأنهم لا يبولون منه ولا يُحْدِثون عنه ، قاله عطية ، قال إبراهيم التميمي : هو عَرَق يفيض من أعضائهم مثل ريح المسك .

الثاني : لأن خمر الجنة طاهرة ، وخمر الدنيا نجسة ، فلذلك وصفه الله تعالى بالطهور ، قاله ابن شجرة .

الثالث : أن أنهار الجنة ليس فيها نجس كما يكون في أنهار الدنيا وأرضها حكاه ابن

عيسى .

﴿ ولا تُطِعْ منهم آثِماً أو كَفوراً ﴾ قيل إنه عنى أبا جهل ، يريد بالآثم المرتكب للمعاصي ، وبالكفور الجاحد للنعم .

﴿ واذكُر اسمَ ربِّك بُكرَةً وأصيلاً ﴾ يعني في أول النهار وآخره ، ففي أوله صلاة الصبح ، وفي آخره صلاة الظهر والعصر .

﴿ ومِنَ الليلِ فاسْجدْ له ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء الآخرة .

﴿ وسَبِّحْهُ ليلاً طويلاً ﴾ يعني التطوع من الليل .

قال ابن عباس وسفيان : كل تسبيح في القرآن هو صلاة .

﴿ إنّ هؤلاءِ يُحِبّونَ العاجلةَ ﴾ يحتمل في المراد بهم قولين :

(199/795)

أحدهما : أنه أراد بهم اليهود وما كتموه من صفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوّته . الثاني : أنه أراد المنافقين لاستبطانهم الكفر .

ويحتمل قوله ﴿ يحبون العاجلة ﴾ وجهين :

أحدهما : أخذ الرشا على ما كتموه إذا قيل إنهم اليهود .

الثاني : طلب الدنيا إذا قيل إنهم المنافقون .

﴿ ويَذَرُونَ وراءَهم يوماً ثقيلاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما يحل بهم من القتل والجلاء إذا قيل إنهم اليهود .

الثاني : يوم القيامة إذا قيل إنهم المنافقون .

فعلى هذا يحتمل قوله " ثقيلاً " وجهين :

أحدهما : شدائده وأحواله .

الثاني : للقِصاص من عباده .

﴿ نحن خَلَقْناهم وشَدَدْنا أَسْرَهم ﴾ في أسرهم ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني مفاصلهم ، قاله أبو هريرة .

الثاني : خلقهم ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة قال لبيد :

ساهم الوجه شديد أسْرُه . . . مشرف الحارك محبوك الكفل .

الثالث : أنه القوة ، قاله ابن زيد ، قال ابن أحمر في وصف فرس :

يمشي لأوظفةٍ شدادٍ أسْرُها . . . صُمِّ السنابِك لاتقى بالجَدْجَدِ .

ويحتمل هذا القول منه تعالى وجهين :

أحدهما : امتناناً عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية .

الثاني : تخويفاً لهمن بسلب النعم .

﴿ وإذا شئنا بدّلْنا أمثالَهم تبديلاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أمثال من كفر بالنعم وشكرها .

الثاني : من كفر بالرسل بمن يؤمن بها .

﴿ إنّ هذه تَذْكِرةٌ ﴾ يحتمل بالمراد ب " هذه " وجهين :

أحدهما : هذه السورة .

الثاني : هذه الخلقة التي خلق الإنسان عليها .

ويحتمل قوله " تذكرة " وجهين :

أحدهما : إذكار ما غفلت عنه عقولهم .

الثاني : موعظة بما تؤول إليه أمورهم .

﴿ فَمَنْ شاءَ اتَخَذَ إلى ربّه سَبيلاً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : طريقاً إلى خلاصه .

الثاني : وسيلة إلى جنته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 161 .

174 ﴾

(200/795)

وقال ابن الجوزى :

سورة الإنسان

قوله تعالى : ﴿ هل أتى ﴾

قال الفراء : معناه : قد أتى .

و"هل" تكون خبراً ، وتكون جحداً ، فهذا من الخبر ، لأنك تقول : هل وعظتك ؟ هل أعطيتك ؟ فتقرِّره بأنك قد فعلت ذلك .

والجحد ، أن تقول : وهل يقدر أحد على مثل هذا ؟ وهذا قول المفسرين ، وأهل اللغة .

وفي هذا الإنسان قولان .

أحدهما : أنه آدم عليه السلام .

والحين .

الذي أتى عليه : أربعون سنة ، وكان مصوَّراً من طين لم يُنفَخ فيه الروح ، هذا قول الجمهور .

والثاني : أنه جميع الناس ، روي عن ابن عباس ، وابن جريج ، فعلى هذا يكون الإنسان اسم جنس ، ويكون الحين زمان كونه نطفة ، وعلقة ، ومضغة .

قوله تعالى : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ المعنى : أنه كان شيئاً ، غير أنه لم يكن مذكوراً .

قوله تعالى : ﴿ إنَّا خلقنا الإنسان ﴾ يعني : ولد آدم ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ قال ابن قتيبة : أي : أخلاط .

يقال : مشجته ، فهو مشيج ، يريد : اختلاط ماء المرأة بماء الرجل .

قوله تعالى : ﴿ نبتليه ﴾ قال الفراء : هذا مقدَّم ، ومعناه التأخير ، لأن المعنى : خلقناه وجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه .

قال الزجاج : المعنى : جعلناه كذلك لنختبره .

وقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي : بيَّنَّا له سبيل الهدى بنصب الأَدلة ، وبعث الرسول ﴿ إما شاكراً ﴾ أي : خلقناه إما شاكراً ﴿ وإما كفوراً ﴾ قال الفراء : بيَّنَّا له الطريق إن شكر ، أو كفر .

قوله تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للكافرين سلاسلاً ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة : "سلاسل" بغير تنوين ووقفوا بألف .

ووقف أبو عمرو بألف .

قال مكي بن أبي طالب النحوي : "سلاسل" و "قوارير" أصله أن لا ينصرف ، ومن صرفه من القراء ، فإنها لغة لبعض العرب .

وقيل : إنما صرفه لأنه وقع في المصحف بالألف ، فصرفه لاتباع خط المصحف .

قال مقاتل : السلاسل في أعناقهم ، والأغلال في أيديهم .

وقد شرحنا معنى "السعير" في [النساء : 10] .

قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار ﴾ واحدهم بَرٌّ ، وبَارٌّ ، وهم الصادقون .

وقيل : المطيعون .

وقال الحسن : هم الذين لا يؤذون الذَّر ﴿ يشربون من كأس ﴾ أي : من إناءٍ فيه شراب ﴿ كان مزاجها ﴾ يعني : مزاج الكأس ﴿ كافوراً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الكافور المعروف ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، فعلى هذا في المراد "بالكافور" ثلاثة أقوال .

أحدها : برده ، قاله الحسن .

والثاني : ريحه ، قاله قتادة .

والثالث : طعمه ، قاله السدي .

والثاني : أنه اسم عين في الجنة ، قاله عطاء ، وابن السائب .

والثالث : أن المعنى : مزاجها كالكافور لطيب ريحه ، أجازه الفراء ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ عيناً ﴾ قال الفراء : هي المفسرة للكافور ، وقال الأخفش : هي منصوبة على معنى : أعني عيناً .

وقال الزجاج : الأجود أن يكون المعنى : من عين ، ﴿ يشرب بها ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : يشرب منها .

والثاني : يشربها ، والباء صلة .

والثالث : يشرب بها عباد الله الخمر يمزجونها بها .

وفي هذه العين قولان .

أحدهما : أنها الكافور الذي سبق ذكره .

والثاني : التسنيم ، و ﴿ عباد الله ﴾ هاهنا : أولياؤه ﴿ يفجّرونها تفجيراً ﴾ قال مجاهد : يقودونها إلى حيث شاؤوا من الجنة .

قال الفراء : حيث ما أحب الرجل من أهل الجنة فجرَّها لنفسه .

قوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ قال الفراء : فيه إضمار "كانوا" يوفون بالنذر .

وفيه قولان .

أحدهما : يوفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

والثاني : يوفون بما فرض الله عليهم ، قاله قتادة .

ومعنى "النذر" في اللغة : الإيجاب .

فالمعنى : يوفون بالواجب عليهم ﴿ ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً ﴾ قال ابن عباس : فاشياً .

وقال ابن قتيبة : فاشياً منتشراً .

يقال : استطار الحريق : إذا انتشر ، واستطار الفجر : إذا انتشر الضوء .

وأنشدوا للأعشى :

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فِي الفُؤَا . . .

دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِها مُسْتَطِيراً

(202/795)

وقال مقاتل : كان شرُّه فاشياً في السموات ، فانشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وكوِّرت الشمس والقمر في الأرض ، ونُسِفَتْ الجبال ، وغَارَت المياه ، وتكَسَّر كل شيء على وجه الأرض من جبلٍ ، وبناءٍ ، وفَشَا شَرُّ يوم القيامة فيهما .

قوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حُبِّه ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : نزلت في علي بن أبي طالب .

آجر نفسه ليسقي نخلاً بشيء من شعيرٍ ليلة حتى أصبح .

فلما قبض الشعير طحن ثلثه ، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه ، فلما استوى أتى مسكين ، فأخرجوه إليه ، ثم عمل الثلث الثاني ، فلما تم أتى يتيم ، فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقي ، فلما استوى جاء أسير من المشركين ، فأطعموه وطوَوْا يومهم ذلك ، فنزلت هذه الآيات ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري صام يوماً ، فلما أراد أن يفطر جاء مسكين ، ويتيم ، وأسير ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقي له ولأهله رغيف واحد ، فنزلت فيهم هذه الآية ، قاله مقاتل .

وفي هاء الكناية في قوله تعالى "على حُبِّه" قولان .

أحدهما : ترجع إلى الطعام ، فكأنهم كانوا يُؤْثِرُون وهم محتاجون إليه ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، والزجاج ، والجمهور .

والثاني : ترجع إلى الله تعالى ، قاله الداراني .

وقد سبق معنى "المسكين واليتيم" [البقرة : 83] .

وفي الأسير أربعة أقوال .

أحدها : أنه المسجون من أهل القبلة ، قاله عطاء ، ومجاهد ، وابن جبير .

والثاني : أنه الأسير المشرك ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : المرأة ، قاله أبو حمزة الثمالي .

والرابع : العبد ، ذكره الماوردي .

فصل

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تضمنت مدحهم على إطعام الأسير المشرك .

قال : وهذا منسوخ بآية السيف .

وليس هذا القول بشيء ، فإن في إطعام الأسير المشرك ثواباً ، وهذا محمول على صدقة التطوع .

فأما الفرض فلا يجوز صرفه إلى الكفَّار ، ذكره القاضي أبو يعلى .

(203/795)

قوله تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ أي : لطلب ثواب الله .

قال مجاهد ، وابن جبير : أما إنهم ما تكلموا بهذا ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى به عليهم لِيَرْغَبَ في ذلك راغب .

قوله تعالى : ﴿ لا نريد منكم جزاءً ﴾ أي : بالفعل ﴿ ولا شكوراً ﴾ بالقول ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً ﴾ أي : ما في يوم ﴿ عبوساً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : تعبس فيه الوجوه ، فجعله من صفة اليوم ، كقوله تعالى : ﴿ في يومٍ عاصفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] ، أراد : عاصف الريح .

فأما "القمطرير" فروى ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أنه الطويل .

وروى عنه العوفي أنه قال : هو الذي يقبِّض فيه الرجل ما بين عينيه .

فعلى هذا يكون اليوم موصوفاً بما يجري فيه ، كما قلنا في "العبوس" لأن اليوم لا يوصف

بتقبيض ما بين العينين .

وقال مجاهد ، وقتادة : "القمطرير" الذي يقلِّص الوجوه ، ويقبض الحياة ، وما بين الأعين من شدته .

وقال الفراء : هو الشديد .

يقال يوم قمطرير ، ويوم قماطر .

وأنشدني بعضهم :

بَنِي عَمِّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلاَءَنَا . . .

عليكُم إذا ما كان يَوْمٌ قُماطِرُ

وقال أبو عبيدة : العبوس ، والقمطرير ، والقماطر ، والعَصِيب ، والعَصَبْصَب : أشد ما يكون من الأيام ، وأطوله في البلاء .

قوله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذلك اليوم ﴾ بطاعتهم في الدنيا ﴿ ولقَّاهم نَضْرَةً ﴾ أي : حُسْنَاً وبياضاً في الوجوه ﴿ وسُرُوراً ﴾ لا انقطاع له .

وقال الحسن : النَّضْرة في الوجوه .

والسُّرُور في القلوب ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ على طاعته ، وعن معصيته ﴿ جَنَّةً وحريراً ﴾ وهو لباس أهل الجنة ﴿ متكئين فيها ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، أي : جزاهم جنة في حال اتكائهم فيها ، وقد شرحنا هذا في [الكهف : 31] .

قوله تعالى : ﴿ لاَ يرَوْنَ فيها شمساً ﴾ فيُؤذيهم حَرُّها ﴿ ولا زمهريراً ﴾ وهو البرد الشديد .

والمعنى : لا يجدون فيها الحَرَّ والبرد .

(204/795)

وحكي عن ثعلب أنه قال : الزمهرير : القمر ، وأنشد :

وَلَيْلَةٍ ظَلاَمُهَا قَد اعْتَكَرْ . . .

قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَر

أي : لم يطلع القمر .

قوله تعالى : ﴿ ودانيةً ﴾ قال الفراء : المعنى : وجزاهم جنة ، ودانيةً عليهم ظلالها ، أي : قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿ وذُلِّلَت قُطوفُها تذليلاً ﴾ قال ابن عباس : إذا هَمَّ أن يتناول من ثمارها تَدَلَّتْ إليه حتى يتناولَ ما يريد .

وقال غيره : قُرِّبَتْ إليهم مُذَلَّلة كيف شاؤوا ، فهم يتناولونها قياماً ، وقعوداً ، ومضطجعين ، فهو كقوله تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ [الحاقة : 23] .

فأما "الأكواب" فقد شرحناها في [الزخرف : 71] ﴿ كانت قواريرا ﴾ أي : تلك

الأكواب هي قوارير ، ولكنها من فضة ، قال ابن عباس : لو ضَرَبْتَ فضةَ الدنيا حتى جعلتَها مثل جناح الذباب ، لم يُرَ الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القارورة .

وقال الفراء ، وابن قتيبة : هذا على التشبيه ، المعنى : كأنها من فضة ، أي : لها بياض كبياض الفضة وصفاء كصفاء القوارير .

وكان نافع ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : يقرؤون "قواريراً قواريراً" فَيَصِلُونَهما جميعاً بالتنوين .

ويقفون عليهما بالألف .

وكان ابن عامر وحمزة يَصِلاَنِهما جميعاً بغير تنوين ، ويقفان عليهما بغير ألف .

وكان ابن كثير يَصِل الأول بالتنوين ، ويقف عليه بالألف ، ويَصِلُ الثاني بغير تنوين ، ويقف بغير ألف .

وروى حفص عن عاصم أنه كان يقرأ "سلاسل" و "قوارير قوارير" يَصِلُ الثلاثة بغير تنوين ، ويقف على الثلاثة بالألف .

وكان أبو عمرو يقرأ الأول "قواريرا" فيقف عليه بالألف ، ويصل بغير تنوين .

وقال الزجاج : الاختيار عند النحويين أن لا يصرف "قوارير" لأن كل جمع يأتي بعد ألفه

حرفان لا ينصرف .

ومن قرأ "قواريرا" يصرف الأول علامة رأس آية ، وترك صرف الثاني لأنه ليس بآخر آية .

(205/795)

ومن صرف الثاني : أتبع اللفظ اللفظ ، لأن العرب ربما قلبت إعراب الشيء لتُتْبِعَ اللفظ اللفظ ، كما قالوا : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ .

وإنما الخَرِبُ مِن نعت الجحر .

قوله تعالى : ﴿ قدَّروها تقديراً ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو عمران ، والجحدري ، وابن يعمر "قُدِّروها" برفع القاف ، وكسر الدال ، وتشديدها .

وقرأ حميد ، وعمرو بن دينار ، "قَدَرُوها" بفتح القاف ، والدال ، وتخفيفها .

ثم في معنى الآية قولان .

أحدهما : قَدَّرُوها في أنفسهم ، فجاءت على ما قَدَّرُوا ، قاله الحسن .

وقال الزجاج : جعل الإناء على قَدْر ما يحتاجون إليه ويريدونه على تقديرهم .

والثاني : قَدَّروها على مقدارٍ لا يزيد ولا ينقص ، قاله مجاهد .

وقال غيره : قَدَّر الكأس على قَدْر رِيِّهم ، لا يزيد عن رِيِّهم فيُثْقِلُ الكفَّ ، ولا ينقص منه

فيطلب الزيادة ، وهذا ألذُّ الشراب .

فعلى هذا القول يكون الضمير في "قدَّروا" للسقاة والخدم .

وعلى الأول للشاربين .

قوله تعالى : ﴿ ويُسْقَوْن فيها ﴾ يعني في الجنة ﴿ كأساً كان مزاجها زنجبيلا ﴾ والعرب تضرب المثل بالزنجبيل ، والخمر ، ممزوجَين .

قال المسيَّب بن عَلسَ يصف فم امرأة :

فَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبيل بِهِ . . .

إذْ ذُقْتَهُ وَسُلاَفَةُ الخَمْرِ

وقال آخر :

كَأَنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِي . . .

ل باتا بِفِيها وأَرْيًا مُشَاراً

الأَرْي : العسل .

والمشار : المستخرج من بيوت ، النحل .

قال مجاهد : والزنجبيل : اسم العين التي منها شراب الأبرار ، وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : الزنجبيل معرَّب .

وقال الدِّينَوَرِي : يَنْبُتُ في أرياف عُمَان ، وهي عروق تسري في الأرض ، وليس بشجرة

تؤكل رُطَباً .

وأجود ما يحمل من بلاد الصين .

قال الزجاج : وجائز أن يكون فيها طعم الزنجبيل ، والكلام فيه كالكلام السابق في الكافور .

وقيل : شراب الجنة عل بردِ الكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح المسك .

(206/795)

قوله تعالى : ﴿ عيناً فيها ﴾ قال الزجاج : يسقون عيناً .

وسلسبيل : اسم العين ، إلا أنه صرف لأنه رأس آية .

وهو في اللغة : صفة لما كان في غاية السلاسة ، فكأن العين وصفت وسميت بصفتها .

وقرأتُ على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قوله تعالى : ﴿ تسمى سلسبيلاً ﴾ قيل :

هو اسم أعجمي نَكِرَة ، فلذلك انصرف .

وقيل : هو اسم معرفة ، إلا أنه أُجْرِيَ ، لأنه رأس آية .

وعن مجاهد ، قال : حديدة الجرية .

وقيل : سلسبيل سلس ماؤها ، مستقيد لهم .

وقال ابن الأنباري : السلسبيل صفة للماء .

لِسَلَسِهِ وسهولة مدخله في الحلق .

يقال : شراب سَلْسَل ، وسَلْسال ، وسَلْسَبِيل .

وحكى الماوردي : أن عليّاً قال : المعنى : سَلْ سَبِيلاً إليها ، ولا يصح .

قوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلَّدون ﴾ قد سبق بيانه [الواقعة : 17] ﴿ إذَا رأيتَهم حَسِبْتَهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي : في بَيَاضِ اللؤلؤ وحُسْنِهُ ، واللؤلؤُ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظراً .

وإنما شُبِّهوا باللؤلؤ المنثور ، لانتشارهم في الخدمة .

ولو كانوا صَفّاً لَشَبَّهوه بالمنظوم .

﴿ وإذا رأيتَ ثَمَّ ﴾ يعني : الجنة ﴿ رأيتَ نعيماً ﴾ لا يوصف و ﴿ مُلكاً كبيراً ﴾ أي : عظيماً واسعاً لا يريدون شيئاً إلا قدَروا عليه ، ولا يدخل عليهم ملَك إلا باستئذان .

قوله تعالى : ﴿ عَالِيَهُم ﴾ قرأ أهل المدينة ، وحمزة ، والمفضل عن عاصم بإسكان الياء ، وكسر الهاء .

وقرأ الباقون بفتح الياء ، إلا أن الجعفي ، عن أبي بكر قرأ "عَالِيَتُهُم" بزيادة تاء مضمومة .

وقرأ أنس بن مالك ، ومجاهد ، وقتادة ، "عَلَيْهِم" بفتح اللام ، وإسكان الياء من غير تاءٍ ، ولا ألف .

قال الزجاج : فأما تفسير إعراب "عالِيْهم" بإسكان الياء ، فيكون رفعه بالابتداء .

ويكون الخبر ﴿ ثيابُ سُنْدُسٍ ﴾ وأما "عَالِيَهم" بفتح الياء فنصبه على الحال من شيئين ، أحدهما من الهاء والميم .

(207/795)

والمعنى : يطوف على الأبرار وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون عَالِيَاً للأبرار ثيابُ سندس ، لأنه وصف أحوالهم في الجنة ، فيكون المعنى : يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء .

ويجوز أن يكون حالاً من الوِلْدان .

المعنى إذا رأيتَهم حَسِبْتَهم لؤلؤاً منثوراً في حال عُلُوِّ الثياب .

وأما "عَالِيَتُهُم" فقد قرئت بالرفع وبالنصب .

وهما وجهان جَيِّدان في العربية ، إلا أنهما يخالفان المصحف .

فلا أرى القراءة بهما ، وتفسيرها كتفسير "عاليهم" .

قوله تعالى : ﴿ ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ﴾ قرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، "خضر" رفعا "وإِسْتَبْرقٍ" خفضاً .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم "خُضْرٍ" خفضاً "وإستبرقٌ" رفعا .

وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم "خُضْرٌ وإستبرقٌ" كلاهما بالرفع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، "خضْرٍ وإسْتَبْرقٍ" كلاهما بالخفض .

قال الزجاج : من قرأ "خُضْرٌ" بالرفع فهو نعت الثياب ، ولفظ الثياب لفظ الجمع .

ومن قرأ "خُضْرٍ" فهو من نعت السندس ، والسندسُ في المعنى راجع إلى الثياب .

ومن قرأ "وإستَبْرَقٌ" فهو نسق على "ثيابٌ" المعنى : وعليهم إستبرق .

ومن خفض ، عطفه على السندس ، فيكون المعنى : عليهم ثياب من هذين النوعين وقد بَيّنَّا في [الكهف : 31] معنى السندس ، والإستبرق ، والأساور .

قوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يُحْدِثون ولا يَبُولُون عن شُرْب خَمْر الجَنَّة ، قاله عطية .

والثاني : لأن خمر الجنة طاهرةٌ ، وليست بنجسةٍ كخمرِ الدنيا ، قاله الفراء .

وقال أبو قلابة : يُؤْتَوْنَ بعد الطَعام بالشَّرابِ الطَّهورِ فيشربون فَتَضْمُر بذلك بُطونُهم ، ويفيض من جلودهم عَرَقٌ مثل ريح المسك .

(208/795)

قوله تعالى : ﴿ إنَّ هذا ﴾ يعني : ما وصف من نعيم الجنة ﴿ كان لكم جزاءً ﴾ بأعمالكم ﴿ وكان سعيُكم ﴾ أَي : عملكم في الدنيا بطاعته ﴿ مشكوراً ﴾ قال

عطاء : يريد شكرتُكم عليه ، وأَثَبْتُكم أفضل الثواب ﴿ إنَّا نحن نزَّلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ أي : فضَّلناه في الإنزال ، فلم نُنْزِله جُمْلَةً واحدةً ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ وقد سبق بيانه في مواضع [الطور : 48 ، والقلم : 48] .

والمفسرون يقولون : هذا منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، ﴿ ولا تُطِعْ منهم ﴾ أي : من مشركي أهل مكة ﴿ آثماً أو كفوراً ﴾ "أو" بمعنى : الواو ، كقوله تعالى : ﴿ أو الحوايا ﴾ [الأنعام : 146] وقد سبق هذا وللمفسرين في المراد بالآثم والكفور ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهما صفتان لأبي جهل .

والثاني : أن الآثم : عتبة بن ربيعة ، والكفور : الوليد بن المغيرة .

والثالث : الآثم : الوليد .

والكَفُور : عتبة .

وذلك أنهما قالا له : ارجع عن هذا الأمر ونحن نرضيك بالمال والتزويج .

﴿ واذكر اسم ربِّكَ ﴾ أي : اذكره بالتوحيد في الصلاة ﴿ بُكْرَةً ﴾ يعني : الفجر ﴿ وأصيلاً ﴾ يعني : العصر .

وبعضهم يقول : صلاة الظهر والعصر ﴿ ومن الليل فاسْجُدْ له ﴾ يعني : المغرب والعشاء .

وسَبِّحهُ ﴿ ليلاً طويلاً ﴾ وهي : صلاة الليل ، كانت فريضة عليه ، وهي لأُمَّتِهِ تَطَوُّع ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني : كفَّار مكة ﴿ يحبُّون العاجلة ﴾ أي : الدار العاجلة ، وهي : الدنيا

﴿ ويَذَرُون وراءهم ﴾ أي : أمامهم ﴿ يوماً ثقيلاً ﴾ أي : عسيراً شديداً .

والمعنى : أنهم يتركون الإيمان به ، والعمل له .

ثم ذكر قدرتَه ، فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناهم وشَدَدَنا أسرهم ﴾ أي : خَلْقهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج.

قال ابن قتيبة : يقال امرأة حَسَنَةُ الأسر .

أي : حَسَنَةُ الخَلْقِ ، كأنها أُسِرتْ ، أي : شُدَّتْ .

وأصل هذا من الإسار ، وهو : القِدُّ .

(209/795)

[الذي تشد به الأقتاب] يقال : ما أحسن ما أَسَرَ قَتَبَهُ ، أي : ما أحسن ما شَدَّه [بالقِدِّ] .

وروي عن أبي هريرة قال : مفاصلهم .

وعن الحسن قال : أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب ﴿ وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم ﴾ أي : إن شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم ، فجعلناهم بدلاً منهم ﴿ إنَّ هذه تذكرة ﴾ قد شرحنا الآية في [المزمل : 19] .

قوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون ﴾ إيجاد السبيل ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ذلك لكم .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، "وما يشاؤون" بالياء .

قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يشاء في رحمته ﴾ قال المفسرون : الرحمة : ها هنا الجنة ﴿ والظالمين ﴾ المشركون .

قال أبو عبيدة : نصب "الظالمين" بالجوار .

المعنى : ولا يُدخل الظالمين في رحمته .

وقال الزجاج : إنما نصب "الظالمين" ، لأنَّ قبله منصوباً .

المعنى : يُدخل من يشاء في رحمته ، ويعذب الظالمين .

ويكون قوله تعالى : ﴿ أعدَّ لهم ﴾ تفسيراً لهذا المضمر ، وقرأ أبو العالية ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة ، "والظالمون" رفعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 427 .

442 ﴾

(210/795)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ هل أتى ﴾

أي قد أتى ﴿ على الإنسان ﴾ يعني آدم ﴿ حين من الدهر ﴾ يعني مدة أربعين سنة وهو من طين ملقى (م) عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطوف به وينظر إليه فلما رآه أجوف عرف أنه خلف لا يتمالك " قوله يطوف أي يدور حوله فلما رآه أجوف أي صاحب جوف وقيل هو الذي داخله خال قوله عرف أنه خلق لا يتمالك ، أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات ، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه ، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب .

وروي في تفسير الآية أن آدم بقي أربعين سنة طيناً ، وبقي أربعين سنة حمأ مسنوناً وأربعين سنة صلصالاً كالفخار فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أي لا يذكر ولا يعرف ولا يدري ما اسمه ، ولا ما يراد به وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح كان شيئاً ولم يكن شيئاً يذكر .

روي عن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية : لم يكن شيئاً مذكوراً فقال عمر ليتها تمت يعني ليته بقي على ما كان عليه ويروى نحوه عن أبي بكر وابن مسعود ، وقيل المراد بالإنسان جنس الإنسان وهم بنو آدم بدليل قوله ﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ فالإنسان في الموضعين واحد فعلى هذا يكون معنى قوله حين من الدهر طائفة من الدهر غير مقدرة لم يكن شيئاً مذكوراً يعني أنهم كانوا نطفاً في الأصلاب .

ثم علقاً ، ومضغاً في الأرحام لم يذكروا بشيء إنا خلقنا الإنسان يعني ولد آدم ﴿ من نطفة ﴾ أي مني الرجل ومني المرأة ﴿ أمشاج ﴾ أي أخلاط قال ابن عباس وغيره : يعني ماء الرجل ، وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد فماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا صاحبه كان الشبه له وما كان من عصب ، وعظم فمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة ، وقيل الأمشاج اختلاف ألوان النطفة ، فنطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء .

(211/795)

وكل لونين اختلطا فهو أمشاج .

وقال ابن مسعود : هي العروق التي تكون في النطفة ، وقيل هي نطفة مشجت أي خلطت بدم وهو دم الحيض فإذا حبلت المرأة ارتفع دم الحيض ، وقيل الأمشاج أطوار الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ثم عظما ثم يكسوه لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر ، وقيل إن الله تعالى جعل في النطفة أخلاطاً من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فعلى هذا يكون التقدير من نطفة ذات أمشاج .

﴿ نبتليه ﴾ أي لنختبره بالأمر والنهي ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ قيل فيه تقديم

وتأخير تقديره فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وقيل معناه إنا خلقنا الإنسان من هذه الأمشاج للابتلاء والامتحان ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء ، وهو السمع والبصر وهما كنايتان عن الفهم والتمييز وقيل المراد بالسمع والبصر الحاستان المعروفتان ، وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها .

﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي بينا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلالة ، وعرفناه طريق الخير والشر ، وقيل معناه أرشدناه إلى الهدى لأنه لا يطلق اسم السبيل إلا عليه والمراد من هداية السبيل نصب الدلائل ، وبعثه الرسل وإنزال الكتب .

﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ يعني إما موحداً طائعاً لله ، وإما مشركاً بالله في علم الله وذلك أن الله تعالى بين سبيل التوحيد ليتبين شكر الإنسان من كفره ، وطاعته عن معصيته ، وقيل في معنى الآية إما مؤمناً سعيداً وإما كافراً شقياً .

(212/795)

وقيل معناه الجزاء أي بينا له الطريق إن شكر أو كفر ، وقيل المراد من الشاكر الذي يكون مقراً معترفاً بوجوب شكر خالقه سبحانه وتعالى عليه ، والمراد من الكفور الذي لا يقر بوجوب الشكر عليه ثم بين ما للفريقين فوعد الشاكر ، وأوعد الكافر فقال تعالى : ﴿ إنا

أعتدنا ﴾ أي هيأنا في جهنم ﴿ للكافرين سلاسل ﴾ يعني يشدون بها ﴿ وأغلالاً ﴾ أي في أيديهم تغل بها إلى أعناقهم ﴿ وسعيراً ﴾ يعني وقوداً لا توصف شدته وهذا من أعظم أنواع الترهيب والتخويف ثم ذكر ما أعد للشاكرين الموحدين فقال تعالى : ﴿ إن الأبرار ﴾ يعني المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم ، واحدهم بار وبر وأصله التوسع فمعنى البر المتوسع في الطاعة ﴿ يشربون من كأس ﴾ يعني فيها شراب ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ قيل يمزج لهم شرابهم بالكافور ويختم بالمسك .

فإن قلت إن الكافور غير لذيذ ، وشربه مضر فما وجه مزج شرابهم به .

قلت قال أهل المعاني : أراد بالكافور بياضه ، وطيب ريحه وبرده .

لأن الكافور لا يشرب وقال ابن عباس : هو اسم عين في الجنة والمعنى أن ذلك الشراب يمازجه شراب ماء هذه العين التي تسمى كافوراً ، ولا يكون في ذلك ضرر لأن أهل الجنة لا يمسهم ضرر فيما يأكلون ، ويشربون وقيل هو كافور لذيذ طيب الطعم ليس فيه مضرة ، وليس ككافور الدنيا ولكن الله سمى ما عنده بما عندكم بمزج شرابهم .

بذلك الكافور والمسك والزنجبيل .

﴿ عيناً ﴾ بدلاً من الكافور وقيل أعني عيناً ﴿ يشرب بها ﴾ أي يشرب منها ﴿ عباد الله ﴾ قال ابن عباس أولياء الله ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ أي يقودونها إلى حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم تفجيراً سهلاً لا يمتنع عليهم .

قوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ لما وصف الله تعالى ثواب الأبرار في الآخرة وصف أعمالهم في الدنيا التي يستوجبون بها هذا الثواب والمعنى كانوا في الدنيا يوفون بالنذر والنذر الإيجاب .

(213/795)

والمعنى يوفون بما فرض الله عليهم فيدخل فيه جميع الطاعات من الأيمان والصلاة ، والزكاة والصوم والحج ، والعمرة ، وغير ذلك من الواجبات ، وقيل النذر في عرف الشرع واللغة أن يوجب الرجل على نفسه شيئاً ليس بواجب عليه ، وذلك بأن يقول : لله عليّ كذا وكذا من صدقة أو صلاة أو صوم أو حج أو عمرة يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله .

وذلك بأن يقول إن شفى الله مريضي أو قدم غائبي كان لله عليّ كذا ، ولو نذر في معصية لا يجب الوفاء به (خ) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " من نذر أن يطيع الله فليف بنذره ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يف به " وفي رواية " فليطعه ولا يعصه " وعنها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " لا نذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين " أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي (ق) عن ابن عباس قال : " استفتى سعد بن عبادة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في نذر كان

على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فأمره أن يقضيه عنها " أخرجه الجماعة .

وفي الآية دليل على وجوب الوفاء بالنذر ، وهذا مبالغة في وصفهم بأداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه كان لما أوجبه الله عليه أوفى .

﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ أي منتشراً فاشياً ممتداً ، وقيل استطار خوفه في أهل السموات والأرض ، وفي أولياء الله وأعدائه ، وقيل فشا سره في السموات .

فانشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة وكورت الشمس ، والقمر ، وفي الأرض فتشققت الجبال وغارت المياه وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء ، والمعنى أنهم يوفون بالنذر وهم خائفون من شر ذلك اليوم وهوله وشدته .

قوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ أي حب الطعام وقلته وشهوتهم له والحاجة إليه فوصفهم الله تعالى : بأنهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم بالطعام ، ويواسون به أهل الحاجة ، وذلك لأن أشرف أنواع الإحسان والبر إطعام الطعام .

(214/795)

لأن به قوام الأبدان ، وقيل على حب الله أي لحب الله ﴿ مسكيناً ﴾ يعني فقيراً وهو الذي لا مال له ولا يقدر على الكسب ﴿ ويتيماً ﴾ أي صغيراً وهو الذي لا أب له

يكتسب له ، وينفق عليه ﴿ وأسيراً ﴾ قيل هو المسجون من أهل القبلة يعني من المسلمين ، وقيل هو الأسير من أهل الشرك .

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً ﴾ يعني أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لطلب مكافأتكم ﴿ عبوساً ﴾ وصف ذلك اليوم بالعبوس مجازاً كما يقال نهاره صائما والمراد أهله والمعنى تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته وقيل وصف اليوم بالعبوس لما فيه من الشدة .

﴿ قمطريراً ﴾ يعني شديداً كريهاً يقبض الوجوه والجباه بالتعبيس ، وقيل العبوس الذي لا انبساط فيه ، والقمطرير الشديد ، وقيل هو أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي الذي يخافونه ﴿ ولقاهم نضرة ﴾ أي حسناً في وجوههم ﴿ وسروراً ﴾ أي في قلوبهم ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي على طاعة الله واجتناب معصيته ، وقيل على الفقر والجوع مع الوفاء بالنذر والإيثار ﴿ جنة وحريراً ﴾ أي أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير ﴿ متكئين فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ على الأرائك ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال ولا تسمى أريكة إلا إذا اجتمعا ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ يعني لا يؤذيهم حر الشمس ، ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم في الدنيا والزمهرير أشد البرد وحكى الزمخشري قولاً أن الزمهرير هو القمر وعن ثعلب أنه في لغة طيىء وأنشد :

وليلة ظلامها قد اعتكر . . .

قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى أن الجنة ضياء لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أي قريبة منهم ظلال أشجارها ﴿ وذللت ﴾ أي سخرت وقربت ﴿ قطوفها ﴾ أي ثمارها ﴿ تذليلاً ﴾ أي يأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين ، ويتناولونها كيف شاؤوا وعلى أي حال أرادوا .

(215/795)

﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب ﴾ قيل هي الكيزان التي لا عرى لها كالقدح ونحوه ﴿ كانت قواريرا قواريرا من فضة ﴾ قال أهل التفسير أراد بياض الفضة في صفاء القوارير وهو الزجاج ، والمعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء في صفاء الزجاج ، والمعنى يرى ما في باطنها من ظاهرها ، قال الكلبي : إن الله تبارك وتعالى جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم ، وإن أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون فيها ، وقيل إن القوارير التي في الدنيا من الرمل والقوارير التي في الجنة من الفضة ، ولكنها أصفى من الزجاج .

﴿ قدروها تقديراً ﴾ أي قدروا الكووس على قدر ريهم ، وكفايتهم لا تزيد ولا تنقص .

والمعنى أن السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم يقدرونها لهم ثم يسقونهم .

﴿ ويسقون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ قيل إن الزنجبيل هو اسم للعين التي يشرب منها الأبرار يوجد منها طعم الزنجبيل يشرب بها المقربون صرفاً ، ويمزج لسائر أهل الجنة ، وقيل هو النبت المعروف ، والعرب كانوا يجعلون الزنجبيل في شرابهم لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبي . . .

ل باتا بفيها وأرياً مشورا

الأري العسل والمشور المستخرج من بيوت النحل وقال المسيب بن علس :

فكأن طعم الزنجب . . .

يل به إذ ذقته سلافة الخمر

(216/795)

فلما كان الزنجبيل مستطاباً عند العرب وصف الله تعالى شراب أهل الجنة بذلك ، وقيل إن شرب أهل الجنة على برد الكافور ، وطعم الزنجبيل وريح المسك قال ابن عباس : كل ما ذكر الله تعالى في القرآن مما في الجنة وسماه ليس له مثل في الدنيا ، وذلك لأن زنجبيل الجنة لا

يشبه زنجبيل الدنيا ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ أي سلسلة منفادة لهم يصرفونها حيث شاؤوا وقيل حديدة الجرية سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليها في طرقهم ، ومنازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى سائر الجنان ، وقيل سميت بذلك لأنها في غاية السلاسة تتسلسل في الحلق ومعنى تسمى أي توصف لأن أكثر العلماء على أن سلسبيلا صفة لا اسم ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي في الخدمة وقيل مخلدون مسرورون ومقرطون ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ يعني في بياض اللؤلؤ الرطب وحسنه ، وصفائه ، واللؤلؤ إذا انتثر على البساط كان أصفى منه منظوماً ، وقيل إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة .

(217/795)

قوله : ﴿ وإذا رأيت ﴾ قيل الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل لكل واحد ممن يدخل الجنة والمعنى إذا رأيت ببصرك ونظرت به ﴿ ثم ﴾ يعني إلى الجنة ﴿ رأيت نعيماً ﴾ أي لا يوصف عظمه ﴿ وملكاً كبيراً ﴾ قيل هو أن أدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وقيل هو أن رسول رب العزة من الملائكة لا يدخل عليه إلا بإذنه وهو استئذان الملائكة عليهم وقيل معناه ملكاً لا زوال له ولا انتقال ﴿

عاليهم ﴾ أي فوقهم ﴿ ثياب سندس خضر ﴾ وهو ما رق من الديباج ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ منه وكلاهما داخل في اسم الحرير ﴿ وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ يعني طاهراً من الأقذار والأردان لم تمسه الأيدي ، ولم تدنسه الأرجل كخمر الدنيا وقيل إنه لا يستحيل بولاً ، ولكنه يستحيل رشحاً في أبدانهم كرشح المسك ، وذلك أنهم يؤتون بالطعام ثم من بعده يؤتون بالشراب الطهور فيشربون منه فتطهر بطونهم ويصير ما أكلوا رشحاً يخرج من جلودهم أطيب من المسك الأذفر ، وتضمر بطونهم وتعود شهواتهم ، وقيل الشراب الطهور هو عين ماء على باب الجنة من شرب منه نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد .

﴿ إن هذا كان لكم جزاء ﴾ أي يقال لأهل الجنة بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها . إن هذا كان لكم جزاء قد أعده الله لكم إلى هذا الوقت .

فهو لكم بأعمالكم ، وقيل هو إخبار من الله تعالى لعباده المؤمنين أنه قد أعده لهم في الآخرة ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي شكرتكم عليه وآتيتكم أفضل منه ، وهو الثواب ، وقيل شكر الله لعباده هو رضاء منهم بالقليل من الطاعة وإعطاؤه إياهم الكثير من الخيرات .

قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك ﴾ أي يا محمد ﴿ القرآن تنزيلاً ﴾ قال ابن عباس : متفرقاً آية بعد آية ولم ننزله جملة واحدة ، والمعنى أنزلنا عليك القرآن متفرقاً لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، والمقصود من ذلك تثبيت قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشرح صدره وإن الذي أنزله إليه وحي منه ليس بكهانة ، ولا سحر لتزول تلك الوحشة التي حصلت له من قول الكفار إنه سحر أو كهانة .

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي لعبادته فهي من الحكمة المحضة ، وقيل معناه فاصبر لحكم ربك في تأخير الإذن في القتال ، وقيل هو عام في جميع التكاليف ، أي فاصبر لحكم ربك في كل ما حكم الله به سواء كان تكليفاً خاصاً كالعبادات والطاعات أو عاماً متعلقاً بالغير كالتبليغ ، وأداء الرسالة وتحمل المشاق وغير ذلك .

﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ قيل أراد به أبا جهل ، وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) نهاه أبو جهل عنها ، وقال لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه ، وقيل أراد بالآثم عتبة بن ربيعة ، وبالكفور الوليد بن المغيرة وذلك أنهما قالا للنبي (صلى الله عليه وسلم) إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء ، والمال فارجع عن هذا الأمر ، وقال عتبة أنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر ، وقال الوليد أنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية .

فإن قلت هل من فرق بين الآثم والكفور قلت نعم .

الآثم هو المقدم على المعاصي أي معصية كانت ، والكفور هو الجاحد فكل كفور آثم ، ولا ينعكس لأن من عبد غير الله فقد اجتمع في حقه هذان الوصفان لأنه لما عبد غير الله فقد عصاه وجحد نعمه عليه .

(219/795)

﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ قيل المراد من الذكر الصلاة ، والمعنى وصل لربك بكرة يعني صلاة الصبح وأصيلاً يعني صلاة الظهر والعصر ﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء فعلى هذا تكون الآية جامعة لمواقيت الصلاة الخمس ﴿ وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ يعني صلاة التطوع بعد المكتوبة وهو التهجد بالليل ، وقيل المراد من الآية هو الذكر باللسان ، والمقصود أن يكون ذاكراً لله تعالى في جميع الأوقات في الليل والنهار بقلبه وبلسانه .

قوله : ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني كفار مكة ﴿ يحبون العاجلة ﴾ يعني الدار العاجلة ، وهي الدنيا .

﴿ ويذرون وراءهم ﴾ يعني أمامهم ﴿ يوماً ثقيلاً ﴾ يعني شديداً وهو يوم القيامة

والمعنى أنهم يتركونه فلا يؤمنون به ، ولا يعملون له ﴿ نحن خلقناهم وشددنا ﴾ أي قوينا وأحكمنا ﴿ أسرهم ﴾ أي خلقهم وقيل أوصالهم شددنا بعضها إلى بعض بالعروق والأعصاب ، وقيل الأسر مجرى البول والغائط ، وذلك أنه إذا خرج الأذى انقبضا .

﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي إذا شئنا أهلكناهم ، وآتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم .

﴿ إن هذه ﴾ أي السورة ﴿ تذكرة ﴾ أي تذكير وعظة ﴿ فمن شاء اتخذ ﴾ أي لنفسه في الدنيا ﴿ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي وسيلة بالطاعة ، والتقرب إليه وهذه مما يتمسك بها القدرية يقولون اتخاذ السبيل هو عبارة عن التقرب إلى الله تعالى ، وهو إلى اختيار العبد ، ومشيئته قال أهل السنة ويرد عليهم قوله في سياق الآية .

(220/795)

﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله تعالى لأن الأمر إليه ، ومشيئة الله مستلزمة لفعل العبد فجميع ما يصدر عن العبد بمشيئة الله جلّ جلاله وتعالى شأنه ﴿ إن الله كان عليماً ﴾ أي بأحوال خلقه وما يكون منهم ﴿ حكيماً ﴾ أي حيث خلقهم مع علمه بهم ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أي في دينه وقيل في جنته فإن فسرت

الرحمة بالدين كان ذلك من الله تعالى وإن فسرت بالجنة كان دخول الجنة بسبب مشيئة الله جلّ جلاله وتعالى شأنه وفضله وإحسانه لا بسبب الاستحقاق ﴿ والظّالمين ﴾ يعني المشركين ﴿ أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ أي مؤلماً ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 188.195 ﴾

(221/795)

وقال النسفى :

سورة الإنسان

مكية وهي إحدى وثلاثون آية

﴿ هَلْ أتى ﴾ قد مضى ﴿ عَلَى الإنسان ﴾ آدم عليه السلام ﴿ حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ أربعون سنة مصوراً قبل نفخ الروح فيه ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ لم يذكر اسمه ولم يدر ما يراد به لأنه كان طيناً يمر به الزمان ولو غير موجود لم يوصف بأنه قد أتى عليه حين من الدهر .

ومحل ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ النصب على الحال من الإنسان أي أتى عليه حين من الدهر غير مذكور ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان ﴾ أي ولد آدم ، وقيل الأول ولد آدم أيضاً و ﴿

حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ على هذا مدة لبثه في بطن أمه إلى أن صار شيئاً مذكوراً بين الناس ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ نعت أو بدل منها أي من نطفة قد امتزج فيها الماآن .

ومشجه ومزجه بمعنى و ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ كبرمة أعشار فهو لفظ مفرد غير جمع ولذا وقع صفة للمفرد ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ حال أي خلقناه مبتلين أي مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي له ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ذا سمع وبصر .

﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ بيّنا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع ﴿ إِمَّا شَاكِراً ﴾ مؤمناً ﴿ وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ كافراً حالان من الهاء في ﴿ هديناه ﴾ أي إن شكر وكفر فقد هديناه السبيل في الحالين أو من السبيل أي عرّفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وأما سبيلاً كفوراً .

ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز .

ولما ذكر الفريقين أتبعهما ما أعد لهما فقال ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سلاسلا ﴾ جمع سلسلة بغير تنوين : حفص ومكي وأبو عمرو وحمزة ، وبه ليناسب ﴿ أغلالا وَسَعِيراً ﴾ إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب : غيرهم ﴿ وأغلالا ﴾ جمع غُلٍّ ﴿ وَسَعِيراً ﴾ ناراً موقدة .

وقال ﴿ إِنَّ الأبرار ﴾ جمع بر أو بار كرب وأرباب وشاهد وأشهاد وهم الصادقون في الإيمان أو الذين لا يؤذون الذرّ ولا يضمرون الشر ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ خمر فنفس الخمر تسمى كأساً .

وقيل : الكأس الزجاجة إذا كان فيها خمر ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ ما تمزج به ﴿ كافورا ﴾ ماء كافور وهو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده ﴿ عَيْناً ﴾ بدل منه ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ أي منها أو الباء زائدة أو هو محمول على المعنى أي يلتذ بها أو يروي بها .

وإنما قال أولاً بحرف "من" وثانياً بحرف الباء لأن الكأس مبتدأ شربهم وأول غايته ، وأما العين فيها يمزجون شرابهم فكأنه قيل : يشرب عباد الله بها الخمر ﴿ يُفَجّرُونَهَا ﴾ يجرونها حيث شاءوا من منازلهم ﴿ تَفْجِيرًا ﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم .

﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم ، وهو جواب "من" عسى أن يقول : ما لهم يرزقون ذلك ؟ والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفّى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿ ويخافون يَوْماً كَانَ شَرُّهُ ﴾ شدائده ﴿ مُسْتَطِيراً ﴾ منتشراً من استطار الفجر ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ أي حب الطعام من الاشتهاء والحاجة إليه أو على حب الله ﴿ مِسْكِيناً ﴾ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿ وَيَتِيماً ﴾ صغيراً لا أب له ﴿ وَأَسِيراً ﴾ مأسوراً مملوكاً أو غيره .

ثم عللوا إطعامهم فقالوا :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ أي لطلب ثوابه أو هو بيان من الله عز وجل عما في ضمائرهم ، لأن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً ﴾ هدية على ذلك ﴿ وَلاَ شُكُوراً ﴾ ثناء وهو مصدر كالشكر ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ﴾ أي إنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة ، أو إنا نخاف من ربنا فنتصدق لوجهه حتى نأمن من ذلك الخوف ﴿ يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء نحو : نهارك صائم .

والقمطرير الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه .

(223/795)

﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ صانهم من شدائده ﴿ ولقاهم ﴾ أعطاهم بدل عبوس الفجار ﴿ نَضْرَةً ﴾ حسناً في الوجوه ﴿ وَسُرُوراً ﴾ فرحاً في القلوب ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم على الإيثار .

نزلت في علي وفاطمة وفضة جارية لهما ، لما مرض الحسن والحسين رضي الله عنهما نذروا صوم ثلاثة أيام فاستقرض علي رضي الله عنه من يهودي ثلاثة أصوع من الشعير ،

فطحنت فاطمة رضي الله عنها كل يوم صاعاً وخبزت فآثروا بذلك ثلاثة عشايا على أنفسهم مسكيناً ويتيماً وأسيراً ولم يذوقوا إلا الماء في وقت الإفطار .

﴿ جَنَّةً ﴾ بستاناً فيه مأكل هنيء ﴿ وَحَرِيراً ﴾ ملبساً بهياً ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من "هم" في ﴿ جزاهم ﴾ ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ على الأرآئك ﴾ الأسرة جمع الأريكة ﴿ لاَيَرَوْنَ ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ غير رائين ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ لأنه لا شمس فيها ولا زمهرير فظلها دائم وهواؤها معتدل ، لا حر شمس يحمي ولا شدة برد تؤذي .

وفي الحديث : " هواء الجنة سجسج لا حر ولا قرّ " فالزمهرير البرد الشديد .

وقيل : القمر أي الجنة مضيئة لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها ﴾ قريبة منهم ظلال أشجارها عطفت على جنة أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها كأنهم وعدوا بجنتين لأنهم وصفوا بالخوف بقوله : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ﴾ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ سخرت للقائم والقاعد والمتكىء وهو حال من ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم ، أو معطوفة عليها أي ودانية عليهم ظلالها ومذللة ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها جمع قطف .

﴿ تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ أي يدير عليهم خدمهم كئوس الشراب .

والآنية جمع إناء وهو وعاء الماء ﴿ وَأَكْوابٍ ﴾ أي من فضة جمع كوب وهو إبريق لا عروة له ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ﴾ "كان" تامة أي كونت فكانت قوارير بتكوين الله نصب على الحال ﴿ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي مخلوقة من فضة فهي جامعة لبياض الفضة وحسنها وصفاء القوارير وشفيفها حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قوارير كل أرض من تربتها وأرض الجنة فضة .

قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بالتنوين فيهما .

وحمزة وابن عامر وأبو عمرو وحفص بغير تنوين فيهما .

وابن كثير بتنوين الأول والتنوين في الأول لتناسب الآي المتقدمة والمتأخرة ، وفي الثاني لإتباعه الأول .

والوقف على الأول قد قيل ولا يوثق به لأن الثاني بدل من الأول ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ صفة ل ﴿ قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي أهل الجنة قدروها على أشكال مخصوصة فجاءت كما قدروها تكرمة لهم ، أو السقاة جعلوها على قدر ريّ شاربها فهي ألذ لهم وأخف عليهم .

وعن مجاهد : لا تفيض ولا تغيض .

﴿ وَيُسْقَوْنَ ﴾ أي الأبرار ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ كَأْساً ﴾ خمراً ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا

زَنجَبِيلاً * عَيْناً ﴾ بدل من ﴿ زَنجَبِيلاً ﴾ ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ تسمى ﴾ تلك العين ﴿ سَلْسَبِيلاً ﴾ سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه .

وسلسبيلاً لسلاسة انحدارها وسهولة مساغها .

قال أبو عبيدة : ماء سلسبيل أي عذب طيب .

(225/795)

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان ﴾ غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين ، أو ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ لا يموتون ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ ﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم ﴿ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ وتخصيص المنثور لأنه أزين في النظر من المنظوم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ ظرف أي في الجنة وليس ل ﴿ رَأَيْتَ ﴾ مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع في كل مرئي تقديره وإذا اكتسبت الرؤية في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيماً ﴾ كثيراً ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ واسعاً .

يروى أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه .

وقيل : ملك لا يعقبه هلك ، أو لهم فيها ما يشاؤون أو تسلم عليهم الملائكة ويستأذنون في الدخول عليهم ﴿ عاليهم ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير في ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾

أي يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب .

وبالسكون : مدني وحمزة على أنه مبتدأ خبره ﴿ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ أي ما يعلوهم من ملابسهم ثياب سندس رقيق الديباج .

﴿ خُضْرٌ ﴾ جمع أخضر ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ غليظ يرفعهما حملاً على الثياب : نافع وحفص ، وبجرهما : حمزة وعلي حملاً على ﴿ سُندُسٍ ﴾ وبرفع الأول وجر الثاني أو عكسه : غيرهم ﴿ وَحُلُّواْ ﴾ عطف على ﴿ وَيَطُوفُ ﴾ ﴿ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ وفي سورة "الملائكة" : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ﴾ [الحج : 23] .

قال ابن المسيب : لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة : واحدة من فضة وأخرى من ذهب وأخرى من لؤلؤ .

﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ ﴾ أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص .

(226/795)

وقيل : إن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم ويقولون : لقد طال أخذنا من الوسائط فإذا هم بكاسات تلاقي أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد ﴿ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ ليس برجس كخمر الدنيا لأن كونها رجساً بالشرع لا بالعقل ولا تكليف ثم ، أو لأنه لم

يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة يقال لأهل الجنة ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ النعيم ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ لأعمالكم ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ محموداً مقبولاً مرضياً عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لإن تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليستقر في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله مفرقاً إلا حكمة وصواباً ومن الحكمة الأمر بالمصابرة ﴿ فاصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ عليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذية وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكة ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ﴾ من الكفرة للضجر من تأخير الظفر ﴿ ءَاثِماً ﴾ راكباً لما هوى إثم داعياً لك إليه ﴿ أَوْ كَفُوراً ﴾ فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه ، لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل ما هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر ، فنهى أن يساعدهم على الأولين دون الثالث .

وقيل : الآثم عتبة لأنه كان ركاباً للمآثم والفسوق .

والكفور : الوليد لأنه كان غالياً في الكفر والجحود .

والظاهر أن المراد كل آثم وكافر أي لا تطع أحدهما ، وإذا نهي عن طاعة أحدهما لا بعينه فقد نهى عن طاعتهما معاً ومتفرقاً .

ولو كان بالواو لجاز أن يطيع أحدهما لأن الواو للجمع فيكون منهياً عن طاعتهما معاً لا عن طاعة أحدهما ، وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه كان عن طاعتهما جميعاً أنهى .

(227/795)

وقيل : "أو" بمعنى "ولا" أي ولا تطع آثماً ولا كفوراً ﴿ واذكر اسم رَبِّكَ ﴾ صلِّ له ﴿ بُكْرَةً ﴾ صلاة الفجر ﴿ وَأَصِيلاً ﴾ صلاة الظهر والعصر .

﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ﴾ وبعض الليل فصّل صلاة العشاءين ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ أي تهجد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه .

﴿ إِنَّ هَؤُلآء ﴾ الكفرة ﴿ يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ يؤثرونها على الآخرة ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ ﴾ قدامهم أو خلف ظهورهم ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ شديداً لا يعبئون به وهو القيامة لأن شدائده تثقل على الكفار ﴿ نَّحْنُ خلقناهم وَشَدَدْنَا ﴾ أحكمنا ﴿ أَسْرَهُمْ ﴾ خلقهم عن ابن عباس رضي الله عنهما والفراء ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم تَبْدِيلاً ﴾ أي إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في الخلقة ممن يطيع ﴿ إِنَّ هذه ﴾ السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ عظة ﴿ فَمَن شَاءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ بالتقرب إليه بالطاعة له واتباع رسوله ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ اتخاذ السبيل إلى الله .

وبالياء : مكي وشامي وأبو عمرو .

ومحل ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ النصب على الظرف أي إلا وقت مشيئة الله ، وإنما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك .

وقيل : هو لعموم المشيئة في الطاعة والعصيان والكفر والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً ﴾ بما يكون منهم من الأحوال ﴿ حَكِيماً ﴾ مصيباً في الأقوال والأفعال ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ جنته لأنها برحمته تنال وهو حجة على المعتزلة لأنهم يقولون قد شاء أن يدخل كلاً في رحمته لأنه شاء إيمان الكل ، والله تعالى أخبر أنه يدخل من يشاء في رحمته وهو الذي علم منه أنه يختار الهدى ﴿ والظالمين ﴾ الكافرين لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ونصب بفعل مضمر يفسره ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ نحو : أوعد وكافأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 316. 321 ﴾

(228/795)

وقال ابن جزى :

سورة الإنسان

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدهرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

هل هنا بمعنى التقرير لا لمجرد الاستفهام ، وقيل : هل بمعنى قل ، والإنسان هنا جنس ، والحين الذي أتى عليه حين كان معدوماً قبل أن يخلق ، وقيل : الإنسان هنا آدم ، والحين الذي أتى عليه حين كان طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح وهذا ضعيف لوجهين : أحدهما قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وهو هنا جنسها باتفاق ؛ إذ لا يصح هنا في آدم ، والآخر أن مقصد آية تحقير الإنسان ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي أخلاط واحدها مشج بفتح الميم والشين وقيل : مشج بوزن عدل ، وقال الزمخشري : ليس أمشاج وإنما هو مفرد كقولهم : برمة أعشار ، ولذلك أوقع صفة للمفرد واختلف في معنى الأخلاط هنا فقيل : اختلاط ماء الرجل والمرأة ، وقيل : معناه ألوان وأطوار ، أي يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي نختبره وهذه الجملة في موضع الحال ، أي : خلقناه مبتلين له ، وقيل : معناه نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ هذا معطوف على خلقنا الإنسان ، ومن جعل نبتليه بمعنى نصرفه في بطن أمه فهذا عطف عليه ، وقيل أن نبتليه مؤخر في المعنى أي جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه وهذا تكليف بعيد .

(229/795)

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ أي سبيل الخير والشر ولذلك قسم الإنسان إلى قسمين شاكراً أو كفرواً وهما حالان من الضمير من هديناه ، والهدى هنا بمعنى : بيان الطريقين ، وموهبة العقل الذي يمي به بينهما ، ويحتمل أن يكون بمعنى الإرشاد ، أي هدى المؤمن للإيمان والكافر للكفر . ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله ﴾ [النساء : 78] ﴿ سَلاَسِلاَ ﴾ من قرأه بغير تنوين فهو الأصل إذ هو لا ينصرف ، لأنه جمع لا نظير له في الآحاد . ومن قرأه بالتنوين فله ثلاث توجيهات : أحدها أنها لغة لبعض العرب يصرفون كل ما لا ينصرف إلا ما كان على وزن أفعل ، والآخر : أن النون بدل من حرف الاطلاق ، وأجرى الوصل مجرى الوقف ، والثالث : أن يكون صاحب هذه القراءة رواية للشعر ، قد عوّد لسانه صرف ما لا ينصرف فجرى على ذلك ﴿ الأبرار ﴾ جمع بار أو برّ ، ومعناه العاملون بالبر وهو غاية التقوى والعمل الصالح حتى قال بعضهم : الأبرار هم الذين لا يؤذون الذر ﴿ مِن كَأْسٍ ﴾ ذكر في [الصافات : 45] معنى الكاس ومن هنا يحتمل أن تكون للتبعيض أو لابتداء الغاية ﴿ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ أي تمزج الخمر بالكافور ، وقيل : المعنى أنه كافور في طيب رائحته كما تمدح طعاماً فتقول هذا مسك ﴿ عَيْناً ﴾ بدل من كافوراً على القول بأن الخمر تمزج بالكافور ، أو بدل من موضع من كأس على القول الآخر ، كأنه قال : يشربون خمراً خمر عين ، وقيل : هو مفعول يشربون وقيل منصوب بإضمار فعل ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ قال ابن عطية : الباء زائدة والمعنى يشربها ، وهذا ضعيف ؛ لأن الباء إنما تزاد في مواضع

ليس هذا منها ، وإنما هي كقولك : شربت الماء بالعسل لأن العين المذكورة تمزج بها الكأس من الخمر ﴿ عِبَادُ الله ﴾ وصفهم بالعبودية ، وفيه معنى التشريف والاختصاص ، كقوله : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي يفجرونها حيث شاؤوا من

(230/795)

منازلهم تفجيراً سهلاً لا يصعب عليهم ، وفي الأثر أن في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة عيناً تفجر إلى قصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ مُسْتَطِيراً ﴾ أي منتشراً شائعاً ، ومه استطار الفجر : إذا انشق ضوؤه .

(231/795)

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام ﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فإنهم كانوا صائمين فلما وضعوا فطورهم ليأكلوه جاء مسكين فرفعوه له ، وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين ، فلما وضعوا فطورهم جاء يتيم فدفعوه له ،

وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين فلما وضعوا فطورهم جاء أسير فدفعه له ، وباتوا طاوين ، والآية على هذا مدنية لأن علياً إنما تزوج فاطمة بالمدينة ، وقيل : إنما هي مكية وليست في علي ﴿ على حُبِّهِ ﴾ الضمير للطعام أي يطعمونه مع حبه والحاجة إليه فهو كقوله : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] ففي قوله على حبه تتميم وهو من أدوات البيان ، وقيل : الضمير لله ، وقيل : للإطعام المفهوم من يطعمون والأول أرجح وأظهر ﴿ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ قد ذكرنا المسكين واليتيم وأما الأسير ففيه خمسة أقوال ؛ أحدها أن الأسير الكافر بين المسلمين ففي إطعامه أجر لأنه : " في كل ذي كبد رطبة أجر " وقيل نسخ ذلك بالسيف ، والآخر : أنه الأسير المسلم إذا خرج من دار الحرب لطلب الفدية ، والثالث أنه المملوك الرابع : أنه المسجون ، الخامس : أنه المرأة لقوله صلى الله عليه وسلم " استوصوا بالنساء خيراً لأنهم عوانٍ عندكم " وهذا بعيد والأول أرجح ؛ لأنه روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير المشرك فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له : أحسن إليه ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ عبارة عن الإخلاص لله ، ولذلك فسروه وأكدوه بقولهم : ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ والشكور مصدر كالشكر ويحتمل أنهم قالوا هذا الكلام بألسنتهم ، أو قالوا في نفوسهم ، فهو عبارة عن النية والقصد ﴿ يَوْماً عَبُوساً ﴾ وَصْفُ اليوم بالعبوس مجاز على وجهين : أحدهما :

أن يوصف اليوم بصفة أهله كقولهم : نهاره صائم وليله قائم . ورُوي أن الكفار يعبس يومئذ حتى يسيل الدم من عينيه مثل القطران ، والآخر يشبَّه في شدّته بالأسد العبوس ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ قال ابن عباس : معناه طويل ، وقيل : شديد .

وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ النضرة : التنعم . وهذا في مقابلة عبوس الكافر . وقوله : وقاهم ولقاهم من أدوات البيان ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بصبرهم على الجوع وإيثار غيرهم على أنفسهم ، حسبما ذكرنا من قصة علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم وقد ذكرنا الأرائك ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ عبارة عن اعتدال هوائها أي ليس فها حر ولا برد ، والزمهرير هو البرد الشديد ، وقيل : هو القمر بلغة طيء ، والمعنى على هذا أن للجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى الشمس ولا القمر ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ﴾ معناه أن ظلال الأشجار متدلية عليهم قريبة منهم ، وإعراب دانية معطوف على متكئين ، وقال الزمخشري : هو معطوف على الجملة التي قبلها وهي : لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، لأن هذه الجملة في حكم المفرد تقديره : غير رائين فيها شمساً ولا زمهريراً ودانية ، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم ، أي جامعين بين البعد عن الحر والبرد

وبين دنو الضلال ، وقيل : هو صفة لجنة عطف بالواو كقولك : فلان علام وصالح . وقيل : هو معطوف عليها أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ القطوف جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب ، وشبه ذلك ، وتذليلها هو أن تتدلى إلى الأرض ، ورُوي أن أهل الجنة يقطعون الفواكة على أي حال كانوا من قيام أو جلوس أو اضطجاع ، لأنها تتدلى لهم كما يريدون ، وهذه الجملة في موضع الحال من دانية ، أي دانية في حالة تذليل قطوفها أو معطوفة عليها .

(233/795)

﴿ بِآنِيَةٍ ﴾ هي جمع إناء ووزنها أفعلة وقد ذكرنا الأكواب في الواقعة ﴿ قَوَارِيرَا ﴾ القوارير هي الزجاج ، فإن قيل : كيف يتفق أنها زجاج مع قوله من فضة ؟ فالجواب : أن المراد أنها في أصلها من فضة وهي تشبه الزجاج في صفائها وشفيفها ، وقيل : هي من زجاج ، وجعلها من فضة على وجه التشبيه لشرف الفضة وبياضها ، ومن قرأ قواريرَ بغير تنوين فهو عل الأصل ومن نوّنه فعلى ما ذكرنا في سلاسل ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ هذه صفة للقوارير والمعنى قدّروها على قدر الأكف أو على قدر ما يحتاجون من الشراب ، قال مجاهد : هي لا تغيض ولا تفيض ، وقيل : قدروها على حسب ما يشتهون ، والضمير

الفاعل في قدّروها يحتمل أن يكون للشاربين بها أو للطائفين بها ﴿ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ هو كما ذكرنا في مزاجها كافوراً ﴿ سَلْسَبِيلاً ﴾ معناه سلسل منقاد الجرية ، وقيل : سهل الانحدار في الحلق ، يقال : شراب السلسل وسلسال وسلسبيل بمعنى واحد . وزيدت الباء في التركيب للمبالغة في سلاسته ، فصارت الكلمة خماسية ، وقيل : سل فعل أمر سبيلاً مفعول به وهذا في غاية الضعف ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ ذكر في الواقعة ﴿ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ شبههم باللؤلؤ في الحسن والبياض ، وبالمنثور منه في كثرتهم وانتشارهم في القصور .

(234/795)

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ مفعول رأيت محذوف ليكون الكلام على الاطلاق في كل ما يرى فيها ، وثم ظرف مكان ، وقال الفراء : تقديره إذا رأيت ما ثم فما مفعوله ثم حذفت ، قال الزمخشري : وهذا خطاب لأن ثمَّ صلة لما ، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ يعني كثرة ما أعطاهم الله ، حتى إذا أدنى أهل الجنة منزلة له مثل الدنيا وعشرة أمثاله معه ، حسما ورد في الحديث وقيل : أراد أن الملائكة تسلم عليهم ، وتستأذن عليهم ، فهم بذلك كالملوك ﴿ عَالِيَهُمْ ﴾ بسكون الياء مبتدأ خبره ﴿ ثِيَابُ

سُندُسٍ ﴾ أي ما يعلوهم من الثياب ثيابُ سندس ، وقُرئ عالِيَهم بالنصب على الحال ، من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم . وقال ابن عطية : العامل فيه لقَّاهم أو جزاهم ، وقال أيضاً يجوز أن ينتصب على الظرف لأن معناه فوقاهم ، وقد ذكرنا معنى السندس والإستبرق وقرئ ﴿ خُضْرٌ ﴾ بالخفض صفة لسندس وبالرفع صفة لثياب ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ بالرفع عطف على ثياب ، وبالخفض عطف على سندس ﴿ وحلوا ﴾ وزنه فعلوا معناه جعل لهم حلي ﴿ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ ذكرنا الأساور في الكهف ، فإن قيل : كيف قال هنا أساور من فضة ، وفي موضع أساور من ذهب ؟ فالجواب : أن ذلك يختلف باختلاف درجات أهل الجنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما " فلعل الذهب للمقربين ، والفضة لأهل اليمين ، ويتحمل أن يكون أهل الجنة لهم أساور من فضة ومن ذهب معاً ﴿ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ أي ليس بنجس كحمر الدنيا . وقيل معناه : أنه لم تعصره الأقدام ، وقيل معناه لا يصير بولاً ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ أي يقال لهم هذا يقوله الله تعالى والملائكة ﴿ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أو هنا للتنويع ، فالمعنى لا تطع النوعين ، فاعلاً للإثم ولا كفوراً ، وقيل : هي بمعنى الواو أي جامعاً للوصفين لأن هذه حالة الكفار ، ورُوي

أنه الآية نزلت في أبي جهل ، وقيل : أن الآثم عتبة بن ربيعة ، والكفور الوليد بن المغيرة ، والأحسن أنها على العموم ، لأن لفظها عام ، وإن كان سبب نزولها خاصاً ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ هذا أمر بذكر الله في كل وقت ، وقيل : إشارة إلى الصلوات الخمس ، فالبكرة صلاة الصبح ، والأصيل الظهر والعصر ، ومن الليل المغرب والعشاء .

﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة ﴾ أي الدنيا والإشارة إلى الكفار واليوم الثقيل يوم القيامة ، ووصفه بالثقل عبارة عن هوله وشدته ﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ الأسر الخلقة وقيل : المفاصل والأوصال ، وقيل : القوة ﴿ بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أي أهلكناهم وأبدلنا منهم غيرهم . وقيل : مسخناهم فبدلنا صورهم وهذا تهديد ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ الإشارة إلى الآية أو السورة أو الشريعة بجملتها ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ تحضيض وترغيب ثم قيّد مشيئتهم بمشيئة الله ﴿ والظالمين ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره : ويعذب الظالمين .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 166.170 ﴾

(236/795)

وقال البيضاوى :

سورة الإنسان

مكية وآيها إحدى وثلاثون

آية بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾

استفهام تقرير وتقريب ولذلك فسر بقد وأصله أهل كقوله :

أهل رَأَوْنَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأَكم . . . ﴿ حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود . ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ بل كان شيئاً منسياً غير مذكور بالإنسانية كالعنصر والنطفة ، والجملة حال من ﴿ الإنسان ﴾ أو وصف ل ﴿ حِينٍ ﴾ بحذف الراجع والمراد بالإنسان الجنس لقوله :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أو آدم بين أولاً خلقه ثم ذكر خلقه بنيه . ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أخلاط جمع مشج أو مشج أو مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته ، وجمع النطفة به لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة وكل منهما مختلف الأجزاء في الرقة والقوام والخواص ، ولذلك يصير كل جزء منهما مادة عضو . وقيل مفرد كأعشار وأكباش . وقيل ألوان فإن ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اختلطا اخضرا ، أو أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة . ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره

أو ناقلين له من حال إلى حال فاستعير له الابتلاء . ﴿ فجعلناه سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات ، فهو كالمسبب عن الابتلاء ولذلك عطف بالفاء على الفعل المقيد به ورتب عليه قوله :

(237/795)

﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات . ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ حالان من الهاء ، و ﴿ أَمَّا ﴾ للتفصيل أو التقسيم أي ﴿ هديناه ﴾ في حاليه جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضهم ﴿ شاكرا ﴾ بالاهتداء والأخذ فيه ، وبعضهم كفور بالإعراض عنه ، أو من ﴿ السبيل ﴾ ووصفه بالشكر والكفر مجاز . وقرىء ﴿ أَمَّا ﴾ بالفتح على حذف الجواب ولعله لم يقل كافراً ليطابق قسيمه محافظة على الفواصل ، وإشعاراً بأن الإنسان لا يخلو عن كفران غالباً وإنما المؤاخذ به التوغل فيه .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا للكافرين سلاسل ﴾ بها يقادون . ﴿ وأغلالا ﴾ بها يقيدون . ﴿ وَسَعِيراً ﴾ بها يحرقون ، وتقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم لأن الإنذار أهم وأنفع ، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن ، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر "سلاسلا" للمناسبة .

﴿ إِنَّ الأبرار ﴾ جمع بر كأرباب أو بار كأشهاد . ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ من خمر وهي في الأصل القدح تكون فيه . ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ ما يمزج بها . ﴿ كافورا ﴾ لبرده وعذوبته وطيب عرفه وقيل اسم ماء في الجنة يشبه الكافور في رائحته وبياضه . وقيل يخلق فيها كيفيات الكافور فتكون كالممزوجة به .

﴿ عَيْناً ﴾ بدل من ﴿ كافورا ﴾ إن جعل اسم ماء أو من محل ﴿ مِن كَأْسٍ ﴾ على تقدير مضاف ، أي ماء عين أو خمرها أو نصب على الاختصاص أو بفعل يفسره ما بعدها .

﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ أي ملتذاً بها أو ممزوجاً بها ، وقيل الباء مزيدة أو بمعنى من لأن الشرب مبتدأ منها كما هو . ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ يجرونها حيث شاءوا إجراء سهلاً .

(238/795)

﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ استئناف ببيان ما رزقوه لأجله كأنه سئل عنه فأجيب بذلك ، وهو أبلغ في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه لله تعالى كان أوفى بما أوجبه الله تعالى عليه . ﴿ ويخافون يَوْماً كَانَ شَرُّهُ ﴾ شدائده . ﴿ مُسْتَطِيراً

﴿ فاشياً غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر ، وهو أبلغ من طار ، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي .

﴿ ويُطْعِمُونَ الطعام على حُبّهِ ﴾ حب الله تعالى أو الطعام أو الإطعام . ﴿ مِسْكِيناً ويَتيماً وَأَسِيراً ﴾ يعني أسراء الكفار فإنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول " أحسن إليه " أو الأسير المؤمن ويدخل فيه المملوك والمسجون ، وفي الحديث " غريمك أسير فأحسن إلى أسيرك " .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله ﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها : أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا ، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله . ﴿ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ أي شكراً .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ﴾ فلذلك نحسن إليكم أو لا نطلب المكافأة منكم . ﴿ يَوْماً ﴾ عذاب يوم . ﴿ عَبُوساً ﴾ تعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس في ضراوته . ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ شديد العبوس كالذي يجمع ما بين عينيه من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قرطيها أو مشتق من القطر والميم مزيدة .

﴿ فوقاهم الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه . ﴿ ولقاهم نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ بدل عبوس الفجار وخزنهم .

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات وإيثار الأموال . ﴿ جَنَّةُ ﴾ بستاناً يأكلون منه . ﴿ وَحَرِيراً ﴾ يلبسونه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك ، فنذر علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما صوم ثلاث إن برئا ، فشفيا وما معهم شيء ، فاستقرض علي من شمعون الخيبري ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فآثروه ، ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه السورة وقال خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك .

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا على الأرائك ﴾ حال من هم في ﴿ جزاهم ﴾ أو صفة ل ﴿ جَنَّةُ ﴾ . ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ يحتملهما وأن يكون حالاً من المستكن في ﴿ متكئين ﴾ ، والمعنى أنه يمر عليهم فيها هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ ، وقيل

الزمهرير القمر في لغة طيء قال راجزهم :

وَلَيْلَةٌ ظَلاَمُهَا قَدِ اعْتَكَر . . . قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرْ

والمعنى أن هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس وقمر .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظلالها ﴾ حال أو صفة أخرى معطوفة على ما قبلها ، أو عطف على ﴿ جَنَّةُ ﴾ أي وجنة أخرى دانية على أنهم وعدوا جنتين كقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وقرئت بالرفع على أنها خبر ﴿ ظلالها ﴾ والجملة حال أو صفة . ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ معطوف على ما قبله أو حال من دانية ، وتذليل القطوف ان تجعل سهلة التناول لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا .

(240/795)

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ وأباريق بلا عروة . ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ . ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها وبياض الفضة ولينها ، وقد نون ﴿ قَوَارِيرَ ﴾ من نون "سلاسلاً" وابن كثير الأولى لأنها رأس الآية ، وقرىء ﴿ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ على هي ﴿ قَوَارِيرَ ﴾ . ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ أي قدروها في أنفسهم فجاءت مقاديرها وأشكالها كما تمنوه ، أو قدروها بأعمالهم الصالحة

فجاءت على حسبها ، أو قدر الطائفون بها المدلول عليهم بقوله يطاف شرابها على قدر اشتهائهم ، وقرىء ﴿ قَدَّرُوهَا ﴾ أي جعلوا قادرين لها كما شاءوا من قدر منقولاً من قدرت الشيء .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ ما يشبه الزنجبيل في الطعم وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به ﴿ عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها ، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد به أن ينفي عنها لذع الزنجبيل ويصفها بنقيضه ، وقيل أصله سل سبيلا فسميت به كتأبط شراً لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ دائمون . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ من صفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر لأنه عام معناه أن بصرك أينما وقع .

﴿ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ واسعاً ، وفي الحديث " أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه " هذا وللعارف أكبر من ذلك وهو أن تنتقش نفسه بجلايا الملك وخفايا الملكوت ، فيستضيء بأنوار قدس الجبروت .

﴿ عاليهم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ يعلوهم ثياب الحرير الخضر ما رق منها وما غلظ ، ونصبه على الحال من هم في عليهم أو ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ ، أو ﴿ مَلَكًا ﴾ على تقدير مضاف أي وأهل ملك كبير عاليهم ، وقرأ نافع ﴿ عاليهم ﴾ وحمزة بالرفع على أنه خبر ﴿ ثِيَابُ ﴾ . وقرأ ابن كثير وأبو بكر "خُضْرٍ" بالجر حملاً على ﴿ سُندُسٍ ﴾ بالمعنى فإنه اسم جنس ، ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ ثِيَابُ ﴾ ، وقرأهما حفص وحمزة والكسائي بالرفع ، وقرىء "وَإِسْتَبْرَقٍ" بوصل الهمزة والفتح على أنه استفعل من البريق جعل علماً لهذا النوع من الثياب . ﴿ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ عطف على ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ ولا يخالفه قوله ﴿ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض ، فإن حلي أهل الجنة تختلف باختلاف أعمالهم ، فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوت الذهب والفضة ، أو حال من الضمير في ﴿ عاليهم ﴾ بإضمار قد ، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذلك للمخدومين . ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ يريد به نوعاً آخر يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند سقيه إلى الله عز وجل ، ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق ، فيتجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلقائه باقياً ببقائه ، وهي منتهى درجات الصديقين ولذلك ختم بها ثواب الأبرار .

﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ على إضمار القول والإشارة إلى ما عد من ثوابهم . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ مجازى عليه غير مضيع .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القرءان تَنزِيلاً ﴾ مفرقاً منجماً لحكمةٍ اقتضته ، وتكرير الضمير مع أن مزيد لاختصاص التنزيل به .

(242/795)

﴿ فاصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بتأخير نصرك على كفار مكة وغيرهم . ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أي كل واحدٌ من مرتكب الإِثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفر الداعي لك إليه ، وأو للدلالة على أنهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به والقسم باعتبار ما يدعونه إليه ، فإن ترتب النهي على الوصفين مشعر أنه لهما وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإِثم والكفر . فإن مطاوعتهما فيما ليس بإثم ولا كفر غير محظور .

﴿ واذكر اسم رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ وداوم على ذكره أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل يتناول وقتيهما .

﴿ وَمِنَ اليل فاسجد لَهُ ﴾ وبعض الليل فصل له تعالى ، ولعل المراد به صلاة المغرب

والعشاء وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص . ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ وتهجد له طائفة طويلة من الليل .

﴿ إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ ﴾ أمامهم أو خلف ظهورهم . ﴿ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ شديداً مستعار من الثقل الباهظ للحامل ، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه .

﴿ نَّحْنُ خلقناهم وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب . ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم تَبْدِيلاً ﴾ وإذا شئنا أهلكناهم و ﴿ بَدَّلْنَا أمثالهم تَبْدِيلاً ﴾ في الخلقة ، وشدة الأسر يعني النشأة الثانية ولذلك جيء ب ﴿ إِذَا ﴾ أو بدلنا غيرهم ممن يطيع ﴿ وَإِذَا ﴾ لتحقق القدرة وقوة الداعية .

﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ الإشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ، ﴿ فَمَن شَاءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ تقرب إليه بالطاعة .

﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله ﴾ وما تشاءون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر "يَشَاءونَ" بالياء . ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً ﴾ بما يستأهل كل أحد . ﴿ حَكِيماً ﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته .

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة . ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ نصب ﴿ الظالمين ﴾ بفعل يفسره ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ مثل أوعد وكافأ ليطابق الجملة المعطوف عليها ، وقرىء بالرفع على الابتداء .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريراً " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 425.431 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(244/795)

وقال أبو حيان :

سورة الإنسان

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

﴿ هل ﴾ حرف استفهام ، فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بقد ، لأن قد من خواص الفعل ، فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتي للاستفهام المحض .

وقال ابن عباس وقتادة : هي هنا بمعنى قد .

قيل : لأن الأصل أهل ، فكأن الهمزة حذفت واجتزىء بها في الاستفهام ، ويدل على ذلك

قوله :

سائل فوارس يربوع لحلتها . . .

أهل رأونا بوادي النتّ ذي الأكم

فالمعنى : أقد أتى على التقدير والتقريب جميعاً ، أي أتى على الإنسان قبل زمان قريب حين من الدهر لم يكن كذا ، فإنه يكون الجواب : أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور .

وما تليت عند أبي بكر ، وقيل : عند عمر رضي الله تعالى عنهما قال : ليتها تمت ، أي ليت تلك الحالة تمت ، وهي كونه شيئاً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف .

والإنسان هنا جنس بني آدم ، والحين الذي مرّ عليه ، إما حين عدمه ، وإما حين كونه نطفة .

وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه ، فإنه في تلك المدة لا ذكر له ، وسمي إنساناً باعتبار ما صار إليه .

وقيل : آدم عليه الصلاة والسلام ، والحين الذي مر عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح .

وعن ابن عباس : بقي طيناً أربعين سنة ، ثم صلصالاً أربعين ، ثم حمأ مسنوناً أربعين ، فتم خلقه في مائة وعشرين سنة ، وسمي إنساناً باعتبار ما آل إليه .

والجملة من ﴿ لم يكن ﴾ في موضع الحال من الإنسان ، كأنه قيل : غير مذكور ، وهو

الظاهر أو في موضع الصفة لحين ، فيكون العائد على الموصوف محذوفاً ، أي لم يكن فيه .

﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ : هو جنس بني آدم لأن آدم لم يخلق ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ : أخلاط ، وهو وصف للنطفة .

فقال ابن مسعود وأسامة بن زيد عن أبيه : هي العروق التي في النطفة .

وقال ابن عباس ومجاهد والربيع : هو ماء الرجل وماء المرأة اختلطا في الرحم فخلق الإنسان منهما .

(245/795)

وقال الحسن : اختلاط النطفة بدم الحيض ، فإذا حبلت ارتفع الحيض .

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة وقتادة : أمشاج منتقلة من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى غير ذلك إلى إنشائه إنساناً .

وقال ابن عباس أيضاً والكلبي : هي ألوان النطفة .

وقيل : أخلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، والنطفة أريد بها الجنس ، فلذلك وصفت بالجمع كقوله : ﴿ على رفرف خضر ﴾ أو لتنزيل كل جزء من النطفة نطفة .

وقال الزمخشري : نطفة أمشاج ، كبرمة إعسار ، وبرد أكياس ، وهي ألفاظ مفرد غير

جموع ، ولذلك وقعت صفات للأفراد .

ويقال أيضاً : نطفة مشج ، ولا يصح أمشاج أن تكون تكسيراً له ، بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما . انتهى .

وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن أفعالاً لا يكون مفرداً .

قال سيبويه : وليس في الكلام أفعال إلا أن يكسر عليه اسماً للجميع ، وما ورد من وصف المفرد بأفعال تأولوه .

﴿ نبتليه ﴾ : نختبره بالتكليف في الدنيا ؛ وعن ابن عباس : نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة ، فعلى هذا هي حال مصاحبة ، وعلى أن المعنى نختبره بالتكليف ، فهي حال مقدرة لأنه تعالى حين خلقه من نطفة لم يكن مبتلياً له بالتكليف في ذلك الوقت .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ناقلين له من حال إلى حال فسمي ذلك الابتلاء على طريق الاستعارة . انتهى .

وهذا معنى قول ابن عباس .

وقيل : نبتليه بالإيجاد والكون في الدنيا ، فهي حال مقارنة .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير الأصل .

﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ نبتليه ، أي جعله سميعاً بصيراً هو الابتلاء ، ولا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير ، والمعنى يصح بخلافه ، وامتن تعالى عليه بجعله بهاتين الصفتين ،

وهما كناية عن التمييز والفهم ، إذ آلتهما سبب لذلك ، وهما أشرف الحواس ، تدرك بهما أعظم المدركات .

(246/795)

ولما جعله بهذه المثابة ، أخبر تعالى أنه هداه إلى السبيل ، أي أرشده إلى الطريق ، وعرفنا مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك ، إذ أرشدناه طريق الهدى .

وقال مجاهد : سبيل السعادة والشقاوة .

وقال السدي : سبيل الخروج من الرحم .

وقال الزمخشري : أي مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً ، وإذ دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع كان معلوماً منه أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة .

انتهى ، وهو على طريق الإلتزام .

وقرأ الجمهور : ﴿ أما ﴾ بكسر الهمزة فيهما ؛ وأبو السمال وأبو العاج ، وهو كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة لهشام بن عبد الملك : بفتحها فيهما ، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب ، وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف وأنشدوا :

يلحقها إما شمال عرية . . .

وإما صبا جنح العشي هبوب

وقال الزمخشري : وهي قراءة حسنة ، والمعنى : إما شاكراً بتوفيقنا ، وإما كفوراً فبسوء اختياره . انتهى .

فجعلها إما التفصيلية المتضمنة معنى الشرط ، ولذلك تلقاها بفاء الجواب ، فصار كقول العرب : إما صديقاً فصديق ؛ وانتصب شاكراً وكفوراً على الحال من ضمير النصب في ﴿ هديناه ﴾ .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكونا حالين من السبيل ، أي عرفناه السبيل ، إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً ، كقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً . انتهى .

ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكراً : ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء كفوراً بصيغة المبالغة .

ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد .

وقرأ طلحة وعمرو بن عبيد وابن كثير وأبو عمرو وحمزة : ﴿ سلاسل ﴾ ممنوع الصرف وقفاً ووصلاً .

وقيل عن حمزة وأبي عمر : الوقف بالألف .

وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف ، واختلف عنهم في الوقف ، وكذا عن البزي .

وقرأ باقي السبعة : بالتنوين وصلاً وبالألف المبدلة منه وقفاً ، وهي قراءة الأعمش ، قيل : وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أفعل من وهي لغة الشعراء ، ثم كثر حتى جرى في كلامهم ، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا : صواحبات يوسف ونواكسي الأبصار ، أشبه المفرد فجرى فيه الصرف ، وقال بعض الرجاز :

والصرف في الجمع أتى كثيراً . . .

حتى ادعى قوم به التخييرا

والصرف ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة ، وفي مصحف أبي وعبد الله ، وكذا قوارير .

وروى هشام عن ابن عامر : سلاسل في الوصل ، وسلاسلاً بألف دون تنوين في الوقف .

وروي أن من العرب من يقول : رأيت عمراً بالألف في الوقف .

﴿ من كأس ﴾ : من لابتداء الغاية ، ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ ، قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ، ويختم لهم بالمسك .

وقيل : هو على التشبيه ، أي طيب رائحة وبرد كالكافور .

وقال الكلبي : كافوراً اسم عين في الجنة ، وصرفت لتوافق الآي .

وقرأ عبد الله : قافوراً بالقاف بدل الكاف ، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة ، كقولهم : عربي قح وكح ، و﴿ عيناً ﴾ بدل من ﴿ كافوراً ﴾ مفعولاً بيشربون ، أي ماء عين ، أو بدل من محل من كأس على حذف مضاف ، أي يشربون خمراً خمر عين ، أو نصب على الاختصاص .

ولما كانت الكأس مبدأ شربهم أتى بمن ؛ وفي ﴿ يشرب بها ﴾ : أي يمزج شرابهم بها أتى بالباء الدالة على الإلصاق ، والمعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل ، أو ضمن يشرب معنى يروى فعدى بالباء .

وقيل : الباء زائدة والمعنى يشرب بها ، وقال الهذلي :

شربن بماء البحر ثم ترفعت . . .

متى لجج خضر لهن نئيج

قيل : أي شربن ماء البحر .

وقرأ ابن أبي عبلة : بشربها ؛ وعباد الله هنا هم المؤمنون ، ﴿ يفجرونها ﴾ : يثقبونها بعود قصب ونحوه حيث شاءوا ، فهي تجري عند كل واحد منهم ، هكذا ورد في الأثر .

وقيل : هي عين في دار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تنفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين .

﴿ يوفون بالنذر ﴾ في الدنيا ، وكانوا يخافون .

وقال الزمخشري : ﴿ يوفون ﴾ جواب من عسى يقول ما لهم يرزقون ذلك . انتهى .

فاستعمل عسى صلة لمن وهو لا يجوز ، وأتى بعد عسى بالمضارع غير مقرون بأن ، وهو قليل أو في شعر .

والظاهر أن المراد بالنذر ما هو المعهود في الشريعة أنه نذر .

قال الأصم وتبعه الزمخشري : هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات ، لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه كان لما أوجبه الله تعالى عليه أوفى .

وقيل : النذر هنا عام لما أوجبه الله تعالى ، وما أوجبه العبد فيدخل فيه الإيمان وجمع الطاعات .

﴿ على حبه ﴾ : أي على حب الطعام ، إذ هو محبوب للفاقة والحاجة ، قاله ابن عباس ومجاهد ؛ أو على حب الله : أي لوجهه وابتغاء مرضاته ، قاله الفضيل بن عياض وأبو سليمان الداراني .

والأول أمدح ، لأن فيه الإيثار على النفس ؛ وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر .

وقال الحسن بن الفضل : على حب الطعام ، أي محبين في فعلهم ذلك ، لا رياء فيه ولا تكلف .

﴿ مسكيناً ﴾ : وهو الطواف المنكسر في السؤال ، ﴿ ويتيماً ﴾ : هو الصبي الذي لا أب له ، ﴿ وأسيراً ﴾ : والأسير معروف ، وهو من الكفار ، قاله قتادة .

وقيل : من المسلمين تركوا في بلاد الكفار رهائن وخرجوا لطلب الفداء .

وقال ابن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة .

وقيل : ﴿ وأسيراً ﴾ استعارة وتشبيه .

وقال مجاهد وابن جبير وعطاء : هو المسجون .

وقال أبو حمزة اليماني : هي الزوجة ؛ وعن أبي سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون .

وفي الحديث : " غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك " .

﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ : هو على إضمار القول ، ويجوز أن يكونوا صرحوا به خطاباً للمذكورين ، منعاً منهم وعن المجازاة بمثله أو الشكر ، لأن إحسانهم مفعول لوجه الله تعالى ، فلا معنى لمكافأة الخلق ، وهذا هو الظاهر .

(249/795)

وقال مجاهد : أما أنهم ما تكلموا به ، ولكن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم به .

﴿ لا نريد منكم جزاء ﴾ : أي بالأفعال ، ﴿ ولا شكوراً ﴾ : أي ثناء بالأقوال ؛ وهذه الآية قيل نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً ظاهرة الاختلاف ، وفيها إشعار للمسكين واليتيم والأسير ، يخاطبون بها ببيت النبوة ، وإشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم ، ظاهرها الاختلاف لسفساف ألفاظها وكسر أبياتها وسفاطة معانيها .

﴿ يوماً عبوساً ﴾ : نسبة العبوس إلى اليوم مجاز .

قال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه عرق كالقطران .

وقرأ الجمهور : ﴿ فوقاهم ﴾ بخفة القاف ؛ وأبو جعفر : بشدها ؛ ﴿ ولقاهم نضرة ﴾ : بدل عبوس الكافر ، ﴿ وسروراً ﴾ : فرحاً بدل حزنه ، لا تكاد تكون النظرة إلا مع فرح النفس وقرة العين .

وقرأ الجمهور : ﴿ وجزاهم ﴾ ؛ وعليّ : وجازاهم على وزن فاعل ، ﴿ جنة وحريراً ﴾ : بستاناً فيه كل مأكل هنيء ، ﴿ وحريراً ﴾ فيه ملبس بهي ، وناسب ذكر الحرير مع الجنة لأنهم أوثروا على الجوع والغذاء .

﴿ لا يرون فيها ﴾ : أي في الجنة ، ﴿ شمساً ﴾ : أي حر شمس ولا شدة برد ، أي لا شمس فيها فترى فيؤذي حرها ، ولا زمهرير يرى فيؤذي بشدته ، أي هي معتدلة الهواء .

وفي الحديث : " هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر " وقيل : لا يرون فيها شمساً ولا قمراً ، والزمهرير في لغة طيء القمر .

وقرأ الجمهور : ﴿ ودانية ﴾ ، قال الزجاج : هو حال عطفاً على ﴿ متكئين ﴾ .

وقال أيضاً : ويجوز أن يكون صفة للجنة ، فالمعنى : وجزاهم جنة دانية .

وقال الزمخشري : ما معناه أنها حال معطوفة على حال وهي لا يرون ، أي غير رائين ، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنوّ الظلال عليهم .

(250/795)

وقرأ أبو حيوة : ودانية بالرفع ، واستدل به الأخفش على جواز رفع اسم الفاعل من غير أن يعتمد ، نحو قولك : قائم الزيدون ، ولا حجة فيه لأن الأظهر أن يكون ﴿ ظلالها ﴾ مبتدأ ﴿ ودانية ﴾ خبر له .

وقرأ الأعمش : ودانياً عليهم ، وهو كقوله : ﴿ خاشعةً أبصارهم ﴾ وقرأ أبيّ : ودان مرفوع ، فهذا يمكن أن يستدل به الأخفش .

﴿ وذللت قطوفها ﴾ ، قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً ، تناول الثمر

دون كلفة ؛ وإن قاعداً أو مضطجعاً فكذلك ، فهذا تذليلها ، لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك .

فأما على قراءة الجمهور : ﴿ ودانية ﴾ بالنصب ، كان ﴿ وذللت ﴾ معطوفاً على دانية لأنها في تقدير المفرد ، أي ومذللة ، وعلى قراءة الرفع كان من عطف جملة فعلية على جملة اسمية .

ويجوز أن تكون في موضع الحال ، أي وقد ذللت رفعت دانية أو نصبت .

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15)

لما وصف تعالى طعامهم وسكناهم وهيئة جلوسهم ، ذكر شرابهم ، وقدم ذكر الآنية التي يسقون منها ، والآنية جمع إناء ، وتقدم شرح الأكواب .

وقرأ نافع والكسائي : قواريراً قواريراً بتنوينهما وصلاً وإبداله ألفاً وقفاً ؛ وابن عامر وحمزة وأبو عمرو وحفص : بمنع صرفهما ؛ وابن كثير : بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني .

وقال الزمخشري : وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفي الثاني لاتباعه الأول . انتهى .

وكذا قال في قراءة من قرأ سلاسلاً بالتنوين : إنه بدل من حرف الإطلاق ، أجرى الفواصل مجرى أبيات الشعر ، فكما أنه يدخل التنوين في القوافي المطلقة إشعاراً بترك الترنم ، كما قال الراجز :

يا صاح ما هاج الدموع الذرّفن . . .

فهذه النون بدل من الألف ، إذ لو ترنم لوقف بألف الإطلاق .

(251/795)

﴿ من فضة ﴾ : أي مخلوقة من فضة ، ومعنى ﴿ كانت ﴾ : أنه أوجدها تعالى من قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ تفخيماً لتلك الخقلة العجيبة الشأن الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها وشفيف القوارير وصفائها ، ومن ذلك قوله : ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ .

وقرأ الأعمش : قوارير من فضة بالرفع ، أي هو قرارير .

وقرأ الجمهور : ﴿ قدروها ﴾ مبنياً للفاعل ، والضمير للملائكة ، أو للطواف عليهم ، أو المنعمين ، والتقدير : على قدر الأكف ، قاله الربيع ؛ أو على قدر الري ، قاله مجاهد .

وقال الزمخشري : ﴿ قدروها ﴾ صفة لقرارير من فضة ، ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها في أنفسهم على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم ، فجاءت كما قدروها .

وقيل : الضمير للطائفين بها يدل عليه قوله : ﴿ ويطاف عليهم ﴾ ، على أنهم قدروا شرابها على قدر الري ، وهو ألذ الشراب لكونه على مقدار حاجته ، لا يفضل عنها ولا يعجز .

وعن مجاهد : لا يفيض ولا يغيض . انتهى .

وقرأ عليّ وابن عباس والسلمي والشعبي وابن أبزي وقتادة وزيد بن عليّ والجحدري وعبد الله بن عبيد بن عمير وأبو حيوة وعباس عن أبان ، والأصمعي عن أبي عمرو ، وابن عبد الخالق عن يعقوب : قدروها مبنياً للمفعول .

قال أبو علي : كأن اللفظ قدروا عليها ، وفي المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم ، فهي مثل قوله : ﴿ ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة ﴾ ومثل قول العرب : إذا طلعت الجوزاء ألقى العود على الحرباء .

وقال الزمخشري : ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر ، تقول : قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادراً عليه ، ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاءوا ، وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا . انتهى .

(252/795)

وقال أبو حاتم : قدرت الأواني على قدر ريهم ، ففسر بعضهم قول أبي حاتم هذا ، قال : فيه حذف على حذف ، وهو أنه كان قدر على قدر ريهم إياها ، ثم حذف على فصار قدر ريهم مفعول لم يسم فاعله ، ثم حذف قدر فصار ريهم قائماً مقامه ، ثم حذف الري

فصارت الواو مكان الهاء والميم لما حذف المضاف مما قبلها ، وصارت الواو مفعول ما لم يسم فاعله ، واتصل ضمير المفعول الثاني في تقدر النصب بالفعل بعد الواو التي تحولت من الهاء والميم حتى أقيمت مقام الفاعل .

انتهى .

والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة أن يكون الأصل قدر ريهم منها تقديراً ، فحذف المضاف وهو الذي ، وأقيم الضمير مقامه فصار التقدير : قدروا منها ؛ ثم اتسع في الفعل فحذفت من ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه فصار قدّروها ، فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتساع في المجرور .

والظاهر أن الكأس تمزج بالزنجبيل ، والعرب تستلذة وتذكره في وصف رضاب أفواه النساء ، كما أنشدنا لهم في الكلام على المفردات .

وقال الزمخشري : تسمى العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها . انتهى .

وقال قتادة : الزنجبيل اسم لعين في الجنة ، يشرب منها المقربون صرفاً ، ويمزج لسائر أهل الجنة .

وقال الكلبي : يسقى بجامين ، الأول مزاجه الكافور ، والثاني مزاجه الزنجبيل .

وعيناً بدل من كأس على حذف ، أي كأس عين ، أو من زنجبيل على قول قتادة .

وقيل : منصوب على الاختصاص .

والظاهر أن هذه العين تسمى سلسبيلاً بمعنى توصف بأنها سلسلة في الاتساع سهلة في المذاق ، ولا يحمل سلسبيل على أنه اسم حقيقة ، لأنه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية .

وقد روي عن طلحة أنه قرأه بغير ألف ، جعله علماً لها ، فإن كان علماً فوجه قراءة الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل ، كما قال ذلك بعضهم في سلاسلاً وقواريراً ؛ ويحسن ذلك أنه لغة بعض العرب ، أعني صرف ما لا يصرفه أكثر العرب .

وقال الزمخشري : وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . انتهى .

(253/795)

وكان قد ذكر فقال : شراب سلسل وسلسال وسلسيل ، فإن كان عنى أنه زيد حقيقة فليس بجيد ، لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة في علم النحو ؛ وإن عنى أنها حرف جاء في سنح الكلمة وليس في سلسيل ولا في سلسال ، فيصح ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة .

وقال بعض المعربين : سلسبيلاً أمر للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولأمته بسؤال السبيل إليها ، وقد نسبوا هذا القول إلى علي كرم الله وجهه ، ويجب طرحه من كتب التفسير .

وأعجب من ذلك توجيه الزمخشري له واشتغاله بحكايته ، ويذكر نسبته إلى عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه .

وقال قتادة : هي عين تنبع من تحت العرش من جنة عدن إلى الجنان .

وقال عكرمة : عين سلس ماؤها .

وقال مجاهد : عين جديرة الجرية سلسلة سهلة المساغ .

وقال مقاتل : عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا وتقدّم شرح ﴿ مخلدون ﴾ وتشبيه الولدان باللؤلؤ المنثور في بياضهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في المساكن في خدمة أهل الجنة يجيئون ويذهبون .

وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا أنثر من صدفه ، فإنه أحسن في العين وأبهج للنفس .

وجواب ﴿ إذا رأيتهم ﴾ : ﴿ نعيماً ﴾ ، ومفعول فعل الشرط محذوف ، حذف اقتصاراً ، والمعنى : وإذا رميت ببصرك هناك ، وثم ظرف العامل فيه رأيت .

وقيل : التقدير : وإذا رأيت ما ثم ، فحذف ما كما حذف في قوله : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ أي ما بينكم .

وقال الزجاج ، وتبعه الزمخشري فقال : ومن قال معناه ما ثم فقد أخطأ ، لأن ثم صلة لما ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة . انتهى .

وليس بخطأ مجمع عليه ، بل قد أجاز ذلك الكوفيون ، وثم شواهد من لسان العرب كقوله :

فمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواء

أي : ومن يمدحه ، فحذف الموصول وأبقى صلته .

وقال ابن عطية : وثم ظرف العامل فيه رأيت أو معناه ، التقدير : رأيت ما ثم حذفت ما .

انتهى .

(254/795)

وهذا فاسد ، لأنه من حيث جعله معمولاً لرأيت لا يكون صلة لما ، لأن العامل فيه إذ ذاك محذوف ، أي ما استقر ثم .

وقرأ الجمهور : ثم بفتح الثاء ؛ وحميد الأعرج : ثم بضم التاء حرف عطف ، وجواب إذا على هذا محذوف ، أي وإذا رميت ببصرك رأيت نعيماً ؛ والملك الكبير قيل : النظر إلى الله تعالى .

وقال السدّي : استئذان الملائكة عليهم .

وقال أكثر المفسرين : الملك الكبير : اتساع مواضعهم .

وقال الكلبي : كبيراً عريضاً يبصر أدناهم منزلة في الجنة مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما

يرى أدناه ، وقاله عبد الله بن عمر ، وقال : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام ، كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه .

وقال الترمذي ، وأظنه الترمذي الحكيم لا أبا عيسى الحافظ صاحب الجامع : هو ملك التكوين والمشيئة ، إذا أراد شيئاً كان قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ﴾ وقيل غير هذه الأقوال .

وقرأ عمر وابن عباس والحسن ومجاهد والجحدري وأهل مكة وجمهور السبعة : ﴿ عاليهم ﴾ بفتح الياء ؛ وابن عباس : بخلاف عنه ؛ والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن ونافع وحمزة : بسكونها ، وهي رواية أبان عن عاصم .

وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة وزيد بن عليّ : بالياء مضمومة ؛ وعن الأعمش وأبان أيضاً عن عاصم : بفتح الياء .

وقرأ : عليهم حرف جر ، ابن سيرين ومجاهد وقتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وأبان أيضاً ؛ وقرأت عائشة رضي الله عنها : علتهم بتاء التأنيث فعلاً ماضياً ، فثياب فاعل .

ومن قرأ بالياء مضمومة فمبتدأ خبره ثياب ؛ ومن قرأ عليهم حرف جر فثياب مبتدأ ؛ ومن قرأ بنصب الياء وبالتاء ساكنة فعلى الحال ، وهو حال من المجرور في ﴿ ويطوف عليهم ﴾ ، فذوا الحال الطوف عليهم والعامل يطوف .

وقال الزمخشري : وعاليهم بالنصب على أنه حال من الضمير في ﴿ يطوف عليهم ﴾ ، أو في ﴿ حسبتهم ﴾ ، أي يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب ، أو حسبتهم لؤلؤاً عالياً لهم ثياب .

(255/795)

ويجوز أن يراد : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب . انتهى .

إما أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ حسبتهم ﴾ ، فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول ، وهذا عائد على ﴿ ولدان ﴾ ، ولذلك قدر عاليهم بقوله : عالياً لهم ، أي للولدان ، وهذا لا يصح لأن الضمائر الآتية بعد ذلك تدل على أنها للمطوف عليهم من قوله : ﴿ وحلوا وسقاهم ﴾ ، وإن هذا كان لكم جزاء ، وفك الضمائر يجعل هذا كذا وذاك كذا مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك لا يجوز .

وأما جعله حالاً من محذوف وتقديره أهل نعيم ، فلا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف ، وثياب مرفوع على الفاعلية بالحال .

وقال ابن عطية : ويجوز في النصب في القراءتين أن يكون على الظرف لأنه بمعنى فوقهم . انتهى .

وعال وعالية اسم فاعل ، فيحتاج في إثبات كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب عاليك أو عاليتك ثوب .

وقرأ الجمهور : ثياب بغير تنوين على الإضافة إلى سندس .

وقرأ ابن عبلة وأبو حيوة : عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، برفع الثلاثة ، برفع سندس بالصفة لأنه جنس ، كما تقول : ثوب حرير ، تريد من حرير ؛ وبرفع خضر بالصفة أيضاً لأن الخضرة لونها ؛ ورفع استبرق بالعطف عليها ، وهو صفة أقيمت مقام الموصوف تقديره : وثياب استبرق ، أي من استبرق .

وقرأ الحسن وعيسى ونافع وحفص : خضر برفعهما .

وقرأ العربيان ونافع في رواية : خضر بالرفع صفة لثياب ، وإستبرق جر عطفاً على سندس .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر : بجر خضر صفة لسندس ، ورفع إستبرق عطفاً على ثياب .

(256/795)

وقرأ الأعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو : بخلاف عنهما ؛ وحمزة والكسائي : ووصف اسم الجنس الذي بينه وبين واحده تاء التأنيث ، والجمع جائز فصيح كقوله تعالى : ﴿

وينشىء السحاب الثقال ﴾ وقال : ﴿ والنخل باسقات ﴾ فجعل الحال جمعاً ، وإذا كانوا قد جمعوا صفة اسم الجنس الذي ليس بينه وبين واحده تاء التأنيث المحكي بأل بالجمع ، كقولهم : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض ، حيث جمع وصفهما ليس بسديد ، بل هو جائز أورده النحاة مورد الجواز بلا قبح .

وقرأ ابن محيصن : ﴿ وإستبرق ﴾ ، وتقدم ذلك والكلام عليه في الكهف .

وقال الزمخشري : هنا وقرىء واستبرق نصباً في موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمي ، وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ، تقول : الاستبرق إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب .

وقرىء : واستبرق ، بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمى باستفعل من البريق ، وليس بصحيح أيضاً لأنه معرب مشهور تعريبه ، وأن أصله استبره . انتهى .

ودل قوله : إلا أن يزعم ابن محيصن ، وقوله : بعد وقرىء واستبرق بوصل الألف والفتح ، أن قراءة ابن محيصن هي بقطع الهمزة مع فتح القاف ؛ والمنقول عنه في كتب القراءات أنه قرأ بوصل الألف وفتح القاف .

وقال أبو حاتم : لا يجوز ، والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً ، ويومئذ ذلك دخول لام المعرفة عليه ، والصواب قطع الألف وإجراؤه على قراءة الجماعة .

انتهى .

ونقول : إن ابن محيصن قارىء جليل مشهور بمعرفة العربية ، وقد أخذ عن أكابر العلماء ، ويتطلب لقراءته وجه ، وذلك أنه يجعل استفعل من البريق .

وتقول : برق واستبرق ، كعجب واستعجب .

ولما كان قوله : ﴿ خضر ﴾ يدل على الخضرة ، وهي لون ذلك السندس ، وكانت الخضرة مما يكون لشدتها دهمة وغبش ، أخبر أن في ذلك اللون بريقاً وحسناً يزيل غبشته .

فاستبرق فعل ماض ، والضمير فيه عائد على السندس أو على الاخضرار الدال عليه قوله : ﴿ خضر ﴾ .

(257/795)

وهذا التخريج أولى من تلحين من يعرف العربية وتوهيم ضابط ثقة ﴿ أساور من فضة ﴾ ، وفي موضع آخر ﴿ من ذهب ﴾ أي يحلون منهما على التعاقب أو على الجمع بينهما ، كما يقع للنساء في الدنيا .

قال الزمخشري وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران ، سوار من ذهب وسوار من فضة . انتهى .

فقوله بالمعصم إما أن يكون مفعول أحسن ، وإما أن يكون بدلاً منه ، وإمّا أن يكون مفعول

أحسن ، وقد فصل بينهما بالجار والمجرور .

فإن كان الأول ، فلا يجوز لأنه لم يعهد زيادة الباء في مفعول افعل للتعجب ، لا تقول : ما أحسن بزيد ، تريد : ما أحسن زيداً ، وإن كان الثاني ، ففي مثل هذا الفصل خلاف .

والمنقول عن سيبويه أنه لا يجوز ، والمولد منا إذا تكلم ينبغي أن يتحرز في كلامه عما فيه الخلاف .

﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ ، طهور صفة مبالغة في الطهارة ، وهي من فعل لازم ؛ وطهارتها بكونها لم يؤمر باجتنابها ، وليست كخمر الدنيا التي هي في الشرع رجس ؛ أو لكونها لم تدس برجل دنسة ، ولم تمس بيد وضرة ، ولم توضع في إناء لم يعن بتنظيفه .

ذكره بأبسط من هذا الزمخشري ثم قال : أو لأنه لا يؤول إلى النجاسة ، لأنه يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك . انتهى .

وهذا الآخر قاله أبو قلابة والنخعيّ وإبراهيم التيمي ، قالوا : لا تنقلب إلى البول ، بل تكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك .

﴿ إن هذا ﴾ : أي النعيم السرمدي ، ﴿ كان لكم جزاء ﴾ : أي لأعمالكم الصالحة ، ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ : أي مقبولاً مثاباً .

قال قتادة : لقد شكر الله سعياً قليلاً ، وهذا على إضمار يقال لهم .

وهذا القول لهم هو على سبيل التهنئة والسرور لهم بضد ما يقال للمعاقب : إن هذا بعملك الرديء ، فيزداد غماً وحزناً .

(258/795)

ولما ذكر أولاً حال الإنسان وقسمه إلى العاصي والطائع ، ذكر ما شرف به نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن ﴾ ، وأمره بالصبر بحكمه ، وجاء التوكيد بأن لمضمون الخبر ومدول المخبر عنه ، وأكد الفعل بالمصدر .

﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ ، قال قتادة : نزلت في أبي جهل ، قال : إن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تطع ﴾ الآية .

والنهي عن طاعة كل واحد منهما أبلغ من النهي عن طاعتهما ، لأنه يستلزم النهي عن أحدهما ، لأن في طاعتهما طاعة أحدهما .

ولو قال : لا تضرب زيداً وعمراً ، لجاز أن يكون نهياً عن ضربهما جميعاً ، لا عن ضرب أحدهما .

وقال أبو عبيدة : أو بمعنى الواو ، والكفور ، وإن كان إثماً ، فإن فيه مبالغة في الكفر .

ولما كان وصف الكفور مبايناً للموصوف لمجرّد الإثم ، صلح التغاير فحسن العطف .

وقيل : الآثم عتبة ، والكفور الوليد ، لأن عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق ؛ وكان الوليد غالباً في الكفر ، شديد الشكيمة في العتوّ .

﴿ واذكر اسم ربك بكرة ﴾ : يعني صلاة الصبح ، ﴿ وأصيلاً ﴾ : الظهر والعصر .

﴿ ومن الليل ﴾ : المغرب والعشاء .

وقال ابن زيد وغيره : كان ذلك فرضاً ونسخ ، فلا فرض إلا الخمس .

وقال قوم : هو محكم على وجه الندب .

﴿ إن هؤلآء ﴾ : إشارة إلى الكفرة .

﴿ يحبون العاجلة ﴾ : يؤثرونها على الدنيا .

﴿ ويذرون وراءهم ﴾ : أي أمامهم ، وهو ما يستقبلون من الزمان .

﴿ يوماً ثقيلاً ﴾ : استعير الثقل لليوم لشدته ، وهوله من ثقل الجرم الذي يتعب حامله .

وتقدم شرح الأسر في سورة القتال .

﴿ وإذا شئنا ﴾ : أي تبديل أمثالهم بإهلاكهم ، ﴿ بدلنا أمثالهم ﴾ ممن يطيع .

وقال الزمخشري : وحقه أن يجيء بإن لا بإذا ، كقوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ انتهى .

يعني أنهم قالوا إن إذا للمحقق وإن للممكن ، وهو تعالى لم يشأ ، لكنه قد توضع إذا موضع إن ، وإن موضع إذا ، كقوله : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾

﴿ إن هذه ﴾ : أي السورة ، أو آيات القرآن ، أو جملة الشريعة ليس على جهة التخيير ، بل على جهة التحذير من اتخاذ غير سبيل الله .

وقال الزمخشري : لمن شاء ممن اختار الخير لنفسه والعاقبة ، واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة .

﴿ وما تشاءون ﴾ : الطاعة ، ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ، يقسرهم عليها .

﴿ إن الله كان عليماً ﴾ بأحوالهم وما يكون منهم ، ﴿ حكيماً ﴾ حيث خلقهم مع علمه بهم .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

وقرأ العربيان وابن كثير : وما يشاءون بياء الغيبة ؛ وباقي السبعة : بتاء الخطاب ؛

ومذهب أهل السنة أنه نفي لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في أنفسهم ، ولا يرد هذا وجود ما لهم من الاكتساب .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما محل ﴿ أن يشاء الله ﴾ ؟ قلت : النصب على الظرف ، وأصله : إلا وقت مشيئة الله ، وكذلك قرأ ابن مسعود : إلا ما يشاء الله ، لأن ما مع الفعل

كان معه . انتهى .

ونصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر المصرح به ، كقولك : أجيئك صياح الديك ، ولا يجيزون : أجيئك أن يصيح الديك ، ولا ما يصيح الديك ؛ فعلى هذا لا يجوز ما قاله الزمخشري .

﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ : وهم المؤمنون .

وقرأ الجمهور : ﴿ والظالمين ﴾ نصباً بإضمار فعل يفسره قوله : ﴿ أعد لهم ﴾ ، وتقديره : ويعذب الظالمين ، وهو من باب الاشتغال ، جملة عطف فعلية على جملة فعلية .

وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة : والظالمون ، عطف جملة اسمية على فعلية ، وهو جائز حسن .

(260/795)

وقرأ عبد الله : وللظالمين بلام الجر ، وهو متعلق بأعد لهم توكيداً ، ولا يجوز أن يكون من باب الاشتغال ، ويقدر فعل يفسره الفعل الذي بعده ، فيكون التقدير : وأعد للظالمين أعدّ لهم ، وهذا مذهب الجمهور ، وفيه خلاف ضعيف مذكور في النحو ، فتقول : بزيد مررت به ، ويكون التقدير : مررت بزيد مررت به ، ويكون من باب الاشتغال .

والمحفوظ المعروف عن العرب نصب الاسم وتفسير مررت المتأخر ، وما أشبهه من جهة المعنى فعلاً ماضياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(261/795)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

التفسير : اتفقوا على أن " هل " ههنا وفي " الغاشية " بمعنى " قد " وهذا ما ذهب إليه سيبويه قال : وإنما تفيد معنى الاستفهام حيث تفيده لتقدير الهمزة ، وإنما حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال والدليل على تقدير الهمزة ، وإنما حذفت الهمزة لكثرة لكثرة الاستعمال والدليل على تقدير الهمزة ، جواز إظهارها مع " هل " كقوله :

سائل فوارس يربوع بشدتنا . . . أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم ؟

ويربوع أبو حي من تميم ، ومعنى الآية أقد أتى . فالإستفهام يفيد التقرير وقد تفيد التقريب فيكون حاصله أنه ﴿ أتى على الإنسان ﴾ قبل زمان قريب ﴿ حين من الدهر ﴾ وهو طائفة من الزمان غير محدود .

(262/795)

وعن ابن عباس وابن مسعود أن الإنسان ههنا آدم والحين محدود وذلك أنه مكث أربعين سنة طيناً إلى أن نفخ فيه الروح فصار شيئاً مذكوراً بعد أن كان كالمنسي وفي رواية عنه قال : أقام من طين أربعين سنة ، ومن صلصال أربعين . ثم من حمأ مسنون أربعين ، ثم خلقه بعد مائة وعشرين وإطلاق الإنسان عليه قبل نفخ الروح فيه من باب إطلاق الخمر على العصير . ويجوز أن يراد قد أتى على هذا الذي هو الآن إنسان بالفعل زمان لم يكن هو فيه إنساناً إلا بالقوّة وهذا صادق على آدم كما قلنا ، وعلى بنيه أيضاً عند الأكثرين . ولعل هذه الآية كالتقدمة والتوطئة للتي تعقبها ، وكالتأكيد لخاتمة السورة المتقدمة . وقوله ﴿ لم يكن ﴾ محله رفع على أنه نعت ﴿ حين ﴾ أو نصب على الحال من الإنسان لأنه في تقدير المفعول ويروى أن الصديق لما سمع هذه الآية قال : أيتها تمت أي ليت تلك الحالة تمت وهي كونه غير مذكور لم يخلق ولم يكلف . وقيل : الإنسان آدم كما ذكرنا ولكن الحين هو الستة الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض ثم فرغ لخلق آدم في عصر يوم الجمعة . وقيل : الإنسان عام والحين مدة فترة الرسل وقيل : الحين مدة لبثه في بطن أمه . قال ابن الأعرابي وطائفة من أهل اللغة : الأمشاج جمع مشيج وأمشاج فوصف المفرد بها جميعاً نحو برمة أعشار للقدر المتكسرة قطعاً ، وثوب أكياش للذي فتل غزله مرتين . يقال عليك بالثوب الأكياش فإنه من لباس الأكياس . والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماآن ماء الرجل . وهو

أبيض غليظ - وماء المرأة - وهو أصفر رقيق - والأول يخرج من الصلب ، والثاني يخرج من الترائب ، فما كان من عصب وعظم فيمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة . عن ابن مسعود : هي عروق النطفة . وقال الحسن : أي مزجت بدم الحيض الذي فيه غذاء الجنين ، وعن قتادة : هي أطوارها نطفة ثم علقة ثم مضغة وذهب إلى أنها العناصر وبالجملة فإنها عبارة عن انتقال النطفة من حال إلى حال ولهذا فسر

(263/795)

الإبتلاء بعضهم بهذا الإنتقال ومنه قول ابن عباس ﴿ نبتليه ﴾ أي نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة . والأظهر أن حاصل المعنى خلقناه من أمشاج لا للعبث بل للإبتلاء والإمتحان . ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر اللذان هما أشرف الحواس ولهذا خصا بالذكر . وفيه إشارة إلى أن الحواس السليمة أسباب كلية لتحصيل الكمالات النفسية فمن فقد حساً فقد علماً . وقيل : في الآية تقديم وتأخير ، ونبتليه معناه لنبتليه كقولك لرجل : جئتك أقضي حقك أي لأقضي حقك . والمعنى جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه .

(264/795)

ثم أخبر أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة أوضح له بواسطة أن آتاه العقل السليم سبيل الهدى والضلالة . فقوله ﴿ شاكراً أو كفوراً ﴾ حالان من مفعول ﴿ هدينا ﴾ أي مكناه وأقدرناه في هاتين الحالتين وقيل : تقديره هديناه السبيل فيكون إما شاكراً أو كفوراً . وفيه جهة الوعيد أي فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر فإنا أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا . وجوز أهل العربية أن يكونا حالين من السبيل على الإسناد المجازي لأن وصف السبيل بالشكر والكفر مجاز ، وهذه الأقاويل تناسب أصول المعتزلة . أما الذي اختاره الفراء وهو مطابق لمذهب أهل السنة أن تكون " إما " في هذه الآية كما في قوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ [التوبة : 106] والمعنى هديناه السبيل ثم جعلناه تارة شاكراً تارة كفوراً . والمراد بالشكر الإقرار بالله وبالكفر إنكاره حتى لا يكون بين الفريقين واسطة . ويجز أن يريد بالشاكر المطيع وبأهل الكفر كل من سواه كان كفرانه مطلقاً وهو الكافر بالله ، أو ببعض المعاصي وهو الفاسق . قوله ﴿ سلاسل ﴾ من قرأه بالتنوين فإنه صرفه لمناسبة . قال الأخفش : سمعنا من العرب صرف جميع ما لا يصرف وهذه لغة الشعراء اضطروا إليه في اشعر فجرت ألسنتهم بذلك في النثر أيضاً . وقيل : إنه مختص بهذه الجموع لأنها أشبهت الآحاد لهذا جاز " صواحبات يوسف " . وجوز في الكشاف أن يكون هذا التنوين بدلاً من حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى

الوقف ، ومثله ﴿ قوارير ﴾ فيمن قرأ بالتنوين ، والاعتاد الإعداد ، والسلاسل للأرجل والأغلال للأيدي والأبرار جمع برّ وبار . عن الحسن : هم الذين لا يؤذون الذّر ﴿ من كأس ﴾ أي إناء فيه الشراب . وقال ابن عباس ومقاتل : هو الخمر بعينها ، والمزاج ما يمزج به ، والكافور إسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعم الكافور ولا مضرته ، والمضاف محذوف ماء كافور . والحاصل أن ذلك الشراب

(265/795)

يكون ممزوجاً بماء هذا العين قيل : "كان" زائدة والأظهر أنها مفيدة ولكنه مسلوبة الدلالة على المضي كقوله ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ [النساء : 17] عن قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك . وقيل : يخلق فيه رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور . قال جار الله : فقوله ﴿ عيناً ﴾ على هذين القولين بدل من محل ﴿ كأس ﴾ على تقدير حذف مضاف كأنه قال : يشربون خمراً خمر عين ، أو نصب على الإختصاص . ولا خلاف بين العلماء أن عباد الله في الآية مختص بالمؤمنين الأبرار فغلب على ظنهم أن العباد المضاف إلى اسم الله سبحانه مخصوص في إصطلاح القرآن بالأخيار ، وعلى هذا يسقط إستدلال المعتزلة بقوله ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ [الزمر : 7] كما

مر في أول الزمر . وإنما قال أولاً ﴿ يشربون من كأس ﴾ وآخراً ﴿ يشرب بها ﴾ لأن الكأس هي مبدأ شربهم وأما العين فإنما يمزجون بها شرابهم فالباء بمعنى " مع " مثل " شربت الماء بالعسل " ﴿ يفجرونها ﴾ يجرونها حيث شاؤا من منازلهم ﴿ تفجيراً ﴾ سهلاً " قال مؤلف الكتاب " : لا يبعد أن يكون الخمر عبارة عن العلوم اللدنية الحاصلة بالذوق والمكاشفة .

(266/795)

والكافور عبارة عن المعارف الحاصلة بواسطة البدنية ، ومزاجها تركيبها على الوجه الموصل إلى تحصيل لذات وكمالات أخر ، وتفجرها إشارة إلى اتصالها إلى أهلها من النفوس المستعدة لذلك . قال أهل النظم : حين وصف سعادة الأبرار كان لسائل أن يسأل : ما لهم يرزقون ذلك ؟ فأجاب بقوله ﴿ يوفون بالنذر ﴾ وفيه أن الذي وفى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى . ذكر الواحدي في البسيط والزمخشري في الكشاف وكذا الإمامية أطبقوا على أن السورة نزلت في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيما في هذه الآي . يروى عن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضاً فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس معه فقال : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك فنذر

علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن أبرأهما الله يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهما شيء ، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة منها صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم ، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم يا أهل محمد ، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً . فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه . ووقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك . فلما أصبحوا أخذ علي رضي الله عنه بيد الحسن والحسين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال : ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم . وقام وانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد لصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبرائيل وقال : خذها يا محمد هنأك الله في أهل بيتك فاقرأه السورة . ويروى أن السائل في الليالي جبرائيل أراد بذلك ابتلاءهم بإذن الله سبحانه . ووصفهم الله سبحانه بالخوف من أهوال القيامة في موضعين أولاً في قوله ﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾

أي مكروهه مستطيراً فاشياً منتشراً من استطار الحريق ، ومنه الفجر المستطير وأصله منطار . والغرض أنه تسع مكاره ذلك اليوم جميع المكلفين حتى الأنبياء يقولون : نفيس إلا نبينا محمد فإنه يقول " أمتي أمتي " والسموات يتفطرن والكواكب ينتثرن إلى غير ذلك من المكاره والأهوال . ولا ينافي هذا أمن المسلمين في الآخرة على قال ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] وثانياً في قوله ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً ﴾ وإذا كان حال أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أو حال الأبرار على العموم في الخوف من الله إلى هذه الغاية فغيرهم أولى بالخوف .

(268/795)

وأما الضمير في ﴿ حبه ﴾ فللطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه كقوله ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : 92] ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [الحشر : 9] وقال الفضيل بن عياض : أي على حب الله عز وجل نظير الآية قوله ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ [البقرة : 177] وعنى المسكين واليتيم قد عرف مراراً ، وأما الأسير فعن سعيد بن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وعن أبي سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون . وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغريم

أسيراً فقال " غريمك أسيرك فأحسن أسيرك " وقد سمى الزوجة أسيراً فقال " اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم " أي أسراء . عن الحس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه . وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات . والإحسان إليهم في الحال إلى أن يرى الإمام فيهم ما يرى من قتل أو من أو فداء أو إسترقاق ، لا ينافي احتمال حكم الإمام عليهم بالقتل في المآل لأن سد خلتهم بالإطعام واجب على الفور وذلك يحتمل التراخي كما في حق من يلزمه القصاص ولم يكن له مال . ثم هذا الإطعام يجب أولاً على الإمام فإن لم يفعله وجب على المسلمين . قال قتادة : كان أسيرهم يومئذ المشرك فأخوك المسلم أحق أن تطعمه . ثم الإطعام ليس بواجب على التعيين ولكن الواجب مواساتهم بأي وجه كان . وإنما عبر عن ذلك بالإطعام لأن سبب النزول كان كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الإحسان الطعام الذي به قوام البدن . يقال : أكل فلان مال فلان إذا أتلفه بأي وجه كان ، وإن لم يكن بالأكل نفسه . قوله ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ لرضاه خاصة . ولا بد من إضمار القول . ثم إن هذا القول يجوز أن يكون منهم باللسان منعاً للسائل عن المجازاة بمثله ، أو بالشكر ليقع إطعامهم خالصاً

لله . ويجوز أن يكون بنطق الحال . قال مجاهد : إما إنهم ما تكلموا بذلك ولكن الله علم ذلك منهم فكشف عن نيتهم وأثنى عليهم . وفيه تنبيه على ما ينبغي أن يكون عليه المطعم بل كل عامل من إخلاص عمله لله . عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى هل بيت ثم تسأل الرسول ما قالوا فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً . والشكور مصدر كالكفور ولو فتحت أولهما عاد المعنى مبالغة في شاكر وكافر . قوله ﴿ إنا نخاف ﴾ ظاهرة أنه تعليل للإطعام ويجوز أن يكون تعليلاً لعدم إرادة المجازاة .

(270/795)

ووصف اليوم بالعبوس مجاز وذلك بطريقين أحدهما : أن يشبه في ضرره وشدته بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل . والثاني أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء . يروى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران . والقمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله بلاء وأصله الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه . والتركيب يدل على الجمع ومنه القمطر خريطة يجمع فيه الكتب ، واقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت

قطريها وزمت بأنفها قاله الزجاج : فأصله من القطر وجعل الميم زائدة والظاهر أنها أصلية . وحين أخبر عن أعمال الأبرار وإخلاصهم ذكر ما سيجزيهم على ذلك وأكد تحقيق الوعد بأن عبر عنه بصيغة الماض قائلاً ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي مكروهه فإن كل ما يشق على النفس وتكرهه فهو شر بالإضافة إليها ، وإن كان خيراً في نفس الأمر مشتملاً على الحكم والفوائد كالقصاص وسائر الحدود ﴿ ولقاهم ﴾ أعطاهم ﴿ نضرة ﴾ في الوجوه ﴿ سروراً ﴾ في القلوب بدل عبوس الكفرة وحزنهم ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ على التكاليف أو الإيثار المؤدي إلى إفناء المال المستتبع للجزع ﴿ جنة وحريراً ﴾ أي بستاناً فيه مأكل هنيّ ولباساً له منظر بهيّ قال الأخفش والزجاج ﴿ متكئين ﴾ نصب على الحال من مفعول ﴿ جزاهم ﴾ وقيل : على المدح . وقيل : حال من الجنة . وضعف لأنه يستدعي إبراز الضمير بأن يقال : متكئين فيها هم . والزمهرير شدة البرد . والأظهر أن الميم والهاء أصليتان لعدم النظير لو جعل أحدهما زائداً ، والمعنى أن هواءها معتدل . وفي الحديث " هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر " وعن ثعلب أن الزمهرير هو القمر بلغة طير واشتقاقه من الزهر ، والمراد أن الجنة لضيائها لا تحتاج إلى شمس ولا قمر . قوله ﴿ ودانية ﴾ ذكر الأخفش والكسائي والفراء والزجاج أنه معطوف على ﴿ متكئين ﴾ كما تقول في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه الحجال ، وإن جعلنا قوله ﴿ لا يرون ﴾ حالاً صارت الأحوال ثلاثاً والتقدير .

وجزاهم متكئين فيها على الأرائك غير رائين فهيا هواء مؤذياً ودانية عليهم الظلال .

ودخلت الواو في الثالثة للدلالة على الإجتماع كأنه قيل : وجزاهم جنة متكئين فيها على الأرائك جامعين فيها بين البعد عن الحر والرد وبين الدنو من الظلال . ويجوز أن يكون ﴿ دانية ﴾ معطوفاً على ﴿ جنة ﴾ لأنهم وصفوا بالخوف . وقد قال سبحانه ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] والتقدير : وجزاهم جنة أخرى دانية عليهم ظلالها . وقوله ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ من باب " علفتها تبناً وماء بارداً " وذلك لأن الزمهرير لا يرى أي ولا ينالون زمهريراً وإن أريد بالشمس نكاية شعاعها وحرها فمعنى لا يرون لا ينالون ، ولا يخفى أن هذا الظل ليس بالمعنى المصطلح في الدنيا وهو الضوء النوراني فإنه لا شمس هناك ، فمعنى دنو الظلال أن أشجار الجنة خلقت بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار قريبة الظلال على أهل الجنة وقد أكد هذا المعنى بقوله ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أي لا تمتنع على قطافها كيف شاؤا .

وقال ابن قتيبة : ذللت أي أدنيت من قولهم " حائط ذليل " إذا كان قصيراً قال البراء ابن عازب : من أكل قائماً لم يؤذه ، ومن أكل جالساً ومضجعاً أمكنه . وحين وصف طعامكم ولباسهم ومسكنهم واعتدال هوائه وكيفية جلوسهم فيه أخبر عن شرابهم وقد ذكر الأواني . ومعنى ﴿ قوارير من فضة ﴾ أن جنس الآنية من الفضة إلا أن تلك الفضة في صفاء القوارير وشفافتها حتى يرى باطنها من ظاهرها ، وإذا كانت قوارير الدنيا وأصلها من الحجر في غاية الصفاء والرقة بحيث تحكي ما في جوفها فما ظنك بقوارير الجنة وأصلها من الفضة ؟ ومعنى كانت كما مر في قوله ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ وقال في الكشاف : هو من قوله ﴿ كن فيكون ﴾ [يس : 82] أي تكونت قوارير بتكوين الله والمراد تفخيم تلك الخلقة العجيبة الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين . والضمير في ﴿ قدروها ﴾ إما لأهل الجنّة أي إنها جاءت كما قدروا في أنفسهم حسب شهوتهم وحاجتهم ، وإما للطائفين أي قدروا شرابها على مقدار ري كل أحد من غير زيادة ونقصان . وقريب منه قول مجاهد : لا تنقص ولا تفيض . وقال الربيع بن أنس : إن تلك الأواني تكون مقدار ملء الكف لم تعظم فيثقل حملها . قوله ﴿ ويسقون فيها كأساً ﴾ أي في الجنة إناء مملوأ من الخمر ، ويجوز أن يكون الضمير للأواني ، والكأس الخمر نفسها والعرب تحت طعم الزنجبيل في المشروب وتستلذه ولذلك وصف الله مشروبهم في الآخرة بذلك . قال ابن عباس : وكل ما ذكر الله في القرآن مما في الجنة فليس منه في الدنيا إلا الاسم . أما السلسبيل فقد قال ابن

الأعرابي : لم أسمعه إلا في القرآن . وقال الأكثرون اشتقاقه من السلاسة . يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل أي عذب سهل المساغ فكأن الباء واللام زيدتا للمبالغة حتى صارت الكلمة خماسية . ويرد عليه أن الباء ليست من حروف الزيادة . قال الزجاج : السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة . والفائدة في تسميتها بالسلسبيل بعد تسميتها بالزنجبيل هي أنها

(273/795)

في طعم الزنجبيل ولذته ولكن ليس فيها اللذاع الذي هو مناف للسلاسلة . وقد نسب إلى علي بن أبي طالب عليه السلام أن معناه سل سبيلاً إليها . ووجه أن صحت الرواية بأنها حينئذ جملة سميت بها مثل " تأبط شراً " وسبب التسمية في الأصل أنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالإيمان والعمل الصالح . وفي بعض شعر المتأخرين :

سل سبيلاً فيها إلى راحة النف . . . س براح كأنها سلسبيل

والظاهر منع صرفه للعملية والتأنيث ولكن لم يقرأ به إلا في الشواذ والمتواترة التنوين ، ووجهه ما مر في ﴿ سلاسلاً ﴾ على أن رعاية المشاكلة أولى لكونه رأس آية .

ثم وصف خدمهم بقوله ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ ويجوز أن يكون هذا بياناً

للطائفين في قوله ﴿ ويطاف عليهم بآنية ﴾ وقد صرح به في الواقعة وزاد ههنا أن شبههم في حسنهم وصفائهم وبقائهم وتفرقهم في المجلس لأصناف الخدمة باللؤلؤ المنثور . يحكى أن المأمون ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ ، فنظر إليه منثوراً على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال : لله درّ أبي نواس كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث قال البيت :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها . . . حصباء در على أرض من الذهب

(274/795)

وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء ، ثم أجمل نعيمهم لأنه مما لا يحصر ولا يخطر ببال أحد ما دام في الدنيا فخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم أو كل راء قائلاً ﴿ وإذا رأيت ﴾ قال الفراء : مفعوله وهو الموصول مضمر تقديره ما ﴿ ثم ﴾ كقوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام : 94] يريد ما بينكم . وأنكر الزجاج وغيره حذف الموصول والإكتفاء بالصلة . والذي اختاره أصحاب المعاني أن يكون المفعول متروكاً ليشيع ويعم . والمعنى أن الرائي أينما وجد الرؤية لمي تعلق إدراكه إلا بنعيم ﴿ وملكاً كبيراً ﴾ أي واسعاً هنيئاً . و " ثم " ظرف مكان أشير به إلى الجنة . روي أن أدنى

أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام . وقيل : الملك الكبير هو الذي لا زوال له . وقيل : هو أنه إذا أراد شيءاً كان . ومنهم من حمله على التعظيم وهو أن يأتي الرسول بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه ولا يدخل عليه رسول رب العزة وإن كان من الملائكة المقربين إلا بعد الإستئذان قاله الكلبي : وقال أهل العرفان : الملك الكبير هو اللذات الحقيقية والمعارف الإلهية والأسرار الربانية التي تستحقر عندها اللذات البدنية . وعن علي أنه قرأ ﴿ ملكاً كبيراً ﴾ بفتح الميم وكسر اللام هو الله . من قرأ ﴿ عاليهم ﴾ بسكون الياء فعلى أنه مبتدأ ﴿ وثياب سندس ﴾ خبر أي ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس ومن قرأ بالنصب فعلى أنه ظرف بمعنى فوق فيكون خبراً مقدماً . ويجوز أن يكون نصباً على الحال من ضمير الأبرار أي ولقاهم نضرة وسروراً . حال ما يكون عاليهم ثياب سندس . أو يطوف عليهم أي على الأبرار ولدان حال ما يكون عاليهم ثياب سندس . ويحتمل أن يكون العامل ﴿ رأيت ﴾ والمضاف محذوف والتقدير رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب سندس . من قرأ ﴿ خضر ﴾ بالرفع فظاهر ، ومن قرأ بالجر فعلى الجوار أو على أنه صفة سندس بالإستقلال لأنه جنس فكان في معنى

الجمع كما يقال : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض .

(276/795)

وأما الرفع في ﴿ إستبرق ﴾ فللعطف على ثياب ، والجر للعطف على سندس . وكلاهما ظاهر . قوله ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ إن كان الضمير للولدان فلا إشكال لأن أساور المخدومين تكون من ذهب كما قال سبحانه في مواضع ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ [الكهف : 31] وأساور الخدام من فضة . وإن كان الضمير للأبرار فلا إشكال أيضاً فلعلهم يسورون بالجنسين إما على المعاقبة وإما على الجمع . وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران سوار من ذهب وسوار من فضة . وأيضاً فالطباع مختلفة فرب إنسان يكون إستحسانه لبياض الفضة ، ورب إنسان يكون إستحسانه لصفرة الذهب فالله تعالى يعطي كل أحد بفضله ما تكون رغبته فيه أتم . وقال بعض أهل التأويل : أساور اليد أعمالها وأكسابها التي صارت ملكات نورانية بها يتوسل إلى جوار الحضرة الصمدية كما أن الذهب والفضة في الدنيا وسائل إلى تحصيل المطالب العاجلة . ثم ختم جزاء الأبرار بقوله ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ هو إما مبالغة طاهر والمراد أنها

ليست بنجسة كخمور الدنيا ولا مستقذرة طبعاً لمساس الأيدي الوضرة والأقدام النجسة والدنسة ، ولا تؤل إلى النجاسة ولكنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك . وإما مبالغة مطهر . قال أبو قلابة : يؤتون بالطعام والشراب ممزوجاً بالكافور والزنجبيل فإذا كان ذلك سقوا هذا الشراب فتظهر بذلك بطونهم ويفيض عرق من جلودهم كريح المسك .

وذكر أصحاب التأويل أن الأنوار الفائضة من العالم العلوي متفاوتة في الصفاء والقوة والتأثير فبعضها كافورية طبعها البرد واليبس ويكون صاحبها في الدنيا في مقام الخوف والبكاء والقبض ، وبعضها زنجبيلياً على طبع الحر واليبس ويكون صاحبها قليل الالتفات إلى ما سوى الله قليل المبالاة بالجسمانيات ، ثم لا يزال الروح الإنساني ينتقل من نوع إلى نوع ومن مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى حضرة نور الأنوار فيضمحل في نور تجليه سائر الأنوار ، وهذا آخر سير الصديقين ومنتهى

(277/795)

درجاتهم في الارتقاء إلى مدراج الكمال ، فلهذا أضاف السقي إلى ذاته قائلاً ﴿ وسقاهم ربهم ﴾ ثم ختم وعدهم بقوله ﴿ إن هذا كان لكم جزاء ﴾ عن ابن عباس أن هذا المعنى إنما يقال لهم بعد دخولهم الجنة ، فالقول مقدر والغرض إعلامهم أن كل ما تقدم من

أصناف العطاء إنما هو جزاء أعمالهم والغرض إذاقة لذة الآخرة فإن سرورهم يزيد بذلك . وقال آخرون : إنه ابتداء خبر من الله تعالى لعباده في الدنيا ليعلموا في دار التكليف أن هذه الأشياء معدة في الآخرة لمن بر وأطاع . واعلم أنه سبحانه بين في أول السورة أن الإنسان وجد بعد العدم ، ثم ذكر أنه خلقه من أمشاج وهي العناصر والأخلاط والماآن ماء الرجل وماء المرأة ، والأطوار المتعاقبة على النطفة أو النفس أو البدن ، وعلى جميع التقادير فلذلك يدل على كونه فاعلاً مختاراً صانعاً حكيماً .

(278/795)

ثم أخبر أنه ما خلقه لأجل العبث ما طلاً باطلاً ولكنه خلقه للابتلاء والامتحان وأعطاه كل ما هو محتاج إليه من العقل والحواس ، ثم إن مآل أمره بالجبر أو بالقدر إلى الشكر أو الكفر ، أما الكفر فله السلاسل والأغلال ، وأما الشاكر فله النعيم والظلال . واختصر في العقاب وأطنب في ذكر الثواب إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه . وحين فرغ من شرح أحوال الآخرة بدأ بكيفية صدور القرآن الذي منه تعليم هذه العلوم والحقائق فقال ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ وفيه أنواع من المبالغة من قبل إيقاع الضمير اسماً لأن " ثم " تكريره ومن جهة ذكر المصدر بعد الفعل ومن جهة لفظ التنزيل دون الإنزال لأن تنزيل القرآن منجماً

مفرقاً أقرب إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده ، وحيث سلى قلبه أمره بالصبر على أذى الكفار إلى أوان تنزيل آية القتال ونهاه عن طاعة كل آثم منهم وخصوصاً الكفور فإن الكفر أعظم الآثام قال النحويون : كلمة أو مفيدة لأحد الشيئين أو الأشياء ، فأورد عليه أنه يلزم في الآية أنه لا يجوز طاعة الآثم والكفور إذا تخالفا . أما إذا توافقا فإنه يجوز طاعتهما إذ لا يبعد أن يقول السيد لعبده إذا أمرك أحد هذين الرجلين فخالفه . أما إذا توافقا فلا تخالفهما . والجواب أنه لا ريب أن قولك " لا تضرب زيداً أن أو عمراً " معناه في الأظهر لا تضرب زيداً ولا عمراً . ويحتمل احتمالاً مرجوحاً " لا تضرب أحدهما واضرب الآخر " إلا أن هذا الاحتمال مدفوع في الآية لقرينة الإثم والكفر فإن أحدهما إذا كان منهياً عنه فكلاهما معاً أولى لأن زيادة الشرِّ شرٌّ . ولهذا قال الفراء : لا تطع واحداً منهما سواء كان آثماً أو كفوراً . ولو كان العطف بالواو كان نصاً في النهي عن طاعتهما معاً ، ولا يلزم منه النهي عن طاعة كل منهما على الإنفراد . وقد خص بعض المفسرين فقال : الآثم هو عتبة لأنه كان متعاطياً لأنواع الفسوق . والكفور هو الوليد لأنه كان شديد الشكيمة

في الكفر . يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : اردع عن هذا الأمر حتى أزوجك ولدي فإني من أجمل قريش ولداً . وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى فإني من أكثرهم مالاً . فقرأ عليهم رسول الله من أول " حم السجدة " إلى قوله ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فانصرفا عنه . وقال أحدهما : ظننت أن الكعبة ستقع . وقال الحسن : الآثم هو المنافق ، والكفور مشركو العرب ، أمره بالصبر على التكاليف مطلقاً . ثم قسمها إلى نهي وأمر على هذا الترتيب لأن التخلية مقدمة على التحلية .

(280/795)

أما النهي فقد مر ، وأما الأمر فأوله ذكر اله ولا سيما في الصلاة أول النهار وآخره وهو المراد بقوله ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ ويشمل صلوات الفجر والظهر والعصر وأول الليل وهو المراد بقوله ﴿ ومن الليل فاسجد له ﴾ أي وفي بعض الليل فصل له يعني صلاة المغرب والعشاء وأوسطه وهو المعنى بقوله ﴿ وسبحه ﴾ أي وتهجد له طويلاً من الليل ثلثيه أو نصفه أو ثلثه كما مر في " المزمل " . ثم شرع في توبيخ المتمردين عن طاعته مستحقراً إياهم قائلاً ﴿ إن هؤلاء يحبون ﴾ الدار ﴿ العاجلة ﴾ ونعيمها الزائل ﴿ ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً

﴿ أي شديداً كقوله ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 187] ثم بين كمال قدرته قائلاً ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ﴾ أي ربطهم وتوثيقهم ومنه أسر الرجل إذا أوثق بالقدر وبه سمي القد أسراً . والمعنى ركبناهم تركيباً محكماً وتقنا مفاصلهم بالأعصاب والربط والأوتار حسب ما يحتاجون إليه في التصرف لوجوه الحوائج ﴿ وإذا شئنا ﴾ أهلكناهم بالنفخة و ﴿ بدلنا أمثالهم ﴾ في شدة الأسر عند النفخة الثانية . وقال جار الله : قيل معناه بدلنا غيرهم ممن يطيع وحقه أن يجيء بأن لا بإذا كقوله ﴿ وأن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ [محمد : 38] ممن يطيع ﴿ وإن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ [إبراهيم : 19] قال الإمام فخر الدين الرازي : هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف لأن كل واحد من " إذا " " وإن " حرف الشرط . قلت : ما ذكره جار الله ليس طعناً في القرآن وإنما هو طعن في نفس ذلك القول بناء على أن " إذا " لا تستعمل إلا فيما كان مقطوع الوقوع كالإماتة بالنفخة الأولى والإحياء في النشأة الأخرى . أما الإهلاك على سبيل الإستئصال فذلك غير مقطوع به فلهذا ألا يحسن تفسير اللفظ به وتعين التفسير الأول ، والمبادرة بالإعتراض قبل الفهم التام ليس من دأب العلماء المتقين فعجب من مثله ذلك . قوله ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ قد مر في " المزمل " والمقصود من إعادته

أن هذه السورة بما فيها من الترتيب الأنيق تبصرة للمتأملين المتخذين إلى كرامة الله سبيلاً بالطاعة والانقياد ، وفيه دليل للقدري . وفي قوله ﴿ وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ﴾ إلى آخر السورة دليل للجبري والتوفيق بينهما مفوض إلى فهم أهل التوفيق وقدمنا فيه التحقيق . وانتصب ﴿ الظالمين ﴾ بفعل يفسره معنى أعد أو وعدت ونحوهما أوعد ، وبالله التوفيق وإليه المصير والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 409 . 419 ﴾

(282/795)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الإنسان

وتسمى هل أتى والأمشاج والدهر مكية أو مدينة وهي إحدى وثلاثون آية ، ومائتان وأربعون كلمة ، وألف وأربعة وخمسون حرفاً

واختلف فيها هل هي مكية أو مدينة فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل والكلبي : مكية وجرى عليه البيضاوي والزمخشري . وقال الجمهور : مدنية ، وقال الجلال

المحلي : مكية أومدنية ولم يجزم بشيء . وقال الحسن وعكرمة : هي مدنية إلا آية وهي قوله تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ (الإنسان :)

وقيل : فيها مكّي من قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ (الإنسان :) إلى آخر السورة وما تقدمه مدنيّ .

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الأسماء الحسنى ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم بنعمه الذكر والأنثى .

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص منهم من شاء لمقام الأسنى .

ولما تم الاستدلال على البعث والقدرة عليه تلاه بهذا الاستفهام وهو قوله تعالى:

﴿ هل أتى ﴾ قال الزمخشري : بمعنى قد في الاستفهام خاصة والأصل أهل بدليل قول الشاعر:

*سائل فوارس يربوع بسدتنا **أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم*

(283/795)

فالمعنى : أقد أتى على التقرير والتقريب جميعاً أي : أتى ﴿ على الإنسان ﴾ قبل زمان قريب ﴿ حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أي : كان شيئاً منسياً غير مذكور نطفة في الأصلاب اه . فقوله على التقرير يعني المفهوم من الاستفهام ، وقوله : والتقريب يعني المفهوم

من قد التي وقع موقعها هل ، ومعنى قوله في الاستفهام خاصة أن هل لا تكون بمعنى قد إلا ومعها استفهام لفظاً كالبيت المتقدم أو تقديراً كالآية الكريمة ، ولو قلت : هل جاء زيد بمعنى قد جاء من غير استفهام لم يجز . وغيره جعلها بمعنى قد من غير هذا القيد ، وجرى عليه الجلال المحلي . واعترض على الزمخشري بأنه لم يذكر غير كونها بمعنى قد . وبقي قيد آخر وهو أن يقول في الجمل الفعلية لأنها متى دخلت على جملة اسمية استحال كونها بمعنى قد ؛ لأن قد مختصة بالأفعال وأجيب عنه بأن هذا لا يحتاج إليه ؛ لأنه تقرّر أن قد لا تباشر الأسماء .

واختلف في المراد من الإنسان ، فقال قتادة وعكرمة والشعبيّ : هو آدم عليه السلام مرّت عليه أربعون سنة قبل أن تنفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية الضحاك أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة ثم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ثم نفخ فيه الروح . وحكى الماوردي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ الحين المذكور هنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره . وقال الحسن : خلق الله كل الأشياء ما يرى وما لا يرى من دوابّ البرّ والبحر في الأيام الست التي خلق الله تعالى فيها السموات والأرض وآخرها خلق آدم عليه السلام فهو قوله تعالى : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

روي أنّ أبا بكر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية قال : ليتها تمت فلا نبتلى أي : ليت هذه المدّة التي أتت على آدم عليه السلام ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ تمت على ذلك فلا يلد ولا تبتلى أولاده . وسمع عمر رجلاً يقرأ ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ قال عمر : ليتها تمت يقول : ليته بقي ما كان ، هذا وهما ضجيعاه صلى الله عليه وسلم ولكن بقدر القرب يكون الخوف .

فإن قيل : إنّ الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنساناً والآية تقتضي أنه مضى على الإنسان حال كونه إنساناً حين من الدهر مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً ؟

أجيب : بأن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الإنسان ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح ويصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان .

روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى : ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ لا في السماء ولا في الأرض بل كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً لا يذكر ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نفخ الروح فصار مذكوراً . قال ابن سلام : لم يكن شيئاً لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ولم يخلق بعده حيواناً .

وقال الزمخشريّ وتبعه جماعة من المفسرين : إنّ المراد بالإنسان جنس بني آدم بدليل قوله

تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان ﴾ أي : بعد خلق آدم عليه السلام ﴿ من نطفة ﴾ أي : مادّة هي شيء يسير جداً من الرجل والمرأة وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة ، كقول عبد الله بن رواحة يعاتب نفسه:

*ما لي أراك تكرهين الجنة ** هل أنت إلا نطفة في شنه*

(285/795)

وعلى هذا فالمراد بالحين المدة التي هو فيها في بطن أمه ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ إذ كان علقة ومضغة ؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له وقوله تعالى : ﴿ أمشاج ﴾ أي : أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين نعت لنطفة ووقع الجمع نعتاً لمفرد لأنه في معنى الجمع كقوله ﴿ رفرف خضر ﴾ أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فوصفت بالجمع ، وقال الزمخشريّ : ﴿ نطفة أمشاج ﴾ كبرمة أعشار وبرد أكياش ، وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للأفراد ، ويقال أيضاً : نطفة مشج قال الشماخ:

*طوت أحشاء مرتجة لوقت ** على مشج سلالته مهين*

ولا يصح أمشاج أن يكون تكسيراً له بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما اه . فقد منع أن يكون أمشاجاً جمع مشج بالكسر . قال أبو حيان : وقوله مخالف لنص سيبويه

والنحويين على أنّ أفعالاً لا يكون مفرداً ، وأجاب بعضهم بأن الزمخشري إنما قال يوصف به المفرد ولم يجعل أفعالاً مفرداً فكأنه جعل كل قطعة من البرمة برمة وكل قطعة من البرد برداً فوصفهما بالجمع ، والمعنى : من نطفة قد امتزج فيها الماءان وكل منهما مختلف الأجزاء متباين الأوصاف في الرقة والثخن والقوام والخواص يجمع من الأخلاط وهي العناصر الأربعة : ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان الشبه له .

(286/795)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد فما كان من عصب وعظم وقوّة فمن نطفة الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة ، قال القرطبيّ : وقد روي هذا مرفوعاً ذكره البزار وعن قتادة : أمشاج ألوان وأطوار ، يريد أنها تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم خلقاً آخر . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : هي عروق النطفة . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ، ونطفة المرأة خضراء وصفراء ، والغرض من هذا التنبيه على أنّ الإنسان محدَث فلا بد له من محدث قادر على تصويره وقد صوّره على صور مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل وقصير ومستدير وعريض .

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه جعل بين العظام مفاصل ثم أوصلها بأوتار وعروق ولحم ، ودوّر الرأس وشق في جانبيه السمع ، وفي مقدمه البصر والأنف والفم ، وشق في البدن سائر المنافذ ، ثم مد اليدين والرجلين وقسم رؤوسها بالأصابع وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة ، فسبحان من خلق تلك الأشياء من نطفة سخيفة ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ (القيامة :)

وقوله تعالى : ﴿ نبتليه ﴾ يجوز فيه وجهان : أحدهما : أنه حال من فاعل خلقنا أي : خلقناه حال كوننا مبتلين له ، والثاني : أنه حال من الإنسان وصح ذلك لأنّ في الجملة ضميرين كل منهما يعود على ذي الحال ، ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة إن كان المعنى : نبتليه نصرّفه في بطن أمّه نطفة ثم علقة ، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأن تكون مقدرة إن كان المعنى : نبتليه نختبره بالتكليف لأنه وقت خلقه غير مكلف ، وفيما يختبره به وجهان : أحدهما : قال الكلبي : تختبره بالخير والشرّ . والثاني : قال الحسن : نختبر شكره في السرّاء وصبره في الضرّاء . وقيل : نبتليه نكلفه بالعمل بعد الخلق . قال مقاتل رضي الله عنه : وقيل : نكلفه ليكون مأموراً بالطاعة ومنهياً عن المعاصي .

(287/795)

﴿ فجعلناه ﴾ أي : بما لنا من العظمة بسبب ذلك ﴿ سميعاً بصيراً ﴾ أي : عظيم السمع والبصر والبصيرة ليتمكن من مشاهدة الدلائل ببصره وسماع الآيات بسمعه ومعرفة الحجج ببصيرته ، فيصح تكليفه وابتلاؤه فقدّم العلة الغائية لأنها متقدّمة في الاستحضار على التابع لها المصحح لورودها ، وقدّم السمع لأنه أنفع في المخاطبات ، ولأنّ الآيات المسموعة أبين من الآيات المرئية ، وخصهما بالذكر لأنهما أنفع الحواس ، ولأنّ البصر يفهم البصيرة وهي تتضمن الجميع ، وقال بعضهم : في الكلام تقديم وتأخير ، والأصل إنا جعلناه سميعاً بصيراً نبتليه ، أي : جعلنا له ذلك للابتلاء . وقيل : المراد بالسميع المطيع كقولك سمعاً وطاعة وبالبصير العالم يقال : لفلان بصر في هذا الأمر .

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ هديناه السبيل ﴾ أي : بينا له وعرّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشرّ ببعثة الرسل ، وقال مجاهد رضي الله عنه : بينا له السبيل إلى السعادة والشقاوة . وقال السدّي رضي الله عنه : السبيل هنا خروجه من الرحم . وقيل : منافعه ومضارّه التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله . قال الرازي : والآية تدل على أنّ العقل متأخر عن الحواس . قال : وهو كذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إمّا شاكراً ﴾ أي : لإنعام ربه عليه ﴿ وإمّا كفوراً ﴾ أي : بليغ الكفر بالإعراض والتكذيب نصب على الحال وفيه وجهان : أحدهما : أنه حال من مفعول هديناه أي : هديناه مبيناً له كلتا حالتيه ، والثاني : أنه حال من السبيل على المجاز . قال

الزمخشري : ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي : عرّفناه السبيل إمّا سبيلاً شاكراً وإمّا سبيلاً كفوراً كقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ (البلد :)

(288/795)

فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً ، وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" الحديث ، وعن جابر رضي الله عنه : "كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه إمّا شاكراً وإمّا كفوراً" .

ولما قسمهم إلى قسمين ذكر جزاء كل فريق فقال تعالى:

﴿ إنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ أعتدنا ﴾ أي : هيأنا وأحضرنا بشدّة وغلظة ﴿ للكافرين ﴾ أي : العريقين في الكفر خاصة وقدم الأسهل في العذاب فالأسهل فقال تعالى : ﴿ سلاسلا ﴾ جمع سلسلة أي : يقادون ويوثقون بها ﴿ وأغلالاً ﴾ أي : في أعناقهم تشد فيها السلاسل فتجمع أيديهم إلى أعناقهم ﴿ وسعيراً ﴾ أي : ناراً حامية جداً شديدة الاتقاد .

وقرأ نافع وهشام وشعبة والكسائي سلاسلاً وصلاً بالتنوين والباقون بغير تنوين وأما

الوقف على الثانية فوقف عليها بغير ألف قنبل وحمزة ، ووقف البزي وابن ذكوان وحفص بغير ألف وبالألف ، ووقف الباقون بالألف ولا وقف على الأولى والرسم بالألف . أمّا من نوّن سلاسل فوجه بأوجه منها أنه قصد بذلك التناسب لأنّ ما قبله وما بعده منوّن منصوب . ومنها أن الكسائي وغيره من أهل الكوفة حكوا عن بعض العرب أنهم يصرفون جميع ما لا ينصرف إلا أفضل منك . وقال الأخفش : سمعنا من العرب من يصرف كل ما لا ينصرف لأنّ الأصل في الأسماء الصرف وترك الصرف لعارض فيها . وروي عن بعضهم أنه يقول : رأيت عمراً بالألف يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأيضاً هذا الجمع قد جمع وإن كان قليلاً ، قالوا صواحب وصواحبات . وفي الحديث : "إنكن صواحبات يوسف" ومنها أنه مرسوم في الإمام أي : مصحف الحجاز والكوفة بالألف ، رواه أبو عبيدة ورواه قالون عن نافع ، وروى بعضهم ذلك عن مصاحف البصرة أيضاً .

(289/795)

وقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما : أن يكون هذا التنوين بدلاً من حرف الإطلاق ويجري الوصل مجرى الوقف ، والثاني : أن يكون صاحب هذه القراءة ممن ضرى برواية الشعر ومرّن لسانه على صرف غير المنصرف ا . ه . قال بعض المفسرين : وفي هذه العبارة

فظاظة وغلظة لا سيما على مشايخ الإسلام وأئمة العلماء الأعلام ، وأما من لم ينوّنه فوجهه ظاهر لأنه على صيغة منتهى الجموع وقولهم : قد جمع نحو صواحبات لا يقدح لأنّ المحذور جمع التكسير ، وهذا جمع تصحيح ، وأما من لم يقف بالألف فواضح .

ولما أوجز في جزاء الكافر أتبعه جزاء الشاكر وأطنب تأكيداً للترتيب فقال تعالى : ﴿ إنّ الأبرار ﴾ جمع برّ كأرباب جمع رب أو بار كأشهاد جمع شاهد ، وفي الصحاح وجمع البار البررة وهم الصادقون في أيمانهم المطيعون لربهم الذين سمت همتهم عن المستحقرات فظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة ، وروى ابن عمر رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنما سماهم الله تعالى الأبرار ؛ لأنهم برّوا الآباء والأبناء كما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق" . وقال الحسن رضي الله عنه : البرّ الذي لا يؤذي الذرّ . وقال قتادة رضي الله عنه : الأبرار الذين يؤدّون حق الله ويوفون بالنذر . وفي الحديث "الأبرار الذين لا يؤذون أحداً" .

﴿ يشربون من كأس ﴾ هو إناء شرب الخمر وهي فيه والمراد من خمر تسمية للحالّ باسم المحل ومن للتبعيض ﴿ كان مزاجها ﴾ أي : ما تمزج به ﴿ كافوراً ﴾ لبرده وعذوبته وطيب عرفه ، وذكر فعل الكون يدل على أنّ له شأناً في المزج عظيماً يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد ، والكافور نبت معروف وكان اشتقاقه من الكفر وهو الستر لأنه يغطي الأشياء برائحته والكافور أيضاً كمام الشجر الذي هو ثمرتها ، والكافر البحر ، والكافر

الليل ، والكافر الساتر لنعم الله تعالى ، والكافر الزارع لتوريته الحب في الأرض ، قال الشاعر:

*وكافر مات على كفره ** وجنة الفردوس للكافر*

(290/795)

والكفارة تغطية الإثم في اليمين الفاجرة والنذور الكاذبة بالمغفرة ، والكافور : ماء جوف الشجر مكفور فيغرزونه بالحديد فيخرج إلى ظاهر الشجر فيضربه الهواء فيجمد وينعقد كالصمغ الجامد على الأشجار .

فإن قيل : مزج الكافور بالمشروب لا يكون لذيذاً فما السبب في ذكره ؟

أجيب : بأوجه:

أحدها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الكافور اسم عين في الجنة يقال لها عين الكافور ، أي : يمازجها ماء هذه العين التي تسمى كافوراً في بياض الكافور ورائحته وبرده ولكن لا يكون فيه طعمه ولا مضرّته .

ثانيها : أنّ رائحة الكافور عرض ، والعرض لا يكون إلا في جسم فخلق الله تعالى تلك الرائحة في جرم ذلك الشراب ، فسمي ذلك الجسم كافوراً وإن كان طعمه طيباً فيكون

الكافور ريحها لا طعمها .

ثالثها : أنّ الله تعالى يخلق الكافور في الجنة مع طعم طيب لذيذ ويسلب عنه ما فيه من المضرّة ، ثم إنه تعالى يمزجه بذلك الشراب كما أنه تعالى يسلب عن جميع المأكولات والمشروبات ما معها في الدنيا من المضارّ وقال سعيد عن قتادة رضي الله عنهم : يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك . وقيل : يخلق فيها رائحة الكافور وبياضه فكأنها مزجت بالكافور .

وقوله تعالى : ﴿ عيناً ﴾ في نصبه أوجه : أحدها : أنه بدل من ﴿ كافوراً ﴾ لأنّ ماءها في بياض الكافور وفي رائحته وبرده واقتصر على هذا الجلال المحلي .

الثاني : أنه بدل من محل ﴿ من كأس ﴾ قاله مكي ولم يقدّر حذف مضاف ، وقدّر الزمخشري على هذا الوجه حذف مضاف ، قال : كأنه قيل : يشربون خمراً خمر عين .

الثالث : أنه نصب على الاختصاص قاله الزمخشري . الرابع : أنه بإضمار أعني قاله القرطبي ، وقيل : غير ذلك .

﴿ يشرب بها ﴾ قال الجلال المحلي : منها . وقال البقاعي : أي : بمزاجها . وقال الزمخشري : بها الخمر ، قال : كما تقول شربت الماء بالعسل والأوّل أوضح . ﴿ عباد الله ﴾ أي : أولياؤه .

فإن قيل : الكفار عباد الله وهم لا يشربون منها بالاتفاق ؟

أجيب : بأنّ لفظ عباد الله مختص بأهل الإيمان ولكن يشكل بقوله تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ (الزمر :)

فإنه يصير تقدير الآية ولا يرضى لعبادة المؤمنين الكفر مع أنه سبحانه لا يرضى الكفر للكافر ولا لغيره ، وقد يجاب بأنّ هذا أكثري لا كلي ، أو يقال : حيث أضيف العباد أو العبد إلى اسم الله الظاهر سواء كان بلفظ الجلالة أم لا فالمراد به المؤمن ، وإن أضيف إلى ضميره تعالى فيكون بحسب المقام ، فتارة يختص بالمؤمن كقوله تعالى : ﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الحجر :)

وتارة يعمّ كقوله تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ (الحجر :)

﴿ يفجرونها ﴾ أي : يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم وإن علت ﴿ تفجيراً ﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم .

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَشُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا

يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَالِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَ زَمْهَرِيرًا ﴾

(292/795)

ولما ذكر جزاءهم ذكر وصفهم الذي يستحقون عليه ذلك بقوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ﴾ وهذا يجوز أن يكون مستأنفاً ويجوز أن يكون خبراً لكان مضمرة . قال الفراء : التقدير : كانوا يوفون بالنذر في الدنيا وكانوا يخافون . وقال الزمخشري : يوفون جواب من عسى يقول : ما لهم يرزقون ذلك . قال أبو حيان : واستعمل عسى صلة لمن وهو لا يجوز ، وأتى بالمضارع بعد عسى غير مقرون بأن وهو قليل أو في الشعر ، والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأنّ من وفّى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله تعالى كان بما أوجبه الله تعالى عليه أوفى ، وقال الكلبي :

﴿ يوفون بالنذر ﴾ أي : يتممون العهود لقوله تعالى : ﴿ وأفوا بعهد الله ﴾ (النمل :) ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ (المائدة :)

أمروا بالوفاء بها لأنهم عقدوها على أنفسهم باعتقادهم الإيمان . قال القرطبي : والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله ، وإن شئت قلت في حدّه : هو إيجاب

المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه" .

(293/795)

ولما دل وفاؤهم على سلامة طباعهم قال تعالى عاطفاً دلالة على جمعهم للأمرين المتعاطفين ، فهم يفعلون الوفاء لا لأجل شيءٍ بل لكرم الطبع . ﴿ ويخافون ﴾ أي : مع فعلهم للواجبات ﴿ يوماً ﴾ قال ابن عبد السلام : شرّ يوم أو أهوال يوم ﴿ كان ﴾ أي : كوناً هو في جبلته ﴿ شرّه ﴾ أي : ما فيه من الشدائد ﴿ مستطيراً ﴾ أي : فاشياً منتشراً غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر وهو أبلغ من طار . وقال قتادة رضي الله عنه : كان شرّه فاشياً في السموات فانشقت وتناثرت الكواكب وكوّرت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ونسفت الجبال وغارت المياه وتكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء ، وفي ذلك إشعار بحسن عقيدتهم وإحسانهم واجتنابهم عن المعاصي فإن الخوف أدل دليل على عمارة الباطن ، قالوا : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب ، ومن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل .

فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿ كان شرّه ﴾ ولم يقل سيكون ؟

أجيب : بأنه كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل :)

فبما قيل في ذاك يقال هنا .

﴿ ويطعمون الطعام ﴾ أي : على حسب ما يتيسر لهم من عال ودون ، وقوله تعالى :

﴿ على حبه ﴾ حال إما من الطعام أي : كائنين على حبهم إياه فهو في غاية المكنة منهم

والاستعلاء على قلوبهم لقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لن تنالوا البر

حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (آل عمران :)

ليفهم أنهم للفضل أشدّ بذلاً ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في حق الصحابة رضي الله

عنهم : "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه" لقلة الموجود إذ ذاك

وكثرته بعد ، وإما من الفاعل والضمير في حبه لله أي : على حب الله وعلى التقديرين فهو

مصدر مضاف للمفعول . وقال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام .

(294/795)

﴿ مسكيناً ﴾ أي : محتاجاً احتياجاً يسيراً فصاحب الاحتياج الكثير أولى ﴿ ويتيماً ﴾

أي : صغيراً لا أب له ﴿ وأسيراً ﴾ أي : في أيدي الكفار . وخص هؤلاء بالذكر لأنّ

المسكين عاجز عن الاكتساب بنفسه عما يكفيه ، واليتيم مات من يكتسب له وبقي

عاجزاً عن الكسب لصغره ، والأسير لا يتمكن لنفسه نصراً ولا حيلة .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير رضي الله عنهم : الأسير المحبوس فيدخل في ذلك المملوك والمسجون والكافر الذي في أيدي المسلمين ، وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز ، وكان الخبز إذ ذاك عزيزاً حتى كان ذلك الأسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه إلى الإسلام ، وذلك لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما دفعهم إليهم قال : "استوصوا بهم خيراً" . وقيل : الأسير المملوك ، وقيل : المرأة لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم "اتقوا الله في النساء فإنهنّ عندكم عوان" أي : أسرى .

وقوله تعالى : ﴿إنما نطعمكم﴾ على إضمار القول أي : يقولون بلسان المقال أو الحال : إنما نطعمكم أيها المحتاجون ﴿لوجه الله﴾ أي : لذات الملك الذي استجمع الجلال والإكرام لكونه أمرنا بذلك ، وعبر بالوجه لأنّ الوجه يستحى منه ويرجى ويخشى عند رؤيته ﴿لا نريد منكم﴾ لأجل ذلك ﴿جزاء﴾ أي : لنا من أعراض الدنيا ﴿ولا شكوراً﴾ أي : لشي من قول ولا فعل ، روي أنّ عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا ، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله تعالى .

ثم عللوا قولهم هذا على وجه التأكيد بقولهم ﴿ إنا نخاف من ربنا ﴾ أي : الخالق لنا المحسن إلينا ﴿ يوماً ﴾ أي : أهوال يوم هو في غاية العظمة وبينوا عظمته بقولهم ﴿ عبوساً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولك : نهارك صائم روي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، وأن يشبه في شدّته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل .

﴿ قمطريراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : طويلاً . وقال مجاهد وقتادة رضي الله عنهم : القمطرير الذي يقبض الوجوه والجباه بالتعبس . وقال الكلبي : العبوس الذي لا انبساط فيه والقمطرير الشديد وقال الأخفش : القمطرير أشدّ ما يكون من الأيام وأطوله في البلاد يقال يوم قمطرير وقماطير إذا كان شديداً كريهاً .

ولما كان فعلهم هذا خالصاً لله تعالى سبب عنه جزاءهم فقال تعالى : ﴿ فوقاهم الله ﴾ أي : الملك الأعظم بسبب خوفهم ﴿ شر ذلك اليوم ﴾ أي : العظيم ولا بدّ لهم من نعيم ظاهر وباطن ومسكن يقيمون فيه وملبس وقد أشار إلى الأوّل بقوله تعالى : ﴿ ولقاهم ﴾ أي : أعطاهم ﴿ نضرة ﴾ أي : حسناً دائماً في وجوههم ، وأشار إلى الثاني بقوله تعالى : ﴿ وسروراً ﴾ أي : في قلوبهم دائماً في مقابلة خوفهم في الدنيا .

وأشار إلى الثالث بقوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي : بسبب ما أوجدوا من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة واجتناب المعصية ومنع أنفسهم الشهوات وبذل المحبوبات ﴿ جنة ﴾ أي : ادخلوا بستاناً جامعاً يأكلون منه ما يشتهون جزاء على ما كانوا يطعمون وإن كان غيرهم يشاركهم في ذلك دونهم في الجزاء وأشار إلى الرابع بقوله تعالى : ﴿ وحريراً ﴾ أي : ألبسوه أي : هو في غاية العظمة وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري عن ابن عباس أنّ الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما صوم ثلاثة أيام إن برئا فشفيا وما معهما شيء ، فاستقرض عليّ من شمعون اليهودي الخيبري ثلاثة آصع من شعير وطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً ، فلما أمسوا وضعوا الطعام بين أيديهم فوقف عليهم يتيم فآثروه ، ووقف عليهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك زاد في الكشاف فلما أصبحوا

أخذ عليّ رضي الله تعالى عنه بيد الحسن والحسين فأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع ، قال : ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبريل عليه السلام وقال:خذها يا محمد ـأي : السورة ـ هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة حديث موضوع .

(297/795)

ثم بين حالهم فيها بقوله تعالى ﴿ متكئين فيها ﴾ أي : الجنة . واختلفوا في إعراب متكئين ، فقال الجلال المحلي : حال من مرفوع ادخلوها المقدر . وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون حالاً من المفعول في جزاهم وأن يكون صفة ، واعترض عليه في كونه صفة بأنه لا يجوز عند البصريين لأنه كان يلزم الضمير ، فيقال : متكئين هم فيها لجريان الصفة على غير من هي له وقيل : إنه من فاعل صبروا ، واعترض أنّ الصبر كان في الدنيا والاتكاء في الآخرة ، وأجيب بأنه يصح أن يكون حالاً مقدرة لأنّ مآلهم بسبب صبرهم إلى هذه الحالة .

ثم أشار إلى زيادة راحتهم بقوله تعالى : ﴿ على الأرائك ﴾ أي : السرر في الحجال ولا تكون أريكة إلا مع وجود الحجلة وقيل : الأرائك الفرش على السرر . وقوله تعالى : ﴿ لا

يرون فيها ﴾ أي : الجنة حال ثانية على الخلاف المتقدم في الأولى ، ومن جوّز أن تكون الأولى صفة جوّزه في الثانية . وقيل : إنها حال من الضمير المرفوع المستكن في متكئين فتكون حالاً متداخلة . ﴿ شمساً ﴾ أي : حرًّا ﴿ ولا ﴾ يرون فيها ﴿ زمهريراً ﴾ أي : برداً شديداً فالآية من الاحتباك دل نفي الشمس أوّلاً على نفي القمر ودل نفي الزمهرير الذي هو سبب البرد ثانياً على نفي الحرّ الذي سببه الشمس ، فأفاد هذا أنّ الجنة غنية عن النيرين ، لأنها نيرة بذاتها وأهلها غير محتاجين إلى معرفة زمان إذ لا تكليف فيها بوجه وأنها ظليلة معتدلة دائماً بخلاف الدنيا ، فإنّ فيها الحاجة إلى ذلك ، والحرّ والبرد فيها من فيح جهنم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اشتكت النار إلى ربها قالت : يا رب أكل بعضي بعضاً فجعل لها نفسين نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدونه من الحرّ من سمومها" وقيل : الزمهرير القمر بلغة طيء ، وأنشدوا :

*وليلة ظلامها قد اعتكر ** قطعتها والزمهرير ما زهر*

ويروى ما ظهر .

(298/795)

﴿ ودانية ﴾ أي : قريبة مع الارتفاع ﴿ عليهم ظلالها ﴾ أي : شجرها من غير أن يحصل منها ما يزيل الاعتدال . واختلف في نصب دانية ، فقال البغوي : عطف على متكئين . وقال الجلال المحلي : عطف على محل لا يرون وذكره البغوي بعد الأوّل بصيغة قيل ، قال البيضاوي : أو عطف على جنة أي : وجنة أخرى دانية لأنهم وعدوا جنتين لقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن :)

. فإن قيل : إن الظل إنما يوجد حيث توجد الشمس ، والجنة لا شمس فيها فكيف يحصل الظل ؟

أجيب : بأنّ أشجار الجنة تكون بحيث لو كان هناك شمس لكانت تلك الأشجار مظلة منها ، وإن كان لا شمس ولا قمر كما أن أمشاطهم الذهب والفضة وإن كان لا وسخ ولا شعث .

﴿ وذللت قطوفها ﴾ جمع قطف بالكسر وهو العنقود واسم للثمار المقطوفة أي : المجنية ﴿ تذليلاً ﴾ أي : سهل تناولها تسهيلاً عظيماً لا يردّ اليد عنها بعد ولا شوك لكل من يريد أخذها على أي حالة كانت من اتكاء وغيره ، فإن كانوا قعوداً أو مضطجعين تدلت إليهم ، وإن كانوا قياماً وكانت على الأرض ارتفعت إليهم ، وقال البراء : ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاؤوا ، فمن أكل قائماً لم يؤذه ومن أكل جالساً لم يؤذه ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه ، وهذا جزاؤهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله تعالى .

ولما وصف تعالى طعامهم ولباسهم وسكنهم وصف شرابهم بقوله تعالى : ﴿ ويطاف ﴾ أي : من أي طائف كان لكثرة الخدم ﴿ عليهم بآنية ﴾ جمع إناء كسقاء وأسقية وجمع الآنية أوان وهي ظروف للمياه ومعنى يطاف أي : يدور على هؤلاء الأبرار الخدم إذا أرادوا الشرب . ثم بين تلك الآنية بقوله تعالى : ﴿ من فضة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء أي : الذي في الجنة أشرف وأعلى ولم ينف الآنية الذهبية بل المعنى : يسقون في الأواني الفضة وقد يسقون في الأواني الذهب كما قال تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ (النحل :)

أي : والبرد فنبه بذكر أحدهما على الآخر .

(299/795)

ولما جمع الآنية خص فقال تعالى ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب ، وهو كوز لا عروة له فيسهل الشرب منه من كل موضع فلا يحتاج عند التناول إلى إدارة ﴿ كانت ﴾ أي : تلك الأكواب كوناً هو من جبلتها ﴿ قوارير ﴾ أي : كانت بصفة القوارير من الصفاء والرقة والشفوف والإشراق ، جمع قارورة وهي ما أقرّ فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف . وقيل : هو خاص بالزجاج .

ولما كان رأس آية وكان التعبير بالقوارير ربما أفهم أنها من الزجاج ، وكان في الزجاج من النقص سرعة الانكسار لإفراط الصلابة ، قال تعالى معيد للفظ أوّل الآية الثانية تأكيداً للاتصاف بالصالح من أوصاف الزجاج وبياناً لنوعها : ﴿ قوارير من فضة ﴾ أي : قد جمعت صفتي الجوهرين المتباينين صفاء الزجاج وشفوفه وبريقه ، وبياض الفضة وشرفها ولينها ، وقال الكلبي : إن الله تعالى جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم ، وإنّ أرض الجنة من فضة فجعل منها قوارير يشربون منها . وقرأ نافع وشعبة والكسائي وصلاً بالتنوين فيهما ووافقهم ابن كثير في الأول دون الثاني ، والباقون بغير تنوين ، وأما الوقف فمن نون وقف بالألف ، ومن لم ينون وقف بغير ألف إلا هشاماً ، فإنه وقف على الثاني بالألف وفي الوصل لم ينون فالقراءات حينئذ على خمس مراتب : إحداها : تنوينهما معاً ، والوقف عليهما بالألف . الثانية : مقابله وهو عدم تنوينهما وعدم الوقف عليهما بالألف ، الثالثة : عدم تنوينهما والوقف عليهما بالألف ، الرابعة : تنوين الأول دون الثاني والوقف على الأول بالألف وعلى الثاني بدونها . الخامسة : عدم تنويهما معاً والوقف على الأول بالألف ، وعلى الثاني بدونها . وأما من نوّنهما فلما مرّ في تنوين سلاسل ؛ لأنهما صيغة منتهى الجموع ذاك على مفاعل وذا على مفاعيل ، والوقف بالألف التي هي بدل التنوين ، فأما عدم تنوينهما وعدم الوقف بالألف فظاهر ، وأما من نوّن الأول دون الثاني فإنه ناسب بين الأول وبين رؤوس الأي ، ولم يناسب بين الثاني وبين الأوّل ، والوجه في وقفه

على الأوّل بالألف وعلى الثاني بغير ألف ظاهر ، وأما من لم ينوّنهما ووقف على الأوّل بألف وعلى الثاني بدونها فلأنّ الأوّل رأس آية فناسب بينه وبين رؤوس الأي في الوقف بالألف وفرق بينه وبين الثاني لأنه ليس برأس آية ، وأما من لم ينوّنهما ووقف عليهما بالألف ، فإنه ناسب بين الأول وبين رؤوس الأي وناسب بين الثاني وبين الأول .

وقال الزمخشري : وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق ؛ لأنها فاصلة وفي الثاني لإتباعه الأوّل يعني : أنهم يأتون بالتنوين بدلاً من حرف الإطلاق الذي للترنم ، كقوله:

يا صاح ما هاج العيون الذرفن

وقوله تعالى ﴿ قدّروها تقديراً ﴾ صفة لقوارير من فضة وفي الواو في قدّروها وجهان : أحدهما : أنه للمطاف عليهم ، ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها في أنفسهم أن تكون على تقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدّروا . والثاني : أنه للطائفين بها دل عليه قوله تعالى : ﴿ ويطاف عليهم ﴾ (الإنسان :)

على أنهم قدّروا شرابها على قدر الري وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنه ولا يعجز ، وعن مجاهد رضي الله عنه لا تغيض ولا تفيض وعن ابن عباس

رضي الله عنهما قدّروها على ملء الكف حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر ، وجوّز أبو البقاء أن تكون الجملة مستأنفة .

﴿ ويسقون ﴾ أي : ممن أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة ﴿ فيها ﴾ أي : في الجنة أو تلك الأكواب ﴿ كأساً ﴾ أي : خمراً في إناء ﴿ كان مزاجها ﴾ أي : ما تمزج به على غاية الإحكام ﴿ زنجبيلاً ﴾ أي : غاية اللذة ، وكانت العرب تلتذ بالشراب الممزوج به لهضمه وتطييبه الطعم ، والزنجبيل : نبت معروف ، وسمي الكأس بذلك لوجود طعم الزنجبيل فيها قال الأعشى :

*كأن القرنفل والزنجبي ** ل باتا بفيها وأريا مشورا*

وقال المسيب بن علس :

*وكأن طعم الزنجبيل به ** إذ ذقته وسلافة الخمر*

(301/795)

وقوله تعالى : ﴿ عيناً فيها ﴾ أي : الجنة بدل من زنجبيلاً وكون الزنجبيل عيناً فيه خرق للعوائد ؛ لأنّ الزنجبيل عندنا شجر يحتاج في تناوله إلى علاج ، فبين أنه هناك عين لا يحتاج في صيرورته زنجبيلاً إلى أن تحيله الأرض بتخميره فيها حتى يصير شجراً ليتحوّل عن طعم

الماء إلى طعم الزنجبيل ﴿ تسمى ﴾ أي : تلك العين لسهولة إساغتها ولذة طعمها وسموّ وصفها ﴿ سلسبيلاً ﴾ والمعنى : أن ماء تلك العين كالزنجبيل الذي تلتذ به العرب سهل المساغ في الحلق ، فليس هو كزنجبيل الدنيا يلذع في الحلق فتصعب إساغته . والسلسبيل والسلسل والسلسال ما كان من الشراب غاية في السلاسة زيدت فيه الباء زيادة في المبالغة في هذا المعنى ، وقال مقاتل وابن حبان رضي الله عنهما : سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان . قال البغوي : وشراب الجنة في برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك من غير لذع . وقال مقاتل رضي الله عنه : يشربها المقربون صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة .

ولما ذكر تعالى المطوف به لأنه الغاية المقصودة وصف الطائف لما في طوافه من العظمة المشهودة بقوله تعالى .

﴿ ويطوف عليهم ﴾ أي : بالشراب وغيره من الملاذ والمحاب ﴿ ولدان ﴾ أي : غلمان هم في سن من هو دون البلوغ ؛ لأنّ الفقهاء قالوا :

الناس غلمان وصبيان وأطفال وذراري إلى البلوغ ثم هم بعد البلوغ شبان وفتيان إلى الثلاثين ، ثم هم بعدها كهول إلى الأربعين ثم بعدها شيوخ واستنبط بعضهم ذلك من القرآن في حق بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى في حق يحيى : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ (مريم :)

وفي حق عيسى : ﴿ يكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ (آل عمران :)

وعن إبراهيم : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ (الأنبياء :)

وعن يعقوب : ﴿ إنّ له اباً شيخاً كبيراً ﴾ (يوسف :)

(302/795)

. وقالوا : وأقل أهل الجنة من يخدمه ألف غلام ، ويعطى في الجنة قدر الدنيا عشر مرّات .

وقرأ حمزة بضم الهاء والباقون بكسرها .

ثم وصف تعالى تلك الغلمان بقوله تعالى : ﴿ مخلدون ﴾ أي : قد حكم من لا يرد حكمه بأن يكونوا كذلك دائماً من غير علة ولا ارتفاع عن ذلك الحدّ مع أنهم مزينون بالحلي وهو الحلق والأساور والقرط والملابس الحسنة .

﴿ إذا رأيتهم ﴾ أي : يا أعلى الخلق وأنت أثبت الناس نظراً أو أيها الرائي الشامل لكل راء في أي حالة رأيتهم فيها ﴿ حسبتهم ﴾ أي : من بياضهم وصفاء ألوانهم وانتشارهم في الخدمة ﴿ لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي : من سلكه أو من صدفه وهو أحسن منه في غير ذلك ، قال بعض المفسرين : هم غلمان ينشئهم الله تعالى لخدمة المؤمنين . وقال بعضهم : أطفال المؤمنين لأنهم ماتوا على الفطرة . وقال ابن برجان : وأرى والله أعلم أنهم من علم الله تعالى

إيمانه من أولاد الكفار ، وتكون خدماً لأهل الجنة كما كانوا لنا في الدنيا سبياً وخداماً .

وأما أولاد المؤمنين فيلحقون بآبائهم سناً وملكاً سروراً لهم . ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم في ابنه إبراهيم عليه السلام : "إن له لظئراً تتم رضاعه في الجنة" فإنه يدل على انتقال شأنه فيما هنالك وكتنقله في الأحوال في الدنيا ، ولا دليل على خصوصيته بذلك .

وقرأ السوسي وشعبة بإبدال الهمزة الأولى الساكنة وقفاً ووصلاً ، وإذا وقف حمزة أبدل الأولى والثانية .

ولما ذكر المخدوم والخدم ذكر المكان بقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت ﴾ أي : وجدت منك الرؤية ﴿ ثم ﴾ أي : هناك في أي مكان كان في الجنة ، وأي شيء كان فيها . وقوله تعالى ﴿ رأيت ﴾ جواب إذا أي : رأيت ﴿ نعيماً ﴾ أي : ليس فيه كدر بوجه من الوجوه ولا يقدر على وصفه واصف . ﴿ وملكاً كبيراً ﴾ أي : لم يخطر على باله مما هو فيه من السعة وكثرة الموجود والعظمة .

(303/795)

قال سفيان الثوري : بلغنا أن المُلْك الكبير تسليم الملائكة عليهم . وقيل : كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رؤوس الملوك ، وقال الحكيم الترمذي : هو ملك التكوين إذا

أرادوا شيئاً ، قالوا له : كن فيكون . وفي الخبر : إنّ الملك الكبير هو أنّ أدناهم منزلة أي : وما فيهم دنيء الذي في ملكه مسيرة ألف عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه وإن أعظمهم منزلة من ينظر إلى وجه ربه سبحانه وتعالى كل يوم . أي : قدر يوم من أيام الدنيا مرّتين .

ولما ذكر الدار وساكنيها من مخدوم وخدم ذكر لباسهم بقوله تعالى : ﴿ عاليهم ﴾ أي : فوقهم ﴿ ثياب سندس ﴾ هو ما رق من الحرير ﴿ خضر وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج فهو البطائن ، والسندس الظهائر ، وقرأ نافع وحمزة ﴿ عاليهم ﴾ بسكون الياء بعد اللام وكسر الهاء والباقون بفتح الياء وضم الهاء ؛ لأنّ الياء لما سكنت كسرت الهاء ولما تحرّكت ضمت الهاء ، فأما قراءة نافع وحمزة ففيها أوجه : أظهرها : أن يكون خبراً مقدّماً ، وثياب مبتدأ مؤخر .

وأمّا قراءة الباقين ففيها أيضاً أوجه : أظهرها : أن يكون خبراً مقدّماً وثياب مبتدأ مؤخراً . كأنه قال : فوقهم ثياب . قال أبو البقاء : لأنّ عاليهم بمعنى فوقهم ، والضمير المتصل به للمطوف عليهم أو للخادم والمخدوم جميعاً وإن كانت تتفاوت بتفاوت الرتب . وقرأ نافع وحفص خضر وإستبرق برفعهما ، وقرأ حمزة والكسائي بخفضهما . وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر وجرّ إستبرق ، وقرأ ابن كثير وشعبة بجرّ خضر ورفع إستبرق .

وحاصل القراءات في ذلك أربع مراتب : الأولى : رفعهما ، الثانية : خفضهما ، الثالثة : رفع الأوّل وخفض الثاني ، الرابعة : عكس ذلك . فأمّا القراءة الأولى : فإنّ رفع خضر على النعت لثياب ورفع إستبرق نسق على الثياب ، ولكن على حذف مضاف أي : وثياب إستبرق ، وأمّا القراءة الثانية : فيكون جرّ خضر على النعت لسندس . ثم استشكل على هذا وصف المفرد بالجمع ، فقال مكي : هو اسم جمع ، وقيل : هو جمع سندسة كتمر وتمرة ، ووصف اسم الجنس بالجمع صحيح قال تعالى : ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ (الرعد :) ، ﴿ وأعجاز نخل منقعر ﴾ (القمر :) ، ﴿ ومن الشجر الأخضر ﴾ (يس :) وإذا كانوا قد وصفوا المحلى لكونه مراداً به الجنس بالجمع في قولهم : أهلك الناس الدينار الحمر والدرهم البيض وفي التنزيل ﴿ أو الطفل الذين ﴾ فلأن يوجد ذلك في أسماء الجموع أو أسماء الأجناس الفارق بينها وبين واحدها تاء التأنيث بطريق الأولى ، وجرّ إستبرق نسقاً على سندس لأنّ المعنى : ثياب من سندس وثياب من إستبرق ، وأمّا القراءة الثالثة : فرفع خضر نعتاً لثياب وجرّ إستبرق نسقاً على سندس أي : ثياب خضر من سندس ومن إستبرق ، فعلى هذا يكون الإستبرق أيضاً أخضر ، وأمّا القراءة الرابعة : فجرّ خضر على أنه نعت لسندس ورفع إستبرق على النسق على ثياب بحذف مضاف أي : وثياب إستبرق .

ثم أخبر تعالى عن تحليتهم بقوله سبحانه ﴿ وحلوا ﴾ أي : المخدوم والخادم ﴿ أساور من فضة ﴾ وإن كانت تتفاوت بتفاوت الرتب وهي بالغة من الأعضاء ما يبلغه التحجيل في الوضوء كما قال صلى الله عليه وسلم "الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء" فلذلك كان أبو هريرة يرفع إلى المنكبين وإلى الساقين .

تنبيه : قال هنا : ﴿ أساور من فضة ﴾ وفي سورة فاطر : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ (فاطر :)

وفي سورة الحج : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ﴾ (الحج :)

(305/795)

فقيل : حلي الرجال الفضة وحلي النساء الذهب . وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة . وقيل : يجمع في يدي أحدهم سواران من ذهب ، وسواران من فضة ، وسواران من لؤلؤ لتجتمع لهما محاسن الجنة قاله سعيد بن المسيب . وقيل : يعطى كل أحد ما يرغب فيه وتميل نفسه إليه . وقيل : أسورة الفضة إنما تكون للولدان وأسورة الذهب للنساء . وقيل : هذا للنساء والصبيان . وقيل : هذا يكون بحسب الأوقات والأعمال .

﴿ وسقاهم ربهم ﴾ أي : الموجد لهم المحسن إليهم المدبر لمصالحهم ﴿ شراباً طهوراً ﴾

أي : ليس هو كشراب الدنيا سواء أكان من الخمر أم من الماء أم من غيرهما فهو بالغ الطهارة .

وقال عليّ رضي الله عنه : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من ساقها عينان فيشربون من إحداهما فتجري عليهم نضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تشعث شعورهم أبداً ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما في بطونهم من الأذى ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقال النخعي وأبو قلابة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طهرهم وصار ما أكلوه وشربوه رشح مسك وضمرت بطونهم . وقال مقاتل : هو من عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله تعالى ما كان في قلبه من غش وغل وحسد وما كان في جوفه من أذى ، وعلى هذا فيكون فعول للمبالغة . وقال الرازي : قوله تعالى ﴿ طهوراً ﴾ في تفسيره احتمالات : أحدها : لا يكون نجساً كخمر الدنيا ، وثانيها : المبالغة في البعد عن الأمور المستقذرة لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأرجل الدنسة ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها . وثالثها : أنه لا يؤول إلى النجاسة لأنها ترشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريح المسك ، وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهراً لأنه يطهر بواطنهم من الأخلاق الذميمة والأشياء المؤذية .

فإن قيل : هل هذا نوع آخر غير ما ذكر قبل ذلك من أنهم يشربون من الكافور والزنجبيل والسلسبيل أم لا ؟

أجيب : بأنه نوع آخر لوجوه : أولها : رفع . ثانيها : أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه بقوله تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ وذلك يدل على فضل هذا دون غيره ، ثالثها : ما روي أنه تقدّم إليهم الأطعمة والأشربة ، فإذا فرغوا منها أتوا بالشراب الطهور فيشربون فيطهر ذلك بطونهم ويفيض عرقاً من جلودهم مثل ريح المسك ، وهذا يدل على أنّ ذلك الشراب مغاير لتلك الأشربة ، ولأنّ هذا الشراب يهضم سائر الأشربة ، ثم إنّ له مع هذا الهضم تأثيراً عجيباً وهو أنه يجعل سائر الأطعمة والأشربة عرقاً يفوح منه ريح كريح المسك ويطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الخسيسة والركون إلى ما سوى الحق فيتجرّد لمطالعة جلاله متلذذاً بلقائه باقياً ببقائه وهو منتهى درجات الصدّيقين وكل ذلك يدل على المغايرة .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ ﴾ على إضمار القول أي : ويقال لهم إنّ ﴿ هذا كان لكم جزاء ﴾ أي : على أعمالكم التي كنتم تجاهدون فيها أنفسكم عن هواها إلى ما يرضي ربكم والإشارة إلى ما تقدّم من عطاء الله تعالى لهم ﴿ وكان ﴾ أي : على وجه الثبات ﴿ سعيكم مشكوراً ﴾ أي : لا نضيع شيئاً منه ونجازي بأكثر منه أضعافاً مضاعفة .

ولما بين تعالى بهذا القرآن العظيم الوعد والوعيد ذكر سبحانه أنه من عنده وليس هو بسحر ولا كهانة ولا شعر بقوله تعالى : ﴿ إنا نحن ﴾ أي : على ما لنا من العظمة التي لا نهاية لها لا غيرنا ﴿ نزلنا عليك ﴾ وأنت أعظم الخلق إنزالاً استعلى حتى صار المنزَّل خُلُقاً لك ﴿ القرآن ﴾ أي : الجامع لكل هدى ﴿ تنزيلاً ﴾ قال ابن عباس : متفرّقاً آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة .

(307/795)

قال الرازي : والمقصود من هذه الآية تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وشرح صدره فيما نسبوه إليه صلى الله عليه وسلم من كهانة وسحر ، فذكر تعالى أنّ ذلك وحي من الله تعالى فكأنه تعالى يقول : إن كان هؤلاء الكفار يقولون : إنّ ذلك كهانة فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد : إنّ ذلك وحي حق وتنزيل صدق من عندي . وفي ذلك فائدتان ، الأولى : إزالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفار ، لأنّ الله تعالى عظمه وصدّقه . الثانية : تقويته على تحمل مشاق التكليف ، فكأنه تعالى يقول له : إني ما نزلت القرآن عليك متفرّقاً إلا لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال .

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي : المحسن إليك . قال ابن عباس : اصبر على أذى المشركين ثم نسخ بآية القتال . وقيل : اصبر لما يحكم عليك به من الطاعات أو انتظر حكم الله إذ وعدك بالنصر عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة ﴿ ولا تطع منهم ﴾ أي : الكفرة الذين هم ضد الشاكرين ﴿ آثماً ﴾ أي : داعياً إلى إثم سواء كان مجرّداً عن مطلق الكفر أو مصاحباً له ﴿ أو كفوراً ﴾ أي : مبالغاً في الكفر وداعياً إليه وإن كان كبيراً وعظيماً في الدنيا ، فإنّ الحق أكبر من كل كبير . وقال قتادة : أراد بالآثم والكفور أبا جهل ، وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم نهاه أبو جهل عنها وقال : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأنّ على عنقه .

وقال مقاتل : أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور الوليد بن المغيرة ، وكانا أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوّة عرض عليه عتبة ابنته وكانت من أجمل النساء ، وعرض عليه الوليد أن يعطيه من الأموال حتى يرضى ويترك ما هو عليه ، فقرأ عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات من أوّل حم السجدة إلى قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ (فصلت :)

فانصرفا عنه . وقال أحدهما : ظننت أنّ الكعبة ستقع عليّ .

فإن قيل : كانوا كلهم كفرة فما معنى القسمة في قوله : ﴿ آثماً أو كفوراً ﴾ أجيب : بأنّ معناه : ولا تطع منهم راكباً لما هو إثم داعياً لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه ؛ لأنهم إمّا أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر أو غير إثم ولا كفر ، فنهي أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث .

ثم قال فإن قيل : معنى أو : ولا تطع أحدهما فهلا جيء بالواو ليكون نهياً عن إطاعتهما جميعاً ؟

أجيب : بأنه لو قال : ولا تطعهما لجاز أن يطيع أحدهما وإذا قيل : ولا تطع أحدهما علم أنّ الناهي عن طاعة أحدهما أنهى عن طاعتهما جميعاً كما إذا نهى أن يقول لأبويه : أف علم أنه نهى عن ضربهما بطريق الأولى .

فإن قيل : إنه صلى الله عليه وسلم ما كان يطيع أحداً منهم فما فائدة هذا النهي ؟

أجيب : بأنّ المقصود بيان أنّ الناس محتاجون إلى التنبيه والإرشاد لأجل ما تركب فيهم من الشهوة الداعية إلى النساء وأنّ الواحد لو استغنى عن توفيق الله تعالى وإرشاده لكان أحق الناس به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم المعصوم دائماً أبداً ، ومتى ظهر لك ذلك عرفت أنّ كل مسلم لا بدّ له من الرغبة إلى الله تعالى والتضرّع إليه أن يصونه عن الشهوات .

﴿ واذكر ﴾ أي : في الصلاة ﴿ اسم ربك ﴾ أي : المحسن إليك بكل جميل ﴿ بكرة ﴾ أي : الفجر ﴿ وأصيلاً ﴾ أي : الظهر والعصر .

(309/795)

﴿ ومن الليل ﴾ أي : بعضه والباقي للراحة بالنوم ﴿ فاسجد له ﴾ أي : المغرب والعشاء ﴿ وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ أي : صل التطوّع فيه كما تقدّم من ثلثيه أو نصفه أو ثلثه أو اذكره بلسانك بكرة عند قيامك من منامك الذي هو الموتة الصغرى وتذكرك أنه يحيي الموتى ويحشرهم جميعاً وأصيلاً أي : عند انقراض نهارك وتذكرك انقراض دنياك وطي هذا العالم لأجل يوم الفصل ، وفي ذكر الوقتين إشارة إلى دوام الذكر وذكر اسمه لازم لذكره والذي عليه أكثر المفسرين . الأوّل قال ابن عباس وسفيان : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة لأنّ الصلاة أفضل الأعمال البدنية لأنها أعظم الذكر لأنها ذكر اللسان والجنان والأركان فوظفت فيها أركان لسانية وحركات وسكنات على هيئات مخصوصة من عادتها أن لا تفعل إلا بين يدي الملوك .

ولما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والأمر والنهي عدل سبحانه إلى شرح أحوال الكفار والمتمردّين فقال تعالى : ﴿ إنّ هؤلاء ﴾ أي : الذين يغفلون عن الله من

الكفار والمتمردّين ﴿ يحبون ﴾ أي : محبة تجدّد عندهم زيادتها في كل وقت ﴿ العاجلة ﴾ لقصور نظرهم وجمودهم على المحسوسات التي الإقبال عليها منشأ البلادة والقصور ومعدن الأمراض للقلوب التي في الصدور ، ومن تعاطى أسباب الأمراض مرض وسمي كفوراً ، ومن تعاطى ضدّ ذلك شفي وسمي شاكراً .

﴿ ويذرون ﴾ أي : ويتركون ﴿ وراءهم ﴾ أي : قدّامهم على وجه الإحاطة بهم وهم عنه معرضون كما يعرض الإنسان عما وراءه أو خلف ظهورهم لا يعبؤون به وقوله تعالى : ﴿ يوماً ﴾ مفعول يذرون لا ظرف وقوله تعالى : ﴿ ثقيلاً ﴾ وصف له استعير له الثقل لشدّته وهو له من الشيء الثقيل الباهظ لحامله ونحوه ثقلت في السموات والأرض .

(310/795)

﴿ نحن خلقناهم ﴾ أي : بما لنا من العظمة لا غيرنا ﴿ وشددنا ﴾ أي : قوّينا ﴿ أسرهم ﴾ أي : توصيل عظامهم بعضها ببعض وتوثيق عظامهم بالأعصاب بعد أن كانوا نطفاً أمشاجاً في غاية الضعف . وأصل الأسر الربط والتوثيق ، ومنه أسر الرجل إذا وثق بالقدّ وهو الإسار ، وفرس مأسور الخلق ﴿ وإذا شئنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة أن نبدّل ما نشاء من صفاتهم أو ذواتهم ﴿ بدّلنا أمثالهم ﴾ أي : جئنا بأمثالهم بدلاً منهم إمّا

بأن نهلكهم ونأتي ببدلهم ممن يطيع ، وإمّا بتغيير صفاتهم كما شوهد في بعض الأوقات من المسخ وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ تبديلاً ﴾ تأكيد . قال الجلال المحلي : ووقعت إذا موقع إن ، نحو ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ (النساء :)

لأنه تعالى لم يشأ ذلك وإذاً لما يقع . وفي ذلك رد لقول الزمخشري : وحقه أن يجيء بإن لا بإذا كقوله : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ (محمد :)

﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ (النساء :)

﴿ إن هذه ﴾ أي : السورة أو الآيات القريبة ﴿ تذكرة ﴾ أي : عظة للخلق فإنّ في تصفحها تنبيهات للغافلين ، وفي تدبرها وتذكرها فوائد جمة للطالبين السالكين ممن ألقى سمعه وأحضر قلبه وكانت نفسه مقبلة على ما ألقى إليه سمعه ﴿ فمن شاء ﴾ أي : بأن اجتهد في وصوله إلى ربه ﴿ اتخذ ﴾ أي : أخذ بجهده في مجاهدة نفسه ومغالبة هواه ﴿ إلى ربه ﴾ أي : المحسن إليه الذي ينبغي له أن يحبه بجميع جوارحه وقلبه ويجتهد في القرب منه ﴿ سبيلاً ﴾ أي : طريقاً واضحاً سهلاً واسعاً بأفعال الطاعة التي أمر بها لأنا بينا الأمور غاية البيان وكشفنا اللبس وأزلنا جميع موانع الفهم ، فلم يبق مانع من استطراق الطريق غير مشيئتنا .

﴿ وما تشاؤون ﴾ أي : في وقت من الأوقات شيئاً من الأشياء . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب . وإذا وقف حمزة سهل الهمزة مع المدّ والقصر ، وله أيضاً إبدالها واواً مع المدّ والقصر ﴿ إلا ﴾ وقت ﴿ أن يشاء الله ﴾ أي : الملك الأعلى الذي له الأمر كله والملك كله على حسب ما يريد ويقدر وقد صح بهذا ما قال الأشعري وسائر أهل السنة من أن للعبد مشيئة تسمى كسباً لا تؤثر إلا بمشيئة الله تعالى ، وانتفى مذهب القدرية الذين يقولون : إنا نخلق أفعالنا ، ومذهب الجبرية القائلين : لا فعل لنا أصلاً ، ومثل الملوي ذلك بمن يريد قطع بطيخة فحدّد سكينة وهيأها وأوجد فيها أسباب القطع وأزال عنها موانعه ، ثم وضعها على البطيخة فهي لا تقطع دون أن يتحامل عليها التحامل المعروف لذلك ، ولو وضع عليها ما لا يصلح للقطع كحطبة مثلاً لم تقطع ولو تحامل ، فالعبد كالسكين خلقه الله تعالى وهيأه بما أعطاه من القدرة للفعل ، فمن قال : أنا أخلق فعلي مستقلاً به فهو كمن قال : السكين تقطع بمجرّد وضعها من غير تحامل ، ومن قال : الفاعل هو الله من غير نظر إلى العبد أصلاً كان كمن قال : هو يقطع البطيخة بتحامل يده أو قصبة ملساء من غير سكين ، والذي يقول : إنه باشر بقدرته المهيأة لفعل يخلقه الله تعالى لها في ذلك الفعل ، كمن قال : إنّ السكين قطعت

بالتحامل عليها بهذا أجرى الله سبحانه وتعالى عادته في الناس ولو شاء غير ذلك فعل ، ولا يخفى أنّ هذا هو الحق الذي لا مرية فيه .

(312/795)

ثم علل ذلك بإحاطته بمشيئتهم بقوله تعالى ﴿ إنّ الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ كان ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ عليماً ﴾ أي : بما يستأهل كل أحد ﴿ حكيماً ﴾ أي : بالغ الحكمة فهو يمنع منعاً محكماً من أن يشاء غيره ما لم يأذن فيه فمن علم في جبلته خيراً أعانه عليه ، ومن علم منه الشرّ ساقه إليه وحمله عليه وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يدخل من يشاء ﴾ أي : ممن علمه من أهل السعادة ﴿ في رحمته ﴾ أي : جنته وهم المؤمنون . وقوله تعالى ﴿ والظالمين ﴾ أي : الكافرين منصوب بفعل يفسره قوله تعالى : ﴿ أعدّ لهم ﴾ مثل أوعد وكافأ ليطابق الجمل المعطوف عليها ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي : مؤلماً فهم فيه خالدون أبد الآبدين .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : إنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريراً" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 197.219 ﴾

وقال القاسمي :

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾

أي : في ذلك الحين ، بل كان شيئاً منسيّاً ، نطفته في الأصلاب . والاستفهام للتقرير .

قال الشهاب : أي : الحمل على الإقرار بما دخلت عليه ، والمقرر به من ينكر البعث . وقد علم أنهم يقولون : نعم ، قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه ، فيقال لهم : فالذي أوجدهم بعد أن لم يكونوا ، كيف يمتنع عليه إحيائهم بعد موتهم ؟ والمراد بالْإِنْسَانْ جنس بني آدم .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي : ذات أخلاط ، وهي موادها المؤلفة منها . جمع مشَج أو مشيج ، كسبب وأسباب ، ونصير وأنصار . أو مفرد ، كبرمة أعشار ، البرمة : القدر . وأعشار أي : منكرة كأنها صارة عشر قطع . انتهى ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي : نختبره . والجملة في موضع الحال أي : خلقناه مبتلين له ، أي : مريدين ابتلاءهُ ، لا عبثاً وسدى ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ أي : لننظر هل صرف سمعه وبصره إلى استماع

آيات الله والنظر فيها . ولما كان تمام المنّة بهما بهبة العقل ، وأشار إليه بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أي : سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك ، أي : عرّفناه وبيّنا له ذلك ، بأدلة العقل والسمع ﴿ إِمَّا شَاكِراً ﴾ أي : بالاهتداء والأخذ فيه ﴿ وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ أي : بالإعراض عنه . ونصبهما بـ : يكون مقدرة ، أي : ليكون إما شاكراً وإما كفوراً ، أي : ليتميز شكره من كفره ، وطاعته من معصيته ، كقوله :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] .

(314/795)

قال الرازي : قال القفال : ومجاز هذه الكلمة على هذا التأويل قول القائل : قد نصحت لك ، إن شئت فاقبل ، وإن شئت فاترك ، أي : فإن شئت فتحذف الفاء . فكذا المعنى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ فإما شاكراً وإما كفوراً ، فتحذف الفاء . وقد يحتمل أن يكون ذلك على جهة الوعيد . أي : إنا هديناه السبيل فإن شاء فليكفر ، وإن شاء فليشكر ؛ فإنا أعتدنا للكافرين كذا وللشاكرين كذا . كقوله :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] . انتهى

.

لطيفة :

قال في " النهر " : لما كان الشكر قلّ من يتصف به قال : ﴿ شَاكِراً ﴾ ولما كان الكفر كثيراً من يتصف به ويكثر وقوعه من الْإِنْسَانْ بخلاف الشكر قال :

﴿ كَفُوراً ﴾ بصيغة المبالغة . انتهى .

وهذا ألطف من القول بمراعاة رؤوس الآي .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا ﴾ أي : ليقادوا بها ويستوثق بها منهم شداً في الجحيم ﴿ وَأَغْلَالاً ﴾ أي : لتشد فيها أيديهم إلى أعناقهم ﴿ وَسَعِيراً ﴾ أي : ناراً تسعر عليهم فتتوقد .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أي : الذين برّوا بطاعتهم ربهم في أداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ أي : خمر ، أطلقت عليها للمجاورة ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا ﴾ أي : ما تمزج به ﴿ كَافُوراً ﴾ قال ابن جرير : يعني في طيب رائحتها كالكافور . ولما كان الكافور من أطيابهم كان كناية عما يطيب به مما له عرف ذكي .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ أي : يثيرونها من منابعها في روض الجنة ، وإثارة مبهجة ، تفنناً في النعيم . و ﴿ عَيْناً ﴾ منصوب بنحو يؤتون ، والباء في ﴿ بِهَا ﴾ بمعنى من . وقوله تعالى :

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم ، مشتمل على نوع تفصيل لما ينبئ عنه اسم الأبرار إجمالاً ، كأنه قيل : ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقيل : يوفون بما أوجبوه على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم ؟

﴿ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ ﴾ أي : عذابه ﴿ مُسْتَطِيراً ﴾ منتشراً ظاهراً للغاية .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أي : مع حب الطعام ، كقوله :

﴿ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] ، أو على حب الله تعالى ، لما سيأتي من قوله :

﴿ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ [الإِنْسَانْ : 9] ، ﴿ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ أي : مأسوراً من حرب أو مصلحة . وإنما اقتصر على الثلاثة لأنهم من أهم من تجدر الصدقة عليهم ؛ فإن المسكين عاجز عن الاكتساب لما يكفيه . واليتيم مات من يعوله ويكتسب له ، مع نهاية عجزه بصغره ، والأسير لا يملك لنفسه نصراً ولا حيلةً .

قال في " الإكليل " : والآية تدل على أن إطعام المشرك ما يتقرب به إلى الله تعالى ، أي : لقوله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أي : قائلين ذلك بلسان الحال أو المقال ، وإزاحة لتوهم المنّ المبطل للصدقة ، وتوقع المكافأة ، أي : لا نقصد بإطعامكم إلا ثوابه تعالى والقربة إليه

والزلفى عنده . وإطلاق الوجه على الذات مجاز مشهور ﴿ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء ﴾ أي : مكافأة ﴿ وَلَا شُكُوراً ﴾ أي : ثناءً ومديحاً .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً ﴾ أي : عذاب يوم ﴿ عَبُوساً ﴾ أي : شديداً مظلماً . أو تعبس فيه الوجوه من شدة مكارهه وطول بلائه ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ أي : شديد العبوسة والكرب . وخوفهم من اليوم كناية عن عمل ما يؤمنهم فزعه وهوله ، من الصالحات .

(316/795)

﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ أي : بسبب ما ذكر من خوفهم منه ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً ﴾ أي : في الوجوه ﴿ وَسُرُوراً ﴾ أي : في القلوب .

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : على طاعة الله واجتناب محارمه والدعوة لسبيله واحتمال الأذى ﴿ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ أي : يلبسونه ويتزينون به .

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ أي : السُّرر ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾ أي : لا حراً ولا برداً ، من باب ذكر الملزوم وإرادة اللازم .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أي : ظلال أشجارها ، أي : قريبة منهم ، مظلة عليهم ، زيادة في نعيمهم ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ أي : سهّلت ثمارها لمتناوليها . فلا يردّ أيديهم عنها

بُعْدٌ ولا شوك .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب ، وهو كوز لا أذن له :

﴿ كانت قواريرا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ قال أبو البقاء : حسن التكرير لما اتصل به من بيان أصلهما ، ولولا التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية ، لشدة اتصال الصفة بالموصوف

﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ أي : في أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم . فجاءت كما قدّروا ، أو قدرها لهم السقاة على قدر ريّهم لا يزيد ولا ينقص . وهو ألذّ للشارب ، لكونه على مقدار حاجته ، لا يفضل عنها ولا يعجز .

قال أبو حيان : أقرب من هذا ما نحاه أبو حاتم ، وهو أن أصله قدر ريهم منها تقديراً والري العطش ، فحذف المضاف وحرف الجر وأوصل الفعل له بنفسه .

قال الشهاب : وفي كونه أقرب ، نظر ، فإنه أكثر تكلفاً ، ولكن كل حزب بما لديهم فرحون .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ أي : ما يشبهه في الطعم . وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به .

(317/795)

﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ وهي شديدة الجرية المنسابة بنوع خاص بهيج .

ونصب ﴿ عَيْناً ﴾ بنحو : يؤتون ، أو ينظرون .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي : لا يموتون . أو دائم شبابهم لا يتغيرون عن تلك السن . أو مسوّرون . أو مقرّطون .

﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ أي : لحسنهم وكثرتهم في منازلهم ، وانبثاثهم في منازه أماكنهم .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي : نظرت في الجنة ، ورميت بطرفك ما أوتي الأبرار ﴿ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ أي : واسعاً لا ينفذه البصر .

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ وهو ما رقّ من الحرير ﴿ خُضْرٌ ﴾ قرئ بالرفع لـ ﴿ ثِيَابُ ﴾ وبالجر لـ ﴿ سُندُسٍ ﴾ ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج . وفيه القراءتان ، رفعاً وجرّاً ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ أي : ليس برجس كخمر الدنيا . أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة ، وتدوسه الأقدام الدنسة ، ولم يجعل في الدنان التي لم يُعْنَ بتنظيفها . والآية مما يستروح بها في نجاسة الخمر ، لما فيها من التعريض بها .

﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [22]

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : ما عدّ من ثوابهم ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَاء ﴾ أي : على ما قدمتم من

الصالحات ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ أي : مجازىً عليه غير مضيَّع .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً ﴾ أي : عظيماً لا يقدر قدره ، أي : فأمره الحق ووعده الصدق . والقصد تثبيت قلبه صلوات الله عليه ، وشرح صدره وتحقيق أن المنزل وحي ، وعدم المبالاة برميهم له بالسحر والكهانة .

(318/795)

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي : من الصدع به ، والتبليغ لآيه ، والعمل بأوامره ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ أي : ولا تطع في معصيته تعالى من مشركي مكة ، من ركب الإثم وجاهر بالكفر ، ممن يريدك عن الرجوع عن دعوتك ، بما شئت من مال أو مطلب ، و ﴿ أَوْ ﴾ إما على بابها . أي : لا تطع من كان فيه أحد هذين الوصفين ، فالنهي عمن اجتمعا فيه يعلم بالطريق الأولى . وإما بمعنى الواو .

قال الفرّاء :

﴿ أَوْ ﴾ هاهنا بمنزلة الواو . وفي الجحد والاستفهام والجزاء يكون بمعنى لا ، فهذا من ذلك مع الجحد . انتهى .

وإما بمعنى بل إضراب إلى وصف هو به أخلق وأجدر . وإما للتخيير في التسمية أي : من

شئتَ بالآثم أو الكفور ، لتحقق مفهومهما فيه .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ أي : بدعائه وتسبيحه والصلاة له ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ ﴾

أي : بالتهجد فيه ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ أي : مقداراً طويلاً ، نصفه أو زيادة عليه .

وفي هذه الأوامر ، مع الأمر في أول المزمّل وأمثالها ما يدل على العناية بقيام الليل والحرص عليه .

ويأتي البحث المتقدم هنا أيضاً في أن الأمر خاص به صلوات الله عليه بناءً على أنه للوجوب ، أو يشمل غيره تبعاً وهو للقدر المشترك ، قولان معروفان في نظيره . والقصد حثه صلى الله عليه وسلم أن يستعين في دعوة قومه والصدع بما أمر به ، بالصبر على أذاهم والصلاة والتسبيح وقد كثر ذلك في مواضع من التنزيل كقوله :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة : 45] ، وقوله :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق : 39 - 40] ، وأمثالهما .

(319/795)

﴿ إِنَّ هَؤُلَاء ﴾ أي : المشركين ﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ أي : اللذات العاجلة ، فيسعون لها جهدهم ، وإن أهلكوا الحرث والنسل ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ أي : شديداً ، لثقل حسابه وشدته وعسره .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أي : خلقهم وأعضاء بناهم .

قال الشهاب : الأسر ، معناه لغة الشد ليقوى ، ويطلق أيضاً على ما يشد ويربط به ؛ ولذا سمي الأسير أسيراً بمعنى مربوطاً ، فشبهت الأعصاب بالحبال المربوط به ، ليقوى البدن بها أو لإمساكها للأعضاء ؛ ولذا سموها رباطات أيضاً .

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ أي : بإهلاكهم والإتيان بآخرين . وهذا محط الترهيب ، وما قبله كالتعليل له .

﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : السورة ، أو الآيات القريبة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي : عظة لمن اعتبر واتعظ ﴿ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي : بالطاعة الموصلة لقربه ، وإيصال السبيل للمقاصد ، فهو تمثيل .

﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ ﴾ قال ابن جرير : أي : وما تشاؤون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله ذلك لكم ، لأن الأمر إليه لا إليكم ، أي : لأن ما لم يشأ الله وقوعه من العبد ، لا يقع من العبد ، وما شاء منه وقوعه ، وقع . وهو رديف : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، هذا تأويل السلف . وقالت المعتزلة : أي : وما تشاؤون الطاعة إلا أن يشاء

الله بقسرهم عليها . والمسالة مبسوطة في الكلام . وقد لخصناها في " شرح لقطة العجلان " فارجع إليه .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً ﴾ أي : بأحوالهم وما يكون منهم ﴿ حَكِيماً ﴾ أي : في تدبيره وصنعه وأمره .

(320/795)

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ ﴾ قال أبو السعود : بيان لإحكام مشيئته المترتبة على علمه وحكمته ، أي : يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتخاذ السبيل إليه تعالى ، حيث يوفّقه لما يؤدي إلى دخول الجنة من الإيمان والطاعة .

﴿ وَالظَّالِمِينَ ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خلاف ما ذكر ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ يعني عذاب النار . وقاناه الله بمنه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 289.297 ﴾

(321/795)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الإنسان

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1) ﴾

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير ; ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه: ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ? ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ? ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئا من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة , وسلطت عليه النور , وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ? إنها إيحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام . وهي إيحاءات رفيقة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى:

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان . . كيف تراه كان ? . . والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته , حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى "الإنسان" . . حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني . وتضرب في

تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن يعلمها إلا الله ; والتي أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة , المقدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ; وتعده لدوره , وتعد له دوره , وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ; وتهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ; وتتابعه بعد ذلك في كل خطوة , ومعها الخيط الذي تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإيحاءات كثيرة وتأملات شتى , يطلقها هذا النص في الضمير . . ينتهي منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير , في المنشأ وفي الرحلة وفي المصير .

(322/795)

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى:

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . .

والأمشاج: الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة , والتي

يمثلها ما يسمونه علميا "الجينات" وهي

من الاية 3 الى الاية 6

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (6)

وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان , لا جنين أي حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة . . ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج , لا عبثا ولا جزافا ولا تسلية , ولكنه خلق ليبتلي ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود , وأن تترتب عليه آثاره المقدرة في كيان الوجود , وأن تتبعه آثاره المقدرة . ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا . أي زوده بوسائل الإدراك , ليستطيع التلقي والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار . .

وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدرها , وهي خلقته من نطفة أمشاج . . كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة . . كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقي والاستجابة , والمعرفة والاختبار . . وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة . . بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة , بالقدرة على اختيار الطريق , وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره , أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله:

(إنا هديناه السبيل: إما شاكرا وإما كفورا) . .

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي , بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا , فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار . . الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور . . بهذه الصيغة الموغلة في الدلالة على الكفران .

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وانه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها . وأنه هنا ليبتلى ويجتاز

الابتلاء . فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض , لا في فترة لعب ولهو وإهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيقة العميقة , كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار في تصور هذه الحياة , وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرته إلى غاية وجوده , ومن شعوره بحقيقة وجوده , ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

الدرس الثاني: 4 – 22 من صفات الأبرار وصور من نعيم الجنة لهم

ومن ثم يأخذ في عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء , واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران .

(324/795)

فأما ما ينتظر الكافرين , فيجمله إجمالا , لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغري بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه في إجمال:

(إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) . .

سلاسل للأقدام , وأغلالا للأيدي , ونارا تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين !

ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم:

من الاية 7 الى الاية 10

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً (9) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)

(إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) . .

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور , يشربونه في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا , في كثرة ووفرة . . وقد كان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حينا وبالزنجبيل حينا زيادة في التلذذ بها , فهاهم أولاء يعلمون أن في الجنة شرابا طهورا ممزوجا بالكافور , على وفر وسعة . فأما مستوى هذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا , وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى , ونحن لا نملك في هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعا للذة المتاع هناك . فهي أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم في الآية الأولى (الأبرار) ويسميهم في الآية الثانية (عباد الله) . . إيناسا وتكريما وإعلانا للفضل تارة , وللقرب من الله تارة , في معرض النعيم والتكريم .

ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع:

(يوفون بالنذر , ويخافون يوما كان شره مستطيرا , ويطعمون الطعام – على حبه – مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) . .

وهي صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة , مع رحمة ندية بعباده الضعاف , وإيثار على النفس , وتحرج وخشية لله , ورغبة في رضاه , وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل .

(يوفون بالنذر) فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات , وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جدا خالصا لا يحاولون التفلت من تبعاته , ولا التفصي من أعبائه , ولا التخلي عنه بعد اعتزامه . وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر . فهو أعم من المعنى العرفي المتبادر من كلمة (النذر) .

(ويخافون يوما كان شره مستطيرا) . . فهم يدركون صفة هذا اليوم , الذي يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن ينالهم شيء من شره . وهذه سمة الأتقياء , الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف , الخائفين من التقصير

والقصور , مهما قدموا من القرب والطاعات .

(ويطعمون الطعام – على حبه – مسكينا ويتيما وأسيرا) . .

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا في إطعام الطعام , مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها : إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم . إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام , ولكنها تؤثر به المحاويج . وهذه اللفتة تشي بقسوة البيئة في مكة بين المشركين ; وأنها كانت لا تفضي بشيء للمحاويج الضعاف ; وإن كانت تبذل في مجالات المفاخرة الشيء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس , ورحمة قلب , وخلوص نية . واتجاه إلى الله بالعمل , يحكيه السياق من حالهم , ومن منطوق قلوبهم .

(326/795)

(إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) . .

فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة , تتجه إلى الله تطلب رضاه . ولا تبتغي بها

جزاء من الخلق ولا شكرا , ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقي بها يوما عبوسا شديد العبوس , تتوقعه

من الاية 11 الى الاية 18

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (17) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18)

وتخشاه , وتتقيه بهذا الوقاء . وقد دلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليه وهو يقول: " اتق النار ولو بشق تمرة " . .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة , ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف , فلا تظل في هذه الصورة البدائية المباشرة . إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب , وحيوية العاطفة , والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله , والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة !

ولقد تنظم الضرائب , وتفرض التكاليف , وتخصص للضمان الاجتماعي , ولإسعاف المحاويج , ولكن هذا إنما يفي بشطر واحد من مزايا الاتجاه الإسلامي الذي ترمز إليه تلك الآيات , والذي توخاه بفريضة الزكاة . . هذا الشطر هو كفاية حاجة المحتاجين . . هذا شطر . . والشطر الآخر هو تهذيب أرواح الباذلين , ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شطر لا يجوز إغفاله ولا التهوين من شأنه فضلا على أن تنقلب المعايير فيوصم ويقبح ويشوه , ويقال: إنه إذلال للآخذين وإفساد للواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب , ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتفي بشطري التربية التي يقصد إليها هذا الدين .

ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم .

(فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) . .

يعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه , ليطمئنهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسرورا , لا يوما عبوسا قمطريرا . جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم , وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضي بعد ذلك في وصف مناعم الجنة التي وجدوها :

(وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) . . جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه .

(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) . . فهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حر , ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم , ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول: إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها . . وكفى !

(ودانية عليهم ظلالها . وذللت قطوفها تذليلا) . . وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !

(328/795)

فهذه هي الهيئة العامة لهذه الجنة التي جزى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة في الدنيا . . ثم تأتي تفصيلات المناعم والخدمات . . ويطاف عليهم بآنية من فضة , وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا . .

فهم في متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق . . يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة , وفي أكواب من فضة كذلك , ولكنها شفة كالقوارير , مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدرة تقديرا يحقق المتاع والجمال . ثم

هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور .

من الاية 19 الى الاية 22

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً (22)

وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا , لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين !

وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه , لا يفعل فيهم الزمن , ولا تدركهم السن ; فهم مخلدون في سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور :

(ويطوف عليهم ولدان مخلدون , إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) . .

ثم يجمل السياق خطوط المنظر , ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر :

(وإذا رأيت – ثم – رأيت نعيما وملكا كبيرا) . .

نعيما وملكا كبيرا . هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء , على وجه الإجمال والعموم ! ثم يخصص مظهرا من مظاهر النعيم والملك الكبير ; كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير:

(عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا) . .

والسندس الحرير الرقيق , والإستبرق الحرير السميك المبطن . . وهم في هذه الزينة وهذا المتاع , يتلقونه كله من (ربهم) فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم:

(إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) . .

يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها , ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها . .

وهكذا ينتهي ذلك العرض المفصل والهتاف الموحي للقلوب , الهتاف إلى ذلك النعيم الطيب والفرار من السلاسل والأغلال والسعير . . وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !

الدرس الثالث: 23 – 26 إنزال القرآن وتوجيه الدعاة إلى زادهم وهو الإتصال بالله

وبعد انتهاء هذا الهتاف إلى الجنة ونعيمها الهنيء الرغيد , يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب , الذين لا يدركون حقيقة الدعوة , فيساومون عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعله يكف عنها , أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبي (صلى الله عليه وسلم) وفتنة المؤمنين به وإيذائهم , والصد عن سبيل الله , والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . . بين هذا كله يجيء المقطع الأخير في السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم:

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) . .

(330/795)

وفي هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا , وأن يتعمقوها تعمقا كاملا , وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا . فإن عقيدة

الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابسات التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضة العنيدة , التي شهدت بها الروايات التاريخية , وحكاها القرآن في مواضع منه شتى . . كانت المكانة الاجتماعية , والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة , وما يتلبس

من الاية 23 الى الاية 23

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (23)

بها كذلك من مصالح مادية . . هي العنصر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان , في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة . . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبي على العقيدة الجديدة , وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة , لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ; ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

(331/795)

وهذه الأسباب – سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح , وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحياة التقليدية , وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية – كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى , وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل . وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العقيدة , التي تجعلها معركة عنيدة لا تنتهي من قريب ; وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف .

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات , وملابسات نزولها على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله , في أي أرض وفي أي زمان !

لقد تلقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التكليف من ربه لينذر , وقيل له: (يا أيها المدثر . قم فأنذر) . . فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة , وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه – على شعورهم بوهنه وهلهلته – وتقودهم إلى العناد الشديد , ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم . ومألوف حياتهم , ولذائذهم وشهواتهم . . إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صورا شتى , في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة , ومحاولة فتنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها (صلى الله عليه وسلم) بشتى التهم والأساليب . كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد . فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

(332/795)

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة (صلى الله عليه وسلم) طرقا شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ; ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ; ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الإختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل !

والنبي (صلى الله عليه وسلم) ولو أنه رسول , حفظه الله من الفتنة , وعصمه من الناس .

. إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا , فلا يدعه وحده , ولا يدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه:

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) .

من الاية 24 الى الاية 26

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26)

وهي اللفتة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة , وينبوع حقيقتها . . إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر , ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا الينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه , ولا يستمد منه , ولا يستعار لهذه العقيده منه شيء , ولا يخلط بها منه شيء . . ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي إليها , وهو كلفه , وهو نزل القرآن عليه .

(333/795)

ولكن الباطل يتبجح , والشر ينتفش , والأذى يصيب المؤمنين , والفتنة ترصد لهم ; والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه , فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة , وقسمة البلد بلدين , والإلتقاء في منتصف الطريق . . وهو عرض يصعب رده ورفضه في مثل تلك الظروف العصيبة !

هنا تجيء اللفتة الثانية:

(فاصبر لحكم ربك , ولا تطع منهم آثما أو كفورا) . .

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهل الباطل , ويملي للشر , ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص . . كل أولئك لحكمة يعلمها , يجري بها قدره , وينفذ بها حكمه . . (فاصبر لحكم ربك) . . حتى يجيء موعده المرسوم . . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب , والشر يتنفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء في منتصف الطريق على حساب العقيدة: (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) . . فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك ما يظنونه يرضيك ويغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان , وباسم شهوة المال , وباسم

شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء , حتى يكون أغنى من أغناهم , كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات , حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له: " ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي , فإني من أجمل قريش بنات ! " . . كل الشهوات التي يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل !

(334/795)

(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا) . . فإنه لا لقاء بينك وبينهم ; ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منهجك عن منهجهم , وتصورك للوجود كله عن تصورهم , وحقك عن باطلهم , وإيمانك عن كفرهم , ونورك عن ظلماتهم , ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد , واشتدت الفتنة وقوي الإغراء , وامتد الطريق . .

ولكن الصبر شاق , ولا بد من الزاد والمدد المعين:

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) .

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء , واسجد له بالليل وسبحه طويلا . .

إنه الاتصال بالمصدر الذي نزل عليك القرآن , وكلفك الدعوة , هو ينبوع القوة ومصدر الزاد

والمدد . . الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتسبيحا . . ليلا طويلا . . فالطريق طويل , والعبء ثقيل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك , حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء , وفي تطلع وفي أنس , تفيض منه الراحة على التعب والضنى , وتفيض منه القوة على الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل , وترى

من الاية 27 الى الاية 27

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)

عظمة التكليف , وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من أشواك الطريق !

(335/795)

إن الله رحيم , كلف عبده الدعوة , ونزل عليه القرآن , وعرف متاعب العبء , وأشواك الطريق . فلم يدع نبيه (صلى الله عليه وسلم) بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذي يعلم – سبحانه – أنه هو الزاد الحقيقي الصالح لهذه الرحلة المضنية في ذلك الطريق الشائك . . وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . فهي دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد , وأسباب هذا الموقف واحدة .

ووسائل الباطل هي ذاتها وسائله . فلتكن وسائل الحق هي الوسائل التي علم الله أنها وسائل هذا الطريق .

والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى (صلى الله عليه وسلم) هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله . فهو صاحبها . وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم , أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان , وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم , لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتي الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح – ليلا طويلا – هي الزاد المضمون لهذا الطريق . .

. . إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق . .

الدرس الرابع: 27 غفلة الكفار عن الآخرة ومحبتهم للعاجلة

ثم يمضي السياق في توكيد الافتراق بين منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم , ومن تفاهة اهتماماتهم , وصغر تصوراتهم . . يقول:

(إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) . .

إن هؤلاء , القريبي المطامح والاهتمامات , الصغار المطالب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون في العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . ثقيلا بتبعاته . ثقيلا بنتائجه . ثقيلا بوزنه في ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لا يطاعون في شيء ولا يتبعون في طريق ; ولا يلتقون مع المؤمنين في هدف ولا غاية , ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة , من ثراء وسلطان ومتاع , فإنما هي العاجلة , وإنما هو المتاع القليل , وإنما هم الصغار الزهيدون !

ثم توحي الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة , ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير , بعد الحساب العسير !

فهذه الآية استطراد في تثبيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين معه , في مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

الدرس الخامس: 28 ضعف الكفار أمام قدرة الله

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذي أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس , وهو قادر على

الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجري بها قدره القديم:

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم , وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) . .

وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم , بمصدر هذه القوة , بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا – وهم في حالة الضعف والقلة – إلى أن واهب القوة هو الذي ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما

من الاية 28 الى آخر السورة

(337/795)

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (30) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (31)

تقرر في نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة , هي التي تجري وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

(وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) . . فهم لا يعجزون الله بقوتهم , وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم في مكانهم . . فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو

فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته . .

ومن هنا تكون الآية استطرادا في تثبيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه ; وتقريرا لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين . . كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة , المغترين بقوة أسرهم , ليذكروا نعمة الله , التي يتبطرون بها فلا يشكرونها ; وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذي قرره لهم في مطلع السورة

.

الدرس السادس: 29 - 31 الهداية والتذكرة بيد الله يهبهما لمن يطلبهما

ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم , والقرآن يعرض عليهم , وهذه السورة منه تذكرهم:

(إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) . .

ويعقب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة , ورد كل شيء إليها , ليكون الاتجاه الأخير إليها , والاستسلام الأخير لحكمها ; وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها , ومن حوله إلى حولها . .

وهو الإسلام في صميمه وحقيقته:

وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما . .

ذلك كي تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار , المتصرف القهار , فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ; والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق مشيئة الله , العليم بحقيقة القلوب , وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة , وبيان الطريق , وإرسال الرسل , وتنزيل القرآن . . . إلا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله , الذي يلجأ إليه الملتجئ , فيوفقه إلى الذكر والطاعة , فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة , ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره , فلا هدى ولا ذكر , ولا توفيق إلى خير . .

.

ومن ثم فهو:

(يدخل من يشاء في رحمته , والظالمين أعد لهم عذابا أليما) . .

فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل في رحمته من يشاء , ممن يلتجئون إليه , يطلبون عونه على الطاعة , وتوفيقه إلى الهدى . . (والظالمين أعد لهم عذابا أليما) . وقد أملى لهم وأمهلهم لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتئم مع المطلع , ويصور نهاية الابتلاء , الذي خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج , ووهبه السمع والأبصار , وهداه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار . . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3779 . 3787 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) ﴾

اتفق المفسرون على أن هل هنا بمعنى (قد) أي أن الاستفهام تقريري يستوجب الإجابة عليه بنعم .

ولفظ الإنسان في ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ ، وقيل هو الإنسان الأول آدم عليه السلام ، آتى عليه حين من الدهر ، لم يكن شيء يذكر .

وقيل : هو عموم الإنسان من بني آدم فيكون المعنى على الأول ، أن آدم عليه السلام أتى عليه حين من الدهر قيل : أربعون سنة .

ذكر عن ابن عباس : كان طيناً ثم صلصالاً حتى نفخ فيه الروح .

ويكون على الثاني أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر ، هو أربعون يوماً نطفة ، ثم أربعون يوماً علقة ، ثم أربعون يوماً مضغة ، وكل ذلك شيء ولكنه لم يكن مذكوراً ، أي ضعيفاً ، وكلاهما محتمل .

ولفظ الإنسان الثاني في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ اتفقوا على

أنه عام في بني آدم ، لأنه هو المعنى العام ليستقيم الأسلوب بدون مغايرة بين اللفظين إذ لا قرينة مميزة .

ولعل في السياق قرينة تدل على ما قاله ، وهي أن قوله تعالى : ﴿ نبتليه ﴾ قطعاً لبني آدم ، لأن آدم عليه السلام ، انتهى أمره بالسمع والطاعة ﴿ فتلقى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ﴾ [البقرة : 37] ولم يبق مجال لابتلائه ، إنما ذلك لبنيه . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ فيه بيان مبدء خلق الإنسان ، وله أطوار في وجوده بعد النطفة علقة ثم مضغة ثم خلقاً آخر ، وكل ذلك من لا شيء قبله .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 9] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند الآية الكريمة ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ .

(340/795)

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

الهداية هنا بمعنى البيان ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى

عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] .

والسبيل الطريق السوي ، وفيه بيان انقسام الإنسان إلى قسمين : شاكر معترف بنعمة الله تعالى عليه ، مقابل لها بالشكر أو كافر جاحد .

وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِراً ﴾ ، يشير إلى إنعام الله تعالى على العبد ، وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين :

الأولى : إيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها .

والثانية : الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة ، وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب ولا كسب للعبد فيها أيضاً :

وقد قال العلماء : هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها .

الأولى : وجوده بعد العدم .

الثانية : نعمة الإيمان .

الثالثة : دخول الجنة .

وقالوا : الإيجاد من العدم ، تفضل من الله تعالى كما قال : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : 49 – 50] ، ومن جعله الله عقيماً فلن

ينجب قط .

والثانية : الإنعام بالإيمان ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56] .

وقد جاء في الحديث : "كل مَولود يُولد على الفِطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه " الحديث .

وكون المولود يولد بين أبوين مسلمين ، لا كسب له في ذلك .

والثالث ، الإنعام بدخول الدجنة كما في الحديث : " لن يدخل أحدكم الجنة بعلمه " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته "

وقد ذكر تعالى نعمتين صراحة ، وهما خلق الإنسان بعد العدم ، وهدايته السبيل .

(341/795)

والثالث : تأتي ضمناً في ذكر النتيجة ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 5] لأن الأبرار هم الشاكرون بدليل التقسيم ﴿ شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 3 – 5] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ تقدم أنها هداية بيان .

وتقدم للشيخ رحمة اله تعالى علينا وعليه ، بيان الهداية العامة والخاصة . والجمع بينهما في أكثر من موضع ، وفي مستهل هذه السورة بيان لمبدأ الإنسان وموقفه من بعثة الرسل وهدايتهم ونتائج أعمالهم من شكر أو كفر .

وقد جاءت السنة بقراءة هذه السورة في الركعة الثانية من فجر يوم الجمعة ، مع قراءة سورة السجدة في الركعة الأولى .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن قراءتهما معاً في ذلك اليوم لمناسبة خلق آدم في يوم الجمعة ليتذكر الإنسان في هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة مبدأ خلق أبيه آدم ومبدأ خلق عموم الإنسان ويتذكر مصيره ومنتهاه ليرى ما هو عيله من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهل هو شاكر أو كفور اه .

ملخصاً .

ومضمون ذلك كله أنه رحمه الله يرى أن الحكمة في قراءة السورتين في فجر الجمعة ، أن يوم الجمعة هو يوم آدم عليه السلام فيه خلقه ، وفيه نفخ فيه الروح ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه ثيبت عليه ، وفيه تقوم الساعة .

كما قيل : يوم الجمعة يوم آدم ويوم الاثنين يوم محمد صلى الله عليه وسلم ، أي فيه ولد وفيه أنزل عليه ، وفيه وصل المدينة في الهجرة ، وفيه توفي .

ولما كان يوم الجمعة يوم إيجاد الإنسان الأول ويوم أحداثه كلها إيجاداً من العدم وإنعاماً عليه بسكنى الجنة وتواجده على الأرض ، وتلقى التوبة عليه من الله أي يوم الإنعام عليه حساً ومعنى ، فناسب أن يذكر الإمام بقراءته ثورة السجدة في فجر يوم الجمعة لما فيها من قصة خلق آدم في قوله : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ [السجدة : 7 – 9] .

وفيها قوله تعالى : ﴿ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] مما بث الخوف في قلوب العباد ، إذ لا يعلم من أي الفريقين هو ، فيجعله أشد حرصاً على فعل الخير ، وأشد خوفاً من الشر .

ثم حذر من نسيان يوم القيامة ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذآ ﴾ [السجدة : 14] .

وهكذا في الركعة الأولى ، يرجع المسلم إلى أصل وجوده ويستحضر قصة الإنسان الأول .

وكذلك يأتي في الركعة الثاني بقصته هو منذ بدأ خلقه ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ ويذكره بالهدى الذي أنزل عليه ويرغبه في شركانه عليه ويحذره من جحودها وكفرانها .

وقد بين له منتهاه على كلا الأمرين ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 4 – 5] .

فإذا قرع سمعه ذلك في يوم خلقه ويوم مبعثه حيث فيه تقوم الساعة فكأنه ينظر ويشاهد أول وجوده وآخر مآله فلا يكذب بالبعث . وقد علم مبدأ خلقه ولا يقصر في واجب ، وقد علم منتهاه ، وهذا في غاية الحكمة كما ترى .

(343/795)

ومما يشهد لما ذهب إليه رحمة الله ، اعتبار المناسبات كما في كثير من الأمور ، كما في قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : 185] فجميع الشهور من حيث الزمن سواء ، ولكن بمناسبة بدء نزول القرآن في هذا الشهر جعله الله محلاً للصوم ، وأكرم فيه الأمة كلها بل العالم كله ، فتتزين فيه الجنة وصفد فيه مردة الشياطين ، وتتضاعف فيه الأعمال .

وكذلك الليلة منه التي كان فيها البدء اختصها تعالى عن بقية ليالي الشهر ، وهي ليلة القدر جعلها الله تعالى خيراً من ألف شهر ، وما ذاك إلا لأنها كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] السورة بتمامها .

مسألة

لقد أكثر الناس القول في اعتبار المناسبات في الإسلام وعدم اعتبارها ، ووقع فيها الإفراط والتفريط ، وكما قيل :

كلا طرفي قصد الأمور ذميم . . . ومنطلقاً من كلام شيخ الإسلام رحمه الله تقدم هذه النبذة في هذه المسألة ، وهي أنه بالتأمل في الشرع وأحداث الإسلام عامة وخاصة .

أي في عموم الأمم وخصوص هذه الأمة ، نجد المناسبات قسمين مناسبة معتبرة عني بها الشرع لما فيها من عظة وذكرى تتجدد مع تجدد الأيام والأجيال ، وتعود على الفرد والجماعة بالتزود منها ، ومناسبة لم تعتبر ، إما لاقتصارها في ذاتها وعدم استطاعة الأفراد مسايرتها .

فمن الأول يوم الجمعة ، وتقدم طرف من خصائص هذا اليوم في سورة الجمعة ، وكلام شيخ الإسلام رحمه الله ، وقد عني بها الإسلام في الحث على القراءة المنوه عنها في صلاة الفجر ، وفي الحث على أدائها والحفاوة بها من اغتسال وطيب وتبكير إليها ، كما تقدم في سورة الجمعة .

(344/795)

ولكن من غير غلو ولا إفراط ، فقد جاء النهي عن صوم يومها وحده ، دون أن يسبق . بصوم قبله ، أو يلحق بصوم بعده كما نهى عن إفراد ليلتها بقيام ، والنصوص في ذلك متضافرة ثابة ، فكانت مناسبة معتبرة مع اعتدال وتوجه إلى الله أي بدون إفراط أو تفريط .

ومنها يوم الاثنين كما أسلفنا ، فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن صيامه يوم الاثنين فقال : " هذا يوم ولدت فيه وعلي فيه أنزل " ، وكان يوم وصوله المدينة في الهجرة وكان يوم وفاته صلى الله عليه وسلم ، فقد احتفى به صلى الله عليه وسلم للمسببات المذكورة ، وكلها أحداث عظام ومناسبات جليلة .

فيوم مولده صلى الله عليه وسلم وقعت مظاهر كونية ابتداء من واقعة أبرهة ، وإهلاك جيشه إرهاصاً بولده صلى الله عليه وسلم ، ثم ظهور نجم بني الختان ، وحدثت أمه وهي حامل به فيما قيل : إنها أتيت حين حملت به صلى الله عليه وسلم فقيل لها : " إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي :

أعيذه بالواحد . . . من شر كل حاسد

ثم سميه محمداً " ، وذكر ابن هشام أنها رأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأيت به قصور بصرى من أرض الشام .

وذكر ابن هشام . أن حسان بن ثابت وهو غلام سمع يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة

بيثرب : يا معشر يهود : حتى إذا اجتمعوا إليه ، قالوا : ويلك مالك ، قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به .

وساق ابن كثير في تاريخه ، والبيهقي في خصائص وابن هشام في سيرته أخباراً عديدة مما شهده العالم ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ، نوجز منها الآتي : عن عثمان بن أبي العاص أن أمه حضرت مولده صلى الله عليه وسلم قالت :

فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور ، وإني أنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول : ليقعن علي .

(345/795)

وعن أبي الحكم التنوخي : قال : كان المولد إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة إلى الصبح يكفأن عليه برمة ، فأكفأن عليه صلى الله عليه وسلم برمة ، فانفلقت عنه ، ووجد مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء .

وقد كان لمولده من الأحداث الكونية ما لفت أنظار العالم كله .

ذكر ابن كثير منها انكفاء الأصنام على وجوهها ، وارتجاس إيوان كسرى ، وسقوط بعض شرفه ، وخمود نار فارس ، ولم تخمد قبلها ، وغاضت بحيرة ساوة ، فكان في ذلك إرهاص

بتكسير الأصنام وانتشار الأصنام وانتشار الإسلام ، ودخول الفرس في الإسلام ، ثم كان بدء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين .

الحفاوة بهذا اليوم

لا شك أن العالم لم شهد حدثين أعظم من هذين الحدثين . مولد سيد الخلق وبدء إنزال أفضل الكتب ، فكان صلى الله عليه وسلم يحتفى به وذلك بصيامه ، وهو العمل المشروع الذي يعبر به المسلم عن شعوره فيه ، والعبادة الخالصة التي يشكر الله تعالى بها على هاتين النعمتين العظيمتين .

أما ما يفعله بعض الناس من احتفالات ومظاهر ، فقد حدث ذلك بعد أن لم يكن لا في القرن الأول ولا الثاني ، ولا الثالث ، وهي القرون المشهود لها بالخير ، وأول إحداثه في القرن الرابع .

وقد افترق الناس فيه إلى فريقين ، فريق ينكره ، وينكر على من يفعله لعدم فعل السلف إياه ، ولا مجيء أثر في ذلك ، وفريق يراه جائزاً لعدم النهي عنه ، وقد يشدد كل فريق على الآخر في هذه المسألة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم كلام وسط في غاية الإنصاف ، نورد موجزه لجزالته ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

قال رحمه الله في فصل قد عقده للأعياد المحدثة : فذكر أول جمعة من رجب وعيد خم في

الثامن عشر من ذي الحجة ، حيث خطب صلى الله عليه وسلم ، وحث على اتباع السنة وبأهل بيته ، ثم أتى إلى عمل المولد فقال :

(346/795)

وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام ، وإما محبة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيماً له والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع من اتخاذ مولد النَّبي صلى الله عليه وسلم عيداً ، مع اختلاف الناس في مولده ، أي في ربيع أو في رمضان ، فإن هذا لم يفعله السلف رضي الله عنهم مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه .

ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا ، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً له منا ، وهم على الخير أحرص .

وإنما كمال محبته وتعظيمه . في متابعته وطاعته واتباع أمره ، وإحياء سنته باطناً وظاهراً ، ونشر ما بعث به ، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان ، فإن هذه طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وأكثر هؤلاء الذين تراهم حرصاء على أمثال هذه البدع ، مع ما لهم فيها من حسن القصد والاجتهاد الذي يرجى

لهم به المثوبة تجدونهم فاترين في أمر الرسول عما أمروا بالنشاط فيه . وإنما هم بمنزلة من يحلي المصحف ولا يقرأ فيه ، ولا يتبعه . وبمنزلة من يزخرف المسجد ولا يصلي فيه ، أو يصلي فيه قليلاً ، وبمنزلة من يتخذ المسابيح والسجاجيد المزخرفة وأمثال هذه الزخارف الظاهرة التي لم تشرع ويصحبها من الرياء والكبر ، والاشتغال عن المشروع ما يفسد حال صاحبها .

واعلم أن من الأعمال ما يكون فيه خير لاشتماله على أنواع من المشروع .

وفيه أيضاً من بدعة وغيرها ، ثم رسم طريق العمل السليم للفرد في نفسه والداعية مع غيره ، فقال : فعليك هنا بأدبين أحدهما أن يكون حرصك على التمسك بالسنة باطناً وظاهراً .

الثاني : أن تدعو الناس إلى السنة بحسب الإمكان فإذا رأيت من يعمل هذا ولا يتركه إلا إلى شر منه ، فلا تدعو إلى ترك منكر ، يفعل ما هو أنكر منه ، أو بترك واجب أو مندوب تركه أضمر من فعل ذلك المكروه .

(347/795)

ولكن إذا كان في البدعة نوع من الخير فعوض عنه من الخير المشروع ، بحسب الإمكان ، إذ النفوس لا تترك شيئاً إلا بشيء .

ولا ينبغي لأحد أن يترك خيراً إلا إلى مثله أو إلى خير منه ، فإنه كما أن الفاعلين لهذه البدع معيبون ، قد أتوا مكروهاً فالتاركون أيضاً للسنن مذمومون .

وكثير من المنكرين لبدع العبادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك أو الأمر به . .

ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العادات المشتملة على نوع من الكراهة ، بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فتعظيم المولد واتخاذه موسماً قد يفعله بعض الناس ، ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصده وتعظيمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قدمته لك أنه يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد .

ولهذا قيل لأحمد : إن بعض الأمراء ينفق على مصحف ألف دينار ونحو ذلك ، فقال : دعه ، فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب ، أو كما قال ، مع أن مذهبه : أن زخرفة المصاحف مكروهة ، فمثل هؤلاء إن لم يفعلوا هذا ، وإلا اعتاضوا عنه الفساد الذي لا صلاح فيه مثل أن ينفقها في كتب فجور ، ككتب الأسماء والأصفار أو حكمة فارس والروم .

ومراتب الأعمال ثلاث : إحداها العمل الصالح المشروع الذي لا كراهة فيه .

والثانية : العمل الصالح من بعض وجوهه أو أكثرها ، إما لحسن القصد ، أو لاشتماله مع ذلك على أنواع من المشروع .

والثالثة : ما ليس فيه صلاة أصلاً .

فأما الأولى : فهي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي أعمال الاسبقين الأولين .

(348/795)

وأما الثانية فهي كثيرة جداً في طرق المتأخرين من المنتسبين . إلى علم أو عبادة ، ومن العامة أيضاً ، وهؤلاء خير مما لا يعمل عملاً صالحاً مشروعاً ولا غير مشروع ، ومع هذا فالمؤمن يعرف المعروف وينكر المنكر ولا يمنعه من ذلك موافقة بعض المنافقين له في ظاهر الأمر بذلك المعروف والنهي عن ذلك المنكر ، ولا مخالفة بعض علماء المؤمنين ، فهذه الأمور وأمثالها مما ينبغي معرفتها والعمل بها اه .

لقد عالج رحمه الله هذه المسألة بحكمة الداعي وسياسة الدعوة مما لا يدع مجالاً للكلام فيها .

ولكن قد حدث بعده رحمه الله مور لم تكن من قبل ابتلى بها العالم الغربي ، وغزا بها العالم الشرقي ، ولبس بها على المسلمين ، وهي تلك المبادئ الهدامة والغزو الفكري ، وإبراز شخصيات ذات مبادئ اقتصادية أو فلسفي ، ارتفع شأنها في قومهم ونفثت سمومهم إلى بني جلدتنا ، وصاروا يقيمون لهم الذكريات ويقدمون عنهم الدراسات جهلاً أو تضليلاً

فقام من المسلمين من يقول :

نعلم أن المولد ليس سنة نبوية ولا طريقاً سلفياً ولا عمل القرون للشهود لها بالخير ، وإنما نريد مقابلة الفكرة بالفكرة والذكريات بالذكرى ، لنجمع شباب المسلمين على سيرة سيد المرسلين ، ويكون ذلك من باب : يحدث للناس من الأحكام بقدر ما أحدثت من البدع إلى آخره .

وهنا لا ينبغي الإسراع في الجواب ، ولكن انطلاقاً من كلام شيخ الإسلام المتقدم ، يمكن أن يقال : إن كان المراد إحياء الذكرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى قد تولى ذلك بأوسع نطاق حيث قرن ذكره صلى الله عليه وسلم مع ذكره تعالى في الشهادتين ، مكع كل أذان على كل منارة من كل مسجد ، وفي كل إقامة لأداء صلاة ، وفي كل تشهد في فرض أ نفل مما يزيد على الثلاثين مرة جهراً وسراً . جهراً يملأ الأفق ، وسراً يملأ القلب والحس .

(349/795)

ثم تأتي الذكرى العملية في كل صغيرة وكبيرة في المأكل باليمين ، لأنه السنة ، وفي الملبس في التيامن لأنه السنة ، وفي المضجع على الشق الأيمن لأنه السنة ، وفي إفشاء السلام وفي كل

حركات العبد وسكناته إذا راعى فيها أنها السنة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

وإن كان المراد التعبير عن المحبة ، والمحبة هي عنوان الإيمان الحقيقي ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب غليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين "

فإن حقيقة المحبة طاعة من تحب ، وفعل ما يحبه وترك ما لا يرضاه أو لا يحبه ، ومن هذا يمكن أن يقال : إن ما يلابس عمل المولد من لهو ولعب واختلاط غير مشروع ، وأعمال في أشكال لا أصل لها يجب تركه وتنزيهه التعبير عن محبته صلى الله عليه وسلم عما لا يرضاه صلى الله عليه وسلم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم هذا اليوم بالصوم ، وإن كان المراد مقابلة فكرة بفكرة .

فالواقع أنه لا مناسبة بين السببين ولا موجب للربط بين الجانبين لبعد ما بينهما ، كبعد الحق عن الباطل والظلمة عن النور .

ومع لك ، فإن كان ولا بد فلا موجب للتقييد بزمن معين بل العام كله لإقامة الدراسات في السيرة وتعريف المسلمين الناشئة منهم والعوام وغيرهم بما تريده من دراسة للسيرة النبوية .

وختاماً فبدلاً من الموقف السلبي عند التشديد في النكير أن يكون عملاً إيجابياً في حكمة وتوجيه لما هو أولى بحسب المستطاع ، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله ، وبالله تعالى التوفيق :

ومن المناسبات ليلة القدر لبدء نزول القرآن فيها لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ثم بين مقدارها بقوله : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : 3] وبين خواصها بقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ هِيَ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ [القدر : 4 - 5] .

الحفاوة بها

(350/795)

لقد بين صلى الله عليه وسلم بقوله : " التمسوها في العشر الأواخر ، وفي الوتر من العشر الأواخر " ، وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر كلها التماساً لتلك الليلة ، فكان يحييها قائماً في معتكفه ، كما جاء في الحديث " وإذا جاء العشر شد مئزره وطوى فراشه وأيقظ أهله " فلم يكن يمرح ولا يلعب ولا حتى نوم بل اجتهاد في العبادة .

وكذلك شهر رمضان بكامله لكونه أنزل فيه القرآن أيضاً ، كام تقدمت الإشارة إليه ، فكان تكريمه بصوم نهاره وقيام ليلة لا بالملاهي واللعب والحفلات ، كما له بعض صار يعد الناس وسائل ترفيه خاصة ، فيعكس فيه القصد ويخالف المشروع .

ومن المناسبات يوم عاشوراء ، لقد كان له تاريخ قديم وكانت العرب تعظمه في الجاهلية

وتكسو فيه الكعبة ، ولما قدم صلى الله عليه وسلم المدينة وجد اليهود يصومونه فقال لهم : "لِم تصومونه " ؟ فقالوا : يوماً نجى الله فيه موسى من فرعون فصامه شكراً لله فصمناه . فقال صلى الله عليه وسلم : " نحن أحق بموسى منكم " فصامه وأمر الناس بصيامه . إنها مناسبة عظمى نجاة نبي الله موسى من عدو الله فرعون ، نصرة الحق على الباطل ، ونصر جند الله وإهلاك جند الشيطان .

وهذا بحق مناسبة يهتم لها كل مسلم . ولذا قال صلى الله عليه وسلم " نحن أحق بموسى منكم " نحن معشر الأنبياء أبناء علات ديننا واحد " .

وقد كان صيامه فرضاً حتى نسخ بفرض رمضان ، وهكذا مع عظم مناسبته من إعلاء كلمة الله ونصرة رسوله ، كان ابتهاج موسى عليه السلام به في صيامه شكراً لله .

(351/795)

وكذلك رسول الله صل الله عليه وسلم ، وهذا هو الطريق السليم والسنة النبوية الكريمة لا ما يحدثه بعض العوام والجهال من مظاهر وأحداث لا أصل لها ، ثم يأتي العمل الأعم والمناسبات المتعددة في مناسك الحج منها الهرولة في الطواف ، لقد كانت عن مؤامرة قريش في عزمها على الغدر بالمسلمين في عمرة القضية فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن

يظهروا النشاط في الطواف ، وذلك حينما جاء الشيطان لقريش وقال لهم :

هؤلاء المسلمون مع محمد صلى الله عليه وسلم جاءوا إليكم وقد أنهكتهم حمى يثرب ، فلو ملتم عليهم لاستأصلتموهم ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الموقف خطيراً جداً وحرجاً حيث لا مدد للمسلمين ولا سبيل للانسحاب ولا بد لهم من إتمام العمرة .

فكان التصرف الحكيم ، أن يعكسوا على المشركين نظريتهم ويأتونهم من الباب الذي أتوا منه .

فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " أروهم اليوم منكم قوة " فهرولوا في الطواف وأظهروا قوة ونشاطاً مما أدهش المشركين حتى قالوا : والله ما هؤلاء بإنس إنهم لكالجن " ، وفوتوا عليهم الفرصة بذلك وسلم المسلمون .

فهو أشبه بموقف موسى من فرعون ، فنجى الله رسوله صلى الله عليه وسلم من غدر قريش فكان هذا العمل مخلداً ومشروعاً في كل طواف قدوم حتى اليوم ، مع زوال السبب حيث هرول المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بعد فتح مكة بسنتين .

قال العلماء : بقي هذا العمل تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، وتذكروا ولهذا الموقف وما لقيه المسلمون في بادئ الدعوة .

وجاء السعي والهرولة فيه لما فيه من تجديد اليقين بالله ، حيث تركت هاجر ، وهي من سادة المتوكلين على الله والتي قالت لإبراهيم :

اذهب فلن يضيعنا الله . تركت حتى سعت إلى نهاية العدد ، كما يقول علماء الفراض وهو سبعة .

إذ كل عدد بعده تكرار لمكرر قبله ، كما قالوا في عدد السماوات والأرض وحصى الجمار وأيام الأسبوع ، إلخ .

(352/795)

وذلك لتصل إلى أقصى الجهد وتنقطع أطماعها من غوث يأتيها من الأرض ، فتتجه بقوة اليقين وشدة الضراعة إلى السماء وتتوجه بكليتها ، وإحساسها بقلبها وقالبها إلى الله .

فيأتيها الغوث الأعظم سقياً لها وللمسلمين من بعدها .

فكان ذلك درساً عملياً ظل إحياؤه تجديداً له .

وهذا النحر ، وقصة الفداء لما كان فيه درس الأمة لأفرادها وجماعتها في أسرة كاملة .

والد ووالدة ، وولد كل يسلم قياده لأمر الله ، وإلى أقصى حد التضحية حينما قال إبراهيم لإسماعيل ما قصه تعالى علينا ﴿ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى ﴾ [

الصافات : 102] .

إنه حدث خطير وأي رأي للولد في ذبح نفسه ، ولكنه التمهيد لأمر الله ، فكان موقف الولد لا يقل إكباراً عن موقف الوالد :

﴿ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ [الصافات : 102] ولم يكن ذلك عرضاً وقبولاً فحسب ، بل جاء وقت التنفيذ إلى نقطة الصفر ، كما يقال : والكل ماض في سبيل التنفيذ ، ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : 103] يا له من موقف يعجز كل بيان عن تصويره ويط كل قلم عن تفسيره ، ويثقل كل لسان عن تعبيره ، شيخ في كبر سنه سحمل سكيناً بيده ويتل ولده وضناه بالأخرى ، كيف قويت يده على حمل السكين ، وقويت عيناه على رؤيتها في يده ، وكيف طاوعته يده الأخرى على تل ولده على جبينه ؟

إنها قوة الإيمان وسنة الالتزام ، وها هو الولد مع أبيه طوع يده ، يتصبر لأمر الله ويستسلم لقضاء الله ﴿ ستجدني إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ والموقف الآن والد بيده السكين ، وولد ملقى على الجبين ، ولم يبق إلا توقف الأنفاس للحظة التنفيذ ن ولكن رحمة الله أوسع وفرجه من عنده أقرب ، ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ [الصافات : 104 - 105] .

فكانت مناسبة عظيمة وفائدتها كبيرة خلدها الإسلام في الهدى والضحية .

وفي رمي الجمار ، إلى آخره ، وهكذا كلها في مناسك وعبادة وقربة إلى الله تعالى في تجرد وانقطاع ، ودوام ذكر لله تعالى .

وهناك أحداث جسام ومناسبات عظام ، لا تقل أهمية عن سابقاتها ، ولكن لم يجعل لها الإسلام أي ذكرى ، كما في صلح الحديبية .

لقد كان هذا الصلح من أعظم المناسبات في الإسلام ، إذ كان فيه انتزاع اعتراف قريش بالكيان الإسلامي ماثلاً في الصلح والعهد الذي وثق بين الطرفين وقد سماه الله فتحاً ، كما قال تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ الفتح : 27] .

ونزلت سورة الفتح في عودته صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية .

وكذلك يوم بدر كان يوم الفرقان ، فرق الله فيه بين الحق والباطل ونصر فيه المسلمين مع قلتهم على المشركين مع كثرتهم .

وكذلك يوم فتح مكة وتحطيم الأصنام والقضاء نهائياً على دولة الشرك في البلاد العربية ، ومن قبل ذلك ليلة خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ونزوله في الغار ، إذ كان فيها نجاته صلى الله عليه وسلم من فتك المشركين ، كما قال الصديق وهما في الطريق إلى الغار حينما كان يسير أحياناً أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وأحياناً خلفه فسأله صلى الله

عليه وسلم فقال : أتذكر الرصد فأكون أمامك ، وأتذكر الطلب فأكون خلفك ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أتريد لو كان شيء يكون فيك يا أبا بكر "

فقلت نعم فداك أبي وأمي يا رسول الله ، " فإني إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تصب أنت يا رسول الله تصب الدعوى معك "

(354/795)

وكذلك وصوله صلى الله عليه وسلم المدينة بداية حياة جديدة وبناء كيان أمة جديدة ، وكل ذلك لم يجعل الإسلام لذلك كله عملاً خاصاً به والناس ي إبانها تأخذهم عاطفة الذكرى ، ويجرهم حنين الماضي وتتراءى لهم صفحات التاريخ ، فهل يقفون صماً بكما أم ينطقون بكلمة تعبير ؟ وشكر لله إنه إن يكن من شيء فلا يصح بحال من الأحوال ، أن يكون من اللهو واللعب والمنكر وما لا يرضى الله ولا رسوله .

إنه إن يكن من شيء ، فلا يصح إلا من المنهج الذي رسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مثل تلك المناسبات من عبادة في صيام أو صدقة أو نسك ولا يمكن أن يقال فيها بما يقال في المصالح المرسلة حيث كانت .

واكن عهد التشريع ولم يشرع في خصوصها شيء ، وهل الأمر فيها كالأمر في المولد على ما

قدمه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وتكون ضمن عموم قوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] ، وضمن قوله تعالى : ﴿ فاعتبروا ياأولي الأبصار ﴾ [الحشر : 2] رأي بقصص الماضين .

ونحن أيضاً نقص على أجيالنا بعد هذه القرون ، أهم أحداث الإسلام لاستخلاص العظة والعبرة أم لا ؟

وهذا ما يتيسر إيراده بإيجاز في هذه المسألة ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه مما يعتبر ذا صلة بهذا المبحث في الجملة ما نقله ابن كثير في التفسير عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

(355/795)

قال عندها : وقال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عوف حدثنا أو العميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا يا معشر اليهود نزلت لاتخاذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأي آية قال قوله ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم ﴾ فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم

الذي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في يوم جمعة .

ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به ، ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي أيضاً من طرق عن قيس بن مسلم به . ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري عن قيس عن طارق قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً فقال عمر : إني لأعلم حين أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة .

وساق عن ابن جرير قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليه هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه .

فقال عمر : أي آية يا كعب ؟ فقال ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم ﴾ بأجابه عمر بما أجاب به سابقاً ، وقال في يوم جمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد .

ونقل عن ابن جرير عن ابن عباس قرأ الآية فقال يهودي : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً فقال ابن عباس : فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين يوم عيد ويوم جمعة .

ومحل الإيراد أنعمر سمع اليهود يشيد بيوم نزولها ، فقد أقر اليهودي على ذلك ولم ينكر عليه ، ولكن أخبره بالواقع وهو أن يوم نزولاه عيد بنفسه بدون أن نتخذه نحن .

وكذلك ابن عباس أقر اليهودي على إخباره وتطلعه واقتراحه ، فلم ينكر عليه كام لم ينكر عمر مما يشعر أنه لو لم يكن نزولها يوم عيد ، لكان من المحتمل أن تتخذ عيداً . ولكنه صادف عيداً أو عيدين ، فهو تكريم لليوم بمناسبة ما نزل فيه من إكمال الدين وإتما النعمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ الأمشاج . الأخلاط ، كما قال تعالى ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [الطارق : 6 – 7] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ .

بين تعالى أنه هدى الإنسان السبيل ، وهو بعد الهداية إما شاكراً وإما كفوراً .

وهذه الهداية هداية بيان وإرشاد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] كما أن الهداية الحقيقية بخلق التوفيق فضلاً من الله على من شاء ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الجمع بين الآيتين ، ومعنى الهداية العامة والخاصة .

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4)

قوله تعالى : ﴿ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً ﴾ .

بين تعالى نوع هذه السلاسل برعها في قوله تعالى : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ [الحاقة : 32] .

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)

قوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ .

(357/795)

مادة يشرب تتعدى بنفسها ، فيقال : يشرب كأساً بدون مجيء من ، ومن للتبعيض ، وللابتداء ، فقيل : هي هنا للابتداء ، وأن الفعل مضمن معنى فعل آخر ، وهو يتنعمون ويرتوون كما قالوا في عيناً يشرب بها عباد الله . إذ الباء تكون للإرادة ولا إرادة هنا ، فهم يتنعمون بها .

والذي يظهر أن من للتبعيض فعلاً ، وأن شرب أهل الجنة على سبيل الترفه والتلذذ ، وهي عادة المترفين المنعمين ، يشربون بعض الكأس لا كله .

وقد دل على ذلك أنهم لا يشربون عن ظمإ كما في قوله تعالى لآدم ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضحى ﴾ [طه : 118 - 119] ، وسيأتي تعدية

يسقون بنفسها إلى الكأس ﴿ وَيَسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً ﴾ [الإنسان : 17] ، ويأتي قوله تعالى ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] .

ويؤيد هذا اتفاقهم على التضمين في ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [الإنسان : 6] ، فهو هنا واضح .

وهناك التبعيض ظاهر .

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7)

قوله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بالنذر ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث النذر وافياً عند قوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج : 29] الآية في سورة الحج .

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9)

اختلف في مرجع الضمير في على حبه ، هل هو راجع على الطعام أم على الله تعالى ؟ أي ويطعمون الطعام على حب الطعام لقلته عندهم وحاجتهم إليه ، أم على حب الله رجاء ثواب الله ؟

وقد رجح ابن كثير المعنى الأول ، وهو اختيار ابن جرير وساق الشواهد على ذلك كقوله ﴿ وَآتَى المال على حُبِّهِ ﴾ [البقرة : 177] ، وقوله ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] .

والواقع أن الاستدلال الأول فيه ما فيه هذه الآية ولكن أقرب دليلاً وأصرح ، قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] .

وفي الآية التي بعدها في هذه السورة قرينة تشهد لرجوعه للطعام على ما تقدم ، وهي قوله تعالى بعدها ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ [الإنسان : 9] فأنها في معنى حب الله . مما يجعل الأولى للطعام وهذه لله . والتأسيس أولى من التأكيد ، فيكون السياق : ويطعمون الطعام على حاجتهم إياه ، ولوجه الله تعالى . والله تعالى أعلم .

مسألة

في قوله تعالى : ﴿ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ جمع أصناف ثلاثة : الأول والثاني من المسلمين غالباً أما الثالث وهو الأسير فلم يكن لدى المسلمين أسرى إلا من الكفار ، وإن كانت السورة مكية إلا أن العبرة بعموم اللفظ كما هو معلوم .

وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس : أنها في الفرس من المشركين وساق قصة أسارى بدر .

واختار ابن جرير أن الأسرى هم الهدم ، والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الأسارى هنا

على معناها الحقيقي ، لأن الخدم لا يخرجون عن القسمين المتقدمين اليتيم والمسكين ، وهؤلاء الأسارى بعد وقوعهم في الأسر ، لم يبق لهم حول ولا طول . فلم يبق إلا الإحسان إليهم .

(359/795)

وهذا من محاسن الإسلام وسمو تعاليمه ، وإن العالم كله اليوم لفي حاجة إلى معرفة هذه التعاليم السَّماوية السامية حتى مع أعدائه ، وقد تقدم شيء من ذلك عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة : 8] ، وهؤلاء بعد الأسر ليسوا مقاتلين .

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ .

تقدم معنى قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22] ، وهنا جمع لهم بين النضرة والسرور ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن النضرة لما يرون من النعيم والسرور لما ينالونه من النظر إلى وجه الله الكريم كما تقدم ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 – 23] فيكون السرور نتيجة النظر إلى وجه الله الكريم . والله تعالى

أعلم .

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16)

فيه التنصيص على أواني الفضة في الجنة .

وجاء بصحاف من ذهب وأكواب ، وهي محرمة في الدنيا ، كما هو معلوم ، وقد بين تعالى أن الذي يطوف عليهم هم ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا ﴾ [الإنسان : 19] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الطور عند قوله ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ [الطور : 24] ، والقوارير جمع قارورة ، والعرب تطلق القارورة على إناء الزجاج خاصة ، ولكن الآية صريحة في أنها قوارير من فضة ، مما دل على صحة إطلاق القارورة ، على غير آنية الزجاج كالفضة مثلاً .

(360/795)

قال صاحب اللسان : والقارورة : ما قر فيه الشراب وغيره ، وقيل : لا يكون إلا من الزجاج خاصة .

وقوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرَاْ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : 15 - 16] قال بعض أهل العلم : معناه أواني زجاج في بياض الفضة وصفاء القوارير ، قال ابن سيده : وهذا أحسن اه .

وقال ابن شدياق في معجم مقاييس اللغة : إن مادة قر ، القاف والراء أصلان صحيحان يدل أحدهما على برد ، والآخر على تمكن ، وذكر من التمكن استقر ومستقر ، كما ذكر صاحب اللسان كثيراً من ذلك ثم قال :

ومن الباب القر : بضم الراء : صب الماء في الشيء . يقال : قررت الماء ، والقر صب الكلام في الأذن ، وذكر منه الإقرار ضد الجحود لاستقرار الحق به .

ثم ذكر مسألة إثبات اللغة بالسماع أو بالقياس فقال : وهذه مقاييس صحيحة ، فإما أن نتعدى ونتحمل الكالم كما بلغنا عن بعضهم أنه قال : سميت القارورة لاستقرار الماء فيها وغيره ، فليس هذا من مذهبنا .

وقد قلنا : إن كلام العرب ضربان . منه ما هو قياس وقد ذكرناه ، ومنه ما وضع وضعاً .

والمسألة من مباحث الأصول في الألفاظ ، هل هي بوضع لا يقاس عليه وتبقى كما وضعتها العرب ، أو أنها توضع بالقياس ؟ وفائدة الخلاف هل المسكرات كلها مثلاً يتناولها مسمى الخمر بالوضع فتكون محرمة بنص ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 90] الية ، أو أنها محرمة قياساً على الخمر بجامع علة الإسكار وعليه ، فإذا كانت اللغة تساعد على

الإطلاق قياساً ، فهو أقوى في الحكم بأن يأتي الحكم بالنص لا بالقياس بجامع العلة . وعلعل التحقيق في هذه المسألة ما قاله علماء الوضع من أن اللغات منها توقيفي ومنها قياسي .

وفي قوله تعالى : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ توجيه إلى خحسن الصنع في التسوية في التقدير ، والمقاسات .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17)

(361/795)

وقبلها ، قال تعالى : ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 5] ، فقد قيل هما معاً ، فهي في برد الكافور وطيب الزنجبيل .

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21)

قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ .

وهذا وصف شراب الجنة ، والشراب هنا هو الخمر ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المفهوم من أن شراب خمر الدنيا ليس طهوراً ، لأن أحوال الجنة لها أحكامها الخاصة ، ويشهد لهذا ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ

﴾ [الإنسان : 15] مع أن أواني الفضة محرمة في الدنيا لحديث : " الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم " ، ومع ذلك فإن أهل الجنة ينعمون بها .

وكذلك ينعمون بخمر الجنة ، وكل أوصافها في الجنة عكس أوصافها في الدنيا كما تقدم ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، كما أوضحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله تعالى ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 19] في سورة الواقعة .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23)

نزلنا وتنزيلاً يدل على التكرار بخلاف أنزلنا ، وقد بين تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر في سورة القدر ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ، وهنا إثبات التنزيل .

وقد بين تعالى كيفية التنزيل في قوله تعال : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : 106] .

(362/795)

وقد بين تعالى الحكمة في هذا التفريق على مكث في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32] ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذه المسألة في سورة الفرقان ، والإحالة

فيها على بيان سابق .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26)

قوله تعالى : ﴿ فاسجد لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ .

تقدم بيان مقدار المطلوب قيامه من الليل في أول سورة المزمل في قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ [المزمل : 1 – 4] الآية .

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28)

قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ .

الأسر : الربط بقوة مأخوذ من الأسر هو جلد البعير رطباً ، وهو القد ، وسمي الأسير أسيراً لشد قيده بقوة بجلد البعير الرطب ، وهو هنا تقويه بشد ربط الأعضاء المتحركة في الإنسان في مفاصله بالعصب ، وهو كناية عن الاتقان والقوة في الخلق .

وقد بين تعالى ذلك في قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ، وقوله : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : 7] .

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30)

السبيل هنا منكر ، ولكنه معين بقوله : ﴿ إِلَى رَبِّهِ ﴾ ، لأن السبيل إلى ربه هو السبيل المستقيم .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] وفي النهاية قال : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] ، وهو الصراط المستقيم الذي دعا إليه صلى الله عليه وسلم .

كام في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [الشورى : 52 – 53] وهو القرآن الكيم كما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] ، وقد بين تعالى أنه القرآن كله في قوله تعالى : ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 1 – 2] بعد قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ، كأنه قال : الهادي إلى الصراط المستقيم المنوه عنه في الفاتحة : هو القرآن الكريم ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فيها الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 2 – 3] إلى آخر الصفات ، فيكون السبيل هنا معلوماً .

وقوله تعالى قبلها : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ﴾ [المزمل : 19] مشعر بأن السبيل عن طريق التذكر فيها والاتعاظ بها .

وقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل : 19] ، علق اتخاذ السبيل إلى الله على مشيئة من شاء ، وقيدها ربط مشيئة العبد بمشيئة الله تعالى في قوله : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الإنسان : 30] ، وهذه مسألة القدر .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثها بحثاً وافياً عند قوله تعالى ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] في يونس وأحال على النساء . إلا أن قوله تعالى في التذييل على الآية الكريمة بقوله : ﴿ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ أن كل ما يقع في هذا الكون من سلوك وأعمال أنه بعلم من الله وحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(364/795)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْإِنْسَانِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَسِيرًا ﴾

عَنْ أَبِي وَائِلٍ : " أَنَّهُ أَمَرَ بِأَسْرَى مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَأَمَرَ مَنْ يُطْعِمُهُمْ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ الْآيَةَ وَقَالَ قَتَادَةُ : "كَانَ أَسِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمُشْرِكَ ، فَأَخُوكَ الْمُسْلِمُ أَحَقُّ أَنْ تُطْعِمَهُ" .

وَعَنْ الْحَسَنِ : ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ قَالَ : "كَانُوا مُشْرِكِينَ" وَقَالَ مُجَاهِدٌ : "الْأَسِيرُ الْمَسْجُونُ" وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ قَالَا : هُمْ أَهْلُ الْقِبْلَةِ وَغَيْرُهُمْ" .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْأَظْهَرُ الْأَسِيرُ الْمُشْرِكُ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ الْمَسْجُونَ لَا يُسَمَّى أَسِيرًا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي إطْعَامِ الْأَسِيرِ قُرْبَةً ، وَيَقْتَضِي ظَاهِرُهُ جَوَازَ إعْطَائِهِ مِنْ سَائِرِ الصَّدَقَاتِ ؛ إلَّا أَنَّ أَصْحَابَنَا لَا يُجِيزُونَ إعْطَاءَهُ مِنْ الزَّكَوَاتِ وَصَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَمَا كَانَ أَخَذَهُ مِنْهَا إلَى الْإِمَامِ ، وَيُجِيزُ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ جَوَازَ إعْطَائِهِ مِنْ الْكَفَّارَاتِ وَنَحْوِهَا ، وَأَبُو يُوسُفَ لَا يُجِيزُ دَفْعَ الصَّدَقَةِ الْوَاجِبَةِ إلَّا إلَى الْمُسْلِمِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا سَلَفَ .

آخِرُ سُورَةِ الْإِنْسَانِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(365/795)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الدَّهْرِ

[فِيهَا سِتُّ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الْحِينِ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ ، فَلْيُنْظَرْ فِي سُورَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

بِمَعْنَى أَخْلَاطٍ .

مَاءُ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضُ ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ ، فَيَجْمَعُهُمَا الْمَلَكُ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَتَنْقُلُهُمَا الْقُدْرَةُ مِنْ تَطْوِيرٍ إلَى تَطْوِيرٍ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَى مَا دَبَّرَهُ مِنْ التَّقْدِيرِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ : فِيهِ أَقْوَالٌ ، لُبَابُهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا يُوفُونَ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ .

الثَّانِي : يُوفُونَ [بِمَا اعْتَقَدُوهُ وَ] بِمَا عَقَدُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا ثَنَاءَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا كَمَا أَنَّهُ لَا فِعْلَ أَفْضَلُ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَلْزَمَ عَبْدَهُ وَظَائِفَ ، وَرُبَّمَا جَهِلَ الْعَبْدُ عَجْزَهُ عَنْ الْقِيَامِ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَيَنْذُرُ عَلَى نَفْسِهِ نَذْرًا ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِهِ أَيْضًا ، فَإِذَا قَامَ بِحَقِّ الْأَمْرَيْنِ ؛ وَخَرَجَ عَنْ وَاجِبِ النَّذْرَيْنِ كَانَ لَهُ مِنْ الْجَزَاءِ مَا وَصَفَ اللَّهُ فِي آخِرِ السُّورَةِ .

(366/795)

وَعَلَى عُمُومِ الْأَمْرَيْنِ كُلُّ ذَلِكَ حَمَلَهُ مَالِكٌ ، وَرَوَى عَنْهُ أَشْهَبُ أَنَّهُ قَالَ : "يُوفُونَ بِالنَّذْرِ " هُوَ نَذْرُ الْعِتْقِ ، وَالصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ .

وَرَوَى عَنْهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ : قَالَ مَالِكٌ : يُوفُونَ بِالنَّذْرِ قَالَ : النَّذْرُ هُوَ الْيَمِينُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ النَّذْرُ مَكْرُوهٌ بِالْجُمْلَةِ ؛ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا يَأْتِي النَّذْرُ عَلَى ابْنِ آدَمَ بِشَيْءٍ لَمْ أَكُنْ قَدَّرْتُهُ لَهُ ؛ إنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ ﴾ وَذَلِكَ لِفِقْهٍ صَحِيحٍ ؛ وَهُوَ أَنَّ الْبَارِيَ سُبْحَانَهُ وَعَدَ بِالرِّزْقِ عَلَى الْعَمَلِ ؛ وَمِنْهُ مَفْرُوضٌ ، وَمِنْهُ مَنْدُوبٌ ، فَإِذَا عَيَّنَ الْعَبْدُ لِيَسْتَدِرَّ بِهِ الرِّزْقَ ، أَوْ يَسْتَجْلِبَ بِهِ الْخَيْرَ ، أَوْ يَسْتَدْفِعَ بِهِ الشَّرَّ لَمْ يَصِلْ إلَيْهِ بِهِ ، فَإِنْ وَصَلَ فَهُوَ لِبُخْلِهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(367/795)

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ : فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ﴾ تَنْبِيهٌ عَلَى الْمُوَاسَاةِ ؛ وَمِنْ أَفْضَلِ الْمُوَاسَاةِ وَضْعُهَا فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ : ﴿ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتُقْرِئُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْت وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ ﴾ وَهَذَا فِي الْفَضْلِ لَا فِي الْفَرْضِ مِنْ الزَّكَاةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ مِسْكِينًا ﴾ .

الْمِسْكِينُ قَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَهَذَا مِثَالُهُ مَا رُوِيَ فِي شَأْنِ الْأَنْصَارِيِّ الَّذِي ذَكَرْنَا قِصَّتَهُ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ ، عِنْدَ تَأْوِيلِ قَوْلِهِ ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فَهَذَا هُوَ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ .

وَإِنَّمَا أَكَّدَ بِالْيَتِيمِ ؛ لِأَنَّهُ مِسْكِينٌ مَضْعُوفٌ بِالْوَحْدَةِ وَعَدَمِ الْكَافِلِ مَعَ عَجْزِ الصِّغَرِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ .

وَفِي إطْعَامِهِ ثَوَابٌ عَظِيمٌ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ .

وَقَدْ تَعَيَّنَ بِالْعَهْدِ إطْعَامُهُ ، وَلَكِنْ مِنْ الْفَضْلِ فِي الصَّدَقَةِ ، لَا مِنْ الْأَصْلِ فِي الزَّكَاةِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمَسْجُونُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدْ حَبَسَهُ عَنْ التَّصَرُّفِ وَأَسَرَهُ فِيمَا وَجَبَ عَلَيْهِ ، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُطْلَقِ حَقٌّ زَائِدٌ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ الْمَنْعِ [عَنْ التَّمَحُّلِ فِي] الْمَعَاشِ أَوْ التَّصَرُّفِ فِي الطَّلَبِ ، وَهَذَا كُلُّهُ إذَا خَلَصَتْ فِيهِ النِّيَّةُ لِلَّهِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ دُونَ تَوَقُّعِ مُكَافَأَةٍ ، أَوْ شُكْرٍ مِنْ الْمُعْطِي ، فَإِذَا لَمْ يُشْكَرْ فَسَخِطَ الْمُعْطِي يَحْبَطُ ثَوَابُهُ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّك بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ الْبُكْرَةُ وَقْتٌ مِنْ أَوْقَاتِ النَّهَارِ ، وَهُوَ أَوَّلُهُ ، وَمِنْهُ بَاكُورَةُ الْفَاكِهَةِ .

وَالْأَصِيلُ : هُوَ الْعَشِيُّ .

وَهَذِهِ الْإِشَارَةُ إلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ؛ وَقَدْ قَدَّمْنَا مَعْنَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ﴾ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَنْ صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا وَقَرَأَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ﴾ .

وَقَدْ قَسَّمَ أَرْبَابُ اللُّغَةِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَسَاعَاتِ النَّهَارِ عَلَى تَفَاصِيلَ وَأَسْمَاءٍ عُرْفِيَّةٍ فِي اللُّغَةِ ، وَمُؤَلِّفُوهَا مُخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ ؛ لَكِنَّ الْغُدُوَّ وَالْعَشِيَّ وَالظَّهِيرَةَ مِنْ أُمَّهَاتِ ذَلِكَ الَّذِي لَا كَلَامَ فِيهِ .

وَالضُّحَى يَلْحَقُ بِهِ وَالْإِشْرَاقُ مِثْلُهُ ، وَقَدْ قِيلَ : إنَّ مَعْنَاهُ وَكَبِّرْ ، فَكَانَ يُكَبِّرُ ثَلَاثًا بَعْدَ الصُّبْحِ وَثَلَاثًا بَعْدَ الْمَغْرِبِ ، وَلَا يَصِحُّ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْتَمِلَةٌ لِلْفَرْضِ ؛ وَهُوَ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ، فَإِنَّهُمَا وَقْتَانِ مِنْ أَوْقَاتِ الْمُصَلَّى ، وَصَلَاتُهُمَا مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحْدَهُ ، فَيَبْقَى الْأَمْرُ بِهِ عَلَيْهِ مُفْرَدًا ، وَالْوُجُوبُ يَلْزَمُ لَهُ خَاصَّةً .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَمِيعُ ، ثُمَّ نُسِخَ عَنَّا ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ ؛ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ؛ وَهُوَ مَعْنَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَك ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(370/795)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الإنسان

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1)

قوله : ﴿ هَلْ أتى ﴾ : في " هل " هذه وجهان ، أحدُهما : أنَّها على بابِها من الاستفهامِ المَحْضِ ، أي : هو مِمَّنْ يُسْأَلُ عنه لغرابتِه : أأتى عليه حينٌ من الدهرِ لَم يكنْ كذا ، فإنه يكونُ الجوابُ : أتى عليه ذلك ، وهو بالحالِ المذكورةِ ، كذا قاله الشيخ ، وهو مدخولٌ كما ستعرِفُه قريباً . وقال مكي في تقرير كونها على بابِها من الاستفهام . " والأحسنُ أَنْ تكونَ على بابِها للاستفهام الذي معناه التقريرُ ، وإنما هو تقرير لِمَنْ أنكر البعثَ ، فلابُدَّ أَنْ يقولَ : نعم قد مضى دهر طويل لا إنسانَ فيه . فيقال له : مَنْ أَحْدَثَه بعد أن لم يكُنْ وكَوَّنَه بعد

عَدَمِه كيف يمتنع عليه بَعْثُه وإحياؤه بعد مَوْته ؟ وهو معنى قولِه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة : 62] ، أي : فهلاَّ تَذَكَّرون فتعلَمون أنَّ مَنْ أَنْشأ شيئاً بعد أن لم يكُنْ قادرٌ على إعادتِه بعد مَوْته وعَدَمِه " انتهى . فقد جَعَلها لاستفهامِ التقريرِ لا للاستفهامِ المَحْضِ ، وهذا هو الذي يجبُ أَنْ يكونَ ؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يَرِدُ مِنَ الباري تعالى لاَّ على هذا النحوِ وما أشبهه . والثاني : أنها بمعنى " قد " قال الزمخشري : " هل بمعنى " قد " في الاستفهام خاصة . والأصل : أهل بدليلِ قولِه :

4430 سائِلْ فوارسَ يَرْبوعٍ بشَدَّتِنا . . . أهَلْ رَأَوْنا بوادي القُفِّ ذي الأَكَمِ

(371/795)

فالمعنى : أقد أتى ، على التقريرِ والتقريبِ جميعاً ، أي : أتى على الإنسان قبلَ زمانٍ قريبٍ حينٌ من الدهرِ لم يكنْ فيه شيئاً مذكوراً ، أي : كان شيئاً مَنْسِيّاً غير مذكور " انتهى . فقولُه : " على التقريرِ " يعني المفهومَ من الاستفهامِ ، وهو الذي فهم مكيٌّ مِنْ نفسِ " هل " . وقوله : " والتقريب " يعني المفهومَ مِنْ " قد " التي وقع مَوْقِعَها " هل " . ومعنى قولِه " في الاستفهام خاصةً " أنَّ " هل " لا تكونُ بمعنى " قد " إلاَّ ومعها استفهامٌ / لفظاً كالبيتِ المتقدّم ، أو تقديراً كالآيةِ الكريمةِ . فلو قلتَ : " هل جاء زيدٌ " تعني : قد جاء ، من غيرِ استفهامٍ لم يَجُزْ

، وغيرُه جعَلَها بمعنى " قد " من غيرِ هذا القيدِ . وبعضُهم لا يُجيزه البتةَ ، ويَتأوَّل البيتَ : على أنَّ مِمَّا جُمِعَ فيه بين حرفَيْ معنىً للتأكيدِ ، وحَسَّن ذلك اختلافُ لفظِهما كقولِ الشاعِرِ :

4331 فأَصْبَحْنَ لا يَسْأَلْنَني عَنْ بِما به . . . . . .

. . . . . .

فالباءُ بمعنى " عن " ، وهي مؤكِّدةٌ لها ، وإذا كانوا قد أَكَّدوا مع اتفاقِ اللفظِ كقولِه :

4432 فَلا واللَّهِ لا يُلْفَى لِما بي . . . ولا لِلما بهمْ أبداً دَواءُ

فَلأَنْ يُؤَكِّدوا مع اختلافِهِ أَحْرى . ولم يَذْكُرِ الزمخشريُّ غيرَ كونِها بمعنى " قد " ، وبقي على الزمخشريِّ قيدٌ آخر : وهو أَنْ يقولَ : في الجملِ الفعليةِ ؛ لأَنَّه متى دخلَتْ " هل " على جملةٍ اسميةٍ استحالَ كونُها بمعنى " قد " لأنَّ " قد " مختصَّةٌ بالأفعالِ . وعندي أنَّ هذا لا يَرِدُ ؛ لأَنَّه تقرَّر أنَّ " قد " لا تباشِرُ الأسماءَ .

(372/795)

قوله : ﴿ لَمْ يَكُن ﴾ في هذه الجملة وجهان ، أحدُهما : أَنَّها في موضعِ نصبٍ على الحالِ من " الإِنسان " ، أي : هل أتى عليه حينٌ في هذه الحالةِ . والثاني : أنها في موضعِ رفع نعتاً لـ "

حينٌ " بعد نعتٍ . وعلى هذا فالعائدُ تقديرُه : حينٌ لم يكُنْ فيه شيئًا مذكوراً ، والأول أظهرُ لفظاً ومعنىً .

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)

قوله : ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ : نعتٌ ل " نُطْفة " ووَقَعَ الجمعُ صفةً لمفردٍ ؛ لأنَّه في معنى الجمع ، كقولِه تعالى : ﴿ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ أو جُعِل كلُّ جزءٍ من النُّطفةِ نُطفةً ، فاعتبر ذلك فوُصِفَ بالجمع ، وقال الزمخشري : " أَمْشاج كبُرْمَةٍ أَعْشار ، وبُرْدٍ أَكْياشٌ وهي ألفاظٌ مفردةٌ غيرُ جموعٍ ؛ ولذلك تقع صفاتٍ للأفرادِ " ويقال : نُطْفَةٌ مَشَجٌ ، قال الشماخ :

4433 طَوَتْ أَحْشاءَ مُرْتجَةٍ لوَقْتٍ . . . على مَشَجٍ سُلالتُه مَهِينُ

ولا يَصِح " أَمْشاج " أَنْ يكونَ تكسيراً له ، بل هما مِثْلان في الإِفرادِ لوصف المفرد بهما " . فقد مَنَعَ أَنْ يكونَ أَمْشاجاً جمعَ " مِشْجٍ " بالكسر . قال الشيخ : " وقوله مخالفٌ لنصِّ سيبويهِ والنَّحْويين على أَنْ أَفعالاً لا يكون مفرداً . قال سيبويه : " وليس في الكلامِ " أَفْعال " إلاَّ أَنْ يُكَسَّرَ عليه اسماً للجميع ، وما وَرَدَ مِنْ وصفِ المفردِ بأَفْعال تأَوَّلوه " انتهى . قلت : هو لم يَجْعل أَفْعالاً مفرداً ، إنما قال : يُوْصف به المفردُ ، يعني بالتأويلِ الذي ذَكَرْتُه مِنْ أَنَّهم جَعَلُوا كلَّ قِطعةٍ من البُرْمَة بُرْمَةً ، وكلَّ قطعةٍ من البُرْد بُرْداً ، فوصفوهما بالجمع . وقال الشيخ : " الأَمْشاج " الأخلاط ، واحدُها مَشَج بفتحتين ، أو مِشْج كعِدْل وأَعْدال أو مَشِيج كشريف وأَشْراف ، قاله ابنُ الأعرابي . وقال رؤبة :

4434 يَطْرَحْن كلَّ مُعْجَلٍ نَشَّاجٍ . . . لم يُكْسَ جِلْداً مِنْ دمٍ أَمْشاجِ

وقال الهذلي :

4435 كأن الرِّيْشَ والفُوْقَيْنِ منها . . . خِلافَ النَّصْلِ سِيْطَ به مَشِيْجُ

وقال الشماخ :

4436 طَوَتْ أحشاءَ مُرْتَجَةٍ . . . . . .

. . . . . .

البيت . ويقال : " مَشَجَ يَمْشُجُ مَشْجاً إذا خَلَط ، ومَشيج كخليط ومَمْشوج كمخلوط " انتهى . فجوَّزَ أَنْ يكونَ جَمْعاً لِمِشْج كعِدْل ، وقد تقدَّمَ أنَّ الزمخشريَّ : مَنَعَ ذلك . وقال الزمخشريُّ : " ومَشَجَه ومَزَجَه بمعنىً ، والمعنى : مِنْ نُطْفة امتزَجَ فيها الماءان .

قوله : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ يجوزُ في هذه الجملة وجهان ، أحدهما : أنها حالٌ مِنْ فاعل " خَلَقْنا " ، أي : خَلَقْنا حالَ كونِنا مُبْتَلِين له . والثاني : أَنَّها حالٌ من " الإنسان " ، وصَحَّ ذلك لأنَّ في الجملة ضميرَيْن كلٌّ منهما يعودُ على ذي الحال . ثم هذه الحالُ يجوزُ أَنْ تكونَ مقارِنَةً إنْ كان المعنى ب " نَبْتَليه " : نُصَرِّفُه في بطنِ أمِّه نُطْفَةً ثم عَلَقَةً . وهو قولُ ابن عباس ، وأَنْ تكونَ

مقدرةً إنْ كان المعنى ب " نَبْتَليه " : نَخْتَبره بالتكليفِ ؛ لأنَّه وقتَ خَلْقِهِ غيرُ مكلَّفٍ . وقال الزمخشري : " ويجوزُ أَنْ يكونَ المرادُ : ناقلين له مِنْ حالٍ إلى حالٍ ، فُسُمِّي ذلك ابتلاءً على طريق الاستعارةِ " . قلت : هذا هو معنى قولِ ابنِ عباس المتقدِّمِ . وقال بعضُهم : " في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ . والأصلُ : إنَّا جَعَلْناه سميعاً بصيراً نَبْتَليه ، أي : جَعَلْنا / له ذلك للابْتلاءِ " وهذا لا حاجةَ إليه .

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

(374/795)

قوله : ﴿ إِمَّا شَاكِراً ﴾ : " شاكراً " نصبٌ على الحال ، وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه حالٌ مِنْ مفعولِ " هَدَيْناه " ، أي : هَدَيْناه مُبَيِّناً له كلتا حالتيه . قال أبو البقاء : " وقيل : هي حالٌ مقدرةٌ " . قلت : لأنه حَمَلَ الهدايةَ على أولِ البيانِ له ، و [هو] في ذلك الوقتِ غيرُ مُتَّصِفٍ بإحدى الصفتَيْنِ . والثاني : أنه حالٌ من " السبيل " على المجاز . قال الزمخشري : " ويجوزُ أن يكونا حالَيْن من " السبيل " ، أي : عَرَّفْناه السبيلَ إمَّا سبيلاً شاكِراً ، وإمَّا سبيلاً كَفُوراً كقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] فوصفَ السبيلَ بالشُّكْرِ والكُفْرِ مجازاً .

والعامَّةُ على كسر همزة "إمَّا" وهي المرادِفَةُ لـ "أو" وتقدَّم خلافُ النَّحْويين فيها . ونقل مكيٌّ عن الكوفيين أنها هنا "إنْ" الشرطيةُ زِيْدَتْ بعدها "ما" ثم قال: "وهذا لا يُجيزه البَصْرِيُّون؛ لأن "إن" الشرطيةَ لا تَدْخُلُ على الأسماءِ، إلاَّ أَنْ يُضْمَرَ فعلٌ نحو: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ ﴾ [التوبة: 6] . ولا يَصِحُّ إضمارُ الفعلِ هنا؛ لأنه كان يلزَمُ رَفْعُ "شاكراً" وأيضاً فإنَّه لا دليلَ على الفعلِ" انتهى . قلت: لا نُسَلِّمُ أنه يَلْزَمُ رَفْعُ "شاكراً" مع إضمار الفعلِ، ويُمْكِنُ أَنْ يُضْمَرَ فعلٌ يَنْصِبُ "شاكراً" تقديرُه: "إن خَلَقْناهُ شاكراً فشكورٌ، وإنْ خَلَقْناه كافراً فكَفُوْرٌ" .

وقرأ أبو السَّمَّال وأبو العجاج بفتحها . وفيها وجهان، أحدُهما: أَنَّها العاطفةُ، وإنما لغةُ بعضِهم فَتْحُ همزتها، وأنشدوا على ذلك:

4437 يَلْفَحُها أمَّا شمالٌ عَرِيَّةٌ . . . وأمَّا صَباً جِنْحَ العَشِيِّ هَبوبُ

بفتحِ الهمزةِ . ويجوزُ مع فتحِ الهمزةِ إبدالُ ميمِها الأولى ياءً . قال:

4438 . . . . . أَيما إلى جَنَّةٍ أَيما إلى النارِ

وحَذَفَ الواوَ بينهما . والثاني : أنها أمَّا التفصيليةُ ، وجوابُها مقدرٌ . قال الزمخشري : " وهي قراءةٌ حسنةٌ والمعنى : أمَّا شاكِراً فَبِتَوْفِيْقِنا ، وأمَّا كفُوراً فبِسُوءِ اختيارِه " انتهى . ولم يذكُرْ غيرَه .

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4)

قوله : ﴿ سَلاَسِلَ ﴾ : قرأ نافعٌ والكسائيُّ وهشام وأبو بكر بالتنوين ، والباقون بغيرِ تنوينٍ ، ووقَفَ هؤلاءِ وحمزةُ وقنبلٌ عليه بالألفِ بلا خلافٍ . وابنُ ذكوانَ والبزيُّ وحفصٌ بالألفِ وبدونِها ، فعَنْ ثلاثتِهم الخلافُ ، والباقون وقَفوا بدون ألفٍ بلا خلافٍ . فقد تَحَصَّل لك من هذا أن القُرَّاءَ على [أربع] مراتبَ : منهم مَنْ يُنَوِّنُ وصْلاً ، ويقفُ بالألفِ وَقْفاً بلا خلافٍ وهم نافعٌ والكسائيُّ وهشامٌ وأبو بكر ، ومنهم مِنْ لا يُنَوِّنُ ولا يأتي بالألفِ وقفاً بلا خلافٍ ، وهما حمزةُ وقنبلٌ ، ومنهم مَنْ لم يُنَوِّنْ ، ويقف بالألفِ بلا خلافٍ ، وهو أبو عمرٍو وحدَه ، ومنهم مَنْ لم يُنَوِّنْ ، ويقفُ بالألف تارةٍ وبدونِها أخرى ، وهم ابنُ ذكوانَ وحفصٌ والبزيُّ ، فهذا نهايةُ الضبطِ في ذلك .

فأمَّا التنوينُ في " سلاسل " فذكَرُوا له أوجهاً منها : أنه قَصَد بذلك التناسُبَ ؛ لأنَّ ما قبلَه وما بعده منونٌ منصوبٌ . ومنها : أن الكسائيَّ وغيرَه مِنْ أهلِ الكوفةِ حَكَوا عن بعض العربِ أنهم يَصْرِفُون جميعَ ما لا ينصَرِفُ ، إلاَّ أفعلَ منك . قال الأخفش : " سَمِعْنا من العربِ مَنْ يَصْرِفُ كلَّ ما لا يَنْصَرِف ؛ لأنَّ الأصل في الأسماء الصرفُ ، وتُرِكَ الصرفُ

لعارضٍ فيها ، وأنَّ الجمعَ قد جُمِع وإنْ كان قليلاً . قالوا : صواحِب وصواحبات . وفي الحديث : " إنكن لصَواحِبات يوسف " وقال الشعر :

4439 قد جرَتِ الطيرُ أيامِنينا . . . . . .

. . . . . .

(376/795)

فجمع " أيامِن " جَمْعَ تصحيحِ المذكر . وأنشدوا :

4440 وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتَهمْ . . . خُضُعَ الرِّقابِ نواكِسي الأبصارِ

بكسرِ السينِ مِنْ نواكِس ، وبعدَها ياءٌ تَظهرُ خطاً لا لفظاً لذهابِها لالتقاءِ الساكنين ، والأصلُ : " نواكِسِين " فحُذِفَتِ النونُ للإضافةِ ، والياءُ لالتقاءِ الساكنَيْن . وهذا على رواية كسرِ السينِ ، والأشهرُ فيها نصبُ السينِ فلمَّا جُمِع شابَهَ المفرداتِ فانصَرَفَ . ومنها أنه مرسومٌ في إمامِ الحجازِ والكوفةِ بالألفِ ، رواه أبو عبيدٍ ، ورواه قالون عن نافعٍ . وروى بعضُهم ذلك عن مصاحفِ البصرةِ أيضاً ،

وقال الزمخشريُّ : " وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ هذه النونُ بدلاً من حرفِ الإطلاقِ ويَجْري الوصل مَجْرى الوقفِ . والثاني : أَنْ يكونَ صاحبُ هذه القراءةِ مِمَّنْ ضَرِيَ بروايةِ

الشِّعْر ، ومَرَنَ لسانُه على صَرْفِ ما لا ينصرف " . قلت : وفي هذه العبارةِ فَظاظةٌ وغِلْظة ، لا سيما على مَشْيَخَةِ الإسلام وأئمةِ العلماءِ الأعلامِ .

ووَقَفَ هؤلاء بالألفِ ظاهراً . وأمَّا مَنْ لم يُنَوِّنْه/ فظاهرٌ ؛ لأنَّه على صيغةِ منتهى الجموع . وقولهم : قد جُمِع ، نحو : صَواحبات وأيامِنين لا يَقْدَحُ ؛ لأنَّ المَحْذورَ جمعُ التكسيرِ ، وهذا جمعُ تصحيحٍ ، وعَدَمُ وقوفِهم بالألفِ واضحٌ أيضاً . وأمَّا مَنْ لم يُنَوِّنْ ووقفَ بالألفِ فإتْباعاً للرَّسمِ الكريمِ كما تقدَّمَ ، وأيضاً فإنَّ الرَّوْمَ في المفتوحِ لا يُجَوِّزُه القُرَّاءُ ، والقارىءُ قد يُبَيِّنُ الحركةَ في وَقْفِه فأتَوْا بالألفِ لتَتَبَيَّنَ بها الفتحةُ . ورُوِيَ عن بعضٍ أنه يقول : " رَأَيْتُ عُمَرا " بالألف يعني عُمَرَ بن الخطاب . والسَّلاسِلُ : جمع سِلْسلة ، وقد تقدَّمَ الكلامُ فيها .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)

(377/795)

قوله : ﴿ عَيْناً ﴾ في نَصْبِها أوجهٌ ، أحدُها : أنه بدلٌ مِنْ "كافوراً " لأنَّ ماءَها في بياضِ الكافور ، وفي رائحتِه وبَرْدِه . والثاني : أنَّها بدلٌ مِنْ محل " مِنْ كأسٍ " ، قاله مكي ، ولم يُقَدِّرْ حَذْفَ مضافٍ . وقَدَّرَ الزمخشريُّ على هذا الوجهِ حَذْفَ مضافٍ . قال : "كأنه قيل : يَشْرَبون خَمْراً خَمْرَ عَيْنٍ " وأمَّا أبو البقاءِ فجعل المضافَ مقدراً على وجهِ البدلِ مِنْ "

كافوراً " فقال : " والثاني : بدلٌ مِنْ "كافوراً " ، أي : ماءَ عَيْنٍ أو خَمْرَ عَيْن " وهو معنىً حَسَنٌ . الثالث : أنَّها مفعولٌ ب "يَشْرَبون " ، أي : يَشْرَبون عَيْناً مِنْ كأس . الرابع : أنَّ يَنْتصِبَ على الاختصاص . الخامس : بإضمارِ "يَشْربون "يُفَسِّرُه ما بعده ، قاله أبو البقاء . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ الظاهر أنه صفةٌ لعَيْن ، فلا يَصِحُّ أَنْ يُفَسِّر . السادس : بإضمار "يُعْطَوْن " . السابع : على الحالِ من الضمير في "مِزاجُها " ، قاله مكي .

والمِزاج : ما يُمْزَجُ به ، أي : يُخْلَطُ . يقال : مَزَجَه يَمْزُجه مَزْجاً ، أي : خَلَطَهُ يَخلِطُه خَلْطاً . قال حسان :

4441 كأنَّ سَبِيْئَةً مِنْ بيتِ رَأْسٍ . . . يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ

فالمِزاج كالقِوامِ ، اسمٌ لما يقام به الشيءُ . والكافورُ : طِيْبٌ معروفٌ ، وكأنَّ اشتقاقه من الكَفْرِ وهو السَّتْرُ ؛ لأنه يُغَطِّي الأشياءَ برائحتِه . والكافور أيضاً : كِمام الشجرِ التي تُغَطِّي ثمرتَها . ومفعولُ "يَشْربون " : إمَّا محذوفٌ ، أي : يعني : يَشْرَبون ماءً أو خمراً من كأسٍ ، وإمَّا مذكورٌ وهو "عَيْناً "كما تقدَّم ، وإمَّا "مِنْ كأسٍ " و "مِنْ " مزيدةٌ فيه ، وهذا يَتَمشَّى عند الكوفيين والأخفش .

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِمَ وُصِلَ فِعْلُ الشُّرْب بحرفِ الابتداءِ أولاً وبحرف الإلصاقِ آخراً ؟ قلت : لأنَّ الكأسَ مبدأ شُرْبِهِ وأولُ غايتِه ، وأمَّا العَيْنُ فبها يَمْزُجون شرابَهم ، فكأنَّ المعنى : يشْرَبُ عبادُ اللَّهِ بها الخمرَ كما تقول : شَرِبْتُ الماءَ بالعَسل " .

قوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ في الباءِ أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها مزيدةٌ ، أي : يَشْرَبُها ، ويَدُلُّ له قراءةُ ابنُ أبي عبلةَ "يَشْرَبُها " مُعَدَّى إلى الضمير بنفسِه . الثاني : أنها بمعنى "مِنْ" . الثالث : أنها حاليةٌ ، أي : مَمْزوجةٌ بها . الرابع : أنها متعلقةٌ ب "يَشْرَبُ" . والضميرُ يعودُ على الكأس ، أي : يَشْرَبون العَيْنَ بتلك الكأسِ ، والباءُ للإلصاق ، كما تقدَّم في قولِ الزمخشري . الخامس : أنه على تَضْمين "يَشْرَبُون" معنى : يَلْتَذُّون بها شاربين . السادس : على تَضْمينِه معنى "يَرْوَى" ، أي يَرْوَى بها عبادُ اللَّهِ . وكهذه الآية في بعضِ الأوجهِ قولُ الهُذَلي :

4442 شَرِبْنَ بماءِ البحرِ ثم تَرَفَّعَتْ . . . متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهنَّ نَئِيجُ

فهذه تحتملُ الزيادةَ ، وتحتملُ أنْ تكونَ بمعنى "مِنْ" . والجملةُ مِنْ قولِه "يَشْرَبُ بها " في محلِّ نصبٍ صفةٍ ل "عَيْناً " إنْ جَعَلْنا الضميرَ في "بها " عائداً على "عَيْناً " ولم نجعَلْه مُفَسِّراً لناصبٍ ، كما قاله أبو البقاء . وقرأ عبد الله " قافوراً " بالقاف بدلَ الكافِ ، وهذا مِنْ التعاقُبِ بين الحرفَيْنِ كقولهم : " عربيٌّ قُحٌّ وكُحٌّ . و "يُفَجِّرونها " في موضع الحال .

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7)

قوله : ﴿ يُوفُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً لا محلَّ له البتةَ ، ويجوز أَنْ يكونَ خبراً لكان مضمرةً ، قال الفراء : " التقديرُ : كانوا يُوْفُوْن بالنَّذْر في الدنيا ، وكانوا يخَافون " انتهى . وهذا ما لا حاجةَ إليه . الثالث : أنه جوابٌ لمَنْ قال : ما لمُرْزَقون ذلك ؟ . قال الزمخشري : " يُوْفُوْن " جوابُ مَنْ عَسَى يقول : ما لمُرْزَقون ذلك " ؟ قال الشيخ : " واستعمل " عَسَى " صلةً لمَنْ وهو لا يجوزُ ، وأتى بالمضارع بعد " عَسَى " غيرَ مقرونٍ ب " أَنْ " / وهو قليلٌ أو في الشعر " .

قوله : ﴿ كَانَ شَرُّهُ ﴾ في موضع نصبٍ صفةً ل " يَومْ " . والمُسْتَطِير : المنتشر يُقال : استطار يَسْتطير اسْتِطارةً فهو مُسْتَطير ، وهو استفعل من الطَّيران قال الشاعر :

4443 فباتَتْ وقد أسْأَرَتْ في الفؤا . . . دِصَدْعاً عل نَأْيِها مُسْتطيرا

وقال الفراء : " المُسْتطير : المُسْتطيل " . قلت كأنه يريدُ أنه مِثْلُه في المعنى ، لا أنه أَبْدَل من اللامِ راءً . والفجرُ فجران : مستطيلٌ كذَنَبِ السِّرحان وهو الكاذِبُ ، ومُسْتطيرٌ وهو الصادِقُ لانتشارِه في الأُفُق .

وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8)

قوله : ﴿ حُبِّهِ ﴾ : حالٌ : إمَّا من الطعامِ ، أي : كائنين حلى حُبِّهم الطعامَ ، وإمَّا من الفاعلِ . والضميرفي " حُبِّه " للهٰ تعالى ، أي : على حُبِّ اللهِ . وعلى التقديرَيْن فهو مصدرٌ مضافٌ للمفعول .

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10)

قوله : ﴿ قَمْطَرِيراً ﴾ : القَمْطَرير : الشديدُ . وأصلُه كما قال الزجاج : " مُشتقٌّ من اقْمَطَرَّت الناقةُ : إذا رفعَتْ ذنَبها ، وجمعَتْ قُطْرَيْها ، وزمَّتْ بأَنْفِها . قال الزمخشري : " فاشتقَّه من القَطْر ، وجعل الميمَ مزيدةً . قال أسد بن ناعصة :

(380/795)

4444 واصْطَلَيْتُ الحروبُ في كلِّ يومٍ . . . باسِلِ الشَّرِّ قَمْطَرِيرِ الصَّباحِ

قال الشيخ : " واختلف النحاةُ في هذا الوزن ، والأكثرُ لا يُثْبِتُ افْمَعَلَّ في أوزان الأفعالِ "

ويقال : اقْمَطَرَّ يَقْمَطِرُّ فهو مُقْمَطِرٌّ ، قال الشاعر :

4445 تَلْزُبُ العقربُ تَزْبِئِرُّ . . . تكسو استَها لحماً وتَقْمَطِرُّ

ويومٌ قَمْطرير وقُماطر بمعنى : شديد . قال الشاعر :

4446 فَفِرُّوا إذا ما الحربُ ثارَ غبارُها . . . ولَجَّ بها اليومُ الشديدُ القُماطِرُ

وقال الزجَّاج: "القَمْطَرِيرْ" الذي يَعْبَسُ حتى يجتمعَ ما بين عينَيْه" انتهى . فعلى هذا استعمالُه في اليومِ مجازاً . وفي بعض كلامِ الزمخشري أنه جعَلَه من القَمْط ، فعلى هذا تكون الراءان فيه مزيدتَيْن .

وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12)

قوله: ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ : "ما" مصدريةٌ . و "جنةٌ" مفعولٌ ثانٍ أي: جَزاهم جنةً بصَبْرهم . وقدَّر مكي مضافاً فقال: "تقديرُه: دخولَ جنة ولِبْسَ حرير" .

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13)

قوله: ﴿ مُّتَّكِئِينَ ﴾ : حال مِنْ مفعول "جَزاهم" .

(381/795)

وقرأ علي رضي الله عنه "وجازاهم" وجوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ "مُتَّكِئين" صفةً ل "جَنَّةً" . وهذا لا يجوزُ عند البَصْريين؛ لأَنَّه كان يلزَم بروزُ الضميرِ فيقال: مُتَّكِئين هم فيها ، لجريانِ الصفةِ على غيرِ مَنْ هي له . وقد مَنَعَ مكي أن يكونَ "مُتَّكِئين" صفةً ل "جنةً" لِما ذكرْتُه مِنْ عَدَمِ بُروزِ الضمير . وممَّنْ ذَهَبَ إلى كونِ "مُتَّكِئين" صفةً ل "جَنَّةً" الزمخشريُّ فإنه قال: "ويجوزُ أَنْ تكونَ "مُتَّكِئين" . و "لا يَرَوْن" و "دانيةً" كلُّها صفاتٍ ل "جنةٌ"

وهو مردودٌ بما ذكرْتُه . ولا يجوزُ أَنْ يكونُ " مُتَّكِئين " حالاً مِنْ فاعل " صَبَروا " ؛ لأنَّ الصَّبْرَ كان في الدنيا واتّكاءَهم إنما هو في الآخرة ، قال معناه مكي . ولقائلٍ أَنْ يقول : إن لم يكنِ المانعُ إلاَّ هذا فاجْعَلْها حالاً مقدرةً ؛ لأن مآلهم بسبب صَبْرهم إلى هذه الحالِ . وله نظائرُ .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ إمَّا على إضمارِ القولِ أي : قائلين ذلك . وقرأ أبو جعفر " فَوَقَّاهم " بتشديد القافِ على المبالغةِ .

قوله : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّها حالٌ ثانيةٌ مِنْ مَفْعول " جزاهم " .

الثاني : أنها حالٌ من الضميرِ المرفوعِ المستكنِّ في " مُتَّكِئين " ، فتكونُ حالاً متداخلةً .

الثالث : أَنْ تكونَ صفةً لجنة كمتَّكِئين عند مَنْ يرى ذلك وقد تقدَّم أنه قولُ الزمخشريِّ .

والزَّمْهَرير : أشدُّ البردِ . هذا هو المعروفُ . وقال ثعلب : هو القمرُ بلغة طيِّىء وأنشد :

4447 في ليلةٍ ظلامُها قد اعتكَرْ . . . قَطَعْتُها والزَّمْهريرُ ما زَهَرْ

والمعنى : أنَّ الجنةَ لا تحتاجُ إلى شمسٍ ولا إلى قمرٍ ووزنُه فَعْلَلِيل .

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14)

قوله : ﴿ وَدَانِيَةً ﴾ : العامة على نصبها وفيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها عطفُ على محلِّ " لا يَرَوْن " . الثاني : أنها معطوفة على " مُتَّكِئين " ، فيكونُ فيها ما فيها . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ودانيةً عليهم ظلالُها علامَ عُطِف ؟ قلت : على الجملةِ التي قبلها ، لأنَّها في موضع الحال من المَجْزِيِّيْنَ ، وهذه حالٌ مثلُها عنهم ، لرجوعِ الضميرِ منها إليهم في " عليهم " إلاَّ أنَّها اسمٌ مفردٌ ، وتلك جماعةٌ في حكمِ مفردٍ ، تقديره : غيرَ رائين فيها شَمْساً ولا زَمْهريراً ودانية . ودخلت الواوُ للدَّلالة على أن الأمرَيْن مجتمعان لهم . كأنَّه قيل : وجَزاهم/ جنةً جامِعِيْنَ فيها : بين البُعْدِ عن الحَرِّ والقُرِّ ودُنُوِّ الظِّلال عليهم . الثالث : أنها صفةٌ لمحذوفٍ أي : وجنةً دانِيَةً ، قاله أبو البقاء . الرابع : أنها صفةٌ لـ " جنةٌ " الملفوظِ بها ، قاله الزجَّاج .

وقرأ أبو حيوةَ " ودانِيَةٌ " بالرفع . وفيها وجهان ، أظهرهما : أَنْ يكونَ " ظلالُها " مبتدأ و " دانيةٌ " خبرٌ مقدمٌ . والجملةُ في موضعِ الحال . قال الزمخشري : " والمعنى : لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً ولا زَمْهريراً ، والحالُ أنَّ ظلالَها دانِيَةٌ عليهم " . والثاني : أَنْ ترتفعَ " دانيةٌ " بالابتداء ، و " ظلالُها " فاعلٌ به ، وبها استدلَّ الأخفشُ على جوازِ إعمالِ اسمِ الفاعلِ ، وإنْ لم يَعْتَمِدْ نحو : " قائمٌ الزيدون " ، فإنَّ " دانية " لم يعتمِدْ على شيءٍ مِمَّا ذكره النَّحْوِيُّون ، ومع ذلك فقد رُفِعَتْ " ظلالُها " وهذا لا حُجَّة له فيه ؛ لجوازِ أَنْ يكونَ مبتدأً وخبراً مقدَّماً كما تقدَّم .

وقال أبو البقاء : " وحُكِيَ بالجَرِّ أي : في جنَّةٍ دانية . وهو ضعيفٌ ؛ لأنه عُطِفَ على الضميرِ المجرورِ من غيرِ إعادةِ الجارِّ " . قلت : يعني أَنَّه قُرِىء شاذاً " ودانِيَةٍ " بالجَرِّ على أنها صفةٌ لمحذوفٍ ، ويكونُ حينئذٍ نَسَقاً على الضميرِ المجرورِ بالجَرِّ مِنْ قولِه : " لا يَرَوْنَ فيها " أي : ولا في جنةٍ دانيةٍ . وهو رَأْيُ الكوفيين : حيث يُجَوِّزون العطفَ على الضميرِ المجرورِ مِنْ غيرِ إعادةِ الجارِّ ؛ ولذلك ضَعَّفَه ، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك مُشْبعاً في البقرة .

وأمَّا رَفْعُ " ظلالُها " فيجوز أَنْ يكونَ مبتدأً و " عليهم " خبرٌ مقدمٌ ، ولا يرتفع ب " دانية " ؛ لأنَّ " دنا " يتعدَّى ب " إلى " لا ب " على " . والثاني : أنها مرفوعةٌ ب " دانية " على أَنْ تُضَمَّن معنى " مُشْرِفَة " لأنَّ " دنا " و " أَشْرَفَ " يتقاربان ، قال معناه أبو البقاء ، وهذان الوجهان جاريان في قراءةِ مَنْ نصبَ " دانيةً " أيضاً .

وقرأ الأعمش " ودانِياً " بالتذكير للفَصْلِ بين الوَصْفِ وبين مرفوعِه ب " عليهم " ، أو لأنَّ الجمعَ مذكرٌ .

وقرأ أُبَيٌّ " ودانٍ عليهم " بالتذكير مرفوعاً ، وهي شاهدةٌ لمذهبِ الأخفشِ ، حيث يرفع باسمِ الفاعلِ . وإنْ لم يَعْتَمِد . ولا جائزٌ أَنْ يُعْرَبا مبتدأً وخبراً مقدَّماً لعدمِ المطابقةِ . وقال

مكي : " وقُرِىء " دانِياً " ثم قال : " ويجوزُ " ودانيةٌ " بالرفعِ ، ويجوزُ " دانٍ " بالرفعِ والتذكيرِ " ولم يُصَرِّح بأنهما قُرِئا ، وقد تقدَّم أنهما مقروءٌ بهما فكأنَّه لم يَطَّلِعْ على ذلك .

(384/795)

قوله : ﴿ وَذُلِّلَتْ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ في موضع نصبٍ على الحال عطفاً على " دانِيَةً " فيمَنْ نَصَبَها أي : ومُذَلَّلةً . ويجوزُ أَنْ تكونَ حالاً من الضميرِ في " عليهم " سواءً نَصَبْتَ " دانِيَةً " أو رَفَعْتَها ، أم جَرَرْتَها . ويجوزُ أَنْ تكونَ مستأنفةً . وأمَّا على قراءةِ رفعِ " ودانيةٌ " فتكونُ جملةً فعليةً عُطِفَتْ على اسميَّةٍ . ويجوزُ أَنْ تكونَ حالاً كما تقدَّمَ .

وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15)

قوله : ﴿ بِآنِيَةٍ ﴾ : هذا هو القائمُ مقامَ الفاعلِ ، لأنَّه هو المفعولُ به في المعنى . ويجوزُ أَنْ يكونَ " عليهم " . وآنِيَة : جمعُ " إناء " والأصلُ : أَأْنِيَة بهمزتَيْنِ الأُولى مزيدةٌ للجمع ، والثانيةُ فاءُ الكلمة فقُلِبَتِ الثانيةُ ألفاً وُجوباً ، وهذا نظيرُ : كِساءٍ وأَكْسِيَة وغِطاءٍ وأَغْطِيَة ، ونظيرُه في الصحيح اللامِ : حِمار وأَحْمِرة . و " مِنْ فضةٍ " نعتٌ ل " آنية " .

قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16)

قوله : ﴿ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا ﴾ : اختلف القُراء في هذَين الحرفَيْن بالنسبة إلى التنوين وعَدَمِه

، وفي الوقوفِ بالألفِ وعَدَمِها كما تقدَّم خلافُهم في ﴿ سَلاَسِلَ ﴾ . واعلَمْ أنَّ القُرَّاء فيهما على خمسِ مراتبَ ، إحداها : تنوينُهما معاً ، والوقفُ عليهما : بالألفِ ، لنافعٍ والكسائيِّ وأبي بكر . الثانيةُ : مقابِلَةُ هذه ، وهي عَدَمُ تنوينِهما وعَدَمُ الوقفِ عليهما بالألفِ ، لحمزةَ وحدَه . الثالثة : عَدَمُ تنوينِهما ، والوقفُ عليهما بالألف ، لهشامٍ وحدَه . الرابعة : تنوينُ الأولِ دونَ الثاني ، والوقفُ على الأولِ بالألفِ ، وعلى الثاني بدونِها ، لابنِ كثيرٍ وحدَه . الخامسةُ : عَدَمَ تنوينِهما معاً ، والوقفُ على الأولِ بالألفِ ، وعلى الثاني بدونِها : لأبي عمروٍ وابن ذكوانَ وحفصٍ .

(385/795)

فأمَّا مَنْ نَوَّنَهما فلِما مَرَّ في تنوينِ سلاسل ؛ لأنَّهما صيغةُ منتهى الجمع ، ذاك على مَفاعلِ ، وذا على مَفاعيل . والوقفُ بالألفِ التي هي بدلٌ من التنوين ، وفيه موافقةُ المصاحفِ المذكورةِ فإنَّهما مَرْسومان فيها بالألفِ على ما نَقَلَ أبو عبيد . وأمَّا عَدَمُ تنوينِهما وعَدَمُ الوقفِ بالألف فظاهرٌ جداً . وأمَّا مَنْ نَوَّنَ الأولَ دونَ الثاني ، فإنَّه/ ناسَبَ بين الأولِ وبين رؤوسِ الآيِ . ولم يناسِبْ بينَ الثاني وبين الأولِ . والوجهُ في وَقْفِه على الأولِ بالألفِ وعلى الثاني بغيرِ ألفٍ ظاهرٌ . وقد رَوَى أبو عُبيد أنه كذلك في مصاحِفِ أهلِ البصرة .

وأمَّا مَنْ لم يُنَوِّنْهما ، ووقف على الأولِ بالألفِ ، وعلى الثاني بدونِها ؛ فلأنَّ الأولَ رأسُ آيةٍ فناسَبَ بينه وبين رؤوس الآيِ في الوقفِ بالألفِ . وفرَّق بينه وبين الثاني ؛ لأنه ليسَ برأس آيةٍ . وأمَّا مَنْ لم يُنَوِّنْهما ووقف عليهما بالألفِ فلأنَّه ناسَبَ بين الأول وبين رؤوس الآيِ وناسَبَ بين الثاني وبين الأولِ . وحَصَل مِمَّا تقدَّم في " سلاسل " وفي هذَيْن الحرفَيْنِ أنَّ القُرَّاءَ منهم مَنْ وافَقَ مصحَفَه ، ومنهم مَنْ خالفَه لاتِّباع الأثَرِ . وتقدَّم الكلامُ على " قواريرَ " في سورةِ النمل ولله الحمدُ .

وقال الزمخشري : " وهذا التنوين بدلٌ مِنْ حرفِ الإطلاقِ لأنَّه فاصلةٌ ، وفي الثاني لإتباعِه الأولَ " يعني أنَّهم يأتُون بالتنوينِ بدلاً مِنْ حرفِ الإطلاق الذي للترنم ، كقولِه :

(386/795)

4448 يا صاحِ ما هاجَ الدُّموعَ الذُّرَّفَنْ . . . وفي انتصابِ " قواريرَ " وجهان ، أحدُهما وهو الظاهرُ أنَّه خبرُ كان . والثاني : أنها حالٌ ، و " كان " تامةٌ أي : كُوِّنَتْ فكانَتْ . قال أبو البقاء : " وحَسُن التكريرُ لما اتَّصل به مِنْ بيانِ أصلِها ، ولولا التكريرُ لم يَحْسُنْ أنْ يكونَ الأولُ رأسَ آيةٍ لشدَّةِ اتصالِ الصفةِ بالموصوفِ . وقرأ الأعمش " قواريرُ " بالرفع على إضمارِ مبتدأ أي : هي قواريرُ . و " مِنْ فضة " صفةٌ لـ " قواريرَ " .

قوله : ﴿ قَدَّرُوهَا ﴾ صفةٌ لـ " قواريرَ " . والواو في " قَدَّروها " فيه وجهان ، أحدهما : أَنَّه للمُطافِ عليهم . ومعنى تقديرهم إياها : أنهم قَدَّروها في أنفسِهم أَنْ تكونَ على مقاديرَ وأشكالٍ على حَسَبِ شَهَواتِهم ، فجاءَتْ كما قَدَّروا .

والثاني : أنَّ الواو للطائفين للدلالةِ عليهم ، مِنْ قولِه تعالى : " ويُطافُ " والمعنى : أنهم قَدَّروا شرابَها على قَدْرِ رِيِّ الشَّارِب ، وهو ألذُّ الشرابِ لكونِه على مِقْدارِ حاجتِه لا يَفْضُلُ عنها ولا يَعْجِزُ ، قاله الزمخشري . وجَوَّزَ أبو البقاء أَنْ تكونَ الجملةُ مستأنفةً .

(387/795)

وقرأ عليٌّ وابنُ عباس والسُّلميُّ والشعبيُّ وزيدُ بن علي وأبو عمرو في روايةِ الأصمعيِّ " قُدِّرُوْها " مبنياً للمفعول . وجَعَله الفارسِيُّ مِنْ بابِ المَقْلوبِ قال : " كأنَّ اللفظ : قُدِّروا عليها . وفي المعنى قَلْبٌ ؛ لأنَّ حقيقةَ المعنى أن يقال : قُدِّرَتْ عليهم ، فهي مثلُ قولِه : ﴿ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة ﴾ [القصص : 76] ومثلُ قولِ العرب : " إذا طَلَعَتِ الجَوْزاءُ أُلْقِيَ العُوْدُ على الحِرْباء " . وقال الزمخشري : " ووجهُه أَنْ يكونَ مِنْ قُدِّر منقولاً مِنْ قَدَرَ . تقول : قَدَرْتُ [الشيءَ] وقَدَرَنيه فلان ، إذا جعلك قادراً له ومعناه : جُعلوا قادرين لها كما شاؤوا ، وأُطْلِق لهم أَنْ يُقَدِّروا على حَسَبِ ما اشْتَهَوْا " . وقال أبو حاتم : " قُدِّرَتْ

الأواني على قَدْرِ ريِّهم " ففسَّر بعضُهم قولَ أبي حاتمٍ هذا قال : " فيه حَذْفٌ على حَذْفٍ : وهو أنه كان : " قُدِّرَ على قَدْرِ ريِّهم إياها " ثم حُذِفَ " على " فصار : " قَدْرُ ريِّهم " على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه ، ثم حُذِف " قَدْرُ " فصار " ريُّهم " ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، فحُذِفَ الرِّيُّ فصارَتِ الواوُ مكانَ الهاءِ والميمِ ، لَمَّا حُذِفَ المضافُ مِمَّا قبلَها ، وصارَتِ الواوُ مفعولَ ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، واتصلَ ضميرُ المفعولِ الثاني في تقديرِ النصبِ بالفعلِ بعدَ الواوِ التي تَحَوَّلَتْ من الهاءِ والميم ، حتى أُقيمَتْ مُقامَ الفاعل " . قلت : وفي هذا التخريجِ من التكلُّف ما لا يَخْفَى مع عَجْرَفَةِ ألفاظِه .

(388/795)

وقال الشيخ : " والأقربُ في تخريج هذه القراءةِ الشاذَّة : " قُدِّرَ رِيُّهم منها تقديراً " فحُذِف المضافُ وهو الرِّيُّ ، وأُقيم الضميرُ مُقامَه ، فصار التقديرُ : قُدِّروا مِنْها ، ثم اتُّسِع في الفعل فحُذِفَتْ " مِنْ " ووصَلَ الفعلُ إلى الضميرِ بنفسِه فصار : " قُدِّرُوْها " فلم يكن فيه إلاَّ حَذْفُ مضافٍ واتِّساعٌ في الفعل " . قلت : وهذا مُنْتَزَعٌ من تفسيرِ كلامِ أبي حاتم .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17)

قوله : ﴿ زَنجَبِيلاً ﴾ : الزَّنجبيل : نَبْتٌ معروفٌ ، وسُمِّيَتْ الكأسُ بذلك لوجودِ طَعْم

الزَّنْجبيل فيها . والعربُ تَستَلِذُّه . وأنشد الزمخشريُّ للأعشى :

4449 كأنَّ القُرُنْفُلَ والزَّنْجَبِيْ . . . لَ باتا بِفِيْها وأَرْيًا مَشُورا

/ وأنشد للمسيَّب بن عَلَس :

4450 وكأن طَعْمَ الزَّنْجبيلِ به . . . إذا ذُقْتَه وسُلافةَ الخمرِ

و" عَيْناً " فيها من الوجوه ما تقدَّمَ .

عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)

قوله : ﴿ سَلْسَبِيلاً ﴾ : السَّلْسَبيل : ما سَهُل انحدارُه في الحَلْف . قال الزجاج : " هو في اللغة صفةٌ لِما كان في غايةِ السَّلاسَة " . وقال الزمخشري : " يقال : شَرابٌ سَلْسَلٌ وسَلْسالٌ وسَلْسبيل ، وقد زِيْدت الباءُ في التركيبِ حتى صارَتِ الكلمةُ خماسيَّةً ، ودَلَّتْ على غايةِ السَّلاسَةِ " . قال الشيخ : " فإنْ كان عَنى أنَّه زِيْدت حقيقةً فليس بجيدٍ ؛ لأنَّ الباءَ ليسَتْ من حروف الزيادةِ المعهودةِ في علمِ النحوِ ، وإنْ عَنَى أنها حرفٌ جاء في سِنْخِ الكلمةِ ، وليس في سَلْسَل ولا سَلْسال فَيَصِحُّ ، ويكون مما اتَّفَقَ معناه ، وكان مختلفاً في المادة " . وقال ابن الأعرابي : " لم أسمَعْ السَّلْسبيلَ إلاَّ في القرآنِ " . وقال مكي : " هو اسمٌ أعجميٌّ نكرةٌ ، فلذلك صُرِفَ " .

ووزن سَلْسَبيل : فَعْلَلِيْل مثلَ " دَرْدَبيس " . وقيل : فَعْفَليل ؛ لأنَّ الفاءَ مكررةٌ . وقرأ طلحةُ " سَلْسَبيلَ " دونَ تنوينٍ ومُنِعَتْ من الصرف للعلميَّةِ والتأنيث ؛ لأنها اسمٌ لعَيْنٍ بعينها ، وعلى هذا فكيف صُرِفَتْ في قراءةِ العامَّةِ ؟ فيُجاب : بأنَّه سُمِّيَتْ بذلك لا على جهة العَلَمِيَّة بل على جهة الإطلاقِ المجرَّدِ ، أو يكونُ مِنْ بابِ تنوين ﴿ سَلاَسِلَ ﴾ [الإنسان : 4] ﴿ قَوَارِيرَاْ ﴾ [الإنسان : 15] وقد تقدَّمَ . وأغربُ ما قيل في هذا الحرف أنه مركبٌ من كلمَتَيْن : مِنْ فعلِ أمرٍ وفاعلٍ مستترٍ ومفعولٍ . والتقدير : سَلْ أنت سَبيلا إليها . قال الزمخشري : " وقد عَزَوْا إلى عليٍّ رضي الله عنه أنَّ معناه : سَلْ سبيلاً إليها " . قال : " وهذا غيرُ مستقيمٍ على ظاهِره ، إلاَّ أنْ يُرادَ أنَّ جملةَ قولِ القائلِ " سَلْ سبيلاً " جَعِلَتْ عَلَماً للعين ، كما قيل : تأبَّط شَرّاً وذَرَّى حبَّا . وسُمِّيت بذلك لأنه لا يَشْرَبُ منها إلاَّ مَنْ سأل سبيلاً إليها بالعمل الصالِح ، وهو مع استقامتِه في العربية تكلُّفٌ وابتداعٌ وعَزْوُه إلى مثلِ عليّ عليه السلام أَبْدَعُ . وفي شعرِ بعضِ المُحْدَثين :

4451 سَلْ سبيلاً فيها إلى راحةِ النَّفْـ . . . ـسِ براحٍ كأنَّها سَلْسَبيلُ

قال الشيخ بعد تعجُّبِه مِنْ هذا القول : " وأَعْجَبُ مِنْ ذلك توجيهُ الزمخشريِّ له واشتغالُه بحكايتِه " . قلت : ولو تأمَّل ما قاله الزمخشريُّ لم يَلُمْه ، ولم يتعجَّبْ منه ؛ لأنَّ الزمخشري هو الذي شَنَّعَ على هذا القولِ غاية التشنيع . وقال أبو البقاء : " والسلسبيل كلمةٌ واحدةٌ " .

وفي قوله : "كلمة واحدة" تلويحٌ وإيماءٌ إلى هذا الوجهِ المذكور .

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20)

(390/795)

قوله : ﴿ ثَمَّ ﴾ هذا ظرفُ مكانٍ وهو مختصٌّ بالبُعْدِ . وفي انتصابِه هنا وجهان ، أظهرُهما : أنه منصوبٌ على الظرفِ . ومعفولُ الرؤيةِ غيرُ مذكورٍ ؛ لأنَّ القصد : وإذا صَدَرَتْ منك رؤيةٌ في ذلك المكانِ رَأَيْتَ كيتَ وكيتَ ، ف " رَأَيْتَ " الثاني جوابٌ ل " إذا " . وقال الفراء : " ثَمَّ " مفعولٌ به ل " رَأَيْتَ " . وقال الفراء أيضاً : " وإذا رَأَيْتَ تقديره : " ما ثَمَّ " ، ف " ما " مفعولٌ فحُذِفَتْ " ما " وقامت " ثَمَّ " مَقام " ما " . قال الزمخشري تابعا لأبي إسحاق : " ومَنْ قال : معناه " ما ثَمَّ " فقد أخطأ ؛ لأنَّ " ثَمَّ " صلةٌ ل " ما " ، ولا يجوزُ إسقاطُ الموصولِ وتَرْكُ الصلةِ " وفي هذا نظرٌ ؛ لأنَّ الكوفيين يُجَوِّزُون مثلَ هذا ، واستدلُّوا عليه بأبياتٍ وآياتٍ ، تقدَّم الكلامُ عليها مُسْتوفى في أوائل هذا الموضوع .

وقال ابن عطية : " وثَمَّ ظرفٌ . والعاملُ فيه " رَأَيْتَ " أو معناه ، والتقديرُ : رأيتَ ما ثَمَّ ، فحُذِفَتْ ما " . قال الشيخ : " وهو فاسِدٌ ؛ لأنَّه مِنْ حيثُ جَعَلَه معمولاً ل " رَأَيْتَ " لا يكونُ صلةً ل " ما " ؛ لأنَّ العاملَ فيه إذ ذاك محذوفٌ أي : ما استقرَّ ثَمَّ " . قلت : ويمكنُ أَنْ

يُجاب عنه : بأنَّ قولَه : " أو معناه " هو القولُ بأنَّه صلةٌ لموصول ، فيكونان وجهَيْن لا وجهاً واحداً ، حتى يَلْزَمَهَ الفسادُ ، ولولا ذلك لكان قولُه : " أو معناه " لا معنى له . ويعني بمعناه أي : معنى الفعلِ مِنْ حيث الجملةُ ، وهو الاستقرارُ المقدَّرُ .

(391/795)

والعامَّةُ على فتحِ الثاءِ مِنْ " ثَمَّ " كما تقدَّم . وقرأ حميد الأعرج بضمِّها على أنَّها العاطفَةُ ، وتكونُ قد عَطَفَتْ " رأَيْتَ " الثاني على الأول ، ويكون فعلُ الجوابِ محذوفاً ، ويكونُ فعلُ الجوابِ المحذوفِ هو الناصبَ لقولِه : " نعيماً " ، والتقدير : وإذا صَدَرَ منك رؤيةٌ ، ثم صَدَرَتْ رؤيةٌ/ أخرى رأَيْتَ نعيماً ومُلْكاً . فَرأَيْتَ هذا هو الجوابُ .

عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21)

قوله : ﴿ عَالِيَهُمْ ﴾ : قرأ نافعٌ وحمزةُ بسكونِ الياءِ وكسرِ الهاء ، والباقون بفتح الياءِ وضمِّ الهاء . لَمَّا سَكَنَتِ الياءُ كُسِرَتْ الهاءُ ، ولَمَّا تَحَرَّكَتْ ضُمَّت على ما تَقَرَّرَ في هاءِ الكنايةِ أولَ هذا الموضوعِ . فإمَّا قراءةُ نافعٍ وحمزةَ ففيها أوجهٌ ، أظهرُها : أَنْ تكونَ خبراً مقدَّماً . و " ثيابُ " مبتدأٌ مؤخرٌ ، والثاني : أنَّ " عالِيْهم " مبتدأ و " ثيابُ " مرفوعٌ على

جهةِ الفاعلية ، وإنْ لم يعتمد الوصفُ ، وهذا قولُ الأخفشِ .

والثالث : أنَّ " عالِيْهم " منصوبٌ ، وإنما سُكِّن تخفيفاً ، قاله أبو البقاء . وإذا كان منصوباً فسيأتي فيه أوجهٌ ، وهي واردَة هنا ؛ إلاَّ أنَّ تقديرَ الفتحةِ من المنقوصِ لا يجوزُ إلاَّ في ضرورةٍ أو شذوذٍ ، وهذه القراءةُ متواترةٌ فلا ينبغي أَنْ يُقالَ به فيها .

(392/795)

وأمَّا قراءةُ مَنْ نَصَبَ ففيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه ظرفٌ خبراً مقدماً ، و " ثيابُ " مبتدأٌ مؤخرٌ كأنه قيل : فوقَهم ثيابُ . قال أبو البقاء : " لأنَّ عالِيَهم بمعنى فَوْقَهم . وقال ابن عطية : " ويجوز في النصبِ أَنْ تكونَ على الظرف لأَنَّه بمعنى فوقهم " . قال الشيخ : " وعالٍ وعالية اسمُ فاعلٍ ، فيحتاج في [إثبات] كونِهما ظرفَيْن إلى أَنْ يكونَ منقولاً مِنْ كلامِ العرب : عالِيَك أو عاليتُك ثوبُ " . قلت : قد وَرَدَتْ ألفاظٌ مِنْ صيغةِ أسماءِ الفاعِلِيْن ظروفاً نحو : خارجَ الدار وداخلَها وباطنَها وظاهرَها . تقول : جلَسْتُ خارجَ الدارِ ، وكذلك البواقي فكذلك هذا .

(393/795)

الثاني : أنَّه حالٌ من الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإنسان : 19] . الثالث : أنه حالٌ مِنْ مفعولِ ﴿ حَسِبْتَهُمْ ﴾ [الإنسان : 19] . الرابع : أنه حالٌ مِنْ مضافٍ مقدرٍ ، أي : رأَيتَ أهلَ نعيم ومُلكٍ كبير عالَيهم . ف " عالَيهم " حالٌ مِنْ " أهل " المقدرِ . ذكرَ هذه الأجهَ الثلاثةَ الزمخشريُّ فإنه قال : " وعالَيهم بالنصبِ على أنَّه حالٌ من الضميرِ في " يَطوف عليهم " أو في " حَسِبْتَهم " ، أي : يطوفُ عليهم وِلْدانٌ عالياً للمَطوفِ عليهم ثيابٌ ، أو حَسِبْتَهم لؤلؤاً عالَيهم ثيابٌ . ويجوزُ أَنْ يراد : [رأيت] أهلَ نعيم " . قال الشيخ : " أمَّا أَنْ يكونَ حالاً من الضمير في " حَسِبْتَهم " فإنه لا يعني إلاَّ ضمير المفعول ، وهو لا يعودُ إلاَّ على " وِلدانٌ " ولذلك قدَّر " عالَيهم " بقوله : " عالياً لهم " ، أي : للوِلْدان . وهذا لا يَصْلُحُ ؛ لأنَّ الضمائر الآتية بعد ذلك تَدُلُّ على أنها للمَطوفِ عليهم مِنْ قوله : " وحُلُّوا " و " سَقاهم " و ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ وفَكُّ الضمائر وَجَعْلُ هذا لذا ، وهذا لذا ، مع عدمِ الاحتياجِ والاضطرارِ إلى ذلك ، لا يجوزُ . وأمَّا جَعْلُه حالاً مِنْ محذوفٍ وتقديرُه : أهلَ نعيم فلا حاجةَ إلى ادِّعاء الحَذْفِ مع صحةِ الكلامِ وبراعتِه دونَ تقديرِ ذلك المحذوفِ " .

قلت : جَعْلُ أحَدِ الضمائر لشيءٍ والآخرِ لشيءٍ آخرَ لا يمنعُ صحةَ ذلك مع ما يميِّزُ عَوْدَ كلِّ واحدٍ إلى ما يليقُ به ، وكذلك تقديرُ المحذوفِ غيرُ ممنوعٍ أيضاً ، وإنْ كان الأحسنُ أَنْ تتفقَ

الضمائرُ ، وأن لا يُقدَّرَ محذوفٌ ، والزمخشريُّ إنما ذَكَرَ ذلك على سبيل التجويزِ ، لا على أنَّه أَوْلى أو مساوٍ ، فَيُرَدُّ عليه بما ذكره .

(394/795)

الخامس : أنه حالٌ مِنْ مفعول " لَقَّاهم " . السادس : أنه حال مِنْ مفعول " جَزاهُمْ " ذكرهما مكي . وعلى هذه الأوجهِ التي انتصبَ فيها على الحالِ يرتفعُ به " ثيابُ " على الفاعلية ، ولا تَضُرُّ إضافتُه إلى معرفةٍ في وقوعِه حالاً ؛ لأنَّ الإضافةَ لفظيةٌ ، كقولِه تعالى : ﴿ عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] [وقولِه :]

4452 يا رُبَّ غابِطِنا . . . . . .

. . . . . .

ولم يؤنَّثْ " عالياً " لأنَّ مرفوعَه غيرُ حقيقيِّ التأنيثِ . السابع : أَنْ ينتصِبَ " عاليَهم " على الظرفيةِ ، ويرتفع " ثيابُ " به على جهة الفاعلية . وهذا ماشٍ على قولِ الأخفش والكوفيين حيث يُعملون الظرفَ وعديلَه وإنْ لم يَعْتمد ، كما تقدَّم ذلك في الوصفِ . وإذا رُفِعَ " عاليَهم " بالابتداء و " ثيابُ " على أنه فاعلٌ به كان مفرداً على بابِه لوقوعِه موقعَ الفعلِ ، وإذا جُعل خبراً مقدَّماً كان مفرداً مُراداً به الجمعُ ، فيكونُ كقولِه تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ

القوم ﴾ [الأنعام : 45] ، أي : أدبار ، قاله مكي .

وقرأ ابن مسعود وزيد بن علي " عاليتُهم " مؤنثاً بالتاء مرفوعاً . والأعمش وأبان عن عاصم كذلك ، إلاَّ أنه منصوبٌ ، وقد عَرَفْتَ الرفعَ والنصبَ ممَّا تقدَّم ، فلا حاجةَ لإعادتهما . وقرأَتْ عائشة رضي الله عنها " عَلِيَتْهم " فعلاً ماضياً متصلاً بتاء التأنيث الساكنة ، و " ثيابُ " فاعلٌ به ، وهي مقوِّيَةٌ للأوجه المذكورة في رفع " ثياب " بالصفةِ في قراءة الباقين كما تقدَّم تفصيلُه .

وقرأ ابنُ سيرين ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عبلة وخلائق " عليهم " ، جارَّاً ومجروراً ، وإعرابُه كإعرابِ " عاليَهم " ظرفاً في جوازِ كونِه خبراً مقدَّماً ، أو حالاً ممَّا تقدَّم ، وارتفاعُ " ثيابُ " به على التفصيلِ المذكورِ آنفاً .

(395/795)

وقرأ العامَّةُ/ " ثيابُ سُنْدُس " بإضافةِ الثيابِ لما بعدها . وأبو حيوةَ وابنُ أبي عبلةَ " ثيابٌ " منونةً " سُندُسٌ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ " برفعِ الجميعِ ، ف " سندسٌ " نعتٌ ل " ثيابٌ " لأنَّ السُّنْدس نوعٌ ، و " خُضْرٌ " نعتٌ ل " سندس " ؛ إذ السندسُ يكونُ أخضرَ وغيرَ أخضرَ ، كما أنَّ الثيابَ يكونُ سُنْدُساً وغيرَه . و " إستبرقٌ " نَسَقٌ على ما قبلَه ، أي : وثياب

استبرق .

واعلَمْ أنَّ القرّاءَ السبعةَ في " خُضْر وإستبرق " على أربع مراتبَ ، الأولى : رَفْعُهما ، لنافعٍ وحفصٍ فقط . الثانية : خَفْضُهما ، للأخوَيْن فقط .

الثالثة : رَفْعُ الأولِ وخفضُ الثاني لأبي عمروٍ وابنِ عامرٍ فقط . الرابعةُ عكسُ الثالثةِ ، لابنِ كثيرٍ وأبي بكرٍ فقط . فأمَّا القراءةُ الأولى : فإنَّ رَفْعَ " خُضْرٌ " على النعتِ ل ثياب ، ورَفْعَ " إستبرقٌ " نَسَقاً على الثياب ، ولكن على حَذْفِ مضافٍ ، أي : وثيابُ إستبرقٍ . ومثلُه : " على زيدٍ ثوبُ خَزٍّ وكتّانٌ " أي : وثوبُ كُتّانٍ . وأمَّا القراءةُ الثانية فيكونُ جَرُّ " خُضْرٍ " على النعتِ لسُنْدسٍ . ثم اسْتُشْكِل على هذا وَصْفُ المفردِ بالجمعِ فقال مكي : " هو اسمٌ للجمع . وقيل : هو جمعُ سُنْدُسَة " كتَمْر وتَمْرة ، واسمُ الجنسِ وَصْفُه بالجمع سائغٌ فصيحٌ . قال تعالى : ﴿ وَيُنْشِئُ السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12] . وإذا كانوا قد وَصَفوا المفردَ المُحَلَّى لكونِه مُراداً به الجنسُ بالجمعِ في قولِهم : " أَهْلَكَ الناسَ الدِّينارُ الحُمْرُ والدِّرْهَمُ البيضُ " ، وفي التنزيل : ﴿ أَوِ الطفل الذين ﴾ [النور : 31] فَلأَنْ يُوْجَدَ ذلك في أسماءِ الجموعِ أو أسماءِ الأجناسِ الفارقِ بينها وبين واحدِها تاءُ التأنيثِ بطريقِ الأَوْلى . وجَرُّ " إستبرق " نَسَقاً على " سندسٍ " لأنَّ المعنى : ثيابٌ مِنْ سُندسٍ وثيابٌ مِنْ إستبرق .

وأمَّا القراءةُ الثالثةُ فرَفْعُ " خُضْرٌ " نعتاً ل " ثيابٌ " وجَرُّ " إستبرقٍ " نَسَقاً على " سُنْدُسٍ " ، أي : ثيابٌ خضرٌ مِنْ سُندسٍ ومِنْ إستبرقٍ ، فعلى هذا يكون الإستبرقُ أيضاً أخضرَ .

وأمَّا القراءةُ الرابعة فجَرُّ " خُضْرٍ " على أنه نعتٌ لسُنْدس ، ورَفْعُ " إستبرقٌ " على النَّسَقِ على " ثياب " بحَذْفِ مضافٍ ، أي : وثيابُ إستبرق . وتقدَّم الكلامُ على مادةِ السُّنْدُس والإستبرق وما قيل فيهما في سورة الكهف .

وقرأ ابنُ مُحيصنٍ " وإستبرقَ " بفتحِ القافِ . ثم اضطرب النَّقْلُ عنه في الهمزة : فبعضُهم يَنْقُل عنه أنه قَطَعها ، وبعضهم ينقُلُ عنه أنه وَصَلَها .

فقال الزمخشري : " وقُرِئَ " وإسْتبرقَ " نصباً في موضعِ الجرِّ على مَنْعِ الصرفِ ؛ لأنَّه أعجميٌّ وهو غَلَطٌ ؛ لأنَّه نكرةٌ يَدْخُلُهُ حرفُ التعريف . تقول : " الإستبرق " إلاَّ أَنْ يَزْعُمَ ابن مُحيصن أنه يُجْعَلُ عَلَماً لهذا الضَّرْبِ من الثيابِ . وقُرِئَ " واستبرقَ " بوصْل الهمزةِ والفتح ، على أنَّه مُسَمَّى باسْتَفْعل من البَريق ، ليس بصحيحٍ أيضاً ؛ لأنَّه مُعَرَّب مشهورٌ تعريبُه ، وأنَّ أصلَه اسْتَبْرَه . وقال الشيخ : " ودلَّ قولُه " إلاَّ أَنْ يزعمَ ابنُ محيصن " وقولُه بعدُ : " وقُرِئ " واسْتبرق " بوَصْلِ الألفِ والفتح أنَّ قراءةَ ابنِ محيصن هي بقَطْعِ الهمزةِ مع فتحِ القافِ . والمنقولُ عنه في كتبِ القراءاتِ أنَّه قرأ بوَصْل الألفِ وفتح القافِ " . قلت : قد سَبَقَ الزمخشريَّ إلى هذا مكيٌّ فقال : " وقد قرأ ابنُ محيصن بغيرِ صَرْفٍ ، وهو وهمٌ إنْ

جعلَه اسماً لأنه نكرةٌ منصرفةٌ . وقيل : بل جَعَله فعلاً ماضياً مِنْ بَرِقَ فهو جائزٌ في اللفظِ ، بعيدٌ في المعنى .

(397/795)

وقيل : إنَّه في الأصلِ فعلٌ ماضٍ على اسْتَفْعل مِنْ بَرِقَ ، فهو عربيٌّ من البريق ، لَمَّا سُمِّي به قُطِعَتْ ألفُه ؛ لأنه ليس مِنْ أصلِ الأسماءِ أَنْ يدخلَها ألفُ الوصلِ ، وإنما دَخَلَتْ في أسماءٍ معتلةٍ مُغيَّرَةٍ عن أصلِها معدودةٍ لا يُقاسُ عليها " انتهى . فدلَّ قولُه : " قُطِعَتْ ألفُه " / إلى آخرِه أنه قرأ بقطعِ الهمزةِ وفتحِ القافِ . ودلَّ قولُه أولاً : " وقيل : بل جعله فعلاً ماضياً مِنْ بَرِقَ " أنه قرأ بوَصْلِ الألفِ ؛ لأنَّه لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْكَمَ عليه بالفعليةِ غيرَ منقولٍ إلى الأسماءِ ، وبتَرْكِ ألفِه ألفَ قطعِ البتةَ ، فهذا جَهْلٌ باللغةِ ، فيكونُ قد رُوِي عنه قراءتان : قَطْعُ الألفِ ووَصْلُها . فظهر أنَّ الزمخشريَّ لم ينفرِدْ بالنقل عن ابنِ محصين بقَطْعِ الهمزة .

وقال أبو حاتم في قراءة ابن محيصن : " لا يجوز . والصوابُ أنه اسمُ جنسٍ لا ينبغي أَنْ يَحْمِلَ ضميراً ، ويؤيِّد ذلك دخولُ المعرفةِ عليه . والثوابُ قَطْعُ الألفِ وإجراؤُه على قراءةِ الجماعةِ " . قال الشيخ : " ونقولُ : إنَّ ابن محيصن قارئٌ جليلٌ مشهورٌ بمعرفةِ العربيةِ ، وقد أَخَذَ عن أكابرِ العلماءِ فيُتَطَلَّبُ لقراءته وَجْهٌ ، وذلك أنه يَجْعَلُ استفعل من البريق تقول

: بَرِقَ واسْتَبْرَق كعَجِبَ واستعجب ، ولَمَّا كان قولُه : " خُضْر " يدل على الخُضْرة ، وهي لَوْنُ ذلك السُّنْدُس ، وكانت الخُضْرَةُ مِمَّا يكونُ فيها لشدتها دُهْمة وغَبَش أخبرَ أنَّ في ذلك بَريقاً وحُسْناً يُزيل غُبْشَتَه فاستبرق فعلٌ ماضٍ ، والضميرُ فيه عائدٌ على السندسِ ، أو على الأخضرِ الدالِّ عليه " خُضْر " . وهذا التخريجُ أَوْلَى مِنْ تَلْحين مَنْ يعرِفُ العربية وتوهيمِ ضابطٍ ثقةٍ " . قلت : هذا هو الذي ذكره مكيٌّ كما حَكَيْتُه عنه ، وهذه القراءةُ قد تقدَّمَتْ في سورة الكهف ، وإنما أَعَدْتُ ذلك لزيادةِ هذه الفائدةِ .

(398/795)

قوله : ﴿ وحلوا ﴾ عطفٌ على " ويَطوف " ، عَطَفَ ماضياً لفظاً ، مستقبلاً معنىً ، وأَبْرَزه بلفظِ الماضي لتحقُّقه . وقال الزمخشري بعد سؤالٍ وجوابٍ مِنْ حيث المعنى : " وما أحسنَ بالمِعْصَمِ أَنْ يكونَ فيه سِواران : سِوارٌ مِنْ ذهبٍ وسِوارٌ مِنْ فضةٍ " ، فناقَشَه الشيخ في قولِه " بالمِعْصم " فقال : " قولُه بالمِعْصم : إمَّا أَنْ يكونَ مفعولَ " أَحْسن " ، و " أَنْ يكونَ " بدلاً منه ، وأمَّا " أنْ يكونَ " مفعولَ أَحْسن وقد فُصِلَ بينهما بالجارِّ والمجرور : فإنْ كان الأولَ فلا يجوزُ ؛ لأنَّه لم تُعْهَدْ زيادةُ الباءِ في مفعولِ أَفْعَلِ التعجبِ . لا تقول : ما أحسنَ بزيدٍ تريدُ : " ما أحسن زيداً " . وإن كان الثاني ففي مثلِ هذا الفصل خلافٌ ، والمنقولُ

عن بعضهم لا يجوزُ ، والمُوَلَّدُ مِنَّا ينبغي إذا تكلَّم أن يَتَحَرَّزَ في كلامِه ممَّا فيه خلافٌ " . قلت : وأيُّ غَرَضٍ له في تتبُّعِ كلامِ هذا الرجل ، حتى في هذا الشيءِ اليسيرِ ؟ على أنَّ الصحيحَ جوازُه ، وهو المسموعُ من العربِ نثراً . قال عمرُو ابن معديكرب : " للَّهِ دَرُّ بني فلانٍ ما أشَدَّ في الهيجاءِ لقاءَها ، وأَثْبَتَ في المَكْرُمات بقاءَها ، وأحسنَ في اللَّزَبات عطاءَها " والتشاغلُ بغير هذا أَوْلى .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23)

(399/795)

قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ " نحن " توكيداً لاسم " إنَّ " ، وأَنْ يكونَ فَصْلاً و " نَزَّلْنا " على هَذَيْن الوجهَيْن هو خبرُ " إنَّ " ، ويجوزُ أَنْ يكونَ " نحن " مبتدأً و " نَزَّلْنا " خبرُه ، والجملةُ خبرُ " إنَّ " . وقال مكي : " نحنُ " في موضع نصبٍ على الصفةِ لاسم " إنَّ " ، لأنَّ المضمرَ يُوصَفُ بالمضمر ؛ إذ هو بمعنى التأكيدِ لا بمعنى التَّحْلية ، ولا يُوْصَفُ بالمُظْهَر ؛ لأنه بمعنى التَّحْلية ، والمضمرُ مُسْتَغْنٍ عن التَّحْلية ؛ لأنَّه لم يُضْمَرْ إلاَّ بعد أن عُرِفَ تَحْلِيَتُه وعينُه فهو محتاجٌ إلى التأكيدِ لتأكُّدِ الخبرِ عنه " . قلت : وهذه عبارةٌ غريبةٌ جداً ؛ كيف يُجْعَلُ المضمرُ موصوفاً بمثلِه ؟ ولا نعلمُ خلافاً في عدمِ جوازِ وصفِ المضمرِ إلاَّ ما نُقِل عن

الكسائيِّ أنه جوَّزَ وَصْفَ ضميرِ الغائبِ بالمُظْهَرِ . تقول : " مَرَرْتُ به العاقل " على أَنْ يكونَ " العاقِل " نعتاً . أمَّا وَصْفُ ضميرِ غيرِ الغائبِ بضميرٍ آخرَ فلا خلافَ في عَدَمِ جوازِه ، ثم كلامُه يَؤُول إلى التأكيدِ فلا حاجةَ إلى العُدول عنه .

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24)

(400/795)

قوله : ﴿ أَوْ كَفُوراً ﴾ : في " أو " هذه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّها على بابها ، وهو قولُ سيبويهِ . قال أبو البقاء : " وتُفيد في النهي [المنعَ] عن الجميع ؛ لأنَّك إذا قلت في الإباحة : " جالِسِ الحسنَ أو ابنَ سِيرين " كان التقديرُ : جالِسْ أحدَهما . فإذا نهى فقال : " لا تُكَلِّمْ زيداً أو عَمْراً " فالتقدير : لا تُكَلِّمْ أحدَها ، فأيُّهما / كلَّمَهُ كان أحدَهما ، فيكونُ ممنوعاً منه ، فكذلك في الآية ، ويَؤُول المعنى : إلى تقديرِ : ولا تُطِعْ منهما آثماً ولا كفوراً " . وقال الزمخشريُّ : " فإنْ قلتَ : معنى " أو " : ولا تُطِعْ أحدَهما ، فهلا جيْءَ بالواو ليكونَ نَهْياً عن طاعتِهما جميعاً . قلت : لو قيل : " لا تُطِعْهما " لجازَ أَنْ يُطيعَ أحدَهما . وإذا قيل : لا تُطعْ أحدَهما عُلِم أنَّ الناهيَ عن طاعةِ أحدِهما ، عن طاعتِهما جميعاً أَنْهَى ، كما إذا نُهِيَ أَنْ يقولَ لأبويْه : " أفّ " عُلِم أنه مَنْهِيٌّ عن ضَرْبِهما على طريق الأَوْلَى " . الثاني : أنَّها بمعنى "

لا " ، أي : لا تُطِعْ مَنْ أَثِم ولا مَنْ كَفَر . قال مكي : " وهو قولُ الفراء ، وهو بمعنى الإباحة التي ذكَرْنا " . الثالث : أنها بمعنى الواو ، وقد تقدَّم أنَّ ذلك قولُ الكوفيين وتقدَّمَتْ أدلَّتُهم . والكَفور ، وإنْ كان يَسْتَلْزِمُ الإثمَ ، إلاَّ أنه عُطِفَ لأحدِ شيئَيْن : إمَّا أَنْ يكونا شخصَين بعينهما . وفي التفسير : الآثمُ عُتبةُ ، والكَفورُ الوليدُ ، وإمَّا لِما قاله الزمخشري قال : " فإنْ قلتَ : كانوا كلُّهم كفرةً فما معنى القِسْمَةِ في قولِه آثماً أو كفوراً ؟ قلت : معناه لا تُطِعْ منهم راكباً لِما هو إثمٌ داعياً لك إليه ، أو فاعلاً لِما هو كفرٌ داعياً لك إليه ؛ لأنهم إمَّا أَنْ يَدْعُوْه إلى مساعَدَتِهم على فعلٍ هو إثمٌ أو كفرٌ ، أو غيرُ إثمٍ ولا كفرٍ ، فنُهي أَنْ يساعدَهم على الاثنين دونَ الثالث " .

(401/795)

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26)

قوله : ﴿ وَسَبِّحْهُ ﴾ : فيه دليلٌ على عَدَمِ ما قال بعضُ أهلِ علمِ المعاني والبيان : إنَّ الجمعَ بين الحاءِ والهاءِ مثلاً يُخرِجُ الكلمةَ عن فصاحتِها وجَعَلُوا من ذلك قولَ الشاعر :

4453 كريمٌ متى أَمْدَحْه أَمْدَحْه والوَرَى . . . معي وإذا ما لُمْتُه لُمْتُه وَحْدي

البيت لأبي تمام . ويُمكن أَنْ يُفرَّقَ بين ما أنشدوه وبين الآيةِ الكريمة بأن التكرارَ في البيتِ هو

المُخْرِجُ له عن الفصاحة بخلافِ الآيةِ الكريمةِ فإنه لا تَكْرارَ فيها .

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27)

قوله : ﴿ يَوْماً ﴾ : مفعولٌ ب "يَذَرُون" لا ظرفٌ ، ووَصْفُه بالثِّقَلِ على المجازِ ؛ لأنه مِنْ صفات الأعيانِ لا المعاني . ووراء هنا بمعنى قُدَّام . قال مكي : "سُمِّي وراء لتوارِيْه عنك" فظاهرُ هذا أنه حقيقةٌ ، والصحيحُ أنه اسْتُعير لقُدَّام . وقيل : بل هو على بابِه ، أي : وراءَ ظهورِهم لا يَعْبَؤُون به . وفيه تجوُّزٌ .

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28)

قوله : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا ﴾ : قال الزمخشري : "وحَقُّه أَنْ يجيءَ ب "إنْ" لا ب "إذا" كقولِه : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ [محمد : 38] ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ [النساء : 133] يعني أنَّ "إذا" للمحقَّقِ ، و "إنْ" للمحتملِ ، وهو تعالى لم يَشَأْ ذلك . وجوابُه أنَّ "إذا" قد تقع موقعَ "إنْ" كالعكسِ .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30)

قوله: ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾: فيه وجهان، أحدُهما: أنَّه حالٌ، أي: إلاَّ في حالِ مشيئةِ اللَّهِ، قاله أبو البقاء. وفيه نظرٌ؛ لأنَّ هذا مقدَّرٌ بالمعرفة. إلاَّ أَنْ يريدَ تفسيرَ المعنى.

والثاني: أنه ظرفٌ. قال الزمخشري: "فإنْ قلت: ما محلُّ ﴿ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾؟ قلت: النصبُ على الظرف، وأصلُه إلاَّ وقتَ مشيئةِ اللَّهِ، وكذلك قرأ ابنُ مسعود "إلاَّ ما يشَآءُ الله" لأنَّ "ما" مع الفعلِ كـ "أَنْ". ورَدَّه الشيخُ: بأنه لا يقومُ مَقامَ الظرفِ إلاَّ المصدرُ الصريحُ. لو قلت: "أجيئُك أَنْ يَصيحَ الديكُ" أو "ما يصيحُ" لم يَجُزْ". قلت: وقد تقدَّم الكلامُ معه في ذلك غيرَ مرةٍ.

وقرأ نافعٌ والكوفيون "تَشاؤُون" خطاباً لسائرِ الخَلْقِ أو على الالتفاتِ من الغَيْبة في قولِه: "نحن خَلَقْناهم". والباقون بالغَيبة جَرْياً على قولِه: "خَلَقْناهم" وما بعدَه.

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

(403/795)

قوله: ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ ﴾: منصوبٌ على الاشتغال بفعلٍ يُفَسِّرُه "أعدَّ لهم" من حيث المعنى لا من حيث اللفظُ، تقديرُه: وعَذَّبَ الظالمين، ونحوُه: "زيداً مَرَرْتُ به"، أي: جاوَزْتُ ولابَسْتُ. وكان النصبُ هنا مُختاراً لِعَطْفِ جملةِ الاشتغالِ على جملةٍ

فعليةٍ قبلَها ، وهي قولُه : "يُدْخِلُ" . وقرأ الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عبلة "

والظَّالمون" رَفْعاً على الابتداءِ ، وما بعده الخبرُ ، وهو مرجوحٌ لعدم المناسبةِ . وقرأ ابنُ

مسعودٍ "وللظالمين" بلام الجرِّ . وفيه وجهان ، المشهورُ : أَنْ يكونَ "للظَّالمين" متعلّقاً ب "

أَعَدَّ" بعده/ ويكونَ "لهم" تأكيداً . الثاني : وهو ضعيفٌ جداً أَنْ يكونَ مِنْ بابِ الاشغال

، على أَنْ تُقَدِّر فعلاً مثلَ الظاهرِ ، ويُجَرَّ الاسمُ بحرفِ جرٍّ . فنقول : "بزيدٍ مررتُ به" ،

أي : مررتُ بزيدٍ مررتُ به . والمعروفُ في لغة العربِ مذهبُ الجمهورِ ، وهو إضمارُ فِعْلٍ

ناصبٍ موافقٍ للفعل الظاهرِ في المعنى . فإنْ وَرَدَ نحوُ "بزيدٍ مَرَرْتُ به" عُدَّ من التوكيدِ ، لا

من الاشتغالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 589.627﴾

(404/795)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الإنسان

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم جبار توحد في آزاله بوصف جبروته ، وتفرد يفي آباده بنعت ملكوته ،

فأزله أبده ، وأبده أزله ، وجبروته ملكوته جبروته .

أحدي الوصف ، صمدي الذات ، مقدس النعت ، واحد الجلال ، رد التعالي ، دائم العز ، قديم البقاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ .

في التفسير : قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار . قيل : كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُه بين مكة والطائف . ثم من صلصالٍ أربعين سنة ، ثم من حمل مسنون أربعين سنة ، فتمّ خَلْقُه بعد مائة وعشرين سنةٍ .

ويقال : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهَرِ . . . ﴾ : أي لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إليَّ .

ويقال : هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِك ؟ هل ألقيتُ – لحظةً – حَبْلَكَ على غاربِك ؟ هل أخليتُك – ساعةً – من رعاية جديدة وحمايةٍ مزيدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ .

﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ : أي من قطرة ماءٍ ، ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ : أَخلاط من بين الرجل والمرأة .

ويقال : طوراً نطفة ، وطوراً عَلَقَة ، وطوراً عَظْماً ، وطوراً لَحْماً .

﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ : نمتحنه ونختبره . وقد مضى معناه .

﴿ فَجَعَلْنَهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ .

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وإِمَّا كَفُوراً ﴾ .

أي : عَرَّفْناه الطريقَ ؛ أي طريقَ الخيرِ والشرّ .

وقيل : إمَّا للشقاوة ، وإمَّا للسعادة ، إمَّا شاكراً من أوليائنا ، وإما ان يكون كافراً من أعدائنا ؛ فإنْ شَكَرَ فبالتوفيق ، وإنْ كَفَرَ فبالخذلان .

(405/795)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلا وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً ﴾ .

أي : هَيَّأْنا لهم سلاسل يُسْحَبون فيها ، ﴿ وَأَغْلاَلاً ﴾ لأعناقهم يُهانون بها ، ﴿ وَسَعِيراً ﴾ : ناراً مستعرة .

﴿ إِنَّ الأَبرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ .

قيل : البَرُّ : الذي لا يُضْمِرُ الشَّرَّ ، ولا يؤذي الذَّرّ .

وقيل : ﴿ الأَبرَارَ ﴾ : هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهم عن المستحقرات ، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فاتّقوا عن مُسَاكنةِ الدنيا .

﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ رائحتها كرائحة الكافور ، أو ممزوجة بالكافور .

ويقال : اختلفت مشاربهُم في الآخرة ؛ فكلٌّ يُسْقَى ما يليق بحاله . . . وكذلك في الدنيا

مشاربهُم مختلفة ؛ فمنهم مَنْ يُسقَى مَزْجاً ، ومنهم من يُسقَى صِرْفاً ، ومنهم من يسقى على النُّوَب ، ومنهم من يُسقى بالنُّجُب ومنهم من يُسْقى وحدَه ولا يُسقي مما يُسقى غيره ، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً . . . وقالوا :

إن كنت من ندماي فبالأكبر اسْقِني . . . ولا تَسْقِني بالأصغر المتثلم

وفائدة الشرابِ – اليومَ – أن يشغلهم عن كل شيءٍ فيريحُهم عن الإحساس ، ويأخذهم عن قضايا العقل . . كذلك قضايا الشراب في الآخرة ، فيها زوالُ الأرَبِ ، وسقوطُ الطلبِ ، ودَوَامُ الطَّرَب ، وذَهَابُ الحَرَب ، والغفرة عن كلِّ سبب .

ولقد قالوا :

عاقِرْ عقارك واصْطبِحْ . . . واقدَحْ سرورَك بالقَدحَ

واخلع عذارك في الهوى . . . وأَرِحْ عذولَك واسترحْ

وافرَحْ بوقتِك إنما . . . عُمْرُ الفتى وقتُ الفرَح

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ .

يُشَقِّقونها تشقيقاً ، ومعناه أَن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون .

واليومَ – لهم عيونٌ في أسرارهم من عين المحبة ، وعين الصفاء ، وعين الوفاء ، وعين البسط ، وعين الروح . . وغير ذلك ، وغداً لهم عيون .

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ .

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال : يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجهٍ مخصوص :

﴿ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ .

قاسياً ، منتشراً ، ممتداً .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ .

أي : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمون .

ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء في التفسير : أَن الأسير كان كافراً – لأنَّ المسلَم ما كان يُستأسَرُ في عهده – فطاف على بيت فاطمة رضي الله عنها وقال : تأسروننا ولا تطعموننا !

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ .

إنما نطعمكم ابتغاءَ مرضاةِ الله ، لا نريد من قِبلكُم جزاءً ولا شكراً .

ويقال : إنهم لم يذكروا هذا بألسنتهم ، ولكن كان ذلك بضمائرهم .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ .

أي : يوم القيامة .

﴿ فَوَقَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَومِ ﴾ .

﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾ أي : أعطاهم ﴿ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ .

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ .

كافَأَهُم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنَّةً وحريراً .

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ ﴾ .

واحدها أريكة ، وهي السرير في الحجال .

﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ﴾ .

أي : لا يتأَذْون فيها بحَرٍّ ولا بَرْدٍ .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ .

يتمكنون من قطافها على الوجه الذي هم فيه من غير مشقة ؛ فإن كانوا قعوداً تُدلَّى لهم ، وإن كانوا قياماً – وهي على الأرض – ارتقت إليهم .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ .

الاسم فضة ، والعين لا تشبه العين .

﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ .

أي : في صفاء القوارير وبياض الفضة . . . قَدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾ .

المقصود منه الطِّيب . فقد كانوا (أي العرب) يستطيبون الزنجبيل ، ويستلذون نكهته ، وبه يشبِّهون الفاكهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان .

﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ .

أي : يُسْقَوْنَ من عين – أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم ؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحقُّ – سبحانه – بلا واسطة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ .

أي : يخدمهم ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصائف .

وجاء في التفسير : لا يَهْرَمون ولا يموتون . وجاء مُقَرَّطون .

إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منثوراً .

وفي التفسير : ما من إنسان من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ .

﴿ ثَمَّ ﴾ : أي في الجنة .

﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ : في التفاسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ [ق : 35] ويقال : أي لا زوال له .

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ .

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار . ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى ، والاسم يوافق الاسم دون العين .

﴿ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ : الشراب الطهورُ هو الطاهر في نفسِه المُطَهِّرُ لغيره .

فالشراب يكون طهوراً في الجنة – وإنْ لم يحصل به التطهيرُ لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير .

(408/795)

ولكنه – سبحانه – لَمَّا ذَكَرَ الشرابَ – وهو اليومَ في الشاهد نَجَسٌ – أخبر أنَّ ذلك الشرابَ غداً طاهرٌ ، ومع ذلك مُطَهِّر ؛ يُطَهِّرُهم عن محبة الأغيار ، فمن يَحْسِ من ذلك الشرابِ شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات .

ويقال : يُطَهِّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ ، ولا يُبْقِي لبعضهم مع بعض خصيمة ولا عداوة ولا دَعْوَى ولا شيء .

ويقال : يُطهِّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين .

ويقال : إن الملائكة تعرض عليهم الشرابَ فيأبون قبولَه منهم ، ويقولون :

لقد طال أَخْذُنا مِنْ هؤلاء ، فإذا هم بكاساتٍ تُلاقِي أفواهَهَم بغير أُكُفٍّ ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ .

ويقال : اليومَ شرابٌ وغداً شراب . . . اليوم شرابُ الإيناس وغداً شرابُ الكاس ، اليومَ شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكفّ .

ويقال : مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّتِهِ آنسَه وشَجَّعُه ؛ فلا يستوحِش في وقته من شيء ، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذْل .

ومن مقتضى شُرْبه بكأسِ محبته أن يجودَ على كلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز ، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار .

ومن آثارِ شُرْبِه تذلُّلُه لكلِّ أحدٍ لأجل محبوبه ، فيكون لأصغرِ الخَدم تُرَابَ القَدَم ، لا يتحرَّكُ فيه للتكبُّر عرْقٌ .

وقد يكون من مقتضى ذلك الشارب أيضاً في بعض الأحايين أَنْ يَتِيه على أهل الدارين .

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أَنْ يَمْلِكَه سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار وإلقاء قناع الحياء ويظهر ما هو به من المواجيد :

يخلع فيك العذارَ قومٌ . . . فكيف مَنْ مالَه عذارُ ؟

ومن موجِبات ذلك الشراب سقوط الحشمة ، فيتكلم بمقتضى البسط ، أو بموجب لفظ الشكوى ، وبما لا يَستخرجُ منه – في حال صَحْوه – سفيه بالمناقيش . . . وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] .

(409/795)

فقالوا : سَكِرَ من سماع كلامه ، فَنَطَقَ بذلك لسانُه . وأمَّا مَنْ يسقيهم شرابَ التوحيد فَيَنْفي شهودَ كلِّ غَيْرٍ فَيهيمون في أودية العِزّ ، ويتيهون في مفاوزِ الكبرياء ، وتتلاشى جملتُهم في هوء الفرادنية . . . فلا عقلَ ولا تمييزَ ولا فَهْمَ ولا إدراك . . . فكلُّ هذه المعاني ساقطة .

فالعبدُ يكون في ابتداء الكَشْفِ مُستوْعَباً ثم يصير مستغْرقاً ثم يصيرُ مُسْتَهْلَكا . . . ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ [النجم : 42] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ .

يقال لهم : هذا جزاءٌ لكم ، ﴿ مَّشْكُوراً ﴾ : وشُكْرُه لسعيهم تكثيرُ الثوابِ على القليل من العمل – هذا على طريقة العلماء ، وعند قومٍ شُكْرُهم جزاؤهم على شكرهم .

ويقال : شُكْرُه لهم ثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴾ .

في مُدَّةٍ سنين .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ .

أي : ارْضَ بقضائه ، واستسلمْ لِحُكْمِه .

﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ : أي : ولا كفوراً ، وهذا أمرٌ له بإفرادِ ربّه بطاعته .

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وأَصِيلاً وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ .

الفَرْضُ في الأول ، ثم النَّفْل .

﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ . . . ﴾ .

أي كفَّار قريش :

﴿ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ .

أي : لا يعلمون ليوم القيامة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ .

أعدمناهم ، وخلقنا غيرَهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ . . . . ﴾ .

أي : القرآن تذكرة .

﴿ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

بطاعته .

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ عَذَاباً أَلِيمَا ﴾ .

أي : عذاباً أليماً موجعاً يخلص وَجَعُه إلى قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 660. 669 ﴾

(411/795)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام للتقرير " 1 " ، (على الإنسان) متعلّق بـ (أتى) ، (حين) فاعل أتى

مرفوع.

جملة: "أتى . . . حين" لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: "لم يكن . . . "في محلّ نصب حال من الإنسان" 2" .

الصرف:

(حين) ، اسم بمعنى المدّة غير المحدودة الكثيرة أو القليلة ، وزنه فعل بكسر فسكون.

---

(1) أو بمعنى قد .

(2) أو في محلّ رفع نعت لحين بتقدير الرابط فيه .

(الدهر) ، اسم للزمان الممتدّ غير المحدود ، وزنه فعل بفتح فسكون.

(مذكور) ، اسم مفعول من الثلاثيّ ذكر ، وزنه مفعول.

[سورة الإنسان (76) : آية 2]

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2)

الإعراب:

(من نطفة) متعلّق بـ (خلقنا) ، (أمشاج) نعت لـ (نطفة) " 1 " مجرور (الفاء) عاطفة

(سميعا) حال منصوبة من المفعول بتضمين الفعل معنى خلقناه (بصيرا) حال ثانية منصوبة

. .

جملة: "إنّا خلقنا . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "خلقنا . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "نبتليه . . . "في محلّ نصب حال من فاعل خلقنا أو من المفعول "2" .

وجملة: "جعلناه . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقنا . .

الصرف:

(أمشاج)، جمع مشج زنة فعل بفتحتين أو بفتح فسكون بمعنى خليط.

[سورة الإنسان (76): آية 3]

إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3)

الإعراب:

(إمّا) حرف لتفصيل الأحوال (شاكرا) حال من مفعول هديناه منصوبة (الواو) عاطفة . .

---

(1) جاء النعت جمعا لأن النطفة في معنى الجمع، أو لأنّ كلّ جزء من النطفة نطفة.

(2) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة فلا محلّ لها.

جملة : "إنّا هديناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هديناه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

البلاغة

في قوله تعالى " إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً . . . " .

فعند ما كان الشكر قليلا من يتصف به قال " شاكرا . . . " ، فعبّر عنه باسم الفاعل ، للدلالة على قلته ، وأما إيراد الكفور بصيغة المبالغة ، لمراعاة الفواصل ، والإشعار بأن الإنسان قلما يخلو من كفران ما ، فهو كثير من يتصف به ، ويكثر وقوعه من الإنسان .

الفوائد :

- (إمّا) :

وهي حرف شرط وتفصيل ، ولها خمسة معان :

1 - الشك نحو : (جاءني إما حسن وإما حسين) إذا لم تعلم الجائي منهما .

1 - الشك نحو : (جاءني إما حسن وإما حسين) إذا لم تعلم الجائي منهما .

2 - الإبهام ، كقوله تعالى : " وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ . . . "

.

3 - التخيير ، كقوله تعالى (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى) .

4 - الإباحة ، نحو (جالس إما الحسن وإما ابن سيرين) 5 - التفصيل ، كقوله تعالى : (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) .

و(إما) يبنى الكلام معها - من أول الأمر - على ما جيء بها لأجله ، من شك وغيره ، لذلك وجب تكرارها في غير ندور ، و(أو) يفتتح الكلام معها على الجزم ، ثم يطرأ الشك أو غيره ، ولهذا لم تتكرر .

[سورة الإنسان (76) : آية 4]

إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (4)

الإعراب :

(للكافرين) متعلّق بـ (أعتدنا) ، ومنع (سلاسل) من التنوين لأنه جمع على صيغة منتهى الجموع.

جملة : "إنّا أعتدنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أعتدنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 5 إلى 10]

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (5) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً (9)

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10)

الإعراب:

(من كأس) متعلّق بـ (يشربون) ، (عينا) بدل من (كافورا) منصوب " 1 " ، (بها) متعلّق بـ (يشرب) بتضمينه معنى يلتذّ أو يرتوي " 2 " ، (تفجيرا) مفعول مطلق منصوب.

---

(1) أو مفعول به عامله يشربون المتقدّم بحذف مضاف أي ماء عين . . أو هو مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال بحذف مضاف أيضا ، والجملة بعده تفسيريّة.

(2) أو من غير تضمين إذا كان الضمير يعود على الكأس . . أو هو متعلّق بحال من عينا إذا كانت علما بذاتها . . وبعض المفسّرين جعلوا الباء زائدة أي يشربها ، مستدلّين بإحدى القراءات بتعدية الفعل إلى الضمير بنفسه.

جملة : " إنّ الأبرار يشربون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشربون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كان مزاجها كافورا . . . " في محلّ جرّ نعت لكأس .

وجملة : " يشرب بها . . . " في محلّ نصب نعت لـ عينا " 1 " وجملة : " يفجّرونها . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يشرب .

7 – (بالنذر) متعلّق بـ (يوفون) ، (يوما) مفعول به منصوب . .

وجملة : " يوفون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل لما سبق – وجملة : " يخافون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يوفون .

وجملة : " كان شرّه مستطيرا . . . " في محلّ نصب نعت لـ (يوما) .

8 – (الواو) عاطفة (على حبّه) حال من الفاعل أو المفعول . .

وجملة : " يطعمون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يوفون .

9 – (إنّما) كافّة ومكفوفة (لوجه) متعلّق بحال من فاعل نطعم " 2 " ، (لا) نافية (منكم) متعلّق بـ (نريد) (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (شكورا) معطوف على (جزاء) منصوب مثله .

وجملة : " نطعمكم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل يطعمون

أي : يطعمون الطعام قائلين إنّما نطعمكم . .

وجملة : " لا نريد . . . " في محلّ نصب حال من فاعل نطعمكم .

10 - (من ربّنا) متعلّق بـ (نخاف) " 3 " . .

---

(1) وإذا كان الضمير في (بها) يعود على الكأس فالجملة نعت ثان للكأس في محلّ جرّ .

(2) أو متعلّق - (نطعمكم) واللام سببيّة . [. . . . .]

(3) أو متعلّق بحال من (يوما) - نعت تقدّم على المنعوت -

وجملة : " إنّا نخاف . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " نخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(5) مزاجها : اسم لما يمزج به ، وزنه فعال بكسر الفاء .

(كافورا) ، اسم للمادّة المعروفة ذات اللون الأبيض والرائحة الطيّبة ، وقد يكون علما لعين ماء في الجنّة ، وزنه فاعول مشتقّ من الكفر وهو الستر ، قيل لأنه يغطّي الأشياء برائحته .

(7) يوفون : فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يوفيون . .

استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الضمّة إلى الفاء قبلها ، ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع الواو . . وزنه يفعون . . وفيه أيضا حذف الهمزة من أوّله حذفا قياسيّا فهو مضارع أوفى مثل أكرم فحذفت الهمزة من المضارع كما حذفت من (يكرم) .

(مستطيرا) ، اسم فاعل من السداسيّ استطار بمعنى انتشر ، مشتقّ من الطيران ، وقال الفرّاء : المستطير المستطيل ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وفيه إعلال بالتسكين أي تسكين الياء .

(10) عبوسا : صيغة مبالغة – أو صفة مشبّهة – من الثلاثيّ عبس ، وزنه فعول بفتح الفاء .

(417/795)

(قمطريرا) ، اسم بمعنى الشديد من الأيام أو الشرّ ، وزنه فعلليل .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى "يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً . . . " .

وصف اليوم بالعبوس ، مجاز على طريقين : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء ، كقولهم : نهارك صائم – وأن يشبه في شدته وضرره بالأسد العبوس أو الشجاع الباسل .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 11 إلى 19]

فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (13) وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14) وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15)

قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (16) وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (19)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) ، (شرّ) مفعول به ثان منصوب وكذلك (نضرة) . .

جملة : " وقاهم اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يوفون . . " 1 " .

وجملة : " لقّاهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وقاهم اللّه . .

12 - (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ (جنّة) مفعول به ثان منصوب . .

وجملة : " جزاهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وقاهم اللّه .

وجملة : " صبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

---

(1) في الآية (7) من السورة .

والمصدر المؤوّل (ما صبروا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (جزاهم) و(الباء) سببيّة .

13 – (متّكئين) حال منصوبة من ضمير المفعول في (جزاهم) ، (فيها) متعلّق بحال من الضمير في متّكئين ، فهي متداخلة (على الأرائك) متعلّق بـ (متّكئين) (لا) نافية (فيها) متعلّق بـ (يرون) ، (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي .

وجملة : " لا يرون . . . " في محلّ نصب حال ثانية من ضمير جزاهم .

14 – (الواو) عاطفة في الموضعين (دانية) معطوفة على متّكئين (عليهم) متعلّق بـ (دانية) بمعنى مائلة (ظلالها) فاعل اسم الفاعل دانية مرفوع (تذليلا) مفعول مطلق منصوب . .

وجملة : " ذلّلت قطوفها . . . " في محلّ نصب معطوفة على دانية " 1 " .

15 – (الواو) عاطفة في الموضعين (عليهم) متعلّق بـ (يطاف) ، (بآنية) نائب الفاعل لفعل يطاف (من فضّة) متعلّق بنعت لـ (آنية) ، (قوارير) الثاني بدل من الأول منصوب (من فضّة) متعلّق بنعت لـ (قوارير) ، (تقديرا) مفعول مطلق منصوب .

وجملة : " يطاف . . بآنية . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جزاهم . .

وجملة : " كانت قواريرا . . . " في محلّ جرّ نعت لأكواب .

وجملة : " قدّروها . . . " في محلّ نصب نعت لقوارير الثاني " 2 " .

17 - (الواو) عاطفة (فيها) متعلّق بحال من ضمير يسقون (عينا) بدل من (زنجبيلا) " 3 " ، (فيها) متعلّق بنعت لـ (عينا) .

---

(1) أو معطوفة على جملة لا يرون .

(2) أو حال من قوارير لتخصّصه بالوصف .

(3) أو من (كأسا) منصوب مثله .

(419/795)

وجملة : " يسقون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يطاف . .

وجملة : " كان مزاجها زنجبيلا . . . " في محلّ نصب نعت لـ (كأسا) .

وجملة : " تسمّى . . . " في محلّ نصب نعت لـ (عينا) الثاني .

19 - (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (يطوف) ، (لؤلؤا) مفعول به ثان منصوب . .

وجملة : " يطوف عليهم ولدان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسقون .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع نعت لولدان ثان .

وجملة : " رأيتهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " حسبتهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(11) وقاهم : فيه إعلال بالقلب ، أصله وقيهم ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(لقّاهم) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله لقّيهم ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(11) (نضرة) : مصدر الثلاثيّ نضر باب نصر وباب فرح وباب كرم ، وزنه فعلة بفتح فسكون بمعنى الحسن .

(سرورا) ، مصدر الثلاثيّ سرّ باب نصر ، وزنه فعول بضمّ الفاء ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي سرّ بضمّ السين ، وسرّى بضم السين وفتح الراء المشدّدة ، ومسرّة بفتح فكسر ، ومسرّة – مصدر ميميّ – بفتحتين .

(12) جزاهم : فيه إعلال بالقلب ، أصله جزيهم ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(13) زمهريرا : اسم بمعنى شدّة البرد – قيل هو القمر على لغة طيء – وزنه فعلليل .

(14) تذليلا : مصدر قياسيّ للرباعيّ ذلّل ، وزنه تفعيل .

(15) يطاف : فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول ، جاء ما قبل الواو مفتوحا

فقلبت ألفا .

(آنية) ، جمع إناء ، اسم للوعاء وزنه فعال بكسر الفاء ، والهمزة فيه منقلبة عن ياء لتطرّفها بعد ألف ساكنة ، وزن آنية فاعلة ، والمدّة فيه أصلها همزة وألف (أأنية) .

(17) يسقون : فيه إعلال بالحذف أصله يسقاون ، التقى ساكنان فحذفت الألف وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الحرف المحذوف ، وزنه يفعون بضمّ الياء وفتح العين .

(زنجبيلا) ، اسم للنبات المعروف - وليس كزنجبيل الدنيا - وزنه فعلليل .

(18) سلسبيلا : إمّا اسم علم لماء في الجنّة ، أو صفة مشبّهة للماء الذي هو في غاية السلاسة ، قيل زيدت فيه الباء مبالغة فوزنه فعلبيل ، أو بدون زيادته فوزنه فعلليل .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 20 إلى 22]

(421/795)

وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (21) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ثمّ) ظرف مكان مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بـ (رأيت) الأول

. .

جملة : " رأيت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " رأيت (الثانية) . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

21 – (عاليهم) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 1 " للمبتدأ (ثياب) ، (خضر) نعت لثياب مرفوع (إستبرق) معطوف بالواو على ثياب مرفوع ، و(الواو) في (حلّوا) نائب الفاعل (من فضّة) متعلّق بنعت لـ (أساور) ، (شرابا) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " عاليهم ثياب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " حلّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عاليهم ثياب " 2 " .

وجملة : " سقاهم ربّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حلّوا . . .

22 – (لكم) متعلّق بحال من جزاء (الواو) عاطفة . .

وجملة : " إنّ هذا كان . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان لكم جزاء . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " كان سعيكم مشكورا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان (الأولى) .

الصرف :

(21) عاليهم : إمّا اسم فاعل من (علا) " 3 " ، أو هو ظرف على وزن اسم الفاعل كداخل الشيء وخارجه .

(حلّوا) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف . . أصله حلّيوا – بياء مضمومة قبل الواو – استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الضمّة إلى اللام قبلها – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع واو

---

(1) أو هو حال من (نعيما) بتقدير مضاف أي : أهل نعيم وملك كبير و(ثياب) فاعل لاسم الفاعل عاليهم .

(2) أو في محلّ نصب معطوفة على الحال (عاليهم) إذا أعرب حالا .

(3) انظر الآية (83) من سورة يونس .

الجماعة – إعلال بالحذف – ، وزنه فعّوا بضمّ الفاء والعين المشدّدة .

(سقاهم) ، فيه إعلال بالقلب . . . أصله سقيهم – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

الفوائد :

ثمّ اسم يشار به إلى المكان البعيد كقوله تعالى : (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ) وهو ظرف لا

يتصرف ، ولذلك غلط من أعربه مفعولا لرأيت في قوله تعالى : (وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً) ، ولا يتقدمه حرف التنبيه ، ولا يتأخر عنه كاف الخطاب .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 23 إلى 26]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (26)

الإعراب :

(نحن) ضمير في محلّ نصب مستعار لتوكيد الضمير اسم إنّ " 1 " ، (عليك) متعلّق بـ (نزّلنا) ، (تنزيلا) مفعول مطلق منصوب .

جملة : " إنّا . . . نزّلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نزّلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ 24 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لحكم) متعلّق بـ (اصبر) بتضمينه معنى أذعن (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (منهم) متعلّق بحال من (آثما) ، (أو) حرف عطف للإباحة . .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره جملة نزّلنا ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

وجملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاء قدر اللّه فاصبر .

وجملة : " لا تطع . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة الجواب .

25 - (الواو) عاطفة (بكرة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (اذكر) .

وجملة : " اذكر . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة الجواب .

26 - (الواو) عاطفة في الموضعين (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (له) متعلّق بـ (اسجد) ، (ليلا) ظرف منصوب متعلّق بـ (سبّحه) .

وجملة : " اسجد . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي مهما حصل فاسجد والشرط المقدّر معطوف على الشرط المقدّر السابق .

وجملة : " سبّحه . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اسجد .

[سورة الإنسان (76) : آية 27]

إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)

الإعراب :

(وراءهم) ظرف مكان منصوب متعلّق بحال من (يوما) " 1 " .

(يوما) مفعول به منصوب .

جملة : " إنّ هؤلاء يحبّون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحبّون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يذرون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يحبّون .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى "يَوْماً ثَقِيلًا . . . " : وصف اليوم بالثقيل لتشبيه شدته وهوله بثقل شيء قادح باهظ لحامله ، بطريق الاستعارة .

---

(1) وهو بمعنى أمامهم . . أو هو بمعنى وراء أي لا يعبؤون به فيجوز تعليقه بـ (يذرون) .

[سورة الإنسان (76) : آية 28]

نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28)

الإعراب :

(تبديلا) مفعول مطلق منصوب . .

جملة : " نحن خلقناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقناهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن) .

وجملة : " شددنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خلقناهم .

وجملة: " شئنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " بدّلنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

الصرف:

(أسرهم) ، اسم بمعنى المفاصل والأعضاء ، وفي القاموس:

الأسر الشدّة والغضب وشدّة الخلق وشددنا أسرهم أي مفاصلهم. وفي المختار: أسره اللّه أي خلقه ، وشددنا أسرهم أي خلقهم ، وزنه فعل بالفتح.

[سورة الإنسان (76) : الآيات 29 إلى 31]

(425/795)

إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31)

الإعراب:

الإشارة في (هذه) إلى السورة (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (شاء) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، وكذلك جواب الشرط (اتّخذ) ، (إلى ربّه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله اتّخذ.

جملة : " إنّ هذه تذكرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من شاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " اتّخذ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الجازم غير مقترنة بالفاء .

30 – (الواو) عاطفة (ما) نافية ، ومفعول (تشاؤون) محذوف أي الطاعة (إلّا) للحصر " 2 " ، (أن) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (أن يشاء اللّه) في محلّ نصب ظرف زمان بحذف مضاف أي إلا وقت مشيئة اللّه " 3 " .

وجملة : " تشاؤون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من شاء .

وجملة : " يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إنّ اللّه كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان عليما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

31 – (في رحمته) متعلّق بـ (يدخل) ، (الواو) عاطفة (الظالمين) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره ما بعده أي أوعد أو عاقب (لهم) متعلّق بـ (أعدّ) . .

وجملة : " يدخل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " (أوعد) الظالمين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يدخل .

وجملة : " أعدّ لهم . . . " لا محلّ لها تفسيريّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 29 صـ 195.181﴾

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) أو للاستثناء .

(3) أو في محلّ نصب مستثنى من أعمّ الأحوال بحذف مضاف أي ما تشاؤون الطاعة في كلّ حال إلّا في حال مشيئة اللّه .

(426/795)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(76) سورة الإنسان

مدنية وآياتها احدى وثلاثون

[سورة الإنسان (76) : الآيات 1 إلى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ

أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (4)

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (5) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً (9)

إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (10) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (12)

اللغة :

(أَمْشاجٍ) أخلاط أي من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين ، ووقع الجمع صفة لمفرد أي لنطفة لأنه في معنى الجمع أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فاعتبر ذلك فوصف بالجمع وفي المختار : " مشج بينهما خلط وبابه ضرب والشيء مشيج والجمع أمشاج كيتيم وأيتام ويقال نطفة أمشاج لماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها " وعبارة الزمخشري : " نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكباش وهي ألفاظ مفردة غير جموع ولذلك وقعت صفات للأفراد ويقال أيضا نطفة مشج قال الشماخ :

طوت أحشاء مرتجة لوقت على مشج سلالته مهين

ولا يصحّ أمشاج أن يكون تكسيرا له بل هما مثلان في الإفراد لوصف المفرد بهما ومشجه ومزجه بمعنى ، والمعنى : من نطفة امتزج فيها الماءان " .

(كافُوراً) الكافور : نبت طيب وكأن اشتقاقه من الكفر وهو الستر لأنه يغطي الأشياء براحته والكافور أيضا كمام الشجر التي تغطي ثمرتها .

(مُسْتَطِيراً) : فاشيا منتشرا بالغا أقصى المبالغ من استطار الحريق واستطار الفجر وهو من طار بمنزلة استنفر من نفر يقال : استطار يستطير استطارة فهو مستطير وهو استفعل من الطيران وقال الفراء : " المستطير :

المستطيل " كأنه يريد أنه مثله في المعنى إلا أنه أبدل من اللام راءه ، والفجر فجران مستطيل كذنب السرحان وهو الكاذب ومستطير وهو الصادق لانتشاره في الأفق .

(قَمْطَرِيراً) القمطرير : الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه قال الزجّاج : يقال قمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وزقت

بأنفها فاشتقته من القطر وجعل الميم زائدة ، وقال أسد بن ناعصة :

واصطليت الحروب في كل يوم باسل الشر قمطرير الصباح

وفي القاموس : " ويوم قماطر كعلابط وقمطرير شديد واقمطرّ اشتد " .

الإعراب :

(428/795)

(هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) في هل وجهان : أحدهما هي بمعنى قد والثاني هي استفهام على بابها والاستفهام هنا للتقرير وللتوبيخ . وعبارة السمين : " في هل هذه وجهان : أحدهما أنها على بابها من الاستفهام المحض وقال مكّي في تقرير كونها على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير : وهو تقرير لمن أنكر البعث فلا بدّ أن يقول نعم قد مضى دهر طويل لا إنسان فيه فيقال له : من أحدثه بعد أن لم يكن وكونه بعد عدمه كيف يمتنع عليه بعثه وإحياؤه بعد موته ؟ وهو معنى قوله : ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أي فهلّا تذكرون فتعلمون أن من أنشأ شيئا بعد أن لم يكن قادرا على إعادته بعد موته وعدمه فقد جعلها للاستفهام التقريري لا للاستفهام المحض وهذا هو الذي يجب أن يكون لأن الاستفهام لا يرد من اللّه تعالى ألا على هذا النحو وما أشبهه ، الثاني أنها بمعنى قد " . أما الزمخشري فقال : " هل بمعنى قد في الاستفهام خاصة والأصل أهل بدليل قوله : " أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم " فالمعنى قد أتى على التقرير والتقريب جميعا أي أتى

على الإنسان قبل زمان قريب " أما شطر البيت الذي أورده الزمخشري فهو عجز البيت :

سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

والبيت لزيد الخيل الذي سمّاه النبي صلّى اللّه عليه وسلم زيد الخير ، وسائل فعل أمر بمعنى اسألهم وراجعهم في السؤال لتتيقن حقيقة الحال ويربوع أبو حي ، والباء بمعنى عن أي سلهم عن قوتنا والأصل في الاستفهام الهمزة ولذلك كان لها تمام التصدير في الكلام وأصل هل بمعنى قد لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسيا منسيا في حيز الإهمال والاستفهام هنا للتقرير .

(429/795)

و أتى فعل ماض وعلى الإنسان متعلقان بأتى وحين فاعل ومن الدهر نعت لحين ، وجملة لم يكن فيها وجهان أحدهما أنها في موضع نصب على الحال من الإنسان أي هل أتى عليه حين في هذه الحالة والثاني أنها في موضع رفع نعتا لحين بعد نعت وعلى هذا فالعائد محذوف تقديره حين لم يكن فيه شيئا مذكورا والأول أرجح ، وعبارة الزمخشري " فإن قلت : ما محل لم يكن شيئا مذكورا قلت محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور أو الرفع على الوصف لحين كقوله يوما لا يجزي والد عن

ولده " ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم واسمها مستتر تقديره هو يعود على الإنسان وشيئًا خبرها ومذكورا نعت لشيئًا (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان كيفية خلق الإنسان وإن واسمها وجملة خلقنا الإنسان خبرها ومن نطفة متعلقان بخلقنا وأمشاج نعت لنطفة ، وقد تقدم في باب اللغة سر وقوع الجمع صفة لمفرد على أن أبا البقاء أجاز أن تكون بدلا من نطفة ، وجملة نبتليه فيها وجهان أحدهما أنها حال من فاعل خلقنا أي خلقناه حال كوننا مبتلين له والثاني أنها حال من الإنسان وصحّ ذلك لأن في الجملة ضميرين كلّ منهما يعود على ذي الحال ثم هذه الحال يجوز أن تكون مقارنة إن كان المعنى نبتليه بتصريفه في بطن أمه نطفة ثم علقة وأن تكون مقدّرة إن كان المعنى نبتليه نختبره بالتكليف لأنه وقت خلقه غير مكلّف (فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

(430/795)

الفاء عاطفة للترتيب مع التعقيب وجعلناه فعل وفاعل ومفعول به وسميعا بصيرا مفعول به ثان ، وقد نزلت الكلمتان منزلة الكلمة الواحدة لأنهما كناية عن التمييز والفهم إذ آلتهما سبب لذلك وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات أي جعلناه بسبب الابتلاء

حين تأهله له سميعا بصيرا ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات فالعطف على إرادة الابتلاء لا الابتلاء فيه فلا يرد السؤال الآتي : كيف عطف على نبتليه ما بعده بالفاء مع أن الابتلاء متأخر عنه (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) الجملة تعليل للابتلاء وإن واسمها وجملة هديناه من الفعل والفاعل والمفعول خبر إنّا والسبيل مفعول به ثان أو في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بهديناه وإما حرف شرط وتفصيل وشاكرا وكفورا حالان من الهاء في هديناه أي مكّناه وأقدرناه على حالتيه جميعا أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع وكان معلوما أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة ، ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي عرفناه إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا كقوله وهديناه النجدين ويكون وصف السبيل بالشكر والكفر مجازا ، وسيأتي سر المخالفة بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة في باب البلاغة (إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالًا وَسَعِيراً) الجملة تعليل أيضا لأنه لما ذكر الفريقين اتبعهما الوعيد والوعد ، وإن واسمها وجملة أعتدنا خبرها وللكافرين متعلقان بأعتدنا وسلاسل مفعول به ومنع من الصرف لأنه جمع على وزن مفاعل وقرئ بالصرف للمناسبة مع أغلالا وهما قراءتان سبعيتان .

(431/795)

وعبارة أبي حيان : " وقرأ طلحة وعمرو بن عبيد وابن كثير وأبو عمرو وحمزة سلاسل ممنوع الصرف وقفا ووصلا وقيل عن حمزة وأبي عمرو الوقف بالألف وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف واختلف عنهم في الوقف وكذا عن البزّي وقرأ باقي السبعة بالتنوين وصلا وبالألف المبدلة منه وقفا وهي قراءة الأعمش ، قيل : وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كلّ ما لا ينصرف إلا أفعل وهي لغة الشعراء ثم كثر حتى جرى في كلامهم وعلّل ذلك بأن

هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا صواحبات يوسف ونواكسي الأبصار أشبه المفرد فجرى فيه الصرف وقال بعض الرجّاز :

والصرف في الجمع أتى كثيرا حتى ادّعى قوم به التخييرا

(إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً) إن واسمها وجملة يشربون خبرها ومن كأس متعلقان بيشربون ومفعول يشربون محذوف أي خمرا من كأس ، والكأس الزجاجة إذا كانت فيها خمر وتسمى الخمر نفسها كأسا ، قال الأعشى :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وجملة كان مزاجها كافورا نعت لكأس وكان واسمها وخبرها (عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً) عينا أفاض النحاة في أوجه إعرابها والأوجه التي أوردوها تتناهى إلى السبعة ونوردها فيما يلي باختصار ثم نعمد إلى الترجيح : 1- بدل من كافورا لأن ماءها

في بياض الكافور وفي رائحته وبرودته 2- بدل من محل من كأس ، وقدّر الزمخشري على هذا الوجه حذف مضاف قال : "كأنه قيل يشربون فيها خمرا خمر عين " وأما أبو البقاء فجعل المضاف مقدّرا على وجه البدل من كافورا فقال :

"

(432/795)

و الثاني بدل من كافورا أي ماء عين أو خمر عين " 3- مفعول يشربون أي يشربون عينا من كأس 4- النصب على الاختصاص 5- منصوب بيشربون مقدّرا يفسّره ما بعده قاله أبو البقاء أيضا 6- منصوب بإضمار فعل تقديره يعطون 7- منصوب على الحال من الضمير في مزاجها قاله مكّي . ونرى أن الأول والرابع أرجح الأوجه وأدناها إلى السهولة على أن ذلك لا يمنع الاعتراف بصحة الأوجه التي أوردناها كلها . وجملة يشرب

صفة لعينا وبها جار ومجرور متعلقان بيشرب والضمير يعود على الكأس أي يشربون العين بتلك الكأس والباء للإلصاق ، قال الزمخشري : " فإن قلت لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا وبحرف الإلصاق أخيرا ؟

(433/795)

قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته وأما العين فبها يمزجون شرابهم فكأن المعنى يشرب عباد اللّه بها الخمر كما تقول شربت الماء بالعسل " وقيل : الباء زائدة أي يشربها ويدل له قراءة يشربها معدى إلى الضمير بنفسه وإنها بمعنى من فتكون للتبعيض أثبته الأصمعي وابن مالك والفارسي والقتبي وجعلوا منه هذه الآية وقوله تعالى فامسحوا برءوسكم وعليها بنى الشافعي مذهبه في مسح بعض الرأس في الوضوء لما قام عنده من الأدلة ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال أي ممزوجة ويجوز أن يتضمن يشربون معنى يلتذون بها شاربين أو يتضمن معنى يرتوي أي يرتوي بها عباد اللّه . وجملة يفجرونها في موضع نصب على الحال أي يجرونها حيث شاءوا من منازلهم فهي سهلة لا تمتنع عليهم أو نعت ثان لعينا وتفجيرا مفعول مطلق (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) كلام مستأنف استئنافا بيانيا كأنه قيل : بم استحقوا هذا النعيم ؟ فقيل يوفون ، ويوفون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وبالنذر متعلقان بيوفون ويوما مفعول به وجملة كان صفة ليوم وشره اسم كان ومستطيرا خبرها (وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) عطف على يوفون ويخافون ، والطعام مفعول به وعلى حبه متعلقان بمحذوف حال أي محبين له وعلى بمعنى مع أي للمصاحبة وحبه مصدر أضيف للمفعول فالضمير للطعام أي مع اشتهائه والحاجة إليه ونحوه " وآتى المال على حبه " ويصحّ رجوع الضمير للّه أي على

حب اللّه أي لوجه وابتغاء مرضاته والأول أمدح أن فيه الإيثار على النفس والطعام محبوب للفقراء والأغنياء وأما على الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر ومسكينا مفعول به ثان وما بعده عطف عليه وخصّ هؤلاء

(434/795)

بالذكر لسر يأتي في باب البلاغة (إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً) الجملة تعليل لبيان سبب الإطعام وإنما كافّة ومكفوفة ونطعمكم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره نحن ومفعول به ولوجه اللّه متعلقان بنطعمكم وجملة لا نريد إلخ حالية ولا نافية ونريد فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن ومنكم متعلقان بنريد وجزاء مفعول به ولا شكورا عطف عليه (إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً) تعليل لقوله إنما نطعمكم وإن واسمها وجملة نخاف خبرها وفاعل نخاف ضمير مستتر تقديره نحن ومن ربنا متعلقان بنخاف ويوما مفعول به وعبوسا نعت وقمطريرا نعت ثان ليوما (فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً) الفاء عاطفة لبيان السبب أي فبسبب خوفهم وقاهم اللّه أي دفع عنهم شرّ ذلك اليوم ووطأته ، ووقاهم فعل ماض ومفعول به مقدّم واللّه فاعل مؤخر وشر مفعول به ثان وذلك مضاف إليه واليوم بدل من اسم الإشارة ولقاهم فعل ماض وفاعل مستتر

ومفعول به ونضرة مفعول به ثان وسرورا عطف على نضرة (وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً) وجزاهم عطف أيضا وجزاهم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وبما متعلقان بجزاهم وما مصدرية أي بصبرهم وجنة مفعول به ثان وحريرا عطف على جنة .

البلاغة :

1- في قوله : " إنّا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا " لما كان الشكر قلّ من يتّصف به قال شاكرا فعبّر عنه باسم الفاعل للدلالة على قلته ، ولما كان الكفر كثيرا من يتّصف به ويكثر وقوعه من الإنسان قال كفورا فعبّر عنه بصيغة المبالغة .

2- وفي قوله : " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "

خصّ هؤلاء الثلاثة بالذكر لأن المسكين عاجز عن اكتساب قوته بنفسه واليتيم مات أبواه وهما اللذان يكتسبان وبقي عاجزا عن الكسب لصغره والأسير لا يملك لنفسه ضرّا ولا نفعا ولا نصرا ولا حيلة ، قال عطاء :

نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وذلك أنه أجّر نفسه ليلة ليسقي نخلا بشيء من شعير حتى أصبح وقبض الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئا ليأكلوه فلما تمّ نضجه أتى

مسكين فأخرجوا له الطعام ثم صنع الثلث الباقي فلما تمّ نضجه أتى يتيم فأطعموه ثم الثالث فلما تمّ نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك فأنزل اللّه فيهم هذه الآيات .

3- في قوله " إنّا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا " مجاز إسنادي وقد تقدمت له نظائر كثيرة في هذا الكتاب ، لأن وصف اليوم بالعبوس مجاز كما يقال نهاره صائم وليله قائم والمراد أهلهما .

الفوائد :

1- "كان " في القرآن على خمسة أوجه :

1- بمعنى الأول والأبد نحو " وكان اللّه عليما حكيما " .

2- بمعنى المضي المنقطع نحو " وكان في المدينة تسعة رهط " .

3- بمعنى الحال نحو "كنتم خير أمة " .

4- بمعنى الاستقبال نحو " ويخافون يوما كان شره مستطيرا " .

5- بمعنى صار نحو " وكان من الكافرين " .

2- ولإما خمسة معان :

1- الشك نحو : جاءني إما زيد وإما عمرو إذا لم تعلم الجائي منهما .

2- الإبهام نحو " وآخرون مرجون لأمر اللّه إما يعذبهم وإما يتوب عليهم " أي إن اللّه تعالى

عالم بحقيقة حالهم ، وقصد الإبهام على السامع .

3- التخيير نحو " إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا " ولا يكون إلا بعد الطلب

فيقدّر في الآية والأصل : يا ذا القرنين افعل فإما أن تعذب إلخ .

4- الإباحة نحو تعلّم إما فقها وإما نحوا .

5- التفصيل نحو : " إنّا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا " .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 13 إلى 22]

(436/795)

مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً (13) وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً (14) وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15)
قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (16) وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً (17)
عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً
مَنْثُوراً (19) وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (20) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (21) إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ
جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (22)

اللغة :

(زَمْهَرِيراً) في المختار : " الزمهرير : شدة البرد قلت : قال ثعلب الزمهرير أيضا القمر في لغة طيء وبه فسّر قوله تعالى : لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا أي فيها من الضياء والنور ما لا يحتاجون معه إلى شمس ولا قمر " .

وعبارة أبي حيّان : " الزمهرير أشد البرد وقال ثعلب هو القمر بلغة طيء وأنشد قول الراجز :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما ظهر

وعبارة الزمخشري : " يعني أن هواءها معتدل لا حرّ شمس يحمي ولا شدّة برد تؤذي وفي الحديث : هواء الجنة سجسج لا حرّ ولا قرّ " .

(قَوارِيرَا) القارورة إناء صاف توضع فيه الأشربة قيل ويكون من الزجاج .

(زَنْجَبِيلًا) الزنجبيل قال الدينوري : نبت في أرض عمان عروق تسري وليس بشجر يؤكل رطبا وأجوده ما يحمل من بلاد الصين كانت العرب تحبه لأنه يوجب لذعا في اللسان إذا مزج بالشراب فيتلذذون به ، قال الشاعر :

كأن القرنفل والزنجبي ل باتا بفيها وأريا مشورا

وقال المسيب بن علس :

وكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

والضمير في به يعود للفم وإذ ذقته أي حين ذقت ريقه فهو مجاز

وسلافة الخمر أول ما يعصر من العنب وقال آخرون : الزنجبيل : نبات له عروق تسري في الأرض ويتولد فيها عقد حريفة الطعم وتتفرع هذه العروق من نبت كالقصب .

(سَلْسَبِيلًا) السلسبيل : ما سهل انحداره في الحلق وقال الزجّاج :

" هو في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة " وقال الزمخشري : " يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلّت على غاية السلاسة " وقال ابن الأعرابي :

" لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن " وقال مكّي : " هو اسم أعجمي نكرة فلذلك صرف " ووزن سلسبيل مثل دردبيس وقيل فعفليل لأن الفاء مكررة وقرأ طلحة سلسبيل دون تنوين ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث لأنها اسم لعين بعينها وعلى هذا فكيف صرفت في قراءة العامة ويجاب بأنها سمّيت بذلك لا على جهة العلمية بل على جهة الإطلاق المجرد أو يكون من باب تنوين سلاسل وقوارير كما تقدم وكما سيأتي .

(سُندُس) السندس ما رقّ من الحرير ويكون أخضر وغير أخضر .

(إِسْتَبْرَقٌ) الإستبرق : ما غلظ من الديباج فهو البطائن والسندس الظهائر .

الإعراب :

(مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً) متكئين حال من مفعول جزاهم ووهم أبو البقاء فأجاز أن تكون صفة لجنة ولا أدري كيف سبق هذا إلى وهمه وازداد عجبي عند ما رأيت الزمخشري يجيز ذلك قال : " ويجوز أن تجعل متكئين ولا يرون ودانية كلها صفات لجنة " وذلك مردود لعدم بروز الضمير ليكون نعتا سببيا فلم

(438/795)

يقل متكئين هم فيها وفيها حال أي في الجنة وعلى الأرائك متعلقان بمتكئين وجملة لا يرون حال ثانية من مفعول جزاهم ولك أن تجعلها حالا من الضمير في متكئين فتكون حالا متداخلة كما يجوز لك أن تجعلها صفة لجنة كما قرر أبو البقاء والزمخشري وفيها متعلقان بيرون وشمسا مفعول ولا زمهريرا عطف على شمسا (وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا) عطف على متكئين فيكون فيها ما فيها ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم كأنه قيل وجزاهم جنة جامعين فيها بين السلامة من الحرّ والقرّ وبين دنو الظلال عليهم ولك أن تجعلها منصوبة عطفا على محل لا يرون وقال الزجّاج صفة لجنة الملفوظ بها أما أبو البقاء فأغرب إذ أعربها صفة لجنة محذوفة أي وجنة دانية وهو تكلّف وتحكم لا

مبرر لهما . وعليهم متعلقان بدانية ، ولا بدّ من تضمين على معنى من لأن الدنو لا يتعدى بعلى وإنما لم يقل منهم لأن الظلال عالية عليهم ، والواو عاطفة وذللت فعل ماض مبني للمجهول وعطف على دانية وإنما خولف بعطف الفعلية على الاسمية للإشارة إلى أن التظليل أمر دائم لا يزول لأنها لا شمس فيها بخلاف التذليل فإنه أمر متجدد طارئ ، وقطوفها نائب فاعل وتذليلا مفعول مطلق (وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا) الواو عاطفة ويطاف فعل مضارع مبني للمجهول وعليهم متعلقان بيطاف وبآنية نائب مفعول لأنه هو المفعول به في المعنى ويجوز أن تكون عليهم هي النائبة وبآنية متعلقان بيطاف والآنية جمع إناء والأصل أأنية بهمزتين الأولى مزيدة للجمع والثانية فاء الكلمة فقلبت الثانية ألفا وجوبا وهذا نظير كساء وأكسية وغطاء وأغطية ، ونظيره في الصحيح اللام حمار وأحمرة .

(439/795)

و من فضة نعت لآنية وأكواب عطف على آنية من عطف الخاص على العام وجملة كانت نعت لأكواب واسم كانت مستتر يعود على الأكواب وقواريرا خبر كانت ويجوز أن تكون كانت تامة فيكون قواريرا حالا أي

كونت ، وعبارة أبي البقاء : " ويقرأان بالتنوين وبغير التنوين والأكثرون يقفون على الأول بالألف لأنه رأس آية (قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً) قوارير بدل من قواريرا الأولى وقد منعت من الصرف ومن فضة نعت لقوارير وجملة قدّرت نعت ثان وتقديرا مفعول مطلق وقرئ قوارير بالرفع على إضمار مبتدأ أي هي قوارير ومعنى التقدير أنها هيئت على قدر ريّ الشاربين أي شهوتهم لأنه لا ظمأ في الجنة من غير زيادة ولا نقص وذلك ألذ الشراب (وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا) الواو عاطفة ويسقون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وفيها متعلقان بيسقون وكأسا مفعول به ثان وجملة كان صفة لكأسا ومزاجها اسم كان وزنجبيلا خبرها (عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) عينا بدل من زنجبيلا وقيل تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه أو يخلق اللّه طعمه فيها وعينا على هذا القول مبدلة من كأسا أو منصوبة على الاختصاص ولعلّ هذا هو الأرجح وعلى كل حال تطبق عليها الأوجه المطبقة على عينا الأولى وفيها نعت لعينا وجملة تسمى نعت ثان ونائب الفاعل مستتر تقديره هي وسلسبيلا مفعول به ثان (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً) الواو عاطفة ويطوف فعل مضارع وعليهم متعلقان بيطوف وولدان فاعل ومخلدون نعت لولدان وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن وجملة رأيتهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة حسبتهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وحسبتهم فعل ماض وفاعل ومفعول به ولؤلؤا مفعول به ثان ومنثورا نعت أي متفرقا ، وفي

(440/795)

المصباح " نثرته نثرا من بابي قتل وضرب رميت به متفرقا فانتثر " (وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً) الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وجملة رأيت في محل جر بإضافة الظرف إليه ورأيت فعل وفاعل وليس له مفعول ظاهر ولا مقدّر لإشاعة الرؤية وتعميمها كأنه قيل : وإذا أوجدت الرؤية ثم ، وثم ظرف مكان مختص

(441/795)

بالعبد متعلق بثم والمعنى وإذا صدرت منك الرؤية في ذلك المكان رأيت وجملة رأيت لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ونعيما مفعول رأيت الثانية وملكا كبيرا عطف على نعيما وقال الفراء ثم مفعول به لرأيت والتقدير وإذا رأيت ما ثم فحذفت ما وقامت ثم مقامها ولا داعي لهذا التكلّف (عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) عاليهم : في إعرابه وجهان أحدهما أنه ظرف مكان لأنه بمعنى فوقهم وقد اعترض أبو حيان على هذا الإعراب فقال : " وعال وعالية اسم فاعل فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولا من

كلام العرب عاليك أو عاليتك ثوب " وهذا اعتراض مردود لأنه وردت ألفاظ من صيغ أسماء الفاعلين ظروفا نحو خارج الدار وداخلها وباطنها وظاهرها تقول جلست خارج الدار وكذا البواقي فكذلك هذا وإذا تقرر هذا فإن الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم وثياب سندس مبتدأ مؤخر وخضر نعت لثياب وإستبرق عطف على ثياب على حذف مضاف أي ثياب إستبرق وقرئ بجر إستبرق بالعطف على سندس لأن المعنى ثياب من سندس وثياب من إستبرق . والوجه الثاني وهو الذي جرى عليه الأكثرون أنه حال من الضمير في يطوف عليهم أو من مفعول حسبتهم أو من مضاف مقدّر أي رأيت أهل نعيم وملك كبير عاليهم ، فعاليهم حال من أهل المقدّر ، وقد ذكر الزمخشري هذا القول وعبارته : " وعاليهم بالنصب على أنه حال من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم أي يطوف عليهم ولدان عاليا للمطوف عليهم ثياب أو حسبتهم لؤلؤا عاليا لهم ثياب ويجوز أن يراد أهل نعيم " وقرئ عاليهم بسكون الياء وكسر الهاء على أنها خبر مقدّم وثياب مبتدأ مؤخر كأنه قيل فوقهم ثياب . أما نص إعراب أبي البقاء فهو " قوله تعالى : عاليهم فيه قولان أحدهما هو فاعل وانتصب على الحال من المجرور في عليهم وثياب سندس مرفوع به أي يطوف عليهم في حال علو السندس ولم يؤنث

عاليهم لأن تأنيث الثياب غير حقيقي

و القول الثاني هو ظرف لأن عاليهم جلودهم وفي هذا القول ضعف ويقرأ بسكون الياء إما على تخفيف المفتوح المنقوص أو على الابتداء والخبر ويقرأ عاليتهم بالتاء وهو ظاهر وخضر بالجر صفة لسندس وبالرفع لثياب وإستبرق بالجر عطف على سندس وبالرفع على ثياب " . ولا أدري كيف استساغ أبو البقاء أن يستضعف وجه الظرف والخطب فيه أهون من الحال لوروده معرفة مهما قيل في تأويله (وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً) عطف على ويطوف عليهم وساغ عطف الماضي على المضارع لأنه مستقبل المعنى وللإيذان بتحقيقه وحلّوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وأساور مفعول به ثان وقيل نصب بنزع الخافض لأنهم يعدّونه إلى واحد ومن فضة نعت لأساور وسقاهم عطف على حلّوا وربهم فاعل وشرابا مفعول به ثان وطهورا نعت لشرابا (إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً) الجملة مقول قول محذوف أي يقال لأهل الجنة وإن واسمها وجملة كان خبرها ولكم متعلقان بجزاء واسم كان مستتر تقديره هو وجزاء خبرها وكان عطف على كان الأولى وسعيكم اسمها ومشكورا خبرها .

[سورة الإنسان (76) : الآيات 23 إلى 31]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً

(24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً
(26) إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (27)

(443/795)

نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً (28) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ
شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (29) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً
(30) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (31)

الإعراب :

(444/795)

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا) إن واسمها ونحن ضمير فصل أو تأكيد لاسم إن وجملة نزلنا خبر إنّا وعليك متعلقان بنزلنا والقرآن مفعول به وتنزيلا مفعول مطلق ولك أن تجعل نحن مبتدأ فتكون جملة نزلنا خبر نحن والجملة خبر إن (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا فاصبر ، واصبر فعل أمر وفاعله مستتر

تقديره أنت ولحكم ربك متعلقان باصبر والواو حرف عطف ولا ناهية وتطع فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت ومنهم حال وآثما مفعول به وأو حرف عطف وكفورا عطف على آثما وإنما جنح إلى " أو " دون الواو لإفهام النهي عن طاعتهما معا ولو عطف بالواو لأفهم جواز طاعة أحدهما وليس مرادا وعبارة الزجّاج : " أو هنا أوكد من الواو لأنك لو قلت لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص فإذا أبدلتها بأو فقد دللت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى " وعبارة أبي حيان : " والنهي عن طاعة كل واحد منهما أبلغ من النهي عن طاعتهما لأنه يستلزم النهي عن أحدهما لأن في طاعتهما طاعة أحدهما ولو قال لا تضرب زيدا وعمرا لجاز أن يكون نهيا عن ضربهما جميعا لا عن ضرب أحدهما ، وقال أبو عبيدة " أو " بمعنى الواو والكفور وإن كان آثما فإن فيه مبالغة في الكفر ولما كان وصف الكفور مباينا للموصوف لمجرد الإثم صلح التغاير فحسن العطف " (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) عطف على ما تقدم واذكر فعل أمر واسم ربك

(445/795)

مفعول به وبكرة وأصيلا ظرفان متعلقان باذكر والمراد الدوام على الصلاة في أوقاتها (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) ومن الليل متعلقان باسجد ومعنى من التبعيض أي

اسجد وصل له بعض الليل ، واسجد فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وله متعلقان باسجد أيضا وسبّحه فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وليلا ظرف متعلق بسبّحه وطويلا نعت (إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً) الجملة تعليل لما قبلها من النهي والأمر وعبارة الشهاب الخفاجي : " هذا التعليل لما قبله من النهي والأمر في قوله ولا تطع إلى هنا فكأنه قال : لا تطعهم واشتغل بالأهمّ من العبادة لأن هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا فاترك أنت الدنيا وأهلها للآخرة فالأول علّة للنهي عن طاعة الآثم والكفور والثاني علّة للأمر بالطاعة ، وإن حرف مشبّه بالفعل وهؤلاء اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب اسمها وجملة يحبون خبرها والعاجلة مفعول به ويذرون عطف على يحبون ووراءهم ظرف مكان بمعنى قدّام متعلق بمحذوف حال من المفعول مقدم عليه ويوما مفعول به وثقيلا ظرف ، وسيأتي معنى الثقل في باب البلاغة (نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ) نحن مبتدأ وجملة خلقناهم خبر وشددنا عطف على خلقناهم وأسرهم مفعول به أي قوينا أسرهم والأسر كما في القاموس " الشدة والغضب وشدة الخلق والخلق وشددنا أسرهم أي مفاصلهم " وفي المختار : " أسره من باب ضرب أي شدّه بالإسار بوزن الإزار وهو القدّ بالكسر وهو سير يقدّ من جلد غير مدبوغ ومنه سمي الأسير لأنهم كانوا يشدّونه بالقدّ فسمي كل مأخوذ أسيرا وإن لم يشدّ به وأسره اللّه خلقه وبابه ضرب ومنه : وشددنا

أسرهم أي خلقهم والأسر بالضم احتباس البول كالحصر في الغائط وأسرة الرجل أهله لأنه يتقوى بهم " (وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا)

(446/795)

الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة شئنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة بدّلنا لا محل لها لأنها جواب شرط غير

جازم وأمثالهم مفعول به وتبديلا مفعول مطلق ، ومفعول بدّلنا الثاني لأنها بمعنى جعلنا محذوف تقديره بدلا منهم . هذا وقد تورط الزمخشري ورطة كان له مندوحة عنها ذلك أنه قال " وحقه أن يؤتى بإن لا بإذا كقوله : وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، إن يشأ يذهبكم " ولم يعقب على ذلك بشيء فأوهم أنه يعني ورود القرآن في تعبيره بإذا على خلاف الحق والواقع أن إذا وإن تتعاوران فقد قالوا : إن إذا للمحقق وإن للممكن وهو تعالى لم يشأ فالظاهر أن تستعمل إن لكنه قد

(447/795)

توضع إذا موضع إن وإن موضع إذا كقوله : أفإن متّ فهم الخالدون (إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً) إن واسمها والإشارة إلى السورة وتذكرة خبرها والفاء عاطفة ومن شرطية مبتدأ وشاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ومفعول شاء محذوف أي الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخذ فعل ماض في محل جزم جواب الشرط وإلى ربه في موضع المفعول الثاني وسبيلا مفعول اتخذ الأول (وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً) الواو عاطفة وما نافية وتشاءون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والمفعول به محذوف أي الطاعة وإلا أداة حصر وأن يشاء اللّه المصدر المؤول في موضع نصب على الظرفية لأنه استثناء من أعمّ الظروف وأصله إلا وقت مشيئة اللّه وأجاز أبو البقاء أن يكون الاستثناء من أعمّ الأحوال فيكون المصدر حالا وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر وعليما خبرها الأول وحكيما خبرها الثاني (يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً) الجملة حالية من اللّه ويدخل فعل مضارع مرفوع وفاعله هو ومن مفعول به وجملة يشاء صلة من وفي رحمته متعلقان بيدخل ، والظالمين : الواو عاطفة والظالمين منصوب بفعل مقدّر يفسّره ما بعده وقدّره أبو البقاء :

ويعذب الظالمين ، وجملة أعدّ مفسّرة ولهم متعلقان بأعدّ وعذابا مفعول به وأليما نعت .

البلاغة :

في قوله " يوما ثقيلا " استعارة تصريحية ، فقد استعير الثقل لشدة ذلك اليوم وهوله من

الشيء الثقيل الباهظ لحامله ونحوه ثقلت في السموات والأرض .

خطأ وقياس في غير محله :

هذا ومن المضحك أن بعضهم علّق على قوله " وسبّحه ليلا طويلا " فقال هذه الآية رد على عدم ما قاله أهل علم المعاني والبيان إن الجمع بين الحاء والهاء مثلا يخرج الكلمة من فصاحتها وجعلوا من ذلك قول أبي تمام :

(448/795)

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

وهذا خطأ من الناقد الذي ظن أنه يبرئ القرآن الكريم من العيوب المخلّة بالفصاحة بشجبه لما قرره علماء البلاغة وقياس في غير محله فالفرق واضح بين الآية والشعر وهو أن تكرار أمدحه هو الذي أخرجه عن مهيع الفصاحة لا مجرد اجتماع الحاء والهاء ، وإذن فالآية سليمة من تنافر الحروف قال الشيخ مخلوف الميناوي في حاشيته على شرح الشيخ أحمد الدمنهوري لمتن الإمام الأخضري : " فإن منشأ الثقل هو تكرار أمدحه دون مجرد الجمع لوقوعه بين الحاء والهاء في التنزيل نحو فسبّحه " .

الفوائد :

" إن " و" إذا " يشتركان في إفادة تعليق حصول الجزاء في المستقبل بحصول الشرط فيه ، لكن أصل إن ، أي موضع استعمالها الحقيقي ، الشك في وقوع الشرط ، قيل والتوهم وقيل وكذا المظنون . وأصل إذا الجزم بوقوعه ، ولا تستعمل إن في غير الشك وإذا في غير الجزم إلا لنكتة ، كما أنهما لا يدخلان على ماض من شرط أو جزاء إلا لنكتة ولو لتعليق حصول مضمون الجزاء بحصول مضمون الشرط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 310.330 ﴾

(449/795)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/796)

الجزء السادس والتسعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المرسلات)

(4/796)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المرسلات)

(5/796)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المرسلات

وتسمى العرف .

مقصودها الدلالة على آخر الإنسان من إثابة الشاكرين بالنعيم ، وإصابة الكافرين بعذاب الجحيم ، في يوم الفصل بعد جمع الأجساد وإحياء العباد بعد طي هذا الوجود وتغيير العالم المعهود بما له سبحانه من القدرة على إنبات النبات وإنشاء الأقوات وإنزال العلوم وإيساع الفهوم لأحياء الأرواح وإسعاد الأشباح بأسباب خفية وعلل مرئية وغير مرئية ، وتطوير الإنسان في أطوار الأسنان ، وإيداع الإيمان فيما يرضى من الأبدان ، وإيجاد الكفران في أهل الخيبة والخسران ، مع اشتراك الكل في أساليب هذا القرآن ، الذي عجز الإنس والجان ، عن الإتيان بمثل آية منه على كثرتهم وتطاول الزمان ، واسمها المرسلات وكذا العرف واضح الدلالة على ذلك لمن تدبر الأقسام ، وتذكر ما دلت عليه من معاني الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 281 ﴾

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والمرسلات)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها خمسون .

وكلماتها مائة وإِحدى وثمانون .

وحروفها ثمانمائة وستَّة عشر .

مجموع فواصل آياتها (عبرتم لنا) على اللاَّم الفَصْل فى الموضعين ، وعلى الرّاءِ القصْر ، وصُفْر ، وعلى الباءِ ﴿ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ ، و ﴿ #1649;للَّهَبِ ﴾ .

سمّيت سورة المرسلات ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : القَسَم بوقوع القيامة ، والخبرُ عن إِهلاك القرون ، الماضية ، والمِنَّة على الخلائق بإِيجادهم فى الابتداء ، وإِدخال الأَجانب فى النَار ، وصعوبة عقوبة الحقّ إِيّاهم, وأَنواع كرامة المؤمنين فى الجنَّة ، والشكاية عن الكفَّار بإِعراضهم عن القرآن فى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[متشابه سورة المرسلات

قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ مكرّر عشر مرات : لأَن كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأُولى ، فلا يكون تكرارها مستهجَنا .

ولو لم يكرّر كان متوعّدا على بعض دون بعض .

وقيل : إن من عادة العرب التكرار والإطناب ؛ كما من عادتهم الاقتصار والإِجاز .

وبسط الكلام فى الترغيب والترهيب أَدعَى إِلى إِدراك البغية من الإِيجاز] .

فضل السّورة

فيه حديثان ضعيفان : مَنْ قرأَها كُتب [له] أَنَّه ليس من المشركين : وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها أَظلَّه الله فى ظلّ عرشه مع الصّدّيقين والشُّهداءِ ، وكَتَبَ الله له بكلّ آية قرأَها أَلفَ حسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 495.496 ﴾

(7/796)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المرسلات

لم ترد لها تسمية صريحة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن يُضَافَ لفظ سورة إلى

جُمْلتها الأولى .

وسُميت في عهد الصحابة (سورةَ والمُرْسَلات عُرْفاً) ففي حديث عبد الله بن مسعود في (الصحيحين) قال : (بينما نحن مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غار بمنًى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عُرفاً فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وإن فاه لَرَطْبٌ بها إذْ خَرجت علينا حية) الحديث .

وفي (الصحيح) عن ابن عباس قال : (قرأت سورة والمرسلات عرفاً) فسمعتني أم الفضل (امرأةُ العباس) فبكَت وقالت : بُنَيَّ أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخرُ ما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ بها في صلاة المغرب) .

وسميت (سورة المرسلات) ، روى أبو داود عن ابن مسعود (كان النبي

(صلى الله عليه وسلم) يقرأ النظائر السورتين في ركعة الرحمن والنجم في ركعة ، واقتربت والحاقةُ في ركعة) ثم قال : (وعَم يتساءلون والمرسلات في ركعة) فجعل هذه الألفاظ بدلاً من قوله السورتين وسماها المرسلات بدون واو القَسَم لأن الواو التي في كلامه واو العطف مثل أخواتها في كلامه .

واشتهرت في المصاحف باسم (المرسلات) وكذلك في التفاسير وفي (صحيح البخاري)

.

وذكر الخفاجي وسعدُ الله الشهير بسعدي في (حاشيتيهما) على البيضاوي أنها تسمى (سورة العُرْف) ولم يسْنداه ، ولم يذكرها صاحب (الإِتقان) في عداد السور ذات أكثرَ من اسم .

وفي (الإِتقان) عن (كتاب ابن الضريس) عن ابن عباس في عدّ السور التي نزلت بمكة فذكرها باسم المرسلات . وفيه عن (دلائل النبوة) للبيهقي عن عكرمة والحسن في عدّ السور التي نزلت بمكة فذكرها باسم المرسلات .

وهي مكية عند جمهور المفسرين من السلف ، وذلك ظاهر حديث ابن مسعود المذكور آنفاً ، وهو يقتضي أنها من أوائل سور القرآن نزولاً لأنها نزلت والنبي (صلى الله عليه وسلم) مختفٍ في غار بِمنى مع بعض أصحابه .

وعن ابن عباس وقتادة : أن آية) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ((المرسلات : 48) مدنية نزلت في المنافقين ، ومحمل ذلك أنه تأويل ممن رواه عنه نظراً إلى أن الكفار الصرحاء لا يؤمرون بالصلاة ، وليس في ذلك حجة لكون الآية مدنية فإن الضمير في قوله : (وإذا قيل لهم ((المرسلات : 48) وارد على طريقة الضمائر قبله وكلها عائدة إلى الكفار وهم المشركون . ومعنى) قيل لهم اركعوا (: كناية عن أن يقال لهُم : أسْلِموا . ونظيره قوله تعالى

: (وقد كانوا يُدْعَون إلى السجود وهم سالمون ((القلم : 43) فهي في المشركين وقوله : (قالوا لم نك من المصلين إلى قوله : وكنّا نكذب بيوم الدين ((المدثر : 43 46) .

(9/796)

وعن مقاتل نزلت) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون في شأن وفْد ثقيفٍ حين أسلموا بعد غزوة هوازن وأَتَوا المدينة فأمرهم النبي بالصلاة فقالوا : لا نُجَبِّي فإنها مسبَّة علينا . فقال لهم : لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود .

(10/796)

وهذا أيضاً أضعف ، وإذا صحّ ذلك فإنما أراد مقاتل أن النبي قرأ عليهم الآية .

وهي السورة الثالثة والثلاثون في عداد ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد . واتفق العادون على عد آيها خمسين .

أغراضها

اشتملت على الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا ووصف بعض أشراط ذلك

.

والاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإِنسان وخلق الأرض .

ووعيد منكريه بعذاب الآخرة ووصف أهواله .

والتعريض بعذاب لهم في الدنيا كما استُؤصلت أمم مكذبة من قبل . ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين .

وإعادة الدعوة إلى الإِسلام والتصديق بالقرآن لظهور دلائله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 29 صـ 417.419﴾

(11/796)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة المرسلات

هذه السورة حادة الملامح , عنيفة المشاهد , شديدة الإيقاع , كأنها سياط لاذعة من نار . وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة , حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات , تنفذ إليه كالسهام المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة , وحقائق الكون والنفس , ومناظر الهول

والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار: (ويل يومئذ للمكذبين) !

ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة, ومشاهدها العنيفة, وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة "الرحمن" عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد: (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) . . كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة "القمر" عقب كل حلقة من حلقات العذاب: (فكيف كان عذابي ونذر ؟) . . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة, وطعما مميزا . . حادا . .

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة, متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص, وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر, بنفس العنف وبنفس الشدة .

ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة: (والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا, عذرا أو نذرا) . . وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها . . وهذا نموذج منها , كما اختار إطارا من الضحى والليل إذا سجى لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في "سورة الضحى " وإطارا من العاديات الضابحة الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في سورة "والعاديات" . . وغيرها كثير .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع , يمثل جولة أو رحلة في عالم , تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . . أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والكلمات , وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الانقلابات الكونية الهائلة في السماء والأرض , وهي الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر: (فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين !) .

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين , وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين: (ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحي به من تقدير وتدبير: (ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتا , وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيي: (ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ أحياء وأمواتا , وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين !) . .

(13/796)

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب: (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين , ومزيد من التأنيب والتذليل: (هذا يوم لا ينطقون , ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

والجولة الثامنة مع المتقين , وما أعد لهم من نعيم: (إن المتقين في ظلال وعيون , وفواكه مما

يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التأنيب: (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التكذيب: (وإذا قيل لهم: اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !) .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات: (فبأي حديث بعده يؤمنون ?) . .

وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع , وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن – والمكية منها بوجه خاص – ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة , وفي أضواء متعددة , وبطعوم ومذاقات متعددة , وفق الحالات النفسية التي تواجهها , ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله , فتبدو في كل حالة جديدة , لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة .

حادة الملامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3791.3789﴾

(14/796)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المرسلات

مكية وآياتها خمسون آية

بين يدي السورة

* سورة المرسلات مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أمور العقيدة ، وتبحث عن شؤون الآخرة ، ودلائل القدرة والوحدانية ، وسائر الأمور الغيبية .

* ابتدات السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة ، المكلفين بتدبير شؤون الكون ، على أن القيامة حق ، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين [والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا ، إنما توعدون لواقع] الآيات .

* ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وعد به المجرمون [فإذا النجوم طمست ، وإذا

السماء فرجت ، وإذا الجبال نسف ، وإذا الرسل اقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل] .

* وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة ، على إعادة الإنسان بعد الموت ، وإحيائه بعد الفناء [ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الأخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين] الآيات .

* ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة ، وما يلقون فيه من نكال وعقاب [ويل يومئذ ! للمكذبين ، انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ! ولا يغني من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالت صفر . .] الآيات .

* وبعد الحديث عن المجرمين ، تحدثت السورة عن المؤمنين المتقين ، وذكرت ما أعده الله تعالى لهم من أنواع النعيم والإكرام [إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ، إنا كذلك نجزي المحسنين] الآيات .

(15/796)

---

* وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار ، عن عبادة الله الواحد القهار ، وهو الطغيان والإجرام [ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ، ويل

يومئذ ! للمكذبين ، وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأي حديث بعده يؤمنون] وإنه لوعيد وتهديد شديد ، ترتجف له القلوب ، وتفزع منه الألباب ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 498. 499 ﴾

(16/796)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المرسلات

المرسلات : هم الملائكة الذين أرسلهم اللّه لإيصال النعمة إلى قوم ، والنقمة إلى آخرين ، عرفا : أي للمعروف والإحسان ، والعاصفات : أي المبعدات للباطل كما تبعد العواصف التراب والتبن والهباء ، والناشرات : أي الناشرات لأجنحتهنّ عند نزولهنّ إلى الأرض ، فالفارقات فرقا : أي فالفارقات بين الحق والباطل ، فالملقيات ذكرا : أي فالملقيات العلم والحكمة إلى الأنبياء ، عذرا أو نذرا : أي للإعذار والإنذار ،

من قولهم : عذره إذا أزال الإساءة ، وأنذر إذا خوّف ، طمست : أي محقت وذهب نورها ، فرجت : أي فتحت وشقت ، نسفت : أي اقتلعت من أماكنها بسرعة من قولهم :

انتسفت الشيء إذا اختطفته ، أقّتت : أي عيّن لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على أممها ، أجّلت : أي أخرت وأمهلت ، الفصل : أي الفصل بين الخلائق بأعمالهم : إما إلى الجنة ، وإما إلى النار ، ويل : أي عذاب وخزى .

من ماء مهين : أي من نطفة قذرة حقيرة ، فى قرار مكين : أي فى الرحم ، إلى قدر معلوم : أي إلى مقدار معيّن من الوقت عند اللّه ، فقدرنا : أي على خلقه وتصويره كيف شئنا ، والكفات : ما يكفت ، أي يضم ويجمع ، من كفت الشيء .

إذا ضمه وجمعه ، وأنشد سيبويه :

كرام حين تنكفت الأفاعى إلى أجحارهنّ من الصقيع

رواسى : أي جبالا ثوابت ، شامخات : أي مرتفعات ، فراتا : أي عذبا .

ظلال : واحدها ظل ، وهو أعم من الفيء فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة ، ولكن موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فيء إلا لما زالت عنه الشمس ، ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة ، وعيون : أي أنهار ، اركعوا : أي صلوا ، حديث : أي كلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 29 صـ 178 . 188 ﴾ . باختصار .

(17/796)

وقال الفراء :

سورة (المرسلات)

﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً ﴾

[/ب] قوله عز وجل: ﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً . . . ﴾ .

يقال: هى الملائكة ، وأما قوله: (عرفا) فيقال: أُرْسِلَتْ بالمعروف ، ويقال: تتابعت كعرف الفرس ، والعرب تقول: تركتُ الناس إلى فلان عُرفا واحداً ، إذا توجهوا إليه فأكثروا .

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . . . ﴾ .

وهى الرياح.

﴿ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً . . . ﴾ .

وهى: الرياح التى تأتى بالمطر .

﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً . . . ﴾ .

وهى: الملائكة ، تنزل بالفرْق ، بالوحى ما بين الحلال وَالحرام وبتفصيله ، وهى أيضاً .

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . . . ﴾ .

هى: الملائكة تلقى الذكر إلى الأنبياء .

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً . . . ﴾ .

خففه الأعمش ، وثقل عاصم: (النُّذر) وحده . وَأهل الحجاز والحسن يثقلون عذراً أو نذراً . وهو مصدر مخففاً كان أو مثقلا . ونصب عذراً أو نذراً أى: أرسلت بما أرسلت به إعذاراً من الله وَإِنذاراً .

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ . . . ﴾ .

ذهب ضوءها .

﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ . . . ﴾ .

اجتمع القراء على همزها ، وهى فى قراءة عبد الله: "وقِّتت" بالواو ، وقرأها أبو جعفر المدنى: "وُقِتتْ" بالواو خفيفة ، وإنما همزتْ لأن الواو إذا كانت أول حرف وضمت همزت ، من ذلك قولك: صَلّى القوم أُحدانا . وأنشدنى بعضهم:

يَحل أحِيدهُ ، ويُقالُ: بَعْلٌ * ومِثل تَموُّلٍ منهُ افتقارُ

ويقولون: هذه أجوهٌ حسان - بالهمز ، وذلك لأن ضمة الواو ثقيلة ، كما كان كسر الياء

ثقيلا .

وقوله عز وجل: ﴿ أُقِّتَتْ . . . ﴾ . جمعت لوقتها يوم القيامة [/١] .

(18/796)

﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . . ﴾ .

يعجب العباد من ذلك اليوم ثم قال: ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ . . . ﴾ .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ . . . ﴾ ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ . . . ﴾ .

بالرفع . وهى فى قراءة عبد الله: "ألم نهلك الأولين وسنتبعهم الآخرين" ، فهذا دليل على أنها مستأنفة لا مردودة على (نهلك) ، ولو جزَمت على: ألم نقدّر إهلاك الأولين ، وإتباعهم الآخرين. كان وجهاً جيداً بالجزم ؛ لأنّ التقدير يصلح للماضى ، وللمستقبل .

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . . . ﴾ .

ذكر عن على بن أبى طالب رحمه الله ، وعن أبى عبد الرحمن السلمى: أنهما شدّدا ،

وخففها الأعمش وعاصم. ولا تبعدن أن يكون المعنى فى التشديد والتخفيف واحداً؛ لأن العرب قد تقول: قدّر عليه الموتُ، وقدّر عليه رزقه، وقُدِر عليه بالتخفيف والتشديد، وقد احتج الذين خففوا فقالوا: لو كان كذلك لكانت: فنعم المقدّرون. وقد يجمع العرب بين اللغتين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾، وقال الأعشى:

وأُنْكِرتْنى، وما كان الَّذى نَكِرتْ * من الحوادثِ إلاَّ الشيبَ والصَّلَعا

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْواتاً﴾

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً...﴾ ﴿أَحْيَاءً وَأَمْواتاً...﴾.

(19/796)

تكفتهم أحياء على ظهرها فى بيوتهم ومنازلهم، وتكفتهم أمواتاً فى بطنها، أى: تحفظهم وتحرزهم. ونصبك الأحياءَ والأموات بوقوع الكفات عليه، كأنك قلت: ألم نجعل الأرض كفاتَ أحياءٍ، وأمواتٍ، فإذا نونت نصبت. كما يقرأ من قرأ: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ، يَتيماً﴾، وكما يقرأ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلَ ما قتل﴾، ومثله: ﴿فِدْيَةٌ طعامَ مِسْكِينٍ﴾ [/ب].

﴿ انطَلِقُواْ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ . . . ﴾ .

يقال: إنه يخرج لسانٌ من النار ، فيحيط بهم كالسرادق ، ثم يتشعب منه ثلاث شعب من دخان فيظللهم ، حتى يفرغ من حسابهم إلى النار .

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَالْقَصْرِ . . . ﴾

يريد : القصر من قصور مياه العرب ، وتوحيده وجمعه عربيان ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ، معناه: الأدبار ، وكأن القرآن نزل على ما يَستحب العرب من موافقة المقاطع ، ألا ترى أنه قال: ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ ، فثقل فى (اقْتَرَبَت) ؛ لأن آياتها مثقلة ، قال: ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً ﴾ .

فاجتمع القراء على تثقيل الأول ، وتخفيف هذا ، ومثله: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ، وقال: ﴿ جَزَاءً مِّنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِساباً ﴾ فأجريت رءُوس الآيات على هذه المجارى ، وهو أكثر من أن يضبطه الكتاب ، ولكنك تكتفى بهذا منه إن شاءَ الله .

ويقال: كالقَصَر كأصول النخل ، ولست أشتهى ذلك ؛ لأنها مع آيات مخففة ، ومع أن الْجَمَلَ إنما شُبه بالقصر ، ألا ترى قوله جل وعز: ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالاتٌ صُفْرٌ ﴾ ، والصُّفر: سُود الإبل ، لا ترى أسودَ من الإبل إلاّ وهو مشربٌ بصفرة ، فلذلك سمتِ العربُ سودَ الإبل: صفرا ،

كما سمّوا الظبَّاء: أُدْماً لما يعلوها من الظلمة فى بياضها ، وقد اختلف القراء فى "جمالات" فقرأ عبدالله بن مسعود وأصحابه: "جمالةٌ" .

(20/796)

قال: [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: وحدثنى محمد بن الفضل عن عطاء عن أبى عبدالرحمن يرفعه إلى عمر بن الخطاب (رحمه الله) أنه قرأ: "جِمالاتٌ" وهو أحب الوجهين إلىّ ؛ لأن الجِمال أكثرُ من الجمالة فى كلام العرب . وهى تجوز ، كما يقال: حجر وحجارة ، وذَكَر وذِكاره إلاّ أن الأول أكثر ، فإذا قلت: جِمالات ، فواحدها : جِمال ، مثل ما قالوا : رجالٌ ورجالات ، وبيوت وبيوتات ، فقد يجوز أن تجعل واحد الجمالات جمالة ، [وقد حكى عن بعض القراء : جُمالات] ، فقد تكون من الشىء المجمل ، وقد تكون جُمالاتٌ جمعا من جمع الجِمال . كما قالوا : الرَّخِلُ والرُّخالُ ، والرِّخال .

﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ . . . ﴾ .

اجتمعت القراء على رفع اليوم ، ولو نُصب لكان جائزا على جهتين: إحداهما ـ أن العرب إذا أضافت اليوم والليلة إلى فعلٍ أو يفعل ، أو كلمة مجملةٍ لا خفض فيها نصبوا اليوم فى

موضع الخفض والرفع ، فهذا وجه . والآخر : أن تجعل هذا فى معنى : فِعلٍ مجمَلٍ من "لا ينطقون" . وعيدُ الله وثوابه . فكأنك قلت : هذا الشأن فى يومِ لا ينطقون . والوجه الأول أجود ، والرفع أكثر فى كلام العرب . ومعنى قوله : هذا يومُ لا ينطقون ولا يعتذرون فى بعض الساعات فى ذلك اليوم . وذلك فى هذا النوع بيّن . تقول فى الكلام : آتيك يوم يقدُم أبوك ، ويوم تقدَم ، والمعنى ساعة يقدم وليس باليوم كله ولو كان يوماً كلّه فى المعنى لما جاز فى الكلام إضافته إلى فعل ، ولا إلى يَفعَل ، ولا إلى كلام مجمل ، مثل قولك : آتيتك حين الحجاجُ أميرٌ .

وإنما استجازت العربُ : أتيتك يوم مات فلان ، وآتيتك يوم يقدم فلان ؛ لأنهم يريدون : أتيتك إذ قدم ، وإذا يقدَم ؛ فإذ وإذا لا تطلبان الأسماء ، وإنما تطلبان الفعل . فلما كان اليوم والليلة وجميع المواقيت فى معناهما أضيفا إلى فعلَ ويفعَلُ وإلى الاسم المخبر عنه ، كقول الشاعر :

(21/796)

[/ب] أزمان من يرد الصنيعة يصطنع * مِننًا ، ومن يرد الزهادة يزهد

﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . . . ﴾ .

نويت بالفاء أن يكون نسقا على ما قبلها ، واختير ذلك لأن الآيات بالنون ، فلو قيل:

فيعتذورا لم يوافق الآيات . وقد قال الله جل وعز: ﴿ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ بالنصب ، وكلٌّ صواب . مثله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ ﴾ و (فيضاعفَه) ، قال ، قال أبو عبد الله: كذا كان يقرأ الكسائي ، والفراء ، وحمزة ، (فيضاعفُه) .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . . . ﴾ .

إن كان عندكم حيلة ، فاحتالوا لأنفسكم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُواْ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُواْ لاَ يَرْكَعُونَ . . . ﴾ .

يقول: إذا أُمروا بالصلاة لم يصلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للفراء حـ 3 صـ 227.221 ﴾

(22/796)

وقال بيان الحق الغزنوي :

سورة المرسلات

(والمرسلات عرفاً) [1] الملائكة ترسل بالمعروف. وقيل: السحائب. وقيل: الرياح. و(عرفاً) متتابعاً. (فالعاصفات) [2] الملائكة تعصف بأرواح الكفار. وقيل: الرياح العواصف وهي الشديدة الهبوب.

(والناشرات) [3] الرياح أيضاً تنشر السحاب. وقيل: المطر لنشرها النبات. وقيل: الملائكة تنشر الكتب. (فالفارقات) [4] الملائكة تفرق بين الحق والباطل. (فالملقيات ذكراً) [5] الملائكة تلقي الوحي. (عذراً [أ]و نذراً) [6] نصب على الحال، كقوله: (رسلاً مبشرين).

ويجوز على المفعول له، أي: عذراً من الله إلى عباده، ونذراً لهم من عذابه، أي: لذلكما تلقي/الملائكة الذكر. (إنما توعدون لواقع) [7] جواب الإقسام. (طمست) [8] [محيت]. (فرجت) [9] فتحت وشقت. (نسفت) [10] قلعت من أصولها. (أقتت) [11] جمعت لوقت. (كفاتاً) [25]

كناً ووعاءً. وأصله: الضم، في اللغة. نظر الشعبي إلى الدور فقال: "كفت الأحياء، وإلى القبور فقال: "كفت الأموات". فكان قوله: (أحياءً وأمواتاً) [26] تفسير قوله: "كفاتا". (ذي ثلاث شعب) [30] قيل: إنها اللهب والشرر والدخان. وقال المبرد: إنما قال ذلك، لأن النار ليس لها إلا ثلاث جهات: يمنة ويسرة وفوق.

والأولى أن يقال: إن الوراء وإن كان من جهاتها، ولم يباينها في الصفة المكروهة، فإنها لا

تدرك قبل الالتفات ، وكذلك الفوق والتحت ، بخلاف الشعب الثلاث من اليمنة واليسرة والأمام ، لأنها ترى أول وهلة ، ولأن الشكل الحسكي يلقب بالناري ، فيجوز أن يقال: إنه ليس لها فوق ووراء وتحت [يدرك] بالبصر . (بشرر كالقصر) [32] . قال أبو علي: القصر بمعنى القصور ، وهي: بيوت من أدم كانوا يضربونها إذا نزلوا على الماء . (جمالات) [33] جمع [جمالة] ، وهي الشيء المجمل .

ويقال: جمع جمال . والصفر: السود ، لأن سود الإبل فيها شكلة من صفرة ، أي: خلطة . وقيل: هي [قلوس] السفن . (فبأي حديث) [50] إذا كفروا بالقرآن (فبأي حديث بعده يؤمنون) .

[تمت سورة المرسلات] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1606 . 1611 ﴾

(23/796)

وقال الأخفش :

سورة (المرسلات)

﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * والنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾

[قال] ﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً ﴾ ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾ ﴿ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾ ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ قَسَمٌ عَلَى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ .

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾

[وقال] ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ فأضمر الخبر والله أعلم .

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾

وقال ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ رفع لأنه قطعه من الكلام الأول وان شئت جزمته اذا عطفته على ﴿ نُهْلِكِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْواتاً ﴾

[و] قال ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً ﴾ ﴿ أَحْيَاءً وَأَمْواتاً ﴾ على الحال .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً ﴾

وقال ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً ﴾ [181] أي: جَعَلْنا لَكُمْ ماءً تشربون منه . قال ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ للشفة ، وما كان للشفة فهو بغير الف [و] في لغة قليلة قد يقول للشفة أيضا "أَسْقَيْنَةٌ" وقال لبيد : [من الوافر وهو الشاهد الخامس والسبعون بعد المئتين]:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى * نُمَيراً والقَائِلَ من هِلالِ

﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ * لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ

كَالْقَصْرِ ﴾

وقال ﴿ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ ثم استأنف فقال ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أي: كالقصور وقال بعضهم ﴿ كالقَصَر ﴾ أَيْ: كأعناقِ الإبل.

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾

(24/796)

وقال ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ ، بعض العرب يجمع "الجِمال" [على] "الجِمالات" كما تقول "الجُزُرات" وقال بعضهم ﴿ جُمالاَتٌ ﴾ وليس يعرف هذا الوجه.

﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾

وقال ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ فرفع ، ونصب بعضهم على قوله "هذا الخبر يومَ لا ينطقون" وكذاك ﴿ [هَاذَا] يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ وترك التنوين للاضافة ، كأنه قال: "هذا يومُ لا نُطْقَ" وان شئت نونت اليوم اذا اضمرت فيه كأنك قلت "هذا يومٌ لا يَنْطِقُون فيه" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 562.563 ﴾

(25/796)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة المرسلات

مكية

1 - الْمُرْسَلاتِ : الملائكة ، عُرْفاً أي متتابعة . يقال : هم إليه عرف واحد . ويقال : أرسلت بالعرف ، أي بالمعروف .

2 - وفَالْعاصِفاتِ : الرياح .

3 - والنَّاشِراتِ : الرياح التي تأتي بالمطر ، من قوله : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [سورة الأعراف آية : 57] .

4 - فَالْفارِقاتِ فَرْقاً [هي] : الملائكة تنزل ، تفرق ما بين الحلال والحرام .

5 - فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً هي : الملائكة أيضا ، تلقي الوحي إلى الأنبياء .

6 - عُذْراً أَوْ نُذْراً : إعذارا من اللّه وإنذارا .

8 - فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ أي ذهب ضوءها : كما يطمس الأثر حتى يذهب .

9 - وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ أي فتحت .

11 - وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ : جمعت لوقت ، وهو : يوم القيامة .

---

12 - لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ؟ ! [استفهام] على التعظيم لليوم ، كما يقال : ليوم أيّ يوم !

و «أجّلت» : أخرت .

20 - مِنْ ماءٍ مَهِينٍ أي حقير .

23 - فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ ! بمعنى «قدّرنا» مشدّدة يقال :

قدرت كذا وقدّرته .

ومنه

قول النبي - صلّى اللّه عليه وسلم - في الهلال : «إذا غمّ عليكم فأقدروا له»

، أي فقدّروا له المسير والمنازل .

25 - أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً ؟ ! أي تضمكم فيها .

و «الكفت» : الضم . يقال : أكفت إليك كذا ، أي أضمّه إليك .

وكانوا يسمون بقيع الغرقد : «كفتة» ، لأنها مقبرة تضمّ الموتى .

26 - أَحْياءً وَأَمْواتاً يريد : أنها تضم الأحياء والأموات .

27 - شامِخاتٍ : [جبالا] طوالا . ومنه يقال : شمخ بأنفه ، [إذا رفعه كبرا] .

ماءً فُراتاً أي عذبا .

30 - انْطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ مفسر في «تأويل مشكل القرآن» .

32 - بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ من البناء .

ومن قرأه : كَالْقَصْرِ ، أراد : أصول النخل المقطوعة المقلوعة .

ويقال : أعناق النخل [او الإبل] ، شبّهها بقصر الناس ، أي أعناقهم .

33 - (جمالات) : جمالات . صُفْرٌ أي إبل سود . واحدها :

(27/796)

«جمالة» . والبعير الأصفر هو الأسود : لأن سواده تعلوه صفرة .

قال ابن عباس : «الجمالات الصّفر : حبال السّفن يجمع بعضها إلى بعض ، حتى تكون كأوساط الرجال» .

39 - فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ أي حيلة : فَكِيدُونِ أي فاحتالوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 431.433 ﴾

(28/796)

وقال الغزنوى :

ومن سورة المرسلات

1 وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً : الملائكة ترسل بالمعروف «7» .

---

(7) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 221 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 29/ 229 عن مسروق .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 511 عن أبي هريرة رضي اللّه عنه موقوفا ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 381 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه .

(29/796)

وقيل «1» : السّحائب والرياح.

عُرْفاً : متتابعة كعرف الفرس «2» .

3 وَالنَّاشِراتِ : المطر لنشرها النّبات «3» .

4 فَالْفارِقاتِ : الملائكة تفرّق بين الحقّ والباطل «4» .

5 فَالْمُلْقِياتِ : / الملائكة تلقي الرّوح «5» . [104/ ب]

6 عُذْراً : نصب على الحال أو على المفعول له «6» ، أي : عذرا من اللّه إلى عباده ونذرا لهم من عذابه .

8 طُمِسَتْ : محيت «7» .

9 فُرِجَتْ : شقّت «8» .

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : (29/ 228 ، 229) عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي صالح ، ومجاهد ، وقتادة .

(2) معاني القرآن للفراء : 3/ 221 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 505 ، وتفسير الطبري :

29/ 229 ، ومعاني الزجاج : 5/ 265 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 29/ 331 عن أبي صالح ، وانظر هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 378 ، وزاد المسير : 8/ 445 .

(4) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 222 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 505 ، والطبري في تفسيره : 29/ 232 ، والزجاج في معانيه : 5/ 265 ، ونقله الماوردي في

تفسيره : 4/ 378 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . [. . . . .]

(5) في «ج» و«ك» : الوحي .

وانظر معاني الفراء : 3/ 222 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 505 ، وتفسير الماوردي : 4/ 378 .

(6) معاني القرآن للزجاج : 5/ 266 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1262 ، والبحر المحيط :

8/ 405 .

(7) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 379 ، وتفسير البغوي : 4/ 433 ، والمفردات للراغب : 307 .

(8) معاني القرآن للزجاج : 5/ 266 ، وتفسير الماوردي : 4/ 379 ، وزاد المسير : 8/ 447 ، وتفسير الفخر الرازي : 30/ 269 .

(30/796)

---

10 نُسِفَتْ : قلعت «1» .

11 أُقِّتَتْ : جمعت لوقت «2» .

25 كِفاتاً : كنّا ووعاء «3» ، وأصلها الضمّ «4» . يقال للرطب : كفت وكفيت لضمّه ما يحويه .

30 ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ : اللّهب والشّرر والدخان «5» .

وقيل : إنّ الشّكل الحسكيّ يلقّب ب «النّاري» ، فليس لها فوق ووراء وتحت يدرك .

32 بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ : بمعنى القصور «6» ، وهي بيوت من أدم «7» .

33 جمالت «8» جمع «جمالة» : قلوس . . . .

---

(1) نقل القرطبي هذا القول في تفسيره : 19/ 57 عن المبرد .

وانظر المفردات للراغب : 490 ، وتفسير البغوي : 4/ 433 ، واللسان : 9/ 327 (نسف) .

(2) أي : لوقت القيامة .

ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 506 ، وتفسير البغوي : 4/ 433 ، وتفسير القرطبي :

19/ 157 .

(3) معاني القرآن للفراء : 3/ 224 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 281 ، وتفسير الطبري :

29/ 236 ، ومعاني الزجاج : 5/ 267 .

(4) ينظر المفردات للراغب : 433 ، واللسان : 2/ 79 (كفت) .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 380 ، والقرطبي في تفسيره : 19/ 163 .

(6) قال الطبري رحمه اللّه في تفسيره : 29/ 241 : ولم يقل «كالقصور» و«الشرر» جماع ، كما قيل : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ولم يقل : الأدبار ، لأن الدبر بمعنى الأدبار ، وفعل ذلك توفيقا بين رؤوس الآيات ومقاطع الكلام لأن العرب تفعل ذلك كذلك ، وبلسانها نزل القرآن» .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 224 ، وتفسير القرطبي : 19/ 163 .

(7) أخرج الإمام البخاري في صحيحه : 6/ 78 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة «المرسلات» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : «كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء فنسميه القصر» .

(8) بضم الجيم وصيغة الجمع ، وتنسب هذه القراءة إلى ابن عباس ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، ويعقوب .

ينظر تفسير الطبري : 29/ 243 ، وإعراب القرآن للنحاس : 15/ 121 ، والبحر المحيط :

8/ 407 ، ومعجم القراءات : 8/ 39 .

السّفن «1» . وقريء : جمالات «2» جمال وجمالات ك «رجال» و«رجالات» «3» .

و«الصفر» : السّود «4» لأنّ سود الإبل فيها شكلة من صفرة .

50 فَبِأَيِّ حَدِيثٍ : أي : إذا كفروا بالقرآن فبأيّ حديث يؤمنون ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 856 . 859 ﴾

---

(1) فلوس السفن : حبالها .

وقد ورد هذا المعنى في أثر أخرجه البخاري في صحيحه : 6/ 78 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة «المرسلات» عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 225 ، واللسان : 6/ 180 (قلس) .

(2) هذه قراءة ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر .

السبعة لابن مجاهد : 666 ، والتبصرة لمكي : 368 ، والتيسير للداني : 218 .

[. . . . .]

(3) معاني القرآن للزجاج : 5/ 268 ، والكشف لمكي : 2/ 358 ، والبحر المحيط : 8/ 407 .

(4) معاني القرآن للفراء : 3/ 225 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 281 ، وتفسير الطبري : 29/ 241 ، واللسان : 4/ 460 (صفر) .

(32/796)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المرسلات

عدد 33 - 77

نزلت بمكة بعد الهمزة ، وهي خمسون آية عدا الآية 48 فإنها نزلت بالمدينة ، ومائة وثمانون كلمة ، وثمانمائة وستة عشر حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ، وختمت بما ختمت به سورة يوسف فقط ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى مقسما : "وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً 1" الرياح المرسلة المتتابعة الكثيرة تهب بعضها اثر بعض ، ومنه طار القطن عرفا أي بعضه خلف بعض ، وجاء القوم عرفا أي جماعات بعضهم وراء بعض "فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً 2" الرياح الشديدة الهبوب تعصف ، أي تكسر الأشجار كسرا أو تدحرج الأحجار دحرجة "وَالنَّاشِراتِ نَشْراً 3" الرياح المنبثة التي

تنشر السحاب في السماء

"فَالْفارِقاتِ فَرْقاً 4" الملائكة الذين يفرقون بين الحق والباطل فيشكرون من يقوم بالأول ويمقتون الثاني ، وسمي القرآن فرقانا لأنه يفرق بين الكذب والصدق وقيل هي فارقة السحب الحائلة بين تتابع الهواء كما قيل ان المراد بالناشرات الرياح التي تنشر لأخبار كالمذياع ، وعليه ليكون من معجزات القرآن لفقدانه أبان نزوله "فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً 5" الريح الشديدة المخوفة الملقية في النفوس اللجوء إلى اللّه تعالى ، أو الملائكة الذين يلقون الوحي إلى الأنبياء بما يوحي لهم اللّه "عُذْراً" للمتقين المتمسكين به "أَوْ نُذْراً 6" للمبطلين الذين يعرضون عنه أو عذرا من اللّه إلى خلقه على حد قوله تعالى : (وقالوا لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ) الآية 164 من الأعراف الآتية ، أي لئلا يقولوا ما جاءنا من نذير .

(33/796)

هذا ، وقد جمع اللّه بين الرياح والملائكة في هذا القسم لمشابهتهم الرياح في اللطافة وسرعة الحركة ، وجواب القسم "إِنَّما تُوعَدُونَ" به أيها الناس على لسان رسلكم "لَواقِعٌ 7" لا محالة وانه سينزل بكم عند حدوث الآيات التي جعلت علامة على قربه المبينة في قوله تعالى

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ 8" ومحي نورها "وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ 9" فتحت بالأبواب قال تعالى : (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً) الآية 19 من سورة النبأ في ج 2 ولا مانع عقلي من ذلك سواء كانت جسما لطيفا أو صلبا ، وأدلة استحالة الخرق والالتئام مخروقة هنا لا تشرى ولا تسام ، لأنها لا تحول حول خوارق الملك العلام ، هذا وسيأتي بحث الخرق والالتئام في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء والأولى من سورة القمر الآتيتين فراجعهما "وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ 10" قلعت وفتتت وصارت هباء منثورا راجع تفسير الآية 5 من سورة القارعة المارة والآية 88 من سورة النمل الآتية

"وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ 11" حضّرت للميقات الذي وقته اللّه لهم للشهادة على أممهم وجمعت لذلك اليوم المشهود وإذا قلتم أيها الكفرة "لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ 12" وأخرت المواعيد التي توعدنا بها من إنزال العذاب فقل لهم يا سيد الرسل "لِيَوْمِ الْفَصْلِ 13" بين الخلائق ، ثم أتبع هذا التعجب الذي هو من خصائص ذلك

(34/796)

اليوم المهول بما يدل على تعظيمه وتفخيمه والتخوف من هوله بقوله عز قوله "وَما أَدْراكَ" أيها الإنسان أي شيء أعلمك "ما يَوْمُ الْفَصْلِ 14" هو يوم ناهيك به من شدة وبلاء وأسف

وعناء انه "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 15" به من هلاك وخسار وخطر ودمار فقل يا حبيبي للمكذبين بك وبربك المنكرين يوم المعاد والبعث والحساب والجزاء "أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ 16" من الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم لما كذبوا رسلهم وفعلنا بهم ما فعلنا "ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ 17" الذين سلكوا سبيلهم بالكفر والتكذيب كقوم لوط وفرعون وقوم شعيب ومن بعدهم فإنا دمرناهم كما أهلكنا من قبلهم "كَذَلِكَ" مثل ما فعلنا بأولئك من العذاب الفظيع "نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ 18" من قومك لأن سنتنا ماضية على ذلك "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 19" بالبعث من العذاب الذي نوقعه بهم فيه وفي هذه الآيات تهديد لأهل مكة وتخويف لمن لم يؤمن منهم برسوله ولمن بعدهم إلى يوم القيامة ولا تكرار هنا لأن الجملة الأولى لعذاب الآخرة وهذه لعذاب الدنيا فتفكروا أيها الناس واعتبروا "أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ 20" قذر قليل

(35/796)

"فَجَعَلْناهُ" أي ذلك الماء في قرار" هو الرحم "مَكِينٍ 21" ومكنون ثابت لا يطلع عليه أحد ولا يعرف ما فيه غيرنا وأبقيناه "إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ 22" هو وقت الولادة المقدر لخروج الجنين المكون من تلك النطفة "فَقَدَرْنا" نحن الإله العظيم أجله عند كماله "فَنِعْمَ الْقادِرُونَ 23"

نحن لتمام خلقه فلم نبقه بعد ذلك ولم نخرجه قبله طرفة عين ، ومع هذا تكذبون أيها الناس "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 24" بالفطرة التي فطرنا الناس عليها والقدرة التي قدرناها ولا تكرار أيضا لاختلاف المتعلق "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً 25" وعاء تضمكم "أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً 26" على ظهرها وفي بطنها وقد خلقناكم منها ، قال الصمصام بن الطرماح :

فأنت اليوم فوق الأرض حيّ وأنت غدا تضمك في كفات

"وَجَعَلْنَا فِيهَا" الأرض "رَوَاسِيَ" جبالا ثوابت تثقلها "شَامِخَاتٍ" عاليات عظيمات لئلا تميد بكم رحمة بكم أيها الناس "وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً 27"

(36/796)

عذبا حلوا وكل حلو فرات وأما نهر الفرات فقد اختص بهذا الاسم لشدة عذوبته بالنسبة لغيره من الأنهر ، وقد ثبت بالتحليل أنه أحسن ماء إذا صفي تصفية صحيحة ويليه نهر العاصي وأما ماء الفيجة بدمشق فليس بشيء بالنسبة لها وأخسّ المياه ماء حلب وهذا في محيط سورية إذ قد يوجد ما هو أخس ولا تحديد لخلق الله "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 28" بقدرتنا على الاعادة وانكار نعمتنا المتتابعة وجحود أنبيائنا المرسلين لإرشاد خلقنا وإذ كان متعلق هذه الجملة غير الأول أيضا فلا تكرار ، والاستفهام في هذه الجمل كلها للتقدير

أي أتنكرون شيئا من ذلك ، وإذا كنتم تقرونه فلما ذا لا تؤمنون ولا تحذرون أن يقال لكم حين تدنو الشمس من الرؤوس ويلجم الناس العرق لعدم وجود ما يستظلون به "انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ 29" من البعث والجزاء والنار التي لم تصدقوا بوجودها حينما خوفكم أنبياؤكم عذابها "انْطَلِقُوا" أيها الفسقة "إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ 30" وهو ناشىء من دخان جهنم إذا علا وارتفع وتشعب كالمثلث الطائش

وقد فسره بقوله "لَا ظَلِيلٍ" يظل من الحر لأنه لا ظل له "وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ 31" أي لا يرد عنهم لهب جهنم الذي أو شك أن يلتهمهم في الموقف بل يزيدهم حرا على ما هم فيه من الحر ، وهكذا كل مثلث هندسي يوشك أن لا يكون له ظل وارف بخلاف بقية الأشكال المربعة والمسدسة والمثمنة والمدورة وغيرها كالمستطيلة والبيضوية والمخمسة فانظر هداك الله انه جل شأنه لم يغفل كتابه حتى من الأمور الهندسية فاحفظوا أنفسكم أيها الناس واحذروا هذه النار "إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ" هو ما يتطاير منها لكنه ليس كشرر نارنا بل إن كل شرارة منها "كَالْقَصْرِ 32" البناء العظيم الشامخ "كَأَنَّهُ" ذلك الشرر المتطاير منها "جِمَالَتٌ" جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع "صُفْرٌ 33" من حيث اللون قال :

(37/796)

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وكانت العرب تسمي الأصفر أسود وقرىء بضم الميم جمع جمال وهو الحبل العظيم من

حبال السفن وقلوس الجسور مفرده قلس وهو حبل من ليف أو خوص النخل

وتربط بها السفن وتسحب فيها في البحر والنهر والتشبيه في امتداده والتفافه وقرىء

بكسر الجيم جمل أيضا مثل حجر وحجارة "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 34" الذين تغافلوا عن

ذلك اليوم وهنا لا تكرر أيضا للعلة السابقة .

مطلب مواقف يوم القيامة :

ثم يقال لهم عند ما يريدون إبداء أعذارهم "هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ 35" بحجة أو برهان

يدافعون بهما عن أنفسهم وهذا موقف من مواقف يوم القيامة إذ يختم على أفواههم .

(38/796)

وفيها موقف آخر يتكلمون فيه وفيها موقف يتخاصمون فيه فيما بينهم وفيها موقف

يتخاصمون فيه مع الملائكة وفيها موقف يخاطبون به ربهم وفيها موقف يتعاتبون فيه بينهم

وفيها وفيها وكل ذلك لا ينفعهم حيث تتكلم جوارحهم بما فعلوا فلا يخلصهم من عذاب اللّه

شيء وسيأتي بيان هذه المواقف في الآية 167 من سورة البقرة في ج 3 والآية 12 من

سورة السجدة والآية 11 من سورة ابراهيم في ج 2 والآية 60 من سورة ص الآتية وغيرها ، ولهذا يقول اللّه "وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ 36" حيث تقدم اللّه لهم بالاعتذار على لسان رسله في الدنيا وأنذرهم سوء العاقبة إذا أصروا على كفرهم فلم يقبل منهم عذر يعتذرون به في الآخرة فتكم أفواههم "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 37" بذلك اليوم الذي لا قدرة لهم على دفع العذاب فيه ولا يقبل منهم عذر إذ تقول لهم ملائكة العذاب "هذا" اليوم الذي أنتم فيه "يَوْمُ الْفَصْلِ" بين المحق والمبطل لا يوم الاعتذار الذي سبق أوانه لأن من أنذر فقد أعذر لذلك "جَمَعْنَاكُمْ" فيه بأمر ربنا أنتم يا مكذبين محمد "وَالْأَوَّلِينَ 38" الذين كذبوا الرسل قبلكم "فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ" من حيلة أو مكر في رفع ما نزل بكم من العذاب "فَكِيدُونِ 39" أيها الكفرة بما تقدرون عليه من أصناف الخداع ولستم بقادرين على شيء وهؤلاء الذين كنتم تعبدونهم وتقلدونهم في الدنيا موجودون معكم استصرخوهم إن كانوا ينقذونكم فإنهم أعجز منكم اليوم وأذل وسترونهم معكم في جهنم يعذبون بأشد مما تعذبون لأن لهم ضعفين من العذاب لإضلالكم وإضلال أنفسهم وأنهم سيتبرءون عن عبادتكم

لهم وينكرونكم أيضا ، وهذا نهاية في التوبيخ وغاية في التقريع لأن ذلك اليوم تنقطع فيه الحيل والأعذار ولهذا عقب هاتين الآيتين بقوله "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 40" بعدل اللّه فيه ، ولما انتهى جل جلاله من بيان مآل حال الكفرة في هذه السورة

شرع يبين ما للمؤمنين عنده فقال "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" الإنكار والجحود والتكذيب بما تقدم يكونون يوم القيامة "فِي ظِلالٍ" عند ربهم يظلهم بها يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله ، وهذا بمقابلة قوله للكافرين "ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ" وضد الظّل الضحّ وهو أعم من الفيء لأنه يقال لظل الليل وظل الجنة وكل موضع لم تصل إليه ظل ولا يقال الفيء إلا لما زاحت عنه الشمس ويعبر بالظل عن الرفاهية والمعزة والمناعة "وَعُيُونٍ 41" من ماء جارية في جنة عالية بدلالة قوله "وَفَوَاكِهَ" في تلك الجنة ذات الظلال الوافرة "مِمَّا يَشْتَهُونَ 42" من أنواعها وأصنافها يتلذذون بثمارها وتقول لهم الملائكة "كُلُوا وَاشْرَبُوا" من هذه النعم المتنوعة "هَنِيئًا" لكم ومريئا "بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 43" في الدنيا من العبادات والخيرات ، ونظير هذه الجملة في الآية 45 من سورة الأعراف الآتية والآية 32 من سورة النحل في ج 2 "إِنَّا كَذَلِكَ" بمثل هذا الجزاء "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ 44" لأنفسهم وغيرهم في هذا اليوم جزاء إحسانهم في الدنيا "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 45" بما وعدنا المؤمنين ، وهلاك وخسران وحسرة لحرمانهم من هذا النعيم الدائم وتعذيبهم بما أوعدناهم به ويقال لهم أيضا "كُلُوا وَتَمَتَّعُوا" أيها الكفار من هذه الدنيا الفانية "قَلِيلًا" لأنها مهما طال أمرها فهي قليلة بالنسبة للآخرة "إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ

46" والمجرم يستحق العذاب والعقاب وقول كلوا وإن كان ظاهره أمرا فهو في المعنى نهي بليغ على حد قوله تعالى "اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ" الآية 67 من سورة

(40/796)

فصلّت في ج 2 ، ففيه زجر عظيم لانهماكهم في الدنيا وانكبابهم على شهواتهم وإعراضهم عن الآخرة ونبذها وراءهم "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 47" بهذه النعم الدائمة التي غرتهم الدنيا الفانية بزخارفها البالية فأبعدتهم عنها "وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا" للّه واخضعوا لعظمته وتواضعوا لجلاله "لا يَرْكَعُونَ 48" أنفة واستكبارا .

مطلب الآية المدنية في هذه السورة :

هذا على القول بأن هذه الآية مكية ، وعلى القول بأنها مدنية فيكون المراد الركوع في الصلاة الذي هو جزء منها ، أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود أن هذه السورة نزلت في غار بمنى وأن هذه الآية نزلت معها دفعة واحدة فإذا صح هذا فتكون مكية ويؤول الركوع فيها على الخشوع لغة ، وإذا أريد وقوعه في الركعتين التي فرضت عليه قبل فرض الصلاة في الغداة والعشي فيؤول على معناه الشرعي ومن قال انها مدنية احتج بلفظ الركوع لأن نزولها قبل فرض الصلاة "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ 49" بأنبيائهم الجاحدين المنكرين

آيات اللّه الباهرة وهؤلاء إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب المنزل من لدنا على نبيهم الجامع لما في الدنيا والآخرة من خير وشر وقد كررت جملة "فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" عشر مرات كل لمعنى كما علمت "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ" بعد هذا القرآن المشتمل على سير كتب الأولين كلهم "يُؤْمِنُونَ 50" أي لا يؤمنون البتة.

آمنا باللّه وحده واتبعنا ما جاءنا به عبده وهذا واللّه أعلم، واستغفر اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين أجمعين.

انتهى انتهى. اهـ ﴿بيان المعاني حـ 1 صـ 250.256﴾

(41/796)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة:

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المرسلات

مكية

لواقع تام وهو آخر جواب الأقسام ليوم الفصل تام وكذا ما يوم الفصل وللمكذبين هنا وفيما يأتي منه في هذه السورة الأولين كاف الآخرين صالح وقال أبو عمرو كاف وهو احسن

بالمجرمين حسن وقال أبو عمرو تام فقدرنا كاف انقادرون حسن وكذا فراتا وبه تكذبون من اللهب كاف صفر تام فيعتذرون حسن وكذا فكيدون يشتهون كاف وكذا تعملون المحسنين وكذا مجرمون ولا يركعون آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(42/796)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والمرسلات

مكية خمسون آية باتفاق كلمها مائة وإحدى وثمانون كلمة وحروفها ثمانمائة وستة وعشرون حرفاً ولا وقف من أوّلها إلى قوله لواقع لاتصال الجواب بالقسم فلا يوقف على عرفاً ولا على عصفاً ولا على نشراً ولا على فرقاً ولا نذراً

لواقع (تام) ولا وقف من قوله فإذا النجوم طمست إلى أجلت إن جعل مع قوله ليوم الفصل فعل محذوف تقديره أجلت ليوم الفصل فتكون اللام الأولى التي في قوله لأيّ يوم صلة للفعل الظاهر والثانية صلة للفعل المضمر وإن جعلت اللام الثانية في ليوم الفصل تأكيداً للام الأولى في لأيّ يوم لم يحسن الوقف على أجلت وهذا على كون جواب إذا محذوفاً تقديره فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون وإن جعل جوابها ويل يومئذ لم يحسن الوقف إلى قوله

للمكذبين قاله مكي وغلط لأَنَّه لو كان الجواب لزمته الفاء لكونه جملة اسمية

ليوم الفصل (تام) ومثله ما يوم الفصل وكذا للمكذبين ومثله فيما يأتي في هذه السورة بعد كل جملة وعيد للمكذبين بالويل في الآخرة كرّر في عشرة مواضع وليس تكرارها تأكيداً بل أتبع كل قصة ويل يومئذ للمكذبين كأَنَّه ذكر في كل موضع شيئاً ثم قال ويل لهذا المذكور قبله وكرّر ليكون نصاً فيما يليه وظاهراً في غيره وليس التكرار إطناباً لما قبله

نهلك الأولين (كاف) على قراءة من قرأ ثم نتبعهم بالرفع على الاستئناف وليس بوقف لمن قرأه بسكون العين عطفاً على نهلك ومن قدر حذف الضمة تخفيفاً كما في يأمركم جاز له الوقف على الأولين

الآخرين (كاف)

المجرمين (تام) ولا وقف من قوله ألم نخلقكم إلى قوله فقدرنا قلا يوقف على مهين ولا على مكين ولا على معلوم

فقدرنا (كاف)

القادرون (تام) ولا يوقف على كفاتاً لأَنَّ أحياء وأمواتاً منصوبان بكفاتا

وأمواتا (حسن)

فراتا (تام)

تكذبون (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله

من اللهب (كاف)

(43/796)

كالقصر ليس بوقف لتعلق التشبيه بما قبله

صفر (كاف)

فيعتذرون (كاف) وهو عطف على ولا يؤذن لهم أي لا يؤذن ولا يعتذرون وليس بوقف إن

جعل جواباً للنفي إذ لو كان جواباً له لقال فيعتذرون

فكيدون (كاف)

وعيون ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

مما يشتهون (كاف) لأنَّ بعده إضمار القول أي يقال لهم كلوا واشربوا ومثله تعلمون

المحسنين (تام)

قليلاً قيل (جائز)

مجرمون (كاف)

ومثله لا يركعون

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(44/796)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة المرسلات

قرأ ابن عباس : "فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا" ، مشددة .

قال أبو الفتح : معنى الملقيات ، بتشديد القاف : الموصلات له إلى

المخاطبين به ، كقولك : لقيته الرمح ، ولقيته سوء عمله .

وأما الملقيات" ، بتخفيف القاف فكأنه الحاملات له ، والطارحات له ، ليأخذه من

خوطب به . وهذا كقول الله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ،

كقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ ، ونحو ذلك .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر : "وُقِتَتْ" ، بواو ، خفيفة القاف .

وقراءة الحسن : "وُوقِتَتْ

" ، بواوين : الأولى مضمومة ، والثانية ساكنة .

قال أبو الفتح : أما "وُقِتَتْ" خفيفة ، ففعلت ، من الوقت كقوله تعالى : ﴿كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ، فهذا من وقت .

وأما "ووقتت" فكقولك : عوهدت [163ظ] عليه ، وووفقت عليه ، وكلاهما من الوقت . ويجوز أن تهمز هاتان الواوان ، فيقال : أقتت ، كما قرءوا : "أقتت" ، بالتشديد ، وأوقتت ، فتكون بلفظ أفعلت ، وبمعنى فوعلت .

(45/796)

ومن ذلك قراءة الأعرج : "ثُمَّ نُتْبِعُهُم1" ، بالجزم .

قال أبو الفتح : يحتمل جزمه أمرين :

أحدهما أن يكون أراد معنى قراءة الجماعة : ﴿نُتْبِعُهُم﴾ ، بالرفع ، فأسكن العين استثقالا لتوالي الحركات على ما مضى في غي موضع من هذا الكتاب2 .

والآخر أن يكون جزءا ، فيعطفه على قوله : "نُهْلِك" ، فيجري مجرى قولك : ألم تزرني ثم أعطك ؟ كقولك3 : فأعطك ألم أحسن إليك ثم أوال ذلك عليك ؟ فيكون معنى هذه القراءة أنه يريد قوما أهلكهم الله سبحانه بعد قوم قبلهم على أختلاف أوقات المرسلين إليهم

شيئًا بعد شيء فلما ذكر ما تقضي على اختلاف الأوقات فيه قال تعالى مستأنفا :

﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ، فيكون المجرمون هنا من نهلكه من بعد . وقد يجوز أن يعني بالمجرمين من مضى منهم ومن يأتي فيما بعد ، المعنيان جميعا متوجهان .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير – واختلف عنهما – : "كَالْقَصْرِ" ، بكسر القاف ، وفتح الصاد .

قال أبو الفتح : رواها أبو حاتم : "كالقصر" – القاف والصاد مفتوحان – عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، وروى أيضا عن سعيد بن جبير : "كالقصر" ، بكسر القاف ، وفتح الصاد ، وقال : القصر : أصول الشجر ، الواحدة قصرة . وكذا رواها لنا أبو علي أيضا ، قال : ومنه قولهم : غلة نقية من القصر ، قال : وقول الكتاب : نقية من القصر لا وجه له .

قال أبو حاتم : قال الحسن : أصول الشجر ، قال : وقال قتادة والكلبي : أصول الشجر والنخل . وقال مجاهد : حزم الشجر ، قال : وكذلك قرأها مجاهد .

قال أبو حاتم : لعل القصر – بكسر القاف – لغة ، كحاجة وحوج . قد قالوا أيضا في حلقة الحديد : حلقة – بفتح اللام – وقالوا : حلق ؛ بكسر الحاء . أبو حاتم : قال الحسن : قصرة وقصر ، مثل جمرة وجمر ، كأنه قرأها ساكنة الصاد . قال : والعامة يجعلونها على القصور .

---

1 سورة المرسلات : 17 .

2 انظر الصفحة 109 من الجزء الأول ، و338 من هذا الجزء .

3 كذا في النسختين ، وينبغي أن تكون العبارة : فأعطك كقولك ، بتأخير كقولك .

4 سورة المرسلات : 32 .

(46/796)

وحدثنا أبو علي أن القصر هنا بمعنى القصور قال : وهي بيوت من أدم كانوا يضربونها إذا نزلوا على الماء .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير - بخلاف - والحسن - بخلاف - وأبي رجاء - بخلاف - وقتادة - بخلاف - : "جِمَالاتٌ صُفْرٌ1" ، بضم الجيم .

قال أبو الفتح : أبو حاتم عن ابن عباس : إنها حبال السفينة2 . انتهى انتهى . اهـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 344.346 ﴾

---

1 سورة المرسلات : 33 .

2 الواحد جملة ، لكونه جملة من الطاقات والقوى ، ثم جمع على جمل وجمال ، ثم جمع جمال ثانيا جمع صحة ، فقالوا : جمالات . وانظر البحر : 8 : 407 .

(47/796)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة المرسلات

مكية قيل إلا وإذا قيل لهم الآية وآيها خمسون مشبه الفاصلة شامخات عذرا القراآت عن الحسن عرفا بضم الراء وأدغم تاء فالملقيات ذكرا خلاد بخلفه كأبي عمرو ويعقوب وقرأعذرا) لآية 6 بضم الذال روح وافقه الحسن وسكن الذال من نذرا أبو عمرو وحفص وحمزة والكسائي وخلف وافقهم اليزيدي والأعمش كما مر واختلف في (أقتت) الآية 11 فأبو عمرو بواو مضمومة مع تشديد القاف على الأصل لأنه من الوقت والهمز بدل من الواو وافقه اليزيدي وقرأ ابن وردان وابن جماز من طريق الهاشمي عن إسماعيل بالواو وتخفيف القاف وروى الدوري عن إسماعيل عن ابن جماز بالهمز والتشديد وبه قرأ الباقون وأمال أدراك أبو عمرو وابن ذكوان وشعبة بخلفهما وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وتقدم حكم قرار في المكرر الأول بآخر آل عمران وهو ( ) مع الأبرار ( ) فراجعه واختلف في (فقدرنا) الآية 25 فنافع والكسائي وأبو جعفر بتشديد الدال من التقدير وافقهم الحسن والباقون بالتخفيف من القدرة وتقدم آخر الإدغام الصغير اتفاقهم على إدغام قاف نخلقكم في الكاف واختلافهم في إبقاء الاستعلاء وترجيح الإدغام التام عن النشر قال فيه بل لا ينبغي أن يجوز غيره في قراءة أبي عمرو في باب الإدغام الكبير

واختلف في ( ) انطلقوا إلى ظل (الآية 30 فرويس بفتح اللام من انطلق فعلا ماضيا على الخبر كأنهم لما أمروا بالأول امتثلوا إذ الأمر هناك ممتثل قطعا والباقون بكسرها أمرا متكررا بيانا للمنطلق إليه واتفقوا على تفخيم الراء الأولى المفتوحة من بشرر إلا الأزرق فرققها عنه الجمهور في الحالين وحيث رققها وقفا يرقق الثانية تبعا لها والأولى إنما رققها بسبب كسر الثانية فهو خارج عن أصله في ذلك الحرف وأما غيره

فوقف بالتفخيم على القاعدة إلا عند الروم فبالترقيق وعلى هذا الحكم من فخم الأولى عن الأزرق كابن بليمة ومن معه

(48/796)

واختلف في ﴿ جمالات) ﴾ الآية 33 فحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الجيم بلا ألف بوزن رسالة وافقهم الأعمش جمع جمل كحجر وحجارة وقيل اسم جمع وقرأ رويس بضم الجيم وبألف بعد اللام وهي الحبال الغليظة من حبال السفينة والباقون بكسر الجيم مع الألف على الجمع وهي الإبل إما جمعا لجمالة القراءة الأولى أو لجمال فيكون جمع الجمع وعن المطوعي هذا يوم بالنصب ظرفا وقع خبرا لهذا وفتحته بناء أو إعراب قولان وثبت الياء في كيدون يعقوب في الحالين وعن المطوعي في ظلل بلا ألف جمع ظلة وكسر عين

عيون ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي وقرأ قيل بالإشمام هشام والكسائي ورويس وأبدل همز فبأي ياء مفتوحة الأصبهاني كوقف حمزة وله التحقيق لأنه متوسط بزائد

المرسوم في بعضها (جمالة) بلا ألف بعد الميم وفي بعضها بالألف واتفقوا على حذفها بعد اللام واتفقوا أيضا على كتابتها بالتاء فيها زائدة (فكيدون) الآية 39 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(49/796)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والمرسلات "

والناشرات ؛ ذكرا ، القادرون ، فيعتذرون ، قيل . يؤمنون سبق كله مرات

" عذرا " قرأ روح بضم الذال وغيره بسكونها .

" أو نذرا " قرأ أبو عمرو وحفص والأخوان وخلف باسكان الذال والباقون بضمها .

" أقتت " قرأ أبو عمرو وصلا ووقفا بواو مضمومة في مكان الهمزة مع تشديد القاف وأبو جعفر بواو كذلك مع تخفيف القاف والباقون بهمزة مضمومة مع تشديد القاف .

" فقدرنا " قرأ المدنيان والكسائي بتشديد الدال وغيرهم بتخفيفها .

" انطلقوا إلى ظل " قرأ رويس بفتح اللام وغيره بكسرها ولا خلاف في كسر اللام في الأول وهو انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون .

" بشرر " رقق ورش الراء الأولى وفخمها غيره وأما الثانية فأجمعوا على ترقيقها في حالة الوصل وأما في حال الوقف فورش يرققها مطلقا سواء وقف بالسكون أم بالروم ، وأما الباقون فان وقفوا بالسكون فخموها وإن وقفوا بالروم رققوها .

" جمالت " قرأ رويس بضم الجيم وغيره بكسرها ، وقرأ حفص والأخوان وخلف بغير ألف بعد اللام على التوحيد وغيرهم باثباتها على الجمع .

وكل من قرأ بالجمع وقف بالتاء وأما من قرأ بالإفراد فكل على أصله فيقف بالهاء الكسائي وحده ويقف بالتاء حفص وحمزة وخلف .

" فكيدون " أثبت الياء يعقوب في الحالين وحذفها غيره كذلك .

" وعيون " كسر العين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان وضمها غيرهم .

" هنيئًا " وقف عليه حمزة بإبدال الهمزة ياء وإدغام الياء قبلها فيها وليس له غير هذا الوجه نظرا لزيادة الياء .

" يؤمنون " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

وسقاهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، شاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، وأدراك بالإمالة البصري وشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه وبالتقليل لورش . قرار بالإمالة للبصري والكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل لورش وحمزة المدغم

(50/796)

" الصغير " فاصبر لحكم ربك للبصري بخلف عن الدوري ، نخلقكم اتفقوا على إدغام القاف في الكاف ثم اختلفوا هل تبقى صفة الاستعلاء في القاف أم لا ؟ فذهب البعض إلى إبقاء صفة الاستعلاء وذهب الجمهور إلى الإدغام المحض وعدم إبقاء هذه الصفة وهذان الوجهان جائزان لجميع القراء إلا السوسي فلا يجوز له إلا الوجه الثاني وهو الإدغام المحض لأن مذهبه إدغام القاف المتحركة في الكاف إدغاما محضا فادغام القاف الساكنة في الكاف إدغاما محضا أولى .

" الكبير " نحن نزلنا ، فالملقيات ذكرا ، ثلاث شعب ، يؤذن لهم ، قيل لهم ووافقه خلاد بخلف عنه على إدغام فالملقيات ذكرا ولكن مع المد المشبع فلا يجوز له قصر ولا توسط ولا

روم كما سبق في مثله . والوجه الثاني لخلاد الإظهار كالباقين ، ولا إدغام في رأيت ثم لأن تاء الخطاب لا تدغم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 342 . 343 ﴾

(51/796)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة المرسلات

قوله تعالى ﴿ عذرا أو نذرا ﴾ يقرآن بضم الذالين واسكانهما وبإسكان الذال الاولى وضم الثانية فالحجة لمن ضم انه اراد جمع عذير و نذير ودليله فما تغن النذر والحجة لمن اسكن الاولى وحرك الثانية انه اتى باللغتين ليعلم جوازهما واجماعهم على تخفيف الاولى يوجب تخفيف الثانية

قوله تعالى ﴿ أقتت ﴾ يقرأ بالهمزة وبالواو فالحجة لمن همز انه استثقل الضمة على الواو فقلبها همزة كما يستثقلون كسرها فيقلبونها همزة في قولهم وشاح واشاح والقلب شائع في كلامهم والحجة لمن قرأ بالواو انه اتى بالكلام على اصله لان وزن وقتت فعلت من الوقت ودليله قوله تعالى ﴿ ووفيت ﴾ بالواو اجماع

قوله تعالى ﴿ فقدرنا ﴾ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن خفف انه اتى بالفعل على ما اتى به اسم الفاعل بعده في قوله ﴿ القادرون ﴾ لان وزن اسم الفاعل من فعل فاعل ومن افعل مفعل ومن فعل مفعل ومن فعل فعيل ومن فعل فعل والحجة لمن شدد انه اتى باللغتين معا ودليله قوله تعالى ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم ﴾ ولم يقل مهلهم والعرب تقول قدرت الشيء مخففا بمعنى قدرته مشددا

قوله تعالى ﴿ كأنه جمالة ﴾ يقرأ جمالة بلفظ الواحد وجمالات بلفظ الجمع فالحجة لمن قرأه بلفظ الواحد انه عنده بمعنى الجمع لانه منعوت بالجمع في قوله صفر والحجة لمن قرأه جمالات انه اراد به جمع الجمع كما قالوا رجال ورجالات

والهاء في قوله ﴿ كأنه ﴾ كناية عن الشرر والقصر ها هنا قيل شبه الشرر في عظمه بالقصر المبنى وقيل كأصول الشجر العظام والصفر ها هنا السود فأما في البقرة فصفر لقوله ﴿ فاقع لونها ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 361.360 ﴾

(52/796)

وقال ابن زنجلة :

77 – سورة المرسلات

عذرا أو نذرا

قرأ الأعشى عذرا أو نذرا بضم الذال فيهما وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو بكر عذرا ساكنة الذال أو نذرا مضمومة الذال وقرأ الباقون بإسكان الذال فيهما

فأما التخفيف فأن يكون مصدرا مفردا تقول عذرته عذرا كما تقول شغلته شغلا وشكرته شكرا

وأما التثقيل فإن يكون عذرا أو نذرا جمع عذير و نذير تقول عذيري من فلان أي اعذرني منه عذيرا ومن خفف عذرا وثقل نذرا جعل نذرا جمع نذير قال الله تعالى ولقد جاء آل فرعون النذر قال الزجاج العذر والعذر والنذر والنذر بمعنى واحد ومعناهما المصدر وإذا الرسل أقتت

قال أبو عمرو وإذا الرسل وقتت بالواو وتشديد القاف على الأصل لأنها فعلت من الوقت مثل قوله ووفيت كل نفس

وقرأ الباقون أقتت بالألف وحجتهم في ذلك خط المصاحف بالألف فمن همز فإنه أبدل الهمزة من الواو لانضمام الواو وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة جاز أن تبدل منها همزة فتقول في وجوه أجوه فقدرنا فنعم القادرون

قرأ نافع والكسائي فقدرنا بالتشديد ورأ الباقون بالتخفيف وحجتهم قوله فنعم القادرون ولم يقل المقدرون فأجروا على لفظ ما جاوره إذ لم يقم على التفريق بين اللفظين وكان المعنى فيه فملكنا فنعم المالكون فكان لفظ يشاكل بعضه بعضا في اللفظ والمعنى

ومن شدد فإنه أحب أن يجري على معين كل واحد منهما بخلاف الآخر وذلك فقدرنا مرة بعد مرة لأنه ذكر الخلق فقال ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فذلك منه فعل متردد فشدد إرادة تردد الفعل على سنن العربية وقد أوضح هذا المعنى في تقدير خلق الإنسان بما أجمعوا فيه على التشديد وهو قوله من نطفة خلقه فقدره فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

(53/796)

ثم قال فنعم القادرون يعني القدرة على ذلك والملك والأول من التقدير والفائدة ها هنا فائدتان وإذا كانا بلفظ واحد كانت الفائدة واحدة ويجوز أن يعني بذلك معنى واحد ويجمع ذلك المعنى بين اللغتين

قال الفراء هما لغتان والعرب تقول قدر عليه الموت وقدر وقدر عليه رزقه وقدر وقيل للكسائي لم اخترت التشديد واسم الفاعل ليس مبنيا على هذا الفعل فقال هذا بمنزلة قوله

فمهل الكافرين ثم قال أمهلهم ولم يقل مهلهم فجمع بين اللغتين ومثله فإني أعذبه عذابا ولم يقل تعذيبا

قال الأعشى . . . وأنركتني وما كان الذي نكرت . . . من الحوادث إلا الشيب والصلعا . . .

كأنه جملت صفر 33

قرأ حمزة والكسائي وحفص كأنه حمالة صفر بغير ألف جمع جمل تقول جمل وجمال وجمالة وإنما تدخل الهاء توكيدا لتأنيث الجمع كما تقول عمومة ونظيره حجر وحجار وحجر وحجارة

وقرأ الباقون جمالات صفر فهو جمع الجمع تقول جمل

وجمال وجمالات كما تقول ورجل ورجال ورجالا و بيت وبيوت وبيوتات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 742. 745﴾

(54/796)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والمرسلات 77

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير الكوفي ولا نظير لها فيه

وكلمها مئة وإحدى وثمانون كلمة

وحروفها ثمان مئة وستة عشر حرفا

وهي خمسون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو (﴿ شامخات ﴾) ورؤوس الآي

عرفا

1 عصفا

2 نشرا

3 فرقا

4 ذكرا

5 أو نذرا

6 لواقع

7 طمست

8 فرجت

9 نسفت

10 أقتت

11 أجلت

12 الفصل

13 الفصل

14 للمكذبين

15 الأولين

16 الآخرين

17 بالمجرمين

18 للمكذبين

19 مهين

20 مكين

21 معلوم

22 القادرون

23 للمكذبين

24 كفاتا

25 وأمواتا

26 فراتا

27 للمكذبين

28 تكذبون

29 ثلاث شعب

30 اللهب

31 كالقصر

32 صفر

33 للمكذبين

34 لا ينطقون

35 فيعتذرون

36 للمكذبين

37 والأولين

38 فيكيدون

39 للمكذبين

40 وعيون

41 يشتهون

42 تعملون

43 المحسنين

44 للمكذبين

45 مجرمون

46 للمكذبين

47 لا يركعون

48 للمكذبين

49 يؤمنون

50 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 261﴾

(55/796)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الواو الأولى للقسم ، وما بعدها للعطف ، ولذلك جاءت الفاء ، و (عرفا) مصدر في موضع الحال: أي متتابعة ، يعنى الريح ، وقيل المراد الملائكة فيكون التقدير بالعرف أو للعرف ، و (عصفا) مصدر مؤكد ، و (ذكرا) مفعول به ، وفي (عذرا أو نذرا) وجهان: أحدهما مصدران يسكن أوسطهما ويضم .

والثانى هما جمع عذير ونذير ، فعلى الأول ينتصبان على المفعول له ، أو على البدل من ذكرا ، أو بذكرا ، وعلى الثاني هما حالان من الضمير في الملقيات: أي معذرين ومنذرين .

قوله تعالى (إنما) " ما " ها هنا بمعنى الذى ، والخبر (لواقع) ولا تكون " ما " مصدرية هنا ولا كافة .

قوله تعالى (فإذا النجوم) جواب إذا محذوف تقديره: بأن الأمر أو فصل ، ويقال لأى يوم ، وجوابها العامل فيها ، ولا يجوز أن يكون (طمست) جوابا لأنه الفعل المفسر لمواقع النجوم الكلام لا يتم به ، والتقدير: فإذا طمست النجوم ثم حذف الفعل استغناء عنه بما بعده .

وقال الكوفيون: الاسم بعد إذا مبتدأ ، وهو بعيد لما في إذا من معنى الشرط المتقاضى بالفعل قوله تعالى (وقتت) بالواو على الأصل ، لأنه من الوقت ، وقرئ بالتخفيف ، ودل عليه قوله تعالى "كتابا موقوتا " وقرئ بالهمز لأن الواو قد ضمت ضما لازما فهرب منها إلى الهمزة .

قوله تعالى (لاى يوم) أي يقال لهم ، و (ليوم الفصل) تبيين لما قبله .

قوله تعالى (ويل) هو مبتدأ ، و (يومئذ) نعت له أو ظرف له ، و (للمكذبين) الخبر .

قوله تعالى (ثم نتبعهم) الجمهور على الرفع: أي ثم نحن نتبعهم ، وليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى أهلكنا المجرمين ثم أتبعناهم الآخرين في الهلاك ، وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد ، وقرئ بإسكان العين شاذا .

وفيه وجهان: أحدهما هو على التخفيف لا على الجزم .

(56/796)

والثاني هو مجزوم ، والمعنى: ثم أتبعناهم الآخرين في الوعد بالإهلاك ، أو أراد بالآخرين آخر من أهلك .

قوله تعالى (إلى قدر) هو في موضع الحال: أي مؤخرا إلى قدر ، و (قدرنا) بالتخفيف أجود لقوله تعالى (فنعم القادرون) ولم يقل المقدرون ، ومن شدد الفعل نبه على التكثير ، واستغنى به عن التكثير بتشديد الاسم ، والمخصوص بالمدح محذوف: أي فنعم القادرون نحن .

قوله تعالى (كفاتا) جمع كافت مثل صائم وصيام وقيل هو مصدر مثل كتاب وحساب ، والتقدير: ذات كفت أي جمع ، وأما (أحياء) ففيه وجهان ، : أحدهما هو مفعول كفاتا .

والثانى هو المفعول الثاني لجعلنا : أي جعلنا بعض الارض أحياء بالنبات ، وكفاتا على هذا حال والتاء في فرات أصل .

قوله تعالى (لاظليل) نعت لظل ، و (القصر) بسكون الصاد ، وهو المشهور وهو المبنى ، ويقرأ بفتحها وهو جمع قصرة وهى أصل النخلة والشجرة ، و (جمالات) جمع جمالة وهو اسم الجمع مثل الزكارة والحجارة والضم لغة .

قوله تعالى (هذا) هو مبتدأ ، و (يوم لا ينطقون) خبره ، ويقرأ بفتح الميم وهو نصب على الظرف: أي هذا المذكور في يوم لا ينطقون .

وأجاز الكوفيون أن

يكون مرفوع الموضع مبنى اللفظ لإضافته إلى الجملة .

قوله تعالى (فيعتذرون) في رفعه وجهان: أحدهما هو نفى كالذى قبله: أي فلا يعتذرون .

والثانى هو مستأنف: أي فهم يعتذرون فيكون المعنى أنهم لا ينطقون نطقا ينفعهم: أي لا ينطقون في بعض المواقف وينطقون في بعضها ، وليس بجواب النفى ، إذ لو كان كذلك لحذف النون .

قوله تعالى (قليلا) أي تمتعا أو زمانا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المرسلات

[سورة المرسلات (77) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِراتِ نَشْراً (3) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (4)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7)

"وَ" الواو حرف قسم وجر "الْمُرْسَلاتِ" مقسم به مجرور والجار والمجرور متعلقان بفعل قسم محذوف و"عُرْفاً" حال. "فَالْعاصِفاتِ" معطوف على المرسلات و"عَصْفاً" مفعول مطلق "وَالنَّاشِراتِ" معطوف على ما قبله و"نَشْراً" مفعول مطلق "فَالْفارِقاتِ" معطوف أيضا و"فَرْقاً" مفعول مطلق "فَالْمُلْقِياتِ" معطوف على ما قبله بالفاء و"ذِكْراً" مفعول به للملقيات. و"عُذْراً" مفعول لأجله "أَوْ نُذْراً" معطوف على عذرا بأو.

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل و"ما" اسمه و"تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة ما "لَواقِعٌ" اللام المزحلقة "واقع" خبر إن والجملة الاسمية جواب قسم لا محل لها.

[سورة المرسلات (77) : الآيات 8 الى 15]

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12)

لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

(58/796)

"فَإِذَا" الفاء حرف استئناف و"إذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"النُّجُومُ" نائب فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور و"طُمِسَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة مفسرة لجملة الشرط المقدرة والشرط وجوابه مستأنف وما بعده معطوف عليه.

"لِأَيِّ" متعلقان بالفعل بعدهما و"يَوْمٍ" مضاف إليه و"أُجِّلَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة مقول قول محذوف و"لِيَوْمِ" بدل من أي و"الْفَصْلِ" مضاف إليه.

"وَما" اسم استفهام مبتدأ و"أَدْراكَ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها و"ما يَوْمُ" مبتدأ وخبره و"الْفَصْلِ" مضاف إليه والجملة سدت مسد مفعول أدراك الثاني و"وَيْلٌ" مبتدأ و"يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله و"لِلْمُكَذِّبِينَ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة المرسلات (77) : الآيات 16 الى 19]

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)

"أَلَمْ نُهْلِكِ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم فاعله مستتر و"الْأَوَّلِينَ" مفعول به والجملة مستأنفة "ثُمَّ" حرف عطف و"نُتْبِعُهُمُ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر و"الْآخِرِينَ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها و"كَذلِكَ" صفة مفعول مطلق محذوف و"نَفْعَلُ" مضارع فاعله مستتر و"بِالْمُجْرِمِينَ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة والآية التي بعدها سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 20 الى 24]

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

(59/796)

"أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به والفاعل مستتر و"مِنْ ماءٍ" متعلقان بالفعل و"مَهِينٍ" صفة والجملة مستأنفة . و"فَجَعَلْناهُ" الفاء حرف

عطف وماض وفاعله ومفعوله و"فِي قَرارٍ" متعلقان بالفعل و"مَكِينٍ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها . و"إِلى قَدَرٍ" متعلقان بمحذوف حال و"مَعْلُومٍ" صفة قدر "فَقَدَرْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَنِعْمَ" ماض لإنشاء المدح و"الْقادِرُونَ" فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . والآية التي بعدها سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 25 الى 28]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (25) أَحْياءً وَأَمْواتاً (26) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)

"أَلَمْ نَجْعَلِ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر و"الْأَرْضَ" مفعول به أول و"كِفاتاً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة و"أَحْياءً" حال "وَأَمْواتاً" معطوف على أحياء . "وَجَعَلْنا" ماض وفاعله و"فِيها" متعلقان بالفعل و"رَواسِيَ" مفعول به و"شامِخاتٍ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها . و"وَأَسْقَيْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول و"ماءً" مفعول به ثان و"فُراتاً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها والتي تليها سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 29 الى 34]

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَلا

يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

(60/796)

"انْطَلِقُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول قول محذوف و"إِلى ما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" وكان واسمها "بِهِ" متعلقان بما بعدها "تُكَذِّبُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . . صلة و"انْطَلِقُوا" أمر وفاعله والجملة بدل من سابقتها و"إِلى ظِلٍّ" متعلقان بالفعل و"ذِي" صفة ظل مضاف إلى "ثَلاثِ" و"شُعَبٍ" مضاف إليه أيضا . و"لا" نافية و"ظَلِيلٍ" صفة ثانية لظل "وَ" الواو حرف عطف و"لا" نافية و"يُغْنِي" مضارع فاعله مستتر و"مِنَ اللَّهَبِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنَّها" إن واسمها و"تَرْمِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة و"بِشَرَرٍ" متعلقان بالفعل و"كَالْقَصْرِ" صفة شرر . "كَأَنَّهُ جِمالَتٌ" اسمها وخبرها و"صُفْرٌ" صفة جمالة والجملة حال . والآية التي بعدها سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 35 الى 37]

هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37)

"هذا يَوْمُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة و"لا" نافية و"يَنْطِقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة. "وَ" الواو حرف عطف و"لا" نافية و"يُؤْذَنُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر و"لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها و"فَيَعْتَذِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . والآية التالية سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 38 الى 40]

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40)

(61/796)

"هذا يَوْمُ" مبتدأ وخبره و"الْفَصْلِ" مضاف إليه والجملة مقول قول محذوف و"جَمَعْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حال "وَ" الواو واو المعية "الْأَوَّلِينَ" مفعول معه و"فَإِنْ" الفاء حرف استئناف و"إن" شرطية جازمة و"كانَ" ماض ناقص و"لَكُمْ" خبر كان المقدم و"كَيْدٌ" اسمها المؤخر و"فَكِيدُونِ" الفاء رابطة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط. والآية التالية : سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 41 الى 45]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45)

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ" إن واسمها و"فِي ظِلالٍ" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة مستأنفة "وَعُيُونٍ" معطوف على ظلال. "وَفَواكِهَ" معطوف أيضا و"مِمَّا" متعلقان بمحذوف صفة فواكه و"يَشْتَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما. و"كُلُوا" أمر وفاعله والجملة مقول قول محذوف "وَاشْرَبُوا" معطوف على كلوا و"هَنِيئاً" حال و"بِما" متعلقان بهنيئا و"كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" كان واسمها ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة ما "إِنَّا" إن واسمها و"كَذلِكَ" صفة مفعول مطلق محذوف و"نَجْزِي" مضارع فاعله مستتر و"الْمُحْسِنِينَ" مفعول به والجملة خبر إنا والجملة الاسمية تعليل. والآية التي بعدها سبق إعرابها.

[سورة المرسلات (77) : الآيات 46 الى 47]

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47)

"كُلُوا" أمر وفاعله والجملة مقول قول محذوف "وَتَمَتَّعُوا" معطوف على كلوا . و"قَلِيلًا" في محل نصب على الظرفية الزمانية و"إِنَّكُمْ" إن واسمها و"مُجْرِمُونَ" خبرها والجملة الاسمية تعليل للأمر لا محل لها . والآية التي بعدها سبق إعرابها .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 48 الى 50]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"قِيلَ" ماض مبني للمجهول و"لَهُمُ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة و"ارْكَعُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول و"لا" نافية و"يَرْكَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها . والآية التي تليها سبق إعرابها . "فَبِأَيِّ" الفاء الفصيحة و"بأي" متعلقان بيؤمنون و"حَدِيثٍ" مضاف إليه و"بَعْدَهُ" ظرف زمان و"يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 411.413﴾

(63/796)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة المرسلات

فِيهَا حديثان

1446 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ فِي قَوْله تَعَالَى وَإِذا قيل لَهُم ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ أَنَّهَا نزلت فِي ثَقِيف حِين أَمرهم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِالصَّلَاةِ فَقَالُوا لَا نجبى فَإِنَّهَا مسبَّة علينا فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لَا خير فِي دين لَيْسَ فِيهِ رُكُوع وَلَا سُجُود

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه بِنَقص أخرجه فِي كتاب الْخراج من حَدِيث الْحسن الْبَصْرِيّ عَن عُثْمَان بن أبي الْعَاص أَن وَفد ثَقِيف لما قدمُوا عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنزلهم النَّبِي الْمَسْجِد ليَكُون أرق لقُلُوبهمْ فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِم أَلا يحْشرُوا وَلَا يعشرُوا وَلَا يجبوا فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَكم أَلا تُحشرُوا وَلَا تعشرُوا وَلَا خير فِي دين لَيْسَ فِيهِ رُكُوع انْتَهَى

وَرَوَاهُ احْمَد وَابْن أبي شيبَة وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مسانيدهم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَذكره عبد الْحق فِي أَحْكَامه من جِهَة أبي دَاوُد وَقَالَ لَا يعرف لِلْحسنِ سَماع من عُثْمَان وَلَيْسَ طَرِيق الحَدِيث بِقَوي انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ عَن مقَاتل بِلَفْظ المُصَنّف سَوَاء

1447 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ والمرسلات

كتب لَهُ انه لَيْسَ من الْمُشْركين

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث مُحَمَّد بن عمرَان بن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى ثني أبي عَن مجَالد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 139.140 ﴾

(64/796)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة المرسلات :

قوله تعالى : (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً ، أَحْياءً وَأَمْواتاً) ، الآية/ 25 ، 26 .

وعنى بالكفات الضمام ، فأراد به تعالى أنها تضمهم في الحالتين جميعا «3» .

وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه ودفن شعره وسائر ما يزايله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 428 ﴾

(65/796)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة المرسلات» (77)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله «الْمُرْسَلاتِ» (1) هى الملائكة والريح . .

«عُرْفاً» (1) يتبع بعضه بعضا يقال : جاءونى عرفا . .

«فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً» (2) الريح . .

«أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً» (25) أي واعية ، يقال : هذا النحى كفت ، وهذا كفيت .

قال «أَحْياءً وَأَمْواتاً» (26) منه ما ينبت ومنه ما لا ينبت . .

«ماءً فُراتاً» (27) عذبا .

«جمالات صفر» (33) سود ، جمل أصفر أسود . .

«وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» (36) مرفوعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 281 ﴾

(66/796)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «المرسلات»

[سورة المرسلات (77) : آية 8]

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8)

قوله سبحانه : فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ [8] وهذه استعارة . والمراد بطمس النجوم- والله أعلم- محو آثارها ، وإذهاب أنوارها ، وإزالتها عن الجهات التي كان يستدلّ بها ، ويهتدى بسمتها . فصارت كالكتاب المطموس الذي أشكلت «1» سطوره ، واستعجمت حروفه .

والطمس فى المكتوبات حقيقة . وفى غيرها استعارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 358 ﴾

---

(1) أشكل الأمر ، على وزن أكرم : التبس .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المرسلات

" والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشرا * فالفارقات فرقا * فالملقيات ذكرا * عذرا أو نذرا " . هذه الجمل كلها فى وصف الريح التى تنبئنا النشرات الجوية عن مصادر هبوبها وتحديد وجهاتها ، وصدر السورة هنا يشبه صدر سورة الذاريات . والهواء أساس الحياة البشرية سواء وقف ساكنا أو هب عليلا أو اشتد عاصفا . . وقد تساءلت كثيرا عن الهواء الذى يملأ رئتى زفيرا وشهيقا : هل يبقى فى القاهرة ، أم يتنقل ريحا بين شرق الدنيا وغربها ، ويمر فى حركته الدائمة بصدور أخرى ؟ إننى موقن بأنى أشرب الشاى من شرقى آسيا وأشرب ماء النيل من أعماق المحيط الهندى

، وعندما أتأمل فى نعماء الله أشعر بأن الكون كله يشترك فى خدمتى ، ولكن " قتل الإنسان ما أكفره " . عندما يهدأ الجو نشعر بالهواء لطيفا ، وعندما يثور فى بعض الأقطار نراه يقصف الأشجار ويقذف بالسيارات من مكان لآخر ، وهو يبعثر السحب هنا وهناك ويفرقها لتهمى بالغيث حيث شاء الله . . وتدبر قوله تعالى: " فالملقيات ذكرا * عذرا أو نذرا " . الذكر هنا هو القرآن الكريم ، والرياح هى الوسط الناقل للأمواج الصوتية ، وسامعو الوحى بين منتفع به وصاد عنه ، إنه عذر للمهتدين ونذير للضالين . ونشير هنا إلى أن جمهور المفسرين يظن الآيتين الأخيرتين وصفا للملائكة ، وقد لجأ إلى تقطيع المعنى على هذا النحو لأنه لم يكن يدرى أن الهواء هو الوسط الناقل للأصوات ، مع أن ذلك أصبح من الحقائق المدروسة فى علم " الفيزياء " الطبيعة . وقد أقسم الله بالرياح ونعوتها المتعاطفة على أن البعث حق وأن جزاء الكفر والإيمان لاشك فيه ، ثم ذكر صفات اليوم الأخير للعالم قائلا: " فإذا النجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل " ؟

(68/796)

إن هذا الكون المحبوك سيهى نظامه ويتمزق شمله ، وتبدأ إعادة تشكيله من جديد على نحو آخر . فى أيام الدنيا . كان الأسافل يرتفعون والأنبياء يهانون ويزعجون ، أما فى الآخرة فلا تكذيب لصادق ولا تكريم لكذوب . ونلحظ فى هذه السورة تكرار قوله تعالى " ويل يومئذ للمكذبين " . لقد تكررت عشر مرات ، أحيانا تجىء بعد نذير إلهى ، أو بعد آية كونية أو بعد مرحلة تاريخية أو بعد نصيحة إنسانية . وقد بدأ إيراد لآية بعد تهديد للمكذبين وتذكير بما لحقهم فى الدنيا من نكال ، إن ما أصاب الأولين لن يفوت الآخرين ! ثم يجىء هذا الاستفهام التقريرى عن الخالق الكبير . إنه سبحانه الذى أنشأنا من عدم نسبى أو من عدم مطلق ! كيف بدأت هذه النشأة ؟ إنها لم تبدأ فى طريق مفروش بالورد تحفه المعادن النفيسة ! إنها بدأت من ماء مهين يمشى مع الفضلات البشرية فى مجارى واحدة ! ! " ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم " . فى هذا المستقر يتكون البشر ، العبقرى منهم والبليد ، ويولد إنسان عجيب المواهب رائع التقويم . من أشرف على إبداعه ؟ إن آله الأقربين يرقبون ما يحدث وحسب ! ولذلك يقول الله " فقدرنا فنعم القادرون " . أجل نعم المقدر ، وفى الصافات يقول المولى عن نفسه " ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون " . أجل نعم المجيب . إن هذا المديح للذات الأقدس بداية إحصاء لأمجاد إلهية لا تنتهى يستحضرها المسلم فى الصلوات المكتوبة وهو يصيح بتكبير الله قائما قاعدا راكعا ساجدا . . ثم يقول الله جل شأنه " ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء

وأمواتا " . الكفت الضم والجمع . والآيات تشير إلى الجاذبية الأرضية التى تربط الأحياء والأموات بالأرض ، وتلصق كل شىء بها لا تسمح له بفكاك ! إن غزاة الجو – وهم فى الطريق إلى القمر – نظروا إلى الأرض وهم على بعد مئات الأميال منها ، ثم تساءلوا من يمسكها فى مكانها ؟ وأتساءل معهم من يمسك الماء على سطحها ، وهو أربعة أخماس الكرة ؟ لماذا لم ينسكب

(69/796)

فى

الجو ؟ لأن الله جعل الأرض كفاتا تجذب كل قطرة إليها ! أى لطافة سارية فى طباق البر والبحر تقوم بهذا الصنيع الباهر ؟ " وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا " . ثم تنتقل السورة إلى مشاهد الجزاء الأخروى ، وتصف عقبى المؤمنين والكافرين ،

وجموع

الخلائق الذين سكنوا الأرض خلفا من بعد سلف " هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين " . وأى كيد ينتظر منهم ؟ لقد بهتهم الحق وبغتتهم الساعة فلا تسمع إلا همسا . وتختم السورة الكريمة بهذه الآية " فبأي حديث

بعده يؤمنون " ؟ هل هناك كلام أهدى من هذا الكلام ؟ هل هناك تعريف بالله وحقوقه أفضل من هذا التعريف ؟ هل سمعنا بشرا نقل عن الله أصدق من هذا البلاغ ؟ إن محمدا بهذا الكتاب الذى قرأه علينا أنصف الحقيقة ، ودحض الشبهات وزلزل الباطل " فبأي حديث بعده يؤمنون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 493 . 495 ﴾

(70/796)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(71/796)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة المرسلات

أقول: وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى لما أخبر في خاتمتها أنه (يدخل من يشاء في رحمتِهِ والظالمين أَعدَّ لهُم عذاباً أَليماً) ، افتتح هذه بالقسم على أن ما يوعدون واقع ، فكان ذلك

تحقيقاً لما وعد به هناك المؤمنين ، وأوعد الظالمين ثم ذكر وقته وأشراطه بقوله: (فإذا النُجومُ طمست) إلى آخره ويحتمل أن تكون الإشارة بما يوعدون إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للكافرين ، ووعد للأبرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 145﴾

(72/796)

قوله تعالى ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له القدرة التامة على ما يريد (الرحمن) الذي له عموم الإنعام على سائر العبيد (الرحيم) الذي خص أهل رضوانه بإتمام ذلك الإنعام وعنده المزيد .

لما ختمت سورة الإنسان بالوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه ، وكان الكفار يكذبون بذلك ، افتتح هذه بالإقسام على أن ذلك كائن فقال : ﴿ والمرسلات ﴾ أي من الرياح والملائكة ﴿ عرفاً ﴾ أي لأجل إلقاء المعروف من القرآن والسنة وغير ذلك من الإحسان ، ومن

إلقاء الروح والبركة وتيسير الأمور في الأقوات وغيرها ، أو حال كونها متتابعة متكاثرة بعضها في أثر بعض ، من قول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد - إذا توجهوا إليه فأكثروا ، ويقال : جاؤوا عرفاً واحداً ، وهم عليه كعرف الضبع - إذا تألبوا عليه .

ولما كان العصوف للعواصف يتعقب الهبوب ، عطف بالفاء تعقيباً وتسبيباً فقال : ﴿ فالعاصفات ﴾ أي الشديدات من الرياح عقب هبوبها ومن الملائكة عقب شقها للهواء بما لها من كبر الأجسام والقوة على الإسراع التام ﴿ عصفاً ﴾ أي عظيماً بما لها من النتائج الصالحة .

ولما كان نشر الرياح للسحاب متراخياً عن هبوبها ومتباطئاً في الثوران وكذا نشر الملائكة لأجنحتها كما يفعل الطائر القوي في طيرانه ، عطف بالواو الصالحة للمعية والتعقب بمهلة وغيرها قوله : ﴿ والناشرات ﴾ أي للسحاب والأجنحة على وجه اللين في الجو وللشرائع التي تنشر العدل بين الناس ﴿ نشراً ﴾ وإذا راجعت أول الذاريات ازددت في هذا بصيرة .

(73/796)

ولما كان السحاب يجتمع بعد الثوران من مجال البخارات ويتكاثف ثم يحمل الماء ، وكان ذلك - مع كونه معروفاً - قد تقدم في الذاريات والروم وغيرهما ثم بعد الحمل تضغط

السحاب حتى يتحامل بعضه على بعض فتنفرق هناك فُرَج يخرج منها ، طوى ذلك وذكر هذا فقال بالفاء الفصيحة : ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ أي للسحاب حتى يخرج الودق من خلاله وللأجنحة وبين الحق والباطل والحب والنوى – وغير ذلك من الأشياء .

ولما كانت السحاب عقب الفرق ينزل منها ما في ذلك السحاب من ماء أو ثلج أو برد أو صواعق أو غير ذلك مما يريده الله مما يبعث على ذكر الله ولا بد والملائكة تلقي ما معها من الروح المحيي للقلوب ، قال معبراً بفاء التعقيب والتسبيب : ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ أطلق عليه الذكر لأنه سببه إن كان محمول السحاب أو محمول الملائكة ، وقد يكون محمول الملائكة ذكر الله حقيقة ، ولا يخفى أنهما سبب لإصلاح الدين والدنيا .

ولما ذكر هذه الأقسام عللها بقوله : ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ وهما منصوبان على الحال جمعان لعذر بمعنى المعذرة أو العاذر ، والنذير بمعنى الإنذار أو المنذر ، أي كانت هذه منقسمة إلى عذر إن كانت ألقت مطراً نافعاً مريئاً مريعاً غير ضار كان بعد قحط فإنه يكون كأنه اعتذار عن تلك الشدة ، وإن كانت الملائكة ألقت بشائر فهي واضحة في العذر لا سيما إن كانت بعد إنذار ، وإلى نذر إن كانت ألقت صواعق أو ما هو في معناها من البرد الكبار ونحوها ، وكذا الملائكة ، والكل سبب لذكر الله هو سبب لاعتذار ناس بالتوبة ، وسبب لعذاب الذين يغفلون عن الشكر ، ويستقبلون ذلك بالمعاصي أو ينسبون ذلك إلى الأنواء .

ولما تمت هذه الأقسام مشتملة على أمور عظام منبهة على أن أسبابها من الرياح والمياه كانت مع الناس وهم لا يشعرون بها كما أنه يجوز أن تكون القيامة كذلك سواء بسواء ، قال ذاكراً للمقسم عليه مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إنما ﴾ أي الذي ﴿ توعدون ﴾ أي من العذاب في الدنيا والآخرة ، ومن قيام الساعة ومن البشائر لأهل الطاعة ، وبناه للمفعول لأنه المرهوب لا كونه من معين مع أنه معروف أنه مما توعد به الله على لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ لواقع ﴾ أي كائن لا بد من وقوعه وأسبابه عتيدة عندكم وإن كنتم لا ترونها كما في هذه الأشياء التي أقسم بها وما تأثر عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 281ـ283 ﴾

(75/796)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ بتشديد الذال للإدغام : أبو عمرو وحمزة في رواية عنهما ﴿ عذراً ﴾ بضم الذال : الشموني والبرجمي ﴿ أو نذراً ﴾ بالسكون : أبو عمرو وحمزة

وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد : ﴿ وقتت ﴾ بالتشديد والواو : أبو عمرو ويعقوب . وبالتخفيف : ويزيد . وفي رواية بإبدال الواو همزة كقولهم "أجوه" في "وجوه" . الباقون : بالإبدال وبالتشديد ﴿ ألم نخلقكم ﴾ مظهراً روى النقاش عن ابن ربيعة عن أصحابه والحلواني عن قالون وحفص والنجاري وعن ورش ﴿ فقدرنا ﴾ مشدداً : أبو جعفر عن نافع وعلي ، ﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ بفتح اللام : رويس : ﴿ جمالة ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف وحفص ﴿ وجمالات ﴾ بضم الجيم مجموعة : يعقوب . الآخرون : بالكسر مجموعاً .

(76/796)

الوقوف : ﴿ عرفاً ﴾ ه لا ﴿ عصفاً ﴾ ه لا ﴿ نشراً ﴾ ه لا ﴿ فرقاً ﴾ ه لا ﴿ ذكراً ﴾ ه لا ﴿ نذراً ﴾ ه لا ﴿ لواقع ﴾ ه ط ﴿ طمست ﴾ ه لا ﴿ فرجت ﴾ ه لا ﴿ نسفت ﴾ ه لا ﴿ أقتت ﴾ ه لا بناء على أن عامل "إذا" محذوف أي إذا كانت هذه الأمور يفصل بين الخلق ﴿ أجلت ﴾ ه ط للفصل بين الجواب والسؤال ﴿ الفصل ﴾ ج ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ الأولين ﴾ ه ط لأن ما بعده مستأنف أي ثم نحن نتبعهم ﴿ الآخرين ﴾ ه ﴿ بالمجرمين ﴾ ه ﴿ مهين ﴾ ه لا ﴿ معلوم ﴾ ه لا ﴿ فقدرنا ﴾ ه ﴿ القادرون

﴿ ه ﴿ كفاتا ﴾ ه لا ﴿ وأمواتاً ﴾ ه لا ﴿ فراتا ﴾ ه لا ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ تكذبون ﴾ ه ج للتكرار مع الآية ووجه الوقف لمن قرأ بفتح اللام أوضح لأنه ابتداء إخبار عن موجب عملهم بما أمروا به ﴿ شعب ﴾ ه لا ﴿ اللهب ﴾ ه ط ﴿ كالقصر ﴾ ه ج لأن ما بعده وصف لشرر لا للقصر ﴿ صفر ﴾ ه ط ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ لا ينطقون ﴾ ه لا ﴿ فيعتذرون ﴾ ه ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ الفصل ﴾ ه ج لاحتمال ما بعده الإستئناف والحال أي أشير إلى يوم مجموعاً فيه ﴿ والأولين ﴾ ه ﴿ فكيدون ﴾ ه ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ يشتهون ﴾ ه ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ المحسنين ﴾ ه ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ مجرمون ﴾ ه ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ لا يركعون ﴾ ه ﴿ للمكذبين ﴾ ه ﴿ يؤمنون ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 420 . 421 ﴾

(77/796)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذه الكلمات الخمس إما أن يكون المراد منها جنساً واحداً أو أجناساً مختلفة أما الاحتمال الأول : فذكروا فيه وجوهاً الأول : أن المراد منها بأسرها الملائكة فالمرسلات هم الملائكة الذين أرسلهم الله إما بإيصال النعمة إلى قوم أو لإيصال النقمة إلى آخرين ، وقوله : ﴿ عُرْفاً ﴾ فيه وجوه : أحدها : متتابعة كشعر العرف يقال : جاؤا عرفاً واحداً وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه والثاني : أن يكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكرة فإن هؤلاء الملائكة إن كانوا بعثوا للرحمة ، فهذا المعنى فيهم ظاهر وإن كانوا لأجل العذاب فذلك العذاب ، وإن لم يكن معروفاً للكفار ، فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم .

والثالث : أن يكون مصدراً كأنه قيل : والمرسلات أرسالاً أي متتابعة وانتصاب عرفاً على الوجه الأول على الحال ، وعلى الثاني لكونه مفعولاً أي أرسلت للإحسان والمعروف وقوله : ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ فيه وجهان الأول : يعني أن الله تعالى لما أرسل أولئك الملائكة فهم عصفوا في طيرانهم كما تعصف الرياح .

والثاني : أن هؤلاء الملائكة يعصفون بروح الكافر يقال : عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه ، يقال : ناقة عصوف ، أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة ، وعصفت

الحرب بالقوم ، أي ذهبت بهم ، قال الشاعر :

في فيلق شهباء ملمومة . . تعصف بالمقبل والمدبر

(78/796)

وقوله تعالى : ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ معناه أنهم نشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض ، أو نشروا الشرائع في الأرض ، أو نشروا الرحمة أو العذاب ، أو المراد الملائكة الذين ينشرون الكتب يوم الحساب ، وهي الكتب التي فيها أعمال بني آدم ، قال تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وبالجملة فقد نشروا الشيء الذي أمروا بإيصاله إلى أهل الأرض ونشره فيهم وقوله تعالى : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ معناه أنهم يفرقون بين الحق والباطل ، وقوله : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ معناه أنهم يلقون الذكر إلى الأنبياء ، ثم المراد من الذكر يحتمل أن يكون مطلق العلم والحكمة ، كما قال : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النحل : 2] ويحتمل أن يكون المراد هو القرآن خاصة ، وهو قوله : ﴿ أَأُلقي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ [القمر : 25] وقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾ [القصص : 86] وهذا الملقى وإن

كان هو جبريل عليه السلام وحده ، إلا أنه يجوز أن يسمى الواحد باسم الجماعة على سبيل التعظيم .

(79/796)

واعلم أنك قد عرفت أن المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به ، وشرف الملائكة وعلو رتبتهم أمر ظاهر من وجوه أحدها : شدة مواظبتهم على طاعة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 27] وثانيها : أنهم أقسام : فمنهم من يرسل لإنزال الوحي على الأنبياء ، ومنهم من يرسل للزوم بني آدم لكتابة أعمالهم ؛ طائفة منهم بالنهار وطائفة منهم بالليل ، ومنهم من يرسل لقبض أرواح بني آدم ، ومنهم من يرسل بالوحي من سماء إلى أخرى ، إلى أن ينزل بذلك الوحي ملك السماء إلى الأرض ، ومنهم الملائكة الذين ينزلون كل يوم من البيت المعمور إلى الكعبة على ما روي ذلك في الإخبار ، فهذا مما ينتظمه قوله :

﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ ثم ما فيها من سرعة السير ، وقطع المسافات الكثيرة في المدة اليسيرة ، كقوله :

﴿ تَعْرُجُ الملئكة والروح إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] ثم ما

فيها من نشر أجنحتهم العظيمة عند الطيران ، ونشر العلم والحكمة والنبوة والهداية والإرشاد والوحي والتنزيل ، وإظهار الفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال ذلك الوحي والتنزيل ، وإلقاء الذكر في القلب واللسان بسبب ذلك الوحي ، وبالجملة فالملائكة هم الوسائط بين الله تعالى ، وبين عباده في الفوز بجميع السعادات العاجلة والآجلة والخيرات الجسمانية والروحانية ، فلذلك أقسم الله بهم .

(80/796)

القول الثاني : أن المراد من هذه الكلمات الخمس بأسرها الرياح ، أقسم الله برياح عذاب أرسلها عرفاً ، أي متتابعة كشعر العرف ، كما قال : ﴿ يُرْسِلُ الرياح ﴾ [الروم : 46] ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ [الحجر : 22] ثم إنها تشتد حتى تصير عواصف ورياح رحمة نشرت السحاب في الجو ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ [النمل : 63] وقال : ﴿ الله الذى يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السماء ﴾ [الروم : 48] ويجوز أيضاً أن يقال : الرياح تعين النبات والزرع والشجر على النشور والإنبات ، وذلك لأنها تلقح فيبرز النبات بذلك ، على ما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] فبهذا الطريق تكون الرياح ناشرة للنبات وفي كون الرياح فارقة

وجوه أحدها : أن الرياح تفرق بعض أجزاء السحاب عن بعض وثانيها : أن الله تعالى خرب بعض القرى بتسليط الرياح عليها ، كما قال : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ [الحاقة : 6] وذلك سبب لظهور الفرق بين أولياء الله وأعداء الله وثالثها : أن عند حدوث الرياح المختلفة ، وترتيب الآثار العجيبة عليها من تموج السحاب وتخريب الديار تصير الخلق مضطرين إلى الرجوع إلى الله والتضرع على باب رحمته ، فيحصل الفرق بين المقر والمنكر والموحد والملحد ، وقوله : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ معناه أن العاقل إذا شاهد هبوب الرياح التي تقلع القلاع ، وتهدم الصخور والجبال ، وترفع الأمواج تمسك بذكر الله والتجأ إلى إعانة الله ، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والإيمان والعبودية في القلب ، ولا شك أن هذه الإضافة تكون على سبيل المجاز من حيث إن الذكر حصل عند حدوث هذه .

(81/796)

القول الثالث : من الناس من حمل بعض هذه الكلمات الخمسة على القرآن ، وعندي أنه يمكن حمل جميعها على القرآن ، فقوله : ﴿ والمرسلات ﴾ المراد منها الآيات المتتابعة المرسلة على لسان جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله :

﴿ عُرْفاً ﴾ أي نزلت هذه الآيات بكل عرف وخير وكيف لا وهي الهادية إلى سبيل النجاة والموصلة إلى مجامع الخيرات ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ فالمراد أن دولة الإسلام والقرآن كانت ضعيفة في الأول ، ثم عظمت وقهرت سائر الملل والأديان ، فكأن دولة القرآن عصفت بسائر الدول والملل والأديان وقهرتها ، وجعلتها باطلة دائرة ، وقوله :

﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ المراد أن آيات القرآن نشرت آثار الحكمة والهداية في قلوب العالمين شرقاً وغرباً ، وقوله : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ فذلك ظاهر ، لأن آيات القرآن هي التي تفرق بين الحق والباطل ، ولذلك سمي الله تعالى القرآن فرقاناً ، وقوله : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ فالأمر فيه ظاهر ، لأن القرآن ذكر ، كما قال تعالى :

﴿ ص والقرءان ذِى الذكر ﴾ [ص : 1] ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء : 50] وتذكرة كما قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة : 48] وذكرى كما قال : ﴿ ذكرى للعالمين ﴾ [الأنعام : 90] فظهر أنه يمكن تفسير هذه الكلمات الخمسة بالقرآن ، وهذا وإن لم يذكره أحد فإنه محتمل .

(82/796)

القول الرابع : يمكن حملها أيضاً على بعثة الأنبياء عليهم السلام ﴿ والمرسلات علافاً ﴾ هم الأشخاص الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كل خير ومعروف ، فإنه لا شك أنهم أرسلوا بلا إله إلا الله ، وهو مفتاح كل خير ومعروف ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ معناه أن أمر كل رسول يكون في أول الأمر حقيراً ضعيفاً ، ثم يشتد ويعظم ويصير في القوة كعصف الرياح ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ المراد منه انتشار دينهم ومذهبهم ومقالتهم ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ المراد أنهم يفرقون بين الحق والباطل والتوحيد والإلحاد ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ المراد أنهم يدعون الخلق إلى ذكر الله ، ويأمرونهم به ويحثونهم عليه .

القول الخامس : أن يكون المراد أن الرجل قد يكون مشتغلاً بمصالح الدنيا مستغرقاً في طلب لذاتها وراحاتها ، ففي أثناء ذلك يرد في قلبه داعية الإعراض عن الدنيا والرغبة في خدمة المولى ، فتلك الدواعي هي المرسلات عرفاً ، ثم هذه المرسلات لها أثران أحدهما : إزالة حب ما سوى الله تعالى عن القلب ، وهو المراد من قوله : ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ والثاني : ظهور أثر تلك الداعية في جميع الجوارح والأعضاء حتى لا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله ، ولا ينظر إلا الله ، فذلك هو قوله : ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ ثم عند ذلك ينكشف له نور جلال الله فيراه موجوداً ، ويرى كل ما سواه معدوماً ، فذلك قوله : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ ثم يصير العبد كالمشتهر في محبته ، ولا يبقى في قلبه ولسانه إلا ذكره ، فذلك قوله : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ .

واعلم أن هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة ، وإن كانت غير مذكورة إلا أنها محتملة جداً .

وأما الاحتمال الثاني : وهو أن لا يكون المراد من الكلمات الخمس شيئاً واحداً ، ففيه وجوه الأول : ما ذكره الزجاج واختيار القاضي ، وهو أن الثلاثة الأول هي الرياح ، فقوله : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ هي الرياح التي تتصل على العرف المعتاد ﴿ والعاصفات ﴾ ما يشتد منه ، ﴿ والناشرات ﴾ ما ينشر السحاب .

(83/796)

أما قوله : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ فهم الملائكة الذين يفرقون بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، بما يتحملونه من القرآن والوحي ، وكذلك قوله : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ أنها الملائكة المتحملة للذكر الملقية ذلك إلى الرسل ، فإن قيل : وما المجانسة بين الرياح وبين الملائكة حتى يجمع بينهما في القسم ؟ قلنا : الملائكة روحانيون ، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح القول الثاني : أن الاثنين الأولين هما الرياح ، فقوله : ﴿ والمرسلات عُرْفاً * فالعاصفات عَصْفاً ﴾ هما الرياح ، والثلاثة الباقية الملائكة ، لأنها تنشر الوحي والدين ، ثم لذلك الوحي أثران أحدهما : حصول الفرق بين المحق والمبطل والثاني : ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة ، وهذا القول ما رأيته لأحد ، ولكنه ظاهر

الاحتمال أيضاً ، والذي يؤكده أنه قال : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ، فالعاصفات عَصْفاً ﴾ عطف الثاني على الأول بحرف الفاء ، ثم ذكر الواو فقال : ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء ، وهذا يقتضي أن يكون الأولان ممتازين عن الثلاثة الأخيرة القول الثالث : يمكن أيضاً أن يقال : المراد بالأولين الملائكة ، فقوله : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ ملائكة الرحمة ، وقوله : ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ ملائكة العذاب ، والثلاثة الباقية آيات القرآن ، لأنها تنشر الحق في القلوب والأرواح ، وتفرق بين الحق والباطل ، وتلقي الذكر في القلوب والألسنة ، وهذا القول أيضاً ما رأيته لأحد ، وهو محتمل ، ومن وقف على ما ذكرناه أمكنه أن يذكر فيه وجوهاً ، والله أعلم بمراده .

المسألة الثانية :

(84/796)

قال القفال : الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم ، والواو في بعض مبني على الأصل ، وهو أن عند أهل اللغة الفاء تقتضي الوصل والتعلق ، فإذا قيل : قام زيد فذهب ، فالمعنى أنه قام ليذهب فكان قيامه سبباً لذهابه ومتصلاً به ، وإذا قيل : قام وذهب فهما خبران كل واحد منهما قائم بنفسه لا يتعلق بالآخر ، ثم إن القفال لما مهد هذا الأصل فرع

الكلام عليه في هذه الآية بوجوه لا يميل قلبي إليها ، وأنا أفرع على هذا الأصل فأقول : أما من جعل الأولين صفتين لشيء والثلاثة الأخيرة صفات لشيء واحد ، فالإشكال عنه زائل ، وأما من جعل الكل صفات لشيء واحد ، فنقول : إن حملناها على الملائكة ، فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعاً ، وذلك الطيران هو العصف ، فالعصف مرتب على الإرسال فلا جرم ذكر الفاء ، أما النشر فلا يترتب على الإرسال ، فإن الملائكة أول ما يبلغون الوحي إلى الرسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهوراً منتشراً ، بل الخلق يؤذون الأنبياء في أول الأمر وينسبونهم إلى الكذب والسحر والجنون ، فلا جرم لم يذكر الفاء التي تفيد بل ذكر الواو ، بلى إذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذكر الحق على الألسنة فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الفاء ، فكأنه والله أعلم قيل : يا محمد إني أرسلت الملك إليك بالوحي الذي هو عنوان كل سعادة ، وفاتحة كل خير ، ولكن لا تطمع في أن ننشر ذلك الأمر في الحالة ، ولكن لا بد من الصبر وتحمل المشقة ، ثم إذا جاء وقت النصرة أجعل دينك ظاهراً منتشراً في شرق العالم وغربه ، وعند ذلك الانتشار يظهر الفرق فتصير الأديان الباطلة ضعيفة ساقطة ، ودينك هو الدين الحق ظاهراً غالباً ، وهنالك يظهر ذلك الله على الألسنة ، وفي المحاريب وعلى المنابر ويصير العالم مملوأ من ذكر الله ، فهذا إذا حملنا هذه الكلمات الخمس على الملائكة ، ومن عرف هذا الوجه أمكنه ذكر ما شابهه في الرياح وسائر الوجوه ، والله

أعلم.

أما قوله: ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى:

فيهما قراءتان التخفيف وهو قراءة أبي عمرو وعاصم من رواية حفص والباقون قرأوا بالتثقيل، أما التخفيف فلا نزاع في كونه مصدراً، والمعنى إعذاراً وإنذاراً، وأما التثقيل فزعم أبو عبيدة أنه جمع وليس بمصدر، وأما الأخفش والزجاج فزعما أنه مصدر، والتثقيل والتخفيف لغتان، وقرر أبو علي قول الأخفش والزجاج، وقال: العذر والعذير والنذر والنذير مثل النكر والنكير، ثم قال أبو علي: ويجوز في قراءة من ثقل أن يكون عذراً جمع عاذر كشرف وشارف، وكذلك النذر يجوز أن يكون جمع نذير، قال تعالى: ﴿هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى﴾ [النجم: 56].

المسألة الثانية:

في النصب ثلاثة أوجه، أما على تقدير كونه مصدراً فوجهان أحدهما: أن يكون مفعولاً على البدل من قوله: ذكراً والثاني: أن يكون مفعولاً له، والمعنى والملقيات ذكراً للأعذار

والإنذار ، وأما على تقدير كونه جمعاً ، فنصب على الحال من الإلقاء والتقدير فالملقيات ذكراً حال كونهم عاذرين ومنذرين .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)

جواب القسم والمعنى ، إن الذي توعدون به من مجيء يوم القيامة لكائن نازل ، وقال الكلبي : المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع ، واحتج القائلون بالتفسير الأول بأنه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات ، علامات يوم القيامة ، فدل على أن المراد من هذه الآية هو القيامة فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 232.236 ﴾

(86/796)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح .

وروى مسروق عن عبد الله قال : هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي .

وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبيّ .

وقيل : هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله ؛ قاله ابن عباس .

وقال أبو صالح : إنهم الرسل تُرْسَل بما يُعْرَفون به من المعجزات .

وعن ابن عباس وابن مسعود : إنها الرياح ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ [الحجر : 22] وقال : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح ﴾ [الأعراف : 57] .

ومعنى "عُرْفاً" يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس ؛ تقول العرب : الناس إلى فلان عُرْفٌ واحد : إذا توجهوا إليه فأكثروا .

وهو نصب على الحال من ﴿ والمرسلات ﴾ أي والرياح التي أرسلت متتابعة .

ويجوز أن تكون مصدراً أي تِباعاً .

ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر ، كأنه قال : والمرسلات بالعُرْف ، والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل .

وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب ، لما فيها من نعمة ونقمة ، عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه .

وقيل : إنها الزواجر والمواعظ .

و"عرفاً" على هذا التأويل متتابعات كعرف الفرس ؛ قاله ابن مسعود .

وقيل : جاريات ؛ قاله الحسن ؛ يعني في القلوب .

وقيل : معروفات في العقول .

﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ الرياح بغير اختلاف ؛ قاله المهدويّ .

وعن ابن مسعود : هي الرياح العواصف تأتي بالعصف ، وهو ورق الزرع وحُطَامه ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً ﴾ [الإسراء : 69] .

وقيل : العاصفات الملائكة الموكّلون بالرياح يعصفون بها .

وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر ؛ يقال : عصف بالشيء أي أباده وأهلكه ، وناقة عَصُوف أي تعصف براكبها ، فتمضي كأنها ريح في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم .

وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف .

(87/796)

﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها .

وقال ابن مسعود ومجاهد : هي الرياح يرسلها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته ؛ أي تنشر السحاب للغيث .

وروي ذلك عن أبي صالح .

وعنه أيضاً : الأمطار ؛ لأنها تنشر النبات ، فالنشر بمعنى الإحياء ؛ يقال : نشر الله الميّت

وأنشره أي أحياه .

وروى عنه السديّ : أنها الملائكة تنشر كتب الله عزّ وجلّ .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم .

الضحاك : إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد .

وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح .

قال : "وَالنَّاشِرَاتِ" بالواو ؛ لأنه استئناف قسم آخر .

﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ الملائكة تنزل بالفرق بين الحقّ والباطل ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال .

وروى ابن إبي نجيح عن مجاهد قال : الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدّده .

وعن سعيد عن قتادة قال : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ الفرقان ، فَرّق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال .

وقاله الحسن وابن كيسان .

وقيل : يعني الرسل فَرَقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أي بيّنوا ذلك .

وقيل : السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتَندّ في الأرض حين تضع ، ونوق فَوارِقُ وفُرَّق .

وربما شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة؛ قال ذو الرمّة:

أَوْ مُزْنَةٌ فارقٌ يَجْلو غَوارِبَها . . .

تَبَوّجُ الْبَرْقِ والظَّلْمَاءُ عُلْجُومُ

﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ الملائكة بإجماع؛ أي تلقى كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام؛ قاله المهدوي.

وقيل: هو جبريل وسمي باسم الجمع؛ لأنه كان ينزل بها.

وقيل: المراد الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم؛ قاله قُطْرب.

(88/796)

وقرأ ابن عباس "فَالملقيَّات" بالتشديد مع فتح القاف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن ﴾ [النمل: 6].

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾: أي تلقى الوحي إعذاراً من الله أو إنذاراً إلى خلقه من عذابه؛ قاله الفراء.

وروي عن أبي صالح قال: يعني الرسل يُعذرون ويُنذرون.

وروى سعيد عن قتادة "عَذْراً" قال: عذراً لله جلّ ثناؤه إلى خلقه، ونَذْراً للمؤمنين

ينتفعون به ويأخذون به .

وروى الضحاك عن ابن عباس .

"عُذْراً" أي ما يلقيه الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهي التوبة "أَوْ نُذْراً" ينذر أعداءه .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص "أَوْ نُذْراً" بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال "عُذْراً" سوى ما رواه الجُعْفِيّ والأعشى عن أبي بكر عن عاصم أنه ضم الذال .

وروي ذلك عن ابن عباس والحسن وغيرهما .

وقرأ إبراهيم التَّيمي وقتادة "عُذْراً وَنُذُراً" بالواو العاطفة ولم يجعلا بينهما ألفاً .

وهما منصوبان على الفاعل له أي للإعذار أو للإنذار .

وقيل : على المفعول به ، قيل : على البدل من "ذِكْراً" أي فالملقيات عذراً أو نذراً .

وقال أبو علي : يجوز أن يكون العذُر والنذُر بالتثقيل على جمع عاذر وناذر ؛ كقوله تعالى : ﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى ﴾ [النجم : 56] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء ؛ أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار .

أو يكون مفعولاً ل "ذكراً" أي "فَالْمُلْقِيات" أي تُذَكِّر ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ .

وقال المبرد : هما بالتثقيل جمع والواحد عَذير ونَذير .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب ما تقدم من القسم ؛ أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(89/796)

وقال الآلوسى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

﴿ والمرسلات عُرْفاً فالعاصفات عَصْفاً والناشرات نَشْراً فالفارقات فَرْقاً فالملقيات ذِكْراً ﴾

قيل أقسم سبحانه بمن اختاره من الملائكة عليهم السلام على ما أخرجه عبد بن حميد عن مجاهد فقيل المرسلات والعاصفات طوائف والناشرات والفارقات والملقيات طوائف أخرى فالأولى طوائف أرسلت بأمره تعالى وأمرن بانفاذه فعصفن في المضي وأسرعن كما تعصف الريح تخففاً في امتثال الأمر وإيقاع العذاب بالكفرة إنقاذاً للأنبياء عليهم السلام ونصرة لهم والثانية طوائف نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام ولعل من يلقى الذكر لهم غير مختص بجبريل عليه السلام بل هو رئيسهم ويرشد إلى هذا حديث الرصد وفي بعض الآثار نزل إلى ملك

بألوكة من ربي فوضع رجلاً في السماء وثنى الأخرى بين يدي فالمرسلات صفة لمحذوف والمراد وكل طائفة مرسلة وكذا الناشرات ونصب عرفاً على الحال والمراد متتابعة وكان الأصل والمرسلات متتابعة كالعرف وهو عرف الدابة كالفرس والضبع أعني الشعر المعروف على قفاها فحذف متتابعة لدلالة التشبيه عليه ثم حذف أداة التشبيه مبالغة ومن هذا قولهم جاؤا عرفاً واحداً إذا جاؤا يتبع بعضهم بعضاً وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه ويؤخذ من كلام بعض أن العرف في الأصل ما ذكر ثم كثر استعماله في معنى التتابع فصار فيه حقيقة عرفية أو على أنه مفعول له على أنه بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر أي والمرسلات للإحسان والمعروف ولا يعكر على ذلك أن الإرسال لعذاب الكفار لأن ذلك إن لم يكن معروفاً لهم فإنه معروف للأنبياء عليهم السلام والمؤمنين الذين انتقم الله تعالى لهم منهم وعطف الناشرات على ما قبل الواو ظاهر للتغاير بالذات بينهما وعطف العاصفات على المرسلات والفارقات على الناشرات وكذا ما بعد بالفاء لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات كما في قوله

: يا لهف زيادة للحارث الصابح فالغانم فالآيب . . .

(90/796)

وهي للدلالة على ترتيب معاني الصفات في الوجود أي الذي صبح فغنم فآب وترتيب مضي الأمر على الإرسال به والأمر بانقاذه ظاهر وأما ترتيب القاء الذكر إلى الأنبياء عليهم السلام على الفرق بين الحق والباطل مع ظهور تأخر الفرق عن الإلقاء فقيل لتأويل الفرق بإرادته فحينئذ يتقدم على الإلقاء وقيل لتقدم الفرق على الإلقاء من غير حاجة إلى أن يؤول بإرادته لأنه بنفس نزولهم بالوحي الذي هو الحق المخالف للباطل الذي هو الهوى ومقتضى الرأي الفاسد وإنما العلم به متأخر ومن هذا يظهر ترتيب الفرق على نشر الأجنحة إذ الحاصل عليه نشرن أجنحتهن للنزول فنزلن فألقين وهو غير ظاهر على ما قبله لأن إرادة الفرق تجامع النشر وكذا إرادته إذا أول أيضاً بحسب الظاهر بل ربما يقال إن تلك الإرادة قبل وقيل إن الفاء في ذلك للترتيب الرتبي ضرورة أن إرادة الفرق أعلى رتبة من النشر وقيل إنها فيه وفيما بعده لمجرد الاشعار بأن كلاً من الأوصاف المذكورة أعني النشر والفرق مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلال بالاقسام بهن فإنه لو جيء بها على ترتيب الوقوع لربما فهم أن مجموع الثلاثة المترتبة هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق واستعمال العاصفات بمعنى المسرعات سرعة الريح مجاز على سبيل الاستعارة ولا يبعد أن يراد بالعاصفات المذهبات المهلكات بالعذاب الذي أرسلن به من أرسلن إليه على سبيل الاستعارة أيضاً أو المجاز المرسل وعذراً ونذراً في قوله تعالى :

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ جوز أن يكون مصدرين من عذر إذا أزال الإساءة ومن أنذر إذا خوف جاآ على فعل كالشكر والكفر والأول ظاهر لأن فعلاً من مصادر الثلاثي وأما الثاني فعلى خلاف القياس لأن قياس مصدر أفعل الأفعال وقيل هو اسم المصدر كالطاقة أو مصدر نذر بمعنى أنذر وتسومح فيما تقدم وأن يكونا جمع عذير بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإنذار وانتصابهما على العلية والعامل فيهما الملقيات أو ذكراً وهو بمعنى التذكير والعظة بالترغيب والترهيب أي فالملقيات ذكراً لأجل العذر للمحقين أو لأجل النذر للمبطلين أو على الحالية من الملقيات أو الضمير المستتر فيها على التأويل أي عاذرين أو منذرين أو على البدلية من ذكرا على أن المراد به الوحي فيكونان بدل بعض أو التذكير والعظة فيكونان بدل كل وأن يكونا وصفين بمعنى عاذرين ومنذرين فنصبهما على الحالية لا غير وأو في جميع ذلك للتنويع لا للترديد ومن ثم قال الدينوري في مشكل القرآن أنها بمعنى الواو وقيل الثانية طوائف نشرن الشرائع في الأرض إلى آخر ما تقدم ووجه العطف بأن المراد أردن النشر فنزلن فألقين واحتيج للتأويل لمكان الإلقاء إلى الأنبياء عليهم السلام وإلا فهو لا يحتاج إليه في النشر والفرق لظهور ترتب الفرق على النشر كذا قيل فلا تغفل وقيل طوائف نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن الخ والنشر على هذا بمعنى الإحياء وفيما قبله بمعنى الإشاعة وقيل لا مغايرة بين الكل إلا بالصفات وهم جميعاً من الملائكة على الأقوال السابقة

بيد أنه لم يعتبر هذا القائل تفسير النشر بنشر الأجنحة فقال أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن عز وجل بأوامره متتابعة فعصفن عصف الرياح في الامتثال ونشرن الشرائع في الأرض أو نشرن النفوس الموتى بالجهل بما أوحين من العلم ففرقن بين الحق والباطل فألقين إلى الأنبياء ذكراً وظاهره أيضاً أن الإرسال للأنبياء بالشرائع من الأمر والنهي بناء على أن الأوامر جمع

(92/796)

جمع مخصوص بالأمر مقابل النهي ففي كلامه الاكتفاء وخص الأمر بالذكر قيل لأنه أهم مع أنه لا يؤدي ما يراد من النهي بصيغته كدع مثلاً وقيل في عطف ﴿ الناشرات ﴾ بالواو دون الفاء وعطف ﴿ الفارقات ﴾ به أن النشر عليه بمعنى الإشاعة للشرائع وهو يكون بعد الوحي والدعوة والقبول ويقتضي زماناً فلذا جيء بالواو ولم يقرن بالفاء التعقيبية وإذا حصل النشر ترتب عليه الفرق من غير مهلة ولا يتوهم أنه كان حق الناشرات حينئذ ثم لأنه لا يتعلق القصد ههنا بالتراخي ويبقى الكلام في وجه تقديم نشر الشرائع أو نشر النفوس والفرق على الإلقاء مع أنهما بعده في الواقع فقيل الإيذان بكونهما غاية للإلقاء حقيقة بالاعتناء أو الإشعار بأن كلا من الأوصاف مستقل بالدلالة على استحقاق التعظيم كما

سمعت على أن باب التأويل واسع فتذكر وقيل أقسم سبحانه بإفراد نوعين من الرياح فيقدر للمرسلات موصوف وللناشرات موصوف آخر ويراد بالمرسلات الرياح المرسلة للعذاب لأن الإرسال شاع فيه وبالناشرات رياح رحمة وحاصله أنه جل وعلا أقسم برياح عذاب أرسلهن فعصفن ورياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقنه على البقاع فألقين ذكراً إما عذراً للذين يعتذرون إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم إذا شاهدوا آثار رحمته تعالى في الغيث وإما إنذاراً للذين يكفرون ذلك وينسبونه إلى الأنواء ونحوها وإسناد إلقاء الذكر إليهن لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت فالتجوز في الإسناد والمراد بعرفاً متتابعة أو الناشرات رياح رحمة نشرن النبات وأبرزنه أي صرن سبباً لذلك بنشر السحاب وإدراره ففرقن كل صنف منه عن سائر الأصناف بالشكل واللون وسائر الخواص فتسببن ذكراً إما عذراً للشاكرين وأما نذراً للكافرين وقيل أقسم سبحانه أولاً بالرياح وثانياً بسحائب نشرن الموات ففرقن بين من يشكر وبين من يكفر كقوله تعالى :

(93/796)

﴿ لاسقيناهم مَّاء غَدَقاً لنفتنهم فيه ﴾ [الجن : 16 ، 17] فتسببن ذكراً أما وإما وقيل أقسم جل وعلا بآيات القرآن المرسلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلاً وإحساناً

أو شيئاً بعد شيء لأنها نزلت منجمة فعصفن وآذهبن سائر الكتب بالنسخ ونشرن آثار الهدى في مشارق الأرض ومغاربها وفرقن بين الحق والباطل فألقين ذكر الحق في أكناف العالمين وقيل أقسم جل جلاله برسله من البشر أرسلوا إحساناً وفضلاً كما هو المذهب الحق لا وجوباً كما زعم من زعم فاشتدوا وعظم أمرهم ونشروا دينهم وما جاؤا به ففرقوا بين الحق والباطل والحلال والحرام فألقوا ذكراً بين المكلفين ويجوز أن يراد على هذا بعرفاً متتابعة وقيل أقسم تبارك وتعالى بالنفوس الكاملة أي المخلوقة على صفة الكمال والاستعداد لقبول ما كلفت به وخلقت لأجله المرسلة إحساناً إلى الأبدان لاستكمالها فعصفهن وأذهبن ما سوى الحق بالنظر في الأدلة الحقة ففرقن بين الحق المتحقق بذاته الذي لا مدخل للغير فيه وهو واجب الوجود سبحانه وبين الباطل المعدوم في نفسه فرأين كل شيء هالكاً إلا وجهه فألقين في القلوب والألسنة ومكن فيها ذكره تعالى فليس في قلوبها وألسنتها إلا ذكره عز وجل أو طرحن ذكر غيره سبحانه عن القلوب والألسنة فلا ذكر فيها لما عداه وقيل الثلاثة الأول الرياح والأخيرتان الملائكة عليهم السلام وقيل بالعكس والمناسبة باللطافة وسرعة الحركة وقيل الأولتان الملائكة إلا أن المرسلات ملائكة الرحمة والعاصفات ملائكة العذاب والثلاثة الأخيرة آيات القرآن النازلة بها الملائكة وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من وجه عن أبي صالح أنه قال : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ الرسل ترسل بالمعروف ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ الريح ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ المطر ﴿

فالفارقات فَرْقاً ﴾ الرسل ومن وجه آخر ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ الملائكة ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ الرياح العواصف ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ الملائكة ينشرون الكتب أي

(94/796)

كتب الأعمال كما جاء مصرحاً به في بعض الروايات ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ الملائكة يفرقون بين الحق والباطل ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ الملائكة أيضاً يجيؤون بالقرآن ﴿ والكتاب عُذْراً ﴾ أو نذراً منه تعالى إلى الناس وهم الرسل يعذرون وينذرون وعن أبي صالح روايات أخر في ذلك وكذا عن أجلة الصحابة والتابعين فعن ابن مسعود وأبي هريرة ومقاتل ﴿ المرسلات ﴾ الملائكة أرسلت بالعرف ضد النكر وهو الوحي وفي أخرى عن ابن مسعود أنها الرياح وفسر ﴿ العاصفات ﴾ بالشديدات الهبوب وروى تفسير المرسلات بذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وفي أخرى عن ابن عباس أنها جماعة الأنبياء أرسلت أفضالاً من الله تعالى على عباده وعن أبي مسعود ﴿ الناشرات ﴾ الرياح تنشر رحمة الله تعالى ومطره وروى عن مجاهد وقتادة وقال الربيع الملائكة تنشر الناس من قبورهم قال الضحاك الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد وعليه تكون

﴿ الناشرات ﴾ على معنى النسب وعن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والضحاك ﴿ الفارقات ﴾ الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقال قتادة والحسن وابن كيسان آيات القرآن فرقت بين ما يحل وما يحرم وعن مجاهد أيضاً الرياح تفرق بين السحاب فتبدده وعن ابن عباس وقتادة والجمهور الملقيات الملائكة تلقي ما حملت من الوحي إلى الأنبياء وعن الربيع آيات القرآن ومن الناس من فسر ﴿ العاصفات ﴾ بالآيات المهلكة كالزلازل والصواعق وغيرها ومنهم من فسر ﴿ الفارقات ﴾ بالسحائب الماطرة على تشبيهها بالناقة الفاروق وهي الحامل التي تجزع حين تضع ومنهم من فسرها بالعقول تفرق بني الحق والباطل والصحيح والفاسد إلى غير ذلك من الروايات والأقوال التي لا تكاد تنضبط والذي أخاله أظهر كون المقسم به شيئين ﴿ المرسلات العاصفات ﴾ والناشرات الفارقات الملقيات لشدة ظهور العطف بالواو في ذلك وكون الكل من جنس الريح لأنه أوفق بالمقام المتضمن لأمر الحشر والنشر لما أن الآثار المشاهدة

(95/796)

المترتبة الرياح ترتباً قريباً وبعيداً تنادي بأعلى صوت حتى يكاد يشبه صوت النفخ في الصور على إمكان ذلك وصحته ودخوله في حيطة مشيئة الله تعالى وعظيم قدرته ومع

هذا الأقوال كثيرة لديك وأنت غير مجحود عليك فاختر لنفسك ما يحلو وقرأ عيسى عرفاً بضمتين نحو نكر في ﴿ نكر ﴾ وقرأ ابن عباس فالملقيات بالتشديد من التلقية وقيل وهي كالإلقاء إيصال الكلام إلى المخاطب يقال لقيته الذكر فتلقاه وذكر المهدوي أنه رضي الله تعالى عنه قرأ فالملقيات بفتح اللام وتشديد القاف اسم مفعول أي ملقية من الله عز وجل وقرأ زيد بن ثابت وابن خارجة وطلحة وأبو جعفر وأبو حيوة وعيسى والحسن بخلاف والأعمش عن أبي بكر عذراً أو نذراً بضم الذالين وقرأ الحرميان وأبو عامر وأبو بكر وزيد بن علي وشيبة وأبو جعفر أيضاً بسكون الذال في عذراً وضمنها في نذار وقرأ إبراهيم التيمي ونذراً بالواو وقوله تعالى :

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)

جواب للقسم وما موصولة وإن كتبت موصولة والعائد محذوف أي أن الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة وجوز أن يراد بالموصول جميع ما تضمنته السورة السابقة وهو خلاف الظاهر جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(96/796)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

قسَم بِمخلوقات عظيمة دالّةٍ على عظيم علم الله تعالى وقدرته .

والمقصود من هذا القسم تأكيد الخبر ، وفي تطويل القَسَم تشويقُ السامع لتلقي المقسم عليه .

فيجوز أن يَكون المراد بموصوفات هذه الصفات نوعاً واحداً ، ويجوز أن يكون نوعين أو أكثر من المخلوقات العظيمة .

ومشى صاحب "الكشاف" على أن المقسم بها كلهم ملائكة .

ولم يختلف أهل التأويل أن ﴿ المُلْقِيات ذِكراً ﴾ للملائكة .

وقال الجمهور : العاصفات : الرياح ولم يحك الطبري فيه مخالفاً .

وقال القرطبي : قيل العاصفات : الملائكة .

و ﴿ الفارقات ﴾ لم يحك الطبري إلاّ أنهم الملائكةُ أو الرسلُ .

وحكى القرطبي عن مجاهد : أنها الرياح .

وفيما عدا هذه من الصفات اختَلَف المتأوّلون فمنهم من حملوها على أنها الملائكة ومنهم من حمل على أنها الرياح .

ف ﴿ المرسَلات ﴾ قال ابن مسعود وأبو هريرة ومقاتل وأبو صالح والكلبي ومسروق :

هي الملائكة .

وقال ابن عباس وقتادة : هي الرياح ، ونقل هذا عن ابن مسعود أيضاً ولعله يجيز التأويلين وهو الأوفق بعطفها بالفاء .

و ﴿ الناشرات ﴾ قال ابن عباس والضحاك وأبو صالح : الملائكة .

وقال ابن مسعود ومجاهد : الرياح وهو عن أبي صالح أيضاً .

ويتحصل من هذا أن الله أقسَم بجنسين من مخلوقاته العظيمة مثل قوله : ﴿ والسماءِ ذات البروج واليوم الموعود ﴾ [البروج : 1 ، 2] ، ومثله تكرَّر في القرآن .

ويتجه في توزيعها أن الصفات التي عطفت بالفاء تابعة لجنس مَا عطفت هي عليه ، والتي عطفت بالواو يترجح أنها صفاتُ جنس آخر .

فالأرجح أن المرسلات والعاصفات صفتان للرياح ، وأن ما بعدها صفات للملائكة ، والواو الثانية للعطف وليست حرف قَسَم .

ومناسبة الجمع بين هذين الجنسين في القسم أن كليهما من الموجودات العلوية لأن الأصل في العطف بالواو أن يكون المعطوف بها ذاتاً غير المعطوف عليه .

(97/796)

وما جاء بخلاف ذلك فهو خلاف الأصل مثل قول الشاعر أنشده الفراء .

إلى الملك القِرْم وابنِ الهُمام . . .

وليثِ الكتيبةِ في المزْدَحَم

أراد صفات ممدوح واحد .

ولنتكلم على هذه الصفات:

فأما ﴿ المرسلات ﴾ فإذا جعل وصفاً للملائكة كان المعنيُّ بهم المرسلين إلى الرسل والأنبياء مثل جبريل في إرساله بالوحي ، وغيره من الملائكة الذين يبعثهم الله إلى بعض أنبيائه بتعليم أو خبر أو نصر كما في قوله تعالى عن زكرياء : ﴿ فنادَتْه الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ الآية [آل عمران : 39] ، أو ﴿ المرسلات ﴾ بتنفيذ أمر الله في العذاب مثل المرسلين إلى قوم لوط ، و ﴿ عُرْفاً ﴾ حال مفيدة معنى التشبيه البليغ ، أي مثل عرف الفرس في تتابع الشعر بعضه ببعض ، يقال : هم كعرف الضبع ، إذا تألبوا ، ويقال : جاءوا عرفاً واحداً .

وهو صالح لوصف الملائكة ولوصف الريح .

وفسر ﴿ عُرفاً ﴾ بأنه اسمٌ ، أي الشعرَ الذي على رقبة الفرس ونصبه على الحال على طريقة التشبيه البليغ ، أي كالعُرف في تتابع البعض لبعض ، وفسر بأنه مصدر بمعنى المفعول ، أي معرُوف (ضد المنكَر) ، وأن نصبه على المفعول لأجله ، أي لأجل الإِرشاد

والصلاح.

﴿ فالعاصفات ﴾ تفريع على ﴿ المرسلات ﴾ ، أي ترسل فتعصف ، والعصف يطلق على قوة هبوب الريح فإن أريد بالمرسلات وصف الرياح فالعصف حقيقة ، وإن أريد بالمرسلات وصفُ الملائكة فالعصف تشبيه لنزولهم في السرعة بشدة الريح وذلك في المبادرة في سرعة الوصول بتنفيذ ما أمروا به .

و ﴿ عَصْفاً ﴾ مؤكد للوصف تأكيداً لتحقيق الوصف ، إذ لا داعي لإِرادة رفع احتمال المجاز .

والنشر : حقيقته ضد الطي ويكثر استعماله مجازاً في الإِظهار والإِيضاح وفي الإِخراج .

ف ﴿ الناشرات ﴾ إذا جعل وصفاً للملائكة جاز أن يكون نشرَهم الوحي ، أي تكرير نزولهم لذلك ، وأن يكون النشر كناية عن الوضوح ، أي بالشرائع البينة .

(98/796)

وإذا جعل وصفاً للرياح فهو نشر السحاب في الأجواء فيكون عطفه بالواو دون الفاء لتنبيه على أنه معطوف على ﴿ المرسلات ﴾ لا على ﴿ العاصفات ﴾ لأن العصف حالة مضرة والنشر حالة نفع .

والقول في تأكيد ﴿ نشراً ﴾ وتنوينه كالقولِ في ﴿ عَصْفاً ﴾ .

والفَرْق : التمييز بين الأشياء ، فإذا كان وصفاً للملائكة فهو صالح للفرق الحقيقي مثل تمييز أهللِ الجنة عن أهل النار يوم الحساب ، وتمييز الأمم المعذبة في الدنيا عن الذين نجاهم الله من العذاب ، مثل قوم نوح عن نوح ، وعادٍ عن هود ، وقومِ لوط عن لوط وأهله عدا امرأته ، وصالح للفرق المجازي ، وهو أنهم يأتون بالوحي الذي يفرق بين الحق والباطل ، وبين الإِيمان والكفر .

وإنْ جُعل وصفاً للرياح فهو من آثار النشر ، أي فَرقُها جماعات السحب على البلاد .

ولتفرع الفرق بمعنييه عن النشر بمعانيه عطف ﴿ الفارقات ﴾ على ﴿ الناشرات ﴾ بالفاء .

وأكد بالمفعول المطلق كما أكد مَا قبله بقوله : ﴿ عصفاً ﴾ و ﴿ نشراً ﴾ ، وتنوينه كذلك .

والملقيات : الملائكة الذين يبلغون الوحي وهو الذِكْر .

والإِلقاء مستعار لتبليغ الذكر من العالم العلوي إلى أهل الأرض بتشبيهه بإلقاء شيء من اليد إلى الأرض .

وإلقاء الذكر تبليغ المواعظ إلى الرسل ليبلغوها إلى الناس وهذا الإِلقاء متفرع على الفرق لأنهم يخصّون كل ذكر بمن هو محتاج إليه ، فذكر الكفار بالتهديد والوعيد بالعذاب ، وذكر

المؤمنين بالثناء والوعد بالنعيم .

وهذا معنى ﴿ عُذْراً أَوْ نُذُراً ﴾ .

فالعُذر : الإِعلام بقبول إيمان المؤمنين بعد الكفر ، وتوبةِ التائبين بعد الذنب .

والنّذُر : اسم مصدر أنذر ، إذا حَذر .

و ﴿ عُذراً ﴾ قرأه الجمهور بسكون الذال ، وقرأه رَوْح عن يعقوب بضمها على الإِتباع لحركة العين .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب ﴿ نُذُراً ﴾ بضم الذال وهو الغالب فيه .

(99/796)

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلفٌ بإسكان الذال على الوجهين المذكورين في ﴿ عُذراً ﴾ ، وعلى كلتا القراءتين فهو اسم مصدر بمعنى الإِنذار .

وانتصب ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ على بدل الاشتمال من ﴿ ذِكْراً ﴾ و ﴿ أو ﴾ في قوله : ﴿ أو نذراً ﴾ للتقسيم .

وجملة ﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ جواب القسم وزيدت تأكيداً بـ ﴿ أنَّ ﴾ لتقوية تحقيق

وقوع الجواب .

و﴿ إنَّما ﴾ كلمتان هما (إنَّ) التي هي حرف تأكيد و (ما) الموصولة وليست هي (إنَّما) التي هي أداة حصر ، والتي (ما) فيها زائدة .

وقد كتبت هذه متصلة (إنَّ) بـ (ما) لأنهم لم يكونوا يفرقون في الرسم بين الحالتين ، والرسم اصطلاح ، ورسم المصحف سُنة في المصاحف ونحن نكتبها مفصولة في التفسير وغيره .

و﴿ ما توعدون ﴾ : هو البعث للجزاء وهم يعلمون الصلة فلذلك جيء في التعبير عنه بالموصولية .

والخطاب للمشركين ، أي ما تَوعَّدكم الله به من العقاب بعد البعث واقع لا محالة وإن شككتم فيه أو نفيتموه .

والواقع : الثابتُ .

وأصل الواقع الساقط على الأرض فاستعير للشيء المحقق تشبيهاً بالمستقر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(100/796)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نشر)

نَشَرَ الثَّوبَ والسَّحابَ والصحيفَةَ والنِّعمة والحديثَ : بَسَطها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .

وقوله : ﴿ والنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ أَى الملائكة الَّتى تَنْشُر الرِّياحَ ، أَو الرِّياحُ الَّتى تَنْشُر السَّحابَ .

ويقال فى جمع الناشر : نُشُرٌ .

وقُرِئ : ﴿ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ فيكون كقوله : ﴿ والناشِرات ﴾ .

/ ونَشَرَ المَيّتُ يَنْشُر نُشوراً ، أَى عاش بعد الموت قال الأَعشَى :

*حَتَّى يقولَ النَّاسُ مِمّا أَوْا * يا عَجَباً للمَيّت النّاشرِ*

ومنه يومُ النُّشور ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ .

وأَنْشَرَ اللهُ المَيّتَ فنَشَرَ .

وقيل : نَشْرُ اللهِ المَيْتَ من نَشْرِ الثَوْب ، وأَنْشرَه : أَحْيَاهُ ، ومنه قراءَةُ ابن عبّاس : ﴿ كيف نُنْشِرُها ﴾ قال الفرّاءُ : [ومن قرأَ نَنْشُرها وهى قراءَة الحَسَن فكأَنَّه] ذهب إلى النشر والطَّىّ ، قال : والوجه أَن يقول أَنْشَرَهم الله فَنَشَرُوا ، وأَنشد الأَصمعىّ لأَبى ذُؤَيب الهُذَلى

:

*لو كانَ مدْحَةُ حيٍّ أُنْشِرَت أَحداً * أَحْيَا أُبوّتَك الشُمَّ الأَماديحُ*

ونَشَرَ الخشبةَ بالمِنْشار .

وله نَشْرٌ طَيِّبٌ ، وهو ما انْتَشَر من رائحته ، قال المرقّش :

*النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجُوهُ دَنا * نيرُ وأَطْرافُ الأَكُفِّ عَنَمْ*

ونَشَرْتُ الخَبرَ أَنْشُره وأَنْشِرُه : أَذَعْتُه .

وصُحُفٌ مُنَشَّرَة .

شُدِّدت للكثرة .

ونَشَرْتُ عن العليل نَشْراً ، ونَشَّرت عنه تَنشيراً : إذا رَقَيْتَه بالنُّشْرة ؛ كأَنَّك تفرّق عنه العِلَّة .

وفي الحديث : "فلعلَّ طَبّاً أَصابَه ، أَي سِحْرا ، ثم نَشَّرَه بقُلْ أَعوذُ بربّ الناس" سَمَّوا السحْرَ طَبّاً تفاؤلاً بالبراءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 52 .

53 ﴾

(101/796)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : أقسم تعالى بالملائكة المتتابعين في الإرسال ، والرياح المسخرة ، وولايته بالمطر والملائكة الفارقة بمائة بين الحق والباطل ، والملقيات الذكر بالوحي إلى الأنبياء إعذاراً من الله وإنذاراً ، أقسم تعالى بما ذكر من مخلوقاته على صدق الموعود به في قوله : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ [الإنسان : 4] الآيات وقوله : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ [الإنسان : 10] وقوله : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ [الإنسان : 12] الآيات إلى ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ [الإنسان : 22] وقوله : ﴿ ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ [الإنسان : 27] وقوله : ﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ [الإنسان : 31] ولو لم يتقدم إلا هذا الوعد والوعيد المختتم به السورة لطابقه افتتاح الأخرى قسماً عليه أشد المطابقة ، فكيف وسورة ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ [الإنسان : 1] مواعد

أخراوية وإخبارات جزائية ، فأقسم سبحانه وتعالى على صحة الوقوع ، وهو المتعالي الحق وكلامه الصدق – انتهى .

(102/796)

ولما كان من المعلوم أنهم يقولون استهزاء : متى هو ؟ وكان وقته مما استأثر الله بعلمه لأن إخفاءه عن كل أحد أوقع في النفوس وأهيب عند القعول ، سبب عن ذلك قوله ذاكراً ما لا تحتمله العقول لتزداد الهيبة ويتعاظم الخوف معبراً بأدة التحقق : ﴿ فإذا النجوم ﴾ أي على كثرتها ﴿ طمست ﴾ أي أذهب ضوءها بأيسر أمر فاستوت مع بقية السماء ، فدل طمسها على أن لفاعله غاية القدرة ، وأعاد الظرف تأكيداً للمعنى زيادة في التخويف فقال : ﴿ وإذا السماء ﴾ أي على عظمتها ﴿ فرجت ﴾ أي انشقت فخربت السقوف وما بها من القناديل بأسهل أمر ﴿ وإذا الجبال ﴾ أي على صلابتها ﴿ نسفت ﴾ أي ذهب بها كلها بسرعة ففرقتها الرياح ، فكانت هباء منبثاً فلم يبق لها أثر ، وذلك كما ينسف الحب ، فزال ثبات الأرض بالأسباب التي هي الرواسي ، لأن تلك الدار ليست بدار أسباب .

(103/796)

ولما ذكر تغيير السماء والأرض ، ذكر ما فعل ذلك لأجله فقال : ﴿ وإذا الرسل ﴾ أي الذي أنذروا الناس ذلك اليوم فكذبوهم ﴿ أقتت ﴾ أي بلّغها الذي لا قدير سواه بأيسر أمر ميقاتَها الذي كانت تنتظره ، وهو وقت قطع الأسباب وإيقاع الرحمة والثواب للأحباب والنقمة والعقاب للأعداء بشهادتهم بعد جمعهم على الأمم بما كان منهم من الجواب ، وحذف العامل في " إذا " تهويلاً له لتذهب النفس فيه كل مذهب ، فيمكن أن يكون تقديره : وقع ما توعدون فرأيتم من هذا الوعيد ما لا يحتمل ولا يثبت لوصفه العقول ، وعلى ذلك دل قوله ملقناً لما ينبغي أن يقال : وهو ﴿ لأيّ يوم ﴾ أي عظيم ﴿ أجلت ﴾ أي وقع تأجيلها به ، بناه للمفعول لأن المقصود تحقيق الأجل لا كونه من معين ، وتنبيهاً على أن المعين له معلوم أنه الله الذي لا يقدر عليه سواه ، ثم أجاب عن هذا السؤال بقوله مبدلاً من " لأي يوم " : ﴿ ليوم الفصل ﴾ أي الذي إذا أطلق ذلك لم ينصرف إلا إليه لأنه لا يترك فيه شيئاً إلا وقع الفصل فيه بين جميع الخلق من كل جليل وحقير ، ثم هوله وعظمه بقوله : ﴿ وما أدراك ﴾ أي وأي شيء أعلمك وإن اجتهدت في التعرف ، ثم زاده تهويلاً بقوله : ﴿ ما يوم الفصل ﴾ أي إنه أمر يستحق أن يسأل عنه ويعظم ، وكل ما عظم بشيء فهو أعظم منه ، ولا يقدر أحد من الخلق على الوصول إلى علمه لأنه لا مثل له يقال عليه .

ولما هول أمره ذكر ما يقع فيه من الشدة على وجه الإجمال فقال : ﴿ ويل ﴾ أي هلاك عظيم جداً ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ يكون يوم الفصل ﴿ للمكذبين ﴾ أي بالمرسلات التي أخبرت بذلك اليوم وغيره من أمر الله ، والويل في الأصل مصدر منصوب بإضمار فعله ، عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات معناه ، وقد كررت هذه الجملة بعدة المقسم به وما ذكر هنا مما يكون في يوم الفصل من الطمس وما بعده وهو تسعة أشياء ، وزادت واحدة فتكون كل جملة بواحدة من المذكورات ، والعاشر للتأكيد دلالة على أن لهم من الويل ما لا ينتهي كما أن الواحد لا ينتهي على أنها لو كانت كلها لتأكيد الأول لكان ذلك حسناً ، فإن من كذبك في أشياء كان من البلاغة أن تقرره بواحدة منها ثم تقول له عند قيام الدليل " ويل لك " ثم تفعل فيما بعده كله كذلك وتعيد عليه ذلك القول بعينه تأكيداً له وتحقيقاً لوقوع معناه دلالة على أن الغيظ قد بلغ منتهاه والفجور وانقطاع العذر لم يدع موضعاً للتنصل منه والبعد عنه ، وذلك في كلام العرب شائع معروف سائغ .

ولما أقسم على وقوع الوعد والوعيد مطلقاً أعم من أن يكون في الدنيا أو في الآخرة لأنه قادر على كل ما يريد بأقسام دلت على القدرة عليه دلالة جلية ، أتبعه دلالة أجلى منها بما

يشاهد من خراب العالم النفسي فقال منكراً على من يكذب به تكذيبهم مع ما كان منه سبحانه إلى من كذب الرسل ومن آمن بهم : ﴿ ألم نهلك ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ الأولين ﴾ أي إهلاك عذاب وغضب بتكذيبهم الرسل عليهم الصلاة والسلام كقوم نوح ومن بعدهم أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن ، لم ندع منهم أحداً .

ولما كان إهلاك من في زمن النبي - صلى الله عليه وسلم - إن لم ينقص عن إهلاك الأولين لم يزد ، وكان جواب هذا التقدير : بلى قد أهلكتهم ، قال عاطفاً على هذا الذي أرشد السياق إليه إرشاداً ظاهراً جعله كالمنطوق ما تقديره : نعم أهلكناهم ﴿ ثم ﴾ أي بعد إهلاكنا لهم .

(105/796)

ولما كان الفعل مرفوعاً ، علمنا أنه ليس معطوفاً على " تهلك " ليكون تقديراً ، بل هو إخبار للتهديد تقديره : نحن إن شئنا ﴿ نتبعهم الآخرين ﴾ أي الذين في زمانك من كفار العرب وغيرهم لتكذيبهم لك أو الذين قربوا من ذلك الزمان كأصحاب الرس وأصحاب الفيل .

ولما هدد من واجه الرسل بالتكذيب تسلية لهم ، سلى من قطعوه من أتباعهم مما يجب وصله بهم من المعروف فقال مستأنفاً منبهاً على الوصف الموجب لذلك الإهلاك :

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ أي جميع الذين يفعلون فعل أولئك الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل وهم عريقون في ذلك القطع ، وذلك مثبت لنا القدرة على جمعهم ليوم الفصل كما قدرنا على جمعهم لوقت الإجرام وعلى فصلنا في الإهلاك والإنجاء بين مكذبي الأمم ومصدقيهم فلا بد من إيجادنا ليوم الفصل : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ يوجد ﴿ للمكذبين ﴾ أي بالعاصفات التي أهلكنا بها تلك الأمم تارة بواسطة القلب وإمطار الحجارة وأخرى بواسطة الماء وتارة بالرجفة وتارة بغير واسطة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 283.285 ﴾

(106/796)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه ذكر علامات وقوع هذا اليوم .

أولها : قوله تعالى :

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8)

وذكرنا تفسير الطمس عند قوله : ﴿ رَبَّنَا اطمس على أموالهم ﴾ [يونس : 88]

وبالجملة فيحتمل أن يكون المراد محقت ذواتها ، وهو موافق لقوله : ﴿ انتثرت ﴾ [الإنفطار : 2] و ﴿ انكدرت ﴾ [التكوير : 2] وأن يكون المراد محقت أنوارها ، والأول أولى ، لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار .

ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور .

وثانيها :

وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9)

الفرج الشق يقال : فرجه الله فانفرج ، وكل مشقوق فرج ، فههنا قوله : فرجت أي شقت نظيره ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] وقال ابن قتيبة : معناه فتحت ، نظيره ﴿ وفتحت السماء ﴾ [النبأ : 19] قال الشاعر :

الفارجي باب الأمير المبهم . . وثالثها : قوله :

وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10)

وفيه وجهان أحدهما : نسفت كالحب المغلث إذا نسف بالمنسف ، ومنه قوله : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ ﴾ [طه : 97] ونظيره ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 5] ﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ [المزمل : 14] ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً ﴾ [طه : 105] والثاني : اقتلعت بسرعة من أماكنها من انتسفت الشيء إذا اختطفته ، وقرىء

﴿ طُمِسَتْ ﴾ و ﴿ فُرِجَتْ ﴾ و ﴿ نُسِفَتْ ﴾ مشددة .

ورابعها : قوله تعالى :

وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(107/796)

أقتت أصلها وقتت ويدل عليه وجوه أحدها : قراءة أبي عمرو وقتت بالواو وثانيها : أن أصل الكلمة من الوقت وثالثها : أن كل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة فإنها تبدل على الإطراد همزة أولاً وحشواً ، ومن ذلك أن تقول : صلى القوم إحدانا ، وهذه أجوه حسان وأدؤر في جمع دار ، والسبب فيه أن الضمة من جنس الواو ، فالجمع بينهما يجري مجرى جمع المثلين فيكون ثقيلاً ، ولهذا السبب كان كسر الياء ثقيلاً .

أما قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : 237] فلا يجوز فيه البدل لأن الضمة غير لازمة ، ألا ترى أنه لا يسوغ في نحو قولك : هذا وعد أن تبدل .

المسألة الثانية :

في التأقيت قولان : الأول : وهو قول مجاهد والزجاج أنه تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم ، وهذا ضعيف ، وذلك لأن هذه الأشياء جعلت علامات لقيام القيامة ، كأنه قيل : إذا كان كذا وكذا كانت القيامة ، ولا يليق بهذا الموضع أن يقال : وإذا بين لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم قامت القيامة لأن ذلك البيان كان حاصلاً في الدنيا ولأن الثلاثة المتقدمة هي الطمس والفرج والنسف مختصة بوقت قيام القيامة ، فكذا هذا التوقيت يجب أن يكون مختصاً بوقت قيام القيامة القول الثاني : أن المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه ، وهذا أقرب أيضاً إلى مطابقة اللفظ ، لأن بناء التفعيلات على تحصيل تلك الماهيات ، فالتسويد تحصيل السواد والتحريك تحصيل الحركة ، فكذا التأقيت تحصيل الوقت ثم إنه ليس في اللفظ بيان أنه تحصيل لوقت أي شيء ، وإنما لم يبين ذلك ولم يعين لأجل أن يذهب الوهم إلى كل جانب فيكون التهويل فيه أشد فيحتمل أن يكون المراد تكوين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم وأن يكون هو الوقت الذي يجتمعون فيه للفوز بالثواب ، وأن يكون هو وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به وسؤال الأمم عما أجابوهم ، كما قال : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف :

6] وأن يكون هو الوقت الذي يشاهدون الجنة والنار والعرض والحساب والوزن وسائر أحوال القيامة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ .

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12)

أي أخرت كأنه تعالى يعجب العباد من تعظيم ذلك اليوم فقال : لأي يوم أخرت الأمور المتعلقة بهؤلاء : وهي تعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به من الأهوال والعرض والحساب ونشر الدواوين ووضع الموازين .

ثم إنه تعالى بين ذلك فقال :

لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13)

(109/796)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يوم يفصل الرحمن بين الخلائق ، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ميقاتهم أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان : 40] .

ثم أتبع ذلك تعظيماً ثانياً فقال :

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14)

أي وما علمك بيوم الفصل وشدته ومهابته .

ثم أتبعه بتهويل ثالث فقال :

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

أي للمكذبين بالتوحيد والنبوة والمعاد وبكل ما ورد من الأنبياء عليهم السلام وأخبروا عنه ، بقي ههنا سؤالان .

السؤال الأول : كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ؟ الجواب : هو في أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله ، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ، ونحوه ﴿ سلام عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر : 73] ويجوز ويلا بالنصب ، ولكن لم يقرأ به .

السؤال الثاني : أين جواب قوله : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ ؟ الجواب : من وجهين أحدهما : التقدير : إنما توعدون لواقع ، إذا النجوم طمست ، وهذا ضعيف ، لأنه يقع في قوله : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ ، الثاني : أن الجواب محذوف ، والتقدير ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ وإذا وإذا ، فحينئذ تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة .

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16)

اعلم أن المقصود من هذه الصورة تخويف الكفار وتحذيرهم عن الكفر .

فالنوع الأول : من التخويف أنه أقسم على أن اليوم الذي يوعدون به ، وهو يوم الفصل واقع

ثم هول فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ [المرسلات : 14] ثم زاد في التهويل فقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] .

والنوع الثاني من التخويف : ما ذكر في هذه الآية .

وهو أنه أهلك الكفرة المتقدمين بسبب كفرهم .

(110/796)

فإذا كان الكفر حاصلاً في هؤلاء المتأخرين ، فلا بد وأن يهلكهم أيضاً ثم قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كأنه يقول ، أما الدنيا فحاصلهم الهلاك ، وأما الآخرة فالعذاب الشديد وإليه الإشارة بقوله : ﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] وفي الآية سؤالان الأول : ما المراد من الأولين والآخرين ؟ الجواب : فيه قولان : الأول : أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ثم أتبعهم الآخرين قوم شعيب ولوط وموسى كذلك نفعل بالمجرمين وهم كفار قريش ، وهذا القول ضعيف لأن قوله : ﴿ نُتْبِعُهُمُ الأخرين ﴾ بلفظ المضارع فهو يتناول الحال والاستقبال ولا يتناول الماضي ألبتة القول الثاني : أن المراد بالأولين جميع الكفار الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الأخرين ﴾ على الاستئناف على معنى سنفعل ذلك ونتبع الأول الآخر ، ويدل على

الاستئناف قراءة عبد الله ﴿ سنتبعهم ﴾ ، فإن قيل : قرأ الأعرج ثم نتبعهم بالجزم وذلك يدل على الاشتراك في ألم ، وحينئذ يكون المراد به الماضي لا المستقبل ، قلنا : القراءة الثابتة بالتواتر نتبعهم بحركة العين ، وذلك يقتضي المستقبل ، فلو اقتضت القراءة بالجزم أن يكون المراد هو الماضي لوقع التنافي بين القراءتين ، وإنه غير جائز .

فعلمنا أن تسكين العين ليس للجزم للتخفيف كما روي في بيت امرىء القيس :

واليوم أشرب غير مستحقب . . ثم إنه تعالى لما بين أنه يفعل بهؤلاء المتأخرين مثل ما يفعل بأولئك المتقدمين قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي هذا الإهلاك إنما نفعله بهم لكونهم مجرمين ، فلا جرم في جميع المجرمين ، لأن عموم العلة يقتضي عموم الحكم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا في الدنيا ، فالمصيبة العظمى والطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة .

(111/796)

السؤال الثاني : المراد من الإهلاك في قوله : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ هو مطلق الإماتة أو الإماتة بالعذاب ؟ فإن كان ذلك هو الأول لم يكن تخويفاً للكفار ، لأن ذلك أمر حاصل للمؤمن والكافر ، فلا يصلح تحذيراً للكافر ، وإن كان المراد هو الثاني وهو الإماتة بالعذاب ،

فقوله : ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الأخرين كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ يقتضي أن يكون الله قد فعل بكفار قريش مثل ذلك ، ومن المعلوم أنه لم يوجد ذلك ، وأيضاً فلأنه تعالى قال : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] الجواب : لم لا يجوز أن يكون المراد منه الإماتة بالتعذيب ، وقد وقع ذلك في حق قريش وهو يوم بدر ؟ سلمنا ذلك ، فلم لا يجوز أن يكون المراد من الإهلاك معنى ثالثاً مغايراً للأمرين اللذين ذكروهما وهو الإماتة المستعقبة للذم واللعن ؟ فكأنه قيل : إن أولئك المتقدمين لحرصهم على الدنيا عاندوا الأنبياء وخاصموهم ، ثم ماتوا فقد فاتتهم الدنيا وبقي اللعن عليهم في الدنيا والعقوبة الأخروية دائماً سرمداً ، فهكذا يكون حال هؤلاء الكفار الموجودين ومعلوم أن مثل هذا الكلام من أعظم وجوه الزجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 236 . 239 ﴾

(112/796)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

قال كثير من المفسرين : ﴿ المرسلات ﴾ ، الرسل إلى الناس من الأنبياء كأنه قال : والجماعات المرسلات ، وقال أبو صالح ومقاتل وابن مسعود : ﴿ المرسلات ﴾ الملائكة

المرسلة بالوحي ، وبالتعاقب على العباد طرفي النهار ، وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ المرسلات ﴾ ، الرياح ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ﴿ المرسلات ﴾ السحاب و ﴿ عرفاً ﴾ معناه على القول الأول ﴿ عرفاً ﴾ من الله وإفضالاً على عباده ببعثه الرسل .

ومنه قول الشاعر : [الحطيئة] : [البسيط]

من يفعل الخير لا يعدمْ جوازيَهُ . . . لا يذهب العرف بين الله والناس

(113/796)

ويحتمل أني ريد بقوله ﴿ عرفاً ﴾ أي متتابعة على التشبيه بتتابع عرف الفرس وأعراف الجبال ونحو ذلك ، والعرب تقول : الناس إلى فلان عرف واحد إذا توجهوا إليه ، ويحتمل أن يريد بالعرف أي بالحق ، والأمر بالمعروف ، وهذه الأقوال في عرف تتجه في قول من قال في ﴿ المرسلات ﴾ إنها الملائكة ، ومن قال إن ﴿ المرسلات ﴾ الرياح اتجه في العرف القول الأول على تخصيص الرياح التي هي نعمة وبها الأرزاق والنجاة في البحر وغير ذلك مما لا فقه فيه ، ويكون الصنف الآخر من الرياح في قوله ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ ويحتمل أن يكون بمعنى ﴿ والمرسلات ﴾ الرياح التي يعرفها الناس ويعهدونها ، ثم عقب بذكر الصنف

المستنكر الضار وهي ﴿ العاصفات ﴾ ، ويحتمل أن يريد بالعرف مع الرياح التتابع كعرف الفرس ونحوه ، وتقول العرب هب عرف من ريح ، والقول في العرف مع أن ﴿ المرسلات ﴾ هي الرياح يطرد على أن ﴿ المرسلات ﴾ السحاب ، وقرأ عيسى " عُرفاً " بضم الراء ، و ﴿ العاصفات ﴾ من الريح الشديدة العاصفة للشجر وغيره ، واختلف الناس في قولهم ﴿ والناشرات ﴾ فقال مقاتل والسدي هي الملائكة تنشر صحف العباد بالأعمال ، وقال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة هي الرياح تنشر رحمة الله ومطره ، وقال بعض المتأولين : ﴿ الناشرات ﴾ الرمم الناشرات في بعث يوم القيامة يقال نشرت الميت ، ومنه قول الأعشى : [السريع]

(114/796)

يا عجباً للميت الناشر . . . وقال آخرون : ﴿ الناشرات ﴾ التي يجيء بالأمطار تشبه بالميت ينشر ، وقال أبو صالح : ﴿ الناشرات ﴾ الأمطار التي تحيي الأرض ، وقال بعض المتأولين : ﴿ الناشرات ﴾ طوائف الملائكة التي تباشر إخراج الموتى من قبورهم للبعث فكأنهم يحيونهم ، و ﴿ الفارقات ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد والضحاك : هي الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وقال قتادة والحسن

وابن كيسان : ﴿ الفارقات ﴾ ، آيات القرآن ، وأما ﴿ الملقيات ذكراً ﴾ فهي في قول الجمهور الملائكة . قال مقاتل جبريل وقال آخرون هي الرسل ، وقرأ جمهور الناس : " فالمُلْقيات " بسكون اللام أي تلقيه من عند الله أو بأمره إلى الرسل .

وقرأ ابن عباس فيما ذكر المهدوي ، " فالمَلَقَّيات " بفتح اللام والقاف وشدها ، أي تلقيه من قبل الله تعالى ، وقرأ ابن عباس أيضاً " فالمَلَقِّيات " بفتح اللام وشد القاف وكسرها ، أي تلقيه هي الرسل ، و" الذكر " الكتب المنزلة والشرائع ومضمناتها .

(115/796)

واختلف القراء في قوله تعالى : ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ ، فقأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر وشيبة بسكون الذال في " عذْر " وضمها في " نذُر " ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وإبراهيم التيمي بسكون الذال فيهما ، وقرأ طلحة وعيسى والحسن بخلاف ، وزيد بن ثابت وأبو جعفر وأبو حيوة والأعمش عن أبي بكر عن عاصم بضمها فيهما فإسكان الذال على أنهما مصدران يقال عذْر وعذير ونذْير كنكر ونكير ، وضم الذال يصح معه المصدر ، ويصح أن يكون جمعاً لنذير وعاذر للذين هما اسم فاعل ، والمعنى أن الذكر يلقي بإعذار وإنذار أو يلقيه معذورون

ومنذرون ، وأما النصب في قوله ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ فيصح إذا كانا مصدرين أن يكون لك على البدل من الذكر ، ويصح أن يكون على المفعول للذكر كأنه قال ﴿ فالملقيات ﴾ أن يذكر ﴿ عذراً ﴾ ويصح أن يكون ﴿ عذراً ﴾ مفعولاً لأجله أي يلقي الذكر من أجل الإعذار ، وأما إذا كان ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ جمعاً فالنصب على الحال . وقرأ إبراهيم التيمي " عذراً أو نذراً " بواو بدل ﴿ أو ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ هو الذي وقع عليه القسم والإشارة إلى البعث ، و" طمس النجوم " : إزالة ضوئها واستوائها مع سائر جرم السماء ، و" فرج السماء " : هو بانفطارها حتى يحدث فيها فروج ، و" نسف الجبال " : هو بعد التسيير وقيل كونها هباء وهو تفريقها بالريح . وقرأ جمهور القراء : " أقتت " بالهمزة وشد القاف ، وقرأ بتخفيف القاف مع الهمزة عيسى وخالد ، وقرأ أبو عمرو وحده " وقتت " بالواو ، وأبو الأشهب وعيسى وعمرو بن عبيد ، قال عيسى هي لغة سفلى مضر ، وقرأ أو جعفر بواو واحدة خفيفة القاف وهي قراءة ابن مسعود والحسن ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " ووقت " بواوين على وزن فوعلت ، والمعنى جعل لها وقت منتظر فجاء وحان . والواو في هذا كله الأصل والهمزة بدل . وقوله تعالى : ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ تعجيب على عظم ذلك اليوم

وهوله ، ثم فسر تعالى ذلك الذي عجب منه بقوله ﴿ ليوم الفصل ﴾ يعني بين الخلق في منازعتهم وحسابهم ومنازلهم من جنة أو نار ، وفي هذه الآية انتزع القضاة الآجال في الأحكام ليقع فصل القضاء عند تمامها ثم عظم تعالى يوم الفصل بقوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ على نحو قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 2] وغير ذلك ، ثم أثبت الويل ﴿ للمكذبين ﴾ في ذلك اليوم ، والمعنى ﴿ للمكذبين ﴾ به في الدنيا وبسائر فصول الشرع ، و" الويل " : هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرء ، ويروى عن النعمان بن بشير وعمار بن ياسر أن وادياً في جهنم اسمه " ويل " .

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17)

قرأ جمهور القراء " ثم نتبعُهم " بضم العين على استئناف الخبر ، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه " ثم نتبعْهم " بجزم العين عطفاً على ﴿ نهلك ﴾ وهي قراءة الأعرج وبحسب هاتين القراءتين يجيء التأويل في ﴿ الأولين ﴾ ، فمن قرأ الأولى جعل ﴿ الأولين ﴾ الأمم التي قدمت قريشاً بأجمعها ، ثم أخبر أنه يتبع ﴿ الآخرين ﴾ من قريش وغيرهم سنن أولئك إذا كفروا وسلكوا سبيلهم . ومن قرأ الثانية جعل ﴿ الأولين ﴾ قوم نوح وإبراهيم ومن كان معهم ، و ﴿ الآخرين ﴾ قوم فرعون وكل من تأخر وقرب من مدة محمد صلى الله عليه وسلم . وفي حرف عبد الله " وسنتبعهم " ثم قال ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي في

المستقبل فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار ، وأما تكرار ﴿ ويل يؤمئذ للمكذبين ﴾ في هذه السورة فقيل إن ذلك لمعنى التأكيد فقط ، وقيل بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق ، فجاء الوعد على التكذيب بذلك الذي في الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(117/796)

وقال القرطبى :

ثم بيّن وقت وقوعه (1) فقال : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾

أي ذهب ضوءها ومُحِي نورُها كطمس الكتاب ؛ يقال : طَمَس الشيء إذا درس وطُمِس فهو مطموس ، والريح تطمُس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامساً بمعنى مطموس .

﴿ وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ﴾ أي فُتِحت وشُقَّت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السمآء فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ [النبأ : 19] .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فُرجت للطيّ .

﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ أي ذهب بها كلها بسرعة ؛ يقال : نَسفْتُ الشيءَ وأنسفته : إذا أخذته كله بسرعة .

وكان ابن عباس والكلبيّ يقول : سُوِّيت بالأرض ، والعرب تقول : فَرَس نَسُوف إذا كان يؤخر الحزام بمرفقيه ؛ قال بِشْر :

نَسُوفٌ لِلحِزَام بمرفقيها . . .

ونَسَفت الناقةُ الكلأَ : إذا رعته .

وقال المبرد : نُسِفت قُلِعت من موضعها ؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض : أَنْسَفت رجلاه .

وقيل : النَّسْف تفريق الأجزاء حتى تذروها الرياح .

ومنه نسف الطعام ؛ لأنه يُحرَّك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التِّبْن .

﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ أي جمعت لوقتها ليوم القيامة ، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه ؛ فالمعنى : جعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ [النساء : 109] .

وقيل : هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبهم بأن الكفّار مُمْهَلون .

وإنما تزول الشكوك يوم القيامة .

والأوّل أحسن ؛ لأن التوقيت معناه شيء يقع يوم القيامة ، كالطمس ونَسْف الجبال وتشقيق السماء ولا يليق به التأقيت قبل يوم القيامة .

قال أبو علي : أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً .

وقيل : أُقِّتت وُعِدت وأُجِّلت .

وقيل : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ أي أرسلت لأوقات معلومة على ما علمه الله وأراد .

والهمزة في ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ بدل من الواو ؛ قاله الفراء والزجاج .

---

(1) المراد يوم القيامة .

(118/796)

قال الفراء : وكل واو ضُمَّت وكانت ضمتها لازمة جاز أن يبدل منها همزة ؛ تقول : صلّى القوم إِحْدانا تريد وِحْدانا ، ويقولون هذه وُجُوه حسان وأُجُوه .

وهذا لأن ضمة الواو ثقيلة .

ولم يجز البدل في قوله : "وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" لأن الضمة غير لازمة .

وقرأ أبو عمرو وحميد والحسن ونصر .

وعن عاصم ومجاهد "وُقِّتَتْ" بالواو وتشديد القاف على الأصل .

وقال أبو عمرو : وإنما يقرى "أُقِّتَتْ" من قال في وُجُوه أجُوه .

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج "وُقِتَت" بالواو وتخفيف القاف .

وهو فُعِلّت من الوقت ومنه "كِتَاباً مَوْقُوتاً" .

وعن الحسن أيضاً : "وُوِقِتَتْ" بواوين ، وهو فُوعِلت من الوقت إيضاً مثل عُوهِدت .

ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفاً لجاز .

وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلاَم "أُقِتَتْ" بالهمزة والتخفيف ؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف .

﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ ؟ أي أخرت ، وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو استفهام على التعظيم .

أي ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ أُجِّلت .

وروى سعيد عن قتادة قال : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار .

وفي الحديث : " إذا حشر الناس يوم القيامة قاموا أربعين عاماً على رؤوسهم الشمسُ شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون الفصل " ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ أتبع التعظيم تعظيماً ؛ أي وما أعلمك ما يوم الفصل ؟ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي عذاب وخزي لمن كذّب بالله وبرسله وكتبه وبيوم الفصل فهو وعيد .

وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب ؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكّذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر ، ورُبّ شيء كذّب به هو أعظم جُرْماً من تكذيبه بغيره ؛ لأنه أقبح في تكذيبه ، وأعظم في الردّ على الله ، فإنما يقسّم له من الويل على قدر ذلك ، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ .

وروي عن النعمان بن بشير قال : وَيْلٌ : وادٍ في جهنم فيه ألوان العذاب .

وقاله ابن عباس وغيره .

قال ابن عباس : إذا خَبَت جهنُم أُخذ من جمره فألقى عليها فيأكل بعضها بعضاً .

وروي أيضاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " عُرضت عليّ جهنم فلم أَرَ فيها وادياً أعظم من الوَيْل " وروي أنه مَجْمَع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم ، وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض وانفطر ، وقد علم العباد في الدنيا أن شر المواضع في الدنيا ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغُسالات من الجيف وماء الحمامات ؛ فذكر أن ذلك الوادي .

مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقذر منه قذارة ، ولا أنتن منه نتْناً ، ولا أشدّ منه مرارةً ، ولا أشدّ سواداً منه ؛ ثم وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تضمن من العذاب ، وأنه أعظم وادٍ في جهنم ، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ﴾

أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضين من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ أي نلحق الآخرين بالأوّلين .

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي مثل ما فعلناه بمن تقدّم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف : وإما بالهلاك .

وقرأ العامة "ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ" بالرفع على الاستئناف ، وقرأ الأعرج "نُتْبِعْهُمْ" بالجزم عطفاً على ﴿ نُهْلِكِ الأولين ﴾ كما تقول : ألم تزرني ثم أكرمك .

والمراد أنه أهلك قوماً بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين .

ثم استأنف بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ يريد من يهلك فيما بعد .

ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفاً من "نُتْبِعُهُم" لتوالي الحركات .

وروي عنه الإسكان للتخفيف .

وفي قراءة ابن مسعود "ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمْ" والكاف من ﴿ كَذَلِكَ ﴾ في موضع نصب ، أي مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك .

ثم قيل : معناه التهويل لهلاكهم في الدنيا اعتبارا .

وقيل : هو إخبار بعذابهم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والمرسلات عُرْفاً * فالعاصفات عَصْفاً * والناشرات نَشْراً * فالفارقات فَرْقاً * فالملقيات ذِكْراً ﴾

إقسامٌ من الله عزّ وجلَّ بطوائفَ من الملائكةِ أرسلهنَّ بأوامرِه فعصَفنَ في مُضيّهنَّ عصفَ الرياحِ مسارعةً في الامتثالِ بالأمرِ وبطوائفَ أُخرى نشرْن أجنحتَهنَّ في الجوّ عندَ انحطاطِهنَّ بالوَحي أو نشرن الشرائعَ في الأقطارِ أو نشرن النفوسَ المَوْتى بالكُفرِ والجهلِ بما أوحين ففرقن بينَ الحقّ والباطل فألقينَ ذِكْراً إلى الأنبياءِ ﴿ عُذْراً ﴾ للمحقّينَ ﴿ أَوْ نُذْراً ﴾ للمبطلينَ . ولعلَّ تقديمَ نشرِ الشرائعِ ونشرِ النفوسِ والفَرقِ على الإلتقاءِ للإيذان بكونها غايةً للإلقاء حقيقةً بالاعتناء بَها أو للإشعارِ بأنّ كُلاً من الأوصافِ المذكورةِ مُستقلٌّ بالدلالةِ على استحقاق الطوائفِ الموصوفةِ بها للتفخيم والإجلال بالإقسام بهنَّ ولو جيء بها على ترتيب الوقوعِ لربَّما فُهمَ أنَّ مجموعَ الإلقاءِ والنشرِ والفرقِ هو الموجبُ لما ذكِرَ من الاستحقاقِ أو إقسامٌ برياحِ عذابٍ أرسلهنَّ فعصفنَ وبرياحِ رحمةٍ نشرنَ السحابَ في الجوّ ففرقنَ بينَهُ كقولِه تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ أو بسحائبَ نشرنَ المواتَ ففرقنَ كلَّ صنفٍ منها عن سائرِ الأصنافِ بالشكلِ واللونِ وسائرِ الخواصّ ، أو فرقنَ بينَ من يشكرُ الله تعالى وبينَ من يكفرُ بهِ فألقينَ ذكراً أما عُذراً للمعتذرينَ إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارِهم عند

مشاهدِتهم أثارَ رحمتِه تعالى في الغيث ويشكرونها ، وإما إنذارٌ للذين يكفرونَها وينسبونها إلى الأنواءِ ، وإسنادُ إلقاءِ الذكرِ إليهنّ لكونِهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت أو إقسامٌ بآياتِ القُرآنِ المرسلةِ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فعصفنَ سائرَ الكتبِ بالنسخِ ونشرنَ آثارَ الهُدى من مشارق الأرضِ ومغاربِها وفرقنَ بين الحقّ والباطلِ فألقينَ ذكرَ الحقّ في أكناف العالمينَ والعُرفُ إمّا نقيضُ النُّكرِ وانتصابُه على العلةِ أي أرسلنَا للإحسانِ والمعروفِ فإنّ إرسالَ

(121/796)

ملائكةِ العذابِ معروفٌ للأنبياءِ عليهم السَّلامُ والمؤمنينَ أو بمَعْنى المتابعةِ من عُرفِ الفرسِ وانتصابُه على الحاليّةِ . والعُذرُ والنُّذرُ مصدرانِ من عَذرَ إذا مَحَا الإساءةَ ومن أنذرَ إذا خَوّفَ وانتصابُهما على البدليةِ من ذِكراً ، أو عَلى العِليّةِ وقُرِئَا بالتثقيلِ .

(122/796)

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ جوابٌ للقسمِ أيْ إنَّ الذي تُوعدونَهُ من مجيءِ القيامةِ كائنٌ لا محالةَ ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ مُحيتْ ومُحقتْ أو ذُهبَ بنورها ﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ صُدعتْ وفُتحتْ فكانتْ أبواباً . ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ جُعلتْ كالحبِّ الذي يُنسفُ بالمنسفِ ، ونحوهُ ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ وقيل : أُخذتْ منْ مقارّها بسرعةٍ من انتسفتَ الشيءَ إذا اختطفتَهُ . وقُرِئَ طُمّستْ وفُرّجتْ ونُسّفتْ مشددةً ﴿ وَإِذَا الرسل أُقّتَتْ ﴾ أي عُيّنَ لهُم الوقتُ الذي يحضرونَ فيه للشهادةِ على أممِهم وذلكَ عند مجيّتِه وحضورِه إذْ لا يتعينُ لهم قبلَه أو بلغُوا الميقاتَ الذي كانُوا ينتظرونَهُ وقُرِئَ وُقّتتْ على الأصلِ وبالتخفيفِ فيهما ﴿ لأيّ يَوْمٍ أُجّلَتْ ﴾ مقدرٌ بقولٍ هُو جوابٌ لإذا في قولِه تعالى : ﴿ وَإِذَا الرسل أُقّتَتْ ﴾ أو حالٌ من مرفوعِ أقتت أي يقالُ لأيّ يومٍ أُخرت الأمورُ المتعلقةُ بالرسلِ والمرادُ تعظيمُ ذلكَ اليومِ والتعجيبُ من هولِه . وقولُه تعالى ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ بيانٌ ليومِ التأجيلِ وهو اليومُ الذي يُفصلُ فيهِ بينَ الخلائقِ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ مَا مبتدأٌ أدراكَ خبرُهُ أيْ أيَّ شيءٍ جعلكَ دارياً ما هُو فوضعَ الضميرِ يومَ الفصلِ لزيادةِ تفظيعٍ وتهويلٍ على أنَّ مَا خبرٌ ويومُ الفصلِ مبتدأٌ لا بالعكسِ كما اختارَهُ سيبويه لأنَّ محطَّ الفائدةِ بيانُ كونِ يومِ الفصلِ أمراً بديعاً هائلاً لا يُقادرُ قَدْرُه ولا يُكتنهُ كُنْهُه كما يفيدُه خبريةُ ما لا بيانُ كونِ أمرٍ بديعٍ من الأمورِ يومَ الفصلِ كما يُفيده عكْسُه .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أيْ في ذلكَ اليومِ الهائلِ . وويلٌ في الأصلِ مصدرٌ منصوبٌ سادٌّ مسدَّ فعلِه لكنْ عُدلَ بهِ إلى الرفعِ للدلالةِ على ثباتِ الهلاكِ ودوامِه للمدعوِّ عليهِ ويومئذٍ ظرفُه أو صفتُه .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾ كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ لتكذيبِهم بهِ . وقُرِئَ نَهلكَ بفتحِ النونِ من هلَكَه بمعنى أهلَكَه ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الأَخِرِينَ ﴾ بالرفعِ على ثمَّ نحنُ نتبعُهم الآخرينَ من نظرائِهم السالكينَ لمسلكِهم في الكفرِ والتكذيبِ وهُو وعيدٌ لكفارِ مكةَ . وقُرِئَ ثمَّ سنُتبعُهم ، وقُرِئَ نُتبعْهُم بالجزمِ عطفاً على نُهلك فيكونُ المرادُ بالآخرينَ المتأخرينَ هلاكاً من المذكورينَ كقومِ لوطٍ وشعيبٍ ومُوسى عليهم السَّلامُ . ﴿ كذلك ﴾ مثلَ ذلكَ الفعلِ الفظيعِ ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي سنَّتُنا جاريةٌ على ذلكَ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أيْ يومُ إذْ أهلكناهُم ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بآياتِ اللهِ تعالَى وأنبيائِه وليسَ فيه تكريرٌ لما أنَّ الويلَ الأولَ لعذابِ الآخرةِ وهَذا لعذابِ الدُّنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(124/796)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾

أزيل أثرها بإزالة نورها أو بإعدام ذاتها وإذهابها بالكلية وكل من الأمرين سيكون وليس من المحال في شيء وما زعمه الفلاسفة المتقدمون في أمر تلك الأجرام واستحالة التحلل والعدم عليها أوهن من بيت العنكبوت وما زعمه المعاصرين منهم فيها وإن كان غير ثابت عندنا إلا أن إمكان الطمس عليه في غاية الظهور .

﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ شقت كما قال سبحانه ﴿ إذا السماء أنشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] وقيل فتحت كما قال سبحانه ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ [النبأ : 19] وأنشد سيبويه

: الفارجي باب الأمير المبهم . . .

ولا مانع من ذلك أيضاً سواء كانت السماء جسماً صلباً أو جسماً لطيفاً وأدلة استحالة الخرق والالتئام فيها خروق لا تلتئم .

﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ جعلت كالحب الذي ينسف بالمنسف ونحوه ﴿ وبست الجبال بسا ﴾ [الواقعة : 5] ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل : 14] قال في "البحر" فرقتها الرياح وذلك بعد التسيير وقيل ذلك جعلها هباء وقيل نسفت أخذت من

مقارها بسرعة من انتسفت الشيء إذا اختطفته وقرأ عمرو بن ميمون طمست وفرجت بتشديد الميم والراء وذكر في "الكشاف" أن الأفعال الثلاثة قرئت بالتشديد .

(125/796)

﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ أي بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة وجوز أن يكون المعنى عين لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم وذلك عند مجيئه وحصوله والوجه هو الأول كما قال جار الله وتحقيقه كما في "الكشف" أن توقيت الشيء تحديده وتعيين وقته فإيقاعه على الذوات بإضمار لأن المؤقت هو الإحداث لا الجثث ويجيء بمعنى جعل الشيء منتهياً إلى وقته المحدود وعلى هذا يقع عليها دون إضمار إذا كان بينها وبين ذلك الوقت ملابسة وإنما كان لوجه لأن القيامة ليست وقتاً يتبين فيه وقت الرسل الذي يحضرون فيه للشهادة بل هي نفس ذلك الوقت وإذا الرسل أقتت يقتضي ذلك لأنك إذا قلت إذا أكرمتني أكرمتك اقتضى أن يكون زمان إكرام المخاطب للمتكلم هو ما دل عليه إذا سواء جعل الظرف معموله أو معمول الجزاء أي فلا بد من التأويل وقد أشير إليه في ضمن التفسير وقرأ النخعي والحسن وعيسى وخالد أقتت بالهمزة وتخفيف القاف وقرأ أبو الأشهب وعمرو بن عبيد وأبو عمرو وعيسى أيضاً وقتت بالواو على الأصل لأن الهمزة

مبدلة من الواو المضمومة ضمة لازمة وهو أمر مطرد كما بين في محله وقال عيسى وقتت لغة سفلى مضر وقرأ عبد الله بن الحسن وأبو جعفر وقتت بواو واحدة وتخفيف القاف وقرأ الحسن أيضاً ووقتت بواوين على وزن فوعلت وإذا في جميع ما تقدم شرطية وقوله تعالى : لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12)

(126/796)

قيل مقول لقول مقدر هو جواب إذا أي يقال : ﴿ لاي يَوْمٍ ﴾ الخ وجعل التأجيل بمعنى التأخير من قولهم دين مؤجل في مقابل الحال والضمير لما يشعر به الكلام والاستفهام للتعظيم والتعجيب من هول ذلك اليوم أي إذا كان كذا وكذا يقال لأي يوم أخرت الأمور المتعلقة بالرسل من تعذيب الكفرة وإهانتهم وتنعيم المؤمنين ورعايتهم وظهور ما كانت الرسل عليهم السلام تذكره من الآخرة وأحوالها وفظاعة أمورها وأهوالها وجوز أن يكون الضمير للأمور المشار إليها فيما قبل من طمس النجوم وفرج السماء ونسف الجبال وتاقيت الرسل وأن يكون للرسل إلا أن المعنى على نحو ما تقدم وقيل أن يكون القول المقدر في موضع الحال من مرفوع ﴿ أقتت ﴾ أي مقولاً فيها لأي يوم أجلت وأن تكون الجملة نفسها من غير تقدير قول في موضع المفعول الثاني لاقتت على أنه بمعنى أعلمت كأنه قيل وإذا الرسل أعلمت

وقت تأجيلها أي بمجيئه وحصوله وجواب إذا على الوجهين قيل قوله تعالى الآتي : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] وجاء حذف الفاء في مثله وقيل محذوف لدلالة الكلام عليه أي وقع الفصل أو وقع ما توعدون واختار هذا أبو حيان ويجوز على احتمال كون الجواب ويل يومئذٍ للمكذبين أو تقدير المقدر مؤخراً كون جملة لأي يوم أجلت اعتراضاً لتهويل شأن ذلك اليوم وقوله تعالى :

﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ بدل من ﴿ لأي يوم ﴾ [المرسلات : 12] مبين له وقيل متعلق بمقدر تقديره أجلت ليوم الفصل بين الخلائق .

(127/796)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ أي أي شيء جعلك دارياً ما هو على أن ما الأولى مبتدأ وإدراك خبره وما الثانية خبر مقدم ويوم مبتدأ مؤخر لا بالعكس كما اختاره سيبويه لأن محط الفائدة بيان كون يوم الفصل أمراً بديعاً لا يقادر قدره ولا يكتنه كنهه كما يفيده خبرية ما لا بيان كون أمر بديع من الأمور يوم الفصل كما يفيده عكسه ووضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التفظيع والتهويل المقصودين من الكلام .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل وويل في الأصل مصدر بمعنى هلاك

وكان حقه النصب بفعل من لفظه أو معناه إلا أنه رفع على الابتداء للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ويومئذٍ ظرفه أو صفته فمسوغ الابتداء به ظاهر والمشهور أن مسوغ ذلك كونه للدعاء كما ﴿ في سلام عليكم ﴾

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16)

كقوم نوح وعاد وثمود وقرأ قتادة نهلك بفتح النون على أنه من هلكه بمعنى أهلكه ومنه هالك بمعنى مهلك كما هو الظاهر في قول العجاج

: ومهمه هالك من تعرجا . . .

هائلة أهواله من أدرجا

لئلا يلزم حذف الضمير مع حرف الجر أعني به أو فيه وليناسب ما في الشطر الثاني .

(128/796)

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ بالرفع على الاستئناف وهو وعيد لأهل مكة وأخبار عما يقع بعد الهجرة كبدر كأنه قيل ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ويقويه قراءة عبد الله ثم سنتبعهم بسين الاستقبال وجوز العطف على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ﴾ [المرسلات : 16] إلى آخره وقرأ

الأعرج والعباس عن أبي عمرو تتبعهم بإسكان العين فحمل على الجزم والعطف على نهلك فيكون المراد بالآخرين المتأخرين هلاكاً من المذكورين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم السلام دون كفار أهل مكة لأنهم بعد ما كانوا قد أهلكوا والعطف على نهلك يقتضيه وجوز أن يكون قد سكن تخفيفاً كما في ﴿ وما يشعركم ﴾ [الأنعام : 109] فهو مرفوع كما في قراءة الجمهور إلا أن الضمة مقدرة .

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الفعل الفظيع ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي بكل من أجرم والمراد أن سنتنا جارية على ذلك .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذا أهلكناهم ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام وليس فيه تكرير لما أن الويل الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا وقيل لا تكرير لاختلاف متعلق المكذبين في الموضعين بأن يكون متعلقة هنا ما سمعت وفيما تقدم ﴿ يوم الفصل ﴾ [المرسلات : 13] ونحوه وكذا يقال فيما بعد وجوز اعتبار الاتحاد والتأكيد أمر حسن لا ضير فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(129/796)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) ﴾

الفاء للتفريع على قوله : ﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ [المرسلات : 7] لأنه لما أفاد وقوع البعث وكان الخاطبون ينكرونه ويتعللون بعدم التعجيل بوقوعه ، بُيّن لهم ما يحصل قبله زيادة في تهويله عليهم .

والإِنذار بأنه مؤخّر إلى أن تحصل تلك الأحداث العظيمة ، وفيه كناية رمزية على تحقيق وقوعه لأن الأخبار عن أمارات حلول ما يوعدون يستلزم التحذير من التهاون به ، ولذلك ختمت هذه الأخبار بقوله : ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ [المرسلات : 19] .

وكررت كلمة ﴿ إذَا ﴾ في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادة ﴿ إذا ﴾ كما في قوله : ﴿ فإذا برق البصر وخَسَف القمر وجُمع الشمس والقمر يقول الإِنسان ﴾ الآية [القيامة : 7 10] ، لإِفادة الاهتمام بمضمون كل جملة من هذه الجمل ليكون مضمونها مستقلاً في جعله علامة على وقوع ما يوعدون .

وطَمْسُ النجوم : زوال نورها ، وأن نور معظم ما يلوح للناس من النجوم سببه انعكاس أشعة الشمس عليها حين احتجاب ضوء الشمس على الجانب المُظلم من الأرض ، فطمس النجوم يقتضي طمس نور الشمس ، أي زوَال التهابها بأن تبرد حرارتها ، أو بأن تعلو

سطحها طبقة رمادية بسبب انفجارات من داخلها ، أو بأن تتصادم مع أجرام سماوية أخرى لاختلال نظام الجاذبية فتندك وتتكسر قِطعاً فيزول التهابها .

ومعنى ﴿ فرجت ﴾ تفرّق ما كان ملتحماً من هيكلها ، يقال : فرج الباب إذا فتحه .

والفرجة : الفتحة في الجدار ونحوه .

فإذا أريد بالسماء الجنس الصادق بجميع السماوات على طريقة العموم الحقيقي ، أو الصادق بسماوات مشهورة على طريقة العموم العرفي وهي السماوات السبع التي يعبر أهل الهيئة عنها بالكواكب السيارة جاز أن يكون فَرج السماوات حدوث أخاديد عظيمة في الكواكب زيادة على طمس نورها .

(130/796)

وإذا أريد بالسماء فرد معين معهود وهي ما نشاهده كالقبة الزرقاء في النهار وهي كرة الهواء ، فمعنى ﴿ فرجت ﴾ : فساد عناصر الجو بحيث تصير فيه طرائق مختلفة الألوان تبدو كأنها شقوق في كرة الهواء كما في قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] وكل ذلك مفض إلى انقراض العالم الدنيوي بجميع نظامه ومجموع أجسامه .

والنسف : قلع أجزاء الشيء بعضها عن بعض وتفريقها مثل الهدم .

ونسف الجبال : دكها ومصيرها تراباً مفرقاً ، كما قال تعالى : ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل : 14] .

وبناء هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأن المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعله على أنه من المعلوم أن فاعلها هو الله تعالى إذ لا يقدر عليه غيره .

وجُملة ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ عطف على الجمل المتقدمة فهي تقييد لوقت حادث يحصل وهي مما جُعل مضمونها علامة على وقوع ما يوعدون به فيلزم أن يكون مضمونها مستقبل الحصول وفي نظم هذه الجملة غموض ودقة .

فَأمّا ﴿ أُقتت ﴾ فأصله وُقتت بالواو في أوله ، يقال : وَقَّت وَقْتاً ، إذا عين وقتاً لعمل ما ، مشتقاً من الوقت وهو الزمان ، فلما بني للمجهول ضمّت الواو وَهو ضم لازم احترازاً من ضمة

﴿ ولا تَنْسَوُا الفضل بينكم ﴾ [البقرة : 237] لأن ضمة الواو ضمة عارضة ، فجاز إبَدالها همزة لأن الضم على الواو ثقيل فعدل عن الواو إلى الهمزة .

وقرأه الجمهور ﴿ أقتت ﴾ بهمزة وتشديد القاف .

وقرأه أبو عمرو وحده بالواو وتشديد القاف ، وقرأه أبو جعفر بالواو وتخفيف القاف .

وشأن ﴿ إذا ﴾ أن تكون لمستقبل الزمان فهذا التأقيت للرسل توقيت سيكون في المستقبل ، وهو علامَة على أن ما يُوعدون يحصل مع العلامات الأخرى .

ولا خلاف في أن ﴿ أُقِّتَت ﴾ مشتقّ من الوقت كما علمت آنفاً ، وأصل اشتقاق هذا الفعل المبني للمجهول أن يكون معناه : جُعِلت وقتاً ، وهو أصل إسناد الفعل إلى مرفوعه ، وقد يكون بمعنى : وُقِّتَ لها وقتٌ على طريقة الحذف والإِيصال .

وإذ كان ﴿ إذا ﴾ ظرفاً للمستقبل وكان تأجيل الرسل قد حصل قبل نزول هذه الآية ، تعيّن تأويل ﴿ أُقِّتَت ﴾ على معنى : حَانَ وقتها ، أي الوقت المعيَّن للرسل وهو الوقت الذي أخبرهم الله بأنْ يُنْذِرُوا أممهم بأَنَّهُ يحلّ في المستقبل غيرِ المعين ، وذلك عليه قوله : ﴿ لأيّ يوم أُجّلت لِيوم الفصل ﴾ فإن التأجيل يفسر التوقيت .

وقد اختلفت أقوال المفسرين الأولين في مَحْمَل معنى هذه الآية فعن ابن عباس ﴿ أُقِّتت ﴾ : جُمعت أي ليوم القيامة قال تعالى : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] ، وعن مجاهد والنخعي ﴿ أقتت ﴾ أُجّلَت .

قال أبو علي الفارسي : أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً .

قال في "الكشاف" : "والوجه أن يكونَ معنى "وقتت" بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة" أ هـ .

وهذا صريح في أنه يقال : وُقت بمعنى أُحْضر في الوقت المعيَّن ، وسلمه شراح "الكشاف" وهو معنى مغفول عنه في بعض كتب اللغة أو مطوي بخفاء في بعضها .

ويجيء على القولين أن يكون قوله : ﴿ لأي يوم أجّلت ﴾ استئنافاً ، وتُجعَل (أيُّ) اسم استفهام مستعمل للتهويل كما درج عليه جمهور المفسرين الذين صرّحوا ولم يُجْمِلُوا ، والذي يظهر لي أن تكون (أيٌّ) موصولة دالّة على التعظيم والتهويل وهو ما يعبر عنه بالدّال على معنى الكمال وتكون صفة لموصوف محذوف يدل عليه ما أضيفت إليه (أيٌّ) وتقديره : ليومِ أيِّ يومٍ ، أي ليومٍ عظيم .

(132/796)

ويكون معنى ﴿ أقتت ﴾ حضر ميقاتها الذي وُقِّت لها ، وهو قول ابن عباس جُمعت ، وفي "اللسان" على الفراء : ﴿ أُقتت ﴾ جُمعت لوقتها ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ يومَ يجمع الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] وقوله : ﴿ فكيف إذا جِئْنَا من كل أمة بشهيد وجِئْنَا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] .

ويكون اللام في قوله : ﴿ لأي يوم أُجّلت ﴾ لامَ التعليل ، أي جمعت لأجل اليوم الذي أُجّلت إليه .

وجملة ﴿ أُجّلت ﴾ صفة ليوم ، وحذف العائد لظهوره ، أي أجّلت إليه .

وقوله : ﴿ ليوم الفصل ﴾ بدل من ﴿ لأي يوم أُجِّلت ﴾ بإعادة الحرف الذي جُرَّ بِهِ المبدل منه كقوله تعالى:

﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ [المائدة : 114] أي أحضرت الرسل ليوم عظيم هو يوم الفصل .

والظاهر أن المبدل منه والبدل دليلان على جواب (إذا) من قوله ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ الخ ، إذ يُعلم أن المعنى إذا حصل جميع ما ذُكر فذلك وقوع ما تُوعدون .

وجملة ﴿ لأي يوم أجِّلت ليوم الفصل ﴾ قد علمت آنفاً الوجه الوجيه في معناها .

ومن المفسرين من جعلها مقول قول محذوف : يقال يومَ القيامة ، ولا داعي إليه .

و ﴿ الفصل ﴾ : تمييز الحق من الباطل بالقضاء والجزاءِ إذ بذلك يزول الالتباس والاشتباه والتمويه الذي كان لأهل الضلال في الدنيا فتتضحُ الحقائق على ما هي عليه في الواقع .

وجملة ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ في موضع الحال من يوم الفصل ، والواو واو الحال والرابط لجملة الحال إعادة اسم صاحب الحال عوضاً عن ضميره ، مثلُ ﴿ القارعةُ ما القارعةُ ﴾ [القارعة : 1 ، 2] .

والأصل : وما أدراك ما هو ، وإنما أُظهر في مقام الإِضمار لتقوية استحضار يوم الفصل

قصداً لتهويله .

و﴿ مَا ﴾ استفهامية مبتدأ و ﴿ أدراك ﴾ خبرٌ ، أي أعلمك .

(133/796)

و ﴿ ما يوم الفصل ﴾ استفهام عُلق به فعل ﴿ أدْرَاك ﴾ عن العمل في مفعولين ، و ﴿ ما ﴾ الاستفهامية مبتدأ أيضاً و ﴿ يوم الفصل ﴾ خبر عنها والاستفهامان مستعملان في معنى التهويل والتعجيب .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

حَمْل هذه الجملة عن نظائرها الآتية في هذه السورة يقتضي أن تُجعل استئنافاً لقصد تهديد المشركين الذين يسمعون القرآن ، وتهويل يوم الفصل في نفوسهم ليحذروه ، وهو متصل في المعنى بجملة ﴿ إن ما تُوعَدُون لواقع ﴾ [المرسلات : 7] اتصال أجزاء النظم ، فموقع جملة ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ابتداءُ الكلام ، وموقع جملة ﴿ إذا النجوم طمست ﴾ [المرسلات : 8] التأخرُ ، وإنما قُدمت لتؤذن بمعنى الشرط .

وقد حصل من تغيير النظم على هذا الوجه أن صارت جملة ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ بمنزلة التذييل ، فحصل في هذا النظم أسلوب رائع ، ومعان بدائع .

وبعض المفسرين جعل هذه الجملة جواب (إذَا) أي يتعلق (إذَا) بالاستقرار الذي في الخبر وهو ﴿ للمكذبين ﴾ .

والتقدير : إذا حصل كذا وكذا حلّ الويل للمكذبين وهو كالبيان لقوله : ﴿ إن ما تُوعَدُون لواقع ، فيحصل تأكيد الوعيد ، ولا يَرِد على هذا عُرُوّ الجواب عن الفاء الرابطة للجواب لأن جواب (إذا) جوابٌ صوري ، وإنما هو متعلَّق (إذا) عومل معاملة الجواب في المعنى . ثم إن هذه الجملة صالحة لمعنى الخبرية ولمعنى الإنشاء لأن تركيب (وَيْل له) يستعمل إنشاء بكثرة .

والويل : أشد السوء والشرّ .

وعَلى الوجه الأول يكون المُراد بالمكذبين كذبوا بالقرآن ، وعلى الوجه الثاني في معنى الجملة جميعُ الذين كذبوا الرسل وما جَاءُوهُم به ، وبذلك العموم أفادت الجملة مُفاد التذييل ، ويشمل ذلك المشركين الذين كذبوا بالقرآن والبعثِ إذ هم المقصود من هذه المواعظ وهم الموجه إليهم هذا الكلام ، فخوطبوا بقوله : إنما توعدون لواقع .

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16)

استئناف بخطاب موجه إلى المشركين الموجودين الذين أنكروا البعث معترض بين أجزاء الكلام المخاطبِ به أهل الشرك في المحشر .

ويتضمن استدلالاً على المشركين الذين في الدنيا ، بأن الله انتقم من الذين كفروا بيوم البعث من الأمم سابقهم ولاحِقهم ليحذروا أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك الأولين والآخِرين .

والاستفهام للتقرير استدلالاً على إمكان البعث بطريقة قياس التمثيل .

والمراد بالأولين الموصوفون بالأولية أي السبق في الزمان ، وهذا يقِرُّ به كل جيل منهم مسبوق بجيل كفروا .

فالتعريف في ﴿ الأولين ﴾ تعريف العهد ، والمراد بالأولين جميع أمم الشرك الذين كانوا قبل مشركي عصر النبوة .

والإِهلاك : الإِعدام والإِماتة .

وإهلاك الأولين له حالتان : حالة غير اعتيادية تنشأ عن غضب الله تعالى ، وهو إهلاك الاستئصال مثل إهلاك عاد وثمود ، وحالة اعتيادية وهي ما سَن الله عليه نظام هذا العالم من حياة وموت .

وكلتا الحالتين يصح أن تكون مراداً هنا ، فأما الحالة غير الاعتيادية فهي تذكير بالنظر الدال على أن الله لا يرضى عن الذين كذبوا بالبعث .

وأما الحالة الاعتيادية فدليل على أن الذي أحيا الناس يميتهم فلا يتعذر أن يعيد إحياءهم .

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17)

حرف (ثمّ) للتراخي الرُتبي لأن التهديد أهم من الإِخبار عن أهل المحشر ، لأنه الغرض من سوق هذا كله ، ولأن إهلاك الآخرين أشدّ من إهلاك الأولين لأنه مسبوق بإهلاك آخر .

ووقعت جملة ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ موقَع البيان لجملة ﴿ ألم نُهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين ﴾ [المرسلات : 16 ، 17] ، وهو كالتذييل يبين سبب وقوع إهلاك الأولين وأنه سبب لإِيقاع الإِهلاك بكل مجرم ، أي تلك سنة الله في معاملة المجرمين فلا محيص لكم عنها .

وذكر وصف ﴿ المجرمين ﴾ إيماء إلى أن سبب عقابهم بالإِهلاك هو إجرامهم .

والإِشارة في قوله : ﴿ كذلك ﴾ إلى الفعل المأخوذ من ﴿ نفعل ، ﴾ أي مثل ذلك الفعل نفعل .

(135/796)

و (المجرمون) من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن قال تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين ءامنوا يضحكون ﴾ [المطففين : 29] وسيأتي في هذه السورة ﴿ كُلُوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ [المرسلات : 46] .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)

تقرير لنظيره المتقدم تأكيداً للتهديد وإعادة لمعناه .

التهديد : من مقامات التكرير كقول الحارث بن عياد :

قَرِّبَا مربَط النَعامة مني . . .

الذي كرّره مراراً متوالية في قصيدته اللامية التي أثارت حرب البسوس .

فعلى الوجه الأول في موقع جملة ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ يقدر الكلام المعوض عنه تنوين ﴿ يومئذٍ ﴾ يومَإذ يقال لهم ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ [المرسلات : 16] .

والمراد بالمكذبين : المخاطبون فهو إظهار في مقام الإِضمار لتسجيل أنهم مكذبون ، والمعنى : ويل يومئذٍ لكم .

وعلى الوجه الثاني في موقع الجملة يقدر المحذوف المعرض عنه التنوينُ : يومَإذ ﴿ النجوم طمست ﴾ [المرسلات : 8] الخ ، فتكون الجملة تأكيداً لفظياً لنظيرتها التي تقدمت .

والمراد بالمكذبين جميع المكذبين الشامل للسامعين .

وعلى الاعتبارين فتقرير معنى الجملتين حاصل لأن اليوم يوم واحد ولأن المكذبين يَصدُق بالأحياء وبأهل المحشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر الإهلاك على ذلك الوجه الدال على القدرة التامة على البعث وعلى ما يوعد به بعد البعث ، أتبعه الدلالة بابتداء الخلق وهو أدل فقال مقرراً ومنكراً على من يخالف علمه بذلك عمله : ﴿ ألم نخلقكم ﴾ أي أيها المكذبون بما لنا من العظمة التي لا تعشرها عظمة ﴿ من ماء مهين ﴾ أي نطفة مذرة ذليلة ، وهو من مهن بالفتح ، قال في القاموس : والمهين : الحقير الضعيف والقليل ﴿ فجعلناه ﴾ أي بما لنا من العظمة بالإنزال لذلك الماء في الرحم ﴿ في قرار مكين ﴾ أي محفوظ مما يفسده من الهواء وغيره ومددنا ذلك لأجل التطوير في أطوار الخلقة والتدوير في أدوار الصنعة ﴿ إلى قدر ﴾ أي مقدار من الزمان قدره الله تعالى

للولادة ﴿ معلوم ﴾ أي عندنا من تسعة أشهر للولادة إلى ما فوقها أو دونها لا يعلمه غيره .

ولما كان هذا عظيماً ترجمه وبينه معظماً له بقوله : ﴿ فقدرنا ﴾ أي بعظمتنا على ذلك أو فجعلناه على مقدار معلوم من الأرزاق والآجال والأحوال والأعمال ﴿ فنعم القادرون ﴾ نحن مطلقاً على ذلك وغيره ، أو المقدرون في تلك المقادير لما لنا من كمال العظمة بحيث نجعل ذلك بمباشرة من أردناه منه بطوعه واختياره .

ولعل التعبير بما قد يفيد مع العظمة الجمع لما أقام سبحانه في ذلك من الأسباب بالملائكة وغيرها ، وفيه مع ذلك ابتلاء للعباد الموحد منهم والمشرك : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ كان ذلك ﴿ للمكذبين ﴾ أي بالناشرات التي نشرت تلك النفوس وكل ما يراد نشره وهم يعلمون قدرتنا على ما ذكر وتقديره من ابتدائنا لخلقهم وغيره مما يفيد كمال القدرة وهم يكذبون بالبعث ولا يقيسونه بمثله .

(137/796)

ولما دل بابتداء الخلق على تمام قدرته ، أتبعه الدلالة بانتهاء أمره وأثنائه وما دبر فيهما من المصالح فقال : ﴿ ألم نجعل ﴾ أي نصير بما سببنا بما لنا من العظمة ﴿ الأرض كفاتاً ﴾ أي وعاء قابلة لجمع ما يوضع فيها وضمه جمعاً فيه فتك وهدم ، وهو اسم لما يكفت من

الحديد مثلاً أي يغلف بالفضة ويضم ويجمع ، كالضمام والجماع لما يضم ويجمع ، أو هو مصدر نعت به أو جمع كافتة ، كصائمة وصيام أو جمع كفت وهو الوعاء ، ولو شئنا لجعلناها ناشرة لكم إذا وضعتم فيها كما تنشر النبات ، وسنجعل ذلك إذا أردنا البعث ، ولما كان من المعلوم أنه حذف المفعول وهو لكم ، أبدى حالة دالة أيضاً عليه فقال : ﴿ أحياء ﴾ أي على ظهرها في الدور وغيرها ﴿ وأمواتاً ﴾ أي في بطنها في القبور وغيرها كما كنتم قبل خلق آدم عليه السلام .

ولما ذكر ما تغيبه من جبال العلم والملك وغيرهما ، أتبعه ما تبرزه من الشواهق إعلاماً بأنه لو كان الفعل للطبيعة ما كان الأمر هكذا ، فإنه لا يخرج هذه الجبال العظيمة على ما لها من الكبر والرسوخ والثقل والصلابة وغير ذلك من العظمة إلا الفاعل المختار ، هذا إلى ما يحفظ في أعاليها من المياه التي تنبت الأشجار وتخرج العيون والأنهار ، بل أكثر ما يخرج من المياه هو منها ، وكذا غالب المنافع من المعادن وغيرها قال : ﴿ وجعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أي الأرض ﴿ رواسي ﴾ لولاها لمادت بأهلها ، ومن العجائب أن مراسيها من فوقها خلافاً لمراسي السفن ﴿ شامخات ﴾ أي هي مع كونها ثوابت في أنفسها مثبتة لغيرها طوال جداً عظيمة الارتفاع كأنها قد تكبرت على بقية الأرض وعلى من يريد صعودها ، وتنكيره للتعظيم .

ولما كان من العجائب الخارقة للعوائد فوران الماء الذي من طبعه أن يغور لا أن يفور لما له من الثقل واللطافة التي أفادته قوة السريان في الأعماق وفي كون ذلك منه من موضع من الأرض دون آخر ، وكونه من الجبال التي هي أصل الأرض ومن صخورها غالباً دلالة ظاهرة على أن الفعل للواحد المختار الجبال القهار لا للطبائع قال : ﴿ وأسقيناكم ﴾ أي جعلنا لكم بما لنا من العظمة شراباً لسقيكم وسقي ما تريدون سقيه من الأنعام والحرث وغير ذلك ﴿ ماء ﴾ من لأنهار والغدران والعيون والآبار وغيرها ﴿ فراتاً ﴾ أي عظيماً عذباً سائغاً وقد كان حقيقاً بأن يكون ملحاً أجاجاً لما للأراضي الممسكة له من ذلك .

ولما كان في هذا دلالة على ظاهرة على قدرته على البعث وغيره قال : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي يوم إذ تقوم الساعة ليكون الفصل بين العباد فساقها مساق ما هو ثابت لا نزاع فيه إشارة إلى أنه لا يكذب بها بعد ظهور الأدلة إلا من لا مسكة له ﴿ للمكذبين ﴾ أي الذين هم في غاية الرسوخ في التكذيب حتى كذبوا بما لنا في هذا من الفرق الذي فرقنا به بين أرض وأخرى حتى جعلنا بعضها صالحاً لانفراق أرضه عن الماء ، وبعضها غير صالح وجعلنا بعضها قابلاً للجبال وبعضها غير قابل – إلى غير ذلك من الفروق البديعة .

ولما وصلت أدلة الساعة في الظهور إلى حد لا مزيد عليه ، وحكم على المكذبين بالويل مرة ، وأكد بثلاث ، فكان من حق المخاطب أن يؤمن فلم يؤمن ، أمر بما يدل على الغضب فقال

تعالى معلماً لهم بما يقال لهم يوم القيامة إذ يحل بهم الويل : ﴿ انطلقوا ﴾ أي أيها المكذبون ﴿ إلى ما كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ به تكذبون ﴾ عدماً ، وتجددون ذلك التكذيب مستمرين عليه .

(139/796)

ولما كان المراد زيادة تبكيتهم وتقريعهم والتهويل عليهم ، كرر الأمر واصفاً ما أمروا بالانطلاق إليه فقال : ﴿ انطلقوا ﴾ هذا على قراءة الجماعة ، وقراءة رويس عن يعقوب بصيغة الماضي للدلالة على تمام انقيادهم هناك ، وأنه لا شيء من منعه عندهم أصلاً ، وهي استئنافية لجواب من يقول : ما كان حالهم عند هذا الأمر الفظيع ؟ ﴿ إلى ظل ﴾ أي من دخان جهنم الذي سمي باليحموم لما ذكر في الواقعة ﴿ ذي ثلاث شعب ﴾ ينشعب من عظمه كما ترى الدخان العظيم يتفرق ذوائب ، وخصوصية الثلاث لأن التكذيب بالله وكتبه ورسله ، فتعذبهم كل واحدة منها عذاباً يعلمون هناك لأي تكذيبة منها هي ، أو لأن الحاجب عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم ، أو لأن السبب فيه القوة الوهمية الحالة في الدماغ ، والغضبية التي في عين القلب ، والشهوية التي في يساره ، وقيل : تخرج عنق من النار تكون ثلاث فرق : نار ونور ودخان ، يقف النور على المؤمنين ، واللهب الصافي على

الكافرين ، والدخان على المنافقين ، تكون كذلك إلى حين الفراغ من الحساب ، وقال الرازي : الشعب لهب وشرر ودخان .

ولما كان المبتادر من الظل ما يستروح إليه فظنوا ذلك ، أزال عنهم هذا التوهم على طريق التهكم بهم ليكون أشد في النكال فقال واصفاً ل " ذي " : ﴿ لا ظليل ﴾ أي من الحر بوجه من الوجوه .

ولما كان ما انتفى عنه غزارة الظل التي أفهمتها صيغة المبالغة قد يكون فيه نفع ما قال : ﴿ ولا يغني ﴾ أي شيئاً من إغناء ﴿ من اللهب ﴾ أي هذا الجنس .

(140/796)

ولما بين أن هذا الظل في العذاب ، وكان من المعلوم أنه لا يكون دخان إلا من نار ، قال مبيناً أنه لو كان هناك ظل ما أغنى : ﴿ إنها ﴾ أي النار التي دل عليها السياق ﴿ ترمي ﴾ أي من شدة الاستعار ﴿ بشرر ﴾ وهو ما تطاير من النار إذا التهبت ، واحدتها شرارة وهي صواعق تلك الدار ﴿ كالقصر ﴾ أي كل شرارة منها كأنها قصر مشيد من عظمها وقيل : هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قصر مثل جمر وجمرة ، وهي اسم جنس جمعي لم يستعمل إلا في جمع فهو شامل لكثير الجموع وقليلها ، وكذا كل ما فرق بين واحدة وجمعه التاء وليس

بجمع لأنه ليس بجمع سلامة وهو ظاهر ولا تكسير لأن أوزانه معروفة وليس منها فعل وليس بجنس ، فإنه لا يشمل ما دون الجمع ومن عظمة شرارها تعرف عظمة جمرها .

ولما شبهه في عظمه ، شبهه في لونه فقال : ﴿ كأنه جمالات ﴾ جمع جمالة جمع جمل مثل حجارة وحجر للدلالة مع كبره على كثرته وتتابعه واختلاطه وسرعة حركته ، ومن قرأ بضم الجيم فهو عنده جمع جمالة وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة – شبهه به في امتداده والتفافه ، ولا تنافي فإن الشرر منه ما هو هكذا ومنه ما هو كما تقدم ﴿ صفر ﴾ جمع أصفر للون المعروف ، وقيل : المراد به سواد يضرب إلى صفرة كما هي ألوان الجمال .

ولما كان هذا أمراً هائلاً كانت ترجمته : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ يكون ذلك ﴿ للمكذبين ﴾ أي العريقين في التكذيب بإلقاء الذكر على الأنبياء للبشارة والنذارة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 285 . 289 ﴾

(141/796)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث : من تخويف الكفار ووجه التخويف فيه من وجهين : الأول : أنه تعالى ذكرهم عظيم إنعامه عليهم ، وكلما كانت نعمة الله عليهم أكثر كانت جنايتهم في حقه أقبح وأفحش ، وكلما كان كذلك كان العقاب أعظم ، فلهذا قال عقيب ذكر هذا الإنعام : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

(142/796)

الوجه الثاني : أنه تعالى ذكرهم كونه قادراً على الابتداء ، وظاهر في العقل أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ، فلما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة ، لا جرم قال في حقهم : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وأما التفسير فهو أن قوله : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ أي من النطفة ، كقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : 8] ﴿ فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو الرحم ، لأن ما يخلق منه الولد لا بد وأن يثبت في الرحم ويتمكن بخلاف ما لا يخلق منه الولد ، ثم قال : ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ والمراد كونه في الرحم إلى وقت الولادة ، وذلك الوقت معلوم لله تعالى لا لغيره كقوله : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأرحام ﴾ [لقمان : 34] ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ قرأ نافع وعبد الله بن عامر بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، أما التشديد فالمعنى إنا قدرنا

ذلك تقديراً فنعم المقدرون له نحن ، ويتأكد هذا الوجه بقوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ولأن إيقاع الخلق على هذا التقدير والتحديد نعمة من المقدر على المخلوق فحسن ذكره في موضع ذكر المنة والنعمة ، ومن طعن في هذه القراءة قال : لو صحت هذه القراءة لوجب أن يقال : فقدرنا فنعم المقدرون وأجيب عنه بأن العرب قد تجمع بين اللغتين ، قال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] وأما القراءة بالتخفيف ففيها وجهان : الأول : أنه من القدرة أي فقدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ حيث خلقناه في أحسن الصور والهيئات والثاني : أنه يقال : قدرت الشيء بالتخفيف على معنى قدرته ، قال : الفراء العرب تقول : قدر عليه الموت ، وقدر عليه الموت ، وقدر عليه رزقه وقدر بالتخفيف والتشديد ، قال تعالى : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر : 16] .

(143/796)

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25)

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من تخويف الكفار وذلك لأنه ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الأنفس ، وفي هذه الآية ذكرهم بالنعم التي له عليهم في الآفاق ، ثم قال في آخر الآية : ﴿ وَيْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ والسبب فيه ما قدمنا أن النعم كلما كانت أكثر كانت الجناية أقبح فكان استحقاق الذم عاجلاً والعقاب آجلاً أشد ، وإنما قدم تلك الآية على هذه الآية ، لأن النعم التي في الأنفس كالأصل للنعم التي في الآفاق ، فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكناً .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا ثلاثة أشياء أولها : الأرض ، وإنما قدمها لأن أقرب الأشياء إلينا من الأمور الخارجية هو الأرض ، ومعنى الكفات في اللغة الضم والجمع يقال : كفت الشيء أي ضممته ، ويقال : جراب كفيت وكفت إذا كان لا يضيع شيئاً مما يجعل فيه ، ويقال للقدر : كفت .

(144/796)

قال صاحب الكشاف : هو اسم ما يكفت ، كقولهم الضمام والجماع لما يضم ويجمع ، ويقال : هذا الباب جماع الأبواب ، وتقول : شددت الشيء ثم تسمي الخيط الذي تشد به الشيء شداداً ، وبه انتصب أحياء وأمواتاً كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتاً ، أو بفعل مضمر يدل عليه وهو نكفت ويكون المعنى نكفتكم أحياء وأمواتاً ، فينصبان على الحال من الضمير هذا هو اللغة ، ثم في المعنى وجوه أحدها : أنها تكفت أحياء على ظهرها

وأمواتاً في بطنها والمعنى أن الأحياء يسكنون في منازلهم والأموات يدفنون في قبورهم ، ولهذا كانوا يسمون الأرض إما لأنها في ضمها للناس كالأم التي تضم ولدها وتكفله ، ولما كانوا يضمون إليها جعلت كأنها تضمهم وثانيها : أنها كفات الأحياء بمعنى أنها تكفت ما ينفصل الأحياء من الأمور المستقذرة ، فأما أنها تكفت (الأحياء) حال كونهم على ظهرها فلا وثالثها : أنها كفات الأحياء بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حاجاته من مأكل ومشرب ، لأن كل ذلك يخرج من الأرض والأبنية الجامعة للمصالح الدافعة للمضار مبنية منها ورابعها : أن قوله : ﴿ أَحْيَاء وأمواتا ﴾ معناه راجع إلى الأرض ، والحي ما أنبت والميت ما لم ينبت ، بقي في الآية سؤالان :

الأول : لم قيل : ﴿ أَحْيَاء وأمواتا ﴾ على التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعاً ؟ الجواب : هو من تنكير التفخيم ، كأنه قيل : تكفت أحياء لا يعدون ، وأمواتاً لا يحصرون .

السؤال الثاني : هل تدل هذه الآية على وجوب قطع النباش ؟ الجواب : نقل القفال أن ربيعة قال : دلت الآية على أن الأرض كفات الميت فتكون حرزاً له ، والسارق من الحرز يجب عليه القطع .

(145/796)

النوع الثاني : من النعم المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شامخات ﴾ فقوله : ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ أي ثوابت على ظهر الأرض لا تزول و ﴿ شامخات ﴾ أي عاليات ، وكل عال فهو شامخ ، ويقال : للمتكبر شامخ بأنفه ، ومنافع خلقة الجبال قد تقدمت في هذا الكتاب .

النوع الثالث : من النعم قوله تعالى : ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ الفرات هو الغاية في العذوبة ، وقد تقدم تفسيره في قوله : ﴿ هذا عَذبٌ فُرَاتٌ ﴾ [الفرقان : 53]

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

اعلم أن هذا هو النوع الخامس : من وجوه تخويف الكفار وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة فأما قوله : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فالمعنى أنه يقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من العذاب ، والظاهر أن القائلين هم خزنة النار وانطلقوا الثاني تكرير ، وقرأ يعقوب ﴿ انطلقوا ﴾ على لفظ الماضي ، والمعنى أنهم انقادوا للأمر لأجل أنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعاً منه ، وهذا بعيد لأنه كان ينبغي أن يقال : فانطلقوا بالفاء ، ليرتبط آخر الكلام بأوله ، قال المفسرون : إن الشمس تقرب يوم القيامة من رؤوس الخلائق ، وليس عليهم يومئذ لباس ولا كنان ، فتلفحهم الشمس وتسفعهم وتأخذ بأنفاسهم ويمتد ذلك اليوم ، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله فهناك يقولون : ﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ [الطور : 27] ويقال للمكذبين : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون

من عذاب الله وعقابه ، وقوله : ﴿ إلى ظِلٍّ ﴾ يعني دخان جهنم كقوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 43] ثم إنه تعالى وصف هذا الظل بصفات :

(146/796)

الصفة الأولى : قوله : ﴿ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ وفيه وجوه أحدها : قال الحسن : ما أدري ما هذا الظل ، ولا سمعت فيه شيئاً وثانيها : قال قوم المراد بقوله : إلى ظل ذي ثلاث شعب كون النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم ، وتسمية النار بالظل مجاز من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب كقوله : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] وثالثها : قال قتادة : بل المراد الدخان وهو من قوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : 29] وسرادق النار هو الدخان ، ثم إن شعبة من ذلك الدخان على يمينه وشعبة أخرى على يساره ، وشعبة ثالثة من فوقه .

وأقول هذا غير مستبعد لأن الغضب عن يمينه والشهوة عن شماله ، والقوة الشيطانية في دماغه ، ومنبع جميع الآفاق الصادرة عن الإنسان في عقائده ، وفي أعماله ، ليس إلا هذه الثلاثة ، فتولدت من هذه الينابيع الثلاثة أنواع من الظلمات ، ويمكن أيضاً أن يقال : ههنا

درجات ثلاثة ، وهي الحس والخيال ، والوهم ، وهي مانعة للروح عن الاستنارة بأنوار عالم القدس والطهارة ، ولكل واحد من تلك المراتب الثلاثة نوع خاص من الظلمة ورابعها : قال قوم : هذا كناية عن كون ذلك الدخان عظيماً ، فإن الدخان العظيم ينقسم إلى شعب كثيرة وخامسها : قال أبو مسلم ويحتمل في ثلاث شعب ما ذكره بعد ذلك ، وهو أنه : غير ظليل وأنه لا يغني من اللهب وبأنها ترمى بشرر كالقصر .

الصفة الثانية : لذلك الظل قوله : ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ، والمعنى أن ذلك الظل لا يمنع حر الشمس .

(147/796)

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ يقال : أغن عني وجهك ، أي أبعده لأن الغني عن الشيء يباعده ، كما أن المحتاج يقاربه ، قال صاحب "الكشاف" : إنه في محل الجر ، أي وغيره مغن عنهم ، من حر اللهب شيئاً ، قال القفال : وهذا يحتمل وجهين أحدهما : أن هذا الظل إنما يكون في جهنم ، فلا يظلهم من حرها ، ولا يسترهم من لهيبها ، وقد ذكر الله في سورة الواقعة الظل فقال : ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ * لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : 42- 44] وهذا كأنه في جهنم إذا دخلوها ، ثم قال : ﴿ لاَّ

بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ فيحتمل أن يكون قوله : ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ في معنى : ﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ في معنى : ﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ أي لا روح له يلجأ إليه من لهب النار والثاني : أن تكوُّنَ ذلك إنما يكون قبل أن يدخلوا جهنم بل عندما يحسبون للحساب والعرض ، فيقال لهم : إن هذا الظل لا يظلكم من حر الشمس ولا يدفع لهب النار ، وفي الآية وجه ثان : وهو الذي قاله قطرب : وهو أن اللهب ههنا هو العطش يقال : لهب لهباً ورجل لهبان وامرأة لهبى .

(148/796)

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ ﴾ قال الواحدي : يقال شررة وشرر وشرارة وشرار ، وهو ما تطاير من النار متبدداً في كل جهة وأصله من شررت الثوب إذا أظهرته وبسطته للشمس والشرار ينبسط متبدداً ، واعلم أن الله تعالى وصف النار التي كان ذلك الظل دخاناً لها بأنها ترمي بالشرارة العظيمة ، والمقصود منه بيان أن تلك النار عظيمة جداً ، ثم إنه تعالى شبه ذلك الشرر بشيئين الأول : بالقصر وفي تفسيره قولان : أحدهما : أن المراد منه البناء المسمى بالقصر قال ابن عباس : يريد القصور العظام الثاني : أنه ليس المراد ذلك ، ثم على التقدير ففي التفسير وجوه أحدها : أنها جمع قصرة ساكنة

الصاد كتمرة وتمر وجمرة وجمر ، قال المبرد : يقال للواحد من الحطب الجزل الغليظ قصرة والجمع قصر ، قال عبد الرحمن بن عابس : سألت ابن عباس عن القصر فقال : هو خشب كنا ندخره للشتاء نقطعه وكنا نسميه القصر ، وهذا قول سعيد بن جبير ومقاتل والضحاك ، إلا أنهم قالوا : هي أصول النخل والشجر العظام ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء كالقصر بفتحتين وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل نحو شجرة وشجر ، وقرأ ابن مسعود كالقصر بمعنى القصر كرهن ورهن ، وقرأ سعيد بن جبير كالقصر في جمع قصرة كحاجة وحوج.

التشبيه الثاني : قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُ جمالات صُفْرٌ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

جمالات جمع جمال كقولهم : رجالات ورجال وبيوتات وبيوت ، وقرأ ابن عباس حمالات بضم الجيم وهو قراءة يعقوب وذكروا وجوهاً أحدها : قيل : الجمالات بالضم الحبال الغلاظ وهي حبال السفن ، ويقال لها : القلوس ومنهم من أنكر ذلك وقال : المعروف في الحبال إنما هو الجمل بضم الجيم وتشديد الميم وقرىء :

﴿ حتى يَلِجَ الجمل ﴾ [الأعراف : 40] وثانيها : قيل هي قطع النحاس ، وهو مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وابن عباس ومعظم أهل اللغة لا يعرفونه وثالثها : قال الفراء : يجوز أن يكون الجمالات بالضم من الشيء المجمل ، يقال : أجملت الحساب ، وجاء القوم جملة أي مجتمعين ، والمعنى أن هذه الشررة ترتفع كأنها شيء مجموع غليظ أصفر ، وهذا قول الفراء ورابعها : قال الفراء : يجوز أن يقال : جمالات بضم الجيم جمع جمال بضم الجيم وجمال بضم الجيم يكون جمع جمل ، كما يقال : رخل ورخال ورخال .

القراءة الثاني : جمالة بكسر الجيم هي جمع جمل مثل حجر وحجارة ، قال أبو علي : والتاء إنما لحقت جمالاً لتأنيث الجمع ، كما لحقت في فحل وفحالة .

القراءة الرابعة : جملة بضم الجيم وهي القلس ، وقيل : صفر لإرادة الجنس ، أما قوله : صفر فالأكثرون على أن المراد منه سود تضرب إلى الصفرة ، قال الفراء : لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشوب صفرة ، والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذي يشوبه شيء من الصفرة .

وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد ، لأن الشرر إنما يسمى شرراً ما دام يكون ناراً ، ومتى كان ناراً كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطفأ ، وهناك لا يسمى شرراً ، وهذا القول عندي هو الصواب .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى شبه الشرر في العظم بالقصر ، وفي اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر ، وقيل : أيضاً إن ابتداء الشرر يعظم فيكون كالقصر ثم يفترق فتكون تلك القطع المتفرقة المتتابعة كالجمالات الصفر ، واعلم أنه نقل عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ أن هذا التشبيه إنما ورد في بلاد العرب ، وقصورهم قصيرة السمك جارية مجرى الخيمة ، فبين تعالى أنها ترمى بشرر كالقصر ، فلما سمع أبو العلاء المعري بهذا تصرف فيه وشبهه بالخيمة من الأديم ، وهو قوله :

(150/796)

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى . . ترمى بكل شرارة كطراف

ثم زعم صاحب الكشاف أنه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية ، وأقول : كان الأولى لصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك ، وإذ قد ذكره فلا بد لنا من تحقيق الكلام فيه ، فنقول : تشبيه الشرارة بالطراف يفيد التشبيه في الشكل والعظم ، أما الشكل فمن وجهين الأول : أن الشرارة تكون قبل انشعابها كالنقطة من النار ، فإذا انشعبت اتسعت فهي كالنقطة التي تتسع فهي تشبه الخيمة فإن رأسها كالنقطة ثم إنها لا تزال تتسع شيئاً فشيئاً الثاني : أن

الشرارة كالكرة أو الأسطوانة فهي شديدة الشبه بالخيمة المستديرة وأما التشبيه بالخيمة في النظم فالأمر ظاهر ، هذا منتهى هذا التشبيه .

(151/796)

وأما وجه القدح فيه فمن وجوه الأول : أن لون الشرارة أصفر يشوبها شيء من السواد ، وهذا المعنى حاصل في الجمالات الصفر وغير حاصل في الخيمة من الأديم الثاني : أن الجمالات متحركة والخيمة لا تكون متحركة فتشبيه الشرار المتحرك بالجمالات المتحركة أولى والثالث : أن الشرارات متتابعة يجيء بعضها خلف البعض وهذا المعنى حاصل في الجمالات الصفر وغير حاصل في الطراف الرابع : أن القصر مأمن الرجل وموضع سلامته فتشبيه الشرر بالقصر تنبيه على أنه إنما تولدت آفته من الموضع الذي توقع منه الأمن والسلامة ، وحال الكافر كذلك فإنه كان يتوقع الخير والسلامة من دينه ، ثم إنه ما ظهرت له آفة ولا محنة إلا من ذلك الدين ، والخيمة ليست مما يتوقع منها الأمن الكلي الخامس : أن العرب كانوا يعتقدون أن كل الجمال في ملك الجمال وتمام النعم إنما يحصل بملك النعم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : 6] فتشبيه الشرر بالجمال السود كالتهكم بهم ، كأنه قيل لهم : كنتم تتوقعون من دينكم كرامة ونعمة

وجمالاً إلا أن ذلك الجمال هو هذه الشرارات التي هي كالجمال ، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف السادس : أن الجمال إذا انفردت واختلط بعضها بالبعض فكل من وقع فيما بين أيديها وأرجلها في ذلك الوقت نال بلاء شديداً وألماً عظيماً ، فتشبيه الشرارات بها حال تتابعها يفيد حصول كمال الضرر ، والطراف ليس كذلك السابع : الظاهر أن القصر يكون في المقدار أعظم من الطراف والجمالات الصفر تكون أكثر في العدد من الطراف فتشبيه هذه الشرارات بالقصر وبالجمالات يقتضي الزيادة في المقدار وفي العدد وتشبهها بالطراف لا يفيد شيئاً من ذلك ، ولما كان المقصود هو التهويل والتخويف كان التشبيه الأول أولى الثامن : أن التشبيه بالشيئين في إثبات وصفين أقوى في ثبوت ذينك الوصفين من التشبيه بالشيء الواحد في إثبات ذينك الوصفين ، وبيانه

(152/796)

أن من سمع قوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ تسارع ذهنه إلى أن المراد إثبات عظم تلك الشرارات ، ثم إذا سمع بعد ذلك قوله : ﴿ كَأَنَّهُ جمالة صُفْرٌ ﴾ تسارع ذهنه إلى أن المراد كثرة تلك الشرارات وتتابعها ولونها .

أما من سمع أن الشرار كالطراف يبقى ذهنه متوقفاً في أن المقصود بالتشبيه إثبات العظم أو

إثبات اللون ، فالتشبيه بالطراف كالجمل ، والتشبيه بالقصر وبالجمالات الصفر ، كالبيان المفصل المكرر المؤكد .

ولما كان المقصود من هذا البيان هو التهويل والتخويف ، فكلما كان بيان وجوه العذاب أتم وأبين كان الخوف أشد ، فثبت أن هذا التشبيه أتم .

التاسع : أنه قال في أول الآية : ﴿ انطلقوا إلى ظِلّ ﴾ والإنسان إنما يكون طيب العيش وقت الانطلاق ، والذهاب إذا كان راكباً ، وإنما يجد الظل الطيب إذا كان في قصره ، فوقع تشبيه الشرارة بالقصر والجمالات ، كأنه قيل له : مركوبك هذه الجمالات ، وظلك في مثل هذا القصر ، وهذا يجري مجرى التهكم بهم ، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف العاشر : من المعلوم أن تطاير القصر إلى الهواء أدخل في التعجب من تطاير الخيمة ، لأن القصر يكون مركباً من اللبن والحجر والخشب .

(153/796)

وهذه الأجسام أدخل في الثقل والاكتناز من الخيمة المتخذة إما من الكرباس أو من الأديم ، والشيء كلما كان أثقل وأشد اكتنازاً كان تطايره في الهواء أبعد ، فكانت النار التي تطير القصر إلى الهواء أقوى من النار التي تطير الطراف في الهواء ، ومعلوم أن المقصود تعظيم أمر

النار في الشدة والقوة ، فكان التشبيه بالقصر أولى الحادي عشر : وهو أن سقوط القصر على الإنسان أدخل في الإيلام والإيجاع من سقوط الطراف عليه ، فتشبيه تلك الشرارات بالقصر يفيد أن تلك الشرارات إذا ارتفعت في الهواء ثم سقطت على الكافر فإنها تؤلمه إيلاماً شديداً ، فصار ذلك تنبيهاً على أنه لا يزال يسقط عليه من الهواء شرارات كالقصور بخلاف وقوع الطراف على الإنسان ، فإنه لا يؤلم في الغاية الثاني عشر : أن الجمال في أكثر الأمور تكون موقرة ، فتشبيه الشرارات بالجمال تنبيه على أن مع كل واحد من تلك الشرارات أنواعاً من البلاء والمحنة لا يحصي عددها إلا الله ، فكأنه قيل : تلك الشرارات كالجمالات الموقرة بأنواع المحنة والبلاء ، وهذا المعنى غير حاصل في الطراف فكان التشبيه بالجمالات أتم .

واعلم أن هذه الوجوه توالت على الخاطر في اللحظة الواحدة ولو تضرعنا إلى الله تعالى في طلب الأزيد لأعطانا أي قدر شئناً بفضله ورحمته ، ولكن هذه الوجوه كافية في بيان الترجيح والزيادة عليها تعد من الإطناب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 239.245 ﴾

(154/796)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

أي ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدّم .

وهذه الآية أصل لمن قال : إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده .

وقد مضى القول فيه .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أي في مكان حريز وهو الرَّحم .

﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال مجاهد : إلى أن نصوِّره .

وقيل : إلى وقت الولادة .

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ وقرأ نافع والكسائيّ "فَقَدَّرْنَا" بالتشديد .

وخفّف الباقون ، وهما لغتان بمعنًى .

قاله الكسائيّ والفراء والقُتَبي .

قاله القُتَبي : قدرنا بمعنى قدّرنا مشدّدة : كما تقول : قدرت كذا وقدّرته ؛ ومنه " قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في الهلال : "إذا غُمّ عليكم فاقدُروا له" "أي قدّروا له المسير والمنازل .

وقال محمد ابن الجهم عن الفراء : "فَقَدَّرْنَا" قال : وذكر تشديدها عن عليّ رضي الله عنه وتخفيفها : قال : ولا يبعد أن يكون المعنى في التشديد والتخفيف واحداً ؛ لأن العرب تقول

: قَدَرَ عليه الموت وقَدَّر : قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ [الواقعة : 60] قرىء بالتخفيف والتشديد ، وقَدَرَ عليه رزقه وقَدّر .

قال : واحتج الذين خَفّفوا فقالوا ؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدّرون .

قال الفراء : وتجمع العرب بين اللغتين ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] قال الأعشى :

وأَنْكَرَتِني وما كان الذي نَكِرَتْ . . .

من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

وروي عن عكرمة ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ مخففة من القدرة ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم والكسائيّ لقوله : ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ ومن شدّد فهو من التقدير ، أي فقدّرنا الشقي والسعيد فنعم المقدّرون .

رواه ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : المعنى قدرنا قصيراً أو طويلاً .

ونحوه عن ابن عباس : قدّرنا ملكنا .

(155/796)

المهدوي : وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف .

قلت : هو صحيح فإن عِكرمة هو الذي قرأ ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ مخفّفاً قال : معناه فملكنا فنعم المالكون ، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين ؛ أي قدّرنا وقت الولادة وأحوال النطفة في التنقيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشرًا سويًّا ، أو الشقيّ والسعيد ، أو الطويل والقصير ، كله على قراءة التشديد .

وقيل : هما بمعنى كما ذكرنا .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26)

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ أي ضامّة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها .

وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه ، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه .

وقوله عليه السلام : " قُصُّوا أظافركم وادفنوا قُلاَماتِكم " وقد مضى في "البقرة" بيانه .

يقال : كَفَتُّ الشيء أَكْفِته : إذا جمعته وضممته ، والكَفْت : الضم والجمع ؛ وأنشد سيبويه .

كِرامٌ حينَ تَنْكفتُ الأَفَاعي . . .

إلى أَحْجَارهنّ من الصَّقِيعِ

وقال أبو عبيد : ﴿ كِفَاتاً ﴾ أوعية .

ويقال لِلنّحْي : كِفْت وكَفِيت ، لأنه يحوي اللبن ويضمه قال :

فأنت اليومَ فوقَ الأرض حَيًّا . . .

وأنت غداً تَضُمُّكَ في كِفَات

وخرج الشَّعبيّ في جنازة فنظر إلى الجَبَّان فقال : هذهِ كفات الأموات ، ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كِفات الأحياء .

والثانية روي عن ربيعة في النَّبَّاش قال تقطَع يده فقيل له : لم قلت ذلك ؟ قال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً .

أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ﴾ فالأرض حِرْز .

وقد مضى هذا في سورة "المائدة" .

وكانوا يسمّون بَقِيع الغَرْقد كَفْتة ، لأنه مقبرة تضم الموتى ، فالأرض تضم الأحياء إلى منازلهم والأموات في قبورهم .

وأيضاً استقرار الناس على وجه الأرض ، ثم اضطجاعهم عليها ، انضمام منهم إليها .

(156/796)

وقيل : هي كِفات للأحياء يعني دفن ما يخرج من الإنسان من الفضلات في الأرض ؛ إذ لا ضَمّ في كون الناس عليها ، والضَّمّ يشير إلى الاحتفاف من جميع الوجوه .

وقال الأخفش وأبو عبيدة ومجاهد في أحد قوليه : الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض ، أي الأرض منقسمة إلى حيّ وهو الذي ينبت ، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت .

وقال الفراء : انتصب ﴿ أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ﴾ بوقوع الكِفات عليه ؛ أي ألم نجعل الأرض كِفات أحياء وأموات .

فإذا نوّنت نصبت ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ﴾ [البلد : 14-15] .

وقيل : نصب على الحال من الأرض ، أي منها كذا ومنها كذا .

وقال الأخفش : "كِفَاتًا" جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع .

وقال الخليل : التكفيت : تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر .

ويقال : انكفت القومُ إلى منازلهم أي انقلبوا .

فمعنى الكِفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون فيها .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ يعني الجبال ، والرواسي الثوابت ، والشامخات الطوال ؛ ومنه يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً .

قال : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ أي وجعلنا لكم سُقْيا .

والفُرَات : الماء العذب يشرب ويسقي منه الزرع .

أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات .

وهذه الأمور أعجب من البعث .

وفي بعض الحديث قال أبو هريرة : في الأرض من الجنة الفُرَات والدّجلة ونهر الأردن .

وفي صحيح مسَلم سيحان وَجَيْحان والنيل والفُرات كلّ من أنهار الجنة .

قوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾

أي يقال للكفار سيروا ﴿ إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ من العذاب يعني النار ، فقد شاهدتموها عياناً .

﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ﴾ أي دخان ﴿ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ يعني الدخان الذي يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب .

وكذلك شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب .

(157/796)

ثم وصف الظلّ فقال : ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ أي ليس كالظلّ الذي بقى حرّ الشمس ﴿ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب ﴾ أي لا يدفع من لهب جهنم شيئاً .

واللهب ما يعلو على النار إذ اضطرمت ، من أحمر وأصفر وأخضر .

وقيل : إن الشُّعَب الثلاث هي الضريع والزُّقُّوم والغِسْلين ؛ قاله الضحاك .

وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان ؛ لأنها ثلاثة أحوال ، هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت .

وقيل : عُنُق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب .

فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين ، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين ، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين .

وقيل : هو السُّرَادق ، وهو لسان من نار يحيط بهم ، ثم يتشعب منه ثلاث شعب ، فتظللهم حتى يُفْرَغ من حسابهم إلى النار .

وقيل : هو الظلّ من يَحْموم ؛ كما قال تعالى : ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : 42-44] على ما تقدّم .

وفي الحديث : " إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومُدَّ ذلك اليوم ، ثم ينجّي الله برحمته من يشاء إلى ظلّ من ظلّه فهنالك يقولون : ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ [الطور : 27] " ويقال للمكذبين : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ من عذاب الله وعقابه ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ .

فيكون أولياء الله جلّ ثناؤه في ظلّ عرشه أو حيث شاء من الظلّ ، إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقرّه من الجنة والنار .

ثم وصف النار فقال : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ الشرر : واحدته شررة .

والشرار : واحدته شرارة ، وهو ما تطاير من النار في كل جهة ، وأصله من شَرَّرَتُ الثوبَ إذا بسطته للشمس ليجفّ .

والقصر البناء العالي .

وقراءة العامة "كَالْقَصْرِ" بإسكان الصاد : أي الحصون والمدائن في العِظم وهو واحد القصور .

(158/796)

قاله ابن عباس وابن مسعود .

وهو في معنى الجمع على طريق الجنس .

وقيل : القصر جمع قَصْرةٍ ساكنة الصاد ، مثل جَمْرَة ، وجَمْرٍ وتَمْرة وتَمْر .

والقصرة : الواحدة من جَزْل الحطب الغليظ .

وفي البخاريّ عن ابن عباس أي "تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصَرِ" قال كنا نرفع الخشبَ بقَصَرٍ ثلاثة

أذرعٍ أو أقلّ ، فنرفعه للشتاء ، فنسميه القَصَر .

وقال سعيد ابن جُبير والضحاك : هي أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع .

وقيل : أعناقه .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وحُميد والسّلميّ "كَالْقَصَرِ" بفتح الصاد ، أراد أعناق النخل .

والقَصَرة العنق ، جمعها قَصَر وقَصَرات .

وقال قتادة : أعناق الإبل .

وقرأ سعيد بن جُبير بكسر القاف وفتح الصاد ، وهي أيضاً جمع قَصْرة مثل بَدْرة وبِدَر وقَصْعة وقِصَع وحَلْقَة وحِلَق ، لِحلقِ الحديد .

وقال أبو حاتم : ولعله لغة ، كما قالوا حاجَة وحِوَج .

وقيل : القَصْر : الجبل ، فشبه الشرر بالقَصْر في مقاديره ، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصُّفْر ، وهي الإبل السود ؛ والعرب تسمى السُّود من الإبل صُفْراً ؛ قال الشاعر :

تِلْكَ خَيْلي منه وتلك رِكَابِي . . .

هُنَّ صُفْرٌ أَوْلادُها كالزَّبِيبِ

أي هنّ سود .

وإنما سُمّيت السود من الإبل صُفراً لأنه يشوب سوادها شيء من صُفرة ؛ كما قيل لبيض الظباء : الأدْم ؛ لأن بياضها تعلوه كُدْرة : والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار

أشبه شيء بالإبل السود ، لما يشوبُها من صُفْرة .

وفي شعر عِمْران بن حِطَّان الخارجيّ :

دَعَتْهُمْ بِأعلى صَوْتِها وَرَمَتْهُمُ . . .

بِمثْلِ الجِمالِ الصُّفْرِ نزّاعةُ الشَّوَى

وضعَّف الترمِذِيّ هذا القول فقال : وهذا القول محال في اللغة ، أن يكون شيء يشوبه شيء قليل ، فنسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قد قال هذا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ فلا نعلم شيئاً من هذا في اللغة .

(159/796)

ووجهه عندنا أن النار خُلِقت من النور فهي نار مضيئة ، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار ، حشا ذلك الموضع بتلك النار ، وبعث إليها سلطانه وغضبه ، فاسودت من سلطانه وازدادت حِدّة ، وصارت أشدّ سواداً من النار ومن كل شيء سواداً ، فإذا كان يوم القيامة وجيء بجهنم في الموقف رمت بشررها على أهل الموقف ، غضباً لغضب الله ، والشرر هو أسود ، لأنه من نار سوداء ، فإذا رمت النار بشررها فإنها ترمي الأعداء به ، فهنّ سود من سواد النار ، لا يصل ذلك إلى الموحدين ؛ لأنهم في سرادق الرحمة أحاط بهم

في الموقف ، وهو الغمام الذي يأتي فيه الربّ تبارك وتعالى ، ولكن يعاينون ذلك الرمي ، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء ؛ ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه .

وكان ابن عباس يقول : الجِمالات الصُّفر : حِبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال .

ذكره البخاري .

وكان يقرؤها "جُمَالاَتٌ" بضم الجيم ، وكذلك قرأ مجاهد وحُميد "جُمَالاَت" بضم الجيم ، وهي الحبال الغلاظ ، وهي قُلُوس السفينة أي حبالها .

وواحد القُلُوس : قَلْس .

وعن ابن عباس أيضاً على أنها قطع النحاس .

والمعروف في الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم في "الأعراف" .

"وجُمَالاَت" بضم الجيم : جمع جِمالة بكسر الجيم مُوَحّدًا ، كأنه جمع جَمَل ، نحو حَجَر وحجارة ، وذَكَر وذِكَارة .

وقرأ يعقوب وابن أبي إسحاق وعيسى والجَحْدَريّ "جُمَالة" بضم الجيم موحداً وهي الشيء العظيم المجموع بعضه إلى بعض .

وقرأ حفص وحمزة والكسائي "جِمَالة" وبقية السبعة "جِمَالاَت" قال الفراء : يجوز أن

تكون الجِمالات جمع جِمال كما يقال : رجل ورِجال ورِجالات .

وقيل : شبهها بالجمالات لسرعة سيرها .

وقيل : لمتابعة بعضها بعضاً .

والقَصْر : واحد القصور .

وقَصْر الظلام : اختلاطه .

ويقال : أتيته قصراً أي عَشِيًّا ، فهو مشترك ؛ قال :

(160/796)

كَأَنَّهُمُ قَصْراً مَصابِيحُ راهِبٍ . . .

بِمَوْزَنَ رَوَّى بالسَّلِيطِ ذُبالَها

مسألة في هذه الآية دليل على جواز ادخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت ، فإنه من مصالح المرء ومغانِي مفاقِرِه .

وذلك مما يقتضي النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته ؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن ، كما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يدّخر القوت وفي وقت عموم وجوده من كسبه وماله ، وكل شيء محمول عليه .

وقد بين ابن عباس هذا بقوله : كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندّخره للشتاء وكنا نسميه القَصَر .

وهذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(161/796)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾

من نطفة قذرة مهينة وليس فيه دليل على نجاسة المني .

﴿ فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ هو الرحم .

﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي مقدار معلوم عند الله تعالى من الوقت قدره سبحانه للولادة تسعة أشهر أو أقل منها أو أكثر .

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي فقدرنا ذلك تقديراً ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ أي فنعم المقدرون له نحن وجوز أن يكون المعنى فقدرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن والأول أولى لقراءة علي كرم الله تعالى وجهه ونافع والكسائي فقدرنا بالتشديد ولقوله تعالى ﴿ من نطفة خلقه

فقدره ﴾ [عبس : 19] ولقوله سبحانه ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ [المرسلات : 22]

فزاده تفخيماً بأن جعلت الغاية مقصودة بنفسها فقيل فقدرنا ذلك تقديراً أي تقديراً دالاً

على كمال القدرة وكمال الرحمة على أن حديث القدرة قد تم في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ

نَخْلُقكُّم ﴾ [المرسلات : 20] وقول الطيبي في ترجيح الثاني إثبات القدرة أولى لأن

الكلام مع المنكرين لا وجه له إذ لا أحد ينكر هذه القدرة ولو سلم فقد قرروا بها بقوله تعالى

ألم نخلقكم فتأمل .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي بقدرتنا على ذلك أو الإعادة .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ الكفات اسم جنس أو اسم آلة لما يكفت أي يضم ويجمع من

كفت الشيء إذا ضمه وجمعه كالضمام والجماع لما يضم ويجمع وأنشدوا قول الصمصامة

بن الطرماح

: فأنت اليوم فوق الأرض حي . . .

وأنت غداً تضمك في كفات

وعن أبي عبيدة تفسيره بالوعاء وقوله تعالى :

﴿ أَحْيَاء وأمواتا ﴾ مفعول لفعل محذوف لنكفاتاً لأن اسم الجنس وكذا اسم الآلة كما صرح به النحاة لا يعمل أي ألم نجعلها كفاتاً تكفت وتجمع أحياء كثيرة على ظهرها وأمواتاً غير محصورة في بطنها وقيل هو مصدر كالقتال نعت به للمبالغة فلا يحتاج إلى تقدير فعل وقيل جمع كافت كصيام وصائم فلا يحتاج إلى تقدير أيضاً أو جمع كفت بكسر الكاف وسكون الفاء وهو الوعاء كقدح وقداح وأجرى على الأرض مع جمعه وأفرادها باعتبار أقطارها وجوز انتصاب الجمعين على الحالية من مفعول ﴿ كفاتاً ﴾ المحذوف والتقدير كفاتاً إياهم أو إياكم أو كفاتاً الإنس أحياءً وأمواتاً أو من مفعول حذف مع فعله أي كفاتاً تكفتهم أو تكفتكم أو تكفت الإنس أحياءً وأمواتاً وأن يكون انتصابهما على المفعولية لنجعل بتقدير مضاف أي ذات أحياء وأموات أو على أن المراد بأمواتاً الأرض الموات على ما أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد وبإحياء ما يقابلها وانتصاب كفاتاً على الحالية من الأرض وأنت تعلم أن انتصابهما على المفعولية أظهر وبعده انتصابهما على الحالية من محذوف وتنوينهما على ما سمعت أولاً للتكثير وجوز أن يكون للتبعيض بإرادة إحياء الإنس وأمواتهم وهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات ولا ينافي ذلك التفخيم نظراً إلى أنه بعض غير محصور كثير في نفسه فلا تغفل واستدل الكيا بالآية على وجوب مواراة الميت ودفنه وقال ابن عبد البر احتج ابن القاسم بها على قطع النباش لأنه تعالى جعل القبر للميت كالبيت للحي فيكون حرزاً ولا يخفى ضعف الاستدلالين .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ شامخات ﴾ مرتفعات ومنه شمخ بأنفه ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث في غير العقلاء مطرد ﴿ كأشهر معلومات ﴾ [البقرة : 197] وتنكيرها للتفخيم أو للإشعار بأن في الأرض جبالاً لم تعرف ولم يوقف عليها فارض الله تعالى واسعة وفيها ما لم يعلمه إلا الله عز وجل وقيل للإشعار بأن في الجبال ما لم يعرف وهو الجبال السماوية وهو مما يوافق أهل الفلسفة الجديدة إذ قالوا بوجود جبال كثيرة في القمر وظنوا وجودها في غيره وتعقب بأنه تفسير بما لم يعرف ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ أي عذباً وذلك بأن خلقناه في أصولها وأجريناه لكم منها في أنهار وأنبعناه في منابع تستمد مما استودعناه فيها وقد يفسر بما هو أعم من ذلك والماء المنزل من السماء .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة .

﴿ انطلقوا ﴾ أيقال لهم يومئذ للتوبيخ والتقريع انطلقوا ﴿ إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا من العذاب .

﴿ انطلقوا ﴾ أي خصوصاً فليس تكراراً للأول وقيل هو تكرار له وإن قيد بقوله تعالى : ﴿ إلى ظِلّ ﴾ هو ظل دخان جهنم كما قاله جمهور المفسرين فهو كقوله تعالى ﴿ وظل من يحموم ﴾ [الواقعة : 43] وفيه استعارة تهكمية وقرأ رويس عن يعقوب انطلقوا بصيغة الماضي وهو استئناف بياني كأنه قيل فما كان بعد الأمر فقيل انطلقوا إلى ظل ﴿ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ متشعب لعظمه ثلاث شعب كما هو شأن الدخان العظيم تراه يتفرق تفرق الذوائب وفي بعض الآثار يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش وخصوصية الثلاث قيل أما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم أو لأن المؤدى إلى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية الحالة في الدماغ والقوة الغضبية السبعية التي عن يمين القلب والقوة الشهوية البهيمية التي عن يساره ولذلك قيل تقف شعبة فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره وقيل لأن تكذيبهم بالعذاب يتضمن تكذيب الله تعالى وتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم فهناك ثلاثة تكذيبات واعتبر بعضهم التكذيب بالعذاب أصلاً والشعب الثلاث التكذيبان المذكوران وتكذيب العقل الصريح فتأمل وعن ابن عباس يقال ذلك لعبدة الصليب فالمؤمنون في ظل الله عز وجل وهم في ظل معبودهم وهو الصليب له ثلاث شعب .

﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ أي لا مظلل وهو صفة ثانية لظل ونفى كونه مظللاً عنه والظل لا يكون إلا

مظللاً للدلالة على أن جعله ظلاً تهكم بهم ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم فنفى هذا الاحتمال بذلك وفيه تعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ وغير مفيد في وقت من الأوقات من حر اللهب شيئاً وعد يغني بمن لتضمنه معنى يبعد واشتهر أن هذه الآية تشير إلى قاعدة هندسية وهي أن الشكل المثلث لا ظل له فانظر هل تتعقل ذلك .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32)

(165/796)

﴿ إِنَّهَا ﴾ أي النار الدال عليها الكلام وقيل الضمير للشعب ﴿ تَرْمِى بِشَرَرٍ ﴾ هو ما تطاير من النار سمي بذلك لاعتقاد الشر فيه وهو اسم جنس جمعي واحده شررة ﴿ كالقصر ﴾ كالدار الكبيرة المشيدة والمراد كل شررة كذلك في العظم ويدل على إرادة ذلك ما بعد ويؤيده قراءة ابن عباس وابن مقسم بشرار بكسر الشين وألف بين الراءين فإن الظاهر أنه جمع شررة كرقبة ورقاب فيدل على أن المشبه بالقصر الواحدة وكذا قراءة عيسى بشرار بفتح الشين وألف بين الراءين أيضاً فقد قيل أنه جمع لشرارة لا مفرد وجوز على قراءة الكسر أن يكون جمع شر غير أفعل التفضيل كخيار جمع خير وهو حينئذٍ صفة

أقيمت مقام موصوفها أي ترمي بقوم شرار وهو خلاف الظاهر وقيل القصر الغليظ من الشجر واحده قصرة نحو جمرة وجمر وقيل قطع من الخشب قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشتاء واحده كذلك فالتشبيه من تشبيه الجمع بالجمع من غير احتياج للتأويل بما مر إلا أن التهويل على القول الأخير دونه على غيره وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن جبير والحسن وابن مقسم كالقصر بفتح القاف والصاد وهي أصول النخل وقيل أعناقها واحدها قصرة كشجرة وشجر وفي كتاب النبات الحبة لها قشرتان التحتية تسمى قشرة والفوقية تسمى قصرة ومنه قوله تعالى كالقصر وهو غريب وقرأ ابن مسعود كالقصر بضمتين جمع قصر كرهن ورهن وفي "البحر" كأنه مقصور من القصور كالنجم من النجوم وهو مخالف للظاهر لأن مثله ضرورة أو شاذ نادر وقرأ ابن جبير والحسن أيضاً كالقصر بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصرة بفتحتين كحلقة من الحديد وحلق وحاجة وحوج وبعض القراء كالقصر بفتح القاف وكسر الصاد وهو بمعنى القصر في قراءة الجمهور

كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33)

(166/796)

﴿ كَأَنَّهُ ﴾ أي الشرر ﴿ جِمَالَتٌ ﴾ بكسر الجيم كما قرأ به حمزة والكسائي وحفص وأبو عمرو في رواية الأصمعي وهارون عنه وهو جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع كما في "البحر" يقال جمل وجمال وجمالة أو اسم جمع له كما قيل في حجر وحجارة والتنوين للتكثير ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ فإن الشرار لما فيه من النارية والهوائية يكون أصفر فالصفرة على معناها المعروف وقيل سود والتعبير بصفر لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة شبه الشرر حين ينفصل من النار في عظمه بالقصر وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط لانشقاقه عن أعداد غير محصورة بالجمال لتصور الانشقاق والكثرة والصفرة والحركة المخصوصة وقد روعي الترتيب في التشبيه رعاية لترتيب الوجود وأفيد أن القصور والجمال يشبه بعضها ببعض ومنه قوله :

فوقفت فيها ناقتي وكأنها . . .

فدن لأقضي حاجة المتلوم

فالتشبيه الثاني بيان للتشبيه الأول على معنى أن التشبيه بالقصر كان المتبادر منه إلى الفهم العظم فحسب فلما قيل كأنه جمالة صفر وهو قائم مقام التخصيص في القصر تكثر وجه الشبه كأنه قيل كأنه قصر من شأنه كذا وكذا والتشبيه بالجمال في الكثرة والتتابع وسرعة الحركة أيضاً والأول هو التحقيق على ما في "الكشف" وعلى الوجهين ليس التشبيه الثاني من البداء في شيء ولا حاجة في شيء منهما إلى اعتبار كون ضمير كأنه للقصر وقد ألم

بشيء من حسن ما وقع في الآية من التشبيه وأبو العلاء المعري في قوله في مرثية واحد من الأشراف .

الموقدي نار القرى الآصال . . .

والأسحار بالإهضام والإشعاف

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى . . .

ترمي بكل شرارة كطراف

(167/796)

وإن كان قد قصد بذلك المعارضة للآية يكون قد أعمى الله تعالى بصيرته عما فيها من المزية كما أعمى سبحانه بصره وقرأ الجمهور ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه جمالات بكسر الجيم وبالألف والتاء جمع جمال أو جمالة بكسر الجيم فيهما فيكون جمع الجمع أو جمع اسم الجمع والمعنى على ما سمعت وقرأ ابن عباس وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء بخلاف عنهم كذلك إلا أنهم ضموا الجيم على أنه جمع جمالة على ما في "الكشاف" وقال في "البحر" هي حبال السفن الواحد منها جملة لكونه جملة من الطاقات ثم جمع على جمل وجمال ثم جمع جمال ثانياً جمع صحة فقالوا جمالات وقيل هي قلوس

الجسور أي حبالها التي تشد بها وروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير قالا إنها إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام وعن ابن عباس أيضاً هي قطع النحاس الكبار والظاهر أن التشبيه على هذا باعتبار اللون وعلى ما سبق باعتبار الامتداد والالتفاف وقرأ ابن عباس أيضاً والسلمي والأعمش وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ورويس جمالة كقراءة حفص ومن معه إلا أنهم ضموا الجيم وهي عند الزمخشري اسم مفرد بمعنى القلس وجمع صفر لإرادة الجنس وقرأ الحسن صفر بضم الفاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(168/796)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

قال جمهور المفسرين : هي الرياح .

وقيل : هي الملائكة ، وبه قال مقاتل ، وأبو صالح ، والكلبي .

وقيل : هم الأنبياء ، فعلى الأوّل أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به ، كما في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 23] وقوله : ﴿ يُرْسِلُ الرياح ﴾ [الروم : 48]

وغير ذلك .

وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة بوحيه وأمره ونهيه .

وعلى الثالث أقسم سبحانه برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وانتصاب ﴿ عُرْفاً ﴾ إما على أنه مفعول لأجله ، أي : المرسلات لأجل العرف ، وهو ضدّ النكر ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . . . لا يذهب العرف بين الله والناس

أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس ، تقول العرب : سار الناس إلى فلان عرفاً واحداً : إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ، أو على أنه مصدر كأنه قال : والمرسلات إرسالاً ، أي : متتابعة ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض ، أي : والمرسلات بالعرف .

قرأ الجمهور : ﴿ عرفاً ﴾ بسكون الراء .

وقرأ عيسى بن عمر بضمها .

وقيل : المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة : ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب .

قال القرطبي بغير اختلاف : يقال عصف بالشيء : إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف ، أي : تعصف براكبها ، فتمضي كأنها ريح في السرعة ، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت

بهم .

وقيل : هي الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها ، وقيل : يعصفون بروح الكافر .

وقيل : هي الآيات المهلكة كالزلازل ، ونحوها ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ يعني : الرياح تأتي بالمطر ، وهي تنشر السحاب نشراً ، أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها ، أو ينشرون أجنحتهم في الجوّ عند النزول بالوحي ، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات .

(169/796)

وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم .

وقال الربيع : إنه البعث للقيامة بنشر الأرواح ، وجاء بالواو هنا لأنه استئناف قسم آخر : ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ يعني : الملائكة تأتي بما يفرّق بين الحق والباطل .

والحلال والحرام .

وقال مجاهد : هي الريح تفرق بين السحاب فتبدّده .

وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل ، وقيل : هي الرسل فرقوا ما بين ما أمر الله به ونهى عنه ، وبه قال الحسن : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ هي الملائكة .

قال القرطبي بإجماع ، أي : تلقي الوحي إلى الأنبياء .

وقيل : هو جبريل ، وسمي باسم الجمع تعظيماً له .

وقيل : هي الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب .

قرأ الجمهور : ﴿ فالملقيات ﴾ بسكون اللام ، وتخفيف القاف اسم فاعل ، وقرأ ابن عباس بفتح اللام ، وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال الكلام إلى المخاطب ، والراجح أن الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة ، وهو الذي اختاره الزجاج ، والقاضي ، وغيرهما .

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ انتصابهما على البدل من ﴿ ذكراً ﴾ ، أو على المفعولية ، والعامل فيهما المصدر المنوّن ، كما في قوله :

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14 ، 15] أو على المفعول لأجله ، أي : للإعذار والإنذار ، أو على الحال بالتأويل المعروف ، أي : معذرين أو منذرين .

قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما .

وقرأ زيد بن ثابت ، وابنه خارجة بن زيد ، وطلحة بضمهما .

وقرأ الحرميان ، وابن عامر ، وأبو بكر بسكونها في عذراً وضمها في نذراً .

وقرأ الجمهور : ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ على العطف ب " أو " .

وقرأ إبراهيم التيمي ، وقتادة على العطف بالواو بدون ألف ، والمعنى : أن الملائكة تلقي

الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه ، وإنذاراً من عذابه ، كذا قال الفرّاء .

وقيل : عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين .

(170/796)

قال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر وناذر كقوله : ﴿ هذا نَذِيرٌ مّنَ النذر الأولى ﴾ [النجم : 56] فيكون نصباً على الحال من الإلقاء ، أي : يلقون الذكر في حال العذر والإنذار ، أو مفعولان لذكراً ، أي : تذكر عذراً أو نذراً .

قال المبرد : هما بالتثقيل جمع ، والواحد عذير ونذير .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لواقع ﴾ أي : إن الذي توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة .

ثم بيّن سبحانه متى يقع ذلك ، فقال : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ أي : محي نورها ، وذهب ضوؤها ، يقال طمس الشيء : إذا درس وذهب أثره ﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ أي : فتحت وشقت ، ومثله قوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السماء فَكَانَتْ أبوابا ﴾ [النبأ : 19] ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ أي : قلعت من مكانها بسرعة ، يقال : نسفت الشيء وأنسفته : إذا أخذته بسرعة .

وقال الكلبي : سوّيت بالأرض ، والعرب تقول : نسفت الناقة الكلأ : إذا رعته .

وقيل : جعلت كالحبّ الذي ينسف بالمنسف ، ومنه قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 5] والأوّل أولى .

قال المبرد : نسفت قلعت من مواضعها .

﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ الهمزة في ﴿ أقتت ﴾ بدل من الواو المضمومة ، وكل واو انضمت ، وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة ، وقد قرأ بالواو أبو عمرو ، وشيبة ، والأعرج ، وقرأ الباقون بالهمزة ، والوقت : الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه ، والمعنى : جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ، كما في قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ [المائدة : 109] وقيل : هذا في الدنيا ، أي : جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها ، والأوّل أولى .

قال أبو عليّ الفارسي ، أي : جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً .

(171/796)

وقيل ﴿ أقتت ﴾ : أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ هذا الاستفهام للتعظيم والتعجيب ، أي : لأيّ يوم عظيم يعجب العباد منه لشدّته ومزيد

أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب ل " إذا " ، أو في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ أقتت ﴾ .

قال الزجاج : المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم .

ثم بيّن هذا اليوم فقال : ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ قال قتادة : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم عظم ذلك اليوم فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ أي : وما أعلمك بيوم الفصل ، يعني : أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره ، و " ما " مبتدأ وأدراك خبره ، أو العكس كما اختاره سيبويه .

ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : ويل لهم في ذلك اليوم الهائل ، وويل أصل مصدر سادّ مسد فعله ، وعدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات ، والويل الهلاك ، أو هو اسم واد في جهنم ، وكرّر هذه الآية في هذه السورة ؛ لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر ، وربّ شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب .

ثم ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

قال مقاتل : يعني : بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم .

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الأخرين ﴾ يعني : كفار مكة ، ومن وافقهم حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم قرأ الجمهور : ﴿ نتبعهم ﴾ بالرفع على الاستئناف ، أي : ثم نحن نتبعهم .

قال أبو البقاء : ليس بمعطوف ؛ لأن العطف يوجب أن يكون المعنى : أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين في الإهلاك .

(172/796)

وليس كذلك ؛ لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد .

ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود : (ثم سنتبعهم الآخرين) وقرأ الأعرج ، والعباس عن أبي عمرو ونتبعهم بالجزم عطفاً على ﴿ نهلك ﴾ .

قال شهاب الدين : على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي : مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف ، أي : مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله .

قيل : الويل الأوّل لعذاب الآخرة ، وهذا لعذاب الدنيا .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ أي : ضعيف حقير ، وهو النطفة ﴿ فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أي : مكان حريز ، وهو الرحم : ﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي : إلى مقدار معلوم وهو مدّة الحمل .

وقيل : إلى أن يصوّر ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ فقدرنا ﴾ بالتخفيف .

وقرأ نافع ، والكسائي بالتشديد من التقدير .

قال الكسائي ، والفرّاء : وهما لغتان بمعنى تقول : قدّرت كذا وقدرته ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ أي : نعم المقدّرون نحن .

قيل المعنى : قدّرناه قصيراً أو طويلاً .

وقيل : معنى ﴿ قدّرنا ﴾ ملكنا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لّلْمُكَذّبِينَ ﴾ بقدرتنا على ذلك .

ثم بيّن لهم بديع صنعه ، وعظيم قدرته ليعتبروا فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ معنى الكفت في اللغة : الضم والجمع ، يقال كفت الشيء : إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال : للجراب والقدر كفت ، والمعنى : ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها ، والأموات في باطنها تضمهم وتجمعهم .

قال الفرّاء : يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم وتكفتهم أمواتاً في بطنها ، أي : تحوزهم وهو معنى قوله : ﴿ أَحْيَاء وأمواتا ﴾ وأنشد سيبويه :

كرام حين تنكفت الأفاعي . . . إلى أجحارهنّ من الصقيع

قال أبو عبيدة : كفاتاً أوعية ، ومنه قول الشاعر :

فأنت اليوم فوق الأرض حي . . . وأنت غداً تضمن في كفات

أي : في قبر ، وقيل : معنى جعلها كفاتاً : أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات .

وقال الأخفش ، وأبو عبيدة : الأحياء والأموات وصفان للأرض ، أي : الأرض منقسمة إلى حيّ وهو الذي ينبت ، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت .

قال الفرّاء : انتصاب أحياء ، وأمواتاً بوقوع الكفات عليه ، أي : ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نوّن نصب ما بعده .

وقيل : نصباً على الحال من الأرض ، أي : منها كذا ومنها كذا .

وقيل : هو مصدر نعت به للمبالغة .

وقال الأخفش : كفاتاً جمع كافتة ، والأرض يراد بها الجمع ، فنعتت بالجمع .

وقال الخليل : التكفت تقليب الشيء ظهراً لبطن ، أو بطناً لظهر ، ويقال انكفت القوم إلى منازلهم ، أي : ذهبوا .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شامخات ﴾ أي : جبالاً طوالاً ، والرواسي الثوابت ، والشامخات الطوال ، وكل عال فهو شامخ ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ أي : عذباً ،

والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به .

قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التي هي من جملتها .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن أبي هريرة : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

قال : هي الملائكة أرسلت بالعرف .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ قال : الريح ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ قال : الريح .

وأخرج ابن راهويه ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب أنه جاء رجل إلى عليّ بن أبي طالب ، فقال : ما العاصفات عصفاً ؟ قال الرياح .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ قال : الملائكة ، فرقت بين الحق والباطل ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ قال : بالتنزيل .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن ابن مسعود قال : ويل واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فجعل للمكذبين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ قال : ضعيف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه ﴿ كِفَاتاً ﴾ قال : كنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ رَوَاسِيَ شامخات ﴾ قال : جبالاً مشرفات ، وفي قوله : ﴿ فُرَاتاً ﴾ قال : عذباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 355.358 ﴾

(175/796)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) ﴾

تقرير أيضاً يجري فيه ما تقدم في قوله : ﴿ ألم نهلك الأولين ، جيء به على طريقة تعداد الخطاب في مقام التوبيخ والتقريع .

وكل من التقرير والتقريع من مقتضيات ترك العطف لشَبَهه بالتكرير في أنه تكرير معنى وإن لم يكن تكرير لفظ ، والتكرير شبيه بالأعداد المسرودة فكان حقه ترك العطف فيه .

وقد جاء هنا التقرير على ثبوت الإِيجاد بعد العدم إيجاداً متقناً دالاً على كمال الحكمة والقدرة ليفضَى بذلك التقرير إلى التوبيخ على إنكار البعث والإِعادة وإلى إثبات البعث بإمكانه بإعادة الخلق كما بُدىء أول مرة وكفى بذلك مرجحاً لوقوع هذا الممكن لأن القدرة تجري على وفق الإِرادة بترجيح جانب إيجاد الممكن على عدمه .

والماء : هو ماء الرجُل .

والمَهين : الضعيف فعيل من مَهُنَ ، إذا ضعُف ، وميمه أصلية وليس هو من مادة هَان .

وهذا الوصف كناية رمزية عن عظيم قدرة الله تعالى إذ خلق من هذا الماء الضعيف إنساناً شديد القوة عقلاً وجسماً .

وحرف مِن ﴾ للابتداء لأن تكوين الإِنسان نشأ من ذلك الماء ، كما تقول : هذه النخلة مِن نواة تَوْزَرِيَّة .

وجعل خلق الإِنسان من ماء الرجل لأنه لا يتم تخلقه إلاّ بذلك الماء إذا لاقى بويضات الدم في الرحم ، فاقتصرت الآية على ما هو مشهور بين الناس لأنهم لا يعلمون أكثر من ذلك ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم تكوينَ الجنين من ماء المرأة وماء الرجل .

وقوله : ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ تفصيل لكيفية الخلق على سبيل الإِدماج مع مناسبته لأن له دخلاً في تبيين إمكان الإِعادة إذ شديد القدرة لا يعجزه شيء ، ولذلك ذيله بقوله ﴿ فنعم القادرون ﴾ على التفسيرين الآتيين .

والقرار : محل القرور والمكث .

و﴿ مَكين ﴾ : صفة ل ﴿ قرار ﴾ ، أي مكان متمكن في ذلك فهو فعيل من مكُن مَكانة ، إذا ثبت ورسخ .

(176/796)

ووُصف القرارُ بالمكين على طريقة المجاز العقلي ، أي مكين الحالُّ والمستقرّ فيه .

فالتقدير : مكين فيه .

والمراد بالقرار المكين : الرحم .

والقدَر : بفتح الدال المقدار المعيّن المضبوط ، والمراد مقدار من الزمان وهو مدة الحمل .

وقرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ﴿ فقدَّرنا ﴾ بتشديد الدال .

وقرأه الباقون بتخفيف الدال من قَدر المتعدي وهما بمعنى واحد ، يقال : قَدَّر بالتشديد تقديراً فهو مُقدِّر ، وقدَر بالتخفيف قَدْراً فهو قادر ، إذا جعل الشيء على مقدار مناسب لما جُعل له .

والمعنى : فقدرنا الخلق كقوله تعالى : ﴿ من نطفة خلقه فقدَّره ﴾ [عبس : 19] وقوله : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [الفرقان : 2] .

والفاء في قوله : ﴿ فقدّرنا ﴾ للتفريع على قوله : ﴿ فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ ، أي جعلناه في الرحم إلى انتهاء أمد الحمل فقدرنا أطوار خلقكم حتى أخرجناكم أطفالاً .

والفاء في ﴿ فنعم القادرون ﴾ للتفريع على (قدّرنا) أي تفريع إنشاء ثناء ، أي فدل تقديرُنا على أننا نعم القادرون ، أي كان تقديرنا تقدير أفضل قادر ، وهذا تنويه بذلك الخلق العجيب بالقدرة .

و ﴿ القادرون ﴾ : اسم فاعل من قدَر اللازم إذا كان ذا قُدرة وبذلك يكون الكلام تأسيساً لا تأكيداً ، أي فنعم القادرون على الأشياء .

وعلامة الجمع للتعظيم مثل نون (قَدّرنا) فإن القدرة لما أتت بما هو مقتضى الحكمة كانت قدرة جديرة بالمدح .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

هو نحو ما تقدم في نظيره الموالي هو له .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25)

جاء هذا التقرير على سنن سابقيه في عدم العطف لأنه على طريقة التكرير للتوبيخ ، وهو تقرير لهم بما أنعم الله به عليهم من خلق الأرض لهم بما فيها مما فيه منافعهم كما قال تعالى : ﴿ مَتاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [النازعات : 33] .

ومحلّ الامتنان هو قوله : ﴿ أحياءً ﴾ وأمَّا قوله : ﴿ وأمواتاً ﴾ فتتميم وإدماج .

(177/796)

وكِفَات : اسم للشيء الذي يُكْفَت فيه ، أي يُجمع ويُضَمّ فيه ، فهو اسم جاء على صيغة الفِعال من كَفَت ، إذا جَمَع ، ومنه سُمي الوعاء : كفاتاً ، كما سمي ما يعي الشيء وِعَاء ، وما يَضُم الشيء : الضِمام .

و﴿ أحياء ﴾ مفعول ﴿ كِفاتاً ﴾ لأن ﴿ كفاتاً ﴾ فيه معنى الفِعل كأنه قيل كافتةً أحياءً .

وقد يقولون منصوب بفعل مقدر دلّ عليه ﴿ كِفاتاً ﴾ وكل ذلك متقارب .

و ﴿ أمواتاً ﴾ عطف عليه وهو إدماج وتتميم لأن فيه مشاهدة الملازمة بين الأحياء والأموات تدلّ على أن الحياة هي المقصود من الخلقة .

وهذا تقرير لهم بالاعتراف بالأحوال المشاهدة في الأرض الدالة على تفرد الله تعالى بالإلهية .

وتنوين ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ للتعظيم مراداً به التكثيرُ ولذلك لم يؤت بهما معرَّفين باللام ، وفائدة ذكر هذين الجَمْعين ما في معنييهما من التذكير بالحياة والموت .

وقد تصدى الكلام لإِثبات البعث بشواهد ثلاثة:

أحدها : بحال الأمم البائدة في انقراضها .

الثاني : بحال تكوين الإِنسان .

الثالث : مصير الكل إلى الأرض وفي كل ذلك إبطال لإِحالتهم وقوع البعث لأنهم زعموا استحالته فأبطلت دعواهم بإثبات إمكان البعث فإنه إذ ثبت الإِمكان بطلت الاستحالة فلم يبق إلاّ النظر في أدلة ترجيح وقوع ذلك الممكن .

وفي الآية امتنان بجعل الأرض صالحة لدفن الأموات ، وقد ألهم الله لذلك ابنَ آدم حين قتَل أخاه كما تقدم ذكره في سورة المائدة ، فيؤخذ من الآية وجوب الدفن في الأرض إلاّ إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإِرساء ، أو كان

الإِرساء يضر بالراكبين أو يُخاف تعفن الجثة فإنها يُرمى بها في البحر وتثقَّل بشيء لترسُب إلى غريق الماء .

(178/796)

وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مَجُوس الهند ، وكان يفعله بعض الرومان ، ولا وضعُه لكواسر الطير كما كان يفعل مَجُوس الفرس ، وكان أهل الجاهلية يتمدحون بالميت الذي تأكله السباع أو الضباع وهو الذي يموت قتيلاً في فلاة ، قال تأبط :

لا تدْفِنُوني إِنَّ دَفني مُحَرَّم . . .

عليكُم ولكنْ خَامري أُمَّ عامر

وهذا من جهالة الجاهلية وكُفران النعمة .

واحتج ابن القاسم من أصحاب مالك بهذه الآية لكون القبر حرزاً فأوجب القطع على من سرق من القبر كفناً أو ما يبلغ ربع دينار ، وقال مالك : القبر حِوَز للميت كما أن البيت حِوَز الحي .

وفي "مفاتيح الغيب" عن تفسير القفال : أن ربيعة استدل بها على ذلك .

والرواسي : جمع راس ، أي جبالاً رواسي ، أي ثوابت فى الأرض قال السموأل:

رسا أصله تحت الثرى وسَمَا به . . .

إلى النجم فرع لا يُنَال طويل

وجمع على فواعل لوقوعه صفة لمذكر غير عاقِل وهذا امتنان بخلق الجبال لأنهم كانوا يأوُون إليها وينتفعون بما فيها من كَلأ وشجر قال تعالى : ﴿ والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [النازعات : 32 ، 33] .

والشامخات : المرتفعات .

وعُطف ﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ لمناسبة ذكر الجبال لأنها تنحدر منها المياه تجري في أسافلها وهي الأدوية وتقر في قرارات وحياض وبُحيرات .

والفُرات : العذب وهو ماء المطر .

وتنوين ﴿ شامخات ﴾ و ﴿ ماءً فراتاً ﴾ للتعظيم لدلالة ذلك على عظيم القدرة .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)

تكرير للتوبيخ والتقريع مثل نظيره الواقع ثانياً في هذه السورة .

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

هذا خطاب للمكذبين في يوم الحشر فهو مقول قول محذوف دل عليه صيغة الخطاب بالانطلاق دون وجود مخاطب يؤمر به الآن .

والضمير المقدَّر مع القول المحذوف عائد إلى المكذبين ، أي يقال للمكذبين .

والأمر بانطلاقهم مستعمل في التسخير لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسراً .

(179/796)

وما كانوا به يكذبون هو جهنم .

وعبر عنه بالموصول وصلته لما تتضمنه الصلة من النداء على خطئهم وضلالهم على طريقة قول عَبْدَة بن الطَّبيب:

إِنَّ الذين ترَوْنَهم إِخْوَانَكم . . .

يشْفِي غَلِيلَ صُدورهم أنْ تُصْرَعُوا

وجملة ﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ إلى آخرها ، بدل اشتمال أو مطابقٌ من جملة ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ .

وأعيد فعل ﴿ انطلقوا ﴾ على طريقة التكرير لقصد التوبيخ أو الإِهانة والدَّفْع ، ولأجله أُعيد فعل ﴿ انطلقوا ﴾ وحرفُ ﴿ إلى ﴾ .

ومقتضى الظاهر أن يقال : انطلقوا إلى ما كنتُم به تكذبون ظِللٍ ذي ثلاث شعب ، فإعادة العامل في البدل للتأكيد في مقام التقريع .

وأريد بالظل دخان جهنم لكثافته ، فعبر عنه بالظل تهكماً بهم لأنهم يتشوقون ظلاً يأوون إلى برده .

وأفرد ﴿ ظل ﴾ هنا لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته لأن ذلك التراص يزيدهم ألماً .

وقرأ الجمهور ﴿ انطلقوا ﴾ الثاني بكسر اللام مثل ﴿ انطلقوا ﴾ الأول ، وقرأه رُوَيس عن يعقوب بفتح اللام على صيغة الفعل الماضي على معنى أنهم أُمروا بالانطلاق إلى النار فانطلقوا إلى دخانها ، وإنما لم يعطف بالفاء لقصد الاستئناف ليكون خبراً آخرَ عن حالهم .

والشُّعَب : اسم جمع شُعبة وهي الفريق من الشيء والطائفة منه ، أي ذي ثلاث طوائف وَأريد بها طوائف من الدخان فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها .

فوُصف الدخان بأنه ذو ثلاث شعب لأنه يكون كذلك يوم القيامة .

وقد قيل في سبب ذلك : إن شعبة منه عن اليمين وشعبة عن اليسار وشعبة من فوق ، قال الفخر : "وأقول هذا غير مستبعد لأن الغضب عن يمينه والشهوة عن شماله والقوة الشيطانية في دماغه ، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإِنسان في عقائده وفي أعماله ليس إلاّ هذه الثلاثة ، ويمكن أن يقال ها هنا ثلاث درجات وهي : الحِس ، والخيال ، والوهَم .

وهي مانعة للروح من الاستنارة بأنوار عالم القدس" أ هـ .

والظليل : القوي في ظِلاله ، اشتق له وصف من اسمه لإفادة كماله فيما يراد منه مثل : لَيْلٌ أَلْيَلُ ، وشِعْرٌ شَاعِرٌ ، أي ليس هو مثل ظل المؤمنين قال تعالى : ﴿ ونُدخلهم ظِلاًّ ظليلاً ﴾ [النساء : 57] .

وفي هذا تحسير لهم وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ وظِلٍّ من يَحموم لا بَارِدٍ ولا كريم ﴾ [الواقعة : 43 ، 44] .

وجُرّ ﴿ ظليل ﴾ على النعت ل ﴿ ظل ﴾ ، وأقحمت ﴿ لا ﴾ فصارت من جملة الوصف ولا يظهر فيها إعراب كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إنها بقرةٌ لا فَارض ولا بِكْر ﴾ [البقرة : 68] وشأن ﴿ لا ﴾ إذا أدخلت في الوصف أن تكرر فلذلك أعيدت في قوله : ﴿ ولا يغني من اللهب ﴾ .

والإِغناء : جعل الغير غنياً ، أي غير محتاج في ذلك الغرض ، وتعديته بـ (مِن) على معنى البدلية أو لتضمينه معنى : يُبعد ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وما أُغني عنكم من الله مِنْ شيء ﴾ [يوسف : 67] .

وبذلك سلب عن هذا الظل خَصائص الظلال لأن شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه أَلَم الحر .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33)

يجوز أن يكون هذا من تمام ما يقال للمكذبين الذين قيل لهم : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ [المرسلات : 29] ، فإنهم بعد أن حصل لهم اليأس مما ينفِّس عنهم ما يَلقون من العذاب ، وقيل لهم : انطلقوا إلى دخان جهنم ربما شاهدوا ساعتئذٍ جهنم تقذف بشررها فيروعهم المنظر ، أو يشاهدونها عن بعد لا تتضح منه الأشياء وتظهر عليهم مخائل توقعهم أنهم بالغون إليه فيزدادون روعاً وتهويلاً ، فيقال لهم : إن جهنم ﴿ ترمي بشرر كالقصر كأنه جِمَالات صفر ﴾ .

ويجوز أن يكون اعتراضاً في أثناء حكاية حالهم ، أو في ختام حكاية حالهم .

(181/796)

فضمير ﴿ إنها ﴾ عائد إلى جهنم التي دل عليها قوله : ﴿ ما كنتم به تكذبون كما يقال للذي يساق إلى القتل وقد رأى رجلاً بيده سيف فاضطَرب لرؤيته فيقال له : إنه الجَلاّد .

وإجراء تلك الأوصاف في الإِخبار عنها لزيادة الترويع والتهويل ، فإن كانوا يرون ذلك الشرر

لقربهم منه فوصفه لهم لتأكيد الترويع والتهويل بتظاهر السمع مع الرؤية .

وإن كانوا على بعد منه فالوصف للكشف عن حاله الفظيعة .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للاهتمام به لأنهم حِينئذٍ لا يشكون في ذلك سواء رأوه أو أخبروا به .

والشرر : اسم جمع شَرَرَة : وهي القطعة المشتعلة من دقيق الحطب يدفعها لهب النار في الهواء من شدة التهاب النار .

والقَصر : البناء العالي .

والتعريف فيه للجنس ، أي كالقصور لأنه شبه به جمع ، وهذا التعريف مثل تعريف الكتاب في قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ [الحديد : 25] ، أي الكُتب .

وعن ابن عباس : الكِتاب أكثرُ من الكُتُب ، أي كل شررة كقصر ، وهذا تشبيه في عظم حجمه .

وقوله : ﴿ كأنه جِمالات صفر ﴾ تشبيه له في حجمه ولونه وحركته في تطايره بجمالات صفر .

وضمير ﴿ كأنه ﴾ عائد إلى شرر .

والجِمالات : بكسر الجيم جمع جِمالة ، وهي اسم جمع طائفة من الجمال ، أي تُشبه طوائف من الجمال متوزعة فرقاً ، وهذا تشبيه مركب لأنه تشبيه في هيئة الحجم مع لونه مع حركته .

والصُفرة : لون الشرر إذا ابتعد عن لهيب ناره .

وقرأ الجمهور ﴿ جِمالات ﴾ بكسر الجيم وألف بعد اللام فهو جمع جمالة .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلفٌ ﴿ جِمالة ﴾ بكسر الجيم بدون ألف بعد اللام وهو جمع جَمَل مثل حَجَر وحِجَارة .

وقرأه رُويس عن يعقوب ﴿ جُمالات ﴾ بضم الجيم وألف بعد اللام جمع جُمالة بالضم وهي حبل تشدّ به السفينة ، ويُسمى القَلْس (بقاف مفتوحة ولام ساكنة) والتقدير : كأنّ الواحدة منها جُمالة ، و ﴿ صفر ﴾ على هذه القراءة نعت ل ﴿ جمالات ﴾ أول (شرر) .

(182/796)

قال صاحب "الكشاف" : وقال أبو العلاء (يعني المعري) في صفة نار قوم مدحهم بالكرم:

حَمْرَاءَ ساطعةَ الذوائب في الدُّجَى . . .

ترمي بكُل شَرارة كطِرَاف

شبه الشرارة بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة وكأنّه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبَجحه بما سُوّل له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله : "حَمْراء" توطئةً لها ومناداة عليها وتنبيهاً للسامعين على مكانها ، ولقد عَمِي جمع الله له عَمَى

الدارين عن قوله عز وعلا : ﴿ كأنَّه جمالات صفر ﴾ فإنه بمنزلة قوله كبيتٍ أحمر وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء فأبْعَدَ الله إغرابه في طِرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه أ هـ .

وأقول : هذا الكلام ظن سوء بالمعري لم يُشمَّ من كلامه ، ولا نسبه إليه أحد من أهل نبزه وملامه ، زاد به الزمخشري في طنبور أصحاب النقمة ، لنبز المعري ولمزه نغمة .

قال الفخر : كانَ الأولى لصاحب "الكشاف" أن لا يذكر ذلك (أي لأنه ظن سوءاً بلا دِليل) .

وقال الطيبي : وليس كذلك لأنه لا يخفى على مثل المعري : أن الكلام بآخره لأن الله شبّه الشرارة : أولاً حين تنفصل عن النار بالقصر في العظم ، وثانياً حين تأخذ في الارتفاع والانبساط فتنشقّ عن أعداد لا نهاية لها بالجمالات في التفرق واللون والعِظَم والثقل ، ونُظر في ذلك إلى الحيوان وأن تلك الحركات اختيارية وكل ذلك مفقود في بيته .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

تكرير لقصد تهديد المشركين الأحياء والقول فيه كالقول في نظيره الواقع ثانياً في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الجمال)

وهو الحُسْن الكثير .

وهو على ضربين :

جمال مختصّ بالإِنسان فى ذاته أَو شخصه أَو فِعله .

والثانى : ما يصل منه إِلى غيره .

وعلى هذا الوجه يُحمل ما صحّ عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال : "إِنَّ الله جميل يحبّ الجمال" تنبيهاً أَنَّه يُفيض الخيرات الكثيرة فيحبّ من يختصّ بذلك .

جَمُل ككرم فهو جميل وجُمَالٌ وجُمّالٌ على التكثير .

وجامَله : لم يُصْفِه الإِخاءَ وماسحه بالجميل .

وجَمَالَكَ أَلاَّ تفعل كذا أَى لا تفعلْه والزم الأَجمل .

واعْتُبِرَ من هذه المادّة معنى الكثرة ، فقيل لكلِّ جماعة غير منفصِلة : جُمْلة .

ومنه قيل للحساب الَّذى لم يفصَّل ، والكلام الَّذى لم يبيّن تفصيله : مُجمل .

والجميل : الشَّحم يذاب فيجمع ويَجْمُل أَكله .

وقالت أَعرابية لبنتها : تجمّلى وتعفَّفِى ، أَى كلى الجَمِيل واشربى العُفافة أَى اللَّبن الحليب .

وقد ورد فى القرآن هذه المادّة على وجوه : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أَى مجتمعاً كما أُنزل نجوماً متفرّقة ، وبمعنى المحاسنة والمجاملة ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ وبمعنى الصَّبر بلا جزاء ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾ وقال يعقوب عليه السّلام ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ وبمعنى مقاطعة الكفَّار على الوجه الحسن ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ وبمعنى إِطلاق النّساءِ على الوجه الجميل ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ وبمعنى الحُسْن والزّينة ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ وبمعنى البعير البازل ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ وجمعه جِمَالٌ وأَجمال وجِمَالة وجمائل وجامل ، وهذا من نوادر الجموع كالباقر لجماعة البقر وارعيها ، ومنه قوله تعالى ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ وقرئ جُمَالات وهى جمع جُمَالة بالضمّ وقيل هى القُلُوس : قُلُوس السُّفُن .

(184/796)

ومن دعائه صلَّى الله عليه وسلَّم : "اللَّهمّ جمِّلنى بالتَّقوى وزيّنى بالحِلْم وأَكرمنى بالعافية" .

قال الشاعر :

*ليسَ الجَمَالُ بمئْزَرٍ * فاعْلَمْ وإن رُدِّيتَ بُردا*

*إنّ الجَمَالَ معادِنٌ * ومَنَابِتٌ أَورثن مجدا*

وقال آخر :

*أُقبِّل أَرضا سار فيها جِمَالها * فكيف بدار دار فيها جَمَالها*

*على كلِّ حال أُمُّ عمرو جميلة * إذا لبست خَلْقانها أَو جديدها*

وقال آخر :

*جَمَال معيشة المُثرِى * جِمَالٌ تُدْمِن الحركة*

*فإذا أُنيخ ببابه * أُنيخت حوله البركة* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 395.396 ﴾

(185/796)

قوله تعالى ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دلت قراءة " انطلقوا " بالفتح على امتثالهم للأمر من غير أن ينبسوا بكلمة ، صرح به فقال دالاً على ما هم فيه من المقت والغضب : ﴿ هذا ﴾ أي الموقف الذي هو بعض مواقف ذلك اليوم ، سمي يوماً لتمام أحكامه ، فلذا قال مخبراً عن المبتدأ : ﴿ يوم لا ينطقون ﴾ أي ببنت شفة من شدة الحيرة والدهشة في بعض المواقف ، وينطقون في بعضها فإنه يوم طويل ذو ألوان – كما قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، أو لا ينطقون بما ينفعهم لأنهم كانوا في الدنيا لا ينطقون بالتوحيد الذي ينفعهم .

ولما كانوا لا يقدرون على شيء ما إلا بإذن الله ، وكان الموجع لهم عدم الإذن ، بني للمفعول قوله دلالة على عدم ناصر لهم أو فرج يأتيهم : ﴿ ولا يؤذن ﴾ أي من آذن ما ﴿ لهم ﴾ أي في كلام أصلاً ، ولما كان المراد أنه لا يوجد لهم إذن ولا يوجد منهم اعتذار من غير أن ينظر إلى تسببه عن عدم الإذن لئلا يفهم أن لهم عذراً ولكنهم لم يبدوه لعدم الإذن ، قال رافعاً عطفاً على " يؤذن " ﴿ فيعتذرون ﴾ فدل ذلك على نفي الإذن ونفي الاعتذار عقبه مطلقاً ، ولو نصبه لدل على أن السبب في عدم اعتذارهم عدم الإذن فينقض المعنى .

ولما كان هذا أمراً فظيعاً ترجمه بقوله : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ كان هذا الموقف ﴿ للمكذبين ﴾ أي العريقين في التكذيب بالإخبار بطمس النجوم فجعلت عقوبتهم سكوتهم الذي هو ذهاب نور الإنسان ليكون كالطمس كذبوا به .

ولما ذكر حيرتهم ودهشتهم التي هي أمارة قول الحكم ، وكانت مواطن ذلك اليوم تسمى أياماً لتمام الأحكام في كل مواطن منها ، وتميزه بذلك عما عداه ، قال : ﴿ هذا ﴾ أي ذلك اليوم كله ﴿ يوم الفصل ﴾ أي بين ما اختلف فيه العباد من الحق والباطل العالي والسافل ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ جمعناكم ﴾ أي يا مكذبي هذه الأمة بما لنا من العظمة ﴿ والأولين ﴾ أي الذين تقدم أنا أهلكناهم ، وقد كانوا أكثر منكم عدداً وأعظم عدداً لنفصل بين المتنازعين ونصلي العذاب ونجزي بالثواب ، وقد كان منكم من يقول : أنا أكفي عشرة من ملائكة النار ، ثم أشار إلى انقطاع الأسباب فقال مسبباً عن ذلك : ﴿ فإن كان لكم ﴾ أي أيها المكذبون على وجه هو ثابت من ذواتكم ﴿ كيد ﴾ أي مقاواة بنوع حيلة أو شدة ﴿ فكيدون ﴾ تقريع لهم على كيدهم لأوليائنا المؤمنين في الدنيا - بما مكنهم به من الأسباب وتنبيه على أنه من آذى وليه فقد آذنه بالحرب على أنهم عاجزون .

ولما كانوا أقل من أن يجيبوا عن هذا وأحقر من أن يمهلوا للكلام ، قال مترجماً لحالهم بعد هذا الكلام منبهاً على أنهم لو عقلوا بكوا على أنفسهم الآن لأنه لا حيلة إذ ذاك : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ يقال لهم هذا الكلام فيكون زيادة في عذابه ﴿ للمكذبين ﴾ أي الراسخين

في التكذيب بأن السماء تفرج كما كانوا يكذبون بأنه يفصل بينهم بعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 289.290 ﴾

(187/796)

فصل

قال الفخر :

﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) ﴾

نصب الأعمش (يوم) أي هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ، اعلم أن هذا هو النوع السادس : من أنواع تخويف الكفار وتشديد الأمر عليهم ، وذلك لأنه تعالى بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح ، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم ، فيجتمع في حقه في هذا المقام أنواع من العذاب أحدها : عذاب الخجالة ، فإنه يفتضح على رءوس الأشهاد ، ويظهر لكل قصوره وتقصيره وكل من له عقل سليم ، علم أن عذاب الخجالة أشد من القتل بالسيف والاحتراق بالنار وثانيها : وقوف العبد الآبق على باب المولى ووقوعه في يده مع علمه بأنه الصادق الذي يستحيل الكذب عليه ، على ما قال : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ [ق : 29] وثالثها : أنه يرى في ذلك الموقف خصماءه الذين كان

يستخف بهم ويستحقرهم فائزين بالثواب والتعظيم ، ويرى نفسه فائزاً بالخزي والنكال ، وهذه ثلاثة أنواع من العذاب الروحاني ورابعها : العذاب الجسماني وهو مشاهدة النار وأهوالها نعوذ بالله منها فلما اجتمعت في حقه هذه الوجوه من العذاب بل ما هو مما لا يصف كنهه إلا الله ، لا جرم قال تعالى في حقهم : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وفي الآية سؤالان :

(188/796)

الأول : كيف يمكن الجمع بين قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] وقوله : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وقوله : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] ويروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن هذا السؤال والجواب : عنه من وجوه أحدها : قال الحسن : فيه إضمار ، والتقدير : هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، لأنه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح وجواب مستقيم ، فإذا لم ينطقوا بحجة سليمة وكلام مستقيم فكأنهم لم ينطقوا ، لأن من نطق بما لا يفيد فكأنه لم ينطق ، ونظيره ما يقال لمن ذكر كلاماً غير مفيد : ما قلت شيئاً وثانيها : قال الفراء : أراد بقوله : ﴿ يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ تلك الساعة وذلك القدر من الوقت الذي لا ينطقون فيه ، كما يقول : آتيك يوم يقدم فلان ، والمعنى

ساعة يقدم وليس المراد باليوم كله ، لأن القدوم إنما يكون في ساعة يسيرة ، ولا يمتد في كل اليوم وثالثها : أن قوله : ﴿ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ لفظ مطلق ، والمطلق لا يفيد العموم لا في الأنواع ولا في الأوقات ، بدليل أنك تقول : فلان لا ينطق بالشر ولكنه ينطق بالخير ، وتارة تقول : فلان لا ينطق بشيء ألبتة ، وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق قدر مشترك بين أن لا ينطق ببعض الأشياء ، وبين أن لا ينطق بكل الأشياء ، وكذلك تقول : فلان لا ينطق في هذه الساعة ، وتقول : فلان لا ينطق ألبتة ، وهذا يدل على أن مفهوم لا ينطق مشترك بين الدائم والموقت ، وإذا كان كذلك فمفهوم لا ينطق يكفي في صدقه عدم النطق ببعض الأشياء وفي بعض الأوقات ، وذلك لا ينافي حصول النطق بشيء آخر في وقت آخر ، فيكفي في صدق قوله : ﴿ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ أنهم لا ينطقون بعذر وعلة في وقت السؤال ، وهذا الذي ذكرناه إشارة إلى صحة الجوابين الأولين بحسب النظر العقلي ، فإن قيل : لو حلف

(189/796)

لا ينطق في هذا اليوم ، فنطق في جزء من أجزاء اليوم يحنث ؟ قلنا : مبني الأيمان على العرف ، والذي ذكرناه بحث عن مفهوم اللفظ من حيث إنه هو ورابعها : أن هذه الآية وردت عقيب قول خزنة جهنم لهم ﴿ انطلقوا إلى ظِلّ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ فينقادون

ويذهبون ، فكأنه قيل : إنهم كانوا يؤمرون في الدنيا بالطاعات فما كانوا يلتفتون .

أما في هذه الساعة (فقد) صاروا منقادين مطيعين في مثل هذا التكليف الذي هو أشق من كل شيء ، تنبيهاً على أنهم لو تركوا الخصومة في الدنيا لما احتاجوا في هذا الوقت إلى هذا الانقياد الشاق ، والحاصل أن قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ متقيد بهذا الوقت في هذا العمل ، وتقييد المطلق بسبب مقدمة الكلام مشهور في العرف ، بدليل أن المرأة إذا قالت : أخرج هذه الساعة من الدار ، فقال الزوج : لو خرجت فأنت طالق ، فإنه يتقيد هذا المطلق بتلك الخرجة ، فكذا ههنا .

(190/796)

السؤال الثاني : قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ يوهم أن لهم عذراً وقد منعوا من ذكره ، وهذا لا يليق بالحكيم والجواب : أنه ليس لهم في الحقيقة عذر ولكن ربما تخيلوا خيالاً فاسداً أن لهم فيه عذراً ، فهم لا يؤذن لهم في ذلك ذكر العذر الفاسد ، ولعل ذلك العذر الفاسد هو أن يقول : لما كان الكل بقضائك وعلمك ومشيئتك وخلقك فلم تعذبني عليه ، فإن هذا عذر فاسد إذ ليس لأحد أن يمنع المالك عن التصرف في ملكه كيف شاء وأراد ، فإن قيل : أليس أنه قال : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

الرسل ﴾ [النساء : 165] وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه : 134] والمقصود من كل ذلك أن لا يبقى في قلبه ، أن له عذراً ، فهب أن عذره في موقف القيامة فاسد فلم لا يؤذن له في ذكره حتى يذكره ، ثم يبين له فساده ؟ قلنا : لما تقدم الأعذار والإنذار في الدنيا بدليل قوله : ﴿ فالملقيات ذِكْراً ، عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ [المرسلات : 6] كان إعادتها غير مفيدة .

السؤال الثالث : لم لم يقل : ولا يؤذن لهم فيعتذرون ؟ كما قال : ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر : 36] الجواب : الفاء ههنا للنسق فقط ، ولا يفيد كونه جزاء ألبتة ومثله ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ [البقرة : 245] بالرفع والنصب ، وإنما رفع يعتذرون بالعطف لأنه لو نصب لكان ذلك يوهم أنهم ما يعتذرون لأنهم لم يؤذنوا في الاعتذار ، وذلك يوهم أن لهم فيه عذراً منعوا عن ذكره وهو غير جائز .

(191/796)

أما لما رفع كان المعنى أنهم لم يؤذنوا في العذر وهم أيضاً لم يعتذروا لا لأجل عدم الإذن بل لأجل عدم العذر في نفسه ، ثم إن فيه فائدة أخرى وهي حصول الموافقة في رءوس الآيات لأن الآيات بالواو والنون ، ولو قيل : فيعتذروا لم تتوافق الآيات ، ألا ترى أنه قال في سورة

اقتربت الساعة : ﴿ إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ [القمر : 6] فثقل لأن آياتها مثقلة ، وقال في موضع آخر : ﴿ وعذبناها عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الطلاق : 8] وأجمع القراء على تثقيل الأول وتخفيف الثاني ليوافق كل منهما ما قبله .

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38)

اعلم أن هذا هو النوع السابع : من أنواع تهديد الكفار ، وهذا القسم من باب التعذيب بالتقريع والتخجيل ، فأما قوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ فاعلم أن ذلك اليوم يقع فيه نوعان من الحكومة أحدهما : ما بين العبد والرب وفي هذا القسم كل ما يتعلق بالرب فلا حاجة فيه إلى الفصل وهو ما يتعلق بالثواب الذي يستحقه المرء على عمله وكذا في العقاب إنما يحتاج إلى الفصل فيما يتعلق بجانب العبد وهو أن تقرر عليهم أعمالهم التي عملوها حتى يعترفوا .

(192/796)

والقسم الثاني : ما يكون بين العباد بعضهم مع بعض ، فإن هذا يدعى على ذاك أنه ظلمني وذاك يدعى على هذا أنه قتلني فههنا لا بد فيه من الفصل وقوله : ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ كلام موضح لقوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ لأنه لما كان هذا اليوم يوم فصل حكومات جميع المكلفين فلا بد من إحضار جميع المكلفين لا سيما عند من لا يجوز القضاء على الغائب ،

ثم قال : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ يشير به إلى أنهم كانوا يدفعون الحقوق عن أنفسهم بضروب الحيل والكيد فكأنه قال : فههنا إن أمكنكم أن تفعلوا مثل تلك الأفعال المنكرة من الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : 23] ثم إنهم يعلمون أن الحيل منقطعة والتلبيسات غير ممكنة ، فخطاب الله تعالى لهم في هذه الحالة بقوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ نهاية في التخجيل والتقريع ، وهذا من جنس العذاب الروحاني ، فلهذا قال عقيبه : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 245. 247 ﴾

(193/796)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾

ثم وقف تعالى على أصل الخلقة الذي يقتضي النظر فيها تجويز البعث و" الماء المهين " : معناه الضعيف وهو المني من الرجل والمرأة . " والقرار المكين " : الرحم أو بطن المرأة ، و" القدر المعلوم " : وقت الولادة ومعلوم عند الله في شخص ، فأما عند الآدميين فيختلف فليس بمعلوم قدر شخص بعينه ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونافع والكسائي

" فقدّرنا " بشد الدال ، وقرأ الباقون " فقدَرنا " بتخفيف الدال ، وهما بمعنى من القدرة ، والقدر من التقدير والتوقيف وقوله ﴿ القادرون ﴾ يرجع قراءة الجماعة . أما أن ابن مسعود روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر القادرين بالمقدرين . وقدر ابن أبي عبلة " فقدّرنا " بشد الدال " فنعم المقتدرون " و" الكفات " : الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع ، تقول كفت الرجل شعره إذا جمعه بخرقة ، فالأرض تكفت الأحياء على ظهرها ، وتكفت الأموات في بطنها و﴿ أحياء ﴾ على هذا التأويل مُعمول لقوله ﴿ كفاتاً ﴾ لأنه مصدر . وقال بعض المتأولين ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ إنما هو بمعنى أن الأرض فيها أقطار أحياء وأقطار أموات يراد ما ينبت وما لا ينبت ، فنصب ﴿ أحياء ﴾ على هذا إنما هو على الحال من ﴿ الأرض ﴾ ، والتأويل الأولى أقوى .

وقال بنان خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة فقال : هذه كفات الموتى ، ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كفات الأحساء ، وكانت العرب تسمي بقيع الغرقد كفتة لأنها مقبرة تضم الموتى ، وفي الحديث " خمروا آنيتكم وأوكئوا أسقيتكم واكفتوا صبيانكم وأجيفوا أبوابكم وأطفئوا مصابيحكم " . ودفن ابن مسعود قملة في المسجد ثم قرأ ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ولما كان القبر ﴿ كفاتاً ﴾ كالبيت قطع من سرق منه . و" الرواسي " : الجبال : لأنه رست أي ثبتت ، و" الشامخ " : المرتفع ، ومنه شمخ بأنفه أي ارتفع واستعلى شبه المعنى بالشخص ، و" أسقى " معناه : جعله سقياً للغلات والمنافع ، وسقى معناه للشفة خاصة ، هذا قول جماعة من أهل اللغة وقال آخرون هما بمعنى واحد ، و" الفرات " : الصافي العذب ، ولا يقال للملح فرات وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار وخص النهر المشهور بهذا تشريفاً له وهو نهر الكوفة ، وسيحان هو نهر بلخ ، وجيحان هو دجلة ، والنيل نهر مصر ، وحكي عن عكرمة أن كل ماء في الأرض فهو من هذه ، وفي هذا بعد والله أعلم .

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

(195/796)

الضمير في قوله : ﴿ انطلقوا ﴾ ، هو ﴿ للمكذبين ﴾ [الإنسان : 19-24] الذين لهم الويل يقال لهم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ من عذاب الآخرة ، ولا خلاف في كسر اللام من قوله ﴿ انطلقوا ﴾ في هذا الأمر الأول ، وقرأ يعقوب في رواية رويس " انطلَقوا إلى

ظل " بفتح اللام على معنى الخبر ، وقرأ جمهور الناس " انطِلقوا " بسكر اللام على معنى تكرار ، الأمر الأول وبيان المنطلق إليه ، وقال عطاء الظل الذي له ﴿ ثلاث شعب ﴾ هو دخان جهنم ، وروي أنه يعلو من ثلاثة مواضع يراه الكفار فيظنون أنه مغن فيهرعون إليه ﴿ ثلاث شعب ﴾ هو دخان جهنم ، وروي أنه يعلو من ثلاثة مواضع يراه الكفار فيظنون أنه مغن فيهرعون إليه فيجدونه على أسوأ وصف . وقال ابن عباس : المخاطبة إنما تقال يومئذ لعبدة الصليب إذا اتبع كل واحد ما كان يعبد فيكون المؤمنون في ظل الله ولا ظل إلا ظله ، ويقال لعبدة الصليب ﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ معبودكم وهو الصليب وله ﴿ ثلاث شعب ﴾ ، والتشعب تفرق الجسم الواحد فرقاً ثم نفى عنه تعالى محاسن الظل ، والضمير في ﴿ إنها ﴾ لجهنم وقرأ عيسى بن عمر " بشرار " بألف جمع شرارة وهي لغة تميم ، و" القصر " في قول ابن عباس وجماعة من المفسرين اسم نوع القصور وهو إلا دوراً لكبار مشيدة ، وقد شبهت العرب بها النوق ومن المعنى قول الأخطل : [البسيط]

كأنها برج رومي يشيده . . . لز بجص وآجر وجيار

(196/796)

وقال ابن عباس أيضاً : " القصر " : خشب كان في الجاهلية يقطع من جزل الحطب من النخل وغيره على قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشتاء يسمى " القَصَر " واحده قصرة وهو المراد في الآية ، وإنما سمي القَصَّار لأنه يخبط بالقصرة ، وقال مجاهد : " القصر " حزم الحطب . وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن عباس القَصَّار لأنه يخبط بالقصرة ، وقال مجاهد : " القصر " حزم الحطب . وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ ابن عباس وابن جبير " القَصَر " جمع قصرة وهي أعناق النخل والإبل وكذلك أيضاً هي في الناس ، وقال ابن عباس جذور النخل ، وقرأ ابن جبير أيضاً والحسن : " كالقِصَر " بسكر القاف وفتح الصاد ، وهي جمع قصرة كحلقة وحلق من الحديد ، واختلف الناس في " الجمالات " ، فقال جمهور من المفسرين : هو جمع جمال على تصحيح البناء كرجال ورجالات ، وقال آخرون أراد ب " الصفر " السود ، وأنشد على ذلك بيت الأعشى : [الخفيف]

تلك خيلي منه ، وتلك ركابي . . . هن صفر أولادها كالزبيب

وقال جمهور الناس : بل " الصفر " الفاقعة لأنها أشبه بلون الشرر بالجمالات ، وقرأ الحسن " صُفُر " بضم الصاد والفاء ، وقال ابن عباس وابن جبير : " الجمالات " قلوس من السفن وهي حبالها العظام إذا جمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام ، وقال ابن عباس : " الجمالات " قطع النحاس الكبار وكان اشتقاق هذه من اسم الجملة ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم " جِمالة " بكسر الجيم لحقت التاء جمالاً لتأنيث الجمع فهي

كحجر وحجارة ، وقرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن والأعمش : " جُمالة " بضم الجمي ، وقرأ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب " جمالات " على ما تفسر بكسر الجيم ، وقرأ ابن عباس أيضاً وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء بخلاف عنهم " جُمالات " بضم الجيم ، واختلف عن نافع وأبي جعفر وشيبة وكان ضم الجيم فيهما من الجملة لا من الجمل وكسرها من الجمل لا من الجملة .

(197/796)

ولما ذكر تعالى المكذبين قال مخاطباً لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي يوم القيامة أسكتتهم الهيبة وذل الكفر ، و ﴿ هذا ﴾ في موطن قاض بأنهم ﴿ لا ينطقون ﴾ فيه إذ قد نطق القرآن بنطقهم ربنا أخرجنا ، ربنا أمتنا ، فهي مواطن . و ﴿ يوم ﴾ مضاف إلى قوله ﴿ لا ينطقون ﴾ وقرأ الأعرج والأعمش وأبو حيوة " هذا يومَ " بالنصب لما أضيف إلى غير متمكن بناه فهي فتحة بناء وهو في موضع رفع ، ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة ب ﴿ هذا ﴾ إلى رميها ﴿ بشرر كالقصر ﴾ ، وقوله ﴿ فيعتذرون ﴾ معطوف على ﴿ يؤذن ﴾ ولم ينصب في جواب النفي لتشابه رؤوس الآي ، والوجهان جائزان ، وقوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم ﴾ مخاطبة للكفار يومئذ .

و" الأولون " المشار إليهم قوم نوح وغيرهم . ممن جاء في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر ، ثم وقف تعالى عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله : ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ أي إن كان لكم حيلة أو مكيدة تنجيكم فافعلوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(198/796)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾

أي لا يتكلمون ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت ، فهذا من المواقيت التي لا يتكلّمون فيها ، ولا يؤذن لهم في الاعتذار والتنصل .

وعن عِكرمة عن ابن عباس قال : سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ و ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108] وقد قال تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] فقال له : إن الله عز وجل يقول : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] فإن لكل مقدار من هذه الأيام لوناً من هذه الألوان .

وقيل : لا ينطقون بحجة نافعة ، ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق .

قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون .

وقيل : إن هذا وقت جوابهم ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وقد تقدم .

وقال أبو عثمان : أسكتتهم رؤيةُ الهيبة وحياءُ الذنوب .

وقال الجُنيد : أيُّ عذر لِمن أعرض عن مُنعِمِهِ وجحده وكفر أياديه ونِعمه ؟ و "يوم" بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر ؛ أي تقول الملائكة : "هذا يوم لا ينطِقون" .

ويجوز أن يكون قوله : "انطلقوا" من قول الملائكة ، ثم يقول الله لأوليائه : هذا يوم لا ينطِق الكُفَّار .

ومعنى اليوم الساعة والوقت .

وروى يحيى بن سلطان عن أبي بكر عن عاصم "هذا يومَ لا ينطِقون" بالنصب ، ورُوِيتْ عن ابن هُرْمز وغيره ، فجاز أن يكون مبنياً لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع .

وهذا مذهب الكوفيين .

وجاز أن يكون في موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم .

وهذا مذهب البصريين ؛ لأنه إنما بني عندهم إذا أضيف إلى مبنيّ ، والفعل هاهنا معرب .

وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ الفاء نَسْق أي عطف على "يُؤْذَن" ، وأجيز ذلك ؛ لأن أواخر الكلام بالنون .

ولو قال : فيعتذروا لم يوافق الآيات .

وقد قال : ﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ بالنصب وكله صواب ؛ ومثله : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ ﴾ بالنصب والرفع .

قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾

أي ويقال لهم هذا اليوم الذي يُفْصل فيه بين الخلائق ؛ فيتبين المحقّ من المبطل .

﴿ جَمَعْنَاكُمْ والأولين ﴾ قال ابن عباس : جمع الذين كذّبوا محمداً والذين كذّبوا النبيين من قبله .

رواه عنه الضحاك .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أي فاحتالوا لأنفسكم وقاوُوْني ولن تجدوا ذلك .

وقيل : أي ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ ﴾ أي قدرتم على حرب "فَكِيدُونِي" أي حاربوني .

كذا روى الضحاك عن ابن عباس .

قال : يريد كنتم في الدنيا تحاربون محمداً صلى الله عليه وسلم وتحاربونني فاليوم حاربوني .

وقيل : أي إنكم كنتم في الدنيا تعملون بالمعاصي وقد عجزتم الآن عنها وعن الدَّفْع عن أنفسكم .

وقيل : إنه من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فيكون كقول هود : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ [هود : 55] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(200/796)

وقال الآلوسى :

﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾

الإشارة إلى وقت دخولهم النار أي هذا يوم لا ينطقون فيه بشيء لعظم الدهشة وفرط الحيرة ولا ينافي هذا ما ورد في موضع آخر من النطق لأن يوم القيامة طويل له مواطن ومواقيت ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون وجوز أن يكون المراد هذا يوم لا ينطقون بشيء ينفعهم وجعل نطقهم لعدم النفع كلا نطق وقرأ الأعمش والأعرج وزيد بن علي وعيسى وأبو حيوة وعاصم في رواية هذا يوم بالفتح فقيل هو فتح إعراب على أن هذا إشارة إلى ما ذكر ويوم منصوب على الظرفية متعلق بمحذوف وقع خبراً لهذا أي هذا الذي ذكر من الوعيد واقع في يوم لا ينطقون وقيل هو فتح بناء ويوم في محل رفع على الخبرية وبني

لإضافته للجملة ولما حقه البناء وعن صاحب اللوامح قال عيسى : بناء يوم على الفتح مع لا لغة سفلى مضر لأنهم جعلوه معها كالاسم الواحد وأنت تعلم أن الجملة المصدرة بمضارع مثبت أو منفي لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجه وأن ما ذكر مذهب كوفي .

(201/796)

﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ ﴾ قيل في النطق مطلقاً أو في الاعتذار وقرأ زيد بن علي كما حكى عنه أبو علي الأهوازي بالبناء للفاعل أي ولا يأذن الله تعالى لهم ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ عطف على يؤذن منتظم معه في سلك النفي والفاء للتعقيب بين النفيين في الأخبار في قول ولترتب النفي الثاني نفسه على الأول في آخر ونظر فيه ولم يقل فيعتذروا بالنصب في جواب النفي قيل ليفيد الكلام نفي الاعتذار مطلقاً إذ لا عذر لهم ولا يعتذرون بخلاف ما لو نصب وجعل جواباً فإنه يدل على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن فيوهم ذلك أن لهم عذراً لكن لم يؤذن لهم فيه وقال ابن عطية إنما لم ينصب في جواب النفي للمحافظة على رؤوس الآي والوجهان جائزان وظاهره استواء المعنى عليهما وهو مخالف لكلامهم لقولهم بالسببية في النصب دون الرفع نعم ذهب أبو الحجاج الأعلم إلى أنه قد يرفع الفعل ويكون معناه على قلة معنى

المنصوب بعد الفاء وأن النحويين إنما جعلوا معنى الرفع غير معنى النصب رعياً للأكثر في كلام العرب وجعل دليله على ذلك هذه الآية ورد عليه ذلك ابن عصفور وغيره فتدبر والظاهر أن نفي الاعتذار باعتبار بعض المواطن والمواقيت كنفي النطق وجوز أن يكون المنفي حقيقة الاعتذار النافع فلا منافاة بين ما هنا وقوله تعالى ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ بين المحق والمبطل ﴿ جمعناكم والاولين ﴾ أي من تقدمكم من الأمم والكلام تقرير وبيان للفصل لأنه لا يفصل بين المحق والمبطل إلا إذا جمع بينهم .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ فإن جميع من كنتم تقلدونهم وتقتدون بهم حاضرون وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث ظهر أن لا حول لهم ولا حيلة في التخلص مما هم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(202/796)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) ﴾

إن كانت الإِشارة على ظاهرها كان المشار إليه هو اليوم الحاضر وهو يوم الفصل فتكون الجملة من تمام ما يقال لهم في ذلك اليوم بعد قوله : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ [المرسلات : 29] فيكون في الانتقال من خطابهم بقوله : ﴿ انطلقوا إلى إِجراء ضمائر الغيبة عليهم ، التفات يزيده حسناً أنهم قد استحقوا الإِعراض عنهم بعد إهانتهم بخطاب انطلقوا ﴾ .

وهذا الوجه أنسب بقوله تعالى بعده : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ [المرسلات : 38] ، وموقع الجملة على هذا التأويل موقع تكرير التوبيخ الذي أفاده قوله : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون وهو من جملة ما يقال لهم في ذلك اليوم ، واسم الإِشارة مستعمل في حقيقته للقريب .

وإن كانت الإِشارة إلى المذكور في اللفظ وهو يوم الفصل المتحدث عنه بأنَّ فيه الويل للمكذبين ، كان هذا الكلام موجهاً إلى الذين خوطبوا بالقرآن كلهم إنذاراً للمشركين منهم وإنعاماً على المؤمنين ، فكانت ضمائر الغيبة جارية على أصلها وكانت عائدة على المكذبين من قوله : ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ [المرسلات : 34] وتكون الجملة معترضة بين جملة ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، وجملة هذا يوم الفصل جمعناكم

والأولين ﴾ [المرسلات : 38] .

واسم الإِشارة الذي هو إشارة إلى القريب مستعمل في مشار إليه بعيد باعتبار قرب الحديث عنه على ضرب من المجاز أو التسامح .

واسم الإِشارة مبتدأ ﴿ ويومُ لا ينطقون ﴾ خبر عنه .

وجملة ﴿ لا ينطقون ﴾ مضاف إليها ﴿ يوم ﴾ ، أي هو يومٌ يُعرَّف بمدلول هذه الجملة ، وعدم تنوين ﴿ يوم ﴾ لأجل إضافته إلى الجملة كما يضاف (حين) والأفصح في هذه الأزمان ونحوه إذا أضيف إلى جملة مفتتحة بـ ﴿ لا ﴾ النافية أن يكون معرباً ، وهو لغة مُضر العُليا ، وأما مضر السفلى فهم يبنونه على الفتح دائماً .

(203/796)

وعطف ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ على جملة ﴿ لا ينطقون ﴾ ، أي لا يؤذن إذناً يتفرع عليه اعتذارهم ، أي لا يؤذن لهم في الاعتذار .

فالاعتذار هو المقصود بالنفي ، وجعل نفي الإِذن لهم توطئة لنفي اعتذارهم ، ولذلك جاء ﴿ فيعتذرون ﴾ مرفوعاً ولم يجيء منصوباً على جواب النفي إذ ليس المقصود نفي الإِذن وترتّب نفي اعتذارهم على نفي الإِذن لهم إذ لا محصول لذلك ، فلذلك لم يكن نصب ﴿

فيعتذرون ﴾ مساوياً للرفع بل ولا جائزاً بخلاف نحو ﴿ لا يُقضى عليهم فيموتوا ﴾ [فاطر : 36] فإن نفي القضاء عليهم وهم في العذاب مقصود لذاته لأنه استمرار في عذابهم ثم أجيب بأنه لو قُضي عليهم لماتوا ، أي فقَدوا الإِحساس ، فمعنى الجوابية هنالك مما يقصد .

ولذا فلا حاجة هنا إلى ما ادعاه أبو البقاء أن ﴿ فيعتذرون ﴾ استئناف تقديره : فهم يعتذرون ، ولا إلى ما قاله ابن عطية تبعاً للطبري : إنه ينصب لأجل تشابه رؤوس الآيات ، وبعد فإن مناط النصب في جواب النفي قصدُ المتكلم جعْلَ الفعل جواباً للنفي لا مجرد وجود فعل مضارع بعد فعل منفي .

واعلم أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين الآيات التي جاء فيها ما يقضي أنهم يعتذرون نحو قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ [غافر : 11] لأن وقت انتفاء نطقهم يوم الفصل .

وأما نطقهم المحكي في قوله : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين فذلك صراخهم في جهنم بعد انقضاء يوم الفصل ، وبنحو هذا أجاب ابن عباس نافع بنَ الأزرق حين قال نافع : إِنّي أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ قال الله : ﴿ ولا يتساءلون ﴾ [المؤمنون : 101] ، وقال : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الصافات : 27] فقال ابن عباس : لا يتساءلون

في النفخة الأولى حين نُفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض فلا يتساءلون حينئذٍ ، ثم في النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

(204/796)

والذي يجمع الجواب عنْ تلك الآيات وعن أمثالها هو أنه يجب التنبه إلى مسألة الوحدات في تحقق التناقض .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37)

تكرير لتهديد المشركين متصل بقوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ [المرسلات : 35] الآية على أول الوجهين في موقع ذلك ، أو هو وارد لمناسبة قوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون على ثاني الوجهين المذكورين فيه فيكون تكريراً لنظيره الواقع بعد قوله : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ [المرسلات : 29] إلى قوله : ﴿ صُفْر ﴾ [المرسلات : 33] اقتضى تكريره عَقِبَه أنَّ جملة ﴿ هذا يوم لا ينطقون الخ تتضمن حالة من أحوالهم يوم الحشر لم يسبق ذكرها فكان تكرير ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ بعدَها لوجود مقتضي تكرير الوعيد للسامعين .

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38)

تكرير لتوبيخهم بعد جملة ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ [المرسلات : 29] شُيع به القول الصادر بطردهم وتحقيرهم ، فإن المطرود يشيّع بالتوبيخ ، فهو مما يقال لهم يومئذٍ ، ولم تعطف بالواو لأنها وقعت موقع التذييل للطرد ، وذلك من مقتضيات الفصل سواء كان التكرير بإعادة اللفظ والمعنى ، أم كان بإعادة المعنى والغرض .

والإشارة إلى المشهد الذي يشاهدونه من حضور الناس ومُعَدات العرض والحساب لفصل القضاء بالجزاء .

والإِخبار عن اسم الإِشارة بأنه ﴿ يوم الفصل ﴾ باعتبار أنهم يتصورون ما كانوا يسمعون في الدنيا من محاجّة عليهم لإِثبات يوم يكون فيه الفصل وكانوا ينكرون ذلك اليومَ وما يتعذرون بما يقع فيه ، فصارت صورة ذلك اليوم حاضرة في تصورهم دون إيمانهم به ، فكانوا الآن متهيئين لأن يوقنوا بأن هذا هو اليوم الذي كانوا يوعدون بحلوله ، وقد عُرِف ذلك اليوم من قبل بأنه يوم الفصل [المرسلات : 13] ، أي القضاء وقد رأوا أهبة القضاء .

(205/796)

وجملة ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ بيان للفصل بأنه الفصل في الناس كلهم لجزاء المحسنين والمسيئين كلهم ، فلا جرم جُمع في ذلك اليوم الأولون والآخرون قال تعالى : ﴿ قل إن الأولين

والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] .

والمخاطبون بضمير ﴿ جمعناكم ﴾ : المشركون الذين سبق الكلام لتهديدهم وهم المكذبون بالقرآن ، لأن عطف ﴿ والأولين ﴾ على الضمير يمنع من أن يكون الضمير لجميع المكذبين مثل الضمائر التي قبله ، لأن الأولين من جملة المكذبين فلا يقال لهم : ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ ، فتعين أن يختص بالمكذبين بالقرآن .

والمعنى : جمعناكم والسابقين قبلكم من المكذبين .

وقد أنذروا بما حلّ بالأولين أمثالهم من عذاب الدنيا في قوله : ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ [المرسلات : 16] .

فأريد توقيفهم يومئذٍ على صدق ما كانوا يُنذرون به في الحياة الدنيا من مصيرهم إلى ما صار إليه أمثالهم ، فلذلك لم يتعلق الغرض يومئذٍ بذكر الأمم التي جاءت من بعدهم .

وباعتبار هذا الضمير فرع عليه قوله : ﴿ فإن كان لكم كيْد فكيدون ﴾ فكان تخلّصاً إلى توبيخ الحاضرين على ما يكيدون به للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين قال تعالى : ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمَهِّل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ [الطارق : 15 17] وأن كيدهم زائل وأن سوء العقبى عليهم .

وفرع على ذلك ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ ، أي فإن كان لكم كيد اليوم كما كان لكم في الدنيا ، أي كيد بديني ورسولي فافعلوه .

والأمر للتعجيز ، والشرط للتوبيخ والتذكير بسوء صنيعهم في الدنيا ، والتسجيل عليهم بالعجز عن الكيد يومئذٍ حيث مُكّنوا من البحث عما عسى أن يكون لهم من الكيد فإذا لم يستطيعوه بعد ذلك فقد سُجل عليهم العجز .

وهذا من العذاب الذي يعذَّبونه إذ هو من نوع العذاب النفساني وهو أوقع على العاقل من العذاب الجسماني .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40)

تكرير للوعيد والتهديد وهو متصل بما قبله كاتصال نظيره المذكور آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(206/796)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن أهل النار لا ينطقون ولا يعتذرون وقد جاءت آيات تدل على أنهم ينطقون ويعتذرون .

كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

وقوله: ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ .

وقوله: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

والجواب عن هذا من أوجه:

الأول: أن القيامة مواطن ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون .

الثاني: أنهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة وما لا فائدة فيه كالعدم .

الثالث: أنهم بعد أن يقول الله لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون ينقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق .

قال تعالى: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ .

وهذا الوجه الثالث راجع للوجه الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 306 ﴾

(207/796)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والتسعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من (سورة المرسلات)

وحتى الآية ﴿ 50 ﴾ من السورة

(4/797)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الواقع بعد الفصل قرار كل في داره ، وكان قد بدأ بالمكذبين لأن التحذير في السورة أعظم ففصلهم عن المصدقين فقال : انطلقوا - إلى آخره ، ثنى بأضدادهم الفريق الناجي المشار إليه في آخر الإنسان بقوله تعالى : ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ [الإنسان : 31] فقال مؤكداً لأجل تكذيب الكفار بتلك الدار وبأن يكون المؤمنون أسعد منهم : ﴿ إن

المتقين ﴾ أي الذين كانوا يجعلون بينهم وبين كل ما يغضب الله وقاية مما يرضيه لعراقتهم في هذا الوصف يوم القيامة ﴿ في ظلال ﴾ هي في الحقيقة الظلال لا كما تقدم من ظل الدخان ، ولا يشبهها أعلى ظل في الدنيا ولا أحسنه إلا بالاسم ، ودل على أنها على حقيقتها بقوله : ﴿ وعيون ﴾ لأنها تكون عنها الرياض والأشجار الكبار كما دل على أن ذلك الظل المتشعب للتهكم بما ذكر بعده من أوصاف النار ، فهذه العيون تبرد الباطن وتنبت الأشجار المظلة كما أن اللهب يحرّ الظاهر والباطن ويهلك ما قرب منه من شجر وغيره فلا يبقى ولا يذر .

ولما ذكر العيون ، أتبعها ما ينشأ عنها فقال دالاً على أن عيشهم كله لذة : ﴿ وفواكه ﴾ ولما كان يوجد في فواكه الدنيا الدون ، قال دالاً على أن عيشهم كله لذة وأنه ليس هناك دون : ﴿ مما يشتهون ﴾ أي الرغبة .

(5/797)

ولما فهم من التعبير ب " في " أنهم متمكنون من هذا جميعه تمكن المظروف من ظرفه ، قال منبهاً على أنه أريد بالفاكهة جميع المآكل ، وإنما عبر بها إعلاماً بأن كل أكل فيها تفكه ليس منه شيء لجلب نفع غير اللذة ولا دفع ضر : ﴿ كلوا ﴾ أي مقولاً لهم : تناولوا جميع المآكل

على وجه التكفه والتلذذ لا لحفظ الصحة فإنها حاصلة بدونه ﴿ واشربوا ﴾ أي من جميع المشارب كذلك فإن عيونها ليست من الماء خاصة بل من كل شراب أكلاً وشرباً ﴿ هنيئاً ﴾ ليس في شيء من ذلك توقع ضر ، وزاد في نعيمهم بأن جعل ذلك عوضاً فقال : ﴿ بما كنتم ﴾ أي بجبلاتكم التي جبلتكم عليها ﴿ تعملون ﴾ أي في الدنيا من الأعمال الصالحة المبنية على أساس العلم الذي أفاد التصديق بالجنة فأوجب دخولها كما أوجب تكذيب المجرمين بالنار دخولهم إياها وعذابهم بها ، وتكذيبهم بالجنة طردهم عنها وحرمانهم لنعيمها جزاء وفاقاً .

ولما كان ربما توهم متوهم أن هذا لناس معينين في زمن مخصوص – قال معلماً بالتعميم مؤكداً رداً على من ينكر : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي كل من كان عريقاً في وصف الإحسان لسنا كملوك الدنيا ، يعوقهم عن الإحسان إلى بعض المحسنين عندهم بما يرونه جزاء لهم بعضُ أهل مملكتهم لما لهم من الأهوية ولملوكهم من الضعف .

ولما كان هذا النعيم عذاباً عظيماً على من لا يناله قال : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين ﴿ للمكذبين ﴾ أي الذين يكذبون بأن الجبال تنسف فتكون الأرض كلها سهلة دمثة مستوية لا عوج فيها أصلاً صالح للعيون والاشجار والتبسط في أرجائها كيفما يريد صاحبها ويختار .

ولما ذكر نعيم أهل الجنة الذي لا ينقضي لأن لهم غاية المكنة فيه ، وكان ذلك آجلاً ، وكان المكذبون في اتساع في الدنيا ، وتقدم قوله تعالى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع ﴾ [الطور : 7] وكان الشقاء متى وقع بعد نعيم نسخه وعد النعيم - ولو كان كثيراً طويلاً - قليلاً ، قال نتيجة لجواب القسم ضد ما يقال للمتقين تسلية لهم وتحزيناً للمكذبين بناء على ما تقديره : إن المكذبين في هذه الدنيا في استدراج وغرور ، ويقول لهم لسان الحال المعرب عن أحوالهم في المآل توبيخاً وتهديداً : ﴿ كلوا ﴾ أي أيها المكذبون في هذه الدنيا ﴿ وتمتعوا ﴾ أي كذلك بمثل الجيفة ، فإن المتاع من أسمائها كما مر غير مرة عن أهل اللغة ﴿ قليلاً ﴾ أي وإن امتد زمنه فإنه زائل مع قصر مدته في مدة الآخرة ، ولا يؤثر ذلك على الباقي النفيس إلا خسيس الهمة ، قال الرازي ، وقال بعضهم : التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين ، والسعي لها من أفعال الظالمين ، والاطمئنان إليها من أفعال الكاذبين ، والسكون فيها على حد الإذن والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين ، والإعراض عنها من أفعال الزاهدين ، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها .

ولما أحلهم هذا المحل الخبيث ، وكان التقدير : فإنه لا بد من وقوع العذاب بكم يوم الفصل ، علل ذلك بقوله مؤكداً لأنهم ينكرون وصفهم بذلك : ﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي عريقون في قطع كل ما أراد الله به أن يوصل ، فلا جائز أن تعاملوا معاملة المحسنين ، فلذلك كانت نتيجة هذا ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ تعذبون بأجرامكم ﴿ للمكذبين ﴾ أي بوصول الرسل إلى وقتها المعلوم الذي كانت تتوعد به المجرمين في الدنيا حيث كذبوهم لأجل تمتعهم هذا القليل الكدر ، وعرضوا أنفسهم للعذاب الدائم المستمر .

(7/797)

ولما كان التقدير : فإنهم كانوا في دار العمل إذا قيل لهم آمنوا لا يؤمنوا ، عطف عليه قوله : ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجرمين من أي قائل كان ﴿ اركعوا ﴾ أي صلوا الصلاة التي فيها الركوع ، وأطلقه عليها تسمية لها باسم جزء منها ، وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، ولأنه خاص بصلاة المسلمين ، ولأن بعض العرب نفر عن الدين من أجله ، وقال : لا أجبي لأن فيه – زعم – إبرازاً للاست فيكون ذلك مسبة ، وكذلك السجود ، قال في القاموس : جبى تجبئة : وضع يديه على ركبتيه أو على الأرض أو انكب على وجهه ، والتجبئة أن تقوم قيام الركوع ﴿ لا يركعون ﴾ أي لا يخضعون ولا يوجدون الصلاة فلذلك

كان وعيدهم ، وفيه دلالة على أن الأمر للوجوب ليستحق تاركه العذاب وعلى أن الكفار مخاطبون بالفروع ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي إذ يكون الفصل ﴿ للمكذبين ﴾ أي بذلك الذي تقدم في هذه السورة أو بشيء منه أو بغيره مما جاءت به الرسل ، وقد كررت هذه الجملة بعدد أجزاء طرف القسم أو أجزاء الجواب لتكون كل جملة منها وعيداً على التكذيب بواحد من تلك الأجزاء ، وتكون هذه الجملة العاشرة مؤكدة لتلك التسع ، وتكملة لعدها ومعناها ، ومعلمة بأن الويل لهم دائماً من غير انقضاء كما أن الواحد لا انقضاء له .

(8/797)

ولما أعلم هذا أن لهم الويل دائماً ، ذكر أن سببه عدم الإيمان بالقرآن وأن من لم يؤمن بالقرآن لم يؤمن بشيء أبداً ، فقال مسبباً عن معنى الكلام : ﴿ فبأيّ حديث ﴾ أي ذكر يتجدد نزوله على المرسل به في كل وقت تدعو إليه حاجة ﴿ بعده ﴾ أي بعد هذا القرآن الذي هو شاهد لنفسه عنه بصحة النسبة إلى الله تعالى من جهة ما حاز من البلاغة في تراكيبه بالنسبة إلى كل جملة وبالنسبة إلى نظم الجمل بعضها مع بعض ، وبالإخبار بالمغيبات والحمل على المعالي والتنبيه على الحكم وغير ذلك من بحور العلم ورياض الفنون ، فالله باعتبار ذلك هو الشاهد بأنه كلامه ﴿ يؤمنون ﴾ أي يجددون الإيمان بسببه بكل ما أتى به النبي .

صلى الله عليه وسلم - إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي الله شاهد بأنه كلامه بما اشتمل عليه بعد إعجازه من الدلائل الواضحة ، والمعاني الشريفة الصالحة ، والنظوم الملائمة للطبع والرقائق المرققة لكل قلب ، والبشائر المشوقة لكل سمع ، فمن لم يؤمن به لم يؤمن بحديث غيره ، فإنه لا شيء يقاربه ولا يدانيه ، فكيف بأن يدعي شيء يباريه أو يراقيه ، ومثل هذا إنما يقال عند مقاربة اليأس من الموعوظ والعادة قاضية بحلول العذاب إذ ذاك وإنزال البأس ، فهو من أعظم أنواع التهديد ، فقد رجع آخرها على أولها في وعيد المكذبين ، وانطبق أولها على آخرها في إخزاء المجرمين – والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 290. 293 ﴾

(9/797)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثامن : من أنواع تهديد الكفار وتعذيبهم ، وذلك لأن الخصومة الشديدة والنفرة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفار والمؤمنين ، فصارت تلك النفرة

بحيث أن الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دولة وقوة ، فلما بين الله تعالى في هذه السورة اجتماع أنواع العذاب والخزي والنكال على الكفار ، بين في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حق المؤمن ، حتى أن الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذل والهوان والخزي والخسران ، ويرى خصمه في نهاية العز والكرامة والرفعة والمنقبة ، تتضاعف حسرته وتتزايد غمومه وهمومه ، وهذا أيضاً من جنس العذاب الروحاني ، فلهذا قال في هذه الآية : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(10/797)

قال مقاتل والكلبي : المراد من قوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون الشرك بالله ، وأقول هذا القول عندي هو الصحيح الذي لا معدل عنه ، ويدل عليه وجوه أحدها : أن المتقي عن الشرك يصدق عليه أنه متق ، لأن المتقي عن الشرك ماهية مركبة من قيدين أحدهما : أنه متق والثاني : خصوص كونه عن الشرك ، ومتى وجد المركب ، فقد وجد كل واحد من مفرداته لا محالة ، فثبت أن كل من صدق عليه أنه متق عن الشرك ، فقد صدق عليه أنه متق أقصى ما في الباب ، أن يقال : هذه الآية على هذا التقدير تتناول كل من كان متقياً لأي

شيء كان ، إلا أنا نقول كونه كذلك لا يقدح فيما قلناه ، لأنه خص كل من لم يكن متقياً عن جميع أنواع الكفر فيبقى فيما عداه حجة لأن العام الذي دخل التخصيص يبقى حجة فيما عداه وثانيها : أن هذه السورة من أولها إلى آخرها مرتبة في تقريع الكفار على كفرهم وتخويفهم عليه ، فهذه الآية يجب أن تكون مذكورة لهذا الغرض ، وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها ، والنظم إنما يبقى لو كان هذا الوعد حاصلاً للمؤمنين بسبب إيمانهم ، لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره ، وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه حتى يصير ذلك سبباً في الزجر عن الكفر ، فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته ، فذلك غير لائق بهذا النظم والترتيب ، فثبت بما ذكرنا أن المراد من قوله : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ كل من كان متقياً عن الشرك والكفر وثالثها : أن حمل اللفظ على المسمى الكامل أولى ، وأكمل أنواع التقوى هو التقوى عن الكفر والشرك ، فكان حمل اللفظ عليه أولى .

المسألة الثانية :

(11/797)

أنه تعالى لما بعث الكفار إلى ظل ذي ثلاث شعب أعد في مقابلته للمؤمنين ثلاثة أنواع من النعمة أولها : قوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى ظلال وَعُيُونٍ ﴾ كأنه قيل : ظلالهم ما كانت ظليلة ،

وما كانت مغنية عن اللهب والعطش أما المتقون فظلالهم ظليلة ، وفيها عيون عذبة مغنية لهم عن العطش وحاجزة بينهم وبين اللهب ومعهم الفواكه التي يشتهونها ويتمنونها ، ولما قال للكفار : ﴿ انطلقوا إلى ظِلّ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ قال للمتقين : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً ﴾ فإما أن يكون ذلك الإذن من جهة الله تعالى لا بواسطة ، وما أعظمها ، أو من جهة الملائكة على وجه الإكرام ، ومعنى ﴿ هَنِيئاً ﴾ أي خالص اللذة لا يشوبه سقم ولا تنغيص .

المسألة الثالثة :

اختلف العلماء في أن قوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أمر أو إذن قال أبو هاشم : هو أمر ، وأراد الله منهم الأكل والشرب ، لأن سرورهم يعظم بذلك ، وإذا علموا أن الله أراده منهم جزاء على عملهم فكما يزيد إجلالهم وإعظامهم بذلك ، فكذلك يريد نفس الأكل والشرب معهم ، وقال أبو علي : ذلك ليس بأمر ، وإنما يريد بقوله : على وجه الإكرام ، لأن الأمر والنهي إنما يحصلان في زمان التكليف ، وليس هذا صفة الآخرة .

المسألة الرابعة :

تمسك من قال العمل يوجب الثواب بالباء في قوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا ضعيف لأن الباء للإضافة ، ولما جعل الله تعالى ذلك العمل علامة لهذا الثواب كان الإتيان بذلك العمل كالآلة الموصلة إلى تحصيل ذلك الثواب ، وقوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ المقصود منه أن يذكر الكفار ما فاتهم من النعم العظيمة ، ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين

المحسنين لفازوا بمثل تلك الخيرات ، وإذا لم يفعلوا ذلك لا جرم وقعوا فيما وقعوا فيه .

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46)

(12/797)

اعلم أن هذا هو النوع التاسع : من أنواع تخويف الكفار ، كأنه تعالى يقول للكافر حال كونه في الدنيا إنك إنما عرضت نفسك لهذه الآفات التي وصفناها ولهذه المحن التي شرحناها لأجل حبك للدنيا ورغبتك في طيباتها وشهواتها إلا أن هذه الطيبات قليلة بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة والمشتغل بتحصيلها يجري مجرى لقمة واحدة من الحلواء ، وفيها السم المهلك فإنه يقال لمن يريد أكلها ولا يتركها بسبب نصيحة الناصحين وتذكير المذكرين : كل هذا وويل لك منه بعد هذا فإنك من الهالكين بسببه ، وهذا وإن كان في اللفظ أمراً إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ومنع في غاية المبالغة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49)

اعلم أن هذا هو النوع العاشر : من أنواع تخويف الكفار كأنه قيل لهم : هب أنكم تحبون الدنيا ولذاتها ولكن لا تعرضوا بالكلية عن خدمة خالقكم بل تواضعوا له فإنكم إن آمنتم ثم ضممتم إليه طلب اللذات وأنواع المعاصي حصل لكم رجاء الخلاص عن عذاب جهنم

والفوز بالثواب ، كما قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] ثم إن هؤلاء الكفار لا يفعلوا ذلك ولا ينقادون لطاعته ، ويبقون مصرين على جهلهم وكفرهم وتعريضهم أنفسهم للعقاب العظيم ، فلهذا قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي الويل لمن يكذب هؤلاء الأنبياء الذين يرشدونهم إلى هذه المصالح الجامعة بين خيرات الدنيا والآخرة ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(13/797)

قال ابن عباس رضي الله عنهما قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ المراد به الصلاة ، وهذا ظاهر لأن الركوع من أركانها ، فبين تعالى أن هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون ، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، وأنهم حال كفرهم كما يستحقون الذم والعقاب بترك الإيمان ، فكذلك يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة لأن الله تعالى ذمهم حال كفرهم على ترك الصلاة ، وقال قوم آخرون : المراد بالركوع الخضوع والخشوع لله تعالى ، وأن لا يعبد سواه .

المسألة الثانية :

القائلون بأن الأمر للوجوب استدلوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذمهم بمجرد ترك المأمور به ، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب ، فإن قيل : إنهم كفار فلكفرهم ذمهم ؟ قلنا : إنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه كثيرة ، إلا أنه تعالى إنما ذمهم في هذه الآية لأنهم تركوا المأمور به ، فعلمنا أن ترك المأمور به غير جائز .

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها بالوجوه العشرة التي شرحناها ، وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار ، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليها ووضوحها فبأي حديث بعده يؤمنون قال القاضي : هذه الآية تدل على أن القرآن محدث لأنه تعالى وصفه بأنه حديث ، والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان ، فإذا كان حديثاً وجب أن لا يكون قديماً ، وأجاب الأصحاب أن المراد منه هذه الألفاظ ولا نزاع في أنها محدثة ، والله تعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله أجمعين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 30 صـ 247. 249 ﴾

(14/797)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) ﴾

ذكر تعالى حالة ﴿ المتقين ﴾ بعقب ذكر حالة أهل النار ليبين الفرق ، و" الظلال " في الجنة عبارة عن تكاثف الأشجار وجودة المباني وإلا فلا شمس تؤذي هنالك حتى يكون ظل يجير من جرها ، وقرأ الجمهور " في ظلال " وقرأ الأعرج والأعمش " في ظُلل " بضم الظاء ، و" العيون " : الماء النافع ، وقوله تعالى : ﴿ مما يشتهون ﴾ إعلام بأن المأكل والمشرب هنالك إنما يكون برسم شهواتهم بخلاف ما هي الدنيا عليه ، فإن ذلك فيه شاذ ونادر ، والعرف أن المرء يرد شهوته إلى ما يقتضيه وجده ، وهنا محذوف يدل عليه اللفظ تقديره يقال لهم ﴿ كلوا ﴾ و ﴿ هنيئاً ﴾ نصب على الحال ، ويجوز أن يكون نصبه على جهة الدعاء ، والكاف في قوله ﴿ إنا كذلك ﴾ كاف تشبيه ، والإشارة بذلك إلى ما ذكره من تنعيم أهل الجنة ، وقوله تعالى : ﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ مخاطبة لقريش على معنى قل لهم يا محمد ، وهذه صيغة أمر معناها التهديد والوعيد ، وقد بين ذلك قوله ﴿ قليلاً ﴾ ، ثم قرر لهم الإجرام الموجب لتعذيبهم ، وقال من جعل السورة كلها مكية : إن هذه الآية نزلت في المنافقين ، وقال مقاتل : نزلت في ثقيف لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : حط عنا الصلاة فإنا لا ننحني فإنها سبة ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " لا خير في

دين لا صلاة فيه " وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ قيل هي حكاية عن حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال قتادة في آخرين هذه حال كفار قريش في الدنيا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم وهم لا يجيبون ، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة ، هذا قول الجمهور ، وقال بعض المتأولين عنى بالركوع التواضع كما قال الشاعر : [الطويل]

(15/797)

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . . أي متذللة ، وتأول قتادة الآية قاصدة الركوع نفسه . وقال : عليكم بحسن الركوع ، والذي أقول إن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة إنما كان لأن كثيراً من العرب كان يأنف من الركوع والسجود ويراها هيئة منكرة لما كان في أخلاقهم من العجرفة ، ألا ترى أن بعضهم قد سئل فقيل له : كيف تقول ؟ استخذأت أو استخذيت ؟ فقال : كل لا أقول . فقيل له لم ؟ قال : لأن العرب لا تستخذي ، فظن أنه سئل عن المعنى ولم يفهم أنه سئل عن اللفظ . وفي كتاب السير عن بعض العرب أنه استعفى متكلماً عن قومه ونفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة فلم يجبه رسول

الله صلى الله عليه وسلم بل قال له : " لا بد من الصلاة " ، فقال عند ذلك سنؤتيكها ، وإن كانت دناءة ، وقوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ يؤيد أن الآية كلها في قريش ، والحديث الذي يقتضيه الضمير هو القرآن ، وهذا توقيف وتوبيخ ، وروي عن يعقوب أنه قرأ " تؤمنون " بالتاء من فوق على المواجهة ورويت عن ابن عامر . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(16/797)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ ﴾

أخبر بما يصير إليه المتقون غداً ، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظلّ في الشعب الثلاث .

وفي سورة ياس ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ ﴾ [ياس : 56] ﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يتمنون .

وقراءة العامة "ظِلاَلٍ" .

وقرأ الأعرج والزهريّ وطلحة "ظُلَلٍ" جمع ظُلّة يعني في الجنة .

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أي يقال لهم غداً هذا بدل ما يقال للمشركين ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ .

ف "كُلُوا واشربوا" في موضع الحال من ضمير "الْمُتَّقِينَ" في الظرف الذي هو "فِي ظِلاَلٍ" أي هم مستقرّون "فِي ظِلاَلٍ" مقولاً لهم ذلك .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ أي نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً ﴾

هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين ، وهو وعيد وتهديد وهو حال من "المُكَذِّبِينَ" أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً ﴾ .

﴿ إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ أي كافرون .

وقيل : مكتسبون فعلاً يضركم في الآخرة ، من الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾

أي إذا قيل لهؤلاء المشركين : ﴿ اركعوا ﴾ أي صلّوا ﴿ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ أي لا يصلون ؛ قاله مجاهد .

وقال مقاتل : " نزلت في ثقيف ، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم .

قال مقاتل : قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أسلموا" وأمرهم بالصلاة فقالوا : لا

ننحني فإنها مَسبَّة علينا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود" "يُذْكَر أن مالكاً رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر ، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر ، فجلس ولم يركع ، فقال له صبيّ : يا شيخ قم فاركع .

(17/797)

فقام فركع ولم يحاجّه بما يراه مذهباً ، فقيل له في ذلك ، فقال : خشيت أن أكون من الذين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ .

وقال ابن عباس : إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون .

قتادة : هذا في الدنيا .

ابن العربيّ : هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركناً في الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه ، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب ، وإنما يُدْعون إلى السجود كشفاً لحالِ الناس في الدنيا ، فمن كان لِلَّهِ يسجد يمكن من السجود ، ومن كان يسجد رئاء لغيره صار ظهره طَبَقاً واحداً .

وقيل : أي إذا قيل لهم اخضعوا للحق لا يخضعون ، فهو عام في الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة ، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد .

وقيل : الأمر بالإيمان ؛ لأنها لا تصح من غير إيمان .

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن لم يصدقوا بالقرآن الذي هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام ، فبأي شيء يصدّقون ! وكُرِّر "ويل يومئذٍ للمكذبين" لمعنى تكرير التخويف والوعيد .

وقيل : ليس بتكرار ، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر ؛ كأنه ذكر شيئاً فقال : ويل لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا .

ثم كذلك إلى آخرها .

ختمت السورة ولله الحمد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(18/797)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم ﴾

أي ألم نُقدرْكُم ﴿ مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ أي من نُطفةٍ قذرةٍ مهينةٍ ﴿ فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ هو الرحمُ ﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إلى مقدارٍ معلومٍ من الوقتِ قدَّرهُ الله تعالَى للولادةِ تسعةَ

أشهرٍ ، أو أقلَّ منها أو أكثرَ ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي فقدرناهُ وقد قُرِىءَ مُشدداً أو فقدرنا على ذلكَ على أنَّ المرادَ بالقُدرةِ ما يقارنُ وجودَ المقدورِ الفعلِ ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ أي نحنُ . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بقدرتِنا على دلكَ أو على الإعادةِ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ الكِفاتُ اسمُ مَا يكْفِتُ أيْ يضمُّ ويجمعُ من كفتَ الشيءَ إذا ضمَّه وجمعَهُ كالضِّمامِ والجِماعِ لما يضمُّ ويجمعُ أي ألم نجعلْها كِفاتاً تكفتُ ﴿ أَحْيَاء ﴾ كثيرةً على ظهرها ﴿ وأمواتا ﴾ غيرَ محصورةٍ في بطنِها وقيلَ هُو مصدرٌ نُعتَ به للمبالغةِ ، وقيلَ جمعُ كافتٍ كصائمٍ وصيامٍ ، أو كِفت وهو الوعاءُ أجرى على الأرض باعتبار بقاعها ، وقيل : تنكيرُ أحياءً وأمواتاً لأنَّ أحياءَ الإنسِ وأمواتَهم بعضُ الأحياءِ والأمواتِ ، وقيلَ : انتصابُهما على الحاليةِ من محذوفٍ أي كفاتاً تكفتكُم أحياءٌ وأمواتاً ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ أي ثوابتَ ﴿ شامخات ﴾ طوالاً شواهقَ ، ووصفُ جمعِ المذكرِ بجمعِ المؤنثِ في غيرِ العقلاءِ مُطَّردٌ كداجنٍ ودواجنٍ وأشهرٌ معلوماتٌ وتنكيرُها للتفخيمِ أو للإشعارِ بأنَّ فيها ما لم يُعرفْ ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ بأنْ خلقنَا فيها أنهاراً ومنابعَ .

(19/797)

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثالِ هذه النعمِ العظيمةِ ﴿ انطلقوا ﴾ أي يقالُ لهم يومئذٍ للتوبيخِ وللتقريعِ انطلقُوا ﴿ إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدُّنيا من العذابِ ﴿ انطلقوا ﴾ خُصوصاً ﴿ إلى ظِلٍّ ﴾ أي ظِلِ دُخانِ جهنَّمَ ، كقولِه تعالَى : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ وقُرِىءَ انطَلَقُوا على لفظِ الماضِي إخباراً بعدَ الأمرِ عن عملِهم بموجبِ لاضطرارِهم إليه طوعاً أو كرهاً . ﴿ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ يتشعبُ لِعظمه ثلاثَ شُعبٍ كَما هُو شأنُ الدُّخانِ العظيمِ ، تراهُ يتفرقُ ذوائبَ وقيلَ : يخرجُ لسانٌ من النارِ فيحيطُ بالكفارِ كالسُّرادقِ ويتشعبُ من دُخَانِها ثلاثُ شعبٍ فتظلُهم حتى يُفرغَ من حسابِهم والمؤمنونَ في ظلِ العرشِ ، قيلَ : خُصوصيةُ الثلاثِ إما لأنَّ حجابَ النفسِ عن أنوارِ القدسِ الحسُّ والخيالُ والوهمُ أو لأنَّ المؤدّي إلى هذا العذابِ هوا القوةُ الوهميةُ الشيطانيةُ الحَّالةُ في الدماغِ والقوةُ الغضبيةُ السبعيةُ التي عن يمينِ القلبِ والقوةُ الشهويةُ البهيميةُ التي عن يسارِه ولذلكَ قيلَ : تقفُ شعبةٌ فوقَ الكافرِ وشعبةٌ عن يمينِه وشعبةٌ عن يسارِه .

(20/797)

﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ تهكمٌ بهم أُوردُ أوهمَه لفظُ الظلِّ . ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ أي غيرُ مغنٍ لهم من حرِّ اللهبِ شيئاً ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ أي كلُّ شررةٍ كالقصرِ من القصورِ

في عِظَمِها وقيلَ : هو الغليظُ من الشجر ، الواحدةُ قصرةٌ نحو جَمْرٍ وجمرةٍ ، وقُرِىءَ كالقَصَرِ بفتحتينِ وهي أعناقُ الإبلِ أو أعناقُ النخلِ نحو شجرةٍ وشجرٍ ، وقُرِىءَ كالقُصُرِ بمعنى القصور كرهن ورهُن وقرىء كالقصر جمع قصرة ﴿ كَأَنَّهُ جمالة ﴾ قيلَ : هو جمعُ جملٍ والتاءُ لتأنيثِ الجمعِ يقالُ جملٌ وجمالٌ وجمالةٌ وقيلَ : اسمُ جمعٍ كالحجارةِ ﴿ صُفْرٌ ﴾ فإنَّ الشرارَ لما فيهِ من الناريةِ يكونُ أصفرَ وقيلَ : سودٌ لأن سوادَ الإبلِ يضربُ إلى الصفرةِ والأولُ تشبيهٌ في العظمِ ، وهذا في اللونِ والكثرةِ والتتابعِ والاختلاطِ والحركةِ ، وقُرِىءَ جمالاتٌ جمعُ جمالٍ أو جمالةٍ ، وقُرِىءَ جَمالاتٌ جمعُ جَمالةٍ وقد قُرِىءَ بها وهي الحبلُ العظيمُ من حبال السفنِ وقلوسِ الجسورِ والتشبيهُ في امتدادِه والتفافِه .

(21/797)

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ إشارةٌ إلى وقتِ دخولِهم النارَ أيْ هذا يومُ لا ينطقونَ فيه بشيءٍ لما أنَّ السؤالَ والجوابَ والحسابَ قدْ انقضتْ قبلَ ذلكَ ويومُ القيامةِ طويلٌ له مواطنُ ومواقيتُ ينطقونَ في وقتٍ دُونَ وقتٍ فعبَّر عن وقت بيومُ أو لا ينطقونَ بشيءٍ ينفعُهم فإن ذلكَ كلاَ نطقٍ وقُرِىءَ بنصبِ اليومِ أيْ هَذا الذي فُصِّلَ واقعٌ يومَ لا ينطِقون ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ عطفٌ على يُؤذنُ مُنتظمٌ في سلكِ النفي أيْ لا يكونُ لهم إذنٌ

واعتذارٌ متعقبٌ له من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن كما لو نصب ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هذا يَوْمُ الفصل ﴾ بين الحقّ والباطلِ والمحقّ والمبطلِ ﴿ جمعناكم ﴾ خطابٌ لأمة محمدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ﴿ والأولين ﴾ من الأممِ وهذا تقريرٌ وبيانٌ للفصل.

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ فإن جميعَ من كنتُم تقلدونهم وتقتدونَ بهم حاضرونَ وهذا تقريعٌ لهم على كيدِهم للمؤمنينَ في الدُّنيا وإظهارٌ لعجزِهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيثُ ظهرَ أنْ لا حيلةَ لهم في الخلاصِ من العذابِ.

(22/797)

﴿ إِنَّ المتقين ﴾ من الكفرِ والتكذيبِ ﴿ فِى ظلال وَعُيُونٍ * وفواكه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي مستقرونَ في فنونِ الترفِه وأنواعِ التنعمِ ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ مقدرٌ بقولٍ هو حالٌ من ضميرِ المتقينَ في الخبرِ أي مقولاً لهم كلُوا واشربُوا هنيئاً بما كنتُم تعملونَهُ في الدُّنيا من الأعمالِ الصالحةِ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ الجزاءِ العظيمِ ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ أيْ في عقائدِهم وأعمالِهم لا جزاءً أَدْنَى منْهُ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيثُ نالَ أعداؤُهم هذا الثوابَ الجزيلَ وهُم بقُوا في العذابِ المخلَّدِ الوبيلِ ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ مقدرٌ بقولٍ هو حالٌ من المكذبينَ أي الويلُ ثابتٌ لهم مقولاً لهم ذلكَ تذكيراً لهم بحالِهم في

الدُّنيا وبما جنَوا على أنفسِهم من إيثارِ المتاعِ الفانِي عن قريبٍ على النعيمِ الخالدِ وعللَ وذلكَ بإجرامِهم دلالةً على أنّ كلَّ مجرمٍ مآلُهُ هَذا ، وقيلَ : هو كلامٌ متسأنفٌ خُوطبَ به المكذبونَ في الدُّنيا بعدَ بيانِ مآلِ حالِهم وقررَ ذلكَ بقولِه تعالى :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لزيادةِ التوبيخِ والتقريعِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا ﴾ أي أطيعُوا اللهَ واخشعُوا وتواضعُوا له بقبولِ وحيِهِ واتباعِ دينِهِ وارفضُوا هذا الاستكبارَ والنخوةَ ﴿ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ لا يخشعُون ولا يقبلُون ذلكَ ويصرونَ على ما هُم عليهِ من الاستكبارِ ، وقيلَ : إذَا أُمروا بالصَّلاةِ أو الركوعِ لا يفعلونَ إذْ رُويَ أنه نزلَ حينَ أُمرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ثقيفاً بالصَّلاةِ فقالُوا لا نَجبى فإنَّها مسبَّةٌ علينا فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " لا خيرَ في دينٍ ليس فيه ركوعٌ ولا سجودٌ " وقيلَ : هُو يومَ القيامةِ حينَ يُدعونَ إلى السجودِ فَلا يستطيعونَ .

(23/797)

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وفيه دلالةٌ على أنَّ الكفارَ مخاطبونَ بالفروعِ في حقِّ المؤاخذةِ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ أي بعدَ القرآنِ الناطقِ بأحاديثَ الدارينِ وأخبارِ النشأتينِ على

نمطٍ بديعٍ مُعجزٍ مؤسسٍ على حججٍ قاطعةٍ وبراهينَ ساطعةٍ . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذَا لمْ يُؤمنُوا بِهِ . وقُرِىءَ تُومنونَ على الخطابِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(24/797)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المتقين ﴾

من الكفر والتكذيب لوقوعه في مقابلة المكذبين بيوم الدين فيشمل عصاة المؤمنين ﴿ فِى ظلال ﴾ جمع ظل ضد الضح وهو أعم من الفيء فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ولا يقال الفىء إلا لما زال عنه الشمس ويعبر به أيضاً عن الرفاهة وعن العزة والمناعة وعلى هذا المعنى حمل الراغب ما في الآية والمتبادر منه ما هو المعروف ويؤيده ما تقدم في المقابل ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ [المرسلات : 30] الخ وقراءة الأعمش في ظلل جمع ظلة وأياً ما كان فالمراد من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِى ظلال ﴾ ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ .

﴿ وفواكه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ إنهم مستقرون في فنون الترفه وأنواع التنعم .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ مقدر بقول هو حال من ضمير ﴿ المتقين ﴾ في

الخبر كأنه قيل مستقرون في ذلك مقولاً لهم كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون في الدنيا من العمل الصالح بالإيمان وغير ذلك .

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ لاجزاء أدنى منه والمراد بالمحسنين المتقون السابق ذكرهم إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير مدحاً لهم بصفة الإحسان أيضاً مع الإشعار بعلة الحكم وجوز أن يراد بالمتقين والمحسنين الصالحون من المؤمنين ولا دليل فيه للمعتزلة على خلود العصاة أهل الكبائر في النار وغاية الأمر عدم التعرض لحالهم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث نال أعداؤهم هذا الثواب العظيم وهم بقوا في العذاب الأليم .

﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ حال من المكذبين على ما ذهب إليه غير واحد من الأجلة أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تذكيراً لما كان يقال لهم في الدنيا ولما كانوا أحقاء بأن يخاطبوا به حيث تركوا الحظ الكثير إلى النزر الحقير فيفيد التحسير والتخسير وعلى طريقته قوله

: إخوتى لا تبعدوا أبدا . . .

وبلى والله قد بعدوا

فهو دعاء لإخوته بعدم الهلكة بعد هلاكهم تقريراً بأنهم كانوا أحقاء بذلك الدعاء في حياتهم وأن هلاكهم لحينونة الأجل المسمى لا لأنهم كانوا أحقاء بالدعاء عليهم وذهب أبو حيان إلى أنه كلام مستأنف خوطب به المكذبون في الدنيا والأمر فيه أمر تحسير وتهديد وتخسير ولم يعتبر التهديد على الأول لأنه غير مقصود في الآخرة ورجح بأنه أبعد من التعسف وأوفق لتأليف النظم وفيه نظر والظاهر أن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ الخ في موضع التعليل وفيه دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتع أيام قليلة ثم يبقى في عذاب وهلاك أبداً .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا ﴾ أي أطيعوا الله تعالى واخشعوا وتواضعوا له عز وجل بقبول وحيه تعالى واتباع دينه سبحانه وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة ﴿ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على ما هم عليه من الاستكبار وقيل أي إذا أمروا بالصلاة أو بالركوع فيها لا يفعلون إذ روي عن مقاتل أن الآية نزلت في ثقيف قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام حط عنا الصلاة فإنا لا نجبي فإنها مسبة علينا فقال عليه الصلاة والسلام : "لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود" ورواه أيضاً أبو داود والطبراني وغيرهما وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال هذا يوم القيامة يدعون إلى السجود فلا

يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا واتصال الآية على ما نقل عن الزمخشري بقوله تعالى : ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كأنه قيل ويل يومئذٍ للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون وجوز أن يكون أيضاً بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات : 46] على طريقة الالتفات كأنه قيل هم أحقاء بأن يقال لهم كلوا وتمتعوا ثم علل ذلك بكونهم مجرمين وبكونهم إذا قيل لهم صلوا لا يصلون واستدل به على أن الأمر للوجوب وأن الكفار مخاطبون بالفروع .

(26/797)

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ أي بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع معجز مؤسس على حجج قاطعة وبراهين ساطعة ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ لم يؤمنوا به والتعبير ببعده دون غيره للتنبيه على أنه لا حديث يساويه في الفضل أو يدانيه فضلاً أن يفوته ويعاليه فلا حديث أحق بالإيمان منه فالبعدية للتفاوت في الرتبة كما قالوا في ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : 13] وكان الفاء لما أن المعنى إذا كان الأمر كذلك وقد اشتمل القرآن على البيان الشافي والحق الواضح فما بالهم لا يبادرون الإيمان به قبل الفوت وحلول الويل وعدم الانتفاع بعسى ولعل وليت وقرأ يعقوب وابن عامر

في رواية تؤمنون على الخطاب هذا ولما أوجز في سورة الإنسان في ذكر أحوال الكفار في الآخرة وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها عكس الأمر في هذه السورة فوقع الاعتدال بذلك بين هذه السورتين والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 29 صـ ﴾

(27/797)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ ﴾

هو بتقدير القول ، أي : يقال لهم توبيخاً وتقريعاً : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا ، تقول لهم ذلك خزنة جهنم ، أي : سيروا إلى ما كنتم تكذبون به من العذاب ، وهو عذاب النار ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ أي : إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ، ثم افترق ثلاث فرق تكونون فيه حتى يفرغ الحساب .

وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً .

قرأ الجمهور : ﴿ انطلقوا ﴾ في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد ، وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني ، أي : لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك ، فانطلقوا .

وقيل : المراد بالظل هنا هو السرادق ، وهو لسان من النار يحيط بهم .

ثم يتشعب ثلاث شعب ، فيظلهم حتى يفرغ من حسابهم ، ثم يصيرون إلى النار .

وقيل : هو الظلّ من يحموم ، كما في قوله : ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 42 ، 43] على ما تقدم .

ثم وصف سبحانه هذا الظلّ تهكماً بهم فقال : ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ أي : لا يظل من الحرّ ، ولا يغني من اللهب .

قال الكلبي : لا يردّ حرّ جهنم عنكم .

ثم وصف سبحانه النار فقال : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ أي : كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها ، والشرر : ما تطاير من النار متفرّقاً ، والقصر : البناء العظيم .

وقيل : القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل حمر وحمرة ، وتمر وتمرة ، وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ .

قال سعيد بن جبير ، والضحاك : وهي أصول الشجر العظام .

وقيل : أعناقه .

قرأ الجمهور : ﴿ كالقصر ﴾ بإسكان الصاد ، وهو واحد القصور ، كما تقدّم .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد ، والسلمي بفتح الصاد ، أي : أعناق النخل ، والقصرة

العنق جمعه قصر وقصرات .

وقال قتادة : أعناق الإبل .

(28/797)

وقرأ سعيد بن جبير بكسر القاف ، وفتح الصاد ، وهي أيضاً جمع قصرة مثل بدر وبدرة ، وقصع وقصعة .

وقرأ الجمهور : ﴿ بشرر ﴾ بفتح الشين .

وقرأ ابن عباس ، وابن مقسم بكسرها مع ألف بين الراءين .

وقرأ عيسى كذلك إلاّ أنه يفتح الشين ، وهي لغات ، ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال : ﴿ كَأَنَّهُ جمالة صُفْرٌ ﴾ وهي جمع جمال ، وهي الإبل ، أو جمع جمالة .

قرأ الجمهور : " جمالات " بكسر الجيم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص : ﴿ جمالة ﴾ جمع جمل .

وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وابن جبير ، وقتادة ، وأبو رجاء : (جمالات) بضم الجيم ، وهي حبال السفن .

قال الواحدي : والصفر معناها السود في قول المفسرين .

قال الفرّاء : الصفر سواد الإبل لا يرى أسود من الإبل إلاّ وهو مشرب صفرة ، لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً .

قيل : والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود ، ومنه قول الشاعر :

تلك خيلي وتلك ركابي . . . هنّ صفر أولادها كالزبيب

أي : هنّ سود .

قيل : وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل ، فينسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قال بهذا ، وقد قال تعالى : ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ .

وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور ، فهي مضيئة ، فلما خلق الله جهنم ، وهي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار ، وبعث إليها سلطانه وغضبه ، فاسودّت من سلطانه وازدادت سواداً ، وصارت أشدّ سواداً من كل شيء ، فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت : وهذا الجواب لا يدفع ما قاله القائل ؛ لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراء ، فلو كان الأمر ، كما ذكره المجيب من اسوداد النار ، واسوداد شررها ، لقال الله : كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمي الأسود أصفر لم

يبق إشكال ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ، فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الاستعمال العربي .

(29/797)

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لرسل الله وآياته ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ أي : لا يتكلمون :

قال الواحدي : قال المفسرون : في يوم القيامة مواقف ، ففي بعضها يتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدّمنا الجمع بهذا في غير موضع .

وقيل : إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون ؛ لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت .

وقال الحسن : لا ينطقون بحجة ، وإن كانوا ينطقون .

قرأ الجمهور : برفع ﴿ يوم ﴾ على أنه خبر لإسم الإشارة .

وقرأ زيد بن عليّ ، والأعرج ، والأعمش ، وأبو حيوة ، وعاصم في رواية عنه بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ، ومحله الرفع على الخبرية .

وقيل : هو منصوب على الظرفية ، والإشارة بهذا إلى ما تقدّم من الوعيد ؛ كأنه قيل : هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يؤذن

﴿ على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن عليّ : (ولا يأذن) على البناء للفاعل ، أي : لا يأذن الله لهم ، أي : لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن كما لو نصب .

قال الفرّاء : الفاء في فيعتذرون نسق على يؤذن ، وأجيز ذلك ؛ لأن أواخر الكلام بالنون ، ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال : ﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر : 36] بالنصب ، والكل صواب .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بما دعتهم إليه الرسل ، وأنذرتهم عاقبته .

﴿ هذا يَوْمُ الفصل جمعناكم والاولين ﴾ أي : ويقال لهم : هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب في جمعناكم للكفار في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالأوّلين كفار الأمم الماضية .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ ﴾ أي : إن قدرتم على كيد الآن ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم .

(30/797)

قال مقاتل : يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم .

وقيل المعنى : فإن قدرتم على حرب فحاربون .

وقيل : إن هذا من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فيكون كقول هود : ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود : 55] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ لأنه قد ظهر لهم عجزهم ، وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا .

ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّ المتقين فِى ظلال وَعُيُونٍ ﴾ أي : في ظلال الأشجار وظلال القصور ، لا كالظلّ الذي للكفار من الدخان ، أو من النار كما تقدّم .

قال مقاتل ، والكلبي : المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله ؛ لأن السورة من أوّلها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم .

قال الرازي : فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض ، وإلاّ لتفككت السورة في نظمها وترتيبها ، وإنما يتمّ النظم بأن يكون الوعد للمؤمنين بسبب إيمانهم ، فأما جعله سبباً للطاعة فلا يليق بالنظم كذا قال والمراد بالعيون الأنهار ، وبالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك ، فالجملة مقدّرة بالقول ، وهي في محل نصب على الحال من ضمير المتقين ، والباء للسببية ، أي : بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي المحسنين في أعمالهم ، قرأ الجمهور .

﴿ في ظلال ﴾ .

وقرأ الأعمش ، والزهري ، وطلحة ، والأعرج : (في ظلل) جمع ظلة ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث صاروا في شقاء عظيم ، وصار المؤمنون في نعيم مقيم .

(31/797)

﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ الجملة بتقدير القول في محل نصب على الحال من المكذبين ، أي : الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تذكير لهم بحالهم في الدنيا ، أو يقال لهم هذا في الدنيا ، والمجرمون المشركون بالله ، وهذا وإن كان في اللفظ أمراً فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ كرّره لزيادة التوبيخ والتقريع .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ أي : وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون .

قال مقاتل : نزلت في ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بها فقالوا : لا ننحني ، فإنها مسبة علينا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا خير في دين

ليس فيه ركوع ولا سجود " وقيل : إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

وقيل : المعنى بالركوع : الطاعة والخشوع .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : فبأيّ حديث بعد القرآن يصدّقون إذا لم يؤمنوا به .

قرأ الجمهور : ﴿ يؤمنون ﴾ بالتحتية على الغيبة .

وقرأ ابن عامر في رواية عنه ، ويعقوب بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ قال : كالقصر العظيم ، وقوله : ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ قال : قطع النحاس .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وهناد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس يسأل عن قوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ قال : كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقلّ ، فنرفعه للشتاء ، فنسميه القصر .

قال : وسمعته يسأل عن قوله : ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ قال : حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون كأوساط الرجال .

ولفظ البخاري : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر .

﴿ كَأَنَّهُ جمالة صُفْرٌ ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أنه قرأ : (كالقصر) بفتح القاف والصاد .

وقال قصر النخل يعني : الأعناق .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : كانت العرب في الجاهلية تقول : أقصروا لنا الحطب ، فيقطع على قدر الذراع والذراعين .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود في قوله : ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ قال : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ كالقصر ﴾ قال : هو القصر ، وفي قوله : ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ قال : الإبل .

وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال : سأل نافع ابن الأزرق ابن عباس عن قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ و ﴿ لا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾ [طه : 108] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الطور : 25] و ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19]

فقال له : ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي ؟ قال : لا ، قال : أما أنك لو كنت سألت هلكت ، أليس قال الله : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : 47] قال بلى ، قال : فإن لكل مقدار يوم من هذه الأيام لوناً من الألوان .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ يقول : يدعون يوم القيامة إلى السجود ، فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 359 . 361 ﴾

(33/797)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) ﴾

يجوز أن يكون هذا ختام الكلام الذي هو تقريع للمشركين حكي لهم فيه نعيم المؤمنين الذي لا يشاهده المشركون لبعدهم عن مكانه فيحكى لهم يومئذٍ فيما يقال لهم ليكون ذلك أشد حسرة عليهم وتنديماً لهم على ما فرطوا فيه مِمَا بَادر إليه المتقون المؤمنون ففازوا ، فيكون هذا من جملة القول الذي حذف فعله عند قوله : ﴿ انطلقوا ﴾ [المرسلات : 29] الخ .

ويجوز أن يكون هذا ابتداء كلام مستأنف انتقل به إلى ذكر نعيم المؤمنين المتقين تنويهاً بشأنهم

وتعريضاً بترغيب من المشركين الموجودين في الإقلاع عنه لينالوا كرامة المتقين .

و﴿ ظِلال ﴾ : جمع ظِلّ ، وهي ظلال كثيرة لكثرة شجر الجنة وكثرة المستظلّين بظلها ، ولأن لكل واحد منهم ظلاً يتمتع فيه هو ومَن إليه ، وذلك أوقع في النعيم .

والتعريف في ﴿ المتقين ﴾ للاستغراق فلكل واحد من المتقين كون في ظلال .

و﴿ في ﴾ للظرفية وهي ظرفية حقيقية بالنسبة للظلال لأن المستظل يكون مظروفاً في الظل ، وظرفية مجازية بالنسبة للعيون والفواكه تشبيهاً لكثرة مَا حولهم من العيون والفواكه بإحاطة الظروف ، وقوله : ﴿ مما يشتهون ﴾ صفة ﴿ فواكه ﴾ .

وجمع ﴿ فواكه ﴾ الفواكه وغيرها ، فالتبعيض الذي دلّ عليه حرف (من) تبعيض من أصناف الشهوات لا من أصناف الفواكه فأفاد أن تلك الفواكه مضمومة إلى ملاذ أخرى ممّا اشتهوه .

وجملة ﴿ كلوا واشربوا ﴾ مقول قول محذوف ، وذلك المحذوف في موقع الحال من ﴿ المتقين ﴾ ، والتقدير : مقولاً لهم كلوا واشربوا .

والمقصود من ذلك القول كرامتهم بعرض تناول النعيم عليهم كما يفعله المضيف لضيوفه فالأمر في ﴿ كلوا واشربوا ﴾ مستعمل في العَرض .

و﴿ هنيئاً ﴾ دُعاء تكريم كما يقال للشارب أو الطعام في الدنيا : هَنيئاً مريئاً ، كقوله تعالى : ﴿ فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ في سورة النساء (4) .

وهنيئاً ﴾ وصف لموصوف غيرِ مذكور دل عليه فعل ﴿ كلوا واشربوا ﴾ وذلك الموصوف مفعول مطلق من ﴿ كلوا واشربوا ﴾ مُبيّن للنوع لقصد الدعاء مثل : سَقْياً ورَعياً ، في الدعاء بالخير ، وتَبّاً وسُحْقاً في ضده .

والباء في ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ للسببية ، أي لإِفادة تسبب ما بعدها في وقوع متعلَّقه ، أي كلوا واشربوا بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة وذلك من إكرامهم بأنْ جعل ذلك الإِنعام حقاً لهم .

وجملة ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ يجوز أن تكون مما يقال للمتقين بعد أن قيل لهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ الخ مسوقة إليهم مساق زيادة الكرامة بالثناء عليهم ، أي هذا النعيم الذي أنعمتُ به عليكم هو سُنتنا في جزاء المُحسنين فإذْ قد كنتم من المحسنين فذلك جزاء لكم نِلتموه بأنكم من أصحاب الحق في مثله ، ففي هذا هَزٌّ من أعطاف المنعم عليهم .

والمعنى عليه : أن هذه الجملة تقال لكل متّق منهم ، أو لكل جماعة منهم مجتمعة على نعيم الجنة ، وليعلموا أيضاً أن أمثالهم في الجنات الأخرى لهم من الجزاء مثل ما هم ينعمون به .

ويجوز أن تكون الجملة موجهة إلى المكذبين الموجودين بعد أن وصف لهم ما ينعم به المتقون

إثر قوله ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ الخ ، قصد منها التعريض بأنّ حرمانهم من مثل ذلك النعيم هم الذين قضوا به على أنفسهم إذ أبوا أنْ يكونوا من المحسنين تكملة لتنديمهم وتحسيرهم الذي بودئوا به من قوله : ﴿ إنّ المتقين في ظلال وعيون ﴾ إلى آخره ، أي إنا كذلك نجزي المحسنين دون أمثالكم المسيئين .

(35/797)

وموقع الجملة على كلا الاعتبارين موقع التعليل لما قبلها على كلا التقديرين فيما قبلها ، ومن أجْل الإشعار بهذا التعليل افتُتحت بـ ﴿ إنَّ ﴾ مع خلو المقام عن التردد في الخبر إذ الموقف يومئذٍ موقف الصدق والحقيقة ، فلذلك كانت ﴿ إنَّ ﴾ متمحضة لإفادة الاهتمام بالخبر وحينئذٍ تصير مُغنية غناء فَاء التسبب وتفيد مُفاد التعليل والربط كما تقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى : ﴿ إن البَقر تشابه علينا ﴾ [البقرة : 70] وتفصيلَه عند قوله : ﴿ إنَّ أول بيت وُضِع للنَّاس للذي ببكة ﴾ في سورة آل عمران (96) .

والإشارة بقوله : كذلك ﴾ إلى النعيم المشاهد إن كانت الجملة التي فيها إشارة موجهة إلى ﴿ المتقين ﴾ ، أو الإشارة إلى النعيم الموصوف في قوله : ﴿ في ظِلال وعيون ﴾ إن كانت الجملة المشتملة على اسم الإشارة موجهة إلى المكذبين .

والجملة على كل تقدير تفيد معنى التذييل بما اشتملت عليه من شبه عموم كذلك ، ومن عموم المحسنين ، فاجتمع فيها التعليل والتذييل .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45)

هي على الوجه الأول في جملة ﴿ إنَّ المتقين في ظِلال وعيون ﴾ [المرسلات : 41] تكرير لنظائرها واليوم المضاف إلى (إذْ) ذاتِ تنوين العوض هو يوم صدور تلك المقالة .

وأما على الوجه الثاني في جملة ﴿ إن المتقين في ظِلال وعيون ﴾ [المرسلات : 41] الخ فهي متصلة بتلك الجملة لمقابلة ذكر نعيم المؤمنين المُطْنَب في وصفه بذكر ضده للمشركين بإيجاز حاصل من كلمة ﴿ ويل ﴾ لتحصل مقابلة الشيء بضده ولتكون هذه الجملة تأكيداً لنظائرها ، واليوم المضاف إلى (إذ) يومٌ غير مذكور ولكنه مما يقتضيه كون المتقين في ظِلال وعيون وفواكه ليعلم بأن ذلك يكون لهم في يوم القيامة .

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46)

(36/797)

خطاب للمشركين الموجودين الذين خوطبوا بقوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ [المرسلات : 7] ، وهو استئناف ناشىء عن قوله : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ [

المرسلات : 44] إذ يثير في نفوس المكذبين المخاطبين بهذه القوارع ما يكثر خطوره في نفوسهم من أنهم في هذه الدنيا في نعمة محققة وأن ما يُوعدون به غير واقع فقيل لهم : ﴿ كلوا وتمتّعوا قليلاً ﴾ .

فالأمر في قوله : ﴿ كلُوا وتمتَّعوا ﴾ مستعمل في الإمهال والإنذار ، أي ليس أكلكم وتمتعكم بلذات الدنيا بشيء لأنه تمتع قليل ثم مأواكم العذاب الأبدي قال تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبيس المهاد ﴾ [آل عمران : 196 ، 197] .

وجملة ﴿ إنكم مجرمون ﴾ خبر مستعمل في التهديد والوعيد بالسوءِ ، أي إن إجرامكم مُهْوٍ بكم إلى العذاب ، وذلك مستفاد من مقابلة وصفهم بالإجرام بوصف ﴿ المتقين ﴾ [المرسلات : 41] بالإحسان إذ الجزاء من جنس العمل ، فالجملة واقعة موقع التعليل .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) لرد إنكارهم كونَهم مجرمين .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47)

هو مثل نظيره المذكور ثانياً في هذه السورة .

ويزيد على ذلك بأن له ارتباطاً خاصاً بجملة ﴿ كُلوا وتمتعوا قليلاً ﴾ [المرسلات : 46] لما في ﴿ تمتّعوا قليلاً من الكناية عن ترقب سوء عاقبة لهم فيقع قوله : ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ موقع البيان لتلك الكناية ، أي كلوا وتمتعوا قليلاً الآن وويل لكم يوم القيامة .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48)

يجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ للمكذبين ﴾ [المرسلات : 47] ، والتقدير : والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، فإن (آل) الداخلة على الأوصاف المشتقة بمنزلة اسم الموصول غالباً ، ولذلك جعلها النحاة في عداد أسماء الموصول وجعلوا الوصف الداخلة عليه صلةً لها .

(37/797)

ويجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ كُلوا وتمتعوا قليلاً ﴾ [المرسلات : 46] والانتقال من الخطاب إلى الغيبة التفات .

وعلى كلا الوجهين فهو من الإدماج لينعى عليهم مخالفتهم المسلمين في الأعمال الدالة على الإيمان الباطنِ فهو كناية عن عدم إيمانهم لأن الصلاة عماد الدين ولذلك عُبر عن المشركين بـ ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ [الماعون : 5] .

والمعنى : إذا قيل لهم آمنوا واركعوا لا يؤمنون ولا يَركعون كما كني عن عدم الإيمان لما حكي عنهم في الآخرة ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نكُ من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ [المدثر : 42 44] إلى آخره .

ويجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ إنكم مجرمون ﴾ [المرسلات : 46] .

وعلى الوجوه كلها يفيد تهديدهم لأنه معطوف على التكذيب أو على الإِجرام ، وكلاهما سبب للتهديد بجزاء السوء في يوم الفصل .

وليس في الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لعدم تعيُّن معنى المصلين للذين يقيمون الصلاة .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49)

هذه الجملة مثل نظيرها الموالِيةِ هي له ، إذ يجوز أن تكون متصلة بقوله : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ [المرسلات : 48] ويكون التعبير بـ (المكذبين) إظهاراً في مقام الإِضمار لقصد وصفهم بالتكذيب .

والتقدير : ويل يومئذٍ لهم أو لكم فهي تهديد ناشىء عن جملة ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويكون اليوم المشار إليه بيومئذٍ ﴾ الزمان الذي يفيده ﴿ إذا ﴾ من قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا الذي يُجازى فيه بالويل للمجرمين الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، أي لا يؤمنون ، وتفيد مع ذلك تقريراً وتأكيداً لنظيرها المذكور ثانياً في هذه السورة .

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

الفاء فصيحة تنبىء عن شرط مقدر تقديره : إن لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعده يؤمنون ، وقد دل على تعيين هذا المقدَّر ما تكرر في آيات ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ [المرسلات : 49] فإن تكذيبهم بالقرآن وما جاء فيه من وقوع البعث .

والاستفهام مستعمل في الإِنكار التعجيبي من حالهم ، أي إذا لم يصدقوا بالقرآن مع وضوح حجته فلا يؤمنون بحديث غيره .

والمقصود أن القرآن بالغ الغاية في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعونه عقب ذلك .

وقوله : ﴿ بعده يجوز أن يجعل صفةَ حديث فهو ظرف مستقِرّ ، والمراد بالبعدية : تأخر الزمان ، ويقدر معنى بالغ أو مسموع بعد بلوغ القرآن أو سماعه سواء كان حديثاً موجوداً قبل نزول القرآن ، أو حديثاً يوجد بعد القرآن ، فليس المعنى إنهم يؤمنون بحديث جاء قبلَ القرآن مثل التوراة والإِنجيل وغيرهما من المواعظ والأخبار ، بل المراد أنهم لا يؤمنون بحديث غيره بعدَ أن لم يؤمنوا بالقرآن لأنه لا يقع إليهم كلام أوضح دلالة وحجة من القرآن .

ويجوز أن يكون بعده ﴾ متعلقاً بـ ﴿ يؤمنون ﴾ فهو ظرف لغو ويبقى لفظ ﴿ حديث ﴾ منفياً بلا قيد وصفِ أنه بعد القرآن ، والمعنى : لا يؤمنون بعد القرآن بكل حديث .

وضمير ﴿ بعده ﴾ عائد إلى القرآن ولم يتقدم ما يدل عليه في هذه السورة ليكون معاداً

للضمير ولكنه اعتبر كالمذكور لأنه ملحوظ لأذهانهم كل يوم من أيام دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم به .

وتقدم نظير هذه الآية في أواخر سورة الأعراف فضمه إلى ما هنا .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ بعده ﴾ عائداً إلى القول المأخوذ من ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ [المرسلات : 48] فإن أمرهم بالركوع الذي هو كناية عن الإِيمان كان بأقوال القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 29 صـ ﴾

(39/797)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة المرسلات بمكة .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة والمرسلات عرفاً

، فإنه يتلوها وإني لألقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها إذا وثبت عليه حية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اقتلوها فابتدرناها فذهبت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وقيت شركم كما وقيتم شرها " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " نزلت ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ نحو ليلة الحية . قالوا وما ليلة الحية ؟ قال : خرجت حية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اقتلوها ، فتغيبت في حجر . فقال : دعوها فإن الله وقاها شركم كما وقاكم شرها " .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار فنزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فأخذتها من فيه وإن فاه لرطب بها فلا أدري بأيها ختم ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أو ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ فقالت : يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغرب .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عبد العزيز أبي سكين قال : أتيت أنس بن مالك فقلت : أخبرني عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بنا الظهر وقرأ قراءة همساً بالمرسلات والنازعات وعم يتساءلون ونحوها من السور .

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : هي الملائكة ، أرسلت بالمعروف .

(40/797)

وخرج ابن جرير من طريق مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرياح ثمان : أربع منها عذاب ، وأربع منها رحمة ، فالعذاب منها العاصف والصرصر والعقيم والقاصف ، والرحمة منها الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . فيرسل الله المرسلات فتثير السحاب ، ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب ، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب ، فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر ، وهي اللواقح ، ثم يرسل الناشرات فتنشر ما أراد " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق أبيّ العبيدين أنه سأل ابن مسعود ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ قال : الريح ﴿ والناشرات نشراً ﴾ قال : الريح ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ قال : حسبك .

وأخرج ابن راهويه وابن المنذر وعبد بن حميد والبيهقي في الشعب والحاكم وصححه عن خالد بن عرعرة رضي الله عنه قال : قام رجل إلى عليّ فقال : ما العاصفات عصفاً . قال : الرياح .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ قال : الملائكة ، فرقت بين الحق والباطل ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ قال : الملائكة بالتنزيل .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ قال : الريح ﴿ والناشرات نشراً ﴾ قال : الريح .

(41/797)

وأخرج عبد الرزاق وعبد حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : هي الريح ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ قال : هي الريح ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾

يعني القرآن ما فرق الله به بين الحق والباطل ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ هي الملائكة تلقي الذكر على الرسل ، وتلقيه الرسل على بني آدم عذراً أو نذراً . قال : عذراً من الله ونذراً منه إلى خلقه .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن جرير عن مسروق ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن الشيخ في العظمة وابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : هي الرسل ترسل بالمعروف ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ قال : الريح ﴿ والناشرات نشراً ﴾ قال : المطر ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ قال : الرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من وجه آخر عن أبي صالح ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال : الملائكة يجيئون بالأعارف ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ قال : الريح العواصف ﴿ والناشرات نشراً ﴾ قال : الملائكة ينشرون الكتب ﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ قال : الملائكة يفرقون بين الحق والباطل ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ قال : الملائكة يجيئون بالقرآن والكتاب عذراً من الله أو نذراً منه إلى الناس وهم الرسل يعذرون وينذرون .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء والحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أنزل القرآن بالتفخيم . قال عمار بن عبد الملك

: كهيئته عذراً ونذراً والصدفين وألا له الخلق والأمر وأشباه هذا في القرآن " .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ قال : تطمس فيذهب نورها .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ قال : وعدت .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ أقتت ﴾ قال : أجلت .

(42/797)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ أقتت ﴾ قال : جمعت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ ليوم الفصل ﴾ قال : يوم يفصل الله فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة وإلى النار ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ قال : يعظهم بذلك ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ قال : ويل لهم والله ويلاً طويلاً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود قال : ويل واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار فجعل للمكذبين والله أعلم .

أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ يعني بالمهين الضعيف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ من ماء مهين ﴾ قال : ضعيف في قرار مكين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ قال : فملكنا فنعم المالكون .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ قال : فخلقنا فنعم المالكون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عليّ عن ابن عباس ﴿ كفاتاً ﴾ قال : كنا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً ﴾ قال : تكفتهم أمواتاً وتكف إذا هم أحياء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في سننه عن ابن مسعود أنه أخذ قملة فدفنها في المسجد ، ثم قرأ ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ كفاتاً ﴾ قال : تكفت الميت ولا يرى منه

شيء ، وقوله : ﴿ أحياء ﴾ الرجل في بيته لا يرى من عمله شيء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس ﴿ رواسي ﴾ جبالاً شامخات مشرفات ﴿ فراتاً ﴾ عذباً ﴿ بشرر كالقصر ﴾ قال : كالقصر العظيم ﴿ جمالات صفر ﴾ قال : قطع النحاس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ظل ذي ثلاث شعب ﴾ دخان جهنم .

(43/797)

وأخرج عبد الرزاق عن الكلبي في قوله : ﴿ ظل ذي ثلاث شعب ﴾ قال : هو كقوله : ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ [الكهف : 29] والسرادق الدخان ، دخان النار ، فأحاط بهم سرادقها ، ثم تفرق فكان ثلاث شعب ، شعبة ههنا ، وشعبة ههنا ، وشعبة ههنا .

وأخرج ابن جرير عن قتادة مثله .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي والبخاري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم من طريق عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس يسأل عن قوله : ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ قال : كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل ، فنرفعه

للشتاء فنسميه القصر . قال : وسمعته يسأل عن قوله تعالى : ﴿ جمالات صفر ﴾ قال : حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأها ﴿ كالقصر ﴾ بفتح القاف والصاد . قال : قصر النخل يعني الأعناق ، وكان يقرأ ﴿ جمالات ﴾ بضم الجيم .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس ﴿ كالقصر ﴾ قال : كجذور الشجر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت العرب تقول في الجاهلية : اقصروا لنا الحطب ، فيقطع على قدر الذراع والذراعين .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ترمي بشرر كالقصر ﴾ قال : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ كالقصر ﴾ قال : هو القصر ﴿ كأنه جملات صفر ﴾ قال : الإِبل .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عن الحسن في قوله : ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال : الصفر السود ، وفي قوله : ﴿ جمالات صفر ﴾ قال : هو الجسر ، وفي لفظ قال : الجبال .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ كالقصر ﴾ قال : مثل قصر النخلة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في الآية ، قال : القصر أصول الشجر العظام كأنها أجواز الإبل الصفر . قال ابن جرير : وسط كل شيء جوزة .

وأخرج ابن جرير عن هارون قال : قرأها الحسن ﴿ القصر ﴾ بجزم الصاد ، وقال : هو الجزل من الخشب .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال : كالنوق السود .

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ يقول : قطع النحاس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ كالقصر ﴾ قال : حزم الشجر وقطع النخل ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال : جبال الجسور .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ كالقصر ﴾ قال : أصول الشجر وأصول النخل ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال : كأنه نوق سود .

وأخرج عبد حميد عن عكرمة أنه كان يقرأ ﴿ كالقصر ﴾ قال : كقطعة النخلة الجادرة ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال : القلوص .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الصامت قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أرأيت قول الله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ قال : إن يوم القيامة يوم له حالات وتارات في حال لا ينطقون ، وفي حال ينطقون ، وفي حال يعتذرون ، لا أحدثكم إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ينزل الجبار في ظلل من الغمام ، وكل أمة جاثية في ثلاث حجب مسيرة كل حجاب خمسون ألف سنة ، حجاب من نور ، وحجاب بن ظلمة ، وحجاب من ماء ، لا يرى لذلك فيأمر بذلك الماء فيعود في تلك الظلمة ، ولا تسمع نفس ذلك القول إلا ذهبت فعند ذلك لا ينطقون " .

(45/797)

وأخرج الحاكم وصححه من طريق عكرمة قال : سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ و ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ [طه : 108] و ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الصافات : 27] و ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] فما هذا ؟ قال : ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي ؟ قال : لا . قال : إنك لو كنت سألت هلكت ، أليس قال الله تعالى : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ [الحج : 47] قال : بلى . قال : وإن لكل مقدار يوم من الأيام لوناً من الألوان .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أنه سئل عن قوله : ﴿ يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال : ألا أخبركم بأشد مما تسألون عنه ؟ قال ابن عباس ، وذكر ﴿ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : 39] ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ [الحجر : 92] و ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ قال ابن عباس : إنها أيام كثيرة في يوم واحد فيصنع الله فيها ما يشاء ، فمنها يوم لا ينطقون ، ومنها يوم عبوساً قمطريراً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الضحى أن نافع بن الأزرق وعطية أتيا ابن عباس فقالا : يا ابن عباس أخبرنا عن قول الله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ وقوله : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر : 31] وقوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 6] وقوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ [النساء : 42] قال : ويحك يا ابن الأزرق إنه يوم طويل وفيه مواقف تأتي عليهم : ساعة لا ينطقون ، ثم يؤذن لهم فيختصمون ، ثم يمكثون ما شاء الله يحلفون ويجهدون ، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم ويأمر جوارحهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا ، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا . قال : ذلك قوله : ﴿ ولا يكتمون حديثاً ﴾ .

(46/797)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي عبد الله الجدلي قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ، وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الناس في صعيد واحد فينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ويقول الله ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ اليوم لا ينجو مني جبار ولا شيطان مريد ، فقال عبد الله بن عمرو : إنا نجد في الكتاب أنه يخرج يومئذ عنق من النار فينطلق معنقاً حتى إذا كان بين ظهراني الناس قال : يا أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة أنا أعرف بهم من الوالد بولده ومن الأخ بأخيه ، لا يغنيهم مني وزر ، ولا تخفيهم مني خافية : الذي يجعل مع الله إلهاً آخر ، وكل جبار عنيد ، وكل شيطان مريد . قال : فينطوي عليهم فيقذفهم في النار قبل الحساب بأربعين . إما قال يوماً وإما عاماً . قال : ويهرع قوم إلى الجنة فتقول لهم الملائكة : قفوا للحساب . فيقولون : والله ما كانت لنا أموال ، وما كنا بعمال . فيقول الله : صدق عبادي أنا أحق من أوفى بعهده ادخلوا الجنة . فيدخلون قبل الحساب بأربعين . إما قال يوماً وإما عاماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً ﴾ أي : لا موت .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً ﴾ قال : عنى بذلك أهل

الكفر .

وأخرج عبد حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ قال : نزلت في ثقيف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا ﴾ قال : صلوا .

(47/797)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا ﴾ قال : عليكم بإحسان الركوع فإن الصلاة من الله بمكان . قال : وذكر لنا أن حذيفة رأى رجلاً يصلي ولا يركع كأنه بعير نافر . قال : لو مات هذا ما مات على شيء من سنة الإِسلام . قال : وحدثنا أن ابن مسعود رأى رجلاً يصلي ولا يركع وآخر يجر إزاره ، فضحك ، قالوا : ما يضحكك يا ابن مسعود ؟ قال : أضحكني رجلان أحدهما لا ينظر الله إليه ، والآخر لا يقبل الله صلاته . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ يقول : يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا

يسجدون لله في الدنيا والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 380 .

388 ﴾

(48/797)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

قال الكلبي ، ومقاتل يعني : الملائكة أرسلوا بالمعروف .

ويقال : كثرتها لها عرف كعرف الفرس .

وقال أهل اللغة : ويحتمل وجهين ، أحدهما : أنها متتابعة بعضها في إثر بعض ، وهو مشتق من عرف الفرس .

ووجه آخر : أنه يرسل بالعرف ، أي : بالمعروف .

وروى سفيان ، عن سلمة بن كهيل ، عن مسلم البطين ، عن أبي عبيدة الساعدي قال : سألت عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنهما عن قوله : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ قال : الريح ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ قال : الريح ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ قال : الريح ﴿

فالفارقات فَرْقاً ﴾ قال : حسبك معناه ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ يعني : أرسل الرياح متتابعة كعرف الفرس ﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ يعني : الريح الشديدة التي تدر التراب بالبراري ، وسمي ريح عاصف ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ يعني : الريح التي تنشر السحاب . ويقال ﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ يعني : البعث يوم القيامة ، ويقال : الملائكة الذين ينشرون من الكتاب .

﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ يعني : القرآن فرق بين الحق والباطل .

ويقال : هو القبر فرق بين الدنيا والآخرة .

ويقال : آيات القرآن ، التي فيها بيان عقوبة الكفار .

﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ يعني : فالمنزلات وحياً ، وهم الملائكة ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ يعني : أنزل الوحي عذراً من الله تعالى من الظلم ، أو نذراً لخلقه من عذابه .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص ، بضم العين وجزم الذال ، أو نذراً بضم النون وجزم الذال .

والباقون بضم الحرفين في كليهما ، فمعناهما إنذار ، وهو جمع نذر يعني : لإنذار .

ومن قرأ بالجزم فمعناه كذلك ، وهو للتخفيف ، وإنما نصب عذراً أو نذراً ، لأنهما مفعولاً لهما فمعناه ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ للإعذار والإنذار .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لواقع ﴾ وهو جواب قسم .

أقسم الله تعالى بهذه الأشياء ، إن ما توعدون من أمر الساعة والبعث لواقع .

يعني : لكائن ولنازل .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ يعني : الموعد الذي يوعدون ، في اليوم الذي فيه طمست النجوم ، يعني : ذهب ضوءها ﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ يعني : انشقت من خوف الرحمن ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ يعني : قلعت من أصولها ، حتى سويت بالأرض ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ يعني : جمعت وروى منصور ، عن إبراهيم ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ قال : وعدت .

وقال مجاهد أي : أجلت .

قرأ أبو عمرو وقتت بغير همزة ، والعرب تقول صلى القوم إحداناً ووحداناً ، ومعناهما واحد ، يعني : يجعل لها وقتاً واحداً .

وقيل : جمعت لوقتها .

ثم قال : ﴿ لاَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ على وجه التعظيم ، يعني : لأي يوم أجلت الرسل ، ليشهدوا على قومهم .

ثم بين فقال : ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ يعني : أجلها ليوم الفصل وهو يوم القضاء ، ويقال : يوم الفصل يعني : يوم يفصل بين الحبيب والحبيبة وبين الرجل وأمه وأبيه وأخيه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ يعني : ما تدري أي يوم القضاء تعظيماً لذلك اليوم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : الشدة من العذاب في ذلك اليوم ، للذين أنكروا ، وجحدوا بيوم القيامة .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الاولين ﴾ يعني : ألم يهلك الله تعالى من كان قبلهم بتكذيبهم لأنبيائهم ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الاخرين ﴾ يعني : نهلك الآخرين يعني : إن كذبوا رسلهم ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ يعني : هكذا يفعل الله بالكفار ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : الذين كذبوا رسلهم ثم قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ يعني : من نطفة ، وهو ماء ضعيف ﴿ فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني : في رحم الأم .

﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني : إلى وقت معروف ، وهو وقت الخروج من البطن .

(50/797)

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ يعني : فخلقنا ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ يعني : نعم الخالق ، وهو أحسن الخالقين .

قرأ نافع ، والكسائي ﴿ فَقَدَّرْنَا ﴾ بتشديد الدال المهملة ، والباقون بالتخفيف ،

ومعناهما واحد .

يقال : قدرت كذا وكذا ، وقد يعني : خلقه في بطن الأم نطفة ، ثم علقة ثم مضغة .

يعني : قدرنا خلقه قصيراً وطويلاً ، فنعم القادرون .

يعني : فنعم ما قدر الله تعالى خلقهم ، ثم أخبرهم بصنعه ليعتبروا ، فيؤمنوا بالبعث ، وعرفوا الخلق الأول فقال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : الشدة من العذاب لمن رأى الخلق الأول ، فأنكر الخلق الثاني .

ويقال : فنعم القادرون ، يعني : نعم المقدرون .

ويقال : نعم المالكون .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً ﴾ يعني : أوعية للخلق .

ويقال : موضع القرار ، ويقال : بيوتاً ومنزلاً ﴿ أَحْيَاء وأمواتا ﴾ يعني : ظهرها منازل الأحياء ، وبطنها منازل الأموات .

وقال الأخفش : يعني : أوعية للأحياء والأموات .

وقال الشعبي : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحياءكم .

ويقال : يعني نظمكم فيها ، والكفت الضم ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعني : الجبال الثقال : ﴿ شامخات ﴾ يعني : عاليات طوالاً ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ يعني : ماءً عذباً من السماء ، ومن الأرض ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : ويل لمن عاين هذه الأشياء ،

وأنكر وحدانية الله تعالى والبعث .

ثم قال عز وجل : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يعني : يوم الفصل .

يقال لهؤلاء الذين أنكروا البعث ، انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون ، يعني : انطلقوا إلى العذاب .

(51/797)

ثم قال عز وجل : ﴿ انطلقوا إلى ظِلّ ذِى ثلاث شُعَبٍ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾

وذلك أنه يخرج عنق من النار ، فيحيط الكفار مثل السرادق ، ثم يخرج من دخان جهنم ظل أسود ، فيفرق فيهم ثلاث فرق رؤوسهم ، فإذا فرغ من عرضهم قيل لهم ﴿ انطلقوا إلى ظِلّ ذِى ثلاث شُعَبٍ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ ينفعهم ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ يعني : السرادق من لهب النار .

وقال القتبي : وذلك أن الشمس تدنو من رؤوسهم ، يعني : رؤوس الخلق أجمع ، وليس عليهم يومئذ لباس ، ولا لهم أكنان .

ينجي الله تعالى برحمته من يشاء إلى ظل من ظله .

ثم قال للمكذبين : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه ، انطلقوا إلى ظل ، أي : دخان من نار جهنم قد يسطع .

ثم افترق ثلاث فرق ، فيكونون فيه ، إلى أن يفرغ من الحساب ، كما يكون أوليائه في ظله .

ثم يؤمر لكل فريق إلى مستقره الجنة ، أو إلى النار .

ثم وصف الظل فقال ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ يعني : لا يظلكم من حر هذا اليوم ، بل يزيدكم من لهب النار ، إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ وهذا مثل قوله ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 43] وهو الدخان وهو سرادق أهل النار ، كما ذكر المفسرون .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ يعني : النار ترمي بشرر القصر .

قال الكلبي : يعني : يشبه القصر ، وهو القصور الأعاريب التي على الماء .

واحدهما عربة ، وهي الأرحية التي تكون على الماء ، تطحن الحنطة .

وقال مقاتل : القصور أصول الشجر العظام .

وقال مقاتل : إنها ترمي بشرر كالقصر .

أراد القصور من قصور أحياء العرب .

وقرأ بعضهم كالقصر بنصب الصاد شبه بأعناق النخل ، ثم شبه في لونه بالجمالات الصفر .

فقال : ﴿ كَأَنَّهُ جمالة صُفْرٌ ﴾ وهو أسود .

والعرب تسمي السود من الإبل الصفرُ ، لأنه يشوبه صفرة ، كما قال الأعشى

تِلْكَ خَيْلِي وَتِلْكَ منها رِكَابِي .

. . هُنَّ صَفْرٌ أَوْلادُهَا كالزِّبِيبِ

يعني : أسود ، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص : ﴿ جمالة صُفْرٌ ﴾ وهي جمع جمل يقال : جمل وجمال وجمالة وقرأ الباقون : ﴿ جمالات ﴾ وهو جمع الجمع وقال ابن عباس رضي الله عنه جمالات حبال السفينة يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون مثل أوساط الرجال ﴿ الفصل وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : ويل لمن جحد هذا اليوم بعد ما سمعه ثم قال عز وجل : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ يعني : لا يتكلمون وهذا في بعض أحوال يوم القيامة ومواضعها ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ يعني : لا يؤذن لهم في الكلام يعني : الكفار ليعتذروا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : ويل لمن جحد يوم القيامة وهو يقدر على الكلام في هذا اليوم يعني : كان في الدنيا يقدر على المعذرة فتركها ثم قال عز وجل : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ يعني : يوم القضاء ويقال : يوم الفصل يعني : بين أهل الجنة وبين أهل النار ﴿ جمعناكم والاولين ﴾ يعني : جمعناكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع من مضى قبلكم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ يعني : إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : ويل لمن أنكر قدرة الله والبعث والجمع يوم

القيامة ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ المتقين فِى ظلال وَعُيُونٍ ﴾ يعني : إن الذين يتقون الشرك والفواحش .

قال الكلبي : في ظلال الأشجار .

(53/797)

وقال مقاتل : يعني : في الجنان والقصور يعني : قصور الجنة وعيون يعني : أنهار جارية ﴿ وفواكه ﴾ يعني : وألوان الفواكه ﴿ مّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني : يتمنون ويقال لهم : ﴿ كُلُواْ ﴾ يعني : من الطعام ﴿ واشربوا ﴾ من الشراب ﴿ هَنِيئاً ﴾ يعني : سائغاً مريئاً لا يؤذيهم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : ثواباً لكم بما عملتم في الدنيا ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يعني : هكذا يثبت الله الموحدين المحسنين المؤمنين في أعمالهم وأفعالهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لّلْمُكَذّبِينَ ﴾ يعني : ويل لمن أنكر هذا الثواب ثم قال للمجرمين عز وجل : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً ﴾ يعني : كلوا في الدنيا كما تأكل البهائم وعيشوا مدة قليلة إلى منتهى آجالكم ﴿ إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ يعني : مشركين ، وهذا وعيد وتهديد ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لّلْمُكَذّبِينَ ﴾ يعني : لمن رضي بالدنيا ولا يقر بالبعث ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ يعني : اخضعوا لله تعالى بالتوحيد لا يخضعون ، ويقال : وإذا قيل لهم صلوا وأقروا بالصلاة

لا يركعون يعني : لا يقرون بها ولا يصلون .

يعني : ويل طويل لمن لا يقر بالصلاة ولا يؤديها وقال مقاتل : نزلت في ثقيف قالوا : أنحني في الصلاة لأنه مذلة علينا ثم قال عز وجل : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : إن لم يصدقوا به فبأي كلام يصدقون يعني : إن لم يصدقوا بالقرآن ولم يقروا به فبأي حديث يصدقون يعني : هذا الكلام لا باطل فيه يعني : لا حديث أصدق منه ولا دعوة أبلغ من دعوى النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 509.513 ﴾

(54/797)

وقال الثعلبى :

سورة المرسلات

﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

يعني الرياح بعضها بعضاً كعرف الفرس ، وقيل كثيراً . يقول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد إذا توجهوا إليه فأكثروا ، وهذا معنى قول مجاهد وقتادة ، ورواية أبي العبيد عن ابن مسعود ، والعوفي عن ابن عباس ، وقال أبو صالح ومقاتل : يعني الملائكة التي أرسلت

بالمعروف اسم واحد من أمر الله ونهيه ، وهي رواية مسروق عن ابن مسعود .

﴿ فالعاصفات عَصْفاً ﴾ يعني الرياح الشديدات الهبوب .

﴿ والناشرات نَشْراً ﴾ يعني الرياح اللينة وقال أبو صالح هي المطرق . قال الحسن : هي الرياح يرسلها الله نشراً بين يدي رحمته اقسم الله بالرياح ثلاث مرات ، مقاتل : هم الملائكة ينشرون الكتب .

﴿ فالفارقات فَرْقاً ﴾ قال ابن عباس وأبو صالح ومجاهد والضحاك : يعني الملائكة التي تفرّق بين الحقّ والباطل ، وقال قتادة والحسن وابن كيسان : يعني آي القرآن فرّقت بين الحلال والحرام ، وقيل : يعني السحابات الماطرة تشبيهاً بالناقة الفارق ، وهي الحامل التي تجزع حين تضع ، ونوق فراق .

﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ يعني الملائكة التي تنزل بالوحي نظيره قوله سبحانه : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح ﴾ [القدر : 4] . ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ يعني الأعذار والإنذار واختلف القرّاء فيهما فخففهما الأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي واختاره أبو عبيد قال : لأنهما في موضع مصدرين أنما هو الأعذار والإنذار وليس بجمع فيثقّلا ، وثقلهما الحسن ، وهي رواية الأعشى والجعفي عن أبي بكر عن عاصم ، والوليد عن أهل الشام ، وروح عن يعقوب الياقوت بتثقيل النذر وتخفيف العذر وهما لغتان ، وقرأ إبراهيم التيمي وقتادة ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ بالواو العاطفة ولم يجعلا ألف بينهما .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ محي نورها ، ﴿ وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ﴾ شقت ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ قلعت من أماكنها ، ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ جمعت لميقات يوم معلوم ، واختلف القراء فيه فقرأ ابو عمرو " وُقِّتَتْ " بالواو وتشديد القاف وعلى الأصل ، وقرأ أبو جعفر بالواو والتخفيف ، وقرأ عيسى بن عمر الثقفي : اقتت بالألف وتخفيف القاف ، وقرأ الآخرون بالألف والتشديد وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، والعرب تعاقب بين الواو والهمزة كقولهم وكّدت واكّرت وورّخت الكتاب وأرّخته وودّشت من القوم وأرّشت ووشاح وأشاح وأكاف ووكاف ووسادة وأسادة ، وقال النخعي : رعدت .

﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أي وقتت من الأجل وقيل : أخّرت ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ﴾ من الأمم المكذّبين في قديم الدهر ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب ، وقرأ الأعرج نتبعهم بالجزم وقرأ ابن مسعود سنتبعهم .

﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وهو وقت الولادة ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ قرأ عليّ والحسن والسلمي وطلحة وقتادة وأبو إسحاق وأهل المدينة وأيوب بالتشديد من التقدير وهي اختيار الكسائي ، وقرأ الباقون بالتخفيف من القُدرة واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ ويجوز أن يكون التشديد والتخفيف بمعنى واحد كقوله سبحانه وتعالى

(56/797)

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ﴾ [الواقعة : 60] فهي بالتخفيف والتشديد ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ وعاء ﴿ أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ﴾ تجمعهم أحياء على ظهرها فإذا ماتوا ضمتهم إليها في بطنها وقال [بنان الصفّار] : خرجنا في جبانة مع الشعبي فنظر إلى الجبانة فقال : هذه الأموات ، ثم نظر إلى البيوت فقال : هذه كفات الأحياء . وأصل الكفت : الجمع والضمّ ، وكانوا يسمّون بقيع الغرقد كفتة لأنه مقبرة تضمّ الموتى ، ومثّله قول النبي (عليه السلام) " خمروا آنيتكم وأوكوا أسقيتكم وأجيفوا الأبواب واطفئوا المصابيح واكفتوا صبيانكم فإنَّ للشيطان انتشاراً وخطفة " يعني بالليل ، ويقال للأرض : كافتة .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ عذباً ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ يعني دخان جهنم إذا ارتفع أشعب ، وقيل : أنها عنق يخرج من النار فينشعب ثلاث شعب فأمّا النور فيقف على رؤوس المؤمنين والدخان يقف على رؤس المنافقين واللهب الصافي يقف على رؤس الكافرين ، وقال مقاتل : هو السرادق والظل من يحموم .

﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ لا كنين ﴿ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب ﴾ إنّها يعني جهنم ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ ، وهي ما تطاير من النار إذا التهبت واحدتها شررة ﴿ كالقصر ﴾ وقرأ عيسى بشرار وهي لغة تميم وأحدها شرارة .

﴿ كالقصر ﴾ وقرأه العامّة بسكون الصاد ، وقال ابن مسعود : يعني الحصون والمدائن وهو واحد القصر وهي رواية الوالي عن ابن عباس قال : كالقصر العظيم ، وقال القرظي : إنّ على جهنم سوراً فما خرج من وراء السور مما يرجع إليه في عظم القصر ولون النار .

(57/797)

وروى سعيد عن عبد الرحمن بن عابس قال : سألت ابن عباس عن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ قال هي الخشب العظام المقطعة وكنا نعمد إلى الخشب فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندّخره للشتاء فكنّا نسمّيها القصر ، وقال مجاهد : هي حزم الشجر ، وقال سعيد ابن جبير والضحاك : هي أصول النخل والشجر العظام واحدتها قصرة مثل تمرة وتمر وجمر وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس : كالقصر بفتح الصاد أراد أعناق النخل ، والقصرة العنق وجمعها قصر وقصرات ، وقرأ سعيد بن جبير كالقصر بكسر القاف وفتح الصاد قال أبو حاتم : ولعله لغة ونظيرها في الكلام حاجة وحوج ، كأنه ردّ الكناية إلى اللفظ .

﴿ كَأَنَّهُ جمالت ﴾ قرأ ابن عباس جُمالات بضم الجيم كأنها جمع جماله وهي الشيء المجمّل ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف جمالة بكسر الجيم من غير ألف على جمع الجمل مثل حجر وحجارة ، وقرأ يعقوب جُمالة بضم الجيم من غير ألف أراد الأشياء العظام المجموعة ، وقرأ الباقون جمالات بالألف وكسر الجيم على جمع الجمال ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هي جبال السُفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال ، ﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع الأصفر يعني لون النار ، وقال بعض أهل المعاني : أراد سوداً ، لأنّ في الخبر أن شرر نار جهنم سود كالقير ، والعرب يسمي السود من الأبل صفراً ، وقال الشاعر :

تلك خيلي منه وتلك ركابي . . . هن صفراً أولادها كالزبيب

أي سوداً .

وإنّما سمّيت سود الإبل صفراً لأنه يشوب سوادها بشيء من صفرة ، كما قيل لبيض الظباء : ادمّ ، لأن بيضها يعلوه كدرة .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ رفع عطف على قوله ﴿ يُؤْذَنُ ﴾ .

(58/797)

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ قال أبو عثمان : أمسكتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب ، وقال الحسن : وهي عذر لمن أعرض عن مُنعمه وجحده وكفر بنعمه . ﴿ هذا يَوْمُ الفصل جَمَعْنَاكُمْ والأولين * فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * إِنَّ المتقين فِي ظِلاَلٍ ﴾ جمع الظل وقرأها الأعرج في ظُلل على جمع الظُلة ﴿ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ويقال لهم : ﴿ كُلُواْ واشربوا هنيائا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ مشركون مستخفون للعذاب ، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا ﴾ صلّوا ﴿ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ لا يصلّون ، قال مقاتل : " نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالصلاة فقالوا لا نحني فإنها مسبّة علينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود " ، وقال ابن عباس : إنما يقال لهم : هذا يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ أي بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به ، وقال أهل المعاني : ليس قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ تكراراً غير مفيد لأنه أراد بكلّ قول منه غير ما أراد بالقول الآخر كأنه ذكر شيئاً ثم قال : ويل للمكذّبين بهذا والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 108.113 ﴾

(59/797)

وقال الزمخشرى :

سورة المرسلات

مكية ، [إلا آية 48 فمدنية] وآياتها 50 [نزلت بعد الهمزة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المرسلات (77) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِراتِ نَشْراً (3) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً

(4)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6)

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة ، أرسلهنّ بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح ، تخففا في امتثال أمره ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي . أو نشرن الشرائع في الأرض . أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ، ففرّقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكرا إلى الأنبياء عُذْراً للمحقين أَوْ نُذْراً للمبطلين . أو أقسم برياح عذاب أرسلهن . فعصفن ، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجوّ ففرّقن بينه ، كقوله : وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً أو بسحائب نشرن الموات ، ففرّقن بين هن يشكر للّه تعالى وبين من يكفر ، كقوله لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ فألقين ذكرا إمّا عذرا للذين يعتذرون إلى اللّه بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة اللّه في الغيث ويشكرونها ، وإما إنذارا الذين يغفلون الشكر للّه وينسبون ذلك إلى الأنواء ، وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سببا في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت . فإن قلت : ما معنى عرفا ؟ قلت : متتابعة كشعر العرف «1» . يقال : جاءوا عرفا واحدا ، وهم عليه كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ، ويكون بمعنى العرف الذي هو نقيض النكر ، وانتصابه على أنه مفعول له ، أى : أرسلن للإحسان والمعروف ، والأول على الحال . وقرئ : عرفا على التثقيل ، نحو نكر في نكر . فإن قلت : قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب ، فكيف يكون إرسالهم معروفا ؟ قلت : إن لم يكن

معروفا للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم اللّه لهم منهم. فإن قلت: ما العذر والنذر، وبما انتصبا؟ قلت: هما مصدران من أعذر إذا محا الإساءة، ومن أنذر إذا خوّف على

---

(1). قوله «كشعر العرف» في الصحاح «العرف»: عرف الفرس. وقوله تعالى وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً يقال: هو مستعار من عرف الفرس، أى: يتتابعون كعرف الفرس. وفيه «تألبوا»: تجمعوا. (ع)

(60/797)

فعل، كالكفر والشكر، ويجوز أن يكون جمع عذير، بمعنى المعذرة، وجمع نذير بمعنى الإنذار.

أو بمعنى العاذر والمنذر. وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرا على الوجهين الأوّلين. أو على المفعول له. وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين. وقرئا: مخففين ومثقلين.

[سورة المرسلات (77): الآيات 7 إلى 15]

إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبالُ

نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11)

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

إن الذي توعدونه من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه ، وهو جواب القسم . وعن بعضهم : أن المعنى : ورب المرسلات طُمِسَتْ محيت ومحقت . وقيل : ذهب بنورها ومحق ذواتها ، موافق لقوله انْتَثَرَتْ وانْكَدَرَتْ ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور فُرِجَتْ فتحت فكانت أبوابا . قال الفارجى : باب الأمير المبهم نُسِفَتْ كالحب إذا نسف بالمنسف . ونحوه وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا ، وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا وقيل : أخذت بسرعة من أماكنها ، من انتسفت الشيء إذا اختطفته . وقرئت : طمست : وفرجت ونسفت مشدّدة . قرئ : أقتت . ووقتت ، بالتشديد والتخفيف فيهما . والأصل : الواو . ومعنى توقيت الرسل : تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم . والتأجيل : من الأجل ، كالتوقيت : من الوقت لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ تعظيم لليوم ، وتعجيب من هوله لِيَوْمِ الْفَصْلِ بيان ليوم التأجيل ، وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق . والوجه أن يكون معنى وقتت : بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره : وهو يوم القيامة . وأجلت : أخرت . فإن قلت : كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ؟ قلت : هو في أصله مصدر منصوب سادّ مسدّ فعله ، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه . ونحوه

سَلامٌ عَلَيْكُمْ ويجوز : ويلا ، بالنصب ، ولكنه لم يقرأ به . يقال : ويلا له ويلا كيلا .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 16 إلى 19]

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)

قرأ قتادة : نهلك ، بفتح النون ، من هلكه بمعنى أهلكه . قال العجاج :

ومهمه هالك من تعرّجا «1»

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ بالرفع على الاستئناف ، وهو وعيد لأهل مكة . يريد : ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم . ويقويها قراءة ابن مسعود . ثم سنتبعهم . وقرئ بالجزم للعطف على نهلك . ومعناه : أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ، ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى كَذلِكَ مثل ذلك الفعل الشنيع نَفْعَلُ بكل من أجرم إنذارا وتحذيرا من عاقبة الجرم وسوء أثره .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 20 إلى 24]

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22)

فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه اللّه وحكم به : وهو تسعة الأشهر ، أو ما دونها ، أو ما فوقها فَقَدَرْنا فقدّرنا ذلك تقديرا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ فنعم المقدّرون له نحن . أو فقدرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن ، والأوّل أولى لقراءة من قرأ : فقدّرنا بالتشديد ، ولقوله مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 25 إلى 28]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (25) أَحْياءً وَأَمْواتاً (26) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)

الكفات : من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه : وهو اسم ما يكفت ، كقولهم : الضمام والجماع لما يضم ويجمع ، يقال : هذا الباب جماع الأبواب ، وبه انتصب أَحْياءً وَأَمْواتاً كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتا . أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت . والمعنى : تكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتا في بطنها . وقد استدل بعض أصحاب الشافعي رحمه اللّه على قطع النباش بأنّ اللّه تعالى جعل الأرض كفاتا للأموات ، فكان بطنها حرزا لهم ، فالنباش سارق من الحرز .

فإن قلت : لم قيل أحياء وأمواتا على التنكير ، وهي كفات الأحياء والأموات جميعا ؟

قلت :

(1) ومهمه هالك من تعرجا لا يرتجى الخريت منها مخرجا

العجاج. والمهمه: المفازة القفرة. ويقال: أهلكه وهلكه. ومنه: هالك من تعرج. وعرج وتعرج: إذا نزل في المكان. والخريت: الدليل العارف بالطرق الضيقة، ولو مثل خرت الابرة، أى: لا يرجو الدليل مخرجا منها إذا ولجها، فما بال غيره، وهو مع ذلك قطعه بالسير.

(62/797)

هو من تنكير التفخيم، كأنه قيل: تكفت أحياء لا يعدون وأمواتا لا يحصرون، على أنّ أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات. ويجوز أن يكون المعنى: تكفتكم أحياء وأمواتا، فينتصبا على الحال من الضمير، لأنه قد علم أنها كفات الإنس. فإن قلت:

فالتنكه في رَواسِيَ شامِخاتٍ وماءً فُراتاً؟ قلت: يحتمل إفادة التبعيض، لأنّ في السماء جبالا قال اللّه تعالى وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ وفيها ماء فرات أيضا، بل هي معدنه ومصبه، وأن يكون للتفخيم.

[سورة المرسلات (77): الآيات 29 إلى 37]

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37)

أى يقال لهم : انطلقوا إلى ما كذبتم به من العذاب ، وانطلقوا الثاني تكرير . وقرئ : انطلقوا على لفظ الماضي إخبارا بعد الأمر عن عملهم بموجبه ، لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعا منه إِلى ظِلٍ

يعنى دخان جهنم ، كقوله : وظل من يحموم ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ بتشعب لعظمه ثلاث شعب ، وهكذا الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب . وقيل : يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب ، فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم ، والمؤمنون في ظل العرش لا ظَلِيلٍ تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين وَلا يُغْنِي في محل الجر ، أى : وغير مغن عنهم من حرّ اللهب شيئا بِشَرَرٍ وقرئ :

بشرار كَالْقَصْرِ أى كل شررة كالقصر من القصور في عظمها . وقيل : هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قصرة ، نحو : جمرة وجمر . وقرئ : كالقصر ، بفتحتين : وهي أعناق الإبل ، أو أعناق النخل ، نحو شجرة وشجر . وقرأ ابن مسعود : كالقصر بمعنى القصور ، كرهن ورهن . وقرأ سعيد ابن جبير : كالقصر في جمع قصرة ، كحاجة وحوج جِمالَتٌ جمع

جمال . أو جمالة جمع جمل ، شبهت بالقصور ، ثم بالجمال لبيان التشبيه . ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل «1» .

وقرئ : جمالات ، بالضم : وهي قلوس الجسور . وقيل : قلوس سفن البحر ، الواحدة جمالة .

---

(1) . قوله «بالأفدان والمجادل» جمع فدن وجمع مجدل ، وكلاهما بمعنى القصر ، كذا في الصحاح . وفيه أيضا «الجسر» بالفتح : الفطيم من الإبل . وفيه «القلس» : حبل ضخم من قلوس السفن . (ع)

وقرئ : جمالة ، بالكسر ، بمعنى : جمال : وجمالة بالضم : وهي القلس . وقيل صُفْرٌ لإرادة الجنس . وقيل صُفْرٌ : سود تضرب إلى الصفرة . وفي شعر عمران بن حطان الخارجي :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصّفر نزّاعة الشّوى «1»

وقال أبو العلاء :

حمراء ساطعة الذّوائب في الدّجى ترمى بكلّ شرارة كطراف «2»

فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمرة ، وكأنه قصد بخبثه : أن يزيد على

تشبيه القرآن ولتبجحه بما سوّل له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله «حمراء» توطئة لها ومناداة عليها ، وتنبيها للسامعين على مكانها ، ولقد عمى : جمع اللّه له عمى الدارين عن قوله عز وعلا ، كأنه جمالات صفر ، فإنه بمنزلة قوله : كبيت أحمر ، وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين : من جهة العظم ، ومن جهة الطول في الهواء . وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس :

تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد اللّه إغرابه في طرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه .

قرئ بنصب اليوم ، ونصبه الأعمش ، أى : هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ، ويوم القيامة طويل ذو مواطن ومواقيت : ينطقون في وقت ولا ينطقون في وقت ، ولذلك ورد الأمران في القرآن . أو جعل نطقهم كلا نطق ، لأنه لا ينفع ولا يسمع فَيَعْتَذِرُونَ عطف

---

(1) . لعمرو بن حطان يصف جهنم . وشبهها في اختطافها للكفار بلهيبها وكلاليبها بعاقل يصح منه الدعاء على سبيل المكتبة ، فالدعاء والرمي : تخييل ، والصوت ترشيح . ويجوز أنها تفعل ذلك حقيقة ، كقولها هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وقال ابن عباس : تدعو الناس بأسمائهم بلسان فصيح وتقول : إلىّ إلىّ ، تلتقطهم كما يلقط الطير الحب ، ثم قال :

ورمتهم بشرر مثل الجبال الصفر . والمراد التي يرهق سوادها صفرة . ونزاعة للشوى : فاعل . والشوى : اسم جمع شواة ، وهي الشواية : البقية القليلة من اللحم ونحوه ، وتصغر

شواية على شوية لزيادة التحقير . ويحتمل أن «شوية» تصغير شيء ، قلبت ياؤه واوا وقلبت همزته ياء وألحق التاء المثناة . وقيل الشوى : الأطراف والجلد . وقيل : كل ما ليس مقتلا للإنسان ، يعنى أنها تنزع جلود أهلها وأطرافهم ، لكن يبدلون غيرها ، والألف في قافية البيت للإطلاق .

(2) الموقدى نار القرى الأصال والاسحار بالأهضام والاشعاف

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

لأبى العلاء المعرى يصف قوما بالكرم ، والموقدى حذفت نونه بالاضافة لمفعوله . والآصال : جمع أصيل ، نصب على الظرفية ، أى : يوقدن النار في الآصال العشاء . وفي الأسحار لتعجيل الغذاء . والأهضام : المواضع المطمئنة .

والأشعاف : أعالى الجبل ، حمراء : حال من النار . وذوائبها : أطراف لهبها في الدجى ، أى : الظلم ، ترمى : جملة حالية . وشبه الشرارة بالطراف : وهو بيت من أدم في العظم والحمرة ، وإذا كانت الشرارة كذلك فكيف النار كلها ؟ [. . . . .]

(64/797)

على يُؤْذَنُ منخرط في سلك النفي . والمعنى : ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له ، من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن . ولو نصب لكان مسببا عنه لا محالة .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 38 إلى 45]

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45)

جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ كلام موضح لقوله هذا يَوْمُ الْفَصْلِ لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأممهم . فلا بدّ من جمع الأولين والآخرين ، حتى يقع ذلك الفصل بينهم فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ تقريع لهم على كيدهم لدين اللّه وذويه ، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة كُلُوا وَاشْرَبُوا في موضع الحال من ضمير المتقين ، في الظرف الذي هو في ظلال ، أى : هم مستقرّون في ظلال ، مقولا لهم ذلك .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 46 إلى 50]

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

وكُلُوا وَتَمَتَّعُوا حال من المكذبين ، أى الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم كلوا وتمتعوا فإن

قلت : كيف يصح أن يقال لهم ذلك في الآخرة ؟ قلت : يقال لهم ذلك في الآخرة إيذانا بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم ، وكانوا من أهله تذكيرا بحالهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد . وفي طريقته قوله :

إخوتي لا تبعدوا أبدا وبلى واللّه قد بعدوا «1»

يريد : كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك ، وعلل ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياما قلائل ، ثم البقاء في الهلاك أبدا . ويجوز أن يكون كُلُوا وَتَمَتَّعُوا كلاما مستأنفا خطابا للمكذبين في الدنيا ارْكَعُوا اخشعوا للّه وتواضعوا له بقبول

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 405 فراجعه إن شئت اه مصححه .

وحيه واتباع دينه . واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة ، لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ، ويصرون على استكبارهم . وقيل : ما كان على العرب أشدّ من الركوع والسجود : وقيل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالصلاة ، فقالوا : لا نجي «1» فإنها مسبة «2» علينا .

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود بَعْدَهُ بعد القرآن ، يعنى أنّ القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة ، فحين لم يؤمنوا به فبأى كتاب بعده يُؤْمِنُونَ وقرئ : تؤمنون ، بالتاء .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين» «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 677.683 ﴾

---

(1) . قوله «فقالوا لا نجى» نجبى من التجبية : وهي الانحناء اه . (ع)

(2) . هكذا ذكره الثعلبي . وأخرجه أبو داود وأحمد وابن أبى شيبة والطبراني من رواية الحسن عن عثمان بن أبى العاص به وأتم منه .

(3) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبى بن كعب .

(66/797)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : الملائكة ترسل بالمعروف ، قاله أبو هريرة وابن مسعود .

الثاني : أنهم الرسل يرسلون بما يُعرفون به من المعجزات ، وهذا قول أبي صالح .

الثالث : أنها الرياح ترسل بما عرفها الله تعالى .

ويحتمل رابعاً : أنها السحب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت فيه ، ومن أرسلت إليه .

ويحتمل خامساً : أنها الزواجر والمواعظ .

وفي قوله " عُرْفاً " على هذا التأويل ثلاثة أوجه :

أحدها : متتابعات كعُرف الفرس ، قاله ابن مسعود .

الثاني : جاريات ، قاله الحسن يعني القلوب .

الثالث : معروفات في العقول .

﴿ فالعاصِفاتِ عَصْفاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها الرياح العواصف ، قاله ابن مسعود .

الثاني : الملائكة ، قاله مسلم بن صبيح .

ويحتمل قولاً ثالثاً : أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف .

وفي قوله " عصفاً " وجهان :

أحدهما : ما تذروه في جريها .

الثاني : ما تهلكه بشدتها .

﴿ والنَّاشِراتِ نَشْراً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنها الرياح تنشر السحاب ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنها الملائكة تنشر الكتب ، قاله أبو صالح أيضاً .

الثالث : أنه المطر ينشر النبات ، قاله ابو صالح أيضاً .

الرابع : أنه البعث للقيامة تُنشر فيه الأرواح ، قاله الربيع .

الخامس : أنها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد ، قاله الضحاك .

﴿ فالفارِقات فَرقاً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل ، قاله ابن عباس .

الثاني : الرسل الذين يفرقون بين الحلال والحرام ، قاله أبو صالح .

الثالث : أنها الرياح ، قاله مجاهد .

الرابع : القرآن .

وفي تأويل قوله " فَرْقاً " على هذا القول وجهان :

أحدهما : فرقه آية آية ، قاله الربيع .

الثاني : فرق فيه بين الحق والباطل ، قاله قتادة .

﴿ فالمُلْقِياتِ ذِكْراً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الملائكة تلقي ما حملت من الوحي والقرآن إلى من أرسلت إليه من الأنبياء ، قاله الكلبي .

الثاني : الرسل يلقون على أممهم ما أنزل إليهم ، قاله قطرب .

ويحتمل ثالثاً : أنها النفوس تلقي في الأجساد ما تريد من الأعمال .

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ يعني عذراً من الله إلى عباده ، ونُذْراً إليهم من عذابه .

ويحتمل ثانياً : عذراً من الله بالتمكن ، ونذراً بالتحذير .

وفي ما جعله عذراً أو نذراً ثلاثة أقاويل :

أحدها : الملائكة ، قاله ابن عباس .

الثاني : الرسل ، قاله أبو صالح .

الثالث : القرآن ، قاله السدي .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب ما تقدم من القسم ، لأن في أول السورة قسم ، أقسم الله تعالى إنما توعدون على لسان الرسول من القرآن في أن البعث والجزاء واقع بكم ونازل عليكم .

ثم بيّن وقت وقوعه فقال :

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أي ذهب ضوؤها ومحي نورها كطمس الكتاب .

﴿ وإذا السماءُ فُرِجَتْ ﴾ أي فتحت وشققت .

﴿ وإذا الجبالُ نُسِفَتْ ﴾ أي ذهبت ، وقال الكلبي : سويت بالأرض .

﴿ وإذا الرّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني أُودت ، قاله إبراهيم .

الثاني : أُجلت ، قاله مجاهد .

الثالث : جمعت ، قاله ابن عباس .

وقرأ أبو عمرو " وقتت " ومعناها عرفت ثوابها في ذلك اليوم ، وتحتمل هذه القراءة وجهاً آخر أنها دعيت للشهادة على أممها .

﴿ ألم نُهلِكِ الأوّلِين ﴾ يعني من العصاة ، وفيمن أريد بهم وجهان :

أحدهما : قوم نوح عليه السلام لعموم هلاكهم بالطوفان لأن هلاكهم أشهر وأعم .

الثاني : أنه قوم كل نبي استؤصلوا ، لأنه في خصوص الأمم أندر .

﴿ ثُمّ نُتْبِعُهُم الآخِرينَ ﴾ يعني في هلاكهم بالمعصية كالأولين ، إما بالسيف وإما بالهلاك .

﴿ كذلك نَفْعَلُ بالْمجرمين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه تهويل لهلاكهم في الدنيا اعتباراً .

الثاني : أنه إخبار بعذابهم في الآخرة استحقاقاً .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُم مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من صفوة الماء ، قاله ابن عباس .

الثاني : من ماء ضعيف ، قاله مجاهد وقتادة .

الثالث : من مني سائل ، قاله ابن كامل .

﴿ فَجَعَلْناه في قرارٍ مَكينٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قاله وهب بن منبّه في رحم أُمّه لا يؤذيه حَرّ ولا برد .

الثاني : مكين حريز لا يعود فيخرج ولا يبث في الجسد فيدوم ، قاله الكلبي .

﴿ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ إلى يوم ولادته .

﴿ فقدرنا فنِعْم القادِرون ﴾ في قراءة نافع مشددة ، وقرأ الباقون مخففة ، فمن قرأ بالتخفيف فتأويلها : فملكنا فنعم المالكون . ومن قرأ بالتشديد فتأويلها : فقضينا فنعم القاضون ، وقال الفراء : هما لغتان ومعناهما واحد .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرضَ كِفاتاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني كِنّاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : غطاء ، قاله مجاهد .

الثالث : مجمعاً ، قاله المفضل .

الرابع : وعاء قال الصمصامة بن الطرماح :

فأنت اليومَ فوق الأرض حيٌّ . . . وأنت غداً تَضُمُّكَ من كِفات .

﴿ أحْياءً وأَمْواتاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الأرض تجمع الناس أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها ، قاله قتادة والشعبي .

الثاني : أن من الأرض أحياء بالعمارة والنبات ، وأمواتاً بالجدب والجفاف ، وهو أحد قولي مجاهد .

﴿ انْطَلِقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ ﴾ قيل إن الشعبة تكون فوقه ، والشعبة عن يمينه ، والشعبة عن شماله ، فتحيط به ، قاله مجاهد .

الثاني : أن الشعب الثلاث الضريع والزقوم والغسلين ، قاله الضحاك .

ويحتمل ثالثاً : أن الثلاث الشعب : اللهب والشرر والدخان ، لأنه ثلاثة أحوال هي غاية أوصاف النار إذا اضطرمت واشتدت .

﴿ لا ظَليلٍ ﴾ في دفع الأذى عنه .

﴿ ولا يُغْني مِن اللّهَب ﴾ واللهب ما يعلو عن النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر .

﴿ إنها تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ ﴾ والشرر ما تطاير من قطع النار ، وفي قوله "كالقصر" خمسة أوجه .

(69/797)

أحدها : أنه أصول الشجر العظام ، قاله الضحاك .

الثاني : كالجبل ، قاله مقاتل .

الثالث : القصر من البناء وهو واحد القصور ، قاله ابن مسعود .

الرابع : أنها خشبة كان أهل الجاهلية يقصدونها ، نحو ثلاثة أذرع ، يسمونها القصر ، قاله ابن عباس .

الخامس : أنها أعناق الدواب ، قاله قتادة .

ويحتمل وجهاً سادساً : أن يكون ذلك وصفاً من صفات التعظيم ، كنى عنه باسم القصر ، لما في النفوس من استعظامه ، وإن لم يُرِدْ به مسمى بعينه .

﴿ كأَنَّه جِمالةٌ صُفْرٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني جِمالاً صُفراً وأراد بالصفر السود ، سميت صفراً لأن سوادها يضرب إلى الصفرة ، وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة ، قال الشاعر :

تلك خَيْلي منه وتلك رِكابي . . . هُنّ صُفْرٌ أولادُها كالزبيبِ .

الثاني : أنها قلوس السفن ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

الثالث : أنها قطع النحاس ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

وفي تسميتها بالجمالات الصفر وجهان :

أحدهما : لسرعة سيرها .

الثاني : لمتابعة بعضها لبعض .

﴿ فإنْ كانَ لكم كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ، قاله مقاتل .

الثاني : إن استطعتم أن تمتنعوا عني فامتنعوا ، وهو معنى قول الكلبي .

﴿ وإذا قِيلَ لهم ارْكَعوا لا يَرْكَعون ﴾ أي صلّوا لا يصلّون ، قال مقاتل .

نزلت في ثقيف امتنعوا عن الصلاة فنزل ذلك فيهم ، وقيل إنه قال ذلك لأهل الآخرة تقريعاً لهم .

﴿ فبأيِّ حديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمنُون ﴾ أي فبأي كتاب بعد القرآن يصدّقون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 175 . 181 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنها الرياح يَتْبَعُ بعضُها بعضاً ، رواه أبو العُبَيْدَينِ ، عن ابن مسعود ، والعوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنها الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه ، رواه مسروق عن ابن مسعود ، وبه قال أبو هريرة ، ومقاتل .

وقال الفراء : هي الملائكة .

فأما قوله تعالى : "عُرْفاً" فيقال : أُرْسِلتْ بالمعروف ، ويقال : تَتَابَعَتْ كعُرْفِ الفَرَسِ .

والعرب تقول : يركب الناس إلى فلان عُرْفاً واحداً : إذا توجهوا إليه فأكثروا .

قال ابن قتيبة : يريد أن الملائكة متتابعة بما ترسَل به .

وأصله من عُرْف الفَرَسِ ، لأنه سطر مستوٍ بعضه في إثر بعض ، فاستعير للقوم يتبع بعضُهم بعضاً .

والثالث : أنهم الرسل بما يعرفون به من المعجزات ، وهذا معنى قول أبي صالح ، ذكره الزجاج .

والرابع : الملائكة والريح ، قاله أبو عبيدة .

قال : ومعنى "عُرْفاً" : يتبع بعضها بعضاً .

يقال : جاؤوني عُرْفاً .

وفي ﴿ العاصفات ﴾ قولان .

أحدهما : أنها الرياح الشديدة الهبوب ، قاله الجمهور .

والثاني : الملائكة ، قاله مسلم بن صبيح .

قال الزجاج : تعصف بروح الكافر .

وفي "الناشرات" خمسة أقوال .

أحدها : أنها الرياح تنشر السحاب ، قاله ابن مسعود ، والجمهور .

والثاني : الملائكة تنشر الكتب ، قاله أبو صالح .

والثالث : الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد ، قاله الضحاك .

والرابع : البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح ، قاله الربيع .

والخامس : المطر ينشر النبات ، حكاه الماوردي .

وفي "الفارقات" أربعة أقوال .

أحدها : الملائكة تأتي بما يفرِّق بين الحق والباطل ، قاله الأكثرون .

والثاني : آي القرآن فَرَّقَتْ بين الحلال والحرام ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن كيسان .

والثالث : الريح تفرّق بين السحاب فتبدّدُه ، قاله مجاهد .

والرابع : الرسل ، حكاه الزجاج .

(71/797)

﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ قولان .

أحدهما : الملائكة تلقي ما حملت من الوحي إلى الأنبياء ، وهذا مذهب ابن عباس ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : الرسل يلقون ما أُنزل عليهم إلى الأمم ، قاله قطرب .

قوله تعالى : ﴿ عُذْراً أو نُذْراً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم "عُذْراً" خفيفاً "أو نُذُراً" مثقلاً .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، وخلف "عُذْراً أو نُذْراً" خفيفتان .

قال الفراء : وهو مصدر ، مثقَّلاً كان أو مخفّفاً .

ونصبه على معنى : أُرسلتُ بما أرسلتُ به إعذاراً من الله وإنذاراً .

وقال الزجاج : المعنى : فالملقياتِ عُذراً أو نُذراً .

ويجوز أن يكون المعنى : فالملقيات ذكراً للإعذار والإنذار .

وهذه المذكورات مجرورات بالقسم .

وجواب القسم ﴿ إنَّما تُوعَدُون لواقع ﴾ قال المفسرون : إنَّما توعَدون به من أمر الساعة ، والبعث ، والجزاء لَواقِعٌ ، أي : لكائن .

ثم ذكر متى يقع فقال تعالى : ﴿ فإذا النجوم طُمست ﴾ أي : مُحِيَ نُورُها ﴿ وإذا السماءُ فُرِجَتْ ﴾ أي : شُقَّتْ ﴿ وإذا الجبال نُسِفَتْ ﴾ قال الزجاج : أي : ذُهِبَ بها كلُّها بسرعة .

يقال : انتسفتُ الشيء : إذا أخذتَه بسرعة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ قرأ أبو عمر "وُقِّتَتْ" بواو مع تشديد القاف .

ووافقه أبو جعفر ، إلا أنه خَفَّفَ القاف .

وقرأ الباقون : "أُقِّتت" بألف مكان الواو مع تشديد القاف .

قال الزجاج : وُقِّتَتْ وأُقِّتَتْ بمعنى واحد .

فمن قرأ "أُقِّتت" بالهمز ، فإنه أبدل الهمزة من الواو لانضمام الواو .

وكل واو انضمت ، وكانت ضمتها لازمة ، جاز أن تبدل منها همزة .

وقال الفراء : الواو إذا كانت أول حرف ، وضُمَّتْ ، همزت .

تقول : صلى القوم أُحداناً .

وهذه أُجوهٌ حسان .

ومعنى "أُقِّتت" : جمعت لوقتها يوم القيامة .

وقال ابن قتيبة : جمعت لوقت ، وهو يوم القيامة .

وقال الزجاج : جعل لها وقت واحد لفصل القضاء بين الأمة .

(72/797)

قوله تعالى : ﴿ لأي يوم أُجِّلَتْ ﴾ أي : أُخِّرَتْ .

وضَرْبُ الأجل لجمعهم ، يعجِّب العباد من هول ذلك اليوم ، ثم بَيَّنه فقال تعالى : ﴿ ليوم الفصل ﴾ وهو يوم يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق .

ثم عَظَّم ذلك اليوم بقوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث .

ثم أخبر الله تعالى عما فعل بالأمم المكذِّبة ، فقال : ﴿ ألم نُهْلِكِ الأوَّلين ﴾ يعني بالعذاب في الدنيا حين كذَّبوا رسلهم ﴿ ثم نُتْبِعُهم الآخِرين ﴾ والقراء على رفع العين في "نتبعُهم" ، وقد قرأ قوم منهم أبو حيوة بإسكان العين .

قال الفراء : "نتبعهم" مرفوعة .

ويدل على ذلك قراءة ابن مسعود "وسنتبعهم الآخرين" .

ولو جزمتَ على معنى : ألم نقدر على إهلاك الأولين وإتباعهم الآخرين كان وجهاً جيداً ،

وقال الزجاج: الجزم عطف على "نُهْلِكْ"، ويكون المعنى: لمن أُهلك أولاً وآخراً.

والرفع على معنى: ثم نتبِع الأول الآخر من كل مجرم.

وقال مقاتل: ثم نتبعهم الآخرين: يعني: كفار مكة حين كذَّبوا بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن جرير: الأوَّلون: قوم نوح، وعاد، وثمود، والآخرون: قوم إبراهيم، ولوط، ومَدْيَن.

قوله تعالى: ﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ يعني: المكذِّبين.

فإن قيل: ما الفائدة في تكرار قوله تعالى ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾؟

فالجواب: أنه أراد بكل آية منها غير ما أراد بالأخرى، لأنه كلما ذكر شيئاً قال: ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بهذا.

قوله تعالى: ﴿ ألم نخلقكم ﴾ قرأ قالون عن نافع بإظهار القاف.

وقرأ الباقون بإدغامها.

قوله تعالى ﴿ من ماءٍ مهينٍ ﴾ أي: ضعيف ﴿ فجعلناه في قرارٍ مكين ﴾ يعني: الرحم ﴿ إلى قَدرٍ معلومٍ ﴾ وهو مدة الحمل ﴿ فَقَدَرْنا ﴾ قرأ أهل المدينة، والكسائي "فَقَدَّرْنَا" بالتشديد.

وقرأ الباقون: بالتخفيف.

وهل بينهما فرق؟

فيه قولان .

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد .

(73/797)

قال الفراء : تقول العرب : قَدَر عليه ، وقَدَّر عليه .

وقد احتج من قرأ بالتخفيف فقال : لو كانت مشددة لقال : فنعم المقدِّرون ، فأجاب الفراء فقال : قد تجمع العرب بين اللغتين كقوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ [الطارق : 17] قال الشاعر :

وَأَنْكَرَتْني وَمَا كانَ الَّذي نَكِرَتْ . . .

مِنَ الحَوادِثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

يقول : ما أنكرت إلا ما يكون في الناس .

والثاني : أن المخفَّفة من القُدْرَة والملك ، والمشدَّدة من التقدير والقضاء .

ثم بيَّن لهم صنعه ليعتبروا فيوحِّدوه ، فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض كِفَاتاً ﴾ قال اللغويون : الكفت في اللغة : الضم .

والمعنى : أنها تضم أهلها أحياءً على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها .

قال ابن قتيبة : يقال : اكفتْ هذا إليك ، أي : ضمه .

وكانوا يسمون بقيع الغرقد : كفتة ، لأنه مقبرة يضم الموتى .

وفي قوله تعالى ﴿ أحياءً وأمواتاً ﴾ قولان .

أحدهما : أن المعنى : تكفتهم أحياءً وأمواتاً ، قاله الجمهور .

قال الفراء : وانتصب الأحياء والأموات بوقوع الكفات عليهم ، كأنك قلت : ألم نجعل الأرض كفاتَ أحياءٍ وأمواتٍ ، فإذا نَوَّنْتَ نصبتَ كما يقرأ ﴿ أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة يتيماً ﴾ [البلد : 14] .

وقال الأخفش انتصب على الحال .

والقول الثاني : أن المعنى : ألم نجعل الأرض أحياءً بالنبات والعمارة ، وأمواتاً بالخراب واليبس ، هذا قول ، مجاهد ، وأبي عبيدة .

قوله تعالى ﴿ وجعلنا فيها رواسي ﴾ قد سبق بيانه ﴿ شامخات ﴾ أي : عاليات : ﴿ وأسقيناكم ﴾ قد سبق معنى "أسقينا" ، [الحجر : 22 : والجن : 16] ومعنى "الفرات" [الفرقان : 53 ، وفاطر : 12] والمعنى : أن هذه الأشياء أعجب من البعث .

ثم ذكر ما يقال لهم في الآخرة : ﴿ إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون ﴾ في الدنيا ، وهو النار ، ﴿ انطلقوا إلى ظلٍّ ﴾ قرأ الجمهور هذه الثانية بكسر اللام على الأمر .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو عمران ، ورويس عن يعقوب بفتح اللام على الخبر بالفعل الماضي .

قال ابن قتيبة و"الظل" هاهنا : ظل من دخان نار جهنم سطع ، ثم افترق ثلاث فرق ، وكذلك شأن الدُّخان العظيم إذا ارتفع أن يتشعب ، فيقال لهم : كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب ، كما يكون أولياء الله في ظل عرشه ، أو حيث شاء من الظل ، ثم يُؤْمَرُ بكل فريق إلى مستقرِّه من الجنة والنار ﴿ لا ظليل ﴾ أي : لا يظلكم من حرِّ هذا اليوم بل يدنيكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس .

قال مجاهد : تكون شعبة فوق الإنسان ، وشعبة عن يمينه ، وشعبة عن شماله ، فتحيط به .

وقال الضحاك : الشعب الثلاث : هي الضَّريع ، والزَّقوم ، والغِسْلين .

فعلى هذا القول يكون هذا بعد دخول النار .

قوله تعالى : ﴿ ولا يغني من اللَّهَب ﴾ أي : لا يدفع عنكم لَهَبَ جهنم .

ثم وصف النار فقال تعالى : ﴿ إنها تَرْمي بِشَرَرٍ ﴾ ، وهو جمع شررة ، وهو ما يتطاير من النار متفرقاً ﴿ كالقَصْر ﴾ قرأ الجمهور بإسكان الصاد على أنه واحد القصور المبنيَّة .

وهذا المعنى في رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وهو قول الجمهور .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، ومجاهد ، وأبو الجوزاء ، "كالقَصَر" بفتح الصاد .

وفي أفراد البخاري من حديث ابن عباس قال : كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء ، فنسميه : القصر .

قال ابن قتيبة : من فتح الصاد أراد : أُصول النخل المقطوعة المقلوعة .

قال الزجاج : أراد أعناق الإبل .

وقرأ سعد ابن أبي وقاص ، وعائشة ، وعكرمة ، وأبو مجلز ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر "كالقَصِر" بفتح القاف ، وكسر الصاد .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو هريرة ، والنخعي ، "كالقُصُر" برفع القاف والصاد جميعاً .

وقرأ أبو الدرداء ، وسعيد بن جبير "كالقِصَر" بكسر القاف ، وفتح الصاد ، وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران ، وأبو نُهيك ، ومعاذ القارىء ، "كالقُصْر" بضم القاف وإسكان الصاد .

قوله تعالى : ﴿ كأنه جِمَالَتٌ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم "جِمالاَتٌ" بألف .

وكسر الجيم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم "جِمَالَةُ" على التوحيد .

وقرأ رويس عن يعقوب "جُمَالاَت" بضم الجيم .

وقرأ أبو رزين ، وحميد ، وأبو حيوة ، "جُمَالة" برفع الجيم على التوحيد .

قال الزجاج : من قرأ "جِمالات" بالكسر ، فهو جمع جِمَال ، كما تقول : بُيوت ، وبُيوتَات ، وهو جمع الجمع ، فالمعنى : كأن الشرارات كالجمالات .

ومن قرأ ﴿ جُمالات ﴾ بالضم ، فهو جمع "جمالة" ومن قرأ "جِمالةً" فهو جمع جَمَل وجِمالة ، كما قيل : حَجر ، وحِجَارة ، وذَكَر ، وذِكَارَة ، وقرئت "جُمالة" على ما فسرناه في جُمالات بالضم .

و"الصُّفْر" هاهنا : السود .

يقال للإبل التي هي سود تضرب إلى الصفرة : إبل صُفْرٌ .

وقال الفراء : الصُّفْر : سود الإبل لا يُرى الأسود من الإبل إلا وهو مُشْرَبٌ صُفْرَةً ، فلذلك سَمَّتْ العرب سود الإبل : صُفْراً ، كما سَمَّوا الظباء : أدماً لما يعلوها من الظلمة في بياضها .

قوله تعالى : ﴿ هذا يومُ لا ينطقون ﴾ قال المفسرون : هذا في بعض مواقف القيامة .

قال عكرمة : تكلَّموا واختصموا ، ثم ختم على أفواههم ، فتكلَّمت أيديهم ، وأرجلهم ، فحينئذ لا ينطقون بحجة تَنْفَعُهم .

وقرأ أبو رجاء ، والقاسم ابن محمد والأعمش ، وابن أبي عبلة "هذا يومَ لا ينطقون" بنصب الميم .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ أي : بين أهل الجنة وأهل النار ﴿ جمعناكم ﴾ يعني : مكذِّبي هذه الأمة و ﴿ الأوَّلين ﴾ من المكذِّبين الذين كذَّبوا أنبياءَهم ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدونِ ﴾ أثبت فيها الياء في الحالين يعقوب ، أي : إن قَدَرْتُم على حيلة ، فاحتالوا لأنفسكم .

(76/797)

ثم ذكر ما للمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ إن المتَّقين في ظِلال ﴾ يعني : ظلال الشجر ، وظلال أكنان القصور ﴿ وعيون ﴾ الماء ، وهذا قد تقدَّم بيانه ، إلى قوله تعالى ﴿ كلوا ﴾ أي : ويقال لهم : كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون في الدنيا بطاعة الله .

ثم قال لكفار مكة : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً ﴾ في الدنيا إلى منتهى آجالكم ﴿ إنكم مجرمون

﴿ أي : مشركون بالله .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه حين يُدْعَون إلى السجود يوم القيامة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه في الدنيا كانوا إذا قيل لهم : اركعوا ، أي صلوا ﴿ لا يركعون ﴾ أي : لا يصلُّون .

وإلى نحو هذا ذهب مجاهد في آخرين ، وهو الأصح .

وقيل نزلت : في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة ، فقالوا : لا نحني ، فإنها مَسَبَّةٌ علينا ، فقال : لا خير في دين ليس فيه ركوع .

قوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي : إن لم يصدِّقوا بهذا القرآن ، فبأيِّ كتاب بعده يصدِّقون ، ولا كتاب بعده : ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 443 . 452 ﴾

(77/797)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً

فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً ﴾

اعلم أن المفسرين ذكروا في هذه الكلمات الخمس وجوهاً :

الأول : أن المراد بأسرها الرّياح ومعنى المرسلات عرفاً الرياح أرسلت متتابعة كعرف الفرس ، وقيل عرفاً أي كثيراً ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ يعني الرّياح الشّديدة الهبوب ، ﴿ والناشرات نشراً ﴾ .

يعني الرياح اللّينة .

وقيل هي الرياح التي أرسلها نشراً بين يدي رحمته ، وقيل هي الرّياح التي تنشر السحاب ، وتأتي بالمطر فالفارقات فرقاً يعني الرياح التي تفرق السحاب ، وتبدده فالملقيات ذكراً يعني أن الرياح إذا أرسلت عاصفة شديدة قلعت الأشجار ، وخربت الديار ، وغيرت الآثار . فيحصل بذلك خوف للعباد في القلوب ، فيلجؤون إلى الله تعالى ويذكرونه ، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر ، والمعرفة في القلوب عند هبوبها .

الوجه الثاني : أن المراد بأسرها الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ومعنى والمرسلات عرفاً .

الملائكة الذين أرسلوا بالمعروف من أمر الله ، ونهيه وهذا القول رواية عن ابن مسعود فالعاصفات عصفاً يعني الملائكة تعصف في طيرانهم ، ونزولهم كعصف الرياح في السرعة ، والناشرات نشراً يعني أنهم إذا نزلوا إلى الأرض نشروا أجنحتهم ، وقيل هم الذين ينشرون

الكتب ، ودواوين الأعمال يوم القيامة فالفارقات فرقاً .

قال ابن عباس : يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل ، فالملقيات ذكراً يعني الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء ، وقيل يجوز أن يكون الذكر هو القرآن خاصة فعلى هذا يكون الملقى هو جبريل وحده ، وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم .

(78/797)

الوجه الثالث : أن المراد بأسرها آيات القرآن ، ومعنى المرسلات عرفاً آيات القرآن المتتابعة في النزول على محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل عرف وخير فالعاصفات عصفاً يعني آيات القرآن تعصف القلوب بذكر الوعيد حتى تجعلها كالعصف وهو النبت المتكسر ، والناشرات نشراً يعني آيات القرآن تنشر أنوار الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين .

فالفارقات فرقاً يعني آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل فالملقيات ذكراً يعني آيات القرآن هي الذّكر الحكيم الذي يلقى الإيمان والنور في قلوب المؤمنين .

الوجه الرابع : أنه ليس المراد من هذه الكلمات الخمس شيئاً واحداً بعينه فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً ﴾ الرياح ويكون المراد بقوله ﴿ فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً ﴾ الملائكة .

فإن قلت وما المجانسة بين الرياح والملائكة حتى جمع بينهما في القسم قلت الملائكة روحانيون فهم بسبب لطافتهم ، وسرعة حركاتهم شابهوا الرياح فحصلت المجانسة بينهما من هذا الوجه فحسن الجمع بينهما في القسم عذراً أو نذراً أي للإعذار والإنذار من الله ، وقيل عذراً من الله ونذراً منه إلى خلقه ، وهذه كلها أقسام وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون ﴾ أي من أمر الساعة ومجيئها ﴿ لواقع ﴾ أي لكائن نازل لا محالة ، وقيل معناه إن ما توعدون به من الخير والشر لواقع بكم .

(79/797)

ثم ذكر متى يقع فقال تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي محي نورها وقيل محقت ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي شقت وقيل فتحت ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي قلعت من أماكنها ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ وقرىء وقتت بالواو ومعناهما وأحد أي جمعت لميقات يوم معلوم ، وهو يوم القيامة ليشهدوا على الأمم ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ أي أخرت وضرب الأجل لجميعهم كأنه تعالى يعجب لعباده من تعظيم ذلك اليوم ، والمعنى جمعت الرسل في ذلك اليوم لتعذيب من كذبهم وتعظيم من آمن بهم ، ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى : ﴿ ليوم الفصل ﴾ قال ابن عباس يوم فصل الرحمن فيه بين الخلائق ثم أتبع ذلك تعظيماً وتهويلاً فقال

تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل وهوله وشدته ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي بالتوحيد والنبوة والمعاد والبعث والحساب .

قوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعني الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ يعني السالكين سبيلهم في الكفر والتكذيب ، وهم كفار قريش ، أي نهلكهم بتكذيبهم محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي إنما نفعل بهم ذلك لكونهم مجرمين ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ يعني النطفة ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني الرحم ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ يعني وقت الولادة وهو معلوم لله تعالى لا يعلم ذلك غيره ﴿ فقدرنا ﴾ قرىء بالتشديد من التقدير ، أي قدرنا ذلك تقديراً ﴿ فنعم القادرون ﴾ أي المقدرون له وقرىء بالتخفيف من القدرة ، أي قدرنا على خلقه ، وتصويره كيف شئنا فنعم القادرون حيث خلقناه في أحسن صورة وهيئة .

(80/797)

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي المنكرين للبعث لأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً ﴾ يعني وعاء وأصله الضم والجمع ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ يعني

تكفتهم أحياء على ظهرها بمعنى تضمهم في دورهم ومنازلهم وتكفتهم أمواتاً في بطنها في قبورهم ، ولذلك تسمى الأرض أما لأنها تضم الناس كالأم تضم ولدها ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الأرض ﴿ رواسي شامخات ﴾ يعني جبالاً عاليات ﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ يعني عذاباً ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ يعني أن هذا كله أعجب عن البعث فالقادر عليه قادر على البعث .

قوله : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ يعني يقال للمكذبين بيوم القيامة في الدنيا انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون وهو العذاب ثم فسره بقوله ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ يعني دخان جهنم إذا سطع وارتفع تشعب ، وتفرق ثلاث فرق ، وكذلك شأن الدخان العظيم .

فيقال لهم كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله تعالى في ظل عرشه ، وقيل يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴿ لا ظليل ﴾ أي إن ذلك الظل لا يظل من حر ﴿ ولا يغني من اللهب ﴾ أي لا يرد عنهم لهب جهنم والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظل لا يدفع عنهم حر اللهب ﴿ إنها ﴾ يعني جهنم ﴿ ترمي بشرر ﴾ جمع شرارة وهي ما تطاير من النار ﴿ كالقصر ﴾ يعني كالبناء العظيم ونحوه قيل هي أصول الشجر ، والنخل العظام واحدتها قصرة وسئل ابن عباس عن قوله ، ﴿ ترمي بشرر كالقصر ﴾ فقال هي الخشب العظام المقطعة وكنا نعمد إلى الخشبة

فنقطعها ثلاثة أذرع ، وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء ، وكنا نسميها القصر .

﴿ كأنه ﴾ يعني الشرر ﴿ جمالات ﴾ جمع الجمال ، وقال ابن عباس : هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الجمال ﴿ صفر ﴾ جمع أصفر يعني أن لون ذلك الشرر أصفر وأنشد بعضهم :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم . . .

بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

(81/797)

وقيل الصفر هنا معناه الأسود لأنه جاء في الحديث أن شرر نار جهنم أسود كالقير ، والعرب تسمى سود الإبل صفراً لأنه يشوب سوادها شيء من الصفرة ، وقيل هي قطع النحاس ، والمعنى أن هذا الشرر يرتفع كأنه شيء مجموع غليظ أصفر .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ قوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ يعني بحجة تنفعهم قيل هذا في بعض مواطن القيامة ومواقفها ، وذلك لأن في بعضها يتكلمون وفي بعضها يختصمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ عطف على يؤذن واختير ذلك لأن رؤوس الآي بالنون فلو قال فيتعذروا لم يوافق الآيات ، والعرب تستحب

وفاق الفواصل كما تستحب وفاق القوافي ، والقرآن نزل على ما تستحب العرب من موافقة المقاطع ، والمعنى لا يكون إذن واعتذار قال الجنيدي : أي عذر لمن أعرض عن منعمه وكفر بأياديه ونعمه .

فإن قلت قد توهم أن لهم عذراً ، ولكن قد منعوا من ذكره .

قلت ليس لهم عذر في الحقيقة لأنه قد تقدم الإعذار والإنذار في الدّنيا فلم يبق لهم عذر في الآخرة ، ولكن ربما تخيلوا خيالاً فاسداً أن لهم عذراً فلم يؤذن لهم في ذلك العذر الفاسد ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ يعني أنه لما تبين إنه لا عذر لهم ، ولا حجة فيما أتوا به من الأعمال السيئة ، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عنهم لا جرم قال في حقهم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم الفصل ﴾ يعني بين أهل الجنة وأهل النار ، وقيل هو الفصل بين العباد في الحقوق والمحاكمات ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ يعني مكذبي هذه الأمة والذين كذبوا أنبياءهم من الأمم الماضية .

(82/797)

﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بها لأنفسكم فاحتالوا وهم يعلمون أن الحيل يومئذ منقطعة لا تنفع وهذا في نهاية التوبيخ والتقريع فلهذا عقبة بقوله

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ قوله ﴿ إن المتقين ﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿ في ظلال ﴾ جمع ظل وهو ظل الأشجار ﴿ وعيون ﴾ أي في ظلهم عيون ماء ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي يتلذذون بها ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي ويقال لهم كلوا واشربوا ، وهذا القول يحتمل أن يكون من جهة الله تعالى بلا واسطة ، وما أعظمها من نعمة أو يكون من جهة الملائكة على سبيل الإكرام ﴿ هنيئاً ﴾ أي خالص اللّذة لا يشوبه تنغيص ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي في الدنيا من الطاعات ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ قيل المقصود منه تذكير الكفار ما فاتهم من النعم العظيمة ، ليعلموا أنهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل ذلك الخير العظيم .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي بعد نزول القرآن إذا لم يؤمنوا به فبأي شيء يؤمنون والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 195 . 199 ﴾

(83/797)

وقال النسفى :

سورة المرسلات

مكية وهي خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والمرسلات عُرْفاً * فالعاصفات عَصْفاً * والناشرات نَشْراً * فالفارقات فَرْقاً * فالملقيات ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي ، أو نشرن الشرائع في الأرض ، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام عذراً للمحقين أو نذراً للمبطلين .

أو أقسم برياح عذاب أرسلهن فعصفن ، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله ﴿ ويجعله كِسَفاً ﴾ [الروم : 48] فألقين ذكراً إما عذراً للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها ، واما نذراً للذين لا يشكرون وينسبون ذلك إلى الأنواء ، وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السببية .

﴿ عُرْفاً ﴾ حال أي متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضه بعضاً ، أو مفعول له أي أرسلن للإحسان والمعروف .

و﴿ عَصْفاً ﴾ و ﴿ نَشْراً ﴾ مصدران .

﴿ أَوْ نُذْراً ﴾ أبو عمرو وكوفي غير أبي بكر وحماد .

والعذر والنذر مصدران من عذر إذا محا الإساءة ، ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والشكر .

وانتصابهما على البدل من ﴿ ذِكْراً ﴾ أو على المفعول له .

(84/797)

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ إن الذي توعدونه من مجيء يوم القيامة ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لكائن نازل لا ريب فيه ، وهو جواب القسم ولا وقف إلى هنا لوصل الجواب بالقسم ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ محيت أو ذهب بنورها وجواب ﴿ فَإِذَا ﴾ محذوف والعامل فيها جوابها وهو وقوع الفصل ونحوه ، و ﴿ النجوم ﴾ فاعل فعل يفسره ﴿ طُمِسَتْ ﴾ ﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ فتحت فكانت أبواباً ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ قلعت من أماكنها ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ أي وقتت كقراءة أبي عمرو أبدلت الهمزة من الواو ، ومعنى توقيت الرسل تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أخرت وأمهلت ، وفيه تعظيم لليوم وتعجيب من هوله والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ تعجيب آخر وتعظيم لأمره ﴿ وَيْلٌ ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة لأنه في أصله

مصدر منصوب ساد مسد فعله ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 24] ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرفه ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك اليوم خبره .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ﴾ الأمم الخالية المكذبة ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ مستأنف بعد وقف ، وهو وعيد لأهل مكة أي ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم .

(85/797)

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ بكل من أجرم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بما أوعدنا ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ حقير وهو النطفة ﴿ فجعلناه ﴾ أي الماء ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ مقر يتمكن فيه وهو الرحم ومحل ﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ الحال أي مؤخر إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به وهو تسعة أشهر أو ما فوقها أو ما دونها ﴿ فَقَدَّرْنَا ﴾ فقدرنا ذلك تقديراً ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ فنعم المقدرون له نحن أو فقدرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن ، والأول أحق لقراءة نافع وعلي بالتشديد ، ولقوله ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : 19] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بنعمة الفطرة .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً ﴾ هو كفت الشيء إذا ضمه وجمعه وهو اسم ما يكفت كقولهم الضمام لما يضم وبه انتصب ﴿ أَحْيَاءً وأمواتا ﴾ كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتاً ، أو بفعل مضمر يدل عليه ﴿ كِفَاتاً ﴾ وهو تكفت أي تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها ، والتنكير فيهما للتفخيم أي تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ شامخات ﴾ عاليات ﴿ وأسقيناكم مَّاءً فُرَاتاً ﴾ عذاباً ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذه النعمة ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي يقال للكافرين يوم القيامة سيروا إلى النار التي كنتم بها تكذبون ﴿ انطلقوا ﴾ تكرير للتوكيد ﴿ إلى ظِلٍّ ﴾ دخان جهنم ﴿ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ يتشعب لعظمه ثلاث شعب وهكذا الدخان العظيم يتفرق ثلاث فرق ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ نعت ظل أي لا مظل من حر ذلك اليوم وحر النار ﴿ وَلاَ يُغْنِى ﴾ في محل الجر أي وغير مغنٍ لهم ﴿ مِنَ اللهب ﴾ من حر اللهب شيئاً ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي النار ﴿ تَرْمِى بِشَرَرٍ ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿ كالقصر ﴾ في العظم .

(86/797)

وقيل : هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة ﴿ كَأَنَّهُ جمالت ﴾ كوفي غير أبي بكر جمع جمل جمالات غيرهم جمع الجمع ﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع أصفر أي سود تضرب إلى الصفرة ، وشبه الشرر بالقصر لعظمه وارتفاعه ، وبالجمال للعظم والطول واللون ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأن هذه صفتها .

﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ وقرىء بنصب اليوم أي هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية وعن قوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] فقال : في ذلك اليوم مواقف في بعضها يختصمون وفي بعضها لا ينطقون .

أو لا ينطقون بما ينفعهم فجعل نطقهم كلا نطق .

﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ ﴾ في الاعتذار ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ عطف على ﴿ يُؤْذَنُ ﴾ منخرط في سلك النفي أي لا يكون لهم إذن واعتذار ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذا اليوم ﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء بالجزاء ﴿ جمعناكم ﴾ يا مكذبي محمد ﴿ والأولين ﴾ والمكذبين قبلكم ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ ﴾ حيلة في دفع العذاب ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ فاحتالوا عليّ بتخليص أنفسكم من العذاب .

والكيد متعدٍ تقول : كدت فلاناً إذا احتلت عليه ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث .

﴿ إِنَّ المتقين ﴾ من عذاب الله ﴿ فِى ظلال ﴾ جمع ظل ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ جارية في الجنة

﴿ وفواكه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي لذيذة مشتهاة ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ المتقين ﴾ في الظرف الذي هو ﴿ فِى ظلال ﴾ أي هم مستقرون في ظلال مقولاً لهم ذلك ﴿ هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالجنة ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين في الدنيا على وجه التهديد كقوله :

(87/797)

﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] ﴿ قَلِيلاً ﴾ لأن متاع الدنيا قليل ﴿ إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ كافرون أي إن كل مجرى يأكل ويتمتع أياماً قلائل ثم يبقى في الهلاك الدائم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالنعم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا ﴾ اخشعوا لله وتواضعوا إليه بقبول وحيه واتباع دينه ودعوا هذا الاستكبار ﴿ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم ، أو إذا قيل لهم صلوا لا يصلون ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالأمر والنهي ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن لم يؤمنوا بالقرآن مع أنه آية مبصرة ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية فبأي كتاب بعده يؤمنون ؟ ! والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 321.324 ﴾

(88/797)

وقال ابن جزى :

سورة المرسلات

(89/797)

اختلف في معنى المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات على قولين : أحدهما : أنها الملائكة ، والآخر : أنها الرياح . فعلى القول بأنها الملائكة سماهم المرسلات لأن الله تعالى يرسلهم بالوحي وغيره ، وسماهم العاصفات لأنهم يعصفون كما تعصف الرياح في سرعة مضيهم إلى امتثال أمر الله تعالى ، وسماهم ناشرات لأنهم ينشرون أجنحتهم في الجو ، وينشرون الشرائع في الأرض ، أو ينشرون صحائف الأعمال ، وسماهم الفارقات لأنهم يفرقون بين الحق والباطل ، وعلى القول بأنها الرياح ، سماها المرسلات لقوله ﴿ الله الذي يُرْسِلُ الرياح ﴾ [الروم : 48] وسماها الناشرات لأنها تنشر السحاب في الجو ، ومنه قوله : ﴿ يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ [الروم : 48] وسماها الفارقات لأنها تفرق بين

الحساب ومنه قوله : ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ [الروم : 48] وأما ﴿ فالملقيات ذِكْراً ﴾ فهم الملائكة لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام ، والأظهر في الملاسلات والعاصفات أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة ، والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة لأن الوصف بالفارقات أليق بهم من الرياح ، ولأن الملقيات المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد أنها الرياح ، ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال : والمرسلات فالعاصفات ثم عطف ما ليس من جنس بالواو فقال : والناشرات ، ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء ، وقد قيل في المرسلات والملقيات أنهم الأنبياء عليهم السلام ﴿ عُرْفاً ﴾ معناه : فضلاً وإنعاماً ، وانتصابه على أنه مفعول من أجله وقيل : معناه متتابعة وهو مصدر في موضع الحال وأما عصفاً ونشراً وفرقاً فمصادر ، وأما ذكراً فمفعول به ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ العذر فسَّره ابن عطية وغيره بمعنى : إعذار الله إلى عباده لئلا تبقى لهم حجة أو عذر . وفسره الزمخشري بمعنى الاعتذار . يقال : عذر إذا محا الإساءة ، وأما نذراً فمن الإنذار وهو التخويف ، وقرأ الأعشى

(90/797)

التميمي بضم الذال في الموضعين وبقية القراء بإسكانها ، ويحتمل أن يكونا مصدَرين فكيون نصبهما على البدل من ذكراً أو مفعولاً بذكر ، أو يحتمل أن يكون عذراً جمع عذير أو عاذر ، ونذراً جمع نذير فيكون نصبهما على الحال ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ يعني البعث والجزاء وهو جواب القسم .

﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ أي زال ضوؤها وقيل : محيت ﴿ وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ﴾ أي انشقت ﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ أي صارت غباراً ﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ أي جعل لها وقت معلوم ، فحان ذلك الوقت وجمعت للشهادة على الأمم يوم القيامة ، وقرأ أبو عمرو وُقِّتَتْ بالواو وهو الأصل ، والهمزة بدل من الواو ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ هو الأجل كما أن التوقيت من الوقت ، وفيه توقيف يراد به تعظيم لذلك اليوم ، ثم بينه بقوله : ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ أي يفصل فيه بين العباد ، ثم عظّمه بقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ تكراره في هذه السورة قيل : إنه تأكيد وقيل : بل في كل آية ما يقتضي التصديق فجاء ويل يومئذ للمذكبين راجعاً إلى ما قبله في كل موضع منها .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ﴾ يعني الكفار المتقدمين ، كقوم نوح وغيرهم ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ يعني قريشاً وغيرهم من الكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا وعيد لهم ظهر مصداقه يوم بدر وغيره ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ أي مثل هذا الفعل نفعل بكل مجرم يعني الكفار .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ يعني المني ، والمهين الضعيف ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ يعني رحم المرأة ﴿ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يعني وقت الولادة ، وهو معلوم عند تسعة أشهر ، أو أقل منها أو أكثر ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ بالتشديد من التقدير وبالتخفيف من القدرة ، فإذا كان من القدرة اتفق مع قوله فنعم القادرون ، وإذا كان من التقدير فهو تجنيس .

(91/797)

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً * أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ﴾ الكِفات من كفت إذا ضم وجمع . أنه مفعول بكِفاتاً لأن الكفات اسم لم يضم ويجمع ، فكأنه قال : جامعة أحياء وأمواتاً ويجوز أن يكون المعنى : تكفتهم أحياء وأمواتاً . فيكون نصبهما على الحال من الضمير . وإنما نكَّر أحياء وأمواتاً للتفخيم ودلالة على كثرتهم ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ يعني الجبال أي مرتفعات ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ ﴿ مَّآءً فُرَاتاً ﴾ أي حلوا .

﴿ انطلقوا ﴾ خطاب للمكذبين وقرأ يعقوب فتح اللام على أنه فعل ماض ثم كرره لبيان المنطلق إليه ﴿ إِلَى ظِلٍّ ﴾ يعني دخان جهنم ومنه ظل من يحموم ﴿ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ أي يتفرع من الدخان ثلاث شعب فتظلهم ، بينما يكون المؤمنون في ظلال العرش ، وقيل : إن هذه الآية في عَبَدَةِ الصليب لأنهم على ثلاثة شعب فيقال لهم انطلقوا إليه ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ

﴿ نفى عنه أن يظلهم كما يظل العرشُ المؤمنين ونفى أيضاً أن يمنع عنهم اللهب ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ الضيمر في إنها لجهنم والقصر واحد القصور ، وهي الديار العظام ، وشبه الشرر به في عظمته وارتفاعه في الهواء ، وقيل : هو الغليظ من الشجر واحده قصرة كجمرة وجمر ﴿ كَأَنَّهُ جمالت صُفْرٌ ﴾ في الجمالات قولان أحدهما : أنها جمع جمال شبه بها الشرر وصُفر على ظاهره ؛ لأن لون النار يضرب إلى الصفرة . وقيل : صفر هنا بمعنى سود يقال : حمل أصفر أي أسود . وهذا أليق بوصف جهنم . الثاني : أن الجمالات قطع النحاس الكبار ، فكأنه مشتق من الجملة . وقرئ جمالات بضم الجيم وهي قلوس السفن وهي حبالها العظام .

﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ هذا في مواطن ، وقد يتكلمون في مواطن أخر لقوله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل : 111] .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ تعجيز لهم وتعريض بكيدهم في الدنيا وتقريع عليه .

(92/797)

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ يقال لهم ذلك في الجنة بلسان الحال أو بلسان المقال ﴿ هنيائا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ نصب هنيئاً على الحال أو على الدعاء .

﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ خطاب للكفار على وجه التهديد ، تقديره : قل لهم كلوا وتمتعوا قليلاً في الدنيا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ هذا إخبار عن حال الكفار في الدنيا ، وذكر الركوع عبارة عن الصلاة ، وقيل : معنى اركعوا اخشعوا وتواضعوا . وقيل : هو إخبار عن حال المنافقين يوم القيامة لأنهم إذا قيل لهم : اركعوا لا يقدرون على الركوع كقوله : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم : 42] والأول أشهر وأظهر .

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ الضمير للقرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 172.170 ﴾

(93/797)

وقال البيضاوى :

سورة المرسلات

مكية وآيها خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والمرسلات عُرْفاً فالعاصفات عَصْفاً والناشرات نَشْراً فالفارقات فَرْقاً فالملقيات ذِكْراً

﴿

إقسام بطوائف من الملائكة أرسلهن الله تعالى بأوامره متتابعة . فعصفن عصف الرياح في امتثال أمره ، ونشرن الشرائع في الأرض ، أو نشرن النفوس الموتى بالجهل بما أوحين من العلم ، ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين إلى الأنبياء ذكراً عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين ، أو بآيات القرآن المرسلة بكل عرف إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، فعصفن سائر الكتب والأديان بالنسخ ونشرن آثار الهدى والحكم في الشرق والغرب ، وفرقن بين الحق والباطل فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين . أو بالنفوس الكاملة المرسلة إلى الأبدان لاستكمالها فعصفن ما سوى الحق ونشرن أثر ذلك في جميع الأعضاء ، ففرقن بين الحق بذاته والباطل في نفسه فيرون كل شيء هالكاً إلا وجهه ، فألقين ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنة إلا ذكر الله تعالى . أو برياح عذاب أرسلن فعصفن ، ورياح رحمة نشرن السحاب في الجو ، ففرقن فألقين ذكراً أي تسببن له ، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها ذكر الله تعالى وتذكر كمال قدرته ، وعرفاً إما نقيض النكر وانتصابه على العلة أي أرسلن للإِحسان والمعروف ، أو بمعنى المتتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحال .

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ مصدران لعذر إذا محا الإِساءة وأنذر إذا خوف ، أو جمعان لعذير بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإِنذار ، أو بمعنى العاذر والمنذر ، ونصبهما على الأولين بالعلية أي ﴿ عُذْراً ﴾ للمحقين ﴿ أَوْ نُذْراً ﴾ للمبطلين ، أو البدل من ﴿ ذِكْراً ﴾ على أن

المراد به الوحي أو ما يعم التوحيد والشرك والإيمان والكفر وعلى الثالث بالحالية ، وقرأهما أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص بالتخفيف .

(94/797)

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لواقع ﴾ جواب القسم ومعناه أن الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة .

﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ محقت أو أذهب نورها .

﴿ وَإِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ صدعت .

﴿ وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ﴾ كالحب ينسف بالمنسف .

﴿ وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ﴾ عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله ، فإنه لا يتعين لهم قبله ، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره ، وقرأ أبو عمرو "وقتت" على الأصل .

﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أي يقال لأي يوم أخرت ، وضرب الأجل للجمع وهو تعظيم لليوم وتعجيب من هوله ، ويجوز أن يكون ثاني مفعولي ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ على أنه بمعنى أعلمت .

﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ بيان ليوم التأجيل .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل ﴾ ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي بذلك ، و ﴿ وَيْلٌ ﴾ في الأصل مصدر منصوب بإضمار فعله عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلك للمدعو عليه ، و ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرفه أو صفته .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود ، وقرىء "نُهْلِكِ" من هلكه بمعنى أهلكه .

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ﴾ أي ﴿ ثُمَّ ﴾ نحن ﴿ نُتْبِعُهُمُ ﴾ نظراءهم ككفار مكة ، وقرىء بالجزم عطفاً على ﴿ نُهْلِكِ ﴾ فيكون ﴿ الآخرين ﴾ المتأخرين من المهلكين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام .

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الفعل . ﴿ نَفْعَلُ بالمجرمين ﴾ بكل من أجرم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بآيات الله وأنبيائه فليس تكريراً ، وكذا إن أطلق التكذيب أو علق في الموضعين بواحد ، لأن ال ﴿ وَيْلٌ ﴾ الأول لعذاب الآخرة وهذا للإهلاك في الدنيا ، مع أن التكرير للتوكيد حسن شائع في كلام العرب .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ نطفة مذرة ذليلة .

﴿ فجعلناه فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ هو الرحم .

﴿ إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إلى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة .

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ على ذلك ، أو فقدرناه ويدل عليه قراءة نافع والكسائي بالتشديد . ﴿ فَنِعْمَ القادرون ﴾ نحن . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ كافتة اسم لما يكفت أي يضم ويجمع كالضمام والجماع اسم لما يضم ويجمع ، أو مصدر نعت به أو جمع كافت كصائم وصيام ، أو كفت وهو الوعاء أجرى على الأرض باعتبار أقطارها .

﴿ أَحْيَاءً وأمواتا ﴾ منتصبان على المفعولية وتنكيرهما للتفخيم ، أو لأن أحياء الإنس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات ، أو الحالية من مفعوله المحذوف للعلم به وهو الإنس ، أو بنجعل على المفعولية و ﴿ كِفَاتاً ﴾ حال أو الحالية فيكون المعنى بالأحياء ما ينبت وبالأموات ما لا ينبت .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شامخات ﴾ جبالاً ثوابت طوالاً والتنكير للتفخيم ، أو الإشعار بأن فيها ما لم يعرف ولم ير ﴿ وأسقيناكم مَّاء فُرَاتاً ﴾ بخلق الأنهار والمنابع فيها .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم .

﴿ انطلقوا ﴾ أي يقال لهم انطلقوا . ﴿ إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ من العذاب .

﴿ انطلقوا ﴾ خصوصاً وعن يعقوب ﴿ انطلقوا ﴾ على الإخبار عن امتثالهم للأمر

اضطراراً . ﴿ إلى ظِلّ ﴾ يعني ظل دخان جهنم كقوله تعالى : ﴿ وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ ﴿ ذِى ثلاث شُعَبٍ ﴾ يتشعب لعظمه كما ترى الدخان العظيم يتفرق . تفرق الذوائب ، وخصوصية الثلاث إما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم ، أو لأن المؤدي إلى هذا العذاب هو القوة الواهمة الحالية في الدماغ والغضبية التي في يمين القلب والشهوية التي في يساره ، ولذلك قيل شعبة تقف فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره .

(96/797)

﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ تهكم بهم ورد لما أوهم لفظ ال ﴿ ظِلّ ﴾ . ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ وغير مغن عنهم من حر اللهب شيئاً .

﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ أي كل شرارة ﴿ كالقصر ﴾ في عظمها ، ويؤيده أنه قرىء "بشرار" ، وقيل هو جمع قصرة وهي الشجرة الغليظة ، وقرىء "كالقصر" بمعنى القصور كرهن ورهن و"كالقصر" جمع قصرة كحاجة وحوج ، و"كالصر" جمع قصرة وهي أصل العنق والهاء للشعب .

﴿ كَأَنَّهُ جَمَالاتٌ ﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل . ﴿ صُفْرٌ ﴾ فإن الشرار بما فيه من

النارية يكون أصفر ، وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة ، والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ جمالة ﴾ وعن يعقوب ﴿ جُمَالَاتٌ ﴾ بالضم جمع جُمالة ، وقد قرىء بها وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة شبهه بها في امتداده والتفافه .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ أي بما يستحق فإن النطق بما لا ينفع كلا نطق ، أو بشيء من فرط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف ، وقرىء بنصب ال "يَوْمَ" أي هذا الذي ذكر واقع يومئذ .

﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عطف ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ على ﴿ يُؤْذَنَ ﴾ ليدل على نفي الإذن والاعتذار عقيبه مطلقاً ، ولو جعله جواباً لدل على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن فأوهم ذلك أن لهم عذراً لكن لا يؤذن لهم فيه .

﴿ هذا يَوْمُ الفصل ﴾ بين المحق والمبطل . ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ تقرير وبيان للفصل .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب .

﴿ إِنَّ المتقين ﴾ عن الشرك لأنهم في مقابلة المكذبين . ﴿ فِى ظلال وَعُيُونٍ ﴾ .

﴿ وفواكه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ مستقرون في أنواع الترفه .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي مقولاً لهم ذلك .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ في العقيدة .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يمحض لهم العذاب المخلد ولخصومهم الثواب المؤبد .

﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ حال من المكذبين أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك ، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا ﴾ أطيعوا وأخضعوا أو صلوا أو اركعوا في الصلاة . إذ روي : أنه نزل حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفاً بالصلاة فقالوا : لا نجبي أي لا نركع فإنها مسبة . وقيل هو يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . ﴿ لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ لا يمتثلون واستدل به على أن الأمر للوجوب وأن الكفار مخاطبون بالفروع .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ بعد القرآن . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجز في ذاته مشتمل على الحجج الواضحة والمعاني الشريفة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 432 . 437 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(98/797)

وقال أبو حيان :

سورة المرسلات

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

قال ابن مسعود وأبو هريرة وأبو صالح ومقاتل والفرّاء : ﴿ والمرسلات ﴾ : الملائكة ، أرسلت بالعرف ضد النكر وهو الوحي ، فبالتعاقب على العباد طرفي النهار .

وقال ابن عباس وجماعة : الأنبياء ، ومعنى عرفاً : إفضالاً من الله تعالى على عباده ، ومنه قول الشاعر :

لا يذهب العرف بين الله والناس . . .

وانتصابه على أنه مفعول له ، أي أرسلن للإحسان والمعروف ، أو متتابعة تشبيهاً بعرف الفرس في تتابع شعره وأعراف الخيل .

وتقول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد إذا توجهوا إليه متتابعين ، وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه ، وانتصابه على الحال .

وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرّياح .

وقال الحسن : السحاب .

وقرأ الجمهور : ﴿ عرفاً ﴾ بسكون الراء ، وعيسى : بضمها .

﴿ فالعاصفات ﴾ ، قال ابن مسعود : الشديدات الهبوب .

وقيل : الملائكة تعصف بأرواح الكفار ، أي تزعجها بشدّة ، أو تعصف في مضيها كما تعصف الرّياح تحققاً في امتثال أمره .

وقيل : هي الآيات المهلكة ، كالزلازل والصواعق والخسوف .

﴿ والناشرات ﴾ ، قال السدّي وأبو صالح ومقاتل : الملائكة تنشر صحف العباد بالأعمال .

وقال الربيع : الملائكة تنشر الناس من قبورهم .

وقال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة : الرّياح تنشر رحمة الله ومطره .

وقال أبو صالح : الأمطار تحيي الأرض بالنبات .

وقال الضحاك : الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد ، فعلى هذا تكون الناشرات على معنى النسب ، أي ذات النشر .

﴿ فالفارقات ﴾ ، قال ابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد والضحاك : الملائكة تفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام .

وقال قتادة والحسن وابن كيسان : آيات القرآن فرقت بين الحلال والحرام .

وقال مجاهد أيضاً : الرّياح تفرق بين السحاب فتبدّده .

وقيل : الرسل ، حكاه الزجاج .

(99/797)

وقيل : السحاب الماطر تشبيهاً بالناقة الفاروق ، وهي الحامل التي تجزع حين تضع .

وقيل : العقول تفرق بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد .

﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ ، قال ابن عباس وقتادة والجمهور : الملائكة تلقي ما حملت من الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقال قطرب : الرسل تلقي ما أنزل عليها إلى الأمم .

وقال الرّبيع : آيات القرآن ألقيت على النبي (صلى الله عليه وسلم) .

واختار الزمخشري من الأقوال أن تكون ﴿ والمرسلات ﴾ إلى آخر الأوصاف : إما للملائكة ، وإما للرّياح .

فللملائكة تكون عذراً للمحققين ، أو نذراً للمبطلين ؛ وللرّياح يكون المعنى : فألقين ذكراً ، إما عذراً للذين يعتذرون إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها ، وإما إنذاراً للذين يغفلون عن الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء ، وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن ، أو كفرت ، قاله الزمخشري .

والذي أراه أن المقسم به شيئان ، ولذلك جاء العطف بالواو في ﴿ والناشرات ﴾ ، والعطف بالواو يشعر بالتغاير ، بل هو موضوعه في لسان العرب .

وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات ، فيدل على أنها راجعة إلى العاديات ، وهي الخيل ؛ وكقوله :

يا لهف زيابة للحارث فالصا . . .

بح فالغانم فالآيب

فهذه راجعة لموصوف واحد وهو الحارث .

فإذا تقرر هذا ، فالظاهر أنه أقسم أولاً بالرياح ، فهي مرسلاته تعالى ، ويدل عليه عطف الصفة بالفاء ، كما قلنا ، وأن العصف من صفات الريح في عدّة مواضع من القرآن .

والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ، ويكون ﴿ فالفارقات ﴾ ، ﴿ فالملقيات ﴾ من صفاتهم ، كما قلنا في عطف الصفات وإلقاؤهم

الذكر ، وهو ما أنزل الله ، يصح إسناده إليهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ فالملقيات ﴾ اسم فاعل خفيف ، أي نطرقه إليهم ؛ وابن عباس : مشدد من التلقية ، وهي أيضاً إيصال الكلام إلى المخاطب .

(100/797)

يقال : لقيته الذكر فتلقاه .

وقرأ أيضاً ابن عباس ، فيما ذكره المهدوي : بفتح اللام والقاف مشددة اسم مفعول ، أي تلقته من قبل الله تعالى .

وقرأ إبراهيم التيمي والنحويان وحفص : ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ بسكون الذالين ؛ وزيد بن ثابت وابن خارجة وطلحة وأبو جعفر وأبو حيوة وعيسى والحسن : بخلاف ؛ والأعشى ، عن أبي بكر : بضمهما ؛ وأبو جعفر أيضاً وشيبة وزيد بن علي والحرميان وابن عامر وأبو بكر : بسكونها في عذراً وضمها في نذراً ، فالسكون على أنهما مصدران مفردان ، أو مصدران جمعان .

فعذراً جمع عذير بمعنى المعذرة ، ونذراً جمع نذير بمعنى الإنذار .

وانتصابهما على البدل من ﴿ ذكراً ﴾ ، كأنه قيل : فالملقيات عذراً أو نذراً ، أو على

المفعول من أجله ، أو على أنهما مصدران في موضع الحال ، أي عاذرين أو منذرين .

ويجوز مع الإسكان أن يكونا جمعين على ما قررناه .

وقيل : يصح انتصاب ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ على المفعول به بالمصدر الذي هو ﴿ ذكراً ﴾ ، أي فالملقيات ، أي فذكروا عذراً ، وفيه بعد لأن المصدر هنا لا يراد به العمل ، إنما يراد به الحقيقة لقوله : ﴿ أألقي عليه الذكر ﴾ .

والإعذار هي بقيام الحجة على الخلق ، والإنذار هو بالعذاب والنقمة .

﴿ إنما توعدون ﴾ : أي من الجزاء بالثواب والعقاب ، ﴿ لواقع ﴾ : وما موصولة ، وإن كانت قد كتبت موصولة بأن .

وهذه الجملة هي المقسم عليها .

وقرأ الجمهور : ﴿ أو نذراً ﴾ بواو التفصيل ؛ وإبراهيم التيمي : ونذراً بواو العطف .

﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ : أي أذهب نورها فاستوت مع جرم السماء ، أو عبر عن إلحاق ذواتها بالطمس ، وهو انتثارها وانكدارها ، أو أذهب نورها ثم انتثرت ممحوقة النور .

﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ : أي صار فيها فروج بانفطار .

وقرأ عمرو بن ميمون : طمست ، فرجت ، بشد الميم والراء ؛ والجمهور : بخفهما .

﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ : أي فرقتها الرياح ، وذلك بعد التسيير وقبل كونها هباء .

وقرأ الجمهور : ﴿ أقتت ﴾ بالهمز وشد القاف ؛ وبتخفيف القاف والهمز النخعي والحسن وعيسى وخالد .

وقرأ أبو الأشهب وعمرو بن عبيد وعيسى أيضاً وأبو عمرو : بالواو وشد القاف .

قال عيسى : وهي لغة سفلى مضر .

وعبد الله والحسن وأبو جعفر : بواو واحدة وخف القاف ؛ والحسن أيضاً : ووقتت بواوين على وزن فوعلت ، والمعنى : جعل لها وقت منتظر فحان وجاء ، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، والواو في هذا كله أصل والهمزة بدل .

قال الزمخشري : ومعنى توقيت الرسل : تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ، وجواب إذا محذوف لدلالة ما قبله عليه وتقديره : إذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون .

﴿ لأي يوم أجلت ﴾ : تعظيم لذلك اليوم ، وتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة .

والتأجيل من الأجل ، أي ليوم عظيم أخرت ، ﴿ ليوم الفصل ﴾ : أي بين الخلائق .

﴿ ويل ﴾ : تقدم الكلام فيه في أول ثاني حزب من سورة البقرة ، يومئذ : يوم إذ طمست النجوم وكان ما بعدها .

وقرأ الجمهور : ﴿ نهلك الأولين ﴾ بضم النون ، وقتادة : بفتحها .

قال الزمخشري : من هلكه بمعنى أهلكه .

قال العجاج :

ومهمه هالك من تعرجا . . .

انتهى .

وخرج بعضهم هالك من تعرجاً على أن هالكاً هو من اللازم ، ومن موصول ، فاستدل به على أن الصفة المشبهة باسم الفاعل قد يكون معمولها موصولاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ نتبعهم ﴾ بضم العين على الاستئناف ، وهو وعد لأهل مكة .

ويقوي الاستئناف قراءة عبد الله : ثم سنتبعهم ، بسين الاستقبال ؛ والأعرج والعباس عن أبي عمرو : بإسكانها ؛ فاحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ نهلك ﴾ ، واحتمل أن يكون سكن تخفيفاً ، كما سكن ﴿ وما يشعركم ﴾ ، فهو استئناف .

فعلى الاستئناف يكون الأولين الأمم التي تقدمت قريشاً أجمعاً ، ويكون الآخرين من تأخر من قريش وغيرهم .

(102/797)

وعلى التشريك يكون الأولين قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام ومن كان معهم ، والآخرين قوم فرعون ومن تأخر وقرب من مدة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

والإهلاك هنا إهلاك العذاب والنكال ، ولذلك جاء ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ ، فأتى بالصفة المقتضية لإهلاك العذاب وهي الإجرام .

ولما ذكر إفناء الأولين والآخرين ، ذكر ووقف على أصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث ، ﴿ من ماء مهين ﴾ : أي ضعيف هو مني الرجل والمرأة ، ﴿ في قرار مكين ﴾ : وهو الرحم ، ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ : أي عند الله تعالى ، وهو وقت الولادة .

وقرأ عليّ بن أبي طالب : فقدرنا بشد الدال من التقدير ، كما قال : ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ ؛ وباقي السبعة : بخفها من القدرة ؟ وانتصب ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ بفعل يدل عليه ما قبله ، أي يكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها .

واستدل بهذا من قال : إن النباش يقطع ، لأن بطن الأرض حرز للكفن ، فإذا نبش وأخذ منه فهو سارق .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى : نكفتكم أحياء وأمواتاً ، فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس . انتهى .

و﴿ رواسي ﴾ : جبالاً ثابتات ، ﴿ شامخات ﴾ : مرتفعات ، ومنه شمخ بأنفه : ارتفع ، شبه المعنى بالجرم .

﴿ وأسقيناكم ﴾ : جعلناه سقياً لمزراعكم ومنافعكم .

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

يقال للمكذبين : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ : أي من العذاب .

﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ : أمر ، قراءة الجمهور تكراراً أو بيان للمنطلق إليه .

وقرأ رويس عن يعقوب : بفتح اللام على معنى الخبر ، كأنهم لما أمروا امتثلوا فانطلقوا ، إذ لا يمكنهم التأخير ، إذ صاروا مضطرين إلى الانطلاق ؛ ﴿ ذي ثلاث شعب ﴾ ، قال عطاء : هو دخان جهنم .

وروي أنه يعلو من ثلاثة مواضع ، يظن الكفار أنه مغن من النار ، فيهرعون إليه فيجدونه على أسوإ وصف .

وقال ابن عباس : يقال ذلك لعبدة الصليب .

(103/797)

فالمؤمنون في ظل الله عز وجل ، وهم في ظل معبودهم وهو الصليب له ثلاث شعب ، والشعب : ما تفرق من جسم واحد .

﴿ لا ظليل ﴾ : نفي لمحاسن الظل ، ﴿ ولا يغني ﴾ : أي ولا يغني عنهم من حر اللهب

شيئاً .

﴿ إنها ترمي بشرر ﴾ : الضمير في إنها لجهنم .

وقرأ الجمهور : ﴿ بشرر ﴾ ، وعيسى : بشرار بألف بين الراءين ، وابن عباس وابن مقسم كذلك ، إلا أنه كسر الشين ، فاحتمل أن يكون جمع شرر ، أي بشرار من العذاب ، وأن يكون صفة أقيمت مقام موصوفها ، أي بشرار من الناس ، كما تقول : قوم شرار جمع شر غير أفعل التفضيل ، وقوم خيار جمع خير غير أفعل التفضيل ؛ ويؤنث هذا فيقال للمؤنث شرة وخيرة بخلافهما ، إذا كانا للتفضيل ، فلهما أحكام مذكورة في النحو .

وقرأ الجمهور : ﴿ كالقصر ﴾ ؛ وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحسن وابن مقسم : بفتح القاف والصاد ؛ وابن جبير أيضاً والحسن أيضاً : كالقصر ، بكسر القاف وفتح الصاد ؛ وبعض القراء : بفتح القاف وكسر الصاد ؛ وابن مسعود : بضمهما ، كأنه مقصور من القصور ، كما قصروا النجم والنمر من النجوم والنمور ، قال الراجز :

فيها عنابيل أسود ونمر . . .

وتقدم شرح أكثر هذه القراءات في المفردات .

وقرأ الجمهور ، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ﴿ جمالات ﴾ بكسر الجيم وبالألف والتاء ، جمع جمال جمع الجمع وهي الإبل ، كقولهم : رجالات قريش ؛ وابن عباس وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء : بخلاف عنهم كذلك ، إلا أنهم ضموا الجيم ، وهي

جمال السفن ، الواحد منها جملة لكونه جملة من الطاقات والقوى ، ثم جمع على جمل وجمال ، ثم جمع جمال ثانياً جمع صحة فقالوا : جمالات .

وقيل : الجمالات : قلوص الجسور .

وقرأ حمزة والكسائي وحفص وأبو عمرو في رواية الأصمعي ، وهارون عنه : جمالة بكسر الجيم ، لحقت جمالاً التاء لتأنيث الجمع ، كحجر وحجارة .

(104/797)

وقرأ ابن عباس والسلمي والأعمش وأبو حيوة وأبو نحرية وابن أبي عبلة ورويس : كذلك ، إلا أنهم ضموا الجيم .

قال ابن عباس وابن جبير : الجمالات : قلوص السفن ، وهي حباله العظام ، إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام .

وقال ابن عباس أيضاً : الجمالات : قطع النحاس الكبار ، وكان اشتقاق هذه من اسم الجملة .

وقرأ الحسن : صفر ، بضم الفاء ؛ والجمهور : بإسكانها ، شبه الشرر أولاً بالقصر ، وهو الحصن من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء ؛ وثانياً بالجمال لبيان التشبيه .

ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان ، وهي القصور ؟ قال الشاعر :

فوقفت فيها ناقتي فكأنها . . .

فدن لأقصى حاجة المتلوم

ومن قرأ بضم الجيم ، فالتشبيه من جهة العظم والطول .

والصفرة الفاقعة أشبه بلون الشرر ، قاله الجمهور : وقيل : صفر سود ، وقيل : سود تضرب إلى الصفرة .

وقال عمران بن حطان الرقاشي :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم . . .

بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى

وقرأ الأعمش والأعرج وزيد بن علي وعيسى وأبو حيوة وعاصم في رواية : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ، بفتح الميم ؛ والجمهور : برفعها .

قال ابن عطية : لما أضاف إلى غير متمكن بناه فهي فتحة بناء ، وهي في موضع رفع .

وقال صاحب اللوامح : قال عيسى : هي لغة سفلى مضر ، يعني بناءهم يوم مع لا على الفتح ، لأنهم جعلوا يوم مع لا كالاسم الواحد ، فهو في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ . انتهى .

والجملة المصدرة بمضارع مثبت أو منفي لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجه ، وإنما هذا مذهب كوفي .

قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نصباً صحيحاً على الظرف ، فيصير هذا إشارة إلى ما تقدمه من الكلام دون إشارة إلى يوم ، ويكون العامل في نصب يوم نداء تقدمه من صفة جهنم ، ورميها بالشرر في يوم لا ينطقون ، فيكون يومئذ كلام معترض لا يمنع من تفريغ العامل للمعمول ، كما كانت ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان . . . ذواتا أفنان ﴾ انتهى .

(105/797)

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون ظرفاً ، وتكون الإشارة بهذا إلى رميها بشرر .

وقال الزمخشري : ونصبه الأعمش ، أي هذا الذي قص عليكم واقع يومئذ ، وهنا نفي نطقهم .

وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم نطقوا في مواضع من هذا اليوم ، وذلك باعتبار طول اليوم ، فيصح أن ينفي القول فيه في وقت ويثبت في وقت ، أو نفي نطقهم بحجة تنفع وجعل نطقهم بما لا ينفع كلا نطق .

وقرأ القراء كلهم فيما أعلم : ﴿ ولا يؤذن ﴾ مبنياً للمفعول .

وحكى أبو علي الأهوازي أن زيد بن علي قرأ : ولا يأذن ، مبنياً للفاعل ، أي الله تعالى ،

﴿ فيعتذرون ﴾ : عطف على ﴿ ولا يؤذن ﴾ داخل في حيز نفي الإذن ، أي فلا إذن فاعتذار ، ولم يجعل الاعتذار متسبباً عن الإذن فينصب .

وقال ابن عطية : ولم ينصب في جواب النفي لتشابه رؤوس الآي ، والوجهان جائزان . انتهى .

فجعل امتناع النصب هو تشابه رؤوس الآي وقال : والوجهان جائزان ، فظهر من كلامه استواء الرفع والنصب وأن معناهما واحد ، وليس كذلك لأن الرفع كما ذكرنا لا يكون متسبباً بل صريح عطف ، والنصب يكون فيه متسبباً فافترقا .

وذهب أبو الحجاج الأعلم إلى أن قد يرفع الفعل ويكون معناه المنصوب بعد الفاء وذلك قليل ، وإنما جعل النحويون معنى الرفع غير معنى النصب رعياً للأكثر في كلام العرب ، وجعل دليله ذلك ، وهذه الآية كظاهر كلام ابن عطية ، وقد رد ذلك عليه ابن عصفور وغيره .

﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم ﴾ للكفار ، ﴿ والأولين ﴾ : قوم نوح عليه السلام وغيرهم من الكفار الذين تقدم زمانهم على زمان المخاطبين ، أي جمعناكم للفصل بين السعداء والأشقياء .

﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ : أي في هذا اليوم ، كما كان لكم في الدنيا ما تكيدون به دين الله وأولياءه ، ﴿ فكيدون ﴾ اليوم ، وهذا تعجيز لهم وتوبيخ .

ولما كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفار في الآخرة ، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها ، جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفار والإيجاز في وصف المؤمنين ، فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين .

وقرأ الجمهور : ﴿ في ظلال ﴾ جمع ظل ؛ والأعمش : في ظلل جمع ظلة .

﴿ كلوا واشربوا ﴾ : خطاب لهم في الآخرة على إضمار القول ، ويدل عليه ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ : خطاب للكفار في الدنيا ، ﴿ قليلاً ﴾ : أي زماناً قليلاً ، إذ قصارى أكلكم وتمتعكم الموت ، وهو خطاب تهديد لمن أجرم من قريش وغيرهم .

﴿ وإذا قيل لهم اركعوا ﴾ : من قال إنها مكية ، قال هي في قريش ؛ ومن قال إن هذه الآية مدنية ، قال هي في المنافقين .

وقال مقاتل : نزلت في ثقيف ، قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : حط عنا الصلاة فإنا لا ننحني إنها مسبة ، فأبى وقال : " لا خير في دين لا صلاة فيه " ومعنى اركعوا : اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه .

وقيل : الركوع هنا عبارة عن الصلاة ؛ وخص من أفعالها الركوع ، لأن العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود .

وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ، لأن كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة وتقريرات من أحوال الدنيا ، فناسب أن نذكر الوعيد عقيب كل جملة منها للمكذب بالويل في يوم الآخرة .

والضمير في ﴿ بعده ﴾ عائد على القرآن ، والمعنى أنه قد تضمن من الإعجاز والبلاغة والإخبار المغيبات وغير ذلك مما احتوى عليه ما لم يتضمنه كتاب إلهي ، فإذا كانوا مكذبين به ، فبأي حديث بعده يصدقون به ؟ أي لا يمكن تصديقهم بحديث بعد أن كذبوا بهذا الحديث الذي هو القرآن .

وقرأ الجمهور : ﴿ يؤمنون ﴾ بياء الغيبة ؛ ويعقوب وابن عامر في رواية : بتاء الخطاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(107/797)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

التفسير : الكلمات الخمس في أول هذه السورة يحتمل أن يكون المراد بها جنساً واحداً أو أجناساً مختلفة . أما الإحتمال الأول فذكروا فيه وجوهاً الأول : أنها الملائكة أقسم رب

العزة بطوائف الملائكة الذين أرسلهم بأوامره حال كونهن عرفاً أي متتابعة كشعر العرف . يقال : جاؤا عرفاً واحداً وهم عليه كعرف الضبع إذا اجتمعوا عليه ، ويجوز أن يكون العرف خلاف النكر أي أرسلهن للاحسان والمعروف ، فإن هؤلاء الملائكة إن كانوا بعثوا للرحمة فمعنى الإحسان حينئذ ظاهر ، وإن كانوا قد بعثوا لأجل العذاب فذلك إن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله من الكفار لأجلهم .

(108/797)

ومعنى الفاء في ﴿ فالعاصفات ﴾ أنهن عقيب الأمر عصفن في مضيهن كما عصفت الرياح بدراً إلى امتثال الأمر . قيل : هو من قولهم " عصفت الحرب بالقوم " أي ذهبت بهم وأهلكتهم . ويقال " ناقة عصوف " أي عصفت براكبها فمضت كأنها ريح من السرعة فالمراد أنهن حين أرسلن للعذاب طرن بروح الكافر . ثم أقسم بطوائف من الملائكة نشرن أجنحتهن في الجو عن انحطاطهن بالوحي أو نشرن الشرائع في الأرض . أو أحيين النفوس الميتة بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء ﴿ عذراً ﴾ للمحقين ﴿ أو نذراً ﴾ للمبطلين . قال الأخفش والزجاج : هما بالسكون مصدران كالشكر والكفر ، والضم لغة في كل منهما كالنكر والنكر ، والمعنى إعذاراً أو إنذاراً وكل منهما بدل من ﴿

ذكر ﴾ أو مفعول له . وقال أبو عبيد : بالثقل جمع عذير بمعنى المعذرة وجمع نذير بمعنى الإنذار أو بمعنى العاذر والمنذر فيكونان حالين من الإلقاء أي عاذرين أو منذرين الوجه الثاني أنها الرياح أقسم الله سبحانه برياح عذاب أرسلهن متتابعة فعصفن عصفاً ورياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بينه كقوله ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ [الروم : 48] فألقين ذكراً إي صرن سبباً في حصول الذكر لأن الإنسان العاقل إذا شاهد تلك الرياح إلتجأ إلى ذكر الله والتضرع إليه فيكون عذراً للذين يعتذرون إلى الله عز وجل بالتوبة والإستغفار ، وإنذاراً للذين يغفلون عن الله ويغفلون عن شكره إذ ينسبونها إلى الأنواء . والوجه الثالث إنها القرآن وآياته أرسلت متتابعة أو بكل معروف وخير فعصفت أي قهرت سائر الملل والأديان والكتب أي إبتدأن بالقهر والنسخ عقيب الإرسال ، ونشرن بعد ذلك بالتدريج آثار الحكم وأنوار الهداية في قلوب العالمين ففرقت بين الحق والباطل وألقت الذكر والشرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأمته كما قال ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] الرابع أنها طوائف الأنبياء أرسلوا بالوحي المستعقب لكل خير ومفتاحه " لا إله

إلا الله " فأخذ أمرهم في العصوف والاشتداد إلى أن بلغ غايته وانتشرت دعوتهم ففرقوا بين المؤمن والكافر ، والمقر والجاحد ، وألقوا الذكر والتوحيد إلى الناس كافة أو إلى طائفة معينين . الخامس وهو بالتأويل أشبه أن المرسلات هي الدواعي والإلهامات الربانية أرسلت فأخذت في العصوف والاشتداد بحيث أزالت عن القلب حب ما سوى الله وانبثت آثارها في سائر الأعضاء والجوارح ، فلا يسمع إلا بالله ولا يبصر إلا بالله ، وكذا البطش والمشي وسائر الحركات والسكنات ، ففرقت بين الوجود المجازي وهو وجود سوى الله وبين الوجود الحقيقي وهو البقاء بالله ، وألقت الذكر على كل الجوارح فلم يذكر غير الله . وأما الإحتمال الثاني ففيه وجوه أيضاً أحدها : وهو المنقول عن الزجاج واختاره القاضي أن الثلاث الأول هي الرياح كما في الوجه الثاني من الوجوه المتقدمة ، والباقيتان الملائكة كما مر في الوجه الأول منها .

(110/797)

ووجه الجمع بين الرياح والملائكة هو اللطافة وسرعة الحركة . وثانيها أن الأولين هما الرياح والثلاثة الأخيرة هي الملاكة لأنها تنشر الوحي ، ثم يعقبه أثران ظهور الفرق بين أولياء الله وأعدائه ودوران ذكر الله على القلوب والألسن . وقد يتأيد هذا الوجه بعطف الثانية على

الأولى بفاء الوصل المنبيء عن التعقيب والتسبيب . ثم التنسيق بالواو وعطف الباقيين عليها بالفاء وثالثها أن الأولى ملائكة العذاب والباقية آيات القرآت على منوال ما سبق .

قوله ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ جواب القسم ومعناه على ما قال الكلبي : كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع . والأكثرون يخصونه بمجيء القيامة بدليل ذكر أماراتها بعده وهو قوله ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي أزيلت عن أماكنها بالإنتثار وأذهب ضوءها بالإنكدار وقد ورد كل منهما ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ [فاطر : 2] ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 2] فذكروا في وجه الجمع بينهما أنه يجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر بمحوق النور . وفسر الانتثار في الكشاف بمحق الذوات وفيه بعد لأن الانتثار غير الانعدام وإن أراد بالمحق غير هذا فعليه بالبيان قوله ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي فتحت السماء فكانت أبوابا ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي سيرت أجزاؤها في الهواء كالحب إذا نسف بالمنسف وقد مر في " طه " في قوله ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ [طه : 105] قال مجاهد والزجاج : المراد بأقتت الرسل تعيين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم ، وكان هذا الوقت مبهماً عليهم قبل ذلك وقريب منه قول جار الله : إن معنى وقتت بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة . ثم عجب العباد هول ذلك اليوم فقال ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل وهي تعذيب من كذبهم

وتعظيم من صدقهم وظهور ما كانوا يوعدون الأمم إليه ويخوفونهم به من العرض والحساب ونشر الدواوين ووضع الموازين . ثم أجاب بأنهم أجلوا ﴿ ليوم الفصل ﴾ بين الخلائق

(111/797)

، ثم عظم ذلك اليوم ثانياً فقال ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ وأي شيء شدته ومهابته . ثم عقبه بتهويل ثالث فقال ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي يوم إذا كان كذا وكذا من الأهوال ﴿ للمكذبين ﴾ وإعرابه كإعراب ﴿ سلام عليك ﴾ [مريم : 47] وقد سبق . وقد كرر هذا التهويل في تسعة مواضع أخر لمزيد التأكيد والتقرير كما مر في سورة الرحمن . ثم هددهم بقوله ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ كعاد وثمود وغيرهما إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ وهم كفار مكة أهلكهم الله يوم بدر وغيره من المواطن قوله ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الإهلاك الفظيع ﴿ نفعل ﴾ بكل مجرم . ثم وبخهم بتعديد النعم وآثار القدرة عليهم فقال ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ حقير لا يعبأ به وهو النطفة ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ وهو الرحم وهو أنه يتمكن فيه ما يتكون منه الولد ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أي إلى مقدار معلوم من الزمان المقدر ولهذا قال ﴿ فقدرنا ﴾ بالتشديد ﴿ فنعم القادرون ﴾ أي فنعم المقدرون له نحن .

ومن قرأ بالتخفيف فبمعنى التقدير أيضاً لتوافق القراءتان . قال الفراء : قدر وقدّر بالتخيف والتشديد لغتان ، ويجوز أن يكون المخفف من القدرة أي فقدرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا فنعم أصحاب القدرة نحن حيث خلقناهم في أحسن تقويم . وفي قوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وتوبيخ وتخويف من وجهين أحدهما : أن النعمة كلما كانت أعظم كان كفرانها أفحش . والثاني أن القادر على الابداء أقدر على الإعادة فالمنكر لهذا الدليل الواضح يستحق غاية التوبيخ . ثم عد عليهم نعم الآفاق بعد ذكر الأنفس . والكفات اسم ما يكفت أي يضم ويجمع ، ويجوز أن يكون اسماً لما يكفت به مبيناً للمفعول كالشداد لضمام يشد به رأس القرورة . وانتصب ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ بفعل مضمر دل عليه هذا الاسم أي تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها . والتنكير للتفخيم أي أحياء وأمواتاً لا تعد ولا تحصى . وجوز انتصابهما على الحال والضمير الذي هو ذو الحال محذوف للعلم به أي تكفتكم في حال حياتكم وفي حال مماتكم . وقيل : معنى كونها كفاتاً أنها تجمع ما ينفصل منهم من المستقذرات وقيل : معناه أنه جامعة لما يحتاجون إليه في التعيش . وقيل : هما راجعان إلى الأرض يعني ما ينبت وما لا ينبت . والكل بتكلف . والوجه هو الأول .

وباقي الآية ظاهر مما سلف مراراً . ثم أخبر عما يقال للمكذبين في قوم الفصل فقال ﴿ انطلقوا ﴾ أي يقال لهم انطلقوا لما كذبتم به من العذاب . ثم بين ما أجمل بقوله ﴿ انطلقوا ﴾ يروى أن الشمس تقرب يوم القيامة لرؤس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس فتلفحهم الشمس وتسفعهم وتأخذ بأنفاسهم ، ويحمي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظلاله فهناك يقولون ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ [الطور : 25] ويقال للمكذبين ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ من عذاب الله وعقابه ﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ قال الحسن : ما أدري ما هذا الظل ولا سمعت فيه بشيء فقال قوم : سمى النار بالظل مجازاً . وشعبها الثلاث

(113/797)

كونها من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم . وعن قتادة : هو الدخان شعبة عن يمينهم وأخرى عن يسارهم والثالثة من فوق ، تظلم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش . وقال في الكشاف : هو عبارة عن عظم الدخان . فالدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب وقال أهل التأويل : الشعب الثلاث هي القوة الغضبية ومنشؤها القلب في الجانب الأيسر ، والشهوية ومنشؤها الكبد في الجانب الأيمن ، والشيطانية ومنشؤها الدماغ من

فوق ، فيتولد من اتباع هذه الثلاثة ثلاثة أنواع من الظلمات . وقال أبو مسلم : هي الأوصاف الثلاثة التي ذكرها الله تعالى عقيبه وهي ﴿ لا ظليل ولا يغني من اللهب أنّها ترمي بشرر كالقصر ﴾ وفيه تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين أي ذلك الظل غير مانع حر الشمس وغير مغن منحر اللهب شيئاً أي لا روح كما قال في الواقعة

(114/797)

﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ [الآية : 44] يقال أغن عني وجهك أي أبعده لأن الغني عن الشيء يباعده كما أن المحتاج إليه يقاربه . وإنما عدي في الآية ب " من " لأنه أراد أن ابتداء الإغناء منه ، وعن قطرب ان اللهب ههنا هو العطش . ثم شبه الشرر وهو ما يتطاير من النار متبدداً في كل جهة بالقصر . والأكثرون على أنه واحد القصور . وعن سعيد بن جبير ومقاتل والضحاك أنه الغليظ من أصول الشجر العظام الواحدة قصرة كجمرة وجمر . وروي عن ابن عباس أنه سئل عن القصر فقال : خشب كنا ندخره للشتاء . ثم زاد في البيان أن أتبعه تشبيهاً آخر قائلاً ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ وهي جمع جمالة بمعنى جمل . ويجوز أن يكون جمع جمال كرجالات وقال أبو علي : التاء في ﴿ جمالة ﴾ لتأكيد الجمع كحجر وحجارة . أما الجمالة بالضم فهي قلوس سفن البحر أي حبالها كما مر في قوله ﴿

حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ [الأعراف : 40] وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس أنها قطع النحاس . ومعظم أهل اللغة لا يعرفونه . وقال الفراء : يجوز أن يكون الجمالات بالضم من الشيء المجمل . يقال : أجملت الحساب وجاء القوم جملة أي مجتمعين : والمعنى أن هذه الشرر ترتفع كأنها شيء مجموع غليظ أصفر والأكثرون على أن المراد بهذه الصفرة سواد يعلوه صفرة . قال الفراء : لا ترى أسود في الليل إلا وهو مشرب صفرة والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كأنه أشبه شيء بالجمل الأسود الذي يشوبه شيء من الصفرة . وقال آخرون : الشرر إنما يسمى شرراً ما دام مرتفعاً وحينئذ يكون ناراً وإذا كان ناراً كان أصفر فاقعاً . واعلم أنه عز اسمه شبه الشرر في العظم والارتفاع بالقصر ثم شبهه مع ذلك في اللون والكثرة والتابع وسرعة الحركة بالجمالات الصفر . ثم نقل عن ابن عباس أنه قال : هذا التشبيه إنما ورد على ما هو معتاد في بلاد العرب . وقصورهم قصيرة السمك جارية مجرى الخيمة . فسمع أبو العلاء ذلك فشبه الشرر بالطراف وهو الخيمة من

الأديم قال :

حمراء ساطعة الذوائب في الد . . . جى ترمي بكل شرارة كطراف

فزعم صاحب الشكاف أنه أراد معارضة المعجز . قال الإمام فخر الدين الرازي : كان الأولى بصاحب الكشاف أن لا يذكر ذلك لأنه أخذ مقتبساً تابعاً ، والمعجز أظهر حالاً وأجل منصباً من أن يتصدى لمعارضته أحد بعد استقرار أمره ويلتفت إلى لمعارض ، وإذ قد ذكر صاحب الكشاف ذلك فلنذكر التفاوت بين القرآن وبين كلام أبي العلاء وذلك من وجوه الأول : قيل : إن لون الأديم قريب من لون الشرارة إلا أن الجمالات متحركة كالشرارة دون الخيمة .

(116/797)

الثاني أن القصر موضع الأمن وتشبيه الشرارة به إشارة إلى أن الكافر إنما يعذب بآفة من الموضع الذي يتوقع منه الأمن وهو دينه وملته التي ظن أنه منها على شيء ، وليست الخيمة موضع الأمن الكلي الثالث أن الشرر متتابعة كالجمال ولا كذلك الطراف الرابع أن العرب اعتقدوا أن الجمال في ملك الجمال وتمام النعم في حصول النعم . ففي الآية إشارة إلى أنكم كنتم تعدون الجمال فخذوا هذه الشرارات التي هي كالجمالات وهذا التهكم غير موجود

في الشعر . الخامس أن الإبل إذا نفرت وشردت متتابعة نال من وقع فيما بينهما بلاء شديد . فتشبيه الشرر بها يفيد كمال الضرر والطراف ليس كذلك . السادس أن القصر يكون أعظم غالباً من الطراف والجمالات وهي جمع الجمع تكون أكثر عدداً من الطراف والغرض التوكيد فيكون تشبيه القرآن أبلغ في المعنى المقصود . السابع أن التشبيه بشيئين كالقصر والجمالات في إثبات الوصفين كالعظم والصفرة أقوى في ثبوت الوصفين من التشبيه بشيء واحد للوصفين بعينهما ، لأن الأول كالمبين المفصل ، والثاني كالمجمل المبهم إذ يحتمل أن يكون وجه التشبيه واحداً منهما فقط . الثامن أن الإنسان إنما يكون طيب العيش إذا كان وقت الانطلاق راكباً ووقت النزول راقداً في الظل فكأنه قيل في الآية على سبيل التهكم مركوبكم هذه الجمالات من الشرر وظلكم في مثل هذا القصر ولو شبه بالطرف لم يحصل هذا المقصود . التاسع أن تطاير القصر وهو من اللبن والحجر والخشب في الهواء أغرب من تطاير الخيمة وهي خفيفة الحجم . العاشر أن سقوط القصر أفظع وأهول من سقوط الطراف هذه خلاصة كلام الإمام في هذا المقام أوردناها لئلا يكون كتابنا خالياً من فوائد تفسيره . قوله ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ يروى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الجمع بين هذه الآية وبين نحو قوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر : 31] فأجاب بتغاير الزمانين وتباين الموطنين . وقال الحسن : أراد لا ينطقون بحجة

صحيحة وعذر واضح فكأنهم لم ينطقوا ولم يعتذروا . قوله ﴿ ولا يؤذن ﴾ إنما لم يقل " فيعتذروا " بسقوط النون للنصب كقوله ﴿ لا يقضي عليهم فيموتوا ﴾ [فاطر : 36] لأنه لو نصب لأوهم أنهم إنما لم يعتذروا لأجل أنهم لم يؤذوا في الإعتذار ولولا المنع لاعتذروا وهذا غير جائز ، ولكن المراد أن لا عذر لهم في نفس الأمر كما لا إذن فالفاء لمطلق النسق لا للتسبب . هذا مع أنه فيه رعاية الفاصلة وهي من جملة الفصاحة اللفظية ، ولهذا لم يقرأ في سورة " اقتربت " ﴿ إلى شيء نكر ﴾ [الآية : 6] لا مثقلاً . وقريء قوله في آخر " الكهف " و " الطلاق " ﴿ عذاباً نكراً ﴾ [الآية : 8] بالوجهين قالوا : وإنما لم يؤذن لهم في الاعتذار لأنه سبحانه أزاح الاعتذار في الدنيا بتقديم الإنذار بدليل قوله ﴿ فالملقيات ذكراً عذراً ونذراً ﴾ ولهذا قال في آخر هذا الأخبار ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم أشار لمزيد التهديد والتوبيخ إلى اليوم المذكور بقوله ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ ثم أوضح هذه الجملة بقوله ﴿ جمعناكم ﴾ أيها المتأخرون ﴿ والأولين ﴾ لأن الفصل بين الخلائق لا يجوز إلا بإحضار الكل .

(118/797)

وقد يستدل به على عدم جواز القضاء على الغائب . ثم عجزهم وحقر أمرهم بقوله ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ وقد علم أنه لا حيلة لهم في رفع البلاء عن أنفسهم يومئذ كما كانوا يحتالون في الدنيا يؤذون بذلك أنبياء الله وأولياءه ، وهذا التعجيز والتخجيل من جنس العذاب الروحاني فلهذا عقبه بقوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم زاد في حسرتهم وغمهم بتعديد ما أعد للمطيعين المتقين من الظلال والعيون والفواكه بدل ظلالهم التي لا روح فيها ولا تغني عن الحر والعطش ، استقروا في تلك النعم مقولاً لهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ وهو أمر إكرام لا أمر تكليف وهذا أيضاً من جنس العذاب الروحاني بالنسبة إلى الكافرين حين يرون الذين اتقوا الشرك في النعيم المقيم ولذا أردفه بقوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم ذكر أن هذا الويل ثابت لهم في حال ما يقال في الآخرة ﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ قال جار الله : هذا في طريقة قول القائل :

إخوتي لا تبعدوا أبداً . . . وبلى والله قد بعدوا

أي كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بهذا ، وفيه توبيخ وتذكير بحالهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم ، وعلل ذلك بكونهم مجرمين إيعاداً لكل مجرم ، وجوز أن يكون ﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ كلاماً مستأنفاً خطاباً للمكذبين في الدنيا . ثم ذمهم على ترك الخشوع والتواضع لله بقبول وحيه . وقيل : ما كان على العرب أشد من الركوع والسجود . يروى أن وفد ثقيف أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

بالصلاة فقالوا : لا ننحني أي لا نركع ولا نسجد فإنها مسبة علينا . فقال صلى الله عيله وسلم : لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود . وأنزل الله الآية . ثم ختم السورة بالتعجب من حال الكفار وإصرارهم على جهالاتهم وضلالاتهم بعد القرآن وبياناته وقد مر في أول " الجاثية " نظيره والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 427.421 ﴾

(119/797)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة المرسلات

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهي قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ فمدنية .

وقال ابن مسعود : "نزلت والمرسلات عرفاً على النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ ونحن معه نسير حتى أوينا إلى غار منى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه وإن فاه رطب بها إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيتم شرّها كما وقيت شرّكم" ا . هـ . والغار المذكور مشهور في منى وقد زرته ولله الحمد ، وعن كريب

مولى ابن عباس قال : قرأت سورة والمرسلات عرفاً فسمعتني أمّ الفضل امرأة العباس فبكت . وقالت : والله يا بني لقد أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب .

وهي خمسون آية وإحدى وثمانون كلمة وثمانمائة وستة عشر حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الملك الحق المبين ﴿ الرحمن ﴾ المنعم على الخلق أجمعين ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بكرامته عباده المؤمنين .

﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ أي : الرياح متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضها بعضاً ونصبها على الحال ، هذا ما عليه الجمهور من أنها الرياح قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح ﴾ (الحجر :) وقال تعالى : ﴿ ويرسل الرياح ﴾ (الأعراف :)

. وروى مسروق عن عبد الله قال : هي الملائكة أرسلت بالعرف من أمر الله تعالى ونهيه والخير والوحي ، وهو قول أبي هريرة ومقاتل والكلبي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الأنبياء عليهم السلام أرسلوا بلا إله إلا الله . وقال أبو صالح : هم الرسل ترسل بما يعرفون به من المعجزات . وقيل : المراد السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت إليه ومن أرسلت إليه .

﴿ فالعاصفات ﴾ أي : الرياح الشديدة ﴿ عصفاً ﴾ أي : عظيماً بما لها من النتائج الصالحة ، وقيل : الملائكة شبهت لسرعة جريها في أمر الله تعالى بالرياح ، وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر يقال : عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف أي : تعصف بركابها فتمضي كأنها ريح في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أي : ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف .

﴿ والناشرات ونشراً ﴾ أي : الرياح اللينة تنشر المطر . وقال الحسن : هي الرياح التي يرسلها الله تعالى بين يدي رحمته ، وقيل : الأمطار لأنها تنشر النبات بمعنى تحييه . وروي عن السدي أنها الملائكة تنشر كتب الله تعالى . وروى الضحاك أنها الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد .

تنبيه : إنما قال الله تعالى ﴿ والناشرات ﴾ بالواو لأنه استئناف قسم آخر .

﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ أي : الرياح تفرق السحاب وتبدده قاله مجاهد ، وعن ابن عباس هي الملائكة تفرّق الأقوات والأرزاق والآجال ، وقيل : هم الرسل فرّقوا بين ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه أي : بينوا ذلك ، وقيل : آيات القرآن تفرّق بين الحق والباطل والحلال والحرام .

﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ أي : الملائكة تنزل بالوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة

والسلام ، وقيل : هو جبريل عليه السلام وحده سمي باسم الجمع تعظيماً .

فإن قيل : ما المناسبة على هذا بين الرياح والملائكة في القسم ؟

أجيب : بأنّ الملائكة روحانيون ، فهم بسبب لطافتهم وسرعة حركاتهم كالرياح .

وقيل : المراد به الرسل يلقون إلى أممهم ما أنزل عليهم ، وذكراً مفعول به ناصبه الملقيات .

(121/797)

﴿ عذراً أو نذراً ﴾ مصدران من عذر إذا محا الإساءة ، ومن أنذر إذا خوّف على فعل كالكفر والشكر . ويجوز أن يكون جمع عذير بمعنى المعذور ، وجمع نذير بمعنى الإنذار ، وبمعنى العاذر والمنذر . ونصبهما إمّا على البدل من ذكراً على الوجهين الأوّلين أو على المفعول له ، وإمّا على الوجه الثالث ، فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين . وقرأ ﴿ أو نذراً ﴾ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة بضم الذال والباقون بسكونها .

وقوله تعالى : ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ جواب القسم ، ومعناه أنّ الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة ، وقال الكلبي : المراد أنّ كل ما توعدون به من الخير والشرّ لواقع .

ثم بين وقت وقوعه فقال تعالى : ﴿ فإذا النجوم ﴾ أي : على كثرتها ﴿ طمست ﴾ أي : محي نورها أو ذهب نورها ومحقت ذواتها ، وهو موافق لقوله تعالى : ﴿ انتثرت ﴾

(الإنفطار :)

و﴿ انكدرت ﴾ (التكوير :)

قال الزمخشري : ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور .

﴿ وإذا السماء ﴾ أي : على عظمها ﴿ فرجت ﴾ أي : فتحت وشققت فكانت أبواباً ، والفرج الشق ونظيره ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ (الانشقاق :)

﴿ وإذا الجبال ﴾ أي : على صلابتها ﴿ نسفت ﴾ أي : ذهب بها كلها بسرعة من نسفت الشيء : إذا اختطفته ، أو نسفت كالحب إذا نسف بالمنسف ، ونحوه ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ (الواقعة :)

﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ (المزمل :)

﴿ وإذا الرسل ﴾ أي : الذين أنذروا الناس ذلك اليوم فكُذبوا ﴿ أقتت ﴾ قال مجاهد والزجاج : المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم ، أي : جمعت لميقات يومٍ معلومٍ وهو يوم القيامة ، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه ، فالمعنى : جعل لها وقت أجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كقوله تعالى : ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ (المائدة :)

. وقرأ أبو عمرو بواو مضمومة والباقون بهمزة مضمومة وهما لغتان ، والعرب تعاقب بين الواو والهمزة كقولهم : وكدت وأكدت .

وقوله تعالى : ﴿ لأي يوم ﴾ أي : عظيم متعلق بقوله تعالى : ﴿ أجلت ﴾ وهذه الجملة معمولة لقول مضمر أي : يقال لأي يوم أجلت ، وهذا القول المضمر يجوز أن يكون جواباً لإذا وأن يكون حالاً من مرفوع .

﴿ أقتت ﴾ أي : مقولاً فيها لأي يوم أجلت أي : أخرت ، وهذا تعظيم لذلك اليوم وتعجيب له وقوله تعالى : ﴿ ليوم الفصل ﴾ بيان ليوم التأجيل . وقيل : اللام بمعنى إلى ، ذكره مكي . قال ابن عباس : يوم فصل الرحمن بين الخلائق كقوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ (الدخان :)

ثم أتبع هذا التعظيم تعظيماً آخر بقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أي : ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله في شدّته ومهابته ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وابن ذكوان بخلاف عنه بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بين بين والباقون بالفتح .

ثم أتبعه تهويلاً ثالثاً بقوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ يكون يوم الفصل ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بذلك ، قال القرطبي : ويل عذاب وخزي لمن كذب بالله تعالى وبرسله وكتبه وبيوم الفصل ، وهو وعيد وكرّره في هذه السورة عند كل آية كأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم

، فإنّ لكل مكذب بشيء عذاباً سوى عذاب تكذيبه بشيء آخر ، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من تكذيبه لغيره ؛ لأنه أقبح في تعظيمه وأعظم في الردّ على الله تعالى ، وإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه ، وهو قوله تعالى : ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ (النبأ :)

(123/797)

. وقيل : كرره لمعنى تكرار التخويف والوعيد ، وروي عن النعمان بن بشير قال : ويل واد في جهنم فيه ألوان العذاب ، وقاله ابن عباس وغيره ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال : "عرضت عليّ جهنم فلم أر فيها وادياً أعظم من الويل" ، وروي أيضاً أنه مجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم ، وإنما يسيل الشيء فيما سفل من الأرض ، وقد علم العباد في الدنيا أنّ شرّ المواضع ما استنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والغسالات والجيف وماء الحمامات ، فذكر أنّ الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ليعلم العاقل أنه لا شيء أقذر منه قذارة ولا أنتن منه نتناً .

تنبيه : ويل مبتدأ ، وسوّغ الابتداء به الدعاء ، ويومئذ ظرف للويل وللمكذبين خبره . وقال الزمخشري : فإن قلت كيف وقع النكرة مبتدأ ؟ قلت : هو في أصله مصدر منصوب ساد

مسدّ فعله لكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه ﴿ سلام عليكم ﴾ (الرعد :)

واعترض بأنّ الذي ذكره ليس من المسوّغات التي ذكرها النحويون ، وإنما المسوغ كونه دعاء وفائدة العدول إلى الرفع ما ذكره .

﴿ ألم نهلك ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الأوّلين ﴾ من لدن آدم عليه السلام إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم كقوم نوح وعاد وثمود بتكذيبهم أي : أهلكناهم ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ أي : ممن كذبوا ككفار مكة فنهلكهم كما أهلكنا الأوّلين ونسلك بهم سبيلهم ؛ لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم .

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿ نفعل بالمجرمين ﴾ أي : بكل من أجرم فيما يستقبل إمّا بالسيف وإمّا بالهلاك . d

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ يوجد ذلك الفعل ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بآيات الله وأنبيائه ، قال البيضاوي : فليس تكراراً وكذا إن أطلق التكذيب أو علق في الموضعين بواحد لأنّ الويل الأوّل بعذاب الآخرة ، وهذا للإهلاك في الدنيا مع أنّ التكرير للتوكيد حسن شائع في كلام العرب .

﴿ ألم نخلقكم ﴾ أي : أيها المكذبون بما لنا من العظمة التي لا تغيرها عظمة ﴿ من ماء مهين ﴾ أي : ضعيف حقير وهو المني ، وهذا نوع آخر من تخويف الكفار وهو من وجهين : الأوّل : أنه تعالى ذكرهم عظيم إنعامه عليهم وكل ما كان نعمه عليه أكثر كان جنايته في حقه أقبح وأفحش . الثاني : أنه تعالى ذكرهم أنه قادر على الابتداء ، والقادر على الابتداء قادر على الإعادة ، فكما أنكروا هذه الدلالة الظاهرة لا جرم قال تعالى في حقهم : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (السجدة :)

. وقرأ كل القراء بإدغام القاف في الكاف وإبقاء الصفة ولهم أيضاً إدغام الصفة مع الحذف .

﴿ فجعلناه ﴾ أي : بما لنا من القدرة والعظمة بالإنزال للماء في الرحم ﴿ في قرار ﴾ أي : مكان ﴿ مكين ﴾ أي : حريز وهو الرحم .

﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أي : وهو وقت الولادة ، كقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ إلى قوله : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ (لقمان :)

﴿ فقدرنا ﴾ أي : ذلك دون غيرنا ﴿ فنعم القادرون ﴾ نحن ، وقرأ نافع والكسائي بتشديد الدال فيصح على هذه القراءة أن يكون المعنى : فقدّرناه والباقون بالتخفيف ،

وقال عليّ كرم الله وجهه : ولا يبعد أن يكون المعنى في التخفيف والتشديد واحداً ؛ لأنّ العرب تقول : قدر وقدر عليه الموت .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ كان ذلك ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة .

وقوله تعالى : ﴿ ألم نجعل ﴾ أي : نصير بما شئنا بما لنا من العظمة ﴿ الأرض كفاتاً ﴾ مصدر كفت بمعنى ضم وعاء ضامّة .

(125/797)

﴿ أحياء ﴾ أي : على ظهرها في الدور وغيرها ﴿ وأمواتاً ﴾ أي : في بطنها في القبور وغيرها . وقيل : الأحياء والأموات ترجع إلى الأرض أي : الأرض منقسمة إلى حيّ وهو الذي ينبت ، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت ، وقيل : كفاتاً جمع كافت كصيام وقيام جمع صائم وقائم ، وقال الخليل : تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر ويقال انكفت القوم إلى منازلهم ، أي : انقلبوا ، فمعنى الكفات أنهم يتصرّفون على ظهرها وينقلبون إليها فيدفعون فيها .

﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة التامّة ﴿ فيها ﴾ أي : الأرض ﴿ رواسي ﴾ أي :

جبالاً لولاها لمادت بأهلها ، ومن العجائب مراسيها من فوقها خلافاً لمراسي السفن

﴿ شامخات ﴾ أي : مرتفعات جمع شامخ وهو المرتفع جدّاً ، ومنه شمخ بأنفه إذا تكبر ، جعل كناية عن ذلك كثنى العطف وصعر الخدّ ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ ولا تصعر خدّك للناس ﴾ (لقمان :)

﴿ وأسقيناكم ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ ماء ﴾ أي : من الأنهار والعيون والغدران والآبار وغير ذلك ﴿ فراتاً ﴾ أي : عذباً تشربون منه ودوابكم وتسقون منه زرعكم ، وهذه الأمور أعجب من البعث ، روي في الأرض من الجنة سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ تقوم الساعة ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بأمثال هذه النعم .

وقوله تعالى : ﴿ انطلقوا ﴾ على إرادة القول ، أي : يقال للمكذبين يوم القيامة : انطلقوا .

﴿ إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ من العذاب يعني : النار فقد شاهدتموها عياناً .

﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ أي : ظل دخان جهنم لقوله تعالى : ﴿ وظل من يحموم ﴾ (الواقعة :)

. ﴿ ذي ثلاث شعب ﴾ أي : تشعب لعظمه كما يرى الدخان العظيم يتفرّق ذوائب . وقيل : يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظللهم حتى يفرغ حسابهم والمؤمنون في ظل العرش ، وقيل : إن الشعب الثلاث : هي الضريع والزقوم والغسلين ؛ لأنها أوصاف النار وقوله تعالى : ﴿ لا ظليل ﴾ أي : كنين يظلهم من حرّ ذلك اليوم تهكم بهم وردّ لما يوهم لفظ الظل . ﴿ ولا يغني ﴾ أي : ولا يردّ عنهم شيئاً ﴿ من اللهب ﴾ أي : لهب النار ، فليس كالظل الذي يقي حرّ الشمس ، وهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين . واللهب ما يعلو على النار إذا اضطربت من أحمر وأصفر وأخضر .

﴿ إنها ﴾ أي : النار ﴿ ترمي ﴾ أي : من شدّة الاشتعال ﴿ بشرر ﴾ وهو ما تطاير من النار ﴿ كالقصر ﴾ أي : كل شررة كالقصر من البناء في عظمه وارتفاعه . قال ابن مسعود : يعني الحصون ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ترمي بشرر كالقصر ﴾ قيل : هي الخشب العظام المقطعة ، قال : وكنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ندّخرها للشتاء فكنا نسميها القصر . وقال سعيد بن جبير والضحاك : هي أصول النخل والشجر العظام واحدتها قصرة مثل جمرة وجمر .

وقوله تعالى : ﴿ كأنه ﴾ أي : الشرر ﴿ جمالات ﴾ قرأه حمزة والكسائي وحفص بغير ألف بعد اللام على التوحيد والباقون بالألف على الجمع ، جمع جمالة وهي التي قرأ بها أوّلاً

وهي جمع جمل مثل حجارة وحجر . وقوله تعالى : ﴿ صفر ﴾ جمع أصفر أي : في هيئتها ولونها . وفي الحديث "شرار النار أصفر كالقير" والعرب تسمي سود الإبل صفراً لشوب سوادها بصفرة ، فقيل : صفر في الآية بمعنى سود لما ذكروا في شعر عمران بن حطان الخارجي:

*دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم ** بمثل الجمال الصفر نزاعة الشوى*

(127/797)

قال الترمذيّ : وهذا القول ضعيف ومحال في اللغة أن يكون من يشوبه شيء قليل ، فينسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب ممن قد قال هذا . وقد قال الله تعالى : ﴿ جمالات صفر ﴾ فلا نسلم من هذا شيئاً في اللغة . وقيل : شبه الشرر بالجمالات لسرعة سيرها ، وقيل : لمتابعة بعضها بعضاً .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ يكون ذلك ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بهذه الأمور العظام .

﴿ هذا ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ يوم لا ينطقون ﴾ أي : بشيء من فرط الدهشة والحيرة ، وهذا نوع آخر من أنواع تخويف الكفار بين أنه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح وهذا في بعض المواقف ، فإنّ يوم القيامة يوم طويل ذو مواطن ومواقيت ينطقون في

وقت ولا ينطقون في وقت ، ولذلك ورد الأمر أن في القرآن الكريم ففي بعضها يختصمون ويتكلمون ، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون .

وروى عكرمة أنّ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى :

﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ و ﴿ لا تسمع إلا همساً ﴾ (طه :)

و ﴿ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ (الصافات :)

فقال : إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ (الحج :)

فإنّ لكل مقدار من هذه الأيام لوناً من هذه الألوان . وقال الحسن : فيه إضمار أي : هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة ، فجعل نطقهم كلا نطق لأنه لا ينفع ولا يسمع ، ومن نطق بما لا ينفع فكأنه ما نطق كما يقال لمن تكلم بكلام لا يفيد : ما قلت شيئاً . وقيل : إنّ هذا وقت جوابهم ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ (المؤمنون :)

﴿ ولا يؤذن لهم ﴾ أي : في العذر وقوله تعالى : ﴿ فيعتذرون ﴾ عطف على يؤذن من غير تسبب عنه فهو داخل في حيز النفي أي : لا إذن فلا اعتذار .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ كان هذا الموقف ﴿ للمكذبين ﴾ أي : الذين لا تقبل منهم معذرة .

﴿ هذا يوم الفصل ﴾ وهذا نوع آخر من أنواع تهديد الكفار وتخويفهم أي : يقال لهم هذا اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق فيتبين المحق من المبطل ﴿ جمعناكم ﴾ أيها المكذبون من هذه الأمّة بما لنا من العظمة ﴿ والأوّلين ﴾ من المكذبين قبلكم فتحاسبون وتعذبون جميعاً . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : جمع الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم والذين كذبوا النبيين من قبل .

وقوله تعالى : ﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ أي : حيلة في دفع العذاب عنكم ﴿ فكيدون ﴾ أي : فاحتالوا لأنفسكم وقاوون ، ولن تجدوا ذلك تقريع لهم على كيدهم لدين الله تعالى وذويه وتسجيل عليهم بالعجب ، وقيل : إنّ ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فيكون كقول هود عليه السلام ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ (هود :)

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ يقال لهم هذا الكلام فيكون زيادة في عذابهم ﴿ للمكذبين ﴾ أي : الراسخين في التكذيب في ذلك .

ثم ذكر ضد المكذبين بقوله تعالى : ﴿ إنّ المتقين ﴾ أي : الذين اتقوا الشرك لأنهم في مقابلة المكذبين ﴿ في ظلال ﴾ أي : تكاثف أشجار إذ لا شمس يظل من حرّها ﴿ وعيون ﴾ أي : من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾ (محمد :)

. وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم العين والباقون بكسرها .

﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ في هذا إعلام بأن المأكل والمشرب في الجنة بحسب شهواتهم بخلاف الدنيا فبحسب ما يجد الناس في الأغلب .

وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ في موضع الحال من ضمير المتقين في الظرف الذي هو في ظلال أي : هم مستقرّون في ظلال مقولاً لهم ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هنيئاً ﴾ حال أي : متهنئين ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كنتم تعملون ﴾ من طاعات الله تعالى .

(129/797)

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ كذلك ﴾ أي : كما جزينا المتقين هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي : نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم في الدنيا .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين ﴿ للمكذبين ﴾ أي : يمحض لهم العذاب المخلد ضدّ النعيم المؤبد .

وقوله تعالى : ﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ خطاب للكفار في الدنيا ﴿ قليلاً ﴾ أي : من الزمان

وغايته إلى الموت وهو زمان قليل لأنه زائل مع قصر مدّته في زمن الآخرة وفي هذا تهديد لهم ، ويجوز أن يكون ذلك خطاباً لهم في الآخرة إيذاناً بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم ، وكانوا من أهله تذكيراً بجالهم السمجة بما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد ، وهذا ما جرى عليه الزمخشري أوّلاً وذكر الأول ثانياً ، واقتصر الجلال المحلي على ما ذكرته أولاً وهو أولى . قال بعض العلماء : التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين ، والسعي لها من أفعال الظالمين ، والاطمئنان إليها من أفعال الكاذبين ، والسكون فيها على حد الإذن ، والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين ، والإعراض عنها من أفعال الزاهدين ، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها .

ثم علل ذلك مؤكداً بقوله تعالى لأنهم ينكرون وصفهم بذلك : ﴿ إنكم مجرمون ﴾ ففيه دلالة على أنّ كل مجرم يتمتع أياماً قلائل ، ثم البقاء في الهلاك أبداً .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ تعذبون بإجرامكم ﴿ للمكذبين ﴾ حيث عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل .

(130/797)

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي : لهؤلاء المجرمين من أي : قائل كان ﴿ اركعوا ﴾ أي : صلوا الصلاة التي فيها الركوع كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وأطلقوه عليها تسمية لها باسم جزئها ، وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ولأنه خاص بصلاة المسلمين ﴿ لا يركعون ﴾ أي : لا يصلون ، قال الرازي : وهذا ظاهر لأنّ الركوع من أركانها ، فبين تعالى أنّ هؤلاء الكفار من صفتهم أنهم إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون ويجوز أن يكون اركعوا بمعنى اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وحيه واتباع دينه ، واطرحوا هذا الاستكبار لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم ، وأن يكون بمعنى اركعوا في الصلاة إذ روي أنها نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فقالوا : لا نجي فإنها مسبة علينا فقال صلى الله عليه وسلم "لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود" . قال في القاموس : جبى تجبية وضع يديه على ركبتيه أو على الأرض أو انكب على وجهه ، والتجبية أن تقوم قيام الراكع . واستدل بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وأنهم حال كفرهم يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة ؛ لأنّ الله تعالى ذمهم حال كفرهم ، وعلى أنّ الأمر للوجوب لأنّ الله تعالى ذمهم بمجرّد ترك المأمور به ، وهو يدل على أنّ الأمر للوجوب .

فإن قيل : إنما ذمهم لكفرهم . أجيب بأنه تعالى ذمهم على كفرهم من وجوه إلا أنه تعالى إنما ذمهم في هذه الآية لتركهم المأمور به .

وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها .

﴿ ويل يومئذ ﴾ أي : إذ يكون الفصل ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بما أمروا به .

(131/797)

قال الرازي : إنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها بهذه الوجوه العشرة المذكورة وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار ، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل القطعية مع تجليها ووضوحها ﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي : القرآن ﴿ يؤمنون ﴾ أي : لا يمكن إيمانهم بغيره من كتب الله تعالى بعد تكذيبهم به لاشتماله على الإعجاز الذي لم يشتمل عليه غيره ، واستدل بعض المعتزلة بهذه الآية على أنّ القرآن حادث لأن الله تعالى وصفه بأنه حديث والحديث ضد القديم والضدان لا يجتمعان ، فإذا كان حديثاً وجب أن لا يكون قديماً . وأجيب : بأن المراد منه هذه الألفاظ ولا نزاع في أنها محدثة .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة والمرسلات كتب الله تعالى له أنه ليس من المشركين" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 220 . 230 ﴾

وقال القاسمي :

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ﴾

إقسام بالرياح المرسلة متتابعة كشعر العرف . أو بالملائكة المرسلة بأمر الله ونهيه ، وذلك هو العرف . أو بالرسل من بني آدم المبعوثة بذلك .

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾ أي : الرياح الشديدات الهبوب ، السريعات الممرّ .

﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ أي : الرياح التي تنشر السحاب والمطر ، كما قال :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : 57] ، وقوله :

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء ﴾ [الروم : 48] ، أو الملائكة التي تنشر الشرائع والعلم والحكمة والنبوة والهداية في الأرض ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ أي : الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل بسبب إنزال الوحي والتنزيل . أو الآيات القرآنية التي تفرق كذلك . أو السحب التي نشرن الموات ففرقن بين من يشكر الله تعالى وبين

من يكفر ، كقوله : ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : 16] ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾ أي : الملائكة الملقيات ذكر الله إلى أنبيائه ، المبلغات وحيه .

﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ أي : إعذاراً من الله لخلقه ، وإنذاراً منه لهم ، مصدران بمعنى الإعذار والإنذار ، أي : الملقيات ذكراً للإعذار والإنذار ، أي : لإزالة إعذارهم ، وإنذارهم عقاب الله تعالى إن عصو أمره .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ جواب القسم ، أي : إن الذي توعدون به من مجيء القيامة والجزاء لكائن نازل ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 6] ، أو من زهوق ما أنتم عليه من الباطل ، وظفر الحق بقرنه ، أو ما هو أعم . والأول أولى ؛ لإردافه بعلاماته ، بقوله :

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أي : محقت أو ذهب ضياؤها ، كقوله :

﴿ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : 2] ، و ﴿ انتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار : 2] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ ﴾ أي : شققت وصدعت .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أي : اقتلعت من أماكنها بسرعة فكانت هباءً منبثاً .

﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ أي : أجّلت للاجتماع لوقتها يوم القيامة للشهادة على أممهم والفوز بما وعدوه من الكرامة . والهمزة من ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ مبدلة من الواو .

قال ابن جرير : وقرأه بعض قراء البصرة بالواو وتشديد القاف ، وأبو جعفر بالواو وتخفيف القاف . وكل ذلك قراءات معروفات ولغات مشهورات بمعنى واحد ، فبأيتها قرأ القارئ فمصيب ، غير أن من العرب من يستثقل ضمة الواو ، كما يستثقل كسرة الياء في أول الحرف فيهمزها .

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أي : أخرت عن معاجلة الثواب والعقاب ، أي : يقال : لأي يوم أجلت ، فالجملة مقول قول مضمر ، هو جواب : إذا ، أو حال من مرفوع ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ والمعنى ليوم عظيم أخرت أمور الرسل . وهو تعذيب الكفرة وإهانتهم ، وتعظيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أحوال الآخرة وأهوالها ، ولذا عظم شأن اليوم ، وهول أمره بالاستفهام . وقوله تعالى : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ بدل مما قبله ، مبين له . أو متعلق بمقدر ، أي : أجلت ليوم الفصل بين الخلائق . وقد قيل : لامه بمعنى إلى .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ أي : بين السعداء والأشقياء . والاستفهام كناية عن تهويله وتعظيمه .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : بيوم الفصل ، كما قال في سورة المطففين : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المطففين : 11] ، والتكذيب به إنكار البعث له والحشر إليه .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [16 - 19]

(134/797)

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : الأمم الماضين المكذبين بالرسل والجاحدين بالآيات ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود .

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أي : من قوم لوط وموسى ، فنسلك بهم سبل أولئك ، وهو وعيد لأهل مكة .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الأخذ العظيم .

﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : بكل من أجرم وطغى وبغى .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ قال ابن جرير : أي : بأخبار الله التي ذكرها في هذه الآية ، الجاحدين قدرته على ما يشاء .

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ أي : من نطفة ضعيفة .

﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أي : رحم استقر فيها فتمكّن .

﴿ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي : وقت معلوم لخروجه من الرحم .

﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ، أي : فقدرنا على ذلك أو قدّرناه ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : بقدرته تعالى على ذلك ، أو على الإعادة .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا ﴾ قال ابن جرير : أي : وعاء . تقول : هذا كِفْتُ هذا وكَفِيتُهُ إذا كان وعاءهُ . والمعنى : ألم نجعل الأرض كفات أحيائكم وأمواتكم ، تكفت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم ، وأمواتكم في بطونها في القبور فيدفنون فيها ؟ وجائز أن يكون عنى بقوله : ﴿ كِفَاتًا أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا ﴾ تَكْفِتُ أذاهُم في حال حياتهم ، وجِيَفَهُمْ بعد مماتهم . انتهى .

والكفات إما اسم جنس لما يضم ويقبض ، يقال : كَفَتَهُ اللَّهُ إليه أي : قبضه ؛ ولذلك سميت المقبرة كَفَتَةً وكِفاتاً . ومنه الضمام والجماع ، لما يضم ويجمع . يقال : هذا الباب جماع الأبواب .

وإما اسم آلة ؛ لأن فعالاً كثر فيه ذلك . أو مصدر كقتال أُوِّل بالمشتق ونعت به ، كرجل عدل . أو جمع كافت كصائم وصيام . أو كِفْت بكسر فسكون كقدح وقداح .

(135/797)

و ﴿ كِفَاتاً ﴾ منصوب على أنه مفعول ثان لـ : ﴿ نَجْعَلِ ﴾ أنها للتصيير ، و ﴿ أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً ﴾ منصوبان على أنهما مفعولان به لـ : ﴿ كِفَاتاً ﴾

قال الشهاب : وهذا ظاهر على كون ﴿ كِفَاتاً ﴾ مصدراً أو جمع كافت ، لا على كونه اسم آلة فإنه لا يعمل ، كما صرح به النحاة ، وحينئذ فيقدر فعل ينصبه من لفظهِ ، كما صرح به ابن مالك في كل منصوب بعد اسم غير عامل . وثمة وجوه أخر .

تنبيه :

في " الإكليل " : قال الكيا الهراسي : عنى بالكفات الانضمام ، ومراده أنها تضمهم في الحالتين ، وهذا يدل على وجوب مواراة الميت فلا يرى منه شيء . وقال ابن عبد البّر : احتج ابن القاسم في قطع النباش بهذه الآية ؛ لأنه تعالى جعل القبر للميت كالبيت للحيّ ، فيكون حرزاً . انتهى .

ونقله القفّال عن ربيعة . وعندي أن مثل هذا الاحتجاج من الإغراق في الاستنباط وتكلف التماس ما يؤيد المذهب المتبوع كيفما كان ، مما يعد تعسُّفاً وتعصُّباً ، وبين فحوى الآية وهذا الاستنباط ما بين المنجد والمتهم . ومثله أخذ بعضهم من الآية السابقة ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ تأجيل القضاة الخصوم في الحكومات ، ليقع فصل القضاء عند تمام التأجيل ، كما نقله في " الإكليل " عن ابن الفَرَس . ومآخذ الدين والتشريع ليست من الأحاجي والمعميات . وبالله التوفيق .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ أي : جبالاً شاهقات ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً ﴾ أي : عذباً

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ انطَلِقُوا ﴾ أي : يقال لهؤلاء المكذبين بهذه النعم والحجج التي احتج بها عليهم يوم القيامة : انطلقوا ﴿ إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : من عذاب الله للكفرة والفجرة .

﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ أي : فِرَق ، وذلك دخان جهنم المرتفع من وقودها ، إذا تصاعد تفرّق شعباً ثلاثاً ، لعظمه .

(136/797)

قال الشهاب : فيه استعارة تهكمية لتشبيه ما يعلو من الدخان بالظل ، وفيه إبداع ، لأن الظل لا يعلو ذا الظل .

وقوله تعالى : ﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ تهكم بهم ؛ لأن الظل لا يكون إلا ظليلاً ، أي : مظللاً ؛ فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلاً تهكم بهم ، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم ، فنفي هذا الاحتمال بقوله :

﴿ لَا ظَلِيلٍ ﴾ ﴿ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ أي : لا يردّ عنهم من لهب النار شيئاً . والمعنى

أنه لا يظلهم من حرّها ولا يكنّهم من لهبها .

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أي : تقذف كل شررة كالقصر في عظمها ، والقصر واحد القصور .

قال ابن جرير : العرب تشبّه الإبل بالقصور المبنية ، كما قال الأخطل في صفة ناقة :

~كأنها بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيدُهُ لُزَّ بجصٍ وآجُرٍّ وأحْجَارِ

ثم قال : وقيل : ﴿ بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ ولم يقل : كالقصور . والشرر جمع ، كما قيل : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ولم يقل : الأدبار لأن الدبر بمعنى الأدبار ؛ وفعل ذلك توفيقاً بين رؤوس الآي ومقاطع الكلام ؛ لأن العرب تفعل ذلك كذلك وبلسانها نزل القرآن .

﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ ﴾ وقرئ : ﴿ جمالات ﴾ جمع جمال ، جمع جمل ، أو جمع جمالة ، جمع جمل أيضاً ، ونظيرهُ : رجال ورجالات ، وبيوت وبيوتات ، وحجارة وحجارات .

﴿ صُفْرٌ ﴾ أي : في لونها ، فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر . وقيل : صفر أي : سود .

قال قتادة وغيره : أي : كالنوق السود ، واختاره ابن جرير : زاعماً أنه المعروف من كلام العرب ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي : بحجة ، أو في وقت من أوقاته ؛ لأنه يوم طويل ذو مواقف ومواقيت . أو جعل نطقهم كلا نطق ، لأنه لا ينفع ولا يسمع فلا ينافي آية ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، و ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] ، و ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 31] , ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ أي : لا يمهد لهم الإذن في الاعتذار ، لعدم قبول معذرتهم بقيام الحجة عليهم . وإنما لم يقل : فيعتذروا ؛ محافظة على رؤوس الآي . وقيل : هو معطوف على ﴿ يُؤْذَنُ ﴾ منخرط معه في سلك النفي ، والمعنى : ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له ، من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الإذن .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ أي : الحق بين العباد ﴿ جَمَعْنَاكُمْ ﴾ أي : حشرناكم فيه ﴿ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ أي : من الأمم الهالكة .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ ﴾ أي : احتيال للتخلص من العذاب ﴿ فَكِيدُونِ ﴾ أي : فاحتالوا له .

قال الزمخشري : تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه ، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : فإنه لا حيلة لهم في دفع العقاب .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : الذين اتقوا عقاب الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أي : كنان من الحرّ والقرّ ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أي : أنهار تجري خلال أشجار .

(138/797)

﴿ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : يرغبون ، مقولاً لهم : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : في طاعتهم وعبادتهم وعملهم

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ أي : حظكم حظ من أجرم ، وهو الأكل والتمتع أياماً قلائل ، ثم البقاء في الهلاك أبداً .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي : اخضعوا لهذا الحق الذي نزل ، وتواضعوا لقبوله ، واخشعوا لذكره ، ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي : لا يخضعون ولا ينقادون ولا يقبلون ، تجبراً واستكباراً

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : الذين كذبوا رسل الله ، فردوا عليهم ما بلغوا من أمر الله إياهم ونهيه لهم . وتكرير آية ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ للتأكيد ، وهو من المقاصد الشائعة . وقيل : لا تكرار ، لاختلاف متعلق كل منهما . وتقدم تمام البحث في سورة الرحمن ، فارجع إليه في خاتمتها .

أي : بعد هذا القرآن ، إذا كذبوا به ، مع وضوح برهانه وصحة دلائله ، في أنه حق منزل من عنده تعالى . وفيه تنبيه على أنه لا حديث يساويه في الفضل أو يدانيه ، فضلاً عن أن يفوقه ويعلوه ، فلا حديث أحق بالإيمان منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 305.299 ﴾

(139/797)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المرسلات

الدرس الأول: 1 - 7 القسم بمخلوقات عظيمة على حقيقة البعث

والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا .

فالملقيات ذكرا: عذرا أو نذرا . . إن ما توعدون لواقع . .

القضية قضية القيامة التي كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ; والتي أكدها لهم القرآن الكريم بشتى الموكدات في مواضع منه شتى . وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم , , وإقرار حقيقتها في قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها , ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعا . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر

الأساس في العقيدة السماوية , كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة , وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعا . . ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم في مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحي ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب , وقواه المكنونة , المؤثرة في هذا الكون وفي حياة البشر . وقد اختلف السلف في حقيقة مدلولها . فقال بعضهم: هي الرياح إطلاقا . وقال بعضهم هي الملائكة إطلاقا . وقال بعضهم: إن بعضها يعني الرياح وبعضها يعني الملائكة . . مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها . وهذا الغموض هو أنسب شيء للقسم بها على الأمر الغيبي المكنون في علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة في حياة البشر .

(والمرسلات عرفا) . . عن أبي هريرة أنها الملائكة . وروي مثل هذا عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات , والسدي والربيع بن أنس , وأبي صالح في رواية [والمعنى حينئذ هو القسم بالملائكة المرسلة أرسالا متوالية , كأنها عرف الفرس في إرسالها وتتابعها] .

وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات . . إنها الملائكة .

وروي عن ابن مسعود . . المرسلات عرفا . قال:الريح . [والمعنى على هذا أنها المرسلة متوالية كعرف الفرس في امتدادها وتتابعها] وكذا قال في العاصفات عصفا والناشرات نشرا . وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية .

وتوقف ابن جرير في المرسلات عرفا هل هي الملائكة أو الرياح . وقطع بأن العاصفات هي الرياح . وكذلك الناشرات التي تنشر السحاب في آفاق السماء .

وعن ابن مسعود :(فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا , عذرا أو نذرا)يعني الملائكة . وكذا قال:ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري بلا خلاف .

فإنها تنزل بأمر الله على الرسل , تفرق بين الحق والباطل . وتلقي إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار .

من الاية 15 الى الاية 15

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (15)

ونحن نلمح أن التهويل بالتجهيل ملحوظ في هذه الأمور المقسم بها كالشأن في الذاريات ذروا . وفي النازعات غرقا . . وأن هذا الخلاف في شأنها دليل على إبهامها . وأن هذا الإبهام عنصر أصيل فيها في موضعها هذا . وأن الإيحاء المجمل في التلويح بها هو أظهر شيء في

هذا المقام . وأنها هي بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها , والظلال المباشرة التي تلقيها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما في النفس هما أليق شيء بموضوع السورة واتجاهها . . وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة , كالذي يمسك بخناق أحد فيهزه هزا , وهو يستجوبه عن ذنب , أو عن آية ظاهرة ينكرها , ثم يطلقه على الوعيد والتهديد :(ويل يومئذ للمكذبين) . .

الدرس الثاني:8 – 15 بعض مشاهد القيامة وتهديد المكذبين

بعد ذلك تجيء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المتقلبة في يوم الفصل الذي هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة في البشرية جميعا :

(141/797)

(فإذا النجوم طمست , وإذا السماء فرجت , وإذا الجبال نسفت , وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ? ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ? ويل يومئذ للمكذبين) . .

يوم تطمس النجوم فيذهب نورها , وتفرج السماء أي تشق , وتنسف الجبال فهي هباء . . وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى من القرآن . وكلها توحي بانفراط عقد هذا الكون المنظور , انفراطا مصحوبا بقرقعة ودوي وانفجارات هائلة , لا

عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستهولونها ويرعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق . . وما إليها . . فهذه أشبه شيء – حين تقاس بأهوال يوم الفصل – بلعب الأطفال التي يفرقعونها في الأعياد , حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشري على الإطلاق !

وإلى جانب هذا الهول في مشاهد الكون , تعرض السورة أمرا عظيما آخر مؤجلا إلى هذا اليوم . . فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال . . فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك , لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السماوات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية , والقضاء بحكم الله فيها , وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون . .

وفي التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم , يوحي بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك: (وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ? ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ?) . .

وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله , الذي يرجح هول النجوم المطموسة والسماء المشقوقة والجبال

المنسوفة . ألقى بالإيقاع الرعيب , والإنذار المخيف:

(ويل يومئذ للمكذبين !) . .

(142/797)

وهذا الإنذار من العزيز الجبار , في مواجهة الهول السائد في الكون , والجلال الماثل في مجلس الفصل بمحضر الرسل , وهم يقدمون الحساب الأخير في الموعد المضروب لهم . . هذا الإنذار في هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب . .

من الاية 16 الى آخر السورة

(143/797)

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (19) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً (25) أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً

(27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (28) انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ
ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32)
كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (34) هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38)
فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ
(41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ
(46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

الدرس الثالث: 16 – 19 هلاك الكفار السابقين واللاحقين

(144/797)

ويعود بهم من هذه الجولة في أهوال يوم الفصل , إلى جولة في مصارع الغابرين: الأولين والآخرين . .

(ألم نهلك الأولين ? ثم نتبعهم الآخرين ? كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين !) .

هكذا في ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفي ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تتبدى المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله في الوجود: (كذلك نفعل بالمجرمين) ! فهي السنة الماضية التي لا تحيد . . وبينما المجرمون يتوقعون مصرعا كمصارع الأولين والآخرين , يجيء الدعاء بالهلاك , ويجيء الوعيد بالثبور: (ويل يومئذ للمكذبين) . .

الدرس الرابع: 20 – 24 لقطات من نشأة الإنسان

ومن الجولة في المصارع والأشلاء , إلى جولة في الإنشاء والإحياء , مع التقدير والتدبير , للصغير والكبير:

(ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين) . .

وهي رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة , يجملها هنا في لمسات معدودة . ماء مهين . يودع في قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح في تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يجيء التعقيب الموحي بالحكمة العليا التي تتولى كل شيء بقدره في إحكام مبارك جميل: (فقدرنا فنعم القادرون) وأمام التقدير الذي لا يفلت منه شيء يجيء الوعيد المعهود: (ويل يومئذ للمكذبين) . .

الدرس الخامس: 25 – 28 إشارات عن الأرض وتسخيرها للإنسان

ثم جولة في هذه الأرض , وتقدير الله فيها لحياة البشر , وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة:

ألم نجعل الأرض كفاتا ? أحياء وأمواتا ? وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ? ويل يومئذ للمكذبين . .

(145/797)

ألم نجعل الأرض كفاتا تحتضن بنيها أحياء وأمواتا . (وجعلنا فيها رواسي شامخات) ثابتات سامقات , تتجمع على قممها السحب , وتنحدر عنها مساقط الماء العذب . أفيكون هذا إلا عن قدرة وتقدير , وحكمة وتدبير ? أفبعد هذا يكذب المكذبون ? :(ويل يومئذ للمكذبين !) . .

الدرس السادس: 29 - 34 بعض أهوال النار المعذب فيها الكفار

وعندئذ - بعد عرض تلك المشاهد , وامتلاء الحس بالتأثرات التي تسكبها في المشاعر - ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين , ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي كانوا به يكذبون , في تأنيب مرير وإيلام عسير:

انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعاب . لا ظليل ولا يغني من

اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! . .

اذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ? إنه انطلاق خير منه الارتهان . .(انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) . . فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود .(انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) . . إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته في ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج:(لا ظليل ولا يغني من اللهب) . . إنه ظل خانق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتدادا للتهكم , وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم ! انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التي تنطلقون إليها . فلا حاجة إلى ذكر اسمها . .(إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر) . . فالشرر يتتابع في حجم البيت من الحجر . [وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضروري أن يكون في ضخامة ما نعهد الآن من قصور] فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ? !

وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا الهول , يجيء التعقيب المعهود :(ويل يومئذ للمكذبين !) .

الدرس السابع: 35 – 37 عدم كلام الكفار واعتذارهم يوم القيامة

ثم يأخذ في استكمال المشهد بعد عرض الهول المادي في صورة جهنم , بعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم . .

(هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) . .

فالهول هنا يكمن في الصمت الرهيب , والكبت الرعيب , والخشوع المهيب , الذي لا يتخلله كلام ولا اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار: (ويل يومئذ للمكذبين) ! . . وفي مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم . . واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك – على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما – ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة , لمناسبة في الموقف وظل في السياق .

الدرس الثامن: 38 – 40 عجز وضعف الكفار يوم القيامة

(هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه , وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ! ولا تدبير ولا قدرة . إنما هو الصمت الكظيم , على التأنيب الأليم . . (ويل يومئذ للمكذبين !) . .

الدرس التاسع: 41 – 45 لقطات من نعيم المؤمنين في الجنة

فإذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين , اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين:

(إن المتقين في ظلال وعيون , وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

إن المتقين في ظلال . . ظلال حقيقية في هذه المرة ! لا ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وفي عيون من ماء لا في دخان خانق يبعث الظمأ الحرور: (وفواكه مما يشتهون) . . وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع: (كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين) ويا لطف هذا التكريم من العلي العظيم (ويل يومئذ للمكذبين !) . . يقابل هذا النعيم والتكريم !

(147/797)

الدرس العاشر: 46 – 47 تهديد الكفار في الدنيا

وهنا تعرض في خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التي طويت في السياق . فإذا نحن في الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين !

(كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة في فقرتين متواليتين , وفي مشهدين معروضين كأنهما

حاضران في أوان , وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجها للمتقين في الآخرة , إذا هو موجه للمجرمين فيالدنيا . وكأنما ليقال لهم:اشهدوا الفارق بين الموقفين . . وكلوا وتمتعوا قليلا في هذه الدار , لتحرموا وتعذبوا طويلا في تلك الدار .

. (ويل يومئذ للمكذبين !) .

الدرس الحادي عشر: 48 – 50 عناد الكفار فلا ينفع معهم حديث

ثم يتحدث معجبا من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون:

(وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !) . .

مع أنهم يبصرون هذا التبصير , وينذرون هذا النذير . .

(فبأي حديث بعده يؤمنون ?) . .

والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي , وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال , لا يؤمن بحديث بعده أبدا . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس , والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس !

إن السورة بذاتها , ببنائها التعبيري , وإيقاعها الموسيقي , ومشاهدها العنيفة , ولذعها الحاد . . إنها بذاتها حملة لا يثبت لها قلب , ولا يتماسك لها كيان .

فسبحان الذي نزل القرآن , وأودعه هذا السلطان ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3791.3795 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) ﴾

يقسم تعالى بهذه المسمّيات ، واختلف في ﴿ والمرسلات ﴾ ، ﴿ فالعاصفات ﴾ ، ﴿ والناشرات ﴾ .

فقيل : هي الرِّياح ، وقيل : الملائكة أو الرُّسل ، وعرفاً أي متتالية كعرف الفرس ، واختار كونها الرياح ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة . واختار كونها الملائكة أبو صالح عن أبي هريرة والربيع بن أنس .

وعن أبي صالح : أنها الرسل قاله ابن كثير ، واختار الأول وقال توقف ابن جرير ، والواقع أن كلام ابن جرير يفيد أنه لا مانع عنده من إرادة الجميع ، لأن المعنى محتمل ولا مانع عنده .

واستظهر ابن كثير أنها الرياح لقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22]

وقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : 57] .

وهذا هو الذي اختاره الشيه رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء ، أما الفارقات ، فقيل الملائكة ، وقيل : آيات القرآن ، ورجح الشيخ الأول ، وأما الملقيات ذكراً عذراً أو

نذراً .

فقد تقم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانها في سورة الصافات عند قوله تعالى : ﴿ فالتاليات ذِكْراً ﴾ [الصافات : 3] .

وفي مذكرة الإملاء . قوله : ﴿ عُذْراً ﴾ : اسم مصدر بمعنى الإعذار ، ومعناه قطع العذر .

ومنه المثل : من أعذر فقد أنذر ، وهو مفعول لأجله والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار ، وهو مفعول لأجله أيضاً ، والإنذار الإعلام المقترن بتهديد ، وأو في قوله : ﴿ أَوْ نُذْراً ﴾ بمعنى الواو أي لأجل الإعذار والإنذار : ومجيء أو بمعنى الواو ، كمجيء ذلك في قول عمرو بن معد يكرب :

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم . . . ما بين ملجم مهره أو سافع

أي وسافع .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)

هو المقسم عليه ، والوقع أن نبين كل قسم ومقسم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالباً ، والله تعالى يقسم بما شاء على ما شاء ، لأن المقسم به من مخلوقاته فاختيار ما يقسم به هنا أو هناك غالباً يكون لنوع مناسبة ، ولو تأملناه هنا ، لوجدنا المقسم عليه هو يوم القيامة ، وهم مكذبون به فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه ، فالرياح عرفاً تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر ، ويحيي الله الأرض بعد موتها .

وهذا من أدلة القدرة على البعث ، والعاصفات منها بشدة ، وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها ، وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير ، وكلاهما دال على القدرة على البعث .

ثم تأتي الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذار ، ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ . والله تعالى أعلم .

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10)

كلها تغييرات كونية من آثار ذلك اليوم الموعود . وطمس النجوم ذهاب نورها ، كقوله : ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 2] أي تشققت وتفطرت كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ، ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] ، ونسف الجبال تقدم بيانه في عدة محال . وما يكون لها من عدة أطوار من دك وتفتيت وبث وتسيير كالسحاب ثم كالسراب ، وتقدم في سورة ق عند قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى

السمآء فَوْقَهُمْ ﴾ [ق : 6] .

وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة الواقعة عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49 - 50] .

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13)

(150/797)

يوم الفصل هو يوم القيامة ، يفصل فيه بين الخلائق ، بين الظالم والمظلوم ، والمحق والمبطل والدائن والمدين ، كما بينه تعالى بقوله : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل جَمَعْنَاكُمْ والأولين ﴾ المرسلات : 38] ، وكقوله ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

وعيد شديد من الله تعالى للمكذبين . وقد تقدم معنى ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آخر سورة الذاريات ، عند قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 60] .

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22)

الماء المهين : هو النطفة الأمشاج ، والقرار المكين : هو الرحم ، وقد مكنه الله وصانه حتّى من نسمة الهواء .

والآيات الباهرات في هذا القرار فوق أن توصف ، وقد بين تعالى أنه الرحم بقوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : 5] والقدر المعلوم هو مدة الحمل إلى السقط أو الولادة .

وتقدم للشيخ التنويه عن ذلك في أول سورة الحج ، وأنها أقدار مختلفة وآجال مسماة .

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23)

فيه التمدح بالقدرة على ذلك وهو حق ، ولا يقدر عليه إلا الله كما جاء في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 58 - 59] .

وقد بينه تعالى في أول سورة الحج : ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة إلى آخر السياق .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26)

(151/797)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة طه عند قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ﴾ [طه : 53] ، والكفات : الموضع الذي يكفتون فيه ، والكفت الضم أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطونها ، كما في قوله : ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه : 55] ، وقد جمع المعنيين في قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [نوح : 17 - 18] .

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

بينه بعد بقوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : 30 - 33] ، أي وهي جهنم .

وقد بين تعالى في موضع آخر أنهم يدفعون إليها دفعاً في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] .

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35)

نص على أنهم لا ينطقون في ذلك اليوم مع أنهم ينطقون ويجيبون على ما يسألون ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ﴾ [القلم : 30] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذه المسألة في سورة النمل عند قوله تعالى : ﴿ وَوَقَعَ القول بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [النمل : 85] .

وبين وجه الجمع بالإحالة على دفع إيهام الاضطراب عند سورة المرسلات هذه ، وأن ذلك

في منازل وحالات .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

فيه النص على أن عملهم في الدنيا سبب في تمتعهم بنعيم الجنة في الآخرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] .

(152/797)

وجاء في الحديث : " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " ، ولا معارضة بين النصين ، إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث وتكون الدرجات ويكون التمتع بسبب الأعمال . فكلهم يشتركون في التفضل من الله عليهم بدخول الجنة ، ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون في الدرجات بسبب الأعمال .

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44)

في الآية التي قبلها قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المرسلات : 43] .

وهنا قال : ﴿ نَجْزِي المحسنين ﴾ ، ولم يقل نجزي العاملين ، مما يشعر بأن الجزاء إنما هو على الإحسان في العمل لا مجرد العمل فقط ، وتقدم أن الغاية من التكليف ، إنما هي الإحسان في العمل ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الذي خَلَقَ الموت

والحياةِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 1 – 2] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة الكهف عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 7] .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48)

هذه الآية الكريمة من آيات الاستدلال على أن الكفار مؤاخذون بترك الفروع ، وتقدم التنبيه على ذلك مراراً ، والمهم هنا أن أكثر ما يأتي ذكره من الفروع هي الصلاة مما يؤكد أ ، ها هي بحق عماد الدين .

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

أي بعد هذا القرآن الكريم لما فيه من آيات ودلائل ومواعظ كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : 6] .

(153/797)

وقد بين تعالى أنه نزله أحسن الحديث هدى في قوله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [الزمر : 23] .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم إلى أبي هريرة يرويه : إذا قرأ ﴿ والمرسلات عُرْفاً ﴾ [المرسلات : 1] فقرأ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ فليقل : آمنت بالله وبما أنزل .

وذكر في سورة القيامة عن أبي داود وأحمد عدة أحاديث بعدة طرق أنه صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ في سورة الإنسان ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 40] قال : سبحانك اللهم فبلى ، وإذا قرأ سورة (والتين) فانتهى إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ [التين : 8] فليقل : بلى ، وأما على ذلك من الشاهدين " ومن قرأ ﴿ والمرسلات ﴾ ، فبلغ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُون ﴾ فليقل : آمنا بالله اه .

وإنا نقول : آمنا بالله كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(154/797)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ ،

قَالَ الشَّعْبِيُّ : يَعْنِي أَنَّهُ جَعَلَ ظَهْرَهَا لِلْأَحْيَاءِ وَبَطْنَهَا لِلْأَمْوَاتِ ، وَالْكِفَاتُ الضِّمَامُ ، فَأَرَادَ أَنَّهَا تَضُمُّهُمْ فِي الْحَالَيْنِ .

وَرَوَى إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي يَحْيَى عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ قَالَ : " تَكْفِتُ الْمَيِّتَ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ " ؛ وَأَحْيَاءً قَالَ : " الرَّجُلُ فِي بَيْتِهِ لَا يُرَى مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ مُوَارَاةِ الْمَيِّتِ وَدَفْنِهِ وَدَفْنِ شَعْرِهِ وَسَائِرِ مَا يُزَايِلُهُ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شَعْرَهُ وَشَيْئًا مِنْ بَدَنِهِ لَا يَجُوزُ بَيْعُهُ وَلَا التَّصَرُّفُ فِيهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ دَفْنَهُ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ " وَهِيَ الَّتِي تَصِلُ شَعْرَ غَيْرِهَا بِشَعْرِهَا ، فَمَنَعَ الِانْتِفَاعَ بِهِ ، وَهُوَ مَعْنَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ قَبْرًا " .

وَرُوِيَ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ غَيْرُ ذَلِكَ وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ : " أَنَّهُ أَخَذَ قَمْلَةً فَدَفَنَهَا فِي الْمَسْجِدِ فِي الْحَصَى ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ مِثْلُهُ .

وَأَخَذَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ قَمْلَةً عَنْ ابْنِ عُمَرَ فَطَرَحَهَا فِي الْمَسْجِدِ .

(155/797)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا التَّأْوِيلُ لَا يَنْفِي الْأَوَّلَ وَعُمُومُهُ يَقْتَضِي الْجَمِيعَ .

آخِرُ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(156/797)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

وَهِيَ مِنْ غَرَائِبِ الْقُرْآنِ عَلَى مَا أَشَرْنَا إلَيْهِ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ ؛ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ الْأَرْضِ .

وَرَوَى الصَّحِيحَانِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَارٍ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ فَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ رَطْبَةً إذْ خَرَجَتْ

حَيَّةٌ مِنْ جُحْرِهَا ، فَابْتَدَرْنَاهَا لِنَقْتُلَهَا ، فَسَبَقَتْنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا .

﴿ الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْكِفَاتُ : الضَّمُّ وَالْجَمْعُ ، وَهُوَ مَصْدَرٌ ، يُقَالُ : كَفَتَهُ يَكْفِتُهُ كَفْتًا وَكِفَاتًا مِثْلُ كَتَبَ يَكْتُبُ كَتْبًا وَكِتَابًا ، أَيْ يَجْمَعُهُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ ضَمَمْته فَقَدْ كَفَتَّهُ ، فَإِذَا حَلَّ الْعَبْدُ فِي مَوْضِعِهِ فَهُوَ كِفَاتُهُ ، وَهُوَ مَنْزِلُهُ ، وَهُوَ دَارُهُ ، وَهُوَ حِرْزُهُ ، وَهُوَ حَرِيمُهُ ، وَهُوَ حِمَاهُ ، كَانَ يَقْظَانَ أَوْ نَائِمًا .

(157/797)

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ ﴿ صَفْوَانَ قَالَ : كُنْت نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى خَمِيصَةٍ لِي بِثَمَنِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا ؛ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي ، فَأَخَذَ الرَّجُلَ ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْطَعَ قَالَ : فَقُلْت لَهُ : أَتَقْطَعُهُ مِنْ أَجْلِ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا ، أَنَا أَبِيعُهُ إيَّاهَا ، وَأُنْسِئُهُ ثَمَنَهَا .

قَالَ : هَلَّا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ ، فَكَانَتْ نَفْسُهُ حِيَازَةَ مَوْضِعِهِ وَحِرْزِهِ وَحَرِيمِهِ وَمَنَعَتِهِ

وَحِصْنِهِ .

﴿

(158/797)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ يَقْتَضِي أَنْ يُدْفَنَ فِيهَا الْمَيِّتُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ كُلِّهَا مِنْ شَعْرٍ ، وَظُفْرٍ ، وَثِيَابٍ ، وَمَا يُوَارِيهِ عَلَى التَّمَامِ ، وَمَا اتَّصَلَ بِهِ وَمَا بَانَ عَنْهُ ، وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْجَنَائِزِ مِنْ الْمَسَائِلِ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ احْتَجَّ عُلَمَاؤُنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي قَطْعِ النَّبَّاشِ لِأَنَّهُ سَرَقَ مِنْ حِرْزٍ مَكْفُوتٍ ، وَحِمًى مَضْمُومٍ ، وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَقَرَّرْنَا أَنْ يُنْظَرَ فِي دُخُولِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ نَقُولَ : هَذَا حِرْزٌ كِفَاتٌ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ فَجَعَلَ حَالَ الْمَرْءِ فِيهَا بَعْدَ الْمَمَاتِ فِي كَفْتِهَا لَهُ وَضَمِّهَا لِحَالِهِ كَحَالَةِ الْحَيَاةِ وَمَا تَحْفَظُهُ وَتَحْرُزُ حَيًّا ، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَيِّتًا فَهَذَا أَصْلٌ ثَبَتَ بِالْقُرْآنِ ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي دُخُولِهِ تَحْتَ قَوْلِهِ : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ وَذَلِكَ يَثْبُتُ بِطَرِيقِ اللُّغَةِ ، فَإِنَّ السَّارِقَ فِيهَا هُوَ آخِذُ الْمَالِ عَلَى طَرِيقِ الْخِفْيَةِ وَمُسَارَقَةِ الْأَعْيُنِ ، وَهَذَا فِعْلُهُ فِي الْقَبْرِ كَفِعْلِهِ فِي الدَّارِ ، ثُمَّ يُنْظَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَنَّ الَّذِي سُرِقَ مَالٌ ؛ لِأَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ يَقُولُ : إنَّ الْكَفَنَ لَيْسَ بِمَالٍ ؛ لِأَنَّهُ

مُعَرَّضٌ لِلْإِتْلَافِ ، وَقُلْنَا نَحْنُ : هُوَ مُعَرَّضٌ لِلْإِتْلَافِ فِي مَنْفَعَةِ الْمَالِكِ ، كَالْمَلْبُوسِ فِي الْحَيَاةِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي أَنَّهُ مَمْلُوكٌ

(159/797)

لِمَالِكٍ ، فَإِنَّ الْمَيِّتَ مَالِكٌ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ نَصَبَ شَبَكَةً فِي حَالِ حَيَاتِهِ ، فَوَقَعَ فِيهَا صَيْدٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُ ، تُقْضَى مِنْهُ دُيُونُهُ ، وَتَنْفُذُ فِيهِ وَصَايَاهُ .

وَحَقِيقَةُ الْمِلْكِ مَوْجُودَةٌ فِي الْكَفَنِ ؛ لِأَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِهِ وَمُحْتَاجٌ إلَيْهِ ، فَإِذَا ثَبَتَتْ هَذِهِ الْأَرْكَانُ مِنْ الْقُرْآنِ وَالْمَعْنَى ثَبَتَ

الْقَطْعُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : فِيهَا سِتَّةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أُصُولُ الشَّجَرَةِ الثَّانِي الْجَبَلُ الثَّالِثُ الْقَصْرُ مِنْ الْبِنَاءِ الرَّابِعُ خَشَبٌ طُولُهُ ثَلَاثَةُ أَذْرُعٍ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ الْخَامِسُ أَعْنَاقُ الدَّوَابِّ السَّادِسُ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا الْقَصَرُ ، وَفَسَّرَهَا بِأَعْنَاقِ

الْإِبِلِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا (ق ص ر) فَهُوَ بِنَاءٌ يَنْطَلِقُ عَلَى مُخْتَلِفَاتٍ كَثِيرَةٍ ، يَنْطَلِقُ عَلَيْهَا انْطِلَاقًا وَاحِدًا .

وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفٌ فِي ذَلِكَ .

وَالصَّحِيحُ مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قَالَ : كُنَّا نَرْفَعُ الْخَشَبَ بِقَصَرٍ ثَلَاثَ أَذْرُعٍ أَوْ أَقَلَّ ، فَنَرْفَعُهُ لِلشِّتَاءِ ، فَنُسَمِّيهَا الْقَصَرَ .

(160/797)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ أَمَّا ادِّخَارُ الْقُوتِ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهِ أَمَّا ادِّخَارُ الْحَطَبِ وَالْفَحْمِ فَمُسْتَفَادٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْقُوتِ فَإِنَّهُ مِنْ مَصَالِحِ الْمَرْءِ ، وَمَغَانِي مَفَاقِرِهِ ؛ وَذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي النَّظَرَ أَنْ يَكْتَسِبَهُ فِي غَيْرِ وَقْتِ حَاجَتِهِ ، لِيَكُونَ أَرْخَصَ ، وَحَالَةُ وُجُودِهِ أَمْكَنَ ، كَمَا ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَّخِرُ الْقُوتَ فِي وَقْتِ عُمُومِ وُجُودِهِ مِنْ كَسْبِهِ وَمَالِهِ ﴾ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ اكْتَسَبَهُ فِي وَقْتِ رُخْصِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَحْمُولٌ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ فِيمَنْ وَكَّلَ وَكِيلًا يَبْتَاعُ لَهُ فَحْمًا فَابْتَاعَهُ لَهُ فِي الصَّيْفِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّهُ وَقْتٌ لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ فِيهِ .

وَعِنْدِي أَنَّهُ يَلْزَمُهُ ؛ لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي يَبْتَاعُ فِيهِ لِيَدَّخِرَهُ الْعَبْدُ لِوَقْتِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ ، إلَّا أَنْ يَقْتَرِنَ بِذَلِكَ مَا يُوجِبُ تَخْصِيصَهُ بِحَالٍ فَيُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ الْمُقْتَضَى بِالِاسْتِدْلَالِ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الرُّكُوعُ مَعْلُومٌ لُغَةً ، مَعْلُومٌ شَرْعًا حَسْبَمَا قَرَّرْنَاهُ ؛ فَلَا وَجْهَ لِإِعَادَتِهِ كَرَاهِيَةَ التَّطْوِيلِ .

(161/797)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ عَلَى وُجُوبِ الرُّكُوعِ وَإِنْزَالِهِ رُكْنًا فِي الصَّلَاةِ ، وَقَدْ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ ، وَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ هَذَا إنَّمَا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ تَكْلِيفٍ ، فَيَتَوَجَّهُ فِيهَا أَمْرٌ يَكُونُ عَلَيْهِ وَيْلٌ وَعِقَابٌ ، وَإِنَّمَا يُدْعَوْنَ إلَى السُّجُودِ كَشْفًا لِحَالِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، فَمَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ تَمَكَّنَ مِنْ السُّجُودِ ، وَمَنْ كَانَ يَسْجُدُ رِئَاءً لِغَيْرِهِ صَارَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ : ﴿ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَارٍ إذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ﴾ الْحَدِيثَ إلَخْ فَمِنْ الْفَوَائِدِ الْعَارِضَةِ هَا هُنَا أَنَّ الْقُرْآنَ فِي مَحَلِّ نُزُولِهِ وَوَقْفِهِ عَشْرَةُ أَقْسَامٍ : سَمَاوِيٌّ ، وَأَرْضِيٌّ ، وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَحَضَرِيٌّ ، وَسَفَرِيٌّ ، وَمَكِّيٌّ ، وَمَدَنِيٌّ ، وَلَيْلِيٌّ ،

وَنَهَارِيٌّ ، وَمَا نَزَلَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ ، لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي بِقِرَاءَتِك هَذِهِ السُّورَةَ ، إنَّهَا لَآخِرُ مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ ، ثُمَّ مَا صَلَّى لَنَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ ﴾ .

(162/797)

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ قَرَأَ بِالطُّورِ فِي الْمَغْرِبِ ، فِي طَرِيقٍ أُخْرَى .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِطُولَى الطُّولَيَيْنِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(163/797)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المرسلات

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1)

قوله : ﴿ عُرْفاً ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه مفعولٌ مِنْ أجلِه ، أي : لأجلِ العُرْفِ وهو ضِدُّ النُّكْرِ . والمرادُ بالمُرْسَلاتِ : إمَّا الملائكةُ ، وإمَّا الأنبياءُ ، وإمَّا الرِّياحُ أي : والملائكةُ المُرْسَلاتُ ، أو والأنبياء المُرْسَلات ، أو والرياحُ المُرْسَلات . والعُرْفُ : المعروفُ والإِحسانُ . قال الشاعر :

4454 مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ . . . لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ اللَّهِ والناسِ

وقد يُقال : كيف جَمَعَ صفةَ المذكرِ العاقلِ بالألفِ والتاءِ ، وحقُّه أَنْ يُجْمَعَ بالواوِ والنونِ ؟ تقول : الأنبياءُ المُرْسَلونَ ، ولا تقولُ : المُرْسَلات . والجوابُ : أنَّ المُرْسَلات جَمْعُ مُرْسَلة ، ومُرْسَلة صفةٌ لجماعةٍ من الأنبياء ، فالمُرْسَلات جمعُ " مُرْسَلة " الواقعةِ صفةً لجماعة ، لا جمعُ " مُرْسَل " المفردِ . الثاني : أَنْ ينتصِبَ على الحالِ بمعنى : متتابعة ، مِنْ قولِهم : جاؤوا كعُرْفِ الفَرَس ، وهم على فلانٍ كعُرْف الضَّبُع ، إذا تألَّبوا عليه . الثالث : أَنْ ينتصِبَ على إسقاطِ الخافضِ أي : المُرْسَلاتِ بالعُرْفِ . وفيه ضَعْفٌ ، وقد تقدَّمَ الكلامُ على العُرْف في الأعراف . والعامَّةُ على تسكينِ رائه ، وعيسى بضمِّها ، وهو على تثقيلِ المخففِ نحو : " بَكُر " في بَكْر . ويُحتمل أَنْ يكونَ هو الأصلَ ، والمشهورةُ مخففةٌ منه ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يكونا وزنَيْنِ مستقلَّيْن .

فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2)

قوله : ﴿ عَصْفاً ﴾ : مصدرٌ مؤكِّدٌ لاسمِ الفاعلِ ، والمرادُ بالعاصفات : الرياحُ أو الملائكةُ ، شُبِّهَتْ بسُرْعة جَرْيِها في أمرِ الله تعالى بالرياحِ ، وكذلك " نَشْراً " و " فَرْقاً " انتصبا على المصدرِ أيضاً .

فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5)

(164/797)

قوله : ﴿ ذِكْراً ﴾ : مفعولٌ به ، ناصبُه " المُلْقِيات " . وقرأ العامَّةُ " فالمُلْقِياتِ " بسكون اللامِ وتخفيفِ القافِ اسمَ فاعلٍ . وابن عباس بفتحِ اللامِ وتشديدِ القافِ ، من التَّلْقِية ، وهي إيصالُ الكلامِ إلى المخاطبِ . ورَوَى عنه المهدويُّ أيضاً فتحَ القافِ اسمَ مفعولٍ أي : مُلْقَيَةٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تعالى .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6)

قوله : ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ : فيهما أوجهٌ ، أحدُها : أنَّهما بدلانِ مِنْ " ذِكْراً " . الثاني : أنهما منصوبان به على المفعوليةِ ، وإعمالُ المصدرِ المنوَّنِ جائزٌ . ومنه ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ [البلد : 14 - 15] . الثالث : أنَّهما مفعولان مِنْ أجلِهما ، والعاملُ

فيه : إمَّا " المُلْقِيات " ، وإمَّا " ذِكْراً " ؛ لأنّ كُلاًّ منهما يَصْلُحُ أَنْ يكونَ مَعْلولاً بأحدِهما ، وحينئذٍ يجوزُ في " عُذْراً " و " نُذْراً " وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونا مصدريْنِ بسكونِ العينِ كالشُّكر والكُفْر . والثاني : أَنْ يكونا جمعَ عَذِيرٍ ونَذِيرٍ ، المرادِ بهما المصدرُ بمعنى : الإعذارِ والإنذارِ ، كالنّكير بمعنى الإنكار . الرابع : أنَّهما منصوبان على الحالِ من " المُلْقِيات " ، أو من الضمير فيها ، وحينئذٍ يجوزُ أَنْ يكونا مصدريْنِ واقعَيْنِ مَوْقِعَ الحالِ بالتأويلِ المعروفِ في أمثاله ، وأَنْ يكونا جمعَ عذيرٍ ونذيرٍ مُراداً بهما المصدرُ ، أو مراداً بهما اسمُ الفاعلِ بمعنى : المُعْذِر والمُنْذِر ، أي : مُعْذِرين أو مُنْذِرين .

(165/797)

وقرأ العامَّةُ بسكونِ الذالِ مِنْ " عُذْراً " و " نُذْراً " . وقرأ زيدُ ابن ثابت وابن خارجة وطلحةُ بضمِّها والحَرَميَّان وابنُ عامر وأبو بكر بسكونِها في " عُذْراً " وضمِّها في " نُذُراً " . والسكونُ والضمُّ كما تقدَّمَ في أنَّه يجوزُ أَنْ يكونَ كلٌّ منهما أصلاً للآخرِ ، وأَنْ يكونا أصلَيْنِ ، ويجوز في كلٍ من المثقَّلِ والمخفَّفِ أن يكونَ مصدراً ، وأَنْ يكونَ جمعاً سَكَنَتْ عينُه تخفيفاً . وقرأ إبراهيم التيمي " عُذْراً ونُذْراً " بواو العطفِ موضعَ " أو " ، وهي تدلُّ على أنَّ " أو " بمعنى الواو .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)

قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ : هذا جوابُ القسمِ في قولِه والمُرْسَلاتِ " ، وما بعده معطوفٌ عليه ، وليس قَسَماً مستقلاً ، لِما تقدَّم في أولِ هذا الموضوع ، ولوقوعِ الفاءِ عاطفةً ؛ لأنها لا تكونُ للقَسَم ، و " ما " موصولةٌ بمعنى الذي هي اسمُ " إنَّ " و " تُوْعَدون " صلَتُها ، والعائدُ محذوفٌ أي : إنَّ الذي تُوْعَدُونه . و " لَواقعٌ " خبرُها . وكان مِنْ حَقِّ " إنَّ " أَنْ تُكْتَبَ منفصلةً من " ما " الموصولةِ ، ولكنهم كتبوها متصلةً بها .

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8)

قوله : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ : " النجومُ " مرتفعةٌ بفعلٍ مضمرٍ يُفَسِّره ما بعده عند البصريين غيرَ الأخفشِ ، وبالابتداء عند الكوفيين والأخفشِ . وفي جواب " إذا " قولان : أحدُهما محذوفٌ تقديرُه : / فإذا طُمِسَت النجومُ وَقَعَ ما تُوْعَدون ، لدلالةِ قولِه : " إنَّ ما تُوْعَدُوْن لَواقعٌ " ، أو بَانَ الأمرُ . والثاني : أنَّه ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ على إضمارِ القولِ ، أي : يُقال : لأيِّ يومٍ ، فالفعلُ في الحقيقةِ هو الجوابُ . وقيل : الجوابُ : " ويلٌ يومئذٍ " نقله مكي ، وهو غَلَطٌ ؛ لأنَّه لو كان جواباً لَزِمَتْه الفاءُ لكونِه جملةً اسميةً .

وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11)

قوله : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ : قرأ أبو عمرو " وُقِّتَتْ " بالواو ، والباقون " أُقِّتَتْ " بهمزةٍ بدلَ الواو . قالوا : وهي الأصلُ ؛ لأنَّه من الوَقْتِ ، والهمزةُ بدلٌ منها ؛ لأنَّها مضمومةٌ ضمةً لازمَةً . وقد تقدَّم ذِكْرُ ذلك في أولِ هذا الموضوع .

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12)

قوله : ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ ﴾ : متعلِّقٌ ب " أُجِّلَتْ " وهذه الجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمرٍ . أي : يُقال . وهذا القولُ المضمرُ يجوز أَنْ يكونَ جواباً ل " إذا " ، كما تقدَّم ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ مرفوعِ " أُقِّتَتْ " أي : مَقُولاً فيها : لأيِّ يومٍ أُجِّلَتْ .

لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13)

قوله : ﴿ لِيَوْمِ الفصل ﴾ : بدلٌ مِنْ " لأيِّ يومٍ " بإعادةِ العاملِ . وقيل : بل تتعلَّق بفعلٍ مقدَّرٍ أي : أُجِّلَتْ ليومِ الفَصْل . وقيل : اللامُ بمعنى " إلى " ذكرهما مكيٌّ .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

قوله : ﴿ وَيْلٌ ﴾ : مبتدأٌ ، سَوَّغَ الابتداءَ به كونُه دعاءً . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف وقعَتِ النكرةُ مبتدأً في قولِه : " ويلٌ " ؟ قلت : هو في أَصْلِهِ مصدرٌ منصوبٌ سادٌّ مَسَدَّ فِعْلِه ، ولكنه عُدِل به إلى الرفعِ للدلالةِ على ثباتِ معنى الهلاكِ ودوامِه للمدعُوِّ عليهم . ونحوُه ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 54] ويجوز : وَيْلاً له بالنصبِ ، ولكن لم يُقْرَأْ به "

. قلت : هذا الذي ذكره ليس من المُسَوّغاتِ التي عَدَّها النَّحْويون ، وإنما المُسَوّغُ ما ذكرْتُه لك مِنْ كونه دعاءً . وفائدةُ العدولِ إلى الرفع ما ذكره . و " يومئذٍ " ظرفٌ للوَيْل . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ صفةً ل " وَيْلٌ " و " للمُكَذِّبين " خبرُه .

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16)

(167/797)

قوله : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ﴾ : العامَّةُ على ضَمِّ حرفِ المضارعةِ مِنْ " أَهْلَكَ " رباعياً . وقتادة بفتحِه . قال الزمخشري : " مَنْ هَلَكه بمعنى : أَهْلكه . قال العجَّاج :

4455 ومَهْمَهٍ هالكِ مَنْ تعرَّجا . . . قلت : ف " مَنْ " معمولٌ ل " هالك " ، وهو مِنْ هَلَكَ . إلاَّ أَنَّ بعضَ الناسِ جَعَلَ هذا دليلاً على إعمالِ الصفةِ المشبهةِ في الموصولِ ، وجَعَلَها مِن اللازمِ ؛ لأنَّ شرطَ الصفةِ المشبهةِ أَنْ تكونَ مِنْ فِعْلٍ لازم ، فعلى هذا لا دليلَ فيه .

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17)

قوله : ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ﴾ : العامَّةُ على رَفْعِ العينِ استئنافاً أي : ثم نحن نُتْبِعُهم ، كذا قَدَّره أبو البقاء . وقال : " وليس بمعطوفٍ ؛ لأنَّ العَطْفَ يوجِبُ أَنْ يكونَ المعنى : أَهْلَكْنا الأوَّلَيْن ،

ثم أَتْبَعْناهم الآخِرين في الهلاكِ . وليس كذلكَ ؛ لأنَّ هلاكَ الآخرين لم يَقَعْ بعدُ " . قلت : ولا حاجةَ في وجهِ الاستئنافِ إلى تقديرِ مبتدأ قبلَ الفعل ، بل يُجْعَلُ الفعلُ معطوفاً على مجموع الجملةِ من قولِه : " ألم نُهْلِك " ويَدُلُّ على هذا الاستئنافِ قراءةُ عبدِ الله " ثم سَنُتْبِعُهم " بسينِ التنفيسِ . وقرأ الأعرجُ والعباسُ عن أبي عمرو بتكسينِها . وفيها وجهان ، أحدُهما : أنه تسكينٌ للمرفوعِ فهو مستأنف كالمرفوعِ لفظاً . والثاني : أنَّه معطوفٌ على مجزومٍ . والمَعْنِيُّ بالآخِرين حينئذٍ قومُ شُعَيْبٍ ولوطٍ وموسى ، وبالأوَّلِيْنَ قومُ نوحٍ وعادٍ وثمودَ .

كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ ﴾ : أي : مثلَ ذلك الفعلِ الشَّنيعِ نَفْعَلُ بكلِّ مَنْ أَجْرَمَ .

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23)

(168/797)

قوله : ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ : قرأ نافعٌ والكسائيُّ بالتشديد من التقدير ، وهو موافِقٌ لقولِه : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : 19] والباقون بالتخفيف من القُدْرة . ويَدُلُّ عليه قولُه : " فَنِعْمَ القادِرون " . ويجوز أَنْ يكونَ المعنى على القراءة الأولى : فَنِعْمَ القادِرون على

تقديرِه ، وإن جُعِلت " القادِرون " بمعنى " المُقَدِّرُون " كان جَمْعاً بين اللفظَيْنِ ، ومعناهما واحدٌ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 17] وقولُ الأعشى :

4456 وأَنْكَرَتْني وما كان الذي نَكِرَتْ . . . من الحوادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25)

قوله : ﴿ كِفَاتاً ﴾ : الكِفاتُ : اسمٌ للوِعاءِ الذي يُكْفَتُ فيه أي : يُجْمَعُ ، قاله أبو عبيدة . يقال : كَفَتَه يَكْفِتُه أي : جَمَعَه وضَمَّه . وفي الحديث " اكْفِتُوا صِبْيانَكم " وقال الصمصامة بن الطِّرِمَّاح :

4457 وأنتَ اليوم فوقَ الأرضِ حَيّاً . . . وأنتَ غداً تَضُمُّك في كِفاتِ

وقيل : الكِفاتُ اسمٌ لِمَا يَكْفِتُ كالضِّمام والجِماع . يقال : هذا البابُ جِماعُ الأبوابِ . وفي انتصابِه وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ ثانٍ ل " نَجْعَلْ " لأنَّها للتصيير . والثاني : أنَّه منصوبٌ على الحالِ من " الأرضَ " ، والمفعولُ الثاني " أحياءً وأمواتاً " بمعنى : ألم نُصَيِّرْها / أحياءً بالنَّبات وأمواتاً بغير نباتٍ أي : بعضُها كذا ، وبعضُها كذا . وقيل : كِفاتٌ جمعُ كافِتٍ كصِيامٍ وقِيامٍ في جمعِ صائمٍ وقائمٍ . وقيل : بل هو مصدرٌ كالكتابِ والحسابِ .

أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26)

قوله : ﴿ أَحْيَآءً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّه منصوبٌ بِكِفات ، قاله مكي ، والزمخشريُّ وبدأ به ، بعد أن جَعلَ "كِفاتاً" اسمَ ما يَكْفِتُ كقولِهم : الضِّمام والجِماع ، هذا يمنعُ أَنْ يكونَ "كِفاتاً" ناصباً ل "أحياءً" لأنه ليس من الأسماءِ العاملةِ ، وكذلك إذا جَعَلْناه بمعنى الوِعاء ، على قول أبي عبيدةَ ، فإنه لا يعملُ أيضاً ، وقد نصَّ النحاةُ على أنَّ أسماءَ الأمكنةِ والأزمنةِ والآلات ، وإنْ كانَتْ مشتقةً جاريةً على الأفعالِ لا تعملُ ، نحو : مَرْمى ومِنْجل ، وفي اسم المصدرِ خلافٌ مشهورٌ ، ولكنْ إنما يتمشَّى نصبُهما بكِفات على قولِ أبي البقاء ، فإنَّه لم يُجَوِّزْ إلاَّ أَنْ يكونَ جمعاً لاسمِ فاعلٍ ، أو مصدراً ، وكلاهما من الأسماءِ العاملة .

الوجه الثاني : أَنْ ينتصِبَ بفعلٍ مقدرٍ يَدُلُّ عليه "كِفات" أي : يَكْفِتُهم أحياءً على ظهرِها ، وأمواتاً في بَطْنِها ، وبه ثنَّى الزمخشري .

الثالث : أن يَنْتَصِبا على الحالِ من "الأرضَ" على حَذْفِ مضافٍ أي : ذاتَ أحياءٍ وأموات .

الرابع : أَنْ يَنْتَصِبا على الحالِ مِنْ محذوفٍ أي : تَكْفِتُكم أحياءً وأمواتاً ؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّها كِفاتٌ للإنسِ ، قاله الزمخشريُّ ، وإليه نحا مكيٌّ ؛ إلاَّ أنَّه قدَّره غائباً أي : تَجْمعهم الأرضُ في هاتَيْن الحالتَيْن .

الخامس : أَنْ ينتصِبا مفعولاً ثانياً ل " نَجْعل " وكِفاتاً حالٌ كما تقدَّم تقريرُه : وتنكيرُ " أحياءً وأمواتاً " : إمَّا للتَّفْخيمِ أي : تَجْمَعُ أحياءً لا يُقَدَّرُوْن وأمواتاً لا يُحْصَوْن ، وإمَّا للتبعيضِ ؛ لأنَّ أَحياءَ الإِنس وأمواتَهم ليسوا بجميع الأحياءِ ولا الأمواتِ ، وكذلك التنكيرُ في " ماءً فُراتاً " يحتمل المعنَيَيْنِ أيضاً : أمَّا التفخيم فواضِحٌ لِعظَمِ المِنَّةِ به عليهم ، وأمَّا التبعيضُ فكقولِه تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [النور : 43] فهذا مُفْهِمٌ للتبعيضِ ، والقرآنُ يُفَسِّرُ بعضُه بعضاً .

والشَّامخاتُ : جمعُ " شامِخ " ، وهو المرتفعُ جداً ومنه : " شَمَخَ بأَنْفِه " إذا تكبَّر ، جُعِل كِنايةً عن ذلك كثَنْيِ العِطْفِ وصَعْرِ الخَدِّ ، وإنْ لم يَحْصُلْ شيءٌ من ذلك .

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

قوله : ﴿ انطلقوا ﴾ : أي : يُقال لهم ذلك . وقرأ العامَّةُ " انطَلِقوا " الثاني كالأول بصيغةِ الأمرِ على التأكيد . ورُوَيْسٌ عن يعقوب " انطلَقوا " بفتح اللام فعلاً ماضياً على الخبرِ أي : لَمَّا أُمِرُوا امْتَثَلوا ذلك . وهذا موضعُ الفاءِ فكان يَنْبغي أَنْ يكونَ التركيبُ : فانطلَقوا نحو قولِك : قلت اذهب فذهب ، وعَدَمُ الفاءِ هنا ليس بالواضحِ .

لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31)

قوله : ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ : صفةٌ لـ " ظلٍّ " و " لا " تتوسَّطُ بين الصفةِ والموصوفِ لإفادةِ النفي ، وجيءَ بالصفةِ الأولى اسماً ، وبالثانية فعلاً ، دلالةً على نَفْيِ ثبوتِ هذه الصفةِ واستقرارِها للظلِّ ، ونَفْيِ التجدُّدِ والحدوثِ للإغْناءِ عن اللهب .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32)

(171/797)

قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ : أي : إنَّ جهنَّم ؛ لأنَّ السياقَ كلَّه لأجلها . وقرأ العامَّةُ : " بَشرَرٍ " بفتح الشينِ وعَدَمِ الألفِ بين الراءَيْن . وورش يُرَقِّقُ الراءَ الأولى لكسرِ التي بعدها . وقرأ ابن عباس وابن مقسم بكسرِ الشين وألفٍ بين الراءَيْنِ . وعيسى كذلك ، إلاَّ أنَّه فتح الشين . فقراءةُ ابنِ عباس يجوز أَنْ تكونَ جمعاً لشَرَرَة ، وفَعَلة تُجْمَعُ على فِعال نحو : رَقَبة ورِقاب ورَحَبة ورِحاب ، وأَنْ تكونَ جمعاً لشَرّ ، لا يُراد به أَفْعَلُ التفضيلِ . يقال : رجلٌ شَرٌّ ورجالٌ شِرارٌ ، ورجلٌ خيرٌ ورجالٌ خِيار ، ويؤنثان فيقال : امرأة شَرَّةٌ ، وامرأةٌ خَيْرةٌ . فإن أُريد بهما التفضيلُ امتنعَ ذلك فيهما ، واختصَّا بأحكامٍ مذكورةٍ في كتبِ النحْويين أي : تَرمي بشِرارٍ من العذابِ أو بشِرار من الخَلْق .

وأمَّا قراءةُ عيسى / فهي جمعُ شَرارَةٍ بالألفِ وهي لغةُ تميمٍ . والشَّرَرَةُ والشَّرارَة : ما تطايَرَ من النارِ متفرّقاً .

(172/797)

قوله : ﴿ كالقصر ﴾ العامَّةُ على فتح القافِ وسكونِ الصادِ ، وهو القَصْرُ المعروف ، شُبِّهَتْ به في كِبَرِه وعِظَمِه . وابن عباس وتلميذاه ابن جُبَيْر وابنُ جَبْر ، والحسن ، بفتحِ القافِ والصادِ ، وهي جمعُ قَصَرة بالفتح والقَصَرَةُ : أَعْناقُ الإبلِ والنخلِ ، وأصولُ الشجرِ . وقرأ ابن جبير والحسن أيضاً بكسرِ القافِ وفتحِ الصاد جمع " قَصَرة " يعني بفتح القافِ . قال الزمخشريُّ : " كحاجةٍ وحِوَج " وقال الشيخ : " كحَلَقة من الحديدِ وحِلَق " . وقُرِىء " كالقَصِرِ " بفتح القاف وكسرِ الصادِ ، ولم أَرَ لها توجيهاً . ويظهرُ أنَّ ذلك مِنْ بابِ الإتباعِ ، والأصلُ : كالقَصْرِ بسكونِ الصادِ ، ثم أتبعَ الصادَ حركةَ الراءِ فكسَرها ، وإذا كانوا قد فَعَلُوا ذلك في المشغولِ بحركة نحو : كَتِف وكَبِد ، فلأَنْ يَفْعلوه في الخالي منها أَوْلَى . ويجوزُ أَنْ يكون ذلك للنقل بمعنى : أنه وَقَفَ على الكلمةِ فنَقَل كسرةَ الراءِ إلى الساكنِ قبلَها . ثم أَجْرَى الوَصْلَ مُجْرَى الوقفِ ، وهو بابٌ شائعٌ عند القُرَّاءِ والنحاة . وقرأ عبدُ الله بضمّهما . وفيها وجهان ، أحدُهما : أنَّه جمعُ قَصْرٍ كرَهْن ورُهُن ، قاله الزمخشريُّ . والثاني : أنَّه

مقصورٌ من قُصور كقوله :

4458 فيها عيايِيْل أُسودٍ ونُمُرْ . . . يريد : ونُمور . فقصَر وكقوله : " النُّجُم " يريد النجوم . وتخريجُ الزمخشريِّ أَوْلَى ؛ لأنَّ محلَّ الثاني : إمَّا الضرورةُ ، وإمَّا النُّدُور .

كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرُ (33)

(173/797)

قوله : ﴿ جِمَالَةٌ ﴾ : قرأ الأخَوان وحَفْصٌ " جِمالَةٌ " . والباقون " جِمالات " . فالجِمالَةُ فيها وجهان ، أحدُهما : أنَّها جمعٌ صريحٌ ، والتاءُ لتأنيثِ الجمعِ . يُقال : جَمَلٌ وجِمال وجِمالَة نحو : ذَكَر وذِكار وذِكارة ، وحَجَر وحِجارة . والثاني : أنه اسمُ جمعٍ كالذِّكارة والحِجارة ، قاله أبو البقاء ، والأولُ قولُ النُّحاةِ . وأمَّا جِمالات فيجوزُ أَنْ يكونَ جمعاً ل " جِمالة " هذه ، وأَنْ يكونَ جمعاً ل جِمال ، فيكون جمعَ الجمعِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ جمعاً ل جَمَل المفردِ كقولهم : " رجالات قريش " كذا قالوه . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّهم نَصُّوا على أنَّ الأسماءَ الجامدةَ غيرَ العاقلةِ لا تُجْمَعُ بالألفِ والتاءِ ، إلاَّ إذا لم تُكَسَّرْ . فإنْ كُسِّرَتْ لم تُجْمَعْ . قالوا : ولذلك لُحِّن المتنبيُّ في قوله :

4459 إذا كان بعضُ الناسِ سَيْفاً لدولةٍ . . . ففي الناسِ بُوْقاتٌ لها وطُبولُ

فجمع "بُوقاً" على "بُوقات" مع قولِهم: "أَبْواق"، فكذلك جِمالات مع قولهم: جَمَل وجِمال. على أنَّ بعضَهم لا يُجيزُ ذلك، ويَجْعَلُ نحو": حَمَّامات وسِجلاَّت شاذّاً، وإنْ لم يُكَسَّرْ.

وقرأ ابنُ عباس والحسنُ وابن جبير وقتادةُ وأبو رجاء، بخلافٍ عنهم، كذلك، إلاَّ أنَّهم ضَمُّوا الجيمَ وهي حِبالُ السفنِ. وقيل: قُلوس الجسورِ، الواحدةِ "جُمْلة" لاشتمالِها على طاقاتِ الحِبال. وفيها وجهان، أحدهما: أَنْ تكونَ "جُمالات" جمعَ جُمال، وجُمال جَمْعَ جُمْلة، كذا قال الشيخ، ويَحْتاجُ في إثباتِ أنَّ جُمالاً بالضمِّ جمعُ جُمْلة بالضمِّ إلى نَقْلٍ. والثاني: أنَّ "جُمالات" جمعُ جُمالة قاله الزمخشري، وهو ظاهرٌ. وقرأ ابنُ عباس والسُّلَمِيُّ وأبو حيوةَ "جُمالة" بضمِّ الجيم، وهي دالَّةٌ لِما قاله الزمخشريُّ آنِفاً.

(174/797)

قوله: ﴿ صُفْرٌ ﴾ صفةٌ لجِمالات أو لجمالة؛ لأنَّه: إمَّا جمعٌ أو اسمُ جمعٍ. والعامَّة على سكونِ الفاءِ جمعَ صفْراء. والحسنُ بضمِّها، وكأنَّه إتْباعٌ. ووَقَعَ التشبيهُ هنا في غايةِ الفصاحةِ. قال الزمخشريُّ: "وقيل: صُفْرٌ سُوْدٌ تَضْرِبُ إلى الصُّفرة. وفي شعرِ عمرانَ بنِ حِطَّانَ الخارجيِّ:

4460 دَعَتْهُمْ بأعلَى صوتِها ورَمَتْهُمُ . . . بمثل الجِمال الصفر نَزَّاعةِ الشَّوى

وقال أبو العلاء المعري :

4461 حمراءُ ساطِعَةُ الذوائب في الدُّجَى . . . تَرْمي بكل شَرارةٍ كطِرافٍ

فشبَّهها / بالطِّراف ، وهو بيت الأُدَم في العِظَمِ والحُمْرَة ، وكأنه قَصَدَ بخُبْثِه أَنْ يزيدَ على تشبيهِ القرآن . ولتبجُّحه بما سُوِّل له مِنْ تَوَهُّم الزيادة جاءَ في صَدْرِ بيتِه بقولِه : " حمراءُ " توطئةً لها ومناداةً عليها ، وتَنْبيهاً للسامِعين على مكانِها . ولقد عَمِيَ جمع الله له عَمى الدَّارَيْن عن قولِه عزَّ وجلَّ : " كأنه جمالةٌ صُفْرٌ " فإنه بمنزلةِ قولِه كبيتٍ أحمر . وعلى أنَّ في التشبيهِ بالقَصْر وهو الحِصْنُ تشبيهاً مِنْ جهتَين : مِنْ جهةِ العِظَمِ ، ومن جهةِ الطولِ في الهواءِ ، وفي التشبيه بالجِمالات وهي القُلُوسُ تشبيهٌ مِنْ ثلاثِ جهاتٍ : الطُّولِ والعِظَمِ والصُّفْرة " انتهى . وكان قد قال قبلَ ذلك بقليلٍ : " شُبِّهَتْ بالقُصورِ ثم بالجِمال لبيانِ التشبيهِ ، ألا ترى أَنَّهم يُشَبِّهون الإبلَ بالأَفْدان " قلت : الأَفْدانُ : القصورُ ، وكأنه يُشيرُ إلى قولِ عنترة :

4462 فوقَفْتُ فيها ناقتي وكأَنَّها . . . فَدَنٌ لأَقْضِيَ حاجةَ المُتَلَوِّمِ

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35)

قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ : العامَّةُ على رفعِ "يومُ" خبراً ل "هذا" . وزيد بنُ عليّ والأعرجُ والأعمشُ وأبو حيوةَ وعاصمٌ في بعضِ طرقه بالفتح . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ الفتحةِ فتحةُ بناءٍ وهو خبرٌ ل "هذا" كما تقدَّم . والثاني : أنَّه منصوبٌ على الظرفِ واقعاً خبراً ل "هذا" على أَنْ يُشارَ به لِما تقدَّم من الوعيدِ كأنه قيل : هذا العذابُ المذكورُ كائنٌ يومَ لا يَنْطِقون . وقد تقدَّم آخِرَ المائدة ما يُشْبه هذا في قوله : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ إلاَّ أنَّ النصبَ هناك متواترٌ .

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36)

قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ ﴾ : العامَّةُ على عَدَمِ تَسْمِيَةِ الفاعِل . وحكى الأهوازيُّ عن زيدِ بن علي "ولا يَأْذَنُ" سَمَّى الفاعلِ ، وهو اللَّهُ تعالى . "فيعتذرون" في رفعِه وجهان ، أحدُهما : أنه مستأنفٌ أي : فهم يَعْتَذِرون . قال أبو البقاء : "ويكون المعنى : أَنَّهم لا يَنْطِقُون نُطْقاً ينفَعُهم ، أو يَنْطقون في بعضِ المواقفِ ولا يَنْطِقُون في بعضها" . والثاني : أنه معطوفٌ على "يُؤْذن" فيكون مَنْفِيّاً . ولو نُصِبَ لكان مُتَسَبَّباً عنه" . وقال ابن عطية : "ولم يُنْصَبْ في جوابِ النفيِ لتشابُهِ رؤوسِ الآي ، والوجهان جائزان" . انتهى فقد جَعَلَ امتناعَ النصبِ مجردَ المناسبةِ اللفظيةِ ، وظاهرُ هذا مع قولِه : "والوجهان جائزان" أنهما بمعنىً واحدٍ ، وليس كذلك ، بل المرفوعُ له معنىً غيرُ معنى المنصوبِ . وإلى مثلِ هذا ذهبَ الأعلمُ فيُرفع الفعلُ ، ويكونُ معناه النصبَ ، وردَ عليه ابنُ عصفور .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41)

قوله : ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ ، جمعُ ظِلّ . والأعمش " ظُلَلٍ " جمعُ ظُلَّة .

وتقدَّم في يس مثلُه ، إلاَّ أنهما متواتران .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

(176/797)

قوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ : معمولاً لقول ، ذلك القولُ منصوبٌ على الحالِ من الضميرِ المستكنِّ في الظرفِ أي : كائِنِين في ظلال ، مَقُولاً لهم ذلك ، وكذلك ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً ﴾ فإنْ كان ذلك مقولاً لهم في الدنيا فواضحٌ ، وإن كان مَقولاً في الآخرة فيكون تذكيراً بحالِهم أي : هم أحِقَّاءُ بأَنْ يُقال لهم في دنياهم كذا . ومثله :

4463 إخْوَتي لا تَبْعَدُوا أبداً . . . وبَلَى واللَّهِ قد بَعِدُوا

أي : هم أهلٌ أَنْ يَدَّعَى لهم بذلك .

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

قوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ : متعلقٌ بقولِه : "يُؤمنون " أي : إنْ لم يُؤمنوا بهذا القرآنِ فبأيِّ شيءٍ يُؤْمنون ؟ والعامَّةُ على الغَيْبة . وقرأ ابن عامر في روايةٍ ويعقوبُ بالخطاب على

الالتفات أو على الانتقال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 629.

645﴾

(177/797)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ظل)

الظِّلّ أَعمّ من الفىء فإنه يقال : ظِلّ الليل ، وظِلّ الجنَّة .

ويقال لكلّ موضع لم تصِل إليه الشمس : ظِلّ ، ولا يقال الفىء إلاَّ لما زال عنه الشمس .

وقيل : الظلّ يكون بالغداة .

والفىء يكون بالعشىّ ، والجمع : ظلال ، وظُلُول ، وأَظلال .

ويعبّر بالظلّ/ عن العزّ والمَنعة ، وعن الرّفاهة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ .

وقد يطلق الفىء ويراد به الظلّ وبالعكس ، قال :

*وما دنياك إلاَّ مثل فَىْءٍ * أَظلَّك ثم آذَن بالزوالِ*

وقال آخر :

إنّما الدنيا كظلٍّ زائلٍ * أَو كضَيْفٍ بات ليلاً فارْتَحَلْ *

وقيل : مَثَل الدنيا مَثَل الظلّ ، إنْ طلبته تباعد ، وإن تركته تتابع .

وفى الحديث : "ما مَثَلى ومثل الدّنيا إلاَّ كراكب قال فى ظلّ شجرة فى يوم حارّ ، ثم راح وتركها" .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ، وقال : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ ، قيل : الأَوّل : ظلّ الكافية ، والثانى : ظل الولاية ، والثالث : ظل الرّحمة والمغفرة .

وقوله تعالى : ﴿ انطَلِقُواْ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ : ظلّ العذاب والعقوبة .

وقوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ : ظل الذلّ والإهانة .

وقوله : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ : ظلّ الامتحان والتجربة .

وقوله : ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ ﴾ : ظلّ السجدة والعبادة .

وقوله : ﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾ : ظل الإعزاز والكرامة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ : ظلّ التبجيل والعناية .

ويقال : أَظلّنى فلان ، أَى حَرَسنى وجعلنى فى عزة ومناعته .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ ﴾ الآية ، أَى إنشاؤه يدلّ على وحدانيّة الله وينبىء عن حكمته .

(178/797)

وقوله : ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ قال الحسن : أَمّا ظِلُّك فيسجد ، وأَمّا أَنت فتكفر به .

وظِلٌّ ظليل : فائض .

ومكان ظليل ، أَى ذو ظِلّ ، أَو دائم الظلّ ، ومنه : ظِلّ ظليل ، وقيل مبالغة .

﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ كناية عن غَضَارة العيش .

والظُّلة – بالضمّ – : سحابة تُظِلّ .

وأَكثر ما يقال فيما يستوخَم ويُكره .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ ، أَى يأتيهم عذابُه ، جمع ظُلَّة ، كغرفة وغرف .

وقرىء : (فى ظِلاَلٍ) ، وذلك إمّا جمع ظُلَّة كعُلْبة وعِلاب ، وجُفْرة وجِفَار ، وإمّا جمع ظِلّ .

والظُّلَّة أَيضاً : شىء يُستتر به من الحرّ والبرد ، وَهى كالصُّفَّة .

وحُمل عليه قوله تعالى : ﴿ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ ، وقيل : موج كقِطَع السّحاب .

وقيل : يقال لكل ساتر ظِلّ ، محمودًا كان أَو مذمومًا ، فمن المحمود قوله تعالى : ﴿ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾ ، ومن المذموم قوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ .

وقوله ﴿ لاَّ ظَلِيلٍ ﴾ أَى لا يفيد فائدة الظلّ .

وظَلَّ نهارَه يفعل كذا .

وسُمع فى الشعر ظَلَّ ليلَهُ يظلّ – بالفتح – : ظَلاّ وظُلُولاً .

وظِلت أَنا – بالكسر – وظَلْت كَلَسْتُ ، وظِلْت كمِلت ، وأَصله ظَلِلْت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 537.539 ﴾

(179/797)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المرسلات

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من سمعها بسمع الوجد وفي له فلم ينظر إلى أحد ، ومن سمعها بسمع العلم جاد له فلم يبخل بروحه على أحد .

ومن سمعها بسمع التوحيد جرد سره عن إيثار ما سواه في الدنيا والعقبى عينا وأثرا فما كان هذا كله إلا حاصلا به كائنا منه .

﴿ وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً ﴾ .

﴿ المرسلات ﴾ : الملائكة ﴿ عرفاً ﴾ أي : أرسلوا بالمعروف من الأمر ، أو كثيرين كعُرْفِ الفَرس .

﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ﴾ .

الرياحُ الشديدة (العوصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً ﴾ .

الأمطار (لأنها تنشر النبات . فالنشر بمعنى الإحياء) . ويقال السُّحُبُ تنشر الغيث .

ويقال : الملائكة .

﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ﴾ .

الملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ .

الملائكة : تُلقِي الوحي على الأنبياء عليهم السلام ؛ إعذاراً وإنذاراً . وجوابُ القَسَم :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ .

فأقسم بهذه الأشياء : إنَّ القيامة لحقٌّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتَ ﴾ .

إنما تكون هذه القيامة . و ﴿ طمست ﴾ : ذهب ضَوؤُها .

﴿ وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ .

ذَهَبَ بها كلّها بسرعة ، حتى لا يَبْقَى لها أَثَرٌ .

﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ .

أي : جَعَلَ لها وقتاً وأَجَلاً لفَصْلِ القضاءِ يومَ القيامة .

ويقال : أُرْسِلَتْ لأوقاتٍ معلومة .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ .

على جهة التعظيم له .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

مضى تفسيرُ معنى الويل .

ويقال في الإشارات : فإذا نجومُ المعارف طمست بوقوع الغيبة .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ القلوبُ الساكنة بيقين الشهود حُرِّكَتْ عقوبةً على ما هَمَّتْ بالذي لا يجوز . فويلٌ يومئذٍ لأرباب الدعاوَى الباطِلة الحاصلةِ من ذوي القلوب المُطبقة الخالية من المعاني .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الأَخِرِينَ ﴾ .

الذين كذَّبوا رُسُلَهم ، وجحدوا آياتنا ؛ فمثلما أهلكنا الأولين كذلك نفعل بالمجرمين إذا فعلوا مثلَ فِعْلِهم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الذين لا يستوي ظاهرُهم وباطنهم في التصديق .

وهكذا كان المتقدمون من أهل الزَّلّة والفَترة في الطريقة ، والخيانة في أحكام المحبة فعُذِّبوا بالحرمان في عاجلهم ، ولم يذوقوا من المعاني شيئاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ .

أي : حقير . وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذَكَّرَهم أصلَ خلقتم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بني آدم . فمن الواجب أَنْ يَتَفَكَّرَ الإنسان في أَصلِه . . . كان نطفةً وفي انتهائه يكون جيفة ، وفي وسائط حالِه كنيفٌ في قميص ! ! فبالحريِّ ألَّا يُدِلَّ ولا يفتخر :

كيف يزهو مَنْ رجيعهُ . . . أَبَدَ الدهرِ ضجيعُه

فهو منه وإليه . . . وأَخوه ورضيعُه

وهو يدعوه إلى الحُ . . . شِّ بصغر فيطيعه ؟ ! !

ويقال : يُذكِّرهم أصلَهم . . كيف كان كذلك . . . ومع ذلك فقد نقلهم إلى أحسن صورة ،

قال تعالى :

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ، والذي يفعل ذلك قادِرٌ على أن يُرقِّيَكَ من الأحوال

الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَآءً وَأَمْوَاتاً ﴾ .

﴿ كِفَاتاً ﴾ أي : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياءً وأمواتاً ؛ فهم يعيشون على

ظهرها ، ويُودَعون بعد الموت في بطنها . .

(181/797)

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ .

أي : جبالاً مرتفعات ، وجعلنا بها الماء سقياً لكم . يُذكِّرهم عظيم مِنَّتِهِ بذلك عليهم .

والإشارةُ فيه إلى عظيم مِنَّته أنَّه لم يخسف بكم الأرض – وإن عملتم ما عملتم .

﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

يقال لهم : انطلقوا إلى النار التي كذَّبتم بها .

﴿ انطَلِقُواْ إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ .

كذلك إذا لم يعرفْ البعدُ قَدْرَ انفتاح طريقه إلى الله بقلْبه ، وتعزُّره بتوكله . . . فإذا رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاء الغفلة نَزَعَ اللَّهُ عن قلبه الرحمةَ ، وانسدَّت عليه طُرُقُ رُشْدِه ، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا .

ويقال لهم : انطلقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون . والاستقلالُ بالله جنّة المأوى ، والرجوعُ إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم . . وفي معناه أنشدوا :

ولم أرَ قبلي مَنْ يُفارِقُ جنَّةً . . . ويقرع بالتطفيل بابَ جهنم

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التنصُّل والاعتذار :

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36)

فإلى أنْ تنتهيَ مُدّةُ العقوبة فحينئذٍ : إنْ استأنَفْتَ وقتاً استؤنِفَ لك وقتٌ . فأمَّا الآن . . فصبراً حتى تنقضِيَ أيامُ العقاب .

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38)

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان ، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41)

اليومَ . . في ظلال العناية والحماية ، وغداً . . هم في ظلال الرحمة والكلاءة .

اليومَ . . في ظلال التوحيد ، وغداً . . في ظلال حُسْن المزيد .

اليومَ . . في ظلال المعارف ، وغداً . . في ظلال اللطائف .

اليومَ . . في ظلال التعريف ، وغداً . . في ظلال التشريف .

(182/797)

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44)

اليومَ تشربون على ذِكْره . . وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء .

﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

والإحسانُ من العبد تَرْكُ الكلِّ لأَجله ! كذلك غداً : يجازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأَجْلِك .

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46)

هذا خطابٌ للكفار ، وهذا تهديد ووعيد ، والويل يومئذٍ لكم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48)

كانوا يُصرُّون على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم .

[ذكر في التفسير : أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار ، وقصور الدرّ مع الأبرار ، وعيون جارية وأنهار ، وألوانٍ من الفاكهة والثمار . . من كل ما يريدون من المِلك الجبَّار . ويقال لهم في الجنة : كلوا من ثمار الجنات ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الطاعات . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا ﴿ هَنِيئًا ﴾ : لا تبعة عليكم من جهة الخصومات ، ولا أذيَّة في المأكولات والمشروبات . وقيل : الهنيء الذي لا تَبِعَةَ فيه على صاحبه ، ولا أَذِيَّةَ فيه من مكروهٍ لغيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 670.674 ﴾

(183/797)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِراتِ نَشْراً (3) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (4)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7)

الإعراب :

(الواو) واو القسم ، وما بعده حروف عطف ، والجارّ والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم ، و(المرسلات) نعت ناب عن منعوته ، وكذلك الصفات التالية " 1 " ، (عرفا) مصدر في موضع الحال أي متتابعة " 2 " ، (العاصفات) معطوف على المرسلات مجرور مثله (عصفا) مفعول مطلق منصوب (الناشرات ، الفارقات ، الملقيات) أسماء معطوفة على المرسلات

---

(1) المرسلات أي الرياح المرسلات على الأرجح ، وكذلك العاصفات والناشرات ، والفارقات آيات القرآن الكريم ، والملقيات الملائكة . . [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون مفعولا لأجله إن كان العرف ضدّ النكر ، فالمرسلات يعني الملائكة .

مجرورة مثله (نشرا ، فرقا) مفعول مطلق منصوب (ذكرا) مفعول به لاسم الفاعل الملقيات منصوب (عذرا) مفعول لأجله منصوب عامله الملقيات " 1 " ، (أو) حرف عطف (ما) موصول في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد .

جملة : " (أقسم) بالمرسلات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " إنّ ما توعدون لواقع . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(1) المرسلات : جمع المرسل ، اسم مفعول من الرباعيّ أرسل ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين ، والمرسلات هي الرياح أو الملائكة أو آيات القرآن الكريم .

---

(1) أو هو بدل من (ذكرا) منصوب .

(عرفا) ، اسم لشعر الفرس فوق الرقبة ، وزنه فعل بضمّ فسكون . . أو هو مصدر بمعنى ضدّ النكر أو بمعنى التتابع ، يقال : جاء القوم عرفا أي بعضهم وراء بعض ، وللكلمة بضمّ الفاء معان كثيرة أخرى . .

(2) العاصفات : جمع العاصفة مؤنّث العاصف . . انظر الآية (22) من سورة يونس .

(عصفا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ عصف ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(3) الناشرات : جمع الناشرة مؤنّث الناشر . . اسم فاعل من الثلاثيّ نشر وزنه فاعل .

(نشرا) ، مصدر سماعيّ لثلاثيّ نشر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(4) الفارقات : جمع الفارقة مؤنّث الفارق . . اسم فاعل من الثلاثيّ فرق ، وزنه فاعل .

(فرقا) ، مصدر الثلاثيّ فرق ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(5) الملقيات : جمع الملقية مؤنّث الملقي ، اسم فاعل من الرباعيّ ألقى ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(6) نذرا : جمع النذير بمعنى الإنذار ، أي هو مصدر ، أو اسم بمعنى المنذر أي على معنى اسم الفاعل ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(7) إنّما : رسمت في المصحف متّصلة وحقّها أن تكون منفصلة لأن (ما) اسم موصول وليس حرفا مصدريا ولا كافّة .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 8 إلى 13]

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12)

لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إذا) ظرف في محلّ نصب متعلّق بالجواب المقدّر (النجوم) فاعل لفعل محذوف يفسّره فعل طمست أي غابت أو زالت ، ونائب الفاعل ضمير مستتر يعود على

النجوم (إذا السماء) مثل إذا النجوم ، وتقدير الفعل المحذوف تشقّقت أو انشقّت " 1 " ، (إذا الجبال) مثل إذا النجوم ، وتقدير الفعل المحذوف تفتّتت (إذا الرسل) مثل إذا النجوم ، وتقدير الفعل المحذوف اجتمعت في الوقت المحدّد (لأيّ) متعلّق بـ (أجّلت) ، (ليوم) متعلّق بفعل محذوف تقديره أجّلت . .

جملة : " (غابت) النجوم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب إذا

---

(1) كقوله تعالى في سورة الفرقان : " ويوم تشقّق السماء . . . " وفي سورة الانشقاق " إذا السماء انشقّت . . . " .

وما عطف عليه محذوف تقديره : فصل بين الخلائق أو بان الأمر .

وجملة : " طمست . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " (تشقّقت) السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فرجت . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " (تفتّتت) الجبال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نسفت . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " (اجتمعت) الرسل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أقّتت . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أجّلت . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 1 "

الصرف :

(11) أقّتت : قلبت فيه الواو همزة ، أصله وقّتت ، فلمّا ضمّت الواو قلبت إلى الهمزة لحمل الحركة .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 14 إلى 15]

وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام مبتدأ في محلّ رفع " 2 " في الموضعين (ويل) مبتدأ مرفوع " 3 " (يومئذ) ظرف زمان منصوب - أو مبنيّ - مضاف إلى اسم ظرفيّ مبنيّ ، والتنوين فيه عوض من جملة مقدّرة أي يوم إذا يفصل بين الخلائق (للمكذّبين) متعلّق بخبر المبتدأ (ويل) .

---

(1) وهذا القول المقدّر حال من ضمير أقّتت . . أو هو جواب الشرط (إذا) الأول أي : إذا النجوم طمست . . يقال .

(2) الاستفهام الأول للاستبعاد والثاني للتهويل.

(3) سوّغ الابتداء بالنكرة لكون اللفظ دعاء.

(187/797)

جملة: "ما أدراك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أدراك . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما).

وجملة: "ما يوم . . . "في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي أدراك. المعلّق بالاستفهام.

وجملة: "ويل . . . للمكذّبين . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة المرسلات (77): الآيات 16 إلى 19]

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ، وحرّك (نهلك) بالكسر لالتقاء الساكنين (ثمّ) حرف عطف "1" . .

جملة: "نهلك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " نتبعهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نفعل (بالمجرمين) متعلّق بـ (نفعل) ، (ويل . . للمكذّبين) مثل الأول " 2 " .

وجملة : " نفعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة للتوكيد .

---

(1) أو استئناف . . انظر الآية (19) من سورة العنكبوت .

(2) والجملة قد تكون للتوكيد أو لتقييد الويل هنا بعذاب الدنيا وهناك بعذاب الآخرة - كذا فسّره البيضاوي -

(188/797)

[سورة المرسلات (77) : الآيات 20 إلى 24]

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ " 1 " ، (من ماء) متعلّق بـ (نخلقكم) ، (في قرار) متعلّق بـ

(جعلناه) بتضمينه معنى وضعناه (إلى قدر) متعلّق بمحذوف حال من الهاء في (جعلناه) أي مؤخّرا إلى قدر . .

جملة : " نخلقكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة .

(الفاء) عاطفة في الموضعين ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره نحن (ويل . . للمكذّبين) مثل الأولى .

جملة : " قدرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة - أو جعلناه - وجملة : " نعم القادرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدرنا .

وجملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة للتوكيد . .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 25 إلى 28]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (25) أَحْياءً وَأَمْواتاً (26) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)

---

(1) أي للتقرير . . أو هو للتوبيخ .

الإعراب :

(كفاتا) مفعول به ثان منصوب (أحياء) مفعول به لـ (كفاتا) " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (فيها) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (ماء) مفعول به ثان منصوب (ويل . . للمكذّبين) مثل الأولى .

جملة : " نجعل الأرض . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أسقيناكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

---

(1) و(كفات) هو مصدر كفت ، أو هو اسم فاعل جمع كافت كصائم وصيام . . أو هو مفعول لفعل محذوف تقديره تضمّ إذا كان (كفاتا) اسم مكان أو اسم للوعاء الذي يكفت فيه .

(كفاتا) ، اسم فاعل جمع كافت ، أو هو مصدر الثلاثيّ كفت كحساب ، أو اسم للموضع يكفت فيه الشيء أي يضمّ . . وزنه فعال بكسر الفاء .

(شامخات) ، جمع شامخة مؤنّث شامخ . اسم فاعل من الثلاثيّ شمخ بمعنى علا وارتفع وزنه فاعل .

البلاغة

1 - التنكير : في قوله تعالى " أَحْياءً وَأَمْواتاً " .

قيل أحياء وأمواتا على التنكير ، وهي كفات الأحياء والأموات جميعا ، وذلك للتفخيم ، كأنه قيل : تكفت أحياء لا يعدون ، وأمواتا لا يحصرون ، على أنّ أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات .

2 - التنكير : في قوله تعالى " رَواسِيَ شامِخاتٍ " و " ماءً فُراتاً " .

فائدة التنكير هو إفادة التبعيض ، لأن في السماء جبالا ، قال اللّه تعالى " وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ " وفيها ماء فرات أيضا ، بل هي منبعه ومصبه

- ويحتمل أن يكون للتفخيم .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 29 إلى 34]

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

الإعراب :

(إلى ما) متعلّق بـ (انطلقوا) ، (به) متعلّق بـ (تكذّبون) ، (إلى ظلّ) متعلّق بـ (انطلقوا) الثاني (ذي) نعت لظلّ مجرور وعلامة الجرّ الياء (لا) نافية (ظليل) نعت لظلّ مجرور (لا) الثانية نافية (من اللهب) متعلّق بنعت لمفعول مقدّر أي لا يدفع شيئًا من اللهب ، والضمير في (إنّها) يعود على النار (بشرر) متعلّق بـ (ترمي) ، (كالقصر) متعلّق بنعت لـ (شرر) ، (ويل . .

(191/797)

للمكذّبين) مثل الأولى .

جملة : " انطلقوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر . .

وجملة : "كنتم به تكذّبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تكذّبون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : " انطلقوا (الثانية) " في محلّ نصب بدل من جملة انطلقوا الأولى .

وجملة : " لا يغني . . . " في محلّ جرّ معطوفة على النعت ظليل .

وجملة : " إنّها ترمي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ترمي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "كأنّه جمالة . . . " في محلّ جرّ نعت ثان لشرر " 1 " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الشرر لأنه تخصّص بالوصف .

وجملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(30) شعب : جمع شعبة ، اسم بمعنى الفرقة ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، والجمع فعل بضمّ ففتح .

(31) اللهب : اسم للسان النار وزنه فعل بفتحتين .

(32) شرر : اسم جمع لما يتطاير من النار وزنه فعل بفتحتين ، والواحدة شرارة زنة فعالة بالفتح .

(33) جمالة : إمّا جمع جمل كحجر وحجارة زنة فعالة بكسر الفاء . . أو هو اسم جمع . .

البلاغة

التشبيه المرسل : في قوله تعالى " إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ " .

فقد شبه الشرر ، حين ينفصل من النار ، في عظمته ، بالقصر وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط ، لانشقاقه عن أعداد غير محصورة ، بالجمال ، لتصور الانشقاق والكثرة والصفرة والحركة المخصوصة . وقد روعي الترتيب في التشبيه ، والقصور والجمال يشبّه بعضها ببعض فالتشبيه الثاني بيان للتشبيه الأول ، على معنى أن التشبيه بالقصر كان المتبادر منه إلى الفهم العظم فحسب .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 35 إلى 37]

هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37)

الإعراب :

(لا) نافية في الموضعين (لهم) نائب الفاعل (الفاء) عاطفة " 1 " ، (ويل . . للمكذّبين) مثل الأولى ، جملة : " هذا يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينطقون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " يؤذن لهم . . . " في محلّ جرّ

معطوفة على جملة ينطقون .

وجملة : " يعتذرون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يؤذن لهم .

وجملة : " ويل . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد :

- تفصيل وبيان :

في قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها) قرأ عيسى بن عمر : (فيموتون) عطفا على يقضى ، وأجاز ابن خروف فيه الاستئناف على معنى السببية ، وقرأ السبعة (لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) ، وقد كان النصب ممكنا ، مثله في (فيموتوا) ، ولكن عدل عنه لتناسب الفواصل ، والمشهور أنه لم يقصد إلى معنى السببية ، بل إلى مجرد العطف على الفعل وإدخاله معه في سلك النفي ، لأن المراد بـ (لا يُؤْذَنُ لَهُمْ) نفي الإذن في الاعتذار ، وقد نهوا عنه في قوله تعالى (لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ) ، فلا يتأتى العذر منهم بعد ذلك . وذكر ابن مالك بدر الدين أنه مستأنف بتقدير (فهم يعتذرون) ، وهو مشكل على مذهب الجماعة ، لاقتضائه ثبوت الاعتذار مع انتفاء الإذن ، كما في قولك (ما تؤذينا فنحبك) بالرفع وقد أجاب أبو البقاء عن الوجه الثاني - أي الاستئناف - بقوله : أي (فهم يعتذرون) فيكون المعنى أنهم لا ينطقون نطقا ينفعهم ، أي لا ينطقون في بعض المواقف ، وينطقون في بعضها ، وليس بجواب النفي ، إذ لو كان كذلك لحذف النون .

(1) هي عاطفة فقط وليست سببيّة ، فالنفي متوجّه إلى الإذن والاعتذار . . ولو كانت سببيّة لنصب الفعل بعدها . هذا ويجوز حمل المعنى على الاستئناف أي هم يعتذرون في بعض حالات نطقهم .

(194/797)

[سورة المرسلات (77) : الآيات 38 إلى 40]

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الأوّلين) معطوف على ضمير الخطاب في (جمعناكم) منصوب (الفاء) عاطفة (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (لكم) متعلّق بخبر كان (الفاء) رابطة لجواب الشرط ، و(النون) في (كيدون) للوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة فاصلة الآية (ويل . .

للمكذّبين) مثل الأولى .

جملة : " هذا يوم الفصل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "جمعناكم . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : "كان لكم كيد . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة هذا يوم . .

وجملة : "كيدون . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ويل . . . للمكذّبين "لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 41 إلى 45]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من يوم الفصل ، والرابط مقدّر ، والعامل فيها الإشارة أي جمعناكم فيه .

الإعراب :

(في ظلال) متعلّق بخبر إنّ (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (فواكه) معطوف على ظلال مجرور ، ومنع من التنوين لأنه على صيغة منتهى الجموع (ممّا) متعلّق بنعت لـ (فواكه) . .

جملة : "إنّ المتّقين . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشتهون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(هنيئًا) حال منصوبة من فاعل كلوا واشربوا (ما) حرف مصدريّ " 1 " . .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (هنيئًا) ، و(الباء) سببيّة .

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي " 2 " ، (ويل . .

للمكذّبين) مثل الأولى .

وجملة : "كلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يقول اللّه لهم أو الملائكة كلوا

. .

وجملة : " اشربوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كلوا وجملة : "كنتم . . . " لا

محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تعملون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : " إنّا . . . نجزي " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " نجزى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(42) يشتهون : فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يشتهيون – بياء مضمومة

قبل الواو استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة . [. . . . .]

(2) لأنّ الإشارة إلى الجزاء أي إنّا نجزي المحسنين جزاء كذلك الجزاء المذكور .

(196/797)

الحركة إلى الهاء - إعلال بالتسكين - ، التقى ساكنان الياء والواو حذفت الياء - إعلال بالحذف - وزنه يفتعون .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ " .

مجاز مرسل علاقته المحلية ، وهي الجنة ، لأن الظلال تمتد ، والعيون تجري ، والفواكه تكون فيها ناضجة .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 46 إلى 47]

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47)

الإعراب :

(قليلا) مفعول فيه نائب عن الظرف لأنه صفته أي زمنا قليلا " 1 " ، (ويل . . للمكذّبين)

مثل الأول.

جملة: "كلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة، والخطاب للكافرين في الدنيا.

وجملة: "تمتّعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر أي تمتّعا قليلا.

وجملة: "إنّكم مجرمون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

[سورة المرسلات (77): الآيات 48 إلى 49]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لهم) متعلّق بـ (قيل)، (لا) نافية (ويل . .

للمكذّبين) مثل الأولى.

جملة: "قيل . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "اركعوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 ".

وجملة: "لا يركعون . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "ويل . . . للمكذّبين" لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة المرسلات (77) : آية 50]

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

الإعراب:

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بأيّ) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (بعده) ، ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (حديث) .

جملة: "يؤمنون . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي: إن لم يؤمنوا بالقرآن فبأيّ حديث بعده يؤمنون.

الفوائد:

- (أيّ) اسم معرب، وتأتي على خمسة أوجه:

1 - شرطا: كقوله تعالى: "أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى" (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ) 2 - استفهاما: كقوله تعالى (أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً) وقوله تعالى في الآية التي نحن

---

(1) هي مقول القول في الأصل.

بصددها (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) .

3 - وموصولا : كقوله تعالى ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا أي الذي هو أشد وهي هنا مبنية مع كونها مضافة ، ولا ضير في ذلك .

4 - أن تدل على معنى الكمال فتقع صفة للنكره نحو (زيد رجل أيّ رجل) أي كامل في صفات الرجال ، وحالا للمعرفة كـ (مررت بعبد اللّه أيّ رجل) .

5 - أن تكون وصلة إلى نداء ما فيه (ال) نحو (يا أيها الرجل) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 29 صـ 197.212 ﴾

(199/797)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(77) سورة المرسلات

مكيّة وآياتها خمسون

[سورة المرسلات (77) : الآيات 1 إلى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (1) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (2) وَالنَّاشِراتِ نَشْراً (3) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (4)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (5) عُذْراً أَوْ نُذْراً (6) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (9)

وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (14)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19)

الإعراب:

(وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً) قال أبو حيان في النهر: " هذه السورة مكية

و مناسبتها لما قبلها ظاهرة جدا وهي أنه ذكر أنه تعالى يرحم من يشاء ويعذب الظالمين وهذا وعد منه صادق فأقسم على وقوعه فقال إن ما توعدون لواقع ولما كان للمقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تلك الموصوفات والذي

يظهر أن المقسم به شيئان ولذلك جاء العطف بالواو في والناشرات والعطف بالواو يشعر بالتغاير وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات فيدل على أنها راجعة لموصوف واحد وإذا تقرر هذا فالظاهر أنه أقسم أولا بالرياح ويدل عليه عطف الصفة بالفاء والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ويكون قوله فالفارقات فالملقيات من صفاتهم وإلقاؤهم للذكر وهو ما أنزل اللّه تعالى صحيح إسناده إليهم وما ذكر من اختلاف المفسرين في المراد بهذه الأوصاف ينبغي أن يحمل على التمثيل لا على التعيين وجواب القسم وما عطف عليه إن ما توعدون وما موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف أي إن الذي توعدونه وهي اسم إن وقوله لواقع خبرها " وقد وطأنا بهذه اللمحة المفيدة جلاء للحقيقة ودفعا للالتباس الذي قد ينشأ عن اختلاف المفسرين ونعود بعدها إلى الإعراب .

الواو للقسم والمرسلات مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم ، وعرفا إما أن يكون من عرف الفرس وهو بضم العين أي شعر العنق للفرس فيعرب حالا من الضمير المستكن في المرسلات والمعنى على التشبيه أي حال كونها عرفا أي شبيهة بعرف الفرس من حيث تلاحقها وتتابعها كما أنه كذلك أو على أنه مصدر كأنه قال والمرسلات إرسالا أي متتابعة ، وإما أن يكون من العرف وهو المعروف على حدّ قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين اللّه والناس

وانتصابه على أنه مفعول من أجله أي أرسلت للإحسان والمعروف

(201/797)

أو منصوب بنزع الخافض (فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً) الفاء عاطفة للتعقيب والعاصفات عطف على المرسلات وهي اسم فاعل من العصف بمعنى الشدّة وفي المصباح: "عصفت الريح عصفا من باب ضرب وعصوفا أيضا اشتدت" وعصفا مصدر مؤكد فهو مفعول مطلق (وَالنَّاشِراتِ نَشْراً فَالْفارِقاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً) والناشرات عطف أيضا ونشرا مفعول مطلق، فالفارقات عطف أيضا وفرقا مفعول مطلق فالملقيات عطف أيضا وذكرا مفعول به للملقيات أي للملائكة تنزل بالوحي إلى الأنبياء (عُذْراً أَوْ نُذْراً) هما مصدران من عذر إذا محا الإساءة ومن أنذر إذا خوف على الكفر كالكفر والشكر، وهما منصوبان على أنهما مفعول من أجله، وأجاز الزمخشري أن ينتصبا على البدل من ذكرا، وعبارة أبي البقاء:

"

(202/797)

وفي عذرا أو نذرا وجهان أحدهما : هما مصدران يسكن أوسطهما ويضم والثاني هما جمع عذير ونذير فعلى الأول ينتصبان على المفعول له أو على البدل من ذكرا وعلى الثاني هما حالان من الضمير في الملقيات أي معذرين ومنذرين " (إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ) الجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وإن حرف مشبّه بالفعل وما اسم موصول اسم إن وجملة توعدون صلة واللام المزحلقة وواقع خبر إن والعائد محذوف أي إن الذي توعدونه (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) الفاء استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط والنجوم نائب فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده وجملة طمست مفسّرة لا محل لها وفي جواب إذا قولان : أحدهما أنه محذوف تقديره فإذا طمست النجوم وقع ما توعدون لدلالة قوله إنما توعدون لواقع والثاني أنه لأي يوم أجلت على إضمار القول أي يقال لأي يوم أجلت فالفعل في الحقيقة هو الجواب ، ومعنى طمست محيت ومحقت وذهب نورها (وَإِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ) جمل معطوفة على جملة فإذا النجوم طمست ومعنى فرجت فتحت فكانت أبوابا ومعنى نسفت تفتتت كالرمل السائل ثم

يطيرها الريح ، وفي المصباح " نسفت الريح التراب نسفا من باب ضرب اقتلعته وفرقته "
ومعنى أقتت وقتت وقد قرئ بهما أي جمعت لوقت معلوم قال الزجاج المراد بهذا التأقيت
أو التوقيت تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم والواو إذا انضمت جاز
جعلها همزة ، وقال المبرد في كامله " قال اللّه عزّ وجلّ : وإذا الرسل أقتت والأصل وقتت
ولو كان في غير القرآن لجاز إظهار الواو إن شئت " (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ) لأي يوم
متعلق بأجلت أي أجلت لأي يوم والجملة مقول قول محذوف في محل نصب على الحال من
مرفوع أقتت أي يقال لأي يوم أجلت أو لا محل لها لأنها جواب إذا كما تقدم وليوم الفصل بدل
من لأي يوم بإعادة العامل ولك أن تعلقه بفعل محذوف أي أجلت ليوم الفصل (وَما أَدْراكَ ما
يَوْمُ الْفَصْلِ) الواو عاطفة وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة أدراك خبرها والكاف
مفعول به أول وقوله ما يوم الفصل جملة من مبتدأ وهو ما الاستفهامية وخبر وهو يوم الفصل
سادّة مسدّ المفعول الثاني لإدراك المعلقة بالاستفهام والاستفهام الأول معناه الاستبعاد
والإنكار والثاني للتعظيم والتهويل (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) ويل مبتدأ سوّغ الابتداء به ما فيه
من معنى الدعاء ، وعبارة الزمخشري : " فإن قلت كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله ويل
يومئذ للمكذبين ؟ قلت هو في أصله مصدر منصوب سادّ مسدّ فعله ولكنه عدل به إلى
الرفع للدلالة على ثبات معنى الهلاك ودوامه للمدعوّ عليهم ، ونحوه سلام عليكم ويجوز
ويلا بالنصب ولكنه لم يقرأ به " ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بويل أو صفة له

والتنوين عوض عن جمل محذوفة تقتبس من السياق والتقدير يوم إذ طمست نجوم وكان ما بعدها ، وللمكذبين خبر ويل (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ) الهمزة للاستفهام التقريري لأن الاستفهام في الأصل إنكاري وقد

(204/797)

دخل على نفي ونفي النفي إثبات ويعبّر عنه بالاستفهام التقريري

ولم حرف نفي وقلب وجزم ونهلك فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره نحن

والأولين مفعول به وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ونتبعهم فعل مضارع مرفوع استئنافا أي ثم نحن نتبعهم والآخرين مفعول به ثان (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل وبالمجرمين متعلقان بنفعل وويل يومئذ للمكذبين تقدم إعرابها وسيأتي سر تكرارها في باب البلاغة .

البلاغة :

تكررت آية " ويل يومئذ للمكذبين " في هذه السورة عشر مرات والسر فيها زيادة الترهيب ، والتكرار في مقام الترغيب والترهيب مستساغ حسن لا سيما إذا تغايرت الآيات السابقات على المرات المكررة كما هنا .

الفوائد :

لا يجوز عطف " نتبعهم " على " نهلك " لأن العطف يوجب أن يكون أهلكنا الأولين لأن لم حرف نفي وقلب وجزم فيكون المعنى ثم أتبعناهم الآخرين في الهلاك وليس الأمر كذلك لأن هلاك الآخرين لم يقع بعد .

[سورة المرسلات (77) : الآيات 20 إلى 34]

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (21) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (25) أَحْياءً وَأَمْواتاً (26) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28) انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29)

انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (30) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

(205/797)

اللغة :

(فَقَدَرْنا) بالتخفيف من القدرة وقرئ بالتشديد من التقدير ويدل على الأول فنعم القادرون وفي القرطبي : " قرأ نافع والكسائي فقدرنا بالتشديد وخفّف الباقون وهما لغتان بمعنى فقدرنا بالتخفيف " وفي المصباح " قدرت الشيء قدرا من بابي ضرب وقتل وقدّرته تقديرا بمعنى والاسم القدر بفتحتين " وقوله فاقدروا له أي قدروا عدد الشهر فكملوا شعبان ثلاثين يوما .

(كِفاتاً) قال الجلال " مصدر كفت بمعنى ضم " قال في القاموس :

" كفته يكفته صرفه عن وجهه فانكفت والشيء إليه ضمّه وقبضه ككفّته والطائر وغيره كفتا وكفاتا وكفيتا وكفتانا أسرع في الطيران والعدو " فهل كانت كفاتا مصدر كفت بمعنى ضم المتعدية أم مصدر كفت الطائر اللازمة ؟ ! إن كلام صاحب القاموس موهم ، وقال في القاموس بعد ذلك : " والكفات بالكسر الموضع يكفت فيه الشيء أي يضم ويجمع والأرض كفات لنا " وعلى هذا جرى الزمخشري وأبو حيان ، وقد ردّ المفسرون على الجلال لأن كفت من باب ضرب فالحق أنه اسم مكان وفي المختار : " كفته ضمّه إليه وبابه ضرب والكفات بالكسر الموضع الذي يكفت فيه شيء أي يضم ويجمع والأرض كفات لنا " وعبارة السمين " الكفات اسم للوعاء الذي يكفت فيه الشيء أي يجمع يقال كفته يكفته أي جمعه وضمه " إلى أن قال : " وقيل كفاتا جمع كافت كصيام وقيام

في جمع صائم وقائم وقيل بل هو مصدر كالكتاب والحساب " وسيأتي مزيد من هذا التقرير في باب الإعراب .

(كَالْقَصْرِ) من البناء في عظمه وارتفاعه .

)

جِمالَتٌ) بكسر الجيم جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع يقال جمل وجمال وجمالة نحو ذكر وذكار وذكارة وحجر وحجار وحجارة وقيل هو اسم جمع كالذكارة والحجارة وقرئ جمالات ويجوز أن يكون جمعا لجمالة وأن يكون جمعا لجمال فيكون جمع الجمع ويجوز أن يكون جمعا لجمل كقوله : رجالات قريش ، وسيأتي مزيد من هذا التقرير في باب البلاغة .

الإعراب :

(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ونخلقكم فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به ومن ماء متعلقان بنخلقكم ومهين نعت لماء ومن الابتدائية إشارة إلى أنه تعالى قادر على الابتداء والقادر على الابتداء قادر على الإعادة (فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ) الفاء عاطفة وجعلناه

فعل وفاعل ومفعول به وفي قرار في موضع المفعول الثاني ومكين نعت لقرار أي مكان يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له

كالهواء ، والقرار هو الرحم (إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ) إلى قدر الجار والمجرور في موضع الحال أي مؤخرا إلى قدر معلوم ، ومعلوم نعت لقدر (فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ) الفاء عاطفة وقدرنا فعل وفاعل والفاء عاطفة ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح والقادرون فاعل والمخصوص بالمدح محذوف أي نحن (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَأَمْواتاً) الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ونجعل فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره نحن والأرض مفعول به أول وكفاتا مفعول به ثان لنجعل لأنها للتصيير وأحياء وأمواتا منصوبان على أنهما مفعولان به لكفاتا إن تقرر أن كفاتا مصدر ، أو جمع كافت لأنه اسم فاعل ، وإن لم يكن مصدرا بل اسم موضع فيكون نصبهما بفعل مضمر يدل عليه كفاتا تقديره تكفت والمعنى تكفت أحياء على ظهرها وأمواتا في بطنها وعبارة أبي حيان :

"

و انتصب أحياء وأمواتا بفعل يدل عليه ما قبله أي يكفت أحياء على ظهرها وأمواتا في بطنها " وقال الزمخشري " ويجوز أن يكون المعنى تكفتكم أحياء وأمواتا فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس " (وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً) الواو حرف عطف وجعلنا فعل وفاعل وفيها متعلقان بجعلنا إن كانت بمعنى خلقنا وفي موضع المفعول الثاني إن كانت جعلنا بمعنى صيّرنا ورواسي مفعول جعلنا وشامخات صفة لرواسي وأسقيناكم عطف على جعلنا وماء مفعول به ثان وفراتا نعت لماء ، والفرات العذب (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) الجملة مقول قول محذوف مستأنف وانطلقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإلى ما متعلقان بانطلقوا وجملة كنتم لا محل لها لأنها صلة ما وكان واسمها وبه متعلقان بتكذبون وجملة تكذبون خبر كنتم والعائد الضمير في به (انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ) انطلقوا توكيد لانطلقوا الأول

(208/797)

و إلى ظل متعلقان بانطلقوا وذي ثلاث شعب نعت لظل ، وسيأتي مزيد من هذا المعنى في باب البلاغة (لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ) لا نافية وظليل نعت منفي لأن الظل لا يكون إلا

ظليلا فنفيه عنه للدلالة على أنه جعله ظلا تهكما بهم وسخرية منهم ، ولا يغني من اللهب عطف على المنفي ، ويغني فعل مضارع وفاعله هو الظل ومن اللهب متعلقان بيغني والجملة في محل جر أي غير مغن عنهم من حرّ اللهب شيئا (إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) الجملة بمثابة التعليل لعدم غناء الظل غير الظليل وإن واسمها والضمير يعود إلى جهنم لأن الحديث عنها وجملة ترمي خبر إن وبشرر متعلقان بترمي والشرر ما تطاير منها تقول : نار ذات شرار وشرر وطارت منها شرارة وشررة ، وكالقصر نعت لشرر أي كل شررة كالقصر من القصور في عظمها ، وسيأتي المزيد من هذا التشبيه في باب البلاغة (كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ) الجملة نعت ثان لشرر وكأن واسمها وجمالة خبرها وصفر نعت لجمالة (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها .

البلاغة :

1- في قوله " أحياء وأمواتا " التنكير ، فقد نكرهما مع أنها تكفت الأحياء والأموات جميعا للتفخيم كأنه قيل أحياء لا يعدّون وأمواتا لا يحصون على أن أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات .

2- ونكر رواسي شامخات وماء فراتا لإفادة التبعيض لأن في السماء جبالا قال اللّه تعالى : " وينزل من السماء من جبال فيها من برد " وفيها ماء فرات كثير بل هي منبعه ومصبّه .

3- وفي قوله : " انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب " فن طريف من فنون البلاغة أطلق عليه الأقدمون اسم

(209/797)

"

العنوان " وقد تقدمت الإشارة إليه في هذا الكتاب وأنه عبارة عن أن يأخذ المتكلم في غرض له من وصف أو فخر أو مدح أو عتاب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون ثم يأتي بقصد تكميله بأمثلة من ألفاظ تكون عنوانا لأخبار متقدمة وقصص سالفة ، ومن نوع عظيم جدا وهو ما يكون عنوانا للعلوم وذلك أن تذكر في الكلام ألفاظ تكون بمثابة مفاتيح لعلوم ومداخل لها ، وهذه الآية التي نحن بصددها من أصدق الدلائل على ذلك فإن قوله : " ظل ذي ثلاث شعب " عنوان للعلم المنسوب إلى إقليدس وهو فيلسوف يوناني وضع كتابا في علم الهيئة والهندسة والحساب ونقله إلى العربية الحجاج بن يوسف الكوفي وعلم الهندسة في الإسكندرية على أيام بطليموس ووضع مبادئ علم الهندسة السطحية وله كتاب الأصول أيضا شرحه ناصر الدين الطوسي وتوفي سنة 283 فإن الشكل المثلث أول الأشكال وهو أصلها ومنه تتركب بقية الأشكال وهو شكل إذا نصب في الشمس كيفما

نصب على أي ضلع كان من أضلاعه لا يكون له ظل لتحديد رؤوس زواياه ، فأمر اللّه سبحانه هؤلاء الجهنميين بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل تهكما بهم وسخرية منهم .

4- التشبيه ، فقد شبّه سبحانه الشرر بالقصر في عظمه وكبره وشبّهه ثانيا بالجمالة الصفر في الهيئة واللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة ، وننقل هنا فصلا طريفا للزمخشري ثم نعقب عليه بإيجاز ، قال في الكشاف : " شبّهت بالقصور ثم بالجمال لبيان التشبيه ، ألا تراهم يشبّهون الإبل بالأفدان والمجادل " أي القصور جمع فدن ومجدل وكلاهما بمعنى القصر كما في الصحاح ثم قال : " وقرئ جمالات بالضم وهي قلوس الجسور وقيل قلوس سفن البحر الواحدة جمالة " والقلوس جمع قلس وهو حبل ضخم من قلوس السفن ثم قال : " وقيل : صفر لإرادة الجنس وقيل صفر سود تضرب إلى الصفرة وفي شعر عمران بن حطّان الخارجي :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم بمثل الجمال الصفر نزاعة للشوى

وقال أبو العلاء :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

فشبّهها بالطراف وهو بيت الأدم ، في العظم والحمرة ، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ، ولتبجحه بما سوّل له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله " حمراء " توطئة لها ومناداة عليها ، وتنبيها للسامعين على مكانها ، ولقد عمي ، جمع اللّه له عمى الدارين ، عن قوله عزّ وجلّ : "كأنه جمالات صفر " فإنه بمنزلة قوله : كبيت أحمر ، على أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين : من جهة العظم ، ومن جهة الطول في الهواء ، وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيه من ثلاث جهات من جهة العظم ، والطول ، والصفرة ، فأبعد اللّه إغرابه في طرافه ، وما نفخ به شدقيه من استطرافه " .

وذكر صاحب نسمة السحر عن الزمخشري عند قوله تعالى :

" إنها ترمي بشرر كالقصر " أنه ذكر بيت أبي العلاء في صفة نار القرى من القصيدة الفائية التي رثى بها النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي والمرتضى وهو :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكلّ شرارة كطراف

وحمي عليه وقال : إنه أراد وقصد الزيادة على تشبيه القرآن العظيم بالقصر ، قال : ولا أدري من أين له أنه قصد الزيادة على تشبيه القرآن فمن المعلوم أن القصر أعظم من الطراف ، وهي خيمة من الأدم

الأحمر يتخذها الأتراك البادون ومياسير العرب ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد

المزاج كثيرا " .

أقول : والزمخشري – رحمه اللّه – يتحكك بأبي العلاء في مواطن كثيرة وهو – كما نرى في نقده لبيت المعرّي الجميل – ظاهر التجانف والميل وقد تعودنا من الزمخشري أن يعرض لخصوم المعتزلة ، وليس أبو العلاء منهم ، ولكن الزمخشري كان رجلا أديبا قرأ رسائل المعرّي ووطن لموقفه من النحاة فحمله كرهه على التحرّش به .

(211/797)

و هذه الخصومة النحوية قد جنت على أبي العلاء فإن النحاة أهملوا شعره وندر جدا أن تعرضوا له بشرح أو استشهاد أو نقد وقد عنوا بشعر أبي تمام والمتنبي لما فيهما من تصرّف في اللغة وفي الأساليب النحوية وقد كان في شعر أبي العلاء وما يغريهم بدرسه ولكنهم أعرضوا عنه ، وقد مرّ في هذا الكتاب نقد أبي العلاء للنحاة فجدّد به عهدا .

فأما تشبيه الإبل بالأفدان وهي القصور فكثير جدا في شعرهم قال عنترة :

فوقفت فيها ناقتي فكأنها فدن لأقضي حاجة المتلوم

والمعرّي استهواه وصف الإبل فحاول اقتفاء آثارهم ولكنه أغرب في ذلك إغرابا شديدا كقوله من قصيدة له في سقط الزند يخاطب بها خازن دار العلم ببغداد :

وحرف كدال تحت ميم ولم يكن براء يؤم الرسم غيره النقط

فالحرف الناقة والدال تشبيه لها والميم الراكب المنحني من جهة التشبيه لا من جهة التفسير اللغوي والرائي ضارب الرئة من رآه إذا أصاب رئته والرسم أثر الديار والنقط المطر وإنما استطردنا إلى هذا

لنعرض لإغراب المعري الذي لم يعد الزمخشري الحقيقة في نقده.

[سورة المرسلات (77) : الآيات 35 إلى 50]

هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44)

(212/797)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

الإعراب :

(هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان الحالة في ذلك اليوم وهذا مبتدأ ويوم خبره وجملة لا ينطقون في محل جر بإضافة الظرف إليها وقرئ بفتح الميم وهو نصب على الظرف وهو متعلق بمحذوف خبر هذا والواو حرف عطف ولا نافية ويؤذن فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو ولهم متعلقان بيؤذن والفاء حرف عطف ويعتذرون فعل مضارع معطوف على

(213/797)

يؤذن منتظم في سلك النفي من غير تسبب عنه ولهذا لم ينصب لأنه لو نصب لكان مسببا عنه لا محالة ، وعبارة السمين : " وفي رفع فيعتذرون وجهان : أحدهما أنه مستأنف أي فهم يعتذرون ، قال أبو البقاء : ويكون المعنى أنهم لا ينطقون نطقا ينفعهم أو ينطقون في بعض المواقف ولا ينطقون في بعضها والثاني أنه معطوف على يؤذن فيكون منفيا ولو نصب لكان مسببا عنه " وقال البيضاوي : عطف يعتذرون على يؤذن ليدل على نفي الإذن والاعتذار عقبه مطلقا ولو جعله جوابا لدلّ على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن وأوهم ذلك أن لهم عذرا لكن لم يؤذن لهم فيه (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ

وَالْأَوَّلِينَ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال لهم هذا ، وهذا مبتدأ ، ويوم الفصل خبره وجملة جمعناكم مفسّرة موضّحة لقوله هذا يوم الفصل لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأممهم فلا بدّ من جمع الأولين والآخرين حتى يقع ذلك الفصل بينهم والواو عاطفة أو للمعية والأولين معطوف على الكاف أو مفعول معه (فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) الفاء عاطفة وإن شرطية وكان فعل ماض ناقص ولكم خبرها المقدم وكيد اسمها المؤخر والفاء رابطة لجواب الشرطية لأنه جملة طلبية وكيدون فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ) كلام مستأنف مسوق لذكر أحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز بعد أن ذكر أحوال الكفّار على سبيل الإطناب ليتم التعادل بين هذه السورة والسورة التي قبلها وهي هل أتى على الإنسان فقد ذكر في تلك السورة أحوال الكفار على سبيل الإيجاز وأطنب في ذكر أحوال المؤمنين ، وإن واسمها وفي ظلال خبرها وعيون عطف على ظلال (وَفَواكِهَ مِمَّا

يَشْتَهُونَ) عطف على ظلال وعيون ومما نعت لفواكه وجملة يشتهون لا محل لها لأنها صلة

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً

بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الجملة مقول قول محذوف وهذا المقول في محل نصب على الحال من ضمير المتقين في الظرف الذي هو في ظلال أي هم مستقرون في ظلال مقولا لهم ذلك وهنيئا تقدم إعرابها كثيرا أي حال أي متهنئين وبما متعلقان بهنيئا والباء سببية وما موصولة وجملة كنتم صلة وكان واسمها وجملة تعملون خبرها (إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) تعليل للأمر بالأكل والشرب أي أن ذلك ديدننا ودأبنا نكافىء المحسن على إحسانه كما نجزي المسيء على مساءته ، وإن واسمها وكذلك نعت مقدّم لمصدر محذوف وجملة نجزي خبر إنّا والمحسنين مفعول به (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ) الجملة مقول قول محذوف وهذا المحذوف في محل نصب على الحال من المكذبين أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم كلوا وتمتعوا وكلوا فعل أمر مبني على حذف النون وتمتعوا عطف عليه وقليلا منصوب على الظرف الزمانية والتي لا تلبث أن تنتهي بموتكم ودثوركم وهو على كل حال ومهما امتد وأنسىء فيه قليل زائل ، ووشيك مسرع ، إذا ما قيس إلى مدد الآخرة وأيامها الطويلة ، وجملة إنكم مجرمون تعليل للتهديد المفهوم من الأمر بالأكل والتمتع بظل زائل ، ولون حائل ، وسراب غرار ، وإن واسمها ومجرمون خبرها . وعبارة الكشاف : " فإن قلت : كيف

يصحّ أن يقال لهم ذلك في الآخرة؟ قلت: يقال لهم ذلك في الآخرة إيذانا بأنهم كانوا في الدنيا أحقاء بأن يقال لهم وكانوا من أهله تذكيرا بحالتهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد وفي طريقته قوله:

إخوتي لا تبعدوا أبدا وبلى واللّه قد بعدوا

(215/797)

يريد كنتم أحقاء في حياتكم بأن يدعى لكم بذلك وعلّل ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ما له إلا الأكل والتمتع أياما

قلائل ثم البقاء في الهلاك أبدا ويجوز أن يكون كلوا وتمتعوا كلاما مستأنفا خطابا للمكذبين في الدنيا " أي فيكون راجعا إلى ما قبل قوله إن المتقين وإلى هذا ذهب الجلال وأيده القرطبي وأبو حيان (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ) الواو عاطفة متصلة بقوله للمكذبين كأنه قيل ويل للذين كذبوا والذين إذا قيل لهم اركعوا أو بقوله إنكم مجرمون على طريق الالتفات كأنه قيل هم أحرياء بأن يقال لهم كلوا وتمتعوا ثم بكونهم مجرمين وبكونهم إذا قيل لهم صلّوا لا يصلّون. وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قيل في محل جر بإضافة الظرف إليها ولهم متعلقان بقيل وجملة اركعوا مقول القول

وجملة لا يركعون لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) تقدم إعرابها (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) الفاء الفصيحة أي إن لم يؤمنوا بالقرآن فيؤمنون بأي شيء ؟ وبأي متعلقان بيؤمنون وحديث مضاف إليه وبعده ظرف متعلق بمحذوف نعت لحديث ويؤمنون فعل مضارع مرفوع .

البلاغة :

1- في قوله : " إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون " مجاز مرسل علاقته المحلية وهي الجنة لأن الظلال تمتد والعيون تجري والفواكه تنضج فيها .

2- وفي قوله : " وإذا قيل لهم اركعوا " مجاز مرسل أيضا علاقته البعضية لأنه سمّى الصلاة باسم جزء من أجزائها وهو الركوع وإنما خصّ الركوع بالذكر مع أن الصلاة تشتمل على أفعال كثيرة لأن العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود ، قال مقاتل : نزلت في ثقيف قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حطّ عنّا الصلاة فإنّا لا ننحني إنها مسبّة

فأبى وقال : لا خير في دين لا صلاة فيه ، وفي رواية لا ركوع فيه ولا سجود .

الفوائد :

قال النحاة : في نحو " ما تأتينا فتحدّثنا " يجوز في الثاني النصب والرفع فالنصب من وجهين يجمعهما أن الثاني مخالف للأول فأحد المعنيين ما تأتينا محدّثا والوجه الآخر ما تأتينا فكيف تحدّثنا ، وأما الرفع فعلى وجهين أحدهما أن يكون الفعل شريكا للأول داخلا معه في النفي كأنك قلت : ما تأتينا وما تحدّثنا فهما جملتان منفيتان والوجه الثاني أن يكون معنى ما تأتينا فتحدّثنا أي ما تأتينا فأنت تحدّثنا ، قال تعالى : هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون أي فلا يعتذرون ، ومنه قول جميل بن معمر العذري :

ألم تسأل الربع القواء فينطق وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

فقد قطع ينطق مما بعده ورفعه على الاستئناف أي فهو ينطق على كل حال قال سيبويه : " لم يجعل الأول سبب الآخر ولكنه جعله ينطق على كل حال " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 331.347 ﴾

(217/797)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والتسعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النبأ)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النبأ)

(5/798)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة النبأ

مقصودها الدلالة على أن يوم القيامة الذي كانوا مجمعين على نفيه ، وصاروا بعد بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) في خلاف فيه مع المؤمنين ثابت ثباتاً لا يحتمل شكاً ولا خلافاً بوجه ، لأن خالق الخلق مع أنه حكيم قادر على ما يريد دبرهم أحسن تدبير ، بنى لهم مسكناً وأتقنه ، وجعلهم على وجه يبقى به نوعهم من أنفسهم بحيث لا يحتاجون إلى أمر خارج يرونه ، فكان ذلك أشد لإلفتهم وأعظم لأنس بعضهم ببعض ، وجعل سقفهم وفراشهم كافلين لمنافعهم ، والحكيم لا يترك عبيده وهو تام القدرة كامل السلطان يمرحون يبغي بعضهم على بعض ويأكلون خيره ويعبدون غيره بلا حساب ، فكيف إذا كان حاكماً

فكيف إذا كان أحكم الحاكمين ، هذا ما لا يجوز في عقل ولا خطر ببال أصلاً ، فالعلم واقع به قطعاً ، وكل من اسميها واضح في ذلك بتأمل آيته ومبدأ ذكره وغايته . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 294 ﴾

(6/798)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . عم يتساءلون)

السّورة مكّيّة .

وآياتها إِحدى وأَربعون فى عدّ المكّى والبصرىّ ، وأَربعون فى عدّ الباقين .

وكلماتها مائة وثلاث وسبعون .

وحروفها ثمانمائة وستّ عشرة .

المختلف فيها آية ﴿ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .

فواصل آياتها : (منا) وعلى الميم آية ﴿ العَظِيمِ ﴾ ولها اسمان : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُوْنَ ﴾ ، والنبأ ؛ لقوله : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ .

معظم مقصود السورة : ذكر القيامة ، وخَلْق الأَرض والسّماءِ ، وبيان نفع الغَيْث ، وكيفيّة النَشْر والبعث ، وعذاب العاصين ، وثواب المطيعين من المؤمنين ، وقيام الملائكة فى القيامة مع المؤمنين ، وتمنّى الكفَّار المحالَ فى قوله : ﴿ يالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً ﴾ .

السّورة محكمة .

المتشابهات

قوله : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ قيل : التكرار للتأكيد .

وقيل : الأَوّل للكفَّار ، والثَّانى للمؤمنين .

وقيل : الأَوّل عند النزع ، والثانى فى القيامة .

وقيل : الأَوّل رَدْع عن الاختلاف ، والثانى عن الكفر .

قوله : ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ وبعده : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ ؛ لأَنَّ الأَوّل للكفَّار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فيكون جزاؤهم على وَفْق أَعمالهم .

والثَّانى للمؤمنين ، وجزاؤهم [يكون] وافياً كافياً .

فلهذا قال : ﴿ حِسَاباً ﴾ أَى وافياً من قولك : حسبى (وكفانى) .

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث الشَّاذَّة حديث أُبىّ : مَنْ قرأَها سقاه الله بَرْد الشراب يوم القيامة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَها سُمّى فى السّموات أَسِير الله فى الأَرض ، وله بكلّ آية

قرأَها مثلُ ثواب هود عليه السّلام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 498.497 ﴾

(7/798)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة النبأ

461 - مسألة:

قوله تعالى: كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)

ما فائدة التكرار هنا وفى "التكاثر" ؟ .

جوابه:

إما توكيد للخبر، أو ستعلمون ما تلقون في الآخرة.

462 - مسألة:

قوله تعالى في عذاب جهنم: (جَزَاءً وِفَاقًا (26) وقال تعالى

في ثواب الجنة: (عَطَاءً حِسَابًا (36) ؟ .

جوابه :

أن الحسنة بعشر أمثالها : فحصل العدد في جزائها ، فناسب

ختمها " بالحساب " . وجزاء السيئة بمثلها : فناسب وفاق جزائها لها في الاتحاد .

463 .مسألة :

قوله تعالى (عَطَاءً حِسَابًا (36) وفى المؤمن : (يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)

جوابه :

أن المراد فى سورة المؤمن كثرة الرزق الفائت العدد والحساب ، والمراد هنا : على حسب أعمالهم لأنهم متفاوتون فى الأعمال أو المراد بقوله (حسابا) أى كافيا من قولك : حسبى الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 372.371 ﴾

(8/798)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة النبأ

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة النبَإِ) لوقوع

كلمة (النَبإ) في أولها .

وسميت في بعض المصاحف وفي (صحيح البخاري) وفي (تفسير ابن عطية) و (الكشاف) (سورة عم يتساءلون) . وفي (تفسير القرطبي) سماها (سورة عم) أي بدون زيادة (يتساءلون) تسمية لها بأول جملة فيها .

وتسمى (سورة التساؤل) لوقوع (يتساءلون) في أولها . وتسمى (سورة المُعصرات) لقوله تعالى فيها : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ((النبأ : 14) . فهذه خمسة أسماء . واقتصر في (الإتقان) على أربعة أسماء : عمّ ، والنبأ ، والتساؤل ، والمعصرات ، وهي مكية بالاتفاق .

وعدّت السورة الثمانين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة المعارج وقبل سورة النازعات .

وفيما روي عن ابن عباس والحسن ما يقتضي أن هذه السورة نزلت في أول البعث ، روي عن ابن عباس : (كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به) فنزلت : (عم يتساءلون) .

وعن الحسن لما بُعث النبي (صلى الله عليه وسلم) جعلوا يتساءلون بينهم فأنزل الله : (عم يتساءلون عن النبإ العظيم ((النبأ : 1 ، 2) يعني الخبر العظيم .

وعَدَّ آيها أصحاب العدد من أهل المدينة والشام والبصرة أربعين . وعدَّها أهل مكة وأهل الكوفة إحدى وأربعين آية .

(9/798)

أغراضها

اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم ، ومن ذلك إثبات البعث ، وسُؤالُ بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإِخبار عن وقوعه .

وتهديدهم على استهزائهم .

وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإِنسان بعد موته وبالخلق الأول للإِنسان وأحواله .

ووصفُ الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين .

وصفةِ يوم الحشر إنذاراً للذين جحدوا به والإِيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث .

وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 6.5 ﴾

(10/798)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة النبأ

تعريف بالجزء الثلاثين

هذا الجزء كله – ومنه هذه السورة – ذو طابع غالب . . سوره مكية فيما عدا سورتي "البينة" و "النصر" وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر . والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة – على وجه التقريب – في موضوعها واتجاهها , وإيقاعها , وصورها وظلالها , وأسلوبها العام .

إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بنوم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد :اصحوا . استيقظوا . انظروا

. تلفتوا . تفكروا . تدبروا . . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذابا شديدا . ونعيما كبيرا . . اصحوا . استيقظوا . انظروا تلفتوا تفكروا تدبروا وهكذا مرة أخرى وثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزا عنيفا . . وهم كأنما يفتحون أعينهم ينظرون في خمار مرة , ثم يعودون لما كانوا فيه ! فتعود اليد القوية تهزهم هزا عنيفا ; ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد ; وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب . . وأحيانا يتيقظ النوام ليقولوا :في إصرار وعناد :لا . . ثم يحصبون الصائح المنذر المنبه بالأحجار والبذاء . . ثم يعودون لما كانوا فيه . فيعود إلى هزهم من جديد .

هكذا خيل إلي وأنا أقرأ هذا الجزء . وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد , عظيمة القدر , ثقيلة الوزن . وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب . وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس . وعلى أحداث معينة في يوم الفصل . وأرى تكرارها مع تنوعها . هذا التكرار الموحي بأمر وقصد !

(11/798)

وهكذا يحس القارئ وهو يقرأ: (فلينظر الإنسان إلى طعامه . . .) . . (فلينظر الإنسان مم خلق ? . . .) . . (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ? وإلى السماء كيف رفعت ? وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ?) .

وهو يقرأ: (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ? رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم) . . (ألم نجعل الأرض مهادا ? والجبال أوتادا ? وخلقناكم أزواجا ? وجعلنا نومكم سباتا ? وجعلنا الليل لباسا ? وجعلنا النهار معاشا ? وبنينا فوقكم سبعا شدادا ? وجعلنا سراجا وهاجا ? وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ? لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ?) . . . . (فلينظر الإنسان الي طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا , وحدائق غلبا , وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم) . .

وهو يقرأ (يا أيها الإنسان . ما غرك بربك الكريم , الذي خلقك فسواك فعدلك , في أي صورة ما شاء ركبك ?) . .

(سبح اسم ربك الأعلى , الذي خلق فسوى , والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) . . (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم , ثم رددناه أسفل سافلين ,

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) . .

(12/798)

وهو يقرأ : إذا الشمس كورت , وإذا النجوم انكدرت , وإذا الجبال سيرت , وإذا العشار عطلت , وإذا الوحوش حشرت , وإذا البحار سجرت , وإذا النفوس زوجت , وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت ؟ (وإذا الصحف نشرت , وإذا السماء كشطت , وإذا الجحيم سعرت , وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت) . .(إذا السماء انفطرت , وإذا الكواكب انتثرت , وإذا البحار فجرت , وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت) . .(إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت , وألقت ما فيها وتخلت , وأذنت لربها وحقت . . .) (إذا زلزلت الأرض زلزالها , وأخرجت الأرض أثقالها , وقال الإنسان مالها . . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) . .

وهو يقرأ اللمحات والسبحات الكونية في مفاتح عدد من السور وفي ثناياها :(فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس) . .(فلا أقسم

بالشفق , والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق) . .(والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر) . .(والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) . .(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى) . .(والضحى . والليل إذا سجى) . .

الخ . . الخ . .

(13/798)

وفي الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان . وعلى مشاهد هذا الكون وآياته في كتابه المفتوح . وعلى مشاهد القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها . . واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة . مع التقريع بها والتخويف والتحذير . . وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين . والأمثلة على هذا هي الجزء كله . ولكنا نشير إلى بعض النماذج في هذا التقديم:

هذه السورة – سورة النبأ – كلها نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد .

ومثلها سورة "النازعات" وسورة "عبس" تحتوي مقدمتها إشارة إلى حادث معين من حوادث الدعوة . . وبقيتها كلها حديث عن نشأة الحياة الإنسانية والحياة النباتية ثم عن الصاخة: (يوم يفر المرء من أخيه , وأمه , وأبيه , وصاحبته وبنيه , لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة , ووجوه يومئذ عليها غبرة , ترهقها قترة) . وسورة "التكوير" وهي تصور مشاهد الانقلاب الكوني الهائلة في ذلك اليوم , مع عرض مشاهد كونية موحية في صدد القسم على حقيقة الوحي وصدق الرسول . وسورة "الانفطار" كذلك في عرض مشاهد الانقلاب مع مشاهد النعيم والعذاب , وهز الضمير البشري أمام هذه وتلك: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . . .)الخ" وسورة "الانشقاق" وهي تعرض مشاهد الانقلاب الكوني ومشاهد النعيم والعذاب . . وسورة "البروج" وهي تلقي إيقاعات سريعة حول مشاهد الكون ومشاهد اليوم بصدد إشارة إلى تعذيب الكفار لجماعة من المؤمنين في الدنيا بالنار . وعذاب الله لأولئك الكفار في الآخرة بالنار . وهو أشد وأنكى . .

(14/798)

وسورة "الطارق" . . وهي تعرض مشاهد كونية مع نشأة الإنسان ونشأة النبات للقسم بالجميع: (إنه لقول فصل , وما هو بالهزل) . . وسورة "الأعلى " وتتحدث عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية , وإخراج المرعى وأطواره تمهيدا للحديث عن الذكر والآخرة والحساب والجزاء . . وسورة "الغاشية " . . وهي تصوير لمشاهد النعيم والعذاب . ثم توجيه إلى خلق الإبل والسماء والأرض والجبال . . وهكذا . . وهكذا . . إلى نهاية الجزء باستثناء سور قليلة تتحدث عن حقائق العقيدة ومنهج الإيمان . كسورة الإخلاص . وسورة الكافرون . وسورة الماعون . وسورة العصر . وسورة القدر . وسورة النصر . أو تسري عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتواسيه وتوجهه إلى الإستعاذه بربه من كل شر , كسور الضحى . والانشراح . والكوثر . والفلق . والناس . . وهي سور قليلة على كل حال . .

(15/798)

وهناك ظاهرة أخرى في الأداء التعبيري لهذا الجزء . هناك أناقة واضحة في التعبير , مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال في الوجود والنفوس , وافتنان مبدع في الصور والظلال والإيقاع الموسيقي والقوافي والفواصل , تتناسق كلها مع طبيعته في خطاب الغافلين النائمين

السادرين , لإيقاظهم واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات . . يتجلى هذا كله بصورة واضحة في مثل تعبيره اللطيف عن النجوم التي تخنس وتتوارى كالظباء في كناسها وتبرز , وعن الليل وكأنه حي يعس في الظلام , والصبح وكأنه حي يتنفس بالنور : (فلا أقسم بالخنس , الجوار الكنس ; والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس) وفي عرضه لمشاهد الغروب والليل والقمر : (فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق) . أو لمشاهد الفجر والليل وهو يتمشى ويسري : (والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر) . (والضحى . والليل إذا سجى) . وفي خطابه الموحي للقلب البشري : (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ? الذي خلقك فسواك فعدلك . .) وفي وصف الجنة : (وجوه يومئذ ناعمة , لسعيها راضية , في جنة عالية , لا تسمع فيها لاغية . . .) ووصف النار : وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه ? نار حامية ! . . والأناقة في التعبير واضحة وضوح القصد في اللمسات الجمالية لمشاهد الكون وخوالج النفس .

والعدول أحيانا عن اللفظ المباشر إلى الكناية , وعن اللفظ القريب إلى الإشتقاق البعيد , لتحقيق التنغيم المقصود , مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب . .

وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره

وظلاله وموسيقاه ولمساته في الكون والنفس , والدنيا والآخرة ; واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرا في الحس والضمير .

(16/798)

وهي تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة التي يختلفون عليها , وهي أمر عظيم لا خفاء فيه , ولا شبهة ; ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته:(عم يتساءلون ? عن النبأ العظيم , الذي هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون !) . .

ومن ثم يعدل السياق عن المعنى في الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه , ويلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم وحولهم , في ذوات أنفسهم وفي الكون حولهم من أمر عظيم , يدل على ما وراءه ويوحي بما سيتلوه:(ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ? وخلقناكم أزواجا ? وجعلنا نومكم سباتا ? وجعلنا الليل لباسا , وجعلنا النهار معاشا ? وبنينا فوقكم سبعا شدادا ? وجعلنا سراجا وهاجا ? وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ? لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ?) .

ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم

الذي هم فيه مختلفون , والذي هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ما هو ? وكيف يكون: (إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا) . .

ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه: (إن جهنم كانت مرصادا , للطاغين مآبا , لابثين فيها أحقابا , لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا , وكذبوا بآياتنا كذابا ,وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) . .

ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقا: (إن للمتقين مفازا: حدائق وأعنابا , وكواعب أترابا , وكأسا دهاقا , لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا) .

(17/798)

وتختم السورة بإيقاع جليل في حقيقته وفي المشهد الذي يعرض فيه . وبإنذار وتذكير قبل أن يجيء اليوم الذي يكون فيه هذا المشهد الجليل: (رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا . يوم

ينظر المرء ما قدمت يداه , ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) . .

ذلك هو النبأ العظيم . الذي يتساءلون عنه . وذلك ما سيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3800 . 3803 ﴾

(18/798)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة النبأ

مكية وآياتها أربعون اية

بين يدي السورة

سورة عم مكية وتسمى [سورة النبأ] لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور ، ومحور السورة يدور حول إثبات عقيدة البعث " التى طالما انكرها المشركون ، وكذبوا بوقوعها ، وزعموا أن لا بعث ، ولا جزاء ولا حساب ! ! .

* ابتدات السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة ، والبعث والجزاء ، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة ، حتى صاروا فيه ما بين مصدق ومكذب [عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم . .] الآيات .

* ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين ، فان الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع ، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فنائه [الم نجعل الأرض مهادا ، والجبال اوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا] الآيات .

* ثم اعقبت ذلك بذكر البعث ، وحددت وقته وميعاده ، وهو يوم الفصل بين العباد ، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب [إن يوم الفصل كان ميقاتا ، يوم ينفخ في الصور فتأتون افواجا . .] الآيات .

* ثم تحدثت عن جهنم التي اعدها الله للكافرين ، وما فيها من الوان العذاب المهين [ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها احقابا] الآيات .

* وبعد الحديث عن الكافرين ، تحدثت عن المتقين ، وما اعد الله تعالى لهم من ضروب النعيم ، على طريقة القران في الجمع بين (الترهيب والترغيب) [إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة ، حيث يتمنى الكافر أن يكون ترابا فلا يحشر ولا يحاسب [إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 506 ﴾

(19/798)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة النبأ

عمّ : أي عن أىّ شىء ، يتساءلون : أي يسأل بعضهم بعضا ، والنبأ : الخبر الذي يعنى به ويهتم بشأنه : والمراد به خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين ، كلا : كلمة تعيد ردّ ما تقدم من الكلام ونفيه ، والمهاد : (بكسر الميم) والمهد فى نحو قوله : " الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً " : المكان الممهد المذلل ، والأوتاد :

واحدها وتد وهو ما يدق فى الأرض ليربط إليه الحبل الذي تشد به الخيمة ، والأزواج واحدها زوج ويطلق على الذكر والأنثى ، والسبات : (بضم السين) قطع الحركة لتحصيل الراحة ، واللباس : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه ، معاشا :

أي وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة ، سبعا شدادا : أي سبع سموات قوية محكمة لا فطور فيها ولا تصدّع ، والسراج : ما يضىء وينير ، والوهاج : المتلألئ ، والمراد به الشمس ، والمعصرات : السحائب والغيوم إذا أعصرت : أي حان وقت أن تعصر الماء فيسقط منها ، والثجاج : كثير الانصباب عظيم السيلان والمراد به المطر ، والثج :

سيلان دم الهدى ،

وفى الحديث " أحب العمل إلى اللّه العجّ والثّجّ "

والعج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : إراقة دم الهدى ، والحب : ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير ، والنبات : ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش ، والجنات : واحدها جنة ، وهى الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل ، والجنات الألفاف : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخياف ، وقيل واحدها لف (بكسر اللام وفتحها) وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشرف .

الخطاب : المخاطبة والمكالمة ، الروح : جبريل عليه الصلاة والسلام ، والمآرب :

(20/798)

المرجع ، والإنذار : الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ، والمرء الإنسان ذكرا كان أو أنثى ، ما قدمت يداه : أي ما صنعه فى حياته الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 18.4 ﴾ . باختصار .

(21/798)

وقال الفراء :

سورة (النبأ)

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ . . . عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ . . . ﴾ .

يقال: عن أى شىء يتساءلون ؟ يعنى: قريشا ، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: يتساءلون عن النبأ العظيم ، يعنى: القرآن . ويقال: عم يتحدث به قريش فى القرآن . ثم أجابَ ، فصارت: عم يتساءلون ، كأنها [فى معنى]: لأى شىء يتساءلون عن القرآن ، ثم إنه أخبر فقال: ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ . . . ﴾ بين مصدّق ومكذّب ، فذلك اختلافهم . واجتمعت القراء على الياء فى قوله: ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ . . . ﴾ . وقرأ الحسن وحده: "كلا ستعلمون" وهو صواب . وهو مثل قوله ـ وإن لم يكن قبله قول ـ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ ﴾ وسَيُغْلَبُون .

وقوله: ﴿ ثَجَّاجاً ﴾ كالعَزَالِى:

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً . . . ﴾ .

مثل: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ ﴿ وإذا السماءُ فُرِجَتْ ﴾ معناه واحد ، والله أعلم . بذلك جاء التفسير .

﴿ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾

[/١] وقوله عز وجل: ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا . . . ﴾ .

حُدِّثت عن الأعمش أنه قال: بلغنا عن علقمة أنه قرأ "لَبِثين" وهى قراءة أصحاب عبد الله. والناس بعد يقرءون: (لابثين) ، وهو أجود الوجهين؛ لأن (لابثين) إذا كانت فى موضع تقع فتنصب كانت بالألف، مثل: الطامع، والباخل عن قليل. واللّبِثُ: البطىء، وهو جائز، كما يقال: رجل طمِعٌ وطامع. ولو قلت: هذا طمِعٌ فيما قبلك كان جائزاً، وقال لبيد:

أوْ مِسْحَلٌ عَمِلٌ عضادةَ سَمْحَجٍ * بسَرَاتِها نَدَبٌ له وكُلومُ

(22/798)

فأوقع عمل على العضادة، ولو كانت عاملا كان أبين فى العربية، وكذلك إذا قلت للرجل: ضرّابٌ، وضروبٌ فلا توقعنهما على شىء لأنهما مدح، فإذا احتاج الشاعر إلى إيقاعهما فَعَل، أنشدنى بعضهم:

* وبالفأسِ ضرَّابٌ رءوس الكرانفِ *

واحدها: كِرنافة، وهى أصول السقف. ويقال: الحُقْبُ ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة

وستون يوما ، اليوم منها ألف سنة من عدد أهل الدنيا .

﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال]: حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: حدثنى حِبَّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: لا يذوقون فيها برد الشراب ولا الشراب ، وقال بعضهم: لا يذوقون فيها برداً ، يريد : نوما ، قال الفراء : وإن النوم ليبردُ صاحبه . وإن العطشانَ لينامَ ؛ فيبرد بالنوم .

﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً . . . ﴾ .

وفقا لأعمالهم .

﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً . . . ﴾ .

خففها على بن أبى طالب رحمه الله: "كِذَابا" ، وثقلها عاصم والأعمش وأهل المدينة والحسن البصرى .

وهى لغة يمانية فصيحة يقولون: كذبت به كِذَّابا ، وخرّقت القميص خِرّاقا ، وكل فعّلت فمصدره فِعّال فى لغتهم مشدد ، قال لى أعرابى منهم [/ب]: على المروة: آلحلقُ أحب

إليك أم القِصَّار ؟ يستفتينى .

وأنشدنى بعض بنى كلاب:

لقدْ طالَ ما ثَبَّطْتَنِى عنْ صَحابتِى * وعن حِوَجٍ قِضَاؤها من شِفائيا

وكان الكسائى يخفف: ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوا وَلاَ كِذَاباً ﴾ ؛ لأنها ليست بمقيدة بفعل يصيرها مصدرا . ويشدّد: ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً . . . ﴾ ؛ لأن كذبوا يقيّد الكذِابَ بالمصدر ، والذى قال حَسَن . ومعناه: لا يسمعون فيها لغوا . يقول: باطلاً ، ولا كذابا لا يكذب بعضهم بعضا .

(23/798)

﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَانِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . . . ﴾ .

يخفض فى لفظ الإعراب ، ويرفع ، وكذلك: ﴿ الرَّحْمَانِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً . . . ﴾ يرفع "الرحمنُ" ويخفض فى الإعراب . والرفع فيه أكثر . قال والفراء يخفض: (ربِّ) ، ويرفع "الرحمنُ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 227 . 229 ﴾

(24/798)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة النبأ

(نومكم سباتاً) [9] قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم . وابن الراوندي قال: بأن السبات النوم ، فكأنه قيل: وجعلنا نومكم نوماً . والسبات/ليس من أسماء النوم ، وإنما هو من صفاته ، كما قلنا : إنه قطع الأعمال ، كما يقال: يوم السبت إذ كانوا يقطعون فيه العمل . ويقال لنوع من النعال الحسنة التخصير والتقطيع: سبت على وجه الوصف لا الاسم ، كما قال الشاعر: 1371- [فليت] قلوصي حليت من مجاشع إلى جعفر في داره وابن جعفر 1372- إلى معشر لا يخصفون نعالهم ولا يلبسون السبت ما لم يخصر . فهذا واحد . [ويجوز] أيضاً أن يكون أصل هذه الكلمة التمدد ، كما [يقال]: سبتت المرأة شعرها ، إذا مدت عقيصتها المفتولة . ويقال: الليل والنهار أبناء سبات ، لامتداد اختلافهما في العالم ، كما قال ابن أحمر: 1373- وكنا وهم كابني سبات تفرقا سوى ثم كانا منجداً وتهاميا 1374- فألقى التهامي [منهما] بلطاته [وأحلط] هذا لا [أريم] مكانيا . فمعنى السبات على هذا: النوم الممتد الغرق ، وكان وجه الامتنان بأن لم يجعل نومنا تقويماً وعزاراً . وهذا الجواب أولى ، لأنه يقال: سبت الرجل بمعنى: قطع العمل واستراح ، كما يقال: سبت إذا نام نوماً طويلاً . (من المعصرات) [14] السحاب التي دنت أن تمطر ،

كالمعصرة التي دنت من الحيض . قال أبو النجم: 1375- جارية بسفوان دارها

1376- تمشي الهوينا مائلاً خمارها

1377- قد أعصرت أو قد دنا إعصارها . (ألفافاً) [16] مجتمعة بعضها إلى بعض ، واللف الشجر الملتف بالثمر . (ميقاتاً) [17] منتهى الأجل المضروب . وقيل: ميعاد البعث المشهود . (مرصاداً) [21] مفعال من الرصد ، وهو [الارتقاب] . وقيل: الحبس .

(لا يذوقون فيها برداً) [24] قيل: نوماً . وقيل: برد الماء/والهواء . (جزاءً وفاقاً) [26] جارياً على وفاق أعمالهم . (كذاباً) [28] يقال: كذب يكذب كذباً وكذاباً ، وكذب كذاباً ، ومثله: كلم كلاماً ، وقضى قضاءً . (مفازاً) [31]

(25/798)

مواضع الفوز والنجاة . (دهاقاً) [34] ملاءً ولاءً . (عطاءً حساباً) [36] كافياً . وقيل: كثيراً ، قالت امرأة من بني قشير: 1378- [و]نقفي وليد الحي إن كان جائعاً ونحسبه إن كان ليس بجائع .

[تمت سورة النبأ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1612.1617 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (النبأ)

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾

قال ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ وواحدها "اللِّفُّ" .

﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾

وقال ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ يقول "وافَقَ أَهْمالَهُم وِفاقا" كما تقول: "قاتَل قِتالا" .

﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾

وقال ﴿ وَكَذَّبُواْ [181 ب] بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ لأن فعله على أربعة أراد ان يجعله مثل باب "أَفعَلْتُ" "إِفْعالاً" فقال ﴿ كِذَّاباً ﴾ فجعله على عدد مصدره . وعلى هذا القياس تقول: "قاتل" "قِيتالا" وهو من كلام العرب .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾

وقال ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ فنصب ﴿ كلَّ ﴾ وقد شغل الفعل بالهاء لأن ما قبله قد عمل فيه الفعل فأجراه عليه وأعمل فيه فعلا مضمرا .

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾

وقال ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فان شئت جلعت: "ينظر أيّ شيء قدّمت يداه" وتكون صفته "قدمت" وقال بعضهم: "انما هو" ينظر الى ما قدمت يداه فحذف "إلى" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 564 ﴾

(27/798)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة النبأ «1»

1 - و2 - عَمَّ يَتَساءَلُونَ؟ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ؟ يقال : القرآن .

ويقال : القيامة .

6 - مِهاداً أي فراشا .

7 - وَالْجِبالَ أَوْتاداً أي أوتادا للأرض .

8 - وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً أي أصنافا وأضدادا .

9 - وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً أي راحة لأبدانكم . وأصل «السّبت» : التمدّد .

10 - وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً أي سترا لكم.

13 - وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً أي وقّادا، يعني: الشمس.

14 - وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ يعني: السحاب.

يقال: «شبهت بمعاصير الجواري. والمعصر: الجارية التي دنت من الحيض».

ويقال: «هن ذوات الأعاصير، أي الرياح».

---

(1) هي مكية.

(28/798)

ماءً ثَجَّاجاً أي سيّالا.

16 - وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً أي ملتفة. قال ابو عبيدة: واحدها:

«لفّ».

ويقال: هو جمع الجمع، كأن واحده: «ألفّ» و«لفّا»، وجمعه:

«لفّ»، وجمع الجمع: «ألفاف».

23 - لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً يقال: «الحقب: ثمانون سنة. وليس هذا مما يدلّ على غاية، كما

يظن بعض الناس. وإنما يدلّ على الغاية التوقيت:

خمسة احقاب او عشرة. وأراد: أنهم يلبثون فيها أحقابا، كلّما مضي حقب تبعه حقب آخر».

24 - لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً . . . أي نوما. قال الشاعر:

وإن شئت حرمّت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

و«النّقاخ»: الماء، و«البرد»: النوم.

ويقال: «لا يذوقون فيها برد الشراب».

25 - إِلَّا حَمِيماً وهو: الماء الحار، وَغَسَّاقاً أي صديدا. وقد تقدم ذكره.

26 - جَزاءً وِفاقاً أي وفاقا لأعمالهم.

27 - إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِسابا أي لا يخافون.

31 - مَفازاً: موضع الفوز.

32 - حَدائِقَ: بساتين نخل. واحدها: «حديقة».

33 - وكَواعِبَ: نساء قد كعبت ثديهن، أتْراباً. على سن واحد.

وَكَأْساً دِهاقاً أي مشرعة ملأى.

36 - عَطاءً حِساباً أي كثيرا. يقال: أعطيت فلانا عطاء حسابا، وأحسبت فلانا، أي أكثرت له. قال الشاعر:

ونقفي وليد الحي إن كان جائعا ونحسبه إن كان ليس بجائع

ونرى أصل هذا: ان يعطيه حتى يقول: حسبي.

38 - يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا أي صفوفا. ويقال ليوم [العيد: يوم] الصف. وقال في موضع آخر: وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [سورة الفجر آية: 22]، فهذا يدل على الصّفوف.

39 - فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً أي مرجعا إلى اللّه [بالعمل الصالح]: كأنه إذا عمل خيرا ردّه إلى اللّه، وإذا عمل شرا باعده منه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 434.436﴾

(30/798)

وقال الغزنوى:

سورة النبأ

9 نَوْمَكُمْ سُباتاً : قطعا لأعمالكم «1» ، ويوم السّبت لقطعهم العمل فيه .

والسّبت : نوع من النعال الحسنة التحضير والتقطيع «2» .

وقيل «السّبات» : النّوم الممتدّ ، سبتت شعرها : مددت عقيصتها المفتولة «3» .

---

(1) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 272 ، وتفسير الماوردي : 4/ 382 ، والمفردات للراغب :

220 ، واللسان : 2/ 37 (سبت) .

(2) اللسان : 2/ 36 (سبت) .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 508 ، وتفسير المشكل لمكي : 371 ، وتفسير القرطبي :

19/ 171 .

(31/798)

---

14 الْمُعْصِراتِ : السّحائب التي دنت أن تمطر «1» ، كالمعصرة التي دنت من الحيض .

16 أَلْفافاً : مجتمعة بعضها إلى بعض ، جنّة لفّاء ، وجمعها «لفّ» ، ثم «ألفاف» «2» .

وفي الحديث «3» : «كان عمر وعثمان وابن عمر رضي اللّه عنهم لفا» ، أي : حزبا .

21 مِرْصاداً : مفعال من الرّصد «4» .

24 بَرْداً : نوما «5» ، يقال : منع البرد البرد «6» .

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 508 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 5 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 383 عن سفيان ، والربيع بن أنس .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 272 ، والمفردات للراغب : 336 ، واللسان : 4/ 577 (عصر) .

(2) ف «ألفاف» جمع الجمع كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 282 .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 509 ، وتفسير الطبري : 30/ 7 ، وتفسير البغوي :

4/ 437 ، وتفسير القرطبي : 19/ 174 .

(3) أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث : 2/ 37 عن عثمان بن نائل عن أبيه بلفظ : «سافرت مع مولاي عثمان بن عفان وعمر في حج أو عمرة ، فكان عمر وعثمان وابن عمر لفا . . . » .

ينظر هذا الأثر أيضا في الفائق : 3/ 323 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 327 ، والنهاية : 4/ 621 .

(4) الجمهرة لابن دريد : 2/ 629 ، وتفسير البغوي : 4/ 438 ، وزاد المسير : 9/ 7 ، وتفسير القرطبي : 19/ 177 .

(5) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 228 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 509 ، والطبري في تفسيره : 30/ 12 .

وقيل : إنه بلغة هذيل كما في كتاب اللغات الواردة في القرآن : 308 ، والبحر المحيط : 8/ 414 .

ونقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 385 عن مجاهد ، والسدي ، وأبي عبيدة .

(6) أي : أذهب البرد النوم كما في تفسير البغوي : 4/ 438 ، وتفسير القرطبي : 19/ 180 ، والبحر المحيط : 8/ 414 .

(32/798)

وقيل «1» : برد الماء والهواء .

26 جَزاءً وِفاقاً : جازيا على وفاق أعمالهم .

28 كِذَّاباً : كذب يكذب كذبا وكذابا ، وكذّب كذّابا ، ومثله : كلّم كلّاما وقضى قضاء .

وقال أعرابي : القصّار أفضل أم الحلق «2» ؟ .

31 مَفازاً : موضع الفوز «3» .

34 دِهاقاً : ملاء ولاء «4» .

36 عَطاءً حِساباً : كافيا «5» .

38 الرُّوحُ : ملك عظيم يقوم وحده صفا ويقوم الملائكة صفا «6» . انتهى انتهى . اهـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 859 . 861 ﴾

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 385 ، وقال : «و هو قول كثير من المفسرين» .

(2) أورده الفراء في معانيه : 3/ 229 ، على أنه هو المسؤول .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 510 ، وتفسير الماوردي : 4/ 386 ،

والمفردات للراغب :

387 . [. . . . .]

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 283 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 510 ،

وتفسير الطبري : 30/ 18 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 275 .

(5) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 283 ، وذكره الزجاج في معانيه : 5/

275 ، ومكي في تفسير المشكل : 372 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 387 عن

الكلبي .

(6) ورد نحوه في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 22 عن ابن عباس رضي اللّه

عنهما .

وأورد الطبري – رحمه اللّه – أقوالا أخرى في المراد ب – «الروح» – ثم قال : «و الصواب من القول أن يقال : إن اللّه تعالى ذكره أخبر أنّ خلقه «لا يملكون منه خطابا ، يوم يقوم الروح» – ، والروح : خلق من خلقه ، وجائز أن يكون بعض هذه الأشياء التي ذكرت واللّه أعلم أيّ ذلك هو ، ولا خبر بشيء من ذلك أنه المعنيّ به دون غيره يجب التسليم له ، ولا حجة تدل عليه ، وغير ضائر الجهل به» .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 334 : «و الأشبه – واللّه أعلم – أنهم بنو آدم» .

(33/798)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة النبأ

عدد 30 – 80 – 78

نزلت بمكة بعد سورة المعارج وهي أربعون آية ، ومئة وثلاث وسبعون كلمة ، وتسعمئة وسبعون حرفا ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا بما ختمت به ، ومثلها في عدد الآي سورة القيامة ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "عَمَّ" عن أي شيء "يَتَساءَلُونَ" 1 أهل مكة وأصلها (عن) الجارة و(ما) الاستفهامية أدغمت في بعضها وقد أعيد الضمير إلى الكفار مع عدم سبق ذكر لهم استغناء بحضورهم حسا ، وقد ذكرنا غير مرة جواز عود الضمير إلى غير مذكور إذا كان مشهورا متعارفا أو معلوما بالقرينة كما هنا ، وذلك أن حضرة الرسول دعاهم إلى التوحيد وحذرهم عاقبة الكفر والشرك وهول الآخرة ، فصاروا يتساءلون بينهم عن يوم الآخرة الذي عظمه لهم أهو واقع أم لا ، وما هو ذلك اليوم المهول ، فأنزل اللّه تعالى هذه السورة وبين تساؤلهم "عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ" 2 الخبر الجليل "الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ" 3 بشأنه وماهيته ، مع أنهم لم يعدّدوا له شيئا لهذا بدأهم بأداة الردع والزجر بقوله "كَلَّا" لا حاجة للاختلاف فيه والسؤال عنه ، لأنهم لم يصدقوا به ، ثم هددهم بقوله "سَيَعْلَمُونَ" 4 ذلك حقا ويرونه بأم أعينهم بما فيه من أهوال وعذاب وكرر الزجر ، فقال "ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ" 5 كنه ما يتساءلون عنه وكيفيته .

وأعلم أن اللّه تعالى بدأ هذه السورة بما يضاهي السورة قبلها ويناسب آخرها ، ولهذا

ذكرهم بشيء من عجائب قدرته وبدائع صنعه على طريق الاستفهام التقريري ليستدلوا به على ذلك فقال "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً" 6 لتستقروا عليها أيها الناس وتنتفعوا بها "وَالْجِبالَ أَوْتاداً" 7 لها ورواسي لئلا تميد بكم فتقلق راحتكم "وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً" 8 ذكرا وأنثى لتأنسوا بينكم "وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً" 9 لاستكمال راحتكم "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً" 10 لستركم عن الأنظار بظلمة إذا أردتم هربا أو استخفاء لما لا يجوز الاطلاع عليه حفظا لكرامتكم، وهذا من المجاز إذ شبه الليل بالغطاء بجامع الستر في كل "وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً" 11 لتبتغوا فيه من فضل ربكم "وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً" 12 محكمات قويات لا تتأثر على مدى الدهور والأعوام لمنافعكم.

(35/798)

وأعلم أن هذه الآية والآيات المبينة في الآية 17 من سورة المؤمنين المارة تدل دلالة صريحة لا تحتمل التأويل على أن السماء بناء، وأنها سبع واحدة فوق الأخرى، ألا فليتنبه الجاحدون "وَجَعَلْنا" في الرابعة من هذه السبع "سِراجاً وَهَّاجاً" 13 وقّادا إذ جعل جل شأنه في الشمس حرارة ونورا، والوهج جامع لهما لإنضاج أثماركم وزروعكم "وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ" الرياح التي تعصر السحاب فتمطره "ماءً ثَجَّاجاً" 14 درّارا بقوة صبّابا

"لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا" لكم "وَنَباتاً" 15 لأنعامكم "وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً" 16 ملتفة بعضها على بعض لكثافة أشجارها لتتنزهوا فيها وتفكهوا بأثمارها فانظروا هل تنكرون شيئا من هذه وهل يقدر عليها أو على شيء منها ابتداء إلا اللّه ، ومن يقدر على ابتدائه ألا يقدر على إعادته بعد إتلافه ؟ بلى وهو على كل شيء قدير ، والقادر على هذا ألا يقدر على إحياء الموتى ؟ بلى ، إذ بدأ خلقهم ابتداعا على غير مثال ، فإحياؤهم على ما كانوا عليه أهون عليه وله المثل الأعلى ، ولهذا قال تعالى مؤكدا لهم ذلك "إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ" الذي تسألون عنه "كانَ مِيقاتاً" 17 لما وعدناكم به من إثابة المحسن وعقاب المسيء جزاء لكل عمل بما يناسبه ، وسيكون هذا اليوم الذي يقع فيه الحساب والثواب والعقاب "يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ" النفخة الأخيرة "فَتَأْتُونَ أَفْواجاً" 18 زمرا وجماعات لا بالواحد والاثنين ، ثائرين من مدافنكم ومحل وجودكم "وَفُتِحَتِ السَّماءُ"

في ذلك اليوم "فَكانَتْ أَبْواباً" 19 وطرقا ومخارج وفجاجا بخلاف حالتها اليوم "وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً" 20 في عين الناظر إذ تقلع من مقارها فتكون هباء منثورا

"إِنَّ جَهَنَّمَ" التي أعددناها للكافرين بنا "كَانَتْ مِرْصَاداً" 21 للناس وممرا لهم فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار ، وإذ ذاك ترصد من هو من أهلها فتصيده وتوقعه فيها وتترك من هو من أهل الجنة فيعبرها ، فهي كالمكان الذي يرصد الراصد فيه لعدوه ، وقد شبهها اللّه بذلك بجامع الانتظار في كل ، لأن الراصد ينتظر الصيد أو العدو ليقتله ، وجهنم تنتظر أهلها لتحرقهم ، وذلك أن الصراط مضروب على متن جهنم ، وقد جعل اللّه فيه رصدا لكل من يمر به ، فإذا كان من أهل الجنة تركه وشأنه حتى يصل إليها ، وإن كان من أهل النار أمسك به فألقاه فيها ، ولهذا قال تعالى "لِلطَّاغِينَ مَآباً" 22 مثوّى يرجعون إليها رجوع إقامة لا يخرجون منها أبدا لقوله تعالى "لابِثِينَ فِيها أَحْقَاباً" 23 سنين كثيرة ، والحقب ثمانون سنة كلما نقد حقب تلاه الآخر ، فلا تتناهى وإن كثرت بل يبقون فيها دائما لقوله تعالى (خالِدِينَ فِيها أَبَداً) الآية 20 من سورة السجدة المارة ، فراجعها تعلم الآيات الدالة على تخليد الكفرة ، وأنه ليس لهم مدة مخصوصة "لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً" نوما والعرب تسمي النوم بردا وهو لغة هذيل لأنه يبرّد سورة العطش ، قال الشاعر :

فلو شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

راجع الآية 99 من سورة المؤمنين المارة تعلم ذلك "وَلا شَراباً" 24 لتخفيف حرارة ما هم فيه ، قال ابن عباس هو الشراب البارد ، وأنشد عليه :

أمانيّ من سعدى حسان كأنما سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

هذا وما قاله مقاتل من أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى فيما يأتي (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً) قول عاطل لا ينبغي أن يصدر من مثل مقاتل ولعله مدسوس عليه "إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً" 25 الحميم الصفر المذاب والماء الشديد الغليان ، والغسّاق السائل من صديد أهل جهنم وقال ابن عباس وأبو العاليه : الغساق هو الزمهرير الممزّق لشدة برده أحشاء شاربه ، والاستثناء منقطع لأنه من غير جنس الشراب

النافع ، وهذا الجزاء الذي يجازون به "جَزَاءً وِفَاقاً" 26 لأعمالهم ، وإنما ينالون هذا الجزاء القاصي الذي لا أعظم منه لأنهم يشركون وينكرون البعث أيضا ولا ذنب أعظم من هذين ، ولهذا أشار اللّه عنه بقوله "إِنَّهُمْ كَانُوا" في دنياهم "لَا يَرْجُونَ حِساباً" 27 على أعمالهم القبيحة "وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً" 28 مصدر كذب بلغة اليمن وبلغة غيرهم التكذيب ، وبغير التشديد التكثير على أن هذه الأمور الثلاثة التوحيد والنبوة والمعاد لم تختلف فيها أمة كتابية قطعا ، ومن أنكرها فليس من أهل الكتاب بل هو كافر لأن جميع الرسل بلغت أممها فيها ، واعلم أن القرآن العظيم لا يتصدى لذكر أحدها إلا وأتبعها بذكر الآخرين ، قال تعالى "وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً" 29 أثبتناه في اللوح المحفوظ فلا سبيل

لإنكاره لأنها مدونة فيه وعند الحفظة كما مر في الآية 23 من سورة الإسراء ج 1 ، وعند ما يستغيثون مما يعاينون من الآلام يقال لهم "فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً" 30 وهذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ، أجارنا اللّه منها .

(38/798)

ثم طفق يذكر ما للمتقين عنده فقال "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً" 31 ونجاة من العذاب والهوان والخوف بما أسلفوه من تصديقهم الرسل واعترافهم بالتوحيد والبعث وتفرعاتها ، لهذا فإن لهم جزاء أعمالهم هذه "حَدائِقَ وَأَعْناباً" 32 خص الأعناب مع أنها داخلة في الحدائق إشعارا بتفضيلها على غيرها ، لأنها من المدّخرة المغذية ويؤذن بذلك التنكير "وَكَواعِبَ أَتْراباً" 33 لهم أيضا في الجنة ، أي جواري مستويات في السن ، ويقال للبنت كاعب إذا ظهر ثديها وارتفع ارتفاع الكعب ، وهذا في إطلاق الجزء على الكل "وَكَأْساً دِهاقاً" 34 مملوءة مترعة "لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً" 35 فلا يكذب بعضهم بعضا ولا يكذب بعضهم على بعض كما هو الحال في شربة خمر الدنيا ، والكذاب يأتي بمعنى الكذب وقد يخفف وعليه قول الأعشى :

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

وهو شائع بمعنى التكذيب ، راجع الآية 23 من سورة الطور المارة تجد معنى اللغو وما يتعلق به .

واعلم أن أهل الجنة جعلنا اللّه منهم يعطون ذلك العطاء

(39/798)

"جَزاءً مِنْ رَبِّكَ" يا سيد الرسل على أعمالهم الصالحة فضلا منه "عَطاءً حِساباً" 36 كثيرا كافيا مصدر حسب أقيم مقام الوصف لعطاء ثم أبدل من لفظ ربك "رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ" بالكسر صفة للرّب الذي هو بدل من ربك ، وإذا قرىء رب السموات بالرفع يقرأ أيضا بالرفع على أنه خبر له باعتباره مبتدأ والكل جائز "لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً" 37 بطلب الشفاعة وغيرها ، بل هو إذا شاء يأذن بها "يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ" صفّا "وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا" والروح هو جبريل عليه السلام ويطلق على نوع من الملائكة مشرقين مقربين وعلى ملك ما خلق اللّه تعالى بعد العرش أعظم منه وعلى خلق آخر ، واللّه أعلم بمراده به ، ولهذا فإن اليهود سألت الرسول بواسطة قريش عنه ، حتى إذا قال هذا قالوا غيره كما أشرنا إليه في الآية 85 من الإسراء في ج 1 ، وقد أفحمهم بقوله (قل الروح من أمر ربي) فهو صادق على الكل ، راجع الآية 8 من سورة الكهف المارة .

وأعلم أن هؤلاء الملائكة الكرام على ما هم عليه من الإجلال والتعظيم "لا يَتَكَلَّمُونَ" حال اصطفافهم وغيره إجلالا وتعظيما لهيبة ذي الجلال والعظمة "إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ" بالكلام منهم ، وكذلك الأنبياء فمن دونهم "وَقالَ صَوابا" 38 في دنياه وعمل بما قال "ذِلكَ" الواضح فيه أحوال أهل النار وأهل الجنة هو "الْيَوْمُ الْحَقُّ" يوم النبأ العظيم الذي يتساءل عنه الكفرة "فَمَنْ شاءَ" أن يأمن من هوله ويفوز بنعيمه "اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً" 39 يأوي إليه منه فلك طرق طاعته وتقرب بإيمانه وتصديقه "إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ" أيها الكفّار "عَذاباً" مهولا فظيعا وستجدونه "قَرِيباً" ما بينكم وبينه إلا الموت وهو أقرب شيء لكم إذ يأتيكم على غرة ثم تبعثون إلى ربكم "يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ"

(40/798)

محضرا من خير أو شر مثبتا في صحيفته ومشاهدا بأم عينه ، راجع الآية 30 من سورة آل عمران ج 3 تجد تفصيل هذا "وَيَقُولُ الْكافِرُ" بعد الحساب ومشاهدة العذاب "يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً"

40 لم أخلق في الدنيا ولم أو هذه الأهوال .

ولا يقال هنا وضع الظاهر موضع المضمر ، لأن المرء عام والكافر خاص ، قال عبد اللّه بن عمر : إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم وحشر الدواب

والبهائم والوحوش وغيرها ، ثم يحصل القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من القصاص قيل لها كوني ترابا فعند ذلك يتمنى الكافر أن يكون ترابا مثلها ليتخلص من العذاب المعدّ له ، وما هو بنافعه ، ويتمنى أن يعود للدنيا ليعمل صالحا ولا يجاب ، ويتمنى أن يتوب ويعترف بما كذب بالدنيا ولا يرد عليه ، فتلزمه الحسرة وخاصة عند ما يشاهد فوز المؤمنين وما صاروا إليه من النعيم ، ثم يقع اللوم بينهم وبين رؤسائهم وأوثانهم ولا تنفعهم المحاججة والمخاصمة ، فيزجون في جهنم أفواجا أفواجا وهم يتصايحون ولا محيص لهم عنها ، ويستغيثون ولا مجيب ولا سميع إلا الإخساء والإذلال .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وأتباعه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 412.417 ﴾

(41/798)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة النبأ

مكية

عم يتساءلون كاف ثم قال تعالى عن النبأ العظيم وهو شبيه بقوله لمن الملك اليوم ثم رد على نفسه فقال لله الواحد القهار مختلفون حسن كلا لا يوقف هنا عليه ثم كلا سيعلمون تام وقال أبو عمرو كاف أوتاد جائز وكذا سباتا ومعاشا وجنات ألفافا تام وكذا سرابا أحقابا كاف وأجاز قوم الوقف على ولا شرابا ويبتدئ إلا حميم بمعنى لكن حميما ولا أستحسنه وفاقا كاف وكذا حسابا كذابا تام وكذا عذابا دهاقا كاف حسابا حسن وكذا وما بينهما وقال أبو عمرو فيهما كاف وهذا لمن رفع خبرا مبتدأ محذوف ورفع الرحمن مبتدأ أما من جرهما فلا يقف قبلهما لأنهما بدلان من ربك ومن رفع الرحمن بدلا من رب السموات لم يقف على وما بينهما خطابا كاف صوابا تام وكذا مآبا ولا أنكر على وقف على اليوم الحق قريبا صالح آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة النبأ

مكية إحدى وأربعون آيةً في البصري وأربعون آيةً في عدّ الباقين اختلافهم في عذاباً قريباً عدها البصري ، كلماتها مائةٌ وثلاثٌ وسبعون كلمةً وحروفها سبعمائة وسبعون حرفاً .

عمَّ يتساءلون (حسن) عند بعضهم ثم قال تعالى عن النبأ العظيم فقوله عن النبأ العظيم مفعول يتساءلون وعمَّ متعلق بيتساءلون فالاستفهام للتعجب وهذا كقوله لمن الملك اليوم ثمَّ ردَّ على نفسه فقال للّه الواحد القهار فهو كشيء يبهم ثم يفسر ففي هذا الوجه جعل عن الأولى صفةً للفعل الظاهر والثانية صلةً لفعل مضمر والتقدير عن أيِّ شيء يتساءلون أعن النبأ العظيم فمن هذا الوجه حسن الوقف على يتساءلون ثم يبتدئ عن النبأ العظيم وقيل الاستفهام لا يكاد يضمر إذا لم يأت بعده أم وليس في الآية ذكر أم كما ترى وليس بوقف إن جعلت عن الثانية توكيد للأولى وترجمةً وبياناً لعمَّ وكان وقفة مختلفون وهو الكافي في الوجهين ووقف أبو حاتم على كلاَّ وجعلها ردّاً للنفي في اختلافهم في النبأ وهل هو إنكارهم البعث بعد الموت أو إنكارهم القرآن قال يحيى بن نصير النحوي كلاَّ ردٌّ أي لا اختلاف قال بعض أهل التفسير صار الناس فيه رجلين مصدّقاً ومكذباً وأما الموت فأقروا به كلُّهم لمعاينتهم إياه وأما القرآن فقال الفراء عن النبأ العظيم يعني القرآن الذي هم فيه مختلفون بين

مصدِّقٍ ومكذب فذلك اختلافهم فعلى هذا صح الوقف على كلا أي لا اختلاف فيه والمشهور أنَّ الكلام تمَّ على مختلفون ولا يوقف على كلا في الموضعين لأنَّهما بمعنى إلاَّ التي بمعنى التنبيه فيبتدئ بهما والثاني توكيد في الوعيد والمعنى ألا سيعلمون ثمَّ ألا سيعلمون ما يحل بهم يعني بهم أهل مكة وهو وعيد وتهديد منه تعالى لهم .

سيعلمون الثاني (تام) والوقف على أوتاداً وأزواجاً وسباتاً ومعاشاً وشداداً ووهاجاً كلها وقوف حسان

(43/798)

ثجاجاً ليس بوقف لأنَّ بعده لام العلة ومعنى ثجاجاً أي مثجوجاً أي مصبوباً ومنه الحديث أفضل الحج العج والثج فالعج رفع الصوت بالتلبية والثج نحر الهدي ولا يوقف على نباتاً لعطف ما بعده على ما قبله

ألفافاً (تام)

ميقاتاً ليس بوقف لأنَّ يوم بدل من يوم الفصل أو عطف بيان وإن نصب بأعني مقداراً جاز وقرئ في الصور بفتح الواو

أفواجاً (حسن) ومثله أبواباً وكذا سراحاً

مآباً ليس بوقف لأنَّ لابثين حال من الضمير المستتر في الطَّاغين وهي حال مقدرة

أحقاباً (كاف) وأحقاباً جمع حقب كقفل وأقفال وقيل مثلث الحاء أي دهوراً لا انقطاع لها

وقيل الحقب ثمانون عاماً قال أبو جعفر سمعت علي ابن سليمان يقول سألنا أبو العباس

محمد بن يزيد عن قوله لابثين فيها أحقاباً ما هذا التحديد وهم لا يخرجون من النار أبداً وله

منذ سألنا ثلاثون سنة وأنا نظر في الكتب فما صح جواب فيها إلاَّ أن يكون هذا للموحدين

الذين يدخلون النار بذنوبهم ثم يخرجون منها نقله النكزاوي

ولا شراباً تجاوزه أولى

غساقاً (حسن) إن نصب جزاء بفعل مقدر وليس بوقف ان جعل صفة لما قبله

وفاقاً (كاف) ومثله حساباً

كذاباً (تام) اتفق جميع القراء على قراءة كذاباً بكسر الكاف وتشديد الذال ولم يقرأ أحد

من السبعة ولا من العشرة بتخفيف الذال في هذا الموضع

أحصيناه كتابا (جائز) فذوقوا فلن نزيدكم إلاَّ عذابا في الحديث عن النبي صلى الله عليه

وسلم هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار

إلاَّ عذاباً (تام) اتفق علماء الرسم العثماني على حذف الألف التي بين الذال والباء من

كذابا الثانية دون الأولى كذا في مصحف الإمام ولا وقف من قوله إنَّ للمتقين إلى قوله دهاقاً

فلا يوقف على مفازاً لأنَّ حدائق بدل من مفازاً بدل اشتمال أو بدل كل من كل ولا يوقف

على وأعناباً لأنَّ ما بعده معطوف عليه ولا يوقف على أتراباً

دهاقاً (كاف) والدهاق المملوءة قال علي كرّم الله وجهه

(44/798)

دونكها مترعة دهاقاً كأس ذعاف ملئت ذعاقاً

والذعاق السم القاتل

ولا كذاباً (جائز) على القراءتين قرأ العامة كذا بتشديد الذال وقرأ الكسائي بالتخفيف وقرأ عمر بن عبد العزيز كُذاباً بضم الكاف وتشديد الذال جمع كاذب لأنَّ من أمثلة جمع الكثرة فعالاً في وصف صحيح اللام على فاعل نحو صائم وصوّام وقائم وقوّام يقال رجل كذاب مبالغة في الكذاب

عطاءً حساباً (حسن) يبنى الوقف على حساباً على اختلاف القراء في رب فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفع رب والرحمن وقرأ ابن عامر وعاصم بخفضهما وقرأ الأخوان بخفض الأول ورفع الثاني فرفعهما خبر مبتدأ محذوف أو رب مبتدأ والرحمن خبره ولا يملكون خبر ثان مستأنف أو رب مبتدأ والرحمن نعت ولا يملكون خبر رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبره والجملة خبر الأول وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه وأما

جرهما فعلى البدل أو البيان فمن قرأ برفعهما فإن رفع الأول بالابتداء والرحمن خبره كان الوقف على الرحمن كافياً وإن رفع الرحمن نعتاً لرب أو بياناً كان الوقف على الرحمن كذلك ولا يوقف على وما بينهما ومن قرأ بخفض الأَّول ورفع الثاني لا يوقف على حساباً بل على وما بينهما وإن رفع الرحمن بالابتداء وما بعده الخبر كان الوقف على وما بينهما تاماً وإن رفع الرحمن خبر مبتدأ محذوف كان كافياً ومن قرأ بخفضهما وقف على الرحمن ولا يوقف على حساباً لأَّنهما بدلان من ربك أو بيان له وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولِلّه الحمد

خطاباً (كاف) إن علقت يوم بقوله لا يتكلمون ومن أذن بدل من واو لا يتكلمون

صواباً (كاف) ويجوز الواقف على صفا لمن وصل يوم يقوم بما قبله والمعنى لا يقدر أحد أن يخاطب أحداً في شأن الشفاعة خوفاً وإجلالاً إلاَّ من أذن له الرحمن وقال صواباً

ذلك يوم الحق (جائز)

مآباً (كاف)

(45/798)

قريباً (جائز) ورأس آية عند البصري ولم يعدها الكوفي آية فمن عدها آية جعل يوم منصوباً بمقدور ومن لم يعدها جعل يوم ظرف العذاب

يداه (حسن) عند أبي حاتم على استئناف ما بعده وخولف لأنَّ قوله ويقول معطوف على ينظر ولا تدغم تاء كنت في تاء ترابا لأنَّ الفاعل لا يحذف والإدغام يشبه الحذف ترابا (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(46/798)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة عم يتساءلون :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عكرمة وعيسى : "عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ" .

قال أبو الفتح : هذا أضعف اللغتين ، أعني إثبات الألف في "ما" الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر . وروينا عن قطرب لحسان .

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في دمان 1

فأثبت الألف مع حروف الجر .

ومن ذلك قراءة ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس وعبد الله بن يزيد وقتادة : "وَأَنْزَلْنَا

بالْمُعْصِرَاتِ" .

قال أبو الفتح إذا أنزل منها فقد أنزل بها ، كقولهم : أعطيته من يدى درهما ، وبيدي درهما . المعنى واحد ، وليست "من" ههنا مثلهم في قولهم : أعطيته [164و] من الدراهم ، لأن هذا معناه بعضها ، وليس يريد أن الدرهم بعض اليد ، لكن معنى "من" هنا ابتداء الغاية ، أي كان ابتداء العطية من يده وليس معناه : أعطاه بعض يده .

ومن ذلك قراءة علي : "وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا" .

قال أبو الفتح : يقال : كذب يكذب كذبا وكذابا ، وكذب كذابا ، بتثقيل الذال فيهما جميعا . وقالوا أيضا : كذابا ، خفيفة . وقال قطرب : قالوا : رجل كذاب : صاحب كذب .

وحكى أبو حاتم عن عبد الله بن عمر : "وَكَذُّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا" ، بضم الكاف ، وتشديد الذال ، وقال : لا وجه له ، إلا أن يكون "كذاب" جمع كاذب ، فتنصبه على الحال : وكذبوا بآياتنا في حال كذبهم . وقال طرفة :

إذا جاء ما لا بد منه فمرحبا به حين يأتي لا كذاب ولا علل2

وقال : رجل كيذبان ، وكيذبان ، وكاذب ، وكذوب ، وكذب ، وكذاب ، وكذبذب – بتشديد الذال – وكذبذب ، بتخفيفها .

قرأت على أبي علي في نوادر أبي زيد ، ورويناه عن قطرب وغيره من أصحابنا :

وإذا أتاك بأنني قد بعثها بوصال غائبة فقل : كذبذب3

وهو أحد الأمثلة الفائتة لكتاب سيبويه . وقد يجوز أن يكون قوله : "كِذَّابًا" – بالضم ، وتشديد الذال – وصفا لمصدر محذوف ، أي : كذبوا بآياتنا كذابا كذابا ، أي : كذابا متناهيا في معناه ، فيكون الكذاب ههنا واحدا لا جمعا ، كرجل حسان ، ووجه وضاء ، ونحو

---

1 من قصيدة يهجو بها بني عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم . ويروى :

ففيم تقول يشتمني لئيم

والدمان : الرماد ، والسرقين ، وعفن النخلة . والصواب رماد لا دمان ، لأن القصيدة دالية . وانظر الديوان : 38 ، وشرح شواهد الشافية : 224 .

2 انظر الديوان : 115 .

3 لجريبة بن الأشيم يصف جمله ، ويروى "بعته" مكان "بعتها" وربما قيل عن الناقة جمل . وانظر النوادر : 76 ، والخصائص : 3 : 204 .

ذلك من الصفات على فعال . ويجوز أيضا أن يكون أراد جمع كذب ، لأنه جعله نوعا وصفه بالكذب ، أي كذبا كاذبا ، ثم جمع فصار كذابا كذابا ، فافهم ذلك .

ومن ذلك قراءة ابن فطيب : "عَطَاءً حِسَابًا 1" .

قال أبو الفتح : طريقة عندي – والله أعلم – عطاء محسبا ، أي كافيا . يقال : أعطيته ما أحسبه ، أي : كفاه ، إلا أنه جاء بالاسم من أفعل على فعال . وقد جاءت منه أحرف ، قالوا : أجبر فهو جبار ، وأدرك فهو دراك ، وأسأر 2 من شرابه فهو سأار ، وأقصر عن الشيء فهو قصار ، وقد تقدم ذلك .

وأنا أذهب في قولهم : أحسبه ، من العطية ، أي : كفاه – إلى أنه من قولهم : حسبك كذا ، أي : أعطاه حتى قال : حسب ، كما أن قولهم : بجلت الرجل ، ورجل بجيل وبجال – كأنه من قولهم : بجل ، أي : حسب ، فكأنه انتهى من الفضل والشرف إلى أنه متى جرى ذكره قيل : بجل ، قف حيث أنت ، فلا غاية ن وراءه . وكذلك عندي أصل تصرف النعمة والنعيم والإنعام وجميع ما في هذا الحرف – إنما هو من قولنا : نعم ، وذلك أن "نعم" محبوبة مستلذة ، وهي ضد "لا" الكزة 3 المستكرهة .

فإن قيل : فكيف يجوز الاشتقاق من الحروف ؟

قيل : قد اشتق منها في غير موضع ، قالوا : سألني حاجة ، فلا ليت له ، أي : قلت له : لا . وسألتك حاجة ، فلوليت لي ، أي : قلت : لولا . وقالوا : حاحيت ، وعاعيت ،

وهاهيت ، – فاشتقوا من حاء وعاء ، وهاء ، وهن أصوات ، والأصوات للحروف أخوات ، وما أكثر ذلك ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 347. 348﴾

---

1 سورة النبأ : 36 .

2 أسار من شرابه : أبقى منه .

3 ساقطة في ك : والكزة : القبيحة .

(48/798)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة النبأ

مكية وآيها أربعون خلا البصري والمكي وإحدى وأربعون فيهما خلافها عذابا قريبا مكي وبصري القراآت وقف على عم بهاء السكت عوضا عن ألف ما الاستفهامية البزي ويعقوب بخلفهما ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على النبأ بإبدال الهمزة ألفا لسكونها بعد فتح وبالتسهيل كالياء على روم حركة الهمزة واتفقوا على الألف في مهادا كما مر بطه وقرأ (وفتحت) الآية 19 بتخفيف التاء عاصم وحمزة والكسائي وخلف وسبق بالزمر وأدغم تاء فكانت سرابا أبو عمرو وهشام بخلفه وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في ﴿ لبثين ﴾ الآية 23 فحمزة وروح بلا الف بجمله على الصفة المشبهة وهي تدل على الثبوت فاللبث الذي صار له اللبث سجية كحذر وفرح وافقهما الأعمش والباقون بالألف اسم فاعل من لبث أقام

وقرأ (وغساقا) الآية 25 بتشديد السين حفص وحمزة والكسائي وخلف ومربص واتفقوا على تشديد ذال وكذبوا بآياتنا كذابا

واختلف في ولا كذابا الآية 35 فالكسائي بتخفيف الذال مصدر كاذب كقاتل قتالا أو مصدر كذب ككتب كتابا والباقون بتشديدها مصدر كذب تكذيبا وكذابا

واختلف في باء ( ) رب السماوات (الآية 37 ونون الرحمن من قوله رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن فنافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفعهما على انهما خبر مضمر أي هو رب والرحمن كذلك وافقهم اليزيدي والحسن وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفضهما على البدل من ربك بدل الكل أو البيان والرحمن عطف بيان لأحدهما وافقهم ابن محيصن والأعمش وقرأ حمزة والكسائي وخلف بخفض الأول على التبعية ورفع الثاني على الابتداء والخبر الجملة الفعلية أو على أنه خبر مضمر

المرسوم عن نافع ولا كذبا بحذف الألف بعد الذال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة النبأ "

" عم " وقف عليه بهاء السكت يعقوب والبزي بخلف عنه .

" النبأ " وقف عليه حمزة وهشام بإبدال الهمزة ألفا وبتسهيلها بين بين مع الروم .

" فيه " سراجا ، المعصرات ، وسيرت ، أحصيناه ، وكأسا ، منه ، يداه ، الكافر جلي .

" وفتحت " خفف التاء الكوفيون وشددها غيرهم .

" مرصادا " يفخم " ورش الراء كالباقين لوجود حرف الاستعلاء بعده .

" لابثين " قرأ حمزة وروح بغير ألف بعد اللام وغيرهما بالألف .

" وغساقا " شدد السين حفص والأخوان وخلف وخففها غيرهم .

" وكذبوا بآياتنا كذابا " أجمع العشرة على تشديد ذال كذابا .

" ولا كذابا " خفف الكسائي ذاله وشددها غيره .

" رب السموات ، الرحمن ، قرأ المدنيان والمكي والبصري برفع ياء رب ونون الرحمن وابن عامر وعاصم ويعقوب بخفض الباء والنون ، والأخوان وخلف بخفض الباء ورفع النون .

" مآبا " وقف عليه حمزة بتسهيل الهمزة فقط ولا تخفى ثلاثة البدل لورش .

" المرء " لهشام وحمزة وقفا النقل مع الأوجه الثلاثة وقد ذكر مثله مرارا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 343.344 ﴾

(50/798)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة عم يتساءلون

قوله تعالى ﴿ كلا سيعلمون ﴾ في الموضعين يقرآن بالياء الا ما رواه ابن مجاهد عن ابن عامر من التاء والاختيار الياء لقوله تعالى ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ ولم يقل أنتم

قوله تعالى ﴿ وفتحت السماء ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكر وجه ذلك في الزمر

وقوله تعالى ﴿ وغساقا ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكرت علته في صاد

قوله تعالى ﴿ لابثين فيها ﴾ يقرأ بإثبات الالف الا حمزة فإنه حذفها فالحجة لمن اثبت انه اتى به على القياس كقولهم عالم وقادر والحجة لمن حذف انه اتى به على وزن فرح وحذر ومعنى اللبث طول الاقامة

قوله تعالى ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن

شدد انه اراد المصدر من قوله ﴿ وكذبوا ﴾ وهو على وجهين تكذيبا وكذابا فدليل الاولى قوله ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ ودليل الثاني ﴿ وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ والحجة لمن خفف انه اراد المصدر من قولهم كاذبته مكاذبة وكذابا كما قالوا قاتلته مقاتلة وقتالا

قوله تعالى ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ يقرأ رب والرحمن بالرفع والخفض فيهما وبخفض رب ورفع الرحمن فالحجة لمن رفعهما انه استأنفهما مبتدئا ومخبرا فرفعهما والحجة لمن خفضهما انه ابدلهما من قوله تعالى ﴿ جزاء من ربك ﴾ رب السموات والارض الرحمن والحجة لمن خفض الأول انه جعله بدلا ورفع الثاني مستأنفا والخبر قوله ﴿ لا يملكون منه ﴾ لان الهاء التي في منه عائدة عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 361.362 ﴾

(51/798)

وقال ابن زنجلة :

78 – سورة عم يتساءلون النبأ

وفتحت السماء فكانت أبوابا

قرأ عاصم وحمزة الكسائي وفتحت السماء بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وحجتهم قوله فكانت أبوابا والتشديد للتكثير ويقوي هذا قوله مفتحة لهم الأبواب بالتشديد ومن قرأ بالتخفيف قال التخفيف يكون للقليل والكثير لبثين فيها أحقابا

وقرأ حمزة لبثين فيها أحقابا بغير ألف وقرأ الباقون لابثين بألف وحجتهم مجيء المصدر علي اللبث يدل على أنه من باب شرب يشرب ولقم يلقم فهو شارب ولاقم وليس من باب فرق يفرق ولو كان منه لكان المصدر مفتوح العين فلما سكن

وقيل اللبث وجب أن يكون اسم الفاعل فاعلا لما كان اللبث كاللقم ومن قرأ لبثين جعل اسم الفاعل فعلا وقد جاء غير حرف من هذا النحو على فاعل وفعل نحو رجل طامع طمع وآثم وأثم وعلى هذا نقول لبث فهو لابث ولبث في لا يسمعون فيها لغوا ولا كذبا 35

وقرأ الكسائي لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد فهو مصدر كذب يكذب كذابا وأصل مصدر فعلت إنما هو فعال لأنك إذا جاوزت الثلاثة من الأفعال بالزيادة فوزن المصدر على وزن الفعل الماضي بزيادة الألف في المصدر قبل آخره وذلك نحو أكرم إكراما وانطلقت انطلاقا فاصل مصدر فعلت إنما هو فعال فمن كذبته كذابا وكلمته كلاما قال سيبويه قوله كلمته تكليما وسلمته تسليما وكذبته تكذيبا إنما كرهو التضعيف فالتاء عوض من التضعيف والياء التي قبل الآخر كالألف في قوله كذابا وحجتهم إجماع الجميع على قوله وكذبوا بآياتنا كذابا فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

فأما الكذاب بالتخفيف فهو مصدر كذب كذابا مثل كتبه كتابا وحسبه حسابا كذا قال الخليل قال الأعشى . . . فصدقتهم وكذبتهم . . . ولمرء ينفعه كذابه

وقال محمد بن يزيد المبرد وقد يكون كذابا من قولك كاذبته كذابا مثل قاتلته قتالا

(52/798)

قال الفراء التخفيف كأنه والله أعلم لا يتكاذبون وحجته في التخفيف أن قوله لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ليست بمقيدة بفعل يكون مصدرا له كما شدد قوله وكذبوا بآياتنا كذابا لمجيء كذبوا فقيدها بل هو مصدر صدر عن قوله كذب كذابا بالتخفيف وقد ذكرنا وأخرى أن رؤوس الآيات من لدن قوله أحصيناه كتابا إلى أخر السورة على التخفيف فكان التوفقة بين نظام رؤوس الآيات أولى من مخالفتها جزاء من ربك عطاء حسابا رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا 36و37

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن بالرفع فيهما على الاستئناف و الرحمن خبره

وقرأ ابن عامر وعاصم بالجر فيهما عطف على قوله جزاء من ربك رب السموات

وقرأ حمزة والكسائي رب السموات بالخفض والرحمن رفع قوله رب ترده على قوله من ربك

وترفع الرحمن

على الابتداء وتجعل قوله لا يملكون منه في موضع خبر قوله الرحمن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 745.748 ﴾

(53/798)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة التساؤل 78

مكية وقد ذكر نظيرتها في الكوفي ونظيرتها في البصري وفي الشامي عبس ولا نظير لها في المدنيين والمكي

وكلمها مئة وثلاث وسبعون كلمة

وحروفها سبع مئة وسبعون حرفا

وهي إحدى وأربعون آية في البصري وأربعون في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ عذابا قريبا ﴾) عدها البصري ولم يعدها الباقون وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

يتساءلون

1 العظيم

2 مختلفون

3 سيعلمون

4 سيعلمون

5 مهادا

6 أوتادا

7 أزواجا

8 سباتا

9 لباسا

10 معاشا

11 شدادا

12 وهاجا

13 ثجاجا

14 ونباتا

15 ألفافا

16 ميقاتا

17 أفواجا

18 أبوابا

19 سرابا

20 مرصادا

21 مآبا

22 أحقابا

23 شرابا

24 وغساقا

25 وفاقا

26 حسابا

27 كذابا

28 كتابا

29 عذابا

30 مفازا

31 وأعنابا

32 أترابا

33 دهاقا

34 كذابا

35 حسابا

36 خطابا

37 صوابا

38 مآبا

39 ترابا

40 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 262﴾

(54/798)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التساؤل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قد ذكرنا حذف ألف ما في الاستفهام ، و (عن) متعلقة ب (يتساءلون) فأما (عن) الثانية فبدل من الأولى ، وألف الاستفهام التى ينبعى أن تعاد محذوفة ، أو هي متعلقة بفعل آخر غير مستفهم عنه: أي يتساءلون عن النبأ (الذى) يحتمل الجر والنصب والرفع ، و (أزواجا) حال: أي متجانسين متشابهين .

قوله تعالى (ألفافا) هو جمع لف مثل جذع وأجذاع ، وقيل هو جمع لف ولف جمع لفاء .

قوله تعالى (يوم ينفخ) هو بدل من يوم الفصل أو من ميقات ، أو هو منصوب بإضمار أعنى ، و (أفواجا) حال .

قوله تعالى (للطاغين) يجوز أن يكون حالا من (مآبا) أي مرجعا للطاغين ، وأن يكون صفة لمرصادا ، وأن تتعلق اللام بنفس مرصادا ، و (لابثين) حال من الضمير ، في الطاغين حال مقدرة ، و (أحقابا) معمول لابثين ، وقيل معمول (لا يذوقون) ويراد أحقابا هنا الأبد ولا يذوقون حال أخرى ، أو حال من الضمير في لابثين ، و (جزاءا) مصدر .

أي جوزوا جزاء بذلك ، و (كذابا) بالتشديد مصدر كالتكذيب ، وبالتخفيف مصدر كذب إذا تكرر منه الكذب ، وهو في المعنى

قريب من كذب (وكل شئ) منصوب بفعل محذوف ، و (كتابا) حال: أي مكتوبا ، ويجوز أن يكون مصدرا على المعنى ، لأن أحصيناه بمعنى كتبناه ،

و(حدائق) بدل من مفازا ، و (لا يسمعون) حال من الضمير في خبر إن ويجوز أن يكون

مستأنفا ، و (عطاء) اسم للمصدر وهو بدل من جزاء و (رب السموات) بالرفع على الابتداء ، وفي خبره وجهان: أحدهما (الرحمن) فيكون ما بعده خبرا آخر أو مستأنفا . والثاني الرحمن نعت ، و (لا يملكون) الخبر ، ويجوز أن يكون رب خبر مبتدأ محذوف: أي هو رب السموات ، والرحمن وما بعده مبتدأ وخبر ، ويقرأ " رب " والرحمن بالجر بدلا من ربك .

(55/798)

قوله تعالى (يوم يقوم) يجوز أن يكون ظرفا للايملكون ولخطابا (ولا يتكلمون) (وصفا) حال قوله تعالى (يوم ينظر) أي عذاب يوم ، فهو بدل ، ويجوز أن يكون صفة لقريب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(56/798)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة النبأ

[سورة النبإ (78) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (5)

"عَمَّ" مؤلفة من "عن" حرف جر و"ما" استفهامية في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بما بعدهما و"يَتَساءَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها و"عَنِ النَّبَإِ" متعلقان بفعل محذوف و"الْعَظِيمِ" صفة والجملة مستأنفة و"الَّذِي" صفة ثانية و"هُمْ" مبتدأ و"فِيهِ" متعلقان بالخبر "مُخْتَلِفُونَ" والجملة صلة الذي "كَلَّا" حرف ردع وزجر "سَيَعْلَمُونَ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مقول قول محذوف والآية التي بعدها معطوفة عليها .

[سورة النبإ (78) : الآيات 6 الى 11]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَالْجِبالَ أَوْتاداً (7) وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (8) وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10)

وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11)

"أَلَمْ نَجْعَلِ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر و"الْأَرْضَ" مفعول به أول و"مِهاداً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة لا محل لها "وَالْجِبالَ أَوْتاداً" معطوفان على

الأرض مهادا "وَخَلَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله و"أَزْواجاً" حال. والجملة معطوفة على ما قبلها "وَجَعَلْنا" ماض وفاعله و"نَوْمَكُمْ" مفعول به أول و"سُباتاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها. "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً" "وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً" معطوفتان على ما قبلهما.

[سورة النبإ (78) : الآيات 12 الى 16]

(57/798)

وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (12) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (16)

"وَبَنَيْنا" ماض وفاعله و"فَوْقَكُمْ" ظرف مكان و"سَبْعاً" مفعول به و"شِداداً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها والتي تليها معطوفة عليها. "وَأَنْزَلْنا" ماض وفاعله و"مِنَ الْمُعْصِراتِ" متعلقان بالفعل و"ماءً" مفعول به و"ثَجَّاجاً" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها. "لِنُخْرِجَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأنزلنا و"بِهِ" متعلقان بنخرج و"حَبًّا" مفعول به "وَنَباتاً" معطوف على حبا "وَجَنَّاتٍ" معطوف على ما قبله و"أَلْفافاً" صفة.

[سورة النبإ (78) : الآيات 17 الى 20]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (18) وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (20)

"إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ" إن واسمها المضاف إلى الفصل و"كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر و"مِيقاتاً" خبره والجملة خبر إن وجملة إن . . مستأنفة لا محل لها . و"يَوْمَ" بدل من يوم الفصل و"يُنْفَخُ" مضارع مبني

للمجهول ونائب الفاعل مستتر و"فِي الصُّورِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "فَتَأْتُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "أَفْواجاً" حال والجملة معطوفة على ما قبلها .

"وَفُتِحَتِ" ماض مبني للمجهول و"السَّماءُ" نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها

"فَكانَتْ" كان اسمها مستتر و"أَبْواباً" خبرها والجملة معطوفة على ما قبلها . والآية التي تليها معطوفة عليها وإعرابها مثلها .

[سورة النبإ (78) : الآيات 21 الى 26]

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآباً (22) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (23) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً (24) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25)

جَزاءً وِفاقاً (26)

"إِنَّ جَهَنَّمَ" إن واسمها و"كانَتْ" ماض ناقص اسمه مستتر و"مِرْصاداً" خبر كان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها و"لِلطَّاغِينَ" متعلقان بمرصادا و"مَآباً" خبر ثان لكانت و"لابِثِينَ" حال و"فِيها" متعلقان بما قبلهما و"أَحْقاباً" ظرف زمان و"لا" نافية و"يَذُوقُونَ" مضارع وفاعله و"فِيها" متعلقان بالفعل و"بَرْداً" مفعول به "وَلا شَراباً" معطوف على ما قبله والجملة مستأنفة لا محل لها و"إِلَّا" حرف حصر و"حَمِيماً" بدل من شرابا و"غَسَّاقاً" معطوف على حميما و"جَزاءً" مفعول مطلق و"وِفاقاً" صفة.

[سورة النبإ (78) : الآيات 27 الى 30]

إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً (30)

"إِنَّهُمْ" إن واسمها و"كانُوا" كان واسمها و"لا" نافية و"يَرْجُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"حِساباً" مفعول به والجملة الفعلية خبر كانوا وجملة كانوا خبر إن والجملة الاسمية تعليل "وَكَذَّبُوا" ماض وفاعله و"بِآياتِنا" متعلقان بالفعل و"كِذَّاباً" مفعول مطلق والجملة معطوفة على ما قبلها. "وَ" الواو حرف عطف "كُلَّ" منصوب على الاشتغال و"شَيْءٍ" مضاف

إليه و"أَحْصَيْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله و"كِتاباً" حال والجملة مفسرة للمحذوفة والجملة المحذوفة معترضة. "فَذُوقُوا" الفاء حرف عطف وأمر وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلَنْ" الفاء حرف تعليل و"نَزِيدَكُمْ" مضارع منصوب بلن فاعله مستتر والكاف مفعول به أول و"إِلَّا" حرف حصر و"عَذاباً" مفعول به ثان والجملة الفعلية تعليل لا محل لها.

(59/798)

[سورة النبإ (78) : الآيات 31 الى 36]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (31) حَدائِقَ وَأَعْناباً (32) وَكَواعِبَ أَتْراباً (33) وَكَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً (35)

جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل و"لِلْمُتَّقِينَ" خبر إن المقدم و"مَفازاً" اسمها المؤخر والجملة مستأنفة "حَدائِقَ" بدل من مفازا و"أَعْناباً" معطوف على حدائق "وَكَواعِبَ" معطوف على ما قبله و"أَتْراباً" صفة كواعب "وَكَأْساً دِهاقاً" معطوفان على ما قبلهما. "لا" نافية "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"فِيها" متعلقان بالفعل و"لَغْواً" مفعول به "وَلا" الواو حرف عطف و"لا" نافية و"كِذَّاباً" معطوف على لغوا

والجملة حال و"جَزاءً" مفعول مطلق و"مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بجزاء و"عَطاءً" بدل من جزاء و"حِساباً" صفة عطاء.

[سورة النبإ (78) : آية 37]

رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37)

"رَبِّ السَّماواتِ" بدل من ربك مضاف إلى السموات "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَما" معطوف على السموات و"بَيْنَهُمَا" ظرف مكان و"الرَّحْمنِ" بدل من رب و"لا" نافية و"يَمْلِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"مِنْهُ" متعلقان بالفعل و"خِطاباً" مفعول به والجملة مستأنفة.

[سورة النبإ (78) : آية 38]

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (38)

"يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ" ظرف زمان ومضارع وفاعله "وَالْمَلائِكَةُ" معطوف على الروح والجملة في محل جر بالإضافة و"صَفًّا" حال و"لا" نافية "يَتَكَلَّمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال و"إِلَّا" حرف حصر و"مَنْ" بدل من الواو في يتكلمون "أَذِنَ" ماض و"لَهُ"

متعلقان بالفعل و"الرَّحْمنُ" فاعل والجملة صلة من "وَقالَ" ماض فاعله مستتر و"صَواباً" صفة مفعول مطلق محذوف والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النبإ (78) : آية 39]

ذِلكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (39)

"ذِلكَ" مبتدأ و"الْيَوْمُ" خبره و"الْحَقُّ" صفة اليوم والجملة مستأنفة و"فَمَنْ" الفاء الفصيحة و"من" اسم شرط مبتدأ "شاءَ" ماض في محل جزم فعل الشرط و"اتَّخَذَ" ماض فاعله مستتر و"إِلى رَبِّهِ" متعلقان بالمفعول به "مَآباً" والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من .

[سورة النبإ (78) : آية 40]

إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (40)

"إِنَّا"

إن واسمها "أَنْذَرْناكُمْ"

ماض وفاعله ومفعوله الأول "عَذاباً"

مفعول به ثان "قَرِيباً"

صفة والجملة خبر إنا والجملة الاسمية مستأنفة . "يَوْمَ"

ظرف زمانَ نْظُرُ"

مضارع ولْمَرْءُ"

فاعله وا"

مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة وَدَّمَتْ يَداهُ"

ماض وفاعله والجملة صلة ما يَقُولُ الْكافِرُ"

مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها وا"

حرف تنبيه وَيْتَنِي"

حرف مشبه بالفعل والنون للوقاية والياء اسمها وُنْتُ"

كان واسمها رابا"

خبرها والجملة الفعلية خبر ليت والجملة الاسمية مقول القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 414.416 ﴾

(61/798)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة عَم

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1448 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ الْحَج العج والثج

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن ماجة من حَدِيث وَكِيع عَن إِبْرَاهِيم بن يزِيد الخوزي قَالَ سَمِعت مُحَمَّد بن جَعْفَر المَخْزُومِي يحدث عَن ابْن عمر قَالَ قَامَ رجل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ من الْحَاج قَالَ الشعث التفل فَقَامَ آخر فَقَالَ أَي الْحَج أفضل قَالَ العج والثج فَقَامَ آخر فَقَالَ مَا السَّبِيل يَا رَسُول الله قَالَ الزَّاد وَالرَّاحِلَة قَالَ وَكِيع يَعْنِي العج التَّلْبِيَة والثج نحر الْبدن انْتَهَى وَضَعفه التِّرْمِذِيّ فَقَالَ هَذَا حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث إِبْرَاهِيم بن يزِيد الخوزي وَقد تكلم فِيهِ بعض أهل الْعلم من قبل حفظه انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن عبد الرَّحْمَن بن يَرْبُوع عَن أبي بكر الصّديق مَرْفُوعا نَحوه وَضَعفه التِّرْمِذِيّ أَيْضا فَقَالَ هَذَا حَدِيث غَرِيب وَمُحَمّد بن الْمُنْكَدر لم يسمع من عبد الرَّحْمَن بن يَرْبُوع انْتَهَى

وَفِيه كَلَام طَوِيل اسْتَوْفَيْنَاهُ فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة فَلْيُرَاجع هُنَاك إِن شَاءَ الله تَعَالَى

1449 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن معَاذ بن جبل انه سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قَوْله تَعَالَى فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا فَقَالَ يَا معَاذ سَأَلت عَن أَمر عَظِيم من الْأُمُور

(62/798)

ثمَّ أرسل عَيْنَيْهِ وَقَالَ يحْشر النَّاس عشرَة أَصْنَاف من أمتِي بَعضهم عَلَى صور القردة وَبَعْضهمْ عَلَى صور الْخنَازِير وَبَعْضهمْ منكوسون أَرجُلهم فَوق وُجُوههم يسْحَبُونَ عَلَيْهَا وَبَعْضهمْ عمي وَبَعْضهمْ صم بكم وَبَعْضهمْ يَمْضغُونَ ألسنتهم فَهِيَ مولاة عَلَى صُدُورهمْ يسيل الْقَيْح من أَفْوَاههم يَتَقَذَّرهُمْ أهل الْجمع وَبَعْضهمْ مقطعَة أَيديهم وأرجلهم وَبَعْضهمْ مصلوبون عَلَى جُذُوع من نَار وَبَعْضهمْ اشد نَتْنًا من الْجيَف وَبَعْضهمْ مُلْبسُونَ جبَابًا سَائِغَة من قطران لَازِقَة بِجُلُودِهِمْ فَأَما الَّذين عَلَى صور القردة فَالْقتَّات من النَّاس وَأما الَّذين عَلَى صور الْخنَازِير فَأهل السُّحت وَأما المنكوسون عَلَى وُجُوههم فَأَكَلَة الرِّبَا وَأما الْعمي فَالَّذِينَ يَجُورُونَ فِي الْأَحْكَام وَأما الصم الْبكم فالمعجبون بأعمالهم وَأما الَّذين يَمْضغُونَ ألسنتهم فَالْعُلَمَاء وَالْقصاص الَّذين خَالف قَوْلهم فعلهم وَأما الَّذين قطعت أَيديهم وأرجلهم فهم الَّذِي يُؤْذونَ الْجِيرَان وَأما المصلوبون عَلَى جُذُوع من نَار فَالسُّعَاة بِالنَّاسِ إِلَى الشَّيْطَان

وَأما الَّذين هم اشد نَتنًا فِي الْجيَف فَالَّذِينَ يتبعُون الشَّهَوَات وَاللَّذَّات ويَمْنَعُونَ حق الله وَأما الَّذين يلبسُونَ الْجبَاب فَأهل الْكبر وَالْفَخْر وَالْخُيَلَاء

(63/798)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أَخْبرنِي ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا ابْن شيبَة ثَنَا عبيد الله ابْن احْمَد بن مَنْصُور الْكسَائي ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الْجَبَّار ثَنَا مُحَمَّد بن زُهَيْر عَن مُحَمَّد بن الْمُهْتَدي عَن حَنْظَلَة السدُوسِي عَن الْبَراء بن عَازِب قَالَ كَانَ معَاذ بن جبل جَالِسا قَرِيبا من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُول الله أَرَأَيْت قَول الله تَعَالَى يَوْم ينْفخ فِي الصُّور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا قَالَ يَا معَاذ سَأَلت عَن أَمر عَظِيم . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا الْحسن بن عَلّي بن أَحْمد ثَنَا الْحسن بن عَلّي ابْن الْحَارِث الْكسَائي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن مَسْعُود ثَنَا مُحَمَّد بن زُهَيْر بِهِ

1450 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدكُمْ إِلَّا عذَابا قَالَ هَذِه الْآيَة أَشد مَا فِي الْقُرْآن عَلَى أهل النَّار

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق الإِمَام أبي بكر بن السّني أَنا ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا أَبُو دَاوُد الْحرَّانِي ثَنَا

شُعَيْب بن بَيَان ثني مهْدي بن مَيْمُون سَمِعت الْحسن بن دِينَار انه سَأَلَ الْحسن عَن أَشد آيَة فِي الْقُرْآن عَلَى أهل النَّار فَقَالَ الْحسن سَأَلت أَبَا برزَة الْأَسْلَمِيّ فَقَالَ سَالَتْ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدكُمْ إِلَّا عذَابا انْتَهَى

(64/798)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره ثَنَا مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُصعب الصُّورِي ثَنَا خَالِد بن عبد الرَّحْمَن ثَنَا جسر بن فرقد عَن الْحسن قَالَ سَأَلت أَبَا برزَة الْأَسْلَمِيّ عَن اشد آيَة فِي الْقُرْآن عَلَى أهل النَّار فَقَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدكُمْ إِلَّا عذَابا انْتَهَى وجسر بن فرقد ضَعِيف جدا

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور من حَدِيث مُسلم بن إِبْرَاهِيم ثني جسر بن فرقد بِهِ . . . فَذكره مَوْقُوفا لم يرفعهُ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه رَوَاهُ مَوْقُوفا فَقَط ويُرَاجع

وَأخرجه ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق أبي بكر بن أبي شيبَة ثَنَا عَلّي بن أَحْمد الْحوَارِي ثَنَا جَعْفَر بن جسر بن فرقد ثني أبي عَن الْحسن بِهِ

1451 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ من قَرَأَ سُورَة عَم يتساءلون سقَاهُ الله برد الشَّرَاب يَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد ابْن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 143.146﴾

(65/798)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة عمّ يتساءلون» (78)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً» (9) ليس بموت ، رجل مسبوت فيه روح . .

«وَهَّاجاً» (13) الوهاج الوقّاد . .

«أَلْفافاً» (16) ملتفّة «1» من الشجر ليس بينها خلال «فألفافا» جمع الجمع، يقال:

جنة لفّاء وجنان لفّ وجمع لفّ ألفاف . .

«بَرْداً وَلا شَراباً» (24) نوما ولا شرابا قال الكندىّ:

فصدّنى عنها وعن قبلتها البرد

«2» [925] أي النعاس . .

«حَمِيماً» (25) ماء.

«وَغَسَّاقاً» (25) وهو ما همى أي سال ويقال: قد غسقت من العين ومن الجرح ويقال:

عينه تغسق «3» أي تسيل . .

«جَزاءً وِفاقاً» (26) أي ثوابا وفقا، هذا وفق هذا أي مثله.

---

(1) . - 5 «ملتفة»: رواها ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 529).

(2) . - 925: فى الطبري 30/ 8 والقرطبي 19/ 178، وما ترك من الصدر:

بردت مراشفها علىّ

(3) . - 12 «تغسق عينه»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 529).

«كِذَّاباً» (28) أشدّ من الكذب وهما مصدر المكاذبة قال الأعشى :

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه

«1» [926].

«كَأْساً دِهاقاً» (34) ملا . .

«عَطاءً حِساباً» (36) أي جزاء ويجيء : حسابا كافيا ، يقال : أعطانى ما أحسبنى أي كفانى «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 282. 283 ﴾

---

(1) . - 926) : فى ملحق ديوانه ص 238 وفى الكامل ص 356 والطبري 30/ 13 واللسان والتاج (صدق) .

(2) . - 4 - 5 «عطاء . . . كفانى» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 121) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «عمّ يتساءلون»

[سورة النبإ (78) : الآيات 6 الى 7]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَالْجِبالَ أَوْتاداً (7)

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً [6 ، 7] وهاتان استعارتان ، وقد مضى الكلام على الأولى منهما . أما معنى كون الجبال أوتادا فلأنّ بها مساك الأرض وقوامها ، واعتدالها وثباتها ، كما يثبت البيت بأوتاده ، والخباء على أعماده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تلخيص البيان صـ 358 ﴾

(68/798)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة النبأ

من حق كل قوم جاءهم مدع للنبوة أن يدرسوا قوله وشخصه ، ثم يحكموا له أو عليه !

ونحن نتساءل: ما الذى أتى به محمد ؟ لقد حدثنا أن الله حق وفضل أدلة وجوده وكماله على نحو لم يسبق إليه ، وأنه واحد ، كل من فى السموات والأرض مخلوق له مفتقر إليه لا استثناء لملك أو إنس أو جن ، وأن لقاءه حتم لمحاسبة كل مكلف " فمن يعمل مثقال ذرة

خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " . لماذا أكفر بمحمد ؟ لو رأيت أحدا جاء بأفضل مما جاءنا به لتبعته ! وسورة النبأ تقول للمشركين: هبوا أن دعوة محمد لم تقنعكم ، أفلا تفكرون فى خلق السموات والأرض ؟ " ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا " . نحن الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى ونهايات القرن العشرين الميلادى ، وقد ورثنا رسالات شتى ، ومن حقنا أن نوازن وأن نرجح . والحق أقول ! . إنى أمام تراث محمد من كتاب وسنة لا أقدم عليه أحدا ، أو بتعبير أقرب إلى الإنصاف أصدقه حين يقول إن رسالته تمثل الوحى القديم والأخير معا ، وإن ما خالفه هو مزاعم بشر وليس وحيا سماويا " ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك " . أى أننى حين أتبع محمدا أتبع معه موسى وعيسى ، ونوحا وإبراهيم . وهذه السورة تتكون من أربعة فصول متميزة . الأول وصف الكون والناس إلى قوله جل شأنه " وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا " . والثانى: وصف موجز ليوم الحساب " إن يوم الفصل كان ميقاتا * يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا " . وإكثار القرآن من ذكر القيامة لمقاومة حب العاجلة الذى يغلب على الطباع .

(69/798)

والثالث وصف للعقاب الذى ينتظر المجرمين " إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا " . والرابع وصف للنعيم الذى ينتظر المؤمنين الصالحين " إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا * وكواعب أترابا " . إن الجزاء المعنوى حق وستنضر وجوه المؤمنين وهم مع جماهير الملائكة يسبحون بحمد الله ويهتفون بمجده . ومن تمام المتعة أن يكون ذلك فى حدائق زاهرة ومع لدات مؤنسات وبعد هذا الوصف الشائق يقال لأولى الألباب " ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا " . فمن تزود بالتقوى أفلح . ومن عاش مذهولا هنا ، وقدم على الله صفر اليدين ندم بعد فوات الأوان " إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا " . نقول فى ختام السورة للمتسائلين عن محمد : ماذا كسب لشخصه من هذا البيان ؟ هل عيبه أنه كان حار الأنفاس فى الدعوة إلى الله ؟ وأنه كان جلدا فى مقاومة الفتانين والطغاة ؟ ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 496 . 497 ﴾

(70/798)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(71/798)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة عم

أقول: وجه اتصالها بما قبلها : تناسبها معها في الجمل ففي تلك: (أَلَم نهلك الأَولين ثم نتبعهم الآخرين) (أَلَم نخلقكم مِن ماءٍ مَهين) (أَلَم نجعَل الأَرض كفانا) إلى آخره وفي عم: (أَلَم نجعَل الأَرضَ مِهاداً) إلى آخره فذلك نظير تناسب جمل: ألم نشرح ، والضحى ، بقوله في الضحى: (أَلَم يجِدكَ يَتيماً فآوى) إلى آخره وقوله: (أَلَم نشرح لكَ صدرك) مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها في الاشتمال على وصف الجنة والنار ، ما عدا المدثر في الاشتمال على وصف يوم القيامة وأهواله ، وعلى ذكر بدء الخلق ، وإقامة الدليل على البعث وأيضاً في سورة المرسلات: (لأي يوم أُجلت ليوم الفصل وما أدراكَ ما يوم الفصل) وفي هذه السورة: (إِن يوم الفصل كان ميقاتا يوم يُنفخ في الصور فتأَتون أَفواجاً) إلى آخره فكأن هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره في السورة التي قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 146﴾

قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الحكيم العليم الذي له جميع صفات الكمال (الرحمن) الذي ساوى بين عباده في أصول النعم الظاهرة : الإيجاد والجاه والمال ، وبيان الطريق الأقوام بالعقل الهادي والإنزال والإرسال (الرحيم) الذي خص من شاء بإتمام تلك النعم فوفقهم لمحاسن الأعمال لما أخبر في المرسلات بتكذيبهم بيوم الفصل وحكم على أن لهم بذلك الويل المضاعف المكرر ، وختمها بأنهم إن كفروا بهذا القرآن لم يؤمنوا بعده بشيء ، افتتح هذه بأن ما خالفوا فيه وكذبوا الرسول في أمره لا يقبل النزاع لما ظهر من بيان القرآن لحكمة الرحمن التي يختلف فيها اثنان مع الإعجاز في البيان ، فقال معجباً منهم غاية العجب زاجراً لهم ومنكراً عليهم ومتوعداً لهم ومفخماً للأمر بصيغة الاستفهام منبهاً على أنه ينبغي أن لا يعقل خلافهم ، ولا يعرف محل نزاعهم ، فينبغي أن يسأل عنه كل أحد حتى العالم به إعلاماً بأن ما يختلفون فيه لوضوحه لا يصدق أن عاقلاً يخالف أمره فيه وأنه لا ينبغي التساؤل إلا عما هو خفي فقال : ﴿ عمَّ ﴾ أي عن أي شيء – خفف لفظاً وكتابة بالإدغام ، وحذف ألفه لكثرة الدور

والإشارة إلى أن هذا السؤال مما ينبغي أن يحذف ، فإن لم يكن فيخفى ويستحى من ذكره ويخفف ﴿ يتساءلون ﴾ أي أهل مكة لكل من يسأل عن شيء من القرآن سؤال شك وتوقف وتلدد فيما بينهم وبين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين ـ رضى الله عنه ـ م ، ولشدة العجب سمي جدالهم وإنكارهم وعنادهم – إذا تليت عليهم آياته وجليت بيناته – مطلق سؤال .

(73/798)

ولما فخم ما يتساءلون عنه معجباً منهم فيه ، بينه بقوله إعلاماً بأن ذلك الإبهام ما كان إلا للإعظام : ﴿ عن النبأ ﴾ أي من رسالة الرسول وإتيانه بالكتاب المبين ، وإخباره عن يوم الفصل ، والشاهد بكل شيء من ذلك الله بإعجاز هذا الحديث ، وبوعده الجازم الحثيث .

ولما كان في مقام التفخيم له ، وصفه تأكيداً بقوله : ﴿ العظيم ﴾ مع أن النبأ لا يقال إلا لخبر عظيم شأنه ، ففي ذلك كله تنبيه على أنه من حقه أن يذعن له كل سامع ويهتم بأمره ، لا أن يشك فيه ويجعله موضعاً للنزاع ؛ وعظم توبيخهم بقوله : ﴿ الذي هم ﴾ أي بضمائرهم مع ادعائهم أنها أقوم الضمائر ﴿ فيه مختلفون ﴾ أي شديد اختلافهم وثباتهم فبعضهم صدق

وبعضهم كذب ، والمكذبون بعضهم شك وبعضهم جزم وقال بعضهم : شاعر ، وبعضهم : ساحر - إلى غير ذلك من الأباطيل ، وذلك الأمر هو أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي أهمه البعث بعد الموت اشتد التباسه عليهم وكثرت مراجعتهم فيه ومساءلتهم عنه مع عظمه وعظم ظهوره ، والعظيم لا ينبغي الاختلاف فيه بوجه ، فإن ذا المروءة لا ينبغي له أن يدخل في أمر إلا وهو على بصيرة فكيف به إذا كان عظيماً فكيف به إذا تناهى عظمه فكيف به إذا كان أهم ما يهمه فإنه يتعين عليه أن يبحث عنه غاية البحث ويطلب فيه الأدلة ويفحص عن البراهين ويستوضح الحجج حتى يصير من أمره بعد علم اليقين إلى عين اليقين من حين يبلغ مبلغ الرجال إلى أن يموت فكيف إذا كان بحيث تتلى عليهم الأدلة وتجلى لديه قواطع الحجج وتجلب إليه البينات وهو يكابر فيه ويماري ، ويعاند ويداري .

(74/798)

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : سورة النبأ أما مطلقها فمرتب على تساؤل واستفهام وقع منهم وكأنه وارد هنا في معرض العدول والالتفات ، وأما قوله : ﴿ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ﴾ [النبأ : 4 - 5] فمناسب للوعيد المتكرر في قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ [المرسلات : 19] وكأن قد قيل : سيعلمون عاقبة تكذيبهم ، ثم أورد

تعالى من جميل صنعه وما إذا اعتبره المعتبر علم أنه لم يخلق شيء منه عبثاً بل يعتبر به ويستوضح وجه الحكمة فيه ، فعلم أنه لا بد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازي الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل ، ويستشعر من تكرار الفصول وتجدد الحالات وإحياء الأرض بعد موتها ، جرى ذلك في البعث واطراد الحكم ، وإليه الإشارة بقوله :

﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ [الأعراف : 57] وقال تعالى منبهاً على ما ذكرناه ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] إلى قوله : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ [النبأ : 16] فهذه المصنوعات المقصود بها الاعتبار كما قدم ، ثم قال تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] أي موعداً لجزائكم لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم منه وقوعه وكونه ليقع جزاؤكم على ما سلف منكم " فويل يومئذ للمكذبين " ويشهد لهذا القصد مما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ [النبأ : 27 - 29] ثم قال بعد : ﴿ إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً ﴾ [النبأ : 31 - 32] وقوله بعد : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ وأما الحياة الدنيا فلعب ولهو وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، وقوله بعد : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] انتهى .

ولما كان الأمر من العظمة في هذا الحد قال مؤكداً لأن ما اختلفوا فيه وسألوا عنه ليس موضعاً للاختلاف والتساؤل بأداة الردع ، فقال تهديداً لهم وتوكيداً لوعيدهم : ﴿ كلا ﴾ أي ليس ما سألوا عنه واختلفوا فيه بموضع اختلاف أصلاً ، ولا يصح أن يطرقه ريب بوجه من الوجوه فلينزجروا عن ذلك وليرتدعوا قبل حلول ما لا قبل لهم به .

ولما كان كأنه قيل : فهل ينطقع ما هم فيه ؟ أجاب بقوله مهدداً حاذفاً متعلق العلم للتهويل لأجل ذهاب النفس كل مذهب : ﴿ سيعلمون ﴾ أي يصلون إلى حد يكون حالهم فيه في ترك العناد حال العالم بكل ما ينفعهم ويضرهم ، وهذا عن قريب بوعد لا خلف فيه ، ويكون لهم حينئذ عين اليقين الذي لا يستطاع دفاعه بعد علم اليقين الذي دافعوه ، وعظم رتبة هذا الردع والتهديد والزجر والوعيد بقوله : ﴿ ثم كلا ﴾ أي أن أمره في ظهوره رادع عن الاختلاف في أمره ﴿ سيعلمون ﴾ أي بعد الموت بعد علمهم قبله ما يكون من أمره بوعد صادق لا شك فيه ، ويصير حالهم إذا ذاك حال العالم في كفهم عن العناد ، وهم بين ذلول وذليل وحقير وجليل ، فأما من اخترناه منه للإيمان فيكون ذلولاً ، ومن أردنا شقاءه بالكفران فتراه ناكساً ذليلاً ، ويشترك الكل بالذوق في حق اليقين ، وقد كان هذا كما قال الجليل بعد زمن قليل ، عندما أوقعتهم أيام الله وأرغمت منهم الأنوف وأذلت الجباه ،

وقراءة ابن عامر على ما قيل عنه بتاء الخطاب في الوعيد وأدل على الاستعطاف للمتاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 294 . 296 ﴾

(76/798)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القرأأت ﴿ كلا ستعلمون ﴾ بتاء الخطاب في الموضعين : ابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ﴿ وفتحت ﴾ بالتخفيف : عاصم وحمزة وعليّ وخلف ﴿ لبثين ﴾ مقصوراً : حمزة ﴿ ولا كذاباً ﴾ مخففاً . عليّ ﴿ رب ﴾ بالرفع بتقدير هو رب : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو والمفضل . الباقون : بالجر على البدل ﴿ الرحمن ﴾ باجر على البدل أو البيان : ابن عامر وسهل ويعقوب وعاصم غير المفضل . الآخرون : بالرفع على " هو الرحمن " أو على أنه خبر آخر .

(77/798)

الوقوف ﴿ يتساءلون ﴾ ه ج لاحتمال أن الجار متصل بالفعل المذكور والمراد التهديد . قال الفراء : " عن " بمعنى اللام أي لأي شيء ، أو متصل بمحذوف كأن سائلاً سأل عن أي شيء يتساءلون فأجيب عن النبأ . ﴿ العظيم ﴾ ه لا ﴿ مختلفون ﴾ ه ط بناء على أن معنى كلا حقاً ﴿ سيعلمون ﴾ لا ه ﴿ سيعلمون ﴾ ه ج ﴿ مهاداً ﴾ ه لا ﴿ أوتاداً ﴾ ه ص ﴿ أزواجاً ﴾ ه ﴿ سباتاً ﴾ ه لا ﴿ لباساً ﴾ ه لا ﴿ معاشاً ﴾ ه ص ﴿ شداداً ﴾ ه لا ﴿ وهاجاً ﴾ ه ص ﴿ ثجاجاً ﴾ ه لا ﴿ ونباتاً ﴾ ه ك ﴿ ألفافاً ﴾ ه ط ﴿ ميقاتاً ﴾ ه ط لأن ما بعده بدل ﴿ أفواجاً ﴾ ه ك ﴿ أبواباً ﴾ ه ك ﴿ سراباً ﴾ ه ط ﴿ مرصاداً ﴾ ه لا ﴿ مآباً ﴾ ه لا ﴿ أحقاباً ﴾ ه ج لأن ما بعده يصلح استئنافاً وحالاً ، ويجوز أن يكون صفة ل ﴿ أحقاباً ﴾ لمكان عود الضمير في ﴿ فيها ﴾ إليها ﴿ شراباً ﴾ ه لا ﴿ غساقاً ﴾ ه ك ﴿ وفاقاً ﴾ ه ﴿ حساباً ﴾ ه ﴿ كذاباً ﴾ ه م لأن التقدير أحصينا كل شيء أحصيناه ﴿ كتاباً ﴾ ه لا ﴿ عذاباً ﴾ ه ﴿ مفازاً ﴾ ه ﴿ وأعناباً ﴾ ه ﴿ أتراباً ﴾ ه ك ﴿ دهاقاً ﴾ ه ط لأنه لو وصل اشتبه بالصفة وللموصوف وجه كما يجيء في التفسير . ﴿ كذاباً ﴾ ه ط لأن ﴿ جزاء ﴾ يصلح مصدراً ومفعولاً له ﴿ حساباً ﴾ ه ط لمن قرأ ﴿ رب ﴾ بالرفع وقف على ﴿ بينهما ﴾ إلا لمن قرأ ﴿ الرحمن ﴾ بالرفع ﴿ رب ﴾ بالجر على الرحمن وقف على الوجوه إلا إن جعله مبتدأ ﴿ لا يملكون ﴾ خبره ﴿ خطاباً ﴾ ه لا بناء على أن ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ لا يملكون ﴾ ﴿

صفاً ﴾ ه لا بناء على أن ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ لا يتكلمون ﴾ ﴿ صواباً ﴾ ه لحق الشرط مع الفاء ﴿ مآباً ﴾ ه ﴿ قريباً ﴾ ه ج لأن ﴿ يوم ﴾ متعلق باذكر أو ب ﴿ عذاباً ﴾ ﴿ تراباً ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 428 .

429 ﴾

(78/798)

فصل

قال الفخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ عَمَّ ﴾ : أصله حرف جر دخل ما الاستفهامية ، قال حسان رحمه الله تعالى :

على ما قام يشتمني لئيم . . كخنزير تمرغ في رماد

والاستعمال الكثير على الحذف والأصل قليل ، ذكروا في سبب الحذف وجوهاً أحدها :

قال الزجاج لأن الميم تشرك الغنة في الألف فصارا كالحرفين المتماثلين وثانيها : قال

الجرجاني إنهم إذا وصفوا ما في استفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين أن تكون اسماً كقولهم : فيم وبم ولم وعلام وحتام وثالثها : قالوا حذفت الألف لاتصال ما بحرف الجر حتى صارت كجزء منه لتنبىء عن شدة الاتصال ورابعها : السبب في هذا الحذف التخفيف في الكلام فإنه لفظ كثير التداول على اللسان .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أنه سؤال ، وقوله ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ جواب السائل والمجيب هو الله تعالى ، وذلك يدل على علمه بالغيب ، بل بجميع المعلومات .

فإن قيل ما الفائدة في أن يذكر الجواب معه ؟ قلنا لأن إيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح ونظيره ﴿ لّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

المسألة الثالثة :

قرأ عكرمة وعيسى بن عمر (عما) وهو الأصل ، وعن ابن كثير أنه قرأ عمه بهاء السكت ، ولا يخلو إما أن يجري الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف ويبتدىء ب ﴿ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النبإ العظيم ﴾ على أن يضمر يتساءلون لأن ما بعده يفسره كشيء مبهم ثم يفسره .

المسألة الرابعة :

(ما) لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها ، تقول ما الملك ؟ وما الروح ؟ وما الجن ؟ والمراد طلب ماهياتها وشرح حقائقها ، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً .

(79/798)

ثم إن الشيء العظيم الذي يكون لعظمه وتفاقم مرتبته ويعجز العقل عن أن يحيط بكنهه يبقى مجهولاً ، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ ما وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه والمشابهة إحدى أسباب المجاز ، فبهذا الطريق جعل ﴿ مَا ﴾ دليلاً على عظمة حال ذلك المطلوب وعلو رتبته ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ [المطففين : 8] ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ [البلد : 12] وتقول زيد وما زيد .

المسألة الخامسة :

التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل ، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به ، وإن لم يكن من بعضهم لبعض سؤال ، قال تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الطور : 25] ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ﴾ [الصافات : 51 52] فهذا يدل على معنى التحدث فيكون معنى الكلام عم يتحدثون ، وهذا قول الفراء .

المسألة السادسة :

أولئك الذين كانوا يتساءلون من هم ، فيه احتمالات : الاحتمال الأول : أنهم هم الكفار ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 45] الضمير في يتساءلون ، وهم فيه مختلفون وسيعلمون ، راجع إلى شيء واحد وقوله : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ تهديد والتهديد لا يليق إلا بالكفار ، فثبت أن الضمير في قوله : ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ عائد إلى الكفار ، فإن قيل فما تصنع بقوله : ﴿ هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ مع أن الكفار كانوا متفقين في إنكار الحشر ؟ قلنا لا نسلم أنهم كانوا متفقين في إنكار الحشر ، وذلك لأن منهم من كان يثبت المعاد الروحاني ، وهم جمهور النصارى ، وأما المعاد الجسماني فمنهم من كان شاكاً فيه كقوله :

(80/798)

﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] ومنهم من أصر على الإنكار ، ويقول : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : 37] ومنهم من كان مقرّاً به ، لكنه كان منكراً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حصل اختلافهم فيه ، وأيضاً هب أنهم كانوا منكرين له لكن لعلهم

اختلفوا في كيفية إنكاره ، فمنهم من كان ينكره لأنه كان ينكر الصانع المختار ، ومنهم من كان ينكره لاعتقاده أن إعادة المعدوم ممتنعة لذاتها والقادر المختار إنما يكون قادراً على ما يكون ممكناً في نفسه ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿ هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ .

والاحتمال الثاني : أن الذين كانوا يتساءلون هم الكفار والمؤمنون ، وكانوا جميعاً يتساءلون عنه ، أما المسلم فليزداد بصيرة ويقيناً في دينه ، وأما الكافر فعلى سبيل السخرية ، أو على سبيل إيراد الشكوك والشبهات .

والاحتمال الثالث : أنهم كانوا يسألون الرسول ، ويقولون ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة .

أما قوله تعالى : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ ففيه مسائل .

المسألة الأولى :

(81/798)

ذكر المفسرون في تفسير النبأ العظيم ثلاثة أوجه : أحدها : أنه هو القيامة وهذا هو الأقرب ويدل عليه وجوه أحدها : قوله : ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذي يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة ، ومعلوم أن ذلك هو القيامة وثانيها :

أنه تعالى بين كونه قادراً على جميع الممكنات بقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا ﴾ إلى قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [طه : 102] وذلك يقتضي أنه تعالى إنما قدم هذه المقدمة لبيان كونه تعالى قادراً على إقامة القيامة ، ولما كان الذي أثبته الله تعالى بالدليل العقلي في هذه السورة هو هذه المسألة ثبت أن النبأ العظيم الذي كانوا يتساءلون عنه هو يوم القيامة وثالثها : أن العظيم اسم لهذا اليوم بدليل قوله : ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 46] وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : 67 68] ولأن هذا اليوم أعظم الأشياء لأن ذلك منتهى فزع الخلق وخوفهم منه فكان تخصيص اسم العظيم به لائقاً والقول الثاني : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ ﴾ [الواقعة : 77] واحتج القائلون بهذا الوجه بأمرين الأول : أن النبأ العظيم هو الذي كانوا يختلفون فيه وذلك هو القرآن لأن بعضهم جعله سحراً وبعضهم شعراً ، وبعضهم قال إنه أساطير الأولين ، فأما البعث ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا متفقين على إنكارهما وهذا ضعيف ، لأنا بينا أن الاختلاف كان حاصلاً في البعث الثاني : أن النبأ اسم الخبر لا اسم المخبر عنه فتفسير النبأ بالقرآن أولى من تفسيره بالبعث أو النبوة ، لأن ذلك في نفسه ليس بنبأ بل منبأ عنه ، ويقوى ذلك أن القرآن سمي ذكراً وتذكرة وذكرى وهداية وحديثاً ، فكان اسم النبأ به أليق منه بالبعث والنبوة والجواب : عنه أنه إذا كان اسم النبأ أليق بهذه الألفاظ فاسم

العظيم أليق بالقيامة وبالنبوة لأنه لا عظمة في الألفاظ إنما العظمة في المعاني ، وللأولين أن يقولوا إنها عظيمة أيضاً في الفصاحة والاحتواء على العلوم الكثيرة ، ويمكن أن يجاب أن العظيم حقيقة في الأجسام مجاز في غيرها وإذا ثبت التعارض بقي ما ذكرنا من الدلائل سليماً القول الثالث : أن النبأ العظيم هو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا وذلك لأنه لما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام جعلوا يتساءلون بينهم ماذا الذي حدث ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ عَمَّا يَتَسَاءلُونَ ﴾ وذلك لأنهم عجبوا من إرسال الله محمداً عليه الصلاة والسلام إليهم كما قال تعالى :

﴿ بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق : 2] وعجبوا أيضاً أن جاءهم بالتوحيد كما قال : ﴿ أَجَعَلَ الآهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] فحكى الله تعالى عنهم مساءلة بعضهم بعضاً على سبيل التعجب بقوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ .

المسألة الثانية :

في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه أحدها : وهو قول البصريين أن قوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ كلام تام ، ثم قال : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ والتقدير : ﴿ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النبإ العظيم ﴾ إلا أنه حذف يتساءلون في الآية الثانية ، لأن حصوله في الآية الأولى يدل عليه وثانيها : أن يكون قوله : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ استفهاماً متصلاً بما قبله ، والتقدير : عم يتساءلون أعن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ، إلا أنه اقتصر على ما قبله من الاستفهام إذ هو متصل به ، وكالترجمة والبيان له كما قرىء في قوله : ﴿ أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : 16] بكسر الألف من غير استفهام لأن إنكارهم إنما كان للبعث ، ولكنه لما ظهر الاستفهام في أول الكلام اقتصر عليه ، فكذا ههنا وثالثها : وهو اختيار الكوفيين أن الآية الثانية متصلة بالأولى على تقدير ، لأي شيء يتساءلون عن النبأ العظيم ، وعم كأنها في المعنى لأي شيء ، وهذا قول الفراء .

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)

قال القفال : كلا لفظة وضعت لرد شيء قد تقدم ، هذا هو الأظهر منها في الكلام ، والمعنى ليس الأمر كما يقوله هؤلاء في النبأ العظيم إنه باطل أو إنه لا يكون ، وقال قائلون كلا معناه حقاً ، ثم إنه تعالى قرر ذلك الردع والتهديد ، فقال : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ وهو وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له ، واقع لا ريب فيه ، وأما تكرير الردع ، ففيه وجهان الأول : أن الغرض من التكرير التأكيد والتشديد ، ومعنى ثم الإشعار بأن الوعيد الثاني أبلغ من الوعيد الأول وأشد والثاني : أن ذلك ليس بتكرير ، ثم ذكروا وجوهاً أحدها : قال الضحاك الآية الأولى للكفار والثانية للمؤمنين أي سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم وثانيها : قال القاضي : ويحتمل أن يريد بالأول سيعلمون نفس الحشر والمحاسبة ، ويريد بالثاني سيعلمون نفس العذاب إذا شاهدوه وثالثها : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ما الله فاعل بهم يوم القيامة ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ أن الأمر ليس كما كانوا يتوهمون من أن الله غير باعث لهم ورابعها : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ما يصل إليهم من العذاب في الدنيا وكما جرى على كفار قريش يوم بدر ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ بما ينالهم في الآخرة .

المسألة الثالثة :

جمهور القراء قرأوا بالياء المنقطة من تحت في (سيعلمن) وروي بالتاء المنقطة من فوق عن ابن عامر .

قال الواحدي : والأول أولى ، لأن ما تقدم من قوله : ﴿ هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ : 3] على لفظ الغيبة ، والتاء على قل لهم : ستعلمون ، وأقول : يمكن أن يكون ذلك على سبيل الالتفات ، وهو ههنا متمكن حسن ، كمن يقول : إن عبدي يقول كذا وكذا ، ثم يقول لعبده : إنك ستعرف وبال هذا الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 3 ـ 6 ﴾

(85/798)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ؟

"عم" لفظ استفهام ؛ ولذلك سقطت منها ألف "ما" ، ليتميز الخبر عن الاستفهام .

وكذلك (فيم ، ومم) إذا استفهمت .

والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً .

وقال الزجاج : أصل "عَمَّ" عن ما فأدغمت النون في الميم ، لأنها تشاركها في الغُنّة .

والضمير في "يتساءلون" لقريش .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها فمنهم المصدّق ومنهم المكذب به فنزلت "عم يتساءلون" ؟ وقيل : "عم" بمعنى : فيم

يتشدّد المشركون ويختصمون .

قوله تعالى : ﴿ عَنِ النبإِ العظيم ﴾ أي يتساءلون "عن النبإِ العظِيم" فعن ليس تتعلق ب "يتساءلون" الذي في التلاوة ؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون "عنِ النبإِ العظِيم" كقولك : كم مالك أثلاثون أم أربعون ؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه ب "يتساءلون" الذي في التلاوة ، وإنما يتعلق بيتساءلون آخر مضمر .

وحسن ذلك لتقدم يتساءلون ؛ قاله المَهْدويّ .

وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام في قوله : "عن" مكرر إلا أنه مضمر ، كأنه قال عم يتساءلون أعن النبإِ العظيم ؟ فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى .

والنبأ العظيم" أي الخبر الكبير .

﴿ الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ أي يخالف فيه بعضهم بعضاً ، فيصدق واحد ويكذب آخر ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن ؛ دليله قوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : 67] فالقرآن نبأ وخبر وقصص ، وهو نبأ عظيم الشأن .

وروى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين : مصدّق ومكذب .

وقيل : أَمْر النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وذلك أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة ، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ، ثم هدّدهم فقال : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ أي سيعلمون عاقبة القرآن ، أو سيعلمون البعث : أحق هو أم باطل .

و "كلا" ردّ عليهم في إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن ، فيوقف عليها .

ويجوز أن يكون بمعنى حقاً أو "ألاَ" فيُبدأ بها .

والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث ؛ قال بعض علمائنا : والذي يدل عليه قوله عز وجل "إن يوم الفصلِ كان مِيقاتاً" يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث .

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ أي حقاً لَيَعْلَمُنَّ صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن ومما ذكره لهم من البعث بعد الموت .

وقال الضحاك : "كلا سيعلمون" يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم .

"ثم كلا سيعلمون" يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم .

وقيل : بالعكس أيضاً .

وقال الحسن : هو وعيد بعد وعيد .

وقراءة العامة فيهما بالياء على الخبر ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ .

وقرأ الحسن وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(87/798)

وقال الآلوسى :

﴿ عَمَّ ﴾

أصله عما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية فحذفت الألف وعلل بالتفرقة بينها وبين الخبرية والإيذان بشدة الاتصال وكثرة الدوران وحال العلل النحوية معلوم وقد قرأ عبد الله وأبي عكرمة وعيسى بالألف على الأصل وهو قليل الاستعمال وقال ابن جني إثبات الألف أضعف اللغتين وعليه قوله

: على ما قام يشتمني لئيم . . .

كخنزير تمرغ في رماد

(88/798)

والاستفهام للإيذان بفخامة شأن المسؤل عنه وهوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة أي عن أي شيء عظيم الشأن ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ الضمير لأهل مكة وأن لم يسبق ذكرهم للاستغناء عنه بحضورهم حساً مع ما في الترك على ما قيل من التحقير والإهانة لإشعاره بأن ذكرهم مما يصان عنه ساحة الذكر الحكيم ولا يتوهم العكس لمنع المقام عنه وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاء لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسماه بل عن وقوعه الذي هو حال من أحواله ووصف من أوصافه وما كما مر غير مرة وإن اشتهرت في طلب حقائق الأشياء ومسميات أسمائها لكنها قد يطلب بها الصفة والحال فيقال ما زيد ويجاب بعالم أو طبيب وقيل كانوا يتساءلون الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين استهزاء فالتساؤل متعد ومفعوله مقدر هنا وحذف لظهوره أو لأن المستعظم السؤال بقطع النظر عمن سأل أو لصون المسؤل عن ذكره مع هذا السائل وتحقيق ذلك على ما في الإرشاد أن صيغة التفاعل في الأفعال المتعدية لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يصير كل واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً لكنه يرفع المتعدد على الفاعلية ترجيحاً لجانب فاعليته وتحال مفعوليته على دلالة الفعل كما في قولك تراءى القوم أي رأي كل واحد منهم الآخر وقد تجرد عن المعنى الثاني فيراد بها مجرد صدور الفعل عن المتعدد عارياً عن اعتبار وقوعه عليه فيذكر للفعل حينئذ مفعول كما في قولك تراأوا الهلال وقد يحذف كما فيما نحن فيه فالمعنى عن أي

شيء يسأل هؤلاء القوم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وربما تجرد عن صدور الفعل عن المتعدد أيضاً فيراد بها تعدده باعتبار تعدد متعلقه مع وحدة الفاعل كما في قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ [النجم : 55] وذكر بعض المحققين أنه قد يكون لصيغة التفاعل على الوجه الأول مفعول أيضاً لكنه غير الذي فعل به مثل فعله كما في تعاطيا الكاس وتفاوضا

(89/798)

الحديث وعليه قول امرىء القيس

: فلما تنازعنا الحديث واسمحت . . .

حصرت بغصن ذي شماريخ ميال

فمن قال أن تفاعل لا يكون الأمن اثنين ولا يكون إلا لازماً فقد غلط كما قال الطبليوسي في "شرح أدب الكاتب" إن أراد ذلك على الإطلاق وليت شعري كيف يصح ذلك مع أن مجيء تفاعل بمعنى فعل غير متعدد الفاعل كتواني زيد وتداني الأمر وتعالى الله عما يشركون كثير جداً وكذا مجيئه متعدياً إلى غير الذي فعل به مثل فعله كما سمعت وجوز أن يكون ضمير يتساءلون للناس عموماً سواء كانوا كفار مكة وغيرهم من المسلمين وسؤال

المسلمين ليزدادوا خشية وإيماناً وسؤال غيرهم استهزاء ليزدادوا كفراً وطغياناً وهو خلال ما يقتضيه ظاهر الآيات بعد وقيل كان التساؤل عن القرآن وتعقب بأن قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض ﴾ [النبأ : 6] ظاهر في أنه كان عن البعث وهو مروي عن قتادة أيضاً لأنه من أدلته وأجيب بأن تساؤلهم عنه واستهزاؤهم به واختلافهم فيه بأنه سحر أو شعر كان لاشتماله على الأخبار بالبعث فبعد أن ذلك ما يفيد استعظام التساؤل عنه تعرض لدليل ما هو منشأ لذلك التساؤل وفيه بعد وقوله تعالى :

(90/798)

﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ بيان لشأن المسؤل عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره وتوجيه أذهان السامعين نحوه وتنزيلهم منزلة المستفهمين فإن إيراده على طريقة الاستفهام من علام الغيوب للتنبيه على أنه لانقطاع قرينة وانعدام نظيره خارج عن دارة علوم الخلق خليق بأن يعتني بمعرفته ويسأل عنه كأنه قيل عن أي شيء يتساءلون هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب عن النبأ العظيم على منهاج ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] فعن متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه على ما قيل أن يقدر بعدها مسارعة إلى البيان ومراعاة لترتيب السؤال وإلى تعلقه بما ذكر ذهب الزجاج وهو الذي تقتضيه جزالة التنزيل

وقال مكي أن ذلك بدل من ما الاستفهامية بإعادة حرف الجر وتعقبه في "الكشف" بأنه لا يصح فإن معنى الأول عن النبأ العظيم أم عن غيره والبدل لا يطابقه أعيد الاستفهام أولاً وقال الخفاجي البدلية جائزة ولا يلزم إعادة الاستفهام لأنه غير حقيقي ولا أن يكون البدل عين الأول لجواز كونه بدل بعض وقيل هو متعلق ب ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ المذكور و ﴿ عَمَّ ﴾ متعلق بمضمر مفسر به وأيد ذلك بقراءة الضحاك ويعقوب وابن كثير في رواية عمه بهاء السكت ووجهه أنه على الوقف وهو يدل على أنه غير متعلق بالمذكور لأنه لا يحسن الوقف بين الجار والمجرور ومتعلقه لعدم تمام الكلام ولعل من ذهب إلى الأول يقول إن إلحاق الهاء مبني على إجراء الوصل مجرى الوقف وقيل عن الأولى للتعليل وهي والثانية متعلقتان بيتساءلون المذكور كأنه قيل عم يتساءلون أيتساءلون عن النبأ العظيم ووصف النبا وهو الخبر الذي له شأن بالعظيم لتأكيد خطره ووصفه بقوله سبحانه :

(91/798)

﴿ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ للمبالغة في ذلك والإشعار بمدار التساؤل عنه وفيه متعلق بمختلفون قدم عليه اهتماماً به ورعاية للفواصل وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة على الثبات أي هم راسخون في الاختلاف فيه فمن جازم باستحالته يقول ﴿ إن هي إلا حياتنا

الدنيا نموت ونحيا ﴾ [المؤمنون : 37] الخ وشاك يقول ﴿ ما ندري ما الساعة أن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] وقيل منهم من ينكر المعادين معاً كهؤلاء ومنهم من ينرك المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى وقد حمل الاختلاف على الاختلاف في كيفية الإنكار فمنهم من ينكره لإنكاره الصانع المختار تعالى شأنه ومنهم من ينكره بناء على استحالة إعادة المعدوم بعينه وقيل الاختلاف بالإقرار والإنكار أو بزيادة الخشية والاستهزاء على أن ضمير ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ وضميرهم للناس عامة وقيل يجوز أن يكون الاختلاف بالإقرار والإنكار على كون ضمير يتساءلون للكفار أيضاً بأن يجعل للسائلين والمسؤلين والكل كما ترى وإن تفاوتت مراتب الضعف والمعول عليه الأول وقال مفتي الديار الرومية الذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الدقيق أن يحمل اختلافهم في البعث على مخالفتهم للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يعتبر في الاختلاف محض صدور الفعل عن المتعدد حسبما قيل في التساؤل فإن الافتعال والتفاعل صيغتان متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل يجري في كل منهما ما يجري في الأخرى لا على مخالفة بعضهم لبعض على أن يكون كل من الجانبين مخالفاً اسم فاعل ومخالفاً اسم مفعول لأن الكل وإن استحق ما يذكر بعد من الردع والوعيد لكن استحقاق كل جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر إذ لا حقية في شيء منهما حتى يستحق من يخالفه المؤاخذة بل لمخالفته

عليه الصلاة والسلام فكأنه قيل الذي هو فيه مخالفون للنبي صلى الله عليه وسلم انتهى وفيه أنه خلاف الظاهر وما ذكره من التعليل لا يخلو عن شيء وقرأ عبد الله وابن

(92/798)

جبير تساءلون بغير ياء وشدة السين على أن أصله تتساءلون بتاء الخطاب فأدغمت التاء الثانية في السين .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن التساؤل على الوجهين المتقدمين فيه وقيل عنه وعن الاختلاف بمعنى مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر البعث وتعقب بأن الجملة التي تضمنته لم تقصد لذاتها فيبعد اعتبار الردع إلى ما فيها وقوله سبحانه : ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ وعيد لأولئك المتسائلين المستهزئين بطريق الاستئناف وتعليل للردع والسين للتقريب والتأكيد ومفعول يعلمون محذوف وهو ما يلاقونه من فنون الدواهي والعقوبات والتعبير عن لقائه بالعلم لوقوعه في معرض التساؤل والمعنى ليرتدعوا عما هم عليه فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال ومثل هذا تقدير المفعول جزاء التساؤل وقيل هو ما ينبىء عنه الظاهر وهو وقوع ما يتساءلون عنه على معنى سيعلمون ذلك فيخجلون من تساؤلهم واستهزائهم بين يدي ربهم عز وجل والألم يظهر كون ما ذكر وعيداً ومن جعل

ضمير يتساءلون للناس عامة جعل ما هنا من باب التغليب لأنه لغير المؤمنين بالبعث الجازمين به وجوز بعضهم كون كلا سيعلمون ردعاً ووعداً على الارتداع والمراد ليتردعوا فإنهم سيعلمون مثوبات الارتداع وأنت تعلم أن ذلك شائع في الوعيد وهو المتبادر منه في أمثال هذه المقامات وقوله تعالى :

(93/798)

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ قيل تكرير لما قبله من الردع والوعيد للمبالغة وثم للتفاوت في الرتبة فكأنه قيل لهم يوم القيامة ردع وعذاب شديدان بل لهم يومئذ أشد وأشد وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله فعطف عليه وابن مالك يقول في مثله إنه من التوكيد اللفظي وإن توسط حرف العطف فلا نغفل وقيل الأول إشارة إلى ما يكون عند النزع وخروج الروح من زجر ملائكة الموت عليهم السلام وملاقاة كربات الموت وشدائده وانكشاف الغطاء والثاني إشارة إلى ما يكون في القيامة من زجر ملائكة العذاب عليهم السلام وملاقاة شديدة العقاب ف ﴿ ثُمَّ ﴾ في محلها لما بينهما من البعد الزماني ولا تكرار فيه والظاهر أن العطف على هذا وما قبله على مجموع كلا سيعلمون وتوهم بعضهم من كلام بعض الأجلة أن العطف على سيعلمون وأورد عليه أن ثم إذا كانت للتراخي الزماني يلزم الفصل بين

المعطوف والمعطوف عليه بأجنبي بخلاف ما إذا كانت للتراخي الرتبي ووجه لدفع التخصيص بلا مخصص أنه على الثاني يفهم تفاوت الرتبة بين الردعين كتفاوتها بين الوعيدين لتبعية الردع للوعيد فلا تكون ﴿ كَلاَّ ﴾ الثانية أجنبية بخلاف الأول فإن التراخي إنما يتحقق فيما يتحقق فيه الزمان وليس هو إلا سيعلمون دون كلا فتكون هي أجنبية ثم قال ذلك المتوهم ولا يبعد أن يقال الردع الأول عن التساؤل والثاني عن الانكار أي الصريح وتفاوت ما بينهما يقتضي العطف بثم والكل كما ترى وقيل متعلق العلم في الأول البعث وفي الثاني الجزاء على إنكار وثم في محلها أي كلا سيعلمون حقية البعث إذا بعثوا ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ الجزاء على إنكاره إذا دخلوا النار وعوقبوا وجوز أن يكون المعلق مختلفاً وثم للتراخي الرتبي بأن يكون المعنى سيعلم الكفار أحوالهم ثم سيعلمون أحوال المؤمنين والأول إشارة إلى العذاب الجسماني والثاني إلى العذاب الروحاني الذي هو أشد وأخزى وأن يكون فاعل سيعلم في الموضعين مختلفاً بناء على

(94/798)

أن ضمير ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ للناس عامة وثم لذلك أيضاً بأن يكون المعنى سيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم ثم سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم فيكون الأول وعداً للمؤمنين والآخر

وعيداً للكافرين وهما متفاوتان رتبة ولا يخفى عليك ما في ذلك وقرأ مالك بن دينار وابن مقسم والحسن وابن عامر ستعلمون في الموضعين بالتاء الفوقية على نهج الالتفات إلى الخطاب الموافق لما بعده من الخطابات تشديد للردع والوعيد لا على تقدير قل لهم كلا ستعلمون الخ فإنه ليس بذاك وإن كان فيه نوع حسن على تقدير كون المراد يسألون النبي صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك أنه قرأ الأول بتاء الخطاب والثاني بياء الغيبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(95/798)

وقال ابن عاشور :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

افتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم ، افتتاح تشويقٍ ثم تهويل لما سيذكر بعده ، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الإِجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن . وإذ كان هذا الافتتاح مؤذناً بعظيم أمر كان مؤذناً بالتصدي لقول فصلٍ فيه ، ولمّا كان في ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضُهم يومئذ يُجعل افتتاحَ الكلام به من براعة الاستهلال .

ولفظ ﴿ عم ﴾ مركب من كلمتين هما حرف (عن) الجار و (مَا) التي هي اسم استفهام بمعنى : أيّ شيء ، ويتَعلق ﴿ عم ﴾ بفعل ﴿ يتساءلون ﴾ فهذا مركب .

وأصل ترتيبه : يتسَآءلون عَنْ ما ، فقدم اسم الاستفهام لأنه لا يقع إلا في صدر الكلام المستفهم به ، وإذ قد كان اسم الاستفهام مقترناً بحرف الجر الذي تعدى به الفعل إلى اسم الاستفهام وكان الحرف لا ينفصل عن مجروره قُدِّما معاً فصار ﴿ عَمَّا يتساءلون ﴾ .

وقد جرى الاستعمال الفصيح على أن (ما) الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر يحذف الألف المختومة هي به تفرقةً بينها وبين (مَا) الموصولة .

وعلى ذلك جرى استعمال نُطقهم ، فلما كتبوا المصاحف جروا على تلك التفرقة في النطق فكتبوا (ما) الاستفهامية بدون ألف حيثما وقعت مثل قوله تعالى : ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ [النازعات : 43] ﴿ فبم تبشرون ﴾ [الحجر : 54] ﴿ لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] ﴿ عم يتساءلون ﴾ ﴿ مم خلق ﴾ [الطارق : 5] فلذلك لم يقرأها أحد بإثبات الألف إلا في الشاذّ .

(96/798)

ولما بقيت كلمة (ما) بعد حذف ألفها على حرف واحد جَرَوْا في رسم المصحف على أن ميمها الباقية تكتب متصلة بحرف (عن) لأن (مَا) لما حذف ألفها بقيت على حرف واحد فأشبه حروف التهجّي ، فلما كان حرف الجر الذي قبل (ما) مختوماً بنون والتقتِ النون مع ميم (مَا) ، والعرب ينطقون بالنون الساكنة التي بعدها ميم ميماً ويدغمونها فيها ، فلما حذفت النون في النطق جرى رسمهم على كتابة الكلمة محذوفة النون تبعاً للنطق ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مِمَّ خلق ﴾ وهو اصطلاح حسن .

والتساؤل : تفاعل وحقيقة صيغة التفاعل تفيد صدور معنى المادة المشتقة منها من الفاعل إلى المفعول وصدور مثله من المفعول إلى الفاعل ، وتَرد كثيراً لإفادة تكرر وقوع ما اشتقت منه نحو قولهم : سَاءَلَ ، بمعنى : سأل ، قال النابغة:

أُسائل عن سُعدَى وقد مرَّ بعدنا . . .

على عَرصات الدار سبع كوامل

وقال رويشد بن كثير الطائي:

يَا أيُّها الراكب المزجي مطيته . . .

سَائِلْ بني أسد ما هذه الصوت

وتجيء لإفادة قوة صدور الفعل من الفاعل نحو قولهم : عافاك الله ، وذلك إما كناية أو مجاز ومَحملهُ في الآية على جواز الاحتمالات الثلاثة وذلك من إرادة المعنى الكنائي مع المعنى

الصريح ، أو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، وكلا الاعتبارين صحيح في الكلام البليغ فلا وجه لمنعه .

فيجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها بأن يسأل بعضهم بعضاً سؤال متطلع للعلم لأنهم حينئذ لم يزالوا في شك من صحة ما أنبئوا به ثم استقر أمرهم على الإِنكار .

ويجوز أن تكون مستعملة في المجاز الصوري يتظاهرون بالسؤال وهم موقنون بانتفاء وقوع ما يتساءلون عنه على طريقة استعمال فعل (يحذر) في قوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ﴾ [التوبة : 64] فيكونون قصدوا بالسؤال الاستهزاء .

وذهب المفسرون فريقين في كلتا الطريقتين يُرجِّحُ كلٌّ فريق ما ذهب إليه .

(97/798)

والوجه حمل الآية على كلتيهما لأن المشركين كانوا متفاوتين في التكذيب ، فعن ابن عباس : "لما نزل القرآن كانت قريش يتحدثون فيما بينهم فمنهم مصدق ومنهم مكذب" .

وعن الحسن وقتادة مثل قول ابن عباس ، وقيل : هو سؤال استهزاء أو تعجب وإنما هم موقنون بالتكذيب .

فأما التساؤل الحقيقي فأنْ يَسْأَلَ أحد منهم غيره عن بعض أحوال هذا النبأ فيسأل المسؤولُ

سائله سؤالاً عن حال آخرَ من أحوال النبأ ، إذ يخطر لكل واحد في ذلك خاطر غيرُ الذي خطر للآخر فيسأل سؤال مستثبت ، أو سؤال كشف عن معتقَده ، أو ما يُوصَف به المخبر بهذا النبأ كما قال بعضهم لبعض : ﴿ أفْتَرى على الله كذباً أم به جنة ﴾ [سبأ : 8] وقال بعض آخر : ﴿ أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمُخرَجون ﴾ إلى قوله : ﴿ إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [النمل : 67 ، 68] .

وأما التساؤل الصوري فأن يسأل بعضهم بعضاً عن هذا الخبر سؤال تهكم واستهزاء فيقول أحدهم : هل بلغك خبر البعث ؟ ويقول له الآخر : هل سمعتَ ما قال ؟ فإطلاق لفظ التساؤل حقيقي لأنه موضوع لمثل تلك المساءلة وقصدُهم منه غير حقيقي بل تهكمي .

والاستفهام بما في قوله : ﴿ عم يتساءلون ﴾ ليس استفهاماً حقيقياً بل هو مستعمل في التشويق إلى تلقي الخبر نحو قوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين ﴾ [الشعراء : 221] .

والموجَّه إليه الاستفهام من قبيل خطاب غير المعين .

وضمير ﴿ يتساءلون ﴾ يجوز أن يكون ضميرَ جماعة الغائبين مراداً به المشركون ولم يسبق لهم ذكر في هذا الكلام ولكن ذكرهم متكرر في القرآن فصاروا معروفين بالقصد من بعض ضمائره ، وإشاراته المبهمة ، كالضمير في قوله تعالى : ﴿ حتى توارتْ بالحجاب ﴾ [ص

: 32] (يعني الشمس) ﴿ كلا إذا بلغتْ التراقيَ ﴾ [القيامة : 26] (يعني الروح) ، فإن جعلت الكلام من باب الالتفات فالضمير ضميرُ جماعة المخاطبين .

(98/798)

ولما كان الاستفهام مستعملاً في غير طلب الفهم حَسن تعقيبه بالجواب عنه بقوله : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ فجوابه مستعملة بياناً لما أريد بالاستفهام من الإجمال لقصد التفخيم فبُيِّن جانب التفخيم ونظيره قوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تَنَزَّلَ على كل أفّاك أثيم ﴾ [الشعراء : 221 ، 222] ، فكأنه قيل : هم يتساءلون عن النبأ العظيم

ومنه قول حسان بن ثابت:

لمن الدار أقفرت بمعان . . .

بين أعلى اليرموك والصُّمّان

ذاك مَغنى لآل جَفْنةَ في الده . . .

روحَقٌّ تقلُّب الأزمان

والنَّبَأ : الخَبَر ، قيل : مطلقاً فيكون مرادفاً للَفْظِ الخبر ، وهو الذي جرى عليه إطلاق "القاموس" و"الصحاح" و"اللسان" .

وقال الراغب : "النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ويكون صادقاً" ا ه .

وهذا فرق حسن ولا أحسب البلغاء جَروا إلاّ على نحو ما قال الراغب فلا يقال للخبر عن الأمور المعتادة : نبأ وذلك ما تدل عليه موارد استعمال لفظ النبأ في كلام البلغاء ، وأحسب أن الذين أطلقوا مرادفة النبأ للخبر راعَوا ما يقع في بعض كلام الناس من تسامح بإطلاق النبأ بمعنى مطلق الخبر لضرب من التأويل أو المجاز المرسل بالإطلاق والتقييد ، فكثر ذلك في الكلام كثرة عسر معها تحديد مواقع الكلمتين ولكنْ أبلغُ الكلام لا يليق تخريجه إلا على أدق مواقع الاستعمال .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبإِيْ المرسلين ﴾ في سورة الأنعام (34)

وقوله : ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ [ص : 67 ، 68] .

والعظيم حقيقته : كبير الجسم ويستعار للأمر المهم لأن أهمية المعنى تتخيّل بكبر الجسم في أنها تقع عند مدركها كمرأى الجسم الكبير في مرأى العين وشاعَت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة .

ووصف ﴿ النبأ ﴾ بـ ﴿ العظيم ﴾ هنا زيادة في التنويه به لأن كونه وارداً من عالِم الغيب زاده عظمَ أوصاف وأهوال ، فوصف النبأ بالعظيم باعتبار ما وُصف فيه من أحوال البعث في ما نزل من آيات القرآن قبلَ هذا .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ في سورة ص (67 ، 68) .

والتعريف في النبأ ﴾ تعريف الجنس فيشمل كل نبأ عظيم أنبأهم الرسول صلى الله عليه وسلم به ، وأول ذلك إنباؤه بأن القرآن كلام الله ، وما تضمنه القرآن من إبطال الشرك ، ومن إثبات بعث الناس يوم القيامة ، فما يروى عن بعض السلف من تعيين نبأ خاص يُحمل على التمثيل .

فعن ابن عباس : هو القرآن ، وعن مجاهد وقتادة : هو البعث يوم القيامة .

وسَوق الاستدلال بقوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ إلى قوله : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ [النبأ : 16] يدل دلالة بينة على أن المراد من ﴿ النبأ العظيم ﴾ الإنباء بأن الله واحد لا شريك له .

وضمير ﴿ هم فيه مختلفون ﴾ يَجري فيه الوجهان المتقدمان في قوله : ﴿ يتساءلون ﴾ .

واختلافهم في النبأ اختلافهم فيما يصفونه به ، كقول بعضهم : ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] وقول بعضهم : هذا كلام مجنون ، وقول بعضهم : هذا كذب ، وبعضهم

: هذا سحر ، وهم أيضاً مختلفون في مراتب إنكاره .

فمنهم من يقطع بإنكار البعث مثل الذين حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ [سبأ : 7 8] ، ومنهم من يشكّون فيه كالذين حكى الله عنهم بقوله : ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] على أحد التفسيرين .

وجيء بالجملة الإسمية في صلة الموصول دون أن يقول : الذي يَختلفون فيه أو نحو ذلك ، لتفيد الجملة الإسمية أن الاختلاف في أمر هذا النبأ متمكن منهم ودائم فيهم لدلالة الجملة الإسمية على الدوام والثبات .

(100/798)

وتقديم ﴿ عنه ﴾ على ﴿ معرضون ﴾ [ص : 68] للاهتمام بالمجرور وللإشعار بأن الاختلاف ما كان من حقه أن يتعلق به ، مع ما في التقديم من الرعاية على الفاصلة .

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4)

﴿ كلا ﴾ حرف ردع وإبطال لشيء يسبقه غالباً في الكلام يقتضي ردع المنسوب إليه

وإبطال ما نسب إليه ، وهو هنا ردع للذين يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون على ما يحتمله التساؤل من المعاني المتقدمة ، وإبطال لما تضمنته جملة ﴿ يتساءلون ﴾ [النبأ : 1] من تساؤل معلوم للسامعين .

فموقع الجملة موقع الجواب عن السؤال ولذلك فصلت ولم تعطف لأن ذلك طريقة السؤال والجواب .

والكلام وإن كان إخباراً عنهم فإنهم المقصودون به فالردع موجه إليهم بهذا الاعتبار .

والمعنى : إبطال الاختلاف في ذلك النبأ وإنكار التساؤل عنه ذِلك التساؤُل الذي أرادوا به الاستهزاء وإنكار الوقوع ، وذلك يُثبت وقوع ما جاء به النبأ وأنه حق لأن إبطال إنكار وقوعه يفضي إلى إثبات وقوعه .

والغالب في استعمال ﴿ كلاّ ﴾ أن تعقّب بكلام يبيّن ما أجملتْه من الردع والإِبطال فلذلك عقبت هنا بقوله : ﴿ سيعلمون ﴾ وهو زيادة في إبطال كلامهم بتحقيق أنهم سيوقنون بوقوعه ويعاقَبون على إنكاره ، فهما علمان يحصلان لهم بعد الموت : علم بحق وقوعِ البعث ، وعلمٌ في العقاب عليه .

ولذلك حذف مفعول ﴿ سيعلمون ﴾ ليعُمّ المعلومَيْن فإنهم عند الموت يرون ما سيصيرون إليه فقد جاء في الحديث الصحيح " إن الكافر يرى مقعده فيقال له هذا مقعدك حتى تبعث " وفي الحديث : " القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حُفر النار " وذلك

من مشاهد رُوح المقبور وهي من المكاشفات الروحية وفسر بها قوله تعالى : ﴿ لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ﴾ [التكاثر : 6 ، 7] .

فتضمن هذا الإبطال وما بعده إعلاماً بأن يوم البعث واقع ، وتضمن وعيداً وقد وقع تأكيده بحرف الاستقبال الذي شأنه إفادة تقريب المستقبل .

(101/798)

ومن محاسن هذا الأسلوب في الوعيد أن فيه إيهاماً بأنهم سيعلمون جواب سؤالهم الذي أرادوا به الإحالة والتهكم ، وصوروه في صورة طلب الجواب فهذا الجواب من باب قول الناس : الجوابُ ما ترى لا ما تسمع .

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)

ارتقاء في الوعيد والتهديد فإن ﴿ ثم ﴾ لما عَطفتَ الجملة فهي للترتيب الرتبي ، وهو أن مدلول الجملة التي بعدها أرقى رتبة في الغرض من مضمون الجملة التي قبلها ، ولما كانت الجملة التي بعد ﴿ ثم ﴾ مثل الجملة التي قبل ﴿ ثم ﴾ تعيّن أن يكون مضمون الجملة التي بعد ﴿ ثم ﴾ أرقى درجة من مضمون نظيرها .

ومعنى ارتقاء الرتبة أن مضمون ما بعد ﴿ ثم ﴾ أقوى من مضمون الجملة التي قبل ﴿ ثم

﴾ ، وهذا المضمون هو الوعيد ، فلما استفيد تحقيق وقوع المتوعد به بما أفاده التوكيد اللفظي إذ الجملة التي بعد ﴿ ثم ﴾ أكدت الجملة التي قبلها تعيّن انصراف معنى ارتقاء رتبة معنى الجملة الثانية هو أن المتوعد به الثاني أعظم مما يحسبون .

وضمير ﴿ سيعلمون ﴾ في الموضعين يجري على نحو ما تقدم في ضمير ﴿ يتساءلون ﴾ [النبأ : 1] وضمير ﴿ فيه مختلفون ﴾ [النبأ : 3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(102/798)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حقق لهم أمره تحقيق من هو على غاية الوثوق بما يقول ، دل على ذلك بما لا يحتمل شكاً

ولا وقفة أصلاً ، فقال مقرراً لهم ومنكراً عليهم التساؤل بما ندب إليه من التأمل وقرر به من النظر في باهر آياته وغرائب مخلوقاته التي أبدعها من العدم دلالة تامة عظمية على كمال القدرة مع تمام الحكمة الموجب للقطع بكل ما نبهت عليه الرسل من الشرائع والبعث والجزاء بادئاً بما هم له أشد ملابسة وهو الظرف : ﴿ ألم نجعل ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ الأرض مهاداً ﴾ أي فراشاً لكم موطئاً مذللاً يمكن الاستقرار عليه لتتصرفوا فيها كما شئتم ﴿ والجبال ﴾ أي تعرفون شدتها وعظمتها وعجزكم عن أقل شيء من أمورها ﴿ أوتاداً ﴾ تثبتها كما أن البيت لا يثبت إلا بأوتاده ، قال الأفوه الأودي :

والبيت لا يبتنى إلا له عمد . . .

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وذلك لئلا تميد بكم فإنها معلقة على فضاء العلم ممسكة بيد القدرة ، فلولا الجبال لعظم ثقلها لأنها بمنزلة السفينة العالية الفارغة على متن البحر فهي في غاية الحركة لا سيما إذا عظمت الريح فإنها حينئذ لا يستقر عليها قائم ولا يثبت قاعد ولا نائم ، فالجبال بمنزلة الأمتعة الثقيلة التي تنزلها في الماء فتحفظ عن كثرة التقلب فكيف يصح بوجه أن يتوقف في إخبار من هذه قدرته لا سيما إذا كان ذلك المخبر به مما ركز سبحانه أمره في الفطر الأولى وقرر صحته في العقول التقرير الأوضح الأجلى .

ولما ذكر بما في الظرف الذي هو فرشهم من الدلالة على تمام القدرة ، أتبعه التذكير بما في المظروف وهو أنفسهم لتجتمع آيات الأنفس والآفاق فيتبين لهم أنه الحق فقال :

﴿ وخلقناكم ﴾ أي بما دل على ذلك من مظاهر العظمة ﴿ أزواجاً ﴾ طوالاً وقصاراً وحساناً ودماماً وذكراناً وإناثاً لجميع أصنافكم على تباعد أقطارهم وتنائي ديارهم لتدوم أنواعكم إلى الوقت الذي يكون فيه انقطاعكم .

ولما ذكر ما هو سبب لبقاء النوع ، ذكر ما هو سبب لحفظه من إسراع الفساد فقال :

﴿ وجعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ نومكم ﴾ الذي ركبنا البدن على قبوله ﴿ سباتاً ﴾ أي قطعاً عن الإحساس والحركة التي أتعبتكم في نهاركم مع الامتداد والاسترسال إراحة للقوى الحيوانية والحواس الجثمانية وإزاحة لكلالها مع أنه قاطع لكمال الحياة ، فهو مذكر بالموتة الكبرى والاستيقاظ مذكر بالعبث ، قال الزجاج : السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه .

ولما ذكر النوم ، اتبعه وقته الأليق به مذكراً بنعمة الظرف الزماني بعد التذكير بالظرف المكاني ، فقال دالاً بمظهر العظمة على عظمه : ﴿ وجعلنا الّيل ﴾ أي بعد ذهاب الضياء حتى كأنه لم يكن ﴿ لباساً ﴾ أي غطاء وغشاء ساتراً بظلمته ما أتى عليه عن العيون كما يستره اللباس لتسكنوا فيه عن المعاش ﴿ وجعلنا النهار ﴾ أي الذي آيته الشمس

﴿ معاشاً ﴾ أي وقتاً للتقلب الذي هو من أسباب التحصيل الذي هو من أسباب المعاش ، وهو العيش ووقته وموضعه ، مظهراً لما ستره الليل ، فالآية من الاحتباك : ذكر اللباس أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً والمعاش ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً .

(104/798)

ولما ذكر المهاد وما فيه ، أتبعه السقف الذي بدورانه يكون الوقت الزمان وما يحويه من القناديل الزاهرة والمنافع الظاهرة لإحياء المهاد ومن فيه من العباد فقال : ﴿ وبنينا ﴾ أي بناء عظيماً ﴿ فوقكم ﴾ أي عاماً لجميع جهة الفوق ، وهي عبارة تدل على الإحاطة ﴿ سبعاً ﴾ أي من السماوات ﴿ شداداً ﴾ أي هي في غاية القوة والإحكام ، لا صدع فيها ولا فتق ، لا يؤثر فيها كر العصور ولا مر الدهور ، حتى يأتي أمر الله بإظهار عظائم المقدور .

ولما ذكر السقف : ذكر بعض ما فيه من أمهات المنافع فقال دالا بمظهر العظمة على عظمها : ﴿ وجعلنا ﴾ أي مما لا يقدر عليه غيرنا ﴿ سراجاً ﴾ أي نجماً منيراً جداً ﴿ وهاجاً ﴾ أي هو مع تلألئه وشدة ضيائه حار مضطرم الاتقاد وهو الشمس ، من قولهم : وهج الجوهر : تلألأ ، والجمر : اتقد .

ولما ذكر ما يمحق الرطوبة بحرارته ، أتبعه ما يطفىء الحرارة برطوبته وبرودته فينشأ عنه المأكل والمشرب ، التي بها تمام الحياة ويكون تولدها من الظرف بالمهاد والسقف ، وجعل ذلك أشبه شيء بما يتولد بين الزوجين من الأولاد ، فالسماء كالزوج والأرض كالمرأة ، والماء كالمني ، والنبات من النجم والشجر كالأولاد فقال : ﴿ وأنزلنا ﴾ أي مما يعجز غيرنا ﴿ من المعصرات ﴾ أي السحائب التي أثقلت بالماء فشارفت أن يعصرها الرياح فتمطر كما حصد الزرع - إذا حان له أن يحصد ، قال الفراء : المعصر ، السحابة التي تتحلى بالمطر ولا تمطر كالمرأة المعصرة وهي التي دنا حيضها ولم تحض ، وقال الرازي : السحائب التي دنت أن تمطر كالمعصرة التي دنت من الحيض ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ أي منصباً بكثرة يتبع بعضه بعضاً ، يقال : ثجه وثج بنفسه .

(105/798)

ولما ذكر بدايته ، أتبعها نهايته فقال : ﴿ لنخرج ﴾ أي بعظمتنا التي ربطنا بها المسببات بالأسباب ﴿ به ﴾ أي الماء تسبيباً ﴿ حباً ﴾ أي نجماً ذا حب هو مقصوده لأنه يقتاته العباد ، صرح به لأنه المقصود وبدأ به لأنه القوت الذي به البقاء كالحنطة والشعير وغيرهما ﴿ ونباتاً ﴾ يتفكهون ويتنزهون فيه وتعتلفه البهائم .

ولما كان من المشاهد الذي لا يسوغ إنكاره أن في الأرض من البساتين ما يفوت الحصر ، عبر بجمع القلة تحقيراً له بالنسبة إلى باهر العظمة ونافذ الكلمة فقال : ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين تجمع أنواع الأشجار والنبات المقتات وغيره ﴿ ألفافاً ﴾ أي ملتفة الأشجار مجتمعة بعضها إلى بعض من شدة الري ، جمع لف كجذع ، قال البغوي : وقيل : هو جمع الجمع ، يقال : جنة لفاء ، وجمعها لف – بضم اللام ، وجمع الجمع ألفاف .

وتضمن هذا الذي ذكره المياه النابعة الجارية والواقفة ، فاكتفى بذكره عن ذكرها ، قال مقاتل : وكل من هذا الذي ذكر أعجب من البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 297.299 ﴾

(106/798)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم إنكار البعث والحشر ، وأراد إقامة الدلالة على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع

المعلومات ، وذلك لأنه مهما ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث ، وإنما أثبت هذين الأصلين بأن عدد أنواعاً من مخلوقاته الواقعة على وجه الإحكام والإتقان ، فإن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة ، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم ، ومتى ثبت هذان الأصلان وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض ، ثبت لا محالة كونه تعالى قادراً على تخريب الدنيا بسمواتها وكواكبها وأرضها ، وعلى إيجاد عالم الآخرة ، فهذا هو الإشارة إلى كيفية النظم .

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا من عجائب مخلوقاته أموراً فأولها : قوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا ﴾ والمهاد مصدر ، ثم ههنا احتمالات أحدها : المراد منه ههنا الممهود ، أي ألم نجعل الأرض ممهودة وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر ، كقولك هذا ضرب الأمير وثانيها : أن تكون الأرض وصفت بهذا المصدر ، كما تقول : زيد جود وكرم وفضل ، كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة وثالثها : أن تكون بمعنى ذات مهاد ، وقرىء مهداً ، ومعناه أن الأرض للخلق كالمهد للصبي ، وهو الذي مهد له فينوم عليه .

واعلم أنا ذكرنا في تفسير سورة البقرة عند قوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً ﴾ [البقرة : 22] كل ما يتعلق من الحقائق بهذه الآية .

وثانيها قوله تعالى :

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)

أي للأرض (كي) لا تميد بأهلها ، فيكمل كون الأرض مهاداً بسبب ذلك قد تقدم أيضاً .

وثالثها قوله تعالى :

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8)

(107/798)

وفيه قولان : الأول : المراد الذكر والأنثى كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] ، والثاني : أن المراد منه كل زوجين و (كل) متقابلين من القبيح والحسن والطويل والقصير وجميع المتقابلات والأضداد ، كما قال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] وهذا دليل ظاهر على كمال القدرة ونهاية الحكمة حتى يصح الابتلاء والامتحان ، فيتعبد الفاضل بالشكر والمفضول بالصبر ويتعرف حقيقة كل شيء بضده ، فالإنسان إنما يعرف قدر الشباب عند الشيب ، وإنما يعرف قدر الأمن عند الخوف ، فيكون ذلك أبلغ في تعريف النعم .

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9)

(108/798)

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ طعن بعض الملاحدة في هذه الآية فقالوا : السبات هو النوم ، والمعنى : وجعلنا نومكم نوماً ، واعلم أن العلماء ذكروا في التأويل وجوهاً أولها : قال الزجاج : ﴿ سُبَاتاً ﴾ موتاً والمسبوت الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة ودليله أمران إحداهما : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] إلى قوله : ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ﴾ [الأنعام : 60] والثاني : أنه لما جعل النوم موتاً جعل اليقظة معاشاً ، أي حياة في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [النبأ : 11] وهذا القول عندي ضعيف لأن الأشياء المذكورة في هذه الآية جلائل النعم ، فلا يليق الموت بهذا المكان وأيضاً ليس المراد بكونه موتاً ، أن الروح انقطع عن البدن ، بل المراد منه انقطاع أثر الحواس الظاهرة ، وهذا هو النوم ، ويصير حاصل الكلام إلى : إنا جعلنا نومكم نوماً وثانيها : قال الليث : السبات النوم شبه الغشي يقال سبت المريض فهو مسبوت ، وقال أبو عبيدة : السبات الغشية التي تغشى الإنسان شبه الموت ، وهذا القول أيضاً ضعيف ، لأن الغشي ههنا إن كان النوم فيعود الإشكال ، وإن كان المراد بالسبات شدة ذلك الغشي فهو باطل ، لأنه ليس كل نوم كذلك ولأنه مرض فلا يمكن ذكره في أثناء تعديد النعم وثالثها : أن السبت في أصل اللغة هو القطع يقال سبت الرجل رأسه يسبته سبتاً إذا حلق شعره ، وقال

ابن الأعرابي في قوله : ﴿ سُبَاتاً ﴾ أي قطعاً ثم عند هذا يحتمل وجوهاً الأول : أن يكون المعنى : وجعلنا نومكم نوماً متقطعاً لا دائماً ، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء .

(109/798)

أما دوامه فمن أضر الأشياء ، فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره الله تعالى في معرض الإنعام الثاني : أن الإنسان إذا تعب ثم نام ، فذلك النوم يزيل عنه ذلك التعب ، فسميت تلك الإزالة سبتاً وقطعاً ، وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي راحة ، وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة ، بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله ، فحينئذ تحصل الراحة الثالث : قال المبرد : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي جعلناه نوماً خفيفاً يمكنكم دفعه وقطعه ، تقول العرب : رجل مسبوت إذا كان النوم يغالبه وهو يدافعه ، كأنه قيل : وجعلنا نومكم نوماً لطيفاً يمكنكم دفعه ، وما جعلناه غشياً مستولياً عليكم ، فإن ذلك من الأمراض الشديدة ، وهذه الوجوه كلها صحيحة .

وخامسها قوله تعالى :

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10)

قال القفال : أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به ، فيكون ذلك مغطياً

له ، فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته فيغطيهم جعل لباساً لهم ، وهذا السبت سمي الليل لباساً على وجه المجاز ، والمراد كون الليل ساتراً لهم .

وأما وجه النعمة في ذلك ، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو ، أو بياتاً له ، أو إخفاء مالا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه ، قال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندي من يد . . تخبر أن المانوية تكذب

وأيضاً فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان ، وفي طراوة أعضائه وفي تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني ، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية ، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة .

وسادسها قوله تعالى :

وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11)

(110/798)

في المعاش وجهان أحدهما : أنه مصدر يقال : عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة ، وعلى هذا التقدير فلا بد فيه من إضمار ، والمعنى وجعلنا النهار وقت معاش

والثاني : أن يكون معاشاً مفعلاً وظرفاً للتعيش ، وعلى هذا لا حاجة إلى الإضمار ، ومعنى كون النهار معاشاً أن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار لا في الليل .

وسابعها قوله تعالى :

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12)

أي سبع سموات شداداً جمع شديدة يعني محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج ، ونظيره ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] فإن قيل لفظ البناء يستعمل في أسافل البيت والسقف في أعلاه فكيف قال : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً ﴾ ؟ قلنا البناء يكون أبعد من الآفة والانحلال من السقف ، فذكر قوله : ﴿ وَبَنَيْنَا ﴾ إشارة إلى أنه وإن كان سقفاً لكنه في البعد عن الانحلال كالبناء ، فالغرض من اختيار هذا اللفظ هذه الدقيقة .

وثامنها قوله تعالى :

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13)

وثامنها : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ كلام أهل اللغة مضطرب في تفسير الوهاج ، فمنهم من قال الوهج مجمع النور والحرارة ، فبين الله تعالى أن الشمس بالغة إلى أقصى الغايات في هذين الوصفين ، وهو المراد بكونها وهاجاً ، وروى الكلبي عن ابن

عباس أن الوهاج مبالغة في النور فقط ، يقال للجوهر إذا تلألأ توهج ، وهذا يدل على أن الوهاج يفيد الكمال في النور ، ومنه قول الشاعر يصف النور :

نوارها متباهج يتوهج . . وفي كتاب الخليل : الوهج ، حر النار والشمس ، وهذا يقتضي أن الوهاج هو البالغ في الحر واعلم أن أي هذه الوجود إذا ثبت فالمقصود حاصل .

(111/798)

أما المعصرات ففيها قولان : الأول : وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ، وقول مجاهد ، ومقاتل والكلبي وقتادة إنها الرياح التي تثير السحاب ودليله قوله تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] فإن قيل على هذا التأويل كان ينبغي أن يقال وأنزلنا بالمعصرات ، قلنا : الجواب : من وجهين الأول : أن المطر إنما ينزل من السحاب ، والسحاب إنما يثيره الرياح ، فصح أن يقال هذا المطر إنما حصل من تلك الرياح ، كما يقال هذا من فلان ، أي من جهته وبسببه الثاني : أن من ههنا بمعنى الباء والتقدير ، وأنزلنا بالمعصرات أي بالرياح المثيرة للسحاب ويروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعكرمة أنهم قرأوا (وأنزلنا بالمعصرات) وطعن الأزهري في هذا القول ، وقال الأعاصير من الرياح ليست من رياح المطر ، وقد وصف الله تعالى المعصرات بالماء الشجاج وجوابه :

أن الإعصار ليست من رياح المطر ، فلم لا يجوز أن تكون المعصرات من رياح المطر ؟ القول الثاني : وهو الرواية الثانية عن ابن عباس واختيار أبي العالية والربيع والضحاك أنها السحاب ، وذكروا في تسمية السحاب بالمعصرات وجوهاً أحدها : قال المؤرخ : المعصرات السحائب بلغة قريش وثانيها : قال المازني يجوز أن تكون المعصرات هي السحائب ذوات الأعاصير فإن السحائب إذا عصرتها الأعاصير لا بد وأن ينزل المطر منها وثالثها : أن المعصرات هي السحائب التي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك : أجز الزرع إذا حان له أن يجز ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض ، وأما الثجاج فاعلم أن الثج شدة الانصباب يقال : مطر ثجاج ودم ثجاج أي شديد الانصباب .

(112/798)

واعلم أن الثج قد يكون لازماً ، وهو بمعنى الانصباب كما ذكرنا ، وقد يكون متعدياً بمعنى الصب وفي الحديث " أفضل الحج العج والثج " أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس مثجاً أي يثج الكلام ثجاً في خطبته وقد فسروا الثجاج في هذه الآية على الوجهين ، وقال الكلبي ومقاتل وقتادة الثجاج ههنا المتدفق المنصب ، وقال الزجاج معناه الصباب كأنه يثج نفسه أي يصب .

وبالجملة فالمراد تتابع القطر حتى يكثر الماء فيعظم النفع به .

وفي الآية مسائل : المسألة الأولى :

كل شيء نبت من الأرض فإما أن لا يكون له ساق وإما أن يكون ، فإن لم يكن له ساق فإما أن يكون له أكمام وهو الحب وإما أن لا يكون له أكمام وهو الحشيش وهو المراد ههنا بقوله : ﴿ ونباتاً ﴾ وإلى هذين القسمين الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ [طه : 54] وأما الذي له ساق فهو الشجر فإذا اجتمع منها شيء كثير سميت جنة ، فثبت بالدليل العقلي انحصار ما ينبت في الأرض في هذه الأقسام الثلاثة ، وإنما قدم الله تعالى الحب لأنه هو الأصل في الغذاء ، وإنما ثنى بالنبات لاحتياج سائر الحيوانات إليه ، وإنما أخر الجنات في الذكر لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية .

المسألة الثانية :

اختلفوا في ألفافاً ، فذكر صاحب "الكشاف" أنه لا واحد له كالأوزاع والأخياف ، والأوزاع الجماعات المتفرقة والأخياف الجماعات المختلطة .

وكثير من اللغويين أثبتوا له واحداً ، ثم اختلفوا فيه ، فقال الأخفش والكسائي : واحدها لف بالكسر ، وزاد الكسائي : لف بالضم ، وأنكر المبرد الضم ، وقال : بل واحدها لفاء .

وجمعها لف ، وجمع لف ألفاف ، وقيل يحتمل أن يكون لفيف كشريف وأشراف نقله القفال رحمه الله ، إذا عرفت هذا فنقول قوله : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي ملتفة ، والمعنى أن كل جنة فإن ما فيها من الشجر تكون مجتمعة متقاربة ، ألا تراهم يقولون امرأة لفاء إذا كانت غليظة الساق مجتمعة اللحم يبلغ من تقاربه أن يتلاصق .

المسألة الثالثة :

كان الكعبي من القائلين بالطبائع ، فاحتج بقوله تعالى : ﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ﴾ وقال : إنه يدل على بطلان قول من قال إن الله تعالى لا يفعل شيئاً بواسطة شيء آخر .

اعلم أن التسعة التي عددها الله تعالى نظراً إلى حدوثها في ذواتها وصفاتها ، ونظراً إلى إمكانها في ذواتها وصفاتها تدل على القادر المختار ، ونظراً إلى ما فيها من الإحكام والإتقان تدل على أن فاعلها عالم ، ثم أن ذلك الفاعل القديم يجب أن يكون علمه وقدرته واجبين ، إذ لو كانا جائزين لافتقر إلى فاعل آخر ويلزم التسلسل وهو محال ، وإذا كان العلم والقدرة واجبين وجب تعلقهما بكل ما صح أن يكون مقدوراً ومعلوماً وإلا لافتقر إلى المخصص وهو محال ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات ، وقد ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة في الجسمية فكل ما صح على واحد منها صح على الآخر ، فكما يصح على الأجسام السلفية الانشقاق والانفطار

والظلمة وجب أن يصح ذلك على الأجسام ، وإذا ثبت الإمكان وثبت عموم القدرة والعلم ، ثبت أنه تعالى قادر على تخريب الدنيا ، وقادر على إيجاد عالم آخر ، وعند ذلك ثبت أن القول بقيام القيامة ممكن عقلاً وإلى هنا يمكن إثباته بالعقل ، فأما ما وراء ذلك من وقت حدوثها وكيفية حدوثها فلا سبيل إليه إلا بالسمع ، ثم إنه تعالى تكلم في هذه الأشياء بقوله : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 6 . 10 ﴾

(114/798)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

أصل ﴿ عم ﴾ " عن ما " ، ثم أدغمت النون بعد قلبها فبقي " عما " في الخبر والاستفهام ، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر ، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول : " عم " ، وهذا الاستفهام ب ﴿ عم ﴾ هو استفهام توقيف وتعجب منهم ، وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود وعكرمة وعيسى : " عما " بالألف ، وقرأ الضحاك : " عمه " بهاء ، وهذا إنما يكون عند الوقف . و ﴿ النبإ العظيم ﴾ قال ابن عباس وقتادة هو الشرع

الذي جاء به محمد ، وقاله مجاهد وقتادة : هو القرآن خاصة ، وقال قتادة أيضاً : هو البعث من القبور ، ويحتمل الضمير في ﴿ يتساءلون ﴾ أن يريد جميع العالم فيكون الاختلاف حينئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات الملحدين ، ويحتمل أن يراد بالضمير الكفار من قريش ، فيكون الاختلاف شك بعض وتكذيب بعض . وقولهم سحر وكهانة وشعر وجنون وغير ذلك ، وقال أكثر النحاة قوله : ﴿ عن النبإ العظيم ﴾ ، متعلق ب ﴿ يتساءلون ﴾ الظاهر كأنه قال : لم يتساءلون عن هذا النبأ ، وقال الزجاج : الكلام تام في قوله : ﴿ عم يتساءلون ﴾ ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول : يتساءلون ﴿ عن النبإ العظيم ﴾ ، فاقتضى إيجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذي تقتضيه الحال والمجاورة اقتضاباً للحجة وإسراعاً إلى موضع قطعهم ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد ﴾ [الأنعام : 19] وأمثلة كثيرة ، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها ، وقرأ السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعمش : "كلا سيعلمون " بالياء في الموضعين على ذكر الغائب ، فظاهر الكلام أنه رد على الكفار في تكذيبهم وعيد لهم في المستقبل وكرر الزجر تأكيداً ، وقال الضحاك المعنى : ﴿ كلا سيلعمون ﴾ يعني الكفار على جهة الوعيد ، ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ : يعني المؤمنين على جهة الوعد ، وقرأ ابن عامر فيما روى عنه مالك بن دينار والحسن بخلاف : "كلا ستعلمون " بالتاء

في الموضعين على مخاطبة الحاضر كأنه تعالى يقول : قل لهم يا محمد وكرر عليهم الزجر والوعيد تأكيداً وكل تأويل في هذه القراءة غير هذا فمتعسف وقرأ . . . "كلا سيعلمون" بالياء على جهة الرد والوعيد للكفار ، "ثم كلا ستعملون" بالتاء من فوق على جهة الرد على الكفار والوعد والمؤمنين . والعلم في هذه الآية بمعنى ستعرفون ، فلذلك لم يتعد ، ثم وقفهم تعالى على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظر فيها الإقرار بالبعث والإيمان بالله تعالى . و" المهاد " : الفراش الممهد الوطيء وكذلك الأرض لبنيتها ، وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين "مهداً" ، والمعنى نحو الأول ، وشبه ﴿ الجبال ﴾ ب" الأوتاد " لأنها تمسك وتثقل وتمنع الأرض أن تميد ، و﴿ أزواجاً ﴾ معناه أنواعاً في ألوانكم وصوركم وألسنتكم ، وقال الزجاج وغيره معناه مزدوجين ذكراً وأنثى ، و" السبات " : السكون ، وسبت الرجل معناه استراح واتدع وترك الشغل ، ومنه السبات وهي علة معروفة سميت بذلك لأن السكون والسكوت أفرط على الإنسان حتى صار ضاراً قاتلاً ، والنوم شبيه به إلا في الضرر ، وقال أبو عبيدة : ﴿ سباتاً ﴾ قطعاً للأعمال والتصرف ، والسبت : القطع ومنه سبت الرجل رأسه إذا قطع شعره ، ومنه النعال السبتية وهي التي

قطع عنها الشعر ، و﴿ لباساً ﴾ مصدر ، وكان الميل كذلك من حيث يغشي الأشخاص ، فهي تلبسه وتتدرعه ، وقال بعض المتأولين : جعله ﴿ لباساً ﴾ لأنه يطمس نور الأبصار ويلبس عليها الأشياء والتصريف يضعف هذا القول ، لأنه كان يجب أن يكون ملبساً ، ولا يقال ﴿ لباساً ﴾ إلا من لبس الثياب ﴿ والنهار معاشاً ﴾ على حذف مضاف أو على النسب ، وهذا كما ان تقول ليل نائم ، و" السبع الشداد " : السموات ، والأفصح في لفظة السماء التأنيث ووصفها بالشدة ، لأنه لا يسرع إليها فساد لوثاقتها ، و" السراج " : الشمس ، و" الوهاج " : الحار المضطرم الاتقاد المتعالي اللهب ، وقال عبد الله بن عمرو بن

(116/798)

العاص : إن الشمس في السماء الرابعة إلينا طهرها ولهبها مضطرم علواً ، واختلف الناس في ﴿ المعصرات ﴾ ، فقال الحسن بن أبي الحسن وأبيّ بن كعب وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة : هي السموات ، وقال ابن عباس وأبو العالية والربيع والضحاك : ﴿ المعصرات ﴾ السحاب القاطرة ، وهو مأخوذ من العصر ، لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء وهذا قول الجمهور وبه فسر عبيد الله بن الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان : [الكامل]

كلتاهما حلب العصير . . . وقال بعض من سميت هي السحاب التي فيها الماء تمطر كالمرأة المعصر وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد ، وقال ابن الكيسان : قيل : للسحاب معصرات من حيث تغيث فهي من المعصرة ومنه قوله تعالى : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ [يوسف : 49] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ المعصرات ﴾ الرياح ، لأنها تعصر السحاب ، وقرأ ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس وقتادة وعكرمة : " وأنزلنا بالمعصرات " فهذا يقول أنه أراد الرياح ، و" الثجاج " : السريع الاندفاع كما يندفع الدم عن عروق الذبيحة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد قيل له : ما أفضل الحج ؟ قال : " العج والثج " أراد التضرع إلى الله بالدعاء الجهير وذبح الهدي ، و" الحب " : جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان ، و" النبات " : العشب الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة ، فذكر الله تعالى موضع المنفعتين و ﴿ ألفافاً ﴾ جمع لُف بضم اللام ، ولف جمع لفاء . والمعنى ملتفات الأغصان والأوراق ، وذلك موجود مع النضرة والري ، وقال جمهور اللغويين ﴿ ألفافاً ﴾ جمع لفّ بكسر اللام ، واللف : الجنة الملتفة بالأغصان ، وقال الكسائي : ﴿ ألفافاً ﴾ ، جمع لفيف . وقد قال الشاعر : [الطويل]

أحابيش ألفاف تباين فرعهم . . . وجذمهم عن نسبة المتقرب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً ﴾ :

دلهم على قدرته على البعث ؛ أي قُدْرتنا على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة .

والمِهاد : الوِطاء والفراش .

وقد قال تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً ﴾ [البقرة : 22] وقُرِىء "مَهْداً" .

ومعناه أنها لهم كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوّم عليه ﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ أي لتسكن ولا تتكَفْأ ولا تميل بأهلها .

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي أصنافاً : ذكراً وأنثى .

وقيل : ألواناً .

وقيل : يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن ، وطويل وقصير ؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار ، فيشكر الفاضل ويصبر المفضول .

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ ﴾ "جعلنا" معناه صَيَّرنا ؛ ولذلك تعدّت إلى مفعولين .

﴿ سُبَاتاً ﴾ المفعول الثاني ، أي راحة لأبدانكم ، ومنه يوم السَّبْت أي يوم الراحة ؛ أي قيل لبني إسرائيل : استريحوا في هذا اليوم ، فلا تعملوا فيه شيئاً .

وأنكر ابن الأنباري هذا وقال : لا يقال للراحة سُبَات .

وقيل : أصله التمدّد ؛ يقال : سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته ، فالسُبَات كالمد ، ورجل مسبوت الخلق : أي ممدود .

وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدّد ، فسميت الراحة سبتا .

وقيل : أصله القُطْع ؛ يقال : سَبَتَ شعره سَبْتا : حَلَقه ؛ وكأنه إذا نام انقطع عن الناس وعن الاشتغال ، فالسُّبات يشبه الموت ، إلا أنه لم تفارقه الروح .

ويقال : سَير سَبْت : أي سهل لين ؛ قال الشاعر :

وَمطْوِيةِ الأقرابِ أمّا نهارُها . . .
فَسَبْتٌ وأمّا ليلُها فذَمِيلُ

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليلِ لِبَاساً ﴾ أي تلبَسكم ظلمته وتغشاكم ؛ قاله الطبري .

وقال ابن جُبير والسُّدي : أي سَكنا لكم .

(118/798)

﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ فيه إضمار ، أي وقْتَ معاشٍ ، أي مُتَصَرَّفاً لِطلب المعاش وهو كل ما يُعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك ف "معاشا" على هذا اسم زمان ،

ليكون الثاني هو الأول .

ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ أي سبع سموات محكمات ؛ أي محكمة الخلق وثيقة البنيان .

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ أي وقَّاداً وهي الشمس .

وجعل هنا بمعنى خلق ؛ لأنها تعدّت لمفعول واحد والوهاج الذي له وَهَج ؛ يقال ؛ وهَجَ يهِج وَهْجا ووَهَجاً ووَهَجَاناً .

ويقال للجوهر إذا تلألأ توهّج .

وقال ابن عباس : وهَّاجاً منيراً متلألئاً .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ قال مجاهد وقتادة : والمعصِرات الرياح .

وقاله ابن عباس .

كأنها تَعْصِر السحاب .

وعن ابن عباس أيضاً : أنها السحاب .

وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك : أي السحائب التي تنعصِر بالماء ولما تُمْطر بعد ، كالمرأة المُعْصِر التي قد دنا حيضُها ولم تحض ، قال أبو النجم :

تمشِي الهُوَينَى مائلاً خِمارُها . . .

قد أَعْصَرتْ أوقد دنا إعصارها

(وقال آخر) :

فكان مجِني دون من كنت أتقِي . . .

ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبان ومُعْصِرُ

وقال آخر :

وذِي أشُرٍ كالأُقْحوانِ يزِينهُ . . .

ذِهابُ الصَّبا والمُعْصِراتُ الرَّوائحُ

فالرياح تسمى مُعْصرات ؛ يقال : أَعْصَرَت الريح تُعْصِر إعصاراً : إذا أثارت العجاج ، وهي الإِعصار ، والسحب أيضاً تسمى المُعْصِرات لأنها تمطر .

وقال قتادة أيضاً : المُعْصِرات السماء ، النَّحَّاس : هذه الأقوال صحاح ؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر مُعْصرات ، والرياح تلقح السحاب ، فيكون المطر ، والمطر ينزل من الريح على هذا .

ويجوز أن تكون الأقوال واحدة ، ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المُعصِرات ﴿ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ وأصح الأقوال أن المعصرات : السحاب .

(119/798)

كذا المعروف أن الغيث منها ، ولو كان (بالمُعصرات) لكان الريح أولى .

وفي الصحاح : والمعصرات السحائب تُعْتَصر بالمطر .

وأُعِصر القوم أي أمطِروا ؛ ومنه قرأ بعضهم "وفِيه يُعْصِرون" والمعصِر : الجارية أوّل ما أدركت وحاضت ؛ يقال : قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته ؛ قال الراجز :

جارِيةٌ بَسفَوانَ دارها . . .

تمشِي الهُوَيْنَى ساقِطاً خمارُها

قد أَعصَرَتْ أو قد دنا إعصارُها . . .

والجمع : مَعاصِر ، ويقال : هي التي قاربت الحيض ؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام .

سمعته من أبي الغوث الأعرابيّ .

قال غيره : والمُعصر السحابة التي حان لها أن تمطر ؛ يقال أجن الزرع فهو مُجنّ : أي صار إلى أَن يُجِنّ ، وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر .

وقال المبرَّد : يقال سحاب معصر أي ممسك للماء ، ويُعْتَصر منه شيء بعد شيء ، ومنه العَصَر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه ، والعُصْرة بالضم أيضاً الملجأ .

وقد مضى هذا المعنى في سورة "يوسف" والحمد لله .

وقال أبو زبيد :

صادِياً يستغِيثُ غير مُغاثٍ . . .

ولقدْ كان عُصْرة المنْجودِ

ومنه المُعصِر للجارية التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعصِر ؛ لأنها تُحْبَس في البيت ،

فيكون البيت لها عَصَرا .

وفي قراءة ابن عباس وعِكرمة "وأَنزلنا بِالمعصِراتِ" .

والذي في المصاحف "مِن المعصِراتِ" قال أبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم

ومقاتل بن حيان : "مِن المعصِراتِ" أي من السموات .

"ماء ثَجاجا" صباباً متتابعاً ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

يقال : ثَجَجْت دمَه فأنا أَثُجه ثجا ، وقد ثج الدم يَثُج ثجوجاً ، وكذلك الماء ، فهو لازم

ومتعدّ .

والثجاج في الآية المنصَبّ .

وقال الزجاج : أي الصَّبَّاب ، وهو متعدّ كأنه يثج : نفسه أي يَصُبّ ، وقال عَبِيد بن الأبرص

:

فثَجَّ أعلاه ثم ارتج أَسفلُه . . .

وضاقَ ذَرْعا بِحَملِ الماءِ مُنْصاحِ

(120/798)

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل عن الحج المبرور فقال : " العَجّ والثَّجّ "

فالعج : رفع الصوت بالتلبية ، والثج : إراقة الدماء وذبح الهدايا .

وقال ابن زيد : ثجاجاً كثيراً .

والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ حَبّاً ﴾ كالحنطة والشعير وغير ذلك ﴿ وَنَبَاتاً ﴾ من الأبّ ، وهو ما تأكله الدواب من الحشيش .

﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين ﴿ أَلْفَافاً ﴾ أي ملتفة بعضها ببعض لتشعّب أغصانها ، ولا واحد له كالأوزاع والأخياف .

وقيل : واحد الألفاف لِفٌّ بالكسر ، ولُفّ بالضم .

ذكره الكسائي ؛ قال :

جنة لُفٌّ وعيشٌ مُغْدِق . . .

وَندامَى كلُّهمْ بِيضٌ زُهُرْ

وعنه أيضاً وأبي عبيدة : لفيف كشريف وأشراف .

وقيل : هو جمع الجمع .

حكاه الكسائي .

يقال : جنة لَفَّاء ونبت لِفٌّ والجمع لُفٌّ بضم اللام مثل حمر ، ثم يجمع اللّف ألفافاً .

الزمخشري : ولو قيل جمع مُلْتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيهاً .

ويقال : شجرة لَفّاء وشجر لُفّ وامرأة لفاء : أي غليظة الساق مجتمعة اللحم .

وقيل : التقدير : ونخرج به جنات ألفافاً ، فحذف لدلالة الكلام عليه .

ثم هذا الالتفاف والانضمام معناه أن الأشجار في البساتين تكون متقاربة ، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(121/798)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

﴿ عَمَّ ﴾ أصله عَمَّا فحذفَ منه الألفُ إمَّا فرقاً بينَ ما الاستفهاميةِ وغيرِها أو قصداً

للخفةِ لكثرةِ استعمالِها . وقد قُرِىءَ على الأصلِ . وما فيهَا منَ الإيهامِ للإيذانِ بفخامةِ شأنِ المسؤولِ عنْهُ وهولِهِ وخروجِه عنْ حدودِ الأجناسِ المعهودةِ . أيْ عنْ أيِّ شيءٍ عظيمِ الشأنِ ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أيْ أهلُ مكةَ وكانُوا يتساءلونَ عن البعثِ فيما بينهم ويخوضونَ فيه إنكاراً واستهزاءً لكنْ لا على طريقةِ التساؤلِ عن حقيقتِه ومسمَّاهُ بلْ عن وقوعِه الذي هو حالٌ من أحوالِه ووصفٌ من أوصافِه . فإنَّ مَا وإنْ وضعتْ لطلبِ حقائقِ الأشياءِ ومسمياتِ أسمائِها كما في قولك ما الملَكُ وما الروحُ لكنَّها قد يُطلبُ بَها الصفةُ والحالُ تقولُ ما زيدٌ فيقال عالمٌ أو طبيبٌ وقيل : كانُوا يسألونَ عنه الرسولَ عليه الصلاةُ والسلامُ والمؤمنينَ استهزاءً كقولِهم يتداعونهم أو يدعونهم وتحقيقُه أنَّ صيغةَ التفاعلِ في الأفعالِ المتعديةِ موضوعةٌ لإفادةِ صدورِ الفعلِ عن المتعددِ ووقوعِه عليهِ بحيثُ يصيرُ كلُّ واحدٍ من ذلكَ فاعلاً ومفعولاً معاً لكنَّه يرفعُ بإسنادِ الفعلِ إليه ترجيحاً لجانبِ فاعليتِه ويحالُ بمفعوليتِه على دلالةِ العقلِ كما في قولِك تراءَى القومُ أيْ رَأَى كلٌّ واحدٍ منُهم الآخرَ وقد تجردَ عن المعنى الثاني فيرادُ بها مجردُ صدورِ الفعلِ عن المتعددِ عارياً عن اعتبارِ وقوعِه عليهِ فيُذْكر للفعلِ حينئذٍ مفعولٌ متعدد كمَا في المثالِ المذكورِ أو واحدٌ كما قي قولِك تراءَوا الهلالَ ، وقد يحذفُ لظهورِه كما فيما نحنُ فيهِ فالمَعْنى عن أيِّ شيءٍ يسألُ هؤلاءِ القومُ الرسولَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ ، وربَّما تجردَ عن صدورِ الفعلِ عن المتعددِ

أيضاً فيرادُ بها تعددُه باعتبارِ تعددِ متعلَّقِه مع وحدةِ الفاعلِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ فَبِأَيّ الاء ربّكَ تتمارى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ عَنِ النبإِ العظيم ﴾

(122/798)

بيانٌ لشأنِ المسؤولِ عنْهُ إثرَ تفخيمِه بإبهامِ أمرِه وتوجيهِ أذهانِ السامعينَ نحوَه وتنزيلِهم منزلَه المستفهمينَ فأنَّ إيرادَهُ عن طريقةِ الاستفهامِ من علاَّمِ الغيوبِ للتنبيهِ على أنَّه لانقطاعِ قرينِه وانعدامِ نظيرِه ، خارجٌ عن دائرةِ علومِ الخلقِ ، خليقٌ بأنْ يُعتنى بمعرفتِه ويُسألَ عنْهُ كأنَّه قيلَ عنْ أيِّ شيءٍ يتساءلُون هلْ أُخبرِكُم به ثمَّ قيلَ بطريقِ الجوابِ عن النبأِ العظيمِ على منهاجِ قولِه تعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليومِ للَّهِ الواحد القهار ﴾ فعنْ متعلقةٌ بما يدلُّ عليهِ المذكورُ من مضمرٍ حقُّه أنْ يقدرَ بعدَها مسارعةً إلى البيانِ ومراعاةً لترتيبِ السؤالِ هذا هو الحقيقُ بالجزالةِ التنزيليةِ ، وقد قيلَ هي متعلقةٌ بالمذكورِ وعمَّ متعلقٌ بمضمرٍ مفسرٍ بهِ وأيدَّ ذلكَ بأنَّه قُرِئَ عَمَّه والأظهرُ أنَّه مبنيٌّ على إجراءِ الوصلِ مُجرى الوقفِ ، وقيل : عن الأُولى للتعليل كأنَّه قيلَ : لمَ يتساءلونَ عنِ النبأِ العظيمِ . وقيل قبل عن الثانية استفهام مضمر كأنه قيل عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم والنبأُ الخبرُ الذي له شأنٌ وخطرٌ وقد وصفَ بقولِه تعالى : ﴿ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ بعد وصفِه بالعظيم تأكيداً لخطرِه إثرَ تأكيدٍ ، وإشعاراً بمدار

التساؤلِ عنه ، وفيهِ متعلقٌ بمختلفونَ قدم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصلِ ، وجعلُ الصلةِ جملةً اسميةً للدلالةِ على الثباتِ أي هُم راسخونَ في الاختلافِ فيهِ فمِن جازمٍ باستحالته يقولُ :

(123/798)

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ وشاكَ يقول ﴿ ما ندري ما الساعة إن نظن إلاَّ ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ وقيلَ : منهُم من ينكرُ المعادَينِ معاً كهؤلاءِ ، ومنهُم مَنْ ينكرُ المعادَ الجسمانيَّ فقطَّ كجمهور النَّصارى ، وقد حُملَ الاختلافُ على الاختلافِ في كيفيةِ الإنكارِ فمنْهُم مَنْ ينكرُه لإنكارِه الصانعَ المختارَ ، ومنهُم مَنْ يُنكرهُ بناءً على استحالة المعدومِ بعينه ، وحملُه على الاختلاف بالنَّفي والإثباتِ بناءً على تعميم التساؤلِ لفريقيْ المسلمينَ والكافرينَ على أنَّ سؤالَ الأولينَ ليزدادُوا خشيةً واستعداداً وسؤالَ الآخرينَ ليزدادُوا كُفراً وعناداً يردُّه قولُه تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ الخ فإنَّه صريحٌ في أنَّ المرادَ اختلافُ الجاهلينَ بهِ ، المنكرينَ له إذْ عليه يدورُ الردعُ والوعيدُ لا على خلاف المؤمنينَ لهم وتخصيصُهما بالكفرة بناءً على تخصيص ضميرِ سيعلمونَ بهم مع عموم الضميرينِ السابقينِ للكلِّ ممَّا ينبغِي تنزيُه التنزيلِ عن أمثالِه هَذا ما أدَّى إليه جليلُ النظرِ

والذي يقتضيه التحقيقُ ويستدعيه النظرُ الدقيقُ أنْ يحملَ اختلافُهم على مخالفتِهم للنبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يُعتبرَ في الاختلافِ محضُ صدورِ الفعلِ عن المتعددِ حسبَما ذُكرَ في التساؤلِ فإنَّ الافتعالَ والتفاعلَ صيغتانِ مُتآخيتانِ كالاستباقِ والتسابقِ والانتضالِ والتناضلِ إلى غيرِ ذلكَ يجري في كلٍ منَها ما يَجْري في الأُخرى لا على مخالفةِ بعضِهم لبعضٍ من الجانبينِ لأنَّ الكُلَّ وإنِ استحقَ الردعَ والوعيدَ لكنَّ استحقاقَ كلِّ جانبٍ لهُما ليسَ لمخالفتِه للجانبِ الآخرِ إذْ لا حقيّةٌ في شيءٍ منهُمَا حتَّى يستحقَّ مَن يخالفُه المؤاخذةَ بل لمخالفتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فكلاَّ ردعٌ لهم عن التساؤلِ

(124/798)

والاختلافِ بالمعنيينِ المذكورينِ وسيعلمونَ وعيدٌ لهم بطريقِ الاستئنافِ وتعليلٌ للردعِ، والسينُ للتقريبِ والتأكيدِ وليسَ مفعولُه ما ينبىءُ عنه المقامُ من وقوعِ ما يتساءلونَ عنه ووقوعِ ما يختلفونَ فيه كما في قولِه تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانِهم لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ الآيةَ فإنَّ ذلكَ عارٍ عن صريحِ الوعيدِ بلْ هُو عبارةٌ عمَّا يلاقونَهُ من فنونِ الدَّواهِي والعقوباتِ، والتعبيرُ عن لقائِها بالعلمِ لوقوعِه في معرضِ التساؤلِ والاختلافِ والمَعْنى ليرتدعُوا عمَّا هُم عليهِ فإنَّهم سيعلمونَ عمَّا

قليل حقيقةَ الحالِ إذا حلَّ بهم العذابُ والنكالُ .

وقولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾

(125/798)

تكريرٌ للردعِ والوعيدُ للمبالغةِ في التأكيدِ والتشديدِ ، وثمَّ للدلالةِ على أنَّ الوعيدَ الثَّاني أبلغُ وأشدُّ وقيلَ الأولُ عند النزعِ والثانِي في القيامةِ وقيلَ الأولُ للبعثِ والثاني للجزاءِ . وقُرِىءَ (ستعلمونَ) بالتاءِ على نهجِ الالتفاتِ إلى الخطابِ الموافقِ لما بعدَهُ الخطاباتِ تشديداً للردعِ والوعيدِ لا على تقديرِ قُل لهم كما تُوهم ، فإنَّ فيهِ من الإخلالِ بجزالةِ النظمِ الكريمِ مَا لاَ يَخْفى . وقولُه تعالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا * والجبال أَوْتَاداً ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ لتحقيقِ النبأِ المتساءلِ عنُهُ بتعدادِ بعضِ الشواهدِ الناطقةِ بحقّيتِه إثرَ ما نبَّه عليها بما ذُكرَ من الردعِ والوعيدِ ، ومنْ ههُنا اتضحَ أنَّ المتساءَلَ عنه هو البعثُ ، لا القرآنُ أو نبوةُ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كما قيلَ : والهمزةُ للتقريرِ . والالتفاتُ إلى الخطابِ على القراءةِ المشهورةِ للمبالغةِ في الإلزامِ والتبكيتِ . والمِهادُ البساطُ والفراشُ . وقُرِىءَ مَهْداً على تشبيهها بمهدِ الصبيِّ وهو ما يُمهدُ له فيُنوَّمُ عليهِ تسميةً للمهودِ بالمصدرِ ، وجعَلُ الجبالِ أوتاداً لها إرساؤُها بها كما يُرسي البيتُ بالأوتادِ . ﴿ وخلقناكم ﴾ عطفٌ في المضارعِ

المنفيّ بلم داخلٌ في حُكمِه فإنَّه في قوةِ أمَا جعلَنا الخ. أو على ما يقتضيهِ الإنكارُ التقريريُّ فإنَّه في قوةِ أنْ يقالَ قد جعلَنا الخ. ﴿ أزواجا ﴾ أصنافاً ذكراً أو أُنْثَى ليسكنَ كلٌّ من الصنفينِ إلى الآخرِ وينتظمَ أمرُ المعاشرةِ والمعاشِ ويتسنَّى التناسلُ.

(126/798)

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي موتاً لأنَّه أحدُ التوفيينِ لما بينهُمَا من المشاركةِ التامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ، وعليهِ قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس حِينَ مَوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ وقيلَ: قطعاً عنِ الإحساسِ والحركةِ لإراحةِ القُوى الحيوانيةِ وإزاحةِ كلالِها، والأولُ هو اللائقُ بالمقامِ كما ستعرفُه. ﴿ وَجَعَلْنَا الليل ﴾ الذي فيهِ يقعُ النومُ غالباً ﴿ لِبَاساً ﴾ يستركُم بظلامِه كما ستركُم اللباسُ ولعلَّ المرادَ به ما يُستترُ به عندَ النومِ من اللحافِ ونحوِه فإنَّ شبهَ الليلِ به أكملُ واعتبارَهُ في تحقيقِ المقصدِ أدخلُ، فهو جعلَ الليلَ محلاً للنومِ الذي جُعلَ موتاً كما جعلَ النَّهارَ محلاً لليقظةِ المعبرِ عنها بالحياةِ في قولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ أي وقتَ حياةٍ تُبعثونَ فيهِ من نومكم الذي هُو أخُو الموتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ وجعلُ كونِ الليلِ لباساً عبارةٌ عن سترِه

عن العيونِ لمنْ أرادَ هرباً منْ عدوَ أو بياتاً له أو نحوِ ذلكَ ممَّا لا مناسبةَ له بالمقامِ وكذا جعلُ النهارِ وقتَ التقلبِ في تحصيلِ المعايشِ والحوايجِ .

(127/798)

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ أي سبعَ سمواتٍ قويةِ الخلقِ محكمةِ البناءِ لا يُؤثر فيها مرُّ الدهورِ وكرُّ العصورِ ، والتعبيرُ عن خلقِها بالنباءِ مبنيٌّ على تنزيلِها منزلةَ القبابِ المضروبةِ على الخلقِ ، وتقديمُ الظرفِ على المفعولِ ليسَ لمراعاةِ الفواصلِ فقطْ بلْ للتشويقِ إليهِ فإنَّ ما حقَّه التقديمُ إذا أُخرَ تبقى النفسُ مترقبةً له فإذا وردَ عليها تمكّنَ عندَها فضلُ تمكنٍ ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ هذا الجعلُ بمعنى الإنشاءِ والإبداعِ كالخلقِ خلا أنه مختصٌ بالإنشاءِ التكوينيِّ وفيه معنى التقديرِ والتسويةِ وهذا عامٌّ له كما في الآيةِ الكريمةِ وللتشريعيِّ أيضاً كما في قولِه تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ الخ وقولِه تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ومنهاجا ﴾ وأياً ما كانَ ففيهِ إنباءٌ عن ملابسةِ مفعولِه بشيءٍ آخرَ بأنْ يكونَ فيهِ أولَهُ أو مِنْهُ أو نحوُ ذلكَ ملابسةً مصححةً لأنْ يتوسطَ بينهُمَا شيء من الظروفِ لغواً كانَ أو مستقراً لكنْ لا على أنْ يكونَ عمدةً في الكلامِ بل قيداً فيهِ ، كما في قولِه تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿

واجعل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ الآيةَ . فإنّ كلَّ واحدٍ من هذهِ الظروفِ إمَّا متعلقٌ بنفسِ الجعلِ أو بمحذوفٍ وقعَ حالاً من مفعولِه تقدمتْ عليه لكونِه نكرةً وأياً ما كانَ فهو قيدٌ في الكلامِ حتَّى إذا اقتضَى الحالُ وقوعَهُ عمدةً فيه يكونُ الجعلُ متعدياً إلى اثنينِ هُو ثانيهما كما في قولِه تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أصابعهم فِى ءاذَانِهِم ﴾ وربَّما يشتبهُ الأمرُ فيظنَّ أنَّه عمدةٌ فيهِ ، وهو في الحقيقيةِ قيدٌ بأحدِ الوجهينِ كما سلفَ في قولِه تعالى : ﴿ إِنّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ والوهَّاجُ الوقَّادُ المتلألىءُ من وهجتِ

(128/798)

النارُ إذا أضاءتْ أو البالغُ في الحرارةِ من الوهجِ والمرادُ به الشمسُ والتعبيرُ عنها بالسراجِ من روادفِ التعبيرِ عن خلقِ السمواتِ بالبناءِ .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ هي السحائبُ إذا أَعْصرتْ أي شَارفتْ أنْ تعصُرَها الرياحُ فتمطرَ كما في أحصدَ الزرعُ إذا حانَ له أنْ يُحصدَ ومنه أعصرتِ الجاريةُ إذا دنتْ أنْ تحيضَ ، أو الرياحُ التي حانَ لها أن تعصُرَ السحابَ . وقُرِىءَ بالمعصرات ووجهُ ذلكَ أنَّ الإنزالَ حيثُ كانَ من المعصراتِ سواء أريدَ بها السحائبَ أو الرياحَ فقد كانَ بها كما يقالُ أُعطاهُ من يدِه وبيدِه وقد فسرتِ المعصراتُ بالرياحِ ذواتِ الأعاصيرِ ووجهُهُ أنَّ الرياحَ هي التي

تنشىءُ السحابَ وتقدرُ أخلافَه فصلحتْ أنْ تجعلَ مبتدأً للإنزالِ ﴿ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ أي مُنصبّاً بكثرةٍ ، يقالُ ثجَّ الماءُ أي سالَ بكثرةٍ وثجّه أيْ أسالَه ، ومنه قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " أفضلُ الحَجِّ العَجُّ والثَّجُّ " أي رفعُ الصوتِ بالتلبيةِ وصبُّ دماءِ الهَدي . وقُرِئَ ثَجَّاحاً بالحاءِ بعدَ الجيمِ ، قالُوا ، مثاجحُ الماءِ مصابُّه .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ ﴾ بذلك الماءِ ﴿ حَبّاً ﴾ يقتاتُ كالحنطةِ والشعيرِ ونحوِهما ﴿ وَنَبَاتاً ﴾ يعتلفُ كالتبنِ والحشيشِ ، وتقديمُ الحبِّ مع تأخرِه عن النباتِ في الإخراجِ لأصالتِه وشرفِه لأنَّ غالبَهُ غذاءُ الإنسانِ ﴿ وجنات ﴾ الجنَّةُ في الأصلِ هي المرةُ من مصدرِ جنَّه إذا سترَهُ تطلقُ على النخلِ والشجرِ المتكاثفِ المُظللِ بالتفافِ أغصانِه ، قالَ زُهيرُ بنُ أبي سُلْمَى :

كأنَّ عيني في غَربي مقتلة . . . منَ النَّواضحِ تَسقِي جنَّةً سُحُقاً

(129/798)

وعَلَى الأرضِ ذاتِ الشجرِ ، قال الفَرَّاءُ الجنةُ ما فيهِ النخيلُ والفردوسُ ما فيه الكَرْمُ والأولُ هو المرادُ . وقولُه تعالَى : ﴿ أَلْفَافاً ﴾ أي ملتفةً تداخلَ بعضُها في بعضٍ ، قالُوا لا واحدَ له كالأوزاعِ والأخيافِ ، وقيلَ : الواحدُ لِفٌّ ككِنَ وأكنانٍ أو لفيفٌ كشريفٍ وأشرافٍ ، وقيلَ

: هو جمعُ لف جمع لفَّاءَ ، كخضر وخضراءَ وقيلَ : جمعُ ملتفةٍ بحذفِ الزوائدِ . واعلم أنَّ فيما ذكر من أنَّ أفعالَه عزَّ وجلَّ دلالةٌ على صحة البعثِ وحقّيته من وجوه ثلاثةٍ : الأولُ : باعتبار قدرتِه تعالَى فإنَّ مَن قدرَ على إنشاءِ هذهِ الأفعالِ البديعةِ من غيرِ مثالٍ يحتذيهِ ولا قانونٍ ينتحيهِ كانَ على الإعادةِ أقدرَ وأقوى ، الثَّاني : باعتبار علمِه وحكمتِه فإنَّ من أبدعَ هذه المصنوعاتِ على نمطٍ رائع مستتبعٍ لغاياتٍ جليلةٍ ومنافعَ جميلةٍ عائدةً إلى الخلق يستحيل أنْ يفنيَها بالكلية ولا يجعلَ لها عاقبةً باقيةً ، والثالثُ : باعتبار نفسِ الفعلِ فإنَّ اليقظةَ بعد النومِ أنموذجٍ للبعث بعد الموتِ يشاهدونَها كلَّ يومٍ وكذا إخراجُ الحبِّ والنباتِ من الأرض الميتةِ بعاينونَه كلَّ حينٍ كأنَّه قيلَ : ألم نفعلْ هذهِ الأفعالَ الآفاقيةَ والأنفسيةَ الدالةَ بفنون الدلالاتِ على حقية البعثِ الموجبةِ للإيمان به فما لكُم تخوضونَ فيه إنكاراً وتتساءلونَ عنه استهزاءً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(130/798)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا ﴾ الخ

استئناف مسوق لتحقيق النبأ المتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته أثر ما

نبه عليها بما ذكر من الردع وجوز أن يكون بتقدير قل كأنه قيل قل كيف تنكرون أو تشكون في البعث وقد عاينتم ما يدل عليه من القدرة التامة والعلم المحيط والحكمة الباهرة المقتضية أن لا يكون ما خلق عبثاً وفيه أن من كان عظيم الشأن باهر القدرة ينبغي أن يخاف ويخشى ويتأثر من زجره ووعيده والهمزة للتقرير بما بعد النفي والمهاد الفراش الموطأ وفي "القاموس" المهد الموضع الذي يهيأ للصبي كالمهاد وعليه فالمهد والمهاد بمعني ويؤيده قراءة مجاهد وعيسى الهمداني مهداً وفي الآية حينئذ تشبيه بليغ وكل منهما مصدر سمي به ما يمهد وجوز أن يكون باقياً على المصدرية والوصف بالمصدر كثير أو التقدير ذات مهاد أو مهد وقيل كما يمكن أن يكون المهاد مصدراً سمي به المفعول يحتمل أن يكون فعالاً أي اسماً على زنته يؤخذ للمفعول كالإله والإمام وجعل الأرض معاداً إما في أصل الخلقة أو بعدها وأياً ما كان فلا دلالة في الآية على ما ينافي كريتها كما هو المشهور من عدة مذاهب ومذهب أهل الهيئة المحدثين أنها مسطحة عند القطبين لأنها كانت لينة جداً في مبدأ الأمر لظهور غاية الحرارة الكامنة فيها اليوم فيها إذ ذاك وقد تحركت على محورها فاقتضى مجموع ذلك صيرورتها مسطحة عندهما عندهم وأهل الشرع لا يقولون بذلك ولا يتم للقائل به دليل حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها .

﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ أي كالأوتاد ففيه تشبيه بليغ أيضاً والمراد أرسينا الأرض بالجبال كما يرسي البيت بالأوتاد قال الأفوه

: والبيت لا يبتنى الإله عمد . . .

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

(131/798)

وفي الحديث " خلق الله تعالى الأرض فجعلت تميد فوضع عليها الجبال فاستقرت فقالت الملائكة ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الجبال قال نعم الحديد فقالت ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الحديد قال نعم النار فقالوا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من النار قال نعم الماء فقالوا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الماء قال نعم الهواء فقالوا ربنا هل خلقت خلقاً أشد من الهواء قال نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفى ذلك عن شماله " وظاهره كغيره أن خلق الجبال بعد خلق الأرض وإليه ذهب الفلاسفة المتقدمون والمحدثون وهي متفاوتة عندهم في الحدوث تقدماً وتأخراً وجاء في حديث رواه الحاكم وصححه عن ابن عباس أن أول جبل أبو قبيس وفي كيفية حدوثها منذ حدثت خلاف عندهم وقد يتلاشى ما حدث منها بطول الزمان

: إن الجديدين إذا ما استوليا . . .

على جديد أسماءه للبلى

وربما يشاهد حدوق بعض تلاع حجريلا من انجماد بعض المياه واستشكل احتياجها للإرساء بالجبال مع طلبها للمركز بثقلها المطلق وأجيب بأنه قد علم الله تعالى أنها ستكن ويكون عليها من الأثقال ما يكون ومن المعلوم أنها حينئذ يكون لها مركزان مركز جحم ومركز ثقل والذي ينطبق منهما على مركز العالم إنما هو مركز الثقل فيلزم من تحرك ثقيل إلى جهة المشرق أو المغرب مثلاً عليها تحركها لاختلاف مركز ثقلها ولزوم انطباقه على مركز العالم فيحصل الميد ولم تكن إذ ذاك بحيث لا يكون لما يكون عليها من أثقال سكنتها قدر يحس به فوضعت عليها الجبال وانطبق مركز ثقلها على مركز العالم وصار مجموع الأرض والجبال بحيث لا يظهر للمتحرك بعد قدر يحس به وقيل إنها كانت لخفتها بحيث يحركها أمواج البحر المحيط بها فيصل الميد فثقلت بالجبال مع ما في الجبال من المنافع الجمة التي لم تخلق الأرض لأجلها بحيث لا تحركها الأمواج وتمام الكلام في ذلك حسبما كنا واقفين عليه قد مر فتذكر وحكى عن بعض أن جعلها كذلك بمعنى جعلها سبباً كذلك بمعنى جعلها سبباً لانتظام أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع ولولاها لمادت بهم أي لما تهيأت للانتفاع بها ولاختل أمر سكناهم إياها وهو تأويل مناف للظواهر لا يحتاج إليه ما لم يقم الدليل

القطعي على محالية إرادة الظاهر نعم قيل إن هذا أقرب للتقرير فإن جعلها أوتاداً بهذا المعنى أظهر من جعلها كذلك بذلك المعنى وأقرب إلى العلم به وربما يقال إنه أوفق لترك إعادة العامل ومن لا يراه يجعل النكتة فيه قوة ما بين الأرض والجبال من الاشتراك والارتباط فافهم.

(133/798)

﴿ وخلقناكم ﴾ عطف على المضارع المنفي بلم داخل في حكمه فإنه قي قوة أما جعلنا الخ أو على ما يقتضيه الانكار التقريري فإنه في قوة أن يقال قد جعلنا الخ والالتفات إلى الخطاب هنا بناء على القراءة المشهورة في ﴿ سيعلمون ﴾ للمبالغة في الإلزام والتبكيت ﴿ أزواجا ﴾ قال الزجاج وغيره مزدوجين ذكراً وأنثى ليتسنى التناسل وينتظم أمر المعاش وقيل أصنافاً في اللون والصورة واللسان وقيل يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجاً الخلق من منيين مني الرجل ومني المرأة والمعنى خلقنا كل واحد منكم ﴿ أزواجا ﴾ باعتبار مادته التي هي عبارة عن منيين فيكون هلقناكم ﴿ أزواجا ﴾ من قبيل مقابلة الجمع بالجمع وتوزيع الأفراد على الأفراد وهو خلاف الظاهر جداً ولا داعي إليه.

(134/798)

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي كالسبات ففي الكلام تشبيه بليغ كما تقدم والمراد بالسبات الموت وقد ورد في اللغة بهذا المعنى ووجه تشبيه النوم ظاهر وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] وهو على بناء الأدواء مشتق من السبت بمعنى القطع لما فيه من قطع العمل والحركة ويقال سبت شعره إذا حلقه وأنفه إذا اصطلمه وزعم ابن الأنباري كما في الدور أنه لم يسمع السبت بمعنى القطع وكأنه كان أصم وقيل أصل السبت التمدد كالبسط يقال سبت الشعر إذا حل عقاصه وعليه تفسير السبات بالنوم الطويل الممتعد والامتنان به لما فيه من عدم الانزعاج وجوز بعضهم حمله على النوم الخفيف بناء على ما في "القاموس" من إطلاقه عليه على أن المعنى ﴿ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ ﴾ نوماً خفيفاً غير ممتد فيختل به أمر معاشكم ومعادكم وفي "البحر" سباتاً أي سكوناً ورواحة يقال سبت الرجل إذا استراح وزعم ابن الانباري أيضاً عدم سماع سبت بهذا المعنى ورد عليه المرتضى بأنه أريد الراحة اللازمة للنوم وقطع الإحصاص فإن في ذلك راحة القوى الحيوانية مما عراها في اليقظة من الكلام ومنه سمي اليوم المعروف سبتاً لفراغ وراحة لهم فيه وقيل سمي بذلك لأن الله تعالى ابتدأ بخلق السموات والأرض يوم الأحد فخلقها في ستة أيام كما ذكر عز وجل فقطع عمله سبحانه يوم السبت فسمي بذلك واختار المحققون كون السبات هنا بمعنى الموت لأنه أنسب بالمقام كما لا يخفى .

﴿ وَجَعَلْنَا الليل ﴾ الذي يقع فيه النوم غالباً ﴿ لِبَاساً ﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس ولعل المراد بهذا اللباس المشبه به ما يستتر به عند النوم من اللحاف ونحوه فإن شبه الليل به أكمل واعتباره في تحقيق المقصد ادخل واختار غير واحد إرادة الأعم وإن المعنى جعلناه ساتراً لكم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدو أو بياتاً له أو خفاه ما لا تحبون الإطلاع عليه من كثير من الأمور وقد عد المتنبي من نعم الليل البيات على الأعداء والفوز بزيارة المحبوب واللقاء مكذباً ما اشتهر من مذهب المانوية من أن الخير منسوب إلى النور والشر إلى الظلمة بالمعنى المعروف فقال :

وكم لظلام الليل عندي من يد . . .

تخبر أن المانوية تكذب

وقاك ردى الأعداء تسري إليهم . . .

وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وقال بعضهم يمكن أن يحمل كون الليل كاللباس على كونه كاللباس لليوم في سهولة أخراجه ومنه ولا يخفى بعده ومما يقضي منه العجب استدلال بعضهم بهذه الآية على أن من صلى

عرياناً في ليل أو ظلمة فصلاته صحيحة ولعمري لقد أتى بعري عن لباس التحقيق على من أرشق عليه ضياء الحق الحقيق .

(136/798)

﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ مصدر ميمي بمعنى العيش وهو الحياة المختصة بالحيوان على ما قال الراغب دون العامة لحياة الملك مثلاً ووقع هنا ظرفاً كما قيل في نحو أتيتك خفوق النجم وطلوع الفجر وجوز أن يكون اسم زمان وتعقب بأنه لم يثبت مجيئه كذلك في اللغة والمعنى وجعلنا النها روقت معاش أي حياة تبعثون فيه من نومكم الذي هو أخو الموت وكأنه لما جعل سبحانه النوم موتاً مجازاً جعل جل شأنه اليقظة معاشاً كذلك لكن أوثر النهار ليناسب المتوسط وقيل المعنى وجعلنا النهار وقت معاض تتقلبون فيه لتحصيل ما تعيشون به وهو أنسب بجعل السبات فيما تقدم بمعنى القطع عن الحركة على ما قيل ولا يخفى حسن ذكر جعل الليل لباساً بعد جعل النوم سباتاً وهو مشير إلى حكمة جعل النوم ليلاً أيضاً لأن النائم معطل الحواس فكان محتاجاً لساتر عما يضره فهو أحوج ما يكون للدثار وضرب خيام الاستتار وفي "الكشف" أن المطابقة بين قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً ﴾ [النبأ : 10] وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ مصرحة وفيه مطابقة

معنوية أيضاً مع قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ من حيث أن النهار وقت اليقظة والمعاش في مقابلة السبات لأنه حركة الحي ومنه علم أن قوله تعالى : ﴿ سُبَاتاً وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً ﴾ غير مستطرد ووجه النظم أنه لما ذكر خلقهم أزواجاً استوفى أحوالهم مقترنين ومفترقين اه وفيه تعريض بالطيبي حيث زعم الاستطراد إذا أريد بالمعاش اليقظة وبالسبات الموت .

(137/798)

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ أي سبع سموات قوية الخلق محكمة لا يسقط منها ما يمنعكم المعاش والتعبير عن خلقها بالبناء للإشارة إلى تشبيهاً بالقباب المبنية على سكنتها وقيل للإشارة إلى أن خلقها على سبيل التدريج وليس بذاك وفيه أن السماء خيمية لا سطح مستو وفي الآثار ما يشهد له ولا يأباه جعلها سقفاً في آية أخرى وقد صح في العرش ما يشهد بخيمية أيضاً والفلاسفة السالفون على استدارتها ويطلقون عليها اسم الفلك واستدلوا على ذلك حسب أصولهم بعد الاستدلال على استدارة السطح الظاهر من الأرض ولا يكاد يتم لهم دليل عليه قالوا الذي يدل على استدارة السماء هو أنه متى قصدنا عدة مساكن على خط واحد من عرض الأرض وحصلنا الكواكب المارة على سمت

الرأس في كل واحدة منها ثم اعتبرنا أبعاد ممرات تلك الكواكب في دائرة نصف النهار بعضها من بعض وجدناها على نسب المسافات الأرضية بين تلك المساكن .

(138/798)

كذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلاً بمثل تلك النسب فتحدب السماء في العرض مشابه لتحدب الأرض فيه لكن هذا التشابه موجود في كل خط من خطوط العرض وكذا في كل خط من خطوط الطول فسطح السماء بأسره مواز لسطح الظاهر من الأرض بأسره وهذا السطح مستدير حساً فكذا سطح السماء الموازي له وأيضاً أصحاب الأرصاد دونوا مقادير أجرام الكواكب وإبعاد ما بينها في الأماكن المختلفة في وقت واحد كما في إنصاف نهار تلك الأماكن مثلاً متساوية وهذا يدل على تساوي إبعاد مراكز الكواكب عن منظر الأبصار المستلزم لتساوي أبعادها عن مركز العالم لاستدارة الأرض المستلزم لكون السماء كرية وزعموا أن هذين أقرب ما يتمسك بهما في الاستدارة من حيث النظر التعليمي وفي كل مناقشة أما الثاني فالمناقشة فيه أنه إنما يصح لو كان الفلك عندهم ساكناً والكوكب متحركاً إذ لو كان السماء متحركاً جاز أن يكون مربعاً ويكون مساواة أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار وتساوي مقادير الأجرام للكواكب حاصلاً وأما الأول

: فالمناقشة فيه أنه إنما يصح لو كان الاعتدال المذكور موجوداً في كل خط من خطوط الطول والعرض وهو غير معلوم وأما غير ما ذكر من أدلتهم فمذكور مع ما فيه في نهاية الإدراك في دراية الأفلاك فارجع إليه إن أردته بقي ههنا بحث وهو أن العطف إذا كان على الفعل المنفي بلم داخلاً في حكمه يلزم أن يكون بناء سبع سموات شداد فوق معلوماً للمخاطبين وهم مشركو مكة المنكرون للبعث كما سمعت ليتأتى تقريرهم به كسائر الأمور السابقة واللاحقة فيقال إن كون السموات سبعاً مما لا يدرك بالكمشاهدة وهم المكذبون بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا يصدقونه بمثل ذلك مما معرفته بحسب الظاهر إنما هي من طريق الوحي وأجيب بأنهم علموا ذلك بواسطة مشاهدتهم اختلاف حركات السيارات السبع مع اختلاف أبعادها بعضها عن بعض وذلك أنهم علموا السيارات واختلاف حركاتها وعلموا أن بعضها فوق بعض لخسف بعضها بعضاً

(139/798)

فقالوا في باديء النظر بسبع سموات كل سماء لكوكب من هاتك الكواكب ولا يلزمنا البحث عما قالوا في الثواب وفي المحرك لها وللسبع بالحركة اليومية إذ هو وراء ما نحن فيه واعترض بأن هذا لا يتم إلا إذا كانوا قائلين بأن السماء عبارة عن الفلك وأنها تتحرك على

الاستدارة ويكون أوجها حضيضاً وحضيضها أوجاً ولعلهم لا يقولون بذلك وإنما يقولون كبعض السلف من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن السماء ساكنة والكوكب متحرك والفلك إنما هو مجراه وحينئذ فيجوز أن تكون السبع على اختلاف حركاتها وأبعادها في ثخن سماء واحدة تجري في أفلاك ومجار لها على الوجه المحسوس ويجوز أيضاً غير ذلك كما لا يخفى وأيضاً لو كان علمهم بذلك مما ذكر لقالوا بالتداوير ونحوها أيضاً كما قال بذلك أهل الهيئة السالفون لأن اختلاف الحركات يقتضيه بزعمهم لا سيما في المتحيرة ولو كان العرب قائلين به لوقع في أشعارهم بل لا يبعد أنه لو ذكر لهم ذاكر التداوير والمتممات الحاوية والمحوية مثلاً لنسبوه إلى ما يكره وقيل إنهم ورثوا علم ذلك عن أسلافهم السامعين له ممن يعتقدون صدقه كإسماعيل عليه السلام ويجوز أن يكونوا سمعوه من أهل الكتاب ولما لم يروه منافياً لما هم عليه اعتقدوه ويكفي في صحة التقرير هذا المقدار من العلم وتعقب بأنه على هذا لا تنتظم المتعاطفات المقربها في سل واحد من العلم والأمر فيه سهل وقيل نزلوا منزلة العالمين به لظهور دليله وهو اخبار من دلت المعجزة على صدقه به وفيه بعد وقيل الخطاب للناس مؤمنيهم ومشركيهم وغلب المؤمنون على غيرهم في التقرير المقتضي لسابقيه العلم وهو كما ترى واختار بعض أن العطف على ما يقتضيه الإنكار التقريري فيكون الكلام في قوة قد جعلنا الأرض إلى آخره وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وهو حينئذ ابتداء اخبار منه عز

وجل بالبناء المذكور فلا يقتضي سابقية علم وتعقب بأن العطف على الفعل المنفي بلم أوفق بالاستدلال بالمذكورات على صحة البعث كما لا

(140/798)

يخفى فتأمل وتقديم الظرف على المفعول للتشويق إليه مع مراعاة الفواصل .

(141/798)

﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ أي أنشأنا وأبدعنا ﴿ سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ مشرقاً متلألئاً من وهجت النار إذا أضاءت أو بالغاً في الحرارة من الوهج والمراد به الشمس والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السموات بالبناء ونصب سراجاً على المفعولية ووهاجاً على الوصفية له وجوز بعضهم أن يكونا مفعولين للجعل على أنه هنا مما يتعدى إليهما وتعقب بأنه مخالف للظاهر للتنكير فيهما وأن قيل السراج الشمس وهي لانحصارها في فرد كالمعرفة واختلف في موضع الجعل والمشهور أنه في السماء الرابعة ولم نر فيه أثراً سوى ما في "البحر" من عبد الله بن عمرو بن العاص قال الشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها ولهبها يضطرم

علواً والمذكور في كتب القوم أنهم جعلوا سبعة أفلاك للسيارات السبع على ترتيب خسف بعضها بعضاً أقصاها لزحل والذي تحته للمشتري ثم للمريخ والأدنى للقمر والذي فوقه لعطارد ثم للزهرة إذ وجدوا القمر يكسف الست من السيارات وكثيراً من الثوابت المحاذية لطريقته في ممر البروج وعلى هذا الترتيب وجدوا الأدنى يكسف الأعلى والثوابت تنكسف بالكل ويعلم الكاسف من المنكسف باختلاف اللون فأيهما ظهر لونه عند الكسف فهو كاسف وأيهما خفي لونه فهو منكسف وبقي الشك في أمر الشمس إذ لم يعرف انكساف شيء من الكواكب بها لاضمحلال نورها في ضيائها عند القرب منها ولا انكسافها بشيء من الكواكب غير القمر فذهب بعض القدماء إلى أن فلكي الزهرة وعطارد فوق فلكها مستدلين عليه بأنهما لا يكسفانها كما يكسفها القمر وهو باطل إذ من شرط كسف السافل العالي أن يكونا معاً والبصر على خط واحد مستقيم والألم يكسفه كما في أكثر اجتماعات القمر وإذا كان كذلك فمن المحتمل أن يكون مدارهما بين الشمس والإبصار ولأن جرميهما عندهم صغيران غير مظلمين كجرم القمر حتى يكسفاها ولأنه إذا كسف القمر من جرم الشمس ما مساحته مساوية لجرم أحد هذين الكوكبين أو أكثر لا يظهر المنكسف للإبصار على ما نص عليه

بطليموس في الاقتصاص وذهب بعضهم من تقادم عهدهم إلى أنهما تحت فلك الشمس وإن لم تكسف بهما استحساناً لما في ذلك من حسن الترتيب وجودة النظام على ما بين في موضعه ومال إليه بطليموس قال في المجسطي ونحن نرى ترتيب من تقادم عهده أقرب إلى الإقناع لأنه أشبه بالأمر الطبيعي لتوسط الشمس بين ما يبعد عنها كل البعد وبين ما لا يبعد عنها إلا يسيراً ثم قوي عزمه لما رأى بعد الشمس المعلوم من الأرض مناسباً لهذا الموضع لأنه لما وجد بين أبعد بعد القمر وأقرب قرب الشمس بعداً يمكن أن يوجد فيه فلكا الزهرة وعطارد وأبعادهما المختلفة قال في الاقتصاص مثل هذا الفضاء لا يحسن أن يترك عطلاً ولا يحسن أن يكون فيه المريخ فضلاً عن غيره فليكونا فيه وتأكد هذا عند بعض المتأخرين بأنه شوهدت الزهرة على قرص الشمس في وقتين بينهما نيف وعشرون سنة وكانت أول الحالين في ذروة التدوير وفي الثاني في أسفله ويبطل به ما ظن من كون عطارد والزهرة مع الشمس في كرة ومركز تدويرهما لاستحالة أن ترى الزهرة في الذروة على هذا الوجه وهذه أمور ضعيفة بعضها خطابي إقناعي وبعضها مبين ما فيه في محله وقد زعم بعض الناس أنه كما وجد في وجه القمر محو فكذا في وجه الشمس فوق مركزها بقليل نقطة سوداء وأهل الأرصاد اليوم على ما سمعنا من غير واحد جازمون بأن في قرصها سواداً وعلامات مختلفة ولهم في ذلك كلام مذكور في كتبهم وعليه ففي تشبيههما بالسراج من الحسن ما فيه

وعن بعضهم أن النور كخيمة عليها ورأيت في بعض كتبهم أنه ينشق من حوالي جرمها والكلام في مقدار جرمها وبعدها عن الأرض عند كل من المتقدمين والمعاصرين من الفلاسفة مما لا حاجة لنا به في هذا المقام مع ما في ذلك من الاختلاف المفضي بيانه بما له وعليه إلى مزيد تطويل .

(143/798)

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ هي السحائب على ما روي عن ابن عباس وأبي العالية والربيع والضحاك ولما كانت معصرة اسم مفعول لا معصرة اسم فاعل قيل أنها جمع معصرة من أعصر على أن الهمزة فيه للحينونة أي حانت وشارفت أن تعصرها الرياح فتمطر والأفعال يكون بهذا المعنى كثيراً كأجزر إذا حان وقت جزاره وأحصد إذا شارف وقت حصاده ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض قال أبو النجم العجلي

: تمشي الهوينا مائلاً خمارها . . .

قد عصرت أو قد دنا إعصارها

(144/798)

وجوز على تقدير كون الهمزة للحينونة أن يكون المعنى حان لها أن تعصر أي تغيث ومنه العاصر المغيث ولذا قال ابن كيسان سميت السحائب بذلك لأنها تغيث فهي من العصرة كأنه في الأصل بمعنى حان أن تعصر بتخييل أن الدم يحصل منها بالعصر وقيل أنها جمع لذلك أيضاً إلا أن الهمزة لصيرورة الفاعل ذا المأخذ كأيسر وأعسر وألحم أي صار ذا يسر وصار ذا عسر وصار ذا لحم وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة أنها الرياح لأنها تعصر السحاب فيمطر وفسرها بعضهم بالرياح ذوات الأعاصير على أن صيغة اسم الفاعل للنسبة إلى الإعصار بالكسر وهي ريح تثير سحاباً ذا رعد وبرق ويعتبر التجريد عليه على ما قيل والمازني اعتبر النسبة أيضاً إلا أنه قال المعصرات السحائب ذوات الأعاصير فإنها لا بد أن تمطر معها وأيد تفسيرها بالرياح بقراءة ابن الزبير وابن عباس وأخيه الفضل وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة بالمعصرات بياء السببية والآلية فإنها ظاهرة في الرياح فإن بها ينزل الماء من السحاب ولهذه القراءة جعل بعضهم من في قراءة الجمهور وتفسير المعصرات بالرياح للتعليل وذهب غير واحد إلى أنها للتعليل ابتدائية فإن السحاب كالمبدأ الفاعل للإنزال وتعقب بأن ورود من كذلك قليل وعن أبي الحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة أيضاً أنها السموات وتعقب بأن السماء لا ينزل منها الماء بالعصر فقيل في تأويله أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكان السموات يعصرن أي يحملن على عصر

الرياح السحاب ويمكن منه وتعقب بأنه مع بعده إنما يتم لو جاء المعصر بمعنى العاصر أي الحامل على العصر ولو قيل المراد بالمعصر الذي حان له أن يعصر كان تكلفاً على تكلف والذي في "الكشف" أن الهمزة على التأويل المذكور للتعدية فتدبر ولا تغفل ﴿ مَاء ثَجَّاجاً ﴾ أي منصباً بكثرة يقال ثج الماء إذا سال بكثرة وثجه أي أساله فثج ورد لازماً ومتعدياً واختير جعل ما في "النظم الكريم" من اللازم لأنه الأكثر في

(145/798)

الاستعمال وجعله الزجاج من المتعدي كان الماء المنزل لكثرته يصب نفسه ومن المتعدي ما في قوله صلى الله عليه وسلم " أفضل الحج العج والثج " أي رفع الصوت بالتلبية وصب ماء الهدى والمراد أفضل أعمال الحج التلبية والنحر ولا يأبى الكثرة كون الماء من المعصرات وظاهره أنه بالعصر وهو لا يحصل منه إلا القليل لأن ذلك غير مسلم ولو سلم فالقلة نسبية وقرأ الأعرج ثجاحاً بجيم ثم حاء مهملة ومناجح الماء مصابه .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء وهو على ظاهره عند السلف ومن اقتدى بهم وقالت الأشاعرة أي عنده ﴿ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ ما يقتات به كالحنطة والشعير ويعتلف كالحشيش والتبن وتقديم الحب مع تأخره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه لأن غالبه غذاء

الإنسان .

﴿ وجنات ﴾ جمع جنة وهي كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض من الجن وهو الستر وقال الفراء الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم وقد تسمى الأشجار الساترة جنة وعليه حمل قول زهير :

من النواضح تسقى جنة سحقاً . . .

(146/798)

وهو المراد هنا وقوله تعالى : ﴿ أَلْفَافاً ﴾ أي ملتفة تداخل بعضها ببعض قيل لا واحد له كالأوزاع والأخياف للجماعات المتفرقة المختلفة واختاره الزمخشري وقال ابن قتيبة جمع لف بضم اللام جمع لفاء فهو جمع الجمع واستبعد بأنه لم يجيء في نظائره ذلك فقد جاء خضر جمع خضراء وحمر جمع حمراء ولم يجيء إخضار جمع خضر ولا أحمار جمع حمر وجمع الجمع لا ينقاس ووجود نظيره في المفردات لا يكفي كذا قيل وقال الكسائي جمع لفيف بمعنى ملفوف وفعيل يجمع على أفعال كشريف وأشراف وإنما اختلف النحاة في كونه جمعاً لفاعل وفي "الكشاف" لو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيها انتهى وإنما يقدر حذف الزوائد وهو الذي يسميه النحاة في مثل ذلك ترخيماً لأن قياس جمع ملتفة

ملتفات لا ألفاف واعترضه في "الكشف" فقال فيه أنه لا نظير له لأن تصغير الترخيم ثابت أما جمعه فلا لكن قيل أن هذا غير مسلم فإنه وقع في كلامهم ولم يتعرضوا له لقلته والحق أنه وجه متكلف وجمهور اللغويين على أنه جمع لف بالكسر وهو صفة مشبهة بمعنى ملفوف وفعل يجمع على أفعال باطراد كجذع وأجذاع وعن صاحب الإقليد أنه قال أنشدني الحسن بن علي الطوسي :

جنة لف وعيش مغدق

وندامى كلهم بيض زهر . . .

(147/798)

وجوز في "القاموس" أن يكون جمع لف بالفتح هذا وفيما ذكر من أفعاله تعالى شأنه دلالة على صحة البعث وحقيته من أوجه ثلاثة على ما قيل الأول باعتبار قدرته عز وجل فإن من قدر على إنشاء تلك الأمور البديعة من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدر وأقوى الثاني باعتبار علمه وحكمته فإن من أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافع جميلة عائدة إلى الخلق يستحيل حكمة أن لا يجعل لها عاقبة الثالث باعتبار نفس الفعل فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهده كل

واحد وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض يعاين كل حين فكأنه قيل قد فعلنا أو ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للإيمان به فما لكم تخوضون فيه إنكاراً وتسألون عنه استهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(148/798)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) ﴾

لما كان أعظم نبأ جاءهم به القرآن إبطال إلهية أصنامهم وإثبات إعادة خلق أجسامِهم ، وهما الأصلان اللذان أثارا تكذيبهم بأنه من عند الله وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وترويجهم تكذيبه ، جاء هذا الاستئناف بياناً لإجمال قوله : ﴿ عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ﴾ [النبأ : 2 ، 3] .

وسيجيء بعده تكملته بقوله : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] .

وجمع الله لهم في هذه الآيات للاستدلال على الوحدانية بالانفراد بالخلق ، وعلى إمكان إعادة الأجساد للبعث بعد البِلى بأنها لا تبلغ مبلغ إيجاد المخلوقات العظيمة ولكون الجملة

في موقع الدليل لم تعطف على ما قبلها .

والكلام موجه إلى منكري البعث وهم الموجه إليهم الاستفهام فهو من قبيل الالتفات لأن توجيه الكلام في قوة ضمير الخطاب بدليل عطف ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ [النبأ : 8] عليه .

والاستفهام في ﴿ ألم نجعل ﴾ تقريري وهو تقرير على النفي كما هو غالب صيغ الاستفهام التقريري أن يَكون بعده نفي والأكثر كونه بحرف (لم) ، وذلك النفي كالإعذار للمقرَّر إن كان يريد أن ينكر وإنما المقصود التقرير بوقوع جعل الأرض مهاداً لا بنفيه فحرف النفي لمجرد تأكيد معنى التقرير .

فالمعنى : أجعلنا الأرض مهاداً ولذلك سيعطف عليه ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ﴾ في سورة البقرة (33) .

ولا يسعهم إلا الإِقرار به قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللَّه ﴾ [لقمان : 25] ، وحاصل الاستدلال بالخلق الأول لمخلوقات عظيمة أنه يدل على إمكان الخلق الثاني لمخلوقات هي دون المخلوقات الأولى قال تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس (أي الثاني) ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [غافر : 57] .

وجَعْلُ الأرض : خَلْقُهَا على تلك الحالة لأن كونها مهاداً أمر حاصل فيها من ابتداء خلقها ومِن أزمان حصول ذلك لها من قبل خلق الإِنسان لا يعلمه إلا الله .

والمعنى : أنه خلقها في حال أنها كالمهاد فالكلام تشبيه بليغ .

والتعبير بـ ﴿ نجعل ﴾ دون : نخلق ، لأن كونها مهاداً حالة من أحوالها عند خلقها أو بعده بخلاف فعل الخلق فإنه يتعدى إلى الذات غالباً أو إلى الوصف المقوّم للذات نحو : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] .

والمِهاد : بكسر الميم الفراش الممهد المُوطّأُ ؛ وَزِنَةُ الفِعَال فيه تدل على أن أصله مصدر سمي به للمبالغة .

وفي "القاموس" : أن المهاد يرادف المهد الذي يجعل للصبي .

وعلى كل فهو تشبيه للأرض به إذ جُعل سطحها ميسراً للجلوس عليها والاضطجاع وبالأحرى المشي ، وذلك دليل على إبداع الخلق والتيسير على الناس ، فهو استدلال يتضمن امتناناً وفي ذلك الامتنان إشعار بحكمة الله تعالى إذ جعل الأرض ملائمة للمخلوقات التي عليها فإن الذي صنع هذا الصنع لا يعجزه أن يخلق الأجسام مرة ثانية بعد

بِلاها .

والغرض من الامتنان هنا تذكيرهم بفضل الله لعلهم أن يرعَوُوا عن المكابرة ويقبلوا على النظر فيما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغاً عن الله تعالى .

ومناسبة ابتداء الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأرض أن البعث هو إخراج أهل الحشر من الأرض فكانت الأرض أسبق شيء إلى ذهن السامع عند الخوض في أمر البعث ، أي بعث أهل القبور .

وجعل الأرض مهاداً يتضمن الاستدلال بأصل خلق الأرض على طريقة الإيجاز ولذلك لم يتعرض إليه بعدُ عند التعرض لخلق السماوات .

وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7)

عطف على ﴿ الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] فالواو عاطفة ﴿ الجبال ﴾ على ﴿ الأرض ﴾ ، وعاطفة ﴿ أوتاداً ﴾ على ﴿ مهاداً ﴾ ، وهذا من العطف على معمولي عامل واحد وهو وارد في الكلام الفصيح وجائز باتفاق النحويين لأن حرف العطف قائم مقام العامل .

والأوتاد : جمع وتد بفتح الواو وكسر المثناة الفوقية .

والوتد : عود غليظ شيئاً ، أسفله أدق من أعلاه يُدق في الأرض لتُشد به أطناب الخيمة وللخيمة ، أوتاد كثيرة على قدر اتساع دائرتها .

والإِخبار عن الجبال بأنها أوتاد على طريقة التشبيه البليغ أي كالأوتاد .

ومناسبة ذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض وتشبيهُها بالمهاد الذي يكون داخل البيت فلما كان البيت من شأنه أن يخطر ببال السامع من ذكر المهاد كانت الأرض مشبهة بالبيت على طريقة المكنية فشبهت جبال الأرض بأوتاد البيت تخييلاً للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده .

وأيضاً فإن كثرة الجبال الناتئة على وجه الأرض قد يخطر في الأذهان أنها لا تناسب جعل الأرض مهاداً فكان تشبيه الجبال بالأوتاد مستملحاً بمنزلة حسن الاعتذار ، فيجوز أن تكون الجبال مشبهة بالأوتاد في مجرد الصورة مع هذا التخييل كقولهم : رأيت أسوداً غَابُها الرماح .

ويجوز أن تكون الجبال مشبهة بأوتاد الخيمة في أنها تشد الخيمة من أن تقلعها الرياح أو تزلزلها بأن يكون في خلق الجبال للأرض حكمة لتعديل سَبح الأرض في الكرة الهوائية إذْ تتوّ الجبال على الكرة الأرضية يجعلها تكسر تيار الكُرة الهوائية المحيطة بالأرض فيعتدل تيّاره حتى تكون حركة الأرض في كرة الهواء غير سريعة .

على أن غالب سكان الأرض وخاصة العرب لهم منافع جمّة في الجبال فمنها مسايل الأودية ، وقرارات المياه في سفوحها ، ومراعي أنعامهم ، ومستعصمهم في الخوف ، ومراقب الطرق المؤدية إلى ديارهم إذا طرقها العدوّ .

ولذلك كثر ذكر الجبال مع ذكر الأرض .

فكانت جملة ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ إدْماجاً معترضاً بين جملة ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] وجملةِ ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ [النبأ : 8] .

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8)

معطوف على التقرير الذي في قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] .

(151/798)

والتقدير : وأخلقناكم أزواجاً ، فكان التقرير هنا على أصله إذ المقرر عليه هو وقوع الخلق فلذلك لم يقل : ألم نخلقكم أزواجاً .

وعبر هنا بفعل الخلق دون الجعل لأنه تكوين ذواتهم فهو أدق من الجعل .

وضمير الخطاب للمشركين الذين وجه إليهم التقرير بقوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] ، وهو التفات من طريق الغيبة إلى طريق الخطاب .

والمعطوف عليه وإن كان فعلاً مضارعاً فدخول (لم) عليه صيّره في معنى الماضي لما هو مقرر من أنّ (لم) تقلب معنى المضارع إلى المضي فلذلك حسن عطف ﴿ خلقناكم ﴾ على ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾ [النبأ : 6 ، 7] والكل تقرير على شيء مضى .

وإنما عدل عن أن يكون الفعل فعلاً مضارعاً مثل المعطوف هو عليه لأن صيغة المضارع تستعمل لقصد استحضار الصورة للفعل كما في قوله تعالى : ﴿ فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] ، فالإتيان بالمضارع في ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] يفيد استدعاء إعمال النظر في خلق الأرض والجبال إذ هي مرئيات لهم .

والأكثر أن يَغفل الناظرون عن التأمل في دقائقها لتعوُّدهم بمشاهدتها من قبل سِنِّ التفكر ، فإن الأرض تحت أقدامهم لا يكادون ينظرون فيها بَلْهَ أن يتفكروا في صنعها ، والجبالَ يشغلهم عن التفكر في صنعها شغلهم بتجشم صعودها والسير في وعرها وحراسة سوائمهم من أن تضل شعابها وصرف النظر إلى مسالك العدوّ عند الاعتلاء إلى مراقبها ، فأوثر الفعل المضارع مع ذكر المصنوعات الحَرِيَّة بدقة التأمل واستخلاص الاستدلال ليكون إقرارهم مما قُرروا به على بصيرة فلا يجدوا إلى الإنكار سبيلاً .

وجيء بفعل المضي في قوله : ﴿ خلقناكم أزواجاً ﴾ وما بعده لأن مفاعيل فعل (خلقنا) وما عطف عليه ليست مشاهدة لهم .

وذُكر لهم من المصنوعات ما هو شديد الإتصال بالناس من الأشياء التي تتوارد أحوالها على مدركاتهم دواماً ، فإقرارهم بها أيسر لأن دلالتها قريبة من البديهي .

(152/798)

وقد أُعقب الاستدلال بخلق الأرض وجبالها بالاستدلال بخلق الناس للجمع بين إثبات التفرد بالخلق وبين الدلالة على إمكان إعادتهم ، والدليلُ في خلق الناس على الإبداع العظيم الذي الخلقُ الثاني من نوعه أمكنُ في نفوس المستدل عليهم قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

وللمناسبة التي قدمنا ذكرها في توجيه الابتداء بخلق الأرض في الاستدلال فهي أن من الأرض يخرج الناس للبعث فكذلك ثني باستدلال بخلق الناس الأول لأنهم الذين سيعاد خلقهم يوم البعث وهم الذين يخرجون من الأرض ، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أخرج حياً أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ [مريم : 66 ، 67] .

وانتصب ﴿ أزواجاً ﴾ على الحال من ضمير الخطاب في ﴿ خلقناكم ﴾ لأن المقصود الاستدلال بخلق الناس وبكون الناس أزواجاً ، فلما كان المناسب لفعل خلقنا أن يتعدى

إلى الذوات جيء بمفعوله ضميرَ ذوات الناس ، ولما كان المناسب لكونهم أزواجاً أن يساق مساق إيجاد الأحوال جيء به حالاً من ضمير الخطاب في ﴿ خلقناكم ﴾ ، ولو صرح له بفعل لقيل : وخلقناكم وجَعلناكم أزواجاً ، على نحو ما تقدم في قوله:

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] وما يأتي من قوله : ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ [النبأ : 9] .

والأزواج : جمع زوج وهو اسم للعدد الذي يُكرر الواحد تكريرةً واحدة وقد وصف به كما يوصف بأسماء العدد في نحو قول لبيد :

حتى إذا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةً

ثم غلب الزواج على كل من الذكر وأنثاه من الإنسان والحيوان ، فقوله : ﴿ أزواجاً ﴾ أفاد أن يكون الذكر زوجاً للأنثى والعكس ، فالذكر زوج لأنثاه والأنثى زوج لذَكرها ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ في سورة البقرة (35) .

(153/798)

وفي قوله : وخلقناكم أزواجاً ﴾ إيماء إلى ما في ذلك الخلقِ من حكمة إيجاد قوة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى وهو مناط الإيماء إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد فإن القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداء بقوة التناسل قادر على إيجاد مثله بمثل تلك الدقة أو أدق .

وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته ، وامتنان على الناس بأنه خلقهم ، وأنه خلقهم بحالة تجعل لكل واحد من الصنفين ما يصلح لأن يكون له زوجاً ليحصل التعاون والتشارك في الأنس والتنعم ، قال تعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ [الأعراف : 189] ولذلك صيغ هذا التقرير بتعليق فعل (خلقنا) بضمير الناس وجُعل ﴿ أزواجاً ﴾ حالاً منه ليحصل بذلك الاعتبار بكلا الأمرين دون أن يقال : وخلقنا لَكُم أزواجاً .

وفي ذلك حمل لهم على الشكر بالإِقبال على النظر فيما بُلِّغ إليهم عن الله الذي أسعفهم بهذه النعم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعريض بأن إعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية ومكابرتهم فيما بلغهم من ذلك كفران لنعمة واهب النعم .

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9)

انتقل من الاستدلال بخلق الناس إلى الاستدلال بأحوالهم وخص منها الحالة التي هي أقوَى أحوالهم المعروفة شبهاً بالموت الذي يعقبه البعث وهي حالة متكررة لا يَخلُونَ من الشعور

بما فيها من العبرة لأن تدبير نظام النوم وما يطرأ عليه من اليقظة أشبه حالٍ بحال الموت وما يعقبه من البعث .

وأوثر فعل ﴿ جعلنا ﴾ لأن النوم كيفية يناسبها فعل الجعل لا فعلُ الخلق المناسبُ للذوات كما تقدم في قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ [النبأ : 6] وكذلك قوله : ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ [النبأ : 10 ، 11] .

(154/798)

فإضافة نوم إلى ضمير المخاطبين ليست للتقييد لإخراج نوم غير الإنسان فإن نوم الحيوان كلِّه سبات ، ولكن الإضافة لزيادة التنبيه للاستدلال ، أي أن دليل البعث قائم بَيِّن في النوم الذي هو من أحوالكم ، وأيضاً لأن في وصفه بسُبات امتناناً ، والامتنان خاص بهم قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ [يونس : 67] .

والسُّبَات : بضم السين وتخفيف الباء اسم مصدر بمعنى السَبْتِ ، أي القطع ، أي جعلناه لكم قطعاً لعمل الجسد بحيث لا بد للبدن منه ، وإلى هذا أشار ابن الأعرابي وابن قتيبة إذ جعلا المعنى : وجعلنا نومكن راحة ، فهو تفسير معنى .

وإنما أوثر لفظ (سُبات) لما فيه من الإشعار بالقطع عن العمل ليقابله قوله بعده ﴿ وجعلنا

النهار معاشاً ﴾ [النبأ : 11] كما سيأتي .

ويطلق السُبات على النوم الخفيف ، وليس مراداً في هذه الآية إذ لا يستقيم أن يكون المعنى : وجعلنا نومكم نوماً ، ولا نوماً خفيفاً .

وفي "تفسير الفخر" : طعن بعض الملاحدة في هذه الآية فقالوا : السبات هو النوم فالمعنى : وجعلنا نومكم نوماً .

وأخذ في تأويلها وجوهاً ثلاثة من أقوال المفسرين لا يستقيم منها إلا ما قاله ابن الأعرابي أن السبات القطع كما قال تعالى : ﴿ من إله غير اللَّه يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ [القصص : 72] وهو المعنى الأصلي لتصاريف مادة سبت .

وأنكر ابن الأنباري وابن سِيدة أن يكون فعل سبَت بمعنى استراح ، أي ليس معنى اللفظ ، فمن فسر السُبات بالراحة أرَاد تفسير حاصل المعنى .

(155/798)

وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يَكدحُون له في نهارهم فالله تعالى جعل النوم حاصلاً للإنسان بدون اختياره ، فالنوم يلجىء الإِنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي ركنه في الدماغ ، فبتلك

الراحة يستجدّ العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها ، بحيث لو تعلقت رغبة أحد بالسهر لا بد له من أن يغلبه النوم وذلك لطف بالإنسان بحيث يحصل له ما به منفعة مداركه قسْراً عليه لئلا يتهاون به ، ولذلك قيل : إن أقل الناس نوماً أقصرهم عمراً وكذلك الحيوان .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10)

من إتمام الاستدلال الذي قبله وما فيه من المنة لأن كون الليل لباساً حالة مهيئة لتكيف النوم ومُعينة على هنائه والانتفاع به لأن الليل ظلمة عارضة في الجو من مزايلة ضوء الشمس عن جزء من كرة الأرض وبتلك الظلمة تحتجب المرئيات عن الأبصار فيعسر المشي والعمل والشغل وينحط النشاط فتتهيأ الأعصاب للخمول ثم يغشاها النوم فيحصل السبات بهذه المقدمات العجيبة ، فلا جرم كان نظام الليل آية على انفراد الله تعالى بالخلق وبديع تقديره . وكان دليلاً على أن إعادة الأجسام بعد الفناء غير متعذرة عليه تعالى فلو تأمل المنكرون فيها لعلموا أن الله قادر على البعث فَلَمَا كذبوا خَبَر الرسول صلى الله عليه وسلم به ، وفي ذلك امتنان عليهم بهذا النظام الذي فيه اللطف بهم وراحة حياتهم لو قدَروه حق قدره لشكروا وما أشركوا ، فكان تذكر حالة الليل سريع الخطور بالأذهان عند ذكر حالة النوم فكان ذكر النوم مناسبة للانتقال إلى الاستدلال بحالة الليل على حسب أفهام السامعين .

والمعنيّ من جعل الليل لباساً يحوم حول وصف حالة خاصة بالليل عبر عنها باللباس .

فيجوز أن يكون اللباس محمولاً على معنى الاسم وهو المشهور في إطلاقه ، أي ما يلبسه الإِنسان من الثياب فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ ، أي جعلنا الليل للإِنسان كاللباس له ، فيجوز أن يكون وجه الشبه هو التغشية .

وتحته ثلاثة معانٍ:

أحدها : أن الليل ساتر للإِنسان كما يستره اللباس ، فالإِنسان في الليل يختلي بشؤونه التي لا يرتكبها في النهار لأنه لا يحب أن تراها الأبصار ، وفي ذلك تعريض بإبطال أصل من أصول الدهريين أن الليل رب الظّلمة وهو معتقد المجوس وهم الذين يعتقدون أن المخلوقات كلها مصنوعة من أصلين ، أي إلهين : إله النور وهو صانع الخير ، وإله الظلمة وهو صانع الشر . ويقال لهم : الثنوية لأنهم أثبتوا إلهين إثنين ، وهم فِرق مختلفة المذاهب في تقرير كيفية حدوث العالم عن ذيْنك الأصلين ، وأشهر هذه الفرق فرقة تسمى المَانوية نسبة إلى رجل يقال له : (مانِي) فارسي قبل الإسلام ، وفرقة تسمى مزدكية نسبة إلى رجل يقال له : (مَزْدَك) فارسي قبل الإسلام .

وقد أخذ أبو الطيب معنى هذا التعريض في قوله:

وكم لظلام الليل عندك من يد . . .

تُخَبِّر أن المانَوِيَّةَ تكذِبُ

المعنى الثاني : من معنيي وجه الشبه باللباس : أنه المشابهة في الرفق باللاَّبس والملاءمة لراحته ، فلما كان الليل راحة للإِنسان وكان محيطاً بجميع حواسه وأعصابه شُبه باللباس في ذلك .

ونُسب مُجمل هذا المعنى إلى سعيد بن جبير والسُّدي وقتادة إذ فسروا ﴿ سباتاً ﴾ [النبأ : 9] سكَناً .

المعنى الثالث : أن وجه شبه باللباس هو الوقاية ، فاللَّيل يقي الإِنسان من الأخطار والاعتداء عليه ، فكان العرب لا يغير بعضهم على بعض في الليل وإنما تقع الغارة صباحاً ولذلك إذا غِير عليهم يصرخ الرجل بقومه بقوله : يا صَبَاحَاه .

ويقال : صَبَّحَهم العَدوُّ .

(157/798)

وكانوا إذا أقاموا حرساً على الرُّبى نَاظُورَةَ على ما عسى أن يطرقهم من الأعداء يقيمونه نهاراً فإذا أظلم الليل نزل الحَرس ، كما قال لبيد يذكر ذلك ويذكرُ فرسه:

حَتَّى إذا أُلْقَتْ يداً في كَافر . . .

وأجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُور ظلامُها

أسْهَلَتُ وانْتَصَبَتْ كجِذْعِ منيفة . . .

جَرْدَاءَ يَحْصَر دونها جُرَّامُها

وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11)

لما ذكر خلق نظام الليل قوبل بذكر خلق نظام النهار ، فالنهار : الزمان الذي يكون فيه ضوء الشمس منتشراً على جزء كبير من الكُرة الأرضية .

وفيه عبرة بدقة الصنع وإحكامه إذ جُعل نظامان مختلفان منشؤهما سطوع نور الشمس واحتجابُه فوق الأرض ، وهما نعمتان للبشر مختلفتان في الأسباب والآثار ؛ فنعمة الليل راجعة إلى الراحة والهدوء ، ونعمة النهار راجعة إلى العمل والسعي ، لأن النهار يعقب الليل فيكون الإنسان قد استجدَّ راحته واستعاد نشاطه ويتمكن من مختلف الأعمال بسبب إبصار الشخوص والطرق .

ولما كان معظم العمل في النهار لأجل المعاش أخبر عن النهار بأنه معاش وقد أشعر ذكرُ النهار بعد ذكر كل من النوم والليل بملاحظة أن النهار ابتداءُ وقت اليقظة التي هي ضد النوم فصارت مقابلتهما بالنهار في تقدير : وجعلنا النهار واليقظة فيه معاشاً ، ففي الكلام اكتفاء دلت عليه المقابلة ، وبذلك حصل بين الجمل الثلاث مطابقتان من المحسنات البديعية لفظاً

وضِمْناً .

والمعاش : يطلق مصدر عاش إذا حيي ، فالمعاش : الحياة ويطلق اسماً لما به عَيش الإِنسان من طعام وشراب على غير قياس .

(158/798)

والمعنيان صالحان للآية إذ يكون المعنى : وجعلنا النهار حياة لكم ، شبهت اليقظة فيه الحياة ، أو يكون المعنى وجعلنا النهار معيشة لكم ، والإِخبار عنه بأنه معيشة مجاز أيضاً بعلاقة السببية لأن النهار سبب للعمل الذي هو سبب لحصول المعيشة وذلك يقابل جعل الليل سباتاً بمعنى الانقطاع عن العمل ، قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ [القصص : 73] .

ففي مقابلة السبات بالمعاش على هذين الاعتبارين مطابقتان من المحسّنات .

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12)

ناسب بعد ذكر الليل والنهار وهما من مظاهر الأفق المسمى سماء أن يُتبع ذلك وما سبقه من خلق العالم السفلي بذكر خلق العوالم العلوية .

والبناء : جعل الجاعل أو صُنع الصانع بيتاً أو قصراً من حجارة وطين أو من أثواب ، أو من

أدَمٍ على وجه الأرض ، وهو مصدر بنى ، فبيت المدَر مبني ، والخيمة مبنيّة ، والطِراف والقبة من الأدم مبنيان .

والبناء يستلزم الإعلاء على الأرض فليس الحفر بناء ولا نقر الصخور في الجبال بناء .

قال الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا

بيتاً دعائمه أعز وأطول . . .

فذكر الدعائم وهي من أجزاء الخيمة .

واستعير فعل ﴿ بنيْنا ﴾ في هذه الآية لمعنى : خلقنا ما هو عَالٍ فوق الناس ، لأن تكوينه عالياً يشبه البناء .

ولذلك كان قوله : ﴿ فوقكم ﴾ إيماء إلى وجه الشبه في إطلاق فعل ﴿ بنينا ﴾ وليس ذلك تجريداً للاستعارة لأن الفوقية لا تختص بالمبنيّات ، مع ما فيه من تنبيه النفوس للاعتبار والنظر في تلك السَبع الشداد .

والمراد بالسبع الشداد : السماوات ، فهو من ذكر الصفة وحذف الموصوف للعلم به كقوله تعالى : ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ [الحاقة : 11] ، ولذلك جاء الوصف باسم العدد المؤنث إذ التقدير : سبعَ سماوات .

فيجوز أن يراد بالسبع الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ وهي : زُحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزُّهْرةُ ، وعطارد ، والقَمرُ .

وهذا ترتيبها بحسب ارتفاع بعضها فوق بعض بما دل عليه خسوف بعضها ببعض حين يحول بينه وبين ضوء الشمس التي تكتسب بقية الكواكب النور من شعاع الشمس .

وهذا المحمل هو الأظهر لأن العبرة بها أظهر لأن المخاطبين لا يرون السماوات السبع ويرون هذه السيارات ويعهدونها دون غيرها من السيارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد .

وهي (سَتّورن) و (نَبْتُون) و (أُورَانُوس) وهي في عِلم الله تعالى لا محالة لقوله : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [الملك : 14] وأن الله لا يقول إلا حقاً وصدقاً ويقرِّب للناس المعاني بقدر أفهامهم رحمة بهم .

فأما الأرض فقد عدت أخيراً في الكواكب السيارة وحُذف القمر من الكواكب لتبيُّن أن حركته تابعة لحركة الأرض إلا أن هذا لا دخل له في الاستدلال لأن الاستدلال وقع بما هو معلوم مسلم يومئذ والكل من صنع الله .

ويجوز أن يراد بالسماوات السبع طبقات علوية يعلمها الله تعالى وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنها سبع سماوات .

وشِداد : جمع شديدة ، وهي الموصوفة بالشدة ، والشدة : القوة .

والمعنى : أنها متينة الخَلقِ قوية الأجرام لا يختل أمرها ولا تنقص على مرّ الأزمان .

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13)

ذِكرُ السماوات يناسبه ذكر أعظم ما يشاهده الناس في فضائها وذلك الشمس ، ففي ذلك مع العبرة بخلقها عبرة في كونها على تلك الصفة ومنّة على الناس باستفادتهم من نورها فوائد جمة .

والسراج : حقيقته المصباح الذي يستضاء به وهو إناء يجعل فيه زيت وفي الزيت خرقة مفتولة تسمى الذُّبَالة تُشْعل بنار فتضيء ما دام فيها بلل الزيت .

والكلامُ على التشبيهِ البليغ والغرض من التشبيه تقريب صفة المشبّه إلى الأذهان كما تقدم في سورة نوح .

وزيد ذلك التقريب بوصف السراج بالوهّاج ، أي الشديد السَّنا .

(160/798)

والوهاج : أصله الشديد الوَهج (بفتح الواو وفتح الهاء ، ويقال : بفتح الواو وسكون الهاء) وهو الاتقاد يقَال : وَهَجَت النار إذا اضطرمت اضطراماً شديداً .

ويطلق الوهاج على المتلألىء المضيء وهو المراد هنا لأن وصف وهاج أُجريَ على سراج

، أي سراجاً شديد الإِضاءة ، ولا يقال : سراج ملتهب .

قال الراغب : الوَهجُ حصول الضوء والحرِّ من النار .

وفي "الأساس" عَدَّ قولَهم : سراج وهاج في قسم الحقيقة .

وعليه جرى قوله في "الكشاف" : "متلألئاً وقَّاداً .

وتوهجت النار ، إذ تلمظت فتوهجت بضوئها وحرّها" فإذن يكون التعبير عن الشمس بالسراج في هذه الآية هو مَوقع التشبيه .

ولذلك أوثر فعل : ﴿ جعلنا ﴾ دون : خلقنا ، لأن كونها سراجاً وهّاجاً حالة من أحوالها وإنما يعلق فعل الخلق بالذوات .

فالمعنى : وجعلنا لكم سراجاً وهّاجاً أو وجعلنا في السبع الشداد سراجاً وهّاجاً على نحو قوله تعالى : ﴿ ألم تروا كيف خلق اللَّه سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ [نوح : 15 ، 16] وقوله : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ [الفرقان : 61] سواء قَدَّرْتَ ضمير ﴿ فيها ﴾ عائداً إلى ﴿ السماء ﴾ أو إلى (البروج) لأن البروج هي بروج السماء .

وقوله : ﴿ سراجاً ﴾ اسم جنس فقد يراد به الواحد من ذلك الجنس فيحتمل أن يراد الشمس أو القمر .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14)

استدلال بحالة أخرى من الأحوال التي أودعها الله تعالى في نظام الموجودات وجعلها منشأً شبَيهاً بحياة بعد شبيهٍ بموت أو اقتراب منه ومَنْشأ تَخلق موجودات من ذرات دقيقة .

(161/798)

وتلك حالة إنزال ماء المطر من الأسحبة على الأرض فتنبت الأرض به سنا بل حبّ وشجراً ، وكلأً ، وتلك كلها فيها حياة قريبة من حياة الإِنسان والحيوان وهي حياة النمَاء فيكون ذلك دليلاً للناس على تصور حالة البعث بعد الموت بدليل من التقريب الدال على إمكانه حتى تضمحل من نفوس المكابرين شُبَهُ إحالة البعث .

وهذا الذي أشير إليه هنا قد صرح به في مواضع من القرآن كقوله تعالى : ﴿ ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ [ق : 119] ففي الآية استدلالان : استدلال بإنزال الماء من السحاب ، واستدلال بالإِنبات ، وفي هذا أيضاً منّة على المُعْرِضِين عن النظر في دلائل صنع الله التي هي دواع لشكر المنعم بها لما فيها من منافع للناس من رزقهم ورزق أنعامهم ، ومن تنعمهم وجمال مَرَائيهم فإنهم لو شكروا المنعم بها لكانوا عندما يَبلغهم عنه أنه يدعوهم إلى النظر في الأدلة مستعدين للنظر ، بتوقع أن تكون الدعوة البالغة

إليهم صَادقة العَزو إلى الله فما خفيت عنهم الدلالة .

ومناسبة الانتقال من ذكر السماوات إلى ذكر السحاب والمطر قوية .

والمعصرات : بضم الميم وكسر الصاد السحابات التي تحمل ماء المطر واحدتها مُعصرة اسم فاعل من : أعْصَرَتْ السحابةُ ، إذا آن لها أن تَعْصِر ، أي تُنزل إنزالاً شبيهاً بالعَصْر .

فهمزة (أعصر) تفيد معنى الحينونة وهو استعمال موجود وتسمَّى همزة التهيئة كما في قولهم : أجَزَّ الزرعُ ، إذا حان له أن يُجزّ (بزاي في آخره) وأُحصد إذا حان وقت حصاده .

(162/798)

ويظهر من كلام صاحب "الكشاف" أن همزة الحينونة تفيد معنى التهيُّؤ لقبول الفعل وتفيد معنى التهيُّؤ لإِصدار الفعل فإنه ذكر : أعْصَرتْ الجاريةُ ، أي حان وقت أن تصير تحيض ، وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب" : أركَبَ المُهْرُ ، إذا حان أن يركب ، وأقطفَ الكَرْمُ ، إذا حان أن يُقطف .

ثم ذكر : أقْطَفَ القومُ : حان أن يَقطِفوا كُرومهم ، وأنتجت الخيل : حان وقت نَتاجها .

وفي تفسير ابن عطية عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن اللَّه يزجي سحاباً ﴾ الآية من سورة النور (43) ، والعرب تقول : إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاماً جاء بالريح عَصَر

بعضُه بعضاً فيخرج الودق منه ، ومن ذلك قوله : وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ ومن ذلك قول حسان :

كلتاهما حَلَب العَصير فعَاطني

بزُجاجة أرخاهما للمفصل . . .

أراد حَسَّانُ الخمرَ والماءَ الذي مُزجت به ، أي هذه من عصير العنب وهذه من عصير السحاب ، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن العنبري للقومَ الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان اه .

والثّجاج : المُنْصَبُّ بقوة وهو فَعَّال من ثَجّ القاصر إذا انصب ، يقال : ثجّ الماءُ ، إذا انصبّ بقوة ، فهو فِعل قاصر .

وقد يسند الثجُّ إلى السحاب ، يقال : ثج السحاب يَثُجّ بضم الثاء ، إذا صَبَّ الماءَ ، فهو حينئذ فعل متعدّ .

ووصف الماء هنا بالثّجاج للامتنان .

وقد بينت حكمة إنزال المطر من السحاب بأن الله جعله لإنبات النبات من الأرض جمعاً بين الامتنان والإيماء إلى دليل تقريب البعث ليحصل إقرارهم بالبعث وشكر الصّانع .

وجيء بفعل ﴿ لنخرج ﴾ دون نحو : لننبت ، لأن المقصود الإيماء إلى تصوير كيفية بعث الناس من الأرض إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام ألا ترى أنه لما كان المقصد الأول من

آية سورة (ق) هو الامتنانَ جيء بفعل "أنبتنا" في قوله : ﴿ ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جناتٍ ﴾ [ق : 9] الآية .

(163/798)

ثم أتبع ثانياً بالاستدلال به على البعث بقوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ [ق : 11] .

والبعث خروج من الأرض قال تعالى : ﴿ ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ في سورة طه (55) .

والحَب : اسم جمع حبّة وهي البرزة .

والمراد بالحب هنا : الحب المقتات للناس مثل : الحنطة ، والشعير ، والسُّلت ، والذُّرة ، والأرزُّ ، والقُطنية ، وهي الحبوب التي هي ثمرة السنابل ونحوها .

والنّبات أصله اسم مصدر نبت الزرع ، قال تعالى : ﴿ واللَّه أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] وأطلق النبات على النابت من إطلاق المصدر على الفاعل وأصله المبالغة ثم شاع استعماله فنسيت المبالغة .

والمراد به هنا : النبات الذي لا يؤكل حبه بل الذي ينتفع بذاته وهو ما تأكله الأنعام والدواب مثل التبن والقُرط والفصفصة والحشيش وغير ذلك .

وجعلت الجنات مفعولاً ل (تخرج) على تقدير مضاف ، أي نخل جنات أو شجر جنات ، لأن الجنات جمع جَنة وهي القطعة من الأرض المغروسة نخلاً ، أو نخلاً وكرْماً ، أو بجميع الشجر المثمر مثل التين والرمان كما جاء في مواضعَ من القرآن ، وهي استعمالات مختلفة باختلاف المنابت .

ووجه إيثار لفظ ﴿ جنات ﴾ أن فيه إيماء إلى إتمام المنة لأنهم كانوا يحبون الجنات والحدائق لما فيها من التنعم بالظِّلال والثمار والمياه وجمال المنظر ، ولذلك أتبعت بوصف ﴿ ألفافاً ﴾ لأنه يزيدها حسناً ، وإن كان الفلاحون عندنا يفضلون التباعد بين الأشجار لأن ذلك أوفر لكمية الثمار لأن تباعدها أسعد لها بتخلل الهواء وشعاع الشمس ، لكن مساق الآية هنا الامتنان بما فيه نعيم الناس .

وألفاف : اسم جمع لا واحد له من لفظه وهو مثل أوزاع وأخياف ، أي كل جنة ملتفة ، أي ملتفة الشجر بعضه ببعض .

فوصف الجنات بألفَاف مبنيّ على المجاز العقلي لأن الالتفاف في أشجارها ولكن لما كانت الأشجار لا يَلتفّ بعضها على بعض في الغالب إلا إذا جمعتها جنة أسند ألفاف إلى جنات بطريق الوصف .

ولعله من مبتكرات القرآن إذ لم أر شاهداً عليه من كلام العرب قبل القرآن .

وقيل : ألفاف جمع لِفّ بكسر اللام بوزن جِذْع ، أي كل جنة منها لف بكسر اللام ولم يأتوا بشاهد عليه .

وذكر في "الكشاف" أن صاحب "الإقليد" ذكر بيتاً أنشده الحسن بن علي الطوسي ولم يعزه إلى قائل .

وفي "الكشاف" زعم ابن قتيبة : أنه لَفَّاءُ ولُفٌّ ثم ألفاف (أي أن ألفافاً جمع الجمع) قال : "وما أظنه واجداً له نظيراً" أي لا يجمع فُعْل جمعاً على أفعال ، أي لا نظير له إذ لا يقال خُضر وأخضار وحُمر وأحمار .

يريد أنه لا يخرّج الكلام الفصيح على استعمال لم يثبت ورود نظيره في كلام العرب مع وجود تأويل له على وجه وارد .

فكان أظهر الوجوه أن ﴿ ألفافاً ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه .

وبهذا الاستدلال والامتنان ختمت الأدلة التي أقيمت لهم على انفراد الله تعالى بالإلهية وتضمنت الإيماء إلى إمكان البعث وما أدمج فيها من المنن عليهم عساهم أن يذكروا النعمة فيشعروا بواجب شكر المنعم ولا يستفظعوا إبطال الشركاء في الإلهية وينظروا فيما بلغهم عنه من الإخبار بالبعث والجزاء فيصرفوا عقولهم للنظر في دلائل تصديق ذلك .

وقد ابتدئت هذه الدلائل بدلائل خلق الأرض وحالتها وجالت بهم الذكرى على أهم ما على الأرض من الجماد والحيوان ، ثم ما في الأفق من أعراض الليل والنهار .

ثم تصاعد بهم التجوال بالنظر في خلق السماوات وبخاصة الشمس ثم نُزل بهم إلى دلائل السحاب والمطر فنزلوا معه إلى ما يخرج من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صَدروا وذلك من رد العجز على الصدر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(165/798)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية ـ 28 ـ

ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في مقدمات سورة النبأ , وهي سورة مكية , شأنها شأن كافة السور المكية يدور محورها حول قضية العقيدة , تلك القضية الغيبية التي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلي تصور صحيح أبدا بغير هداية ربانية , ومن هنا كانت من قواعد الدين الذي من لوازم صحته أن يكون وحيا ربانيا خالصا لا يداخله أدني قدر من الصياغة أو التصورات البشرية .

ومن أصول العقيدة الإسلامية الإيمان بالبعث وبالحساب والجزاء , وبالخلود في حياة قادمة إما في الجنة أبدا , أو في النار أبدا , والإيمان بالبعث هو موضوع سورة النبأ ومحورها الأساسي , وذلك لأن إنكار البعث كان حجة كفار قريش , كما كان حجة الكفار والمتشككين عبر التاريخ في نبذهم للدين , كفرا برب العالمين , وجهلا بطلاقة قدرته التي لا تحدها حدود , أو قياسا للقدرة الالهية بقدرات البشر المحدودة ظلما وعدوانا وجهلا بمدلول الألوهية الحقة , ومن ثم عجز الكافرون عن تصور إمكانية البعث , أو تعاجزوا عنه انصياعا لشهواتهم التي يرون ممارستها دون أدني مسئولية أو مساءلة فانطلقوا في انكار البعث , وما يستتبعه من الحساب والجزاء , وفي التشكيك في كل ذلك وهو من صلب الدين الذي جاء به آلاف من الانبياء , ومئات من المرسلين , وتكامل في بعثة النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) .

ومن أجل التأكيد علي حقيقة البعث بعد الموت وما يستتبعه من حساب وجزاء ابتدأت

سورة النبأ باستنكار تساؤل الكافرين عنه تساؤل المنكر له أو المتشكك في امكانية وقوعه , وألمحت بالتهديد القاطع لكل منكر أو

(166/798)

متشكك في تلك الحقيقة الربانية الحاسمة , ثم أوردت عددا من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الالهية في إبداع الخلق لكي تكون شاهدة علي أن الخالق المبدع قادر علي افناء خلقه وعلي إعادة بعثه . . . ! ! ! , ولذلك أكدت السورة علي حقيقة يوم البعث وأهواله , وسمته باسم يوم الفصل لأنه يوم قد وقته ربنا (تبارك وتعالي) للفصل بين العباد , سيجمع له كافة الخلق من الأولين والآخرين بعد فنائهم أجمعين وفناء الكون كله من حولهم , وذلك لحسابهم علي ما قد قدموا في حياتهم الدنيا , ولجزائهم الجزاء الأوفي علي ذلك . . ! ! !

ثم تعرج بنا السورة علي بعض صور العقاب الذي أعده ربنا (تبارك وتعالي) للطاغين من الكفار والمشركين والمتجبرين في الأرض من المنكرين لدين الله , والمكذبين بآياته , والغافلين عن حسابه , وذلك بإدخالهم إلي جهنم - وبئس المصير - التي تترصد بهم , وتستعد لاستقبالهم وفيها من صور العذاب المهين ما نسأل الله تعالي أن يجيرنا منه . . ! ! !

وللمقارنة بين مصير هؤلاء الطاغين المكذبين ومصير عباد الله المتقين , تحدثت السورة عن شيء من جزاء المتقين من جنات ونعيم مقيم فضلا ورحمة من رب العالمين .

وختمت السورة الكريمة بتصوير شيء من أهوال يوم القيامة , وبدعوة الناس كافة إلي الاستعداد لهذا اليوم الذي سوف يعود الخلق فيه إلي الله , ليقفوا جميعا بين يديه للحساب , وأن يأخذوا حذرهم حتي تحسن عودتهم , ويهون حسابهم فينجوا من العذاب المهين , ويرفلوا في جنات النعيم المقيم . . . ! ! !

وتضمن ختام سورة النبأ التحذير من عذاب يوم القيامة , حيث ينظر كل إنسان صحيفة أعماله في هذه الحياة , وفيها كل ما قد قدمت يداه , فيحمد المتقون الله علي حسن هدايته وتوفيقه ويتمني كل كافر لو يستحيل ترابا أملا في تحاشي هول هذا اليوم وهول المصير الأسود من بعده ولكن هيهات هيهات أن يفر أحد من حساب الله وجزائه العادل . . . ! ! !

ومن

الآيات الكونية التي قدمها ربنا (تبارك وتعالي) بين يدي سورة النبأ شاهدة له (سبحانه) بطلاقة القدرة في إبداعه لخلقه , ومؤكدة إمكانية البعث بل حتميته وحقيقته جاء قوله (تعالي) :

ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا

وهاتان الآيتان يمر عليهما الانسان دون ادراك حقيقي لفضل الله تعالي في الانعام بهما ولا بعمق الدلالة العلمية في كل منهما , لأن حقيقة ذلك لم يدركها العلماء المتخصصون الا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وهذا السبق القرآني صورة من صور الاعجاز العلمي في كتاب الله سنعرض لها إن شاء الله (تعالي) في الأسطر التالية بعد شرح الدلالة اللغوية لألفاظ الآيتين الكريمتين واستعراض لأقوال المفسرين فيهما .

الدلالة اللغوية

صورة لاحدى السلاسل الجبلية التى طالما وصفت بأنها مجرد نتوءات فوق سطح الأرض من الألفاظ المهمة لفهم دلالة الايتين الكريمتين ما يلي :

أولا :(الأرض) : وهي لفظة في اللغة العربية تدل علي اسم الكوكب الذي نحيا عليه , في مقابلة بقية الكون الذي يجمع تحت اسم السماء أو السماوات . ولفظة (الأرض) مؤنثة , وأصلها (أرضة) وجمعها (أرضات) و (أرضون) بفتح الراء أو بتسكينها وقد تجمع علي (أروض) و (أراض) , ولفظة (الأراضي) تستخدم علي غير قياس .

ولما كانت (الأرض) دون السماء فإن العرب قد عبروا بلفظة (الأرض) عن أسفل الشيء , كما عبروا بالسماء عن أعلاه , وقالوا :(أرض أريضة) أي حسنة النبت أو حسنة (الأرضة) كما يقال :(تأرض) النبت بمعني تمكن علي (الأرض) فكثر , و (تأرض) الجدي اذا أكل نبت (الأرض) , ويقال كذلك (أرض نفضة) و (أرض رعدة) أي تنتفض وترتعد أثناء حدوث كل من الهزات الأرضية والثورات البركانية .

و(الأرضة) حشرة تأكل الخشب , يقال :(أرضت) الأخشاب (تؤرض) (أرضا) فهي (مأروضة) اذا أكلتها (الأرضة) .

(168/798)

ثانيا :(المهاد) :(المهاد) والمهد في اللغة العربية الممهد الموطأ من كل شيء , ويطلق علي الفراش لبسطه وسهولة وطئه , يقال :(مهد) الفراش أي بسطه ووطأه , و (المهد) ما يهيأ للصبي من فراش وثير و (تمهيد) الأمور اصلاحها وتسويتها , يقال :(مهدت) لك كذا أي هيأته وسويته , و (تمهيد) العذر هو بسطه وقبوله .

قال (تعالي) : ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين (آل عمران :46)

وقال سبحانه وتعالي :

الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . . (طه :53)

وقال تبارك وتعالي :

ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون

(الروم :44)

وقال (عز من قائل) :

ومهدت له تمهيدا (المدثر :14)

وقال (سبحانه) :

والأرض فرشناها فنعم الماهدون

(الذاريات :48)

ثالثا :(والجبال) والأجبال : جمع (

جبل) وهو المرتفع عما حوله من الارض ارتفاعا ملحوظا يجعله يعظم ويطول , ودونه (التل) ودون التل (الربوة) أو (الأكمة) , ودون الأكمة (النجد) أو (الهضبة) , ودون الهضبة (السهل) .

ويقال :(أجبل) القوم أي صاروا إلي (الجبال) بمعني وصلوا إليها , أو دخلوها وسكنوا فيها , ويقال للحية :(ابنة الجبل) لأن الجبل مأواها , كما يقال لصدي الصوت (ابن الجبل) لأن (الجبل) يردده , ويقال للداهية (ابنة الجبل) لأنها تثقل علي النفس كأنها (الجبل)

و (الجبلة) و (الجبلة) و (الجبلة) و (الجبلة) القوة البدنية أو صلابة الأرض و (الجبال) : البدن , يقال : فلان (مجبول) أو (خطير الجبال) أي عظيم البدن تشبيها بالجبل , و (تجبل) ما عنده أي استنظفه , و (الجبل) أيضا ساحة البيت , أو الكثير من كل شيء , يقال : (مال جبل) و (حي جبل) أي كثير , و (الجبل) و (الجبلة) الجماعة من الناس (وفيها قراءات قريء بها قوله (تعالي) : ولقد أضل منكم جبلا كثيرا بكسر الجيم والباء وتشديد اللام , كما قريء بضم أو فتح الجيم وتسكين الباء . وبضم كل من الجيم والباء وتشديد اللام أو تخفيفها)

و (الجبلة) الخلقة أو الفطرة وأصله الوجه وما استقبلك منه , ومنه قوله (تعالي) والجبلة الأولين بكسر الجيم أو ضمها وكسر الباء او تسكينها والجمع (الجبلات) . ومنها أخذت تسمية السائل الذي يملأ جدار الخلية الحية باسم الجبلة (البروتوبلازم أو السيتوبلازم) . يقال : (جبله) الله (جبلا) أي خلقه وفطره , اشارة إلي ما ركب فيه من طباع , و (الجبلي) الفطري , و (الجبلة) الأصل , و (الجبل) الغليظ , يقال : فلان ذو (جبلة) أي غليظ الجسم , و (جبل) أي صار كالجبل في الغلظ , ويقال : (جبل) التراب (جبلا) أي صب

عليه الماء ودعكه

حتي صار طينا , ويقال :(جبله) (أي قطعه قطعا شتي , كما يقال فلان (جبل) لا يتزحزح تصورا لمعني الثبات فيه .

رابعا :(أوتادا) و (الأوتاد) جمع (وتد) بكسر التاء وبفتحها , والكسر أولي , وفعله (وتد) , والأمر منه (تد) بالكسر , و (الأوتاد) قطع من خشب أو حديد غليظة الرأس , مدببة النهاية , تثبت بها أركان الخيمة في الأرض بدكها حتي يدفن أغلبها في الأرض , ويبقي أقلها ظاهرا فوق السطح , فتشد بذلك العمق أركان الخيمة إلي الأرض فتثبتها وتجعلها قادرة علي مقاومة فعل الرياح , والعواصف الهوجاء .

(170/798)

ويأتي التعبير بـ (ذي الأوتاد) في استعارة مجازية بمعني كثير الجنود والعساكر الذين يشدون الملك ويثبتونه كما تشد الأوتاد أركان الخيام إلي الأرض فتثبتها نظرا لكثرة خيامهم التي يضربون أوتادها في أرض معسكراتهم , كما قد تأتي في معني صاحب الأبنية العظيمة الشاهقة التي تشبه في عمق أساساتها أوتاد الجبال , وفي ارتفاعها علو الجبال وذلك من مثل قول الحق تبارك وتعالي :

[وفرعون ذي الأوتاد *](الفجر :10)

شروح المفسرين

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) في تفسير قول الحق تبارك وتعالي (ألم نجعل الأرض مهادا) : أي ممهدة للخلائق , ذلولا لهم , قارة , ساكنة , ثابتة , وفي قوله تعالي (والجبال أوتادا) : أي جعل لها أوتادا , أرساها بها , وثبتها , وقررها حتي سكنت , ولم تضطرب بمن عليها . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (غفر الله لهما) كلاما مشابها إذ قالا :(ألم نجعل الأرض مهادا) أي فراشا كالمهد صالحة للحياة عليها ؟ (والجبال أوتادا) أي تثبت بها الأرض كما تثبت الخيام بالأوتاد لئلا تميد بكم , والاستفهام للتقرير

وقال صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة : والمهاد : الممهد للسير , والمهاد اللين كالمهد . . وكلاهما متقارب , وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار

(171/798)

حضارته ومعرفته , فلا تحتاج إلي علم غزير لإدراكها في صورتها الواقعية , وكون الجبال أوتادا ظاهرة تراها العين كذلك حتي من الإنسان البدائي , وهذه وتلك ذات وقع في الحس حين توجه إليها النفس , غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدي مما يحسه الإنسان البدائي

لأول وهلة بالحس المجرد , وكلما ارتقت معارف الإنسان , وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره , كبرت هذه الحقيقة في نفسه , وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم , والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم , واعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضانتها , واعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها

وجعل الأرض مهادا للحياة ـ وللحياة الإنسانية بوجه خاص ـ شاهد لا يماري في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر , فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها , أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض . . الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهادا , ولا يبقي هذه الحقيقة . التي يشير إليها القرآن الكريم هذه الاشارة المجملة , ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه . .

وجعل الجبال أوتادا . . يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد , فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها . أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن , وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها . .

وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال . . وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية , وقد يكون

لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية . .

وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد . . وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم , ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين !

(172/798)

وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمه الله) ما نصه :(مهادا) فراشا موطأ كالمهد , لتمكينكم من الاستقرار عليها والتقلب في أنحائها , والانتفاع بما أودعناه لكم فيها .

والمهاد : مصدر بمعني ما يمهد , وجعلت به الأرض مهادا مبالغة في جعلها موطئا للناس والدواب يقيمون عليها . أو بتقدير مضاف , أي ذات مهاد ,(والجبال أوتادا) كالأوتاد للأرض , أي أرسيناها بالجبال لئلا تميد وتضطرب , كما يرسي البيت بالأوتاد لئلا تعصف به الرياح . جمع وتد بفتح التاء وكسرها .وفعله كوعد

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه : ألم يروا من آيات قدرتنا أنا جعلنا الأرض ممهدة للاستقرار عليها والتقلب في أنحائها ! ! وجعلنا الجبال أوتادا للأرض تثبتها

وفي تعليق هامشي أضافوا ما نصه : يبلغ سمك الجزء الصلب من القشرة الأرضية نحو 60 كيلو مترا , وتكثر فيه التجاعيد فيرتفع حيث الجبال وينخفض ليكون بطون البحار وقيعان المحيطات , وهو في حالة من التوازن بسبب الضغوط الناتجة من الجبال , ولا يختل هذا التوازن إلا بعوامل التعرية , فقشرة الأرض اليابسة ترسيها الجبال كما ترسي الأوتاد الخيمة .

وذكر صاحب صفوة التفاسير (بارك الله فيه) ما نصه :

(ألم نجعل الأرض مهادا) أي ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها , والتقلب في أنحائها ؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا علي ظهرها , وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات ؟ (والجبال أوتادا) أي وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض تثبتها لئلا تميد بكم كما يثبت البيت بالأوتاد , قال في التسهيل , شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد .

ألم نجعل الأرض مهادا ؟ في منظور العلوم الحديثة

استضاءة بمفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض وصلت الدراسات الحديثة في هذا المجال إلي أن الأرض بدأت بمحيط غامر , ثم بتصدع قاع ذلك

المحيط وبدء تحرك الألواح الصخرية المكونة لذلك القاع متباعدة عن بعضها البعض في أحد أطرافها , ومصطدمة في الاطراف المقابلة , ومنزلقة عبر بقية الأطراف , نتج عند الاطراف المتصادمة أعداد من اقواس الجزر البركانية التي نمت بالتدريج الي عدد من القارات بمزيد من تصادمها , فتمايزت ألواح الغلاف الصخري للأرض إلي الألواح المحيطية , وتلك القارية , وبتصادم الواح قيعان المحيطات بكتل القارات تكونت سلاسل الجبال الشبيهة بجبال الإنديز علي الحافة الغربية لأمريكا الجنوبية , وبتصادم ألواح القارات مع بعضها تكونت أعلي السلاسل الجبلية علي سطح الأرض من مثل سلاسل جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام كتلة الهند بكتلة قارتي آسيا وأوروبا .

ومع تكون الأطواف , والمنظومات والسلاسل والأحزمة الجبلية ومجموعاتها المعقدة أصبح سطح الأرض علي درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها , ثم بدأت عمليات التجوية والتحات والتعرية في بري تلك المجموعات الجبلية والأخذ من ارتفاعاتها باستمرار , وبنقل الفتات الصخري الناتج عن تلك العمليات الي أحواض المحيطات والبحار بدأت دورة الصخور التي لا تزال تتكرر ملايين المرات إلي يومنا الراهن لتكسو منخفضات الأرض بالتربة اللازمة للانبات والزراعة , ولتركز العديد من الثروات المعدنية , ولتزيد من ملوحة البحار والمحيطات حتي تجعلها صالحة لحياة البلايين من الكائنات الحية ,

ولتحفظ هذا الماء من الفساد , ولتركز معادن المتبخرات في صخور الأرض .

ولما كانت عمليات التجوية والتحات والتعرية تزيل كميات كبيرة من الصخور المكونة لمرتفعات سطح الأرض كان من ضرورات الاتزان الأرضي أن تتحرك الصهارة الصخرية تحت الغلاف الصخري للأرض لتعوض فقدان الكتل التي تمت تعريتها , ولتحقق الاتزان الأرضي بتعديل الضغوط في داخل الأرض , ويؤدي ذلك إلي رفع الجبال بطريقة تدريجية . وباستمرار تفاعل تلك القوي المتصارعة من

عمليات التجوية والتعرية المقترنة بعمليات تحرك الصهارة الصخرية تحت الغلاف الصخري للأرض وفي داخله , وعمليات رفع الجبال لتحقيق التوازن الأرضي لفترات زمنية طويلة فإنها تنتهي بإنقاص سمك سلسلة الجبال إلي متوسط سمك لوح الغلاف الصخري الذي تتواجد عليه , وذلك بسحب جذور الجبال (الامتدادات الداخلية للجبال) من نطاق الضعف الأرضي ورفعها حتي تظهر علي سطح الارض , وبخروج جذور الجبال من نطاق الضعف الارضي الذي كانت طافية فيه كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات , فإن الجبال تفقد القدرة علي الارتفاع إلي أعلي , وتظل عوامل التعرية في بريها حتي تسويها

بسطح الأرض تقريبا وحينئذ تنكشف جذور الجبال , وبها من الثروات المعدنية ما لا يمكن أن يتواجد الا تحت مثل ظروف اوتاد الجبال التي تتميز بقدر هائل من الضغط والحرارة .

وعلي هذا النحو فإن الجبال قد لعبت ـ ولا تزال تلعب ـ دورا مهما في بناء قارات الأرض وفي الزيادة المستمرة لمساحة تلك القارات بإضافة الكتل الجبلية إلي حواف تلك القارات بطريقة مستمرة .

ومعني ذلك أن كل قارات الأرض بدأت بسلاسل من أقواس الجزر البركانية في وسط المحيط الغامر , وأن باصطدام تلك الجزر تكونت القارات علي هيئة أطواف ومنظومات و سلاسل وأحزمة جبلية معقدة , وأن تلك المرتفعات جعلت سطح الأرض علي درجة من وعورة التضاريس لا تسمح بعمرانها , ثم بدأت سلسلة من الصراع بين العمليات الأرضية الداخلية البانية للجبال والرافعة لها , والعمليات الهدمية الخارجية التي تبريها وتعريها , وفي نهاية هذا الصراع تنتصر العوامل الهدمية الخارجية فتسوي الجبال , وتخفض من ارتفاعاتها بالتدريج في محاولة للوصول بها إلي مستوي سطح البحر , ولذلك فإن كل سهول ومنخفضات اليابسة الحالية كانت في يوم من الايام جبالا شاهقة , ثم برتها عوالم التجوية والتحات والتعرية حتي أوصلتها إلي مستوياتها الحالية , وأن الكتل

الصخرية القديمة التي تعرف باسم الرواسخ (أو المجن) وهي كتل مستقرة نسبيا موجودة في أواسط القارات ما هي في الحقيقة إلا جذور السلاسل الجبلية القديمة التي تم بريها .

هذه العمليات المعقدة من الصراع بين القوي البانية في داخل الأرض والقوي الهدمية من خارجها هي التي أدت (بتخطيط من الخالق سبحانه وتعالي) إلي بناء القارات , ورفعها فوق مستوي البحار والمحيطات علي هيئة مجموعات من أطواف ومنظومات وسلاسل وأحزمة جبلية شاهقة ظلت تضاف إلي بعضها البعض بانتظام وبطء لتزيد من مساحة القارات , التي كانت في بادئ الامر جبلية وعرة , لا تسمح وعورتها بعمرانها , ثم بدأت عوامل التعرية في الأخذ من تلك الجبال الشاهقة بالتدريج حتي حولتها إلي السهول الواسعة , والهضاب والنجود المنخفضة والأودية المحفورة والرواسخ الثابتة التي تشكل اواسط القارات اليوم حتي وصلت الأرض إلي صورتها المناسبة للعمران بواسطة الإنسان , ولذلك يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بتمهيد الأرض , ويلوم المنكرين للبعث بتوجيه هذا اللون من الاستفهام التقريري , التوبيخي , التقريعي الذي يقول فيه الحق (تبارك وتعالي) .

ألم نجعل الأرض مهادا ؟ أي ألم نجعل لكم الأرض فراشا موطأ كالمهد لتمكينكم من الاستقرار عليها , والتقلب في أنحائها , والانتفاع بما اودعناه لكم فيها كما اشار صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمه الله) لأن الأرض لو بقيت جبالا شاهقة الارتفاع ,

متشابكة التضاريس , معدومة الممرات والمسالك , لما أمكن العيش علي سطحها

فسبحان الذي أنزل هذه اللفتة القرآنية المبهرة في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين , وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين ! !

والجبال أوتادا في منظور العلوم الحديثة

من الأمور المشاهدة أن سطح الأرض ليس تام الاستواء , وذلك بسبب اختلاف التركيب الكيميائي والمعدني ,

(176/798)

وبالتالي اختلاف كثافة الصخور المكونة لمختلف أجزاء الغلاف الصخري للأرض , فهناك قمم عالية للسلاسل الجبلية , وتنخفض تلك القمم السامقة إلي التلال , ثم الروابي أو الربي (جمع ربوة أو رابية) أو الآكام (جمع أكمة) أو النتوءات الأرضية , ثم الهضاب أو النجود (جمع نجد) ثم السهول , ثم المنخفضات الأرضية والبحرية .

ويبلغ ارتفاع أعلي قمة علي سطح الأرض (وهي قمة جبل إفرست) في سلسلة جبال الهيمالايا 8840 مترا تقريبا فوق مستوي سطح البحر بينما يقدر منسوب اخفض نقطة علي سطح اليابسة (وهي حوض البحر الميت) بحوالي 395 مترا تحت مستوي سطح

البحر , ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بنحو 840 مترا فوق مستوي سطح البحر , ويبلغ منسوب اكثر اغوار المحيطات عمقا 10800 متر (وهو غور ماريا نوس في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين) بينما يبلغ متوسط اعماق المحيطات نحو اربعة كيلو مترات (3729 ـ 4500 متر) تحت مستوي سطح البحر .

ويبلغ الفارق بين أعلي قمة علي اليابسة وأخفض نقطة في قيعان المحيطات

8840+10,800=19640 مترا (أي أقل قليلا من عشرين كيلو مترا)

وهذا الفارق بين أعلي قمة علي سطح اليابسة وأخفض نقطة في أغوار قيعان البحار العميقة والمحيطات إذا قورن بمتوسط نصف قطر الأرض والمقدر بنحو 6371 كيلو مترا فإن النسبة لا تكاد تتعدي 0,003.

, وهذه النسبة الضئيلة تلعب دورا مهما في معاونة عوامل التعرية المختلفة علي بري صخور مرتفعات الأرض , وإلقاء الفتات الناتج عنها في المنخفضات في دورات متعاقبة تعمل علي تسوية سطح الأرض , وتكوين التربة , وتركيز الخامات المعدنية , وجعل الأرض صالحة للعمران كما سبق أن اسلفنا .

كذلك فإن الأدلة العلمية التي تراكمت علي مدي القرنين التاسع عشر والعشرين تشير إلي أن الغلاف الصخري للأرض في حالة توازن تام , وإذا تعرض هذا التوازن إلي الاختلال في أية

نقطة

علي سطح الأرض فإن تعديله يتم مباشرة .

(177/798)

ومن هذه الادلة أن القشرة الأرضية تنخفض إلي أسفل علي هيئة منخفضات أرضية عند تعرضها لأحمال زائدة , وترتفع إلي أعلي علي هيئة نتوءات أرضية عند إزالة تلك الأحمال عنها , ويتم ذلك بما يسمي باسم التضاغط والارتداد التضاغطي . الذي يتم من اجل المحافظة علي الاتزان الارضي , ومن أمثلة ذلك ما ينتج عن تجمع الجليد بسمك كبير علي اليابسة ثم انصهاره , أو عند تخزين الماء بملايين الامتار المكعبة امام السدود ثم تصريفه , أو بتراكم ملايين الاطنان من الترسبات امام السدود , ثم ازالتها , أو بتساقط نواتج الثورات البركانية العنيفة حول عدد من فوهات البراكين ثم تعريتها .

ففي العهد الحديث بدأت في الانصهار تراكمات الجليد السميكة التي كانت قد تجمعت علي بعض اجزاء اليابسة من نصف الكرة الشمالي منذ نحو المليوني سنة (خلال واحد من اكبر العصور الجليدية التي مرت بها الأرض) , ونتيجة لذلك بدأت الأرض بالارتفاع التدريجي في مناطق الانصهار التدريجي للجليد لتحقيق التوازن التضاغطي للارض , وهو

من سنن الله فيها , وقد بلغ ارتفاع الارض بذلك 330 مترا في منطقة خليج هدسون في شمال أمريكا الشمالية , ونحو المائة متر حول بحر البلطيق حيث لايزال ارتفاع الارض مستمرا .

وأمام كثير من السدود التي أقيمت علي مجاري الانهار تسببت بلايين الامتار المكعبة من المياه وملايين الاطنان من الرسوبيات التي تجمعت امام تلك السدود في حدوث انخفاضات عامة في مناسيب المنطقة , وزيادة ملحوظة في نشاطها الزلزالي , يفسر ذلك بأن ألواح الغلاف الصخري المكونة للقارات (والتي يتراوح سمك كل منها بين المائة والمائة وخمسين كيلو مترا) يغلب علي تركيبها صخور ذات كثافة منخفضة نسبيا , بينما يغلب علي تركيب ألواح الغلاف الصخري المكونة لقيعان البحار والمحيطات صخور ذات كثافة عالية نسبيا (ولذلك لا يتجاوز سمك الواحد منها

سبعين كيلو مترا فقط) .

(178/798)

وكل من ألواح الغلاف الصخري القارية والمحيطية يطفو فوق نطاق الضعف الأرضي الأعلي كثافة وهو نطاق لدن (مرن) , شبه منصهر , عالي اللزوجة ولذلك فهو يتأثر بالضغوط فوقه

ويتحرك استجابة لها .

وبالمثل فإن قشرة الأرض المكونة لكتل القارات يتراوح سمكها بين 30 و 40 كيلو مترا تقريبا ويغلب علي تركيبها الصخور الجرانيتية والتي تغطي أحيانا بتتابعات رقيقة ومتفاوتة السمك من الصخور الرسوبية (ومتوسط كثافة الصخور الجرانيتية يبلغ 2,7 جرام للسنتيمتر المكعب) بينما يتراوح سمك قشرة الارض المكونة لقيعان البحار والمحيطات بين 5 و 8 كيلو مترات فقط , ويغلب علي تركيبها الصخور البازلتية التي قد تتبادل مع الصخور الرسوبية أو تتغطي بطبقات رقيقة منها (ويبلغ متوسط سمك الصخور البازلتية 2,9 جرام للسنتيمتر المكعب) , لذلك تطفو كتل القارات فوق قيعان البحار والمحيطات

.

وبنفس هذا التصور يمكن تفسير الاختلاف في تضاريس سطح الأرض علي أساس من التباين في كثافة الصخور المكونة لكل شكل من أشكال تلك التضاريس , فالمرتفعات علي سطح اليابسة لابد وأن يغلب علي تكوينها صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها , ومن ثم فلابد وأن يكون لها امتدادات من صخورها الخفيفة نسبيا في داخل الصخور الاعلي كثافة المحيطة بها , ومن هنا كان الاستنتاج بأن الجبال لابد لها من جذور عميقة تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل لتطفو في نطاق الضعف الارضي , وهنا تحكمها قوانين الطفو كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات .

وقد أيدت قياسات عجلة الجاذبية الأرضية هذا الاستنتاج بإشارتها إلي قيم أقل من المفروض نظريا في المناطق الجبلية , وإلي قيم أعلي من المفروض في المنخفضات الارضية وفوق قيعان البحار والمحيطات , ويعتبر انكشاف جذور الجبال القديمة في اواسط القارات مما يثبت حدوث عمليات إعادة التعديل التضاغطي في الغلاف الصخري للأرض .

(179/798)

وبفهم دورة حياة الجبال ثبت أن كل نتوء أرضي فوق مستوي سطح البحر له امتداد في داخل الغلاف الصخري للارض يتراوح طوله بين 10 و 15 ضعف ارتفاعه , وكلما كان الارتفاع فوق مستوي سطح البحر كبيرا تضاعف طول الجزء الغائر في الأرض امتدادا إلي الداخل , وعلي ذلك فإن قمة مثل افرست لا يكاد ارتفاعها فوق مستوي سطح البحر يصل إلي تسعة كيلو مترات (8848 مترا) لها امتداد في داخل الغلاف الصخري للارض يزيد عن المائة والثلاثين كيلو مترا , يخترق الغلاف الصخري للارض بالكامل ليطفو في نطاق الضعف الارضي , وهو نطاق شبه منصهر , لدن أي مرن , عالي الكثافة واللزوجة , تحكمه في ذلك قوانين الطفو كما تحكم جبال الجليد الطافية في مياه المحيطات , فكلما برت

عوامل التعرية قمم الجبال ارتفعت تلك الجبال الي أعلي , وتظل عملية الارتفاع تلك حتي يخرج جذر الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل , وحينئذ يتوقف الجبل عن الحركة , ويتم بريه حتي يصل سمكه إلي متوسط سمك اللوح الارضي الذي يحمله , وبذلك يظهر جذر الجبل علي سطح الارض , وبه من الثروات الارضية ما لا يمكن ان يتكون إلا تحت ظروف استثنائية من الضغط والحرارة لا تتوفر إلي في جذور الجبال .

فسبحان الذي وصف الجبال من قبل ألف وأربعمائة سنة (بالاوتاد) وهي لفظة واحدة تصف كلا من الشكل الخارجي للجبل , وامتداده الداخلي ووظيفته , لأن الوتد اغلبه يدفن في الأرض , وأقله يظهر علي السطح , ووظيفته التثبيت , وقد اثبتت علوم الأرض في العقود المتأخرة من القرن العشرين أن هكذا الجبال , بعد ان ظل وصف الجبال الي مشارف التسعينيات من القرن العشرين قاصرا علي أنها مجرد نتوءات فوق سطح الأرض , واختلفوا في تحديد حد ادني لارتفاع تلك النتوءات الارضية اختلافا كبيرا , وفي السبق القرآني بوصف الجبال بأنها اوتاد تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن النبي الخاتم

والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض حيث لم يكن لأحد من البشر إلمام بامتدادات الجبال الداخلية الا بعد نزول الوحي بالقرآن بأكثر من إثني عشر قرنا فصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم , والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية . بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(181/798)

بحث آخر :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(55) ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾

بقلم: د . زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في أول الثلث الثاني من سورة النبأ وهي سورة مكية , وآياتها اربعون , وقد سميت بهذا الاسم لأن محورها الرئيسي يدور حول يوم القيامة الذي سماه الحق (تبارك وتعالي) باسم النبأ العظيم وباسم يوم الفصل لما سوف يصاحبه من اهوال

تدمير الكون وتبديله , وبعث الأنفس بعد وفاتها , والفصل بين الناس فيما عملوا في الحياة الدنيا , وهو يوم يختلف فيه الناس بين مؤمن به وكافر , ومصدق به ومكذب لأنه من امور الغيب المطلق الذي لاسبيل امام الانسان لمعرفته الا ببيان من الله الخالق (سبحانه وتعالي) , بيانا ربانيا خالصا لايداخله أدني قدر من التصورات البشرية , لأن مثل هذه الغيوب المطلقة اذا تركت لتصورات الانسان القاصرة فانه يضل فيها ضلالا بعيدا . . . ! !

وتبدأ سورة النبأ بهذا الاستفهام الاستنكاري , التوبيخي التقريعي للمكذبين بيوم الدين من الكفار والمشركين والمتشككين الذي يقول الحق (تبارك وتعالي) فيه

عم يتساءلون , عن النبأ العظيم , الذي هم فيه مختلفون , كلا سيعلمون , ثم كلا سيعلمون (النبأ : 1 . 5) .

وبعد ذلك تستعرض السورة الكريمة عددا من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الالهية المبدعة في الخلق للاستدلال بها علي أن الخالق المبدع قادر علي إفناء خلقه , وعلي إعادة بعثه من جديد , ومن ثم فقد قرر لذلك البعث يوما محددا بأجل ثابت لايعلمه إلا الله (تعالي) , وخصصه للفصل بين الخلائق , وحذر من اهوال ذلك اليوم التي تصف السورة جانبا منها يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) :

إن يوم الفصل كان ميقاتا , يوم ينفخ في الصور فتأتون

أفواجا , وفتحت السماء فكانت ابوابا , وسيرت الجبال فكانت سرابا ❋

(النبأ :17.20)

(182/798)

وتؤكد الآيات في سورة النبأ حقيقة كل من الجنة والنار , وتصف احوال أهل كل من هاتين الدارين الأبديتين مؤكدة ان النار تترصد الظالمين من الكفرة والمشركين , المخالفين لدين الله , والمحاربين لأوليائه من المردة العصاة المتجبرين علي خلقه (من أمثال الصهاينة المجرمين المحتلين لأرض فلسطين , والمتجبرين علي أهلها من المدنيين العزل الآمنين , واعوان الصهاينة من الأمريكان والبريطانيين الخونة المتآمرين , والظلمة المتغطرسين , ومن شابههم من اصحاب الديانات الباطلة , والملل الفاسدة من الهندوس والبوذيين .

وتصف الآيات جانبا مما سوف يلقاه أهل النار في النار جزاء انكارهم للحساب , وتكذيبهم بآيات الله الذي أحصي عليهم كل كلمة وحركة , وسكنة , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

إن جهنم كانت مرصادا , للطاغين مآبا , لابثين فيها أحقابا , لايذوقون فيها بردا ولا شرابا , إلا حميما وغساقا , جزاء وفاقا , إنهم كانوا لايرجون حسابا , وكذبوا بآياتنا كذابا , وكل

شئ أحصيناه كتابا , فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا (النبأ :21.30)

وفي المقابل تصف سورة النبأ جانبا من أحوال المتقين في الجنة فتقول :

ان للمتقين مفازا , حدائق وأعنابا , وكواعب أترابا وكأسا دهاقا , لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا , جزاء من ربك عطاء حسابا .

(النبأ :31.36)

وتختتم السورة الكريمة باستعراض جانب من جوانب عظمة الخالق (سبحانه وتعالي) , وتعاود التأكيد علي حقيقة الآخرة , وتدعو الخلق الي الاستعداد لها , وتنذرهم عواقبها , ودقة حسابها وندم الكافرين فيها فتقول :

رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا , يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا , ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلي ربه مآبا , إنا انذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا

(النبأ :37.40)

والآيات الكونية التي استشهدت بها سورة النبأ تشمل مايلي :

(1) الاشارة الي تمهيد الأرض .

(2) وصف الجبال بأنها أوتاد .

(3) التأكيد علي أهمية الزوجية في خلق الانسان

(4) الاشارة إلي أن النوم راحة وسكون , وأن الليل ستر يغشي الناس بظلمته , وان النهار بنوره قد خصص للجري علي المعايش .

(5) التأكيد علي أن السماوات سبع شداد .

(6) وصف الشمس بأنها سراج وهاج .

(7) الاشارة الي إنزال الله (تعالي) المطر الغزير من المعصرات وهي السحب المليئة بقطيرات الماء .

(8) الاشارة الي اخراج الحب والنبات والجنات الملتفات الأغصان بعد انزال مطر السماء باذن الله .

(9) التأكيد علي حقيقة البعث .

(10) التأكيد علي أن السماء بناء محكم لاينهار إلا بإذن الله فإذا أمر تفصم عراها , وتفتح ابواب عديدة فيها :

(11) التأكيد علي ان الجبال سوف تنسف وتسير يوم القيامة حتي تصير سرابا .

(12) الاشارة الي ان الله (تعالي) يحصي كل شئ , ويحفظه ليوم الحساب .

(13) الإشارة إلي ما بين السماوات والأرض , وهو الجزء السفلي من الغلاف الغازي المحيط بالأرض والحاوي للسحاب , مما يؤكد علي مركزية الأرض بالنسبة للكون .

وكل قضية من هذه القضايا تستحق معالجة خاصة في مقال مستقل , ولذلك فسوف اركز هنا علي النقطة السابعة فقط من القائمة السابقة , وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين السابقين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين

(184/798)

في تفسير قوله تعالي : وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا النبأ :14 ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : قال ابن عباس : المعصرات : الرياح , تستدر المطر من السحاب . . . وهو قول عكرمة والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري , واختاره ابن جرير وهو الأظهر . . . . وقال الفراء : هي السحاب التي تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد . . . . , وعن الحسن وقتاده :(من المعصرات) يعني السماوات وهذا قول غريب , والأظهر ان المراد بالمعصرات السحاب , كما قال تعالي :(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف

يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله) أي من بينه , وقوله جل وعلا :(ماء ثجاجا) قال مجاهد :(ثجاجا) : منصبا , وقال الثوري : متتابعا , وقال ابن زيد : كثيرا , قال ابن جرير : ولايعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج , وإنما الثج الصب المتتابع . . .

وجاء في كل من تفسير الجلالين والظلال (رحم الله كاتبيهما) كلام مختصر مشابه لما جاء في تفسير ابن كثير .

وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن (رحمه الله برحمته الواسعة) مانصه :

(من المعصرات) من السحائب التي قد آن لها ان تمطر لامتلائها بالماء . أو التي تتحلب بالمطر قليلا , ولما تصبه صبا . جمع معصر ,(ماء ثجاجا) منصبا بكثرة . . ومطر ثجاج : شديد الانصباب جدا . . .

وذكر كل من اصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصاحب صفوة التفاسير كلاما مشابها كذلك .

وذكر الراغب الأصفهاني (رحمه الله رحمة واسعة) في معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم مانصه :(وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا أي السحائب التي تعتصر بالمطر أي تصب , وقيل : التي تأتي بالاعصار , والاعصار ريح تثير الغبار , قال :(فأصابها اعصار) . . .

وجاء في مختار الصحاح (رحم الله كاتبه ومراجعيه رحمة واسعة) مانصه : . . . و (العصر) بفتحتين الغبار وهو في الحديث . . . ,

(185/798)

. . . و (الاعصار) ريح تثير الغبار فيرتفع الي السماء كأنه عمود ومنه قوله تعالي :(فأصابها إعصار) وقيل هي ريح تثير سحابا ذات رعد وبرق . .

الدلالة العلمية للآية الكريمة

من المعاني اللغوية للفظة (المعصرات) انها السحائب المشبعة ببخار الماء وقطيراته , وهي عادة سحب طباقية وركامية عملاقة , تكونها بتدبير من الله (تعالي) الأعاصير والزوابع الشديدة , وتتميز بغزارة امطارها التي تصبها صبا فتهطل مئات المليمترات من الماء في ساعات معدودة ويصحب نزول المطر تكون كل من البرد والثلج , وشيوع ظاهرتي البرق والرعد , وقد سماها القرآن الكريم بالمعصرات , وسمي الريح التي تحملها باسم الريح العاصف اذا كانت متوسطة الشدة , وباسم الريح القاصف اذا كانت بالغة الشدة .

ويقسم علماء الأرصاد الجوية الرياح حسب شدتها علي ارتفاع عشرة أمتار فوق مستوي

سطح الأرض إلي اثنتي عشرة درجة علي النحو التالي الذي تقابله مسميات قرآنية اكثر دقة :

وواضح الأمر ان كلا من الريح العاصف والريح القاصف له دور رئيسي في تكوين المعصرات حسب ارادة الله (تعالي) ومشيئته .

تعريف الأعاصير

الأعاصير

(Hurricanes,cyclones,tropicalcyclonesortyphoons

هي عواصف هوائية دوارة حلزونية عنيفة , تنشأ عادة فوق البحار الاستوائية , خاصة في فصلي الصيف والخريف ولذا تعرف باسم الأعاصير الاستوائية أو المدارية أو الأعاصير الحلزونية لأن الهواء البارد (ذي الضغط المرتفع) يدور فيها حول مركز ساكن من الهواء الدافئ (ذي الضغط المنخفض) , ثم تندفع هذه العاصفة في اتجاه اليابسة فتفقد من سرعاتها بالاحتكاك مع سطح الأرض , ولكنها تظل تتحرك بسرعات تزيد عن 72 ميلا في الساعة وقد تصل الي اكثر من 180 ميلا في الساعة (أي إلي اكثر من 300 كيلو متر في الساعة تقريبا) ويصل قطر الدوامة الواحدة الي 500 كيلو متر , وقطر عينها الي 40 كيلو

مترا وقد تستمر لعدة أيام الي أسبوعين متتاليين .

ويصاحبها تكون كل من السحب الطباقية والركامية الي ارتفاع 15 كيلو مترا ويتحرك الاعصار في خطوط مستقيمة أو منحنية فيسبب دمارا هائلا علي اليابسة بسبب سرعته الكبيرة الخاطفة , ومصاحبته بالأمطار الغزيرة والفيضانات والسيول بالاضافة الي ظاهرتي البرق والرعد , كما قد يتسبب الاعصار في ارتفاع امواج البحر الي حد اغراق أعداد من السفن فيه .

والأعاصير تدور في نصف الكرة الشمالي في عكس اتجاه عقارب الساعة , وتدور في نصفها الجنوبي مع عقارب الساعة وتنشأ بين خطي عرض 5 و 20 شمال وجنوب خط الاستواء , حيث تصل درجة حرارة سطح الماء في بحار ومحيطات تلك المناطق الي 27 درجة مئوية في المتوسط . .

وتتحرك عادة من منخفضات استوائية دافئة بسرعات أقل من 39 ميلا بالساعة , ثم تزداد سرعاتها بالتدريج حتي تتعدي 72 ميلا بالساعة , فتصل الي أكثر من 180 ميلا بالساعة , وعند هذا الحد فانها تسمي باسم الأعاصير العملاقة

(Super-HurricanesorMegastorms)

ومثل هذه الأعاصير العملاقة تضرب شواطئ كل من امريكا الشمالية والجنوبية , وافريقيا الجنوبية , وخليج البنغال , وبحر الصين , وجزر الفلبين , واندونيسيا , والملايو في حدود ثمانين مرة في السنة , وتجمع تحت مسمي الأعاصير الاستوائية

(TropicalCyclones) ,

أما الأعاصير الحلزونية فيهب منها سنويا بصفة عامة بين 30, و 150 اعصارا فوق البحار الدافئة ويصل طول الواحد منها الي 1500 كيلو متر , وتقدر قوته التدميرية بقوة قنبلة نووية متوسطة الحجم .

والأعاصير التي تضرب شواطئ الأمريكتين تسمي باسماء خاصة من مثل إعصار أندروم

(AndrewCyclone)

وإعصار هوجو

(HugoCyclone)

إعصار كاميل

(CamilleCyclone) ,

واعصار فلويد

(FloyedCyclone) ,

هكذا , والإعصار الأخير ضرب الشواطئ الشرقية لأمريكا الشمالية في 8/9/1999 م بحجم تجاوز مئات الكيلو

(187/798)

مترات المكعبة , وبسرعة بلغت 250 كيلو مترا في الساعة فأدي الي هجرة ثلاثة ملايين فرد من سكان تلك الشواطئ الذين فروا مفزوعين في طابور من السيارات بلغ طوله 320 كيلو مترا , وهدد هذا الإعصار قاعدة كيب كينيدي لاطلاق صواريخ الفضاء التي شددت الحراسة عليها خوفا من تدمير قواعد إطلاق الصواريخ والمركبات الفضائية المخزونة في عنابرها والتي تكلفت الواحدة منها اكثر من بليوني دولار امريكي , ولولا ان الاعصار تجاوز ولاية فلوريدا متوجها شمالا الي ولاية شمال كارولينا لحدثت كارثة حقيقية في تلك المنطقة , وليس ذلك علي الله بعزيز .

وقد صاحب اعصار فلويد هذا هطول امطار مدمرة علي طول الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية , وقد تركت تلك الأمطار اكثر من خمسين قتيلا ومئات الجرحي , وقد تعلق آلاف الأفراد باغصان الأشجار , وأسطح المنازل خوفا من الغرق , كما ارتفعت الأمواج في البحار المجاورة لأكثر من عشرين مترا مما هدد الكثير من المنشآت والزوارق

البحرية والسفن بالغرق .

كيف يتكون الاعصار ؟ :

(188/798)

عندما يسخن الماء في البحار الاستوائية الي درجة حرارة تتراوح بين 30,27 درجة مئوية فانه يعمل علي تسخين طبقة الهواء الملاصقة له , وبتسخينها يخف ضغط الهواء فيتمدد ويرتفع الي أعلي ويكون منطقة ضغط منخفض تنجذب اليها الرياح من مناطق الضغط المرتفع المحيطة فتهب عليها من كل اتجاه مما يؤدي الي تبخر الماء بكثرة وارتفاع هذا البخار الخفيف الي أعلي وسط الهواء البارد فتحمله الرياح التي يصرفها الله (تعالي) حسب مشيئته , وتزجيه أي تدفعه ببطء , وتؤلف بينه , وترفعه الي أعلي في عملية ركم مستمرة تؤدي الي زيادة رفعه الي أعلي , وزيادة شحنه بمزيد من بخار الماء الذي يبدأ في التكثف والتبرد فتتكون منه قطرات الماء الشديدة البرودة , وكل من حبيبات البرد وبلورات الثلج , وبمجرد توقف عملية الركم يبدأ المطر في الهطول باذن الله بالقدر المحسوب في المكان المكتوب .

وقد يصاحب هذا الهطول العواصف البرقية والرعدية , والسيول ونزول كل من البرد

والثلج . ومع مزيد من هذا التكثف لبخار الماء ينطلق قدر من الحرارة يزيد من انخفاض ضغط الهواء مما يشجع علي مزيد من الأمطار , وبتكرار تلك العمليات يزداد حجم منطقة الضغط المنخفض فوق البحار الاستوائية , وبزيادة حجمها يزداد حصرها بين مناطق باردة ذات ضغط مرتفع , مما يزيد الفرص امام تكون السحب , وإزجائها , والتأليف بينها , وركمها , وبالتالي يزيد من شحنها ببخار الماء . ومن امكانية انزالها المطر الدافق باذن الله (أي تكون المعصرات) .

وتأثرا بدوران الأرض حول محورها من الغرب الي الشرق أمام الشمس , تبدأ الكتل الهوائية ذات العواصف الرعدية والبرقية في الدوران بعكس اتجاه عقرب الساعة في نصف الكرة الشمالي , ومع عقارب الساعة في نصف الكرة الجنوبي , وفي هذا الدوران تحدث عاصفة هوائية شديدة السرعة تعرف باسم العاصفة الاستوائية أو العاصفة المدارية , أو الاعصار الاستوائي (أو

المداري) البحري أو باسم الاعصار الحلزوني المداري

(TropicalCyclone)

وتأخذ هذه العاصفة في تزايد السرعة إلي 120 كيلو مترا في الساعة , فتصبح إعصارا حقيقيا له قلب ساكن من الهواء الساخن يسمي عين الإعصار تتراوح سرعة الرياح فيه بين الصفر واربعين كيلو مترا في الساعة , وتدور حول عين الإعصار دوامات من العواصف الرعدية المدمرة والمصاحبة بتكون السحاب الثقال المليئة ببخار الماء وقطراته (المعصرات) وبتكون كل من البرد والثلج , وهطول الأمطار المغرقة وحدوث البرق والرعد .

من ذلك يتضح أن تسخين ماء البحار والمحيطات يلعب دورا اساسيا في تكوين كل من الأعاصير والمعصرات بإذن الله , ولكن تسخين الماء وحده لا يكفي لو لم يصرف الله الرياح مواتية لإتمام تلك العملية , ومن هنا كان الاستنتاج المنطقي أن العواصف الرعدية وما يصاحبها من سحب غنية ببخار الماء وقطيراته (المعصرات) كغيرها من ظواهر الكون وسننه هي من صنع الله , ومن جنده .

ومن هنا أيضا كانت الدورات المناخية التي تكون كلا من ظاهرة النينو

(El–Nino)

التي تدفئ ماء المحيط الهادي , واللانينا

(LaNina)

التي تبرده من العوامل التي تلعب دورا مهما في عملية تكون الاعاصير , وداخلة ايضا في

زمرة جند الله التي يسلطها علي من يشاء من عباده , انتقاما من الظالمين , وابتلاء للصالحين , وعبرة للناجين .

وظاهرة النينو هي ظاهرة مناخية تجتاح بحار ومحيطات نصف الأرض الجنوبي بطريقة دورية , وعلي فترات متتابعة مدة كل منها ثمانية عشر شهرا تهيمن خلالها هذه الظاهرة علي المحيطين الهادي والهندي فتبدأ بتسخين الطبقة العليا من ماء هذين المحيطين خاصة إلي الغرب من شواطئ أمريكا الجنوبية مما يؤدي إلي سيادة الجفاف في بعض المناطق , وتكون دوامات هوائية وأعاصير مدمرة في مناطق اخري مثل حوض الامازون , استراليا , الجزر الإندونيسية والماليزية وغيرها . ويعين علي ذلك هبوب

(190/798)

رياح شرقية ضعيفة , ورياح غربية قوية .

أما ظاهرة لانينا فإنها تحدث أثرا معاكسا حيث يتكون فيها نطاق من الهواء الساكن بين حزامين من كتل الهواء النشطة مما يعين علي تشكل الاعاصير المصاحبة بالعواصف الرعدية الممطرة .

وباستمرار زيادة معدلات التلوث في بيئة الأرض , ترتفع درجة حرارة الطبقة الدنيا من

غلافها الغازي , وبارتفاعها تزداد فرص تكون الاعاصير البرقية والرعدية الممطرة زيادة كبيرة في العدد , وفي الشدة والعنف مما يتهدد أكثر مناطق الأرض عمرانا بالدمار الشامل من مثل كل من أمريكا الشمالية والجنوبية , استراليا , وجزر المحيطين الهادي والهندي .

فهذه الاعاصير تصل سرعتها إلي 320 كيلو مترا في الساعة , فتحرك الماء في البحر والمحيطات إلي عمق 180 مترا , محدثة جدارا من الماء يزيد ارتفاعه علي عشرة أمتار يندفع الي المدن الساحلية , ويعمل علي تدميرها , كما حدث لجزيرة (الدومينيكان) في البحر الكاريبي بواسطة إعصاري (ديفيد) و (فريدريك)

DavidandFrederickcyclones

في اغسطس سنة 1979 م . وبإعصار ألن

(Allencyclone)

في سنة 1980 م مما أدي إلي تدمير 80

من المساكن , وتشريد أكثر من 75

من سكان تلك الجزيرة .

وكما حدث للعديد من جزر أمريكا الوسطي الأخري من مثل جزيرتي الترك وكيكوس

(TurksandCaicos)

واللتين دمرتا تدميرا كاملا بواسطة إعصار كيت

(HurricaneKate)

الذي ضرب الجزيرتين في سنة 1985 م .

ومن مثل الأعاصير التي ضربت وسط فيتنام سنة 1985 م وأدت إلي مقتل 875 شخصا , وتدمير نحو الخمسين الف مسكن تدميرا كاملا , وإلي الإضرار بأكثر من 230,000 بيت وبعدد من البنيات الاساسية .

وقد أغرقت الأمطار مساحات شاسعة من بوليفيا حين ظلت تهطل بغزارة لمدة سبعة شهور متواصلة تقريبا في الفترة من أكتوبر 1985 م إلي ابريل 1986 م علي المنطقة حول بحيرة تيتيكاكا (Titicaca) مما أدي إلي رفع منسوب

(191/798)

الماء في البحيرة بثلاثة امتار , وإلي إغراق أكثر من عشرة آلاف هكتار من المزروعات , وإلي تدمير أكثر من 5,000 منزل وتشريد أكثر من 25,000 نسمة .

كذلك أغرقت فيضانات سنة 1988 م ثلاثة أرباع مساحة بنجلادش فدمرت 3,6 مليون مسكن , وشردت 25 مليون نسمة , وقضت علي اغلب المحاصيل الزراعية وأتلفت العديد من البنيات الاساسية , وأغرق إعصار ميتش أرض هندوراس في سنة

1998 م بفيضانات وسيول مدمرة قتلت اكثر من 5500 نفس وشردت عشرات الآلاف .

كيف تتكون الزوابع ؟

تعرف الزوابع أو الدوامات الهوائية الممطرة باسم الخلايا الرعدية العملاقة

(

GiantThunderstormCellsMesocyclonicorupdraftSup

ercells)

وهي عواصف رعدية عنيفة دوارة تحدث فوق اليابسة نتيجة لالتقاء كتل هوائية متباينة في درجات حرارتها (باردة وساخنة) وتكون مصاحبة بالأمطار الغزيرة القصيرة (الثج) وسقوط البرد بحبات كبيرة .

وتضرب الولايات المتحدة الأمريكية سنويا أكثر من ثمانمائة دوامة هوائية تمتد من تكساس في الجنوب إلي حدود كندا شمالا , ويسمي هذا الحزام من الدوامات الهوائية باسم ممر الزوابع

(TheTornadoValley)

ويهلك فيه سنويا عشرات من الضحايا , ويحدث تدميرا كبيرا في المزارع والمنشآت والبنيات الاساسية , كما تضرب كلا من أستراليا وروسيا أعدادا مماثلة من تلك الدوامات

الهوائية المدمرة .

وسرعة هذه الدوامات الهوائية تتراوح من 150 إلي 340 كيلو مترا في الثانية لتصل إلي سرعة الصوت , ويبلغ قطر الدوامة نحو مائة متر , ويصل الضغط الجوي بداخلها إلي عشر الضغط الجوي , وعندما يقترب مثل هذا الإعصار من أي مبني فإن التفريغ الناتج عن الفارق في الضغط بين داخل الاعصار , وداخل المبني يؤدي إلي تهدم أسقف ذلك المبني وجدرانه مع حدوث انفجارات مدمرة , كما يمكن أن يؤدي ذلك إلي اقتلاع الاشجار , ورفع كل من السيارات وعربات القطار إلي مرتفعات شاهقة ,

(192/798)

وسقوطها من عل وتدميرها , وتحطيم كل ما تقع عليه , وذلك بواسطة العديد من الدوامات الشديدة بداخل الإعصار تعرف باسم نقاط الشفط

(Suctionpoints)

وتصاحب مثل هذه الاعاصير الحلزونية (أو القمعية) عادة بسقوط الامطار الغزيرة , وبحدوث البرق والرعد القاصف الذي يشبه صوته صوت الطائرات النفاثة لشدته , وإذا تحرك هذا الإعصار من اليابسة إلي أي سطح مائي , فإنه يرفع الماء إلي أعلي علي هيئة

نافورات عملاقة تدمر ما تصطدم به من سفن , وقد تؤدي إلي إغراقها .

وتحدث هذه الاعاصير غالبا في أوقات المساء من كل من فصلي الربيع والصيف خاصة في المناطق المدارية من نصف الكرة الشمالي , ويعينها علي اثارة السحب المثقلة ببخار الماء وقطراته (المعصرات) ما تثيره من هباءات الغبار التي تعمل كنوي جيدة للتكثف , فتعين علي شحن السحب بقطيرات الماء , وعلي نمو تلك القطيرات إلي أحجام كبيرة نسبيا .

كيف تحدث الصواعق ؟

ثبت علميا أن قطرات الماء تكتسب شحنات كهربية موجبة عند تجمدها علي هيئة حبات البرد أو بلورات الثلج , وكذلك عند انصهارها من كل من البرد والثلج إلي حالة الماء السائل , وعند تفتتها إلي قطيرات أدق أو تجمعها علي هيئة قطرات أكبر , وعند تبخيرها , وعند تكثفها أي عند كل تغير من حالة إلي حالة أخري من الصلابة والسيولة , والحالة الغازية , ويبقي الهواء المحيط بهذا الماء في أشكاله المختلفة مكتسبا شحنات كهربية سالبة , ولذلك فإن السحب تشحن بالكهرباء باحتكاكها بالهواء المشحون بها , وتتجمع الشحنات الموجبة علي أعلي السحابة وأسفلها حيث تتدني درجة الحرارة الي ما بين عشر درجات وأربعين درجة مئوية تحت الصفر , بينما تتركز الشحنات السالبة في وسط السحابة حيث تصل درجة الحرارة إلي الصفر المئوي .

وعندما يحدث التفريغ الكهربي بين منطقتين مختلفتي الشحنة في داخل السحابة الواحدة , أو بين سحابتين متجاورتين يصل الفرق في

(193/798)

الجهد الكهربي بينهما حدا معينا يحدث البرق علي هيئة شرارات كهربائية تنتشر في مساحة كبيرة من السماء الدنيا , وقد يحدث هذا التفريغ الكهربي بين السحابة والهواء المحيط بها , وقد يحدث بين السحب والأرض وما عليها من مبان عالية أو أشجار , وتسمي هذه الظاهرة , بالصاعقة لما تحدثه من دمار كبير , ولمنع حدوث الاثار التدميرية للصواعق تثبت قضبان معدنية في أعالي المنشآت , وتوصل بالأرض عبر موصل جيد من الاسلاك المعدنية يحمل الشحنة الكهربائية الناتجة عن حدوث البرق إلي الأرض مباشرة دون أن تصيب المنشآت بأية اضرار , وتعرف هذه الشبكة من القضبان المعدنية الموصلة بالأرض باسم مانعات الصواعق .

وعندما تحدث ظاهرة البرق , ويتم التفريغ الكهربي في الجو , فإن ومضات البرق المتقاربة يصل طول الواحدة منها الي الميل وتتفاوت فترات ومضها بين 0002, ـ ثانية وثانية واحدة , ونتيجة لحدوث البرق يتمدد الهواء بصورة فجائية , فيندفع الهواء المجاور ليحل

محله محدثا اصواتا شديدة هي الرعد الذي قد تستمر الموجة الواحدة منه إلي عدة ثوان , ويصاحب حدوث العواصف الرعدية عادة سقوط أمطار ذات قطرات كبيرة , وقد تصاحب بحبات البرد وبللورات الثلج التي قد تصل إلي الأرض متجمدة , وقد تنصهر إلي قطرات مائية كبيرة قبل وصولها إلي الأرض .

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن المعصرات هي مجموعة من السحب الطباقية والركامية التي تشحن شحنا كبيرا ببخار الماء وقطراته , والتي تحدثها الأعاصير المدارية التي تتكون فوق مساحات شاسعة من الماء في البحار والمحيطات أو الدوامات الهوائية التي تتكون فوق اليابسة علي هيئة سحب طباقية أو تساق ببطء حتي تتآلف وتتجمع , ثم تركم إلي اعلي لتكون السحب الركامية التي ترتفع إلي ما يزيد علي 15 كيلو مترا , فتعين البرودة الشديدة علي تكون كل من البرد والثلج , واللذان يتحركان في داخل السحابة بفعل التيارات الهوائية

(194/798)

صعودا وهبوطا , وتجمدا وانصهارا , فيتولد كل من البرق والرعد اللذين يزيدان بدورهما من تحرك الكتل الهوائية ويعينان علي مزيد من توفر بخار الماء وقطيراته , والتي تجعل هذه

السحب الطباقية والركامية المشبعة بالماء (المعصرات) مهيأة لاسقاط المطر الغزيرة (الثجاج) والذي قد يستمر في السقوط إلي عدة ايام دون انقطاع .

فسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرنا قوله الحق :

وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * . (النبأ 14)

أنزلها علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) , وفي بيئة صحراوية لم تشاهد شيئا من تلك المعصرات , ولا ما يحركها من العواصف والأعاصير والدوامات الهوائية الممطرة , وذلك لندرة سقوط الامطار في تلك البيئات , ولبعدها عن المساحات المائية الشاسعة من البحار المفتوحة والمحيطات , وإن دلت هذه الدقة العلمية المبهرة التي صيغت بها هذه الآية القرآنية الكريمة علي شيء فإنها تنطق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وتشهد بالنبوة والرسالة لسيدنا محمد صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه , وعلي كل من تبع هداه , ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(195/798)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نبت)

النَّبْت ، والنَّبَات بمعنى .

ونَبَت البقلُ .

والمَنْبِت : موضع النبات .

والنَّوابِت من الأَحداث : الأَغمار .

وأَنْبَتَت الأَرضُ النباتَ .

وأَنْبَتَ البقلُ ، أَى نَبَت, ويُروى قول زُهَير بالوجهين :

*إذا السَّنَةُ الغَرَّاءُ بالناس أَجْحَفت * ونال كِرامَ المالِ فى الجَحْرة الأَكْلُ*

*رأَيتَ ذَوِى الحاجات فوق بيوتهم * قطِيناً لهم حَتَّى إذا أَنْبَتَ البقلُ*

*هُنالِك إنْ يُستخْبَلُوا المالَ يُخْبِلوا * وإن يُسأَلُوا يُعطوا وإن يَيْسِروا يُغْلوا*

وأَنكر الأَصمعّى أَنبت البقلُ وقال : لا أَعرف إلاَّ نبت البقلُ ، ولا يقول عربىّ : أَنْبَت فى معنى نَبَت .

وأَنْبَتَه اللهُ فهو مَنْبُوت على غير قياس .

وأَنْبَتَ الغُلامُ : راهَقَ واستبان شَعَر عانَته .

والنبات عامٌّ فى كلّ ما يَنْبُت ، لكن صار فى التعارف اسماً لما لا ساق له ، بل [اختصّ] بما يأكله الحيوانات ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ .

ومتى اعتُبِرت الحقائق فإنه يُستعمل فى كلّ نامٍ ، نباتاً كان أَو حيواناً أَو إنساناً ، والإنبات يستعمل فى كلّ ذلك قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ قال النحويّون : (نباتاً) موضوع موضع الإِنبات وهو مصدر ، وقيل : (نباتاً) حال لا مصدر ، ونبّه بذلك أَنّ الإِنسان مِن وجهٍ نباتٌ من حيث إنّ بدأَه ونشأَه من التّراب .

(ونمّوه فيه) ، وعلى هذا نبّه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ .

ونَبَّت الشجرَ تنبيتاً : غَرَسَه ، والصّبيَّ : ربّاه .

والتَنْبيت : اسمٌ لما يَنْبت من دِقّ الشجر وكِباره ، قال رؤبة :

*مَرْتٌ يُناصى خَرْقَها مَرُوتُ * صَحْراءُ لم يَنْبُت بها تَنْبيتُ : * . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 9.10 ﴾

(196/798)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ

كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما دل على غاية القدرة ونهاية الحكمة فدل قطعاً على الوحدانية لأنه لو كان التعدد لم تكن الحكمة ولم تتم القدرة ، فأثمر المحبة لمن اتصف بذلك ، فأنتج للطائع الشوق إلى لقائه والترامي إلى مطالعة كمال نعمائه ، وللعاصي ما هو حقيق به من الخوف من لقائه ليرده ذلك عن إعراضه وإبائه ، أتبع ما أعلم أنه ما ذكره إلا للدلالة على النبأ العظيم في لقاء العزيز الرحيم ، فقال منتجاً عما مضى من الوعيد وما دل على تمام القدرة مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي الذي هو النبأ العظيم ، وتقدم الإنذار به في المرسلات وما خلق الخلق إلا لجمعهم فيه وإظهار صفات الكمال ليفصل فيه بين كل ملبس فصلاً لا شبهة فيه ويؤخذ للمظلوم من الظالم ﴿ كان ﴾ أي في علم الله وحكمته كوناً لا بد منه جعل فيه كالجبلة في ذوي الأرواح ﴿ ميقاتاً ﴾ أي حداً يوقت به الدنيا وتنتهي عنده مع ما فيها من الخلائق .

ولما ذكره ، ذكر ما فيه تعظيماً له وحثاً على الطاعة فقال مبدلاً منه أو مبيناً له : ﴿ يوم ﴾ ولما كان الهائل المفزع النفخ ، لا كونه من معين ، بنى للمفعول قوله ﴿ ينفخ ﴾ أي من نافخ أذن الله له ﴿ في الصور ﴾ وهو قرن من نور على ما قيل سعته أعظم ما بين السماء والأرض وهي نفخة البعث وهي الثانية من النفخات الأرض كما مر في آخر الزمر ، ولذلك قال : ﴿ فتأتون ﴾ أي بعد القيام من القبور إلى الموقف أحياء كما كنتم أول مرة لا تفقدون من أعضائكم وجلودكم وأشعاركم وأظفاركم وألوانكم الأصلية شيئاً يجمعكم من الأرض بعد أن تمزقتم فيها ، واختلط تراب من بلي منكم بترابها وتراب بعضكم ببعض ، وتمييز ذلك وجمعه وتركيبه كما كان وإعادة الروح فيه يسير عليه سبحانه وتعالى كما فعل ذلك كله من نطفة بعد أن فعله في آدم عليه السلام من تراب لا أصل له في الحياة ، حال كونكم ﴿ أفواجاً ﴾ أي أمماً وزمراً وجماعات مشاة مسرعين كل أمة بإمامها ، روى الثعلبي وابن مردويه عن البراء ـ رضى الله عنه ـ م – وقال شيخنا ابن حجر في ترجمة محمد بن زهير في لسان الميزان : إنه ظاهر الوضع – أن معاذاً ـ رضى الله عنه ـ سأل عن هذه الأفواج فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن أمتي تحشر على عشرة أصناف : على صور القردة ،

وعلى صور الخنازير ، وبعض منكسون يسحبون على وجوههم ، وبعض عمي وبعض صم بكم ، وبعض يمضغون ألسنتهم ، فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعض منقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعض مصلوبون على جذوع من نار ، وبعض أشد نتناً من الجيف ، وبعض ملبسون جباباً سابغة من قطرن لازقة بجلودهم ، فسرهم بالقتات وآكلي السحت وأكلة الربا والجائرين في الحكم والمعجبين بأعمالهم والعلماء الذين يخالف قولهم فعلهم والمؤذين للجيران والساعين بالناس للسلطان ، والتابعين للشهوات المانعين حق الله تعالى والمتكبرين خيلاء " .

(198/798)

ولما ذكر الآية في أنفسهم ذكر بعض آيات الآفاق ، وبدأ بالعلوي لأنه أشرف فقال بانياً للمفعول لأن المفزع مطلق التفتيح ، ولأن ذلك أدل على قدرة الفاعل وهوان الأمور عليه : ﴿ وفتحت السماء ﴾ أي شقق هذا الجنس تشقيقاً كبيراً ، وقرأ الكوفيون بالتخفيف لأن التكثير يدل عليه ما سبب عن الفتح من قوله : ﴿ فكانت ﴾ أي كلها كينونة كأنها جبلة لها ﴿ أبواباً ﴾ أي كثيرة جداً لكثرة الشقوق الكبيرة بحيث صارت كأنها لا حقيقة لها إلا الأبواب .

ولما ذكر السقف ، ذكر أقرب الأرض إليه وأشدها ، فقال على طريقة كلام القادرين أيضاً : ﴿ وسيرت ﴾ أي حملت بأيسر أمر على السير ﴿ الجبال ﴾ على ما تعلمون من صلابتها وصعوبتها في الهواء كأنها الهباء المنثور ، وعلى ذلك دل قوله : ﴿ فكانت ﴾ أي كينونة راسخة ﴿ سراباً ﴾ أي لا نرى فيها إلا خيالاً يتراءى وهي سائرة تمر مر السحاب ثم تخفى لتناثر أجزائها كالهباء - يا لها من عظمة تجب لها القلوب وتتعاظم الكروب .

(199/798)

ولما بين أن يوم الفصل هو النبأ العظيم بعد أن دل عليه وذكر ما فيه من المسير ، ذكر ما إليه من الدارين المصير ، فقال بعد التذكير بما في الجبال من العذاب بحزونتها وما فيها من السباع والحشرات والأشجار الشائكة والقواطع المتشابكة وغير ذلك من عجائب التقدير مؤكداً لتكذيبهم : ﴿ إن جهنم ﴾ أي النار التي تلقى أصحابها متجهمة لهم بغاية ما يكرهون ﴿ كانت ﴾ أي جبلة وخلقاً ﴿ مرصاداً ﴾ أي موضع رصد لأعداء الله ترصدهم فيها خزنة النار ، فإذا رأوهم كردسوهم فيها ، ولأولياء الله ترصدهم فيها خزنة الجنة لإنجائهم من النار عند ورودها أو هي راصدة بليغة الرصد للكفار حتى صارت مجسدة من الرصد لتجمع أصحابها فلا يفوت منهم واحد كالمطعان لكثير الطعن ، والمكثار للمبالغ في

الإكثار ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن على جسر جهنم سبعة مجالس يسأل عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم ، فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج ، فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فينسأل عن المظالم ، فإن خرج منها وإلا قيل : انظروا فإن كان له تطوع تكمل به أعماله .

فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة .

ولما كان درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، قدم ذكر المخوف فقال : ﴿ للطاغين ﴾ أي المجاوزين لحدود الله ﴿ مآباً ﴾ أي مرجعاً ومأوى بعد أن كان الله ذرأهم لها فكأنهم كانوا فيها ثم هيأهم للخروج منها والبعد عنها بفطرهم الأولى ، ثم بما أنزل الله من الكتب وأرسل من الرسل فكأنه بذلك أخرجهم منها ، ثم رجعوا إليها بما أحدثوا من التكذيب .

(200/798)

ولما ذكر مصيرهم إليها ذكر إقامتهم فيها فقال حالاً من ضمير " الطاغين " : ﴿ لابثين فيها ﴾ ولما كان جمع القلة يستعار للكثرة فكان الحقب يطلق على الزمان من غير حد ،

ويطلق على زمان محدود ، فقيل على ثمانين سنة ، وعلى سبعين ألف سنة ، فكان السياق من تصدير السورة بالنبأ وبوصفه مع التعبير بالنبأ العظيم وما بعد ذلك يفهم أن المراد الدوام إن أريد ما لا حد له وأن المراد إن أريد المحدود جمع الكثرة ، وأكثر ما فسر به الحقب ، وأنه للمبالغة لا التحديد ، كان جمع القلة هنا غير مشكل ، فمن حمله على ما دون ذلك فكفاه زاجراً لم يضره التعبير به ، ومن اجترأ عليه واستهان به كان فتنة له كما كان حصر عدد الخزنة للنار بتسعة عشر فلم يضر إلا نفسه ، فلذلك عبر عن ظرف اللبث بقوله :

﴿ أحقاباً ﴾ أي دهوراً عظيمة متتابعة لا انقضاء لها على أن التبعير به – ولو حمل على الأقل وجعل منقضياً – لا ينافي ما صرح فيه بالخلود لأنه أثبت شيئاً ولم ينف ما فوقه ، وعن الحسن أنه قال : لا يكاد يذكر الحقب إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها من غير انقضاء .

ولما كان المسكن لا يصلح إلا بالاعتدال والماء الذي هو حياة كل شيء ، قال ذاكراً حال هذا اللبث : ﴿ لا يذوقون ﴾ أي ساعة ما فكيف بما فوق الذوق ﴿ فيها ﴾ أي النار خاصة ، وكأنه أشار بتقديمه إلى أنهم يذوقون في دار أخرى الزمهرير ﴿ برداً ﴾ أي روحاً وراحة لنفعهم من الحر أو مطلق البرد ﴿ ولا شراباً ﴾ من ماء أو غيره يغنيهم من العطش على حال من الأحوال ﴿ إلا ﴾ حال كون ذلك الشراب ﴿ حميماً ﴾ أي ماء حاراً يشوي الوجوه قد انتهى حره ﴿ و ﴾ حال كون ذلك الشراب مع حرارته ، أو البرد ﴿ غساقاً ﴾ أي عصارة أهل النار من القيح والصديد البارد المنتن ، فالاستثناء على هذا موزع الحميم

من الشراب والغساق من البرد ، فالحميم شرابهم في دولة السعير ، والغساق في دولة الزمهرير .

(201/798)

ولما حكم عليهم بهذا العذاب الذي لا يطاق ، ذكر حكمته فقال إنه جزاهم بذلك ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي ذا وفاق لأعمالهم لأنهم كانوا يأخذون أموال الناس فيحرقون صدورهم عليها ويبردون بها الشراب ويصفونه ويبخرونه ، فهم يحرقون الآن بعصارة غيرهم المنتنة ، وكأنهم بعد الأحقاب - إن جعلت منقضية - يبدلون عذاباً غير الحميم والغساق ، ثم علل عذابهم بقوله ، مؤكداً تنبيهاً على أن الحساب من الوضوح بحالة يصدق به كل أحد ، فلا يكاد يصدق أن أحداً يكذب به فلا يجوزه فقال : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي بما هو لهم كالجبلة التي لا تقبل غير ذلك فهم يفسدون القوى العلمية بأنهم ﴿ لا يرجون ﴾ أي في حال من الأحوال ولو رأوا كل آية ﴿ حساباً ﴾ فهم لا يعملون بغير الشهوات ، فوافق هذا خلودهم في النار ، وعبر عن تكذيبهم بنفي الرجاء لأنه أبلغ ، وذلك لأن الإنسان يطمع في الخير بأدنى احتمال .

ولما دل انتفاء رجائهم على تكذيبهم المفسد للقوة العلمية ، صرح به على وجه أعم فقال :

﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي على ما لها من العظمة الدالة أنها من عندنا ﴿كذاباً ﴾ أي تكذيباً هو في غاية المبالغة بحيث لو سمعوا أكذب الكذب ما كذبوا به كما كذبوا بها ، فكان تجريعهم لما لا يصح أن يشربه أحد – وإن جرع منه شيئاً مات في الحال من غير موت – لهم جزاء على تكذيبهم بالحوارق التي يجرعون بها الصادقين أنواع الحرق ، وقرىء بالتخفيف للدلالة على أنهم كذبوا في تكذيبهم .

ولما كان التقدير : فكل شيء جعلنا له وزاناً ، عطف عليه قوله : ﴿ وكل شيء ﴾ أي مطلقاً من أعمالهم وغيرها أو كل ما يقع عليه الحساب ﴿ أحصيناه ﴾ ولما كان الإحصاء موافقاً للكتابة في الضبط ، أكد فعله بها فقال : ﴿كتاباً ﴾ فلا جائز أن نترك شيئاً من الأشياء بغير جزاء ، ويمكن تنزيل الآية على الاحتباك وهو أحسن : دل فعل الإحصاء على حذف مصدره ، وإثبات مصدر "كتب" عليه أي أحصيناه إحصاء وكتبناه كتاباً ، وذلك الإحصاء والكتب لعدم الظلم .

(202/798)

ولما ذكر عذابه ووجه موافقته لجزائهم ، سبب عن تكذيبهم ما يقال لهم بلسان الحال أو المقال إهانة وزيادة في الجزاء على طريق الالتفات المؤذن بشدة الخزي والغضب عليهم

وكمال القدرة له سبحانه وتعالى فقال : ويجوز أن يكون سبباً عن مقدر بعد "كتاباً" نحو : ليجازيهم على كل شيء منه ، قائلاً لهم على لسان الملائكة أو لسان الحال : ﴿ فذوقوا ﴾ أي من هذا العذاب في هذا الحال بسبب تكذيبكم بالحساب ، وأكد ذوقهم في الاستقبال فقال : ﴿ فلن نزيدكم ﴾ أي شيئاً من الأشياء في وقت من الأوقات ﴿ إلا عذاباً ﴾ فإن داركم ليس بها إلا الجحيم كما أن الجنة ليس بها إلا النعيم ، فأفهم هذا أن حصول شيء لهم غير العذاب محال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 299 . 303 ﴾

(203/798)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى ذكر بعض أحوال القيامة فأولها : قوله : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ والمعنى أن هذا اليوم كان في تقدير الله ، وحكمه جداً توقت به الدنيا ، أو حداً للخلائق ينتهون إليه ، أو كان ميقاتاً لما وعد الله من الثواب والعقاب ، أو كان ميقاتاً لاجتماع كل الخلائق في فصل الحكومات وقطع الخصومات .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .

اعلم أن ﴿ يوم ينفخ ﴾ بدل من يوم الفصل ، أو عطف بيان ، وهذا النفخ هو النفخة التي عندها يكون الحشر ، والنفخ في الصور فيه قولان : أحدهما : أن الصور جمع الصور ، فالنفخ في الصور عبارة عن نفخ الأرواح في الأجساد والثاني : أن الصور عبارة عن قرن ينفخ فيه .

وتمام الكلام في الصور وما قيل فيه قد تقدم في سورة الزمر ، وقوله : ﴿ فتأتون أفواجاً ﴾ معناه أنهم يأتون ذلك المقام فوجاً فوجاً حتى يتكامل اجتماعهم .

قال عطاء كل نبي يأتي مع أمته ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ [الإسراء : 71] وقيل جماعات مختلفة ، روى صاحب "الكشاف" عن معاذ أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال عليه السلام : يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : يحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمى ، وبعضهم صم بكم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس .

وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت .

(204/798)

وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمى فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من النار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله تعالى من أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء .

وثالثها قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي فتحت خفيفة والباقون بالتثقيل والمعنى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة قال القاضي : وهذا الفتح هو معنى قوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ﴿ وإذا السماء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] إذ الفتح والتشقق والتفطر ، تتقارب ، وأقول : هذا ليس بقوي لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم

من التشقق والتفطر ، فربما كانت السماء أبواباً ، ثم تفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر ، بل الدلائل السمعية دلت على أن عند حصول فتح هذه الأبواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية ، فإن قيل قوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ يفيد أن السماء بكليتها تصير أبواباً ، فكيف يعقل ذلك ؟ قلنا فيه وجوه : أحدها : أن تلك الأبواب لما كثرت جداً صارت كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة كقوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر : 12] أي كأن كلها صارت عيوناً تتفجر وثانيها : قال الواحدي هذا من باب تقدير حذف المضاف ، والتقدير فكانت ذات أبواب وثالثها : أن الضمير في قوله : ﴿ فكانت أبواباً ﴾ عائد إلى مضمر والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً لنزول الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر : 22] .

(205/798)

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ اعلم أن الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال هذه الجبال على وجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله : وهو أن أول أحوالها الاندكاك وهو قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة

واحدة﴾ [الحاقة: 14].

والحالة الثانية لها: أن تصير ﴿كالعهن المنفوش﴾ [القارعة: 5] وذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال العهن المنفوش﴾ [القارعة: 4، 5] وقوله: ﴿يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن﴾ [المعارج: 8 9].

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله: ﴿إذا رجت الأرض رجاً * وبست الجبال بساً * فكانت هباءاً منبثاً﴾ [الواقعة: 4 6].

والحالة الرابعة: أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد من قوله: ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ [طه: 105].

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساماً جامدة وهي الحقيقة مارة إلى أن مرورها بسبب مرور الرياح بها (صيرها) مندكة متفتتة، وهي قوله: ﴿تمر مر السحاب﴾ [النحل: 88] ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره، فقال: ﴿ويوم نسير الجبال﴾ [الطور: 10] ﴿وترى الأرض بارزة﴾ [الكهف: 47].

الحالة السادسة : أن تصير سراباً ، بمعنى لا شيء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً ، كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئاً ، والله أعلم .

واعلم أن الأحوال المذكورة إلى ههنا هي : أحوال عامة ، ومن ههنا يصف أهوال جهنم وأحوالها .

المسألة الأولى :

(206/798)

قرأ ابن يعمر : أن جهنم بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة ، بأن جهنم كانت مرصاداً للطاغين ، كأنه قيل كان كذلك لإقامة الجزاء .

المسألة الثانية :

كانت مرصاداً ، أي في علم الله تعالى ، وقيل صارت ، وهذان القولان نقلهما القفال رحمه الله تعالى ، وفيه وجه ثالث ذكره القاضي ، فإنا إذا فسرنا المرصاد بالمرتقب ، أفاد ذلك أن جهنم كانت كالمنتظرة لمقدومهم من قديم الزمان ، وكالمستدعية والطالبة لهم .

المسألة الثالثة :

في المرصاد قولان : أحدهما : أن المرصاد اسم للمكان الذي يرصد فيه ، كالمضمار اسم للمكان الذي يضمر فيه الخيل ، والمنهاج اسم للمكان الذي ينهج فيه ، وعلى هذا الوجه فيه احتمالان : أحدهما : أن خزنة جهنم يرصدون الكفار والثاني : أن مجاز المؤمنين وممرهم كان على جهنم ، لقوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] فخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم ، ويرصدونهم عندها .

القول الثاني : أن المرصاد مفعال من الرصد ، وهو الترقب ، بمعنى أن ذلك يكثر منه ، والمفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار والمطعان ، قيل إنها ترصد أعداء الله وتشق عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ [الملك : 8] قيل ترصد كل كافرة ومنافق ، والقائلون بالقول الأول .

استدلوا على صحة قولهم بقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] ولو كان المرصاد نعتاً لوجب أن يقال : إن ربك لمرصاد .

المسألة الرابعة :

دلت الآية على أن جهنم كانت مخلوقة لقوله تعالى : ﴿ إن جهنم كان مرصاداً ﴾ أي معدة ، وإذا كان كذلك كانت الجنة أيضاً كذلك ، لأنه لا قائل بالفرق .

وفيه وجهان : إن قلنا إنه مرصاد للكفار فقط كان قوله : ﴿ للطاغين ﴾ من تمام ما قبله ، والتقدير إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين ، ثم قوله : ﴿ مآباً ﴾ بدل من قوله : ﴿ مرصاداً ﴾ وإن قلنا بأنها كانت مرصاداً مطلقاً للكفار وللمؤمنين ، كان قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ [النبأ : 21] كلاماً تاماً ، وقوله : ﴿ للطاغين مآباً ﴾ كلام مبتدأ كأنه قيل إن جهنم مرصاد للكل ، ومآب للطاغين خاصة ، ومن ذهب إلى القول الأول لم يقف على قوله مرصاداً أما من ذهب إلى القول الثاني وقف عليه ، ثم يقول المراد بالطاغين من تكبر على ربه وطغى في مخالفته ومعارضته ، وقوله : ﴿ مآباً ﴾ أي مصيراً ومقراً .

اعلم أنه تعالى لما بين أن جهنم مآب للطاغين ، وبين كمية استقرارهم هناك ، فقال : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ وههنا مسائل : المسألة الأولى :

قرأ الجمهور : ﴿ لابثين ﴾ وقرأ حمزة لبثين وفيه وجهان قال الفراء هما بمعنى واحد يقال لابث ولبث ، مثل ثامع ، وطمع ، وفاره ، وفره ، وهو كثير ، وقال صاحب الكشاف : واللبث أقوى لأن اللابث من وجد منه اللبث ، ولا يقال : لبث إلا لمن شأنه اللبث ، وهو أن يستقر في المكان ، ولا يكاد ينفك عنه .

المسألة الثانية :

قال الفراء أصل الحقب من الترادف ، والتتابع يقال أحقب ، إذا أردف ومنه الحقيبة ومنه كل من حمل وزراً ، فقد احتقب ، فيجوز على هذا المعنى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ أي دهوراً متتابعة يتبع بعضها بعضاً ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً ﴾ [الكهف : 60] يحتمل سنين متتابعة إلى أن أبلغ أو آنس ، واعلم أن الأحقاب ، واحدها حقب وهو ثمانون سنة عند أهل اللغة ، والحقب السنون واحدتها حقبة وهي زمان من الدهر لا وقت له ثم نقل عن المفسرين فيه وجوه : أحدها : قال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس في قوله : ﴿ أحقاباً ﴾ الحقب الواحد بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا ، ونحو هذا روى ابن عمر مرفوعاً وثانيها : سأل هلال الهجري علياً عليه السلام .

فقال الحقب مائة سنة ، والسنة اثنا عشر شهراً ، والشهر ثلاثون يوماً ، واليوم ألف سنة وثالثها : وقال الحسن الأحقاب لا يدري أحد ما هي ، ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة اليوم منها كألف سنة مما تعدون : فإن قيل قوله أحقاباً وإن طالت إلا أنها متناهية ، وعذاب أهل النار غير متناه ، بل لو قال لابثين فيها الأحقاب لم يكن هذا السؤال وارداً ،

ونظير هذا السؤال قوله في أهل القبلة : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ قلنا : الجواب من وجوه :

الأول : أن لفظ الأحقاب لا يدل على مضي حقب له نهاية وإنما الحقب الواحد متناه ، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً كلما مضى حقب تبعه حقب آخر ، وهكذا إلى الأبد

والثاني : قال الزجاج : المعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً لا يذوقون في الأحقاب برداً ولا شراباً ، فهذه الأحقاب توقيت لنوع من العذاب .

(209/798)

وهو أن لا يذوقوا برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، ثم يبدلون بعد الأحقاب عن الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب وثالثها : هب أن قوله : ﴿ أحقاباً ﴾ يفيد التناهي ، لكن دلالة هذا على الخروج دلالة المفهوم ، والمنطوق دل على أنهم لا يخرجون .

قال تعالى : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ [المائدة : 37] ولا شك أن المنطوق راجح ، وذكر صاحب "الكشاف" في الآية وجهاً آخر ، وهو أن يكون أحقاباً من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره ، وحقب فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب .

فينتصب حالاً عنهم بمعنى لابثين فيها حقبين مجدبين ، وقوله : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا

شراباً ﴾ [النبأ : 24] تفسير له .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ .

﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ .

المسألة الأولى :

إن اخترنا قول الزجاج كان قوله : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ متصلاً بما قبله ، والضمير في قوله : ﴿ فيها ﴾ عائداً إلى الأحقاب ، وإن لم نقل به كان هذا كلاماً مستأنفاً مبتدأ ، والضمير في قوله عائداً إلى جهنم .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ برداً ﴾ وجهان الأول : أنه البرد المعروف ، والمراد أنهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شراباً يسكن عطشهم ، ويزيل الحرقة عن بواطنهم ، والحاصل أنه لا يجدون هواء بارداً ، ولا ماء بارداً والثاني : البرد ههنا النوم ، وهو قول الأخفش والكسائي والفراء وقطرب والعتبي ، قال الفراء : وإنما سمى النوم برداً لأنه يبرد صاحبه ، فإن العطشان ينام فيبرد بالنوم ، وأنشد أبو عبيدة والمبرد في بيان أن المراد النوم قول الشاعر :

بردت مراشفها علي فصدني . . عنها وعن رشفاتها البرد

يعني النوم ، قال المبرد : ومن أمثال العرب : منع البرد البرد أي أصابني من البرد ما منعني من النوم ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه إذا أمكن حمل اللفظ على الحقيقة المشهورة ، فلا معنى لحمله على المجاز النادر الغريب ، والقائلون بالقول الثاني تمسكوا في إثباته بوجهين

الأول : أنه لا يقال ذقت البرد ويقال ذقت النوم .

الثاني : أنهم يذوقون برد الزمهرير ، فلا يصح أن يقال إنهم ما ذاوا برداً ، وهب أن ذلك البرد برد تأذوا به ، ولكن كيف كان ، فقد ذاقوا البرد والجواب عن الأول : كما أن ذوق البرد مجاز فكذا ذوق النوم أيضاً مجاز ، ولأن المراد من قوله : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ﴾ أي لا يستنشقونه فيها نفساً بارداً ، ولا هواء بارداً ، والهواء المستنشق ممره الفم والأنف فجاز إطلاق لفظ الذوق عليه والجواب عن الثاني : أنه لم يقل لا يذوقون فيها البرد بل قال يذوقون فيها برداً واحداً ، وهو البرد الذي ينتفعون به ويستريحون إليه .

المسألة الثالثة :

ذكروا في الحميم أنه الصفر المذاب وهو باطل بل الحميم الماء الحار المغلي جداً .

المسألة الرابعة :

ذكروا في الغساق وجوهاً .

أحدها : قال أبو معاذ كنت أسمع مشايخنا يقولون الغساق فارسية معربة يقولون للشيء الذي يتقذرونه خاشاك . (1)

وثانيها : أن الغساق هو الشيء البارد الذي لا يطاق ، وهو الذي يسمى بالزمهرير .

وثالثها : الغساق ما يسيل من أعين أهل النار وجلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة ، وفي كتاب الخليل غسقت عينه ، تغسق غسقاً وغساقاً .

ورابعها : الغساق هو المنتن ، ودليله ما روي أنه عليه السلام قال : لو أن دلواً من الغساق يهراق على الدنيا لأنتن أهل الدنيا .

---

(1) وجه الدلالة على هذا خفي ولعل الكلمة مصحفة وصوابها «غاساك» بالغين المعجمة والسين المهملة أو «غاساق» ثم عربت إلى «غساق» .

وخامسها : أن الغاسق هو المظلوم قال تعالى : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ [الفلق : 3] فيكون الغساق شراباً أسود مكروهاً يستوحش كما يستوحش الشيء المظلم ، إذا عرفت هذا فنقول إن فسرنا الغساق بالبارد كان التقدير : لا يذوقون فيها برداً إلا غساقاً

ولا شراباً إلا حميماً ، إلا أنهما جمعاً لأجل انتظام الآى ، ومثله من الشعر قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً . . لدي وكرها العناب والحشف البالي

والمعنى كأن قلوب الطير رطباً العناب ويابساً الحشف البالي .

أما إن فسرنا الغساق بالصديد أو بالنتن احتمل أن يكون الاستثناء بالحمي والغساق راجعاً إلى البرد والشراب معاً ، وأن يكون مختصاً بالشراب فقط .

أما الاحتمال الأول : فهو أن يكون التقدير لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ في الحميم والصديد المنتن .

وأما الاحتمال الثاني : فهو أن يكون التقدير لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ في السخونة أو الصديد المنتن والله أعلم بمراده ، فإن قيل الصديد لا يشرب فكيف استثنى من الشراب ؟ قلنا : إنه مائع فأمكن أن يشرب في الجملة فإن ثبت أنه غير ممكن كان ذلك استثناء من غير الجنس ووجهه معلوم .

المسألة الخامسة :

قرأ حمزة والكسائي وعاصم من رواية حفص عنه غساقاً بالتشديد فكأنه فعال بمعنى سيال ، وقرأ الباقون بالتخفيف مثل شراب والأول نعت والثاني اسم .

واعلم أنه تعالى لما شرح أنواع عقوبة الكفار بين فيما بعده أنه : ﴿ جَزَاء وفاقا ﴾ وفي المعنى وجهان : الأول : أنه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم أتوا بمعصية شديدة فيكون العقاب ﴿ وفاقا ﴾ للذنب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] والثاني : أنه ﴿ وفاقا ﴾ من حيث لم يزد على قدر الاستحقاق ، ولم ينقص عنه وذكر النحويون فيه وجوهاً : أحدها : أن يكون الوفاق والموافق واحداً في اللغة والتقدير جزاء موافقاً وثانيها : أن يكون نصباً على المصدر والتقدير جزاء وافق أعمالهم ﴿ وفاقا ﴾ وثالثها : أن يكون وصف بالمصدر كما يقال فلان فضل وكرم لكونه كاملاً في ذلك المعنى ، كذلك ههنا لما كان ذلك الجزاء كاملاً في كونه على وفق الاستحقاق وصف الجزاء بكونه ﴿ وفاقا ﴾ ورابعها : أن يكون بحذف المضاف والتقدير جزاء ذا وفاق وقرأ أبو حيوة ﴿ وفاقا ﴾ فعال من الوفق ، فإن قيل كيف يكون هذا العذاب البالغ في الشدة الغير المتناهي بحسب المدة ﴿ وفاقا ﴾ للإتيان بالكفر لحظة واحدة ، وأيضاً فعلى قول أهل السنة إذا كان الكفر واقعاً بخلق الله وإيجاده فكيف يكون هذا وفاقاً له ؟ وأما على مذهب المعتزلة فكان علم الله بعدم إيمانهم حاصلاً ووجود إيمانهم مناف بالذات لذلك العلم فمع قيام أحد المتنافيين كان التكليف بإدخال المنافي الثاني في الوجود ممتنعاً لذاته وعينه ، ويكون تكليفاً بالجمع بين المتنافيين ، فكيف يكون مثل هذا العذاب الشديد الدائم

وفاقاً لمثل هذا الجرم ؟ قلنا يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد .

واعلم أنه تعالى لما بين على الإجمال أن ذلك الجزاء كان على وفق جرمهم شرح أنواع جرائمهم ، وهي بعد ذلك نوعان :

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27)

وفيه سؤالان :

(213/798)

الأول : وهو أن الحساب شيء شاق على الإنسان ، والشيء الشاق لا يقال فيه إنه يرجى بل يجب أن يقال : إنهم كانوا لا يخشون حساباً والجواب من وجوه : أحدها : قال مقاتل وكثير من المفسرين قوله لا يرجون معناه لا يخافون ، ونظيره قولهم في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : 13] وثانيها : أن المؤمن لا بد وأن يرجو رحمة الله لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصي سوى الكفر ، فقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ إشارة إلى أنهم ما كانوا مؤمنين وثالثها : أن الرجاء ههنا بمعنى التوقع لأن الراجي للشيء متوقع له إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء فسمى الجنس باسم أشرف أنواعه ورابعها : أن في هذه الآية تنبيهاً على أن الحساب مع الله جانب الرجاء

فيه أغلب من جانب الخوف ، وذلك لأن للعبد حقاً على الله تعالى بحكم الوعد في جانب الثواب ولله تعالى حق على العبد في جانب العقاب ، والكريم قد يسقط حق نفسه ، ولا يسقط ما كان حقاً لغيره عليه ، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوى في الحساب ، فلهذا السبب ذكر الرجاء ، ولم يذكر الخوف .

السؤال الثاني : أن الكفار كانوا قد أتوا بأنواع من القبائح والكبائر ، فما السبب في أن خص الله تعالى هذا النوع من الكفر بالذكر في أول الأمر ؟ الجواب : لأن رغبة الإنسان في فعل الخيرات ، وفي ترك المحظورات ، إنما تكون بسبب أن ينتفع به في الآخرة ، فمن أنكر الآخرة ، لم يقدم على شيء من المستحسنات ، ولم يحجم عن شيء من المنكرات ، فقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ تنبيه على أنهم فعلوا كل شر وتركوا كل خير .

والنوع الثاني : من قبائح أفعالهم قوله :

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28)

(214/798)

اعلم أن للنفس الناطقة الإنسانية قوتين نظرية وعملية ، وكمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ولذلك قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي

بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] ﴿ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ [الشعراء : 83] إشارة إلى كمال القوة ، النظرية ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية ، فههنا بين الله تعالى رداءة حالهم في الأمرين ، أما في القوة العملية فنبه على فسادها بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ [النبأ : 27] أي كانوا مقدمين على جميع القبائح والمنكرات ، وغير راغبين في شيء من الطاعات والخيرات .

وأما في القوة النظرية فنبه على فسادها بقوله : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ أي كانوا منكرين بقلوبهم للحق ومصرين على الباطل ، وإذا عرفت ما ذكرناه من التفسير ظهر أنه تعالى بين أنهم كانوا قد بلغوا في الرداءة والفساد إلى حيث يستحيل عقلاً وجود ما هو أزيد منه ، فلما كانت أفعالهم كذلك كان اللائق بها هو العقوبة العظيمة .

فثبت بهذا صحة ما قدمه في قوله : ﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ [النبأ : 26] فما أعظم لطائف القرآن مع أن الأدوار العظيمة قد استمرت ، ولم ينتبه لها أحد ، فالحمد لله حمداً يليق بعلو شأنه وبرهانه على ما خص هذا الضعيف بمعرفة هذه الأسرار .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ يدل على أنهم كذبوا بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد والشرائع والقرآن ، وذلك يدل على كمال حال القوة النظرية في الرداءة والفساد والبعد عن سواء السبيل وقوله : ﴿ كِذَّاباً ﴾ أي تكذيباً وفعال من

مصادر التفعيل وأنشد الزجاج :

لقد طال ما ريثتني عن صحابتي . . وعن حوج قضَّاؤها من شفائنا

(215/798)

من قضَّيت قضَّاء قال الفراء هي لغة فصيحة يمانية ونظيره خرَّقت القميص خرَّاقاً ، وقال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني : الحلو أحب إليك أم العِصَّار ؟ وقال صاحب "الكشاف" كنت أفسر آية فقال بعضهم : لقد فسرتها فِسَّاراً ما سمع به ، وقرىء بالتخفيف وفيه وجوه : أحدها : أنه مصدر كَذَّب بدليل قوله :

فصدقتها أو كذبتها . . والمرء ينفعه كذابه

وهو مثل قوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً وثانيها : أن ينصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب وثالثها : أن يجعل الكذاب بمعنى المكاذبة ، فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة . أو كذبوا بها مكاذبين .

لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين ، وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة وقرىء أيضاً كذلك وهو جمع كاذب ، أي كذبوا بآياتنا كاذبين ، وقد يكون الكذاب بمعنى

الواحد البليغ في الكذب ، يقال رجل كذاب كقولك حسان وبخال ، فيجعل صفة لمصدر كذبوا أي تكذيباً كذاباً مفرطاً كذبه .

واعلم أنه تعالى لما بين أن فساد حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية بلغ إلى أقصى الغايات وأعظم النهايات بين أن تفاصيل تلك الأحوال في كميتها وكيفيتها معلومة له ، وقدر له ما يستحق عليه من العقاب معلوم له ، فقال :

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : ﴿ كُلَّ ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿ أحصيناه ﴾ والمعنى : وأحصينا كل شيء وقرأ أبو السمال ، وكل بالرفع على الابتداء .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَكُلَّ شيْء أحصيناه ﴾ أي علمنا كل شيء كما هو علماً لا يزول ولا يتبدل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أحصاه الله وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : 6] واعلم أن هذه الآية تدل على

كونه تعالى عالماً بالجزئيات ، واعلم أن مثل هذه الآية لا تقبل التأويل : وذلك لأنه تعالى ذكر هذا تقريراً لما ادعاه من قوله : ﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ [النبأ : 26] كأنه تعالى يقول : أنا عالم بجميع ما فعلوه ، وعالم بجهات تلك الأفعال وأحوالها واعتباراتها التي لأجلها يحصل استحقاق الثواب والعقاب ، فلا جرم لا أوصل إليهم من العذاب إلا قدر ما يكون وفاقاً لأعمالهم ، ومعلوم أن هذا القدر إنما يتم لو ثبت كونه تعالى عالماً بالجزئيات ، وإذا ثبت هذا ظهر أن كل من أنكره كان كافراً قطعاً .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ أحصيناه كتابا ﴾ فيه وجهان : أحدهما : تقديره أحصيناه إحصاء ، وإنما عدل عن تلك اللفظة إلى هذه اللفظة ، لأن الكتابة هي النهاية في قوة العلم ، ولهذا قال عليه السلام " قيدوا العلم بالكتابة " فكأنه تعالى قال : وكل شيء أحصيناه إحصاء مساوياً في القوة والثبات والتأكيد للمكتوب ، فالمراد من قوله كتاباً تأكيد ذلك الإحصاء والعلم ، واعلم أن هذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر ، فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال لأنه واجب لذاته القول الثاني : أن يكون قوله كتاباً حالاً في معنى مكتوباً والمعنى وكل شيء أحصيناه حال كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ ، كقوله : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحصيناه فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أو في صحف الحفظة .

ثم قال تعالى :

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)

(217/798)

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال العقاب أولاً ، ثم ادعى كونه ﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ [النبأ : 26] ثم بين تفاصيل أفعالهم القبيحة ، وظهر صحة ما ادعاه أولاً من أن ذلك العقاب كان ﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ لا جرم أعاد ذكر العقاب ، وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ والفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم ، فهذا الفاء أفاد عين فائدة قوله : ﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ .

المسألة الرابعة :

هذه الآية دالة على المبالغة في التعذيب من وجوه : أحدها : قوله : ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ ﴾ وكلمة لن للتأكيد في النفي وثانيها : أنه في قوله : ﴿ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ [النبأ : 27] ذكرهم بالمغايبة وفي قوله : ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ ذكرهم على سبيل المشافهة وهذا يدل على كمال الغضب وثالثها : أنه تعالى عدد وجوه العقاب ثم حكم بأنه جزاء موافق لأعمالهم ثم عدد فضائحهم ، ثم قال : ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ فكأنه تعالى أفتى وأقام الدلائل ، ثم أعاد تلك

الفتوى بعينها ، وذلك يدل على المبالغة في التعذيب قال عليه الصلاة والسلام : " هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار ، كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه " بقي في الآية سؤالان :

(218/798)

السؤال الأول : أليس أنه تعالى قال في صفة الكفار : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران : 77] فهنا لما قال لهم : ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ فقد كلمهم ؟ الجواب : قال أكثر المفسرين : تقدير الآية فيقال لهم : فذوقوا ، ولقائل أن يقول على هذا الوجه لا يليق بذلك القائل أن يقول : ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ بل هذا الكلام لا يليق إلا بالله ، والأقرب في الجواب أن يقال قوله : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ﴾ أي ولا يكلمهم بالكلام الطيب النافع ، فإن تخصيص العموم غير بعيد لاسيما عند حصول القرينة ، فإن قوله : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ﴾ إنما ذكره لبيان أنه تعالى لا ينفعهم ولا يقيم لهم وزناً ، وذلك لا يحصل إلا من الكلام الطيب .

السؤال الثاني : دلت هذه الآية على أنه تعالى يزيد في عذاب الكافر أبداً ، فتلك الزيادة إما أن يقال : إنها كانت مستحقة لهم أو غير مستحقة ، فإن كانت مستحقة لهم كان تركها في أول الأمر إحساناً ، والكريم إذا أسقط حق نفسه ، فإنه لا يليق به أن يسترجعه بعد ذلك ،

وأما إن كانت تلك الزيادة غير مستحقة كان إيصالها إليهم ظلماً وإنه لا يجوز على الله الجواب : كما أن الشيء يؤثر بحسب خاصية ذاته ، فكذا إذا دام ازداد تأثيره بحسب ذلك الدوام ، فلا جرم كلما كان الدوام أكثر كان الإيلام أكثر ، وأيضاً فتلك الزيادة مستحقة ، وتركها في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط ، والله علم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 10.19 ﴾

(219/798)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) ﴾

﴿ يوم الفصل ﴾ هو يوم القيامة ، لأن الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين ، وبين الحق والباطل ، و" الميقات " مفعال من الوقت ، كميعاد من الوعد ، وقوله : ﴿ يوم ينفخ ﴾ بدل من اليوم الأول ، و ﴿ الصور ﴾ : القرن الذي ينفخ فيه لبعث الناس . هذا قول الجمهور ، ويحتمل هذا الموضع أن يكون ﴿ الصور ﴾ فيه جمع صورة أي يوم يرد الله فيه الأرواح إلى الأبدان ، هذا قول بعضهم في ﴿ الصور ﴾ وجوزه أبو حاتم ، والأول أشهر وبه تظاهرت الآثار ، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ [الزمر :

68] وقرأ أبو عياض " في الصوَر " بفتح الواو ، و " الأفواج " الجماعات يتلو بعضها بعضاً ، واحدها فوج ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وشيبة والحسن : " وفتّحت " ، بشد التاء على المبالغة ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : " وفتَحت " دون شد ، وقوله تعالى : ﴿ فكانت أبواباً ﴾ قيل معناه : تتفطر وتتشقق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدارات ، وقال آخرون فيما حكى مكي بن أبي طالب : الأبواب هنا فلق الخشب التي تجعل أبواباً لفتوح الجدارات أي تتقطع السماء قطعاً صغاراً حتى تكون كألواح الأبواب . والقول الأول أحسن ، وقال بعض أهل العلم : تتفتح في السماء أبواب الملائكة من حيث يصعدون وينزلون . وقوله تعالى : ﴿ فكانت سراباً ﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منثباً ، ولم يرد أن الجبال تعود تشبه الماء على بعد من الناظر إليها ، و ﴿ مرصاداً ﴾ : موضع الرصد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] ، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال : " لا يدخل أحد الجنة حتى يجوز على جهنم ، فمن كانت عنده أسباب نجاة نجا وإلا هلك " . وقال قتادة : تعلمن أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار ، وفي الحديث الصحيح : " إن الصراط جسر ينصب على متن جهنم ثم يجوز عليه الناس فناج ومكردس " ، وقال بعض المتأولين : ﴿ مرصاداً ﴾

مفعال بمعنى راصد ، وقرأ أبو معمر المنقري : " أن جهنم " بفتح الألف والجمهور : على كسرها ، و" الطاغون " : الكافرون ، و" المآب " المرجع ، و" الأحقاب " : جمع حقب بفتح القاف ، وحِقب : بكسر الحاء ، وحقُب : بضم القاف ، وهو جمع حقبة ومنه قول متمم : [الطويل]

وكنا كندماني جذيمة حقبة . . . من الدهر حتى قيل لن تصدعا

وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة ، ويقال للسنة أيضاً حقبة ، وقال بشر بن كعب : حدها على ما ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة ، وقال هلال الهجري : ثمانون سنة قالا في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم من ألف سنة ، وقال ابن عباس وابن عمر : الحقب ستون ألف سنة ، وقال الحسن : ثلاثون ألف سنة وكثر الناس في هذا اللازم أن الله تعالى أخبر عن الكفار أنهم يلبثون ﴿ أحقاباً ﴾ كلما مر حقب جاء غيره إلى ما لا نهاية ، قال الحسن : ليس لها عدة إلا الخلود في النار ، ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم فطلبوا التأويل لذلك ، فقال مقاتل بن حيان : الحقب سبعة عشر ألف سنة ، وهي منسوخة بقوله تعالى :

﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ [النبأ : 30] ، وقد ذكرنا فساد هذا القول ، وقال آخرون الموصوفون باللبث ﴿ أحقاباً ﴾ عصاة المؤمنين ، وهذا أيضاً ضعيف ما بعده في

السورة يدل عليه ، وقال آخرون : إنما المعنى : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ غير ذائقين برداً ولا شراباً ، فهذه الحال يلبثون أحقاباً ثم يبقى العذاب سرمداً وهم يشربون أشربة جهنم ، وقرأ الجمهور " لابثين " وقرأ حمزة وحده وابن مسعود وعلقمة وابن وثاب وعمرو بن ميمون وعمرو بن شرحبيل وابن جبير " لبثن " جمع لبث ، وهي قراءة معترضة لأن فعلاً إنما يكون فيما صار خلقاً كحذر وفرق ، وقد جاء شاذاً فيما ليس بخلق وأنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد : [الكامل]

أو مسحل عمل عضادة سمحج . . . بسراته ندب له وكلوم

(221/798)

قال المعترض في القراءة : لا حجة في هذا البيت لأن عملاً قد صار كالخلق الذي واظب على العمل به حتى أنه ليسمى به في وقت لا يعمل فيه كما تقول كاتب لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أكثر أحيانه ، قال المحتج لها : شبه لبث بدوامه بالخلق لما صار اللبث من شأنه .

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24)

قال أبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي : " البرد " في هذه الآية : النوم ،

والعرب تسمه بذلك لأنه يبرد سؤر العطش ، ومن كلامهم منع البرد البرد ، وقال جمهور الناس : " البرد " في الآية : مسر الهواء البارد وهو القر ، أي لا يمسهم منه ما يستلذ ويكسر غرب الحر ، فالذوق على هذين القولين مستعار ، وقال ابن عباس : " البرد " : الشراب المستلذ ، ومنه قول حسان بن ثابت : [الكامل]

يسقون من ورد البريص عليهمُ . . . بردى يصفق بالرحيق السلسل

ومنه قول الآخر : [الطويل]

أماني من سعدى حسان كأنما . . . سقتني بها سعدى على ظمأ بردا

(222/798)

ثم قال تعالى : ﴿ ولا شراباً إلا حميماً ﴾ فالاستثناء متصل و" الحميم " : الحار الذائب وأكثر استعماله في الماء السخن والعرق ومنه الحمام ، وقال ابن زيد : " الحميم " : دموع أعينهم ، وقال النقاش : ويقال " الحميم " الصفر المذاب المتناهي الحر ، واختلف الناس في " الغساق " ، فقال قتادة والنخعي وجماعة : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه ، يقال : غسق الجرح : إذا سال منه قيح ودم ، وغسقت العين : إذا دمعت وإذا خرج قذاها ، وقال ابن عباس ومجاهد : " الغساق " : مشروب لهم مفرط الزمهرير ، كأنه في

الطرف الثاني من الحميم يشوي الوجوه ببرده ، وقال عبد الله بن بريدة : " الغساق " : المنتن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم وجماعة من الجمهور : " غسَاقاً " ، بتخفيف السين وهو اسم على ما قدمناه ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وابن أبي إسحاق السبيعي والحكم بن عتبة وقتادة وابن وثاب : " غسّاقاً " مشددة السين وهي صفة أقيمت مقام الموصوف ، كأنه قال ومشروب غساق أي سائل من أبدانهم ، وقوله تعالى : ﴿ وفاقاً ﴾ معناه لأعمالهم وكفرهم أي هو جزاؤهم الجدير بهم الموافق مع التحذير لأعمالهم فهي كفر ، و" الجزاء " : نار ، و﴿ يرجون ﴾ قال أبو عبيدة وغيره : معناه : يخافون ، وقال غيره : الرجاء هنا على بابه ، ولا رجاء إلا وهو مقترن بخوف ولا خوف إلا وهو مقترن برجاء ، فذكر أحد القسمين لأن المقصد العبارة عن تكذيبهم كأنه قال : إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب ، فلذلك لا يرجونه ولا يخافونه ، وقرأ جمهور الناس : "كِذّاباً " بشد الذال وكسر الكاف وهو مصدر بلغة بعض العرب ، وهي يمانية ومنه قول أحدهم وهو يستفتي :

ألحلق أحب إليك أم القصار ؟ . . . ومنه قول الشاعر : [الطويل]

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي . . . وعن حاجة قضاؤها من شفائيا

وهذا عندهم مصدر من فعّل ، وقال الطبري : لم يختلف القراء في هذا الموضع في ﴿ كذاباً ﴾ .

(223/798)

قال القاضي أبو محمد : وأراه أراد السبعة ، وأما في الشاذ ، فقرأ علي بن أبي طالب وعوف الأعرابي وعيسى والأعمش وأبو رجاء : "كِذَاباً " بكسر الكاف وبتخفيف الذال ، وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : "كُذّاباً " بضم الكاف وشد الذال على أنه جمع كاذب ونصبه على الحال قاله أبو حاتم ، وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه ﴾ ، يريد كل شيء شأنه أن يحضر في هذا الخبر وربط لآخر القصة بأولها أي هم مكذبون وكافرون ، ونحن قد أحصينا ، فالقول لهم في الآخرة ﴿ ذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(224/798)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ مِيقَاتاً ﴾

أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأوّلين والآخرين ؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب .

وسمي يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ أي للبعث ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ أي إلى موضع العَرْض ، ﴿ أَفْوَاجاً ﴾ أي أمما ، كل أمّة مع إمامهم .

وقيل : زمراً وجماعات .

الواحد : فوج .

ونصب يوماً بدلاً من اليوم الأوّل .

وروي من حديث معاذ بن جبل قلت : " يا رسول الله ! أرأيت قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا معاذ بنَ جَبَل لقد سألت عن أمر عظيم" ثم أرسل عينيه باكياً ، ثم قال : "يُحشَر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين ، وبدل صُوَرهم ، فمنهم على صورة القِرَدة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم مُنكَّسون : أرجلهم أعلاهم ، ووجوهُهم يُسْحَبون عليها ، وبعضهم عُمْي يتردّدون ، وبعضهم صُمٌّ بُكْمٌ لا يعقلون ، وبعضهم يَمضُغون ألسنتهم ، فهي مُدلاَّة على صدورهم ، يسيل القَيح من أفواههم لعاباً ، يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من النار ، وبعضهم أشدّ نَتْناً من الجِيف ، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القَطران لاصقة بجلودهم ؛ فأما

الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس يعني النمام وأَما الذين على صورة الخنازير ، فأهل السُّحْت والحرام والمَكْس .

وأما المنكَّسون رؤوسهم ووجوههم ، فأَكَلة الربا ، والعُمْي : من يجور في الحكم ، والصم البكم : الذين يعجبون بأعمالهم .

والذين يمضغون ألسنتهم : فالعلماء والقُصّاص الذين يخالف قولهم فعلهم .

والمقطعة أيديهم وأرجلهم : فالذين يؤذون الجيران .

(225/798)

والمصلَّبون على جذوع النار : فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نَتْناً من الجِيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ، ويمنعون حق الله من أموالهم .

والذين يلْبَسون الجلابيب : فأهل الكِبْر والفخر والخَيَلاء " .

قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السمآء فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ أي لنزول الملائكة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ .

وقيل : تقطعت ، فكانت قِطعاً كالأبواب فانتصاب الأبواب على هذا التأويل بحذف الكاف .

وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب ؛ لأنها تصير كلها أبواباً .

وقيل : أبوابها طُرُقها .

وقيل : تنحلّ وتتناثر ، حتى تصير فيها أبواب .

وقيل : إن لكل عبد بابين في السماء : باباً لعمله ، وباباً لرزقه ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب .

وفي حديث الإسراء : " ثُمّ عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ قال : محمد .

قيل : وَقَد بُعِث إليه ؟ قال : قد بُعِث إليه .

ففُتح لنا " ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ أي لا شيء كما أنَّ السراب كذلك : يظنه الرائي ماء وليس بماء .

وقيل : "سُيِّرت" نسِفت من أصولها .

وقيل : أُزيلت عن مواضعها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ :

مِفعال من الرَّصَد والرصَد : كل شيء كان أمامك .

قال الحسن : إن على النار رَصَداً ، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه ، فمن جاء بجواز

جاز ، ومن لم يجيء بجواز حُبِس .

وعن سُفيان رضي الله عنه قال : عليها ثلاث قَناطر .

وقيل "مِرصاداً" ذات أَرْصاد على النسب ، أي ترصد من يمرّ بها .

وقال مقاتل : مَحْبِساً .

وقيل : طريقاً وممرّاً ، فلا سبيل إلى الجنة حتى يَقْطع جهنم .

وفي الصّحاح : والمِرصاد : الطريق .

وذكر القُشَيريّ : أن المرصاد المكان الذي يَرصُد فيه الواحد العدوّ ، نحو المِضمار : الموضع الذي تُضَمَّر فيه الخيل .

(226/798)

أي هي معدّة لهم ؛ فالمِرصاد بمعنى المحلّ ؛ فالملائكة يرصدون الكفار حتى ينزلوا بجهنم .

وذكر الماورديّ عن أبي سِنان أنها بمعنى راصدة ، تجازيهم بأفعالهم .

وفي الصحاح : الراصد الشيءِ : الراقبُ له ؛ تقول : رصدَه يرصدُه رَصْداً ورَصَداً ، والترصُّد : الترقب .

والمَرْصَد : موضع الرصْد .

الأصمعيّ : رَصَدْته أرصُده : ترقبته ، وأرْصدته : أعددت له .

والكسائي : مثله .

قلت : فجهنم مُعَدّة مترصّدة ، مُتفعّل من الرصْد وهو الترقب ؛ أي هي متطلعة لِمن يأتي .

والمِرصاد مِفعال من أبنية المبالغة كالمِعطار والمِغيار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

﴿ لِّلطَّاغِينَ مَآباً ﴾ بدل من قوله : "مِرصادا" والمآب : المرجع ، أي مرجعاً يرجعون إليها ؛ يقال : آب يَئُوب أوبة : إذا رجع .

وقال قتادة : مأوًى ومنزلاً .

والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر ، أو في دنياه بالظلم .

قوله تعالى : ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب ، وهي لا تنقطع ، فكلما مضى حُقُب جاء حُقُب .

والحُقُب بضمتين : الدهر والأحقاب الدهور .

والحِقْبة بالكسر : السَّنة ؛ والجمع حِقَب ؛ قال متمم بن نُويرة التميمي :

وكنا كَنَدْمانَيْ جَذيمة حِقبةً . . .

مِن الدَّهرِ حتى قيل لنْ يتصدّعَا

فلما تفرّقنا كأنّي ومالِكاً . . .

لِطولِ اجتماع لم نبِتْ ليلة معَاً

والحُقُب بالضم والسكون : ثمانون سنة .

وقيل : أكثر من ذلك وأقل ، على ما يأتي ، والجمع : أحقاب .

والمعنى في الآية ؛ لابثين فيها أحقاب الآخرة التي لا نهاية لها ؛ فحذف الآخرة لدلالة الكلام عليه ؛ إذ في الكلام ذكر الآخرة وهو كما يقال أيام الآخرة ؛ أي أيام بعد أيام إلى غير نهاية ، وإنما كان يدل على التوقيت لو قال خمسة أحقاب أو عشرة أحقاب .

ونحوه وذكر الأحقاب لأن الحُقُب كان أبعد شيء عندهم ، فتكلم بما تذهب إليه أوهامُهم ويعرفونها ، وهي كناية عن التأبيد ، أي يمكثون فيها أبداً .

(227/798)

وقيل : ذكر الأحقاب دون الأيام ؛ لأن الأحقاب أهول في القلوب ، وأدل على الخلود .

والمعنى متقارب ؛ وهذا الخلود في حق المشركين .

ويمكن حمل الآية على العُصاة الذين يخرجون من النار بعد أحقاب .

وقيل : الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغَسَّاق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العقاب ؛ ولهذا قال : ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ .

و"لابِثِين" اسم فاعل من لبِث ، ويقويه أن المصدر منه اللَّبْث بالإسكان ، كالشُّرْب .

وقرأ حمزة والكسائي "لبِثِين" بغير ألف وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد ، وهما لغتان ؛

يقال : رجل لابِث ولبِث ، مثل طمِع وطامِع ، وفرِه وفارِه .

ويقال : هو لَبِث بمكان كذا : أي قد صار اللَّبث شأنه ، فشبه بما هو خلقة في الإنسان نحو حَذِر وفَرِق ؛ لأن باب فَعِل إنما هو لما يكون خِلْقة في الشيء في الأغلب ، وليس كذلك اسم الفاعل من لابث .

والحُقُبُ : ثمانون سنة في قول ابن عمر وابن مُحَيصن وأبي هريرة ، والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً ، واليوم ألف سنة من أيام الدنيا ؛ قاله ابن عباس .

وروى ابن عمر هذا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو هريرة : والسنة ثلثمائة يوم وستون يوماً كل يوم مثل أيام الدنيا .

وعن ابن عمر أيضاً : الحُقُب : أربعون سنة .

السُّدِّيّ : سبعون سنة .

وقيل : إنه ألف شهر .

رواه أبو أمامة مرفوعاً .

بشير بن كعب : ثلثمائة سنة .

الحسن : الأحقاب لا يَدرِي أحد كم هي ، ولكن ذكروا أنها مائة حُقُب ، والحُقُب الواحد

منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة مما تعدون .

وعن أبي أمامة أيضاً ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الحُقُب الواحد ثلاثون ألفَ سنة " ذكره المهدويّ .

والأوّل الماورديّ .

وقال قُطرب : هو الدهر الطويل غير المحدود .

وقال عمر رضي الله عنه .

(228/798)

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لا يخرُج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً ، الحُقُب بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كلّ يوم ألفُ سنة مما تَعُدُّون ؛ فلا يتكلنَّ أحدكم على أنه يخرج من النار " ذكره الثعلَبيّ .

القُرظيّ : الأحقاب : ثلاثة وأربعون ، حُقُباً كل حُقُب سبعون خَريفاً ، كل خريف سبعمائةِ سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة .

قلت : هذه أقوال متعارضة ، والتحديد في الآية للخلود ، يحتاج إلى توقيف يقطَع العُذْر ، وليس ذلك بثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وإنما المعنى والله أعلم ما ذكرناه أوّلاً ؛ أي لابثين فيها أزماناً ودهوراً ، كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر ، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع .

وقال ابن كَيْسان : معنى ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ لا غاية لها انتهاء ، فكأنه قال أبداً .

وقال ابن زيد ومُقاتل : إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ يعني أن العدد قد انقطع ، والخلود قد حصل .

قلت : وهذا بعيد ؛ لأنه خبر ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] على ما تقدم .

هذا في حق الكفار ، فأما العُصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص . والله أعلم .

وقيل : المعنى "لابِثِين فِيها أحقابا" أي في الأرض ، إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في "لا يذوقون فِيها بردا ولا شرابا" لجهنم .

وقيل : واحد الأحقاب حُقُب وحِقْبَةً ؛ قال :

فإنْ تَنْأَ عنها حِقْبَةً لا تُلاقِهَا . . .

فَأنتَ بِما أَحْدَثْتَهُ بالمُجَرَّبِ

وقال الكميت :

مَرّ لها بعد حِقبةٍ حِقَبُ . . .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا ﴾ أي في الأحقاب ﴿ بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ﴾ البرد : النوم في قول أبي عبيدة وغيره ؛ قال الشاعر :

ولو شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سِواكُمُ . . .

(229/798)

وإِن شِئت لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدَا

وقاله مجاهد والسُّدّيّ والكسائيّ والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي ؛ وأنشدوا قول الكنديّ :

بَرَدت مَراشفُها عليَّ فصدِني . . .

عنها وعن تقبيلِها الْبَرْد

يعني النوم .

والعرب تقول : مَنع البَرْدُ البَرْد ، يعني : أذهب البرد النوم .

قلت : وقد جاء الحديث .

" أنه عليه الصلاة والسلام سُئل هل في الجنة نوم .

فقال : "لا ؛ النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها" " فكذلك النار ؛ وقد قال تعالى : ﴿ لاَ

يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر : 36] وقال ابن عباس : البَرْدُ : برد الشراب .

وعنه أيضاً : البرد النوم : والشراب الماء .

وقال الزّجاج : أي لا يذوقون فيها برد ريح ، ولا ظِل ، ولا نومٍ .

فجعل البرد برد كل شيء له راحة ، وهذا برد ينفعهم ، فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به ، فلا ينفعهم ، فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به .

وقال الحسن وعطاء وابن زيد : بَرْداً : أي رَوْحاً وراحة ؛ قاله الشاعر :

فلا الظلَّ مِن بردِ الضحى تستطيعُه . . .

ولا الفَيْءَ أوقات العَشِيّ تذوقُ

"لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً" جملة في موضع الحال من الطاغين ، أو نعت للأحقاب ؛

فالأحقاب ظرف زمان ، والعامل فيه "لابِثين" أو "لبِثين" على تعدية فِعل .

﴿ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ استثناء منقطع في قول من جعل البرد النوم ، ومن جعله من البرودة كان بدلاً منه .

والحميم : الماء الحار ؛ قاله أبو عبيدة .

وقال ابن زيد : الحميم : دموع أعينهم ، تجمع في حياض ثم يُسْقَونه .

قال النحاس : أصل الحميم : الماء الحار ، ومنه اشتق الحَمّام ، ومنه الحُمَّي ، ومنه ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 42] إنما يراد به النهاية في الحر .

والغَسّاق : صديد أهل النار وقَيْحُهم .

وقيل الزَّمْهَرير .

وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين ، وقد مضى في "ص" القول فيه .

﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ أي موافقاً لأعمالهم .

(230/798)

عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ فالوِفاق بمعنى الموافقة كالقِتال بمعنى المقاتلة .

و"جزاء" نصب على المصدر ، أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ؛ قاله الفَرّاء والأخفش .

وقال الفراء أيضاً : هو جمع الوِفق ، والوفق واللفق واحد .

وقال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأتاهم الله بما يسوءهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ ﴾ أي لا يخافون ﴿ حِسَاباً ﴾ أي محاسبة على أعمالهم .

وقيل : معناه لا يرجون ثواب حساب .

الزجاج : أي إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم .

﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ أي بما جاءت به الأنبياء .

وقيل : بما أنزلنا من الكتب .

وقراءة العامة "كِذّاباً" بتشديد الذال ، وكسر الكاف ، على كَذَّب ، أي كَذَّبوا تكذيباً كبيراً .

قال الفراء : هي لغة يَمَانِيَة فصيحة ؛ يقولون : كَذَّبت به كِذَّاباً ، وخرقت القميص خِرَّاقاً ؛ وكل فِعل في وزن (فَعَّلَ) فمصدره فِعَّال مشدد في لغتهم ؛ وأنشد بعض الكلابيين :

لقد طالَ ما ثَبَّطْتني عن صاحبتي . . .

وعن حِوجٍ قِضَّاؤُها مِن شِفائِنا

وقرأ علي رضي الله عنه "كِذَاباً" بالتخفيف وهو مصدر أيضاً .

وقال أبو عليّ : التخفيف والتشديد جميعاً : مصدر المكاذبة ، كقول الأعشى :

فصدقتها وكَذَبتُها . . .

والمرءُ ينفعهُ كِذَابه

أبو الفتح : جاءا جميعاً مصدر كَذَبَ وكَذَّب جميعاً .

الزمخشري : "كِذَاباً" بالتخفيف مصدر كَذَب ؛ بدليل قوله :

فصدقتُها وكَذَبْتُها . . .

والمرءُ ينفعهُ كِذَابهْ

وهو مثل قوله : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] يعني وكذبوا بآياتنا أَفكَذَبوا كِذَاباً .

أو تنصِبه ب "كَذَّبوا" ، لأنه يتضمن معنى كَذَبوا ؛ لأن كل مُكَذِّب بالحقّ كاذِب ؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين ، وكان المسلمون عندهم كاذبين ، فبينهم مُكاذبة .

(231/798)

وقرأ ابن عمر "كُذَّاباً" بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب ؛ قاله أبو حاتم .

ونصبه على الحال الزمخشريّ .

وقد يكون الكُذَّاب : بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب ، يقال : رجل كُذّاب ، كقولك حُسَان وبُخَّال ، فيجعله صفة لمصدر "كَذَّبوا" أي تكذيباً كُذَّاباً مفرطاً كذبهُ .

وفي الصحاح : وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ وهو أحد مصادر المشدّد ؛ لأن مصدره قد يجيء على (تفعيل) مثل التكليم وعلى (فِعَّال) كِذَّابٍ وعلى (تفعِلة) مثل توصِية ، وعلى (مُفَعَّل) ؛ "ومَزَّقْناهم كلَّ مُمَزَّقٍ" .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ "كلَّ" نصب بإضمار فعل يدل عليه "أحصيناه" أي

وأحصينا كل شيء أحصيناه .

وقرأ أبو السَّمَّال "وكلُّ شيءٍ" بالرفع على الابتداء .

"كِتاباً" نصب على المصدر ؛ لأن معنى أحصينا : كتبنا ، أي كتبناه كتاباً .

ثم قيل : أراد به العلم ، فإن ما كُتِب كان أبعد من النسيان .

وقيل : أي كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة .

وقيل : أراد ما كُتب على العباد من أعمالهم .

فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكَّلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار : 10-11] .

﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ " قال أبو بَرْزة : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أشد آية في القرآن ؟ فقال : "قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ " " أي ﴿ كلما نضِجَتْ جُلودُهُمْ بَدَّلناهم جلوداً غيرَها ﴾ [النساء : 56] و ﴿ كلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : 97] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ ميقاتا ﴾

شروعٌ في بيان سرِّ تأخيرِ ما يتساءلونَ عنه ويستعجلونَ به قائلينَ متَى هذا الوعدُ إنْ كنتُم صادقينَ ونوعُ تفصيلٍ لكيفيةِ وقوعِه وما سيلقونَهُ عند ذلكَ من فنونِ العذابِ حسبما جَرى به الوعيدُ إجمالاً ، أي إنَّ يومَ فصلِ الله عزَّ وجلَّ بينَ الخلائقِ كان في علمِه وتقديرِه ميقاتاً وميعاداً لبعثِ الأولينَ والآخرينَ وما يترتبُ عليهِ من الجزاءِ ثواباً وعقاباً لا يكادُ يتخطاهُ بالتقدمِ والتأخرِ وقيل : حداً توقتُ به الدُّنيا وتنتهي عندَهُ أو حداً للخلائقِ ينتهونَ إليهِ ولا ريبَ في أنَّهما بمعزلٍ من التقريب الذي أشيرَ إليه على أنَّ الدنيا تنتهي عند النفخةِ الأُولى .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

(233/798)

أي نفخةً ثانيةً بدلٌ من يومِ الفصلِ أو عطفُ بيانٍ له مقيدٍ لزيادةِ تفخيمِه وتهويلِه ولا ضيرَ في تأخرِ الفصلِ عن النفخِ فإنَّه زمانٌ ممتدٌّ يقعُ في مبدئه النفخةُ وفي بقيته الفصلُ ومباديه وآثارُه ، والصُّور هُو القرنُ الذي ينفخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلامُ . عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : " لمَّا فرغَ الله تعالى من خلقِ السمواتِ والأرضِ خلقَ

الصُّور فأعطاهُ إسرافيلَ فهُو واضعُه على فيهِ شاخصٌ بصرُه إلى العرشِ متى يُؤمرُ بالنفخِ فيهِ فيؤمرُ بهِ فينفخُ فيه نفخةً لا يبقى عندَها في الحياةِ غيرُ من شاءَ الله . وذلكَ قولُه تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ ثم يُؤمرُ بأُخرى فينفخُ نفخةً لا يبقَى معها ميتٌ إلا بُعثَ وقامَ وذلكَ قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ " والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ فصيحةٌ تفصحُ عن جملة قد حُذفتْ ثقةً بدلالة الحالِ عليَها وإيذاناً بغاية سرعةِ الإتيانِ كمَا في قولِه تعالى : ﴿ أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أي فتبعثونَ من قبورِكم فتأتونَ إلى الموقفِ عقيبَ ذلكَ من غير لبثٍ أصلاً ﴿ أَفْوَاجاً ﴾ أمماً كلُّ أمةٍ معَ إمامِها كما في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ أو زمراً وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوالِ متباينةَ الأوضاعِ حسبَ اختلافِ أعمالِهم وتبايُنِها . عن معاذٍ رضيَ الله عنهُ أنَّه سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " يا معاذُ سألتَ عن أمرٍ عظيمٍ من الأمورِ " ثم أرسلَ عينيهِ وقالَ : " تحشرُ عشرةُ أصنافٍ من أمَّتي بعضُهم على صورةِ القردةِ وبعضُهم على صورةِ الخنازيرِ وبعضُهم منكسونَ أرجلُهم فوقَ وجوهِهم يُسحبونَ عليها وبعضُهم عميٌ وبعضُهم صمٌّ وبكمٌ وبعضُهم

يمضعونَ ألسنتَهُم فهيَ مدلاَّةٌ على صدورِهم يسيلُ القيحُ من أفواههم يتقذرهُم أهلُ الجمعِ وبعضُهم مقطعةٌ أيديهم وأرجلُهم وبعضُهم مصلَّبونَ على جذوعٍ من نارٍ وبعضُهم أشدّ نتناً من الجيف وبعضُهم يلبسونَ جباباً سابغةً من قطرانٍ لازقةً بجلودِهم فأمَّا الذينَ على صورةِ القردةِ فالقتَّاتُ من الناسِ وأمَّا الذينَ على صورة الخنازيره فأهلُ السحتِ وأمَّا المنكسونَ على وجوهِهم فأكلةُ الرِّبا وأما العميُ فالذينَ يجورونَ في الحكمِ وأمَّا الصمُّ والبكمُ فالمعجبونَ بأعمالِهم وأمَّا الذينَ يمضغُون ألسنتَهُم فالعلماءُ الذينَ خالفتْ أقوالُهم أعمالَهم وأما الذينَ قُطعتْ أيديهم وأرجلُهم فهم الذين يؤذونَ جيرانَهم وأما المصلبونَ على جذوعٍ من نارٍ فالسعاةُ بالناسِ إلى السلطانِ وأمَّا الذينَ هم أشدُّ نتناً من الجيفِ فالذينَ يتبعون الشهواتِ واللذاتِ ومنعُوا حقَّ الله تعالى في أموالِهم وأما الذينَ يلبسونَ الجبابَ فأهلُ الكبرِ والفخرِ والخُيلاَءِ " . ﴿ وَفُتِحَتِ السماء ﴾ عطفٌ على ينفخُ ، وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على التحققِ . وقُرِىءَ فُتِّحتْ بالتشديدِ وهو الأنسبُ بقولِه تعالى : ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ أي كثُرتْ أبوابُها المفتحةُ لنزولِ الملائكةِ نزولاً غيرَ مُعتادٍ حتى صارتْ كأنَّها ليستْ إلاَّ أبواباً مفتحةً كقولِه تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ كأنَّ كلها عيونٌ متفجرةٌ وهو المرادُ بقولِه تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ وهو الغمامُ والذي ذُكرَ في قولِه تعالى : ﴿ هَلْ

يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله ﴾ أي أمرُه وبأسُه في ظلٍ من الغمامِ والملائكةِ وقيلَ : الأبوابُ الطرقُ والمسالكُ أي تكشطُ فينفتحُ مكانُها وتصيرُ طرقاً لا يسدُّها شيءٌ .

(235/798)

﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ أي في الجوِّ على هيئاتِها بعد قلعِها من مقارِّها كما يعربُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ أي تراها رأيَ العينِ ساكنةً في أماكِنها والحالُ أنَّها تمرُّ مرَّ السحابِ الذي يسيرُه الرياحُ سيراً حثيثاً وذلكَ أنَّ الأجرامَ العظامَ إذا تحركتْ نحواً من الأنحاءِ لا تكادُ يتبينُ حركتُها وإنْ كانتْ في غايةِ السرعةِ لا سيمَّا من بعيدٍ وعليهِ قولُ مَنْ قالَ

بأرعنَ مثلِ الطودِ تحسبُ أنَّهم . . . وقوفٌ لحاجٍ والركابُ تهملجُ

وقد أُدمجَ في هذا التشبيهِ تشبيهُ حالِ الجبالِ بحالِ السحابِ في تخلخلِ الأجزاءِ وانتفاشِها كما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ يبدلُ اللهُ تعالى الأرضَ ويغيرُ هيأتَها ويسيرُ الجبالُ على تلكَ الهيئةِ الهائلةِ عند حشرِ الخلائقِ بعد النفخةِ الثانيةِ ليشاهدُوها ثم يفرقها في الهواء وذلك قولُه تعالى ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ أي فصارتْ بعدَ تسييرِها مثلَ السرابِ كقولِه تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء ﴾ أي غُباراً

مُنتشراً وهيَ وإنْ اندكتْ وانصدعتْ عند النفخةِ الأُولى لكن تسييرُها وتسويةُ الأرضِ إنما يكونانِ بعد النفخةِ الثانيةِ كما نطقَ به قولُه تعالَى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ فإنَّ اتباعَ الدَّاعِي الذي هو إسرافيلُ عليه السَّلامُ وبرزُوا لخلق الله تعالى لا يكونُ إلا بعد النفخةِ الثانيةِ .

(236/798)

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ شروعٌ في تفصيل أحكامِ الفصلِ الذي أضيفَ إليه اليومُ إثرَ بيانِ هولِه ، ووجهُ تقديمِ بيانِ حالِ الكفارِ غنيٌّ عن البيان . والمرصادُ اسمٌ للمكان الذي يُرصد فيه كالمضمارِ الذي هُو اسمٌ للمكان الذي يُضمَّر فيه الخيلُ والمنهاجُ اسمٌ للمكانِ الذي ينهجُ فيهِ أيْ أنَّها كانتْ في حكمِ الله تعالى وقضائِه موضعَ رصدٍ يرصدُ فيه خزنةُ النار الكفار ليعذبوهم فيها . ﴿ للطاغين ﴾ متعلق بمضمر هو إمَّا نعتٌ لمرصاداً أي كائناً للطاغينَ وقولُه تعالَى : ﴿ مَئَاباً ﴾ بدلٌ منه أيْ مرجعاً يرجعونَ إليهِ لا محالةَ وإمَّا حالٌ مِنْ مآبا قُدمتْ عليهِ لكونِه نكرةٌ ولو تأخرتْ لكانتْ صفةً له وقد جُوِّزَ أنْ يتعلقَ بنفسِ مآبا

على أنَّها مرصادٌ للفريقينِ مآبٌ للكافرينِ خاصَّة ولا يَخفى بُعدُه فإنَّ المتبادرَ من كونِها مرصاداً لطائفةٍ كونُهم معذبينَ بَها وقد قيلَ : إنَّها مرصادٌ لأهل الجنةِ يرصدُهم الملائكةُ الذين يستقبلونَهم عندَها لأنَّ مجازَهم عليها وهي مآبٌ للطاغين وقيل المرصاد صيغة مبالغة من الرصد ، والمعنى أنها مجدة في ترصد الكفار لئلاَّ يشذَّ منُهم أحدٌ . وقرىء أنَّ بالفتحِ على تعليلِ قيامِ الساعةِ بأنَّها مرصادٌ للطاغينَ .

(237/798)

﴿ لابثِين فِيهَا ﴾ حالٌ مقدرةٌ من المستكنِّ في للطاغينَ وقُرِىءَ لبثِينَ . وقوله تعالى : ﴿ أَحْقَاباً ﴾ ظرفٌ للبثِهم أي دُهُوراً متتابعةً كلما مضَى حقبٌ تبعَهُ حقبٌ آخرُ إلى غيرِ نهايةٍ فإن الحقبَ لا يكادُ يستعملُ إلا حيثُ يرادُ تتابعُ الأزمنةِ وتواليها فليسَ فيه ما يدلُّ على تَناهِي تلكَ الأحقابِ ولو أُريدَ بالحقب ثمانونَ سنةً أو سبعونَ ألفَ سنةٍ . وقولُه تعالى : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ جملةٌ مبتدأه أخبرَ عنُهم بأنَّهم لا يذقونَ فيها شيئاً ما من بردَ ورَوْحٍ ينفسُ عنُهم حرَّ النَّارِ ولا من شرابٍ يُسكِّنُ من عطشِهم ولكنْ يذوقونَ فيها حميماً وغسَّاقاً ، وقيلَ : البردُ النومُ وقُرِىءَ غَسَاقاً بالتخفيف وكلاهُما ما يسيلُ من صديدِهم ﴿ جَزَاء ﴾ أي جُوزوا بذلكَ جزاءً ﴿ وفاقا ﴾ ذا وفاقٍ

لأعمالِهم أو نفسُ الوفاقِ مبالغةٌ أو وافقَها وِفاقاً ، وقُرِىءَ وَفَاقاً على أنَّه فَعالٌ من وَفَقَه كذا أي لاقَهُ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم الجزاءَ المذكورَ أي كانُوا لا يخافونَ أنْ يُحاسبُوا بأعمالِهم ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ الناطقةِ بذلكَ ﴿ كِذَّاباً ﴾ أي تكذيباً مُفرطاً ولذلكَ كانُوا مصرينَ على الكفرِ وفنونِ المَعَاصِي وفِعَّالٌ من بابِ فَعَّلَ شائعٌ فيما بينَ الفصحاءِ وقُرِىءَ بالتخفيف وهو مصدرُ كذبَ قالَ :

فَصدَقتُها وكَذَبتُها . . . والمرءُ ينفعُهُ كِذَابُه

(238/798)

وانتصابُه إمَّا بفعلِه المدلولِ عليهِ بكذبوا أي وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً وإما بنفس كذبوا لتضمنه معنى كذَّبوا فإنَّ كلَّ مَنْ يكذبُ بالحقِّ فهو كاذبٌ . وقُرِىءَ كُذَّاباً وهو جَمعُ كاذبَ فانتصابُه على الحاليةِ أي كذَّبُوا بآياتِنا كاذبينَ وقد يكونُ الكذَّابُ بمعنى الواحدِ البليغِ في الكذبِ فيجعلُ صفةً لمصدرِ كذَّبوا أي تكذيباً كذباً مُفرطاً كذبُه ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياءِ التي منْ جُملتِها أعمالُهم . وانتصابُه بمضمرٍ يفسرُه ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ أي حفظناهُ وضبطناهُ . وقُرِىءَ بالرفعِ على الابتداءِ ﴿ كِتَاباً ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لأحصيناهُ لما أنَّ الإحصاءَ والكتبةَ من وادٍ واحدٍ أو لفعلِه المقدرِ أو حالٌ بمعنى مكتوباً في اللوحِ أو في

صحفِ الحفظةِ ، والجملةُ اعتراضٌ .

وقولُه تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ مسببٌ عن كفرِهم بالحسابِ وتكذيبِهم بالآياتِ ، وفي الالتفاتِ المنبىءِ عن التشديدِ في التهديدِ وإيرادِ لَنْ المفيدةِ لكونِ تركِ الزيادةِ من قبيلِ ما لا يدخلُ تحتَ الصحةِ من الدلالةِ على تبالغِ الغضبِ ما لا يَخْفى وقد رُويَ عنِ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ هذهِ الآيةِ أشدُّ ما في القرآنِ على أهلِ النَّارِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(239/798)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ ميقاتا ﴾

شروع في بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] ونوع تفصيل لكيفية وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب حسبما جرى به الوعيد إجمالاً وقال بعض الأجلة أنه لما أثبت سبحانه صحة البعث كان مظنة السؤال عن وقته فقيل إن الخ وأكد لأنه مما ارتابوا فيه وليس بذاك أي أن يوم فصل الله تعالى شأنه بين الخلائق كان في علمه عز وجل ميقاتاً وميعاداً لبعث

الأولين والآخرين وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر وقيل حدا توقت به الدنيا وتنتهي إليه أو حداً للخلائق ينتهون إليه لتمييز أحوالهم والأول أوفق بالمقام على أن الدنيا تنتهي على ما قيل عند النفخة الأولى وأياً ما كان فالمضي في كان باعتبار العلم وجوز أن يكون بمعنى يكون وعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه .

(240/798)

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ أي النفخة الثانية ويوم بدل من ﴿ يوم الفصل ﴾ [النبأ : 17] أو عطف بيان مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ولا ضير في تأخر الفصل عن النفخ فإنه زمان ممتد يقع في مبدئه النفخ وفي بقيته الفصل ومباديه وآثاره وتقدم الكلام في الصور وقرأ أبو عياض في الصور بفتح الواو جمع صورة وقد مر الكلام في ذلك أيضاً والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان كما في قوله تعالى : ﴿ أن اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] أي فتحيون فتبعثون من قبوركم فتأتون إلى الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلاً ﴿ أَفْوَاجاً ﴾ أي أمماً كل أمة بأمامها كما قال سبحانه : ﴿ يوم ندعو كل أناس بامامهم ﴾ [الإسراء : 71] أو زمراً وجماعات مختلفة الأحوال متباينة الأوضاع حسب اختلاف

الأعمال وتباينها واستدل لهذا بما خرج ابن مردويه عن البراء بن عازب أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله ما قول الله تعالى يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً فقال يا معاذ سألت عن عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه ثم قال عليه الصلاة والسلام عشرة أصناف قد ميزهم الله عز وجل من جماعة المسلمين فبدل صورهم فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسين أرجلهم فوق وجوههم أسفل يسحبون عليها وبعضهم عمي يترددون وبعضهم صم بكم لا يعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من نار وبعضهم أشد نتناً من الجيف وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس وأما الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا وأما العمي فالذين يجورون في الحكم وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم وأما الذين يمضغون

(241/798)

ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف أقوالهم أعمالهم وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران وأما المصلبون على جذوع من نار فالساعون بالناس إلى السلطان وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى من أموالهم وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والخيلاء والفخر وهذا كما قال ابن حجر حديث موضوع وآثار الوضع لائحة عليه وعليه قيل لا بد من التغليب في قوله تعالى تأتون إذ لا يمكن الإتيان للمصلوب والمسحوب على الوجه ولا لمن قطعت يداه ورجلاه وتعقب بأنه ليس بشيء فإن أمور الآخرة لا تقاس على أمور الدنيا والقادر على البعث قادر على جعلهم ماشين بلا أيد وأرجل وأن تمشي بهم عمد النار التي صلبوا عليها مع أنه لا يلزم أن يأتوا بأنفسهم لجواز أن تأتي بهم الزبانية .

(242/798)

﴿ وَفُتِحَتِ السماء ﴾ عطف على ﴿ ينفخ ﴾ على ما قيل وصيغة الماضي للدلالة على التحقق وعن الزمخشري أنه معطوف على ﴿ فتأتون ﴾ وليس بشرط أن يتوافقا في الزمان كما يظن من ليس بنحوي وأقره في "الكشف" وقال الشرط في حسنه أن يكون مقرباً من الحال أو يكون المضارع حكاية حال ماضية وما نحن فيه مضارع جيء به بلفظ الماضي

تفخيماً وتحقيقاً أقرب قريب منه ولو جعل حالاً على معنى فتأتون وقد فتحت السماء لكان وجهاً وقرأ الجمهور أي من عدا الكوفيين فتحت بالتشديد قيل وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ وفسر الفتح بالشق لقوله تعالى : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] وقوله سبحانه : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] إلى غير ذلك والقرآن يفسر بعضه بعضاً وجاء الفتح بهذا المنى كفتح الجسور وما ضاهاها ولعل نكتة التعبير به عنه الإشارة إلى كمال قدرته تعالى حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة وكان بمعنى صار ولدلالتها على الانتقال من حال إلى أخرى وكون السماء بالشق لا تصير أبواباً حقيقة قالوا إن الكلام على التشبيه البليغ أي فصارت شقوقها لسعتها كالأبواب أو فصارت من كثرة الشقوق كأنه الكل أبواب أو بتقدير مضاف أي فصارت ذات أبواب وقيل الفتح على ظاهره والكلام بتقدير مضاف إلى السماء أي فتحت أبواب السماء فصارت كان كلها أبواب ويجامع ذلك شقها فتشق وتفتح أبوابها وتعقب بأن شقها لنزول الملائكة كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] ونزل الملائكة تنزيلاً فإذا شققت لا يحتاج لفتح الأبواب وأيضاً فتح أبوابها ليس من خواص يوم الفصل وفيه بحث نعم إن الوجه الأول أولى وقيل المعنى بفتح مكان السماء بالكشط فتصير كلها طرقاً لا يسدها شيء وفيه بعد وعلى ما تقدم في الآية رد على زاعمي امتناع

الخرق على السماء وفيها على هذا رد لزاعمي كشطها كما هو المشهور عن الفلاسفة المتقدمين وإن حقق

(243/798)

الملا صدراً في الأسفار أن أساطنتهم على خلاف ذلك والفلاسفة اليوم ينفون السماء المعروفة عند المسلمين ولم يأتوا بشيء تؤل له الآيات والأخبار الصحيحة في صفتها كما لا يخفى على الذكي المنصف .

(244/798)

﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ أي في الجو على هيئتها بعد تفتتها وبعد قلعها من مقارها كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وهي تمر مر السحاب ﴾ [النمل : 88] وأدمج فيه تشبيه الجبال بجبال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ أي فصارت بعد تسييرها مثل سراب فترى بعد تفتتها وارتفاعها في الهواء كأنها جبال وليس

بجبال بل غبار غليظ متراكم يرى من بعيد كأنه جبل كالسراب يرى كأنه بحر مثلاً وليس به فالكلام على التشبيه البليغ والجامع أن كلاً من الجبال والسراب يرى على شكل شيء وليس هو بذلك الشيء وجوز أن يكون وجه الشبه التخلخل إذ تكون بعد تسييرها غباراً منتشراً كما قال تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً فكانت هباءً منبثاً ﴾ [الواقعة : 5 ، 6] والمستفاد من "الأزهار البديعة في علم الطبيعة" لمحمد الهراوي أن السراب هواء تسخنت طبقته السفلى التي تلي الأرض لتسخن الأرض من حر الشمس فتخلخلت وصعد جزء منها إلى ما فوقها من الطبقات فكان أكثف مما تحته وخرج بذلك التسخن عن موقعه الطبيعي من الأرض ولانعكاس الأشعة الضوئية وانكسارها فيه على وجه مخصوص مبين في الكتاب المذكور مع انعكاس لون السماء يظن ماء وترى فيه صورة الشيء منقلبة وقد ترى فيه صور سابحة كقصور وعمد ومساكن جميلة مستغربة وأشباح سائرة تتغير هيئتها في كل لحظة وتنتقل عن محالها ثم تزول وما هي إلا صور حاصلة من انعكاس صور مرئية بعيدة جداً أو متراكبة في طبقات الهواء المختلفة الكثافة فاعتبار التخلخل فقط في وجه الشبه لا يخلو عن نظر وأياً ما كان فهذا بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق فالله عز وجل يسير الجبال ويجعلها هباءً منبثاً ويسوي الأرض يومئذٍ كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى

فيها عوجاً ولا أمتاً يومئذٍ يتبعون الداعي ﴾ [طه : 105 ، 108] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ [إبراهيم : 48] فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لا يكون إلا بعد النفخة الثانية وأما اندكاك الجبال وانصداعها فعند النفخة الأولى وقيل أن تسييرها وصيرورتها سراباً عند النفخة الأولى أيضاً ويأباه ظاهر الآية نعم لو جعلت الجملة حالية أي فتأتون أفواجاً وقد سيرت الجبال فكانت سراباً لكان ذلك محتملاً والظاهر أنها تصير سراباً لتسوية الأرض ولا يبعد أن يكون فيه حكم أخرى وقول بعضهم إنها تجري جريان الماء وتسيل سيلانه كالسراب فيزيد ذلك في اضطراب متعطشي المحشر وغلبة شوقهم إلى الماء خلاف الظاهر .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾

(246/798)

شروع في تفصيل أحكام الفصل الذي أضيف إليه اليوم إثر بيان هوله والمرصاد اسم مكان كالمضمار للموضع الذي تضمر فيه الخيل ومفعال يكون كذلك على ما صرح به الراغب

والجوهري وغيرهما كما يكون اسم آلة وصفة مشبهة للمبالغة والظاهر أنه حقيقة في الجميع أي موضع رصد وترقب ترصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم وقيل ترصد فيه خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مجازهم عليها وقيل ترصد فيه الملائكة عليهم السلام الطائفتين لتعذب إحداهما وهي المؤمنة وتعذب الأخرى وهي الكافرة وجوز أن يكون صيغة مبالغة كمنحار أي مجدة في ترصد الكفرة لئلا يشذ منهم واحد أو مجدة في ترصد المؤمنين لئلا يتضرر أحد منهم من فيحها أو مجدة في ترصد الطائفتين على نحو ما سمعت آنفاً وإسناد ذلك إليها مجاز أو على سبيل التشبيه وفي "البحر" أن مرصاداً معنى النسب أي ذات رصد وقد يفسر المرصاد بمطلق الطريق وهو أحد معانيه فيكون للطائفتين ومن هنا قال الحسن كما أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد في الآية لا يدخل الجنة أحد حتى يجتاز النار وقال قتادة كما أخرج هؤلاء عنه أيضاً اعلموا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار وقوله تعالى : ﴿ للطاغين ﴾ أي المتجاوزين الحد في الطغيان متعلق بمضمر إما نعت لمرصاداً أي كائناً للطاغين وإما حال من قوله تعالى :

﴿ مَئَاباً ﴾ قدم عليه لكونه نكرة ولو تأخر لكان صفة له أي كانت مرجعاً ومأوى كائناً لهم يرجعون إليه ويأوون لا محالة وجوز أن يكون خبراً آخر لكانت أو متعلقاً بمآباً أو بمرصاد ، وعليه قيل معنى مرصاداً لهم معدة لهم من قولهم أرصدت له أي أعددت وكافأته بالخير أو بالشر ومآب قيل بدل من مرصاداً يلي جميع الأوجه بدل كل من كل وقيل هو خبر ثان لكانت أو صفة لمرصاداً وللطاغين متعلق به أو حال منه على بعض التفاسير السابقة في كانت مرصاداً فتأمل وقرأ أبو عمر والمنقري وابن يعمر أن جهنم بفتح الهمزة بتقدير لام جر لتعليل قيام الساعة المفهوم من الكلام والمعنى كان ذلك لإقامة الجزاء وتعقب بأنه ينبغي حينئذٍ أن يكون ﴿ أن للمتقين ﴾ [النبأ : 31] أيضاً بالفتح ومعطوفاً على ما هنا لأنه بكليهما يتم التعليل بإقامة الجزاء إلا أن يقال ترك العطف للإشارة إلى استقلال كل من الجزاءين في استدعاء قيام الساعة وفيه نظر لأنه بذاك يتم الجزاء وأما نفس إقامته فيكفي في تعليلها ما ذكر على أنه لو كان المراد فيما سبق كانت مرصاداً للفريقين على ما سمعت لا يتسنى هذا الكلام أصلاً وقوله تعالى :

﴿ لابثين فِيهَا ﴾ أي مقيمين في جهنم ملازمين لها حال مقدرة من المستكن في ﴿ للطاغين ﴾ وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وابن وثاب وعمرو بن شرحبيل وابن جبير وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح لبثين بغير ألف بعد اللام وفيه من المبالغة ما ليس في لابثين وقال أبو حيان : إن فاعلاً يدل على من وجد منه الفعل وفعلاً يدل على من شأنه ذلك كحاذر وحذر وقوله تعالى : ﴿ أَحْقَاباً ﴾ ظرف للبثهم وهو وكذا أحقب جمع حقب بالضم وبضمتين وهو على ما روي عن الحسن بزمان غير محدود ونحوه تفسير بعض اللغويين له بالدهر وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه عن ابن مسعود أنه ال الحقب الواحد ثمانون سنة وأخرج نحوه البزار عن أبي هريرة وابن جرير عن ابن عباس وابن المنذر عن ابن عمر وروي عن جمع من السلف بيد أنهم قالوا : إن كل يوم منه أي هنا مقدار ألف سنة من سني الدنيا وأخرج البزار وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر مرفوعاً أنه بضع وثمانون سنة كل سنة ثلثمائة وستون يوماً واليوم ألف سنة مما تعدون وقيل أربعون سنة وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت فيه حديثاً مرفوعاً وقال بعض اللغويين سبعون ألف سنة واختار غير واحد تفسيره بالدهر وأياً ما كان فالمعنى لابثين فيها أحقاباً متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر وإفادة التتابع في الاستعمال بشهادة الاشتقاق فإنه من الحقيبة وهي ما يشد خلف الراكب والمتتابعات يكون أحدها خلف الآخر فليس في الآية ما يدل على خروج الكفرة من النار وعدم خلودهم فيها لمكان فهم التتابع في الاستعمال

وصيغة القلة لا تنافي عدم التناهي إذ لا فرق بين تتابع الأحقاب الكثيرة إلى ما لا يتناهى وتتابع الأحقاب القليلة كذلك وقيل أن الصيغة هنا مشتركة بين القلة والكثرة إذ ليس للحقب جمع كثرة فليرد بها بمعونة المقام جمع الكثرة وتعقب بثبوت جمع الكثرة له وهو الحقب كما ذكر الراغب والذي رأيته في مفرداته أن الحقب أي بكسر الحاء وفتح القاف

(249/798)

الحقبة المفسرة بثمانين عاماً نعم قيل أنه ينافيه ما ورد أنه يخرج أناس من أهل النار من النار ويقربون من الجنة حتى إذا استنشقوا ريحها ورأوا ما أعد الله تعالى لعباده المؤمنين فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيردون إلى النار بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها وتعقب بأنه إن صح إنما ينافيه لو كان الخروج حقباً تاماً أما لو كان في بعض أجزاء الحقب فلا لبقاء تتابع الأحقاب جملة سلمنا لكن هذا الإخراج الذي يستعقب الرد لزيادة التعذيب كاللبث في النار أشد والكلام من باب التغليب وليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ثم إن وجد أن في الآية ما يقتضي الدلالة على التناهي والخروج من النار ولو بعد زمان طويل فهو مفهوم معارض بالمنطوق الصريح بخلافه كآيات الخلود وقوله تعالى : ﴿ وَمَا

هُم بخارجين مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة : 37] إلى غير ذلك وإن جعل قوله تعالى :

(250/798)

﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ حالاً من المستكن في ﴿ لابثين ﴾ فيكون قيداً للبث فيحتمل أن يلبثوا فيها أحقاباً منصوباً بلا يذوقون قيداً له إلا أن فيه بعداً ومثله لو جعل لا يذوقون فيها الخ صفة لأحقاباً وضمير فيها لها لا لجهنم لكنه أبعد من سابقه وقيل المراد بالطاغين ما يقابل المتقين فيشمل العصاة والتناهي بالنظر إلى المجموع وهو كما ترى وقول مقاتل : إن ذلك منسوخ بقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ [النبأ : 30] فاسد كما لا يخفى وجوز أن يكون أحقاباً جمع حقب كحذر من حقب الرجل إذا أخطأه الرزق وحقب العام إذا قل مطره وخيره والمراد محرومين من النعيم وهو كناية عن كونهم معاقبين فيكون حالاً من ضمير لابثين وقوله تعالى لا يذوقون صفة كاشفة أو جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب وهو على ما ذكر أولاً جملة مبتدأة خبر عنهم والمراد بالبرد ما يروحهم وينفس عنهم حر النار فلا ينافي أنهم قد يعذبون بالزمهرير والشراب معروف والحميم الماء الشديد الحرارة والغساق ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد أي

لا يذوقون فيها شيئاً ما من روح ينفس عنهم حر النار ولا من شراب يسكن عطشهم لكن يذوقون ماءً حاراً وصديداً وفي الحديث " أن الرجل منهم إذا أدنى ذلك من فيه سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاماً تقعقع " وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن البرد الشراب البارد المستلذ ومنه قول حسان بن ثابت

: يسقون من ورد البريص عليهم . . .

برد يصفق بالرحيق السلسل

وقول الآخر

: أماني من سعدى حسان كأنما . . .

سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

فيكون ولا شراباً من نفي العام بعد الخاص وقال أبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي البرد النوم والعرب تسميه بذلك لأنه يبرد سورة العطش ومن كلامهم منه البرد البرد وقال الشاعر

: فلو شئت حرمت النساء سواكم . . .

وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً

أي وهو مجاز في ذلك عند بعض ونقل في "البحر" عن كتاب اللغات في القرآن أن البرد هو النوم بلغة هذيل وعن ابن عباس وأبي العالية الغساق الزمهرير وهو على ما قيل مستثنى من برداً إلا أنه أخر لتوافق رؤوس الآي فلا تغفل وقرأ غير واحد من السبعة غساقاً بالتخفيف .

﴿ جَزَاء ﴾ أي جوزوا بذلك جزاءً فجزاء مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر وجعله خبراً آخر لكانت ليس بشيء وقوله تعالى : ﴿ وفاقا ﴾ مصدر وافقه صفة له بتقدير مضاف أي ذا وفاق أو بتأويله باسم الفاعل أو لقصد المبالغة على ما عرف في أمثاله وأياً ما كان فالمراد جزاء موافقاً لأعمالهم على معنى أنه بقدرها في الشدة والضعف بحسب استحقاقهم كما يقتضيه عدله وحكمته تعالى والجملة من الفعل المقدر ومعموله جملة حالية أو مستأنفة وجوز أن يكون وفاقاً مصدراً منصوباً بفعل مقدر أيضاً أي وافقها وفاقاً وهذه الجملة في موضع الصفة لجزاء وقال الفراء : هو جمع وفق ولا يخفى ما في جعله حينئذٍ صفة لجزاء من الخفاء وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة وفاقاً بكسر الواو وتشديد الفاء من وفقه يفقه كورثه يرثه وجده موافقاً لحاله وفي "الكشف" وفقه بمعنى وافقه وليس وصف الجزاء به وصفاً بحال صاحبه كما لا يخفى وحكى ابن القوطية وفق أمره أي حسن وليس المعنى عليه .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ تعليل لاستحقاق العذاب المذكور أي كانوا لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم .

﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ الناطقة بذلك أو به وبغيره مما يجب الإيمان به ﴿ كِذَّاباً ﴾ أي تكذيباً مفرطاً وفعال بمعنى تفعيل في مصدر فعل مطرد شائع في كلام فصحاء العرب وعن الفراء أنه لغة يمانية فصيحة وقال لي أعرابي على جبل المروة يستفتيني آلحلق أحب إليك أم القصار ومن تلك اللغة قول الشاعر :

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي . . .

وعن حاجة قضاؤها من شفائيا

(252/798)

وقال ابن مالك في التسهيل أنه قليل وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى بخلاف عنه في التخفيف قال صاحب اللوامح وذلك لغة اليمن يجعلون مصدر كذب مخففاً كذاباً بالتخفيف مثل كتب كتاباً فكذاباً بمعنى كذباً وعليه قول الأعشى

: فصدقتها وكذبتها . . .

والمرء ينفعه كذابه

والكلام هنا عليه من باب ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] ففعله الثلاثي أما مقدر أي كذبوا بآياتنا وكذبوا كذاباً أو هو مصدر للفعل المذكور باعتبار تضمنه معنى كذب الثلاثي فإن تكذيبهم الحق الصريح يستلزم أنهم كاذبون وأياً ما كان يدل على كذبهم في تكذيبهم وجوز أن يكون بمعنى مكاذبة كقتال بمعنى مقاتلة فهو من باب المفاعلة على معنى أن كلاً منهم ومن المسلمين اعتقد كذب الآخر بتنزيل ترك الاعتقاد منزلة الفعل لا على معنى أن كلاً كذب الآخر حقيقة ويجوز أن تكون المفاعلة مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم عن الجد والاجتهاد في الفعل ويحتمل الاستعارة فإنهم كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المغالبين فيه وعلى المعنيين كونه بمعنى الكذب وكونه بمعنى المكاذبة يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين على اعتبار المشاركة وعدم اعتبارها وقرأ عمر بن عبد العزيز والماجشون كذاباً بضم الكاف وتشديد الذال وخرج على أنه جمع كاذب كفساق جمع فاسق فيكون حالاً أيضاً وكذبوا في حال كذبهم نظير إذا جاء حين يأتي على ما قيل في قول طرفة

: إذا جاء ما لا بد منه فمرحبا . . .

به حين يأتي لا كذاب ولا علل

وفيه بحث ظاهر وجوز أن يكون مفرداً صيغة مبالغة ككبار وحسان فيكون صفة لمصدر

محذوف أي تكذيباً كذاباً فيفيد المبالغة والدلالة على الإفراط في الكذب لأنه كليل أليل وظلام مظلم والإسناد فيه مجازي.

(253/798)

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها أعمالهم وقال أبو حيان أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب فهو عام مخصوص وانتصابه بمضمر يفسره ﴿ أحصيناه ﴾ أي حفظناه وضبطناه وقرأ أبو السماء بالرفع على الابتداء ﴿ كتابا ﴾ مصدر مؤكد لأحصيناه فإن الإحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط فأما أن يؤول أحصيناه بكتبناه أو كتاباً بإحصاء وجوز الاحتباك على الحذفين من الطرفين أو حال بمعنى مكتوباً في اللوح أو صحف الحفظة والظاهر أن الكلام على حقيقته وقال بعضهم الظاهر أنه تمثيل لصورة ضبط الأشياء في علمه تعالى بضبط المحصي المجد المتقن للضبط بالكتابة وإلا فهو عز وجل مستغن عن الضبط بالكتابة وهذا التمثيل لتفهيمنا وإلا فالانضباط في علمه تعالى أجل وأعلى من أن يمثل بشيء والمشهور عند أهل السنة ما قدمنا وليس ذلك للاحتياج وإنما هو لحكم تقصر عنها العقول والجملة اعتراض لتأكيد الوعيد السابق بأن ذلك كائن لا محالة لاحق بهم لأن معاصيهم مضبوطة مكتوبة يكفحون بها يوم الجزاء وقيل لتأكيد كفرهم

وتكذيبهم بالآيات بأنهما محفوظان للجزاء وليس بذاك وقال البعض الأوجه عند أن كل شيء منصوب بالعطف على اسم أن في ﴿ أنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ [النبأ : 27] وأحصيناه كتاباً عطف على خبره والرفع على العطف على محل اسم ان والجمل بيان لكون الجزاء المذكور موافقاً وعمالهم لأن الجزاء الموافق إنما يكون لصدور أفعال موجبة له عنهم وضبطها وعدم فوتها على المجازي فالجملتان الأوليان لإفادة صدور الموجب وهو الكفر المعبر عنه بعدم رجاء الحساب والتكذيب بالآيات لما أن ذلك كالعلم فيه والأخيرة لإفادة الضبط وعدم الفوت أي مع دماج الإشارة إلى باقي المعاصي فيها وليست اعتراضاً انتهى ولا يخفى ما فيه من التكلف

(254/798)

﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات وتسبب الذوق والأمر به في غاية الظهور وقيل الأظهر أنه مرتبط بقوله تعالى ﴿ لا يذوقون فيها برداً ﴾ [النبأ : 24] الخ أي إذا ذاقوا الحميم والغساق فيقال لهم ذوقوا فلن نزيدكم الخ وحينئذ الجمل بينهما اعتراضية وفيه أنه في غاية البعد مع ما فيه من كثرة الاعتراض ومجيئه على طريق الالتفات للمبالغة لتقدير إحضارهم وقت الأمر ليخاطبوا بالتقريع

والتوبيخ وهو أعظم في الإهانة والتحقير ولو قدر القول فيه لم يكن هناك التفات وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن الحسن قال سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله تعالى على أهل النار فقال قول الله تالى فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ووجه الأشدية على ما قيل أنه تقريب في يوم الفصل وغضب من أرحم الراحمين وتأييس لهم مع ما في لن أي على القول بإفادتها التأبيد من أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة وقيل يحتمل أن يكون المراد أنه أشد حجج القرآن على أهل النار فإنه إذا بلغهم في الدنيا هذا الوعيد ولم يخافوا منه فقد قبلوا العذاب الأبدي في مقابلة الكفر فلا عذر لهم يوم القيامة في الحكم عليهم بخلود النار وفيه من البعد ما فيه واستشكل أمر زيادة العذاب بمنافاتها كون الجزء موافقاً للأعمال وأجيب بأنها لحفظ الأصل إذ لولاها لألفوا ما أصابهم من العذاب أول مرة ولم يتألموا به وهو كما ترى وقيل إن العذاب لما كان للكفر والمعاصي وهي متزايدة في القبح في كل آن فالكفر مثلاً في الزمن الثاني أقبح منه في الزمن الأول وهكذا وعلم الله تعالى منهم لسوء استعدادهم استمرارهم على ذلك اقتضى ذلك زيادة العذاب وشدته يوماً فيوماً وقيل لما كان كفرهم أعظم كفر اقتضى أشد عذاب والعذاب المزاد يوماً يوماً فيوماً من أشد العذاب وقيل غير ذلك فليتأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾

أصله : عن ما ، فأدغمت النون في الميم ؛ لأن الميم تشاركها في الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ؛ ليتميز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وممّ ونحو ذلك ، والمعنى : عن أيّ شيء يسأل بعضهم بعضاً .

قرأ الجمهور : ﴿ عمّ ﴾ بحذف الألف لما ذكرنا ، وقرأ أبيّ ، وابن مسعود ، وعكرمة ، وعيسى بإثباتها ، ومنه قول الشاعر :

علاما قام يشتمني لئيم . . . كخنزير تمرغ في دمان

ولكنه قليل لا يجوز إلاّ للضرورة ، وقرأ البزي بهاء السكت عوضاً عن الألف ، وروى ذلك عن ابن كثير .

قال الزجاج : اللفظ لفظ استفهام ، والمعنى : تفخيم القصة كما تقول : أيّ شيء تريد : إذا عظمت شأنه .

قال الواحدي : قال المفسرون : لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبرهم بتوحيد الله ، والبعث بعد الموت ، وتلا عليهم القرآن ، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون : ماذا جاء به محمد ، وما الذي أتى به ؟ فأنزل الله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ قال الفرّاء : التساؤل

هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل ، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدّثوا به ، وإن لم يكن بينهم سؤال .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الطور : 25] ﴿ قَالَ قَائِلٌ مّنْهُمْ إِنّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ [الصافات : 51] الآية ، وهذا يدل على أنه التحدّث ، ولفظ " ما " موضوع لطلب حقائق الأشياء ، وذلك يقتضي كون المطلوب مجهولاً ، فجعل الشيء العظيم الذي يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول ، ولهذا جاء سبحانه بلفظ " ما " .

(256/798)

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا ، وبينه فقال : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ فأورده سبحانه أوّلاً على طريقة الاستفهام مبهماً ؛ لتتوجه إليه أذهانهم ، وتلتفت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه ، وتفخيمه كأنه قيل : عن أيّ شيء يتساءلون هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ على منهاج قوله : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] فالجارّ والمجرور متعلق بالفعل الذي قبله ، أو بما يدلّ عليه .

قال ابن عطية : قال أكثر النحاة : عن النبأ العظيم متعلق ب ﴿ يتساءلون ﴾ الظاهر ،

كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ، وقيل : ليس بمتعلق بالفعل المذكور ؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام ، فيكون التقدير أعن النبأ العظيم ؟ فلزم أن يتعلق ب ﴿ يتساءلون ﴾ آخر مقدّر ، وإنما كان ذلك النبأ ، أي : القرآن عظيماً ؛ لأنه ينبىء عن التوحيد ، وتصديق الرسول ، ووقوع البعث والنشور .

قال الضحاك : يعني : نبأ يوم القيامة ، وكذا قال قتادة .

وقد استدلّ على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله : ﴿ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن ، فجعله بعضهم سحراً ، وبعضهم شعراً ، وبعضهم كهانة ، وبعضهم قال : هو أساطير الأوّلين .

وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره .

ويمكن أن يقال : إنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة ، فصدّق به المؤمنون ، وكذب به الكافرون ، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية ، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ، ومما يدلّ على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : 67 ، 68] ومما يدلّ على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة .

وأيضاً ، فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث ؛ فأثبت النصارى المعاد الروحاني ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني ، وفي التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ " جنعيذا " بجيم مفتوحة ، ثم نون ساكنة ، ثم عين مكسورة مهملة ، ثم تحتية ساكنة ، ثم ذال معجمة بعدها ألف .

وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين ، والعذاب للعاصين ، وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون : 37] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : 32] وما حكاه عنهم بقوله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة .

وقد قيل : إن الضمير في قوله : ﴿ يتساءلون ﴾ يرجع إلى المؤمنين والكفار ؛ لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه ، فأما المسلم ، فيزداد يقيناً واستعداداً ، وبصيرة في دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية .

قال الرازي : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ، ويقولون : ما هذا الذي يعدنا به من أمر الآخرة ،

والموصول في محل جرّ صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم : الكفار ، وبه يندفع ما قيل : إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين فإنه إنما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل : كلاَّ بمعنى حقاً ، ثم كرّر الردع والزجر فقال : ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد .

قرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة .

(258/798)

وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وابن دينار ، وابن عامر في رواية عنه بالفوقية على الخطاب .

وقرأ الضحاك الأوّل بالفوقية والثاني بالتحتية .

قال الضحاك أيضاً .

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ يعني : الكافرين عاقبة تكذيبهم ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ يعني : المؤمنين عاقبة تصديقهم ، وقيل : بالعكس ، وقيل : هو وعيد بعده وعيد ، وقيل المعنى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ عند النزع ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ عند البعث .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه ، وعظيم قدرته ؛ ليعرفوا توحيده ، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا والجبال أَوْتَاداً ﴾ أي : قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، والمهاد الوطاء ، والفراش ، كما في قوله : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً ﴾ [البقرة : 22] قرأ الجمهور : (مهاداً) وقرأ مجاهد ، وعيسى ، وبعض الكوفيين : (مهداً) والمعنى : أنها كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوّم عليه .

والأوتاد جمع وتد : أي : جعلنا الجبال أوتاداً للأرض ؛ لتسكن ولا تتحرّك ، كما يرس الخيام بالأوتاد ، وفي هذا دليل على أن التاؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث ، لا عن القرآن ، ولا عن نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قيل ؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه ، فهو في قوّة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا الأصناف أي : الذكور والإناث ، وقيل : المراد بالأزواج الألوان ، وقيل : يدخل في هذا كلّ زوج من المخلوقات عن قبيح وحسن وطويل وقصير : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي : راحة لأبدانكم .

قال الزجاج : السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه : أي : جعلنا نومكم راحة لكم .

قال ابن الأنباري : جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم ؛ لأن أصل السبت القطع ، وقيل : أصله التمدّد ، يقال سبتت المرأة شعرها : إذا حلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق : أي : ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدّد ، فسمي النوم سباتاً ، وقيل المعنى : وجعلنا نومكم موتاً ، والنوم أحد الموتتين ، فالمسبوت يشبه الميت ، ولكنه لم تفارقه الروح ، ومنه قول الشاعر :

ومطوية الأقراب أما نهارها . . . فسبت وأما ليلها فذميل

ومن هذا قوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس حِينَ مِوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : 42] الآية ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] ﴿ وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً ﴾ أي : نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس .

وقال سعيد بن جبير والسديّ : أي سكناً لكم ، وقيل : المراد به ما يستره عند النوم من اللحاف ونحوه ، وهو بعيد ؛ لأن الجعل وقع على الليل ، لا على ما يستتر به النائم عند نومه ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ أي : وقت معاش ، والمعاش العيش ، وكلّ شيء يعاش به فهو معاش ، والمعنى : أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ؛ ليسعوا فيما يقوم به معاشهم ، وما قسمه الله لهم من الرزق ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ يريد سبع سماوات قوية الخلق محكمة البناء ، ولهذا وصفها بالشدّة ، وغلظ كلّ واحدة منها مسيرة خمسمائة عام ، كما ورد

ذلك .

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ المراد به : الشمس ، وجعل هنا بمعنى : خلق ، وهكذا قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ وما بعده ؛ لأن هذه الأفعال قد تعدّت إلى مفعولين ، فلا بدّ من تضمينها معنى فعل يتعدّى إليهما كالخلق أو التصيير ونحو ذلك .

وقيل : إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع في جميع هذه المواضع ، والمراد به الإنشاء التكويني الذي بمعنى التقدير والتسوية .

(260/798)

قال الزجاج : الوهاج : الوقاد ، وهو الذي وهج ، يقال وهجت النار تهيج وهجاً ووهجاناً .

قال مقاتل : جعل فيه نوراً وحرّاً ، والوهج يجمع النور والحرارة .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَاء ثَجَّاجاً ﴾ المعصرات هي : السحاب التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد ، كالمرأة المعتصرة التي قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع ، وأبو العالية ، والضحاك .

وقال مجاهد ، ومقاتل ، وقتادة ، والكلبي : هي الرياح ، والرياح تسمى معصرات ، يقال

أعصرت الريح تعصر إعصاراً : إذا أثارت العجاج.

قال الأزهري : هي الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدرّ المطر .

وقال الفرّاء : المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر .

قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح ، يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر .

ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً ، ويكون المعنى : وأنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجاجاً .

قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتصر بالمطر ، وعصر القوم أي : مطروا .

قال المبرد : يقال سحاب معصر ، أي : ممسك للماء يعتصر منه شيء بعد شيء .

وقال أبيّ بن كعب ، والحسن ، وابن جبير ، وزيد بن أسلم ، ومقاتل بن حيان : المعصرات : السماوات .

والثجاج : المنصبّ بكثرة على جهة التتابع ، يقال ثجّ الماء أي : سال بكثرة ، وثجه أي : أساله .

قال الزجاج : الثجاج : الصباب .

قال ابن زيد : ثجاجاً كثيراً .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ أي : لنخرج بذلك الماء حباً يقتات ، كالحنطة والشعير

ونحوهما ، والنبات ما تأكله الدوّاب من الحشيش وسائر النبات ﴿ وجنات أَلْفَافاً ﴾ أي : بساتين ملتفّ بعضها ببعض لتشعب أغصانها ، ولا واحد للألفاف : كالأوزاع والأخياف .

وقيل : واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي .

(261/798)

وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف ، روي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء ، ونبت لف ، والجمع لف بضم اللام مثل حمر ، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف ، وقيل : هو جمع ملتفة بحذف الزوائد .

قال الفراء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ ميقاتا ﴾ أي : وقتاً ، ومجمعاً ، وميعاداً للأوّلين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب ، وسمي يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين خلقه ، وهذا شروع في بيان ما يتساءلون عنه من البعث ، وقيل : معنى ﴿ ميقاتاً ﴾ : أنه حدّ توقت به الدنيا وتنتهي عنده ، وقيل : حدّ للخلائق ينتهون إليه ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ أي : يوم ينفخ في الصور ، وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية

التي تكون للبعث ﴿ فَتَأْتُونَ ﴾ أي : إلى موضع العرض ﴿ أَفْوَاجاً ﴾ أي : زمراً زمراً ، وجماعات جماعات ، وهي جمع فوج ، وانتصاب ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ على أنه بدل من يوم الفصل ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله ، وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني ، وانتصاب ﴿ أفواجاً ﴾ على الحال من فاعل تأتون ، والفاء في ﴿ فتأتون ﴾ فصيحة تدلّ على محذوف أي : فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجاً .

(262/798)

﴿ وَفُتِحَتِ السماء فَكَانَتْ أبوابا ﴾ معطوف على ينفخ ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي : فتحت لنزول الملائكة ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ كما في قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] وقيل معنى ﴿ فتحت ﴾ قطعت فصارت قطعاً كالأبواب ، وقيل : أبوابها طرقها ، وقيل : تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب ، وقيل : إن لكل عبد بابين في السماء : باب لرزقه ، وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب ، وظاهر قوله : ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ أنها صارت كلها أبواباً ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة .

قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ﴿ فتحت ﴾ مخففاً .

وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ أي : سيرت عن أماكنها في الهواء ، وقلعت عن مقارّها ، فكانت هباء منبثاً يظنّ الناظر أنها سراب ، والمعنى : أن الجبال صارت كلا شيء ، كما أن السراب يظنّ الناظر أنه ماء ، وليس بماء ، وقيل معنى سيرت : أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ولكن الجمع بينها أن نقول : أوّل أحوالها الاندكاك ، وهو قوله : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ [الحاقة : 14] وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] وثالث أحوالها أن تصير كالهباء ، وهو قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 5 ، 6] ورابع أحوالها : أن تنسف وتحملها الرياح ، كما في قوله : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

وخامس أحوالها أن تصير سراباً أي : لا شيء ، كما في هذه الآية .

ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ قال الأزهري : المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدوّ .

قال المبرد : مرصاداً يرصدون به أي : هو معدّ لهم يرصد به خزنتها الكفار .

قال الحسن : إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجيء بجواز حبس .

وقال مقاتل : محبساً ، وقيل : طريقاً وممرّاً .

قال في الصحاح : الراصد للشيء الراقب له يقال رصده يرصده رصداً ، والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد .

قال الأصمعي : رصدته أرصده ترقبته ، ومعنى الآية : أن جهنم كانت في حكم الله ، وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ؛ ليعذبوهم فيها ، أو هي في نفسها متطلعة لمن يأتي إليها من الكفار ، كما يتطلع الرصد لمن يمرّ به ويأتي إليهم ، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هي مرصد له فقال : ﴿ للطاغين مَئَاباً ﴾ أي : مرجعاً يرجعون إليه ، والمآب المرجع ، يقال آب يئوب : إذا رجع ، والطاغي هو من طغى بالكفر ، و ﴿ للطاغين ﴾ نعت ل ﴿ مرصاداً ﴾ متعلق بمحذوف ، و ﴿ مآباً ﴾ بدل من ﴿ مرصاداً ﴾ ، ويجوز أن يكون للطاغين في محل نصب على الحال من ﴿ مآباً ﴾ قدّمت عليه لكونه نكرة ،

وانتصاب ﴿ لابثِين فِيهَا ﴾ على الحال المقدّرة من الضمير المستكنّ في الطاغين .

قرأ الجمهور ﴿ لابثين ﴾ بالألف .

وقرأ حمزة ، والكسائي (لبثين) بدون ألف ، وانتصاب ﴿ أَحْقَاباً ﴾ على الظرفية أي : ماكثين في النار ما دامت الأحقاب ، وهي لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهي جمع حقب بضمتين ، وهو الدهر ، والأحقاب الدهور ، والحقب بضم الحاء ، وسكون القاف ، قيل : هو ثمانون سنة ، وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوماً ، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا .

(264/798)

وقيل : الأحقاب وقت لشربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت ، فيكون لهم نوع آخر من العذاب .

وقال السديّ : الحقب سبعون سنة .

وقال بشير بن كعب : ثلثمائة سنة .

وقال ابن عمر أربعون سنة ، وقيل : ثلاثون ألف سنة .

قال الحسن : الأحقاب لا يدري أحد كم هي ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب

الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة .

وقيل : الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والأولى ما ذكرناه أوّلاً من أن المقصود بالآية التأبيد لا التقييد .

وحكى الواحدي : عن الحسن أنه قال : والله ما هي إلاّ أنه إذا مضى حقب دخل آخر ، ثم آخر ، ثم كذلك إلى الأبد .

وجملة : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم ، أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرّها ، ولا شراباً ينفعهم من عطشها إلاّ حميماً ، وهو الماء الحارّ ، وغساقاً وهو صديد أهل النار ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير الطاغين ، أو صفة للأحقاب ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله : ﴿ شَرَاباً ﴾ وقال مجاهد ، والسديّ وأبو عبيدة ، والكسائي ، والفضل بن خالد ، وأبو معاذ النحوي : البرد المذكور في هذه الآية هو : النوم ، ومنه قول الكندي :

بردت مراشفها عليّ فصدّني . . . عنها وعن تقبيلها البرد

أي : النوم .

قال الزجاج : أي : لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم فجعل البرد يشمل هذه الأمور .

وقال الحسن ، وعطاء ، وابن زيد : برداً أي : روحاً وراحة .

قرأ الجمهور (غساقاً) بالتخفيف .

وقرأ حمزة ، والكسائي بتشديد السين ، وقد تقدّم تفسيره ، وتفسير الحميم ، والخلاف فيهما في سورة ص .

﴿ جَزَاء وفاقا ﴾ أي : موافقاً لأعمالهم ، وجزاء منتصب على المصدر ، ووفاقاً نعت له .

(265/798)

قال الفرّاء ، والأخفش : جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ، قال الزجاج : جوزوا جزاء وافق أعمالهم .

قال الفرّاء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

وقال الحسن ، وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأتاهم الله بما يسوؤهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ أي : لا يرجون ثواب حساب .

قال الزجاج : كانوا لا يؤمنون بالبعث ، فيرجون حسابهم ، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ أي : كذبوا بالآيات القرآنية ، أو كذبوا بما هو

أعم منها تكذيباً شديداً ، وفعال من مصادر التفعل .

قال الفرّاء : هي لغة فصيحة يمانية ، تقول كذبت كذاباً ، وخرقت القميص خراقاً .

قال في الصحاح : وكذبوا بآياتنا كذاباً هو أحد مصادر المشدّد ؛ لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل : ﴿ ومزقناهم كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : 19] قرأ الجمهور ﴿ كذاباً ﴾ بالتشديد .

وقرأ عليّ بن أبي طالب بالتخفيف .

وقال أبو عليّ الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكاذبة .

وقرأ ابن عمر : (كذاباً) بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب .

قال أبو حاتم ونصبه على الحال .

قال الزمخشري : وقد يكون يعني : على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ في الكذب ، تقول : رجل كذاب كقولك حسان وبخال .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحصيناه كتابا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وكل ﴾ بالنصب على الاشتغال أي : وأحصينا كل شيء أحصيناه .

وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء ، وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وانتصاب ﴿ كتاباً ﴾ على المصدرية لأحصيناه ؛ لأن أحصيناه في معنى كتبناه ، وقيل : هو منتصب على الحال أي : مكتوباً ، قيل : المراد كتبناه في اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، وقيل : أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل : المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحصيناه فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [ياس : 12] ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم ، وتكذيبهم بالآيات .

قال الرّازي : هذه الفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم ؛ ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلوداً غيرها ، وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ قال : القرآن : وهذا مرويّ عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ قال : مضيئاً ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ قال : السحاب ﴿ مَاء ثَجَّاجاً ﴾ قال : منصباً .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ ثَجَّاجاً ﴾ قال

: منصباً .

وأخرج الشافعي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَاء ثَجَّاجاً ﴾ قال : يبعث الله الريح ، فتحمل الماء ، فيمرّ به السحاب ، فتدرّ كما تدرّ اللقحة ، والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالي فتصرّفه الرياح فينزل متفرّقاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة قال : في قراءة ابن عباس ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ بالرياح.

(267/798)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وجنات أَلْفَافاً ﴾ قال : ملتفة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : يقول : التفّ بعضها ببعض .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ قال : سراب الشمس الآل .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لابثين فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ قال : سنين .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن

سالم بن أبي الجعد قال : سأل عليّ بن أبي طالب هلال الهجري ما تجدون الحقب في كتاب الله ؟ قال : نجده ثمانين سنة كل سنة منها اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة .

وأخرج سعيد بن منصور ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في الآية قال : الحقب الواحد ثمانون سنة .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه قال : الحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، واليوم كألف سنة مما تعدّون .

وأخرج عبد بن حميد عنه قال : الحقب ثمانون عاماً اليوم منها كسدس الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه .

قال السيوطي : بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ لابثين فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ قال : " الحقب ألف شهر ، والشهر ثلاثون يوماً ، والسنة اثنا عشر شهراً ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف سنة " وأخرج البزار ، وابن مردويه ، والديلمي عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً ، والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة مما تعدّون " قال ابن عمر : فلا يتكلنّ أحد أنه يخرج من النار .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن عبد الله ابن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله .

(268/798)

وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحقب أربعون سنة " وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله : ﴿ لابثين فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ [هود : 108] إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وفي قوله : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً ﴾ قال : " قد انتهى حرّه ﴿ وَغَسَّاقاً ﴾ قد انتهى حرّه ، وإن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه ، حتى يبقى عظاماً تقعقع " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ جَزَاء وفاقا ﴾ قال : وافق

أعمالهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما أنزلت على أهل النار آية قط أشدّ منها ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 362 . 368 ﴾

(269/798)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) ﴾

شرح المفردات

يوم الفصل : هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن اللّه يفصل فيه بحكمه بين الخلائق ، ميقاتا : أي حدّا تنتهى عنده الدنيا ، والصور فى الأصل : البوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجتمعوا عند النافخ ، والأفواج : واحدها فوج وهو الجماعة ، وفتحت السماء : أي انشقت وتصدعت ، وسيرت الجبال : أي زالت من أماكنها وتفتت صخورها ، سرابا أي كالسراب ، فهى بعد تفتتها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غبارا متراكما ، المرصاد : موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها ، للطاغين :

أي للذين طغوا فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره ، والمآب : المرجع ، لابثين : أي مقيمين ، أحقابا ، واحدها حقب ، وواحد الحقب حقبة : وهى مدة مبهمة من الزمان . قال متمم ابن نويرة :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرّقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(270/798)

والبرد : برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم « منع البرد البرد » أي أصابه من شدة البرد ما منعه النوم ، ولا شرابا : أي شرابا يسكن عطشهم ويزيل الحرقة عن بواطنهم ، والحميم : الماء الحار المغلى ، غساقا : أي قيحا وصديدا وعرقا دائم السيلان من أجسادهم ، وفاقا : أي وفق أعمالهم السيئة ، لا يرجون : أي لا يتوقعون حسابا : أي محاسبة على أعمالهم ، أو ثواب حساب ، كذّابا : أي تكذبنا ، وقرئ بالتخفيف بمعنى كذبا ، وعليه قول الأعشى :

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه كتابا : أي إحصاء بالكتابة .

المعنى الجملي

بعد أن نبه عباده إلى هذه الظواهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ، أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله وهو يوم الفصل ، ويذكر لهم بعض ما يكون فيه تخويفا لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ما وضحت الأدلة واستبان الحق ، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأنه عظيم وأمر الكائنات فيه على غير ما تعهدون ، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات اللّه واتخذوها هزوا ، وأن جهنم مرجعهم الذي ينتهون إليه ، وأنهم سيقيمون فيها أحقابا طوالا لا يجدون شيئا من النعيم والراحة ، ولا يذوقون فيها روحا ينفّس عنهم حر النار ، ولا يذوقون من الشراب إلا الماء الحارّ والصديد الذي يسيل من أجسادهم ، جزاء سيىء أعمالهم ، إذ هم كانوا لا ينتظرون يوم الحساب ، ومن ثم اقترفوا السيئات ، وارتكبوا مختلف المعاصي ، وكذبوا الدلائل التي أقامها اللّه على صدق رسوله أشد التكذيب ، وقد أحصى اللّه كل شىء فى كتاب علمه ، فلم يغب عنه شىء صدر منهم ، وسيوفيهم جزاء ما صنعوا ، وستكون له كلمة الفصل ، فيقول لهم : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً » .

(271/798)

الإيضاح

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً) أي إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين والآخرين يثابون فيه أو يعاقبون، ويتمايزون فيه ويكونون مرات ودرجات بحسب أعمالهم كما قال: «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ».

وقد جعله الله حدا تنتهى عنده الدنيا، وتجتمع فيه الخلائق، ليرى كل امرئ ما قدمت يداه، فيجازى المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته.

ثم بين هذا اليوم وزاد فى تفخيمه وتهويله فقال:

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً) أي يوم ينفخ فى الصور فتحيون وتبعثون من قبوركم وتأتون إلى الموقف من غير تلبث، وإمام كل أمة رسولها كما قال سبحانه «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ».

(وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً) أي وانشقت السماء وتصدعت. وقد جاء نحو هذا فى آيات كثيرة كقوله: «إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ». وقوله: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ».

وقوله: «يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ».

ذاك أنه يحصل اضطراب فى نظام الكواكب، فيذهب التماسك بينها، ولا يكون فيما يسمى سماء إلا مسالك وأبواب، لا يلتقى فيها شىء بشىء، وذلك هو خراب العالم العلوي كما يخرب الكون السفلى.

(وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَرابا) أي إن الجبال لا تكون فى ذلك اليوم على ثباتها المعروف. بل يذهب ما كان لها من قرار وتعود كأنها سراب يرى من بعد.

فإذا قربت منه لم تجد شيئا. لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها.

والخلاصة - إنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة. فذكر أول أحوالها وهو الاندكاك بقوله: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً» ثم ذكر أنها تصير كالعهن المنفوش كما قال: «وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ».

(272/798)

ثم ذكر أنها تصير هباء كما قال: «وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا. فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا» ثم ذكر أنها تنسف وتحملها الرياح كما جاء فى قوله: «وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ»، ثم ذكر أنها تصير سرابا، أي لا شىء كما فى هذه الآية.

وبعد أن عدّد وجوه إحسانه، ودلائل قدرته على إرساله رسوله، وذكر أن يوم الفصل بين الرسول ومعانديه سيكون يوم القيامة، وبيّن أهوال هذا اليوم، وامتياز شئونه وأحواله عن شئون أيام الدنيا وأحوالها - ذكر وعيد المكذبين وبيان ما يلاقونه فقال:

(إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصادا) أي إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزنتها من

يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وفعاله .

وروى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

(لِلطَّاغِينَ مَآباً) أي إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا ولم يستمعوا إلى الداعي الذي جاءهم بالهدى ونور الحق .

وبعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بيّن مدة ذلك فقال :

(لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً) أي إنهم سيمكثون فيها دهورا متلاحقة يتبع بعضها بعضا فكلما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر كما قال : «يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ» .

ثم بين أحوالهم فيها فقال :

(لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً . إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) أي لا يذقون فى جهنم بردا يبرد حر السعير عنهم إلا الغساق ، ولا شرابا يرويهم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شرابا فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقة من بواطنهم ، ولكن يجدون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستقذرة .

والخلاصة – إنهم لا يذوقون فيها شرابا إلا الحميم البالغ الغاية فى السخونة ، أو الصديد المنتن ، ولا بردا إلا الماء الحار المغلى .

(جَزاءً وِفاقاً) أي إنه تعالى ينزل بهم شديد عقابه من جزاء أنهم أتوا بفظيع المعاصي ، فيكون العقاب وفق الذنب ومقداره كما قال : « وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها » .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم اللّه ما يسوءهم .

وبعد أن بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذي أعد لهم كان وفق جرمهم – فصل أنواع جرائمهم فذكر أنها نوعان فقال :

(1) (إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً) أي إنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا ، واجترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم ، لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب ولا يتوقعونه .

ورغبة المرء فى فعل الخيرات ، وترك المحظورات ، إنما تكون غالبا لاعتقاده أنه ينتفع بذلك فى الآخرة ، فمن كان منكرا لها لا يقدم على شىء مما يحسن عمله ، ولا يحجم عن أمر مما يقبح .

(2) (وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً) أي وكذبوا لجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد وبجميع ما جاء فى القرآن .

والخلاصة – إنهم أقدموا على جميع المنكرات ، ولم يرعووا عن فعل السيئات وأنكروا بقلوبهم الحق واتبعوا الباطل .

وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية – أرشد إلى أنها فى مقدارها وكيفيتها معلومة له تعالى لا يغيب عنه شىء منها فقال :

(274/798)

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً) أي إنا علمنا جميع ما عملوا علما ثابتا لا يعتريه تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئا مما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأنا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شىء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال : « أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ »

وإنما قيل (كِتاباً) دون أن يقال (إحصاء) لأن الكتابة هى النهاية فى قوة العلم بالشيء ، فإن من يريد أن يحصى كلام متكلم حتى لا يغيب منه شىء عمد إلى كتابته ، فكأنه تعالى يقول : « وكل شيء أحصيناه إحصاء يساوى فى ثباته وضبطه ما يكتب » .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات – رتب عليه هذا الجزاء فقال :

(فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً) أي فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

روى قتادة عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً » .

ذاك أن فيها تقريعا وتوبيخا لهم فى يوم الفصل ، وغضبا من أرحم الراحمين ، وتيئيسا لهم من الغفران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 10 . 15 ﴾

(275/798)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) ﴾

هذا بيان لما أجمله قوله : ﴿ عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ﴾ [النبأ : 32]

وهو المقصود من سياق الفاتحة التي افتتحت بها السورة وهيأتْ للانتقال مناسبة ذكر الإخراج من قوله : ﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ﴾ [النبأ : 15] الخ ، لأن ذلك شُبه بإخراج أجساد الناس للبعث كما قال تعالى : ﴿ فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ﴾ إلى قوله : ﴿ كذلك الخروج ﴾ في سورة ق (119) .

وهو استئناف بياني أعقب به قوله : ﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ﴾ [النبأ : 15] الآية فيما قصد به من الإيماء إلى دليل البعث .

وأكد الكلام بحرف التأكيد لأن فيه إبطالاً لإنكار المشركين وتكذيبهم بيوم الفصل .

ويومُ الفصل : يوم البعث للجزاء .

والفصل : التمييز بين الأشياء المختلطة ، وشاع إطلاقه على التمييز بين المعاني المتشابهة والملتبسة فلذلك أطلق على الحكم ، وقد يضاف إليه فيقال : فصل القضاء ، أي نوع من الفصل لأن القضاء يميز الحق من الظلم .

فالجزاء على الأعمال فصل بين الناس بعضهم من بعض .

وأوثر التعبير عنه بيوم الفصل لإثبات شيئين:

أحدهما : أنه بَيَّن ثبوت ما جحدوه من البعث والجزاء وذلك فصل بين الصدق وكذبهم .

وثانيهما : القضاء بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اعتدى به بعضهم على بعض .

وإقحام فعل ﴿ كان ﴾ لإفادة أن توقيته متأصل في علم الله لما اقتضته حكمته تعالى التي هو أعلم بها وأن استعجالهم به لا يقدّمه على ميقاته .

وتقدم ﴿ يوم الفصل ﴾ غير مرة أخراها في سورة المرسلات (14) .

ووصف القرآن بالفصل يأتي في قوله تعالى : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ في سورة الطارق (13) .

والميقات : مفعال مشتق من الوقت ، والوقت : الزمان المحدَّد في عمل ما ، ولذلك لا يستعمل لفظ وقت إلا مقيداً بإضافة أو نحوها نحو وقت الصلاة .

(276/798)

فالميقات جاء على زنة اسم الآله وأريد به نفس الوقت المحدد به شيء مثل مِيعاد ومِيلاد ، في الخروج عن كونه اسم آلة إلى جعله اسماً لنفس ما اشتق منه .

والسياق دل على متعلق ميقات ، أي كان ميقاتاً للبعث والجزاء .

فكونه ميقاتاً ﴾ كناية تلويحية عن تحقيق وقوعه إذ التوقيت لا يكون إلا بزمن محقق الوقوع ولو تأخر وأبطأ .

وهذا رد لسؤالهم تعجيله وعن سبب تأخيره ، سؤالاً يريدون منه الاستهزاء بخبره .

والمعنى : أن ليس تأخر وقوعه دَالاًّ على انتفاء حصوله .

والمعنى : ليس تكذيبكم به مما يحملنا على تغيير إبانة المحدد له ولكن الله مستدرجكم مدة .

وفي هذا إنذار لهم بأنه لا يُدرَى لعله يحصل قريباً قال تعالى : ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ [الأعراف : 187] وقال : ﴿ قل عسى أن يَكون قريباً ﴾ [الإسراء : 51] .

و﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ بدل من ﴿ يوم الفصل ﴾ .

وأضيف ﴿ يوم ﴾ إلى جملة ﴿ ينفخ في الصور ﴾ فانتصب ﴿ يوم ﴾ على الظرفية وفتحته فتحة إعراب لأنه أضيف إلى جملة أولها مُعرب وهو المضارع .

وفائدة هذا البدل حصول التفصيل لبعض أحوال الفصل وبعض أهوال يوم الفصل .

والصُّور : البوق ، وهو قرنُ ثَور فارغ الوسط مضيق بعض فراغه ويتخذ من الخشب أو من النحاس ، يَنفخ فيه النافخ فيخرج منه الصوت قوياً لنداء الناس إلى الاجتماع ، وأكثر ما ينادى به الجيش والجموع المنتشرة لتجتمع إلى عمل يريده الآمر بالنفخ .

وبُني ﴿ ينفخ ﴾ إلى النائب لعدم تعلق الغرض بمعرفة النافخ وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم وصورة حصوله .

والنفخ في الصور يجوز أن يكون تمثيلاً لهيئة دعاء الناس وبعثهم إلى الحشر بهيئة جمع الجيش المتفرق لراحة أو تتبع عدوَ فلا يلبثون أن يتجمّعوا عند مقر أميرهم .

(277/798)

ويجوز أن يكون نفخٌ يحصل به الإحياء لا تُعلم صفته فإن أحوال الآخرة ليست على أحوال الدنيا ، فيكون النفخ هذا معبَّراً به عن أمر التكوين الخاص وهو تكوين الأجساد بعد بلاها

وبَثّ أرواحها في بقاياها .

وقد ورد في الآثار أن المَلك الموكّل بهذا النفخ هو إسرافيل ، وقد تقدم ذكر ذلك غير مرة .

وعطف ﴿ تأتون ﴾ بالفاء لإفادة تعقيب النفخ بمجيئهم إلى الحساب .

والإِتيان : الحضور بالمكان الذي يمْشي إليه الماشي فالإِتيان هو الحصول .

وحذف ما يحصل بين النفخ في الصور وبين حضورهم لزيادة الإِيذان بسرعة حصور الإِتيان حتّى كأنه يحصل عند النفخ في الصور وإن كان المعنى : ينفخ في الصور فتحيَوْن فتسيرون فتأتون .

و﴿ أفواجاً ﴾ حال من ضمير ﴿ تأتون ﴾ ، والأفواج : جمع فوج بفتح الفاء وسكون الواو ، والفوج : الجماعة المتصاحبة من أناس مقسَّمين باختلاف الأغراض ، فتكون الأمم أفواجاً ، ويكون الصالحون وغيرهم أفواجاً قال تعالى : ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ﴾ [الملك : 8] الآية .

والمعنى : فتأتون مقسَّمين طوائف وجماعات ، وهذا التقسيم بحسب الأحوال كالمؤمنين والكافرين وكل أولئك أقسام ومراتب .

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19)

جملة هي حال من ضمير ﴿ تأتون ﴾ [النبأ : 18] .

والتقدير : وقد فتحت السماء ، أي قد حصل النفخ قبلَ ذلك أو معه .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ ينفخ في الصور ﴾ [النبأ : 18] فيعتبر ﴿ يوم ﴾ [النبأ : 18] مضافاً إلى هذه الجملة على حدّ قوله : ﴿ ويوم تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] .

والتعبير بالفعل الماضي على هذا الوجه لتحقيق وقوع هذا التفتيح حتى كأنه قد مضى وقوعه .

وفتح السماء : انشقاقها بنزول الملائكة من بعض السماوات التي هي مقرّهم نزولاً يحضرون به لتنفيذ أمر الجزاء كما قال تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 25 ، 26] .

(278/798)

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ وفتحت ﴾ بتشديد الفوقية ، وهو مبالغة في فعل الفَتح بكثرة الفتح أو شدته إشارة إلى أنه فتح عظيم لأن شق السماء لا يقدر عليه إلا الله .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلَف بتخفيف الفوقية على أصل الفعل ومجرد تعلق الفتح بالسماء مشعر بأنه فتح شديد .

وفي الفتح عبرة لأن السماوات كانت ملتئمة فإذا فسد التئامها وتخللتها مفاتح كان معه انخرام نظام العالم الفاني قال تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ إلى قوله : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ [الانشقاق : 61] .

فالتفتح والفتح سواء في المعنى المقصود ، وهو تهويل ﴿ يوم الفصل ﴾ [النبأ : 17] .

وفُرع على انفتاح السماء بفاء التعقيب ﴿ فكانت أبواباً ﴾ أي ذات أبواب .

فقوله ﴿ أبواباً ﴾ تشبيه بليغ ، أي كالأبواب ، وحينئذ لا يبقى حاجز بين سكان السماوات وبين الناس كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [المعارج : 4] .

والإِخبار عن السماء بأنها أبواب جرى على طريق المبالغة في الوصف بذات أبواب للدلالة على كثرة المفاتح فيها حتى كأنها هي أبواب وقريب منه قوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر : 12] حيث أسند التفجير إلى لفظ الأرض ، وجيء باسم العيون تمييزاً ، وهذا يناسب معنى قراءة التشديد ويؤكده ، ويقيد معنى قراءة التخفيف ويبينه .

و﴿ كانت ﴾ بمعنى : صارت .

ومعنى الصيرورة من معاني (كَان) وأخواتها الأربع وهي : ظَلَّ ، وبَاتَ ، وأَمسى وأَصبح ، وقرينة ذلك أنه مفرّع على ﴿ فتحت ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] .

والأبواب : جمع باب ، وهو الفُرجة التي يُدخل منها في حائل من سور أو جدار أو حجاب أو خيمة ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ في سورة يوسف (23) وقوله : ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ في سورة العقود (23) .

وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20)

التسيير : جعل الشيء سائراً ، أي ماشياً .

وأطلق هنا على النقل من المكان أي نقلت الجبال وقلعت من مقارّها بسرعة بزلازل أو نحوها كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ [المزمل : 14] ، حتى كأنها تسيّر من مكان إلى آخر وهو نقْل يصحبه تفتيت كما دل عليه تعقيبه بقوله : ﴿ فكانت سراباً ﴾ لأن ظاهر التعقيب أن لا تكون معه مهلة ، أي فكانت كالسراب في أنها لا شيء .

والقولُ في بناء ﴿ سُيرت ﴾ للمجهول كالقول في ﴿ وفتحت السماء ﴾ [النبأ : 19] .

وكذلك قوله : ﴿ فكانت سراباً ﴾ هو كقوله : ﴿ فكانت أبواباً ﴾ [النبأ : 19] .

والسراب : ما يلوح في الصحاري مما يشبه الماءَ وليس بماء ولكنه حالة في الجو القريب تنشأ

من تَراكُمِ أبخرة على سطح الأرض .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ في سورة النور (39) .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21)

يجوز أن تكون جملة ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ في موضع خبر ثان ل ﴿ إنّ ﴾ من قوله : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] والتقدير : إن يوم الفصل إنَّ جهنم كانت مرصاداً فيه للطاغين ، والعائد محذوف دل عليه قوله : ﴿ مرصاداً ﴾ أي مرصاداً فيه ، أي في ذلك اليوم لأن معنى المرصاد مقترب من معنى الميقات إذ كلاهما محدد لجزاء الطاغين .

ودخول حرف (إنَّ) في خبر (إن) يفيد تأكيداً على التأكيد الذي أفاده حرف التأكيد الداخل على قوله : ﴿ يوم الفصل ﴾ على حد قول جرير :

إنّ الخليفة إنَّ الله سربَله

سِربال مُلْك به تُزجَى الخَواتِيم . . .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن اللَّه يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ كما تقدم في سورة الحج (17) ، وتكون الجملة من تمام ما خوطبوا به بقوله : ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ [النبأ : 18] .

والتعبير ب"الطّاغين" إظهار في مقام الإِضمار للتسجيل عليهم بوصف الطغيان لأن مقتضى الظاهر أن يقول : "لكم مئاباً" .

ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً عن جملة ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] وما لحق بها لأن ذلك مما يثير في نفوس السامعين تطلّب ماذا سيكون بعد تلك الأهوال فأجيب بمضمون ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ الآية .

وعليه فليس في قوله : ﴿ للطاغين ﴾ تخريج على خلاف مقتضى الظاهر .

وابتدىء بذكر جهنم لأن المقام مقام تهديد إذ ابتدئت السورة بذكر تكذيب المشركين بالبعث ولما سنذكره من ترتيب نظم هذه الجمل .

وجهنم : اسم لدار العذاب في الآخرة .

قيل : وهو اسم مُعرَّب فلعله معرب عن العبرانية أو عن لغة أخرى سامية ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ في سورة البقرة (206) .

والمرصاد : مكان الرصد ، أي الرقابة ، وهو بوزن مِفعال الذي غلب في اسم آلة الفعل مثل

مِضمار للموضع الذي تضُمَّر فيه الخيل ، ومنهاج للموضع الذي ينهج منه .

والمعنى : أن جهنم موضع يرصد منه الموكّلون بها ، ويترقبون من يزجى إليها من أهل الطغيان كما يترقب أهل المرصاد من يَأتيه من عدوّ .

ويجوز أن يكون مرصاد مصدراً على وزن المفعال ، أي رصداً .

والإِخبار به عن جهنم للمبالغة حتى كأنها أصل الرصد ، أي لا تفلت أحداً ممن حق عليهم دخولها .

(281/798)

ويجوز أن يكون مرصاد زنة مبالغة للراصد الشديد الرصد مثل صفة مغيار ومعطار ، وصفت به جهنم على طريقة الاستعارة ولم تلحقه (ها) التأنيث لأن جهنم شبهت بالواحد من الرصد بتحريك الصاد ، وهو الواحد من الحرس الذي يقف بالمرصد إذ لا يكون الحارس إلا رجلاً .

ومتعلق : مرصاداً ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ للطاغين مئاباً ﴾ .

والتقدير : مرصاداً للطاغين ، وهذا أحسن لأن قرائن السورة قِصارٌ فيحسن الوقف عند ﴿ مرصاداً ﴾ لتكون قرينة .

ولك أن تجعل ﴿ للطاغين ﴾ متعلقاً بـ ﴿ مرصاداً ﴾ وتجعل متعلق ﴿ مئاباً ﴾ مقدراً دل عليه ﴿ للطاغين ﴾ فيكون كالتضمين في الشعر إذ كانت بقيةً لِمَا في القرينة الأولى في القرينة المُوالية فتكون القرينة طويلة.

ولو شئت أن تجعل ﴿ للطاغين ﴾ متنازعاً فيه بين ﴿ مرصاداً ﴾ أو ﴿ مئاباً ﴾ فلا مانع من ذلك معنىً.

وأقحم ﴿ كانت ﴾ دون أن يقال: إن جهنم مرصادٌ للدلالة على أن جعلها مرصاداً أمر مقدر لها كما تقدم في قوله: ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ: 17].

وفيه إيماء إلى سعة علم الله تعالى حيث أعدّ في أزله عقاباً للطّاغين.

و﴿ مئاباً ﴾: مكان الأوْب وهو الرجوع، أطلق على المقر والمسكن إطلاقاً أصله كناية ثم شاع استعماله فصار اسماً للموضع الذي يستقر به المرء.

ونصب ﴿ مئاباً ﴾ على الحال من ﴿ جهنم ﴾ أو على أنه خبر ثان لفعل ﴿ كانت ﴾ أو على أنه بدل اشتمال من ﴿ مرصاداً ﴾ لأن الرصد يشتمل على أشياء مقصودة منها أن يكونوا صائرين إلى جهنم.

و﴿ للطاغين ﴾ متعلق بـ ﴿ مئاباً ﴾ قدم عليه لإدخال الروع على المشركين الذين بشركهم طغوا على الله، وهذا أحسن كما علمت آنفاً.

ولك أن تجعله متعلقاً بـ ﴿ مرصاداً ﴾ أو متنازعاً فيه بين ﴿ مرصاداً ﴾ و ﴿ مآباً ﴾ كما علمت آنفاً .

(282/798)

والطغيان : تجاوز الحد في عدم الاكتراث بحق الغير والكِبْرُ ، والتعريفُ فيه للعهد فالمراد به المشركون المخاطبون بقوله : ﴿ فتأتون أفواجاً ﴾ [النبأ : 18] فهو إظهار في مقام الإِضمار لقصد الإِيماء إلى سبب جعل جهنم لهم لأن الشرك أقصى الطغيان إذ المشركون بالله أعْرضوا عن عبادته ومتكبرون على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أَنِفوا من قبول دعوته وهم المقصود من معظم ما في هذه السورة كما يصرح به قوله : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ [النبأ : 27 ، 28] .

هذا وأن المسلمين المستخفّين بحقوق الله ، أو المعتدين على الناس بغير حق ، واحتقاراً لا لمجرد غلبة الشهوة لهم حظ من هذا الوعيد بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر .

واللابث : المقيم بالمكان .

وانتصب ﴿ لابثين ﴾ على الحال من الطاغين .

وقرأه الجمهور ﴿ لابثين ﴾ على صيغة جمع لابث .

وقرأه حمزة وروح عن يعقوب ﴿ لَبثين على صيغة جَمْع (لَبثٍ) من أمثلة المبالغة مثل حَذِر على خلاف فيه ، أو من الصفة المشبهة فتقتضي أن اللّبث شأنه كالذي يجثم في مكان لا ينفك عنه .

وأحقاب : جمع حُقُب بضمتين ، وهو زمن طويل نحو الثمانين سنة ، وتقدم في قوله : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ في سورة الكهف (60) .

وجمعه هنا مراد به الطول العظيم لأن أكثر استعمال الحُقُب والأحقاب أن يكون في حيث يراد توالي الأزمان ويبين هذا الآيات الأخرى الدالة على خلود المشركين ، فجاءت هذه الآية على المعروف الشائع في الكلام كناية به عن الدوام دون انتهاء .

وليس فيه دلالة على أن لهذا اللبث نهاية حتى يُحتاج إلى دعوى نسخ ذلك بآيات الخلود وهو وهم لأن الأخبار لا تنسخ ، أو يحتاج إلى جعل الآية لعصاة المؤمنين ، فإن ذلك ليس من شأن القرآن المكي الأول إذ قد كان المؤمنون أيامئذ صالحين مخلصين مجدّين في أعمالهم .

(283/798)

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26)

هذه الجملة يجوز أن تكون حالاً ثانية من ﴿ الطاغين ﴾ [النبأ : 22] أو حالاً أولى من

الضمير في ﴿ لابثين ﴾ [النبأ : 23] وأن تكون خبراً ثالثاً : ل ﴿ كانت مرصاداً ﴾ [النبأ : 21].

وضمير ﴿ فيها ﴾ على هذه الوجوه عائد إلى ﴿ جهنم ﴾ [النبأ : 21].

ويجوز أن تكون صفة ل ﴿ أحقاباً ﴾ [النبأ : 23]، أي لا يذوقون في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً.

فضمير ﴿ فيها ﴾ على هذا الوجه عائد إلى الأحقاب.

وحقيقة الذوق : إدراك طعم الطعام والشراب.

ويطلق على الإِحساس بغير الطعوم إطلاقاً مجازياً.

وشاع في كلامهم، يقال : ذاق الألم، وعلى وجدان النفس كقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ [المائدة : 95].

وقد استعمل هنا في معنييه حيث نَصَب ﴿ برداً ﴾ و ﴿ شراباً ﴾.

والبَرْد : ضد الحرّ، وهو تنفيس للذين عذابهم الحر، أي لا يغاثون بنسيم بارد، والبرد ألذُّ ما يطلبه المحرور.

وعن مجاهد والسدّي وأبي عبيدة ونفر قليل تفسير البَرْد بالنوم وأنشدوا شاهدَيْن غير واضحين، وأيًّا مَّا كان فحمل الآية عليه تكلف لا داعي إليه، وعطف ﴿ ولا شراباً ﴾ يناكده.

والشراب : ما يُشرب والمراد به الماء الذي يزيل العطش .

والحميم : الماء الشديد الحرارة .

والغساق : قرأه الجمهور بتخفيف السين : وقرأه حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين وهما لغتان فيه .

ومعناه الصديد الذي يسيل من جروح الحرق وهو المُهْل ، وتقدما في سورة (ص) .

واستثناء ﴿ حميماً وغساقاً ﴾ من ﴿ برداً ﴾ أو ﴿ شراباً ﴾ على طريقة اللف والنشر المرتب ، وهو استثناء منقطع لأن الحميم ليس من جنس البرد في شيء إذ هو شديد الحرّ ، ولأن الغساق ليس من جنس الشراب ، إذ ليس المُهل من جنس الشراب .

(284/798)

والمعنى : يذوقون الحميم إذ يُراق على أجسادهم ، والغَساق إذ يسيل على مواضع الحرق فيزيد ألمهم .

وصورة الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده في الصورة .

و ﴿ جزاء ﴾ منصوب على الحال من ضمير ﴿ يذوقون ﴾ ، أي حالة كون ذلك جزاء ، أي مُجازًى به ، فالحال هنا مصدر مؤول بمعنى الوصف وهو أبلغ من الوصف .

والوفاق : مصدر وَافق وهو مُؤول بالوصف ، أي موافقاً للعمل الذي جوزوا عليه ، وهو التكذيب بالبعث وتكذيبُ القرآن كما دل عليه التعليل بعده بقوله : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ [النبأ : 27 ، 28] .

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر ، وهما أصلان : أحدهما عدميّ وهو إنكار البعث ، والآخر وجوديّ وهو نسبتهم الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن للكذب ، فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي وهو حِرمانهم من البرد والشراب ، وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي وهو الحميم يراق على أجسادهم والغساق يمرّ على جراحهم .

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28)

موقع هذه الجملة موقع التعليل لجملة ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً إلى قوله جزاء وفاقاً ﴾ [النبأ : 21 26] ، ولذلك فصلت .

وضمير ﴿ إنهم ﴾ عائد إلى ﴿ الطاغين ﴾ [النبأ : 22] .

وحرف (إنّ) للاهتمام بالخبر وليست لرد الإِنكار إذ لا يُنْكر أحد أنهم لا يرجون حساباً وأنهم مكذبون بالقرآن وشأن (إنّ) إذا قصد بها مجرد الاهتمام أن تكون قائمة مقام فاء التفريع مفيدة للتعليل ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ [البقرة : 32] وقوله : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ في سورة البقرة (70) فالجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة ﴿ فذوقوا ﴾ [النبأ : 30] .

وقد علمت مناسبة جزائهم لجُرمهم عند قوله آنفاً : ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ [النبأ : 26]مما يزيد وجه التعليل وضوحاً .

وقوله : ﴿ لا يرجون حساباً ﴾ نفي لرجائهم وقوع الجزاء .

(285/798)

والرجاء اشتهر في ترقب الأمر المحبوب ، والحساب ليس خيراً لهم حتى يجعل نفي ترقبه من قبيل نفي الرجاء فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بمادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه ، فيَظهر أن وجه العدول عن التعبير بمادة التوقع إلى التعبير بمادة الرجاء أن الله لما أخبر عن جزاء الطاغين وعذابهم تلقى المسلمون ذلك بالمسرة وعلموا أنهم ناجون مما سيلقاه الطاغون فكانوا مترقبين يوم الحساب ترقب رجاء ، فنفي رجاء يوم الحساب عن المشركين جامعٌ بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه ، وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية التعريضية تعريضاً بالمسلمين وهي أيضاً تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء .

ومن المفسرين من فسر ﴿ يرجون ﴾ بمعنى : يخافون ، وهو تفسير بحاصل المعنى ، وليس تفسيراً للَّفظ .

وفعل ﴿ كانوا ﴾ دال على أن انتفاء رجائهم الحساب وصف متمكن من نفوسهم وهم

كائنون عليه ، وليس المراد بفعل ﴿ كانوا ﴾ أنهم كانوا كذلك فانقضى لأن هذه الجملة إخبار عنهم في حين نزول الآية وهم في الدنيا وليست مما يقال لهم أو عنهم يوم القيامة .

وجيء بفعل ﴿ يرجون ﴾ مضارعاً للدلالة على استمرار انتفاء ما عبر عنه بالرجاء ، وذلك لأنهم كلما أعيد لهم ذِكر يوم الحساب جدَّدوا إنكاره وكرروا شبهاتهم على نفي إمكانه لأنهم قالوا : ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] .

والحساب : العدّ ، أي عدّ الأعمال والتوقيفُ على جزائها ، أي لا يرجون وقوع حساب على أعمال العباد يوم الحشر .

و﴿ كذبوا ﴾ عطف على ﴿ لا يرجون ﴾ ، أي وإنهم كذبوا بآياتنا ، أي بآيات القرآن .

والمعنى : كذبوا ما اشتملت عليه الآيات من إثبات الوحدانية ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ولكون تكذيبهم بذلك قد استقر في نفوسهم ولم يترددوا فيه جيء في جانبه بالفعل الماضي لأنهم قالوا : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] .

وكِذَّاب : بكسر الكاف وتشديد الذال مصدر كذَّب .

والفِعَّال بكسر أوله وتشديد عينه مصدر فعَّل مثل التفعيل ، ونظائره : القِصَّار مصدر قَصَّر ، والقِضَّاء مصدر قَضَّى ، والخِرَّاق مصدر خَرَّق المضاعف ، والفِسَّار مصدر فَسَّر .

وعن الفراء أن أصل هذا المصدر من اللغة اليمنية ، يريد : وتكلم به العرب ، فقد أنشدوا لبعض بني كلاب :

لقد طال ما ثبّطَتني عن صحابتي

وعن حِوجَ قِضَّاؤُها مِن شفائيا . . .

وأُوثر هذا المصدر هنا دون تكذيب لمراعاة التماثل في فَواصل هذه السورة ، فإنها على نحو ألف التأسيس في القوافي ، والفواصل كالأسجاع ويحسن في الأسجاع ما يحسن في القوافي .

وفي "الكشاف" : وفِعَّال فُعَّل كلّه فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره .

وانتصب ﴿ كذاباً ﴾ على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله لإفادة شدة تكذيبهم بالآيات .

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29)

اعتراض بين الجُمل التي سيقت مساق التعليل وبين جملة ﴿ فذوقوا ﴾ [النبأ : 30]

وفائدة هذا الاعتراض المبادرة بإعلامهم أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فلا يدع

شيئاً من سيئاتهم إلا يحاسبهم عليه مَا ذكر هنا وما لم يذكر ؛ كأنه قيل : إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا ، وفعلوا مما عدا ذلك وكل ذلك محصي عندنا .

ونُصِب ﴿ كلَّ ﴾ على المفعولية ل ﴿ أحصيناه ﴾ على طريقة الاشتغال بضميره .

والإحصاء : حساب الأشياء لضبط عددها ، فالإحصاء كناية عن الضبط والتحصيل .

وانتصب ﴿ كتاباً ﴾ على المفعولية المطلقة ل ﴿ أحصيناه ﴾ .

والتقدير : إحصاء كتابة ، فهو مصدر بمعنى الكتابة ، وهو كناية عن شدة الضبط لأن الأمور المكتوبة مصونة عن النسيان والإغفال ، فباعتبار كونه كناية عن الضبط جاء مفعولاً مطلقاً ل (أحصينا) .

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)

(287/798)

الفاء للتفريع والتسبب على جملة ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ [النبأ : 21] وما اتصل بها ، ولَمَّا غُيِّر أسلوب الخبر إلى الخطاب بعد أن كان جارياً بطريق الغيبة ، ولم يكن مضمونُ الخبر مما يجري في الدنيا فيُظن أنه خطاب تهديد للمشركين تعيّن أن يكون المفرع قولاً محذوفاً دلّ عليه ﴿ ذوقوا ﴾ الذي لا يقال إلا يوم الجزاء ، فالتقدير : فيقال لهم ذوقوا إلى آخره ،

ولهذا فليس في ضمير الخطاب التفات فالمفرع بالفاء هو فعل القول المحذوف .

والأمر في "ذوقوا" مستعمل في التوبيخ والتقريع .

وفُرع على ﴿ فذوقوا ﴾ ما يزيد تنكيدهم وتحسيرهم بإعلامهم بأن الله سيزيدهم عذاباً فوق ما هم فيه .

والزيادة : ضمّ شيء إلى غيره من جنس واحد أو غرض واحد ، قال تعالى : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] وقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ [نوح : 28] ، أي لا تزدهم على ما هم فيه من المساوي إلا الإهلاك .

فالزيادة المنفية في قوله : ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ يجوز أن تكون زيادة نوع آخر من عذاب يكون حاصلاً لهم كما في قوله تعالى : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ [النحل : 88] .

ويجوز أن تكون زيادة من نوع ما هم فيه من العذاب بتكريره في المستقبل .

والمعنى : فسنزيدكم عذاباً زيادة مستمرة في أزمنة المستقبل ، فصيغ التعبير عن هذا المعنى بهذا التركيب الدقيق ، إذ ابتدىء بنفي الزيادة بحرف تأبيد النفي وأردف الاستثناء المقتضي ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى فصارت دلالة الاستثناء على معنى : سنزيدكم عذاباً مؤبداً .

وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو أسلوب طريف من التأكيد إذ ليس فيه إعادة لفظ فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل .

(288/798)

ولما كان المقصود الوعيد بزيادة العذاب في المستقبل جيء في أسلوب نفيه بحرف نفي المستقبل ، وهو (لن) المفيد تأكيد النسبة المنفيةِ وهي ما دلّ عليه مجموع النفي والاستثناء ، فإن قيد تأبيد نفي الزيادة الذي يفيده حرف (لن) في جانب المستثنى منه يسري إلى إثبات زيادة العذاب في جانب المستثنى ، فيكون معنى جملة الاستثناء : سنزيدكم عذاباً أبداً ، وهو معنى الخلود في العذاب .

وفي هذا الأسلوب ابتداءٌ مطمِعٌ بانتهاء مُؤْيِسٍ وذلك أشد حزناً وغماً بما يوهمهم أن ما ألقوا فيه هو منتهى التعذيب حتى إذا ولج ذلك أسماعَهم فحزنوا له ، أُتبع بأنهم ينتظرهم عذاب آخر أشدّ ، فكان ذلك حزناً فوق حزن ، فهذا منوال هذا النظم وهو مؤذن بشدة الغضب .

وعن عبد الله بن عَمرو بن العاص وأبي برزة الأسلمي وأبي هريرة : أن هذه الآية أشدّ ما نزل في أهل النار ، وقد أسند هذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عن أبي بَرزة

الأسلمي .

قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشدّ آية في كتاب الله على أهل النار ؟ فقال : قول الله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ " وفي سنده جَسْر بن فرقد وهو ضعيف جداً .

وفي "ابن عطية" : أن أبا هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكر ابن عطية سنده ، وتعدد طُرقه يكسبه قوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(289/798)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كذب)

كَذَبَ يَكْذِبُ كَذِباً وكِذْبا وكِذَاباً وأَكذوبة وكاذِبة ومَكْذوباً ومَكذَبة وكُذْبانا كغفران / وكُذْبَى كبُشْرى ، فهو كاذِب وكَذَّاب وكَذُوب وكَيْذَبان وكَيْذَبَان ومَكْذُوبان ، وكُذَبة كهُمَزة ، وكُذُبْذُب وكُذُبْذُبان وكُذُّبْذُب بالتشديد ، قال جُرَيبة بن الأَشْيم :

*فإِذا سمعتَ بأَنَّنى قد بِعْتُه * بوِصالِ غانِيَة فقل كُذُّبْذُب*

وجمع الكاذب : كُذَّب ، كراكع وركَّع .

وجمع الكَذُوب : كُذُب ، كصَبُور وصُبُر .

وقرأَ مُعَاذ بن جَبَل رضى الله عنه وسَلَمة بن محارب الزِّيادى وابن أَبى عَبْلة وأَبو البرهسم : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ فجعلوه نعتاً للأَلسنة .

ويقال : كذب كُذَّاباً بالضمّ والتشديد أَى متناهِياً .

وقرأَ عمر بن عبد العزيز : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ ، ويكون صفة على المبالغة كوُضَّاءٍ وحُسَّان .

ومن قرأَ (كِذَّاباً) بالكسر فهو أَحد مصادر المشدَّد ؛ لأَن مصدره قد يجىء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فِعَّال مثل كِذَّاب ، وعلى تفعِلة مثل تكملة ، وعلى مُفَعَّل مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ وقرأَ علىّ رضى الله عنه والعُطَارِدِىّ والأَعمش والسُّلَمىّ والكسائىّ : ﴿ وَلَا كِذَّاباً ﴾ ، وقيل : هو مصدر كَاذَبْتُه مكاذبةً وكِذَاباً ، وقيل : مصدر كَذَب كِذَاباً مثل كتب كِتَاباً .

وأَكذبته : وجدته كاذباً .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ كذَّبهم فى اعتقادهم لا فى مقالهم ، فمقالُهم كان صدقاً .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ نسب الكذب إِلى نفس الفعل ، كقولهم : فَعْلة صادقة ،

وفعلة كاذبة .

وكَذَب قد يتعدَّى إلى مفعولين ، تقول : كَذَبتك حديثاً : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ .

وكذَّبته : نسبته إلى الكذب ، صادقاً كان أو كاذباً .

(290/798)

وما جاءَ في القُرْآن ففي تكذيب الصَّادق ، نحو قوله : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ،

وقوله :

﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ ، قرئ بالتخفيف والتشديد ، ومعناه : لا يجدونك كاذباً ، ولا يستطيعون أَن يثبتوا كذبك .

وقوله : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أَي علموا أَنهم تُلُقُّوا من جهة الَّذين أُرسلوا إليهم بالكذب .

فكُذِّبوا نحو فسّقوا وزُنُّوا وخُطِّئوا إذا نسبوا إلى شيءٍ من ذلك .

وقرئ : (كُذِبُوا) بالتخفيف من قولهم : كَذَبتك حديثا ، أَي ظنَّ المرسَل إليهم أَن الرّسل قد كَذَبوهم فيما أَخبروهم به : أَنهم إن لم يؤمنوا بهم نزل بهم العذاب .

وإنَّما ظنُّوا ذلك من إمهال الله تعالى إيَّاهم وإملائه لهم .

وقوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ الكِذَّاب : التكذيب ، والمعنى : لا يكذِبون فيكذِّبَ بعضهم بعضاً .

ونفى التكذيب عن الجنَّة يقتضى نفى الكذب عنها .

وقرئ (كِذَاباً) كما تقدَّم ، أَى لا يتكاذبون تكاذب النَّاس فى الدُّنيا .

قال بعض المفسِّرين : ورد الكذب فى القرآن :

1- بمعنى النِّفاق : ﴿ وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، أَى ينافقون ، ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ : منافقون .

2- وبمعنى الإشراك بالله ونسبة الولد : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ .

3- وبمعنى قذف المحصَنات : ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فَأُوْلَائِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

4- وبمعنى الإنكار : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ .

أَى ما أَنكر .

5- وبمعنى خُلْف الوعد : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ، أَى ردّ وخُلف .

6- وبمعنى الكذب اللغوى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ، ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ ، ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ .

والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 338.340 ﴾

(292/798)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾

تقدم وجه الجمع بينه هو والآيات المشابهة له كقوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ مع الآيات المقتضية لدوام عذاب أهل النار بلا انقطاع كقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدا ﴾ في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّه ﴾ الآية فقد بينا هناك أن العذاب لا ينقطع عنهم وبينا وجه الاستثناء بالمشيئة وأما وجه الجمع بين الأحقاب المذكورة هنا مع الدوام الأبدي

الذي قدمنا الآيات الدالة عليه فمن ثلاثة أوجه:

الأول: وهو الذي مال إليه ابن جرير وهو الأظهر عندي لدلالة ظاهر القرآن عليه هو أن قوله لابثين فيها أحقابا متعلق بما بعده أي لابثين فيها أحقابا في حال كونهم لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا فإذا انقضت تلك الأحقاب عذبوا بأنواع أخر من أنواع العذاب غير الحميم والغساق ويدل لهذا تصريحه تعالى بأنهم يعذبون بأنواع أخر من أنواع العذاب غير الحميم والغساق في قوله: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ .

وغاية ما يلزم على هذا القول تداخل الحال وهو جائز حتى عند من منع ترادف الحال كابن عصفور ومن وافقه .

وإيضاحه أن جملة: لا يذوقون: حال من ضمير اسم الفاعل المستكن ونعني باسم الفاعل قوله لابثين الذي هو حال ونظيره من اتيان جملة فعل مضارع منفي بلا حالا في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ أي في حال كونكم لا تعلمون .

الثاني: أن هذه الأحقاب لا تنقضي أبدا رواه ابن جرير عن قتادة والربيع بن أنس وقال إنه أصح من جعل الآية في عصاة المسلمين كما ذهب إليه خالد بن معدان .

الثالث: أنا لو سلمنا دلالة قوله أحقابا على التناهي والانقضاء فإن ذلك إنما فهم من مفهوم الظرف والتأبيد مصرح به منطوقا والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول.

وقوله خالد بن معدان أن هذه الآية في عصاة المسلمين يرده ظاهر القرآن لأن الله قال وكذبوا بآياتنا كذابا: وهؤلاء الكفار. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 307. 308 ﴾

(294/798)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والتسعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/799)

الجزء التاسع والتسعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 31 ﴾ من (سورة النبأ)

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من السورة

(4/799)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر جزاء الكافرين وأشعر آخره بكونه إخزاء ، ذكر جزاء المؤمنين المخالفين لهم فقال مستأنفاً مؤكداً لتكذيب الكافرين به : ﴿ إن للمتقين ﴾ أي الراسخين في الخوف المقتضي لاتخاذ الوقاية مما يخاف فوقوا أنفسهم من سخط الله بما يرضيه من الأعمال والأقوال والأحوال ﴿ مفازاً ﴾ أي فوزاً وموضع فوز وزمان فوز بالراحة الدائمة من جميع ما مضى ذكره للطاغين الذين هم أضدادهم ، وقد كشفوا أنفسهم للعذاب كل الكشف ، ثم فسره أو أبدل منه على حذف مضاف أي فوز : ﴿ حدائق ﴾ أي بساتين فيها أنواع الأشجار ذوات الثمار والرياحين لتجمع مع لذة المطعم لذة البصر والشم ، قد أحدقت بها الجدران وحوطت بها ، قال ابن جرير : فإن لم تكن بحيطان محدقة بها لم يقل لها حديقة .

وخص أشجار العنب لطيبها وحسنها وشرفها وما فيها من لذة الذوق وعبر عن أشجارها بثمرتها إعلاماً بأنها لا توجد إلا موقرة حملاً وأن ثمرتها هي جل منفعتها فقال : ﴿ وأعناباً ﴾ .

ولما ذكر المساكن النزهة المؤنقة المعجبة ، ذكر ما يتمتع به وهو جامع لألذاذ الحواس : البصر واللمس والذوق فقال : ﴿ وكواعب ﴾ أي نساء كعبت ثديهن ﴿ أتراباً ﴾ أي على سن واحد من مس جلد واحد التراب قبل الأخرى ، بل لو كن مولودات لكانت ولادتهن في آن

واحد .

ولما ذكر النساء ذكر الملائم لعشرتهن فقال : ﴿ وكاساً ﴾ أي من الخبر التي لا مثل لها في لذة الذوق ظاهراً وباطناً وكمال السرور وإنعاش القوى .

ولما كانت العادة جارية بأن الشراب الجيد يكون قليلاً ، دل على كثرته دليلاً على جودته بقوله : ﴿ دهاقاً ﴾ أي ممتلئة .

ولما كانت مجالس الخمر في الدنيا ممتلئة بما ينغصها من اللغو والكذب إلا عند من لا مروءة له فلا ينغصه القبيح ، قال نافياً عنها ما يكدر لذة السمع : ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أي الجنة في وقت ما ﴿ لغواً ﴾ أي لغطاً يستحق أن يلغى لأنه ليس له معنىً أعم من أن يكون مهملاً ليس له معنى أصلاً ، أو مستعملاً ليس له معنىً موجود في الخارج وإن قل ، أو له معنى ولكنه لا يترتب به كبير فائدة .

ولما انتفى الكذب بهذه الطريقة ، وكان التكذيب أذى للمكذب ، نفاه بقوله : ﴿ ولا كذباً ﴾ فإن هذه الصيغة تقال على التكذيب ومطلق الكذب ، فصار المعنى : ولا أذىً بمعارضة في القول ، مع موافقة قراءة الكسائي بالتخفيف فإن معناها كذباً أو مكاذبة ، وشدد في قراءة الجماعة لرشاقة اللفظ وموازنة " أعناباً وأتراباً " مع الإصابة لحلق المعنى من غير أدنى جور عن القصد ولا تكلف بوجه ما .

ولما كان العطاء إذا كان على المعاوضة كان أطيب لنفس الآخذ قال : ﴿ جزاء ﴾ وبين أنه ما جعله جزاء لهم إلا إكراماً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه سبحانه لا يجب عليه لأحد شيء لأن أحداً لا يمكنه أن يوفي شكر نعمة من نعمه فإن عمله من نعمه فقال : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بإكرام أمتك بانواع الإكرام ، وفي ﴿ عطاء ﴾ إشارة إلى ذلك وهو بذل من غير جزاء ﴿ حساباً ﴾ أي على قدر الكفاية وإن فعل الإنسان منهم ما فعل وحسب جميع أنواع الحساب ، ومن قولهم : أعطاه فأحسبه – إذا تابع عليه العطاء وأكثره حتى جاوز العد وقال : حسبي ، لا يمكن أن يحتاج مع هذا العطاء وإن زاد في الإنفاق ، واختير التعبير به دون "كافياً" مثلاً لأنه أوقع في النفس ، فإنه يقال : إذا كان هذا الحساب فما الظن بالثواب .

ولما ذكر سبحانه سعة فضله ، وصف نفسه الأقدس بما يدل على عظمته زيادة في شرف المخاطب ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن عظمة العبد على حسب عظمة السيد ، فقال مبدلاً على قراءة الجماعة وقاطعاً بالرفع على المدح عند الحجازيين وأبي عمرو : ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ أي مبدعهما ومدبرهما ومالكهما ﴿ وما بينهما ﴾ ملكاً وملكاً .

ولما شمل ذلك العرش وما دونه ، علله بقوله : ﴿ الرحمن ﴾ أي الذي له الإنعام العام الذي أدناه الإيجاد ، وليس ذلك لأحد غيره ، فإن الكل داخل في ملكه وملكه ، ولذلك قال دالاً

على الجبروت بعد صفة الرحمة : ﴿ لا يملكون ﴾ أي أهل السماوات والأرض ومن بين ذلك أصلاً دائماً في وقت من الأوقات في الدنيا ولا في الآخرة لا في يوم بعينه : ﴿ منه ﴾ أي العام النعمة خاصة ﴿ خطاباً ﴾ أي أن يخاطبوه أو يخاطبوا غيره بكلمة فما فوقها في أمرهم في غاية الاهتمام به بما أفاده التعبير بالخطاب ، فكيف بما دونه وإذا لم يملكوا ذلك منه فمن والكمل في ملكه وملكه ؟ وعدم ملكهم لأن يخاطبهم مفهوم موافقة ، والحاصل أنهم لا يقدرون على خطاب ما من ذوات أنفسهم كما هو شأن المالك .

(6/799)

وأما غيره فقد يملكون أن يكرهوه على خطابهم وأن يخاطبوه بغير إذن من ذلك الغير ولا رضى وبغير تملك منه لهم لأنه لا ملك له ، وإذا كان هذا في الخطاب فما ظنك بمن يدعي الوصال بالاتحاد – عليهم اللعنة ولهم سوء المآب ، ما أجرأهم على الاتحاد ! وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : كيف يكون للمكون المخلوق والفقير المسكين مكنة تملك منه خطاباً أو تتنفس نفساً كلا بل هو الله الواحد الجبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 305.303 ﴾

(7/799)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد الأخيار وهو أمور :

أولها : قوله تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31)

أما المتقي فقد تقدم تفسيره في مواضع كثيرة ﴿ ومفازاً ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى فوزاً وظفراً بالبغية ، ويحتمل أن يكون موضع فوز والفوز يحتمل أن يكون المراد منه فوزاً بالمطلوب ، وأن يكون المراد منه فوزاً بالنجاة من العذاب ، وأن يكون المراد مجموع الأمرين ، وعندي أن تفسيره بالفوز بالمطلوب أولى من تفسيره بالفوز بالنجاة من العذاب ، ومن تفسيره بالفوز بمجموع الأمرين أعني النجاة من الهلاك والوصول إلى المطلوب ، وذلك لأنه تعالى فسر المفاز بما بعده وهو قوله : ﴿ حَدَائِقَ وأعنابا ﴾ [النبأ : 32] فوجب أن يكون المراد من المفاز هذا القدر .

فإن قيل الخلاص من الهلاك أهم من حصول اللذة ، فلم أهمل الأهم وذكر غير الأهم ؟ قلنا : لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز باللذة والخير ، أما الفوز باللذة والخير فيستلزم الخلاص من الهلاك ، فكان ذكر هذا أولى .

وثانيها : قوله تعالى :

حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32)

والحدائق جمع حديقة ، وهي بستان محوط عليه .

من قولهم : أحدقوا به أي أحاطوا به ، والتنكير في قوله : ﴿ وأعنابا ﴾ يدل على تعظيم حال تلك الأعناب .

وثالثها : قوله تعالى :

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33)

كواعب جمع كاعب وهي النواهد التي تكعبت ثديهن وتفلكت أي يكون الثدي في النتوء كالكعب والفلكة .

ورابعها : قوله تعالى :

وَكَأْسًا دِهَاقًا (34)

(8/799)

وفي الدهاق أقوال الأول : وهو قول أكثر أهل اللغة كأبي عبيدة والزجاج والكسائي والمبرد ، و ﴿ دِهَاقاً ﴾ أي ممتلئة ، دعا ابن عباس غلاماً له فقال : اسقنا دهاقاً ، فجاء الغلام بها

ملأى ، فقال ابن عباس : هذا هو الدهاق قال عكرمة ، ربما سمعت ابن عباس يقول : اسقنا وادهق لنا القول الثاني : دهاقاً أي متتابعة وهو قول أبي هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد ، قال الواحدي : وأصل هذا القول من قول العرب : أدهقت الحجارة إدهاقاً وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض ، ذكرها الليث والمتتابع كالمتداخل القول الثالث : يروى عن عكرمة أنه قال : ﴿ دِهَاقاً ﴾ أي صافية ، والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع داهق ، وهو خشبتان يعصر بهما ، والمراد بالكأس الخمر ، قال الضحاك : كل كأس في القرآن فهو خمر ، التقدير .

وخمراً ذات دهاق ، أي عصرت وصفيت بالدهاق .

وخامسها : قوله :

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35)

في الآية سؤالان :

الأول : الضمير في قوله : ﴿ فِيهَا ﴾ إلى ماذا يعود ؟ الجواب فيه قولان الأول : أنها ترجع إلى الكأس ، أي لا يجري بينهم لغو في الكأس التي يشربونها ، وذلك لأن أهل الشراب في الدنيا يتكلمون بالباطل ، وأهل الجنة إذا شربوا لم يتغير عقلهم ، ولم يتكلموا بلغو والثاني : أن الكناية ترجع إلى الجنة ، أي لا يسمعون في الجنة شيئاً يكرهونه .

السؤال الثاني : الكذاب بالتشديد يفيد المبالغة ، فوروده في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ [النبأ : 28] مناسب لأنه يفيد المبالغة في وصفهم بالكذب ، أما وروده ههنا فغير لائق ، لأن قوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ يفيد أنهم لا يسمعون الكذب العظيم وهذا لا ينفي أنهم يسمعون الكذب القليل ، وليس مقصود الآية ذلك بل المقصود المبالغة في أنهم لا يسمعون الكذب ألبتة ، والحاصل أن هذا اللفظ يفيد نفي المبالغة واللائق بالآية المبالغة في النفي والجواب : أن الكسائي قرأ الأول بالتشديد والثاني بالتخفيف ، ولعل غرضه ما قررناه في هذا السؤال ، لأن قراءة التخفيف ههنا تفيد أنهم لا يسمعون الكذب أصلاً ، لأن الكذاب بالتخفيف والكذب واحد لأن أبا علي الفارسي قال : كذاب مصدر كذب ككتاب مصدر كتب فإذا كان كذلك كانت القراءة بالتخفيف تفيد المبالغة في النفي ، وقراءة التشديد في الأول تفيد المبالغة في الثبوت فيحصل المقصود من هذه القراءة في الموضعين على أكمل الوجوه ، فإن أخذنا بقراءة الكسائي فقد زال السؤال ، وإن أخذنا بقراءة التشديد في الموضعين وهي قراءة الباقين ، فالعذر عنه أن قوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ والمعنى أن هؤلاء السعداء لا يسمعون كلامهم المشوش الباطل الفاسد ، والحاصل أن النعم الواصلة إليهم تكون خالية عن زحمة أعدائهم وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة .

ثم إنه تعالى لما عدد أقسام نعيم أهل الجنة قال :

جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج : المعنى جازاهم بذلك جزاء ، وكذلك عطاء لأن معنى جازاهم وأعطاهم واحد .

المسألة الثانية :

(10/799)

في الآية سؤال وهو أنه تعالى جعل الشيء الواحد جزاء وعطاء ، وذلك محال لأن كونه جزاء يستدعي ثبوت الاستحقاق ، وكونه عطاء يستدعي عدم الاستحقاق والجمع بينهما متناف والجواب عنه : لا يصح إلا على قولنا : وهو أن ذلك الاستحقاق إنما ثبت بحكم الوعد ، لا من حيث إن الفعل يوجب الثواب على الله ، فذلك نظراً إلى الوعد المترتب على ذلك الفعل يكون جزاء ، ونظراً إلى أنه لا يجب على الله لأحد شيء يكون عطاء .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ حِسَاباً ﴾ فيه وجوه الأول : أن يكون بمعنى كافياً مأخوذ من قولهم : أعطاني ما أحسبني أي ما كفاني ، ومنه قوله : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، أي كفاني من سؤالي ، ومنه قوله :

فلما حللت به ضمني . . فأولى جميلاً وأعطى حسابا

أي أعطى ما كفى والوجه الثاني : أن قوله : حساباً مأخوذ من حسبت الشيء إذا أعددته وقدرته فقوله : ﴿ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ أي بقدر ما وجب له فيما وعده من الإضعاف ، لأنه تعالى قدر الجزاء على ثلاثة أوجه ، وجه منها على عشرة أضعاف ، ووجه على سبعمائة ضعف ، ووجه على ما لا نهاية له ، كما قال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] ، الوجه الثالث : وهو قول ابن قتيبة : ﴿ عَطَاء حِسَاباً ﴾ أي كثيراً وأحسبت فلاناً أي أكثرت له ، قال الشاعر :

ونقفي وليد الحي إن كان جائعا . . ونحسبه إن كان ليس بجائع

الوجه الرابع : أنه سبحانه يوصل الثواب الذي هو الجزاء إليهم ويوصل التفضل الذي يكون زائداً على الجزء إليهم ، ثم قال : ﴿ حِسَاباً ﴾ ثم يتميز الجزاء عن العطاء حال الحساب

الوجه الخامس : أنه تعالى لما ذكر في وعيد أهل النار : ﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ ذكر في وعد أهل الجنة جزاء عطاء حساباً أي راعيت في ثواب أعمالكم الحساب ، لئلا يقع في ثواب

أعمالكم بخس ونقصان وتقصير ، والله أعلم بمراده .

المسألة الرابعة :

(11/799)

قرأ ابن قطيب : ﴿ حِسَاباً ﴾ بالتشديد على أن الحساب بمعنى المحسب كالدراك بمعنى المدرك ، هكذا ذكره صاحب "الكشاف" .

واعلم أنه تعالى لما بالغ في وصف وعيد الكفار ووعد المتقين ، ختم الكلام في ذلك بقوله :

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

رب السموات والرحمن ، فيه ثلاثة أوجه من القراءة الرفع فيهما وهو قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو ، والجر فيهما وهو قراءة عاصم وعبد الله بن عامر ، والجر في الأول مع الرفع في الثاني ، وهو قراءة حمزة والكسائي ، وفي الرفع وجوه أحدها : أن يكون رب السموات مبتدأ ، والرحمن خبره ، ثم استؤنف لا يملكون منه خطاباً وثانيها : رب السموات مبتدأ ، والرحمن صفة ولا يملكون خبره وثالثها : أن يضمر المبتدأ والتقدير هو : ﴿ رَبّ

السموات ﴾ هو ﴿ الرحمن ﴾ ثم استؤنف : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ ورابعها : أن يكون ﴿ الرحمن ﴾ و ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ خبرين وأما وجه الجر فعلى البدل من ربك ، وأما وجه جر الأول ، ورفع الثاني فجر الأول بالبدل من ربك ، والثاني مرفوع بكونه مبتدأ وخبره لا يملكون .

المسألة الثانية :

(12/799)

الضمير في قوله : ﴿ ويملكون ﴾ إلى من يرجع ؟ فيه ثلاثة أقوال : الأول : نقل عطاء عن ابن عباس إنه راجع إلى المشركين يريد لا يخاطب المشركون أما المؤمنون فيشفعون يقبل الله ذلك منهم والثاني : قال القاضي : إنه راجع إلى المؤمنين ، والمعنى أن المؤمنين لا يملكون أن يخاطبوا الله في أمر من الأمور ، لأنه لما ثبت أنه عدل لا يجور ، ثبت أن العقاب الذي أوصله إلى الكفار عدل ، وأن الثواب الذي أوصله المؤمنين عدل ، وأنه ما يخسر حقهم ، فبأي سبب يخاطبونه ، وهذا القول أقرب من الأول لأن الذي جرى قبل هذه الآية ذكر المؤمنين لا ذكر الكفار والثالث : أنه ضمير لأهل السموات والأرض ، وهذا هو الصواب ، فإن أحداً من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله ومكالمته .

وأما الشفاعات الواقعة بإذنه فغير واردة على هذا الكلام لأنه نفى الملك والذي يحصل بفضله وإحسانه ، فهو غير مملوك ، فثبت أن هذا السؤال غير لازم ، والذي يدل من جهة العقل على أن أحداً من المخلوقين لا يملك خطاب الله وجوه الأول : وهو أن كل ما سواء فهو مملوكه والمملوك لا يستحق على مالكه شيئاً وثانيها : أن معنى الاستحقاق عليه ، هو أنه لو لم يفعل لاستحق الذم .

ولو فعله لاستحق المدح ، وكل من كان كذلك كان ناقصاً في ذاته ، مستكملاً بغيره وتعالى الله عنه وثالثها : أنه عالم بقبح القبيح ، عالم بكونه غنياً عنه ، وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح ، وكل من امتنع كونه فاعلاً للقبيح ، فليس لأحد أن يطالبه بشيء ، وأن يقول له لم فعلت .

والوجهان الأولان مفرعان على قول أهل السنة ، والوجه الثالث يتفرع على قول المعتزلة فثبت أن أحداً من المخلوقات لا يملك أن يخاطب ربه ويطالب إلهه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 19 . 22 ﴾

(13/799)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾

ذَكَر جزاء من اتقى مخالفة أمر الله "مَفازاً" موضع فوز ونجاة وخلاص مما فيه أهل النار .

ولذلك قيل للفُلاة إذا قل ماؤها : مفازة ، تفاؤلاً بالخلاص منها .

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ هذا تفسير الفوز .

وقيل : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ إن للمتقين حدائقَ ؛ جمع حديقة ، وهي البستان المُحَوَّط عليه ؛ يقال أحدق به : أي أحاط .

والأعناب : جمع عنب ، أي كروم أعناب ، فحذف .

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ﴾ كواعِب : جمع كاعِب وهي الناهد ؛ يقال : كَعَبَت الجارية تَكْعَب كُعوباً ، وكَعَّبت تُكَعِّب تكعِيباً ، ونَهَدت تَنْهَد نُهوداً .

وقال الضحاك : ككواعب العَذارَى ؛ ومنه قول قيس بن عاصم :

وكْم مِن حَصانٍ قد حَوَينا كريمةٍ . . .

ومِن كاعِبٍ لم تدرِما البؤسُ مُعْصِرِ

والأتراب : الأقران في السنّ .

وقد مضي في سُورة "الواقعة" الواحد : ترب .

﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس : مُتْرعة مملوءة ؛ يقال :

أدهقت الكأس : أي ملأتها ، وكأس دِهاق أي ممتلِئة ؛ قال :

ألا فاسقِني صِرْفاً سقانِي الساقِي . . .

مِن مائِها بِكأسك الدّهاقِ

وقال خِداَش بن زُهَير :

أتانا عامِرٌ يبغِي قِرانَاً . . .

فأَتْرعْنا له كأساً دِهاقاً

وقال سعيد بن جُبير وعِكرمة ومجاهد وابن عباس أيضاً : متتابعة ، يَتبع بعضُها بعضاً ؛ ومنه ادَّهَقتِ الحِجارة ادهاقا ، وهو شدّة تلازُبها ودخول بعضها في بعض ؛ فالمتتابع كالمتداخل .

وعن عِكرمة أيضاً وزيد بن أسَلم : صافية ؛ قال الشاعر :

لأَنتِ إلى الفؤادِ أحبُّ قرباً . . .

مِن الصادِي إلى كأسٍ دِهاقِ

وهو جمع دَهَقَ ، وهو خشبتان يغمز بهما (الساق) .

والمراد بالكأس الخمر ، فالتقدير : خمراً ذات دهاق ، أي عُصِرت وصُفِّيت ؛ قاله القشيريّ .

وفي الصحاح: وأَدْهَقْت الماء: أي أفرغته إفراغاً شديداً: قال أبو عمرو: والدَّهَق بالتحريك: ضرب من العذاب.

وهو بالفارسية أَشْكَنْجَهْ.

المبرد: والمدهوق: المعذَّب بجميع العذاب الذي لا فُرجة فيه.

ابن الأعرابي: دَهَقْت الشيء كسرته وقطعته؛ وكذلك دَهْدَقْته: وأنشد لحُجْر بن خالد:

نُدَهْدِق بَضْعَ اللحمِ للباعِ والندَى . . .

وبعضُهُمُ تغلي بذمٍّ مَنَاقِعُهْ

ودَهْمَقته بزيادة الميم: مثله.

وقال الأصمعي: الدهمقة: لِين الطعام وطِيبهُ ورِقته، وكذلك كل شيء ليّن؛ ومنه حديث عمر: لو شئت أن يُدهْمَقَ لي لفعلت، ولكن الله عاب قوماً فقال: ﴿ أَذهبتم طيباتِكم فِي حَياتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِها ﴾ [الأحقاف: 20].

قوله تعالى: ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ اللغو: الباطل، وهو ما يُلْغَى من الكلام ويُطَّرَح؛ ومنه الحديث: "إذا قلت لصاحبك أنصِت يوم الجمعة والإِمام يخطب فقد لَغَوْت" وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم يتكلموا بلغو؛

بخلاف أهل الدنيا .

"ولا كِذّاباً" : تقدم ، أي لا يُكَذِّب بعضهم بعضاً ، ولا يسمعون كذباً .

وقرأ الكسائي "كِذَاباً" بالتخفيف من كَذَبْت كِذَاباً أي لا يتكاذَبُون في الجنة .

وقيل : هما مصدران للتكذيب ، وإنما خففها ها هنا لأنها ليست مقيَّدة بفعل يصير مصدراً له ، وشدّد قوله : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ لأن كذبوا يقيد المصدر بالكذَّاب .

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ ﴾ نصب على المصدر .

لأن المعنى جزاهم بما تقدّم ذكرُه ، جَزَاءَه وكذلك ﴿ عَطَآءً ﴾ لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد .

أي أعطاهم عطاء .

﴿ حِسَاباً ﴾ أي كثيراً ؛ قاله قتادة ؛ يقال : أَحْسَبْت فلاناً : أي كَثَّرت له العطاء حتى قاله حَسْبِي .

قال :

ونُقْفِي وَلِيدَ الحيِّ إن كان جائعاً . . .

ونُحْسِبُهُ إن كان ليس بجائعِ

(15/799)

وقال القُتَبِيّ : ونرى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حَسْبِي .

وقال الزجاج : "حِسابا" أي ما يكفيهم .

وقاله الأخفش .

يقال : أَحسبني كذا : أي كَفاني .

وقال الكلبيّ : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً .

مجاهد : حساباً لما عملوا ، فالحساب بمعنى العدّ .

أي بقدر ما وجب له في وعد الرب ، فإنه وعد للحسنة عشراً ، ووعد لقوم بسبعمائة ضِعْف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مِقدار ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] .

وقرأ أبو هاشم "عَطاء حَسَّاباً" بفتح الحاء ، وتشديد السين ، على وزن فَعَّال أي كَفافاً ؛ قال الأصمعيّ : تقول العرب : حَسَّبْت الرجل بالشديد : إذا أكرمته ؛ وأنشد قول الشاعر :

إذا أتاهُ ضيفُه يُحسِّبهْ . . .

وقرأ ابن عباس "حساناً" بالنون .

قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن ﴾ :

قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب ، والمفضل عن عاصم : "رَبُّ" بالرفع على الاستئناف ، "الرحمنُ" خبره .

أو بمعنى : هو رب السموات ، ويكون "الرحمن" مبتدأ ثانياً .

وقرأ ابن عامر ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض ، نعتاً لقوله : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي جزاء من ربك رب السموات الرحمنِ .

وقرأ ابن عباس وعاصم وحمزة والكسائي : "رَبِّ السموات" خفضاً على النعت ، "الرحمن" رفعاً على الابتداء ، أي هو الرحمن .

واختاره أبو عُبيد وقال : هذا اعدلُها ؛ خفض "رَبِّ" لقربه من قوله ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ فيكون نعتاً له ، ورفع "الرحمن" لبعده منه ، على الاستئناف ، وخبرهُ ﴿ لاَيَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ أي لا يملكون أن يسألوه إلاّ فيما أَذِن لهم فيه .

وقال الكسائي : "لا يملِكون مِنه خِطابا" بالشفاعة إلا بإذنه .

وقيل : الخطاب : الكلام ؛ أي لا يملكون أن يخاطبوا الربَّ سبحانه إلا بإذْنه ؛ دليله : ﴿ لا تَكَلَّم نفس إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105] .

(16/799)

وقيل : أراد الكفار "لا يملكُون منه خِطاباً" ، فأمّا المؤمنون فيَشْفَعُون .

قلت : بعد أن يُؤْذن لهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه : 109] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(17/799)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾

شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين أثر بيان سوء أحوال الكافرين ومفازاً مصدر ميمي أو اسم مكان أي أن للذين يتقون عمل الكفر فوزاً وظفراً بمساعيهم أو موضع فوز وقيل نجاة مما في أولئك أو موضع نجاة .

﴿ حَدَائِقَ ﴾ بدل اشتمال من مفازاً على الأول وبدل البعض على الثاني والرابط مقدر وتقديره حدائق فيه أو هي في محله أو نحو ذلك وجوز أن يكون بدل كل على الادعاء أو منصوباً باعني مقدراً وهو جمع حديقة وهي بستان فيها أنواع الشجر المثمر زاد بعضهم والرياحين والزهر وقال الراغب قطعة من الأرض ذات ماء سميت بذلك تشبيهاً بحدقة

العين في الهيئة وحصول الماء فيها وكأنه أراد ذات ماء وشجر ﴿ وأعنابا ﴾ جمع عنب ويقال للكرم نفسه ولثمرته والمتبادر عطفه على حدائق قبله وهو بعض منها إذا أريد به الكروم وبها الأشجار وموضعها وخص بالذكر اعتناء به وأما إن أريد به الكروم وبها الموضع فقط فلا ويتعين الاشتمال كما إذا أريد به ثمرات الكرون وجوز أن يكون هو وكذا ما بعد عطف على ﴿ مفازاً ﴾ .

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير ويكون ذلك في سن البلوغ وأحسن التسوية ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي لذات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر أو لوقوعهن معاً على التراب أي الأرض وفي بعض التفاسير نساء الجنة كلهن بنات ست عشرة سنة ورجالهن أبناء ثلاث وثلاثين .

﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي مترعة يقال دهق فلان الحوض وأدهقه أي ملأه وروى عن ابن عباس أنه فسره بذلك وأنشد قول الشاعر

: أتانا عامر يبغي قرانا . . .

فاترعنا له كأسا دهاقا

(18/799)

وفي البحر الدهاق الملأى مأخوذ من الدهق وهو ضغبط الشيء وشده باليد كأنه لامتلائه انضغط وعن مجاهد وجماعة تفسيره بالمتتابعة وصحح الحاكم عن ابن عباس ما رواه غير واحد أنه قال هي الممتلئة المترعة المتتابعة وربما سمعت العباس يقول يا غلام اسقنا وأدهق لنا وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنه قال أي صافية ولا يخلو عن كدر والجمهور على الأول . ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة وقيل في الكأس وجعلت الفاء للسببية ﴿ لَغْواً ﴾ هو ما لا يعتد به من الكلام وهو على ما قال الراغب الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً وكذا ما لا يعتد به مطلقاً ﴿ وَلاَ كِذَّاباً ﴾ أي تكذيباً وقرىء بالتخفيف أي كذاباً أو مكاذبة وقد تضمنت هذه المذكورات أنواعاف من الذات الحسية كما لا يخفى .

(19/799)

﴿ جَزَاء مّن رَّبِّكَ ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى ﴿ أن للمتقين مفازاً ﴾ [النبأ : 31] فإنه في قوة أن يقال جازى المتقين بمفازا جزاء كائناً من ربك والتعرض لعنوان الربوبية للإشارة إلى أن ذلك حصل بترتيبه وإرشاده تعالى وإضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دونهم لتشريفه صلى الله عليه وسلم وقيل لم يقل من ربهم لئلا يحملهم المشكرون

على أصنامهم وهو بعيد جداً ويعلم مما ذكرنا وجه ترك من ربك فيما تقدم من قوله تعالى ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ [النبأ : 26] وعدم التعرض هناك لنسبة الجزاء إليه تعالى بعنوان آخر قيل من باب اللهم أن الخير بيديك والشر ليس إليك وقوله تعالى : ﴿ عَطَاء ﴾ أي تفضلاً وإحساناً منه عز وجل إذ لا يجب عليه سبحانه شيء بدل من جزاء فمعنى كونه جزاء أنه كذلك بمقتضى وعده جل وعلا وجوز أن يكون نصباً بجزاء نصب المفعول به وتعقبه أبو حيان بأن جزاء مصدر مؤكد لمضمون الجملة والمصدر المؤكد لا يعمل بلا خلاف نعلمه عند النحة لأنه لا ينحل لفعل وحرف مصدري ورد بأن ذلك إذا كان الناصب للمفعول المطلق مذكور أما إذا حذف مطلقاً ففيه خلاف هل هو العامل أو الفعل وقال الشهاب الحق ما قال أبو حيان لأن المذكور هنا هو المصدر المؤكد لنفسه أو لغيره والذي اختلف فيه النحاة هو المصدر الآتي بدلاً من اللفظ بفعله

.

كندلا زريق المال ندل الثعالب . . .

وقوله

: يا قابل التوب غفرانا ما آثم قد . . .

أسلفتها أنا منها خائف وجل

فليعرف وقوله تعالى : ﴿ حِسَاباً ﴾ صفة عطاء بمعنى كافياً على أنه مصدر أقيم مقام الوصف أو بولغ فيه أو هو على تقدير مضاف وهو مأخوذ من قولهم أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي وقيل على حسب أعمالهم أي مقسطاً على قدرها وروى ذلك عن مجاهد وكان المراد مقسطاً بعد التضعيف على ذلك فيندفع ما قيل إنه غير مناسب لتضعيف الحسنات ولذا لم يقل وفاقاً كما في السابق ودفع أيضاً بأن هذا بيان لما هو الأصل لا للجزاء مطلقاً وقيل المعنى عطاء مفروغاً عن حسابه لا كنعم الدنيا وتعقب بأنه بعيد عن اللفظ مع ما فيه من الإيهام وقرأ ابن قطيب حساباً بفتح الحاء وشد السين قال ابن جني نبي فعالا من أفعل كدراك من أدرك فمعناه محسباً أي كافياً ومنع بعضهم مجيء فعالاً من الأفعال ودراك من درك فليحرر وقرأ شريح بن يزيد الحمصي وأبو البرهسم بكسر الحاء وشد السين على أن مصدر ككذاب وقرأ ابن عباس حسناً بالنون من الحسن وحكى المهدوى حسباً بفتح الحاء وسكون السين والباء الموحدة نحو قولك حسبك كذا أي كافيك .

(21/799)

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بدل من لفظ ﴿ ربك ﴾ وفي إبداله تعظيم لا يخفى وإيماء على ما قيل إلى ما روى في كتب الصوفية من الحديث القدسي لولاك لما خلقت الأفلاك وقوله تعالى : ﴿ الرحمن ﴾ صفة لربك أو لرب السموات على الأصح عند المحققين من جواز وصف المضاف إلى ذي اللام بالمعرف بها وجوز أن يكون عطف بيان وهل يكون بدلاً من لفظ ربك قال في "البحر" فيه نظر لأن الظاهر أن البدل لا يتكرر وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ استئناف مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة واستقلالاً له تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد قدرة عليه والقراءة كذلك مروية عن عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم وقرأ الأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان برفع الاسمين فقيل على أنهما خبران لمبتدأ مضمر أي هو رب السموات الخ وقيل الأول هو الخبر والثاني صفة له أو عطف بيان وقيل الأول مبتدأ والثاني خبره ولا يملكون منه خبر آخر أو هو الخبر والثاني نعت للأول أو عطف بيان وقيل لا يملكون حال لازمة وقيل الأول مبتدأ أول والثاني مبتدأ ثان ولا يمركون خبره والجملة خبر للأول وحصل الربط بتكرير المبتدا بمعناه على رأي من يقول به واختير أن يكون كلاهما مرفوعاً على المدح أو يكون الثاني صفة للأول ولا يملكون استئنافاً على حاله لما في ذلك من توافق القراءتين معنى وقرأ الأخوان والحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما بجر الأول على ما سمعت ورفع الثاني على الابتداء

والخبر ما بعده أو على أنه خبر لمبتدا مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثان وضمير لا يملكون لأهل السموات والأرض ومنه بيان لخطاباً مقدم عليه أي لا يملكون أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم كما ينبىء عنه لفظ الملك خطاباً ما في شيء ما والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه عز وجل بشيء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير

(22/799)

إذنه تعالى على أبلغ وجه وآكده وجوز أن يكون منه صلة يملكون ومن ابتدائية والمعنى لا يملكون من الله تعالى خطاباً واحداً أي لا يملكهم الله تعالى ذلك فلا يكون في أيديهم خطاب يتصرفون فيه تصرف الملك فيزيدون في الثواب أو ينقصون من العقاب وهذا كما تقول ملكت منه درهماً وهو أقل تكلفاً وأظهر من جعل منه حالاً من خطاباً مقدماً وإضمار مضاف أي خطاباً من خطاب الله تعالى فيكون المعنى لا يملكون خطاباً واحداً من جملة ما يخاطب به الله تعالى ويأمر به في أمر الثواب والعقاب وظاهر كلام البيضاوي حمل الخطاب على خطاب الاعتراض عليه سبحانه في ثواب أو عقاب ومنه على ما سمعت منا أولاً أي لا يملكون خطابه تعالى والاعتراض عليه سبحانه في ثواب أو عقاب لأنهم مملوكون له عز وجل على الإطلاق فلا يستحقون عليه سبحانه اعتراضاً أصلاً وأياً كان فالآية لا تصلح

دليلاً على نفي الشفاعة بإذنه عز وجل وعن عطاء عن ابن عباس أن ضمير لا يملكون للمشركين وعدم الصلاحية عليه أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(23/799)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) ﴾

جرى هذا الانتقال على عادة القرآن في تعقيب الإنذار للمنذَرين بتبشير من هم أهل للتبشير .

فانتقل من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أُعدَّ لهم في الآخرة من كرامة ومن سلامة مما وقع فيه أهل الشرك .

فالجملة متصلة بجملة ﴿ إن جهنّم كانت مرصاداً للطاغين مئاباً ﴾ [النبأ : 21 22]

وهي مستأنفة استئنافاً ابتدائياً بمناسبة مُقتضِي الانتقال .

وافتتاحها بحرف ﴿ إنَّ ﴾ للدلالة على الاهتمام بالخبر لئلا يشك فيه أحد .

والمقصود من المتقين المؤمنون الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه لأنهم المقصود من مقابلتهم بالطاغين المشركين .

والمفاز : مكان الفوز وهو الظفَر بالخير ونيل المطلوب .

ويجوز أن يكون مصدراً ميمياً بمعنى الفوز ، وتنوينُه للتعظيم .

وتقديم خبر ﴿ إن ﴾ على اسمها للاهتمام به تنويهاً بالمتقين .

والمراد بالمفاز : الجنة ونعيمها .

وأوثرت كلمة ﴿ مفازاً ﴾ على كلمة : الجنة ، لأن في اشتقاقه إثارة الندامة في نفوس المخاطبين بقوله : ﴿ فتأتون أفواجاً ﴾ [النبأ : 18] وبقوله : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ [النبأ : 30] .

وأُبدل ﴿ حدائق ﴾ من ﴿ مفازاً ﴾ بدلَ بعض من كل باعتبار أنه بعض من مكان الفوز ، أو بدل اشتمال باعتبار معنى الفوز .

والحدائق : جمع حديقة وهي الجنة من النخيل والأشجار ذواتِ الساق المحوطة بحائط أو جدار أو حضائر .

والأعناب : جمع عِنَب وهو اسم يطلق على شَجرة الكَرْم ويطلق على ثمرها .

والكواعب : جمع كاعِب ، وهي الجارية التي بلغت سن خمس عشرة سنة ونحوها .

ووصفت بكاعب لأنها تكعَّب ثديُها ، أي صار كالكعب ، أي استدار ونتأ ، يقال : كَعَبَتْ من باب قَعَد ، ويقال : كَعَّبت بتشديد العين ، ولما كان كاعب وصفاً خاصاً بالمرأة لم تلحقه هاء التأنيث وجمع على فواعل .

والأتراب : جمع ترب بكسر فسكون : هو المساوي غيره في السِنّ ، وأكثر ما يطلق على الإناث .

قيل : هو مشتق من التراب فقيل لأنه حينَ يولد يقع على التراب مِثل الآخر ، أو لأن التِرْب ينشأ مع لِدَته في سنّ الصِّبا يلعب بالتراب .

وقيل : مشتق من الترائب تشبيهاً في التساوي بالترائب وهي ضلوع الصدر فإنها متساوية .

وتقدم الأتراب في قوله تعالى : ﴿ عرباً أتراباً ﴾ في الواقعة (37) ، فيجوز أن يَكون وصفهن بالأتراب بالنسبة بينهن في تساوي السن لزيادة الحسن ، أي لا تفوت واحدة منهن غيرها ، أي فلا تكون النفس إلى إحداهن أميل منها إلى الأخرى فتكون بعضهن أقل مسرة في نفس الرجل .

ويجوز أن يكون هذا الوصف بالنسبة بينهن وبين أزواجهن لأن ذلك أحب إلى الرجال في معتاد أهل الدنيا لأنه أوفق بطرح التكلف بين الزوجين وذلك أحلى المعاشرة .

والكأس : إناء معدّ لشرب الخمر وهو اسم مؤنث تكون من زجاج ومن فضة ومن ذهب ،

وربما ذكر في كتب اللغة أن الكأس الزجاجة فيها الشرابُ ، ولم أقف على أن لها شكلاً معيّناً يميزها عن القَدَح وعن الكُوب وعن الكوز ، ولم أجد في قواميس اللغة التعريف بالكأس بأنها : إناء الخمر وأنها الإِناء ما دام فيه الشراب .

وهذا يقتضي أنها لا تختص بصنف من الآنية .

وقد يطلقون على الخمر اسم الكأس وأريد بالكأس الجنس إذا المعنى : وأكوساً .

وعُدل عن صيغة الجمع لأن كأساً بالإفراد أخف من أكوس وكووس ولأن هذا المركّب جرى مجرى المثل كما سيأتي .

ودهاق : اسم مصدر دهق من باب جعل أو اسم مصدر أدهق ، ولكونه في الأصل مصدراً لم يقترن بعلامة تأنيث .

والدهق والإِدهاق ملء الإِناء من كثرة ما صبّ فيه .

ووصفُ الكأس بالدهق من إطلاق المصدر على المفعول كالخلق بمعنى المخلوق فإن الكأس مدهقة لا داهقة .

(25/799)

ومركب (كأس دهاق) يَجري مجرى المثل قال عِكرمة : قال ابن عباس : سمعتُ أبي في الجاهلية يقول : اسْقِنَا كأساً دِهاقاً ، ولذلك أفرد كأساً ، ومعناه مملوءة خمراً ، أي دون تقتير لأن الخمر كانت عزيزة فلا يكيل الحَانَوِي للشارب إلا بمقدار فإذا كانت الكأس ملأى كان ذلك أسر للشارب .

وقوله : لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ يجوز أن يكون الضمير المجرور عائداً إلى الكأس ، فتكون (في) للظرفية المجازية بتشبيه تناول الندامى للشراب من الكأس بحلولهم في الكأس على طريق المَكْنية ، وحرف (في) تخييل أو تكون (في) للتعليل كما في الحديث : " دخلت امرأةٌ النارَ في هِرة " الحديث ، أي من أجل هرة .

والمعنى : لا يسمعون لغواً ولا كذَّاباً منها أو عندها ، فتكون الجملة صفة ثانية ل"كأساً" .

والمقصود منها أن خمر الجنة سليمة مما تسببه خمر الدنيا من آثار العربدة من هذَيان ، وكذب وسباب ، واللغو والكذب من العيوب التي تعرض لمن تَدب الخمر في رؤوسهم ، أي فأهل الجنة ينعمون بلذة السكر المعروفة في الدنيا قَبل تحريم الخمر ولا تأتي الخمر على كمالاتهم النفسية كما تأتي عليها خمر الدنيا .

وكان العرب يمدحون من يُمسك نفسه عن اللغو ونحوه في شرب الخمر ، قال عمارة بن الوليد :

ولَسْنَا بشرْب أم عَمرو إذا انتشوا . . .

ثيابُ الندامَى بينهم كالغنائم

ولكننا يا أم عمرو نديمُنا . . .

بمنزلة الرَّيان ليس بِعَائم

وكان قيس بن عاصم المنقري ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وقال:

فإن الخمر تفضَح شاربيها . . .

وتجنيهم بها الأمرَ العظيما

ويجوز أن يعود ضمير ﴿ فيها ﴾ إلى ﴿ مفازاً ﴾ باعتبار تأويله بالجنة لوقوعه في مقابلة ﴿ جهنم ﴾ من قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ [النبأ : 21] أو لأنه أبدل ﴿ حدائق ﴾ من ﴿ مفازاً ﴾ .

(26/799)

وهذا المعنى نشأ عن أسلوب نظم الكلام حيث قدم ﴿ حدائق وأعناباً ﴾ الخ ، وأخّر ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ حتى إذا جاء ضمير (فيها) بعد ذلك جاز إرجاعه إلى الكأس وإلى المفاز كما علمت .

وهذا من بديع الإيجاز مع وفرة المعاني مما عددناه من وجوه الإعجاز من جانب الأسلوب

في المقدمة العاشرة من هذا التفسير ، أي لا يسمعون في الجنة الكلام السافِل ولا الكذب ، فلما أحاط بأهل جهنم أشدُّ الأذى بجميع حواسهم من جراء حرق النار وسقيهم الحميم والغساق لينال العذاب بواطنهم كما نال ظاهر أجسادهم ، كذلك نفى عن أهل الجنة أقل الأذى وهو أذى سماع ما يكرهه الناس فإن ذلك أقل الأذى .

وكني عن انتفاء اللغو والكِذّاب عن شاربي خمر الجنة بأنهم لا يسمعون اللغو والكذاب فيها لأنه لو كان فيها لغو وكذب لسمعوه وهذا من باب قول امرىء القيس:

على لاَحبٍ لا يهتدى بمناره . . .

أي لا منار به فيهتدى به ، وهو نوع من لطيف الكناية ، والذي في الآية أحسن مما وقع في بيت امرىء القيس ونحوه لأن فيه إيماء إلى أن أهل الجنة منزهة أسماعهم عن سقط القول وسفل الكلام كما في قوله في سورة الواقعة (25) ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً .

﴾ واللغو : الكلام الباطل والهذيان وسقط القول الذي لا يورد عن روية ولا تفكير .

والكِذَّاب : تقدم معناه آنفاً .

وقرأ الجمهور : كِذَّاباً ﴾ هنا مشدداً ، وقرأه الكسائي هنا بتخفيف الذال .

وانتصب ﴿ جزاء ﴾ على الحال من ﴿ مفازاً ﴾ .

وأصل الجزاء مصدر جَزَى ، ويطلق على المُجَازى به من إطلاق المصدر على المفعول ، فالجزاءُ هُنا المجازَى به وهو الحدائق والجنات والكواعب والكأس .

والجزاء : إعطاء شيء عوضاً على عمل .

ويجوز أن يجعل الجزاء على أصل معناه المصدري وينتصب على المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعلٍ مقدر .

والتقدير : جزيْنا المتقين .

(27/799)

وإضافة ربّ إلى ضمير المخاطب مراداً به النبي صلى الله عليه وسلم للإيماء إلى أن جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لأن إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل إيمانهم به وعملهم بما هداهم إليه .

و﴿ من ﴾ ابتدائية ، أي صادراً من لدن الله ، وذلك تنويه بكرم هذا الجزاء وعظم شأنه .

ووصفُ الجزاء بعطاء وهو اسم لمُعطَى ، أي يتفضل به بدون عوض للإشارة إلى أن ما جوزوا به أوفرُ مما عملوه ، فكان ما ذكر للمتقين من المفاز وما فيه جزاء شكراً لهم وعطاءً كرماً من الله تعالى وكرامة لهذه الأمة إذ جعل ثوابها أضعافاً .

و﴿ حساباً ﴾ : اسم مصدر حَسب بفتح السين يحسُب بضمها ، إذا عَدّ أشياء وجميع

ما تصرف من مادة حسب متفرع عن معنى العدّ وتقديرِ المقدار ، فوقع ﴿ حساباً ﴾ صفة ﴿ جزاء ﴾ ، أي هو جزاء كثير مقدَّر على أعمالهم .

والتنوين فيه للتكثير ، والوصف باسم المصدر للمبالغة وهو بمعنى المفعول ، أي محسوباً مقدراً بحسب أعمالهم ، وهذا مقابل ما وقع في جزاء الطاغين من قوله ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ [النبأ : 26] .

وهذا الحساب مجمل هنا يبينه قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] وقوله : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللَّه كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ البقرة (261) .

وليس هذا الحساب للاحتراز عن تجاوز الحد المعيَّن ، فذلك استعمال آخر كما في قوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : 10] ولكل آية مقامها الذي يجري عليه استعمال كلماتها فَلا تعارض بين الآيتين .

ويجوز أن يكون ﴿ حساباً ﴾ اسم مصدر أحْسَبَه ، إذا أعطاه ما كفاه ، فهو بمعنى إحساباً ، فإن الكفاية يطلق عليها حَسْب بسكون السين فإنه إذا أعطاه ما كفاه قال : حسبي .

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37)

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر برفع ﴿ ربُّ ﴾ ورفع ﴿ الرحمنُ ﴾ ، وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بخفضهما ، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بخفض ﴿ رب ﴾ ورفع ﴿ الرحمنُ ﴾ ، فأما قراءة رفع الاسمين ف ﴿ رب ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو ضميرٌ يعود على قوله : ﴿ من ربك ﴾ [النبأ : 36] على طريقة حذف المسند إليه حَذفاً سماه السكاكي حذْفاً لاتباع الاستعمال الوارد على تركه ، أي في المقام الذي يجري استعمال البلغاء فيه على حذف المسند إليه ، وذلك إذا جرى في الكلام وصف ونحوه لموصوف ثم ورد ما يصلح أن يكون خبراً عنه أو أن يكون نعتاً له فيختار المتكلم أن يجعله خبراً لا نعتاً ، فيقدر ضمير المنعوت ويأتي بخبر عنه وهو ما يسمى بالنعت المقطوع .

والمعنى : إن ربك هو ربهم لأنه رب السماوات والأرض وما بينهما ولكن المشركين عبدوا غيره جهلاً وكفراً لنعمته .

و ﴿ الرحمنُ ﴾ خبر ثان .

وأما قراءة جر الاسمين فهي جارية على أن ﴿ رب السموات ﴾ نعت ل ﴿ ربك ﴾ من قوله : ﴿ جزاء من ربك ﴾ [النبأ : 36] و ﴿ الرحمن ﴾ نعت ثان .

والرب : المالك المتصرف بالتدبير ورعي الرفق والرحمة ، والمراد بالسماوات والأرض وما بينهما مسماها مع ما فيها من الموجودات لأن اسم المكان قد يراد به ساكنه كما في قوله

تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ﴾ في سورة الحج (45) ، فإن الظلم من صفات سكان القرية لا صفة لذاتها ، والخواء على عروشها من أحوال ذات القرية لا من أحوال سكانها ، فكان إطلاق القرية مراداً به كلا المعنيين .

والمراد بما بين السماوات والأرض : ما على الأرض من كائنات وما في السماوات من الملائكة وما لا يعلمه بالتفصيل إلا الله وما في الجو من المكونات حية وغيرها من أسحبة وأمطار وموجودات سابحة في الهواء .

و ﴿ ما ﴾ موصولة وهي من صيغ العموم ، وقد استفيد من ذلك تعميم ربوبيته على جميع المصنوعات .

(29/799)

وأتبع وصف ﴿ رب السموات ﴾ بذكر اسم من أسمائه الحسنى ، وهو اسم ﴿ الرحمن ﴾ وخص بالذكر دون غيره من الأسماء الحسنى لأن في معناه إيماء إلى أن ما يفيضه من خير على المتقين في الجنة هو عطاء رحمان بهم .

وفي ذكر هذه الصفة الجليلة تعريض بالمشركين إذ أنكروا اسم الرحمن الوارد في القرآن كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ [الفرقان :

﴿ الرحمن لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ ﴾ .

يجوز أن تكون هذه الجملة حالاً من ﴿ ما بينهما ﴾ لأن ما بين السماوات والأرض يشمل ما في ذلك من المخلوقات العاقلة ، أو المزعوم لها العقل مثل الأصنام ، فيتوهم أن مِن تلك المخلوقات من يستطيع خطاب الله ومراجعته .

ويجوز أن تكون استئنافاً ابتدائياً لإبطال مزاعم المشركين أو للاحتراس لدفع توهم أن ما تشعر به صلة رب من الرفق بالمربوبين في تدبير شؤونهم يسيغ إقدامهم على خطاب الرب .

والمِلك في قوله : ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ معناه القدرة والاستطاعة لأن المالك يتصرف فيما يملكه حسب رغبته لا رغبة غيره فلا يحتاج إلى إذن غيره .

فنفي المِلك نفي للاستطاعة .

وقوله : ﴿ منه ﴾ حال من ﴿ خطاباً ﴾ .

وأصله صفة لخطاب فلما تقدم على موصوفه صار حالاً .

وحرف (مِن) اتصالية وهي ضرب من الابتدائية فهي ابتدائية مجازية كقوله تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من اللَّه من شيء ﴾ [الممتحنة : 4] ف (مِن) الأولى اتصالية والثانية لتوكيد النص ، ومنه قولهم : لستُ منك ولستَ مني وقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من اللَّه في شيء ﴾ [آل عمران : 28] ، أي لا

يستطيعون خطاباً يبلغونه إلى الله .

وضمير ﴿ لا يملكون ﴾ عائد إلى (ما) الموصولة في قوله : ﴿ وما بينهما ﴾ لأنها صادقة على جميعهم .

والخطاب : الكلام الموجّه لحاضر لدى المتكلم أو كالحاضر المتضمن إخباراً أو طلباً أو إنشاء مدح أو ذم .

(30/799)

وفعل ﴿ يملكون ﴾ يعمّ لوقوعه في سياق النفي كما تعمّ النكرة المنفية .

و ﴿ خطاباً ﴾ عام أيضاً وكلاهما من العام المخصوص بمخصص منفصل كقوله عقب هذه الآية ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ [النبأ : 38] وقوله : ﴿ يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ [هود : 105] وقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : 255] وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

والغرض من ذكر هذا إبطالُ اعتذار المشركين حين استشعروا شناعة عبادتهم الأصنام التي شهَّر القرآن بها فقالوا : ﴿ هؤلاء شُفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] ، وقالوا : ﴿

ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(31/799)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الجزاء)

وهو الغَنَاءُ والكفاية والمكافأَة بالشيءِ وما فيه الكفاية من المقابلة إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشرٌّ .

وقد ورد فى القرآن على ستَّة أَوجهٍ :

الأَوّل بمعنى : المكافأَة والمقابلة ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أَى تقابل .

الثَّانى بمعنى : الأَداءِ والقضاءِ ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ أَى لا تَقْضِى ولا تؤدّى .

الثالث بمعنى : الغُنْية والكفاية ﴿ وَاخْشَوْاْ يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ .

الرَّابع بمعنى : العِوَض والبَدَل ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ أَى فبدلُه ومبدله .

الخامس : خَرَاج أَهل الذِّمّة ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ السَّادس بمعنى : ثواب الخير والشرّ ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ثمّ يختلف .

(32/799)

فالجزاءُ على الإِحسان ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ وجزاءُ السيئة ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ والجزاءُ على شكر النّعم ﴿ إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ وجزاءُ الصَّبر على البلاءِ والابتلاءِ ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ وجزاء العمل الصَّالح وكسب الخيرات ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وجزاءُ كسب السيّئات وعمل المعاصى ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وجزاءُ الوَرَع والتَّقوى ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ وجزاءُ عَدَاوَةِ أَهل الحقّ ﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ وجزاءُ القول الباطل ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ وجزاءُ الجامعين بين الإِساءَةِ والإِحسان ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴾

وجزاءٌ على خزائن الخاص ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ وجزاءٌ عطائىّ بلا واسطةِ عِلَّةٍ ووسيلةٍ عنديّة ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ .

وسمّيت ما يؤخذ من أَهل الذِّمة جزية للاجتزاءِ بها فى حَقْنِ دمهم .

ويقال : جازيك فلان أَى كافيك .

قال بعض المفسّرين : لم يجئ إلاَّ جَزَى دون جازى .

وذلك أَنّ المجازاة هى المكافأَة والمكافأَة مقابلة نعمةٍ بنعمةٍ هى كفؤها ، ونعمة الله تتعالى عن ذلك .

ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأَة فى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 380 . 381 ﴾

(33/799)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا ربما أفهم سد باب الشفاعة عنده سبحانه ، وكان الكلام إنما ينشأ من الروح ، وكان الملائكة أقرب شيء إلى الروحية ، أكد هذا المعنى مزيلاً ما قد يوهمه في الشفاعة سواء قلنا : إن الروح هنا جنس أم لا ، فقال ذاكراً ظرف "لا يتكلمون" ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ أي هذا الجنس أو خلق من خلق الله عظيم الشأن جداً ، قيل : هو الملك الموكل بالأرواح أو جبرائيل عليه السلام ، أو القرآن المشار إليه بمثل قوله تعالى ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ [القدر : 4] ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] قاله ابن زيد ﴿ والملائكة ﴾ أي كلهم ، ونبه بالاصطفاف على شدة الأمر فقال : ﴿ صفاً ﴾ للقاء ما في ذلك اليوم من شدائد الأهوال ولحفظ الثقلين وهم في وسط دائرة صفهم من الموج والاضطراب لعظيم ما هم فيه ، ثم زاد الأمر عظماً بذكر العامل في لا يوم فقال : ﴿ لا يتكلمون ﴾ أي من تقدم كلهم بأجمعهم فيه بكلمة واحدة مطلق كلام خطاباً كان أي في أمر عظيم أو لا ، لا له سبحانه ولا لغيره أصلاً ولا أحد منهم ، ويجوز أن يكون هذا حالاً لهؤلاء الخواص فيكون الضمير لهم فغيرهم بطريق الأولى ﴿ إلا من أذن له ﴾ أي في الكلام إذناً خاصاً ﴿ الرحمن ﴾ أي الملك الذي لا تكون نعمه على أحد من خلقه إلا منه ﴿ وقال صواباً ﴾ فإن لم يحصل الأمر إن لم يقع الكلام من أحد منهم أصلاً ، وهذا كالدليل على آية الخطاب بأنه إذا كان الروح والقريب منه بهذه

المثابة في حال كل من حضره كان أحوج ما يكون إلى الكلام فما الظن بغيرهم ؟ وهم في غيره كذلك بطريق الأولى وغيرهم فيه وفي غيره من باب الأولى ، وأما في الدنيا فإنه وإن كان لا يتكلم أحد إلا بإذنه لكنه قد يتكلم بالخطأ .

ولما عظم ذلك اليوم بالسكوت خوفاً من ذي الجبروت ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ [طه : 108] أشار إليه بما يستحقه زيادة في عظمته فقال :

﴿ ذلك ﴾ أي المشار إليه لبعد مكانته وعظم رتبته وعلو منزلته ﴿ اليوم الحق ﴾ أي في اليومية لكونه ثابتاً في نفسه فلا بد من كونه ولا زوال له ثوبتاً لا مرية فيه لعاقل وثابتاً كل ما أثبته وباطلاً كل ما نفاه .

ولما قرر من عظمته ما يعجز غيره عن أن يقرر مثله ، وكان قد خلق القوى والقدر والفعل بالاختيار .

(34/799)

فكان من حق كل عاقل تدرع ما ينجى منه ، سبب عن ذلك تنبيهاً على الخلاص منه وحثاً عليه قوله : ﴿ فمن شاء ﴾ أي الاتخاذ من المكلفين الذين أذن لهم ﴿ اتخذ ﴾ أي بغاية جهده ﴿ إلى ربه ﴾ أي خالقه نفسه المحسن إليه أو رب ذلك اليوم باستعمال قواه التي

أعطاه الله إياها في الأعمال الصالحة ﴿ مآباً ﴾ أي مرجعاً هو المرجع مما يحصل له فيه الثواب بالإيمان والطاعة ، فإن الله جعل لهم قوة واختياراً ، ولكن لا يقدر أحد منهم على مشيئة شيء إلا بمشيئة الله .

ولما قدم في هذه السورة من شرح هذا النبأ العظيم ما قدم من الحكم والمواعظ واللطائف والوعد والوعيد ، لخصه في قوله مؤكداً لما لهم من التكذيب : ﴿ إنا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ أنذرناكم ﴾ أي أيها الأمة وخصوصاً العرب بما مضى من هذه السورة وغيرها ﴿ عذاباً ﴾ ولما كان لا بد من إتيانه وكونه سواء كان بالموت أو بالبعث ، وكان كل ما تحقق إتيانه أقرب شيء قال : ﴿ قريباً ﴾ .

ولما حذر منه ، عين وقته مشدداً لتهويله فقال : ﴿ يوم ينظر المرء ﴾ أي جنسه الصالح منه والطالح نظراً لا مرية فيه ﴿ ما ﴾ أي الذي ﴿ قدمت يداه ﴾ أي كسبه في الدنيا من خير وشر ، وعبر بهما لأنهما محل القدرة فكنى بهما عنها مع أن أكثر ما يعمل كائن بهما مستقلتين به أو مشاركتين فيه خيراً كان أو شراً .

(35/799)

ولما كان التقدير : فيقول المؤمن : يا ليتني قمت قبل هذا ، عطف عليه قوله : ﴿ ويقول الكافر ﴾ أي العريق في الكفر عندما يرى من تلك الأهوال متمنياً محالاً : ﴿ يا ليتني كنت ﴾ أي كوناً لا بد منه ولا يزول ﴿ تراباً ﴾ أي في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف ، أو في هذا اليوم فلم أعذب ، والمراد به الجنس أو إبليس الذي تكبر عن السجود لآدم عليه السلام المخلوق من التراب ، وعظم نفسه بالحمد والافتخار بكونه مخلوقاً من نار ، يقول ذلك عندما يرى ما أعد الله لآدم عليه السلام ولخواص بنيه من الكرامة من النعيم المقيم ، ولهذا المتكبر على خالقه من العذاب الدائم الذي لا يزول ، وعن أبي هريرة وابن عمر ـ رضى الله عنه ـ م أن الله تعالى يقتص يوم البعث للبهائم بعضها من بعض ثم يقول لها : كوني تراباً ، فتكون فيتمنى الكافر مثل ذلك .

فقد علم أن ذلك اليوم في غاية العظمة وأنه لا بد من كونه ، فعلم أن التساؤل عنه للتعجب من كونه من أعظم الجهل ، فرجع آخرها على أولها ، وانعطف مفصلها أي انعطاف على موصلها ، واتصل مع ذلك بما بعدها أي اتصال ، فإن المشرف بالنزع على الموت يرى كثيراً من الأهوال والزلازل والأوجال التي يتمنى لأجلها أنه كان منقطعاً عن لدنيا ليس له بها وصال يوماً من الأيام ولا ليلة من الليال – والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 305 . 307 ﴾

(36/799)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أحداً من الخلق لا يمكنه أن يخاطب الله في شيء أو يطالبه بشيء قرر هذا المعنى ، وأكده فقال تعالى :

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38)

وذلك لأن الملائكة أعظم المخلوقات قدراً ورتبة ، وأكثر قدرة ومكانة ، فبين أنهم لا يتكلمون في موقف القيامة إجلالاً لربهم وخوفاً منه وخضوعاً له ، فكيف يكون حال غيرهم .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

لمن يقول بتفضيل الملك على البشر أن يتمسك بهذه الآية ، وذلك لأن المقصود من الآية أن الملائكة لما بقوا خائفين خاضعين وجلين متحيرين في موقف جلال الله ، وظهور عزته وكبريائه ، فكيف يكون حال غيرهم ، ومعلوم أن هذا الاستدلال لا يتم إلا إذا كانوا أشرف المخلوقات .

المسألة الثانية :

اختلفوا في الروح في هذه الآية ، فعن ابن مسعود أنه ملك أعظم من السموات والجبال .

وعن ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً ، وعن مجاهد : خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون ، وليس بناس ، وعن الحسن وقتادة هم بنو آدم ، وعلى هذا معناه ذو الروح ، وعن ابن عباس أرواح الناس ، وعن الضحاك والشعبي هو جبريل عليه السلام ، وهذا القول هو المختار عند القاضي .

قال : لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام ، وثبت أن القيام صحيح من جبريل والكلام صحيح منه ، ويصح أن يؤذن له فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه ، أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام .

(37/799)

أما قوله : ﴿ صَفًّا ﴾ فيحتمل أن يكون المعنى أن الروح على الاختلاف الذي ذكرناه ، وجميع الملائكة يقومون صفاً واحداً ، ويجوز أن يكون المعنى يقومون صفين ، ويجوز صفوفاً ، والصف في الأصل مصدر فينبىء عن الواحد والجمع ، وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين ، فيقوم الروح وحده صفاً ، وتقوم الملائكة كلهم صفاً واحداً ، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم ، وقال بعضهم : بل يقومون صفوفاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالملك

صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] .

المسألة الثالثة : الاستثناء إلى من يعود ؟ فيه قولان :

أحدهما : إلى الروح والملائكة ، وعلى هذا التقدير ؛ الآية دلت على أن الروح والملائكة لا يتكلمون إلا عند حصول شرطين إحداها : حصول الإذن من الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] والمعنى أنهم لا يتكلمون إلا بإذن الله .

(38/799)

والشرط الثاني : أن يقول : صواباً ، فإن قيل : لما أذن له الرحمن في ذلك القول ، علم أن ذلك القول صواب لا محالة ، فما الفائدة في قوله : ﴿ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ ؟ والجواب من وجهين : الأول : أن الرحمن أذن له في مطلق القول ثم إنهم عند حصول ذلك الإذن لا يتكلمون إلا بالصواب ، فكأنه قيل : إنهم لا ينطلقون إلا بعد ورود الإذن في الكلام ، ثم بعد ورود ذلك الإذن يجتهدون ، ولا يتكلمون إلا بالكلام الذي يعلمون أنه صدق وصواب ، وهذا مبالغة في وصفهم بالطاعة والعبودية الوجه الثاني : أن تقديره : لا يتكلمون إلا في حق ﴿ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ والمعنى لا يشفعون إلا في حق شخص أذن له الرحمن في شفاعته

وذلك الشخص كان ممن قال صواباً ، واحتج صاحب هذا التأويل بهذه الآية على أنهم يشفعون للمذنبين لأنهم قالوا صواباً وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، لأن قوله : ﴿ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ يكفي في صدقه أن يكون قد قال صواباً واحداً ، فكيف بالشخص الذي قال القول الذي هو أصوب الأقوال وتكلم بالكلام الذي هو أشرف الكلمات القول الثاني : أن الاستثناء غير عائد إلى الملائكة فقط بل إلى جميع أهل السموات والأرض ، والمقول الأول أولى لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى .

واعلم أنه تعالى لما قرر أحوال المكلفين في درجات الثواب والعقاب ، وقرر عظمة يوم القيامة قال بعده :

﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾

(39/799)

ذلك إشارة إلى تقدم ذكره ، وفي وصف اليوم بأنه حق وجوه أحدها : أنه يحصل فيه كل الحق ، ويندمغ كل باطل ، فلما كان كاملاً في هذا المعنى قيل : إنه حق ، كما يقال : فلان خير كله إذا وصف بأن فيه خيراً كثيراً ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ يفيد أنه هو اليوم الحق وما عداه باطل ، لأن أيام الدنيا باطلها أكثر من حقها وثانيها : أن الحق هو الثابت

الكائن ، وبهذا المعنى يقال إن الله حق ، أي هو ثابت لا يجوز عليه الفناء ويوم القيامة كذلك فيكون حقاً وثالثها : أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يستحق أن يقال له يوم ، لأن فيه تبلى السرائر وتنكشف الضمائر ، وأما أيام الدنيا فأحوال الخلف فيها مكتومة ، والأحوال فيها غير معلومة .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ مَآباً ﴾ أي مرجعاً ، والمعتزلة احتجوا به على الاختيار والمشيئة ، وأصحابنا رووا عن ابن عباس أنه قال : المراد فمن شاء الله به خيراً هداه حتى يتخذ إلى ربه مآباً .

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)

ثم إنه تعالى زاد في تخويف الكفار فقال : ﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني العذاب في الآخرة ، وكل ما هو آت قريب ، و (هو) كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ [النازعات : 46] وإنما سماه إنذاراً ، لأنه تعالى بهذا الوصف قد خوف منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما في قوله : ﴿ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فيه وجهان الأول : أنها استفهامية منصوبة بقدمت ، أي ينظر أي شيء قدمت يداه الثاني : أن تكون بمعنى الذي وتكون منصوبة ينتظر ، والتقدير : ينظر إلى الذي قدمت يداه ، إلا أن على هذا التقدير حصل فيه حذفان أحدهما : أنه لم يقل : قدمته ، بل قال : ﴿ قَدَّمْتُ ﴾ فحذف الضمير الراجع الثاني : أنه لم يقل : ينظر إلى ما قدمت ، بل قال : ينظر ما قدمت ، يقام نظرته بمعنى نظرت إليه .

المسألة الثانية :

في الآية ثلاثة أقوال : الأول : وهو الأظهر أن المرء عام في كل أحد ، لأن المكلف إن كان قدم عمل المتقين ، فليس له إلا الثواب العظيم ، وإن كان قدم عمل الكافرين ، فليس له إلا العقاب الذي وصفه الله تعالى ، فلا رجاء لمن ورد القيامة من المكلفين في أمر سوى هذين ، فهذا هو المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فطوبى له إن قدم عمل الأبرار ، وويل له إن قدم عمل الفجار والقول الثاني : وهو قول عطاء : أن المر ههنا هو الكافر ، لأن المؤمن كما ينظر إلى ما قدمت يداه ، فكذلك ينظر إلى عفو الله ورحمته وأما الكافر الذي لا يرى إلا العذاب ، فهو لا يرى إلا ما قدمت يداه ، لأن ما وصل إليه من العقاب ليس إلا من شؤم معاملته والقول الثالث : وهو قول الحسن ، وقتادة أن المرء ههنا هو المؤمن ، واحتجوا عليه بوجهين الأول : أنه تعالى قال بعد هذه الآية ، ﴿ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ ترابا ﴾ فلما كان

هذا بياناً لحال الكافر ، وجب أن يكون الأول بياناً لحال المؤمن والثاني : وهو أن المؤمن لما قدم الخير والشر فهو من الله تعالى على خوف ورجاء ، فينتظر كيف يحدث الحال ، أما الكافر فإنه قاطع بالعقاب ، فلا يكون له انتظار أنه كيف يحدث الأمر ، فإن مع القطع لا يحصل الانتظار .

المسألة الثالثة :

(41/799)

القائلون : بأن الخير يوجب الثواب والشر يوجب العقاب تمسكوا بهذه الآية ، فقالوا : لولا أن الأمر كذلك ، وإلا لم يكن نظر الرجل في الثواب والعقاب على عمله بل على شيء آخر والجواب عنه : أن العمل يوجب الثواب والعقاب ، لكن بحكم الوعد والجعل لا بحكم الذات .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ ترابا ﴾ ففيه وجوه : أحدها : أن يوم القيامة ينظر المرء أي شيء قدمت يداه ، أما المؤمن فإنه يجد الإيمان والعفو عن سائر المعاصي على ما قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ وأما الكافر فلا يتوقع العفو على ما قال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ ياليتني كُنتُ

ترابا ﴾ أي لم يكن حياً مكلفاً وثانيها : أنه كان قبل البعث تراباً ، فالمعنى على هذا . يا ليتني لم أبعث للحساب ، وبقيت كما كنت تراباً ، كقوله تعالى : ﴿ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ [الحاقة : 27] وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض ﴾ [النساء : 42] وثالثها : أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها بعد المحاسبة : كوني تراباً فيتمنى الكافر عند ذلك أن يكون هو مثل تلك البهائم في أن يصير تراباً ، ويتخلص من عذاب الله وأنكر بعض المعتزلة ذلك .

(42/799)

وقال : إنه تعالى إذا أعادها فهي بين معوض وبين متفضل عليه ، وإذا كان كذلك لم يجز أن يقطعها عن المنافع ، لأن ذلك كالإضرار بها ، ولا يجوز ذلك في الآخرة ، ثم إن هؤلاء قالوا : إن هذه الحيوانات إذا انتهت مدة أعواضها جعل الله كل ما كان منها حسن الصورة ثواباً لأهل الجنة ، وما كان قبيح الصورة عقاباً لأهل النار ، قال القاضي : ولا يمتنع أيضاً إذا وفر الله أعواضها وهي غير كاملة العقل أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ذلك ضرراً ورابعها : ما ذكره بعض الصوفية فقال قوله : ﴿ ياليتني كُنتُ ترابا ﴾ معناه يا ليتني كنت متواضعاً في طاعة الله ولم أكن متكبراً متمرداً وخامسها : الكافر إبليس

يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : 76] والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 22.25 ﴾

(43/799)

وقال ابن عطية في الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾

ولما ذكر تعالى أمر أهل النار عقب بذكر أهل الجنة ليبين الفرق . و" المفاز " : موضع الفوز لأنهم زحزحوا على النار وأدخلوا الجنة . و" الحدائق " : البساتين التي عليها حلق وجدارات وحظائر . و ﴿ أتراباً ﴾ معناه : على سن واحدة ، والتربان هما اللذان مسا التراب في وقت واحد ، و" الدهاق " : المترعة فيما قال الجمهور ، وقال ابن جبير معناه : المتتابعة وهي من الدهق ، وقال عكرمة : هي الصفية ، وفي البخاري قال ابن عباس : سمعت أبي في الجاهلية يقول للساقي : اسقنا كأساً دهاقاً ، و" اللغو " : سقط الكلام وهو ضروب ، وقد تقدم القول في ﴿ كذاباً ﴾ إلا أن الكسائي من السبعة قرأ في هذا الموضع "

كذَاباً " بالتخفيف وهو مصدر ، ومنه قول الأعشى : [مجزوء الكامل]

فصدقتها وكذبتها . . . والمرء ينفعه كذابه

(44/799)

واختلف المتأولون : في قوله : ﴿ حساباً ﴾ ، فقال جمهور المفسرين واللغويين معناه : محسباً ، كافياً في قولهم أحسبني هذا الأمر أي كفاني ، ومنه حسبي الله ، وقال مجاهد معناه : إن ﴿ حساباً ﴾ معناه بتقسط على الأعمال لأن نفس دخول الجنة برحمة الله وتفضله لا بعمل ، والدرجات فيها والنعيم على قدر الأعمال ، فإذا ضاعف الله لقوم حسناتهم بسبعمائة مثلاً ومنهم المكثر من الأعمال والمقل أخذ كل واحد سبعمائة بحسب عمله وكذلك في كل تضعيف ، فالحساب ها هو موازنة أعمال القوم . وقرأ الجمهور " حِسَاباً " : بكسر الحاء وتخفيف السين المفتوحة ، وقرأ ابن قطب " حَسّاباً " : بفتح الحاء وشد الشين . قال أبو الفتح جاء بالاسم من أفعل على فعال ، كما قالوا أدرك فهو : دراك ، فقرأ ابن عباس وسراج : " عطاء حسناً " بالنون من الحسن وحكى عنه المهدوي أنه قرأ " حَسْباً " بفتح الحاء وسكون السين والباء ، وقرأ شريح بن يزيد الحمصي : " حِسَّاباً " بكسر الحاء وشد السين المفتوحة ، وقرأ نافع وأبو عمرو والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأهل

الحرمين : " ربُّ " بالرفع ، وكذلك " الرحمنُ " ، وقرأ ابن عامر وعاصم وابن مسعود وابن أبي إسحاق وابن محيصن والأعمش " رب " وكذلك " الرحمن " وقرأ حمزة والكسائي " ربِّ " : بالخفض و " الرحمنُ " بالرفع وهي قراءة الحسين وابن وثاب وابن محيصن بخلاف عنه ووجوه هذه القراءات بينة ، وقوله تعالى : ﴿ لا يملكون ﴾ الضمير للكفار أي ﴿ لا يملكون ﴾ من أفضاله وأجماله أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها ، وهذا في مواطن خاص .

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38)

(45/799)

اختلف الناس في ﴿ الروح ﴾ المذكورة في هذا الموضع ، فقال الشعبي والضحاك : هو جبريل عليه السلام ذكره خاصة من بين الملائكة تشريفاً ، وقال ابن مسعود : هو ملك كريم أكبر الملائكة خلقة يسمى ب ﴿ الروح ﴾ ، وقال ابن زيد : كان أبي يقول هو القرآن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] أي من أمرنا .

(46/799)

قال القاضي أبو محمد : فالقيام فيه مستعار يراد ظهوره مثول آثاره ، والأشياء الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه ومع هذا ففي القول قلق ، وقال مجاهد : ﴿ الروح ﴾ خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " الروح خلق غير الملائكة لهم حفظة للملائكة كما الملائكة حفظة لنا " ، وقال ابن عباس والحسن وقتادة : ﴿ الروح ﴾ هنا اسم جنس : يراد به أرواح بني آدم والمعنى يوم تقوم الروح في أجسادها إثر البعث والنشأة الآخرة ، ويكون الجميع من الإنس والملائكة ﴿ صفاً ﴾ ولا يتكلم أحد هيبة وفزعاً ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ من ملك أو نبي وكان أهلاً أن يقول ﴿ صواباً ﴾ في ذلك الموطن ، وقال ابن عباس : الضمير في ﴿ يتكلمون ﴾ عائد على الناس خاصة و" الصواب " المشار إليه لا إله إلا الله ، قال عكرمة أي قالها في الدنيا . وقوله تعالى : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي الحق كونه ووجوده ، وفي قوله : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه ﴾ مكاناً وعد ووعيد وتحريض ، و" المآب " المرجع وموضع الأوبة ، والضمير الذي هو الكاف والميم في ﴿ أنذركم ﴾ هو لجميع العالم وإن كانت المخاطبة لمن حضر النبي صلى الله عليه وسلم من الكفار ، و" العذاب القريب " : عذاب الآخرة ، ووصفه بالقرب لتحقق وقوعه وأنه آت وكل آت قريب الجمع داخل في النذارة منه ، ونظر المرء إلى ﴿ ما قدمت يداه ﴾ من عمل قيام الحجة عليه ، وقال ابن عباس ﴿ المرء ﴾ هنا المؤمن ، وقرأ ابن ابي إسحق : " المُرء " بضم الميم وضعفها أبو حاتم ، وقوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني

كنت تراباً ﴾ قيل إن هذا تمنٍّ أن يكون شيئاً حقيراً لا يحاسب ولا يلتفت إليه ، وهذا قد نجده في الخائفين من المؤمنين فقد قال عمر بن الخطاب : ليتني كنت بعرة ، وقال أبو هريرة وعبد الله بن عمر : إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص لبعضها من بعض ثم يقول لها من بعد ذلك : كوني تراباً ، فيعود جميعها تراباً ،

(47/799)

فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله ، قال أبو القاسم بن حبيب : رأيت في بعض التفاسير أن ﴿ الكافر ﴾ هنا إبليس إذا رأى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ ، أي كآدم الذي خلق من تراب واحتقره هو أولاً .

نجز تفسير سورة ﴿ النبأ ﴾ والحمد لله حق حمده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(48/799)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾

"يومَ" نصب على الظرف ؛ أي يوم لا يملِكون منه خطاباً يومَ يقوم الروح .

واختلف في الروح على أقوال ثمانية : الأوّل أنه مَلَك من الملائكة .

قال ابن عباس : ما خلق الله مخلوقاً بعد العرش أعظم منه ، فإذا كان يومُ القيامة قام هو وحده صفّاً ، وقامت الملائكة كلهم صفّاً ، فيكون عِظَمُ خَلْقه مثل صفوفهم .

ونحو منه عن ابن مسعود ؛ قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع ، ومن الأرضين السبع ، ومن الجبال .

وهو حِيال السماء الرابعة ، يسبحُ اللَّهَ كل يوم اثنتي عشرة ألفَ تسبيحة ؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً ، فيجيء يوم القيامة وحده صفّاً ، وسائر الملائكة صَفاً .

الثاني أنه جبريل عليه السلام .

قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير .

وعن ابن عباس : إن عن يمين العرش نَهْراً من نور ، مثلَ السموات السبع ، والأرضين السبع ، والبحار السبع ، يَدْخل جبريل كل يوم فيه سحراً فيغتسل ، فيزداد نوراً على نوره ، وجمالاً على جماله ، وعظماً على عظمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه سبعين ألفَ مَلَك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً البيت المعمور ، والكعبة سبعون ألفاً لا يعودُون

إليهما إلى يوم القيامة .

وقال وهب : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى تَرعَّدَ فرائصُه ؛ يخلق الله تعالى من كل رَعدة مائة ألف مَلَك ، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى منكسة رؤوسهم ، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا : لا إله إلا أنت ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ في الكلام "وقال صواباً" يعني قول : "لا إله إلا أنت" .

(49/799)

والثالث روى ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الرُّوح في هذه الآية جندٌ من جنود الله تعالى ، ليسوا ملائكة ، لهم رُؤوس وأيد وأرجل ، يأكلون الطعام " ثم قرأ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ ، فإن هؤلاء جُند ، وهؤلاء جُند .

وهذا قول أبي صالح ومجاهد .

وعلى هذا هم خَلْق على صورة بني آدم ، كالناس وليسوا بناس .

الرابع أنهم أشرافِ الملائكة ؛ قاله مقاتل بن حَيّان .

الخامس أنهم حَفَظَة على الملائكة ؛ قاله ابن أبي نجيح .

السادس أنهم بنو آدم ، قاله الحسن وقتادة .

فالمعنى ذوو الروح .

وقال العَوَفي والقُرَظيّ : هذا مما كان يكتمه ابن عباس ؛ قال : الرُّوح : خلق من خلق الله على صور بني آدم ، وما نَزَلَ مَلَك من السماء إلا ومعه واحد من الرُّوح .

السابع أرواح بني آدم تقوم صَفًّا ، فتقوم الملائكة صفّاً ، وذلك بين النفختين ، قبل أن تردّ إلى الأجساد ؛ قاله عَطية .

الثامن أنه القرآن ؛ قاله زيد بن أسلم ، وقرأ ﴿ وكذلك أوحَيْنا إليك رُوحاً مِن أمرِنا ﴾ [الشورى : 52] و "صفًّا" : مصدر أي يقومون صُفوفاً .

والمصدر ينبيء عن الواحد والجمع ، كالعدل والصوم .

ويقال ليوم العيد : يوم الصف .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] هذا يدل على الصفوف ، وهذا حينَ العرض والحساب .

قال معناه القُتَبيُّ وغيره .

وقيل : يقوم الروح صفاً ، والملائكة صفاً ، فهم صفان .

وقيل : يقوم الكل صفاً واحداً .

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ أي لا يشفَعون ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ في الشفاعة ﴿ وَقَالَ صَوَاباً

﴿ يعني حقًّا ؛ قاله الضحاك ومجاهد .

وقال أبو صالح : لا إله إلا الله .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يَشفعون لمن قال لا إله إلا الله .

وأصل الصواب : السداد من القول والفعل ، وهو من أصاب يصيب إصابة ؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة .

(50/799)

وقيل : "لا يتكلمون" يعني الملائكة والرُّوح الذين قاموا صفاً ، لا يتكلمون هيبة وإجلالاً "إلا من أذِن له الرحمنُ" في الشفاعة وهم قد قالوا صوابا ، وأنهم يوحِّدون الله تعالى ويسبحونه .

وقال الحسن : إن الرُّوح يقول يوم القيامة : لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة ، ولا النار إلا بالعمل .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ أي الكائن الواقع ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ مَآباً ﴾ أي مرجعاً بالعمل الصالح ؛ كأنه إذا عمل خيراً ردّه إلى الله عز وجل ، وإذا عمل شراً عده منه .

ويَنْظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام :

" والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك " وقال قتادة : "مآباً" : سبيلاً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ : يخاطب كفار قريش ومشركي العرب ؛ لأنهم قالوا : لا نبعث .

والعذاب عذاب الآخرة ، وكل ما هو آتٍ فهو قريب ، وقد قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] قال معناه الكلبي وغيره .

وقال قتادة : عقوبة الدنيا ؛ لأنها أقرب العذابين .

قال مقاتل : هي قتلُ قريش ببدْر .

والأظهر أنه عذاب الآخرة ، وهو الموت والقيامة ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته ، فإن كان من أهل الجنة رأى مَقعدَه من الجنة ، وإن كان من أهل النار رأى الخِزْي والهوان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ بَيَّن وقت ذلك العذاب ؛ أي أنذرناكم عذاباً قريباً في ذلك اليوم ، وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، أي يراه ، وقيل : ينظر إلى ما قدمت فحذف إلى .

والمرء ها هنا المؤمن في قول الحسن ؛ أي يجد لنفسه عملاً ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً ، فيتمنى أن يكون تراباً .

ولما قال : ﴿ وَيَقُولُ الكافر ﴾ علم أنه أراد بالمرء المؤمن .

وقيل : المرء ها هنا : أبيّ خلف وعُقْبة بن أبي مُعَيط .

"ويقول الكافِر" أبو جهل .

وقيل : هو عام في كل أحد وإنسان يَرَى في ذلك اليوم جزاء ما كَسَب .

وقال مُقاتل : نزلت قوله "يوم ينظر المرء ما قدمت يداه" في أبي سَلَمة بن عبد الأسَد المخزوميّ ﴿ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ : في أخيه الأسود بن عبد الأسد .

وقال الثعلبيّ : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر : ها هنا إبليس ، وذلك أنه عاب آدم بأنه خُلِق من تراب ، وافتخر بأنه خُلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة ، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب ، تمنى أنه يكون بمكان آدم ، ف "يقول ياليتِني كنت ترابا" قال : ورأيته في بعض التفاسير للقُشَيري أبي نصر .

وقيل : أي يقول إبليس ياليتني خُلِقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم .

وعن ابن عمر : إذا كان يومُ القيامة مُدَّتِ الأرض مَدَّ الأدِيم ، وحُشِر الدوابُّ والبهائم والوحوش ، ثم يوضعُ القِصاص بين البهائم ، حتى يُقْتَص للشاة الجمَّاء من الشاة القَرْناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القِصاص بينها قيل لها : كوني تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ .

ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم .

وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة ، بأحوال الموتى وأمور الآخرة" ، مجوداً والحمد لله .

ذكر أبو جعفر النّحاس : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع ، قال حدثنا سَلَمة بن شبيب ، قال حدثنا عبد الرازق ، قال حدثنا مَعْمر ، قال أخبرني جعفر بن بَرْقان الجَزَريّ ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة ، قال : إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان ، ثم يقال للبهائم والطير كوني تراباً ، فعند ذلك "يقول الكافر : ياليتني كنتُ تُرابا" .

(52/799)

وقال قوم : "ياليتنِي كنت ترابا" : أي لم أبعث ، كما قال : ﴿ ياليتني لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 25] وقال أبو الزّناد : إذا قُضِي بين الناس ، وأُمِر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهلِ النار إلى النار ، قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ : عودُوا تراباً ، فيعودن تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم "ياليتني كنت ترابا" .

وقال ليث بن أبي سليم : مؤمنو الجنّ يعودون تراباً .

وقال عمر بن عبد العزيز والزهريّ والكلبيّ ومجاهد : مؤمنو الجِنةِ حول الجنة في رَبَضٍ ورِحاب وليسوا فيها .

وهذا أصح ، وقد مضى في سورة "الرحمن" بيان هذا ، وأنهم مكلَّفون : يُثابون ويعاقبون ، فهم كبني آدم ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(53/799)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾

شروعٌ في بيانِ محاسنِ أحوالِ المؤمنينَ إثرَ بيانِ سوءِ أحوالِ الكفرةِ أي إنَّ للذينَ يتقونَ الكفرَ وسائرَ قبائحِ أعمالِ الكفرةِ فوزاً وظفراً بمباغيهم أو موضعَ فوزٍ وقيلَ : نجاةً ممَّا فيه أولئكَ أو موضعَ نجاةٍ . وقولُه تعالى : ﴿ حَدَائِقَ وأعنابا ﴾ أيْ بساتينَ فيها أنواعُ الأشجارِ المثمرةِ وكروماً بدلٌ منْ مفازاً .

﴿ وكَوَاعِبَ ﴾ أي نساءٌ فلكتْ ثُديهنَّ وهُنَّ النَّواهدُ ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي لداتٍ ﴿ وكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي مُترعةً يقال أدهقَ الحوضَ أي ملأهُ ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي في الجنةِ وقيل : في الكأسِ ﴿ لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ أي لا ينطقونَ بلغوٍ ولا يكذبُ بعضُهم بعضاً . وقُرِىءَ كِذاباً بالتخفيفِ أي لا يكذبُه أو لا يكاذبُه ﴿ جَزَاء مِّن رَّبِّكَ ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ منصوبٌ بمعنى أنَّ للمتقينَ مفازاً فإنه في قوةِ أنْ يقالَ جازَى المتقينَ بمفازٍ جزاءً كائناً من ربِّك والتعرضُ لعنوانِ

الربوبيةِ المنبئةِ عن التبليغِ إلى الكمالِ شيئاً فشيئاً مع الإضافةِ إلى ضميرِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مزيدُ تشريفٍ لهُ صلى الله عليه وسلم ﴿ عَطَاء ﴾ أي تفضلاً وإحساناً منه تعالَى إذْ لا يجبُ عليهِ شيءٌ وهو بدلٌ من جزاءً ﴿ حِسَاباً ﴾ صفةٌ لعطاءً بمعنى كافياً على أنَّه مصدرٌ أقيمَ مقامَ الوصفِ أو بُولغَ فيه من أحسبهُ الشيءُ إذا كفاهُ حتَّى قال حَسْبي وقيلَ : على حسبِ أعمالِهم وقُرِىءَ حِسَّاباً بالتشديدِ على أنَّه بمعْنى المُحسبِ كالدارك بمعنى المدركِ .

(54/799)

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بدلٌ من ربّك وقولُه تعالَى : ﴿ الرحمن ﴾ صفةٌ له وقيلَ : صفةٌ للأولِ وأياً ما كانَ ففي ذكرِ ربوبيتِه تعالى للكلِّ ورحمتِه الواسعةِ إشعارٌ بمدارِ الجزاءِ المذكورِ . وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ استئنافٌ مقررٌ لما أفادَهُ الربوبيةُ العامةُ من غايةِ العظمةِ والكبرياءِ واستقلالِه تعالى ما ذُكِرَ من الجزاءِ والعطاءِ من غيرِ أنْ يكونَ لأحدٍ قدرةٌ عليهِ . وقُرِىءَ برفعِهما فقيلَ على أنَّهما خبرانِ لمبتدأٍ مضمرٍ وقيلَ : الثَّانِي نعتٌ للأولِ وقيلَ : الأَولُ مبتدأٌ والثاني خبرُهُ ولا يملكونَ خبرٌ آخرُ أو هو الخبرُ والرحمنُ صفةٌ للأولِ ، وقيلَ : لا يملكونَ حالٌ لازمةٌ وقيلَ : الأولُ مبتدأٌ والرحمنُ مبتدأٌ ثانٍ

ولا يملكونَ خبرُهُ والجملةُ خبرٌ للأولِ ، وحصلَ الربطَ بتكريرِ المبتدأِ بمعناهُ على رأيِ مَنْ يقولُ بهِ والأوجهُ أنْ يكونَ كلاهُما مرفوعاً على المدحِ أو يكونَ الثانِي نعتاً للأولِ ولا يملكونَ استئنافاً على حالِه ففيهِ ما ذُكرَ من الإشعارِ بمدارِ الجزاءِ والعطاءِ كما في البدليةِ لما أنَّ المرفوعَ أو المنصوبَ مدحاً تابعٌ لما قبلَهُ مَعْنى وإنْ كانَ مَنقطعاً عنه إعراباً كما فُصّلَ في قولِه تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ من سورةِ البقرةِ وقُرِىءَ بجرِّ الأولِ على البدليةِ ورفعِ الثانِي على الابتداءِ والخبرُ ما بعدَهُ أو على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ مضمرٍ وما بعدَهُ استئنافٌ أو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ وضميرُ لا يملكونَ لأهلِ السمواتِ والأرضِ أي لا يملكونَ أنْ يخاطبُوه تعالَى من تلقاءِ أنفسِهم كما ينبىءُ عنه لفظُ الملكِ خطاباً مَا في شيءٍ مَا والمرادُ نفيُ قدرتِهم على أنْ يخاطبُوه تعالَى بشيءٍ من نقضِ العذابِ أو زيادةِ الثوابِ من غيرِ إذنِه على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وقيلَ ليسَ في أيديهم مِمَّا يخاطبُ اللهُ بهِ ويأمرُ به في أمرِ الثوابِ

(55/799)

والعقابُ خطابٌ واحدٌ يتصرفونَ فيه تصرفَ الملاّكِ فيزيدونَ فيهِ أو ينقصونَ منْهُ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ قيلَ : الروحُ خلقٌ أعظمُ من الملائكةِ وأشرفُ منهم وأقربُ من ربِّ العالمينَ وقيل : هو مَلكٌ ما خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ بعدَ العرشِ خلقاً أعظمَ منْهُ . عنِ ابنٍ

عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا أَنَّه إذا كانَ يومُ القيامةِ قامَ هو وحدَهُ صَفّاً والملائكةُ كُلُّهم صفاً .

وعنْهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : الروحُ جندٌ من جنودِ الله تعالى ليسُوا ملائكةً لهم رؤوسٌ وأيدٍ وأرجلٌ يأكلونَ الطعامَ ثُمَّ قرأَ يومَ يقومُ الروحُ الآيةَ . وهذَا قولُ أبي صالحٍ ومجاهدٍ قالُوا ما ينزلُ من السماءِ ملكٌ إلا ومعه واحدٌ منُهم نقلَهُ البغويُّ . وقيل : هم أشرافُ الملائكةُ وقيلَ : هم حفظةٌ على الملائكةِ وقيلَ : جبريلُ عليهِ السَّلامُ . وصفَّا حالٌ أي مصطفينَ قيلَ : هما صفَّانِ الروحُ صفٌّ واحدٌ أو متعددٌ والملائكةُ صفٌّ وقيلَ : صفوفٌ وهو الأوفقُ لقولِه تعالى :

(56/799)

﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ وقيلَ : يقومُ الكُلُّ صفّاً وَاحِداً . ويومَ ظرفٌ لقولِه تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ . وقولِه تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ بدلٌ من ضميرِ لا يتكلمونَ ، العائدِ إلى أهلِ السمواتِ والأرضِ الذينَ من جُملتهم الروحُ والملائكةُ . وذكرُ قيامِهم واصطفافِهم لتحقيق عظمةِ سلطانِه وكبرياءِ ربوبيتِه وتهويلِ يومِ البعثِ الذي عليهِ مدارُ الكلامِ من مطلعِ السورةِ الكريمةِ إلى مقطعِها . والجملةُ استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ قولِه تعالى لا يملكونَ الخ ومؤكدٌ على مَعْنى أنَّ أهلَ السمواتِ والأرضِ إذَا لم يقدرُوا يومئذٍ على أنْ

يتكلمُوا بشيءٍ من جنسِ الكلامِ إلاَّ مَنْ أذنَ اللهُ تعالى له منُهم في التكلمِ وقال ذلكَ المأذونُ له قولاً صواباً أي حقّاً فكيفَ يملكون خطابَ ربِّ العزةِ مع كونه أخصَّ من مطلق الكلامُ وأعزَّ منه مراماً لا على معنى أنَّ الروحَ والملائكةَ مع كونِهم أفضلَ الخلائقِ وأقربَهم من الله تعالى إذا لم يقدرُوا أنْ يتكلمُوا بما هُو صوابٌ من الشفاعة لمن ارتضَى إلا بإذنه فكيفَ يملكُه غيرُهم كما قيلَ فإنَّه مؤسسٌ على قاعدة الاعتزالِ فمن سلكَهُ مع تجويزه أنْ يكونَ يومَ ظرفاً للايملكونَ فقد اشتبَه عليهِ الشؤونُ واختلطَ به الظنونُ وقيلَ : إلا من أذنَ الخ منصوبٌ على أصلِ الاستثناءِ والمَعْنى لا يتكلمونَ إلا في حقِّ شخصٍ أذنَ له الرحمنُ وقالَ ذلكَ الشخصُ صواباً أي حقّاً هُو التوحيدُ وإظهارُ الرحمنِ في موضعِ الإضمارِ للإيذانِ بأنَّ مناطَ الإذنِ هو الرحمةُ البالغةُ لا أنَّ أحداً يستحقُّه عليهِ سبحانَه وتعالَى .

(57/799)

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى يوم قيامِهم على الوجه المذكورِ وما فيه من مَعْنى البعدِ مع قُربِ العهدِ المشارِ إليه للإيذانِ بعلوِ درجتِه وبعدِ منزلتِه في الهولِ والفخامةِ ومحلُّه الرفعُ على الابتداءِ خبرُهُ ما بعدَهُ أي ذلكَ اليومُ العظيمُ الذي يقومُ فيه الروحُ والملائكةُ مصطفينَ غيرَ قادرينَ هُم وغيرُهم على التكلمِ من الهيبةِ والجلالِ ﴿ اليوم الحق ﴾ أي الثابتُ المتحققُ لا

محالةَ من غيرِ صارفٍ يلويهِ ولا عاطفٍ يثنيهِ والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى ربِّهِ مَآباً ﴾ فصيحةٌ تفصحُ عن شرطٍ محذوفٍ ، ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ لوقوعِها شرطاً وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ وانتفاءِ الغرابةِ في تعلقِه بها حسبَ القاعدةِ المستمرةِ وإلى ربِّه متعلقٌ بمآباً قدمَ عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصلِ كأنَّه قيلَ : وإذا كانَ الأمرُ كما ذُكرَ منْ تحققِ اليومِ المذكورِ لا محالةَ فمن شاءَ أن يتخذَ مرجعاً إلى ثوابِ ربِّه الذي ذُكِرَ شأنُه العظيمُ فعلَ ذلكَ بالإيمانِ والطاعةِ . وقالَ قَتَادةُ : مآباً أي سبيلاً ، وتعلقُ الجارِّ به لما فيه من مَعْنى الإفضاءِ والإيصالِ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ مَنِ استطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً . ﴾ ﴿ إِنَّا أنذرناكم ﴾ أيْ بمَا ذُكرَ في السورةِ من الآياتِ الناطقةِ بالبعث وبمَا بعدَهُ من الدَّواهي أو بها وبسائر القوارعِ الواردةِ في القرآن ﴿ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ هو عذابُ الآخرةِ وقربُه لتحققِ إتيانِه حَتْماً ولأنَّه قريبٌ بالنسبةِ إليه تعالى ، وإنْ رَأَوْه بعيداً وسيرونَهُ قريباً لقولِه تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ وعن قَتَادَةَ : هو عقوبةُ الدُّنيا لأنَّه أقربُ العذابينِ وعن مقاتلٍ : هو قتلُ قريشٍ يومَ بدرٍ ويأباهُ قولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فإنَّه إما بدلٌ من عذاباً أو ظرفٌ لمضمرٍ

(58/799)

هو صفةٌ له أي عذاباً كائناً يومَ ينظرُ المرءُ أي شاهدُ ما قدمَهُ من خيرٍ أو شرَ على أنَّ مَا موصولةٌ منصوبةٌ بينظرُ ، والعائدُ محذوفٌ أو ينظرُ أيَّ شيءٍ قدمتْ يداهُ على أنَّها استفهاميةٌ منصوبةٌ بقدمتْ وقيلَ : المرءُ عبارةٌ عن الكافر وما في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الكافر ياليتنى كُنتُ ترابا ﴾ ظاهرٌ وضعَ موضعَ الضميرِ لزيادةِ الذمِّ قيلَ : معنى تمنيهِ ليتني كنتُ تراباً في الدُّنيا فلم أُخلقْ ولم أُكلَّف أو ليتني كنتُ تُراباً في هذا اليومِ فلم أُبعثْ وقيلَ : يحشرُ اللهُ تعالى الحيوانَ فيقتصُّ للجمَّاءِ من القرناءِ ثم يردُّه تراباً فيودُّ الكافرُ حالَه وقيلَ : الكافرُ إبليسُ يَرَى آدمَ وولدَهُ وثوابَهُم فيتمنَّى أنْ يكونَ الشيءَ الذي احتقرَهُ حينَ قالَ : خلقتني من نارٍ وخلقتَهُ من طينٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(59/799)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾

قيل الروح خلق أعظم من لملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين وقيل هو ملك ما خلق الله عز وجل بعد العرض خلقاً أعظم منه عن ابن عباس أنه إذا كالن يوم القيامة قام هو وحده صفاً والملائكة صفاً وعن الضحاك أنه لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة عليهم السلام

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الروح جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة لهم رؤس وأيد وأرجل " وفي رواية يأكلون الطعام ثم قرأ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ وقال هؤلاء جند وهؤلاء جند وروى القول بهذا عن مجاهد وأبي صالح وقيل هم أشراف الملائكة وقيل هم حفظة الملائكة وقيل ملك موكل على الأرواح قال في الاحياء الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجسام فإنه يتنفس فيكون في كل نفس من أنفاسه روح في جسم وهو حق يشاهده أرباب القلوب ببصائرهم وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك أنه جبريل عليه السلام وهو قول لابن عباس فقد أخرج هو عنه أيضاً أنه قال أن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله تعالى يقول سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك وأن ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب أما سمعت قول الله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفاً وفي رواية البيهقي في الأسماء والصفات عنه أن المراد به أرواح الناس وأن قيامها مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجساد وهو خلاف الظاهر في الآية جداً ولعله لا يصح عن الحبر وقيل القرآن وقيامه مجاز عن ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز مع ما لا يخفى ولم يصح عندي فيه هنا شيء ويوم ظرف ل"لايملكون" وصفاً حال أي مصطفين قيل هما صفان الروح

صف واحد أو متعدد والملائكة صف آخر وقيل صفوف وهو الأوفق لقوله تعالى : ﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] وقيل : ﴿ يَوْمَ

(60/799)

يَقُومُ الروح والملائكة الالهة إلها واحدا ﴾ وجوز أن يكون ظرفاً لقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ بدل من ضمير لا يتكلمون وهو عائد إلى أهل السموات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة وذكر قيامهم مصطفين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياءي ربوبيته عز وجل وتهويل يوم البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها والجملة استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ الخ ومؤكد له على معنى أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا حينئذ أن يتكلموا بشيء من جنس الكلام إلا من أذن الله تعالى له منهم في التكلم مطلقاً وقال ذلك المأذون له بعد الإذن في مطلق التكلم قولاً صواباً أي حقاً من الشفاعة لمن ارتضى فكيف يملكون خطاب رب العزة جل جلاله مع كونه أخص من مطلق الكلام وأعز منه مراماً وجوز أن يكون ضمير لا يتكلمون إلى الروح والملائكة والكلام مقرر لمضمون قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ الخ أيضاً لكن على معنى أن الروح والملائكة مع

كونهم أفضل الخلائق وأقربهم من الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما هو صواب من الشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه فكيف يملكه غيرهم وذكره بعض أهل السنة فتعقب بأنه مبني على مذهب الاعتزال من كون الملائكة عليهم السلام أفضل من البشر مطلقاً وأنت تعلم أن من أهل السنة أيضاً من ذهب إلى هذا كأبي عبد الله الحليمي والقاضي أبي بكر الباقلاني والإمام الرازي ونسب إلى القاضي البيضاوي وكلامه في التفسير هنا لا يخلو عن إغلاق وتصديق من تصدى لتوجيهه وأطالوا في ذلك على أن الخلاف في أفضليتهم بمعنى كثرة الثواب وما يترتب عليها من كونهم أكرم على الله تعالى وأحبهم إليه سبحانه لا بمعنى قرب المنزلة ودخول حظائر القدس ورفع ستارة الملكوت بالإطلاع على ما غاب عنا والمناسبة في النزاهة وقلة الوسائط ونحو ذلك فإنهم بهذا

(61/799)

الاعتبار أفضل بلا خلاف وكلام ذلك البعض يحتمل أن يكون مبنياً عليه وهذا كما نشاهده من حال خدام الملك وخاصة حرمه فإنهم أقرب إليه من وزرائه والخارجين من أقربائه وليسوا عنده بمرتبة واحدة وإن زادوا في التبسط والدلال عليه وعن ابن عباس أن ضمير لا يتكلمون للناس وجوز أن يكون الأمن أذن الخ منصوباً على أصل الاستثناء

والمعنى لا يتكلمون إلا في حق شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص في الدنيا صواباً أي حقاً هو التوحيد وقول لا إله إلا الله كما روى عن ابن عباس وعكرمة وعليه قيل يجوز أن يكون قال صواباً في موضع الحال ممن بتقدير قد أو بدونه لا عطفاً على إذن ومن الناس من جوز الحالية على الوجه الأول أيضاً لكن من ضمير يتكلمون باعتبار كل واحد أو باعتبار المجموع وظن أن قول بعضهم المعنى لا يتكلمون بالصواب إلا بإذنه لا يتم بدون ذلك وفيه ما فيه وقيل جملة لا يتكلمون حال من الروح والملائكة أو من ضميرهم في صفاً والجمهور على ما تقدم وإظهار الرحمن في موقع الإضمار للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة لا أن أحداً يستحقه عليه سبحانه وتعالى كما أن ذكره فيما تقدم للإشارة إلى أن الرحمة مناط تربيته عز وجل .

(62/799)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته في الهول والفخامة ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى : ﴿ اليوم ﴾ الموصوف بقوله سبحانه : ﴿ الحق ﴾ أو هو الخبر واليوم بدل أو عطف بيان والمراد بالحق الثابت المتحقق أي ذلك اليوم الثابت الكائن لا

محالة والجملة مؤكدة لما قبل ولذا لم تعطف والفاء في قوله عز وجل : ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ مَئَاباً ﴾ فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف دل عليه الجزاء وإلى ربه متعلق بمآبا قدم عليه اهتماماً ورعاية للفواصل كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق الأمر المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالايمان والطاعة وقال قتادة فيما رواه عنه عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر ﴿ مَئَاباً ﴾ أي سبيلاً وتعلق الجار به لما فيه من معنى الافضاء والإيصال والأول أظهر وتقدير المضاف أعني الثواب قيل لاستحالة الرجوع إلى ذاته عز وجل وقيل لأن رجوع كل أحد إلى ربه سبحانه ليس بمشيئته إذ لا بد منه شاء أم لا والمعلق بالمشيئة الرجوع إلى ثوابه تعالى فإن العبد مختار في الايمان والطاعة ولا ثواب بدونها وقيل لتقدم قوله تعالى : ﴿ للطاغين مَئَاباً ﴾ [النبأ : 22] فإن لهم مرجعاً لله تعالى أيضاً لكن للعقاب لا للثواب ولكل وجهة .

(63/799)

﴿ إِنَّا أنذرناكم ﴾ أي بما ذكر في السورة من الآيات الناطقة بالبعث بما فيه وما بعده من الدواهي أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن العظيم ﴿ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ هو عذاب

الآخرة وقربه لتحقق إتيانه فقد قيل ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت أو لأنه قريب بالنسبة إليه عز وجل أو يقال البرزخ داخل في الآخرة ومبدؤه الموت وهو قريب حقيقة كما لا يخفى على من عرف القرب والبعد وعن قتادة هو عقوبة الذنب لأنه أقرب العذابين وعن مقاتل هو قتل قريش يوم بدر وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فإن الظاهر أنه ظرف لمضمر هو صفة ﴿ عَذَاباً ﴾ أي عذاباً كائناً يوم الخ وليس ذلك اليوم إلا يوم القيامة وكذا على ما قيل من أنه بدل من ﴿ عَذَاباً ﴾ أو ظرف لقريباً وعلى هذا الأخير قيل لا حاجة إلى توجيه القرب لأن العذاب في ذلك اليوم قريب لا فاصل بينه وبين المرء ونظر فيه بأن الظاهر جعل المنذر به قريباً في وقت الإنذار لأنه المناسب للتهديد .

(64/799)

والوعيد إذ لا فائدة في ذكر قربه منهم يوم القيامة فإذا تعلق به فالمراد بيان قرب اليوم نفسه فتأمل والظاهر أن المرء عام للمؤمن والكافر وما موصولة منصوبة بينظر والعائد محذوف والمراد يوم يشاهد المكلف المؤمن والكافر ما قدمه من خير أو شر وجوز أن تكون ما استفهامية منصوبة بقدمت أي شيء قدمت يداه والجملة معلق عنها لأن النظر طريق العلم

والكلام في قوة ينظر جواب ما قدمت يداه وفي الكلام على ما ذكره العلامة التفتازاني تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه حيث ذكر اليدان لأن أكثر الأعمال تزاول بهما فجعل الجميع كالواقع بهما تغليباً وقرأ ابن أبي إسحاق المرء بضم الميم وضعفها أبو حاتم ولا ينبغي أن تضعف لأنها لغة بعض العرب يتبعون حركة الهمزة فيقولون مرء ومرأ ومرء على حسب الاعراب ﴿ وَيَقُولُ الكافر الكافر ياليتنى كُنتُ ترابا ﴾ تخصيص لأحد الفريقين اللذين تناولهما المرء فيما قبل منه بالذكر وخص قول الكافر دون المؤمن لدلالة قوله على غاية الخيبة ونهاية التحسر ودلالة حذف قول المؤمنين على غاية التبجح ونهاية الفرح والسرور وقال عطاء المرء هنا الكافر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنذرناكم ﴾ وكان الظاهر عليه الضمير فيما بعد إلا أنه وضع الظاهر موضع لزيادة الذم وفيه أن تناول الفريقين هو المطابق لما سبق من صف يوم مفصل لما اشتمل على حالهما وهو الوجه لقوله تعالى ﴿ فمن شاء استخذ إلى ربه مآباً ﴾

(65/799)

[النبأ : 39] ﴿ وَأَنَّا أنذرناكم ﴾ لا يخص الكافر لأن الإنذار عام للفريقين أيضاً فلا دلالة على الاختصاص وقال ابن عباس وقتادة والحسن المراد به المؤمن قال الإمام دل عليه قول

الكافر فلما كان هذا بياناً لحال الكافر وجب أن يكون الأول بياناً لحال المؤمن ولا يخفى ما فيه من الضعف كاستدلال الرياشي بالآية على أن المرء لا يطلق إلا على المؤمن وأراد الكافر بقوله هذا : ﴿ لَيْتَنِى كُنتُ ترابا ﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أو ﴿ لَيْتَنِى كُنتُ ترابا ﴾ في هذا اليوم فلم أبعث وعن ابن عمر وأبي هريرة ومجاهد إن الله تعالى يحضر البهائم فيقتص لبعضها من بعض ثم يقول سبحانه لها كوني تراباً فيعود جميعها تراباً فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله وإلى حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض ذهب الجمهور وسيأتي الكلام في ذلك في سورة التكوير إن شاء الله تعالى وقيل الكافر في الآية إبليس عليه اللعنة لما شاهد آدم عليه الصلاة والسلام ونسله المؤمنين وما لهم من الثواب تمنى أن يكون تراباً لأنه احتقره لما قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف : 12] وهو بعيد عن السياق وإن كان حسناً والتراب على جميع ما ذكر بمعناه المعروف والكلام على ظاهره وحقيقته وجوز لا سيما على الأخير أن يكون المراد بقول ليتني كنت في الدنيا متواضعاً لطاعة الله تعالى لا جباراً ولا متكبراً والمعول عليه ما تقدم كما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(66/799)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾

هذا شروع في بيان حال المؤمنين ، وما أعدّ الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين ، وما أعدّ الله لهم من الشرّ ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز ، والظفر بالنعمة ، والمطلوب ، والنجاة من النار ، ومنه قيل : للفلاة مفازة تفاؤلاً بالخلاص منها .

ثم فسّر سبحانه هذا المفاز فقال : ﴿ حَدَائِقَ وأعنابا ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل من مفازاً بدل اشتمال ، أو بدل كلّ من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني ، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز ، فيقدر مضاف محذوف أي : فوز حدائق ، وهي جمع حديقة : وهي : البستان المحوّط عليه ، والأعناب جمع عنب أي : كروم أعناب ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ﴾ الكواعب جمع كاعبة : وهي الناهدة ، يقال : كعبت الجارية تكعب تكعيباً وكعوباً ، ونهدت تنهد نهوداً ، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت أي : صارت ثديهنّ كالكعب في صدورهنّ .

قال الضحاك : الكواعب العذارى .

قال قيس بن عاصم :

وكم من حصان قد حوينا كريمة . . . وكم كاعب لم تدر ما البؤس معصر

وقال عمر بن أبي ربيعة :

وكان مجنى دون ما كنت أتقي . . . ثلاث شخوص كاعبات ومعصر

والأتراب : الأقران في السنّ ، وقد تقدّم تحقيقه في سورة البقرة ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي : ممتلئة .

قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد : أي : مترعة مملوءة ، يقال أدهقت الكأس أي : ملأتها ، ومنه قول الشاعر :

ألا أسقني صرفا سقاك الساقي . . . من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد : ﴿ دِهَاقاً ﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضاً .

(67/799)

وقال زيد بن أسلم : ﴿ دِهَاقاً ﴾ صافية ، والمراد بالكأس الإناء المعروف ، ولا يقال له الكأس إلاّ إذا كان فيه الشراب ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ أي : لا يسمعون في الجنة لغواً ، وهو الباطل من الكلام ، ولا كذاباً أي : ولا يكذب بعضهم بعضاً .

قرأ الجمهور ﴿ كذاباً ﴾ بالتشديد ، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف ، ووافق الجماعة على التشديد في قوله : ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك ، وقد قدّمنا الخلاف في ﴿ كذاباً ﴾ هل هو من مصادر التفعيل ، أو من مصادر

المفاعلة؟ ﴿ جَزَاء مّن رَّبِّكَ ﴾ أي: جازاهم بما تقدّم ذكره جزاء.

قال الزجاج: المعنى جزاهم جزاء، وكذا ﴿ عَطَاء ﴾ أي: وأعطاهم عطاء ﴿ حِسَاباً ﴾ قال أبو عبيدة: كافياً.

وقال ابن قتيبة: كثيراً، يقال أحسبت فلاناً أي: أكثرت له العطاء، ومنه قول الشاعر:

ونعطي وليد الحي إن كان جائعا . . . ونحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة: أي: نعطيه حتى يقول حسبي.

قال الزجاج: حساباً أي: ما يكفيهم.

قال الأخفش: يقال أحسبني كذا أي: كفاني.

قال الكلبي: حاسبهم، فأعطاهم بالحسنة عشراً.

وقال مجاهد: حساباً لما عملوه، فالحساب بمعنى القدر أي: يقدّر ما وجب له في وعد الربّ سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم سبعمائة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10] وقرأ أبو هاشم (حساباً) بفتح الحاء، وتشديد السين أي: كفافاً.

قال الأصمعي: تقول العرب: حسبت الرجل بالتشديد: إذا أكرمته، ومنه قول الشاعر:

إذا أتاه ضيفه يحسبه . . . وقرأ ابن عباس (حساناً) بالنون ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن ﴾.

قرأ ابن مسعود ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وزيد عن يعقوب ، والمفضل عن عاصم برفع (ربّ) و (الرحمن) على أن ربّ مبتدأ ، والرحمن خبره ، أو على أن ربّ خبر مبتدأ مقدّر أي : هو ربّ ، والرحمن صفته ، و ﴿ لا يملكون ﴾ خبر ربّ ، أو على أن ربّ مبتدأ ، والرحمن مبتدأ ثان ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأوّل .

وقرأ يعقوب في رواية عنه ، وابن عامر ، وعاصم في رواية عنه بخفضهما على أن ربّ بدل من ربك ، والرحمن صفة له .

وقرأ ابن عباس ، وحمزة ، والكسائي بخفض الأوّل على البدل ، ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال هذه القراءة أعدلها ، فخفض ربّ لقربه من ربك ، فيكون نعتاً له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ أي : لا يملكون أن يسألوا إلاّ فيما أذن لهم فيه .

وقال الكسائي : لا يملكون منه خطاباً بالشفاعة إلاّ بإذنه ، وقيل : الخطاب الكلام أي : لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلاّ بإذنه ، دليله : ﴿ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105] وقيل : أراد الكفار ، وأما المؤمنون فيشفعون .

ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مقرّرة لما تفيده الربوبية من العظمة والكبرياء .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ الظرف منتصب بلا يتكلمون ، أو بلا يملكون ، وصفّاً منتصب على الحال أي : مصطفين ، أو على المصدرية أي : يصفون صفاً ، وقوله : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أو مستأنف لتقرير ما قبله .

واختلف في الروح ؛ فقيل : إنه ملك من الملائكة أعظم من السماوات السبع ، ومن الأرضين السبع ، ومن الجبال ، وقيل : هو جبريل قاله الشعبي ، والضحاك ، وسعيد بن جبير .

(69/799)

وقيل : الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبو صالح ، ومجاهد ، وقيل : هم أشراف الملائكة قاله مقاتل بن حيان .

وقيل : هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيح .

وقيل : هم بنو آدم قاله الحسن ، وقتادة .

وقيل : هم أرواح بني آدم تقوم صفاً وتقوم الملائكة صفاً ، وذلك بين النفختين قبل أن تردّ إلى الأجسام قاله عطية العوفي .

وقيل : إنه القرآن قاله زيد بن أسلم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ضمير يتكلمون ، وأن يكون منصوباً على أصل الاستثناء ، والمعنى : لا يشفعون لأحد إلاّ من أذن له الرحمن بالشفاعة أو لا يتكلمون إلاّ في حقّ من أذن له الرحمن وكان ذلك الشخص ممن ﴿ قال صَوَاباً ﴾ قال الضحاك ، ومجاهد : ﴿ صواباً ﴾ يعني : حقاً .

وقال أبو صالح : لا إله إلاّ الله .

وأصل الصواب السداد من القول والفعل .

قيل ﴿ لا يتكلمون ﴾ يعني : الملائكة والروح الذين قاموا صفاً هيبة وإجلالاً إلاّ من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة ، وهم قد قالوا صواباً .

قال الحسن : إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلاّ بالروح ، ولا النار إلاّ بالعمل .

قال الواحدي : فهم لا يتكلمون يعني : الخلق كلهم إلاّ من أذن له الرحمن ، وهم المؤمنون والملائكة ، وقال في الدنيا صواباً أي : شهد بالتوحيد ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ اليوم الحق ﴾ أي : الكائن الواقع المتحقق ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ مَئَاباً ﴾ أي : مرجعاً يرجع إليه بالعمل الصالح ؛ لأنه إذا عمل خيراً قرّبه إلى الله ، وإذا عمل شرّاً باعده منه ، ومعنى : ﴿ إلى رَبِّهِ ﴾ إلى ثواب ربه ، قال قتادة : مآباً : سبيلاً .

ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال : ﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني : العذاب في الآخرة ، وكلّ ما هو آت ، فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ [النازعات : 46] كذا قال الكلبي ، وغيره .

وقال قتادة : هو عذاب الدنيا ؛ لأنه أقرب العذابين .

قال مقاتل : هو قتل قريش ببدر ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فإن الظرف إما بدل من عذاب ، أو ظرف لمضمر هو صفة له أي : عذاباً كائناً ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء ﴾ أي : يشاهد ما قدّمه من خير أو شرّ ، وما موصولة أو استفهامية .

قال الحسن : والمرء هنا هو المؤمن أي : يجد لنفسه عملاً ، فأما الكافر ، فلا يجد لنفسه عملاً ، فيتمنى أن يكون تراباً ، وقيل : المراد به الكافر على العموم ، وقيل : أبيّ بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَيَقُولُ الكافر الكافر يا ليتنى كُنتُ ترابا ﴾ فإن الكافر واقع في مقابلة المرء ، والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تراباً لما يشاهده مما قد أعدّه الله له من أنواع العذاب ، والمعنى : أنه يتمنى أنه كان تراباً في الدنيا فلم يخلق ، أو تراباً يوم القيامة .

وقيل : المراد بالكافر أبو جهل ، وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وقيل : إبليس ، والأوّل أولى اعتباراً بعموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب ، كما تقدّم غير مرّة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ قال : منتزهاً ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ قال : نواهد ﴿ أَتْرَاباً ﴾ قال : مستويات ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ قال : ممتلئاً .

(71/799)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ قال : هي الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : يا غلام اسقنا ، وادهق لنا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه دهاقاً ، قال دراكاً .

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : إذا كان فيها خمر فهي : كأس ، وإذا لم يكن فيها خمر ، فليس بكأس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه عنه أيضاً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس ، وأيد ، وأرجل " ثم

قرأ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ قال " هؤلاء جند ، وهؤلاء جند " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح ﴾ قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة ، وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً واحداً .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله ، يقول : سبحانك لا إله إلاّ أنت ما عبدناك حق عبادتك ، ما بين منكبيه ، كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح ﴾ قال : يعني : حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تردّ الروح إلى الأجساد .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً ﴿ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ قال : لا إله إلاّ الله .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم ، والدواب ، والطير وكلّ شيء ، فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني تراباً ، فذلك حين يقول الكافر ﴿ الكافر يا ليتني كُنتُ ترابا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 371.368 ﴾

(73/799)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾

﴿ يوم ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ [النبأ : 37] ، أي لا يتكلم أحد يومئذ إلاّ من أذن له الله .

وجملة ﴿ لا يتكلمون ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ أعيدت بمعناها لتقرير المعنى إذ كان المقام حقيقاً ، فالتقرير لقصد التوصل به إلى الدلالة على إبطال زعم المشركين شفاعة أصنامهم لهم عند الله ، وهي دلالة بطريق الفحوى فإنه إذا نُفي تكلمهم بدون إذن

نفيت شفاعتهم إذ الشفاعة كلام مَن له وجاهة وقبول عند سامعه .

وليبنى عليها الاستثناء لبُعد ما بين المستثنَى والمستثنى منه بمتعلقات ﴿ يملكون ﴾ [النبأ : 37] من مجرور ومفعول به ، وظرفٍ ، وجملةٍ أضيف لها .

وضمير ﴿ يتكلمون ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ يملكون ﴾ .

والقول في تخصيص ﴿ لا يتكلمون ﴾ مثل القول في تخصيص ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ [النبأ : 37] وقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ [طه : 109] استثناء من ضمير ﴿ لا يتكلمون ﴾ وإذ قد كان مؤكداً لضمير ﴿ لا يملكون ﴾ فالاستثناء منه يفهم الاستثناء من المؤكَّد به .

والقيام : الوقوف وهو حالة الاستعداد للعمل الجِد وهو من أحوال العبودية الحق التي لا تُستحق إلا لله تعالى .

وفي الحديث : " من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار " أي لأن ذلك من الكبرياء المختصة بالله تعالى .

والرُّوح : اختلف في المراد منه اختلافاً أثاره عطف الملائكة عليه فقيل هو جبريل .

وتخصيصه بالذكر قبل ذكر الملائكة المعطوف عليه لتشريف قدره بإبلاغ الشريعة ، وقيل المراد : أرواح بني آدم .

واللام لتعريف الجنس : فالمفرد معها والجمع سواء .

والمعنى : يومَ تُحْضَر الأرواح لتودع في أجسادها ، وعليه يكون فعل ﴿ يقوم ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه .

و﴿ الملائكة ﴾ عطف على ﴿ الروح ﴾ ، أي ويَقوم الملائكة صفّاً .

(74/799)

والصف اسم للأشياء الكائنة في مكان يجانبُ بعضُها بعضاً كالخط .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ثم ائتُوا صفاً ﴾ في سورة طه (64) ، وفي قوله : ﴿ فاذكروا اسم اللَّه عليها صواف ﴾ في سورة الحج (36) ، وهو تسمية بالمصدر من إطلاق المصدر على اسم الفاعل ، وأصله للمبالغة ثم صار اسماً ، وإنما يصطف الناس في المقامات التي يكون فيها أمر عظيم فصفّ الملائكة تعظيم لله وخضوع له .

والإذن : اسم للكلام الذي يفيد إباحةَ فعل للمأذون ، وهو مشتق من : أَذِن له ، إذا استمع إليه قال تعالى : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ [الأنشقاق : 2] ، أي استمعت وأطاعت لإرادة الله .

وأذِن : فعل مشتق من اسم الأُذْن وهي جارحة السمع ، فأصل معنى أذِنَ له : أمال أذنَه ، أي سَمْعَه إليه يقال : أذن يأذَن أذناً كفَرِح ، ثم استعمل في لازم السمع وهو الرضى بالمسموع

فصار أَذِنَ بمعنى رضي بما يطلب منه أو ما شأنه أن يطلب منه ، وأباحَ فعله ، ومصدره إذن بكسر الهمزة وسكون الذال فكأنّ اختلاف صيغة المصدرين لقصد التفرقة بين المعنيين .

ومتعلق ﴿ أذن ﴾ محذوف دل عليه ﴿ لا يتكلمون ﴾ ، أي من أذن له في الكلام .

ومعنى أذْن الرحمان : أن من يريد التكلم لا يستطيعُه أو تعتريه رهبة فلا يُقدم على الكلام حتى يستأذن الله فأذن له ، وإنما يستأذنه إذا ألهمه الله للاستئذان فإن الإلهام إذن عند أهل المكاشفات في العامل الأخروي فإذا ألقى الله في النفس أن يستأذن استأذن الله فأذن له كما ورد في حديث الشفاعة من إحجام الأنبياء عن الاستشفاع للناس حتى يأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم قال في الحديث : " فأَنْطَلِقُ فآتِي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله عليَّ من محامد وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقول : ارفع رأسك واشْفع تُشفَّع " .

(75/799)

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] ، أي لمن علموا أن الله ارتضى قبول الشفاعة فيه وهم يعلمون ذلك بإلهام هو من قبيل الوحي لأن

الإِلهام في ذلك العالم لا يعتريه الخطأ .

وجملة ﴿ وقال صواباً ﴾ يجوز أن تكون في موضع الحال من اسم الموصول ، أي وقد قال المأذون له في الكلام ﴿ صواباً ﴾ ، أي بإذن الله له في الكلام إذا علم أنه سيتكلم بما يرضي الله .

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ أذن له الرحمن ﴾ ، أي وإلا من قال صواباً فعُلم أن من لا يقول الصواب لا يؤذَن له .

وفعل ﴿ وقال صواباً ﴾ مستعمل في معنى المضارع ، أي ويقول صواباً ، فعبر عنه بالماضي لإفادة تحقق ذلك ، أي في علم الله .

وإطلاق صفة ﴿ الرحمن ﴾ على مقام الجَلالة إيماء إلى أن إذن الله لمن يتكلم في الكلام أثر من آثار رحمته لأنه أذن فيما يحصل به نفع لأهل المحشر من شفاعة أو استغفار .

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39)

استئناف ابتدائي كالفذلكة لما تقدم من وعيد ووَعد ، إنذار وتبشير ، سيق مساق التنويه بـ ﴿ يوم الفصل ﴾ [النبأ : 17] الذي ابتدىء الكلام عليه من قوله : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] .

والمقصود التنويه بعظيم ما يقع فيه من الجزاء بالثواب والعقاب وهو نتيجة أعمال الناس من يوم وجود الإِنسان في الأرض .

فوصف اليوم بالحق يجوز أن يراد به الثابت الواقع كما في قوله تعالى : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ [الذاريات : 6] قوله آنفاً : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ ، فيكون ﴿ الحق ﴾ بمعنى الثابت مثل ما في قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ [الأنبياء : 97] .

ويجوز أن يراد بالحق ما قابل الباطل ، أي العدلُ وفصلُ القضاء فيكون وصف اليوم به على وجه المجاز العقلي إذ الحق يقع فيه واليوم ظرف له قال تعالى : ﴿ يوم القيامة يفصل بينكم ﴾ [الممتحنة : 3] .

(76/799)

ويجوز أن يكون الحق بمعنى الحقيق بمسمى اليوم لأنه شاع إطلاق اسم اليوم على اليوم الذي يكون فيه نصر قبيلة على أخرى مثل : يومِ حليمة ، ويوم بُعَاث .

والمعنى : ذلك اليوم الذي يحق له أن يقال : يوم ، وليس كأيام انتصار الناس بعضهم على بعض في الدنيا فيكون كقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ [التغابن : 9] ، فهو يوم انتقام الله من أعدائه الذين كفروا نعمته وأشركوا به عبيده في الإلهية ويكون وصف الحق بمثل المعنى الذي في قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ [البقرة : 121] ، أي التلاوة الحقيقة باسم التلاوة وهي التلاوة بفهم معاني المتلوّ

وأغراضه.

والإِشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى اليوم المتقدم في قوله: ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ: 17].

ومفاد اسم الإشارة في مثل هذا المقام التنبيه على أن المشار إليه حقيق بما سيوصف به بسبب ما سبق من حكاية شؤونه كما في قوله تعالى: ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة: 5] بعد قوله: ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ إلى قوله: ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [البقرة: 42]، فلأجل جميع ما وصف به ﴿ يوم الفصل ﴾ كان حقيقاً بأن يوصف بأنه ﴿ اليوم الحق ﴾ وما تفرع عن ذلك من قوله: ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾.

وتعريف ﴿ اليوم ﴾ باللام للدلالة على معنى الكمال، أي هو الأعظم من بين ما يعده الناس من أيام النصر للمنتصرين لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم ويعطى كل واحد منهم ما هو أهله من خير أو شر فكأنَّ ما عداه من الأيام المشهورة في تاريخ البشر غير ثابت الوقوع.

وفرّع عليه ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ بفاء الفصيحة لإفصاحها عن شرط مقدر ناشىء عن الكلام السابق.

والتقدير: فإذا علمتم ذلك كله فمن شاء اتخاذ مآب عند ربه فليتخذه، أي فقد بان لكم ما في ذلك اليوم من خير وشر فليختر صاحب المشيئة ما يليق به للمصير في ذلك اليوم.

والتقدير : مآباً فيه ، أي في اليوم .

وهذا التفريع من أبدع الموعظة بالترغيب والترهيب عند ما تَسْنَحُ الفرصة للواعظ من تهيُّؤ النفوس لقبول الموعظة .

والاتخاذ : مبالغة في الأخذ ، أي أخَذَ أخْذاً يشبه المطاوعة في التمكن ، فالتاء فيه ليست للمطاوعة الحقيقية بل هي مجاز وصَارت بمنزلة الأصلية .

والاتخاذ : الاكتساب والجَعْل ، أي ليقتن مكاناً بأن يؤمنَ ويعمل صالحاً لينال مكاناً عند الله لأنّ المآب عنده لا يكون إلا خيراً .

فقوله : ﴿ إلى ربه ﴾ دل على أنه مآب خير لأن الله لا يرضى إلا بالخير .

والمآب يكون اسم مَكان من آب ، إذا رجع فيطلق على المسكن لأن المرء يؤوب إلى مسكنه ، ويكون مصدراً ميمياً وهو الأوب ، أي الرجوع كقوله تعالى : ﴿ إليه أدعو وإليه مآب ﴾ [الرعد : 36] ، أي رجوعي ، أي فليجعل أوْباً مناسباً للقاء ربه ، أي أوْباً حسناً .

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا

(40)

اعتراض بين ﴿ مآباً ﴾ [النبأ : 39] وبين ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ كيفما كان موقع ذلك الظرف حسبما يأتي .

والمقصود من هذه الجملة الإِعذار للمخاطبين بقوارع هذه السورة بحيث لم يبق بينهم وبين العلم بأسباب النجاة وضدها شُبهةٌ ولا خفاء .

فالخبر وهو ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ مستعمل في قطع العذر وليس مستعملاً في إفادة الحكم لأن كون ما سبق إنذاراً أمر معلوم للمخاطبين .

وافتُتح الخبر بحرف التأكيد للمبالغة في الإِعذار بتنزيلهم منزلة من يتردد في ذلك .

وجُعل المسند فعلاً مسنداً إلى الضمير المنفصل لإفادة تقوّي الحكم ، مع تمثيل المتكلم في مَثَل المتبرىء من تبعه ما عسى أن يلحق المخاطبين من ضرَ إن لم يأخذوا حذرهم مما أنذرهم به كما يقول النذير عند العرب بعد الإِنذار بالعدوّ "أنا النذير العريان" .

(78/799)

والإِنذار : الإِخبار بحصول ما يسوء في مستقبل قريب .

وعُبر عنه بالمضي لأن أعظم الإِنذار قد حصل بما تقدم من قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً ﴾ إلى قوله : ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ [النبأ : 21 30] .

وقرب العذاب مستعمل مجازاً في تحققه وإلا فإنه بحسب العرف بعيد ، قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ [المعارج : 6 ، 7] ، أي لتحققه فهو كالقريب على أن العذاب يصدق بعذاب الآخرة وهو ما تقدم الإِنذار به ، ويصدق بعذاب الدنيا من القتل والأسر في غزوات المسلمين لأهل الشرك .

وعن مقاتل : هو قَتْل قريش ببدر .

ويشمل عذاب يوم الفتح ويوم حنين كما ورد لفظ العذاب لذلك في قوله تعالى : ﴿ يعذبهم اللَّه بأيديكم ﴾ [التوبة : 14] وقوله : ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ [الطور : 47] .

﴿ قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر يا ليتنى كُنتُ ﴾ .

يجوز أن يتعلق بفعلِ : ﴿ اتخذ إلى ربه مئاباً ﴾ [النبأ : 39] فيكون ﴿ يوم ينظر ﴾ ظرفاً لغْواً متعلقاً بـ ﴿ أنذرناكم ﴾ .

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [النبأ : 38] لأن قيام الملائكة صفّاً حضور لمحاسبة الناس وتنفيذ فصل القضاء عليهم وذلك حين ينظر المرء ما قدمت يداه ، أي ما عمله سالفاً فهو بدل من الظرف تابع له في موقعه .

وعلى كلا الوجهين فجملة ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ معترضة بين الظرف ومتعلقه أو بينه وبين ما أبدل منه .

والمرء : اسم للرجل إذ هو اسم مؤنثُه امرأة .

والاقتصار على المرء جَريٌ على غالب استعمال العرب في كلامهم ، فالكلام خرج مخرج الغالب في التخاطب لأن المرأة كانت بمعزل عن المشاركة في شؤون ما كان خارجَ البيت .

(79/799)

والمراد : ينظر الإِنسان من ذكر أو أنثى ، ما قدمت يداه ، وهذا يعلم من استقراء الشريعة الدال على عموم التكاليف للرجال والنساء إلا ما خُص منها بأحد الصنفين لأن الرجل هو المستحضَر في أذهان المتخاطبين عند التخاطب .

وتعريف ﴿ المرء ﴾ للاستغراق مثل ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [العصر : 2 3] .

وفعل ﴿ ينظر ﴾ يجوز أن يكون من نظر العين أي البصر ، والمعنى : يوم يرى المرء ما قدمته يداه .

ومعنى نظر المرء ما قدمت يداه : حصول جزاء عمله له ، فعبر عنه بالنظر لأن الجزاء لا يخلو من أن يكون مرئياً لِصاحِبه من خير أو شر ، فإطلاق النظر هنا على الوجدان على وجه المجاز المرسل بعلاقة الإِطلاق ونظيره قوله تعالى : ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ [الزلزلة : 6]

، وقد جاءت الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ [آل عمران : 30] الآية ، و (ما) موصولة صلتها جملة ﴿ قدمت يداه ﴾ .

ويجوز أن يكون مِن نظر الفكر ، وأصله مجاز شاع حتى لحق بالمعاني الحقيقية كما يقال : هو بخير النظرين .

ومنه التَنظُّر : توقُع الشيء ، أي يوم يترقب ويتأمل ما قدمت يداه ، وتكون (ما) على هذا الوجه استفهامية وفعل ﴿ ينظر ﴾ معلقاً عن العمل بسبب الاستفهام ، والمعنى : ينظر المرء جوابَ من يسأل : ما قدمت يداه ؟

ويجوز أن يكون من الانتظار كقوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلاَّ تأويله ﴾ [الأعراف : 53] .

وتعريف ﴿ المرء ﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق .

والتقديم : تسبيق الشيء والابتداء به .

و ﴿ ما قدمت يداه ﴾ هو ما أسلفه من الأعمال في الدنيا من خير أو شر فلا يختص بما عمله من السيئات فقد قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ [آل عمران : 30] الآية .

وقوله : ﴿ ما قدمت يداه ﴾ إما مجاز مرسل بإطلاق اليدين على جميع آلات الأعمال وإما أن يَكون بطريقة التمثيل بتشبيه هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة الصانع للمصنوعات بيديه كما قالوا في المثل : "يَداكَ أوْكَتا" ولو كان ذلك على قول بلسانه أو مشي برجليه .

ولا يحسن أن يجعل ذكر اليدين من التغليب لأن خصوصية التغليب دون خصوصية التمثيل .

وشمل ﴿ ما قدمت يداه ﴾ الخير والشر .

وخُص بالذكر من عموم المرء الإِنسانُ الكافر الذي يقول : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ لأن السورة أقيمت على إنذار منكري البعث فكان ذلك وجه تخصيصه بالذكر ، أي يوم يتمنى الكافر أنه لم يخلق من الأحياء فضلاً عن أصحاب العقول المكلفين بالشرائع ، أي يتمنى أن يكون غير مدرك ولا حسّاس بأن يكون أقل شيء مما لا إدراك له وهو التراب ، وذلك تلهف وتندم على ما قدمت يداه من الكفر .

وقد كانوا يقولون : ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون ﴾ [الإسراء : 98] فجعل الله عقابهم بالتحسر وتمني أن يكونوا من جنس التراب .

وذكر وصف الكافر يفهم منه أن المؤمن ليس كذلك لأن المؤمن وإن عمل بعض السيئات

وتوقع العقاب على سيئاته فهو يرجو أن تكون عاقبته إلى النعيم وقد قال الله تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾

[آل عمران : 30] وقال : ﴿ ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة : 6 8] ، فالمؤمنون يرون ثواب الإيمان وهو أعظم ثواب ، وثواب حسناتهم على تفاوتهم فيها ويرجون المصير إلى ذلك الثواب وما يرونه من سيئاتهم لا يطغى على ثواب حسناتهم ، فهم كلهم يرجون المصير إلى النعيم ، وقد ضرب الله لهم أو لمن يقاربهم مثلاً بقوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ [الأعراف : 46] على ما في تفسيرها من وجوه .

(81/799)

وهذه الآية جامعة لما جاء في السورة من أحوال الفريقين وفي آخرها رد العجز على الصدر من ذكر أحوال الكافرين الذين عُرِّفوا بالطاغين وبذلك كان ختام السورة بها براعة مقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(82/799)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم جعلوا يتساءلون بينهم فنزلت ﴿ عم يتساءلون عن النبإ العظيم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يتساءلون عن النبإ العظيم ﴾ قال : القرآن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ عم يتساءلون عن النبإ العظيم ﴾ قال : القرآن . وفي قوله : ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ قال : مصدق به ومكذب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ عم يتساءلون عن النبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون ﴾ قال : هو البعث بعد الموت ، صار الناس فيه رجلين مصدق ومكذب ، فأما الموت فاقروا به كلهم لمعاينتهم إياه ، واختلفوا في البعث بعد الموت .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ﴾ قال : وعيد

بعد وعيد .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ كلا سيعلمون ﴾ الكفار ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ المؤمنون ، وكذلك كان يقرؤها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ قال : فرشت لكم ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ قال : أوتدت بها لكم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ إلى قوله : ﴿ معاشاً ﴾ قال : نعم من الله يعددها عليك يا ابن آدم لتعمل لأداء شكرها .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يخلق الخلق أرسل الريح فنسفت الماء حتى أبدت عن حشفة ، وهي التي تحت الكعبة ، ثم مد الأرض حتى بلغت ما شاء الله من الطول والعرض ، وكانت هكذا تميد ، وقال بيده وهكذا وهكذا ، فجعل الله الجبال رواسي أوتاداً ، فكان أبو قبيس من أول جبل وضع في الأرض .

(83/799)

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : إن الأرض أول ما خلقت خلقت من عند بيت المقدس ، وضعت طينة فقيل لها : اذهبي هكذا وهكذا وهكذا ، وخلقت على صخرة ،

والصخرة على حوت ، والحوت على الماء فأصبحت وهي تميع . فقالت الملائكة : يا رب من يسكن هذه ؟ فأصبحت الجبال فيها أوتاداً ، فقالت الملائكة : يا رب أخلقت خلقاً هو أشد من هذه ؟ قال : الحديد . قالوا : فخلقت خلقاً هو أشد من الحديد ؟ قال : النار . قالوا : فخلقت خلقاً هو أشد من النار ؟ قال : الماء . قالوا : فخلقت خلقاً هو أشد من الماء ؟ قال الريح . قالوا : فخلقت خلقاً هو أشد من الريح ؟ قال : البناء . قالوا : فخلقت خلقاً هو أشد من البناء ؟ قال : آدم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ قال : اثنين اثنين وفي قوله : ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ قال : يبتغون من فضل الله ، وفي قوله : ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ قال : يتلألأ ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : الريح ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ قال : منصباً ينصب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخرائطي في مكارم الأخلاق عن قتادة ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ قال : الوهاج المنير ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : من السماء ، وبعضهم يقول من الريح ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ قال : الثجاج المنصب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ قال : مضيئاً ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : السحاب ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ قال : منصباً .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مجاهد في قوله : ﴿ سراجاً وهاجاً ﴾ قال : يتلألأ .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : السحاب يعصر بعضها بعضاً ، فيخرج الماء من بين السحابتين . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله : النابغة :

(84/799)

تجري بها الأرواح من بين شمال . . . وبين صباها المعصرات الدوامس

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ ثجاجاً ﴾ قال : الثجاج الكثير الذي ينبت منه الزرع قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أبا ذؤيب يقول :

سقى أم عمرو كل آخر ليلة . . . غمائم سود ماؤهن ثجيج

وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والخرائطي من طرق عن ابن عباس ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : الرياح ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ قال : منصباً .

وأخرج الشافعي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والخرائطي والبيهقي في سننه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ قال : يبعث الله سحاباً فتحمل الماء من السماء فتمر به السحاب فتدر كما تدر اللقحة ،

والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالي ، فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : السحاب ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ قال : صباً أو قال كثيراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ قال : من السماء ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ قال : منصباً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن قتادة في مصحف الفضل بن عباس ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة قال في قراءة ابن عباس ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ بالرياح.

وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن مجاهد ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ الريح ، ولذلك كان يقرؤها : " بالمعصرات ماء ثجاجاً " منصباً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ قال : مجتمعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ قال : ملتفة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ قال : ملتفة بعضها إلى بعض .

(85/799)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ قال : الزرع إذا كان بعضه إلى بعض جنات .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ يقول : جنات التفت بعضها ببعض .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ قال : هو يوم عظمة الله ، وهو يوم يفصل فيه بين الأولين والآخرين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ قال : زمراً زمراً .

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب : " أن معاذاً بن جبل قال : يا رسول الله ما قول الله ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ ؟ فقال : يا معاذ سألت عن أمر عظيم ، ثم أرسل عينيه ثم قال : عشرة أصناف قد ميزهم الله من جماعة المسلمين ، وبدل صورهم ،

فبعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكبين أرجلهم فوق ووجوههم أسفل يسحبون عليها ، وبعضهم عمي يترددون ، وبعضهم صم بكم لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم ، يسيل القيح من أفواههم لعاباً ، يقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جباباً سابغات من قطران لازقة بجلودهم . فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس ، وأما الذين على صورة الخنازير فأكلة السحت ، والمنكوسون على وجوههم فأكلة الربا ، والعمي من يجور في الحكم ، والصم البكم المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقضاة من الذين يخالف قولهم أعمالهم ، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران ، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، والذين هم أشد نتنا من الجيف الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله وحق الفقراء من أموالهم ، والذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والخيلاء والفخر " .

(86/799)

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19)

أخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وفتحت ﴾ خفيفة.

وأخرج ابن المنذر عن أبي الجوزاء في قوله: ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ قال: صارت.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ قال: لا يدخل الجنة أحد حتى يجتاز النار.

وأخرج ابن جرير عن سفيان ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ قال: عليهم ثلاث قناطر لا يدخل الجنة أحد حتى يجتاز النار.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ قال: تعلموا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار، وقال في آية أخرى: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم: 71] ﴿ للطاغين مآباً ﴾ قال: مأوى ومنزلاً ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال: الأحقاب ما لا انقطاع له، كلما مضى حقب جاء بعده حقب آخر، قال وذكر لنا أن الحقب ثمانون سنة من سني يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال: سنين.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال: ليس لها أجل كلما مضى حقب دخلنا في الأخرى.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن قال : الحقب الواحد سبعون سنة كل يوم منها ألف سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : لا يدري أحدكم تلك الأحقاب إلا أن الحقب الواحد ثمانون سنة السنة ثلاثمائة وستون يوماً ، اليوم الواحد مقدار ألف سنة ، والحقب الواحد ثمانية عشر ألف سنة .

وأخرج ابن جرير عن بشير بن كعب في قوله : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : بلغني أن الحقب ثلاثمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة .

(87/799)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سالم بن أبي الجعد قال : سأل عليّ بن أبي طالب هلالاً الهجري : ما تجدون الحقب في كتاب الله ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة منها اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة .

وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : الحقب ثمانون سنة .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رفعه ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : الحقب ثمانون سنة .

وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : الحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، واليوم كألف سنة مما تعدون .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : الحقب ثمانون عاماً اليوم منها كسدس الدنيا .

وأخرج ابن عمر العدي في مسنده وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ قال : " الحقب ألف شهر والشهر ثلاثون يوماً والسنة اثنا عشر شهر والشهر ثلاثمائة وستون يوماً كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثمانون ألف سنة " .

وأخرج البزار وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقاباً ، والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة مما تعدون . قال ابن عمر : فلا يتكلن أحد على أنه يخرج من النار " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الحقب ثمانون سنة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو وفي قوله : ﴿ لابثين فيها

أحقاباً ﴾ قال : الحقب الواحد ثمانون سنة .

وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحقب أربعون سنة " .

(88/799)

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ بالألف .

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن ميمون أنه قرأ " لابثين فيها أحقاباً " بغير ألف .

وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ وقوله : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : 107] أنهما في أهل الجنة والتوحيد من أهل القبلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ﴾ .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ﴾ قال : فاستثنى من الشراب الحميم ، ومن البارد الغساق ، وهو الزمهرير .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ قال : الحميم

الحار الذي يحرق ، والغساق الزمهرير البارد .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ قال : لا يستطيعونه من برده .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً ﴾ قال : " لقد انتهى حره " . ﴿ وغساقاً ﴾ قال : " لقد انتهى برده ، وإن الرجل ، إذا أدنى الإِناء من فيه سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاماً تقعقع " " .

وأخرج ابن المنذر عن مرة ﴿ لا يذوقون فيها برداً ﴾ قال : نوماً الممتلئة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ قال : وافق أعمالهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ قال : جزاء وافق أعمال القوم أعمال السوء .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ يقول : وافق الجزاء العمل ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ قال : لا يخافونه ، وفي لفظ : لا يبالون ، فيصدقون بالبعث .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ قال : لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما نزلت على أهل النار آية قط أشد منها ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن الحسن بن دينار قال : سألت أبا برزة الأسلمي عن أشد آية في كتاب الله على أهل النار فقال : قول الله ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن الحسن قال : سئل أبو برزة الأسلمي عن أشد آية في القرآن فقال : قول الله ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ قال : فهو مقدار ساعة بساعة ، ويوم بيوم ، وشهر بشهر ، وسنة بسنة أشد عذاباً حتى لو أن رجلاً من أهل النار أخرج من المشرق لمات أهل المغرب ، ولو أخرج من المغرب مات أهل المشرق من نتن ريحه . قال أبو برزة : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلاها فقال : " هلك القوم بمعاصيهم ربهم ، وغضب عليهم فأبى إذ غضب عليهم إلا أن ينتقم منهم " .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾

قال : فازوا بأن : نجوا من النار .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ قال : مفازاً من النار إلى الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ قال : منتزها ﴿ وكواعب ﴾ قال : نواهد ﴿ أترابا ﴾ قال : مستويات ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : ممتلئاً .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : ﴿ حدائق وأعنابا ﴾ قال : الحدائق البساتين . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الشاعر وهو يقول :

بلاد سقاها الله أما سهولها . . . فقضب ودر مغدق وحدائق

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ كأساً دهاقاً ﴾ قال : الكأس الخمر والدهاق الملآن . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول الشاعر :

أتانا عامر يرجو قرانا . . . فأترعنا له كأساً دهاقاً

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ كواعب ﴾ قال : العذارى .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ كواعب ﴾ قال : نواهد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : هي الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : يا غلام اسقنا وادهق لنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : ملأى .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وقتادة ومجاهد والضحاك والحسن مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : يتبع بعضها بعضاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : المتتابعة .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير والضحاك مثله .

وأخرج هناد عن عطية قي قوله : ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : ملأى متتابعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي هريرة ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : دمادم . قال : المؤلف فارسي بمعنى متتابعة .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله : ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال : متتابعة صافية .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : إذا كان فيها خمر فهي كأس ، وإذا لم يكن فيها

خمر فليس بكأس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ قال : باطلاً ولا مأثماً ، وفي قوله : ﴿ عطاء حساباً ﴾ قال : كثيراً وفي قوله : ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ قال : كلاماً .

(91/799)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ جزاء من ربك ﴾ قال : عطاء منه ﴿ حساباً ﴾ قال : لما عملوا وفي قوله : ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ قال : كلاماً .

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل ، ثم قرأ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد قال : الروح خلق على صورة بني آدم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الروح يأكلون

ولهم أيد وأرجل ورؤوس وليسوا بملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي صالح في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قال : الروح خلق كالناس ، وليسو بالناس ، لهم أيد وأرجل .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن الشعبي في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قال : هما سماطا رب العالمين يوم القيامة ، سماط من الروح ، وسماط من الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن بريدة قال : ما يبلغ الجن والإِنس والملائكة والشياطين عشر الروح ، ولقد قبض النبي وما يعلم الروح .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قال : الروح أعظم خلقاً من الملائكة ، ولا ينزل ملك إلا ومعه روح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

(92/799)

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ، قال : الروح في السماء السابعة ، وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً وحده .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الضحاك قال : الروح حاجب الله يقوم بين يدي الله يوم القيامة ، وهو أعظم الملائكة لو فتح فاه لوسع جميع الملائكة ، والخلق إليه ينظرون ، فمن مخافته لا يرفعون طرفهم إلى من فوقه .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مقاتل بن حبان قال : الروح أشرف الملائكة ، أقربهم من الرب ، وهو صاحب الوحي .

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال : الروح ملك من الملائكة ، له عشرة آلاف جناح ، ما بين كل جناحين منها ما بين المشرق والمغرب ، له ألف وجه ، لكل وجه ألف لسان ، وشفتان وعينان يسبح الله تعالى .

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات " عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده : " سبوح قدوس رب الملائكة والروح " " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال : جبريل .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن جبريل يوم القيامة القائم بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ، ما عبدناك حق عبادتك إن ما بين منكبيه كما بين المشرق إلى المغرب ، أما سمعت قول الله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال : يعني حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الأرواح إلى الأجساد .

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ وقال صواباً ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله .

(93/799)

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ وقال صواباً ﴾ قال : شهادة أن لا إله ألا الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة مثله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ وقال صواباً ﴾ قال : حقاً في الدنيا وعمل به .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان وضعفه عن جابر بن عبد الله قال : " قال العباس بن عبد المطلب يا رسول الله : ما الجمال ؟ قال : صواب القول بالحق . قال : فما الكمال ؟ قال : حسن الفعال بالصدق والله أعلم " .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ قال : سبيلاً .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ يوم ينظر المرء ﴾ قال : المؤمن .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه قرأ هذه الآية ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ قال : هو المؤمن العامل بطاعة الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال : يحشر الخلائق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

وأخرج الدينوري في المجالسة عن يحيى بن جعدة قال : إن أول خلق الله يحاسب يوم القيامة الدواب والهوام حتى يقضي بينها ، حتى لا يذهب شيء بظلامته ، ثم يجعلها تراباً ، ثم يبعث الثقلين الجن والإنس فيحاسبهم فيومئذ يتمنى الكافر ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : تقاد المنقورة من الناقرة ، والمركوضة من الراكضة ،

والجلحاء من ذات القرون ، والناس ينظرون ، ثم يقول : كوني تراباً لا جنة ولا نار ، فذلك حين يقول الكافر : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

(94/799)

وأخرج عبد بن حميد وابن شاهين في كتاب العجائب والغرائب عن أبي الزناد قال : إذا قضى بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجن عودوا تراباً فيعودوا تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم قد عادوا تراباً : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : إذا حوسبت البهائم ثم صيرها الله تراباً ، فعند ذلك قال الكافر : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبي سليم قال : الجن يعودون تراباً .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ليث بن أبي سليم قال : ثواب الجن أن يجاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 389.402 ﴾

(95/799)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث ، جعلوا يتساءلون فيما بينهما ، ويقولون ما الذي جاء به هذا الرجل .

فنزل ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يعني : عماذا يتساءلون .

ثم قال : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ يعني : يتساءلون عن الخبر العظيم ، وهو القرآن كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : 68] ويقال : معناه عن ماذا يتحدثون ، وعن أي شيء يتحدثون .

ثم قال : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ يعني : خبراً عظيماً .

وقال الزجاج : أصله ﴿ عَمَّا يَتَسَاءلُونَ ﴾ ثم بين فقال : ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ يعني : عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : عن القرآن .

وقيل ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ يعني : عن البعث والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ ميقاتا ﴾ [النبأ : 17] ثم بين لهم الأمر الذي كانوا يتساءلون ، وهو البعث .

ثم قال عز وجل : ﴿ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعني : مصدقاً ومكذباً .

يعني : بالبعث بعضهم مصدق ، وبعضهم مكذب .

ويقال : بالقرآن ، ويقال : بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ يعني : سيعرفون ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ يعني : سيعرفون ذلك الوعيد ، على أثر الوعيد ، يعني : سيعلمون عند الموت وفي الآخرة ، ويتبين لهم بالمعاينة .

قرأ ابن عامر ستعلمون ، بالتاء على وجه المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء ، على معنى الخبر عنهم .

ثم ذكر صنعه ، ليستدلوا بصنعه على توحيده .

فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا ﴾ يعني : فراشاً ومقاماً .

ويقال : موضع القرار ، ويقال : معناه ذللنا لهم الأرض ، ليسكنوها ويسيروا فيها .

﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ يعني : أوتدها وأثبتها .

ثم قال : ﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ يعني : أصنافاً وأضداداً ، ذكراً وأنثى .

(96/799)

ويقال : ألواناً بيضاً ، وسوداً ، وحمراً ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ يعني : راحة لأبدانكم وأصله التمدد ، فلذلك سمي السبت ، لأنه قيل لبني إسرائيل : استريحوا فيه .

ويقال : سباتاً يعني : سكوناً وانقطاعاً عن الحركات .

﴿ وَجَعَلْنَا الليلِ لِبَاساً ﴾ يعني : سكوناً يسكنون فيه .

ويقال : ستراً يستر كل شيء ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ يعني : مطلباً للمعيشة ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ يعني : سبع سموات غلاظاً ، كل سماء مسيرة خمسمائة عام ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ يعني : وقاداً مضيئة ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ يعني : من السحاب ، سمي معصرات لأنها تعصر الماء .

ويقال : المعصرات هي الرياح .

يعني : ذوات الأعاصير .

كقوله : إعصاراً فيه نار .

ثم قال عز وجل : ﴿ مَاء ثَجَّاجاً ﴾ يعني : سيالاً ويقال : منصباً كبيراً ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ يعني : بالماء حبوباً كثيرة للناس ، ونباتاً للدواب من العشب والكلأ ﴿ وجنات أَلْفَافاً ﴾ يعني : شجرها ملتفاً بعضها في بعض ، فأعلم الله تعالى قدرته ، أنه قادر على البعث .

فقال : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ ميقاتا ﴾ يعني : يوم القيامة ميقاتاً ، وميعاداً للأولين والآخرين

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ يعني : جماعة جماعة .

وروي في بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : يبعث الله تعالى الناس صوراً مختلفة ، بعضهم على صورة الخنزير ، وبعضهم على صورة القردة ، وبعضهم وجوههم كالقمر ليلة البدر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَفُتِحَتِ السماء ﴾ يعني : أبواب السماء ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ يعني : صارت طرقاً .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتشديد ، وهو لتكثير الفعل ، والتخفيف بفتح مرة واحدة .

(97/799)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ يعني : قلعت من أماكنها ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ يعني : فصارت كالسراب ، تسير في الهواء كالسراب في الدنيا ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ أي : رصداً لكل كافر ويقال : سجناً ومحبساً ﴿ للطاغين مَئَاباً ﴾ أي : للكافرين مرجعاً ، يرجعون إليها .

﴿ لابثين فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ يعني : ماكثين فيها أبداً دائماً .

والأحقاب وأحدها حقب ، والحقب ثمانون سنة ، واثنا عشر شهراً ، وكل شهر ثلاثون يوماً ، وكل يوم منها مقدار ألف سنة مما تعدون بأهل الدنيا ، فهذا حقب واحد ، والأحقاب هو التأبيد كلما مضى حقب ، دخل حقب آخر .

وإنما ذكر أحقاباً ، لأن ذلك كان أبعد شيء عندهم .

فذكر وتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونه ، وهو كناية عن التأبيد ، أي : يمكثون فيها أبداً .

قرأ حمزة لبثين بغير ألف .

والباقون لابثين بالألف ، ومعناهما واحد .

ثم قال عز وجل : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً ﴾ يعني : لا يكون فيها برد يمنعهم من حرها .

وقال القتبي : البرد النوم .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون البرد نوماً ، ويجوز أن يكون معناه : لا يذوقون فيها برد ريح ، ولا ظل ﴿ وَلاَ شَرَاباً ﴾ يعني : شراباً ينفعهم ﴿ إِلاَّ حَمِيماً ﴾ يعني : ماءً حاراً قد انتهى حره ﴿ وَغَسَّاقاً ﴾ يعني : زمهريراً .

وقال الزجاج : الغساق ما يغسق من جلودهم ، أي : ما يسيل وقد قيل الشديد البرد .

قرأ حمزة ، والكسائي وعاصم في رواية حفص ، وغساقاً بالتشديد .

والباقون بالتخفيف ، ومعناهما واحد .

ثم قال : ﴿ جَزَاء وفاقا ﴾ يعني : العقوبة موافقة لأعمالهم ، لأن أعظم الذنوب الشرك نعوذ بالله ، وأعظم العذاب النار ، ووافق الجزاء العمل .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ يعني : لا يخافون البعث بعد الموت .

ويقال : كانوا لا يرجون ثواب الآخرة ، أنهم كانوا ينكرون البعث .

(98/799)

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ يعني : جحدوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن كذاباً يعني : تكذيباً وجحوداً .

ثم قال : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحصيناه كتابا ﴾ يعني : أثبتناه في اللوح المحفوظ ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ يعني : يقال لهم : فذوقوا العذاب ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ .

ثم بين حال المؤمنين فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ يعني : نجاة من النار إلى الجنة .

ويقال : المفاز بمعنى الفوز .

يعني : موضع النجاة ﴿ حَدَائِقَ وأعنابا ﴾ يعني : لهم حدائق في الجنة ، والحدائق ما أحيط بالجدار ، وفيه من النخيل والثمار ، وأعناباً يعني : كروماً ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ﴾ والكواعب ، الجواري مفلكات الثديين ﴿ أَتْرَاباً ﴾ مستويات في الميلاد والسن .

وقال أهل اللغة : الكواعب النساء ، قد كعب ثديهن ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ كل إناء فيه شراب فهو كأس ، فإذا لم يكن فيه شراب فليس بكأس ، كما يقال للمائدة إذا كان عليها طعام مائدة ، وإذا لم يكن فيها طعام خوان يقال ﴿ دِهَاقاً ﴾ يعني : سائغاً .

وقال الكلبي : ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ يعني : إناء فيه خمر ملآن متتابعاً .

وهذا قول عطية وسعيد ، والعباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنهم ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعي .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ يعني : حلفاً وباطلاً .

ويقال : ولا يسمعون في مشربها فحشاً خبثاً ﴿ وَلاَ كِذَّاباً ﴾ يعني : تكذيباً في شربها .

يعني : لا يكذبون فيها .

قرأ الكسائي كذاباً بالتخفيف ، يعني : لا يكذب بعضهم بعضاً .

وقرأ الباقون بالتشديد فهو من التكذيب ثم قال : ﴿ جَزَاء مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني : ثواباً من ربك ﴿ عَطَاء حِسَاباً ﴾ يعني : كثيراً وقال مجاهد : عطاء من الله ، حساباً بما عملوا .

وقال أهل اللغة : حساباً أي : كثيراً .

كما يقال : أعطينا فلاناً عطاء حساباً ، أي : كثيراً .

وأصله أن يعطيه حتى يقول حسبي .

وقال الزجاج : حساباً .

أي : ما يكفيهم ، يعني : فيه ما يشتهون .

ثم قال : ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ يعني : خالق السموات والأرض .

قرأ ابن كثير ، ونافع وأبو عمرو ، رب السموات والأرض بضم الباء والباقون بالكسر فمن قرأ بالضم فمعناه هو رب السموات والأرض ومن قرأ بالكسر فهو على معنى الصفة أي : جزاء من ربك رب السموات والأرض ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن ﴾ يعني : الرحمن هو رب السموات والأرض ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ يعني : لا يملكون الكلام بالشفاعة ، إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح ﴾ قال الضحاك : هو جبريل .

وقال قتادة عن ابن عباس ، وخلق على صورة بني آدم .

ويقال : هو خلق واحد ، يقوم صفاً واحداً ﴿ والملائكة صَفّاً ﴾ يعني : صفوفاً .

ويقال : الروح لا يعلمه إلا الله ، كما قال ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] .

ثم قال عز وجل : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ يعني : لا يتكلمون بالشفاعة ، إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة ﴿ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ يعني : لا إله إلا الله يعني : من كان معه من

التوحيد ، وهو من أهل الشفاعة .

ثم قال عز وجل : ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ يعني : القيامة كائنة ﴿ فَمَن شَاء اتخذ ﴾ يعني : من شاء وجد واتخذ بذلك التوحيد ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ يعني : مرجعاً .

ويقال : من شاء اتخذ بالطاعة إلى ربه مرجعاً .

ثم خوفهم فقال : ﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني : خوفناكم بعذاب قريب ، وهو يوم القيامة .

ثم خوف المؤمنين ، ووصف ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ يعني : ما عملوا من الخير والشر يعني : ينظر المؤمن إلى عمله ، وينظر الكافر إلى عمله ﴿ وَيَقُولُ الكافر الكافر ياليتنى كُنتُ ترابا ﴾ يعني : لو كنت بهماً منها فأكون تراباً ، أستوي بالأرض .

(100/799)

وذلك ، أن الله تعالى يقول للسباع والبهائم ، كوني تراباً فعند ذلك ، يتمنى الكافر ﴿ الكافر ياليتنى كُنتُ ترابا ﴾ .

وروى عبد الله بن عمر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه قال : إن الله يحشر البهائم والدواب والناس ، ثم يقتص لبعضهم من بعض ، حتى يقتص للشاة .

الجماء من الشاة القرناء .

ثم إن الله تعالى يقول لها : كوني تراباً ، فيراها الكافر ويتمنى أن يكون مثلها تراباً .

ويقول : ﴿ الكافر ياليتنى كُنتُ ترابا ﴾ يعني : يا ليتني لم أبعث كقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ ياليتنى لَمْ أُوتَ كتابيه ﴾ [الحاقة : 25] إلى قوله : ﴿ ياليتها كَانَتِ القاضية ﴾ [الحاقة : 27] والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 514.518 ﴾

(101/799)

وقال الثعلبى :

سورة النبأ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

يعني عن أي شيء يتساءلون هؤلاء المشركين وذلك أنهم اختلفوا واختصموا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، ﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ قال مجاهد هو القرآن . دليله قوله سبحانه ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ [الآية] [ص : 67] وقال قتادة : هو البعث ، ﴿ الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ فمصدّق ومكذّب ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ

﴿ وهذا وعيد لهم ، وقال الضحاك كلاّ سيعلمون يعني الكافرين ، ثم كلاّ سيعلمون يعني المؤمنين ، وقراءة العامة بالياء فيهما ، وقرأ الحسن ومالك بن دينار بالتاء فيهما .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً * والجبال أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً ذكوراً وإناثاً . ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ راحة لأبدانكم ، والنائم مسبوت لا يعلم ولا يعقل كأنّه ميّت ، ﴿ وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً ﴾ غطاء وغشاء يلبس كل شيء بسواده ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ سبباً لمعاشكم والتصرّف في مصالحكم فسمّاه به كقول الشاعر :

وأخو الهموم إذا الهموم تحضّرت . . . [جنح] الظلام وساده لا يرقدُ

فجعل الوسادة هي التي لا ترقد والمعنى لصاحب الوسادة .

(102/799)

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ مضيئاً منيراً وقّاداً حارّاً وهي الشمس . ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة : يعني الرياح التي تعصر السحاب ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ومجازه على هذا التأويل بالمعصرات ﴿ مِنَ ﴾ بمعنى الباء كقوله سبحانه : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ ﴾ [القدر : 4-5] وكذلك كان عكرمة يقرأها " وَأَنزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ " وروى الأعمش عن المنهال عن ابن

عمرو وعن قيس بن سكن قال : قال عبد الله في قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ قال : بعث الله سبحانه الريح فحمل الماء من الماء فتدرّ كما تدر اللقحة ثم يُبعث الماء كأمثال العزالي فتضرب به الرياح فينزل متفرّقاً .

قال المؤرّخ : المعصرات : ذوات الأعاصير ، وقال أبو العالية والربيع والضحاك : هي السحاب التي تجلب المطر ولم تمطر كالمرأة المعصر ، وهي التي دنا حيضها ، قال أبو النجم : قد أعصرت أو قد دنا اعصارها . . . . وهذه رواية الوالي عن ابن عباس . قال المبرّد : المعصرات الفاطرات ، وقال ابن كيسان : المغيثات من قوله ﴿ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : 49] وقال أُبي بن كعب والحسن وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : من المعصرات أي من السموات .

﴿ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ أي صباباً ، وقال مجاهد : مدراراً ، قتادة : متتابعاً يتلوا بعضه بعضاً ، وقال ابن زيد : كثيراً .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ مجتمعه ملتفة بعضه ببعض وواحدها ألفّ في قول [نحاة] البصّرة وليس بالقوى وفي قول الآخرين واحدها لِف ولفيف وقيل : هو جمع الجمع يقال : جنّة لفاً [وبنت] لف وجنان لف بضم اللام ثم تجمع اللف ألفافاً .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ مِيقَاتاً ﴾ لما وعد الله سبحانه ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ [. . . .] ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه ، قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن منصور الكسائي قال : حدّثنا محمد بن عبد الجبار قال : أخبرنا محمد بن زهير عن محمد بن المهتدي عن حنظلة الدّوري عن أبيه عن [البزا] بن عازب قال :

"كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزل أبي أيوب الأنصاري فقال معاذ : يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ فقال : " معاذ سألت عن عظيم من الأمر ، ثم أرسل عينيه ثم قال : تحشرون عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميزّهم الله تعالى من جماعة المسلمين وبدّل صورهم فبعضهم على صور القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكّبين أرجلهم فوق ووجوههم أسفل يسحبون عليها ، وبعضهم عُمي يتردّدون ، وبعضهم صمّ بكمّ لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدّلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يقذّرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلّبين على جذوع من نار ، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فأما الذين على صورة القردة فالقتّات من الناس يعني النّمام وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، والمنكسين على وجوههم فأكلة الربا ، والعمي من يجور في الحكم ، والصمّ

والبكمّ المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم ، والمقطّعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران ، والمصلّبين على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ومنعوا حق الله سبحانه من أموالهم ، والذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء " .

(104/799)

﴿ وَفُتِحَتِ السمآء ﴾ قرأ أهل الكوفة بالتخفيف وغيرهم بالتشديد . ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ أي شقت لنزول الملائكة ، وقيل : شقت حتى جعلت كالأبواب قطعاً ، وقيل : تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق وقيل : إنّ لكل عبد بابين في السماء : باب لعمله وباب لرزقه ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب .

﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ عن وجه الأرض ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ كالسراب ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ طريقاً وممراً فلا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار ، وقال مقاتل : محبساً ﴿ لِّلطَّاغِينَ ﴾ للكافرين ﴿ مَآباً * لاَّبِثِينَ ﴾ قرأه العامة بالألف وقرأ علقمة وحمزة : لبثين بغير ألف وهما لغتان ﴿ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ جمع حقب والحقب جمع حقبة كقول متمم :

وكنا كندماني جذيمة حقبةً . . . من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

واختلف العلماء في معنى الحقب فقال قوم : هو اسم للزمان والدّهر وليس له حدّ ، وروى أبو الضحى عن ابن مسعود قال : لا يعلم عدد الأحقاب إلاّ الله عزّوجل ، وقال آخرون : هو محدود . ثم اختلفوا في مبلغ مدّته فقال طارق بن عبد الرحمن : دعاني شيخ بين الصفا والمروة فإذا عنده كتاب عبد الله بن عمرو ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ ان الحقب أربعون سنة كلّ يوم منها ألف سنة ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد وابن حسن قالا : حدّثنا محمد بن عمران قال : حدّثنا ابن المقري وأبو عبيد الله قالا : حدّثنا [محمد بن يحيى] العرني عن سفيان عن عمّار الدهني قال : قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري : ما يجدون في الحقب في كتاب الله المنزل قال : يجده في كتاب الله ثمانين سنة كل سنة اثنا عشر شهراً لكل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة .

(105/799)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن محمد بن الفتح قال : حدّثنا أبو حامد محمد بن هارون الحضرمي قال : حدّثنا زياد بن أبي يزيد قال : حدّثنا سليمان بن مسلم عن سليمان الحتمي عن نافع عن [ابن عمر] عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "

والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكونوا فيها أحقاباً ، والحقب بضع وثمانين سنة ، والسنة ثلثمائة وستون ويوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون ، فلا يتكلّنّ أحد على أن يخرج من النار " .

وقال أُبي بن كعب : بلغني أن الحقب ثلثمائة سنة كل سنة ثلثمائة وستون يوماً كلّ يوم ألف سنة ، وقال الحسن : إنّ الله سبحانه لم يذكر شيئاً إلاّ وجعل له مدّة ينقطع إليها ولم يجعل لأهل النار مدّة بل قال : ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ فوالله ما هو إلاّ أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر ثم آخر كذلك إلى أبد الآبدين فليس للأحقاب عدة إلاّ الخلود في النار ولكن قد ذكروا أن الحقب الواحد سبعون ألف سنة كل يوم منها ألف سنة مّما نعده ، وقال مقاتل بن حيان : الحقب الواحد سبع عشرة ألف سنة ، وقال وهذه الآية منسوخة ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ [النبأ : 30] يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل ، وقال بعض العلماء مجاز الآية ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ : لا يذوقون في تلك الأحقاب إلاّ حميماً وغساقاً ثم يلبثون أحقاباً يذوقون حرّ الحميم ، والغساق من أنواع العذاب ، فهو توقيت لأنواع العذاب لا بمكثهم في النار .

﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً ﴾ يشفيهم من الحر إلاّ الغسّاق وهو الزمهرير ، وقيل صديد أهل السعير ، وقال الثمالي : دموعهم ، وقال شهر بن حوشب : الغسّاق واد في النار فيه ثلثمائة

وثلاثون شعباً في كل شعب ثلثمائة وثلاثون بيتاً في كل بيت أربع زوايا في كلّ زاوية شجاع كأعظم ما خلقه الله سبحانه من خلقه في رأس كل شجاع سم .

(106/799)

﴿ وَلاَ شَرَاباً ﴾ يرويهم من العطش ، ﴿ إِلاَّ حَمِيماً ﴾ وأنبأني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حامد بن محمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حماد قال : حدّثنا محمد بن علي الحسن الشقيقي قال : سألت أبا معاذ النحوي الفضل بن خالد المروزي يقول في قوله سبحانه : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً ﴾ قال : البرد : النوم ، ومثله قال الكسائي وأبو عبيده وانشدوا فيه :

بردت مراشفها عليّ فصدّني . . . عنها وعن قبلاتها البردُ

والعرب تقول : منع البُرد البرد ، يعني أذهب البردُ النوم ، قال الفراء : إنّ النوم ليبرّد صاحبه وإنّ العطشان لينام فيبرد غليله ؛ فلذلك سمي النوم برداً ، قال الشاعر :

وان شئت حرّمت النساء سواكم . . . وان شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا

وقال الحسن وعطاء : لا يذوقون فيها برداً أي روّحاً وراحة .

﴿ جَزَآءً ﴾ نصب على المصدر ، مجازه : جازيناهم جزاء .

﴿ وِفَاقاً ﴾ وافق أعمالهم وفاقاً كما نقول : قاتل قتالا عن الأخفش ، وقال الفراء : هو جمع وفق والوفق واللفق واحد ، قال الربيع : جزاء بحسب أعمالهم ، الضحاك : على قدر أعمالهم ، مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار ، الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأثابهم الله بما يسوءهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ ﴾ يخافون ﴿ حِسَاباً * وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ تكذيباً قال الفراء : هي لغة يمانية فصيحة ، يقولون : كذّب كذّاباً ، وخرّقت القميص خرّاقا ، كل فعّلت فمصدرها فعّال في لغتهم مشدّد ، قال : وقال لي إعرابي منهم : علي المروّة ستفتيني الحلاق أحب إليك أم القصاب وأنشدني بعض بني كلاب :

لقد طال (ما ثبطتني) عن صحابي . . . وعن حوج قضاؤها من شفائنا

(107/799)

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا السنّي قال : أخبرني ابن منجويه قال : حدّثنا أبو داود الحراني قال : حدّثنا شعيب بن حيان قال : حدّثنا مهدي بن ميمون قال : حدّثنا وسمعت " الحسن بن دينار سأل الحسن عن أشد آية في القرآن على أهل النار فقال الحسن : سألت أبا برزة الأسلمي

فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " فذوقا فلن نزيدكم إلاّ عذاباً " .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ فوزاً ونجاة من النار الى الجنة ، وقال ابن عباس والضحاك : متنزّهاً . ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ ﴾ نواهد قد تكعبت ثديهنّ واحدتها كاعب ، قال بشر بن أبي حازم :

[وكم من حصان قد حوينا كريمة] . . . ومن كاعب لم تدر ما البؤس معصر

﴿ أَتْرَاباً ﴾ مستويات في السنّ ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ قال الحسن وابن عباس وقتادة وابن زيد : مترعة مملوة ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد : متتابعة ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ تكذيباً وهي قراءة العامة ، وخفّفه الكسائي وهي قراءة أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه ، وهما مصدران للتكذيب .

وقال قوم : الكذاب بالتخفيف مصّدر الكاذبة وقيل : هو الكذب ، قال الأعشى :

فصدقتها وكذبتها . . . والمرء تنفعه كذابه

وإنّما خففها هنا لأنها ليست بمقيّدة بفعل يصيّرها مصدراً له ، وشدد قوله : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ لأن كذبوا يقيد الكذاب بالمصدر .

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ كثيراً كافياً وافياً يقال : أحسبت فلاناً أي أعطيته ما يكفيه حتى قال : حسبي . قال الشاعر :

ونقفي وليد الحيّ إن كان جائعاً . . . ونحسبه إن كان ليس بجائع

أي يعطيه حتى يقول حسبّي .

(108/799)

وقيل : جزاء بقدر أعمالهم وقرأ أبو هاشم ﴿ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ بفتح الحاء وتشديد السين على وزن فعّال أي كفافاً . قال الأصمعي : تقول العرب حسّبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ، وأنشد :

إذا أتاه ضيفه يحسُّبه . . . من حاقن أو من صريح يُحلبُه

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا الطُهراني قال : أخبرنا يحيى بن الفضل قال : حدّثنا وهب بن عمر قال : أخبرنا هارون بن موسى عن حنظلة عن شهر عن ابن عباس أنه قرأ (عطاء حسناً) بالنون .

﴿ رَّبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن ﴾ قرأ ابن مسعود والأشهب وأبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو سلام ويعقوب برفع الباء والنون ، وقرأ ابن عامر وعيسى وعاصم كلاهما خفضاً واختاره أبو حاتم ، وقرأ ابن كثير ومحيض ويحيى وحمزة والكسائي ﴿ رَّبِّ ﴾ خفضاً و ﴿ الرحمن ﴾ رفعاً ، واختاره أبو عبيد ، وقال : هذه أعدلها عندي أن

يخفض الأوّل منهما لقربه من قوله : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فتكون نعتاً له ونرفع ﴿ الرحمن ﴾ لبعده منه .

﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ كلاماً وقال الكلبي : شفاعة إلاّ بإذنه .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح ﴾ اختلفوا فيه ، فأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن خُرجة قال : حدّثنا عبد الله بن العباس الطيالسي قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا إبراهيم ابن طهمان عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس قال : " أتى نفر من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا عن الروح ما هو ؟ قال : " هو جند من جند الله ليسوا بملائكة ، لهم رؤوس وأيد وأرجل يأكلون الطعام ثم قرأ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ الآية ، قال : هؤلاء جند وهؤلاء جند " .

(109/799)

وقال ابن عباس : هو من أعظم الملائكة خلقاً ، وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا المسيب قال : حدّثنا ثابت أبو حمزة عن عامر عن علقمة عن ابن مسعود قال : الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال وأعظم من الملائكة ، وهو في السماء الرابعة تسبح كلّ يوم إثني عشر تسبيحة يخلق من كل

تسبحه ملك يجيء يوم القيامة صفاً وحده ، وقال الشعبي والضحاك : هو جبريل ، وروى الضحاك عن ابن عباس قال : إنّ عن يمين العرش نهراً من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع يدخل جبريل (عليه السلام) فيه كل فجر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظماً إلى عظمه ، ثم ينتفض فيخرج الله سبحانه من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كلّ يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور في الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة ، وقال وهب : إنّ جبريل (عليه السلام) واقف بين يدي الله سبحانه ترعد فرائصه يخلق الله سبحانه وتعالى من كلّ رعدة ألف ملك ، فالملائكة صفوف بين يدي الله منكّسوا رؤوسهم ، فإذا أذن الله سبحانه لهم في الكلام قالوا : لا إله إلاّ أنت وهو قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ .

(110/799)

﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ يعني لا إله إلاّ الله ، وقال مجاهد : هم خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون ، أبو صالح : خلق يشبهون الناس وليسوا ، وقال الحسن وقتادة : هم بنو آدم ، قال قتادة : وهذا مما كان يكتمه ابن عباس ، وروى ابن مجاهد عن ابن عباس قال : الروح خلق من الله وصورهم على صور بني آدم وما ينزل من السماء

ملك إلاّ ومعه واحد من الروح ، عطية : هي أرواح الناس يقوم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تُرد الأرواح الى الأجساد ، وقال ابن زيد : كان أبي يقول : هو القرآن وقرأ ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ قال الشعبي : هما سماطا ربّ العالمين يوم القيامة سماطا من الروح وسماطا من الملائكة لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صوابا قال : لا إله إلاّ الله في الدنيا .

﴿ ذَلِكَ اليوم الحق فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ مَآباً ﴾ مرجعاً وسبيلا إلى طاعته ، ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني القيامة وقيل القتل ببدر .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ قال عبد الله بن عمر : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مدّ الأديم وحشرت الدواب والبهائم والوحش ثم يجعل القصاص بين الدواب حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها ، فإذا فرغ من القصاص قال لها : كوني تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً .

(111/799)

قال مجاهد : يقاد يوم القيامة للمنقورة وللمنطوحة من الناطحة ، وقال المقاتلان : إنّ الله سبحانه وتعالى يجمع الوحوش والهوام والطير كلّ شيء غير الثقلين فيقول : من ربّكم فيقولون : الرحمن الرحيم ، فيقول لهم الرب تبارك وتعالى بعد ما يقضي بينهم حتّى يقتص للجماء من القرناء : أنا خلقتكم وسخرّتكم لبني آدم وكنتم مطيعين أيام حياتكم فارجعوا إلى الذي كنتم كونوا تراباً فيكونون تراباً ، فإذا التفت الكافر إلى شيء صار تراباً يتمنى فيقول : يا ليتني كنت في الدنيا في صورة خنزير رزقي كرزقه وكنت اليوم في الآخرة تراباً .

قال عكرمة : بلغني أنّ السباع والوحوش والبهائم إذا رأينَ يوم القيامة بني آدم وما هم فيه من الغمّ والحزن قلن : الحمد لله الذي لم يجعلنا مثلكم فلا جنّة نرجوا ولا ناراً نخاف ، وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن خالد قال : حدّثنا داود بن سليمان قال : حدّثنا عبد بن حميد قال : حدّثنا الحسن بن موسى قال : حدّثنا يعقوب بن عبد الله قال : حدّثنا جعفر عن عبد الله بن ذكوان أبي الزياد قال : إذا قضي بين الناس وأمر أهل الجنة إلى الجنّة وأهل النار إلى النار قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ : عودوا تراباً فيعودون تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر حيث يراهم قد عادوا تراباً : يا ليتني كنت تراباً ، وبه قال ليث بن سليم : مؤمنوا الجن يعودون تراباً ، وقال عمر بن عبد العزيز : إن مؤمنين الجن حول الجنّة في ريض ورحاب وليسوا فيها .

وسمعتُ أبا القاسم بن جبير يقول : رأيت في بعض التفاسير أن الكافر هاهنا إبليس وذلك

أنه عاب آدم بأنه خُلق من تراب وافتخر بأنه خلق من النار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه المؤمنون من الثواب والراحة والرحمة ورأى ما هو وذويه فيه من الشدّة والعذاب تمنّى أنه بمكان آدم فيقول حينئذ : يا ليتني كنت تراباً .

(112/799)

وقال أبو هريرة : فيقول التراب للكافر : لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 113 . 121 ﴾

(113/799)

وقال الزمخشرى :

سورة عمّ يتساءلون

مكية ، وتسمى سورة النبإ ، وهي أربعون ، أو إحدى وأربعون آية [نزلت بعد المعارج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النبإ (78) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3)

عَمَّ أصله عما ، على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية ، وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر . قال حسان رضى اللّه عنه :

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرّغ في رماد «1»

---

(1) على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في رماد

وتلقاه على ما كان فيه من الهفوات أو نوك الفؤاد

جبين الغى لا يغبى عليه ويغبى بعد عن سبيل الرشاد

لحسان بن المنذر . وقيل : ابن ثابت ، يهجو أحد بنى عائذ بن عمرو بن مخزوم . وما استفهام إنكارى وكان حقها حذف الألف لدخول حرف الجر عليها ، وثبوتها قليل ، أى : على أى شيء يسبني لئيم مثل الخنزير المتمرغ في الرماد لذله . ويروى : في دمان كرماد وزنا ومعنى . أو بمعنى الدمنة وهي الكناسة المختلطة بالبعر ، ولعل ابن ثابت غيره وإلا فقصيدة ابن المنذر دالية لا نونية . والنوك : الحمق والهوج . والفؤاد : القلب والعقل ، أى : وتلقاه مع ما ثبت فيه من الخلل لا يخفى عليه الغى المبين ، أى : يرتكب طريقه ولا يعرف سبل الرشاد . ومعنى البعدية : تفاوت ما بين الخبرين . وغبا عليه الشيء - كرضى - :

خفى عليه. وغبي هو عن الشيء - كرضى أيضا - : عجز عن معرفته.

وفي قوله «لا يغبى . . . الخ» طباق الإيجاب والسلب.

(114/799)

والاستعمال الكثير على الحذف، والأصل: قليل. ومعنى هذا الاستفهام: تفخيم الشأن، كأنه قال: عن أى شأن يتساءلون. ونحوه ما في قولك: زيد ما زيد «1»؟ جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفى عليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره، كما تقول: ما الغول وما العنقاء؟ تريد: أى شيء هو من الأشياء هذا أصله، ثم جرد للعبارة عن التفخيم «2»، حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية يَتَساءَلُونَ يسأل بعضهم بعضا. أو يتساءلون غيرهم من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين. نحو: يتداعونهم ويتراءونهم. والضمير لأهل مكة: كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ بيان للشأن المفخم. وعن ابن كثير أنه قرأ: عمه، بهاء السكت، ولا يخلو: إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويبتدئ يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ على أن يضمر يَتَساءَلُونَ لأنّ ما بعده يفسره، كشيء يبهم ثم يفسر. فإن قلت: قد زعمت أنّ الضمير في يتساءلون للكفار، فما تصنع

بقوله هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ؟ قلت: كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث، ومنهم من يشك. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين جميعا، وكانوا جميعا يسألون عنه. أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا، وأما الكافر فليزداد استهزاء. وقيل: المتساءل عنه القرآن. وقيل: نبوّة محمد صلى اللّه عليه وسلم. وقرئ: يسّاءلون بالإدغام، وستعلمون بالتاء.

[سورة النبإ (78): الآيات 4 إلى 5]

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5)

كَلَّا ردع للمتسائلين هزؤا. وسَيَعْلَمُونَ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أنّ ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق، لأنه واقع لا ريب فيه. وتكرير الردع مع الوعيد تشديد في ذلك. ومعنى ثُمَّ الإشعار بأنّ الوعيد الثاني أبلغ من الأوّل وأشد.

---

(1). قال محمود: «معنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن، كأنه قيل: عن أى شيء يتساءلون ونحوه ما في قولك... الخ» قال أحمد: وقد أكثرت أم زرع من هذا التفخيم في قولها: وأبو زرع ما أبو زرع، إلى آخر حديثها.

(2). قال محمود: «هذا أصله، ثم جرد الدلالة على التفخيم... الخ» قال أحمد. لان بعضهم يشك في البعث، وبعضهم يبت النفي، ومن ثم قيل الضمير للمسلمين والكافرين، فسؤال المسلمين ليزدادوا خشية، وإنما سؤال الكفار لزيادة الاستهزاء والكفر.

[سورة النبإ (78) : الآيات 6 إلى 16]

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَالْجِبالَ أَوْتاداً (7) وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (8) وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10)

وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11) وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (12) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (15)

وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (16)

فإن قلت : كيف اتصل به قوله أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً «1» قلت : لما أنكروا البعث قيل لهم : ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة ، فما وجه إنكار قدرته على البعث ، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات . أو قيل لهم : ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة . والحكيم لا يفعل فعلا عبثا ، وما تنكرونه من البعث والجزاء مؤدّ إلى أنه عابث في كل ما فعل مِهاداً فراشا . وقرئ : مهدا . ومعناه : أنها لهم كالمهد للصبي : وهو ما يمهد له فينوّم عليه ، تسمية للممهود بالمصدر ، كضرب الأمير . أو وصفت بالمصدر . أو بمعنى : ذات مهد ، أى : أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد سُباتاً

موتا . والمسبوت : الميت ، من السبت وهو القطع ، لأنه مقطوع عن الحركة . والنوم : أحد التوفيين ، وهو على بناء الأدواء .

ولما جعل النوم موتا ، جعل اليقظة معاشا ، أى : حياة في قوله وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً أى : وقت معاش تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم . وقيل : السبات الراحة لِباساً يستركم عن العيون إذا أردتم هربا من عدوّ ، أو بياتا له . أو إخفاء مالا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور .

وكم لظلام اللّيل عندك من يد تخبّر أنّ المانويّة تكذب «2»

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : كيف اتصال قوله أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً بما قبله . . . الخ» قال أحمد :

جوابه الأول سديد ، وأما الثاني فغير مستقيم ، فانه مقرع على المذهب الأعوج في وجوب مراعاة الصلاح والأصلح ، واعتقاد أن الجزاء واجب على اللّه تعالى عقلا ثوابا وعقابا بمقتضى إيجاب الحكمة . وقد فرغ من إبطال هذه القاعدة

(2) وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

ووقاك ردى الأعداء تسرى إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

لأبى الطيب . وكم خبرية للتكثير . واليد : النعمة . وتخبر : تدل مجازا مرسلا . والمانوية طائفة تنسب الخير للنور والشر للظلام ، فكذبهم في البيت الأول ، واستدل على ذلك ،

وبنى اليد في الثاني . والدلال : تمنع المحجوب مع رضاه . وتسرى : حال ، والمحجب : نعت ذى الدلال ، وإيضاح مسألة المانوية . أنه لم يخالف في أن اللّه واحد إلا الثنوية . قالوا : تجد في العالم خيرا كثيرا وشرا كثيرا ، والواحد لا يكون خيرا شريرا ، فلكل من الخير والشر فاعل مستقل ، فالمانوية والديصانية عن الثنوية قالوا : فاعل الخير هو النور ، وفاعل الشر هو الظلمة ، واعتقموا أنهما جسمان قديمان حساسان سميعان بصيران . والمجوس من الثنوية أيضا قالوا : إن فاعل الخير هو : يزوان .

وفاعل الشر هو : أهرمن ، يعنون به الشيطان ، وكل ذلك ظاهر البطلان .

(116/799)

سَبْعاً سبع سماوات شِداداً جمع شديدة ، يعنى : محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان وَهَّاجاً متلألئا وقادا ، يعنى : الشمس : وتوهجت النار : إذا تلمظت «1» فتوهجت بضوئها وحرها . المعصرات : السحائب إذا أعصرت ، أى : شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، كقولك : أجز الزرع ، إذا حان له أن يجز . ومنه : أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض .

وقرأ عكرمة : بالمعصرات ، وفيه وجهان : أن تراد الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب

، وأن تراد السحائب ، لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها ، كما تقول : أعطى من يده درهما ، وأعطى بيده . وعن مجاهد : المعصرات الرياح ذوات الأعاصير . وعن الحسن وقتادة : هي السماوات .

وتأويله : أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب ، فكأنّ السماوات يعصرن ، أى : يحملن على العصر ويمكنّ منه . فإن قلت : فما وجه من قرأ مِنَ الْمُعْصِراتِ وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير ، والمطر لا ينزل من الرياح ؟ قلت : الرياح هي التي تنشئ السحاب وتدرّ أخلافه «2» ، فصحّ أن تجعل مبدأ للإنزال وقد جاء أنّ اللّه تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ، فإن صحّ ذلك فالإنزال منها ظاهر . فإن قلت : ذكر ابن كيسان «3» أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات ، والعاصر هو المغيث لا المعصر . يقال : عصره فاعتصر . قلت :

وجهه أن يريد اللاتي أعصرن ، أى حان لها أن تعصر ، أى : تغيث ثَجَّاجاً منصبا بكثرة . يقال : ثجه وثج نفسه وفي الحديث : «أفضل الحج : العجّ والثجّ» «4» أى رفع الصوت بالتلبية ، وصب دماء الهدى . وكان ابن عباس مثجا يسبل غربا ، يعنى يثج الكلام ثجا في خطبته . وقرأ الأعرج :

ثجاجا . ومثاجج الماء : مصابه ، والماء ينثجج في الوادي حَبًّا وَنَباتاً يريد ما يتقوّت من الحنطة والشعير وما يعتلف من التبن والحشيش ، كما قال كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ ،

(1) . قوله «و توهجت النار إذا تلمظت» في الصحاح «توهجت النار» توقدت . وتوهج الجوهر : تلألأ ، فقوله : فتوهجت . . . الخ : يعنى جمعت بين التلألؤ بضوئها ، والتوقد بحرها ، فتدبر . (ع)

(2) . قوله «و تدر أخلافه» واحدها خلف : وهو ثدي الناقة ، كما يفيده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «فان قلت ذكر ابن كيسان» لعله «ذكر عن ابن كيسان» . (ع)

(4) . أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر بمعناه . وضعفه إبراهيم بن يزيد الخرزي . وأخرجه هو وابن ماجة من روآية محمد بن المنكدر ، عن عبد الرحمن ابن يربوع عن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه مرفوعا نحوه .

وقال لم يسمع ابن المنكدر عن عبد الرحمن بن يربوع .

(117/799)

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ . أَلْفافاً ملتفة ولا واحد له ، كالأوزاع والأخياف «1» .

وقيل :

الواحد لف . وقال صاحب الإقليد : أنشدنى الحسن بن على الطوسي :

جنّة لفّ وعيش مغدق وندامى كلّهم بيض زهر «2»

وزعم ابن قتيبة أنه لفاء ولف ، ثم ألفاف : وما أظنه واجدا له نظيرا من نحو خضر وأخضار وحمر وأحمار ، ولو قيل : هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد ، لكان قولا وجيها .

[سورة النبإ (78) : الآيات 17 إلى 20]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (18) وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (20)

كانَ مِيقاتاً كان في تقدير اللّه وحكمه حدّا توقت به الدنيا وتنتهي عنده ، أو حدا للخلائق ينتهون إليه يَوْمَ يُنْفَخُ بدل من يوم الفصل ، أو عطف بيان فَتَأْتُونَ أَفْواجاً من القبور إلى الموقف أمما كل أمّة مع إمامهم . وقيل : جماعات مختلفة . وعن معاذ رضى اللّه عنه أنه سأل عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا معاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة أصناف من أمّتى : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون : أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عميا ، وبعضهم صما بكما ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم : يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشدّ نتنا من الجيف ، وبعضهم

ملبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ، فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس . وأما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت .

وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمى فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصمّ البكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم

---

(1) . قوله كالأوزاع والأضياف» في الصحاح «أوزاع من الناس» أى : جماعات . والأوزاع : بطن من همدان . وفيه «الناس أضياف» أى : مختلفون . وإخوة أضياف ، إذا كانت أمهم واحدة ، والآباء شتى . (ع) [. . . . .]

(2) . للحسن بن على الطوسي . واللف – بالكسر : – الملتف أريد به الملتفة لتكاثف أشجارها وأوراقها . والمغدق الكثير الواسع . والبيض : مجاز عن الأخبار . ويجوز أنه على ظاهره . ورجل أزهر : مشرق الوجه ، فالزهر :

المشرقو الوجوه ، كأحمر وحمر ، يعنى : أن ندماءه خبار حسان الخصال . أو بيض حسان الوجوه . والمطرد في جمع أفعل وفعلاء على فعل : سكون العين . ويجوز في الشعر ضمها فيما صحت عينه ولامه ولم يضعف كما هنا ، وكما في قوله :

وأنكرتنى ذوات الأعين النجل

على أنه يجوز للشاعر تحريك الساكن بحركة ما قبله للوزن ، ويجوز تحريكه بحركة ما بعده إذا سكن للوقف ، فيكون بفتح الهاء ، كغرفة وغرف .

(118/799)

أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران ، وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشدّ نتنا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق اللّه في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء» «1» وقرئ : وفتحت ، بالتشديد والتخفيف . والمعنى : كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة ، كأنها ليست إلا أبوابا مفتحة ، كقوله وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً كأن كلها عيون تتفجر . وقيل :

الأبواب الطرق والمسالك ، أى . تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدّها شيء فَكانَتْ سَراباً كقوله فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا يعنى أنها تصير شيئا كلا شيء ، لتفرّق أجزائها وانبثات جواهرها .

[سورة النبإ (78) : الآيات 21 إلى 30]

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآباً (22) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (23) لا يَذُوقُونَ

فِيها بَرْداً وَلا شَراباً (24) إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25)

جَزاءً وِفاقاً (26) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ

شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (30)

المرصاد : الحدّ الذي يكون فيه الرصد . والمعنى : أن جهنم هي حدّ الطاغين الذي يرصدون فيه للعذاب وهي مآبهم . أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها ، لأن مجازهم عليها ، وهي مآب للطاغين . وعن الحسن وقتادة نحوه ، قالا : طريقا وممرّا لأهل الجنة .

وقرأ ابن يعمر : أنّ جهنم ، بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأنّ جهنم كانت مرصادا للطاغين ، كأنه قيل : كان ذلك لإقامة الجزاء . قرئ : لابثين ولبثين ، واللبث أقوى ، لأنّ اللابث من وجد منه اللبث ، ولا يقال «لبث» إلا لمن شأنه اللبث ، كالذي يجثم بالمكان لا يكاد ينفك منه أَحْقاباً حقبا «2» بعد حقب ، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها ، والاشتقاق يشهد لذلك . ألا ترى إلى

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية محمد بن زهير عن محمد بن الهندي عن حنظلة الدوسي عن أبيه عن البراء بن عازب عنه بطوله .

(2) . قوله «أحقابا» في الصحاح «الحقب» بالضم : ثمانون سنة . والحقبة - بالكسر - : واحدة الحقب ، وهي السنون . والحقب : الدهر ، والأحقاب : الدهور . (ع)

(119/799)

حقيبة الراكب ، والحقب الذي وراء التصدير «1» وقيل : الحقب ثمانون سنة ، ويجوز أن يراد :

لابثين فيها أحقابا غير ذائقين فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا ، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب . وفيه وجه آخر : وهو أن يكون من «حقب عامنا» إذا قل مطره وخيره ، وحقب فلان : إذا أخطأه الرزق ، فهو حقب ، وجمعه أحقاب ، فينتصب حالا عنهم ، يعنى لابثين فيها حقيبين «2» جحدين . وقوله لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً تفسير له والاستثناء منقطع ، يعنى : لا يذوقون فيها بردا وروحا ينفس عنهم حرّ النار ، ولا شرابا يسكن من عطشهم ، ولكن يذوقون فيها حميما وغساقا وقيل «البرد» النوم ، وأنشد :

فلو شئت حرّمت النّساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا «3»

وعن بعض للعرب : منع البرد البرد «4» . وقرئ : غساقا ، بالتخفيف والتشديد : وهو

ما يغسق ، أى : يسيل من صديدهم وِفاقاً وصف بالمصدر . أو ذا وفاق . وقرأ أبو حيوة : وفاقا ، فعال من وفقه كذا كِذَّاباً تكذيبا ، وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره ، وسمعنى بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فسارا ما سمع بمثله .

وقرئ بالتخفيف ، وهو مصدر كذب ، بدليل قوله :

فصدقتها وكذبتها والمرء ينفعه كذابه «5»

وهو مثل قوله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً يعنى : وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا . أو تنصبه بكذبوا ، لأنه يتضمن معنى كذبوا ، لأنّ كل مكذب بالحق كاذب ، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه : وكذبوا بآياتنا ، فكاذبوا مكاذبة . أو كذبوا بها مكاذبين ، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة . أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر ، فيبلغ فيه أقصى جهده . وقرئ : كذابا ، وهو جمع كاذب ، أى : كذبوا

---

(1) . قوله «والحقب الذي وراء التصدير» في الصحاح «التصدير» : الحزام ، وهو في صدر البعير ، والحقب عند الثيل . وفيه «الثيل» : وعاء قضيب البعير . (ع)

(2) . قوله «لابثين فيها حقيبين» لعله حقبين من حقب بالكسر كجحدين من جحد : إذا كان ضيقا قليل الخير فيهما ، أفاده الصحاح . (ع)

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 294 فراجعه إن شئت اه

مصححه .

(4) . قوله «منع البرد البرد» أى : منع البرد النوم . (ع)

(5) . الكذاب - ككتاب - : مصدر مضاف لفاعله . وصدقتها وكذبتها - بتخفيفها - بمعنى : قلت لها قولا صادقا تارة ، وقولا كاذبا تارة أخرى . أو قلت لها : أنت صادقة تارة ، وأنت كاذبة تارة . والضمير لنفسه أو صاحبته مثلا . وعلل ذلك بأن الكذب قد ينفع .

(120/799)

بآياتنا كاذبين ، وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب ، يقال : رجل كذاب ، كقولك : حسان ، وبخال ، فيجعل صفة لمصدر كذبوا ، أى : تكذيبا كذابا مفرطا كذبه ، وقرأ أبو السمال : وكل شيء أحصيناه ، بالرفع على الابتداء كِتاباً مصدر في موضع إحصاء وأحصينا في معنى كتبنا ، لالتقاء الإحصاء ، والكتبة في معنى الضبط والتحصيل . أو يكون حالا في معنى : مكتوبا في اللوح وفي صحف الحفظة . والمعنى : إحصاء معاصيهم ، كقوله : أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وهو اعتراض . وقوله فَذُوقُوا مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ، وهي آية في غاية الشدّة ، وناهيك بلن نزيدكم ، وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة . وبمجيئها على طريقة

الالتفات شاهدا على أنّ الغضب قد تبالغ ، وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النار» «1» .

[سورة النبإ (78) : الآيات 31 إلى 36]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (31) حَدائِقَ وَأَعْناباً (32) وَكَواعِبَ أَتْراباً (33) وَكَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذّاباً (35)

جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36)

مَفازاً فوزا وظفرا بالبغية . أو موضع فوز . وقيل : نجاة مما فيه أولئك . أو موضع نجاة . وفسر المفاز بما بعده . والحدائق : البساتين فيها أنواع الشجر المثمر . والأعناب : الكروم . والكواعب : اللاتي فلكت ثدييهن «2» ، وهن النواهد . والأتراب . اللدات : والدهاق : المترعة . وأدهق الحوض : ملأه حتى قال قطني . وقرئ : ولا كذابا ، بالتشديد والتخفيف ، أى : لا يكذب بعضهم بعضا . ولا يكذبه . أو لا يكاذبه . وعن على رضى اللّه عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين جَزاءً مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً كأنه قال : جازى المتقين بمفاز . وعَطاءً نصب بجزاء نصب المفعول به . أى : جزاهم عطاء .

وحِساباً صفة بمعنى : كافيا . من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي . وقيل . على حسب أعمالهم . وقرأ ابن قطيب : حسابا ، بالتشديد ، على أنّ الحساب بمعنى المحسب

، كالدرّاك بمعنى المدرك .

[سورة النبإ (78) : الآيات 37 إلى 39]

رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (38) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (39)

---

(1) . أخرجه ابن أبى حاتم والثعلبي من رواية جسر بن فرقد السبخى عن الحسن سألت أبا برزة الأسلمي فذكره وجسر ضعيف . ورواه الطبراني والبيهقي في الشعب موقوفا .

(2) . قوله «فلكت ثديهن» في الصحاح : «فلك ثدي الجارية تفليكا» وتفلك : استدار . (ع)

(121/799)

قرئ : رب السماوات . والرحمن : بالرفع ، على : هو رب السماوات الرحمن . أو رب السماوات مبتدأ ، والرحمن صفة ، ولا يملكون : خبر . أو هما خبران . وبالجر على البدل من ربك ، وبجر الأوّل ورفع الثاني على أنه مبتدأ خبره لا يَمْلِكُونَ . أو هو الرحمن لا يملكون .

والضمير في لا يَمْلِكُونَ لأهل السماوات والأرض ، أى : ليس في أيديهم مما يخاطب به اللّه ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك ، فيزيدون فيه أو ينقصون منه . أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب ، إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه . ويَوْمَ يَقُومُ متعلق بلا يملكون ، أو بلا يتكلمون .

والمعنى : إنّ الذين هم أفضل الخلائق «1» وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه ، فما ظنك بمن عداهم من أهل السماوات والأرض ؟

والروح : أعظم خلقا من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين . وقيل : هو ملك عظيم ما خلق اللّه بعد العرض خلقا أعظم منه . وقيل : ليسوا بالملائكة ، وهم يأكلون .

وقيل :

جبريل . هما شريطتان : أن يكون المتكلم مأذونا له في الكلام . وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى «2» ، لقوله تعالى وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى .

[سورة النبإ (78) : آية 40]

إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (40)

مَرْءُ

هو الكافر لقوله تعالى نَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً

والكافر : ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ، ويعنى ا قَدَّمَتْ يَدَاهُ

من الشر ، كقوله وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ ،

---

(1) . قوله «إن الذين هم أفضل الخلائق» تفضيلهم على البشر مذهب المعتزلة ، ومذهب أهل السنة تفضيل البشر عليهم : والظاهر أن الروح كالملك في هذا الخلاف ، فتدبر . (ع)

(2) . قال محمود : «وقف الشفاعة على شرطين . . . الخ» قال أحمد : يعرض بأن الشفاعة لا تحل على مرتكبي الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت له ، ويتلقى ذلك من أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين . ومن ثم أخطأ فان اللّه عز وجل ما خصهم بالايمان والتوحيد وتوفاهم عليه ، إلا وقد ارتضاهم لذلك ، بدليل قوله تعالى وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ فجعل الشكر بمعنى الايمان المقابل للكفر ، مرضيا للّه تعالى ، وصاحبه مرتضى .

(122/799)

بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ و «ما» يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدّمت ، أي ينظر أي شيء قدّمت يداه ، وموصولة منصوبة بينظر ، يقال : نظرته بمعنى نظرت إليه ، والراجع من الصلة محذوف ، وقيل : المرء عام ، وخصص منه الكافر . وعن قتادة : هو المؤمن ا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً

في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف . أو ليتني كنت ترابا في هذا اليوم فلم أبعث . وقيل يحشر اللّه الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ، ثم يردّه ترابا ، فيودّ الكافر حاله . وقيل : الكافر إبليس ، يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه اللّه برد الشراب يوم القيامة «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 692.683 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(123/799)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَساءَلونَ عن النبإِ العَظيمِ ﴾

يعني عن أي شيء يتساءل المشركون ؟ لأن قريشاً حيث بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت تجادل وتَختصم في الذي دعا إليه .

وفي ﴿ النبأ العظيم ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : القرآن ، قاله مجاهد .

الثاني : يوم القيامة ، قاله ابن زيد .

الثالث : البعث بعد الموت ، قاله قتادة .

الرابع : عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ الذي هُمْ فيه مُختَلِفَونَ ﴾ هو البعث ، فأما الموت فلم يختلفوا فيه ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه اختلف فيه المشركون من بين مصدق منهم ومكذب ، قاله قتادة .

الثاني : اختلف فيه المسلمون والمشركون ، فصدّق به المسلمون وكذّب به المشركون ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ كَلاَّ سيعْلَمون ثم كلا سيعلمون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه وعيد بعد وعيد للكفار ، قاله الحسن ، فالأول : كلا سيعلمون ما ينالهم من العذاب في القيامة ، والثاني : كلا سيعلمون ما ينالهم من العذاب في جهنم .

القول الثاني : أن الأول للكفار فيما ينالهم من العذاب في النار ، والثاني للمؤمنين فيما ينالهم من الثواب في الجنة ، قاله الضحاك .

﴿ وجَعَلْنا نَوْمَكم سُباتاً ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : نعاساً ، قاله السدي .

الثاني : سكناً ، قاله قتادة .

الثالث : راحة ودعة ، ولذلك سمي يوم السبت سبتاً لأنه يوم راحة ودعة ، قال أبو جعفر الطبري : يقال سبت الرجل إذا استراح .

الرابع : سُباتا أي قطعاً لأعمالهم ، لأن أصل السبات القطع ومنه قولهم سبت الرجل شعره إذا قطعه ، قال الأنباري : وسمي يوم السبت لانقطاع الأعمال فيه .

ويحتمل خامساً : أن السبات ما قرت فيه الحواس حتى لم تدرك بها الحس .

﴿ وجَعَلْنا اللّيلَ لِباساً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سكناً ، قاله سعيد بن جبير والسدي .

الثاني : غطاء ، لأنه يغطي سواده كما يغطى الثوب لابسه ، قاله أبو جعفر الطبري .

(124/799)

﴿ وجَعَلنا النهارَ مَعاشاً ﴾ يعني وقت اكتساب ، وهو معاش لأنه يعاش فيه .

ويحتمل ثانياً : أنه زمان العيش واللذة .

﴿ وجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً ﴾ يعني بالسراج الشمس ، وفي الوهّاج أربعة أقاويل :

أحدها : المنير ، قاله ابن عباس .

الثاني : المتلألىء ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه من وهج الحر ، قاله الحسن .

الرابع : أنه الوقّاد ، الذي يجمع بين الضياء والجمال .

﴿ وأَنْزَلْنا من المُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ان المعصرات الرياح ، قاله ابن عباس وعكرمة ، قال زيد بن أسلم هي الجنوب .

الثاني : أنها السحاب ، قاله سفيان والربيع .

الثالث : أن المعصرات السماء ، قاله الحسن وقتادة .

وفي الثجاج قولان :

أحدهما : الكثير قاله ابن زيد .

الثاني : المنصبّ ، قاله ابن عباس ، وقال عبيد بن الأبرص :

فثجّ أعلاه ثم ارتج أسفلُه . . . وضاق ذَرْعاً بحمل الماء مُنْصاحِ

﴿ لنُخرج به حبّاً ونَباتاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ان الحب ما كان في كمام الزرع الذي يحصد ، والنبات : الكلأ الذي يرعى ،

وهذا معنى قول الضحاك .

الثاني : أن الحب اللؤلؤ ، والنبات : العشب ، قال عكرمة : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبتت في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة .

ويحتمل ثالثاً : أن الحب ما بذره الآدميّون ، والنبات ما لم يبذروه .

﴿ وجنّاتٍ أَلْفافاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها الزرع المجتمع بعضه إلى جنب بعض ، قاله عكرمة .

الثاني : أنه الشجر الملتف بالثمر ، قاله السدي .

الثالث : أنها ذات الألوان ، قاله الكلبي .

ويحتمل رابعاً : أنها التي يلف الزرع أرضها والشجر أعاليها ، فيجتمع فيها الزرع والشجر ملتفات .

﴿ إنّ يومَ الفصلِ ﴾ يعني يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يفصل فيه الحكم بين الأولين والآخرين والمثابين والمعاقبين .

﴿ كانَ مِيقاتاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ميعاداً للإجتماع .

والثاني : وقتاً للثواب والعقاب .

﴿ وسُيِّرتِ الجبالُ فكانتْ سَراباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سُيِّرت أي أزيلت عن مواضعها .

الثاني : نسفت من أصولها .

" فكانت سراباً " فيه وجهان :

أحدهما : فكانت هباءً .

الثاني : كالسراب لا يحصل منه شيء كالذي يرى السراب يظنه ماء وليس بماء .

﴿ إنّ جهنّمَ كانت مِرْصاداً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني أنها راصدة فجازتهم بأعمالهم ، قاله أبو سنان .

الثاني : أن على النار رصداً ، لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليه ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجيء بجواز لم يجز ، قاله الحسن .

الثالث : أن المرصاد وعيد أوعد الله به الكفار ، قاله قتادة .

﴿ للطّاغينَ مَآباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : مرجعاً ومنقلباً ، قاله السدي .

الثاني : مأولى ومنزلاً ، قاله قتادة .

والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر أو في دنياه بالظلم .

﴿ لابِثِينَ فيها أَحْقاباً ﴾ يعني كلما مضى حقب جاء حقب وكذلك إلى الأبد واختلفوا في مدة الحقب على سبعة أقاويل :

أحدها : ثمانون سنة ، قاله أبو هريرة .

الثاني : أربعون سنة ، قاله ابن عمر .

الثالث : سبعون سنة ، قاله السدي .

الرابع : أنه ألف شهر ، رواه أبو أمامة مرفوعاً .

الخامس : ثلاثمائة سنة ، قاله بشير بن كعب .

السادس : سبعون ألف سنة ، قاله الحسن .

السابع : أنه دهر طويل غير محدود ، قاله قطرب .

وفي تعليق لبثهم بالأحقاب قولان :

أحدهما : أنه على وجه التكثير ، كلما مضت أحقاب جاءَت بعدها أحقاب ، وليس ذلك بحد لخلودهم في النار .

الثاني : أن ذلك حد لعذابهم بالحميم والغسّاق ، فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب .

﴿ لا يَذُوقونَ فيها بَرداً ولا شَراباً ﴾ في البرد ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه برد الماء ، وبرد الهواء ، وهو قول كثير من المفسرين .

الثاني : أنه الراحة ، قاله قتادة .

الثالث : أنه النوم ، قاله مجاهد والسدي وأبو عبيدة .

وأنشد قول الكندي :

بَرَدَتْ مَراشِفُها عليَّ فَصَدَّني . . . عنها وعن تَقْبيلِها البَرْدُ

(126/799)

يعني النوم .

والشراب ها هنا : العذاب .

ويحتمل أن يريد بالشراب الري ، لأن الشراب يروي وهم فيها عطاش أبداً .

﴿ إلاّ حَميماً وغَسّاقاً ﴾ أما الحميم ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الحارّ الذي يحرق ، قاله ابن عباس .

الثاني : دموع أعينهم في النار تجتمع في حياض في النار فيُسقونْه ، قاله ابن زيد .

الثالث : أنه نوع من الشراب لأهل النار ، قاله السدي . وأما الغسّاق ففيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه القيح الغليظ ، قاله ابن عمر .

الثاني : أنه الزمهرير البارد الذي يحرق من برده ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه صديد أهل النار ، قاله قتادة .

الرابع : أنه المنتن باللغة الطحاوية ، قاله ابن زيد .

﴿ جزاءً وِفاقاً ﴾ وهو جمع وفق ، قال أهل التأويل : وافق سوءُ الجزاء سوءَ العمل .

﴿ إنهم كانوا لا يَرْجُونَ حِساباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا يخافون وعيد الله بحسابهم ومجازاتهم ، وهذا معنى قول قتادة .

﴿ وكذّبوا بآياتِنا كِذّاباً ﴾ يعني بآيات القرآن ، وفي "كِذّاباً" وجهان :

أحدهما : أنه الكذب الكثير .

الثاني : تكذيب بعضهم لبعض ، ومنه قول الشاعر :

فَصَدَقْتُها وكَذَبْتُها . . . والمرءُ يَنْفعُهُ كِذابُهْ

وهي لغة يمانية .

﴿ إنّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نجاة من شرها ، قاله ابن عباس .

الثاني : فازوا بأن نجوا من النار بالجنة ، ومن العذاب بالرحمة ، قاله قتادة ، وتحقيق هذا التأويل أنه الخلاص من الهلاك ، ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها مفازة تفاؤلاً بالخلاص منها .

﴿ وكَواعِبَ أَتْراباً ﴾ في الكواعب قولان :

أحدهما : النواهد ، قاله ابن عباس .

الثاني : العذارى ، قاله الضحاك ، ومنه قول قيس بن عاصم :

وكم مِن حَصانٍ قد حَوَيْنا كريمةٍ . . . ومِن كاعبٍ لم تَدْرِ ما البؤسُ مُعْصر

وفي الاتراب أربعة أقاويل :

أحدها : الأقران ، قاله ابن عباس .

(127/799)

الثاني : الأمثال ، قاله مجاهد .

الثالث : المتصافيات ، قاله عكرمة .

الرابع : المتآخيات ، قاله السدي .

﴿ وكأساً دِهاقاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : مملوءة ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

أتانا عامرٌ يَبْغي قِرانا . . . فأَتْرَعنا له كأساً دِهاقاً

الثاني : متتابعة يتبع بعضها بعضاً ، قاله عكرمة .

الثالث : صافية ، رواه عمر بن عطاء ، قال الشاعر :

لأَنْتِ آلى الفؤادِ أَحَبُّ قُرْباً . . . مِن الصّادي إلى كأسٍ دِهَاقِ .

﴿ لا يَسْمعونَ فيها لَغْواً ولا كِذّاباً ﴾ في اللغو ها هنا أربعة أقاويل :

أحدها الباطل ، قاله ابن عباس .

الثاني : الحلف عند شربها ، قاله السدي .

الثالث : الشتم ، قاله مجاهد .

الرابع : المعصية ، قاله الحسن .

وفي "كِذّاباً" ثلاثة أقاويل :

أحدها لا يكذب بعضهم بعضاً ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنه الخصومة ، قاله الحسن .

الثالث : أنه المأثم ، قاله قتادة .

وفي قوله ﴿ لا يَسْمَعونَ فيها ﴾ وجهان :

أحدهما : في الجنة ، قاله مجاهد .

الثاني : في شرب الخمر ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ جزاءً من ربكَ عَطاءً حِساباً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : كافياً ، قاله الكلبي .

الثاني : كثيراً ، قاله قتادة .

الثالث : حساباً لما عملوا ، فالحساب بمعنى العد .

﴿ يومَ يقومُ والرُّوحُ الملائكةُ صَفّاً ﴾ في الروح ها هنا ثمانية أقاويل :

أحدها : الروح خلق من خلق الله كهيئة الناس وليسوا أناساً ، وهم جند للَّه سبحانه ، قاله أبو صالح .

الثاني : أنهم أشرف الملائكة ، قاله مقاتل بن حيان .

الثالث : أنهم حفظة على الملائكة ، قاله ابن أبي نجيح .

الثالث : أنهم حفظة على الملائكة خلقاً ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه ملك من أعظم الملائكة خلقاً ، قاله ابن عباس .

الخامس : هو جبريل عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير .

السادس : أنهم بنو آدم ، قاله قتادة .

السابع : أنهم بنو آدم ، قاله قتادة .

الثامن : أنه القرآن ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ لا يتكلمونَ إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يشفعون إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة ، قاله الحسن .

الثاني : لا يتكلمون في شيء إلا من أذن له الرحمن شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

﴿ وقالَ صَواباً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني حقاً ، قاله الضحاك .

الثاني : قول لا إله إلا الله ، قاله أبو صالح .

الثالث : أن الروح يقول يوم القيامة : لا تُدخل الجنة إلا بالرحمة ، ولا النار إلا بالعمل ، فهو معنى قوله " وقال صواباً " قاله الحسن .

ويحتمل رابعاً : أنه سؤال الطالب وجواب المطلوب ، لأن كلام الخلق في القيامة مقصور على السؤال والجواب .

﴿ ذلك اليومُ الحقُّ ﴾ يعني يوم القيامة ، وفي تسميته الحق وجهان :

أحدهما : لأن مجيئه حق وقد كانوا على شك .

الثاني : أنّ الله تعالى يحكم فيه بالحق بالثواب والعقاب .

﴿ فمن شاءَ اتّخَذ إلى ربِّه مآباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : سبيلاً ، قاله قتادة .

الثاني : مرجعاً ، قاله ابن عيسى .

ويحتمل ثالثاً : اتخذ ثواباً لاستحقاقه بالعمل لأن المرجع يستحق على المؤمن والكافر .

﴿ إنّا أنذرْناكم عَذاباً قريباً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عقوبة الدنيا ، لأنه أقرب العذابين ، قاله قتادة ، وقاله مقاتل : هو قتل قريش ببدر .

الثاني : عذاب يوم القيامة ، لأنه آت وكل آت قريب ، وهو معنى قول الكلبي .

﴿ يومَ ينظُرُ المْرءُ ما قدَّمَتْ يَداهُ ﴾ يعني يوم ينظر المرء ما قدّم من عمل خير ، قال الحسن : قدَّم فقَدِم على ما قَدَّم . ويحتمل أن يكون عامّاً في نظر المؤمن إلى ما قدّم من خير ، ونظر الكافر إلى ما قدّم من شر .

﴿ ويقولُ الكافرُ يا لَيْتني كنتُ تُراباً ﴾ قال مجاهد يبعث الحيوان فيقاد للمنقورة من الناقرة ، وللمركوضة من الراكضة ، وللمنطوحة من الناطحة ، ثم يقول الرب تعالى : كونوا تراباً بلا جنة ولا نار ، فيقول الكافر حينئذ : يا ليتني كنت تراباً وفي قوله ذلك وجهان :

أحدهما : يا ليتني صرت اليوم مثلها تراباً بلا جنة ولا نار ، قاله مجاهد . الثاني : يا ليتني كنت مثل هذا الحيوان في الدنيا وأكون اليوم تراباً ، قاله أبو هريرة : وهذه من الأماني الكاذبة

كما قال الشاعر :

ألا يا ليتني والْمرءُ مَيْتُ . . . وما يُغْني من الحدثانِ لَيْت .

قال مقاتل : نزل قوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدّمت يداهُ ﴾ في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، ونزل قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ في أخيه الأسود بن عبد الأسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 182 .

﴿ 191

(130/799)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾

أصله "عنْ ما" فأدغمت النون في الميم ، وحذفت ألف "ما" كقولهم : فيم ، ويم ، قال المفسرون : لما بُعِثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جَعَلَ المشركون يتساءلون بينهم ، فيقولون : ما الذي أتى به ؟ ويتجادلون ، ويختصمون فيما بعث به ، فنزلت هذه الآية . واللفظ لفظ استفهام ، والمعنى : تفخيم القصة ، كما يقولون : أيُّ شيء زيد ؟ إذا أردت تعظيم شأنه .

ثم بيَّن ما الذي يتساءلون عنه ، فقال تعالى : ﴿ عن النبإ العظيم ﴾ يعني عن الخبر العظيم الشأن .

وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : القرآن ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، والفراء .

قال الفراء : فلما أجاب صارت "عم" كأنها في معنى : لأي شيءٍ يتساءلون عن القرآن .

والثاني : البعث ، قاله قتادة .

والثالث : أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ من قال : إنه القرآن ، فإن المشركين اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : هو سحر ، وقال بعضهم : هو شعر ، وقال بعضهم : أساطير الأولين ، إلى غير ذلك ، وكذلك من قال : هو أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

فأما من قال : إنه البعث والقيامة ، ففي اختلافهم فيه قولان .

أحدهما : أنهم اختلفوا فيه لما سمعوا به ، فمنهم من صدَّق وآمن ، ومنهم من كذَّب ، وهذا معنى قول قتادة .

والثاني : أن المسلمين والمشركين اختلفوا فيه ، فصدَّق به المسلمون ، وكذَّب به المشركون ، قاله يحيى بن سلام .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ قال بعضهم : هي ردع وزجر .

وقال بعضهم : هي نفي لاختلافهم ، والمعنى : ليس الأمر على ما قالوا ﴿ سيعلمون ﴾ عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ وعيد على إثر وعيد .

وقرأ ابن عامر "ستعلمون" في الحرفين بالتاء .

(131/799)

ثم ذكر صنعه ليعرفوا توحيده ، فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ أي : فراشاً وبساطاً ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ للأرض لئلا تميد ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ أي : أصنافاً ، وأضداداً ، ذكوراً ، وإناثاً ، سوداً ، وبيضاً ، وحمراً ﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ قال ابن قتيبة : أي : راحة لأبدانكم .

وقد شرحنا هذا في [الفرقان : 47] وشرحنا هناك قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أي : سبباً لمعاشكم .

والمعاش : العيش ، وكل شيء يُعَاشُ به ، فهو مَعَاشٌ .

والمعنى : جعلنا النهار مطلباً للمعاش .

وقال ابن قتيبة : معاشاً ، أي : عيشاً ، وهو مصدر ﴿ وبَنَيْنَا فوقكم سبعاً شداداً ﴾

قال مقاتل : هي السموات ، غِلظ كل سماءٍ مسيرة خمسمائة عام ، وبين كل سماءين مثل ذلك ، وهي فوقكم يا بني آدم .

فاحذروا أن تَعْصُوا فَتَخِرُّ عليكم .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا سراجاً ﴾ يعني : الشمس ﴿ وهَّاجاً ﴾ قال ابن عباس : هو المضيء .

وقال اللغويون : الوهَّاج : الوقَّاد .

وقيل : الوهَّاج يجمع النور والحرارة .

قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ فيها ثلاث أقوال :

أحدها : أنها السموات ، قاله أُبَيّ بن كعب ، والحسن ، وابن جبير .

والثاني : أنها الرّياح ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، ومقاتل .

وقال زيد بن أسلم : هي الجنوب .

فعلى هذا القول تكون "مِنْ" بمعنى "الباء" ، فتقديره : بالمعصرات .

وإنما قيل للرياح : معصرات ، لأنها تستدرُّ المطر .

والثالث : أنها السحاب ، رواه الوالبي عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والضحاك ، والربيع .

قال الفراء : السحابة المعصر : التي تتحلَّب بالمطر ولما يجتمع ، مثل الجارية المعصر ، قد كادت تحيض ، ولما تحضْ .

وكذلك قال ابن قتيبة : شبِّهت السحاب بمعاصير الجواري ، والمُعصِرُ : الجارية التي قد دنت من الحيض .

(132/799)

وقال الزجاج : إنما قيل للسحاب : معصرات ، كما قيل : أجزَّ الزرع ، فهو مُجزٌّ ، أي : صار إلى أن يُجَزَّ ، فكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر ، فقد أعصر .

قوله تعالى : ﴿ ماءً ثجاجاً ﴾ قال مقاتل : أي : مطراً كثيراً مُنْصبّاً يتبع بعضُه بعضاً .

وقال غيره : يقال : ثجَّ الماء يثج : إذا انصبَّ ﴿ لِنُخْرِجَ به ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ حباً ونباتاً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أن الحب : ما يأكله الناس ، والنبات : ما تنبته الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، هذا قول الجمهور .

وقال الزجاج : كُلُّ ما حُصِدَ حَبٌّ ، وكُلُّ ما أَكَلَتْهُ الماشية من الكلإ ، فهو نبات .

والثاني : أن الحب : اللؤلؤ ، والنبات : العشب .

قال عكرمة : ما أنزل الله من السماء قطراً ، إلا أنبت به في البحر لؤلؤاً ، وفي الأرض عشباً .

قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ يعني : بساتين ﴿ ألفافاً ﴾ قال أبو عبيدة : أي : ملتَفَّة من الشجر ليس بينها خلال ، الواحدة : لَفَّاء ، وجنّات لُفٌّ ، وجمع الجمع : أَلْفَافٌ .

قال المفسرون : فدلَّ بذكر المخلوقات على البعث .

ثم أخبر عن يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي : يوم القضاء بين الخلائق ﴿ كان ميقاتاً ﴾ لما وعد الله من الثواب والعقاب .

﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون ﴾ من قبوركم ﴿ أفواجاً ﴾ أي : زُمَراً زُمَراً من كل مكان ﴿ وفُتِحَت السماء ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، و "فُتِّحت" بالتشديد .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بالتخفيف ، وإنما تفتح لنزول الملائكة ﴿ فكانت أبواباً ﴾ أي : ذات أبواب ﴿ وسُيِّرت الجبال ﴾ عن أماكنها ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي : كالسراب ، لأنها تصير هباءً منبثّاً فيراها الناظر كالسراب بعد شِدَّتها وصلابتها ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ قال المبرد : مرصاداً يرصدون به ، أي : هو مُعَدٌّ لهم يَرصُد بها خزنتها الكفارَ .

وقال الأزهري : المرصاد : المكان الذي يَرصُد فيه الراصد العدُوَّ .

ثم بين لمن هي مرصاد فقال تعالى ﴿ للطاغين ﴾ قال ابن عباس : للمشركين ﴿ مآباً ﴾ أي : مرجعاً .

قوله تعالى : ﴿ لابثين ﴾ وقرأ حمزة "لَبِثين" والمعنى : فيهما واحد .

يقال : هو لابث بالمكان ، ولبث .

ومثله طَامع ، وطَمِع ، وفَارِه ، وفَرِه .

وأما الأحقاب فجمع حقب ، وقد ذكرنا الاختلاف فيه في [الكهف 60] .

فإن قيل : ما معنى ذكر الأحقاب ، وخلودهم في النار لا نفاد له ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن هذا لا يدل على غاية ، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب .

ولو أنه قال "لابثين فيها عشرة أحقاب أو خمسة" دل على غاية ، هذا قول ابن قتيبة ، والجمهور .

وبيانه أن زمان أهل الجنة والنار يُتَصَوَّرُ دخوله تحت العدد ، وإن لم يكن لها نهاية .

والثاني : أن المعنى : أنهم يلبثون فيها أحقاباً ﴿ لا يذوقون ﴾ في الأحقاب ﴿ برداً ولا شراباً ﴾ فأما خلودهم في النار فدائم .

هذا قول الزجاج .

وبيانه أن الأحقاب حَدٌّ لعذابهم بالحميم والغَسّاق ، فإذا انقضت الأحقاب عُذِّبوا بغير

ذلك من العذاب .

وفي المراد "بالبرد" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه برد الشراب .

روى أبو صالح عن ابن عباس قال : لا يذوقون فيها برد الشراب ، ولا الشراب .

والثاني : أنه الرَّوْح والراحة ، قاله الحسن ، وعطاء .

والثالث : أنه النوم ، قاله مجاهد ، والسدي ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، وأنشدوا :

فَإِنْ شِئْتُ حَرَّمْتَ النِّساءَ سِوَاكُمُ . . .
وَإِنْ شِئْتَ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخاً وَلاَ بَرْدَا

قال ابن قتيبة : النقاخ : الماء ، والبرد : النوم ، سمي بذلك لأنه تبرد فيه الحرارة .

وقال مقاتل : لا يذوقون فيها برداً ينفعهم من حرها ، ولا شراباً ينفعهم من عطش ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر "غَسَاقاً" بالتخفيف .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل ، وحفص عن عاصم بالتشديد .

وقد تقدم ذكر الحميم ، والغساق [ص 57] ﴿ جزاءً وفاقاً ﴾ قال الفراء : وِفْقاً لأعمالهم .

وقال غيره : جُوزوا جزاءً وفاقاً لأعمالهم على مقدارها ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النّار .

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لا يخافون أن يحاسبوا ، لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، قاله الجمهور .

والثاني : لا يرجون ثواب حساب ، لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وكذَّبوا بآياتنا كذاباً ﴾ قال الفراء : الكِذَّاب بالتشديد لغة يمانية فصيحة ، يقولون : كذَّبت به كِذَّاباً ، وخرَّقت القميص خِرَّاقاً ، وكل "فَعَّلْتُ" فمصدره في لغتهم مُشَدَّد .

قال لي أعرابي منهم على المروة يستفتيني : الحَلْقُ أحب اليك ، أم القِصَّار ؟ وأنشدني بعض بني كلاب :

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّطَتني عن صَحَابَتي . . .

وَعَنْ حوجٍ قِضَّاؤها من شِفَائِيَا

وأما أهل نجد ، فيقولون : كذَّبت به تكذيباً .

وقال أبو عبيدة : الكِّذاب أشد من الكِذَاب وهما مصدر المكاذبة .

قال الأعشى :

فَصَدَقْتُها وكَذَبْتُها . . .

وَالمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ

قوله تعالى : ﴿ وكلّ شيء أحصيناه ﴾ قال الزجاج : "كلَّ" منصوب بفعل مضمر تفسيره : أحصيناه ، والمعنى : أحصينا كل شيءٍ ، و ﴿ كتاباً ﴾ توكيد ل "أحصيناه" ، لأن معنى "أحصيناه" و "كتبناه" فيما يحصل ويثبت واحد .

فالمعنى : كتبناه كتاباً .

قال المفسرون : وكلّ شيء من الأعمال أثبتناه في اللوح المحفوظ ﴿ فذوقوا ﴾ أي : فيقال لهم : ذوقوا جزاء فعالكم ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً .

إن للمتقين ﴾ الذين لم يشركوا ﴿ مفازاً ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : متنزَّهاً ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

والثاني : فازوا بأن نَجَوْا من النار بالجنة ، ومن العذاب بالرحمة ، قاله قتادة .

قال ابن قتيبة : "مفازاً" في موضع "فوز" ﴿ حدائق ﴾ قال ابن قتيبة : الحدائق : بساتين نخل ، واحدها : حديقة .

قوله تعالى : ﴿ وكواعب ﴾ قال ابن عباس : الكواعب : النواهد .

قال ابن فارس : يقال : كعبت المرأة كعابة ، فهي كاعب : إذا نَتَأَ ثَدْيُها .

وقد ذكرنا معنى "الأتراب" في [ص : 52] .

قوله تعالى : ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الملأى ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : أنها المتتابعة .

رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال ابن جبير .

وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : أنها الصافية ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أي : في الجنة إذا شربوها ﴿ لغواً ﴾ وقد ذكرناه في [الطور : 23] وغيرها ﴿ ولا كِذَّاباً ﴾ أي : لا يكذِّب بعضهم بعضاً ، لأن أهل الدنيا إذا شربوا الخمر تكلَّموا بالباطل ، وأهل الجنة مُنَزَّهون عن ذلك .

قال الفراء : وقراءة علي رضي الله عنه "كِذَاباً" بالتخفيف ، كأنه والله أعلم لا يتكاذبون فيها .

وكان الكسائي يخفِّف هذه ويشدِّد ، و"كذَّبوا بآياتنا كذّاباً" لأن "كذَّبوا" يقيد "الكذاب" بالمصدر ، وهذه ليست مقيدة بفعل يصيِّرها مصدراً .

وقد ذكرنا عن أبي عبيدة أن الكِذاب بالتشديد والتخفيف مصدر المكاذبة .

وقال أبو علي الفارسي : "الكِذَاب" بالتخفيف مصدر "كَذَب" مثل "الكِتَاب" مصدر "كَتَبَ" .

قوله تعالى : ﴿ جزاءً ﴾ قال الزجاج : المعنى : جازاهم بذلك جزاءً ، وكذلك "عطاءً" لأن معنى أعطاهم وجازاهم واحد .

و﴿ حساباً ﴾ معناه : ما يكفيهم ، أي : فيه كل ما يشتهون .

يقال : أحسبني كذا بمعنى كفاني .

﴿ ربِّ السموات ﴾ قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والمفضل ، "ربُّ السموات والأرض وما بينهما الرحمنُ" برفع الباء من "رب" والنون من "الرحمن" على معنى : هو ربُّ السموات .

وقرأ عاصم ، وابن عامر بخفض الباء والنون على الصفة من "ربِّك" .

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الباء ورفع النون ، واختار هذه القراءة الفراء ، ووافقه على هذا جماعة ، وعلَّلوا بأن الربَّ قريب من المخفوض ، والرحمن بعيد منه .

قوله تعالى : ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه قاله ابن السائب .

والثاني : لا يقدر الخلق أن يكلّموا الربَّ إلا بإذنه ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ فيه سبعة أقوال .

أحدها : أنه جند من جند الله تعالى ، وليسوا بملائكة ، رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال مجاهد : هم خلق على صورة بني آدم يأكلون ويشربون .

والثاني : أنه مَلَك أعظم من السموات ، والجبال ، والملائكة ، قاله ابن مسعود ، ومقاتل بن سليمان .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح مَلَك ما خلق الله أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صَفّاً ، وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً ، فيكون عِظَمُ خَلْقِه مِثْلَ صفوفهم .

والثالث : أنها أرواح الناس تقوم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن تُرَدَّ إلى الأجسام ، رواه عطية عن ابن عباس .

والرابع : أنه جبريل عليه السلام قاله الشعبي ، وسعيد بن جبير ، والضحاك .

والخامس : أنهم بنو آدم ، قاله الحسن ، وقتادة .

والسادس : أنه القرآن ، قاله زيد بن أسلم .

والسابع : أنهم أشرف الملائكة ، قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : ﴿ والملائكةُ صفّاً ﴾ قال الشعبي : هما سماطان ، سماط من الروح ، وسماط من الملائكة ، فعلى هذا يكون المعنى : يوم يقوم الرُّوحُ صفاً ، والملائكة صفاً .

وقال ابن قتيبة : معنى قوله تعالى : ﴿ صفاً ﴾ صفوفاً .

قوله تعالى : ﴿ لا يتكلَّمون ﴾ يعني : الخلق كلهم ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ في الكلام ﴿ وقال صواباً ﴾ أي : قال في الدنيا صواباً ، وهو الشهادة بالتوحيد عند أكثر المفسرين .

وقال مجاهد : قال حقاً في الدنيا ، وعمل به ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ الكائن الواقع بلا شك ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أي : مرجعاً إليه بطاعته .

(137/799)

ثم خَوَّفَ كفَّار مكة ، فقال تعالى : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ وهو عذاب الآخرة ، وكل آتٍ قريبٌ ﴿ يوم ينظر المرء ما قدَّمت يداه ﴾ أي : يرى عمله مثبَتاً في صحيفته خيراً كان أو شراً ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ يا ليتني لم أُبعث .

وحكى الثعلبي عن بعض أشياخه أنه رأى في بعض التفاسير أن الكافر هاهنا : إبليس ،

وذلك أنه عاب آدم ، لأنه خُلِقَ من التراب ، فتمنَّى يوم القيامة أنه كان بمكان آدم ، فقال : يا ليتني كنت تراباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 13.3 ﴾

(138/799)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ عم ﴾

أصله عن ما ﴿ يتساءلون ﴾ عن أي شيء يتساءلون يعني المشركين ولفظه استفهام ، ومعناه التفخيم كقولك ، أي شيء زيد إذا عظمت شأنه ، وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما دعاهم إلى التوحيد ، وأخبرهم بالبعث بعد الموت ، وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون فيما بينهم فيقول بعضهم لبعض ماذا جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم ذكر عما ذا تساؤلهم فقال تعالى : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ يعني الخبر العظيم الشأن قال الأكثرون هو القرآن ، وقيل هو البعث وقيل نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وما جاء به ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ فمن فسر النبأ العظيم بالقرآن قال اختلافهم فيه هو قولهم إنه سحر أو شعر أو كهانة أو نحو ذلك مما قالوه في القرآن ، ومن فسر النبأ العظيم بالبعث قال اختلافهم فيه فمن مصدق به ، وهم المؤمنون ومن مكذب به ، وهم الكافرون ومن فسره

بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) قال اختلافهم فيه كاختلافهم في القرآن ﴿ كلا ﴾ هي ردع وزجر وقيل هي نفي لاختلافهم ، والمعنى ليس الأمر كما قالوا ﴿ سيعلمون ﴾ أي عاقبة تكذيبهم حين ينكشف الأمر يعني في القيامة ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ وعيد على أثر وعيد ، وقيل معناه كلا سيعلمون يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم وكفرهم ثم كلا سيعلمون يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم وإيمانهم ثم ذكر أشياء من عجائب صنائعه ليستدلوا بذلك على توحيده ، ويعلموا أنه قادر على إيجاد العالم وفنائه بعد إيجاده وإيجاده مرة أخرى للبعث والحساب ، والثواب ، والعقاب فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ أي فراشاً وبساطاً لتستقر عليها الأقدام ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ يعني للأرض حتى لا تميد ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ يعني أصنافاً ذكوراً وإناثاً .

(139/799)

﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ أي راحة لأبدانكم وليس الغرض أن السبات للراحة بل المقصود منه أن النوم يقطع التعب ويزيله ، ومع ذلك تحصل الراحة ، وأصل السبت القطع ، ومعناه أن النوم يقطع عن الحركة والتصرف في الأعمال ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أي غطاء وغشاء يستر كل شيء بظلمته عن العيون ، ولهذا سمي الليل لباساً على وجه المجاز

، ووجه النعمة في ذلك هو أن الإنسان يستتر بظلمة الليل عن العيون إذا أراد هرباً من عدو ونحو ذلك .

﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أي سبباً للمعاش والتصرف في المصالح وقال ابن عباس تبتغون فيه من فضل الله وما قسم لكم من رزقه ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ يعني سبع سموات محكمة ليس يتطرق عليها شقوق ولا فطور على ممر الزمان إلى أن يأتي أمر الله تعالى : ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ يعني الشمس مضيئة منيرة ، وقيل الوهاج الوقاد ، وقيل جعل في الشمس حرارة ونوراً والوهج يجمع النور والحرارة ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ يعني الرياح التي تعصر السحاب .

(140/799)

وهي رواية عن ابن عباس : وقيل هي الرياح ذوات الأعاصير ، وعلى هذا المعنى تكون من بمعنى الباء ، أي وأنزلنا بالمعصرات ، وذلك لأن الريح تستدر المطر من السّحاب ، وقيل هي السحاب وفي الرواية الأخرى عن ابن عباس المعصرات السّحابة التي حان لها أن تمطر ، ولما تمطر وقيل المعصرات المغيثات والعاصر هو الغيث ، وقيل المعصرات السّموات ، وذلك لأن المطر ينزل من السّماء إلى السحاب ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ أي صباباً مدراراً

متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ، ومنه الحديث " أفضل الحج العج والثج " ، أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ﴿ لنخرج به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ حباً ﴾ أي ما يأكله الإنسان كالحنطة ونحوها ﴿ ونباتاً ﴾ أي ما ينبت في الأرض من الحشيش مما يأكل منه الأنعام ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي ملتفة بالشجر ليس بينها خلال فدل على البعث بذكر ابتداء الخلق ثم أخبر عنه بقوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي الحساب ﴿ كان ميقاتاً ﴾ أي لما وعده الله من الثواب والعقاب وقيل ميقاتاً يجمع فيه الخلائق ليقضي بينهم ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿ فتأتون أفواجاً ﴾ يعني زمراً زمراً من كل مكان للحساب .

(141/799)

﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ يعني فكانت ذوات أبواب لنزول الملائكة ، وقيل تنحل وتتناثر حتى يصير فيها أبواب وطرق ﴿ وسيرت الجبال ﴾ أي عن وجه الأرض ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي هباء منبثاً كالسراب في عين الناظر ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ أي طريقاً وممراً فلا سبيل لأحد إلى الجنة حتى يقطع النار وروي عن ابن عباس " إن على جسر جهنم سبع محابس يسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصّلوات فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن

الزّكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم ، فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس ، فيسأل عن الحج فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس ، فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع ، فيسأل عن المظالم فإن خرج منها ، وإلا يقال انظروا فإن كان له تطوع أكملت به أعماله فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة " ، وقيل كانت مرصادا أي معدة لهم ، وقيل هو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته ، والمرصاد المكان الذي يرصد فيه الراصد العدو ، والمعنى إن جهنم ترصد الكفار أي تنتظرهم ﴿ للطاغين ﴾ أي الكافرين ﴿ مآباً ﴾ أي مرجعاً يرجعون إليها ﴿ لابثين فيها ﴾ أي في جهنم ﴿ أحقاباً ﴾ جمع حقب وهو ثمانون سنة كل سنة اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوم كل يوم ألف سنة يروى ذلك عن علي بن أبي طالب ، وقيل الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة .

فإن قلت الأحقاب وإن طالت فهي متناهية وعذاب الكفار في جهنم غير متناه فما معنى قوله أحقاباً .

قلت ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : ما روي عن الحسن قال : إن الله تعالى لم يجعل على النار مدة بل قال لابثين فيها أحقاباً ، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب آخر ، ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود وروي عن عبد الله بن مسعود قال : " لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا ، ولو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا " .

الوجه الثاني : أن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية ، والحقب الواحد متناه ، والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقاباً لا يذوقون فيها أي في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، فهذا توقيت لأنواع العذاب الذي يبدلونه ولا توقيت للبثهم فيها .

الوجه الثالث : أن الآية منسوخة بقوله فلن نزيدكم إلا عذاباً يعني أن العدد قد ارتفع والخلود قد حصل .

﴿ لا يذوقون فيها برداً ﴾ قال ابن عباس : البرد النوم وقيل برداً أي روحاً وراحة ، وقيل لا يذوقون برداً ينفعهم .

﴿ ولا شراباً ﴾ أي يغنيهم عن عطش ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ أي لكن يشربون حميماً قيل هو الصفر المذاب ، وقيل هو الماء الحار الذي انتهى حره وغساقاً قال ابن عباس الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده ، وقيل هو صديد أهل النار .

﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ، وقيل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

(143/799)

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي لا يخافون أن يحاسبوا ، والمعنى أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا بأنهم يحاسبون ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي التي جاءت بها الأنبياء ، وقيل كذبوا بدلائل التوحيد والنّبوة والبعث والحساب ﴿ كذاباً ﴾ ، أي تكذيباً قال الفراء هي لغة يمانية فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال ، قال وقد سألني أعرابي منهم يستفتيني الحلق أحب إليك أم القصار يريد التقصير ﴿ وكل شيء ﴾ أي من الأعمال ﴿ أحصيناه ﴾ أي بيناه وأثبتناه ﴿ كتاباً ﴾ أي في كتاب وهو اللوح المحفوظ ، وقيل معناه وكل شيء علمناه علماً لا يزول ولا يتغير ولا يتبدل والمعنى أنا عالم بجميع ما فعلوه من خير وشر ، وأنا أجازيهم على قدر أعمالهم جزاء وفاقاً ﴿ فذوقوا ﴾ أي يقال لهم ذوقوا ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ قيل هذه الآية أشد آية في القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه .

قوله : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ أي فوزاً أي نجاة من العذاب ، وقيل فوزاً بما طلبوه من نعيم

الجنة ، ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب ، وفازوا بما حصل لهم من النّعيم .

(144/799)

ثم فسره قال ﴿ حدائق ﴾ جمع حديقة وهي البستان المحوط فيه كل ما يشتهون ﴿ وأعناباً ﴾ التنكير يدل على تعظيم ذلك العنب ﴿ وكواعب ﴾ جمع كاعب يعني جواري نواهد قد تكعبت ثديهن ﴿ أتراباً ﴾ يعني مستويات في السن ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال ابن عباس : مملوءة مترعة ، وقيل متتابعة ، وقيل صافية ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أي في الجنة ، وقيل في حالة شربهم لأن أهل الدنيا يتكلمون بالباطل في حالة شربهم ﴿ لغواً ﴾ أي باطلاً من الكلام ﴿ ولا كذاباً ﴾ أي تكذيباً والمعنى أنه لا يكذب بعضهم بعضاً ولا ينطقون به ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أي جازاهم جزاء وأعطاهم عطاء حساباً أي كافياً وافياً ، وقيل حساباً يعني كثيراً ، وقيل جزاء بقدر أعمالهم ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ﴾ أي لا يقدر الخلق أن يكلموا الرب إلا بإذنه ، وقيل لا يملكون منه خطاباً أي لا يملكون شفاعة إلا بإذنه في ذلك اليوم .

(145/799)

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قيل هو جبريل وقال ابن عباس : الروح ملك من الملائكة ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام وحده صفاً ، وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً فيكون من عظم خلقه مثلهم ، وقال ابن مسعود : الروح ملك عظيم أعظم من السموات والأرض والجبال وهو في السماء الرابعة يسبح الله كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً وحده ، وقيل الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند وقال ابن عباس الروح خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم ، وعنه أنهم بنو آدم يقومون صفاً والملائكة صفاً ، وقيل يقوم سماطان سماط من الروح وسماط من الملائكة ﴿ لا يتكلمون ﴾ يعني الخلق كلهم إجلالاً لعظمته تعالى جلّ جلاله وتعالى عطاؤه وشأنه من هول ذلك اليوم ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ أي في الكلام ﴿ وقال صواباً ﴾ أي حقاً في الدنيا وعمل به ، وقيل قال لا إله إلا الله قيل الاستثناء يرجع إلى الروح والملائكة ، ومعنى الآية لا يشفعون إلا في شخص أذن الرحمن في الشفاعة له ، وذلك الشخص ممن كان يقول صواباً في الدنيا ، وهو لا إله إلا الله ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي الكائن الواقع لا محالة وهو يوم القيامة .

﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أي سبيلاً يرجع إليه وهو طاعة الله وما يتقرب به إليه

﴿ إنا أنذرناكم ﴾ أي خوفناكم في الدنيا ﴿ عذاباً قريباً ﴾ أي في الآخرة وكل ما هو آت قريب ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ يعني من خير أو شر مثبتاً في صحيفته ينظر إليه يوم القيامة .

﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ قال عبد الله بن عمرو " إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الدّواب والبهائم والوحوش ، ثم يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتص للشّاة الحماء من الشاة القرناء نطحتها .

(146/799)

فإذا فرغ من القصاص قيل لها كوني تراباً فعند ذلك يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً " وقيل يقول الله للبهائم بعد القصاص إنا خلقناكم وسخرناكم لبني آدم وكنتم مطيعين لهم أيام حياتكم فارجعوا إلى ما كنتم عليه كونوا تراباً ، فإذ رأى الكافر ذلك تمنى ، وقال يا ليتني كنت في الدّنيا في صورة بعض هذه البهائم ، وكنت اليوم تراباً وإذا قضى الله بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، وقيل لسائر الأمم سوى الناس والجن عودوا تراباً فيعودون تراباً فحينئذ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ، وقيل معناه إن الكافر إذا رأى ما أنعم الله به على المؤمنين من الخير ، والرحمة ، قال يا ليتني كنت تراباً يعني متواضعاً في

طاعة الله في الدنيا ، ولم أكن جباراً متكبراً ، وقيل إن الكافر هاهنا هو إبليس ، وذلك أنه عاب آدم وكونه خلق من تراب ، وافتخر عليه بأنه خلق من نار فإذا كان يوم القيامة ، ورأى ما فيه آدم وبنوه المؤمنين من الثواب والرحمة ، وما هو فيه من الشّدة والعذاب قال يا ليتني كنت تراباً قال أبو هريرة يقول التراب لا ولا كرامة لك من جعلك مثلي ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 199 .

204 ﴾

(147/799)

وقال النسفى :

سورة النبأ

مكية وهي أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ ﴾ أصله "عن ما" وقرىء بها ، ثم أدغمت النون في الميم فصار "عما" وقرىء بها ، ثم حذفت الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام وعليه الاستعمال الكثير ، وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يسأل

بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم من المؤمنين ، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء ﴿ عَنِ النبإِ العظيم ﴾ أي البعث وهو بيان للشأن المفخم وتقديره : عم يتساءلون يتساءلون عن النبإِ العظيم ﴿ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ فمنهم من يقطع بإنكاره ومنهم من يشك .

وقيل : الضمير للمسلمين والكافرين وكانوا جيعاً يتساءلون عنه ، فالمسلم يسأل ليزداد خشية ، والكافر يسأل استهزاء ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الاختلاف أو التساؤل هزؤاً ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عياناً أن ما يستاءلون عنه حق ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ كرر الردع للتشديد و"ثم" يشعر بأن الثاني أبلغ من الأول وأشد .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض ﴾ لما أنكروا البعث .

(148/799)

قيل لهم : ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة فلم تنكرون قدرته على البعث وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات ؟ أو قيل لهم : لم فعل هذه الأشياء والحكيم لا يفعل عبثاً وإنكار البعث يؤدي إلى أنه عابث في كل ما فعل ؟ ﴿ مهادا ﴾ فراشاً فرشناها لكم حتى سكنتموها ﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ للأرض لئلا تيمد بكم ﴿ وخلقناكم أزواجا

﴿ ذكراً أو أنثى ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم والسبت القطع ﴿ وَجَعَلْنَا الليلِ لِبَاساً ﴾ ستراً يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ وقت معاش تتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً ﴾ سبع سموات ﴿ شِدَاداً ﴾ جمع شديدة أي محكمة قوية لا يؤثّر فيها مرور الزمان أو غلاظاً غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ مضيئاً وقّاداً أي جامعاً للنور والحرارة والمراد الشمس ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ أي السحائب إذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض ، أو الرياح لأنها تنشىء السحاب وتدر أحلافه فيصح أن تجعل مبدأ للإنزال ، وقد جاء أن الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ﴿ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾ منصباً بكثرة ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ ﴾ بالماء ﴿ حَبّاً ﴾ كالبر والشعير ﴿ وَنَبَاتاً ﴾ وكلأ ﴿ وجنات ﴾ بساتين ﴿ أَلْفَافاً ﴾ ملتفة الأشجار واحدها لف كجذع وأجذاع ، أو لفيف كشريف وأشراف ، أو لا واحد له كأوزاع ، أو هي جمع الجمع فهي جمع لف واللف جمع لفاء وهي شجرة مجتمعة .

ولا وقف من ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ﴾ إلى ﴿ أَلْفَافاً ﴾ الوقف الضروري على ﴿ أَوْتَاداً ﴾ و ﴿ مَعَاشاً ﴾ .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل ﴾ بين المحسن والمسيء والمحق والمبطل ﴿ كَانَ ميقاتا ﴾ وقتاً محدوداً ومنتهى معلوماً لوقوع الجزاء أو ميعاداً للثواب والعقاب .

(149/799)

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمُ الفصل ﴾ أو عطف بيان ﴿ فِى الصور ﴾ في القرن ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ حال أي جماعات مختلفة أو أمماً كل أمة مع رسولها ﴿ وَفُتِحَتِ السماء ﴾ خفيف : كوفي أي شقت لنزول الملائكة ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ فصارت ذات أبواب وطرق وفروج ومالها اليوم من فروج ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ عن وجه الأرض ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ أي هباء تخيّل الشمس أنه ماء ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ طريقاً عليه ممر الخلق فالمؤمن يمر عليها والكافر يدخلها .

وقيل : المرصاد الحد الذي يكون فيه الرصد أي هي حد الطاغين الذين يرصدون فيه للعذاب وهي مآبهم ، أو هي مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها لأن مجازهم عليها ﴿ للطاغين مَئَاباً ﴾ للكافرين مرجعاً ﴿ لابثين ﴾ ماكثين حال مقدرة من الضمير في ﴿ للطاغين ﴾ حمزة ﴿ لَّبِثِينَ ﴾ واللبث أقوى إذ اللابث من وجد منه اللبث وإن قل ، واللبث من شأنه اللبث والمقام في المكان ﴿ فِيهَا ﴾ في جهنم

﴿ أَحْقَاباً ﴾ ظرف جمع حقب وهو الدهر ولم يرد به عدد محصور بل الأبد كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ، ولا يستعمل الحقب والحقبة إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها .

وقيل : الحقب ثمانون سنة .

وسئل بعض العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة ﴿ لابثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ .

﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ﴾ أي غير ذائقين حال من ضمير ﴿ لابثين ﴾ فإذا انقضت هذه الأحقاب التي عذبوا فيها بمنع البرد والشراب بدلوا بأحقاب أخر فيها عذاب آخر وهي أحقاب بعد أحقاب لا انقطاع لها .

وقيل : هو من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره ، وحقب فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقب وجمعه حقاب فينتصب حالاً عنهم أي لابثين فيها حقبين جهدين و ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ﴾ تفسير له .

(150/799)

وقوله ﴿ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ استثناء منقطع أي ﴿ لاَ يَذُوقُونَ ﴾ في جهنم أو في الأحقاب ﴿ بَرْداً ﴾ روْحاً ينفس عنهم حر النار أو نوماً ومنه منع البرد البرد ، ﴿ وَلاَ

شَرَاباً ﴾ يسكن عطشهم ولكن يذوقون فيها حميماً ماء حاراً يحرق ما يأتي عليه ﴿ وَغَسَّاقاً ﴾ ماء يسيل من صديدهم .

وبالتشديد : كوفي غير أبي بكر ﴿ جَزَاءً ﴾ جوزوا جزاء ﴿ وفاقا ﴾ موافقاً لأعمالهم مصدر بمعنى الصفة أو ذا وفاق .

ثم استأنف معللاً فقال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ لا يخافون محاسبة الله إياهم أو لم يؤمنوا بالبعث فيرجوا حساباً ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ تكذيباً وفعّال في باب فعّل كله فاش ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ نصب بمضمر يفسره ﴿ أحصيناه كتابا ﴾ مكتوباً في اللوح حال أو مصدر في موضع إحصاء ، أو أحصينا في معنى كتبنا لأن الاحصاء يكون بالكتابة غالباً .

وهذه الآية اعتراض لأن قوله ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات أي فذوقوا جزاءكم والالتفات شاهد على شدة الغضب ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ في الحديث " هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار " .

"

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ مفعل من الفوز يصلح مصدراً أي نجاة من كل مكروه وظفراً بكل محبوب ويصلح للمكان وهو الجنة .

ثم أبدل منه بدل البعض من الكل فقال ﴿ حَدَائِقَ ﴾ بساتين فيها أنواع الشجر المثمر جمع

حديقة ﴿ وأعنابا ﴾ كروماً عطف على ﴿ حَدَائِقَ ﴾ ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ نواهد ﴿ أَتْرَاباً ﴾ لدات مستويات في السن ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ مملوءة.

(151/799)

﴿ لاّ يسمعون فيها ﴾ في الجنة حال من ضمير خبر "إن" ﴿ لغواً ﴾ باطلاً ﴿ ولا كِذَّاباً ﴾ الكسائي: خفيف بمعنى مكاذبة أي لا يكذب بعضهم بعضاً ولا يكاذبه ﴿ جزاءً ﴾ مصدر أي جزاهم جزاء ﴿ مّن رَّبِّكَ عطاءً ﴾ مصدر أو بدل من ﴿ جزاء ﴾ ﴿ حساباً ﴾ صفة يعني كافياً أو على حسب أعمالهم ﴿ رّبِّ السّماواتِ والأرضِ وما بينهما الرّحمنِ ﴾ بجرهما: ابن عامر وعاصم بدلاً من ﴿ ربك ﴾ ومن رفعهما ف ﴿ رب ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ﴿ الرحمن ﴾ أو ﴿ الرحمن ﴾ صفته و ﴿ لا يملكون ﴾ خبر، أو هما خبران والضمير في ﴿ لا يملكونَ ﴾ لأهل السماوات والأرض، وفي ﴿ منه خطاباً ﴾ لله تعالى أي لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلا بإذنه أو لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى خوفاً ﴿ يومَ يقومُ ﴾ إن جعلته ظرفاً ل ﴿ لا يملكون ﴾ لا تقف على ﴿ خطاباً ﴾ وإن جعلته ظرفاً ل ﴿ لا يتكلمون ﴾ تقف ﴿ الرُّوحُ ﴾ جبريل عند الجمهور وقيل هو ملك عظيم ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظم منه ﴿

والملائكة صَفّاً ﴾ حال أي مصطفين ﴿ لاّ يتكلّمون ﴾ أي الخلائق ثم خوفاً من ﴿ إلاّ من أذن له الرَّحمانُ ﴾ في الكلام أو الشفاعة ﴿ وقال صواباً ﴾ حقاً بأن قال المشفوع له لا إله إلا الله في الدنيا أو لا يؤذن إلا لمن يتكلم بالصواب في أمر الشفاعة.

﴿ ذلك اليوم الحقُّ ﴾ الثابت وقوعه ﴿ فمن شاءَ اتّخَذَ إلى ربّه مئاباً ﴾ مرجعاً بالعمل الصالح ﴿ إنّا أنذرناكم ﴾ أيها الكفار ﴿ عذاباً قريباً ﴾ في الآخرة لأن ما هو آتٍ قريب ﴿ يَوْمَ ينظُرُ المرءُ ﴾ الكافر لقوله: ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ ﴿ ما قدّمت يداه ﴾ من الشر لقوله: ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ [الأنفال: 50-51].

(152/799)

وتخصيص الأيدي لأن أكثر الأعمال تقع بها وإن احتمل أن لا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ﴿ ويَقولُ الكَافِرُ ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة الذم، أو المرء عام وخص منه الكافر وما قدمت يداه ما عمل من خير وشر، أو هو المؤمن لذكر الكافر بعده وما قدم من خير.

و"ما" استفهامية منصوبة ب ﴿ قدمت ﴾ أي ينظر أي شيء قدمت يداه، أو موصولة

منصوبة ب ﴿ ينظر ﴾ يقال : نظرته يعني نظرت إليه والراجع من الصلة محذوف أي ما قدمته ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف أوليتني كنت تراباً في هذا اليوم فلم أبعث .

وقيل : يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يرده تراباً ، فيود الكافر حاله .

وقيل : الكافر إبليس يتمنى أن يكون كآدم مخلوقاً من التراب ليثاب ثواب أولاده المؤمنين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 324.328 ﴾

(153/799)

وقال ابن جزى :

سورة النبأ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

أصل عَمَّ عَنْ ما ، ثم أدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما لأنها استفهامية ، وتقديرها : عن أي شيء يتساءلون ، وليس المراد بها هنا مجرد الاستفهام ، وإنما المراد تفخيم الأمر . والضمير في يتساءلون لكفار قريش ، أو لجميع الناس معناه يسأل بعضهم بعضاً ﴿ عَنِ

النبإ العظيم ﴾ هون ما جاءت به الشريعة من التوحيد والبعث والجزاء وغير ذلك ، ويتعلق عن النبأ بفعل محذوف يفسر الظاهر تقديره : يتساءلون عن النبأ ، ووقعت هذه الجملة جواباً عن الاستفهام وبياناً للمسؤول عنه كأنه لما قال : عم يتساءلون أجاب فقال يتساءلون عن النبأ العظيم . وقيل : يتعلق عن النبأ بيتساءلون الظاهر ، والمعنى على هذا لأي شيء يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ والأول أفصح وأبرع وينبغي على ذلك أن يوقف على قوله : عم يتساءلون ﴿ الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ إن كان الضمير في يتساءلون لكفار قريش ، فاختلافهم أن منهم من يقطع بالتكذيب ، ومنهم من يشك أن يكون اختلافهم ؛ قول بعضهم سحر ، وقول بعضهم شعر وكهانة وغير ذلك ، وإن كان الضمير لجميع الناس فاختلافهم أن منهم المؤمن والكفار .

(154/799)

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ردع وتهديد ثم كرره للتأكيد ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرض مِهَاداً ﴾ أي فراشاً ، وإنما ذكر الله تعالى هنا هذه المخلوقات على جهة التوقيف ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من البعث كأنه يقول : إن الإله الذي قدر على خلقة هذه المخلوقات العظام قادر على إحياء الناس بعد موتهم ، ويحتمل أنه ذكرها حجة على التوحيد ؛ لأن

الذي خلق هذه المخلوقات هو الإله وحده لا شريك له ﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي من زوجين ذكراً وأنثى ، وقيل : معناه أنواعاً في ألوانكم وصوركم وألسنتكم ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي راحة لكم ، وقيل : معناه قطعاً للأعمال والتصرف . والسبت : القطع . وقيل : معناه موتاً ؛ لأن النوم هو الموت الأصغر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : 42] ﴿ وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً ﴾ شبهه بالثياب التي تلبس لأنه ستر عن العيون ﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ أي تطلب فيه المعيشة ، فهو على حذف مضاف تقديره ذا معاش ، وقال الزمخشري : معناه يعاش فيه فجعله بمعنى الحياة في مقابلة السبات ، الذي بمعنى الموت ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ يعني السموات ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ يعني الشمس . الوهّاج الوقاد الشديد الإضاءة ، وقيل : الحار الذي يضطرم من شدة لهبه ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ يعني : المطر . المعصرات : هي السحاب وهو مأخوذ من العصر ؛ لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء أو من العصرة ؛ بمعنى الإغاثة . ومنه : وفيه يعصرون ، وقيل : هي السموات وقيل : الرياح والثجّاج السريع الاندفاع ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ الحب هو القمح والشعير وسائر الحبوب والنبات هو العشب ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ أي ملتفة وهو

جمع لف بضم اللام ، وقيل : بالكسر وقيل : لا واحد له ﴿ كَانَ مِيقَاتاً ﴾ أي في وقت معلوم .

(156/799)

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ يعني نفخة القيام من القبور ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ أي جماعات ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ أي تنفخ فتكون فيها شقاق كالأبواب ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ أي حملت ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها ، والسراب في اللغة : ما ظهر على البعد أنه ماء ، وليس ذلك المراد هنا وإنما هو تشبيه في أنه لا شيء ﴿ مِرْصَاداً ﴾ أي موضع المرصاد والرصد هو الارتقاب والانتظار ، أي تنتظر الكفار ليدخلوها ، وقيل : معناه طريقاً للمؤمنين يمرون عليه إلى الجنة لأن الصراط منصوب على جهنم ﴿ مَآباً ﴾ أي مرجعاً ﴿ لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ جمع حقبة أو حقب وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدود ، وقيل : إنها محدودة ثم اختلف في مقدارها ، فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها ثمانون ألف سنة ، وقال ابن عباس : ثلاثون سنة وقيل ثلثمائة سنة ، وعلى القول بالتحديد فالمعنى أنهم يبقون فيها أحقاباً ، كلما انقضى حقب جاء إلى آخر غير نهاية وقيل

: إنه كان يقتضي أن مدة العذاب تنقضي ، ثم نسخ بقوله : " فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً " وهذا خطاب لأن الأخبار لا تنسخ ، وقيل : هي في عُصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار ، وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ ، وقيل : معناه أنهم يبقون أحياناً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً ﴾ أي لا يذوقون برودة تخفف عنهم حر النار . وقيل : لا يذوقون ماء بارداً وقيل : البرد هنا النوم والأول أظهر ﴿ إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ استثناء من الشراب وهو متصل ، والحميم : الماء الحار . والغساق : صديد أهل النار ، وقد ذكر في سورة داود [ص : 57] ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ أي موافقاً أعمالهم لأن أعمالهم كفر وجزاؤهم النار ، ووفاقاً مصدر وصف به أو هو على حذف مضاف تقديره ذو وفاق ﴿

(157/799)

إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ هذا مثل (لا يرجون لقاءنا) وذكر ذكر ﴿ كِذَّاباً ﴾ بالتشديد مصدر بمعنى تكذيب وبالتخفيف بمعنى الكذب أو المكاذبة ، وهي تكذيب بعضهم لبعض ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما نزل في أهل النار من هذه الآية " .

﴿ مَفَازاً ﴾ أي موضع فوز يعني الجنة ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ أي بساتين ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي على سن واحد ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي ملأى وقيل : صافية ، والأول أشهر ﴿ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ أي كافياً من أحسب الشيء إذا كفاه ، وقيل : معناه على حسب أعمالهم ﴿ رَّبِّ السماوات ﴾ بالرفع مبتدأ أو خبر ابتداء مضمر وبالخفض صفة لربك ، والرحمنُ بالخفض صفة ، وبالرفع خبر المبتدأ أو خبر ابتداء مضمر ﴿ لاَيَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ قال ابن عطية : الضمير للكفار أي لا يملكون أن يخاطبوه بمقدرة ولا غيرها ، وقيل : المعنى لا يقدرون أن يخاطبهم كقوله : ولا يكلمهم الله ، وقال الزمخشري : الضمير لجميع الخلق أي ليس بأيديهم شيء من خطاب الله ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح ﴾ قيل هو جبريل ، وقيل : ملك عظيم يكون هو وحده صفاً والملائكة صفاً ، وقيل : يعني أرواح بني آدم فهو اسم جنس ، ويوم يتعلق بلا يملكون أو بلا يتكلمون ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ الضمير للملائكة والروح ، أي تمنعهم الهيبة من الكلام إلا من بعد أن يأذن الله لهم . وقول الصواب يكون في ذلك الموطن على هذا . وقيل : الضمير للناس خاصة والصواب المشار إليه قول : إلا إله إلا الله أي من قالها في الدنيا ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ أي

الحق وجوده ووقوعه ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ تخصيص وترغيب ﴿ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني عذاب الآخرة ووصفه بالقرب لأن كل آت قريب ، أو لأن الدنيا على آخرها ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ المرء هنا عموم في المؤمن والكافر ، وقيل : هو المؤمن وقيل : هو الكافر ، والعموم أحسن ، لأن كل أحد يرى ما عمل لقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [الزلزلة : 7] الآية ﴿ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ يتمنى أن يكون يوم القيامة تراباً فلا يحاسب ولا يجازى ، وقيل : تمنى أن يكون في الدنيا تراباً أي لم يخلق ،

(159/799)

وروي أن البهائم تحشر ليقتص لبعضهم من بعض ثم ترد تراباً ، فيتمنى الكافر أن يكون تراباً مثلها ، وهذا يقوّي الأول ، وقيل : الكافر هنا إبليس يتمنى أن يكون خلق من تراب ، مثل آدم وذريته لما رأى ثوابهم ، وقد كان احتقر التراب في قوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 172 . 175 ﴾

(160/799)

وقال البيضاوى :

سورة النبأ

مكية ، وآيها إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾

أصله عما فحذف الألف لما مر ، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه كأنه لفخامته خفي جنسه فيسأل عنه ، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ، أو يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين عنه استهزاء كقولهم : يتداعونهم ويتراءونهم أي يدعونهم ويرونهم ، أو للناس .

﴿ عَنِ النبإ العظيم ﴾ بيان لشأن المفخم أو صلة ﴿ يَتَسَاءلُونَ ﴾ و﴿ عَمَّ ﴾ متعلق بمضمر مفسر به ، ويدل عليه قراءة يعقوب : "عمه" .

﴿ الذى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ بجزم النفي والشك فيه ، أو بالإقرار والإنكار .

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ردع عن التساؤل ووعيد عليه .

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للمبالغة و﴿ ثُمَّ ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد ، وقيل الأول عند النزع والثاني في القيامة ، أو الأول للبعث والثاني للجزاء . وعن ابن عامر "ستعلمون" بالتاء على تقدير قل لهم ستعلمون .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا والجبال أَوْتَاداً ﴾ تذكير ببعض ما عاينوا من عجائب صنعه الدالة على كمال قدرته ليستدلوا بذلك على صحة البعث كما مر تقريره مراراً ، وقرىء "مهداً" أي أنها لهم كالمهد للصبي مصدر سمي به ما يمهد لينوم عليه .

﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ ذكراً وأنثى .

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ قطعاً عن الإِحساس والحركة استراحة للقوى الحيوانية وإزاحة لكلاهما ، أو موتاً لأنه أحد التوفيين ومنه المسبوت للميت ، وأصله القطع أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً ﴾ غطاء يستتر بظلمته من أراد الاختفاء .

﴿ وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ وقت معاش تتقلبون فيه لتحصيل ما تعيشون به ، أو حياة تنبعثون فيها عن نومكم .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ سبع سموات أقوياء محكمات لا يؤثر فيها مرور الدهور .

(161/799)

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ متلألئاً وقاداً من وهجت النار إذا أضاءت ، أو بالغاً في الحرارة من الوهج وهو الحر والمراد الشمس .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات ﴾ السحائب إذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمر كقولك : احصد الزرع إذا حان له أن يحصد ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض ، أو من الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب ، أو الرياح ذوات الأعاصير ، وإنما جعلت مبدأ للإنزال لأنها تنشىء السحاب وتدر أخلافه ، ويؤيده أنه قرىء "بالمعصرات" . ﴿ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾ منصباً بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه . وفي الحديث " أفضل الحج العج والثج " أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وقرىء "ثَجَّاجاً" ومثاجج الماء مصابه .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ ما يقتات به وما يعتلف من التبن والحشيش .

﴿ وجنات أَلْفَافاً ﴾ ملتفة بعضها ببعض جمع لف كجذع . قال :

جَنَّة لفَّ وَعَيْشٌ مُغْدق . . . وَنَدَامى كُلُّهُمْ بِيضٌ زهر

أو لفيف كشريف أو لف جمع لفاء كخضراء وخضر وأخضار أو متلفة بحذف الزوائد .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ ﴾ في علم الله تعالى أو في حكمه . ﴿ ميقاتا ﴾ حداً توقت به الدنيا وتنتهي عنده ، أو حداً للخلائق ينتهون إليه .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ بدل أو بيان ليوم الفصل . ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ جماعات من القبور إلى المحشر . روي " أنه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال : يحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون يسبحون على وجوههم ، وبعضهم عمي وبعضهم صم بكم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم فيسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلوبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم " ثم فسرهم بالقتات وأهل السحت وأكلة الربا والجائرين في الحكم والمعجبين بأعمالهم ، والعلماء الذين خالف قولهم عملهم ، والمؤذين جيرانهم والساعين بالناس إلى السلطان ، والتابعين للشهوات المانعين حق الله تعالى ، والمتكبرين الخيلاء .

﴿ وَفُتِحَتِ السماء ﴾ وشققت وقرأ الكوفيون بالتخفيف . ﴿ فَكَانَتْ أبوابا ﴾ فصارت من كثرة الشقوق كأن الكل أبواب أو فصارت ذات أبواب .

﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ أي في الهواء كالهباء . ﴿ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ مثل سراب إذ ترى على صورة الجبال ولم تبق على حقيقتها لتفتت أجزائها وانبثاثها .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ، أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مجازهم عليها ، كالمضمار فإنه الموضع الذي تضمر

فيه الخيل ، أو مجدة في ترصد الكفرة لئلا يشذ منها واحد كالمطعان ، وقرىء ﴿ أن ﴾ بالفتح على التعليل لقيام الساعة .

﴿ للطاغين مَئَاباً ﴾ مرجعاً ومأوى .

(163/799)

﴿ لابثين فِيهَا ﴾ وقرأ حمزة وروح "لبثين" وهو أبلغ . ﴿ أَحْقَاباً ﴾ دهوراً متتابعة ، وليس فيها ما يدل على خروجهم منها إذ لو صح أن الحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة ، فليس فيه ما يقتضى تناهي تلك الأحقاب لجواز أن يكون المراد أحقاباً مترادفة كلما مضى حقب تبعه آخر ، وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطق الدال على خلود الكفار ، ولو جعل قوله :

﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ حالاً من المستكن في ﴿ لابثين ﴾ أو نصب ﴿ أَحْقَاباً ﴾ ب ﴿ لاَ يَذُوقُونَ ﴾ احتمل أن يلبثوا فيها أحقاباً غير ذائقين إلا حميماً وغساقاً ، ثم يبدلون جنساً آخر من العذاب ، ويجوز أن يكون جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأه الرزق ، وحقب العام إذا قل مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى لابثين فيها حقبين ، وقوله ﴿ لاَ يَذُوقُونَ ﴾ تفسير له والمراد بالبرد ما يروحهم وينفس عنهم حر

النار أو النوم ، وبالغساق ما يغسق أي يسيل من صديدهم ، وقيل الزمهرير وهو مستثنى من البرد إلا أنه أخر ليتوافق رؤوس الآي ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد .

﴿ جَزَاءً وفاقا ﴾ أي جوزوا بذلك جزاء ذا وفاق لأعمالهم ، أو موافقاً لها أو وافقها وفاقاً ، وقرىء "وفاقا " فعال من وفقه كذا .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ بيان لما وافقه هذا الجزاء .

﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ تكذيباً وفعال بمعنى تفعيل مطرد شائع في كلام الفصحاء .

وقرىء بالتخفيف وهو بمعنى الكذب كقوله :

فَصَدَقْتَهَا وَكَذَبْتَهَا . . . وَالمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَّابُهْ

(164/799)

وإنما أقيم مقام التكذيب للدلالة على أنهم كذبوا في تكذيبهم ، أو المكاذبة فإنهم كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون كاذبين عندهم فكان بينهم مكاذبة ، أو كانوا مبالغين في الكذب مبالغة فيه ، وعلى المعنيين يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين ، ويؤيده أنه قرىء "كَذَّاباً" وهو جمع كاذب ، ويجوز أن يكون للمبالغة فيكون صفة للمصدر أي تكذيباً مفرطاً كذبه .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحصيناه ﴾ وقرىء بالرفع على الابتداء . ﴿ كتابا ﴾ مصدر لأحصيناه فإن الأحصاء والكتبة يتشاركان في معنى الضبط أو لفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوباً في اللوح ، أو صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله :

﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ومجيئه على طريقة الالتفات للمبالغة . وفي الحديث " هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار " ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ فوزاً أو موضع فوز .

﴿ حَدَائِقَ وأعنابا ﴾ بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة بدل من ﴿ مَفَازاً ﴾ بدل الاشتمال والبعض .

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ نساء فلكت ثديهن ﴿ أَتْرَاباً ﴾ لدات ﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ ملآنا وأدهق الحوض ملآه .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً ﴾ وقرأ الكسائي بالتخفيف أي كذباً أو مكاذبةٍ ، إذ لا يكذب بعضهم بعضاً .

﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ ﴾ . بمقتضى وعده . ﴿ عَطَاءً ﴾ تفضلاً منه إذ لا يجب عليه شيء ، وهو بدل من ﴿ جَزَاء ﴾ ، وقيل منتصف به نصب المفعول به . ﴿ حِسَاباً ﴾ كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي ، أو على حسب أعمالهم وقرىء "حِسَاباً" أي محسباً كالدراك بمعنى المدرك .

﴿ رَبِّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ بدل من ربك وقد رفعه الحجازيان وأبو عمرو على الابتداء . ﴿ الرحمن ﴾ بالجر صفة له وكذا في قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب بالرفع في قراءة أبي عمرو ، وفي قراءة حمزة والكسائي بجر الأول ورفع الثاني على أنه خبر محذوف ، أو مبتدأ خبره : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ والواو لأهل السموات والأرض أي لا يملكون خطابه ، والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب لأنهم مملوكون له على الاطلاق فلا يستحقون عليه اعتراضاً وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ تقرير وتوكيد لقوله ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ ، فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذا لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه ، فكيف يملكه غيرهم و ﴿ يَوْمِ ﴾ ظرف ل ﴿ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾ ، أول ﴿ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ و ﴿ الروح ﴾ ملك موكل على الأرواح أو جنسها ، أو جبريل عليه السلام أو خلق أعظم من الملائكة .

﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ الكائن لا محالة . ﴿ فَمَن شَاء اتخذ إلى رَبِّهِ ﴾ إلى ثوابه . ﴿ مَآباً ﴾ بالإيمان والطاعة .

﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني عذاب الآخرة ، وقربه لتحققه فإن كل ما هو آت قريب ولأن مبدأه الموت . ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ يرى ما قدمه من خير أو شر ، و﴿ المرء ﴾ عام . وقيل هو الكافر لقوله : ﴿ إِنَّا أنذرناكم ﴾ فيكون الكافر ظاهراً وضع موضع الضمير لزيادة الذم ، و﴿ مَا ﴾ موصولة منصوبة بينظر أو استفهامية منصوبة ب ﴿ قَدَّمْتُ ﴾ ، أي ينظر أي شيء قدمت يداه . ﴿ وَيَقُولُ الكافر الكافر ياليتنى كُنتُ ترابا ﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف ، أو في هذا اليوم فلم أبعث ، وقيل يحشر سائر الحيوانات للاقتصاص ثم ترد تراباً فيود الكافر حالها .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة عم سقاه الله برد الشراب يوم القيامة " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 438.444 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة النبأ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

قال : ﴿ عم يتساءلون ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ عم ﴾ ؛ وعبد الله وأبيّ وعكرمة وعيسى : عما بالألف ، وهو أصل عم ، والأكثر حذف الألف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها .

ومن إثبات الألف قوله :

على ما قام يشتمني لئيم . . .

كخنزير تمرغ في رماد

وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية : عمه بهاء السكت ، أجرى الوصل مجرى الوقف ، لأن الأكثر في الوقف على ما الاستفهامية هو بإلحاق هاء السكت ، إلا إذا أضيفت إليها فلا بد من الهاء في الوقف ، نحو : بحى مه .

والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب ، كما تقول : أي رجل زيد ؟ وزيد ما زيد ، كأنه لما كان عديم النظير أو قليله خفيّ عليك جنسه فأخذت تستفهم عنه .

ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء ، فجاء في القرآن ، والضمير في ﴿ يتساءلون ﴾ لأهل مكة .

ثم أخبر تعالى أنهم ﴿ يتساءلون عن النبإ العظيم ﴾ ، وهو أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وما جاء به من القرآن .

وقيل : الضمير لجميع العالم ، فيكون الاختلاف تصديق المؤمن وتكذيب الكافر .

وقيل : المتساءل فيه البعث ، والاختلاف فيه عم متعلق بيتساءلون .

ومن قرأ عمه بالهاء في الوصل فقد ذكرنا أنه يكون أجرى الوصل مجرى الوقف ، وعن النبأ متعلق بمحذوف ، أي يتساءلون عن النبأ .

وأجاز الزمخشري أن يكون وقف على عمه ، ثم ابتدأ بيتسألون عن النبأ العظيم على أن يضمر لعمه يتساءلون ، وحذفت لدلالة ما بعدها عليه ، كشيء مبهم ثم يفسر .

وقال ابن عطية : قال أكثر النحاة قوله ﴿ عن النبإ العظيم ﴾ متعلق بيتساءلون ، الظاهر كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ وقال الزجاج : الكلام تام في قوله ﴿ عم يتساءلون ﴾ ، ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول : يتساءلون عن النبأ ، فاقتضى إيجاز القرآن وبلاغته أن يبادر المحتج بالجواب الذي يقتضيه الحال ، والمجاورة اقتضاء بالحجة وإسراعاً إلى موضع قطعهم .

(167/799)

وقرأ عبد الله وابن جبير : يسألون بغير تاء وشد السين ، وأصله يتساءلون بتاء الخطاب ، فأدغم التاء الثانية في السين .

﴿ كلا ﴾ : ردع للمتسائلين .

وقرأ الجمهور : بياء الغيبة فيهما .

وعن الضحاك : الأول بالتاء على الخطاب ، والثاني بالياء على الغيبة .

وهذا التكرار توكيد في الوعيد وحذف ما يتعلق به العلم على سبيل التهويل ، أي سيعلمون ما يحل بهم .

ثم قررهم تعالى على النظر في آياته الباهرة وغرائب مخلوقاته التي ابتدعها من العدم الصرف ، وأن النظر في ذلك يفضي إلى الإيمان بما جاءت به الرسل من البعث والجزاء ، فقال : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ ، فبدأ بما هم دائماً يباشرونه ، والمهاد : الفراش الموطأ .

وقرأ الجمهور : ﴿ مهاداً ﴾ ؛ ومجاهد وعيسى وبعض الكوفيين : مهداً ، بفتح الميم وسكون الهاء ، ولم ينسب ابن عطية عيسى في هذه القراءة .

وقال ابن خالويه : مهداً على التوحيد ، مجاهداً وعيسى الهمداني وهو الحوفي ، فاحتمل أن يكون قول ابن عطية وبعض الكوفيين كناية عن عيسى الهمداني .

وإذا أطلقوا عيسى ، أو قالوا عيسى البصرة ، فهو عيسى بن عمر الثقفي .

وتقدم الكلام في المهاد في البقرة في أول حزب ، ﴿ واذكروا الله ﴾ ﴿ والجبال أوتاداً ﴾ : أي ثبتنا الأرض بالجبال ، كما ثبت البيت بالأوتاد .

قال الأفوه :

والبيت لا ينبني إلا له عمد . . .

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

﴿ أزواجاً ﴾ : أي أنواعاً من اللون والصورة واللسان .

وقال الزجاج وغيره : مزدوجين ، ذكراً وأنثى .

﴿ سباتاً ﴾ : سكوناً وراحة .

سبت الرجل : استراح وترك الشغل ، والسبات علة معروفة يفرط على الإنسان السكوت حتى يصير قاتلاً ، والنوم شبيه به إلا في الضرر .

وقال قتادة : النائم مسبوت لا يعقل ، كأنه ميت .

﴿ لباساً ﴾ : أي يستترون به عن العيون فيما لا يحبون أن يظهر عليه .

﴿ وجعلنا النهار ﴾ : قابل النوم بالنهار ، إذ فيه اليقظة .

﴿ معاشاً ﴾ : وقت عيش ، وهو الحياة تتصرفون فيه في حوائجكم .

(168/799)

﴿ سبعاً ﴾ : أي سموات ، ﴿ شداداً ﴾ : محكمة الخلق قوية لا تتأثر بمرور الأعصار إلا إذا أراد الله عز وجل .

وقال الشاعر :

فلما جئته أعلى محلي . . .

وأجلسني على السبع الشداد

﴿ سراجاً ﴾ : هو الشمس ، ﴿ وهاجاً ﴾ : حاراً مضطرم الاتقاد .

وقال عبد الله بن عمرو .

الشمس في السماء الرابعة ، إلينا ظهرها ، ولهيبها يضطرم علواً .

﴿ من المعصرات ﴾ ، قال أبي والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم وقتادة ومقاتل : هي السموات .

وقال ابن عباس وأبو العالية والربيع والضحاك : السحاب القاطرة ، مأخوذ من العصر ، لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء .

وقيل : السحاب التي فيها الماء ولم تمطر .

وقال ابن كيسان : سميت بذلك من حيث تغيث ، فهي من العصرة ، ومنه قوله : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ .

والعاصر : المغيث ، فهو ثلاثي ؛ وجاء هنا من أعصر : أي دخلت في حين العصر ، فحان لها أن تعصر ، وأفعل للدخول في الشيء .

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرياح لأنها تعصر السحاب ، جعل الإنزال منها لما كانت سبباً فيه .

وقرأ ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس أخوه وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة : بالمعصرات ، بالياء بدل من .

قال ابن عطية : فهذا يقوي أنه أراد الرياح .

وقال الزمخشري : فيه وجهان : أن يراد بالرياح التي حان لها أن تعصر السحاب ، وأن يراد السحاب ، لأنه إذا كان الأنزال منها فهو بها ، كما تقول : أعطى من يده درهماً ، وأعطى بيده درهماً .

﴿ ثجاجاً ﴾ : منصباً بكثرة ، ومنه أفضل الحج العج والثج : أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى .

وقرأ الأعرج : ثجاحاً بالحاء : آخراً ، ومساجح الماء : مصابه ، والماء ينثجح في الوادي .

﴿ حباً ونباتاً ﴾ : بدأ بالحب لأنه الذي يتقوت به ، كالحنطة والشعير ، وثنى بالنبات فشمل كل ما ينبت من شجر وحشيش ودخل فيه الحب .

﴿ ألفافاً ﴾ : ملتفة ، قال الزمخشري : ولا واحد له ، كالأوزاع والأخياف .

(169/799)

وقيل : الواحد لف : قال صاحب الإقليد : أنشدني الحسن بن علي الطوسي :

جنة لف وعيش مغدق . . .

وندامى كلهم بيض زهر

ولو قيل : هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً . انتهى .

ولا حاجة إلى هذا القول ولا إلى وجاهته ، فقد ذكر في المفردات أن مفرده لف بكسر اللام ، وأنه قول جمهور أهل اللغة .

﴿ إن يوم الفصل ﴾ : هو يوم القيامة يفصل فيه بين الحق والباطل ، ﴿ كان ميقاتاً ﴾ : أي في تقدير الله وحكمه توّقت به الدنيا وتنتهي عنده أو حداً للخلائق ينتهون إليه .

﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ : بدل من يوم الفصل .

قال الزمخشري : أو عطف بيان ، وتقدم الكلام في الصور .

وقرأ أبو عياض : في الصور بفتح الواو جمع صورة ، أي يرد الله الأرواح إلى الأبدان ؛

والجمهور : بسكون الواو .

و ﴿ فتأتون ﴾ من القبور إلى الموقف أمماً ، كل أمة بإمامها .

وقيل : جماعات مختلفة .

وذكر الزمخشري حديثاً في كيفيات قبيحة لعشرة أصناف يخلقون عليها ، وسبب خلقه من خلق على تلك الكيفية الله أعلم بصحته .

وقرأ الكوفيون : ﴿ وفتحت ﴾ : خف ؛ والجمهور : بالتشديد ، ﴿ فكانت أبواباً ﴾ تنشق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدران .

وقيل : ينقطع قطعاً صغاراً حتى تكون كالألواح ، الأبواب المعهودة .

وقال الزمخشري : ﴿ فتحت . . .

فكانت أبواباً ﴾ : أي كثرت أبوابها لنزول الملائكة ، كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة ، كقوله : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ كأن كلها عيون تنفجر .

وقيل : الأبواب : الطرق والمسالك ، أي تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء .

﴿ فكانت سراباً ﴾ : أي تصير شيئاً كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها .

انتهى .

وقال ابن عطية : عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منبثاً ، ولم يرد أن الجبال تشبه الماء على بعد من الناظر إليها .

وقال الواحدي : على حذف مضاف ، أي ذات أبواب .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21)

﴿ مرصاداً ﴾ : مفعال من الرصد ، ترصد من حقت عليه كلمة العذاب .

وقال مقاتل : مجلساً للأعداء وممراً للأولياء ، ومفعال للمذكر والمؤنث بغير تاء وفيه معنى النسب ، أي ذات رصد ، وكل ما جاء من الأخبار والصفات على معنى النسب فيه التكثير واللزوم .

وقال الأزهري : المرصاد : المكان الذي يرصد فيه العدو .

وقال الحسن : إلا أن على النار المرصاد .

فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجيء بجواز احتبس .

وقرأ أبو عمر والمنقري وابن يعمر : أن جهنم ، بفتح الهمزة ؛ والجمهور : بكسرها ﴿ مآباً ﴾ : مرجعاً .

وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وابن وثاب وعمرو بن ميمون وعمرو بن شرحبيل وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح : لبثين ، بغير ألف بعد اللام ؛ والجمهور : بألف بعدها ، وفاعل يدل على من وجد منه الفعل ، وفعل على من شأنه ذلك ، كحاذر وحذر .

﴿ أحقاباً ﴾ : تقدم الكلام عليه في الكهف عند : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ والمعنى هنا : حقباً بعد حقب ، كلما مضى تبعه آخر إلى غير نهاية ، ولا يكاد يستعمل الحقب إلا حيث

يراد تتابع الأزمنة ، كقول أبي تمام :

لقد أخذت من دار ماوية الحقب . . .

أنحل المغاني لليلى أم هي نهب

ويجوز أن يتعلق للطاغين بمرصاداً ، ويجوز أن يتعلق بمآبا .

ولبثين حال من الطاغين ، وأحقاباً نصب على الظرف .

وقال الزمخشري : وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره ، وحقب إذا أخطأ الرزق فهو حقب ، وجمعة أحقاب ، فينتصب حالاً عنهم ، يعني لبثين فيها حقبين جحدين .

وقوله : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ تفسير له ، والاستثناء منقطع ، يعني : لا يذوقون فيها برداً ورَوحاً ينفس عنهم حر النار ، ولا شراب يسكن من عطشهم ، ولكن يذوقون فيها ﴿ حميماً وغساقاً ﴾ . انتهى .

(171/799)

وكان قد قدم قبل هذا الوجه ما نصه : ويجوز أن يراد لابثين فيها أحقاباً غير ذائقين برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم ، والغساق من جنس آخر

من العذاب . انتهى .

وهذا الذي قاله هو قول للمتقدمين ، حكاه ابن عطية .

قال : وقال آخرون إنما المعنى لابثين فيها أحقاباً غير ذائقين برداً ولا شراباً ، فهذه الحال يلبثون أحقاباً ، ثم يبقى العذاب سرمداً وهم يشربون أشربة جهنم .

والذي يظهر أن قوله : ﴿ لا يذوقون ﴾ كلام مستأنف وليس في موضع الحال ، و ﴿ إلا حميماً ﴾ استثناء متصل من قوله : ﴿ ولا شراباً ﴾ ، وإن ﴿ أحقاباً ﴾ منصوب على الظرف حملاً على المشهور من لغة العرب ، لا منصوب على الحال على تلك اللغة التي ليست مشهورة .

وقول من قال : إن الموصوفين باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين ، أواخر الآي يدفعه ؛ وقول مقاتل : إن ذلك منسوخ بقوله : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ ، فاسد .

والظاهر ، وهو قول الجمهور ، أن البرد هو مس الهواء القرّ ، أي لا يمسهم منه ما يستلذ ويكسر شدة الحر .

وقال أبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي : البرد هنا النوم ، والعرب تسميه بذلك لأنه يبرد سورة العطش ، ومن كلامهم : منع البرد البرد ، وقال الشاعر :

فلو شئت حرمت النساء سواكم . . .

وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا

النقاخ : الماء ، والبرد : النوم .

وفي كتاب اللغات في القرآن أن البرد هو النوم بلغة هذيل ، والذوق على هذين القولين مجاز .

وقال ابن عباس : البرد : الشراب البارد المستلذ ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يسقون من ورد البريص عليهم . . .

برداً يصفق بالرحيق السلسل

ومنه قول الآخر :

أماني من سعدى حسان كأنما . . .

سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

والذوق على هذا حقيقة ، والنحويون ينشدون على هذا بيت حسان .

بردى ، بفتح الراء والدال بعدها ألف التأنيث : وهو نهر في دمشق .

(172/799)

وتقدم شرح الحميم والغساق ، وخلف القرّاء في شدة الشين وخفتها .

﴿ وفاقاً ﴾ : أي لأعمالهم وكفرهم ، وصف الجزاء بالمصدر لوافق ، أو على حذف مضاف ، أي ذا وفاق .

وقال الفراء : هو جمع وفق .

وقرأ الجمهور : بخف الفاء ؛ وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة : بشدها من وفقه كذا .

﴿ لا يرجون ﴾ : لا يخافون أو لا يؤمنون ، والرجاء والأمل مفترقان ، والمعنى هنا : لا يصدقون بالحساب ، فهم لا يؤمنون ولا يخافون .

وقرأ الجمهور : ﴿ كذاباً ﴾ بشد الذال مصدر كذب ، وهي لغة لبعض العرب يمانية .

يقولون في مصدر فعل فعالاً ، وغيرهم يجعل مصدره على تفعيل ، نحو تكذيب .

ومن تلك اللغة قول الشاعر :

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي . . .

وعن حاجة قضاؤها من شفائيا

ومن كلام أحدهم وهو يستفتي الحلق أحب إليك أم القصار ، يريد التقصير ، يعني في الحج .

وقال الزمخشري : وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره ، وسمعني بعضهم أفسر آية فقال : لقد فسرتها فساراً ما سمع بمثله .

وقرأ علي وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى بخلاف عنه بخف الذال .

قال صاحب اللوامح علي وعيسى : البصرة ، وعوف الأعرابي : كذاباً ، كلاهما بالتخفيف ، وذلك لغة اليمن بأن يجعلوا مصدر كذب مخففاً ، كذاباً بالتخفيف مثل كتب كتاباً ، فصار المصدر هنا من معنى الفعل دون لفظه ، مثل أعطيته عطاء . انتهى .

وقال الأعشى :

فصدقتها وكذبتها . . .

والمرء ينفعه كذابه

وقال الزمخشري : هو مثل قوله : ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ يعني : وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً ، أو تنصبه بكذبوا لا يتضمن معنى كذبوا ، لأن كل مكذب بالحق كاذب ؛ وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه : وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة ، أو كذبوا بها مكاذبين لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة ، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب ، فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده . انتهى .

(173/799)

والأظهر الإعراب الأول وما سواه تكلف ، وفي كتاب ابن عطية وكتاب اللوامح .

وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : وفي كتاب ابن خالويه عمر بن عبد العزيز والماجشون ، ثم اتفقوا كذاباً بضم الكاف وشد الذال ، فخرج على أنه جمع كاذب وانتصب على الحال المؤكدة ، وعلى أنه مفرد صفة لمصدر ، أي تكذيباً كذاباً مفرطاً في التكذيب .

وقرأ الجمهور : ﴿ وكل شيء ﴾ بالنصب : وأبو السمال : بالرفع ، وانتصب ﴿ كتاباً ﴾ على أنه مصدر من معنى ﴿ أحصيناه ﴾ أي إحصاء ، أو يكون ﴿ أحصيناه ﴾ في معنى كتبناه .

والتجوز إما في المصدر وإما في الفعل وذلك لالتقائهما في معنى الضبط ، أو على أنه مصدر في موضع الحال ، أو مكتوباً في اللوح وفي مصحف الحفظة .

﴿ وكل شيء ﴾ عام مخصوص ، أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب ، وهي جملة اعتراض معترضة ، وفذوقوا مسبب عن كفرهم بالحساب ، فتكذيبهم بالآيات .

وقال عبد الله بن عمر : وما نزلت في أهل النار آية أشد من هذه ، ورواه أبو بردة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

ولما ذكر شيئاً من حال أهل النار ، ذكر ما لأهل الجنة فقال : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ : أي موضع فوز وظفر ، حيث زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة .

و ﴿ حدائق ﴾ بدل من ﴿ مفازاً ﴾ وفوزاً ، فيكون أبدل الجرم من المعنى على حذف ، أي فوز حدائق ، أي بها .

﴿ دهاقاً ﴾ ، قال الجمهور : مترعة .

وقال مجاهد وابن جبير : متتابعة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا كذاباً ﴾ بالتشديد ، أي لا يكذب بعضهم بعضاً .

وقرأ الكسائي بالتخفيف ، كاللفظ الأول في قوله تعالى : ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ ، مصدر كذب ومصدر كاذب .

قال الزمخشري : ﴿ جزاء ﴾ : مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ ، كأنه قال : جازى المتقين بمفاز وعطاء نصب بجزاء نصب المفعول به ، أي جزاءهم عطاء . انتهى .

(174/799)

وهذا لا يجوز لأنه جعله مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة التي هي ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ ، والمصدر المؤكد لا يعمل ، لأنه ليس ينحل بحرف مصدري والفعل ، ولا نعلم في ذلك خلافاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ حساباً ﴾ ، وهو صفة لعطاء ، أي كافياً من قولهم : أحسبني الشيء : أي كفاني .

وقال مجاهد : معنى حساباً هنا بتقسيط على الأعمال ، أو دخول الجنة برحمة الله والدرجات فيها على قدر الأعمال ، فالحساب هنا بموازنة الأعمال .

وقرأ ابن قطيب : حساباً ، بفتح الحاء وشد السين .

قال ابن جني : بني فعالاً من أفعل ، كدراك من أدرك .

انتهى ، فمعناه محسباً ، أي كافياً .

وقرأ شريح بن يزيد الحمصي وأبو البرهشيم : بكسر الحاء وشد السين ، وهو مصدر مثل كذاب أقيم مقام الصفة ، أي إعطاء محسباً ، أي كافياً .

وقرأ ابن عباس وسراح : حسناً بالنون من الحسن ، وحكى عنه المهدوي حسباً بفتح الحاء وسكون السين والباء ، نحو قولك : حسبك كذا ، أي كافيك .

وقرأ عبد الله وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم : رب والرحمن بالجر ؛ والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان برفعهما ؛ والأخوان : رب بالجر ، والرحمن بالرفع ، وهي قراءة الحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما في الجر على البدل من ربك ، والرحمن صفة أو بدل من رب أو عطف بيان ، وهل يكون بدلاً من ربك فيه نظر ، لأن البدل الظاهر أنه لا يتكرر فيكون كالصفات ، والرفع على إضمار هو رب ، أو على الابتداء ، وخبره ﴿ لا يملكون ﴾ ، والضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ عائد على المشركين ، قاله عطاء عن ابن عباس ، أي لا يخاطب المشركون الله .

أما المؤمنون فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم .

وقيل : عائد على المؤمنين ، أي لا يملكون أن يخاطبوه في أمر من الأمور لعلمهم أن ما يفعله عدل منه .

وقيل : عائد على أهل السموات والأرض .

والضمير في منه عائد عليه تعالى ، والمعنى أنهم لا يملكون من الله أن يخاطبوه في شيء من الثواب .

(175/799)

والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك ، فيزيدون فيه أو ينقصون منه .

والعامل في ﴿ يوم ﴾ إما ﴿ لا يملكون ﴾ .

وإما ﴿ لا يتكلمون ﴾ .

وقد تقدم الخلاف في ﴿ الروح ﴾ ، أهو جبريل أم ملك أكبر الملائكة خلقة ؟ أو خلق على صورة بني آدم ، أو خلق حفظة على الملائكة ، أو أرواح بني آدم ، أو القرآن وقيامه ، مجاز يعني به ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه .

والظاهر عود الضمير في ﴿ لا يتكلمون ﴾ على ﴿ الروح والملائكة ﴾ .

وقال ابن عباس : عائد على الناس ، فلا يتكلم أحد إلا بإذن منه تعالى .

ونطق بالصواب .

وقال عكرمة : الصواب : لا إله إلا الله ، أي قالها في الدنيا .

وقال الزمخشري : هما شريطتان : أن يكون المتكلم منهم مأذوناً لهم في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ انتهى .

﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ : أي كيانه ووجوده ، ﴿ فمن شاء ﴾ : وعيد وتهديد ، والخطاب في ﴿ أنذرناكم ﴾ لمن حضر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، واندرج فيه من يأتي بعدهم ، ﴿ عذاباً ﴾ : هو عذاب الآخرة لتحقق وقوعه ، وكل آت قريب .

﴿ يوم ينظر المرء ﴾ : عام في المؤمن والكافر .

﴿ ما قدمت يداه ﴾ من خير أو شر لقيام الحجة له وعليه .

وقال الزمخشري ، وقاله قبله عطاء : المرء هو الكافر لقوله : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ ، والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم .

ومعنى ﴿ ما قدمت يداه ﴾ من الشر لقوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ وقال ابن عباس وقتادة والحسن : المرء هنا المؤمن ، كأنه نظر إلى مقابله في قوله : ﴿ ويقول الكافر ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ المرء ﴾ بفتح الميم ؛ وابن أبي إسحاق بضمها ؛ وضعفها أبو حاتم ، ولا ينبغي أن تضعف لأنها لغة يتبعون حركة الميم لحركة الهمزة فيقولون : مرؤ ومرأ ومرء على حسب الإعراب ، وما منصوب بينظر ومعناه : ينتظر ما قدّمت يداه ، فما موصولة .

ويجوز أن يكون ينظر من النظر ، وعلق عن الجملة فهي في موضع نصب على تقدير إسقاط الخافض ، وما استفهامية منصوبة تقدّمت ، وتمنيه ذلك ، أي تراباً في الدنيا ، ولم يخلق أو في ذلك اليوم .

وقال أبو هريرة وعبد الله بن عمر : إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها بعد ذلك : كوني تراباً ، فتعود جميعها تراباً ، فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله .

وقيل : الكافر هنا إبليس ، إذا رأى ما حصل للمؤمنين من الثواب قال : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ كآدم الذي خلق من تراب واحتقره هو أوّلاً .

وقيل : ﴿ تراباً ﴾ : أي متواضعاً لطاعة الله تعالى ، لا جباراً ولا متكبراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(177/799)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

التفسير : حرف الجر إذا دخل على " ما " الإستفهامية تحذف ألفها نحو " بم " و " عم " و " علام " و " لم " ه لشدّة الإتصال وكثرة الإستعمال . ثم إن كان الكلام مبنياً على السؤال والجواب فالسائل والمجيب واحد وهو الله ، والفائدة في هذا الأسلوب أن يكون إلى التفهيم أقرب . ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما وقع فيه التساؤل وبيان أن مطلب ما وضع للسؤال عن حقائق الأشياء المجهولة والشيء العظيم الذي تعجز العقول عن إدراكه أو يدعي فيه العجز يكون مجهولاً ، فوقع بين المسؤول بما وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه ، والمشابهة أحد أسباب المجاز .

(178/799)

والنبأ العظيم القيامة بدليل الردع عن الاختلاف وللتهديد بعده . وتقديم الضمير وبناء الكلام عليه لتقوى الكلام لا لا للاختصاص فإن غير قريش أيضاً مختلفون في أمر بالبعث فمنهم من يثبت الروحاني في المعاد فقط ، ومنهم من يشك فيه كقوله ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف : 36] ومنهم من يقطع بعدم البعث ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ [المؤمنون : 37] كان يسأل بعضهم بعضاً عن القيامة ويتحدثون عنها متعجبين من وقوعها . ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً أي يتساءلون النبي والمؤمنون نحو تراءينا الهلال

فيكون التساؤل بطريق الاستهزاء ويحتمل أن يكون الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً فقد كانوا جميعاً يتساءلون عنه ، أما المؤمن فليزداد خشية واستعداد ، وأما الكافر فلأجل الاستهزاء . وقيل : النبأ العظيم القرآن ، واختلافهم فيه أن بعضهم جعلوه سحراً . وبعضهم شعراً وكهانة . وقيل : نبوّة محمد كانوا يقولون ما هذا الذي حدث ﴿ بل عجبوا إن جاءهم منذر منهم ﴾ [ق : 2] وقالت الشيعة : هو عليّ قال القائل في حقه هو النبأ العظيم وفلك نوح وباب الله وانقطع الخطاب . قال أهل المعاني : تكرير الردع مع الوعيد دليل على غاية التهديد . وفي " ثم " إشارة إلى أن الوعيد الثاني أبلغ ، ويجوز أن يكون الأول في الدنيا والثاني في الآخرة ، أو الأول للكفار والثاني للمؤمنين . وقيل : الأول ردع عن الاختلاف والثاني عن الكفر . وحذف المفعول به أي سيعلمون أن ما يتساءلون عنه مختلفين فيه حق وصدق وذلك إذا اتصل العيان بالخبر . ومن قرأ الخطاب فقد سلك سبيل الالتفات . ثم عدد دلائل القدرة على البعث ودلائل الحكمة في الجزاء على أن كلاً منهما نعمة يجب أن تشكر بالتوفر على الطاعة ولا تكفر بالإقدام على المعصية . والمهاد الفراش ، والأوتاد ما يشدّ بها أطناب الخمية ، شبهت الجبال الراسيات بها لأنها تحفظ الأرض أن تميد بما عليها وقد سبق تقريره . والأزواج الأصناف المتقابلات القبيح بإزاء

الحسن والطويل بحذاء القصير وغير ذلك من الأضداد . والسبات الراحة . والتركيب يدل على القطع والإزالة ومنه سبت الرجل رأسه إذا حلقه ، والنوم يزيل التعب عن الإنسان فيستعقب الراحة قاله ابن الأعرابي والمبرد . وقال الزجاج وغيره : هو الموت وهذا التفسير لا يناسبه مقام تعداد النعم . واللباس ما يتغطى به والليل أخفى للويل . والمعاش مصدر أو اسم زمان لأن الناس يتقبلون فيه لوجوه تعيشهم . والشداد المحكمة التي لا تقبل الشق والخرق إلا ما شاء الله . والوهاج المتلألىء الوقاد . وفي كتاب الخليل : الوهج النار . ولا شك أن الشمس جامعة للنور والحرارة . والمعصرات السحاب بلغة قريش من أعصرت إذا شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك " أحصد الزرع " أي حان أن يحصد ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض وهذا القول مروي عن ابن عباس واختاره أبو العالية والربيع والضحاك .

(180/799)

وقال مجاهد والكلبي ومقاتل وقتادة : هي الرياح التي تنشىء السحاب وتدرّ أخلافه فكأنها مبادىء الإنزال . الثجاج المنصب بكثرة يقال " ثجة وثج بنفسه " وفي الحديث "

أفضل الحج العج والثج " فالعج رفع الصوت بالتلبية والثج صب دماء الهدي . ثم بين غاية الإنزال وهي إخراج الحب للإنسان ، والنبات للأنعام غالباً ، والجنات الملتفة لأجل التلذذ والتفكه . قال الكسائي والأخفش : والألفاف جمع لف بالكسر ويحتمل أن يكون جمع لفيف كشريف وأشراف . وقال في الكشاف : إنه لا واحد له كالأوزاع للجماعات المتفرقة ومنه قولهم " أخوة أخياف " أي مختلفة . واعلم أن هذه التسعة نظراً إلى حدوثها وإمكانها تدل على الفاعل المختار ، ونظراً إلى ما فيها من الإتقان والإحكام تدل على كمال علمه وحكمته الذاتية . وبعد ثبوت كماله في هذه الأوصاف لم يبق للمتأمل شك في إمكان الحشر وقد أخبر الصادق عن وقوع هذا الممكن فوجب الجزم به على أن في إخراج النبات بعد جفافه ويبسه دليلاً ظاهراً على إمكان إخراج الموتى من القبور وبعثهم فلهذا رتب على هذه البيانات قوله ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ أي حداً توقت به الدنيا أو حداً لفصل الحكومات تنتهي الخلائق إليه . والنفخة ههنا هي الثانية التي تكون عندها الحياة بدليل قوله ﴿ فتأتون أفواجاً ﴾ أي طائفة طائفة إلى أن يتكامل اجتماعهم . وقال عطاء : كل نبي يأتي مع أمته . وروى صاحب الكشاف عن معاذ أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال عليه السلام : " يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة أصناف من أمتيّ بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي

، وبعضهم صم بكم ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم وهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشدّ نتناً من

(181/799)

الجيف ، وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم . فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس ، وأما الذين على صورة الخنازير فآكل السحت ، وأما المنكسون فأكلة الربا ، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم والبكم فالمعجبون بأعملاهلم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران ، وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هو أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء "

(182/799)

وفتح السماء شقها وانفطارها أو معنى آخر مغاير لهما . والضمير في ﴿ فكانت ﴾ للسماء كأنها لكثرة أبوابها المفتوحة لنزول الملائكة صارت بكليتها أبواباً كقوله ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر : 12] ويحتمل أن يعود إلى مقدر دل عليه الكلام أي فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً . وقال الواحدي : المضاف محذوف أي فكانت ذات أبواب . وأما الجبال فإنه تعالى ذكر حالها بعبارات مختلفة ، ويمكن الجمع بينها بأن تدرك أوّلاً ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : 14] ثم تصير كالعهن ثم تصير كالهباء ﴿ وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ وهي في كل هذه الأحوال باقية في مواضعها ثم تنسف بإرسال الرياح عليها ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ [الانفطار : 4] ثم تطير ههنا أحوال إذا برزت من تحتها ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ [الكهف : 47] والثاني للجبال فتطيره في الهواء كالهباء فمن نظر إليها حسبها لتكاثفها أجساماً جامدة وهي بالحقيقة مارة بتحريك الهواء كما قال ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ﴾ [النمل : 88] والثالث لها باعتبار أماكنها الأصلية فمن نظر إلى المواضع من بعيد ظن أن الجبال هناك حتى إذا دنا منها لم يجد فيها شيئاً ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ [النور : 39] وقد أشار إلى هذه الحالة بقوله ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ .

ثم أخبر عن أحوال السعداء والأشقياء يومئذ . وقدم ذكر هذا المقام غير محرر فلينظر الأشقياء لأن الكلام في السورة بني على التهديد فقال ﴿ إن جهنم كانت ﴾ أي في علم الله أو هي مسلوبة الدلالة على المضي . والمرصاد إما اسم للمكان الذي يرصد فيه كالضمار للذي تضمر فيه الخيل ، والمنهاج إسم للمكان الذي ينهج فيه . والمعنى أن خزنة جهنم يرصدون الكفار هناك ، أو أن خزنتها يستقبلون المؤمنين عندها لأن جوازهم عليه بدليل قوله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] ولهذا قال الحسن وقتادة : يعني طريقاً إلى الجنة . وإما صفة نحو " مقدام " بمعنى أنها ترصد أعداء الله . وقوله ﴿ للطاغين ﴾ متعلق بما بعده أو بما قبله ، وعلى التقديرين لا بد من إضمار وهو لفظة لهم أو لأهل الجنة . ثم ذكر كيفية استقرارهم هناك فقال ﴿ لابثين ﴾ ومن قرأ بغير ألف فهو أدل على الثبات . قال جار الله : اللابث من وجد منه اللبث فقط ، واللبث من لا يكاد يبرح المكان أما الأحقاب فزعم الفراء أن أصله الترادف والتتابع أي دهوراً مترادفة لا تكاد تتناهى كلما مضى حقب تبعه آخر . وقال الحسن : الأحقاب لا يدري أحد ما هي ولكن الحقب الواحد سبعون ألف سنة اليوم منها كألف سنة مما تعدّون . وسأل هلال الهجري علياً فقال

: الحقب مائة سنة السنة اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً واليوم ألف سنة . وقال عطاء والكلبي ومقاتل عن ابن عباس : الحقب الواحد بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوماً واليوم ألف سنة من أيام الدنيا .

(184/799)

ونحو هذا يروى عن ابن عباس وقطرب مرفوعاً . فإن قيل : عذاب أهل النار ولا سيما الطاغين غير متناه والأحقاب بالتفاسير المذكورة وإن كثر مبلغها متناهية ، فلما وجه الجمع بينهما ؟ قلنا : الحق متناه ولكن الأحقاب لا نسلم أنها متناهية فإن الجمع لا يلزم تناهي آحاده فيجوز أن يكون المعنى كلما مضى حقب تبعه آخر . قال الفراء : سلمنا أن الأحقاب تفيد التناهي لكن بالمفهوم والنصوص الدالة على التأبيد كقوله ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ [المائدة : 37] تدل بالمنطوق ولا شك أن المنطوق راجح . وقال الزجاج : المعنى أنهم يلبثون فيه أحقاباً غير ذائقين برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، ثم ينقلون إلى جنس آخر غير الحميم والغساق . وذكر في الكشاف وجهاً آخر وهو أن يكون أحقاباً من حق بعامنا هذا إذا قل خيره . وحقب فلان ذا أخطأ الرزق فهو حقب كحذر وجمعه أحقاب فينتصب حالاً منهم أي لابثين في أسوأ حال . والبرد

معروف أي لا يجدون هواء بارداً ولا ماء بارداً . وقال الأخفش والفراء : هو النوم ولذلك أن البرد لازم للنوم ولهذا يسكن العطش . وسببه توجه الحرارة الغريزية إلى الباطن عند فتور الحواس الظاهرة والحركات الاختيارية وفي أمثالهم " منع البرد البرد " أي أصابني من البرد ما منعني من النوم . وقد يضعف هذا القول أنهم لا يقولون ذقت البرد ويقولون " ذقت الكرى " وبأنهم يجدون الزمهرير فكيف يصح نفي البرد عنهم . وقد يجاب عن الأول بأن الذوق في الصورتين مجاز فأي ترجيح لأحدهما على الآخر . وعن الثاني بأن المراد برد له روح لا الذي فيه عذاب . والحميم الماء البالغ في الحرارة ، والغساق صديد أهل النار . قوله ﴿ جزاء ﴾ نصب على المصدر أي جزاهم جزءا . وانتصب ﴿ وفاقاً ﴾ على الوصف أي ذا وفاق أو موافقاً لعملهم في القبح والفظاعة والدوام . ثم ذكر علة التأبيد فقال ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ لا يخافون أو لا يتوقعون حساباً وهذه إشارة إلى

نقصانهم بحسب القوة العلمية فإن الذي اعتقد أنه لا حشر ولا حساب ولا يبالي بأي شيء ترك من القبائح والمظالم أو أي شيء ترك من الخيرات والفضائل . قوله ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ إشارة إلى فساد عقائدهم حتى جحدوا الحق وكذبوا الرسل . ومصدر " فعل "

مشدد العين يجيء على " فعال " بالتشديد وهو الأكثر ، وبالتخفيف عند بعضهم ولهذا لم يقرأ به إلا في الشواذ . قال جار الله : هو مصدر كذب بدليل قوله :

فصدّقتها وكذبتها . . . والمرء ينفعه كذابه

وهو مثل قوله ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] يعني وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً أو تنصبه ب ﴿ كذبوا ﴾ لأنه يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق كاذب . وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة أو كذبوا بها مكاذبين ، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة ، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يبالغ في أمر فبلغ فيه أقصى جهده .

أقول : أراد بهذا الوجه الأخير أن باب المغالبة يبنى على المفاعلة فيمكن أن يستدل بالمفاعلة على المبالغة بطريق العكس الجزئي ﴿ وكل شيء أحصيناه ﴾ من باب الإضمار على شريطة التفسير . قوله ﴿ كتاباً ﴾ مصدر لأنه والإحصاء يتلاقيان في معنى الضبط والتحصيل ، ويجوز أن يكون حالاً أي مكتوباً في اللوح أو في صحف الأعمال . قال جار الله : هذه جملة معترضة . أقول : إنها من تمام التعليل المذكور أي فعلوا كذا وكذا ونحن عالمون بجميع الكليات والجزئيات فلهذا كتبنا جزاء العاصين على وفق أعمالهم .

ثم أظهر غاية السخط بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، والتعقيب بفاء الجزاء الدال على أن المذكور سبب عن كفرهم بالحسنات وتكذيبهم بالآيات . وزيادة العذاب يحتمل أن تكون لأجل أن المؤثر إذا استمرَّ ودام ازداد الإحساس بأثره ، ويحتمل أن يكون لازدياد كفرهم وعتوّهم حيناً بعد حين كقوله ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] ويحتمل أن تكون زيادة العذاب عبارة عن نفس استمراره لأنه يتزايد بمرور الزمان ، والمراد انا لن نخلصكم من العذاب إلى خلافه . ثم شرع في شرح أحوال السعداء قائلاً ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ فوزاً وظفراً بالمطالب والأماني أو موضع فوز ثم فسره بقوله ﴿ حدائق ﴾ الخ . والحدائق البساتين فيها أنواع الشجر وقد مرّ في قوله ﴿ حدائق ذات بهجة ﴾ [النمل : 60] وخص منها الأعناب لشأن مزيته على سائر الفواكه .

والكواعب النواهد واحدها كاعب كطالق وطامث وهي التي ظهر ثديها كالكعب لها نتوّ قليل . والأتراب اللدات . والدهاق المترعة المملوءة وهذا قول أكثر أهل اللغة كأبي عبيدة والزجاج والكسائي والمبرد . يروى أن ابن عباس دعا غلاماً له فقال : اسقنا دهاقاً فجاء الغلام بها ملآنة فقال ابن عباس : هذا هو الدهاق . وعن أبي هريرة وسعيد بن جبير ومجاهد : هي المتتابعة . قال الواحدي : وأصل هذا من قول العرب أدهقت الحجارة إدهاقاً وهو شدّة تلازمها ودخولها بعضها في بعض . وعن عكرمة : دهاقاً أي صافية .

والدهاق على هذا القول يجوز أن يكون جمع دهق وهي خشبتان يعصر بهما . والكأس الخمر أي خمراً ذات دهاق وهي التي عصرت وصفيت بالدهاق . ﴿ ولا يسمعون فيها ﴾ أي في الجنة وهو الأظهر أو في الكأس وشربها ﴿ لغواً ﴾ كلاماً باطلاً ﴿ ولا كذاباً ﴾ أي لا يكذب بعضهم بعضاً لأنهم إخوان الصفاء وأخذان الوفاء . ومن قرأ بالتخفيف فمعناه أنه لا يجري بينهم كذاب أو مكاذبة . قال جار الله : ﴿ جزاء ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ كأنه قال : جازى

(187/799)

المتقين بمفازو ﴿ عطاء ﴾ نصب ب ﴿ جزاء ﴾ نصب المفعول به أي جزاهم عطاء . وقال الزجاج : المعنى جازاهم بذلك جزاء وأعطاهم عطاء .

(188/799)

ومعنى ﴿ حساباً ﴾ كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال : حسبي . وقيل : أي على حسب أعمالهم فمعنى الحساب العدّ والتقدير لبعضهم عشرة ولبعضهم سبعمائة

وأكثر . وقال ابن قتيبة : هو من أحسبت فلاناً أي أكثرت له يعني عطاء كثيراً . وإنما قال في الأول ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ لأن جزاء السيئة سيئة مثلها أي موافقة لها . وأما ههنا فالمراد ثواب المؤمنين وليس ذلك بتقدير العمل فقط ولكن بمقدار ما يكفيه . ثم مدح نفسه بقوله ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ وقد تقدّم إعرابه في الوقوف . والضمير في ﴿ لا يملكون ﴾ قيل للكافرين نقله عطاء عن ابن عباس ، يريد لا يخاطب المشركون الله ، وأما المؤمنون فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم . وقيل للمؤمنين لأن ذكرهم أقرب من ذكر الكفار ، والمراد أنه ما تحيف حقهم فبأي سبب يخاطبونه . والأكثرون على أن الضمير لأهل السموات والأرض فإن أحداً من المخلوقين لا يملك خطاباً من جهة الله إذ كل من هو سواه فهو مملوكه ، والمملوك لا يملك من جهة مالكه شيئاً وإلا لم يكن للمالك كمال الملك . وقالت المعتزلة : إنه عالم بقبح القبيح غني عن فعله وعالم بغناه فلا يفعل إلا الحسن وحينئذ لا وجه للمطالبة والمخاطبة . ثم أكد المعنى المذكور بقوله ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ وهو أعظم المخلوقات قدراً كما مرّ في سورة سبحان في تفسير قوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ [الإسراء : 85] والصف مصدر في الأصل لا يثنى ولا يجمع غالباً فلهذا جاز أن يكون المراد أنهم يقومون صف من الروح وحده ومن الملائكة بأسرهم صف ، وجاز أن يكون يراد يقوم الكل صفاً واحداً أو يقومون صفوفاً لقوله ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر : 22] ثم بين أنهم مع جلالة قدرهم لا يتكلمون إلا بشرطين :

أحدهما الإذن من الله ، والضمير في ﴿ له ﴾ إما للشافع أو للمشفوع . والثاني أن يقول ﴿ صواباً ﴾ والضمير في ﴿ قال ﴾ أيضاً إما للشافع فالمراد أنهم لا ينطقون إلا بعد ورود الإذن في

(189/799)

الكلام ، ثم بعد الإذن يجتهدون حتى لا يتكلمون إلا بما هو حق وصواب . وإما للمشفوع . والقول الصواب على هذا التفسير شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ وذلك اليوم الحق ﴾ أي لا باطل فيه ولا ظلم أو هو الكائن لا محالة ﴿ فمن شاء اتخذ ﴾ بالطاعة ﴿ إلى ربه مآباً ﴾ ومرجعاً . والظاهر أن الضمير عائد في ﴿ شاء ﴾ إلى ﴿ من ﴾ وفيه دليل للمعتزلة . ويروى عن الخدري وابن عباس أن الضمير لله ﴿ عذاباً قريباً ﴾ هو عذاب الآخرة لأن ما هو آت قريب . وفي المرء أقوال : فعن عطاء أنه الكافر لتقدّم ذكر الإنذار وقوله الكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم . وعن الحسن وقتادة : إنه المؤمن لمجيء ذكر الكافر بعده ، ولأن المؤمن لما قدّم الخير والشر فهو منتظر لأمر الله كيف يحدث ، وأما الكافر فإنه قاطع بالعذاب ومع القطع لا يحصل الانتظار .

(190/799)

والأظهر أنه عام في كل مكلف . و " ما " استفهامية منصوبة ب ﴿ قدّمت ﴾ أو موصولة منصوبة ب ﴿ ينظر ﴾ فيلزم إضمار " إن " حذف العائد من قدّمته ، وحذف الجار لأن الأصل أن يقال ينظر إليه . قوله ﴿ كنت تراباً ﴾ فيه وجوه أحدها : ليتني لم أبعث غير محشور . الثاني ما ورد في الأخبار أن البهائم تحشر فيقتص للجماء من القرناء ثم تردّ تراباً فيودّ الكافر حالها ليتخلص من العذاب . وأنكر بعض المعتزلة ذلك لأنه تعالى إذا أعادها فهي بين معوّض وبين متفضل عليه ، وعلى التقديرين لا يجوز أن يقطعها عن المنافع لأن ذلك كالإضرار بها . قال القاضي : إذا وفر الله أعواضها وهي غير كاملة العقل لم يبعد أن يزيل الله حياتها على وجه لا يحصل لها شعور بالألم فلا يكون ضرراً . وقال بعضهم : إن الحيوانات إذا انتهت مدّة أعواضها جعل الله تعالى كل ما كان منها حسن الصورة ثواباً لأهل الجنة ، وما كان قبيح الصورة عقاباً لأهل النار . الثالث قال بعض الصوفية : أراد يا ليتني كنت متواضعاً في طاعة الله كالتراب لا مرتفعاً كالنار . الرابع قيل : الكافر إبليس يرى آدم وثواب أولاده فيتمنى أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [ص : 76] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 429.436 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة عم يتساءلون

وتسمى سورة النبأ مكية وهي أربعون أو إحدى وأربعون آية ومائة وثلاثة وسبعون كلمة وسبعمائة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الملك كله ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم الوجود بفضله ﴿ الرحيم ﴾ الذي تمحضت أولياؤه جنته . وقوله تعالى:

﴿ عم ﴾ أصله عن ما على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية وأدغمت النون في الميم وحذفت ألف ما ، كقوله فيم واستعمال الأصل قليل . ومنه قول حسان:

*على ما قام يشتمني لئيم ** كخنزير تمرّغ في رماد *

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال عن أي شيء ﴿ يتساءلون ﴾ ، ونحوه قولك : زيد ما زيد جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفي عليك ، فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول : ما الغول ، وما العنقاء تريد أي شيء هو من الأشياء هذا أصله ، ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية ، ولذا لما وقف البزي ألحق الميم هاء السكت بخلاف عنه ، والضمير في يتساءلون لأهل مكة ، كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما

دعاهم إلى التوحيد وأخبرهم بالبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون : ماذا جاء به محمد ، ويسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاء ، وقيل : الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً وكانوا جميعاً يتساءلون عنه ، أما المسلم فليزداد خشية واستعداداً ، وأما الكافر فليزداد استهزاء .

ثم ذكر أن تساؤلهم عماذا ؟ فقال تعالى : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ قال مجاهد والأكثرون : هو القرآن ، دليله قوله تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ (ص :)

وقال قتادة : هو البعث .

فإن قيل : إذا كان الضمير يرجع للكافر ، فكيف يكون قوله تعالى : ﴿ الذي هم ﴾ أي : بضمائرهم مع ادعائهم أنها أقوى الضمائر ﴿ فيه مختلفون ﴾ مع أنّ الكفار كانوا متفقين على إنكار البعث ؟

(192/799)

أجيب : بأنا لا نسلم اتفاقهم على ذلك بل كان فيهم من يثبت المعاد الروحاني وهم جمهور النصارى ، وأما المعاد الجسماني فمنهم من يقطع القول بإنكاره ومنهم من يشك ، وأما إذا كان المتساءل عنه القرآن فقد اختلفوا فيه كثيراً وقيل : المتساءل عنه نبوة محمد صلى الله

عليه وسلم

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع للمتسائلين هزؤاً ، ﴿ سيعلمون ﴾ ما يحل بهم على إنكارهم له .

وقوله تعالى : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ تأكيد وجيء فيه بثم للإيذان بأن الوعيد الثاني أشدّ من الأول . وقال الضحاك : الأولى للكفار والثانية للمؤمنين ، أي : سيعلم الكافرون عاقبة تكذيبهم وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم .

ثم أومأ تعالى إلى القدرة على البعث بقوله تعالى : ﴿ ألم نجعل ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الأرض مهاداً ﴾ أي : فراشاً كالمهد للصبيّ وهو ما يمهد له فينوّم عليه تسمية للممهود بالمصدر كضرب الأمير .

﴿ والجبال ﴾ أي : التي تعرفون شدّتها وعظمها . ﴿ أوتاداً ﴾ أي : تثبت بها الأرض كما تثبت الخيام بالأوتاد ، والاستفهام للتقرير ، فيستدل بذلك على قدرته على جميع الممكنات . وإذا ثبت ذلك ثبت القول بصحة البعث ، وإنه قادر على تخريب الدنيا بسماواتها وكواكبها وأرضها وعلى إيجاد عالم الآخرة .

تنبيه : مهاداً مفعول ثان لأنّ الجعل بمعنى التصيير ، ويجوز أن يكون بمعنى الخلق فتكون حالاً مقدّرة .

﴿ وخلقناكم ﴾ أي : بما دل على ذلك من مظاهر العظمة ﴿ أزواجاً ﴾ أي : أصنافاً

ذكوراً وإناثاً وقيل : ألواناً .

﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ نومكم سباتاً ﴾ أي : راحة لأبدانكم . قال الزجاج : السبات أن ينقطع عن الحركة والروح فيه . وقيل : معناه جلعنا نومكم قطعاً لأعمالكم وقيل : المسبوت الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة والنوم أحد التوفيتين .

(193/799)

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الليل ﴾ أي : بعد ذهاب الضياء حتى كأنه لم يكن ﴿ لباساً ﴾ فيه استعارة أي : يستركم عن العيون بظلمته كما إذا أردتم هرباً من عدوّ أو بياتاً له أو إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور . قال الشاعر :

*وكم لظلام الليل عندي من يد **تخبر أنّ المانوية تكذب*

ولما جعل النوم موتاً جعل اليقظة معاشاً فقال تعالى : ﴿ وجعلنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة التامّة ﴿ النهار ﴾ أي : الذي آيته الشمس ﴿ معاشاً ﴾ أي : حياة تبعثون فيه عن نومكم ، أو وقت معاش تتقلبون فيه في حوائجكم ومكاسبكم لتحصيل ما تعيشون به فمعاشاً

على هذا اسم زمان.

﴿ وبنينا ﴾ بما لنا من الملك التامّ ﴿ فوقكم سبعاً ﴾ أي: سبع سماوات وقوله تعالى: ﴿ شداداً ﴾ جمع شديدة أي: قوية محكمة لا يؤثر فيها مرور الزمان لا فطور فيها ولا فروج. ونظيره قوله تعالى: ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ (الأنبياء:)

﴿ وجعلنا ﴾ أي: بما لنا من العظمة مما لا يقدر عليه غيرنا ﴿ سراجاً ﴾ أي: منيراً متلألئاً ﴿ وهاجاً ﴾ أي: وقاداً وهي الشمس.

﴿ وأنزلنا ﴾ أي: بما لنا من كمال الأوصاف ﴿ من المعصرات ﴾ أي: السحاب إذا أعصرت أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، كقولك: أجز الزرع أي: حان أن يجز، وأعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض.

وعن الحسن وقتادة: هي السماوات، وتأويله أنّ الماء ينزل من السماء إلى السحاب فكأنّ السموات عصرن. وقيل: من الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب. وقيل: الرياح ذوات الأعاصير، وإنما جعلت مبدأ للإنزال لأنها تنشىء السحاب وتدرّ أخلافه. ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ أي: منصباً بكثرة يقال: ثجه وثج بنفسه. وفي الحديث: "أفضل الحج العج والثج" أي: رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي، وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مثجاً يسيل غرباً، يعني: يثج الكلام ثجاً في خطبته.

﴿ لنخرج ﴾ أي : بعظمتنا التي ربطنا بها المسببات بالأسباب ﴿ به ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ حباً ﴾ أي : نجماً ذا حب مما يتقوّت به كالحنطة والشعير والأرز ﴿ ونباتاً ﴾ أي : ما يعتلف به كالتبن والحشيش ، كما قال تعالى : ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ (طه :)

﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ (الرحمن :)

﴿ وجنات ﴾ أي : بساتين تجمع أنواع الأشجار والنبات المقتات وغيره ﴿ ألفافاً ﴾ أي : ملتفة بالشجر جمع لفيف كشريف وأشراف . t

وقيل : هو جمع الجمع ، يقال : جنة لفاء وجمعها لف بضم اللام وجمع الجمع ألفاف . وقيل : لا واحد له كالأوزاع والأخياف . وقيل : الواحد لف . قال صحاب الإقليد أنشدني الحسن بن علي الطوسي:

*جنة لف وعيش مغدق ** وندامى كلهم بيض زهر*

وقال الزمخشري : ولو قيل : هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً .

﴿ إن يوم الفصل ﴾ أي : بين الخلائق ﴿ كان ﴾ أي : في علم الله تعالى وفي حكمه كوناً لا بدّ منه ﴿ ميقاتاً ﴾ أي : وقتاً للثواب والعقاب ، أو وقتاً توقت به الدنيا وتنتهي عنده مع ما فيها من الخلائق .

وقوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي : القرن بدل من يوم الفصل أو بيان له ، والنافخ

إسرافيل عليه السلام أو من أذن الله تعالى له في ذلك ﴿ فتأتون ﴾ أي : بعد القيام من القبور إلى الموقف ﴿ أفواجاً ﴾ أي : جماعات مختلفة .

وعن معاذ أنه سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمور ثم أرسل عينيه باكياً ، وقال : تحشر عشرة أصناف من أمّتي ، بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمياً ، وبعضهم صماً بكماً ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم ، يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

(195/799)

ثم فسر هؤلاء بقوله : فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس يعني : النمام ، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، وأما المنكبون على وجوههم فأكلة الربا ، واما العمي فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم فعلهم ، وأما الذين قطعت أيديهم

وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران ، وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين أشدّ نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء" ا . هـ . وقد تكلم في صحة هذا الحديث نعوذ بالله تعالى من هؤلاء ونسأله التوفيق لنا ولأحبابنا ، فإنه كريم جواد لا يردّ من سأله .

﴿ وفتحت السماء ﴾ أي : شققت لنزول الملائكة ﴿ فكانت أبواباً ﴾ فإن قيل : هذه الآية تقتضي أنّ السماء بجملتها تصير أبواباً ؟

أجيب : بوجوه أوّلها : أنّ تلك الأبواب لما كثرت صارت كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة ، كقوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ (القمر :)

كأنّ كلها عيون تتفجر . ثانيها : أنه على حذف مضاف ، أي : فكانت ذات أبواب . ثالثها : أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ فكانت أبواباً ﴾ يعود إلى مضمر ، والتقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً ، وقيل : الأبواب الطرق والمسالك أي : تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف التاء بعد الفاء والباقون بتشديدها .

﴿ وسيرت الجبال ﴾ أي : ذهب بها عن أماكنها ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي : لا شيء كما أنّ السراب كذلك يظنه الرائي ماء وليس بماء ، قال الرازي : إنّ الله تعالى ذكر أحوال الجبال

بوجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها بأن نقول أول أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ (الحاقة :)

(196/799)

والحالة الثانية : أن تصير كالعهن المنفوش وهو قوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (القارعة :)

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء وهو قوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ (الواقعة : ـ)

الحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدّمة قارة في مواضعها فترسل عليها الرياح فتنسفها عن وجه الأرض ، فتطيرها في الهواء وهو قوله تعالى : ﴿ ويسئلونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً ﴾ (طه :)

الحالة الخامسة : أن تصير سراباً أي : لا شيء كما يرى السراب من بعد . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيّ بإدغام تاء التأنيث في السين والباقون بالإظهار .

﴿ إنّ جهنم ﴾ أي : النار التي تلقى أصحابها متجهمة لهم بغاية ما يكرهون ﴿ كانت مرصاداً ﴾ أي : ترصد الكفار أو موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار أو خزنة

الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مرورهم عليها ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ على جسر جهنم سبع محابس يسأل العبد عند أوّلها عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن جاء بها تامّة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها تامّة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم ، فإن جاء به تاماً جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج فإن جاء به تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة ، فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم ، فإن خرج منها وإلا فيقال : انظروا إن كان له تطوّع أكملوا أعماله ، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنة .

وأما الكافر فهو مستمرّ فيها كما قال تعالى : ﴿ للطاغين ﴾ أي : الكافرين ﴿ مآبا ﴾ أي : مرجعاً يرجعون إليه .

وقرأ حمزة ﴿ لابثين فيها ﴾ بغير ألف بين اللام والباء الموحدة والباقون بألف وهما لغتان والأولى أبلغ قاله البيضاوي .

(197/799)

وقوله تعالى : ﴿ أحقاباً ﴾ جمع حقب والحقب الواحد ثمانون سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة ، روي ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله

عنه ، وقال مجاهد : الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً . وقال الحسن : إنّ الله تعالى لم يجعل لأهل النار مدّة بل قال : ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر إلى الأبد ، فليس للأحقاب عدّة إلا الخلود ، روي عن عبد الله أنه قال : لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا و لو علم أهل الجنة أنهم يلبثون في الجنة عدد حصى الدنيا لحزنوا . وقال مقاتل بن حبان : الحقب الواحد سبعة عشر ألف سنة . قال : وهذه الآية منسوخة نسختها ﴿ فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ يعني : أنّ العدد قد ارتفع والخلود قد دخل وعلى تقدير عدم النسخ فهو من قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على خلود الكفار ، ويجوز أن يراد ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ .

﴿ لا يذقون ﴾ أي : غير ذائقين ﴿ فيها ﴾ أي : النار ﴿ برداً ولا شراباً ﴾ ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ ثم يبدّلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب ، ويجوز أن يكون جمع حقب من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره ، وحقب فلان إذا أخطأ الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالاً عنهم يعني : لابثين فيها حقبين جهدين ، وقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ تفسير له والاستثناء منقطع يعني : لا يذوقون فيها برداً . قال عطاء والحسن : أي : راحة وروحاً ، أي : ينفس عنهم حرّ النار ولا شراباً يسكن من عطشهم ولكن يذوقون فيها حميماً أي : ماء حارّاً غاية الحرارة وغساقاً وهو ما يسيل من صديد أهل النار فإنهم يذوقونه وروي عن ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما أنّ البرد النوم ومثله ، قال الكسائي وأبو عبيدة : تقول العرب منع البرد البرد أي : أذهب البرد النوم ، قال الشاعر :

*فلو شئت حرمت النساء سواكم ** وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا بردا*

(198/799)

وقرأ حمزة والكسائيّ وجعفر بتشديد السين والباقون بتخفيفها . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده .

جوزوا بذلك ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي : موافقاً لعملهم قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الكفر ولا عذاب أعظم من النار .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ بيان لما وافقه هذا الجزاء أي : لا يخافون أن يحاسبوا . والمعنى : أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ولا أنهم يحاسبون .

﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ أي : بما جاءت به الأنبياء عليهم السلام ، وقيل : القرآن وقرأ ﴿ كذاباً ﴾ غير الكسائيّ بالتشديد أي : تكذيباً ، قال الفراء : وهي لغة يمانية فصيحة يقولون في مصدر التفعيل فعال . وقال الزمخشري : وفعال في باب فعل كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره ، وسمعني بعضهم أفسر آية فقال : لقد فسرتها فساراً ما

سمع بمثله . وقرأ الكسائيّ بالتخفيف مصدر كذب بدليل قول الشاعر :

*فصدقته وكذبته ** والمرء ينفعه كذابه*

قال الزمخشري : وهو مثل قوله : ﴿ أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ (نوح :)

يعني : وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً ، أو تنصبه بكذبوا لأنه يتضمن معنى كذبوا ؛ لأنه كل مكذب بالحق كاذب ، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة ، أو كذبوا بها مكاذبين لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة ، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فبلغ فيه أقصى جهده .

﴿ وكل شيء ﴾ أي : من الأعمال وغيرها ﴿ أحصيناه ﴾ أي : ضبطناه ، وقوله تعالى : ﴿ كتاباً ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه مصدر في موضع إحصاء والإحصاء والكتب يتشاركان في معنى الضبط ، ثانيهما : أن يكون حالاً بمعنى مكتوباً في اللوح المحفوظ كقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ (يس :)

. وقيل : أراد ما تكتبه الملائكة الموكلون بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة لقوله تعالى :

﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ (الإنفطار : ـ)

والجملة اعتراض .

وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم ﴾ أي : شيئاً من الأشياء في وقت من الأوقات ﴿ إلا عذاباً ﴾ تسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ، قال الرازي : وفي هذه الآية مبالغات منها لن للتأكيد ومنها الالتفات ، ومنها إعادة قوله تعالى : ﴿ فذوقوا ﴾ بعد ذكر العذاب ، قال أبو بردة : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أشدّ آية في القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ " أي : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب و ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ .

ولما ذكر تعالى ما للكافرين أتبعه بذكر ما للمؤمنين فقال تعالى:

﴿ إنّ للمتقين مفازاً ﴾ أي : مكان فوز في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ حدائق ﴾ أي : بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة بدل من مفازاً بدل الإشمال أو البعض أو بيان له وقوله تعالى : ﴿ وأعناباً ﴾ أي : كروماً عطف على مفازاً .

﴿ وكواعب ﴾ أي : جواري تكعب ثديهنّ جمع كاعب ﴿ أتراباً ﴾ أي : على سنّ واحد جمع ترب بكسر التاء وسكون الراء وقيل : الأتراب اللدات .

﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ أي : خمراً مالئة محالها وفي القتال ﴿ وأنهار من خمر ﴾ والدهاق

المترعة ودهق الحوض ملأه حتى قال : قطني ، وقال ابن عباس : مترعة مملوءة . وقال عكرمة : صافية .

﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أي : الجنة في وقت ما عند شرب الخمر وغيره من الأحوال ﴿ لغواً ﴾ أي : لغطاً يستحق أن يلغى بأن يكون ليس له معنى ، وقوله تعالى : ﴿ ولا كذاباً ﴾ قرأه بالتخفيف الكسائي وبالتشديد الباقون ، أي : تكذيباً من واحد لغيره بخلاف ما يقع في الدنيا عند شرب الخمر .

(200/799)

﴿ جزاء من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بما أعطاك جزاهم بذلك جزاء . وقوله تعالى : ﴿ عطاء ﴾ بدل من جزاء وهو اسم مصدر وجعله الزمخشري منصوباً بجزاء نصب المفعول به ، وردّه أبو حيان بأنه جعل جزاء مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة التي هي ﴿ إنّ للمتقين ﴾ قال : والمصدر المؤكد لا يعمل لأنه لا ينحل لحرف مصدري والفعل ولا نعلم في ذلك خلافاً ﴿ حساباً ﴾ أي : كافياً وافياً يقال : أحسبت فلاناً أي : أعطيته ما يكفيه حتى قال حسبي . وقال ابن قتيبة أي : عطاء كثيراً ، وقيل : جزاء بقدر أعمالهم .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ برفع رب

والرحمن وابن عامر وعاصم بخفضهما والآخران بخفض الأول ورفع الثاني .

أما رفعهما فمن أوجه : أحدها : أن يكون رب خبر مبتدأ مضمر أي : هو رب والرحمن كذلك ، أو مبتدأ خبره لا يملكون ، ثانيها : أن يجعل رب مبتدأ والرحمن خبره ، ولا يملكون خبراً ثانياً أو مستأنفاً ، ثالثها : أن يكون ربّ مبتدأ والرحمن نعته ، ولا يملكون خبر رب . رابعها : أن يكون رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثانٍ ولا يملكون خبره ، والجملة خبر الأوّل ، وحصل الربط بتكرير المبتدأ بمعناه وهو رأي الأخفش ، ويجوز أن يكون لا يملكون حالاً وتكون لازمة .

وأما جرّهما فعلى البيان والنعت أو يجعل رب السموات تابعاً للأوّل والرحمن تابعاً للثاني ، وأما جرّ الأوّل فعلى التبعية للأوّل . ورفع الثاني ، فعلى الابتداء والخبر الجملة الفعلية وهي لا يملكون أي : الخلق . ﴿ منه ﴾ أي : من الله تعالى ﴿ خطاباً ﴾ والضمير في لا يملكون لأهل السموات والأرض أي : ليس في أيديهم ما يخاطب به الله ، ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرّف الملاك ، فيزيدون فيه أو ينقصون منه أولا يملكون أن يخاطبوا بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ متعلق بلا يملكون أو لا يتكلمون ﴿ يقوم الروح والملائكة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ صفاً ﴾ حال أي : مصطفين ، والروح أعظم خلقاً من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو ملك عظيم ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفاً وقامت الملائكة كلهم صفاً واحداً ، فيكون عظم خلقه مثلهم ، وقال الشعبي : هو جبريل عليه السلام ، وقيل : ملك موكل على الأرواح .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الروح ملك أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة وهو في السماء الرابعة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملك يجيء يوم القيامة صفاً وحده .

وقال مجاهد وقتادة رضي الله عنهم : الروح خلق على صورة بني آدم وليسوا بناس يقومون صفاً والملائكة صفاً هؤلاء جند وهؤلاء جند . وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق على صورة بني آدم وما ينزل من السماء ملك إلا معه واحد منهم ، وقال الحسن رضي الله عنه : هو بنو آدم ورواه قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال : هذا ما كان يكتمه ابن عباس ، وقيل : هو جند من جنود الله تعالى ليسوا ملائكة ، لهم رؤوس وأيد وأرجل يأكلون الطعام . وقيل : أرواح بني آدم ، وقال زيد بن أسلم : هو القرآن ، وقرأ

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ (الشورى :)

وإذا كان هؤلاء ﴿ لا يتكلمون ﴾ وهم من أفضل الخلق وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه تعالى لا يملكون التكلم ، فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض ، ويجوز رجوع الضمير للخلق أجمعين .

(202/799)

﴿ إلا من أذن له ﴾ أي : في الكلام إذناً خاصاً ﴿ الرحمن ﴾ أي : الملك الذي لا تكون النعمة إلا منه ﴿ وقال ﴾ قولاً ﴿ صواباً ﴾ في الدنيا أي : حقاً من المؤمنين والملائكة وهما شريطتان : أن يكون المتكلم مأذوناً له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى . لقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ (الأنبياء :)

وقيل : القول الصواب لا إله إلا الله .

﴿ ذلك ﴾ أي : المشار إليه لبعد مكانته وعظم رتبته وعلوّ منزلته ﴿ اليوم الحق ﴾ أي : الكائن لا محالة وهو يوم القيامة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه ﴾ أي : المحسن إليه ﴿ مآباً ﴾ أي : مرجعاً وسبيلاً لطاعته ليسلم من العذاب في ذلك اليوم ، فإنّ الله تعالى جعل لهم قوة واختياراً ، ولكن لا يقدر أحد منهم على مشيئة شيء إلا بمشيئة الله تعالى .

﴿ إنّا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ أنذرناكم ﴾ أي : يا كفار مكة ﴿ عذاباً قريباً ﴾ أي : عذاب يوم القيامة الآتي وكل آت قريب ، وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ ظرف لعذاباً بصفته ﴿ ينظر المرء ﴾ أي : كل امرئ سواء كان مؤمناً أو كافراً نظراً لا مرية فيه ﴿ ما ﴾ أي : الذي ﴿ قدمت يداه ﴾ أي : كسبه في الدنيا من خير وشرّ ، وقال الحسن رضي الله عنه : أراد بالمرء المؤمن أي : يجد لنفسه عملاً ، وأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً فيتمنى أن يكون تراباً ، ولأنه تعالى قال : ﴿ ويقول الكافر ﴾ فعلم أنه أراد بالمرء المؤمن وقيل : هو الكافر لقوله تعالى : ﴿ إنا أنذرناكم ﴾ فيكون الكافر ظاهراً وضع موضع الضمير لزيادة الذمّ . ومعنى ﴿ ما قدّمت يداه ﴾ من الشرّ كقوله تعالى : ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ﴾ (الحج : ـ)

وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدّمت أي : ينظر أي شيء قدّمت يداه أو موصولة منصوبة بينظر يقال : نظرته بمعنى نظرت إليه والراجع إلى الصلة محذوف .

(203/799)

وقال مقاتل رضي الله عنه : نزل قوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ﴾ في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، و ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ في أخية الأسود

بن عبد الأسد وقال الثعلبي : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر هنا إبليس ، وذلك أنه عاب آدم عليه السلام بأنه خلق من تراب وافتخر بأنه خلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة ورأى ما هو فيه من الشدّة والعذاب تمنى أنه كان بمكان آدم فيقول ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ . قال : ورأيته في بعض التفاسير .

قال البغويّ : قال أبو هريرة رضي الله عنه فيقول التراب : لا ولا كرامة لكل من جعلك مثلي . وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان ثم يقال للبهائم والطير : كونوا تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي : فلا أعذب وقيل : معنى ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي : لم أبعث . وقال أبو الزناد : إذا قضي بين الناس وأمر بأهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار قيل لسائر الأمم ولمؤمني الجنّ : عودوا تراباً فيعودون تراباً فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ ، وقال ليث بن أبي سليم مؤمنو الجنّ يعودون تراباً . وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما : مؤمنو الجنّ حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها ، والذي عليه الأكثر أنهم مكلفون مثابون ومعاقبون كبني آدم ، وقيل : يحشر الله تعالى الحيوان غير مكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يردّه تراباً فيودّ الكافر حاله .

وما قاله البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة عمّ

سقاه الله تعالى برد الشراب يوم القيامة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 231.242 ﴾

(204/799)

وقال القاسمي :

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ ﴾

أي : هؤلاء المشركون بالله ورسوله . قال ابن جرير : وذلك أن قريشاً جعلت – فيما ذكر عنها – تختصم وتتجادل في الذي دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الإقرار بنبوته ، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى ، والإيمان بالبعث ؛ فقال الله تعالى لنبيه : فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون ؟ .

وفي وعن في هذا الموضع بمعنى واحد . انتهى .

والاستفهام للتفخيم أو للتبكيت . والتفاعل إما على بابه ، أو هو بمعنى فَعَل ، والمعنى على الأول : يتساءلون فيما بينهم ، وعلى الثاني : يسألون الرسول صلوات الله عليه وسلام

، أو المؤمنين . قيل : مجيء تفاعل بمعنى فعل إذا كان في الفاعل كثرة ، مراعاة لمعنى التشارك بقدر الإمكان ، ونوقش بأن تفاعل يكون بمعنى فعل كثيراً وإن لم يتعدد فاعله ، كتوانى زيد وتدانى الأمر ، بل حيث لا يمكن التعدد نحو : ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 63] .

وقوله : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ بيان للمفخم شأنه ، أو للمبكت من أجله .

﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ أي : منقسمون ، بعضهم يجحدهُ وآخر يرتاب فيه .

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ردع للمتسائلين ووعيد لهم ؛ والتكرير للمبالغة لحذف مفعول العلم ، فإما أن يقدر سيعلمون حقيقة الحال وما عنه السؤال ، أو سيعلمون ما يحلُّ بهم من العقوبات والنكال ؛ فتكريره مع الإبهام ، يفيد مبالغة . وفي ﴿ ثُمَّ ﴾ إشعار بأن الوعيد الثاني أشد ؛ لأنها هنا للبعد والتفاوت الرتبيّ ، فكأنه قيل : ردع وزجر لكم شديد ، بل أشد وأشد . وبهذا الاعتبار صار كأنه مغاير لما قبله .

ولذا خص عطفه بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ غالباً . هذا ملخص ما في " العناية " .

ثم ذكّرهم تعالى بدلائل قدرته وآيات رحمته ، بقوله :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً ﴾ أي : فراشاً وموطئاً تتمهدونها وتفترشونها .

﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ أي : للأرض ، أي : أرسيناها بالجبال كما يَرسي البيت بالأوتاد ؛ حتى لا تميد بأهلها فيكمل كون الأرض مهاداً بسبب ذلك . قال الإمام مفتي مصر : وإنما كانت الجبال أوتاداً لأن بروزها في الأرض كبروزِ الأوتاد المغروزة فيها ؛ ولأنها في تثبيت الأرض ومنعها من المَيَدان والاضطراب ، كالأوتاد في حفظ الخيمة من مثل ذلك ، كأن أقطار الأرض قد شدت إليها ، ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من الموادّ الدائمة الجيَشان .

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي : ذكوراً وإناثاً . قال الإمام : ليتمَّ الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ النسل وتكميله بالتربية .

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ أي : راحة ودَعَة ، يريح القوى من تعبها ويعيد إليها ما فقد منها . إطلاقاً للملزوم وهو السبات بمعنى النوم ، وإرادة للّازم وهو الاستراحة . وقيل : السبات هو النوم الممتد الطويل السكون ؛ ولهذا يقال فيمن وصف بكثرة النوم : إنه مسبوت وبه سبَات . ووجه الامتنان بذلك ظاهر ؛ لما فيه من المنفعة والراحة ، لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبان شيئاً من الراحة . وقد أفاض السيد المرتضى في " أماليه" في لطائف تأويل هذه الآية .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ أي : كاللباس بإحاطة ظلمته بكل أحد ، وستره لهم .

قال الرازي : ووجه النعمة في ذلك أن ظلمة الليل تستر الْإِنْسَانْ عن العيون إذا أراد هرباً من عدوّ أو بياتاً له ، أو إخفاء ما لا يحب الْإِنْسَانْ إطلاع غيره عليه قال المتنبي :

~وكمْ لِظَلامِ الليلِ عنْديَ منْ يَدٍ تخبّر أن المانوية تَكْذِبُ

(206/799)

وأيضاً ، فكما أن الْإِنْسَانْ بسبب اللباس ، يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الْإِنْسَانْ وفي طراوة أعضائه وفي تكامل قواه الحسية والحركية ، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني وأذى الأفكار الموحشة .

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ أي : وقت معاش ؛ إذ فيه تتقلب الخلق في حوائجهم ومكاسبهم .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ قال الرازي : أي : سبع سماوات شداداً جمع شديدة ، يعني محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان ، لا فطور فيها ولا فروج .

وقال الإمام : السبع الشداد : الطرائق السبع ، وهي ما فيه الكواكب السبعة السيارة المشهورة ؛ وخصها بالذكر لظهورها ومعرفة العامة لها .

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ أي : متلألئاً وقَّاداً ، يعني الشمس .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أي : السحائب إذا أعصرت ، أي : شارفت أن تعصرها الرياح .

﴿ مَاء ثَجَّاجاً ﴾ أي : منصباً متتابعاً .

﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ﴾ قال ابن جرير : الحَبُّ كل ما تضمنه كمام الزرع التي تحصد .

والنبات : الكلأ الذي يُرعى من الحشيش والزروع .

وقال الزمخشريّ : يريد ما يُتقوَّت من نحو الحنطة والشعير ، وما يعلف من التبن والحشيش .

كما قال : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه : 54] .

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ أي : حدائق ملتفة الشجر ، مجتمعة الأغصان .

قال الرازي : قدم الحَب لأنه الأصل في الغذاء ، وثنى بالنبات لاحتياج الحيوانات إليه ؛

وأخر الجنات لأن الحاجة إلى الفواكه ليست بضرورية ، ثم قال : وكان الكعبي من القائلين بالطبائع . فاحتجَّ بقوله تعالى :

﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً ﴾ إلخ على بطلان قول من قال : إنه تعالى لا يفعل شيئاً بواسطة شيء آخر ، أي : ارتباط المسببات بالأسباب مما بنى عليه – سبحانه – بحكمته الباهرة نظامَ العمران .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أي : يوم يفصل بين الناس ويفرق السعداء من الأشقياء ، باعتبار تفاوت الأعمال ، وهو يوم القيامة ﴿ كَانَ ﴾ أي : عند الله وفي علمه وحكمه ﴿ مِيقَاتاً ﴾ أي : حداً معيناً ووقتاً مؤقتاً ، ينتهي الخلق إليه ليرى كلٌ جزاء عمله

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أو عطف بيان ، كناية عن اتصال الأرواح بالأجساد ، ورجوعها بها إلى الحياة والحشر في الآخرة ، كما قال القاشاني والشهاب .

وقال الإمام : النفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق :

﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] ، وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ في الصور ، وليس علينا أن نعلم ما هي حقيقة ذلك الصور .

﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ أي : فِرَقاً مختلفة ، كل فرقة مع إمامهم ، على حسب تباين عقائدهم وأعمالهم وتوافقها .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ قال ابن جرير : أي : وشققت السماء فصدعت ،

فكانت طُرقاً ، وكانت من قبل شُداداً لا فطورَ فيها ولا صدوع .

وقال القاضي فيما نقله الرازيّ : وهذا الفتح هو معنى قوله :

﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق : 1] و ﴿ إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار : 1] ؛ إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب ، وهذا كما قال ابن جرير : متين للغاية ، وتعقب الرازي له ، وقوف مع الألفاظ لا يفيد ، لا سيما والأصل هو التفسير بالنظائر والأشباه .

(208/799)

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ أي : رفعت من أماكنها في الهواء ، وذلك إنما يكون بعد تفتيتها وجعلها أجزاء متصاعدة كالهباء . وفي الآية تشبيه بليغ ، والجامع أن كلاً منهما يُرى على شكل شيء ، وليس به ، فالسراب يرى كأنه بحر وليس كذلك ، والجبال إذا فتتت وارتفعت في الهواء ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غبار غليظ متراكم ، يرى من بعيد كأنه جبل .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ أي : موضع رصد ، يرصد فيه خزنتها من كان يكذب بها وبالمعاد . على أن ﴿ مِرْصَاداً ﴾ اسم مكان ، أو مجدّة في ترصدهم وارتقاب مقدمهم ، على أنه صيغة مبالغة .

﴿ لِلطَّاغِينَ مَآباً ﴾ أي : للذين طغوا في الدنيا ، فتجاوزوا حدود الله استكباراً على ربهم ، منزلاً ومرجعاً يصيرون إليه .

﴿ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ أي : دهوراً متتابعة إلى غير نهاية ، كقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ﴾ [الأحزاب : 65] , ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً ﴾ أي : روحاً وراحة ﴿ وَلَا شَرَاباً ﴾

﴿ إِلَّا حَمِيماً ﴾ أي : ماءً حارّاً انتهى غليانُه ﴿ وَغَسَّاقاً ﴾ أي : صديداً ، وهو ما يخرج من جلودهم مما تصهرهم النار في حياض يجتمع فيها ، فيُسقَونه .

﴿ جَزَاء وِفَاقاً ﴾ أي : جُوزوا بذلك جزاءً موافقاً لما ارتكبوه من الأعمال وقدّموه من العقائد والأخلاق .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ [27 - 29]

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ قال القاشاني : أي : ذلك العذاب لأنهم كانوا موصوفين بهذه الرذائل من عدم توقع المكافآت والتكذيب بالآيات ، أي : لفساد العمل والعلم ، فلم يعملوا صالحاً رجاء الجزاء ، ولم يعملوا علماً فيصدقوا بالآيات .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ قال القاشاني : أي : كل شيء من أعمالهم ضبطناه بالكتابة عليهم في صحائف نفوسهم .

وقال الرازيّ : المراد من قوله : ﴿ كِتَاباً ﴾ تأكيد ذلك الإحصاء والعلم ، وهذا التأكيد إنما ورد على حسب ما يليق بأفهام أهل الظاهر ؛ فإن المكتوب يقبل الزوال ، وعلم الله بالأشياء لا يقبل الزوال ؛ لأنه واجب لذاته . انتهى .

وهو بمعنى ما نقله الشهاب ، أنه تمثيل لإحاطة علمه بالأشياء لتفهيمنا ، وإلا فهو تعالى غني عن الكتابة والضبط . ومذهب السلف الإيمان بهذه الظواهر وتفويض تأويلها إلى الله تعالى .

﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾ أي : يقال لهم ذاك ؛ تقريعاً وغضباً وتأنيباً لهم من تخفيف العذاب ، وإعلاماً بمضاعفته .

ولما ذكر وعيد الكفار ، تأثره بوعد الأبرار بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ أي : فوز بالنعيم ، ونجاة من النار التي هي مآب الطاغين .

﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ الحدائق جمع حديقة ، وهي البستان فيه أنواع الشجر المثمر المحوط بالحيطان المحدقة به . والأعناب معروفة . قال ابن جرير : أي : وكروم وأعناب ، فاستغنى بالأعناب عنها .

﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾ أي : بنات فلّكت ثديّهن ، أي : استدارت مع ارتفاع يسير ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي : متساويات في السّن .

﴿ وَكَأْساً دِهَاقاً ﴾ أي : ملأى من خمر لذة للشاربين .

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة ﴿ لَغْواً ﴾ أي : باطلاً من القول ﴿ وَلَا كِذَّاباً ﴾ أي : مكاذبة ، أي : لا يكذب بعضهم بعضاً .

قال الإمام : اللغو والتكذيب مما تألَّم له أنفس الصادقين ، بل هو من أشد الأذى لقلوبهم ، فأراد الله إزاحة ذلك عنهم .

﴿ جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء ﴾ أي : جزاء لهم على صالح أعمالهم ، تفضُّلاً منه تعالى بذلك الجزاء ﴿ حِسَاباً ﴾ أي : كافياً ، أو على حسب أعمالهم .

(210/799)

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ قال ابن جرير : أي : لا يملكون أن يخاطبوا الله . قال : والمخاطب المخاصم الذي يخاصم صاحبه .

وقال غيره : أي : لا يملّكهم الله منه خطاباً في شأن الثواب والعقاب ، بل هو المتصرّف فيه وحده ، وهذا كما تقول : ملكت منه درهماً فـ : من ابتدائية متعلقة بـ ﴿ يَمْلِكُونَ ﴾ ،

وعلى ما ذكره ابن جرير من أن المعنى : لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب ، فـ ﴿ مِنْهُ ﴾ صلة ﴿ خِطَاباً ﴾ كما تقول : خاطبت منك ، على معنى : خاطبتك ، كبعت زيداً ، أو بعت من زيد ، فـ ﴿ مِنْهُ ﴾ بيان مقدم على المصدر لا صلة ﴿ يَمْلِكُونَ ﴾ ، وقد قرئ : رب ، و : الرحمن بالجر والرفع . وقرئ بجر الأول ورفع الثاني .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ أي : جبريل عليه السلام ، وهو المعبَّر عنه بروح القدس في آية أخرى ، وفيه أقوال أخُر نقلها ابن جرير . وما ذكرناه أصوبها ؛ والتنزيل يفسر بعضه بعضاً . ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي اختياره ، قال : لأن القرآن دلَّ على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام . وثبت أن القيام صحيح من جبريل ، والكلام صحيح منه ، ويصح أن يؤذن له ، فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه ، أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام ؟ ! وقوله تعالى :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً ﴾ قال القاشانيّ : أي : صافِّين في مراتبهم ، كقوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] .

وقال الرازيّ : يحتمل أن يكون المعنى صفاً واحداً ، ويحتمل أنه صفان ، ويجوز صفوفاً . والصف في الأصل مصدر ، فينبئ عن الواحد والجمع ، ورجح بعضهم الأخير لآية : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] ، انتهى .

وقوله تعالى :

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ أي : لا يتكلمون في الشفاعة كقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، والضمير للملائكة أو أعم كقوله :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105] .

قال الزمخشري : هما شريطتان : أن يكون المتكلم منهم مأذوناً له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : 28] .

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ أي : الواقع الذي لا يمكن إنكاره . و ﴿ الْحَقُّ ﴾ صفة أو خبر .

﴿ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ قال ابن جرير : أي : فمن شاء اتخذ بالتصديق بهذا اليوم الحق ، والاستعداد له والعمل بما فيه ، النجاة له من أهواله ، مرجعاً حسناً يؤوب إليه .

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ يعني عذاب الآخرة وقربه ؛ لأن مبدأه الموت ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي : من خير أو شرّ ، أي : ينظر جزاءه :

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أي : مثله لم أصب حظّاً من الحياة ؛ لما يلقى من عذاب الله الذي أعدّ لأمثاله . وقاناه الله بمنّه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 307.314 ﴾

(212/799)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة النبأ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) ﴾

الدرس الأول: 1 – 5 تهديد الكفار المنكرين للنبأ العظيم

(عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون . كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون) . . مطلع فيه استنكار لتساؤل المتسائلين , وفيه عجب أن يكون هذا الأمر موضع تساؤل . وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة . وكان هو الأمر الذي يجادلون فيه أشد الجدل , ولا يكادون يتصورون وقوعه , وهو أولى شيء بأن يكون ! (عم يتساءلون ؟) . . وعن أي شيء يتحدثون ؟ ثم يجيب . فلم يكن السؤال بقصد معرفة الجواب منهم . إنما كان للتعجيب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم ,

بكشف الأمر الذي يتساءلون عنه وبيان حقيقته وطبيعته:

(عن النبأ العظيم , الذي هم فيه مختلفون) . . ولم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه , إنما ذكره بوصفه . . النبأ العظيم . . استطرادا في أسلوب التعجيب والتضخيم . . وكان الخلاف على اليوم بين الذين آمنوا به والذين كفروا بوقوعه . أما التساؤل فكان من هؤلاء وحدهم .

ثم لا يجيب عن التساؤل , ولا يدلي بحقيقة النبأ المسؤول عنه . فيتركه بوصفه . . العظيم . . وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف , وهو أوقع من الجواب المباشر , وأعمق في التخويف:

(كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون !) . . ولفظ كلا , يقال في الردع والزجر فهو أنسب هنا للظل الذي يراد إلقاؤه . وتكراره وتكرار الجملة كلها فيه من التهديد ما فيه .

الدرس الثاني: 6 – 16 تذكيرهم ببعض نعم الله عليهم

ثم يبعد في ظاهر الأمر عن موضوع ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون . ليلتقي به بعد قليل . يبعد في جولة قريبة في هذا الكون المنظور مع حشد من الكائنات والظواهر والحقائق والمشاهد , تهز الكيان حين يتدبرها الجنان:

(ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا , وجنات ألفافا ؟) . .

وهذه الجولة التي تتنقل في أرجاء هذا الكون الواسع العريض , مع هذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد , تذكر في حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات , مما يجعل إيقاعها في الحس حادا ثقيلا نفاذا , كأنه المطارق

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً (8)

المتوالية , بلا فتور ولا انقطاع ! وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين – وهي في اللغة تفيد التقرير – صيغة مقصودة هنا , وكأنما هي يد قوية تهز الغافلين , وهي توجه أنظارهم وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التي تشي بما وراءها من التدبير والتقدير , والقدرة على الإنشاء والإعادة , والحكمة التي لا تدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولا جزاء . . ومن هنا تلتقي بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !

واللمسة الأولى في هذه الجولة عن الأرض والجبال:

(ألم نجعل الأرض مهادا , والجبال أوتادا ؟) . .

والمهاد: الممهد للسير . . والمهاد اللين كالمهد . . وكلاهما متقارب . وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته . فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها في صورتها الواقعية . وكون الجبال أوتادا ظاهرة تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائي ; وهذه وتلك ذات وقع في الحس حين توجه إليها النفس .

(214/799)

غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائي لأول وهلة بالحس المجرد . وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره , كبرت هذه الحقيقة في نفسه ; وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم , والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم ; وإعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضاناتها ; وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها .

وجعل الأرض مهادا للحياة – وللحياة الإنسانية بوجه خاص – شاهد لا يمارى في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها . أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض . . الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهادا

; ولا يبقي هذه الحقيقة التي يشير إليها القرآن هذه الإشارة المجملة , ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه . .

وجعل الجبال أوتادا . . يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد , فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها . أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن , وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها . . وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال . . وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية , وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية . . وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد . . وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم . ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين !

واللمسة الثانية في ذوات النفوس , في نواحي وحقائق شتى:

(وخلقناكم أزواجا) . .

وهي ظاهرة كذلك ملحوظة يدركها كل إنسان بيسر وبساطة . . فقد خلق الله الإنسان ذكرا وأنثى , وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقائهما . وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة , ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير . ومن ثم يخاطب بها القرآن الإنسان في أية بيئة فيدركها ويتأثر بها حين يتوجه تأمله إليها , ويحس ما فيها من قصد ومن تنسيق وتدبير .

ووراء هذا الشعور المبهم بقيمة هذه الحقيقة وعمقها , تأملات أخرى حين يرتقي الإنسان في المعرفة وفي الشعور أيضا . . هنالك التأمل في القدرة المدبرة التي تجعل من نطفة ذكرا , وتجعل من نطفة أنثى , بدون مميز

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (12)

ظاهر في هذه النطفة أو تلك , يجعل هذه تسلك طريقها لتكون ذكرا , وهذه تسلك طريقها لتكون أنثى . . اللهم إلا إرادة القدرة الخالقة وتدبيرها الخفي , وتوجيهها اللطيف , وإيداعها الخصائص التي تريدها هي لهذه النطفة وتلك , لتخلق منهما زوجين تنمو بهما الحياة وترقى !

(وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا) . .

وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ; ويجعلهم في حالة لا هي موت ولا هي حياة , تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذي بذلته في حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة . . وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لا يدرك الإنسان كنهها , ولا نصيب لإرادته فيها ; ولا يمكن أن يعرف كيف تتم في كيانه . فهو في حالة الصحو لا يعرف كيف يكون وهو في حالة النوم . وهو في حالة النوم لا يدرك هذه الحالة ولا يقدر على ملاحظتها ! وهي سر من أسرار تكوين الحي لا يعلمه إلا من خلق هذا الحي وأودعه ذلك السر ; وجعل حياته متوقفة عليه . فما من حي يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة . فإذا أجبر إجبارا بوسائل خارجة عن ذاته كي يظل مستيقظا فإنه يهلك قطعا .

وفي النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب . . إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف , هدنة تلم بالفرد فيلقي سلاحه وجنته – طائعا أو غير طائع – ويستسلم لفترة من السلام الآمن , والسلام الذي يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب . ويقع ما يشبه المعجزات في بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان , والروح مثقل , والأعصاب مكدودة , والنفس منزعجة , والقلب مروع . وكأنما هذا النعاس – وأحيانا لا يزيد على لحظات – انقلاب تام في كيان هذا الفرد . وتجديد كامل لا لقواه بل له هو ذاته , وكأنما هو

كائن حين يصحو جديد . . ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين في غزوة بدر وفي غزوة أحد , وامتن الله عليهم بها . وهو يقول: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) . . (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم) . . كما وقعت للكثيرين في حالات مشابهة !

(217/799)

فهذا السبات: أي الإنقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحي ; وسر من أسرار القدرة الخالقة ; ونعمة من نعم الله لا يملك إعطاءها إلا إياه . وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآني ينبه القلب إلى خصائص ذاته , وإلى اليد التي أودعتها كيانه , ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر .

وكان من تدبير الله كذلك أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء . وكما أودع الإنسان سر النوم والسبات , بعد العمل والنشاط , فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباسا ساترا يتم فيه السبات والانزواء . وظاهرة النهار ليكون معاشا تتم فيه الحركة والنشاط . . بهذا توافق خلق الله وتناسق . وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء . تلبي ما ركب فيهم من خصائص . وكان الأحياء مزودين بالتركيب المتفق في

حركته وحاجاته مع ما هو مودع في الكون من خصائص وموافقات . وخرج هذا وهذا من يد القدرة المبدعة المدبرة متسقا أدق اتساق !

واللمسة الثالثة في خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء :

(وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا , وجنات ألفافا) . .

والسبع الشداد التي بناها الله فوق أهل الأرض هي السماوات السبع , وهي الطرائق السبع في موضع آخر . . والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه الله . . فقد تكون سبع مجموعات من المجرات – وهي مجموعات من النجوم

وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً (16)

قد تبلغ الواحدة منها مائة مليون نجم – وتكون السبع المجرات هذه هي التي لها علاقة بأرضنا أو بمجموعتنا الشمسية . . وقد تكون غير هذه وتلك مما يعلمه الله من تركيب هذا الكون , الذي لا يعلم الإنسان عنه إلا القليل .

إنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين , قوية البناء , مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء . وهو ما نراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيدركه كل إنسان . . كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان ومن ثم يذكر في معرض تدبير الله وتقديره لحياة الأرض والإنسان . يدل على هذا ما بعده:(وجعلنا سراجا وهاجا) . . وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التي تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء . والتي تؤثر كذلك في تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا وهي المعصرات:(وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) . . حين تعصر فتخر ويتساقط ما فيها من الماء . ومن يعصرها ? قد تكون هي الرياح . وقد يكون هو التفريغ الكهربائي في طبقات الجو . ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التي تودع الكون هذه المؤثرات ! وفي السراج توقد وحرارة وضوء . . وهو ما يتوافر في الشمس . فاختيار كلمة(سراج)دقيق كل الدقة ومختار . .

ومن السراج الوهاج وما يكسبه من أشعة فيها ضوء وحرارة , ومن المعصرات وما يعتصر منها من ماء ثجاج , ينصب دفعة بعد دفعة كلما وقع التفريغ الكهربائي مرة بعد مرة , وهو الثجاج , من هذا الماء مع هذا الإشعاع يخرج الحب والنبات الذي يؤكل هو ذاته , والجنات الألفاف الكثيفة الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .

وهذا التناسق في تصميم الكون , لا يكون إلا ووراءه يد تنسقه , وحكمة تقدره , وإرادة تدبره . يدرك هذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توجه مشاعره هذا التوجيه , فإذا ارتقى في العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب . وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولا تافها لا يستحق المناقشة . كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير في هذا الكون , مجرد تعنت لا يستحق الاحترام !

(219/799)

إن لهذا الكون خالقا , وإن وراء هذا الكون تدبيرا وتقديرا وتنسيقا . وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذا النص القرآني على هذا النحو: من جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا . وخلق الناس أزواجا . وجعل نومهم سباتا [بعد الحركة والوعي والنشاط] مع جعل الليل لباسا للستر والانزواء , وجعل النهار معاشا للوعي والنشاط . ثم بناء السبع الشداد . وجعل السراج الوهاج . وإنزال الماء الثجاج من المعصرات . لإنبات الحب والنبات والجنات . . توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحي بالتناسق الدقيق , ويشي بالتدبير والتقدير , ويشعر بالخالق الحكيم القدير . ويلمس القلب لمسات موقظة

موحية بما وراء هذه الحياة من قصد وغاية . . ومن هنا يلتقي السياق بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !

الدرس الثالث: 17 – 20 من مشاهد يوم القيامة نفخ الصور()

ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع . ووراء هذا كله حساب وجزاء . ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل: (إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا) . .

إن الناس لم يخلقوا عبثا , ولن يتركوا سدى . والذي قدر حياتهم ذلك التقدير الذي يشي به المقطع الماضي في السياق , ونسق حياتهم مع الكون الذي يعيشون فيه ذلك التنسيق , لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملا ! ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعا ! ويهتدون في الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيرا واحدا . ويعدلون في الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعا !

(220/799)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً (17) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً

(21) لِلْطَّاغِينَ مَآباً (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً (23) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً (24) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25) جَزَاء وِفَاقاً (26)

إن هنالك يوما للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان . وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود :

(إن يوم الفصل كان ميقاتا) . .

وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام .

(يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا , وسيرت الجبال فكانت سرابا) . .

والصور : البوق . ونحن لا ندري عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك . فهي لا تزيدنا إيمانا ولا تأثرا بالحادث . وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون , وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد ! إنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجا . . نتصور هذا المشهد والخلائق التي توارت شخوصها جيلا بعد جيل , وأخلت وجه الأرض لمن يأتي بعدها كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود . . نتصور مشهد هذه الخلائق جميعا . . أفواجا . . مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون . ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة . ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها , ونتصور هذا

الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم . . أين ؟ لا ندري . . ففي هذا الكون الذي نعرفه أحداث وأهوال جسام:

(وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا) . .

(221/799)

السماء المبنية المتينة . . فتحت فكانت أبوابا . . فهي منشقة . منفرجة . كما جاء في مواضع وسور أخرى . على هيئة لا عهد لنا بها . والجبال الرواسي الأوتاد سيرت فكانت سرابا . فهي مدكوكة مبسوسة مثارة في الهواء هباء , يحركه الهواء – كما جاء في مواضع وسور أخرى . ومن ثم فلا وجود لها كالسراب الذي ليس له حقيقة . أو إنها تنعكس إليها الأشعة وهي هباء فتبدو كالسراب !

إنه الهول البادي في انقلاب الكون المنظور , كالهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير . .

الدرس الرابع: 21 – 30 لقطات من عذاب الكفار في النار

ثم يمضي السياق خطوة وراء النفخ والحشر , فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة . بادئا بالأولين المكذبين المتسائلين عن النبأ العظيم:

(إن جهنم كانت مرصادا , للطاغين مآبا , لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا , إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا , وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) . .

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصادا للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فإذا هي معدة لهم , مهيأة لاستقبالهم . وكأنما كانوا في رحلة في الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل ! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقابا بعد أحقاب:

(لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) . . ثم يستثني . . فإذا الاستثناء أمر وأدهى: (إلا حميما وغساقا) . . إلا الماء الساخن يشوي الحلوق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل . فهذا هو الشراب !

(222/799)

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً (29) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً (33) وَكَأْساً دِهَاقاً (34) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً (35) جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً (36) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ

مِنْهُ خِطَاباً (37)

(جزاء وفاقا) . . يوافق ما أسلفوا وما قدموا . . (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) . . ولا يتوقعون مآبا . . (وكذبوا بآياتنا كذابا) . . وجرس اللفظ فيه شدة توحي بشدة التكذيب وشدة الإصرار عليه .

بينما كان الله يحصي عليهم كل شيء إحصاء دقيقا لا يفلت منه حرف: (وكل شيء أحصيناه كتابا) . . هنا يجيء التأنيب الميئس من كل رجاء في تغيير أو تخفيف: (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) . .

الدرس الخامس: 31 - 36 لقطات من نعيم المتقين في الجنة

ثم يعرض المشهد المقابل: مشهد التقاة في النعيم . بعد مشهد الطغاة في الحميم:

(إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . . جزاء من ربك عطاء حسابا) . .

فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين, لا يفلتون منها ولا يتجاوزونها , فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة , تتمثل (حدائق وأعنابا) ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون . . (وكواعب) وهن الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهن (أترابا) متوافيات السن والجمال . (وكأسا دهاقا) مترعة بالشراب .

وهي مناعم ظاهرها حسي , لتقريبها للتصور البشري . أما حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها . . وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور: (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) . . فهي حياة مصونة من اللغو والتكذيب الذي يصاحبه الجدل ; فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب ; كما أنه لا مجال للغو الذي لا خير فيه . . وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود . .

(جزاء من ربك عطاء حسابا) . . ونلمح هنا ظاهرة الأناقة في التعبير والموسيقى في التقسيم بين (جزاء) و(عطاء) . . كما نلمحها في الإيقاع المشدود في الفواصل كلها على وجه التقريب . . وهي الظاهرة الواضحة في الجزء كله إجمالا .

الدرس السادس: 37 – 38 لا كلام يوم القيامة إلا بإذن الله

وتكملة لمشاهد اليوم الذي الذي يتم فيه ذلك كله , والذي يتساءل عنه المتسائلون , ويختلف فيه المختلفون . يجيء المشهد الختامي في السورة , حيث يقف جبريل "عليه السلام" والملائكة صفا بين يدي الرحمن خاشعين . لا يتكلمون – إلا من أذن له الرحمن – في الموقف المهيب الجليل:

(رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة

صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) . .

ذلك الجزاء الذي فصله في المقطع السابق: جزاء الطغاة وجزاء التقاة . هذا الجزاء (من ربك) . . (رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن) . . فهي المناسبة المهيأة لهذه اللمسة ولهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الربوبية الواحدة التي تشمل الإنسان . كما تشمل السماوات والأرض , وتشمل الدنيا والآخرة , وتجازي على الطغيان والتقوى , وتنتهي إليها الآخرة والأولى . . ثم هو (الرحمن) . . ومن رحمته ذلك الجزاء لهؤلاء وهؤلاء . حتى عذاب الطغاة ينبثق من رحمة الرحمن . ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألا يتساوى مع الخير في مصيره !

(224/799)

ومع الرحمة والجلال: (لا يملكون منه خطابا) . . في ذلك اليوم المهيب الرهيب: يوم يقف جبريل –

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)

عليه السلام – والملائكة الآخرون (صفا لا يتكلمون) . . إلا بإذن من الرحمن حيث يكون القول صوابا . فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب .

الدرس السابع: 39 – 40 دعوة للنجاة من ذلك اليوم

وموقف هؤلاء المقربين إلى الله , الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وبحساب . . يغمر الجو بالروعة والرهبة والجلال والوقار . وفي ظل هذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار , وهزة للنائمين السادرين في الخمار:

ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا :يوم ينظر المرء ما قدمت يداه , ويقول الكافر :يال ليتني كنت ترابا . .

إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون في ارتياب: (ذلك اليوم الحق) . . فلا مجال للتساؤل والاختلاف . . والفرصة ما تزال سانحة ! (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) . . قبل أن تكون جهنم مرصادا ومآبا !

وهو الإنذار الذي يوقظ من الخمار: (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) . . ليس بالبعيد , فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . على النحو الذي رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة , وعمر قريب !

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . ويقول الكافر :يا ليتني كنت ترابا) . . وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب !

(225/799)

وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم , حتى ليتمنى الكائن الإنساني أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد . . وهو الموقف الذي يقابل تساؤل المتسائلين وشك المتشككين . في ذلك النبأ العظيم ! ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3803 . 3809 ﴾

(226/799)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) ﴾

عم أصله عن ما أدغمت النون في الميم ، ثم حذف ألف الميم ، لدخول حرف الجر عليه للفرق بين ما الاستفهامية وما الموصولة .

والمعنى : عن أيّ شيء ستاءلون ، وقد يفصل حرف الجر عن ما ، فلا يحذف الألف .

وأنشد الزمخشري قول حسان رضي الله عنه :

على ما قام يشتمني لئيم . . . كخنزير تمرغ فِي رماد

وقال في الكشاف : وعن ابن كثير أنه قرأ عمه ، بهاء السكت ، ثم وجهها بقوله : إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف ويبتدئ يتساءلون عن النبإ العظيم ، على أن يضمر يتساءلون ، لأن ما بعده يفسره .

وقال القرطبي : قوله : عن النبإ العظيم : ليس متعلقاً بيتساءلون المذكور في التلاوة ، ولكن يقدر فعل آخر عم يتساءلون عن النبإ العظيم ، وإلا لأعيد الاستفهام أعن النبإ العظيم ؟

وعلى كل ، فإن ما تساءلوا عنه أُبهم أولاً ، ثم بين بعده بأنهم يتساءلون عن النبإ العظيم ، ولكن بقي بيان هذا النبإ العظيم ما هو ؟

فقيل : هو الرَّسول صلى الله عليه وسلم في بعثته لهم .

وقيل : في القرآن الذي أنزل عليه يدعوهم به .

وقيل في البعث بعد الموت .

وقد رجح ابن جرير : احتمال الجميع وألا تعارض بينها .

والواقع أنها كلها متلازمة ، لأن من كذب بواحد منها كذب بها كلها ، ومن صدق بواحد منها صدق بها كلها ، ومن اختلف في واحد منها لا شك أن يختلف فيها كلها .

ولكن السياق في النبإ وهو مفرد . فما المراد به هنا بالذات ؟

قال ابن كثير والقرطبي : من قال إنه القرآن : قال بدليل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ

مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : 67 - 68] .

ومن قال : إنه البعث قال بدليل الآتي بعدها : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ مِيقَاتاً ﴾ [النبإ : 17] .

(227/799)

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن أظهرها دليلاً هو يوم القيامة والبعث ، لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها ، وعقبها بالنص على يوم الفصل صراحة ، أما براهين البعث فهي معلومة أربعة : خلق الأض والسماوات ، وإحياء الأرض بالنبات ، ونشأة الإنسان من العدم ، وإحياء الموتى بالفعل في الدنيا لمعاينتها وكلها موجودة هنا .

أما خلق الأرض والسماوات ، فنبه عليه بقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً والجبال أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : 6 - 7] ، وقوله : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ : 12 - 13] فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى كما قال : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] .

وأما إحياء الأرض بالنبات ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ [النبأ : 14 - 16] كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ

تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى ﴾ [فصلت : 39] .

وأما نشأة الإنسان من العدم ، ففي قوله تعالى :

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [النبأ : 8] أي أصنافاً ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 79] .

(228/799)

وأما إحياء الموتى في الدنيا بالفعل ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ [النبأ : 9] والسبات : الانقطاع عن الحركة . وقيل : هو الموت ، فهو ميتة صغرى ، وقد سماه الله وفاة في قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَ ﴾ [الزمر : 42] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام : 60] ، وهذا كقتيل بني إسرائيل وطيور إبراهيم ، فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة .

وقد تقدَّم للشَّيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيرادها مفصلة في أكثر من موضع ، ولذا عقبها تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ مِيقَاتاً ﴾ [النبإ : 17] أي للبعث الذي هم فيه

مختلفون ، يكون السياق مرجحاً للمراد بالنبأ هنا .

ويؤكد ذلك أيضاً ، كثرة إنكارهم وشدة اختلافهم في البعث أكثر منهم في البعثة ، وفي القرآن ، فقد أقر أكثرهم ببلاغة القرآن ، وأنه ليس سحراً ولا شعراً ، كما أقروا جميعاً بصدقة عليه السلام وأمانته ، ولكن شدة اختلافهم في البعث كما في أول سورة ص وق ، ففي ص قال تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 4 – 5] .

وفي ق قال تعالى : ﴿ بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 2 – 3] ، فهم أشد استبعاداً للبعث مما قبله ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ .

(229/799)

لم يبين هنا هل علموا أم لا . ولكن ذكر آيات القدرة الباهرة على إحيائهم بعد الموت بمثابة إعلامهم بما اختلفوا فيه ، لأنه بمنزلة من يقول لهم : إن كنتم مختلفين في إثبات البعث ونفيه ، فهذه هي آياته ودلائله فاعتبروا بها وقايسوه عليها ، والقادر على إيجاد تلك ، قادر على

إيجاد نظيرها .

ولكن العلم الحقيقي بالمعاينة لم يأت بعد لوجود السين وهي للمستقبل ، وقد جاء في سورة التكاثر في قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر حتى زُرْتُمُ المقابر كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 1 – 7] ، وهذا الذي سيعلمونه يوم الفصل المنصوص عليه في السياق ، ﴿ إِنَّ يَوْمَ الفصل كَانَ مِيقَاتاً ﴾ [النبإ : 17] .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6)

قرئ بالإفراد ، مهداً أي كالمهد للطفل ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : 53] .

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذه الثلاثة ، كون النوم سباتاً : راحة أو موتاً ، والليل لباساً ، ساتراً ومريحاً ، والنهار معاشاً لطلب المعاش ، وذلك عند كلامه على قوله تعالى من سورة الفرقان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 47] وكلها آيات دالات على القدرة على البعث ، كما

تقدمت الإشارة إليه .

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12)

(230/799)

أي السماوات السبع ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة ق ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] وساق النصوص مماثلة هناك .

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18)

النفخ في الصور للبعث ، وهذا معلوم ، وتأتون أفواجاً : قد بين حال هذا المجيء مثل قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ [المعارج : 43] وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ [القمر : 7 – 8] والأفواج هنا قيل : الأمم المختلفة كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء : 71] الآية ، ولكن الآية بتاء الخطاب : فتأتون مما يشعر بأن الأفواج في هذه الأمة .

وقد روى القرطبي وغيره أثراً عن معاذ ، أنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا معاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة

أصناف من أمتي " وساقها ، وكذلك ساقها الزمخشري ، وقال ابن حجر في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية محمد بن زهير ، عن محمد بن الهندي عن حنظلة السدوسي عن أبيه عن البراء بن عازب عنه بطوله وهي : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمياً ، وبعضهم صماً ، بكماً ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم ، فهي مدلاَّت على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جلباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

(231/799)

أما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت ، والمنكسون : أكلة الربا ، والعمى : الجائرون في الحكم ، والصم : المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون ألسنتهم : العلماء والقصّاص الذين خالف قولهم أعمالهم ، ومقطوع الأيدي : مؤذوا الجيران ، والمصلّبون : السعاة بالناس إلى السلطان ، والذين أشد نتناً : متبعوا الشهوات ، ومانعوا حق الله في أموالهم ، ولابسُوا الجلباب : أهل الكبر والفخر . انتهى بإيجاز بالعبارة ، والله تعالى أعلم .

وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20)

تقدم بيان أحوالها يوم القيامة ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك مفصلاً ، عند قوله تعالى من سورة طه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] وعند قوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25)

لم يبين الأحقاب هنا كم عددها ، وهذه مسألة فناء النار ، وعدم فنائها .

وقيل : المراد بالأحقاب هنا جزء من الزمن لا كله ، وهي الأحقاب الموصوف حالهم فيها لما بعدهم من كونهم لا يذوقون فيها ، أي في النار أحقاباً من الزمن ، لا يذوقون برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً .

أما بقية الأحقاب فيقال لهم : فلن نزيد إلا عذاباً ، وهذه المسألة قد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في كتاب دفع إيهام الاضطراب ، عند الكلام على هذه الآية ، وفي سورة الأنعام على قوله تعالى : ﴿ النار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَآءَ الله ﴾ [الأنعام : 128] الآية ، وهو بحث مطول ، وسيطبع الكتاب بإذن الله تعالى مع هذه التممة .

وذكر القرطبي في معنى الحق : آثاراً عديدة منها : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : قال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً " الحقب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون . " فلا يَتَّكِلَنَّ أحدكم على أنه يخرج من النار " ذكره الثعلبي .

وقد رجح القرطبي دوامهم ، أي الكفار في النار أبد الآبدين . اه .

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29)

قيل المراد بالشيء هنا : أعمال العباد ، أي أنه بعد قوله : ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ : 26] أي وفق أعمالهم بدون زيادة ولا نقص ، قال : وقد أحصينا أعمالهم وكتبناها ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مال هذا الْكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] . وقوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] ، وقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 – 8] ، وقوله : ﴿ أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : 6] .

واللفظ عام في كل شيء ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ويقدر فيه معنى الإحصاء ، وفي السنة : حديث القلم المشهور ، وكقوله : ﴿ وَكُلَّ

شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 12] وتقدم في سورة الجن قوله تعالى : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وأحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ [الجن : 28] .

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه ، وألا يفوته شيء قط ، وأنه يعلم بالجزئيَّات علمه بالكليات .

(233/799)

وكما تقدم في سورة المجادلة ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : 7] .

وكذلك التفصيل في قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (31)

بينه بعده بقوله تعالى : ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ [النبأ : 32] - إلى قوله - ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ [النبأ : 36] .

جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36)

في حق الكفار ، قال : جزاء وفاقاً ، وفي حق المؤمنين ، قال عطاء حساباً .

ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحداً .

وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به من الأصل ، وهو المفاز المفسر في قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] .

ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما في حديث : " لن يدخل أحدكم الجنَّة بعمله " وقوله : حساباً : إشعار بأن تفاوت أهل الجنة في الجنة بالحساب ونتائج الأعمال . وقيل حساباً : بمعنى كفاية ، حتى يقول كل واحد منهم : حسبي حسبي . أي كافيني .

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ .

(234/799)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه ، عند الكلام على قوله تعالى من سورة الكهف : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ﴾ [الكهف : 48] .

وقد ذكر ابن كثير لمعنى الروح هنا سبعة أقوال هي : أرواح بني آدم ، أبو بنو آدم أنفسهم ، أو خلق من خلق الله على صور بني آدم ليسوا بملائكة ولا بشر ، ويأكلون ويشربون ، أو جبريل أو القرآن ، أو ملك عظيم بقدر جميع المخلوقات . ونقلها الزمخشري وحكاها القرطبي ، وزاد : ثامناً وهم حفظة على الملائكة ، وتوقف ابن جرير في ترجيح واحد منها .

والذي يشهد له القرآن بمثل هذا النص أنه جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر : 4] ، ففيه عطف الملائكة على الروح من باب عطف العام على الخاص ، وفي سورة القدر عطف الخاص على العام . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ .

قال الزمخشري : لشدة هول الموقف ، وهؤلاء وهم أكرم الخلق على الله وأقربهم إلى الله ، لا يتكلمون إلاَّ من أذن له الرحمن ، فغيرهم من الخلق من باب أولى .

وقال ابن كثير : هو مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : 105]

ومثله قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] .

والواقع أن هذا كله مما يدل على أن ذلك اليوم لا سلطة ولا سلطان لأحد فقط ، حتى ولا كلمة إلاَّ من أذن فيها ، كما قال تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39)

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ .

(235/799)

هو يوم القيامة لاسم الإشارة ، وقد أشير إليه بالاسم الخاص بالبعيد ذلك بدلاً من هذا ، مع قرب التكلم عنه ، ولكن إما لبعده زمانياً عن زمن التحدث عنه ، وإما لبعد منزلته وعظم شأنه ، كقوله تعالى : ﴿ الم ذَلِكَ الكتاب ﴾ [البقرة : 1 - 2] ، وفي هذا عود على بدء في أول السورة ، وهو إذا كانا و يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم القيامة ، فإنهم سيعلمون حقاً ، وها هو اليوم الحق لا لبس فيه ولا شك ليرونه عين اليقين .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ مَآباً ﴾ .

المآب : المرجع ، كما تقدم مثله ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل : 19] ، فإذا كان هذا اليوم كائناً حقاً ، والناس فيه إمَّا إلى جهنم ، كانت مرصاداً للطاغين مآبا ، وإمَّا مفازاً حدائق وأعناباً ، فبعد هذا البيان ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، يؤب به عند ربه مآباً يرضاه لنفسه ، ومن شاء هنا نص في التخيير ، ولكن المقام ليس مقام تخيير ، وإنما هو بمثابة قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ﴾ [

الكهف : 29] الآية .

فهو إلى التهديد أقرب ، كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما يسلك ، والله تعالى أعلم .

ويدل على التهديد ما جاء بعده .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ : 40] وهذا كله تحذير شديد ، وحث أكيد على السعي الحثيث لفعل الخير ، وطلب النجاة في اليوم الحق ، نسأل الله السلامة والعافية .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

(236/799)

قد بين تعالى نتيجة هذا النظر إما المسرة به وإما الفزع منه ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ والله رَؤُوفٌ بالعباد ﴾ [آل عمران : 30] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(237/799)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ النَّبَأِ

سُورَةُ عَبَسَ [فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى [فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْخَلْقِ بِأَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ غَيْبًا يُغَطِّي بِسَوَادِهِ كَمَا يُغَطِّي الثَّوْبُ لَابِسَهُ ، وَيَسْتُرُ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا يَسْتُرُهُ الْحِجَابُ .

قَالَهُ أَبُو جَعْفَرٍ ؛ فَظَنَّ بَعْضُ الْغَافِلِينَ أَنَّ الرَّجُلَ إذَا صَلَّى عُرْيَانًا لَيْلًا فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ أَنَّ صَلَاتَهُ صَحِيحَةٌ ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا ؛ فَإِنَّ النَّاسَ بَيْنَ قَائِلَيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ فَرْضٌ إسْلَامِيٌّ لَا يَخْتَصُّ وُجُوبُهُ بِالصَّلَاةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ الصَّلَاةِ ، وَكِلَاهُمَا اتَّفَقَا عَلَى أَنَّ سَتْرَ الْعَوْرَةِ لِلصَّلَاةِ فِي الظُّلْمَةِ كَمَا هُوَ فِي النُّورِ ، إثْبَاتًا بِإِثْبَاتٍ ، وَنَفْيًا بِنَفْيٍ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إنَّهُ يَجِبُ فِي النُّورِ وَيَسْقُطُ فِي الظُّلْمَةِ اجْتِزَاءً بِسَتْرِهَا عَنْ سَتْرِ ثَوْبٍ يَلْبَسُهُ الْمُصَلِّي فَلَا وَجْهَ لِهَذَا بِحَالٍ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ .

(238/799)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ : امْتَنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ بِإِنْزَالِهِ الْمَاءَ الْمُبَارَكَ مِنْ السَّمَاءِ ، وَبِإِخْرَاجِهِ الْحَبَّ وَالنَّبَاتَ وَلَفِيفَ الْجَنَّاتِ وَكُلُّ مَا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ مِنْ النِّعَمِ ؛ فَفِيهِ حَقُّ الصَّدَقَةِ بِالشُّكْرِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الصَّدَقَةَ شُكْرَ نِعْمَةِ الْمَالِ ، كَمَا جَعَلَ الصَّلَاةَ شُكْرَ نِعْمَةِ الْبَدَنِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا ، وَحَقَّقْنَا تَفْصِيلَ وُجُوبِ الزَّكَاةِ وَمَحِلَّهَا وَمِقْدَارَهَا بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ لِظُهُورِهِ وَشُمُولِهِ فِي الْبَيَانِ بِمَوْضِعَيْنِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(239/799)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة النبأ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1)

قوله : ﴿ عَمَّ ﴾ : قد تقدَّم أن البزيَّ يُدخل هاءَ السكتِ عوضاً من ألف " ما " الاستفهاميةِ في الوقف . ونُقِلَ عن ابن كثير أنه يَقرأ " عَمَّه " بالهاء وَصْلاً ، أجرى الوصل مُجرى الوقف . وقرأ عبد الله وأُبَيّ وعكرمة " عَمَّا " بإثبات الألفِ . وقد تقدَّم أنه يجوزُ ضرورةً أو في قليلٍ من الكلام . ومنه :

4464 على ما قامَ يَشْتِمُني لَئيمٌ . . . كخِنْزيرٍ تَمَرَّغَ في رَمادِ

/ وتقدم أنَّ الزمخشريَّ جَعَلَ منه ﴿ بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي ﴾ في يس [الآية : 27] . و " عَمَّ " فيه قولان ، أحدُهما : وهو الظاهرُ أنَّه متعلِّقٌ ب " يتساءلون " هذا الظاهرِ . قال أبو إسحاق : " الكلامُ تامٌّ في قوله : " عَمَّ يتساءلون " ، ثم كان مقتضى القول أن يُجيبَ مُجيبٌ ، فيقولَ : يتساءلون عن النبأ العظيم ، فاقتضى إيجازُ القرآنِ وبلاغتُه أَنْ يبادِرَ المحتَجُّ بالجوابِ الذي تقتضيه الحالُ والمحاورةُ اقتضاباً للحُجَّة ، وإسراعاً إلى مَوْضِعِ قَطْعِهم " .

والثاني : أنَّه متعلِّقٌ بفعلٍ مقدرٍ ويتعلَّقُ ﴿ عَنِ النبإِ العظيم ﴾ بهذا الفعلِ الظاهرِ . قال الزمخشري : " وعن ابن كثيرٍ أنه قرأ " عَمَّهْ " بهاءِ السَّكْتِ . ولا يَخْلو : إمَّا أَنْ يجريَ الوصلُ مَجْرى الوقفِ ، وإمَّا أَنْ يقفَ ويَبْتَدِىءَ ﴿ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النبإِ العظيم ﴾ على أَنْ يُضْمَرَ " يتساءلون " ؛ لأنَّ ما بعده يُفَسِّرُه كشيءٍ يُبْهَمُ ثم يُفَسَّرُ " .

عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2)

قوله : ﴿ عَنِ النبإِ ﴾ : يجوزُ فيه ما جازَ في قولِه ﴿ لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ [المرسلات : 13] في البدليةِ والتعلُّقِ بفعلٍ مقدَّرٍ . ويَزيد عليه هنا أَنَّه يتعلَّقُ بالفعل الظاهرِ ، ويتعلَّقُ ما قبلَه بمضمرٍ ، كما تقدَّمَ عن الزمخشريِّ . وقال ابن عطية : " قال أكثرُ النحاة : قوله : ﴿ عَنِ النبإِ العظيم ﴾ متعلِّقٌ ب " يتساءلون " الظاهرِ ، كأَنَّه قال : لِمَ يتساءلون عن النبأ " ؟ وقوله : " عَمَّ " هو استفهامُ تفخيمٍ وتعظيمٍ .

الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3)

قوله : ﴿ الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ : " مُخْتلفون " خبرُ " هم " والجارُّ متعلِّقٌ به . والموصولُ يحتملُ الحركاتِ الثلاثَ إتْباعاً وقَطْعاً رفعاً ونصباً .

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4)

قوله : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ : التكرارُ للتوكيد . وقد زَعَمَ الشيخُ جمالُ الدين ابنُ مالك أَنَّه مِنْ بابِ التوكيدِ اللفظيِّ . ولا يَضُرُّ توسُّطُ حرفِ العطفِ . والنَّحْوِيُّون يَأْبَوْن هذا . ولا يُسَمُّونه إلاَّ عَطْفاً . وإنْ أفادَ التأكيدَ . والعامَّةُ على الغَيْبة في الفعلَيْن . والحسنُ وابنُ دينار وابن عامر بخلافٍ عنه بتاءِ الخطاب فيهما . والضحاك : الأولُ

كالحسن ، والثاني كالعامَّةِ . والغَيْبَةُ والخطابُ واضحان .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6)

قوله : ﴿ مِهَاداً ﴾ : مفعولٌ ثانٍ لأنَّ الجَعْلَ بمعنى التصييرِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى الخَلْق ، فيكونَ " مِهادا " حالاً مقدرة ، و " أوتاداً " كذلك ولا بُدَّ مِنْ تأويلها بمشتق أيضاً ، أي : مُثَبَّتاتٍ . وأمَّا " سُباتاً " فالظاهر كونُه مفعولاً ثانياً . و " لباساً " فيه استعارةٌ حسنةٌ وعليه قولُه :

4465 وكم لِظَلامِ الليلِ عندك مِنْ يدٍ . . . تُخَبِّرُ أنَّ المانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

(241/799)

وقرأ العامَّةُ " مِهاداً " ، ومجاهد وعيسى وبعضُ الكوفيين " مَهْداً " وقد تقدَّمَ هاتان القراءتان في سورة طه ، وأنَّ الكوفيين قَرؤوا " مَهْداً " في طه والزخرف فقط . وتقدَّمَ الفرقُ بينهما ثَمَّةَ .

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13)

قوله : ﴿ وَهَّاجاً ﴾ : الوَهَّاجُ : المُضِيءُ المُتلألِئُ ، مِنْ قولِهم : وَهَجَ الجَوْهَرُ ، أي : تلألأ . ويُقال : وَهِجَ يَوْهَجُ كوَجِلَ يَوْجَلُ ، ووَهَجَ يَهِجُ كوَعَدَ يَعِدُ .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14)

قوله: ﴿ مِنَ المعصرات ﴾: يجوزُ في "مِنْ" أَنْ تكونَ على بابِها من ابتداءِ الغاية، وأَنْ تكونَ للسببية. ويَدُلُّ قراءةُ عبدِ الله بنِ يزيد وعكرمة وقتادة "بالمُعْصِرات" بالباءِ بدلَ "مِنْ" وهذا على خلافٍ في "المُعْصِرات" ما المرادُ بها؟ فقيل: السحاب. يقال: أَعْصَرَتْ السَّحائِبُ، أي: شارَفَتْ أَنْ تُعْصِرَها الرياحُ فتُمْطِرَ كقولك: "أجَزَّ الزرعُ" إذا حان له أن يُجَزَّ. ومنه "أَعْصَرَتِ الجارِيَةُ" إذا حان لها أَنْ تحيضَ. قاله الزمخشريُّ.

وأنشد ابنُ قتيبة لأبي النجم:

4466 تَمْشي الهُوَيْنَى ساقِطاً خِمارُها . . . قد أَعْصَرَتْ أو قَدْ دَنَا إعْصارُها

قلت: ولولا تأويلُ "أَعْصَرَتْ" بذلك لكان ينبغي أَنْ تكونَ المُعْصَرات بفتح الصادِ اسمَ مفعول؛ لأنَّ الرياحَ تُعْصِرُها.

(242/799)

وقال الزمخشري: "وقرأ عكرمةُ "بالمُعْصِرات". وفيه وجهان: أَنْ يُراد الرياحُ التي حانَ لها أَنْ تُعْصِرَ السحابَ، وأَنْ يُرادَ السحائبُ؛ لأَنَّه إذا كان الإنزالُ منها فهو بها/ كما تقول: أَعْطى مِنْ يدِه درهماً، وأَعْطى بيدِه. وعن مجاهد: المُعْصِرات: الرياحُ ذواتُ الأعاصيرِ

. وعن الحسن وقتادة : هي السماواتُ . وتأويلُه : أنَّ الماءَ يَنْزِلَ من السماءِ إلى السحاب فكأنَّ السماواتِ يَعْصِرْنَ ، أي : يَحْمِلْنَ على العَصْر ويُمَكِّنَّ منه . فإنْ قلتَ : فما وَجْهُ مَنْ قرأ " من المُعْصِرات " وفسَّرها بالرياح ذواتِ الأعاصيرِ ، والمطرُ لا يَنْزِلُ من الرياح ؟ قلت : الرياحُ هي التي تُنْشِىءُ السحابَ وتَدِرُّ أخلافَه ، فيَصِحُّ أَنْ تُجْعَلَ مَبْدأً للإنزال . وقد جاء : إنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الرياحَ فتحملُ الماءَ من السماء ، فإنْ صَحَّ ذلك فالإنْزالُ منها ظاهرٌ . فإنْ قلت : ذكر ابن كَيْسانَ : أنه جَعَلَ المُعْصِرات بمعنى المُغِيثات ، والعاصِرُ هو المُغيث لا المُعْصِر . يقال : عَصَرَهُ فاعْتَصَرَ . قلت : وَجْهُه أَنْ يُرادَ : اللاتي أَعْصَرْن ، أي : حان لها أَنْ تُعْصِرَ ، أي : تُغيث " . قلت : يعني أنَّ " عَصَرَ " بمعنى الإغاثةِ ثلاثيٌّ ، فكيف قيل هنا : مُعْصِرات بهذا المعنى ، وهو من الرُّباعي ؟ فأجاب عنه بما تقدَّم ، يعني أنَّ الهمزةَ بمعنى الدُّخولِ في الشيء .

قوله : ﴿ ثَجَّاجاً ﴾ الثَّجُّ : الانصِبابُ بكثرةٍ وشِدَّةٍ . وفي الحديث : " أحَبُّ العملِ إلى اللَّهِ العَجُّ والثَّجُّ " فالعَجُّ : رَفْعُ الصوتِ بالتلبيةِ ، والثَّجُّ : إراقةُ دماءِ الهَدْيِ . يقال : ثَجَّ الماءُ بنفسِه ، أي : انصَبَّ وثَجَجْتُه أنا ، أي : صَبَبْتُه ثَجّاً وثُجوجاً ، فيكونُ لازماً ومتعدياً .

وقال الشاعر :

4467 إذا رَجَفَتْ فيها رَحَىً مُرْجَحِنَّةٌ . . . تَبَعَّجَ ثَجَّاجاً غَزيرَ الحوافِلِ

وقرأ الأعرج "ثجّاحاً" بالحاءِ المهملةِ أخيراً . وقال الزمخشري : "ومَثاجِحُ الماءِ مَصابُّه ، والماءُ يَنْثَجِحُ في الوادي" .

وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)

قوله : ﴿ أَلْفَافاً ﴾ : فيه أوجهٌ : أحدُها : أنَّه لا واحدَ له . قال الزمخشري : "ألفافاً" : ملتفَّةٌ لا واحدَ له كالأَوْزاعِ والأَخْيافِ" . والثاني : أنه جمعُ "لِفّ" بكسرِ اللام ، فيكونُ نحو : سِرّ وأَسْرار . وأنشد أبو علي الطوسي :

4468 جَنَّةٌ لِفٌّ وعَيْشٌ مُغْدِقُ . . . ونَدامى كلُّهم بِيْضٌ زُهُرْ

وهذا قولُ أكثرِ أهلِ اللغة . الثالث : أنه جمعُ لفيف ، قاله الكسائي .

ومثلُه : شريف وأَشْراف ، وشهيد وأشهاد . وقال الشاعر :

4469 أحابِيْشُ أَلْفافٌ تبايَنَ فَرْعُهُمْ . . . وجِذْمُهُمُ عن نسبةِ المتعرِّفِ

(244/799)

الرابع : أنه جمعُ الجمعِ ؛ وذلك أنَّ الأصلَ "أَلَفٌّ" في المذكر ، و "لَفَّاءُ" في المؤنث كأَحْمر وحمراء ، ثم جُمِعا على لُفّ كحُمْر ، ثم جُمع لُفّ على أَلْفاف ، إذا صار لُفٌّ بزنة قُفْلٍ

فجُمع جَمْعَه ، قاله ابن قتيبة . إلا أن الزمخشري ، قال : " وما أظنُّه واجداً له نظيراً مِن نحو : خُضْر وأَخْضار ، وحُمْر وأَحْمار " . قلت كأنّه يَسْتَبْعِدُ هذا القولَ من حيث إن نَظَائِرَه لا تُجْمَعُ على أَفْعال ؛ إذ لا يُقال : خُضْر وأَخْضار ، ولا حُمْر وأَحْمار ، وإن كانا جمعَيْنِ لأَخْضَر وخَضْراء ، وأَحْمر وحَمْراء ، وهذا غيرُ لازمٍ ؛ لأنَّ جمعَ الجمعِ لا يَنْقاسُ ، ويكفي أَنْ يكونَ له نظيرٌ في المفردات كما رأيتَ مِنْ أنَّ لُفّاً صارَ يضارِعُ قُفْلاً ؛ ولهذا امتنعوا مِنْ تكسيرِ مَفاعل ومَفاعيل لعدمِ نظيرٍ في المفرداتِ يُحْمَلان عليه . الخامس : قال الزمخشري : " ولو قيل : هو جمعُ مُلْتَفَّة بتقدير حَذْفِ الزوائد لكان قولاً وجيهاً " . قلت : وفيه تكلُّفُ لا حاجةَ إليه ، وأيضاً فغالبُ عباراتِ النحاة في حَذْف الزوائد إنما هو في التصغير . تقول : تصغيرُ الترخيم بحذفِ الزوائد ، وفي المصادر يقولون : هذا المصدرُ على حَذْفِ الزوائد .

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18)

قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " يومَ الفَصْل " أو عطفَ بيانٍ له ، أو منصوباً بإضمار " أعني " و " أَفْواجاً " حالٌ مِنْ فاعل " تأْتون " . وتقدَّمَ " فُرَاتاً " [الفرقان : 53] . و " فُتِحَتْ " بالتخفيف والتشديد في الزُّمَر .

لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22)

قوله: ﴿ لِّلطَّاغِينَ ﴾: يجوز أَنْ يكونَ صفةً لِمَرْصاداً، وأنْ يكونَ حالاً مِنْ "مآباً" كان صفتَه فلَّما تقدَّم نُصِب على الحال. وعلى هذَيْن الوجهَيْنِ فيتعلَّق بمحذوفٍ. ويجوز أَنْ يكونَ متعلقاً بنفسِ "مِرْصاداً" أو بنفسِ "مآباً" لأنه بمعنى مَرْجِع. وقرأ ابن يَعمر وأبو عمرو المنقري "أنَّ جهنمَ" بفتح "أنَّ". قال الزمخشري: "على تعليل قيامِ السَّاعةِ بأنَّ جهنمَ كانت مِرْصاداً للطاغين، كأنه قيل: كان ذلك لإقامةِ الجزاءِ". قلت: يعني أنَّه علةٌ لقولِه "يومَ يُنْفَخُ" إلى آخره.

وقرأ أبو عياض "في الصُّوَر" بفتحِ الواو. وتقدَّمَ مثلُه.

لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23)

قوله: ﴿ لَابِثِينَ ﴾: منصوبٌ على الحالِ من الضميرِ المستترِ في "للطَّاغِين" وهي حالٌ مقدرةٌ. وقرأ حمزةُ "لَبِثْنَ" دونَ ألفٍ، والباقون "لابثين" بها. وضَعَّفَ مكيٌّ قراءةَ حمزةَ، قال: "ومَنْ قرأ "لبثين"، شَبَّهه بما هو خِلْقَةٌ في الإنسان نحو: حَذِر وفَرِق، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ اللُّبْثَ ليس مِمَّا يكونُ خِلْقَةً في الإنسان، وبابُ فَعِل إنما هو لما يكونُ خِلْقَةً في الإنسانِ، وليس اللُّبْثُ بخِلْقةٍ". ورَجَّح الزمخشريُّ قراءةَ حمزةَ فقال: "قُرِئَ: لابثين ولَبِثين. واللَّبِثُ أَقْوى"؛ لأنَّ اللابثَ يُقال لِمَنْ وجدَ منه اللُّبْثُ، ولا يُقال: لِبثٌ إلا لَمَنْ شأنُه اللُّبْثُ كالذي يَجْثُمُ بالمكانِ، لا يكاد يَنْفَكُّ منه". قلت: وما قاله الزمخشريُّ

أَصْوَبُ . وأمَّا قولُ مكيّ : اللُّبْثُ ليس خِلْقَةً فمُسَلَّمٌ ؛ لكنه بُوْلِغَ في ذلك فجُعِلَ بمنزلةِ الأشياءِ الخِلْقيَّة .

(246/799)

قوله : ﴿ أَحْقَاباً ﴾ منصوبٌ على الظرفِ ، وناصبهُ " لابثين " ، هذا هو المشهورُ . وقيل : هو منصوبٌ بقولِه " لا يَذُوقون " وهذا عند مَنْ يرى تقديمَ معمولِ ما بعد " لا " عليها ، وهو أحدُ الأوجه ، وقد تقدَّم هذا مستوفىً في أواخر الفاتحة . وجَوَّز الزمخشريُّ أَنْ ينتصِبَ على الحالِ ، قال : " وفيه وجهٌ آخر : وهو أَنْ يكونَ مِنْ حَقِبَ عامُنا : إذا قَلَّ مطرُه وخيرُه ، وحَقِبَ فلانٌ : إذا أَخْطَأَهُ الرِّزْقُ فهو حَقِبٌ ، وجمعهُ أَحْقاب ، فينتصِبُ حالاً عنهم بمعنى : لابثين فيها حَقِبين جَحِدين " . وقد تقدَّم الكلامُ على " الحُقُب " ، وما قيل فيه في سورة الكهف .

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24)

قوله : ﴿ لاَّ يَذُوقُونَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه متسأنفٌ أخبر عنهم بذلك . الثاني : أنه حالٌ من الضمير في " لابثين " أي : لابثين غيرَ ذائقين ، فهي حالٌ متداخلةٌ . الثالث : أنه صفةٌ لأَحْقاب . قال مكي : " واحتمل الضميرَ لأنه فِعْلٌ ، فلم يجبْ إظهارُه ، وإن كان قد

جَرَى صفةً على غير مَنْ هُوَ له ، وإنما جاز أَنْ يكونَ نعتاً ل " أحقاب " لأجْل الضميرِ العائدِ على الأَحْقاب في " فيها " ولو كان في موضع " يَذُوْقون " اسمُ فاعلٍ لكان لا بُدَّ مِنْ إظهارِ الضميرِ إذا جَعَلْتَه وصفاً لأَحْقاب " . الرابع : أنه تفسيرٌ لقولِه " أحقاباً " إذا جَعَلْتَه منصوباً على الحالِ بالتأويلِ الذي تقدَّم ذِكْرُه عن الزمخشريِّ فإنه قال : " وقولُه : لا يَذوقون فيها بَرْداً ولا شَراباً تفسيرٌ له . الخامس : أنه حالٌ أُخرى مِنْ " للطَّاغين " ك " لابثين " .

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25)

(247/799)

قوله : ﴿ إلاَّ حَمِيماً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ استثناءً متصلاً من قولِه " شَراباً " وهذا واضِحٌ . والثاني : أَنَّه منقطعٌ . قال الزمخشري : " يعني لا يذُوقون فيها بَرْداً ولا رَوْحاً يُنَفِس عنهم حَرَّ النارِ ، ولا شَراباً يُسَكِّن مِنْ عَطَشِهم ، ولكنْ يَذُوقون فيها حميماً وغَسَّاقاً " .

قلت : ومكيٌّ لَمَّا جَعَله منقطعاً جعل البَرْدَ عبارةً عن النومِ ، قال : " فإن جَعَلْتَه النومَ كان " حميماً " استثناءً ليس من الأول " . وإنما الذي حَمَلَ الزمخشريَّ على الانقطاع مع صِدْقِ اسم الشرابِ على الحميمِ والغَسَّاقِ وَصْفُه له بقولِه " ولا شَراباً يُسَكِّنُ مِنْ عَطَشِهم " فبهذا القَيْدِ صار الحميمُ ليس من جنسِ هذا الشراب . وإطلاقُ البَرْدِ على النوم لغةُ هُذَيْلٍ .

وأنشد :

4470 فإن شِئْتِ حَرَّمْتُ النّساءَ سواكُمُ . . . وإنْ شِئْتِ لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْداً

وفي كلامِ بعضِ الأعراب " مَنَعَ البَرْدُ البَرْدَ " قيل : وسُمِّي بذلك لأنه يقطعُ سَوْرَةَ العطشِ .

والذَّوْقُ على هذين القولين أعني كونَه رَوْحاً يُنَفِّسُ عنهم الحَرَّ ، وكونَه النومَ مجازٌ . وأمَّا على قولِ مَنْ جعله اسماً للشرابِ الباردِ المُسْتَلَذِّ ، ويُعْزَى لابنِ عباس ، وأنشد قولَ حَسَّانَ رضي الله عنه :

4471 يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ . . . بَرْداً يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وقول الآخر :

4472 أَمانِيُّ مِنْ سُعْدَى حِسانٌ كأنَّما . . . سَقَتْكَ بها سُعْدى على ظَمَأٍ بَرْدا

فالذَّوْقُ حقيقةٌ ، إلاَّ أنه يصير فيه تَكْرارٌ بقولِه بعد ذلك : " ولا شراباً " .

الثالث : أنه بدلٌ مِنْ قولِه " ولا شراباً " ، وهو الأحسنُ لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ . وتقدَّم خلافُ القُراء في ﴿ وَغَسَّاقاً ﴾ تخفيفاً وتثقيلاً ، والكلامُ عليه وعلى حميم .

جَزَاءً وِفَاقًا (26)

قوله : ﴿ جَزَآءً ﴾ : منصوبٌ على المصدر / وعاملُه : إمَّا قولُه " لا يذوقون " إلى آخرِه : لأنَّه في قوةِ : جُوزوا بذلك ، وإمَّا محذوفٌ . ووِفاقاً نعتٌ له على المبالغةِ ، أو على حَذْفِ مضافٍ ، أي : ذا موافقة . وقرأ أبو حيوة وابنُ أبي عبلة بتشديد الفاء مِنْ وفَّقه لكذا .

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28)

قوله : ﴿ كِذَّاباً ﴾ : قرأ العامَّةُ كِذَّاباً بتشديدِ الذَّالِ . وكان مِنْ حَقِّ مصدرِ فَعَّل أَنْ يأتيَ على التفعيل نحو : صَرَّف تَصْريفاً . قال الزمخشري : " وفِعَّال في باب فَعَّل كلِّه فاشٍ في كلامِ فصحاءَ مِنْ العرب ، لا يقولون غيرَه . وسَمِعَني بعضُهم أُفَسِّرُ آية ، فقال : " لقد فَسَّرْتَها فِسَّاراً ما سُمِعَ بمِثْله " . قال غيرُه : وهي لغةُ بعضِ العرب يمانيةٌ ، وأنشد :

4473 لقد طالَ ما ثَبَّطْتَني عن صَحابتي . . . وعن حاجةٍ قِضَاؤُها مِنْ شِفائِيا

يريد : تَقَضِّيها . والأصلُ على التَّفْعيل ، وإنَّما هو مثلُ : زَكَّى تَزْكية . وسُمع بعضُهم يَسْتَفْتي في حَجِّه ، فقال : " آلحَلْقُ أحَبُّ إليك أم القِصَّار " يريد التقصيرَ " .

(249/799)

وقرأ علي رضي الله عنه والأعمش وأبو رجاء وعيسى البصرة بالتخفيف ، وهو مصدرٌ : إمَّا لهذا الفعل الظاهرِ على حَذْفِ الزوائد ، وإمَّا لفعلٍ مقدَّرٍ ك ﴿ أَنبَتَكُم مِّنَ الأرض

نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] . قال الزمخشري : وهو مثلُ قولِه : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ يعني : وكَذَّبوا بآياتِنا فكَذَبوا كِذاباً ، أو تَنْصِبُه ب "كَذَّبوا " ؛ لأَنَّه يتضمَّنُ معنى كَذَبوا ؛ لنَّ كلَّ مُكَذِّب بالحقِّ كاذبٌ ، وإنْ جَعَلْتَه بمعنى المكاذَبَةِ فمعناه : وكذَّبوا بآياتِنا فكاذَبوا مُكاذَبَةً ، أو كَذَّبوا بها مُكاذِبين ؛ لأَنَّهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين ، وكان المسلمون عندهم كاذبين ، فبَينهم مكاذَبَةٌ ، أو لأنهم يتكلَّمون بما هو إفراطٌ في الكذبِ ، فِعْلَ مَنْ يغالِبُ في أمرٍ فيَبْلُغُ فيه أقصى جُهْدِه " . وقال أبو الفضل : " وذلك لغةٌ لليمينِ ، وذلك بأَنْ يَجعلوا مصدرَ "كَذَب " مخففاً "كِذاباً " . بالتخفيف ، مثل : كَتَبَ كِتاباً ، فصار المصدرُ هنا مِنْ معنى الفِعْلِ دونَ لفظِه مثلَ : أَعْطَيْته عَطاءً . قلت : أمَّا كَذَبَ كِذاباً بالتخفيف فيهما فمشهورٌ ، ومنه قولُ الأعشى :

4474 فَصَدَقْتُها وكَذَبْتُها . . . والمَرْءُ يَنْفَعُه كِذابُه

وقرأ عمر بن عبد العزيز والماجشون "كُذَّاباً " بضمِّ الكاف وشدِّ الذال ، وفيها وجهان ، أحدُها : أنه جمع كاذِب نحو : ضُرَّاب في ضارب . وانتصابُه على هذا على الحالِ المؤكِّدة ، أي : وكَذَّبوا في حالِ كونِهم كاذبين . والثاني : أنَّ الكُذَّاب بمعنى الواحدِ البليغ في الكذب . يقال : رجلٌ كُذَّاب كقولِك : " حُسَّان " فيُجْعَلُ وصفاً لمصدر كَذَّبوا ، أي : تَكْذيباً كُذَّاباً مُفْرِطاً كَذِبُه ، قالهما الزمخشري .

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29)

قوله : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ : العامَّةُ على النصبِ على الاشتغال ، وهذا الراجحُ لتقدُّمِ جملةٍ فعليةٍ . وقرأ أبو السَّمَّال برفعِه على الابتداء وما بعدَه الخبرُ . وهذه الجملةُ مُعْتَرِضٌ بها بين السبب والمُسَبَّب ؛ لأنَّ الأَصل : وكَذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً فذوقوا . فقوله " فذوقوا " مُتَسَبِّبٌ عن تكذيبهم .

قوله : ﴿ كِتَاباً ﴾ فيه أوجهٌ : أحدُها : أنه مصدرٌ مِنْ معنى " أَحْصَيْنا " ، أي : إحصاءً . فالتجوُّزُ في نفسِ المصدرِ . الثاني : أَنَّه مصدرٌ لـ " أَحْصَيْنا " لأَنَّه في معنى " كَتَبْنا " فالتجوُّزُ في نفسِ الفعلِ . قال الزمخشري : " لالتقاءِ الإِحصاء والكَتْبِ في معنى الضَّبْطِ والتحصيل " . الثالث : أَنْ يكونَ منصوباً على الحالِ بمعنى : مكتوباً في اللوح .

حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32)

قوله : ﴿ حَدَآئِقَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " مَفازاً " بدلَ اشتمال ، أو بدلَ كل مِنْ كل مبالغةً : في أَنْ جُعِلَتْ نفسُ هذه الأشياء مفازاً . ويجوز أَنْ يكونَ منصوباً بإضمار " أَعْني " . وقيل : " مَفازاً " بمعنى الفوز فيقدَّرُ مضافٌ ، أي : فوزَ حدائق .

وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33)

قوله: ﴿ وَكَوَاعِبَ ﴾: الكواعب: جمع كاعِب، وهي مَنْ كَعَبَ ثَدْيُها، أي: استدارَ.

قال:

4475 وكان مِجَنِّي دونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقي . . . ثلاثُ شُخوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ

وقال قيس بن عاصم المِنْقَري:

4476 وكم مِنْ حَصانٍ قد حَوَيْنا كَريمةٍ . . . ومِنْ كاعبٍ لم تَدْرِما البؤسُ مُعْصِرِ

والأَتراب تقدَّم ذكرُهن:

وَكَأْسًا دِهَاقًا (34)

قوله: ﴿ دِهَاقاً ﴾: صفةٌ لكأس. والدِّهاقُ: المَلأَى المُتْرَعَةُ. قيل: هو مأخوذٌ مِنْ دَهَقَه، أي: ضَغَطَهُ وشَدَّه بيدِه، كأنه ملأ اليدَ فانضغطَ. قال الشاعر:

4477 لأَنْتِ إلى الفؤادِ أَحَبُّ قُرْباً . . . من الصَّادي إلى الكأسِ الدهاق

(251/799)

/ وقيل: الدِّهاقُ: المتتابعة. وأُنْشِد:

4478 أتانا عامِرٌ يَبْغي قِراناً . . . فأَتْرَعْنا له كأساً دِهاقا

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35)

قوله : ﴿ وَلاَ كِذَّاباً ﴾ : الكسائيُّ بالتخفيف . والباقون بالتثقيلِ ، وإنما وافق الكسائيُّ الجماعةَ في الأولِ للتصريحِ بفعلِه المشدَّدِ المقتضي لعدمِ التخفيفِ في "كِذّاباً" وهذا ما تقدَّم في قولِه ﴿ فَتُفَجِّرَ الأنهار ﴾ [الإسراء : 91] حيث لم يُخْتَلَفْ فيه ، للتصريح معه بفعلِه ، بخلافِ الأول . وقال مكيٌّ "مَنْ شَدَّد جَعَلَه مصدرَ "كَذَّبَ" زِيْدَتْ فيه الألفُ كما زِيْدَتْ في "إكراماً" ، وقولُهم "تَكْذيباً" جعلوا التاءَ عوضاً مِنْ تشديدِ العينِ ، والياءَ بدلاً من الألف ، غيَّروا أوَّلَه كما غيَّروا آخره . وأصلُ مصدر الرباعيِّ أَنْ يأتيَ على عَدَدِ حروفِ الماضي بزيادة ألفٍ ، مع تغييرِ الحركات . وقد قالوا "تَكَلُّماً" فأتى المصدرُ على عددِ حروفِ الماضي بغير زيادةِ ألفٍ ؛ لكثرة حروفِه ، وضُمَّت اللامُ ، ولم تُكْسَرْ لأنَّه ليسَ اسمٌ على تَفَعِّل ، ولم تُفْتَحْ لئلا يَشْتَبِهَ بالماضي "وقراءةُ الكسائيِّ "كِذاباً" بالتخفيفِ ، جعله مصدرَ : كَذَّبَ كِذاباً . وقيل : هو مصدرُ "كَذَب" كقولِك : كَتَبَ كِتاباً .

جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36)

قوله : ﴿ جَزَآءً ﴾ : مصدرٌ مؤكِّدٌ منصوبٌ بمعنى : إنَّ للمتقين مَفازاً ، كأنه قيل : جازى المتقين بمَفازٍ .

قوله : "عَطاءً" بدلٌ مِنْ "جَزاءً" وهو اسمُ مصدرٍ . قال :

4479 . . . . . وبعدَ عَطائِك المِئَةَ الرِّتاعا

وجعله الزمخشريُّ منصوباً ب " جزاءً " نَصْبَ المفعولِ به . ورَدَّه الشيخُ : بأَنَّه جَعَلَ " جزاءً " مصدراً مؤكداً لمضمونِ الجملةِ التي هي " إنَّ للمتقين [مفازاً] " . قال : " والمصدرُ المؤكِّد لا يعملُ ؛ لأنه لا ينحلُّ لحرفٍ مصدريٍ والفعلِ ، ولا نعلَمُ في ذلك خلافاً " .

قوله : ﴿ حِسَاباً ﴾ صفةٌ ل " عطاءً " والمعنى : كافياً ، فهو مصدرٌ أُقيم مُقامَ الوصفِ ، أو بُوْلِغ فيه ، أو على حَذْفِ مضافٍ مِنْ قولِهم : أَحْسَبَنِي الشيءُ ، أي : كفاني . وقرأ أبو البرهسم وشُرَيْح بن يزيد الحمصي بتشديد السينِ مع بقاءِ الحاءِ على كسرِها . وتخريجُها أنه مصدرٌ مثل كِذَّاب ، أقيم مُقامَ الوصفِ ، أي : عطاءً مُحْسِباً ، أي : كافياً . وابن قطيب كذلك إلاَّ أنَّه فتح الحاءَ ، قال أبو الفتح : " بنى فَعَّالاً مِنْ أَفْعَل كدَرَّاك مِنْ أَدْرَك " يعني أنه صفةٌ مبالغةٍ ، مِنْ أَحْسَبَ بمعنى كافي كذا . وابنُ عباس " حَسَنَا " بالنون من الحُسن . وسِراج " حَسْباً " بفتحِ الحاء وسكونِ السينِ والباءِ الموحَّدة ، أي : عطاءً كافياً ، مِنْ قولِك : حَسْبُك كذا ، أي : كافيك .

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37)

قوله: ﴿ رَبِّ السماوات ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو برفع "ربُّ السماواتِ" و "الرحمنُ". وابن عامر وعاصم بخفضِها، والأخَوان بخفض الأولِ ورَفْعِ الثاني. فأمَّا رَفْعُهما فيجوزُ مِنْ أوجهٍ، أحدها: أَنْ يكونَ "ربُّ" خبرَ مبتدأ مضمرٍ، أي: هو ربُّ. و "الرحمنُ" كذلك، أو مبتدأٌ خبرُه "لا يَمْلِكون". الثاني: أَنْ يُجْعَلَ "ربُّ" مبتدأً، و "الرحمنُ" خبرُه، و "لا يَمْلِكون" خبرٌ ثانٍ، أو مستأنفٌ. الثالث: أَنْ يكونَ "ربُّ" مبتدأً أيضاً و "الرحمنُ" نعتُه، و "لا يَمْلِكون" خبرُ "ربُّ". الرابع: أنْ يكونَ "ربُّ" مبتدأ، و "الرحمنُ" مبتدأٌ ثانٍ، و "لا يَمْلِكون" خبرُه، والجملةُ خبرُ الأولِ. وحَصَلَ الرَّبْطُ بتكريرِ المبتدأ بمعناه، وهو رأيُ الأخفش. ويجوزُ أَنْ يكونَ "لا يَمْلكون" حالاً، وتكونُ لازمةً. وأمَّا جَرُّهما فعلى البدل، أو البيانِ، أو النعتِ، كلاهما للأول، إلاَّ أنَّ تكريرَ البدلِ فيه نظرٌ، وقد نَبَّهْتُ على ذلك في أواخر هذا الموضوع، آخرِ الفاتحةِ، أو يُجْعَلُ "ربِّ السماواتِ" تابعاً للأولِ، و "الرحمن" تابعاً للثاني على ما تقدَّم. وأمَّا جَرُّ الأولِ فعلى التبعيَّةِ للأولِ، ورفعُ الثاني فعلى الابتداءِ، والخبرُ الجملةُ الفعليةُ، أو على أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ، و "لا يَمْلِكون" على ما تقدَّم من الاستئنافِ، أو الخبرِ الثاني، أو الحالِ اللازمةِ.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ : منصوبٌ : إمَّا ب " لا يتكلَّمون " بعدَه ، وإمَّا ب " لا يَمْلِكون " و " صَفًّا " حالٌ ، أي : مُصْطَفِّيْنَ ، و " لا يتكلَّمون " : إمَّا حالٌ وإمَّا مستأنفٌ .

(254/799)

قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ واو " يتكلمون " ، وهو الأَرْجَحُ لكونِه غيرَ موجَب ، وأَنْ يكونَ منصوباً على أصلِ الاستثناء .

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ/ بدلاً مِنْ "يَومَ" قبلَه ، وأَنْ يكونَ منصوباً ب " عذاباً " ، أي : العذابُ واقعٌ في ذلك اليوم . وجَوَّزَ أبو البقاء أَنْ يكونَ نعتاً ل " قريباً " ، ولو جعله نعتاً ل " عذاباً " لكان أَوْلى ، والعامَّةُ بفتح ميم " المَرْءُ " ، وهي العاليةُ . وابنُ أبي إسحاق بضَمِّها وهي لغةٌ : يُتْبِعون الفاءَ اللامَ . وخَطَّأَ أبو حاتمٍ هذه القراءةَ ، وليس بصوابٍ لثبوتِها لغةً .

قوله : ﴿ مَا قَدَّمَتْ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ استفهاميةً مُعلِّقةً ل "يَنْظُرُ" على أنَّه من النظر ، فتكونُ الجملةُ في موضعِ نصبٍ على إسقاط الخافضِ ، وأَنْ تكونَ موصولةً مفعولاً بها ،

والنظرُ بمعنى الانتظار ، أي : ينتظرُ الذي قَدَّمَتْه يداه . والعامَّةُ لا يُدْغِمون تاءَ "كنتُ" في "ترابا" قالوا : لأنَّ الفاعلَ لا يُحْذَفُ ، والإدغامُ يُشْبه الحذفَ . وفي قولِه "ويقولُ الكافرُ" وَضْعُ ظاهرٍ موضعَ مضمرٍ شهادةً عليه بذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 666.646﴾

(255/799)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة النبأ

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم ملك تجمل عباده بطاعته ، وتزين خدمه بعبادته وهو سبحانه لا يتجمل بطاعة المطيعين ، ولا يتزين بخدمة العابدين ، فزينة العابدين صدار طاعتهم وزينة العارفين خلة معرفتهم ، وزينة المحبين تاج ولايتهم . . .

وزينة المذنبين غسل وجوههم بصوب عبرتهم .

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث ، ولالتباسِ ذلك عليهم ، وكثرةِ مُساءَلتهم عنه ، وكثرة

مراجعتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في معناه .

تكرَّر من الله إنزال أمرِ البعث ، وكم استدلَّ عليهم في حوازِه بوجوهٍ من الأمثلة . . فهذا من ذلك ، يقول : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ : عن الخبر العظيم ﴿ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ﴾ .

ذلَّلناها لهم حتى سكَّنوها .

﴿ وَالجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ .

أوتاداً للأرضِ حتى تَميدَ بهم .

﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ .

ذَكَراً وأنثى ، وحَسَناً وقبيحاً . . . وغير ذلك .

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ .

أي راحةً لكم ، لتَنْقَطِعوا عن حركاتِكم التي تعبتم بها في نهاركم .

﴿ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاساً ﴾ .

تُغَطِّي ظُلمتُه كلَّ شيءٍ فتسكنوا فيه .

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً ﴾ .

أي وقتَ معاشِكم .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ .

أي سبع سموات .

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ .

أي الشمس ، جعلناها سراجاً وقَّاداً مشتعلاً .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ .

﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ الرياح التي تعْصِرُ السحاب .

﴿ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾ مطراً صَبَّاباً .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ .

(256/799)

﴿ حَبّاً ﴾ كالحنطة والشعير ، ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ بساتين يَلْتَفُّ بعضُها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاَّ علمتم أنِّي قادرٌ على أَنْ أُعيدَ الخَلْقَ وأُقيمَ القيامة ؟

فبعدَ أن عَدَّ عليهم بعضَ وجوهِ إنعامه ، وتمكينهم من منافعهم . . . قال :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ﴾ .

مضى معناه .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ .

أي في ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ﴾ .

أي : تَشَقَّقَتْ وانفطرت .

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ .

أي كالسراب .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ .

أي ممراً . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

﴿ لِّلطَّاغِينَ مَئَاباً ﴾ .

أي مرجعاً .

﴿ لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ﴾ .

أي دهوراً ، والمعنى مُؤَبَّدين .

﴿ لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ .

مضى معناه . ثم يُعَذَّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَرَ من العذاب .

﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ .

أي : جُوزُوا على فرق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ ، وجرى به الحكم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ .

لا يؤمنون فيرجعون الثواب ويخافون العقاب .

﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ .

أي : تكذيباً .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ .

يأي : كتبناه كتاباً ، وعلمناه عِلْماً .

والمسبِّحُ الزاهدُ تسبيحَه ، والمهجورُ البائسُ يحصي أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحب وصالٍ لا يتفرَّغ من وَصْلِه إلى تذكُّرِ أيامه في العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكةُ يُحصون زلاَّت العاصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴾ فكما أحصى زَلاَّتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أحْصَى أيامَ هجرانِ المهجورين وَأَيامَ مِحَنِ الممتحَنين ، وإنَّ لهم في ذلك لَسَلْوَةً وَنَفَساً :

(257/799)

ثمانٍ قد مضيْنَ بلا تلاقٍ . . . وما في الصبر فَضْلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ ! وأَرْبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَصْر ! قوله جلّ ذكره : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ .

يا أيها المُنَعَّمون في الجنة . . افرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون . . احترقوا في النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً .

ويا أيها المطيعون . . افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فَضْلاً على فَضْل .

يا أيها المساكين . . ابكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلَّا عَزْلاً على عَزْل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .

مُسَلَّمٌ للمتقين ما وعدناهم به . . فهنيئاً لهم ما أَعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْية . والظَّفَرِ بالسُّؤَالِ والمُنْيَة : من حدائق وأَعنابٍ ، ومن كواعبَ أَترابٍ وغير ذلك .

فيا أيها المُهَيَّمون المتَيَّمون هنيئاً لكم ما أنتم فيه اليومَ في سبيل مولاكم من تجرُّدٍ وفقر ، وما كلَّفكم به من توكل وصبر ، وما تجرعتم من صَدٍّ وهجر .

أحرى الملابسِ ما تَلْقَى الحبيبَ به . . . يومَ التزاورِ في الثوب الذي خَلَعا

قوله : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ آذانُهم مصونةٌ عن سماع الأغيار ، وأبصارهم محمفوظةٌ عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴾ .

وكيف تكون للمُكَوَّن المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةٌ أَنْ يملك منه خطاباً ؟ أو يتنفَّسَ بدونه نَفَساً ؟ كلاّ . . بل هو اللَّهُ الواحدُ الجبَّار .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾ .

(258/799)

إنما تظهر الهيبةُ على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم ، وأمَّا الخواص وأصحابُ الحضور فَهُم أبداً بمشهدِ العِزّ بنعت الهيبة ، لا نَفَسَ لهم ولا راحة ؛ أحاط بهم سرادُقها واستولت عليهم حقائها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ﴾ .

هم بمشهد الحقّ ، والحَكَمُ عليهم الحقُّ ، حكم عليهم بالحق ، وهم مجذوبون بالحقّ للحقّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ .

وهو عند أهلِ الغفلة بعيدٌ ، ولكنَّه في التحقيق قريبٌ .

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ .

مضوا في ذُلِّ الاختيار والتعنّي ، وبُعِثوا في حسرة التمنّي ، ولو أنهم رضوا بالتقدير لتخلَّصوا عن التمنّي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 675.680 ﴾

(259/799)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3)

الإعراب :

(عمّ) متعلّق بـ (يتساءلون) ، (عن النبأ) متعلّق بفعل محذوف تقديره يتساءلون (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت ثان للنبأ (فيه) متعلّق بـ (مختلفون) .

جملة : " يتساءلون . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " (يتساءلون) عن النبأ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم فيه مختلفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الفوائد :

- (ما) الاستفهامية :

ومعناها : (أيّ شيء) كقوله تعالى (ما هِيَ) (ما لَوْنُها) (وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى) ،

ويجب حذف ألف (ما) الاستفهامية إذا جرّت ، وإبقاء الفتحة دليلا عليها ، نحو : فيم ،

إلام ، علام ، بم . وقال الكميت بن زيد :

فتلك ولاة السوء قد طال مكثهم فحتام حتام العناء المطوّل

الشاهد فيه دخول حتى على ما الاستفهامية فحذفت ألفها . وكذلك قوله تعالى في الآية

التي نحن بصددها (عَمَّ يَتَساءَلُونَ) .

وأما قول حسان :

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في رماد

فهذا ضرورة شعرية لا يقاس عليها .

وإذا ركّبت (ما) الاستفهامية مع (ذا) لم تحذف ألفها نحو (لماذا جئت) لأن ألفها قد صارت

حشوا .

[سورة النبإ (78) : الآيات 4 إلى 5]

كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (5)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر في الموضعين عن التساؤل (السين) للاستقبال (ثمّ) للعطف جملة: "سيعلمون (الأولى) "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "سيعلمون (الثانية) "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة لزيادة الوعيد والتهديد.

[سورة النبإ (78): الآيات 6 إلى 16]

(260/799)

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَالْجِبالَ أَوْتاداً (7) وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (8) وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10)

وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11) وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (12) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (15)

وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (16)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (مهادا) مفعول به ثان منصوب (الجبال أوتادا) مثل الأرض مهادا ومعطوف عليه.

جملة : " نجعل الأرض . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

8 - 11 (الواو) عاطفة (أزواجا) حال منصوبة من ضمير المفعول في (خلقناكم) ، (سباتا) مفعول به ثان منصوب وكذلك (لباسا ، معاشا) .

وجملة : " خلقناكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل .

وجملة : " جعلنا (الأولى) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل .

وجملة : " جعلنا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل .

وجملة : " جعلنا (الثالثة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل .

12 - (فوقكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (بنينا) بتضمينه معنى رفعنا (سبعا) مفعول به منصوب - وهو نعت عن منعوت محذوف أي سموات سبعا - وجملة : " بنينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل . . .

13 - (سراجا) مفعول به منصوب عامله جعلنا بتضمينه معنى خلقنا " 1 " .

وجملة : " جعلنا (الرابعة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل . . .

14 - 16 (من المعصرات) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (اللام) للتعليل (نخرج) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام .

والمصدر المؤول (أن نخرج . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلنا) وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعل . .

وجملة : " نخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

الصرف :

---

(1) يجوز أن يكون (سراجا) مفعولا ثانيا . . والمفعول الأول محذوف أي جعلنا الشمس سراجا .

(261/799)

---

(11) معاشا : مصدر ميميّ بمعنى المعيشة ، وقصد به ظرف الزمان إذ لم يثبت مجيئه في اللغة اسم زمان فيجب تقدير مضاف محذوف أي وقت معاش ، كقولنا آتيك طلوع الفجر أي وقت طلوع الفجر . وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، وفيه إعلال بالقلب والأصل معيش – بفتح الياء – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(13) وهّاجا ، صفة مشبّهة باسم الفاعل من الثلاثيّ وهج يوهج باب فتح أو وهج يهج باب ضرب وزنه فعّال بفتح الفاء وتشديد العين ، وقد يقصد به المبالغة .

(14) المعصرات : جمع المعصرة مؤنّث المعصر ، اسم للسحابة التي حان وقت إمطارها ، وزنه مفعلات بضمّ الميم وكسر العين .

(ثجّاجا) ، مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ ثجّ – المتعدّي أو اللازم – باب ضرب وزنه فعّال

بالفتح .

(15) حبّا ، اسم جمع واحدته حبّة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(16) ألفافا : جمع لفيف زنة فعيل كشريف وأشراف ، أو بمعنى ملتفّة لا واحد له ، أو جمع لفّ بكسر اللام كسّر وأسرار ، ووزن ألفاف أفعال .

البلاغة

التشبيه : في قوله تعالى " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً " .

شبه الجبال بأوتاد الخيام التي تمنعها من الاضطراب ، كما تمنع الجبال الأرض أن تميد بأهلها .

التشبيه البليغ : في قوله تعالى " وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً " .

ووجه الشبه الستر ، لأن كلا من اللباس والليل يستر المتلبس به . والمعنى جعلناه ساترا لكم عن العيون ، إذا أردتم هربا من عدو ، أو بياتا له ، أو خفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور .

[سورة النبإ (78) : الآيات 17 إلى 20]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (20)

الإعراب :

(يوم) الثاني بدل من (ميقاتا) " 1 " ، (في الصور) نائب الفاعل (أفواجا) حال منصوبة من الفاعل . .

جملة : " إنّ يوم الفصل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان ميقاتا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو بدل من اسم إنّ . . أو متعلّق بـ (تأتون) .

وجملة : " ينفخ في الصور . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تأتون . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ينفخ " 1 " .

19 - 20 (الواو) عاطفة في الموضعين ، وكذلك (الفاء) في الموضعين . .

وجملة : " فتحت السماء . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تأتون " 2 " .

وجملة : " كانت أبوابا " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فتحت .

وجملة : " سيّرت الجبال " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تأتون " 3 " .

وجملة : " كانت سرابا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة سيّرت .

الصرف :

(19) أبوابا : جمع باب ، اسم جامد ، والألف منقلبة عن واو كما يرى في الجمع ، وزنه فعل بفتحتين ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

التشبيه البليغ : في قوله تعالى " وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً " .

حيث شبه الجبال بالسراب ، وحذف الأداة ووجه الشبه ، والجامع أن كلا من الجبال والسراب يرى على شكل شيء وليس هو بذلك الشيء .

[سورة النبإ (78) : الآيات 21 إلى 30]

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (21) لِلطَّاغِينَ مَآباً (22) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (23) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً (24) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25)

---

(1) وإذا تعلّق الظرف (يوم) بـ (تأتون) كانت الجملة معطوفة على الاستئنافيّة .

(2) أو معطوفة على جملة ينفخ .

(3) أو معطوفة على جملة ينفخ .

جَزاءً وِفاقاً (26) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (30)

الإعراب :

(للطاغين) متعلّق بـ (مرصادا) ، (مآبا) خبر كانت ثان (لابثين) حال منصوبة من الطاغين (فيها) متعلّق بـ (لابثين) ، (أحقابا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لابثين) ، (لا) نافية والثانية زائدة لتأكيد النفي (فيها) متعلّق بحال من فاعل يذوقون " 1 " ، (شرابا) معطوف بالواو على (بردا) منصوب (إلّا) للاستثناء (حميما) بدل من (شرابا) " 2 " ، (جزاء) مفعول مطلق لفعل محذوف " 3 " ، (وفاقا) نعت لـ (جزاء) منصوب . .

جملة : " إنّ جهنّم كانت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كانت مرصادا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا يذوقون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير لابثين .

25 - 29 (لا) نافية (الواو) عاطفة في الموضعين (بآياتنا) متعلّق بـ (كذّبوا) ، (كذّابا) مفعول مطلق منصوب (كلّ) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال أي أحصينا كلّ . . .

(كتابا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 4 " .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو متعلّق بـ (يذوقون) .

(2) جعله بعضهم منصوبا على الاستثناء المنقطع .

(3) أو مفعول لأجله منصوب .

(4) إمّا لأن الكتابة إحصاء ، أو لأنّ أحصيناه بمعنى كتبناه . . . ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال بمعنى مكتوبا .

وجملة : " لا يرجون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة : " كذّبوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانوا " 1 " .

وجملة : " (أحصينا) كلّ شيء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أحصيناه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

30 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الفاء) تعليليّة (إلّا) للحصر . . .

(عذابا) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كذّبتم في الدنيا فذوقوا العذاب في الآخرة . . وجملة الشرط المقدّرة مقول القول لقول مقدّر . . .

وجملة : " لن نزيدكم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(21) مرصادا : اسم بمعنى الطريق جاء على وزن صيغة المبالغة من الثلاثيّ رصد بمعنى رقب ، أي هي راصدة الكافرين تترقّبهم ، أو هي مرصدة لهم ومعدّة لتعذيبهم .

(23) لابثين جمع لابث اسم فاعل من الثلاثيّ لبث ، وزنه فاعل ، (أحقابا) ، جمع حقب بضمّ فسكون . . انظر الآية (60) من سورة الكهف .

(24) بردا : قد يكون اسما بمعنى النوم ، وقد سمّي النوم بردا لأنه يبرد صاحبه وهو لغة هذيل . . وانظر الآية (69) من سورة الأنبياء .

(26) وفاقا : مصدر سماعيّ للرباعيّ وافق ، وزنه فعال بكسر الفاء ، واستعمل في موضع الصفة مبالغة .

(28) كذّابا : مصدر سماعيّ للرباعيّ كذّب ، وزنه فعّال بكسر الفاء

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

وتشديد العين المفتوحة.

(29) كتابا: مصدر بمعنى الكتابة أو بمعنى الإحصاء، وزنه فعال بكسر الفاء.

[سورة النبإ (78): الآيات 31 إلى 37]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (31) حَدائِقَ وَأَعْناباً (32) وَكَواعِبَ أَتْراباً (33) وَكَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً (35) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37)

الإعراب:

(للمتّقين) متعلّق بخبر إنّ (حدائق) بدل من (مفازا) منصوب مثله ، ومنع من التنوين لأنه على صيغة منتهى الجموع ، ومثله (كواعب) المعطوف ، (أترابا) نعت لكواعب منصوب . . .

جملة : "إنّ للمتّقين مفازا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

35 - 37 (لا) نافية والثانية زائدة لتأكيد النفي (فيها) متعلّق بحال من فاعل يسمعون " 1 " ، (جزاء) مرّ إعرابه " 2 " ، (عطاء) بدل من جزاء منصوب " 3 " (حسابا) نعت لعطاء " 4 " . . . (ربّ) بدل من ربّك مجرور (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف بالواو على السموات (الرحمن) نعت لربّ الثاني (لا) نافية (منه) متعلّق بـ (يملكون) بتضمينه معنى ينالون .

---

(1) أو متعلّق بـ (يسمعون) . [. . . . .]

(2) في الآية (26) من السورة . . ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال أي مجازين .

(3) أو مفعول مطلق لفعل محذوف . . أو مصدر في موضع الحال من فاعل يسمعون .

(4) أو مفعول مطلق لفعل محذوف .

وجملة : " لا يسمعون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " لا يملكون . . . " في محلّ نصب حال من الرحمن .

الصرف :

(31) مفازا : مصدر ميميّ من الثلاثيّ فاز ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ففيه إعلال بالقلب ، أصله مفوز تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا . . . ويجوز أن يكون اسم مكان .

(33) كواعب : جمع كاعب ، اسم فاعل من الثلاثيّ كعبت الجارية باب نصر ، بدا ثديها للنهود ، وزنه فاعل ، والجمع فواعل .

(34) دهاقا : صفة مشبّهة من دهق الكأس ملأها ، باب فتح ، - أو أفرغها - من الأضداد ، والكأس الدهاق الممتلئة ، وزنه فعال بكسر الفاء .

[سورة النبإ (78) : آية 38]

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (38)

الإعراب :

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يملكون) " 2 " المنفيّ (صفّا) مفعول مطلق لفعل محذوف " 3 " (لا) نافية (إلّا) للاستثناء (من) موصول في محلّ رفع بدل من فاعل يتكلّمون " 4 " ، (له) متعلّق بـ (أذن) ، (صوابا) مفعول به منصوب ، وهو نعت عن منعوت محذوف أي قال كلاما صوابا .

(1) أو في محلّ نصب نعت لحدائق .

(2) في الآية السابقة (37) .

(3) والجملة المقدّرة حال من الروح والملائكة . أو هو مصدر في موضع الحال أي مصطفّين .

(4) أو في محلّ نصب على الاستثناء .

جملة : " يقوم الروح . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا يتكلّمون . . . " في محلّ نصب حال من الروح والملائكة .

وجملة : " أذن له الرحمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أذن له الرحمن .

الصرف :

(صواب) اسم مصدر من الرباعيّ أصاب ، وزنه فعال بفتح الفاء .

[سورة النبإ (78) : آية 39]

ذِلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (39)

الإعراب :

(اليوم) بدل من الإشارة مرفوع - أو عطف بيان عليه - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (شاء) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل يعود على من (اتّخذ) مثل شاء جواب الشرط (إلى ربّه) متعلّق بحال من (مآبا) وهو المفعول الثاني منصوب . . والمفعول الأول محذوف أي اتّخذ الإيمان . . .

جملة : " ذلك اليوم الحقّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من شاء . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن عرفتم أمر ذلك اليوم فمن شاء . . .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " اتّخذ . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(270/799)

[سورة النبإ (78) : آية 40]

إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً

الإعراب :

(عذابا) مفعول به ثان منصوب (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (عذابا) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به بتضمين ينظر معنى يرى (يا) للتنبيه . .

جملة : "إنّا أنذرناكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أنذرناكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "ينظر المرء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "قدّمت يداه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : "يقول الكافر . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ينظر المرء .

وجملة : "ليتني كنت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنت ترابا . . . " في محلّ رفع خبر ليت .

الفوائد :

- حذف نون المثنى وجمع المذكر السالم عند الإضافة :

ورد في هذه الآية قوله تعالى (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرابًا) . الملاحظ في كلمة (يداه) أن النون حذفت منها لإضافتها إلى الضمير (الهاء) . وهذه قاعدة مطردة في المثنى وجمع المذكر السالم . وفي جمع المذكر السالم كقولنا (جاء عاملو

المحطة) . وكذلك الاسم المفرد يحذف منه التنوين إذا أضيف كقولنا (هذا فتى الفتيان) .

ومن هنا جاء قولهم والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 30 صـ 213.224 ﴾

(271/799)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(78) سورد النبإ مكيّة وآياتها أربعون

[سورة النبإ (78) : الآيات 1 إلى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (4)
ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (6) وَالْجِبالَ أَوْتاداً (7) وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً
(8) وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9)
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (10) وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (11) وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً
(12) وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (13) وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (14)
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً (16)

اللغة :

(سُباتاً) راحة لأبدانكم وفي المختار : " السبات النوم وأصله الراحة ومنه قوله تعالى : وجعلنا نومكم سباتا وبابه نصر " وفي المصباح :

"

والسبات بالضم كغراب : النوم الثقيل وأصله الراحة يقال منه سبت يسبت من باب قتل وسبت بالبناء للمفعول غشي عليه وأيضا مات "

وعبارة الزمخشري : " سباتا موتا والمسبوت الميت من السبت وهو القطع لأنه مقطوع عن الحركة والنوم أحد التوفيين وهو على بناء الأدواء " أما أبو حيان فقال " والسبات علّة معروفة يفرط على الإنسان السكوت حتى يصير قاتلا " .

(الْمُعْصِراتِ) المعصر : قال الفراء : السحاب الذي يجلب المطر ولما يجتمع مثل الجارية المعصر قد كادت تحيض ولما تحض ، وقال نحوه ابن قتيبة وقال أبو النجم العجلي :

تمشي الهوينى مائلا خمارها قد أعصرت أو قد دنا إعصارها

وقال عمر بن أبي ربيعة :

فكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

(ثَجَّاجاً) الثج : الانصباب بكثرة وشدة وفي الحديث : " أحب العمل إلى اللّه العج والثج فالعج رفع الصوت بالتلبية والثج إراقة دماء الهدي ، ويقال ثج الماء بنفسه أي انصبّ وثججته أنا أي صببته ثجا وثجوجا فيكون لازما ومتعديا ، وفي المختار : " ثج الماء والدم سال وبابه رد ومطر ثجاج أي منصب جدا والثج أيضا سيلان دماء الهدي وهو لازم تقول منه : ثج الدم يثج بالكسر ثجا بالفتح ، قلت : وقد نقل الأزهري عن أبي عبيدة مثل هذا " .

(أَلْفافاً) ملتفة وفي الأساس " لفّ الثوب وغيره ولفّ الشيء في ثوبه ولففه ولفّ رأسه في ثيابه والتفّ في ثيابه وتلفف والتفّ النبت وفي الأرض تلافيف من عشب ، وجنات ألفافا : ملتفة وبه لفف من الأشجار قال الطرماح :

ولقد عرتني منك جدوى أنبتت خضرا إلى لفف من الأشجار

ورجل ألف وامرأة لفّاء وقد لفّت تلفّ لففا وهو تداني الفخذين من السمن وهو عيب في الرجل مدح في المرأة ، قال نصر بن سيار ملك خراسان :

ولو كنت القتيل وكان حيّا تشمّر لا ألفّ ولا سؤوم

وقال يصف نساء :

عراض القطا ملتفة ربلاتها وما اللفّ أفخاذا بتاركة عقلا "

وقال الزمخشري : " ألفافا : ملتفة لا واحد له وقيل الواحد لفّ بكسر اللام " فيكون نحو سر وأسرار وقيل أنه جمع لفيف قاله الكسائي ومثله شريف وأشراف وشهيد وأشهاد .

الإعراب :

(عَمَّ يَتَساءَلُونَ ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) عن حرف جر وما اسم استفهام مجرور بعن وقد تقدم حذف ألف ما في الاستفهام إذا دخل عليها حرف جر في الأكثر وقرئ عمّا بإثبات الألف وقد تقدم أنه يجوز ضرورة أو في قليل من الكلام ، وعليه قول حسان بن ثابت :

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في رماد

(273/799)

و الظاهر أن عمّ متعلق بيتساءلون والاستفهام لتفخيم الشأن كأنه قال عن أيّ شيء يتساءلون ونحوه كقوله زيد ما زيد جعلته لانقطاع نظيره كأنه شيء خفي عليك فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن كنهه وجوهره تقول : ما الغول وما العنقاء ؟ تريد أي شيء من الأشياء هذا ثم جرد للعبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام اللّه تعالى الذي لا تخفى

(274/799)

عليه خافية ، وعن النبإ العظيم كلام مستأنف مسوق لبيان ذلك الشيء فهو متعلق بمحذوف دلّ عليه يتساءلون وليس صلة ليتساءلون لأن عم صلة أي يتساءلون عن النبإ العظيم فهو عطف بيان نحوي والذي صفة ثانية للنبإ وهم مبتدأ وفيه متعلقان بمختلفون ومختلفون خبر هم والجملة صلة الذي (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) ردع ووعيد للمتسائلين هزؤا وفيه معنى الوعيد والتهديد فالردع بكلمة كلا والوعيد بكلمة سيعلمون ومفعول سيعلمون محذوف تقديره ما يحلّ بهم وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وكلا سيعلمون تأكيد لفظي للجملة السابقة ولا يضر توسط حرف العطف ، والنحويون يأبون إلا أن يكون عطفا وإن أفاد التأكيد ويمكن أن يجاب بأن ثمة تغايرا ملحوظا وهو أن الوعيد الثاني أشد من الأول وبهذا الاعتبار صار مغايرا لما قبله ولذا عطف بثم (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً) كلام مستأنف مسوق لبيان قدرته سبحانه على البعث وإيراد الدلائل عليه وذكر منها تسعة والوجه فيها أنه إذا كان قادرا على هذه الأشياء فهو بحكم البديهة قادر على البعث ، والهمزة للاستفهام التقريري أي جعلنا الأرض مهادا ولم حرف نفي وقلب وجزم ونجعل فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره نحن والأرض مفعول به أول ومهادا مفعول به ثان لأن الجعل بمعنى التصيير ويجوز أن يكون بمعنى الخلق فيكون مهادا حالا مقدرة والجبال أوتادا عطف على الأرض مهادا (وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً) عطف

على ما تقدم وخلقناكم فعل وفاعل ومفعول به وأزواجا حال أي متجانسين متشابهين ذكورا وإناثا (وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً) عطف أيضا وجعلنا فعل ماض وفاعل ونومكم مفعول جعلنا الأول وسباتا مفعول جعلنا الثاني (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً) عطف أيضا والجملة مماثلة لما قبلها في الإعراب (وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً) عطف أيضا وهي

(275/799)

مماثلة لما قبلها أيضا ومعاشا مصدر ميمي بمعنى المعيشة وقد وقع هنا ظرفا للزمان أي وقت معاش (وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ

سَبْعاً شِداداً)

عطف أيضا وبنينا فعل ماض وفاعل وفوقكم ظرف متعلق ببنينا وسبعا مفعول به أي سبع سموات وشدادا صفة (وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً) عطف أيضا وسراجا مفعول جعلنا ووهاجا صفة والجعل هنا بمعنى الخلق (وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً) عطف أيضا وأنزلنا فعل وفاعل ومن المعصرات متعلقان بأنزلنا وماء مفعول به وثجاجا صفة (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَباتاً) اللام لام التعليل ونخرج فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وهي متعلقة بأنزلنا أيضا وبه متعلقان بنخرج وحبا مفعول نخرج ونباتا عطف على حبا (وَجَنَّاتٍ أَلْفافاً)

عطف على حبا وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وألفافا نعت لجنان أي بساتين ملتفة .

البلاغة :

في قوله " وجعلنا الليل لباسا " تشبيه بليغ ، ووجه الشبه الستر لأن كلّا من اللباس والليل يستر المتلبس به أي يستركم عن العيون إذا أردتم النجاة بأنفسكم من عدو يلاحقكم أو بيا تا له إذا أردتم إنزال الوقيعة به في منأى عن العيون أو يعينكم على إخفاء ما لا ترغبون في أن يطّلع عليه أحد ، وقد رمق أبو الطيب هذه السماء العالية كعادته فقال :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

وقال رد الأعداء تسري إليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

والمانوية نسبة إلى ماني مؤسّس مذهب المانوية بمبدأين بالوجود مبدأ الخير ومبدأ الشر : النور والظلام ، دخل ماني في التصوير الفارسي ونسق التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين وتوفي سنة 276 م وإيضاح مسألة المانوية أنهم قالوا : تجد في العالم خيرا كثيرا وشرا كثيرا

و الواحد لا يكون خيّرا شريرا ، فكلّ من الخير والشر فاعل مستقل ، قالوا فاعل الخير هو النور وفاعل الشر هو الظلمة فاعتقدوا أنهما جسمان قديمان حسّاسان سميعان بصيران وكل ذلك ظاهر البطلان .

وقال أبو الطيب أيضا متشبثا بأهداب هذه البلاغة العالية :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري

وقال ابن زيدون :

سرّان في خاطر الظلماء يكتمان حتى يكاد لسان الصبح يغشينا

[سورة النبإ (78) : الآيات 17 إلى 40]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (18) وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (21)

لِلطَّاغِينَ مَآباً (22) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (23) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً (24) إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً (25) جَزاءً وِفاقاً (26)

إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (27) وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذاباً (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (31)

حَدائِقَ وَأَعْناباً (32) وَكَواعِبَ أَتْراباً (33) وَكَأْساً دِهاقاً (34) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً

وَلا كِذَّاباً (35) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36)

رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (38) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (39) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (40)

(277/799)

اللغة :

(سَراباً) السراب : ما يشاهد نصف النهار من اشتداد الحر كأن ماء تنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها ، ويضرب به المثل في الكذب والخداع يقال " هو أخدع من السراب " يعني أنها تصير شيئاً كلا شيء لتفرّق أجزائها وانبثاث جواهرها كقوله تعالى : " فانت هباء منبثا " ، وسيأتي المزيد من معناه في باب البلاغة .

(أَحْقاباً) جمع حقب بضم الحاء ويجمع أيضا على أحقب :

ثمانون سنة أو أكثر والدهر والسنة أو السنون وسيأتي مزيد من المراد به في باب الإعراب .

(بَرْداً) البرد هو مسّ الهواء القرّ أي لا يمسّهم منه ما يستلذ أو ينفس حرّ النهار عنهم وقال

أبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد ومعاذ النحوي البرد هنا : النوم والعرب تسمّيه

بذلك لأنه يبرد سورة العطش ومن كلامهم منع البرد البرد وقال الشاعر :

فلو شئت حرّمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقّاخا ولا بردا

النقاخ : الماء البارد والبرد النوم وفي كتاب اللغات في القرآن أن

البرد هو النوم بلغة هذيل ، وقد أوردت المعاجم اللغوية البرد بمعنى النوم ولكن وروده بهذا

المعنى في الآية تكلّف والصواب ما قاله الجمهور من أن البرد هو الشراب البارد وهو

مناسب لكلمة الذوق ومنه قوله :

أماني من سعدى حسان كأنما سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى وإلّا فقد عشنا بها زمنا رغدا

والذوق على هذا حقيقة لا مجاز .

(غَسَّاقاً) قرئ بالتخفيف والتشديد وقد تقدم ذكره وأنه ما يسيل من صديد أهل النار .

الإعراب :

)

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً) كلام مستأنف مسوق للرد على سؤال قد يرد بعد أن أثبت اللّه البعث بالأدلة المتقدمة وهو : ما وقت البعث فقال : إن يوم إلخ ، وإنّ واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو وميقاتا خبرها (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً) يوم بدل من يوم الفصل وأجاز أبو البقاء أن يكون بدلا من ميقاتا أو منصوب بفعل محذوف تقديره أعني وجملة ينفخ في محل جر بإضافة الظرف إليها ونفخ فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو يعود على إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، فتأتون عطف على ينفخ وأفواجا حال من الواو (وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً) عطف على فتأتون وإنما عدل عن المضي إلى المضارع لتحقق الوقوع وقيل الواو حالية والجملة في محل نصب على الحال أي فتأتون والحال أن السماء قد فتحت والسماء نائب فاعل ، فكانت عطف على فتحت واسم كان مستتر تقديره

(279/799)

هي وأبوابا خبرها وقرئ فتحت بالتشديد (وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً) عطف أيضا وسيّرت فعل ماض مبني للمجهول والجبال نائب فاعل ، فكانت عطف على سيّرت وسرابا خبر كانت (إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً) كلام مستأنف مسوق للشروع في وصف

أهوال جهنم بعد أن فرغ من وصف الأحوال العامة ليوم القيامة ، وإن واسمها وجملة كانت خبرها واسم كانت مستتر تقديره هي أي جهنم ومرصادا خبر كانت أي راصدة للمعذبين فيها مترقبة لهم أو مرصدة بمعنى معدّة لهم فهي إما من رصد الثلاثي بمعنى ترقب وإما من أرصد الرباعي أي أعدّ ، والمرصاد في معاجم اللغة : الطريق والممر ، وعبارة الزمخشري : المرصاد الحدّ الذي يكون فيه الرصد (لِلطَّاغِينَ مَآباً) للطاغين متعلقان بمرصادا ومآبا خبر ثان لكانت أي مثابة لهم ومرجعا يثوبون ويرجعون إليها ويجوز تعلق للطاغين بمرصاد (لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً) لابثين حال مقدّرة من الضمير المستكن في للطاغين وأحقابا ظرف متعلق بلابثين ، فإن قيل : إن الأحقاب مهما امتدت وتراخى بها الزمن فهي متناهية على كل حال وعذاب الكفّار غير متناد قيل في الجواب عن هذا السؤال وجوه منها :

(280/799)

1- ما روي عن الحسن قال : " إن اللّه تعالى لم يجعل لأهل النار مدة بل قال : لابثين فيها أحقابا فو اللّه ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل حقب إلى الأبد وليس للأحقاب مدة إلا الخلود " . 2- إن لفظ الأحقاب لا يدل على نهاية والحقب الواحد متناه والمعنى أنهم يلبثون فيها أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا ، فالتوقيت لأنواع

العذاب لا توقيت للّبث والمكوث . (لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً) جملة لا يذوقون حال من الضمير في لابثين أي لابثين غير ذائقين فهي حال متداخلة أو صفة لأحقابا وقيل مستأنفة ولا نافية ويذوقون فعل مضارع مرفوع وفيها متعلقان بيذوقون وبردا مفعول به والواو حرف عطف ولا نافية وشرابا عطف على بردا (إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) إلا أداة حصر وحميما بدل من شرابا لأن الكلام غير موجب وغساقا عطف عليه ، وهذا أسهل مما سلكه المفسرون فقد قال بعضهم أنه استثناء منقطع وعليه جرى في الكشاف قال : " لا يذوقون فيها بردا ينفّس عنهم حرّ النار ولا شرابا يسكن عطشهم ولكن يذوقون فيها حميما " وتبعه الجلال ، وقال أبو حيان : " الظاهر أنه متصل من قوله ولا شرابا " (جَزاءً وِفاقاً) جزاء مصدر منصوب بفعل محذوف أي جوّزوا بذلك جزاء ووفاقا نعت لجزاء فتكون الجملة مستأنفة (إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً) الجملة تعليل لقوله جزاء وإن واسمها وجملة كانوا خبر إنهم وكان اسمها وجملة لا يرجون خبرها وحسابا مفعول يرجون أي محاسبة (وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً) الواو عاطفة وكذبوا فعل وفاعل وبآياتنا متعلقان بكذبوا وكذابا مفعول مطلق أي تكذيبا وفعّال في باب فعّل كله فاش في كلام فصحاء العرب لا يكادون يقولون غيره ، قال الزمخشري : " وسمعني بعضهم أفسّر آية فقال : لقد فسّرتها فسارا ما سمع بمثله وقرئ بالتخفيف وهو مصدر كذب بدليل قوله :

فصدقتها وكذّبتها والمرء ينفعه كذابه "

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً) الواو عاطفة وكل شيء منصوب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء أحصيناه وهذه الجملة معترضة بين السبب ومسبّبه فإن قوله الآتي : فذوقوا مسبّب عن تكذيبهم وفائدة الاعتراض تقرير ما ادّعاه من قوله جزاء وفاقا ، وجملة أحصيناه مفسّرة لا محل لها وأحصيناه فعل ماض وفاعل ومفعول به وكتابا يجوز أن يكون مصدرا من معنى أحصيناه أي إحصاء وأحصيناه بمعنى كتبنا لالتقاء الإحصاء والكتبة في معنى الضبط والتحصيل أو يكون مصدر لأحصينا ويجوز أن يكون حالا بمعنى مكتوبا (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً) الفاء تعليلية لأنه- كما قلنا - مسبّب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ،

(282/799)

و ذوقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل ومعنى الأمر الإهانة والتحقير ، والفاء عاطفة ولن حرف نفي ونصب واستقبال ونزيدكم فعل مضارع منصوب بلن والكاف مفعول به أول وإلا أداة حصر وعذابا مفعول به ثان (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً) كلام مستأنف مسوق

لبيان أحوال أهل الجنة وللمتقين خبر إن المقدم ومفازا اسم إن المؤخر والمفاز مصدر ميمي أو اسم مكان لموضع الفوز ، وفي المختار " الفوز النجاة والظفر بالخير وهو الهلاك أيضا وبابهما قال " وعلى هذا فإطلاق المفازة على الفلاة الخالية من الماء حقيقي لأنها مهلكة لأن من معاني الفوز الهلاك كما رأيت ، وفي القاموس : " الفوز : النجاة والظفر بالخير والهلاك ضد فاز مات وبه ظفر ومنه نجا " (حَدائِقَ وَأَعْنابا وَكَواعِبَ أَتْرابا وَكَأْسا دِهاقا) حدائق جمع حديقة وهي القطعة المستديرة من الأرض ذات النخل والماء ، وهي بدل بعض من كل من مفازا ، وأعنابا وما بعده عطف على حدائق ولا معنى لعطفها على مفازا بحجة أنها ذكرت بعد الحدائق تنويها بشأنها فذلك بعيد عن سهولة القرآن وعدم تعسّف الكلام فيه (لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّابا) الجملة حال من المتقين ولا نافية ويسمعون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وفيها متعلقان بيسمعون ولغوا مفعول به ولا كذابا عطف على لغوا (جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِسابا) جزاء مفعول مطلق لفعل محذوف أي جزاهم اللّه بذلك جزاء ومن ربك نعت لجزاء وعطاء بدل من جزاء وفي هذا البدل سر لطيف وهو الإلماع إلى أن ذلك تفضّل وعطاء وجزاء مبني على الاستحقاق ، وأعربه الزمخشري منصوبا بجزاء نصب المفعول به أي جزاهم عطاء ، وحسابا نعت لعطاء والمعنى كافيا فهو مصدر أقيم مقام الوصف أو باق على مصدريته مبالغة (رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطابا) رب بالجر على أنه بدل من

ربك وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو رب وما عطف على السموات والأرض وبينهما ظرف مكان

متعلق بمحذوف صلة ما والرحمن بدل أو نعت لرب أيضا وجملة لا يملكون مستأنفة ومنه متعلقان بيملكون وخطابا مفعول وقرىء برفع الرحمن فيكون مبتدأ وجملة لا يملكون خبره (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَوابًا) يوم ظرف متعلق بلا يملكون أو بلا يتكلمون وجملة يقوم الروح والملائكة في محل جر بإضافة الظرف إليها وصفا حال أي مصطفّين وجملة لا يتكلمون تأكيد لقوله لا يملكون أو مستأنفة وإلا أداة حصر ومن بدل من الواو في يتكلمون أو نصب على الاستثناء لأن الكلام غير موجب وجملة أذن صلة من وله متعلقان بأذن والرحمن فاعل وقال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وصوابا صفة لمصدر محذوف أي قولا صوابا (ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً) ذلك مبتدأ واليوم بدل والحق خبر ذلك ولك أن تجعل اليوم خبرا والحق نعتا للخبر ، فمن الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط محذوف كأنه قيل وإذا كان الأمر بهذه المثابة وكما ذكر من تحقق اليوم المذكور فمن ، ومن شرطية مبتدأ وشاء فعل ماض في محل جزم

فعل الشرط ومفعول المشيئة محذوف واتخذ فعل ماض في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من وإلى ربه متعلقان بمآبا وماآبا مفعول اتخذِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً)

إن واسمها وجملة أنذرناكم خبرها وأنذرناكم

فعل وفاعل ومفعول به أول وعذابا مفعول به ثان وقريبا نعت وْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً)

(284/799)

يوم ظرف متعلق بعذابا وجملة ينظر المرء في محل جر بإضافة الظرف إليها وما مفعول به وجملة قدّمت يداه صلة ما ويقول الكافر عطف على ينظر المرء ولك أن تجعلها مستأنفة أو حالية ويا حرف تنبيه أو المنادى محذوف وليتني ليت واسمها وجملة كنت خبرها وترابا خبر كنت .

البلاغة :

التشبيه كثير في هذه السورة ونشير هنا إلى قوله " وسيّرت الجبال فكانت سرابا " وهو تشبيه بليغ حذفت منه الأداة وحذف وجه الشبه أيضا وهو أن المرئي خلاف الواقع فكما يرى السراب من بعيد للظامىء الملتاح كأنه ماء فيستبشر به ويخفّ إليه حتى إذا أدركه

بعد طول الأين لم يجده شيئا ، وكذلك ترى الجبال كأنها جبال وليست كذلك في نفس الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 348.360 ﴾

(285/799)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/800)

الجزء الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النازعات)

(4/800)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النازعات)

(5/800)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة النازعات

وتسمى الساهرة والطامة .

مقصودها بيان أواخر أمر الإنسان بالإقسام على بعث الأنام ، ووقوع القيام يوم الزحام وزلل الأقدام ، بعد البيان التام فيما مضى من هذه السور العظام ، تنبيها على أنه وصل الأمر في الظهور إلى مقام ليس بعده مقام ، وصور ذلك بنزع الأرواح بأيدي الملائكة الكرام ، ثم أمر فرعون اللعين وموسى عليه السلام ، واسمها النازعات واضح في ذلك المرام ، إذا تؤمل القسم وجوابه المعلوم للأئمة الأعلام ، وكذا الساهرة والطامة إذا تؤمل السياق ، وحصل التدبير في تقرير الوفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 308 ﴾

(6/800)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والنازعات غرقا)

السّورة مكِّيّة .

آياتها ستّ وأَربعون فى عدّ الكوفة ، وخمس عند الباقين .

وكلماتها مائة وتسع وسبعون .

وحروفها سَبْعمائة وثلاث وخمسون .

المختلف فيها اثنتان : ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ طغى .

فواصل آياتها (هم) ، على الميم آية واحدة : ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : القَسَم الصُّور ، وكيفِيّة البَعْث والنُّشُور ، وإرسال موسى إلى فرعون ، والمِنَّة بخَلْق السّماءِ والأَرض ، وتحقيق هَوْل القيامة ، وبيان حال مَنْ آثر الدّنيا ، والخبر من حال أَهل الخوف ، واستعجال الكافرين بالقيامة ، وتعجّبهم منها فى حال البعث فى قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ إلى آخرها .

والسّورة محكمة .

المتشابهات

قوله : ﴿ الطامة ﴾ ، وفى عبس ﴿ الصاخة ﴾ ؛ لأَنَّ الطَّامّة مشتَقَّة من طمَمْت البِئر إذا كبستَها .

وسمّيت القيامة طامة ، لأَنَّها تكبِس كلّ شىء وتكسِره .

وسمّيت الصَّاخة – والصّاخَّة : الصّوت الشَّديد – لأَنَّ من شدّة صوتها يحيا النَّاس ؛ كما ينتبه النَّائم (من الصّوت) الشديد .

وخُصّت النازعات بالطَّامة : لأَنَّ الطَّم قبل الصّخ ، والفزع قبل الصّوت ، فكانت هى

السّابقة ، وخُصّت (عبس) بالصّاخَّة ؛ لأَنَّها بعدها .

وهى اللاَّحقة .

فضل السّورة

فيه حديثان منكَران : عن أُبىّ : مَنْ قرأَها كان حَبْسه فى القبور ، وفى القيامة ، حتى يدخل الجنَّة قدْرَ صلاةٍ مكتوبة ، وعن علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها استغْفَرَت له الملائكة أَيَّام حياته ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب الَّذين آمنوا بموسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 499. 500 ﴾

(7/800)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة النازعات

464. مسألة :

قوله تعالى (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) ط

وفى عبس :

(جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) ؟ .

جوابه :

أنه لما ذكر في هذه السورة أهوال يوم القيامة (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) الآيات ، ثم خبر فرعون وأخذه نكال الآخرة والأولى ، ناسب تعظيم أمر الساعة وجعلها الطامة أى التي تطم على ما قبلها من الشدائد والأهوال المذكورة .

وأما آية عبس : فتقدمها قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

إلى قوله تعالى : (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ، فناسب ذلك ذكر الصيحة الناشرة للموتى من القبور وهي (الصاخة) ومعناه : الصيحة الشديدة التى توقظ النيام لشدة وقعها فى الآذان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 372.373 ﴾

(8/800)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة النازعات

سميت في المصاحف وأكثر التفاسير (سورة النازعات) بإضافة سورة إلى النازعات

بدون واو ، وجُعل لفظ (النازعات) علماً عليها لأنه لم يذكر في غيرها . وعنونت في كتاب التفسير في (صحيح البخاري) وفي كثير من كتب المفسرين بسورة (والنازعات) بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها .

وقال سعد الله الشهير بسعْدِي والخفاجي : إنها تسمّى (سورة الساهرة) لوقوع لفظ (الساهرة) في أثنائها ولم يقع في غيرها من السور .

وقالا : تسمى سورة الطامة (أي لوقوع لفظ الطامّة فيها ولم يقع في غيرها) . ولم يذكرها في (الإِتقان) في عداد السور التي لها أكثر من اسم .

ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عنونَ اسمها (سورة فالمدبِّرات) وهو غريب ، لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها .

وهي مكيّة بالاتفاق .

وهي معدودة الحادية والثمانين في ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار .

وعدد آيها خمس وأربعون عند الجمهور ، وعدَّها أهل الكوفة ستاً وأربعين آية .

أغراضها

اشتملت على إثبات البعث والجزاء ، وإبطال إحالة المشركين وقوعه .

وتهويل يومه وما يعتري الناس حينئذ من الوهل .

وإبطال قول المشركين يتعذر الإِحياء بعد انعدام الأجساد .

وعرِّض بأن نكرانهم إياه منبعث عن طغيانهم فكان الطغيان صَادّاً لهم عن الإِصغاء إلى الإِنذار بالجزاء فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقبين حياة بعد هذه الحياة الدنيا بأن جُعل مثل طغيانهم كطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى عليه السلام وإن لهم في ذلك عبرة ، وتسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)

وانعطف الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث بأنّ خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق .

وأدمج في ذلك إلْفَات إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله تعالى .

وأدمج فيه امتنان في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها وأنه إذا حل عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب .

وكشف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه وجعلهم ذلك أمارة على أنتفائه فلذلك يسألون الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تعيين وقت الساعة سؤال تعنت ،

وأن شأن الرسول أن يذكرهم بها وليس شأنه تعيين إبانها ، وأنها يوشك أن تحل فيعلمونها عياناً وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءاً من النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 59.60 ﴾

(10/800)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة النازعات

هذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشري حقيقة الآخرة , بهولها وضخامتها , وجديتها , وأصالتها في التقدير الإلهي لنشأة هذا العالم الإنساني , والتدبير العلوي لمراحل هذه النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفي جوفها ; ثم في الدار الآخرة , التي تمثل نهاية هذه النشأة وعقباها .

وفي الطريق إلى إشعار القلب البشري حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة على أوتار القلب , ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى . وهي إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة . فتلك الحقيقة تمهد لها في الحس وتهيئه لاستقبالها في يقظة وفي حساسية . .

يمهد لها بمطلع غامض الكنه يثير بغموضه شيئا من الحدس والرهبة والتوجس . يسوقه في إيقاع موسيقي راجف لاهث , كأنما تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانبهار :(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) . .

(11/800)

وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجيء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظله من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه ; كأنما المطلع إطار له وغلاف يدل عليه: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون:أئنا لمردودون في الحافرة ? أئذا كنا عظاما نخرة ? قالوا: تلك إذا كرة خاسرة ! فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة . .

ومن هنالك . . من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . . يأخذ في عرض مصرع من مصارع المكذبين العتاة في حلقة من قصة موسى مع فرعون . فيهدأ الإيقاع الموسيقي ويسترخي شيئا ما , ليناسب جو الحكاية والعرض: هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى:اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل:هل لك إلى أن تزكى ?

وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى , فكذب وعصى , ثم أدبر يسعى , فحشر فنادى , فقال: أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى . . وبهذا يلتقي ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى .

ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح , ومشاهد الكون الهائلة , الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون , المهيمنة على مصائره , في الدنيا والآخرة . فيعرضها في تعبيرات قوية الأسر , قوية الإيقاع , تتسق مع مطلع السورة وإيقاعها العام: (أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها , رفع سمكها فسواها , وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ; والأرض بعد ذلك دحاها , أخرج منها ماءها ومرعاها , والجبال أرساها , متاعا لكم ولأنعامكم) . .

(12/800)

وهنا – بعد هذه التمهيدات المقربة وهذه اللمسات الموحية – يجيء مشهد الطامة الكبرى , وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخر في مشاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكبرى: (فإذا جاءت الطامة الكبرى , يوم يتذكر الإنسان ما سعى , وبرزت الجحيم لمن يرى ! فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا , فإن

الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) . .

وفي اللحظة التي يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث من مشاهد الطامة الكبرى , والجحيم المبرزة لمن يرى , وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا , ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . . في هذه اللحظة يرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة , الذين يسألون الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن موعدها . يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها في الحس وضخامتها : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ? فيم أنت من ذكراها ? إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) . . والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل , تشارك في تشخيص الضخامة وتجسيم التهويل ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3811 . 3812﴾

(13/800)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة النازعات

مكية وآياتها ست وأربعون آية

بين يدي السورة

* سورة النازعات مكية ، شانها كشأن سائر السور المكية ، التي تعنى بأصول العقيدة الإيمانية (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) ومحور السورة يدور حول القيامة وأحوالها ، والساعة واهوالها ، وعن مآل المتقين ، ومآل المجرمين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار ، التي تنزع ارواح المؤمنين بلطف ولين ، وتنزع ارواح المجرمين بشدة وغلظة ، والتي تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا [والنازعات

غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا] ا لايات .

* ثم تحدثت عن المشركين ، المنكرين للبعث والنشور ، فصورت حالتهم في ذلك اليوم الفظيع [قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون أننا لمردودون في الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة ؟] الآيات .

* ثم تناولت السورة (فرعون ، الطاغية الجبار ، الذي ادعى الربوبية وتمادى في الجبروت والطغيان ، فقصمه الله ، واهلكه بألغرق هو وقومه الأقباط [هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى . .]

الآيات .

* وتحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكرتهم بأنهم أضعف من كثير من مخلوقات الله [ءانتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استبعده المشركون وأنكروه ، وكذبوا بحدوثه [يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 512 ﴾

(14/800)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة النازعات

والنازعات : أي الكواكب الجاريات على نظام معين فى سيرها كالشمس والقمر ، يقال نزعت الخيل : إذا جرت ، غرقا : أي مجدّة مسرعة فى جريها ، لتقطع مسافة فلكها حتى

تصل إلى أقصى المغرب ، والناشطات نشطا : أي الخارجات من برج إلى برج ، من قولهم : نشط النور إذا خرج ، والسابحات سبحا : أي السائرات فى أفلاكها سيرا هادئا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وقد جعل مرورها فى جوائها كالسبح فى الماء كما جاء فى قوله : " وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " والسابقات سبقا :

أي المسرعات عن غيرها فى سبحها ، فتتم دورتها حول ما تدور عليه فى مدة أسرع مما يتم غيرها كالقمر فإنه يتم دورته فى شهر قمرى ، والأرض تتم دورتها فى سنة شمسية ، وهكذا غيرها من السيارات السريعة ، ومنها ما لا يتم دورته إلا فى سنين ، فالمدبرات أمرا : أي فالكواكب التي تدبر بعض الأمور الكونية فى عالمنا الأرضى بظهور بعض آثارها ، فسبق القمر علّمنا حساب شهوره ، وله الأثر العظيم فى السحاب والمطر وفى البحر من المدّ والجزر ، ولضيائه حين امتلائه فوائد فى تصريف منافع الناس والحيوان ، وسبق الشمس فى أبراجها علّمنا حساب الشهور ، وسبقها إلى تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين ، وخالف بين فصول السنة ، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان ، وقد نسب إليها التدبير ، لأنها أسباب ما نستفيده منها ، والمدبر الحكيم : هو اللّه تعالى جل شأنه .

(15/800)

و ترجف : أي تضطرب وتتحرك ، والراجفة : الأرض بمن عليها ، والرادفة : السماء وما فيها تردفها وتتبعها ، فإنها تنشق وتنثر كواكبها ، الواجفة : أي الشديدة الاضطراب خاشعة : أي ذليلة ، الحافرة : الحياة الأولى ، أي الحياة بعد الموت وقد ظنوها حياتهم الأولى ، يقال رجع فى حافرته : أي فى طريقه التي جاء فيها ، والنخرة : البالية الجوفاء التي تمر فيها الرياح ، والكرّة : الرجعة من الكرّ ، وهو الرجوع ، والخاسرة : هى التي يخسر أصحابها ولا يربحون ، والزجرة : الصيحة ، والمراد بها النفخة الثانية يبعث بها الأموات ، والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، لأن السراب يجرى فيها ، وسميت بذلك لأن شدة الخوف التي تعترى من عليها تطير النوم من أعينهم فلا يذوقون نوما ، فهى ساهرة : أي ساهر من عليها .

(16/800)

المقدس : أي المبارك المطهر ، والوادي المقدس : هو واد بأسفل جبل طور سينا من برّية الشام ، طوى : واد بين أيلة ومصر ، طغى : أي تجاوز الحد فتكبر على اللّه وكفر به ، هل لك إلى كذا : أي هل ترغب فيه ، وتزكى : أي تتزكى وتتطهر من العيوب ، وأهديك : أي

أدلك ، فتخشى : أي فتخاف ، والآية الكبرى : أي العلامة الدالة على صدقه فى دعواه النبوة ، وهى انقلاب العصا حية ، أدبر : أي ترك

موسى ، يسعى : أي فى مكايدته . فحشر : أي فجمع السحرة الذين فى بلاده ، والنكال : العذاب ، والآخرة : يوم القيامة ، والأولى : الدنيا .

أشد خلقا : أي أصعب إنشاء ، والبناء : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة ، والسمك : قامة كل شىء ،

فسواها : أي جعل كل جزء موضوع فى موضعه ، أغطش ليلها : أي أظلمه ، ضحاها : أي نورها وضياء شمسها ، دحاها : أي مهدها وجعلها قابلة للسكنى ، قال زيد بن عمرو ابن نفيل :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدها بأيد وأرسى عليها الجبالا

مرعاها : أي نباتها ، متاعا لكم : أي متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

الطامة الكبرى : أي الداهية العظمى التي تطمّ على الدواهي أي تغلب وتعلو ، وهى النفخة الثانية التي يكون معها البعث قاله ابن عباس ، وبرّزت الجحيم : أي كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان ، طغى : أي تكبر وتجاوز الحد ، آثر :

أي قدّم وفضل ، المأوى : المستقر ، مقام ربه : أي جلاله وعظمته ، ونهى النفس عن الهوى : أي زجرها وكفها عن هواها المردي لها بميلها إلى الشهوات .

(17/800)

الساعة : هى ساعة يبعث اللّه الخلائق من قبورهم ، وهى يوم القيامة ، أيان : أي متى ، مرساها : أي إرساؤها ، وإقامتها : أي حصولها ، فيم أنت من ذكراها : أي فى أىّ شىء أنت من أن تذكر لهم وقت حصولها ، وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها ، إلى ربك منتهاها : أي إن منتهى علم حصولها عند ربك لم يؤته أحدا من خلقه ، واللبث : الإقامة ، والعشية طرف النهار من آخره ، والضحى : طرفه من أول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 21 . 35 ﴾ . باختصار .

(18/800)

وقال الفراء :

سورة (النازعات)

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً . . . ﴾ إلى آخر الآيات.

ذكر أنه الملائكة، وأنّ النزع نزعُ الأنفس من صدور الكفار، وهو كقولك: والنازعات إغراقا، كما يُغرِق النازِع فى القوس، ومثله: ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً . . . ﴾. يقال: إنها تقبض نفس المؤمن كما يُنْشطُ العقال مِن البعير، والذى سمعت من العرب أن يقولوا: أنشَطتُ وكأنما أُنشِطَ من عقال، وربطها: نشطها، فإذا ربطتَ الحبلَ فى يد البعير فأنت ناشط، وإذا حللته فقد أنشطته، وأنت منشط.

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً . . . ﴾.

الملائكة أيضا، جعل نزولها من السماء كالسباحة. والعرب تقول للفرس الجواد [/١] إنه لسابح: إذا مرَّ يتمطّى.

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً . . . ﴾.

وهى الملائكة تسبق الشياطين بالوحى إلى الأنبياء إذ كانت الشياطين تسترق السمع.

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً . . . ﴾.

هى الملائكة أيضا ، تنزل بالحلال والحرام فذلك تدبيرها ، وهو إلى الله جل وعز ، ولكن لما نزلت به سميت بذلك ، كما قال عز وجل: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ ، وكما قال: ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ، يعنى: جبريل عليه السلام نزّله على قلب محمد صلى الله عليهما وسلم ، والله الذى أنزله ، ويسأل السائل: أين جواب القسم فى النازعات؟ فهو مما ترك جوابُه لمعرفة السامعين ، المعنى وكأنه لو ظهر كان: لتبعثُنّ ، ولتحاسبُنّ ؛ ويدل على ذلك قولهم: إذا كنا عظاما ناخرة

ألا ترى أنه كالجواب لقوله: لتبعثن إذ قالوا: إذا كنا عظاما نخرة نبعث .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . . . ﴾ .

(19/800)

وهى: النفخة الأولى ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . . . ﴾ وهى: النفخة الثانية .

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ الْحَافِرَةِ . . . ﴾ .

يقال: إلى أمرنا الأول إلى الحياة ، والعرب تقول: أتيت فلاناً ثم رجعت على حافرتى ، أى

رجعت إلى حيث جئت . ومن ذلك قول العرب: النقد عند الحافرة . معناه: إذا قال: قد بعتُك رجعتُ عليه بالثمن ، وهما فى المعنى واحد . وبعضهم: النقد عن الحافر . قال: وسألت عنه بعض العرب ، فقال: النقد عند الحافر ، يريد : عند حافر الفرس ، وكأن هذا المثل جرى فى الخيل .

وقال بعضهم: الحافرة الأرض التى تحفر فيها قبورهم فسماها : الحافرة . والمعنى: المحفورة . كما قيل: ماء دافق ، يريد : مدفوق .

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾

(20/800)

وقوله: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّاخِرَةً . . . ﴾ حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس بن الربيع عن السدى عن عمرو بن ميمون قال: سمعت عمر بن الخطاب يقرأ: "إِذا كُنَّا عِظَاماً نَّاخِرَةً" ، حدثنا الفراء قال: حدثنى الكسائى عن محمد بن الفضل عن عطاء عن أبى عبد الرحمن عن علىّ رحمه الله أنه قرأ "نَخِرَةً" ، وزعم فى إسناده هذا : أنّ ابن عباس قرأها "نخرة" [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء] قال: وحدثنى شريك بن عبد الله ، ومحمد بن عبد العزيز التيمى أبو سعيد عن مغيرة عن مجاهد قال شريك: قرأ ابن

عباس . "عظاما ناخرة" وقال محمد بإسناده عن مغيرة عن مجاهد . قال: سمعت ابن الزبير . يقول على المنبر: ما بال صبيان يقرءون: (نخرة) ، وإنما هى (ناخرة) [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء [/ب] قال: وحدثنى مندل عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس أنه قرأ: (ناخرة) . وقرأ أهل المدينة والحسن: (نخرة) ، و (ناخرة) . أجود الوجهين فى القراءة ، لأن الآيات بالألف . ألا ترى أن (ناخرة) مع (الحافرة) و (الساهرة) أشبه بمجىء التنزيل ، و (الناخرة) و (النخرة) سواء فى المعنى ؛ بمنزلة الطامع والطمِع ، والباخل والبخِل . وقد فرق بعض المفسرين بينهما ، فقال: (النخرة) : البالية ، و (الناخرة) : العظمُ المجوف الذى تمر فيه الريح فينخر .

﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ . . . ﴾ .

وهو وجه الأرض ، كأنها سميت بهذا الإسم ، لأن فيها الحيوان: نومَهم ، وسهرهم [حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد] قال: حدثنا الفراء ، قال: حدثنى حِبَّان بن على عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: (الساهرة) : الأرض ، وأنشد :

ففيها لحمُ ساهرةٍ وبحرٍ * ومَا فاهوُا به لهمُ مُقِيمُ

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ طُوًى . . . ﴾ .

هو واد بين المدينة ومصر ، فمن أجراه قال: هو ذكرٌ سمينا به ذكراً ، فهذا سبيل ما يُجْرى ، ومن لم يجره جعله معدولا [/١] عن جهته . كما قال: رأيت عمر ، وذفر ، ومضر لم تصرف لأنها معدولة عن جهتها ، كأن عمر كان عامراً ، وزفر زافراً ، وطوى طاوٍ ، ولم نجد اسماً من الياء والواو عدل عن جهته غير طوى ، فالإجراء فيه أحب إلىّ: إذ لم أجد فى العدول نظيراً .

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُوْلَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُوْلَى . . . ﴾ .

إحدى الكلمتين قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ والأخرى قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .

وقوله جل وعز: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُوْلَى ﴾ .

أى: أخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ . . . ﴾ .

يعنى: أهل مكة ثم وصف صفة السماء ، فقال: بناها .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا . . . ﴾ . أظلم ليلها .

وقوله جل وعز: ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . . . ﴾ . ضوءها ونهارها .

﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . . . ﴾ .

يجوز نصب الأرض ورفعها . والنصب أكثر فى قراءة القراء ، وهو مثل قوله: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ، مع نظائر كثيرة فى القرآن .

﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ . . . ﴾ .

خلق ذلك منفعة لكم ، ومتعة لكم ، ولو كانت متاع لكم كان صوابا ، مثل ما قالوا: ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ ﴾ ، وكما قال: ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو على الاستئناف يُضْمَر له ما يرفعه .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ . . . ﴾ .

وهى القيامة تطم على كل شىء ، يقال: تَطِمُ وتطُمُّ لغتان .

﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾

وقوله تبارك وتعالى ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . . . ﴾ .

مأوى أهل هذه الصفة ، وكذلك قوله: ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى . . . ﴾ .

مأوى مَن وصفناه بما وصفناه به من خوف ربه ونهيه [/ب] نفسه عن هواها .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . . . ﴾ .

يقول القائل: إنما الإرساء للسفينة والجبال ، وما أشبههن ، فكيف وصفت الساعةُ بالإِرساءِ ؟ قلت: هى بمنزلة السفينة إذا كانت جارية فرست ، ورسوّها قيامها ، وليس قيامها كقيام القائم على رجلِه ونحوه ، إنما هو كقولك: قد قام العدل ، وقام الحق ، أى: ظهر وثبت .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا . . . ﴾ .

أضاف عاصم والأعمش ، ونوّن طلحة بن مصرف وبعض أهل المدينة ، فقالوا: "منذرٌ من

يخشاها" ، وكلٌّ صواب وهو مثل قوله: "بَالِغٌ أَمْرِهِ" ، و "بَالِغُ أَمْرِهِ" و "مُوهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ"

و ﴿ موهنُ كيدِ الكَافرِينَ ﴾ مع نظائر له فى القرآن .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا . . . ﴾ .

يقول القائل: وهل للعشى ضحا ؟ إنما الضحا لصدر النهار ، فهذا بيّن ظاهر من كلام العرب

أن يقولوا: آتيك العشية أو غداتها ، وآتيك الغداة أو عشيتها . تكون العشية فى معنى:

آخِر ، والغداة فى معنى: أول ، أنشدنى بعض بنى عقيل:

نحن صبحنا عامراً فى دارها * عشية الهلال أو سَرارِها

أراد عشية الهلال أو عشية سَرار العشية ، فهذا أسد من آتيك الغداة أو عشيتها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 230.234 ﴾

(23/800)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة النازعات

(والنازعات) [1] الملائكة تنزع الأرواح. (غرقاً) [1] إغراقاً في النزع. (والناشطات)

[2] أيضاً الملائكة [تنشط] الأرواح كنشط العقال . (والسابحات) [3] الملائكة تنزل من السماء بسرعة وسهولة كالسبح .

وقيل: النجوم تسبح في الأفلاك . وقيل: الفلك في البحر . وقيل: الخيل السوابق .

(فالسابقات) [4] الملائكة تسبق [الشياطين] بالوحي إلى الأنبياء [عليهم] السلام .

وقيل: المنايا تسبق الأماني . وقيل: الآجال تسبق الآمال . (الراجفة) [6] النفخة الأولى تميت الأحياء . و(الرادفة) [7]

التي تحيي الموتى كأنها من الأولى في موضع الردف من الراكب . (واجفة) [8] خافقة مضطربة ، من الوجيف في السير . (في الحافرة) [10] في الأمر الأول ، رجع في حافرته: إذا ذهب في الطريق الأول . (نخرة) [11] بالية متآكلة . وناخرة: صيتة صافرة ، كأن الريح تنخر فيها ، والنخير: الصوات . (بالساهرة) [14]

أرض القيامة ، وهي الصقع الذي بين جبلي أريحا وجبل حسان ، يمده الله مداً كيف [يشاء] . وسميت بـ"الساهرة" ، لأنه لا نوم فيها ولا قرار . ويكون في غير هذا الموضع الساهرة وجه الأرض ، على طريقة السلب ، [إذ] كان النوم والقرار/على وجه الأرض ، قال الهذلي في الساهرة: 1379 – والدهر لا يبقى على حد ثانه قب يردن بذي شجون مبرم 1380 – [يرتدن] ساهرة كأن [جميمها وعميمها] أسداف ليل مظلم

(وأغطش ليلها) [29] بعد مظلماً . (والأرض بعد ذلك) [30] أي: مع ذلك ، كقوله

(عتل بعد ذلك) . (دحاها) [30] بسطها ، ومنه أدحي النعام لبسطها موضعه .

(الطامة الكبرى) [34] الداهية العظمى .

[تمت سورة النازعات] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1618.1622 ﴾

(24/800)

وقال الأخفش :

سورة (النازعات)

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾

قال ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ فأقسم - والله أعلم - على ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ [26] وان شئت جعلته على ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ [6] ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [8] ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ . وان شئت جعلته على ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ لـ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ [7] فحذفت اللام وهو كما قال جل ذكره وشاء ان يكون في هذا وفي كل الأمور .

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾

وقال ﴿ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً ﴾ كأنه أراد "أَنُرَدُّ إِذَا كُنَّا

عِظاماً" وأما من قال ﴿ أإنَّا ﴾ و ﴿ أَإذا كنا ﴾ باجتماع الهمزتين ففصل بينهما بالف فانما أضمر الكلام الذي جعل هذا ظرفا له لأنه قد قيل لهم "إنَّكُم تُبْعَثون وتُعادُون" [182] فقالوا ﴿ أإذا كنا ترابا ﴾ في هذا الوقت نعاد ؟ وهو من كلام العرب بعضهم يقول ﴿ أَيِنَّا ﴾ و ﴿ أَيِذَا ﴾ فيخفف الآخرة لأنه لا يجتمع همزتان . والكوفيون يقولون "أإنا" و "أَإذا" فيجمعون بين الهمزتين . وكان ابن ابي اسحاق يجمع بين الهمزتين في القراءة فيما بلغنا وقد يقول بعض العرب: " اللهمَّ اغفر لي خطائِئى " يهمزها جميعا . وهو قليل وهي في لغة قيس .

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾

وقال ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ فمن لم يصرفه جعله بلدة أو بقعة من صرفه جعله اسم واد أو مكان . وقال بعضهم: "لا بل هو مصروف وانما يريد بـ ﴿ طوى ﴾ : طوىً من الليل ، لأنك تقول: "جِئْتُكَ بعدَ طُوًى من الليل" ويقال ﴿ طِوىً ﴾ منونة مثل "الثِّنى" وقال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد السابع والسبعون بعد المئتين]:

تَرى ثِنانَا إِذَا ما جاءَ بَدْأَهُمُ * وَبَدَأَهُم إِن أَتَانَا كانَ ثِنْيانَا

(25/800)

والنّكى*: هو الشيءُ المَنْكِيّ.

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُوْلَى ﴾

وقال ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُوْلَى ﴾ لأنه حين قال ﴿ أَخَذَه ﴾ كأنه "نَكَّلَ لِهِ" فأخرج المصدر على ذلك. وتقول "والله لأصْرِمَنَّكَ تركا بَيِّناً". انتهى انتهى. اهـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 565.566 ﴾

(26/800)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة النازعات

«1»

1 - وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً يقال: هي الملائكة تنزع النفوس إغراقا، كما يغرق النازع في القوس.

2 - وَالنَّاشِطاتِ [نَشْطاً] [هي]: الملائكة تقبض نفس المؤمن [وتنشطها] كما ينشط العقال، أي يربط.

وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً أي الملائكة، جعل نزولها كالسّباحة.

و«السّبح» أيضا : التصرّف. كقوله : إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا [سورة المزمل آية : 7].

4 - فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً : تسبق الشياطين بالوحي.

5 - فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً : تنزل بالحلال والحرام.

وقال الحسن : «هذه كلها : النجوم، خلا فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً : فإنها الملائكة». وإلى هذا ذهب ابو عبيدة.

6 - يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ : الأرض.

ويقال : «الرّجفة» و«الرّاجفة» هاهنا سواء.

7 - تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ أي تردفها اخرى. يقال ردفته وأردفته، إذا جئت بعده.

---

(1) هي مكية.

(27/800)

---

8 - قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ أي [تجف و] تخفق وتجب.

10 - و11 - أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ؟ أي إلى أول أمرنا. يقال : رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته. أي رجع من حيث جاء.

وأرادوا : أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً نردّ احياء ؟ ! كما قال الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب معاذ اللّه من سفة وعار ؟ !

أي [أ] أرجع الى أول أمري - أي في حداثتي - بعد الصلع والشيب ؟ ! .

12 - تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ أي رجعة يخسر فيها .

14 - وبالسَّاهِرَة : وجه الأرض .

25 - فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى فإحداهما قوله : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى [24] ،

والأخرى قوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي [سورة القصص آية : 38] .

29 - أَغْطَشَ لَيْلَها أي جعله مظلما .

30 - وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها أي بسطها .

33 - مَتاعاً لَكُمْ أي منفعة لكم .

42 - أَيَّانَ مُرْساها ؟ أي متى تأتي فتستقر ؟ لأن الأشراط تتقدمها .

43 - فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها ؟ أي ليس علم ذلك عندك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 437. 438 ﴾

(28/800)

وقال الغزنوى :

[سورة النازعات]

1 وَالنَّازِعاتِ : الملائكة تنزع الأرواح «1» .

---

(1) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 230 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 512 ، والطبري في تفسيره : 30/ 27 ، والزجاج في معانيه : 5/ 277 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 390 عن ابن مسعود ، ومسروق .

(29/800)

غَرْقاً : إغراقا في النّزع .

[105/أ] 2 نَشْطاً : تنشطها كنشط/العقال «1» . وقيل «2» : النّاشطات النّجوم السيّارة ، ويقال للحمار الوحشي : ناشط لإسراعه أو لذهابه من مكان إلى آخر «3» .

3 وَالسَّابِحاتِ : النّجوم تسبح في الأفلاك «4» أو الفلك في البحر ، أو الخيل السّوابق «5» .

4 فَالسَّابِقاتِ : الملائكة تسبق الشّياطين بالوحي إلى الأنبياء «6» .

وقيل «7» : المنايا تسبق الأماني .

6 الرَّاجِفَةُ : النّفخة الأولى تميت الأحياء ، والرَّادِفَةُ : التي تحيي الموتى «8» .

---

(1) أي : كربط العقال ، وهذا مثال لقبض روح المؤمن كما في معاني القرآن للفراء : 3/ 230 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 512 ، وتفسير الطبري : 30/ 28 .

(2) أخرجه الطبريّ في تفسيره : 30/ 29 عن قتادة .

(3) ينظر مجاز القرآن لابن قتيبة : 2/ 284 ، وتفسير البغوي : 4/ 442 ، واللسان : 7/ 413 (نشط) .

(4) مجاز القرآن : 2/ 284 ، وتفسير الماوردي : 4/ 291 ، وزاد المسير : 9/ 16 ، وتفسير القرطبي : 19/ 193 .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 30/ 30 عن عطاء ، وذكره الماوردي في تفسيره :

4/ 391 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 16 .

(6) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 230 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 512 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 391 عن علي رضي اللّه عنه ، ومسروق .

(7) ذكره أبو حيان في البحر المحيط : 8/ 419 دون عزو .

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 30/ 31 ، عن الحسن ، وقتادة .

ونقله الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 336 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وقال: «وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغير واحد».

وانظر تفسير الماوردي: 4/ 392، وتفسير البغوي: 4/ 442.

(30/800)

---

8 واجِفَةٌ: خافقة مضطربة «1»، من «الوجيف».

10 فِي الْحافِرَةِ: في الأمر الأول، رجع في حافرته: ذهب في طريقه الأول «2».

11 نَخِرَةً: بالية متآكلة، نخر العظم: بلي ورمّ «3». وناخرة «4»:

صيّتة صافرة، كأنّ الريح تنخر فيها نخيرا.

14 بِالسَّاهِرَةِ: أرض القيامة «5».

29 وَأَغْطَشَ لَيْلَها: جعلها مظلمة «6».

30 وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذِلِكَ: مع ذلك، كقوله «7»: عُتُلٍّ بَعْدَ ذِلِكَ.

دَحاها: بسطها «8»، وأدحي النّعام لبسطها موضعه «9».

34 الطَّامَّةُ الْكُبْرى: الداهية العظمى «10»، وفي الحديث «11»: «ما من طامّة إلّا

وفوقها طامة». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 861.864﴾

---

(1) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 513، وتفسير الطبري: 30/ 33،

واللسان : 9/ 352 وجف) .

(2) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 278 ، واللسان : 4/ 205 (حفر) .

[. . . . .]

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 284 ، وتفسير الطبري : 30/ 34 ، والمفردات للراغب : 486 .

(4) بالألف ، قراءة حمزة ، والكسائي ، وشعبة عن عاصم .

السبعة لابن مجاهد : 670 ، والتبصرة لمكي : 370 ، والتيسير للداني : 219 .

وانظر توجيه هذه القراءة في معاني القرآن للفراء : 3/ 232 ، وتفسير الطبري : 30/ 35 ، ومعاني الزجاج : 5/ 279 ، والكشف لمكي : 2/ 361 .

(5) تفسير الماوردي : 3/ 394 ، وتفسير الفخر الرازي : 31/ 39 ، وتفسير القرطبي : 19/ 200 .

(6) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 233 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 285 ، وتفسير الطبري :

30/ 43 ، ومعاني الزجاج : 5/ 280 ، والمفردات للراغب : 362 .

(7) سورة القلم : آية : 13 .

(8) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 285 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 513 ،

وتفسير الطبري : 30/ 46 ، وتفسير القرطبي : 19/ 204 .

(9) ينظر المفردات للراغب : 166 ، وتفسير القرطبي : 19/ 204 ، واللسان : 14/ 251 (دحا) .

(10) غريب الحديث للخطابي : 2/ 29 ، وتفسير الفخر الرازي : 31/ 50 ، وتفسير القرطبي :

19/ 206 .

(11) نسب إلى أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه ، وقد ورد هذا القول في أثر طويل أخرجه البيهقي في دلائل النبوة : 2/ 424 عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه . وذكره الخطابي في غريب الحديث : 2/ 29 عن أبي بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه ، وكذا ابن الجوزي في غريب الحديث : 2/ 40 ، والمحب الطبري في الرياض النضرة : 1/ 102 ، وأشار العقيلي إليه في كتاب الضعفاء : 1/ 38 وقال : «وليس لهذا الحديث أصل ، ولا يروى من وجه يثبت إلا شيء يروى في مغازي الواقدي وغيره مرسلا .

(31/800)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة النازعات

عدد 31 - 71 - 79

وتسمى سورة الطامة والساهرة .

نزلت بمكة بعد سورة النبأ ، وهي ست وأربعون آية ، ومئة وسبع وتسعون كلمة ، وسبعمئة وثلاثة وخمسون حرما ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا مختومة بما ختمت به ، ولا مثلها في عدد الآي ولا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قال تعالى : "وَالنَّازِعاتِ" الملائكة التي تنزع أرواح الكفرة نزعا شديدا بعنف وإهانة وقسوة كما تجر الشوكة من الصوف زيادة في تعذيبهم "غَرْقاً" 1 هو نزع من للنزع مبالغ فيه والإعراق في النزع التوغل فيه إلى بلوغ أقصى درجاته ، وهو مفعول لاسم الفاعل قبله ، أو مصدر من معناه كجلست قعودا ، وقمت وقوفا ، وشرط المفعول موجود هنا وهو اتفاق المصدر مع عامله لأنه بمعنى ما قبله ، إلّا أنه ليس من لفظه ، يقال أغرق النازع في القوس إذا اجتذبه وبلغ غاية المدّ فيه حتى انتهى إلى النصل ، "وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً" 2 الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين فتسلتها سلّا كما تسحب الشعرة من الحليب والدلو من الماء بلين ولطف إكراما وتعظيما لشأنهم "وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً" 3 الملائكة التي تسبح في مضيّهم تنفيذ أوامر ربهم مسرعين متسابقين في الهواء والفضاء كما تسبح

الحيتان بالماء "فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً" 4 لقبض أرواح المؤمنين وإيصالها إلى الجنة بالاحترام والتكريم ، واستخراج أرواح الكافرين وزجها في النار امتثالا لأمر ربهم وتعظيما لجلاله .

(32/800)

هذا ويوجد لهذه الآية معان كثيرة غير ما ذكرنا لا حاجة لإثباتها اكتفاء بما نقلناه "فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً" 5 من أمور العباد مما يعود لدينهم ودنياهم كما رسمه اللّه لهم ، والوقف على كلمة أمرا لازم ، لأن وصله بما بعده يصيّر كلمة "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ" 6 بسبب نفخ الملك بالصور النفخة الأولى إذ يضطرب لها كل شيء ويموت فيها جميع الخلق عدا من استثنى اللّه .

ظرفا (للمدبرات) مع أنه قد انقضى التدبير ، تدبر "تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ" 7 النفخة الثانية فيحيا بها كل شيء مات من أول الدنيا لآخرها من قبل النفخة الأولى وفيها وما بعدها .

وقد أقسم اللّه تعالى في هؤلاء الملائكة الكرام تبجيلا لشأنهم ، وله أن يقسم بمن وما شاء من خلقه ، أو لكثرة منافعهم بالنسبة لنا .

وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن بعد الموت أيها الناس ، وهو جواب لمنكري البعث من الكفار .

وأعلم أن الخلائق تنقسم في ذلك اليوم المهول قسمين وقد بينهما بقوله جل قوله "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ" 8 خائفة قلقة وجلة "أَبْصارُها خاشِعَةٌ" 9 ذليلة حقيرة خاضعة "يَقُولُونَ" أصحاب هذه القلوب والأبصار في الدنيا إذا قيل لهم أنكم مبعوثون بعد الموت "أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ" 10 أي الحالة الأولى كما كنا أول مرة أحياء إنكارا وتكذيبا وسخرية ، يقال لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته وعليه قوله :

أحافرة على صلع وشيب معاذ اللّه من سفه وعار

ثم حكى اللّه أقوالهم في الدنيا بقوله عز قوله "أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً" 11 زيادة في الإنكار والجحود والاستهزاء واستعظاما ، أي كيف نردّ للحياة بعد أن آل أمرنا إلى ذلك "قالُوا" مستكبرين أمر إعادتهم "تِلْكَ إِذاً" إن صحت الرجعة فهي "كَرَّةٌ خاسِرَةٌ" 12 نغين فيها لتكذيبنا إياها .

قال تعالى "فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ" 13 نفخة لا تكرار فيها للإماتة وواحدة للإحياء

(33/800)

"فَإِذا هُمْ" منكرو البعث مجموعون "بِالسَّاهِرَةِ" 14 على وجه الأرض ظاهرين للعيان لا يسترهم شيء ، وسميت ساهرة لأن نوم الحيوان وسهره عليها ، قال أمية ابن الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به أبدا مقيم

وقال في الكشاف هي الأرض البيضاء المستوية الملساء لأن السراب يجري فيها أخذا من قولهم عين ساهرة أي جارية بالماء ، قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يضحى السراب مجللا لإقطارها قد جبتها متلثما

قال تعالى مخاطبا سيد المخاطبين "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسى " 15 مع قومه كيف كان يتحمل مشاقهم ، أما يجدر بك يا سيد الرسل أن تكون مثله فتحمل أذى قومك وإهانتهم ، ذكّره اللّه تعالى به تسلية له ، ثم شرع يذكر بعض ما خوله إياه وما لقي من المرسل إليهم فقال اذكر لقومك شيئا عنه "إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً" 16 اسم لواد عند الطور وقال له "اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى " 17 على قومه وتجاوز حدودنا "فَقُلْ" له "هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى" 18 بحذف إحدى التاءين أي تتزكى من كفرك وسوء صنيعك إلى قومك "وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى " 19 عقابه جعل الخشية غاية للهداية ، لأنها ملاك الأمر ، ولأن من خشي اللّه يؤمل فيه كل خير ، ومن أمن منه اجترأ على كل شر ، ومن هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة : من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل .

أي استراح من وعثاء السفر في دنياه .

فهنيئا لمن يبلغ منزله في الآخرة على رضى من ربه فيستريح الراحة الدائمة .

وفي هذا الاستفهام ما لا يخفى من اللطف في الدعوة والاستنزال عن العتو ، وإنما قدم

التزكية على الهداية لأنها تخلية وهي مقدمة على التحلية ، وهذه الآية على حد قوله تعالى (فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) الآية 45 من سورة طه في ج 1 .

(34/800)

قال تعالى "فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى " 20 وهي العصا يوم فضحت سحر السحرة وأجبرتهم على الإيمان بالله وبموسى

"فَكَذَّبَ" بها فرعون وملؤه لغاية فسقهم في العناد ولم يؤمنوا كما أرينا قومك آية انشقاق القمر فكذبوها ورموك بالسحر "وَعَصى " 21

(35/800)

ربه وموسى كما عصى قومك ربهم وكذبوك ، أي داوموا على عصيانهم ولم تؤثر بهم الآية العظيمة "ثُمَّ أَدْبَرَ" عنه وعن الإيمان به وذهب "يَسْعى " 22 للإفساد في الأرض مثل قومك "فَحَشَرَ" جمع جنوده وقومه "فَنادى فَقالَ" 23 فرعون في قومه بلا خجل ولا حياء "أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى " 24 والأصنام كلها أرباب لكم من دوني وكذلك الكواكب وأنا رب الجميع

، قاتله اللّه ، وهذا معنى العلو الذي أراده أمام قومه لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، كما تقدم في القصة المارة في الآية 103 من سورة الأعراف ج 1 وغيرها "فَأَخَذَهُ اللَّهُ" على الصورة المبينة في الآية 63 من الشعراء في ج 1 ، وهذا الأخذ العظيم كان "نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى " 25 أي عاقبتهما بأن أغرقه اللّه وقومه في الدنيا وأحرقهم في الآخرة ، وفعلته الأولى هي تكذيبه موسى وإصراره على الكفر ، والثانية قوله (ما علمت لكم من إله غيري) وقوله (أنا ربكم الأعلى) فأذاقه اللّه عذاب الدنيا بالإغراق وسيذيقه عذاب الآخرة بالإحراق على الصورة المبينة في الآية 98 من سورة هود المارة "إِنَّ فِي ذلِكَ" الذي فعل بفرعون وقومه "لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى " 26 اللّه ويتقيه ومن لا ، فلو أتيته بملء الدنا عظات وعبرا فلا تؤثر فيه لأن القلوب إذا قست كانت أشد من الحجارة ، كما سيأتي في الآية 75 من البقرة في ج 3 ، وذلك لأن فرعون وقومه أرادوا بكل قواهم أن يدبروا أمرا ليتخلصوا من موسى فلم يقدروا فأهلكهم اللّه ، وإن قومك يا محمد يريدون باجتماعاتهم ومذاكراتهم التخلص منك ولن يقدروا ، وإذا أصروا فيكون مصيرهم مثل مصير قوم فرعون ، وقل لهم يا سيد الرسل "أَأَنْتُمْ" أيها الكفار المصرون على الإنكار "أَشَدُّ خَلْقاً" إذا أردنا إحياءكم بعد الموت "أَمِ السَّماءُ بَناها" 27 على ما ترون وقد "رَفَعَ سَمْكَها" سقفها إلى سمت العلو بغير عمد أو بعمد لا ترى كما مر في الآية

10 من سورة لقمان "فَسَوَّاهَا" 28 جعلها مستوية لا شقوق فيها ولا فطور ولا تضلع فيها ، راجع الآية 12 من سورة النبأ المارة "وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا" أظلمه "وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا" 29 أبرز نهارها وعبر بالضحى عن النهار لأنه أكمل أجزائه في النور والضوء ، وأضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما يجريان فيها ، ولأن الليل

ظلمتها والنهار سراجها "وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ" بعد خلق السماء وما فيها "دَحَاهَا" 30 بسطها ومدها ، قال أمية بن الصلت :

دحوت البلاد فسويتها وأنت على طيها قادر

وله من أمثال هذا كثير ومنه قوله :

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطّانها حتى التنادي

ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم : آمن شعر أمية وكفر قلبه .

وقد ذكرنا في سورة السجدة المارة بأن لا تنافي بين هذه الآية الدالة على خلق الأرض قبل السماء لأنها تشير إلى أن اللّه تعالى خلق الأرض أولا بلا دحو ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض كما هو موضح هناك فراجعه .

ومن جملة دحوها أن "أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا" إذ فجرها بالعيون والأنهار .

مطلب المياه كلها من الأرض وذم الهوى وانقسام الخلق إلى قسمين والسؤال عن الساعة :

تدل هذه الآية المارة على أن جميع المياه من الأرض يؤيدها الآية 44 من سورة هود المارة ، وتفهم أن ما ينزل من المطر هو ما يتبخر من الأرض أي من مياهها ورطوبتها وما يلتقمه السحاب من الأنهار والأبحر .

وكانت العرب تعرف هذا لما ورد عنهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت منى لجج خضر لهن أجيج

"وَمَرْعاها" 31 نباتها مما يرعاه الحيوان ويأكله الإنسان ، ومن جملة دحوها أيضا "وَالْجِبالَ أَرْساها" 32 أثبتها في الأرض وثقلها فيها لئلا تتحرك فتخلّ بمنفعة البشر ، قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدها بأيد وأرسى عليها الجبالا

(37/800)

فانظروا أيها الكفرة هل خلق هذه الأشياء الجسيمة أعظم وأصعب أم إعادتكم بعد الموت ، وليس عند اللّه صعب وأصعب ، ولا هين وأهون ، كما سيأتي في الآية 27 من سورة الروم الآتية ، لأن إيجاد الأشياء كلها وإعدامها مستو عنده إذ تكون بين الكاف والنون .

وإذا علمتم هذا فاعلموا أيضا أن هذه الأشياء كلها مما عدده هنا

وما لم يعدد خلقها "مَتاعاً لَكُمْ" أيها الناس تتمتعون بها في حياتكم "وَلِأَنْعامِكُمْ" 33 متاعا أيضا لأنها خلقت لمنافعكم.

ولما ذكر الله تعالى لمعة من بدء الخلق المشعرة عن توحيده بعد ذكر النبوة، أعقبها بذكر المعاد، لأنه أحد الأصول الثلاثة التي لا ينفك ذكر بعضها عن الآخر، كما أشرنا إليه في الآية 28 من سورة النبأ المارة، فقال جل قوله "فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى" 34 والداهية العظمى وهي القيامة التي تطم كل شيء لشدة هولها وكل شيء دونها "يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ" فيها "ما سَعى" 35 في دنياه وكسبه من خير أو شر لا ينسى منه شيئا "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى" 36 فلا تخفى على أحد وهناك ينقسم الخلق إلى قسمين "فَأَمَّا مَنْ طَغى" 37 على الناس في دنياه وبغى على حقوقهم "وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا" 38 على الآخرة، وهذا هو القسم الأول المشار إليه في الآية 7 المارة "فَإِنَّ الْجَحِيمَ" المذكورة، وأظهرت بدل اضمارها لسبق ذكرها تهويلا لشأنها وتخويفا لأهلها.

واعلم أيها القارئ أنه لا يأتي الاسم الظاهر مقام المضمر إلا لأمر ذي بال كما هنا، ومثله في القرآن كثير "هِيَ الْمَأْوى" 39 لهم لا ملجأ لهم غيرها.

ثم ذكر القسم الثاني بقوله عز قوله "وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ" بين يديه في موقف تلك الطامة

وعلم أنه محاسب على ما يأتي ويذر في دنياه "وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى " 40 فزجرها وكفّها عن الشهوات المحرمة خوفا من اللّه تعالى

(38/800)

"فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى " 41 لهم يمرحون فيها كيفما شاءوا وأرادوا ، وهذه الآيات الثلاث بمقابل الآيات الثلاث قبلها .

واعلم أن الخوف مقدم على العلم ، قال اللّه تعالى (إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) الآية 38 من سورة فاطر في ج 1 ، ولما كان الخوف من اللّه سببا لدفع الهوى وهو علّة فيه ، قدّمه عليه ، فمن أعرض عن هوى نفسه وخالقها في مقامه هذا وعرف أنه يعاقب على الإقدام عليها ويثاب عن الإعراض عنها باعتقاد جازم كان مصيره الجنة عند ربه الذي خافه وترك شهوته من أجله ، و(من) في الآيتين عامة في كل من يتصف بهما .

والهوى مطلق الميل إلى الشهوات فهو يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية ، وفي الأخرى إلى الهاوية ، فالسعيد من ضبط نفسه بالصبر

ووطنها على مخالفته ، ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها الفانية ، ولم يغتر بزخارفها وزينتها البالية ، علما بوخامة عاقبتها ، قال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك

وخالفه .

وقال الفضيل : أفضل الأعمال مخالفة الهوى .

قال أبو عمران اليرتلي :

فخالف هواها واعصها إن من يطع هوى نفسه تنزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده وترم به في مصرع أي مصرع

وقال الأبوصيري :

فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم في الدسم

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإنّ هما محضاك النصح فاتهم

هذا والسالم من موافقة هواه قليل ، اللهم اجعلنا من القليل .

قال : سهل لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين ، فطوبى لمن سلم منه .

وقال عليه الصلاة والسلام ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشحّ متبع ، وإعجاب المرء في نفسه .

واعلم أن من اتبع هواه في واحدة جرته إلى وحدات ، ومن المعلوم عدم إدراك كل ما يتمناه الإنسان مهما بلغ في الحياة ، وعليه فالترك بالكلية أولى وأحسن قال :

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقال الآخر :

وأنت إذا أرسلت طرفك رائدا لعينك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال غيره :

جمع الهواء مع الهوى في مهجتي فتكاملت في أضلعي ناران

فقصرت بالممدود عن نيل المنى ومددت في المقصور في أكفاني

فالعاقل من يتباعد عن قليله فإنه يجره لكثيره ، وهو لا يهدي إلا إلى الشر ، وليس لمن تبعه عاقبة غير الهلاك ، ويكفي في ذمه أنه ينشأ من شهوة النفس الخبيثة وطاعة الشيطان اللعين ، قال ابن عباس : إن هذه الآيات نزلت في أبي عزير بن عمير

وأخيه مصعب ، كان الأول طاغيا مؤثرا الدنيا على الآخرة ، والثاني خائفا مقام ربه ناهيا نفسه عن هواها .

وقد وقى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق عنه الناس حتى

نفدت المشاقص أي السهام في جوفه رضي اللّه عنه ، فلما رآه صلّى اللّه عليه وسلم متشطحا في دمه قال عند اللّه احتسبك ، وقال لأصحابه لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعله من ذهب .

ولما أسر أخوه أبو عزيز لم يشدد وثاقه إكراما له ، وأخبر بذلك قال ما هو لي بأخ شدوا أسيركم ، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليا ومالا .

وعنه أيضا أنها نزلت في مصعب المذكور المعفور له المرضي عنه وفي أبي جهل المغضوب عليه المنفور منه ، وقيل في النضر وابنه .

والآيات عامات كما ذكرنا فيدخل فيها هؤلاء وغيرهم ، إذ لا يوجد ما يقيدها بأحد ، وذكرنا غير مرة أن نزول الآية لا يقصر معناها فيمن نزلت عليه أو فيه بل تعمه وغيره إذا لم يوجد مخصص .

(40/800)

قال تعالى "يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها" 42 متى قيامها وإتيانها يا سيد الرسل لأنهم لا يعلمون "فِيمَ أَنْتَ" في أي شيء أنت تتطلع إليها أتريد أن تعلم وقتها ، كلا ، فإنك وجميع الخلق بعيد "مِنْ ذِكْراها" 43 وبيان وقتها لأنك لست بالمبين زمنها لهم ولا بالعارف

وقت قيامها ، فقل لهم أنا لا أعلم عنها شيئا أبدا وقل "إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها" 44 منتهى علمها عند اللّه فما هذا السؤال عنها وأنت من علاماتها لأنك خاتم الرسل ، فوجودك دلالة على قربها ، فليستعدوا لها "إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها" 45 ولهذا بعثت لا لبيان وقتها .

واعلم أن هؤلاء الكفرة الملحّين بالسؤال عنها "كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا" في دنياهم وقبورهم "إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها" 46 أي بقدر زمن ضحى من يومها ، لأن العشي لا ضحى له ، وإنما الضحى لليوم ، أي كان ما مرّ عليهم في حياتهم وبرزخهم بقدر هذا الجزء بالنسبة لأهوال ذلك اليوم وطوله .

أخرج البزاز وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم – وصححه – عن عائشة قالت : ما زال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل اللّه تعالى عليه (فيم أنت من ذكراها) فانتهى عليه الصلاة والسلام فلم يسأل بعدها .

وأخرج النسائي عن طارق بن شهاب قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت (فيم أنت من ذكراها)

(41/800)

فكفّ عنها وأنت خبير بأن السيدة عائشه رضى اللّه عنها حين نزول هذه الآية لم تكن أهلا لتحمل الحديث وليس لها علم بأن الرسول يسأل عن الساعة أو لا يسأل وبعد أن تزوجت به صارت ملازمة له في أكثر أوقاته حتى حال نزول الوحي ، وكان يكثر من ذكر الساعة بحضورها صباح مساء ليل نهار ، فتسمع الآيات التي نزلت بالساعة منه وتحفظها ، وصار الناس ينقلون عنها ما تذكره لهم مما نزل في الساعة وغيرها قبل زواجها وبعده ، وتجاوب من يسألها عن أقوال حضرة الرسول ، ويدونون ما يأخذونه عنها ، وعليه فلا محل للقول بأن هكذا أحاديث تكلم حضرة الرسول بها حال صغرها ولا يجوز الأخذ بها لأنها فكانت على الوجه الذي ذكرناه ، وهي الصادقة فيما تقول وتذكر ، ولا يتصور أن تقول شيئا من نفسها وتسنده لحضرة الرسول ، بل كل ما جاء عنها وأسندته إلى حضرة الرسول قد سمعته منه ونقلته كما سمعته سواء أكانت تلك الأحاديث قبل اقترانها بحضرة الرسول أو بعده ، فلا يشك بصحتها ، وهي الأمينة بنت الصديق ، وتعلم عقوبة من يسند لحضرة الرسول ما لم يقله .

هذا واللّه أعلم وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 417 .

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة النازعات

مكية

وجواب الأقسام المذكورة محذوف تقديره هذه الأشياء لتبعثن يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة كاف خاشعة صالح وقال أبو عمرو تام خاسرة تام وكذا بالساهرة طوى كاف فتخشى صالح والأولى تام وما ذكرنا انه تام من هذه الوقف إنما يأتي أن جواب الأقسام محذوف ماذا جعل جوابها إن في ذلك الخ فكان لمن يخشى تام وكذا أم السماء وقيل يوقف على بناها أيضا وعليه لا أحب بينهما ضحاها كاف دحاها جائز ولأنعامكم حسن لمن يرى تام المأوى الأولي كاف والثانية تام من ذكراها صالح منتهاها أصلح منه من يخشاها مفهوم آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

(سورة والنازعات)

مكية ست وأربعون آيةً في الكوفي وكلمها مائةٌ وتسع وتسعون كلمة وحروفها سبعمائة وثلاثة وخمسون حرفاً ولا وقف من أولها إلى أمراً وهو(تام) إن جعل جواب القسم محذوفاً تقديره لتعيش أو لتحشرن فحذف هذا الجواب لأنَّ قوله يقولون أئنَّا لمردودن فيه دلالة على أنهم أنكروا البعث والحشر فحذف لأن ما يدل على الشيء يقوم مقامه قال الرضى وإذا تكررت الواو بعد القسم نحو والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى فذهب سيبويه والخليل أن المتكررة واو العطف وقال بعضهم هي واو القسم والأول أصح وتقدم أن سيبويه سأل شيخه الخليل بن أحمد لم لم تكن الواو المتكررة بعد واو القسم كواو القسم وتقدم الجواب عنه في و الذاريات

فالقسم واحد والمقسم به متعدد والقسم هو الطالب للجواب لا المقسم به فيكون جواباً واحداً والقاعدة أن ما عطف بالفاء هو من وصف المقسم به قبل الفاء وما عطف بالواو وهو مغاير لما قبلها ومشعر بالتغاير وهو موضوعه في لسان العرب والمقسم بها هنا محذوفات أقيمت صفاتها مقامها فقيل النازعات ملائكة تنزع نفوس بني آدم وقيل الناشطات ملائكة وكذا قيل والسائحات ملائكة تتصرف في الآفاق بأمر الله تعالى تجئ وتذهب ونشطاً وسبحاً وسبقاً كلها مصادر وقيل الجواب ليس محذوراً بل هو تتبعها أو

هو هل أتاك أو هوان في ذلك لعبرة وهذا قبيح لأنَّ الكلام قد طال بين القسم والجواب وقال السجستاني يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال فإذا هم بالساهرة

والنازعات غرقاً وهذا خطأ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام كقول الشاعر

وإني متى أشرف على الجانب الذي به أنت من بين الجوانب ناظر

أزادواني ناظر متى أشرف وكقول الآخر

يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع

(44/800)

أراد أنك تصرع إن يصرع أخوك وهذا الذي قاله أبو حاتم في الآية خطأ من وجهين أحدهما ما تقدم والثاني أن أوَّل السورة واو القسم وسبيل القسم أنه إذا ابتدئ به لا بد وأن يكون له جواب

خاشعة (حسن) على استئناف ما بعده ولا يوقف على الحافرة لأن لمردودون دليل العامل في إذا وأرادوا الحياة التي ماتوا بعدها

نخرة(حسن) على القراءتين قرأ الأخوان وأبو بكر ناخرة بألف بعد النون والباقون نخرة بدونها وهي المصوّنة (3) ولا يوقف على خاسرة لأن ما بعدها جوابه ما قبله أي إن ردنا

إلى الحافرة كانت ردتنا خاسرة

بالساهرة (حسن) وهي التي لم توطأ وقيل وجه الأرض

حديث موسى (تام) لأنه لو وصله بما بعده لصار إذا ظرفاً لاتيان الحديث وهو محال بل هو

مفعول بفعل محذوف أي اذكر إذا ناداه ربه بالواد المقدس طوى

وطوى (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف ان جعل ما بعده في حكم البدل مما قبله

أو جعل قوله اذهب مفعول ناداه

طغى (جائز)

أن تزكى ليس بوقف للعطف

فتخشى (كاف) على استئناف ما بعده

فحشر (جائز) عند بعضهم قال السخاوي وهو من وقوف النبي صلى الله عليه وسلم

ومعنى حشر أي جمع السحرة وأرباب دولته

الأعلى ليس بوقف لمكان الفاء والأولى (تام) على أن جواب القسم محذوف وان جعل

جوابه إن في ذلك لعبرة لا يوقف على شيء من أول السورة إلى هذا الموضع لأنه لا يفصل بين

القسم وجوابه الوقف وتقدم ما فيه

لمن يخشى (تام) ومثله أم السماء كأنه قال أ أنتم أشد خلقاً أم الذي بناها فالمسؤول يجيب

السماء أشد خلقاً وقيل بناها صلة للسماء أي التي بناها فعلى هذا لا يوقف على بناها

لأن المسؤول عنه إنما هو عن أنتم والسماء لا عن أشد وجملة بناها ليست صفة للسماء

لأن الجملة لا تكون صفة للمعرفة ثم فسر كيفية البناء فقال رفع سمكها فسوّاها وقيل

الوقف على بناها

فسواها (جائز)

ضحاها (كاف) ثم استأنف قصة الأرض

(45/800)

دحاها (جائز) لأن قوله أخرج حال بإضمار قد ومثله ومرعاها إن نصب الجبال بفعل

مقدر أي وأرسى الجبال أرساها

وأرساها (كاف) أن نصب متاعاً بعامل مقدر أي متعكم متاعاً وليس بوقف أن نصب

على الحال مما قبله أو مفعولاً له

ولأنعامكم (تام)

الكبرى ليس بوقف أن جعل جواب فإذا قوله فأما من طغى وجائز أن جعل جوابها محذوفاً

أي فإذا جاءت الطامة الكبرى يرون ما يرون ويوم مفعول فعل محذوف والوصل أولى على

أن يوم ظرف جاءت قال أبو البقاء العامل فيها جوابها وهو معنى قوله يوم يتذكر الإنسان ولا

يوقف على سعى للعطف

لمن يرى (تام)

وآثر الحياة الدنيا ليس بوقف لأن ما بعده جواب فأما

المأوى الأولى (كاف)

فإنَّ الجنة هي المأوى (تام)

مرساها (جائز) على استئناف ما بعده وهو فيم خبر مقدم وأنت مبتدأ مؤخر وقيل الوقف على قوله فيم وهو خبر مبتدأ محذوف أي فيم هذا السؤال الذي يسألونه ثم تبتدئ بقوله أنت من ذكراها أي أرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة ذكر من ذكراها وعلامة من علاماتها فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ولا معنى لسؤالهم عنها قاله الزمخشري انظر السمين أي لست في شئ من علمها أي لا تعلمها فهو سؤال تعجب من كثرة ذكرهم لها وسؤالهم عنها

منتهاها (كاف)

من يخشاها (جائز) قرأ العامة منذر من يخشاها بإضافة الصفة لمعمولها تخفيفاً فمن في محل جر بالإضافة وعلى القراءة بالتنوين فمن في محل نصب مفعولاً وقرأ عمر بن عبد العزيز بالتنوين خص الإنذار للخاشعين وإن كان منذراً للخلق أجمعين لأنهم هم المنتفعون به

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة النازعات :

بسم الله الرحمن الرحيم [164ط]

قراءة أبي حيوة : "فِي الْحَفِرَة1" ، بفتح الحاء ، وكسر الفاء بغير ألف .

قال أبو الفتح : وجه ذلك أن يكون أراد "الحافرة" ، كقراءة الجماعة ، فحذف الألف تخفيفا ، كما قال :

إلا عرادا عردا2

أي : عاردا ، وقد ذكرناه .

وفيه وجه آخر ذو صنعة ، وهو أنهم قد قالوا : حفرت أسنانه : إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها . فقد يجوز أن يكون أراد الأرض الحفرة ، أي : المنتنة ؛ لفسادها بأخباثها ، وبأجسام الموتى فيها . وعليه فسروا قراءة من قرأ : " صَلَلْنا فِي الْأَرْض3" من النتن ، ورواها أحمد ابن يحيى : "صَلِلنا" ، بكسر اللام .

ومن ذلك قراءة الحسن وعمرو بن عبيد : "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا4" ، بالرفع .

قال أبو الفتح : هذا كقراءة عبد الله بن الزبير وأبان بن عثمان : "وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" ، وقد ذكرناه هناك5 .

---

1 سورة النازعات : 10 .

2 انظر الصفحة 171 من الجزء الأول .

3 من قوله تعالى في سورة السجدة : "10" ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ . و"صللنا" بالصاد مروية عن الحسن ، كما في الاتحاف : 216 .

4 سورة النازعات : 32 .

5 انظر الصفحة 334 من هذا الجزء .

ومن ذلك ما رواه الأعمش عن مجاهد : " وَالْأَرْضَ مِن ذَلِكَ دَحَاهَا 1" .

قال أبو الفتح : ليست هذه القراءة مخالفة المعنى لمعنى القراءة العامة : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ ، لأنه ليس المعنى – والله أعلم – أن الأرض دحيت مع خلق السموات وفي وقته ، وإنما

اجتماعهما في الخلق ، لا أن زمان الفعلين واحد . وهذا كقولك : فلان كريم ، فيقول السامع : وهو مع ذلك شجاع ، أي : قد اجتمع له الوصفان ، وليس غرضه فيه ترتيب الزمان .

ومن ذلك قراءة عكرمة : "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى2" ، بالتاء مفتوحة .

قال أبو الفتح : إن شئت كانت التاء في "ترى" للجحيم ، أي : لمن تراه النار . وإن شئت كانت خطابا للنبي "صلى الله عليه وسلم" أي : لمن ترى يا محمد ، أي : للناس ، فأشار إلى البعض ، وغرضه جنسه وجميعه ، كما قال لبيد :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد 3 ؟

فأشار إلى جنس الناس في هذا المعنى ، ونحن نعلم أنه ليس جميعه مشاهدا حاضر الزمان .

فإن قيل : فإن النبي "صلى الله عليه وسلم" كان بحضرته المؤمنون الذين قد شهد لكثير منهم بالجنة ، وشهد من حال الإيمان لهم بها ، فكيف يجوز أن يقول الله له : النار لهؤلاء الذين تراهم ؟ .

قيل : يخصه ويخلصه محصول معناه ، فهذا كقوله "تعالى" : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا4 ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل5 ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُم6 ﴾ ، كأنه عام لجميع من يقع البصر عليه ، إغلاظا ، وإرهابا . والمؤمنون مستثنون منه بما تقدمت الأدلة عليه ، وله أشباه كثيرة .

ومن ذلك قراءة السلمي : "أَيَّان8" بكسر الألف .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على ذلك9" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 350.349﴾

---

1 سورة النازعات : 30 .

2 سورة النازعات : 36 .

3 انظر الصفحة 189 من الجزء الأول .

4 سورة الإسراء : 89 .

5 سورة هود : 40 .

6 سورة ص : 24 .

7 سورة سبأ : 13 .

8 سورة النازعات : 42 .

9 انظر الصفحة 268 من الجزء الأول ، والصفحة 288 من هذا الجزء .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة النازعات

مكية وآيها أربعون وخمس خلا الكوفي وست فيه خلافها اثنان ولا نعامكم كوفي وحجازي من طغى عراقي وشامي القراآت قرأ ( ) أئنا لمردودون ( ) أئذا ( ) الآية 4 بالاستفهام في الأول وبالإخبار في الثاني نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وقرأ أبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وكل مستفهم على أصله فقالون وأبو عمرو وابو جعفر بالتسهيل والمد وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل والقصر والباقون بالتحقيق والقصر إلا أن أكثر الطرق عن هشام على المد

واختلف في (نخرة) الآية 11 فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف ورويس بألف بعد النون وافقهم الأعمش قال في النشر هذا الذي عليه العمل عن الكسائي وبه نأخذ وروى كثير من المشارقة والمغاربة عن الدوري التخيير بين الوجهين وجرى عليه في الطيبة وقال ابن مجاهد في السبعة عنه كان لا يبال كيف قرأها بألف وبلا ألف وروى عنه جعفر بن محمد بغير ألف وإن شئت بألف والباقون بغير ألف وهما بمعنى كحذر وحاذر أي بالية ووقف على بالواد بالياء يعقوب

وقرأ (طوى) الآية 16 بضم الطاء مع التنوين مصروفا ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وأمالة وقفا حمزة والكسائي وخلف والباقون بلا تنوين وقلله الأزرق

وأبو عمرو بخلفه وهو رأس آية وأمال رؤوس الآي وهي من قوله حديث موسى إلى آخرها

حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق إلا ما فيه هاء مؤنث وهي تسع كلمات (بناها

فسواها ضحاها دحاها مرعاها أرساها منتهاها يخشاها ضحاها) الآية 27 28

29 30 31 32 44 45 46 فله فيها الفتح مع التقليل كأبي عمرو وفي جميع رؤوس

الآي ما عدا الرائي نحو (ذكراها) الآية 43 فمحضه وجها واحدا غير أن الفتح عنه في

اليائي من رؤوس الآي أقل منه في غيرها كما مر

واختلف في ( ) إلى أن تزكى (الآية 18 فنافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب

(49/800)

بتشديد الزاي والأصل تتزكى فأدغموا التاء في الزاي وافقهم ابن محيصن والباقون بتخفيفها

فحذفوا التاء الأولى

وأمال فأراه أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله

الأزرق والكبرى معا من الفواصل ويوافق الصوري فيها أبا عمرو ومن معه وكذا حكم لمن

يرى ومن ذكريها

وقرأ ءأنتم بتسهيل الثانية مع الفصل بلا ألف قالون وأبو عمرو وابو جعفر وهشام في أحد

أوجهه وبلا فصل ورش وابن كثير ورويس زاد الأزرق إبدالها ألفا مع المد الساكنين والثاني لهشام التحقيق مع الفصل والثالث له التحقيق بلا فصل وبه قرأ الباقون وعن الحسن والأرض والجبال برفعهما على الابتداء والجمهور على نصبهما بإضمار فعل مفسر بما بعده وأما دحاها فهي رأس آية ومر حكمها غير أن الكسائي اختص بإمالتها عن حمزة كما مر واختلف في (منذر) الآية 45 فأبو جعفر بالتنوين ومن مفعوله قال الزمخشري وهو الأصل والإضافة تخفيف وافقه ابن محيصن والحسن والباقون بإضافة الصفة لمعمولها تخفيفا المرسوم كتبوا وأخرج ﴿ ضحيها ﴾ بالياء وكذا ﴿ دحيها) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(50/800)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة النازعات "

فالمدبرات . الحافرة ، خاسرة ، بالساهرة ، لعبرة ، ءأنتم ، المأوى معا ، فين ؛ جلي كله .

" أئنا ، أئذا " قرأ نافع والشامي والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني ، وأبو جعفر بالاخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما وكل من

استفهم فهو على أصله من التسهيل والتحقيق وغيرهما فقالون والبصري وأبو جعفر بالتسهيل والإدخال وورش ورويس وابن كثير بالتسهيل من غير إدخال وهشام التحقيق مع الإدخال قولا واحدا والباقون بالتحقيق بلا إدخال .

" نخرة " قرأ شعبة والأخوان ورويس وخلف بألف بعد النون والباقون بحذفها ورقق ورش راءه .

" بالواد " يقف عليه يعقوب بزيادة ياء ساكنة بعد الدال وغيره بتركها .

" طوى " قرأ الشامي والكوفيون بتنوينه مع كسره وصلا وإبداله ألفا وقفا والباقون بحذف التنوين في الحالين .

" إلى أن تزكى " قرأ المدنيان والمكي ويعقوب بتشديد الزاي وغيرهم بتخفيفها .

" منذر " قرأ أبو جعفر بتنوين الراء وغيره بحذف التنوين ولا يخفى ترقيق الراء لورش .

" أوضحاها " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

سورة النازعات من السور الإحدى عشرة .

" رءوس الآي الممالة " :

موسى ، طوى ، طغى ، تزكى ، فتخشى ، الكبرى ، وعصى ، يسعى ، فنادى ، الأعلى والأولى ، يخشى ، بناها ، فسواها ، ضحاها ، دحاها ، و مرعاها ، أرساها ، الكبرى ،

سعى ، يرى ، من طغى ، الدنيا ، المأوى معا ، الهوى ، مرساها ، ذكراها ، منتهاها يخشاها أوضحاها . وقد أمالها كلها الأخوان وخلف لا فرق في ذلك بين الرائي مثل يرى وغيره نحو الأعلى ولا بين ما فيه ها نحو بناها وغيره نحو ما ذكر ، إلا دحاها فلا يميلها إلا الكسائي .

(51/800)

وأما البصري فقد أمال ذوات الراء نحو الكبرى وذكراها وقلل غيرها قولا واحدا نحو سعى وبناها ، وأما ورش فقلل ذوات الراء قولا واحدا لا فرق في ذلك بين ما فيه ها وهو ذكراها وغيره نحو الكبرى ، وأما غير ذوات الراء فإن لم تكن مقرونة بها فإنه يقللها قولا واحدا نحو فعصى والأعلى وإن كانت مقرونة بها مثل بناها فله فيها الفتح والتقليل .

واعلم أن الفواصل السابقة معدودة عند الجميع ما عدا من طغى فعدها رأس آية البصري والشامي والكوفي ، ولم يعدها المدني الأول ولا المدني الأخير ولا المكي ، وقد ذكرنا في سورة طه أن ورشا يعتمد عدد المدني الأخير وأبا عمرو يعتمد العدد البصري ، وقيل إنهما يعتمدان عدد المدني الأول والقول الأول أرجح ، فإذا جرينا على القول الأول يكون لورش في طغى الفتح والتقليل لأنه ليس برأس آية عنده ويكون للبصري فيه التقليل قولا

واحدا لأنه عنده رأس آية ، وإن جرينا على القول الثاني كان لورش فيه الوجهان المذكوران أيضا وكان للبصري فيه الفتح فقط لأنه ليس رأس آية عند المدني الأول كما أنه ليس على وزن فعلى .

والحاصل أن لورش فيه الفتح والتقليل على كلا القولين وأن للبصري فيه التقليل قولا واحدا على الرأى الأول ، والفتح قولا واحدا على الرأى الثاني ، وقد علمت أن الرأى الأول أرجح وأقوى .

" ما ليس برأس آية " :

شاءت وجاءت لابن ذكوان وحمزة وخلف ، خاف لحمزة ، أتاك وناداه ونهى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، فأراه بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " فكانت سرابا ، للبصري والأخوين وخلف .

" الكبير " الليل لباسا ، الملائكة صفا ، أذن له ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، الراجفة تتبعها ، ولا إدغام في كنت ترابا ، ولا في بعد ذلك لفتح الدال بعد ساكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 344 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة النازعات

قوله تعالى ﴿ أئذا كنا عظاما ﴾ مذكور في نظائره

قوله تعالى ﴿ نخرة ﴾ يقرأ بإثبات الالف وحذفها فالحجة لمن اثبت انه اراد عظاما عارية من اللحم مجوفة والحجة لمن حذف انه اراد بالية قد صارت ترابا وقيل هما لغتان مثل طمع وطامع والاجود اثبات الالف ليوافق اللفظ ما قبلها وبعدها من رؤوس الآي

قوله تعالى ﴿ طوى اذهب ﴾ يقرأ بالتنوين وكسره لالتقاء الساكنين وبحذف التنوين واسكان الياء وقد ذكرت علله في سورة طه مستقصاة

قوله تعالى ﴿ إلى أن تزكى ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف على ما ذكرناه في نظائره ومعنى التخفيف ها هنا ان يكون زاكيا ومعنى التشديد ان يتفعل من الزكاة أي يتصدق وموسى لا يدعو فرعون مع علمه بكفره الى ان يتصدق ودليله قوله ﴿ أقتلت نفسا زكية ﴾ وزكية ولم يقل متزكية

قوله تعالى ﴿ أئنا ﴾ يقرأ بهمزتين محققتين وتشديد النون وبهمزة وياء ونون مشددة وبهمزة

ونونين الاولى مشددة وقد ذكرت علله فيما سلف بما يغني عن اعادة قول فيه في هذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 362. 363 ﴾

(53/800)

وقال ابن زنجلة :

79 - سورة النازعات

أءذا كنا عظما نخرة

قرأ حمزة والكسائي وبو بكر عظاما ناخرة أي بالية كذا قال ابن عباس وقيل فارغة وقال آخرون ا لناخرة العظم المجوف الذي تمر فيه افريح فتنخر وقالوا النخرة البالية وحجتهم في ذلك أن رؤوس الآيات بالألف نحو الحافرة و الرادفة والراجفة والساحرة فالألف أشبه بمجيء التنزيل وبرؤوس الآيات

وقرأ الباقون عظاما نخرة بغير ألف وحجتهم في ذلك أن ما كان صفة منتظر لم يكن فهو بالألف وما كان وقع فهو بغير ألف قال اليزيدي يقال عظم نخر وناخر غدا فدل على أنهم قالوا إذ كنا بعد موتنا عظاما نخرة قد نخرت وقال أبو عمرو نخرة وناخرة واحد وكذا قال الفراء مثل الطامع والطمع إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى 16 طوى قد ذكرت في سورة

طه فقل هل لك إلى أن تزكى 18

قرأ نافع وابن كثير إلى أن تزكى بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف والأصل تتزكى فمن ثقل أدغم التاء في الزاي ومن خفف حذف إحدى التاءين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 748 . 749 ﴾

(54/800)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة والنازعات 79

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير الكوفي ولا نظير لها فيه

وكلمها مئة وتسع وسبعون كلمة

وحروفها سبع مئة وثلاثة وخمسون حرفا

وهي أربعون وست آيات في الكوفي وخمس في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ ولأنعامكم ﴾) لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون (﴿ فأما من طغى ﴾) لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون وليس فيها مما يشبه الفواصل

شيء ورؤوس الآي

عرفا

1 نشطا

2 سبحا

3 سبقا

4 أمرا

5 الراجفة

6 الرادفة

7 واجفة

8 خاشعة

9 الحافرة

10 نخرة

11 خاسرة

12 واحدة

13 بالساهرة

14 موسى

15 طوى

16 طغى

17 تزكى

18 فتخشى

19 الكبرى

20 وعصى

21 يسعى

22 فنادى

23 الأعلى

24 والأولى

25 يخشى

26 بناها

27 فسواها

28 ضحاها

29 دحاها

30 مرعاها

31 أرساها

32 ولأنعامكم

33 الكبرى

34 ما سعى

35 يرى

36 الدنيا

38 المأوى

39 الهوى

40 المأوى

41 مرساها

42 ذكراها

43 منتهاها

44 يخشاها

45 أوضحاها

46 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 263﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة والنازعات

بسم الله الرحمن الرحيم (غرقا) مصدر على المعنى ، لأن النازع المغرق في نزع السهم أو في جذب الروح وهو مصدر محذوف الزيادة: أي إغراقا ، و (أمرا) مفعول ، وقيل حال: أي يدبرون مأمورات ، و (يوم ترجف) مفعول: أي اذكر ، ويجوز أن يكون ظرفا لما دل عليه راجفة أو خاشعة: أي يخاف يوم ترجف ، و (تتبعها) مستأنف .

أو حال من الراجفة .

قوله تعالى (يقولون) أي يقول أصحاب القلوب والأبصار .

قوله تعالى (اذهب) أي قال اذهب ، وقيل التقدير : إن ذهب فحذف إن .

قوله تعالى (إلى أن تزكى) لما كان المعنى أدعوك جاء بإلى .

قوله تعالى (نكال الآخرة) في نصبه وجهان: أحدهما هو مفعول له .

والثانى هو مصدر لأن أخذه ونكل به هنا بمعنى .

فأما جواب القسم فقيل هو (إن في ذلك لعبرة) وقيل هو محذوف تقديره: لتبعثن .

قوله تعالى (أم السماء) هو مبتدأ ، والخبر محذوف: أي أم السماء أشد ، و (بناها)

مستأنف ، وقيل حال من المحذوف (والأرض) منصوب بفعل محذوف أي ودحا الأرض ، وكذلك (والجبال) أي وأرسى الجبال ، و (متاعا) مفعول له أو مصدر .

قوله تعالى (فإذا جاءت) العامل فيها جوابها ، وهو معنى قوله تعالى " يوم يتذكر "

قوله تعالى (هي المأوى) أي هي المأوى له ، لا بد من ذلك ليعود على " من " من الخبر ضمير ، وكذلك (المأوأى) الثاني والهاء في (ضحاها) ضمير العشية مثل قولك في ليلة ويومها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(56/800)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة النازعات

[سورة النازعات (79) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5)

"وَ" الواو حرف قسم وجر "النَّازِعاتِ" مقسم به مجرور والجار والمجرور متعلقان بفعل قسم محذوف و"غَرْقاً" حال "وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً" "وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً" "فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً" معطوف على ما قبله و"فَالْمُدَبِّراتِ" معطوف على ما قبله و"أَمْراً" مفعول به.

[سورة النازعات (79) : الآيات 6 الى 9]

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9)

"يَوْمَ" ظرف زمان "تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "تَتْبَعُهَا" مضارع ومفعوله و"الرَّادِفَةُ" فاعله والجملة حال "قُلُوبٌ" مبتدأ و"يَوْمَئِذٍ" ظرف أضيف إلى مثله "واجِفَةٌ" صفة قلوب و"أَبْصارُها خاشِعَةٌ" مبتدأ وخبره والجملة خبر قلوب وجملة قلوب مستأنفة.

[سورة النازعات (79) : آية 10]

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10)

"يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر مبتدأ محذوف تقديره هم يقولون "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام وإن واسمها "لَمَرْدُودُونَ" اللام المزحلقة وخبرها و"فِي الْحافِرَةِ" متعلقان بما قبلهما والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة النازعات (79) : الآيات 11 الى 14]

أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

(57/800)

"أَإِذا" الهمزة حرف استفهام و"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "كُنَّا عِظاماً" كان واسمها وخبرها و"نَخِرَةً" صفة والجملة في محل جر بالإضافة. "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة و"تِلْكَ" مبتدأ و"إِذاً" حرف جواب وجزاء لا عمل لها و"كَرَّةٌ" خبر و"خاسِرَةٌ" صفة والجملة الاسمية مقول القول "فَإِنَّما" كافة ومكفوفة والفاء استئنافية "هِيَ زَجْرَةٌ" مبتدأ وخبره "واحِدَةٌ" صفة والجملة الاسمية مقول قول محذوف والكلام مستأنف "فَإِذا" الفاء حرف عطف و"إِذا" فجائية و"هُمْ" مبتدأ و"بِالسَّاهِرَةِ" متعلقان بمحذوف خبر.

[سورة النازعات (79) : الآيات 15 الى 17]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (17)

"هَلْ" حرف استفهام "أَتاكَ" ماض ومفعوله و"حَدِيثُ" فاعل و"مُوسى" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها و"إِذْ" ظرف زمان "ناداهُ رَبُّهُ" ماض ومفعوله وفاعله والجملة

في محل جر بالإضافة و"بِالْوادِ" متعلقان بمحذوف حال "الْمُقَدَّسِ" صفة و"طُوىً" بدل من الوادي. "اذْهَبْ" أمر فاعله مستتر والجملة مفسرة للنداء و"إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل "إِنَّهُ" إن واسمها "طَغى" ماض فاعله مستتر

والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل.

[سورة النازعات (79) : الآيات 18 الى 19]

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (19)

(58/800)

"فَقُلْ" الفاء حرف عطف وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها. و"هَلْ" حرف استفهام و"لَكَ" متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف التقدير: هل لك سبيل. و"إِلى" حرف جر و"أَنْ" حرف مصدري ونصب "تَزَكَّى" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بالمبتدأ المحذوف والجملة الاسمية المقدرة مقول القول.

[سورة النازعات (79) : الآيات 20 الى 23]

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (20) فَكَذَّبَ وَعَصى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (22) فَحَشَرَ فَنادى

"فَأَراهُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر و"الْآيَةَ" مفعول به ثان و"الْكُبْرى" صفة. والجملة معطوفة على ما قبلها. "فَكَذَّبَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَعَصى" معطوف على كذب "ثُمَّ" حرف عطف "أَدْبَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "يَسْعى" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "فَحَشَرَ فَنادى" معطوفان على ما قبلهما.

[سورة النازعات (79) : الآيات 24 الى 26]

فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى (25) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (26)

"فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها. و"أَنَا رَبُّكُمُ" مبتدأ وخبره و"الْأَعْلى" صفة والجملة مقول القول. "فَأَخَذَهُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها و"نَكالَ الْآخِرَةِ" مفعول مطلق مضاف إلى الآخرة و"الْأُولى" معطوف على الآخرة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل و"فِي ذلِكَ" خبر إن المقدم "لَعِبْرَةً" اللام المزحلقة واسم إن المؤخر والجملة الاسمية مستأنفة و"لِمَنْ" متعلقان بمحذوف صفة عبرة "يَخْشى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من.

[سورة النازعات (79) : الآيات 27 الى 29]

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها (29)

"أَأَنْتُمْ" الهمزة حرف استفهام و"أَنْتُمْ أَشَدُّ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة و"خَلْقاً" تمييز و"أَمِ" حرف عطف و"السَّماءُ" مبتدأ وخبره محذوف والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "بَناها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية حال "رَفَعَ" ماض فاعله مستتر و"سَمْكَها" مفعول به والجملة مفسرة "فَسَوَّاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَأَغْطَشَ لَيْلَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَخْرَجَ ضُحاها" معطوفة على أغطش ليلها .

[سورة النازعات (79) : الآيات 30 الى 33]

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها (31) وَالْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33)

"وَالْأَرْضَ" مفعول به لفعل محذوف يفسره ما بعده و"بَعْدَ ذلِكَ" ظرف زمان مضاف إلى ذلك . و"دَحاها"

ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مفسرة "أَخْرَجَ" ماض فاعله مستتر و"مِنْها" متعلقان بالفعل و"ماءَها" مفعول به "وَمَرْعاها" معطوف على ماءها والجملة حال.

"وَالْجِبالَ أَرْساها" كإعراب سابقتها.

و"مَتاعاً" مفعول لأجله و"لَكُمْ" متعلقان بما قبلهما "وَلِأَنْعامِكُمْ" معطوفان على لكم.

[سورة النازعات (79) : الآيات 34 الى 36]

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (36)

(60/800)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَتِ الطَّامَّةُ" ماض وفاعله وجواب الشرط محذوف "الْكُبْرى" صفة الطامة والجملة الفعلية في محل جر بالإضافة. "يَوْمَ" ظرف زمان بدل من إذا و"يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"ما" مفعول به و"سَعى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة. "وَبُرِّزَتِ" ماض مبني للمجهول و"الْجَحِيمُ" نائب فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها. و"لِمَنْ" متعلقان بما قبلهما "يَرى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من.

[سورة النازعات (79) : الآيات 37 الى 39]

فَأَمَّا مَنْ طَغى (37) وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (39)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف و"أما" أداة شرط وتفصيل و"مَنْ" اسم موصول مبتدأ "طَغى" ماض فاعله مستتر والجملة الفعلية صلة من "وَآثَرَ" معطوف على طغى "الْحَياةَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة "فَإِنَّ الْجَحِيمَ" الفاء رابطة وإن واسمها و"هِيَ" ضمير فصل و"الْمَأْوى" خبر إن والجملة الاسمية خبر من.

[سورة النازعات (79) : الآيات 40 الى 41]

وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (41)

الآيتان معطوفتان على ما قبلهما وإعرابهما واضح.

[سورة النازعات (79) : الآيات 42 الى 45]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (44) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45)

"يَسْئَلُونَكَ" مضارع وفاعله ومفعوله و"عَنِ السَّاعَةِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة و"أَيَّانَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم و"مُرْساها" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مفعول به ثان ليسألونك و"فِيمَ" خبر مقدم و"أَنْتَ" مبتدأ مؤخر و"مِنْ ذِكْراها" متعلقان بالخبر المحذوف و"إِلى رَبِّكَ" خبر مقدم و"مُنْتَهاها" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة و"إِنَّما" كافة ومكفوفة و"أَنْتَ مُنْذِرُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة و"مَنْ" مضاف إليه و"يَخْشاها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة من.

[سورة النازعات (79) : آية 46]

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46)

"كَأَنَّهُمْ" كأن واسمها و"يَوْمَ" ظرف زمان "يَرَوْنَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "لَمْ يَلْبَثُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كأن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر و"عَشِيَّةً" ظرف زمان "أَوْ" حرف عطف و"ضُحاها" معطوف على عشية. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 419.417﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة النازعات

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1452 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من خَافَ أدْلج وَمن أدْلج بلغ الْمنزل

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث أبي بن كَعْب

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه من حَدِيث يزِيد بن سِنَان التَّمِيمِي سَمِعت بكير بن فَيْرُوز يَقُول سَمِعت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من خَافَ أدْلج وَمن أدْلج بلغ الْمنزل الا أَن سلْعَة الله غَالِيَة أَلا إِن سلْعَة الله الْجنَّة انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث أبي النَّضر انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الرقَاق وَقَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ إِلَّا أَنِّي وجدت فِي النُّسْخَة برد بن سِنَان فَلْينْظر

وَرَوَاهُ عبد بن حميد فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي عشر عَن يزِيد بن سِنَان بِهِ

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي كِتَابه وَأعله بيَزِيد بن سِنَان

وَقَالَ ابْن طَاهِر يزِيد بن سِنَان مَتْرُوك وَلَا يَصح مُسْندًا وَيروَى من كَلَام أبي ذَر

أما حَدِيث أبي بن كَعْب فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك أَيْضا من حَدِيث عبد الله ابْن الْوَلِيد الْعَدنِي عَن سُفْيَان الثَّوْريّ عَن عبد الله بن مُحَمَّد بن عقيل عَن الطُّفَيْل ابْن أبي بن كَعْب عَن أَبيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خَافَ أدْلج . . .

إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان أَيْضا من حَدِيث وَكِيع ثَنَا سُفْيَان الثَّوْريّ بِهِ

(63/800)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة وَكِيع وَقَالَ غَرِيب تفرد بِهِ وَكِيع عَن الثَّوْريّ

وَسَنَد الْحَاكِم وَارِد عَلَيْهِ

1453 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن مُصعب بن عُمَيْر قتل أَخَاهُ أَبَا عَزِيز يَوْم أحد وَوَقَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نفذت المشاقيص فِي جَوْفه

1454 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن عَائِشَة لم يزل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يذكر السَّاعَة وَيسْأل عَنْهَا حَتَّى نزلت يَعْنِي قَوْله تَعَالَى فيمَ أَنْت من ذكرَاهَا

قلت رُوِيَ من حَدِيث طَارق بن شهَاب وَمن حَدِيث عَائِشَة

فَحَدِيث طَارق رَوَاهُ النَّسَائِيّ أَنا أَحْمد بن سُلَيْمَان ثَنَا مُؤَمل بن الْفضل ثَنَا عِيسَى عَن إِسْمَاعِيل ثَنَا طَارق بن شهَاب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ لَا يزَال يذكر من شَأْن السَّاعَة حَتَّى نزلت يَسْأَلُونَك عَن السَّاعَة أَيَّانَ مرْسَاها . . . الْآيَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا أَبُو كريب ثَنَا وَكِيع ثَنَا إِسْمَاعِيل بِهِ

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن الزُّهْرِيّ عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يسْأَل عَن السَّاعَة حَتَّى أنزل عَلَيْهِ يَسْأَلُونَك عَن السَّاعَة أَيَّانَ مرْسَاها فيمَ أَنْت من ذكرَاهَا إِلَى رَبك مُنْتَهَاهَا) قَالَ فَانْتَهَى ثمَّ قَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ فَإِن ابْن عُيَيْنَة كَانَ يُرْسِلهُ بأخرة انْتَهَى

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أَنا ابْن عُيَيْنَة بِهِ مُسْندًا

(64/800)

وَكَذَلِكَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثني يَعْقُوب بن إِبْرَاهِيم ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة بِهِ مُسْندًا

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا ابْن عُيَيْنَة بِهِ مُرْسلا لم يذكر فِيهِ عَائِشَة

وَذكر الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله جمَاعَة رَوَوْهُ عَن ابْن عُيَيْنَة فَأَسْنَدُوهُ وَآخَرين رَوَوْهُ عَنهُ فَأَرْسلُوهُ قَالَ وَكَأَن ابْن عُيَيْنَة أسْنده مرّة وأرسله أُخْرَى

وَقَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله وَقَالَ أَبُو زرْعَة الصَّحِيح مُرْسل بِلَا عَائِشَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه بِهِ مُسْندًا ثمَّ رَوَاهُ من حَدِيث نعيم بن حَمَّاد عَن سُفْيَان بِهِ مُرْسلا وَمن حَدِيث سعيد بن مَنْصُور بِهِ مُرْسلا

وَرُوِيَ أَيْضا حَدِيث طَارق من رِوَايَة عباد بن صُهَيْب ثَنَا إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن طَارق

1455 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة النازعات كَانَ مِمَّن حَبسه الله تَعَالَى فِي الْقَبْر وَالْقِيَامَة حَتَّى يدْخل الْجنَّة قدر صَلَاة الْمَكْتُوبَة

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ مَقْطُوعًا فَقَالَ وَرَوَى أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة والنازعات كَانَ حَبسه فِي الْقَبْر حَتَّى يدْخل الْجنَّة قدر صَلَاة مَكْتُوبَة قَالَ وَرُوِيَ لم يكن حَبسه فِي الْقَبْر وَالْقِيَامَة إِلَّا كَقدْر صَلَاة مَكْتُوبَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 149.152 ﴾

(65/800)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة النّازعات» (79)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً» (1) النجوم تنزع تطلع ثم تغيب فيه وهى .

«النَّاشِطاتِ نَشْطاً» (2) كالحمار الناشط ينشط من بلد إلى بلد والهموم تنشط صاحبها

قال هميان بن قحافة :

أمست همومى تنشط المناشطا الشّام بي طورا وطورا واسطا

«1» [927] .

«وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً» (3) هى أيضا النجوم «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (21/ 33) . .

«فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً» (5) . .

«يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ» (6) أي القيامة . .

«تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (7) كل شيء بعد شيء يردفه فهو الرادفة الصيحة الثانية . .

«أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ» (10) من حيث [جئنا] ، كما قال : رجع فلان فى حافرته من حيث جاء وعلى حافرته من حيث جاء .

«ناخرة «2»» (11) ونخرة سواء عظم نخر بال .

---

(1) . - 927 : «هميان بن قحافة» هو أحد بنى عوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم وقيل أحد بنى عامر بن عبيد بن الحارث راجز إسلامي انظر ترجمته فى المؤتلف ص 197 والسمط ص 572 - والبيت فى الطبري 30/ 17 والقرطبي 19/ 190 .

[. . . . .]

(2) . - 14 «ناخرة» : قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة «نخرة» واختارها أبو عبيد لأن الآثار التي تذكر فيها العظام . . . وقرأ أبو عمرو وابنه عبد اللّه وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر «ناخرة» بألف واختارها الفراء والطبري ، انظر القرطبي 19/ 195 .

«ناخرة . . . سواء» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 530 .

«الساهرة» (14) الفلاة ووجه الأرض قال أميّة بن أبى الصّلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

«1» [928] أي تكلموا . .

«الْمُقَدَّسِ» (16) المبارك . .

«طُوىً» (16) وطوى مضمومة ومكسورة فمن لم ينوّن جعله اسما مؤنثا ومن نوّن جعله

ثنى طوى جعله مرتين مصدر قال عدىّ بن زيد العبادىّ :

أعاذل إن اللوم فى غير كنهه علىّ طوى من غيّك المتردّد

(285) وبعضهم يقول : طوى وبعضهم يقول : ثنى . .

«أَغْطَشَ لَيْلَها» (29) أظلم وكل أغطش لا يبصر . .

«وَأَخْرَجَ ضُحاها» (29) ضوءها بالنهار . .

«وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذِلكَ دَحاها» (30) بسطها ، يقول : دحوت ودحيت . .

«أَيَّانَ مُرْساها» (42) مرساها منتهاها «2» ، مرسى السفينة حيث تنتهى . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 284. 285 ﴾

---

(1) . - 928 : ديوانه ص 51 والطبري 30/ 20 والسمط ص 124 والقرطبي 19/ 197 والعيني 2/ 346 .

(2) . - 12 «منتهاها . . تنتهى» : كما فى البخاري ورواه القرطبي (19/ 207) وابن حجر عن أبى عبيدة .

(67/800)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «النازعات»

[سورة النازعات (79) : الآيات 13 الى 14]

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

قوله سبحانه : فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [13 ، 14] وهذه استعارة .

لأن المراد بالساهرة ها هنا - على ما قال المفسرون والله أعلم - الأرض .

قالوا إنما سمّيت ساهرة على مثال : عيشة راضية . كأنه جاء على النسب : ذات السّهر

وهى الأرض المخوفة . أي يسهر فى ليلها ، خوفا من طوارق شرّها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تلخيص البيان صـ 358 ﴾

(68/800)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة النازعات

" والنازعات غرقا * والناشطات نشطا * والسابحات سبحا * فالسابقات سبقا * فالمدبرات أمرا " . الذى أختاره أن هذه الأقسام بالكواكب الدوارة فى الفضاء ، تشق طريقها بغير وقود وتسرع السير بغير توقف وتعرف الطريق بغير جندى مرور ، ثم يجيئها أجلها مع نهاية العالم ، فإذا هى تتلاشى ! متى ؟ "يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة " . فى الزلزال الكبير الذى يفقد كل شىء توازنه ، وتترادف مزعجاته فإذا القلوب مضطربة والأبصار كسيرة ! يقول المشركون عند سماع هذا النذير " أئنا لمردودون في الحافرة " . أراجعون نحن إلى الطريق التى جئنا منها ؟ أعائدون إلى الحياة مرة أخرى ؟ ! هكذا يحدثنا الرسول ! ومتى ؟ بعد أن نموت ونبلى " تلك إذا كرة خاسرة " ! عودة لا خير فيها

لأننا ما صدقناها ولا أعددنا لها . . " فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة " . بساعة الحشر والجزاء . إن أتباع الفلسفة المادية المعاصرين لا يزيدون على مشركى الصحراء الأقدمين عندما يقولون: إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ! فما الموقف إذا رأوا أنفسهم أحياء لم يصبهم شىء ؟ واستتلت الآيات تتحدث عن فرعون ، وهو من أكابر المجرمين . والحق أن الفرعنة مرض عام أساسه بطر الحق وغمص الناس . وقد يكون فى الحكام والإداريين والفنانين والكناسين . والمرء إذا ذهب بنفسه عاش أنانيا جائرا لا يحق حقا ولا يبطل باطلا . وجهنم تأخذ حطبها من هؤلاء جميعا . ويخاطب القرآن البشر: علام الكبر والصد عن سبيل الله ؟ " أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها . . . " .

(69/800)

إن الإنسان - بالنسبة إلى غيره - كائن ضعيف ما يجوز له أن يعمى ويطغى . بل يجب أن يتقى ربه ويتزكى . وإذا كان قد ملك التصرف فى كائنات أخرى ، فليسخر هذا التفوق فى شكر الله وأداء حقوقه . وعادت السورة إلى ما بدأت به من حديث عن البعث والجزاء ليجعل الإنسان من حياته الأولى مهادا للحياة الأخرى " فإذا جاءت الطآمة الكبرى * يوم

يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم لمن يرى" إن الناس يومئذ رجلان: عبد لشهواته يعيش لإشباعها ، وعبد لله يشعر بقيامه ورقابته فلا ينسى حقه " فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى " . ويجمح التطلع والاستخفاف بأصحابهما فيتساءلون عن الساعة " أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها " . إن علمها عند الله وحده ، وما ينفعكم العلم بها إذا لم تستعدوا لها ؟ إن الوجود موصول ، والموت فاصل خفيف بين الوجودين الأول والأخير ، وسنعرف قيمة الدنيا يوم اللقاء " كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 498 . 499 ﴾

(70/800)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(71/800)

قوله تعالى ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الظاهر الباطن الملك العلام (الرحمن) الذي عم بالإنعام (الرحيم) الذي خص أهل ولايته بالتمام ، فاختصوا بالإكرام في دار السلام .

لما ذكر سبحانه يوم يقوم الروح ويتمنى الكافر العدم ، أقسم أول هذه بنزع الأرواح على الوجه الذي ذكره بأيدي الملائكة عليهم السلام على ما يتأثر عنه من البعث وساقه على وجه التأكيد بالقسم لأنهم به مكذبون فقال تعالى : ﴿ والنازعات ﴾ أي من الملائكة – كما قال علي وابن عباس ـ رضى الله عنه ـ م – للأرواح ولأنفسها من مراكزها في السماوات امتثالاً للأوامر الإليهة ﴿ غرقاً ﴾ أي إغراقاً بقوة شديدة تغلغلاً إلى أقصى المراد من كل شيء من البدن حتى الشعر والظفر والعظم كما يغرق النازع في القوس فيبلغ أقصى المدّ ، وكان ذلك لنفوس الكفار والعصاة كما ينزع السفود وهو الحديدة المتشعبة المتعاكسة

الشعب من الصوف المبلول ، وعم ابن جرير كما هي عادته في كل ما يحتمله اللفظ فقال : والصواب أن يقال : إن الله تعالى لم يخصص ، فكل نازعة داخلة في قسمه - يعني الاعتبار بما آتاها الله من القدرة على ذلك النزع الدالة على تمام الحكمة والاقتدار على ما يريده سبحانه .

(72/800)

ولما ذكر الشد مبتدئاً به لأنه أهول ، أتبعه الرفق فقال : ﴿ والناشطات ﴾ أي المخرجات برفق للأرواح أو لأجنحتها من محالها ﴿ نشطاً ﴾ أي رفقاً فلا تدع وإن كان رفيقاً بين الروح والجسد تعلقاً كما ينشط الشيء من العقال أي يحل من عروة كانت عقدت على هيئة الأنشوطة ، قال الفراء إنه سمع العرب يقولون : نشطت العقال - إذا حللته ، وأنشطت - إذا عقدت بأنشوطة - انتهى ، والنشط أيضاً : الجذب والنزع ، يقال : نشطت الدلو نشطاً - إذا نزعتها .

وقال الخليل : النشط والإنشاط مدك الشيء إلى نفسك حتى ينحل ، وكان هذا الأرواح أهل الطاعة ، وكذلك نزع النبات والإنساء والإنماء لكل ما يراد نزعه أو نشطه ، فالذي قدر بعض عبيده على هذا الذي فيه تمييز الأرواح من غيرها على ما لها من اللطافة وشدة

الممازجة قادر على تمييز جسد كل ذي روح من جسد غيره بعد أن صار كل تراباً واختلط بتراب الآخر .

ولما ذكر نوعي السل بالشدة والرفق ، ذكر فعلها في إقبالها إليه ورجوعها عنه فقال : ﴿ والسابحات ﴾ أي من الملائكة أيضاً في الجو بعد التهيؤ للطيران إلى ما أمرهم الله به من أوامره من الروح أو غيرها ﴿ سبحاً ﴾ هو في غاية السرعة لأنه لا عائق لها بل قد أقدرها الله على النفوذ في كل شيء كما أقدر السابح في الماء والهواء ، ولذلك نسق عليه بالفاء قوله : ﴿ فالسابقات ﴾ أي بعد السبح في الطيران إلى ما أمروا به من غمس الأرواح في النعيم أو الجحيم أو غير ذلك مما أمروا به في أسرع من اللمح مع القدرة والغلبة لجميع ما يقع محاولته ﴿ سبقاً ﴾ .

(73/800)

ولما بان بذلك حسن امتثالها للأوامر ، بان به عظيم نظرها في العواقب فدل على ذلك بالفاء في قوله : ﴿ فالمدبرات ﴾ أي الناظرات في أدبار الأمور وعواقبها لإتقان ما أمروا به في الأرواح وغيرها ﴿ أمراً ﴾ أي عظيماً ، ويصح أن يكون للشمس والقمر والكواكب والرياح والخيل السابحة في الأرض والجو لمنفعة العباد وتدبير أمورهم ، وبعضها سابق

لبعض ، وبه قال بعض المفسرين ، والجواب محذوف إشارة إلى أنه من ظهور العلم به – بدلالة ما قبله وما بعده عليه – في حد لا مزيد عليه ، فهو بحيث لا يحتاج إلى ذكره فحذفه كإثباته بالبرهان فتقديره : لتذهبن بالدنيا التي أنتم بها مغترون لنزعنا لها من حالها وتقطيع أوصالها ، فإن كل ما تقدم من أعمال ملائكتنا هو من مقدمات ذلك تكذيباً لقول الكفار ﴿ ما هي إلا حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] المشار إليه بتساؤلهم عنها لأنه على وجه الاستهزاء والتكذيب ولتقومن الساعة ؟ أو أنكم لمبعوثون بعد الموت وانتهاء هذه الدار ؟ ثم لمجازون بما عملتم بأسباب موجودة مهيأة بين أظهركم دبرناها وأوجدناها حين أوجبنا هذه الحياة الدنيا وإن كنتم لا ترونها كما أن هذه الأمور التي أخبرناكم بها في نزع الأرواح والنبات والمنافع موجودة بين أظهركم والميت أقرب ما يكون منكم وهي تعمل أعمالها .

والمحتضر أشد ما يكون صوتاً وأعظمه حركة إذا هو قد خفت وهمد بعد ذلك الأمر وسكت وامتدت أعضاؤه ومات ، وذهب عنكم قهراً وفات الذي فات كأنه قط ما كان ، ولا تغلب في زمن من الأزمان ، بتلك الأسباب التي تعمل أعمالها وتمد حبالها وترسي أثقالها ، وتلقي أهوالها وأوجالها ، وأنتم لا ترونها ، فيا لله العجب أن لا يردكم ذلك على كثرته عن أن تستبعدوا على قدرته تمييز تراب جسد من تراب جسد آخر .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ : 40] عند نظره ما قدمت يداه ، ومعانيته من العذاب عظيم ما يراه ، وبعد ذكر تفصيل أحوال وأهوال ، أتبع ذلك ما قد كان حاله عليه في دنياه من استبعاد عودته في أخراه ، وذكر قرب ذلك عليه سبحانه كما قال في الموضع الآخر ﴿ وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] وذلك بالنظر إلينا ولما عهدناه ، وإلا فليس عنده سبحانه شيء أهون من شيء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] فقال تعالى : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ [النازعات : 1] إلى قوله : ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ [النازعات : 10 - 11] إذ يستبعدون ذلك ويستدفعونه ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ [النازعات : 13] أي صحية ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 14] أي الأرض قياماً ينظرون ما قدمت أيديهم ويتمنون أن لو كانوا تراباً ولا ينفعهم ذلك ، ثم ذكر تعالى من قصة فرعون وطغيانه ما يناسب الحال في قصد الاتعاظ والاعتبار ، ولهذا أتبع القصة بقوله سبحانه

﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشي ﴾ [النازعات : 26] انتهى .

ولما أقسم على القيام بتلك الأفعال العظام التي ما أقدر أهلها عليها إلا الملك العلام .

ذكر ما يكون فيه من الأعلام تهويلاً لأمر الساعة لأن النفوس المحسوسات نزاعة ، فالغائبات

عندها منسية مضاعة فقال ناصباً الظرف بذلك المحذوف لأنه لشدة وضوحه كالملفوظ به : ﴿ يوم ترجف ﴾ أي تضطرب اضطراباً كبيراً مزعجاً ﴿ الراجفة ﴾ أي الصيحة ، وهي النفخة الأولى التي هي بحيث يبلغ – من شدة إرجافها للقلوب وجميع الأشياء الساكنة من الأرض والجبال إلى نزع النفوس من جميع أهل الأرض – مبلغاً تستحق به أن توصف بالعراقة في الرجف ، قال البغوي : وأصل الرجفة الصوت والحركة .

(75/800)

ولما ذكر الصيحة الأولى ، أتبعها الثانية حالاً منها دلالة على قربها قرباً معنوياً لتحقق الوقوع ، ولأن ذلك كله في حكم يوم واحد ، فصح مجيء الحال وإن بعد زمنه من زمن صاحبه فقال : ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ أي الصيحة التابعة لها التي يقوم بها جميع الأموات وتجتمع الرفات ، وتضطرب من هولها الأرض والسماوات ، وتدك الجبال ويعظم الزلزال ، ويكون عنها التسيير بعد المصير إلى الكثيب المهيل ، ونحو ذلك من الأمر الشديد الطويل ، قال حمزة الكرماني : روى السدي عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى أمطر عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحياة فينبتون منه كما ينبت الزرع من الماء ، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فبينما هم في

قبورهم نفخ في الصور ثانية فجلسوا وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم .

ولما ذكر البعث ، ذكر حال المكذب به لأن السياق له ، فقال مبتدئاً بنكرة موصوفة :

﴿ قلوب يومئذ ﴾ أي إذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للأولى ﴿ واجفة ﴾ أي شديدة الاضطراب أجوافها خوفاً تكاد تخرج منها من شدة الوجيف ، ولما وصفها بالاضطراب ، وكان قد يخفى سببه لكونه قد يكون عند السرور العظيم كما قد يكون عند الوجل الشديد ، أخبر عنه بما يحقق معناه فقال : ﴿ أبصارها ﴾ أي أبصار أصحابها فهو من الاستخدام ﴿ خاشعة ﴾ أي ذليلة ظاهر عليها الذل واضطراب القلوب من سوء الحال ولذلك أضافها إليها .

ولما وصفها بالاضطراب والذل ، علله ليعرف منه أن من يقول ضد قولهم يكون له ضد وصفهم من الثبات والسكون والعز الظاهر فقال : ﴿ يقولون ﴾ أي في الدنيا قولاً يجددونه كل وقت من غير خوف ولا استحياء استهزاءً وإنكاراً .

(76/800)

﴿ أإنا لمردودون ﴾ أي بعد الموت ممن يتصف بردنا كائناً من كان ﴿ في الحافرة ﴾ أي في الحياة التي كنا فيها قبل الموت هي حالتنا الأولى ، من قولهم : رجع فلان في حافرته ، أي

طريقته التي جاء بها فحفرها أي أثر فيها بمشيه كما تؤثر الأقدام ، والحوافر في الطرق ، أطلق على المفعولة فاعلة مبالغة وذلك حقيقته ، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم رجع إليه : رجع إلى حافرته ، وقيل : الحافرة الأرض التي هي محل الحوافر .

ولما وصف قلوبهم بهذا الإنكار الذي ينبغي لصاحبه أن يذوب منه خجلاً إذا فرط منه مرة واحدة ، وأشار إلى شدة وقاحتهم بتكريره ، أتبعه التصريح بتكريرهم له على وجه مشير إلى العلة الحاملة لهم على قوله وهو قولهم : ﴿ أإذا كنا ﴾ أي كوناً صار جبلة لنا ﴿ عظاماً نخرة ﴾ أي هي في غاية الانتخار حتى تفتت ، فكان الانتخار وهو البلى والتفتت والتمزق كأنه طبع لها طبعت عليه ، وهي أصلب البدن فكيف بما عداها من الجسم ، وعلى قراءة " ناخرة " المعنى أنها خلا ما فيها فصار الهواء ينخر فيها أي يصوّت .

ولما كان العامل في " إذا " مقدراً بنحو أن يقال : نرد إذ ذاك إلى حالتنا الأولى ونقوم كما كنا ؟ دل على هذا المحذوف قوله تعالى عنهم : ﴿ قالوا ﴾ أي مرة من المرات : ﴿ تلك ﴾ أي الردة إلى الحالة الأولى العجيبة جداً البعيدة من العقل في زعمهم ﴿ إذاً ﴾ أي إذ نرد إلى حياتنا الأولى لا شيء لنا كما ولدنا لا شيء لنا ، ونفقد كل ما سعينا في تحصيله وجمعه وتأثيله ﴿ كرة ﴾ أي رجعة وإعادة وعطفة ﴿ خاسرة ﴾ أي هي لشدة خسارتنا فيها بما فقدنا مما حصلناه من الحال والمآل وصالح الخلال ، عريقة في الخسارة حتى كأنها هي الخاسرة ، ولعله عبر بالماضي لأنهم ما سمحوا بهذا القول إلا مرة من الدهر ، وأما أغلب

قولهم فكان أنهم يكونون على تقدير البعث أسعد من المؤمنين على قياس ما هم عليه في الدنيا ونحو هذا من الكذب على الله .

(77/800)

ولما كان التقدير : نعم والله لتردن يا هؤلاء ، إنما هذا الذي تقولونه كله استبعاد منكم كما أنكم مقرون بسهولته لو عقلتم ، أما من جهة القدرة فلأن الابتداء أصعب من الإعادة وأنتم مقرون بالابتداء ولأن الاستبعاد إن كان من جهة وقوع الظن بأن من صار تراباً يصير عوده محالاً من جهة تعذر تمييز ترابه من تراب غيره ، فتمييز النازع والناشط من الملائكة للروح من الجسد أصعب من ذلك بكثير ، وكذا غير هذا مما تدبره الملائكة من الأمور ، فكيف يصعب على ربهم سبحانه شيء يسهل مثله عليهم ، وأما من جهة العوائد فإن أحداً لا يدع رعية له بغير حساب أصلاً ، وأما من جهة الوعد فقد تقدم به ، وليس من شيم الكرام فضلاً عن الملوك إخلاف الوعد ولا إقرار الظلم فلا تكذبوا بها ولا تستصعبوها ، قال مسبباً عن هذا المقدر مهدداً لأصحاب الشبهة المقلدين : ﴿ فإنما هي ﴾ أي القيامة ﴿ زجرة ﴾ أي صيحة بانتهار تتضمن الأمر بالقيام والسوق إلى المحشر والمنع من التخلف ﴿ واحدة ﴾ عبر بالزجر وهو أشد من النهي لأنه يكون للعرض لأنها صيحة لا يتخلف

عنها القيام أصلاً ، فكان كأن لسان الحال قال عن تلك الصيحة : أيها الأجساد البالية !

انتهي عن الرقاد ، وقومي إلى الميعاد ، بما حكمنا به من المعاد ، فقد انتهى زمان الحصاد ،

وآن أوان الاجتناء لما قدم من الزاد ، فيا ويل من ليس له زاد ! ﴿ فإذا هم ﴾ أي فتسبب

عن هذه النفخة – وهي الثانية – أنهم فاجؤوا بغاية السرعة كونهم أحياء قائمين

﴿ بالساهرة ﴾ أي على ظهر الأرض البيضاء المستوية الواسعة التي يجددها الله للجزاء

فتكون سعتها كأنها قد ابتلعتهم على كثرتهم التي تفوت العد ، وتزيد على الحد ، سميت

بذلك لأن الشراب يجري فيها من الساهرة وهي العين الجارية ، أو لأن سالكها يسهر خوفاً

كما أن النوم يكون آمنة ، أو لأن هذه الأرض بالخصوص لا نوم فيها مع طول الوقوف وتقلب

الصروف الموجبة للحتوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 308 . 313 ﴾

(78/800)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات :

﴿ والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً ﴾ بالإدغام فيهما : أبو عمرو غير عباس ﴿ أئنا

﴿ ﴿ أئذا ﴾ كما مر في "الرعد" إلا ابن عامر فإنه وافق الكسائي ﴿ ناخرة ﴾ بالألف : حمزة وعلي غير نصير وعتيبة وخلف ورويس وعاصم غير المفضل وحفص و ﴿ طوى ﴾ كما مر في "طه" وكذا ما بعدها إلا حمزة وخلف في اختياره فإنهما يفتحان . ومناه ﴿ تزكَّى ﴾ بتشديد الزاي : أبو جعفر ونافع وابن كثير وعباس ويعقوب ﴿ منذر من ﴾ بالتنوين : يزيد وعباس . الآخرون : بالإضافة للتخفيف .

(79/800)

الوقوف ﴿ غرقاً ﴾ ه لا ﴿ نشطاً ﴾ ه لا ﴿ سبقاً ﴾ ه لا ﴿ أمراً ﴾ ه م لأن جواب القسم محذوف وهو ليبعثن ولأنه وصل لأوهم أن ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ المدبرات ﴾ وليس كذلك لأن تدبير الملائكة قد انقضى وقتئذ بل عامل ﴿ يوم ﴾ تتبعها ﴿ الراجفة ﴾ ه لا ﴿ الرادفة ﴾ ه ط ﴿ واجفة ﴾ ه ط ﴿ خاشعة ﴾ ه م لتناهي وصف القيامة وابتداء حكاية قولهم في الدنيا ﴿ في الحافرة ﴾ ط لمن قرأ ﴿ أئذا ﴾ مستفهماً ﴿ نخرة ﴾ ه ط ﴿ خاسرة ﴾ ه م لتناهي قولهم بالإنكار وابتداء أخبار الله تعالى ﴿ واحدة ﴾ ه ط ﴿ بالساهرة ﴾ ه ط ﴿ موسى ﴾ ه م لأن ﴿ إذ ناداه ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً لا ذكر قاله السجاوندي . ويحتمل عندي تعلقه بالحديث وإن لم يجز تعلقه بإتيان الحديث ﴿

طوى ﴾ ه ج لاحتمال أن يكون ﴿ اذهب ﴾ مفعول ﴿ ناداه ﴾ لأنه في معنى القول واحتمال أن يكون مفعول القول المحذوف ﴿ طغى ﴾ ه للآية مع اتفاق الجملتين والوصل أوجه للفاء ﴿ تزكى ﴾ ه لا للعطف ﴿ فتخشى ﴾ ط للآية وانتهاء الاستفهام مع العطف بفاء التعقيب ﴿ الكبرى ﴾ ه ز لذلك إنما كان الوصل أوجه للفاء واتصال المقصود ﴿ وعصى ﴾ ه ﴿ يسعى ﴾ ه ﴿ فنادى ﴾ ه ﴿ الأعلى ﴾ ه والوصل ههنا ألزم للعبرة بتعجيل المؤاخذة ﴿ والأولى ﴾ ه ط ﴿ يخشى ﴾ ه ط لبتدل الكلام لفظاً ومعنى وابتداء الاستفهام ﴿ أم السماء ﴾ ه ط بناء على أن الجملة لا تقع صفة للمعرفة وتقدير حذف الموصول من ضيق العطن فاعرفه ﴿ بناها ﴾ ه لا ﴿ فسوّاها ﴾ ه لا ﴿ ضحاها ﴾ ه ص ﴿ دحاها ﴾ ه ط بناء على أن ما بعده كالتفسير للدحو وهو تمهيدها لأجل السكنى ، وجوز أن يكون ﴿ أخرج ﴾ حالاً بإضمار " قد " فلا وقف ﴿ مرعاها ﴾ ه ص ﴿ أرساها ﴾ ه ﴿ ولأنعامكم ﴾ ه ط ﴿ الكبرى ﴾ ه ز لأن ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ جاءت ﴾ وعامل " إذا " مقدّر تقديره أي ترون أو كان ما كان ، وجوز أن يكون ﴿ يوم ﴾ مفعول " اذكر " وعامل " إذا " مقدّر قبل يوم ، ويجوز أن يكون مجموع الشرط والجزاء وهو قوله ﴿ فأما من طغى ﴾ إلى آخره جوابا

لقوله ﴿ فإذا جاءت ﴾ . ﴿ سعى ﴾ ه ط ﴿ لمن يرى ﴾ ه ﴿ طغى ﴾ ه لا ﴿ الدنيا ﴾ ه لا ﴿ المأوى ﴾ ط ﴿ الهوى ﴾ ه لا ﴿ المأوى ﴾ ه ط ﴿ مرساها ﴾ ط ﴿ ذكراها ﴾ ه ط ﴿ منتاها ﴾ ه ط ﴿ يخشاها ﴾ ه ط ﴿ ضحاها ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 437.438 ﴾

(81/800)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى:

(82/800)

اعلم أن هذه الكلمات الخمس ، يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد ، ويحتمل أن لا تكون كذلك ، أما على الاحتمال الأول فقد ذكروا في الآية وجوهاً أحدها : أنها بأسرها صفات الملائكة ، فقوله : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ هي الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم فإذا نزعوا نفس الكفار نزعوها بشدة ، وهو مأخوذ من قولهم نزع في القوس فأغرق يقال : أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل ، فتقدير الآية : والنازعات إغراقاً ، والغرق والإغراق في اللغة بمعنى واحد ، وقوله : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ النشط هو الجذب يقال : نشطت الدلو أنشطها وأنشطتها نشطاً نزعتها برفق ، والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها ، وإنما خصصنا هذا بالمؤمن والأول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق فالنزاع جذب بشدة ، والنشط جذب برفق ولين فالملائكة ، تنشط أرواح المؤمنين كما تنشط الدلو من البئر فالحاصل أن قوله : ﴿ والنازعات غَرْقاً * والناشطات نَشْطاً ﴾ قسم بملك الموت وأعوانه إلا أن الأول إشارة إلى كيفية قبض أرواح الكفار ، والثاني إشارة إلى كيفية قبض أرواح المؤمنين ، أما قوله : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ فمنهم من خصصه أيضاً بملائكة قبض الأرواح ، ومنهم من حمله على سائل طوائف الملائكة ، أما الوجه الأول : فنقل عن علي عليه السلام ، وابن عباس ومسروق ، أن الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلاً رفيقاً ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ ثم يتركونها حتى تستريح رويداً ، ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة كالذي

يسبح في الماء فإنه يتحرك برفق ولطافة لئلا يفرق ، فكذا ههنا يرفقون في ذلك الاستخراج ، لئلا يصل إليه ألم وشدة فذاك هو المراد من قوله : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ وأما الذين حملوه على سائر طوائف الملائكة فقالوا : إن الملائكة ينزلون من السماء مسرعين ، فجعل نزولهم من السماء كالسباحة ، والعرب تقول للفرس الجواد ، إنه السابح ، وأما

(83/800)

قوله : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ فمنهم من فسره بملائكة قبض الأرواح يسبقون بأرواح الكفار إلى النار ، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة ، ومنهم من فسره بسائر طوائف الملائكة ، ثم ذكروا في هذا السبق وجوهاً أحدها : قال مجاهد وأبو روق إن الملائكة سبقت ابن آدم بالإيمان والطاعة ، ولا شك أن المسابقة في الخيرات درجة عظيمة قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون * أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ [الواقعة : 10 ، 11] وثانيها : قال الفراء والزجاج : إن الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء لأن الشياطين كانت تسترق السمع وثالثها : ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى وصفهم فقال : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ [الأنبياء : 27] يعني قبل الإذن لا يتحركون ولا ينطقون تعظيماً لجلال الله تعالى وخوفاً من هيبته ، وههنا وصفهم بالسبق يعني إذا جاءهم الأمر ، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله

ويتبادرون إلى إظهار طاعته ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ ، وأما قوله : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ فأجمعوا على أنهم هم الملائكة : قال مقاتل يعني جبريل وميكائيل ، وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام يدبرون أمر الله تعالى في أهل الأرض ، وهم المقسمات أمراً ، أما جبريل فوكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فوكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وقوم منهم موكلون بحفظ بني آدم ، وقوم آخرون بكتابة أعمالهم وقوم آخرون بالخسف والمسخ والرياح والسحاب والأمطار ، بقي على الآية سؤالان :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ ، ولم يقل : أموراً فإنهم يدبرون أموراً كثيرة لا أمراً واحداً ؟ والجواب : أن المراد به الجنس ، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع .

السؤال الثاني : قال تعالى : إن الأمر كله لله فكيف أثبت لهم ههنا تدبير الأمر .

(84/800)

والجواب : لما كان ذلك الإتيان به كان الأمر كأنه له ، فهذا تلخيص ما قاله المفسرون في هذا الباب ، وعندي فيه وجه آخر : وهو أن الملائكة لها صفات سلبية وصفات إضافية ، أما الصفات السلبية فهي أنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة ، والموت والهرم

والسقم والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان ، بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال ، فقوله : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعاً كلياً من جميع الوجوه وعلى هذا التفسير : ﴿ النازعات ﴾ هي ذوات النزع كاللابن والتامر ، وأما قوله : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ إشارة إلى أن خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التكليف والمشقة كما في حق البشر ، بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الأحوال وتنزهوا عن هذه الصفات ، فهاتان الكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية ، وأما صفاتهم الإضافية فهي قسمان أحدهما : شرح قوتهم العاقلة أي كيف حالهم في معرفة ملك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله فوصفهم في هذا المقام بوصفين أحدهما : قوله : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلال الله ثم لا منتهى لسباحتهم ، لأنه لا منتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه ، فهم أبداً في تلك السباحة وثانيهما : قوله : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ وهو إشارة إلى مراتب الملائكة في تلك السباحة فإنه كما أن مراتب معارف البهائم بالنسبة إلى مراتب معارف البشر ناقصة ، ومراتب معارف البشر بالنسبة إلى مراتب معارف الملائكة ناقصة ، فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة إلى مراتب معارف الباقين متفاوتة ، وكما أن المخالفة بين نوع الفرس ونوع الإنسان بالماهية لا بالعوارض فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهية فإذا كانت أشخاصها متفاوتة بالماهية لا

بالعوارض كانت لا محالة متفاوتة في درجات المعرفة وفي مراتب التجلي فهذا هو المراد من قوله :

(85/800)

﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ فهاتان الكلمتان المراد منهما شرح أحوال قوتهم العاقلة .

وأما قوله : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ فهو إشارة إلى شرح حال قوتهم العاملة ، وذلك لأن كل حال من أحوال العالم السفلي مفوض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوي وسكان بقاع السموات ، ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم ، لا جرم قدم شرح القوة العاقلة التي لهم على شرح القوة العاملة التي لهم ، فهذا الذي ذكرته احتمال ظاهر والله أعلم بمراده من كلامه .

واعلم أن أبا مسلم بن بحر الأصفهاني طعن في حمل هذه الكلمات على الملائكة ، وقال : واحد النازعات نازعة وهو من لفظ الإناث ، وقد نزه الله تعالى الملائكة عن التأنيث ، وعاب قول الكفار حيث قال : ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] .

واعلم أن هذا طعن لا يتوجه على تفسيرنا ، لأن المراد الأشياء ذوات النزع ، وهذا القدر لا يقتضي ما ذكر من التأنيث .

(86/800)

الوجه الثاني في تأويل هذه الكلمات : أنها هي النجوم وهو قول الحسن البصري ووصف النجوم بالنازعات يحتمل وجوهاً : أحدها : كأنها تنزع من تحت الأرض فتنجذب إلى ما فوق الأرض ، فإذا كانت منزوعة كانت ذوات نزع ، فيصح أن يقال : إنها نازعة على قياس اللابن والتامر وثانيها : أن النازعات من قولهم نزع إليه أي ذهب نزوعاً ، هكذا قاله الواحدي : فكأنها تطلع وتغرب بالنزع والسوق والثالث : أن يكون ذلك من قولهم : نزعت الخيل إذا جرت ، فمعنى : ﴿ والنازعات ﴾ أي والجاريات على السير المقدر والحد المعين وقوله : ﴿ غَرْقاً ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون حالاً من النازعات أي هذه الكواكب كالغرقى في ذلك النزع والإرادة وهو إشارة إلى كمال حالها في تلك الإرادة ، فإن قيل : إذا لم تكن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة ، فما معنى وصفها بذلك قلنا : هذا يكون على سبيل التشبيه كقوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] فإن الجمع بالواو والنون يكون للعقلاء ، ثم إنه ذكر في الكواكب على سبيل التشبيه والثاني :

أن يكون معنى غرقها غيبوبتها في أفق الغرب ، فالنازعات إشارة إلى طلوعها وغرقاً إشارة إلى غروبها أي تنزع ، ثم تغرق إغراقاً ، وهذا الوجه ذكره قوم من المفسرين .

أما قوله : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : معناه أنها تخرج من برج إلى برج من قولك : ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد .

وأقول يرجع حاصل هذا الكلام إلى أن قوله : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ إشارة إلى حركتها اليومية ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ إشارة إلى انتقالها من برج إلى برج وهو حركتها المخصوصة بها في أفلاكها الخاصة ، والعجب أن حركاتها اليومية قسرية ، وحركتها من برج إلى برج ليست قسرية ، بل ملائمة لذواتها ، فلا جرم عبر عن الأول بالنزع وعن الثاني بالنشط ، فتأمل أيها المسكين في هذه الأسرار .

(87/800)

وأما قوله : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ فقال الحسن وأبو عبيدة رحمهما الله : هي النجوم تسبح في الفلك ، لأن مرورها في الجو كالسبح ، ولهذا قال : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] .

وأما قوله : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ فقال الحسن وأبو عبيدة : وهي النجوم يسبق بعضها

بعضاً في السير بسبب كون بعضها أسرع حركة من البعض ، أو بسبب رجوعها أو استقامتها .

وأما قوله تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أن بسبب سيرها وحركتها يتميز بعض الأوقات عن بعض ، فتظهر أوقات العبادات على ما قال تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحمد ﴾ [الروم : 17 ، 18] وقال : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الاهلة قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ﴾ [البقرة : 189] وقال : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [يونس : 5] ولأن بسبب حركة الشمس تختلف الفصول الأربعة ، ويختلف بسبب اختلافها أحوال الناس في المعاش ، فلا جرم أضيفت إليها هذه التدبيرات والثاني : أنه لما ثبت بالدليل أن كل جسم محدث ثبت أن الكواكب محدثة مفتقرة إلى موجد يوجدها ، وإلى صانع يخلقها ، ثم بعد هذا لو قدرنا أن صانعها أودع فيها قوى مؤثرة في أحوال هذا العالم ، فهذا يطعن في الدين ألبتة ، وإن لم نقل بثبوت هذه القوى أيضاً ، لكنا نقول : أن الله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأن جعل كل واحد من أحوالها المخصوصة سبباً لحدوث حادث مخصوص في هذا العالم ، كما جعل الأكل سبباً للشبع ، والشرب سبباً للري ، ومماسة النار سبباً للاحتراق ، فالقول بهذا المذهب لا يضر الإسلام ألبتة بوجه من الوجوه ، والله أعلم بحقيقة الحال .

الوجه الثالث : في تفسير هذه الكلمات الخمسة أنها هي الأرواح ، وذلك لأن نفس الميت تنزع ، يقال فلان في النزع ، وفلان ينزع إذا كان في سياق الموت ، والأنفس نازعات عند السياق ، ومعنى ﴿ غَرْقاً ﴾ أي نزعاً شديداً أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع في القوس وكذلك تنشط لأن النشط معناه الخروج ، ثم الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية المشتاقة إلى الاتصال العلوي بعد خروجها من ظلمة الأجساد تذهب إلى عالم الملائكة ، ومنازل القدس على أسرع الوجوه في روح وريحان ، فعبر عن ذهابها على هذه الحالة بالسباحة ، ثم لا شك أن مراتب الأرواح في النفرة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوي مختلفة فكلما كانت أتم في هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك أسبق ، وكلما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أثقل ، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف فلا جرم وقع القسم بها ، ثم إن هذه الأرواح الشريفة العالية لا يبعد أن يكون فيها ما يكون لقوتها وشرفها يظهر منها آثار في أحوال هذا العالم فهي ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ أليس أن الإنسان قد يرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها ؟ أليس أن الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه إلى كنز مدفون ؟ أليس أن جالينوس قال : كنت مريضاً فعجزت عن علاج نفسي فرأيت في المنام واحداً أرشدني إلى كيفية العلاج ؟ أليس أن الغزالي قال : إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ، ثم اتفق إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن

، فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاماً ؟ ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة ، وهذه المعاني وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلا أن اللفظ محتمل لها جداً .

(89/800)

الوجه الرابع : في تفسير هذه الكلمات الخمس أنها صفات خيل الغزاة فهي نازعات لأنها تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب وهي ﴿ ناشطات ﴾ لأنها تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، من قولهم : ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد ، وهي سابحات لأنها تسبح في جريها وهي سابقات ، لأنها تسبق إلى الغاية ، وهي مدبرات لأمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها مجاز لأنها من أسبابه .

الوجه الخامس : وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله أن هذه صفاة الغزاة فالنازعات أيدي الغزاة يقال : للرامي نزع في قوسه ، ويقال : أغرق في النزع إذا استوفى مد القوس ، والناشطات السهام وهي خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها ، وكل شيء حللته فقد نشطته ، ومنه نشاط الرجل وهو انبساطه وخفته ، والسابحات في هذا الموضع الخيل

وسبحها العدو ، ويجوز أن يعني به الإبل أيضاً ، والمدبرات مثل المعقبات ، والمراد أنه يأتي في أدبار هذا الفعل الذي هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها الأمر الذي هو النصر ، ولفظ التأنيث إنما كان لأن هؤلاء جماعات ، كما قيل : المدبرات ، ويحتمل أن يكون المراد الآلة من القوس والأوهاق ، على معنى المنزوع فيها والمنشوط بها .

(90/800)

الوجه السادس : أنه يمكن تفسير هذه الكلمات بالمراتب الواقعة في رجوع القلب من غير الله تعالى إلى الله ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ هي الأرواح التي تنزع إلى اعتلاق العروة الوثقى ، أو المنزوعة عن محبة غير الله تعالى : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ هي أنها بعد الرجوع عن الجسمانيات تأخذ في المجاهدة ، والتخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالى بنشاط تام ، وقوة قوية : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ ثم إنها بعد المجاهدة تسرح في أمر الملكوت فتقطع في تلك البحار فتسبح فيها : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ إشارة إلى تفاوت الأرواح في درجات سيرها إلى الله تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ إشارة إلى أن آخر مراتب البشرية متصلة بأول درجات الملكية ، فلما انتهت الأرواح البشرية إلى أقصى غاياتها وهي مرتبة السبق اتصلت بعالم الملائكة وهو المراد من قوله : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ فالأربعة الأول هي المراد

من قوله : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ [النور : 35] والخامسة : هي النار في قوله : ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾

[النور : 35] .

واعلم أن الوجوه المنقولة عن المفسرين غير منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نصاً ، حتى لا يمكن الزيادة عليها ، بل إنما ذكروها لكون اللفظ محتملاً لها ، فإذا كان احتمال اللفظ لما ذكرناه ليس دون احتماله للوجوه التي ذكروها لم يكن ما ذكروه أولى مما ذكرناه إلا أنه لا بد ههنا من دقيقة ، وهو أن اللفظ محتمل للكل ، فإن وجدنا بين هذه المعاني مفهوماً واحداً مشتركاً حملنا اللفظ على ذلك المشترك : وحينئذ يندرج تحته جميع هذه الوجوه . أما إذا لم يكن بين هذه المفهومات قدر مشترك تعذر حمل اللفظ على الكل ، لأن اللفظ المشترك لا يجوز استعماله لإفادة مفهومية معاً ، فحينئذ لا نقول مراد الله تعالى هذا ، بل نقول : يحتمل أن يكون هذا هو المراد ، أما الجزم فلا سبيل إليه ههنا .

(91/800)

الاحتمال الثاني : وهو أن تكون الألفاظ الخمسة صفات لشيء واحد ، بل لأشياء مختلفة ، ففيه أيضاً وجوه الأول : النازعات غرقاً ، هي : القسى ، والناشطات نشطاً هي

الأوهاق ، والسابحات السفن ، والسابقات الخيل ، والمدبرات الملائكة ، رواه واصل بن السائب : عن عطاء الثاني : نقل عن مجاهد : في النازعات ، والناشطات ، والسابحات أنها الموت ، وفي السابقات ، والمدبرات أنها الملائكة ، وإضافة النزع ، والنشط ، والسبح إلى الموت مجاز بمعنى أنها حصلت عند حصوله الثالث : قال قتادة : الجميع هي النجوم إلا المدبرات ، فإنها هي الملائكة .

المسألة الثانية :

(92/800)

ذكر فالسابقات بالفاء ، والتي قبلها بالواو ، وفي علته وجهان الأول : قال صاحب "الكشاف" : إن هذه مسببة عن التي قبلها ، كأنه قيل : واللاتي سبحن ، فسبقن كما تقول : قام فذهب أوجب الفاء أن القيام كان سبباً للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب لم تجعل القيام سبباً للذهاب ، قال الواحدي : قول صاحب "النظم" غير مطرد في قوله : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير ، وأقول : يمكن الجواب عن اعتراض الواحدي رحمه الله من وجهين : الأول : لا يبعد أن يقال : إنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيرها وإصلاحها ، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض ،

كقولك قام زيد ، فذهب ، فضرب عمراً ، الثاني : لا يبعد أن يقال : إنهم لما كانوا سابقين في أداء الطاعات متسارعين إليها ظهرت أمانتهم ، فلهذا السبب فوض الله إليهم تدبير بعض العالم الوجه الثاني : أن الملائكة قسمان ، الرؤساء والتلامذة ، والدليل عليه أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] ثم قال : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] فقلنا في التوفيق بين الآيتين : أن ملك الموت هو الرأس ، والرئيس وسائر الملائكة هم التلامذة ، إذا عرفت هذا فتقول : النازعات ، والناشطات والسابحات ، محمولة على التلامذة الذين هم يباشرون العمل بأنفسهم ، ثم قوله تعالى : ﴿ فالسابقات . . .

فالمدبرات ﴾ إشارة إلى الرؤساء الذين هم السابقون ، في الدرجة والشرف ، وهم المدبرون لتلك الأحوال والأعمال .

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

جواب القسم المتقدم محذوف أو مذكور فيه وجهان الأول : أنه محذوف ، ثم على هذا الوجه في الآية احتمالات :

الأول : قال الفراء التقدير : لتبعثن ، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عنهم ، أنهم قالوا : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عظاما نَّخِرَةً ﴾ [النازعات : 11] أي أنبعث إذا صرنا عظاماً نخرة الثاني : قال الأخفش والزجاج : لننفخن في الصور نفختين ودل على هذا المحذوف ذكر الراجفة والرادفة وهما النفختان الثالث : قال الكسائي : الجواب المضمر هو أن القيامة واقعة وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ [الذاريات : 1] ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق ﴾ [الذاريات : 5] وقال : ﴿ والمرسلات عُرْفاً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لواقع ﴾ [المرسلات : 7 ، 1] فكذلك ههنا فإن القرآن كالسورة الواحدة القول الثاني : أن الجواب مذكور وعلى هذا القول احتمالات الأول : المقسم عليه هو قوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أبصارها خاشعة ﴾ والتقدير والنازعات غرقاً أن يوم ترجف الراجفة تحصل قلوب واجفة وأبصارها خاشعة الثاني : جواب القسم هو قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ [النازعات : 15] فإن هل ههنا بمعنى قد ، كما في قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ [الغاشية : 1] أي قد أتاك حديث الغاشية الثالث : جواب القسم هو قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ [النازعات : 26] .

المسألة الثانية :

ذكروا في ناصب يوم بوجهين أحدهما : أنه منصوب بالجواب المضمر والتقدير لتبعثن يوم

ترجف الراجفة ، فإن قيل كيف يصح هذا مع أنهم لا يبعثون عند النفخة الأولى والراجفة هي النفخة الأولى ؟ قلنا المعنى لتبعثن في الوقت الواسع الذي يحصل فيه النفختان ، ولا شك أنهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع وهو وقت النفخة الأخرى ، ويدل على ما قلناه أن قوله : ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ جعل حالاً عن الراجفة والثاني : أن ينصب يوم ترجف بما دل عليه : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب .

المسألة الثالثة :

(94/800)

الرجفة في اللغة تحتمل وجهين أحدهما : الحركة لقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] .

الثاني : الهدة المنكرة والصوت الهائل من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً ، وذلك تردد أصواته المنكرة وهدهدته في السحاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 91] فعلى هذا الوجه الراجفة صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد ، وأما الرادفة فكل شيء جاء بعد شيء آخر يقال ردفه ، أي جاء بعده ، وأما القلوب الواجفة فهي المضطربة الخائفة ، يقال : وجف قلبه يجف وجافاً إذا اضطرب ،

ومنه إيجاف الدابة ، وحملها على السير الشديد ، وللمفسرين عبارات كثيرة في تفسير الواجفة ومعناها واحد ، قالوا : خائفة وجلة زائدة عن أماكنها قلقة مستوفزة مرتكضة شديدة الاضطراب غير ساكنة ، أبصار أهلها خاشعة ، وهو كقوله : ﴿ خاشعين مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ [الشورى : 45] إذا عرفت هذا فنقول ، اتفق جمهور المفسرين على أن هذه الأمور أحوال يوم القيامة ، وزعم أبو مسلم الأصفهاني أنه ليس كذلك ونحن نذكر تفاسير المفسرين ثم نشرح قول أبي مسلم .

(95/800)

أما القول الأول : وهو المشهور بين الجمهور ، أن هذه الأحوال أحوال يوم القيامة فهؤلاء ذكروا وجوهاً أحدها : أن الراجفة هي النفخة الأولى ، وسميت به إما لأن الدنيا تتزلزل وتضطرب عندها ، وإما لأن صوت تلك النفخة هي الراجفة ، كما بينا القول فيه ، والراجفة رجفة أخرى تتبع الأولى فتضطرب الأرض لإحياء الموتى كما اضطربت في الأولى لموت الأحياء على ما ذكره تعالى في سورة الزمر ، ثم يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن بين النفختين أربعين عاماً ، ويروى في هذه الأربعين يمطر الله الأرض ويصير ذلك الماء عليها كالنطف ، وأن ذلك كالسبب للأحياء ، وهذا مما لا حاجة إليه في الإعادة

، ولله أن يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد وثانيها : الراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي قيام الساعة من قوله : ﴿ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل : 72] أي القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعاداً لها فهي رادفة لهم لاقترابها وثالثها : الراجفة الأرض والجبال من قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ والرادفة السماء والكواكب لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك ورابعها : الراجفة هي الأرض تتحرك وتتزلزل والرادفة زلزلة ثانية تتبع الأولى حتى تنقطع الأرض وتفنى القول الثاني : وهو قول أبي مسلم أن هذه الأحوال ليست أحوال يوم القيامة ، وذلك لأنا نقلنا عنه أنه فسر النازعات بنزع القوس والناشطات بخروج السهم ، والسابحات بعدو الفرس ، والسابقات بسبقها ، والمدبرات بالأمور التي تحصل أدبار ذلك الرمي والعدو ، ثم بنى على ذلك فقال الراجفة هي خيل المشركين وكذلك الرادفة ويراد بذلك طائفتان من المشركين غزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقت إحداهما الأخرى ، والقلوب الواجفة هي القلقة ، والأبصار الخاشعة هي أبصار المنافقين كقوله : ﴿ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [محمد : 20

] كأنه قيل لما جاء خيل العدو يرجف ، وردفتها أختها اضطرب قلوب المنافقين خوفاً ، وخشعت أبصارهم جبناً وضعفاً ، ثم قالوا : ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة ﴾ [النازعات : 10] أي نرجع إلى الدنيا حتى نتحمل هذا الخوف لأجلها وقالوا أيضاً : ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ [النازعات : 12] فأول هذا الكلام حكاية لحال من غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين وأوسطه حكاية لحال المنافقين وآخره حكاية لكلام المنافقين في إنكار الحشر ، ثم إنه سبحانه وتعالى أجاب عن كلامهم بقوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة * فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ [النازعات : 13 14] وهذا كلام أبي مسلم واللفظ محتمل له وإن كان على خلاف قول الجمهور .

قوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أبصارها خاشعة ﴾ اعلم أنه تعالى لم يقل : القلوب يومئذ واجفة ، فإنه ثبت بالدليل أن أهل الإيمان لا يخافون بل المراد منه قلوب الكفار ، ومما يؤكد ذلك أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون :

﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة ﴾ [النازعات : 10] وهذا كلام الكفار لا كلام المؤمنين ، وقوله : ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ لأن المعلوم من حال المضطرب الخائف أن يكون نظره نظر خاشع ذليل خاضع يترقب ما ينزل به من الأمر العظيم ، وفي الآية سؤالان :

السؤال الأول : كيف جاز الابتداء بالنكرة ؟ الجواب : قلوب مرفوعة بالابتداء وواجفة صفتها وأبصارها خاشعة خبرها فهو كقوله : ﴿ لَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [البقرة :

221] .

السؤال الثاني : كيف صحت إضافة الأبصار إلى القلوب ؟ الجواب : معناه أبصار أصحابها بدليل قوله يقولون ، ثم اعلم أنه تعالى حكى ههنا عن منكري البعث أقوالاً ثلاثة :

(97/800)

أولها : قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ يقال رجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفراً فهي في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة ، كما قيل : ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] و ﴿ مَّاء دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] أي منسوبة إلى الحفر والرضا والدفق أو كقولهم نهارك صائم ، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته ، أي إلى طريقته وفي الحديث : " إن هذا الأمر لا يترك على حاله حتى يرد على حافرته " أي على أول تأسيسه وحالته الأولى وقرأ أبو حيوة في الحفرة ، والحفرة بمعنى المحفورة يقال : حفرت أسنانه ، فحفرت حفراً ، وهي حفرة ، هذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفور ، إذا عرفت هذا ظهر أن معنى الآية : أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عظاما نَّخِرَةً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(98/800)

قرأ حمزة وعاصم ناخرة بألف ، وقرأ الباقون نخرة بغير ألف ، واختلفت الرواية عن الكسائي فقيل : إنه كان لا يبالي كيف قرأها ، وقيل : إنه كان يقرؤها بغير ألف ، ثم رجع إلى الألف ، واعلم أن أبا عبيدة اختار نخرة ، وقال : نظرنا في الآثار التي فيها ذكر العظام التي قد نخرت ، فوجدناها كلها العظام النخرة ، ولم نسمع في شيء منها الناخرة ، وأما من سواه ، فقد اتفقوا على أن الناخرة لغة صحيحة ، ثم اختلف هؤلاء على قولين : الأول : أن الناخرة والنخرة بمعنى واحد قال الأخفش هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن ، وقال الفراء : الناخر والنخر سواء في المعنى بمنزله الطامع والطمع ، والباخل والبخل ، وفي كتاب "الخليل" نخرت الخشبة إذا بليت فاسترخت حتى تتفتت إذا مست ، وكذلك العظم الناخر ، ثم هؤلاء الذين قالوا : هما لغتان والمعنى واحد اختلفوا فقال الزجاج والفراء : الناخرة أشبه الوجهين بالآية لأنها تشبه أواخر سائر الآي نحو الحافرة والساهرة ، وقال آخرون : الناخرة والنخر كالطامع والطمع ، واللابث واللبث وفعل أبلغ من فاعل القول

الثاني : أن النخرة غير والناخرة غير ، أما النخرة فهو من نخر العظم ينخر فهو نخر مثل عفن يعفن فهو عفن ، وذلك إذا بلي وصار بحيث لو لمسته لتفتت ، وأما الناخرة فهي العظام الفارغة التي يحصل من هبوب الريح فيها صوت كالنخير ، وعلى هذا الناخرة من النخير بمعنى الصوت كنخير النائم والمخنوق لا من النخر الذي هو البلى .

المسألة الثانية :

إذاً منصوب بمحذوف تقدير إذا كنا عظاماً نرد ونبعث .

المسألة الثالثة :

(99/800)

اعلم أن حاصل هذه الشبهة أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله : أنا هو هذا الجسم المبني بهذه البنية المخصوصة ، فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته لوجوه أحدها : أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى ، وذلك قول بإعادة عين ما عدم أولاً ، وهذا محال لأن الذي عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية ، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أيقال بأن العائد هو عين ما فني أولاً وثانيها : أن تلك الأجزاء تصير تراباً وتتفرق وتختلط بأجزاء

كل الأرض وكل المياه وكل الهواء فتميز تلك الأجزاء بأعيانها عن كل هذه الأشياء محال وثالثها : أن الأجزاء الترابية باردة يابسة قشفة فتولد الإنسان الذي لا بد وأن يكون حاراً رطباً في مزاجه عنها محال ، هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ والجواب : عن هذه الشبهة من وجوه أولها : وهو الأقوى : لا نسلم أن المشار إليه لكل أحد بقوله : أنا هو هذا الهيكل ، ثم إن الذي يدل على فساده وجهان الأول : أن أجزاء هذا الهيكل في الزوبان والتبدل ، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله أنا ليس في التبدل والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل والثاني : أن الإنسان قد يعرف أنه هو حال كونه غافلاً عن أعضائه الظاهرة والباطنة ، والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال ، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله : أنا ليس هو هذا الهيكل ، ثم ههنا ثلاث احتمالات أحدها : أن يكون ذلك الشيء موجوداً قائماً بنفسه ليس بجسم ولا بجسماني على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين وثانيها : أن يكون جسماً مخالفاً بالماهية لهذه الأجسام القابلة للإنحلال والفساد سارية فيها سريان النار في الفحم وسريان الدهن في السمسم وسريان ماء الورد في

جرم الورد فإذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الأجزاء وبقيت حية مدركة عاقلة ، إما في الشقاوة أو في السعادة وثالثها : أن يقال : إنه جسم مساو لهذه الأجسام في الماهية إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكون شخص في الوجود إلى آخر عمره ، وأما سائر الأجزاء المتبدلة تارة بالزيادة وأخرى بالنقصان فهي غير داخلة في المشار إليه بقوله أنا فعند الموت تنفصل تلك الأجزاء .

وتبقى حية ، إما في السعادة أو في الشقاوة ، وإذا ظهرت هذه الاحتمالات ثبت أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ما هو الإنسان حقيقة ، وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكري البعث .

وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير في دفع الحشر والنشر ألبتة ، سلمنا على سبيل المسامحة أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل ، فلم قلتم : إن الإعادة ممتنعة ؟

(أولاً) : المعدوم لا يعاد : قلنا : أليس أن حال عدمه لم يمتنع عندكم صحة الحكم عليه بأنه يمتنع عوده ، فلم لا يجوز أن لا يمتنع على قولنا أيضاً صحة الحكم عليه بالعود ، قول : ثانياً : الأجزاء القليلة مختلطة بأجزاء العناصر الأربعة ، قلنا لكن ثبت أن خالق العالم عالم بجميع الجزئيات ، وقادر على كل الممكنات فيصح منه جمعها بأعيانها .

وإعادة الحياة إليها .

قوله : ثالثاً : الأجسام القشفة اليابسة لا تقبل الحياة .

قلنا : نرى السمندل ، يعيش في النار ، والنعامة تبتلع الحديدة المحماة ، والحيات الكبار العظام متولدة في الثلوج ، فبطل الاعتماد على الاستقراء ، والله الهادي إلى الصدق والصواب .

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12)

النوع الثالث : من الكلمات التي حكاها الله تعالى عن منكري البعث ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خاسرة ﴾ والمعنى كرة منسوبة إلى الخسران ، كقولك تجارة رابحة ، أو خاسر أصحابها ، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا ، وهذا منهم استهزاء .

(101/800)

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه الكلمات قال :

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الفاء في قوله : ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ متعلق بمحذوف معناه لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة ، يعني لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فإنها سهلة هينة في قدرته .

المسألة الثانية :

يقال : زجر البعير إذا صاح عليه ، والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية وهي صيحة إسرافيل ، قال المفسرون : يحيهم الله في بطون الأرض فيسمعونها فيقومون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً واحدة مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص : 15] .

المسألة الثالثة :

الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لوجهين الأول : أن سالكها لا ينام خوفاً منها الثاني : أن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء ، وعندي فيه وجه ثالث : وهي أن الأرض إنما تسمى ساهرة لأن من شدة الخوف فيها يطير النوم عن الإنسان ، فتلك الأرض التي يجتمع الكفار فيها في موقف القيامة يكونون فيها في أشد الخوف ، فسميت تلك الأرض ساهرة لهذا السبب ، ثم اختلفوا من وجه آخر فقال بعضهم : هي أرض الدنيا ، وقال آخرون : هي أرض الآخرة لأنهم عند الزجرة والصيحة ينقلون أفواجاً إلى أرض الآخرة ولعل هذا الوجه أقرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 35.26 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

قال ابن مسعود وابن عباس : ﴿ النازعات ﴾ ، الملائكة تنزع نفوس بني آدم ، و ﴿ غرقاً ﴾ على هذا القول إما أن يكون مصدر بمعنى الإغراق والمبالغة في الفعل ، وإما أن يكون كما قال علي وابن عباس : تغرق نفوس الكفرة في نار جهنم ، وقال السدي وجماعة : ﴿ النازعات ﴾ : النفوس تنزع بالموت إلى ربها ، و ﴿ غرقاً ﴾ هنا بمعنى الإغراق أي تغرق في الصدر ، وقال عطاء فيما روي عنه : ﴿ النازعات ﴾ الجماعات النازعات بالقسي ، و ﴿ غرقاً ﴾ بمعنى الإغراق ، وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش ﴿ النازعات ﴾ : النجوم لأنها تنزع من أفق إلى أفق ، وقال قتادة : ﴿ النازعات ﴾ ، النفوس التي تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذاهبها ولها نزاع عند الموت ، وقال مجاهد : ﴿ النازعات ﴾ المنايا لأنها تنزع نفوس الحيوان ، وقال عطاء وعكرمة : ﴿ النازعات ﴾ القسي أنفسها لأنها تنزع بالسهام واختلف المتأولون في ﴿ الناشطات ﴾ ، فقال ابن عباس ومجاهد : هي الملائكة لأنها تنشط النفوس عند الموت ، أي تحلها كحل العقال وتنشط بأمر الله أي حيث كان ، وقال مجاهد : ﴿ النشاطات ﴾ : المنايا ، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة والأخفش والحسن : ﴿ الناشطات ﴾ النجوم لأنها تنشط من أفق

إلى أفق ، أي تذهب وتسير بسرعة ، ومن ذلك قيل البقر الوحش النواشط لأنهن يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر ، وقال عطاء : ﴿ الناشطات ﴾ في الآية : البقرة الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر ، ومن هذا المعنى قول الشاعر [همان بن قحافة] : [الرجز]

أرى همومي تنشط المناشطا . . . الشام بي طوراً وطوراً واسطا

(103/800)

وكأن هذه اللفظة في هذا التأويل مأخوذة من النشاط ، وقال عطاء أيضاً وعكرمة : ﴿ الناشطات ﴾ الأوهان . ويقال : نشطت البعير والإنسان إذا ربطته ونشطته : إذا حللته ، وحكاه الفراء وخولف فيه ومنه الحديث "كأنما أنشط من عقال" ، وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ الناشطات ﴾ النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج ، و" السبح " : العوم في الماء ، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواء والتقلب فيه ، واختلف في ﴿ السابحات ﴾ في الآية ، فقال قتادة والحسن : هي النجوم لأنها تسبح في فلك ، وقال مجاهد وعلي رضي الله عنه : هي الملائكة لأنها تتصرف في الآفاق بأمر الله تجيء وتذهب ، وقال أبو روق : ﴿ السابحات ﴾ الشمي والقمر والليل والنهار ، وقال بعض المتأولين : ﴿ السابحات ﴾ :

السماوات ، لأنها كالعائمة في الهواء ، وقال عطاء وجماعة : ﴿ السابحات ﴾ : الخيل ، ويقال للفرس : سابح ، وقال آخرون : ﴿ السابحات ﴾ الحيتان ، دواب البحر فما دونها وذلك من عظيم المخلوقات ، فروي أن الله تعالى بث في الدنيا ألف نوع من الحيوان ، منها أربعمائة في البر وستمائة في البحر ، وقال عطاء أيضاً : ﴿ السابحات ﴾ : السفن ، وقال مجاهد أيضاً : ﴿ السابحات ﴾ : المنايا تسبح في نفوس الحيوان ، واختلف الناس في ﴿ السابقات ﴾ ، فقال مجاهد : هي الملائكة ، وقيل الرياح وقال عطاء هي الخيل ، وقيل : النجوم ، وقيل المنايا تسبق الآمال ، وقال الشاعر [عدي بن زيد] : [الخفيف]

(104/800)

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . . وأما ﴿ المدبرات ﴾ ، فلا أحفظ خلافاً أنها الملائكة ومعناه أنها تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فياه كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات ، وقال ابن زيد : ﴿ الراجفة ﴾ : الأرض تهتز بأهلها لنفخة الصور الأولى ، وقيل : ﴿ الراجفة ﴾ : النفخة نفسها ، و ﴿ الرادفة ﴾ : النفخة الأخرى ، ويروى بينهما أربعين سنة ، وقال عطاء : الراجفة : القيامة نفسها ، و ﴿ الرادفة ﴾ : البعث ، وقال ابن زيد : ﴿ الراجفة ﴾ : الموت ، و ﴿ الرادفة ﴾ : الساعة ، وقال أبي

بن كعب : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام وقال : " يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه " ، ثم أخبر تعالى عن قلوب تجف ذلك اليوم ، أي ترتعد خوفاً وفرقاً من العذاب ، ووجيف القلب يكون من الفزع ويكون من الإشفاق ، ومنه قول الشاعر قيس بن الحطيم : [المنسرحُ]

إن بني جحجما وأسرتهم . . . أكبادنا من ورائهم تجف

(105/800)

ورفع ﴿ قلوب ﴾ بالابتداء وجاز ذلك وهي نكرة لأنها قد تخصصت بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ ، واختلف الناس في جواب القسم أي هو ، فقال الفراء والزجاج : هو محذوف دل الظاهر عليه تقديره : لتبعثن أو لتعاقبن يوم القيامة ، وقال بعض النحاة : هو في قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : 26] ، وهذا ضعيف لبعد القول ولأن المعنى هالك يستحق ابن ، وقال آخرون : هو في قوله ﴿ يوم ﴾ على تقدير حذف اللام كأنه قال ليوم ، وقال آخرون : وهو موجود في جملة قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة قلوب يومئذ راجفة ﴾ كأنه قال : لتجفن قلوب يوم كذا ، ولما دلت على أصحابها ذكر بعد ذلك أبصارها ، وخشوعها ذلها ، وما يظهر فيها من الهم بالحال ، وقوله تعالى : ﴿ يقولون

﴿ هي حكاية حالهم في الدنيا معناه : هم الذين يقولون وقولهم ﴿ أئنا ﴾ هو على جهة الاستخفاف والعجب والتكذيب ، وقرأ ابن أبي إسحاق وابن يعمر : " أإنا " بهمزتين ومدة على الاستفهام ، وقرأ جمهور القراء : " أئنا " باستفهام وهمزة واحدة ، و ﴿ الحافرة ﴾ لفظة توقعها العرب على أول أمر رجع إليه من آخره ، يقال : عاد فلان في الحافرة ، إذا ارتكس في حال من الأحوال ومنه قول الشاعر : [الوافر]

أحافرة على صلع وشيب . . . معاذ الله من سفه وعار

والمعنى : ﴿ أئنا لمردودون ﴾ إلى الحياة بعد مفارقتها بالموت ، وقال مجاهد والخليل : ﴿ الحافرة ﴾ الأرض فاعلة بمعنى محفورة ، وقيل بل هو على النسب أي ذات حفر ، والمراد : القبور لأنها حفرت للموتى ، فالمعنى ﴿ أئنا لمردودون ﴾ أحياء في قبورنا ، وقال زيد بن أسلم : ﴿ الحافرة ﴾ في النار ، وقرأ أبو حيوة " في الحفرة " بغير ألف ، فقيل : هو بمعنى ﴿ الحافرة ﴾ ، وقيل هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها من قولهم حفرت أسنانه إذا تأكلت وتغير ريحها ، و " الناخرة " : المصوتة بالريح المجوفة ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

وأخليتها من مخها فكأنها . . . قوارير في أجوافها الريح تنخر

ويروى تصفر وناخرة ، هي قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر وعمر بن الخطاب وابن مسعود وأبيّ بن كعب وابن عباس وابن الزبير ومسروق ومجاهد وجماعة سواهم ، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والحسن والأعرج وأبو رجاء وجعفر وشيبة وأبو عبد الرحمن وابن جبير وأهل مكة وشبل وقتادة وأيوب والنخعي : " نخرة " ، دون ألف بعد النون ، ومعناه : بالية متعفنة قد صارت رميماً ، يقال : نخر العود والعظم : إذ بلي وصار يتفتت ، وحكي عن أبي عبيدة وأبي حاتم والفراء وغيرهم أن الناخرة والنخرة بمعنى واحد كطامع وطمع وحاذر وحذر ، والأكثر من الناس على ما قدمناه . قال أبو عمرو بن العلاء : " الناخرة " التي لم يتنخر بعد والنخرة التي قد بليت .

قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12)

ذكر الله تعالى عنهم قولهم : ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث ، وإنكارهم ، قالوا : لو كان هذا حقاً ، لكانت كرتنا ورجعتنا خاسرة وذلك لهم إذ هي النار ، وقال الحسن : ﴿ خاسرة ﴾ معناه : كاذبة أي ليست بكائنة ، وروي أن بعض صناديد مكة قال ذلك ، ثم أخبر الله تعالى عن حال القيامة ، فقال ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ ، أي نفخة في الصور فإذا الناس قد نشروا وصاروا أحياء على وجه الأرض ،

وفي قراءة عبد الله " فإنما هي رقة واحدة " و﴿ الساهرة ﴾ : وجه الأرض ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت : [الوافر]

وفيها لحم ساهرة وبحر . . . وما فاهوا به فلهم مقيم

وقال وهب بن منبه : ﴿ الساهرة ﴾ : جبل بالشام يمده الله لحشر الناس يوم القيامة كيف شاء ، وقال أبو العالية وسفيان : ﴿ الساهرة ﴾ : أرض قريبة من بيت المقدس ، وقال قتادة : ﴿ الساهرة ﴾ : جهنم ، لأنه لا نوم لمن فيها وقال ابن عباس : ﴿ الساهرة ﴾ : أرض مكة ، وقال الزهري : ﴿ الساهرة ﴾ : الأرض كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(107/800)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ :

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، على أن القيامة حقٌّ .

و"النازعاتِ" : الملائكة التي تنزِع أرواحَ الكفار ؛ قاله عليّ رضي الله عنه ، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد : هي الملائكة تَنْزِع نفوس بني آدم .

قال ابن مسعود : يريد أنفسَ الكُفار يَنْزِعها ملك الموت من أجسادهم ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نَزْعاً كالسَّفُّود يُنزَع من الصُّوف الرَّطْب ، ثم يغرِقها ، أي يرجعها في أجسادهم ، ثم ينزِعها ؛ فهذا عمله بالكفار .

وقاله ابن عباس .

وقال سعيد بن جبير : نُزِعت أرواحهم ، ثم غرقت ، ثم حُرِقت ؛ ثم قُذِف بها في النار .

وقيل : يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنها تغرَق .

وقال السُّدِّيّ : و "النازِعاتِ" هي النفوس حين تَغْرَق في الصدور .

مجاهد : هي الموت ينزِع النفوس .

الحسن وقتادة : هي النجومُ تنزِع من أفق إلى أفق ؛ أي تذهب ، من قولهم : نَزَع إليه أي ذهب ، أو من قولهم : نَزَعَت الخيل أي جرت .

﴿ غَرْقاً ﴾ أي إنها تغرقَ وتغيب وتطلُع من أفق إلى أفق آخر .

وقاله أبو عُبيدة وابن كَيسان والأخفش .

وقيل : النازعات القِسِيّ تنزِع بالسّهام ؛ قاله عطاء وعِكْرمة .

و "غَرْقا" بمعنى إغراقاً ؛ وإغراق النازع في القوس أن يبلغ غاية المدّ ، حتى ينتهي إلى النصل .

يقال : أغرق في القوس أي استوفى مدّها ، وذلك بأن تنتهي إلى العَقَب الذي عند النصل

الملفوف عليه .

والاستغراق الاستيعاب .

ويقال لقشرة البيضة الداخلة : "غِرقِىء" .

وقيل : هم الغُزاة الرُّماة .

قلت : هو والذي قبله سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقِسِيّ فالمراد النازعون بها تعظيماً لها ؛ وهو مثل قوله تعالى : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ [العاديات : 1] والله أعلم .

وأراد بالإغراق : المبالغة في النزع وهو سائغ في جميع وجوه تأويلها .

وقيل : هي الوحش تنزِع من الكلأ وتنفر .

حكاه يحيى بن سلام .

(108/800)

ومعنى "غرقا" أي إبعاداً في النزع .

قوله تعالى : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة تنِشط نفس المؤمن ، فتقبضها كما يُنْشَط العِقال من يد البعير : إذا حُلَّ عنه .

وحكى هذا القول الفراء ثم قال : والذي سمعت من العرب أن يقولوا أُنشطت وكأنما أُنشط

من عِقال .

وربْطها نَشْطُها والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نَشطْته ، فأنت ناشط ، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت مُنْشِط .

وعن ابن عباس أيضاً : هي أنفس المؤمنين عند الموت تَنْشَط للخروج ؛ وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا وتُعرض عليه الجنة قبل أن يموت ، فيرى فيها ما أعدّ الله له من أزواجه وأهله من الحور العين ، فهم يدعونه إليها ، فنفسه إليهم نشطَه أن تخرج فتأتيهم .

وعنه أيضاً قال : يعني أنفس الكفار والمنافقين تنْشط كما ينشَط العقب ، الذي يعقب به السهم .

والعقَب بالتحريك : العصب الذي تعمل منه الأوتار ، الواحدة عَقَبة ؛ تقول منه : عَقَبَ السهم والقدح والقوس عَقْباً : إذا لوى شيئاً منه عليه .

والنشط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها إذا جِذبت مثل عقدة التكة .

وقال أبو زيد : نشطت الحبل أَنشطه نَشْطاً : عقدته بأنشوطة ، وأَنشطته أي حللته ، وأَنشطْت الحبل أي مددته حتى ينحلّ .

وقال الفراء : أُنشط العقال أي حُلّ ، ونُشِط : أي رَبط الحبل في يديه .

وقال الليث : أنشطته بأُنشوطة وأُنشوطتين أي أوثقته ، وأُنشطت العِقال : أي مددت

أُنشوطته فانحلت .

قال : ويقال نشط بمعنى أَنشط ، لغتان بمعنى ؛ وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أوّلاً .

وعنه أيضاً : الناشطات الملائكة لنشاطها ، تذهب وتجيء بأمر الله حيثما كان .

(109/800)

وعنه أيضاً وعن عليّ رضي الله عنهما : هي الملائكة تِنشط أرواح الكفار ، ما بين الجلد والأظفار ، حتى تخرجها من أجوافهم نَشْطاً بالكَرْب والغمّ ، كما تَنْشِط الصوف من سَفُّود الحديد ، وهي من النَّشْط بمعنى الجذب ؛ يقال : نَشَطْت الدلو أَنشطُها بالكسر ، وأَنشُطها بالضم : أي نزعتها .

قال الأصمعي : بئر أنشاط : أي قريبة القعر ، تخرج الدلو منها بجذبة واحدة .

وبئر نَشوط ؛ قال : وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى تُنْشَط كثيراً .

وقال مجاهد : هو الموت يَنْشِط نفس الإنسان .

السُّدي : هي النفوس حين تِنشط من القدمين .

وقيل : النازعات : أيدي الغُزاة أو أنفسهم ، تنزع القِسِيّ بإغراق السهام ، وهي التي تَنشْط الأوهاق .

عِكرمة وعطاء : هي الأوهاق تَنْشِط السهام .

وعن عطاء أيضاً وقتادة والحسن والأخفش : هي النجوم تِنشط من أفق إلى أفق : أي تذهب .

وكذا في الصحاح .

"والناشِطاتِ نشطا" يعني النجوم من بُرْج إلى برج ، كالثور الناشط من بلد إلى بلد .

والهموم تِنشط بصاحبها ؛ قال هِميان بن قُحافة :

أَمْسَت همومِي تِنشط المناشِطَا . . .

الشامَ بِي طوراً وطوراً واسِطَا

أبو عبيدة وعطاء أيضاً : الناشطات : هي الوحش حين تِنشطُ من بلد إلى بلد ، كما أن الهموم تِنشطُ الإنسان من بلد إلى بلد ؛ وأنشد قول هِميان :

أمست همومي . . .

البيت . . .

وقيل : ﴿ والنازعات ﴾ للكافرين ﴿ والناشطات ﴾ للمؤمنين ، فالملائكة يجذبون رُوح المؤمن برفق ، والنزع جذب بشدة ، والنشط جذب بِرِفق .

وقيل : هما جميعاً للكفار والآيتان بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ قال عليّ رضي الله عنه : هي الملائكة تسبَح

بأرواح المؤمنين .

الكلبي : هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين ، كالذي يسبح في الماء ، فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع ، يُسلونها سَلاًّ رفيقاً بسهولة ، ثم يدعونها حتى تستريح .

(110/800)

وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ؛ كما يقال للفرس الجواد سابح : إذا أسرع في جريه .

وعن مجاهد أيضاً : الملائكة تسبح في نزولها وصعودها .

وعنه أيضاً : السابحات : الموت يسبح في أنفس بني آدم .

وقيل : هي الخيل الغزاة ؛ قال عنترة :

والخيلُ تعلَمُ حين تَسْبَحُ . . .

في حِياض الموت سَبْحا

وقال امرؤ القيس :

مِسَحَّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى . . .

أَثَرْنَ غُبارا بالكَديد المُرَكَّلِ

قتادة والحسن : هي النجوم تسبح في أفلاكها ، وكذا الشمس والقمر ؛ قال الله تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] عطاء : هي السُّفن تسبح في الماء .

ابن عباس : السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج .

قوله تعالى : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ قال عليّ رضي الله عنه : هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام .

وقاله مسروق ومجاهد .

وعن مجاهد أيضاً وأبي رَوْق : هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح .

وقيل : تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه .

وعن مجاهد أيضاً : الموت يسبق الإنسان .

مقاتل : هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة .

ابن مسعود : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقْبضونها وقد عاينت السرور ، شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته .

ونحوه عن الربيع ، قال : هي النفوس تسبق بالخروج عند الموت .

وقال قتادة والحسن ومعمر : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير .

عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد .

وقيل : يحتمل أن تكون السابقات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار ؛ قاله

الماوردي .

وقال الجُرجانيّ : ذكر "فالسابقات" بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها ؛ أي واللائي يسبحن فيسبقن ، تقول : قام فذهب ؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب ، لم يكن القيام سبباً للذهاب .

(111/800)

قوله تعالى : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ قال القُشَيريّ : أجمعوا على أن المراد الملائكة .

وقال الماوردي : فيه قولان : أحدهما الملائكة ؛ قاله الجمهور .

والقول الثاني هي الكواكب السبعة .

حكاه خالد بن مَعْدان عن مُعاذ بن جبل .

وفي تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبير طلوعها وأفولها .

الثاني تدبيرها ما قضاه الله تعالى فيها من تقلّب الأحوال .

وحكى هذا القول أيضاً القشيري في تفسيره ، وأن الله تعالى علّق كثيراً من تدبير أمر العالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله ، كما يسمى الشيء باسم ما يجاوره .

وعلى أن المراد بالمدبِّرات الملائكة ، فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله ؛ قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما .

وهو إلى الله جل ثناؤه ، ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك ؛ كما قال عز وجل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : 97] يعني جبريل نزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل هو الذي أنزله .

وروى عطاء عن ابن عباس : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ : الملائكة وُكِّلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك .

قال عبد الرحمن بن ساباطٍ : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة ؛ جبريل وميكائيل وملك الموت واسمه عزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقَطْر والنبات ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس في البر والبحر ، وأما إسرافيل فهو يتنزل بالأمر عليهم ، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل ، وبينه وبين العرش مسيرة خمسائة عام .

وقيل : أي وُكِّلوا بأمور عرَّفهم الله بها .

ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لنا ذلك إلا به عز وجل .

وجواب القسم مضمر ، كأنه قال : والنازِعات وكذا وكذا لَتُبعَثُنّ ولتحاسَبُن .

أضمر لمعرفة السامعين بالمعنى ؛ قاله الفراء .

(112/800)

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ ألست ترى أنه كالجواب لقولهم : "أَئِذا كنا عِظاما نَخِرةً" نُبْعَث ؟ فاكتفي بقوله : "اِئذا كنا عِظاماً نَخِرةً" ؟ وقال قوم : وقع القسم على قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ وهذا اختيار التِّرمذي ابن عليّ .

أي فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون "لِعبرة لِمن يخشى" ولكنّ وَقْع القسم على ما في السورة مذكوراً ظاهراً بارزاً أَحْرى وأقمن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيما قال ابن الأنباريّ : وهذا قبيح ، لأن الكلام قد طال فيما بينهما .

وقيل : جواب القسم "هل أتاك حدِيث موسى" لأن المعنى قد أتاك .

وقيل : الجواب ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ على تقدير ليَوم ترجُف ، فحذف اللام .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، وتقديره يوم ترجُف الراجفة وتتبعها الرادفة والنازعات غرقاً .

وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات .

ابن الأنباريّ : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لا يُفْتح بها الكلام ، والأوّل الوجْه .

وقيل : إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجفّ ، وأبصارهم تخشع ، فانتصاب "يومَ ترجُف الراجفة" على هذا المعنى ، ولكن لم يقع عليه .

قال الزجاج : أي قلوب واجفة يوم ترجُف .

وقيل : انتصب بإضمار اذكر .

و"ترجُف" أي تضطرب .

والراجفة : أي المضطربة كذا قال عبد الرحمن بن زيد ؛ قال : هي الأرض ، والرادِفة الساعة .

مجاهد : الراجفة الزلزلة ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ الصيْحة .

وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة : هما الصيحتان .

أي النفختان .

أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحي كل شيء بإذن الله تعالى .

وجاء في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " بينهما أربعون سنة " وقال مجاهد أيضاً : الرادفة حين تنشق السماء وتُحمل الأرضُ والجبال فتدك دكة واحدة ، وذلك بعد الزلزلة .

وقيل : "الراجفة تَحرُّك الأرض ، والرادفة زلزلة أخرى تفني الأَرَضين" .

فالله أعلم .

وقد مضى في آخر "النمل" ما فيه كفاية في النفخ في الصور .

وأصل الرجفة الحركة ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض ﴾ [المزمل : 14]

وليست الرجفة ها هنا من الحركة فقط ، بل من قولهم : رجَف الرعد يرجُف رَجْفاً

ورَجيفاً : أي أظهر الصوتَ والحركةَ ، ومنه سميت الأراجيف ، لاضطراب الأصوات بها

، وإفاضة الناس فيها ؛ قال :

أبالأراجِيف يا بن اللومِ تُوعِدنِي . . .

وفِي الأَرَاجِيف خِلتُ اللؤمَ والخَوَرَا

وعن أُبيّ بن كعب .

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذهب ربع الليل قام ثم قال : " يا أَيُّهَا الناس

اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه" "

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي خائفة وجلة ؛ قاله ابن عباس وعليه عامة المفسرين .

وقال السُّدِّي : زائلة عن أماكنها .

نظيره ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18] وقال المؤرِّخ : قلقة مُسْتَوْفِزة ،

مرتكضة غير ساكنة .

وقال المبرد : مضطربة .

والمعنى متقارب ، والمراد قلوب الكفار ؛ يقال وجَفَ القلب يجِف وجِيفا إذا خَفَق ، كما يقال : وجَب يَجِب وَجيبا ، ومنه وجيف الفرس والناقة في العدو ، والإيجاف حمل الدابة على السير السريع ، قال :

بُدِّلْنَ بعد جهرةٍ صَرِيفَا . . .

وبعد طولِ النَّفَسِ الوجِيفا

و"قلوب" رفع بالابتداء و "واجِفة" صفتها .

و﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ خبرها ؛ مثل قوله ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [البقرة : 221] ومعنى "خاشِعة" منكسرة ذليلة من هول ما ترى .

نظيره : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم : 43] والمعنى أبصار أصحابها ، فحذف المضاف .

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة ﴾ أي يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث ، إذا قيل لهم إنكم تبعثون ، قالوا منكرين متعجبين : أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر ، فنعود أحياء كما كنا قبل الموت ؟ وهو كقولهم : ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء : 49]

يقال : رجع فلان في حافرته ، وعلى حافرته ، أي رجع من حيث جاء ؛ قاله قتادة .

وأنشد ابن الأعرابي :

أحافِرةً على صَلَعٍ وشَيْبٍ . . .

مَعَاذ اللَّهِ مِن سَفَهٍ وعارِ

يقول : أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغَزَل والصِّبا بعد أن شِبت وصَلِعت ! ويقال : رجع على حافرته : أي الطريق الذي جاء منه .

وقولهم في المثل : النقدُ عند الحافرة .

قال يعقوب : أي عند أوّل كلمة .

ويقال : التقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة .

أي عند أوّل ما التقوا .

وقيل : الحافرة العاجلة ؛ أي أئنا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا ؟ قال الشاعر :

آليتُ لا أَنساكُمُ فاعلموا . . .

حَتَّى يُردَّ الناسُ في الحافِرهْ

وقيل : الحافرة : الأرض التي تُحْفَر فيها قبورُهم ، فهي بمعنى المحفورة ؛ كقوله تعالى : ﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] و ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] والمعنى أئنا لمردودون في قبورنا أَحْياء .

قاله مجاهد والخليل والفرّاء .

وقيل : سميت الأرض الحافرة ؛ لأنها مستقرّ الحوافر ، كما سميت القدم أرضاً ؛ لأنها على الأرض .

والمعنى أئنا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشِي على أقدامنا .

وقال ابن زيد : الحافرة : النار ، وقرأ ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

وقال مقاتل وزيد بن أسلم : هي اسم من أسماء النار .

وقال ابن عباس : الحافِرة في كلام العرب : الدنيا .

وقرأ أبو حَيْوة : "الحَفِرة" بغير ألف ، مقصور من الحافر .

وقيل : الحفِرة : الأرض المنتنة بأجساد موتاها ؛ من قولهم : حَفِرت أسنانُه ، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها .

(115/800)

يقال : في أسنانه حَفَر ، وقد حَفَرت تحفِر حَفْرا ، مثل كسر يكسِر كسرا إذا فسدت أصولها .

وبنو أسد يقولون : في أسنانه حَفَر بالتحريك .

وقد حفِرت مثال تعِب تعبا ، وهي أردا اللغتين ؛ قاله في الصحاح .

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ أي بالية متفتّتة .

يقال : نخِرَ العظم بالكسر : أي بلِي وتفتت ؛ يقال : عظام نخِرة .

وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة ، واختاره أبو عُبيد ؛ لأن الآثار التي تذكر فيها العظام ، نظرنا فيها فرأينا نخِرة لا ناخرة .

وقرأ أبو عمرو وابنه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر "ناخِرة" بألف ، واختاره الفرّاء والطَبريّ وأبو معاذ النحويّ ؛ لِوفاق رؤوس الآي .

وفي الصحاح : والناخِر من العظام التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نَخِير .

ويقال : ما بها ناخر ، أي ما بها أحد .

حكاه يعقوب عن الباهليّ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد ، أي لم تبل ولا بدّ أن تنخر .

وقيل : الناخر المُجَوَّفة .

وقيل : هما لغتان بمعنى ؛ كذلك تقول العرب : نخِر الشيء فهو نخِر وناخِر ؛ كقولهم : طمِع

فهو طمِع وطامِع ، وحذِرٌ وحاذِر ، وبخِلٌ وباخِل ، رفَره وفارِه ؛ قال الشاعر :

يظَلّ بِها الشيخُ الذِي كان بادِنا . . .

يَدِب على عُوجٍ له نَخِراتِ

عُوج : يعني قوائم .

وفي بعض التفسير : ناخرة بالألف : بالِية ؛ ونخِرة : تنخر فيها الريح أي تمر فيها ، على عكس الأوّل ؛ قال :

مِن بعدِ ما صِرتُ عِظاما ناخِرهْ . . .

وقال بعضهم : الناخرة : التي أُكِلت أطرافها وبقيت أوساطها .

والنخرة : التي فسدت كلها .

قال مجاهد : نخرة أي مرفوتة ؛ كما قال تعالى : ﴿ عِظَاماً وَرُفَاتاً ﴾ [الإسراء : 49]

ونُخْرة الريح بالضم : شدّة هبوبها .

والنُّخْرة أيضاً والنُّخَرة مثال الهُمَزة : مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير ؛ يقال : هشم نُخْرَته : أي أنفه .

(116/800)

﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أي رَجْعة خائبة ، كاذبة باطلة ، أي ليست كائبه ؛ قاله الحسن وغيره .

الربيع بن أنس : "خاسِرة" على من كذب بها .

وقيل : أي هي كرة خُسران .

والمعنى أهلها خاسرون ؛ كما يقال : تجارة رابحة أي يربح صاحبها .

ولا شيء أخسر من كَرَّة تقتضي المصير إلى النار .

وقال قتادة ومحمد بن كعب : أي لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنحْشَرَنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار .

والكر : الرجوع ؛ يقال : كره ، وكر بنفسه ، يتعدى ولا يتعدى .

والكرة : المرة ، والجمع الكرات .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال : "فإنما هِي زَجْرة واحدة" .

ورَوى الضحاك عن ابن عباس قال : نفخة واحدة ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ أي الخلائق أجمعون ﴿ بالساهرة ﴾ أي على وجه الأرض ، بعد ما كانوا في بطنها .

قال الفرّاء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نَوم الحيوان وسهرهم .

والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهِرة ، بمعنى ذاتِ سَهَر ؛ لأنه يُسْهَر فيها خوفاً منها ،

فوصفها بصفة ما فيها ؛ واستدل ابن عباس والمفسرون بقول أمية بن أبي الصَّلْت :

وفيها لحمُ ساهِرةٍ وبحرٌ . . .

وما فاهوا بِهِ لَهمُ مُقِيمُ

وقال آخر يوم ذي قارٍ لفرسه :

أَقدم مَحَاجِ إِنها الأَساوِرهْ . . .

ولا يَهُولَنَّكَ رجْل نادِرهْ

فإنما قَصْرُكَ تُربُ الساهِرهْ . . .

ثم تعودُ بعدَها في الحافِرهْ

مِن بعدِ ما صِرت عِظاما ناخِرَهْ . . .

وفي الصحاح.

ويقال : الساهور : ظِل الساهِرة ، وهي وجه الأرض .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ ، قال أبو كبير الهذليّ :

يَرتَدْنَ ساهِرةً كأنّ جمِيمَها . . .

وعمِيمَها أَسْداف ليلٍ مُظلِم

ويقال : الساهور : كالغِلاف للقمر يدخُل فيه إذا كُسِف ، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصَّلْت :

قَمر وساهورٌ يُسَلّ ويُغْمَدُ . . .

وأنشدوا لآخَر في وصف امرأة :

كأنها عِرقُ سامٍ عِند ضاربِهِ . . .

(117/800)

أَوْ شُقَةٌ خرجَتْ مِن جوفِ ساهورِ

يريد شُقَّة القمر .

وقيل : الساهرة : هي الأرض البيضاء .

ورَوى الضحاك عن ابن عباس قال : أرض من فِضة لم يعص الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ .

وقيل : أرض جددها الله يوم القيامة .

وقيل : الساهرة اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض .

وقال الثوري : الساهرة : أرض الشام .

وهب بن منبه : جبل بيت المقدس .

عثمان بن أبي العاتكة : إنه اسم مكان من الأرض بعينه ، بالشام ، وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان يمده الله كيف يشاء .

قتادة : هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم .

وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ .

وقيل : الساهرة : بمعنى الصحراء على شفير جهنم ؛ أي يوقفون بأرض القيامة ، فيدوم السهر حينئذ .

ويقال : الساهرة : الأرض البيضاء المستوية سميت ، بذلك ، لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة : جارية الماء ، وفي ضدها : نائمة ؛ قال الأشعث بن قيس :

وساهرةٍ يُصْحِي السرابُ مُجَلِّلاً . . .
لأقطارِها قد جئْتُها متلثّما

أو لأن سالكها لا ينام خَوف الهَلَكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(118/800)

وقال أبو السعود :

﴿ والنازعات غَرْقاً * والناشطات نَشْطاً * والسابحات سَبْحاً * فالسابقات سَبْقاً

* فالمدبرات أَمْراً ﴾

إقسامٌ من الله عزَّ وجَلَّ بطوائفِ الملائكةِ الذينَ ينزِعونَ الأرواحَ من الأجساد على الإطلاقِ كما قالَهُ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا ومجاهدٌ ، أو أرواحَ الكفرةِ كما قالَهُ عليٌّ رضيَ الله عنْهُ وابنُ مسعودٍ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ ومسروقٌ وينشِطونَها أي يُخرجونَها من الأجسادِ من نشَطَ الدلوَ من البئرِ إذا أخرجَها ويسبحونَ في إخراجِها سبحَ الغواصِ الذي يُخرجُ من البحرِ ما يخرجُ فيسبقونَ بأرواحِ الكفرةِ إلى النارِ وبأرواحِ المؤمنينَ إلى الجنةِ فيدبرونَ أمرَ عقابِها وثوابِها بأنْ يهيئوهَا لإدراكِ ما أُعِدَّ لهَا منَ الآلامِ واللَّذاتِ والعطفُ معَ اتخاذِ الكلِّ بتنزيلِ التغايرِ العُنوانيِّ منزلةَ التغايرِ الذاتي كما في قولِه

إلى المَلِكِ القِرْمِ وَابنِ الهُمَام . . . وَلَيثِ الكَتَائبِ فِي المُزدَحمْ

للإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأوصافِ المعدودةِ من معظماتِ الأمورِ حقيقٌ بأن يكونَ على حيالِه مناطاً لاستحقاقِ موصوفِه للإجلالِ والإعظامِ بالإقسامِ بهِ من غيرِ انضمامِ الأوصافِ الأُخرِ إليهِ والفاءُ في الأخيرينِ للدلالةِ على ترتبِهما على ما قبلهُمَا بغيرِ مُهلةٍ كَمَا في قولِه

يا لهفَ زَيّابةَ للحرثِ ال . . . صائحِ فالغانمِ فالآئبِ

(119/800)

وغَرْقاً مصدرٌ مؤكدٌ بحذف الزوائدِ أيْ إغراقاً في النزع حيثُ تنزعُها منْ أقاصِي الأجسادِ . قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنْهُ : تنزعُ روحَ الكافرِ من جسدِه من تحتِ كلِّ شعرةٍ ومن تحتِ الأظافيرِ وأصولِ القدمينِ ثم تُغرقها في جسدِه ثم تنزعُها حتَّى إذا كادتْ تخرجُ تردها في جسدِه فهذا عملُها بالكفار ، وقيلَ : يَرى الكافرُ نفسَهُ في وقت النزعِ كأنها تغرقُ . وانتصابُ نَشْطاً وسَبْحاً وسَبْقاً أيضاً على المصدريةِ ، وأما أمراً فمفعولٌ للمدبراتِ وتنكيرُهُ للتهويلِ والتفخيمِ ويجوزُ أنْ يُرادَ بالسابحاتِ وما بعدَهَا طوائفُ من الملائكةِ يسبحونَ في مُضيهم أي يُسرعونَ فيهِ فيسبقونَ ألى مَا أُمروا بهِ من الأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ . والمُقسمُ عليهِ محذوفٌ تَعْويلاً على إشارةِ ما قبلَهُ من المقسمِ بهِ إليهِ ودلالةِ ما بعدَهُ من أحوالِ القيامةِ عليهِ وهو لتبعثنَّ فإنَّ الإقسامَ بمَنْ يتولَّى نزعَ الأرواحِ ويقومُ بتدبيرِ أُمورِها يلوحُ بكونِ المقسمِ عليهِ من قبيلِ تلكَ الأمورِ لا محالةَ وفيهِ مِنَ الجزالةِ ما لا يَخْفى . وقَدْ جُوّزَ أنْ يكونَ إقساماً بالنجومِ التي تنزعُ من المشرقِ إلى المغربِ غرقاً في النزعِ بأن تقطعَ الفَلكَ حتَّى تنحطَّ في أقْصَى الغربِ وتنشطَ من برجٍ إلى برجٍ أي تخرجُ من نشطِ الثورِ إذا خرجَ من بلدٍ إلى بلدٍ وتسبحُ في الفلكِ فيسبقُ بعضُها بعضاً فتدبرُ أمراً نيطَ بهَا كاختلاف الفصولِ وتقديرِ الأزمنةِ وتبينِ مواقيتِ العباداتِ وحيثُ كانتْ حركاتُها من المشرق إلى المغرب قسريةً وحركاتُها من برجٍ إلى برجٍ ملائمةً عُبّرَ عنِ الأُولى بالنزعِ وعنِ الثانيةِ بالنشطِ .

أو بأنفسِ الغُزاةِ أو أيديهم التي تنزعُ القِسِيَّ بإغراقِ السهامِ وينشطونَ بالسهمِ للرمي ويسبحونَ في البرّ والبحرِ فيسبقونَ إلى حربِ العدوّ فيدبرونَ أمرَها . أو بخيلِهم التي تنزعُ في أعنَّتِها نزعاً تغرقُ فيه الأعنةَ

(120/800)

لطول أعناقِها لأنها عِرابٌ وتخرجُ منْ دارِ الإسلامِ إلى دارِ الحربِ وتسبحُ في جَريها لتسبقَ إلى الغايةِ فتدبرُ أمرَ الظفرِ والغلبةِ ، وإسنادُ التدبيرِ إليها لأنَّها من أسبابِه . هذا والذي يليقُ بشأنِ التنزيلِ هُو الأولُ .

وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ منصوبٌ بالجوابِ المُضمرِ ، والمرادُ بالراجفةِ الواقعةُ التي ترجفُ عندَهَا الأجرامُ الساكنةُ ، أي تتحركُ حركةً شديدةً وتتزلزلُ زلزلةً عظيمةً كالأرضِ والجبالِ ، وهيَ النَّفخةُ الأُولى ، وقيلَ : الرَّاجفةُ الأرضُ والجبالُ لقولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ أي الواقعةُ التي تُردِفُ الأُولى ، وهيَ النفخةُ الثانيةُ حالٌ من الراجفةُ مصححةٌ لوقوعِ اليومِ ظرفاً للبعثِ أي لتبعثنَّ يومَ النفخةِ الأُولى حالَ كونِ النفخةِ الثانيةِ تابعةً لها لا قبلَ ذلكَ فإنَّه عبارةٌ عن الزمانِ الممتدِّ الذي يقعُ فيهِ النفختانِ وبينهما أربعونَ سنةً واعتبارُ امتدادِه معَ أنَّ البعثَ لا يكونُ إلا

عندَ النفخةِ الثانيةِ لتهويل اليومِ ببيان كونِه موقعاً لداهيتينِ عظيمتينِ لا يَبْقى عندَ وقوعِ الأُولى حيٌّ إلا ماتَ ولا عندَ وقوعِ الثانيةِ ميتٌ إلا بُعثَ وقامَ ، ووجْهُ إضافتِه إلى الأُولى ظاهرٌ وقيلَ : يومَ ترجفُ منصوبٌ باذكُرْ فتكونُ الجملةُ استئنافاً مقرراً لمضمونِ الجوابِ المُضْمرِ كأنَّه قيلَ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : اذكُر لهم يومَ النفختينِ فإنه وقتُ بعثِهم ، وقيلَ : هو منصوبٌ بما دلَّ عليه قولُه تعالَى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي يومَ ترجفُ وجفتِ القلوبُ ، قيلَ : قلوبٌ مبتدأٌ ويومئذٍ متعلقٌ بواجفةٌ وهيَ صفةٌ لقلوبٌ مُسوّغةٌ لوقوعِه مبتدأً .

(121/800)

وقوله تعالى : ﴿ أبصارها ﴾ أي أبصارُ أصحابِها ﴿ خاشعة ﴾ جملةٌ من مبتدإٍ وخبرٍ وقعتْ خبراً لقلوبٌ . وقَدْ مرَّ أنَّ حقَّ الصفةِ أن تكونَ معلومةَ الانتسابِ إلى الموصوفِ عند السامعِ حتَّى قالُوا : إن الصفات قبلَ العلمِ بها أخبارٌ والأخبارُ بعدَ العلمِ بها صفاتٌ فحيثُ كانَ ثبوتُ الوجيفِ للقلوبِ وثبوتُ الخشوعِ لأبصارِ أصحابِها سواءً في المعرفةِ والجهالةِ كانَ جعلُ الأولِ عُنواناً للموضوعِ مسلمَ الثبوتِ مفروغاً عنْهُ وجعلُ الثاني مخبراً له مقصودَ الإفادةِ تحكماً بحتاً على أنَّ الوجيفَ الذي هُو عبارةٌ عنْ شدةِ اضطرابِ القلبِ وقلقِه من

الخوفِ والوجلِ أشدُّ من خشوعِ البصرِ وأهولُ فجعلُ أهونَ الشرينِ عُمدةً وأشدّهما فضلةً مما لا عَهدَ له في الكلامِ . وأيضاً فتخصيصُ الخشوعِ بقلوبٍ موصوفةٍ بصفةٍ معينةٍ غيرُ مشعرةٍ بالعمومِ والشمولِ تهوينٌ للخطب في موقع التهويلِ فالوجْهُ أنْ يُقالَ : تنكيرُ قلوبٌ يقومُ مقامَ الوصفِ المختصّ سواءٌ حُملَ على التنويعِ كما قيلَ وإنْ لمْ يُذكرُ النوعُ الماقبلُ ، فإنَّ المَعْنى منسحبٌ عليهِ ، أو على التكثيرِ كما هو شرٌّ أهرَّ ذَا نابٍ فإنَّ التفخيمَ كما يكونُ بالكيفيةِ يكونُ بالكميةِ أيضاً كأنَّه قيلَ : قلوبٌ كثيرةٌ يومَ إذْ يقعُ النفختانِ واجفةٌ أيْ شديدةُ الاضطرابِ . قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : خائفةٌ وَجِلةٌ . وقال السُّدّيُّ : زائلةٌ عنْ أماكنِها ، كما في قولِه تعالى : ﴿ إذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ حكايةٌ لما يقولُه المنكرونَ للبعث المكذبونَ بالآياتِ الناطقةِ به إثرَ بيانِ وقوعِه بطريقِ التوكيدِ القَسَمي وذكرِ مقدماتِه الهائلةِ وما يعرضُ عندَ وقوعِها للقلوب والأبصارِ . أي يقولونَ إذا قيلَ لهم : إنكُم تبعثونَ منكرينَ له متعجبينَ منهُ : أئنا لمردودونَ بعدَ موتِنا في الحافرة ، أي في الحالة

(122/800)

الأُولى يعنونَ الحياةَ من قولهم : رجعَ فلانٌ في حافرته أي في طريقتِه التي جاءَ فيها فحفرَها أي أثَّر فيها بمشيه ، وتسميتُها حافرةً مع أنها محفورةٌ ، كقولِه تعالَى : ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي منسوبةٌ إلى الحفرِ والرِّضا أو كقولِهم : نهارُه صائمٌ على تشبيهِ القابلِ بالفاعلِ . وقُرِىءَ في الحُفْرةِ وهيَ بمَعْنى المَحْفُورةِ .

(123/800)

وقولُه تعالَى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عظاما نَّخِرَةً ﴾ تأكيدٌ لإنكار الردّ ونفيه بنسبتِه إلى حالةٍ منافيةٍ له . والعاملُ في إذَا مضمرٌ يدلُّ عليهِ مردودونَ أي أَئِذا كُنَّا عظاماً باليةً نُردُّ ونبعثُ مع كونِها أبعدَ شيءٍ من الحياةِ وقُرِىءَ إذَا كُنَّا على الخبرِ أو إسقاطِ حرفِ الإنكارِ . وناخرةٌ من نَخَر العظمُ فهو نَخِرٌ ونَاخِرٌ ، وهُو البَالِي الأَجْوفُ الذي يمرُّ به الريحُ فيُسمعُ له نخيرٌ ﴿ قَالُواْ ﴾ حكايةٌ لكفرٍ آخرَ لهم متفرعٍ على كُفْرِهم السابقِ ولعلَّ توسيطَ قالُوا بينهُمَا للإيذانِ بأنَّ صدورَ هذا الكفرِ عنهُم ليسَ بطريقِ الاطرادِ والاستمرارِ مثلَ كفرِهم السابقِ المستمرِّ صدورُه عنهُم في كافةِ أوقاتِهم حسبَما ينبىءُ عنْهُ حكايتُه بصيغةِ المضارعِ ، أيْ قالُوا بطريقِ الاستهزاءِ مشيرينَ إلى ما أنكرُوه من الردةِ في الحافرةِ مشعرينَ بغايةِ بُعدِها من الوقوعِ : ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ أي ذاتُ خسرانٍ أو خاسرةٌ أصحابُها ، أيْ إنْ صحَّتْ

فنحنُ إذنْ خاسرونَ لتكذيبَنا بهَا . وقولُه تعالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ تعليلٌ لمقدَّرٍ يقتضيهِ إنكارُهم لإحياءِ العظامِ النخرةِ التي عبرُوا عنهَا بالكرَّةِ فإنَّ مدارَهُ لما كانَ استصعابُهم إيَّاها ردَّ عليهم ذلكَ فقيلَ : لا تستصعبُوهَا فإنَّما هيَ صيحةٌ واحدةٌ أي حاصلةٌ بصيحةٍ واحدةٍ وهي النفخةُ الثانيةُ عبّر عنهَا بهَا تنبيهاً عل كمال اتصالِها بها كأنَّها عينُها وقيلَ : هيَ راجعٌ إلى الرادفةِ . فقولُه تعالَى : ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ حينئذٍ بيانٌ لترتب الكرّةِ على الزجرة مكافأةً أيْ فإذ هُم أحياءٌ على وجه الأرضِ بعدَ ما كانُوا أمواتاً في جَوفِها وعلى الأول بيانٌ لحضورِهم الموقفَ عقيبَ الكرةِ التي عبرَ عنها بالزجرةِ . والساهرةُ الأرضُ البيضاءُ المستويةُ ، سُميتْ بذلكَ لأنَّ السرابَ يَجْري فيهَا من قولِهم : عينٌ ساهرةٌ

(124/800)

جاريةُ الماءِ وفي ضِدّهَا نائمةٌ وقيلَ : لأنَّ سالِكَها لا ينامُ خوفَ الهلكةِ ، وقيل : اسمٌ لجهنمَ ، وقالَ الراغبُ : هي وجهُ الأرضِ ، وقيلَ : هيَ أرضُ القيامةِ . ورَوَى الضحَّاكُ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : أنَّ الساهرةَ أرضٌ من فضةٍ لمْ يُعصَ اللهُ تعالَى عليهَا قطْ خلقَها حينئذٍ ، وقيلَ : هيَ أرضٌ يجددها اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ ، وقيلَ : هيَ اسمُ الأرضِ السابعةِ يأتي بها اللهُ تعالَى فيحاسبُ الخلائقَ عليها وذلك حين تبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ ،

وقال الثوريُّ : الساهرةُ أرضُ الشامِ ، وقال وهبُ بنُ منبهٍ : جبلُ بيتِ المقدسِ ، وقيل : الساهرةُ بمَعْنى الصحراء على شفيرِ جهنمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(125/800)

وقال الآلوسى :

﴿ والنازعات غَرْقاً والناشطات نَشْطاً والسابحات سَبْحاً فالسابقات سَبْقاً فالمدبرات أَمْراً ﴾

إقسام من الله تعالى بطوائف من ملائكة الموت عليهم السلام الذين ينزعون الأرواح من الأجساد على الإطلاق كما في رواية عن ابن عباس ومجاهد أو أرواح الكفرة على ما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه وجويبر في تفسيره عن الحبر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود وعبد بن حميد عن قتادة وروي عن سعيد بن جبير ومسروق وينشطونها أي يخرجونها من الأجساد من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ويسبحون في إخراجها سبح الذي يخرج من البحر ما يخرج فيسبقون ويسرعون بأرواح الكفرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيؤها لإدراك ما

أعد لها من الآلام واللذات ومال بعضهم إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار والنشط والسبح بأرواح المؤمنين لأن النزع جذب بشدة وقد أردف بقوله تعالى غرقاً وهو مصدر مؤكد بحذف الزوائد أي إغراقاً في النزع من أقاصي الأجساد وقيل هو نوع والنزع جنس أي في هذا المحل وذلك أنسب بالكفار قال ابن مسعود تنزع الملائكة روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة ومن تحت الأظافر وأصول القدمين ثم تغرقها في جسده ثم تنزعها حتى إذا كادت تخرج يردها في جسده وهكذا مراراً فهذا عملها في الكفار والنشط الإخراج برفق وسهولة وهو أنسب بالمؤمنين وكذا السبح ظاهر في التحرك برفق ولطافة قال بعض السلف : إن الملائكة يسلون أرواح المؤمنين سلاً رقيقاً ثم يتركونها حتى تستريح رويداً ثم يستخرجونها برفق ولطف كالذي يسبح في الماء فإنه يتحرك برفق لئلا يغرق فهم يرفقون في ذلك الاستخراج لئلا يصل إلى المؤمن ألم وشدة وفي التاج أن النشط حل العقدة برفق ويقال كما في "البحر" أنشطت العقال ونشطته إذا مددت أنشوطته فانحلت والأنشوطة عقدت يسهل انحلالها إذا جذبت كعقدة التكة فإذا جعلت الناشطات من النشط بهذا المعنى كان أوفق للإشارة إلى الرفق والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما مر غير مرة

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله مناطاً لاستحقاق موصوفة للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه ولو جعلت النازعات ملائكة العذاب والناشطات ملائكة الرحمة كان العطف للتغاير الذاتي على ما هو الأصل والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة وانتصاب نشطاً وسبحاً وسبقاً على المصدرية كانتصاب غرقاً وأما انتصاب أمراً فعلى المفعولية للمدبرات لا على نزع الخافض أي بأمر منه تعالى كما قيل وزعم أنه الأولى وتنكيره للتهويل والتفخيم وجوز أن يكون غرقاً مصدراً مؤولاً بالصفة المشبهة ونصبه على المفعولية أيضاً للنازعات أو صفة للمفعول به لها أي نفوساً غرقة في الأجساد وحمل بعضهم غرقها فيها بشدة تعلقها بها وغلبة صفاتها عليها وكان ذلك مبني على تجرد الأرواح كما ذهب إليه الفلاسفة وبعض أجلة المسلمين هذا ولم نقف على نص في أن الملائكة حال قبض الأرواح وإخراجها هل يدخلون في الأجساد أم لا وظاهر تفسير الناشطات أنهم حالة النزع خارج الجسد كالواقف والسابحات دخولهم فيه لإخراجها على ما قيل وأنت تعلم أن السبح ليس على حقيقته ولا مانع من أن يراد به مجرد الاتصال ونحوه مما لا توقف له على الدخول وجوز أن يكون المراد بالسابحات وما بعدها طوائف من الملائكة يسبحون في مضيهم فيسبقون فيه إلى ما أمروا به من الأمور الدنيوية والأخروية

فيدبرون أمره من كيفيته وما لا بد منه فيه ويعم ذلك ملائكة الرحمة وملائكة العذاب والعطف عليه لتغاير الموصوفات كالصفات وأياً ما كان فجواب القسم محذوف يدل عليه ما بعد من أحوال القيامة ويلوح إليه الأقسام المذكورة والتقدير ﴿ والنازعات ﴾ الخ لتبعثن وإليه ذهب الفراء وجماعة وقيل أقسام بالنجوم السيارة التي تنزع أي تسير من نزع الفرس إذا جرى من المشرق إلى المغرب غرقاً في النزع وجدا في السير بأن تقطع الفلك على ما يبدو للناس

(127/800)

حتى تنحط في أقصى الغرب وتنشط من برج إلى برج أي تخرج من نشط الثور إذا خرج من مكان إلى مكان آخر ومنه قول هميان بن قحافة :

أرى همومي تنشط المناشطا

الشأم بي طوراً وطوراً واسطاً . . .

(128/800)

وتسبح في الفلك فيسبق بعضها في السير لكونه أسرع حركة فتدبر أمراً نيط بها كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات والمعاملات المؤجلة ولما كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب سريعة قسرية وتابعة لحركة الفلك الأعظم ضرورة وحركاتها من برج إلى برج بإرادتها من غير قسر لها وهي غير سريعة أطلق على الأولى النزع لأنه جذب بشدة وعلى الثانية النشط لأنه برفق وروى حمل النازعات على النجوم عن الحسن وقتادة والأخفش وابن كيسان وأبي عبيدة وحمل الناشطات عليها عن ابن عباس والثلاثة الأول وحمل السابحات عليها عن الأولين وحملها أبو روق على الليل والنهار والشمس والقمر منها والمدبرات عليها عن معاذ وإضافة التدبير إليها مجاز وقيل أقسام بالنفوس الفاضلة حالة المفارقة لأبدانها بالموت فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أي نزعاً شديداً من أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النصل لعسر مفارقتها إياها حيث الفه وكان مطية لها لاكتساب الخير ومظنة لازدياده فتنشط شوقاً إلى عالم الملكوت وتسبح به فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات أي ملحقة بالملائكة أو تصلح هي لأن تكون مدبرة كما قال الإمام : إنها بعد المفارقة قد تظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم فقد يرى المء شيخه بعد موته فيرشده لما يهمه وقد نقل عن جالينوس أنه مرض مرضاً عجز عن علاجه الحكماء فوصف له في منامه علاجه فأفاق وفعله فأفاق وقد ذكره الغزالي ولذا قيل وليس بحديث كما توهم إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور أي

أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين ولا شك في أنه يحصل لزائرهم مدد روحاني ببركتهم وكثيراً ما تنحل عقد الأمور بأنامل التوسل إلى الله تعالى بحرمتهم وحمله بعضهم على الأحياء منهم الممتثلين أمر موتوا قبل أن تموتوا وتفسير النازعات بالنفوس مروى عن السدي إلا أنه قال هي جماعة النفوس تنزع بالموت إلى ربها والناشطات بها عن ابن

(129/800)

عباس أيضاً إلا أنه قال هي النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج والسابقات بها عن ابن مسعود إلا أنه قال هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة عليهم السلام الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى وقيل أقسام بالنفوس حال سلوكها وتطهير ظاهرها وباطنها بالاجتهاد في العبادة والترقي في المعارف الإلهية فإنها تنزع عن الشهوات وتنشط إلى عالم القدس فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات للنفوس الناقصة وقيل أقسام بأنفس الغزاة أو أيديهم تنزع القسي بإغراق السهام وتنشط بالسهم للرمي وتسبح في البر والبحر فتسبق إلى حرب العدو فتدبر أمرها وإسناد السبح وما بعده إلى الأيدي عليه مجاز للملابسة وحمل النازعات على الغزاة مروى عن عطاء إلا أنه قال هي النازعات بالقسي وغيرها وقيل بصفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها

غرقاً أي تمد أعنتها مداً قوياً حتى تلصقها بالأعناق من غير ارتخائها فتصير كأنها انغمست فيها وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر وتسبح في جريها فتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر وإسناد التدبير إليها إسناد إلى السبب وحمل السابحات على الخيل مروى عن عطاء أيضاً وجماعة ولا يخفى أن أكثر هذه الأقوال لا يليق بشأن جزالة التنزيل وليس له قوة مناسبة للمقام ومنها ما فيه قول بما عليه أهل الهيئة المتقدمون من الحركة الإرادية للكوكب وهي حركته الخاصة ونحوها مما ليس في كلام السلف ولم يتم عليه برهان ولذا قال بخلافه المحدثون من الفلاسفة وفي حمل المدبرات على النجوم إيهام صحة ما يزعمه أهل الأحكام وجهلة المنجمين وهو باطل عقلاً ونقلاً كما أوضحنا ذلك فيما تقدم وكذا في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهام صحة ما يزعمه كثير من سخفة العقول من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض وإنقاذ الغريق والنصر على الأعداء وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوض

(130/800)

إليهم ذلك ومنهم من خص ذلك بخمسة من الأولياء والكل جهل وإن كان الثاني أشد جهلاً نعم لا ينبغي التوقف في أن الله تعالى قد يكرم من شاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله

بما شاء فيبرىء سبحانه المريض وينقذ الغريق وينصر على العدو وينزل الغيث وكيت وكيت كرامة له وربما يظهر عز وجل من يشبهه صورة فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمته مما لا إثم فيه استجابة للسائل وربما يقع السؤال على الوجه المحظور شرعاً فيظهر سبحانه نحو ذلك مكراً بالسائل واستدراجاً له ونقل الإمام في هذا المقام عن الغزالي أنه قال : إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاماً ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة انتهى ولم أر ما يشهد على صحته في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة وقد ذكر الإمام نفسه في المباحث المشرقية استحالة تعلق أكثر من نفس ببدن واحد وكذا استحالة تعلق نفس واحدة بأكثر من بدن ولم يتعقب ما نقله هنا فكأنه فهم أن التعلق فيه غير التعلق المستحيل فلا تغفل وقال في وجه حمل المذكورات على الملائكة أن الملائكة عليهم السلام لها صفات سلبية وصفات إضافية أما الأولى فهي أنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة والموت والهرم والسقم والتركيب والأعضاء والأخلاط والأركان بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال فالنازعات غرقاً إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعاً كلياً من جميع الوجوه على أن الصيغة للنسبة والناشطات نشطاً إشارة إلى أن خروجها عن ذلك ليس كخروج البشر على سبيل الكلفة والمشقة بل بمقتضى

الماهية فالكلمتان إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية وأما صفاتهم الإضافية فهي قسمان الأول : شرح قوتهم العاقلة وبيان حالهم في معرفة ملك الله تعالى

(131/800)

وملكوته سبحانه والاطلاع على نور جلاله جل جلاله فوصفهم سبحانه في هذا المقام بوصفين أحدهما : والسابحات سبحاً فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلاله تعالى ثم لا منتهى لسبحهم لأنه لا منتهى لعظمة الله تعالى وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه فهم أبداً في تلك السباحة .

وثانيهما : فالسابقات سبقاً وهو إشارة إلى تفاوت مراتبهم في درجات المعرفة وفي مراتب التجلي والثاني : شرح قوتهم العاملة وبيان حالهم فيها فوصفهم سبحانه في هذا المقام بقوله تعالى : ﴿ لَكَ أَمْراً ﴾ ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم قدم شرح القوة العاقلة على شرح القوة العاملة انتهى وهو على ما في بعضه من المنع ليس بشديد المناسبة للمقام ونقل غير واحد أقوالاً غير ما ذكر في تفسير المذكورات فعن مجاهد النازعات المنايا تنزع النفوس وحكى يحيى بن سلام أنها الوحش تنزع إلى الكلأ وعن الأول تفسير الناشطات بالمنايا أيضاً وعن عطاء تفسيرها بالبقر الوحشية وما يجري مجراها من الحيوان الذي ينشط من

قطر إلى قطر وعنه أيضاً تفسير السابحات بالسفن وعن مجاهد تفسيرها بالمنايا تسبح في نفوس الحيوان وعن بعضهم تفسيرها بالسحاب وعن آخر تفسيرها بدواب البحر وعن بعض تفسير السابقات بالمنايا على معنى أنها تسبق الآمال وعن غير واحد تفسير المدبرات بجريل يدبر الرياح والجنود والوحي وميكال يدبر القطر والنبات وعزرائيل يدبر قبض الأرواح وإسرافيل يدبر الأمر المنزل عليهم لأنه ينزل به ويدبر النفخ في الصور والأكثرون تفسيرها بالملائكة مطلقاً بل قال ابن عطية لا أحفظ خلافاً في أنها الملائكة وليس في تفسير شيء مما ذكر خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أعلم وما ذكرته أولاً هو المرجح عندي نظراً للمقام والله تعالى أعلم وقوله سبحانه :

(132/800)

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ منصوب بالجواب المضمر والمراد بالراجفة الواقعة أو النفخة التي ترجف الأجرام عندها على أن الإسناد إليها مجازي لأنها سبب الرجف أو التجوز في الطرف بجعل سبب الرجف راجفاً وجوز أن تفسر الراجفة بالمحركة ويكون ذلك حقيقة لأن رجف يكون بمعنى حرك وتحرك كما في "القاموس" وهي النفخة الأولى وقيل المراد بها الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذٍ كالأرض والجبال لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ

الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] وتسميتها راجفة باعتبار الأول ففيه مجاز مرسل وبه يتضح فائدة الإسناد وقوله تعالى :

﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ أي الواقة أو النفخة التي تردف وتتبع الأولى وهي النفخة الثانية وقيل الأجرام التابعة وهي السماء والكواكب فإنها تنشق وتنتثر بعد والجملة حال من الراجفة مصححة لوقوع اليوم ظرفاً للبعث لإفادتها امتداد الوقت وسعته حيث أفادت أن اليوم زمان الرجفة المقيدة بتبعية الرادفة لها وتبعية الشيء الآخر فرع وجود ذلك الشيء فلا بعد من امتداد اليوم إلى الرادفة واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون عند الرادفة أعني النفخة الثانية وبينها وبين الأولى أربعون لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين وقيل ﴿ يوم ترجف ﴾ [النازعات : 6] منصوب باذكر فتكون الجملة استئنافاً مقرر المضمون الجواب المضمر كأنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم يوم النفختين فإنه وقت بعثهم وقيل هو منصوب بما دل عليه قوله تعالى :

(133/800)

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب أي اضطربت يقال وجف القلب وجيفاً اضطرب من شدة الفزع وكذلك وجب وجيباً وروي عن ابن عباس أن

واجفة بمعنى خائفة بلغة همدان وعن السدي زائلة عن مكانها ولم يجعل منصوباً بواجفة لأنه نصب ظرفه أعني يومئذٍ والتأسيس أولى من التأكيد فلا يحمل عليه كيف وحذف المضاف وإبدال التنوين مما يأباه أيضاً ورفع قلوب على الابتداء ويومئذٍ متعلق بواجفة وهي الخبر على ما قيل وهو الأظهر كما في قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذٍ باسره ﴾ [القيامة : 22-24] وجاز الابتداء بالنكرة لأن تنكيرها للتنويع وهو يقوم مقام الوصف المخصص نعم التنويع في النظير أظهر لذكر المقابل بخلاف ما نحن فيه ولكن لا فرق بعد ما ساق المعنى إليه وإن شئت فاعتبر ذلك للتكثير كما اعتبر في شرأ هر ذا ناب وقيل واجفة صفة قلوب مصححة للابتداء بها وقوله تعالى :

(134/800)

﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي أبصار أهلها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها إليها فالإضافة لأدنى ملابسة وجوز أن يراد بالأبصار البصائر أي صارت البصائر ذليلة لا تدرك شيئاً فكني بذلها عن عدم إدراكها لأن عز البصيرة إنما هي بالإدراك وبحث في كون القلوب غير مدركة يوم القيامة وأجيب بأن المراد شدة الذهول والحيرة جملة من مبتدأ وخبر في محل رفع على الخبرية لقلوب وتعقب بأنه قد اشتهر أن حق الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى

الموصوف عند السامع حتى قال غير واحد أن الصفات قبل العلم بها أخبار والأخبار بعد العلم بها صفات فحيث كان ثبوت الوجيف وثبوت الخشوع لإبصار أصحاب القلوب سواء في المعرفة والجهالة كان جعل الأول عنوان الموضوع مسلم الثبوت مفروغاً عنه وجعل الثاني مخبراً به مقصود الإفادة تحكماً بحتاً على أن الوجيف الذي هو عبارة عن اضطراب القلب وقلقه من شدة الخوف والوجل أشد من خشوع البصر وأهول فجعل أهون الشرين عمدة وأشدهما فضلة مما لا عهد له في الكلام وأيضاً فتخصيص الخشوع بقلوب موصوفة بصفة معينة غير مشعرة بالعموم والشمول تهوين للخطب في موقع التهويل انتهى وأنت تعلم أن المشتهر وما قاله غير واحد غير مجمع على اطراده وأن بعض ما اعترض به يندفع على ما يفهمه كلام بعض الأجلة من جواز جعل المفرد خبراً والجملة بعد صفة لكنه بعيد وما قيل على الأول من أن جعل التنوين للتنويع مع الباسه مخالف للظاهر وكونه كالوصف معنى تعسف خروج عن الإنصاف وزعم ابن عطية أن النكرة تخصصت بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وتعقب بأنه لا تتخصص بالأجرام بظروف الزمان وقدر عصام الدين جواب القسم ليأتين وقال نحن نقدره كذلك ونجعل ﴿ يوم ترجف ﴾ [النازعات : 6] فاعلاً له مرفوع المحل ونجعل ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات : 7] صفة للراجفة بجعلها في حكم النكرة لكون التعريف للعهد الذهني نحو أمر على اللئيم يسبني وفيه ما فيه وفيه ما فيه وقيل أن الجواب تتبعها الرادفة ويوم

منصوب به ولام القسم محذوفة أي ليوم كذا تتبعها الرادفة ولم تدخل نون التأكيد لأنه قد فصل بين اللام المقدرة والفعل وليس بذاك وقال محمد بن علي الترمذي : إن جواب القسم ﴿ أن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : 26] وهو كما ترى ومثله ما قيل هو ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ [النازعات : 15] لأنه في تقدير قد أتاك وقال أبو حاتم على التقديم والتأخير كأنه قيل فإذا هم بالساهرة والنازعات وخطأه ابن الأنباري بأن الفاء لا يفتتح بها الكلام وبالجملة الوجه الوجيه هو ما قدمنا وقوله تعالى :

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المذبكون بالآيات الناطقة به أثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمي وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار أي يقولون إذا قيل لهم أنكم تبعثون منكرين له متعجبين منه أئنا لمردودون بعد موتنا في الحافرة أي في الحالة الأولى يعنون الحياة كما قال ابن عباس وغيره وقيل أنه تعالى شأنه لما أقسم على البعث وبين ذلهم وخوفهم ذكر هنا إقرارهم بالبعث وردهم إلى الحياة بعد الموت فالاستفهام لاستغراب ما شاهدوه بعد الإنكار والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لما يقولون إذ ذاك والظاهر ما تقدم وأن القول في الدنيا وأياً ما كان

فهو من قولهم رجع فلان في حافرته أي طريقته التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه والقياس المحفورة فهي إما بمعنى ذات حفر أو الإسناد مجازي أو الكلام على الاستعارة المكنية بتشبيه القابل بالفاعل وجعل الحافرية تخييلاً وذلك نظير ما ذكروا ﴿ في عيشة راضية ﴾ [القارعة : 7] ويقال لكل من كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته وعليه قوله

: أحافرة على صلع وشيب . . .

معاذ الله من سفه وعار

(136/800)

يريد أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل والتصابي بعد أن شبت معاذ الله من ذاك سفهاً وعاراً ومنه المثل النقد عند الحافرة فقد قيل الحافرة فيه بمعنى الحالة الأولى وهي الصفقة أي النقد حال العقد لكن نقل الميداني عن ثعلب أن معناه النقد عند السبق وذلك أن الفرس إذا سبق أخذ الرهن والحافرة الأرض التي حفرها السابق بقوائمه على أحد التأويلات وقيل الحافرة جمع الحافر بمعنى القدم أي يقولون أئنا لمردودون أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الأرض ولا يخفى أن أداء اللفظ هذا المعنى غير ظاهر وعن مجاهد

الحافرة القبور المحفورة أي لمردودون أحياء في قبورنا وعن زيد بن أسلم هي النار وهو كما ترى وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة في الحفرة بفتح الحاء وكسر الفاء على أنه صفة مشبهة من حفر اللازم كعلم مطاوع حفر بالبناء للمجهول يقال حفرت أسنانه فحفرت حفراً بفتحتين إذا أثر الإكال في أسناخها وتغيرت ويرجع ذلك إلى معنى المحفورة وقيل هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها وقوله تعالى :

(137/800)

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ تأكيد لإنكار البعث بذكر حالة منافية له والعامل في إذا مضمر يدل عليه ﴿ مردودون ﴾ أي أئذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة وقرأ نافع وابن عامر إذا كنا بإسقاط همزة الاستفهام فقيل يكون خبر استهزاء بعد الاستفهام الإنكاري واستظهر أنه متعلق بمردودون وقرأ عمر وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر ناخرة بالألف وهو كنخرة من نخر العظم أي بلي وصار أجوف تمر به الريح فيسمع له نخير أي صوت وقراءة الأكثرين أبلغ فقد صرحوا بأن فعلاً أبلغ من فاعل وإن كانت حروفه أكثر وقولهم زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى أغلبي أو إذا اتحد النوع لا إذا اختلف كأن كان فاعل اسم فاعل وفعل صفة مشبهة

نعم تلك القراءة أوفق برؤوس الآي واختيارها لذلك لا يفيد اتحادها مع الأخرى في المبالغة كما وهم وإلى الأبلغية ذهب المعظم وفسرت النخرة عليه بالأشد بلى وقال عمرو بن العلاء النخرة التي قد بليت والناخرة التي لم تنخر بعد ونقل اتحاد المعنى عن الفراء وأبي عبيدة وأبي حاتم وآخرين وقوله تعالى :

﴿ قَالُواْ ﴾ حكاية لكفر آخر لهم متفرع على كفرهم السابق ولعل توسيط قالوا بينهما للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنهم في كافة أوقاتهم حسبما ينبىء عنه حكايته بصيغة المضارع أي قالوا بطريق الاستهزاء مشيرين إلى ما أنكروه من الرد في الحافرة مشعرين بغاية بعده عن الوقوع ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ أي ذات خسر أو خاسر أصحابها أي إذا صحت تلك الرجعة فنحن خاسرون لتكذيبنا بها وأبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورة ما يغلب على الظن وقوعه لمزيد الاستهزاء وقال الحسن خاسرة كاذبة أي بكائنة فكان المعنى تلك إذا كنا عظاماً نخرة كرة ليست بكائنة وقوله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم ذلك فإنه لما كان مداره استصعابهم الكرة رد عليهم ذلك فقيل لا تحسبوا تلك الكرة صعبة فإنما هي صيحة واحدة أي حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية عبر عنها بها تنبيهاً على كمال اتصالها بها كأنها عينها وقيل هي راجع إلى ﴿ الرادفة ﴾ وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ حينئذٍ بيان لترتب الكرة على الزجرة مفاجأة أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها وعلى الأول بيان لحضورهم الموقف عقيب الكرة التي عبر عنها بالزجرة والساهرة قيل وجه الأرض والفلاة وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر . . .

وما فاهوا به أبداً مقيم

وفي "الكشاف" الأرض البيضاء أي التي لا نبات فيها المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يضحي السراب مجللا . . .

لأقطارها قد جبتها ملتثماً

أو لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة وفي الأول مجاز على المجاز وعلى الثانيا لسهر على حقيقته والتجوز في الإسناد وحكى الراغب فيها قولين الأول : أنها وجه الأرض والثاني :

أنها أرض القيامة ثم قال وحقيقتها التي يكثر الوطء بها فكأنها سهرت من ذلك إشارة إلى نحو ما قال الشاعر :

تحرك يقظان التراب ونائمه . . .

وروى الضحاك عن ابن عباس أن الساهرة أرض من فضة لم يعص الله تعالى عليها قط بخلقها عز وجل حينئذٍ وعنه أيضاً أنها أرض مكة وقيل هي الأرض السابعة يأتي الله تعالى بها فيحاسب الخلائق عليها وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض وقال وهب بن منبه جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس وقال أبو العالية وسفيان أرض قريبة من بيت المقدس وقيل الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم وقال قتادة هي جهنم لأنه لا نوم لمن فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(139/800)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(79) سورة النازعات

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « النبأ » عدد آياتها : ست وأربعون آية . .

عدد كلماتها : مائة وتسع وسبعون كلمة .

عدد حروفها : سبعمائة وثلاثة وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها ختمت سورة « النبأ » بهذا النذير الذي يلقى به فى وجه المكذبين باليوم الآخر ، وبما يلقاهم منه من بلاء ، حتى إنه ليتمنى الكافر يومئذ أن يكون مغيّبا فى التراب ، غائصا فى أعماقه ، من هول ما يراه . .

وقد جاءت سورة « النازعات » مفتتحة بهذه الأقسام ، على أن هذا اليوم واقع لا شك فيه ، ولم يذكر لهذه الأقسام جواب ، لأن جوابها قد سبقها ، فى قوله تعالى : نَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذاباً قَرِيباً . . .

الآية » أي أن هذا العذاب القريب الذي أنذرناكم به واقع ، وحقّ « النَّازِعاتِ غَرْقاً ، وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً . . الآيات » .

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات : (1 ـ 14) [سورة النازعات (79) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9)

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10) أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

(140/800)

قوله تعالى : « وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً . وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً . وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً . فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً . فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً » .

يقول الأستاذ الإمام « محمد عبده » رحمه اللّه ، عن هذه الأقسام التي أقسم اللّه سبحانه وتعالى بها من مخلوقاته . يقول :

« جاء فى القرآن الكريم ضروب من القسم ، بالأزمنة والأمكنة والأشياء . .

والقسم إنما يكون بشىء يخشى المقسم إذا حنث فى حلفه به أن يقع تحت للؤاخذة . نعوذ باللّه أن يتوهم شىء من هذا فى جانب اللّه . وما كان اللّه جل شأنه ليحتاج فى تأكيد أخباره إلى القسم بما هو من صنع قدرته ، فليس لشىء فى الوجود قدر إذا نسب إلى قدره تعالى ، الذي لا يقدره القادرون ، بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده . سبحانه . إلا لأنه انبسط عليه شعاع من أشعة ظهوره جل شأنه .

ولهذا ، قد يسأل السائل عن هذا النوع من الخبر الذي اختص به القرآن وكيف يوجد فى كلام اللّه ؟

(141/800)

فيجاب ، بأنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم اللّه به ، وجدته إما شيئا أنكره بعض الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه ، وعمى عن حكمة اللّه فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره ، فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر اللّه شأنه عليه. فيقسم اللّه به ، إما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يحقره ، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم ، أو خانه الفهم . . . .

« ومن ذلك النجوم . . قوم يحقرونها لأنها من جملة عالم المادة ، أو يغفلون عن حكمة اللّه فيها ، وما ناط بها من المصالح ، وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف فى الأكوان السفلية تصرّف الرب فى المربوب ، فيقسم اللّه بأوصاف تدل على أنها من المخلوقات ، التي تصرّفها القدرة الإلهية ، وليس فيها شىء من صفات الألوهية . . .

ثم يقول الإمام :

«وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أن من الأديان السابقة على دين الإسلام ، ما ظن أهله أن هذا الكون الجسماني ، وما فيه من نور وظلمة ، وأجرام ، وأعراض - إنما هو كون مادى ، لم يشأ اللّه كونه إلا ليكون حبسا للأنفس ، وفتنة للأرواح ، فمن طلب رضا اللّه ، فليعرض عنه ، وليبعد عن طيباته ، وليأخذ بدنه بضرب من الإعنات والتعذيب وأصناف الحرمان ، وليغمض عينيه عن النظر إلى شىء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد فى زعمه - اللهم إلا على نية مقته ، والهروب منه . .

فأقسم اللّه بكثير من هذه الكائنات ، ليبين مقدار عنايته بها ، وأنه لا يغضبه من عباده أن يتمتعوا بما متعهم به منها ، متى أدركوا حكمة اللّه فى هذا المتاع ، ووقفوا عند حدوده فى الانتفاع» .

(142/800)

وقد رأينا أن ننقل رأى الإمام فى هذه الأقسام التي أقسم اللّه سبحانه بها فى القرآن ، لأننا لم نجد قولا خيرا من هذا القول ، ولا أوضح منه فى هذا المقام .

قوله تعالى : « وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً » اختلف المفسرون - كشأنهم دائما فيما يحتمل التأويل والتخريج - فلم يجتمعوا على رأى فى مدلول كلمة « النازعات » .

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أنها هى النجوم البعيدة ، الغائرة ، الغارقة فى أطباق السماء العليا . .

فالنزع : بمعنى الانطلاق ، والنزوح البعيد . .

والغرق : بمعنى الإغراق فى الأمر ، ومجاوزة الحدود . .

« وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً » هى النجوم ، القريبة ـ نسبيّا ، ـ منّا ، فنرى لها حركات ظاهرة ، على خلاف النجوم ، الغارقة فى أجواء السموات العلا ، حيث تبدو وكأنها مقيدة فى أماكنها ، أما النجوم القريبة ، فتظهر عليها الحركة ، وتبدو كأنها نشطت من عقالها . .

« وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً » هى الكواكب ، المطلة علينا فى سماء الدنيا ، كالشمس ، والقمر ، والمشترى والمريخ ، وزحل ، وغيرها .

فهذه الكواكب لقربها منا ، نراها سابحة فى الجو ، كما تسبح الطيور . .

ـ « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » (38 : يس) . .

« فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً » .

.

هى هذه الكواكب السابحة سبحا ، وهى - كما يبدو من ظاهر حركاتها - فى سباق مع بعضها ، حيث ترى الشمس مرة أمام القمر ، ويرى القمر مرة أمامها . .

« فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً » . .

هى أيضا نفس هذه الكواكب ، السابحات سبحا ، والسابقات سبقا . .

إنها فى تعاملنا معها ، تضبط الزمن ، ساعات ، وأياما ، وشهورا . . « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ » (12 : الإسراء) . .

وتدبير هذه الكواكب لأمورنا ، هو فيما يظهر من آثارها فى حياتنا ، من حرّ وبرد ، ومن هبوب رياح ، ونزول أمطار ، وإنضاج ثمار ، ومدّ وجزر فى البحار ، وغير ذلك مما نشهده من حركة الشمس والقمر ، وما يتبع هذه الحركة من آثار فى عالمنا الأرضى ، برّا ، وبحرا ، وجوّا . .

قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » . .

ليس هذا جواب القسم ، فجواب القسم - كما قلنا - هو ما دل عليه ختام سورة النبأ ، أما هذا فهو بيان لما يجرى فى يوم القيامة ، الذي جاء القسم لتوكيده ، الأمر الذي يقتضى التسليم به ، فلم يبق إلا بيان ما يحدث فيه . .

والراجفة : الأرض ، والرادفة السماء . .

فالأرض ترجف يوم القيامة ، ثم تتبعها السماء ، فيما يقع فيها من أحداث هذا اليوم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ » (48 : إبراهيم) . .

(144/800)

وقيل : الراجفة : النفخة الأولى ، وهى صعقة الموت : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ » (68 : الزمر) . .

والرادفة : النفخة الثانية ، وهى نفخة البعث : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ » (68 : الزمر) . . وجملة « تتبعها الرادفة » حال من « الراجفة » . .

وقوله تعالى : « قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ » . .

الواجفة : الخائفة ، المذعورة : المضطربة . . والوجيف : ضرب من السير السريع المضطرب .

وهو إخبار عن حال المشركين الذين يكذبون بيوم الدين ، وذلك حين تطلع عليهم أمارات الساعة ، وإرهاصاتها . .

وفى الإخبار عن القلوب ، دون أصحابها ، إشارة إلى أن القلوب فى هذا اليوم ، هى التي

تتلقى هذه الأحداث ، وتتفاعل بها ، وأن الإنسان فى هذا اليوم قد استحال إلى قلب واجف مضطرب ، كل جارحة فيه ، وكل عضو من أعضائه ، قد صار قلبا ، يدرك ، ويشعر ، وينفعل . . وذلك من شدة وقع الأحداث ، التي يتنبه لها كيان الإنسان كله . . وفى تنكير القلوب ، إشارة إلى أنها قلوب غير تلك القلوب التي عهدها الناس ، إنها هذا الإنسان المجتمع فيها بكل أعضائه وجوارحه .

قوله تعالى : « أَبْصارُها خاشِعَةٌ » .

.

(145/800)

أي أبصار هذه القلوب أو أبصار أصحابها ، إذ لا فرق بين الإنسان وقلبه يومئذ . . والخاشعة الذليلة . . وإنما أوقع الذلّ على الأبصار ، لأنها هى المرآة التي تتجلى على صفحتها أحوال الإنسان ، وما يقع فى القلب من مسرات ومساءات . .

قوله تعالى : « يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ . أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً » ؟ .

الحافرة : الحياة الأولى التي كان عليها الإنسان . . يقال رجع إلى حافرته ، أي إلى الطريق الذي جاء منه . .

والفعل « يقولون » هو الناصب للظرف : « يوم ترجف الراجفة » أي يوم ترجف الراجفة ، متبوعة بالرادفة ، متبوعة بقلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ـ فى هذا اليوم يقول المشركون : « أإنا لمردودون فى الحافرة » أي أنردّ إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد أن نموت ، ونتحول إلى عظام بالية ؟ إن هذه الأحداث لتشير إلى أن هناك بعثا وحياة بعد الموت ! !

لقد قال الذين يحدثوننا عن يوم القيامة إن هناك إرهاصات تسبقه ، وهذه هى الإرهاصات . . فهل يقع البعث حقا ؟ إن ذلك مما تشهد له هذه الأحداث ! .

وهكذا تتردد فى صدورهم الخواطر المزعجة ، والوساوس المفزعة .

قوله تعالى : « قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ » . .

أي عندئذ ، وبعد أن يعاين المشركون أمارات الساعة ، وهم فى هذه الدنيا ، وبعد أن يتبين لهم أن أمر البعث جدّ لا هزل ، وأنه لا شكّ واقع ـ عندئذ « قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ » أي رجعة قد خسرنا فيها أنفسنا ، إذ لم

نكن نتوقعها ، ولم نعمل لها حسابا . .

قوله تعالى : « فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

« هى » ضمير الشأن ، أي فإنما الحال والشأن زجرة واحدة ، أي صيحة واحدة ، أو نفخة واحدة . . « فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » أي فإذا هم على ظهر الأرض . .

والساهرة : الأرض ، وسميت ساهرة ، لأنه لا نوم للناس يومئذ فيها ، بل هم فى سهر دائم ، بعد مبعثهم من نومهم فى القبور . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1428.1435 ﴾

(147/800)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

ابتدئت بالقسَم بمخلوقات ذات صفات عظيمة قَسَماً مراداً منه تحقيقُ ما بعده من الخبر وفي هذا القسَم تهويل المقسم به .

وهذه الأمور الخمسة المقسم بها جُموع جَرى لفظها على صيغة الجمع بألف وتاء لأنها في تأويل جَماعات تتحقق فيها الصفات المجموعة ، فهي جماعات ، نازعات ، ناشطات ، سابحات ، سابقات ، مدبِّرات ، فتلك صفات لموصوفات محذوفة تدلّ عليها الأوصاف الصالحة لها .

فيجوز أن تكون صفاتتٍ لموصوفات من نوع واحد له أصناف تميزها تلك الصفات .

ويجوز أن تكون صفات لموصوفات مختلفة الأنواع بأن تكون كل صفة خاصيَّةً من خواصّ نوع من الموجودات العظيمة قوامُه بتلك الصفة .

والذي يقتضيه غالب الاستعمال أن المتعاطفات بالواو صفات مستقلة لموصوفات مختلفة أنواع أو أصناف ، أو لموصوف واحد له أحوال متعددة ، وأنَّ المعطوفاتِ بالفاء صفات متفرعة عن الوصف الذي عُطفت عليه بالفاء ، فهي صفات متعددة متفرّع بعضها عن بعض لموصوف واحد فيكون قَسماً بتلك الأحوال العظيمة باعتبار موصوفاتها .

وللسلف من المفسرين أقوال في تعيين موصوفات هذه الأوصاف وفي تفسير معاني الأوصاف .

وأحسن الوجوه على الجملةِ أن كلّ صفة مما عُطف بالواو مراداً بها موصوف غير المراد بموصوف الصفة الأخرى ، وأن كل صفة عطفت بالفاء أن تكون حالةً أخرى للموصوف المعطوف بالواو كما تقدم .

وسنتعمد في ذلك أظهر الوجوه وأنظَمها ونذكر ما في ذلك من الاختلاف ليكون الناظر على سعَةِ بصيرةٍ .

وهذا الإِجمال مقصود لتذهب أفهام السامعين كلَّ مذهب ممكن ، فتكثر خطور المعاني في الأذهان ، وتتكرر الموعظة والعبرة باعتبار وقْع كل معنى في نفس له فيها أشدُّ وقْعٍ وذلك

من وفرة المعاني مع إيجاز الألفاظ.

فالنازعات: وصف مشتق من النزع ومعاني النزع كثيرة كلها ترجع إلى الإِخراج والجذب فمنه حقيقة ومنه مجاز.

(148/800)

فيحتمل أن يكون ﴿ النازعات ﴾ جماعات من الملائكة وهم الموكّلون بقبض الأرواح، فالنزع هو إخراج الروح من الجسد شبه بنزع الدلو من البئر أو الركية، ومنهم قولهم في المُحْتَضَر هو في النزع.

وأجريت صفتهم على صيغة التأنيث بتأويل الجماعة أو الطوائف كقوله تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ [الحجرات: 14].

وروي هذا عن علي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومسروق وابن جبير والسدّي فأقسم الله بالملائكة لأنها من أشرف المخلوقات، وخصها بهذا الوصف الذي هو من تصرفاتها تذكيراً للمشركين إذ هم في غفلة عن الآخرة وما بعد الموت، ولأنهم شديدٌ تعلقهم بالحياة كما قال تعالى لمَّا ذكر اليهود: ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ﴾ [البقرة: 96] فالمشركين مَثَل في حب الحياة ففي القسم بملائكة قبض

الأرواح عظة لهم وعبرة .

والقسَم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السورة وهو إثبات البعث لأن الموت أول منازل الآخرة فهذا من براعة الاستهلال .

وغرقا : اسم مصدر أغرق ، وأصله إغراقاً ، جيء به مجرداً عن الهمزة فعومل معاملة مصدر الثلاثي المتعدّي مع أنه لا يوجد غرِق متعدياً ولا أن مصدره مفتوح عين الكلمة لكنه لما جعل عوضاً عن مصدر أغرق وحذفت منه الزوائد قدّر فعله بعد حذف الزوائد متعدياً .

ولو قلنا : إنه سكنت عينه تخفيفاً ورعياً للمزاوجة مع ﴿ نشطاً ﴾ ، و ﴿ سبحا ﴾ ، و ﴿ سبقاً ﴾ ، و ﴿ أمراً ﴾ لكان أرقب لأن متحرك الوسط يخفف بالسكون ، وهذا مصدر وصف به مصدر محذوف هو مفعول مطلق للنازعات ، أي نَزْعاً غَرَقاً ، أي مغرقاً ، أي تنزع الأرواح من أقاصي الأجساد .

ويجوز أن تكون ﴿ النازعات ﴾ صفة للنجوم ، أي تنزع من أفق إلى أفق ، أي تسير ، يقال : ينزع إلى الأمر الفلاني ، أي يميل ويشتاق .

وغرقاً : تشبيه لغروب النجوم بالغَرْق في الماء وقاله الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش ، وهو على هذا متعين لأن يكون مصدر غَرِق وأن تسكين عينه تخفيف .

والقَسَم بالنجوم في هذه الحالة لأنها مَظهر من مظاهر القدرة الربانية كقوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] .

ويحتمل أن تكون ﴿ النازعات ﴾ جماعات الرّماة بالسهام في الغزو يقال : نزع في القوس ، إذا مدّها عند وضع السهم فيها .

وروي هذا عن عكرمة وعطاء .

والغَرف : الإِغراق ، أي استيفاء مدّ القوس بإغراق السهم فيها فيكون قسماً بالرماة من المسلمين الغزاة لشرفهم بأن غزوهم لتأييد دين الله ، ولم تكن للمسلمين وهم بمكة يومئذٍ غزوات ولا كانوا يرجونها ، فالقَسَم بها إنذار للمشركين بغزوة بدر التي كان فيها خضْد شوكتهم ، فيكون من دلائل النبوءة ووعد وعده الله رسوله صلى الله عليه وسلم

و ﴿ الناشطات ﴾ : يجوز أن تكون الموصوفات بالنشاط ، وهو قوة الانطلاق للعمل كالسير السريع ، وينطلق النشاط على سير الثور الوحشي وسير البعير لقوة ذلك ، فيكون الموصوف إما الكواكب السيارة على وجه التشبيه لدوام تنقلها في دوائرها وإما إبل الغزو ، وإما الملائكة التي تسرع إلى تنفيذ ما أمر الله به من أمر التكوين وكلاهما على وجه الحقيقة ، وأيّاً مَا كان فعطفها على ﴿ النازعات ﴾ عطف نوع على نوع أو عطَف صنف على

صنف .

و ﴿ نشطاً ﴾ مصدر جاء على مصدر فَعَلَ المتعدي من باب نَصَر فتعين أن ﴿ الناشطات ﴾ فاعلات النشط فهو متعد .

وقد يكون مفضياً لإرادة النشاط الحقيقي لا المجازي .

ويجوز أن يكون التأكيد لتحقيق الوصف لا لرفع احتمال المجاز .

وعن ابن عباس : ﴿ الناشطات ﴾ الملائكة تَنشِيط نفوسَ المؤمنين ، وعنه هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج .

(150/800)

و ﴿ السابحات ﴾ صفة من السبح المجازي ، وأصل السبح العَوْم وهو تنقل الجسم على وجه الماء مباشرة وهو هنا مستعار لسرعة الانتقال ، فيجوز أن يكون المراد الملائكة السائرين في أجواء السماوات وآفاق الأرض ، وروي عن علي بن أبي طالب .

ويجوز أن يراد خِيل الغزاة حين هجومها على العدوّ سريعة كسرعة السابح في الماء كالسابحات في قول امرىء القيس يصف فرساً

:

مُسِحٌ إذا ما السابحات على الونى

أثرن الغبار بالكديد المركَّل . . .

وقيل : ﴿ السابحات ﴾ النجوم ، وهو جار على قول من فسر النازعات بالنجوم ، ﴿ وسبحا ﴾ مصدر مؤكد لإفادة التحقيق مع التوسل إلى تنوينه للتعظيم ، وعطف ﴿ فالسابقات ﴾ بالفاء يؤذن بأن هذه الصفة متفرعة عن التي قبلها لأنهم يعطفون بالفاء الصفات التي شأنها أن يتفرع بعضها عن بعض كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكرا ﴾ [الصافات : 31] قول ابن زيابة :

يا لهفَ زَيَّابَةَ للحارث الصّ

ابح فالغانم فالآيب . . .

فلذلك ﴿ فالسابقات ﴾ هي السابقات من السابحات .

والسبق : تجاوز السائر من يَسير معه ووصوله إلى المكان المسير إليه قبله .

ويطلق السبق على سرعة الوصول من دون وجود سائر مع السابق قال تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ [البقرة : 148] وقال : ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ [المؤمنون : 61] .

ويطلق السبق على الغلب والقهر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ [العنكبوت : 4] وقول مُرة بن عداء الفقعسي :

كأنكَ لم تُسْبَق من الدهر ليلةً

إذا أنتَ أدْرَكت الذي كنتَ تطلُب . . .

فقولُه تعالى : ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ يصلح للحمل على هذه المعاني على اختلاف محامل وصف السابحات بما يناسب كل احتمال على حِيالِه بأن يراد السائرات سيراً سريعاً فيما تعلمه ، أو المبادرات .

(151/800)

وإذا كان ﴿ السابحات ﴾ بمعنى الخيل كان ﴿ السابقات ﴾ إن حمل على معنى المسرعات كناية عن عدم مبالاة الفرسان بعدوّهم وحرصهم على الوصول إلى أرض العدوّ ، أو على معنى غلبهم أعداءهم .

وأكد بالمصدر المرادف لمعناه وهو ﴿ سبقا ﴾ للتأكيد ولدلالة التنكير على عظم ذلك السبق .

و﴿ المدبرات ﴾ : الموصوفةُ بالتدبير .

والتدبير : جَوَلان الفكر في عواقب الأشياء وبإجراء الأعمال على ما يليق بما توجد له فإن كانت السابحات جماعات الملائكة ، فمعنى تدبيرها تنفيذ ما نيط بعهدتها على أكمل ما

أذنت به فعبر عن ذلك بالتدبير للأمور لأنه يشبه فعل المدبر المتثبت .

وإن كانت السابحات خيلَ الغزاة فالمراد بالتدبير : تدبير مكائد الحرب من كرّ ، وفر ، وغارة ، وقتل ، وأسر ، ولحاق للفارين ، أو ثبات بالمكان .

وإسناد التدبير إلى السابحات على هذا الوجه مجاز عقلي لأن التدبير للفُرسان وإنما الخيل وسائل لتنفيذ التدبير ، كما قال تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ [الحج : 27] ، فأسند الإِتيان إلى ضمير ﴿ كل ضامر ﴾ من الإِبل لأن إتيان الحجيج من الفجاج العميقة يكون بسير الإِبل .

وفي هذا المجاز إيماء إلى حِذق الخيل وسرعة فهمها مقاصد فرسانها حتى كأنها هي المدبرة لما دبره فرسانها .

والأمر : الشأن والغرض المهم وتنوينه للتعظيم ، وإفراده لإِرادة الجنس ، أي أموراً .

وينتظم من مجموع صفات ﴿ النازعات ﴾ ، و ﴿ الناشطات ﴾ ، و ﴿ السابحات ﴾ ، إذا فهم منها جماعات الرماة والجَمَّالَة والفرسانِ أن يكون إشارة إلى أصناف المقاتلين من مُشاة وهم الرماة بالقِسي ، وفرسان على الخيل وكانت الرماة تمشي قدّام الفرسان تنضح عنهم بالنبال حتى يبلغوا إلى مكان الملحمة .

قال أُنَيْف بن زَبَّان الطائي :

وتَحْتَ نحور الخَيْل خرْشَفُ رَجْلَةٍ

تُتَاح لِغِرَّاتِ القُلوبِ نِبَالُها . . .

(152/800)

ولتحمل الآية لهذه الاحتمالات كانت تعريضاً بتهديد المشركين بحرب تشن عليهم وهي غزوة فتح مكة أو غزوة بدر مثل سورة (والعاديات) وأضرابها ، وهي من دلائل نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم إذ كانت هذه التهديدات صَرِيحُها وتعريضُها في مدة مقامة صلى الله عليه وسلم بمكة والمسلمون في ضعف فحصل من هذا القَسم تعريض بعذاب في الدنيا .

وجملة ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ إلى ﴿ خاشعة ﴾ جوابُ القسم وصريحُ الكلام موعظة .

والمقصود منه لازمه وهو وقوع البعث لأن القلوب لا تكون إلا في أجسام .

وقد علم أن المراد بـ ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ هو يوم القيامة لأنه قد عُرِّف بمثل هذه الأحوال في آيات كثيرة مما سبق نزوله مثل قوله : ﴿ إذا رجت الأرض ﴾ فكان في هذا الجواب تهويل ليوم البعث وفي طيه تحقيق وقوعه فحصل إيجاز في الكلام جامع بين الإِنذار

بوقوعه والتحذير مما يجري فيه .

و ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ واجفة ﴾ فآل إلى أن المقسم عليه المراد تحقيقه هو وقوع البعث بأسلوب أوقع في نفوس السامعين المنكرين من أسلوب التصريح بجواب القسم ، إذ دل على المقسم عليه بعض أحواله التي هي من أهواله فكان في جواب القسم إنذار .

ولم تقرن جملة الجواب بلام جواب القسم لبعد ما بين الجواب وبين القسم بطول جملة القسم ، فيظهر لي من استعمال البلغاء أنه إذا بعد ما بين القسم وبين الجواب لا يأتون بلام القسم في الجواب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ إلى ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ [البروج : 41] .

(153/800)

ومثله كثير في القرآن فلا يؤتى بلام القسم في جوابه إلا إذا كان الجواب موالياً لجملة القسم نحو ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ [الحجر : 92] ، ولأن جواب القسم إذا كان جملة اسمية لم يكثر اقترانه بلام الجواب ولم أر التصريح بجوازه ولا بمنعه ، وإن كان صاحب "المغني" استظهر في مبحث لام الجواب في قوله

تعالى : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند اللَّه خير ﴾ [البقرة : 103] أن اللام لام جواب قسم محذوف وليست لام جواب (لو) بدليل كون الجملة اسمية ، والاسمية قليلة من جواب (لو) فلم يرَ جملة الجواب إذا كانت اسمية أن تقترن باللام .

وجعل صاحب "الكشاف" تبعاً للفراء وغيره جواب القسم محذوفاً تقديره : لتُبعثُنَّ .

وقُدم الظرف على متعلقة لأن ذلك الظرف هو الأهمّ في جواب القَسَم لأنه المقصود إثبات وقوعه ، فتقديم الظرف للاهتمام به والعناية به فإنه لما أكد الكلام بالقسم شمل التأكيدُ متعلقات الخبر التي منها ذلك الظرف ، والتأكيد اهتمام ، ثم أكد ذلك الظرف في الأثناء بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ الذي هو يوم ترجف الراجفة فحصلت عناية عظيمة بهذا الخبر .

والرجف : الاضطراب والاهتزاز وفعله من باب نصَر .

وظاهر كلام أهل اللغة أنه فعل قاصر ولم أر من قال : إنه يستعمل متعدياً ، فلذلك يجوز أن يكون إسناد ﴿ ترجف ﴾ إلى ﴿ الراجفة ﴾ حقيقياً ، فالمراد بـ ﴿ الراجفة ﴾ : الأرض لأنها تضطّرب وتهتزّ بالزلازل التي تحصل عند فناء العالم الدنيوي والمصير إلى العالم الأخروي قال تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] وقال : ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ [الواقعة : 4] وتأنيث ﴿ الراجفة ﴾ لأنها الأرض ، وحينئذ فمعنى ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ أن رجفة أخرى تتبع الرجفة السابقة لأن صفة ﴿ الراجفة ﴾ تقتضي وقوع رجفة ، فالرادفة رجفة ثانية تتبع الرجفة الأولى .

ويجوز أن يكون إسناد ﴿ ترجف ﴾ إلى ﴿ الراجفة ﴾ مجازاً عقلياً ، أطلق ﴿ الراجفة ﴾ على سبب الرجف .

فالمراد بـ ﴿ الراجفة ﴾ الصيحة والزلزلة التي ترجف الأرض بسببها جعلت هي الراجفة مبالغة كقولهم : عيشة راضية ، وهذا هو المناسب لقوله : ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ أي تتبع تلك الراجفة ، أي مسبّبة الرجف رادفة ، أي واقعة بعدها .

ويجوز أن يكون الرجف مستعاراً لشدة الصوت فشبه الصوت الشديد بالرجف وهو التزلزل .

وتأنيث ﴿ الراجفة ﴾ على هذا لتأويلها بالواقعة أو الحادثة .

و ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ : التالية ، يقال : ردف بمعنى تبع ، والرديف : التابع لغيره ، قال تعالى : ﴿ أني معدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ [الأنفال : 9] ، أي تتبع الرجفة الأولى ، ثانية ، فالمراد : رادفة من جنسها وهما النفختان اللتان في قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] .

وجملة ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ حال من ﴿ الراجفة ﴾ .

وتنكير ﴿ قلوب ﴾ للتكثير ، أي قلوب كثيرة ولذلك وقع مبتدأ وهو نكرة لإرادة النوعية .

والمراد : قلوب المشركين الذين كانوا يجحدون البعث فإنهم إذا قاموا فعلموا أن ما وعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم به حق توقّعوا ما كان يحذرهم منه من عقاب إنكار البعث والشرك وغير ذلك من أحوالهم .

فأما قلوب المؤمنين فإن فيها اطمئناناً متفاوتاً بحسب تفاوتهم في التقوى .

والخوف يومئذ وإن كان لا يخلو منه أحد إلا أن أشدّه خوف الذين يوقنون بسوء المصير ، ويعلمون أنهم كانوا ضالين في الحياة الدنيا .

والواجفة : المضطربة من الخوف ، يقال : وجف كضرف وجَفًّا ووجيفاً ووجوفاً ، إذا اضطرب .

و ﴿ واجفة ﴾ خبر ﴿ قلوب ﴾ .

وجملة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ خبر ثان عن ﴿ قلوب ﴾ وقد زاد المرادَ من الوجيف بياناً قولُه ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ ، أي أبصار أصحاب القلوب .

والخشوع حقيقته : الخضوع والتذلل ، وهو هيئة للإنسان ، ووصف الأبصار به مجاز في الانخفاض والنظرِ من طرْف خفي من شدة الهلع والخوف من فظيع ما تشاهده من سوء المعاملة قال تعالى : ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ في سورة اقتربت الساعة (7) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة ﴾ [القيامة : 24] .

وإضافة (أبصار) إلى ضمير القلوب لأدنى ملابسة لأن الأبصار لأصحاب القلوب وكلاهما من جوارح الأجساد مثل قوله : ﴿ إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : 46] .

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11)

استئناف إمَّا ابتدائيّ بعد جملة القَسَم وجوابه ، لإفادة أن هؤلاء هم الذين سيكونون أصحاب القلوب الواجفة والأبصار الخاشعة يوم ترجف الراجفة .

وإما استئناف بياني لأن القَسَم وما بعده من الوعيد يثير سؤالاً في نفس السامع عن الداعي لهذا القسم فأجيب بـ ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ ، أي منكرون البعث ، ولذلك سلك في حكاية هذا القول أسلوب الغيبة شأنَ المتحدّث عن غير حاضر .

وضمير ﴿ يقولون ﴾ عائد إلى معلوم من السياق وهم الذين شُهروا بهذه المقالة ولا يخفون على المطلع على أحوالهم ومخاطباتهم وهم المشركون في تكذيبهم بالبعث .

والمُساق إليه الكلام كل من يتأتى منه سماعه من المسلمين وغيرهم .

ويجوز أن يكون الكلام مسوقاً إلى منكري البعث على طريقة الالتفاف .

وحُكي مقالهم بصيغة المضارع لإِفادة أنهم مستمرون عليه وأنه متجدد فيهم لا يرعوون عنه .

وللإِشعار بما في المضارع من استحضار حالتهم بتكرير هذا القول ليكون ذلك كناية عن التعجيب من قولهم هذا كقوله تعالى : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] .

وقد علم السامع أنهم ما كرروا هذا القول إلا وقد قالوه فيما مضى .

(156/800)

وهذه المقالة صادرة منهم وهم في الدنيا فليس ضمير ﴿ يقولون ﴾ بعائد إلى ﴿ قلوب ﴾ من قوله تعالى : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ [النازعات : 8] .

وكانت عادتهم أن يلقوا الكلام الذي ينكرون فيه البعث بأسلوب الاستفهام إظهاراً لأنفسهم في مظهر المتردد السائل لقصد التهكم والتعجب من الأمر المستفهم عنه .

والمقصود : التكذيب لزعمهم أن حجة استحالة البعث ناهضة .

وجُعل الاستفهام التعجيبي داخلاً على جملة اسمية مؤكدة بـ (إنَّ) وبلام الابتداء وتلك ثلاثة مؤكدات مقوية للخبر لإِفادة أنهم أتوا بما يُفيد التعجب من الخبر ومن شدة يقين

المسلمين به ، فهم يتعجبون من تصديق هذا الخبر فضلاً عن تحقيقه والإِيقان به .

والمَردُود : الشيء المرجَّع إلى صاحبه بعد الانتفاع به مثل العارية ورَدِّ ثمن المبيع عند التفاسخ أو التقابل ، أي لَمُرْجَعون إلى الحياة ، أي إنا لمبعوثون من قبورنا .

والمراد بـ ﴿ الحافرة ﴾ : الحالة القديمة ، يعني الحياة .

وإطلاقات ﴿ الحافرة ﴾ كثيرة في كلام العرب لا تتميز الحقيقة منها عن المجاز ، والأظهر ما في "الكشاف" : يقال رجَع فلان إلى حافرته ، أي في طريقه التي جاء فيها فحَفَرها ، أي أثّر فيها بمشْيه فيها جعل أثر قدميه حفراً أي لأن قدميه جعلتا فيها أثراً مثل الحفر ، وأشار إلى أن وصف الطريق بأنها حافرة على معنى ذات حفر ، وجُوز أن يكون على المجاز العقلي كقولهم : عيشة راضية ، أي راض عائشُها ، ويقولون : رجع إلى الحافرة ، تمثيلاً لمن كان في حالة ففارقها ، ثم رجع إليها فصار : رَجَعَ في الحافرة ، ورُدّ إلى الحافرة ، جارياً مجرى المثل .

ومنه قول الشاعر وهو عمران بن حطّان حسبما ظن ابن السيّد البطليوسي في شرح "أدب الكتاب

" :

أحافرةً على صَلَعٍ وشَيْب

مَعَاذ اللّهِ مِن سَفَهٍ وعار . . .

ومن الأمثال قولهم : "النقد عند الحافرة" ، أي إعطاء سبق الرهان للسابق عند وصوله

إلى الأمد المعين للرّهان .

يريد : أرجوعا إلى الحافرة .

(157/800)

وظرف (إذا) في قوله : ﴿ إذا كنّا عظاماً نخرة ﴾ هو مناط التعجب وادعاءُ الاستحالة ، أي إذا صرنا عظاماً بالية فكيف نرجع أحياء .

و ﴿ إذا ﴾ متعلق بـ ﴿ مردودون ﴾ .

و ﴿ نخرة ﴾ صفة مشتقة من قولهم : نَخِر العَظْم ، إذا بَلِي فصار فارغ الوسط كالقصبة .

وتأنيث ﴿ نخرة ﴾ لأن موصوفه جمع تكسير ، فوصفه يجري على التأنيث في الاستعمال .

هي همزة (إذا) .

وقرأ بقية العشرة ﴿ أإذا بهمزتين إحداهما مفتوحة همزة الاستفهام والثانية مكسورة هي همزة (إذا) .

وهذا الاستفهام إنكاري مؤكد للاستفهام الأول للدلالة على أن هذه الحالة جديرة بزيادة إنكار الإِرجاع إلى الحياة بعد الموت ، فهما إنكاران لإِظهار شدة إحالته .

وقرأ الجمهور نخرة ﴾ بدون ألف بعد النون .

وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب وخلف ﴿ ناخرة بالألف .

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12)

﴿ قالوا ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ [النازعات : 10] .

وأعيد فعل القول لمقاصد منها الدلالة على أن قولهم هذا في غرض آخر غير القول الأول فالقول الأول قصدهم منه الإِنكار والإِبطال ، والقول الثاني قصدوا منه الاستهزاء والتورك لأنهم لا يؤمنون بتلك الكرة فوصفهم إيّاها بـ ﴿ خاسرة ﴾ من باب الفرض و التقدير ، أي لو حصلت كرّة لكانت خاسرة ومنها دفع توهم أن تكون جملة ﴿ تلك إذن كرة خاسرة ﴾ استئنافاً من جانب الله تعالى .

وعبر عن قولهم هذا بصيغة الماضي دون المضارع على عكس ﴿ يقولون أئنا لمرددون في الحافرة ﴾ [النازعات : 10] لأن هذه المقالة قالوها استهزاء فليست مما يتكرر منهم بخلاف قولهم : ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة فإنه حجة ناهضة في زعمهم ، فهذا مما يتكرر منهم في كل مقام .

وبذلك لم يكن المقصود التعجِيبَ من قولهم هذا لأن التعجيب يقتضي الإِنكار وكون كُرَّتهم ، أي عودتهم إلى الحياة عودةً خاسرة أمر محقق لا ينكر لأنهم يعودون إلى الحياة خاسرين لا محالة .

وتلك ﴾ إشارة إلى الرَّدة المستفادة من ﴿ مردودون ﴾ والإِشارة إليه باسم الإِشارة للمؤنث للإِخبار عنه بـ ﴿ كرة ﴾ .

و(إذَنْ) جواب للكلام المتقدم ، والتقدير : إذن تلك كرة خاسرة ، فقدم ﴿ تلك ﴾ على حرف الجواب للعناية بالإِشارة .

والكرة : الواحدة من الكرّ ، وهو الرجوع بعد الذهاب ، أي رجْعة .

والخسران : أصله نقص مال التجارة التي هي لطلب الربح ، أي زيادة المال فاستعير هنا لمصادفة المكروه غير المتوقع .

ووصف الكرّة بالخاسرة مجاز عقلي للمبالغة لأن الخاسر أصحابها .

والمعنى : إنا إذن خاسرون لتكذيبنا وتبيُّن صدق الذي أنذرنا بتلك الرجعة .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

الفاء فصيحة للتفريع على ما يفيدهُ قولهم ﴿ أإنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاماً نخرة ﴾ [النازعات : 9 ، 10] من إحالتهم الحياة بعد البِلى والفناء .

فتقدير الكلام : لا عجب في ذلك فما هي إلا زجرة واحدة فإذا أنتم حاضرون في الحشر .

وضمير (هي) ضمير القصة وهو ضمير الشأن .

واختير الضمير المؤنث ليحسن عوده إلى زجرة .

وهذا من أحسن استعمالات ضمير الشأن .

والقصر حقيقي مراد منه تأكيد الخبر بتنزيل السامع منزلة من يعتقد أن زجرة واحدة غير كافية في إحيائهم .

وفاء ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ للتفريع على جملة ﴿ إنما هي زجرة واحدة ﴾ .

و(إذا) للمفاجأة ، أي الحصول دون تأخير فحصل تأكيد معنى التفريع الذي أفادته الفاء وذلك يفيد عدم الترتب بين الزجرة والحصول في الساهرة .

(159/800)

والزَّجرة : المرَّة من الزجر ، وهو الكلام الذي فيه أمر أو نهي في حالة غضب ، يقال : زجر البعير ، إذا صاح له لينهض أو يسير ، وعبر بها هنا عن أمر الله بتكوين أجساد الناس الأموات تصويراً لما فيه من معنى التسخير لتعجيل التكوُّن .

وفيه مناسبة لإحياء ما كان هامداً كما يُبعث البعير البارك بزجرة ينهض بها سريعاً خوفاً

من زاجره .

وقد عبر عن ذلك بالصيحة في قوله تعالى : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ [ق : 42] وهو الذي عبَّر عنه بالنفخ في الصُّور .

ووصفت الزجرة بواحدة تأكيداً لما في صيغة المرة من معنى الوحدة لئلا يتوهم أن إفراده للنوعية ، وهذه الزجرة هي النفخة الثانية التي في قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] فهي ثانية للتي قبلها ، وهي ﴿ الرادفة التي تقدم ذكرها آنفاً وإنما أريد بكونها واحدة أنها لا تُتبع بثانيةٍ لها ، وقد وصفت بواحدة في صورة الحاقة بهذا الاعتبار .

والساهرة : الأرض المستوية البيضاء التي لا نبات فيها يُختار مثلُها لاجتماع الجموع ووضْعِ المغانم .

وأريد بها أرض يجعلها الله لجمع الناس للحشر .

والإتيان بـ (إذا) الفجائية للدلالة على سرعة حضورهم بهذا المكان عقب البعث .

وعطفها بالفاء لتحقيق ذلك المعنى الذي أفادته (إذا) لأن الجمع بين المفاجأة والتفريع أشد ما يعبر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ .

والمعنى : أن الله يأمر بأمر التكوين بخلق أجسادٍ تحلّ فيها الأرواح التي كانت في الدنيا

فتحضر في موقف الحشر للحساب بسرعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(160/800)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السبق)

سبقه يَسْبِقه ويسبُقه : تقدّمه فى السّير .

وقوله تعالى : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ يعنى الملائكة تسبق الجِنّ باستماع الوحى .

والاستباق والتسابق بمعنى .

ثمّ يتجوّز به فى غيره من التَّقدّم ، قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَى نَفَذت وتقدّمت .

ويستعار السّبْق لإحراز الفضل ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ أَى المتقدّمون إلى رُتبهم ، ثواب الله تعالى وجَنَّته ، بالأَعمال الصّالحة ؛ نحو قوله : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أَى لا يفوتوننا .

وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ﴾ تنبيه أَنَّهم لا يفوتونه .

وفى الصَّحيح : "سِيرُوا ، سَبَق المفرِّدون .

قيل : مَن هم يا رسولَ الله ؟ قال : الَّذِينَ اهتزُّوا بذكر الله عَزَّ وجلّ" .

وقيل ورد السّبق فى القرآن على ستَّة أَوجه :

الأَول : بمعنى الوجوب : ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴾ أَى وجبت .

الثَّانى : بمعنى الاصطياد : ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أَى نصطاد .

الثالث : بمعنى التقدّم على عزم الهروب : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ .

الرابع : بمعنى الفَوْت : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أَى يفوتونا .

الخامس : بمعنى إِيصال ملائكة الرّحمة أَرواح المؤمنين إِلى الجنَّة ، وملائكةِ العذاب أَرواح الكافرين إِلى جهنَّم : ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ .

السّادس : سَبْق المؤمنين إِلى الجنَّة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ .

السابع : سَبْق العجز والإِهانة : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

الثامن : سَبْق التوحيد والشهادة : ﴿ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ .

التَّاسع : سبق الخير والطَّاعة : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .

العاشر : سَبْق العفو والمغفرة : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

الحادى عشر : سبق الجهاد والهجرة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ .

الثانى عشر : سبق الفضل والعناية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 182.184 ﴾

(162/800)

قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع القبط أشبه شيء بالقيامة لما حصل فيها من التقلبات والتغيرات وإيجاد المعدومات من الجراد والقمل والضفادع على تلك الهيئات الخارجة عن العادات في أسرع وقت .

(163/800)

وقهر الجبابرة والمن على الضعفاء حتى كان آخر ذلك أن حشر بني إسرائيل فنشطهم من القبط نشطاً رقيقاً كلهم وجميع ما لهم مع دوابهم إلى ربهم وحشر جميع القبط وراءهم فنزعهم نزعاً كلهم بحشر فرعون لهم بأصوات المنادين عنه في أسرع وقت وأيسر أمر إلى هلاكهم كما يحشر الأموات بعد إحيائهم بالصيحة إلى الساهرة ، ثم كانت العاقبة في الطائفتين بما للمدبرات أمراً أن نجا بنو إسرائيل بالبحر كما ينجو يوم البعث المؤمنون بالصراط ، وهلك فرعون وآله به كما يتساقط الكافرون بالصراط ، وذلك أنه رأى فرعون وجنوده البحر قد انفلق لبني إسرائيل فلم يعتبروا بذلك ثم دخلوا فيه وراءهم ، ولم يجوزوا أن الذي حسره عن مكانه قادر على أن يعيده كما ابتدأه فيغرقهم واستمروا في عماهم حتى رده الله فأغرقهم به كما أن من يكذب بالقيامة رأى بدء الله له ولغيره وإفناءه بعد إبدائه ثم إنه لم يجز أن يعيده كما بدأه أول مرة ، وصل بذلك قوله تعالى جواباً لمن يقول : هل

لذلك من دليل ؟ مخاطباً لأشرف الخلق إشارة إلى أنه لا يعتبر هذا حق اعتباره إلا أنت ، مستفهماً عن الإتيان للتنبيه والحث على جمع النفس على التأمل والتدبر والاعتبار مقرراً ومسلياً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومهدداً للمكذبين أن يكون حالهم – وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم – حكال فرعون في هذا ، وقد كان أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنود وقوتهم وسحرهم ومرودهم في خداعهم ومكرهم ورأى من الآيات ما لم يره أحد قبله ، فلما أصر على التكذيب ولم يرجع ولا أفاده التأديب أغرقه الله وآله فلم يبق منهم أحداً وقد كانوا لا يحصون عدداً بحيث إنه قيل : إن طليعته كانت على عدد بني إسرائيل ستمائة ألف : ﴿ هل أتاك ﴾ أي يا أعلم الخلق ﴿ حديث موسى ﴾ أي ما كان من أمره الذي جددناه له حين أردناه فيكون كافياً لك في التسلية ولقومك في الحث على التصديق والتنبيه على الاعتبار والتهديد على التكذيب والإصرار ﴿ إذ ﴾ أي

حين ﴿ ناداه ربه ﴾ أي المحسن إليه بإيجاده وتقريبه وتدبيره أمر إرساله وتقديره ﴿ بالواد المقدس ﴾ أي المطهر غاية التطهر بتشريف الله له بإنزال النبوة المفيضة للبركات ، ثم بينه بقوله : ﴿ طوى ﴾ وهو الذي طوى فيه الشر عن بني إسرائيل ومن أراد الله من خلقه ونشر

بركات النبوة على جميع أهل الأرض المسلم بإسلامه ، وغيره برفع عذاب الاستئصال عنه ، فإن العلماء قالوا : إن عذاب القبر - أي عذاب الاستئصال - ارتفع حين أنزلت التوراة .

وهو واد بالطور بين أيلة ومصر .

ولما ذكر المناداة فسر ثمرتها بقوله مستأنفاً منبهاً لأصحاب الشهوة المعجبين المتكبرين ، وقد أرشد السياق إلى أن التقدير ، ناداه قائلاً : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ أي ملك مصر الذي كان استعبد بني إسرائيل ثم خوّف من واحد منهم فصار يذبح أبناءهم خوفاً منه وهو أنت فربيناك في بيته لهلاكه حتى يعلم أنه لا مفر من قدرنا ، فكنت أعز بني إسرائيل ، وكان سبب هلاكه معه في بيته بمرأىً منه ومسمع وهو لا يشعر بذلك ثم قتلت منهم نفساً وخرجت من بلدهم خائفاً تترقب .

(165/800)

ولما أمره بالذهاب إليه ، علله بما يستلزم إهلاكه على يده عليه الصلاة والسلام إشارة له بالبشارة بأنه لا سبيل له عليه ، ولذلك أكده لأن مثل ذلك أمر يقتضي طبع البشر التوقف فيه فقال : ﴿ إنه طغى ﴾ أي الحد وتجاوز الحد فاستحق المقابلة بالجد ، ثم سبب عن الذهاب إليه قوله ﴿ فقل ﴾ أي له تفصيلاً لبعض ما تقدم في " طه " من لين القول ولطف

الاستدعاء في الخطاب : ﴿ هل لك ﴾ أي ميل وحاجة ﴿ إلى أن تزكّى ﴾ أي تتحلى بالفضائل ، وتتطهر من الرذائل ، ولو بأدنى أنواع التزكي : الطهارة الظاهرة والباطنة الموجبة للنماء والكثرة ، وإفهام الأدنى بما يشير إليه إسقاط تاء التفعل المقتضي للتخفيف ، وذلك بالإذعان المقتضي للإيمان وإرسال بني إسرائيل ، وقرأ الحجازيان ويعقوب بالتشديد أي تزكية بليغة لأن من دخل في التزكي على يد كامل لا سيما بني من أولي العزم أوشك أن يبلغ الغاية في الزكاء .

ولما أشار له الطهارة عن الشرك ، أتبعها الأعمال فقال : ﴿ وأهديك ﴾ أي أبين لك بعد التزكية بالإيمان الذي هو الأساس : كيف المسير ﴿ إلى ربك ﴾ أي الموجد لك والمحسن إليك والمربي لك بتعريفك ما يرضيه من الأعمال وما يغضبه من الخصال بعد أن بلغك في الدنيا غاية الآمال ﴿ فتخشى ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أنك تصير تعمل أعمال من يخاف من عذابه خوفاً عظيماً ، فتؤدي الواجبات وتترك المحرمات وسائر المنهيات ، فتصير إلى أعلى رتب التزكية فتجمع ملك الآخرة إلى ملك الدنيا ، فإن الخشية هي الحاملة على كل خير ، والآمن هو الحامل على الشر .

(166/800)

ولما كان التقدير : فذهب إليه كما أمره الله تعالى ، فقال له ذلك فطلب الدليل على صحة الرسالة واستبعد أن يختص عنه بهذه المنزلة العلية وقد رباه وليداً ﴿ فأراه ﴾ أي فتسبب عن طلبه له أنه دل على صدقه بأنه أراه ﴿ الآية ﴾ أي العلامة الدالة على ذلك ﴿ الكبرى ﴾ وهي قلب العصا حية أو جميع معجزاته ﴿ فكذب ﴾ أي فتسبب عن رؤية ذلك أنه أوقع التكذيب بشيء إنما يقتضي عند رؤيته التصديق ﴿ وعصى ﴾ أي أوقع العصيان ، وهو الإباء الكبير والتكبر عن امتثال ما دعي إليه مجموعاً إلى التكذيب بعد إقامة الدليل على الصدق وتحقق الأمر .

ولما كان التمادي على التكذيب ممن رأى وعرف الحق ولا سيما إذا كان كبيراً مستبعداً جداً ، أشار إليه بأداة التراخي مع دلالتها على حقيقة التراخي أيضاً فقال : ﴿ ثم أدبر ﴾ أي فرعون بعد المهلة والأناة إدباراً عظيماً بالتمادي على أعظم مما كان فيه من الطغيان بعد خطوب جليلة ومشاهد طويلة .

(167/800)

حال كونه ﴿ يسعى ﴾ أي يعمل بغاية جهده عمل من هو مسرع غاية الإسراع في إبطال الأمر الرباني بقلة عقله وفساد رأيه وأبى أن يقبل الحق ﴿ فحشر ﴾ أي فتسبب عن إدباره

ساعياً وتعقبه أنه جمع السحرة طوعاً وكرهاً وزاد عليهم أيضاً جنوده ﴿ فنادى ﴾ أي في الجامع ﴿ فقال ﴾ أي مناديه الذي لا يشك أنه عنه ، فكان قوله كقوله : ﴿ أنا ﴾ وقال حمزة الكرماني : قال له موسى عليه السلام : إن ربي أرسلني إليك ، لئن آمنت بربك تكون أربعمائة سنة في السرور والنعيم ، ثم تموت فتدخل الجنة ، فقال : حتى أستشير هامان ، فاستشاره فقال : أتصير عبداً بعد ما كنت رباً تعبد ، فعند ذلك بعث الشرط وجمع السحرة والجنود ، فلما اجتمعوا قام عدو الله على سريره فقال : أنا ﴿ ربكم الأعلى ﴾ فكان هذا نداؤه يعني كلكم أرباب بعضكم فوق بعض وأنا أعلاكم ، ولا رب فوقي أصلاً ، وذلك لأن الإله عنده الطبيعة ، وهي مقسمة في الموجودات ، فهم كلهم أرباب ، ومن كان أعلى كان أقعد في المراد ، وهو كان أعلى منهم فقبحه الله ولعنه ولعن من تمذهب بمذهبه كابن عربي وابن الفارض وأتباعهما حيث أنكروا المختار الملك القهار ، ورسوله المصطفى المختار ، وتبعوا في وحدة الوجود بعض الفلاسفة ثم الحلاج بعد فرعون هذا الذي لم يصرح الله بذم أحد ما صرح بذمه ، ولم يصرح بشقاء أحد ما صرح بشقائه ، كهذه الآية فإنها مصرحة بوقوع نكاله في الآخرة كما وقع في الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم المقبوحين ﴾

[القصص : 40 – 42] إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلائل الواضحات التي لا تحصى وهي كثيرة ، وأعظمها القياس البديهي الإنتاج ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ [يونس : 83] ﴿ وإن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ [غافر : 43] ويروى أن إبليس لما سمع منه قوله هذا قال : إني تجبرت على آدم فلقيت ما لقيت ، وهذا يقول هذا ؟ وهذا دعاه إليه الكبر الناشىء من فتنة السراء التي الصبر فيها أعظم من الصبر في الضراء ، قال الإمام الغزالي في كتاب الصبر من الإحياء : فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استحف فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان ممتنعاً من إظهاره ، فإن امتعاضه وغيظه عند تقصيرهم في خدمته لا يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء – انتهى .

ويؤيده أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لام خادمه في شيء قط – والله تعالى هو الموفق للصواب .

ولما أخبر سبحانه عنه بهذه الكلمة الشنعاء القادحة في الملك ، وكان الملوك لا يحتملون ذلك بوجه ، سبب عنها وعقب قوله : ﴿ فأخذه الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ولا أمر لأحد معه أخذ قهر وذل منكلاً به مخذلاً له : ﴿ نكال الآخرة ﴾ فهو مصدر من المعنى ، أي أخذ تنكيل فيها يكون مثلاً يتقيد به ويتعظ كل من سمعه عن مثل حال فرعون ، وقدمها اهتماماً بشأنها وإشارة إلى أن عظمة عذابها أعظم ولا يذوقه الإنسان إلا بكشف غطاء الدنيا بالموت ، وتنبيهاً على أن المنع من مثل هذه الدعوى للصدق بها أمكن ، وليس ذلك للفاصلة لأنه لو قيل : " الأخرى " لوافقت ﴿ والأولى ﴾ أي ونكال الدنيا الذي هو قبل الآخرة فإن من سمع قصة غرقه ومجموع ما اتفق له كان له ذلك نكالاً مانعاً من عمل مثله أو أقل منه ، قال الضحاك : أما في الدنيا فأغرقه الله تعالى وألقاه بنجوة من الأرض ، أما في العقبى فيدخله الله تعالى النار ويجعله ظاهراً على تل منها مغلولاً مقيداً ينادي عليه هذا الذي ادعى الربوبية دون الله انتهى .

وأنا لا أشك أن الحلاج وابن عربي وابن الفارض ، وأتباعهم يكونون في النار تحتهم وتحت آله يشربون عصارتهم ، فإنهم ادعوا أنه ناج وصدقوه فيما ادعاه وادعوا لأنفسهم وغيرهم

مثل ما ادعاه تكذيباً للقرآن وإغراقاً في العدوان ، وزادوا عليه بابتذال الاسم الأعظم الذي حماه الله من أن يدعيه أحد قبل إرسال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فادعوا أنه يطلق عليهم وعلى كل أحد بل كل شيء ، وأمارة هذه الطائفة الخبيثة التي لا تتخلف أن تقول لأحدهم : العن فرعون الذي أجمع على لعنه جميع الطوائف .

وهو مثل عندهم في الشرارة والخبث فلا يلعنه ، وإن لعنه فبعد توقف .

(170/800)

ولما لخص سبحانه وتعالى ما مضى من قصصه في هذه الكلمات اليسيرة أحسن تلخيص وأقربه مع عدم المخالفة لشيء مما مضى لأن المفصل موضع الاختصار أما باعتبار النزول فإنه نزل أولاً فكان تقريب القصص للناس بالاقتصار على ما لا بد منه أولى ليستأنسوا به ، وأما من جهة الترتيب فلتذكيرهم بما مضى ليجتمع في المخيّلة في أقرب وقت ويتذكر به ذلك المبسوط ، وختمه بأخذه هذا الأخذ الغريب أرشد إلى ما في القصة من العبرة ، مشيراً إلى استحضار ما مضى كله ، فقال مؤكداً مقرراً للمكذب ومنبهاً للمصدق : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي فعله والذي فعل به ﴿ لعبرة ﴾ أي أمراً عظيماً يتعمد الاعتبار به من معنى إلى معنى حتى يقع به الوصول إلى كثير من المعارف ﴿ لمن يخشى ﴾ أي من شأنه

الخوف العظيم من الله لأن الخشية – كما تقدم – هي أساس الخير ، فأول العبور أن ينقل السامع حال غيره إليه فيتذكر بإنجاء بني إسرائيل على ضعفهم منهم على قوتهم ثم بقوة ما حصل لهم من القهر من ذلك حتى أوجب اتباعهم بالجنود ثم بفرق البحر ثم بإيرادهم إياه ثم بإغراقهم فيه كلمح البصر لم يخرج منهم مخبر قدرة الله تعالى على إيراد الكفار النار وقهر كل جبار وبجعل العصا حية وإخراج القمل والضفادع من الأرض وتحويل الماء دماً قدرته سبحانه وتعالى على ذلك السامع بالعذاب وغيره وعلى خصوص البعث – إلى غير ذلك من العبر وواضح الأثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 313.317 ﴾

(171/800)

فصل

قال الفخر :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين : الأول : أنه تعالى حكى عن

الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ [النازعات : 12] وكان ذلك يشق على محمد صلى الله عليه وسلم فذكر قصة موسى عليه السلام ، وبين أنه تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم الثاني : أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعاً وأشد شوكة ، فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فكذلك هؤلاء المشركون في تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالاً .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ هَل أَتَاكَ ﴾ يحتمل أن يكون معناه أليس قد ﴿ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ هذا إن كان قد أتاه ذلك قبل هذا الكلام ، أما إن لم يكن قد أتاه فقد يجوز أن يقال : ﴿ هَل أُتِيَ كَ ﴾ كذا ، أم أنا أخبرك به فإن فيه عبرة لمن يخشى .

المسألة الثالثة :

الوادي المقدس المبارك المطهر ، وفي قوله : ﴿ طُوًى ﴾ وجوه : أحدها : أنه اسم وادي بالشام وهو عند الطور الذي أقسم الله به في قوله : ﴿ والطور * وكتاب مَّسْطُورٍ ﴾ [الطور : 12] وقوله : ﴿ وناديناه مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] والثاني : أنه بمعنى يا رجل بالعبرانية ، فكأنه قال : يا رجل اذهب إلى فرعون ، وهو قول ابن عباس والثالث : أن يكون قوله : ﴿ طُوًى ﴾ أي ناداه ﴿ طُوًى ﴾ من الليلة ﴿ اذهب إلى

فِرْعَوْنَ ﴾ لأنك تقول جئتك بعد ﴿ طُوًى ﴾ أي بعد ساعة من الليل والرابع : أن يكون المعنى بالوادي المقدس الذي طوى أي بورك فيه مرتين .

المسألة الرابعة :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ طُوًى ﴾ بضم الطاء غير منون ، وقرأ الباقون بضم الطاء منوناً ، وروي عن أبي عمرو .

(172/800)

طوى بكسر الطاء ، وطوى مثل ثنى ، وهما اسمان للشيء المثنى ، والطي بمعنى الثني ، أي ثنيت في البركة والتقديس ، قال القراء : ﴿ طُوًى ﴾ واد بين المدينة ومصر ، فمن صرفه قال : هو ذكر سمينا به ذكراً ، ومن لم يصرفه جعله معدولاً عن جهته كعمر وزفر ، ثم قال : والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيراً ، أي لم أجد اسماً من الواو والياء عدل عن فاعلة إلى فعل غير ﴿ طُوًى ﴾ .

المسألة الخامسة :

تقدير الآية : إذ ناداه ربه وقال اذهب إلى فرعون ، وفي قراءة عبد الله أن اذهب ، لأن في النداء معنى القول .

وأما أن ذلك النداء كان بإسماع الكلام القديم ، أو بإسماع الحرف والصوت ، وإن كان على هذا الوجه فكيف عرف موسى أنه كلام الله .

فكل ذلك قد تقدم في سورة طه .

المسألة السادسة :

أن سائر الآيات تدل على أنه تعالى في أول ما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة ، كقوله في سورة طه : ﴿ نُودِيَ يا موسى إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءايا تنا الكبرى * اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 23 24] فدل ذلك على أن قوله ههنا : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ من جملة ما ناداه به ربه ، لا أنه كل ما ناداه به ، وأيضاً ليس الغرض أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى فرعون فقط ، بل إلى كل من كان في ذلك الطرف ، إلا أنه خصه بالذكر ، لأن دعوته جارية مجرى دعوة كل ذلك القوم .

المسألة السابعة :

الطغيان مجاوزة الحد ، ثم إنه تعالى لم يبين أنه تعدى في أي شيء ، فلهذا قال بعض المفسرين : معناه أنه تكبر على الله وكفر به ، وقال آخرون : إنه طغى على بني إسرائيل ، والأولى عندي الجمع بين الأمرين ، فالمعنى أنه طغى على الخالق بأن كفر به ، وطغى على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم ، وكما أن كمال العبودية ليس إلا صدق المعاملة مع الخالق ومع الخلق ، فكذا كمال الطغيان ليس إلا الجمع بين سوء المعاملة مع الخالق ومع الخلق .

واعلم أنه تعالى لما بعثه إلى فرعون لقنه كلامين ليخاطبه بهما : فالأول : قوله تعالى :

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

يقال هل لك في كذا ، وهل لك إلى كذا ، كما تقول : هل ترغب فيه ، وهل ترغب إليه ، قال الواحدي : المبتدأ محذوف في اللفظ مراد في المعنى ، والتقدير : هل لك إلى تزكى حاجة أو إربه ، قال الشاعر :

فهل لكم فيها إلي فإنني . . بصير بما أعيا النطاسي حذيما

ويحتمل أن يكون التقدير : هل لك سبيل إلى أن تزكى .

المسألة الثانية :

الزكي الطاهر من العيوب كلها ، قال : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [الكهف : 74] وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9] وهذه الكلمة جامعة لكل ما يدعوه إليه ، لأن المراد هل لك إلى أن تفعل ما تصير به زاكياً عن كل مالا ينبغي ، وذلك بجمع كل ما يتصل

بالتوحيد والشرائع .

المسألة الثالثة :

فيه قراءتان : التشديد على إدغام تاء التفعل في الزاي لتقاربهما والتخفيف .

المسألة الرابعة :

المعتزلة تمسكوا به في إبطال كون الله تعالى خالقاً لفعل العبد بهذه الآية ، فإن هذا استفهام على سبيل التقرير ، أي لك سبيل إلى أن تزكى ، ولو كان ذلك بفعل الله تعالى لانقلب الكلام على موسى ، والجواب عن أمثاله تقدم .

المسألة الخامسة :

أنه لما قال لهما : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : 44] فكأنه تعالى رتب لهما ذلك الكلام اللين الرقيق ، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوة إلى الله من اللين والرفق وترك الغلظة ، ولهذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] ويدل على أن الذين يخاشنون الناس ويبالغون في التعصب ، كأنهم على ضد ما أمر الله به أنبياءه ورسله .

وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

القائلون بأن معرفة الله لا تستفاد إلا من الهادي تمسكوا بهذه الآية ، وقالوا : إنها صريحة في أنه يهديه إلى معرفة الله ، ثم قالوا : ومما يدل على أن هذا هو المقصود الأعظم من بعثة الرسل ؛ أمران الأول : أن قوله : ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ يتناول جميع الأمور التي لا بد للمبعوث إليه منها ، فيدخل فيه هذه الهداية فلما أعاده بعد ذلك علم أنه هو المقصود الأعظم من البعثة والثاني : أن موسى ختم كلامه عليه ، وذلك ينبه أيضاً على أنه أشرف المقاصد من البعثة والجواب : أنا لا نمنع أن يكون للتنبيه والإشارة معونة في الكشف عن الحق إنما النزاع في إنكم تقولون : يستحيل حصوله إلا من المعلم ونحن لا نحل ذلك .

المسألة الثانية :

دلت الآية على أن معرفة الله مقدمة على طاعته ، لأنه ذكر الهداية وجعل الخشية مؤخرة عنها ومفرعة عليها ، ونظيره قوله تعالى في أول النحل : ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : 2] وفي طه : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدْنِي ﴾ [طه : 14] .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] أي العلماء به ، ودلت الآية على أن الخشية ملاك الخيرات ، لأن من خشى الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شر ، ومنه قوله عليه السلام " من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل " .

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الفاء في ﴿ فَأَرَاهُ ﴾ معطوف على محذوف معلوم ، يعني فذهب فأراه ، كقوله : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانفجرت ﴾ [البقرة : 60] أي فضرب فانفجرت .

المسألة الثانية :

اختلفوا في الآية الكبرى على ثلاثة أقوال : الأول : قال مقاتل والكلبي : هي اليد ، لقوله في النمل : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [النمل : 12] آية أخرى ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءاياتنا الكبرى ﴾ [طه : 23] القول الثاني : قال عطاء : هي العصا ، لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونه إلى لون آخر ، وهذا المعنى كان حاصلاً في العصا ، لأنها

لما انقلبت حية فلا بد وأن يكون قد تغير اللون الأول ، فإذاً كل ما في اليد فهو حاصل في العصا ، ثم حصل في العصا أمور أخرى أزيد من ذلك ، منها حصول الحياة في الجرم الجمادي ، ومنها تزايد أجزائه وأجسامه ، ومنها حصول القدرة الكبيرة والقوة الشديدة ، ومنها أنها كانت ابتلعت أشياء كثيرة وكأنها فنيت ، ومنها زوال الحياة والقدرة عنها ، وفناء تلك الأجزاء التي حصل عظمها ، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين بهما صارت العصا حية ، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزاً مستقلاً في نفسه ، فعلمنا أن الآية الكبرى هي العصا والقول الثالث : في هذه المسألة قول مجاهد : وهو أن المراد من الآية الكبرى مجموع اليد والعصا ، وذلك لأن سائر الآيات دلت على أن أول ما أظهر موسى عليه السلام لفرعون هو العصا ، ثم أتبعه باليد ، فوجب أن يكون المراد من الآية الكبرى مجموعهما .

أحدها : قوله تعالى :

فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

معنى قوله : ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ أنه كذب بدلالة ذلك المعجز على صدقه .

واعلم أن القدح في دلالة المعجزة على الصدق إما لاعتقاد أنه يمكن معارضته ، أو لأنه وإن امتنعت معارضته لكنه ليس فعلاً لله بل لغيره ، إما فعل جنى أو فعل ملك ، أو إن كان فعلاً لله تعالى لكنه ما فعله لغرض التصديق ، أو إن كان فعله لغرض التصديق لكنه لا يلزم صدق المدعي ، فإنه لا يقبح من الله شيء ألبتة ، فهذه مجامع الطعن في دلالة المعجز على الصدق ، وما بعد الآية يدل على أن فرعون إنما منع من دلالته عن الصدق لاعتقاده أنه يمكن معارضته بدليل قوله : ﴿ فَحَشَرَ فنادى ﴾ [النازعات : 23] وهو كقوله : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدائن حاشرين ﴾ [الشعراء : 53] .

المسألة الثانية :

في الآية سؤال وهو أن كل أحد يعلم أن كل من كذب الله فقد عصى ، فما الفائدة في قوله : ﴿ فَكَذَّبَ وعصى ﴾ ؟ والجواب : كذب بالقلب واللسان ، وعصى بأن أظهر التمرد والتجبر .

المسألة الثالثة :

هذا الذي وصفه الله تعالى به من التكذيب والمعصية مغاير لما كان حاصلاً قبل ذلك ، لأن تكذيبه لموسى عليها لسلام وقد دعاه وأظهر هذه المعجزة .

يوفى على ما تقدم من التكذيب ومعصيته بترك القبول منه ، والحال هذه مخالفة لمعصيته من

قبل ذلك .

ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22)

وثانيها : قوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى ﴾ وفيه وجوه أحدها : أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسعى يسرع في مشيه ، قال الحسن كان رجلاً طياشاً خفيفاً وثانيها : تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته وثالثها : أن يكون المعنى ، ثم أقبل يسعى ، كما يقال : فلان أقبل يفعل كذا ، بمعنى أنشأ يفعل ، فوضع أدبر فوضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال .

وثالثها : قوله :

فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

فحشر فجمع السحرة كقوله : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المدائن حاشرين ﴾ [الشعراء : 53] فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ، أو أمر منادياً فنادى في الناس بذلك ، وقيل قام فيهم خطيباً فقال تلك الكلمة ، وعن ابن عباس كلمته الأولى : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] والآخرة : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ .

واعلم أنا بينا في سورة (طه) أنه لا يجوز أن يعتقد الإنسان في نفسه كونه خالقاً للسموات

والأرض والجبال والنبات والحيوان والإنسان ، فإن العلم بفساد ذلك ضروري ، فمن تشكك فيه كان مجنوناً ، ولو كان مجنوناً لما جاز من الله بعثة الأنبياء والرسل إليه ، بل الرجل كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والنشر ، وكان يقول ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي إلا لي ، فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم ، وليس للعالم إله حتى يكون له عليكم أمر ونهي ، أو يبعث إليكم رسولاً ، قال القاضي : وقد كان الأليق به بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حية ، أن لا يقول هذا القول .

لأن عند ظهور الذلة والعجز ، كيف يليق أن يقول : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنه أفعاله وأقواله أتبعه بما عامله به وهو قوله تعالى :

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكروا في نصب نكال وجهين الأول : قال الزجاج : إنه مصدر مؤكد لأن معنى أخذه الله ، نكل الله به ، نكال الآخرة والأولى .

لأن أخذه ونكله متقاربان ، وهو كما يقال : أدعه تركاً شديداً لأن أدعه وأتركه سواء ، ونظيره قوله : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] ، الثاني : قال الفراء : يريد

أخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى ، والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم .

المسألة الثانية :

(178/800)

ذكر المفسرون في هذه الآية وجوهاً أحدها : أن الآخرة والأولى صفة لكلمتي فرعون إحداهما قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] والأخرى قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] قالوا : وكان بينهما أربعون سنة ، وهذا قول مجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل ، ورواية عطاء والكلبي عن ابن عباس ، والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى في الحال ، بل أمهله أربعين سنة ، فلما ذكر الثانية أخذ بهما ، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل الثاني : وهو قول الحسن وقتادة : ﴿ نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ أي عذبه في الآخرة ، وأغرقه في الدنيا الثالث : الآخرة هي قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية ، قال القفال : وهذا كأنه هو الأظهر ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَأَرَاهُ الاية الكبرى * فَكَذَّبَ وعصى * ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى * فَحَشَرَ فنادى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 20-24] فذكر المعصيتين ، ثم قال : ﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ فظهر أن المراد أنه عاتبه على

هذين الأمرين .

المسألة الثالثة :

قال الليث : (النكال) اسم لمن جعل نكالاً لغيره ، وهو الذي إذا رآه أو بلغه خاف أن يعمل عمله ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، وقيل للقيد نكل لأنه يمنع ، فالنكال من العقوبة هو أعظم حتى يمتنع من سمع به عن ارتكاب مثل ذلك الذنب الذي وقع التنكيل به ، وهو في العرف يقع على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره ، والله أعلم .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)

(179/800)

ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ والمعنى أن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون ، وما أحله الله بفرعون من الخزي ، ورزق موسى من العلو والنصر عبرة لمن يخشى وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى ، والتكذيب لأنبيائه خوفاً من أن ينزل به ما نزل بفرعون ، وعلماً بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه ، أي اعلموا أنكم إن شاركتموهم في المعنى الجالب

للعقاب ، شاركتموهم في حلول العقاب بكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 40.35 ﴾

(180/800)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالوادي المقدس طُوًى ﴾

أي قد جاءك وبلغك "حدِيث موسى" وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

أي إن فرعون كان أقوى من كفار عصرك ، ثم أخذناه ، وكذلك هؤلاء .

وقيل : "هل" بمعنى "ما" أي ما أتاك ، ولكن أُخبرت به ، فإن فيه عِبرةً لمن يخشَى .

وقد مضى من خبر موسى وفرعونَ في غير موضع ما فيه كفاية .

وفي "طُوًى" ثلاث قراءات : قرأ ابن محيصن وابن عامر والكوفيون "طُوى" منونا واختاره أبو عبيد لخفة الاسم .

الباقون بغير تنوين ؛ لأنه معدول مثل عُمر وقُثَم ؛ قال الفرّاء : طُوَى : واد بين المدينة ومصر .

قال : وهو معدول عن طاوٍ ، كما عدل عمر عن عامر .

وقرأ الحسن وعِكرمة "طِوَى" بكسر الطاء ، ورُوي عن أبي عمْرو ، على معنى المُقَدَّس

مرة بعد مرة؛ قاله الزَّجاج؛ وأنشد :

أَعَاذِلَ إنّ اللوم في غيرِ كنهِهِ . . .

عليَّ طِوَى مِن غَيِّكِ المتردّدِ

أي هو لوم مكرر عليّ .

وقيل : ضم الطاء وكسرها لغتان ، وقد مضى في "طه" القول فيه .

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ أي ناداه ربه ، فحذف ، لأن النداء قول ؛ فكأنه ؛ قال له ربه ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ أي جاوز القدر في العصيان .

ورُوي عن الحسن قال : كان فرعون عِلْجا من هَمْدان .

وعن مجاهد قال : كان من أهل إِصطَخر .

وعن الحسن أيضاً قال : من أهل أَصْبهان ، يقال له ذو ظفر ، طوله أربعة أشبار .

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ أي تسلِم فتطهرَ من الذنوب .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى ربِّكَ ﴾ أي وأُرشدك إلى طاعة ربك ﴿ فتخشى ﴾ أي تخافه وتتقيه .

وقرأ نافع وابن كثير "تَزَّكَّى" بتشديد الزاي ، على إدغام التاء في الزاي لأن أصلها تتزكى .

الباقون : "تَزَكَّى" بتخفيف الزاي على معنى طرح التاء .

وقال أبو عمرو : "تَزَّكَّى" بالتشديد تَتَصَدَّق ب الصدقة ، و "تَزَكّى" يكون زكياً مؤمناً .

وإنما دعا فرعون ليكون زكياً مؤمناً .

قال : فلهذا اخترنا التخفيف .

وقال صخر بن جُوَيْرية : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له : "اذهب إلى فِرعون" إلى قوله ﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ ولن يفعل ؛ فقال : يا رب ، وكيف أذهب إليه وقد علمتَ أنه لا يفعل ؟ فأوحى الله إليه أن امض إلى ما أمرتك به ، فإن في السماء اثني عشر ألف ملَك يطلبون علم القَدر ، فلم يبلغوه ولا يدركوه .

﴿ فَأَرَاهُ الآية الكبرى ﴾ أي العلامة العُظْمَى وهي المعجزة .

وقيل : العصا .

وقيل : اليد البيضاء تَبُرق كالشمس .

وروى الضحاك عن ابن عباس : الآية الكبرى قال العصا .

الحسن : يده وعصاه .

وقيل : فَلْق البحر .

وقيل : الآية : إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته .

﴿ فَكَذَّبَ ﴾ أي كذب نبيّ الله موسى ﴿ وعصى ﴾ أي عصى ربه عز وجل .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى ﴾ أي ولىَّ مدْبراً معرِضاً عن الإيمان "يسعَى" أي يعمل بالفساد في الأرض .

وقيل : يعمل في نكاية موسى .

وقيل : "أدبر يسعَى" هارباً من الحية .

﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي جمع أصحابه ليمنعوه منها .

وقيل : جمع جنوده للقتال والمحاربة ، والسَّحَرة للمعارضة .

وقيل : حشر الناس للحضور .

﴿ فنادى ﴾ أي قال لهم بصوت عال ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ أي لا رب لكم فوقي .

ويروَي : إن إبليس تصور لفرعون في صورة الإِنس بمصر في الحمام ، فأنكره فرعون ، فقال له إبليس : ويْحَك ! أما تعرفني ؟ قال : لا .

قال : وكيف وأنت خلقتني ؟ ألست القائل أنا ربُّكم الأعلَى .

ذكره الثعلبيّ في كتاب العرائس .

وقال عطاء : كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، فقال أنا رب أصنامكم .

وقيل : أراد القادة والسادةَ ، هو ربهم ، وأولئك هم أرباب السَّفلة .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ فنادى فحشر ؛ لأن النداء يكون قبل الحشر .

(182/800)

﴿ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ أي نكال قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] وقوله بعد : "أنا ربكم الأعلَى" قاله ابن عباس ومجاهد وعِكرمة .

وكان بين الكلمتين أربعون سنة ؛ قاله ابن عباس .

والمعنى : أمهله في الأولى ، ثم أخذه في الآخرة ، فعذبه بكلمتيه .

وقيل : نكالُ الأولى : هو أن أغرقه ، ونكال الآخرة : العذابُ في الآخرة .

وقاله قتادة وغيره .

وقال مجاهد : هو عذاب أوّل عمره وآخره .

وقيل : الآخرة قوله "أنا ربكم الأعلَى" والأولى تكذيبه لموسى .

عن قتادة أيضاً .

و"نكالَ" منصوب على المصدر المؤكَّد في قول الزَّجاج ؛ لأن معنى أخذه الله : نكَّل الله به ، فأخرج نكالَ مكانَ مصدر من معناه ، لا من لفظه .

وقيل : نصب بنزع حرف الصفة ، أي فأخذه الله بنكال الآخرة ، فلما نزِع الخافض نُصِب .

وقال الفرّاء : أي أخذه الله أخذاً نكالاً ، أي للنكال .

والنكال : اسم لما جعل نكالاً للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به .

يقال : نكَّل فلان بفلان : إذا أثخنه عقوبة .

والكلمة من الامتناع ، ومنه النكولُ عن اليمين ، والنِّكْل القيد .

وقد مضى في سورة "المزمل" والحمد لله .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ أي اعتبارا وعظة .

﴿ لِّمَن يخشى ﴾ أي يخاف الله عزّ وجلّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(183/800)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالَى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لتسلية رسولِ الله صلى الله عليه وسلم من تكذيبِ قومِه بأَنَّه يُصيبُهم مثلُ ما أصابَ من كانَ أَقْوى منهُم وأعظمَ . ومَعْنى هلْ أتاكَ : إنِ اعتُبرَ هذا أولَ ما أتاهُ عليه

الصلاةُ والسلامُ من حديثِه عليه السلامُ ترغيبٌ له عليه الصلاةُ والسلامُ في استماعِ حديثِه كأنَّه قيلَ : هل أتاكَ حديثُه أنا أُخبرَك بِهِ وإن اعتُبرَ إتيانُه هذا وهُو المتبادرُ من الإيجازِ في الاقتصاصِ حملَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ على أنْ يقرَّ بأمرٍ يعرفُه قبلَ ذلكَ كأنَّه قيلَ : قد أتاكَ حديثُه .

وقولُه تعالَى : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالواد المقدس ﴾ ظرفٌ للحديثِ لا للإتيانِ لاختلافِ وَقْتَيهما ﴿ طُوًى ﴾ بضمِّ الطاءِ غيرَ منونٍ وقُرِىءَ منوناً وقُرِىءَ بالكسرِ منوناً وغيرَ منونٍ فمن نونَّهُ أوّلَهُ بالمكانِ دونَ البقعةِ ، وقيلَ : هُو كَثُنَى مصدرٌ لنَادَى أو المقدسِ أيْ ناداهُ ندائينِ أو المقدسِ مرةً بعدَ أُخْرى .

(184/800)

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادةِ القولِ وقيلَ : هو تفسيرٌ للنداءِ أي ناداهُ إذهبْ وقيلَ : هُو على حذفِ أَنِ المفسرةِ ويدلُّ عليه قراءةُ عبدِ اللَّهِ أن اذهبْ لأنَّ في النداءِ مَعْنى القولِ ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ تعليلٌ للأمرِ أو لوجوبِ الامتثالِ بِهِ ﴿ فَقُلْ ﴾ بعدَ ما أتيتَهُ ﴿ هَل لَّكَ ﴾ رغبةٌ وتوجهٌ ﴿ إلى أَن تزكى ﴾ بحذفِ إحْدَى التاءينِ من تتزكَّى أيْ تتطهرُ من دنسِ الكُفرِ والطغيانِ . وقُرِىءَ تزَّكى بالتشديدِ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى ربّكَ ﴾ وأُرشدكَ إلى معرفتِه

عزَّ وجلَّ فتعرفَهُ ﴿ فتخشى ﴾ إذِ الخشيةُ لا تكونُ إلا بعدَ معرفتِه تعالَى ، قالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ وجَعلُ الخشيةِ غايةً للهدايةِ لأنَّها مِلاكُ الأمرِ ، مَنْ خشَى اللهَ تعالى أتَى منْهُ كلَّ خيرٍ ، ومَنْ أَمِنَ اجترأَ على كلِّ شرَ . أُمرَ عليه الصلاةُ والسلامُ بأنْ يخاطبَهُ بالاستفهامِ الذي معناهُ العرضُ ليستدعيَهُ بالتلطفِ في القولِ ويستنزلَهُ بالمُداراةِ من عُتوِّهِ وهذا ضربُ تفصيلٍ لقولِه تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فَأَرَاهُ الآيةَ الكبرى ﴾ فصيحةٌ تُفصحُ عن جملٍ قد طُويتْ تعويلاً على تفصيلِها في السورِ الأُخرى فإنه عليه الصلاةُ والسلامُ ما أراهُ إيَّاها عقيبَ هذا الأمرِ بل بعدَ مَا جَرى بينَهُ وبينَ اللهِ تعالَى ما جَرى من الاستدعاءِ والإجابةِ وغيرِهما من المراجعاتِ وبعد ما جَرَى بينَهُ وبينَ فرعونٍ ما جَرَى من المحاوراتِ إلى أنْ قالَ : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ ﴾ والإراءةُ إما بمَعْنى التبصيرِ ، أو التعريفِ فإن اللعينَ حينَ أبصرَها عرفَها . وادعاءُ سحريتِها إنَّما كانَ إراءةً منهُ وإظهاراً للتجلدِ . ونسبتُهَا إليهِ عليه الصلاةُ والسلامُ بالنظرِ إلى الظاهرِ كما

أنَّ نسبتَها إلى نونِ العظمةِ في قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أريناه ءاياتنا ﴾ بالنظرِ إلى الحقيقةِ والمرادُ بالآيةِ الكُبْرى قلبُ العصَا حيةً وهو قولُ ابن عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا فإنَّها كانتِ المقدمةَ والأصلَ ، والأُخْرَى كالتبعِ لهَا ، أو هُمَا جَميعاً ، وهو قَولُ مجاهدٍ فإنَّهما كالآيةِ الواحدةِ وقدْ عبرَ عنهُمَا بصيغةِ الجمعِ حيثُ قالَ : ﴿ اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ بئاياتى ﴾ باعتبارِ ما في تضاعيفهما من بدائعِ الأُمورِ التي كلٌّ منهَا آيةٌ بينةٌ لقومٍ يعقلونَ ، كما مَرَّ تفصيلُه في سُورةِ طاه ولا مساغَ لحملها على مجموعِ معجزاتِه فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسعِ إنما ظهرتْ على يدِه عليه الصلاةُ والسلامُ بعدَ مَا غلبَ السحرةَ على مهلٍ في نحوٍ من عشرينَ سنةً كما مرَّ في سورةِ الأعرافِ ولا ريبَ في أنَّ هذا مطلعُ القصةِ وأمرُ السحرةِ مترقبٌ بعدُ ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بمُوسَى عليهِ السلامُ وسَمَّى معجزتَهُ سِحْراً ﴿ وعصى ﴾ الله عزَّ وجلَّ بالتمردِ بعدَ ما علمَ صحةَ الأمرِ ووجوبَ الطاعةِ أشدَّ عصيانٍ وأقبحَهُ حيثُ اجترأَ على إنكارِ وجودِ ربِّ العالمينَ رأْساً وكان اللعينُ وقومُه مأمورينَ بعبادتِه عزَّ وجلَّ وتركِ العظيمةِ التي كانَ يدَّعِيها الطاغيةُ ويقبلُها منهُ فئتُه الباغيةُ لا بإرسالِ بني إسرائيلَ من الأسرِ والقَسْرِ فقطْ .

(186/800)

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي تولَّى عن الطاعةِ أو انصرفَ عنِ المجلسِ ﴿ يسعى ﴾ أي يجتهدُ في معارضةِ الآيةِ أو أُريدَ ثم أقبلَ أي أنشأَ يسعَى فوضعَ موضعَهُ أدبرَ تحاشياً عن وصفِه بالإقبالِ وقيلَ : أدبرَ هارباً من الثعبانِ فإنَّه رُويَ أنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ لَمَّا ألقَى العَصَا انقلبتْ ثُعباناً أشعرَ فاغراً فاهُ بين لَحْيَيهِ ثمانونَ ذراعاً وضعَ لحيَهُ الأسفلَ عَلى الأرضِ والأَعْلى على سُورِ القصرِ فتوجَّهَ نحوَ فرعونَ فهربَ وأحدثَ وانهزمَ الناسُ مزدحمينَ فماتَ منهُم خمسةٌ وعشرونَ ألفاً من قومِه وقيلَ : إنها حينَ انقلبتْ حيةً ارتفعتْ في السماءِ قدرَ ميلٍ ثمَّ انحطتْ مقبلةً نحوَ فرعونَ وجعلتْ تقولُ : يا مُوسَى مُرني بما شئتَ ويقولُ فرعونُ : أنشدكَ بالذي أرسلكَ إلا أخذتَهُ فأخذَهُ فعادَ عصا ويأباهُ أنَّ ذلكَ كانَ قبلَ الإصرارِ على التكذيبِ والعصيانِ والتصدّي للمعارضةِ كما يعربُ عنه قولُه تعالَى : ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي فجمعَ السحرةَ لقولِه : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِى المدائنِ حاشرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي ما يُكادُ به من السحرةِ وآلاتِهم وقيلَ : جنودَهُ ويجوزُ أنْ يرادَ جميعُ الناسِ ﴿ فنادى ﴾ في المجمعِ بنفسه أو بواسطةِ المُنادِي ﴿ فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ قيلَ : قامَ فيهم خطيباً فقال تلكَ العظيمةَ .

﴿ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الأخرة والأولى ﴾ النكالُ بمَعْنى التنكيلِ كالسلامِ بمعنى التسليمِ وهو التعذيبُ الذي ينكلُ منْ رآهُ أو سمعَهُ ويمنعُه من تعاطِي ما يُفضِي إليهِ ومحلُّهُ النصبُ على أنَّه مصدرٌ مُؤكدٌ كوعدَ اللهِ وصبغةَ اللهِ كأنَّه قيلَ : نكَّلَ اللهُ به نكالَ الآخرةِ والأُولى وهو الإحراقُ في الآخرةِ والإغراقُ في الدُّنيا وقيلَ : مصدرٌ لأخذَ أي أخذَهُ اللهُ أخذَ نكالِ الآخرةِ الخ ، وقيلَ : مفعولٌ له أي أخذَهُ لأجل نكالِ الخ ، وقيلَ : نُصبَ على نزعِ الخافضِ أي أخذَهُ بنكالِ الآخرةِ والأُولى وإضافتُه إلى الدارين باعتبار وقوعِ نفسِ الأخذِ فيهمَا لا باعتبارِ أنَّ ما فيهِ من مَعْنى المنعِ يكونُ فيهمَا فإن ذلكَ لا يتصورُ في الآخرةِ بل في الدُّنيا فإن العقوبةَ الأخرويةَ تنكلُ من سمعَها وتمنعُه من تعاطِي ما يُؤدي إليها لا محالةَ وقيلَ : المرادُ بالآخرةِ والأُولى قولُه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ وقولُه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ قيل : كان بينَ الكلمتينِ أربعونَ سنةً فالإضافةُ إضافةُ المسبّبِ إلى السببِ .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيمَا ذُكِرَ من قصة فرعونَ وما فعَلَ وما فُعِلَ به ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ عظيمةً ﴿ لّمَن يخشى ﴾ أي لمَنْ مِنْ شأنِه أنْ يخشَى وهو مَنْ مِنْ شأنِه المعرفةُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(188/800)

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

كلام مستأنف وارد لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه وتهديدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوى منهم وأعظم ومعنى هل أتاك أن اعتبر أن هذا أول ما أتاه عليه الصلاة والسلام من حديثه عليه السلام ترغيب له صلى الله عليه وسلم في استماع حديثه كأنه قيل هل أتاك حديثه أنا أخبرك به وإن اعتبر إتيانه قبل هذا وهو المتبادر من الإيجاز في الاقتصاص أليس قد أتاك حديثه وليس هل بمعنى قد على شيء من الوجهين وقوله تعالى :

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16)

ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما وجوز كونه مفعول اذكر مقدراً وتقدم الكلام في الواد المقدس واختلاف القراء في طوى .

﴿ اذهب إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ على إرادة القول والتقدير وقال له أو قائلاً له اذهب الخ وقيل هو تفسير للنداء أي ناداه اذهب وقيل هو على حذف أن المفسرة يدل عليه قراءة عبد الله أن اذهب لأن في النداء معنى القول وجوز أن يكون بتقدير أن المصدرية قبلها حرف جر ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به .

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18)

﴿ فَقُلْ ﴾ بعد ما أتيته ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ أي هل لك ميل إلى أن تتزكى فلك في موضع الخبر لمبتدأ محذوف وإلى أن تزكى متعلق بذلك المبتدأ المحذوف ونحوه قول الشاعر : فهل لكم فيها إلي فإنني . . .

بصير بما أعيا النطاسي حذيما

قد يقال هل لك في كذا فيؤتى بفي ويقدر المبتدأ رغبة ونحوه مما يتعدى بها ومنهم من قدره هنا رغبة لأنها تعدى بها أيضاً وقال أبو البقاء لما كان المعنى أدعوك جيء بإلى ولعله جعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام أو بمقدر يدل عليه وتزكى بحذف إحدى التاءين أي تتطهر من دنس الكفر والطغيان وقرأ الحرميان وأبو عمرو بخلاف تزكى بتشديد الزاي وأصله كما أشرنا إليه تتزكى فأدغمت التاء الثانية في الزاي .

(189/800)

﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ ﴾ أي ارشدك إلى معرفته عز وجل فتعرفه ﴿ فتخشى ﴾ إذا الخشية لا تكون إلا بعد معرفته قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] وجعل الخشية غاية للهداية لأنها ملاك الأمر من خشي الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي عن

أبي هريرة من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل وفي الاستفهام ما لا يخفى من التلطف في الدعوة والاستنزال عن العتو وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : 24] وتقديم التزكية على الهداية لأنها تخلية والفاء في قوله تعالى : فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)

(190/800)

فصيحة تفصح عن جمل قد طويت تعويلاً على تفصيلها في موضع آخر كأنه قيل فهذب وكان كيت وكيت فأراه واقتصر الزمخشري في الحواشي على تقدير جملة فقال إن هذا معطوف على محذوف والتقدير فذهب فأراه لأن قوله تعالى ﴿ اذهب ﴾ يدل عليه فهو على نحو ﴿ اضرب بعصاك الحجر فانبجست ﴾ [الأعراف : 160] والآراء إما بمعنى التبصير أو بمعنى التعريف فإن اللعين حين أبصرها عرفها وادعاء سحريتها إنما كان إظهاراً للتجلد ونسبتها إليه عليه الصلاة والسلام بالنظر إلى الظاهر كما أن نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى ﴿ ولقد أريناه آياتنا ﴾ [طه : 56] بالنظر إلى الحقيقة والمراد بالآية الكبرى على ما روي عن ابن عباس قلب العصا حية فإنها كانت المقدمة والأصل والأخرى كالتبع لها وعلى ما روي عن مجاهد ذلك واليد البيضاء فإنهما باعتبار الدلالة

كالآية الواحدة وقد عبر عنهما بصيغة الجمع في قوله تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ [طه : 24] باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون وجوز أن يراد بها مجموع معجزاته عليه السلام والوحدة باعتبار ما ذكر والفاء لتعقيب أولها أو مجموعها باعتبار أولها وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله من الرسل عليهم السلام أو هو للزيادة المطلقة ولا يخفى بعده ويزيده بعداً ترتيب حشر السحرة بعد فإنه لم يكن إلا على إراءة تينك الآيتين وإدباره عن العمل بمقتضاهما وأما ما عداهما من التسع فإنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة وزعم غلاة الشيعة أن الآية الكبرى علي كرم الله تعالى وجهه أراه إياه متطورة روحه الكريمة بأعظم طور وهو هذيان وراء طور العقل وطور النقل .

فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

(191/800)

﴿ وعصى ﴾ الله تعالى بالتمرد بعد ما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظمة التي يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لا بإرسال بني

إسرائيل من الأسر والقسر فقط وفي جعل متعلق التكذيب موسى عليه السلام ومتعلق العصيان الله عز وجل ما ليس في جعلهما موسى كما قيل فكذب موسى وعصاه من الذم كما لا يخفى .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ تولى عن الطاعة ﴿ يسعى ﴾ أي ساعياً مجتهداً في إبطال أمره عليه السلام ومعارضة الآية وثم لأن إبطال ذلك وقيل أدبر يسعى هارباً من الثعبان فإنه روى أنه لما ألقى العصا انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون زراعاً فوضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فهرب فرعون وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه وفي بعض الآثار أنها انقلبت حية وارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول يا موسى مرني بما شئت ويقول فرعون أنشدك بالذي أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصى وأنت تعلم أن هذا إن كان بعد حشر السحرة للمعارضة كما هو المشهور فلا تظهر صحة إرادته ههنا إذا أريد بالحشر بعد حشرهم وإن كان بعد التكذيب والعصيان وقبل الحشر فلا يظهر تراخيه عن الأولين نعم قيل أن ثم عليه للدلالة على استبعاد ادباره مرعوباً مسرعاً مع زعمه الإلهية وقيل أريد بقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ ثم أقبل من قولهم أقبل يفعل أي أنشأ لكن جعل الإدبار موضع الإقبال تمليحاً وتنبيهاً على أنه كان عليه دماراً وإدباراً .

﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي فجمع السحرة لقوله تعالى فأرسل فرعون في المدائن حاشرين وقوله سبحانه ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ [طه : 60] أي بما يكاد به من السحرة وآلاتهم وقيل جمع جنوده وجوز أن يراد جمع أهل مملكته ﴿ فنادى ﴾ في المجمع نفسه أو بواسطة المنادي وأيد الأول بقوله تعالى :

﴿ فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ وعلى الثاني فيه تقدير أي فقال يقول فرعون أنا ربكم الخ مع ما في الثاني من التجوز وفي بعض الآثار أنه قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة وأراد اللعين تفضيل نفسه على كل من يلي أمورهم .

(193/800)

﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وهو التعذيب الذي ينكل من رآه أو سمعه ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لـ ﴿ وعد الله ﴾ [النساء : 122] و ﴿ صبغة الله ﴾ [البقرة : 138] كأنه قيل نكل الله تعالى به نكال الآخرة والأولى وهو الإحراق في الآخرة والإغراق والإذلال في الدنيا وجوز أن يكون نصباً على أنه مفعول مطلق لأخذ أي أخذه الله تعالى

أخذ نكال الآخرة الخ وأن يكون مفعولاً له أي أخذه لأجل نكال الخ وأن يكون نصباً بنزع الخافض أي أخذه بنكال الآخرة والأولى وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذ فيهما لا باعتبار أن ما فيه من معنى المنع يكون فيهما فإن ذلك لا يتصور في الآخرة بل في الدنيا فإن العقوبة الأخروية تنكل من سمعها وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها فيها وأن يكون في تأويل المشتق حالاً وإضافته على معنى في أي منكلاً لمن رآه أو سمع به في الآخرة والأولى وجوز أن تكون الإضافة عليه لامية وحمل الآخرة والأولى على الدارين هو الظاهر وروي عن الحسن وابن زيد وغيرهما وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك والشعبي أن الآخرة قولته : أنا ربكم الأعلى والأولى قولته ما علمت لكم من إله غيري وقيل بالعكس فهما كلمتان وكان بينهما على ما قالوا أربعون سنة وقال أبو رزين الأولى حالة كفره وعصيانه والآخرة قولته ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] وعن مجاهد أنهما عبارتان عن أول معاصيه وآخرها أي نكل بالجميع والإضافة على جميع ذلك من إضافة المسبب إلى السبب ومآل من يقول بقبول إيمان فرعون إلى هذه الأقوال وجعل ذلك النكال الإغراق في الدنيا وقد قدمنا الكلام في هذا المقام .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل وما فعل به ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِّمَن يخشى ﴾ أي لمن شأنه أن يخشى وهو من شأنه المعرفة وهذا إما لأن من كان في خشية لا يحتاج للاعتبار أو ليشمل من يخشى بالفعل ومن كان من شأنه ذلك على ما قيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(195/800)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع في القوس ، فيبلغ بها غاية المدّ ، وكذا المراد : بالناشطات ، والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات : يعني : الملائكة ، والعطف مع اتحاد الكلّ ؛ لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي ، كما في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . . وليث الكتيبة في المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال السديّ : ﴿ النازعات ﴾ هي النفوس حين تغرق في الصدور .

وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفس .

وقال قتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم : نزع إليه إذا ذهب ، أو من قولهم : نزعت بالحبل أي : إنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر .

وبه قال أبو عبيدة ، والأخفش ، وابن كيسان .

وقال عطاء ، وعكرمة : النازعات القسي تنزع بالسهام ، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهي به إلى النصل .

وقال يحيى بن سلام : تنزع بين الكلأ وتنفر ، وقيل : أراد بالنازعات الغزاة الرماة ، وانتصاب ﴿ غَرْقاً ﴾ على أنه مصدر بحذف الزوائد أي : إغراقاً ، والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي : إغراقاً في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد ، أو على الحال أي : ذوات إغراق ، يقال أغرق في الشيء يغرق فيه : إذا أوغل فيه وبلغ غايته ومعنى ﴿ الناشطات ﴾ : أنها تنشط النفوس أي : تخرجها من الأجساد ، كما ينشط العقال من يد البعير ، إذا حلّ عنه ، ونشط الرجل الدلو من البئر : إذا أخرجها ، والنشاط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة للعقدة التي يسهل حلها .

قال أبو زيد : نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته ، وأنشطته ، أي : حللته ، وأنشطت الحبل ، أي : مددته .

قال الفراء : أنشط العقال أي : حلّ ، ونشط أي : ربط الحبل في يديه .

قال الأصمعي : بئر أنشاط أي : قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط ، وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيراً .

وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان .

وقال السديّ : هي النفوس حين تنشط من القدمين .

وقال عكرمة ، وعطاء : هي الأوهاق التي تنشط السهام ، وقال قتادة ، والحسن ، والأخفش : هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي : تذهب .

قال في الصحاح : والناشطات نشطاً : يعني : النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد ، والهموم تنشط بصاحبها .

وقال أبو عبيدة ، وقتادة : هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد .

وقيل : الناشطات لأرواح المؤمنين ، والنازعات لأرواح الكافرين ؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق ، وتجذب روح الكافر بعنف ، وقوله : ﴿ نَشْطاً ﴾ مصدر ، وكذا سبحاً وسبقاً ﴿ والسابحات ﴾ الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغوّاص في البحر لإخراج شيء منه ، وقال مجاهد ، وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين

لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد : سابح إذا أسرع في جريه .

وقال مجاهد أيضاً : السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم .

وقيل : هي الخيل السابحة في الغزو ، ومنه قول عنترة :

والخيل تعلم حين تس . . . بح في حياض الموت سبحا

وقال قتادة ، والحسن : هي النجوم تسبح في أفلاكها ، كما في قوله : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ياس : 40] وقال عطاء : هي السفن تسبح في الماء ، وقيل : هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ هم : الملائكة على قول الجمهور كما سلف .

قال مسروق ، ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء .

وقال أبو روق : هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير ، والعمل الصالح ، وروي نحوه عن مجاهد .

وقال مقاتل : هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة .

وقال الربيع : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله .

وقال مجاهد أيضاً : هو الموت يسبق الإنسان .

وقال قتادة ، والحسن ، ومعمر : هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً .

وقال عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد .

وقيل : هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار .

قال الجرجاني : عطف السابقات بالفاء ، لأنها مسببة من التي قبلها ، أي : واللاتي يسبحن فيسبقن .

تقول قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب ، ولو قلت قام وذهب بالواو لم يكن القيام سبباً للذهاب .

قال الواحدي : وهذا غير مطرد في قوله : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبر .

قال الرازي : ويمكن الجواب عما قاله الواحدي : بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض كقوله : قام زيد فذهب ، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أماناتهم ، ففوّض إليهم التدبير .

ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبح للسبق ، والقيام للذهاب ، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية ، والأولى أن يقال : العطف بالفاء في المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ، ولا يحتاج إلى نكتة ، كما احتاج إليها ما قبله ؛

لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته .

﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ قال القشيري : أجمعوا على أن المراد هنا : الملائكة .

وقال الماوردي : فيه قولان : أحدهما الملائكة وهو قول الجمهور .

والثاني أنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وفي تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبر طلوعها ، وأفولها .

الثاني : تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال .

ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام ، وتفصيلهما ، والفاعل للتدبير في الحقيقة ، وإن كان هو الله عزّ وجلّ ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به .

وقيل : إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها : مدبرات .

(198/800)

قال عبد الرحمن بن ساباط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل ، فأما جبريل ، فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل ، فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل ، فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل ، فهو ينزل بالأمر

عليهم ، وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي : والنازعات ، وكذا ، وكذا لتبعثنّ .

قال الفرّاء : وحذف لمعرفة السامعين به ، ويدل عليه قوله : ﴿ أَإِذَا كُنَّا عظاما نَّخِرَةً ﴾ .

وقيل : إن جواب القسم قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ أي : إن في يوم القيامة ، وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى .

قال ابن الأنباري : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال بينهما ، وقيل : جواب القسم ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ لأن المعنى : قد أتاك ، وهذا ضعيف جداً ، وقيل الجواب : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة .

وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات .

قال ابن الأنباري : وهذا خطأ ، لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام ، والأوّل أولى .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم ، أو بإضمار اذكر ، والراجفة المضطربة ، يقال رجف يرجف : إذا اضطرب ، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردّد واضطراب كالرعد ، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، والرادفة : النفخة الثانية التي تكون عند البعث ، وسميت رادفة ؛ لأنها ردفت النفخة

الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين .

وقال ابن زيد : الراجفة : الأرض ، والرادفة : الساعة .

(199/800)

وقال مجاهد : الرادفة : الزلزلة ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ الصيحة ، وقيل : الراجفة اضطراب الأرض ، والرادفة الزلزلة ، وأصل الرجفة الحركة ، وليس المراد : التحرك هنا فقط ، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً : إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها ، وظهور الأصوات فيها ، ومنه قول الشاعر :

أبا لأراجيف يا ابن اللؤم توعدني . . . وفي الأراجيف خلت اللؤم والخورا

ومحل ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ : النصب على الحال من الراجفة ، والمعنى : لتبعثنّ يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قلوب مبتدأ ، ويومئذ منصوب بواجفة ، وواجفة صفة قلوب ، وجملة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ خبر قلوب ، والراجفة : المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة .

قال جمهور المفسرين أي : خائفة وجلة .

وقال السديّ : زائلة عن أماكنها ، نظيره : ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18]

وقال المؤرج : قلقة مستوفزة .

وقال المبرد : مضطربة ، يقال وجف القلب يجف وجيفاً : إذا خفق ، كما يقال وجب يجب وجيباً ، والإيجاف : السير السريع ، فأصل الوجيف اضطراب القلب ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بني جحجبي وقومهم . . . أكبادنا من ورائهم تجف

﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي : أبصار أصحابها ، فحذف المضاف ، والخاشعة : الذليلة ، والمراد : أنها تظهر عليهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ، كقوله : ﴿ خاشعين مِنَ الذل ﴾

(200/800)

[الشورى : 45] قال عطاء : يريد أبصار من مات على غير الإسلام ، ويدلّ على هذا أن السياق في منكري البعث ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنكم تبعثون أي : أنردّ إلى أوّل حالنا ، وابتداء أمرنا ، فنصير

أحياء بعد موتنا ، يقال : رجع فلان في حافرته ، أي : رجع من حيث جاء ، والحافرة عند العرب اسم لأوّل الشيء ، وابتداء الأمر ، ومنه قولهم رجع فلان على حافرته : أي على الطريق الذي جاء منه ، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي : عند أوّل ما التقوا ، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة ، ومن هذا قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب . . . معاذ الله من سفه وعار

أي أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي من الغزل بعد الشيب والصلع ؟ ! وقيل الحافرة : العاجلة ، والمعنى : إنا لمردودون إلى الدنيا .

وقيل : الحافرة : الأرض التي تحفر فيها قبورهم ، ومنه قول الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا . . . حتى يردّ الناس في الحافرة

والمعنى : إنا لمردودون في قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل ، والفراء ، وبه قال مجاهد .

وقال ابن زيد : الحافرة : النار ، واستدلّ بقوله : ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ في الحافرة ﴾ وقرأ أبو حيوة " في الحفرة " .

﴿ أَإِذَا كُنَّا عظاما نَّخِرَةً ﴾ أي : بالية متفتتة .

يقال : نخر العظم بالكسر : إذا بلي وهذا تأكيد لإنكار البعث أي : كيف نردّ أحياء ، ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة ؟ والعامل في إذا مضمر يدلّ عليه مردودون أي : أئذا كنا

عظاماً بالية نردّ ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة .

قرأ الجمهور : ﴿ نخرة ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر " ناخرة " ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء ، وابن جرير ، وأبو معاذ النحوي .

(201/800)

قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد ، أي : لم تبل ولا بدّ أن تنخر .

وقيل : هما بمعنى ، تقول العرب : نخر الشيء ، فهو ناخر ونخر ، وطمع ، فهو طامع وطمع ونحو ذلك .

قال الأخفش : هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن .

قال الشاعر :

يظلّ بها الشيخ الذي كان بادنا . . . يدبّ على عوج له نخرات

يعني : على قوائم عوج .

وقيل : الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة التي فسدت كلها .

وقال مجاهد نخرة أي : مرفوتة ، كما في قوله : ﴿ رفاتاً ﴾ [الإسراء : 49] .

وقد قرىء : "إذا كنا " و ﴿ أئذا كنا ﴾ بالاستفهام ، وبعدمه .

ثم ذكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال : ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ أي رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى : أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسرنّ بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد .

وقيل : معنى خاسرة كاذبة أي : ليست بكائنة ، كذا قال الحسن وغيره .

وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها .

وقال قتادة ، ومحمد بن كعب أي : لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرّة : الرجعة ، والجمع كرّات .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة ، وإحياء الأموات ، والمعنى : لا تستبعدوا ذلك فإنما هي زجرة واحدة ، وكان ذلك الإحياء ، والبعث ، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها .

وقيل : إن الضمير في قوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ ﴾ .

راجع إلى الرادفة المتقدّم ذكرها .

﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ أي : فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه

الأرض ، قال الواحدي : المراد بالساهرة وجه الأرض ، وظاهرها في قول الجميع .

قال الفرّاء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم الحيوان ، وسهرهم .

(202/800)

وقيل : لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها ، فسميت بذلك ، ومنه قول أبي كثير الهذلي :

يردون ساهرة كأنّ حميمها . . . وغميمها أسداف ليل مظلم

وقول أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر . . . وما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة .

قال في الصحاح : الساهرة وجه الأرض ، ومنه قوله : ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ .

وقال : الساهرة أرض بيضاء ، وقيل : أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها .

وقيل : الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق .

وقال سفيان الثوري : الساهرة أرض الشام .

وقال قتادة : هي جهنم ، أي : فإذا هؤلاء الكفار في جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم ، وجملة : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ مستأنفة مسوقة

لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه ، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ، ومعنى ﴿ هل أتاك ﴾ : قد جاءك وبلغك ، هذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أوّل ما نزل عليه في شأنهما ، فيكون المعنى على الاستفهام أي : هل أتاك حديثه أنا أخبرك به .

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالواد المقدس طُوًى ﴾ الظرف متعلق ب ﴿ حديث ﴾ لا ب ﴿ أتاك ﴾ لاختلاف وقتيهما ، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية ، وقد تقدّم الاختلاف بين القرّاء في ﴿ طوى ﴾ في سورة طه .

والواد المقدّس : المبارك المطهر .

قال الفراء : ﴿ طوى ﴾ واد بين المدينة ومصر .

قال : وهو معدول من طاو كما عدل عمر من عامر .

قال : والصرف أحبّ إليّ إذ لم أجد في المعدول نظيراً له .

وقيل : طوى معناه يا رجل بالعبرانية ، فكأنه قيل يا رجل اذهب ، وقيل المعنى : إن الوادي المقدّس بورك فيه مرتين ، والأوّل أولى .

وقد مضى تحقيق القول فيه .

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ قيل : هو على تقدير القول ، وقيل : هو تفسير للنداء أي : ناداه نداء هو قوله اذهب .

وقيل : هو على حذف أن المفسرة ، ويؤيده قراءة ابن مسعود أن اذهب ؛ لأن في النداء معنى القول ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال أي : جاوز الحدّ في العصيان ، والتكبر ، والكفر بالله ﴿ فَقُلْ ﴾ له ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ أي : قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك ، وأصله تتزكى فحذفت إحدى التاءين .

قرأ الجمهور : ﴿ تزكى ﴾ بالتخفيف .

وقرأ نافع ، وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي .

قال أبو عمرو بن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفي الكلام مبتدأ مقدّر يتعلق به إليه ، والتقدير : هل لك رغبة ، أو هل لك توجه ، أو هل لك سبيل إلى التزكي ، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير ؟ يريدون هل لك رغبة في الخير ، ومن هذا قول الشاعر :

فهل لكم فيها إليّ فإنني . . . بصير بما أعيا النطاسي جذيما

﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى ربّكَ فتخشى ﴾ أي : أرشدك إلى عبادته وتوحيده ، فتخشى عقابه ،

والفاء لترتيب الخشية على الهداية ؛ لأن الخشية لا تكون إلاّ من مهتد راشد ﴿ فَأَرَاهُ الآية الكبرى ﴾ هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعني : فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ ﴾ [الأعراف : 106] فعند ذلك أراه الآية الكبرى .

واختلف في الآية الكبرى ما هي ؟ فقيل : العصا ، وقيل : يده .

وقيل : فلق البحر .

(204/800)

وقيل : هي جميع ما جاء به من الآيات التسع ﴿ فَكَذَّبَ وعصى ﴾ أي : فلما أراه الآية الكبرى كذّب بموسى ، وبما جاء به ، وعصى الله عزّ وجلّ ، فلم يطعه ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي : تولى ، وأعرض عن الإيمان ﴿ يسعى ﴾ أي : يعمل بالفساد في الأرض ، ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى ، وقيل : أدبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها .

وقال الرازي : معنى : ﴿ أَدْبَرَ يسعى ﴾ أقبل يسعى ، كما يقال أقبل يفعل كذا أي : أنشأ يفعل كذا ، فوضع أدبر موضع أقبل ؛ لئلا يوصف بالإقبال .

﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي : فجمع جنوده للقتال والمحاربة ، أو جمع السحرة للمعارضة ، أو جمع

الناس للحضور ؛ ليشاهدوا ما يقع ، أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿ فنادى فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ أي : قال لهم بصوت عال ، أو أمر من ينادي بهذا القول .

ومعنى : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ أنه لا ربّ فوقي .

قال عطاء : كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربّ أصنامكم ، وقيل : أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم .

والأوّل أولى لقوله في آية أخرى : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] .

﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الأخرة والأولى ﴾ النكال نعت مصدر محذوف ، أي : أخذه أخذ نكال ، أو هو مصدر لفعل محذوف ، أي : أخذه الله ، فنكله نكال الآخرة ، والأولى ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار ، ونكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق .

وقال مجاهد : عذاب أوّل عمره وآخره .

وقال قتادة : الآخرة .

قوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ والأولى : تكذيبه لموسى .

وقيل : الآخرة .

قوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ والأولى : قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ [

القصص : 38] وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي : أخذه الله لأجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي : بنكال .

(205/800)

ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال : لأن معنى أخذه الله : نكل الله به ، فأخرج من معناه لا من لفظه .

وقال الفرّاء أي : أخذه الله أخذاً نكالاً أي : للنكال ، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي : عقوبة له ، يقال : نكل فلان بفلان إذا عاقبه ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ أي : فيما ذكر من قصة فرعون ، وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ، ويخاف عقوبته ، ويحاذر غضبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ قال : هي الملائكة تنزع روح الكفار ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ قال : هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ هي

الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ قال : هي أنفس الكفار تنزع ، ثم تنشط ، ثم تغرق في النار .

وأخرج الحاكم وصححه عنه : ﴿ والنازعات غَرْقاً * والناشطات نَشْطاً ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تمزّق الناس ، فتمزقك كلاب النار ، قال الله : ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ أتدري ما هو ؟ " قلت : يا نبيّ الله ما هو ؟ قال : " كلاب في النار تنشط اللحم والعظم " وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب أن ابن الكوّاء سأله عن : ﴿ المدبرات أَمْراً ﴾ قال : هي الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن ابن عباس قال : ﴿ لَكَ أَمْراً ﴾ ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمِّن على الدّعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يُصلى عليه ويدلى في حفرته .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ قال : النفخة الأولى ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ قال : النفخة الثانية ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال : خائفة ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ قال : الحياة .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبيّ بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : " أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه " وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ترجف الأرض رجفاً وتزلزل بأهلها وهي : التي يقول الله ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ " يقول : " مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال : وجلة متحركة .

وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ قال : خلقاً جديداً .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وابن الأنباري في الوقف والابتداء ، وعبد بن حميد ، وابن

المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنه سئل عن قوله : ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ فقال : الساهرة وجه الأرض ، وفي لفظ قال : الأرض كلها ساهرة ، ألا ترى قول الشاعر :

(207/800)

صيد بحر وصيد ساهرة . . . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً : ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ قال : هل لك أن تقول : لا إله إلاّ الله ؟ وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الأخرة ﴾ قال : قوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ ﴿ والأولى ﴾ قال : قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : كان بين كلمتيه أربعون سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 371 . 377 ﴾

(208/800)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) ﴾

بعد أن واجهت الآيات السابقة المشركين ، بما يقع فى نفوسهم من كمد وحسرة ، حين تفجؤهم الساعة بأحداثها ، وحين بقلت من أيديهم الطريق إلى النجاة ـ جاءت هذه الآيات لتعرض عليهم وجها من وجوه الضلال ، فيه مشابه كثيرة منهم ، وهو وجه « فرعون » وقد أشرنا فى غير موضع إلى أن القرآن الكريم كثيرا ما يجمع بين هؤلاء المشركين وبين فرعون ، إذ كانوا أشبه الناس به ، عنادا ، واستعلاء ، وكبرا .

وقوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسى » . .

الخطاب من اللّه سبحانه وتعالى للنبى ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ وفيه استدعاء له من هذا الجو الخانق الذي ينفث فيه المشركون سمومهم والذي ترمى فيه أنفاسهم بدخان كثيف من تلك النار المشتعلة فى قلوبهم ، كمدا ، وغيظا من النبىّ ودعوته . . وفى هذا الخطاب إدناء للنبىّ الكريم من ربه جلّ وعلا ، وإيناس له .

والاستفهام ، يراد به الخبر . . أي لم يأتك حديث موسى . . فاستمع إليه إذن ! وقد جاء الخبر فى صيغة الاستفهام ، لما يؤذن به الاستفهام هنا من عظيم اللطف ، وكريم الإحسان من اللّه سبحانه إلى النبىّ الكريم ، حتى ليخاطبه مولاه خطاب الحبيب إلى الحبيب ، فى رفق ، ومودّة ، ليقول له : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسى » ؟ أي أعلمت حديث موسى ؟ وأ تريد أن تعلمه ؟ ألا ، فاستمع ! ! وفى هذا ما يشير إلى أن ذلك أول ما تلقاه النبىّ من آيات

اللّه ، من نبأ موسى وفرعون . .

وقوله تعالى : « إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً » أي الحديث الذي

نريد أن نبلغك إيّاه من أمر موسى ، هو ما كان من نداء اللّه سبحانه وتعالى ، إياه ، وهو بالواد المقدس « طوى » . .

و« الوادي المقدس » ، هو واد فى أسفل جبل سيناء ، من الجانب الأيمن منه ، فى الطريق المتجه من الشام إلى مصر . . كما يقول سبحانه : « وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا » (52 : مريم) و« طوى » اسم لهذا الوادي .

قوله تعالى : « اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى » هو بيان لما نودى به موسى من ربه ، أي ناداه سبحانه ب قوله تعالى : « اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ » وقوله تعالى : « إنه طغى » هو بيان لسبب الدعوة بالذهاب إليه . . إنه طغى ، وتجاوز الحدود فى بغيه وعدوانه ، وفى كفره وضلاله .

قوله تعالى : « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى » .

وتلك هى الرسالة التي يحملها موسى من ربه إلى فرعون . .

وقوله تعالى : « هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى » أي هل تودّ أن تتزكى ، ويتطهر ؟

وفى هذا الأسلوب الاستفهامى ، ترفق وتلطف فى الدعوة إلى اللّه ، وفى مواجهة عناد المعاندين وكبر المتكبرين باللطف واللين . .

إن الحكمة تقضى فى مثل هذا المقام ، أن يستميل الداعي إلى الحقّ من يدعوه إليه ، وأن يترفق فى الدخول إلى قلبه ، حتى يجد منه أذنا صاغية ، وقلبا

واعيا ، إذا كان فيه بقية من عقل ، أو يقظة من ضمير . . ولو جاء الداعي إلى من يدعوه إلى العدول عن الطريق الذي هو عليه ـ لو جاءه آمرا ، أو زاجرا ، أو فاضحا لحاله المتلبس بها ، لما وجد منه إلا إعراضا وازورارا ، وتكرّها لسماع ما يلقى إليه من حديث ، فكيف إذا كان هذا المدعوّ جبارا عنيدا كفرعون ؟

ولهذا جاء قوله تعالى : « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى » راسما لموسى هذا المنهج الحكيم لدعوة هذا الجبار العنيد ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى : « اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ، فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى » (43 ـ 44 : طه) .

وفى هذا الأسلوب القرآنى الخطة المثلى ، والمثل الكامل القويم ، لأصحاب الدعوات ، من

القادة ، والزعماء ، والمصلحين . . إنهم لن يبلغوا بدعوتهم مواطن الإقناع ، ولن يحصلوا منها على ثمر طيب ، إلا إذا جعلوا الرفق واللين سبيلها إلى الناس ، والا إذا غذّوها بمشاعر الحبّ ، والرغبة الصادقة فى الإصلاح ، وبخاصة إذا كان الداعي يدعو إلى حقّ ، ويهدف إلى هدى وإصلاح : « ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » (145 : النحل) .

وليس مما يدخل فى هذا الباب ، المداهنة ، والمخادعة ، والنفاق . . فذلك كله شر ، إذا اختلط بالدعوة الصالحة أفسدها ، وإذا خالط الحقّ أثار الدخان الكثيف فى سمائه الصافية ، فغشّى على الأبصار ، وحجب الرؤية عن مواقع الهدى . .

قوله تعالى : « فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى » .

(211/800)

هنا كلام كثير محذوف ، دلّ عليه المقام ، أي فجاء موسى إلى فرعون ودعاه فى رفق ولطف إلى اللّه ، فما كان من فرعون إلا أن ردّ موسى ردّا قبيحا ، وأغلظ له القول ، ورماه بالكذب والجنون ، فلما أراد موسى أن يدفع هذه التّهم عنه ، ويثبت لفرعون أنه رسول ربّ العالمين ، تحدّاه فرعون بأن يأتى بما يدلّ على أنه رسول من عند اللّه . « فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى »

وهى العصا وانقلابها حية تسعى . . وهى أكبر الآيات التي بين يدى موسى . .

وقوله تعالى : « فَكَذَّبَ وَعَصى ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى ، فَحَشَرَ فَنادى ، فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى » .

هذا بيان لموقف فرعون بعد أن أراه موسى الآية الكبرى . . لقد كذب بما رأى ، واتهم موسى بأنه ساحر . . ثم جمع سحرته ، ولقى بهم موسى ، معلنا فى الناس أنه الرب الأعلى ، وأن الرب الذي يدعو إليه موسى ، هو رب دونه منزلة وعلوّا . . فهكذا يبلغ الضلال والسّفه بالضالين السفهاء ! ! وفى قوله تعالى : « ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى » إشارة إلى أنه بعد أن رأى الحية وأفاعيلها ، وما أوقعته فى قلبه وقلوب من معه ـ لبس ثوب الحية ، فجعل يسعى فى الناس مهددا متوعدا ، باعثا الرعب والفزع فى القلوب ، حتى يخرج منها هذا الفزع الذي استولى عليها من حيّة موسى .

قوله تعالى : « فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى » هذه هو ختام القصة . . لقد انتهت بهزيمة فرعون ، وخزيه ، وفضح ربوبيته على أعين الناس . . ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل أخذه اللّه بالعذاب

فى الآخرة ، بأن أعد له أسوأ مكان فى جهنم ، كما أخذه بالعذاب فى الدنيا بأن أماته شرّ ميتة ، بأن أهلكه غرقا ، ثم ألقى جثته المتعفنة على الشاطئ ، وقد عافت حيوانات البر أن تطعم منها ، بل ظلت هكذا عبرة وعظة ، فى هذا الإله المتعفن ، الذي يزكم الأنوف ريحه النتن ، « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » (92 : يونس) وقدّم نكال الآخرة على نكال الأولى ، لأن عذاب الآخرة أشد وأقسى ، لا يكاد ما لقيه فرعون من عذاب فى الدنيا يعدّ شيئا بالنسبة سيلقاه لما فى الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 15 صـ 1435 . 1444 ﴾

(213/800)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) ﴾

هذه الآية اعتراض بين جملة ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ [النازعات : 13] وبين جملة ﴿ أأنتم أشد خلقاً ﴾ [النازعات : 27] الذي هو الحجة على إثبات البعث ثم الإنذار بما بعده دعت إلى استطراده مناسبة التهديد لمنكري ما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من البعث لتَماثُل حال المشركين في طغيانهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

بحال فرعون وقومه وتماثل حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومه بحال موسى عليه السلام مع فرعون ليحصل من ذكر قصة موسى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وموعظة للمشركين وأيمتهم مثل أبي جهل وأميةَ بنِ خلف وأضرابهما لقوله في آخرها ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : 26] .

و﴿ هل أتاك ﴾ استفهام صوري يقصد من أمثاله تشويق السامع إلى الخبر من غير قصد إلى استعلام المخاطَبِ عن سابقِ علمه بذلك الخبر ، فسواء في ذلك عَلِمه من قبل أو لم يعلمه ، ولذلك لا ينتظِر المتكلم بهذا الاستفهام جواباً عنه من المسؤول بل يعقّب الاستفهام بتفصيل ما أوهم الاستفهام عنه بهذا الاستفهام كناية عن أهمية الخبر بحيث إنه مما يتساءل الناس عن علمه .

ولذلك لا تستعمل العرب في مثله من حروف الاستفهام غيرَ ﴿ هل لأنها تدل على طلب تحقيق المستفهَم عنه ، فهي في الاستفهام مثل (قَد) في الإِخبار ، والاستفهام معها حاصل بتقدير همزة استفهام ، فالمستفهم بها يستفهم عن تحقيق الأمر ، ومن قبيله قولهم في الاستفهام : أليس قد علمتَ كذا فيأتون بـ (قد) مع فعل النفي المقترن باستفهام إِنكار من غير أن يكون علم المخاطب محققاً عند المتكلم .

والخطاب لغير معيّن فالكلام موعظة ويتبعه تسلية الرسول .

وأتاك ﴾ معناه : بلغك ، استعير الإِتيان لحصول العلم تشبيهاً للمعقول بالمحسوس كأنَّ الحصول مجيء إنسان على وجه التصريحية ، أو كأنَّ الخبر الحاصل إنسان أثبت له الإِتيان على طريقة الاستعارة المكنية ، قال النابغة :

أتاني أبيتَ اللعن أنَّك لُمتني

والحديث : الخبر ، وأصله فعيل بمعنى فاعل من حدث الأمر إذا طرأ وكان ، أي الحادث من أحوال الناس وإنما يطلق على الخبر بتقدير مضاف لا يذكر لكثرة الاستعمال تقديره خبر الحديث ، أي خبر الحادث .

و﴿ إذْ ﴾ اسم زمان ، واستعمل هنا في الماضي وهو بَدَل من ﴿ حديث موسى ﴾ بدل اشتمال لأن حديثه يشتمل على كلام الله إياه وغير ذلك .

وكما جاز أن تكون (إذْ) بدلاً من المفعول به في قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ كنتم أعداء ﴾ [آل عمران : 103] يجوز أن تكون بدلاً من الفاعل وغيره .

واقتصار ابن هشام وغيره على أنها تكون مفعولاً به أو بدلاً من المفعول به اقتصار على أكثر موارد استعمالها إذا خرجت عن الظرفية ، فقد جوز في "الكشاف" وقوع (إذْ) مبتدأ في قراءة من قرأ :

﴿ لقد من اللَّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً ﴾ في سورة آل عمران (164) .

وأُضيف إذْ ﴿ إلى جملة ﴿ ناداه ربه ﴾ .

والمعنى : هل أتاك خَبر زمانِ نادى فيه موسى ربُّه .

والواد : المكان المنخفض بين الجبال .

والمقدّس : المطهّر .

والمراد به التطهير المعنوي وهو التشريف والتبريك لأجل ما نزل فيه من كلام الله دون توسط ملَك يبلغ الكلام إلى موسى عليه السلام ، وذلك تقديس خاص ، ولذلك قال الله له في الآية الأخرى ﴿ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس ﴾ [طه : 12] .

وطُوى : اسم مَكان ولعله هو نوع من الأودية يشبه البئر المطوية ، وقد سمي مكان بظاهر مكة ذَا طُوى بضم الطاء وبفتحها وكسرها .

وتقدم في سورة طه .

وهذا واد في جانب جبل الطور في برية سينا في جانبه الغربي .

(215/800)

وقرأ الجمهور ﴿ طُوَى ﴾ بلا تنوين على أنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بتأويل البُقعة ، أو للعدل عن طَاوٍ ، أو للعجمة .

وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف منوناً باعتباره اسم وادٍ مذكَّر اللفظ .

وجملة ﴿ اذْهب إلى فرعون ﴾ بيان لجملة ﴿ ناداه ربه ﴾ .

وجملة ﴿ إنه طغى ﴾ تعليل للأمر في قوله : ﴿ اذهب ﴾ ، ولذلك افتتحت بحرف (إنَّ) الذي هو للاهتمام ويفيد مُفاد التعليل .

والطغيان إفراط التكبر وتقدم عند قوله ﴿ للطاغين مئاباً ﴾ في سورة النبأ (22) .

وفرعون : لقب ملك القِبط بمصر في القديم ، وهو اسم معرَّب عن اللغة العبرانية ولا يعلم هل هو اسم للمَلك في لغة القِبط ولم يُطلقه القرآن إلا على ملك مصر الذي أرسل إليه موسى ، وأُطلقَ على الذي في زمن يوسف اسم المَلِك ، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ﴾ في سورة الأعراف (103) .

و ﴿ هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك ﴾ عرْض وترغيب قال تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : 44] .

وقوله : ﴿ هل لك ﴾ تركيب جرى مجرى المثل فلا يغير عن هذا التركيب لأنه قصد به الإيجاز يقال : هل لك إلى كذا ؟ وهل لك في كذا ؟ وهو كلام يقصد منه العرض بقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل ؟ ومنه قول كعب :

ألا بلّغا عني بجيراً رسالة

فهل لك فيما قُلْت ويْحَكَ هَلْ لَكَا . . .

بضم تاء (قلتُ) .

وقول بجير أخيه في جوابه عن أبياته :

مَن مبلغٌ كعباً فهل لك في التي

تَلومُ عليها باطلاً وهي أحزم . . .

و﴿ لك ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره : هل لك رغبة في كذا ؟ فحُذف (رغبة) واكتفي بدلالة حرف (في) عليه ، وقالوا : هل لك إلى كذا ؟ على تقدير : هل لك مَيل ؟ فحذف (مَيل) لدلالة (إلى) عليه .

(216/800)

قال الطيبي : "قال ابن جني : متى كان فعل من الأفعال في معنى فعل آخر فكثيراً ما يُجرَى أحدهما مُجرى صاحبه فيعوَّل به في الاستعمال إليه (كذا) ويحتذى به في تصرفه حذو صاحبه وإن كان طريقُ الاستعمال والعرف ضده مأخذه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ وأنت إنما تقول : هل لك في كذا ؟ لكنه لما دخله معنى : آخُذُ بك إلى كذا أو أدعوك إليه ، قال : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ [البقرة : 187] لا يقال :

رفثت إلى المرأة ، إنما يقال : رفثت بها ، ومعها ، لكن لما كان الرفث في معنى الإِفضاء عدّي بـ (إلى) وهذا من أسَدّ مذاهب العربية ، لأنه موضع يملك فيه المعنى عِنان الكلام فيأخذه إليه" ا ه .

قيل : ليس هذا من باب التضمين بل من باب المجاز والقرينة الجارة .

و﴿ تزكى ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر ويعقوب بتشديد الزاي على اعتبار أن أصله : تتزكى ، بتاءين ، فقلبت التاء المجاورة للزاي زاياً لتقارب مخرجيهما وأدغمت في الزاي .

وقرأه الباقون بتخفيف الزاي على أنه حذفت إحدى التاءين اقتصاراً للتخفيف .

وفعل ﴿ تزكى ﴾ على القراءتين أصله : تتزكى بتاءين مضارع تزكّى مطاوع زكاه ، أي جعله زكياً .

والزكاة : الزيادة ، وتطلق على الزيادة في الخير النفساني قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : 9 ، 10] وهو مجاز شائع ساوى الحقيقة ولذلك لا يحتاج إلى قرينة .

والمعنى : حَثُّهُ على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة التي هي خبث مجازي في النفس فيقبَل إرشاد من يرشده إلى ما به زيادة الخير فإن فعل المطاوعة يؤذن بفعل فَاعِل يعالج نفسه ويروضها إذ كان لم يهتد أن يزكي نفسه بنفسه .

ولذلك أعقبه بعطف ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أي إن كان فيك إعداد نفسك للتزكية يكن إرشادي إياك فتخشى ، فكان ترتيب الجمل في الذكر مراعىً فيه ترتبها في الحصول فلذلك لم يحتج إلى عطفه بفاء التفريع ، إذ كثيراً ما يستغنى بالعطف بالواو مع إرادة الترتيب عن العطف بحرف الترتيب لأن الواو تفيد الترتيب بالقرينة ، ويستغنى بالعطف عن ذكر حرف التفسير في العطف التفسيري الذي يكون الواو فيه بمعنى (أي) التفسيرية فإنَّ ﴿ أن تزكى وأهديك ﴾ في قوة المفرد .

والتقدير : هل لك في التزكية وهدايتي إياك فخشيتك الله تعالى .

والهداية الدلالة علء الطريق الموصل إلى المطلوب إذا قبلها المَهْدي .

وتفريع ﴿ فتخشى ﴾ على ﴿ أهديك ﴾ إشارة إلى أن خشية الله لا تكون إلا بالمعرفة قال تعالى : ﴿ إنما يخشى اللَّه من عبادة العلماء ﴾ [فاطر : 28] ، أي العلماء به ، أي يخشاه خشية كاملة لا خطأ فيها ولا تقصير .

قال الطيبي : وعن الواسطي : أوائل العلم الخشية ، ثم الإِجلال ، ثم التعظيم ، ثم الهيبة ، ثم الفناء .

وفي الاقتصار على ذكر الخشية إيجاز بليغ لأن الخشية ملاك كل خير .

وفي "جامع الترمذي" عن أبي هريرة قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

من خَافَ أَدْلَج ومن أَدْلَج بلغ المنزل " .

وذُكِر له الإله الحق بوصف ﴿ ربك ﴾ دون أن يذكر له اسمُ الله العلم أو غيره من طرق التعريف إلطافاً في الدعوة إلى التوحيد وتجنباً لاستطارة نفسه نفوراً ، لأنه لا يعرف في لغة فرعون اسم لله تعالى ، ولو عَرَّفه له باسمه في لغة إسرائيل لنَفر لأن فرعون كان يعبد آلهة باطلة ، فكان في قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ وفرعون يعلم أن له رباً إطماع له أن يرشده موسى إلى ما لا ينافي عقائده فيُصغي إليه سمعه حتى إذا سمع قوله وحجته داخَلَهُ الإِيمان الحق مدرَّجاً ، ففي هذا الأسلوب استنزالٌ لطائره .

(218/800)

والخشية : الخوف فإذا أطلقت في لسان الشرع يراد بها خشية الله تعالى ، ولهذا نُزل فعلها هنا منزلة اللازم فلم يذكر له مفعول لأن المخشي معلوم مثل فعل الإِيمان في لسان الشرع يقال : آمَن فلان ، وفلان مؤمن ، أي مؤمن بالله ووحدانيته .

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20)

الفاء في قوله : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ فصيحة وتفريع على محذوف يقتضيه قوله ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ [النازعات : 17] .

والتقدير : فذهب فدعاه فكذبه فأراه الآية الكبرى ، وذلك لأن قوله : ﴿ إنه طغى ﴾ [النازعات : 17] يؤذن بأنه سيلاقي دعوةَ موسى بالاحتقار والإِنكار ، لأن الطغيان مِظنّة ذينك ، فعرض موسى عليه إظهار آية تدل على صدق دعوته لعله يوقن كما قال تعالى : ﴿ قال أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ [الشعراء : 30 32] ، فتلك هي الآية الكبرى المرادة هنا .

والآية : حقيقتها العلامة والأمارة ، وتطلق على الحجة المثبتة لأنها علامة على ثبوت الحق ، وتطلق على معجزة الرسول لأنها دليل على صدق الرسول وهو المراد هنا .

وأعقب فعل ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ بفعل ﴿ فكذب ﴾ للدلالة على شدة عناده ومكابرته حتى أنه رأى الآية فلم يتردد ولم يتمهل حتى ينظرَ في الدلالة ، بل بادر إلى التكذيب والعصيان .

والمراد بعصيانه عصيان أمر الله أن يوحده أو أن يُطلق بني إسرائيل من استعبادهم وتسخيرهم للخدمة في بلاده .

وعطف ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ بـ ﴿ ثم ﴾ للدلالة على التراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجُمل ، فأفادت ﴿ ثم ﴾ أن مضمون الجملة المعطوفة بها أعلى رتبة في الغرض الذي تضمنته الجملة قبلها ، أي أنه ارتقى من التكذيب والعصيان إلى ما هو أشد وهو الإِدبار والسعي وادعاء الإلهية لنفسه ، أي بعد أن فكّر ملياً لم يقتنع بالتكذيب والعصيان

فخشي أنه إن سكت ربما تروج دعوة موسى بين الناس فأراد الحيطة لدفعها وتحذيرَ الناس منها .

(219/800)

والإِدبار والسعي مستعملان في معنييهما المجازيين فإن حقيقة الإِدبار هو المشي إلى الجهة التي هي خَلْف الماشي بأن يكون متوجهاً إلى جهة ثم يتوجه إلى جهة تعاكسها .

وهو هنا مستعار للإِعراض عن دعوة الداعي مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لمسيلمة لما أبى الإِيمان : " ولئن أدبرتَ ليَعْقِرَنَّكَ اللَّه " .

وأما السعي فحقيقته : شدة المشي ، وهو هنا مستعار للحرص والاجتهاد في أمره الناسَ بعدم الإِصغاء لكلام موسى ، وجمع السحرة لمعارضة معجزته إذ حسبها سحراً كما قال تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾ [طه : 60] .

والعمل الذي يسعى إليه يبينه قوله تعالى : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ فثلاثتها مرتبة على ﴿ يسعى ﴾ .

فجملة ﴿ فحشر ﴾ عطف على جملة ﴿ يسعى ﴾ لأن فرعون بذل حرصه ليقنع رعيته بأنه الربُّ الأعلى خشية شيوع دعوة موسى لعبادة الرب الحق .

:

ويجوز أن يكون ﴿ أدبر ﴾ على حقيقته ، أي ترك ذلك المجمع بأن قام معرضاً إعلاناً بغضبه على موسى ويكون ﴿ يسعى ﴾ مستعملاً في حقيقته أيضاً ، أي قام يشتدّ في مشيه وهي مشية الغاضب المعرض .

والحشر : جمع الناس ، وهذا الحشر هو المبيّن في قوله تعالى:

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ [الشعراء : 36 ، 37] .

وحذف مفعول (حشر) لظهوره لأن الذين يحشرون هم أهل مدينته من كل صنف .

وعطف ﴿ فنادى ﴾ بالفاء لإِفادة أنه أعلن هذا القول لهم بفور حضورهم لفرط حرصه على إبلاغ ذلك إليهم .

والنداء : حقيقته جهر الصوت بدعوة أحد ليحضر ولذلك كانت حروف النداء نائبة مناب (أدعو) فنصبَت الاسم الواقع بعدها .

ويطلق النداء على رفع الصوت دون طلب حضور مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم كقول الحريري في "المقامة الثلاثين" "فحِين جلس كأنه ابنُ ماءِ السماء ، نادَى مُنادٍ من قِبَل الأحماء" الخ .

وحذف مفعول (نادى) كما حذف مفعول (حشر) .

وإسناد الحشر والنداء إلى فرعون مجاز عقلي لأنه لا يباشر بنفسه حشر الناس ولا نداءهم ولكن يأمر أتباعه وجنده ، وإنما أسند إليه لأنه الذي أمر به كقولهم : بنَى المنصور بغداد .

والقول الذي نادى به هو تذكير قومِه بمعتقدهم فيه فإنهم كانوا يعتبرون مَلك مصر إلها لأن الكهنة يخبرونهم بأنه ابن (آمون رَعْ) الذي يجعلونه إلها ومَظهَره الشمس .

وصيغة الحصر في ﴿ أنا ربكم ﴾ لردّ دعوة موسى .

وقوله : ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ بدل من جملة ﴿ فنادى ﴾ بدلاً مطابقاً بإعادة حرف العطف ، وهو الفاء لأن البدل قد يقترن بمثل العامل في المبدَل منه لقصد التأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ وتقدم في سورة الأنعام (99) .

ويجوز أن تكون جملة : فقال أنا ربكم ﴾ عطفاً على جملة ﴿ يسعى ﴾ على أن يكون فرعون أمر بهذا القول في أنحاء مملكته ، وليس قاصراً على إعلانه في الحشر الذين حشرهم حول قصره .

فوصف نفسه بالرب الأعلى لأنه ابن (أمون رَعْ) وهو الرّب الأعلى ، فابنه هو القائم بوصفه ، أو لأنه كان في عصر اعتقاده : أن فرعون رب الأرباب المتعددة عندهم فصفة ﴿ الأعلى

﴿ صفة كاشفة .

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)

جملة ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ مفرعة عن الجُمل التي قبلها ، أي كان ما ذكر من تكذيبه وعصيانه وكيده سبباً لأن أخذه الله ، وهذا هو المقصود من سَوق القصة وهو مناط موعظة المشركين وإنذارهم ، مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته .

وحقيقة الأخذ : التناول باليد ، ويستعار كثيراً للمقدرة والغلبة كما قال تعالى : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ [القمر : 42] وقال : ﴿ فأخذهم أخذةً رابية ﴾ [الحاقة : 10] .

والمعنى : فلم يُفلت من عقاب الله .

والنكال : اسم مصدر نكَّل به تنكيلاً وهو مِثل : السَّلام ، بمعنى التسليم .

(221/800)

ومعنى النكال : إيقاع أذى شديد على الغير من التشهير بذلك بحيث يُنَكِّل ، أي يَرُد ويَصْرِف من يشاهده عن أن يأتي بمثل ما عومل به المنكَّل به ، فهو مشتق من النكول وهو النكوص والهروب ، قال تعالى : ﴿ فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها ﴾ في سورة

البقرة (66) .

وانتصب نكال ﴾ على المفعولية المطلقة لفعل "أخذه" مبين لنوع الأخذ بنوعين منه لأن الأخذ يقع بأحوال كثيرة .

وإضافة ﴿ نكال ﴾ إلى ﴿ الآخرة والأولى ﴾ على معنى (في) .

فالنكال في الأولى هو الغرق ، والنكال في الآخرة هو عذاب جهنم .

وقد استُعمل النكال في حقيقته ومجازه لأن ما حصل لفرعون في الدنيا هو نكال حقيقي وما يصيبه في الآخرة أطلق عليه النكال لأنه يشبه النكال في شدة التعذيب ولا يحصل به نكالٌ يوم القيامة .

وورود فعل "أخذه" بصيغة المضي مع أن عذاب الآخرة مستقبل ليوم الجزاء مُراعىً فيه أنه لما مات ابتدأ يذوق العذاب حين يرى منزلته التي سيؤول إليها يوم الجزاء كما ورد في الحديث .

وتقديم ﴿ الآخرة ﴾ على ﴿ الأولى ﴾ في الذكر لأنّ أمر الآخرة أعظم .

وجاء في آخر القصة بحوصلة وفذلكة لما تقدم فقال : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ فهو في معنى البيان لمضمون جملة ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ [النازعات : 15] الآيات .

والإِشارة بقوله : ﴿ في ذلك ﴾ إلى ﴿ حديث موسى ﴾ [النازعات : 15] .

والعِبرة : الحالة التي ينتقل الذهن من معرفتها إلى معرفة عاقبتها وعاقبة أمثالها ، وهي مشتقة من العَبْر ، وهو الانتقال من ضفة وادٍ أو نهر إلى ضفته الأخرى .

والمراد بالعبرة هنا الموعظة .

وتنوين (عبرة) للتعظيم لأن في هذه القصة مواعظ كثيرة من جهات هي مَثُلات للأعمال وعواقبها ، ومراقبةِ الله وخشيته ، وما يترتب على ذلك وعلى ضده من خير وشر في الدنيا والآخرة .

(222/800)

وجُعل ذلك عبرة لمن يخشى ، أي من تُخالط نفسَه خشيةُ الله لأن الذين يخشون الله هم أهل المعرفة الذين يفهمون دلالة الأشياء على لوازمها وخفاياها ، قال تعالى : ﴿ إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] وقال : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] .

والخشية تقدمت قريباً في قوله : ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ [النازعات : 19] .

وفي هذا تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا بأهل للانتفاع بمثل هذا كما لم ينتفع بمثله فرعون وقومه .

وفي القصة كلها تعريض بسادة قريش من أهل الكفر مثل أبي جهل بتنظيرهم بفرعون وتنظير الدهماء بالقوم الذين حشرهم فرعون ونادى فيهم بالكفر ، وقد عَلِم المسلمون مضرب هذا المثل فكان أبو جهل يوصف عند المسلمين بفرعون هذه الأمة .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ ولام الابتداء لتنزيل السامعين الذين سيقت لهم القصة منزلة من ينكر ما فيها من المواعظ لعدم جريهم على الاعتبار والاتعاظ بما فيها من المواعظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(223/800)

قوله تعالى ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم قصة فرعون – لعنه الله – بالعبرة ، وكان أعظم عبرتها القدرة التامة لا سيما على البعث كما هي مشيرة إليه بأولها وآخرها ، والعقوبة على التكذيب به لأن التكذيب به

يجمع مجامع الشر والتصديق به يجمع مجامع الخير ، وكانوا يستبعدونه لاستبعاد القدرة عليه ، وصل به ما هو كالنتيجة منه ، فقال مقرراً مخاطباً لأصحاب الشبهة الشاكين موقفاً لهم على القدرة منكراً عليهم استبعادهم وذلك ملتفتاً بعد تخصيص الخطاب به ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما تقدم من دقة فهمه وجلالة علمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عموم الخطاب لوضوح هذا البرهان لكل إنسان استعطافاً بهم في توبيخ : ﴿ أأنتم ﴾ أي أيها الأحياء مع كونكم خلقاً ضعيفاً ﴿ أشد خلقاً ﴾ أي أصعب وأثقل من جهة التقدير والإيجاد ﴿ أم السماء ﴾ على ما فيها من السعة والكبر والعلو والمنافع .

ولما كان الجواب قطعاً : السماء – لما يرى من أعظمها لأن العالم الإنساني مختصر العالم الآفاقي ، ويزيد الآفاقي طول البقاء مع عدم التأثر ، وصل به قوله دليلاً على قدرته على البعث لقدرته على ما هو أشد منه لأن الذي قدر على ابتداء الأكبر هو على إعادة الأصغر أقدر ، مبيناً لكيفية خلقه لها : ﴿ بناها ﴾ أي جعلها سقفاً للأرض على ما لها من العظمة ، ثم بين البناء بقوله : ﴿ رفع سمكها ﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو سمنها الذاهب في العلو رفيعاً ، قال في القاموس : السمك السقف ، أو من أعلى البيت إلى أسفله ، أو القامة من كل شيء ، وقال أبو حيان : السمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الذي يلينا وسطحها الذي يلي ما فوقها : ﴿ فسواها ﴾ أي عدلها عقب ذلك بأن جعلها مستوية لا شيء فيها أعلى من شيء ولا أخفض ولا فطور فيها ، وأصلحها بما تم به كمالها

من الكواكب وغيرها ، وجعل مقدار تخن كل سماء وما بين كل سماءين وتخن كل أرض وما بين كل أرضين على السواء لا يزيد شيء من ذلك على الآخر أصلاً .

(224/800)

ولما كان كل من ذلك يدل على القدرة على البعث لأنه إيجاد ما هو أشد من خلق الآدمي من عدم ، أتبعه ما يتصور به البعث في كل يوم وليلة مرتين فقال : ﴿ وأغطش ﴾ أي أظلم إظلاماً لا يهتدي معه إلى ما كان في حال الضياء ﴿ ليلها ﴾ أي بغياب شمسها فأخفى ضياءها بامتداد ظل الأرض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه .

وأضافه إليها لأنه يحدث بحركتها ، وبدأ به لأنه كان أولاً ، والعدم قبل الوجود ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ بطلوع شمسها فأضاء نهارها ، فالآية من الاحتباك : دل ب " أغطش " على " أضاء " وبإخراج الضحى على إخفاء الضياء ، ولعله عبر بالضحى عن النهار لأنه أزهر ما فيه وأقوى نوراً .

ولما بدأ بدلالة العالم العلوي لأنه أدل لما فيه من العجائب والمنافع مع كونه أشرف ، فذكر أنه أتقن السماء التي هي كالذكر ، ثنى بأنه سوى ما هي لها كالأنثى فقال : ﴿ والأرض ﴾ ولما كان المراد استغراق الزمان باستمرار الدحو ، حذف الخافض فقال : ﴿ بعد ذلك ﴾ أي

المذكور كله ﴿ دحاها ﴾ أي بسطها ومدها للسكنى وبقية المنافع بعد أن كان خلقها وأوجدها قبل إيجاد السماء غير مسواة بالفعل ولا مدحوة .

ولما ذكر الدحو ، أتبعه ما استلزمه من المنافع لتوقف السكنى المقصودة بالدحو عليه فقال كالمبين له من غير عاطف : ﴿ أخرج منها ﴾ أي الأرض ﴿ ماءها ﴾ بتفجير العيون ، وإضافته إليها دليل على أنه فيها ﴿ ومرعاها ﴾ الذي يخرج بالماء ، والمراد ما يرعى منها ومكانه وزمانه .

ولما ذكر الأرض ومنافعها ، ذكر المراسي التي تم بها نفعها فقال : ﴿ والجبال ﴾ أي خاصة ﴿ أرساها ﴾ أي أثبتها وأقرها ومع كونها ثابتة لا تتحول فإنه سبحانه جعلها مراسي للأرض تكون سبباً لثباتها كما أن المراسي سبب لثبات السفينة .

(225/800)

ولما كانت الإعادة واضحة من تناول الحيوان المأكل والمشرب وغيرهما من المتاع فإنه كلما نقص منه شيء تناول ما قدر له ليعود ذلك أو بعضه ، قال منبهاً على أنه كل يوم في إعادة بانياً حالاً مما تقدم تقديره : حال كونها ﴿ متاعاً ﴾ مقدراً ﴿ لكم ﴾ تتمتعون بما فيها من

المنافع ﴿ ولأنعامكم ﴾ أي مواشكيم بالرعي وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 317.319 ﴾

(226/800)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) ﴾

ثم اعلم أنه تعالى لما ختم هذه القصة رجع إلى مخاطبة منكري البعث ، فقال : ﴿ أأنتم أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في المقصود من هذا الاستدلال وجهان الأول : أنه استدلال على منكري البعث فقال : ﴿ أأنتم أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء ﴾ فنبههم على أمر يعلم بالمشاهدة .

وذلك لأن خلقة الإنسان على صغره وضعفه ، إذا أضيف إلى خلق السماء على عظمها وعظم أحوالها يسير ، فبين تعالى أن خلق السماء أعظم ، وإذا كان كذلك فخلقهم على وجه الإعادة أولى أن يكون مقدوراً لله تعالى فكيف ينكرون ذلك ؟ ونظيره قوله :

﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : 81]

وقوله : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] والمعنى أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء أي عندكم ، وفي تقديركم ، فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد والثاني : أن المقصود من هذا الاستدلال بيان كونهم مخلوقين ، وهذا القول ضعيف لوجهين أحدهما : أن من أنكر كون الإنسان مخلوقاً فبأن ينكر (ه) في السماء كان أولى وثانيهما : أن أول السورة كان في بيان مسألة الحشر والنشر ، فحمل هذا الكلام عليه أولى .

المسألة الثانية :

قال الكسائي والفراء والزجاج : هذا الكلام تم عند قوله : ﴿ أَمِ السماء ﴾ .

(227/800)

ثم قوله تعالى : ﴿ بناها ﴾ ابتداء كلام آخر ، وعند أبي حاتم الوقف على قوله : ﴿ بناها ﴾ قال : لأنه من صلة السماء ، والتقدير : أم السماء التي بناها ، فحذف التي ، ومثل هذا الحذف جائز ، قال القفال : يقال : الرجل جاءك عاقل ، أي الرجل الذي جاءك عاقل إذا ثبت أن هذا جائز في اللغة فنقول : الدليل على أن قوله : ﴿ بناها ﴾ صلة لما قبله

أنه لو لم يكن صلة لكان صفة ، فقوله : ﴿ بناها ﴾ صفة ، ثم قوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ صفة ، فقد توالت صفتان لا تعلق لإحداهما بالأخرى ، فكان يجب إدخال العاطف فيما بينهما ، كما في قوله : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ [النازعات : 29] فلما لم يكن كذلك علمنا أن قوله : ﴿ بناها ﴾ صلة للسماء ، ثم قال : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ ابتداء بذكر صفته ، وللفراء أن يحتج على قوله بأنه لو كان قوله : ﴿ بناها ﴾ صلة للسماء لكان التقدير : أم السماء (التي) بناها ، وهذا يقتضي وجود سماء ما بناها الله ، وذلك باطل .

المسألة الثالثة :

الذي يدل على أنه تعالى هو الذي بنى السماء وجوه أحدها : أن السماء جسم ، وكل جسم محدث ، لأن الجسم لو كان أزلياً لكان في الأزل إما أن يكون متحركاً أو ساكناً ، والقسمان باطلان ، فالقول بكون الجسم أزلياً باطل .

أما الحصر فلأنه إما أن يكون مستقراً حيث هو فيكون ساكناً ، أو لا يكون مستقراً حيث هو فيكون متحركاً ، وإنما قلنا : إنه يستحيل أن يكون متحركاً ، لأن ماهية الحركة تقتضي المسبوقية بالغير ، وماهية الأزل تنافي المسبوقية بالغير والجمع بينهما محال ، وإنما قلنا : إنه

يستحيل أن يكون ساكناً ، لأن السكون وصف ثبوتي وهو ممكن الزوال ، وكل ممكن الزوال مفتقر إلى الفاعل المختار ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، فكل سكون محدث فيمتنع أن يكون أزلياً ، وإنما قلنا : إن السكون وصف ثبوتي ، لأنه يتبدل كون الجسم متحركاً بكونه ساكناً مع بقاء ذاته ، فأحدهما لابد وأن يكون أمراً ثبوتياً ، فإن كان الثبوتي هو السكون فقد حصل المقصود ، وأن كان الثبوتي هو الحركة وجب أيضاً أن يكون السكون ثبوتياً ، لأن الحركة عبارة عن الحصول في المكان بعد أن كان في غيره ، والسكون عبارة عن الحصول في المكان بعد أن كان فيه بعينه ، فالتفاوت بين الحركة والسكون ليس في الماهية ، بل في المسبوقية بالغير وعدم المسبوقية بالغير ، وذلك وصف عارضي خارجي عن الماهية ، وإذا كان كذلك فإذا ثبت أن تلك الماهية أمر وجودي في إحدى الصورتين وجب أن تكون كذلك في سورة أخرى ، وإنما قلنا : إن سكون السماء جائز الزوال ، لأنه لو كان واجباً لذاته لامتنع زواله ، فكان يجب أن لا تتحرك السماء لكنا نراها الآن متحركة ، فعلمنا أنها لو كانت ساكنة في الأزل ، لكان ذلك السكون جائز الزوال ، وإنما قلنا : إن ذلك السكون لما كان ممكناً لذاته ، افتقر إلى الفاعل المختار لأنه لما كان ممكناً لذاته ، فلا بد له من مؤثر ، وذلك المؤثر لا يجوز أن يكون موجباً ، لأن ذلك الموجب إن كان واجباً ، وكان غنياً في إيجابه لذلك المعلول عن شرط لزم من دوامه دوام ذلك الأثر ، فكان يجب أن لا يزول

للسكون وإن كان واجباً ومفتقراً في إيجابه لذلك المعلول إلى شرط واجب لذاته ، لزم من دوام العلة ودوام الشرط دوام

(229/800)

المعلول ، أما إن كان الموجب غير واجب لذاته ، أو كان شرط إيجابه غير واجب لذاته كان الكلام فيه كالكلام في الأول ، فيلزم التسلسل ، وهو محال أو الإنتهاء إلى موجب واجب لذاته ، وإلى شرط واجب لذاته ، وحينئذ يعود الإلزام الأول ، فثبت أن ذلك المؤثر لا بد وأن يكون فاعلاً مختاراً ، فإذاً كل سكون ، فهو فعل فاعل مختار ، وكل ما كان كذلك فهو محدث ، لأن المختار إنما يفعل بواسطة القصد ، والقصد إلى تكوين الكائن ، وتحصيل الحاصل محال ، فثبت أن كل سكون فهو محدث ، فثبت أنه يمتنع أن يكون الجسم في الأزل لا متحركاً ولا ساكناً ، فهو إذاً غير موجود في الأزل ، فهو محدث ، وإذا كان محدثاً افتقر في ذاته ، وفي تركيب أجزائه إلى موجد ، وذلك هو الله تعالى ، فثبت بالعقل أن باني السماء هو الله تعالى .

الحجة الثانية : كل ما سوى الواجب فهو ممكن وكل ممكن محدث وكل محدث فعل صانع ، إنما قلنا : كل ما سوى الواجب ممكن ، لأنا لو فرضنا موجودين واجبين لذاتيهما لاشتركا في

الوجود ولتباينا بالتعيين ، فيكون كل منهما مركباً مما به المشاركة ، ومما به الممايزة ، وكل مركب مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته ، فكل واحد من الواجبين بالذات ممكن بالذات هذا خلف ، ثم ينقل الكلام إلى ذينك الجزأين ، فإن كانا واجبين ، كان كل واحد من تلك الأجزاء مركباً ويلزم التسلسل ، وإن لم يكونا واجبين كان المفتقر إليهما أولى بعدم الوجود فثبت أن ما عدا الواجب ممكن وكل ممكن فله مؤثر وكل ما افتقر إلى المؤثر محدث ، لأن الافتقار إلى المؤثر لا يمكن أن يتحقق حال البقاء لاستحالة إيجاد الموجد ، فلا بد وأن يكون إما حال الحدوث أو حال العدم ، وعلى التقديرين فالحدوث لازم فثبت أن ما سوى الواجب محدث وكل محدث فلا بد له من محدث ، فلا بد للسماء من بان .

(230/800)

الحجة الثالثة : صريح العقل يشهد بأن جرم السماء لا يمتنع أن يكون أكبر مما هو الآن بمقدار خردلة ، ولا يمتنع أن يكون أصغر بمقدار خردلة ، فاختصاص هذا المقدار بالوقوع دون الأزيد والأنقص ، لا بد وأن يكون بمخصص ، فثبت أنه لا بد للسماء من بان : فإن قيل لم لا يجوز أن يقال : إنه تعالى خلق شيئاً وأعطاه قدرة يتمكن ذلك المخلوق بتلك القدرة من

خلق الأجسام فيكون خالق السماء وبانيها هو ذلك الشيء ؟ الجواب : من العلماء من قال : المعلوم بالعقل أنه لا بد للسماء من محدث وأنه لا بد من الانتهاء آخر الأمر إلى قديم والإله قديم واجب الوجود لذاته واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، فأما نفي الواسطة فإنما يعلم بالسمع فقوله في هذه الآية : ﴿ بناها ﴾ يدل على أن باني السماء هو الله لا غيره ، ومنهم من قال بل العقل يدل على بطلانه لأنه لما ثبت أن كل ما عداه محدث ثبت أنه قادر لا موجب ، والذي كان مقدوراً له إنما صح كونه مقدوراً له بكونه ممكناً ، فإنك لو رفعت الإمكان بقي الوجوب أو الامتناع وهما يحيلان المقدورية ، وإذا كان ما لأجله صح في البعض أن يكون مقدوراً لله وهو الإمكان والإمكان عام في الممكنات وجب أن يحصل في كل الممكنات صحة أن تكون مقدورة لله تعالى ، وإذا ثبت ذلك ونسبة قدرته إلى الكل على السوية وجب أن يكون قادراً على الكل ، وإذا ثبت أن الله قادر على الممكنات فلو قدرنا قادراً آخر قدر على بعض الممكنات ، لزم وقوع مقدور واحد بين قادرين من جهة واحدة ، وذلك محال ، لأنه إما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال ، لأنهما لما كانا مستقلين بالاقتضاء فليس وقوعه بهذا أولى من وقوعه بذاك أو بهما معاً ، وهو أيضاً محال لأنه يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، فيكون محتاجاً إليهما معاً وغنياً عنهما معاً وهو محال ، فثبت بهذا أنه لا يمكن وقوع ممكن آخر بسبب آخر سوى قدرة الله تعالى ، وهذا الكلام جيد ، لكن على قول من لا يثبت في الوجود

مؤثراً سوى الواحد ، فهذا جملة ما في هذا الباب .

واعلم أنه تعالى لما بين في السماء أنه بناها ، بين بعد ذلك أنه كيف بناها ، وشرح تلك الكيفية من وجوه :

أولها : ما يتعلق بالمكان ، فقال تعالى : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ .

واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقاً ، وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سمكاً ، فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين الأرض وبينها مسيرة خمسمائة عام ، و (قد) بين أصحاب الهيئة مقادير الأجرام الفلكية وأبعاد ما بين كل واحد منها وبين الأرض .

وقال آخرون : بل المراد : رفع سمكها من غير عمد .

وذلك مما لا يصح إلا من الله تعالى .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ وفيه وجهان الأول : المراد تسوية تأليفها ، وقيل : بل المراد نفي الشقوق عنها ، كقوله : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ [الملك : 3] والقائلون بالقول الأول قالوا : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ عام فلا يجوز تخصيصه بالتسوية في بعض

الأشياء ، ثم قال هذا يدل على كون السماء كرة ، لأنه لو لم يكن كرة لكان بعض جوانبه سطحاً ، والبعض زاوية ، والبعض خطاً ، ولكان بعض أجزائه أقرب إلينا ، والبعض أبعد ، فلا تكون التسوية الحقيقة حاصلة ، فوجب أن يكون كرة حتى تكون التسوية الحقيقة حاصلة ، ثم قالوا لما ثبت أنها محدثة مفتقرة إلى فاعل مختار ، فأي ضرر في الدين ينشأ من كونها كرة ؟ .

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29)

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(232/800)

أغطش قد يجيء لازماً ، يقال : أغطش الليل إذا صار مظلماً ويجيء متعدياً يقال : أغطشه الله إذا جعله مظلماً ، والغطش الظلمة ، والأغطش شبه الأعمش ، ثم ههنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس ، فقوله : ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلماً ، وهو بعيد والجواب : معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله وتقديره : وحينئذ لا يبقى

الإشكال .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ أي أخرج نهاراً ، وإنما عبر عن النهار بالضحى ، لأن الضحى أكمل أجزاء النهار في النور والضوء .

المسألة الثالثة :

إنما أضاف الليل والنهار إلى السماء ، لأن الليل والنهار إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك ، فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء ، ثم إنه تعالى لما وصف كيفية خلق السماء أتبعه بكيفية خلق الأرض وذلك من وجوه : الصفة الأولى : قوله تعالى :

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

دحاها بسطها ، قال زيد بن عمرو بن نفيل :

دحاها فلما رآها استوت . . على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبي الصلت :

دحوت البلاد فسويتها . . وأنت على طيها قادر

قال أهل اللغة في هذه اللفظة لغتان دحوت أدحو ، ودحيت أدحى ، ومثله صفوت وصفيت ولحوت العود ولحيته وسأوت الرجل وسأيته وبأوت عليه وبأيت ، وفي حديث علي عليه السلام " اللهم داحي المدحيات " أي باسط الأرضين السبع وهو المدحوات أيضاً ، وقيل : أصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان ، ومنه يقال : إن الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها على وجه الأرض ، وأدحى النعامة موضعه الذي يكون فيه أي بسطته وأزلت ما فيه من حصى ، حتى يتمهد له ، وهذا يدل على أن معنى الدحو يرجع إلى الإزالة والتمهيد .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يقتضي كون الأرض بعد السماء ، وقوله : في حما السجدة ، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء ﴾ [فصلت : 11] يقتضي كون السماء بعد الأرض ، وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء ﴾ [البقرة : 29] ولا بأس بأن نعيد بعض تلك الوجوه أحدها : أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماء ثانياً ثم دحى الأرض أي بسطها ثالثاً ، وذلك لأنها كانت أولاً كالكرة المجتمعة ، ثم إن الله تعالى مدها

وبسطها ، فإن قيل الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض الآن كرة أيضاً ، وإشكال آخر وهو أن الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي ، فيستحيل أن يكون هذا الجسم مخلوقاً ولا يكون ظاهره مدحواً مبسوطاً وثانيها : أن لا يكون معنى قوله ﴿ دحاها ﴾ : مجرد البسط ، بل يكون المراد أنه بسطها بسطاً مهيأ لنبات الأقوات وهذا هو الذي بينه بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها ﴾ [النازعات : 31] وذلك لأن هذا الاستعداد لا يحصل للأرض إلا بعد وجود السماء فإن الأرض كالأم والسماء كالأب ، وما لم يحصلا لم تتولد أولاً المعادن والنباتات والحيوانات وثالثها : أن يكون قوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي مع ذلك كقوله : ﴿ عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] أي مع ذلك ، وقولك للرجل أنت كذا وكذا ثم أنت بعدها كذا لا تريد به الترتيب ، وقال تعالى : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] والمعنى وكان مع هذا من أهل الإيمان بالله ، فهذا تقرير ما نقل عن ابن عباس ومجاهد والسدي وابن جريج أنهم قالوا في قوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ أي مع ذلك دحاها .

المسألة الثالثة :

لما ثبت أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السماء ثانياً ، ثم دحى الأرض بعد ذلك ثالثاً ، ذكروا في تقدير تلك الأزمنة وجوهاً .

روي عن عبد الله بن عمر "خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة ، ومنه دحيت الأرض" واعلم أن الرجوع في أمثال هذه الأشياء إلى كتب الحديث أولى .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31)

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ماؤها عيونها المتفجرة بالماء ومرعاها رعيها ، وهو في الأصل موضع الرعي ، ونصب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسى على شريطة التفسير ، وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء ، فإن قيل : هلا أدخل حرف العطف على أخرج قلنا لوجهين ؟ الأول : أن يكون معنى دحاها بسطها ومهدها للسكنى ، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل وإمكان القرار عليها بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتاداً لها حتى تستقر ويستقر عليها والثاني : أن يكون ﴿ أَخْرَجَ ﴾ حالاً ، والتقدير والأرض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماء

ومرعاها .

المسألة الثانية :

(235/800)

أراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام ، ونظيره قوله في النحل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : 10] وقال في سورة أخرى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ [عبس : 25 -26] إلى قوله : ﴿ متاعا لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾ [عبس : 32] فكذا في هذه الآية واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله : ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [يوسف : 12] وقرىء نرتع من الرعي ، ثم قال ابن قتيبة قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْء حَيّ ﴾ [الأنبياء : 30] فانظر كيف دل بقوله : ﴿ مَاءهَا ومرعاها ﴾ على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر ، والحب والثمر والعصف والحطب ، واللباس والدواء حتى النار والملح ، أما النار فلا شك أنها من العيدان قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتم أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة : 71 72] وأما الملح فلا شك أنه متولد من الماء ، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به ، فأصله الماء

والنبات ، ولهذا السبب تردد في وصف الجنة ذكرهما ، فقال : ﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [البقرة : 25] ثم الذي يدل على أنه تعالى أراد بالمرعى كل ما يأكله الناس والأنعام قوله في آخر هذه الآية : ﴿ متاعا لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾ [النازعات : 33] .

وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ والكلام في شرح منافع الجبال قد تقدم .

(236/800)

ثم إنه تعالى لما بين كيفية خلقه الأرض وكمية منافعها قال : ﴿ متاعا لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾ والمعنى أنا إنما خلقنا هذه الأشياء متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم ، واحتج به من قال : إن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح ، والكلام فيه قد مر غير مرة ، واعلم أنا بينا أنه تعالى إنما ذكر كيفية خلقة السماء والأرض ليستدل بها على كونه قادراً على الحشر والنشر ، فلما قرر ذلك وبين إمكان الحشر عقلاً أخبر بعد ذلك عن وقوعه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 40 . 45 ﴾

(237/800)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾

ثم وقف تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على جهة جمع النفس لتلقي الحديث ، فقال : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ الآية ، و" الوادي المقدس " : واد بالشام ، قال منذر بن سعيد : هو بين المدينة ومصر ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والأعمش وابن إسحاق : " طِوىً " بكسر الطاء منونة ، ورويت عن عاصم ، وقرأ الجمهور : " طُوى " بضمها ، وأجرى بعض القراء " طوى " وترك إجراءه ابن كثير وأبو عمرو ونافع وجماعة ، وقد تقدم شرح اللفظة في سورة طه ، وقوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ تفسير النداء الذي ناداه به ، ويحتمل أن يكون المعنى قال ﴿ اذهب ﴾ وفي هذه الألفاظ استدعاء حسن ، وذلك أنه أمر أن يقول به : ﴿ هل لك أن تزكى ﴾ ، وهذا قول جواب كل عاقل عنده نعم أريد أن أتزكى ، والتزكي هو التطهر من النقائص ، والتلبس بالفضائل ، وفسر بعضهم : ﴿ تزكى ﴾ بتسلم وفسرها بقول : لا إله إلا الله ، وهذا تخصيص وما ذكرناه يعم جميع هذا ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بخلاف عنه : " تزّكى " بشد الزاي ، وقرأ الباقون " تزَكى " بتخفيف الزاي ، ثم أمر موسى أن يفسر له التزكي الذي دعاه إليه بقوله : ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ ، والعلم تابع للهدى والخشية تابعة للعلم ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده

العلماء ﴾ [فاطر : 28] ، و﴿ الآية الكبرى ﴾ : العصا واليد ، قاله مجاهد وغيره ، وهما نصب موسى للتحدي فوقعت المعارضة في الواحدة وانقلب فيها فريق الباطل ، وقال بعض المفسرين : ﴿ أدبر يسعى ﴾ حقيقة قام من موضعه مولياً فاراً بنفسه عن مجالسة موسى عليه السلام ، وقال مجاهد : ﴿ أدبر ﴾ كناية عن إعراضه عن الإيمان ، و﴿ يسعى ﴾ معناه : يتحذم حل أمر موسى عليه السلام والرد في وجه شرعه ، وقوله ﴿ فحشر ﴾ معناه : جمع أهل مملكته ثم ناداهم بقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وروي عن ابن عباس أنه قال : المعنى : فنادى فحشر ، وقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ نهاية في المخرقة ونحوها باق في ملوك مصر

(238/800)

وأتباعهم .

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)

﴿ نكال ﴾ منصور على المصدر ، قال قوم ﴿ الآخرة ﴾ قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] ، و﴿ الأولى ﴾ قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ، وروي أنه مكث بعد قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات :

24] أربعين سنة ، وقيل هذه المدة بين الكلمتين ، وقال ابن عباس : ﴿ الأولى ﴾ قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] ، و ﴿ الآخرة ﴾ قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] وقال ابن زيد : ﴿ الأولى ﴾ الدنيا ، و ﴿ الآخرة ﴾ : الدار الآخرة ، أي أخذه الله بعذاب جهنم وبالغرق في الدنيا ، وقال مجاهد : عبارة عن أول معاصيه وكفره وآخرها أي نكل بالجميع ، و ﴿ نكال ﴾ نصب على المصدر ، والعامل فيه على رأي سيبويه " أخذ " لأنه في معناه ، وعلى رأي أبي العباس المبرد فعل مضمر من لفظ ﴿ نكال ﴾ ، ثم وقف تعالى على موضع العبرة بحال فرعون وتعذيبه ، وفي الكلام وعيد للكفار المخاطبين برسالة محمد عليه السلام ، ثم وقفهم مخاطبة منه تعالى للعالم والمقصد الكفار ، ويحتمل أن يكون المعنى : قل لهم يا محمد ﴿ أأنتم أشد خلقاً ﴾ الآية ، وفي هذه الآية دليل على أن بعث الأجساد من القبور لا يتعذر على قدرة الله تعالى ، و " السمك " : الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ، وقوله تعالى : ﴿ فسواها ﴾ يحتمل أن يريد جعلها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع ومنخفض ، ويحتمل أن يكون عبارة عن إتقان خلقها ولا يقصد معنى إملاس سطحها والله تعالى أعلم كيف هي ﴿ وأغطش ﴾ معناه : أظلم ، والأغطش الأعمى ومنه قول الشاعر [الأعشى] : [المتقارب]

نحرت لهم موهناً ناقتي . . . وليلُهم مدلهمٌّ عطش

ونسب الليل والضحى إليها من حيث هما ظاهران منها وفيها ، وقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ متوجه على أن الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها وبناها ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وقرأ مجاهد : و" الأرض مع ذلك " ، وقال قوم : إن ﴿ بعد ذلك ﴾ معناه مع ذلك ، والذي قلناه تترتب عليه آيات القرآن كلها ، ونسب الماء والمرعى إلى الأرض حيث هما يظهران فيها ، ودحو الأرض بشطها ومنه قول أمية بن أبي الصلت : [الكامل]

دار دحاها ثم أسكننا بها . . . وأقام بالأخرى التي هي أمجد

وقرأ الجمهور : " والأرضَ " نصباً ، وقرأ الحسن وعيسى ، و" الأرضُ " بالرفع ، وقرأ الجمهور : و" الجبالَ " نصباً ، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : " والجبالُ " رفعاً ، و﴿ أرساها ﴾ معناه : أثبتها ، وجمع هذه النعم إذا تدبرت فهي متاع للناس ، و" الأنعام " يتمتعون فيها وبها ، وقرأ الجمهور : " متاعاً " بالنصب ، وقرأ ابن أبي عبلة : " متاعٌ " بالرفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ :

يريد أهل مكة ، أي أخلقكم بعد الموت أشدّ في تقديركم ﴿ أَمِ السمآء ﴾ فمن قَدَرَ على السماء قَدَرَ على الإعادة ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ ، فمعنى الكلام التقريع والتوبيخ .

ثم وصف السماء فقال : ﴿ بَنَاهَا ﴾ أي رفعها فوقكم كالبناء .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أي أعلى سقْفها في الهواء ؛ يقال : سَمَكت الشيءَ أي رفعته في الهواء ، وسَمَك الشيءُ سُمُوكاً : ارتفع .

وقال الفرّاء : كل شيء حَمَل شيئاً من البناء وغيره فهو سَمْك .

وبناء مَسْمُوك وسَنام سامِك تامِك أي عالٍ ، والمسموكات : السَّمَوات .

ويقال : اسمك في الدَّيم ، أي اصعد في الدرجة .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي خلقها خلقاً مستوياً ، لا تفاوت فيه ، ولا شُقوق ، ولا فُطُور .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعله مظلماً ؛ غَطِشَ الليلُ وأغطشُه الله ؛ كقولك : ظَلِم الليلُ

وأظلمه الله .

ويقال أيضاً : أغطشَ الليلُ بنفسه ، وأغطشه الله ؛ كما يقال : أظلَم الليلُ ، وأظلمه الله .

والغَطَش والغَبَش : الظلمة .

ورجل أغطَش : أي أعمى ، أو شبيه به ، وقد غَطِش ، والمرأة غَطْشاء ؛ ويقال : ليلة غَطْشاء ، وليلٌ أغطش ، وفلاة غَطْشَى لا يُهْتَدَى لها ؛ قال الأعشى :

ويَهْماءَ بالليلِ غَطشَى الفَلا . . .

ةِ يؤنسِني صوتُ فَيادِها

وقال الأعشى أيضاً :

عَقَرْتُ لهمْ مَوْهِناً ناقتِي . . .

وغامِرُهُمْ مدلهِمٌّ غَطِشْ

يعني بغامرهم ليلهم ، لأنه غمرهم بسواده .

وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس ، والشمس مضاف إلى السماء ؛

ويقال : نجوم الليل ، لأن ظهورها بالليل .

﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي أبرز نهارَها وضوءها وشمسها .

وأضاف الضُّحا إلى السماء كما أضاف إليها الليل ؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها .

﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ أي بسطها .

وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء .

وقد مضى القول فيه في أول "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ثُمَّ اسْتوى إِلَى السمآء ﴾ [البقرة : 29] مستوفًى .

والعرب تقول : دَحَوْت الشيءَ أدحوه دحواً : إذا بسطته .

ويقال لعش النعامة أُدحِيّ ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض .

وقال أمية بن أبي الصلت :

وبثَّ الخلقَ فيها إذ دَحاها . . .

فهُمْ قُطَّانُها حتّى التنادِي

وأنشد المبرّد :

دحاها فلما رآها استوت . . .

على الماءِ أرسى عليها الجِبالاَ

وقيل : دحاها سوّاها ؛ ومنه قول زيد بن عمرو :

وأَسلمتُ وجهي لمن أَسلمتْ . . .

له الأَرضُ تحمِل صَخْراً ثِقالا

دحاها فلما استوت شَدَّها . . .

بأيدٍ وأرسَي عليها الجِبالا

وعن ابن عباس : خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان ، قبل أن يخلق الدنيا بألف عام ، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت .

وذكر بعض أهل العلم أنّ "بعد" في موضع "مع" كأنه قال : والأرض مع ذلك دحاها ؛ كما قال تعالى : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] .

ومنه قولهم : أنت أحمق وأنت بعد هذا سَيِّءُ الخلق ؛ قال الشاعر :

فقلت لها عَنّي إليكِ فإنّني . . .

حَرَامٌ وإني بعد ذاك لَبيبُ

أي مع ذلك لبيب .

وقيل : بعد : بمعنى قبل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ [الأنبياء : 105] أي من قبل الفرقان ؛ قال أبو خِرَاش الهذليّ :

حَمدتُ إلهِي بعد عروة إذ نجا . . .

خِراشٌ وبعض الشر أهون مِن بعضِ

وزعموا أَن خِراشاً نجا قبل عروة .

وقيل : "دحاها" : حرثَها وشقها .

قاله ابن زيد .

وقيل : دحاها مهّدها للأقوات .

والمعنى متقارب .

وقراءة العامة "والأَرضَ" بالنصب ، أي دحا الأرض .

(242/800)

وقرأ الحسن وعمرو ابن ميمون "والأرض" بالرفع ، على الابتداء ؛ لرجوع الهاء .

ويقال : دحا يدحو دَحْوا ودَحَى يَدْحَى دحيا ؛ كقولهم : طغَى يطغَى ويطغُو ، وطغِيَ يطغى ، ومحا يمحو ويمحي ، ولَحَى العودَ يلحَى ويلحو ، فمن قال : يدحو قال دحوت ومن قال يدحي قال دحْيت .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴾ أي أخرج من الأرض ﴿ مَآءَهَا ﴾ أي العيون المتفجرة بالماء .

﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ أي البنات الذي يُرْعَى .

وقال القُتَبي : دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب

والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء .

﴿ والجبال أَرْسَاهَا ﴾ قراءةُ العامة "والجبالَ" بالنصْب ، أي وأرسَى الجبال "أرساها" يعني : أثبتها فيها أوتاداً لها .

وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم "والجِبالُ" بالرفع على الابتداء .

ويقال : هلا أدخل حرف العطف على "أخرج" فيقال : إنه حال بإضمار قد ؛ كقوله تعالى : "حصِرت صدورهم" .

﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ ﴾ أي منفعة لكم .

﴿ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ من الإبل والبقر والغنم .

و"متاعا" نصب على المصدر من غير اللفظ ؛ لأن معنى "أخرج مِنها ماءها ومرعاها" أمتع بذلك .

وقيل : نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتتمتعوا به متاعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالَى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾

خطابٌ لأهل مكةَ المنكرين للبعث بناءً على صعوبتِه في زَعْمِهم بطريقِ التوبيخِ والتبكيتِ بعدَ ما بيّنَ كمالُ سهولتِه بالنسبةِ إلى قُدرةِ الله تعالى بقولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ أي أخلقُكُم بعد موتِكم أشدُّ أي أشقُّ وأصعبُ في تقديرِكم ﴿ أَمِ السماء ﴾ أي أمْ خلقُ السماءِ على عِظَمِها وانطوائِها على تعاجيبِ البدائعِ التي تحارُ العقولُ عن ملاحظةِ أدناهَا كقولِه تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ بناها ﴾ الخ ، بيانٌ وتفصيلٌ لكيفيةِ خلقِها المستفادِ من قولِه : أمِ السماءُ وفي عدمِ ذكرِ الفاعلِ فيه وفيما عُطفَ عليهِ من الأفعالِ من التنبيهِ على تعينِه وتفخيمِ شأنِه عزَّ وجلَّ ما لا يَخْفى . وقولُه تعالى : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ بيانٌ للبناء أي جعلَ مقدارَ ارتفاعِها من الأرضِ وذهابِها إلى سمتِ العلوِّ مديداً رفيعاً مسيرةَ خمسمائةِ عامٍ ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فعدَّلها مستويةً ملساءَ ليسَ فيها تفاوتٌ ولا فطورٌ أو فتممَها بما عَلم أنها تتمُّ بهِ من الكواكبِ والتداويرِ وغيرِها مما لا يعلمُه إلا الخلاّقُ العليمُ من قولِهم : سَوّى أمرَ فلانٍ إذا أصلَحَهُ ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعلَه مظلماً يقال : غطشَ الليلُ وأغطشَهُ الله تعالَى كما يقالُ : ظلَم

وأظلَمَهُ وقد مَرَّ هذا في قولِه تعالى : ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ ويقال أيضاً أغطشَ الليلُ كما يقالُ أظلمَ ﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ أي أبرزَ نهارَهَا عبرَ عنْهُ بالضُّحى لأنه أشرفُ أوقاتِهِ وأطيبُها فكانَ أحقَّ بالذكرِ في مقامِ الامتنانِ وهو السرُّ في تأخيرِ ذكرِ الليلِ وفي التعبيرِ عن إحداثِهِ بالاخراجِ فإنَّ إفاضةَ النورِ بعد الظلمةِ أتمُّ في الإنعامِ وأكملُ في الإحسانِ وإضافةُ

(244/800)

الليلِ والضُّحى إلى السماء لدوران حدوثهما على حركتها ويجوز أن تكون إضافة الضحى إليها بواسطةِ الشمسِ أي أبرزَ ضوءَ شمسِها والتعبيرُ عنه بالضُّحى لأنَّه وقتُ قيامِ سُلطانها وكمالِ إشراقِها .

(245/800)

﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ أي بسطَها ومهَّدها لسكْنى أهلِها وتقلبِهم في أقطارِها وانتصابُ الأرضَ بمضمرٍ يفسرُه دحاهَا ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ﴾ بأنْ فجرَ منها عيوناً

وأجْرَى أنهاراً ﴿ ومرعاها ﴾ أي رعيَها وهو في الأصلِ موضعُ الرَّعِي وقيلَ : هو مصدرٌ ميميٌّ بمَعنى المفعول ، وتجريدُ الجملةِ عن العاطفِ إما لأنَّها بيانٌ وتفسيرٌ لدحاهَا وتكملةٌ له فإنَّ السكْنى لا تتأتَّى بمجرد البسطِ والتمهيدِ بلْ لا بدَّ من تسوية أمرِ المعاشِ من المأكلِ والمشربِ حتماً وإما لأنها حالٌ من فاعِله بإضمارِ قدْ عندَ الجمهورِ أو بدونه عند الكوفيينَ والأخفشِ ، كما في قولِه تعالى : ﴿ أَوْ جَاءوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ ﴿ والجبال ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ يفسرُهُ ﴿ أرساها ﴾ أي أثبتَها وأثبتَ بها الأرضَ أن تميدَ بأهلِها وهذا تحقيقٌ للحقِّ وتنبيهٌ على أنَّ الرسوَّ المنسوبَ إليهَا في مواضعَ كثيرةٍ من التنزيلِ بالتعبيرِ عنها بالرَّوَاسِي ليسَ من مقتضياتِ ذواتِها بلْ هو بإرسائِه عزَّ وجلَّ ولولاهُ لما ثبتتْ في أنفسِها فضلاً عنْ إثباتِها للأرضِ وقُرِئَ والأرضُ والجبالُ بالرفعِ على الابتداءِ ولعلَّ تقديمَ إخراجِ الماءِ والمَرْعى ذكراً مع تقدمِ الإرساءِ عليهِ وجُوداً وشدةِ تعلقِه بالدَّحْوِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بأمرِ المأكلِ والمشربِ معَ ما فيهِ من دفعِ توهمِ رجوعِ ضميرَيْ الماءِ والمَرْعَى إلى الجبالِ وهذا كما ترَى يدلُّ بظاهرِه على تأخرِ دَحْوِ الأرضِ عن خلقِ السماءِ وما فيهَا كمَا يُروى عن الحسنِ مِنْ أنَّه تعالَى خلقَ الأرضَ في موضعِ بيتِ المقدسِ كهيئةِ الفهرِ عليه دُخانٌ ملتزقٌ بها ثمَّ أصعدَ الدخانَ وخلقَ منهُ السمواتِ وأمسكَ الفهرَ في موضعِها وبسطَ منها الأرضَ وذلكَ قولُه تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ الآيةَ وقد مرَّ في سورةِ حم السجدةِ أنَّ قولَه تعالَى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ

بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ الآيةَ إنْ حُملَ ما فيهِ من الخلقِ وما عطفَ عليهِ من الأفعالِ الثلاثةِ على معانيها الظاهرةِ لا على تقديرِها فهُو وما في سورةِ البقرةِ من قولِه تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ يدلانِ على تقدمِ خلقِ الأرضِ وما فيها على خلقِ السماءِ وما فيها وعليه إطباقُ أكثرِ أهلِ التفسيرِ . وقد رُوِيَ أنَّ العرشَ كانَ قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ على الماء ثم إنه تعالَى أحدثَ في الماء اضطراباً فأزبدَ فارتفعَ منه دخانٌ فأما الزبدُ فبقي على وجه الماءِ فخلقَ فيه اليبوسةَ فجعلَهُ أرضاً واحدةً ثم فتقَها فجعلها أَرضينَ وأما الدخانُ فارتفعَ وعلاَ فخلقَ منه السمواتِ ورُوِيَ أَنَّه تعالى خلقَ جرمَ الأرضِ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنينِ ودحاهَا وخلقَ ما فيها يومَ الثلاثاءِ ويومَ الأربعاءِ وخلقَ السمواتِ وما فيهن يومَ الخميسِ ويومَ الجمعةِ وخلقَ آدمَ عليه السلامُ في آخرِ ساعةٍ منه وهيَ الساعةُ التي تقومُ فيها القيامةُ فالأقربُ كما قيلَ تأويلُ هذه الآيةِ بأن يُجعلَ ذلكَ إشارةً إلى ذِكرِ ما ذُكِرَ من بناءِ السماءِ ورفعِ سَمكِها وتسويتِها وغيرِها لا إلى أنفسِها ويحملُ بعديةُ الدَّحْوِ عنْها عَلى البعديةِ في الذكرِ كما هُو المعهودُ في ألسنةِ العربِ والعجمِ لا

في الوجود لما عرفتَ من أنَّ انتصابَ الأرضِ بمضمرٍ مقدمٍ قد حُذِفَ على شريطةِ التفسيرِ لا بما ذُكِرَ بعدَهُ ليفيدَ القصرَ وتتعينَ البعديةُ في الوجودِ ، وفائدةُ تأخيرِه في الذكرِ إما التنبيهُ على أنَّه قاصرٌ في الدلالة على القدرة القاهرةِ بالنسبةِ إلى أحوالِ السماءِ وإما الإشعارُ بأنَّه أدخلُ في الإلزامِ لما أن المنافعَ المنوطةَ بما في الأرض أكثرُ وتعلقَ مصالحِ الناسِ بذلكَ أظهرُ وإحاطتَهم

(247/800)

بتفاصيلِ أحوالِه أكملُ وليسَ ما رُويَ عن الحسنِ نصاً في تأخرِ دحوِ الأرضِ عن خلقِ السماءِ فإن بسطَ الأرضِ معطوفٌ على إصعادِ الدخانِ وخلقِ السماءِ بالواوِ التي هي بمعزلٍ من الدلالةِ على الترتيبِ ، هذا على تقديرِ حملِ ما ذكرَ في آياتِ سورةِ السجدةِ من الخلقِ وما عطفَ عليهِ من الأفعالِ الثلاثةِ على معانيها الظاهرةِ وأما إذا حُملتْ على تقديرِها فلا دلالةَ فيها إلا على تقدمِ تقديرِ الأرضِ وما فيهَا على إيجاد السماءِ كما لا دلالةَ على الترتيب أصلاً إذا حُملتْ كلمةُ ثُمَّ فيها وفيمَا في سورةِ البقرةِ على التراخِي في الرتبةِ وقد سلفَ تفصيلُ الكلامِ في السورةِ المذكورةِ .

وقوله تعالى : ﴿ متاعا لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾

إما مفعولٌ لهُ أي فعلَ ذلكَ تمتيعاً لكُم ولأنعامِكم لأنَّ فائدةَ ما ذُكرَ من البسطِ والتمهيدِ وإخراجِ الماءِ والمَرْعى واصلةٌ إليهم وإلى أنعامِهم فإن المرادَ بالمَرْعى ما يعمُّ ما يأكلُه الإنسانُ وغيرُه بناءً على استعارةِ الرَّعي لتناولِ المأكولِ على الإطلاقِ كاستعارةِ المرسنِ للأنفِ . وقيلَ : مصدرٌ مؤكدٌ لفعلِه المضمرِ أي متَّعكُم بذلكَ متاعاً أو مصدرٌ من غيرِ لفظِه فإنَّ قولَه تعالَى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها ﴾ في معنى متَّع بذلكَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(248/800)

وقال الآلوسى :

﴿ ءأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾

خطاب للمخاطبين في جواب القسم أعني لتبعثن من أهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ [النازعات : 13] ونصب خلقاً على التمييز وهو محول عن المبتدا أي أخلقكم بعد موتكم أشد أي أشق وأصعب في تقديركم ﴿ أَمِ السماء ﴾ أي أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب

البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها وقوله تعالى : ﴿ بناها ﴾ الخ بيان وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قول تعالى أم السماء وفي عدم ذكر الفاعل فيه وفيما عطف من الأفعال من التنبيه على تعيينه وتفخيم شأنه عز وجل ما لا يخفى وقوله سبحانه :

(249/800)

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ بيان للبناء أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديداً رفيعاً وجوز أن يفسر السمك بالثخن فالمعنى جعل ثخنها مرتفعاً في جهة العلو ويقال للثخن سمك لما فيه من ارتفاع السطح الأعلى عن السطح الأسفل وإذا لوحظ هذا الامتداد من العلو للسفل قيل له عمق ونظير ذلك الدرج والدرك وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن ارتفاع السماء الدنيا عن الأرض خمسمائة عام وارتفاع كل سماء عن سماء وثخن كل كذلك والظاهر تقدير ذلك بالسير المتعارف وأن المراد بالعدد المذكور التحديد دون التكثير ونحن مع الظاهر إلا أن يمنع عنه مانع ﴿ فَسَوَّيَهَا ﴾ أي جعلها سواء فيما اقتضته الحكمة فلم يخل عز وجل قطعة منها عما تقتضيه الحكمة فيها ومن ذلك تزيينها بالكواكب وقيل تسويتها جعلها ملساء ليس في سطحها انخفاض وارتفاع وقيل جعلها بسيطة متشابهة الأجزاء والشكل فليس بعضها سطحاً بعضها زاوية وبعضها خطاً وهو

قول بكريتها الحقيقية وإليه ذهب كثير وقالوا وحكاه الإمام لما ثبت أنها محدثة مفتقرة إلى فاعل مختار فأي ضرر في الدين ينشأ من كونها كرية وقيل تسويتها تتميمها بما يتم به كما لها من الكواكب والمتممات والتداوير وغيرها مما بين في علم الهيئة من قولهم سوى أمره أي أصلحه أو من قولهم استوت الفاكهة إذا نضجت وأنت تعلم أن هذا مع بنائه على اتحاد السموات والأفلاك غير معروف في الصدر الأول من المسلمين لعدم وروده عن صاحب المعراج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم ظهور الدليل عليه والأدلة التي يذكرها أهل الهيئة لتلك الأمور لا يخفى حالها ولذا لم يقل بما تقتضيه مخالفوهم من أهل الهيئة اليوم والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29)

(250/800)

﴿ فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعله مظلماً يقال غطش الليل وأغطشه الله تعالى كما يقال ظلم وأظلمه ويقال أيضاً أغطش الليل كما يقال أظلم وجاء ليلة غطشاء وليل أغطش وغطش قال الأعشى

: عقرت لهم ناقتي موهنا . . .

فليلهم مدلهم غطش

(251/800)

وفي "البحر" عن كتاب اللغات في القرآن أغطش أظلم بلغة أنمار وأشعر ﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ أي أبرز نهارها والضحى في الأصل على ما يفهم من كلام الراغب انبساط الشمس وامتداد النهار ثم سمي به الوقت المعروف وشاع في ذلك وتجوز به عن النهار بقرينة المقابلة وقيل الكلام على حذف مضاف أي ضحى شمسها أي ضوء شمسها وكنى بذلك عن النهار والأول أقرب وعبر عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاتها وأطيبها وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها فكان أوفق لمقام تذكير الحجة على منكري البعث وإعادة الأرواح إلى أبدانها وقيل إنه لذلك كان أحق بالذكر في مقام الامتنان وإضافة الليل والضحى إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها وهي سماوية أو وهماً إنما يحصلان بسبب حركتها على القول بحركتها لاتحادها مع الفلك أو وهماً إنما يحصلان بسبب حركة الشمس في فلكها فيها على القول بأن السماء والفلك متغايران والمتحرك إنما هو الكوكب في الفل كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى كل في فلك يسبحون وإن

الفلك ليس إلا مجرى الكوكب في السماء وقيل أضيفا إليها لأنهما أول ما يظهران منها إذ أول الليل بإقبال الظلام من جهة المشرق وأول النهار بطلوع الفجر وإقبال الضياء منه وفي "الكشاف" أضيف الليل والشمس إلى السماء لأن الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوها واعترض بأن الليل ظل الأرض وأجيب بأنه اعتبار بمرأى الناظر كذلك كما أن زينة السماء الدنيا أيضاً اعتبار بمرأى الناظر وقيل إضافتهما إليها باعتبا رأنهما إنما يحدثان تحتها وشملا بهذا الاعتبار ما لم يكد يخطر في أذهان العرب من ليل ونهار طول كل منهما ستة أشهر وهما ليل ونهار عرض تسعين حيث الدور رحوى وتعقب بأنهم قالوا إن ظل الأرض لمخروطي ينتهي إلى فلك الزهرة وهي في السماء الثالثة فالحصر غير تام وفيه نظر فتأمل وبالجملة الإضافة لأدنى ملابسة

(252/800)

﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الظاهر أنه إشارة إلى ما تقدم من خلق السماء وأغطاش الليل وإخراج النهار دون خلق السماء فقط وانتصاب الأرض بمضمر قيل على شريطة التفسير وقيل تقديره تذكر أو تدبر أو اذكر وستعلم ما في ذلك إن شاء الله تعالى ومعنى قوله تعالى : ﴿ دحاها ﴾ بسطها ومدها لسكنى أهلها وتقلبهم في أقطارها من الدحو أو الدحى

بمعنى البسط وعليه قول أمية بن أبي الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها . . .

فهم قطانها حتى التنادي

وقيل دحاها سواها وأنشدوا قول زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . .

له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

دحاها فلما استوت شدها . . .

بأيد وارسي عليها الجبالا

(253/800)

والأكثرون على الأول وأنشد الإمام بيت زيد فيه والظاهر أن دحوها بعد خلقها وقيل مع خلقها فالمراد خلقها مدحوة وروى الأول عن ابن عباس ودفع به توهم تعارض بين آيتين أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أن رجلاً قال له آيتان في كتاب الله تعالى تخالف إحداهما الأخرى فقال إنما أتيت من قبل رأيك اقرأ : ﴿ قَالَ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ حتى بلغ ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت : 9-11]

وقوله تعالى : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ قال خلق الله تعالى الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحا الأرض بعد ما خلق السماء وإنما قوله سبحانه دحاها بسطها وتعقبه الإمام بأن الجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي ويستحيل أن يكون هذا الجسم العظيم مخلوقاً ولا يكون ظاهره مدحواً مبسوطاً وأجيب أنه لعل مراد القائل بخلقها أولاً ثم دحوها ثانياً خلق مادتها أولاً ثم تركيبها وإظهارها على هذه الصورة والشكل مدحوة مبسوطة وهذا كما قيل في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء وهي دخان ﴾ [فصلت : 11] فسواهن سبع سموات إن السماء خلقت مادتها أولاً ثم سويت وأظهرت على صورتها اليوم وعن الحسن ما يدل على أنها كانت يوم خلقت قبل الدحو كهيئة الفهر ويشعر بأنها لم تكن على عظمها اليوم وتعقبه بعضهم بشيء آخر وهو أنه يأبى ذلك قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ [البقرة : 29] الآية فإنه يفيد أن خلق ما في الأرض قبل خلق السموات ومن المعلوم أن خلق ما فيها إنما هو بعد الدحو فكيف يكون الدحو بعد خلق السموات وأجيب بأن خلق في الآية بمعنى قدر أو أراد الخلق ولا يمكن أن يراد به فيها الإيجاد بالفعل ضرورة أن جميع المنافع الأرضية يتجدد إيجادها أولاً فأولاً سلمنا أن المراد الايجاد بالفعل لكن يجوز أن يكون المراد خلق مادة ذلك بالفعل ومن الناس من حمل مثم على التراخي الرتبي

لأن خلق السماء أعجب من خلق الأرض وقال عصام الدين أن بعد ذلك هنا كما في قوله تعالى

(255/800)

﴿ عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] يعني فعل بالأرض ما فعل بعد ما سمعت في السماء والمراد التأخير في الأخبار فخلق الأرض ودحوها وإخراج مائها ورعاها وإرساء الجبال عليها عنده قبل خلق السماء كل يقتضيه ظاهر آية البقرة وظاهر آية الدخان وأيد حمل البعدية على ما ذكر بأن حملها على ظاهرها مع حمل الإشارة على الإشارة إلى مجموع ما تقدم مما سمعت يلزم عليه أن اغطاش الليل وإبراز النهار كانا قبل خلق الأرض ودحوها وذلك مما لا يتسنى على تقدير أنها غير مخلوقة أصلاً ومما يبعد على تقدير أنها مخلوقة غير عظيمة وأيضاً قيل لو لم تحمل البعدية ما ذكره وقيل بنحو ما قال ابن عباس من تأخر الدحو عن خلق السماء مع تقدم خلق الأرض من غير دحو على خلقها لم تنحسن مادة الاشكال إذ آية الدخان ظاهرة في أن جعل الرواسي في الأرض قبل خلق السماء وتسويتها وهذه الآية إلى آخرها ظاهرة في أن جعل الرواسي بعد وبالجملة أنه قد اختلف أهل التفسير في أن

خلق السماء مقدم على خلق الأرض أو مأخر فقال ابن الطاشكبري نقل الواحدي عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على خلق الأرض واختاره جمع لكنهم قالوا إن خلق ما فيها مؤخر وأجابوا عما هنا وآية البقرة بأن الخلق فيها بمعنى التقدير أو بمعنى الإيجاد وتقدير الإرادة وأن البعدية ههنا لإيجاد الأرض وجميع ما فيها وعما هنا وآية الدخان بنحو ذلك فقدروا الإرادة في قوله تعالى ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ [فصلت : 9] وكذا في قوله سبحانه ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ [فصلت : 10] وقالوا يؤيد ما ذكر قوله تعالى ﴿ فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : 11] فإن الظاهر أن المراد أئتيا في الوجود ولو كانت الأرض موجودة سابقة لما صح هذا فكأنه قال سبحانه أئنكم لتكفرون بالذي أراد إيجاد الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام ثم قصد إلى السماء فتعلقت إرادته بإيجاد السماء والأرض فأطاعا لأمر التكوين

(256/800)

فأوجد سبع سماوات في يومين وأوجد الأرض وما فيها في أربعة أيام ونكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الظاهر في سورتي البقرة والدخان على خلق السموات والعكس ههنا أن المقام في الأولين مقام الامتنان وتعداد النعم على أهل الكفر والايمان فمقتضاه تقديم ما

هو نعمة بالنظر إلى المخاطبين من الفريقين فكأنه قال سبحانه هو الذي دبر أمركم قبل السماء ثم خلق السماء والمقام هنا مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل انتهى وفي "الكشف" أطبق أهل التفسير أنه تم خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام ثم خلق السماء في يومين إلا ما نقل الواحدي في "البسيط" عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها والكلام مع من فرق بين الإيجاد والدحو وما قيل إن دحو الأرض متأخر عن خلق السماء لا عن تسويتها يرد عليه بعد ذلك فإنه إشارة إلى السابق وهو رفع السمك والتسوية والجواب بتراخي الرتبة لا يتم لما نقل من أطباق المفسرين فالوجه أن يجعل الأرض منصوباً بمضمر نحو تذكر وتدبر واذكر الأرض بعد ذلك وإن جعل مضمراً على شريطة التفسير جعل بعد ذلك إشارة إلى المذكور سابقاً من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه ليدل على أنه متأخر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصر في الدلالة عن الأول لكنه تتميم كما تقول جملاً ثم تقول بعد ذلك كيت وكيت وهذا كثير في استعمال العرب والعجم وكان بعد ذلك بهذا المعنى عكسه إذا استعمل لتراخي الرتبة وقد تستعمل بهذا المعنى وكذا الفاء وهذا لا ينافي قول الحسن أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى :

﴿ كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ [الأنبياء : 30] الآية فإنه يدل على أن كون السماء دخاناً سابق على دحو الأرض وتسويتها وهو كذلك بل ظاهر قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ [فصلت : 11] يدل على ذلك وإيجاد الجوهرة النورية والنظر إليها بعين الجلال لمبطن بالرحمة والجمال وذوبها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة وبقاء الكثيف هذا كله سابق على الأيام الستة وثبت في الخبر الصحيح ولا ينافي الآيات وأما ما نقله الواحدي عن مقاتل واختاره الإمام فلا إشكال فيه ويتعين ثم في سورتي البقرة والسجدة على تراخي الرتبة وهو أوفق لمشهور قواعد الحكماء لكن لا يوافق ما روى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة وفي آخر يوم الجمعة ثم خلق آدم عليه السلام انتهى والذي أميل إليه أن تسوية السماء بما فيها سابقة على تسوية الأرض بما فيها لظهور أمر العلية في الأجرام العلوية وأمر المعلولية في الأجرام السفلية ويعلم تأويل ما ينافي ذلك مما سمعت أوما الخبر الأخير ففي صحته مقال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقد مر شيء مما يتعلق بهذا المقام وإنما أعدنا الكلام فيه تذكيراً لذوي الأفهام فتأمل والله تعالى الموفق لتحصيل المراد وقوله تعالى :

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ﴾ بأن فجر منها عيوناً وأجرى أنهاراً ﴿ ومرعاها ﴾ يقع على الرعي بالكسر وهو الكنز والرعي بالفتح وهو المصدر وكذا على الموضع والزمان وزعم بعضهم أنه في الأصل للموضع ولعله أراد أنه أشهر معانيه والمناسب للمقام المعنى الأول لكنه قيل إنه خاص بما يأكله الحيوان غير الإنسان وتجوز به عن مطلق المأكول للإنسان وغيره فهو مجاز مرسل من قبيل المرسن وقال الطيبي يجوز أن يكون استعارة مصرحة لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة ﴿ أأنتم أشد خلقاً ﴾ [النازعات : 27] كأنه قيل أيها المعاندون المللزوزون في قرن البهائم في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة بيان وتفسير لدحاها وتكملة له فإن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط والتمهيد بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه وكلا الوجهين مقتضى لتجريد الجملة عن العاطف وقوله تعالى :

﴿ والجبال ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله سبحانه : ﴿ أرساها ﴾ أي أثبتها وفيه تنبيه على أن الرسول المنسوب إليها في مواضع كثيرة من التنزيل ليس من مقتضيات ذاتها وللفلاسفة المحدثين كلام في أمر الأرض وكيفية بدئها لا مستند لهم فيه إلا آثار أرضية يزعمون دلالتها على ذلك هي في أسفل الأرض عن ساحة القبول وقرأ عيسى برفع ﴿ الأرض ﴾ والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفع الأرض والجبال وهو على ما قيل على الابتداء وتعقبه الزجاج بأن ذلك مرجوح لأن العطف على فعلية وأورد عليه أن قوله تعالى : ﴿ بناها ﴾ لكيفية خلق السماء وقوله سبحانه : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ [النازعات : 28] بيان للبناء وليس لدحو الأرض وما بعده دخل في شيء من ذلك فكيف يعطف عليه ما هو معطوف على المجموع عطف القصة على القصة والمعتبر فيه تناسب القصتين وهو حاصل هنا فلا ضير في الاختلاف بل فيه نوع تنبيه على ذلك وقيل إن جملة قوله تعالى ﴿ والأرض ﴾ الخ على القراءتين ليس معطوفة على قوله سبحانه : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ لأنها لا تصلح بياناً لبناء السماء فلا بد من تقدير معطوف عليه وحينئذ يقدر جملة فعلية على قراءة الجمهور أي فعل ما فعل في السماء وجملة اسمية على قراءة الآخرين أي السماء وما يتعلق بها مخلوق له تعالى وجوز عطف الأرض بالرفع على ﴿ السماء ﴾ من حيث المعنى كأنه قيل السماء أشد خلقاً والأرض بعد ذلك أي والأرض بعد ما ذكر من السماء أشد خلقاً فيكون وزان قوله تعالى : ﴿ دحاها ﴾ الخ

وزان قوله تعالى : ﴿ بناها ﴾ الخ وحينئذ فلا يكون بعد ذلك مشعراً بتأخر دحو الأرض عن بناء السماء وقوله تعالى :

(260/800)

﴿ متاعا لَّكُمْ ولانعامكم ﴾ قيل مفعول له أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحو إخراج الماء والمرعى واصلة إليهم ولأنعامهم فإن المرعى كما سمعت مجاز عما يأكله الإنسان وغيره وقيل مصدر مؤكد لفعله المضمر أي متعكم بذلك مختاعاً أو مصدر من غير لفظه فإن قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها ﴾ [النازعات : 31] في معنى متع بذلك وأورد على الأول أن الخطاب لمنكري البعث والمقصود هو تمتيع المؤمنين فلا يلائم جعل تمتيع الآخرين كالغرض فالأولى ما بعده وأجيب بأن خطاب المشافهة وإن كان خاصاً بالحاضرين إلا أن حكمه عام كما تقرر في الأصول فالمآل إلى تمتيع الجنس وأيضاً على المصدرية بفعله المقدر لا يدفع المحذور لكونه استئنافاً لبيان المقصود ولا يخفى أن كون المقصود هو تمتيع المؤمنين محل بحث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(261/800)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) ﴾

انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث وهي قوله : ﴿ أينا لمردودون في الحافرة ﴾ [النازعات : 10] وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم إحالة البعث .

وإذ قد فرضوا استحالة عود الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا : ﴿ أينا لمردودون ﴾ [النازعات : 10] جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض فقيل لهم : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ ، فلذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل : آلإنسان أشدّ خلقاً ، وما هم إلا من الإنسان ، فالخطاب موجه إلى المشركين الذين عبر عنهم آنفاً بضمائر الغيبة من قوله : ﴿ يقولون ﴾ إلى قوله : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 10 14] ، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب .

فالجملة مستأنفة لقصد الجواب عن شبهتهم لأن حكاية شبهتهم بـ ﴿ يقولون أينا ﴾ إلى آخره ، تقتضي ترقب جواب عن ذلك القول كما تقدم الإيماء إليه عند قوله : ﴿ يقولون أينا لمردودون ﴾ [النازعات : 10] .

والاستفهام تقريري ، والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأنّ خلق السماء أعظم من

خلقهم ، أي مِن خلق نوعهم وهو نوع الإِنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإِنسان مرة ثانية ، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدَر على ما هو أعظم من ذلك قال تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [غافر : 57] ، ذلك أن نظرهم العقلي غيَّمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه مُحالاً ، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة .

(262/800)

و ﴿ أشد ﴾ : اسم تفضيل ، والمفضل عليه محذوف يدل عليه قوله ﴿ أم السماء ﴾ .

ومعنى ﴿ أشد ﴾ أصعب ، و ﴿ خلقاً ﴾ مصدر منتصب على التمييز لنسبة الأشدّية إليهم ، أي أشد من جهة خلق الله إياكم أشد أم خلقه السماء ، فالتمييز مُحوّل عن المبتدأ .

و ﴿ السماء ﴾ يجوز أن يراد به الجنس وتعريفه تعريف الجنس ، أي السماوات وهي محجوبة عن مشاهدة الناس فيكون الاستفهام التقريري مبنياً على ما هو مشتهر بين الناس من عظمة السماوات تنزيلاً للمعقول منزل المحسوس .

ويجوز أن يراد به سماء معينة وهي المسماة بالسماء الدنيا التي تلوح فيها أضواء النجوم فتعريفه تعريف العهد ، وهي الكرة الفضائية المحيطة بالأرض ويَبدو فيها ضوء النهار وظلمةُ الليل ، فيكون الاستفهام التقريري مبنياً على ما هو مشاهد لهم .

وهذا أنسب بقوله : ﴿ وأغطَشَ ليلَها وأخرج ضحاها ﴾ لعدم احتياجه إلى التأويل .

وجملة ﴿ بناها ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان شدة خلق السماء ، ويجوز أن تكون بدل اشتمال في قوله : ﴿ أم السماء ﴾ ، لأنه في تقدير : أم السماء أشد خلقاً .

وقد جعلت كلمة ﴿ بناها ﴾ فاصلة فيكون الوقف عندها ولا ضير في ذلك إذ لا لبس في المعنى لأن ﴿ بناها ﴾ جملة و ﴿ أم ﴾ المعادلة لا يقع بعدها إلا اسم مفرد .

والبناء : جعل بيت أو دار من حجارة ، أو آجر أو أدم ، أو أثواب من نسيج الشعر ، مشدودة شُققه بعضها إلى بعض بغَرز أو خياطة ومقامة على دعائم ، فما كان من ذلك بأدم يسمى قُبة وما كان بأثواب يسمى خيمة وخباء .

وبناء السماء : خلقها ، استعير له فعل البناء لمشابهتها البيوت في الارتفاع .

وجملة ﴿ رفع سمكها فسواها ﴾ مبنية لجملة ﴿ بناها ﴾ أو بدل اشتمال منها وسلك طريق الإِجمال ثم التفصيل لزيادة التصوير .

والسّمْك : بفتح السين وسكون الميم : الرَّفع في الفضاء كما اقتصر عليه الراغب سواء اتصل المرفوع بالأرض أو لم يتصل بها وهو مصدر سَمَكَ .

(263/800)

والرَّفع : جعل جسم معتلياً وهو مرادف للسمْك فتعدية فعل ﴿ رفع ﴾ إلى "السمك" للمبالغة في الرفع ، أي رَفَعَ رفْعَهَا أي جَعله رفيعاً ، وهو من قبيل قولهم : لَيل أَلْيَل ، وشِعر شاعر ، وظِل ظليل .

والتسوية : التعديل وعدم التفاوت ، وهي جعل الأشياء سواء ، أي متماثلة وأصلها أن تتعلق بأشياء وقد تتعلق باسم شيء واحد على معنى تعديل جهاته ونواحيه ومنه قوله هنا : ﴿ فسواها ﴾ ، أي عَدَّل أجزاءها وذلك بأن أتقن صنعها فلا ترى فيها تفاوتاً .

والفاء في ﴿ فسواها ﴾ للتعقيب .

وتسوية السماء حصلت مع حصول سمكها ، فالتعقيب فيه مثل التعقيب في قوله : ﴿ فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 23 ، 24] .

وجملة ﴿ وأغطش ليلها ﴾ معطوفة على جملة ﴿ بناها ﴾ وليست معطوفة على ﴿ رفع سمكها ﴾ لأن إغطاش وإخراج الضحى ليس مما يبين به البناء .

والإِغطاش : جعله غاطشاً ، أي ظلاماً يقال : غَطَش الليل من باب ضرب ، أي أظلم .

والمعنى : أنه خَصَّ الليل بالظلمة وجعله ظلاماً ، أي جعل ليلها ظلاماً ، وهو قريب من قوله : ﴿ رفع سمكها ﴾ من باب قولهم : ليل أَلْيَل .

وإخراج الضحى : إبراز نور الضحى ، وأصل الإِخراج النقل من مكان حاوٍ واستعير للإِظهار استعارة شائعة .

والضحى : بروز ضوء الشمس بعد طلوعها وبعد احمرار شعاعها ، فالضحى هو نور الشمس الخالص وسمي به وقته على تقدير مضاف كما في قوله تعالى : ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : 59] يدل لذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] ، أي نورها الواضح .

وإنما جعل إظهار النور إخراجاً لأن النور طارىء بعد الظلمة ، إذ الظلمة عَدَم وهو أسبق ، والنور محتاج إلى السبب الذي ينيره .

(264/800)

وإضافة (ليل) و (ضحى) إلى ضمير ﴿ السماء ﴾ إن كان السماء الدنيا فلأنهما يلوحان للناس في جوّ السماء فيلوح الضحى أشعة منتشرة من السماء صادرة من جهة

مطلع الشمس فتقع الأشعة على وجه الأرض ثم إذا انحجبت الشمس بدورة الأرض في اليوم والليلة أخذ الظلام يحلّ محلّ ما يتقلص من شعاع الشمس في الأفق إلى أن يصير ليلاً حالكاً محيطاً بقسم من الكرة الأرضية .

وإن كان السماء جنساً للسماوات فإضافة ليل وضحى إلى السماوات لأنهما يلوحان في جهاتها .

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30)

وانتقل الكلام من الاستدلال بخلق السماء إلى الاستدلال بخلق الأرض لأن الأرض أقرب إلى مشاهدتهم وما يوجد على الأرض أقرب إلى علمهم بالتفصيل أو الإِجمال القريب من التفصيل .

ولأجل الاهتمام بدلالة خلق الأرض وما تحتوي عليه قُدم اسم ﴿ الأرض ﴾ على فعله وفاعِله فانتصب على طريقة الاشتغال ، والاشتغال يتضمن تأكيداً باعتبار الفعل المقدر العامل في المشتغل عنه الدال عليه الفعلُ الظاهر المشتغل بضمير الاسم المقدم .

والدَّحْو والدَّحْيُ يقال : دحَوْت ودحيت .

واقتصر الجوهري على الواوي وهو الجاري في كلام المفسرين هو : البسط والمدّ بتسوية .

والمعنى : خلقها مدحوَّة ، أي مبسوطة مسوّاة .

والإِشارة من قوله : ﴿ بعد ذلك ﴾ إلى ما يفهم من ﴿ بناها رفع سمكها فسواها ﴾ [

النازعات : 27 ، 28] ، أي بعد خلق السماء خلق الأرض مدحوّة .

والبعدية ظاهرها : تأخر زمان حصول الفعل ، وهذه الآية أظهر في الدلالة على أن الأرض خلقت بعد السماوات وهو قول قتادة ومقاتل والسدّي ، وهو الذي تؤيده أدلة علم الهيئة .

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ﴾ في سورة البقرة (29) ، وما ورد من الآيات مما ظاهره كظاهر آية سورة البقرة تأويله واضح .

(265/800)

ويجوز أن تكون البعدية مجازاً في نزول رتبة ما أضيف إليه بعد ﴾ عن رتبة ما ذُكر قبله كقوله تعالى : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : 13] .

وجملة ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ دحاها ﴾ لأن المقصد من دحوها بمقتضى ما يكمل تيسير الانتفاع بها .

ولا يصح جعل جملة ﴿ أخرج منها ماءها ﴾ إلى آخرها بياناً لجملة ﴿ دحاها ﴾ لاختلاف معنى الفعلين .

والمرعى : مَفْعَل من رَعَى يرعَى ، وهو هنا مصدر ميمي أطلق على المفعول كالخلق بمعنى

المخلوق ، أي أخرج منها ما يُرْعَى .

والرعي : حقيقته تناول الماشية الكلأ والحشيش والقصيل .

فالاقتصار على المرعى اكتفاء عن ذكر ما تخرجه الأرض من الثمار والحبوب لأن ذكر المرعى يدل على لطف الله بالعجماوات فيعرف منه أن اللطف بالإنسان أحرى بدلالة فحوى الخطاب ، والقرينةُ على الاكتفاء قوله بعده ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [النازعات : 33] .

وقد دل بذكر الماء والمرعى على جميع ما تخرجه الأرض قوتاً للناس وللحيوان حتى ما تُعالَج به الأطعمة من حطب للطبخ فإنه مما تنبت الأرض ، وحتى الملح فإنه من الماء الذي على الأرض .

ونَصب ﴿ والجبال ﴾ يجوز أن يكون على طريقة نصب ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ ماءها ومرعاها ﴾ ويكون المعنى : وأخرج منها جبالها ، فتكون (ال) عوضاً عن المضاف إليه مثل ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : 41] أي مأوى من خافَ مقام ربه فإن الجبال قطع من الأرض ناتئة على وجه الأرض .

وإرساء الجبال : إثباتُها في الأرض ، ويقال : رست السفينة ، إذا شُدّت إلى الشاطىء فوقفت على الأَنْجَرِ ، ويوصف الجبل بالرسوّ حقيقة كما في "الأساس" ، قال السموأل أو

عبد الملك بن عبد الرحيم يذكر جبلهم

:

رسَا أصلُه فوق الثرى وسمَا به

إلى النجم فَرع لا يُنال طويل . . .

(266/800)

وإثبات الجبال : هو رسوخها بتغلْغُل صخورها وعروق أشجارها لأنها خلقت ذات صخور سائخة إلى باطن الأرض ولولا ذلك لزعزعتها الرياح ، وخُلقت تتخلّلها الصخور والأشجار ولولا ذلك لتهيلت أتربتها وزادها في ذلك أنها جُعلت أحجامها متناسبة بأن خلقت متسعة القواعد ثم تتصاعد متضائقة .

ومن معنى إرسائها : أنها جعلت منحدرة ليتمكن الناس من الصعود فيها بسهولة كما يتمكن الراكب من ركوب السفينة الراسية ولو كانت في داخل البحر ما تمكن الراكب من ركوبها إلا بمشقة .

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)

(المتاع) يطلق على ما ينتفع به مدة ، ففيه معنى التأجيل ، وتقدم عند قوله ﴿ وأمتعتكم

﴿ في سورة النساء (102) ، وهو هنا اسم مصدر متَّع ، أي إعطاء للانتفاع زماناً ، وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ في سورة الأعراف (24) .

وانتصب ﴿ متاعاً ﴾ على النيابة عن الفعل .

والتقدير : متَّعْناكم متاعاً .

ولام ﴿ لكم ولأنعامكم ﴾ لام التقوية لأن المصدر فرع في العمل عن الفعل ، وهو راجع إلى خلق الأرض والجبال ، وذلك في الأرض ظاهر ، وأما الجبال فلأنها معتصمهم من عدوّهم ، وفيها مراعي أنعامهم تكون في الجبال مأمونة من الغارة عليها على غرة .

وهذا إدماج الامتنان في الاستدلال لإِثارة شكرهم حق النعمة بأن يعبدوا المنعِم وحده ولا يشركوا بعبادته غيره .

وفي قوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات : 30] إلى ﴿ ولأنعامكم ﴾ محسّن الجمع ثم التقسيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(24) والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها)

بقلم: د . زغلول النجار

جاءت هذه الآية الكريمة في مطلع الربع الأخير من سورة النازعات , وهي سورة مكية , تعني كغيرها من سور القرآن المكي بقضية العقيدة , ومن أسسها الايمان بالله , وملائكته , وكتبه ورسله , واليوم الآخر , وغالبية الناس منشغلين عن الآخرة وأحوالها , والساعة وأهوالها , وعن قضايا البعث , والحساب , والجنة , والنار وهي محور هذه السورة .

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله (تعالي) بعدد من طوائف ملائكته الكرام , وبالمهام الجسام المكلفين بها , أو بعدد من آياته الكونية المبهرة , علي أن الآخرة حق واقع , وأن البعث والحساب أمر جازم , وربنا (تبارك وتعالي) غني عن القسم لعباده , ولكن الآيات القرآنية تأتي في صيغة القسم لتنبيه الناس إلي خطورة الأمر المقسم به , وأهميته أو حتميته

.

ثم تعرض الآيات لشيء من أهوال الآخرة مثل (الراجفة والرادفة) وهما الأرض والسماء وكل منهما يدمر في الآخرة , أو النفختان الأولي التي تميت كل حي , والثانية التي تحيي كل ميت بإذن الله , وتنتقل الآيات إلي وصف حال الكفار , والمشركين , والملاحدة , المتشككين , العاصين لأوامر رب العالمين في ذلك اليوم الرهيب , وقلوبهم خائفة وجلة , وأبصارهم خاشعة ذليلة , بعد أن كانوا ينكرون البعث في الدنيا , ويتساءلون عنه استبعادا له , واستهزاء به : هل في الامكان ان نبعث من جديد بعد أن تبلي الأجساد , وتنخر العظام ؟ وترد الآيات عليهم حاسمة قاطعة بقرار الله الخالق أن الأمر بالبعث صيحة واحدة فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون من قبورهم ليواجهوا الحساب , أو كأنهم حين يبعثون يظنون أنهم عائدون للدنيا مرة ثانية فيفاجأون بالآخرة . . .

(268/800)

وبعد ذلك تلمح الآيات إلي قصة موسي (عليه السلام) مع فرعون وملئه , من قبيل مواساة رسولنا (صلي الله عليه وسلم) في الشدائد التي كان يلقاها من الكفار , وتحذيرهم مما حل بفرعون وبالمكذبين من قومه من عذاب , وجعل ذلك عبرة لكل عاقل يخشي الله (تعالي) ويخاف حسابه .

ثم تتوجه الآيات بالخطاب إلي منكري البعث من كفار قريش وإلي الناس عامة بسؤال تقريعي توبيخي : هل خلق الناس ـ علي ضآلة أحجامهم , ومحدودية قدراتهم , وأعمارهم , وأماكنهم من الكون ـ أشد من خلق السماء وبنائها , ورفعها بلا عمد مرئية إلي هذا العلو الشاهق ـ مع ضخامة أبعادها , وتعدد أجرامها , ودقة المسافات بينها , وإحكام حركاتها , وتعاظم القوي الممسكة بها ؟ ـ وإظلام ليلها , وإنارة نهارها ؟ وأشد من دحو الأرض , وإخراج مائها ومرعاها منها بعد ذلك , وإرساء الجبال عليها , وإرساء الأرض بها , تحقيقا لسلامتهم وأمنهم علي سطح الأرض , ولسلامة أنعامهم ومواشيهم .

وبعد الإشارة إلي بديع صنع الله في خلق السماوات والأرض كدليل قاطع علي إمكانية البعث عاودت الآيات الحديث عن القيامة وسمتها (بالطامة الكبري) لأنها داهية عظمي تعم بأهوالها كل شيء , وتغطي علي كل مصيبة مهما عظمت , وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان أعماله من الخير والشر , ويراه مدونا في صحيفة أعماله , وبرزت جهنم للناظرين , فرآها كل إنسان عيانا بيانا , وحينئذ ينقسم الناس إلي شقي وسعيد , فالشقي هو الذي جاوز الحد في الكفر والعصيان , وفضل الدنيا علي الآخرة , وهذا مأواه جهنم وبئس المصير , والسعيد هو الذي نهي نفسه عن اتباع هواها انطلاقا من مخافة مقامه بين يدي ربه يوم الحساب , وهذا مأواه ومصيره إلي جنات النعيم بإذن الله .

وتختتم السورة بخطاب إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) متعلق

بسؤال كفار قريش له عن الساعة متي قيامها ؟ , وترد الآيات بأن علمها عند الله الذي استأثر به , دون كافة خلقه , فمردها ومرجعها إلي الله وحده , وأما دورك أيها النبي الخاتم والرسول الخاتم فهو إنذار من يخشاها , وهؤلاء الكفار والمشركون يوم يشاهدون قيامها فإن هول المفاجأة سوف يمحو من الذاكرة معيشتهم علي الأرض , فيرونها كأنها كانت ساعة من ليل أو نهار , بمقدار عشية أو ضحاها , احتقارا للحياة الدنيا , واستهانة بشأنها أمام الآخرة , ويأتي ختام السورة متوافقا مع مطلعها الذي أقسم فيه ربنا (تبارك وتعالي) علي حقيقة البعث وحتميته , وأهواله وخطورته , لزيادة التأكيد علي أنه أخطر حقائق الكون وأهم أحداثه , لكي يتم تناسق البدء مع الختام , وهذا من صفات العديد من سور القرآن الكريم .

وهنا يبرز التساؤل عن معني دحو الأرض , وعلاقته بإخراج مائها ومرعاها , ووضعه في مقابلة مع بناء السماء ورفعها ـ علي عظم هذا البناء وذلك الرفع كصورة واقعة لطلاقة القدرة المبدعة في الخلق , وقبل التعرض لذلك لابد من استعراض الدلالة اللغوية للفظة الدحو الواردة في الآية الكريمة :

الدلالة اللغوية لدحو الأرض

(الدحو) في اللغة العربية هو المد والبسط والإلقاء , يقال :(دحا) الشيء (يدحوه)(دحوا) أي بسطه ومده , أو ألقاه ودحرجه , ويقال :(دحا) المطر الحصي عن وجه الأرض أي دحرجه وجرفه , ويقال : مر الفرس (يدحو)(دحوا) إذا جر يده علي وجه الأرض فيدحو ترابها و (مدحي) النعامة هو موضع بيضها , و (أدحيها) موضعها الذي تفرخ فيه .

شروح المفسرين للآية الكريمة :

في شرح الآية الكريمة :(والأرض بعد ذلك دحاها) ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : فسره بقوله تعالي (أخرج منها ماءها ومرعاها) , وقد تقدم في سورة فصلت أن الأرض خلقت قبل خلق السماء , ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعني أنه أخرج ما

كان فيها بالقوة إلي الفعل , عن ابن عباس (دحاها) ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعي , وشقق فيها الأنهار , وجعل فيها الجبال والرمال , والسبل والآكام , فذلك قوله :(والأرض بعد ذلك دحاها) . . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله) :(والأرض بعد ذلك دحاها) أي بسطها ومهدها لتكون صالحة للحياة , وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو . (أخرج) حال بإضمار قد أي : دحاها مخرجا (منها ماءها ومرعاها) بتفجير عيونها , و (مرعاها) ما ترعاه النعم من الشجر والعشب , وما يأكله الناس من الأقوات والثمار , وإطلاق المرعي عليه استعارة .

وذكر صاحب الظلال (يرحمه الله) : ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها , بحيث تصبح صالحة للسير عليها , وتكوين تربة تصلح للإنبات , . . . , والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع , أو ما ينزل من السماء فهو أصلا من مائها الذي تبخر ثم نزل في صورة مطر ; وأخرج من الأرض مرعاها , وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام , وتعيش عليه الأحياء مباشرة أو بالواسطة . .

وجاء في (صفوة البيان لمعاني القرآن) :' ودحا الأرض . بمعني بسطها . وأوسعها , بعد ذكر ذلك الذي ذكره من بناء السماء , ورفع سمكها , وتسويتها , وإغطاش ليلها , وإظهار نهارها , وقد بين الله الدحو بقوله :(أخرج منها ماءها) بتفجير العيون , وإجراء الأنهار والبحار العظام . (ومرعاها) أي جميع ما يقتات به الناس والدواب بقرينة قوله بعد :(متاعا لكم ولأنعامكم) . . . . . وأخبرنا بعد ذلك بأنه هو الذي بسط الأرض , ومهدها لسكني أهلها ومعيشتهم فيها : وقدم الخبر الأول لأنه أدل علي القدرة الباهرة لعظم

السماء , وانطوائها علي الأعاجيب التي تحار فيها العقول . فبعدية الدحو إنما هي في الذكر لا في الإيجاد , وبجعل المشار إليه هو ذكر المذكورات من البناء وما عطف عليها لا أنفسها , لايكون في الآية

دليل علي تأخر الدحو عن خلق السماوات وما فيها . . . . . '.

(271/800)

وجاء في (صفوة التفاسير) :(والأرض بعد ذلك دحاها) أي والأرض بعد خلق السماء بسطها ومهدها لسكني أهلها (أخرج منها ماءها ومرعاها) أي أخرج من الأرض عيون الماء المتفجرة , وأجري فيها الأنهار , وأنبت فيها الكلأ والمرعي مما يأكله الناس والأنعام ' .

وجاء في (المنتخب في تفسير القرآن الكريم) :' والأرض بعد ذلك بسطها ومهدها لسكني أهلها , وأخرج منها ماءها بتفجير عيونها , وإجراء أنهارها , وإنبات نباتها ليقتات به الناس والدواب . .

وهذا الاستعراض يدل علي أن المفسرين السابقين يجمعون علي أن من معاني دحو الأرض هو إخراج الماء والمرعي من داخلها , علي هيئة العيون وإنبات النبات .

دحو الأرض في العلوم الكونية

أولا : إخراج كل ماء الأرض من جوفها :

كوكب الأرض هو أغني كواكب مجموعتنا الشمسية في المياه , ولذلك يطلق عليه اسم (الكوكب المائي) أو (الكوكب الأزرق) وتغطي المياه نحو 71 من مساحة الأرض , بينما تشغل اليابسة نحو 29 فقط من مساحة سطحها , وتقدر كمية المياه علي سطح الأرض بنحو 1360 مليون كيلومتر مكعب (1.36*910) ; وقد حار العلماء منذ القدم في تفسير كيفية تجمع هذا الكم الهائل من المياه علي سطح الأرض , من أين أتي ؟ وكيف نشأ ؟

وقد وضعت نظريات عديدة لتفسير نشأة الغلاف المائي للأرض , تقترح احداها نشأة ماء الأرض في المراحل الأولي من خلق الأرض , وذلك بتفاعل كل من غازي الأيدروجين والأوكسيجين في حالتهما الذرية في الغلاف الغازي المحيط بالأرض , وتقترح ثانية أن ماء الأرض أصله من جليد المذنبات , وتري ثالثة أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلا من داخل الأرض . والشواهد العديدة التي تجمعت لدي العلماء تؤكد أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلا من جوفها , ولايزال خروجه مستمرا من داخل الأرض عبر الثورات البركانية .

ثانيا : إخراج الغلاف الغازي

للأرض من جوفها :

بتحليل الأبخرة المتصاعدة من فوهات البراكين في أماكن مختلفة من الأرض اتضح أن بخار الماء تصل نسبته إلي أكثر من 70

من مجموع تلك الغازات والأبخرة البركانية , بينما يتكون الباقي من اخلاط مختلفة من الغازات التي ترتب حسب نسبة كل منها علي النحو التالي : ثاني أكسيد الكربون , الإيدروجين , أبخرة حمض الأيدروكلوريك (حمض الكلور) , النيتروجين , فلوريد الإيدروجين , ثاني أكسيد الكبريت , كبريتيد الإيدروجين , غازات الميثان والأمونيا وغيرها .

ويصعب تقدير كمية المياه المندفعة علي هيئة بخار الماء إلي الغلاف الغازي للأرض من فوهات البراكين الثائرة , علما بأن هناك نحو عشرين ثورة بركانية عارمة في المتوسط تحدث في خلال حياة كل فرد منا , ولكن مع التسليم بأن الثورات البركانية في بدء خلق الأرض كانت أشد تكرارا وعنفا من معدلاتها الراهنة , فإن الحسابات التي أجريت بضرب متوسط ما تنتجه الثورة البركانية الواحدة من بخار الماء من فوهة واحدة , في متوسط مرات ثورانها في عمر البركان , في عدد الفوهات والشقوق البركانية النشيطة والخامدة الموجودة اليوم علي سطح الأرض أعطت رقما قريبا جدا من الرقم المحسوب بكمية المياه علي سطح الأرض .

ثالثا : الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر مياه وغازات الأرض :

ثبت أخيرا أن المياه تحت سطح الأرض توجد علي أعماق تفوق كثيرا جميع التقديرات السابقة , كما ثبت أن بعض مياه البحار والمحيطات تتحرك مع رسوبيات قيعانها الزاحفة إلي داخل الغلاف الصخري للأرض بتحرك تلك القيعان تحت كتل القارات , ويتسرب الماء إلي داخل الغلاف الصخري للأرض . عبر شبكة هائلة من الصدوع والشقوق التي تمزق ذلك الغلاف في مختلف الاتجاهات , وتحيط بالأرض إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين 150,65 كيلومترا .

ويبدو أن الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي هي مصدر رئيسي للمياه الأرضية ,

(273/800)

وتلعب دورا مهما في حركة المياه من داخل الأرض إلي السطح وبالعكس , وذلك لأنه لولا امتصاصها للمياه ما انخفضت درجة حرارة انصهار الصخور , وهي إذا لم تنصهر لتوقفت ديناميكية الأرض , بما في ذلك الثورات البركانية , وقد ثبت أنها المصدر الرئيسي للغلاف المائي والغازي للأرض .

وعلي ذلك فقد أصبح من المقبول عند علماء الأرض أن النشاط البركاني الذي صاحب

تكوين الغلاف الصخري للأرض في بدء خلقها هو المسئول عن تكون كل من غلافيها المائي والغازي , ولاتزال ثورات البراكين تلعب دورا مهما في إثراء الأرض بالمياه , وفي تغيير التركيب الكيميائي لغلافها الغازي وهو المقصود بدحو الأرض .

وذلك نابع من حقيقة أن الماء هو السائل الغالب في الصهارات الصخرية علي الرغم من أن نسبته المئوية إلي كتلة الصهارة قليلة بصفة عامة , ولكن نسبة عدد جزيئات الماء إلي عدد جزيئات مادة الصهارة تصل إلي نحو 15

, وعندما تتبرد الصهارة الصخرية تبدأ مركباتها في التبلور بالتدريج , وتتضاغط الغازات الموجودة فيها إلي حجم أقل , وتتزايد ضغوطها حتي تفجر الغلاف الصخري للأرض بقوة تصل إلي مائة مليون طن , فتشق ذلك الغلاف وتبدأ الغازات في التمدد , والانفلات من الذوبان في الصهارة الصخرية , ويندفع كل من بخار الماء والغازات المصاحبة له والصهارة الصخرية إلي خارج فوهة البركان أو الشقوق المتصاعدة منها , مرتفعة إلي عدة كيلومترات لتصل إلي كل أجزاء نطاق التغيرات المناخية (8 ـ 18 كيلومترا فوق مستوي سطح البحر) , وقد تصل هذه النواتج البركانية في بعض الثورات البركانية العنيفة إلي نطاق التطبق (30 ـ 80 كيلومترا فوق مستوي سطح البحر وغالبية مادة السحاب الحار الذي تتراوح درجة حرارته بين 250,500 درجة مئوية يعاود الهبوط إلي الأرض بسرعات تصل إلي 200

كيلومتر في الساعة لأن كثافته أعلي من كثافة الغلاف الغازي للأرض .

والماء المتكثف من هذا السحاب

(274/800)

البركاني الحار الذي يقطر مطرا من بين ذرات الرماد التي تبقي عالقة بالغلاف الغازي للأرض لفترات طويلة يجرف معه كميات هائلة من الرماد والحصي البركاني مكونا تدفقا للطين البركاني الحار علي سطح الأرض في صورة من صور الدحو .

ومنذ أيام ثار بركان في احدي جزر الفلبين فغمرت المياه المتكونة أثناء ثورته قرية مجاورة آهلة بالسكان بالكامل .

وقد يصاحب الثورات البركانية خروج عدد من الينابيع , والنافورات الحارة وهي ثورات دورية للمياه والأبخرة شديدة الحرارة تندفع إلي خارج الأرض بفعل الطاقة الحرارية العالية المخزونة في أعماق القشرة الأرضية .

ويعتقد علماء الأرض أن وشاح كوكبنا كان في بدء خلقه منصهرا انصهارا كاملا أو جزئيا , وكانت هذه الصهارة هي المصدر الرئيسي لبخار الماء وعدد من الغازات التي اندفعت من داخل الأرض , وقد لعبت هذه الأبخرة والغازات التي تصاعدت عبر كل من فوهات

البراكين وشقوق الأرض. ولا تزال تلعب. دورا مهما في تكوين وإثراء كل من الغلافين المائي والغازي للأرض وهو المقصود بالدحو .

رابعا : دورة الماء حول الأرض :

شاءت إرادة الخالق العظيم أن يسكن في الأرض هذا القدر الهائل من الماء , الذي يكفي جميع متطلبات الحياة علي هذا الكوكب , ويحفظ التوازن الحراري علي سطحه , كما يقلل من فروق درجة الحرارة بين كل من الصيف والشتاء صونا للحياة بمختلف أشكالها ومستوياتها .

وهذا القدر الذي يكون الغلاف المائي للأرض موزونا بدقة بالغة , فلو زاد قليلا لغطي كل سطحها , ولو قل قليلا لقصر دون الوفاء بمتطلبات الحياة عليها .

ولكي يحفظ ربنا (تبارك وتعالي) هذا الماء من التعفن والفساد , حركه في دورة معجزة تعرف باسم دورة المياه الأرضية تحمل في كل سنة 380,000 كيلو متر مكعب من الماء بين الأرض وغلافها الغازي , ولما كانت نسبة بخار الماء في الغلاف الغازي للأرض ثابتة , فإن معدل سقوط الأمطار سنويا علي الأرض يبقي مساويا لمعدل البخر من علي سطحها

, وإن تباينت أماكن وكميات السقوط في كل منطقة حسب الارادة الإلهية , ويبلغ متوسط سقوط الأمطار علي الأرض اليوم 85,7 سنتيمتر مكعب في السنة , ويتراوح بين 11,45 متر مكعب في جزر هاواي وصفر في كثير من صحاري الأرض . وصدق رسول الله (صلي الله عليه وسلم) إذ قال : ما من عام بأمطر من عام .

وإذ قال : . . . من قال أمطرنا بنوء كذا أو نوء كذا فقد كفر ; ومن قال أمطرنا برحمة من الله وفضل فقد آمن .

وتبخر أشعة الشمس من أسطح البحار والمحيطات 320,000 كيلو متر مكعب من الماء في كل عام وأغلب هذا التبخر من المناطق الاستوائية حيث تصل درجة الحرارة في المتوسط إلي 25 درجة مئوية , بينما تسقط علي البحار والمحيطات سنويا من مياه المطر 284,000 كيلو مترا مكعبا , ولما كان منسوب المياه في البحار والمحيطات يبقي ثابتا في زماننا فإن الفرق بين كمية البخر من أسطح البحار والمحيطات وكمية ما يسقط عليها من مطر لابد وأن يفيض إليها من القارات .

وبالفعل فإن البخر من أسطح القارات يقدر بستين ألف كيلو

متر مكعب بينما يسقط عليها سنويا ستة وتسعون ألفا من الكيلو مترات المكعبة من ماء المطر والفارق بين الرقمين بالإيجاب هو نفس الفارق بين كمية البخر وكمية المطر في البحار

والمحيطات (36,000 كيلو متر مكعب) فسبحان الذي ضبط دورة المياه حول الأرض بهذه الدقة الفائقة .

(276/800)

ويتم البخر علي اليابسة من أسطح البحيرات والمستنقعات , والبرك , والأنهار , وغيرها من المجاري المائية , ومن أسطح تجمعات الجليد , وبطريقة غير مباشرة من أسطح المياه تحت سطح الأرض , ومن عمليات تنفس وعرق الحيوانات , ونتح النباتات , ومن فوهات البراكين .

ولما كان متوسط ارتفاع اليابسة هو 823 مترا فوق مستوي سطح البحر , ومتوسط عمق المحيطات 3800 مترا تحت مستوي سطح البحر , فإن ماء المطر الذي يفيض سنويا من اليابسة إلي البحار والمحيطات (ويقدر بستة وثلاثين ألفا من الكيلومترات المكعبة) ينحدر مولدا طاقة ميكانيكية هائلة تفتت صخور الأرض وتتكون منها الرسوبيات والصخور الرسوبية بما يتركز فيها من ثروات أرضية , ومكونة التربة الزراعية اللازمة لإنبات الأرض , ولو أنفقت البشرية كل ما تملك من ثروات مادية ما استطاعت أن تدفع قيمة هذه الطاقة التي سخرها لنا ربنا من أجل تهيئة الأرض لكي تكون صالحة للعمران . . . ! ! ! .

خامسا : توزيع الماء علي سطح الأرض :

تقدر كمية المياه علي سطح الأرض بنحو 1360 مليون كيلو متر مكعب , أغلبها علي هيئة ماء مالح في البحار والمحيطات (97,20

), بينما يتجمع الباقي (2,8

) علي هيئة الماء العذب بأشكاله الثلاثة الصلبة , والسائلة , والغازية ; منها (2,15

من مجموع مياه الأرض) علي هيئة سمك هائل من الجليد يغطي المنطقتين القطبيتين الجنوبية والشمالية بسمك يقترب من الأربعة كيلو مترات , كما يغطي جميع القمم الجبلية العالية , والباقي يقدر بنحو 0.65

فقط من مجموع مياه الأرض يختزن أغلبه في صخور القشرة الأرضية علي هيئة مياه تحت سطح الأرض , تليه في الكثرة النسبية مياه البحيرات العذبة , ثم رطوبة التربة الأرضية , ثم رطوبة الغلاف الغازي للأرض , ثم المياه الجارية في الأنهار وتفرعاتها .

وحينما يرتفع بخار الماء من الأرض الي غلافها الغازي فإن أغلبه يتكثف في نطاق الرجع (نطاق الطقس أو نطاق التغيرات المناخية) الذي يمتد من سطح البحر الي ارتفاع يتراوح بين

16 و 17 كيلو مترا فوق خط الاستواء , وبين 6 و 8 كيلو مترات فوق القطبين , ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطي باختلاف ظروفها الجوية , فينكمش الي ما هو دون السبعة كيلو مترات في مناطق الضغط المنخفض ويمتد الي نحو الثلاثة عشر كيلو مترا في مناطق الضغط المرتفع , وعندما تتحرك كتل الهواء الحار في نطاق الرجع من المناطق الاستوائية في اتجاه القطبين فإنها تضطرب فوق خطوط العرض الوسطي فتزداد سرعة الهواء في اتجاه الشرق متأثرا باتجاه دوران الأرض حول محورها من الغرب الي الشرق .

ويضم هذا النطاق 66

من كتلة الغلاف الغازي للأرض , وتتناقص درجة الحرارة والضغط فيه باستمرار مع الارتفاع حتي تصل الي نحو 60 درجة مئوية تحت الصفر والي عشر الضغط الجوي العادي عند سطح البحر في قمته المعروفة باسم مستوي الركود الجوي وذلك لتناقص الضغط بشكل ملحوظ عنده .

ونظرا لهذا الانخفاض الملحوظ في كل من درجة الحرارة والضغط الجوي , والي الوفرة النسبية لنوي التكثف في هذا النطاق فإن بخار الماء الصاعد من الأرض يتمدد تمددا ملحوظا مما يزيد في فقدانه لطاقته , وتبرده تبردا شديدا ويساعد علي تكثفه وعودته الي الأرض مطرا أو بردا أو ثلجا , وبدرجة أقل علي هيئة ضباب وندي في المناطق القريبة من الأرض .

سادسا : دحو الأرض معناه إخراج غلافيها المائي والغازي من جوفها :

ثبت أن كل ماء الأرض قد أخرجه ربنا (تبارك وتعالي) من داخل الأرض عن طريق الأنشطة البركانية المختلفة المصاحبة لتحرك

ألواح الغلاف الصخري للأرض .

كذلك فإن ثاني أكثر الغازات اندفاعا من فوهات البراكين هو ثاني أكسيد الكربون , وهو لازمة من لوازم عملية التمثيل الضوئي التي تقوم بتنفيذها النباتات الخضراء مستخدمة هذا الغاز مع الماء وعددا من عناصر الأرض لبناء خلايا النبات وأنسجته , وزهوره , وثماره , ومن هنا عبر القرآن الكريم عن إخراج هذا الغاز المهم وغيره من الغازات اللازمة لإنبات الأرض من باطن الأرض تعبيرا مجازيا بإخراج المرعي , لأنه لولا ثاني أكسيد الكربون ما أنبتت الأرض , ولا كستها الخضرة .

سابعا : من معجزات القرآن الإشارة إلي تلك الحقائق العلمية بلغة سهلة جزلة :

علي عادة القرآن الكريم فإنه عبر عن تلك الحقائق الكونية المتضمنة إخراج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض من داخل الأرض بأسلوب لا يفزع العقلية البدوية في صحراء الجزيرة

العربية وقت تنزله , فقال (عز من قائل) :

والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والعرب في قلب الجزيرة العربية كانوا يرون الأرض تتفجر منها عيون الماء , ويرون الأرض تكسي بالعشب الأخضر بمجرد سقوط المطر , ففهموا هذا المعني الصحيح الجميل من هاتين الآيتين الكريمتين , ثم نأتي نحن اليوم فنري في نفس الآيتين رؤية جديدة مفادها أن الله (تعالي) يمن علي الأرض وأهلها وعلي جميع من يحيا علي سطحها أنه (سبحانه) قد هيأها لهذا العمران بإخراج كل من أغلفتها الصخرية والمائية والغازية من جوفها حيث تصل درجات الحرارة الي آلاف الدرجات المئوية مما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة , وببديع الصنعة , وبكمال العلم , وتمام الحكمة , كما يشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقي هذا الوحي الخاتم بأنه (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السموات والأرض , فلم يكن لأحد من الخلق وقت تنزل القرآن الكريم ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بحقيقة أن كل

ماء الأرض , وكل هواء الأرض قد أخرجه ربنا (تبارك وتعالي) من داخل الأرض , وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين فسبحان منزل القرآن من

قبل أربعة عشر قرنا ووصفه بقوله الكريم :

قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما (الفرقان :6)

وصلي الله وسلم وبارك علي رسولنا الأمين الذي تلقي هذا الوحي الرباني فبلغ الرسالة , وأدي الأمانة , ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حتي أتاه اليقين , والذي وصفه ربنا (سبحانه وتعالي) بقوله الكريم :

لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفي بالله شهيدا (النساء :166) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم: د . زغلول النجار ﴾ .

(280/800)

بحث آخر :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(29) والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في مطلع الثلث الأخير من سورة النازعات , وهي سورة مكية , تعني - كغيرها من سور القرآن المكي - بقضية العقيدة , والعقيدة هي أساس الدين , وهي من القضايا الغيبية غيبة مطلقة , ولذلك فالإنسان محتاج فيها دوما إلي بيان من الله , بيانا ربانيا خالصا لا يداخله أدني قدر من التصورات البشرية . . ! !

ومن ركائز العقيدة : الإيمان باليوم الآخر وما سوف يحويه من بعث بعد الموت , ومن حساب وجزاء , ثم خلود في حياة أبدية إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا . . . ! ! !

وتبدأ سورة النازعات بقسم من الله تعالي (وهو الغني عن القسم) بعدد من طوائف ملائكته الكرام , وبالمهام المكلف بها كل منهم , علي أن الآخرة حق , وأنها واقعة لا محالة , وأن كلا من البعث والحساب والجنة والنار حق , وأن الخلود في أي منهما حتمي الحدوث , لا مفر منه , ولا انفكاك عنه , وتأتي هذه الآيات بصياغة القسم من أجل تنبيه الناس إلي أهمية الأمر المقسم به , وجديته , وخطورته . . . ! ! !

ثم تعرض الآيات بعد ذلك لشيء من أهوال الآخرة من مثل رجف الأرض (الراجفة يومئذ) , ومور السماء (الرادفة) , وكلاهما سوف يدمر في الآخرة , وقد يكون المقصود بالراجفة والرادفة النفختين , اللتين يموت كل حي بعد الأولي منهما وترجف بها الأرض ويبعث كل ميت بعد الثانية وتمور السماء مورا . . وبعد ذلك تنتقل الآيات إلي وصف

شيء من أحوال الكافرين في هذا اليوم العصيب الرهيب , حين يبعث الخلق فجأة بعد موتهم , فتخفق قلوب المبعثين وجلا وخاصة الكافرين والعصاة المجرمين منهم , وتخشع أبصارهم

(281/800)

ذلا , ويتساءلون في لهفة وذهول : هل نحن عائدون من حيث جئنا إلي الحياة الدنيا مرة ثانية بعد أن كانت الأجساد قد بليت , والعظام قد نخرت ؟ أم أن هذا هو البعث الذي سبق وأن أخبرنا به في حياتنا الدنيا فأنكرناه ؟ وإن كان ذلك كذلك فقد رجعنا رجعة خاسرة , وقد يكون ذلك تذكيرا لهم بمقولتهم في الدنيا إنكارا للبعث , وهنا يقول الله (تعالي) :

فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة *(النازعات :13 و 14)

والزجرة هي الصيحة , والساهرة هي سطح الأرض بصفة عامة وأرض المحشر (بصفة خاصة) , ويفهم من ذلك أن الأمر بالبعث يأتي بصيحة واحدة , فإذا بكافة الخلائق قيام يبعثون , ثم يساقون إلي أرض المحشر ليواجهوا حسابهم العادل , ويلقوا جزاءهم الأوفي . . . ! ! !

وفي إيجاز معجز تلمح الآيات بعد ذلك إلي جانب من قصة كليم الله موسي (عليه السلام)

مع فرعون وملئه , مبتدئة باستفهام رقيق موجه إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) ثم عرض للقصة في كلمات محدودة تثبيتا له في مواجهة كفار قريش , وتثبيتا لكل داعية إلي دين الله من بعده في مواجهة أهل الكفر والشرك والضلال والطغيان في كل عصر وفي كل مكان , كما يأتي سرد تلك القصة تحذيرا للناس جميعا من مغبة سوء المصير الذي لقيه هذا الطاغية الملقب بفرعون مصر والعذاب الذي حاق به وبالمكذبين الضالين من قومه في الدنيا , وما توعدهم الله (تعالي) به في الآخرة من عذاب أشد وأنكي . . . ! ! وتبقي هذه الآيات المباركات درسا يتلقاه كل كيس عاقل فيخشي الله (تعالي) حبا له (سبحانه) , وشكرا علي نعمائه , وخوفا من عذابه , ورجاء لثوابه في الدنيا والآخرة إن شاء الله . . . ! ! !

ثم تتوجه الآيات في سورة النازعات بعد سرد قصة موسي (عليه السلام) بالخطاب مباشرة إلي منكري البعث من كفار قريش (وإلي الكفار في كل زمان ومكان) بسؤال تقريعي توبيخي يقول : هل خلق الناس .

علي ضآلة أحجامهم , ونسبية زمانهم ومكانهم , ومحدودية قدراتهم. أشد من خلق السماء ؟ وبنائها المذهل في عظمة اتساعه , واحكام ترابطه والتحامه , وتعدد أجرامه وتكامل هيئاتها , واحكام أبعادها وحركاتها وأحجامها , وكتلها , والمسافات الفاصلة بينها , والارتفاعات السامقة الشاهقة التي رفعت إليها بغير عمد مرئية , ولا دعامات مشاهدة , وتعاظم القوي الممسكة بمختلف أجزائها , واتقان تسويتها مع تحرك كل جزئية فيها , واظلام ليلها اظلاما تاما (بمعني أن الأصل في الكون الاظلام) , وإخراج ضحاها بهذا النور الأبيض المبهج من بعد الظلام وهي نعمة كبري من نعم الخالق (سبحانه وتعالي) ؟

وهل خلق الإنسان أشد إنجازا من دحو الأرض , وإخراج كل من مائها ومرعاها من داخلها ؟

وهل هذا المخلوق الضعيف أشد خلقا من إرساء الجبال علي سطح الأرض , وإرساء الأرض بالجبال كي لا تميد ولا تضطرب بسكانها تحقيقا لسلامة العيش عليها ؟

وهذه التساؤلات يوردها ربنا (تبارك وتعالي) في محكم كتابه لعل منكري البعث من الطغاة والمتجبرين في الأرض أن يجدوا فيها ما يمكن أن يعينهم علي ادراك شيء من مظاهر القدرة الإلهية المبدعة في الكون والتي تؤكد علي حقيقة الخلق كما تؤكد علي امكانية البعث بل علي ضرورته وحتميته . . . . ! ! !

ثم عاودت السورة الكريمة الحديث عن القيامة , وسمتها باسم الطامة الكبري تعبيرا عن كونها داهية عظمي , تعم بأهوالها كل شيء , وتغطي علي كل مصيبة مهما عظمت , حيث يعرض الناس لا تخفي منهم خافية , ويتذكر الإنسان أعماله في الحياة الدنيا خيرها وشرها , وتبرز جهنم حتي يراها الخلق جميعا عيانا بيانا , ويقع الحساب العادل , وبعد الحساب ينقسم الناس إلي شقي وسعيد , فالشقي هو كل ما قد جاوز الحد في الكفر والعصيان , والتجبر والطغيان , والجري وراء

الشهوات , مفضلا الدنيا الفانية علي الآخرة الباقية , وهذا مأواه جهنم وبئس

المصير , والسعيد هو الذي خاف عظمة الله وجلاله فآمن به , وخضع لأوامره , ونهي نفسه عن اتباع هواها , وحسب حساب مقامه بين يدي الله يوم العرض الأكبر , وهذا مأواه جنات النعيم . . ! ! !

وتختتم سورة النازعات بخطاب موجه إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ردا علي سؤال الكفار له عن الساعة متي قيامها ؟ ويأتي جواب الحق (تبارك وتعالي) بأن علمها , ومردها , ومرجعها إلي الله (تعالي) وحده الذي استأثر به دون كافة خلقه , وعلي ذلك

فإن دور النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) هو إنذار من يخشاها , وهي لهولها سوف تجعل الكفار والمشركين يرون حياتهم علي الأرض - مهما طالت - كأنها بضع ساعات من يوم واحد تقدر بمقدار عشية أو ضحاها , وذلك احتقارا لها , واستهانة بشأنها . . . ! ! !

وهكذا يأتي ختام السورة متوافقا مع مطلعها في التأكيد علي حقيقة البعث وحتميته , والانذار بأهواله وخطورته , حتي يستعد الناس للقاء ربهم بالإيمان الخالص به , والخضوع بالطاعة له , وحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وهي من الركائز الأساسية للدين الذي علمه ربنا (تبارك وتعالي) لأبينا آدم (عليه الصلاة والسلام) , وبعث به عددا كبيرا من الأنبياء والمرسلين من بعده , وأكمله وأتمه في رسالته الخاتمة التي وجهها للناس كافة في القرآن الكريم , وفي أحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) .

وهنا يبرز التساؤل عن مدلول كل من إرساء الجبال علي سطح الأرض , وإرساء الأرض بالجبال , وهي من الآيات الكونية الناطقة بكمال القدرة الإلهية المبدعة في خلق الأرض , والمؤكدة أن الذي يملك تلك القدرة الخلاقة المبدعة قادر علي إفناء خلقه وعلي إعادة بعثه من جديد . . . ! ! !

وقبل الإجابة علي هذا السؤال لابد من استعراض موجز لكل من الدلالة اللغوية للفظي الجبل والإرساء , ولأقوال

المفسرين في هاتين الآيتين

الكريمتين .

الدلالة اللغوية

(الجبل) في اللغة هو المرتفع من الأرض ارتفاعا ملحوظا يجعله يعظم ويطول علي ما حوله من الأرض , وجمعه (جبال) و (أجبال) , ودونه في الارتفاع (التل) , ودون التل (الربوة) أو (الرابية) أو (الأكمة) وجمعها (آكام) , ودون الآكمة باتساع (النجد) أو (الهضبة) , ودون الهضبة (السهل) ودونه (المنخفض) .

وللفظة (الجبل) بمشتقاتها واستعاراتها وتشبيهاتها معان أخري كثيرة سبق التعرض لها في مقال الأثنين الماضي , ولا داعي لتكرار ذلك هنا .

أما الفعل (رسا) ,(يرسو) ,(رسوا) و (رسوا) فمعناه ثبت وقر , من مثل قولهم (رست) السفينة , أي وقفت عن الحركة في الماء علي الأنجر (وهو مرساة السفينة) , وفي هذا المعني يقول ربنا (تبارك وتعالي) في محكم كتابه :

وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم *(هود : 41)

واللفظان (مجراها) و (مرساها) مصدران من جري وأرسي (علي التوالي) , بمعني باسم الله جريها وإرساؤها , ويستخدم الفعل (أرسي) مجازا بمعني تهدئة الأمور , فيقال رسوت بين القوم أي أثبت بينهم إيقاع الصلح , ويقال (أرساه) غيره أي ثبته وأقره , من مثل قول الحق (تبارك وتعالي) :

والجبال أرساها * .

و(المرسي هو مكان (الرسو) أو زمانه , كما يقال للمصدر وللمفعول به , وفي معني (الزمان جاء قول الحق (سبحانه) :

يسألونك عن الساعة أيان مرساها *(الأعراف : 187) ,(النازعات : 42) أي قيامها وزمان ثبوتها .

(والمرساة) الآلة التي ترسي بها السفينة , و (الرواسي) هي الجبال الثوابت الراسخة , واحدتها (راسية) , وجاءت لفظة (رواسي) بهذا المعني في القرآن الكريم تسع مرات من مثل قوله (تعالي) :

وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا *(المرسلات : 27)

وجاءت لفظة (

راسيات) مرة واحدة في كتاب الله وذلك في قوله (سبحانه) :

يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . . . *(سبأ :13)

أي قدور ثابتات علي الأثافي (وهي الأحجار يوضع عليها القدر كي يوقد عليه من تحته) .

شروح المفسرين

في تفسير قول الحق (تبارك وتعالي) :

والجبال أرساها * متاعا لكم ولأنعامكم * ذكر ابن كثير (يرحمه الله) :[أي قرها وأثبتها في أماكنها , وهو الحكيم العليم , الرؤوف بخلقه الرحيم . . . وثبت جبالها لتستقر بأهلها , ويقر قرارها , كل ذلك متاعا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار , إلي أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل] .

وجاء في تفسير الجلالين :(أثبتها علي وجه الأرض لتسكن ,(متاعا) مفعول له لمقدر أي : فعل ذلك متعة , أو مصدر , أي تمتيعا (لكم ولأنعامكم) جمع (نعم) وهي (الإبل والبقر والغنم) .

وجاء في الظلال :(. . . وإرساء جبالها متاعا للإنسان وأنعامه , وهي إشارة توحي بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع . .) .

وجاء في صفوة البيان :(والجبال أرساها) أي وأرسي الجبال , أي أثبتها في الأرض كي لا تميد وتضطرب , وقوله (أرساها) تفسير للفعل المضمر قبله . (متاعا لكم ولأنعامكم) أي تمتيعا لكم ولأنعامكم , والآية تقريع لكفار مكة المنكرين للبعث , زاعمين صعوبته , بعد أن بين الله كمال سهولته بالنسبة إلي قدرته . . .)

وجاء في المنتخب : والجبال ثبتها متاعا لكم ولأنعامكم .

وجاء في صفوة التفاسير :(والجبال أرساها) أي والجبال أثبتها في الأرض , وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها ,(متاعا لكم ولأنعامكم) أي فعل ذلك كله . . . منفعة للعباد وتحقيقا لمصالحهم ومصالح أنعامهم ومواشيهم . . . .)

والجبال أرساها في ضوء المعارف الحديثة . .

فهم المفسرون السابقون من هذه

(286/800)

الآية الكريمة أن الضمير في (أرساها) يعود علي الجبال , ومن هنا قالوا إن عملية الإرساء تتعلق بالجبال , علي أساس من أن الضمير في العربية يعود علي أقرب اسم إليه , وانطلاقا من ذلك فقد فهموا من قول الحق تبارك وتعالي :(والجبال أرساها) معني تثبيت الجبال في

الأرض , وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بمن عليها , فلا تميد ولا تضطرب , وهذا الكلام يحمل في طياته أيضا تثبيت الأرض , خاصة أن ضمير الغائب في الآيتين السابقتين (والذي جاء أربع مرات) يعود علي الأرض , ولا يستبعد أن يكون كذلك في آية الجبال حيث يقول ربنا (تبارك اسمه) : والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا لكم ولأنعامكم .

والصياغة هنا تحتمل دلالة وبالجبال ارساها , فيكون المعني إرساء الأرض بواسطة الجبال , بينما المعني الأول يتعلق بإرساء الجبال علي سطح الأرض , والمعنيان صحيحان صحة كاملة حسب معطيات علوم الأرض الحديثة , فالجبال مثبتة في الغلاف الصخري للأرض , وهي أيضا تثبت الأرض , كما سوف نوضح في الفقرات التالية إن شاء الله .

أولا : والجبال أرساها بمفهوم إرساء الجبال علي سطح الأرض

في خلال القرنين الماضيين تراكمت الادلة العلمية التي تشير إلي أن الغلاف الصخري للأرض في حالة توازن تام علي الرغم من التباين الواضح في تضاريس سطحه , ومعني ذلك أن كتلة المادة متساوية عبر كل أنصاف أقطار الأرض الممتدة من مركزها إلي مختلف النقاط علي سطحها مهما تباينت تضاريس السطح (سواء النقطة التي انتهي إليها نصف القطر كانت أعلي قمة جبلية أو أخفض نقطة في أغوار المحيطات) , ولا يمكن تفسير ذلك إلا بتباين كثافة الصخور المكونة للأجزاء المختلفة من الغلاف الصخري للأرض , فالسلاسل الجبلية

العالية لابد وأن تتكون من صخور أقل كثافة من الصخور المحيطة بها , والمناطق المنخفضة لابد أن تتكون من صخور أعلي كثافة من

(287/800)

صخور المناطق المرتفعة , وقد أكد ذلك أن الجزء العلوي من الغلاف الصخري للأرض والمعروف باسم قشرة الأرض يتباين كل من سمكه وكثافته في القارات عنهما في قيعان البحار والمحيطات , فيتراوح سمك القشرة القارية بين 30 و 40 كيلو مترا , ويغلب علي تركيبها الصخور الجرانيتية (بمتوسط كثافة 2,7 جم / سم 3) بينما يتراوح سمك قشرة قاع المحيط بين 5 و 8 كيلو مترات , ويغلب علي تركيبها الصخور البازلتية (بمتوسط كثافة 2,9 جم / سم

3) وبذلك تطفو كتل القارات فوق قيعان البحار والمحيطات .

وبالمثل فإن ألواح الغلاف الصخري الحاملة للقارات يتراوح سمكها بين 100 و 150 كيلو مترا , ويغلب علي تكوينها صخور ذات كثافة اقل نسبيا من الصخور المكونة لألواح قيعان البحار والمحيطات , والتي لا يتعدي سمكها سبعين كيلو مترا , وكلا الصنفين من الألواح المكونة لغلاف الأرض الصخري (القارية والمحيطية) يطفو فوق نطاق أعلي كثافة , شبه

منصهر , لدن (مرن) يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي , وهذا النطاق يتأثر بالضغوط فوقه نظرا لمرونته , فيتحرك إلي أسفل كلما زادت عليه الضغوط , وإلي أعلي كلما قلت , ويتم ذلك بعمليتين متعاكستين تسمي الأولي منهما باسم التضاغط وتسمي الثانية باسم الارتداد التضاغطي , وتتمان للمحافظة علي الاتزان الارضي , فإذا ارتفع الجبل بصخوره الخفيفة نسبيا إلي قمم سامقة فلابد من إزاحة كم مساو لكتلته من المادة شبه المنصهرة في نطاق الضعف الأرضي الموجودة أسفل الجبل مباشرة مما يساعد الصخور المكونة للجبل علي الاندفاع الي اسفل بامتدادات عميقة تسمي تجاوزا باسم جذور الجبال تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل لتطفو في نطاق الضعف الارضي , كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات , يحكمهما في الحالين قوانين الطفو , وبناء علي كثافة الصخور المكونة للجبال بالنسبة إلي كثافة صخور نطاق الضعف الارضي , وكتلة الجبل

نفسه يكون عمق الامتدادات الداخلية لصخور الجبل (أي جذوره) وقد ثبت أن كل نتوء علي سطح الأرض له امتداد في داخلها يتراوح بين 10 و 15 ضعف ارتفاع هذا النتوء فوق مستوي سطح البحر , وكلما زاد هذا الارتفاع الخارجي لتضاريس الأرض زادت

امتداداته الداخلية أضعافا كثيرة , وهكذا تثبت الجبال علي سطح الأرض بانغراسها في غلافها الصخري , وطفوها في نطاق الضعف الأرضي . كما تعين علي تثبيت الأرض ككوكب , فتقلل من ترنحها في دورانها حول محورها , كما تثبت

ألواح الغلاف الصخري للأرض مع بعضها البعض بأوتاد الجبال , فتربط القارة بقاع المحيط , فإذا استهلك قاع محيط فاصل بين قارتين ارتطمت القارتان ببعضهما , ونتج عن ذلك أعلي السلاسل الجبلية التي تربط بأوتادها القارتين المصطدمتين فتقلل من حركة الألواح الصخرية الحاملة لهما حتي توقفها , وبذلك تصبح الحياة علي سطحي القارتين المرتطمتين اكثر استقرارا .

وكلما برت عوامل التجوية والتحات والتعرية قمة الجبل دفعته قوانين الطفو إلي أعلي حتي يتم خروج جذور (أوتاد) الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل , وحينئذ يتوقف الجبل عن الارتفاع , وتستمر العوامل الخارجية في بريه حتي يصل سمكه إلي متوسط سمك لوح الغلاف الصخري الذي يحمله فيضم إلي باقي صخور القارة الموجود فيها علي هيئة راسخ من رواسخ الأرض .

ثانيا : والجبال أرساها بمفهوم إرساء الأرض بواسطة الجبال

اختلف العلماء في فهم دور الجبال في إرساء الأرض اختلافا كبيرا , وذلك لأن مجموع كتل الجبال علي سطح الأرض ـ علي الرغم من ضخامتها ـ تتضاءل أمام كتلة الأرض المقدرة

بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن (5876*1810 طنا) , وكذلك فإن ارتفاع أعلي قمم الأرض (أقل قليلا من تسعة كيلو مترات) لايكاد يذكر بجوار متوسط نصف قطر الأرض (6371 كيلو مترا) , فإذا جمع إرتفاع أعلي قمم الأرض إلي أعمق أغوار المحيطات (أقل قليلا من

(289/800)

أحد عشر كيلو مترا) فإنه لايكاد يصل إلي عشرين كيلو مترا ونسبته إلي متوسط قطر الأرض لاتتعدي 0,3

.

من هنا يبرز التساؤل كيف يمكن للجبال أن تثبت الأرض بكتلتها وأبعادها الهائلة , في الوقت التي لاتكاد كتلة وأبعاد الجبال أن تبلغ من ذلك شيئا ؟

(أ) تثبيت الجبال لألواح الغلاف الصخري للأرض

في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين تمت بلورة مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض , فقد اتضح أن هذا الغلاف ممزق بشبكة هائلة من الصدوع تمتد لعشرات الآلاف من الكيلو مترات لتحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين

65 و 150 كيلو مترا , فتقسمه إلي عدد من الالواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق الضعف الأرضي وتتحرك في هذا النطاق من نطق الأرض التيارات الحرارية علي هيئة دوامات عاتية من تيارات الحمل تدفع بألواح الغلاف الصخري للأرض لتباعد بينها عند أحد أطرافها , وتصدمها ببعض عند حوافها المقابلة لحواف التباعد , وتجعلها تنزلق عبر بعضها البعض عند الحافتين الأخريين .

ويعين علي تسارع حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض دوران الأرض حول محورها أمام الشمس , كما يعين علي ذلك اندفاع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان عبر الصدوع الفاصلة بين حدود الألواح المتباعدة عن بعضها البعض , فيتكون بذلك باستمرار أحزمة متوازية من الصخور البركانية التي تتوزع بانتظام حول مستويات الصدوع الفاصلة بين الألواح المتباعدة في ظاهرة تعرف باسم ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات , وتتكون الصخور الأحدث عمرا حول مستويات التصدع المتباعدة , باستمرار وتدفع الصخور الأقدم عمرا في اتجاه اللوح المقابل عند خط الاصطدام وهنا يهبط قاع المحيط تحت القارة اذا كان اللوح المقابل يحمل قارة بنفس معدل اتساع قاع المحيط في كل جهة من جهتي الاتساع حول مستوي تصدع وسط المحيط الذي تتكون حوله سلاسل من الجروف البركانية تمتد فوق قاع المحيط

لعشرات الآلاف من الكيلو مترات وتعرف باسم حواف أواسط المحيطات .

وينتج عن هبوط قاع المحيط تحت اللوح الصخري الحامل للقارة تكون أعمق أجزاء هذا المحيط علي هيئة جب عميق يعرف باسم الجب البحري , ونظرا لعمقه يتجمع في هذا الجب كم هائل من الرسوبيات البحرية التي تتضاغط وتتلاحم مكونة تتابعات سميكة جدا من الصخور الرسوبية , ويتبادل مع هذه الصخور الرسوبية ويتداخل فيها كم هائل من الصخور النارية التي تعمل علي تحول أجزاء منها إلي صخور متحولة .

وتنتج الصخور البركانية عن الانصهار الجزئي لقاع المحيط المندفع هابطا تحت القارة , وتنتج الصخور المتداخلة جزئيا عن الصهارة الناتجة عن هذا الهبوط , وعن الإزاحة من نطاق الضعف الأرضي بدخول اللوح الهابط فيه .

هذا الخليط من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة يكشط باستمرار من فوق قاع المحيط بحركته المستمرة تحت اللوح الصخري الحامل للقارة , فيطوي ويتكسر , ويضاف إلي حافة القارة مكونا سلسلة أو عددا من السلاسل الجبلية ذات الجذور العميقة التي تربط كتلة القارة بقاع المحيط فتهديء من حركة اللوحين وتعين علي استقرار اللوح الصخري الحامل للقارة استقرارا ولو جزئيا يسمح باعمارها .

وتتوقف حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض بالكامل عندما تصل دورة بناء الجبال إلي

نهايتها حين تتحرك قارتان مفصولتان بمحيط كبير في اتجاه بعضهما البعض حتي يستهلك قاع المحيط كاملا بدخوله تحت إحدي القارتين حتي تصطدما , فيتكون بذلك أعلي السلاسل الجبلية ارتفاعا كما حدث عند ارتطام اللوح القاري الحامل للهند باللوح الحامل لقارتي آسيا وأوروبا وتكون سلسلة جبال الهيمالايا .

من هنا اتضح دور الجبال في إرساء ألواح الغلاف الصخري للأرض وتثبيتها , ولولا ذلك ما استقامت الحياة علي سطح الأرض أبدا , لأن حركة هذه الألواح كانت في بدء خلق الأرض علي درجة من السرعة والعنف لاتسمح لتربة أن تتجمع , ولا لنبتة أن

تنبت , ولا لحيوان أو إنسان أن يعيش , خاصة وأن سرعة دوران الأرض حول محورها كانت في القديم أعلي من معدلاتها الحالية بكثير , لدرجة أن طول الليل والنهار معا عند بدء خلق الأرض يقدر بأربع ساعات فقط , وأن عدد الأيام في السنة كان أكثر من 2200 يوم , وهذه السرعة الفائقة لدوران الارض حول محورها كانت بلاشك تزيد من سرعة انزلاق الواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الارضي , وهي تدفع اساسا بظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات , وبملايين الاطنان من الصهارة الصخرية

والحمم البركانية المندفعة عبر صدوع تلك القيعان .

وبتسارع حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض تسارعت الحركات البانية للجبال , وبتسارع بنائها هدأت حركة هذه الألواح , وهيئت الأرض لاستقبال الحياة , وقبل مقدم الإنسان كانت غالبية ألواح الغلاف الصخري للأرض قد استقرت , بكثرة تكون السلاسل والمنظومات الجبلية , وأخذت الأرض هيأتها لاستقبال هذا المخلوق المكرم الذي حمله الله تعالي مسئولية الاستخلاف في الأرض .

(ب) تثبيت الجبال للأرض كلها ككوكب

تساءل العلماء عن إمكانية وجود دور للجبال في اتزان حركة الأرض ككوكب وجعلها فرارا صالحا للحياة وجاء الرد بالايجاب لأنه نتيجة لدوران الأرض حول محورها فإن القوة الطاردة المركزية الناشئة عن هذا الدوران تبلغ ذروتها عند خط استواء الأرض , ولذلك فإن الأرض انبعجت قليلا عند خط الاستواء حيث تقل قوة الجاذبية , وتطغي القوة الطاردة المركزية , وتفلطحت قليلا عند القطبين حيث تطغي قوة الجاذبية وتتضاءل القوة الطاردة المركزية , وبذلك فإن طول قطر الأرض الاستوائي يزداد باستمرار بينما يقل طول قطرها القطبي , وإن كان ذلك يتم بمعدلات بطيئة جدا , إلا أن ذلك قد اخرج الأرض عن شكلها الكروي إلي شكل شبه كروي , وشبه الكرة لا يمكن لها أن تكون منتظمة في دورانها حول محورها , وذلك لأن الانبعاج الاستوائي للأرض يجعل

محور دورانها يغير اتجاهه رويدا رويدا في حركة معقدة مردها إلي تأثير جاذبية أجرام المجموعة الشمسية (خاصة الشمس والقمر) علي الأرض , وتعرف هذه الحركة باسم الحركة البدارية (أو حركة الترنح والبدارية) .

وتنشأ هذه الحركة عن ترنح الأرض في حركة بطيئة تتمايل فيها من اليمين إلي اليسار بالنسبة إلي محورها العمودي الذي يدور لولبيا دون أن يشير طرفاه الشمالي والجنوبي إلي نقطة ثابتة في الشمال أو في الجنوب , ونتيجة للتقدم أو التقهقر فإن محور دوران الارض يرسم بنهايته دائرة حول قطب البروج تتم في فترة زمنية قدرها نحو 26,000 سنة من سنيننا

.

ويتبع ترنح الأرض حول مدارها مسار متعرج بسبب جذب كل من الشمس والقمر للأرض , وتبعا للمتغيرات المستمرة في مقدار واتجاه القوة البدارية لكل منهما ويؤدي ذلك إلي ابتعاد الدائرة الوهمية التي يرسمها محور الأرض أثناء ترنحها وتحولها إلي دائرة مؤلفة من اعداد من الاقواس المتساوية , التي يبلغ عددها في الدورة الكاملة 1400 ذبذبة (أو قوس) ويستغرق رسم القوس الواحد 18,6 سنة أي أن هذه الدائرة تتم في (26040) سنة ,

وتسمي باسم حركة الميسان (النودان أو التذبذب) وقد أثبتت الدراسات الفلكية أن لمحور دوران الارض عددا من الحركات الترنحية التي تستغرق أوقاتا مختلفة يبلغ اقصرها عشرة ايام , ويبلغ اطولها 18,6 سنة من سنيننا .

ووجود الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض , يقلل من شدة ترنح الأرض في دورانها حول محورها , ويجعل حركتها اكثر استقرارا وانتظاما وسلاسة تماما كما تفعل قطع الرصاص التي توضع حول إطار السيارة لانتظام حركتها , وقلة رجرجتها , وبذلك أصبحت الأرض مؤهلة للعمران .

وهنا يتضح وجه من أوجه الاعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة , وذلك في قول ربنا (تبارك وتعالي) : والجبال أرساها * وفي تكرار المعني في تسعة

مواضع أخري من كتاب الله وصفت فيها الجبال بأنها رواسي , وهي حقائق لم يتوصل الإنسان إلي إدارك شئ منها إلا في في القرنين الماضيين بصفة عامة , وفي أواخر القرن العشرين بصفة خاصة , ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرا لهذا السبق العلمي إلا بيان

الخالق سبحانه وتعالي . . . ! !

وفي هذا من التأكيد القاطع , والحسم الجازم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , الذي أنزله بعلمه , وأن خاتم الانبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) تلقي هذا (القرآن) عن ربه بواسطة الوحي الذي بقي موصولا به حتي أتاه اليقين , وأنه (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) ما ينطق عن الهوي فصلي اللهم وسلم وبارك علي سيدنا محمد , والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية . بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(294/800)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأول بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/801)

الجزء الأول بعد الثمانمائة

من الآية ﴿ 34 ﴾ من (سورة النازعات)

وحتى الآية ﴿ 46 ﴾ من السورة

(4/801)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35)
وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ

الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما دل على البعث ، أتبعه ما يكون عن البعث مسبباً عنه دلالة على أن الوجود ما خلق إلا لأجل البعث لأنه محط الحكمة : ﴿ فإذا جاءت ﴾ أي بعد الموت ﴿ الطامة الكبرى ﴾ أي الداهية الدهياء التي تطم – أي تعلو – على سائر الدواهي وتغطيها فتكون أكبر داهية توجد ، وهي البعث بالنفخة الثانية – كما قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، والعامل في " إذا " محذوف تقديره : فصل الناس إلى شقي وسعيد .

ولما كان الشيء لا يعرف قدره إذا كان غائباً إلا بما يكون فيه ، قال مبدلاً منه : ﴿ يوم يتذكر ﴾ أي تذكراً عظيماً ظاهراً – بما أشار إليه الإظهار ﴿ الإنسان ﴾ أي الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له ﴿ ما سعى ﴾ أي عمل كله من خير وشر لأنه يراه في صحيفة أعماله ، والإخبار عن تذكره منبهاً على ما في ذلك اليوم من الخطر لأن أحداً لا يعمل جهده في تذكره إلا لمحوج إلى ذلك وهو الحساب وتدوينه في صحيفة أعماله .

(5/801)

ولما أشار إلى الحساب ذكر ما بعده فقال : ﴿ وبرزت ﴾ أي أظهرت إظهاراً عظيماً ، وبناه للمفعول لأن الهائل مطلق تبريزها لا كونه من معين ، مع الدلالة على الخفة والسهولة لكونه على طريقة كلام القادرين ﴿ الجحيم ﴾ أي النار التي اشتد وقدها وحرها ﴿ لمن يرى ﴾ أي كائناً من كان لأنه لا حائل بين أحد وبين رؤيتها ، لكن الناجي لا يصرف بصره إليها فلا يراها كما قال تعالى : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ [الأنبياء : 102] .

ولما كان جواب " إذا " كما مضى محذوفاً ، وكان تقديره أن قسم الناس قسمين : قسم للجحيم وقسم للنعيم ، قال تعالى مسبباً عنه مفصلاً : ﴿ فأما من طغى ﴾ أي تجاوز الحد في العدوان فلم يخش مقام ربه ، قال في القاموس : طغى : جاوز القدر وارتفع وطغى : غلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم ، والماء : ارتفع .

ولما كان الذي بعد حدود الله هو الدنيا ، صرح به فقال : ﴿ وآثر ﴾ أي أكرم وقدم واختار ﴿ الحياة الدنيا ﴾ بأن جعل أثر العاجلة الدنية لحضورها عنده أعظم من أثر الآخرة العليا لغيابها ، فكان كالبهائم لا إدراك له لغير الجزئيات الحاضرة ، فانهمك في جميع أعمالها وأعرض عن الاستعداد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس فلم ينه نفسه عن الهوى .

ولما كان الإنسان مؤاخذاً بما اكتسب ، سبب عن أعماله هذه قوله مؤكداً لتكذيبهم ذلك : ﴿ فإن الجحيم ﴾ أي النار الشديدة التوقد العظيمة الجموع على من يدخلها ﴿ هي ﴾ أي

لا غيرها ﴿ المأوى ﴾ أي المسكن له - هذا مذهب البصريين أن الضمير محذوف ، وعند الكوفيين أن " أل " نائب عن الضمير - قاله أبو حيان .

(6/801)

ولما ذكر الطاغي ، أتبعه المتقي فقال : ﴿ وأما من خاف ﴾ ولما كان ذلك الخوف مما يتعلق بالشيء لأجل ذلك الشيء أعظم من ذكر الخوف من ذلك الشيء نفسه فقال : ﴿ مقام ربه ﴾ أي قيامه بين يدي المحسن إليه عند تذكر إحسانه فلم يطغ فكيف عند تذكر جلاله وانتقامه ، أو المكان الذي يقوم فيه بين يديه والزمان ، وإذا خاف ذلك المقام فما ظنك بالخوف من صاحبه ، وهذا لا يفعله إلا من تحقق المعاد .

ولما ذكر الخوف ذكر ما يتأثر عنه ولم يجعله مسبباً عنه ليفهم أن كلاًّ منهما فاصل على حياله وإن انفصل عن الآخر فقال : ﴿ ونهى النفس ﴾ أي التي لها المنافسة ﴿ عن الهوى ﴾ أي كل ما تهواه فإنه لا يجر إلى خير لأن النار حفت بالشهوات ، والشرع كله مبني على ما يخالف الطبع وما تهوى الأنفس ، وذلك هو المحارم التي حفت بها النار فإنها بالشهوات ، قال الرازي : والهوى هو الشهوة المذمومة المخالفة لأوامر الشرع .

قال الجنيد : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها ، أي فأفاد ذلك أنه لم يؤثر الحياة

الدنيا ، فالآية من الاحتباك : أتى بطغى دليلاً على ضده ثانياً ، وبالنهي عن الهوى ثانياً دلالة على إيثار الدنيا أولاً .

ولما كان مقام ترغيب ، ربط الجزاء بالعمل كما صنع في الترهيب فقال وأكد لأجل تكذيب الكفار : ﴿ فإن الجنة ﴾ أي البستان الجامع لكل ما يشتهي ﴿ هي ﴾ أي خاصة ﴿ المأوى ﴾ أي له ، لا يأوي إلى غيرها ، وهذا حال المراقبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 319 . 320 ﴾

(7/801)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع وفي اشتقاقها وجوه ، قال المبرد : أخذت فيما أحسب من قولهم : طم الفرس طميماً ، إذا استفرغ جهده في الجري ، وطم الماء إذا ملأ

النهر كله ، وقال الليث : الطم طم البئر بالتراب ، وهو الكبس ، ويقال : طم السيل الركية إذا دفنها حتى يسويها ، ويقال للشيء الذي يكبر حتى يعلو قد طم ، والطامة الحادثة التي تطم على ما سواها ومن ثم قيل : فوق كل طامة طامة ، قال القفال : أصل الطم الدفن والعلو ، وكل ما غلب شيئاً وقهره وأخفاه فقد طمه ، ومنه الماء الطامي وهو الكثير الزائد ، والطاغي والعاتي والعادي سواء وهو الخارج عن أمر الله تعالى المتكبر ، فالطامة اسم لكل داهية عظيمة ينسى ما قبلها في جنبها .

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35)

المسألة الثانية :

قد ظهر بما ذكرنا أن معنى الطامة الكبرى الداهية الكبرى ، ثم اختلفوا في أنها أي شيء هي ، فقال قوم : إنها يوم القيامة لأنه يشاهد فيه من النار ، ومن الموقف الهائل ، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ما ينسى معه كل هائل ، وقال الحسن : إنها هي النفخة الثانية التي عندها تحشر الخلائق إلى موقف القيامة ، وقال آخرون : إنه تعالى فسر الطامة الكبرى بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى * وَبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى ﴾ فالطامة تكون اسماً لذلك الوقت ، فيحتمل أن يكون ذلك الوقت وقت قراءة الكتاب على ما قال تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] ويحتمل أن تكون تلك

الساعة هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ثم إنه تعالى وصف ذلك اليوم بوصفين :

(8/801)

الأول : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ يعني إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها ، وكان قد نسيها ، كقوله : ﴿ أحصاه الله وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : 6] .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ لِمَن يرى ﴾ أي أنها تظهر إظهاراً مكشوفاً لكل ناظر ذي بصر ثم فيه وجهان أحدهما : أنه استعارة في كونه منكشفاً ظاهراً كقولهم : تبين الصبح لذي عينين . (1) وعلى هذا التأويل لا يجب أن يراه كل أحد والثاني : أن يكون المراد أنها برزت ليراها كل من له عين وبصر ، وهذا يفيد أن كل الناس يرونها من المؤمنين والكفار ، إلا أنها مكان الكفار ومأواهم والمؤمنون يمرون عليها ، وهذا التأويل متأكد بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ نُنَجّى الذين اتقوا ﴾ [مريم : 71 72] فإن قيل : إنه تعالى قال في سورة الشعراء : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الجحيم لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء

: 90 91] فخص الغاوين بتبريرها لهم ، قلنا : إنها برزت للغاوين ، والمؤمنون يرونها أيضاً في الممر ، ولا منافاة بين الأمرين .

المسألة الثانية :

قرأ أبو نهيك ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ وقرأ ابن مسعود : لمن رأى ، وقرأ عكرمة : لمن ترى ، والضمير للجحيم ، كقوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [الفرقان : 12] وقيل : لمن ترى يا محمد من الكفار الذين يؤذونك .

واعلم أنه تعالى لما وصف حال القيامة في الجملة قسم المكلفين قسمين : الأشقياء والسعداء ، فذكر حال الأشقياء .

فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39)

---

(1) هذا شطر بيت حرف لفظه وبقي معناه وصوابه : قد وضح الصبح لذي عينين .

(9/801)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في جواب قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطامة الكبرى ﴾ [النازعات : 34] وجهان الأول : قال

الواحدي : إنه محذوف على تقدير إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، ودل على هذا المحذوف ، ما ذكر في بيان مأوى الفريقين ، ولهذا كان يقول مالك بن معول في تفسير الطامة الكبرى ، قال : إنها إذا سبق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار والثاني : أن جوابه قوله : ﴿ فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ وكأنه جزاء مركب على شرطين نظيره إذا جاء الغد ، فمن جاءني سائلاً أعطيته ، كذا ههنا أي إذا جاءت الطامة الكبرى فمن جاء طاغياً فإن الجحيم مأواه .

المسألة الثانية :

منهم من قال : المراد بقوله : ﴿ طغى * وَءَاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ النضر وأبوه الحارث فإن كان المراد أن هذه الآية نزلت عند صدور بعض المنكرات منه فجيد وإن كان المراد تخصيصها به ، فبعيد لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لا سيما إذا عرف بضرورة العقل أن الموجب لذلك الحكم هو الوصف المذكور .

المسألة الثالثة :

قوله صغى ، إشارة إلى فساد حال القوة النظرية ، لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه ، وعرف استيلاء قدرة الله عليه ، فلا يكون له طغيان وتكبر ، وقوله : ﴿ وَءَاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ إشارة إلى فساد حال القوة العملية ، وإنما ذكر ذلك لما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " ومتى كان الإنسان والعياذ بالله موصوفاً

بهذين الأمرين ، كان بالغاً في الفساد إلى أقصى الغايات ، وهو الكافر الذي يكون عقابه مخلداً ، وتخصيصه بهذه الحالة يدل على أن الفاسق الذي لا يكون كذلك ، لا تكون الجحيم مأوى له .

المسألة الرابعة :

تقدير الآية : فإن الجحيم هي المأوى له ، ثم حذفت الصلة لوضوح المعنى كقولك للرجل غض الطرف أي غض طرفك ، وعندي فيه وجه آخر ، وهو أن يكون التقدير : فأن الجحيم هي المأوى ، اللائق بمن كان موصوفاً بهذه الصفات والأخلاق .

(10/801)

ثم ذكر تعالى حال السعداء فقال تعالى :

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)

واعلم أن هذين الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله أهل النار بهما فقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ ضد قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ [النازعات : 17] وقوله : ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ ضد قوله : ﴿ وَءَاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ [النازعات : 38]

واعلم أن الخوف من الله ، لا بد وأن يكون مسبوقاً بالعلم بالله على ما قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

اللهِ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] ولما كان الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى ، لا جرم قدم العلة على المعلول ، وكما دخل في ذينك الصفتين جميع القبائح دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات ، وقيل : الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير ، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ، ووقى رسول الله بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 46 . 48 ﴾

(11/801)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة الكبرى ﴾

أي الداهية العظمى ، وهي النفخة الثانية ، التي يكون معها البعث ؛ قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه ، وهو قول الحسن .

وعن ابن عباس أيضاً والضحاك : أنها القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تطِمُّ على كل شيء ، فتعم ما سواها لعظم هولها ؛ أي تقلبه .

وفي أمثالهم :

جرى الوادِي فَطمَّ على القَرِيّ . . .

المبرد : الطامّة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم :

طم الفرس طميماً إذا استفرغ جهده في الجري ، وطم الماء إذا ملأ النهر كله .

غيره : هي مأخوذة من طمّ السيلُ الرَّكِية أي دفنها ، والطمّ : الدفن والعلو .

وقال القاسم بن الوليد الهمْداني : الطامة الكبرى حين يُساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وهو معنى قول مجاهد : وقال سفيان : هي الساعة التي يُسْلَم فيها أهل النار إلى الزبانية .

أي الداهية التي طَمَّت وعظمت ؛ قال :

إن بعض الحبِّ يُعْمِي ويصِمْ . . .

وكذاك البغضُ أدْهَى وأَطَمْ

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ أي ما عمل من خير أو شر .

﴿ وبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ أي ظهرت .

﴿ لِمَن يرى ﴾ قال ابن عباس : يكشف عنها فيراها تتلظى كل ذي بصرَ .

وقيل : المراد الكافر لأنه الذي يرى النار بما فيها من أصناف العذاب .

وقيل : يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلَى الكافر بالنار .

وجواب "فإذا جاءتِ الطامَّةُ" محذوف أي إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل

الجنة الجنة .

وقرأ مالك بن دينار : "وَبَرَزَتِ الجحِيمُ" .

عِكرمة : وغيره : "لِمن ترى" بالتاء ، أي لمن تراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يا محمد .

والخطاب له عليه السلام ، والمراد به الناس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى * وَآثَرَ الحياة الدنيا ﴾ أي تجاوز الحد في العِصيان .

قيل : نزلت في النضْر وابنه الحارث ، وهي عامة في كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة .

(12/801)

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال : من اتخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طَغى .

وروى جُوَيبر عن الضحّاك قال حذيفة : أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يَرَوْن على ما يَعلَمون .

ويروي أنه وجد في الكتب : إن الله جل ثناؤه قال "لا يؤثِرُ عبدٌ لي دنياه على آخرته ، إلا بثثت عليه همومه وضيعته ، ثم لا أبالي في أيِها هلك" .

﴿ فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ أي مأواه .

والألف واللام بدل من الهاء .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي حَذِر مقامه بين يدي ربه .

وقال الربيع : مقامه يوم الحساب .

وكان قتادة يقول : إن للَّهِ عز وجل مَقاماً قد خافه المؤمنون .

وقال مجاهد : هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل عند مواقعة الذنب فيقلع .

نظيره : "ولِمن خاف مَقامَ ربهِ جنتانِ" .

﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ أي زجرها عن المعاصي والمحارم .

وقال سهل : ترك الهوى مِفتاح الجنة ؛ لقوله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ قال عبد الله بن مسعود : أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى ، وسيأتي زمان يقود الهَوَى الحقَّ ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان .

﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ أي المنزل .

والآيتان نزلتا في مصْعَب بن عُمير وأخيه عامر بن عمير ؛ فروَى الضحاك عن ابن عباس قال : أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أُسِر يوم بدر ، فأخذته الأنصار فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا أخو مُصْعَب بن عُمير ، فلم يشدُّوه في الوَثاق ، وأكرموه ، وبيتوه عندهم ، فلما أصبحوا حدّثوا مصعَب بن عُمَير حديثه ؛ فقال : ما هو لي بأخٍ ، شدّوا أسيركم ، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً .

فأوثقوه حتى بعثت أمّه في فِدائه .

"وأما من خاف مقام ربه" فمصْعَب بن عمير ، وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أُحد حين تفرّق الناس عنه ، حتى نفذت المشاقص في جوفه .

(13/801)

وهي السهام ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم متشحّطاً في دمه قال : " عندَ الله أحتسبك" وقال لأصحابه : "لقد رأيته وعليه بُردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعليه من ذَهب " وقيل : إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامِراً يوم بدر .

وعن ابن عباس أيضاً قال : نزلت هذه الآية في رجلين : أبي جهل بن هشام المخزوميّ ومصعب بن عمير العبدريّ .

وقال السُّدِّي : نزلت هذه الآية "وأما من خاف مقام ربهِ" في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام ، وكان يسأله من أين أتيت بهذا ، فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله وأكله ؛ فقال له غلامه : لِمَ لا تسألني اليوم ؟ فقال : نسيت ، فمن أين لك هذا الطعام .

فقال : تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطَوْنيه .

فتقايأه من ساعته وقال : يا رب ما بقي في العروق فأنت حبَسته فنزلت : "وأما من خاف مقام ربهِ" .

وقال الكلبيّ : نزلت في من هَمّ بمعصية وقدر عليها في خَلْوة ثم تركها من خوف الله .

ونحوه عن ابن عباس .

يعني من خاف عند المعصية مَقامه بين يدَي الله ، فانتهى عنها .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(14/801)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطامة الكبرى ﴾ الخ

شروع في بيان معادهم أثر بيان أحوال معاشهم بقوله عز وجل ﴿ متاعاً ﴾ الخ والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها على ما قيل كما ينبىء عنه لفظ المتاع والطامة أعظم الدواهي لأنه من طم بمعنى علا كما ورد في المثل جرى الوادي فطم على القرى وجاء السيل فطم الركي وعلوها على الدواهي غلبتها عليها فيرجع لما ذكر قيل فوصفها بالكبرى للتأكيد ولو فسرها كونها طامة بكونها غالبة للخلائق لا يقدرون على دفعها لكان

الوصف مخصصاً وقيل كونها طامة باعتبار أنها تغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا وكونها كبرى باعتبار أنها أعظم من جميع الدواهي مطلقاً وقيل غير ذلك وأنت تعلم أن الطامة الكبرى صارت كالعلم للقيامة وروى كونها اسماً من أسمائها هنا عن ابن عباس أيضاً وعن الحسن أنها النفخة الثانية وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن القاسم بن الوليد الهمداني أنها الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وأخرجا عن عمرو بن قيس الكندي أنها ساعة يساق أهل النار إلى النار وفي معناه قول مجاهد هي إذا دفعوا إلى مالك خازن جهنم .

(15/801)

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ بدل كل أو بعض من ﴿ إذا جاءت ﴾ [النازعات : 31] على ما قلي وقيل بدل من الطامة الكبرى فيكون مرفوع المحل وفتح لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيين وتكون الطامة حقيقة التذكر والبروز لأن حسن العمل يغلب كل لذة وسواه كل مشقة وكذا بروز الجحيم مع الابتلاء به يغلب كل مشقة ومع النجاة عنه كل لذة ولا يخفى تعسفه وقيل ظرف لجاءت وعليه الطبرسي واستظهر أنه منصوب باعني تفسيراً للطامة الكبرى وما موصولة وسعى بمعنى عمل والعائد مقدر أي له والمراد يوم

يتذكر كل أحد ما عمله من خير أو شر بأن يشاهده مدوناً في صحيفته وقد كان نسبه من فرط الغفلة أو طول الأمد أو شدة ما لقي أو كثرته التي تعجز الحافظ عن الضبط لقوله تعالى : ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ [المجادلة : 6] ويمكن أن يكون تذكره بوجه آخر وجوز أن تكون ما مصدرية أي يتذكر فيه سعيه .

(16/801)

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ عطف على ﴿ جاءت ﴾ وقيل على ﴿ يتذكر ﴾ وقيل حال من الإنسان بتقدير قد أو بدونه والموصول بعد مغن عن العائد وكلا القولين على ما في الإرشاد على تقدير الجواب يتذكر الإنسان ونحوه وسيأتي إن شاء الله تعالى فلا تغفل ومعنى برزت أظهرت إظهاراً بيناً لا يخفى على أحد ﴿ لِمَن يرى ﴾ كائناً من كان يروى أنه يكشف عنها فتتلظى فيراها كل ذي بصر وخص بعض من بالكافر وليس بشيء وقرأت عائشة وزيد بن علي عكرمة ومالك بن دينار وبرزت مبنياً للفاعل مخففاً لمن ترى بالتاء الفوقية على أن فيه ضمير جهنم كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [الفرقان : 12] وإسناد الرؤية لها مجازاً وهو حقيقة على أن يخلق الله تعالى ذلك فيها ويجوز أن تكون خطاباً لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم أو لكل راء كقوله تعالى : ﴿

وَلَوْ تَرَى إذ المجرمون ﴾ [السجدة : 12] أي لمن تراه من الكفار وقرأ أبو نهيك وأبو السماء وهرون عن أبي عمرو وبرزت مبنياً للمفعول مخففاً وقوله تعالى :

(17/801)

﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ الخ جواب ﴿ إذا ﴾ على أنها شرطية لا ظرفية كما جوز على طريقة قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدِىَ ﴾ [البقرة : 38] الآية وقولك إذا جاءك بنو تميم فاما العاصي فاهنه وأما الطائع فاكرمه واختاره أبو حيان وقيل جوابها محذوف كأنه قيل فإذا جاءت وقع ما لا يدخل تحت الوصف وقوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ﴾ الخ تفصيل لذلك المحذوف وفي جعله جواباً غموض وهو وجه وجيه بيد أنه لا غموض في ذاك بعد تحقق استقامة أن يقال فإذا جاءت فإن الطاغي الجحيم مأواه وغيره في الجنة مثواه وزيادة أما لم تفد إلا زيادة المبالغة وتحقيق الترتيب والثبوت على كل تقدير وقيل هو محذوف لدلالة ما قبل والتقدير ظهرت الأعمال ونشرت الصحف أو يتذكر الإنسان ما سعى أو لدلالة ما بعد والتقدير انقسم الراؤن قسمين وليس بذاك أي فأما من عتا وتمرد عن الطاعة وجاوز الحد في العصيان حتى كفر .

وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38)

﴿ وَءاثَرَ ﴾ أي اختار ﴿ الحياة الدنيا ﴾ الفانية التي هي على جناح الفوات فانهمك فيما متع به فيها ولم يستعد للحياة الآخرة الأبدية بالايمان والطاعة .

﴿ فَإِنَّ الجحيم ﴾ التي ذكر شأنها ﴿ هِيَ المأوى ﴾ أي مأواه على ما رآه الكوفيون من أن ال في مثله عوض عن المضاف إليه الضمير وبها يحصل الربط أو المأوى له على رأي البصريين من عدم كونها عوضاً ورابطاً وهذا الحذف هنا للعلم بأن الطاغي هو صاحب المأوى وحسنه وقوع المأوى فاصلة وهو الذي اختاره الزمخشري .

وهي أما ضمير فصل لا محل له من الإعراب أو ضمير جهنم مبتدأ والكلام دال على الحصر أي كأنه قيل فإن الجحيم هي مأواه أو المأوى له لا مأوى له سواها .

(18/801)

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي مقامه بين يدي مالك أمره يوم الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى على أن الإضافة مثلها في رقود حلب أو وأما من خاف ربه سبحانه على أن لفظ مقام مقحم والكلام معه كناية عن ذلك وإثبات للخوف من الرب عز وجل بطريق برهاني بليغ نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف : 21] وتمام الكلام في ذلك قد تقدم في سورة الرحمن ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ أي زجرها وكفها عن

الهوى المردى وهو تلميل إلى الشهوات وضبطها بالطبر والتوطين على إيثار الخيرات ولم يعتد بمتاع الدنيا وزهرتها ولم يغتر بزخارفها وزينتها علماً بوخامة عاقبتها وعن ابن عباس ومقاتل أنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يدي ربه سبحانه فيخاف فيتركها وأصل الهوى مطلق الميل وشاع في الميل إلى الشهوة وسمي بذلك على ما قال الراغب لأنه يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية وفي الآخرة إلى الهاوية ولذلك مدح مخالفه قال بعض الحكماء إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه وقال الفضيل أفضل الأعمال مخالفة الهوى وقال أبو عمران الميرتلي :

فخالف هواها واعصها أن من يطع . . .

هوى نفسه تنزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده . . .

وترم به في مصرع أي مصرع

إلى غير ذلك وقد قارب أن يكون قبح موافقة الهوى وحسن مخالفته ضروريين إلا أن الشالم من من الموافقة قليل قال سهل لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الصديقين فطوبى لمن سلم منه .

(19/801)

﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ له لا غيرها والظاهر أن هذا التفصيل عام في أهل النار وأهل الجنة وعن ابن عباس أن الآيتين نزلتا في أبي عزيز بن عمير وأخيه مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه كان الأول طاغياً مؤثر الحياة الدنيا وكان مصعب خائفاً مقام ربه ناهياً النفس عن الهوى وقد وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عن حتى نفذت المشاقص أي السهام في جوفه فلما رآه عليه الصلاة والسلام متشحطاً في دمه قال عند الله تعالى احتسبك وقال لأصحابه لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعله من ذهب ولما أسر أخوه أبو عزيز ولم يشد وثاقه إكراما له وأخبر بذلك قال ما هو لي بأخ شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً وفي "الكشاف" أنه قتل أخاه أبا عزيز يوم أحد وعن ابن عباس أيضاً أنهما نزلتا في أبي جهل وفي مصعب وقيل نزلت الأولى في النضر وابنه الحرث المشهورين بالغلو في الكفر والطغيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(20/801)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) ﴾

يجوز أن يكون التفريع على الاستدلال الذي تضمنه قوله : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ [النازعات : 27] الآيات ، فإن إثبات البعث يقتضي الجزاء إذ هو حكمته .

وإذا اقتضى الجزاء كان على العاقل أن يعمل لجزاء الحسنى ويجتنب ما يوقع في الشقاء وأن يهتم بالحياة الدائمة فيؤثرها ولا يكترث بنعيم زائل فيتورط في اتباعه ، فلذلك فرع على دليل إثبات البعث تذكير بالجزاءين ، وإرشاد إلى النجدين .

وإذ قد قُدّم قبل الاستدلال تحذيرٌ إجماليّ بقوله : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ [النازعات : 6] الآية كما يذكر المطلوب قبل القياس في الجدل ، جيء عقب الاستدلال بتفصيل ذلك التحذير مع قرنه بالتبشير لمن تحلى بضده فلذلك عبر عن البعث ابتداء بالراجفة لأنها مبدؤه ، ثم بالزجرة ، وأخيراً بالطامة الكبرى لما في هذين الوصفين من معنى يشمل الراجفة وما بعدها من الأهوال إلى أن يستقر كل فريق في مقره .

ومن تمام المناسبة للتذكير بيوم الجزاء وقوعه عقب التذكير بخلق الأرض ، والامتنان بما هَيّأ منها للإنسان متاعاً به ، للإشارة إلى أن ذلك ينتهي عندما يحين يوم البعث والجزاء .

ويجوز أن يجعل قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ مفرعاً على قوله : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : 13 ، 14] فإن الطامة هي الزجرة .

ومناط التفريع هو ما عقبه من التفصيل بقوله : ﴿ فأما من طغى ﴾ الخ إذ لا يلتئم تفريع الشيء على نفسه .

(وإذا) ظرف للمستقبل فلذلك إذا وقع بعد الفعل الماضي صُرف إلى الاستقبال ، وإنما يُؤتى بعد (إذا) بفعل الماضي لزيادة تحقيق ما يفيده (إذا) من تحقق الوقوع .

والمجيءُ : هنا مجاز في الحصول والوقوع لأن الشيء الموقّت المؤجل بأجل يشبه شخصاً سائراً إلى غاية ، فإذا حصل ذلك المؤجل عند أجله فكأنه السائرُ إلى ، إذا بلغ المكان المقصود .

(21/801)

والطامة : الحادثة ، أو الوقعة التي تَطِمُّ ، أي تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها في نوعها ، مأخوذ من طَمَّ الماء ، إذا غمر الأشياء وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله إلا في الأمور المهولة ثم بولغ في تشخيص هولها بأن وصفت بـ ﴿ الكبرى ﴾ فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن هذه الحادثة من الأهوال .

والمراد بالطامة الكبرى : القيامة وقد وصفت بأوصاف عديدة في القرآن مثل الصاخّة والقارعة والراجفة ووصفت بالكبرى .

و﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ بدل من جملة ﴿ إذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ بدل اشتمال لأن ما أضيف إليه يوم هو من الأحوال التي يشتمل عليها زمن مجيء الطامة وهو يوم القيامة ويوم الحساب .

وتَذَكُّر الإِنسان ما سعاه : أن يوقَف على أعماله في كتابه لأن التذكر مطاوع ذكَّره .

والتذكر يقتضي سبق النسيان وهو انمحاء المعلوم من الحافظة .

والمعنى : يوم يُذَكَّر الإِنسان فيتذكر ، أي يعرض عليه عمله فيعترف به إذ ليس المقصود من التذكر إلا أثره ، وهو الجزاء فكني بالتذكر عن الجزاء قال تعالى:

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ [الإسراء : 14] .

وتبريز الجحيم : إظهارها لأهلها .

وجيء بالفعل المضاعف لإِفادة إظهار الجحيم لأنه إظهار لأجل الإِرهاب .

والجحيم : جهنم .

ولذلك قرن فعله بتاء التأنيث لأن جهنم مؤنثة في الاستعمال ، أو هو بتأويل النار ، والجحيم كل نار عظيمة في حفرة عميقة .

وبنى فعل ﴿ بُرزت ﴾ للمجهول لعدم الغرض ببيان مُبَرِّزها إذ الموعظة في الإِعلام بوقوع إِبرازها يومئذ .

و﴿ لمن يرى ﴾ ، أي لكل راء ، ففعلُ ﴿ يرى ﴾ منزّل منزلة اللازم لأن المقصود لمن له

بصر ، كقول البحتري:

أنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

(22/801)

والفاء في قوله : ﴿ فأما من طغى ﴾ رابطة لجواب (إذا) لأن جملة ﴿ من طغى ﴾ إلى آخرها جملة اسمية ليس فيها فعل يتعلق به (إذا) فلم يَكن بين (إذا) وبين جوابها ارتباط لفظي فلذلك تُجلب الفاء لربط الجواب في ظاهر اللفظ ، وأما في المعنى فيعلم أن (إذا) ظرف يتعلق بمعنى الاستقرار الذي بين المبتدأ والخبر .

و(أمَّا) حرف تفصيل وشرط لأنها في معنى : مَهما يكن شيء .

والطغيان تقدم معناه آنفاً .

والمراد هنا : طغى على أمر الله ، كما دل عليه قوله : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ .

وقُدّم ذكر الطغيان على إيثار الحياة الدنيا لأن الطغيان من أكبر أسباب إيثار الحياة الدنيا فلما كان مسبباً عنه ذكر عقبه مراعاة للترتب الطبيعي .

والإِيثار : تفضيل شيء على شيء في حال لا يتيسر فيها الجمع بين أحوال كل منهما .

ويعدّى فعل الإِيثار إلى اسم المأثور بتعدية الفعل إلى مفعوله ، ويعدّى إلى المأثور عليه بحرف

(على) قال تعالى حكاية ﴿ لقد آثرك الله علينا ﴾ [يوسف : 91] ، وقد يترك ذكر المأثور عليه إذا كان ذكر المأثور يشير إليه كما إذا كان المأثور والمأثور عليه ضدين كما هنا لما هو شائع من المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة .

وقد يترك ذكر المأثور اكتفاء بذكر المأثور عليه إذا كان هو الأهم كقوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ﴾ [الحشر : 9] لظهور أن المراد يؤثرون الفقراء .

والمراد بالحياة الدنيا حظوظها ومنافعها الخاصة بها ، أي التي لا تُشاركُها فيها حظوظُ الآخرة ، فالكلام على حذف مضاف ، تقديره : نعيم الحياة .

ويفهم من فعل الإِيثار أن معه نبْذاً لنعيم الآخرة .

ويرجع إيثار الحياة الدنيا إلى إرضاء هوى النفس ، وإنما يعرف كلا الحظين بالتوقيف الإلهي كما عرف الشرك وتكذيب الرسل والاعتداء على الناس والبطر والصلف وما يستتبعه ذلك من الأحوال الذميمة .

(23/801)

وملاك هذا الإِيثار هو الطغيان على أمر الله ، فإن سادتهم ومسيريهم يعلمون أن ما يدعوهم إليه الرسول هو الحق ولكنهم يكرهون متابعته استكباراً عن أن يكونوا تبعاً للغير فتضيعَ

سيادتهم .

وقد زاد هذا المفادَ بياناً قوله بعده : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ الآية .

وبه يظهر أن مناط الذم في إيثار الحياة الدنيا هو إيثارها على الآخرة ، فأما الأخذ بحظوظ الحياة الدنيا التي لا يفيت الأخذُ بها حظوظ الآخرة فذلك غير مذموم ، وهو مقام كثير من عِباد الله الصالحين حكاه الله تعالى عن صالحي بني إسرائيل من قولهم لقارون : ﴿ وابْتَغِ فيما آتاك اللَّه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : 77] .

وقولُه : ﴿ من خاف مقام ربه ﴾ مقابل قوله : ﴿ من طغى ﴾ لأن الخوف ضد الطغيان

وقوله : ﴿ نهى النفس عن الهوى ﴾ مقابل قوله : ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ .

ونهى الخائف نفسه مستعار للانكفاف عن تناول ما تحبه النفس من المعاصي والهوى ، فجعلت نفس الإِنسان بمنزلة شخص آخر يدعوه إلى السيئات وهو ينهاه عن هذه الدعوة ، وهذا يشبه ما يسمى بالتجريد ، يقولون : قالت له نفسه كذا فعصاها ، ويقال : نهى قَلْبَه ، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن أُذَيْنة :

وإذا وجَدْت لها وسَاوس سَلْوة

شفَع الفُؤاد إلى الضمير فسلها . . .

والمراد بـ ﴿ الهوى ﴾ ما تهواه النفس فهو مصدر بمعنى المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق ، فهو ما ترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية مما يخالف الحق والنفعَ الكامل .

وشاع الهوى في المرغوب الذميم ولذلك قيل في قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللَّه ﴾ [القصص : 50] أن ﴿ بغير هدى ﴾ حال فمؤكدة ليست تقييداً إذ لا يكون الهوى إلا بغير هدى .

وتعريف ﴿ الهوى ﴾ تعريف الجنس .

(24/801)

والتعريف في ﴿ المأوى ﴾ الأول والثاني تعريف العهد ، أي مأوَى من طغى ، ومأوى من خَاف مقام ربه ، وهو تعريف مُغْنٍ عن ذكر ما يضاف إليه ﴿ مأوى ﴾ ومثله شائع في الكلام كما في قوله : غُضَّ الطرف ، أي الطرف المعهود من الأمر ، أي غض طرفك .

وقوله : واملأ السمعَ ، أي سمعك وقوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ﴾ [الأعراف : 46] ، أي على أعراف الحجاب ، ولذلك فتقدير الكلام عند نحاة البصرة المأوى له أو مأواه عند نحاة الكوفة ، ويسمي نحاة الكوفة الألف واللام هذه عوضاً عن المضاف إليه وهي تسمية حسنة لوضوحها واختصارها ، ويأبى ذلك البصريون ، وهو خلاف ضئيل ، إذ المعنى متفق عليه .

والمأوى : اسم مكان من أوَى ، إذا رجع ، فالمراد به : المقر والمسكن لأن المرء يذهب إلى

قضاء شؤونه ثم يرجع إلى مسكنه .

و﴿ مقام ربه ﴾ مجاز عن الجلال والمهابة وأصل المقام مكان القيام فكان أصله مكان ما يضاف هو إليه ، ثم شاع إطلاقه على نفس ما يضاف إليه على طريقة الكناية بتعظيم المكان عن تعظيم صاحبه ، مثل ألفاظ : جناب ، وكَنَفَ ، وذَرَى ، قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] وقال : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ [إبراهيم : 14] وذلك من قبيل الكناية المطلوب بها نسبة إلى المكنى عنه فإن خوف مقام الله مراد به خوف الله والمراد بالنسبة ما يَشمل التعلق بالمفعول .

وفي قوله : ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ إلى قوله : ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ محسن الجمع مع التقسيم .

وتعريف ﴿ النفس ﴾ في قوله : ﴿ ونهى النفس ﴾ هو مثل التعريف في ﴿ المأوى ﴾ .

وفي تعريف "أصحاب الجحيم" و"أصحاب الجنة" بطريق الموصول إيماء إلى أن الصلتين عِلتان في استحقاق ذلك المأوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(25/801)

قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسمهم هذا التقسيم المفهم أن هذا شيء لا بد منه ، استأنف ذكر استهزائهم تعجيباً منهم فقال : ﴿ يسئلونك ﴾ أي قريش على سبيل التجديد والاستمرار سؤال استهزاء وإنكار واستبعاد : ﴿ عن الساعة ﴾ أي البعث الآخر لكثرة ما تتوعدهم بها عن أمرنا .

ولما كان السؤال عنها مبهماً بينه بقوله : ﴿ أيان مرساها ﴾ أي في أي وقت إرساؤها أي وقوعها أو ثباتها واستقرارها .

ولما كان إيراد هذا هكذا مفهماً للإنكار عليهم في هذا السؤال ، وكان من المعلوم أنه يقول : إنهم ليسألونني وربما تحركت نفسه الشريفة ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى إجابتهم لحرصه على إسلامهم شفقة عليهم ، فطمه عن ذلك وصرح بالإنكار بقوله : ﴿ فيم ﴾ أي في أي شيء ﴿ أنت من ذكراها ﴾ أي ذكرها العظيم لتعرفها وتبين وقتها لهم حرصاً على إسلامهم ، وذلك لا يفيد علمها ، ثم عرفها بما لا يمكن المزيد عليه مما أفادته الجملة التي قبل

من أنه لا يمكن علمها لغيره سبحانه وتعالى فقال : ﴿ إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك وحده ﴿ منتهاها ﴾ أي منتهى علمها وجميع أمرها .

(26/801)

ولما كان غاية أمرهم أنهم يقولون : إنه متقول من عند نفسه ، قلب عليهم الأمر فقال : ﴿ إنما أنت ﴾ أي يا أشرف المرسلين ﴿ منذر ﴾ أي مخوف على سبيل الحتم الذي لا بد منه مع علمك بما تخوف به العلم الذي لا مرية فيه ﴿ من يخشاها ﴾ أي فيه أهلية أن يخافها خوفاً عظيماً فيعمل لها لعلمه بإتيانها لا محالة وعلمه بموته لا محالة وعلمه بأن كل ما تحقق وقوعه فهو قريب ، وذلك لا يناسب تعيين وقتها فإن من فيه أهلية الخشية لا يزيده إبهامها إلا خشية ، وغيره لا يزيده ذلك إلا اجتراء وإجراماً ، فما أرسلناك إلا للإنذار بها لا للإعلام بوقتها ، فإن النافع الأول دون الثاني ، ولست في شيء مما يصفونك به كذباً منهم لأنا ما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ولا أنت مبعوث لتحرير وقت الساعة وعلم عينه ، وإنما قصره على من يخشى لأن غيره لا ينتفع بإنذاره ، فكان كأنه لم يحصل له الإنذار ، ولهذا المعنى أضاف إشارة إلى أنه عريق في إنذار من يخشى ، وأما غيره فهو منذر له في الجملة أي يحصل له صورة الإنذار لأنه منذره بمعنى أنه لا يحصل له معنى الإنذار .

ولما أثبت أنه منذر ، وكان أخوف الإنذار الإسراع ، قال مستأنفاً محقراً لهم الدنيا مزهداً لهم فيها : ﴿ كأنهم ﴾ أي هؤلاء المنكرين لصحة الإنذار بها ﴿ يوم يرونها ﴾ أي يعلمون قيامها علماً هو كالرؤية ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور من علمهم بما مر من زمانهم وما يأتي منه ﴿ لم يلبثوا ﴾ أي في الدنيا وفي القبور ﴿ إلا عشية ﴾ أي من الزوال إلى غروب الشمس .

(27/801)

ولما كانوا على غير ثقة من شيء مما يقولونه قال : ﴿ أو ضحاها ﴾ أي ضحى عشية من العشايا وهو البكرة إلى الزوال ، والعشية ما بعد ذلك ، أضيف إليها الضحى لأنه من النهار ، ولإضافة تحصل بأدنى ملابسة ، وهي هنا كونهما من نهار واحد ، فالمراد ساعة من نهار أوله أو آخره ، لم يستكملوا نهاراً تاماً ولم يجمعوا بين طرفيه ، وهذا كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع " وهذا تعبير لنا بما نحسه تقريباً لعقولنا وإن كانت القاعدة أنه لا نسبة لما يتناهى إلى ما لا يتناهى على أن الكفار أيضاً يستقصرون مدة لبثهم ، فكأنهم أصناف : بعضهم يقول : إن لبثتم إلا عشراً ، وبعضهم يقول : إن لبثتم إلا يوماً ، وبعضهم يتحير فيقول : اسأل العادين ، أو

أن تلك أقوالهم ، والحق من ذلك هو ما أخبر الله به غير مضاف إلى أقوالهم من أن ما مضى لهم في جنب ما يأتي كأنه ساعة من نهار بالنسبة إلى النهار الكامل كما قال تعالى في سورة يونس عليه الصلاة والسلام ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ [يونس : 45] على أن منهم من يقول ذلك أيضاً كما قال تعالى في سورة المؤمنين حين قال تعالى ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ [المؤمنون : 112 - 113] وذلك بالنسبة إلى ما كشف لهم عن أنهم يستقبلونه مما لا آخر له أو أنهم لما نزعتهم نفحة إسرافيل عليه الصلاة والسلام بيد القدرة من قبورهم غرقاً نزعاً شديداً فقاموا ورأوا تلك الأهوال وعلموا ما يستقبلونه من الأوجال استقصروا مدة لبثهم قبل ذلك لأن من استلذ شيئاً استقصر مدته وهم استلذوا ذلك وإن كان من أمرّ المرّ في جنب لهم عن أنهم لاقوه ، فقد رجع آخرها بالقيامة على أولها ، والتف مفصلها بنزع الأنفس اللوامة على موصلها ، واتصلت بأول ما بعدها من جهة الخشية والتذكر فيا طيب متصلها ، فسبحان من جعله

(28/801)

متعانق المقاطع والمطالع ، وأنزله رياضاً محكمة المذاهب والمراجع ، والله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 320 .322 ﴾

(29/801)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) ﴾

واعلم أنه تعالى لما بين بالبرهان العقلي إمكان القيامة ، ثم أخبر عن وقوعها ، ثم ذكر أحوالها العامة ، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها ، قال تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ .

واعلم أن المشركين كانوا يسمعون إثبات القيامة ، ووصفها بالأوصاف الهائلة ، مثل أنها طامة وصاخة وقارعة ، فقالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ أَيَّانَ مرساها ﴾ فيحتمل أن يكون ذلك على سبيل الإيهام لأتباعهم أنه لا أصل لذلك ، ويحتمل أنهم كانوا يسألون الرسول عن وقت القيامة استعجالاً ، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى :

18] ثم في قوله : ﴿ مرساها ﴾ قولان أحدهما : متى إرساؤها ، أي إقامتها أرادوا متى يقيمها الله ويوجدها ويكونها والثاني : ﴿ أَيَّانَ ﴾ منتهاها ومستقرها ، كما أن مرسى السفينة مستقرها حيث تنتهي إليه .

ثم إن الله تعالى أجاب عنه بقوله تعالى : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ وفيه وجهان الأول : معناه في أي شيء أنت عن تذكر وقتها لهم ، وتبين ذلك الزمان المعين لهم ، ونظيره قول القائل : إذا سأله رجل عن شيء لا يليق به ما أنت وهذا ، وأي شيء لك في هذا ، وعن عائشة " لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية " فهو على هذا تعجيب من كثرة ذكره لها ، كأنه قيل : في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها ، والمعنى أنهم يسألونك عنها ، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها .

(30/801)

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ أي منتهى علمها لم يؤته أحداً من خلقه الوجه الثاني : قال بعضهم : ﴿ فِيمَ ﴾ إنكار لسؤالهم ، أي فيم هذا السؤال ، ثم قيل : ﴿ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ أي أرسلك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل ذاكراً من أنواع علاماتها ، وواحداً

من أقسام أشراطها ، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ووجوب الاستعداد لها ، ولا فائدة في سؤالهم عنها .

إِنَّمَا أَنتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

معنى الآية أنك إنما بعثت للإنذار وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام القيامة ، بل لو أنصفنا لقلنا : بأن الإنذار والتخويف إنما يتمان إذا لم يكن العلم بوقت قيام القيامة حاصلاً .

المسألة الثانية :

أنه عليه الصلاة والسلام منذر للكل إلا أنه خص بمن يخشى ، لأنه الذي ينتفع بذلك الإنذار .

المسألة الثالثة :

قرىء منذر بالتنوين وهو الأصل ، قال الزجاج : مفعل وفاعل إذا كان كل واحد منهما لما يستقبل أو للحال ينون ، لأنه يكون بدلاً من الفعل ، والفعل لا يكون إلا نكرة ويجوز حذف التنوين لأجل التخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال ، فإذا أريد الماضي فلا يجوز إلا

الإضافة كقوله هو منذر زيد أمس .

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

(31/801)

وتفسير هذه الآية قد مضى ذكره في قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الاحقاف : 35] والمعنى أن ما أنكروه سيرونه حتى كأنهم أبداً فيه وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار ثم مضت ﴿ فَإِن قِيلَ ﴾ قوله : ﴿ أَوْ ضحاها ﴾ معناه ضحى العشية وهذا غير معقول لأنه ليس للعشية ضحى : ﴿ قُلْنَا ﴾ الجواب عنه من وجوه أحدها : قال عطاء عن ابن عباس : الهاء والألف صلة للكلام يريد لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى وثانيها : قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافتها إلى يوم العشية كأنه قيل : إلا عشية أو ضحى يومها ، والعرب تقول : آتيك العشية أو غداتها على ما ذكرنا وثالثها : أن النحويين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، فالضحى المتقدم على عشية يصح أن يقال : إنه ضحى تلك العشية ، وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى ، فالذين يحضرون في موقف القيامة يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشية فيقولون : كأن

عمرنا في الدنيا ما كان إلا هاتين الساعتين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 48. 49 ﴾

(32/801)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطامة الكبرى ﴾

و ﴿ الطامة الكبرى ﴾ هي القيامة ، قاله ابن عباس والضحاك ، وقال الحسن وابن عباس أيضاً : النفخة الثانية ، وقوله : ﴿ ما سعى ﴾ معناه : ما عمل من سائر عمله ، ويتذكر ذلك بما يرى جزائه ، وقرأ جمهور الناس : " وبُرِّزت " بضم الباء وشد الراء المكسورة ، وقرأ عكرمة ومالك بن دينار وعائشة : " وبَرَزت " بفتح الباء والراء ، وقرأ جمهور الناس " لمن يرى " بالياء أي لمن يبصر ويحصل ، وقرأ عكرمة ومالك بن دينار وعائشة : " لمن ترى " بالتاء أي تراه أنت ، فالإشارة إلى كفار مكة أو أشارة إلى الناس ، والمقصد كفار مكة ، ويحتمل أن يكون المعنى : لمن تراه الجحيم كما قال تعالى : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾

[الفرقان : 12] وقرأ ابن مسعود : " لمن رأى " على فعل ماض .

فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37)

(33/801)

﴿ طغى ﴾ معناه : تجاوز الحدود التي ينبغي للإنسان أن يقف عندها بأن كفر وآثر الحياة الدنيا على الآخرة لتكذيبه بالآخرة و﴿ المأوى ﴾ والمسكن حيث يأوي المرء ويلازم ، و﴿ مقام ربه ﴾ هو القيامة ، وإنما المراد مقامه بين يدي ربه ، فأضاف المقام إلى الله عز وجل من حيث بين يديه وفي ذلك تفخيم للمقام وتعظيم لهوله وموقعه من النفوس ، قال ابن عباس : المعنى خافه عند المعصية فانتهى عنها ، و﴿ الهوى ﴾ هو شهوات النفس وما جرى مجراها ، وأكثر استعماله إنما هو في غير المحمود ، قال سهل التستري : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين ، وقال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه ، وقال الفضيل : أفضل الأعمال خلاف الهوى ، وقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ الآية نزلت بسبب أن قريشاً كانت تلح في البعث عن وقت الساعة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرهم بها ويتوعدهم بها ويكثر من ذلك ، و: ﴿ أيان مرساها ﴾ معناه : متى ثبوتها ووقت رسوها أي ثبوتها كأنه يسر إلى غاية ما ثم يقف كما

تفعل السفينة التي ترسو ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : " إيان " بكسر الألف ، ثم قال لنبيه عليه السلام على جهة التوقيف ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ أي من ذكر تحديدها ووقتها أي لست من ذلك في شيء ﴿ إنما أنت منذر ﴾ ، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة كثيراً ، فلما نزلت هذه الآية انتهى .

وقرأ أبو جعفر وعمر بن عبد العزيز وأبو عمرو بخلاف ، وابن محيصن والأعرج وطلحة وعيسى : " منذرٌ " بتنوين الراء ، وقرأ جمهور القراء : " منذرُ " بإضافة " منذر " إلى ﴿ من ﴾ ، ثم قرب تعالى أمر الساعة بإخباره أن الانسان عن رؤيته إياها لم يلبث إلا عشية يوم أو بكرته ، فأضاف الضحى إلى العشية من حيث هما طرفان للنهار ، وقد بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تجوزاً وإيجازاً .

نجز تفسير سورة ﴿ النازعات ﴾ والحمد لله كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(34/801)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

قال ابن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة استهزاء ، فأنزل الله عز وجل الآية .

وقال عُروة بن الزبير في قوله تعالى : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ ؟ لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ .

ومعنى "مُرْساها" أي قيامُها .

قال الفرّاء : رُسُوُّها قيامها كرسوّ السفينةِ .

وقال أبو عبيدة : أي منتهاها ، ومرسى السفينة حيث تنتهي .

وهو قول ابن عباس .

الربيع بن أنس : متى زمانها .

والمعنى متقارب .

وقد مضى في "الأعراف" بيان ذلك .

وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تقوم الساعة إلا بغَضْبة يغضَبُها ربك" "فِيم أنت مِن ذِكراها" أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ وليس لك السؤال عنها .

وهذا معنى ما رواه الزُّهْرِيّ عن عُروة بن الزُّبير قال :

لم يزل النبيُّ صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾

﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ أي منتهى علمها ؛ فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك ، فقيل له : لا تسأل ، فلست في شيء من ذلك .

ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم له ؛ أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك بيانَه ، ولست ممن يَعلَمه .

رُوِي معناه عن ابن عباس .

والذكْرَى بمعنى الذكر .

﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ أي منتهى علمها ، فلا يُوجَد عند غيره عِلم الساعة ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : 187] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [لقمان : 34] .

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ .

(35/801)

أي مخوِّف ؛ وخَصَّ الإنذار بمن يَخْشى ، لأنهم المنتفعون به ، وإن كان منذراً لكل مكلف ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

وقراءة العامة "منذِر" بالإضافة غير منون ؛ طلب التخفيف ، وإلا فأصله التنوين ؛ لأنه

للمستقبل وإنما لا ينون في الماضي .

قال الفراء : يجوز التنوين وتركه ؛ كقوله تعالى : ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ [الطلاق : 3] و ﴿ مُوهِنُ كَيْدِ الكافرين ﴾ [الانفال : 18] و "موهِنٌ كيدَ الكافِرين" والتنوين هو الأصل ، وبه قرأ أبو جعفر وشَيبة والأعرج وابن مُحيصن وحُميد وعياش عن أبي عمرو "منذِرٌ" منونا ، وتكون في موضع نصب ، والمعنى نصب ، إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة .

وقال أبو علي : يجوز أن تكون الإضافة للماضي ، نحو ضارب زيدٍ أمس ؛ لأنه قد فعَلَ الإنذار ، الآية ردّ على من قال : أحوال الآخرة غير محسوسةٍ ، وإنما هي راحة الرُّوح أو تألمها من غير حِسّ .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ يعني الكفار يَرَونَ الساعة ﴿ لَمْ يلبثوا ﴾ أي في دنياهم ، ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً ﴾ أي قدر عشية ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي أو قدر الضُّحا الذي يلي تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا ، كما قال تعالى :

﴿ لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ [يونس : 45] .

ورَوَى الضحاك عن ابن عباس : كأنهم يوم يَرَوْنَها لم يلبثوا إلا يوماً واحداً .

وقيل : "لم يلبثوا" في قبورهم "إلا عشِية أو ضحاها" ، وذلك أنهم استقصروا مدّة لَبْثِهم في القبور لمَا عاينوا من الهول .

وقال الفرّاء : يقول القائل : وهل للعشية ضُحاً ؟ وإنما الضحا لصدر النَهار ، ولكن أضيف

الضحا إلى العشية ، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب ؛ يقولون : آتيك الغداةَ أو عشيتَها ، وآتيك العشيةَ أو غداتها ، فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أوّل النهار ؛ قال : وأنشدني بعض بني عُقَيل :

(36/801)

نحنُ صَبَحْنا عامِرا في دارِها . . .

جُرْداً تَعَادَى طَرَفَي نهارِها

عِشيةِ الهِلالِ أو سِرارِها . . .

أراد : عشيةِ الهلالِ ، أو سِرار العشية ، فهو أشدّ من آتيك الغداة أو عَشِيَّها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(37/801)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطامة الكبرى ﴾

أي الداهيةُ العُظمى التي تطمُّ على سائرِ الطاماتِ أي تعلُوها وتغلبُها وهي القيامةُ أو النفخةُ الثانيةُ وقيلَ : هي الساعةُ التي يُساقُ فيها الخَلائقُ إلى محشرِهم وقيلَ : التي يُساقُ فيها أهلُ الجنةِ إلى الجنةِ وأهلُ النارِ إلى النارِ شروعٌ في بيانِ أحوالِ معادِهم إثرَ بيانِ أحوالِ معاشِهم بقولِه تعالى : ﴿ متاعا لَّكُمْ ﴾ الخ ، والفاءُ للدلالة على ترتب ما بعدَها على ما قبلَها عما قليلٍ كما ينبىءُ عنه لفظُ المتاعِ ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ قيلَ : هو بدلٌ من إذَا جاءتْ والأظهرُ أنه منصوبٌ بأَعْنِي كما قيلَ تفسيراً للطامةِ الكُبرى فإن الإبدالَ منها بالظرفِ المحضِ مما يُوهن تعلقَها بالجوابِ ويجوزُ أن يكونَ بدلاً من الطامةِ الكُبرى مفتوحاً لإضافتِه إلى الفعلِ على رأي الكوفيينَ أي يتذكرُ فيه كلُّ أحدٍ ما عملَهُ من خيرٍ أو شرَ بأنْ يشاهدَهُ مدوناً في صحيفةِ أعمالِه وقد كانَ نسيَهُ من فرطِ الغفلةِ وطولِ الأمدِ كقولِه تعالى : ﴿ أحصاه الله وَنَسُوهُ ﴾ ويجوزُ أنْ تكونَ ما مصدريةً .

(38/801)

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ عطفٌ على جاءتْ أي أظهرتْ إظهاراً بيناً لا يَخْفى على أحدٍ ﴿ لِمَن يرى ﴾ كائناً من كانَ . يُروى أنه يكشفُ عنها فتتلظَّى فيراهَا كلُّ ذي بصرٍ وقرىء وبُرِزَتْ بالتخفيفِ ولمن رأَى ولمن ترَى على أن فيهِ ضميرَ الجحيمِ كما في قولِه تعالى : ﴿ إِذَا

رَأَتْهُمْ مّن مّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وعلى أنه خطابٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أي لِمَنْ تراهُ من الكفارِ وقولُه تعالَى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ الخ ، جوابُ فإذَا جاءتْ على طريقةِ قولِه تعالَى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مّنّى هُدًى ﴾ الآيةَ ، وقيلَ : هُو تفصيلٌ للجوابِ المحذوفِ تقديرُه انقسمِ الراؤونَ قسمينِ فأمَّا من الخ ، والذي تستدعيهِ فخامةُ التنزيلِ ويقتضيه مقامُ التهويلِ أنَّ الجوابَ المحذوفَ كانَ من عظائمِ الشؤونِ ما لَم تُشاهِدْهُ العيونُ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ﴾ أي فأما من عَتا وتمردَ عن الطاعةِ وجاوزَ الحدَّ في العصيانِ ﴿ وءَاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ الفانيةَ التي هي على جناحِ الفواتِ فانهمكَ فيما متعَ به فيهَا ولم يستعدَّ للحياةِ الأخرويةِ الأبديةِ بالإيمانِ والطاعةِ ﴿ فَإِنَّ الجحيم ﴾ التي ذُكِرَ شأنُها ﴿ هِىَ المأوى ﴾ أي هيَ مأواهُ واللامُ سادَّةٌ مسدَّ الإضافةِ للعلمِ بأن صاحبَ المَأْوى هو الطاغِي كما في قولِكَ : غُضَّ الطَّرْفَ ، ودخولُ اللامِ في المَأوى والطرفِ للتعريفِ لأنهما معروفانِ وهيَ إما ضميرُ فصلٍ أو مبتدأٌ . قيلَ : نزلتْ الآيةُ في النضرِ وأبيهِ الحارثِ المشهورينِ بالغُلوِّ في الكُفرِ والطغيانِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ ﴾ أيْ مقامَهُ بينَ يدَيْ مالكِ أمرِه يومَ الطامةِ الكُبرَى يومَ يتذكرُ الإنسانُ ما سعَى ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ عن الميلِ إليهِ بحكمِ الجبلةِ البشريةِ ولم يعتدَّ بمتاعِ الحياةِ الدُّنيا وزهرتِها ولم يغترَّ بزخارفِها وزينتِها علماً

منه بوخامة عاقبتِها .

﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ لهُ لا غيرُهَا وقيلَ : نزلتْ الآيتانِ في أبي عزيزِ بنِ عميرٍ ومصعب بنِ عميرٍ وقد قتلَ مصعبٌ أخاهُ أبا عزيزٍ يومَ أحدٍ ووقَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حتى استُشهدَ رضيَ الله عنْهُ هذا وقد قيلَ : جوابُ إذَا مَا يدلُّ عليهِ قولُه تعالَى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ﴾ الخ ، أيْ فإذَا جاءتِ الطامةُ الكُبْرى يتذكرُ الإنسانُ ما سَعَى على طريقةِ قولِه تعالَى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ فيكونُ قولُه تعالَى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ عطفاً عليهِ ، وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على التحققِ ، أو حالاً من الإنسانِ بإضمارِ قدْ ، أو بدونِه على اختلافِ الرأيينِ ، ولمنْ يَرَى مغنٍ عن العائدِ . وقولُه تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ الخ ، تفصيلاً لحالَيْ الإنسانِ الذي يتذكرُ ما سَعَى وتقسيماً لهُ بحسبِ أعمالِه إلى القسمينِ المذكورينِ .

(40/801)

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ مَتَى إرساؤُها أي إقامتُها يريدونَ متى يقيمُها الله تعالَى ويُثبتُها ويُكوّنُها وقيل : أيانَ مُنتهاهَا ومُستقرهَا كما أنَّ مَرسى السفينةِ حيثُ

تنتهي إليهِ وتستقرُّ فيهِ . وقولُه تعالَى : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ إنكارٌ وردٌّ لسؤالِ المشركينَ عنْهَا أيْ في أيِّ شيءٍ أنتَ مِنْ أنْ تذكرَ لهُم وقتَها وتعلمهم بهِ حَتَّى يسألُونكَ بيانَها ، كقولِه تعالَى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي ما أنتَ من ذِكْراهَا لهُم وتبيينِ وقتِها في شيءٍ لأنَّ ذلكَ فرعُ علمكَ به وأَنَّى لكَ ذلكَ وهو مما استأثرَ بعلمه علامُ الغيوبِ ومن قال بصدد التعليل فإنَّ ذكرَها لا يزيدُهم إلا غياً فقد نَأَى عن الحقِّ وقيلَ : فيمَ إنكارٌ لسؤالهم وما بعدَهُ من الاستئنافِ تعليلٌ للإنكار وبيانٌ لبطلان السؤالِ أيْ فيمَ هذا السؤالُ ثُمَّ ابتُدِىءَ فقيلَ : أنتَ من ذِكرَاها ، أي إرسالُك وأنتَ خاتمُ الأنبياءِ المبعوثُ في نسيم الساعةِ علامةٌ من علاماتِها ، ودليلٌ يدلُّهم على العلمِ بوقُوعِها عن قريبٍ فحسبُهم هذه المرتبةُ من العلمِ فمَعْنى قولِه تعالى : ﴿ إلى ربِّكَ منتهاها ﴾ على هذا الوجهِ إليهِ تعالَى يرجعُ مُنْتهى علمِها أيْ علمُها بكُنهِها وتفاصيلِ أُمرِها وقتَ وقوعِها لا إلى أحدٍ غيرِه وإنما وظيفتُهم أنْ يعلموا باقترابِها ومُشارفتِها ، وقدْ حصلَ لهم ذلكَ بمبعثكَ ، فما مَعْنى سؤالِهم عنها بعدَ ذلك . وأمَّا على الوجهِ الأولِ فمعناهُ إليهِ تعالَى انتهاءُ علمِها ليسَ لأحدٍ منه شيءٌ ما كائناً من كانَ فلأيِّ شيءٍ يسألونَكَ عنها .

(41/801)

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ على الوجه الأولِ تقريرٌ لما قبلَهُ من قوله تعالى : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ وتحقيقٌ لما هُو المرادُ منه وبيانٌ لوظيفتِه عليه الصلاةُ والسلامُ في ذلكَ الشأنِ فإنَّ إنكارَ كونِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ في شيءٍ من ذِكراهَا مما يُوهمُ بظاهرِه أنْ ليسَ له عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنْ يذكرَها بوجهٍ من الوجوهِ فأُزيحَ ذلكَ ببيانِ أنَّ المنفَى عنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ذكرُهَا لهم بتعيينِ وقتِها حسبَما كانُوا يسألونَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عنهَا فالمَعْنى إنما أنتَ منذرُ من يخشاهَا ، وظيفتُكَ الامتثالُ بما أُمرتَ من بيانِ اقترابِها وتفصيلِ ما فيها من فنونِ الأهوالِ كما تحيطُ به خبراً ، لا تعيينِ وقتِها الذي لم يُفوضْ إليكَ فما لهم يسألونَكَ عمَّا ليسَ من وظائِفكَ بيانُه . وعلى الوجهِ الثانِي هو تقريرٌ لقولِه تعالى : ﴿ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ ببيانِ أنَّ إرسالَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وهو خاتمُ الأنبياءِ عليهم السلامُ منذرٌ بمجيءِ الساعةِ كما ينطقُ به قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ بعثتُ أنَا والساعةَ كهاتينِ إنْ كادتْ لتسبقُني ﴾ وقُرِئَ منذرٌ بالتنوينِ وهو الأصلُ والإضافةُ تخفيفٌ صالحٌ للحالِ والاستقبالِ ، فإذا أُريدَ الماضِي تعينتِ الإضافةُ . وتخصيصُ الإنذارِ بمن يخشَى مع عمومِ الدعوةِ لأنَّه المنتفعُ بِهِ .

وقولُه تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾

إما تقريرٌ وتأكيدٌ لما ينبىءُ عنه الإنذارُ من سرعة مجيءِ المُنذَر بهِ ، لا سيَّما على الوجهِ الثَّانِي ، أيْ كأنَّهم يومَ يَرَونها لم يلبثُوا بعدَ الإنذارِ بها إلا عشيةَ يومٍ واحدٍ أو ضحاهُ فلما تُرِكَ اليومُ أُضيفَ ضُحاه إلى عشيتِه ، وإمَّا ردٌّ لمَا أدمجُوه في سؤالِهم فإنَّهم كانُوا يسألونَ عنها بطريقِ الاستبطاءِ مستعجلينَ بها وإنْ كانَ على نهجِ الاستهزاءِ بهَا ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إن كُنتُمْ صادقين ﴾ فالمَعْنى كأنَّهم يومَ يَرَونها لم يلبثُوا بعدَ الإنذارِ أو بعدَ الوعيدِ بها إلا عشيةً أو ضُحاها . واعتبارُ كونِ اللبثِ في الدنيا أو القُبورِ لا يقتضيه المقامُ وإنَّما الذي يقتضيهِ اعتبارُ كونِه بعدَ الإنذارَ أو بعدَ الوعيدِ تحقيقاً للإنذارِ وردًّا لاستبطائِهم . والجملةُ على الأولِ حالٌ من الموصولِ فإنَّه على تقديرَيْ الإضافةِ وعدمِها مفعولٌ لمنذرُ كما أنَّ قولَه تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ حالٌ من ضميرِ المفعولِ في يحشرُهم أي يحشرُهم مشبهينَ بمن لم يلبثْ في الدُّنيا إلا ساعةً خلا أن الشبهَ هناكَ في الأحوالِ الظاهرةِ من الزيِّ والهيئةِ وفيمَا نحنُ فيه في الاعتقاد كأنَّه قيلَ : تنذرُهم مشبهينَ يومَ يَرَونها في الاعتقادِ بمن لم يلبثْ بعد الإنذارِ بها إلا تلك المدةَ اليسيرةَ ، وعلى الثَّانِي مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(43/801)

وقال الآلوسى :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾

أي متى إرساؤها أي إقامتها يريدون متى يقيمها الله تعالى ويكونها ويثبتها فالمرسي مصدر ميمي من سار بمعنى ثبت ومنه الجبال الرواسي وحاصل الجملة الاستفهامية السؤال عن زمان ثبوتها ووجودها وجوزأن يكون المرسى بمعنى المنتهى أي متى منتهاها ومستقرها كما أن مرسي السفينة حيث تنتهي إليها وتستقر فيه كذا قيل وتقدير الاستفهام بمتى يقتضي أن المرسى اسم زمان وقوله كما أن الخ ظاهر في أنه اسم مكان ولذا قيل الكلام على الاستعارة بجعل اليوم المتباعد فيه كشخص سائر لا يدرك ويوصل إليه ما لم يستقر في مكان فجعل وقت داركه مستقراً له فتدبر وقوله تعالى :

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ إنكار ورد لسؤال المشركين عنها أي في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كأنك حفى ﴾ [الأعراف : 187] عنها فالاستفهام للإنكار وفيم خبر مقدم وأنت مبتدأ مؤخر ومن ذكراها على تقدير مضاف أي ذكري وقتها متعلق بما تعلق به الخبر وقيل فيم إنكار لسؤالهم وما بعده استئناف تعليل للإنكار وبيان لبطلان السؤال أي فيم هذا السؤال ثم ابتدىء فقيل أنت من ذكراها أي ارسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث في نسم الساعة علامة من

علامتها ودليل يدلهم على العلم بوقوعها عن قريب فحسبهم هذه المرتبة من العلم

فمعنى قوله تعالى : إلى ربك منتهاها على هذا الوجه إليه تعالى يرجع منتهى علمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره سبحانه وإنما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها وقد حصل لهم ذلك بمبعثك فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك وأما على الوجه الأول فمعناه إليه عز وجل انتهاء علمها ليس لأحد منه شيء كائنا ما كان فلأي شيء يسألونك عنها

(44/801)

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ عليه تقرير لما قبل من قوله سبحانه ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ [النازعات : 43] وتحقيق لما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأن فإن إنكار كونه صلى الله عليه وسلم في شيء من ذكراها مما يوهم بظاهره أن ليس له عليه الصلاة والسلام أن يذكرها بوجه من الوجوه فأزيح ذلك ببيان أن المنفي عنه صلى الله عليه وسلم ذكراها لهم بتعيين وقتهما حسبما كانوا يسألونه عنها فالمعنى إنما أنت منذر من يخشاها ويخاف أهوالها وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها وتفصيل ما فيها من فنون الأهوال كما تحيط به لا معلم بتعيين وقتها الذي لم يفوض

إليه فما لهم يسألونك عما لم تبعث له ولم يفوض إليك أمره وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى أنت من ذكراها ببيان أن إرساله عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء عليهم السلام منذر بمجيء الساعة كما ينطق به قوله صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين إن كادت لتسبقني . . .

(45/801)

" والظاهر على الأول أن القصر من قصر الموصوف على الفة والمعنى ما أنت إلا منذر لا معلم بالوقت مبين له وإنما ذكر صلة المنر إظهاراً لكونها ذات مدخل في القصر لكون الكلام في القصر على منذر خاص ونفي إعلام خاص يقابله وكونه من قصر الصفة على الموصوف بناء على ما يتبادر إلى الفهم من كلام السكاكي أن المعنى إنما أنت منذر الخاشي دون من لا يخشى أي ما أنت منذر إلا من يخشى دون غيره غير مناسب للمقام على أنه قيل عليه أن من يخشى من صلة منذر ليس من متعلق إنما في شيء ليجعل الجزء الأخير المقصور عليه الإنذار وهذا إن صح استلزم عدم صحة ما قرر لكن في صحته مقال إذ يستلزم أيضاً أن لا يصح إنما هو غلام زيد لا عمرو وإنما هو ضارب عمراً لا زيداً مع شهرة استعمال ذلك من غير نكير فتأمل والظاهر على الثاني أن إنما لمجرد التأكيد زيادة في الاعتناء بشأن الخبر

وليست للحصر إذ لا يتعلق به غرض عليه بحسب الظاهر على ما قيل وقوله تعالى :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾

(46/801)

إما تقرير وتأكيد لما ينبىء عنه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به لا سيما على الوجه الثاني والمعنى كأنه يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار إلا قليلاً وأما رد لما أدمجوه في سؤالهم فإنهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجلين بها وإن كان على نهج الاستهزاء بها ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] والمعنى كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلا عشية الخ وهذا الكلام على ما نقل عن الزمخشري له أصل وهو لم يلبثوا إلا ساعة من نهار عشيته أو ضحاها فوضع هذا المختصر موضعه وإنما أفادت الإضافة ذلك كما في "الكشف" من حيث أنك إذا قلت لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى احتمل أن تكون العشية من يوم والضحى من آخر فيتوهم الاستمرار من ذلك الزمان إلى مثله من اليوم الآخر أما إذا قلت عشيته أو ضحاها لم يحتمل ذلك البتة وفي قولك ضحى تلك العشية ما يغني عن قولك عشية ذلك النهار أو ضحاه وقال الطيبي أنه من المحتمل أن يراد بالعشية أو الضحى كل اليوم مجازاً فلما أضيف أفاد التأكيد ونفى ذلك الاحتمال

وجعله من باب رأيته بعيني وهو حسن ولكن السابق أبعد من التكلف ولا منع من الجمع وزاد الإضافة حسناً كون الكلمة فاصلة واعتبر جمع كون اللبث في الدنيا وبعضهم كونه في القبور وجوز كونه فيهما واختار في الإرشاد ما قدمنا وقال إن الذي يقتضيه المقام اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار ورداً لاستبطائهم والجملة على الوجه الأول حال من الموصول كأنه قيل تنذرهم مشبهين يوم يرونها في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة وعلى الثاني مستأنفة لا محل لها من الإعراب هذا ولا يخفى عليك أن الوجه الثاني وإن كان حسناً في نفسه لكنه مما لا يتبادر إلى الفهم وعليه يحسن الوقف على ﴿ فيم ﴾ ثم يستأنف ﴿ أنت من ذكراها ﴾ [النازعات : 43] لئلا يلبس وقيل إن قوله تعالى : ﴿ فِيمَ ﴾ الخ متصل بسؤالهم على أنه بدل

(47/801)

من جملة ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ الخ أو هو بتقدير القول أي يسألونك عن زمان قيام الساعة ويقولون لك في أي مرتبة أنت من ذكراها أي علمها أي ما مبلغ علمك فيها أو يسألونك عن ذلك قائلين لك في أي مرتبة أنت الخ والجواب عليه قوله تعالى ﴿ إلى ربّكَ منتهاها ﴾ [النازعات : 44] ولا يخفى ضعف ذلك وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن

مردويه والحاكم وصححه عن عائشة قالت ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله تعالى عليه ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ فانتهى عليه الصلاة والسلام فلم يسأل بعدها وأخرج النسائي وغيره عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها فكف عنها وعلى هذا فهو تعجيب من كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم لها كأنه قيل في أي شغل واهتمام أنت من ذكراها والسؤال عنها والمعنى أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها ونظر فيه ابن المنير بأن قوله عز وجل :

(48/801)

﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ [الأعراف : 187] يرده إذ المراد أنك لا تحتفي بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك وهم يسألونك كما يسأل الحفي عن الشيء أي الكثير السؤال عنه وأجيب بأنه يحتمل أنه لم يكن منه صلى الله عليه وسلم أولا احتفاء ثم كان وإن سؤالهم هذا ونزول الآية بعد وقوع الاحتفاء وأنت تعلم ما في ذلك من البعد وقرأ أبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وابن مقسم وأبو عمرو في

رواية منذر بالتنوين والأعمال وهو الأصل في مثله بعد اعتبار المشابهة والإضافة للتخفيف فلا ينافي أن الأصل في الأسماء عدم الأعمال والاعمال عارض للشبه والوصف عند إعماله وإضافته للتخفيف صالح للحال والاستقبال وإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة كقولك هو منذر زيد أمس وهو هنا على ما قيل للحال لمقارنة يخشى ولا ينافي أنه صلى الله عليه وسلم منذر في الماضي والمستقبل حتى يقال المناسب لحال الرسالة الاستمرار ومثله يجوز فيه الاعمال وعدمه ثم المراد بالحال حال الحكم لا حال التكلم وفي ذلك في كتب الأصول فلا تغفل والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(49/801)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) ﴾

قوله : ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السماء بناها ﴾ أي أخلقكم بعد الموت ، وبعثكم أشدّ عندكم ، وفي تقديركم أم خلق السماء ؟ والخطاب لكفار مكة ، والمقصود به : التوبيخ لهم والتبكيت ؛ لأن من قدر على خلق السماء ؟ التي لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع

وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أوّل مرّة؟ ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر: 57] وقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ

1649 الَّذِى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ياس: 81] ثم بيّن سبحانه كيفية خلق السماء فقال: ﴿ بناها * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أي: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، ورفع سمكها أي: أعلاه في الهواء، فقوله: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ بيان للبناء، يقال سمكت الشيء أي: رفعته في الهواء، وسمك الشيء سموكاً: ارتفع.

قال الفرّاء كل شيء حمل شيئًا من البناء أو غيره فهو سمك، وبناء مسموك، وسنام سامك أي: عال، والسموكات: السموات: ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . . بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

قال البغوي: رفع سمكها، أي: سقفها.

قال الكسائي، والفراء، والزجاج: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ أَمِ السماء بناها ﴾ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف التي، ومثل هذا الحذف جائز.

ومعنى ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾: فجعلها مستوية الخلق معدّلة الشكل لا تفاوت فيها، ولا اعوجاج، ولا فطور، ولا شقوق.

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ الغطش : الظلمة أي : جعله مظلماً ، يقال غطش الليل وأغطشه الله ، كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله ، ورجل أغطش ، وامرأة غطشى لا يهتديان .

(50/801)

قال الراغب : وأصله من الأغطش ، وهو الذي في عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى : لا يهتدى فيها ، والتغاطش التعامي .

قال الأعشى :

ودهماء بالليل غطشى الفلا . . . ة يؤنسني صوت قيادها

وقوله :

وغامرهم مدلهم غطش . . . يعني : غمرهم سواد الليل ، وأضاف الليل إلى السماء ؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس ، والشمس مضافة إلى السماء .

﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ أي : أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس ، وعبر عن النهار بالضحى ؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء ؛ لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهي : منسوبة إلى السماء .

﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ أي : بعد خلق السماء ، ومعنى ﴿ دحاها ﴾ بسطها

، وهذا يدلّ على أن خلق الأرض بعد خلق السماء ، ولا معارضة بين هذه الآية ، وبين ما تقدّم في سورة فصلت من قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ [فصلت : 11] بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أوّلاً غير مدحوّة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض ، وقد قدّمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدّمنا أيضاً بحثاً في هذا في أوّل سورة البقرة عند قوله :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] وذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع ، كما في قوله : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] ، وقيل : بعد بمعنى قبل ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء : 105] أي : من قبل الذكر ، والجمع الذي ذكرناه أولى ، وهو قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

يقال : دحوت الشيء أدحوه : إذا بسطته ، ويقال : لعشّ النعامة أدحى ؛ لأنه مبسوط على الأرض .

وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت . . . على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبي الصلت :

وبثّ الخلق فيها إذا دحاها . . . فهم قطانها حتى التنادي

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

(51/801)

دحاها فلما استوت شدّها . . . بأيد وأرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن ميمون ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، وأبو السماك ، وعمرو بن عبيد ، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها ﴾ أي : فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون .

وأخرج منها مرعاها .

أي : النبات الذي يرعى ، ومرعاها مصدر ميميّ أي : رعيها ، وهو في الأصل موضع الرعي ، والجملة إما بيان وتفسير لدحاها ؛ لأن السكنى لا تتأتى بمجرّد البسط بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب .

وإما في محل نصب على الحال .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أي : أثبتها في الأرض ، وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقرّ ،

وأن لا تميد بأهلها .

قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن ميمون ، وأبو حيوة ، وأبو السماك ، وعمرو بن عبيد ، ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء ، قيل : ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء ، والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل والمشرب ﴿ متاعا لَّكُمْ ولأعامكم ﴾ أي منفعة لكم ولأنعامكم من البقر ، والإبل ، والغنم ، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي : متعكم بذلك متاعاً أو هو مصدر من غير لفظه ؛ لأن قوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها ﴾ بمعنى متع بذلك ، أو على أنه مفعول له أي : فعل ذلك لأجل التمتيع ، وإنما قال : ﴿ لَّكُمْ ولانعامكم ﴾ لأن فائدة ما ذكر من الدحوّ ، وإخراج الماء ، والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى يعمّ ما يأكله الناس والدواب .

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطامة الكبرى ﴾ أي : الداهية العظمى التي تطمّ على سائر الطامات .

قال الحسن ، وغيره : وهي النفخة الثانية .

وقال الضحاك ، وغيره : هي القيامة سميت بذلك ، لأنها تطمّ على كل شيء لعظم هولها .

(52/801)

قال المبرد : الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طمّ الفرس طميماً : إذا استفرغ جهده في الجري ، وطمّ الماء : إذا ملأ النهر كله .

وقال غيره : هو من طمّ السيل الركية أي دفنها ، والطمّ الدفن .

قال مجاهد ، وغيره : الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، وجواب إذا قيل : هو قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ .

وقيل : محذوف أي : فإن الأمر كذلك ، أو عاينوا أو علموا ، أو أدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة .

وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها وهو معنى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ [الفجر : 23] فإنه منصوب بفعل مضمر ، أي : أعني يوم يتذكر ، أو يوم يتذكر يكون كيت ، وكيت .

وقيل : إن الظرف بدل من إذا ، وقيل : هو بدل من الطامة الكبرى ؛ ومعنى تذكر الإنسان ما سعى : أنه يتذكر ما عمله من خيرّ ، أو شرّ ؛ لأنه يشاهده مدوّناً في صحائف عمله ، و"ما" مصدرية ، أو موصولة ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى ﴾ معطوف على جاءت ، ومعنى برّزت : أظهرت إظهاراً لا يخفى على أحد .

قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء ، فينظر إليها الخلق ، وقيل : ﴿ لِمَن يرى ﴾ من الكفار ، لا من المؤمنين ؛ والظاهر أن تبرز لكلّ راء ، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه

بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غماً إلى غمه ، وحسرة إلى حسرته .

قرأ الجمهور ﴿ لمن يرى ﴾ بالتحتية .

وقرأت عائشة ، ومالك ابن دينار ، وعكرمة ، وزيد بن عليّ بالفوقية ، أي : لمن تراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يا محمد .

وقرأ ابن مسعود " لمن رأى " على صيغة الفعل الماضي .

﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ أي : جاوز الحد في الكفر والمعاصي .

﴿ وَءاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ أي : قدّمها عن الآخرة ، ولم يستعدّ لها ، ولا عمل عملها .

(53/801)

﴿ فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ أي : مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : أنها منزله الذي ينزله ، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها .

ثم ذكر القسم الثاني من القسمين فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي : حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة .

قال الربيع : مقامه يوم الحساب .

قال قتادة : يقول إن لله عزّ وجلّ مقاماً قد خافه المؤمنون .

وقال مجاهد : هو خوفه في الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] والأوّل أولى .

﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ أي : زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشتهيها .

قال مقاتل : هو الرجل يهمّ بالمعصية ، فيذكر مقامه للحساب ، فيتركها ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ أي : المنزل الذي ينزله ، والمكان الذي يأوي إليه لا غيرها .

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ أي : متى وقوعها وقيامها .

قال الفراء : أي : منتهى قيامها كرسوّ السفينة .

قال أبو عبيدة : ومرسى السفينة حين تنتهي ، والمعنى : يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا في سورة الأعراف ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ أي : في أيّ شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ، والمعنى : لست في شيء من علمها ، وذكراها إنما يعلمها الله سبحانه ، وهو إنكار وردّ لسؤال المشركين عنها أي : فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه ؟ ﴿ إلى رَبِّكَ منتهاها ﴾ أي : منتهى علمها ، فلا يوجد علمها عند غيره ، وهذا كقوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ [الأعراف : 187] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] فكيف يسألونك عنها ، ويطلبون منك بيان وقت قيامها ؟

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ أي : مخوّف لمن يخشى قيام الساعة ، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة ، ونحوه مما استأثر الله بعلمه ، وخصّ الإنذار بمن يخشى ؛ لأنهم المنتفعون بالإنذار ، وإن كان منذراً لكلّ مكلف من مسلم وكافر .

قرأ الجمهور بإضافة : ﴿ منذر ﴾ إلى ما بعده .

وقرأ عمر بن عبد العزيز ، وأبو جعفر ، وطلحة ، وابن محيصن ، وشيبة ، والأعرج ، وحميد بالتنوين ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو .

قال الفراء : والتنوين ، وتركه في منذر صواب كقوله : ﴿ بالغ أَمْرِهِ ﴾ [الطلاق : 3] و ﴿ مُوهِنُ كَيْدِ الكافرين ﴾ [الأنفال : 18] .

قال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن تكون الإضافة للماضي ، نحو ضارب زيد أمس .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ أي : إلاّ قدر آخر نهار أو أوّله ، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية ، والمراد تقليل مدّة الدنيا ، كما قال : ﴿ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف : 35] .

وقيل : لم يلبثوا في قبورهم إلاّ عشية أو ضحاها .

قال الفراء ، والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب ، يقولون : آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها ، فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أوّل النهار .

ومنه قول الشاعر :

نحن صبحنا عامراً في دارها . . . جرداً تعادى طرفي نهارها

عشية الهلال أو سرارها . . . والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ قال : بناها ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ قال : أظلم ليلها .

(55/801)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ قال : وأظلم ليلها ﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ قال : أخرج نهارها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ قال : مع ذلك .

وأخرج عبد ابن حميد ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً أن رجلاً قال له : آيتان في كتاب الله

تخالف إحداهما الأخرى ، فقال : إنما أتيت من قبل رأيك ، قال : اقرأ : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ حتى بلغ : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ [فصلت : 9 - 11] وقوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ، ثم خلق السماء ، ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء ، وإنما قوله : ﴿ دحاها ﴾ : بسطها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : ﴿ دحاها ﴾ أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال ، والرمال ، والسبل ، والآكام وما بينهما في يومين .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الطامة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة فنزلت : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ " .

وأخرج البزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : "ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إلى ربّكَ منتهاها ﴾ فانتهى ، فلم يسأل عنها" .

وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ فِيمَ

أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إلى ربّكَ منتهاها ﴾ فكفّ عنها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس .

(56/801)

قال السيوطي بسند ضعيف : إن مشركي مكة سألوا النبيّ فقالوا : متى الساعة استهزاء منهم ؟ فأنزل الله : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ يعني : مجيئها ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ يعني : ما أنت من علمها يا محمد ﴿ إلى ربّكَ منتهاها ﴾ يعني : منتهى علمها .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على النبيّ سألوه عن الساعة ، فينظر إلى أحدث إنسان منهم ، فيقول : " إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 378 . 381 ﴾

(57/801)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) ﴾

استئناف بياني منشؤه أن المشركين كانوا يسألون عن وقت حلول الساعة التي يتوعدهم بها النبي صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله عنهم غير مرة في القرآن كقوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] .

وكان سؤالهم استهزاء واستخفافاً لأنهم عقدوا قلوبهم على استحالة وقوع الساعة وربما طلبوا التعجيل بوقوعها وأوهموا أنفسهم وأشياعهم أن تأخر وقوعها دليل على اليأس منها لأنهم يتوهمون أنهم إذا فعلوا ذلك مع الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان صادقاً لَحَمِي غضب الله مُرسِله سبحانه فبادر بإراءتهم العذاب وهم يتوهمون شؤون الخالق كشؤون الناس إذا غضب أحدهم عجَّل بالانتقام طيشاً وحنقاً قال تعالى : ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعَجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ [الكهف : 58] .

فلا جرم لما قُضي حق الاستدلال على إمكان البعث بإقامة الدليل وضرب الأمثال ، وعرض بعقاب الذين استحقوا بها في قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ [النازعات : 34] ، كان ذلك مثاراً لسؤالهم أن يقولوا : هل لمجيء هذه الطامة الكبرى وقت معلوم ؟ فكان الحال مقتضياً هذا الاستئناف البياني قضاء لحق المقام وجواباً عن سابق الكلام .

فضمير "يسألون" عائد إلى المشركين أصحاب القلوب الواجفة والذين قالوا : ﴿ أينا لمردودون في الحافرة ﴾ [النازعات : 10] .

وحكي فعل السؤال بصيغة المضارع للدلالة على تجدد هذا السؤال وتكرره .

والساعة : هي الطامة فذكر الساعة إظهار في مقام الإِضمار لقصد استقلال الجملة بمدلولها مع تفنن في التعبير عنها بهذين الاسمين ﴿ الطامة ﴾ [النازعات : 34] و ﴿ الساعة ﴾ .

و ﴿ أيان مرساها ﴾ جملة مبينة للسؤال .

و ﴿ أيان ﴾ اسم يستفهم به عن تعيين الوقت .

(58/801)

والاستفهام مستعمل في الاستبعاد كناية وهو أيضاً كناية عن الاستحالة و ﴿ مرساها ﴾ مصدر ميمي لفعل أرسى ، والإِرساء : جعل السفينة عند الشاطىء لقصد النزول منها .

واستعير الإِرساء للوقوع والحصول تشبيهاً للأمر المغيَّب حصوله بسفينة ماخرة البحر لا يُعرف وصولها إلا إذا رسَتْ ، وعليه ف ﴿ أيان ﴾ ترشيح للاستعارة ، وتقدم نظير هذه في سورة الأعراف .

وقوله : ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة باعتبار ما يظهر من حال سؤالهم عن الساعة من إرادة تعيين وقتها وصرف النظر عن إرادتهم به الاستهزاء ، فهذا الجواب من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو من تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيهاً له على أن الأولى به أن يهتم بغير ذلك ، وهو مضمون قوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ .

وهذا ما يسمى بالأسلوب الحكيم ، ونظيره ما روي في الصحيح أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال له : " ماذا أَعْدَدْتَ لها ؟ " أي كان الأولى لك أن تصرف عنايتك إلى الاستكثار من الحسنات إعداداً ليوم الساعة .

والخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فالمقصود بلوغه إلى مسامع المشركين فلذلك اعتبر اعتبارَ جواب عن كلامهم وذلك مقتضى فصل الجملة عن التي قبلها شأن الجواب والسؤال .

و(ما) في قوله : ﴿ فيم ﴾ اسم استفهام بمعنى : أي شيء ؟ مستعملة في التعجيب من سؤال السائلين عنها ثم توبيخهم .

و(في) للظرفية المجازية بجعل المشركين في إحفائهم بالسؤال عن وقت الساعة كأنهم جعلوا النبي صلى الله عليه وسلم محوطاً بذكر وقت الساعة ، أي متلبساً به تلبس العالم بالمعلوم فدُل على ذلك بحرف الظرفية على طريقة الاستعارة في الحرف .

وحُذف ألف (ما) لوقوعها بعد حرف الجر مثل ﴿ عم يتساءلون ﴾ [النبأ : 1] .

و﴿ فيم ﴾ خبر مقدم و ﴿ أنت ﴾ مبتدأ ، و ﴿ من ذكراها ﴾ إما متعلق بالاستقرار الذي في الخبر أو هو حال من المبتدأ .

(59/801)

و ﴿ مِن ﴾ : إما مّبينة للإِبهام الذي في (ما) الاستفهامية ، أي في شيء هو ذكراها ، أي في شيء هو أن تَذْكرها ، أي لستَ متصدياً لشيء هو ذكرى الساعة ، وإما صفةٌ للمبتدأ فهي اتصالية وهي ضرب من الابتدائية ابتداؤها مجازي ، أي لست في شيء يتصل بذكرى الساعة ويحوم حوله ، أي ما أنت في شيء هو ذكر وقت الساعة ، وعلى الثاني : ما أنت في صلة مع ذكر الساعة ، أي لا ملابسة بينك وبين تعيين وقتها .

وتقديم ﴿ فيم ﴾ على المبتدأ للاهتمام به ليفيد أن مضمون الخبر هو مناط الإِنكار بخلاف ما لو قيل : أأنت في شيء من ذكراها ؟

والذكرى : اسم مصدر الذِّكر ، والمراد به هنا الذكر اللساني .

وجملة ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ في موقع العلة للإِنكار الذي اقتضاه قوله : ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ ولذلك فصلت ، وفي الكلام تقدير مضاف ، والمعنى : إلى ربك عِلم منتهاها .

وتقديم المجرور على المبتدأ في قوله : ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ لإِفادة القصر ، أي لا إليك ، وهذا قصر صفة على موصوف .

والمنتهى : أصله مكان انتهاء السير ، ثم أطلق على المصير لأن المصير لازم للانتهاء قال تعالى : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] ثم توسّع فيه فأطلق على العلم ، أي لا يعلمها إلا الله ، فقوله : ﴿ منتهاها ﴾ هو في المعنى على حذف مضاف ، أي علم وقت حصولها كما دل عليه قوله : ﴿ أيان مرساها ﴾ .

ويجوز أن يكون ﴿ منتهاها ﴾ بمعنى بلوغ خبرها كما يقال : أنهيت إلى فلان حادثة كذا ، وانتهى إليَّ نبأ كذا .

(60/801)

وقوله : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ استئناف بياني ناشىء عن جملة ﴿ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ وهو أن يسأل السامع عن وجه إكثار النبي صلى الله عليه وسلم ذِكرها وأنها قريبة ، فأجيب بأن النبي صلى الله عليه وسلم حظه التحذير من بَغْتَتِها ، وليس حظه الإِعلام بتعيين وقتها ، على أن المشركين قد اتخذوا إعراض القرآن عن تعيين وقتها حجة لهم على إحالتها لأنهم لجهلهم بالحقائق يحسبون أن من شأن النبي صلى الله

عليه وسلم أن يعلم الغيب ولذلك تكرر في القرآن تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كما في قوله تعالى:

﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ [الأنعام : 50] .

وأفادت ﴿ إنما ﴾ قصر المخاطب على صفة الإنذار ، أي تخصيصه بحال الإِنذار وهو قصر موصوف على صفة فهو قصر إضافي ، أي بالنسبة إلى ما اعتقدوه فيه بما دل عليه إلحافهم في السؤال من كونه مطلعاً على الغيب .

وقوله : ﴿ منذر من يخشاها ﴾ قرأه الجمهور بإضافة ﴿ منذر ﴾ إلى ﴿ من يخشاها ﴾ .

وقرأه أبو جعفر بتنوين ﴿ منذر ﴾ على أن ﴿ من يخشاها ﴾ مفعوله .

وفي إضافة ﴿ منذر ﴾ إلى ﴿ من يخشاها ﴾ أو نصبِه به إيجازُ حذف تقديره : منذرها فينتذر من يخشاها ، وقرينة ذلك حاليَّة للعلم المتواتر من القرآن بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينذر جميع الناس لا يخص قوماً دون آخرين فإن آيات الدعوة من القرآن ومقامات دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن إلا عامة .

ولا يُعرف من يَخشى الساعة إلا بعد أن يؤمِن المُؤمن ولو عرف أحد بعينه أنه لا يؤمن أبداً لما وجهت إليه الدعوة ، فتعين أن المراد : أنه لا ينتفع بالإِنذار إلا من يخشى الساعة ومن عداه تمُرّ الدعوة بسمعه فلا يَأبَهُ بها ، فكان ذكر ﴿ من يخشاها ﴾ تنويهاً بشأن المؤمنين وإعلاناً

لمزيتهم وتحقيراً للذين بقُوا على الكفر قال تعالى : ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير ﴾ [فاطر : 22 ، 23] .

(61/801)

وعلى هذا القانون يفهم لماذا وجه الخطاب بالإِيمان إلى ناس قد علم الله أنهم لا يؤمنون ، وكَشف الواقعُ على أنهم هلكوا ولم يؤمنوا مثل صناديد قريش أصحاب القليب قليبِ بدر مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة ، ولماذا وُجه الخطاب بطلب التقوى ممن علم الله أنه لا يتقي مثل دُعّار العرب الذين أسلموا ولم يتركوا العدوان والفواحش ، ومثل أهل الردة الذين لم يكفروا منهم ولكنهم أصرّوا على منع الزكاة وقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه ، فمن مات منهم في ذلك فهو ممن لم يتق الله لأن ما في علم الله لا يبلغ الناس إلى علمه ولا تظهر نهايته إلا بعد الموت وهي المسألة المعروفة عند المتكلمين من أصحابنا بمسألة المُوافاة .

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

جواب عما تضمنه قوله : ﴿ يسئلونك على الساعة أيان مرساها ﴾ [النازعات : 42] باعتبار ظاهر حال السؤال من طلب المعرفة بوقت حلول الساعة واستبطاء وقوعها الذي يرمون به إلى تكذيب وقوعها ، فأجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم ، أي إن طال تأخر

حصولها فإنها واقعة وأنهم يوم وقوعها كأنه ما لبثوا في انتظار إلا بعض يوم .

والعشية : معبر بها عن مدة يسيرة من زمان طويل على طريقة التشبيه ، وهو مستفاد من ﴿ كأَنَّهم ﴾ ، فهو تشبيه حالهم بحالة من لم يلبث إلا عشية ، وهذا التشبيه مقصود منه تقريب معنى المشبَّه من المتعارف .

وقوله : ﴿ أو ضحاها ﴾ تخيير في التشبيه على نحو قوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ في سورة البقرة (19) .

وفي هذا العطف زيادة في تقليل المدة لأن حصة الضحى أقصر من حصة العشية .

وإضافة (ضحى) إلى ضمير (العشية) جرى على استعمال عربي شائع في كلامهم .

قال الفراء : أضيف الضحى إلى العشية ، وهو اليوم الذي يكون فيه على عادة العرب يقولون : آتيك الغداة أو عشيتَها ، وآتيك العشية أو غداتَها ، وأنشدني بعض بني عُقيل:

(62/801)

نَحن صَبَّحنا عامراً في دَارها . . .

جُرْداً تَعَادَى طَرَفَيْ نَهَارِها

عشيَّة الهِلال أو سِرارها . . .

أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية : فهو أشد من : آتيك الغداة أو عشيتها ا ه .

ومسوغُ الإِضافة أن الضحى أسبق من العشية إذ لا تقع عشية إلا بعد مرور ضحى ، فصار ضحى ذلك اليوم يعرَّف بالإِضافة إلى عشية اليوم لأن العشية أقرب إلى علم الناس لأنهم يكونون في العشية بعد أن كانوا في الضحى ، فالعشية أقرب والضحى أسبق .

وفي هذه الإِضافة أيضاً رعاية على الفواصل التي هي على حرف الهاء المفتوحة من ﴿ أيان مرساها ﴾ .

وبانتهاء هاته السورة انتهت سور طوال المفصل التي مبدؤها سورة الحجرات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(63/801)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عليّ في قوله : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال : هي الملائكة تنزع أرواح الكفار ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ هي الملائكة تنشط أرواح

الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال : هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار .

وأخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ قال : الموت .

وأخرج جويبر في تفسيره عن ابن عباس في قوله : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال : هي أرواح الكفار لما عاينت ملك الموت فيخبرها بسخط الله غرقت فينشطها انتشاطاً من العصب واللحم ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ أرواح المؤمنين لما عاينت ملك الموت قال : اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، سبحت سباحة الغائص في الماء فرحاً وشوقاً إلى الجنة ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ قال : تمشي إلى كرامة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً ﴾ قال : هاتان الآيتان للكفار عند نزع النفس تنشط نشطاً عنيفاً مثل سفود في صوف ،

فكان خروجه شديداً ﴿ والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً ﴾ قال : هاتان للمؤمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال : النفس حين تغرق في الصدور ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ قال : الملائكة حين تنشط الروح من الأصابع والقدمين ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ حين تسبح النفس في الجوف تتردد عند الموت .

(64/801)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله : ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال : الملائكة ينزعون نفس الإنسان ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ قال : الملائكة ينشطون نفس الإنسان ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ قال : الملائكة حين ينزلون من السماء إلى الأرض ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ قال : الملائكة ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال : الملائكة يدبرون ما أمروا به .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن مجاهد ﴿ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً ﴾ قال : الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً فالمدبرات أمراً ﴾ قال: الملائكة.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال: هو الكافر ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ قال: هي النجوم ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ قال: هي النجوم ﴿ والسابقات سبقاً ﴾ قال: هي النجوم ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال: هي الملائكة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ قال: القسي ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ قال: الأوهاق ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ قال: الخيل.

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار. قال الله: ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ أتدري ما هو؟ قلت يا نبي الله: ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط العظم واللحم".

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ قال: هي النجوم كلها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكوّا سأله عن ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال: الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبر أمر الدنيا أربعة جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل ، فإما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح ، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت من طريق أبي المتوكل الناجي عن ابن عباس في قوله : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال : ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه ويدلى في حفرته .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ قال : النفخة الأولى ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ قال : النفخة الثانية ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : خائفة ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ قال : الحياة .

وأخرج عبد حميد والبيهقي في البعث عن مجاهد في قوله : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ قال : ترجف الأرض والجبال ، وهي الزلزلة ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ قال : دكتا دكة واحدة .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وعبد بن حميد وابن المنذر والحكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبيّ بن كعب قال : "كان رسول الله صلى الله عليه

وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : " يا أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه " " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف الراجفة رجفاً وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ يقول : مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ قال : النفخة الأولى ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ قال : النفخة الثانية .

(66/801)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ قال : هما الصيحتان ، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله ، وأما الأخرة فتحيي كل شيء بإذن الله .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه سئل عن قول الله ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ قال : هما النفختان ، أما الأولى فتميت الأحياء ، وأما الثانية فتحيي الموتى ، ثم تلا هذه الآية ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله

ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : وجلة متحركة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : خائفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : وجلة وفي قوله : ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ قال : الأرض نبعث خلقاً جديداً ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ قال : مدقوقة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : وجفت مما عاينت ﴿ يومئذ أبصارها خاشعة ﴾ قال : ذليلة ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً إذا متنا تكذيباً بالبعث ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ قال : بالية .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ قال : خلقاً جديداً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ قال : الحياة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية قال كفار قريش : لئن حيينا بعد الموت لنحشرن ، فنزلت ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن عمر بن الخطاب أنه كان يقرأ " أئذا كنا عظاماً ناخرة " بألف .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ " ناخرة " بالألف .

(67/801)

وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنه كان يقرأ هذا الحرف " إئذا كنا عظاماً ناخرة " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد قال : سمعت ابن الزبير يقرؤها " عظاماً ناخرة " فذكرت ذلك لابن عباس فقال : أوليس كذلك ؟

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طرق ابن عباس أنه كان يقرأ التي في النازعات " ناخرة " بالألف وقال : بالية .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب القرظي وعكرمة وإبراهيم النخعي أنهم كانوا يقرؤون " ناخرة " بالألف .

وأخرج الفراء عن ابن الزبير أنه قال على المنبر : ما بال صبيان يقرؤون ﴿ نخرة ﴾ إنما هي " ناخرة "

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك " عظاماً ناخرة " قال : بالية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الناخرة العظم يبلى فتدخل الريح فيه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ قال : إن خلقنا خلقاً جديداً لنرجعن إلى الخسران ، وفي قوله : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ قال : صيحة ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : المكان المستوي في الأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ قال : رجعة خاسرة . قال : فلما تباعد البعث في أنفس القوم قال الله : ﴿ إنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : فإذا هم على ظهر الأرض بعد أن كانوا في جوفها .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : كانوا في بطن الأرض ثم صاروا على ظهرها .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن والشعبي مثله .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة أنه سئل عن قوله : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : الأرض كلها ساهرة . وقال ابن عباس : قال أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر . . . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : الساهرة وجه الأرض ، وفي لفظ ، قال : الأرض كلها ساهرة ، ألا ترى الشاعر يقول :

صيد بحر وصيد ساهرة . . . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن الشعبي ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : إذا هم بالأرض ، ثم تمثل ببيت أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر . . . وما فاهوا به أبداً مقيم

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : بالأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : بالأرض كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ بالساهرة ﴾ قال : تسمى الأرض ساهرة بني فلان .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سهل بن سعد الساعدي ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : أرض بيضاء عفراء كالخبزة من النقى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه قال : الساهرة جبل إلى جنب بيت المقدس .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : في جهنم .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ اذهب إلى

فرعون إنه طغى ﴾ قال : عصى وفي قوله : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ قال : عصاه ويده ، وفي قوله : ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ قال : يعمل بالفساد ، وفي قوله : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ قال : الأولى ما علمت لكم من إله غيري ، والآخرة قوله : أنا ربكم الأعلى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ قال : عصاه ويده ، وفي قوله : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ قال : صابته عقوبة الدنيا والآخرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن مثله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن صخر بن جويرية قال : لما بعث الله موسى إلى فرعون قال : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ إلى قوله : ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ ولن يفعله ، فقال موسى : يا رب كيف أذهب إليه وقد علمت أنه لا يفعل ، فأوحى الله إليه أن امض إلى ما أمرت به فإن في السماء اثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر ، فلم يبلغوه ، ولم يدركوه .

(69/801)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ قال : هل لك إلى أن تقول لا إله إلا الله .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ قال : إلى أن تقول لا إله إلا الله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ قال : إلى أن تخلص ، وفي قوله : ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ قال : ليس بالشد يعمل بالفساد والمعاصي .

وأخرج ابن المنذر عن الربيع في قوله : ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ قال : أدبر عن الحق وسعى يجمع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : قال موسى : يا فرعون هل لك في أن أعطيك شبابك لا تهرم ، وملكك لا ينزع منك ، وترد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب ، وإذا مت دخلت الجنة وتؤمن بي فوقعت في نفسه هذه الكلمات وهي اللينات ، قال : كما أنت حتى يأتي هامان ، فلما جاء هامان أخبره فعجزه هامان ، وقال تصير تعبد إذا كنت رباً تُعْبَدُ فذلك حين خرج عليهم فقال لقومه وجمعهم ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ قال : بقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى قوله : ما علمت .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ قال : هما كلمتاه الأولى ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] والأخرى ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وكان بينهما أربعون سنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : بين كلمتيه أربعون سنة .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن خيثمة قال : كان بين قول فرعون ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ أربعون سنة .

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27)

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ رفع سمكها ﴾ قال : بناها ﴿ وأغطش ليلها ﴾ قال : أظلم ليلها .

(70/801)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ رفع سمكها ﴾ قال : رفع بنيانها بغير عمد ﴿ وأغطش ليلها ﴾ قال : أظلم ليلها ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ قال : ابرزه ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال : بسطها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ رفع سمكها ﴾

قال : رفع بنيانها ﴿ وأغطش ليلها ﴾ قال : أظلم ليلها ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ قال : نور ضوئها ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال : بسطها ﴿ والجبال أرساها ﴾ قال : أثبتها بها أن تميد بأهلها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وأغطش ليلها ﴾ قال : العشاء ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ قال : الشمس .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ وأغطش ليلها ﴾ قال : أظلم ليلها ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ قال : أخرج نهارها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال : مع ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلاً قال له : آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى فقال : إنما أتيت من قبل رأيك اقرأ ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ [فصلت : 9] حتى بلغ ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ [فصّلت : 41] وقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال : خلق الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحا بعد ما خلق السماء ، وإنما قوله : دحاها بسطها .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم النخعي ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال : دحيت من مكة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ أخرج منها ماءها ﴾ قال : فجر منها الأنهار

﴿ ومرعاها ﴾ قال : ما خلق الله من نبات أو شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في ﴿ دحاها ﴾ قال : دحيها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما في يومين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ متاعاً لكم ﴾ قال : منفعة .

(71/801)

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : بلغني أن الأرض دحيت دحياً من تحت الكعبة .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عليّ قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ، فلما قضى صلاته رفع رأسه فقال : " تبارك رافعها ومدبرها " ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال : " تبارك داحيها وخالقها " " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ قال : الطامة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن القاسم بن الوليد الهمذاني في قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ قال : إذا سيق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عمرو بن قيس الكندي ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ قال : إذا قيل اذهبوا به إلى النار .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ قال : لمن ينظر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة ﴾ قال : إذا دفعوا إلى مالك خازن النار وفي قوله : ﴿ فأما من طغى ﴾ قال : عصى ، وفي قوله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ قال : حينها ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ قال : الساعة .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة فنزلت ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ .

(72/801)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال : إن مشركي أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : متى تقوم الساعة استهزاء منهم ، فنزلت ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ يعني متى مجيئها ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ ما أنت من علمها يا محمد ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ يعني منتهى علمها ﴿ إنما أنت منذر من

يخشاها ﴾ يعني من يخشى القيامة ﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾ يعني يرون القيامة ﴿ لم يلبثوا ﴾ في الدنيا ولم ينعموا بشيء من نعيمها ﴿ إلا عشية ﴾ ما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿ أو ضحاها ﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار .

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل عليه ﴿ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ فلم يسأل عنها .

وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عروة مرسلاً .

وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت ﴿ فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ فكف عنها .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : "كانت الأعراب إذا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان فيهم فيقول : إن يعش هذا قرناً قامت عليكم ساعتكم" .

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما يدخل الجنة من يرجوها ، وإنما يجتنب النار من يخشاها ، وإنما يرحم الله من يرحم" .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير في قوله : ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ قال : علمها ، وفي قوله : ﴿ إلا عشية ﴾ قال : من الدنيا ﴿ أو ضحاها ﴾ قال : العشية .

(73/801)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾ الآية قال : تدق الدنيا في أنفس القوم حين عاينوا أمر الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 414.403 ﴾

(74/801)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾

قال مقاتل يعني : ملك الموت ينزع روح الكافر من صدره ، كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف .

فيخرج نفسه من حلقه منها العروق ، كالغريق في الماء ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ ملك الموت ، ينشط روح الكافر من قدمه إلى حلقه .

وقال الكلبي : ﴿ والنازعات ﴾ يعني : ملك الموت وأعوانه ﴿ غَرْقاً ﴾ كرهاً .

يقال : غرقت نفسه في صدره وذلك ، أنه ليس من كافر يحضره الموت ، إلا عرضت عليه جهنم ، فيراها قبل أن يخرج نفسه ، فيرى فيها أقواماً ، مرة ينغمسون ، ومرة يرتفعون .

فعند ذلك ، تغرق روحه في جسده .

﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ يعني : الملائكة الذين يقبضون أرواح المؤمنين بالتيسير ، وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت ، إلا ويرى منزلته في الجنة .

ويرى فيها أقواماً من أهل معرفته ، وهم يدعون إلى أنفسهم ، فعند ذلك ينشط إلى الخروج .

ويقال ﴿ النازعات ﴾ الملائكة تنزع النفس أغراقاً ، كما يغرق النازع في القوس ﴿ غَرْقاً والناشطات ﴾ الملائكة تقبض نفس المؤمن ، كما ينشط العقال .

وقال عطاء : ﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾ يعني : ألقى ﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ يعني : الأوهاق .

ثم قال : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ يعني : الملائكة الذين يقبضون أرواح الصالحين ، يسلونها سلاً رقيقاً ، ويتركونها حتى تستريح رويداً .

ويقال : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ يعني : السفن تجري في الماء .

ويقال : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ يعني : الملائكة جعل نزولها في السماء كالسباحة .

ويقال : ﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ يعني : النجوم الدوارة .

كما قال : و ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] ثم قال : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ يعني : الملائكة الذين يسبقون إلى الخير والدعاء .

(75/801)

ويقال : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ بالخير يعني : أرواح المؤمنين يعرج بها إلى السماء ، سراعاً يفتح لها أبواب السماء .

ويقال : ﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ يعني : خيول الغزاة .

﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ يعني : الملائكة الذين جعل إليهم تدبير الخلق ، وهم جبريل وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ، عليهم السلام .

أما جبريل فعلى الوحي ، وإنزال الرحمة ، والعذاب على الخلائق بأمر الله وأما ميكائيل فعلى الأمطار والنبات ، يقسم على البلاد والعباد بإذن الله .

وأما عزرائيل ، وهو ملك الموت ، فعلى قبض الأرواح عند انقضاء أجلهم بإذن الله تعالى .

وإما إسرافيل ، فعلى النفخ في الصور متى أمره الله تعالى ، فهذا كله قسم ، وجواب القسم مضمر ، فكأنه أقسم بهذه الأشياء ، أنهم يبعثون يوم القيامة ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، وهو قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ يعني : لتبعثن يوم القيامة في ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ يعني : الصيحة الأولى .

﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ يعني : الصيحة الثانية ، يعني : النفخة الأولى للصعق ، والنفخة الأخرى للبعث .

وروي عن يزيد بن ربيعة ، عن الحسن في قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ قال : هما النفختان ، فأما الأولى : فيميت الأحياء ، وأما الثانية : فتحيي الموتى .

ثم تلا ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ، وأصل الرجفة الحركة يعني : تزلزلت الأرض زلزلة شديدة عند النفخة الأولى ، والرادفة كل شيء تجيء بعد شيء ، فهو يردفه .

ثم قال : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ يعني : خائفة خاشعة من هول ذلك اليوم .

ويقال : يعني : ذليلة .

ويقال : زائلة عن مكانها .

﴿ أبصارها خاشعة ﴾ يعني : أبصار الخلائق ذليلة .

ويقال : أبصار القلوب خاشعة .

(76/801)

ثم ذكر قول الكفار ، وإنكارهم البعث فقال : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ تعجباً منهم ، وفي الآية تقديم ومعناه : أئنا لمردودون في الحياة بعد الموت .

ويقال : أئنا لمردودون في الحافرة ، أي : إلى أول أمرنا .

يقال : رجع فلان في حافرته ، وعلى حافرته أي : رجع من حيث جاء .

ثم قال : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عظاما نَّخِرَةً ﴾ يعني : بعد ما كنا عظاماً بالية .

قرأ حمزة ، والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ إِذَا كُنَّا عظاما ﴾ بالألف ، والباقون بغير ألف .

قال بعضهم : معناهما واحد هما لغتان .

وقال بعضهم : الناخرة التي أكلت أطرافها ، وبقيت أوساطها ، والنخرة التي قد فسدت كلها .

وقال مجاهد : عظاماً نخرة ، أو مرفوتة كما قال في قوله : ﴿ كُنَّا عظاما ورفاتا ﴾ ﴿ قَالُواْ

تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ يعني : إن كانوا كما يقولون ، فنحن بخسران قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ يعني : يبعثهم صيحة واحدة ، وهو نفخ إسرافيل في الصور ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ يعني : على وجه الأرض يعني : هم قيام على ظهر الأرض .

ويقال : سميت الأرض ساهرة ، لقيام الخلق ، وسهرهم عليها .

ثم وعظهم بما أصاب فرعون في النكال في الدنيا فقال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ يعني : قد أتاك خبر موسى ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالواد المقدس ﴾ يعني : بالوادي المطهر ﴿ طُوًى ﴾ اسم الوادي ﴿ اذهب إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ يعني : علا وتكبر وكفر فقال الله تعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلى أَن تزكى ﴾ يعني : ألم يأن لك أن تسلم .

ويقال : معناه هل ترغب في توحيد ربك ، وتشهد أن لا إله إلا الله ، وتزكي نفسك من الكفر ، والشرك .

قرأ ابن كثير ، ونافع إلى أن تزكى بتشديد الزاء ، لأن أصله تتزكى ، وأدغمت التاء في الزاء ، وشددت .

والباقون بالتخفيف ، لأنه حذف إحدى التائين ، وتركت مخففة .

(77/801)

ثم قال : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى ربّكَ فتخشى ﴾ يعني : أدعوك إلى توحيد ربك فتخشى .

يعني : تخاف عذابه فتسلم ﴿ فَأَرَاهُ الاية الكبرى ﴾ يعني : العصا ، واليد ، وسائر الآيات .

﴿ فَكَذَّبَ وعصى ﴾ يعني : كذب الآيات ، ولم يقبل قول موسى عليه السلام ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى ﴾ يعني : أدبر عن التوحيد ، وسعى في هلاك موسى ﴿ فَحَشَرَ ﴾ يعني : فجمع أهل المدينة ﴿ فنادى ﴾ يعني : فخاطب ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم اعبدوا أصنامكم التي كنتم تعبدون ، فإن هؤلاء أربابكم الصغار .

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الاعلى فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والاولى ﴾ يعني : فعاقبه بعقوبة الدنيا والآخرة ، وهي الغرق وعقوبة الآخرة وهي النار .

ويقال : الآخرة والأولى .

يعني : العقوبة بالكلمة الأولى ، والكلمة الأخرى ، فأما الأولى قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ والأخرى قوله : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ وكان بين الكلمتين أربعون سنة .

ويقال : قوله ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ كان في الابتداء ، حيث أمرهم بعبادة الأصنام ، ثم نهاهم عن ذلك ، وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره .

وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : في هلاك فرعون وقومه ﴿ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ يعني : لعظة لمن يريد أن يعتبر ، ويسلم .

ثم وعظ أهل مكة فقال : ﴿ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بناها ﴾ يعني : أبعثكم بعد الموت أشد ، أم خلق السماء في المشاهدة عند الناس ، خلق السماء أشد .

فالذي هو قادر على خلق السماء ، قادر على البعث .

ثم قال : ﴿ بناها ﴾ يعني : خلق السماء مرتفعة ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أي : سقفها بغير عمد ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ يعني : سوى خلقها .

ويقال : خلقها مستوية ، بلا صدع ولا شق ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ يعني : أظلم ليلها ﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ يعني : أنوار ضحاها ، وشمسها ونهارها ، فإنها راجعة إلى السماء .

(78/801)

ثم قال عز وجل : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ يعني : بعد خلق الأرض السماء ، وبسط الأرض ومدها ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ﴾ يعني : من الأرض ماءها .

يعني : عيونها للناس ﴿ ومرعاها ﴾ للدواب والأنعام .

قال القتبي : هذا من جوامع الكلم ، حيث ذكر شيئين على جميع ما يخرج من الأرض قوتاً ، ومتاعاً للأنعام من العنب ، والشجر ، والحب ، والتمر ، والملح والنار ، لأن النار من العيدان ، والملح من الماء .

ثم قال عز وجل : ﴿ والجبال أرساها ﴾ يعني : أوتدها وأثبتها ﴿ متاعا لَّكُمْ ﴾ يعني : منفعة لكم ﴿ ولانعامكم فَإِذَا جَاءتِ الطامة الكبرى ﴾ يعني : الصيحة العظمى ، وإنما سميت الطامة ، لأنها طمت وعلت فوق كل شيء ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ يعني : يعلم بكل شيء عمله في الدنيا .

ويقال : يوم ينظر الإنسان في كتابه ، بما عمل في الخير والشر ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ يعني : أظهرت الجحيم ﴿ لِمَن يرى ﴾ يعني : لمن وجب له ﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ يعني : كفر وعلا وتكبر .

﴿ وَءاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ يعني : اختار ما في الدنيا على الآخرة .

ويقال : اختار العمل للدنيا على الآخرة ﴿ فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ يعني : مأوى من كان هكذا .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ يعني : خاف المقام بين يدي ربه ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ يعني : منع نفسه عن معاصي الله تعالى ، وعمل بخلاف ما تهوى في الحرام ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ يعني : مأوى من كان هكذا .

قال علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل ، واتباع الهوى .

فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة ﴾ يعني : يسألونك عن قيام الساعة ﴿ أَيَّانَ مرساها ﴾ أي : وقت قيامها .

وأصله أي : أوان ظهورها ووقتها .

(79/801)

قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ يعني : دع ما أنت وذاك دع ذلك إلى الله ، ثم قال : ﴿ إلى ربّكَ منتهاها ﴾ يعني : عند ربك علم قيامها .

وروى سفيان ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها .

قالت : لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم ، يسأل عن الساعة ، حتى نزل ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إلى ربّكَ منتهاها ﴾ يعني : عند ربك علم قيامها ، وانتهى عند ذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ يعني : أنت مخوف بالقرآن ، من يخاف قيام الساعة ، وليس عليك أن تعرف متى وقتها .

ثم قال عز وجل : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ يعني : قيام الساعة ﴿ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ يعني : كأنهم لبثوا في قبورهم مقدار عشية ، وهو قدر آخر النهار ، أو ضحاها وهو قدر أول النهار .

ويقال : كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ، إلا مقدار العشية ، أو مقدار الضحى .

قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ﴾ بالتنوين ، والباقون بغير تنوين .

فمن قرأ بالتنوين ، جعل من في موضع النصب .

يعني : منذر الذي يخشاها .

ومن قرأ بغير تنوين ، جعل من في موضع خفض .

بالإضافة .

والله الموفق بمنه وكرمه ، وصلى الله على سيدنا محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 519.523 ﴾

(80/801)

وقال الثعلبى :

سورة النازعات

﴿ والنازعات غَرْقاً ﴾

قال مسروق : هي الملائكة التي تنزع نفوس بني آدم ، وهي رواية أبي صالح وعطية عن ابن عباس ، قال أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه : هي الملائكة تنزع أرواح الكافر والكفرة ،

وقال ابن مسعود : يريد أنفس الكفّار ينزعها ملك الموت من أجسادهم من تحت كلّ شعرة ومن تحت الأظافير وأصول القدمين ثم يفرّقها ويرّددها في جسده بعد ما تنزع حتى إذا كادت تخرج ردّها في جسده فهذا عمله بالكفار ، وقال مقاتل : هم [ملك الموت] وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السّفود الكثير الشعب من الصوف المبتل فتخرج نفسه كالغريق في الماء .

سعيد بن جبير : نزعت أرواحهم ثم غرّقت ثم حرّقت ثم قذف بها في النار ، وقال مجاهد هو الموت ينزع النفوس ، السندي : هي النفس حين تغرق في الصدر ، وقيل : يرى الكافر نفسه في وقت النزع كأنه يغرق ، الحسن وقتادة وابن كيسان وأبو عبيدة والأخفش : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب ، عطاء وعكرمة : هي القسيّ ، وقيل : الغزاة ، الرماة ، ومجاز الآية : والنازعات إغراقاً كما يغرق النازع في القوس إذا بلغ بها غاية المد [. .] الذي عند النصل الملفوف عليه ، ويقال لقشرة البيضة الداخلة غرقي ، وأراد بالإغراق المبالغة في النزع وهو سابغ في جميع وجوه تأويلها .

﴿ والناشطات نَشْطاً ﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلّ عنها وحكى الفرّاء هذا القول ثم قال : والذي سمعت من العرب أن يقولوا : أنشطت ، وكأنما أنشط من عقال ، وربطها نشطاً ، والرابط : الناشط

، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نشطته وأنت ناشط ، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت منشط .

(81/801)

وعن ابن عباس أيضاً : هي أنفس المؤمنين عند الموت ، ينشط للخروج وذلك أنه ليس من مؤمن يحضره الموت إلاّ عرضت عليه الجنّة قبل أن يموت فيرى فيها أشباهاً من أهله وأزواجه من الحور العين فهم يدعونه إليها ، فنفسه إليهم نشيطة ان تخرج فتأتيهم ، وقال علي ابن أبي طالب : هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أجوافها بالكرب والغمّ ، وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان ، وقال السندي : حين ينشط من القدمين ، عكرمة وعطا : هي الأدهان ، قتادة والأخفش : هي النجوم تنشط من أفق إلى أُفق ، أي تذهب ، يقال : حمارنا ناشط ينشط من بلد إلى بلد أي يذهب ، ويقال لبقر الوحش نواشط ، لأنها تذهب من موضع إلى موضع . قال الطرماح :

وهل بحليف الخيل ممّن عهدته . . . به غير أحدان النواشط روّع

والهموم تنشط بصاحبها ، قال همیان بن قحافة :

أمست همومي تنشط المناشطا . . . الشام بي طوراً وطوراً واسطّا

وقال الخليل : النشط والإنشاط مدّك شيئاً إلى نفسك حتى تنحّل .

﴿ والسابحات سَبْحاً ﴾ قال علي : هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين ، وقال الكلبي : هم الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع يسلونه سلا رفيقاً ثم يدعونها حتى يستريح ، وقال مجاهد وأبو صالح : هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كما يقال للفرس الجواد ، سابح إذا أسرع في جريه ، وقيل : هي خيل الغزاة . قال امرؤ القيس :

مسح إذا ما السابحات على الونى . . . أثرن الغبار بالكديد المركل

وقال قتادة : هي النجوم والشمس والقمر . قال الله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] وقال عطا : هي السفن .

(82/801)

﴿ فالسابقات سَبْقاً ﴾ قال مجاهد وأبو روق : سقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، مقاتل : هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، ابن مسعود : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقضونها وقد عاينت السرور شوّقا إلى لقاء الله ورحمته وكرامته ، عطا : هي الخيل ، قتادة : النجوم تسبق بعضها بعضاً في المسير .

﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ يعني الملائكة .

أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر بن الطيب قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص قال : حدّثنا محمد بن خلف قال : حدّثنا أبو نعيم قال : حدّثنا الأعمش عن عمرو ابن مرّة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبّر أمر الدنيا أربعة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل (عليهم السلام) ، فأما جبريل فوكّل بالرياح ، وأما ميكائيل فوكّل بالقطر والنبات وأمّا ملك الموت فوكّل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ يعني النفخة الأولى التي يتزلزل ويتحرّك لها كلّ شيء ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ وهي النفخة الأخيرة وبينهما أربعون سنة ، قال قتادة : هما صيحتان : أما الأولى فتميت كلّ شيء بإذن الله ، وأمّا الأخرى فتحيي كلّ شيء بإذن الله ، وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ يعني تزلزل الأرض والجبال ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ حين تنشق السماء ويحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، عطا : الراجفة : القيامة ، والرادفة البعث ، ابن زيد : الراجفة : الموت ، والرادفة : الساعة ، وأصل : الراجفة : الصوت والحركة ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها ، وكلّ شيء ولى شيئاً وتبعه فقد ردفه .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن يوسف قال : حدّثنا محمد بن هارون الحضرمي قال : حدّثنا الحسن بن عرفة قال : حدّثنا قبيصة بن عقبة عن سفيان الثوري عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيّ بن كعب ، قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام وقال : "يا أيها الناس اذكروا الله إذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه" .

واختلف العلماء في جواب القسم فقال بعض نُحاة الكوفة : جوابه مضمر مجازه : لتبعثن ولتحاسبُن ، وقال بعض نُحاة البصرة : هو قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ وقيل : في الكلام تقديم وتأخير تقديره : يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقاً .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ خائفة ، مجاهد : وجلة ، السدي : زائلة عن أماكنها ، نظيره ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18] ، المؤرّخ : قلقة ، قطرب : مستوفرة ، يمان : غير هادئة ولا ساكنة ، أبو عمرو بن العلا : مرتكضة ، المبرد : مضطربة من وجيف الحركات يقال : وجف القلب ووجب فهو يجف ويجب وجوفاً ووجيفاً ووجوباً ووحيباً .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ ﴾ يعني هؤلاء المكذّبين للبعث من مشركي مكّة إذا قيل لهم : إنكم مبعوثون بعد الموت .

﴿ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة ﴾ أي إلى أوّل الحال وابتداء الأمر فراجعون أحياء كما كنّا

قبل حياتنا وهو من قول العرب : رجع فلان على حافرته إذا أرجع من حيث جاء ، وقال الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب . . . معاذ الله من سفه وعار

ويقال : البعد عند الحافر وعند الحافرة أي في العاجل عند ابتداء الأمر وأول سومه ، والتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة أي عند أول كلمة .

(84/801)

أخبرنا أبو بكر الجمشادي قال : أخبرنا أبو بكر القطيعي قال : حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن مسلم قال : حدّثنا عمر بن مرزوق قال : أخبرنا عمران القطان قال : سمعت الحسن يقول : إنّا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا ، قال الشاعر :

آليتُ لا أنساكم فاعلموا . . . حتى يردُ الناس في الحافرة

وقال بعضهم : الحافرة الأرض التي فيها تحفر قبورهم فسُمّيت حافرة وهي بمعنى المحفورة كقوله سبحانه : ﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] و ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] ومعنى الآية إنّا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً ثم مردودون في قبورنا أمواتاً ، وهذا قول مجاهد والخليل بن أحمد ، وقيل : سمّيت الأرض حافرة ، لأنها مستقر الحوافر

كما سمي القدمُ أرضاً ، لأنها على الأرض ومجاز الآية : نرد فنمشي على أقدامنا ، وهذا معنى قول قتادة ، وقال ابن زيد : الحافرة النار ، وقرأ ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ قال : هي اسم من أسماء النار وما أكثر أسمائها .

(85/801)

﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ قرأ أهل الكوفة وأيوب ناخرة بالألف ، وهي قراءة عمر بن الخطاب وابنه وابن عباس وابن الزبير وابن مسعود وأصحابه ، واختاره الفراء وابن جرير لوفاق رؤوس الآي ، وقرأ الباقون بجرة بغير الألف ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، قال أبو عبيد إنما اخترناه لحجتين : أحديهما : أن الجمهور الأعظم من الناس عليها ، منهم أهل تهامة والحجاز والشام والبصرة ، والثانية : إنّا قد نظرنا في الآثار التي فيها ذكر العظام التي قد نخرت فوجدناها كلّها العظام النخرة ، ولم أسمع في شيء منها الناخرة ، وكان أبو عمرو يحتج بحجة ثالثة قال : إنّما يكون تناخره إلى تنخرها ، ولم يفعل ، وهما لغتان في قول أكثر أهل اللسان مثل : الطمع والطامع والبخل والباخل والفره والفاره والجذر والجاذر ، وفرّق بينهما فقالوا : النخرة : البالية ، والناخرة : المجوّفة التي تمرّ فيها الريح فتخرّ أي تصوّت

.

﴿ قَالُواْ ﴾ يعني المنكرين ﴿ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ رجعة غابنة قال الله سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ ﴾ صيحة ونفخة ﴿ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ يعني وجه الأرض صاروا على ظهر الأرض بعد ما كانوا في جوفها ، والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهرة ، قال أئمة أهل اللغة تراهم سمّوا ذلك بها [لأنّ فيها نوم الحيوان] سهّرهم فوصف بصفة ما فيه ، واستدل ابن عباس والمفسرون بقول أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر . . . وما فاهوا به لهم مقيم

أي لهم البر والبحر ، وقال امرؤ القيس :

ولاقيتمُ بعدهُ غبّها . . . فضاقت عليكم به الساهرة

وقال ابو ذؤيب :

يرتدن ساهرة كأن حميمها . . . وعميمها أسداف ليل مظلم

(86/801)

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن لمهان قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل قال : حدّثنا جهاد عن أبي سنان عن أبي المنية ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ جبل عند البيت المقدّس ، وروى الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة ﴿ فَإِذَا هُم

بالساهرة ﴾ قال الصقع الذي بين جبل حسان وجبل أريحا يمدّه الله كيف يشاء ، وقال سفيان : هي أرض الشام ، وقال قتادة : هي جهنم .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالواد المقدس طُوًى * اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى * فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ قرأ أهل الحجاز وأيوب ويعقوب بتشديد الزاي أي تتزّكى ومثله روى العباس عن أبي عمرو ، غيرهم بتخفيفه ومعناه تسلّم وتصلح وتطهّر .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : أخبرنا ابن زنجويه قال : حدّثنا مسلمة قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا ابن التيمي عن عبيد الله بن أبي بكر قال : حدّثني صخر بن جويرية قال : لما بعث الله تعالى موسى (عليه السلام) إلى فرعون فقال له : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ إلى ﴿ فتخشى ﴾ ولن يفعل . قال موسى (عليه السلام) : يا رب وكيف أذهب إليه وقد علمت أنه لن يفعل ؟ فأوحى الله تعالى إليه أن أمضِ إلى من أُمرت به فإن في السماء إثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر فلم يبلغوه ولم يدركوه .

﴿ فَأَرَاهُ الآية الكبرى ﴾ وهي العصا واليد البيضاء .

﴿ فَكَذَّبَ وعصى * ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ تولى وأعرض عن الإيمان .

﴿ يسعى ﴾ يعمل بالفساد ﴿ فَحَشَرَ ﴾ فجمع السحرة وقومه ﴿ فنادى * فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ يقول ليس ربّ فوقي ، وقيل : أراد أن الأصنام أرباب وأنا ربّها وربكم ، وقيل : أراد القادة والسادة ﴿ فَأَخَذَهُ الله ﴾ فعاقبه الله ﴿ نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ يعني في الدنيا والآخرة ، الأولى بالغرق وفي الآخرة بالنار ، وقيل : نكال كلمته الأولى وهي قوله سبحانه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] وكلمته الآخرة هي قوله ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ وكان بينهما أربعون سنة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى * أَأَنتُمْ ﴾ أيها المنكرون للبعث ﴿ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ إن الذي قدر على خلق السماء قادر على أن يحيي الموتى وقوله ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] .

﴿ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ سقفها ، قال الفراء : كل شيء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء وسموك ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ بلا شطور ولا فطور ﴿ وَأَغْطَشَ ﴾ أظلم ﴿ لَيْلَهَا ﴾ والغطش أشد الظلمة ورجل أغطش أي أعمى ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أبرز وأظهر نهارها ونوره .

﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ اختلفوا في معنى الآية ، فقال ابن عباس : خلق الله سبحانه الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسوّاهن

سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك أي بسطها ، قال ابن عباس وعبد الله بن عمرو : خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام فدحيت الأرض من تحت البيت ، وقيل معناه : والأرض مع ذلك دحاها كما يقال للرجل : أنت أحمق وأنت بعد هذا لئيم الحسب ، أي مع هذا ، قال الله عزّوجل :

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] أي مع ذلك ، وقال الشاعر :

فقلت لها عني إليك فإنني . . . حرام وإني بعد ذاك لبيب

يعني مع ذلك .

(88/801)

ودليل هذا التأويل قراءة مجاهد " وَالأَرْضَ عِنْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا " وقيل بعد بمعنى قبل كقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر ﴾ [الأنبياء : 105] أي من قبل الذكر وهو القرآن ، وقال الهذلي : حملت الهي بعد عروة إذا نجا خراش وبعض الشر أهون من بعض زعموا أن خراشا نجا قبل عروة .

وقراءة العامة ﴿ والأرض ﴾ بالنصب ، وقرأ الحسن ﴿ والأرض ﴾ رفعها بالأبتداء الرجوع الهاء وكلا الوجهين سائغان في عائد الذكر ، والدّحو البسط والمدّ ، ومنه أُدحيّ

النعامة ؛ لأنها تدحوه بصّدرها ، يقال : دحا يدحوا دحواً ودحا يدحا دحياً لغتان مثل قولهم طغى يطغو أو يطغي وصغا يصغو ويصغي ، ومحا يمحو ويمحي ولحي العود يلحوا أو يلحيّ ، فمن قال : يدحو قال دحوت ، ومن قال يدحا قال : دحيتُ .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ قال القتيبي : أنظر كيف دلّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام من العشب والشجر والحبّ والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ، لأنّ النار من العيدان والملح من الماء .

﴿ والجبال أَرْسَاهَا ﴾ قراءة العامة بالنصب وقرأ عمرو بن عبيد بالرفع . ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة الكبرى ﴾ وهي القيامة سميت بذلك ؛ لأنها تطمُ على كلّ هائلة من الأمور فتغمر ما سواها بعظم هولها ؛ أي يغلب ، والطامة عند العرب الناهية التي لا تُستطاع ، وإنّما أخرت من قولهم ظمّ الفرس طميمها إذا استفرغ جهده الجري .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا محمد بن عمران قال : حدّثنا هناد ابن السهى قال : حدّثنا أبو أسامة عن ملك بن مغول عن القاسم الهمداني ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة الكبرى ﴾ قال الحسن : يسوق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

(89/801)

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ عمل في الدنيا من خير أو شر ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى * فَأَمَّا مَن طغى * وَآثَرَ الحياة الدنيا * فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى * فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متى ظهورها وثبوتها ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إلى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ علمها عند الله ولست من علمها في شيء قالت عائشة : لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآيات . ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ قراءة العامة بالإضافة وقرأ أبو جعفر وابن محيض منذر بالتنوين ، ومثله روى العباس عن أبي عمرو .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا ﴾ في الدنيا قيل : في قبورهم ، ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ قال الفراء : ليس للغاشية ضحى إنّما الضحى لصدر النهار ولكن هذا ظاهر من كلام العرب أن تقولوا أتتك العشية أو عداتها إنما معناه آخر يوم أو أوّله قال وأنشد بعض بني عقيل :

نحن صبّحنا عامرا في دارها . . . جردا تعاطى طرفي نهارها

عشية الهلال أو سرارها . . . . بمعني عشية الهلال أو عشية سرار العشية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 122 . 129 ﴾

وقال الزمخشري :

سورة النازعات

مكية ، وهي خمس أو ست وأربعون آية [نزلت بعد النبإ] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النازعات (79) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9)

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10) أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ، وبالطوائف التي تنشطها

أى تخرجها . من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وبالطوائف التي تسبح في مضيها ، أى : تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر أمرا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم غَرْقاً إغراقا في النزع ، أى : تنزعها من أقاصى الأجساد من أناملها وأظفارها . أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها ، لأنها عراب . والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك «ثور ناشط» إذا خرج من بلد إلى بلد ، والتي تسبح في جريها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها ، لأنها من أسبابه . أو أقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب . وإغراقها في النزع : أن تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب ، والتي تخرج من برج إلى برج ، والتي تسبح في الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمرا من علم الحساب . وقيل النازعات أيدى الغزاة ، أو أنفسهم تنزع القسىّ بإغراق السهام ، والتي تنشط الأوهاق «1» والمقسم عليه محذوف ، وهو «لتبعثن» لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة . وَيَوْمَ تَرْجُفُ منصوب بهذا المضمر . والرَّاجِفَةُ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال ، وهي النفخة الأولى : وصفت بما يحدث بحدوثها تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ أى الواقعة التي تردف الأولى ، وهي النفخة الثانية . ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ أى القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادا لها ، وهي رادفة لهم لاقترابها . وقيل الرَّاجِفَةُ الأرض والجبال ، من قوله يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ والرادفة : السماء

والكواكب ، لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك . فإن قلت : ما محل تتبعها ؟ قلت : الحال ، أى : ترجف تابعتها الرادفة . فإن قلت : كيف جعلت يَوْمَ تَرْجُفُ ظرفا للمضمر الذي هو لتبعثن ، ولا يبعثون عند النفخة الأولى ؟ قلت : المعنى : لتبعثنّ في الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان ، وهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع ، وهو وقت النفخة الأخرى . ودلّ على ذلك أنّ قوله تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جعل حالا عن الراجفة . ويجوز أن ينتصب يَوْمَ تَرْجُفُ بما دلّ عليه قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ أى يوم ترجف وجفت القلوب واجِفَةٌ شديدة الاضطراب ، والوجيب والوجيف : أخوان خاشِعَةٌ ذليلة . فإن قلت : كيف جاز الابتداء بالنكرة ؟

قلت : قُلُوبٌ مرفوعة بالابتداء ، وواجِفَةٌ صفتها ، وأَبْصارُها خاشِعَةٌ خبرها فهو كقوله : وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ . فإن قلت : كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب ؟ قلت : معناه أبصار أصحابها بدليل قوله يَقُولُونَ . فِي الْحافِرَةِ في الحالة الأولى ، يعنون : الحياة بعد الموت . فإن قلت : ما حقيقة هذه الكلمة ؟ قلت : يقال : رجع فلان في حافرته ، أى : في

---

(1) . قوله «تنشط الأوهاق» هي حبال المواشي ، أفاده الصحاح . (ع) [. . . . .]

طريقه التي جاء فيها فحفرها ، أى : أثر فيها بمشيه فيها : جعل أثر قدميه حفرا ، كما قيل : حفرت أسنانه حفرا : إذا أثر الآكال في أسناخها «1» . والخط المحفور في الصخر . وقيل : حافرة ، كما قيل : عيشة راضية ، أى : منسوبة إلى الحفر والرضا ، أو كقولهم : نهارك صائم ، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أى طريقته وحالته الأولى . قال :

أحافرة على صلع وشيب معاذ اللّه من سفه وعار «2»

يريد : أرجوعا إلى حافرة . وقيل : النقد عند الحافرة ، يريدون عند الحالة الأولى : وهي الصفقة .

وقرأ أبو حيوة : في الحفرة . والحفرة بمعنى : المحفورة . يقال : حفرت أسنانه فحفرت حفرا ، وهي حفرة ، وهذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة . يقال : نخر العظم فهو نخر وناخر ، كقولك طمع فهو طمع وطامع ، وفعل أبلغ من فاعل ، وقد قرئ بهما : وهو البالي الأجوف الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخير . وإِذاً منصوب بمحذوف ، تقديره : أئذا كنا عظاما نرد ونبعث كَرَّةً خاسِرَةً منسوبة إلى الخسران ، أو خاسر أصحابها .

والمعنى :

أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها ، وهذا استهزاء منهم . فإن قلت : بم تعلق قوله فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ؟ قلت : بمحذوف ، معناه : لا تستصعبوها ، فإنما هي

زجرة واحدة ، يعنى : لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على اللّه عز وجل ، فإنها سهلة هينة في قدرته ، ما هي إلا صيحة واحدة «3» ، يريد النفخة الثانية فَإِذا هُمْ أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا في جوفها ، من قولهم : زجر البعير ، إذا صاح عليه . والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، سميت بذلك لأنّ السراب يجرى فيها ، من قولهم : عين ساهرة جارية الماء ، وفي ضدها : نائمة . قال الأشعث بن قيس :

---

(1) . قوله «أثر الآكال في أسناخلها» في الصحاح «أسناخ الأسنان» : أصولها . (ع)

(2) . أنشده ابن الأعرابى . والهمزة للإنكار . والحافرة في الأصل : الطريق المحفور بالسير ، فتسميته حافرة مجاز عقلى . أو على معنى النسب ، أى : ذات حفر ، ثم استعملت في كل حال كنت فيه ، ثم رجعت إليه . وهي نصب بمحذوف ، أى : أأرجع حافرة ، أى في طريقتي الأولى من الشباب والصبا . أو على نزع الخافض ، أى :

أأرجع إليها . والصلع : انحسار شعر الجبهة ، ويغلب في الهرم . ومعاذ : مصدر نصب بمحذوف . والسفه :

الجهل والطيش .

(3) . قال محمود : «إن قلت : كيف اتصل بما قبله ؟ وأجاب أنهم أنكروا الاعادة . . . الخ» قال أحمد :

وما أحسن تسهيل أمر الاعادة بقوله زَجْرَةٌ عوضا من صيحة ، لأن الزجرة أخف من

الصيحة ، وبقوله واحِدَةٌ أى غير محتاجة إلى مثنوية ، وهو يحقق لك ما أجبت به من السؤال الوارد عند قوله تعالى فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ حيث قيل : كيف وحدها وهما نفختان ، فجدد به عهدا .

(93/801)

وساهرة يضحى السّراب مجلّلا لأقطارها قد جبتها متلثّما «1»

أو لأنّ سالكها لا ينام خوف الهلكة . وعن قتادة : فإذا هم في جهنم .

[سورة النازعات (79) : الآيات 15 إلى 26]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (19) فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (20) فَكَذَّبَ وَعَصى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (22) فَحَشَرَ فَنادى (23) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (24)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى (25) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (26)

اذْهَبْ على إرادة القول . وفي قراءة عبد اللّه : أن اذهب ، لأنّ في النداء معنى القول .

هل لك في كذا ، وهل لك إلى كذا ، كما تقول : هل ترغب فيه ، وهل ترغب إليه إِلى أَنْ

تَزَكَّى إلى أن تتطهر من الشرك ، وقرأ أهل المدينة : تزكى ، بالإدغام وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ وأرشدك إلى معرفة اللّه أنبهك عليه فتعرفه فَتَخْشى لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة . قال اللّه تعالى إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ أى العلماء به ، وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ، من خشي اللّه : أتى منه كل خير . ومن أمن : اجترأ على كل شرّ . ومنه قوله عليه السلام «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل» «2» بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ، وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف في القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه ، كما أمر بذلك في قوله فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً . الْآيَةَ الْكُبْرى قلب العصا حية لأنها كانت المقدمة والأصل ، والأخرى كالتبع لها ، لأنه كان يتقيها بيده ، فقيل

---

(1) . للأشعث بن قيس ، والساهرة : الأرض البيضاء ، لأن السراب يجرى فيها فتشبه العين الساهرة ، لظهور بياضها وجريان مائها ، بخلاف الناعسة . أو وصفت بالسهر ، لأن السائر فيها ساهر لا ينام خوف الهلكة ، فهو مجاز عقلى . مجللا : خير «يضحى» أى : ساترا لأقطارها وجوانبها . يقول : رب مفازة يسترها النهار بسراب يشبه جل الفرس ، ويطلق النهار على السراب ، وعلى فرخ الحبارى ، وتصح إرادة كل منهما . قد أتيتها لا بسا اللثام خوف الحر والريح .

(2) . أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية من رواية الثوري عن أبى

عقيل عن الطفيل بن أبى عن أبيه بهذا . قال أبو نعيم تفرد به وكيع . قاله في ترجمته وهو ضعيف برواية الحاكم من طريق عبد اللّه بن الوليد عن الثوري ورواه الترمذي والحاكم والعقيل عن رواية يزيد بن سنان سمعت بكر بن فيروز . سمعت أبا هريرة - فذكره .

(94/801)

له : أدخل يدك في جيبك . أو أرادهما جميعا ، إلا أنه جعلهما واحدة ، لأن الثانية كأنها من جملة الأولى لكونها تابعة لها فَكَذَّبَ بموسى والآية الكبرى ، وسماهما ساحرا وسحرا وَعَصى اللّه تعالى بعد ما علم صحة الأمر ، وأنّ الطاعة قد وجبت عليه ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى أى لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا «1» ، يسعى : يسرع في مشيته . قال الحسن . كان رجلا طياشا خفيفا . أو تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته ، وأريد : ثم أقبل يسعى ، كما تقول : أقبل فلان يفعل كذا ، بمعنى : أنشأ يفعل ، فوضع أَدْبَرَ موضع : أقبل ، لئلا يوصف بالإقبال فَحَشَرَ فجمع السحرة ، كقوله فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ . فَنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه . أو أمر مناديا فنادى في الناس بذلك . وقيل قام فيهم خطيبا فقال تلك العظيمة . وعن ابن عباس : كلمته الأولى : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي والآخرة : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى . نَكالَ هو مصدر مؤكد ، كوعد اللّه ، وصبغة اللّه ، كأنه

قيل : نكل اللّه به نكال الآخرة والأولى والنكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم .

يعنى الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة «2» ، وعن ابن عباس : نكال كلمتيه الآخرة ، وهي قوله : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى والأولى وهي قوله ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي وقيل : كان بين الكلمتين أربعون سنة .

وقيل عشرون .

[سورة النازعات (79) : الآيات 27 إلى 33]

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها (31) وَالْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33)

الخطاب لمنكري البعث ، يعنى أَأَنْتُمْ أصعب خَلْقاً وإنشاء أَمِ السَّماءُ ثم بين كيف خلقها فقال بَناها ثم بين البناء فقال رَفَعَ سَمْكَها أى جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديدا رفيعا مسيرة خمسمائة عام فَسَوَّاها فعدلها مستوية ملساء ، ليس فيها تفاوت ولا فطور . أو فتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها ، من قولك : سوى فلان أمر فلان . غطش الليل وأغطشه اللّه ، كقولك : ظلم وأظلمه . ويقال أيضا : أغطش الليل ، كما يقال أظلم

---

(1) . قال محمود : «أى لما رأى الثعبان ولى هاربا مذعورا . . . الخ» قال أحمد : وهذا الوجه الأخير حسن لطيف جدا ، وهو على هذا من أفعال المقاربة .

(2) . قال محمود : «و قوله نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى يعنى الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة . . . الخ» قال أحمد : فعلى الأول يكون قريبا من إضافة الموصوف إلى الصفة ، لأن الآخرة والأولى صفتان للكلمتين ، وعلى الثاني لا يكون كذلك .

(95/801)

وَأَخْرَجَ ضُحاها وأبرز ضوء شمسها ، يدل عليه قوله تعالى وَالشَّمْسِ وَضُحاها يريد وضوئها . وقولهم :

وقت الضحى ، للوقت الذي تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها ، وأضيف الليل والشمس إلى السماء ، لأن الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوّها «1» ماءَها عيونها المتفجرة بالماء وَمَرْعاها ورعيها ، وهو في الأصل موضع الرعي . ونصب الأرض والجبال بإضمار «دحا» و«أرسى» وهو الإضمار على شريطة التفسير . وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء . فإن قلت : هلا أدخل حرف العطف على أخرج «2» ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون معنى دَحاها بسطها ومهدها للسكنى ، ثم فسر التمهيد بما لا بدّ منه في تأتى سكناها ، من تسوية أمر المأكل والمشرب ، وإمكان القرار عليها ، والسكون بإخراج الماء والمرعى ، وإرساء الجبال وإثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر

عليها . والثاني : أن يكون أَخْرَجَ حالا بإضمار «قد» كقوله : أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ وأراد بمرعاها : ما يأكل الناس والأنعام . واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وقرئ : نرتع ، من الرعي ، ولهذا قيل :

دلّ اللّه سبحانه بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح ، لأنه من الماء مَتاعاً لَكُمْ فعل ذلك تمتيعا لكم وَلِأَنْعامِكُمْ لأن منفعة ذلك التمهيد واصلة إليهم وإلى أنعامهم .

[سورة النازعات (79) : الآيات 34 إلى 36]

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (36)

الطَّامَّةُ الداهية التي تطم على الدواهي ، أى : تعلو وتغلب . وفي أمثالهم : جرى الوادي فطمّ على القرى ، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة . وقيل : هي النفخة الثانية . وقيل : الساعة التي تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار يَوْمَ يَتَذَكَّرُ بدل من إذا جاءت ، يعنى : إذا رأى أعماله مدونة في كتابه تذكرها وكان قد نسيها ، كقوله أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .

وما في ما سَعى موصولة ، أو مصدرية وَبُرِّزَتِ أظهرت وقرأ أبو نهيك : وبرزت

---

(1) . قوله «هي السراج المثقب في جوها» في الصحاح «ثقبت النار» : إذا اتقدت .

وأثقبتها أنا . (ع)

(2) . قال محمود : «فان قلت هلا أدخل العاطف على أخرج . . . الخ» قال أحمد : والأول أحسن ، وهو مناسب لقوله السَّماءُ بَناها ، لأنه لما قال أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ تم الكلام ، لكن مجملا ، ثم بين التفاوت ففسر كيف خلقها فقال . بَناها ، بغير عاطف : ثم فسر البناء فقال رَفَعَ سَمْكَها ، بغير عاطف أيضا

(96/801)

لِمَنْ يَرى للرائين جميعا ، أى : لكل أحد ، يعنى : أنها تظهر إظهارا بينا مكشوفا «1» ، يراها أهل الساهرة كلهم ، كقوله : قد بين الصبح لذي عينين ، يريد : لكل من له بصر ، وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد . وقرأ ابن مسعود : لمن رأى . وقرأ عكرمة : لمن ترى . والضمير للجحيم ، كقوله إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ وقيل : لمن ترى يا محمد .

[سورة النازعات (79) : الآيات 37 إلى 39]

فَأَمَّا مَنْ طَغى (37) وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (39)

فَأَمَّا جواب فَإِذا أى : فإذا جاءت الطامّة فإنّ الأمر كذلك . والمعنى : فإنّ الجحيم مأواه ،

كما تقول للرجل : غض الطرف ، تريد : طرفك ، وليس الألف واللام بدلا من الإضافة ، ولكن لما علم أنّ الطاغي هو صاحب المأوى ، وأنه لا يغض الرجل طرف غيره : تركت الإضافة ، ودخول حرف التعريف في المأوى والطرف للتعريف ، لأنهما معروفان ، وهِيَ فصل أو مبتدأ .

[سورة النازعات (79) : الآيات 40 إلى 41]

وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (41)

وَنَهَى النَّفْسَ الأمارة بالسوء عَنِ الْهَوى المردي وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير . وقيل : الآيتان نزلتا في أبى عزير بن عمير ومصعب بن عمير ، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزير يوم أحد ، ووقى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بنفسه حتى نفذت المشاقص «2» في جوفه «3» .

[سورة النازعات (79) : الآيات 42 إلى 46]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (44) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46)

أَيَّانَ مُرْساها متى إرساؤها ، أى إقامتها ، أرادوا : متى يقيمها اللّه ويثبتها ويكوّنها ؟

---

(1) . قال محمود : «يعنى أظهرت إظهارا بينا مكشوفا . . . الخ» قال أحمد : وفائدة

هذا النظم الاشعار بأنه أمر ظاهر لا يتوقف إدراكه إلا على البصر خاصة ، أى : لا شيء يحجبه ولا بعد يمنع رؤيته ، ولا قرب مفرط ، إلى غير ذلك من موانع الرؤية .

(2) . قوله «حتى نفذت المشاقص» جمع مشقص : وهو السهم الطويل العريض . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . لم أجده .

(97/801)

وقيل أيان منتهاها ومستقرّها «1» ، كما أنّ مرسى السفنية مستقرّها ، حيث تنتهي إليه فِيمَ أَنْتَ فِي أى شيء أنت «2» من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به ، يعنى : ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها في شيء . وعن عائشة رضى اللّه عنها ، لم يزل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يذكر الساعة يسأل عنها حتى نزلت «3» ، فهو على هذا تعجب «4» من كثرة ذكره لها ، كأنه قيل : في أى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها . والمعنى : أنهم يسألونك عنها ، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها ، ثم قال إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها أى منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه . وقيل : فِيمَ إنكار لسؤالهم «5» ، أى : فيم هذا السؤال ، ثم قيل :

أنت عن ذكراها ، أى : إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في نسم الساعة «6» ذكر من ذكرها وعلامة من علاماتها ، فكفاهم بذلك دليلا على دنوّها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ، ولا معنى لسؤالهم عنها إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها أى : لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه ، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون من إنذارك لطفا له في الخشية منها . وقرئ : منذر بالتنوين ، وهو الأصل ، والإضافة تخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال ، فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة ، كقولك : هو منذر زيد أمس ، أى : كأنهم لم يلبثوا في الدنيا ، وقيل : في القبور إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها . فإن قلت : كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية ؟ قلت : لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد . فإن قلت : فهلا قيل : إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة ؟ قلت : الدلالة على أن مدّة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ، ولكن

---

(1) . قال محمود : «مرساها أى مستقرها . . . الخ» قال أحمد : وفيه إشعار بثقل اليوم ، كقوله وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ألا تراهم لا يستعملون الارساء إلا فيما ثقل كمرسى السفينة وإرساء الجبال .

(2) . قال محمود : «و معنى فِيمَ أَنْتَ أى : في أى شيء أنت من أن تذكر وقتها . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا الوجه نظر ، فان الآية الأخرى ترده ، وهي قوله يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها أى : أنك لا تحتفى بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك ، وهم يسئلونك كما يسئل الحفي عن

الشيء ، أي : الكثير السؤال عنه ، فالوجه الأول أصوب . [. . . . .]

(3) . أخرجه إسحاق في مسنده وابن مردويه من طريقه أخبرنا ابن عتبة عن الزهري عن عروة عنها بهذا .

ورواه الطبري عن يعقوب عن إبراهيم عن ابن عتبة مثله . قال الحاكم بعد أن أخرجه من طريق ابن عتبة : لم يخرجاه لأن ابن عتبة كان يرسله . وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة : الصحيح مرسل . وأخرجه عبد الرازق عن ابن عتبة مرسلا وقال الدارقطني أسنده ابن عتبة مرة وأرسله أخرى .

(4) . قوله «فهو على هذا تعجب» لعله : تعجيب . (ع)

(5) . قال محمود : «وقيل فِيمَ إنكار لسؤالهم ، أي : فيم هذا السؤال . . . الخ» قال أحمد : فعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله فِيمَ ليفصل بين الكلامين .

(6) . قوله «في نسم الساعة» في الصحاح «نسم الريح» : أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد . ومن الحديث «بعثت في نسم الساعة» أي : حين ابتدأت وأقبلت أوائلها . (ع)

(98/801)

ساعة منه عشيته أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته ، فهو كقوله لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه اللّه في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة «1»» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 4 صـ 692. 700 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(99/801)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً ﴾

فيه ستة أقاويل :

أحدها : هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم ، قاله ابن مسعود ومسروق .

الثاني : هو الموت ينزع النفوس ، قاله مجاهد .

الثالث : هي النفوس حين تنزع ، قاله السدي .

الرابع : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، ومن المشرق إلى المغرب ، قاله الحسن وقتادة .

والخامس : هي القسيّ تنزع بالسهم ، قاله عطاء .

السادس : هي الوحش تنزع من الكلأ وتنفر ، حكاه يحيى بن سلام ، ومعنى " غرقاً " أي إبعاداً في النزع .

﴿ والناشِطات نَشْطاً ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : هي الملائكة تنشط أرواح المؤمنين بسرعة كنشط العقال ، قاله ابن عباس .

الثاني : النجوم التي تنشط من مطالعها إلى مغاربها ، قاله قتادة .

الثالث : هو الموت ينشط نفس الإنسان ، قاله مجاهد .

الرابع : هي النفس حيث نشطت بالموت ، قاله السدي .

الخامس : هي الأوهاق ، قاله عطاء .

السادس : هي الوحش تنشط من بلد إلى بلد ، كما أن الهموم تنشط الإنسان من بلد إلى بلد ، قاله أبو عبيدة ، وانشد قول همام بن قحافة :

أمْسَتْ همومي تنشط المناشِطا . . . الشامَ بي طَوْراً وطَوْراً واسطاً .

﴿ والسّابحاتِ سَبْحاً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : هي الملائكة سبحوا إلى طاعة الله من بني آدم ، قاله ابن مسعود والحسن .

الثاني : هي النجوم تسبح في فلكها ، قاله قتادة .

الثالث : هو الموت يسبح في نفس ابن آدم ، قاله مجاهد .

الرابع : هي السفن تسبح في الماء ، قاله عطاء .

الخامس : هي الخيل ، حكاه ابن شجرة ، كما قال عنترة :

والخيلُ تعْلم حين تس . . . بَحُ في حياضِ المْوتِ سَبْحاً

ويحتمل سادساً : أن تكون السابحات الخوض في أهوال القيامة .

﴿ فالسّابقاتِ سَبْقاً ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، قاله عليّ رضي الله عنه ومسروق .

وقال الحسن : سبقت إلى الايمان .

الثاني : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً ، قاله قتادة .

(100/801)

الثالث : هو الموت يسبق إلى النفس ، قاله مجاهد .

الرابع : هي النفس تسبق بالخروج عند الموت ، قاله الربيع .

الخامس : هي الخيل ، قاله عطاء .

ويحتمل سادساً : أن تكون السابقات ما سبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار .

﴿ فالمُدَبِّرات أمْراً ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : هي الملائكة ، قاله الجمهور ، فعلى هذا في تدبيرها بالأمر وجهان :

أحدهما : تدبير ما أمرت به وأرسلت فيه .

الثاني : تدبير ما وكلت فيه من الرياح والأمطار .

الثاني : هي الكواكب السبعة ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ؛ وعلى هذا في تدبيرها للأمر وجهان .

أحدهما : تدبير طلوعها وأفولها .

الثاني : تدبير ما قضاه الله فيها من تقلب الأحوال .

ومن أول السورة إلى هذا الموضع قسم أقسم الله به ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن ذكرها بخالقها .

الثاني : أنه أقسم بها وإن كانت مخلوقة لا يجوز لمخلوق أن يقسم بها ، لأن لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه .

وجواب ما عقد له القسم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مضمر محذوف وتقديره لو أظْهر : لتُبْعَثُن ثم لتُحاسبُن ، فاستغنى بفحوى الكلام وفهم السامع عن إظهاره ، قاله الفراء .

الثاني : أنه مظهر ، وهو قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى ﴾ قاله مقاتل .

الثالث : هو قوله تعالى :

﴿ يومَ ترْجفُ الراجفةُ * تَتْبعُها الرادِفةُ ﴾ وفيهما ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الراجفة القيامة ، والرادفة البعث ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الراجفة النفخة الأولى تميت الأحياء ، والرادفة : النفخة الثانية تحيي الموتى ، قاله الحسن وقتادة .

وقال قتادة : ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينهما أربعون ، ما زادهم على ذلك ولا سألوه ، وكانوا يرون أنها أربعون سنة " .

وقال عكرمة : الأولى من الدنيا ، والثانية من الآخرة .

الثالث : أن الراجفة الزلزلة التي ترجف الأرض والجبال والرادفة إذا دكّتا دكة واحدة ، قاله مجاهد .

(101/801)

ويحتمل رابعاً : أن الراجفة أشراط الساعة ، والرادفة : قيامها .

﴿ قلوبٌ يومئذٍ واجِفَةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خائفة ، قاله ابن عباس .

الثاني : طائرة عن أماكنها ، قاله الضحاك .

﴿ أَبْصارُها خاشِعَة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ذليلة ، قاله قتادة .

الثاني : خاضعة ، قاله الضحاك .

﴿ يقولون أئنا لَمْردودُونَ في الحافِرة ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الحافرة الحياة بعد الموت ، قاله ابن عباس والسدي وعطية .

الثاني : أنها الأرض المحفورة ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنها النار ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنها الرجوع إلى الحالة الأولى تكذيباً بالبعث ، من قولهم رجع فلان على قومه إذا رجع من حيث جاء ، قاله قتادة ، قال الشاعر :

أحافرة على صَلَعٍ وشيْبٍ . . . معاذَ اللَّه من جَهْلٍ وطَيْشِ

﴿ أَئِذا كُنَا عِظاماً نَخِرَةً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : بالية ، قاله السدي .

الثاني : عفنة ، قاله ابن شجرة .

الثالث : خالية مجوفة تدخلها الرياح فتنخر ، أي تصوّت ، قاله عطاء والكلبي .

ومن قرأ " ناخرة " فإن الناخرة البالية ، والنخرة التي تنخر الريح فيها .

﴿ تلك إذاً كَرّةٌ خاسِرةٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : باطلة لا يجيء منها شيء ، كالخسران ، وليست كاسبة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : معناه لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنخسرنّ بالنار ، قاله قتادة ومحمد بن كعب .

ويحتمل ثالثاً : إذا كنا ننتقل من نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة فهي كرة خاسرة .

﴿ فإنّما هي زجْرةٌ واحدةٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : نفخة واحدة يحيا بها الجميع فإذا هم قيام ينظرون ، قاله الربيع بن أنس .

الثاني : الزجرة الغضب ، وهو غضب واحد ، قاله الحسن .

ويحتمل ثالثاً : أنه لأمر حتم لا رجعة فيه ولا مثنوية .

﴿ فَإذَا هم بالسّاهرةِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : وجه الأرض ، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد ، والعرب تسمي وجه الأرض ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره ، قال أمية بن أبي الصلت :

وفيها لَحْمُ ساهرةٍ وبَحرٌ . . . وما فاهوا به لهمُ مُقيم

وقال آخر يوم ذي قار لفرسه :

أَقْدِمْ مَحاجِ إنها الأساوِره . . . ولا يهولنّك رِجْلٌ بادِرهْ

فإنما قَصْرُكَ تُرْبُ السّاهرهْ . . . ثم تعودُ ، بَعْدها في الحافرهْ

من بَعْد ما صِرْتَ عظاماً ناخِرهْ . . . الثاني : أنه اسم مكان من الأرض بعينه بالشام ، وهو الصقع الذي بين جبل أريحا وجبل حسّان ، يمده الله تعالى كيف يشاء ، قاله عثمان بن أبي العاتكة .

الثالث : أنها جبل بيت المقدس ، قاله وهب بن منبه .

الرابع : أنه جهنم ، قاله قتادة .

ويحتمل خامساً : أنها عرضة القيام لأنها أول مواقف الجزاء ، وهم في سهر لا نوم فيه .

﴿ هلْ أتاكَ حديثُ موسى * إذ ناداه ربه بالوادِ المقدَّسِ طُوَىً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وهو قول مبشر بن عبيد هو واد بأيلة .

الثاني : وهو قول الحسن ، هو واد بفلسطين .

وفي " المقدَّس " تأويلان :

أحدهما : المبارك ، قاله ابن عباس .

الثاني : المطهر ، قاله الحسن : قدّس مرتين .

وفي " طُوَىً " أربعة أقاويل :

أحدها : أنه أسم الوادي المقدس ، قاله مجاهد وقتادة وعكرمة .

الثاني : لأنه مر بالوادي فطواه ، قاله ابن عباس .

الثالث : لأنه طوي بالبركة ، قاله الحسن .

الرابع : يعني طأ الوادي بقدمك ، قاله عكرمة ومجاهد .

ويحتمل خامساً ؛ أنه ما تضاعف تقديسه حتى تطهّر من دنس المعاصي ، مأخوذ من طيّ الكتاب إذا ضوعف .

﴿ فَقُلْ هل لك إلى أن تَزَكّى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إلى أن تُسْلِم ، قال قتادة .

الثاني : إلى أن تعمل خيراً ، قاله الكلبي .

﴿ فأَراهُ الآيةَ الكُبْرَى ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها عصاه ويده ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : أنها الجنة والنار ، قاله السدي .

ويحتمل ثالثاً : أنه كلامه من الشجرة .

قوله ﴿ فَحَشَرَ فنادَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حشر السحرة للمعارضة ، ونادى جنده للمحاربة .

الثاني : حشر الناس للحضور ونادى أي خطب فيهم .

﴿ فأخَذَهُ اللهُ نَكالَ الآخرة والأُولى ﴾ فيها أربعة أقاويل :

أحدها : عقوبة الدنيا والآخرة ، قال قتادة : عذبه الله في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالنار .

الثاني : عذاب أول عُمرِه وآخره ، قاله مجاهد .

الثالث : الأولى قوله : " ما علمت لكم مِن إلهٍ غيري " والآخرة قوله " أنا ربكم الأعلى " ، قاله عكرمة ، قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة ، وقال مجاهد : ثلاثون سنة ، قال السدي : وهي الآخرة ثلاثون سنة .

الرابع : عذاب الأولى الإمهال ، والآخرة في النار ، من قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ الآية ، قاله الربيع .

﴿ وأَغْطَشَ لَيْلَها وأَخْرَجَ ضُحاها ﴾ معناه أظلم ليلها ، وشاهد الغطش أنه الظلمة قول الأعشى :

عَقَرْتُ لهم مَوْهِنا ناقتي . . . وغامِرُهُمْ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ

يعني يغمرهم ليلهم لأنه غمرهم بسواده .

وفي قوله : " وأخرج ضُحاها " وجهان :

أحدهما : أضاء نهارها وأضاف الليل والضحى إلى السماء لأن منهما الظلمة والضياء .

الثاني : قال ابن عباس أن أخرج ضحاها : الشمس .

﴿ والأرضَ بَعْد ذلك دَحاها ﴾ في قوله "بَعْد " وجهان :

أحدهما : مع وتقدير الكلام : والأرض مع ذلك دحاها ، لأنها مخلوقة قبل السماء ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أن " بعد " مستعملة على حقيقتها لأنه خلق الأرض قبل السماء ثم دحاها بعد السماء ، قاله ابن عمر وعكرمة . وفي " دحاها " ثلاثة أوجه :

أحدها : بسطها ، قاله ابن عباس ، قال أمية بن أبي الصلت :

وَبَثَّ الخلْق فيها إذْ دَحاها . . . فَهُمْ قُطّانُها حتى التنادي

قال عطاء : من مكة دحيت الأرض ، وقال عبد الله بن عمر : من موضع الكعبة دحيت .

الثاني : حرثها وشقها ، قاله ابن زيد .

الثالث : سوّاها ، ومنه قول زيد بن عمرو :

وأسْلَمْتُ وجهي لمن أسْلَمتْ . . . له الأرضُ تحمل صَخْراً ثِقالا

دحاها فلما اسْتَوتْ شدّها . . . بأيْدٍ وأرْسَى عليها الجبالا

﴿ فإذا جاءت الطامّةُ الكُبْرى ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنها النفخة الآخرة ، قاله الحسن .

الثاني : أنها الساعة طمت كل داهية ، والساعة أدهى وأمّر ، قاله الربيع .

الثالث : أنه اسم من أسماء القيامة يسمى الطامة ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنها الطامة الكبرى إذا سيق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، قاله القاسم بن الوليد ، وهو معنى قول مجاهد .

وفي معنى " الطامّة " في اللغة ثلاثة وجوه :

أحدها : الغاشية .

الثاني : الغامرة .

الثالث : الهائلة ، ذكره ابن عيسى ، لأنها تطم على كل شيء أي تغطيه .

﴿ وأمّا مَنْ خاف مَقام ربِّهِ ونَهَى النفْسَ عن الهَوى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هو خوفه في الدنيا من الله عند مواقعة الذنب فيقلع ، قاله مجاهد .

الثاني : هو خوفه في الآخرة من وقوفة بين يدي الله للحساب ، قاله الربيع بن أنس ، ويكون معنى : خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، قال الكلبي : وزجر النفس عن المعاصي والمحارم .

﴿ فإنّ الجنّةَ هي المأوَى ﴾ أي المنزل ، وذكر أنها نزلت في مصعب بن عمير .

﴿ يسألونَكَ عن الساعةِ أيّانَ مُرْساها ﴾ قال ابن عباس : متى زمانها ، قاله الربيع ﴿

فيمَ أَنْتَ مِن ذِكْراها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فيم يسألك المشركون يا محمد عنها ولست ممن يعلمها ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : فيم تسأل يا محمد عنها وليس لك السؤال ، وهذا معنى قول عروة بن الزبير .

﴿ إلى ربِّك مُنْتَهاها ﴾ يعني منتهى علم الساعة : فكف النبي صلى الله عليه وسلم عن السؤال وقال : يا أهل مكة إن الله احتجب بخمس لم يُطْلع عيهن مَلَكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً فمن ادعى علمهن فقد كفر : ﴿ إن اللَّه عنده علم الساعة . . . ﴾ إلى آخر السورة .

﴿ إنّما أَنْتَ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ مَنْذِرُ مَنْ يَخْشَاها ﴾ يعني القيامة .

﴿ كأَنّهم يومَ يَرَوْنَها ﴾ يعني الكفار يوم يرون الآخرة .

﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ في الدنيا .

﴿ إلاَّ عَشيّةً ﴾ وهي ما بعد الزوال .

(105/801)

﴿ أو ضُحاها ﴾ وهو ما قبل الزوال ، لأن الدنيا تصاغرت عندهم وقلّت في أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 192 . 201 ﴾

(106/801)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والنازعات ﴾

فيه سبعة أقوال :

أحدها : أنها الملائكة تَنْزِعُ أرْواح الكفَّار ، قاله علي ، وابن مسعود .

وروى عطية عن ابن عباس قال : هي الملائكة تَنْزِع نفوسَ بني آدم ، وبه قال مسروق .

والثاني : أنه الموت يَنْزِع النفوسَ ، قاله مجاهد .

والثالث : أنها النفس حين تُنْزَعُ ، قاله السدي .

والرابع : أنها النجوم تَنْزِع من أُفُق الى أُفُق تطلع ثم تغيب ، قاله الحسن ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، والأخفش ، وابن كيسان .

والخامس : أنها القِسِيّ تَنْزِع بالسَّهم ، قاله عطاء ، وعكرمة .

والسادس : أنها الوحوش تنزع وتنفر ، حكاه الماوردي .

والسابع : أنها الرُّماةُ ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ غرقاً ﴾ اسم أقيم مقام الإغراق .

قال ابن قتيبة : والمعنى : والنازعات إغراقاً ، كما يغرق النازع في الفوس ، يعني أنه يبلغ به غاية المد .

قوله تعالى : ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنها الملائكة .

ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنها حين تنشط أرواح الكفار حتى تخرجها بالكرب والغمِّ ، قاله علي رضي الله عنه .

قال مقاتل : ينزع ملك الموت روح الكافر ، فإذا بلغت ترقوته غرقها في حلقه ، فيعذِّبه في حياته ، ثم ينشطها من حلقه أي : يجذبها كما ينشط السفّود من الصوف المبتل .

والثاني : أنها تنشط أرواح المؤمنين بسرعة ، كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنها ، قاله ابن عباس .

وقال الفراء : الذي سمعته من العرب : كما أُنْشِط من عِقَال بألف .

تقول : إذا ربطت الحبل في يد البعير : نشطته ، فإذا حللته قلت : أنشطته .

والقول الثاني : أنها أنفس المؤمنين تنشط عند الموت للخروج ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبيانه أن المؤمن يرى منزله من الجنة قبل الموت فتنشط نفسه لذلك .

والثالث : أن الناشطات : الموت ينشط نفس الإنسان ، قاله مجاهد .

(107/801)

والرابع : النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، أي : تذهب ، قاله قتادة ، وأبو عبيدة ، والأخفش .

ويقال لبقر الوحش : نواشط ، لأنها تذهب من موضع إلى موضع .

قال أبو عبيدة : والهموم تنشط بصاحبها .

قال هميان بن قحافة :

أَمْسَتْ همومي تَنْشِط المَنَاشِطَا . . .

الشَّامَ بي طَوْراً وطَوْراً وَاسِطَا

والخامس : أنها النفس حين تَنْشط بالموت ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : أنها الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين ، قاله علي رضي الله عنه .

قال ابن السائب : يقبضون أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء .

فأحياناً ينغمس ، وأحياناً يرتفع ، يسلُّونها سلاً رفيقاً ، ثم يَدَعُونها حتى تستريح .

والثاني : أنهم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين ، كما يقال للفرس الجواد : سابح : إذا أسرع في جريه ، قاله مجاهد ، وأبو صالح ، والفراء .

والثالث : أنه الموت يسبح في نفوس بني آدم ، روي عن مجاهد أيضاً .

والرابع : أنها السفن تسبح في الماء ، قاله عطاء .

والخامس : أنها النجوم ، والشمس ، والقمر ، كل في فلك يسبحون ، قاله قتادة ، وأبو عبيدة .

والسادس : أنها الخيل ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ فيه خمسة أقوال :

أحدها : أنها الملائكة .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، قاله علي ، ومسروق .

والثاني : أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، قاله مجاهد ، وأبو رَوْق .

والثالث : أنها سبقت بني آدم الى الإيمان ، قاله الحسن .

والقول الثاني : أنها أنفس المؤمنين تسبق الملائكة شوقاً إلى لقاء الله ، فيقبضونها وقد

عاينت السرور ، قاله ابن مسعود .

والثالث : أنه الموت يسبق إلى النفوس ، روي عن مجاهد أيضاً .

والرابع : أنها الخيل ، قاله عطاء .

والخامس : أنها النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ فالمدبِّرات أمراً ﴾ قال ابن عباس : هي الملائكة .

(108/801)

قال عطاء : وُكِّلتْ بأمور عَرَّفهم الله العمل بها ، وقال عبد الرحمن بن سابط : يُدبِّر أمر الدنيا أربعة أملاك : جبريل ، وهو موكل بالرِّياح والجنود .

وميكائيل ، وهو موكل بالقطر والنبات .

وملك الموت ، وهو موكل بقبض الأنفس .

وإسرافيل ، وهو يَنزل بالأمر عليهم .

وقيل : بل جبريل للوحي ، وإسرافيل للصور .

وقال ابن قتيبة : فالمدبِّرات أمراً : تنزل بالحلال والحرام .

فإن قيل : أين جواب هذه الأقسام ، فعنه جوابان .

أحدهما : أن الجواب قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ، قاله مقاتل .

والثاني : أن الجواب مضمر ، تقديره : لَتُبْعَثُنَّ وَلَتُحاسَبُنَّ ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ أئذا كنا عِظَاماً نَخِرَةً ﴾ قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ يوم تُرجف الراجفة ﴾ ، وهي النفخة الأولى التي يموت منها جميع الخلائق .

و"الراجفة" صيحة عظيمة فيها تردُّدٌ واضطراب كالرعد إذا تمحض .

و"ترجف" بمعنى : تتحرَّك حركة شديدةً ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ وهي : النفخة الثانية

ردفت الأولى ، أي : جاءت بعدها .

وكل شيء جاء بعد شيءٍ فهو يردفه ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ أي : شديدة الاضطراب

لما عاينت من أهوال القيامة ، ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي : ذليلةٌ لمعاينة النار .

قال عطاء : وهذه أبصار من لم يمت على الإسلام .

ويدل على هذا أنه ذَكَرَ منكري البعث ، فقال تعالى : ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة

﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة "أئنا" بهمزتين مخففتين على الاستفهام ، وقرأ الباقون

بتخفيف الأولى وتليين الثانية ، وفصل بينهما بألف نافع وأبو عمرو .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الحافرة : الحياة بعد الموت .

فالمعنى : أنرجع أحياءً بعد موتنا ؟ ! وهذا قول ابن عباس ، وعطية ، والسدي .

قال الفراء : يعنون : أَنُرَدُّ إلى أمرنا الأول إلى الحياة ؟ ! والعرب تقول : أتيت فلاناً ، ثم رجعت على حافرتي ، أي : رجعت من حيث جئت .

(109/801)

قال أبو عبيدة : يقال : رجع فلان في حافرته ، وعلى حافرته : إذا رجع من حيث جاء ، وهذا قول الزجاج .

والثاني : أنها الأرض التي تحفر فيها قبورهم ، فَسُمِّيت حافرةً ، والمعنى : محفورة ، كما يقال ﴿ ماء دافق ﴾ [الطارق : 6] و ﴿ عيشة راضية ﴾ [الحاقة : 21] وهذا قول مجاهد ، والخليل .

فيكون المعنى : أئنا لمردودون إلى الأرض خلقاً جديداً ؟ !

قال ابن قتيبة : "في الحافرة" أي : إلى أول أمرنا .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أي : قد جاءك .

وقد بيَّنَّا هذا في [طه : 9] وما بعده إلى قوله تعالى : ﴿ طوى اذهب ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو "طوى اذهب" غير مُجراةٍ .

وقرأ الباقون "طوىً" منونة ﴿ فقل هل لك إلى أن تَزَكَّى ﴾ وقرأ ابن كثير ، ونافع "تَزَّكَّى"

بتشديد الزاي ، أي : تَطَّهَّر من الشرك ﴿ وأَهْدِيَكَ إلى ربك ﴾ أي : أدعوك إلى توحيده ، وعبادته ﴿ فتخشى ﴾ عذابه ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : أنها اليد والعصا ، قاله جمهور المفسرين .

والثاني : أنها اليد ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فكذب ﴾ أي : بأنها من الله ، ﴿ وعصى ﴾ نبيَّه ﴿ ثم أدبر ﴾ أي : أعرض عن الإيمان ﴿ يسعى ﴾ أي : يعمل بالفساد في الأرض ﴿ فحشَر ﴾ أي : فجمع قومه وجنوده ﴿ فنادى ﴾ لما اجتمعوا ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ أي : لا ربَّ فوقي .

وقيل أراد أن الأصنام أرباب ، وأنا ربُّها وربُّكم .

وقيل : أراد : أنا ربُّ السادة والقادة .

قوله تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الأولى قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] والآخرة قوله "أنا ربكم الأعلى" ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، والشعبي ، ومقاتل ، والفراء .

ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة .

قال السدي : فبقي بعد الآخرة ثلاثين سنة .

قال الفراء : فالمعنى : أخذه الله أخذاً نكالاً للآخرة والأولى .

والثاني : المعنى : جعله الله نكال الدنيا والآخرة ، أغرقه في الدنيا ، وعذَّبه في الآخرة ، قاله الحسن ، وقتادة .

وقال الربيع بن أنس : عذَّبه الله في أول النهار بالغَرَق ، وفي آخره بالنَّار .

والثالث : أن الأولى : تكذيبه وعصيانه .

والآخرة قوله : "أنا ربكم الأعلى" ، قاله أبو رزين .

والرابع : أنها أول أعماله وآخرها ، رواه منصور عن مجاهد .

قال الزجاج : النكال : منصوب مصدر مؤكد ، لأن معنى أخذه الله : نكل الله به نكال الآخرة والأولى : فأغرقه في الدنيا ويعذِّبه في الآخرة .

قوله تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي فُعِل بفرعون ﴿ لعبرةً ﴾ أي : لعظةً ﴿ لمن يخشى ﴾ الله .

ثم خاطب منكري البعث ، فقال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماءُ بناها ﴾ قال الزجاج : ذهب بعض النحويين الى أن قوله تعالى ﴿ بناها ﴾ من صفة السماء ، فيكون المعنى : أم السماء التي بناها .

وقال قوم : السماء ليس مما توصل ، ولكن المعنى : أأنتم أشد خلقاً ، أم السماءُ أشد خلقاً .

ثم بيَّن كيف خلقها ، فقال تعالى ﴿ بناها ﴾ قال المفسرون : أخَلْقُكم بعدَ الموت أشدُّ عندكم ، أم السماءُ في تقديركم ؟ وهما في قدرة الله واحد .

ومعنى : "بناها" رفعها .

وكل شيء ارتفع فوق شيءٍ فهو بناءٌ .

ومعنى ﴿ رفع سَمْكها ﴾ رفع ارتفاعها وعلوَّها في الهواء "فسوَّاها" بلا شقوق ، ولا فُطور ، ولا تفاوت ، يرتفع فيه بعضها على بعض ﴿ وأغطش ليلها ﴾ أي : أظلمه فجعله مظلماً .

قال الزجاج : يقال : غطش الليل وأغطش ، وغبش وأغبش ، وغسق وأغسق ، وغشي وأغشى ، كله بمعنى أظلم .

قوله تعالى : ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أي : أبرز نهارها .

والمعنى : أظهر نورها بالشمس .

وإنما أضاف النور والظلمة إلى السماء لأنهما عنها يصدران ﴿ والأرض بعد ذلك ﴾ أي : بعد خلق السماء ﴿ دحاها ﴾ أي : بسطها .

وبعض من يقول : إن الأرض خلقت قبل السماء يزعم أن "بعد" هاهنا بمعنى "قبل" ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذِّكر ﴾ [الأنبياء : 105] وبعضهم يقول : هي بمعنى "مع" كقوله تعالى ﴿ عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : 13] ولا يمتنع أن تكون الأرض خلقت قبل السماء ، ثم دحيت بعد كمال السماء ، وهذا مذهب عبد الله بن عمرو بن العاص .

وقد أشرنا إلى هذا الخلاف في [البقرة : 29] ونصبت الأرض بمضمر تفسيره قوله تعالى : ﴿ دحاها ﴾ .

﴿ أخرج منها ماءها ﴾ أي : فجَّر العيون منها ﴿ ومرعاها ﴾ وهو ما يأكله الناس والأنعام ﴿ والجبال أرساها ﴾ قال الزجاج : أي : أثبتها ﴿ متاعاً لكم ﴾ أي : للإمتاع ، لأن معنى أخرج منها ماءها ومرعاها : أمتع بذلك .

وقال ابن قتيبة : "متاعاً لكم" أي : منفعة [لكم] .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ والطامة : الحادثة التي تطمُ على ما سواها ، أي : تعلو فوقه .

وفي المراد بها هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : النفخة الثانية التي فيها البعث .

والثاني : أنها حين يقال لأهل النار : قوموا إلى النار .

والثالث : أنها حين يساق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ يتذكَّر الإنسان ما سعى ﴾ أي : ما عمل من خير وشر ﴿ وبُرِّزَتِ الجحيم لمن يرى ﴾ أي : لأبصار الناظرين .

قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق .

وقرأ أبو مجلز ، وابن السميفع "لمن ترى" بالتاء .

وقرأ ابن عباس ، ومعاذ القارىء "لمن رأى" بهمزة بين الراء والألف .

قوله تعالى : ﴿ فأما من طغى ﴾ في كفره ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ على الآخرة ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ قال الزجاج : أي : هي المأوى له .

وهذا جواب "فإذا جاءت الطامة" فإن الأمر كذلك .

قوله تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ قد ذكرناه في سورة [الرحمن : 46] .

قوله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ أي : عما تهوى من المحارم .

(112/801)

قال مقاتل : هو الرجل يَهُمّ بالمعصية ، فيذكر مقامه للحساب ، فيتركها .

قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ قد سبق في [الأعراف : 187]

﴿ فيم أنت مِن ذِكراها ﴾ أي : لست في شيءٍ من علمها وذِكْرِها .

والمعنى : إنك لا تعلمها ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ أي : منتهى علمها ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ وقرأ أبو جعفر "منذرٌ" بالتنوين .

ومعنى الكلام : إنما أنت مُخَوِّفٌ من يخافها .

والمعنى : إنما ينفع إنذارك من يخافها ، وهو المؤمن بها .

وأما من لا يخافها فكأنه لم يُنْذَر ﴿ كأنهم ﴾ يعني : كفار قريش ﴿ يوم يرَونها ﴾ أي : يعاينون القيامه ﴿ لم يلبثوا ﴾ في الدنيا .

وقيل : في قبورهم ﴿ إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي : قَدْر آخر النهار من بعد العصر ، أو أوله إلى أن ترتفع الشمس .

قال الزجاج : والهاء والألف في "ضحاها" عائدان إلى العشية .

والمعنى : إلا عشية ، أو ضحى العشية .

قال الفراء .

فإن قيل : للعشية ضحى ، إنما الضحى لصدر النهار ؟ .

فالجواب : أن هذا ظاهر في كلام العرب أن يقولوا : آتيك العشية ، أو غداتَها ، أو آتيك

الغداةَ ، أو عَشِيَّتَها ، فتكون العشية في معنى "آخر" ، والغداة في معنى "أول" .

أنشدني بعض بني عقيل :

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِراً في دَارِها . . .

عَشِيَّةَ الهِلاَلِ أو سِرارِها

أراد : عشية الهلال ، أو عشية سرار العشية ، فهذا أشد من قولهم : آتيك الغداة أو عشيتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 14 . 25 ﴾

(113/801)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والنازعات غرقاً والناشطات نشطاً والسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً ﴾

اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات هل هي صفات لشيء واحد أو لأشياء مختلفة على أوجه واتفقوا على أن المراد بقوله ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ وصف لشيء واحد وهم الملائكة :

الوجه الأول : في قوله تعالى : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصي أجسامهم .

كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ، والغرق من الإغراق أي ، والنازعات إغراقاً وقال ابن مسعود : " إن ملك الموت ، وأعوانه ينزعون روح الكافر كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل ، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء " ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ الملائكة تنشط نفس المؤمن أي تسلها سلاًّ رفيقاً فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير ، وإنما خص النزع بنفس الكافر والنشط بنفس المؤمن ، لأن بينهما فرقاً فالنزع جذب بشدة والنشط جذب برفق ، ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقاً ، ثم يدعونها حتى تستريح ، ثم يستخرجونها كالسابح في الماء يتحرك فيه برفق ولطافة ، وقيل هم الملائكة ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه .

يقال له سابح ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ يعني الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، وقيل هم الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة .

الوجه الثاني : في قوله ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ يعني النفس حين تنزع من الجسد ، فتغرق في الصدر ثم تخرج ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ ، قال ابن عباس : هي نفوس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة ، وذلك لأنه يعرض عليه مقعده في الجنة قبل أن يموت وقال علي بن أبي طالب : هي أرواح الكفار تنشط بين الجلد ، والأظفار حتى تخرج من أفواههم بالكرب والغم .

﴿ والسابحات سبحاً ﴾ يعني أرواح المؤمنين حين تسبح في الملكوت ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ يعني استباقها إلى الحضرة المقدسة .

الوجه الثالث : في قوله تعالى : ﴿ والنّازعات غرقاً ﴾ يعني النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ يعني النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، أي تذهب ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ ، يعني النجوم والشمس والقمر يسبحون في الفلك .

﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ يعني النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير .

الوجه الرابع : في قوله تعالى ﴿ والنّازعات غرقاً ﴾ يعني خيل الغزاة تنزع في أعنتها وتغرق في عرقها وهي الناشطات نشطاً لأنها تخرج بسرعة إلى ميدانها ، وهي السابحات في جريها ، وهي السابقات سبقاً لاستباقها إلى الغاية .

الوجه الخامس : في قوله ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ يعني الغزاة حين تنزع قسيها في الرمي فتبلغ غاية المد وهو قوله غرقاً ، ﴿ والنّاشطات نشطاً ﴾ أي السّهام في الرمي ﴿ والسّابحات سبحاً ، فالسّابقات سبقاً ﴾ يعني الخيل والإبل حين يخرجها أصحابها إلى الغزو .

الوجه السادس : ليس المراد بهذه الكلمات شيئاً واحداً ، فقوله والنازعات يعني ملك

الموت ينزع النفوس غرقاً حتى بلغ بها الغاية ، ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ يعني النفس تنشط من القدمين بمعنى تجذب ، ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ يعني السفن ، ﴿ والسابقات سبقاً ﴾ يعني مسابقة نفوس المؤمنين إلى الخيرات والطاعات .

(115/801)

أما قوله : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ ، فأجمعوا على أنهم الملائكة قال ابن عباس : هم الملائكة وكلوا بأمور عرفهم الله : العمل بها وقال عبد الرّحمن بن سابط يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، واسمه عزرائيل ، فأما جبريل فموكل بالرّياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنّبات ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى أقسم الله بهذه الأشياء لشرفها ، ولله أن يقسم بما يشاء من خلقه ، أو يكون التقدير ، ورب هذه الأشياء ، وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثن ، ولتحاسبن ، وقيل جوابه ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ يعني النفخة الأولى يتزلزل ويتحرك لها كل شيء ، ويموت منها جميع الخلق ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ يعني النفخة الثانية ردفت الأولى وبينهما أربعون سنة ، وقال قتادة : هما صيحتان فالأولى تميت كل شيء ،

والأخرى تحيي كل شيء بإذن الله وقيل الرّاجفة التي تزلزل الأرض ، والجبال والرادفة التي تشق السماء ، وقيل الراجفة القيامة والرّادفة البعث يوم القيامة روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي بن كعب قال : "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا ذهب ربع اللّيل قام وقال : أيّها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه " .

قوله : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ أي خافقة قلقة مضطربة ، وقيل وجله زائلة عن أماكنها ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي أبصار أهلها خاشعة ذليلة ، والمراد بها الكفار بدليل قوله تعالى ﴿ يقولون ﴾ يعني المنكرين للبعث إذا قيل لهم إنكم مبعوثون بعد الموت .

(116/801)

﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ يعني أنرد إلى أول الحال ، وابتداء الأمر فنصير أحياء بعد الموت كما كنا أول مرة والعرب تقول رجع فلان في حافرته ، أي رجع من حيث جاء فالحافرة عنده اسم لابتداء الشيء وأول الشيء ويقال رجع فلان في حافرته أي في طريقه الذي جاء منه يحفره بمشيئته ، فحصل بأثر قدميه حفر فهي محفورة في الحقيقة ، وقيل الحافرة الأرض التي تحفر فيها قبورهم سميت حافرة لأنها يستقر عليها الحافر ، والمعنى أئنا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها ، وقيل الحافرة النار ﴿ أئذا كنا

عظاماً نخرة ﴾ أي بالية وقرىء ناخرة وهما بمعنى ، وقيل الناخرة المجوفة التي يمر فيها الريح فتنخر أي توصت ﴿ قالوا ﴾ يعني المنكرين للبعث إذا عاينوا أهوال القيامة ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ أي رجعة غابنة يعني إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت .

﴿ فإنما هي ﴾ يعني النفخة الأخيرة ﴿ زجرة واحدة ﴾ أي صيحة واحدة يجمعون بها جميعاً ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ يعني وجه الأرض سميت ساهرة لأن عليها نوم الحيوان وسهرهم ، وقيل هي التي كثر الوطء عليها كأنها سهرت ، والمعنى أنهم كانوا في بطن الأرض .

فلما سمعوا الصيحة صاروا على وجهها ، وقيل هي أرض الشام وقيل أرض القيامة ، وقيل هي أرض جهنم .

(117/801)

قوله : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ يا محمد وذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) شق عليه حين كذبه قومه ، فذكر له قصة موسى وأنه كان يتحمل المشاق من قومه ليتأسى به ﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس ﴾ أي المطهر ﴿ طوى ﴾ هو اسم واد بالشام عند الطور ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي علا وتكبر وكفر بالله ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى

﴿ أي تتطهر من الشّرك والكفر ، وقيل معناه تسلم وتصلح العمل وقال ابن عباس : تشهد أن لا إله إلا الله ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أي أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده ﴿ فتخشى ﴾ يعني عقابه وإنما خص فرعون بالذكر ، وإن كانت دعوة موسى شاملة لجميع قومه لأن فرعون كان أعظمهم فكانت دعوته دعوة لجميع قومه ﴿ فأراه ﴾ أي أرى موسى فرعون ﴿ الآية الكبرى ﴾ يعني اليد البيضاء والعصا ﴿ فكذب ﴾ يعني فرعون بأنها من الله ﴿ وعصى ﴾ أي تمرد وأظهر التجبر ﴿ ثم أدبر ﴾ أي أعرض عن الإيمان ﴿ يسعى ﴾ يعمل الفساد في الأرض ﴿ فحشر ﴾ أي فجمع قومه وجنوده ﴿ فنادى ﴾ أي لما اجتمعوا ﴿ فقال ﴾ يعني فرعون لقومه ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ أي لا رب فوقي ، وقيل أراد أن الأصنام أرباب وهو ربها وربهم ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أي عاقبة فجعله عبرة لغيره بأن أغرقه في الدنيا ويدخله النار في الآخرة ، وقيل أراد بالآخرة والأولى كلمتي فرعون وهما قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وكان بينهما أربعون سنة ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى ﴿ لعبرة ﴾ أي عظة ﴿ لمن يخشى ﴾ أي يخاف الله ثم عاتب منكري البعث فقال تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ معناه أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السّماء عندكم في تقديركم .

فإن كلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد ، لأن خلق الإنسان على صغره وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماء مع عظمها وعظم أحوالها كان يسيراً فبين تعالى : أن خلق السماء أعظم ، وإذا كان كذلك كان خلقكم بعد الموت أهون على الله تعالى : فكيف تنكرون ذلك مع علمكم بأنه خلق السموات والأرض ولا تنكرون ذلك .

ثم إنه تعالى ذكر كيفية خلق السّماء والأرض .

﴿ رفع سمكها ﴾ يعني علو سمتها ، وقيل رفعها بغير عمد ﴿ فسواها ﴾ أي أتقن بناءها ، فليس فيها شقوق ، ولا فطور ، ﴿ وأغطش ﴾ أي أظلم ﴿ ليلها ﴾ والغطش الظلمة ﴿ وأخرج ﴾ أي وأظهر وأبرز ﴿ ضحاها ﴾ أي نهارها ، وإنما عبر عن النهار بالضحى لأنه أكمل أجزاء النهار في النور ، والضوء ، وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما يجريان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، وهي في السماء ثم وصف كيفية خلق الأرض .

فقال تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أي بسطها ومدها قال أمية بن أبي الصلت :

دحوت البلاد فسويتها . . .

وأنت على طيها قادر

فإن قلت ظاهر هذه الآية ، يقتضي أن الأرض خلقت بعد السّماء بدليل قوله تعالى ﴿ بعد ذلك ﴾ وقد قال تعالى : في حم السّجدة ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ فكيف الجمع بين الآيتين وما معناهما .

قلت خلق الله الأرض أولاً مجتمعة ، ثم سمك السماء ثانياً ، ثم دحا الأرض بمعنى مدها وبسطها .

ثالثاً ، فحصل بهذا التفسير الجمع بين الآيتين ، وزال الإشكال قال ابن عباس : خلق الله الأرض بأقواتها ، من غير أن يدحوها قبل السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وقيل معناه والأرض مع ذلك دحاها كقوله ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ أي مع ذلك ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ أي فجر من الأرض عيونها ، ومرعاها أي رعيها ، وهي ما يأكله النّاس ، والأنعام واستعير الرعي للإنسان على سبيل التّجوز .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أي أثبتها ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي الذي أخرج من الأرض هو بلغة لكم ولأنعامكم .

(119/801)

قوله : ﴿ فإذا جاءت الطّامة الكبرى ﴾ يعني النّفخة الثانية ، التي فيها البعث ، وقيل الطامة القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء فتعلو عليه ، والطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع .

﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ أي ما عمل في الدنيا من خير ، أو شر .

﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ يعني أنه ينكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ﴿ فأما من طغى ﴾ أي كفر ﴿ وآثر الحياة الدّنيا ﴾ أي على الآخرة ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي لمن هذه صفته ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ أي المحارم التي يشتهيها وقيل هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر مقامه بين يديه جلّ جلاله للحساب فيتركها لذلك ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي لمن هذه صفته .

قوله : ﴿ يسألونك ﴾ أي يا محمد ﴿ عن الساعة أيان مرساها ﴾ أي متى ظهورها وقيامها ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ أي لست في شيء من علمها وذكراها حتى تهتم لها وتذكر وقتها ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ أي منتهى علمها لا يعلم متى تقوم الساعة إلا هو ، وقيل معناه فيم إنكار لسؤالهم ، أي فيم هذا السّؤال ، ثم قال أنت يا محمد من ذكراها ، أي من علامتها ، لأنك آخر الرّسل ، وخاتم الأنبياء ، فكفاهم ذلك دليلاً على دنوها ، ووجوب الاستعداد لها .

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي إنما ينفع إنذارك من يخافها .

﴿ كأنهم ﴾ يعني الكفار ﴿ يوم يرونها ﴾ أي يعاينون يوم القيامة .

﴿ لم يلبثوا ﴾ أي في الدنيا ، وقيل في قبورهم ﴿ إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

فإن قلت العشية ليس لها ضحى فما معنى قوله ﴿ أو ضحاها ﴾ ؟

قلت قيل إن الهاء والألف صلة ، والمعنى لم يلبثوا إلا عشية ، أو ضحى ، وقيل إضافة الضّحى إلى العشية ، إضافة إلى يومها ، كأنه قال : إلا عشية أو ضحى يومها .

والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 204 .

208 ﴾

(120/801)

وقال النسفى :

سورة النَّازِعَاتِ

ست وأربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والنّازعات غَرْقاً * والنّاشطاتِ نشطاً * والسّابحاتِ سبحاً * فالسّابقاتِ سبقاً * فالمدبّرات أمراً ﴾ لا وقف إلى هنا .

ولزم هنا لأنه لو وصل لصار ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ المدبرات ﴾ وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم .

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد غرقاً أي إغراقاً في النزع أي تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها ومواضع أظفارها ، وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وبالطوائف التي تسبح في مضيها أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم كما رسم لهم .

أو بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب ، والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد ، والتي تسبح في جريها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه .

أو بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب ، وإغراقها في النزع أن تقطع الفلك كله حتى تنحط في أقصى الغرب ، والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً من علم الحساب .

وجواب القسم محذوف وهو "لتبعثن" لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة .

﴿ يوم تَرْجُفُ ﴾ تتحرك حركة شديدة والرجف شدة الحركة ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ النفخة

الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها لأنها تضطرب بها الأرض حتى يموت كل من عليها ﴿ تَتْبَعُهَا ﴾ حال عن الراجفة ﴿ الرَّادِفَةُ ﴾ النفخة الثانية لأنها تردف الأولى وبينهما أربعون سنة ، والأولى تميت الخلق والثانية تحييهم ﴿ قلوبٌ يومئذٍ ﴾ قلوب منكري البعث ﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ مضطربة من الوجيب وهو الوجيف .

(121/801)

وانتصاب ﴿ يوم ترجف ﴾ بما دل عليه ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ أي يوم ترجف وجفت القلوب ، وارتفاع ﴿ قلوب ﴾ بالابتداء و ﴿ واجفة ﴾ صفتها ﴿ أبصارُها ﴾ أي أبصار أصحابها ﴿ خاشِعَةٌ ﴾ ذليلة لهول ما ترى حبرها ﴿ يقولونَ ﴾ أي منكرو البعث في الدنيا استهزاء وإنكاراً للبعث ﴿ أَءِنَّا لمردودون في الحافرةِ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار أي أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا ؟ والحافرة الحالة الأولى يقال لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته أي إلى حالته الأولى .

ويقال : النقد عند الحافرة أي عند الحالة الأولى ، وهي الصفقة أنكروا البعث .

ثم زادوا استبعاداً فقالوا ﴿ أَءِذا كنا عظاماً نَّخِرَةً ﴾ بالية ﴿ ناخرة ﴾ : كوفي غير حفص .

وفَعِلَ أبلغ من فاعل يقال : نخر العظم فهو نخر وناخر .

والمعنى أنرد إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية ؟ و"إذا" منصوب بمحذوف وهو "نبعث" ﴿ قالوا ﴾ أي منكرو البعث ﴿ تِلْكَ ﴾ رجعتنا ﴿ إذاً كَرَّةٌ خاسرةٌ ﴾ رجعة ذات خسران أو خاسر أصحابها ، والمعنى أنها إن صحت وبعثنا فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها وهذا استهزاء منهم ﴿ فَإِنَّما هي زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل فإنها سهلة هينة في قدرته فما هي إلا صيحة واحدة يريد النفخة الثانية من قولهم : زجر البعير إذا صاح عليه ﴿ فإذا هم بالسَّاهِرة ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها .

وقيل : الساهرة أرض بعينها بالشأم إلى جنب بيت المقدس أو أرض مكة أو جهنم .

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ استفهام يتضمن التنبيه على أن هذا مما يجب أن يشيع والتشريف للمخاطب به ﴿ إذ ناداه رَبُّهُ ﴾ حين ناداه ﴿ بالوَادِ المقَدَّس ﴾ المبارك المطهر ﴿ طوًى ﴾ اسمه ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ على إرادة القول ﴿ إنَّهُ طغى ﴾ تجاوز الحد في الكفر والفساد .

(122/801)

﴿ فقل هل لّك إلى أن تزكى ﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان.

وبتشديد الزاي: حجازي ﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿ فتخشى ﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة قال الله تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر: 28] أي العلماء به.

وعن بعض الحكماء: اعرف الله فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين.

فالخشية ملاك الأمور من خشي الله أتى منه كل خير، ومن آمن اجترأ على كل شر.

ومنه الحديث "من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل" بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه باللطف في القول ويستنزله بالمداراة عن عتوه كما أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه: 44] ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ أي فذهب فأرى موسى فرعون العصا أو العصا واليد البيضاء لأنهما في حكم آية واحدة ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعون بموسى والآية الكبرى وسماهما ساحراً وسحراً ﴿ وعصى ﴾ الله تعالى ﴿ ثمّ أَدْبَرَ ﴾ تولى عن موسى ﴿ يسعى ﴾ يجتهد في مكايدته، أو لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسرع في مشيته وكان طيّاشاً خفيفاً ﴿ فَحَشَرَ ﴾ فجمع السحرة وجنده ﴿ فنادى ﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ﴿ فقال أنا ربّكم الأعلى ﴾ لا رب فوقي وكانت لهم أصنام يعبدونها

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة ﴾ عاقبة الله عقوبة الآخرة والنكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم .

ونصبه على المصدر لأن أخذ بمعنى نكل كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة أي الإحراق ﴿ والأولى ﴾ أي الإغراق ، أو نكال كلمتيه الآخرة وهي ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى وهي ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] وبينهما أربعون سنة أو ثلاثون أو عشرون ﴿ إنّ في ذلك ﴾ المذكور ﴿ لَعِبْرَةً لّمن يخشى ﴾ الله .

(123/801)

﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ يا منكري البعث ﴿ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أصعب خلقاً وإنشاء ﴿ أَمِ السَّمَاءُ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي أم السماء أشد خلقاً .

ثم بين كيف خلقها فقال ﴿ بناها ﴾ أي الله .

ثم بين البناء فقال ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أعلى سقفها .

وقيل : جعل مقدار ذهابها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ﴿ فسواها ﴾ فعدلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلمه ﴿ وأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أبرز ضوء شمسها ، وأضيف الليل والشمس إلى السماء لأن الليل ظلمتها والشمس

سراجها ﴿ والأَرْضَ بَعْدَ ذلك دَحَاهَا ﴾ بسطها وكانت مخلوقة غير مدحوة فدحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام.

ثم فسر البسط فقال ﴿ أَخْرَجَ منها مَاءَها ﴾ بتفجير العيون ﴿ ومَرْعَاهَا ﴾ كلأها ولذا لم يدخل العاطف على ﴿ أخرج ﴾ أو ﴿ أخرج ﴾ حال بإضمار "قد".

﴿ والجبال أرساها ﴾ أثبتها وانتصاب الأرض والجبال بإضمار دحاً وأرسى على شريطة التفسير ﴿ متاعاً لَّكُمَ ولأنعامِكُمْ ﴾ فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ﴿ فإذا جاءتِ الطَّامَّةُ الكبرى ﴾ الداهية العظمى التي تطم على الدواهي أي تعلو وتغلب وهي النفخة الثانية، أو الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

﴿ يوم يَتَذَكَّرُ الإنسانُ ﴾ بدل من ﴿ إذا جاءت ﴾ أي إذا رأى أعماله مدونة في كتابه يتذكرها وكان قد نسيها ﴿ ما سعى ﴾ مصدرية أي سعيه أو موصولة ﴿ وبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ وأظهرت ﴿ لمن يرى ﴾ لكل راء لظهورها ظهوراً بيناً.

(124/801)

﴿ فأمّا ﴾ جواب ﴿ فإذا ﴾ أي إذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك ﴿ من طغى ﴾ جاوز الحد فكفر ﴿ وءَاثَرَ الحَياةَ الدُّنْيَا ﴾ على الآخرة باتباع الشهوات ﴿ فإن الجَحِيمَ

هِيَ المأوى ﴾ المرجع أي مأواه ، والألف واللام بدل من الإضافة وهذا عند الكوفيين ، وعند سيبويه وعند البصريين هي المأوى له ﴿ وأمّا من خاف مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي علم أن له مقاماً يوم القيامة لحساب ربه ﴿ ونهى النَّفْسَ ﴾ الأمارة بالسوء ﴿ عن الهوى ﴾ المؤذي أي زجرها عن اتباع الشهوات .

وقيل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ، والهوى ميل النفس إلى شهواتها ﴿ فإنّ الجَنَّةَ هِيَ المأوى ﴾ أي المرجع ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متى إرساؤها أي إقامتها يعني متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ﴿ فِيمَ أنتَ مِن ذِكْرَاهَآ ﴾ في شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به أي ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء كقولك : ليس فلان من العلم في شيء .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت ، فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها أي أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها .

﴿ إلى رَبِّكَ مُنتَهَاها ﴾ منتهى علمها متى تكون لا يعلمها غيره ، أو فيم إنكار لسؤالهم عنها أي فيم هذا السؤال .

ثم قال ﴿ أنت من ذكراها ﴾ أي إرسالك وأنت آخر الأنبياء علامة من علاماتها فلا معنى لسؤالهم عنها ، ولا يبعد أن يوقف على هذا على ﴿ فيم ﴾ وقيل ﴿ فيم أنت من

ذكراها ﴾ متصل بالسؤال أي يسألونك عن الساعة أيان مرساها ويقولون أين أنت من ذكراها .

ثم استأنف فقال ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ ﴿ إنّما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها .

(125/801)

﴿ منذر ﴾ منون : يزيد وعباس ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي الساعة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ في الدنيا ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي ضحى العشية استقلوا مدة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من الهول كقوله : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : 35] [يونس : 45] وقوله : ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ [الكهف : 19] [المؤمنون : 113] وإنما صحت إضافة الضحى إلى العشية للملابسة بينهما لاجتماعهما في نهار واحد ، والمراد أن مدة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً ولكن أحد طرفي النهار عشيته أو ضحاه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 328.332 ﴾

(126/801)

وقال ابن جزى :

سورة النَّازِعَاتِ

اختلف في معنى النازعات والنشاطات والسابقات والسابحات والمدبرات ، فقيل : إنها الملائكة وقيل : النجوم ، فعلى القول بأنها الملائكة سماهم نازعات ؛ لأنهم ينزعون نفوس بني آدم من أجسادها ، وناشطات لأنهم ينشطونها أي يخرجونها فهو من قولك : نشطت الدلو من البئر : إذا أخرجتها وسابحات لأنهم يسبحون في سيرهم ، أي يسرعون فيسبقون فيدبرون أمور العباد والرياح والمطر وغير ذلك حسبما يأمرهم الله . وعلى القول بأنها النجوم سماها نازعات لأنها تنزع من المشرق إلى المغرب ، وناشطات لأنها تنشط من برج إلى برج ، وسابحات لأنها تسبح في الفلك ومنه : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] فتسبق في جريها فتدبر أمراً من علم الحساب ، وقال ابن عطية : لا أعلم خلافاً أن المدبرات أمراً الملائكة ، وحكى الزمخشري فيها ما ذكرنا . وقد قيل في النازعات والناشطات أنها النفوس ، تنزع من معنى النزع بالموت ، فتنشط من الأجساد ، وقيل : في السابحات والسابقات أنها الخيل وأنها السفن ﴿ غَرْقاً ﴾ إن قلنا النازعات الملائكة ففي معنى غرقاً وجهان : أحدهما : أنها من الغرق أي تغرق الكفار في جهنم ، والآخر : أنه من الإغراق في الأمر ، بمعنى المبالغة فيه ، أي تبالغ في نزعها فتقطع الفلك كله ، وإن قلنا إنها

النفوس ، فهو أيضاً ن الإغراق أي تغرق في الخروج من الجسد ، والإعراب غرقاً مصدر في موضع الحال ، ونشطاً وسبحاً وسبقاً مصادر ، وأمراً مفعول به ، وجواب القسم محذوف ، وهو بعث الموتى بدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة ، وقيل : الجواب : " يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة " على تقدير حذف لام التأكيد ، وقيل : هو : " إن ذلك لعبرة لمن يخشى " وهذا بعيد لبعده عن القسم ، ولأنه إشارة إلى قصة فرعون لا لمعنى القسم .

(127/801)

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ قيل : الراجفة النفخة الأولى في الصور ، والرادفة النفخة الثانية : لأنها تتبعها ولذلك سماها رادفة ، من قولك : ردفت الشيء إذا تبعته ، وفي الحديث " أن بينهما أربعين عاماً " ، وقيل : الراجفة : الموت والرادفة : القيامة ، وقيل : الراجفة الأرض ، من قوله : ﴿ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] والرادفة السماء لأنها تنشق يومئذ . والعامل في يوم ترجف محذوف وهو الجواب المقدر تقديره : لتبعثن يوم ترجف الرجفة ، وإن جعلنا : يوم ترجف ، الجواب فالعامل في يوم معنى قوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ وقوله : ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ في موضع الحال ، ويحتمل أن يكون العامل فيه تتبعها ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي شديدة الاضطراب ، والوجيف

والوجيب بمعنى واحد ، وارتفع قلوب بالابتداء وواجفة خبره ، وقال الزمخشري : واجفة صفة ، والخبر : أبصارها خاشعة ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ كناية عن الذل والخوف ، وإضافة الأبصار إلى القلوب على تجوز ، والتقدير : قلوبُ أصحابها .

(128/801)

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة * أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ هذا حكاية قول الكفار في الدنيا ، ومعناه على الجملة إنكار البعث ، فالهمزة في قوله " أئنا لمردودون " للإنكار . ولذلك اتفق العلماء على قراءته بالهمزتين ، إلا أن منهم من سهّل الثانية ومنهم من خففها . واختلفوا في إذ كنا عظاماً نخرة فمنهم من قرأه بهمزة واحدة لأنه ليس بموضع استفهام ولا إنكار ، ومنهم من قرأه بهمزتين تأكيداً للإنكار المتقدم ، ثما اختلفوا في معنى الحافرة على ثلاثة أقوال : أحدها أنها الحالة الأولى . يقال : رجع فلان في حافرته إذا رجع إلى حالته الأولى . فالمعنى أننا لمردودون إلى الحياة بعد الموت . والآخر أن الحافرة الأرض بمعنى محفورة فالمعنى أننا لمردودون إلى وجه الأرض بعد الدفن في القبور . والثالث أن الحافرة النار والعظام النخرة البالية المتعفنة ، وقرئ ناخرة بألف وبحذف الألف وهما بمعنى واحد ؛ إلا أن حذف الألف أبلغ لأن فَعَلَ أبلغُ من فَاعَل وقيل : معناه العظام المجوفة التي تمر بها الريح

فيسمع لها نخير ، والعامل في " إذا كنا " محذوف تقديره إذا كنا عظاماً نبعث ، ويحتمل أن يكون العامل فيه : مردودون في الحافرة ، ولكن إنما يجوز ذلك على قراءة إذا كنا بهمزة واحدة على الخبر ، ولا يجوز على قراءته بهمزتين . لأن همزة الاستفهام لا يعمل ما قبلها فيما بعدها ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ الكرة الرجعة والخاسرة منسوبة إلى الخسران كقوله : عيشة راضية ، أي ذات رضى أو معنى خاسر أصحابها ومعنى هذا الكلام أنهم قالوا : إن كان البعث حقاً فكرّتنا خاسرة ، لأنا ندخل النار .

(129/801)

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ يعني النفخة في الصور للقيام من القبور . وهذا من كلام الله تعالى ردّاً على الذين أنكروا البعث كأنه يقول : لا تظنوا أنه صعب على الله هو عليه يسير ، فإنما ينفخ نفخة واحدة في الصور فيقوم الناس من قبورهم ﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ إذا هنا فجائية والساهرة وجه الأرض ، والباء ظرفية والمعنى : إذا نفخ في الصور حصلوا بالأرض أسرع شيء .

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ توقيف وتنبيه وليس المراد به مجرد الاستفهام ﴿ طُوًى ﴾ ذكر في [طه : 12] ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ تفسير للنداء ﴿ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ أن تتطهر من

الكفر والذنوب والعيوب والزذائل ، وقال بعضهم : تزكى تسلم ، وقيل : تقول لا إله إلا الله ، والأول أعم .

﴿ الآية الكبرى ﴾ قلب العصا حية ، وإخراج اليد بيضاء ، وجعلهما واحدة لأن الثانية تتبع الأولى ، ويحتمل أن يريد الأولى وحدها .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى ﴾ الإدبار كناية عن الإعراض عن الإيمان ، ويسعى عبارة عن جده في الكفر ، وفي إبطال أمر موسى عليه السلام وقيل : هو حقيقة . أي قام من مجلسه يفر من مجالسة موسى أو يهرب من العصا لما صارت ثعباناً ﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي جمع جنوده وأهل مملكته ﴿ فنادى ﴾ أي نادى قومه وقال لهم ما قال ، ويحتمل أنه ناداهم بنفسه ، أو أمر من يناديهم ، والأول أظهر . وروى أنه قام فيهم خطيباً فقال ما قال .

﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ النكال مصدر بمعنى التنكيل ، والعامل فيه أخذه الله ؛ لأنه بمعناه وقيل : العام محذوف ، والآخرة هي : دار الآخرة ، والأولى : الدنيا فالمعنى نكال الآخرة بالنار ونكال الأولى بالغرق . وقيل : الآخرة قوله : أنا ربكم الاعلى والأولى قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] وقيل : بالعكس فالمعنى أخذه الله وعاقبه على كلمة الآخرة وكلمة الأولى .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ هذا توقيف قصد به الاستدلال على البعث فإن الذي خلق السماء قادر على خلق الأجساد بعد فنائها ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ السمك : غلظ السماء وهو الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها . ومعنى رفعه أنه جعله مسيرة خمسمائة عام ، وقيل : السَّمْك السقف ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي أتقن خلقتها وقيل : جعلها مستوية ليس فيها مرتفع ولا منخفض ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعله مظلماً يقال : غطش الليل إذا أظلم . وأغطشه الله ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي أظهر ضوء الشمس في وقت الضحى ، وأضاف الضحى والليل إلى السماء من حيث أنهما ظاهران منها وفيها ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ أي بسطها ، واستدل بها من قال : إن الأرض بسيطة غير كروية وقد ذكرنا في [فصلت : 11] الجمع بين هذا وبين قوله ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء ﴾ ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ نسب الماء والمرعى إلى الأرض ، لأنهما يخرجان منها فإن قيل : لم قال أخرج بغير حرف العطف ؟ فالجواب : أن هذه الجملة في موضع الحال وتفسير لما قبلها قاله الزمخشري ﴿ والجبال أَرْسَاهَا ﴾ أي أثبتها ، ونصب الجبال بفعل مضمر يدل عليه الظاهر وكذلك الأرض ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ ﴾ تقديره : فعل ذلك كله تمتيعاً لكم منه ﴿ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ لأن بني آدم والأنعام ينتفعون بما ذكر .

﴿ الطآمة ﴾ هي القيامة وقيل : النفخة الثانية واشتقاقها من قولك : طمَّ الأمر إذا علا وغلب .

﴿ وبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى ﴾ أي أُظهرت لكل من يرى ، فهي لا تخفى على أحد .

﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ ذكر في سورة [الرحمن : 46] ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ أي ردها عن شهواتها وأغراضها الفاسدة قال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك وخالفه . وقال سهل التستري لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين .

(131/801)

﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ذكر في [الأعراف : 187] ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ أي من ذكر زمانها ، فالمعنى : لست في شيء من ذكر ذلك قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة كثيراً فلما نزلت هذه الآية انتهى ﴿ إلى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ أي منتهى علمها لا يعلم متى تكون إلا هو وحده ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أي : إنما بعثت لتنذر بها ، وليس عليك الإخبار بوقتها ، وخص الإنذار بمن يخشاها ؛ لأنه هو الذي ينفعه الإنذار ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أخبر أنهم إذا رأوا الساعة ظنوا أنهم لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا عشية يوم أو ضحى

يوم ، وأضاف الضحى كذلك إلى العشية لما بينهما من الملابسة إذ هما في يوم واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 177.175 ﴾

(132/801)

وقال البيضاوى :

سورة النَّازِعَاتِ

مكية وآيها خمس أو ست وأربعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والنازعات غَرْقاً والناشطات نَشْطاً والسابحات سَبْحاً فالسابقات سَبْقاً فالمدبرات أَمْراً ﴾ .

(133/801)

هذه صفات ملائكة الموت فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غرقاً أي إغراقاً في النزع ، فإنهم ينزعونها من أقاصي الأبدان ، أو نفوساً غرقت في الأجساد وينشطون أي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، ويسبحون في إخراجها

سبح الغواص الذي يخرج الشيء من أعماق البحر ، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة ، فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعد لها من الآلام واللذات ، أو الأوليان لهم والباقيات لطوائف من الملائكة يسبحون في مضيها أي يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به فيدبرون أمره ، أو صفات النجوم فإنها تنزع من المشرق إلى المغرب غرقاً في النزع بأن تقطع الفلك حتى تنحط في أقصى الغرب ، وتنشط من برج إلى برج أي تخرج من نشط الثور إذا خرج من بلد إلى بلد ، ويسبحن في الفلك فيسبق بعضها في السير لكونه أسرع حركة فيدبر أمراً نيط بها ، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، ولما كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة سمى الأولى نزعاً والثانية نشطاً ، أو صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أي نزعاً شديداً من إغراق النازع في القوس ، وتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيها فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات ، أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات فتنشط إلى عالم القدس ، فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات ، أو صفات أنفس الغزاة ، أو أيديهم تنزع القسي بإغراق السهام وينشطون بالسهم للرمي ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها ، أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها نزعاً

تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر ، وتسبح في حربها فتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر .

(134/801)

أقسم الله تعالى بها على قيام الساعة وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة ﴾ وهو منصوب به والمراد ب ﴿ الراجفة ﴾ الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ كالأرض والجبال لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال ﴾ أو الواقعة التي ترجف الأجرام عندها وهي النفخة الأولى .

﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ التابعة وهي السماء والكواكب تنشق وتنشر ، أو النفخة الثانية .

والجملة في موقع الحال .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ شديدة الاضطراب من الوجيف وهي صفة القلوب والخبر :

﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها إلى القلوب .

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة ﴾ في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت من قولهم رجع فلان في حافرته أي طريقه التي جاء فيها ، فحفرها أي أثر فيها بمشيه على النسبة

كقوله تعالى : ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أو تشبيه القائل بالفاعل وقرىء "في الحفرة" بمعنى المحفورة يقال حفرت أسنانه فحفرت حفراً وهي حفرة .

﴿ أَئِذَا كُنَّا ﴾ وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ إِذَا كُنَّا ﴾ على الخبر . ﴿ عظاما نَاخِرَةً ﴾ بالية وقرأ الحجازيان والشامي وحفص وروح "نَّخِرَةً" وهي أبلغ .

﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها ، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها وهو استهزاء منهم .

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ متعلق بمحذوف أي لا يستصعبوها فما هي إلا صيحة واحدة يعني النفخة الثانية .

﴿ فَإِذَا هُم بالساهرة ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها ، والساهرة والأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم : عين ساهرة للتي يجري ماؤها وفي ضدها نائمة ، أو لأن سالكها يسهر خوفاً وقيل اسم لجهنم .

(135/801)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ أليس قد أتاك حديثه فيسليك على تكذيب قومك وتهددهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم .

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالواد المقدس طُوًى ﴾ قد مر بيانه في سورة "طه" .

﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ على إرادة القول ، وقرىء "أن أذهب" لما في النداء من معنى القول .

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أَن تزكى ﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الكفر والطغيان ، وقرأ الحجازيان ويعقوب" تزكى " بالتشديد .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إلى ربّكَ ﴾ وأرشدك إلى معرفته . ﴿ فتخشى ﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات ، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة وهذا كالتفصيل لقوله : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ ﴿ فَأَرَاهُ الآية الكبرى ﴾ أي فذهب وبلغ فأراه المعجزة الكبرى وهي قلب العصا حية فإنه كان المقدم والأصل ، أو مجموع معجزاته فإنها باعتبار دلالتها كالآية الواحدة .

﴿ فَكَذَّبَ وعصى ﴾ فكذب موسى وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقق الأمر .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ عن الطاعة . ﴿ يسعى ﴾ ساعياً في إبطال أمره أو أدبر بعدما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً في مشيه .

﴿ فَحَشَرَ ﴾ فجمع السحرة أو جنوده . ﴿ فنادى ﴾ في المجمع بنفسه أو بمناد .

﴿ فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ أعلى كل من يلي أمركم .

﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ أخذا منكلاً لمن رآه ، أو سمعه في الآخرة بالإِحراق

وفي الدنيا بالإغراق ، أو على كلمته ﴿ الآخرة ﴾ وهي هذه وكلمته الأولى وهو قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ أو للتنكيل فيهما ، أو لهما ، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً مقدراً بفعله .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ لمن كان من شأنه الخشية .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أصعب خلقاً . ﴿ أَمِ السماء ﴾ ثم بين كيف خلقها فقال : ﴿ بناها ﴾ ثم بين البناء فقال :

(136/801)

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو ثخنها لذاهب في العلو رفيعاً .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فعدلها أو فجعلها مستوية ، أو فتممها بما يتم به كمالها من الكواكب والتداوير وغيرها من قولهم : سوى فلان أمره إذا أصلحه .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلمه منقول من غطش الليل إذا أظلم ، وإنما أضافه إليها لأنه يحدث بحركتها . ﴿ وَأَخْرَجَ ضحاها ﴾ وأبرز ضوء شمسها . كقوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ يريد النهار .

﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ بسطها ومهدها للسكنى .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ﴾ بتفجير العيون. ﴿ ومرعاها ﴾ ورعيها وهو في الأصل لموضع الرعي، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها حال بإضمار قد أو بيان للدحو.

﴿ والجبال أرساها ﴾ أثبتها وقرىء "والأرض والجبال" بالرفع على الابتداء، وهو مرجوح لأن العطف على فعلية.

﴿ متاعا لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾ تمتيعاً لكم ولمواشيكم.

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطامة ﴾ الداهية التي تطم أي تعلو على سائر الدواهي. ﴿ الكبرى ﴾ التي هي أكبر الطامات وهي القيامة، أو النفخة الثانية أو الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة، وهو بدل من ﴿ فَإِذَا جَاءتِ ﴾ و﴿ مَا ﴾ موصولة أو مصدرية ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ وأظهرت. ﴿ لِمَن يرى ﴾ لكل راء بحيث لا تخفى على أحد، وقرىء ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ و"لمن رأى" و"لمن ترى" على أن فيه ضمير الجحيم كقوله تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أو أنه خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم أي لمن تراه من الكفار، وجواب ﴿ فَإِذَا جَاءتِ ﴾ محذوف دل عليه ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ﴾ أو ما بعده من التفضيل.

﴿ فَأَمَّا مَن طغى ﴾ حتى كفر .

﴿ وَءاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ فانهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس .

(137/801)

﴿ فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ هي مأواه واللام فيه سادة مسد الإضافة للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغي ، وهي فصل أو مبتدأ . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد .

﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ لعلمه بأنه مرد .

﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ ليس له سواها مأوى .

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها ﴾ متى إرسَاؤهَا أي إقامتها وإثباتها ، أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة وهو حيث تنتهي إليه وتستقر فيه .

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم أي ما أنت من ذكرها لهم ، وتبيين وقتها في شيء فإن ذكرها لا يزيدهم إلا غياً . ووقتها مما استأثر الله تعالى بعلمه . وقيل ﴿ فِيمَ ﴾ إنكار لسؤالهم و﴿ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ مستأنف ، ومعناه أنت ذكر من ذكرها أي علامة من أشراطها ، فإن إرساله خاتماً للأنبياء أمارة من أماراتها ،

وقيل إنه متصل بسؤالهم والجواب .

﴿ إلى ربّكَ منتهاها ﴾ أي منتهى علمها .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ إنما بعثت لإنذار من يخاف هولها ، وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لأنه المنتفع به ، وعن أبي عمرو ومنذر بالتنوين والإِعمال على الأصل لأنه بمعنى الحال .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ ﴾ في الدنيا أو في القبور . ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ أي عشية يوم أو ضحاه كقوله ﴿ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ ولذلك أضاف الضحى إلى ال ﴿ عَشِيَّةً ﴾ لأنهما من يوم واحد .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة النازعات كان ممن حبسه الله في القيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 450.445 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة النَّازِعَاتِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

قال عبد الله وابن عباس ؛ ﴿ النازعات ﴾ : الملائكة تنزع نفوس بني آدم ، و ﴿ غرقاً ﴾ : إغراقاً ، وهي المبالغة في الفعل ، أو غرق في جهنم ، يعني نفوس الكفار ، قاله عليّ وابن عباس .

وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق .

وقال السدّي وجماعة : تنزع بالموت إلى ربها ، وغرقاً : أي إغراقاً في الصدر .

وقال السدي أيضاً : النفوس تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذاهبها ، ولها نزع عند الموت .

وقال عطاء وعكرمة : القسي أنفسها تنزع بالسهام .

وقال عطاء أيضاً : الجماعات النازعات بالقسي وغيرها إغراقاً .

وقال مجاهد : المنايا تنزع النفوس .

وقيل : النازعات : الوحش تنزع إلى الكلأ ، حكاه يحيى بن سلام .

وقيل : جعل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب ، والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، قاله في الكشاف .

﴿ والناشطات ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد : الملائكة تنشط النفوس عند الموت ، أي

تخلها وتنشط بأمر الله إلى حيث كان .

وقال ابن عباس أيضاً وقتادة والحسن والأخفش : النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، تذهب وتسير بسرعة .

وقال مجاهد أيضاً : المنايا .

وقال عطاء : البقر الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر .

وقال ابن عباس أيضاً : النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج .

وقيل : التي تنشط للإزهاق .

﴿ والسابحات ﴾ ، قال عليّ ومجاهد : الملائكة تتصرّف في الآفاق بأمر الله ، تجيء وتذهب .

وقال قتادة والحسن : النجوم تسبح في الأفلاك .

وقال أبو روق : الشمس والقمر والليل والنهار .

وقال عطاء وجماعة : الخيل ، يقال للفرس سابح .

وقيل : السحاب لأنها كالعائمة في الهواء .

وقيل : الحيتان دواب البحر فما دونها وذلك من عظم المخلوقات ، فيبدي أنه تعالى أمدّ في الدنيا نوعاً من الحيوان ، منها أربعمائة في البر وستمائة في البحر .

وقال عطاء أيضاً : السفن .

وقال مجاهد أيضاً : المنايا تسبح في نفوس الحيوان .

﴿ فالسابقات ﴾ ، قال مجاهد : الملائكة سبقت بني آدم بالخير والعمل الصالح ، وقاله أبو روق .

وقال ابن مسعود : أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها ، وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى .

وقال عطاء : الخيل ، وقيل : النجوم ، وقيل : المنايا تسبق الآمال .

﴿ فالمدبرات ﴾ ، قال ابن عطية لا أحفظ خلافاً أنها الملائكة ، ومعناه أنها التي تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فيها ، كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات .

انتهى .

وقيل : الملائكة الموكلون بالأحوال : جبريل للوحي ، وميكائيل للمطر ، وإسرافيل للنفخ في الصور ، وعزرائيل لقبض الأرواح .

وقيل : تدبيرها : نزولها بالحلال والحرام .

وقال معاذ : هي الكواكب السبعة ، وإضافة التدبير إليها مجاز ، أي يظهر تقلب الأحوال عند قرانها وتربيعها وتسديسها وغير ذلك .

ولفق الزمخشري من هذه الأقوال أقوالاً اختارها وأدارها أولاً على ثلاثة : الملائكة أو الخيل أو النجوم .

ورتب جميع الأوصاف على كل واحد من الثلاثة ، فقال : أقسم سحابة بطوائف الملائكة التي هي تنزع الأرواح من الأجساد ، وبالطوائف التي تنشطها ، أي تخرجها من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وبالطوائف التي تسبح في مضيها ، أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم ؛ كما رسم لهم غرقاً ، أي إغراقاً في النزع ، أي تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظافرها .

أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها إلى آخر ما نقلناه ؛ ثم قال : من قولك : ثور ناشط ، إذا خرج من بلد إلى بلد ، والتي تسبح في جريتها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه .

(140/801)

أو أقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب ، وإغراقها في النزع أن تقطع الفلك كله حتى تنحط من أقصى المغرب ، والتي تخرج من برج إلى برج ، والتي تسبح في الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً في علم الحساب .

وقيل : النازعات : أيدي الغزاة أو أنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنشط الإرهاق . انتهى .

والذي يظهر أن ما عطف بالفاء هو من وصف المقسم به قبل الفاء ، وأن المعطوف بالواو وهو مغاير لما قبله ، كما قرّرناه في المرسلات ، على أنه يحتمل أن يكون المعطوف بالواو ومن عطف الصفات بعضها على بعض .

والمختار في جواب القسم أن يكون محذوفاً وتقديره : لتبعثن لدلالة ما بعده عليه ، قاله الفراء .

وقال محمد بن عليّ الحكيم الترمذي : الجواب : ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ، والمعنى فيما اقتصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى عليه السلام وفرعون .

قال ابن الانباري : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال .

وقيل : اللام التي تلقى بها القسم محذوفة من قوله : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ ، أي ليوم كذا ، ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ ، ولم تدخل نون التوكيد لأنه قد فصل بين اللام المقدرة والفعل ؛ وقول أبي حاتم هو علي التقديم والتأخير ، كأنه قال : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ .

﴿ والنازعات ﴾ ، قال ابن الأنباري : خطأ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام .

وقيل : التقدير : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ ، ﴿ والنازعات ﴾ على التقديم والتأخير أيضاً وليس بشيء .

وقيل : الجواب : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ ، لأنه في تقدير قد أتاك وليس بشيء ، وهذا كله إعراب من لم يحكم العربية ، وحذف الجواب هو الوجه ، ويقرب القول بحذف اللام من ﴿ يوم ترجف ﴾ .

قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : هما الصيحتان ، أي النفختان ، الأولى تميت كل شيء ، وفي الثانية تحيي .

وقال مجاهد أيضاً : الواجفة : الزلزلة ، والرادفة : الصيحة .

(141/801)

وقال ابن زيد : الواجفة : الأرض ، والرادفة : الساعة ، والعامل في يوم اذكر مضمرة ، أو لتبعثن المحذوف ؛ واليوم متسع تقع فيه النفختان ، وهم يبعثون في بعض ذلك اليوم المتسع ، وتتبعها حال .

قيل : أو مستأنف .

واجفة : مضطربة ، ووجيف القلب يكون من الفزع ويكون من الإشفاق ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بني حجباً وأسرتهم . . .

أكبادنا من ورائهم تجف

﴿ قلوب ﴾ : مبتدأ ، ﴿ واجفة ﴾ : صفة تعمل في ﴿ يومئذ ﴾ ، ﴿ أبصارها ﴾ : أي أبصار أصحاب القلوب ، ﴿ خاشعة ﴾ : مبتدأ وخبر في موضع خبر ﴿ قلوب ﴾ .

وقال ابن عطية : رفع قلوب بالابتداء ، وجاز ذلك ، وهي نكرة لأنها قد تخصصت بقوله : ﴿ يومئذ ﴾ . انتهى .

ولا تتخصص الأجرام بظروف الزمان ، وإنما تخصصت بقوله : ﴿ واجفة ﴾ .

﴿ يقولون ﴾ : حكاية حالهم في الدنيا ، والمعنى : هم الذين يقولون .

و ﴿ الحافرة ﴾ ، قال مجاهد : فاعلة بمعنى مفعولة .

وقيل : على النسب ، أي ذات حفر ، والمراد القبور ، أي لمردودون أحياء في قبورنا .

وقال زيد بن أسلم : الحافرة : النار .

وقيل : جمع حافرة بمعنى القدم ، أي أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الأرض .

وقال ابن عباس : الحياة الثانية هي أول الأمر ، وتقول التجار : النقد في الحافرة ، أي في ابتداء السوم .

وقال الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا . . .

حتى ترد الناس في الحافرة

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة : في الحفرة بغير ألف ؛ والجمهور : بالألف .

وقيل : هما بمعنى واحد .

وقيل : هي الأرض المنبتة المتغيرة بأجساد موتاها ، من قولهم : حفرت أسنانه إذا تآكلت وتغيرت .

وقرأ عمر وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر : ناخرة بألف ؛ وأبو رجاء والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة والسلمي وابن جبير والنخعي وقتادة وابن وثاب وأيوب وأهل مكة وشبل وباقي السبعة : بغير ألف .

(142/801)

﴿ قالوا تلك إذاً ﴾ : أي الردة إلى الحافرة إن رددنا ، ﴿ كرة خاسرة ﴾ : أي قالوا ذلك لتكذيبهم بالغيب ، أي لو كان هذا حقاً ، لكانت ردتنا خاسرة ، إذ هي إلى النار .

وقال الحسن : خاسرة : كاذبة ، أي ليست بكافية ، وهذا القول منهم استهزاء .

وروي أن بعض صناديد قريش قال ذلك .

﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ لما تقدم .

﴿ يقولون أئنا لمردودون ﴾ : تضمن قولهم استبعاد النشأة الثانية واستضعاف أمرها ،

فجاء قوله : ﴿ فإنما ﴾ مراعاة لما دل عليه استبعادهم ، فكأنه قيل : ليس بصعب ما تقولون ، فإنما هي نفخة واحدة ، فإذا هم منشورون أحياء على وجه الأرض .

قال ابن عباس : الساهرة أرض من فضة يخلقها الله تعالى .

وقال وهب بن منبه : جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس .

وقال أبو العالية وسفيان : أرض قريبة من بيت المقدس .

وقال ابن عباس : أرض مكة .

وقال قتادة : جهنم ، لأنه لا نوم لمن فيها .

رأى أن الضمائر قبلها إنما هي للكفار ففسرها بجهنم .

وقيل : الأرض السابعة يأتي بها الله يحاسب عليها الخلائق .

ولما أنكروا البعث وتمردوا ، شق ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقص تعالى عليه قصة موسى عليه السلام ، وتمرد فرعون على الله عز وجل حتى ادعى الربوبية ، وما آل إليه حال موسى من النجاة ، وحال فرعون من الهلاك ، فكان ذلك مسلاة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتبشيراً بهلاك من يكذبه ، ونجاته هو من أذاهم .

فقال تعالى : ﴿ هل أتاك ﴾ ، توقيفاً له على جمع النفس لما يلقيه إليه ، وتقدم الكلام في الوادي المقدس ، والخلاف في القراآت في ﴿ طوى ﴾ .

﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ : تفسير للنداء ، أو على إضمار القول ، ﴿ فقل هل لك إلى أن

تزكى ﴾ : لطف في الاستدعاء لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم ، وتزكى : تتحلى بالفضائل وتتطهر من الرذائل ، والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى .

(143/801)

وقرأ الحرميان وأبو عمرو : بخلاف تزكى وتصدى ، بشد الزاي والصاد ؛ وباقي السبعة : بخفها .

وتقول العرب : هل لك في كذا ، أو هل إلى كذا ؟ فيحذفون القيد الذي تتعلق به إلى ، أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا ؟ أو سبيل إلى كذا ؟ قال الشاعر :

فهل لكم فيها إليّ فإنني . . .

بصير بما أعيا النطاسي خديما

﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ : هذا تفسير للتزكية ، وهي الهداية إلى توحيد الله تعالى ومعرفته ، ﴿ فتخشى ﴾ : أي تخافه ، لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ، وفي الكلام حذف ، أي فذهب وقال له ما أمره به ربه ، وأتبع ذلك بالمعجزة الدالة على صدقه .

﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ : وهي العصا واليد ، جعلهما واحدة ، لأن اليد كأنها من جملة

العصا لكونها تابعة لها ، أو العصا وحدها لأنها كانت المقدمة ، والأصل واليد تبع لها ، لأنه كان يتقيها بيده .

وقيل له ﴿ أدخل يدك في جيبك ﴾ ﴿ فكذب ﴾ : أي فرعون موسى عليه السلام وما أتى به من المعجز ، وجعل ذلك من باب السحر ، ﴿ وعصى ﴾ الله تعالى بعدما علم صحة ما أتى به موسى ، وإنما أوهم أنه سحر .

﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ ، قيل : أدبر حقيقة ، أي قام من مكانه فاراً بنفسه .

وقال الجمهور : هو كناية عن إعراضه عن الإيمان .

﴿ يسعى ﴾ : يجتهد في مكايدة موسى عليه السلام .

﴿ فحشر ﴾ : أي جمع السحرة وأرباب دولته ، ﴿ فنادى ﴾ : أي قام فيهم خطيباً ، أو فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه .

﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ ، قال ابن عطية : قول فرعون ذلك نهاية في المخرقة ، ونحوها باق في ملوك مصر وأتباعهم . انتهى .

(144/801)

وإنما قال ذلك لأن ملك مصر في زمانه كان اسماعيلياً ، وهو مذهب يعتقدون فيه إلهية ملوكهم ، وكأن أول من ملكها منهم المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله ، ولاهم العاضد وطهر الله مصر من هذا المذهب الملعون بظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن سادي ، رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام خيراً .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ ، قال ابن عباس : الآخرة قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾

والأولى قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

وقيل العكس ، وكان بين قولتيه أربعون سنة .

وقال الحسن وابن زيد : نكال الآخرة بالحرق ، والأولى يعني الدنيا بالغرق .

وقال مجاهد : عذاب آخرة حياته وأولادها .

وقال أبو زرين : الأولى كفره وعصيانه ، والآخرة قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

وقال مجاهد عبارة عن أول معاصيه ، وآخرها : أي نكل بالجميع ، وانتصب نكال على المصدر والعامل فيه ﴿ فأخذه ﴾ لأنه في معناه وعلى رأي المبرد : بإضمار فعل من لفظه ، أي نكل نكال ، والنكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم .

وقال الزمخشري : ﴿ نكال الآخرة ﴾ هو مصدر مؤكد ، ك ﴿ وعد الله ﴾ و ﴿ صبغة الله ﴾ كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة والأولى . انتهى .

والمصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة يقدر له عامل من معنى الجملة .

﴿ إن في ذلك ﴾ : فيما جرى لفرعون وأخذه تلك الأخذ ، ﴿ لعبرة ﴾ : لعظة ، ﴿ لمن يخشى ﴾ : أي لمن يخاف عقوبة الله يوم القيامة وفي الدنيا .

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27)

الخطاب الظاهر أنه عام ، والمقصود الكفار منكر والبعث ، وقفهم على قدرته تعالى .

﴿ أشد خلقاً ﴾ : أي أصعب إنشاء ، ﴿ أم السماء ﴾ ، فالمسؤول عن هذا يجيب ولا بد السماء ، لما يرى من ديمومة بقائها وعدم تأثيرها .

ثم بين تعالى كيفية خلقها .

(145/801)

﴿ رفع سمكها ﴾ : أي جعل مقدارها بها في العلوّ مديداً رفيعاً مقدار خمسمائة عام ، والسمك : الارتفاع الذي بين سطح السماء التي تليها وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ، ﴿ فسواها ﴾ : أي جعلها ملساء مستوية ، ليس فيها مرتفع ولا منخفض ، أو تممها وأتقن إنشاءها بحيث أنها محكمة الصنعة .

﴿ وأغطش ﴾ : أي أظلم ، ﴿ ليلها ﴾ .

﴿ وأخرج ﴾ : أبرز ضوء شمسها ، كقوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وقولهم : وقت الضحى : الوقت الذي تشرق فيه الشمس .

وأضيف الليل والضحى إلى السماء ، لأن الليل ظلها ، والضحى هو نور سراجها .

﴿ والأرض بعد ذلك ﴾ : أي بعد خلق السماء وما فعل فيها ، ﴿ دحاها ﴾ : أي بسطها ، فخلق الأرض ثم السماء ثم دحا الأرض .

وقرأ الجمهور : ﴿ والأرض ﴾ ، ﴿ والجبال ﴾ بنصبهما ؛ والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال : برفعهما ؛ وعيسى : برفع الأرض .

وأضيف الماء والمرعى إلى الأرض لأنهما يظهران منها .

والجمهور : ﴿ متاعاً ﴾ بالنصب ، أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ؛ وابن أبي عبلة : بالرفع ، أي ذلك متاع .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فهلا أدخل حرف العطف على أخرج ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون معنى ﴿ دحاها ﴾ : بسطها ومهدها للسكنى ، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها .

والثاني : أن يكون أخرج حالاً بإضمار قد ، كقوله : ﴿ أو جاءوكم حصرت صدورهم ﴾ انتهى .

وإضمار قد قول للبصريين ومذهب الكوفيين .

والأخفش : أن الماضي يقع حالاً ، ولا يحتاج إلى إضمار قد ، وهو الصحيح .

ففي كلام العرب وقع ذلك كثيراً . انتهى .

﴿ ومرعاها ﴾ : مفعل من الرعي ، فيكون مكاناً وزماناً ومصدراً ، وهو هنا مصدر يراد به اسم المفعول ، كأنه قيل : ومرعيها : أي النبات الذي يرعى .

(146/801)

وقدم الماء على المرعى لأنه سبب في وجود المرعى ، وشمل ﴿ ومرعاها ﴾ ما يتقوت به الآدمي والحيوان غيره ، فهو في حق الآدمي استعارة ، ولهذا قيل : دل الله سبحانه وتعالى بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح ، لأنه من الماء .

﴿ فإذا جاءت الطامة ﴾ ، قال ابن عباس والضحاك : القيامة .

وقال ابن عباس أيضاً والحسن : النفخة الثانية .

وقال القاسم : وقت سوق أهل الجنة إليها ، وأهل النار إليها ، وهو معنى قول مجاهد .

﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ : أي عمله الذي كان سعى فيه في الدنيا .

وقرأ الجمهور : ﴿ وبُرِّزت ﴾ مبني للمفعول مشدد الراء ، ﴿ لمن يرى ﴾ بياء الغيبة : أي

لكل أحد ، فيشكر المؤمن نعمة الله .

وقيل : ﴿ لمن يرى ﴾ هو الكافر ؛ وعائشة وزيد بن علي وعكرمة ومالك بن دينار : مبنياً للفاعل مخففاً وبتاء ، يجوز أن يكون خطاباً للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أي لمن ترى من أهلها ، وأن يكون إخبار عن الجحيم ، فهي تاء التأنيث .

قال تعالى : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ وقال أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن أبي عمرو : وبرزت مبنياً ومخففاً ، و﴿ يوم يتذكر ﴾ : بدل من ﴿ فإذا ﴾ ؛ وجواب إذا ، قال الزمخشري : فإن الأمر كذلك .

وقيل : عاينوا وعلموا .

ويحتمل أن يكون التقدير : انقسم الراؤون قسمين ، والأولى أن يكون الجواب : فأما وما بعده ، كما تقول : إذا جاءك بنو تميم ، فأما العاصي فأهنه ، وأما الطائع فأكرمه .

﴿ طغى ﴾ : تجاوز الحد في عصيانه ، ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ على الآخرة ، وهي مبتدأ أو فصل .

والعائد على من من الخبر محذوف على رأي البصريين ، أي المأوى له ، وحسن حذفه وقوع المأوى فاصلة .

وأما الكوفيون فمذهبهم أن أل عوض من الضمير .

وقال الزمخشري : والمعنى فإن الجحيم مأواه ، كما تقول للرجل : غض الطرف ، تريد طرفك ؛ وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة ، ولكن لما علم أن الطاغي هو صاحب المأوى ، وأنه لا يغض الرجل طرف غيره ، تركت الإضافة .

ودخول حرف التعريف في المأوى ، والطرف للتحريف لأنهما معرفان . انتهى .

وهو كلام لا يتحصل منه الرابط العائد على المبتدأ ، إذ قد نفى مذهب الكوفيين ، ولم يقدر ضميراً محذوفاً ، كما قدره البصريون ، فرام حصول الربط بلا رابط .

﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ : أي مقاماً بين يدي ربه يوم القيامة للجزاء ؛ وفي إضافة المقام إلى الرب تفخيم للمقام وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعاً عظيماً .

قال ابن عباس : خافه عندما هم بالمعصية فانتهى عنها .

﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ : أي عن شهوات النفس ، وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بمحمود .

قال سهل : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هواك فخالفه .

وقال عمران الميرتليّ :

فخالف هواها واعصها إن من يطع . . .

هوى نفسه تنزع به كل منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده . . .

وترم به في مصرع أي مصرع

وقال الفضيل : أفضل الأعمال خلاف الهوى ، وهذا التفضيل هو عام في أهل الجنة وأهل النار .

وعن ابن عباس : نزل ذلك في أبي جهل ومصعب بن عمير العبدري ، رضي الله تعالى عنه .

وعنه أيضاً : ﴿ فأما من طغى ﴾ ، فهو أخ لمصعب بن عمير ، أسر فلم يشدوا وثاقه ، وأكرموه وبيتوه عندهم ؛ فلما أصبحوا حدثوا مصعباً ، فقال : ما هو لي بأخ ، شدوا أسيركم ، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً فأوثقوه .

﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ فمصعب بن عمير ، وقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنفسه يوم أُحد حين تفرّق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه ، وهي السهام .

(148/801)

فلما رآه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متشحطاً في دمه قال : " عند الله أحتسبك " ، وقال لأصحابه : " لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما ، وإن شراك نعله من ذهب " قيل : واسم أخيه عامر .

وفي الكشاف ، وقيل : الآيتان نزلتا في أبي عزير بن عمير ومصعب بن عمير ، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزير يوم أُحد ، ووقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه . انتهى .

﴿ يسألونك ﴾ : أي قريش ، وكانوا يلحون في البحث عن وقت الساعة ، إذ كان يتوعدهم بها ويكثر من ذلك ، فنزلت هذه الآية .

﴿ أيان مرساها ﴾ : متى إقامتها ؟ أي متى يقيمها الله ويثبتها ويكونها ؟ وقيل : أيان منتهاها ومستقرها ؟ كما أن مرسى السفينة ومستقرها حيث تنتهي إليه .

﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ ، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسأل عن الساعة كثيراً ، فلما نزلت هذه الآية . انتهى .

والمعنى : في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها ؟ أي لست من ذلك في شيء ، ﴿ إنما أنت منذر ﴾ .

﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ : أي انتهاء علم وقتها ، لم يؤت علم ذلك أحداً من خلقه .

وقيل : ﴿ فيم ﴾ إنكار لسؤالهم ، أي فيم هذا السؤال ؟ ثم قال : ﴿ أنت من ذكراها ﴾

، وعلامة من علاماتها ، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ، ولا معنى لسؤالهم عنها .

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ : أي لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه ، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون إنذارك لطفاً به في الخشية منها . انتهى .

وهذا القول حكاه الزمخشري وزمكه بكثرة ألفاظه ، وهو تفكيك للكلام وخروج عن الظاهر المتبادر إلى الفهم ، ولم يخله من دسيسة الاعتزال .

وقرأ الجمهور : ﴿ منذر من ﴾ بالإضافة .

وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيصن وأبو عمر في رواية وابن مقسم : منذر بالتنوين .

(149/801)

وقال الزمخشري : وقرىء منذر بالتنوين ، وهو الأصل والإضافة تخفيف ، كلاهما يصلح للحال والاستقبال ؛ فإذا أريد الماضي ، فليس إلا الإضافة ، كقولك : هو منذر زيد أمس . انتهى .

أما قوله : وهو الأصل ، يعني التنوين ، فهو قول قد قاله غيره ممن تقدم .

وقد قررنا في هذا الكتاب ، وفيما كتبناه في هذا العلم أن الأصل الإضافة ، لأن العمل إنما هو بالشبه ، والإضافة هي أصل في الأسماء .

وأما قوله : فإذا أريد الماضي ، فليس إلا الإضافة ، فهذا فيه تفصيل وخلاف مذكور في علم النحو .

وخص ﴿ من يخشاها ﴾ لأنه هو المنتفع بالإنذار .

﴿ كأنهم يوم يرونها ﴾ : تقريب وتقرير لقصر مقامهم في الدنيا .

﴿ لم يلبثوا ﴾ : لم يقيموا في الدنيا ، ﴿ إلا عشية ﴾ : يوم أو بكرته ، وأضاف الضحى إلى العشية لكونها طرفي النهار .

بدأ بذكر أحدهما ، فأضاف الآخر إليه تجوّزاً واتساعاً ، وحسن الإضافة كون الكلمة فاصلة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(150/801)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

(151/801)

التفسير : في الكلمات الخمس المذكورة في أول السورة وجوه على نسق ما سبق في المرسلات أحدها : أنها صفات طوائف الملائكة الذين ينزعون نفوس الكفرة من بني آدم غرقاً أي نزعاً بشدّة من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها . والغرق والإغراق في اللغة واحد يقال : نزع في القوس فأغرق أي بلغ غايته حتى انتهى إلى النصل ، وبالذين يجذبون نفوس المؤمنين برفق ولين كما ينشط الدلو من البئر ، وبالطوائف التي تسبح في مضيها أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر بإذن الله أمراً من أمور العباد أو جنس الأمر . قال مقاتل : يعني بهذه الطوائف جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وأعوان كل منهم . فجبريل موكل بالرياح والجنود ، وميكائيل موكل بالقطر والنبات ، وإسرافيل بنفخ الصور ، وملك الموت عزرائيل وأعوانه بقبض الأرواح . قال الإمام فخر الدين الرازي : النازعات هم الذين نزعوا أنفسهم عن الصفات البشرية والأخلاق الذميمة من الشهوة والغضب والموت والهرم والسقم لأنهم جواهر روحانية مجردة ، والناشطات إشارة إلى أن خروجهم من هذه الأحوال ليس على سبيل الكلفة والمشقة ولكنه بمقتضى الطبيعة والماهية ، والسابحات هم الذين سبحوا في بحار جلال الله فسبق بعضهم بعضاً في ميدان العرفان وحلبة البرهان فدبروا أمر العالم العلوي والعالم السفلي بإذن مبدعهم المنّان . أقول : ويمكن حمل هذه الأمور على مراتب النفس الإنسانية بمثل التقدير المذكور . الوجه الثاني

وهو قول الحسن البصري أنها النجوم وتلخيص ذلك على الوجه المطابق للغة والشريعة أنها تغرق شبه النزع من المشرق إلى المغرب بالحركة السريعة ، وتنشط نشطاً أي تخرج من برج إلى برج من قولك " ثور ناشط " إذا خرج من بلد إلى بلد ، وهذا بحركته البطيئة الثابتة . وأما السابحات فهي السيارة كقوله ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ [الأنبياء : 33] ولأن سيرها المتفاوت يصير سبباً لسبق بعضها بعضاً ، ويترتب على السبق الاتصالات والانصرافات ومعرفة

(152/801)

الفصول والأوقات وتقدّم العلم بالكائنات بل العالم السفلي وتدبيراتها مناط بتلك الحركات بإذن خالق الأرض وفاطر السموات فلهذا أدخل الفاء في القرينيتين الأخريين دون الأوليات . الوجه الثالث أنها صفات خيل الغزاة تنزع في أعنتها نزعاً ، تغرق الأعنة فيه لطول أعناقها لأنها عراب ، وهى ناشطات تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، وهي سابحات تسبح في جريها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وتتسبب فيه . الوجه الرابع وهو اختيار أبي مسلم النازعات أيدي الغزاة وأنفسهم تنزع القسي بإعراق السهام ، والناشطات السهام الخارجة من أيديهم أو قسيهم ، والسابحات الخيل العاديات أو الإبل ،

والمدبرات بمعنى المعقبات لأنها تأتي في أدبار هذه الأفاعيل بأمر الغلبة والنصر . قال جار الله : ﴿ يوم ترجف ﴾ منصوب بجواب القسم المحذوف وهو " لتبعثن " .

(153/801)

وقوله ﴿ تتبعها ﴾ حال . ثم أورد على نفسه أن هذا يوجب أن يكون البعث عند النفخة الأولة وأجاب عنه بأنهم يبعثون في الوقت الواسع الذي يقع فيه النفختان كما يقال " رأيته عام كذا " وإنما رؤيته في ساعة منها . والراجفة الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى فهي من الإسناد المجازي . والرادفة رجفة أخرى تتبع الأولى فتضطرب الأرض لإحياء الموتى كما اضطربت في الأولى لموت الأحياء ، وقد ورد الخبر أن ما بين النفختين أربعون عاماً . ويروى أنه تعالى يمطر الأرض في هذه الأربعين ويصير ذلك الماء عليها كالنطف فيكون سبباً في الإحياء ولله تعالى أن يفعل ما يشاء . وقيل : الراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي قيام الساعة من قوله تعالى ﴿ عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ [النمل : 72] وقيل : الراجفة الأرض والجبال من قوله ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ [المزمل : 14] والرادفة السماء والكواكب لأنها تنفطر وتنتثر على أثر ذلك . وقيل : الراجفة هي الأرض تتحرك وتتزلزل ، والرادفة زلزلة ثانية تتبع

الأولى حتى تنقطع الأرض وتفنى . قال أبو مسلم بناء على تفسيره الذي روينا عنه إن كلاً من الراجفة والرادفة هي خيل المشركين وأريد بهما طائفتان من المشركين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعت إحداهما الأخرى . والقلوب الواجفة أي القلقة ، والأبصار الخاشعة هي أبصار المنافقين على الأقوال القلوب الموصوفة مبتدأ . وقوله ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ خبره وفي الكلام إضمار أي أصحابها خاشعة بدليل قوله ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ أي الحالة الأولى وهي الحياة وأصله من قولهم " رجع فلان في حافرته " أي طريقه التي جاء فيها ، جعل أثر قدميه حفراً فالطريق في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت خافرة على الإسناد المجازي أو على وتيرة النسبة أي ذات حفر كما قلنا في " عيشة راضية " ونحوه ﴿ كرة خاسرة ﴾ كما يجيء .

(154/801)

ثم زادوا في الإنكار مع إشارة إلى وجه الإحالة قائلين ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ نردّ أو نبعث . يقال : نخر العظم فهو نخر وناخر مثل حذر وحاذر وهو الأجوف البالي الذي تمر فيه الريح فيسمع له نخر وهما لغتان فصيحتان ، لأن النخر وإن كان أبلغ في المعنى إلا أن الناخرة بالألف أشبه بأخواتها من رؤوس الآي . ثم أخبر أنهم قالوا على سبيل الاستهزاء

﴿ تلك ﴾ الكرة ﴿ إذا ﴾ أي إذا نحشر ونردّ ونرجع ﴿ كرة خاسرة ﴾ رجعة ذات خسران لأنا كذبنا بها . ثم أفحمهم بقوله ﴿ فإنما هي زجرة ﴾ أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله فما هي إلا صيحة ﴿ واحدة ﴾ يقال : زجر البعير إذا صاح عليه وهي صيحة إسرافيل في النفخة الثانية . يروى أنه تعالى يحييهم في بطون الأرض فيسمعونها فيقومون . والساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن ساكنها لا ينام خوف الهلاك ، أو لأن السراب يجري فيها من قولهم عين ساهرة أي جارية .

(155/801)

والأظهر أنها أرض الآخرة . وقيل : هي أرض الدنيا ثم ذكرهم بقصة موسى لأنه أبهر الأنبياء المتقدّمين معجزة وفيها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لأن فرعون كان أكثر جمعاً وأشدّ قوة من كفار قريش . والوادي المقدّس المبارك المطهر ، وطوى اسم واد بالشأم عند الطور وقد مر في " طه " . قوله ﴿ هل لك ﴾ الجار والمجرور خبر مبتدأ محذوف أي هل لك حاجة أو ميل أو التفات ونحو ذلك ، وهذه كلمة جامعة لمواجب التكاليف لأن الملكف لا يصير زاكياً إلا بالتخلية عن كل ما لا ينبغي ، ويجوز أن يكون التزكي إشارة إلى تطهير النفس الفاسدة . قوله ﴿ وأهديك ﴾ إشارة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة أقلها

وأفضلها التوحيد المرتب على الخشية التي منها تنشأ جوامع الخيرات ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل " وعن بعض الحكماء : اعرفوا الله فمن عرفه لم يقدر أن يعصيه طرفه عين . ثم ههنا إضمار كأنه قال : فذهب موسى إلى فرعون فقال له ما أمر به فلم يصدقه فرعون وجحد نبوته ﴿ فأراه ﴾ وفي ابتداء المخاطبة بالاستفهام الذي معناه العرض من التلطف والمداراة ما لا يخفى فهو كقوله ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ [طه : 44] والآية الكبرى العصا أو اليد أو هما كما مر في " طه " ﴿ فكذب ﴾ بالقلب واللسان إذ نسب المعجز إلى السحر ﴿ وعصى ﴾ بإظهار التمرد الطغيان ﴿ ثم أدبر ﴾ خوفاً من الثعبان ﴿ يسعى ﴾ هارباً أو يتحيل في دفع موسى أو تولى عن موسى إظهاراً للجحود . وجوز أن يكون ﴿ أدبر ﴾ موضوعاً مكان " أقبل " مكان يقال : أقبل فلان يفعل كذا بمعنى طفق يفعل فكنى عن الإقبال بالإدبار إظهاراً للسخط ولقصد التفاؤل عليه . ومعنى الفاء في ﴿ فكذب ﴾ أنه لم يلبث عقيب رؤية الآية الكبرى أن بادرها بنقيض مقتضاها لفرط عتوّه ورسوخ تفرعنه . ومعنى " ثم " في ﴿ ثم أدبر ﴾ تراخي الرتبة فإن الهرب من الحية مع ادعاء الربوبية مما لا يجتمعان وكذا السعاية والمكيدة بين الناس ﴿ فحشر ﴾

جنوده للتشاور أو لجمع السحرة ﴿ فنادى ﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه أو أمر منادياً . وقيل : قام فيهم خطيباً فقال ما قال . وانتصب ﴿ نكال الآخرة ﴾ على أنه مصدر مؤكد كأنه قيل : نكل الله به نكالاً وهو مصدر كالتنكيل مثل السلام والتسليم . قال الحسن وقتادة : عذاب الآخرة الإحراق وعذاب الأولى الإغراق . وقيل : الآخرة والأولى صفتان لكلمتي فرعون . ثم اختلفوا فعن مجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل ورواية عطاء والكلبي عن ابن عباس أن كلمته الأولى ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] والثانية ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] وبينهما أربعون سنة أو عشرون ، وفيه دليل على أنه تعالى يمهل ولا يهمل .

وذكر قوم واستحسنه القفال أن كلمته الأولى تكذيب موسى حين أراه الآية ، والأخرى هي قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وقد يدور في الخلد أن كلمته الأولى هي قوله ﴿ أنا ربكم ﴾ والآخرة وصفه بالأعلى فإنه لو اقتصر على الأولى لم يكن كفراً بدليل قول يوسف ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ [يوسف : 50] ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ [يوسف : 23] لكنه لما وصفه بالأعلى صار كفراً فأخذه بالأولى والآخرة .

قال الإمم فخر الدين الرازي : إن العاقل لا يشك في نفسه أنه ليس خالق السموات والأرض وما بينهما ، فالوجه أن يقال : إن فرعون كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والجزاء وكان يقول ليس لأحد عليكم أمر ولا نهي سواي فأنا ربكم بمعنى مربيكم والمحسن إليكم . وأقول : كما أن نسبة الإنسان خلق العالم إلى نفسه يوجب الحكم عليه بالجنون وسخافة العقل فالقول بنفي الصانع ونسبة وجود الأشياء إلى ذواتها مع تغيرها في أنفسها يوجب الحكم عليه بعدم العقل فما الفرق بين الأمرين ؟ وأيّ استبعاد في ذلك وقد قال الله تعالى ﴿ إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى ﴾ [العلق : 7] وسكر الدنيا أشدّ من سكر الخمر فإن الثمل من الخمر يرجى صحوه والثمل من شراب حب المال والجاه الطافح من خيال الرياسة لا ترجى إفاقته . ثم ختم القصة بقوله ﴿ إن في ذلك ﴾ الحديث أو النكال وهو في العرف يقع على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به المعتبر ﴿ لعبرة لمن يخشى ﴾ أي يكون من أهل الخشية لا القسوة . ثم خاطب منكري البعث بقوله ﴿ أأنتم أشدّ ﴾ أي أصعب ﴿ خلقاً أم السماء ﴾ فنبههم على أمر معلوم بالمشاهدة وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ في القدرة . وإذا كان الله قادراً على إنشاء العالم الأكبر يكون على خلق العالم الأصغر بل على إعادته أقدر . ثم أشار إلى كيفية خلق السماء فقال ﴿ بناها ﴾ وفيه تصوير للأمر المعقول وهو الإبداع والاختراع بالأمر المحسوس وهو البناء . ثم ذكر هيئة البناء فقال ﴿

رفع سمكها ﴾ وهو الامتداد القائم على كل من امتدادي الطول والعرض . فإذا اعتبر من السفل إلى العلو يسمى سمكاً ، وإذا اعتبر بالعكس يسمى عمقاً . وذكر أهل التفسير أن ما بين كل سماء مسيرة خمسمائة عام . ولأهل الهيئة طريقة أخرى قد برهنوا عليها في كتبهم . قوله ﴿ فسوّاها ﴾ زعم أصحاب الهيئة أن المراد بهذه التسوية جعلها كرية ولا ضرر في الدين من هذا الاعتقاد . وحملها المفسرون على تمام التأليف أو على نفي الفطور عنها .

(158/801)

وأقول : من الجائز أن يراد بها جعلها طبقات مرتبة كقوله ﴿ فسوّاهن سبع سموات ﴾ [البقرة : 29] الغطش الظلمة يقال : غطش الليل وأغطشه الله . ويقال : أغطش الليل أيضاً مثل أضاء وأظلم . وعبر بالضحى عن النهار لأن الضحى أكمل أجزائه في النور والضوء . وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما بسبب غروب الشمس وطلوعها الحادثين بسبب حركة الفلك قوله ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قد مر تفسير الدحو في أول سورة " البقرة " وأن بعدية دحو الأرض لا تنافي تقدّم خلق الأرض على السماء في قوله

(159/801)

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ [البقرة : 29] قال أهل اللغة : دحوت أدحو ودحيت أدحى لغتان في حديث عليّ : اللهم داحي المدحيات أي باسط الأرضين السبع . وقد يروى عن ابن عباس ومجاهد والسدّي وابن جريج أن قوله ﴿ بعد ذلك ﴾ يعنى مع ذلك كقوله ﴿ فك رقبة ﴾ إلى قوله ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 17] أي كان مع هذا من أهل الإيمان بالله . ونصب ﴿ الأرض ﴾ ﴿ والجبال ﴾ فيما يجيء بإضمار دحى وأرسى على شريطة التفسير . قال المفسرون : أراد بالمرعى جميع ما يأكله الناس والأنعام فيكون الرعي مستعاراً للإنسان ولهذا قال ﴿ متاعاً ﴾ أي فعل كل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم . حين فرغ من دلائل القدرة على البعث رتب عليه شرح يوم القيامة . والطامة الداهية التي لا تطاق من قولهم طم الفرس طميماً إذا استفرغ جهده في المشي والجري فإذا وصفت بالكبرى كانت في غاية الفظاعة ونهاية الشدّة ، وفي أمثالهم " جرى الوادي فطم على القري " وهو مفرد وجمعه أقرية وقريان وهي الجداول والأنهار . وأصل الطم الدفن والغلب فكل ما غلب شيئاً وقهره وأخفاه فقد طمه . وقيل : الطامة النفخة الثانية عن الحسن . وقيل : هي الساعة التي يساق بها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار . قال جار الله : ﴿ يوم يتذكر ﴾ بدل من ﴿ إذا جاءت ﴾ لأنه إذا رأى أعماله مدوّنة مكتوبة تذكرها وكان قد نسيها . قوله ﴿ وبرزت

الجحيم لمن يرى ﴾ كقولهم " قد بين الصبح لذي عينين " وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد فعلى هذا يكون استعارة ولا يجب أن يراها كل أحد لأن الإخبار إنما وقع عن كونها بحيث لا تخفى على ذي بصر لا عن وقوع البصر . وقيل : إنها برزت الجحيم ليراها كل من له بصر وعلى هذا يجب أن يراها كل أحد إلا أن المؤمنين يمرون عليها كالبرق الخاطف ، وأما الكافرون فيقعون فيها فكأنها برزت لأجلهم فقط ، وبهذا الاعتبار قال في موضع آخر . ﴿ وبرّزت الجحيم للغاوين ﴾

(160/801)

[الشعراء : 91] وقوله ﴿ طغى ﴾ إشارة إلى فساد القوى النظرية فإن من عرف الله بالكمال عرف نفسه بالنقصان فلم يصدر عنه الطغيان . قوله ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ رمز إلى اختلال القوّة العمليةي فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة . واللام في ﴿ المأوى ﴾ للعهد الذهني أي مأواه اللائق به ولهذا استغنى عن العائد ولا حاجة إلى تكلف أن الألف ، واللام بدل من الإضافة . قوله ﴿ خاف مقام ربه ﴾ نقيض طغى . قوله ﴿ ونهى النفس ﴾ الأمارة ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ فهذا الشخص إذا كامل في قوّته النظرية والعملية .

وتفسير ﴿ خاف مقام ربه ﴾ قد مر في سورة الرحمن . ﴿ ونهى النفس ﴾ ضبطها وتوطينها على متاعب التكاليف من الأفعال والتروك .

(161/801)

ثم إن المشركين كانوا يسمعون النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الطامة والحاقة وغيرهما من أسماء القيامة فيسألون ﴿ أيان مرساها ﴾ أي زمان إرسائها وهو إقامة الله إياها وقد مر في آخر " الأعراف " . وعن عائشة رضي الله عنها لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت . وقوله ﴿ فيم أنت ﴾ على هذا تعجب من كثرة ذكره لها كأنه قيل : في أي شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها حرصاً على جوابهم إلى ربك منتهى علمها لم يؤته أحداً من خلقه . ويجوز أن يكون قوله ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ من تتمة السؤال أي يسألونك فيم أنت من العلم بها . ويحتمل أن يكون فيم إنكار سؤالهم أي فيم هذا السؤال . ثم قيل : أنت من ذكراها أي إرسالك وأنت آخر الرسل وخاتم الأنبياء ذكر من أذكارها وعلامة من علاماتها فلا حاجة إلى الاستفهام عن وقتها بعد العلم باقترابها ، فإن هذا القدر من العلم يكفي في وجوب الاستعداد لها بل لا يتم الغرض من التكليف إلا بإخفاء وقته كالموت ﴿ إنما أنت منذر ﴾ لا تتعداه إلى العلم بالغيب الذي

العلم بالساعة جزئي منه . وخص الإنذار بأهل الخشية لأنهم المنتفعون بذلك . ثم أخبر أنهم حين يرون الساعة يستقصرون مدّة لبثهم في الدنيا . وقيل : في القبور . روى عطاء عن ابن عباس أن الهاء والألف صلة والمعنى لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى . وقال النحويون : فيه إضمار والتقدير إلا عشية أو ضحى يوم تلك العشية على أن الإضافة في ﴿ ضحاها ﴾ يكفي فيها أدنى ملابسة وهو ههنا إجتماعهما في نهار واحد . قال صاحب الكشاف : فائدة الإضافة الدلالة على أن مدة لبثهم كانها لم تبلغ يوماً كاملاً . قلت : سلمنا أن هذه الفائدة مفهومة من عبارة القرآن إلا أنها تحصل أيضاً بتقدير عدم الإضافة كما لا يخفى فلا يصح أن تسند الفائدة إلى الإضافة وحدها . فالوجه أن يقال : فائدة الإضافة أن يعلم أن مجموع الدنيا في ظنهم كيوم واحد وزمان لبثهم في الدنيا كساعة منه عشية أو

(162/801)

ضحاها نظيره قول القائل " ما سرت إلا عشية أو ضحى " فإنه لا يفهم منه إلا السير في بعض يوما مّا ، وقد تكون العشية من يوم والضحى من يوم آخر . ولو قال " إلا عشية أو ضحاها " لم يمكن أن يكون السير إلا في أحد هذين الوقتين من يوم واحد . قال بعضهم : فائدة الترديد أن زمان المحنة يعبر عنه بالعشية وزمان الراحة يعبر عنه بالضحى فكأنه قيل :

ما كان عمرنا في الدنيا إلا هاتين الساعتين . أقول : ويحتمل أن يقال إن مبدأ اليوم بليلته كان قبل شرعنا في أكثر الأديان من نصف النهار وقد صار المبدأ في شرعنا من أول الفجر وكأنهم حين أرادو التعبير عن بعض اليوم . قالوا : إن كان المبدأ من نصف النهار فنحن لم نلبث إلا عشية وهو ما بعد الزوال إلى الغروب ، وإن كان المبدأ من أول الفجر فلم نلبث إلا من الفجر إلى الضحى فلعل هذا هو السر في تقديم العشية على الضحى مع رعاية الفاصلة والله أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 438 .

444 ﴾

(163/801)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة النازعات

مكية وهي خمس أو ست وأربعون آية ومائةوسبعون كلمة وسبعمائة وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاط علمه بالكائنات ﴿ الرحمن ﴾ الذي أنعم على سائر الموجودات ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بالجنات

﴿ والنازعات ﴾ أي : الملائكة تنزع أرواح الكفار ﴿ غرقاً ﴾ أي : تنزع أرواحهم من

أجسادهم بشدّة كما يغرق النازع في القوس ليبلغ بها غاية المدّ بعدما نزعها ، حتى إذا كادت تخرج ردّها إلى جسده فهذا عملهم بالكفار . وقال عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما : يريد نفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم من تحت كل شعرة ومن تحت الأظافير وأصول القدمين نزعاً كالسفود ينزع من الصوف الرطب ، ثم يغرقها أي : يرجعها إلى أجسادهم ثم ينزعها ، فهذا عمله في الكفار .

وقال السدّي رضي الله عنه : والنازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور ، وقال مجاهد رضي الله عنه : هي الموت ينزع النفوس . وقال الحسن وقتادة رضي الله عنهم : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق تطلع ثم تغيب . وقال عطاء وعكرمة رضي الله عنهم : هي النفوس ، وقيل : الغزاة .

تنبيه : غرقاً يجوز أن يكون مصدراً على حذف الزوائد بمعنى إغراقاً ، وانتصابه بما قبله لملاقاته في المعنى ، وأن يكون على الحال أي : ذوات إغراق .

يقال : أغرق في الشيء يغرق فيه إذا أوغل وبلغ أقصى غايته .

﴿ والناشطات نشطاً ﴾ أي : الملائكة تنشط أرواح المؤمنين أي : تسلها برفق فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه .

وفي الحديث : "كأنما نشط من عقال" . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : "هي أنفس المؤمنين تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة ؛ لأنّ الجنة تعرض عليهم قبل الموت" . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : "هي الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكد والغم" والنشط الجذب والنزع ، يقال : نشط الدنو نشطاً انتزعها" . وقال السدّي رضي الله عنه : هي النفس تنشط من بين القدمين ، أي : تجذب ، وقال قتادة رضي الله عنه : هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، أي : تذهب . يقال : نشط من بلد إلى بلد إذا خرج في سرعة ، ويقال حمار ناشط ينشط من بلد إلى بلد . وقال الجوهري : يعني النجوم تنشط من برج إلى برج ، كالثور الناشط من بلد إلى بلد .

﴿ والسابحات سبحاً ﴾ أي : الملائكة تسبح من السماء بأمره أي : ينزلون من السماء مسرعين كالفرس الجواد . يقال له : سابح إذا أسرع في جريه ، وقال عليّ رضي الله عنه : هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين . قال الكلبي : كالذي يسبح في الماء ، فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع يسلونها سلاً رفيقاً بسهولة ، ثم يدعونها حتى تستريح . وعن مجاهد رضي الله عنه : السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم . وقال قتادة والحسن رضي الله عنهم : هي النجوم تسبح في أفلاكها ، وكذا الشمس والقمر ، قال تعالى : ﴿ كل في فلك

يسبحون ﴾ (الأنبياء :)

. وقال عطاء : هي السفن في الماء . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله تعالى ورحمته حتى تخرج ، وقيل : هي خيل الغزاة ، قال عنترة:

*والخيل تعلم حين تس ** بح في حياض الموت سبحا *

(165/801)

﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ أي : الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، وقال مجاهد رضي الله عنه : هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله تعالى وكرامته ، وقد عاينت السرور . وقال قتادة رضي الله عنه : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير . وقال عطاء : هي الخيل التي تسبق في الجهاد ، وقيل : هي ما يسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار . قال الجرجاني : ذكر السابقات بالفاء لأنها مسببة عن الذي قبلها ، أي : واللاتي يسبحن فيسبقن .

قال الواحدي : وهذا غير مطرد في قوله تعالى : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ أي : الملائكة تدبر أمر الدنيا ، أي : تنزل بتدبيره . قال الرازي : ويمكن الجواب بأنها لما أمرت سبحت

فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المدبرات هي الملائكة وكلوا بأمور عرّفهم الله تعالى العمل بها .

قال عبد الرحمن بن سابط : يدبر الأمر في الدنيا أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل عليهم السلام ، فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فوكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فوكل بقبض الأرواح ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وليس في الملائكة أقرب منه وبينه وبين العرش خمسمائة عام . وقيل : هي الكواكب السبع ، حكي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

وفي تدبيرها بالأمور وجهان : أحدهما تدبير طلوعها وأفولها ، والثاني في تدبير ما قضى الله تعالى فيها من تقليب الأحوال أقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور على قيام الساعة والبعث ، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه ، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه ، وأما العباد فلا يصح لهم أن يقسموا بغير الله تعالى وصفاته .

(166/801)

وقوله تعالى : ﴿ يوم ترجف ﴾ أي : تضطرب اضطراباً كثيراً مزعجاً ﴿ الراجفة ﴾ أي : الصيحة منصوب بالجواب ، أي : لتبعثنّ يا كفار مكة ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ وهي

النفخة الأولى بها يرجف كل شيء ، أي : يتزلزل ويتحرّك لها كل شيء ، ويموت منها جميع الخلائق فوصفت بما يحدث منها . ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ أي : الصيحة التابعة لها وهي النفخة الثانية ، ردفت الأولى وبينهما أربعون سنة ، والجملة حال من الراجفة واليوم واسع للنفختين وغيرهما ، فصح ظرفيته للبعث الواقع عقيب الثانية . وقال قتادة رضي الله عنه : هما صيحتان فالأولى تميت كل شيء والأخرى تحيي كل شيء بإذن الله سبحانه وتعالى ، وقال عطاء : الراجفة القيامة والرادفة البعث . روي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام وقال : يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه" .

﴿ قلوب يومئذ ﴾ أي : إذ قام الخلائق بالصيحة التابعة للأولى ﴿ واجفة ﴾ أي : خائفة قلقة مضطربة من الوجيف وهو صفة القلوب ، وقال مجاهد رضي الله عنه : وجلة . وقال السدّي : زائلة عن أماكنها ، نظيره ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ (غافر :)

﴿ أبصارها ﴾ أي : أبصار أصحابها ، فهو من الاستخدام ﴿ خاشعة ﴾ أي : ذليلة من الخوف ، ولذا أضافها إلى القلوب ، كقوله تعالى : ﴿ خاشعين من الذل ﴾ (الشورى :)

﴿ يقولون ﴾ أي : أرباب القلوب والأبصار في الدنيا استهزاء وإنكاراً للبعث ﴿ أئنا لمردودون ﴾ أي : بعد الموت ﴿ في الحافرة ﴾ أي : في الحياة التي كنا فيها قبل الموت ، وهي حالتنا الأولى ، فنصير أحياء بعد الموت كما كنا ، تقول العرب : رجع فلان في حافرته ، أي

: رجع من حيث جاء ، والحافرة عندهم اسم لابتداء الشيء وأوّل الشيء . وقال بعضهم : الحافرة وجه الأرض التي تحفر فيها قبورهم ، سميت حافرة بمعنى المحفورة . كقوله تعالى : ﴿ عيشة راضية ﴾ (الحاقة :)

(167/801)

أي : مرضية ، وقيل : سميت حافرة لأنها مستقرّ الحوافر ، أي : إنا لمردودون إلى الأرض فنبعث خلقاً جديداً نمشي عليها ، وقال ابن زيد : الحافرة النار .

﴿ أئذا كنا ﴾ أي : كوناً صار جبلة لنا . ﴿ عظاماً نخرة ﴾ أي : بالية متفتتة نحيى بعد ذلك ، وقرأ : أئنا وإذا نافع وابن عامر والكسائي بالاستفهام في الأوّل والخبر في الثاني ، والباقون بالاستفهام فيهما ، وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو والباقون بالتحقيق ، وأدخل بين الهمزتين قالون وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ألفاً والباقون بغير إدخال .

وقرأ نخرة حمزة وشعبة والكسائي بالألف بعد النون والباقون بغير ألف ، وهما لغتان ، مثل : الطمع والطامع ، والحذر والحاذر ، معناهما البالية ، وفرق قوم بينهما فقالوا : النخرة البالية ، والنخرة المجوّفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي : تصوّت .

﴿ قالوا ﴾ أي : المنكرون للبعث ﴿ تلك ﴾ أي : رجعتنا العجيبة إلى الحياة ﴿ إذاً ﴾ أي

: إن صحت ﴿كرّة﴾ أي : رجعة ﴿خاسرة﴾ أي : ذات خسران أو خسار أصحابها ، والمعنى : إن صحت فنحن إذاً خاسرون بتكذيبنا وهو استهزاء منهم . وعن الحسن رضي الله عنه أن خاسرة بمعنى كاذبة ، أي : ليست كائنة .

قال الله تعالى : ﴿فإنما هي﴾ أي : الرادفة التي يتبعها البعث ﴿زجرة﴾ أي : صيحة بانتهار تتضمن الأمر بالقيام والسوق إلى المحشر والمنع من التخلف ﴿واحدة﴾ عبر بالزجرة لأنه أشدّ من النهي ، لأنها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلاً فكان كأنه بلسان قال عن تلك الصيحة : أيها الأجساد البالية انتهي عن الرقاد وقومي إلى الميعاد بما حكمنا به من المعاد ، فقد انتهى زمن الحصاد ، وآن أوان الاجتناء لما قدّم من الزاد ، فيا خسارة من ليس له زاد .

(168/801)

﴿فإذا هم﴾ أي : فتسبب عن تلك النفخة وهي الثانية أن كل الخلائق ﴿بالساهرة﴾ أي : صاروا على وجه الأرض بعد ما كانوا في جوفها . والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهرة ، قال بعض أهل اللغة : تراهم سموها ساهرة لأنّ فيها نوم الحيوان وسهرهم . قال سفيان رضي الله عنه : هي أرض الشام ، وقال قتادة رضي الله عنه : هي جهنم .

فإن قيل : بم يتعلق ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ ؟

أجيب : بأنه متعلق بمحذوف معناه لا تستصعبوها ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ يعني : لا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله تعالى ، فإنها سهلة هينة في قدرته تعالى .

وقال الزمخشري : الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك ، لأنّ السراب يجري فيها من قولهم : عين ساهرة أي : جارية الماء وفي ضدها نائمة . قال الأشعث بن قيس:

*وساهرة يضحى السراب مجللاً ** لأقطارها قد جبتها متلثما *

أو لأنّ سالكها لا ينام خوف الهلكة . وقال الراغب : هي وجه الأرض . وقيل : أرض القيامة ، وحقيقتها التي يكثر الوطء بها كأنها سهرت من ذلك ، والأسهران عرقان في الأنف ، والساهور غلاف القمر الذي يدخل فيه عند كسوفه . وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الساهرة أرض من فضة لم يعص الله عليها قط جعلها حينئذ ، وقيل : الساهرة اسم للأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدّل الأرض غير الأرض وقال وهب بن منبه : جبل بيت المقدس . وقال عثمان بن أبي العاتكة : إنه اسم مكان من الأرض بعينه بالشأم ، وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان يمدّه الله تعالى كيف شاء .

ثم إنّ الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ هل أتاك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ حديث موسى ﴾ أي : أليس قد أتاك حديثه ، فيسليك على تكذيب قومك ويهدّدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم ، فإنه كان أقوى أهل الأرض بما كان له من كثرة الجنود فلما أصرّ على التكذيب ولم يرجع ولا أفاده التأديب أغرقناه وآله ، ولم نبقِ منهم أحداً ، وقد كانوا لا يحصون عدداً بحيث قيل : إنّ طليعته كانت على عدد بني إسرائيل ستمائة ألف فكيف بقومك الضعاف .

وقوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ ناداه ﴾ منصوب بحديث لا بأتاك ﴿ ربه ﴾ أي : المحسن إليه بالرسالة وغيرها ﴿ بالواد المقدّس ﴾ أي : المطهر غاية الطهر بتشريف الله تعالى له بإنزال النبوّة المفيضة للبركات . وقوله تعالى : ﴿ طوى ﴾ اسم الوادي وهو الذي طوي فيه الشرّ عن بني إسرائيل ، ومن أراد الله تعالى من خلقه ونشر فيه بركات النبوّة على جميع أهل الأرض المسلم بإسلامه وغيره برفع عذاب الاستئصال عنه ، فإن العلماء قالوا : إنّ عذاب الاستئصال ارتفع حين أنزلت التوراة ، وهو واد بالطور بين إيلة ومصر ، وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بغير تنوين في الوصل والباقون بالتنوين .

وقوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ أي : ملك مصر الذي كان يستعبد بني إسرائيل على إرادة القول ﴿ إنه طغى ﴾ أي : تجاوز الحدّ في الكفر وعلا وتكبر .

وقال الرازي : لم يبين أنه طغى في أي شيء ، فقيل : تكبر على الله تعالى وكفر به ، وقيل :

تكبر على الخلق واستعبدهم .

وروي عن الحسن رضي الله عنه قال : كان فرعون علجاً من همدان ، وقال مجاهد رضي الله عنه : كان من أهل إصطخر . وعن الحسن أيضاً : كان من أصبهان يقال له : ذو الظفر طوله أربعة أشبار .

(170/801)

وقوله تعالى : ﴿ فقل ﴾ أي : له ﴿ هل لك ﴾ أي : هل لك سبيل ﴿ إلى أن تزكى ﴾ أي : تتطهر من الكفر والطغيان . قال ابن عباس رضي الله عنهما : بأن تشهد أن لا إله إلا الله . وقال أبو البقاء : لما كان المعنى أدعوك جاء بإلى ، وقال غيره : يقال هل لك في كذا ، وهل لك إلى كذا كما تقول : هل ترغب فيه وهل ترغب إليه . وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي ، والأصل تتزكى والباقون بتخفيفها .

﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أي : وأنبهك على معرفة المحسن إليه ﴿ فتخشى ﴾ لأنّ الخشية لا تكون إلا بالمعرفة قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر :) أي : العلماء به ، وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر من خشي الله تعالى أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شرّ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ

المنزل" بدأ بمخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ، وأردفه الكلام الرفيق ليستدعيه للتلطف في القول ويستنزله بالمداراة من علوه كما أمر بذلك في قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ (طه :)

الآية . وقال الرازي : سائر الآيات تدل على أنه تعالى لما نادى موسى عليه السلام ذكر له أشياء كثيرة ﴿ نودي إني أنا ربك ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ (طه : ـ)

فدل قوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أنه من جملة ما ناداه به لا كل ما ناداه به ، وأيضاً فليس الغرض أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى فرعون فقط ، بل إلى كل من كان في الطور إلا أنه خصه بالذكر لأنّ دعوته جارية مجرى كل القوم .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فأراه ﴾ عاطفة على محذوف يعني : فذهب فأراه ﴿ الآية الكبرى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ اضرب بعصاك الحجر فانفجرت ﴾ (البقرة :)

أي : فضرب فانفجرت .

(171/801)

واختلفوا في الآية الكبرى أي : العلامة العظمى وهي المعجزة . فقال عطاء وابن عباس رضي الله عنهم : هي العصا . وقال مقاتل والكلبي رضي الله عنهما : هي اليد البيضاء تبرق كالشمس ، والأوّل أولى لأنه ليس في اليد إلا انقلاب لونها ، وهذا حاصل في العصا لأنها لما انقلبت حية لا بدّ وأن يتغير اللون الأوّل ، فإذن كل ما في اليد فهو حاصل في العصا ، وأمور أخر وهي الحياة في الجرم الجمادي وتزايد أجزائه ، وحصول القدرة الكبيرة والقوّة الشديدة وابتلاعها أشياء كثيرة وزوال الحياة والقدرة عنها ، وذهاب تلك الأجزاء التي عظمت ، وزوال ذلك اللون والشكل اللذين صارت العصا بهما حية ، وكل واحد من هذه الوجوه كان معجزاً مستقلاً في نفسه ، فعلمنا أنّ الآية الكبرى هي العصا . وقال مجاهد رضي الله عنه : هي مجموع العصا واليد ، وقيل : فلق البحر ، وقيل : جميع آياته التسع .

﴿ فكذب ﴾ أي : فتسبب عن رؤيته ذلك أن كذب موسى عليه السلام ﴿ وعصى ﴾ الله تعالى بعد ظهور الآية وتحقيق الأمر ، وقيل : كذب بالقول وعصى بالتمرّد والتجبر .

﴿ ثم أدبر ﴾ أي : تولى وأعرض عن الإيمان بعد المهل والأناة إعراضاً عظيماً بالتمادي على أعظم ما كان فيه من الطغيان بعد خطوب جليلة ومشاهد طويلة ، حال كونه

﴿ يسعى ﴾ أي : يعمل بالفساد في الأرض ، أو أنه لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسعى أي : يسرع في مشيته . قال الحسن رضي الله عنه : كان رجلاً طياشاً خفيفاً ، وتولى عن موسى

عليه السلام يسعى ويجتهد في مكايدته ، أو أريد : ثم أقبل يسعى كما تقول : أقبل فلان يفعل كذا بمعنى أنشأ يفعل ، فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالإقبال .

(172/801)

﴿ فحشر ﴾ أي : فتسبب عن إدباره أنه جمع السحرة للمعارضة وجنوده للقتال

﴿ فنادى ﴾ حينئذ بأعلى صوته . قال حمزة الكرماني : قال له موسى عليه السلام : إنّ ربي أرسلني إليك لئن آمنت بربك تكون أربعمائة سنة في النعيم والسرور ، ثم تموت فتدخل الجنة فقال : حتى أستشير هامان فاستشاره ، فقال : أتصير عبداً بعدما كنت رباً ، فعند ذلك جمع بعث الشرط وجمع السحرة والجنود .

فلما اجتمعوا قام عدوّ الله على سريره ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ أي : لا رب فوقي ، وقيل : أراد أنّ الأصنام أرباب وأنا ربها وربكم ، وقيل : أمر منادياً فنادى في الناس بذلك ، وقيل : قام فيهم خطيباً فقال ذلك .

﴿ فأخذه الله ﴾ أي : أهلكه بالغرق الملك الأعظم الذي لا كفء له ﴿ نكال ﴾ أي : عقوبة ﴿ الآخرة ﴾ أي : هذه الكلمة وهي قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ . ﴿ والأولى ﴾ وهي قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ (القصص :)

. قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، والمعنى : أمهله في الأولى ثم أخذه في الآخرة فعذبه بكلمتيه . وقال الحسن رضي الله عنه : ﴿ نكال الآخرة والأولى ﴾ هو أن أغرقه في الدنيا وعذبه في الآخرة . وعن قتادة رضي الله عنه : الآخرة هي قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى تكذيبه لموسى عليه السلام .

ثم إنه تعالى ختم هذه القصة بقوله تعالى : ﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم الذي فعله فرعون والذي فعل به حين كذب وعصى ﴿ لعبرة ﴾ أي : لعظة ﴿ لمن يخشى ﴾ أي : لمن يخاف الله تعالى لأنّ الخشية أساس الخير كما مرّت الإشارة إليه .

ثم خاطب تعالى منكري البعث بقوله تعالى:

(173/801)

﴿ أأنتم ﴾ أي : أيها الأحياء مع كونكم خلقاً ضعيفاً ﴿ أشدّ خلقاً ﴾ أي : أخلقكم بعد الموت أشدّ في تقديركم ﴿ أم السماء ﴾ أي : فمن قدر على خلق السماء على عظمها من السعة والكبر والعلوّ والمنافع قدر على الإعادة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (غافر :) ، والمقصود من الآية الاستدلال على منكري البعث ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق

مثلهم ﴾ (يس :)

ومعنى الكلام التقريع والتوبيخ ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، والباقون بتحقيقهما ، وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو وهشام ، والباقون بغير إدخال .

وقوله تعالى : ﴿ بناها ﴾ بيان لكيفية خلقه إياها فالوقف على السماء والابتداء بما بعدها وقوله تعالى : ﴿ رفع سمكها ﴾ جملة مفسرة لكيفية البناء ، والسمك الارتفاع أي : جعل مقدارها في سمت العلوّ مديداً رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ﴿ فسوّاها ﴾ أي : فعدلها مستوية ملساء ليس فيها تفاوت ولا فطور ، أو فتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها من قولك : سوّى فلان أمر فلان .

﴿ وأغطش ﴾ أي : أظلم ﴿ ليلها ﴾ أي : جعله مظلماً بغياب شمسها فأخفى ضياءها بامتداد ظل الأرض على كل ما كانت الشمس ظهرت عليه ، فصار لا يهتدي معه إلى ما كان في حال الضياء ، وأضاف الليل إلى السماء لأنّ الليل يكون بغروب الشمس والشمس تضاف إلى السماء . ويقال : نجوم الليل ، لأنّ ظهورها بالليل .

وقوله تعالى : ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ فيه حذف ، أي : ضحى شمسها ، أو أضاف الليل والضحى لها للملابسة التي بينها وبينهما لأنّ الليل ظلها والشمس هي السراج المثقب في جوّها ، وإنما عبر عن النهار بالضحى ؛ لأنّ الضحى أكمل أجزاء النهار بالنور والضوء .

﴿ والأرض بعد ذلك ﴾ أي : بعد المذكور كله ﴿ دحاها ﴾ أي : بسطها ومهدها للسكنى وبقية المنافع ، وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو فلا معارضة بينها وبين آية فصلت ؛ لأنه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض . قال ابن عباس رضي الله عنهما : خلق الله تعالى الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء فسوّاها سبع سموات ثم دحا الأرض بعد ذلك . وقيل : معناه والأرض مع ذلك دحاها كقوله تعالى : ﴿ عتلّ بعد ذلك ﴾ (القلم :)

أي : مع ذلك ، ومنه قولهم : أنت أحمق ، وأنت بعد هذا سيء الخلق .

وقيل : بعد بمعنى قبل كقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ (الأنبياء :)

أي : من قبل ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : خلق الله تعالى الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام ، ثم دحيت الأرض من تحت البيت .

﴿ أخرج منها ﴾ أي : الأرض ﴿ ماءها ﴾ أي : بتفجير عيونها ، وإضافتها إليها دليل على أنه مودوع فيها ﴿ ومرعاها ﴾ أي : النبات الذي يرعى مما يأكله الناس والأنعام من

العشب والشجر والثمر والحب حتى النار والملح ، لأنّ النار من العيدان قال تعالى :

﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ (الواقعة :)

الآية ، والملح من الماء ، واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ يرتع ويلعب ﴾ (يوسف :)

والمرعى في الأصل موضع الرعي .

تنبيه : أخرج حال بإضمار قد أي : مخرجاً ، وإضمار قد هو قول الجمهور وخالف الكوفيون والأخفش .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أي : أثبتها على وجه الأرض لتسكن ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ والجبال أوتاداً ﴾ (النبأ :)

وقوله تعالى : ﴿ متاعاً ﴾ مفعول له لمقدّر ، أي : فعل ذلك منفعة أو مصدر لعامل مقدّر أي : متعكم تمتيعاً .

﴿ لكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولأنعامكم ﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم ، وذكر الأنعام لكثرة الانتفاع بها .

(175/801)

﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ أي : الداهية التي تطم على الدواهي أي : تعلو وتغلب ، وفي أمثالهم : جرى الوادي فطم على القرى ، قال ابن عباس : وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث . وقال الضحاك : هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء فتغمره . وقال القاسم بن الوليد الهمداني : هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يتذكر ﴾ أي : تذكراً عظيماً ﴿ الإنسان ﴾ أي : الخلق الآنس بنفسه الغافل عما خلق له بدل من إذا ﴿ ما سعى ﴾ في الدنيا من خير أو شرّ ، يعني : إذا رأى أعماله مدوّنة في كتابه تذكرها ، وكان قد نسيها كقوله تعالى : ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ (المجادلة :)

وما في ﴿ ما سعى ﴾ موصولة أو مصدرية .

﴿ وبرّزت الجحيم ﴾ أي : أظهرت النار المحرقة إظهاراً بيناً مكشوفاً ﴿ لمن يرى ﴾ أي : لكل راء ، كقولهم : قد تبين الصبح لذي عينين ، يريدون لكل من له بصر ، وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد ، لكن الناجي لا ينصرف بصره إليها فلا يراها ، كما قال تعالى : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ (الأنبياء :)

وجواب إذا قوله : ﴿ فأمّا من طغى ﴾ أي : تجاوز الحد في العدوان حتى كفر بربه ﴿ وآثر ﴾ أي : قدّم واختار ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي : انهمك فيها ولم يستعدّ للآخرة

بالعبادة وتهذيب النفس ﴿ فإنّ الجحيم ﴾ أي : النار الشديدة التوقد العظيمة ﴿ هي ﴾ أي : خاصة ﴿ المأوى ﴾ أي : مأواه كما تقول للرجل : غض الطرف ، تريد طرفك ، وليست الألف واللام بدلاً عن الإضافة ، ولكن لما علم أنّ الطاغي هو صاحب المأوى ، وأنه لا يغض الرجل طرف غيره تركت الإضافة .

تنبيه : ﴿ هي ﴾ يجوز أن تكون فصلاً أو مبتدأ .

﴿ وأمّا من خاف مقام ربه ﴾ أي : قيامه بين يديه لعلمه بالمبدأ وبالمعاد ، وقال مجاهد : خوفه في الدنيا من الله تعالى عند مواقعة الذنب فيقلع عنه نظيره ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن :)

(176/801)

﴿ ونهى النفس ﴾ أي : الأمارة بالسوء ﴿ عن الهوى ﴾ وهو اتباع الشهوات وزجرها عنها وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير .

﴿ فإنّ الجنة ﴾ أي : البستان لكل ما يشتهى ﴿ هي ﴾ أي : خاصة ﴿ المأوى ﴾ أي : ليس له سواها مأوى ، وحاصل الجواب أنّ العاصي في النار والطائع في الجنة . قال الرازي : هذان الوصفان مضادان للوصفين المتقدّمين فقوله تعالى : ﴿ فأما من خاف مقام ربه ﴾

ضد قوله تعالى : ﴿ فأما من طغى ﴾ . ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ضد قوله تعالى : ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ فكما دخل في ذينك الوصفين جميع القبائح دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات . وقال عبد الله بن مسعود : أنتم في زمان يقود الحق الهوى ، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق ، فتعوّذوا بالله من ذلك الزمان .

تنبيه : اختلف في سبب نزول هاتين الآيتين ، فقيل : نزلتا في مصعب بن عمير وأخيه . روى الضحاك عن ابن عباس قال : ﴿ أمّا من طغى ﴾ فهو أخو مصعب بن عمير أسر يوم بدر وأخذته الأنصار فقالوا : من أنت ، قال : أنا أخو مصعب بن عمير فلم يشدّوه في الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدّثوا مصعب بن عمير حديثه ، فقال : ما هو لي بأخ شدّوا أسيركم ، فإنّ أمّه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً ، فأوثقوه حتى تبعث أمّه فداءه ، ﴿ وأمّا من خاف مقام ربه ﴾ فمصعب بن عمير وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه ، والمشاقص جمع مشقص وهو السهم العريض ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم متشحطاً في دمه قال صلى الله عليه وسلم "عند الله أحتسبك" وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإنّ شراك نعله من ذهب" وعن ابن عباس أيضاً : نزلت في رجلين أبي جهل بن هشام ومصعب بن عمير . وقال السدي : نزلت الآية الثانية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقال الكلبي : هما عامّتان .

ولما سمع المشركون أخبار القيامة ووصفها بالأوصاف الهائلة مثل الطامّة الكبرى والصاخة والقارعة وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً متى تكون الساعة؟ نزل: ﴿ يسئلونك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ عن الساعة ﴾ أي: البعث الآخر لكثرة ما تتوعدهم به من أمرها ﴿ أيان مرساها ﴾ أي: في أي وقت إرساؤها، أي: إقامتها أرادوا متى يقيمها الله تعالى ويثبتها ويكوّنها، أو أيان منتهاها ومستقرّها، كما أنّ مرسى السفينة مستقرّها حيث تنتهي إليه.

فأجابهم الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿ فيم ﴾ أي: في أي شيء ﴿ أنت من ذكراها ﴾ أي: من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به.

تنبيه: ﴿ فيم ﴾ خبر مقدّم و﴿ أنت ﴾ مبتدأ مؤخر و ﴿ من ذكراها ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، والمعنى: أنت في أي شيء من ذكراها، أي: ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيء. وعن عائشة رضي الله عنها "لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت" فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: في أيّ شغل واهتمام أنت من ذكراها والسؤال عنها، والمعنى: أنهم يسألونك عنها فلحرصك

على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها .

﴿ إلى ربك ﴾ أي : المحسن إليك بأنواع النعم ﴿ منتهاها ﴾ أي : منتهى علمها لم يؤت علمها أحداً من خلقه كقوله تعالى : ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ (الأعراف :)

وقوله تعالى : ﴿ إنّ الله عنده علم الساعة ﴾ (لقمان :)

قال القرطبي : ويجوز أن يكون إنكاراً على المشركين في مسألتهم ، أي : فيم أنت من ذلك حتى يسألونك ، بيانه : ولست ممن يعلمه . روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل : الوقف على قوله تعالى : ﴿ فيم ﴾ وهو خبر مبتدأ مضمر أي : فيم هذا السؤال ، ثم يبتدأ بقوله تعالى : ﴿ أنت من ذكراها ﴾ أي : أرسلناك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث في فم الساعة ذكر من ذكراها وعلامة من علاماتها فكفاهم بذلك دليلاً على دنوّها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ، ولا معنى لسؤالهم عنها .

(178/801)

﴿ إنما أنت ﴾ أي : يا أشرف الرسل ﴿ منذر ﴾ أي : إنما بعثت لإنذار ﴿ من يخشاها ﴾ أي : لتخويف من يخاف هولها ، وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى ؛ لأنه المنتفع به ، أي : إنما ينفع إنذارك من يخافها وإن كنت منذر الكل مكلف .

﴿ كأنهم ﴾ قال البغوي : يعني : كفار قريش ﴿ يوم يرونها ﴾ أي : يعلمون قيام الساعة علماً هو كالرؤية ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور مع علمهم بما مرّ من زمانهم وما أتى فيه ﴿ لم يلبثوا ﴾ أي : في الدنيا أو في القبور ﴿ إلا عشية ﴾ أي : من الزوال إلى غروب الشمس ﴿ أو ضحاها ﴾ أو ضحى عشية من العشايا وهو البكرة إلى الزوال ، والعشية بعد ذلك أضيف إليها الضحى ؛ لأنها من النهار ، والإضافة تحصل بأدنى ملابسة ، وهي هنا كونهما من نهار واحد ، فالمراد ساعة من نهار من أوّله أو آخره لم يستكملوا نهاراً تامّاً ، ولم يجمعوا بين طرفيه ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع" .

فإن قيل : هلا قال : إلا عشية أو ضحى ، وما فائدة الإضافة ؟

أجيب : بأنّ ذلك للدلالة على أنّ مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوماً كاملاً ، ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضافه على عشيته فهو كقوله تعالى : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ (الأحقاف :)

وحسن الإضافة وقوع الكلمة فاصلة .

تنبيه : قرأ ﴿ حديث موسى ﴾ ، ﴿ طوى ﴾ ، ﴿ طغى ﴾ ، ﴿ تزكى ﴾ ، ﴿ فتخشى ﴾ ، ﴿ وعصى ﴾ ، ﴿ يسعى ﴾ ، ﴿ فنادى ﴾ ، ﴿ الأعلى ﴾ ، ﴿ والأولى ﴾ ، ﴿ يخشى ﴾ ، ﴿ ما سعى ﴾ ، ﴿ طغى ﴾ ، ﴿ الدنيا ﴾ ،

﴿ المأوى ﴾ ، ﴿ عن الهوى ﴾ ، ﴿ المأوى ﴾ ، حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش وأبو عمرو بين وبين ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين . وقرأ ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ ، ﴿ الطامّة الكبرى ﴾ ﴿ لمن يرى ﴾ ، ﴿ من ذكراها ﴾ ، أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح في الجميع .

(179/801)

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله تعالى في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة مكتوبة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 243.255 ﴾

(180/801)

وقال القاسمى :

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾

يعني الغزاة أو أيديهم ، يقال للرامي : نزع في قوسه ، إذا مدّها بالوتر ، و : نزع في قوسه فأغرق ، و : أغرق النازع في القوس ، إذا استوفى مدّها ، ويضرب مثلاً للغلوّ والإفراط . و ﴿ غَرْقاً ﴾ بمعنى إغراقاً كالسلام بمعنى التسليم ، وهو الإغراق بحذف الزوائد . أو ﴿ النازعات ﴾ الكواكب . من : نزع الفرس سنناً ، جرى طلقا ، أي : الجاريات على السير المقدر والحدّ المعين ، مجدّةً في السير ، مسرعة للغاية .

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾ أي : الخيل لأنها تخرج من دار إلى دار ، من قولهم : ثور ناشط ، إذا خرج من بلد إلى بلد . أو هي السهام ، يعني خروجها عن أيدي الرماة ونفوذها ، وكل شيء حللت فقد نشطته ، ومنه : نشاط الرجل وهو انبساطه وخفته ، أو الكواكب تنشط من بُرْج على برج .

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾ أي : الخيل تسبح في عَدْوها فتسبق إلى العدّو ، وهو مستعار من : سبح في الماء ، لكنه ألحق بالحقيقة لشهرته . أو هي الكواكب تسبح في الفلك ؛ لأن مرورها في الجو كالسبح ، كما قال تعالى :

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] , ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ أي : الخيل تسبق إلى العدوّ في حَوْمة الوَغَى ، أو الكواكب السيارة تسبق غيرها في السير ، لكونها أسرع حركة .

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ أي : الخيل . أسند إليها أمر تدبير الظفر مجازاً لأنها سببه . أو المدبرات مثل المعقبات ، أي : أنه يأتي في أدبار هذا الفعل – الذي هو نزع السهام وسبح الخيل وسبقها – الأمرُ الذي هو النصر ، أو هي الكواكب تدبر أمراً نيط بها ، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات ، مجازاً أيضاً . لأنها سببه ، أو هي الملائكة تدبر ما نيط بها من أمر الله تعالى . وقد جوّز فيما قبلها أن تكون الملائكة أيضاً . واللفظ الكريم متسع لما ذكر من المعاني بلا تدافع . ولا إمكان للجزم بواحد ؛ إذ لا قاطع ، ولذا قال ابن جرير : الصواب عندي أن يقال : إنه تعالى أقسم بالنازعات غرقا ، ولم يخصص نازعة دون نازعة . فكلُّ نازعة غرقاً ، فداخلة في قسَمه مَلَكاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . وكذا عم القَسَم بجميع الناشطات من موضع إلى موضع ، فكلُّ ناشط فداخل فيما أقسم به ، إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها ، بأن المعنى بالقسم من ذلك بعض دون بعض ، وهكذا في البقية . وكلامه رحمه الله متجه للغاية ؛ إذ فيه إبقاء اللفظ على شموله ، وهو أعم فائدة وعدم التكلف للتخصيص بلا قاطع . وإن كانت القرائن واستعمال موادها في مثلها وشواهدها ، مما قد يخصص الصيغ . إلا أن التنزيل الكريم يُتَوَقَّى في التسرع فيه ما

لا يُتَوَقى في غيره .

لطائف :

قال أبو السعود : العطف مع اتحاد الكل ، بتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما في قوله :

~إلى المِلكِ القَرْمِ وابن الهُمَامِ ولَيْث الكَتِيبةِ في المُزْدَحَمْ

للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيقٌ بأن يكون على حياله مُناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام ، بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه . والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما بغير مهلة .

(182/801)

و ﴿ غَرْقاً ﴾ مصدر مؤكد بحذف الزوائد . وانتصاب ﴿ نَشْطاً ﴾ و ﴿ سَبْحاً ﴾ و ﴿ سَبْقاً ﴾ أيضاً على المصدرية ، وأما ﴿ أَمْراً ﴾ فمفعول للمدبرات ، وتنكيره للتهويل والتفخيم . والمقسم عليه محذوف ، تعويلاً على إشارة ما قبله من المقسم به إليه ودلالة ما بعده من أحوال القيامة عليه ، وهو : لنبعثنَّ ، وبه تعلق قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ أي : الواقعة التي ترجف عندها الأجرام الساكنة ، أي :

تتحرك حركة شديدة وتتزلزل زلزلة عظيمة ، فالإسناد إليها مجازي لأنها سببه ، أو التجوز في الطرف يجعل سبب الرجف راجفاً ، أو الراجفة الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذٍ كالأرض والجبال ؛ فتسميتها راجفة باعتبار الأول . قال الشهاب : ولو فسرت الراجفة بالمحركة جاز ، وكان حقيقة ؛ لأن رجف يكون بمعنى حرّك وتحرّك .

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ أي : السماء وما فيها ، تردفها فتنشق وتنتثر الكواكب ، ولوقوع ذلك فيها بعد الرجفة الأولى جعلت رادفة لها ، أو الرادفة النفخة الثانية لبعث يوم القيامة .

قال الحسن : هما النفختان : أما الأولى فتميت الأحياء ، وأما الثانية فتحيي الموتى ، ثم تلا الحسن :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] ,

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي : شديدة الاضطراب ، خوفاً من عظيم الهول النازل .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ أي : أبصار أهلها ذليلة ، مما قد علاها من الكآبة والحزن ، من الخوف والرعب .

(183/801)

وقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ قال ابن جرير : أي : يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش - إذا قيل لهم : إنكم مبعوثون من بعد الموت- : أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات ، فراجعون أحياءً كما كنا ؟ وقال أبو السعود : حكاية لما يقوله المنكرون للبعث المكذبون بالآيات الناطقة به ، إثر بيان وقوعه بطريق التوكيد القسمي ، وذكر مقدماته الهائلة وما يعرض عند وقوعها للقلوب والأبصار . أي : يقولون - إذا قيل لهم : إنكم تبعثون منكرين له متعجبين منه- : أئنا لمردودون بعد موتنا في الحافرة ؟ أي : في الحالة الأولى . يعنون الحياة ، من قولهم : رجع فلان في حافرته ، أي : في طريقته التي جاء فيها فحفرها ، أي : أثر فيها بمشيه . وتسميتها حافرة مع أنها محفورة كقوله تعالى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] ، أي : منسوبة إلى الحفر والرضا ، أو كقولهم : نهاره صائم ، على تشبه القابل بالفاعل ، أي : شبه القابل للفعل بمن يفعله ، لتنزيله منزلته ؛ فالاستعارة في الضمير المستتر ، وإثبات الحافرية له تخييل .

﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [11 - 14]

﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ أي : بالية . وقرئ : ناخرة ، من : نخر العظم ، بلي ، فصار يمرّ به الريح فيسمع له نخير .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أي : ذات خسر ، أو خاسرة أصحابها ، أي : إن صحت فنحن إذاً خاسرون . قال ابن زيد : وأيّ كرة أخسر منها ؟ أحيوا ثم صاروا إلى النار ، فكانت كرة سوء . وقال أبو السعود : هذا حكاية لكفر آخر لهم ، متفرع على كفرهم السابق ، ولعل توسيط ﴿ قَالُوا ﴾ بينهما للإيذان بأن صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطراد والاستمرار ، مثل كفرهم السابق المستمر صدوره عنها في كافة أوقاتهم ، حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع ، أي : قالوا ذلك بطريق الاستهزاء ، مشيرين إلى ما أنكروه من الردة في الحافرة .

وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ تعليل لمقدر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخِرة التي عبَّروا عنها بالكرّة ، فإن مداره لمَّا كان استصعابهم إياها ، رد عليهم ذلك ، فقيل : لا تستصعبوها فإنما هي صيحة واحدة ، أي : حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية . وفيه تهوين لأمر الإعادة على وجه بليغ لطيف .

﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي : على ظهر الأرض أحياء .

قال ابن جرير : والعرب تسمي الفَلاة ووجه الأرض ساهرة ، قال : وأراهم سموا ذلك بها لأن فيه نوم الحيوان وسهرها ؛ فوصف بصفة ما فيه . وقيل : لأن السراب يَجري فيها ، من قولهم : عين ساهرة ، للتي يجري ماؤها ، وفي ضدها نائمة . والسهر على الأول بمعناه

المعروف ، والتجوز في الإسناد .

وفي الثاني مجاز على المجاز ، لشهرة الأول التي ألحقته بالحقيقة . ثم ذكّر سبحانه الكفرة ما حلَّ بمن هو أشد منهم قوة لمَّا طغوا ؛ ترهيباً وإنذاراً ، بقوله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [15 - 16]

(185/801)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ أي : خبره حين ناجاه ربُّه تعالى . قال أبو السعود : ومعنى ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ إن اعتُبر هذا أولُ ما أتاه صلى الله عليه وسلم من حديثه عليه السلام ، ترغيب له في استماع حديثه ، كأنه قيل : هل أتاك حديثه ؟ أنا أخبرك به . وإن اعتُبر إتيانه قبل هذا ، وهو المتبادر من الإيجاز في الاقتصاص ، حمله صلى الله عليه وسلم على أن يقرّ بأمر يعرفه قبل ذلك ، كأنه قيل : أليس قد أتاك حديثه ؟

وقال الشهاب : المقصود من الاستفهام التذكير لا التقرير ، كما قيل . ولا مجافاة في المعنى على كلٍّ ، كما لا يخفى

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ إلى حين ناداه بالوادي المطهَّر المبارك ، وهو وادٍ في أسفل جبل طور سَيناء من برِّية فلسطين .

﴿ إِذْ ﴾ ظرف للحديث لا للإتيان ، لاختلاف وقتيهما ﴿ طُوًى ﴾ اسم لذلك الوادي ، ومصدر لنادى ، أو المقدس ، أي : ناداه ندائين ، أو المقدس مرة بعد أخرى .

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [17 - 19]

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أي : عَتا وتجاوز حدَّه في العدوانِ على بني إسرائيل ، وانتحال صفات الربوبية ، ونسبتها إلى نفسه .

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ أي : تتزكى وتتطهر من دنس الشرك والطغيان . و ﴿ إِلَى ﴾ متعلقة بمبتدأ محذوف . أي : هل لك سبيل أو رغبة إلى أن تتزكى ؟

وقال أبو البقاء : لما كان المعنى : أدعوك ، جيء بـ : ﴿ إِلَى ﴾ فجعل الظرف متعلقاً بمعنى الكلام ، أو بمقدر يدل عليه .

(186/801)

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي : أرشدك إلى علم يُرضيه عنك ، وذلك الدين القيم ﴿ فَتَخْشَى ﴾ أي : عقابه من سلب الملك وإذاقة البأس مكان النعم ، وذلك بأداء ما ألزمك من فرائضه واجتناب ما نهاك عنه من معاصيه . وفيه إشارة إلى أن الخشية مسبِّبة عن

العلم ، كما في آية : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ [فاطر : 28] أي : العلماء به .

قال الزمخشريّ :

ذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ؛ مَن خشي الله أتى منه كل خير ، ومن أمِن اجترأ على كلِّ شر . وبدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ؟ وأردفه الكلام الرفيق ؛ ليستدعيه بالتلطف في القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوّه . كما أمر بذلك في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّناً ﴾ [طه : 44] ، انتهى .

﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ أي : الدلالة الكبرى على أنه لله رسولٌ أرسله إليه . والفاء فصيحة تفصح عن جُمَل قد طويت ، تعويلاً على تفصيلها في السور الأخرى ، أي : فذهب وبلّغ ورجع وتحدّى فأراه الآية الكبرى ، وهو على ما قاله مجاهد : عصاهُ ويَدهُ ، أي : عَصاه إذ تحولت ثعباناً مبيناً ، ويده إذ أخرجها بيضاء للناظرين ؛ وإفرادهما لأنهما كالآية الواحدة في الدلالة ، أو هي العصا لأنها كانت المقدمة والأصل . والبقية كالتبع . وقيل : وكونها كبرى باعتبار معجزات من قبله من الرسل ، أو هو للزيادة المطلقة .

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ أي : فكذب فرعون موسى فيما أتاه من الآيات المعجزة ، ودعاها سحراً ، وعصاه فيما أمره به من طاعة ربِّه وخشيته إياه .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ ﴾ أي : أعرض عما هدي إليه ، أو انصرف عن المجلس كِبراً ﴿ يَسْعَى ﴾ أي

: يجدّ في معارضة الآية بالمكايد الشيطانية والحيَل النفسانية ، أو أدبر بعد ما رأى الثعبان ، مرعوباً مسرعاً في مشيه .

(187/801)

﴿ فَحَشَرَ ﴾ أي : جمع السحرة ، أو قومه وأتباعه ﴿ فَنَادَى ﴾ أي : في المجمع بنفسه أو بمنادٍ .

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ أي : على كلِّ من يلي أمركم . وفي " التنوير " : أي : أنا ربكم وربُّ أصنامكم الأعلى فلا تتركوا عبادتها .

قال القاضي : وقد كان الأليق به ، بعد ظهور خزيه عند انقلاب العصا حيَّةً ، أن لا يقول هذا القول ؛ لأن عند ظهور الذلة والعجز كيف يليق أن يقول ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ؟ فدلت هذه الآية على أنه في ذلك الوقت صار كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول . انتهى .

وهذا على أنه أراد بالربِّ الخالق والموجد ، والظاهر أن مراده ذو السلطان الأعلى والنفوذ الأقوى ، وأنه الذي يستأهل الطاعة دون غيره . ولا يخفى ما فيه من جحود قدرة الله تعالى التي هي فوق قدرته ، والكفر بآية موسى والصد عن دعوته ؛ ولذا أُخذ أشد الأخذ ، فإنه لم يزل في عتوه حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر ، عند خروجهم من مصر ، فأغرقه

الله تعالى في البحر ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أي : عذبه عذابهما ، أي : أن أخذه لم يكن مقصوراً على الإغراق وحده ، بل نكّل به وعذبه عذاب يوم القيامة . و ﴿ نَكَالَ ﴾ مفعول مطلق أخذ ، بتأويل في الأول أو في الثاني ، والإضافة من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة . وقيل : الآخرة هي قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ، والأولى هي تكذيبه موسى حين أراه الآية .

قال القفال : وهذا كأنه هو الأظهر ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ فذكر المعصيتين ثم قال : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ فظهر أن المراد أنه عاقبه على هذين الأمرين . انتهى .

(188/801)

وما ذكره القفال كان وقع في قلبي قبل أن أراه . وأُراني في إيثار له .

ثم ختم تعالى القصة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ أي : في أخذه وما أحلَّ به من العذاب والخزي ، عظة ومعتبراً لمن يخاف الله ويخشى عقابه ، ويعلم أن هذه سنته في كل من يقاوم الحق ويحاربه ؛ فإن نبأ الأولين عبرة للآخرين .

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء ﴾ خطاب للمكذبين بالبعث من قريش ، المتقدم قولهم أول السورة ، بطريق التبكيت ، لتنبيههم على سهولته في جانب القدرة الربانية ؛ فإن من رفع السماء على عِظَمِها ، هيّنٌ عليه خلقهم وخلق أمثالهم ، وإحياؤهم بعد مماتهم .

كما قال سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : 57] ، وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : 81] ، ثم بين كيفية خلقها بقوله :

﴿ بَنَاهَا ﴾ قال ابن جرير : أي : رفعها فجعلها للأرض سقفاً . وقال الإمام : البناء ضمُّ الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض ، مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة ، وهكذا صنع الله بالكواكب ، ووضع كلاً منها على نسبة من الآخر ، مع ما يمسك كلاً في مداره ، حتى كان عنها علَم واحد في النظر ، سمي باسم واحد وهو السماء التي تعلونا ، وهو معنى قوله :

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ أي : أعلاه ، و السمك قامة كلِّ شيء ، وقد رفع تعالى أجرامها فوق رؤوسنا ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ عدلها بوضع كل جِرم في موضعه .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي : جعله مظلماً . قال ابن جرير : أضاف الليل إلى السماء ، لأن

الليل غروب الشمس ، وغروبها وطلوعها فيها ؛ فأضيف إليها لما كان فيها ، كما قيل : نجوم الليل ، إذ كان فيه الطلوع والغروب .

(189/801)

﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي : أبرز نهارها ، والضحى : انبساط الشمس وامتداد النهار ؛ وإيثار الضحى لأنه وقت قيام سلطان الشمس وكمال إشراقها .

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي : بعد تسوية السماء على الوجه السابق ، وإبراز الأضواء

﴿ دَحَاهَا ﴾ أي : بسطها ومهدها لسُكنى أهلها ، وتقلُّبهم في أقطارها .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ﴾ أي : بأن فجَّر منها عيوناً وأجرى أنهاراً ﴿ وَمَرْعَاهَا ﴾ أي : رعْيها وهو النبات .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الْإِنْسَانْ ، فأريد به هنا – مجازاً – مطلق المأكول للإنسان وغيره ؛ فهو مجاز مرسل .

وقال الطيبي : يجوز أن يكون استعارة مصرحة ؛ لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة قوله :

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ كأنه قيل : أيها المعاندون الملزوزون في قَرَن البهائم ، في التمتع بالدنيا

والذهول عن الآخرة .

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أي : أثبتها فيها .

﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي : انتفاعاً إلى حين . قال أبو السعود : ونصبه إما على أنه مفعول له ، أي : فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ؛ لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى واصلةٌ إليهم وإلى أنعامهم . فإن المراد بالمرعى ما يعم ما يأكله الْإِنْسَانْ وغيره كما تقدم ، وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر ، أي : متعكم بذلك متاعاً ، أو مصدر من غير لفظه ، فإن قوله تعالى :

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ في معنى متع بذلك .

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴾

أي : الداهية العظمى التي تطمُّ على كل هائلة من الأمور ، فتغمر ما سواها بعظيم هولها ، وهي القيامة للحساب والجزاء .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴾ أي : ما عمل من خير أو شر ، وذلك بعرضه عليه .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ أي : أظهرت نارُ الله لأبصار الناظرين .

(190/801)

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴾ أي : أفرط في تعديه ومجاوزته حدَّ الشريعة والحق إلى ارتكاب العصيان والفساد والضلال .

﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : متاعها وشهواتها ، على كرامة الآخرة وما أعدَّ فيها للأبرار .

﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أي : مأواه ومرجعه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي : مقامه بين يديه للسؤال ، أو جلاله وعظمته ، أي : اتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أي : فيما يكرهه الله ولا يرضاه منها ، فخالفها إلى ما أمره به .

﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أي : مصيره يوم القيامة ، وجواب إذا محذوف ؛ لدلالة التقسيم عليه ، تقديره : ظهرت الأعمال ، أو انقسم الناس قسمين .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾

أي : إقامتها ، أي : متى يُقيمها الله ويكوِّنها .

قال الناصر : وفيه إشعار بثقل اليوم كقوله :

﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ [الإِنْسَان : 27] ، ألا تراهم لا يستعملون الإرساء إلا فيما له ثقل ، كمرْسَى السفينة ، وإرساء الجبال .

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ أي : في أي : شيء أنت من ذكر ساعتها لهم ؟ أي : ليس

إليك ذِكرُها لأنها من الغيوب ، فلا معنى لسؤالهم إياك عنها .

ولذا قال : ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ أي : منتهى علمِها .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ أي : ما بعثت إلا لإنذار من يخاف حسابها ، وعقاب الله على إجرامه . ولم تكلف علمَ وقت قيامها .

(191/801)

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي : كأن هؤلاء المكذبين بها وبما فيها من الجزاء والحساب ، يوم يشاهدون وقوعها ، من عظيم هولها ، لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا ساعة من نهار ، بمقدار عشية أو ضحاها . وإضافة الضحى إلى العشية ، لِما بينهما من الملابسة ؛ لاجتماعهما في يوم واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 324.315 ﴾

(192/801)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة النازعات

الدرس الأول: 1 – 5 القسم بمخلوقات عظيمة

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) . قيل في تفسير هذه الكلمات: إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعا شديدا . ناشطات منطلقات في حركاتها . سابحات في العوالم العليا سابقات للإيمان أو للطاعة لأمر ربها مدبرات ما يوكل من الأمور إليها . .

وقيل: إنها النجوم تنزع في مداراتها وتتحرك وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل . وتسبح سبحا في فضاء الله وهي معلقة به . وتسبق سبقا في جريانها ودورانها . وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها مما يؤثر في حياة الأرض ومن عليها .

وقيل: النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هي النجوم . والمدبرات هي الملائكة .

وقيل: النازعات والناشطات والسابحات هي النجوم . والسابقات والمدبرات هي الملائكة . .

وأيا ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادها على هذا النحو , ينشئ أولا وقبل كل شيء هزة في الحس , وتوجسا في الشعور , وتوفزا وتوقعا لشيء يهول

ويروع . ومن ثم فهي تشارك في المطلع مشاركة قوية في إعداد الحس لتلقي ما يروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى في النهاية !

(193/801)

وتمشيا مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة في تفصيل مدلولاتها ومناقشتها ; لنعيش في ظلال القرآن بموحياته وإيحاءاته على طبيعتها . فهزة القلب وإيقاظه هدف في ذاته , يتحراه الخطاب القرآني بوسائل شتى . . ثم إن لنا في عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أسوة . وقد قرأ سورة "عبس وتولى" حتى جاء إلى قوله تعالى:(وفاكهة وأبا) . . فقال:" قد عرفنا الفاكهة . فما الأب ? ثم استدرك قائلا:لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ! وما عليك ألا تعرف لفظا في كتاب الله تعالى ? ! " . . وفي رواية أنه قال:كل هذا قد عرفنا فما الأب ? ثم رفض عصا كانت بيده – أي كسرها غضبا على نفسه – وقال:" هذا لعمر الله التكلف ! وما عليك يا بن أم عمر أن لا تدري ما الأب " . ثم قال:" اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب , وما لا , فدعوه " . . فهذه كلمات تنبعث عن الأدب أمام كلمات الله العظيمة . أدب العبد أمام كلمات الرب . التي قد يكون بقاؤها مغلفة هدفا في ذاته , يؤدي غرضا بذاته .

الدرس الثاني: 6 - 14 الراجفة والرادفة وخسارة الكفار فيها

هذا المطلع جاء في صيغة القسم , على أمر تصوره الآيات التالية في السورة:

يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة .

يقولون: أإنا لمردودون في الحافرة ؟ أإذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا: تلك إذن كرة خاسرة ! . .

فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة . .

والراجفة ورد أنها الأرض استنادا إلى قوله تعالى في سورة أخرى: (يوم ترجف الأرض والجبال) . . والرادفة: ورد أنها السماء . أي أنها تردف الأرض وتتبعها في الانقلاب حيث تنشق وتتناثر كواكبها . .

كذلك ورد أن الراجفة هي الصيحة الأولى , التي ترجف لها الأرض والجبال والأحياء جميعا , ويصعق لها

(194/801)

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (14)

من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . والرادفة هي النفخة الثانية التي يصحون عليها ويحشرون [كما جاء في سورة الزمر آية 68] . .

وسواء كانت هذه أم تلك . فقد أحس القلب البشري بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب ; واهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش . وتهيأ لإدراك ما يصيب القلوب يومئذ من الفزع الذي لا ثبات معه ولا قرار . وأدرك وأحس حقيقة قوله: (قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة) . .

فهي شديدة الاضطراب , بادية الذل , يجتمع عليها الخوف والانكسار , والرجفة , والانهيار . وهذا هو الذي يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ; وهذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات غرقا والناشطات نشطا , والسابحات سبحا , والسابقات سبقا , فالمدبرات أمرا . وهو مشهد يتفق في ظله وإيقاعه مع ذلك المطلع .

ثم يمضي السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم في ذهول: يقولون: أإنا لمردودون في الحافرة ؟ أإذا كنا عظاما نخرة ؟ . .

فهم يتساءلون: أنحن مردودون إلى الحياة عائدون في طريقنا الأولى . . يقال: رجع في حافرته: أي في طريقه التي جاء منها . فهم في وهلتهم وذهولهم يسألون: إن كانوا راجعين في طريقهم إلى حياتهم ؟ ويدهشون: كيف يكون هذا بعد إذ كانوا عظاما نخرة . منخوبة يصوت فيها الهواء ؟ !

ولعلهم يفيقون , أو يبصرون , فيعلمون أنها كرة إلى الحياة , ولكنها الحياة الأخرى ,

فيشعرون بالخسارة والوبال في هذه الرجعة , فتند منهم تلك الكلمة:

قالوا : تلك إذن كرة خاسرة !

كرة لم يحسبوا حسابها , ولم يقدموا لها زادها , وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص !

(195/801)

هنا – في مواجهة هذا المشهد – يعقب السياق القرآني بحقيقة ما هو كائن:

(فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) . .

والزجرة: هي الصيحة . ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا . والساهرة هي الأرض البيضاء اللامعة . وهي أرض المحشر , التي لا ندري نحن أين تكون . والخبر عنها لا نعرفه إلا من الخبر الصادق نتلقاه , فلا نزيد عليه شيئا غير موثوق به ولا مضمون !

وهذه الزجرة الواحدة يغلب – بالاستناد إلى النصوص الأخرى – أنها النفخة الثانية . نفخة البعث والحشر . والتعبير عنها فيه سرعة . وهي ذاتها توحي بالسرعة . وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع والإيجاف . والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من

سرعة النبض , فالتناسق ملحوظ في كل حركة وفي كل لمحة , وفي كل ظل في السياق !

الدرس الثالث: 15 – 26 لقطات من طغيان فرعون ودماره

ثم يهدأ الإيقاع شيئا ما , في الجولة القادمة , ليناسب جو القصص , وهو يعرض ما كان بين موسى وفرعون , وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى:

هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل: هل لك

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19)

إلى أن تزكى ? وأهديك إلى ربك فتخشى ? فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى , ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال: أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) . .

(196/801)

وقصة موسى هي أكثر القصص ورودا وأكثرها تفصيلا في القرآن . . وقد وردت من قبل في سور كثيرة . وردت منها حلقات منوعة . ووردت في أساليب شتى . كل منها تناسب

سياق السورة التي وردت فيها ; وتشارك في أداء الغرض البارز في السياق . على طريقة القرآن في إيراد القصص وسرده .

وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودي موسى بالوادي المقدس , إلى أخذ فرعون . . أخذه في الدنيا ثم في الآخرة . . فنلتقي بموضوع السورة الأصيل . وهو حقيقة الآخرة . وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا في آيات معدودات قصار سريعة , ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها .

وتتضمن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة . .

وهي تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) :(هل أتاك حديث موسى ?) . . وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقي القصة وتمليها . .

ثم تأخذ في عرض الحديث كما تسمى القصة . وهو إيحاء بواقعيتها فهي حديث جرى . فتبدأ بمشهد المناداة والمناجاة:(إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) . . وطوى اسم الوادي على الأرجح . وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين في شمال الحجاز .

ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة . وهي لحظة كذلك عجيبة . ونداء الله بذاته – سبحانه – لعبد من عباده أمر هائل . أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر . وهي سر من أسرار الألوهية العظيمة , كما هي سر من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن , وهيأه بها لتلقي ذلك النداء . وهذا أقصى ما نملك أن نقوله في هذا المقام , الذي

لا يملك الإدراك البشري أن يحيط منه بشيء ; فيقف على إطاره , حتى يكشف الله له عنه فيتذوقه بشعوره .

(197/801)

وفي مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه في هذا الموقف . فأما هنا فالمجال مجال اختصار وإيقاعات سريعة . ومن ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى , عقب ذكر النداء بالوادي المقدس طوى: (اذهب إلى فرعون . إنه طغى . فقل: هل لك إلى أن تزكى ! وأهديك إلى ربك فتخشى ؟) . .

(اذهب إلى فرعون . إنه طغى) . . والطغيان أمر لا ينبغي أن يكون ولا أن يبقى . إنه أمر كريه , مفسد للأرض , مخالف لما يحبه الله , مؤد إلى ما يكره . . فمن أجل منعه ينتدب الله عبدا من عباده المختارين . ينتدبه بنفسه سبحانه . ليحاول وقف هذا الشر , ومنع هذا الفساد , ووقف هذا الطغيان . . إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبدا من عباده ليذهب إلى الطاغية , فيحاول رده عما هو فيه , والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى !

ذهب إلى فرعون . إنه طغى . . ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب

وأشده جاذبية للقلوب , لعله ينتهي , ويتقي غضب الله وأخذه: (فقل: هل لك إلى أن تزكى ؟) . . هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ؟ (وأهديك إلى ربك فتخشى) . . هل لك أن أعرفك طريق ربك ؟ فإذا عرفته وقعت في قلبك خشيته . فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)

بعيدا , وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد , فيكون منه الطغيان والتمرد !

(198/801)

كان هذا في مشهد النداء والتكليف . وكان بعده في مشهد المواجهة والتبليغ . والسياق لا يكرره في مشهد التبليغ . اكتفاء بعرضه هناك وذكره . فيطوي ما كان بعد مشهد النداء , ويختصر عبارة التبليغ في مشهد التبليغ . ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة:

(فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى) . .

لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه . بالأسلوب الذي لقنه ربه وعرفه . ولم يفلح هذا الأسلوب

الحبيب في إلانة القلب الطاغي الخاوي من معرفة ربه . فأراه موسى الآية الكبرى . آية العصا واليد البيضاء كما جاء في المواضع الأخرى: (فكذب وعصى) . . وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية في اختصار وإجمال !

ثم يعرض مشهدا آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى , ويسعى في جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق . حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى:

(ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال: أنا ربكم الأعلى) . .

ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة , مجملا مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها . فقد أدبر يسعى في الكيد والمحاولة , فحشر السحرة والجماهير ; ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة , المليئة بالغرور والجهالة: (أنا ربكم الأعلى) . . قالها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره , وإذعانها وانقيادها . فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها . وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانا . إنما هي الجماهير الغافلة الذلول , تمطي له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر ! وتحني له رؤوسها فيستعلي ! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى !

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى . وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية – وهو فرد – لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين , لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها . وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا ! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرا ولا رشدا !

فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان , ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: (أنا ربكم الأعلى) . . وما كان ليقولها أبدا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة , تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء . وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا !

وأمام هذا التطاول الوقح , بعد الطغيان البشع , تحركت القوة الكبرى:

(فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) . .

ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى . . لأنه أشد وأبقى . فهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده . . ولأنه الأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسي . . ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقي في القافية

بعد اتساقه معنويا مع الموضوع الرئيسي , ومع الحقيقة الأصيلة .

ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا . فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (26) أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32)

(200/801)

ومجد موروث عريق ; فكيف بغيره من المكذبين ؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ؟

(إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) . .

فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه . أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز , وبينه وبين العظة حجاب . حتى يصطدم بالعاقبة اصطداما . وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وكل ميسر لنهج , وكل ميسر لعاقبة . والعبرة لمن يخشى . .

الدرس الرابع: 27 من آيات الله في السماء والأرض

ومن هذه الجولة في مصارع الطغاة المعتدين بقوتهم , يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك . فيردهم إلى شيء من مظاهر القوة الكبرى , في هذا الكون الذي لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئًا :

(أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم) . .

وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل: (أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟) . . السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذي يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم , والذي خلقها أشد منها ؟ هذا جانب من إيحاء السؤال . وهناك جانب آخر . فما الذي تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهي أشد من خلقكم ; وبعثكم هو إعادة لخلقكم , والذي بنى السماء وهي أشد , قادر على إعادتكم وهي أيسر !

هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء . . (بناها) . . والبناء يوحي بالقوة والتماسك , والسماء كذلك . متماسكة . لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها . ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها , ولا تتهاوى ولا تنهار . فهي بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء .

(رفع سمكها فسواها) . . وسمك كل شيء قامته وارتفاعه . والسماء مرفوعة في تناسق وتماسك . وهذه هي التسوية:(فسواها) . . والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق . والمعرفة بحقيقة القوانين التي تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها , توسع من معنى هذا التعبير , وتزيد في مساحة هذه الحقيقة الهائلة , التي لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافا منها , وقفوا تجاهها مبهورين , تغمرهم الدهشة , وتأخذهم الروعة , ويعجزون عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مقدرة , ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقا !

(وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) . . وفي التعبير شدة في الجرس والمعنى , يناسب الحديث عن الشدة والقوة . وأغطش ليلها أي أظلمه . وأخرج ضحاها . أي أضاءها . ولكن اختيار الألفاظ يتمشى في تناسق مع السياق . . وتوالي حالتي الظلام والضياء , في الليل والضحى الذي هو أول النهار , حقيقة يراها كل أحد ; ويتأثر بها كل قلب . وقد ينساها بطول الألفة والتكرار , فيعيد القرآن جدتها بتوجيه المشاعر إليها . وهي جديدة أبدا . تتجدد كل يوم , ويتجدد الشعور بها والانفعال بوقعها . فأما النواميس التي وراءها

فهي كذلك من الدقة والعظمة بحيث تروع وتدهش من يعرفها . . فتظل هذه الحقيقة تروع القلوب وتدهشها كلما اتسع علمها وكبرت معرفتها !

(والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها) . .

ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها , بحيث تصبح صالحة للسير عليها , وتكوين تربة تصلح للإنبات , وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع , أو ما ينزل من السماء فهو أصلا من مائها الذي تبخر

مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)

(202/801)

ثم نزل في صورة مطر . وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة وبالواسطة . .

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء , وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى . والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هذا النص القرآني حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين , وهي تدور دوراتها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل دحوها

وقبل قابليتها للزرع . وقبل استقرار قشرتها على ما هي عليه من مرتفعات ومستويات .

والقرآن يعلن أن هذا كله كان: (متاعا لكم ولأنعامكم) . . فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية . كما يشير إلى عظمة تقدير الله في ملكه . فإن بناء السماء على هذا النحو , ودحو الأرض على هذا النحو أيضا لم يكونا فلتة ولا مصادفة . إنما كان محسوبا فيهما حساب هذا الخلق الذي سيستخلف في الأرض . والذي يقتضي وجوده ونموه ورقيه موافقات كثيرة جدا في تصميم الكون . وفي تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفي تصميم الأرض بصفة أخص .

والقرآن – على طريقته في الإشارة المجملة الموحية المتضمنة لأصل الحقيقة – يذكر هنا من هذه الموافقات بناء السماوات , وإغطاش الليل , وإخراج الضحى , ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها , وإرساء جبالها . متاعا للإنسان وأنعامه . وهي إشارة توحي بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع , الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان , في كل بيئة وفي كل زمان , فلا تحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة , تزيد على نصيب الإنسان حيث كان . حتى يعم الخطاب بالقرآن لجميع بني الإنسان في جميع أطوار الإنسان , في جميع الأزمان .

ووراء هذا المستوى آماد وأفاق أخرى من هذه الحقيقة الكبرى . حقيقة التقدير والتدبير

في تصميم هذا الكون الكبير . واستبعاد المصادفة والجزاف واستبعادا تنطق به طبيعة هذا الكون , وطبيعة المصادفة التي يستحيل معها تجمع كل تلك الموافقات العجيبة .

(203/801)

هذه الموافقات التي تبدأ من كون المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا هي تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية . وأن الأرض نمط فريد غير مكرر بين الكواكب بموقعها هذا في المنظومة الشمسية . الذي يجعلها صالحة للحياة الإنسانية . ولا يعرف البشر – حتى اليوم – كوكبا آخر تجتمع له هذه الموافقات الضرورية . وهي تعد بالآلاف !

"ذلك أن أسباب الحياة تتوافر في الكوكب على حجم ملائم , وبعد معتدل , وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التي تنشط فيها حركة الحياة .

"لابد من الحجم الملائم , لأن بقاء الجو الهوائي حول الكوكب يتوقف على ما فيه من قوة الجاذبية .

"ولابد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لا تتماسك فيه الأجسام , والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام .

"ولابد من التركيب الذي تتوافق فيه العناصر على النسبة التي تنشط بها حركة الحياة , لأن

هذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التي تعتمد عليه في تمثيل الغذاء .

"وموقع الأرض حيث هي أصلح المواقع لتوفير هذه الشروط التي لا غنى عنها للحياة , في الصورة التي

فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (36) فَأَمَّا مَن طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40)

نعرفها , ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن " .

(204/801)

وتقرير حقيقة التدبير والتقدير في تصميم هذا الكون الكبير , وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ في خلقه وتطويره أمر يعد القلب والعقل لتلقي حقيقة الآخرة وما فيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم . فما يمكن أن يكون هذا هو واقع النشأة الكونية والنشأة الإنسانية ثم لا تتم تمامها , ولا تلقى جزاءها . ولا يكون معقولا أن ينتهي أمرها بنهاية الحياة القصيرة في هذه العاجلة الفانية . وأن يمضي الشر والطغيان والباطل ناجيا بما كان منه في هذه الأرض . وأن يمضي الخير والعدل والحق بما أصابه كذلك في هذه الأرض . . فهذا

الفرض مخالف في طبيعته لطبيعة التقدير والتدبير الواضحة في تصميم الكون الكبير . .

ومن ثم تلتقي هذه الحقيقة التي لمسها السياق في هذا المقطع بحقيقة الآخرة التي هي الموضوع الرئيسي في السورة . وتصلح تمهيدا لها في القلوب والعقول , يجيء بعده ذكر الطامة الكبرى في موضعه وفي حينه !

الدرس الخامس: 34 - 41 ما بعد الطامة الكبرى وصفات الفائزين وصفات الخاسرين

(فإذا جاءت الطامة الكبرى , يوم يتذكر الإنسان ما سعى , وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا , فإن الجحيم هي المأوى , وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى , فإن الجنة هي المأوى) . .

إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهي إلى أجله . . فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء , وطمت على كل شيء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين المقدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهي أكبر من هذا كله , وهي تطم وتعم على هذا كله !

عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى . يتذكر سعيه ويستحضره , إن كانت أحداث الحياة , وشاغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى !

(وبرزت الجحيم لمن يرى) . . فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر . ويشدد التعبير في اللفظ (برزت) تشديدا للمعنى والجرس , ودفعا بالمشهد إلى كل عين !

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ; وتتجلى غاية التدبير والتقدير في النشأة الأولى:

(فأما من طغى , وآثر الحياة الدنيا , فإن الجحيم هي المأوى) . .

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت , حيث يشمل كل متجاوز للهدى , وكل من آثر الحياة الدنيا , واختارها على الآخرة . فعمل لها وحدها , غير حاسب للآخرة حسابا . واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده , واختلت كل القيم في تقديره , واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته , وعد طاغيا وباغيا ومتجاوزا للمدى .

فأما هذا . . (فإن الجحيم هي المأوى) . . الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . يوم الطامة الكبرى !

(وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى) . .

والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية , فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام

فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (43)

الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل في دائرة الطاعة .

(206/801)

ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان , وكل تجاوز , وكل معصية . وهو أساس البلوى , وينبوع الشر , وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . فالجهل سهل علاجه . ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى . ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة . فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها , الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم

دروبها ومنحنياتها , ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها , وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها !

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى . فهو – سبحانه – يعلم أن هذا خارج عن طاقته . ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها . وأن يستعين في هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب . وكتب له بهذا الجهاد الشاق , الجنة مثابة ومأوى: (فإن الجنة هي المأوى) . . ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ; وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي , وبهذا الجهاد , وبهذا الإرتفاع . وليس إنسانا بترك نفسه لهواها , وإطاعة جواذبه إلى دركها , بحجة أن هذا مركب في طبيعته . فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى , هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه , ونهى النفس عنه , ورفعها عن جاذبيته ; وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

(207/801)

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان . تلك هي حرية الإنتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة , والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار

والتقدير الإنساني . وهنالك حرية حيوانية , هي هزيمة الإنسان أمام هواه , وعبوديته لشهوته , وانفلات الزمام من إرادته . وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفا من الحرية !

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته , ويرتد شيئا توقد به النار التي وقودها الناس – من هذا الصنف – والحجارة !

وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء . .

الدرس السادس: 42 – 46 علم الساعة خاص بالله وقدومها مفاجيء ومهمة الرسول

وأخيرا يجيء الإيقاع الأخير في السورة هائلا عميقا مديدا :

(يسألونك عن الساعة: أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) . .

وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول (صلى الله عليه وسلم) كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وما تنتهي إليه من حساب وجزاء . . متى أو إيان موعدها . . أو كما يحكي عنهم هنا : (أيان مرساها ؟) . .

والجواب: (فيم أنت من ذكراها ؟) . . وهو جواب يوحي بعظمتها وضخامتها , بحيث

يبدو هذا السؤال تافها باهتا , وتطفلا كذلك وتجاوزا . فها هو ذا يقال للرسول العظيم:(فيم أنت من ذكراها ؟) . . إنها لأعظم

إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

من أن تسأل أو تسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهي من خاصة شأنه وليست من شأنك:

(208/801)

(إلى ربك منتهاها) . . فهو الذي ينتهي إليه أمرها , وهو الذي يعلم موعدها , وهو الذي يتولى كل شيء فيها .

(إنما أنت منذر من يخشاها) . . هذه وظيفتك , وهذه حدودك . . أن تنذر بها من ينفعه الإنذار , وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها , ويتوقعها في موعدها الموكول إلى صاحبها سبحانه وتعالى .

ثم يصور هولها وضخامتها في صنيعها بالمشاعر والتصورات ; وقياس الحياة الدنيا إليها في إحساس الناس وتقديرهم:

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) . .

فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا , وأعمارها وأحداثها , ومتاعها , وأشياؤها , فتبدو في حس أصحابها كأنها بعض يوم . . عشية أو ضحاها !

وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون . والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة . والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان . والتي يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها . . تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم , فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها .

هذه هي: قصيرة عاجلة , هزيلة ذاهبة , زهيدة تافهة . . أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها إنسان . يسمع ويرى ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3812 . 3820 ﴾

(209/801)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) ﴾

الواو للقسم ، والمقسم به محذوف ، ذكرت صفاته في كل المذكورات ، إلى قوله : ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات : 5] .

وقد اختلف في المقسم به فيها كلها ، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله .

والنازعات : جمع نازعة ، والنزع : جذب الشَّيء بقوة من مقره ، كنزع القوس عن كبده ، ويستعمل في المحسوس والمعنوي ، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا ، ومنه قوله : ونزع يده ، وقوله : ﴿ تَنزِعُ الناس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] وينزع عنهما لباسهما ، ومن المعنوي قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً ﴾ [الحجر : 47] ، وقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ﴾ [النساء : 59] ، والحديث : لعله نزعه عرق .

والإغراض المبالغة ، والاستغراق : الاستيعاب .

أما المراد بالنازعات غرقاً هنا ، فقد اختلف فيه إلى حوالى عشرة أقوال منها : أنها الملائكة تنزع الأرواح ، والنجوم تنتقل من مكان إلى مكان آخر ، والأقواس تنوع السهام ، والغزاة ينزعون على الأقواس ، والغزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب للقتال ، والوحوش تنزع إلى الطلا ، أي الحيوان الوحشي .

والنَّاشطات : قيل أصل الكلمة : النَّشاط والخفَّة ، والأنشوطة : العقدة سهلة الحل ، ونشطه بمعنى ربطه ، وأنشطه حله بسرعة وخفة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " كأنما أنشط من عقال "

أم المراد به هنا فقد اختلف فيه على النحو المتقدم تقريباً ، فقيل : الملائكة تنشط الأرواح ، وقيل : أرواح المؤمنين تنشط عند الفزع ، ولم يرجح انب جرير معنى منها ، وقال : كلها محتملة ، وحكاها غيره كلها .

(210/801)

وقد ذكر في الجلالين المعنى الأول منها فقط ، والذي يشهد له السياق والنصوص الأخرى : أن كلاً من النازعات والناشطات : هم الملائكة ، وهو ما روي عن ابن عباس ومجاهد ، وهي صفات لها في قبض الأرواح .

ودلالة السياق على هذا المعنى : هو أنهما وصفان متقابلان : الأول نزع بشدَّة ، والآخر نشاط بخفة ، فيكون النزع غرقاً لأرواح الكفار ، والنشط بخفة الأرواح المؤمنين ، وقد جاء ذلك مفسراً في قوله تعالى في حق نزع أرواح الكفار ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ [الأنعام :

93] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ [الأنفال : 50] ، وقوله تعالى في حق المؤمنين : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : 27 – 28] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] .

وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ : 40] ، ونظر المرء ما قدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يثقل اللسان عن النطق في حالة الحشرجة ، حين لا تقبل التوبة عند العناية لما سيؤول إليه ، فينظر حينئذٍ ما قدمت يداه ، وهذا عند نزع الروح أو نشطها ، والله تعالى أعلم .

وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4)

قيل : السابحات النجوم . وقيل : الشمس والقمر والليل والنهار ، والسَّحاب والسّفن ، والحيتان في البحار ، والخيل في الميدان .

وكرها كلها أيضاً ابن جرير ولم يرجح . وقال : كلها محتملة ، وذكرها غيره كذلك .

والواقع ، فإنها كلها آيت عظام تدل على قدرته تعالى ، إلاَّ أن السِّياق في أمر البحث والمعاد ، وأقرب ما يكون إليه الآيات الكونية : الشمس والقمر والنجوم ، وقد وصف الله الشمس والقمر بالسابحات في قوله تعالى : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] والسابقات في النجوم ، السيارة .

فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5)

اتفق المفسرون على أنها الملائكة ، وذكر الفخر الرازي رأياً له بعيداً ، وهو أنها الأرواح ، وأنها قد تدبر أمر الإنسان في المنامات ، وهو قول لا يعول عليه كما ترى .

والذي يشهد له النص أنها الملائكة ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر : 4] وكما وصف الله الملائكة بقوله : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] .

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7)

هما النفختان في الصور ، الراجفة هي الاولى ، والرادفة هي الثانية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 67] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة يس عند قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي

الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] ، وسميت الأولى الراجفة ، لما يأخذ العالم كله من شدة الرجفة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 14] وقوله : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ [الزمر : 68] .

(212/801)

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد رحمه الله بسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه " فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : " إذاً يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك " وسنده قال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن أبي الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – الحديث " .

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10)

قال ابن كثير : يستنكر المشركون البعث بعد الموت ، والحافرة : الحياة بعد موتهم ومصيرهم إلى القبور .

ونقل أن الحافرة النار ، وأكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى : يقال : عاد في حافرته رجع

في طريقه ، كأن محياه الأول حفر طريقه بمشيه فيها ، وعليه لا علاقة له بحفرة القبر ، وإنما هو تعبير عربي عن العودة في الأمر ، ويشهد له قول الشاعر :

أحافرة عَلى صلع وَشيب . . . معاذ الله من صَلع وعار

أي أرجع إلى الصبا بعد الصلع والشيب .

وقول الآخر :

أقدم أخَا نهم على الأساوره . . . ولا يهولنك رؤوس نَادره

فإنما قصرك ترب الساهره . . . حتى تَعود بعدها في الحافره

من بعد ما صرت عظاما ناخره . . . وقد دلت الآية بعدها ، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة أخرى ، في قوله : ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات : 12] .

والكرة : هي العودة إلى الحياة الأولى . ويه ما قبل حفرة القبر من تكرار الحياة السابقة . والله تعالى أعلم .

أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11)

العظام النخرة البالية ، والتي تخللها الريح ، كما في قول الشاعر :

وأخليتها من مخها فكأنها . . . قوارير في أجوزافها الرِّيح تنخر

ونخرة الريح شدة صوتها ، ومنه المنخر ، لأخذ الهواء منه ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16)

بين تعالى هذا الحديث وموضوعه ومكانه بقوله تعالى بعده : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالوادي المقدس طُوًى اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [النازعات : 16 – 17] – إلى قوله – ﴿ فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالوادي المقدس ﴾ بين القرآن الكريم ، أنه الطور في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ﴾ [القصص : 29] – إلى قوله – ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] والمباركة تساوي المقدس .

فبين تعالى أن المناداة كانت بالطور وهو الواد المقدس ، وهو طوى ، وفي البقعة المباركة .

وقد بين تعالى ما كان في ذلك المكان من مناجاة وأمر العصاة والآيات الأخرى في سورة طه من أول قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى إِذْ رَءَا نَاراً ﴾ [طه : 9 – 10] – إلى قوله – ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ ﴾ [طه : 24] .

وقد فصل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القول في ذلك الموقف في سورة مريم عند قوله

تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] .

وقد بين تعالى في سورة طه ، كامل قصة المناداة من قوله : ﴿ إني أَنَاْ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى وَأَنَا اخترتك فاستمع لِمَا يوحى إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكريا إِنَّ الساعة آتِيَةٌ ﴾ [طه : 12 - 15] .

(214/801)

ثم قصة العصا والآية يده عليه السلام ، وإرساله إلى فرعون إنه طغى ، وسؤال موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه : 25 - 26] ، واستوزار أخيه معه ، دون التعرض إلى أسلوب الدعوة ، وفي هذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة ، وما ينبغي أن يكون عليه نبي الله موسى معد والله فرعون . وأسلوب العرض : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ، ثم تقديم الآية الكبرى ، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف ، حيث لا يوجد اليوم أكثر من فرعون ، ولا أشد طغياناً منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معاً فقال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] ، ولا يوجد اليوم أكرم على الله من نبي الله موسى وأخيه هارون .

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خلق الله إلى أكفر عباد الله بهذا الأسلوب الهادئ اللين الحكيم منطلقاً من قوله تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : 44] فكانا كما أمرهما الله ، وقالا كما علمهما الله ، ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات : 18 - 19] ، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى : ﴿ ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : 125] .

وقد وضع القرآن منهجاً متكاملاً للدعوة إلى الله ، وفصله العلماء بما يشترط في الداعي والمدعو إليه ، ومراعاة حال المدعو .

وقد قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : 105] من سورة المائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : 88] في سورة هود .

(215/801)

وقوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] في سورة النحل .

ومجموع ذلك كله يشكل منهجاً كاملاً لمادة طريق الدعوة إلى الله تعالى ، فيما يتعلق بالداعي

والمدعو وما يدعو إليه ، وكيفية ذلك والحمد لله .

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21)

ذكر هنا الآية الكبرى فقط ، وذكر تعالى منها ان فرعون جمع بين التَّكذيب والعصيان ، وتقدم في سورة القمر قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النذر كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 41 - 42] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك هناك .

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)

النكال : هو اسم لما جعل نكالاً للغير ، أي عقوبة له حتى يعتبر به ، والكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد . قاله القرطبي .

واختلف في الآخرة والأولى : أهم الدنيا والآخرة ؟ أم هم الكلمتان العظيمتان اللتان تكلم بهما فرعون في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] .

والثانية قوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة . وقد اختار ابن كثير الأول ، واختار ابن جرير الثاني ، ومعه كثير من المفسرين .

ولكن يرد على اختيار ابن كثير : أن السياق قدم الآخرة ، مع ان تعذيب فرعون مقدم فيه نكال الأولى ، وهي الدنيا .

كما يرد على اختيار ابن جرير ، أن الله تعالى جعل أخذه إياه نكالاً ، ليعتبر به من يخشى ، والعبرة تكون أشد بالمحسوس ، وكلمتاه قيلتا في زمنه .

والقرآن يشهد لما قاله ابن كثير ، في قوله تعالى : ﴿ فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس : 92] ، وهذا هو محل الاعتبار .

(216/801)

وقد قال تعالى بعد الآية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ﴾ [النازعات : 26] .

واسم الإشارة في قوله : إن في ذلك : راجع إلى الأخذ والنكال المذكورين ، أي المصدر المفهوم ضمناً في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ الله ﴾ وقوله : نكال ، بل إن نكال مصدر بنفسه ، أي فأخذه الله ونكل به ، وجعل نكاله به عبرة لمن يخشى .

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28)

لما كان فرعون على تلك المثابة من الطّغيان والكفر ، وكان من أسباب طغيانه الملك والقوّة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 10] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ﴾ [لقصص : 4] ، وقوله عنه : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتيا ﴾ [الزخرف : 51] .

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته ، خاطبهم الله بما آل إليه هذا الطغيان ، ثم خاطبهم في أنفسهم محذراً من طغيان القوة ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ ، حتى لو ادعيتم أنكم أشد قوة من فرعون ، الذي أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فهل أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟

وقد جاء الجواب مصرحاً بأن السماء أشد خلقاً منهم في قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : 57] .

وبين ضعف الإنسان في قوله في نفس المعنى ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات : 11] .

وفي هذا بيان على قدرته تعالى على بعثهم بعد إماتتهم وصيرورتهم عظاماً نخرة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شي من ذلك عند آية الصافات ﴿ فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات : 11] .

(217/801)

قوله تعالى : ﴿ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك . في سورة ق عند قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ

ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ق : 6] .

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32)

في هذه الآية الكريمة وصف الأرض بأن الله تعالى : دحاها ، وجاء في آية أخرى أنه طحاها بالطاء ، وجاء في آية أخرى أنه بسطها ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : 20] .

وقد اختلف في تفسير قوله : دحاها ، فقال ابن كثير : تفسيره ما بعده ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات : 31 – 32] وهذا قول ابن جرير عن ابن عباس .

وقال القرطبي : دحاها أي بسطها .

والعرب تقول : دحا الشيء إذا بسطه .

وقال أبو حيان : دحاها بسطها ومهدها للسكنى والاستقرار عليها : ثمَّ فسر ذلك التمهيد بما لا بد منه من غخراج الماء والمرعى ، وإرسائها بالجبال .

ومما ذكر يتأَّتى السكنى والمعيشة حتى الملح والمأكل والمشرب ، وهذا هو كلام الزمخشري بعينه .

وقال الفخر الرازي : دحاها بسطها ، فترى أن جميع المفسرين تقريباً متفقون على أن

دحاها بمعنى بسطها .

وقول ابن جرير وابن كثير : إن دحاها فسر بما بعده لا يتعارض مع البسط والتمهيد ، كما قال ابو حيان : إنه ذكر لوازم التسكن إلى المعيشة عليها من إخراج مائها ومرعاها لان بهما قوام الحياة .

ومما يستأنس به أن الدحو معروف بمعنى البسط ، قول ابن الرومي :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به . . . يدحو الرقَاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رُؤيتها في كفه كرة . . . وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دَائرة . . . في صفحة المَاء ترمي فيه بالحجر

وقد أثير حول هذه الآية مبحث شكل الأرض أمبسوطة هي أم كروية مستديرة ؟

(218/801)

وإذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغة نجد الآتي :

أولاً : في مفردات الراغب : قال دحاها ، أزالها من موضعها ومقرها .

ومنه قولهم : دحا المطر الحصى من وجه الأرض أي جرفها ، ومر الفرس يدحو دحواً : إذا جريده على وجه الأرض فيدحوا ترابها .

ومنه أدحى النعام ، وقال : الطحو كالدحو ، وهو بسط الشيء والذهاب به والأرض ما طحاها ، وأنشد قول الشاعر :

طحا بك قلب في الحسان طروب

أي ذهب بك .

وفي معجم مقاييس اللغة ، مادة دحو : الدال والحاء والواو أصل واحد يدل على بسط وتمهيد .

يقال : دحى الله الأرض يدحوها دحواً إذا بسطها .

ويقال : دحا المطر : الحصا عن وجه الأرض ، وهذا لأنه إذا كان كذلك فقد مهد الأرض .

ويقال للفرس ، إذا رمى بيده رمياً لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيراً : مر يدحو دحواً ، ومن الباب أدحى النعام الموضع الذي يفرخ فيه أفعول من دحوت ، لأنه يدحوه برجله ثم يبيض فيه ، وليس للنعامة عش .

وفي لسان العرب مادة دحا ، والدحو : البسط ، دحى الارض يدحوها دحواً : بسطها .

وقال الفراء في قوله عز وجل : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، قال بسطها ، وذكر الأدحى مبيض النعام في الرمل ، لأنَّ النعامة تدحوه برجلها ، ثم تبيض فيه .

وذكر حديث ابن عمر : " فدحا السيل فيه بالبطحاء " ، أي رمى وألقى .

قال : وسئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة ، فقالك لا بأس به ، أي المراماة بها

والمسابقة .

وعن ابن الأعرابي : هو يدحو بالحجر ، أي يرمي به ويدفعه ، والداحي : الذي يدحو الحجر بيده ، وأنشد لأوس بن حجر بمعنى ينزع قوله :

ينْزع جلد الحصا أحسين مبترك . . . كأنه فاحص أو لاعب دَاح ؟

وفي حديث أبي رافع : "كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي " ، هي أحجار أمثال القرصة ، كانوا يحفرون حفرة يدحون فيها بتلك الحجارة ، فإذا وقع الحجر فيها غلب صاحبها ، وإن لم يقع غلب .

والدحو : هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره اه .

(219/801)

وما ذكره صاحب اللسان عن أبي رافع لا زال موجوداً حتى الآن بالمدينة ، ويسمى الدحل باللام ، كما وصف تماماً .

وبعد إيراد أقوال أصول مراجع اللغة ، وما قدم من أقوال المفسرين . فإنَّنا نواجه الجدل القائم بين بعض علماء الهيئة ، وبعض العلماء الآخرين ، في موضوع شكل الأرض ، ولعلّنا نوفق بفضل من الله إلى بيان الحقيقة في ذلك ، حتى لا يظن ظانّ تعارض القرآن ، وما يثبت من

علوم الهيئة أو يغتر جاهل بما يقال في الإسلام .

وبتأمل قول المفسرين نجدها متفقة في مجموعها : بأن دحاها مهدها وسهل الحياة عليها ، وذكر لوازم التمكين من الحياة عليها من إخراج الماء ، والمرعى ، ووضع الجبال ، وهو المتفق مع نصوص القرآن في قوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً والجبال أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : 6 – 7] .

وقوله : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك : 15] .

وكل ذلك من باب واحد ، وهو تمهيدها والتَّمكين للعيش عليها ، وليس فيه معنى التَّكوير والاستدارة .

وإذا جئنا إلى كتب اللغة نجدها كلها ، تنص على أن الدحو : البسط ، والرمي ، والأزالة ، والتمهيد ، فالبسط والتمهيد والرمي بالحجر المستدير في الحفرة الصغيرة معانٍ مشتركة ؟ وكلَّها تفسر دحاها ، بمعنى بسطها ومهدها . وأن الأدحية مبيض النعام لا بيضه ، كما يقولون وسمي بذلك لأنها تدحوه بيدها لتبيض فيه ، إذ لا عش لها .

وعليه ، فلا دليل من كتب اللغة على ان الدحو هو التكوير ، ولكن ما قول العلماء في شكل الأرض ، بصرف النظر عن كون القرآن تعرض له أو لم يتعرض ؟

إذا رجعنا غلى كلام من نظر في علم الهيئة من المسلمين ، فإنا نجدهم متفقين على أن شكل

الأرض مستدير .

وقيل إيراد شيء من أقوالهم ننبه على أنه لا علاقة لهذا البحث بموضوع الحركة ، سواء للأرض أو غيرها ، فذاك بحث مستقل ، ليس هذا محله ، وإنما البحث في الشكل .

(220/801)

أما أقوال العلماء في شكل الأرض ، فإن أجمع ما وقفت عليه ، وأصرح وأبين ، هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة الهلال ، جاء فيها : قال في موضع منها قوله ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من علماء الأمة ، أن الأفلاك مستديرة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [فصلت : 37] وقال : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] وقال تعالى : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

قال ابن عباس : في فلكة مثل فلكة المغزل . وهكذا هو في لسان العرب : الفلك الشيء المستدير . ومنه يقال : تفلك ثدي الجارية إذا استدار . قال تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ [الزمر : 5] ، والتَّكوير هو التدوير . ومنه قيل : كار

العمامة وكورها ، ولهذا يقال للأفلاك : كروية الشكل . لأن أصل الكرة كورة تحركة الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً .

وقال : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] مثل حسبان الرحى ، وقال : ﴿ مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك : 3] وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرهما ، فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه .

والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحي ، ليس بعضه مخالفاً لبعض .

(221/801)

وجاء فيه قوله أيضاً : وقال الإمام او بالحسين أحمد بن جعفر بن المنادي ، من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار ، في متون العلوم الدينية من البطقة الثانية من أصحاب أحمد : لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب ، كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين ، أحدهما في الشمال ، والآخر في ناحية الجنوب .

قال : ويدل على ذلك أن الكاوكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلاً على ترتيب واحد

في حركتها ومقادير أجزائها ، إلى أن تتوسط السماء ، ثم تنحدر على ذلك الترتيب ، فكأنها ثابتة في كرة تديرها جميعها دوراً واحداً .

هذه نبذة من أقوال علماء المسلمين في شكل الأفلاك ، ثم قال : وهذا محل القصد بالذات ، وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة .

قال : ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب ، لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب .

قال : فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء ، كالنقطة في الدائرة ، يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء ، على قدر واحد ، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد ، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء اه . بلفظه .

فهذا نقل لإجماع الأمة ، من إمام جليل في علمي المعقول والمنقول ، على أن الأرض على شكل الكرة ، وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك .

ومن جهة العقل أيضاً يقال : إن أكمل الأجرام هو المستدير كما قال في قوله : ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾

[الملك : 3] .

وعليه ، فلو قدر لسائر على وجه الأرض ، وافترضنا الأرض مسطحة كسطح البيت أو القرطاس مثلاً ، لكان لهذا السائر من نهاية ينتهي إليها ، وهي منتهى التسطيح أو يسقط في هاوية ، وباعتبارها كرة ، فإنه يكمل دورته ، ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى ، لأنه يدور على سطحها من جميع جهاتها . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

كان من الممكن أن نقدم هذه النتيجة من أول الأمر ما دامت متفقة في النهاية مع قول علماء الهيئة . ولا نطيل النقول من هنا وهناك ، ولكن قد سقنا ذلك كله لغرض أعم من هذا كله ، وقضية أشمل وهي من جهتين :

أولاهما : أن علماء المسلمين مدركون ما قال به علماء الهيئة ، ولكن لا من طريق النقل أو دلالة خاصة على هذه الجزئية من القرآن ، ولكن عن طريق النظر ، والاستدلال ، إذ علماء المسلمين لم يجهلوا هذه النظرية ، ولم تخف عليهم هذه الحقيقة .

ثانيتهما : مع علمهم بهذه الحقيقة وإدراكهم لهذه النظرية ، لم يعز واحد منهم دلالتها لنصوص الكتاب أو السنة .

وبناء عليه نقول : إذا لم تكن النصوص صريحة في نظرية من النظريات الحديثة ، لا ينبغي أن نقحمها في مباحثها نفياً أو إثباتاً ، وإنما نتطلب العلم من طريقه ، فعلوم الهيئة من النظر

الاستدلال ، وعلوم الطب من التجارب والاستقراء ، وهكذا يبقى القرآن مصاناً عن مجال الجدل في نظرية قابلة للثبوت والنفي ، أو التغيير والتبديل ، كما لا ينبغي لمن لم يعلم حقيقة أمر في فنه أن يبادر بإنكارها ما لم تكن مصادمة لنص صريح .

(223/801)

وعليه أن يثبت أولاً وقد نبهنا سابقاً على ذلك في مثل ذلك في قصة نبي الله سليمان مع بلقيس والهدهد حينما جاءه ، فقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22] وقصّ عليه خبرها مع قومها ، فلم يبادر عليه السلام بالإنكار . لكون الآتي بالخبر هدهداً ، ولم يكن عنده علم به ولم يسارع أيضاً بتصديقه ، لأنه ليس لديه مستند عليه ، بل أخذ في طريق التثبت بواسطة الطريق الذي جاء الخبر به قال : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ [النمل : 27] ، وأرسله بالكتاب إليهم ، فإذا كان هذا من نبي الله سليمان ولديه وسائل وإمكانيات كما تعلم . فغيره من باب أولى .

تنبيه آخر

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض ، فماذا يقولون في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : 17] - إلى قوله - ﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ

سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : 20] . وجوابهم كجوابهم على قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف : 86] ، أي في نظر العين ، لأن الشمس تغرب عن أمة ، وتستمر في الأفق على أمة أخرى ، حتى تأتي مطعلها من الشرق في صبحة اليوم الثاني ، ويكون بسط الأرض وتمهيدها ، نظراً لكل إقليم وجزء منها لسعتها وعظيم جرمها .

وهذا لا يتنافى مع حقيقة شكلها ، فقد نرى الجبل الشاهق ، وإذا تسلقناه ووصلنا قمته وجدنا سطحاً مستوياً ، ووجدنا أمة بكامل لوازمها ، وقد لا يعلم بعض من فيه عن بقية العالم ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

العشية : ما بين الزوال إلى الغروب ، والضحى : ما بين طلوع الشمس إلى الزَّوال ، وهذا تحديد بنصف نهار .

وقد جاء التحديد بساعة من نهار .

وجاء : ﴿ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف : 19] .

وجاء : ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشَراً ﴾ [طه : 103] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار ﴾ [يونس : 45] ، وأحال على دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وسيطبع إن شاء الله مع هذه التتمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(225/801)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة النازعات

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1)

قوله : ﴿ غَرْقاً ﴾ : يجوزُ فيه أَنْ يكونَ مصدراً على حَذْفِ الزوائد بمعنى : إغْراقاً ، وانتصابُه بما قبلَه لملاقاتِه له في المعنى ، وإمَّا على الحالِ ، أي : ذواتَ إغْراقٍ . يُقال : أَغْرَقَ في الشيءِ يُغْرِقُ فيه إذا أَوْغَلَ وبَلَغَ أقصى غايتِه . ومنه : أغرقَ النازعُ في القَوْسِ ، أي : بلغَ غايةَ المَدِّ .

وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4)

ونَشْطاً وسَبْحاً وسَبْقاً كلُّها مصادرُ . والنَّشْطُ : الرَّبْطُ ، والإِنْشاطُ : الحَلُّ . يقال : نَشَطَ البعيرَ : ربَطه ، وأَنْشَطَه : حَلَّه ، ومنه : "كأنما أنشط مِنْ عقال" . فالهمزةُ للسَّلْبِ .

ونَشِطَ : ذَهَبَ بسُرْعَةٍ . ومنه قيل لبقر الوَحْش : نَواشِط . قال هِمْيان بن قُحافة :

4480 أرى همومي تَنْشِطُ المَناشِطا . . . الشَّامَ بي طَوْراً وطَوْراً واسِطا

وَنَشَطْتُ الحَبْلَ أَنْشِطُه أُنْشُوْطَة : عَقَدْتُه ، وأَنْشَطْتُه مَدَدْتُه ، ونَشَطَ كأَنْشَطَ . قال الزمخشري : " تُنْشِطُ الأرواحَ ، أي : تُخْرِجُها ، مِنْ نَشَطَ الدَّلْوَ مِنْ البئرِ إذا أَخْرجَها " .

و" أَمْراً " مفعولٌ بالمُدبِّراتِ . وقيل : حال : تُدبِّرُهُ مَأْموراتٍ ، وهو بعيدٌ . والمرادُ بهؤلاء : إمَّا طوائفُ الملائكةِ ، وإمَّا طوائفُ خَيْلِ الغُزاةِ ، وإمَّا النجومُ ، وإمَّا المنايا ، وإمَّا بَقَرُ الوَحْشِ ، وما جَرَى مَجْراها لسُرْعَتِها ، وإمَّا أرواحُ المؤمنين .

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6)

(226/801)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ﴾ : منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ ، هو جوابُ القسم تقديره : لَتُبْعَثُنَّ ، لدلالةِ ما بعدَه عليه ، قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف جَعَلْتَ " يومَ تَرْجُفُ " ظرفاً للمُضْمرِ

الذي هو لَتُبْعَثُنَّ ، ولا يُبْعَثُون عند النَّفْخَةِ الأولى ؟ قلت : المعنى : لتُبْعَثُنَّ في الوقتِ الواسعِ الذي تقع فيه النَّفْخَتان ، وهم يُبْعَثُون في بعض ذلك الوقتِ الواسعِ ، وهو وقتُ النَّفْخَةِ الأخرى ، ودلَّ على ذلك أنَّ قولَه : " تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ " جُعِل حالاً عن " الراجفة " . وقيل : العاملُ مقدَّرٌ غيرُ جوابٍ ، أي : اذكُرْ يومَ تَرْجُفُ . وفي الجوابِ على هذا أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه قولُه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً ﴾ [النازعات : 26] . واستقبحه أبو بكر بن الأنباريّ لطولِ الفَصْل . الثاني : أنه قولُه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ [النازعات : 15] لأنَّ " هل " بمعنى " قد " . وهذا غَلَطٌ ؛ لأنَّه كما قدَّمْتُ لك في ﴿ هَلْ أتى ﴾ [الإنسان : 1] أنها لا تكونُ بمعنى " قد " ، إلاَّ في الاستفهام ، على ما قال الزمخشري . الثالث : أنَّ الجواب ﴿ تَتْبَعُهَا ﴾ [النازعات : 7] وإنما حُذِفَتِ اللامُ ، والأصل : لَيَوْمَ تَرْجُفُ الراجفةُ تَتْبَعُها ، فحُذِفَتِ اللامُ ، ولم تَدْخُلْ نونُ التوكيدِ على " تَتْبَعُها " للفَصْلِ بين اللامِ المقدَّرَةِ وبين الفعلِ المُقْسَمِ عليه بالظرفِ . ومثلُه ﴿ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : 158] . وقيل : في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ ، أي : يومَ تَرْجُفُ الراجفةُ تَتْبَعُها الرادِفَةُ والنازعاتِ .

(227/801)

وقال أبو حاتم : " هو على التقديم والتأخيرِ كأنه قال : فإذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ والنَّازعاتِ " .

قال ابن الأنباري : " هذا خطأٌ ؛ لأنَّ الفاءَ لا يُفْتَتَحُ بها الكلامُ " . وقيل : " يومَ " منصوبٌ بما دَلَّ عليه " واجِفَةٌ " ، أي : يومَ تَرْجُفُ وَجِفَت . وقيل : بما دَلَّ عليه خاشع ، أي : يومَ تَرْجُفُ خَشَعَتْ .

تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7)

قوله : ﴿ تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً من الراجفة ، وأَنْ تكونَ مستأنفةً .

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8)

قوله : ﴿ قُلُوبٌ ﴾ : مبتدأٌ ، و " يومئذٍ " منصوبٌ ب " واجفةٌ " ، وواجفة صفةُ القلوبِ ، وهو المُسَوِّغُ للابتداءِ بالنكرةِ و " أَبْصارُها " مبتدأٌ ثانٍ ، و " خاشِعة " خبرُه ، وهو وخبرُ الأولِ . وفي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ تقديرُه : أبصارُ أصحابِ القلوب . وقال ابنُ عطية : " وجاز ذلك ، أي : الابتداءُ بقلوب لأَنَّها تخصَّصَتْ بقولِه : " يومئذٍ " . ورَدَّ عليه الشيخُ : بأنَّ ظرفَ الزمانِ لا يُخَصِّصُ الجثثَ ، يعني لا تُوصف به الجثثُ . والواجفةُ : الخائفةُ . يقال : وَجَفَ يَجِفُ وَجيفاً ، وأصلُه اضطرابُ القَلْبِ وقَلَقُه . قال قيسُ بن الخطيم :

4481 إنَّ بني جَحْجَبَى وأُسْرَتَهُمْ . . . أكبادُنا مِنْ ورائِهم تَجِفُ

/وعن ابن عباس : واجِفَةٌ : خائفةٌ ، بلغة هَمْدان . ويُقال : وَجَبَ وَجيباً ، بالباءِ الموحدةِ بدلَ الفاءِ .

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10)

قوله : ﴿ فِي الحافرة ﴾ : الحافِرَة : الطريقةُ التي يَرْجِعُ الإِنسانُ فيها من حيث جاء . يقال : رَجَعَ في حافرته ، وعلى حافرته . ثم يُعَبَّرُ بها عن الرجوعِ بالأحوال مِنْ آخرِ الأمرِ إلى أوّله . قال :

4482 أحافِرَةً على صَلَعٍ وشَيْبٍ . . . معاذَ اللَّهِ مِنْ سَفَهٍ وعارِ

(228/801)

وأصلُه : أنَّ الإِنسان إذا رَجَعَ في طريقِه أَثَّرَتْ قدماه فيها حَفْراً . وقال الراغب : " وقولُه في الحافرة مَثَلٌ لمَنْ يُرَدُّ مِنْ حيث جاء ، أي : أَنَحْيا بعد أن نموتَ ؟ وقيل : الحافرةُ : الأرضُ التي [جُعِلَتْ] قبورُهم فيها ومعناه : أَإِنَّا لَمَرْدُودون ونحن في الحافِرة ؟ أي : في القبور . وقولُه : " في الحافرة " على هذا في موضعِ الحال . وقيل : رَجَعَ فلانٌ على حافِرَته ، ورَجَعَ الشيخُ إلى حافرته ، أي : هَرِمَ ، كقولِه : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العمر ﴾ [النحل : 70] . وقولُهم : " النَّقْدُ عند الحافِرة " لِما يُباع نَقْداً . وأصلُه في الفرس إذا بِيْع ، فيُقال : لا يَزُول حافِرُه أو يُنْقَدَ ثمنُه . والحَفْرُ : تَأَكُّلُ الأسنانِ . وقد حَفَرَ فُوه ، وقد أَحْفَرَ المُهْرُ للإِثْناءِ والإِرْباع ، أي : دنا لأن يكونَ ثَنِيّاً أو رُباعياً " انتهى . والحافِرَةُ قيل : فاعِلَة بمعنى مَفْعُولة .

وقيل : على النَّسَب ، أي : ذات حَفْرٍ ، والمراد : الأرضُ . والمعنى : إنَّا لَمَرْدُودون في قبورنا أحياءً . وقيل : الحافرة : جَمْعُ حافِر بمعنى القَدَم ، أي : نمشي أحياءً على أقدامِنا ، ونَطَأُ بها الأرضَ . وقيل : هي أولُ الأمرِ . وتقولُ التجّار : " النَّقْدُ في الحافِرة " ، أي : أوّلُ السَّوْمِ . وقال الشاعر :

4483 آلَيْتُ لا أُنْساكُمُ فاعْلَموا . . . حتى تُرَدَّ الناسُ في الحافِرَهْ

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة " في الحَفِرَة " بدون ألف . فقيل : هما بمعنى . وقيل : هي الأرض التي تَغَيَّرَتْ وأُنْتِنَتْ بموتاها وأجسادِهم ، مِنْ قولِهم : حَفِرت أسنانُه ، أي : تَأَكَّلَتْ وتَغَيَّرَتْ . وقد تقدَّم خلافُ القراءِ في هذَيْن الاستفهامَيْن في سورةِ الرعد . وقوله : " في الحافِرَة " يجوزُ تعلُّقُه بمَرْدُوْدون ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ كما تقدَّم .

أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11)

(229/801)

قوله : ﴿ نَّخِرَةً ﴾ : قرأ الأخَوان وأبو بكر " ناخِرَة " بألفٍ ، والباقون " نَخِرَة " بدونِها وهما كحاذِر وحَذِر ، فاعِل لِمَنْ صَدرَ منه الفِعْلُ ، وفَعِل لِمَنْ كان فيه غَريزةً ، أو كالغَريزة . وقيل : ناخِرة ونَخِرة بمعنى بالية . وقيل : ناخِرَة ، أي : صارَتِ الريحُ تَنْخِرُ فيها ، أي : تُصَوِّتُ ،

ونَخِرَة ، أي : تَنْخِرُ فيها دائماً . وقيل : ناخِرَة : بالِية ، ونَخِرَة : متآكلة . وعن أبي عمرو : الناخِرة : التي لم تَنْخَرْ بعدُ ، والنَّخِرَةُ : البالية . وقيل : الناخِرَةُ : المُصَوِّتَةُ فيها الريحُ ، والنَّخِرةُ : البالية التي تَعَفَّنَتْ . قال الزمخشري : "يُقال : نَخِر العظمُ ، فهو نَخِرٌ وناخِرٌ ، كقولِك : طَمِعَ فهو طَمِعٌ وطامعٌ ، وفَعِل أَبْلَغُ مِنْ فاعِل ، وقد قُرِىء بها ، وهو البالي الأجوفُ الذي تَمُرُّ فيه الرِّيحُ فيُسْمَعُ له نَخِير " . قلت : ومنه قولُه :

4484 وأَخْلَيْتُها مِنْ مُخِّها فكأَنَّها . . . قواريرُ في أجوافِها الريحُ تَنْخِرُ

وقال الراجزُ لفَرَسه :

4485 أَقْدِمْ نَجاحُ إنها الأَساوِرَهْ . . . ولا يَهُوْلَنَّكَ رَحْلٌ نادِرَهْ

فإنما قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَهْ . . . ثم تعودُ بعدها في الحافِرَهْ

مِنْ بعدِ ما كنتَ عِظاماً ناخِرَهْ . . . ونُخْرَةُ الرِّيح بضمِّ النون : شِدَّةُ هبوبِها ، والنُّخْرَةُ أيضاً : مُقَدَّمُ أَنْفِ الفَرَسِ والحمارِ والخِنْزير . يقال : هَشَمَ نُخْرَتَه ، أي : مُقَدَّمَ أَنْفِه . و " إذا " منصوبٌ بمضمرٍ ، أي : إذا كُنَّا كذا نُرَدُّ ونُبْعَثُ .

قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12)

قوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ : مبتدأٌ مُشارٌ بها إلى الرَّجْفة والرَّدَّة في الحافِرة . و "كَرَّةٌ" . خبرُها . و "خاسِرَةٌ" صفةٌ ، أي : ذاتُ خُسْرانٍ ، أو أُسْنِدَ إليها الخَسارُ ، والمرادُ : أصحابُها ، مجازاً . والمعنى : إنْ كان رجوعُنا إلى القيامةِ حَقّاً فتلك الرَّجْعَةُ رَجْعَةٌ خاسِرَةٌ ، وهذا أفادَتْه " إذَنْ " فإنها حرفُ جوابٍ وجزاءٍ عند الجمهور . وقيل : قد لا تكونُ جواباً . وعن الحسنِ : إنَّ " خاسرة " بمعنى كاذِبة .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13)

قوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ ﴾ : " هي " ضميرُ الكَرَّة ، أي : لا تَحْسَبوا تلك الكَرَّةَ صعبةً على اللَّهِ تعالى . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : بِمَ تَعَلَّقَ قولُه : " فإنما هي " ؟ قلت : بمحذوفٍ معناه : لا تَسْتَصْعِبوها ، فإنما هي زَجْرَةٌ " . قلت : يعني بالتعلُّقِ من حيث المعنى ، وهو العطفُ .

فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

قوله : ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ : المفاجأةُ والتَّسَبُّبُ هنا واضحان والسَّاهرة قيل : وجهُ الأرضِ ، والفَلاةُ ، وُصِفَتْ بما يقع فيها ، وهو السَّهَرُ لأجلِ الخوفِ . وقيل : لأنَّ السَّرابَ يَجْري فيها ، مِنْ قولِهم : عَيْنٌ ساهرَةٌ . قال الزمخشري : " والسَّاهرةُ : الأرضُ البيضاءُ المستويةُ ، سُمِّيَتْ بذلك ؛ لأنَّ السَّرابَ يجري فيها ، مِنْ قولهم / عينٌ ساهِرَةٌ جارِيةُ الماء ، وفي ضَدِّها نائمةٌ . قال الأشعث بن قيس :

4486 وساهِرَةٍ يُضْحِي السَّرابُ مُجَلِّلاً . . . لأَقْطارِها قد جُبْتُها مُتَلَثِّما

أو لأنَّ ساكنَها لا ينامُ ، خَوْفَ الهَلَكَة " انتهى . وقال أمية :

4487 وفيها لَحْمُ ساهِرَةٍ وبَحْرٍ . . . وما فاهوا لهمْ فيها مُقيمُ

يريد : لحمُ حيوانِ أرضٍ ساهرةٍ . وقال أبو كبير الهذلي :

4488 يَرْتَدْنَ ساهِرَةً كأنَّ جَميمَها . . . وعَمِيْمَها أسْدافُ ليلٍ مُظْلِمِ

(231/801)

قال الراغب : " هي وَجْهُ الأرضِ . وقيل : أرضُ القيامةِ . وحقيقتُها التي يَكْثُرُ الوَطْءُ بها ، كأنَّها سَهِرَتْ مِنْ ذلك ، إشارةً إلى نحوِ قولِ الشاعر :

4489 . . . . . تَحَرَّكَ يَقْظانُ الترابِ ونائِمُهْ

والأَسْهَران : عِرْقان في الأنفِ " انتهى . والسَّاهُوْر : غلافُ القَمَرِ الذي يَدْخُل فيه عند كُسوفِه . قال :

4490 . . . . . أو شُقَّةٌ أُخْرِجَتْ مِنْ بَطْنِ ساهُوْرِ

أي : هذه المرأةُ بمنزلةِ قطعةِ القمر . وقال أميَّةُ :

4491 . . . . . قَمَرٌ وساهُورٌ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16)

قوله : ﴿ إِذْ نَادَاهُ ﴾ : "إذ" منصوبٌ ب "حديثُ" لا ب "أتاك" لاختلافِ وقتَيْهما . وتقدَّم الكلامُ في ﴿ طُوًى ﴾ [الآية : 12] في طه .

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17)

قوله : ﴿ اذهب ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ تفسيراً للنداءِ . ويجوزُ أن يكونَ على إضمارِ القولِ . وقيل : هو على حَذْفِ "أَنْ" ، أي : أَنْ اذهَبْ . ويَدُلُّ له قراءةُ عبد الله : "أَنْ اذْهَبْ" . و "أَنْ" هذه الظاهرةُ أو المقدرةُ يُحتمل أَنْ تكونَ تفسيريةً ، وأَنْ تكونَ مصدريةً ، أي : ناداه بكذا .

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18)

قوله : ﴿ هَلْ لَكَ ﴾ : خبرُ مبتدأ مضمرٍ . و "إلى أَنْ" متعلقٌ بذلك المبتدأ ، وهو حَذْفٌ شائعٌ . والتقدير : هل لك سبيلٌ إلى التزكية ومثله : "هل لك في الخير" يريدون : هل لك رغبةٌ في الخير . وقال الشاعر :

4492 فهل لكمُ فيها إليَّ فإنَّني . . . بَصيرٌ بما أَعْيا النِّطاسِيَّ حِذْيَما

وقال أبو البقاء : "لَمَّا كان المعنى : أَدْعوك جاء ب "إلى" . وهذا لا يُفيدُ شيئاً في الإِعراب . وقرأ نافعٌ وابنُ كثير بتشديدِ الزاي مِنْ "تَزَّكَّى" والصادِ مِنْ "تَصَدَّى" في السورةِ تحتها . والأصلُ : تتزكَّى وتتصدَّى ، فالحَرَمِيَّان أدغما ، والباقون حَذَفُوا نحو : ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ [القدر : 4] . وتقدَّم الخلافُ في أيِّهما المحذوفةِ .

فَحَشَرَ فَنَادَى (23)

قوله : ﴿ فَحَشَرَ فنادى ﴾ : لم يُذْكَر مفعولاهما ؛ إذ المرادُ فَعَلَ ذلك ، أو يكونُ التقدير : فَحَشَرَ قومَه فناداهم . وقوله "فقال" تفسيرٌ للنداء .

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25)

قوله : ﴿ نَكَالَ الآخرة ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مصدراً ل "أَخَذَ" ، والتجوُّزُ : إمَّا في الفعل ، أي : نَكَّل بالأَخْذِ نَكالَ الآخرةِ ، وإمَّا في المصدر ، أي : أَخَذَه أَخْذَ نَكالٍ . ويجوز أَنْ يكونَ مفعولاً له ، أي : لأجل نَكالِه . ويَضْعُفُ جَعْلُه حالاً لتعريفِه ، وتأويلُه كتأويلِ جَهْدَك وطاقَتَك غيرُ مَقيس . ويجوز أَنْ يكونَ مصدراً مؤكِّداً لمضمونِ الجملةِ المتقدِّمةِ ، أي : نَكَّل الله به نَكالَ الآخرةِ ، قاله الزمخشري ، وجعله ك ﴿ وَعْدَ الله ﴾ [النساء : 122] و ﴿ صِبْغَةَ الله ﴾ [البقرة : 138] . والنَّكالُ : بمنزلةِ التَّنْكيل ، كالسَّلام بمعنى التَّسْليم . والآخرةُ والأولى : "إمَّا الداران ، وإمَّا الكلمتان ، فالآخرةُ قولُه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى

﴿ [النازعات : 24] ، والأولى : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : 38] فحُذِفَ الموصوفُ للعِلْم به .

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27)

(233/801)

قوله : ﴿ أَمِ السمآء ﴾ : عطفٌ على " أنتم " وقوله : " بناها " بيانٌ لكيفيةِ خَلْقِه إياها . فالوقفُ على " السماء " ، والابتداءُ بما بعدَها . ونظيرُه ما مرَّ في الزخرف [الآية : 58] ﴿ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28)

قوله : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ : جملةٌ مفسِّرةٌ لكيفيةِ البناءِ . والسَّمْكُ : الارتفاعُ . ومعناه في الآيةِ كما قال الزمخشريُّ : " جَعَلَ مقدارَ ذهابِها في سَمْتِ العُلُوِّ مديداً رفيعاً " . وسَمَكْتُ الشيءَ : رَفَعْتُه في الهواءِ . وسَمَكَ هو ، أي : ارتفعَ سُمُوكاً فهو قاصِرٌ ومتعدٍّ . وسَنامٌ سامِكٌ تامِكٌ ، أي : عالٍ مرتفعٌ . وسِماكُ البيت ما سَمَكْتَه به . والسِّماك : نجمٌ معروفٌ ، وهما اثنان : رامحٌ وأَعْزَلُ . قال الشاعر :

4493 إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا . . . بيتاً دعائِمُه أعَزُّ وأَطْوَلُ

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29)

قوله : ﴿ وَأَغْطَشَ ﴾ : أي : أظلم بلغةِ أنْمار وأَشْعر . يقال : غَطِش الليلُ وغَطَّشْتُه أنا ، وأَغْطَشْتُه قال :

4494 عَقَرْتُ لهُمْ ناقتي مَوْهِناً . . . فلَيْلُهُمُ مُدْلَهِمٌّ غَطِشْ

وليلٌ أغطشٌ وليلةٌ غَطْشاءُ . قال الراغب : " وأصلُه من الأَغْطشِ ، وهو الذي في عَيْنه عَمَشٌ . ومنه فَلاةٌ غَطْشى لا يُهْتدى فيها . والتغاطُشُ : التَّعامي " انتهى . ويقال : أَغْطشَ الليلُ ، قاصراً كأظلم ، فأَفْعَلَ فيه متعدٍّ / ولازمٌ .

وقوله : ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ فيه حَذْفٌ ، أي : ضُحى شمسِها ، أو أضافَ الليلَ والضُّحى لها للملابسةِ التي بينها وبينهما .

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30)

(234/801)

قوله : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ : " بعد " على بابِها من التأخيرِ . ولا مُعارَضَةَ بينها وبين آيةِ فُصِّلت ؛ لأنَّه خلق الأرضَ غيرَ مَدْحُوَّةٍ ، ثم خَلَق السماءَ ، ثم دحا الأرضَ . وقولُ أبي عبيدة : " إنها بمعنى قَبْل " مُنْكَرٌ عند العلماءِ . ويقال : دحا يَدْحُوا دَحْواً ودَحَى يَدْحي

دَحْياً ، أي : بَسَط ، فهو من ذواتِ الواوِ والياءِ ، فيُكتبُ بالألف والياء ، ومنه قيل لِعُشِّ النَّعامة : أُدْحُوٌّ ، وأُدْحِيٌّ ، لانبساطِه في الأرض . وقال أمية :

4495 وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها . . . فهم قُطَّانُها حتى التَّنادِي

وقيل : دحى بمعنى سَوَّى . قال زيد بن نُفَيْل :

4496 وأَسْلَمْتُ وَجْهِيْ لِمَنْ أَسْلَمَتْ . . . له الأرضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثقالاً

دَحاها فلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّها . . . بأَيْدٍ وأَرْسى عليها الجِبالا

والعامَّةُ على نصبِ " الأرض " و " الجبال " على إضمارِ فعلٍ مفسَّرٍ بما بعده ، وهو المختارُ لتقدُّمِ جملةٍ فعليةٍ . ورَفَعَهما الحسنُ وابن أبي عبلة وأبو حيوة وأبو السَّمَّال وعمرُو بن عبيد ، على الابتداء ، وعيسى برفع " الأرض " فقط .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31)

قوله : ﴿ أَخْرَجَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ تفسيراً . والثاني : أَنْ يكونَ حالاً . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : فهلاَّ أَدْخَلَ حرفَ العطفِ على " أَخْرَجَ " . قلت : فيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونَ " دحاها " بمعنى بَسَطها ومهَّدها للسُّكنى ، ثم فَسَّر التمهيدَ بما لا بُدَّ منه في تأتِّي سُكْناها مِنْ تسويةِ أمرِ المَأْكَلِ والمَشْرَبِ وإمكانِ القَرارِ عليها . والثاني : أَنْ يكونَ " أَخْرَجَ " حالاً بإضمار " قد " كقولِه : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [النساء : 90] . قلت : إضمار " قد " هو قولُ الجمهورِ ، وخالفَ الكوفيون والأخفش

.

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)

(235/801)

قوله : ﴿ مَتَاعاً ﴾ : العامَّةُ على النصبِ مفعولاً له ، أو مصدراً لعاملٍ مقدَّرٍ ، أي : مَتَّعكم . والمَرْعَى في الأصل : مكانٌ أو زمانٌ أو مصدرٌ ، وهو هنا مصدرٌ بمعنى المفعولِ ، وهو في حق الآدميين استعارةٌ .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34)

قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ﴾ : في جوابِها أوجهٌ ، أحدُها : قولُه : " فأمَّا مَنْ طغى " نحو : " إذا جاءك بنو تميم فأمَّا العاصي فَأَهِنْه ، وأمَّا الطائعُ فأَكْرِمْهُ " . وقيل : محذوفٌ ، فقدَّره الزمخشري : فإنَّ الأمرَ كذلك ، أي : فإنَّ الجحيمَ مَأْواه . وقدَّره غيرُ انقسم الراؤون قسمين . وقيل : عاينوا أو علموا . وقال أبو البقاء : " العاملُ فيها جوابُها ، وهو معنى قولِه : " يومَ يَتَذَكَّرُ الإنسانُ " . والطامَّة : الدَّاهِية تَطِمُّ على غيرِها من الدَّواهي لِعَظَمِها . والطَّمُّ : الدَّفْنُ . ومنه : طَمَّ السَّيْلُ الرَّكِيَّةَ . وفي المثل : " جرى الوادي فَطَمَّ على القُرى " والمرادُ بها في القرآن النخفةُ الثانيةُ لأنَّ بها يَحْصُل ذلك .

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ﴾ : بدلٌ مِنْ " إذا " أو منصوبٌ بإضمار فعلٍ ، أي : أعني يومَ ، أو يومَ يتذكَّرُ يجري كيتَ وكيتَ .

وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36)

قوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للمفعولِ مشدداً ، و " لِمَنْ يرى " بياء الغيبة . وزيد بن عليّ وعائشةُ وعكرمةُ مبنياً للفاعلِ مخففاً ، و " ترى " بتاءٍ مِنْ فوقُ فجوَّزوا في تاء " ترى " أَنْ تكونَ للتأنيثِ ، وفي " ترى " ضمير الجحيم كقولِه : ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [الفرقان : 12] ، وأَنْ تكونَ للخطابِ ، أي : ترى أنت يا محمدُ . وقرأ عبد الله " لِمَنْ رأى " فعلاً ماضياً .

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39)

(236/801)

قوله : ﴿ هِيَ المأوى ﴾ : إمَّا : هي المَأْوى له ، أو هي مَأْواه ، وقامَتْ أل مَقامَ الضميرِ ، وهو رأيُ الكوفيين . وقد تقدَّم لك تحقيقُ هذا الخلافِ والردُّ على قائِله بقوله :

4497 رَحِيْبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رَفيقةٌ . . . بجَسِّ النَّدامى بَضَّةُ المُتَجَرِّدِ

إذا لو كانَتْ أل عِوَضاً من الضميرِ لَما جُمِع بينهما في هذا البيتِ . ولابُدَّ مِنْ أحدِ هذَيْن التأويلَيْن في الآيةِ الكريمةِ لأجلِ العائدِ من الجملةِ الواقعةِ خبراً إلى المبتدأ . والذي حَسَّن عدمَ ذِكْرِ العائدِ كَوْنُ الكلمةِ وقعَتْ رأسَ فاصلةٍ . وقال الزمخشري : " والمعنى : فإنَّ الجحيمَ مَأْواه ، كما تقولُ للرجل : / " غُضَّ الطرفَ " وليس الألفُ واللامُ بدلاً من الإضافةِ ، ولكنْ لَمَّا عُلِمَ أنَّ الطاغيَ هو صاحبُ المَأْوى ، وأنَّه لا يَغُضُّ الرجلُ طَرْفَ غيره ، تُرِكَتِ الإضافةُ ، ودخولُ الألفِ واللامِ في " المَأْوَى " والطَّرْفِ للتعريفِ لأنَّهما معروفان " .

قال الشيخ : " وهو كلامٌ لا يَتَحَصَّلُ منه الرابطُ العائدُ على المبتدأ ، إذ قد نَفَى مذهبَ الكوفيين ، ولم يُقَدِّر ضميراً كما قَدَّره البصريُّون ، فرامَ حصولَ الرابطِ بلا رابطٍ " . قلت : قوله : " ولكنْ لَمَّا عُلِمَ " إلى آخره هو عينُ قولِ البصريين ، ولا أَدْري كيف خَفِيَ عليه هذا ؟

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43)

(237/801)

قوله : ﴿ فِيمَ أَنتَ ﴾ : " فيم " خبرٌ مقدمٌ ، و " أنت " مبتدأٌ مؤخرٌ و " مِنْ ذِكْراها " متعلِّقٌ بما تعلَّقَ به الخبرُ ، والمعنى : أنت في أيِّ شيءٍ مِنْ ذِكْراها ، أي : ما أنت مِنْ ذكراها لهم وتبيينِ وقتِها في شيءٍ . وقال الزمخشريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها : " لم يَزَلْ عليه السلامُ

يَذْكُرِ الساعةَ ، ويُسْأَلُ عنها حتى نَزَلَتْ " . قال : فعلى هذا هو تَعَجُّبٌ مِنْ كثرةِ ذِكْرِه لها ، كأنَّه قيل : في أيِّ شُغْلٍ واهتمامٍ أنا مِنْ ذِكراها والسؤال عنها " . وقيل : الوقفُ على قولِه : " فيمَ " وهو خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : فيم هذا السؤالُ ، ثم يُبْتدأ بقولِه : ﴿ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ ، أي : إرسالُك وأنت خاتمُ الأنبياءِ ، وآخرُ الرسلِ ، والمبعوثُ في نَسْمِ الساعةِ ، ذِكْرٌ مِنْ ذِكْراها وعلامةٌ مِنْ علاماتِها ، فكَفاهم بذلك دليلاً على دُنُوِّها ومشارَفَتِها والاستعدادِ لها ، ولا معنى لسؤالِهم عنها ، قاله الزمخشري ، وهو كلامٌ حسنٌ لولا أنه يُخالِفُ الظاهرَ ومُفَكِّكٌ لنَظْمِ الكلامِ .

إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (45)

قوله : ﴿ مُنذِرُ مَن ﴾ : العامَّةُ على إضافةِ الصفةِ لمعمولِها تخفيفاً . وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وطلحة وابن محيصن بالتنوين . قال الزمخشريُّ : " وهو الأصلُ ، والإضافةُ تخفيفٌ ، وكلاهما يَصْلُحُ للحالِ والاستقبالِ . فإذا أُريد الماضي فليس إلاَّ الإضافةُ كقولِك : هو مُنْذِرُ زيدٍ أمسِ " . قال الشيخ : " قوله : " هو الأصلُ " يعني التنوينَ هو قولٌ قاله غيرُه ، ثم اختار الشيخُ أنَّ الأصلَ الإضافةُ . قال : " لأنَّ العملَ إنما هو بالشَّبه ، والإضافةُ أصلٌ في الأسماءِ . ثم قال : " وقوله فليس إلاَّ الإضافةُ فيه تفصيلٌ وخِلافٌ مذكورٌ في النحو " . قلت : لا يُلْزِمُه أَنْ يَذْكُرَ محلَّ الوفاقِ ، بل هذان اللذن ذكرهما مذهبُ جماهيرِ الناسِ .

(238/801)

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

قوله: ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾: أي: ضُحى العَشِيَّةِ، أضاف الظرفَ إلى ضميرِ الظرفِ الآخر تجوُّزاً واتِّساعاً، وذَكَرهما لأنهما طرفا النهارِ، وحَسَّن هذه الإضافةَ وقوعُ الكلمةِ فاصلةً. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 667.684﴾

(239/801)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى الجنة)

وهى وما يُشتقّ من مادتها، ترد على اثنى عشر وجها.

الأَوّل: بمعنى التوحيد ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ﴾ قال المفسّرون: أَى إِلى الإِيمان.

الثانى : بمعنى بستان كان باليمن ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ .

الثالث : بمعنى أَخوين من بنى إِسرائيل ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ الآية .

الرَّابع : بمعنى البساتين المحفوفة بالأَشجار والمياه الجاريات ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ .

الخامس : بمعنى رياض الرَّوح والرّضوان .

وبساتين الأَحباب والإِخوان ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ وهى أَربع جنان .

ثنتان للخواصّ ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وثنتان لعامّة المؤمنين ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وإِحدى هذه الأَربع جنَّة النَّعيم ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ والأُخرى جنَّة الْمَأْوَى ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ .

والثالثة : جنَّة عَدْن ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ .

الرّابعة : جنَّة الفِرْدَوْس ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ ومن جملة الجنان دار السلام ، ودار الخلد ، وعِلّيُّون تكملة السبع .

السّادس : الجِنَّة – بكسر الجيم – بمعنى الجنّ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .

السابع : الجِنَّة بمعنى الجنون ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

الثامن : الجَنّ بمعنى السَّتر عن الحاسّة .

يقال : جَنَّة اللَّيل وأَجَنَّه ، وجَنّ عليه فَجُنَّ : ستره وأَجَنَّه : جعل له ما يَجنه وجَنّ عليه كذا ، ستره .

(240/801)

والجَنَانُ : القلبُ لكونه مستوراً عن الحاسّة ، والمِجنّ والجُنَّة : التُّرْسُ الَّذى يَجُنّ صاحبه .

التَّاسع : الجنين بمعنى الطَّفل فى بطن أُمّه ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ ﴾ والجَنِين أَيضاً : القبر

فعيل بمعنى فاعل .

والأَول بمعنى مفعول .

العاشر : الجِنّ .

ويقال على وجهين .

أَحدهما : للرّوحانيّين المستَترِة عن الحوّاسّ كلِّها بإِزاءِ الإِنس .

فيدخل فيه الملائكة والشياطين .

وكل ملائكةٍ جِنٌ وليس كلّ جنّ ملائكة .

وقيل : بل الجِنّ بعض الروحانيين .

وذلك أَن الرّوحانيّين ثلاثة : أَخْيَارٌ وهم الملائكة ، وأَشرارٌ وهم الشياطين ، وأَوساطٌ فيهم خيار وشِرار وهم الجِنّ .

ويدلّ على ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ إلى قوله ﴿ ومِنَّا القَاسِطُون ﴾ .

(والجنون أَمر حائل بين النَّفس والعقل) .

الحادى عشر : الجانّ بمعنى الحيّة الصغيرة ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً ﴾ .

الثانى عشر : الجانّ بمعنى أَب الجنّ ﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ ﴾ وقيل هو نوع من الجنّ .

الثالث عشر : الجُنَّة التُرْس العريض الوسيع الَّذى يختفى الرّاجل وراءَه ﴿ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 352.354 ﴾

(241/801)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة النازعات

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز لرب عزيز ، سماعه يحتاج إلى سمع عزيز ، وذكره يحتاج إلى وقت عزيز ، وفهمه يحتاج إلى قلب عزيز .

وأنى لصاحب سمع بالغيبة مبتذل ، ووقت معطل في الخسائس مستغرق ، وقلب في الاشتغال بالأغيار مستعمل أنى له أن يصلح لسماع هذا الاسم ؟ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ .

أي الملائكة ؛ تنزعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

﴿ غَرْقاً ﴾ : أي إغراقاً كالمُغرِق في قَوْسِه .

ويقال : هي النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾ .

هي أنفس المؤمنين تَنْشَط للخروج عند الموت .

ويقال : هي الملائكة تنشِط أُرواحَ الكفار ، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هي الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدِ .

ويقال : هي الأوهاق .

ويقال : هي النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى المشارق .

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴾ .

الملائكة تسبح في نزولها .

ويقال : هي النجوم تسبح في أفلاكها .

ويقال : هي السفن في البحار .

ويقال : هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾ .

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول .

﴿ فَالمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ .

الملائكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحي ، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات ، وإسرافيل بالصُّور ، ومَلَكُ الموت يَقْبِضِ الأرواح . . عليهم السلام .

وجوابُ القَسم قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَالِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .

تتحرك الأرضُ حركةً شديدة .

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ .

النفخة الأولى في الصُّور . وقيل : الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية . ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ .

خائفة .

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴾ .

أي إلى أول أمرِنا وحالنا ، يعني أئذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا) ؟ . قالوه على جهة الاستبعاد .

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ .

أي بالية .

﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .

رَجْعَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .

جاء في التفسير إنها أرض المحشر ، ويقال : إنها أرضٌ بيضاء لم يُعْصَ الله فيها .

ويقال : ﴿ الساهرة ﴾ نَفْخَةُ الصُّور تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

أي الأرض المطهرة المباركة . ﴿ طُوًى ﴾ اسم الوادي هناك .

﴿ اذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ . قلنا له : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ، فقل له : هل يقع لك أَنْ تؤمِنَ وتتطهر من ذنوبك .

وفي التفسير : لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش أربعمائة سنةٍ في السرورة والنعمة . . ثم لك الجنة في الآخرة .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ .

أُقَرِّرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول ، وأعرفك صحة الدين . . فهل لك ذلك ؟ فلم يَقْبَلْ .

ويقال : أظهر له كل هذا التلطُّفَ ولكنه في خَفِيِّ سِرِّه وواجبِ مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبَه عن إرداة هذه الأشياء ، وإيثار مرادِه على مراد ربِّه ، وأَلقى في قلبه الامتناعَ ، وتَرْكَ قبولِ النُّصْح . . وأيُّ قلبٍ يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبه هذا اللفظ ؟ وأيّ كَبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر ؟ .

(243/801)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ .

جاء في التفسير : هي إخراجُ يده بيضاءَ لها شعاعٌ كشعاع الشمس . فقال فرعون : حتى أشاوِرَ هامانَ ، فشاوَرَه ، فقال له هامان : أبعد ما كُنْتَ ربًّا تكون مربوباً ؟ ! وبعد ما

كنت مَلِكاً تكون مملوكاً ؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك ، وعَصَى ، وجَمَعَ السَّحَرَة ، ونادى :

﴿ فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

ويقال : إنَّ إبليس لَمَّا سَمِع هذا الخطابَ فرَّ وقال : لا أطيق هذا ! ويقال : قال : أنا ادَّعَيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت . . وهذا يقول : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ .

أي في إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لمن يخشى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ جعلها مستوية . ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أظلم ليلها . ﴿ ضُحَاهَا ﴾ ضوؤُها ونهارها . ﴿ دَحَاهَآ ﴾ بَسَطَها ومَدَّها .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ .

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات . .

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .

أَثْبَتَها أوتاداً للأرض .

﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

أي أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع ، وكذلك لأَنعامِكم .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَى ﴾ .

الداهية العُظمى . . وهي القيامة .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَنُ مَا سَعَى ﴾ .

وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأمَّا من طغى وكَفَرَ وآثر الحياة الدنيا فإنَّ الجحيمَ له المأوى والمُسْتَقَرُّ والمثوى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى ﴾ .

(244/801)

﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ : وقوفه غداً في محل الحساب . ويقال : إقبالُ الله عليه وأَنَّه راءٍ له . .

وهذا عينُ المراقبة ، والآخَر محلُّ المحاسبة .

﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أي لم يتابع هواه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ .

أي متى تقوم ؟

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ .

مِنْ أَين لك عِلْمُها ولم نعلمك ذلك .

﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴾ .

أي إنما يعلم ذلك ربُّكَ .

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ .

أي تخوّف ، فيقبل تخويفَك مَنْ يخشاها ويؤمن .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .

كانهم يومَ يَرَوْن القيامة ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ عِشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ فلشدة ما يرون تقل عندهم كثرةُ ما لبثوا تحت الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 681.

﴿686

(245/801)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5)

الإعراب :

(الواو) واو القسم ، والجارّ والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (غرقا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين وكذلك (الفاء) في الموضعين (أمرا) مفعول به لاسم الفاعل على المدبّرات .

جملة : " (أقسم) بالنازعات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة . . . وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثنّ أيها الكافرون .

---

(1) قال أبو البقاء : " النازع هو المغرق في نزع السهم أو الروح ، وهو مصدر محذوف الزيادة أي إغراقا . ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال بحذف مضاف أي ذوات إغراق .

الصرف :

(النازعات) ، جمع النازعة مؤنّث النازع ، اسم فاعل من الثلاثيّ نزع ، وزنه فاعل ،

والنازعات الملائكة .

(الناشطات) ، جمع الناشطة مؤنّث الناشط ، اسم فاعل من الثلاثيّ نشط ، وزنه فاعل ، والناشطات الملائكة .

(السابحات) ، جمع السابحة مؤنّث السابح ، اسم فاعل من الثلاثيّ سبح ، وزنه فاعل ، والسابحات الملائكة .

(السابقات) ، جمع السابقة مؤنّث السابق ، اسم فاعل من الثلاثيّ سبق ، وزنه فاعل ، والسابقات الملائكة .

(المدبّرات) ، جمع المدبّرة مؤنّث المدبّر ، اسم فاعل من الرباعي دبّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين .

(غرقا) ، مصدر سماعيّ لفعل غرق باب نصر وزنه فعل بفتح فسكون . .

أو هو اسم مصدر من (أغرق) .

(نشطا) ، مصدر سماعيّ لفعل نشط باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون . .

(سبقا) ، مصدر سماعيّ لفعل سبق باب ضرب وزنه فعل بفتح فسكون . .

[سورة النازعات (79) : الآيات 6 إلى 11]

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10)

أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11)

الإعراب :

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالفعل المقدّر لتبعثنّ

(قلوب) مبتدأ مرفوع خبره جملة أبصارها خاشعة (يومئذ) ظرف منصوب - أو مبنيّ على الفتح لأنه أضيف إلى المبنيّ إذ - متعلّق بـ (واجفة) " 1 " ، (واجفة) نعت لقلوب " 2 " مرفوع (أبصارها) مبتدأ ثان مرفوع بحذف مضاف أي أبصار أصحابها . . خبره (خاشعة) . .

جملة : " ترجف الراجفة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تتبعها الرادفة . . . " في محلّ نصب حال من الراجفة .

وجملة : " قلوب . . . أبصارها خاشعة " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أبصارها خاشعة " في محلّ رفع خبر المبتدأ (قلوب) .

10 - 11 (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (اللام) للتوكيد وهي المزحلقة (في الحافرة) متعلّق بـ (مردودون) ، (الهمزة) مثل الأولى (إذا) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون

الجواب . .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . .

والجملة الاسميّة حال من أصحاب القلوب الواجفة " 3 " .

وجملة : " إنّا لمردودون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنّا عظاما . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف تقديره

فهل نبعث من جديد .

الصرف :

(6) الراجفة : مؤنّث الراجف ، اسم فاعل من الثلاثيّ رجف وزنه فاعل .

(7) الرادفة : مؤنّث الرادف ، اسم فاعل من الثلاثيّ ردف وزنه فاعل .

---

(1) أو هو بدل من يوم ترجف .

(2) جاز فصل النعت عن المنعوت بفاصل لأنه ظرف .

(3) يجوز أن تكون جملة يقولون استئنافا بيانيّا .

(8) واجفة : مؤنّث واجف ، اسم فاعل من الثلاثيّ وجف وزنه فاعل .

(10) الحافرة : اسم للطريق التي يرجع الإنسان فيها من حيث جاء ويعبّر به عن الرجوع في الأحوال من آخر الأمر إلى أوّله . . وهو على وزن فاعل بمعنى مفعول ، والمراد بها هنا الأرض .

(11) نخرة : مؤنّث نخر ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ نخر العظم باب فرح إذا بلي ، وزنه فعل بفتح فكسر .

البلاغة

الإسناد المجازي : في قوله تعالى " يوم ترجف الراجفة " .

الإسناد إليها مجازي ، لأنها سبب الرّجف .

الفوائد :

- حذف جواب القسم :

يجب حذفه إذا تقدم عليه ، أو اكتنفه ، ما يدل على الجواب ، نحو (زيد قائم واللّه) .

ومنه (إن جاءني زيد واللّه أكرمته) . هذه أمثلة تقدم فيها الجواب فحذف ، كذلك يحذف الجواب إذا اكتنفه ما يدل على الجواب ، مثل : " زيد واللّه قائم " فإن قلت :

(زيد واللّه إنه قائم) احتمل كون المتأخر عنه خبرا عن المتقدم عليه ، واحتمل كونه جوابا ، وجملة القسم وجوابه الخبر . ويجوز في غير ذلك ، كما في قوله تعالى في السورة التي نحن

بصددها (وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً . وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً) وجواب القسم محذوف تقديره (لتبعثن) بدليل ما بعده ، وهذا المقدر هو العامل في قوله تعالى (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) أو عامله (اذكر) المحذوف . ومثله (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) والجواب تقديره (ليهلكن) بدليل (كَمْ أَهْلَكْنا) . ومثله (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) أي (إنه لمعجز) .

[سورة النازعات (79) : آية 12]

قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12)

الإعراب :

(إذا) بالتنوين - حرف جواب لا محلّ له " 1 " .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لجملة يقولون السابقة .

وجملة : " تلك . . . كرّة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(خاسرة) ، مؤنّث خاسر ، اسم فاعل من الثلاثيّ خسر باب فرح ، وزنه فاعل .

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى " تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ " .

فقد أسند الخسارة للكرة ، والمراد أصحابها . والمعنى إن كان رجوعنا إلى القيامة حقا فتلك الرجعة رجعة خاسرة .

[سورة النازعات (79) : الآيات 13 إلى 14]

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إنّما) كافّة ومكفوفة (الفاء) الثانية رابطة لجواب شرط مقدّر (إذا) فجائيّة (بالساهرة) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (هم) جملة : " هي زجرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " هم بالساهرة . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا نفخ في الصور فإذا هم . . .

---

(1) إذا - بالتنوين - تعبّر عن شرط مقدّر أيّ : إن رددنا إلى الحافرة وصحّ ذلك فهي كرّة خاسرة.

(2) أو هي تعليل لمقدّر مقول لقول مقدّر أي قال تعالى : ليس ذلك صعبا لأنها زجرة واحدة. [. . . . .]

الصرف :

(13) زجرة : مصدر مرّة من الثلاثيّ زجر ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(واحدة) ، مؤنّث واحد ، اسم للعدد الأول من الأرقام الحسابيّة ، وزنه فاعل .

(14) الساهرة : مؤنّث الساهر ، وهو صفة للأرض أو الفلاة لأنّ سالكها لا ينام من الخوف ، وزنه فاعل .

[سورة النازعات (79) : الآيات 15 إلى 26]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (19) فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (20) فَكَذَّبَ وَعَصى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (22) فَحَشَرَ فَنادى (23) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (24)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى (25) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (26)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (حديث) ، (بالواد) متعلّق بحال من ضمير الغائب في (ناداه) " 1 " ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة لمناسبة قراءة الوصل لالتقاء الساكنين (طوى) عطف بيان على الوادي - أو بدل منه - مجرور . .

---

(1) أو متعلّق بـ (ناداه) .

(251/801)

جملة : " أتاك حديث . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ناداه ربّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " اذهب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّه طغى . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " طغى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

18 - 19 (الفاء) عاطفة (هل) حرف استفهام (لك) خبر مقدّم لمبتدأ مقدّر أي رغبة أو سبيل (أن) حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤول (أن تزكّى) في محلّ جرّ بـ (إلى) متعلّق بالمبتدأ المقدّر أي ميل إلى أن تتزكّى .

(الواو) عاطفة (أهديك) مضارع منصوب معطوف على (تزكّى) ، (إلى ربّك) متعلّق بـ (أهديك) بحذف مضاف أي إلى معرفة ربّك (الفاء) تعليليّة (تخشى) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل أنت .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذهب .

وجملة : " هل لك (ميل . . .) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تزكّى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أهديك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تزكّى .

وجملة : " تخشى . . . " لا محلّ لها تعليل للمعرفة .

20 - 26 (الفاء) عاطفة في المواضع الخمسة (الآية) مفعول به ثان منصوب (الواو ، ثمّ) عاطفان (نكال) مفعول مطلق نائب عن المصدر لفعل محذوف " 1 " ،

---

(1) فهو اسم مصدر أي نكّل به نكال . . وقد يكون نائبا عن المصدر لملاقاة فعله بالمعنى فأخذ اللّه هو نكال . . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله .

(الآخرة) مضاف إليه مجرور – وهو نعت عن منعوت محذوف أي الكلمة الآخرة –

وكذلك الأولى (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (لمن) متعلّق بنعت لـ (عبرة) . .

وجملة : " أراه . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فذهب إلى فرعون فأراه .

وجملة : " كذّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أراه .

وجملة : " عصى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب .

وجملة : " أدبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب .

وجملة : " يسعى . . . " في محلّ نصب حال من فاعل أدبر .

وجملة : " حشر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أدبر .

وجملة : " نادى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حشر .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نادى .

وجملة : " أنا ربّكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أخذه اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال .

وجملة : " إنّ في ذلك لعبرة . . . " لا محلّ لها تعليل للأخذ " 1 " .

وجملة : " يخشى " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(16) الواد : رسم في المصحف بغير ياء مراعاة لحذفها من القراءة بسبب التقاء الساكنين .

(18) تزكّى : مضارع حذفت منه إحدى التاءين . . والمذكور في سورة طه ماض ، وفيه قلب الياء ألفا لتحركها وفتح ما قبلها .

(20) أراه : الهمزة الأولى من أحرف الزيادة في الفعل فهي همزة أفعل ، والألف قبل الهاء هي لام الفعل ، أمّا عينه - وهي الهمزة ، مجرّده رأى - فقد

---

(1) جعل بعض المفسّرين هذه الجملة جوابا للقسم الذي بدأت به السورة . .

حذفت للتخفيف بعد نقل حركتها إلى الراء ، والأصل أرآه (أرأاه) - بهمزة ثمّ ألف بعدها - وزنه أفله " 1 " .

(24) الأعلى : على وزن اسم التفضيل ولم يقصد به التفضيل بل الوصف وزنه أفعل ، ولام الكلمة منقلبة عن ياء - هي رابعة - وأصلها واو من العلوّ . . تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة النازعات (79) : الآيات 27 إلى 29]

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها (29)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (خلقا) تمييز منصوب (السماء) معطوف على الضمير المبتدأ (أنتم) بحرف العطف ، وفاعل (بناها) ضمير يعود على اللّه وقد فهم من السياق . . .

جملة : "أنتم أشدّ . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "بناها . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "رفع . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : "سوّاها . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع .

وجملة : "أغطش . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع .

وجملة : "أخرج . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع .

الصرف :

(أشدّ) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ شدّ ، وزنه أفعل وعينه ولامه من حرف واحد .

(خلقا) ، مصدر خلق الثلاثيّ وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) وانظر أيضا الآية (55) من سورة البقرة .

(سمكها) ، مصدر سمك أي أغلظ وثخن . . وزنه فعل بفتح فسكون .

(سوّاها) ، فيه إعلال بالقلب قياسه مثل (بناها) ، تحرّكت الياء - لام الكلمة - بعد فتح قلبت ألفا .

(ضحاها) ، اسم للوقت بين الشمس والظهر ، وزنه فعل بضمّ ففتح . .

وانظر الآية (98) من الأعراف .

[سورة النازعات (79) : الآيات 30 إلى 33]

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها (31) وَالْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الأرض) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره ما بعده أي دحى . . (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (دحى) المقدّر (منها) متعلّق بـ (أخرج) ، (الجبال) مثل الأرض أي أرسى الجبال (متاعا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي متّعكم بذلك متاعا " 1 " فهو نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق (لكم) متعلّق بـ (متاعا) ومثله لأنعامكم فهو معطوف عليه .

جملة : " (دحى) الأرض . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " دحاها " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أخرج . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (أرسى) الجبال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (دحى) الأرض " 2 " .

وجملة : " أرساها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا لأجله عامله محذوف أي فعل ذلك متاعا . . .

(2) يجوز أن تكون اعتراضيّة إذا كان عامل (متاعا) فعل أخرج .

الصرف :

(30) دحاها : فيه إعلال بالقلب مثل سوّاها " 1 " ، والألف أصلها واو أو ياء .

(31) مرعاها : هو في الأصل اسم مكان ، ثمّ استعمل مجازا مرسلا للشجر والعشب وما يأكله الإنسان . . فيه إعلال بالقلب ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا . . وزنه مفعل بفتح الميم والعين .

(32) أرساها : فيه إعلال بالقلب ، والألف أصلها ياء في المزيد ، وواو في المجرّد ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها " .

حيث استعمل المرعى في مطلق المأكول للإنسان وغيره ، ويجوز أن يكون استعارة تصريحية ، لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة " أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً " . كأنه قيل :

أيها المعاندون المقرونون مع البهائم في التمتع بالدنيا والذهول عن الآخرة .

[سورة النازعات (79) : الآيات 34 إلى 36]

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (36)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره يحاسب " 2 " ،

(ما) حرف مصدري (لمن) متعلّق بـ (برّزت) .

والمصدر المؤوّل (ما سعى) في محلّ نصب مفعول به .

---

(1) في الآية (27) من السورة .

(2) يجوز أن يكون بدلا من (إذا) فيتعلّق بالجواب .

جملة : " جاءت الطامّة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والجواب مقدّر أي يبعث الناس .

وجملة : " يتذكّر الإنسان . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . .

وجملة : " سعى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " برّزت الجحيم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يتذكّر .

وجملة : " يرى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(34) الطامّة : اسم للداهية ، جاء على وزن اسم الفاعل من الثلاثيّ طمّ أي علا وغلب والتاء زائدة للمبالغة كتاء الداهية ، وزنه فاعلة ، وعينه ولامه من حرف واحد .

[سورة النازعات (79) : الآيات 37 إلى 41]

فَأَمَّا مَنْ طَغى (37) وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (39) وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (41)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط غير جازم (من) موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره عذّب (الفاء) الثانية تعليليّة (هي) ضمير فصل . .

جملة : " من طغى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف " 1 " .

وجملة : " طغى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) في الآية (34) من السورة ، وهي مكوّنة من الشرط وفعله وجوابه .

وجملة : " آثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة طغى .

وجملة : " إنّ الجحيم . . . المأوى " لا محلّ لها تعليل للخبر المحذوف . .

وجواب الشرط مقدّر دلّ عليه الخبر .

40 - 41 (الواو) عاطفة في الموضعين (أمّا من خاف . . .) مثل أمّا من طغى " 1 " (عن الهوى) متعلّق بـ (نهى) ، (الفاء) تعليليّة (إنّ الجنّة هي المأوى) مثل إنّ الجحيم هي المأوى " 2 " .

وجملة : " من خاف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من طغى .

وجملة : " نهى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خاف صلة من .

وجملة : " إنّ الجنّة . . . المأوى " لا محلّ لها تعليل للخبر المحذوف . .

والجواب مقدّر دلّ عليه الخبر وهو : دخل الجنّة .

الصرف :

(37) طغى : فيه إعلال بالقلب ، أصله طغي مصدره طغيان ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(آثر) : المدّة مكوّنة من همزتين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة (أأثر) ، وزنه أفعل مضارعه يؤثر كأكرم يكرم .

(39) المأوى : اسم مكان من الثلاثيّ أوى ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، فهو لفيف

مقرون.

البلاغة

فن المقابلة: في هذه الآيات الكريمات، حيث تعدد الطباق، وتعدد الطباق كما هو معروف في علم البلاغة يطلق عليه المقابلة.

---

(1) في الآية (37) من هذه السورة.

(2) في الآية (39) السابقة.

[سورة النازعات (79): الآيات 42 إلى 46]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (44) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46)

الإعراب:

(عن الساعة) متعلّق بـ (يسألونك)، (أيّان) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بمحذوف خبر للمبتدأ (مرساها)، (فيم) حرف جرّ واسم استفهام في محلّ جرّ متعلّق

بخبر مقدّم للمبتدأ أنت (من ذكراها) متعلّق بالخبر المقدّر (إلى ربّك) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (منتهاها) . .

جملة: "يسألونك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أيّان مرساها . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "فيم أنت . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر.

وجملة: "إلى ربّك منتهاها . . . "لا محلّ لها تعليل للاستفهام المتضمّن معنى الإنكار.

45 - 46 (إنّما) كافّة ومكفوفة (من) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بحال من فاعل (يلبثوا) المنفيّ (إلّا) للحصر (عشيّة) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ(يلبثوا)، (أو) حرف عطف . . (ضحاها) معطوف على عشيّة "1" .

وجملة: "أنت منذر . . . "لا محلّ لها تعليل آخر.

---

(1) إضافة الضحا لضمير العشيّة لكونهما من يوم واحد، فالملابسة بينهما تسمح بإضافة أحدهما إلى الآخر.

وجملة : " يخشاها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " كأنّهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرونها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لم يلبثوا . . . " في محلّ رفع خبر كأنّ .

الصرف :

(عشيّة) ، اسم بمعنى الأمسية وزنه فعيلة ، وياء فعيلة ولام الكلمة من حرف واحد .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " أَيَّانَ مُرْساها " .

في الكلام استعارة تصريحية ، حيث استعار الإرساء ، وهو لا يستعمل إلا فيما له ثقل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 225 . 239 ﴾

(262/801)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(79) سورة النّازعات

مكيّة وآياتها ستّ وأربعون

[سورة النازعات (79) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً (1) وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً (2) وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً (3) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (4)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (8) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (9)

يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (10) أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (11) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (12) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (13) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

اللغة :

(الرَّاجِفَةُ) في المختار : " الرجفة الزلزلة وقد رجفت الأرض من باب نصر " وسيأتي مزيد من معناها في باب البلاغة .

(الرَّادِفَةُ) التابعة ، وفي القاموس : " ردفه كسمعه ونصره تبعه كأردفه " .

(الْحافِرَةِ) الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت قال

الزمخشري : " فإن قلت : ما حقيقة هذه الكلمة ؟ قلت : يقال : رجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي أثر بمشيه فيها جعل أثر قدميه حفرا كما قيل حفرت أسنانه حفرا إذا أثر الأكال في أسناخها والخط المحفور في الصخر ، وقيل حافرة كما قيل

عيشة راضية أي منسوبة إلى الحفر والرضا أو كقولهم نهارك صائم ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته أي إلى طريقته وحالته الأولى قال :

أحافرة على صلع وشيب معاذ اللّه من سفه وعار "

(263/801)

أنشده ابن الأعرابي والهمزة للإنكار والحافرة في الأصل الطريق المحفور بالسير فتسميته حافرة مجاز عقلي أو على معنى النسب أي ذات حفر ثم استعملت في كل حال كنت فيه ثم رجعت إليه وهي نصب بمحذوف أي أأرجع حافرة أي في طريقتي الأولى من الشباب والصبا أو على نزع الخافض أي أأرجع إليها والصلع انحسار شعر الجبهة ويغلب في الهرم .

(الساهرة) الأرض البيضاء المستوية سمّيت بذلك لأن السراب يجري فيها ، من قولهم عن ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة ، قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يضحي السراب مجللا لأقطارها قد جئتها متلثما

الإعراب :

(وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً ، وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً ، وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً ، فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً ،

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً) الواو واو القسم أقسم تعالى بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد وجواب القسم بهذه الأمور التي

(264/801)

أقسم اللّه بها محذوف أي والنازعات وكذا وكذا لتبعثنّ ، وغرقا يجوز فيه أن يكون مصدرا على حذف الزوائد بمعنى إغراقا وانتصابه بما قبله لملاقاته له في المعنى أو بفعل محذوف وإما على الحال أي ذوات إغراق ، وعبارة أبي البقاء " غرقا مصدر على المعنى لأن النازع هو المغرق في نزع السهم أو في جذب الروح وهو مصدر محذوف الزيادة أي إغراقا " وعبارة الزمخشري " أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد " إلى أن يقول " غرقا : إغراقا في النزع أي تنزعها من أقاصي الأجساد " وقيل النازعات الخيل أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنّة لطول أعناقها لأنها عراب ، والناشطات نشطا عطف على والنازعات غرقا وكذلك قوله والسابحات سبحا ، وفي المختار : " السباحة بالكسر العوم وقد سبح يسبح بالفتح والسبح الفراغ والسبح أيضا التصرّف في المعاش وبابه قطع وقتل " فالسابقات سبقا عطف على ما تقدم وكذلك فالمدبرات أمرا ، والفاء فيهما للدلالة على ترتبهما بغير مهلة وأمرا مفعول به بالمدبرات

وجواب هذه الأقسام محذوف كما تقدم (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) يوم ظرف زمان متعلق بالجواب المحذوف ولك أن تعلّقه بما دلّ عليه قوله الآتي " قلوب يومئذ واجفة " أي يوم ترجف وجفت القلوب ، وجملة ترجف الراجفة في محل جر بإضافة الظرف إليها (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) الجملة في محل نصب حال من الراجفة أي ترجف تابعة لها الرادفة والرادفة فاعل تتبعها (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصارُها خاشِعَةٌ) قلوب مبتدأ وسوّغ الابتداء بالنكرة أنه موصوف ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بواجفة وواجفة صفة لقلوب وأبصارها مبتدأ وخاشعة خبر أبصارها والجملة الاسمية خبر قلوب ، وأضيفت الأبصار إلى القلوب على حذف مضاف أي أبصار أصحابها (يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ) الجملة خبر لمبتدأ مضمر أي هم يقولون ، ويقولون

(265/801)

فعل مضارع مرفوع وفاعل والهمزة للاستفهام

الإنكاري لأنهم أنكروا الرد ونفوه ، وإن واسمها واللام المزحلقة ومردودون خبر إنّا وفي الحافرة متعلقان بمردودون وفي بمعنى إلى أي إلى الحافرة ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال وتكون " في " باقية على معناها ويكون معنى الحافرة الأرض التي قبورهم فيها والمعنى

أإنا لمردودون ونحن في الحافرة وفيما يلي عبارة الراغب عن الحافرة : " وقوله في الحافرة مثل لمن يرد من حيث جاء أي أنرد إلى الحياة بعد أن نموت وقيل الحافرة الأرض التي قبورهم فيها ومعناه أإنا لمردودون ونحن في الحافرة أي في القبور وقوله في الحافرة على هذا في موضع الحال ، وقيل رجع فلان على حافرته ورجع الشيخ إلى حافرته أي هرم كقوله تعالى : ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، والحافرة قيل فاعلة بمعنى مفعولة وقيل على النسب أي ذات حفر والمراد الأرض ، والمعنى : أإنا لمردودون في قبورنا أحياء ، وقيل : الحافرة جمع حافر بمعنى القدم أي أنمشي أحياء على أقدامنا ونطأ بها الأرض " (أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً) الاستفهام تأكيد لمضمون إنكار الرد ونفيه بنسبته إلى حال منافية له ، وإذا ظرف مستقبل والعامل فيه يدل عليه مردودون أي أئذا كنّا عظاما بالية نردّ ونبعث مع كوننا أبعد شيء عن الحياة (قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ) كلام مستأنف مسوق لحكاية كفر آخر متفرع على كفرهم السابق ، وتلك مبتدأ والإشارة إلى الرجعة والردّة في الحافرة وإذا حرف جواب وجزاء لا عمل لها جيء بها لإفادة تأكيد الرجعة الخاسرة وكرة خبر تلك وخاسرة نعت لكرة (فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ) الفاء متعلقة بمحذوف معناه لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة بمعنى لا تحسبوا الكرة صعبة على اللّه تعالى فإنما هي سهلة هينة بقدرته تعالى .

وإنما كافّة ومكفوفة وهي مبتدأ وزجرة خبر وواحدة نعت لزجرة أي نفخة واحدة

وسمّيت النفحة زجرة لأنه يفهم منها النهي عن المنع والتخلّف عنه (فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)

الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن

شرط مقدّر أي فإذا نفخت وإذا فجائية وقد تقدم القول فيها وهم مبتدأ وبالساهرة خبر .

البلاغة :

1- في قوله : " يوم ترجف الراجفة " مجاز إسنادي ، فقد جعل سبب الرجف راجفا وفي القرطبي : " وأصل الرجفة الحركة قال اللّه تعالى : يوم ترجف الأرض ، وليست الرجفة هاهنا من الحركة فقط بل من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا أي أظهر الصوت والحركة ومنه سمّيت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها وإفاضة الناس إليها " .

2- وفي قوله " تلك إذا كرة خاسرة " مجاز إسنادي ، فقد أسند الخسار للكرة والمراد أصحابها والمعنى إن كان رجوعنا إلى القيامة حقا فتلك الرجعة رجعة خاسرة .

3- وكذلك في قوله " فإذا هم بالساهرة " أسند السهر إلى الأرض البيضاء مجازا كما أسندوا إليها النوم في ضدها ، قال الأشعث بن قيس :

وساهرة يضحي السراب مجللا لأقطارها قد جبتها متلثما

والساهرة الأرض البيضاء لأن السراب يجري فيها ووصفت بالسهر لأن السائر فيها ساهر

لا ينام خوف الهلكة فهو مجاز عقلي ومجللا خبر يضحي أي ساترا لأقطارها وجوانبها يقول : رب مفازة يسترها النهار بسراب يشبه حبل الفرس قد أتيتها لابسا اللثام خوف الحر والريح .

[سورة النازعات (79) : الآيات 15 إلى 26]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (15) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (16) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (19) فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (20) فَكَذَّبَ وَعَصى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (22) فَحَشَرَ فَنادى (23) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (24)

(267/801)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى (25) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (26)

الإعراب :

(هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى) كلام مستأنف مسوق لتسلية رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على تكذيب قومه له ، وهل بمعنى قد وقيل هي للاستفهام التقريري والمعنى أليس قد أتاك حديث موسى وأتاك فعل ماض ومفعول به وحديث موسى فاعل (إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ

الْمُقَدَّسِ طُوىً) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بحديث موسى لا بأتاك كما يتوهم لاختلاف وقتيهما وجملة ناداه في محل جر بإضافة الظرف إليها وناداه فعل ماض ومفعول به وربه فاعل وبالواد متعلقان بناداه وحذفت ياء الوادي اتباعا لرسم المصحف ، والمقدس صفة للوادي وطوى بدل وقد تقدم الكلام فيه مطوّلا ، وقد قرىء بالتنوين وتركه قال الجوهري :

" وطوى اسم موضع بالشام تكسر طاؤه وتضم ويصرف ولا يصرف فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة " (اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى) الجملة مقول قول محذوف تقديره فقال اذهب ويجوز أن تكون جملة مفسّرة للنداء وإلى فرعون متعلقان باذهب وإن واسمها وجملة طغى خبرها وجملة إنه طغى تعليل للأمر بالذهاب (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى) الفاء عاطفة وقل فعل

(268/801)

أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وهل حرف استفهام معناه العرض لاستدعائه بالملاطفة والملاينة والمداراة ولك خبر لمبتدأ محذوف تقديره رغبة وإلى أن تزكى متعلقان بالمبتدأ المضمر أي هل لك رغبة في التزكية ومثله هل لك في الخير أي هل لك رغبة في الخير ، وأصل

تزكي تتزكى حذفت إحدى التاءين أي تتطهر من الشرك وجملة الاستفهام مقول القول وأن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بإلى كما تقدم (وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى) الواو حرف عطف وأهديك عطف على تزكى والكاف مفعول به وإلى ربك متعلقان بأهديك ، فتخشى عطف على أهديك ، جعل الخشية غاية للهداية لأنها ملاك الأمر وجمّاع التقوى ومتى خشي الإنسان ربه لم يصدر عنه إلا الخير (فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى) الفاء عاطفة على محذوف يعني فذهب فأراه ، وأراه فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والهاء مفعول أرى الأول والآية مفعول أرى الثاني والكبرى صفة للآية وهي قلب العصا حيّة أو اليد (فَكَذَّبَ وَعَصى) عطف على ما تقدم (ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وأتى بها لأن إبطال الإيمان ونقضه يقتضي زمانا طويلا وجملة يسعى حال من الضمير في أدبر (فَحَشَرَ فَنادى فَقالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى) عطف أيضا وجملة أنا ربكم الأعلى مقول القول (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى) الفاء عاطفة وأخذه اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ونكال الآخرة والأولى مفعول مطلق فهو مصدر لأخذ والتجوّز إما في الفعل أي نكل بالأخذ نكال الآخرة والأولى وإما في المصدر أي أخذه أخذ نكال ويجوز أن يكون مفعولا لأجله أي لأجل نكاله ، واقتصر الزمخشري على المصدرية المؤكدة قال : " هو مصدر مؤكد كوعد اللّه وصبغة اللّه كأنه قيل نكل اللّه به نكال الآخرة

والأولى " ويجوز أن يكون انتصاب نكال بنزع الخافض أي بنكال ، ورجح الزجّاج أنه مصدر مؤكد وفي

(269/801)

المصباح " ونكل به ينكل من باب قتل نكلة قبيحة

أصابه بنازلة ونكل به بالتشديد مبالغة والاسم النكال " والآخرة والأولى صفتان لكلمتي فرعون . فالكلمة الآخرة هي قوله أنا ربكم الأعلى والكلمة الأولى قوله قبلها : ما علمت لكم من إله غيري ، وكان بين الكلمتين - على ما قيل - أربعون سنة (إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر إن المقدم واللام لام الابتداء المؤكدة وعبرة اسم إن المؤخر ولمن صفة لعبرة وجملة يخشى صلة من .

[سورة النازعات (79) : الآيات 27 إلى 46]

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها (31) وَالْجِبالَ أَرْساها (32) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33) فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (36)

فَأَمَّا مَنْ طَغى (37) وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (39) وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (41)

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (43) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (44) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (46)

اللغة :

(سَمْكَها) رفعها يقال سمك يسمك من باب نصر الشيء رفعه ويقال سمك اللّه السماء ،

وقال الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

(270/801)

و السمك مصدر سمك والسقف أو من أعلى البيت إلى أسفله والقامة من كل شيء .

(فَسَوَّاها) جعلها مستوية ملساء ليس فيها ارتفاع ولا انخفاض .

(وَأَغْطَشَ) في القاموس : " غطش الليل يغطش من باب ضرب أظلم كأغطش وأغطشه اللّه " وقال الراغب : " وأصله من الأغطش وهو الذي في عينه عمش والتغاطش التعامي

" ويقال أغطش الليل قاصرا كأظلم فأفعل فيه متعدّ ولازم .

(دَحاها) دحا الأرض يدحوها دحوا ودحى يدحى أي بسطها ومدّها فهو من ذوات الواو والياء فيكتب بالألف والياء .

الإعراب :

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها) الهمزة للاستفهام التقريعي والتوبيخي وأنتم مبتدأ وأشد خبر وخلقا تمييز وأم حرف عطف والسماء عطف على أنتم وجملة بناها حالية كأنها بيان لكيفية خلقها ويجوز أن تكون مفسّرة لا محل لها ويجوز أن تعرب السماء مبتدأ خبره محذوف تقديره أشد خلقا (رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها) الجملة بدل من جملة بناها تابعة لها ورفع سمكها فعل ماض ومفعول به وفاعل مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى ، فسوّاها عطف على رفع (وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها)

(271/801)

عطف على ما تقدم وليلها مفعول أغطش وضحاها مفعول أخرج (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذِلِكَ دَحاها) الواو عاطفة والأرض منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسّره ما بعده وبعد ذلك ظرف متعلق بدحاها وجملة دحاها مفسّرة (أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها) الجملة

مفسّرة لما لا بدّ منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها ، ويجوز أن تكون حالية بإضمار قد أي مخرجا وهو قول الأكثرين وإن كنت أميل إلى القول الأول ومنها متعلقان بأخرج وماءها مفعول به ومرعاها عطف على ماءها والمرعى هنا مصدر ميمي بمعنى المفعول (وَالْجِبالَ أَرْساها) الواو عاطفة والجبال نصب على الاشتغال أيضا كما تقدم والجملة معطوفة على الأولى (مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ) متاعا مفعول لأجله أي فعل ذلك تمتيعا لكم واختار زاده في حاشيته على البيضاوي أن يكون مصدرا لفعله المحذوف المدلول عليه بسياق الكلام أي متّعناكم بها تمتيعا وليس ببعيد ، ولكم متعلقان بمتاعا ولأنعامكم عطف على لكم (فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى) الفاء عاطفة للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها كما ينبىء عليه لفظ المتاع وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وجملة جاءت في محل جر بإضافة الظرف إليها والطامة فاعل والكبرى نعت للطامة والطامة القيامة وفي المختار : " جاء سيل فطم الركية أي دفنها وسوّاها وكل شيء كثر حتى علا وغلب فقد طمّ من باب ردّ يقال فوق كل طامّة طامّة ، ومنه سمّيت القيامة طامة والطم بالكسر الجرّ يقال جاء بالطم والرّم أي بالماء الكثير " وعبارة الزمخشري " الطامة : الداهية التي تطم على الدواهي أي تعلو وتغلب وفي أمثالهم : جرى الوادي فطم على القرى " وهي القيامة لطمومها على كل هائلة وقيل هي النفخة الثانية " وجواب إذا محذوف يدل عليه التفصيل المذكور والتقدير كان من عظائم الأمور ما

لا يخطر في بال ولا

تراه عين ولا تسمع به أذن .

(272/801)

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى) يوم بدل من إذا بدل بعض من كل وجملة يتذكر في محل جر بالإضافة والعائد محذوف تقديره يتذكر الإنسان فيه ولك أن تجعله بدلا مطابقا أو كلّا من كل يعني إذا رأى أعماله مدوّنة في كتابه تذكرها وكان قد نسيها والإنسان فاعل يتذكر وما موصولة أو مصدرية (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى) عطف على جاءت وبرزت فعل ماض مبني للمجهول والجحيم نائب فاعل ولمن متعلقان ببرزت وجملة يرى لا محل لها لأنها صلة من (فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى) الفاء استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان حال الناس في الدنيا ولهذا كان جعل الفاء جوابا لإذا متهافتا غير وارد وأما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة طغى لا محل لها وآثر عطف على طغى والحياة مفعول به والدنيا نعت للحياة والفاء واقعة في جواب أما وإن حرف مشبّه بالفعل والجحيم اسمها وهي ضمير فصل أو مبتدأ والمأوى خبر إن والجملة خبر من وأل في المأوى عوض عن الضمير العائد على من وقيل العائد محذوف أي

هي المأوى له والأول مذهب الكوفيين والثاني مذهب البصريين (وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى) الجملة عطف على الجملة السابقة وعبارة الرازي : " وهذان الوصفان مضادّان للوصفين المتقدمين فقوله : وأما من خاف مقام ربه ضد قوله : فأما من طغى وقوله ونهى النفس عن الهوى ضد قوله وآثر الحياة الدنيا فكما دخل في ذينك الوصفين جميع القبائح دخل في هذين جميع الطاعات " (يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها) الجملة مستأنفة مسوقة لحكاية نوع آخر من

تعنتهم ، ويسألونك فعل مضارع وفاعل ومفعول به وعن الساعة متعلقان بيسألونك وأيان اسم استفهام في محل نصب على الظرف الزماني متعلق بمحذوف خبر مقدم ومرساها مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها لأنها تفسير لسؤالهم عن الساعة أي متى إرساؤها أي إقامتها

وإثباتها أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة وهو حيث تنتهي إليه وتستقر عنده (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها) فيم خبر مقدّم وتقدم حذف ألف ما الاستفهامية إذا سبقت بحرف جر وأنت مبتدأ مؤخر ومن ذكراها متعلقان بما تعلق به الخبر والمعنى أنت في أي شيء من

ذكراها والجملة لا محل لها كأنها إنكار وردّ لسؤالهم عن الساعة وبيان لبطلان السؤال وقيل : فيم إنكار لسؤالهم وما بعده من الاستئناف تعليل للإنكار أي فيم هذا السؤال ثم ابتدئ فقيل أنت من ذكراها أي ففيم ليس خبرا مقدما لما بعده بل هو خبر مبتدأ محذوف أي فيم هذا السؤال الواقع من الكفرة فتم الكلام عنده ثم استأنف بجملة أنت من ذكراها بيانا لسبب الإنكار عن سؤالهم كأنه قيل إنها قريبة غير بعيدة لأنك علامة من علاماتها فإرسالك يكفيهم دليلا على دنوها والاهتمام بتحصيل الاعتداد لها فلا معنى لسؤالهم عنها فمعنى أنت من ذكراها أنت من علاماتها ومذكراتها (إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها) إلى ربك خبر مقدّم ومنتهاها مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة (إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها) إنما كافّة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومنذر خبر ومن مضاف إليه وجملة يخشاها صلة من لا محل لها (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها) كأن واسمها ويوم ظرف زمان متعلق بما في كأن من معنى التشبيه وجملة يرونها في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة لم يلبثوا خبر كأنهم وإلا أداة حصر وعشية ظرف زمان متعلق بيلبثوا وأو حرف عطف وضحاها عطف على عشية وعبارة الزمخشري " فإن قلت كيف صحّت إضافة الضحى إلى العشية ؟

قلت : لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد فإن قلت :

فهلّا قيل إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة ؟ قلت : للدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته فهو كقوله : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار " .

البلاغة :

1- في قوله : " أخرج منها ماءها ومرعاها " مجاز مرسل لأنه أطلق المرعى على ما يأكله الناس فاستعمل المرعى في مطلق المأكول للإنسان وغيره والعلاقة استعمال المقيد في المطلق ، ويجوز أن يكون استعارة تصريحية حيث شبّه أكل الناس برعي الدواب وإلى هذا جنح الزمخشري فقال : " وأراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله نرتع ونلعب " .

2- في قوله : " فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى " فن المقابلة وقد تقدمت عبارة الرازي في هذا الصدد .

3- في قوله " أيان مرساها " استعارة تصريحية فقد استعار الإرساء وهو لا يستعمل إلا فيما له ثقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 361. 373 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثانى بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة عبس)

(4/802)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة عبس)

(5/802)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة عبس

وتسمى الصاخة .

مقصودها شرح (إنما أنت منذر من يخشاها) [النازعات : 45] بأن المراد الأعظم

تزكية القابل للخشية بالتخويف بالقيامة التي قام الدليل على القدرة عليها بابتداء الخلق من الإنسان ، وبكل من الابتداء والإعادة لطعامه والتعجيب ممن أعرض مع قيام الدليل والإشارة إلى أن الاستغناء والترف أمارة الإعراض وعدم القابلية والتهيؤ للكفر والفجور ، وإلى أن المصائب أمارة للطهارة والإقبال واستكانة القلوب وسمو النفوس لشريف الأ" مال ، فكل من كان فيها أرسخ كان قلبيه أرق وألطف فكان أخشى ، فكان الإقبال عليه أحب وأولى ، واسمها عبس هو الدال على ذلك بتأمل آياته وتدبر فواصله وغاياته ، وكذا الصاخة النافخة بشرها وشررها والباخة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 323 ﴾

(6/802)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . عبس وتولى)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها ثنتان وأَربعون فى الحجاز ، والكوفة ، وواحدة فى البصره ، وأَربعون فى الشأم .

وكلماتها مائتان وثلاث وثلاثون .

وحروفها خمسمائة وثلاث وثلاثون .

والمختلف فيها من الآى ثلاث : ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ ﴿ طَعَامَهُ ﴾ الصّاخَّة .

فواصل آياتها (هما) وعلى الميم آية : ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ وسمّيت عبس لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : بيان حال الأَعمى ، وذكر شرفِ القرآن ، والشّكاية من أَبى جهل ، وإِنكاره البعث والقيامة ، وإِقامة البرهان من حال النبات على البعث ، وإِحياءِ الموتى ، وشُغُل الخلق فى العَرَصات ، وتفاوُت حال أَهل الدّرجات والدّركات ، فى قوله : ﴿ وُجُوهٌ ﴾ إِلى آخرها .

المنسوخ فيها آية واحدة : ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ م آية السّيف ن .

المتشابه

قوله : ﴿ الصَّآخَّةُ ﴾ سبق فى النّازعات .

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ الشّاذّ : مَن قرأَها جاءَ يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها جاءَ يوم القيامة ووجهه يتلألأ ، وله بكلّ آية قرأَها ثواب (المتشحّط فى دمه) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 501.502 ﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة عبس

سميت هذه الصورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة عبس) .

وفي أ (حكام ابن العربي) عنونها (سورة ابنِ أم مكتوم) . ولم أر هذا لغيره . وقال الخفاجي : تسمى (سورة الصاخّة) . وقال العيني في (شرح صحيح البخاري) تسمى (سورة السَفَرة) ، وتسمى سورة (الأعمى) ، وكل ذلك تسمية بألفاظ وقعت فيها لم تقع في غيرها من السور أو بصاحب القصة التي كانت سبب نزولها .

ولم يذكرها صاحب (الإِتقان) في السور التي لها أكثر من اسم وهو عبس .

وهي مكية بالاتفاق .

وقال في (العارضة) : لم يحقق العلماء تعيين النازل بمكة من النازل بالمدينة في الجملة ولا يحقَّقُ وقتُ إسلام ابن أم مكتوم اهـ . وهو مخالف لاتفاق أهل التفسير على أنها مكية فلا محصل لكلام ابن العربي .

وعدت الرابعة والعشرين في ترتيب نزول السور . نزلت بعد سورة (والنجم) وقبل سورة (القدْر) .

وعدد آيها عند العادّين من أهل المدينة وأهل مكة وأهل الكوفة اثنتان وأربعون ، وعند أهل البصرة إحدى وأربعون وعند أهل الشام أربعون .

وهي أولى السور من أواسط المفصل .

وسبب نزولها يأتي ذكره عند قوله تعالى : (عبس وتولى ((عبس : 1) .

(8/802)

أغراضها

تعليم الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) الموازنة بين مراتب المصالح ووجوبَ الاستقراء لخفياتها كيلا يفيت الاهتمامُ بالمهم منها في بادىء الرأي مُهماً آخر مساوياً في الأهمية أو أرجح . ولذلك يقول علماء أصول الفقه : إن على المجتهد أن يبحث عن معارض الدليل الذي لاح له .

والإِشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإِسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبع مواقعه .

وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسموّ درجتهم عند الله تعالى .

والثناءُ على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه .

وانتقل من ذلك إلى وصف شدة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الالتفات إلى رغبة ابن أم مكتوم .

والاستدلالُ على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أم مكتوم وذلك كان من أعظم ما عني به القرآن من حيث إن إنكار البعث هو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهماً منهم بأنه يدعو إلى المحال ، فاستدل عليهم بالخلق الذي خلقه الإِنسان ، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة .

وأعقب الاستدلال بالإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين .

والتذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه .

والتنويه بضعفاء المؤمنين وعلوِّ قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية ، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس ، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم ، وأنهم أصحاب الكفر والفجور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 101 .

102﴾

(9/802)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة عبس

هذه السورة قوية المقاطع , ضخمة الحقائق , عميقة اللمسات , فريدة الصور والظلال والإيحاءات , موحية الإيقاعات الشعورية والموسيقية على السواء .

يتولى المقطع الأول منها علاج حادث معين من حوادث السيرة: كان النبي (صلى الله عليه وسلم) مشغولا بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير – وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم – يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله , فكره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا وعبس وجهه وأعرض عنه , فنزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب الرسول (صلى الله عليه وسلم) عتابا شديدا ; ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم , كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها :(عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ? وأما من جاءك يسعى وهو يخشى , فأنت عنه تلهى ? ! كلا ! إنها تذكرة , فمن شاء ذكره , في صحف مكرمة , مرفوعة مطهرة , بأيدي سفرة , كرام بررة) . .

ويعالج المقطع الثاني جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه , وهو يذكره بمصدر وجوده ,

وأصل نشأته , وتيسير حياته , وتولي ربه له في موته ونشره ; ثم تقصيره بعد ذلك في أمره:

(قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ? من نطفة خلقه فقدره , ثم السبيل يسره , ثم أماته فأقبره , ثم إذا شاء أنشره , كلا ! لما يقض ما أمره) . .

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشري إلى أمس الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه . وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له , كتدبيرة وتقديره في نشأته:

(فلينظر الإنسان إلى طعامه , أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا , فأنبتنا فيها حبا , وعنبا وقضبا , وزيتونا ونخلا , وحدائق غلبا , وفاكهة وأبا , متاعا لكم ولأنعامكم) . .

(10/802)

فأما المقطع الأخير فيتولى عرض (الصاخة) يوم تجيء بهولها , الذي يتجلى في لفظها , كما تتجلى آثارها في القلب البشري الذي يذهل عما عداها ; وفي الوجوه التي تحدث عما دهاها:

(فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه , وأمه وأبيه , وصاحبته وبنيه , لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه , وجوه يومئذ مسفرة , ضاحكة مستبشرة , ووجوه يومئذ عليها

غبرة , ترهقها قترة , أولئك هم الكفرة الفجرة) . .

إن استعراض مقاطع السورة وآياتها - على هذا النحو السريع - يسكب في الحس إيقاعات شديدة التأثير . فهي من القوة والعمق بحيث تفعل فعلها في القلب بمجرد لمسها له بذاتها .

وسنحاول أن نكشف عن جوانب من الآماد البعيدة التي تشير إليها بعض مقاطعها مما قد لا تدركه النظرة الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3821.3822﴾

(11/802)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة عبس

مكية وآياتها اثنتان وأربعون آية

بين يدي السورة

* سورة عبس من السور المكية ، وهي تتناول شئونا تتعلق بالعقيدة وأمر الرسالة ، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة ، والوحدانية في خلق الإنسان ، والنبات ، والطعام ، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها ، وشدة ذلك اليوم العصيب

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى " عبد الله بن أم مكتوم " الذي جاء الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) مشغول مع جماعة من كبراء قريش ، يدعوهم إلى الإسلام ، فعبس (صلى الله عليه وسلم) في وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن بالعتاب [عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، او يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى] الآيات

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه [قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره . . .] الآيات

* ثم تناولت دلائل القدرة في هذا الكون ، حيث يسر الله الإنسان سبل العيش فوق سطح هذه المعمورة [فلينظر الإنسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا] الآيات

* وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة ، وفرار الإنسان من أحبابه من شدة الهول والفزع ، وبينت حال المؤمنين وحال الكافرين في ذلك اليوم العصيب [فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه

، وجوه . يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوة يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 518 ﴾

(12/802)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة عبس

عبس : أي قطب وجهه من ضيق الصدر ، وتولى : أي أعرض ، أن جاءه الأعمى : أي لأجل أن جاءه ، وما يدريك : أي أىّ شىء يعرّفك حال هذا الأعمى ؟

يزكى : أي يتطهر بما يلقن من الشرائع ، يذّكر : أي يتعظ ، استغنى : أي بماله وقوته عن سماع القرآن ، تصدى : أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه ، يسعى أي يسرع ، يخشى : أي يخاف من الغواية ، تلهى : أي تتلهى وتتغافل .

كلا : كلمة يقصد بها زجر المخاطب عن الأمر الذي يعاتب عليه ، لئلا يعاوده ، وهنا هو التصدي للمستغنى والتلهي عن المستهدى ، تذكرة : أي موعظة ، ذكره :

أي اتعظ به ، فى صحف مكرمة : أي مودعة فى صحف شريفة ، مرفوعة : أي عالية

القدر ، مطهرة : أي من النقص لا تشوبها الضلالات ، سفرة : واحدهم سافر ، من سفر بين القوم إذا نصب نفسه وسيطا ليصلح من أمورهم ما فسد .

قال شاعرهم :

فما أدع السفارة بين قومى ولا أمشى بغشّ إن مشيت

والمراد هنا الملائكة والأنبياء ، لأنهم وسائط بين اللّه وخلقه فى البيان عما يريد ، كرام : واحدهم كريم ، بررة : واحدهم بارّ ، والمراد أنهم كرام على اللّه ، أطهار لا يقارفون ذنبا .

قدره : أي أنشأه فى أطوار وأحوال مختلفة ، طورا بعد طور ، وحالا بعد حال ، والسبيل : الطريق ، يسره : أي سهل له سلوك سبل الخير والشر ، فأقبره : أي جعل له قبرا يوارى فيه ، أنشره : أي بعثه بعد الموت ، كلا : زجر له عن ترفعه وتكبره .

القضب : الرطبة ، وهى ما يؤكل من النبات غضا طريا وسمى قضبا لأنه يقضب أي يقطع مرة بعد أخرى ، غلبا : واحدها غلباء أي ضخمة عظيمة ، والأبّ : المرعى لأنه يؤب : أي يؤم وينتجع ، متاعا لكم ولأنعامكم : أي أنبتناه لكم لتتمتعوا به وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

الصخّ : الضرب بالحديد على الحديد ، وبالعصا الصّلبة على شىء مصمت ، فيسمع إذ ذاك صوت شديد والمراد هنا بالصاخة هو المراد بالقارعة فى سورتها ،

وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثمّ سميت صاخة وقارعة ، شأن : أي شغل ، يغنيه : أي يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته ، قال شاعرهم :

سيغنيك حرب بنى مالك عن الفحش والجهل فى المحفل

مسفرة : أي مضيئة مشرقة يقال : أسفر الصبح إذا أضاء ، مستبشرة : أي فرحة بما نالت ، والغبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار ، ترهقها : أي تغشاها ، والقترة : سواد كالدخان ، والفجرة : واحدهم فاجر ، وهو الخارج عن حدود اللّه المنتهك لحرماته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 38 . 49 ﴾ . باختصار .

(14/802)

وقال الفراء :

سورة (عبس)

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَآءَهُ الأَعْمَى ﴾

قوله عز وجل: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . . . أَن جَآءَهُ الأَعْمَى . . . ﴾

ذلك عبد الله بن أم مكتوم وكانت أم مكتوم أم أبيه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نفر من أشراف قريش ليسألوا عن بعض ما ينتفع به ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع كلامه ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى ، ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ، يعنى: محمداً صلى الله عليه وسلم ، ﴿ أَن جَآءَهُ الأَعْمَى ﴾ ، لأن جاءه الأعمى .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾

ثم قال جل وعز: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . . . ﴾ .

بما أرد أن يتعلَّمه من عِلْمِك ، فعطف النبى صلى الله عليه وسلم على أن ابن أم مكتوم ، وأكرمه بعد هذه الآية حتى استخلفه على الصلاة ، وقد اجتمع القراءُ على: ﴿ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى . . . ﴾ بالرفع ، ولو كان نصباً على جواب الفاء للعلّ ـ كان صوابا .

أنشدنى بعضهم:

علَّ صروفَ الدَّهر أو دولاتِها * يُدلْنَنَا اللَّمَّةَ من لَمّاتها

فتستريحَ النفس من زفْراتها * وتُنْقعَ الغلَّةُ من غُلاتها

وَقد قرأ بعضهم: "أأن جاءَه الأعمى" بهمزتين مفتوحتين ، أى: أن جاءَه عبس ، وهو مثل قوله: "أأنْ كان ذا مالٍ وبَنِينَ" .

﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى . . . ﴾ .

ولو قرأ قارئٌ: "تَصَدّى" كان صوابا .

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . . . ﴾ .

هذه السورة تذكرة ، وإن شئت جعلت الهاء عماداً لتأنيث التذكرة .

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ . . . ﴾ .

ذكر القرآن رجع التذكير إلى الوحى .

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . . . ﴾ .

(15/802)

لأنها نزلت من اللوح المحفوظ مرفوعة عند ربك هنا لك مطهرة ، لا يمسها إلا المطهرون ، وهذا مثل قوله: ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ .

جعل [/ب] الملائكة والصحف مطهرة ؛ لأن الصحف يقع عليها التطهير ، فجعل التطهير لمن حملها أيضاً .

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . . . ﴾ .

وهم الملائكة ، واحدهم سافر ، والعرب تقول: سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم ، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تبارك وتعالى وتأديبه كالسفير الذى يصلح بين القوم ، قال الشاعر

وما أدعُ السِّفارةَ بينَ قومى * وما أمْشى بغشٍّ إن مَشَيْتُ

والبررة: الواحد منهم فى قياس العربية بار ؛ لأن العرب لا تقول: فَعَلَةَ يَنْوُونَ به الجمع إلا والواحد منه فاعل مثل: كافر وكفرة ، وفاجر فجرة . فهذا الحكم على واحده بار ، والذى تقول العرب: رجل بَرّ ، وامرأة برة ، ثم جمع على تأويل فاعل ، كما قالوا: قوم خَيَرَة بَرَرَة . سمعتها من بعض العرب ، وواحد الخَيَرَة: خيّر ، والبررة: برٌّ . ومثله: قوم سَراةٌ ، واحدهم: سِرىّ . كان ينبغى أن يكون ساريا . والعرب إذا جمعت: ساريا جمعوه بضم أوله فقالوا: سُراة وغُزاة . فكأنهم إذ قالوا: سُرَاة: كرهوا أن يضموا أوله . فيكون الواحد كأنه سارٍ ، فأرادوا أن يفرقوا بفتحة أول سَراةٍ بين: السرىّ والسارى .

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مَا أَكْفَرَهُ . . . ﴾ .

يكون تعجبا ، ويكون: ما الذى أكفره ؟ وبهذا الوجه الآخر جاء التفسير ، ثم عجّبه ، فقال ﴿ مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ . . . ﴾ ثم [/١] فسّر فقال: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . . . ﴾ أطورا نطفة ، ثم علقة إلى آخر خلقِه ، وشقيا أو سعيدا ، وذكرا أو أنثى .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . . . ﴾ .

(16/802)

معناه: ثم يسره للسبيلِ ، ومثله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ ، أى: أعلمناه طريق الخير وطريق الشر .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . . . ﴾ .

جعله مقبورا ، ولم يجعله ممن يُلقَى للسباع والطير ، ولا ممن يلقى فى النواويس ، كأن القبر مما أكرم المسلم به ، ولم يقل: فقبره ؛ لأنّ القابر هو الدافن بيده ، والمُقبِر: الله تبارك وتعالى ؛ لأنه صيره ذا قبر ، وليس فعله كفعل الآمى . والعرب تقول: بترتُ ذنب البعير ، والله أبتره . وعضبت قرن الثور ، والله أعضبه ، وطردت فلانا عنى ، والله أطرده صيّره طريدا ، ولو قال قائل: فقبره ، أو قال فى الآدمى: أقبره إذا وجهه لجهته صلح ، وكان صوابا ؛ ألا ترى أنك تقول: قتل فلان أخاه ، فيقول الآخر: الله قتله . والعرب تقول: هذه كلمة مُقتلة مُخيفة إذا كانت من قالها قُتِل قيلت هكذا ، ولو قيل فيها: قاتلة خائفة كان صوابا ، كما تقول:

هذا الداء قاتلك .

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ . . . ﴾ .

لم يقض بعض ما أمره .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً . . . ﴾ .

قرأ الأعمش وعاصم (أنا) يجعلانها فى موضع خفض أى: فلينظر إلى صبِّنَا الماء إلى أن صَبَبْنا ، وفعلنا وفعلنا . وقرأ أهل الحجاز والحسن البصرى: (إنا) يخبر عن صفة الطعام بالاستئناف ، وكلٌّ حسن ، وكذلك قوله جل وعز: ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ ، و ﴿ إنا دمرناهم ﴾ . وقد يكون موضع "أنا" ها هنا فى (عبس) إذا فتحتْ رفعا كأنه استأنف فقال: طعامُه ، صَبُّنا الماء ، وإنباتُنا كذا وكذا .

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ حَبّاً . . . ﴾ .

(17/802)

الحب: كل الحبوب: الحنطة والشعير، وما سواهما. والقضب: الرَّطبةُ، وأهل مكة يسمون القتَّ: القضب. والحدائق: كل بستان كان عليه حائط فهو حديقة. وما لم يكن عليه حائط لم يُقَل: حديقة. والغُلْب: ما غلظ من النخل. والأبّ: ما تأكله الأنعام. كذلك قال ابن عباس.

﴿ مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَّتَاعاً لَّكُمْ... ﴾.

أي: خلقناه متعةً لكم ومنفعة. ولو كان رفعا جاز على ما فسرنا.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ الصَّآخَّةُ... ﴾: القيامة.

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ... ﴾.

يفر من أخيه: من، وعن فيه سواء.

﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ... ﴾.

أي: يشغله عن قرابته، وقد قرأ بعض القراء: "يعنيه" وهي شاذة.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . . . ﴾ .

مشرقة مضيئة ، وإذا ألقت المرأة نقابها ، أو برقعها قيل: سفرت فهى سافرٌ ، ولا يقال: أسفرت .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . . . ﴾ .

ويجوز فى الكلام: قَتْرة بجزم التاء . ولم يقرأ بها أحدٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 235.239 ﴾

(18/802)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة عبس

(الأعمى) [2] ابن [أم] [مكتوم] . (تصدى) [6] تعرض ، وبتشديد الصاد ، تتعرض .

(تلهى) [10]

تشاغل وتغافل . (تذكرة) [11] تبصرة ، أي: هذه السورة . (فمن شاء ذكره) [12]

أي: القرآن . (بأيدي سفرة) [15] ملائكة يسفرون بالوحي . وقيل: كتبة . وقيل: أراد

القراء والمفسرين . والجميع من تبيين الشيء وإيضاحه ، ومنه: أسفر الصبح ، وسفرت المرأة: كشفت نقابها . (قتل الإنسان) [17] لعن .

وقيل: عذب ، وهو أمية بن خلف . (فأقبره) [21] جعل له قبراً يدفن فيه ، ولم يجعله جيفة ملقاة . [قالت] بنو [تميم] لابن هبيرة ، لما قتل صالح بن عبد الرحمن: أقبرنا صالحاً ، قال: فدونكموه .

(أنشره) [22] أحياه: أنشره الله فنشر . قال الأعشى: 1381- لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر 1382- حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر .

(وقضباً) [28] القت ، وكل رطب يقضب مرة فينبت ثانيةً . (غلباً) [30]

[غلاظ] الأشجار ، ملتفة الأغصان ، جمع [غلباء] . [ويقرب] أن يكون الغلباء اسم النخلة العظيمة ، كما يقال لها : الجبارة والمجنونة . ألا ترى/إلى [جمع] الشاعر بين الأغلب والمجنون: 1383- هر [المقادة] من لا يستعد لها واعصوصب الشر وارتد المساكين 1384- من كل أغلب قد مالت عمامته كأنه من حذار الضيم مجنون

والفاكهة: الثمرة الرطبة . واليابسة منها : الأب ، لأنه يعد للشتاء والأسفار . والأب: الاستعداد . وقال الأعشى: 1385- صرمت [ولم] أصرمكم وكصارم أخ قد طوى كشحاً وأب ليذهبا . (الصاخة) [33] صيحة القيامة ، وهي التي تصك [الأسماع] وتصخها . (شأن يغنيه) [37] يكفيه ويشغله عن غيره . (ترهقها قترة) [41]

تغشاها ظلمة الدخان.

[تمت سورة عبس]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1623.1629﴾

(19/802)

وقال الأخفش:

سورة (عبس)

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾

قال ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وواحدهم "السافِر" مثل "الكافِر" و"الكَفَرة".

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

وقال ﴿كِرَامٍ [182 ب] بَرَرَةٍ﴾ وواحدهم "البارّ" و"البَرَرَةُ" جماعة "الأَبرار".

﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾

وقال ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ معناه على وجهين، قال بعضهم "على التعجب"، وقال بعضهم: "أيُّ شَيْءٍ أَكْفَرَهُ".

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾

قال ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ تقول "الطريقَ هَدَاهُ" أي: "هداهُ الطريقَ" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 567 ﴾

(20/802)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة عبس

«1»

6 - تَصَدَّى : تعرّض . يقال : فلان يتصدّي لفلان ، إذا تعرّض له ليراه .

11 - كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ يعني : السورة .

21 - فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ يعني : القرآن .

15 - بِأَيْدِي سَفَرَةٍ أي كتبة ، وهم الملائكة . واحدهم : «سافر» .

17 - قُتِلَ الْإِنْسانُ أي لعن .

21 - ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ أي جعله ممن يقبر ، ولم يجعله ممن يلقي بوجه الأرض كما تلقي البهائم .

يقال : قبرت الرجل ، [أي] دفنته وأقبرته : جعلت له قبرا يدفن فيه .

22 - أَنْشَرَهُ : أحياه .

23 - كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ أي لم يقض ما امره به .

28 - (القضب) : القتّ . يقال : سمي بذلك : لأنه يقضب مرة .

بعد مرة ، أي يقطع .

---

(1) هي مكية .

(21/802)

وكذلك : الفصيل ، لأنه يفصل ، أي يقطع .

30 - و(الغلب) : الغلاظ الأعناق ، يعني النخل .

31 - و(الأب (: المرعي .

33 - والصَّاخَّةُ : القيامة ، صخّت تصخّ صخّا ، أي تصمّ .

ويقال : رجل أصخّ وأصلخ ، إذا كان لا يسمع .

و«الداهية» : صاخّة أيضا .

37 - لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ أي يصرفه ويصدّه عن قرابته .

ومنه يقال : اعن عني وجهك ، أي اصرفه . واعن عن السّفيه .

41 - تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أي تغشاها غبرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 440.439 ﴾

(22/802)

وقال الغزنوى:

[سورة عبس]

2 الْأَعْمى: عبد اللّه بن أمّ مكتوم «1».

6 تَصَدَّى: تعرض. وبالتشديد «2»: تتعرّض.

10 تَلَهَّى: تشاغل وتغافل.

11 تَذْكِرَةٌ: أي: هذه السّورة «3».

12 فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ: أي: القرآن «4».

---

(1) ورد ذلك في حديث أخرجه الترمذي في سننه: 5/ 432 حديث رقم (3331) كتاب التفسير، باب «ومن سورة عبس» عن عائشة رضي اللّه عنها.

قال الترمذي: «هذا حديث غريب».

وأخرجه - أيضا - الطبري في تفسيره: 30/ 50، والحاكم في المستدرك: 2/ 514،

كتاب التفسير ، «سورة عبس وتولى» .

وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي» .

وانظر هذا الخبر في أسباب النزول للواحدي : (517 ، 518) ، والتعريف والإعلام للسهيلي : 179 ، ومفحمات الأقران : 205 .

(2) بتشديد الصاد ، قراءة نافع ، وابن كثير كما في السّبعة لابن مجاهد : 672 ، والتبصرة لمكي : 371 ، والتيسير للداني : 220 .

وانظر توجيه القراءتين في الكشف لمكي : 2/ 362 ، وتفسير القرطبي : 19/ 214 ، والبحر المحيط : 8/ 427 .

(3) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 236 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 514 ، والطبري في تفسيره : 30/ 53 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 399 ، عن الفراء ، والكلبي .

(4) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 236 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 514 ، وتفسير الماوردي : 4/ 400 .

(23/802)

15 سَفَرَةٍ : كتبه «1» ، أو ملائكة يسفرون بالوحي .

17 قُتِلَ الْإِنْسانُ : لعن وعذّب «2» ، وهو أميّة «3» بن خلف .

21 فَأَقْبَرَهُ : جعل له قبرا يدفن فيه ولم يجعله جيفة ملقاة .

قالت بنو تميم لابن هبيرة «4» - لما قتل صالح «5» بن عبد الرحمن : أقبرنا صالحا قال : فدونكموه «6» .

والقضب «7» : كل رطب يقضب «8» فينبت .

---

(1) وهم الملائكة كما في تفسير الطبري : 30/ 54 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 284 وهو قول الجمهور كما في زاد المسير : 9/ 29 .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 236 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 286 ، وتفسير الماوردي : 4/ 400 . [. . . . .]

(2) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 514 ، وتفسير الطبري : 30/ 54 ، وزاد المسير :

9/ 30 ، وتفسير القرطبي : 19/ 217 .

(3) هذا قول الضحاك كما في تفسير الماوردي : 4/ 401 ، وزاد المسير : 9/ 30 .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 345 : «وهذا الجنس الإنسان المكذب ، لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم» .

(4) هو عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين الفزاري ، أبو المثنى .

كان أميرا للخليفة يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان ، ثم عزله هشام بن عبد الملك .

أخباره في المعارف لابن قتيبة : 408 ، والكامل لابن الأثير : (5/ 98 ، 99) ، وسير أعلام النبلاء : 4/ 562 .

(5) هو صالح بن عبد الرحمن التميمي ، كان عاملا على خراج العراق في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ، وعزل في عهد عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه .

ينظر المعارف لابن قتيبة : 361 ، والكامل لابن الأثير : (4/ 588 ، 589) .

(6) ينظر هذا الخبر في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 286 ، وزاد المسير : (9/ 31 ، 32) ، وتفسير القرطبي : (19/ 219) .

(7) في قوله تعالى : وَعِنَباً وَقَضْباً [آية : 28] .

(8) أي : يقطع ، وانظر هذا القول في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 514 ، والمفردات للراغب : 406 ، وتفسير القرطبي : 19/ 221 ، واللسان : 1/ 679 (قضب) .

(24/802)

30 غُلْباً : غلاظ الأشجار [ملتفة] «1» الأغصان .

و«الفاكهة» «2» : الثّمرة الرّطبة ، و«الأبّ» : اليابسة لأنه يعدّ للشتاء «3» ، و«الأبّ» : الاستعداد «4» .

33 الصَّاخَّةُ : صيحة القيامة تصكّ الأسماع وتصخّها «5» .

37 شَأْنٌ يُغْنِيهِ : يكفيه ويشغله .

41 تَرْهَقُها قَتَرَةٌ : تغشاها ظلمة الدخان «6» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 864.866 ﴾

---

(1) في الأصل : «متلفة» ، والتصويب من نسخة «ج» والمصادر التي أوردت هذا القول . ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 238 ، وتفسير الطبري : 30/ 57 ، ومعاني الزجاج : 5/ 286 ، وتفسير الفخر الرازي : 31/ 63 ، وتفسير القرطبي : 19/ 222 .

(2) في قوله تعالى : وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [آية : 31] .

(3) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 404 عن بعض المتأخرين .

وأورده الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 64 دون عزو .

(4) اللسان : 1/ 205 (أبب) .

(5) وهي الصيحة الثانية كما في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 515 ، وتفسير الطبري : 30/ 61 ، وتفسير البغوي : 4/ 449 ، وتفسير القرطبي : 19/ 224 ، وتفسير

ابن كثير : 8/ . 348

(6) معاني القرآن للزجاج : 5/ 287 ، والمفردات للراغب : 393 ، وتفسير القرطبي : 19/ 226 .

(25/802)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة عبس

عدد 24 - 80

نزلت بمكة بعد سورة والنجم ، وهي اثنتان وأربعون آية ، ومائة وثلاثون كلمة وخمسمائة وثلاثون حرفا لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به ، ويوجد ستة سور في القرآن بدئت بالفعل الماضي هذه والنمل والأنبياء والفرقان والملك والمعارج .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "عَبَسَ" تقطب واكفهر وجه الرسول المرسل إليكم أيها الناس "وَتَوَلَّى 1" أعرض وأدبر من "أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى 2" عبد اللّه بن شريح بن مالك بن أم مكتوم عاتكة بنت عبد اللّه المخزومي "وَما يُدْرِيكَ" يا حبيبي "لَعَلَّهُ" ذلك الأعمى الذي لم تعبأ به ولم تلق له بالا

"يَزَّكَّى 3" من دون الكفر بما يتعلمه منك فيطهر بطهارة الإيمان "أَوْ يَذَّكَّرُ" بمواعظك القيمة المنزلة إليك من قبلنا "فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى 4" التي يتلقاها منك من وحينا فيكون خيرا من هؤلاء الذين اشتغلت بهم عنه وهم المعنيون بقوله تعالى "أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى 5" بماله وعشيرته عن الإيمان بك والانقياد لما تتلوه من الذكر "فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى 6" تنقصد الإقبال عليه والإصغاء لقوله مكبا بكلك اليه ومجهدا نفسك به حرصا على إيمانه "وَما عَلَيْكَ" فرض والتزام "أَلَّا يَزَّكَّى 7" من شركه فيطهر ويهتدي للايمان وانما عليك تبليغه وإنذاره فقط قال تعالى : (وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) الآية الاخيرة من سورة ق الآتية

وقال تعالى (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) الآية 22 من الغاشية في ج 2 ، "وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى 8" كهذا الأعمى "وَهُوَ يَخْشى 9" الله واليوم الآخر طائعا مختارا راغبا راهبا "فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى 10" بغيره ومتشاغل عنه بهم وهم يظهرون الاستغناء عنك

(26/802)

"كَلَّا" لا تعد لمثل هذا أبدا كيف تقبل على الخطير وتعرض عن الحقير فكم من حقير عند الله لا يوازيه الف خطير في المنزلة واعلم يا أكمل الرسل "إِنَّها" الآيات المنزلة عليك من لدنك "تَذْكِرَةٌ 11" عظيمة للناس أجمع لا يختص بها إلا من شملته العناية ولا يعرض عنها إلا من

سخط عليه "فَمَنْ شاءَ" أن يتعظ بها ويؤمن بك وبربك "ذَكَرَهُ 12" أي ذكر اللّه ربه منزلها بإلهام منه فاهتدى وهذه الآيات المعبر عنها بالتذكرة مدونة عند اللّه "فِي صُحُفٍ" عظيمة جليلة "مُكَرَّمَةٍ 13" على اللّه الكريم والتنوين فيها يدل على التفخيم ولذلك وصفها بقوله (مَرْفُوعَةٍ) القدر عالية الاحترام "مُطَهَّرَةٍ 14" مقدسة لا يمسها هناك إلا المطهرون من الملائكة الكرام كما أنه لا يمسها في الدنيا إلا المطهرون من البشر كما سيأتي في الآية 79 من سورة الواقعة الآتية "بِأَيْدِي سَفَرَةٍ 15" جمع سفير وذلك أنه عند ما يأمر اللّه بايجاد شيء منها بوحيه بأن يأمر هذا النوع من الملائكة فيسفرون به بين اللّه ورسله فيكونون كالسفير بينهما وقد أنشد :

وما أدع السفارة بين قومي وما أمشي يغش إن مشيت

ويقال لكتبة الوحي سفرة أيضا وللكاتب سافر ، لأنه يسفر بكتابته عن الأحوال التي يكتبها أي يبينها ويكشفها (كِرامٍ) على اللّه هؤلاء "بَرَرَةٍ 16" أتقياء بارين طائعين لا يخالفونه قيد شعرة ، بل لا يعرفون المخالفة وسبب نزول هذه الآيات أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم بينما كان يدعو أشراف قريش إلى الإسلام ويناجيهم أتاه ذلك الأعمى وقال له علمني يا رسول اللّه مما علمك ربك وهو مدبر عنه ومقبل على أولئك والأعمى لا يدري بتشاغله في غيره فصار يكرر النداء عليه فكره الرسول قطعه لكلامه وقطب وجهه وأعرض عنه وقال في نفسه لعلي إذا أقبلت عليه

و تركتهم يقولون ما قاله أحزابهم من الصناديد ما تبعه إلا الصبيان والسفلة فصد عنه وأقبل على أولئك يكلمهم ، فأنزل اللّه هذه الآيات يعاتبه فيها ، فكان كلما رآه يكرمه ويقول له مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول له هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين وهو من المهاجرين الأولين وقتل شهيدا في القادسية وواراه أنس وعليه درع ومعه راية سوداء ودفن بدمشق وقبره معروف حتى الآن .

ثم أنزل اللّه في عتبة بن لهب وأضرابه كأمية ابن خلف المتعصبين بالكفر (قُتِلَ الْإِنْسانُ) الذي لم يؤمن باللّه ولم يطع رسوله "ما أَكْفَرَهُ 17" ما أشد تعنته بالكفر تعجبا من عناده مع كثرة إحسان اللّه اليه وهي عامة في كل كافر متصلب في كفره ، ثم بين اللّه من أمر هذا الكافر وما ينبغي له أن يعلم "مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ 18" اللّه فإذا علم ذلك كان عليه أن يؤمن به لخلقه على الأقل ، ثم فسر ماهية خلقه بقوله (مِنْ نُطْفَةٍ) نقطة دموية قليلة حقيرة وهي عبارة عن بعض ماء الرجل المختلط ببعض ماء المرأة فمن هذا (خَلَقَهُ) فسواه بشرا سويا "فَقَدَّرَهُ 19" على ما أراد من مخلوقاته وعلى أنواع كثيرة من المصنوعات وعلى الخط والكتابة والقراءة وفضّله على كثير من خلقه وأكرمه بأنواع كراماته "ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ 20"

له فسهل عليه خروجه من بطن أمه أولا ويسر له سلوك الطريق الموصل اليه ويسره لما خلق له من عمل ورزق مدة حياته

(28/802)

(ثُمَّ أَماتَهُ) بأجله المحتوم بعد استيفاء ما قدره له في الدنيا "فَأَقْبَرَهُ 21" في الأرض التي خلق أمله منها وتكونت منها نطفته وقد أمر بدفنه كرامة له فلم يجعله كالبهائم تطرح للوحوش ومن فعل معه هذا الفعل بحياته ومماته جدير بأن يطيعه ولكن الإنسان كفور "ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ 22" أحياه للحساب والجزاء بالوقت المقدر لبعثه بعد انتهاء الوقت المقدر له في برزخه (كلا) ردع وزجر لذلك الإنسان المتكبر المتجبّر المترفع المصر على الكفر وإنكار البعث وهو "لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ" ربه من الإيمان به ولم يؤد ما افترضه عليه ولم يقم بشكر ما أنعم به عليه ولم يف بعهده الذي أخذه عليه في عالم الذر كما سيأتي في الآية 172 من الأعراف الآتية وبقي على حالته تلك من حين ولد إلى أن مات ، ثم أنه

(29/802)

تعالى بعد أن بين له ذلك وعلم أنه لم ينجع به ذكره بما لا بدّ له منه في دنياه لعله يعتبر فقال "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ 24" كيف يسره له وكيف يأكله وكيف يبقي ما فيه حياته وينتفع به وجوده ويخرج منه فضلاته التي لو بقيت أهلكته وكيف علمه الضار منه فاجتنبه والنافع فأكله مما يحار به العقل ، ولهذا كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول عند خروجه من المستراح الحمد للّه الذي أذهب عني الأذى وعافاني ثم بين كيفية خلق طعامه فقال "أَنَّا" نحن الإله المنفرد في ملكوته "صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا 25" من السماء على الأرض لتنعش وتربو "ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا 26" بالنبات والأشجار الخارجة ، ثم بين جل شأنه ثمانية أنواع من النبات فقال "فَأَنْبَتْنا فِيها" أي الأرض بسبب ذلك الماء "حَبًّا 27" يتغذى به الإنسان والحيوان مختلفا لونه وشكله وطعمه ويفيد التنوين التعميم بما يشمل الحنطة والذرة والشعير والعدس وغيرها "وَعِنَباً" يتفكه به كسائر الفواكه الأخرى ، لأنه ذكر أمهات الأشياء اكتفاء عما يتفرع عنها "وَقَضْباً 28" في كل ما يقضب ويقطع مرة بعد أخرى كالبقدونس والنعنع والفصة فانها كلما حصد شيء منها ظهر بدله والقضبة الرطبة فإذا يبست تسمى قتا ، وقال بعض المفسرين القضب كل ما يعلف للدواب وهو جدير لولا أن تأتي كلمة الأب بعد ، فهي أولى بهذا المعنى وهو من خصائص الحيوان لأن اللّه تعالى ذكر أولا ما يخصّ الإنسان وقد عطف عليه قوله "وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا 29" وهاتان الشجرتان أكثر

نفعا من غيرهما لأنهما فاكهة وإدام ويؤكل ثمرهما رطبا ويدخر أيضا "وَحَدائِقَ" جنات وبساتين عظيمة منافعها "غُلْباً 30" غلاظ أشجارها ملتفة على بعضها

(30/802)

ثم عمم فقال "وَفاكِهَةً" من كل يتفكه به الإنسان من تفاح وخوخ وإجاص وكمثرى وسفرجل ومشمس وغيرها "وَأَبًّا 31" من كل نبات وشجر وحب يتغذى به الحيوان ويتملح به يابسا أو أخضر وما قيل أن الأب بلغة الحبشة الفاكهة وفسرها بها فغير سديد لانها تكون مكررة إذ ذكرت الفاكهة قبله قال تعالى : وجعلنا هذه النباتات "مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ 32" الأب خاصة فاشكروا نعمة اللّه عليكم أيها الناس لأنّا نمتعكم بذلك كله وغيره متاعا زائلا

سريع الاضمحلال "فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ 33" صيحة القيامة وسميت صاخّة لأنها تصخ الآذان لشدتها وهذه هي الصيحة الثانية بدليل قوله "يَوْمَ" يوم مجيئها "يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ 34 وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ 35 وَصاحِبَتِهِ" زوجته لملازمتها له أكثر من غيره "وَبَنِيهِ 36" لعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئا إذ ذاك ولا يخففون عنه ما أثقل ظهره من الذنوب لهذا لا يلتفت إليهم ، وهم أيضا لا ينظرون اليه لأنهم لا يتوخون منه نفعا في ذلك اليوم إذ "لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ"

يوم تكون الصّيحة "شَأْنٌ يُغْنِيهِ 37" عنهم أيا كانوا لشدة الهول والفزع ويشغله عن التواد الذي كان في الدنيا .

(31/802)

أما الصيحة الأولى فلا يكون فيها الا موت الخلائق أجمع روى ابن عباس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : تحشرون حفاة عراة عزلا فقالت امرأة أينظر أحدنا أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانه (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) - أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح - وأخرج بن مردويه والبيهقي مثله وصححه الحاكم وأن السائلة سودة بنت زمعة أم المؤمنين وجاء في رواية الطبراني عن سهل ابن سعد أنه قيل له عليه الصلاة والسلام ما شغلهم ؟ فقال نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل ! ثم ذكر اللّه تعالى حال الخلائق المكلفين وبدأ بالسعداء فقال : "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ 38" مضيئة مشرقة من آثار أعمالها الصالحة في الدنيا كغبار الجهاد ومعاملة الناس بالحسنى وآثار الصوم والصلاة والزكاة والصدقة وقيام الليل مستنيرة من آثار السجود والوضوء وغيرها فهي "ضاحِكَةٌ" سرورا وفرحا بثواب اللّه "مُسْتَبْشِرَةٌ 39" بكرامة اللّه لها ورضوانه بعد الحساب ثم ذكر أهل الشقاء أجارنا اللّه منهم وجعلنا من السعداء .

بقوله "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ" أني بعد الفراغ من الحساب تراها منكمشة "عَلَيْها غَبَرَةٌ 40"

تعارها والعياذ بالله فتصيرها كدرة مائلة إلى السواد

"تَرْهَقُها" تغشاها فتدركها عن قرب بسرعة هائلة "قَتَرَةٌ 41" ظلمة كالدخان فلا يرى

أوحش منها لاجتماع العبرة والدخان عليها "أُولَئِكَ" الذين صنع بهم ذلك من كشف

وجوههم وتغيرها "هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ 42" لأنهم جمعوا في الدنيا بين الكفر والجحود فجمع

الله عليهم في الآخرة

الغبرة والقترة ، هذا ، والله أعلم ، واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،

وصلّى الله عليه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين صلاة وتسليما

إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 213.218 ﴾

(32/802)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة عبس

مكية

الأعمى حسن الذكرى احسن منه تصدى حسن وكذا يزكى تلهى تام تذكرة كاف وأجاز بعضهم الوقف على كلا وقال أبو عمرو والوقف عليها تام أي لا تعرض عنه فمن شاء ذكره كاف بررة تام من أي شيء خلقه كاف أنشره تام ما أمره كاف إلى طعامه حين لمن قرا انا بالكسر استئنافا أو بالفتح بجعله خبرا المبتدأ محذوف وليس بوقف لمن قراه بالكسر بجعله تفسيرا بالنظر إلى الطعام أو بالفتح بتقدير إلى طعامه والى أنا صببنا أو بجعله ولأنعامكم تام وكذا وبينه وشأن يغنيه مستبشرة حسن وكذا قترة وقال أبو عمرو فيهما تام آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(33/802)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

(سورة عبس)

مدنية أربعون آية في الشامي كلمها مائة وثلاث وثلاثون كلمة وحروفها خمسمائة وثلاثون حرفاً

وتولى ليس بوقف لتعلق أن بتولى على مختار البصريين في الأعمال وبعبس على مختار أهل الكوفة والمختار مذهب البصريين لعدم الإضمار في الثاني والتقدير لأن جاءه الأعمى

وقرئ شاذاً آأن جاءه الأعمى بهمزتين بينهما ألف فعلى هذا يوقف على تولى ثمَّ يبتدئ بما بعده مستفهماً منكراً تقديره الآن جاءه

الأعمى (كاف) ومثله تصدى وكذا يزكى وهو أحسن مما قبله ولا يوقف على يسمى ولا على يخشى لأنَّ الفاء في فأنت في جواب أمَّا

تلهى (تام) عند أبي حاتم وعند أبي عمرو

كلا إنها تذكرة (كاف) والضمير في إنها للموعظة

ذكره (كاف)

مكرمة ليس بوقف لأن ما بعده صفة تذكرة وقوله فمن شاء ذكره جملة معترضة بين الصفة وموصوفها

بررة (تام)

ما أكفره (كاف) ما اسم تعجب مبتدأ أو اسم ناقص أي ما الذي أكفره والوقف فصل بين الاستفهام والخبر أي من أي شيء خلقه ان جعل استفهاما على معنى التقرير على حقارة ما خلق منه كان الوقف على خلقه كافياً وإن جعل ما بعده بياناً وتنبيهاً على حقارة ما خلق منه فليس بوقف إلى قوله أنشره

وأنشره (تام) لتناهى البيان والتفسير

ما أمره (كاف) وقيل تام ومثله إلى طعامه لمن قرأ أنّا صببنا بكسر الهمزة استئنافاً وليس

بوقف لمن قرأها بالفتح تفسيراً لحدوث الطعام كيف يكون وبها قرأ الكوفيون أو بجعل أنا مع ما اتصل بها في موضع جر بدلاً من طعامه كأنه قال فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صباً فان جعل في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أنا صببنا كان الوقف على رؤوس الآيات بعده وهو حباً وقضباً وغلباً وأبًا كلها وقوف كافية وقدر لكل آية من قوله وعنباً فعل مضمر ينصب ما بعده

(34/802)

ولأنعامكم (كاف) الصاخة (جائز) ان قدر عامل إذا بعدها أي فإذا جاءت الصاخة يكون ما يكون واشتغل كل إنسان بنفسه أو نصبت بمحذوف والأوجه أن يكون ظرفاً لجاءت

وبنيه (تام) بشرط أن لايجعل لكل جواب إذا

شأن يغنيه (تام) من الأغناء بمعنى يكفيه وقرأ ابن محيصن يعينه بفتح الياء والعين المهملة من قولهم عناني الأمر أي قصدني

مسفرة ليس بوقف لأن ما بعده صفة لوجوه

مستبشرة (تام) وليس وقفاً ان جعل قوله وجوه الثانية معطوفة على وجوه الأولى

قترة (كاف) والفرق بين القترة والغبرة أن القترة بالقاف ما رتفع من الغبار فلحق بالسماء والغبرة بالغين المعجمة ما كان أسفل في الأرض اهـ النكزاوي آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(35/802)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة عبس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "آنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى 1" ، بالمد – الحسن .

قال أبو الفتح : "أن معلقة بفعل محذوف دل عليه قوله "تعالى" : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ، تقديره : أأن جاءه الأعمى أعرض عنه ، وتولى بوجهه ؟ فالوقف إذا على قوله : "وتولى" ، ثم استأنف لفظ الاستفهام منكرا للحال ، فكأنه قال : ألأن جاءه الأعمى كان ذلك منه ؟ وأما "أن" على القراءة العامة فمنصوبة بـ"تولى" : لأنه الفعل الأقرب منه ، فكأنه قال : تولى لمجيء الأعمى ومن أعمل الأول 2 نصب "أن" بـ"عبس" ، فكأنه قال : عبس أن جاءه

الأعمى ، وتولى لذلك ، فحذف مفعول "تولى" كما تقول : ضربت فأوجعته زيدا ، إذا أعملت الأول ، وإن شئت لم تأت بمفعول أوجعت [165و] فقلت : ضربت فأوجعت زيدا ، أي وأنت تريد أوجعته ، إلا أنك حذفته تخفيفا ، وللعلم به ، والوجه إعمال الثاني ؛ لقربه . فأما أن تنصبه بمجموع الفعلين فلا ، وهذا واضح .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر : "فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى[3]" ، بضم التاء ، وتخفيف الصاد .

قال أبو الفتح : معنى "تصدى" ، أي : يدعوك داع من زينة الدنيا وشارتها إلى التصدي له ، والإقبال عليه .

وعلى ذلك قراءته أيضا : "فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى[4]" ، أي : تصرف عنه ، ويزوى وجهك

---

1 سورة عبس : 2 .

2 أي من الفعلين المتنازعين : "عبس ، وتولى" .

3 سورة عبس : 6 .

4 سورة عبس : 10 .

دونه ؛ لأنه لا غنى عنده ، ولا ظاهر معه ، فخرج بذلك مخرج التنبيه للنبي "صلى الله عليه وسلم" فيما جرى من قصة ابن أم مكتوم .

ومن ذلك أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي عمرو قرأ : "شَانَشَرَهُ1" ، مقصورة ، وقد اختلف عن نافع .

قال أبو الفتح : قد سبق القول على نشره الله ، وأن أقوى اللغتين أنشره2 .

ومن ذلك قراءة ابن محيصن : "شَأْنٌ يُغْنِيهِ3" ، مفتوحة الياء ، بالعين .

قال أبو الفتح : وهذه قراءة حسنة أيضا ، إلا أن التي عليها الجماعة أقوى معنى ، وذلك أن الإنسان قد يعنيه الشيء ولا يغنيه عن غيره . وذلك كأن يكون له ألف درهم ، فيؤخذ منها مائة درهم ، فيعنيه أمرها ، ولا يغنيه عن بقية ماله أن يهتم به ويراعيه . فأما إذا أغناه الأمر عن غيره فإن ذلك أقوى المطلبين ، وأعلى الغرضين ، فاعرف ذلك مع وضوحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 351.352﴾

---

1 سورة عبس : 22 .

2 انظر الصفحة 340 من هذا الجزء .

3 سورة عبس : 37 .

4 كذا في ك ، وفي الأصل كورت ، بدون سورة ويريد بها

وقال العلامة الدمياطى :

سورة عبس

مكية وآيها أربعون دمشقي وآية بصري وحمصي وأبو جعفر وآيتان كوفي ومكي وشيبة خلافها ثلاث إلى طعامه تركها أبو جعفر ولأنعامكم كوفي وحجازي الصاخة تركها دمشقي مشبه الفاصلة نطفة خلقه وعنبا وزيتونا عكسه موضعان أي شيء خلقه حبا القراآت أمال رؤوس آيها إلى تلهى وهي عشرة حمزة والكسائي وخلف وبالتقليل الأزرق وأبو عمرو بخلفه إلا في الذكرى فيمحضها فقط ويوافقه فيها الصوري عن ابن ذكوان وعن الحسن آن جاءه بمدة بعد الهمزة على الاستفهام

واختلف في (فتنفعه) الآية 4 فعاصم بنصب العين بأن مضمرة بعد الفاء على جواب الترجي مثل فاطلع بغافر لكنه مذهب كوفي وقيل في جواب التمني المفهوم من أو يذكر قاله ابن عطية وأقره عليه السمين والباقون بالرفع عطفا على يذكر وشدد البزي بخلفه تاء عنه تلهى وصلا مع صلة الهاء قبلها بواو وإشباع المد للساكنين كما مر بالبقرة

واختلف في ( ) له تصدى (الآية 26 فنافع وابن كثير وأبو جعفر بتشديد الصاد أدغموا

التاء الثانية في الصاد تخفيفا وافقهم ابن محيصن والباقون بالتخفيف فحذفوا التاء الأولى ومر نظائر شاء أنشره من حيث الهمزتان نحو ( ) تلقاء أصحاب ( ) بالأعراف

(38/802)

واختلف في ( ) أنا صببنا ( ) الآية 25 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الهمزة في الحالين على تقدير لام العلة أي لأنا وقيل بدل اشتمال من طعامه بمعنى أن صب الماء سبب في إخراج الطعام فهو مشتمل عليه وافقهم الأعمش وقرأ رويس بفتحها في الوصل فقط والباقون بكسرها مطلقا على الاستفهام وبه قرأ رويس في الابتداء ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على لكل امريء بإبدال الهمزة ياء ساكنة على القياسي وبياء مكسورة بحركة نفسها على مذهب التميميين فإذا سكنت للوقف اتحد مع السابق لفظا وإن وقف بالروم فهو ثان والثالث التسهيل بين بين على روم الحركة نفسها ويتحد معه الرسم على مذهب مكي وابن شريح وعن ابن محيصن يغنيه بفتح الياء والعين مهملة من عناني الأمر فصدني والجمهور بالضم والمعجمة من الإغناء أي بغنية عن النظر في شأن غيره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(39/802)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة عبس "

" فتنفعه " قرأ عاصم بنصب العين وغيره برفعها .

" تصدى " شدد الصاد المدنيان والمكي وخففها غيرهم .

" عنه تلهى " شدد البزي التاء وصلا مع صلة هاء عنه ومدها مدا مشبعا ، وخففها ابتداء .

تذكرة ، كرام ، نطفة خلقه ، شاء أنشره ، يفر ، وأخيه وأبيه ، وبنيه ، شأن ، يغنيه مسفرة ، مستبشرة ، كله جلي .

" أنا صببنا " قرأ الكوفيون بفتح الهمزة في الحالين ورويس بفتحها وصلا وكسرها ابتداء والباقون بكسرها في الحالين .

" المرء " لحمزة وهشام فيه وقفا نقل حركة الهمزة إلى الراء مع إسكانها للوقف ويجوز الإشمام والروم .

" امرئ " فيه لحمزة وهشام وقفا إبدال الهمزة ياء ساكنة مع السكون والروم ثم التسهيل مع الروم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 345 . 346 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة عبس

قوله تعالى ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ الرفع فيه اجماع الا ما روى من نصبه عن عاصم وقد ذكر في سورة المؤمن

قوله تعالى ﴿ فأنت له تصدى ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد تقدم ذكر علته ومعناه فتتعرض له ومعنى تلهى تعرض عنه

قوله تعالى ﴿ أنا صببنا ﴾

يقرأ بكسر الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر انه جعل الكلام تاما عند قوله الى طعامه ثم استأنف فكسرها للابتداء بها والحجة لمن فتح انه اراد اعادة الفعل وادخال حرف الخفض والحدائق جمع حديقة وهي البساتين والغلب الملتفة بالشجر والنبات والاب المرعى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 363.364 ﴾

وقال ابن زنجلة :

80 – سورة عبس

أو يذكر فتنفعه الذكرى

قرأ عاصم فتنفعه الذكرى بفتح العين على جواب لعل

وقرأ الباقون بالرفع نسقا على يزكى المعنى لعله يزكى ولعله تنفعه الذكرى ومن نصب فعلى جواب لعل ونظيره لعل زيدا يقدم فيكرمني على قولك لعله يكرمني فإن قلت فيكرمني فإنما ترجيت قدومه وضمنت أنه إذا قدم أكرمك أما من استغنى فأنت له تصدى 5و6

قرأ نافع وابن كثير فأنت له تصدى بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف فيها

والأصل تتصدى تتعرض ولكن حذفوا الثانية لالثانية لاجتماعهما ومن شدد أدغم التاء في الصاد لقرب المخرجين فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا 25 , 24

قرا عاصم وحمزة والكسائي أنا صببنا الماء بفتح الألف على البدل من الطعام ويكون أنا في موضع خفض المعنى فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبا وقال إلى طعامه والمعنى على كونه وحدوثه وهو موضع الاعتبار

وقرأ الباقون إنا بالكسر على الاستئناف ويكون ذلك تفسيرا للنظر إلى طعامه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 749 . 750 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة عبس 80

مكية وقد ذكر نظيرتها في البصري والشامي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها مئة وثلاث وثلاثون كلمة

وحروفها خمس مئة وثلاثة وعشرون حرفا

وهي أربعون آية في الشامي وإحدى وأربعون في عدد أبي جعفر والبصري واثنتان وأربعون في عدد الباقين

اختلافها ثلاث آيات (﴿ ولأنعامكم ﴾) لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون (﴿ إلى طعامه ﴾) لم يعدها أبو جعفر وحده وعدها شيبة والباقون (﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل ثلاثة مواضع (﴿ من نطفة خلقه ﴾ وعنبا) (﴿ وزيتونا ﴾) ورؤوس الآي

وتولى

1 الأعمى

2 يزكى

3 الذكرى

4 استغنى

5 تصدى

6 يزكى

7 يسعى

8 يخشى

9 تلهى

10 تذكرة

11 ذكره

12 مكرمة

13 مطهرة

14 سفرة

15 بربرة

16 أكفره

17 خلقه

18 فقدره

19 يسره

20 فأقبره

21 أنشره

22 أمره

23 طعامه

24 صبا

25 شقا

26 حبا

27 وقضبا

28 ونخلا

29 غلبا

30 وأبا

31 ولأنعامكم

32 الصاخة

33 أخيه

34 وأبيه

35 وبنيه

36 يغنيه

37 مسفرة

38 مستبشرة

39 غبرة

40 قترة

41 الفجرة

42 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 264﴾

(43/802)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أن جاءه) أي لأن جاءه .

قوله تعالى (فتنفعه) بالرفع عطفا على يذكر ، وبالنصب على جواب التمنى في المعنى ، ويقرأ ، و (تصدى) يتفعل من الصدى وهو الصوت: أي لا يناديك إلا أجبته ، ويجوز أن تكون الألف بدلا من دال ، ويكون من الصدد ، وهو الناحية والجانب ، و (إنها) الضمير للموعظة ، والضمير في الفعل للقرآن ، و (في صحف) حال من الهاء ، ويجوز أن يكون نعتا للتذكرة ، وأن يكون التقدير: هو أو هي في صحف ، وكذلك (بأيدى) و (من نطفة) متعلق بخلق الثانية .

وما أكفره تعجب أو استفهام .

قوله تعالى (ثم السبيل) هو مفعول فعل محذوف: أي ثم يسر السبيل للإنسان ، ويجوز أن ينصب بأن مفعول ثان ليسره ، والهاء للإنسان: أي يسره السبيل: أي هداه له .

قوله تعالى (ما أمره) " ما " بمعنى الذى ، والعائد محذوف: أي ما أمره به ، والله أعلم .

قوله تعالى (أنا صببنا) بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على البدل من طعامه أو على تقدير اللام (فإذا جاءت الصاخة) مثل جاءت الطامة ، وقيل العامل في إذا معنى (لكل امرئ) والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة عبس

[سورة عبس (80) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (4)

"عَبَسَ" ماض فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "وَتَوَلَّى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "أَنْ" حرف مصدري ونصب "جاءَهُ" ماض ومفعوله و"الْأَعْمى" فاعل مؤخر والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب بنزع الخافض "وَما يُدْرِيكَ" اسم استفهام مبتدأ ومضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر و"لَعَلَّهُ" لعل واسمها و"يَزَّكَّى" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر لعل وجملة لعل . . مفعول يدريك الثاني وجملة يدريك . . خبر المبتدأ وما وجملة ما يدريك مستأنفة "أَوْ" حرف عطف "يَذَّكَّرُ" معطوف على يزكي ، "فَتَنْفَعَهُ" الفاء للسببية ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببية والهاء

مفعول به و"الذِّكْرى" فاعل.

[سورة عبس (80) : الآيات 5 الى 10]

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُوَ يَخْشى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

(45/802)

"أَمَّا" حرف شرط وتفصيل و"مَنِ" اسم موصول مبتدأ "اسْتَغْنى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من "فَأَنْتَ" الفاء رابطة و"أنت" مبتدأ "لَهُ" متعلقان بما بعدهما "تَصَدَّى" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ أنت وجملة أنت . . خبر المبتدأ من وجملة من . . مستأنفة. "وَما" الواو حالية "ما" نافية و"عَلَيْكَ" خبر مقدم و"أن" حرف مصدري ونصب و"لا" نافية "يَزَّكَّى" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية حال. "وَأَمَّا" حرف شرط وتفصيل و"مَنْ" مبتدأ و"جاءَكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة من و"يَسْعى" مضارع فاعله مستتر والجملة حال وجملة أما من . . معطوفة على ما قبلها. "وَهُوَ" الواو حالية "هُوَ"

مبتدأ و"يَخْشى" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر والجملة الاسمية حال. "فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى" كإعراب فأنت له تصدى.

[سورة عبس (80) : الآيات 11 الى 16]

كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15)

كِرامٍ بَرَرَةٍ (16)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"إِنَّها" إن واسمها و"تَذْكِرَةٌ" خبرها والجملة مستأنفة "فَمَنْ" الفاء حرف استئناف و"من" اسم شرط جازم مبتدأ و"شاءَ" ماض في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر و"ذَكَرَهُ" ماض في محل جزم جواب الشرط والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا

محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . مستأنفة "فِي صُحُفٍ" صفة تذكرة و"مُكَرَّمَةٍ" صفة صحف و"مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ" صفتان لصحف و"بِأَيْدِي" صفة صحف أيضا و"سَفَرَةٍ" مضاف إليه و"كِرامٍ بَرَرَةٍ" صفتان لموصوف محذوف تقديره ملائكة.

[سورة عبس (80) : الآيات 17 الى 23]

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23)

"قُتِلَ" ماض مبني للمجهول و"الْإِنْسانُ" نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها و"ما" نكرة تامة مبتدأ "أَكْفَرَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة و"مِنْ أَيِّ" متعلقان بالفعل بعدهما و"شَيْءٍ" مضاف إليه و"خَلَقَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة و"مِنْ نُطْفَةٍ" متعلقان بما بعدهما "خَلَقَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة بدل من سابقتها و"فَقَدَّرَهُ" معطوف على خلقه بالفاء . "ثُمَّ" حرف عطف "السَّبِيلَ" مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور بعده "يَسَّرَهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ" معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف و"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"شاءَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة و"أَنْشَرَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها . و"كَلَّا" حرف ردع وزجر "لَمَّا يَقْضِ" مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره والفاعل مستتر و"ما" مفعول به و"أَمَرَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة ما وجملة كلا . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة عبس (80) : الآيات 24 الى 26]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26)

(47/802)

"فَلْيَنْظُرِ" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلام الأمر و"الْإِنْسانُ" فاعل و"إِلى طَعامِهِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "أَنَّا صَبَبْنَا" أن واسمها وماض وفاعله و"الْماءَ" مفعول به و"صَبًّا" مفعول مطلق والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها بدل اشتمال من طعامه "ثُمَّ" حرف عطف و"شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا" معطوفة على ما قبلها .

[سورة عبس (80) : الآيات 27 الى 32]

فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدائِقَ غُلْباً (30) وَفاكِهَةً وَأَبًّا (31)

مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32)

"فَأَنْبَتْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله و"فِيها" متعلقان بالفعل و"حَبًّا" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً" معطوفتان على ما قبلهما

"وَحَدائِقَ" معطوفة أيضا و"غُلْباً" صفة حدائق "وَفاكِهَةً وَأَبًّا" معطوفة على ما قبلها و"مَتاعاً" مفعول لأجله منصوب و"لَكُمْ" متعلقان بمتاعا "وَلِأَنْعامِكُمْ" معطوفان على ما قبلهما .

[سورة عبس (80) : الآيات 33 الى 37]

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)

(48/802)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف و"إذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَتِ الصَّاخَّةُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"يَوْمَ" ظرف زمان بدل من إذا "يَفِرُّ الْمَرْءُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"مِنْ أَخِيهِ" متعلقان بما قبلهما "وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ" معطوفان على ما قبلهما "وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ" معطوفان أيضا و"لِكُلِّ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم و"امْرِئٍ" مضاف إليه و"مِنْهُمْ" صفة امرئ و"يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان أضيف إلى مثله و"شَأْنٌ" مبتدأ مؤخر "يُغْنِيهِ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية صفة شأن والجملة الاسمية لكل امرئ . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة عبس (80) : الآيات 38 الى 42]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

"وُجُوهٌ" مبتدأ و "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان أضيف إلى مثله و "مُسْفِرَةٌ" خبر و "ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ" خبران آخران لوجوه والجملة الاسمية مستأنفة "وَوُجُوهٌ" مبتدأ و "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان أضيف إلى مثله و "عَلَيْها" خبر مقدم و "غَبَرَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر المبتدأ وجملة وجوه . . معطوفة على ما قبلها . "تَرْهَقُها" مضارع ومفعوله و "قَتَرَةٌ" فاعل والجملة الفعلية خبر ثان لوجوه . و "أُولئِكَ" مبتدأ و "هُمُ" ضمير فصل و "الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ" خبران والجملة مستأنفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 420 . 422﴾

(49/802)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة عبس

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1456 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَتَاهُ ابْن أم مَكْتُوم وَأم مَكْتُوم أم أَبِيه وأسمه عبد الله بن شُرَيْح بن مَالك بن ربيعَة الفِهري من بني عَامر بن لؤَي وَعِنْده صَنَادِيد قُرَيْش عتبَة وَشَيْبَة ابْنا ربيعَة وَأَبُو جهل بن هِشَام وَالْعَبَّاس بن عبد الْمطلب وَأُمَيَّة بن خلف والوليد بن الْمُغيرَة يَدعُوهُم إِلَى الْإِسْلَام رَجَاء أَن يسلم بِإِسْلَامِهِمْ غَيرهم فَقَالَ يَا رَسُول الله أقرئني وَعَلمنِي مِمَّا علمك الله وكرر ذَلِك وَهُوَ لَا يعلم تَشَاغُله بالقوم فكره رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قطعه لكَلَامه وَعَبس وَأَعْرض عَنهُ فَنزلت فَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُكرمهُ وَيَقُول إِذا رَآهُ مرْحبًا بِمن عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي وَيَقُول هَل لَك من حَاجَة واستخلفه عَلَى الْمَدِينَة مرَّتَيْنِ

وَقَالَ انس رَأَيْته يَوْم الْقَادِسِيَّة وَعَلِيهِ درع وَله راية سَوْدَاء

قلت اخْرُج الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه حَدثنَا مُحَمَّد بن سعد ثَنَا أبي ثَنَا عمي

(50/802)

ثَنَا أبي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيرهما عَن الْعَوْفِيّ عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى عبس وَتَوَلَّى قَالَ بَيْنَمَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُنَاجِي عتبَة ابْن ربيعَة وَأَبا جهل بن هِشَام وَالْعَاص بن عبد الْمطلب وَكَانَ يَتَصَدَّى لَهُم كثيرا وَجعل عَلَيْهِم أَن يُؤمنُوا فَأقبل إِلَيْهِ رجل أَعْمَى يُقَال لَهُ عبد الله بن أم مَكْتُوم يمشي هُوَ يُنَاجِيهِمْ فَجعل عبد الله يَسْتَقْرِئ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم آيَة من الْقُرْآن وَقَالَ يَا رَسُول الله عَلمنِي مِمَّا علمك الله فَأَعْرض عَنهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعبس فِي وَجهه وَتَوَلَّى وَكره كَلَامه وَاقْبَلْ عَلَى الآخرين فَلَمَّا قَضَى عَلَيْهِ السَّلَام نَجواهُ وَأخذ يَنْقَلِب إِلَى أَهله أمسك الله بعض بَصَره ثمَّ خَفق برَأْسِهِ وَأنزل الله عبس وَتَوَلَّى . . . الْآيَة فَأكْرمه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَلمه وَقَالَ لَهُ مَا حَاجَتك انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ أَيْضا ثَنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَالَ ذكر لنا أَن عبد الله بن أم مَكْتُوم جَاءَ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَسْتَقْرِئهُ وَهُوَ يُنَاجِي أُمَيَّة بن خلف فَأَعْرض عَنهُ عَلَيْهِ السَّلَام فَأنْزل الله عبس وَتَوَلَّى . . . الْآيَة قَالَ وَذكر لنا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اسْتَخْلَفَهُ بعد ذَلِك عَلَى الْمَدِينَة مرَّتَيْنِ فِي غَزْوَة غزَاهُمَا يُصَلِّي بِأَهْلِهَا انْتَهَى

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه من حَدِيث هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت أنزل عبس وَتَوَلَّى فِي ابْن أم مَكْتُوم الْأَعْمَى أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَجعل يَقُول يَا رَسُول الله أَرْشدنِي وَعند رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من عُظَمَاء الْمُشْركين فَجعل عَلَيْهِ السَّلَام يعرض عَنهُ وَيقبل عَلَى الآخر وَيَقُول أَتَرَى بِمَا أَقُول بَأْسا فَيَقُول لَا فَفِي هَذَا انْزِل انْتَهَى

رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْخَامِس من الْقسم الْخَامِس وَالْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجاهُ

وَكَلَام أنس رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا معمر عَن قَتَادَة قَالَ أَخْبرنِي انس بن مَالك قَالَ رَأَيْته يَوْم الْقَادِسِيَّة وَعَلِيهِ درع وَمَعَهُ راية سَوْدَاء يَعْنِي ابْن أم مَكْتُوم انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ أَيْضا فِي تَفْسِيره أخبرنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون عَن سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة عَن انس بن مَالك . . . فَذكره

وَذكر الثَّعْلَبِيّ لفظ الْمُصَنّف بِتَمَامِهِ من غير سَنَد وَلَا راو وَكَذَلِكَ فعل الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَقَالَ السُّهَيْلِي فِي الرَّوْض الْأنف سَمِعت شَيخنَا أَبَا بكر بن الْعَرَبِيّ يَقُول قَول الْمُفَسّرين فِي الَّذِي شغل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه الْوَلِيد بن الْمُغيرَة وَأُمَيَّة بن خلف وَالْعَبَّاس كُله بَاطِل فَإِن أُمَيَّة والوليد كَانَا بِمَكَّة وَابْن أم مَكْتُوم كَانَ بِالْمَدِينَةِ مَا حضر مَعَهُمَا وَلَا حضرا مَعَه وَمَا تَا كَافِرين أَحدهمَا قبل الْهِجْرَة وَالْآخر فِي بدر وَلم يقْصد أُمَيَّة الْمَدِينَة قطّ وَلَا حضر عِنْده مُفردا وَلَا مَعَ آخر انْتَهَى

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أَخْبَرنَا يزِيد بن هَارُون أَنا جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَصَدَّى لرجل من قُرَيْش يَدعُوهُ إِلَى الْإِسْلَام فَأقبل عبد الله بن أم مَكْتُوم الْأَعْمَى فَجعل يسْأَل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ يعرض عَنهُ وَيَعْبَس فِي وَجهه وَيقبل عَلَى الآخر فَعير الله رَسُوله فَقَالَ عبس وَتَوَلَّى . . . الْآيَات قَالَ فَدَعَاهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأكْرمه واستخلفه فِي الْمَدِينَة مرَّتَيْنِ انْتَهَى وجويبر ضَعِيف

1457 - قَوْله

عَن أبي بكر الصّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْه انه سُئِلَ عَن الْأَب فَقَالَ أَي سَمَاء تُظِلنِي وَأي ارْض تُقِلني إِذا قلت فِي كتاب الله بِمَا لَا علم لي بِهِ

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي فَضَائِل الْقُرْآن وَعبد بن حميد فِي تَفْسِيره قَالَا ثَنَا مُحَمَّد بن عبيد عَن الْعَوام بن حَوْشَب عَن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ أَن أَبَا بكر سُئِلَ عَن قَوْله تَعَالَى وَفَاكِهَة وَأَبا فَقَالَ أَي سَمَاء تُظِلنِي وَأَي أَرض تُقِلنِي إِذا قلت فِي كتاب الله تَعَالَى مَا لَا أعلم انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد بن حميد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

(53/802)

وَرَوَاهُ أَبو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتاب فَضَائِل الْقُرْآن ثَنَا مُحَمَّد بن يزِيد عَن الْعَوام بن حَوْشَب وَفِيه انْقِطَاع بَين إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ وَالصديق

وَرَوَاهُ ابْن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم من حَدِيث مُوسَى بن هَارُون الْحمال ثَنَا يَحْيَى الْحمانِي ثَنَا حَفْص عَن الْحسن بن عبيد الله عَن إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ عَن أبي معمر عَن أبي بكر . . . فَذكره ثمَّ قَالَ وَرَوَاهُ عَن أبي بكر أَيْضا مَيْمُون ابْن مهْرَان وعامر الشّعبِيّ وَابْن أبي مليكَة انْتَهَى

1458 - قَوْله

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه انه قرا هَذِه الْآيَة فَقَالَ كل هَذَا قد عرفنَا فَمَا الْأَب ثمَّ رفض عَصا

كَانَت فِي يَده وَقَالَ هَذَا لعمر الله التَّكَلُّف يَا ابْن أم عمر أَلا تدْرِي مَا الْأَب ثمَّ قَالَ ابْتَغوا مَا تبين لكم من هَذَا الْكتاب وَمَا لَا فَدَعوهُ

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث يزِيد بن هَارُون أَنا ابْن حميد عَن أنس وَعَن يَعْقُوب بن إِبْرَاهِيم بن سعد ثَنَا أبي عَن صَالح عَن ابْن شهَاب أَن أنس أخبرهُ أَنه سمع عمر بن الْخطاب يقْرَأ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حبا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِق غلبا وَفَاكِهَة وَأَبا قَالَ كل هَذَا قد عرفنَا فَمَا الْأَب ثمَّ نقض عَصا كَانَت فِي يَده وَقَالَ هَذَا لعمر الله التَّكَلُّف اتبعُوا مَا تبين لكم من هَذَا الْكتاب وَمَا لَا فَدَعوهُ انْتَهَى وَقَالَ هَذَا صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر بالسند الثَّانِي وَكَذَلِكَ الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ بالسند الثَّانِي

وَرَوَاهُ ابْن مردَوَيْه من حَدِيث أبي الْيَمَان أَنا شُعَيْب بن أبي حَمْزَة عَن الزُّهْرِيّ بِهِ

(54/802)

وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُسْند الشاميين وَكَذَلِكَ الطَّبَرِيّ رَوَاهُ من طَرِيق ابْن وهب أَنا يُونُس وَعَمْرو بن الْحَارِث عَن ابْن شهَاب عَن أنس فَذكره كلهم بِلَفْظ الْحَاكِم

فَائِدَة رَوَى الْحَاكِم فِي كتاب الصَّوْم فِي الْمُسْتَدْرك عَن عمر بن الْخطاب أَنه سَأَلَ ابْن عَبَّاس عَن الْأَب فَقَالَ هُوَ نبت الأَرْض مِمَّا يَأْكُلهُ الدَّوَابّ والأنعام وَلَا يَأْكُلهُ النَّاس مُخْتَصر وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم

1459 - الحَدِيث الثَّانِي

فِي الحَدِيث من كثرت صلَاته بِاللَّيْلِ حسن وَجهه بِالنَّهَارِ

قلت رَوَاهُ ابْن ماجة من حَدِيث جَابر وَقد تقدم مُسْتَوفى فِي سُورَة الْفَتْح

1460 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة عبس جَاءَ الْقِيَامَة وَوَجهه ضَاحِك مُسْتَبْشِرٍ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد ابْن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 155.159 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة عبس» (80)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : «تَصَدَّى» (6) تعرّض له . .

«تَلَهَّى» (10) تغافل «1» بغيره . .

«إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» (11 ، 12) فمن شاء ذكره القرآن . .

«بِأَيْدِي سَفَرَةٍ» (15) أي كتبة واحدها سافر . .

«ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ» (21) أمر بأن يقبر «2» قالت بنو تميم لعمر بن هبيرة لما قتل صالح بن عبد الرحمن : أقبرنا «3» صالحا قال : دونكموه «4» ، والذي يدفن بيده هو القابر قال الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر

«5» [929] .

«أَنْشَرَهُ» (22) أحياه ، ولنشر الميت حيى نفسه قال الأعشى :

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا للميّت الناشر

(609) .

«حَدائِقَ غُلْباً» (30) يقال : نخلة وشجرة غلباء إذا كانت غليظة . .

«فاكِهَةً وَأَبًّا» (31) وأما الأبّ كل مرعى للهوام . .

«تَرْهَقُها قَتَرَةٌ» (41) الغبرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 286 ﴾

---

(1) . – 3 – 4 «تصدق . . . تغافل» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فتح الباري 8/ 530 .

(2) . – 7 «فأقبره . . . يقبر» و8 «والذي . . القابر» : مروى عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 530]

(3) . – 8 «أقبرنا» : أي ائذن لنا أن نقبره (اللسان) .

(4) . – 7 – 8 «قالت . . دونكموه» : الخبر فى القرطبي 19/ 217 وبعضه فى اللسان (قبر) .

(5) . – 929 : ديوانه ص 105 والطبري 30/ 31 والقرطبي 19/ 217 .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة عبس

كان النبى صلى الله عليه وسلم مشغولا بدعوة نفر من كبراء قريش إلى الإسلام ، لأنهم إذا اهتدوا تبعتهم جماهير فى اعتناق هذا الدين ، فجاء عبد الله بن أم مكتوم الأعمى - وهو يجادل القوم - طالبا الهدى والتحدث مع النبى ، فضاق النبى به ، وقطب جبينه ومضى فى حديثه مع الكبراء المشركين ! فنزلت السورة " عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى " وقد استمع النبى الكريم إلى هذا العتاب ، ثم أحسن استقبال عبد الله بعد . وكان يقول له: مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى . وكان إذا غاب عن المدينة - بعد الهجرة - يوليه إمارتها حتى يعود ! ! ثم مضت السورة تشرح طبيعة البلاغ الإلهى . إنه آيات تسمع ، أو صحف تقرأ يعرضها سفرة كرام بررة ، يعنى كتبة الوحى وحفظة القرآن . وعلى من أتاه البلاغ أن يتدبر ويعى ويفر إلى الله ويستعد للقائه ! لكن هل جمهرة البشر هكذا ؟ كم ترى إنسانا مغلق الذهن يضرب الأرض بقدميه ولا يدرى كيف جاء إلى الدنيا . لقد بدأ قطرة ماء ثم نما فصار شخصا سويا . من أفرغه فى هذا الكيان ، ووهب له تلك الصورة ؟ كيف نسى ربه ولى أمره ونعمته ؟ " من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره " . إن

الإنسان يغفل عن ذلك كله ، ولا يفكر إلا فى بلوغ غاياته وقضاء لباناته ، كما قال الشاعر: إذا جاء هذا الموت لم ألف حاجة لنفسى إلا قد قضيت قضاءها ! فهل قضى لله حقا ؟ " كلا لما يقض ما أمره " . والجدال مع المشركين والكفرة فى كل عصر يقوم على البعث والجزاء ، فهم ما يؤمنون إلا بدنياهم الحاضرة فجاء القرآن بأحد أدلة البعث المشهودة ليعرفوا ربهم ويأخذوا أهبتهم للقائه " فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا " .

(57/802)

كيف خلقت هذه السنابل الحافلة والعناقيد الزاهية ؟ وكيف توزعت عليها الحلاوة والعطور والأذواق ؟ إن مبدع ذلك من الأتربة والأرواح هو الذى سينبت الأجساد مرة أخرى ، ثم يواجه كل إنسان ما قدم . " فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " إن البشر محجوبون بمشاغلهم العاجلة وأفقهم القريب عن الجنة والنار والثواب والعقاب " وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة " . المحزن فى عصرنا أن التقدم العلمى يبحث مكانه ولا يريد أن يعرف ما وراءه ، ولذلك يستبعد الحديث عن

الآخرة ولا يعرض له فى مجلس جاد . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 501.500 ﴾

(58/802)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(59/802)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة عبس

أقول: وجه وضعها عقب النازعات مع تآخيهما في المقطع ، لقوله هناك: (فإِذا جاءتِ الطامة) وقوله هنا : (فإِذا جاءت الصاخة) وهما من أسماء يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 146 ﴾

(60/802)

قوله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له القدرة البالغة والحكمة الباهرة (الرحمن) الذي عم بنعمة الإيجاد الظاهرة ثم بآيات البيان الزاهرة ، ا (الرحيم) الذي خص أولياءه بأن أتم نعمته عليهم ، فكانت بهم إلى مرضاته سائرة .

(61/802)

لما قصره سبحانه على إنذاره من يخشى ، وكان قد جاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي الله تعالى عنه ، وكان من السابقين ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين مجيئه مشتغلاً بدعاء ناس من صناديد قريش إلى الله تعالى ، وقد وجد منهم نوع لين ، فشرع عبد الله ـ رضى الله عنه ـ يسأله وهو لا يعلم ما هو فيه من الشغل ، يسأله أن

يقرئه ويعلمه مما عمله الله فكره أن يقطع كلامه مع أولئك خوفاً من أن يفوته منهم ما يرجوه من إسلامهم المستتبع لإسلام ناس كثير من أتباعهم ، فكان يعرض عنه ويقبل عليهم ، وتظهر الكراهة في وجهه ، لاطفه سبحانه وتعالى بالعتاب عن التشاغل عن أهل ذلك بالتصدي لمن شأنه أن لا يخشى لافتتانه بزينة الحياة الدنيا وإقباله بكليته على ما يفنى ، فقال مبيناً لشرف الفقر وعلو مرتبته وفضل أهل الدين وإن هانوا ، وخسة أهل الدنيا وإن زانوا ، معظماً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسياق الغيبة كما قال سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ لما حكم في بني قريظة : وعلى من ههنا – يشير إلى ناحية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو معرض عنها حياء منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجلالاً له : ﴿ عبس ﴾ أي فعل الذي هو أعظم خلقنا ونجله عن أن نواجهه بمثل هذا العتاب بوجهه فعل الكاره للشيء من تقطيب الوجه بما له من الطبع البشري حين يحال بينه وبين مراده ، وآذن بمدحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ذلك خلاف ما طبعه عليه سبحانه من رحمة المساكين ومحبتهم والسرور بقربهم وصحبتهم بقوله ﴿ وتولى ﴾ أي كلف نفسه الإعراض عنه رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ويسلم بإسلامهم أتباعهم فتعلو كلمة الله لأجل ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ الذي ينبغي أن يبالغ في العطف عليه وفي إكرامه جبراً لكسره واعترافاً بحقه في مجيئه ، وذكره بالوصف للإشعار بعذره في الإقدام على قطع الكلام والبعث على الرأفة به والرحمة له ، فكان النبي صلى الله

عليه وآله وسلم إذا رآه بعد ذلك قال : " مرحباً بمن عاتبني فيه ربي " واستخلفه على المدينة الشريفة عند غزوه مرتين ، قال أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ : ورأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء ـ رضى الله عنه ـ .

ولما عرف بسياق الغيبة ما أريد من الإجلال ، وكان طول الإعراض موجباً للانقباض ، أقبل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ﴿ وما يدريك ﴾ أي وأي شيء يجعلك دارياً بحاله وإن اجتهدت في ذلك فإن ذوات الصدور لا يعلمها إلا الله تعالى ﴿ لعله ﴾ أي الأعمى ﴿ يزكى ﴾ أي يكون بحيث يرجى تطهره ونمو أحواله الصالحة بما يسمع منك ولو على أدنى الوجوه بما يشير إليه إدغام تاء الافتعال ، وكذا قوله : ﴿ أو يذكر ﴾ أي أو يقع منه التذكر لشيء يكون سبباً لزكائه وتذكره ولو كان ذلك منه على أدنى الوجوه المخرجة من الكفر فإن الخير لا يحقر شيء منه ، وسبب عن تزكيه وتذكره قوله : ﴿ فتنفعه ﴾ أي عقب تذكره وسببه ﴿ الذكرى ﴾ وفي ذلك إيماء إلى أن الإعراض كان لتزكية غيره وتذكره ، وقراءة النصب على أنه جواب " لعل " .

ولما ذكر العبوس والتولي عنه فأفهما ضدهما لمن كان مقبلاً عليهم ، بين ذلك فقال : ﴿ أما

من استغنى ﴾ أي طلب الغنى وهو المال والثروة فوجده وإن لم يخش ولم يجيء إليك ﴿ فأنت له ﴾ أي دون الأعمى ﴿ تصدى ﴾ أي تتعرض بالإقبال عليه والاجتهاد في وعظه رجاء إسلامه وإسلام أتباعه بإسلامه وهم عتبة بن ربيعة وأبو جهل وأبي وأمية ابنا خلف ، وأشار حذف تاء التفعل في قراءة الجماعة وإدغامها في قراءة نافع وابن كثير إلى أن ذلك كان على وجه خفيف كما هي عادة العقلاء .

(63/802)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال سبحانه ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : 26] وقال بعد ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : 45] افتتحت هذه السورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم وأنهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه لهم فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهله لطاعته وإجابة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعلى منزلته لديه " رب أشعث أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره " ومنهم ابن أم مكتوم الأعمى مؤذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذي بسببه نزلت السورة ووردت بطريق العتب وصاة لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتنبيهاً على أن يعمل نفسه الكريمة على

مصابرة أمثال ابن أم مكتوم وأن لا يحتقر وحاشاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك ، ولكن التحذير من هذا وإن لم يكن وقع يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذر ، ومنه قوله سبحانه ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] و ﴿ لا تدع مع الله إلها آخر ﴾ [ص : 88] و ﴿ لا تمش في الأرض مرحاً ﴾ [لقمان : 18] وهو كثير ، وبسط هذا الضرب لا يلائم مقصودنا في هذا التعليق ، لما دخل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن أم مكتوم سائلاً ومسترشداً وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلم رجلاً من أشراف قريش وقد طمع في إسلامه ورجاء إنقاذه من النار وإنقاذ ذويه وأتباعه ، فتمادى على طلبه هذا الرجل لما كان يرجوه ووكل ابن أم مكتوم إلى إيمانه فأغفل – فورية مجاوبته وشق عليه إلحاحه خوفاً من تفلت الآخرة ومضيه على عقبه وهلاكه عتب سبحانه وتعالى عليه فقال : ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر ﴾ [عبس : 1 – 4] وهي منه سبحانه واجبة ، وقد تقدم في السورة قبل قول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : 18] فلم يقدر له بذلك ولا انتفع ببعد صيته في دنياه ولا أغنى عنه ما نال منها وبارت مواد

(64/802)

تدبيره وعميت عليه الأنباء إلى أن قال ﴿ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ﴾ [القصص : 38] ﴿ وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ [غافر : 37] فأنى يزكى ؟ ولو سبقت له سعادة لأبصر من حاله عين اللهو وللعب حين مقالته الشنعاء ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ [الزخرف : 52] .

ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره عدم الصيت الدنياوي ولا أخل به عماه بل عظّم ربه شأنه لما نزل في حقه ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ [عبس : 2 - 4] فيا له صيتاً ما أجله بخلاف من قدم ذكره ممن طرد فلم يتزك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : 45] كابن أم مكتوم ، ومن نمط ما نزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ [الكهف : 28] وقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ [الأنعام : 52] فتبارك ربنا ما أعظم لطفه بعبيده - اللهم لا تؤيسنا من رحمتك ولا تقنطنا من لطفك ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك - انتهى .

ولما كان فعله ذلك فعل من يخشى أن يكون عليه في بقائهم على كفرهم ملامة ، بين له أنه سالم من ذلك فقال : ﴿ وما ﴾ أي فعلت ذلك والحال أنه ما ﴿ عليك ﴾ أي من بأس في

﴿ ألا يزكّى ﴾ أصلاً ورأساً ولو بأدنى تزك - بما أشار إليه الإدغام - إن عليك إلا البلاغ ، ويجوز أن يكون استفهاماً أي وأي شيء يكون عليك في عدم تزكيه وفيه إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد في تزكية التابع الذي عرف منه القبول .

(65/802)

ولما ذكر المستغني ، ذكر مقابله فقال : ﴿ وأما من جاءك ﴾ حال كونه ﴿ يسعى ﴾ أي مسرعاً رغبة فيما عندك من الخير المذكر بالله وهو فقير ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه ﴿ يخشى ﴾ أي يوجد الخوف من الله تعالى ومن الكفار في أذاهم على الإتيان إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معاثر الطريق لعماه ﴿ فأنت عنه ﴾ أي خاصة في ذلك المجلس لكونه في الحاصل ﴿ تلهّى ﴾ أي تتشاغل لأجل أولئك الأشراف الذين تريد إسلامهم لعلو بهم الدين تشاغلاً حفيفاً بما أشار إليه حذف التاء ، من لهى عنه كرضى - إذا سلى وغفل وترك ، وفي التعبير بذلك إشارة إلى أن الاشتغال بأولئك لا فائدة فيه على ما تفهمه تصاريف المادة وإلى أن من يقصد الانسان ويتخطى رقاب الناس إليه له عليك حق عظيم ، والآية من الاحتباك : ذكر الغنى أولاً يدل على الفقر ثانياً ، وذكر المجيء والخسية ثانياً يدل على ضدهما أولاً ، وسر ذلك التحذير مما يدعو إليه الطبع البشري من الميل إلى الأغنياء ،

ومن الاستهانة بحق الآتي إعظاماً لمطلق إتيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 326.323 ﴾

(66/802)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : كل آيات هذه السورة في الإمالة والتفخيم مثل سورة طه ﴿ فتنفعه ﴾ بالنصب على أنه جواب لعل : عاصم غير الأعشي ﴿ تصدّى ﴾ بتشديد الصاد للإدغام : أبو جعفر ونافع وابن كثير . الآخرون : بتخفيفها بناء على حذف تاء تتفعل أو الخطاب عنه ﴿ تلهى ﴾ بإشباع ضمة الهاء وتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴿ أنا ﴾ بالفتح على البدل من الطعام : عاصم وحمزة وخلف .

الوقوف : ﴿ وتولى ﴾ ه لا ﴿ الأعمى ﴾ ه ط ﴿ يزكى ﴾ ه لا ﴿ الذكرى ﴾ ه ط ﴿ استغنى ﴾ ه لا ﴿ تصدّى ﴾ ه ط ﴿ يزكى ﴾ ه ﴿ يسعى ﴾ ه لا ﴿ يخشى ﴾ ه ﴿ تلهى ﴾ ه ز لأن ﴿ كلا ﴾ للردع فلا يوقف أو بمعنى حقاً فيوقف ﴿ تذكرة ﴾ ه ج للشرط بعده مع الفاء ﴿ ذكره ﴾ ه م لأن الظرف لا يجوز أن يتعلق بما قبله ولكنه خبر

مبتدأ محذوف أي هو في صحف ﴿ مكرمة ﴾ ه لا ﴿ مطهرة ﴾ ه لا ﴿ سفرة ﴾ ه ز ﴿ بررة ﴾ ط ﴿ أكفره ﴾ ه ط ﴿ خلقه ﴾ ه ز لأن الجواب محذوف أي خلقه من ﴿ نطفة ﴾ ط ﴿ فقدّره ﴾ ه لا ﴿ يسره ﴾ ه ز ﴿ فأقبره ﴾ ه لا ﴿ أنشره ﴾ ه ط بناء على أن ﴿ كلا ﴾ بمعنى حقاً ولا يصلح للردع وجه كما يجيء ﴿ أمره ﴾ ه ط ﴿ إلى طعامه ﴾ ه ز إلا لمن قرأ ﴿ أنا ﴾ بالفتح ﴿ صباً ﴾ ه لا ﴿ شقاً ﴾ ه لا ﴿ حباً ﴾ ه ز ﴿ وقضباً ﴾ ه ك ﴿ ونخلاً ﴾ ه ك ﴿ غلباً ﴾ ه ك ﴿ وأباً ﴾ ه لا ﴿ ولأنعامكم ﴾ ه ط ﴿ الصاخة ﴾ ه ز فإن الأوضح أن يكون ﴿ يوم ﴾ ظرف ﴿ جاءت ﴾ وجوز أن يكون مفعول " اذكر " محذوفاً والعامل مقدّر أي فإذا جاءت الصاخة كان ما كان ﴿ أخيه ﴾ لا ﴿ وأبيه ﴾ ه ك ﴿ وبنيه ﴾ ه ط ﴿ يغنيه ﴾ ه ك ﴿ مسفرة ﴾ ه لا ﴿ مستبشرة ﴾ ه ج فصلاً بين حالتي الفئتين مع اتفاق الجملتين ﴿ غبرة ﴾ ه لا ﴿ قترة ﴾ ه ﴿ الفجرة ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 445 . 446 ﴾

(67/802)

فصل

قال الفخر :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم وأم مكتوم أم أبيه واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤى وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه فنزلت هذه الآية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ، ويقول : إذا رآه " مرحباً بمن عاتبني فيه ربي " ويقول : " هل لك من حاجة " واستخلفه على المدينة مرتين ، وفي الموضع سؤالات :

الأول : أن ابن أم مكتوم كان يستحق التأديب والزجر ، فكيف عاتب الله رسوله على أن أدب ابن أم مكتوم وزجره ؟ وإنما قلنا : إنه كان يستحق التأديب لوجوه أحدها : أنه وإن

كان لفقد بصره لا يرى القوم ، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الكفار ، وكان يسمع أصواتهم أيضاً ، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بشأنهم ، فكان إقدامه على قطع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإلقاء غرض نفسه في البين قبل تمام غرض النبي إيذاء للنبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك معصية عظيمة وثانيها : أن الأهم مقدم على المهم ، وهو كان قد أسلم وتعلم ، ما كان يحتاج إليه من أمر الدين ، أما أولئك الكفار فما كانوا قد أسلموا ، وهو إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم ، فإلقاء ابن أم مكتوم ، ذلك الكلام في البين كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم ، لغرض قليل وذلك محرم وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الذين يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات : 4] فنهاهم عن مجرد النداء إلا في الوقت ، فههنا هذا النداء الذي صار كالصارف للكفار عن قبول الإيمان وكالقاطع على الرسول أعظم مهماته ، أولى أن يكون ذنباً ومعصية ، فثبت بهذا أن الذي فعله ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية ، وأن الذي فعله الرسول كان هو الواجب ، وعند هذا يتوجه السؤال في أنه كيف عاتبه الله تعالى على ذلك الفعل ؟ .

السؤال الثاني : أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس في وجهه ، كان تعظيماً عظيماً من الله سبحانه لابن أم مكتوم ، وإذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره باسم الأعمى مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه جداً ؟ .

السؤال الثالث : الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذوناً في أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة ، وأنه عليه الصلاة والسلام كثيراً ما كان يؤدب أصحابه ويزجرهم عن أشياء ، وكيف لا يكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام إنما بعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب ، وإذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلاً في إذن الله تعالى إياه في تأديب أصحابه ، وإذا كان ذلك مأذوناً فيه ، فكيف وقعت المعاتبة عليه ؟ فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات والجواب عن السؤال الأول من وجهين الأول : أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء ، فلهذا السبب حصلت المعاتبة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ [الأنعام : 52] ، والوجه الثاني : لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر ، بل على ما كان منه في قلبه ، وهو أن قلبه عليه الصلاة والسلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم ، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه ، فلما وقع التعبيس والتولي لهذه الداعية وقعت المعاتبة ، لا على التأديب بل على التأديب لأجل هذه الداعية

والجواب عن السؤال الثاني أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه ، بل كأنه قيل : إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة ، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة والجواب عن السؤال الثالث أنه كان مأذوناً في تأديب أصحابه لكن ههنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين ، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة .

المسألة الثانية :

(70/802)

القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا : لما عاتبه الله في ذلك الفعل ، دل على أن ذلك الفعل كان معصية ، وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لا بحسب هذا الاعتبار الواحد ، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء ، وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان كذلك ، كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط ، وترك الأفضل ، فلم يكن ذلك ذنباً ألبتة .

المسألة الثالثة :

أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأجمعوا (

على) أن الأعمى هو ابن أم مكتوم ، وقرىء عبس بالتشديد للمبالغة ونحوه كلح في كلح ، أن جاءه منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين في إعمال الأقرب أو الأبعد ومعناه عبس ، لأن جاءه الأعمى ، وأعرض لذلك ، وقرىء أن جاءه بهمزتين ، وبألف بينهما وقف على ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ ثم ابتدأ على معنى ألآن جاءه الأعمى ، والمراد منه الإنكار عليه ، واعلم أن في الأخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4)

(71/802)

فيه قولان : الأول : أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك ، من الجهل أو الإثم ، أو يتعظ فتنفعه ذكراك أي موعظتك ، فتكون له لطفاً في بعض الطاعات ، وبالجملة فلعل ذلك العلم الذي يتلقفه عنك يطهره عن بعض ما لا ينبغي ، وهو الجهل والمعصية ، أو يشغله ببعض ما ينبغي وهو الطاعة الثاني : أن الضمير في لعله للكافر ، بمعنى أنت طمعت في أن يزكى الكافر بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق : ﴿ وَمَا

يُدْرِيكَ ﴾ أن ما طمعت فيه كائن ، وقرىء فتنفعه بالرفع عطفاً على يذكر ، وبالنصب جواباً للعل ، كقوله : ﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ [غافر : 37] وقد مر .

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5)

قال عطاء : يريد عن الإيمان ، وقال الكلبي : استغنى عن الله ، وقال بعضهم : استغنى أثرى وهو فاسد ههنا ، لأن إقبال النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن لثروتهم ومالهم حتى يقال له أما من أثرى ، فأنت تقبل عليه ، ولأنه قال : ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يسعى * وَهُوَ يخشى ﴾ [عبس : 8 9] ولم يقل : وهو فقير عديم ، ومن قال : أما من استغنى بماله فهو صحيح ، لأن المعنى أنه استغنى عن الإيمان والقرآن ، بماله من المال .

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6)

قال الزجاج : أي أنت تقبل عليه وتتعرض له وتميل إليه ، يقال تصدى فلان لفلان ، يتصدى إذا تعرض له ، والأصل فيه تصدد يتصدى من الصدد ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك ، وقد ذكرنا مثل هذا من قوله : ﴿ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : 35] وقرىء : تصدى بالتشديد بإدغام التاء في الصاد ، وقرأ أبو جعفر : (تصدى) ، بضم التاء ، أي تعرض ، ومعناه يدعوك داع إلى التصدي له من الحرص ، والتهالك على إسلامه .

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7)

المعنى لا شيء عليك في أن لا يسلم من تدعوه إلى الإسلام ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عمن أسلم للاشتغال بدعوتهم .

(72/802)

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9)

أن يسرع في طلب الخير ، كقوله : ﴿ فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الجمعة : 9] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ فيه ثلاثة أوجه يخشى الله ويخافه في أن لا يهتم بأداء تكاليفه ، أو يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك ، أو يخشى الكبوة فإنه كان أعمى ، وما كان له قائد .

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

أي تتشاغل من لهى عن الشيء والتهى وتلهى ، وقرأ طلحة بن مصرف .

تتلهى ، وقرأ أبو جعفر ﴿ تلهى ﴾ أي يلهيك شأن الصناديد ، فإن قيل قوله : ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تصدى . .

فَأَنْتَ عَنْهُ تلهى ﴾ كان فيه اختصاصاً ، قلنا نعم ، ومعناه إنكار التصدي والتلهي عنه ، أي مثلك ، خصوصاً لا ينبغي أن يتصدى للغني ، ويتلهى عن الفقير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 50.53 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ ﴾ أي كلح بوجهه ؛ يقال : عبس وبَسَر .

وقد تقدّمَ .

﴿ وتولى ﴾ أي أعرض بوجهه ﴿ أَن جَآءَهُ ﴾ "أنْ" في موضع نصب لأنه مفعول له ، المعنى لأن جاءه الأعمى ، أي الذي لا يبصر بعينيه .

فروى أهل التفسير أجمع أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَقْطَع عبدُ الله عليه كلامه ، فأعرض عنه ، ففيه نزلت هذه الآية .

قال مالك : إن هشام بن عُروة حدّثه عن عروة ، أنه قال : نزلتْ "عبس وتولى" في ابن أمّ مكتوم ؛ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد استدنني ، وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يُعرِض

عنه ويُقْبل على الآخر ، ويقول : " يا فلان ، هل ترى بما أقولُ بأساً " فيقول : لا والدُّمَى ما أرى بما تقول بأساً ؛ فأنزل الله "عبس وتولى" .

وفي الترمذي مسنداً قال : حدّثنا سعيد بن يحيى بن سعيد الأُموي ، حدّثني أبي ، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشة ، " قالت : نزلت "عبس وتولى" في ابن أمّ مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعْرض عنه ، ويُقْبل على الآخر ، ويقول : "أترى بما أقول بأساً "فيقول : لا ؛ ففي هذا نزلت " ؛ قال : هذا حديث غريب .

الثانية الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتوليه عن عبد الله بن أم مكتوم .

ويقال : عمرو بن أم مكتوم ، واسم أمّ مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم ، وعمرو هذا : هو ابن قيس بن زائدة بن الأصمّ ، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها .

(74/802)

وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين ، يقال كان الوليد بن المغيرة .

ابن العربي : قاله المالكية من علمائنا ، وهو يكني أبا عبد شمس .

وقال قتادة : هو أمية بن خلص وعنه : أبيّ بن خلف .

وقال مجاهد : كانوا ثلاثة عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبيّ بن خلف .

وقال عطاء عتبة بن ربيعة .

سفيان الثوري : كان النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس .

الزمخشري : كان عنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، أبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خَلَف ، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام ، رَجاء أن يُسْلم بإسلامهم غيرهم .

قال ابن العربيّ : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين ، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وابن أمّ مكتوم كان بالمدينة ، ما حضر معهما ولا حضرا معه ، وكان موتهما كافرين ، أحدهما قبل الهجرة ، والآخر ببدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ، ولا حضر عنده مفرداً ، ولا مع أحد .

الثالثة أقبل ابن أمّ مكتوم والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى ، وقد قوِي طمعه في إسلامهم ، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم

من قومهم ، فجاء ابن أمّ مكتوم وهو أعمى فقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله ، وجعل يناديه ويكثر النداء ، ولا يدري أنه مشتغل بغيره ، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعة كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء : إنما أتباعه العُميان والسَّفلة والعبيد ؛ فعبَس وأعرض عنه ، فنزلت الآية .

قال الثَّوريّ : " فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أمّ مكتوم يبسط له رداءه ويقول : "مرحبا بمن عاتبني فيه ربي" .

ويقول : "هل من حاجة" " ؟ واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما .

(75/802)

قال أنس : فرأيته يوم القادسية راكباً وعليه درع ومعه راية سوداء .

الرابعة قال علماؤنا : ما فعله ابن أمّ مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره ، وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصُّفَّة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم ، وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة ، وعلى هذا يخرج قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ

لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى ﴾ [الأنفال : 67] الآية .

على ما تقدّم .

وقيل : إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ، ثقة بما كان في قلب ابن أمّ مكتوم من الإيمان ؛ كما قال : " إني لأصل الرجل وغيره أحب إليّ منه ، مخافة أن يكبُه الله في النار على وجهه " .

الخامسة قال ابن زيد : إنما عبس النبي صلى الله عليه وسلم لابن أمّ مكتوم وأعرض عنه ؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه ، فدفعه ابن أمّ مكتوم ، وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعلمه ، فكان في هذا نوعُ جفاء منه .

ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم : "عبَس وتولَّى" بلفظ الإخبار عن الغائب ، تعظيماً له ولم يقل : عبَستَ وتوليتَ .

ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيساً له فقال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أي يعلمك ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ يعني ابن أمّ مكتوم ﴿ يزكى ﴾ بما استدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين ، بأن يزداد طهارة في دينه ، وزوال ظلمة الجهل عنه .

وقيل : الضمير في "لعله" للكافر يعني إنك إذا طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذَّكر ، فتقربه الذكرى إلى قبول الحق وما يُدْريك أن ما طمعت فيه كائن .

وقرأ الحسن "آأَن جاءه الأعمى" بالمدّ على الاستفهام ف "أن" متعلقة بفعل محذوف دل عليه "عبس وتولى" التقدير : آأن جاءه أعرض عنه وتولى ؟ فيوقف على هذه القراءة على "وتولَّى" ، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر ، وهي قراءة العامة .

السادسة نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي ﴾ [الأنعام : 52] وكذلك قوله في سورة الكهف : ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 28] وما كان مثله ، والله أعلم : ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ يتعظ بما تقول ﴿ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ أي العظة .

وقراءة العامة "فتنفعُه" بضم العين ، عطفاً على "يَزَّكَّى" .

وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى "فتنفَعه" نصباً .

وهي قراءة السُّلَمِيّ وزِرّ بن حُبَيش ، على جواب لعل ، لأنه غير موجَب ؛ كقوله تعالى : ﴿ لعلي أَبْلُغُ الأسباب ﴾ [غافر : 36] ثم قال : ﴿ فاطلع ﴾ [الصافات : 55] .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾

أي كان ذا ثروة وغِنًى ﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ أي تَعَرَّضُ له ، وتُصْغِي لكلامه .

والتصدِّي : الإصغاء ؛ قال الراعي :

تَصَدَّى لوضَّاحٍ كأَنَّ جَبينه . . .

سراجُ الدُّجَى يَحْنِي إليه الأساورُ

وأصله تتصدَّد من الصَّدّ ، وهو ما استقبلك ، وصار قِبالتك ؛ يقال : داري صدَدُ داره أي قِبالتها ، نُصِب على الظرف .

وقيل : من الصَّدَى وهو العطش .

أي تتعرض له كما يتعرّض العطشان للماء ، والمصَاداة : المعارضة .

وقراءة العامة "تَصَدَّى" بالتخفيف ، على طرح التاء الثانية تخفيفاً .

وقرأ نافع وابن مَحيض بالتشديد على الإدغام .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يزكى ﴾ أي لا يهتدي هذا الكافر ولا يؤمن ، إنما أنت رسول ، ما عليك إلا البلاغ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ أي يخاف الله .

(77/802)

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ أي تُعرض عنه بوجهك وتُشْغَل بغيره .

وأصله تتلهى ؛ يقال : لَهِيتُ عن الشيء أَلْهَى : أي تشاغلت عنه .

والتلهي : التغافل .

ولَهِيتُ عنه وتَليتُ : بمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(78/802)

وقال الآلوسى :

﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَاءهُ الاعمى ﴾ الخ

روى أن ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة واسمه عمرو بن قيس بن زائدة بن جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي القرشي وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن أبي ربيعة الفهري والأولى أكثر وأشهر كما في "جامع الأصول" وأم مكتوم كنية أمه واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية وغلط الزمخشري في جعلها في "الكشاف" جدته وكان أعمى وعمى بعد نور وقيل ولد أعمى ولذا قيل لأمه أم مكتوم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه

فنزلت فكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يكرمه ويقول إذا رآه مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ويقول هل لك من حاجة واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب من أهل العلم بالسير ثم استخلف بعده أبا لبابة وهو من المهاجرين الأولين هاجر على الصحيح قبل النبي صلى الله عليه وسلم ووهم القرطبي في زعمه أنه مدني وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة وموته قيل بالقادسية شهيداً يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله تعالى عنه ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء وقيل رجع منها إلى المدينة فمات بها رضي الله تعالى عنه وضمير عبس وما بعده للنبي صلى الله عليه وسلم وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلال له صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم مثله كما أن في التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بضمير الخطاب في قوله سبحانه :

(79/802)

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش والإقبال بعد الإعراض والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى

الله عليه وسلم وتشاغله بالقوم وقيل إن الغيبة أولاً والخطاب ثانياً لزيادة الإنكار وذلك كمن يشكو إلى الناس جانياً جني عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى على الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك لأنه وصف يناسب الإقبال عليه والتعطف وفيه أيضاً دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعني وإيماء إلى أن كل ضعيف يستحق الإقبال من مثله على أسلوب لا يقضي القاضي وهو غضبان وأن بتقدير حرف الجر أعني لام التعليل وهو معمول لأول الفعلين على مختار الكوفيين وثانيهما على مختار البصريين وكليهما معاً على مذهب الفراء نعم هو بحسب المعنى علة لهما بلا خلاف أي عبس لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك وقرأ زيد بن علي عبس بتشديد الباء للمبالغة لا للتعدية وهو والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى آن بهمزة ومدة بعدها وبعض القراء بهمزتين محققتين والهمزة في القرائتين للاستفهام الإنكاري ويوقف على تولي والمعنى إلا إن جاء الأعمى فعل ذلك وضمير لعله للأعمى والظاهر أن الجملة متعلقة بفعل الدراية على وجه سد مسد مفعوله أي أي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم .

(80/802)

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ أي يتعظ ﴿ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ أي ذكراك وموعظتك والمعنى أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر ولو دريت لما كان الذي كان والغرض نفي دراية أنه يزكي أو يذكر والترجي راجع إلى الأعمى أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم على ما قيل دلالة على أن رجاء تزكيه أو كونه ممن يرجى منه ذلك كاف في الامتناع من العبوس والإعراض كيف وقد كان استركاؤه محققاً ولما هضم من حقه في تعلق الرجاء به لا التحقق اعتبر متعلق التزكي بعض الأوضار ترشيحاً لذلك وفيه إظهار ما يقتضي مقام العظمة ههنا من إطلاق التزكي وحمله على ما ينطلق عليه الاسم لا الكامل وقال بعضهم متعلق الدراية محذوف أي ما يدريك أمره وعاقبة حاله ويطلعك على ذلك وقوله سبحانه ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ الخ استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله فإن مع إشعاره بأن له شأنا منافياً للإعراض عنه خارجاً عن دراية الغير وإدرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك واعتبر في التزكي الكمال فقال أي لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الإثم بالكلية أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجة التزكي التام ولعل الأول أبعد مغزى وقدم التزكي على التذكر لتقدم التخلية على التحلية وخص بعضهم الثاني بما إذا كان يتعلمه من النوافر والأول بما إذا كان سوى ذلك وهو كما ترى وفي الآية تعريض وإشعار بأن من تصدى صلى الله عليه وسلم لتزيكتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلاً فهي كقولك لمن يقرر مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها لعل هذا يفهم ما تقرر فإنه يشعر بأنه قصد تفهيم غيره وليس

بأهل لما قصده وقيل جاء التعريض من جهة أن المحدث عنه كان متزكياً من الآثام متعظاً وقيل ضمير لعله للكافر والترجي راجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أي إنك طمعت في تزكيه بالإسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن وضعف بعدم تقدم ذكر الكافر وبإفراد الضمير والظاهر

(81/802)

جمعه أي بناء على المشهور في أن من تشاغل عليه الصلاة والسلام به كان جمعاً وجاء في بعض الروايات أنه كان واحداً وقرأ الأعرج وعاصم في رواية أو يذكر بسكون الذال وضم الكاف وقرأ الأكثر فتنفعه بالرفع عطفاً على يذكر وبالنصب قرأ عاصم في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وهو عند البصريين بإضمار أن بعد الفاء وعند الكوفيين في جواب الترجي وهو كالتمني عندهم ينصب في جوابه وفي "الكشف" أن النصب يؤيد رجوع ضمير لعله على الكافر لإشمام الترجي ومعنى التمني لبعد المرجو من الحصول أي بالنظر إلى المجموع إذ قد حصل من الباس وعلى السابق وجهه ترشيح معنى الهضم فتذكر .

﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾ أي عن الايمان وعما عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها

القرآن وفي معناه ما قيل استغنى بكفره عما يهديه وقيل أي وأما من كان ذا ثروة وغنى وتعقب بأنه لو كان كذلك لذكر الفقر في مقابله وأجيب بما ستعمله إن شاء الله تعالى :

﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه وفيه مزيد تنفير له صلى الله عليه وسلم عن مصاحبتهم فإن الإقبال على المدبر مخل بالمروءة ومن هنا قيل :

لا أبتغي وصل من لا يبتغي صلتي . . .

ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

والله لو كرهتا كفى مصاحبتي . . .

يوماً لقلت لها عن صحبتي بيني

وقرأ الحرميان تصدى بتشديد الصاد على أن الأصل تتصدى فقلبت التاء صاداً وأدغمت وقرأ أبو جعفر تصدى بضم التاء وتخفيف الصاد مبنياً للمفعول أي تعرض ومعناه يدعوك إلى التصدي والتعرض له داع من الحرص ومزيد الرغبة في إسلامه ، وأصل تصدى على ما في "البحر" تصدد من الصدد وهو ما استقبلك وصار قبالتك يقال داري صدد داره أي قبالتها وقيل من الصدى وهو العطش وقيل من الصدى وهو الصوات المعروف .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يزكى ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم فما نافية والجملة حال من ضمير تصدى والممنوع عنه في الحقيقة الإعراض عمن أسلم لا الإقبال على غيره والاهتمام بأمره حرصاً على إسلامه ويجوز أن تكون ما استفهامية للإنكار أي أي شيء عليك في أن لا يتزكى ومآله النفي أيضاً .

﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يسعى ﴾ أي حال كونه مسرعاً طالباً لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير .

﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ أي يخاف الله تعالى وقيل أذية الكفار في الإتيان وقيل العثار والكبوة إذ لم يكن معه قائد والجملة حال من فاعل يسعى كما أن جملة يسعى حال من فاعل جاءك واستظهر الأفاضل أن النظم الجليل من الاحتباك ذكر الغنى أولا للدلالة على الفقر ثانياً والمجيء والخشية ثانياً للدلالة على ضدهما أولاً وكأحمل استغنى على ما نقل أخيراً واستشعر ما قيل عليه فاحتاج لدفعه إلى هذا التكلف وعدم الاحتياج إليه على ما نقلناه في غاية الظهور .

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ تتشاغل يقال لهي عنه كرضي ورمي والنهي وتلهى .

(83/802)

وفي تقديم ضميره عليه الصلاة والسلام على الفعلين تنبيه على أن مناط الإنكار خصوصيته عليه الصلاة والسلام وتقديم له وعنه قيل للتعريض بالاهتمام بمضمونهما وقيل للعناية لأنهما منشأ العتاب وقيل للفاصلة وقيل للحصر وذكر التصدي في المستغني دون الاشتغال به وهو المقابل للتلهي عن المسرع الخاشي والتلهي عنه دون عدم التصدي له وهو المقابل للتصدي لذلك قيل للاشعار بأن العتاب للاهتمام بالأول لا للاشتغال به إذ الاشتغال بالكفار غير ممنوع وعلى الاشتغال عن الثاني لا لأنه لا اهتمام له صلى الله عليه وسلم في أمره إذ الاهتمام غي رواجب لأنه عليه الصلاة والسلام ليس إلا منذراً وقرأ البزي عن ابن كثير عنه و﴿ تلهى ﴾ بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل وأبو جعفر ﴿ تلهى ﴾ بضم التاء مبنياً للمفعول أي يشغلك الحرص على دعاء الكافر للإسلام وطلحة تتلهى بتاءين وعنه بتاء واحدة وسكون اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(84/802)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(80) سورة عبس

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة النجم .

عدد آياتها : اثنتان وأربعون آية .

عدد كلماتها : مائتان وثلاث وثلاثون . . كلمة .

عدد حروفها : خمسمائة وثلاثة وثلاثون . . حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كان مما ختمت به سورة « النازعات » قوله تعالى : « إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها » وكان فى ذلك ما يشير إلى المقام الذي يأخذه النبي من قومه ، الذين لج بهم الضلال والعناد ، وجعلوا همهم المماحكة والمجادلة ، ولقاء النبي بالأسئلة التي لا محصّل لها ولا ثمرة منها . . إنهم لم يؤمنوا بوقوع هذا اليوم - يوم القيامة - وسؤالهم عن موعد شىء لا يؤمنون به ولا يصدقون بوجوده ، إنما هو ضلال من ضلالهم .

وجاءت سورة « عبس » مفتتحة بهذا الموقف ، الذي كان بين النبي وبين جماعة من المعاندين الضالين ، الذين طمع النبي فى هدايتهم ، فصرف إليهم وجهه كله ، دون أن يلتفت إلى ذلك الأعمى ، الذي آمن بالله ، والذي جاءه يطلب مزيدا من النور والهدى . .

وكلّا ، فإنه ليس ذلك من محامل دعوة النبي ، التي رسم اللّه له طريقها فى قوله : « إِنَّما أَنْتَ

مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها » .

. وهؤلاء الضالون المعاندون لا يخشون اللّه ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ، ولن يؤمنوا أبدا مهما طال وقوفك معهم . .

وكلا : « إِنَّها تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ »

(85/802)

قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى » .

فاعل عبس ضمير غيبة ، يراد به النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه .

والأعمى الذي جاء إلى النبي ، فلم يهشّ له ، هو عبد اللّه بن أم مكتوم الأعمى . . وهو صحابى جليل ، من المهاجرين الأولين .

وفى توجيه الحديث إلى النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - بضمير الغائب ، تكريم له من اللّه سبحانه وتعالى ، وحماية لذاته الشريفة ، من أن يواجه بالعتب واللوم ، وأن تلتفت إليه الأنظار وهو فى تلك الحال التي يكون فيها بموضع اللائمة والعتاب . . فالذى عبس غائب هنا عن محضر هذه المواجهة والعتاب .

(86/802)

ويذكر النبي الكريم من هذا العتاب الرفيق من ربه ، أنه كان فى مواجهه جماعة من عتاة المشركين ، ومن قادة الحملة المسعورة عليه ، وعلى دعوته ، وقد انتهزها النبي فرصة ، لإسماعهم كلمات اللّه ، لعل شعاعات من نورها ، تصافح قلوبهم المظلمة ، فتستضىء بنور الحق ، وتفيء إلى أمر اللّه ، وتتقبل الهدى المهدى إليها . . فإن ذلك لو حدث لانفتح هذا السد الذي يقف حائلا بين الناس ، وبين الإيمان باللّه ، ولدخل الناس فى دين اللّه أفواجا . .

ويذكر النبي أيضا ، من هذا العتاب الرقيق من ربه ، أنه وهو فى مجلسه هذا مع عتاة قومه ، أن هذا الأعمى ، قد ورد عليه ، ولم يكن يعلم من أمر النبىّ ما هو مشغول به ، فجعل يسأل النبي أن يقرئه شيئا من آيات اللّه ، فلم يلتفت إليه النبي ، وهو يسأل ، ويسأل ، حتى ضاق به الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه ، وظهر ذلك على وجهه الشريف . .

« عَبَسَ وَتَوَلَّى » . .

والعبوس : تقطيب الوجه ، ضيقا ، وضجرا ، والتولّي : الإعراض عن الشيء ، تكرّها له . .

وإذ يذكر النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - موقفه هذا ، بعد أن تلقى تلك اللفتة الكريمة الرحيمة من ربه ، ويراجع نفسه عليها ، يلقاه قوله تعالى : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ

فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى » .

وهنا ينتقل النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ من حال الغيبة إلى حال الحضور ، فبعد أن كان ينظر إلى ذاته من داخل ، وكأنه مع ذات غير ذاته ، إذا هو يرى ذاته ماثلة بين يديه ، وكأنه هو الذي يحاسبها ويراجعها ، وكأنه هو الذي يخاطب نفسه ، ويقول لذاته : « وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى » ! وتبدو الصورة هكذا :

(87/802)

الذي عبس وتولى غائب ، ليس هنا فى مجلس النبىّ . . إنه هناك . . بعيد بعيد . !

ثم إن هذا الغائب ، إذ يبسم بعد عبوس ، وإذ يقبل بعد إعراض ، وإذ يكون على الحال التي تتناسب ومقام الخطاب من ربه . . هنا يقبل عليه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ مخاطبا معلّما ، ومرشدا . .

فتوجيه الخطاب من اللّه سبحانه ، إلى النبي أولا ، بضمير الغائب ، فيه عتب ، وفيه إعراض ، وخطابه سبحانه إلى النبىّ ثانيا ، بضمير الحاضر ، فيه الرضا بعد العتب ، والإقبال بعد الإعراض . .

وفى قوله تعالى : « وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى » ـ إشارة إلى ما كان يبغى هذا الأعمى من

حضوره مجلس النبي ، والإلحاح بسؤاله . . إنه يسأل سؤال من يريد مزيدا من العلم ، ومزيدا من الهدى .

والاستفهام هنا يراد به النفي ، أي ومن أين لك أنت أن تعلم أن هذا الأعمى لا ينتفع بما يسألك عنه ، حتى تعرض عنه ؟ أنت لا تعلم ، وقد كان ينبغى فى تلك الحال أن تجيبه إلى ما سأل ، لعله ينتفع بما يتعلمه ، ولعله يتزكى ، أي يتطهر بما يفاض عليه من علم ، أو لعله يتلقى من حديثك إليه ما يقيم له عظة تنفعه ، وتزيد فى إيمانه . .

قوله تعالى : « أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى ، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى » .

هنا تفصيل لمجمل هذا الحدث ، الذي جاء من أجله هذا العتاب . . أي كان موقفك هنا أيها النبي معدولا به عن الطريق الذي ينبغى أن يكون عليه . .

وإليك بيان هذا الموقف :

(88/802)

أما من استغنى عنك ، وزهد فيما فى يديك من علم وهدى ، « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى » أي تتعرض له ، وتمسك به ، وتشده إليك ! وإنك لتعلم أنه ما عليك إلا البلاغ ، وأنه ليس من همك أن تحمل الناس حملا على الإيمان ، فإنه لا عليك من لوم ، إذا لم يؤمن ، ولم يتطهر بالإيمان

، من إذا دعوته ، وبلغته رسالة ربك ـ فلم يستجب إليك . . هذه حال دعاك الحرص فيها على هداية الناس ، إلى أن جاوزت حدود الخط المرسوم لدعوتك . .

هذا من جهة . . ومن جهة أخرى ، فإنك وقفت موقفا مخالفا لموقفك الأول ، فبينما أنت تقبل على من أعرض عنك ، وزهد فيما معك ، إذا أنت تعرض عمن أقبل عليك ، ورغب فيما بين يديك من نور اللّه ! ! « أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى . وَهُوَ يَخْشى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى » .

أليس ذلك كذلك ؟ ألم يكن هذا موقفك ؟

وكلّا . . إن الأمر ليس على هذا الوجه . . كما سنبين لك .

وفى قوله تعالى : « جاءك يسعى » إشارة إلى الرغبة المنبعثة من صدر هذا الأعمى ، والتي تدفعه دفعا إلى أن يحثّ الخطا ، وأن يسعى إلى النبي فى انطلاق وشوق ، مع أنه فى قيد العمى والعجز .

وقوله تعالى : « وهو يخشى » حال أخرى ، من فاعل : « جاءك » أي تلك حال هذا الأعمى ، إنه جاءك ساعيا إليك ، خاشيا للّه . .

وقوله تعالى : « فأنت عنه تلهى » .

. إشارة إلى أن ما كان فيه النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ من حديث مع هؤلاء المشركين

المعاندين من قومه ، وأنه حديث لا محصّل له ، ولا ثمرة من ورائه ، إذ كان القوم معرضين عنه

،

(89/802)

متكرهين له . . فكأنه إنما يتلهى بهذا الحديث ، الذي لا يجيء بثمر . . وإن كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ جادّا فى هذا الحديث كل الجد ، مقبلا عليه كل الإقبال ، ولكنه إنما يضرب فى حديد بارد ، أشبه بمن يريد أن يستنبت الزرع فى الصخر الصلد . . فمن رآه على تلك الحال لم يقع فى نفسه إلا أنه يتلهى بما يعمل . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1446 . 1451 ﴾

(90/802)

وقال ابن عاشور :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

افتتاح هذه السورة بفعلين متحملين لضمير لا معاد له في الكلام تشويق لما سيورد بعدهما ،

والفعلان يشعران بأن المحكي حادث عظيم ، فأما الضمائر فيبين إبهامها قولُه : ﴿ فأنت له تصدى ﴾ [عبس : 6] وأما الحادث فيتبين من ذكر الأعمى ومَن استغنى .

وهذا الحادث سبب نزول هذه الآيات من أولها إلى قوله : ﴿ بررة ﴾ [عبس : 16] .

وهو ما رواه مالك في "الموطأ" مرسلاً عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد استدنني ، وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه (أي عن ابن أم مكتوم) ويُقبل على الآخر ، ويقول : يا أبا فلان هل ترى بما أقول بأساً فيقول : "لا والدِّماء ما أرى بما تقول بأساً" ، فأنزلت : ﴿ عبس وتولى ﴾ .

ورواه الترمذي مسنداً عن عروة عن عائشة بقريب من هذا ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

وروى الطبري عن ابن عباس : "أن ابن أم مكتوم جاء يستقرئُ النبي صلى الله عليه وسلم آيةً من القرآن ومثله عن قتادة .

وقال الواحدي وغيره : "كان النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ يناجي عتبَة بن ربيعة وأبا جهل ، والعباسَ بن عبد المطلب ، وأبيَّ بن خلف ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل على الوليد بن المغيرة يَعرض عليهم الإِسلام .

ولا خلاف في أن المراد بـ ﴿ الأعمى ﴾ هو ابن أم مكتوم .

قيل : اسمه عبد الله وقيل : اسمه عَمْرو ، وهو الذي اعتمده في "الإِصابة" ، وهو ابن قيس بن زائدة من بني عامر بن لؤي من قريش .

وأمه عاتكة ، وكنيت أمَّ مكتوم لأن ابنها عبد الله ولد أعمى والأعمى يكنى عنه بمكتوم .

ونسب إلى أمه لأنها أشرف بيتاً من بيت أبيه لأن بني مخزوم من أهل بيوتات قريش فوق بني عامر بن لؤي .

(91/802)

وهذا كما نسب عَمْرو بن المنذر ملكُ الحِيرة إلى أمه هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجر آكِل المُرار زيادة في تشريفه بوراثة الملك من قبل أبيه وأمه .

ووقع في "الكشاف" : أن أم مكتوم هي أم أبيه .

وقال الطيبي : إنه وهَم ، وأسلم قديماً وهاجر إلى المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وتوفي بالقادسية في خلافة عمر بعد سنة أربع عشرة أو خمس عشرة .

وفيه نزلت هذه السورة وآيةُ ﴿ غيرَ أُولي الضرر ﴾ من سورة النساء (95) .

وكان النبي يحبّه ويُكرمه وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة ، وكان مؤذِّنَ النبي هو وبلال بن رباح .

والعُبوسُ بضم العين : تقطيب الوجه وإظهار الغضب .

ويقال : رجل عَبوس بفتح العين ، أي متقطب ، قال تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ [الإنسان : 10] .

وعبس من باب ضرَب .

والتولي : أصله تحوّل الذات عن مكانها ، ويستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقَى إليه أو جليس يحلّ عنده ، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإِقبال على الزائر .

وحذف متعلق ﴿ تولّى ﴾ لظهور أنه تولَ عن الذي مجيئه كان سبب التولي .

وعبر عن ابن أم مكتوم بـ ﴿ الأعمى ﴾ ترقيقاً للنبيء صلى الله عليه وسلم ليكون العتاب ملحوظاً فيه أنه لما كان صاحب ضَرارة فهو أجدر بالعناية به ، لأن مثله يكون سريعاً إلى انكسار خاطره .

و﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ مجرور بلام الجر محذوفٍ مع ﴿ أن ﴾ وهو حذف مطرد وهو متعلق بفعلي ﴿ عبس وتولى ﴾ على طريقة التنازع .

والعلم بالحادثة يدل على أن المراد مجيء خاص وأعمى معهود .

وصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر وهو اقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه قبولَها مع الذهول عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدين ممن آمن ، ولما كان صدور ذلك من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام ، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثاً على أن يترقب المعنيَّ من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب ، وهذا تلطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم ليقع العتاب في نفسه مدرجاً وذلك أهون وقعاً ، ونظير هذا قوله : ﴿ عفا اللَّه عنك لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] .

قال عياض : قال عون بن عبد الله والسمرقندي : أخبره الله بالعفو قبل أن يخبره بالذنب حتى سكن قلبه ا ه .

فكذلك توجيه العتاب إليه مسنداً إلى ضمير الغائب ثم جيء بضمائر الغيبة فذكر الأعمى تظهر المراد من القصة واتضح المراد من ضمير الغيبة .

ثم جيء بضمائر الخطاب على طريقة الالتفات .

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم رجا من ذلك المجلس أن يُسلموا فيسلم بإسلامهم جمهور قريش أو جميعهم فكان دخول ابن أم مكتوم قطعاً لسلك الحديث وجعل يقول للنبيء صلى الله عليه وسلم يا رسول الله استدنني ، علمني ، أرشدني ، ويناديه ويكثر النداء والإلحاح فظهرت الكراهية في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم لعله لقطعه عليه كلامه وخشيته أن يفترق النفر المجتمعون ، وفي رواية الطبري أنه استقرأ النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن .

وجملة ﴿ وما يدريك ﴾ الخ في موضع الحال .

(وما يدريك) مركبة من (ما) الاستفهامية وفعل الدّراية المقترن بهمزة التعدية ، أي ما يجعلك دارياً أي عالماً .

ومثله : ﴿ ما أدراك ﴾ كقوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 3] .

ومنه ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾

في سورة الأنعام (109) .

(93/802)

والاستفهام في هذه التراكيب مراد منه التنبيه على مغفول عنه ثم تقع بعده جملة نحو ﴿ ما أدراك ما القارعة ﴾ [القارعة : 3] ونحو قوله هنا : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ .

والمعنى أيُّ شيء يجعلك دارياً .

وإنما يستعمل مثله لقصد الإجمال ثم التفصيل .

قال الراغب : ما ذكر ما أدراك في القرآن إلا وذكر بيانه بعده ا ه .

قلت : فقد يُبينه تفصيلٌ مثل قوله هنا : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ وقوله : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ [القدر : 2 3] وقد يقع بعده ما فيه تهويل نحو : ﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ [القارعة : 10] أي ما يعلمك حقيقتها وقوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 3] أي أيُّ شيء أعلمك جواب : ﴿ ما الحاقة ﴾ .

وفعل : ﴿ يدريك ﴾ معلق عن العمل في مفعوليه لورود حرف (لعلّ) بعده فإن (لعل) من موجبات تعليق أفعال القلوب على ما أثبته أبو علي الفارسي في "التذكرة" إلحاقاً للترجي بالاستفهام في أنه طلب .

فلما علق فعل ﴿ يدريك ﴾ عن العمل صار غير متعدَ إلى ثلاثة مفاعيل وبقي متعدياً إلى مفعول واحد بهمزة التعدية التي فيه فصار ما بعده جملة مستأنفة .

والتذكر : حصول أثر التذكير ، فهو خطور أمر معلوم في الذهن بعد نسيانه إذ هو مشتق من الذُّكر بضم الذال .

والمعنى : انظر فقد يكون تزكّيهِ مرجواً ، أي إذا أقبلت عليه بالإِرشاد زاد الإِيمان رسوخاً في نفسه وفَعل خيرات كثيرة مما ترشده إليه فزاد تزكية ، فالمراد بـ "يتزكى" تزكية زائدة على تزكية الإِيمان بالتملّي بفضائل شرائعه ومكارم أخلاقه مما يفيضه هديك عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة " إذ الهدى الذي يزداد به المؤمن رفعة وكمالاً في درجات الإِيمان هو كاهتداء الكافر إلى الإِيمان لا سيما إذ الغاية من الاهتداءين واحدة .

(94/802)

و ﴿ يزكّى ﴾ أصله : يتزكى ، قلبت التاء زاياً لتقارب مخرجيهما قصداً ليتأتى الإِدغام وكذلك فُعِل في ﴿ يذّكر ﴾ من الإِدغام .

والتزكّي : مطاوع زكَّاه ، أي يحصل أثر التزكية في نفسه .

وتقدم في سورة النازعات .

وجملة ﴿ أو يذَّكَّر ﴾ عطف على ﴿ يزَّكَّى ﴾ ، أي ما يدريك أن يحصل أحد الأمرين وكلاهما مهم ، أي تحصل الذكرى في نفسه بالإِرشاد لما لم يكن يعلمه أو تذكر لما كان في غفلة عنه .

والذكرى : اسم مصدر التذكير .

وفي قوله تعالى : ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ اكتفاء عن أن يقول : فينفعه التزكي وتنفعه الذكرى لظهور أن كليهما نفع له .

والذكرى : هو القرآن لأنّه يذكّر الناس بما يغفلون عنه قال تعالى : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [القلم : 52] فقد كان فيما سأل عنه ابن أم مكتوم آيات من القرآن .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتنفعُه ﴾ بالرفع عطفاً على "يذّكّر" .

وقرأه عاصم بالنصب في جواب : ﴿ لعله يزكى ﴾ .

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6)

تقدم الكلام على ﴿ أمَّا ﴾ في سورة النازعات أنها بمعنى : مهما يكن شيء ، فقوله : ﴿ أما من استغنى ﴾ تفسيره مهما يكن الذي استغنى فأنت له تصدّى ، أي مهما يكن شيء فالذي استغنى تتصدى له ، والمقصود : أنت تحرص على التصدي له ، فجعل مضمون الجواب وهو التصدّي له معلقاً على وجود من استغنى وملازماً له ملازمة التعليقِ الشرطي على طريقة المبالغة .

والاستغناء : عدّ الشخص نفسه غنياً في أمر يدل عليه السياق قول ، أو فعل أو علم ، فالسين والتاء للحسبان ، أي حسب نفسه غنياً ، وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبر والاعتزاز بالقوة .

فالمراد بـ ﴿ من استغنى ﴾ هنا : مَن عدّ نفسه غنياً عَن هديك بأن أعرض عن قبوله لأنه أجاب قول النبي صلى الله عليه وسلم له : " هل ترى بما أقول بَأساً ، بقوله : لا والدماء . . .

"كناية عن أنه لا بأس به يريد ولكني غيرُ محتاج إليه .

(95/802)

وليس المراد بـ ﴿ من استغنى ﴾ من استغنى بالمال إذ ليس المقام في إيثار صاحب مال على فقير .

وهذا الذي تصدَّى النبي صلى الله عليه وسلم لدعوته وعرض القرآن عليه هو على أشهر الأقوال المروية عن سلف المفسرين الوليد بن المغيرة المخزومي كما تقدم .

والإِتيان بضمير المخاطب مُظهراً قبلَ المسند الفعلي دون اسْتِتاره في الفعل يجوز أن يكون للتقوي كأنه قيل : تتصدى له تصدياً ، فمناط العتاب هو التصدي القوي .

ويجوز أن يكون مفيداً للاختصاص ، أي فأنت لا غيرُك تَتَصدّى له ، أي ذلك التصدّي لا يليق بك .

وهذا قريب من قولهم : مثلُك لا يبخل ، أي لو تصدّى له غيرك لكان هَوناً ، فأما أنت فلا

يَتصدى مثلك لمثله فمناط العتاب هو أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم في جليل قدره .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الصاد على إدغام إحدى التاءين في الصاد .

والباقون بالفتح وتخفيف الصاد على حذف إحدى التاءين .

والتصدّي : التعرض ، أطلق هنا على الإِقبال الشديد مجازاً .

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7)

جملة معترضة بين جملة ﴿ أما من استغنى ﴾ [عبس : 5] وجملة : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ [عبس : 8] ، والواو اعتراضية .

و ﴿ ما ﴾ نافية و ﴿ عليك ﴾ خبر مقدم .

والمبتدأ ﴿ ألا يزكى ﴾ ، والمعنى : عدم تزكّيه ليس محمولاً عليك ، أي لست مؤاخذاً بعدم اهتدائه حتى تزيد من الحرص على ترغيبه في الإِيمان ما لم يكلفك الله به .

وهذا رفق من الله برسوله صلى الله عليه وسلم

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

عطف على جملة ﴿ أما من استغنى ﴾ [عبس : 5] اقتضى ذكره قصد المقابلة مع المعطوف عليها مقابلة الضدين إتماماً للتقسيم .

والمراد : بمن جاء يسعى : هو ابن أم مكتوم ، فحصل بمضمون هذه الجملة تأكيد لمضمون ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ [عبس : 21] .

(96/802)

والسعي : شدة المشي ، كُنِي به عن الحرص على اللقاء فهو مقابل لحال من استغنى لأن استغناءه استغناء المُمْتَعِض من التصدّي له .

وجملة ﴿ وهو يخشى ﴾ في موضع الحال ، وحذف مفعول ﴿ يخشى ﴾ لظهوره لأن الخشية في لسان الشرع تنصرف إلى خشية الله تعالى .

والمعنى : أنه جاء طلباً للتزكية لأن يخشى الله من التقصير في الاسترشاد .

واختير الفعل المضارع لإفادته التجدد .

والقول في ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ كالقول في : ﴿ فأنت له تصدى ﴾ [عبس : 6] .

والعبرة من هذه الآيات أن الله تعالى زاد نبيئه صلى الله عليه وسلم علماً عظيماً من الحكمة النبوية ، ورفعَ درجة علمه إلى أسمى ما تبلغ إليه عقول الحكماء رعاةِ الأمم ، فنبهه إلى أن في معظم الأحوال أو جميعها نواحيَ صلاح ونفع قد تخفى لقلة اطرادها ، ولا ينبغي ترك استقرائها عند الاشتغال بغيرها ولو ظنه الأهم ، وأنّ ليس الإِصلاح بسلوك طريقة واحدة

للتدبير بأخذ قواعد كلية منضبطة تشبهُ قواعد العلوم يطبقها في الحوادث ويغضي عما يعارضها بأن يسرع إلى ترجيح القَويّ على الضعيف مِما فيه صفة الصلاح ، بل شأن مقوّم الأخلاق أن يكون بمثابة الطبيب بالنسبة إلى الطبائع والأمزجة فلا يجعل لجميع الأمزجة علاجاً واحداً بل الأمر يختلف باختلاف الناس .

وهذا غور عميق يخاض إليه من ساحل القاعدة الأصولية في باب الاجتهاد القائلة : إن المجتهد إذا لاح له دليل : "يبحث عن المعارض" والقاعدة القائلة : "إن لله تعالى حكماً قبل الاجتهاد نصب عليه أمارة وكلف المجتهد بإصابته فإن أصابه فله أجران وإن أخطأه فله أجر واحد" .

(97/802)

فإذا كان ذلك مقام المجتهدين من أهل العلم لأنه مستطاعهم فإن غوْره هو اللائق بمرتبة أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم فيما لم يرد له فيه وحي ، فبحثُه عن الحكم أوسع مدىً من مدى أبحاث عموم المجتهدين ، وتنقيبه على المعارض أعمق غَوراً من تناوشهم ، لئلا يفوت سيدَ المجتهدين ما فيه من صلاح ولو ضعيفاً ، ما لم يكن إعماله يُبطل ما في غيره من صلاح أقوى لأن اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في مواضع اجتهاده قائم مقام الوحي فيما لم

يُوحَ إليه فيه .

فالتزكية الحق هي المِحْور الذي يدور عليه حال ابن أم مكتوم وحال المشرك من حيث إنها مرغوبة للأول ومزهود فيها من الثاني ، وهي مرمى اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتحصيلها للثاني والأمن على قرارها للأول بإقباله على الذي يتجافى عن دعوته ، وإعراضه عن الذي يعلم من حاله أنه متزكٍ بالإيمان .

وفي حاليهما حالان آخران سرُّهما من أسرار الحكمة التي لقنها الله نبيئه صلى الله عليه وسلم وهو يخفى في معتاد نظر النظار فأنبأه الله به ليزيل عنه ستار ظاهر حاليهما ، فإن ظاهر حاليهما قاض بصرف الاهتمام إلى أحدهما وهو المشرك لدعوته إلى الإيمان حين لاح من لِين نفْسه لسماع القرآن ما أطْمَعَ النبي صلى الله عليه وسلم بأنه قد اقتربَ من الإيمان فمحَّض توجيه كلامه إليه لأن هدي الناس إلى الإيمان أعظم غرض بُعث النبي صلى الله عليه وسلم لأجله ، فالاشتغال به يَبْدُو أهمّ وأرجحَ من الاشتغال بمن هو مؤمن خالص ، وذلك ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم

غير أن وراء ذلك الظاهر حالاً آخر كامناً عَلِمه الله تعالى العالم بالخفيات ولم يوحِ لرسوله صلى الله عليه وسلم التنقيب عليه وهو حال مؤمن هو مظنة الازدياد من الخير ، وحال كافر مصمم على الكفر تؤذن سوابقه بعناده وأنه لا يفيد فيه البرهان شيئاً .

وإن عميق التوسم في كلا الحالين قد يكشف للنبيء صلى الله عليه وسلم بإعانة الله رجحانَ حال المؤمن المزداد من الرشد والهدي على حال الكافر الذي لا يغُر ما أظهره من اللين مصانعةً أو حياءً من المكابرة ، فإن كان في إيمان الكافر نفع عظيم عام للأمة بزيادة عددها ونفع خاص لذاته .

وفي ازدياد المؤمن من وسائل الخير وتزكية النفس نفع خاص له والرسول راعٍ لآحاد الأمة ولمجموعها ، فهو مخاطب بالحفاظ على مصالح المجموع ومصالح الآحاد بحيث لا يدحض مصالح الآحاد لأجل مصالح المجموع إلا إذا تعذر الجمع بين الصالح العام والصالح الخاص ، بيد أن الكافر صاحبَ هذه القضية تنبىء دخيلتُه بضعف الرجاء في إيمانه لو أطيل التوسم في حاله ، وبذلك تَعطل الانتفاعُ بها عموماً وخصوصاً وتمخض أن لتزكية المؤمن صاحب القضية نفعاً لخاصة نفسه ولا يخلو من عَود تزكية بفائدة على الأمة بازدياد الكاملين من أفرادها .

وقد حصل من هذا إشعار من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن الاهتداء صنوف عديدة وله مراتب سامية ، وليس الاهتداء مقتصراً على حصول الإِيمان مراتبَ وميادينَ لسبق همم النفوس لا يُغفل عن تعهدها بالتثبيت والرعي والإِثمار ، وذلك التعهد إعانة على تحصيل زيادة الإِيمان .

وتلك سرائر لا يعلم حقها وفروقها إلا الله تعالى .

فعلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو خليفة الله في خلقه أن يتوخاها بقدر المستطاع ، فما أوحى الله إليه في شأنه اتبع ما يوحى إليه وما لم ينزل عليه وحي في شأنه فعليه أن يصرف اجتهاده كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ [محمد : 30] .

فكان ذلك موقع هذه الوصية المفرغة في قالب المعاتبة للتنبيه إلى الاكتراث بتتبع تلك المراتب وغرس الإِرشاد فيها على ما يرجى من طيب تُربِتهَا ليخرج منها نبات نافع للخاص وللعامة .

(99/802)

والحاصل أن الله تعالى أعلم رسوله صلى الله عليه وسلم أن ذلك المشرك الذي محضه نصحَه لا يُرجى منه صلاح ، وأن ذلك المؤمن الذي استبقى العناية به إلى وقت آخر يزداد صلاحاً تفيد المبادرةُ به ، لأنه في حالة تلهفه على التلقّي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد استعداداً منه في حين آخر .

فهذه الحادثة منوال ينسج عليه الاجتهاد النبوي إذا لم يرد له الوحي ليعلم أن من وراء

الظواهر خبايا ، وأن القرائن قد تَستُر الحقائق .

وفي ما قررنا ما يعرف به أن مرجع هذه الآية وقضيتها إلى تصرف النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فيما لم يُوحَ إليه فيه ، وأنه ما حاد عن رعاية أصول الاجتهاد قيد أنملة .

وهي دليل لما تقرر في أصول الفقه من جواز الاجتهاد للنبيء صلى الله عليه وسلم ووقوعه ، وأنه جرى على قاعدة إعمال أرجح المصلحتين بحسب الظاهر ، لأن السرائر موكولة إلى الله تعالى ، وأن اجتهاده صلى الله عليه وسلم لا يخطىء بحسب ما نصبه الله من الأدلة ، ولكنه قد يخالف ما في علم الله ، وأن الله لا يقر رسوله صلى الله عليه وسلم على ما فيه مخالفة لما أراده الله في نفس الأمر .

ونظير هذه القضية قضية أسرى بدر التي حدثت بعد سنين من نزول هذه الآية والموقف فيهما متماثل .

وفي قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ [عبس : 3] إيماء إلى عذر النبي صلى الله عليه وسلم في تأخيره إرشاد ابن أم مكتوم لما علمت من أنه يستعمل في التنبيه على أمر مغفول عنه ، والمعنى : لعله يزّكى تزكية عظيمة كانت نفسه متهيئة لها ساعتئذ إذ جاء مسترشداً حريصاً ، وهذه حالة خفية .

وكذلك عذره في الحرص على إرشاد المشرك بقوله : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ [عبس :

7] إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يخشى تبعة من فوات إيمان المشرك بسبب قطع المحاورة معه والإِقبال على استجابة المؤمن المسترشد .

(100/802)

فإن قال قائل : فلماذا لم يُعلِم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم .

قلنا : لأن العلم الذي يحصل عن تبيُّن غفلة ، أو إشعارٍ بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تعطش ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر بين المسلمين وليحصل للنبيء صلى الله عليه وسلم مزية كِلا المقامين : مقام الاجتهاد ، ومقام الإِفادة .

وحكمة ذلك كله أن يُعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا المهيع من عليِّ الاجتهاد لتكون نفسه غير غافلة عن مثله وليتأسى به علماء أمته وحكامها وولاة أمورها .

ونظير هذا ما ضَربه الله لموسى عليه السلام من المثَل في ملاقاة الخضر ، وما جرى من المحاورة بينهما ، وقول الخضر لموسى : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ [الكهف : 68] ثم قوله له : ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ [الكهف : 82] .

وقد سبق مثله في الشرائع السابقة كقوله في قصة نوح : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل

غير صالح ﴾ [هود : 46] وقوله لإبراهيم : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلاً وتفصيلاً ، وهو بناء على أساس ما سبق إليه المفسرون من جعلهم مناط العتاب مجموع ما في القصة من الإِعراض عن إرشاد ابن أم مكتوم ، ومن العُبوس له ، والتولّي عنه ، ومن التصدّي القوي لدعوة المشرك والإِقبال عليه .

(101/802)

والأظهر عندي أن مناط العتاب الذي توّتيه لهجة الآية والذي رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوتُه من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم : " مرحباً بمن عاتبني ربي لأجله " إنما هو عتاب على العُبوس والتولّي ، لا على ما حفّ بذلك من المبادرة بدعوة ، وتأخير إرشاد ، لأن ما سلكه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة من سبيل الإِرشاد لا يستدعي عتاباً إذ ما سلك إلا سبيل الاجتهاد القويم لأن المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاهُ إرشادَانِ لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر ، هما : إرشاد كافر إلى الإِسلام عساه أن يسلم ، وإرشاد مؤمن إلى شُعَب الإِسلام عساه أن يزداد تزكية .

وليس في حال المؤمن ما يفيت إيماناً وليس في تأخير إرشاده على نية التفرغ إليه بعد حين ما

يُنَاكِد زيادة صلاحه فإن زيادة صلاحه مستمرة على ممر الأيام .

ومن القواعد المستقرَاةِ من تصاريف الشريعة والشاهدة بها العقول السليمة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح ، ونفيُ الضر الأكبر قبل نفي الضر الأصغر ، فلم يسلك النبي صلى الله عليه وسلم إلا مسلك الاجتهاد المأمور به فيما لم يوح إليه فيه .

وهو داخل تحت قوله تعالى لعموم الأمة : ﴿ فاتقوا اللَّه ما استطعتم ﴾ [التغابن : 16]

وهو القائل : " إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع .

فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما اقتطع له قطعة من نار " وهو القائل : " أمرت أن أحكم بالظاهر واللَّه يتولى السرائر " وهو حديث صحيح المعنى وإن كان في إسناده تردد .

فلا قِبل له بعلم المغيبات إلا أن يطلعه الله على شيء منها ، فلا يعلم أن هذا المشرك مضمر الكفر والعناد وأن الله يعلم أنه لا يؤمن ولا أن لذلك المؤمن في ذلك صفاءَ نفس وإشراقَ قلب لا يتهيآن له في كل وقت .

(102/802)

وبذلك يستبين أن ما أوحى الله به إلى نبيئه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة هو وحي له بأمر كان مغيباً عنه حين أقبل على دعوة المشرك وأرجأ إرشاد المؤمن .

وليس في ظاهر حالهما ما يؤذن بباطنه وما أظهرَ اللَّهُ فيها غيْبَ علمه إلا لإظهار مزية مؤمن راسخ الإيمان وتسجيل كفر مشرك لا يُرجى منه الإيمان ، مع ما في ذلك من تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بما عَلِمه الله من حسن أدبه مع المؤمنين ورفع شأنهم أمام المشركين .

فمناط المعاتبة هو العبوس للمؤمن بحضرة المشرك الذي يَستصغر أمثال ابن أم مكتوم ، فما وقع في خلال هذا العتاب من ذكر حال المؤمن والكافر إنما هو إدماج لأن في الحادثة فرصَةً من التنويه بسمو منزلة المؤمن لانطواء قلبه على أشعة توّهله لأن يستنير بها ويفيضها على غيره جمعاً بين المعاتبة والتعليم ، على سنن هدي القرآن في المناسبات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(103/802)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ .

عبر الله تعالى عن هذا الصحابي الجليل الذي هو عبد الله بن أم مكتوم بلقب يكرهه الناس مع أنه قال: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ .

والجواب هو ما نبه عليه بعض العلماء من أن السر في التعبير عنه بلفظ الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 310 ﴾

(104/802)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان العتاب الذي هو من شأن الأحباب ملوحاً بالنهي عن الإعراض عمن وقع العتاب

عليه ، وكل من كان حاله كحاله والتشاغل عن راغب ، صرح به فقال : ﴿ كلا ﴾ أي لا تفعل ذلك أصلاً فإن الأمر في القضاء والقدر ليس على ما يظن العباد ولا هو جار على الأسباب التي تعرفونها بل هو من وراء علومهم على حكم تدق عن أفكارهم وفهومهم : ثم علل ذلك فقال مؤكداً لإنكارهم ذلك ، ﴿ إنها ﴾ أي القرآن ، ولعله أنث الضمير باعتبار ما تلي عليهم في ذلك المجلس من الآيات أو السور ﴿ تذكرة ﴾ أي تذكرهم تذكيراً عظيماً بما إن تأملوه شاهدوه في أنفسهم وفي الآفاق ، ليس فيه شيء إلا وهم يعرفونه لو أقبلوا بكليتهم عليه ، فما على المذكر بها غير البلاغ ، فمن أقبل عليه فأهلاً وسهلاً ، ومن أعرض فبعداً له وسحقاً .

ولما كان سبحانه قد خلق للإنسان عقلاً واختياراً ، ويسر أمر القرآن في الحفظ والفهم لمن أقبل عليه ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فمن شاء ﴾ أي ذكره بعد مشيئة الله تعالى كما تقدم تقييده في القرآن غير مرة ﴿ ذكره ﴾ أي حفظ القرآن كله وتذكر ما فيه من الوعظ من غير تكرير ولا معالجة تحوج إلى الإعراض عن بعض المقبلين الراغبين ، وللإشارة إلى حفظه كله ذكر الضمير .

(105/802)

ولما كان التقدير : حال كون القرآن مثبتاً أو حال كون الذاكر له مثبتاً ، قال واصفاً لتذكرة مبيناً لشرفها بتشريف ظرفها وظرف ظرفها ﴿ في صحف ﴾ أي أشياء يكتب فيها من الورق وغيره ﴿ مكرمة ﴾ أي مكررة التكريم ومعظمة في السماء والأرض في كل أمة وكل ملة ﴿ مرفوعة ﴾ أي عليه المقدار بإعلاء كل أحد لا سيما من له الأمر كله ﴿ مطهرة ﴾ أي منزهة عن أيدي أهل السفول وعن قولهم إنها شعر أو سحر ونحو ذلك ، وعلق أيضاً بمثبت بالفتح أو الكسر على اختلاف المعنيين – قوله مبيناً شرف ذلك الظرف لذلك الظرف إشارة إلى نهاية الشرف للمظروف : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ أي كتبة يظهرون الكتابة بما فيها من الأخبار الغريبة والأحكام العلية في كل حال ، فإن كان ما تعلق به الجار بالفتح فهو حقيقة في أنهم ملائكة يكتبونه من اللوح المحفوظ ، أو يكون جمع سافر إما بمعنى الكتاب أو المسافر أي القطع للمسافة أو السفير الذي هو المصلح لأنهم سفراء بين الله وأنبيائه ، وبهم يصلح أمر الدين والدنيا ، وإن كان بالكسر فهو مجاز لأن من أقبل على كتابة الذكر يكون مهذباً في الحال أو في المآل في الغالب ، وتركيب سفر للكشف ﴿ كرام ﴾ أي ينطوون على معالي الأخلاق مع أنهم أعزاء على الله ﴿ بررة ﴾ أي أتقياء في أعلى مراتب التقوى والكرم وأعزها وأوسعها .

ولما كان الوصف بهذه الأوصاف العالية للكتبة الذين أيديهم ظرف للصحف التي هي ظرف للتذكرة للتنبيه على علو المكتوب وجلالة مقداره وعظمة آثاره وظهور ذلك لمن تدبره وتأمله حق تأمله وأنعم نظره ، عقبه بقوله ناعياً على من لم يقبل بكليته عليه داعياً بأعظم شدائد الدنيا التي هي القتل في صيغة الخبر لأنه أبلغ : ﴿ قتل الإنسان ﴾ أي هذا النوع الآنس بنفسه الناسي لربه المتكبر على غيره المعجب بشمائله التي أبدعها له خالقه ، حصل قتله بلعنه وطرده وفرغ منه بأيسر سعي وأسهله من كل من يصح ذلك منه لأنه أسرع شيء إلى الفساد لأنه مبني على النقائص إلا من عصم الله ﴿ ما أكفره ﴾ أي ما أشد تغطيته للحق وجحده له وعناده فيه لإنكاره البعث وإشراكه بربه وغير ذلك من أمره ، فهو دعاء عليه بأشنع دعاء وتعجيب من إفراطه في ستر محاسن القرآن التي لا تخفى على أحد ودلائله على القيامة وكل شيء لا يسع أحداً التغبير في وجه شيء منها ، وهذا الدعاء على وجازته يدل على سخط عظيم وذم بليغ وهو وإن كان في مخصوص فالعبرة بعمومه في كل من كفر نعمة الله ، روي أنها نزلت في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام فبعث إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كافر برب النجم إذا هوى ، وأفحش في غير هذا ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " اللهم أبعث عليه كلباً من كلابك " فلما انتهى إلى مكان من الطريق فيه الأسد ذكر الدعاء فجعل

لمن معه ألف دينار إن أصبح حياً فجعلوه في وسط الرفقة والمتاع والرحال فأقبل الأسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويبكي عليه وقال : ما قال محمد شيئاً إلا كان ، ومع ذلك فما نفعه ما عرف من ذلك ، فسبحان من بيده القلوب يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وكل ذلك من هدايته وإضلاله شاهد بأن له الحمد .

(107/802)

ولما كان اكثر انصباب التعجيب منه ناظراً إلى تكذيبه بالساعة لأجل ظهور أدلتها في القرآن جداً ولأنه توالت في هذه السور إقامة الأدلة عليها مما لا مزيد عليه ، شرع في إقامة الديل عليها بآية الأنفس من ابتداء الخلق في أسلوب مبين لخسته وحقارته وأن من ألبسه أثواب الشرف بعد تلك الخسة والحقارة جدير منه بالشكر لا بالكفر ، فقال منبهاً له بالسؤال : ﴿ من أي شيء ﴾ والاستفهام للتقرير مع التحقير ﴿ خلقه ﴾ ثم أجاب إشارة إلى أن الجواب واضح لا يحتاج فيه إلى وقفة أصلاً فقال مبيناً حقارته : ﴿ من نطفة ﴾ أي ماء يسير جداً لا من غيره ﴿ خلقه ﴾ أي أوجده مقدراً على ما هو عليه من التخطيط ﴿ فقدره ﴾ أي هيأه لما يصلح من الأعضاء الظاهرة والباطنة والأشكال والأطوار إلى أن صلح لذلك ثم جعله في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ثم الرحم ثم المشيمة ، أو هي على ما

قال أهل التشريح ثلاثة أغشية : أحدها المشيمة تتصل بسرة الجنين تمده بالغذاء ، والثاني يقبل بوله ، والثالث يقبل البخارات التي تصعد منه بمنزلة العرق والوسخ في أبدان الكاملين ، وأعطاه قدرة لما أراده منه ﴿ ثم ﴾ أي بعد انتهاء المدة ﴿ السبيل ﴾ أي الأكمل في العموم والاتساع والوضوح لا غيره ، وهو مخرجه من بطن أمه وطريقه إلى الجنة أو النار ﴿ يسره ﴾ أي سهل له أمره في خروجه بأن فتح فم الرحم وألهمه أن ينتكس ، وذلل له سبيل الخير والشر ، وجعل له عقلاً يقوده إلى ما يسر له منهما ، وفيه إيماء إلى أن الدنيا دار الممر ، والمقصد غيرها وهو الأخرى التي تدل عليها الدنيا ، ولذلك عقبه بقوله عاداً الموت من النعم لأنه لو دام الإنسان حياً مع ما يصل إليه من الضعف والخوف لكان في غاية البشاعة والشماتة لأعدائه والمساءة لأوليائه على أن الموت سبب الحياة الأبدية : ﴿ ثم ﴾ أي بعد أمور قدرها سبحانه من أجل وتقلبات ﴿ أماته ﴾ وأشار إلى إيجاب المبادرة إلى التجهيز بالفاء المعقبة في قوله ﴿ فأقبره ﴾ أي جعل له قبراً فغيبه فيه وأمر

(108/802)

بدفنه تكرمة له وصيانة عن السباع ، والإقبار جعلك للميت قبراً وإعطاؤك القتيل لأهله ليدفنوه ، والمعنى الامتنان بأنه جعل للأنسان موضعاً يصلح لدفنه وجعله بعد الموت بحيث

يتمكن من دفنه ، ولو شاء لجعله يتفتت مع النتن ونحوه مما يمنع من قربانه ، أو جعله بحيث يتهاون به فلا يدفن كبقية الحيوانات ، فقد عرف بهذا أن أول الإنسان نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة ، فما شرفه بالعلم إلا الذي أبدعه وصوره ، وذلك موجب لأن يشكره لا أن يكفره .

ولما كانت مدة البرزخ طويلة ، وكان البعث أمراً محققاً غير معلوم الوقت بالعين بغيره تعالى ، عبر عن المعاني الثلاثة بأداتي التراخي والتحقق فقال : ﴿ ثم إذا شاء ﴾ أي إنشاره ﴿ أنشره ﴾ أي بعثه من قبره كما كان في دنياه بزيادة أنه على تركيب قوي لا يتهيأ فيه فراق الروح الجسد .

(109/802)

ولما كان إخباره بأنه مع الذي يسر له السبيل قد يفهم أنه لا يعمل إلا بما يرضيه ، نفى ذلك على سبيل الردع فقال : ﴿ كلا ﴾ أي ليرتدع هذا الإنسان الذي عرف أن هذه حالاته أولاً وآخراً واثناءً ومخرجاً تارة من مخرج البول وأخرى من مخرج الحيض ومقبراً ، ولينزجر وليعرف ، نفسه بالذلة والخسة والحاجة والعجز ، وليعرف ربه سبحانه بالعزة والعظمة والكبرياء والفناء والقدرة على تشريف الحقير وتحقير الشريف ، وبأنه سبحانه لا يلزمه

شيء فلا يلزم من تعريف هذا الإنسان السبيل وتمييزه له لأنه لا يفعل إلا ما لا يعاتب عليه ، فإنه لا يكون من الإنسان وغيره إلا ما يريده ، وتارة يريد هداه ، وتارة يريد ضلاله ، فقد يأمر بما لا يريده ويريد ما لا يأمر به ولا يرضاه ، ولذلك قال مستأنفاً نفي ما أفهمه بتيسيره للسبيل من أن الإنسان يفعل جميع ما أمره به الله الذي يسر له السبيل : ﴿ لما يقض ﴾ أي يفعل الإنسان فعلاً نافذاً ماضياً ﴿ ما أمره ﴾ أي به الله كله من غير تقصير ما من حين تكليفه إلى حين إقباره بل من حين وجد آدم عليه الصلاة والسلام إلى حين نزول هذه الآية وإلى آخر الدهر ، لأن الإنسان مبني على النقصان والإله منزه التنزه الأكمل ، وما قدروا الله حق قدره ، وأيضاً الإنسان الذي هو النوع لم يعمل بأسره بحيث لم يشذ منه فرد جميع ما أمره ، بل أغلب الجنس عصاه وكذب بالساعة التي هي حكمة الوجود ، وإن صدق بها بعضهم كان تصديقه بها تكذيباً لأنه يعتقد أشياء منها على خلاف ما هي عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 326 . 330 ﴾

(110/802)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) ﴾

ثم قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله .

قال الحسن : لما تلا جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات عاد وجهه ، كأنما أسف الرماد فيه ينتظر ماذا يحكم الله عليه ، فلما قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ سرى منه ، أي لا تفعل مثل ذلك ، وقد بينا نحن أن ذلك محمول على ترك الأولى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ وفيه سؤالان :

الأول : قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير المؤنث ، وقوله : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ [عبس : 12] ضمير المذكر ، والضميران عائدان إلى شيء واحد ، فكيف القول فيه ؟ الجواب : وفيه وجهان الأول : أن قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير المؤنث ، قال مقاتل : يعني آيات القرآن ، وقال الكلبي : يعني هذه السورة وهو قول الأخفش والضمير في قوله : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ عائد إلى التذكرة أيضاً ، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ الثاني : قال صاحب "النظم" : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني به القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ، ولو ذكَّره لجاز كما قال في موضع آخر : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ [المدثر : 54] والدليل على أن قوله : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ المراد به القرآن قوله : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ .

السؤال الثاني : كيف اتصال هذه الآية بما قبلها ؟ الجواب : من وجهين الأول : كأنه قيل : هذا التأديب الذي أوحيته إليك وعرفته لك في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل

الدنيا أثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة الثاني : كأنه قيل : هذا القرآن قد بلغ في العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأي حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه فلا تلتفت إليهم ولا تشغل قلبك بهم ، وإياك وأن تعرض عمن آمن به تطييباً لقلب أرباب الدنيا .

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12)

اعلم أنه تعالى وصف تلك التذكرة بأمرين الأول :

(111/802)

قوله : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي هذه تذكرة بينة ظاهرة بحيث لو أرادوا فهمها والاتعاظ بها والعمل بموجبها لقدروا عليه والثاني : قوله : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أي تلك التذكرة معدة في هذه الصحف المكرمة ، والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتنويه بذكره والمعنى أن هذه التذكرة مثبتة في صحف ، والمراد من الصحف قولان : الأول : أنها صحف منتسخة من اللوح مكرمة عند الله تعالى مرفوعة في السماء السابعة أو مرفوعة المقدار مطهر عن أيدي الشياطين ، أو المراد مطهرة بسبب أنها لا يمسها إلا المطهرون وهم الملائكة .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أن الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة أنواع من الصفات :

أولها : أنهم سفرة وفيه قولان : الأول : قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة : هم الكتبة من الملائكة ، قال الزجاج : السفرة الكتبة واحدها سافر مثل كتبة وكاتب ، وإنما قيل للكتبة : سفرة وللكاتب سافر ، لأن معناه أنه الذي يبين الشيء ويوضحه يقال : سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها القول الثاني : وهو اختيار الفراء أن السفرة ههنا هم الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله وبين رسله ، واحدها سافر ، والعرب تقول : سفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم ، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته ، كالسفير الذي يصلح به بين القوم ، وأنشدوا :

وما أدع السفارة بين قومي . . وما أمشى بغش إن مشيت

واعلم أن أصل السفارة من الكشف ، والكاتب إنما يسمى سافراً لأنه يكشف ، والسفير إنما سمي سفيراً أيضاً لأنه يكشف ، وهؤلاء الملائكة لما كانوا وسايط بين الله وبين البشر في البيان والهداية والعلم ، لا جرم سموا سفرة .

الصفة الثانية لهؤلاء الملائكة : أنهم ﴿كِرَامٍ﴾ قال مقاتل : كرام على ربهم ، وقال عطاء : يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة .

(112/802)

الصفة الثانية : أنهم : ﴿بَرَرَةٍ﴾ قال مقاتل : مطيعين ، وبررة جمع بار ، قال الفراء : لا يقولون فعلة للجمع إلا والواحد منه فاعل مثل كافر وكفرة ، وفاجر وفجرة القول الثاني : في تفسير الصحف : أنها هي صحف الأنبياء لقوله : ﴿إِنَّ هذا لَفِى الصحف الاولى﴾ [الأعلى : 18] يعني أن هذه التذكرة مثبتة في صحف الأنبياء المتقدمين ، والسفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل هم القراء .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ يقتضي أن طهارة تلك الصحف إنما حصلت بأيدي هؤلاء السفرة ، فقال القفال في تقريره : لما كان لا يمسها إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهير إليها لطهارة من يسمها .

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، عجب عباده المؤمنين من ذلك ، فكأنه قيل : وأي سبب في هذا العجب والترفع مع أن أوله نطفة قذوة وآخره جيفة مذرة ، وفيها بين الوقتين حمال عذرة ، فلا جرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم ، فإن خلقة الإنسان تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع ، ولأن يستدل بها على القول بالبعث والحشر والنشر .

المسألة الثانية :

قال المفسرون : نزلت الآية في عتبة بن أبي لهب ، وقال آخرون : المراد بالإنسان الذين أقبل الرسول عليهم وترك ابن أم مكتوم بسببهم ، وقال آخرون : بل المراد ذم كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر ، والذي يدل على ذلك وجوه أحدها : أنه تعالى ذمهم لترفعهم فوجب أن يعم الحكم بسبب عموم العلة وثانيها : أنه تعالى زيف طريقتهم بسبب حقارة حال الإنسان في الابتداء والانتهاء على ما قال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ . . .

(113/802)

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : 19- 21] وعموم هذا الزجر يقتضي عموم الحكم وثالثها : وهو أن حمل اللفظ على هذا الوجه أكثر فائدة ، واللفظ محتمل له فوجب حمله عليه .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم ، لأن القتل غاية شدائد الدنيا وما أكفره تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ، فقوله : ﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب ، وقوله : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات ، فإن قيل الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز والقادر على الكل كيف يليق به ذاك ؟ والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء ، فالعالم بالكل كيف يليق به ذاك ؟ الجواب : أن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب وتحقيقة ما ذكرنا أنه تعالى بين أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب لأجل أنهم أتوا بأعظم أنواع القبائح ، واعلم أن لكل محدث ثلاث مراتب أوله ووسطه وآخره ، وأنه تعالى ذكر هذه المراتب الثلاثة للإنسان .

أما المرتبة الأولى : فهي قوله :

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18)

وهو استفهام وغرضه زيادة التقرير في التحقير .

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19)

ثم أجاب عن ذلك الاستفهام بقوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ ولا شك أن النطفة شيء حقير

مهين والغرض منه أن من كان أصله (من) مثل هذا الشيء الحقير ، فالتكبر والتجبر لا يكون لائقاً به .

(114/802)

ثم قال : ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ وفيه وجوه : أحدها قال الفراء : قدره أطواراً نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه وذكراً أو أنثى وسعيداً أو شقياً وثانيها : قال الزجاج : المعنى قدره على الاستواء كما قال : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 37] ، وثالثها : يحتمل أن يكون المراد وقدر كل عضو في الكمية والكيفية بالقدر اللائق بمصلحته ، ونظيره قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] .

وأما المرتبة الثانية : وهي المرتبة المتوسطة فهي قوله تعالى :

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

نصب السبيل بإضمار يسره ، وفسره بيسره .

المسألة الثانية :

ذكروا في تفسيره أقوالاً أحدها : قال بعضهم : المراد تسهيل خروجه من بطن أمه ، قالوا : إنه كان رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجلاه من تحت ، فإذا جاء وقت الخروج انقلب ، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام إلا الله ، ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب وثانيها : قال أبو مسلم : المراد من هذه الآية ، هو المراد من قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا ، وبين كل خير وشر يتعلق بالدين أي جعلناه متمكناً من سلوك سبيل الخير والشر ، والتيسير يدخل فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء ، وإنزال الكتب وثالثها : أن هذا مخصوص بأمر الدين ، لأن لفظ السبيل مشعر بأن المقصود أحوال الدنيا (لا) أمور تحصل في الآخرة .

وأما المرتبة الثانية : وهي المرتبة الأخيرة ، فهي قوله تعالى :

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)

(115/802)

واعلم أن هذه المرتبة الثالثة مشتملة أيضاً على ثلاث مراتب ، الإماتة ، والإقبار ، والإنشار ، أما الإماتة فقد ذكرنا منافعها في هذا الكتاب ، ولا شك أنها هي الواسطة بين حال

التكليف والمجازاة ، وأما الإقبار فقال الفراء : جعله الله مقبوراً ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع ، لأن القبر مما أكرم به المسلم قال : ولم يقل فقبره ، لأن القابر هو الدافن بيده .

والمقبر هو الله تعالى ، يقال قبر الميت إذا دفنه وأقبر الميت ، إذا أمر غيره بأن يجعله في القبر ، والعرب تقول : بترت ذنب البعير ، والله أبتره وعضبت قرن الثور ، والله أعضبه ، وطردت فلاناً عني ، والله أطرده .

أي صيره طريداً ، وقوله تعالى : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ المراد منه الإحياء (و) البعث ، وإنما قال : إذا شاء إشعاراً بأن وقته غير معلوم لنا ، فتقديمه وتأخيره موكول إلى مشيئة الله تعالى ، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك فإنه يعلم أوقاتها من بعض الوجوه ، إذا الموت وإن لم يعلم الإنسان وقته ففي الجملة يعلم أنه لا يتجاوز فيه إلا حداً معلوماً .

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .

(116/802)

واعلم أن قوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان عن تكبره وترفعه ، أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد ، وعلى إنكاره البعث والحشر والنشر ، وفي قوله : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ وجوه أحدها : قال مجاهد لا يقضي أحد جميع ما كان مفروضاً عليه أبداً ، وهو إشارة إلى

أن الإنسان لا ينفك عن تقصير ألبتة ، وهذا التفسير عندي فيه نظر ، لأن قوله : ﴿ لما يقض ﴾ الضمير فيه عائد إلى المذكور السابق ، وهو الإنسان في قوله : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] وليس المراد من الإنسان ههنا جميع الناس بل الإنسان الكافر فقوله : ﴿ لما يقض ﴾ كيف يمكن حمله على جميع الناس وثانيها : أن يكون المعنى أن الإنسان المترفع المتكبر لم يقض ما أمر به من ترك التكبر ، إذ المعنى أن ذلك الإنسان الكافر لما يقض ما أمر به من التأمل في دلائل الله ، والتدبر في عجائب خلقه وبينات حكمته وثالثها : قال الأستاذ أبو بكر بن فورك : كلا لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر بل أمره بما لم يقض له به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 53 . 56 ﴾

(117/802)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾

"كلاَّ" كلمة ردع وزجر ؛ أي ما الأمرُ كما تفعل مع الفريقين ؛ أي لا تفعل بعدها مثلها : من إقبالك على الغنِيّ ، وإعراضك عن المؤمن الفقير .

والذي جرى من النبيّ صلى الله عليه وسلم كان تركَ الأولَى كما تقدّم، ولو حُمِل على صغيرة لم يبعد؛ قاله القُشيري.

والوقف على "كَلاّ" على هذا الوجه: جائز.

ويجوز أن تقف على "تَلَهَّى" ثم تبتدىء "كَلاّ" على معنى حَقّاً.

﴿ إِنَّهَا ﴾ أي السورة أو آيات القرآن ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي اتعظ بالقرآن.

قال الجُرجاني: "إِنها" أي القرآن، والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة، أخرجه على لفظ التذكرة، ولو ذَكّره لجاز؛ كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ ويدل على أنه أراد القرآن قوله: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي كان حافظاً له غير ناس؛ وذكَّر الضمير، لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ.

وروي الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ قال من شاء اللَّهُ تبارك وتعالى ألهمه.

ثم أخبر عن جلالته فقال: ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ أي عند الله؛ قاله السُّدّي.

الطبريّ: "مُكَرَّمةٍ" في الدين لما فيها من العلم والحِكَم.

وقيل: "مُكَرمةٍ" لأنها نزل بها كرام الحفظة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ.

وقيل : "مكرمة" لأنها نزلت من كريم ؛ لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه .

وقيل : المراد كُتُب الأنبياء ؛ دليله : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 18-19] .

﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر عند الله .

وقيل : مرفوعة عنده تبارك وتعالى .

وقيل : مرفوعة في السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلام .

الطبريّ : مرفوعة الذكر والقدر .

وقيل : مرفوعة عن الشُّبَه والتناقض .

(118/802)

﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ قال الحسن : من كل دنس .

وقيل : مصانة عن أن ينالها الكفار .

وهو معنى قول السُّدّيّ .

وعن الحسن أيضاً : مطهّرة من أن تنزل على المشركين .

وقيل : أَي القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرؤونها فهي مكرمة مرفوعة مطهرة .

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ أي الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله ، فهم بررة لم يتدنسوا بمعصية .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هي مطهرة تجعل التطهير لمن حملها ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال : كَتَبَةٍ .

وقاله مجاهد أيضاً .

وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد في الأسفار ، التي هي الكتب ، واحدهم : سافر ؛ كقولك : كاتب وكَتَبَة .

ويقال : سَفَرْتُ أي كتبتُ ، والكتاب : هو السفر ، وجمعه أسفار .

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سِفْر ، بكسر السين ، وللكاتب سافر ؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه .

يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، وسَفَرتِ المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها .

قال : ومنه سَفَرْت بين القومِ أَسْفِر سفارة : أصلحت بينهم .

وقاله الفراء ، وأنشد :

فما أدَعُ السِّفارةَ بينَ قومِي . . .

ولا أَمشِي بِغِشٍّ إن مَشَيْتُ

والسفير : الرسول والمصلح بين القوم ، والجمع : سفراء ، مثل فقيه وفقهاء .

ويقال للورّاقين سُفَراءُ ، بلغة العِبرانية .

وقال قتادة : السَّفَرة هنا : هم القُرّاء ، لأنهم يقرؤون الأسفار .

وعنه أيضاً كقول ابن عباس .

وقال وهب بن مُنَبّه : "بأيدِي سَفَرةٍ .

كِرامٍ بَررَةٍ" هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن العربيّ : لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سَفَرةً ، كِراماً بَرَرَة ، ولكن ليسوا بمرادفين بهذه الآية ، ولا قاربوا المرادِين بها ، بل هي لفظة مخصوصة بالملائكة عند الإطلاق ، ولا يشاركُهم فيها سواهم ، ولا يدخل معهم في مُتناولها غيرهم .

(119/802)

ورُوي في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَثَل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له ، مع السَّفَرة الكرام البررة ؛ ومثَل الذي يقرؤه وهو يتعاهده ، وهو عليه شديد ، فله أجران " متفق عليه ، واللفظ للبخاريّ .

﴿ كِرَامٍ ﴾ أي كرام على ربهم ؛ قاله الكلبيّ .

الحسن : كرام عن المعاصي ، فهم يرفعون أنفسهم عنها .

وروى الضحاك عن ابن عباس في "كِرامٍ" قال : يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو تبرز لغائطه .

وقيل : أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم .

﴿ بَرَرَةٍ ﴾ جمع بارّ مثل كافر وكفرة ، وساحر وسحرة ، وفاجر وفجرة ؛ يقال : بر وبارّ إذا كان أهلاً للصدق ، ومنه بَرَّ فلان في يمينه : أي صدق ، وفلان يَبَرّ خالقه ويتبرره : أي يطيعه ؛ فمعنى "بررةٍ" مطيعون لله ، صادقون لله في أعمالِهم .

وقد مضى في سورة "الواقعة" قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 77-79] أنهم الكرام البَرَرَة في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ ؟

"قُتِل" أي لُعِن .

وقيل : عُذِّب .

والإنسان الكافر .

روى الأعمش عن مجاهد قال : ما كان في القرآن "قُتِل الإنسان" فإنما عُني به الكافر .

(120/802)

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نزلت في عُتْبة بن أبي لَهَب ، وكان قد آمن ، فلما نزلت "والنجم" ارتد ، وقال : آمنت بالقرآن كلّه إلا النجم ، فأنزل الله جل ثناؤه فيه "قِتِل الإنسان" أي لُعن عُتبة حيث كفر بالقرآن ، ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " اللَّهُمْ سلِّطْ عليه كلبك أسد الغاضِرة " فخرج من فوره بتجارة إلى الشام ، فلما انتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل لمن معه ألف دينار إن هو أصبح حيا ، فجعلوه في وسط الرُّفقة ، وجعلوا المتاع حوله ، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد ، فلما دنا من الرحال وثب ، فإذا هو فوقه فمزقه ، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال : ما قال محمد شيئاً قَطُّ إلا كان .

وروى أبو صالح عن ابن عباس "ما أكفره" : أيُّ شيء أكفره ؟ وقيل : "ما" تعجب ؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا : قاتله الله ما أحسنه ! وأخزاه الله ما أظلمه ؛ والمعنى : أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا .

وقيل : ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضاً ؛ قال ابن جريج أي ما أشدّ كفره ! وقيل : "ما" استفهام أي أي شيء دعاه إلى الكفر ؛ فهو استفهام توبيخ .

و"ما" تحتمل التعجب ، وتحتمل معنى أيّ ، فتكون استفهاما .

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي من أيّ شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر ؟ أي اعجبوا

لخلقه .

﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي من ماء يسيرٍ مَهِين جَماد ﴿ خَلَقَهُ ﴾ فلَم يغلط في نفسه ؟ ! قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين .

﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ في بطن أمه .

كذا روى الضحاك عن ابن عباس : أي قدّر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه ، وحسناً ودميماً ، وقصيراً وطويلاً ، وشقياً وسعيداً .

وقيل : "فقدّره" أي فسواه كما قال : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 37] .

(121/802)

وقال : ﴿ الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ﴾ [الانفطار : 7] .

وقيل : "فقدَّره" أطواراً أي من حال إلى حال ؛ نطفة ثم علقة ، إلى أن تم خَلْقه .

﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل : يَّسره للخروج من بطن أمه .

مجاهد : يسَّره لطريق الخير والشر ؛ أي بيَّن له ذلك .

دليله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 3] و ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] .

وقاله الحسن وعطاء وابن عباس أيضاً في رواية أبي صالح عنه .

وعن مجاهد أيضاً قال : سبيل الشقاء والسعادة .

ابن زيد : سبيل الإسلام .

وقال أبو بكر بن طاهر : يَسَّر على كل أحد ما خلقه له ، وقدَّره عليه ؛ دليله قوله عليه السلام :

" اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خُلِق له " ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعل له قبراً يوارَى فيه إكراماً ، ولم يجعله مما يُلقَى على وجه الأرض تأكله الطير والعوافي ؛ قاله الفرّاء .

وقال أبو عبيدة : "أقبره" : جعل له قبراً ، وأمر أن يُقْبر .

قال أبو عبيدة : ولما قَتَل عمرُ بن هُبيرة صالحَ بن عبد الرحمن ، قالت بنو تميم ودخلوا عليه : أَقبِرنا صالحاً ؛ فقال : دونكموه .

وقال : "أَقبره" ولم يقل قَبَره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، قال الأعشى :

لو أَسْندتْ مَيْتا إلى نحرِها . . .

عاشَ ولم يُنقَلْ إلى قابرِ

يقال : قبرت الميت : إذا دفنته ، وأقبره الله : أي صيره بحيث يُقْبر ، وجعل له قبراً ؛ تقول

العرب : بترت ذَنَب البعير ، وأبتره الله ، وعضبت قَرْن الثور ، وأعضبه الله ، وطردت فلاناً ، والله أطرده ، أي صيره طريداً .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي أحياه بعد موته .

وقراءة العامة "أَنشرهُ" بالألف .

وروي أبو حَيْوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة "شاء نشره" بغير ألف ، لغتان فصحيتان بمعنى ؛ يقال : أنشر الله الميت ونَشَره ؛ قال الأعشى :

حتى يقولَ الناس مما رأَوا . . .

يا عَجَبَا لِلميتِ الناشِرِ

(122/802)

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة : "لَمّا يَقْضِ" : لا يقضي أحد ما أَمر به .

وكان ابن عباس يقول : "لما يقضِ ما أمره" لم يف بالميثاق الذي أُخِذَ عليه في صلب آدم .

ثم قيل : "كَلاَّ" ردع وزجر ، أي ليس الأمر : كمَا يقول الكافر ؛ فإن الكافر إذا أُخبر بالنُّشور قال : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلحسنى ﴾ [فصلت : 50] ربما يقول قد

قضيت ما أَمِرْت به .

فقال : كلاّ لم يقض شيئاً بل هو كافر بي وبرسولي .

وقال الحسن : أي حَقّاً لم يقض : أي لم يَعمل بما أُمر به .

و"ما" في قوله : "لَمّا" عماد للكلام ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ ﴾ [آل عمران : 159] وقوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ [المؤمنون : 40] وقال الإمام ابن فُورَك : أي : كَلاّ لَمّا يقض الله لهذا الكافر ما أَمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له .

ابن الأنباريّ : الوَقف على "كَلاّ" قبيح ، والوقف على "أَمره" و "نشره" جيد ؛ ف "كلاَّ" على هذا بمعنى حَقًّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(123/802)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ عَبَسَ وتولى * أَن جَاءهُ الأعمى ﴾

رُوِيَ أَنَّ ابنَ أَمِّ مكتومٍ واسمُه عبدُ اللَّه بنُ شُرَيحِ بنِ مالكِ بنِ أبي ربيعةَ الفهريُّ وأُمُّ مكتومٍ اسمُ أبيهِ أَتَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وعندَهُ صناديدُ قريشٍ عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ وأبو جهل بنُ هشامٍ والعباسُ بنُ عبدِ المطلبِ وأميةُ بنُ خلفٍ والوليدُ بنُ المغيرةِ يدعُوهم إلى

الإسلامِ رجاءَ أنْ يسلمَ بإسلامِهم غيرُهم فقالَ له : يا رسولَ اللهِ أقرِئْني وعلمِني مما علمكَ اللهُ تعالَى ، وكررَ ذلكَ وهو لا يعلمُ تشاغلَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالقومِ فكرِه رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قطعَهُ لكلامِه وعبسَ وأعرضَ عنه فنزلتْ . فكانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يكرمُه ويقولُ إذا رآه : " مرحباً بمن عاتبَني فيه ربِّي " ويقولُ لهُ : " هل لكَ من حاجةٍ " واستخلفَهُ على المدينة مرتينِ وقرىء عبَّس بالتشديدِ للمبالغةِ وأنْ جاءَهُ علةٌ لتولَّى أو عَبَس على اختلافِ الرأيينِ أيْ لأَنْ جاءَهُ الأعمى والتعرضُ لعنوانِ عماهُ إمَّا لتمهيدِ عُذرِه في الإقدامِ على قطعِ كلامِه عليه الصلاةُ والسلامُ بالقومِ والإيذانِ باستحقاقِه بالرفقِ والرأفةِ وإمَّا لزيادةِ الإنكارِ كأنَّه قيلَ : تولَّى لكونِه أعْمى كما أنَّ الالتفاتَ في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ لذلكَ فإنَّ المشافهةَ أدخلُ في تشديدِ العتابِ أيْ وأيُّ شيءٍ يجعلُكَ دارياً بحالِه حتى تُعرضَ عنْهُ وقولُه تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ استئنافٌ واردٌ لبيانِ ما يلوحُ به ما قبلَه فإنه معَ إشعارِه بأنَّ له شأناً منافياً للإعراضِ عنه خارجاً عن درايةِ الغيرِ وادرائه مؤذنٌ بأنه تعالَى يُدريه ذلكَ أي لعلَّه يتطهرُ بما يقتبسُ منكَ من أوضارِ الأوزارِ بالكليةِ وكلمةُ لعلَّ مع تحققِ التزكّي واردةٌ على سَننِ الكبرياءِ أو على اعتبارِ مَعْنى الترجّي بالنسبةِ إليه عليه الصلاةُ والسلامُ للتنبيه على أن الإعراضَ عنه عند كونِه مرجوَّ التزكّي مما

لا يجوزُ فكيفَ إذا كان مقطوعاً بالتزكّي كما في قولِك : لعلَّك ستندمُ على ما فعلتَ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ من تصدَّى لتزكيتهم من الكفرة لا يُرجى منهم التزكّي والتذكُّرِ أصلاً .

وقولُه تعالى : ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ عطفٌ على يزكَّى داخلٌ معه في حكم الترجّي . وقولُه تعالَى : ﴿ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ بالنصب على جواب لعلَّ وقُرِئَ بالرفع عطفاً على يذكَّرُ أي أو يتذكرُ فتنفعُه موعظتُك إنْ لم يبلغْ درجةَ التزكّي التامّ ، وقيلَ : الضميرُ في لعلَّه للكافر فالمَعْنى أنك طمعتَ في أنْ يتزكَّى أو يذكرَ فتقربُه الذكرَى إلى قبولِ الحقّ ولذلكَ توليتَ عن الأَعْمى وما يُدريكَ أن ذلكَ مرجُوُ الوقوعِ ﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾ أي عن الإيمان وعما عندك من العلوم والمعارفِ التي ينطوي عليها القرآنُ ﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ أي تتصدَّى وتتعرضُ بالإقبالِ عليهِ والاهتمامِ بإرشادِه واستصلاحِه وفيه مزيدُ تنفيرٍ له عليه الصلاةُ والسلامُ عن مصاحبتِهم فإن الإقبالَ على المُدبرِ ليسَ من شيمِ الكبارِ وقُرِئَ تصَّدَّى بإدغام التاءِ في الصَّادِ وقُرِئَ تُصدى بضمِّ التاءِ أيْ تُعرضُ ومعناهُ يدعوكَ إلى التصدّي له داعٍ من الحرص والتهالكُ على إسلامِه ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى ﴾ وليسَ عليكَ بأسٌ في أنْ لا يتزكَّى بالإسلام حتَّى تهتمَّ بأمره وتعرضَ عمَّن أسلمَ والجملةُ حال من ضمير تصدى وقيل : ما استفهامية للإنكار أيْ أيُّ شيء عليك في أن لا يتزكى ومآله النفيُ أيضاً .

﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يسعى ﴾ أيْ حال كَونِه مسرعاً طالباً لما عندكَ من أحكام الرشدِ وخصالِ الخيرِ ﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ أي الله تعالَى وقيلَ : يخشَى أذيةَ الكفارِ في إتيانِك وقيلَ : يخشى الكبوةَ إذ لم يكن معهُ قائدٌ والجملةُ حالٌ من فاعلِ يسعَى كمَ أنه حالٌ من فاعل جاءك ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ تتشاغلُ يقالُ : لَهَى عنه والتهى وتَلَهَّى . وقُرِىءَ تتلهى وتلهى أي يُلهيك شأنُ الصناديدِ ، وفي تقديم ضميرِه عليه الصلاةُ والسلامُ على الفعلينِ تنبيهٌ على أنَّ مناطَ الإنكارِ خصوصيتُه عليه الصلاةُ والسلامُ أي مثلُك خصوصاً لا ينبغِي أن يتصدَّى للمستغنِي ويتلهَّى الفقيرَ الطالبَ للخيرِ وتقديمُ له وعنْهُ للتعريض باهتمامه عليه الصلاةُ والسلامُ بمضمونهما ، رُويَ أنه عليه الصلاةُ والسلامُ ما عبسَ بعد ذلكَ في وجهِ فقيرٍ قط ولا تصدَّى لغنى ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ له عليه الصلاةُ والسلامُ عمَّا عُوتبَ عليهِ من التصدّي لمن استغنَى عما دعاهُ إليهِ من الإيمانِ والطاعةِ وما يوجبهُما من القرآنِ الكريمِ مبالغاً في الاهتمامِ بأمرِه على إسلامِه معرضاً بسببِ ذلكَ عن إرشادِ من يسترشدُه وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظةٌ يجبُ أن يتعظَ بها ويعملَ بموجبها تعليلٌ للردعِ عما ذُكِرَ ببيانِ علوّ رتبةِ القرآنِ العظيمِ الذي استغنى عنه من تصدَّى عليه الصلاةُ والسلامُ لهُ وتحقيقُ أنَّ شأنَهُ يكونُ

موعظةً حقيقةً بالاتعاظِ بها فمن رغبَ فيها اتَّعظَ بها كما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي حفظَهُ واتَّعظَ بِهِ ومن رغبَ عنهَا كما فعلَ المستغنيُّ فلا حاجةَ إلى الاهتمامِ بأمرِه فالضميرانِ للقرآنِ وتأنيثُ الأولُ لتأنيثِ خبرِه وقيلَ : الأولُ للسورةِ أو للآياتِ السابقةِ والثانِي للتذكرةِ والتذكيرِ لأنها في مَعْنى الذكرِ والوعظِ وليسَ بذلكَ فإن السورةَ والآياتِ وإن كانتْ متصفةً بما سيأتِي من الصفاتِ

(126/802)

الشريفةِ لكنها ليستْ مما أُلقي على من استغنى عنه واستحقَ بسببِ ذلكَ ما سيأتِي من الدعاءِ عليهِ والتعجبِ من كفرِه المفرطِ لنزولِها بعد الحادثةِ وأما من جوَّز رجوعَهما إلى العتابِ المذكورِ فقد أخطأَ وأساءَ الأدبَ وخبطَ خبطاً يقضي منه العجبُ فتأمَّل وكُن على الحقِّ المبينِ .

وقولُه تعالَى : ﴿ فِى صُحُفٍ ﴾ متعلقٌ بمضمرٍ هُو صفةٌ لتذكرةٌ وما بينهما اعتراضٌ جِيء بِهِ للترغيبِ فيها والحثِّ على حفظِها أي كائنةٌ في صحفٍ منتسخةٍ من اللوحِ أو خبرٌ ثانٍ لأنَّ ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي في السماءِ السابعةِ ، أو مرفوعةِ المقدارِ والذكرِ ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ منزهةٍ عن مساسِ أيدِي الشياطينِ .

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ أي كتبةٍ من الملائكةِ ينتسخونَ الكتبَ من اللوحِ على أنه جمعُ سافرٍ من السفرِ وهو الكتبِ وقيل : بأيدِي رسلٍ من الملائكةِ يسفرونَ بالوحْي بينَهُ تعالَى وبين الأنبياءِ على أنه جمعُ سفيرٍ من السفارةِ وحملُهم على الأنبياءِ عليهم السلامُ بعيدٌ فإن وظيفتَهم التلقّي من الوَحْي لا الكتبُ منه وإرشادُ الأمةِ بالأمرِ والنّهي وتعليمُ الشرائعِ والأحكامِ لا مجردُ السفارةِ إليهم وكذا حملُهم على القراءِ لقراءتِهم الأسفارَ أو على أصحابِه عليه الصلاةُ والسلامُ وقد قالُوا : هذه اللفظةُ مختصةٌ بالملائكةِ لا تكادُ تطلقُ على غيرِهم وإن جازَ الإطلاقُ بحسبِ اللغةِ والباءُ متعلقةٌ بمطهرةٍ . قال القَفَّالُ : لما لم يمسَّها إلا الملائكةُ المطهرونَ أضيفَ التطهيرُ إليها لطهارة من يمسُّها ، وقال القرطبيُّ : إن المرادَ بما في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ هؤلاء السفرةُ الكرامُ البررةُ .

(127/802)

﴿ كِرَامٍ ﴾ عند الله عزَّ وجلَّ أو متعطفينَ على المؤمنينَ يكملونُهم ويستغفرونَ لهم ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أتقياءَ وقيل : مطيعينَ لله تعالى ، من قولهم : فلانٌ يبرُّ خالقَهُ أي يطيعُه وقيل : صادقينَ من برَّ في يمينه ﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ دعاءٌ عليه بأشنعِ الدعواتِ وقوله تعالى : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تعجبٌ من إفراطه في الكفران وبيانٌ لاستحقاقِه للدعاءِ عليه ، والمرادُ به إمَّا من

استغنَى عن القُرآن الكريمِ الذي ذُكرتْ نعوتُه الجليلةُ الموجبةُ للإقبال عليه والإيمان به . وإما الجنسُ باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده لا باعتبار جميعِ أفرادِه ، وفيه مع قصرِ متنه وتقاربِ قُطريه من الإنباءِ عن سخطٍ عظيمٍ ومذمةٍ بالغةٍ ما لا غايةَ وراءَهُ . وقولُه تعالَى : ﴿ مِنْ أَىّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ شروعٌ في بيانِ إفراطِه في الكفرانِ بتفصيلِ ما أفاضَ عليه من مبدأ فطرتِه إلى مُنْتهَى عمرِه من فُنونِ النعمِ الموجبةِ لقضاءِ حقِّها بالشكرِ والطاعةِ مع إخلالِه بذلكَ ، وفي الاستفهامِ عن مبدأ خلقِه ثم بيانِه بقولِه تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ تحقيرٌ له أيْ مِنْ أيِّ شيءٍ حَقيرٍ مهينٍ خلقَهُ من نطفةٍ مذرةٍ خلقَهُ ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ فهيَّأهُ لما يصلحُ لهُ ويليقُ به من الأعضاءِ والأشكالِ أو فقدَّرَهُ أطْواراً إلى أنْ تمَّ خلقُه . وقولُه تعالَى :

(128/802)

﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ منصوبٌ بمُضمرٍ يفسرُهُ الظاهرُ ، أيْ ثم سهَّلَ مخرجَهُ من البطنِ بأَنْ فتحَ فمَ الرحمِ وألهمَهُ أنْ ينتكسَ ، أو يسرَ له سبيلَ الخيرِ والشرِّ ، ومكَّنهُ من السلوكِ فيهما . وتعريفُ السبيلِ باللامِ دونَ الإضافةِ للإشعارِ بعمومِه . ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعلَهُ ذا قبرٍ يُوارَى فيه تكرمةً لهُ ولم يدعْهُ مطروحاً على وجهِ الأرضِ جزَراً للسباعِ والطيرِ كسائرِ الحيوانِ ، يقالُ قبرَ الميتَ إذا دفنَهُ وأقبرَهُ إذا أمرَ بدفنِه أو مكنَ منْهُ . وعدُّ الإماتةِ من النعمِ

لأنَّها وصلةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبديةِ والنعيمِ المقيمِ . ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أيْ إذا شاءَ إنشارَهُ أنشرَهُ على القاعدةِ المستمرةِ في حذفِ مفعولِ المشيئةِ ، وفي تعليقِ الإنشارِ بمشيئتِه تعالى إيذانٌ بأنَّ وقتَهُ غيرُ متعينٍ بلْ هُو تابعٌ لها . وقُرِىءَ نَشَرَهُ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليه . وقولُه تعالى : ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ بيانٌ لسببِ الرَّدعِ أي لم يقضِ بعدُ من لدنِ آدمَ عليهِ السَّلامُ إلى هذه الغايةِ مع طولِ المَدَى وامتدادِه ما أمرَهُ اللهُ تعالَى بأسرِه إذْ لا يخلُو أحدٌ من تقصيرٍ ما كذا قالُوا وهكَذا نُقلَ عن مجاهدٍ وقَتَادَةَ ولا ريبَ في أنَّ مساقَ الآياتِ الكريمةِ لبيانِ غايةِ عظيمِ جنايةِ الإنسانِ وتحقيقِ كُفرانِه المفرطِ المستوجبِ للسخطِ العظيمِ وظاهرٌ أنَّ ذلكَ لا يتحققُ بهذا القدرِ من نوعِ تقصيرٍ لا يخلُو عنْهُ أحدٌ من أفرادِه كيفَ لا وقَدْ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

(129/802)

" شيبتِني سورة هودٍ " لمَا فيهَا من قولِه تعالى : فاستقمْ كَما أُمرتَ . فالوجُه أنْ يحملَ عدمُ القضاءِ على عمومِ النفي لا على نفي العمومِ إمَّا عَلى أنَّ المحكومَ عليهِ هُو المستغني أو هو الجنسُ لكنْ لا عَلى الإطلاقِ بَلْ على أنَّ مصداقَ الحكمِ بعدمِ القضاءِ بعضُ أفرادِه وقد أُسندَ إلى الكُلِّ كَما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ للإشباعِ في اللومِ بحكمِ

المجانسةِ على طريقةِ قولِهم بنُو فلان قتلُوا فلاناً والقاتلُ واحدٌ منهم ، وإمَّا على أنَّ مصداقَهُ الكلُّ من حيثُ هو كلٌّ بطريقِ رفعِ الإيجابِ الكليِّ دونَ السلبِ الكليِّ ، فالمَعْنى لَمَّا يقضِ جميعُ أفرادِه ما أمرَهُ بل أخلَّ به بعضُها بالكفرِ والعصيانِ مع أنْ مُقتضَى ما فُصِّل من فنونِ النعماءِ الشاملةِ للكلِّ أنْ لا يتخلفَ عنه أحدٌ أصلاً . هذا وقد قيل كلاَّ بمَعْنى حقاً فيتعلقُ بما بعدَهُ أي حقَّاً لم يعملْ بما أمرَهُ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(130/802)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾

مبالغة في إرشاده صلى الله عليه وسلم إلى عدم معاودة ما عوتب عليه صلى الله عليه وسلم وقد نزل ذلك كما في خبر رواه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بعد أن قضى عليه الصلاة والسلام نجواه وذهب إلى أهله وجوز كونه إرشاداً بليغاً إلى ترك المعاتب عليه عليه الصلاة والسلام بناء على أن النزول في أثناء ذلك وقبل انقضائه وفي بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم بعد ما عبس في وجه فقير ولا تصدى لغني وتأدب الناس بذلك أدباً حسناً فقد روى عن سفيان الثوري أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء والضمير في قوله تعالى

: ﴿ أَنَّهَا ﴾ للقرآن العظيم والتأنيث لتأنيث الخبر أعني قوله سبحانه : ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي موعظة يجب أن يتعظ بها ويعمل بموجبها وكذا الضمير في قوله عز وجل :

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ والجملة المؤكدة تعليل لما أفادته كلا ببيان علو رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه من تصدى عليه الصلاة واللاسم له والجملة الثانية اعتراض جيء به للترغيب في القرآن والحث على حفظه أو الاتعاظ به واقتران الجملة المعترض بها بالفاء قد صرح به ابن مالك في "التسهيل" من غير نقل اختلاف فيه كلام الزمخشري في "الكشاف" عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر ﴾ نص في ذلك نعم قيل إنه قيل له فمن شاء ذكره اعتراض فقال لا لأن الاعتراض شطه أن يكون بالواو أو بدونه فأما بالفاء فلا أي وهو استطراد لكن تعقب بأن النقل لمنافاته ذلك ليس بثبت ويمكن أن يكون في القوم من ينكر ذلك فوافقه تارة وخالفه أخرى وما ألطف قول السعدي في التلويح الاعتراض يكون بالواو والفاء

.

فاعلم فعلم المرء ينفعه . . .

(131/802)

هذا وقيل الضمير الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة والتذكير لأنها بمعنى الذكر والوعظ أو لمرجع الأول والتذكير باعتبار كون ذلك قرآناً ورجح بعدم ارتكاب التأويل قبل الاحتياج إليه وتعقب بأنه ليس بذاك فإن السورة أو الآيات وإن كانت متصفة بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقى على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتي إن شاء الله تعالى من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وجوز كون الضميرين للمعاتبة الواقعة وتذكير الثاني لكونها عتاباً وفيه أنه يأباه الوصف بالصفات الآتية وإن كان باعتبار أن العتاب وقع بالآيات المذكورة قبل وهي متصفة بما ذكر جاء ما سمعت آنفاً وقيل لك أن تجعلهما للدعوة إلى الإسلام وتذكير الثاني لكونهما دعاء وهذا على ما فيه مما يأباه المقام وقوله تعالى :

﴿ فَى صُحُفٍ ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة أو خبر ثان لأن أي كائنة أو مثبتة في صحف والمراد به الصحف المنتسخة من اللوح المحفوظ وعن ابن عباس هي اللوح نفسه وهو غير ظاهر وقيل الصحف المنزلة على الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الاولين ﴾ [الشعراء : 196] وقيل صحف المسلمين على أنه إخبار بالغيب فإن القرآن بمكة لم يكن في الصحف وإنما كان متفرقاً في الدفاف والجريد ونحوهما وأول ما جمع في صحيفة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو كما ترى ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ عند الله عز وجل :

﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي في السماء السابعة كما قال يحيى بن سلام أو مرفوعة القدر كما قيل ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ منزهة عن مساس أيدي الشياطين أو عن كل دنس على ما روى عن الحسن وقيل عن الشبه والتناقص والأول قيل مأخوذ من مقابلته بقوله تعالى :

(132/802)

﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ أي كتبة من الملائكة عليهم السلام كما قال مجاهد وجماعة فإنهم ينسخون الكتب من اللوح وهو جمع سافر أي كاتب والمصدر السفر كالضرب وعن ابن عباس هم الملائكة المتوسطون بين الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام على أنه جمع سافر أيضاً بمعنى سفير أي رسول وواسطة والمشهور في مصدره بهذا المعنى السفارة بكسر السين وفتحها وجاء فيه السفر أيضاً كما في "القاموس" وقيل هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم سفراء بين الله تعال والأمة أو لأنهم يكتبون الوحي ولا يخفى بعده فإن الأنبياء عليهم السلام وظيفتهم التلقي من الوحي لا الكتب لما يوحى على أن خاتمهم صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب القرآن وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرد السفارة إليهم وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قيل لأنهم سفراء ووسائط بينه عليه الصلاة والسلام وبين سائر الأمة وقيل لأن بعضهم يسفر إلى بعض في

الخير والتعليم والتعلم وفي رواية عن قتادة أنهم القراء وكان القولين ليس بالمعول عليه وقد قالوا هذه اللفظة مختصة بالملائكة عليهم السلام لا تكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة ومادتها موضوعة بجميع تراكيبها لما يتضمن الكشف كسفرت المرأة إذ كشفت القناع عن وجهها والباء قيل متعلقة بمطهرة وقيل بمضمر هو صفة أخرى لصحف .

(133/802)

﴿ كِرَامٍ ﴾ أي أعزاء على الله تعالى معظمين عنده عز وجل فهو من الكرامة بمعنى التوقير أو متعطفين على المؤمنين يستغفرون لهم ويرشدونهم إلى ما فيه الخير بالإلهام وينزلون بما فيه تكميلهم من الشرائع فهو من الكرم ضد اللؤم ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أي أتقياء وقيل مطيعين لله تعالى من قولهم فلان يبر خالقه أي يطيعه وقيل صادقين من بر في يمينه وهو جمع بر لا غير وأما إبرار فيكون جمع بركوب وإرباب وجمع بار كصاحب وأصحاب وإن منعه بعض النحاة لعدم إطراده واختص على ما قيل الجمع الأول بالملائكة والثاني بالآدميين في القرآن ولسان الشارع صلى الله عليه وسلم وكان ذلك لأن الإبرار من صيغ القلة دون البررة ومتقو الملائكة أكثر من متقي الآدميين فناسب استعمال صيغة القلة وإن لم ترد حقيقتها في

الآدميين دونهم وقال الراغب خص البررة بهم من حيث أنه أبلغ من إبرار فإنه جمع بر وإبرار جم بار وبر أبلغ من بار كما أن عدلاً أبلغ من عادل وكأنه عنى أن الوصف ببر أبلغ لكونه من قبيل الوصف بالمصدر من الوصف ببار لكن قد سمعت أن إبراراً يكون جمع بر كما يكون جمع بار وأيضاً في كون الملائكة أحق بالوصف بالأبلغ بالنسبة إلى الآدميين مطلقاً بحث وقيل إن الأبرار أبلغ من البررة إذ هو جمع بار والبررة جمع بر وبار أبلغ منه لزيادة بنيته ولما كانت صفات الكمال في بني آدم تكون كاملة وناقصة وصفوا بالأبرار إشارة إلى مدحهم بأكمل الأوصاف وأما الملائكة فصفات المال فيهم لا تكون ناقصة فوصفوا بالبررة لأنه يدل على أصل الوصف بقطع النظر عن المبالغة فيه لعدم احتياجهم لذلك وإشارة لفظيلة البشر لما في كونهم إبراراً من المجاهدة وعصيان داعي الجبلة وفيه ما لا يخفى ومن استعمال البررة في الملائكة ما أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأه وهو

(134/802)

عليه شاق له أجران .

﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات وأفظعها ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تعجيب من إفراطه في الكفران وبيان لاستحقاقه الدعاء عليه والمراد به إما من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والايمان به وإما الجنس باعتبار انتظامه له ولأمثاله من أفراده ورجح هذا بأن الآية نزلت على ما أخرج ابن المنذر عن عكرمة في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كافر برب النجم إذا هوى فقال صلى الله عليه وسلم : "اللهم ابعث عليه كلبك حتى يفترسه" فلما كان في أثناء الطريق ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار أن أصبح حياً فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حول فأقبل أسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبو يندبه ويبكي عليه ويقول ما قال محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً قد إلا ان وسيأتي إن شاء الله تعالى خبر في هذه القصة أصول من هذا الخبر فلا تغفل ثم أن هذا كلام في غاية الإيجاز وقد قال جار الله لا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة مع تقارب طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر متنه حيث اشتمل على ما سمعت من الدعاء مراداً به إذ لا يتصور منه تعالى لازمه وعلى التعجب المراد به لاستحالته عليه سبحانه التعجيب لكل سامع وقال الإمام أن الجملة الأولى تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفاً والثانية تنبيه على أنهم

اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعاً ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن وما نسب إلى امرىء القيس من قوله :

يتمنى المرء في الصيف الشتا . . .

فإذا جاء الشتا أنكره

فهو لا يرضى بحال واحد . . .

قتل الإنسان ما أكفره

(135/802)

لا أصل له ومن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مولد أراد الاقتباس لا جاهلي وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ خبراً عن أنه سيقتل الكفار بإنزال آية القتال وعبر بالماضي مبالغة في أنه سيتحقق ذلك وليس بيء ونحوه ما قيل إن ما استفهامية أي أي شيء أكفره أي جعله كافراً بمعنى لا شيء يسوغ له أن يكفر وقوله تعالى :

﴿ مِنْ أَيّ شَيْء خَلَقَهُ ﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عز وجل عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النعم الموجبة لأن تقابل بالشكر والطاعة مع

إخلافه بذلك والاستفهام قيل للتحقير وذكر الجواب أعني قوله تعالى :

﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ لا يقتضي أنه حقيقي لأنه ليس بجواب في الحقيقة بل على صورته وهو بدل من قوله سبحانه من أي شيء خلقه وجوز أن يكون للتقرير والتحقير مستفاد من شيء المنكر وقيل التحقير يفهم أيضاً من قوله سبحانه من نطفة الخ أي من أي شيء حقير مهين خلقه من نطفة مذرة خلقه ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ فهيأه لما يصلح ويليق به من الأعضاء والأشكال فالتقدير بمعنى التهيئة لما يصلح ولذا ساغ عطفه بالفاء دون التسوية لأن الخلق بمعنى التقدير بهذا المعنى أو يتضمنه فلا تصلح الفاء وجوز أن يكون هذا تفصيلاً لما أجمل أولاً في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَيّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي فقدره أطواراً إلى أن أتم خلقه .

(136/802)

﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ أي ثم سهل مخرجه من البطن كما جاء في رواية عن ابن عباس بأن فتح فم الرحم ومدد الأعصاب في طريقه ونكس رأسه لأسفل بعد أن كان في جهة العلو وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وأبي صالح والسدي المراد بالسبيل سبيل النظر القويم المؤدي إلى الايمان وتيسيره له هو هبة العقل وتمكينه من النظر وقال مجاهد والحسن وعطاء وهو رواية عن الحبر أيضاً هو سبيل الهدي والضلال أي سهل له الطريق الذي يريد سلوكه من

طريق الخير والهدي وطريق الشر والضلال بأن أقدره عز وجل على كل ومكنه منه والإقدار على المراد نعمة ظاهرة بقطع النظر عن خيرته وشريته فلا يرد عليه أنه كيف يعد تسهيل طريق الشهر والضلال من النعم وقيل أنه عد منها لأنه لو لم يكن مسهلاً كسبيل الخير لم يستحق المدح والثواب بالإعراض عنه وتركه وهو مبني على القول بأن ترك المحرم كالزنا مع عدم القدرة عليه لعنة مثلاً لا يثاب عليه وقيل يثاب ويمدح عليه إذا قدر التارك في نفسه أنه لو تمكن لم يفعل وقال بعضهم العجز عن الشر نعمة وأنشد :

جكونه شكر ابن نعمت كزارم . . .

كه زور مردم أزاري ندارم

ونصب لسبيل بمضمر يفسره الظاهر وفيه مبالغة في التيسير وتمكين في النفس بسبب التكرير قيل وفي تعريفه باللام دون الإضافة إشعار بعمومه فأنه لو قيل سبيله أوهم أنه على التوزيع وإن لكل إنسان سبيلاً يخصه وخص بعضهم هذه النكتة بالمعنى الأخير للسبيل فتدبر وعلى هذا المعنى قيل إن فيه إيماء إلى أن الدنيا طريق والمقصد غيرها لما أشعرت به الآية من أن الميسر سبيل المكلفين الذي يترتب عليه الثواب والعقاب وفيه خفاء وأياً ما كان فالضمير المنصوب في يسره للسبيل وليس في التفكيك لبس حتى يكون نقصاً في البيان .

(137/802)

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعله ذا قبر توارى فيه جيفته تكرمة له ولم يجعله مطروحاً على الأرض يستقذره من يراه وتقتسمه السباع والطير إذا ظفرت كسائر الحيوان والمراد من جعله إذا قبر أمره عز وجل بدفنه يقال قبر الميت إذا دفنه بيده ومنه قول الأعشى

: لو أسندت ميتاً إلى نحرها . . .

عاش ولم ينقل إلى قابر

وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكن منه ففي الآية إشارة إلى مشروعية دفن الإنسان وهي مما لا خلاف فيه وأما دفن غيهر من الحيوانات فقيل هو مباح لا مكروه وقد يطلب لأمر مشروع يقتضيه كدفع أذى جيفته مثلاً وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم وخصت هذه النعم بالذكر لما فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه وما تتضمن من النعم التي هي محض فضل من الله تعالى فإذا تأمل ذلك العاقل علم قبح الكفر وكفران نعم الرب سبحانه وتعالى فشكره جل وعلا بالايمان والطاعة .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي ءذا شاء إنشاره أنشره على القاعدة المعروفة في حذف مفعول المشيئة وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذان بأن وقته غير معين أصلاً بل هو تابع لها وهذا بخلاف الإماتة فإن وقتها معين إجمالاً على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعية وكذا الحال في وقت الاقبار بل هو أظهر في ذلك وقرأ شعيب بن الحجاب كما في "كتاب

اللوامح" وابن أبي حمزة كما في تفسير بن عطية نشره بدون همزة وهما لغتان في الاحياء

وقوله تعالى :

(138/802)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من كفران النعم البالغ نهايته وقوله سبحانه : ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ بيان لسبب الردع ولما نافية جازمة ونفيها غير منقطع وما موصولة وضمير أمره إما للإنسان كالمستتر في يقض والعائد إلى الموصول محذوف أي به أو للموصول على الحذف والإيصال والعائد إلى الموصول والمراد بما أمره جميع ما أمره والمعنى على ما قال غير واحد لم يقض من أول زمان تكليفه إلى زمان أمانته وإقباره أو من لدن آدم عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميع ما أمره فلم يخرج من جميع أوامره تعالى إذ لا يخلو أحد عن تقصير ما ونقل هذا عن مجاهد وقتادة وفيه حمل عدم القضاء على نفي العموم وتعقب بأنه لا ريب في أن مساق الآيات الكريمة لبيان غاية عظم الإنسان وتحقيق كفرانه المفرط المستوجب للسخط العظيم وظاهر أن ذلك لا يتحقق بهذا القدر من نوع تقصير لا يخلو عنه أحد من أفراده واختير أن يحمل عدم القضاء على عموم النفي أما على أن المحكوم عليه هو الإنسان المستغني أو هو الجنس لكن لا على الإطلاق بل على أن

مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده وقد أسند إلى الكل كما في قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ [إبراهيم : 34] وأما على أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الايجاب الكلي دون السلب الكلي فالمعنى لما يقض جميع أفراده ما أمره بل أخل به بضعها بالكفر والعصيان مع أن مقتضى ما فصل من فنون النعماء الشاملة للكل أن لا يتخلف عنه أحد وعن الحسن أن ﴿ كَلاَّ ﴾ بمعنى حقاً فيتعلق بما بعده أي حق لم يعمل بما أمره به وقال ابن فورك الضمير يقض لله تعالى أي لم يقض الله تعالى لهذا الكافر ما أمره به من الايمان بل أمره إقامة للحجة عليه بما لم يقض له ولا يخفى بعده والظاهر عليه أن ﴿ كَلاَّ ﴾ بمعنى حقاً أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(139/802)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) ﴾

﴿ تلهى ﴾ .

إبطال وقد تقدم ذكر (كلاّ) في سورة مريم (79 82) ، وتقدم قريباً في سورة النبأ (4 ، 5) ، وهو هنا إبطال لما جرى في الكلام السابق ولو بالمفهوم كما في قوله : ﴿ وما يدريك

لعله يزكى ﴾ [عبس : 3] .

ولو بالتعريض أيضاً كما في قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾ [عبس : 1] .

وعلى التفسير الثاني المتقدم ينصرف الإبطال إلى ﴿ عبس وتولى ﴾ خاصة .

ويجوز أن يكون تأكيداً لقوله : ﴿ وما عليك ألاَّ يزكى ﴾ [عبس : 7] على التفسيرين ، أي لا تظن أنك مسؤول عن مكابرته وعناده فقد بلَّغت ما أمرتَ بتبليغه .

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ ﴾ .

استئناف بعد حرف الإبطال ، وهو استئناف بياني لأن ما تقدم من العتاب ثم ما عقبه من الإبطال يثير في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم الحيرة في كيف يكون العمل في دعوة صناديد قريش إذا لم يتفرغ لهم لئلا ينفروا عن التدبر في القرآن ، أو يثير في نفسه مخافة أن يكون قصَّر في شيء من واجب التبليغ .

وضمير ﴿ إنها ﴾ عائد إلى الدعوة التي تضمنها قوله : ﴿ فأنت له تصدى ﴾ [عبس : 6] .

ويجوز أن يَكون المعنى : أن هذه الموعظة تذكرة لك وتنبيه لما غفلت عنه وليست ملاماً وإنما يعاتب الحبيبُ حبيبَه .

ويجوز عندي أن يكون ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ استئنافاً ابتدائياً موجهاً إلى من كان النبي

صلى الله عليه وسلم يدعوه قُبيل نزول السورة فإنه كان يَعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومَن معه ، وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم ولا يصدقون بالبعث ، فتكون (كلاّ) إبطالاً لما نَعتوا به القرآن من أنه أساطير الأولين أو نحوِ ذلك .

(140/802)

فيكون ضمير ﴿ إنها تذكرة ﴾ عائداً إلى الآيات التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن .

ويؤيد هذا الوجهَ قولُه تعالى عَقبه : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] الآيات حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث .

فكان تأنيث الضمير نكتةً خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني .

والضمير الظاهر في قوله : ﴿ ذكره ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ تذكرة ﴾ لأن مَا صَدْقَها القرآن الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرضه على صناديد قريش قُبيل نزول هذه السورة ، أي فمن شاء ذكرَ القرآن وعمل به .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الله تعالى فإن إعادة ضمير الغيبة على الله تعالى دون ذِكر معاده في الكلام كثير في القرآن لأن شؤونه تعالى وأحكامه نزل القرآن لأجلها فهو ملحوظ

لكل سامع للقرآن ، أي فمن شاء ذكر الله وتوخّى مرضاته .

والذِكر على كلا الوجهين : الذكر بالقلب ، وهو توخّي الوقوف عند الأمر والنهي .

وتعدية فعل (ذكر) إلى ذلك الضمير على الوجهين على حذف مضاف يناسب المقام .

والذي اقتضى الإِتيانَ بالضمير وكونه ضمير مذكر مراعاةُ الفواصل وهي : ﴿ تذكرهْ ، مطهرهْ ، سفرهْ ، بررهْ ﴾ .

وجملة : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ معترضة بين قوله : ﴿ تذكرة ﴾ وقوله : ﴿ في صحف ﴾ .

والفاء لتفريع مضمون الجملة على جملة ﴿ إنها تذكرة ﴾ فإن الجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الفاء قائماً ، فالفاء من جملة الاعتراض ، أي هي تذكرة لك بالأصالة وينتفع بها من شاء أن يتذكر على حسب استعداده ، أي يتذكر بها كل مسلم كقوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] .

وفي قوله : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ تعريض بأن موعظة القرآن نافعة لكل أحد تجرد عن العناد والمكابرة ، فمن لم يتعظ بها فلأنه لم يشأ أن يتعظ .

(141/802)

وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات : 45] وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوير : 28] وقوله : ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ [الحاقة : 48] ونحوه كثير ، وقد تقدم قريب منه في قوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ في سورة الإنسان (29) .

والتذكرة : اسم لما يُتذكر به الشيءُ إذا نُسي .

قال الراغب : وهي أعم من الدلالة والأمارة قال تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾ وتقدم نظيره في سورة المدثر (49) .

وكل من تذكرة ﴾ و ﴿ ذكره ﴾ هو من الذكر القلبي الذي مصدره بضم الدال في الغالب ، أي فمن شاء عمل به ولا ينسه .

والصحف : جمع صحيفة ، وهي قطعة من أديم أو وَرَق أو خرقةٌ يكتب فيها الكتاب ، وقياس جمعها صحائف ، وأما جمعها على صحف فمخالف للقياس ، وهو الأفصح ولم يرد في القرآن إلا صُحف ، وسيأتي في سورة الأعلى ، وتطلق الصحيفة على ما يكتب فيه .

و ﴿ مطهرة ﴾ اسم مفعول مِن طَهَّره إذا نظَّفه .

والمراد هنا : الطهارة المجازية وهي الشرف ، فيجوز أن يحمل الصحف على حقيقته فتكون أوصافها بـ ﴿ مُكرمة ، مرفوعة ، مطهرة ﴾ محمولة على المعاني المجازية وهي

معاني الاعتناء بها كما قال تعالى : ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ [النمل : 29] .

وتشريفها كما قال تعالى : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ [المطففين : 18] وقُدسِيةِ معانيها كما قال تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ [البقرة : 129] ، وكان المرادُ بالصحف الأشياء التي كتب فيها القرآن من رقوق وقراطيسَ ، وأكتاف ، ولِخاف ، وجريد .

فقد روي أن كتَّاب الوحي كانوا يكتبون فيها كما جاء في خبر جمع أبي بكر للمصحف حين أمر بكتابته في رقوق أو قراطيس ، ويكون إطلاق الصحف عليها تغليباً ويكون حرف (في) للظرفية الحقيقية ويكون المراد بالسفرة جمع سافر ، أي كاتب ، وروي عن ابن عباس .

(142/802)

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سفر (بكسر السين) وللكاتب سَافر ؛ لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه يقال : أسفر الصبح ، إذا أضاء وقاله الفراء .

ويجوز أن يراد بالصحف كتب الرسل الذين قبل محمد صلى الله عليه وسلم مثل التوراة والإِنجيل والزبور وصحف إبراهيم عليه السلام .

فتكون هذه الأوصاف تأييداً للقرآن بأن الكتب الإلهية السابقة جاءت بما جاء به .

ومعنى كون هذه التذكرة في كتب الرسل السابقين : أن أمثال معانيها وأصولها في كتبهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 18 19] وكما قال : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ [الشعراء : 196] وكما قال : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [الشورى : 13] .

ويجوز أن يراد بالصحف صحفٌ مجازية ، أي ذوات موجودةٌ قدسيةٌ يتلقى جبريل عليه السلام منها القرآن الذي يؤمر بتبليغه للنبيء صلى الله عليه وسلم ويكون إطلاق الصحف عليها لشبهها بالصحف التي يكتب الناس فيها .

ومعنى ﴿ مكرمة ﴾ عناية الله بها ، ومعنى ﴿ مرفوعة ﴾ أنها من العالم العلوي ، ومعنى ﴿ مطهرة ﴾ مقدسة مباركة ، أي هذه التذكرة مما تضمنه علم الله وما كتبه للملائكة في صحف قدسية .

وعلى الوجهين المذكورين في المراد بالصحف (فَسَفَرة) يجوز أن يكون جمع سَافر ، مثل كاتب وكَتبة ، ويجوز أن يكون اسم جمع سَفير ، وهو المرسَل في أمر مهم ، فهو فَعيل بمعنى فاعل ، وقياس جمعه سفراء وتكون (في) للظرفية المجازية ، أي المماثلة في المعاني .

وتأتي وجوهٌ مناسبة في معنى ﴿ سفرة ﴾ ، فالمناسب للوجه الأول : أن يكون السفرة

كتاب القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن يكون المراد قراءُ القرآن ، وبه فسر قتادة وقال : هم بالنبطية القُراء ، وقال غيرهم : الوراقون باللغة العبرانية .

(143/802)

وقد عدت هذه الكلمة في عداد ما ورد في القرآن من المعرّب كما في "الإِتقان" عن ابن أبي حاتم ، وقد أغفلها السيوطي فيما استدركه على ابن السبكي وابن حجر في نظميهما في المعرَّب في القرآن أو قَصد عدم ذكرها لوقوع الاختلاف في تعريبها .

والمناسب للوجه الثاني : أن يكون محمله الرسل .

والمناسب للوجه الثالث : أن يكون محمله الملائكة لأنهم سفراءُ بين الله ورسله .

والمراد بأيديهم : حِفْظهم إياه إلى تبليغه ، فمثّل حال الملائكة بحال السفراء الذين يحملون بأيديهم الألوك والعُهود .

وإما أن يراد : الرسلُ الذين كانت بأيديهم كتُبهم مثل موسى وعيسى عليهما السلام .

وإما أن يراد كتَّاب الوحي مثل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمر وعثمان وعلي وعامر بن فهيرة .

وكان بعض المسلمين يكتب ما يتلقاه من القرآن ليدرسه مثل ما ورد في حديث إسلام عمر

بن الخطاب من عُثُوره على سورة طه مكتوبة عند أخته أم جميل فاطمة زوج سعيد بن زيد .

وفي وصفهم بالسفرة ثناء عليهم لأنهم يبلغون القرآن للناس وهم حفاظه ووعاته قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ [العنكبوت : 49] فهذا معنى السفرة .

وفيه بشارة بأنهم سينشرون الإِسلام في الأمم وقد ظهر مما ذكرنا ما لكلمة ﴿ سفرة ﴾ من الوقع العظيم المعجز في هذا المقام .

ووصف ﴿ كرام ﴾ مما وصف به الملائكة في آيات أخرى كقوله تعالى ﴿ كراماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 11] .

ووصف البرَرة ورد صفةً للملائكة في الحديث الصحيح قوله : " الذي يقرأ القرآن وهو ماهِر به مع السَفرة الكرام البرَرَة " .

والبررة : جمع بَرّ ، وهو الموصوف بكثرة البرور .

وأصل بَرّ مصدر بَرَّ يبَرّ من باب فَرح ، ومصدره كالفَرح ، فهذا من باب الوصف بالمصدر مثل عَدل وقد اختص البررة بجمع بَرّ ولا يكون جمع بارّ .

والغالب في اصطلاح القرآن أن البررة الملائكةُ والأبرارَ الآدميون .

قال الراغب : "لأن بررة أبلغ من أبرار إذ هو جمع بَرّ ، وأبرار جمع بَار ، وبَرّ أبلغ من بار كما أن عَدلا أبلغ من عادل" .

وهذا تنويه بشأن القرآن لأن التنويه بالآيات الواردة في أول هذه السورة من حيث إنها بعض القرآن فأثني على القرآن بفضيلة أثَره في التذكير والإرشاد ، وبرفعة مكانته ، وقدس مصدره ، وكرم قراره ، وطهارته ، وفضائل حَمَلَتِه ومبلغيه ، فإن تلك المدائح عائدة إلى القرآن بطريق الكناية .

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22)

استئناف ابتدائي نشأ عن ذكر من استغنى فإنه أريد به معين واحد أو أكثرُ ، وذلك يبيّنه مَا وقع من الكلام الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين صناديد المشركين في المجلس الذي دخل فيه ابن أم مكتوم .

والمناسبة وصفُ القرآن بأنه تذكرة لمن شاء أن يتذكر ، وإذ قد كان أكبر دواعيهم على التكذيب بالقرآن أنه أخبر عن البعث وطالَبهم بالإيمان به كان الاستدلال على وقوع البعث أهم ما يعتنى به في هذا التذكير وذلك من أفنان قوله : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ [عبس : 12] .

والذي عُرِّف بقوله : ﴿ من استغنى ﴾ [عبس : 5] يشمله العموم الذي أفاده تعريف ﴿ الإنسان ﴾ من قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ .

وفعل قُتل فُلانٌ أصله دعاء عليه بالقتل .

والمفسرون الأولون جعلوا : ﴿ قتل الإنسان ﴾ أنه لُعِن ، رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله مجاهد وقتادة وأبو مالك .

قال في "الكشاف" : "دعاء عليه وهذا من أشنع دعواتهم" ، أي فمورده غير مورد قوله تعالى : ﴿ قاتلهم اللَّه ﴾ [التوبة : 30] وقولِهم : قاتَل الله فلاناً يريدون التعجب من حاله ، وهذا أمر مرجعه للاستعمال ولا داعي إلى حمله على التعجيب لأن قوله : ﴿ ما أكفره ﴾ يغني عن ذلك .

(145/802)

والدعاء بالسوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتهديد لظهور أن حقيقة الدعاء لا تناسب الإلهية لأن الله هو الذي يتوجه إليه الناس بالدعاء .

وبناء ﴿ قتل ﴾ للمجهول متفرع على استعماله في الدعاء ، إذ لا غرض في قاتِل يَقتله ، وكثر في القرآن مبنياً للمجهول نحو ﴿ فقتل كيف قدر ﴾ [المدثر : 19] .

وتعريف ﴿ الإنسان ﴾ يجوز أن يكون التعريفَ المسمى تعريفَ الجنس فيفيد استغراق جميع أفراد الجنس ، وهو استغراق حقيقي ، وقد يراد به استغراق معظم الأفراد بحسب القرائن فتولَّدَ بصيغة الاستغراق ادعاء لعدم الاعتداد بالقليل من الأفراد ، ويسمى الاستغراق العرفي في اصطلاح علماء المعاني ، ويسمى العامَّ المرادَ به الخصوص في اصطلاح علماء الأصول والقرينة هنا ما يُبين به كفر الإنسان من قوله : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ فيكون المراد من قوله : ﴿ الإنسان ﴾ المشركين المنكرين البعث ، وعلى ذلك جملة المفسرين ، فإن معظم العرب يومئذ كافرون بالبعث .

قال مجاهد : ما كان في القرآن ﴿ قتل الإنسان ﴾ فإنما عُني به الكافر .

والأحكام التي يحكم بها على الأجناس يراد أنها غالبة على الجنس ، فالاستغراق الذي يقتضيه تعريف لفظ الجنس المحكوم عليه استغراق عرفي معناه ثبوت الحكم للجنس على الجملة ، فلا يقتضي اتصاف جميع الأفراد به ، بل قد يخلو عنه بعض الأفراد وقد يخلو عنه المتصف به في بعض الأحيان ، فقوله : ﴿ ما أكفره ﴾ تعجيب من كفر جنس الإنسان أو شدة كفره وإن كان القليل منه غير كافر .

فآل معنى الإنسان إلى الكفار من هذا الجنس وهم الغالب على نوع الإنسان .

فغالب الناس كفروا بالله من أَقدم عصور التاريخ وتفَشَّى الكفر بين أفراد الإنسان وانتصروا له وناضلوا عنه .

ولا أعجبَ من كفر من أَلَّهوا أعْجز الموجودات من حجارة وخشب ، أو نَفَوا أن يكون لهم رب خلقهم .

(146/802)

ويجوز أن يكون تعريف ﴿ الإنسان ﴾ تعريف العهد لشخص معين من الإنسان يُعيِّنه خبر سبب النزول ، فقيل : أريد به أميةُ بن خلف ، وكان ممن حواه المجلس الذي غشيه ابن أم مكتوم ، وعندي أن الأولى أن يكون أراد به الوليد بن المغيرة .

وعن ابن عباس أن المراد عتبة بن أبي لهب ، وذكر في ذلك قصة لا علاقة لها بخبر المجلس الذي غشيه ابن أم مكتوم ، فتكون الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، والمناسبة ظاهرة .

وجملة ﴿ ما أكفره ﴾ تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد .

وهذا تعجيب من شدة كفر هذا الإنسان .

ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كَمّاً وكَيْفاً ، ومتىً ، لأنه كفر بوحدانية الله ، وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء ، وبإرساله الرسول ، وبالوحي إليه صلى الله عليه وسلم وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح ، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإِنذار والتهديد .

وهذه الجملة بلغت نهاية الإِيجاز وأرفع الجزالة بأسلوب غليظ دال على السخط بالغ حدّ المذمة ، جامع للملامة ، ولم يسمع مثلها قبلها ، فهي من جوامع الكلم القرآنية .

وحذف المتعلِّق بلفظ ﴿ أكفره ﴾ لظهوره من لفظ "أكفَرَ" وتقديرُه : ما أكفره بالله .

وفي قوله : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ محسّن الاتِّزَان فإنه من بحر الرمل من عروضه الأولى المحذوفة .

وجملة ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ بيان لجملة ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ ، لأن مفاد هذه الجملة الاستدلال على إبطال إحالتهم البعث وذلك الإِنكار من أكبر أصول كفرهم .

وجيء في هذا الاستدلال بصورة سؤال وجواب للتشويق إلى مضمونه ، ولذلك قرن الاستفهام بالجواب عنه على الطريقة المتقدمة في قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : 21] .

(147/802)

والاستفهام صوري ، وجعل المستفهم عنه تعيين الأمر الذي به خلق الإنسان لأن المقام هنا ليس لإِثبات أن الله خلق الإِنسان ، بل المقام لإِثبات إمكان إعادة الخلق بتنظيره بالخلق الأول على طريقة قوله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] أي كما كان خلق

الإنسان أول مرة من نطفة يكون خلقه ثاني مرة من كائن مَّا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإِنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ في سورة الطارق (85) .

والضمير المستتر في قوله : خلقه ﴾ عائد إلى الله تعالى المعلوم من فعل الخلق لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق الإنسان .

وقدم الجار والمجرور في قوله : ﴿ من نطفة خلقه ﴾ محاكاة لتقديم المبيَّن في السؤال الذي اقتضى تقديمَه كونُه استفهاماً يستحق صدر الكلام ، مع الاهتمام بتقديم ما منه الخلق ، لما في تقديمه من التنبيه للاستدلال على عظيم حكمة الله تعالى إذ كوّن أبدع مخلوقٍ معروف من أهون شيء وهو النطفة .

وإنما لم يستغن عن إعادة فعل خلقه في جملة الجواب مع العلم به بتقدم ذكر حاصله في السؤال لزيادة التنبيه على دقة ذلك الخلق البديع .

فذكر فعل ﴿ خلقه ﴾ الثاني من أسلوب المساواة ليس بإيجاز ، وليس بإطناب .

والنطفة : الماء القليل ، وهي فُعلة بمعنى مفعولة كقولهم : قُبضةُ حَب ، وغُرفة ماء .

وغلب إطلاق النطفة على الماء الذي منه التناسل ، فذُكرت النطفة لتعيُّن ذكرها لأنها مادة خلق الحيوان للدلالة على أن صنع الله بديع فإمكان البعث حاصل ، وليس في ذكر النطفة

هنا إيماء إلى تحقير أصل نشأة الإنسان لأن قصد ذلك محل نظر ، على أن المقام هنا للدلالة على خلقٍ عظيم وليس مقام زجر المتكبر .

(148/802)

وفُرع على فعل ﴿ خلقه ﴾ فعلُ ﴿ فقدره ﴾ بفاء التفريع لأن التقدير هنا إيجاد الشيء على مقدار مضبوط منظم كقوله تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [الفرقان : 2] أي جعل التقدير من آثار الخلق لأنه خلقه متهيئاً للنماء وما يلابسه من العقل والتصرف وتمكينه من النظر بعقله ، والأعمال التي يريد إتيانها وذلك حاصل مع خلقه مدرَّجاً مفرعاً .

وهذا التفريع وما عطف عليه إدماج للامتنان في خلال الاستدلال .

وحرف ﴿ ثم ﴾ من قوله : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ للتراخي الرتبي لأن تيسير سبيل العمل الإنساني أعجب في الدلالة على بديع صنع الله لأنه أثَرُ العقل وهو أعظم ما في خلق الإنسان وهو أقوى في المنة .

و﴿ السبيل ﴾ : الطريق ، وهو هنا مستعار لما يفعله الإنسان من أعماله وتصرفاته تشبيهاً للأعمال بطريق يمشي فيه الماشي تشبيهَ المحسوس بالمعقول .

ويجوز أن يكون مستعاراً لمسقط المولود من بطن أمه فقد أطلق على ذلك المَمر اسم السبيل في قولهم : "السبيلان" فيكون هذا من استعمال اللفظ في مجازيه .

وفيه مناسبة لقوله بعده : ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ ، ف ﴿ أماته ﴾ مقابل ﴿ خلقه ﴾ و ﴿ أقبره ﴾ مقابل ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ لأن الإِقبار إدخال في الأرض وهو ضد خروج المولود إلى الأرض .

والتيسير : التسهيل ، و ﴿ السبيل ﴾ منصوب بفعل مضمر على طريق الاشتغال ، والضمير عائد إلى ﴿ السبيل ﴾ .

والتقدير : يسّر السبيل له ، كقوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ [القمر : 17] أي لذِكر الناس .

وتقديم ﴿ السبيل ﴾ على فعله للاهتمام بالعبرة بتيسير السبيل بمعنييه المجازيين ، وفيه رعاية للفواصل .

وكذلك عطف ﴿ ثم أماته ﴾ على ﴿ يسره ﴾ بحرف التراخي هو لتراخي الرتبة فإن انقراض تلك القُوى العقلية والحسيّة بالموت ، بعد أن كانت راسخة زمناً ما ، انقراض عجيب دون تدريج ولا انتظارِ زمانٍ يساوي مدة بقائها ، وهذا إدماج للدلالة على عظيم القدرة .

ومن المعلوم بالضرورة أن الكثير الذي لا يُحصى من أفراد النوع الإنساني قد صار أمره إلى الموت وأن من هو حيّ آيل إلى الموت لا محالة ، فالمعنى : ثم أماته ويُميته .

فصيغة المضي في قوله : ﴿ أماته ﴾ مستعملة في حقيقته وهو موت من مات ، ومجازِه وهو موت من سيموتون ، لأن موتهم في المستقبل محقق .

وذكر جملة : ﴿ ثم أماته ﴾ توطئة وتمهيد لجملة ﴿ فأقبره ﴾ .

وإسناد الإماتة إلى الله تعالى حقيقة عقلية بحسب عرف الاستعمال .

وهذا إدماج للامتنان في خلال الاستدلال كما أدمج : ﴿ فقدره ثم السبيل يسره ﴾ فيما سبق .

و ﴿ أقبره ﴾ جعله ذا قبر ، وهو أخص من معنى قَبَره ، أي أن الله سَبّب له أن يقبر .

قال الفراء : "أي جعله مقبوراً ، ولم يجعله ممن يُلقى للطير والسباع ولا ممن يلقى في النواويس" (جمع ناووس صندوق من حجر أو خشب يوضع فيه الميت ويجعل في بيت أو نحوه) .

والإِقبار : تهيئة القبر ، ويقال : أقبره أيضاً ، إذا أمر بأن يُقبر ، ويقال : قبر المَيت ، إذا دفنه ، فالمعنى : أن الله جعل الناس ذوي قبور .

وإسناد الإِقبار إلى الله تعالى مجاز عقلي لأن الله ألهم الناس الدَّفن كما في قصة دفن أحد ابني آدم أخاه بإلهام تقليده لفعل غراب حفر لغراب آخر ميتتٍ حفرةً فواراه فيها ، وهي في

سورة العقود ، فأسند الإِقبار إلى الله لأنه ألهم الناس إياه .

وأكد ذلك بما أمر في شرائعه من وجوب دفن المَيت .

والقول في أن صيغة المضي مستعملة في حقيقتها ومجازها نظير القول في صيغة ﴿ أماته ﴾ .

(150/802)

وهذه كلها دلائل على عظيم قدرة الله تعالى وهم عَدوها قاصرة على الخلق الثاني ، وهي تتضمن مناً على الناس في خلقهم وتسويتهم وإكمال قواهم أحياء ، وإكرامهم أمواتاً بالدفن لئلا يكون الإنسان كالشيء اللّقي يجتنب بنو جنسه القرب منه ويهينه التقام السباع وتمزيق مخالب الطير والكلاب ، فمحل المنة في قوله : ﴿ ثم أماته ﴾ هو فيما فرع عليه بالفاء بقوله : ﴿ فأقبره ﴾ وليست الإِماتة وحدها منة .

وفي الآية دليل على أن وجوب دفن أموات الناس بالإِقبار دون الحرق بالنار كما يفعل مجوس الهند ، ودون الإِلقاء لسباع الطير في ساحات في الجبال محوطة بجدران دون سقف كما كان يفعله مجوس الفرس وكما كان يفعله أهل الجاهلية بموتى الحروب والغارات في الفيافي إذ لا يوارونهم بالتراب وكانوا يفتخرون بذلك ويتمنونه قال الشنفَرَى :

لا تقبروني إن قبري محرَّم

عليكم ولكن أبشري أمَّ عامر . . .

يريد أن تأكله الضبع ، وأبطل الإسلام ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم دفَن شهداء المسلمين يوم أحد في قبور مشتركة ، ووارَى قتلى المشركين ببدر في قليب ، قال عمرو بن معديكرب قبل الإِسلام :

آليتُ لا أدفِن قتلاكُمُ

فدَخِّنُوا المَرْءَ وسِرْبَالَه . . .

وجملة : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ رجوع إلى إثبات البعث وهي كالنتيجة عقب الاستدلال .

ووقع قوله : ﴿ إذا شاء ﴾ معترضاً بين جملة ﴿ أماته ﴾ وجملة : ﴿ أنشره ﴾ لرد توهم المشركين أن عدم التعجيل بالبعث دليل على انتفاء وقوعه في المستقبل و (إذا) ظرف للمستقبل ففعل المضي بعدها مؤول بالمستقبل .

والمعنى : ثم حين يشاء ينشره ، أي ينشره حين تتعلق مشيئته بإنشاره .

و ﴿ أنشره ﴾ بعثه من الأرض وأصل النشر إخراج الشيء المخبأ يقال : نشر الثوب ، إذ أزال طيّه ، ونشر الصحيفة ، إذا فَتحها ليقرأها .

ومنه الحديث : " فنشروا التوراة " .

وأما الإِنشار بالهمز فهو خاص بإخراج الميت من الأرض حيّاً وهو البعث ، فيجوز أن يقال : نُشِر الميت ، والعَرب لم يكونوا يعتقدون إحياء الأموات إلا أن يكونوا قد قالوه في تخيلاتهم التوهمية .

فيكون منه قول الأعشى :

حتى يقول الناس ممّا رأوا

يا عَجَباً للْمَيّتِ النّاشِر . . .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ [هود : 7] .

وفي قوله : ﴿ إذا شاء ﴾ ردّ لشبهتهم إذ كانوا يطلبون تعجيل البعث تحدياً وتهكماً ليجعلوا عدم الاستجابة بتعجيله دليلاً على أنه لا يكون ، فأعلمهم الله أنه يقع عندما يشاء الله وقوعه لا في الوقت الذي يسألونه لأنه موكول إلى حكمة الله ، واستفادة إبطال قولهم من طريق الكناية .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)

تفسير هذه الآية معضل وكلمات المفسرين والمتأولين فيها بعضها جَافَّ المَنال ، وبعضها جاففٍ عن الاستعمال .

ذلك أن المعروف في ﴿ كلاَّ ﴾ أنه حرف ردع وزجر عن كلام سابق أو لاحق ، وليس فيما تضمنه ما سبقها ولا فيما بعدها ما ظاهره أن يُزجر عنه ولا أن يُبطل ، فتعين المصير إلى تأويل مورد ﴿ كَلاَّ ﴾ .

فأما الذين التزموا أن يكون حرف ﴿ كَلاَّ ﴾ للردع والزجر وهم الخليل وسيبويه وجمهور نحاة البصرة ويجيزون الوقف عليها كما يجيزون الابتداء بها ، فقد تأولوا هذه الآية وما أشبهها بتوجيه الإِنكار إلى ما يُومىء إليه الكلام السابق أو اللاحق دون صريحه ولا مضمونه .

فمنهم من يجعل الردع متوجهاً إلى ما قبل ﴿ كَلاَّ ﴾ مّما يومىء إليه قوله تعالى : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ [عبس : 22] ، أي إذا شاء الله ، إذ يومىء إلى أن الكافر ينكر أن ينشره الله ويعتلَّ بأنه لم ينشر أحداً منذ القدم إلى الآن .

وهذا الوجه هو الجاري على قول البصريين كما تقدم .

وموقع ﴿ كَلاَّ ﴾ على هذا التأويل موقع الجواب بالإِبطال ، وموقع جملة : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ موقع العلة للإِبطال ، أي لو قَضَى ما أمره الله به لعِلم بطلان زعمه أنه لا ينشر .

وتأوله في "الكشاف" بأنه : "ردْع للإِنسان عما هو عليه" أي مِمَّا ذكر قبله من شدة كفره واسترساله عليه دون إقلاع ، يريد أنه زجر عن مضمون : ﴿ ما أكفره ﴾ [عبس : 17] .

ومنهم من يجعل الردع متوجهاً إلى ما بعد ﴿ كلاّ ﴾ مما يومىء إليه قوله تعالى : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ أي ليس الأمر كما يقول هذا الإِنسان الكافر من أنه قد أدى حق الله الذي نبهه إليه بدعوة الرسل وبإيداع قوة التفكير فيه ، ويُتسروح هذا من كلام روي عن مجاهد ، وهو أقرب لأن ما بعد ﴿ كَلاَّ ﴾ لما كان نفياً ناسب أن يُجعل ﴿ كلاّ ﴾ تمهيداً للنفي .

وموقع ﴿ كلاّ ﴾ على هذا الوجه أنها جزء من استئناف .

وموقع جملة : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ استئناف بياني نشأ عن مضمون جملة : ﴿ من أي شيء خلقه إلى قوله : أنشره ﴾ [عبس : 18 22] ، أي إنما لم يَهتد الكافرُ إلى دلالة الخلق الأول على إمكانِ الخلق الثاني ، لأنه لم يقض حق النظر الذي أمره الله .

وأما الذين لم يلتزموا معنى الزجر في ﴿ كلاّ ﴾ وهم الكسائي القائل : تكون ﴿ كلاّ ﴾ بمعنى حقاً ، ووافقه ثعلب وأبو حاتم السجستاني القائل : تكون ﴿ كلا ﴾ بمعنى (ألاّ) الاستفتاحية .

والنضر بن شميل والفرّاء القائلان : تكون ﴿ كلاّ ﴾ حَرفَ جواب بمعنى نعم .

فهؤلاء تأويل الكلام على رأيهم ظاهر .

وعن الفراء ﴿ كلاّ ﴾ تكون صلة (أي حرفاً زائداً للتأكيد) كقولك : كلاَّ ورب الكعبة ا

ه .

وهذا وجه إليه ولا يتأتى في هذه الآية .

فالوجه في موقع ﴿ كلاّ ﴾ هنا أنه يجوز أن تكون زجراً عما يفهم من قوله:

(153/802)

﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ [عبس : 22] المكنى به عن فساد استدلالهم بتأخيره على أنه لا يقع فيكون الكلام على هذا تأكيداً للإِبطال الذي في قوله : ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ [عبس : 11] باعتبار معناه الكنائي إن كان صريح معناه غيرَ باطل فقوله : ﴿ إذا شاء ﴾ مؤذن بأنه الآن لم يشأ وذلك مؤذن بإبطال أن يقع البعث عندما يسألون وقوعه ، أي أنا لا نشاء إنشارهم الآن وإنما ننشرهم عندما نشاء مما قدرنا أجله عند خلق العالم الأرضي .

وتكون جملة : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ تعليلاً للردع ، أي الإنسان لم يستتم ما أجل الله لبقاء نوعه في هذا العالم من يوم تكوينه فلذلك لا ينشر الآن ، ويكون المراد بالأمر في قوله : ﴿ ما

أمره ﴾ أمر التكوين ، أي لم يستتم ما صدر به أمر تكوينه حين قيل لآدم : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [البقرة : 36] .

ويجوز أن يكون زجراً عما أفاده قوله : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ وقدمت ﴿ كلاّ ﴾ في صدر الكلام الواردة لإبطاله للاهتمام بمبادرة الزجر .

وتقدم الكلام في ﴿ كلاّ ﴾ في سورة مريم وأَحَلْتُ هنالك على ما هنا .

و﴿ لَمَّا ﴾ حرف نفي يدل على نفي الفعل في الماضي مثل (لَمْ) ويزيد بالدلالة على استمرار النفي إلى وقت التكلم كقوله تعالى : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 14] .

والمقصود أنه مستمر على عدم قضاء ما أمره الله مِما دعاه إليه .

والقضاء : فعل ما يجب على الإنسان كاملاً لأن أصل القضاء مشتق من الإتمام فتضمن فعلاً تاماً ، أي لم يزل الإنسان الكافر معرضاً عن الإيمان الذي أمره الله به ، وعن النظر في خلقه من نطفة ثم تطوره أطواراً إلى الموت قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق ﴾ [الطارق : 5] ، وما أمره من التدَبر في القرآن ودلائله ومن إعمال عقله في الاستدلال على وحدانية الله تعالى ونفي الشريك عنه .

ومن الدلائل نظره في كيفية خلقه فإنها دلائل قائمة بذاته فاستحق الردع والزجر .

والضمير المستتر في ﴿ أمره ﴾ عائد إلى ما عادت إليه الضمائر المستترة في (خلقه ، وقدره ، ويسره ، وأماته ، وأقبره ، وأنشره) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(155/802)

قوله تعالى ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ردعه بعد تفصيل ما له في نفسه من الآيات ، وأشار إلى ما له من النقائص ، شرع يقيم الدليل على تقصيره بأنه لا يقدر على شكر نعمة المنعم فيما له من المطعم الذي به قوامه فكيف بغيرها في أسلوب دال على الإنشار بآيات الآفاق منبه على سائر النعم في مدة بقائه المستلزم لدوام احتياجه إلى ربه فقال مسبباً عن ذلك : ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ أي يوقع

النظر التام على كل شيء يقدر على النظر به من بصره وبصيرته ومدّ له المدى فقال : ﴿ إلى طعامه ﴾ يعني مطعومه وما يتصل به ملتفتاً إليه بكليته بالاعتبار بما فيه من العبر التي منها أنا لو لم نيسره له هلك .

ولما كان المقصود النظر إلى صنائع الله تعالى فيه .

وكانت أفعال الإنسان وأقواله في تكذيبه بالعبث أفعال من ينكر ذلك الصنع ، قال سبحانه مفصلاً لما يشترك في علمه الخاص والعام من صنائعه في الطعام ، مؤكداً تنبيهاً على أن التكذيب بالعبث يستلزم التكذيب بإبداع النبات وإعادته ، وذلك في أسلوب مبين أن الإنسان محتاج إلى جميع ما في الوجود ، ولو نقص منه شيء اختل أمره ، وبدأ أولاً بالسماوي لأنه أشرف ، وبالماء الذي هو حياة كل شيء ، تنبيهاً له على ابتداء خلقه : ﴿ أنّا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ صببنا الماء ﴾ أي الذي جعلنا منه كل شيء حي ﴿ صباً ﴾ وثنى بالأرض التي هي كالأنثى بالنسبة إلى السماء فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد مهلة من إنزال الماء ، وفاوتنا بينها في البلاد والنبات ﴿ شققنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ الأرض ﴾ بالنبات الذي هو في غاية الضعف عن شق أصعب الأشياء فكيف بالأرض اليابسة المتكررة جداً عند مخالطة الماء ، وحقق المعنى فقال : ﴿ شقاً ﴾ ثم سبب عن الشق ما هو كالتفسير له مبيناً الاحتياج إلى النبات بقوله : ﴿ فأنبتنا ﴾ أي أطلعنا على وجه

الاتصال الموجب للتغذي والنمو ﴿ فيها ﴾ بسبب الشق ﴿ حباً ﴾ أي لاقتيات الإنسان وغيره من الحيوان كالحنطة والشعير والرز وغيرها .

(156/802)

ولما كان الحب قوتاً فبدأ به لأنه الأصل في القوام ، عطف عليه ما هو فاكهة وقوت فقال : ﴿ وعنباً ﴾ هو فاكهة في حال عنبيته وقوت باتخاذه زبيباً ودبساً وخلاً .

ولما كان لذلك في بيان عجائب الصنع ليدل على القدرة على كل شيء فيدل على القدرة على البعث فذكر ما إن أخذ من منبته قبل بلوغه فسد ، وإن ترك اشتد وصلح للادخار ، واتبعه ما إن ترك على أصله فسد ، وإن أخذ وعولج - صلح للادخار ، أتبعه ما لا يصلح للادخار بوجه فقال : ﴿ وقضباً ﴾ وهو الرطب من البقل وغيره ، وهو يزيد على الماضيين بأنه فيه ما هو دواء نافع وسم ناقع ، وبأنه يقطع مرة بعد أخرى فيخلف ، سمي بمصدر قضبه - إذا قطعه بحصد أو قلع .

ولما ذكر ما لا يصلح أن يؤكل إلاّ رطباً من غير تأخير ، أتبعه ما لا يفسد بحال لا على أمه ولا بعد القطاف ويصلح بعد القطاف فيؤكل أو يعصر ، فيكون له دهن للاستصباح والإدهان والائتدام ، وفيه تقوية للعظام والأعصاب ولا يفسده الماء بوجه كما أن العنب يعصر فيكون

منه دبس وخل وغيرهما ، ومتى خالطه الماء فسد ، فقال : ﴿ وزيتوناً ﴾ يكون فيه مع ما مضى حرافة وغضاضة فيها إصلاح المزاج .

ولما ذكر ما لا يفسد وشجره يصبر على البرد ، أتبعه ما هو كالعنب يؤكل على أمه ويقطع فيدخر ، فهو جامع بين التحلي والتحمض بالخل والتفكه والتقوي والتداوي للسم الناقع والسحر الصارع من عجوة المدينة الشريفة وغير ذلك من ثمرة وشجرة ، ولا يصبر شجره على البرد فقال : ﴿ ونخلاً ﴾ وكل من هذه الأشجار مخالف للآخر في الشكل والحمل وغير ذلك مع الموافقة في الأرض والسقي .

(157/802)

ولما ذكر هذه الأشياء من الأقوات والفواكه لكثرة منافعها ، وكانت البساتين تجمعها وغيرها مع ما لها من بهجة العين وسرور النفس وبسط الخاطر وشرح القلب قال : ﴿ وحدائق ﴾ جمع حديقة وهي الروضة ذات النخل والشجر ، أو كل ما أحاط به البناء وهي تجمع ذلك كله ﴿ غلباً ﴾ جمع غلباء - بفتح الغين والمد ، وهي الحديقة ذات أشجار كثيرة عظام غلاظ طوال ملتفة الأغصان متكاثرة ، مستعار من وصف الرقاب ، يقال : غلب فلان - كفرح أي غلظ عنقه ، والغلباء أيضاً من القبائل العزيزة الممتنعة ، ومن

الهضاب المشرفة .

ولما ذكر ما يتفكه ويدخر جمع فقال : ﴿ وفاكهة ﴾ أي ثمرة رطبة يتفكه بها كالخوخ والعنب والتين والتفاح والكمثرى والبرقوق مما يمكن أن يصلح فيدخر ومما لا يمكن .

ولما ذكر فاكهة الناس ، ذكر فاكهة بقية الحيوان فقال : ﴿ وأبّاً ﴾ أي ومرعىً ونباتاً وعشباً وكلأ ما دام رطباً يقصد ، من أب الشيء – إذا أمه .

ولما جمع ما يقتات وما يتفكه ، فدل دلالة واضحة على تمام القدرة ، ذكر بالنعمة فيه قارعاً بأسلوب الخطاب لتعميم الأفراد بعد سياق العتاب للتصريح بأن الكل عاجزون عن الوفاء بالشكر فكيف إذا انضم إليه الكفر فقال : ﴿ متاعاً ﴾ وهو منصوب على الحال .

ولما ذكر ما يأكله الناس وما يعلف للدواب ، وكان السياق هنا لطعام الإنسان ، قال مقدماً ضميرهم : ﴿ لكم ولأنعامكم ﴾ بخلاف ما في السجدة وقد مضى ، والأنعام بها يكون تمام الصلاح للإنسان بما له فيها من النعم بالركوب والأكل والشرب والكسوة والجمال وسائر المنافع ، وذكر هذا ذكراً ظاهراً مشيراً إلى المعادن لأن منها ما لا يتم ما مضى إلا به ، وهي آلات الزرع والحصد والطبخ والعجن وغير ذلك ، والملائكة المدبرة لما صرفها الله فيه من ذلك ، فدل ذلك على أن الوجود كله خلق لأجل منافع الإنسان ليشكر لا ليكفر ، ودلت القدرة على ذلك قطعاً على القدرة على البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 330.332 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس ، فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق فجرى ههنا على تلك العادة وذكر دلائل الآفاق وبدأ بما يحتاج الإنسان إليه .

فقال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .

الذي يعيش به كيف دبرنا أمره ، ولا شك أنه موضع الاعتبار ، فإن الطعام الذي يتناول الإنسان له حالتان إحداهما : متقدمة وهي الأمور التي لا بد من وجودها حتى يدخل ذلك الطعام في الوجود والثانية : متأخرة ، وهي الأمور التي لا بد منها في بدن الإنسان حتى يحصل له الانتفاع بذلك الطعام المأكول ، ولما كان النوع الأول أظهر للحسن وأبعد عن الشبهة ، لا جرم اكتفى الله تعالى بذكره ، لأن دلائل القرآن لا بد وأن تكون بحيث ينتفع بها كل الخلق ، فلا بد وأن تكون أبعد عن اللبس والشبهة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ واعلم أن النبت إنما يحصل من القطر النازل من السماء الواقع في الأرض ،

فالسماء كالذكر ، والأرض كالأنثى فذكر في بيان نزل القطر .

قوله : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا ﴾ .

وفيه مسألتان : المسألة الأولى :

قوله ﴿ صببنا ﴾ المراد منه الغيث ، ثم انظر في أنه كيف حدث المشتمل على هذه المياه العظيمة ، وكيف بقي معلقاً في جو السماء مع غاية ثقله ، وتأمل في أسبابه القريبة والبعيدة ، حتى يلوح لك شيء من آثار نور الله وعدله وحكمته ، وفي تدبير خلقة هذا العالم .

المسألة الثانية :

قرىء (إنا) بالكسر ، وهو على الاستئناف ، وأنا بالفتح على البدل من الطعام والتقدير فلينظر الإنسان إلى أن كيف صببنا الماء قال أبو علي الفارسي : من قرأ بكسر إنا كان ذلك تفسيراً للنظر إلى طعامه كما أن قوله : ﴿ لهم مغفرة ﴾ [الأنفال : 74] تفسير للوعد ، ومن فتح فعلى معنى البدل بدل الاشتمال ، لأن هذه الأشياء تشتمل على كون الطعام وحدوثه ، فهو كقوله : ﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ [البقرة : 217] وقوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود * النار ﴾ [البروج : 4 ، 5] .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .

والمراد شق الأرض بالنبات ، ثم ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات : أولها : الحب : وهو المشار إليه بقوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ .

وهو كل ما حصد من نحو الحنطة وغيرهما ، وإنما قدم ذلك لأن كالأصل في الأغذية .

﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وعنباً ﴾ وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وقضباً ﴾ وفيه قولان : الأول : أنه الرطبة وهي التي إذا يبست سميت بالقت ، وأهل مكة يسمونها بالقضب وأصله من القطع ، وذلك لأنه يقضب مرة بعد أخرى ، وكذلك القضيب لأنه يقضب أي يقطع .

وهذا قول ابن عباس والضحاك ومقاتل واختيار الفراء وأبي عبيدة والأصمعي .

والثاني : قال المبرد : القضب هو العلف بعينه ، وأصله من أنه يقضب أي يقطع وهو قول الحسن .

والرابع والخامس : قوله تعالى : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾ ومنافعهما قد تقدمت في هذا الكتاب .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ الأصل في الوصف بالغلب الرقاب فالغلب

الغلاظ الأعناق الواحد أغلب يقال أسد أغلب ، ثم ههنا قولان : الأول : أن يكون المراد وصف كل حديقة بأن أشجارها متكاثفة متقاربة ، وهذا قول مجاهد ومقاتل قالا : الغلب الملتفة الشجر بعضه في بعض ، يقال اغلوب العشب واغلولبت الأرض إذا التف عشبها .

(160/802)

والثاني : أن يكون المراد وصف كل واحد من الأشجار بالغلظ والعظم ، قال عطاء عن ابن عباس : يريد الشجر العظام ، وقال الفراء : الغلب ما غلظ من النخل .

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

﴿ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

وسابعها : قوله : ﴿ وفاكهة ﴾ وقد استدل بعضهم بأن الله تعالى لما ذكر الفاكهة معطوفة على العنب والزيتون والنخل وجب أن لا تدخل هذه الأشياء في الفاكهة ، وهذا قريب من جهة ، الظاهرة ، لأن المعطوف مغاير للمعطوف عليه .

وثامنها : قوله تعالى : ﴿ وأباً ﴾ والأب هو المرعى ، قال صاحب "الكشاف" : لأنه يؤب أي يؤم وينتجع ، والأب والأم أخوان قال الشاعر :

جذمنا قيس ونجد دارنا . . لنا الأب به والمكرع

وقيل الأب الفاكهة اليابسة لأنها تؤدب للشتاء أي تعد ، ولما ذكر الله تعالى ما يغتذى به الناس والحيوان .

قال : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

قال الفراء : خلقناه منفعة ومتعة لكم ولأنعامكم ، وقال الزجاج : هو منصوب لأنه مصدر مؤكد لقوله : ﴿ فأنبتنا ﴾ لأن إنباته هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 56.58 ﴾

(161/802)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

" العبوس " : تقطب الوجه واربداده عند كراهية أمر ، وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض ، وقال كثير من العلماء وابن زيد وعائشة وغيرها من الصحابة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي ، لكتم هذه الآيات ، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش ، " والتولي " : هنا الإعراض ، و ﴿ أن ﴾ : مفعول من أجله ، وقرأ الحسن ﴿ أن جاءه ﴾ بمدة تقرير وتوقيف والوقف مع هذه

القراءة على ﴿ تولى ﴾ وهي قراءة عيسى . وذكر الله تعالى ابن مكتوم بصفة العمى ليظهر المعنى الذي شأن البشر احتقاره ، وبين أمره بذكر ضده من غنى ذلك الكافر ، وفي ذلك دليل على أن ذكر هذه العاهات متى كانت المنفعة أو لأن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون لبس جائز ، ومنه قول المحدثين سلمان الأعمش وعبد الرحمن الأعرج وسالم الأفطس ونحو هذا .

(162/802)

ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التنقيص فتلك الغيبة ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة تذكر امرأة ، فقالت : إنها القصيرة ، فقال لها : لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته ثم خاطب تعالى نبيه فقال : ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي وما يطلعك على أمره وعقبى حاله ، ثم ابتدأ القول : ﴿ لعله يزكى ﴾ أي تنمو بركته وتطهره لله وينفعه إيمانه ، وأصل ﴿ يزكى ﴾ : يتزكى ، فأدغم التاء في الزاي وكذلك ﴿ يذكر ﴾ ، وقرأ الأعرج . " يذْكُر " بسكون الذال وضم الكاف ، ورويت عن عاصم ، وقرأ جمهور السبعة : " فتنفعُه " بضم العين على العطف ، وقرأ عاصم وحده والأعرج : " فتنفعَه " بالنصب في جواب التمني ، لأن قوله ﴿ أو يذكر ﴾ في حكم قوله :

﴿ لعله يزكى ﴾ ، ثم أكد تعالى عتب نبيه عليه السلام بقوله : ﴿ أما من استغنى ﴾ أي بماله ، و: ﴿ تصدى ﴾ معناه : تتعرض بنفسك ، وقرأ ابن كثير ونافع : " تصّدى " بشد الصاد على إدغام التاء ، وقرأ الباقون والأعرج والحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى والأعمش : " تصَدى " ، بتخفيف الصاد على حذف التاء وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " تُصَدى " ، بضم التاء وتخفيف الصاد على بناء الفعل للمجهول ، أي تصديك حرصك على هؤلاء الكفار أن يسلموا ، تقول : تصدى الرجل وصديته ، كما تقول : تكسب وكسبته ، ثم قال تعالى محتقراً لشأن الكفار : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ وما يضرك ألا يفلح ، فهذا حض على الإعراض عن أمرهم ، وترك الأكتراث بهم ، ثم قال مبالغاً في العتب : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أي يمشي ، وقيل المعنى : ﴿ يسعى ﴾ في شؤونه وأمر دينه وتقربه منك ، ﴿ وهو يخشى ﴾ الله تعالى ، ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تشتغل ، تقول لهيت عن الشيء ألهى إذا اشتغلت وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو ، وإما أن المعنى يتداخل ، وقرأ الجمهور من القراء : " تَلهى " بفتح التاء على حذف التاء الواحدة ، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه " تلهى "

بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف : " تتلهى " بتاءين ، وروي عنه " تَلْهى " بفتح التاء وسكون اللام وتخفيف الهاء المفتوحة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " تُلْهى " بضم التاء وسكون اللام أي يلهيك حرصك على أولئك الكفار ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم :

" وما استأثر الله به فَالْهَ عنه " وقوله تعالى في هاتين : ﴿ وأما من ﴾ فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أم مكتوم ، ثم هي بعد تتناول من شركهم في هذه الأوصاف ، فحَمَلَهُ الشرع والعلم مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير ، بمثل ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة ، ثم قال : ﴿ كلا ﴾ يا محمد أي ليس الأمر في حقه كما فعلت إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر ﴿ تذكرة ﴾ لجميع العالم لا يؤثر فيها أحد دون أحد ، وقيل المعنى أن هذه المعتبة تذكرة لك يا محمد ففي هذا التأويل إجلال لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأنيس له ، وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ يتضمن وعداً ووعيداً على نحو قوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه ومآباً ﴾ [النبأ : 39] وقوله تعالى : ﴿ في صحف ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ إنها تذكرة ﴾ ، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن وقال بعض المتأولين : الصحف هنا اللوح المحفوظ ، وقيل : صحف الأنبياء المنزلة ، وقيل : مصاحف المسلمين ، واختلف الناس في " السفرة " ، فقال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبة يقال : سفرت

أي كتبت ، ومنه السفر ، وقال ابن عباس أيضاً : الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه ، وقال قتادة : هم القراء وواحد السفرة سافر ، وقال وهب بن منبه : هم الصحابة لأنهم بعضهم يسفر إلى بعض في الخبر والتعليم ، والقول الأول أرجح ، ومن اللفظة قول الشاعر : [الوافر]

وما أدع السفارة بين قومي . . . وما أسعى بغش إن مشيت

(164/802)

و " الصحف " على هذا صحف عند الملائكة أو اللوح ، وعلى القول الآخر هي المصاحف ، وقوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ دعاء على اسم الجنس وهم عموم يراد به الخصوص ، والمعنى : قتل الإنسان الكافر ، ومعنى ﴿ قتل ﴾ أي هو أهل أن يدعى عليه بهذا ، وقال مجاهد : ﴿ قتل ﴾ بمعنى لعن ، وهذا تحكم ، وقوله تعالى : ﴿ ما أكفره ﴾ يحتمل معنى التعجب ، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً أي أيّ شيء ﴿ أكفره ﴾ أي جعله كافراً ، وقيل إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب ، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام ، فبعث عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني كافر برب النجم إذا هوى ، فيروى أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" اللهم ابعث عليه كلبك حتى يأكله " ويروى أنه قال : " ما يخاف أن يرسل عليك كلبه " ، ثم إن عتبة خرج في سفرة فجاء الأسد فأكله بين الرفقة .

" العبوس " : تقطب الوجه واربداده عند كراهية أمر ، وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض ، وقال كثير من العلماء وابن زيد وعائشة وغيرها من الصحابة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي ، لكتم هذه الآيات ، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش ، " والتولي " : هنا الإعراض ، و ﴿ أن ﴾ : مفعول من أجله ، وقرأ الحسن ﴿ أن جاءه ﴾ بمدة تقرير وتوقيف والوقف مع هذه القراءة على ﴿ تولى ﴾ وهي قراءة عيسى . وذكر الله تعالى ابن مكتوم بصفة العمى ليظهر المعنى الذي شأن البشر احتقاره ، وبين أمره بذكر ضده من غنى ذلك الكافر ، وفي ذلك دليل على أن ذكر هذه العاهات متى كانت المنفعة أو لأن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون لبس جائز ، ومنه قول المحدثين سلمان الأعمش وعبد الرحمن الأعرج وسالم الأفطس ونحو هذا .

(165/802)

ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التنقيص فتلك الغيبة ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة تذكر امرأة ، فقالت : إنها القصيرة ، فقال لها : لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته ثم خاطب تعالى نبيه فقال : ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي وما يطلعك على أمره وعقبى حاله ، ثم ابتدأ القول : ﴿ لعله يزكى ﴾ أي تنمو بركته وتطهره لله وينفعه إيمانه ، وأصل ﴿ يزكى ﴾ : يتزكى ، فأدغم التاء في الزاي وكذلك ﴿ يذكر ﴾ ، وقرأ الأعرج. "يذْكُر" بسكون الذال وضم الكاف ، ورويت عن عاصم ، وقرأ جمهور السبعة : "فتنفعُه" بضم العين على العطف ، وقرأ عاصم وحده والأعرج : "فتنفعَه" بالنصب في جواب التمني ، لأن قوله ﴿ أو يذكر ﴾ في حكم قوله : ﴿ لعله يزكى ﴾ ، ثم أكد تعالى عتب نبيه عليه السلام بقوله : ﴿ أما من استغنى ﴾ أي بماله ، و: ﴿ تصدى ﴾ معناه : تتعرض بنفسك ، وقرأ ابن كثير ونافع : "تصّدى" بشد الصاد على إدغام التاء ، وقرأ الباقون والأعرج والحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى والأعمش : "تصَدى" ، بتخفيف الصاد على حذف التاء وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : "تُصَدى" ، بضم التاء وتخخفيف الصاد على بناء الفعل للمجهول ، أي تصديك حرصك على هؤلاء الكفار أن يسلموا ، تقول : تصدى الرجل وصديته ، كما تقول : تكسب وكسبته ، ثم قال تعالى محتقراً لشأن الكفار : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ وما يضرك ألا يفلح ، فيها حض على الإعراض عن أمرهم ، وترك الأكتراث بهم ، ثم قال مبالغاً في العتب :

﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أي يمشي ، وقيل المعنى : ﴿ يسعى ﴾ في شؤونه وأمر دينه وتقربه منك ، ﴿ وهو يخشى ﴾ الله تعالى ، ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تشتغل ، تقول لهيت عن الشيء ألهى إذا اشتغلت وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو ، وإما أن المعنى يتداخل ، وقرأ الجمهور من القراء : " تَلهى " بفتح التاء على حذف التاء الواحدة ، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه " تلهى "

(166/802)

بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف : " تتلهى " بتاءين ، وروي عنه " تَلْهى " بفتح التاء وسكون اللام وتخفيف الهاء المفتوحة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " تُلْهى " بضم التاء وسكون اللام أي يلهيك حرصك على أولئك الكفار ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم :

" وما استأثر الله به فَالْهَ عنه " ، وقوله تعالى في هاتين : ﴿ وأما من ﴾ فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أم مكتوم ، ثم هي بعد تتناول من شركهم في هذه الأوصاف ، فحَمَلَهُ الشرع والعلم مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير ، بمثل ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة ، ثم قال :

﴿ كلا ﴾ يا محمد أي ليس الأمر في حقه كما فعلت إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر ﴿ تذكرة ﴾ لجميع العالم لا يؤثر فيها أحد دون أحد ، وقيل المعنى أن هذه المعتبة تذكرة لك يا محمد ففي هذا التأويل إجلال لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأنيس له ، وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ يتضمن وعداً ووعيداً على نحو قوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه ومآباً ﴾ [النبأ : 39] وقوله تعالى : ﴿ في صحف ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ إنها تذكرة ﴾ ، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن وقال بعض المتأولين : الصحف هنا اللوح المحفوظ ، وقيل : صحف الأنبياء المنزلة ، وقيل : مصاحف المسلمين ، واختلف الناس في " السفرة " ، فقال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبة يقال : سفرت أي كتبت ، ومنه السفر ، وقال ابن عباس أيضاً : الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه ، وقال قتادة : هم القراء وواحد السفرة سافر ، وقال وهب بن منبه : هم الصحابة لأنهم بعضهم يسفر إلى لعض في الخبر والتعليم ، والقول الأول ارجح ، ومن اللفظة قول الشاعر : [الوافر]

وما أدع السفارة بين قومي . . . وما أسعى بغش إن مشيت

و " الصحف " على هذا صحف عند الملائكة أو اللوح ، وعلى القول الآخر هي المصاحف ، وقوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ دعاء على اسم الجنس وهم عموم يراد به الخصوص ، والمعنى : قتل الإنسان الكافر ، ومعنى ﴿ قتل ﴾ أي هو أهل أن يدعى عليه بهذا ، وقال مجاهد : ﴿ قتل ﴾ بمعنى لعن ، وهذا تحكم ، وقوله تعالى : ﴿ ما أكفره ﴾ يحتمل معنى التعجب ، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً أي أيّ شيء ﴿ أكفره ﴾ أي جعله كافراً ، وقيل إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب ، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام ، فبعث عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني كافر برب النجم إذا هوى ، فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" اللهم ابعث عليه كلبك حتى يأكله " ويروى أنه قال : " ما يخاف أن يرسل عليك كلبه " ، ثم إن عتبة خرج في سفرة فجاء الأسد فأكله بين الرفقة . " العبوس " : تقطب الوجه واربداده عند كراهية أمر ، وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض ، وقال كثير من العلماء وابن زيد وعائشة وغيرها من الصحابة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي ، لكتم هذه الآيات ، وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش ، " والتولي " : هنا الإعراض ، و ﴿ أن ﴾ : مفعول من أجله ، وقرأ الحسن ﴿ أن جاءه ﴾ بمدة تقرير وتوقيف والوقف مع هذه القراءة على ﴿ تولى ﴾

وهي قراءة عيسى . وذكر الله تعالى ابن مكتوم بصفة العمى ليظهر المعنى الذي شأن البشر احتقاره ، وبين أمره بذكر ضده من غنى ذلك الكافر ، وفي ذلك دليل على أن ذكر هذه العاهات متى كانت المنفعة أو لأن شهرتها تعرف السامع صاحبها دون لبس جائز ، ومنه قول المحدثين سلمان الأعمش وعبد الرحمن الأعرج وسالم الأفطس ونحو هذا .

(168/802)

ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التنقيص فتلك الغيبة ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة تذكر امرأة ، فقالت : إنها القصيرة ، فقال لها : لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته ثم خاطب تعالى نبيه فقال : ﴿ وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي وما يطلعك على أمره وعقبى حاله ، ثم ابتدأ القول : ﴿ لعله يزكى ﴾ أي تنمو بركته وتطهره لله وينفعه إيمانه ، وأصل ﴿ يزكى ﴾ : يتزكى ، فأدغم التاء في الزاي وكذلك ﴿ يذكر ﴾ ، وقرأ الأعرج . " يذْكُر " بسكون الذال وضم الكاف ، ورويت عن عاصم ، وقرأ جمهور السبعة : " فتنفعُه " بضم العين على العطف ، وقرأ عاصم وحده والأعرج : " فتنفعَه " بالنصب في جواب التمني ، لأن قوله ﴿ أو يذكر ﴾ في حكم قوله : ﴿ لعله يزكى ﴾ ، ثم أكد تعالى عتب نبيه عليه السلام بقوله : ﴿ أما من استغنى ﴾ أي

بماله ، و: ﴿ تصدى ﴾ معناه : تتعرض بنفسك ، وقرأ ابن كثير ونافع : " تصّدى " بشد الصاد على إدغام التاء ، وقرأ الباقون والأعرج والحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى والأعمش : " تصَدى " ، بتخفيف الصاد على حذف التاء وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " تُصَدى " ، بضم التاء وتخفيف الصاد على بناء الفعل للمجهول ، أي تصديك حرصك على هؤلاء الكفار أن يسلموا ، تقول : تصدى الرجل وصديته ، كما تقول : تكسب وكسبته ، ثم قال تعالى محتقراً لشأن الكفار : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ وما يضرك ألا يفلح ، فيها حض على الإعراض عن أمرهم ، وترك الأكتراث بهم ، ثم قال مبالغاً في العتب : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أي يمشي ، وقيل المعنى : ﴿ يسعى ﴾ في شؤونه وأمر دينه وتقربه منك ، ﴿ وهو يخشى ﴾ الله تعالى ، ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تشتغل ، تقول لهيت عن الشيء ألهى إذا اشتغلت وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو ، وإما أن المعنى يتداخل ، وقرأ الجمهور من القراء : " تَلهى " بفتح التاء على حذف التاء الواحدة ، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه " تلهى "

(169/802)

بالإدغام ، وقرأ طلحة بن مصرف : " تتلهى " بتاءين ، وروي عنه " تَلْهى " بفتح التاء وسكون اللام وتخفيف الهاء المفتوحة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " تُلْهى " بضم التاء وسكون اللام أي يلهيك حرصك على أولئك الكفار ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم :

" وما استأثر الله به فَالْهَ عنه " ، وقوله تعالى في هاتين : ﴿ وأما من ﴾ فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبد الله بن أم مكتوم ، ثم هي بعد تتناول من شركهم في هذه الأوصاف ، فحَمَلَهُ الشرع والعلم مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير وتقديمه على الشريف العاري من الخير ، بمثل ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة ، ثم قال : ﴿ كلا ﴾ يا محمد أي ليس الأمر في حقه كما فعلت إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر ﴿ تذكرة ﴾ لجميع العالم لا يؤثر فيها أحد دون أحد ، وقيل المعنى أن هذه المعتبة تذكرة لك يا محمد ففي هذا التأويل إجلال لمحمد صلى الله عليه وسلم وتأنيس له ، وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ يتضمن وعداً ووعيداً على نحو قوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه ومآباً ﴾ [النبأ : 39] وقوله تعالى : ﴿ في صحف ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ إنها تذكرة ﴾ ، وهذا يؤيد أن التذكرة يراد بها جميع القرآن وقال بعض المتأولين : الصحف هنا اللوح المحفوظ ، وقيل : صحف الأنبياء المنزلة ، وقيل : مصاحف المسلمين ، واختلف الناس في " السفرة " ، فقال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبة يقال : سفرت

أي كتبت ، ومنه السفر ، وقال ابن عباس أيضاً : الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه ، وقال قتادة : هم القراء وواحد السفرة سافر ، وقال وهب بن منبه : هم الصحابة لأنهم بعضهم يسفر إلى لعض في الخبر والتعليم ، والقول الأول ارجح ، ومن اللفظة قول الشاعر : [الوافر]

وما أدع السفارة بين قومي . . . وما أسعى بغش إن مشيت

(170/802)

و " الصحف " على هذا صحف عند الملائكة أو اللوح ، وعلى القول الآخر هي المصاحف ، وقوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ دعاء على اسم الجنس وهم عموم يراد به الخصوص ، والمعنى : قتل الإنسان الكافر ، ومعنى ﴿ قتل ﴾ أي هو أهل أن يدعى عليه بهذا ، وقال مجاهد : ﴿ قتل ﴾ بمعنى لعن ، وهذا تحكم ، وقوله تعالى : ﴿ ما أكفره ﴾ يحتمل معنى التعجب ، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً أي أيّ شيء ﴿ أكفره ﴾ أي جعله كافراً ، وقيل إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب ، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام ، فبعث عتبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني كافر برب النجم إذا هوى ، فيروى أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم ابعث عليه كلبك حتى يأكله " ويروى أنه قال : " ما يخاف أن يرسل عليك كلبه " ، ثم إن عتبة خرج في سفرة فجاء الأسد فأكله بين الرفقة .

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19)

(171/802)

قوله تعالى : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيء الذي خلق الإنسان منه ، وهي عبارة تصلح للتحقير والتعظيم والقرينة تبين الغرض ، وهذا نظير قوله : ﴿ لأي يوم أجلت ليوم الفصل ﴾ [المرسلات : 13] واللفظ المشار إليه ماء الرجل وماء المرأة ، وقرأ جمهور الناس : " فقدّره " بشد الدال ، وقرأ بعض القراء : " فقدّره " بتخفيفها ، والمعنى جعله بقدر واحد معلوم من الأعضاء والخلق والأجل وغير ذلك من أنحائه حسب إرادته تعالى في إنسان إنسان ، واختلف المتأولون في معنى قوله : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ فقال ابن عباس وقتادة وأبو صالح والسدي : هي سبيل الخروج من بطن المرأة ورحمها ، وقال الحسن ما معناه : إن ﴿ السبيل ﴾ هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان ، وتيسره له هو هبة العقل ، وقال مجاهد : أراد ﴿ السبيل ﴾ عامة اسم الجنس في

هدى وضلال أي يسر قوماً لهذا كقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الإنسان : 3] ، وقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] وقوله تعالى : ﴿ فأقبره ﴾ معناه أمر أن يجعل له قبر ، وفي ذلك تكريم لئلا يطرح كسائر الحيوان ، والقابر هو الذي يتناول جعل الميت في قبره ، والمقبر الذي يأمر بقبر الميت ، ويقرره ، و ﴿ أنشره ﴾ معناه : أحياه ، يقال : نشر الميت وأنشره الله ، وقوله : ﴿ إذا شاء ﴾ يريد إذا بلغ الوقت الذي شاءه وهو يوم القيامة ، وقرأ بعض القراء : ﴿ شاء أنشره ﴾ بتحقيق الهمزتين ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ شاء أنشره ﴾ بمدة وتسهيل الهمزة الأولى ، وقرأ شعيب بن أبي حمزة : " شاء نشره " ، وقرأ الأعمش : " شاء انشره " بهمزة واحدة ، وقوله تعالى : ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ رد لما عسى أن للكفار من الاعتراضات في هذه الأقوال المسرودة ونفي مؤكد لطاعة الإنسان لربه وإثبات أنه ترك حق الله تعالى ، ولم يقض ما أمره ، قال مجاهد : لا يقضي أحد أبداً ما افترض عليه ، ثم أمر

(172/802)

تعالى الإنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه ، وذهب أبيّ بن كعب وابن عباس والحسن ومجاهد وغيره إلى أن المراد ﴿ إلى طعامه ﴾ إذا صار رجيعاً ليتأمل حيث

تصير عاقبة الدنيا ، وعلى أي شيء يتفانى أهلها وتستدير رحاها ، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر : أن الأنسان إذا أحدث فإن ملكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيرد بصره إلى نحوه موقفاً له ومعجباً فينفع ذلك من له عقل ، وذهب الجمهور إلى أن معنى الآية : فلينظر إلى مطعوماته وكيف يسرها الله تعالى له بهذه الوسائط المذكورة من صب الماء وشق الأرض ، ويروى أن رجلاً أضافه عابد فقدم إليه رغيفاً قفازاً فكأن الرجل استخشنه فقال له : كله فإن الله تعالى لم ينعم به وكمله حتى سخر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً الماء والريح والشمس ثلاثة من ذلك ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : " أنّا صببنا " بفتح الألف على البدل وهي قراءة الأعرج وابن وثاب والأعمش ، ورد على هذا الإعراب قوم بأن الثاني ليس الأول وليس كما ردوا لأن المعنى : ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ إلى إنعامنا في طعامه فترتب البدل وصح ، " وأنا " في موضع خفض ، وقرأ الجمهور : " إنا " بكسر الألف على استئناف تفسير الطعام ، وقرأ بعض القراء : " أنى " بمعنى كيف ذكرها أبو حاتم ، و" صب الماء " : هو المطر ، و" شق الأرض " : هو بالنبات ، و" الحب " : جمع حَبة بفتح الحاء وهو كل ما يتخذه الناس ويربونه كالقمح والشعير ونحوه ، والحِبة بكسر الحاء كل ما ينبت من البزور ولا يحفل به ولا هو بمتخذ ، و" القضب " قال بعض اللغويين : هي الفصافص ، وهذا عندي ضعيف ، لأن الفصافص هي للبهائم فهي دخل في الأبّ ، وقال أبو عبيدة : " القضب " الرطبة ، قال ثعلب : لأنه يقضب كل يوم .

(173/802)

والذي أقوله إن " القضب " هنا هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم ، وغضاً من النبات كالبقول والهِلْيُون ونحوه ، فإنه من المطعوم جزء عظيم ولا ذكر له في الآية إلا في هذه اللفظة ، والغُلب الغلاظ الناعمة ، و" الحديقة " الشجر الذي قد أحدق بجدار أو نحوه ، و" الأبّ " : المرعى قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة ، وقال الضحاك : " الأبّ " : التبن ، وفي اللفظة غرابة وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، و﴿ متاعاً ﴾ نصب على المصدر ، والمعنى تتمتعون به أنتم وأنعامكم ، فابن آدم في السبعة المذكورة ، والأنعام في الأبّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(174/802)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾

لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان ، ذكر ما يُسَّر من رزقه ؛ أي فلينظر كيف خَلَق الله

طعامه .

وهذا النظر نظر القلب بالفكر ؛ أي ليتدبرْ كيف خَلَق الله طعامَه الذي هو قِوام حياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ، ليستعد بها للمعاد .

ورُوِي عن الحسن ومجاهد قالا : ﴿ فَلينْظرِ الإنسان إلى طعامِهِ ﴾ أي إلى مُدْخله ومُخْرجه .

وروى ابن أبي خيْثمة " عن الضحاك بن سفيان الكلابيّ قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : "يا ضحاكُ ما طعامك" قلت : يا رسول الله ! اللَّحم واللبن ؛ قال : "ثم يصير إلى ماذا" قلت إلى ما قد علمته ؛ قال : "فإنّ الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا" " وقال أبيّ بن كعب : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن مَطْعَمَ ابن آدم جُعِل مثلاً للدنيا وإن قَزَحَه ومَلَّحه فانظر إلى ما يصير " وقال أبو الوليد : سألت ابن عَمر عن الرجل يدخل الخَلاء فينظر ما يخرج منه ؛ قال : يأتيه الملك فيقول انظر ما بَخِلت به إلى ما صار ؟

قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ﴾ قراءة العامة "إنا" بالكسر ، على الاستئناف .

وقرأ الكوفيون ورُوَيْس عن يعقوب "أَنا" بفتح الهمزة ، ف "أنا" في موضع خفض على الترجمة عن الطعام ، فهو بدل منه ؛ كأنه قال : "فلينظرِ الإنسان إلى طعامِهِ" إلى "أنا صببنا" ، فلا يحسُن الوقف على "طعامِهِ" من هذه القراءة .

وكذلك إن رفعت "أَنا" بإضمار هو أنا صببنا ؛ لأنها في حال رفعها مترجِمة عن الطعام .

وقيل : المعنى : لأنا صببنا الماء ، فأخرجنا به الطعام ، أي كذلك كان .

وقرأ الحسين بن عليّ "أَنَّى" ممال ، بمعنى كيف ؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال : الوقف على "طعامه" تام .

ويقال : معنى "أَنَّى" أين ، إلا أنّ فيها كناية عن الوجوه ؛ وتأويلها : من أي وجه صَببنا الماء ؛ قال الكميت :

أَنَّى ومِنْ أينَ آبكَ الطَّرَبُ . . .

(175/802)

مِن حيثُ لا صَبْوَةٌ ولا رِيبُ

"صببنا الماء صباً" : يعني الغيث والأمطار .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ : أي بالنبات ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ أي قمحاً وشعيراً وسُلْتاً وسائر ما يُحْصَد ويدّخر ﴿ وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ وهو القَتّ والعَلَف ؛ عن الحسن : سمي بذلك لأنه يُقْضَب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة .

قال القُتَبيّ وثعلب : وأهل مكة يسمون القَتَّ القَضْب .

وقال ابن عباس : هو الرّطب لأنه يُقَضب من النخل : ولأنه ذكر العِنب قبله .

وعنه أيضاً : أنه الفِصفِصة وهو القَتّ الرطب .

وقال الخليل : القضب الفِصْفِصة الرطبة .

وقيل : بالسين ، فإذا يبست فهو قَتٌّ .

قال : والقضْب : اسم يقع على ما يُقْضب من أغصان الشجرة ، ليتخذ منها سِهام أو قِسِيّ .

ويقال : قَضْباً ، يعني جميع ما يقضب ، مثل القَتِّ والكُرّاث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصْلها .

وفي الصحاح : والقَضْبة والقَضْب الرَّطْبة ، وهي الإسفِسْت بالفارسية ، والموضع الذي يَنْبُت فيه مَقْضَبة .

﴿ وَزَيْتُوناً ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ وَنَخْلاً ﴾ يعني النخيل ﴿ وَحَدَآئِقَ ﴾ أي بساتين واحدها حديقة .

قال الكلبي : وكل شيء أَحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة ، وما لم يُحَط عليه فليس بحديقة .

﴿ غُلْباً ﴾ عظاماً شجرها ؛ يقال : شجرة غَلْباء ، ويقال للأسد : الأغلب ؛ لأنه مُصْمَت العنق ، لا يلتفت إلا جميعاً ؛ قال العجاج :

ما زِلتُ يوم البَيْن أَلوِي صَلَبِي . . .

والرأَسَ حتى صِرتُ مِثْلَ الأَغلبِ

ورجل أغلب بيّن الغَلَب إذا كان غليظ الرقبة .

والأصل في الوصف بالغلَب : الرقاب فاستعير ؛ قال قال عمرو بن مَعْدِي كرِب :

يَمشِي بها غُلْب الرقابِ كأَنهم . . .

بُزْل كُسِين مِن الكُحَيْلِ جِلالا

وحديقة غلباء : ملتفة وحدائق غُلْب .

واغلولب العشب : بلغ والتف البعض بالبعض .

قل ابن عباس : الغُلْب : جمع أغلب وغلباء وهي الغِلاظ .

وعنه أيضاً الطِّوال .

(176/802)

قتادة وابن زيد : الغُلْب : النخل الكرام .

وعن ابن زيد أيضاً وعِكرمة : عظام الأوساط والجذوع .

مجاهد : ملتفة .

﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخَوْخ وغيرهما ﴿ وَأَبّاً ﴾ هو

ما تأكله البهائم من العُشب ؛ قال ابن عباس والحسن : الأَبُّ : كل ما أنبتت الأرض ، مما لا يأكله الناس ، ما يأكله الآدميون هو الحَصيد ؛ ومنه قول الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

لَه دَعْوة ميْمونة رِيحها الصَّبا . . .

بها يُنبِتُ الله الحصِيدة والأَبَّا

وقيل : إنما سمي أَبًّا ؛ لأنه يُؤَبُّ أي يُؤَمّ ويُنْتجَع .

والأَب والأم : أَخَوان ؛ قال :

جِذمنا قيسٌ ونجدٌ دارنا . . .

ولنا الأَبُّ بِهِ والمَكْرَع

وقال الضحاك : والأب : كل شيء ينبت على وجه الأرض .

وكذا قال أبو رَزِين : هو النبات .

يدلّ عليه قول ابن عباس قال : الأبُّ : ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

وعن ابن عباس أيضاً وابن أبي طلحة : الأبّ : الثمار الرَّطْبة .

وقال الضحاك : هو التين خاصة .

وهو محكي عن ابن عباس أيضاً ؛ قال الشاعر :

فما لَهُمُ مَرْتَعٌ للسَّوا . . .

مِ والأَبُّ عندَهم يُقْدَرُ

الكلبيّ : هو كل نبات سوى الفاكهة .

وقيل : الفاكهة : رَطْب الثمار ، والأب يابسها .

وقال إبراهيم التيميّ : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال : أيُّ سماء تُظِلني ، وأيُّ أرض تُقِلُّني إذا قلت : في كتاب الله ما لا أعلم .

وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأبّ ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لعَمْر اللَّهِ التكلُّف ، وما عليك يا بن أم عُمَر ألاَّ تدري ما الأب ؟ ثم قال : اتبعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب ، وما لا فدعوه .

(177/802)

ورُوِي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خُلِقتم من سبْع ، ورزِقتم من سبع ، فاسجدوا لله على سبْع " وإنما أراد بقوله : " خلقتم من سبع " يعني ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ [الحج : 5] الآية ، والرزق من سبْع ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَأَبّاً ﴾ وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم ، وأنه مما تختص به البهائم .

والله أعلم .

﴿ مَّتَاعاً لَّكُمْ ﴾ نصب على المصدر المؤكِّد ، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات .

وهذا ضرب مثلٍ ضربه الله تعالى لبعث الموتَى من قبورهم ؛ كنبات الزرع بعد دُثُوره ، كما تقدم بيانه في غير موضع .

ويتضمن امتنانا عليهم بما أنعم به ، وقد مضى في غير موضع أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(178/802)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾

على معنى إذا كان هذا حال الإنسان وهو أنه إلى الآن لم يقض ما أمره مع أن مقتضى النعم السابقة القضاء فلينظر إلى طعامه الخ لعله يقضي وفي "الحواشي العصامية" لا يخفى ما في قوله تعالى : ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [عبس : 23] من كمال تهييج الإنسان وتحريضه على امتثال ما يعقبه من الأمر بالنظر وتفريع الأمر عليه مبني على أن الائتمار كما ينبغي أن

يتيسر بعد الارتداع عما هو عليه والظاهر أن المراد بالإنسان هنا نحو ما أريد به في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ [عبس : 17] ولما جوز "صاحب الحواشي" المذكورة حمل عدم القضاء على السلب الكلي وجعل الكلام في الإنسان المبالغ في الكفر قال فالمراد بضمير يقض غير الإنسان الذي أمر بالنظر فإنه عام فلذا أظهر وتضمن ما مر ذكر النعم الذاتية أي ما يتعلق بذات الإنسان من الذات نفسها ولوازمها وهذا ذكر النعم الخارجية المقابلة لذلك وقيل الأولى نعم خاصة والثانية نعم عامة وقيل تلك نعم متعلقة بالحدوث وهذه نعم متعلقة بالبقاء وفيه نظر والظاهر أن المراد بالطعام المطعوم بأنواعه واقتصر عليه ولم يذكر المشروب لأن آثار القدرة فيه أكثر من آثارها في المشروب واعتبار التغليب لا يخفى ما فيه وقوله تعالى :

(179/802)

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء ﴾ بدل منه بدل اشتمال فإنه لكونه من أسباب تكونه كالمشتمل عليه والعائد محذوف أي ﴿ صَبَبْنَا ﴾ له وجوز كونه بدل كل من كل على معنى فلينظر الإنسان إلى انعامنا في طعامه أنا ﴿ صَبَبْنَا ﴾ الخ وهو كما ترى وأياً ما كان فالمقصود بالنظر هو البدل وبذلك يضعف ما روى عن أبي وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أن

المعنى فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل عاقبة الدنيا وما تهالك عليه أهلها ولعمري أن هذا بعيد الإرادة عن السياق ولا أظن أنه وقع على صحة روايته عن هؤلاء الأجلة الاتفاق وظاهر الصب يقتضي تخصيص الماء بالغيث وهو المروي عن ابن عباس وجوز بعضهم إرادة الأعم وقال إن في كل ماء صبا من الله تعالى بخلق أسبابه على أصول النباتات وأنت تعلم أن إيصال الماء إلى أصول النباتات يبعد تسميته صباً وتأكيد الجملة للاعتناء بمضمونها مع كونها مظنة لإنكار القاصر لعدم الإحساس بفعل من الله تعالى وإنما يعرف الاستناد إليه عز وجل بالنظر الصحيح وقرأ الأكثر إنا بالكسر على الاستئناف البياني كأنه لما أمر سبحانه بالنطر إلى ما رزقه جل وعلا من أنواع المأكولات قيل كيف أحدث ذلك وأوجد بعد أن لم يكن فقيل ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ﴾ الخ وقرأ الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجههما ورضي سبحانه عنهما أنى ﴿ صَبَبْنَا ﴾ بفتح الهمزة والإمالة على معنى فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء ﴿ صَبّاً ﴾ عجيباً .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض ﴾ أي بالنبات كما قال ابن عباس ﴿ شَقّاً ﴾ بديعاً لائقاً بما يشقها من النبات صغراً وكبراً وشكلاً وهيئة وقيل شقها بالكراب وإسناده إلى ضميره تعالى مجاز من باب الإسناد إلى السبب وإن كان الله تعالى عز وجل هو الموجد حقيقة فقد تبين في موضعه أن إسناد الفعل حقيقة لمن قام به لا من صدر عنه إيجاداً ولهذا يشتق اسم الفاعل له وتعقب بأنه يأباه كلمة ثم والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ فإن الشق بالمعنى المذكور لا ترتب بينه وبين الأمطار أصلاً ولا بينه وبين إنبات الحب بلا مهلة فإن المراد بالنبات ما نبت من الأرض إلى أن يتكامل النمو وينعقد الحب فإن انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلى تلك المرتبة على أن مساق النظم الكريم لبيان النعم الفائضة من جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة كما ينبىء عنه أرداف الفعلين بالمصدرين فتوسيط فعل المنعم عليه في حصول تلك النعم مخل بالمرام وللبحث فيه مجال وقيل عليه أيضاً أن الشق بالكراب لا يظهر في العنب والزيتون والنخل وأجيب بأنه ليس من لوازم العطف تقييد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه ويحتمل أن يكون ذكر الكراب في القيل على سبيل التمثيل أو أريد به ما يشمل الحفر وجوز أن يكون المراد شقها بالعيون على أن المراد بصب الماء أمطار المطر وبهذا إجراء الأنهار وتعقب بأنه يأباه ترتب الشب على صب الماء بكلمة التراخي وأيضاً ترتب الانبات على مجموع الصب والشق بالمعنى المذكور لا يلائم قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَاء ثَجَّاجاً لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً ﴾ [النبأ : 14 ، 15] الآية لإشعاره باستقلال الصب وإنزال الغيث في ذلك ودفعاً بأن ماء العيون من المطر لا من الأبخرة المحتبسة في الأرض ولا يخفى

على ذي عين أن هذا الوجه بعيد متكلف والمراد بالحب جنس الحبوب التي يتقوت بها وتدخر كالحنطة والشعير والذرة وغيرها .

(181/802)

﴿ وَعِنَباً ﴾ معروف ﴿ وَقَضْباً ﴾ أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال هو الفصفصة وقيدها الخليل بالرطبة وقال إذا يبست فهي القت وسميت بمصدر قضبه أي قطعه مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره نفس القطع وضعف هذا من فسر الأب بما يشمل ذلك وقيل هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم غضاً من النبات كالبقول والهليون وفي "البحر" عن الحبر أنه الرطب وهو يقضب من النخل واستأنس له بذكره مع العنب ولا يخفى ما فيه .

﴿ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ﴾ هما معروفان .

﴿ وَحَدَائِقَ ﴾ رياضاً ﴿ غُلْباً ﴾ أي عظاماً وأصله جمع أغلب وغلباء صفة العنق وقد يوصف به الرجل لكن الأول هو الأغلب ومنه قول الأعشى

: يمشي بها غلب الرقاب كأنهم . . .

بزل كسين من الكحيل جلالا

ووصف الحدائق بذلك على سبيل الاستعارة شبه تكاثف أوراق الأشجار وعروقها بغلظ الأوداج وانتفاخ الأعصاب مع اندماج بعضها في بعض في غلظ الرقبة ولا يرد أن الغلظ في الأشجار أقوى لأن الأمر بالعكس نظراً إلى الاندماج وتقوي البعض بالبعض حتى صارت شيئاً واحداً وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل كما في المرسن بأن يراد بالأغلب الغليظ مطلقاً وتجوز في الإسناد أيضاً لأن الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها وقال بعض المراد بالحدائق نفس الأشجار لمكان العطف على ما في حيز ﴿ أنبتنا ﴾ فلا تغفل .

﴿ وفاكهة ﴾ قيل هي الثمار كلها وقيل بل هي الثمار ما عدا العنب والرمان وأياً ما كان فذكر ما يدخل فيها أولاً للاعتناء بشأنه ﴿ وَأَبًّا ﴾ عن ابن عباس وجماعة أنه الكلأ والمرعى من أبه إذا أمه وقصده لأنه يؤم ويقصد أو من أب لكذا إذا تهيأ له متهيء المرعى ويطلق على نفس مكان الكلأ ومنه قوله

: جذمنا قيس ونجد دارنا . . .

ولنا الأب بها والمكرع

وذكر بعضهم أن ما يأكله الآدميون من النبات يسمى الحصيدة والحصيد وما يأكله غيرهم يسمى الأب وعليه قول بعض الصحابة يمدح النبي صلى الله عليه وسلم

: له دعوة ميمونة ريحها الصبا . . .

بها ينبت الله الحصيدة والأبا

(183/802)

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه التبن خاصة وقيل هو يابس الفاكهة لأنها توّب وتهيأ للشتاء للتفكه بها وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال سئل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عن الأب ما هو فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن أنس أن عمر رضي الله تعالى عنه قرأ على المنبر ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً ﴾ [عبس : 27] إلى قوله : وأباً فقال كل هذا قد عرفناه فما الأب ثم رفض عصا كانت في يده فقال هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأب ابتغوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه وفي "صحيح البخاري" من رواية أنس أيضاً أنه قرأ ذلك وقال فما الأب ثم قال ما كلفنا أو ما أمرنا بهذا ويتراءى من ذلك النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن

مشكلاته وفي "الكشاف" لم يذهب إلى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفاً فأراد رضي الله تعالى عنه أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحواها أن الأب بعض ما أنبت سبحانه للإنسان متاعاً له أو لأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر له عز وجل على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمته تعالى ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن انتهى وهو قصارى ما يقال في توجيه ذلك لكن في بعض الآثار عن الفاروق كما في "الدر المنثور" ما يبعد فيه إن صح هذا التوجيه في شيء وهو أنه ينبغي أن خفاء تعيين المراد من الأب على الشيخين رضي الله عنهما ونحوها من الصحابة وكذا

(184/802)

الاختلاف فيه لا يستدعي كونه غريباً مخلاً بالفصاحة وأنه غير مستعمل عند العرب العرباء وقد فسره ابن عباس لابن الأزرق بما تعتلف منه الدواب واستشهد به بقول الشاعر : ترى به الأب واليقطين مختلطاً . . .

ووقع في شعر بعض الصحابة كما سمعت ومن تتبع وجد غير ذلك .

﴿ متاعا لَّكُمْ ولانعامكم ﴾ قيل إما مفعول له أي فعل ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم وبعضها علف لدوابهم ويوزع وينزل كل على مقتضاه والالتفات لتكميل الامتنان وإما مصدر مؤكد لفعله المضمر بحذف الزوائد أي متعكم بذلك متاعاً أو لفعل مرتب عليه أي فتمتعتم بذلك متاعاً أي تمتعاً أو مصدر من غير لفظه فإن ما ذكر من الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع وقد مر الكلام في نظيره فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(185/802)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) ﴾

إما مفرع على قوله : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ [عبس : 23] فيكون مما أمره الله به من النظر ، وإما على قوله : ﴿ ما أكفره ﴾ [عبس : 17] فيكون هذا النظر مما يبطل ويزيل شدة كفر الإنسان .

والفاء مع كونها للتفريع تفيد معنى الفصيحة ، إذ التقدير : إن أراد أن يقضي ما أمره فلينظر

إلى طعامه أو إن أراد نقض كفره فلينظر إلى طعامه .

وهذا نظير الفاء في قوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ [الطارق : 4 ، 5] ، أي إن أراد الإنسان الخلاص من تبعات ما يكتبه عليه الحافظ فلينظر مِمَّ خُلق ليهتدي بالنظر فيؤمن فينجو .

وهذا استدلال آخر على تقريب كيفية البعث انتقل إليه في معرض الإرشاد إلى تدارك الإنسان ما أهملَه وكان الانتقال من الاستدلال بما في خَلْق الإنسان من بديع الصنع من دلائل قائمة بنفسه في آية : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ [عبس : 18] إلى الاستدلال بأحوال موجودة في بعض الكائنات شديدة الملازمة لحياة الإنسان ترسيخاً للاستدلال ، وتفنناً فيه ، وتعريضاً بالمنة على الإنسان في هذه الدلائل ، من نعمة النبات الذي به بقاء حياة الإنسان وحياة ما ينفعه من الأنعام .

وتعدية فعل النظر هنا بحرف ﴿ إلى ﴾ تدل على أنه من نظر العين إشارة إلى أن العبرة تحصل بمجرد النظر في أطواره .

والمقصود التدبر فيما يشاهده الإنسان من أحوال طعامه بالاستدلال بها على إيجاد الموجودات من الأرض .

وجُعل المنظور إليه ذاتَ الطعام مع أن المراد النظر إلى أسباب تكونه وأحوال تطوره إلى حالة انتفاع الإنسان به وانتفاع أنعام الناس به .

وذلك من أسلوب إناطة الأحكام بأسماء الذوات ، والمراد أحوالها مثل قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] أي أكلها ، فأمر الله الإنسان بالتفكير في أطوار تكوّن الحبوب والثمار التي بها طعامه ، وقد وُصف له تطور ذلك ليَتَأمل ما أودع إليه في ذلك من بديع التكوين سواء رأى ذلك ببصره أم لم يَره ، ولا يخلو أحد عن علمٍ إجمالي بذلك ، فيزيده هذا الوصف علماً تفصيلياً ، وفي جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة في الأرض ، فقد يكون هذا التمثيل في مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد ، وقد يكون تمثيلاً في جميع تلك الأطوار بأن تُخرج الأجساد من الأرض كخروج النبات بأن يكون بَذرها في الأرض ويُرسل الله لها قُوى لا نعلمها تُشابه قوة الماء الذي به تحيا بذور النبات ، قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ [نوح : 17 ، 18] .

وفي "تفسير ابن كثير" عند قوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ [التكوير : 7] عن ابن (أبي) حاتم بسنده إلى ابن عباس : "يسيل واد من أصل العرش فيما بين الصيحتين فينبت منه كلُّ خلق بَلي إنسانٍ أو دابة ولو مرّ عليهم مارٌّ قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم قد نبتوا

على وجه الأرض ، ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد " ا ه .

وأمور الآخرة لا تتصورها الأفهام بالكُنْه وإنما يجزم العقل بأنها من الممكنات وهي مطيعة لتعلق القدرة التنجيزي .

والإِنسان المذكور هنا هو الإِنسان المذكور في قوله : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] وإنما جيء باسمه الظاهر دون الضمير كما في قوله : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ [عبس : 18] ، لأن ذلك قريب من معاده وما هنا ابتداءُ كلام فعبر فيه بالاسم الظاهر للإِيضاح .

(187/802)

وأدمج في ذلك منة عليه بالإمداد بالغذاء الذي به إخلاف ما يضمحل من قوته بسبب جهود العقل والتفكير الطبيعية التي لا يشعر بحصولها في داخل المزاج ، وَبِسبب كد الأعمال البدنية والإِفرازات ، وتلك أسباب لتبخر القوى البدنية فيحتاج المزاج إلى تعويضها وإخلافها وذلك بالطعام والشراب .

وإنما تعلق النظر بالطعام مع أن الاستدلال هو بأحوال تكوين الطعام ، إجراءً للكلام على الإِيجاز ويبينه ما في الجمل بعده من قوله : ﴿ إنا صببنا الماء صباً ﴾ إلى آخرها .

فالتقدير : فلينظر الإِنسان إلى خَلق طعامه وتهيئة الماء لإنمائه وشق الأرض وإنباته وإلى انتفاعه به وانتفاع مواشيه في بقاء حياتهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ إنا صببنا ﴾ بكسر همزة (إنَّا) على أن الجملة بيان لجملة : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ لتفصيل ما أجمل هنالك على وجه الإيجاز .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب بفتح الهمزة على أنه اسم بدلُ اشتمال من ﴿ طعامه ﴾ أو البدلُ الذي يسميه بعض النحويين بدل مفصَّل من مجمل .

والصَّب : إلقاء صبرة متجمعة من أجزاء مائعة أو كالمائعة في الدقة في وعاء غير الذي كانت فيه ، يقال : صَب الماء في الجَرة ، وصب القَمح في الهَرِي ، وصَبَّ الدراهم في الكِيس .

وأصله : صبّ الماء ، مثل نزول المطر وإفراغ الدلو .

والشق : الإِبعاد بين ما كان متصلاً .

والمراد هنا شقّ سطح الأرض بخرق الماء فيه أو بآلة كالمحراث والمسحاة ، أو بقوة حرّ الشمس في زمن الصيف لتتهيأ لقبول الأمطار في فصل الخريف والشتاء .

وإسناد الصّب والشق والإِنبات إلى ضمير الجلالة لأن الله مقدِّر نظام الأسباب المؤثرة في ذلك ، ومُحْكِمُ نواميسها ومُلهمُ الناس استعمالها .

فالإسناد مجاز عقلي في الأفعال الثلاثة .

وقد شاع في ﴿ صببنا ﴾ و ﴿ أنبتنا ﴾ حتى ساوَى الحقيقة العقلية .

(188/802)

وانتصب ﴿ صبّاً ﴾ و ﴿ شقاً ﴾ على المفعول المطلق ل ﴿ صببنا ﴾ و ﴿ شققنا ﴾ مؤكّداً لعامله ليتأتى تنوينه لما في التنكير من الدلالة على التعظيم وتعظيم كل شيء بما يناسبه وهو تعظيم تعجيب .

والفاء في قوله : ﴿ فأنبتنا ﴾ للتفريع والتعقيب وهو في كل شيء بحسبه .

والحَب أريد منه المقتات منه للإنسان ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ في سورة البقرة (261) .

والعِنب : ثمر الكَرم ، ويتخذ منه الخمر والخل ، ويؤكل رَطباً ، ويتخذ منه الزبيب .

والقضبُ : الفِصْفصة الرطبة ، سميت قضباً لأنها تعلف للدواب رطبة فتقضب ، أي تقطع مرة بعد أخرى ولا تزال تُخلف ما دام الماء ينزل عليها ، وتسمى القَت .

والزيتون : الثمر الذي يعصر منه الزيت المعروف .

والنخل : الشجر الذي ثمرته التمر وأطوارهُ .

والحدائق : جمع حديقة وهي الجنة من نخل وكَرم وشجرِ فواكهَ ، وعطفُها على النخل من عطف الأعم على الأخص ، ولأن في ذكر الحدائق إدماجاً للامتنان بها لأنها مواضع تنزههم واخترافهم .

وإنما ذكر النخل دون ثمرته ، وهو التمر ، خلافاً لما قُرن به من الثمار والفواكهِ والكلأ ، لأن منافع شجر النخيل كثيرة لا تقتصر على ثمره ، فهم يقتاتون ثمرته من تمر ورُطب ويُسر ، ويأكلون جُمَّاره ، ويَشربون ماء عود النخلة إذا شُق عنه ، ويتخذون من نَوى التمر علفاً لإبلهم ، وكل ذلك من الطعام ، فضلاً عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه ، والحُصُر من سَعَفه ، والحبالَ من لِيفه .

فذِكْرُ اسم الشجرة الجامعة لهذه المنافع أجمع في الاستدلال بمختلف الأحوال وإدماج الامتنان بوفرة النعم ، وقد تقدم قريباً في سورة النبأ .

(189/802)

والغُلْب : جمع غلباء ، وهي مؤنث الأغلب ، وهو غَليظُ الرقبة ، يقال : غلب كفرح ، يوصف به الإنسان والبعير ، وهو هنا مستعار لغلظ أصول الشجر فوصف الحدائق به ؛ إما على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج

والأعصاب فتكون استعارة ، وإما على تقدير محذوف ، أي غُلْبٍ شَجَرُها ، فيكون نعتاً سببيّاً وتكون الاستعارة في تشبيه كل شجرة بامرأة غليظة الرقبة ، وذلك من محاسن الحدائق لأنها تكون قد استكملت قوة الأشجار كما في قوله : ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ [النبأ : 16] .

وخصت الحدائق بالذكر لأنها مواضع التنزه والاختراف ، ولأنها تجمع أصنافاً من الأشجار .

والفاكهة : الثمار التي تؤكل للتفكه لا للإقتيات ، مثل الرُّطَب والعِنب الرَّطْب والرمان واللوز .

والأبُّ : بفتح الهمزة وتشديد الباء : الكلأ الذي ترعاه الأنعام ، روي أن أبا بكر الصديق سُئل عن الأبّ : ما هو ؟ فقال : "أيُّ سماءٍ تُظلني ، وأيُّ أرض تُقِلَّني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به" وروي أن عمر بن الخطاب قرأ يوماً على المنبر : ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ إلى ﴿ وأبّاً ﴾ فقال : كلّ هذا قد عرفناه فما الأبّ ؟ ثم رفع عصا كانت في يده ، وقال : هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك يا ابن أمّ عمر أن لا تدري ما الأبّ ابتغوا ما بُيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به ، وما لم تعرفوه فَكِلوه إلى ربه" .

وفي "صحيح البخاري" عن عُمر بعض هذا مختصراً .

والذي يظهر لي في انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول الأبّ وهما من خُلّص العربِ لأحد

سببين:

إما لأن هذا اللفظ كان قد تنوسي من استعمالهم فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة فإن الكلمة قد تشتهر في بعض القبائل أو في بعض الأزمان وتُنسى في بعضها مثل اسم السِّكين عندَ الأوس والخزرج، فقد قال أنس بن مالك: "ما كُنَّا نَقول إلا المُدْية حتى سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن سليمان عليه السلام قال:

(190/802)

"ائيتوني بالسكين أَقْسِمْ الطفْلَ بينهما نصفين".

وإما لأن كلمة الأبّ تطلق على أشياء كثيرة منها النبت الذي ترعاه الأنعام، ومنها التبن، ومنها يابس الفاكهة، فكان إمساك أبي بكر وعمر عن بيان معناه لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين، وهل الأبّ مما يرجع إلى قوله: ﴿ متاعاً لكم ﴾ أو إلى قوله: ﴿ ولأنعامكم ﴾ في جمْع ما قُسِّم قبله.

وذكر في "الكشاف" وجهاً آخر خاصاً بكلام عُمر فقال: "إن القوم كانتْ أكبر همتهم عاكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يُعمل به تكلفاً عندهم، فأراد عمر أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان.

وقد علم من فحوى الآية أنّ الأبَّ بعض ما أنبته الله للإنسان متاعاً له ولأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله على ما تبين لك مما عُدد من نعمه ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأبّ ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يَجروا على هذا السَنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن ا ه" .

ولم يأت كلام "الكشاف" بأزيد من تقرير الإشكال .

وقوله : ﴿ متاعاً لكم ﴾ حال من المذكورات يعود إلى جميعها على قاعدة ورود الحال بعد مفردات متعاطفة ، وهذا نوع من التنازع .

وقوله : ﴿ ولأنعامكم ﴾ عطَف قوله : ﴿ لكم ﴾ .

والمتاع : ما يُنتفع به زمناً ثم ينقطع ، وفيه لف ونشر مُشَوَّش ، والسامع يرجع كل شيء من المذكورات إلى ما يصلح له لظهوره .

وهذه الحال واقعة موقع الإدماج أدمجت الموعظة والمنة في خلال الاستدلال . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(191/802)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(85) فلينظر الإنسان إلي طعامه

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع النصف الثاني من سورة عبس , وهي سورة مكية , وعدد آياتها 42 بعد البسملة , وقد سميت بهذا الاسم لإعراض رسول الله (صلي الله عليه وسلم) عن ابن أم مكتوم , وعبوسه في وجهه (وكان رجلا أعمي) حين جاء يلتمس العلم الشرعي , ورسول الله (صلي الله عليه وسلم) مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلي الإسلام , فنزلت هذه السورة المباركة معاتبة أفضل خلق الله قاطبة علي هذا الموقف لتؤكد قيمة إسلامية عليا مؤداها المساواة بين الناس علي الرغم من تباين مستوياتهم الاجتماعية , وإمكاناتهم المادية من مال وجاه وسلطان , والمفاضلة بينهم فقط علي أساس من تقوي الله , وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالي) في سورة الحجرات :

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي * وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم

عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير *

(الحجرات :13)

والمحور الرئيسي للسورة الكريمة يدور حول قضية العقيدة , والوحي بها , والآخرة وأهوالها , وتستدل علي صدق ما جاء بها بخلق الإنسان من نطفة , وتقدير صفاته وجنسه , وأجله ورزقه , وشقي أم سعيد , وتيسير سبل الحياة له , وسبل الهداية فيها , وقد قدر الله (تعالي) عليه بعد ذلك الموت والبعث والنشور والحساب , والخلود في حياة مقبلة إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا , وكثير من الكافرين تمضي بهم

الحياة دون أن يحقق الواحد منهم شيئًا من واجباته فيها أو أن يعرف الغاية من وجوده في هذه الحياة الدنيا , فينتهي أجله ليلقي الله (تعالي) صفر اليدين , مثقل الكاهل

(192/802)

بالذنوب . وتستدل السورة الكريمة كذلك بما خلق الله (تعالي) من أنواع الطعام لكل من الإنسان والحيوان , وتختتم بالحديث عن القيامة وأهوالها , وعن تمايز الناس فيها بين مؤمن صادق , وكافر فاجر فيقول ربنا (تبارك وتعالي) في ختامها

وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة .

أولئك هم الكفرة الفجرة *

(عبس :38.42) .

من ركائز العقيدة في سورة عبس

من الركائز التي ألمحت إليها هذه السورة المباركة ما يلي :

(1) الإيمان بالله (تعالي) ربا , وبالإسلام دينا , وبسيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) نبيا ورسولا .

(2) الإيمان بوحدة الجنس البشري , وبالأخوة الإنسانية , ومن ثم فإن أساس المفاضلة بين الناس يجب أن يكون هو تقوي الله (تعالي) , وخشيته , وحسن عبادته , وليست المستويات الاجتماعية , ولا الإمكانات المادية الزائلة من مال , وجاه , وسلطان .

(3) الإيمان بأن وحي السماء إلي العباد حق , تنقله الملائكة الكرام البررة إلي رسل الله المختارين في الأرض ليبلغوه إلي الناس , كل إلي أمته .

(4) الإيمان بأن القرآن الكريم هو آخر صور الوحي المنزلة من الله (تعالي) هداية للإنسان , وتذكرة له , فمن شاء منهم اهتدي بهديه , ومن لم يشأ فإثمه فوق رأسه , وبما أن القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة فهو محفوظ في الأرض وفي السماء : في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة . وقد حفظه الله (تعالي) منزها عن عبث العابثين من شياطين الإنس والجن , وعن أي خلل أو نقص يمكن أن يطوله كما طال الصحف من قبله .

(5) الإيمان الكامل بأن الله (تعالي) خلق الإنسان من نطفة فقدره , أي حدد له صفاته , وجنسه , وأجله ورزقه , وشقي أم سعيد , ويسر له

سبل الخروج إلي الحياة , وأساليب الهداية والنجاح فيها .

(6) الإيمان بأن الموت حق علي

العباد , وأن البعث والنشور حتمي عليهم كذلك .

(193/802)

---

(7) الإيمان بأن الله (تعالي) هو خالق كل شيء , وأنه (سبحانه) هو الذي أوجد طعام كل من الإنسان وأنعامه , وأنبته لهم من الأرض بمختلف أشكاله وألوانه وطعومه بقدرة فائقة تشهد له (سبحانه) بالألوهية والربوبية .

(8) الإيمان بالآخرة وأهوالها التي تجعل المرء يفر من أقرب الناس إليه , وبحتمية وقوعها , وبانقسام الناس فيها بين مؤمن مستبشر سعيد , وكافر شقي تعيس , وشتان بين المصيرين

.

من الآيات الكونية في سورة عبس

(1) خلق الإنسان من نطفة , والنطفة في اللغة هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة , وفي

القرآن الكريم يقصد بالنطفة كل من الحيوان المنوي والبييضة , فإذا اتحدا سميت اللقيحة الناتجة عن اتحادهما باسم النطفة الأمشاج , أي المختلطة , ويبدأ مصطلح النطفة من الحيوان المنوي والبييضة وينتهي بطور الحرث (الانغراس) .

(2) تقدير النطفة , ويأتي لفظ التقدير بمعني التروية والتفكير في تسوية أمر من الأمور وتهيئته , وتقديره بعلامات تطبع عليه , ويقصد بالتقدير هنا ما يعرف اليوم باسم البرمجة الجينية أو تحديد الصفات التي سوف تظهر علي الجنين في المستقبل والتي تعرف باسم الصفات السائدة , وكذلك الصفات المتنحية لتظهر في الأجيال المقبلة من نسله , وبذلك يتم تقدير أوصاف الجنين وتحديدها لذاته ولنسله من بعده إلي يوم الدين .

ويتضمن التقدير الذي يحدث في النطفة الأمشاج تحديد جنس الجنين ذكرا كان أو أنثي , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثي * من نطفة إذا تمني *(النجم :46,45) .

(3) (ثم السبيل يسره) : وهي إشارة إلي مرحلة انتهاء الحضانة الرحمية بولادة الجنين , وفيها قدر الخالق (سبحانه وتعالي) تيسير طريق الجنين لتيسير ولادته , وذلك بإفراز العديد من الهرمونات , والسوائل المخاطية والأغشية التي تعين الجنين علي الخروج بيسر إلي الحياة الصاخبة خارج بطن أمه .

(4) تنبيه الإنسان الغافل , والجاحد لنعم الله (تعالي) عليه , كي ينظر إلي طعامه , ويتفكر في الذي أعده له بالعديد من العمليات الدقيقة والمرتبة والمسخرة لإنزال المطر ولجعل الأرض قادرة علي الإنبات , وخلق مختلف النباتات فيها من ذوات المحاصيل (كالحبوب , والأعناب , والبقول , والخضراوات , والزيتون , والنخيل , ومختلف أنواع الفواكه والثمار) ومن غير ذوات المحاصيل (كالكلأ والعشب) مما يحتاجه كل من الإنسان والأنعام في طعامه , والطعام ضرورة من ضرورات نمو كل منهما , كما أنه لازم لتعويض ما يموت من خلاياه , ولازم لبقائه علي قيد الحياة إلي أن يتوفاه الله .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي معالجة خاصة بها , لكني سوف أقصر حديثي هنا علي النقطة الأخيرة المتعلقة بدعوة القرآن الكريم للإنسان الجاحد أن ينظر إلي طعامه ليدرك مدي نعم الله (تعالي) عليه في هذه القضية وحدها التي لخصتها سورة عبس في تسع آيات (24:31) , وقبل الشروع في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين القدامي والمعاصرين في شرح هذه الآيات التسع المباركات .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

فلينظر الإنسان إلي طعامه * أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها

حبا . وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم *

(عبس :24.31)

(195/802)

---

* ذكر الطبري (رحمه الله) ما نصه :(فلينظر الإنسان) يعني : الكافر (إلي طعامه) كيف دبره الله ؟ وقيل إلي مدخله فيه ومخرجه . (أنا صببنا الماء) الغيث (صبا) ,(ثم شققنا الأرض) بالنبات (شقا . فأنبتنا فيها حبا) : حب الزرع (وعنبا) : كروما (وقضبا) يعني بها : الرطبة , وأهل مكة يسمون القت : القضب ,(وحدائق غلبا) بساتين محوطا عليها (غلبا) : غلاظا يستظل بها (وفاكهة) من ثمار الأشجار (وأبا) : ما تأكله البهائم من العشب والنبات (متاعا لكم ولأنعامكم) تتمتعون بها وتنتفعون .

* وذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : وقوله تعالي :(فلينظر الإنسان إلي طعامه) فيه امتنان , وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة , علي إحياء الأجسام بعدما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا ,(أنا صببنا الماء صبا) أي أنزلناه من السماء علي الأرض ,(ثم شققنا الأرض شقا) أي أسكناه

فيها فيدخل في تخومها , فنبت وارتفع وظهر علي وجه الأرض ,(فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا) , فالحب كل ما يذكر من الحبوب , والعنب معروف , والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة , ويقال لها القت أيضا . قال ذلك ابن عباس وقتادة , وقال الحسن البصري : القضب العلف (وزيتونا) وهو معروف , وهو أدم وعصيره أدم , ويستصبح به ويدهن به (ونخلا) يؤكل بلحا وبسرا , ورطبا وتمرا , ونيئا ومطبوخا , ويعتصر منه رب وخل . (وحدائق غلبا) أي بساتين , قال الحسن وقتادة : غلبا نخل غلاظ كرام , وقال ابن عباس ومجاهد : كل ما التف واجتمع , وقال ابن عباس أيضا (غلبا) الشجر الذي يستظل به , وقال عكرمة (غلبا) أي غلاظ الأوساط , وقوله تعالي (وفاكهة وأبا) أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار , قال ابن عباس : الفاكهة كل ما أكل رطبا , والأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس , وفي رواية عنه : هو الحشيش للبهائم , وقال مجاهد : الأب الكلأ , وعن مجاهد والحسن : الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم , وعن عطاء كل شيء نبت علي وجه الأرض فهو أب , وقال الضحاك : كل شيء أنبتته الأرض سوي الفاكهة فهو الأب . وقال العوفي , عن ابن عباس : الأب : الكلأ والمرعي . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه : (فلينظر الإنسان) نظر اعتبار (إلي طعامه) كيف قدر ودبر له . (أنا صببنا الماء) من السحاب علي الأرض (صبا) أي بغزارة . (ثم شققنا الأرض) بالنبات (شقا) . (فأنبتنا فيها حبا) كالحنطة والشعير . (وعنبا وقضبا) هو : القت الرطب علفا للدواب . (وزيتونا ونخلا) أي : شجرتا الزيتون والنخيل . (وحدائق غلبا) بساتين كثيرة الأشجار . (وفاكهة وأبا) ما ترعاه البهائم , وقيل التبن . (متاعا) متعة أو تمتيعا . . . (لكم ولأنعامكم) جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم .

(197/802)

---

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه : وينتقل السياق إلي لمسة أخري في مقطع جديد . . . فتلك هي نشأة هذا الإنسان . . فهلا نظر إلي طعامه وطعام أنعامه في هذه الرحلة ؟ وهي شيء واحد من أشياء يسرها له خالقه ؟

هذه قصة طعامه مفصلة مرحلة مرحلة , هذه هي فلينظر إليها , فهل له من يد فيها ؟ هل له من تدبير في أمرها ؟ إن اليد التي أخرجته إلي الحياة وأبدعت قصته , هي ذاتها اليد التي أخرجت طعامه , وأبدعت قصته . . . (فلينظر الإنسان إلي طعامه) , ألصق شيء به ,

وأقرب شيء إليه , وألزم شيء له . . لينظر إلي هذا الأمر الميسر الضروري الحاضر المكرر . لينظر إلي قصته العجيبة اليسيرة , فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب , وهي معجزة كمعجزة خلقه ونشأته , وكل خطوة من خطواتها بين القدرة التي أبدعته :(أنا صببنا الماء صبا) . . وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة , في أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان , فأما حين تقدم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدي وأقدم عهدا من هذا المطر الذي يتكرر اليوم ويراه كل أحد .

واستعار صاحب الظلال (رحمه الله) فرضا عن أصل ماء الأرض نقله عن كتاب الإنسان لا يقوم وحده (تأليف أ . كريس موريسون وترجمه محمود صالح الفلكي بعنوان :(العلم يدعو للإيمان) ثم أضاف : ذلك كان أول قصة الطعام :(أنا صببنا الماء صبا) . . ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء في أي صورة من صوره , وفي أي تاريخ لحدوثه , ولا أنه صبه علي الأرض صبا لتسير قصة الطعام في هذا الطريق ! .

(ثم شققنا الأرض شقا) . . وهذه هي المرحلة التالية لصب الماء . وهي صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائي الذي يري الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته , وتدبير غير تدبيره . ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها . أو

يري النبت يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق (سبحانه) وينمو علي وجهها , ويمتد في الهواء فوقها . . وهو نحيل نحيل , والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة . ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقا , وتعينه علي النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف . وهي معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة , ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة في النبتة الرخية .

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدي آخر من التصور في هذا النص , وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور . إنه قد يكون ذلك التفتت في صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة . . . , وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التي يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التي كانت تكسو وجه الأرض وتكون قشرتها , حتي وجدت طبقة الطمي الصالحة للزرع . وكان هذا أثرا من آثار الماء تاليا في تاريخه لصب الماء صبا , مما يتسق أكثر من هذا التتابع الذي تشير إليه النصوص .

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذي حدث , وهو الذي تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة في القصة هي النبات بكل صنوفه وأنواعه التي يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين , وأعمها في طعام الناس والحيوان :(فأنبتنا فيها حبا) . . وهو يشمل

جميع ما يأكله الناس في أية صورة من صوره , وما يتغذي به الحيوان في كل حالة من حالاته . (وعنبا وقضبا) . . والعنب معروف , والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التي تقطع مرة بعد أخري (وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) . . . والزيتون والنخل معروفان لكل عربي , والحدائق جمع حديقة , وهي البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و (غلبا) جمع غلباء أي ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار . والفاكهة من ثمار الحدائق و (الأب) أغلب الظن أنه الذي ترعاه الأنعام . . . .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني

(199/802)

القرآن (رحم الله كاتبها برحمته الواسعة) ما نصه : (فلينظر الإنسان إلي طعامه) كيف دبر : (أنا صببنا الماء صبا) أنزلنا له الغيث من السماء إنزالا . (ثم شققنا الأرض شقا) شققناها بالنبات شقا بديعا , لائقا بما يشقها منه صغرا وكبرا , وشكلا وهيئة . (حبا) ما يقتات به الإنسان ويدخره , من نحو الحنطة والشعير والذرة . (وعنبا) يتفكه به . (وقضبا) علفا رطبا للدواب ويسمي الفصفصة , وإذا يبس يسمي القت , وسمي قضبا لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد أخري كالكلأ والبرسيم . وقيل : القضب ما

يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضا طريا , كالبقول التي تقطع فينبت أصلها . (وحدائق) بساتين محوطة , جمع حديقة , وهي ما أحيط من النخل والشجر , فإذا لم يحط فليس بحديقة , بل هو بستان , ومنه أحدقوا به أي أحاطوا به . (غلبا) عظاما , جمع أغلب وغلباء . والغلباء هي الحديقة الغليظة الأشجار الملتفة . وأصلها من الغلب بفتحتين بمعني الغلظ , يقال : غلب كفرح أي غلظ عنقه , ومنه : الأغلب للغليظ الرقبة , وهضبة غلباء : أي عظيمة مشرفة . (وأبا) الأب : الكلأ والمرعي , وهو ما تأكله البهائم من العشب , من أبه : إذا أمه وقصده , لأنه يؤم ويقصد . أو من أب لكذا : إذا تهيأ له , لأنه متهيء للرعي . أو ما تأكله البهائم من العشب والنبات , رطبا كان أو يابسا . فهو أعم من القضب , أو هو التبن خاصة .

* وذكر كل من أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم وصفوة التفاسير كلاهما مشابها لا أري داعيا لتكراره هنا .

أولا : فلينظر الإنسان إلي طعامه :

من الدلالات العلمية للآيات الكريمة

(الطعام) و (الطعم) هو كل ما يؤكل , و (الطعم) تناول الغذاء , و (الطعمة) المأكلة , ويقال : (طعم) (طعما) إذا أكل أو ذاق فهو (طاعم) , و (استطعمه) أي سأله أن يطعمه

فأطعمه .

وقد يستعمل

(200/802)

الفعل (طعم) في الشراب أيضا لقول الحق (تبارك وتعالي) علي لسان طالوت لجنوده : . . . إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني * (البقرة :249) .

وقول رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في وصفه لماء زمزم إنه طعام طعم وشفاء سقم .

ولذلك بدأت هذه المجموعة من الآيات التي تتحدث عن الطعام في سورة عبس بقول الحق (تبارك وتعالي) :

أنا صببنا الماء صبا .

ومن الثابت علميا أن الماء سابق في وجوده علي خلق الحياة لأن الحياة الأرضية التي نعرفها لا تقوم بغير الماء الذي أخرجه ربنا (تبارك وتعالي) أصلا من داخل الأرض , وصدق الله العظيم إذ يقول :

والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها *

(النازعات 30 و 31)

وعلي الماء قامت حياة كل من النبات والحيوان والإنسان وأعد الله (تعالي) للإنسان كل صنوف الطعام التي يحتاجها في حياته , ومن هنا كانت الإشارة إليه لينظر إلي طعامه نظر تدبر وتفكر واعتبار .

ثانيا : أنا صببنا الماء صبا :

تعتبر دورة الماء حول الأرض من دلالات طلاقة القدرة الإلهية , فقبل إخراج ماء الأرض من داخلها عبر فوهات البراكين , كان الله (تعالي) قد هيأها سقفا باردا تتكثف عنده وهو الحد العلوي لنطاق الرجع (نطاق التغيرات المناخية) الذي تصل عنده درجة الحرارة فوق خط الاستواء إلي (60) درجة تحت الصفر , ولولا هذه الحقيقة لارتفع بخار الماء المتصاعد من الأرض إلي طبقات الجو العليا وانفلت من نطاق جاذبية الأرض إلي فسحة الكون , ولو حدث ذلك ما كنا ولا كانت الحياة من حولنا علي الإطلاق .

وعند وصول بخار الماء المتصاعد من الأرض إلي الحد الأعلي لنطاق الرجع تكثف وعاد إلي الأرض مطرا , وساعد تكرر نزول المطر علي تبرد الغلاف الصخري للأرض , كما ساعد علي سيلان الماء علي سطح الأرض شاقا أودية له علي هيئة أعداد من الأنهار والجداول , وعلي تحركه إلي

منخفضات الأرض ليملأها بالماء مكونا البحار والمحيطات والبحيرات وغير ذلك من تجمعات الماء علي سطح الأرض , وبمجرد تكون ذلك بدأت أشعة الشمس في تبخير هذا الماء ليرتفع علي هيئة بخار يعلق بأجزاء من الغلاف الغازي للأرض مكونا السحب التي يتكثف منها الماء ليعود إلي الأرض مطرا , وبردا , وثلجا .

وقد استمرت دورة الماء حول الأرض منذ أن أخرج الله (تعالي) منها ماءها وسوف تستمر إلي أن يرث الأرض ومن عليها .

وبهذه الدورة المعجزة التي يتحرك بها الماء من غلاف الأرض المائي إلي غلافها الهوائي ليتطهر مما يتجمع فيه من ملوثات , ومواد يذيبها من الغلاف الصخري للأرض , أو تعلق به في أثناء جريانه علي سطحها , أو من بقايا بلايين الكائنات الحية التي تحيا وتموت في الأوساط المائية . وتمتد دورة الماء من نحو الكيلو متر الواحد تحت سطح الأرض إلي ارتفاع يقدر بنحو خمسة عشر كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , فتعمل علي تطهير الماء , وتلطيف الجو , وتوفير نسبة معينة من الرطوبة في كل من الغلاف الغازي للأرض وتربتها تحتاج إليه غالبية صور الحياة إن لم تكن جميعها خاصة في المناطق الصحراوية .

وبواسطة هذه الدورة المائية التي استمرت علي مدار عمر الأرض المقدر بنحو خمسة بلايين من السنين تمت تسوية سطح الأرض , وشق الفجاج والسبل فيها , كما تم تفتيت

الصخور , وتكوين كل من التربة والصخور الرسوبية , وخزن قدر من هذا الماء فيها وفي غيرها من صخور قشرة الأرض , وتكوين أعداد من الصخور الاقتصادية والركازات المعدنية المهمة .

ولولا هذا الإعداد الرباني الدقيق ما أنبتت الأرض , ولا كانت صالحة للعمران , ولذلك يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) ـ وهو صاحب الفضل والمنة ـ بقوله (عز من قائل) : أنا صببنا الماء صبا أي أنزلنا الغيث من السماء إنزالا , لأن صب الماء هو إراقته من أعلي , والصبيب هو المصبوب من المطر وإن استعمل لغيره من

السوائل , فإذا علمنا أن كمية الماء الأرضي تقدر بنحو 1.4 بليون كيلو متر مكعب , وأن من هذه الكمية الهائلة التي أخرجها ربنا (تبارك وتعالي) لنا من داخل الأرض , يتبخر سنويا 380 ألف كيلو متر مكعب , ثم تعود كلها إلي الأرض مرة أخري مطرا طهورا , يوزعه الله (تعالي) بعلمه , وحكمته , وقدرته , إذا علمنا ذلك لأدركنا قيمة هذه النعمة الإلهية الكبري التي وصفها الحق (تبارك وتعالي) بقوله : أنا صببنا الماء صبا , وقوله (عز من قائل) : وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا *

لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا (الفرقان :49,48) .

ثالثا : ثم شققنا الأرض شقا

ترد كلمة الأرض في القرآن الكريم بثلاثة معان محددة لتعني كوكب الأرض في مجمله , أو الغلاف الصخري المكون للياسة التي نحيا عليها , أو قطاع التربة الذي يغطي ذلك الغلاف الصخري في بعض أجزائه , كما هو واضح من الآية الكريمة التي نحن بصددها لقول الحق (تبارك وتعالي) :

ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا

وذلك لأن الحب لا ينبت إلا في التربة , وكذلك الغالبية الساحقة من النباتات .

وتتكون تربة الأرض بالتفاعل المعقد بين أغلفتها الصخرية , والمائية , والهوائية , والحيوية , مما يؤدي إلي التفكك الفيزيائي والتحلل الكيميائي والحيوي لصخور الأرض بواسطة عوامل التعرية المختلفة , وتلعب الكائنات الحية من مثل البكتيريا , والفطريات , والطحالب , وجميع النباتات , وبعض الحيوانات دورا رئيسيا في تكون التربة التي تعتبر مصدر الغذاء والماء لحياة كل النباتات الأرضية , بل لحياة كل من الإنسان والحيوان .

وتتكون التربة الأرضية في قطاعها العلوي أساسا من معادن الصلصال , وحبات الرمل , وأكاسيد الحديد , وكربونات كل من الكالسيوم والمغنيسيوم , وإن كانت أنواع التربة تتعدد تعددا هائلا

بتعدد أنواع الصخور التي تنشأ عنها , والظروف الطبيعية والكيميائية التي تتعرض لها , وأنواع الكائنات الحية التي تزخر بها , والتي تلعب أدوارا رئيسية في إعدادها .

وعلي الرغم من ذلك تبقي المعادن الصلصالية قاسما مشتركا في معظم أنواع تربة الأرض , والمعادن الصلصالية لها شراهة شديدة للماء , فإذا وصلها امتصته بسرعة فتميأت مما يؤدي إلي زيادة حجمها فتهتز وتربو إلي أعلي حتي ترق رقة شديدة , فتنشق لتفسح طريقا آمنا لسويقة (ريشة) النبتة المنبثقة من داخل البذرة النابتة المدفونة في التربة , ومن هنا كانت تلك الإشارة القرآنية المعجزة في هذه السورة المباركة التي جمعت بين صب الماء , وشق الأرض , والإنبات في تسلسل دقيق معجز يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) :

أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا *(عبس :25. 27) .

ومن أسباب اهتزاز التربة وارتفاعها حتي تنشق دقة حجم حبيبات المعادن الصلصالية (أقل من 0.004 من الملليمتر) التي تتحول إلي الحالة الغروية بمجرد اختلاط الماء بها بكمية كافية , وهي حالة تتدافع فيها جسيمات المادة بقوة وأقدار غير متساوية في جميع

الاتجاهات , وعلي كل المستويات في حركة دائبة تؤدي إلي اهتزاز التربة وانتفاخها وانتفاضها بشدة حتي تنشق , وكلما زادت كمية الماء المختلط بالتربة زاد اهتزازها وارتفاعها وسارع ذلك في تشققها بإذن الله (تعالي) .

رابعا : فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم *:

هذا التسلسل المعجز في ست آيات قصار يكاد يشمل جميع النباتات التي تصلح طعاما ومتاعا لكل من الإنسان وأنعامه . .

(1) فالكلمة :(حبا) تشمل جميع أنواع الحبوب (من ذوات الفلقة الواحدة) من مثل القمح , والشعير , والشوفان , والذرة , والأرز , وغيرها , وتنطوي هذه النباتات في عائلة واحدة

تعتبر من أكثر النباتات نجاحا لأنها تسود مساحات من اليابسة أكثر من أية نباتات أخري , وتعرف هذه العائلة باسم عائلة النجيليات (العائلة النجيلية) وتشمل نحو سبعة آلاف نوع من أنواع النباتات , وهي أهم عائلة نباتية بالنسبة لكل من الإنسان والحيوانات آكلة الأعشاب كالأنعام , لأن جميع أنواع الحبوب اللازمة لحياة كل منهما تنطوي في هذه العائلة ,

وقد أنبتها الله (سبحانه وتعالي) قبل خلق الإنسان بملايين السنين , وأخذ الإنسان في زراعتها منذ أيام ما قبل التاريخ .

وبالإضافة إلي هذه المحاصيل المهمة من الحبوب تضم عائلة النجيليات محاصيل أخري مهمة من مثل قصب السكر , وأعشاب المراعي , ومنها الحولية والمعمرة , كما تضم بعض النباتات الخشبية من مثل نبات الخيزران .

(2) والتعبير القرآني : وعنبا وقضبا أيضا تعبير معجز لأن (العنب) يشير إلي رتبة كاملة من نباتات الثمار المهمة هي رتبة العنابيات , وتشمل عائلتين مهمتين هما : عائلة العناب وتشمل (45) جنسا , و (550) نوعا من أنواع النباتات واسعة الانتشار من مثل العناب , والنبق , وعائلة الأعناب , وتشمل (11) جنسا , و (600) نوع من أنواع العنب وهو واحد من أهم المحاصيل النباتية .

أما (القضب) و (القضبة) فهو الرطب من ثمار النبات , و (القضب) أصلا هو القطع , و (اقتضبه) أي اقتطعه , ولذا استعير (القضب) لما يقضب من النبات ليأكله الإنسان غضا طريا كالبقول التي تقطف ثمارها فينبت مكانها , أو تقطف النبتة فينبت أصلها , وفي ذلك إشارة إلي العائلة البقولية , وهي ثاني أكبر عائلة نباتية بذرية يعتمد عليها كل من الإنسان وأنعامه في طعامه , بعد العائلة النجيلية , وهي عائلة نباتاتها منتشرة في جميع أنحاء

العالم , وتشمل نحو (600) جنس , و (12.000) نوع من أنواع النباتات ذات الفلقتين وتشمل فيما تشمل : الفول , العدس , الحمص ,

(205/802)

الفاصوليا , اللوبيا , البازلاء , فول الصويا , الفول السوداني , الترمس , الحلبة , الخروب , التمر هندي , وغيرها , وكلها من ذات الثمار القرنية , ولذلك تعرف أحيانا باسم العائلة القرنية .

كذلك تشمل هذه العائلة نبات البرسيم الحجازي الذي يعتبر علفا رئيسيا للحيوانات آكلة الأعشاب كالأنعام , وغيرها من أعشاب المراعي والأعلاف , ونباتات الزهور , والنباتات الطبية .

(3) والتعبير القرآني : وزيتونا ونخلا : يشير إلي عائلتين من أهم العائلات النباتية هما العائلة الزيتونية , والعائلة النخيلية , والأولي تشمل (22) جنسا , و (500) نوع من أنواع الأشجار الزيتونية وهي أشجار معمرة , فأشجار الزيتون تعيش لأكثر من ألفي سنة , وهي شجرة مباركة كما وصفها القرآن الكريم ونعتتها أحاديث رسول الله (صلي الله عليه وسلم) . أما العائلة النخيلية فتشمل (200) جنس , وأكثر من أربعة آلاف نوع من أنواع

النخيل , والنخيل من أكثر النباتات احتمالا للجفاف والملوحة , وتنمو في المناطق الحارة الجافة والمعتدلة , وثمارها ومنتجاتها تعتبر من أهم المصادر النباتية التي اعتمد عليها الإنسان في حياته منذ وطئت قدماه هذه الأرض .

(4) والتعبير القرآني :(حدائق غلبا) أي حدائق عظاما , غليظة الأشجار ملتفة الأغصان , لتشمل الغالبية الباقية من أنواع النباتات , خاصة نباتات الظل , والزينة , والأخشاب , كما تشمل الكثير من نباتات الثمار المختلفة التي لا تنضوي في المجموعات السابقة .

(5) أما التعبير القرآني : وفاكهة وأبا فيركز علي نباتات الفاكهة المختلفة التي لا تحتويها المجموعات السابقة من مثل العائلات التوتية (وتشمل التين , والجميز , والتوت , وغيرها) , والوردية (وتشمل المشمش , والخوخ , والبرقوق , والكريز , واللوز في تحت العائلة المشمشية , والتفاح , والكمثري , والبشملة , والسفرجل في تحت العائلة التفاحية) والسذبية (عائلة الموالح) وغيرها .

أما (الأب) فهو الكلأ والمرعي , وما تأكله البهائم كالأنعام من العشب , وغيره من أنواع النبات رطبا كان أو يابسا (مثل التبن) .

وهكذا نري في هذا التسلسل المعجز لخمس آيات قصار لا تشغل أكثر من سطرين استعراضا لأهم النباتات التي تشكل الطعام الرئيسي لكل من الإنسان وأنعامه , ولذا ختمت بقول الحق (تبارك وتعالي) :(متاعا لكم ولأنعامكم) .

وعلوم تقسيم الحياة بصفة عامة , وعلم تقسيم النبات بصفة خاصة هي علوم مستحدثة في تاريخ الإنسان , بدأت مع منتصف القرن الثامن عشر الميلادي , ولم تتبلور إلا في أواخر القرن العشرين . واستعراض الآيات التي نحن بصددها لأهم مجموعات النبات في طعام كل من الإنسان وأنعامه بهذه البساطة , والدقة , والشمول , والإحاطة , لمما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , ويشهد بالنبوة والرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه , فصلي الله وسلم وبارك عليه , وعلي آله وصحبه , ومن تبع هداه , ودعا بدعوته إلي يوم الدين . .

والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث بعد الثمانمائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من (سورة عبس)

وحتى الآية ﴿ 42 ﴾ من السورة

(4/803)

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر عجائب الصنع في الطعام ، وكان ذلك يقطف فيعود لا سيما المرعى فإنه يأتي عليه الخريف فينشف ثم يتحطم من الرياح ويتفرق في الأرض ثم يصير تراباً ثم يبعث الله المطر فيجمعه من الأرض بعد أن صار تراباً ثم ينبته كما كان ، وكان ذلك مثل إحياء الموتى سواء ، فتحقق لذلك ما تقدم من أمر الإنشار بعد الإقبار ، وكان ذلك أيضاً مذكراً بأمر أبينا آدم

عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالأكل من الجنة إلا من الشجرة التي نهاه عنها ، فلما أكل منها أخرجه من الجنة فسجنه في دار ليست بجنة ولا نار ولا غيرهما بل هي من ممتزج الدارين وكالبرزخ بينهما ، فيها ما يذكر بهذه وما يذكر بتلك ، وفيها أمثلة الموجدات كلها ، قال مسبباً عما ثبت به الإحياء للبعث إلى المحشر معبراً بأداة التحقق لأن الساعة ممن لا بد منه ولا محيد عنه لأنها سر الكون فإن فيها حساب الذين استخلفوا في هذا الوجود وأفيضت عليهم النعم التي أودعها فيه ، وأشار إلى أنهم عاجزون عن القيام بشكرها ، وكثير منهم - بل أكثرهم - زاد على ذلك بكفرها ، فأوجب ذلك - ولا بد - حسابهم على ما فعلوا فيما استخلفوا فيه واسترعوه كما هي عادة كل مسترع ومستخلف :

﴿ فإذا جاءت ﴾ أي كانت ووجدت لأن كل ما هو كائن كأنه لاقيك وجاء إليك

﴿ الصآخة ﴾ أي الصرخة العظيمة التي يبالغ في إسماع الأسماع بها حتى تكاد تصمها لشدتها ، وكأنها تطعن فيها لقوة وقعتها وعظيم وجبتها ، وتضطر الآذان إلى أن تصيخ إليها أي تسمع ، وهي من أسماء القيامة ، وأصل الصخ : الضرب بشيء صلب على مصمت .

(5/803)

ولما كان وصفها بما يقع فيها أهيب ، قال مبدلاً من " إذا " ما يدل على جوابها من نحو : اشتغل كل بنفسه ولم يكن عنده فراغ ما لغيره : ﴿ يوم يفر المرء ﴾ أي الذي هو أعظم الخلق مروءة : ولما كان السياق للفرار ، قدم أدناهم رتبة في الحب والذب فأدناهم على سبيل الترقي ، وأخر الأوجب في ذلك فالأوجب بخلاف ما في " سأل " كما مضى فقال : ﴿ من أخيه ﴾ لأنه يألفه صغيراً وقد يركن إليه كبيراً مع طول الصحابة وشدة القرب في القرابة فيكون عنده في غاية العزة .

ولما كانت الأم مشاركة له في الإلف ، ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم الأخ وهو لها آلف وإليها أحنّ وعليها أرق وأعطف قال ﴿ وأمه ﴾ ولما كان الأب أعظم منها في الإلف لأنه أقرب في النوع وللولد عليه من العاطفة لما له من مزيد النفع أكثر ممن قبله قال : ﴿ وأبيه ﴾ ولما كانت الزوجة التي هي أهل لأن تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق في الوداد ، وكان الإنسان أذب عنها عند الاشتداد ، قال : ﴿ وصاحبته ﴾ ولعله أفردها إشارة إلى أنها عنده في الدرجة العليا من المودة بحيث لا يألف غيرها .

ولما كان للوالد إلى الولد من المحبة والعاطفة والإباحة – بالسر والمشاورة في الأمر ما ليس لغيره ، ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره قال : ﴿ وبنيه ﴾ وإن اجتمع فيها الصغير الذي هو عليه أشفق والكبير الذي هو في قلبه أجل وفي عينه أنبل ومن بينهما من الذكر والأنثى .

ولما ذكر فراره الذي منعه قراره ، علله فقال : ﴿ لكل امرىء ﴾ أي وإن كان أعظم الناس

مروءة ﴿ منهم يومئذ ﴾ أي إذ تكون هذه الدواهي العظام والشدائد والآلام ﴿ شأن ﴾ أي أمر بليغ عظيم ﴿ يغنيه ﴾ أي يكفيه - في الاهتمام بحيث لا يدع له حصة يمكنه صرفها إلى غيره ويوجب له لزوم المغنى ، وهو المنزل - الذي يرضيه مع أنه يعلم أنه يتبعونه ويخاف أن يطالبوه لما هم فيه من الكرب بما لعله قصر فيه من حقوقهم .

(6/803)

ولما ذكر اليوم ، قسم أهله إلى القسمين المقصودين بالتذكرة أول السورة ، فقال دالاًّ على البواطن بأشرف الظواهر : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ أي إذ كان ما تقدم من الفرار وغيره ﴿ مسفرة ﴾ أي بيض مضيئة بالإشراق والاستنارة ، من أسفر الصبح - إذا أشرق واستنار ﴿ ضاحكة ﴾ لما علمت من سعادتها ﴿ مستبشرة ﴾ أي طالبة للبشر وهو تغير البشرة من السرور وموجدة لذلك ، وهي بيضاء نيره بما يرى من تبشير الملائكة ، وذلك بما كانت فيه في الدنيا من عبوس الوجوه وتغيرها وشحوبها من خشية الله تعالى وما يظهر من جلاله في الساعة كابن أم مكتوم - رضى الله عنه - الذي كان يحمله خوف الساعة على حمل الراية في أشد الحروب كيوم القادسية والثبات بها حتى يكون كالعمود ، لا يزول عن مركزه أصلاً ليرضي المعبود .

ولما ذكر أهل السعادة الذين هم المقبلون على الخير المصابون في أنفسهم بما يكفر سيئاتهم ويعلي درجاتهم ، ذكر أضدادهم فقال تعالى : ﴿ ووجوه ﴾ وأكد بإعادة الظرف لإزالة الشبهة فقال : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ وجد ما ذكر ﴿ عليها ﴾ أي ملاصقة لها مع الغلبة والعلو ﴿ غبرة ﴾ أي ارتداد وكأنه بحيث يصير كأنه قد علاها غبار وهي عابسة حذرة وجلة منذعرة ، وذلك مما يلحقها من المشقات وكثرة الزحام مع رعب الفؤاد ، وتذكر ما هي صائرة إليه من الأنكاد الشداد ﴿ ترهقها ﴾ أي تغشاها وتقهرها وتعلوها ﴿ قترة ﴾ أي كدورة وسواد وظلمة ضد الإسفار فهي باكية عابسة مما كانت فيه في الدنيا من الفرح واللعب والضحك والأمن من العذاب ، فالآية من الاحتباك : ذكر الإسفار والبشر أولاً يدل على الخوف والذعر ثانياً ، وذكر الغبرة ثانياً يدل عل البياض والنور أولاً ، وسر ذلك أنه ذكر دليل الراحة ودليل التعب لظهورهما ترغيباً وترهيباً .

(7/803)

ولما كان هذا الأمر هائلاً ، وكان الفاجر ، لما علا قلبه من الرين وله من القساوة ، قليل الخوف من الأجل عديم الفكر فيما يأتي به غد لما غلب عليه من الشهوتين : السبيعة والبهيمية بخلاف المتقي في كل ذلك ، استأنف الإخبار زيادة في التهويل فقال : ﴿ أولئك ﴾

أي البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي خاصة لا غيرهم ﴿ الكفرة ﴾ أي الذين ستروا دلائل الإيمان ﴿ الفجرة ﴾ أي الذين خرجوا عن دائرة الشرع خروجاً فاحشاً حتى كانوا عريقين في ذلك الكفر والفجور ، وهم في الأغلب المترفون الذين يحملهم غناهم على التكبر والأشر والبطر ، فلجمعهم بين الكفر والفجور جمع لهم بين الغبرة والقترة ، كما يكون للزنوج من البقاعة إذا علا وجوههم غبار ووسخ ، فقد عاد آخرها على أولها فيمن يستحق الإعراض عنه ومن يستحق الإقبال عليه – والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 332.334 ﴾

(8/803)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأشياء وكان المقصود منها أموراً ثلاثة : أولها : الدلائل الدالة على التوحيد وثانيها : الدلائل الدالة على القدرة على المعاد وثالثها : أن هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان ، لا يليق بالعاقل أن يتمرد عن طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع هذه الجملة بما يكون مؤكداً لهذه الأغراض وهو شرح أهوال

القيامة ، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر ، ويدعوه ذلك أيضاً إلى ترك التكبر على الناس ، وإلى إظهار التواضع إلى كل أحد ، فلا جرم ذكر القيامة : فقال : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ ﴾ .

قال المفسرون يعني صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة ، قال الزجاج : أصل الصخ في اللغة الطعن والصك ، يقال صخ رأسه بحجر أي شدخه والغراب يصخ بمنقاره في دبر البعير أي يطعن ، فمعنى الصاخة الصاكة بشدة صوتها للآذان ، وذكر صاحب "الكشاف" وجهاً آخر فقال : يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له ، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأن الناس يصخون لها أي يستمعون .

ثم إنه تعالى وصف هول ذلك اليوم بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ .

﴿ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ .

﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .

وفيه مسألتان : المسألة الأولى :

يحتمل أن يكون المراد من الفرار ما يشعر به ظاهره وهو التباعد والاحتراز والسبب في ذلك الفرار الاحتراز عن المطالبة بالتبعات .

يقول الأخ : ما واسيتني بمالك ، والأبوان يقولان قصرت في برنا ، والصاحبة تقول أطعمتني الحرام ، وفعلت وصنعت ، والبنون يقولون : ما علمتنا وما أرشدتنا ، وقيل : أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ، ويحتمل أن يكون المراد من الفرار ليس هو التباعد ، بل المعنى أنه يوم يفر المرء من موالاة أخيه لاهتمامه بشأنه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] وأما الفرار من نصرته ، وهو كقوله تعالى : ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ [الدخان : 41] وأما ترك السؤال وهو كقوله تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ [المعارج : 10] .

المسألة الثانية :

المراد أن الذين كان المرء في دار الدنيا يفر إليهم ويستجير بهم ، فإنه يفر منهم في دار الآخرة ، ذكروا في فائدة الترتيب كأنه قيل : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ بل من أبويه فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد ، لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الفرار أتبعه بذكر سببه فقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وفي قوله : ﴿ يغنيه ﴾ وجهان الأول : قال ابن قتيبة : يغنيه أي يصرفه ويصده عن قرابته

وأنشد :

سيغنيك حرب بني مالك . . عن الفحش والجهل في المحفل

أي سيشغلك ، ويقال أغن عني وجهك أي أصرفه الثاني : قال أهل المعاني : يغنيه أي ذلك الهم الذي بسبب خاصة نفسه قد ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصارت شبيهاً بالغنى في أنه حصل عنده من ذلك المملوك شيء كثير .

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال يوم القيامة في الهول ، بين أن المكلفين فيه على قسمين منهم السعداء ، ومنهم الأشقياء فوصف السعداء بقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ . ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ .

(10/803)

مسفرة مضيئة متهللة ، من أسفر الصبح إذا أضاء ، وعن ابن عباس من قيام الليل لما روى من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار ، وعن الضحاك ، من آثار الوضوء ، وقيل : من طول ما أغبرت في سبيل الله ، وعندي أنه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة ضاحكة ، قال الكلبي : يعني بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه ، واعلم أن قوله : مسفرة إشارة إلى الخلاص

عن هذا العالم وتبعاته وأما الضاحكة والمستبشرة ، فهما محمولتان على القوة النظرية والعملية ، أو على وجدان المنفعة ووجدان التعظيم .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ .

قال المبرد : الغبرة ما يصيب الإنسان من الغبار ، وقوله : ﴿ ترهقها ﴾ أي تدركها عن قرب ، كقولك رهقت الجبل إذا لحقته بسرعة ، والرهق عجلة الهلاك ، والقترة سواد كالدخان ، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ، كما ترى وجوه الزنوج إذا أغبرت ، وكأن الله تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة ، كما جمعوا بين الكفر والفجور ، والله أعلم .

(11/803)

واعلم أن المرئجة والخوارج تمسكوا بهذه الآية ، أما المرجئة فقالوا : إن هذه الآية دلت على أن أهل القيامة قسمان : أهل الثواب ، وأهل العقاب ، ودلت على أن أهل العقاب هم الكفرة ، وثبت بالدليل أن الفساق من أهل الصلاة ليسوا بكفرة ، وإذا لم يكونوا من الكفرة

كانوا من أهل الثواب ، وذلك يدل على أن صاحب الكبيرة من أهل الصلاة ليس له عقاب ، وأما الخوارج فإنهم قالوا : دلت سائر الدلائل على أن صاحب الكبيرة يعاقب ، ودلت هذه الآية على أن كل من يعاقب فإنه كافر ، فيلزم أن كل مذنب فإنه كافر والجواب : أكثر ما في الباب أن المذكور ههنا هو هذا الفريقان ، وذلك لا يقتضي نفي الفريق الثالث ، والله أعلم ؛ والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 58 . 60 ﴾

(12/803)

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) ﴾

﴿ الصاخة ﴾ : اسم من أسماء القيامة ، واللفظة في حقيقتها إنما هي لنفخة الصور التي تصخ الآذان أي تصمها ، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يصم نبؤها الآذان لصعوبته ، وهذه استعارة وكذلك في الصيحة المفرطة التي يصعب وقعها على الأذن ، ثم ذكر تعالى فرار المرء من القوم الذين معهودهم أن لا يفر عنهم في الشدائد ، ثم رتبهم تعالى الأول فالأول محبة وحنواً ، وقرأ أبو أناس جوية " من أخيهُ وأمهُ وأبيهُ " بضم الهاء في كلها ، وقال منذر بن

سعيد وغيره : هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات إذ الملابسة تعلق المطالبة ، وقال جمهور الناس : إنما ذلك لشدة الهول على نحو ما روي أن الرسل تقول يومئذ نفس نفسي لا أسألك غيري ، و" الشأن الذي يغنيه " : هو فكرة في سيئاته وخوفه على نفسه من التخليد في النار ، والمعنى ﴿ يغنيه ﴾ عن اللقاء مع غيره والفكرة في أمره ، قال قتادة : أفضى كل إنسان إلى ما يشغله عن غيره . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : " لا يضرك في القيامة كان عليك ثياب أم لا " ، وقرأ هذه الآية وقال نحوه : لسودة ، وقد قالتا : واسوأتاه ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة ، وقرأ جمهور الناس : "يُغنيه " بالغين منقوطة وضم الياء على ما فسرناه ، وقرأ ابن محيصن والزهري وابن السميفع : "يَعَنيه " بفتح الياء والعين غير منقوطة من قولك عناني الأمر أي قصدني وأردني . ثم ذكر تعالى اختلاف الوجوه من المؤمنين الواثقين برحمة الله حين بدت لهم تباشيرها من الكفار ، و ﴿ مسفرة ﴾ : معناه : نيرة باد ضوؤها وسرورها ، و ﴿ ترهقها ﴾ معناه تلح عليها ، و" القترة " الغبار و" الغبرة " الأولى إنما هي العبوس والهم كما يرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار ، وأما " القترة " فغبار الأرض ويقال إن ذلك يغشاهم من التراب الذي تعوده البهائم ، ثم فسر تعالى أصحاب هذه الوجوه المغبرة بأنهم الكفرة قريش يومئذ ومن جرى مجراهم قديماً

وحديثاً .

نجز تفسير سورة ﴿ عبس ﴾ والحمد لله كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(13/803)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة ﴾

لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة ، وبالإنفاق مما امتن به عليهم .

والصاخّة : الصيحة التي تكون عنها القيامة ، وهي النفخة الثانية ، تَصُخ الأسماع : أي تُصِمُّها فلا تسمع إلا ما يُدْعَى به للأحياء .

وذكر ناس من المفسرين قالوا : تِصيخ لها الأسماع ، من قولك : أصاخ إلى كذا : أي استمع إليه ، ومنه الحديث : " ما من دابة إلاّ وهي مُصِيخة يومَ الجمعة شَفَقاً من الساعة إلاّ الجنَّ والإِنس " وقال الشاعر :

يُصِيخُ للنَّبْأَةِ أَسْماعَهُ . . .

إِصاخةَ المُنْشِدِ للمنْشِدِ

قال بعض العلماء : وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء ، فأما اللغة فمقتضاها القول الأوّل ، قال الخليل : الصاخَّة : صيحة تَصُخّ الآذان صَخاً أي تُصِمُّها بشدة وقعتها .

وأصل الكلمة في اللغة : الصَّكُّ الشديد .

وقيل : هي مأخوذة من صَخَّه بالحجر : إذا صَكَّه ، قال الراجز :

يا جارتِي هل لكِ أن تجالِدِي . . .

جلادة كالصَّك بالجَلامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب : صَخَّتْهمُ الصّاخة وباتتهم البائتة ، وهي الداهية .

الطبريّ : وأحسبه من صَخّ فلان فلاناً : إذا أصماه .

قال ابن العربيّ : الصاخّة التي تُورِث الصَّمَم ، وإنها لمُسمِعة ، وهذا من بديع الفصاحة ، حتى لقد قال بعض حَديثي الأسنان حديثي الأزمان :

أَصَمَّ بِكَ الناعِي وإنْ كان أَسْمَعا . . .

وقال آخر :

أَصَمَّنِي سِرُّهم أيامَ فُرقتهم . . .

فهل سمِعتم بسِر يُورِث الصَّمَما

لعمر اللَّهِ إنّ صيحة القيامة لمسمِعة تُصِم عن الدنيا ، وتُسمِعُ أمور الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ أي يهرب ، أي تجيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه ؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته ؛ لأنه لا يتفرغ لذلك ، لاشتغاله بنفسه ؛ كما قال بعده : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي يشغله عن غيره .

وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه ، لما بينهم من التَّبِعات .

وقيل : لئلا يرَوَا ما هو فيه من الشدة .

وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً ؛ كما قال : " يوم لا يغنِي مولًى عن مولًى شيئاً " وقال عبد الله بن ظاهر الأبهري : يفرّ منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم ، إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى .

﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ أي زوجته .

﴿ وَبَنِيهِ ﴾ أي أولاده .

وذكر الضحاك عن ابن عباس قال : يفرّ قابيلُ من أخيه هابيلَ ، ويفر النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من ابنه ، ولوط من امرأته ، وآدم من سَوْأة بنيه .

وقال الحسن : أوّل من يفرّ يوم القيامة من أبيه : إبراهيم ، وأوّل من يفرّ من ابنه نوح ، وأوّل من

يفرّ من امرأته لوط .

قال : فيَرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ .

﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

في صحيح مسلم " عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "يُحْشَر الناس يوم القيامة حفاة عُراة غُرْلاً" قلت ، يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : "يا عائشة ، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض" " خرّجه التِّرمذي عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " "يُحشرون حفاة عُراة غُرْلاً" فقالت امرأة : أينظر بعضنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : "يا فلانة" ﴿ لكل امريء مِنهم يومِئذٍ شأن يغنِيهِ ﴾ " قال : حديث حسن صحيح .

(15/803)

وقراءة العامة بالغين المعجمة ؛ أي حالٌ يشغَله عن الأقرباء .

وقرأ ابن مُحيصن وحُميد "يَعْنِيهِ" بفتح الياء ، وعين غير معجمة ؛ أي يعنيه أمره .

وقال القُتَبي : يعنيه : يصرفه ويُصدّه عن قرابته ؛ ومنه يقال : اعن عني وجهك : أي اصرفه واعن عن السفيه ؛ قال خُفاف :

سَيَعْنِيك حرب بني مالِكٍ . . .

عن الفُحْشِ والجهلِ في الْمَحفِل

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ : أي مُشرقة مضيئة ، قد علمت مالها من الفوز والنعيم ، وهي وجوه المؤمنين .

﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ أي مسرورة فَرِحة .

﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ : أي بما آتاها الله من الكرامة .

وقال عطاء الخُراساني : "مُسْفِرة" من طول ما اغبرت في سبيل الله جل ثناؤه .

ذكره أبو نَعِيم .

الضحاك : من آثار الوضوء .

ابن عباس : من قيام الليل ؛ لما رُوي في الحديث : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " يقال : أسفر الصبح إذا أضاء .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي غبار ودخان ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أي تغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أي كسوف وسواد .

كذا قال ابن عباس .

وعنه أيضاً : ذِلة وشِدّة .

والقَتَر في كلام العرب : الغبار ، جمع القَتَرة ، عن أبي عُبيد ؛ وأنشد الفرزدق :

مُتَوَّجٌ بِرِداء الملكِ يَتْبعه . . .

مَوجٌ ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا

وفي الخبر : إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حُوِّل ذلك التراب في وجوه الكفار .

وقال زيد بن أسلم : القَترة : ما ارتفعت إلى السماء ، والغَبَرة : ما انحطت إلى الأرض ، والغبار والغَبَرة : واحد .

﴿ أولئك هُمُ الكفرة ﴾ جمع كافر ﴿ الفجرة ﴾ جمع فاجر ، وهو الكاذب المفترى على الله تعالى .

وقيل : الفاسق ؛ (يقال) : فجر فجوراً : أي فسق ، وفجر : أي كذب .

وأصله : الميل ، والفاجر : المائل .

وقد مضى بيانه والكلام فيه .

والحمد لله وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(16/803)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾

شروعٌ في تعدادِ النعمِ المتعلقةِ ببقائِه بعد تفصيلِ النعمِ المتعلقةِ بحدوثِه أي فلينظرْ إلى طعامِه الذي عليه يدورُ أمرُ معاشِه كيفَ دبرناهُ . وقولُه تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ أي الغيثَ بدلُ اشتمالٍ من طعامِه لأنَّ الماءَ سببٌ لحدوثِ الطعامِ فهُو مشتَملٌ عليهِ . وقُرِئَ إنَّا على الاستئنافِ ، وقُرِئَ أنى بالإمالةِ . أي كيفَ صببنَا إلى آخرِه أي صببناهُ صَبّاً عجيباً . ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض ﴾ أي بالنباتِ ﴿ شَقّاً ﴾ بديعاً لائقاً بما يشقُّها من النباتِ صِغَراً وكِبَراً وشكلاً وهيئةً . وحملُ شقِّها على ما بالكرابِ بجعلِ إسنادِه إلى نونِ العظمةِ من قبيلِ إسنادِ الفعلِ إلى سببِه يأباهُ كلمةُ ثمَّ . والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ فإنَّ الشقَّ بالمَعْنى المذكورِ لا ترتبَ بينَهُ وبينَ الأمطارِ أصلاً ولا بينَهُ وبينَ إنباتِ الحبِّ بلا مُهلةٍ . وإنَّما الترتيبُ بينَ الأمطارِ وبينَ الشقِّ بالنباتِ على التراخِي المعهودِ وبينَ الشقِّ المذكورِ وبينَ إنباتِ الحبِّ بلا مُهلةٍ ، فإنَّ المرادَ بالنباتِ ما نبتَ من الأرضِ إلى أنْ يتكاملَ النموُّ وينعقدَ الحبُّ فإنَّ انشقاقَ الأرضِ بالنباتِ لا يزالُ يتزايدُ ويتسعُ إلى تلكَ المرتبةِ على أنَّ مساقَ النظمِ الكريمِ لبيانِ النعمِ الفائضةِ من جنابِه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارجٍ عن العاداتِ المعهودةِ كما ينبئُ عنه تأكيدُ الفعلينِ بالمصدرينِ فتوسيطُ فعلِ المنعمِ عليهِ في حصولِ تلك النعمِ مخلٌّ بالمرامِ .

(17/803)

وقوله تعالى : ﴿ وَعِنَباً ﴾ عطفٌ على حباً وليسَ من لوازم العطفِ أنْ يُقيدَ المعطوفُ بجميع ما قُيدَ به المعطوفُ عليه فلا ضيرَ في خُلوّ إنباتِ العنبِ عن شقّ الأرضِ ﴿ وَقَضْباً ﴾ أي رطبة ، سُميتْ بمصدرِ قضَبهُ أي قطَعهُ مبالغةً كأنَّها لتكرر قطعِها وتكثرِه نفسُ القطعِ . ﴿ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ﴾ الكلامُ فيهما وفي أمثالِهما كما في العنبِ ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ أي عظاماً وصفَ به الحدائقُ لتكاثفها وكثرةِ أشجارِها أو لأنَّها ذاتُ أشجارٍ غلاظٍ مستعارٌ من وصفِ الرقابِ ﴿ وفاكهة وَأَبّاً ﴾ أي مَرْعى من أبَّه إذا أمَّه أي قصَدُه لأنَّه يُؤمُ ويُنتجعُ أو منْ أبَّ لكذا إذا تهيأَ له لأنَّه متهيىءُ للرَّعِي ، أو فاكهةً يابسةً تؤبُ للشتاءِ . وعن الصدّيقِ رضيَ الله عنْهُ أنَّه سُئلَ عن الأبِّ فقالَ : أيُّ سماءٍ تُظِلني ، وأيُّ أرضٍ تُقِلَني إذا قلتُ في كتابِ الله ما لاَ علَم لي بهِ . وعن عمرَ رضيَ الله عنْهُ أنَّه قرأَ هذه الآيةَ فقالَ : كلُّ هذا قد عرفَنا فَما الأبُّ ثم رفعَ عصاً كانتْ بيدِه وقالَ : هَذا لعَمْرُ الله التكلفُ ، وما عليكَ يا ابنَ أُمِّ عمرَ أنْ لا تدريَ ما الأبُّ ثم قالَ : اتبعُوا ما تبينَ لكُم من هذا الكتابِ وما لاَ فدعُوه . ﴿ متاعاً لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾ إما مفعولٌ له أيْ فُعِلَ ذلكَ تمتيعاً لكُم ولمواشيكُم فإنَّ بعضَ النعمِ المعدودةِ طعامٌ لهم وبعضَها علفٌ لدوابّهم . والالتفاتُ لتكميل الامتنانِ . وإمَّا مصدرٌ مؤكدٌ لفعله المضمرِ بحذفِ الزوائدِ ، أي متعكُم بذلكَ متاعاً ، أو لفعلٍ مترتبٍ

عليهِ أي معكُم بذلك فتمتعتُم متاعاً أي تمتعاً كما مرَّ غيرَ مرةٍ ، أو مصدرٌ من غير لفظهِ فإنَّ ما ذُكرَ من الأفعالِ الثلاثةِ في مَعْنى التمتيعِ .

(18/803)

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصاخة ﴾ شروعٌ في بيان أحوالِ معادِهم إثرَ بيانِ مبدأِ خلقِهم ومعاشِهم . والفاءُ للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها من فُنون النعمِ عن قريب كما يشعرُ لفظُ المتاعِ بسرعة زوَالِها وقربِ اضمحلالِها . والصاخةُ هي الداهيةُ العظيمةُ التي يصخُّ لها الخلائقُ أي يصيخونَ لها من صخَّ لحديثِه إذا أصاخَ له واستمعَ وصفتْ بها النفخةُ الثانيةُ لأنَّ الناسَ يصيخُونَ لها ، وقيل هي الصيحةُ التي تصخُّ الآذانَ أي تصمَّها لشدةِ وقعِها ، وقيلَ : هي مأخوذةٌ من صخَّهُ بالحجرِ ، أي صكَّهُ . وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ ﴾ إما منصوبٌ بأعِني تفسيراً للصاخَّة أو بدلٌ منها مبنيٌّ على الفتحِ بالإضافةِ إلى الفعلِ على رأي الكوفيينَ ، وقيلَ بدلٌ من إذَا جاءتْ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ﴾ الخ أي يعرضُ عنهم ولا يصاحبُهم ولا يسألُ عن حالِهم كما في الدُّنيا لاشتغالِه بحالِ نفسِه ، وأمَّا تعليلُ ذلكَ بعلمِه بأنَّهم لا يُغنونَ عنه شيئاً ، أو بالحذرِ من مطالبتِهم بالتبعاتِ فيأباهُ قولُه تعالى : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

فإنَّه استئنافٌ واردٌ لبيانِ سببِ الفرارِ أي لكُلِّ واحدٍ من المذكورينَ شغلٌ شاغلٌ وخطبٌ هائلٌ يكفيه في الاهتمامِ به ، وأما الفرارُ حَذَراً من مطالبتِهم أو بُغضاً لهُم كما يُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهُمَا أنَّه يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ ، ويفرُّ النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ منْ أُمِّه ، ويفرُّ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ من أبيهِ ، ونوحٌ عليهِ السَّلامُ من ابنِه ، ولوطٌ عليهِ السَّلامُ من امرأتِه ، فليسَ من قبيلِ هذا الفرارِ .

(19/803)

وكَذا مَا يُروَى أنَّ الرجلَ يفرُّ من أصحابِه وأقربائِه لئلاَّ يَروَه على ما هُو عليهِ من سُوءِ الحالِ . وقُرِئَ يَعْنِيه بالياءِ المفتوحةِ والعينِ المُهملةِ ، أي يُهمَّهُ من عناهُ الأمرُ إذا أهمَّه أي أوقعَهُ في الهمِّ ومنْهُ : " منْ حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يَعنيه " لا من عناهُ إذا قصدَهُ كما قيلَ : وقولُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ بيانٌ لمآلِ أمرِ المذكورينَ وانقسامِهم إلى السعداءِ والأشقياءِ بعد ذكرِ وقوعِهم في داهيةٍ دهياءَ فوجوهٌ مبتدأٌ وإنْ كانتْ نكرةً لكونِها في حيزِ التنويعِ ومسفرةٌ خبرُهُ ويومئذٍ متعلقٌ به أي مضيئةٌ متهللةٌ منْ أسفرَ الصبحُ إذا أضاءَ . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا أنَّ ذلكَ من قيامِ الليلِ . وفي الحديثِ : " مَنْ كثُرَ صلاتُه بالليلِ حسُن وجهُه بالنهارِ " . وعنِ الضحَّاكِ : منْ آثارِ الوضوءِ وقيلَ : من طولِ ما اغبرّتْ في

سبيلِ الله .

﴿ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾

بما تشاهدُ من النعيم المقيمِ والبهجةِ الدائمةِ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي غبارٌ وكدورةٌ ﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أي تعلُوها وتغشاهَا ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أي سوادٌ وظلمةٌ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى أصحاب تلك الوجوهِ ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإيذانِ ببعدِ درجتِهم في سُوءِ الحالِ أي أولئكَ الموصوفونَ بسوادِ الوجوهِ وغيره ﴿ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ الجامعونَ بين الكفرِ والفجورِ فلذلكَ جمعَ الله تعالى إلى سواد وجوهِهم الغبرةَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(20/803)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصاخة ﴾

شروع في بيان أحوال معادهم بعد بيان ما يتعلق بخلقهم ومعاشهم والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما يشعر به لفظ المتاع من سرعة زوال هاتيك النعم وقرب اضمحلالها والصاخة هي الداهية العظيمة من صخ بمعنى أصاخ أي استمع والمراد بها النفخة الثانية

ووصفت بها لأن الناس يصخون لها فجعلت مستمعة مجازاً في الظرف أو الإسناد وقال الراغب الصاخة شدة صوت ذي النطق يقال صخ يصخ فهو صاخ فعليه هي بمعنى الصائحة مجازاً أيضاً وقيل مأخوذة من صخه بالحجر أي صكه وقال الخليل هي صيحة تصخ الآذان صخاً أي تصمها لشدة وقعتها ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربي قوله الصاخة هي التي تورث الصمم وأنها لمسمعة وهو من بديع الفصاحة كقوله

: أصم بك الداعي وإن كان اسمعا . . .

ثم قال ولعمر الله تعالى : إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة والكلام في جواب إذا وفي يوم من قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وصاحبته ﴾ أي زوجته .

﴿ وَبَنِيهِ ﴾ على نحو ما تقدم في النازعات فتذكره فما في العهد من قدم أي يوم يعرض عنهم ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم كما في الدنيا لاشتغاله بحال نفسه كما يؤذن به قوله تعالى :

(21/803)

﴿ لِكُلِّ امرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ فإنه استئناف وارد لبيان سبب الفرار وجعله جواب إذا والاعتذار عن عدم التصدير بالفاء بتقدير الماضي بغير قد أو المضارع المثبت أو بالفاء إبدال يوم يفر المرء عنه إياه لأن البدل لا يطلب جزاء لا يخفى حاله على من شرط الإنصاف على نفسه أي لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل يكفيه في الاهتمام به وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي والحاكم وصححه عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً قد الجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضهم إلى بعض قال شغل الناس عن ذلك وتلا يوم يفر " الآية وجاء في رواية الطبراني عن سهل بن سعد أنه قيل له عليه الصلاة والسلام ما شغلهم فقال صلى الله عليه وسلم : " نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل " وقيل يفر منهم لعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً وكلام الكشاف يشعر بذلك ويأباه ما سمعت وكذا ما قيل يفر منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات يقول الأخ لم تواسني بمالك والأبوان قصرت في برنا والصاحبة أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت والبنون لم تعلمنا ولم ترشدنا ويشعر بذلك ما أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن قتادة قال ليس شيء أشد على الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يكون يطلبه بمظلمة ثم قرأ يوم يفر الآية وذكر المرء بناءً على أنه الرجل لا الإنسان ليعلم منه حال المرأة من باب أولى وقيل هو من باب التغليب وفيه نظر وجعل القاضي ذكر المتعاطفات على هذا النمط من باب

الترقي على اعتبار عطف الأب على الأم سابقاً على عطفهما على الأخ فيكون المجموع معطوفاً عليه وكذا في صاحبته وبنيه فقال تأخير الأحب فالأحب للمبالغة كأنه قيل يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه ولا يخفى تكلفه مع اختلاف الناس والطباع في أمر الحب ولعل عدم مراعاة ترق أو تدل

(22/803)

لهذا الاختلاف مع الرمز إلى أن الأمر يومئذٍ أبعد من أن يخطر بالبال فيه ذلك وروي عن ابن عباس أنه يفر قابيل من أخيه هابيل ويفر النبي صلى الله عليه وسلم من أمه ويفر إبراهيم عليه السلام من أبيه ويفر نوح عليه السلام من ابنه ويفر لوط عليه السلام من امرأته وفي خبر رواه ابن عساكر عن الحسن نحو ذلك وفيه فيرون أن هذه الآية أعني يوم يفر الخ نزلت فيهم وكلا الخبرين لا يعول عليهما ولا ينبغي أن يلتفت إليهما كما لا يخفى والذي أدين الله تعالى به نجاة أبويه صلى الله عليه وسلم وقد ألفت رسائل في ذلك رغماً لأنف علي القاري ومن وافقه وأعتقد أن جميع آبائه عليه الصلاة والسلام لا سيما من ولداه بلا واسطة أوفر الناس حظاً مما أوتي هناك من السعادة والشرف وسمو القدر

.

كم من أب قد سما بابن ذرى شرف . . .

كما سما برسول الله عدنان

وقرأ ابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميفع يعنيه بفتح الياء وبالعين المهملة أي يهمه من عناه الأمر إذا أهمه أي أوقعه في الهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " لا من عناه إذا قصده كما زعمه أبو حيان وقوله تعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ بيان لمآل أمر المذكورين وانقسامهم إلى السعداء والأشقياء بعد ذكر وقوعهم في داهية دهياء فوجوه مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه في حيز التنويع كما مر ومسفرة خبره ويومئذٍ متعلق به أي مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء وعن ابن عباس أن ذلك من قيام الليل وعن الضحاك من آثار الوضوء فيختص ذلك بهذه الأمة أي لأن الوضوء من خواصهم قيل أي بالنسبة إلى الأمم السابقة فقط لا مع أنبيائهم عليهم السلام وقيل من طول ما اغبرت في سبيل الله تعالى :

﴿ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي مسرورة بما تشاهد من النعيم المقيم والبهجة الدائمة .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي غبار وكدورة .

(23/803)

﴿ تَرْهَقُهَا ﴾ أي تعلوها وتغشاها ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ أي سواد وظلمة ولا ترى أوحش من اجتماع الغرة والسواد في الوجه وسوى الفيروزأبادي والجوهري بين الغبرة والقترة فقيل المراد بالقترة الغبار حقيقة وبالغبرة ما يغشاهم من العبوس من الهم وقيل هما على حقيقتهما والمعنى أن عليها غباراً وكدورة فوق غبار وكدورة وقال زيد بن أسلم الغبرة ما انحطت إلى الأرض والقترة ما ارتفع إلى السماء والمراد وصول الغبار إلى وجوههم من فوق ومن تحت والمعول عليه ما تقدم وقرأ ابن أبي عبلة قترة بسكون التاء .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم في سوء الحال أي أولئك الموصوفون بما ذكر ﴿ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ أي الجامعون بين الكفر والفجور فلذلك جمع الله تعالى لهم بين الغبرة والقترة وكان الغبرة للفجور والقترة للكفور نعوذ بالله عز وجل من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(24/803)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾

أي : كلح بوجهه وأعرض .

وقرىء " عبس " بالتشديد .

﴿ أَن جَاءهُ الأعمى ﴾ مفعول لأجله ، أي لأن جاءه الأعمى ، والعامل فيه إما ﴿ عبس ﴾ ، أو ﴿ تولى ﴾ على الاختلاف بين البصريين والكوفيين في التنازع هل المختار إعمال الأوّل أو الثاني ؟

وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية : أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه ابن أمّ مكتوم كلامه ، فأعرض عنه فنزلت ، وسيأتي في آخر البحث بيان هذا إن شاء الله .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ التفت سبحانه إلى خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ لأن المشافهة أدخل في العتاب : أي أيّ شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة : ﴿ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأناً ينافي الإعراض عنه أي : لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك ، فالضمير في ﴿ لعله ﴾ راجع إلى ﴿ الأعمى ﴾ ، وقيل : هو راجع إلى الكافر أي : وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى ، أو يذكر ، والأوّل أولى .

وكلمة الترجي باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجوّ

التزكي مما لا يجوز .

قرأ الجمهور ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ على الخبر بدون استفهام ، ووجهه ما تقدّم .

(25/803)

وقرأ الحسن : " آن جاءه " بالمدّ على الاستفهام ، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه ﴿ عبس ﴾ و ﴿ تولى ﴾ ، والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض ، ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ [الأنعام : 52] وكذلك قوله في سورة الكهف : ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 28] وقوله : ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ عطف على ﴿ يزكى ﴾ داخل معه في حكم الترجي أي : أو يتذكر ، فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ أي : الموعظة .

قرأ الجمهور : ﴿ فتنفعه ﴾ بالرفع ، وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق ، وعيسى ، والسلمي ، وزرّ بن حبيش بالنصب على جواب الترجي ﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾ أي : كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الإيمان ، وعما عندك من العلم ﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ أي : تصغي لكلامه ، والتصدّي الإصغاء .

قرأ الجمهور ﴿ تصدّى ﴾ بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفاً ، وقرأ نافع ، وابن محيصن بالتشديد على الإدغام ، وفي هذا مزيد تنفير له صلى الله عليه وسلم عن الإقبال عليهم ، والإصغاء إلى كلامهم .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَن لا يزكى ﴾ أي : أيّ شيء عليك في أن لا يسلم ، ولا يهتدي ، فإنه ليس عليك إلاّ البلاغ ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ، ويجوز أن تكون " ما " نافية ، أي : ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصدّيت له ، وأقبلت عليه ، وتكون الجملة في محل نصب على الحال من ضمير تصدّى .

ثم زاد سبحانه في معاتبة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يسعى ﴾ أي : وصل إليك حال كونه مسرعاً في المجيء إليك طالباً منك أن ترشده إلى الخير ، وتعظه بمواعظ الله ، وجملة : ﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف .

(26/803)

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ أي : تتشاغل عنه ، وتعرض عن الإقبال عليه ، والتلهي : التشاغل ، والتغافل ، يقال : لهيت عن الأمر ألهي أي : تشاغلت عنه ، وكذا تلهيت ، وقوله : ﴿

كَلاَّ ﴾ ردع له صلى الله عليه وسلم عما عوتب عليه ، أي : لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير ، والتصدّي للغني ، والتشاغل به ، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي ، والقبول للموعظة ، وهذا الواقع من النبيّ صلى الله عليه وسلم هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي أن هذه الآيات ، أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها ، وتقبلها وتعمل بموجبها ، ويعمل بها كل أمتك .

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي : فمن رغب فيها اتعظ بها ، وحفظها ، وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها ، كما فعله من استغنى ، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره .

وقيل : الضميران في " إنها " ، وفي ﴿ ذكره ﴾ للقرآن ، وتأنيث الأوّل لتأنيث خبره .

وقيل : الأوّل للسورة ، أو للآيات السابقة .

والثاني للتذكرة ؛ لأنها في معنى الذكر .

وقيل : إن معنى : ﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ : فمن شاء الله ألهمه ، وفهمه القرآن حتى يذكره ، ويتعظ به ، والأوّل أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة ، وجلالتها فقال : ﴿ فِى صُحُفٍ ﴾ أي : إنها تذكرة كائنة في صحف ، فالجار ، والمجرور صفة ل ﴿ تذكرة ﴾ ، وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة ، ومعنى ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ : أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم

والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد بالصحف : كتب الأنبياء ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 18 ، 19] ومعنى ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أنها رفيعة القدر عند الله .

وقيل : مرفوعة في السماء السابعة .

(27/803)

قال الواحدي : قال المفسرون : مكرمة يعني : اللوح المحفوظ ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ يعني : في السماء السابعة .

قال ابن جرير : مرفوعة القدر ، والذكر ، وقيل : مرفوعة عن الشبه ، والتناقض ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي : منزهة لا يمسها إلاَّ المطهرون .

قال الحسن : مطهرة من كل دنس .

قال السديّ : مصانة عن الكفار لا ينالونها ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب ، والمعنى : أنها بأيدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ .

قال الفراء : السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله ، من السفارة وهو : السعي بين القوم ، وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومي . . . ولا أمشي بغير أب نسيب

قال الزجاج : وإنما قيل : للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر ؛ لأن معناه أنه بين ، يقال أسفر الصبح : إذا أضاء ، وأسفرت المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي : أصلحت بينهم .

قال مجاهد : هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد .

وقال قتادة : السفرة هنا هم القراء ؛ لأنهم يقرءون الأسفار .

وقال وهب بن منبه : هم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أي كرام على ربهم ، كذا قال الكلبي .

وقال الحسن : كرام عن المعاصي ، فهم يرفعون أنفسهم عنها .

وقيل : يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو قضى حاجته .

وقيل : يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم .

وقيل : يتكرّمون على المؤمنين بالاستغفار لهم .

والبررة : جمع بارّ مثل : كفر وكافر ، أي : أتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم ، وقد تقدّم تفسيره .

﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ أي : لعن الإنسان الكافر ما أشدّ كفره ، وقيل : عذب ، قيل :

والمراد به عتبة بن أبي لهب ، ومعنى : ﴿ ما أكفره ﴾ : التعجب من إفراط كفره .

قال الزجاج : معناه اعجبوا أنتم من كفره .

(28/803)

وقيل : المراد بالإنسان من تقدم ذكره في قوله : ﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾ وقيل : المراد به الجنس ، وهذا هو الأولى ، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أوّلياً .

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ، ويكفّ عن طغيانه فقال : ﴿ مِنْ أَىّ شَىْء خَلَقَهُ ﴾ أي : من أيّ شيء خلق الله هذا الكافر ، والاستفهام للتقرير .

ثم فسر ذلك فقال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ أيّ : من ماء مهين ، وهذا تحقير له .

قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرّتين ، ومعنى ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي : فسوّاه ، وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين ، والرجلين ، والعينين ، وسائر الآلات ، والحواسّ .

وقيل : قدّره أطواراً من حال إلى حال ، نطفة ثم علقة إلى أن تمّ خلقه .

﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ أي : يسرّ له الطريق إلى الخير والشرّ .

وقال السديّ ، ومقاتل ، وعطاء ، وقتادة : يسره للخروج من بطن أمه ، والأوّل أولى .

ومثله قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] وانتصاب ﴿ السبيل ﴾ بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي ، يسر السبيل يسره .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي : جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع ، والطير ، كذا قال الفرّاء وقال أبو عبيدة : جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه .

وقال أقبره ، ولم يقل قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، ومنه قول الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى صدرها . . . عاش ولم ينقل إلى قابر

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي : ثم إذا شاء إنشاره أنشره أي أحياه بعد موته ، وعلق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين ، بل هو تابع للمشيئة .

قرأ الجمهور : ﴿ أنشره ﴾ بالألف ، وروى أبو حيوة عن نافع ، وشعيب بن أبي حمزة " نشره " بغير ألف ، وهما : لغتان فصيحتان .

(29/803)

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ كلا ردع، وزجر للإنسان الكافر أي: ليس الأمر كما يقول.

ومعنى: لما يقض ما أمره، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته، واجتناب معاصيه،

وقيل: المراد الإنسان على العموم، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدّة؛ لأنه لا يخلو من تقصير.

قال الحسن: أي: حقاً لم يعمل ما أمر به.

وقال ابن فورك: أي: كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان، بل أمره بما لم يقض له.

قال ابن الأنباري: الوقف على "كلا" قبيح، والوقف على ﴿ أمره ﴾ جيد، و "كلا" على هذا بمعنى حقاً.

وقيل المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره، بل أخلّ به: بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره الله إلاّ القليل.

ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده؛ ليشكروها، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ أي: ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته؟ وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية؟ قال مجاهد: معناه، فلينظر الإنسان إلى طعامه أي: إلى مدخله، ومخرجه، والأوّل أولى.

ثم بيّن ذلك سبحانه فقال: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ قرأ الجمهور: (إنا) بالكسر على

الاستئناف .

وقرأ الكوفيون ، ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من ﴿ طعامه ﴾ بدل اشتمال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام ، فهو كالمشتمل عليه ، أو بتقدير لام العلة .

قال الزجاج : الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام .

المعنى : فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صباً ، وأراد بصبّ الماء : المطر .

وقرأ الحسن بن عليّ بالفتح والإمالة : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ أي : شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقاً بديعاً لائقاً بما يخرج منه في الصغر ، والكبر ، والشكل ، والهيئة .

(30/803)

ثم بيّن سبب هذا الشقّ ، وما وقع لأجله ، فقال : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ يعني : الحبوب الذي يتغذى بها ، والمعنى : أن النبات لا يزال ينمو ، ويتزايد إلى أن يصير ﴿ حباً ﴾ ، وقوله : ﴿ وَعِنَباً ﴾ معطوف على حباً أي : وأنبتنا فيها عنباً ، قيل : وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه ، فلا ضير في خلوّ إنبات العنب عن شقّ الأرض ، والقضب : هو القتّ الرطب الذي يقضب مرّة بعد أخرى تعلف به

الدواب ، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي : قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع .

قال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة ، فإذا يبست فهي : القتّ .

قال في الصحاح : والقضبة ، والقضب الرطبة ، قال : والموضع الذي ينبت فيه مقضبة .

قال القتيبي ، وثعلب : وأهل مكة يسمون العنب القضب .

والزيتون هو ما يعصر منه الزيت ، وهو شجرة الزيتون المعروفة ، والنخل هو جمع نخلة ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ جمع حديقة ، وهي البستان ، والغلب : العظام الغلاظ الرقاب .

وقال مجاهد ، ومقاتل : الغلب الملتفّ بعضها ببعض ، يقال : رجل أغلب : إذا كان عظيم الرقبة ، ويقال للأسد : أغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلاّ جميعاً .

قال العجاج :

مازلت يوم البين ألوي صلبي . . . والرأس حتى صرت مثل الأغلب

وجمع أغلب وغلباء : غلب ، كما جمع أحمر ، وحمراء على حمر .

وقال قتادة ، وابن زيد : الغلب النخل الكرام .

وعن ابن زيد أيضاً ، وعكرمة : هي غلاظ الأوساط ، والجذوع .

والفاكهة : ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب ، والتين ، والخوخ ، ونحوها .

والأبّ : كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ، ولا يزرعونه من الكلأ ، وسائر أنواع المرعى ، ومنه قول الشاعر :

جدّنا قيس ونجد دارنا . . . ولنا الأبّ بها والمكرع

قال الضحاك : الأبّ كل شيء ينبت على وجه الأرض .

وقال ابن أبي طلحة : هو الثمار الرطبة .

وروي عن الضحاك أيضاً أنه قال : هو التين خاصة ، والأوّل أولى .

(31/803)

ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال : ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصاخة ﴾ يعني : صيحة يوم القيامة ، وسميت صاخة لشدّة صوتها ؛ لأنها تصخ الأذان : أي تصمها فلا تسمع . وقيل : سميت صاخة ؛ لأنها يصيخ لها الأسماع ، من قولك : أصخ إلى كذا أي : استمع إليه ، والأوّل أصح .

قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الآذان حتى تصمها بشدّة وقعها ، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذة من الصكّ الشديد ، يقال صخه بالحجر : إذا صكه بها ، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي : فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه ، والظرف في قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وصاحبته وَبَنِيهِ ﴾ إما بدل من إذا جاءت ، أو منصوب بمقدّر أي : أعني ، ويكون تفسيراً

للصاخة ، أو بدلاً منها مبنيّ على الفتح ، وخصّ هؤلاء بالذكر ؛ لأنهم أخصّ القرابة ، وأولاهم بالحنوّ والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلاّ لهول عظيم ، وخطب فظيع .

﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي : لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ، ويصرفه عنهم .

وقيل : إنما يفرّ عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم ، وقيل : يفرّ عنهم ؛ لئلا يروا ما هو فيه من الشدّة .

وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ، ولا يغنون عنه شيئًا ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ [الدخان : 41] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار .

قال ابن قتيبة : ﴿ يغنيه ﴾ أي : يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال : أغن عني وجهك أي : اصرفه .

قرأ الجمهور (يغنيه) بالغين المعجمة .

وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء أي : يهمه ، من عناه الأمر إذا أهمه .

(32/803)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ ، وإن كان نكرة ؛ لأنه في مقام التفصيل ، وهو من مسوّغات الابتداء بالنكرة ، ويومئذ متعلق به ، ومسفرة خبره ، ومعنى ﴿ مسفرة ﴾ : مشرقة مضيئة ، وهي : وجوه المؤمنين ؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم ، والكرامة ، يقال أسفر الصبح : إذا أضاء .

قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء ، وقيل : من قيام الليل ﴿ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي : فرحة بما نالته من الثواب الجزيل .

ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي : غبار وكدورة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي : يغشاها ويعلوها سواد وكسوف .

وقيل : ذلة .

وقيل : شدّة ، والقتر في كلام العرب الغبار ، كذا قال أبو عبيدة ، وأنشد قول الفرزدق :

متوّج برداء الملك يتبعه . . . فوج ترى فوقه الرايات والقترا

ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة ، فإنها واحدة الغبار .

وقال زيد بن أسلم : القترة ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة : ما انحطت إلى الأرض ﴿ أولئك ﴾ يعني : أصحاب الوجوه ﴿ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ أي : الجامعون بين الكفر بالله ، والفجور .

يقال فجر ، أي فسق وفجر ، أي : كذب ، وأصله الميل ، والفاجر المائل عن الحق .

وقد أخرج الترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : " أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أمّ مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول : يا رسول الله ، أرشدني ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، ويقول : أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول لا ، ففي هذا أنزلت " .

(33/803)

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى عن أنس قال : "جاء ابن أمّ مكتوم ، وهو يكلم أبيّ بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَاءهُ الأعمى ﴾ فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه" .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عتبة بن ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام ، وكان يتصدّى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له : عبد الله بن أمّ مكتوم

يمشي ، وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرىء النبيّ صلى الله عليه وسلم آية من القرآن قال : يا رسول الله علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبس في وجهه ، وتولى ، وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبيّ ، وكلمه وقال له : " ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ " وإذا ذهب من عنده قال : " هل لك حاجة في شيء ؟ " قال ابن كثير : فيه غرابة ، وقد تكلم في إسناده .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال : كتبة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال : هم : بالنبطية القرّاء .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ قال : الملائكة : وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذي يقرأ القرآن ، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه ، وهو عليه شاق له أجران " وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ قال : يعني : بذلك خروجه من بطن أمه يسره له .

(34/803)

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ قال : إلى مدخله ، ومخرجه .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ قال : إلى خرئه .

وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ قال : المطر ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ قال : عن النبات .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَقَضْباً ﴾ قال : الفصفصة ، يعني : القتّ ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ قال : طوالاً ﴿ وفاكهة وَأَبّاً ﴾ قال : الثمار الرطبة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الحدائق كل ملتفّ ، والغلب ما غلظ ، والأبّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدوابّ ، ولا يأكله الناس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ قال : شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : الأبّ الكلأ والمرعى .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال : سئل أبو بكر الصديق عن الأبّ ما هو ؟ فقال : أيّ سماء تظلني ، وأيّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله

مالا أعلم؟ .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد : أن رجلاً سأل عمر عن قوله : ﴿ وَأَبّاً ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة .

وأخرج ابن سعد ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب ، والخطيب عن أنس أن عمر قرأ على المنبر : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَبّاً ﴾ قال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأبّ؟ ثم رفض عصى كانت في يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لا تدري ما الأبّ ، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب ، فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه ، فكلوه إلى ربه .

(35/803)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : الصاخة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾ قال : مشرقة ، وفي قوله : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ قال : تغشاها شدّة وذلة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ قَتَرَةٌ ﴾ قال : سواد الوجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 381. 387 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) ﴾

الفاء للتفريع على اللوْم والتوبيخ في قوله : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] وما تبعه من الاستدلال على المشركين من قوله : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ إلى قوله ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ [عبس : 18 25] ، ففُرع على ذلك إنذار بيوم الجزاء ، مع مناسبة وقوع هذا الإنذار عقب التعريض والتصريح بالامتنان في قوله : ﴿ إلى طعامه ﴾ [عبس : 24] وقوله : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [عبس : 32] على نحو ما تقدم في قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ من سورة النازعات (34) .

والصَّاخّة ﴾ : صيحة شديدة من صيحات الإنسان تَصُخ الأسماع ، أي تُصِمها .

يقال : صَخَّ يصخ قاصراً ومتعدياً ، ومضارعه يصُخ بضم عينه في الحالين .

وقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقها اختلافاً لا جدوَى له ، وما ذكرناه هو خلاصة قول الخليل والراغب وهو أحسن وأجرى على قياس اسم الفاعل من الثلاثي ، فالصاخّة صارت في القرآن عَلماً بالغَلبة على حادثةِ يوم القيامة وانتهاءِ هذا العالم ، وتحصل صيحات

منها أصوات تزلزل الأرض واصطدام بعض الكواكب بالأرض مثلاً ، ونفخة الصُّور التي تبعث عندها الناس .

و(إذا) ظرف وهو متعلق بـ ﴿ جاءت الصاخّة ﴾ وجوابه قوله : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ الآيات .

والمجيء مستعمل في الحصول مجازاً ، شُبه حصول يوم الجزاء بشخص جاء من مكان آخر .

و ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ بدل من ﴿ إذا جاءت الصاخة ﴾ بدلاً مطابقاً .

والفرار : الهروب للتخلص من مُخيف .

وحرف (من) هنا يجوز أن يكون بمعنى التعليل الذي يُعدّى به فعل الفرار إلى سبب الفرار حين يقال : فَرّ من الأسد ، وفرّ من العدو ، وفرّ من الموت ، ويجوز أن يكون بمعنى المجاوزة مثل (عن) .

(37/803)

وكون أقرب الناس للإِنسان يفرّ منهم يقتضي هولَ ذلك اليوم بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه يُنْجِيه من الوقوع في مثله ، إذ قد علم أنه كان مماثلاً لهم فيما ارتكبوه من الأعمال فذكرت هنا أصناف من القرابة ، فإن القرابة آصرة

تكون لها في النفس معزة وحرص على سلامة صاحبها وكرامته .

والألفَ يحدث في النفس حرصاً على الملازمة والمقارنة .

وكلا هذين الوجدانين يصد صاحبه عن المفارقة فما ظنك بهول يغْشَى على هذين الوجدانين فلا يَترك لهما مجالاً في النفس .

ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرجاً في تهويل ذلك اليوم .

فابتدىء بالأخ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة ، ثم ارتُقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قرباً لأبنيهما ، وقدمت الأم في الذكر لأن إلْفَ ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرعي على الفاصلة ، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مُجتمع عائلة الإنسان وأشد الناس قرباً به وملازمة .

وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال : يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلاً لإحضار صورة الهول في نفس السامع .

وكل من هؤلاء القرابة إذا قدرتَه هو الفارّ كان مَن ذُكر معه مفروراً منه إلا قولَه : ﴿ وصاحبته ﴾ لظهور أن معناه : والمرأةِ من صاحبها ، ففيه اكتفاء ، وإنما ذُكرتْ بوصف الصاحبة الدال على القرب والملازمة دون وصف الزوج لأن المرأة قد تكون غير حسنة العشرة لزوجها فلا يكون فراره منها كناية عن شدة الهول فذكر بوصف الصاحبة .

والأقرب أن هذا فرار المؤمن من قرابته المشركين خشية أن يؤاخذ بتبعتهم إذْ بَقُوا على الكفر .

وتعليق جار الأقرباء بفعل : ﴿ يفر المرء ﴾ يقتضي أنهم قد وقعوا في عذاب يخشون تعديه إلى من يتصل بهم .

(38/803)

وقد اجتمع في قوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ إلى آخره أبلغ ما يفيد هول ذلك اليوم بحيث لا يترك هوله للمرء بقية من رشده فإن نفس الفرار للخائف مسبة فيما تعارفوه لدلالته على جبن صاحبه وهم يتعيرون بالجبن وكونَه يترك أعز الأعزة عليه مسبة عظمى .

وجملة : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لزيادة تهويل اليوم ، وتنوينُ ﴿ شأن ﴾ للتعظيم .

وحيث كان فرار المرء من الأقرباء الخمسة يقتضي فرار كل قريب من أولئك من مثله كان الاستئناف جامعاً للجميع تصريحاً بذلك المقتضَى ، فقال : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ أي عن الاشتغال بغيره من المذكورات بَلْهَ الاشتغال عمن هو دون أولئك في القرابة والصحبة .

والشأن : الحال المهم .

وتقديم الخبر في قوله : ﴿ لكل امرىء ﴾ على المبتدأ ليتأتى تنكير ﴿ شأن ﴾ الدال على التعظيم لأن العرب لا يبتدئون بالنكرة في جملتها إلا بمسوغ من مسوغاتٍ عَدَّها النحاة بضعةَ عشر مسوغاً ، ومنها تقديم الخبر على المبتدإ .

والإِغناء : جعل الغير غنياً ، أي غير محتاج لشيء في غرضهِ .

وأصل الإِغناء والغنى : حصول النافع المحتاج إليه ، قال تعالى : ﴿ وما أغنى عنكم من اللَّه من شيء ﴾ [يوسف : 67] وقال : ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ [الحاقة : 28] .

وقد استعمل هنا في معنى الإِشغال والإِشغال أعم .

فاستعمل الإغناء الذي هو نفع في معنى الإِشغال الأعم على وجه المجاز المرسل أو الاستعارة إيماء إلى أن المؤمنين يشغلهم عن قرابتهم المشركين فرط النعيم ورفع الدرجات كما دل عليه قوله عقبه : ﴿ وجوه يومئذٍ مسفرة ﴾ إلى آخر السورة .

وجملة : ﴿ وجوه يومئذٍ مسفرة ﴾ جواب (إذا) ، أي إذا جاءت الصاخة كان الناس صنفين صنف وجوههم مسفرة وصنف وجوههم مغبرة .

(39/803)

وقدم هنا ذكر وجوه أهل النعيم على وجوه أهل الجحيم خلافَ قوله في سورة النازعات (37) ﴿ فأما من طغى ﴾ ثم قوله : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ [النازعات : 40] إلى آخره لأن هذه السورة أقيمت على عماد التنويه بشأن رجل من أفاضل المؤمنين والتحقير لشأن عظيم من صناديد المشركين فكان حظ الفريقين مقصوداً مسوقاً إليه الكلام وكان حظ المؤمنين هو الملتفت إليه ابتداء ، وذلك من قوله: ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ [عبس : 3] إلى آخره ، ثم قوله : ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ [عبس : 5 ، 6] .

وأما سورة النازعات فقد بُنيت على تهديد المنكرين للبعث ابتداء من قوله : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة ﴾ [النازعات : 6 8] فكان السياق للتهديد والوعيد وتهويل ما يلقونه يوم الحشر ، وأما ذكر حظ المؤمنين يومئذ فقد دعا إلى ذكره الاستطراد على عادة القرآن من تعقيب الترهيب بالترغيب .

وتنكير ﴿ وجوه ﴾ الأول والثاني للتنويع ، وذلك مسوغ وقوعهما مبتدأ .

وإعادة ﴿ يومئذ ﴾ لتأكيد الربط بين الشرط وجوابه ولطول الفصل بينهما والتقدير : وجوه مسفرة يوم يفرّ المرء من أخيه إلى آخره .

وقد أغنت إعادة ﴿ يومئذ ﴾ عن ربط الجواب بالفاء .

والمسفرة ذات الإسفار ، والإِسفار النور والضياء ، يقال : أسفر الصبح ، إذا ظهر ضوء

الشمس في أفق الفجر ، أي وجوه متهللة فرحاً وعليها أثر النعيم .

و﴿ ضاحكة ﴾ أي كناية عن السرور .

و﴿ مستبشرة ﴾ معناه فَرِحة ، والسين والتاء فيه للمبالغة مثل : استجاب ، ويقال : بَشَر ، أي فرِح وسُرَّ ، قال تعالى : ﴿ قال يا بشراي هذا غلام ﴾ [يوسف : 19] أي يا فرحتي .

وإسناد الضحك والاستبشار إلى الوجوه مجاز عقلي لأن الوجوه محلّ ظهور الضحك والاستبشار ، فهو من إسناد الفعل إلى مكانه ، ولك أن تجعل الوجوه كناية عن الذوات كقوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ [الرحمن : 27] .

(40/803)

وهذه وجوه أهل الجنة المطمئنين بالاً المكرمين عَرْضاً وحُضوراً .

والغَبَرة بفتحتين الغُبار كلَّه ، والمراد هنا أنها معفّرة بالغُبار إهانة ومن أثر الكَبوات .

و﴿ ترهقها ﴾ تغلب عليها وتعلوها .

والقترة : بفتحتين شِبه دخان يغشى الوجه من الكرب والغم ، كذا قال الراغب ، وهو غير الغَبَرة كما تقتضيه الآية لئلا يكون من الإِعادة ، وهي خلاف الأصل ولا داعي إليها .

وسوَّى بينهما الجوهري وتبعه ابن منظور وصاحب "القاموس" .

وهذه وجوه أهل الكفر ، يعلم ذلك من سياق هذا التنويع ، وقد صرح بذلك بقوله : ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ زيادة في تشهير حالهم الفظيع للسامعين .

وجيء باسم الإشارة لزيادة الإِيضاح تشهيراً بالحالة التي سببت لهم ذلك .

وضمير الفصل هنا لإفادة التقوي .

وأتبع وصف ﴿ الكفرة ﴾ بوصف ﴿ الفجرة ﴾ مع أن وصف الكُفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل فذُكر وصفاهم الدالان على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل .

وذكر وصف ﴿ الفجرة ﴾ بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(41/803)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

وأخرج ابن الضريس عن أبي وائل : " أن وفد بني أسد أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من أنتم ؟ فقالوا : نحن بنو الزينة أحلاس الخيل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنتم بنو رشدة فقال الحضرمي بن عامر : والله لا نكون كبني المحوسلة ، وهم بنو عبد الله بن غطفان كان يقال لهم بنو عبد العزى بن غطفان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم للحضرمي : هل تقرأ من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، فقال : اقرأه فقرأ من ﴿ عبس وتولى ﴾ ما شاء الله أن يقرأ ، ثم قال : وهو الذي منَّ على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى بين شراسيف وحشا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تزد فيها فإنها كافية " .

وأخرج ابن النجار عن أنس قال : " استأذن العلاء بن يزيد الحضرمي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأذن له فتحدثا طويلاً ثم قال له : يا علاء تحسن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم قرأ عليه عبس حتى ختمها فانتهى إلى آخرها وزاد في آخرها من عنده : وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة تسعى من بين شراسيف وحشا فصاح به النبي صلى الله عليه وسلم : يا علاء إنته فقد انتهت السورة " والله أعلم .

أخرج الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : أنزل سورة عبس وتولى في ابن أم مكتوم والأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من

عظماء المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، ويقول أترى بما أقول بأساً فيقول لا ، ففي هذا أنزلت .

(42/803)

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس من ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة فيقول لهم أليس حسناً أن جئت بكذا وكذا ؟ فيقولون : بلى والله ، فجاء ابن أم مكتوم وهو مشتغل بهم فسأله فأعرض عنه ، فأنزل الله ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ يعني ابن أم مكتوم " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال : جاء ابن أم مكتوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلم أبيّ بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم يمشي وهو

يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرىء النبي صلى الله عليه وسلم آية من القرآن . قال يا رسول الله : علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبس في وجهه ، وتولى ، وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل الله ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي الله وكلمه يقول له : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك في قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾ قال : جاءه عبد الله بن أم مكتوم فعبس في وجهه وتولى ، وكان يتصدى لأمية بن خلف ، فقال الله : ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم قال : ما رؤي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية متصدياً لغني ولا معرضاً عن فقير .

(43/803)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من الوحي كتم هذا عن نفسه .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال : " أقبل ابن أم مكتوم الأعمى وهو الذي نزل فيه ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ فقال يا رسول الله كما ترى قد كبرت سني ورق عظمي وذهب بصري ولي قائد لا يلائمني قياده إياي فهل تجد لي من رخصة أصلي الصلوات الخمس في بيتي ؟ قال هل تسمع المؤذن ؟ قال : نعم ، قال : ما أجد لك من رخصة " .

وأخرج ابن مردويه عن كعب بن عجرة : " إن الأعمى الذي أنزل الله فيه ﴿ عبس وتولى ﴾ أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أني أسمع النداء ولعلي لا أجد قائداً ، فقال : إذا سمعت النداء فأجب داعي الله " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ قال : رجل من بين فهر اسمه عبد الله بن أم مكتوم ﴿ أما من استغنى ﴾ عتبة بن ربيعة وأميه بن خلف .

وأخرج ابن سعد وابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾ قال : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً من أشراف قريش فدعاه إلى الإِسلام ، فأتاه عبد الله بن أم مكتوم ، فجعل يسأله عن أشياء من أمر الإِسلام ، فعبس في وجهه ، فعاتبه الله في ذلك ، فلما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم فأكرمه ، واستخلفه على المدينة مرتين .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه في شعب الإِيمان عن مسروق قال : دخلت على عائشة وعندها رجل مكفوف تقطع له الأترج وتطعمه إياه بالعسل ، فقلت : من هذا يا أم المؤمنين ؟ فقالت : هذا ابن أم مكتوم الذي عاتب الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم قالت : أتى نبي الله وعنده عتبة وشيبة فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما فنزلت ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ ابن أم مكتوم .

(44/803)

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم مستخلياً بصنديد من صناديد قريش وهو يدعوه إلى الله وهو يرجو أن يسلم إذا أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم كره مجيئه ، وقال في نفسه : يقول هذا القرشي إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد ، فعبس فنزل الوحي ﴿ عبس وتولى ﴾ إلى آخر الآية .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾ قال : هي عند الله ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال : هي القرآن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال : كتبة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه ﴿ بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : السفرة الكتبة من الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق علي عن ابن عباس في قوله : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال : كتبة .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ سفرة ﴾ قال : بالنبطية القراء .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كرام بررة ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج أحمد والأئمة الستة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذي يقرؤه ، وهو عليه شاق له أجران " والله أعلم .

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ قتل الإِنسان ما أكفره ﴾ قال : نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم إذا هوى ، فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذه الأسد بطريق الشام .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : ما كان في القرآن قتل الإِنسان إنما عني به الكافر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ما أكفره ﴾ قال : ما أشد كفره وفي قوله : ﴿ فقدره ﴾ قال : نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ثم كذا ثم كذا ثم كذا ، ثم انتهى خلقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ خلقه فقدره ﴾ قال : قدره في رحم أمه كيف شاء .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ يعني بذلك خروجه من بطن أمه يسره له .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال : خروجه من الرحم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال : خروجه من بطن أمه .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال : خروجه من الرحم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال : هو

كقوله : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الإنسان : 3] الشقاء والسعادة .

(46/803)

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن محمد بن كعب القرظي قال : قرأت في التوراة ، أو قال في مصحف إبراهيم ، فوجدت فيها : يقول الله يا ابن آدم ما أنصفتني ، خلقتك ولم تك شيئاً ، وجعلتك بشراً سوياً ، وخلقتك من سلالة من طين ، ثم جعلتك نطفة في قرار مكين ، ثم خلقت النطفة علقة ، فخلقت العلقة مضغة ، فخلقت المضغة عظاماً ، فكسوت العظام لحماً ، ثم أنشأناك خلقاً آخر . يا ابن آدم هل يقدر على ذلك غيري ؟ ثم خففت ثقلك على أمك حتى لا تتمرض بك ، ولا تتأذى ، ثم أوحيت إلى الأمعاء أن اتسعي ، وإلى الجوارح أن تفرق فاتسعت الأمعاء من بعد ضيقها ، وتفرقت الجوارح من بعد تشبيكها ، ثم أوحيت إلى الملك الموكل بالأرحام أن يخرجك من بطن أمك فاستخلصتك على ريشة من جناحه ، فاطلعت عليك فإذا أنت خلق ضعيف ، ليس لك سن يقطع ولا ضرس يطحن ، فاستخلصت لك في صدر أمك عرقاً يدر لك لبناً بارداً في الصيف ، حاراً في الشتاء ، واستخلصته لك من بين جلد ولحم ودم وعروق ، ثم قذفت لك في قلب والدتك الرحمة ،

وفي قلب أبيك التحنن ، فهما يكدان ويجهدان ويربيانك ويغذيانك ولا ينامان حتى ينوماك . ابن آدم : أنا فعلت ذلك بك لا لشيء استأهلته به مني أو لحاجة استعنت على قضائها .

ابن آدم فلما قطع سنك وطحن ضرسك أطعمتك فاكهة الصيف في أوانها وفاكهة الشتاء في أوانها ، فلما أن عرفت أني ربك عصيتني ، فالآن إذا عصيتني فادعني فإني قريب مجيب وادعني فإني غفور رحيم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ قال : لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض عليه .

أخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير في قوله : ﴿ فلينظر الإِنسان إلى طعامه ﴾ قال : إلى مدخله ومخرجه .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التواضع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ فلينظر الإِنسان إلى طعامه ﴾ قال : إلى خرئه .

(47/803)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ فلينظر الإِنسان إلى طعامه ﴾ قال : ملك يثني رقبة ابن آدم إذا جلس على الخلاء لينظر ما يخرج منه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي قلابة قال : مكتوب في التوراة يا ابن آدم انظر إلى ما بخلت به إلى ما صار .

وأخرج ابن المنذر عن بشير بن كعب أنه كان يقول لأصحابه إذا فرغ من حديثه : انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيجيء فيقف على مزبلة ، فيقول : انظروا إلى عسلهم وإلى سمنهم وإلى بطهم وإلى دجاجهم إلى ما صار .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ إنا صببنا الماء صباً ﴾ قال : المطر ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ عن النبات .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس ﴿ وقضباً ﴾ قال : الفصفصة يعني القت ﴿ وحدائق غلباً ﴾ قال : طوال ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ قال : الثمار الرطبة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الحدائق كل ملتف والغلب ما غلظ ، والأب ما أنبت الأرض مما يأكله والدواب ولا يأكله الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وحدائق غلباً ﴾ قال : ملتفة ﴿ وفاكهة ﴾ وهو ما أكل الناس ﴿ وأباً ﴾ ما أكلت الأنعام .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال : الغلب الكرام من النخل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ غلباً ﴾ قال : غلاظاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وحدائق غلباً ﴾ قال : شجر في الجنة يستظل به لا يحمل منه شيئاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأب الحشيش للبهائم .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : الأب الكلأ والمرعى .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ وأباً ﴾ قال : الأب ما يعتلف منه الدواب . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت قول الشاعر :

ترى به الأب واليقطين مختلطاً . . . على الشريعة يجري تحتها العذب

(48/803)

وأخرج أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمي قال : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله : ﴿ وأباً ﴾ فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مال لا أعلم . .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب والحاكم وصححه عن أنس أن عمر قرأ على المنبر ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ إلى قوله : ﴿ وأباً ﴾ قال : كل هذا قد عرفناه فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت في يده ، فقال : هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به . وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه .

وأخرج ابن المنذر عن السدي قال : الحدائق البساتين ، والغلب ما غلظ من الشجر ، والأب العشب ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ قال : الفاكهة لكم ، والعشب لأنعامكم .

وأخرج عبد بن حميد ﴿ وقضباً ﴾ قال : الفصافص ﴿ وحدائق غلباً ﴾ النخل الكرام ﴿ وفاكهة ﴾ لكم ﴿ وأباً ﴾ لأنعامكم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قرأ ﴿ غلباً ﴾ مشقة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : الفاكهة التي يأكلها بنو آدم ، والأب المرعى .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : الفاكهة ما تأكل الناس ﴿ وأباً ﴾ ما تأكل الدواب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : ما طاب واحلولى فلكم ، والأب لأنعامكم .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ وأباً ﴾ قال : الكلأ .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي رزين ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ قال : النبات .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك قال: الأب الكلأ.

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال: الأبّ هو التبن.

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال: كل شيء ينبت على الأرض فهو الأب.

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن يزيد أن رجلاً سأل عمر عن قوله: ﴿ وأباً ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرة.

(49/803)

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن أنس قال: قرأ عمر ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم قال: مه نهينا عن التكلف.

وأخرج ابن مردويه عن أبي وائل أن عمر سئل عن قوله: ﴿ وأباً ﴾ ما الأب؟ ثم قال: ما كلفنا هذا أو ما أمرنا بهذا.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق عليّ عن ابن عباس قال: الصاخة من أسماء يوم القيامة.

وأخرج عبد بن حميد والترمذي والحاكم وصححاه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت زوجته : أينظر بعضنا إلى عورة بعض ؟ فقال : يا فلانة ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ " .

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن سودة بنت زمعة قالت : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يبعث الناس حفة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان ، قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ قال : شغل الناس عن ذلك ، وتلا ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ " .

وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يحشر الناس يوم القيامة مشاة حفاة غرلاً . قيل يا رسول الله : ينظر الرجال إلى النساء ؟ فقال : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أم سلمة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة ، فقلت يا رسول الله : واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : شغل الناس . قلت : ما شغلهم ؟ قال : نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل " .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، قلت يا رسول الله : فكيف بالعورات ؟ قال : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ " .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال : إن أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأول من يفر من أمه إبراهيم ، وأول من يفر من ابنه نوح ، وأول من يفر من أخيه هابيل ، وأول من يفر من صاحبته نوح ، ولوط ، وتلا هذه الآية ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن قتادة قال : ليس شيء أشد على الإِنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يكون يطلبه بمظلمة ، ثم قرأ ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق عليّ عن ابن عباس في قوله : ﴿ مسفرة ﴾ قال : مشرقة ، وفي قوله : ﴿ ترهقها قترة ﴾ قال : تغشاها شدة وذلة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس ﴿ قترة ﴾ قال : سواد الوجوه .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : " يلجم الكافر العرق ، ثم تقع الغبرة على وجوههم فهو قوله : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 415.424 ﴾

(51/803)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾

أي : كلح وأعرض بوجهه .

يعني : النبي صلى الله عليه وسلم وروى هشام بن عروة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً ، ومعه عتبة بن ربيعة ، في ناس من وجوه قريش ، وهو يحدثهم بحديث .

فجاء ابن أم مكتوم على تلك الحال ، فسأله عن بعض ما ينفع به ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع كلامه ، وقال في رواية مقاتل ، كان اسم ابن أم مكتوم عمر بن قيس .

وقال في رواية الكلبي ، كان اسمه عبد الله بن شريح .

فقال : يا رسول الله ، علمني مما علمك الله تعالى .

فأعرض عنه شغلاً بأولئك القوم ، لحرصه على إسلامهم فنزل ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ .

وهو بلفظ المغايبة ، تعظيماً للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ عَبَسَ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم وجهه ﴿ وتولى ﴾ يعني : وأعرض ﴿ أَن جَاءهُ الاعمى ﴾ يعني : إن جاءه الأعمى .

ويقال : حين جاء الأعمى ، وهو ابن أم مكتوم .

ثم قال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ يعني : وما يدريك يا محمد ، لعله يصلي أو يفلح ، فيعمل خيراً فيتعظ بالقرآن .

ويقال : يعني : يزداد خيراً .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ يعني : يتعظ بالقرآن ﴿ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ يعني : العظة .

ثم قال : ﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾ يعني : استغنى بنفسه عن ثواب الله .

ويقال : استغنى بماله ونفسه ، عن دينك وعظمتك ﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ يعني : تقبل بوجهك عليه .

ويقال تصدى يعني : تعرض .

يقال : فلان تصدى لفلان ، إذا تعرض له ليراه .

قرأ عاصم ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ بنصب العين ، جعله جواباً لعله يتذكر فتنفعه الذكرى .

وقرأ الباقون بالضم ، جعلوه جواباً للفعل .

قرأ نافع ، وابن كثير تصدى بتشديد الصاد ، لأن الأصل تتصدى ، فأدغمت وشددت .

والباقون بحذف التاء للتخفيف ، فهذا كقوله ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ [النازعات : 18] .

(52/803)

ثم قال : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ يعني : أي شيء عليك إن لم يوجد عتبة وأصحابه .

ويقال : لا يضرك إن لم يؤمن ، ولم يصلح .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى ﴾ يعني : يسرع إلى الخير ، ويعمل به ، وهو ابن أم مكتوم .

ويقال : يعني : يمشي برجليه ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ ربه ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ يعني : تشتغل ، وتتلاهى وتتغافل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكرم ابن أم مكتوم بعد نزول هذه الآية قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : لا تفعل ، ولا تقبل على من استغنى عن الله تعالى بنفسه ، وتعرض عمن يخشى الله تعالى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعني : هذه الموعظة تذكرة .

ويقال : هذه السورة تذكرة ، يعني : موعظة ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ يعني : ذكر المواعظ وذكره بلفظ التذكير ، ولم يقل ذكرها ، لأنه ينصرف إلى المعنى ، لأن الموعظة إنما هي بالقرآن .

يعني : فمن شاء أن يتعظ بالقرآن فليتعظ ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ يعني : أن هذا القرآن في صحف مكرمة .

يعني : مطهرة مبجلة معظمة ، وهو اللوح المحفوظ ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ يعني : مرتفعة ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ يعني : منزهة عن التناقض ، والكذب والعيب .

﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ يعني : الكتبة الذين يكتبون في اللوح المحفوظ .

ثم أثنى على الكتبة فقال : ﴿ كِرَامٍ ﴾ على الله ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أي : مطيعين لله تعالى .

ويقال : بررة من الذنوب .

وقال القتبي : السفرة الكتبة .

وأحدهما سافر ، وإنما يقال للكاتب سافر ، لأنه يبين الشيء ويوضحه .

ويقال : أسفر الصبح ، إذا أضاء البررة جمع بار ، مثل : كفرة وكافر .

ثم قال تعالى : ﴿ قُتِلَ الإِنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ يعني : لعن الكافر بالله تعالى .

يعني : عتبة وأصحابه ، ومن كان مثل حاله إلى يوم القيامة .

ما أكفره يعني : ما الذي أكفره ، وهذا قول مقاتل .

وقال الكلبي : يعني : أي شيء أكفره .

قال نزلت في عتبة حيث قال : إني كفرت بالنجم إذا هوى .

(53/803)

ويقال : ما أكفره ، يعني : ما أشده في كفره .

ثم قال : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ يعني : هل يعلم من أي شيء خلقه الله تعالى .

ويقال : أفلا يعتبر من أي شيء خلقه ، ثم أعلمه ليعتبر في خلقه ، فقال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ يعني : خلقه في بطن أمه طوراً بعد طور .

﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ يعني : يسره للخروج من بطن أمه .

ويقال : يسره طريق الخير والشر .

وقال مجاهد : هو مثل قوله ﴿ إِنَّا هديناه السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الدهر : 3]

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ يعني : جعل له قبراً يوارى فيه .

ويقال : أمر به ليعتبر ، ويقال : فأقبره أي : جعله ممن يقبر ، ولم يجعله ممن يلقى على وجه الأرض ، كالبهائم ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ ﴾ يعني : يبعثه في القبر إذا جاء وقته .

ثم قال : ﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يعني : لم يؤد ما أمره من التوحيد ، وما هنا صلة كقوله

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القلب لانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فاعف عَنْهُمْ واستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكلين ﴾ [آل عمران : 159] .

وقال مجاهد : لما يقضي ما أمره ، يعني : لا يقضي أحداً أبداً ، كما افترض عليه .

ثم أمرهم بأن يعتبروا بخلقه فقال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ يعني : إلى رزقه ومن أي شيء يرزقه ، وليعتبروا به ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ يعني : المطر .

قرأ أهل الكوفة أنا صببنا ، بنصب الألف .

والباقون بالكسر فمن قرأ بالنصب جعله بدلاً عن الطعام ، يعني : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ ومن قرأ بالكسر ، فهو على الاستئناف ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ يعني : المطر على الأرض المطر بعد المطر .

(54/803)

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ يعني : شققناها بالنبات والشجر ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ يعني : في الأرض ومعناه : أخرجنا من الأرض ﴿ حَبّاً ﴾ يعني : الحبوب كلها ﴿ وَعِنَباً ﴾ يعني : الكروم ﴿ وَقَضْباً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : القضبة وهو القت الرطب .

وقال القتبي : القضب القت ، سمي قضباً لأنه يقضب مرة بعد مرة ، أي : يقطع .

وكذلك الفصيل ، لأنه يفصل أي : يقطع .

ويقال : وقضبتا يعني : جميع ما يقضب مثل القت .

والكرات ، وسائر البقول التي تقطع ، فينبت من أصله ﴿ وَزَيْتُوناً ﴾ وهي شجرة الزيتون ﴿ وَنَخْلاً ﴾ يعني : النخيل ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ قال عكرمة : غلاظ الرقاب .

ألا ترى أن الرجل إذا كان غليظ الرقبة ، يقال أغلب .

والحدائق واحدها حديقة غلباً أي : نخلاً غلاظاً طوالاً .

ويقال : حدائق غلباً يعني : حيطان النخيل والشجر .

وقال الكلبي : كل شيء أحبط عليه من نخيل أو شجر ، فهو حديقة ، وما لم يحط به فليس بحديقة .

ويقال : الشجر الملتف بعضه في بعض .

ثم قال عز وجل : ﴿ وفاكهة ﴾ ويعني الثمر كلها وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خُلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ وَرُزِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ فَاسْجُدُوا لله عَلَى سَبْعٍ " وإنما أراد بقوله خلقتم من سبع يعني من نطفة ثم من علقه ، الآية والرزق من سبع وهو قوله : " فأنبتنا فيها حباً وعنباً " إلى قوله : "وفاكهة وأباً" ثم قال : ﴿ وَأَبّاً ﴾ يعني العنب وقال مجاهد : ما يأكل الدواب والأنعام وقال الضحاك هو التبن .

﴿ متاعا لَّكُمْ ولانعامكم ﴾ يعني الحبوب والفواكه منفعة لكم والكلأ والعشب منفعة لكم ولأنعامكم.

(55/803)

ثم ذكر القيامة فقال: ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصاخة ﴾ يعني: الصيحة تصخ الأسماع أي تصمها فلا يسمع إلا ما يدعا به ويقال الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة وكذلك الطامة والقارعة والحاقة ثم وصف ذلك اليوم فقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ وفراره أنه يعرض عنه بنفسه وقال شهر بن حوشب يوم يفر المرء من أخيه يعني: هو هابيل يفر من أخيه قابيل ﴿ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم من أمه وأبيه وإبراهيم من أبيه ﴿ وصاحبته ﴾ يعني: لوط عليه السلام من امرأته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ يعني: نوح عليه السلام من ابنه، ويقال هذا في بعض أحوال يوم القيامة أن كل واحد منهم يشتغل بنفسه يعني: فلا ينظر المرء إلى أخيه وإلى أبيه وإلى ابنه ثم قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ يعني؛ لكل إنسان شغل يشغله عن هؤلاء، وروي في الخبر أن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله كيف يحشر الناس قال: "حُفَاة عُرَاة" فقالت عائشة رضي الله عنها واسوأتاه النساء مع الرجال حفاة عراة فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ لِكُلِّ

امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ يعني : لكل واحد منهم عمل يشغله بنفسه عن غيره ثم قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ يعني : من الوجوه ما يكون في ذلك اليوم مشرقة مضيئة ﴿ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ يعني : مفرحة بالثواب وهم المؤمنون المطيعون ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ يعني : من الوجوه ما يعلوها السواد كالدخان وأصل الغبرة يعني الغبار ثم قال عز وجل : ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ يعني : تلحقها قترة يعني يغشاها الكسوف والسواد ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ يعني : أن أهل هذه الصفة هم الكفرة بالله تعالى الكذبة على الله تعالى ويقال ترهقها قترة يعني المذلة والكآبة والفجرة يعني : الظلمة .

والله الموفق بمنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 527.524 ﴾

(56/803)

وقال الثعلبى :

﴿ عَبَسَ ﴾

كلح . ﴿ وتولى ﴾ وأعرض عنه بوجهه ﴿ أَن ﴾ لأن ﴿ أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ وهو " ابن مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي ، وذلك

أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبيا وأمية ابني خلف ويدعوهم إلى الله سبحانه ويرجوا إسلامهم فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرئني وعلّمني مما علّمك الله ، فجعل يناديه ويكرّر النداء ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه وقال في نفسه يقول : هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد فعبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرض عنه وأقبل على القوم يكلّمهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه وإذا رآه قال : " مرحباً بمن عاتبني فيه ربي " ويقول : " هل لك من حاجة " واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما قال أنس بن مالك : فرأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء ، قال ابن زيد كان يقال : لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من الوحي لكتم هذا .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ أي يتطهّر من ذنوبه ويتّعظ ويصلح ، وقال ابن زيد : يسلم . ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ يتعظ ﴿ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ الموعظة ، وقراءة العامة فتنفعه بالرفع نسقاً على قوله يزّكى ويذكر ، وقرأ عاصم في أكثر الروايات بالنصب على جواب لعل بالفاء .

﴿ أَمَّا مَنِ استغنى ﴾ اثرى ﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ تتعرّض وتصغي إلى كلامه قال الراعي : ﴿ تصدى ﴾ لوّضاح كان جبينه سراج الدجى تجبى إليه الأساور ، وقرأ أهل

الحجاز وأيوب تصّدى بتشديد الصاد على معنى يتصدى ، وقرأ الباقون بالتخفيف على الحذف .

(57/803)

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يزكى ﴾ أن لا يسلم أن عليك إلاّ البلاغ ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى ﴾ يمشي يعني الأعمى ﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ الله سبحانه ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ تعرض وتتغافل وتتشاغل بغيره ﴿ كَلا ﴾ ردع وزجر أي لا تفعل مثلها بعدها فليس الأمر كما فعلت من إقبالك على الغني الكافر وإعراضك [عن] الفقير المؤمن .

﴿ إِنَّهَا ﴾ يعني هذه الموعظة ، وقيل : هذه السورة ، وقال مقاتل : آيات القرآن ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة وتبصرة ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ من عباد الله ذكره اتّعظ به ، وقال مقاتل : فمن شاء الله ذكّره ، أي فهّمه واتعض به إذا شاء الله منه ذلك وذكّره وفهمه ، والهاء في قوله : ﴿ ذَكَرَهُ ﴾ راجعة إلى القرآن والتنزيل والوحي أو الوعظ .

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ ، وقيل : كتب الأنبياء (عليهم السلام) ، دليله قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [سورة الأعلى : 18] .

﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر عند الله ﴿ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : كتبة وهم الملائكة الكرام الكاتبون واحدهم سافر ، ويقال : سفرت أي كتبت ومنه قيل للكتاب سفر ، وجمعه أسفار ، ويقال للورّاق سفّرا بلغة العبرانية وقال قتادة : هم القرّاء ، وقال الباقون : هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير وهو الرسول ، وسفير القوم هو الذي يسعى بينهم للصلح ، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم ، قال الشاعر :

فما ادع السفارة بين قومي . . . ولا أمشي بغير أب نسيب

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال : حدّثنا علي بن الحسين قال : حدّثنا الصلت بن مسعود قال : حدّثنا جعفر بن سلمان قال : حدّثنا عبد الصمد بن معقل قال : سمعت عمّي وهب بن منبّه ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال : هم أصحاب محمد .

﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ جمع بار وبرّ مثل كافر وكفرة وساحر وسحرة .

(58/803)

﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ لعن الكافر سمعت السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القاسم البزاز يقول : قال ابن عطا : منع الإنسان عن طريق الخيرات بجهله بطلب

رشده وسكونه إلى ما وعد الله له ، قال مقاتل : نزلت في عتبة بن أبي لهب ﴿ مَآ أَكْفَرَهُ ﴾ بالله وأنعمه مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده على طريق التعجّب ، وقال الكلبي ومقاتل : هو ﴿ مَآ ﴾ الاستفهام تعني أي شيء يحمله على الكفر .

﴿ مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ أي طريق خروجه من بطن أمّه ، وقال الحسن ومجاهد : يعني طريق الحق والباطل بيّن له ذلك وسهل له العمل به ، دليله قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 3] و ﴿ هَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] وقال أبو بكر بن طاهر : يسّر على كل أحد ما خلقه له وقدّر عليه ، دليله قوله صلى الله عليه وسلم : " اعملوا فكل ميسّر لما خلق له " .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ ﴾ قبض روحه ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ صيّره بحيث يقبر ويدفن يقال : قبرت الميت ، إذا دفنته ، وأقبره الله أي صيّره بحيث يقبر وجعله ذا قبر ويقول العرب : بُترت ذنب البعير والله أبتره ، وعضبت قرن الثور والله أعضبه ، وطردتُ فلاناً والله أطرده أي صيّره طريدا ، وقال الفراء : معناه جعله مقبوراً ، ولم يجعله ممن يلقى للسباع والطير ولا ممن يلقى في النواويس ، فالقبر مما أكرم به المسلم ، وقال أبو عبيدة فأقبره أي أمر بأن يُقبر ، قال : وقالت بنو تميم لعمر بن هبيرة لما قتل صالح بن عبد الرحمن : أقبرنا صالحاً فقال : دونكموه .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ أحياه بعد موته .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردّ عليه أي ليس الأمر كما تقول ونظر هذا الكافر ، وقال الحسن : حتماً .

﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾ أي لم يفعل ما أمرهُ به ربّه ولم يؤدّ ما فرض عليه ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ كيف قدر ربّه ودبّره وليكون له آية وعبرة ، وقال مجاهد : إلى مدخله ومخرجه .

أخبرنا ابن فتحوية قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا عبد الله قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا أحمد بن عبد الملك قال : حدّثنا حماد بن زيد عن علي بن زيد بن جدعان " عن الضحاك بن سفيان الكلابي : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : " يا ضحاك ما طعامك ؟ " قال : يا رسول الله اللحم واللبن ، قال : " ثم يصير إلى ماذا ؟ " قال : إلى ما قد علمت . قال : " قال الله سبحانه وتعالى : ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا " .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى قال : حدّثنا أبو حذيفة قال : حدّثنا سفيان عن يونس عن عبيد عن الحسن عن عتيّ عن أُبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ مطعم ابن آدم جُعل مثلا للدنيا وان قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير " .

وأخبرني ابن فنحويه قال : حدّثنا ابن صقلاب قال : حدّثنا ابن أبي الخصيب قال :

حدّثني أبي قال : حدّثنا سهل بن عامر قال : حدّثنا عمر بن سليمان عن ابن الوليد قال : سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر إلى ما يخرج منه ، قال : يأتيه الملك فيقول انظر إلى ما بخلت به إلى ما صار ؟

﴿ أَنَّا ﴾ قرأ الكوفيون بفتح الألف على نية تكرير الخافض ، مجازه : ولينظر إلى أنّا ، غيرهم بالكسر على الإستئناف .

﴿ صَبَبْنَا المآء صَبّاً ﴾ يعني الغيث ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ بالنبات ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ قال ابن عباس والضحاك : يعني الرطبة ، وأهل مكة يسمون القتّ القضيب ، قال ثعلب : سمي بذلك لأنه يقضب في كل أيام أي يقطع ، وقال الحسن : القضبّ العلف .

(60/803)

﴿ وَزَيْتُوناً ﴾ وهو الذي منه الزيت ﴿ وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْباً ﴾ غلاظ الأشجار واحدها أغلب ومنه قيل لغليظ الرقبة أغلب ، وقال مجاهد : ملتفة ، ابن عباس : طوالا ، قتادة : الغلب النخل الكرام ، عكرمة : عظام الأوساط ، ابن زيد : عظام الجذوع والرقاب .

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ يعني الكلاء والمرعى ، وقال الحسن : هو الحشيش وما تأكله الدواب ولا تأكله الناس ، قتادة : أما الفاكهة فلكم وأما الأبُ فلأنعامكم ، أبو رزين : النبات ، يدل عليه ما روى ابن جبير عن ابن عباس قال : ما أنبتت الأرض مما تأكل الناس والأنعام . علي بن أبي طلحة عنه : الأبّ : الثمار الرطبة . الضحّاك : هو التبن . عكرمة : الفاكهة : ما يأكل الناس ، والأب : ما يأكل الدواب .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن خالد قال : حدّثنا داود بن سليمان قال : حدّثنا عبد بن حميد قال : حدّثنا محمد بن عبيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي إن أبا بكر سئل عن قوله ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : أي سماء تظلّني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وأخبرنا ابن حمدون قال : أخبرنا ابن الشرقي قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد قال : أخبرنا أبي عن صالح عن ابن شاب عن أنس بن مالك أخبره أنه سمع هذه الآية ثم قال : كلّ هذا قد عرّفنا فما الأب ثم رفض عصاً كانت بيده وقال : هذا لعمر الله التكليف وما عليك يا بن أم عمر أن لا تدري ما الأب ثم قال : اتبعوا ما تبيّن لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه .

﴿ مَّتَاعًا لَّكُمْ ﴾ يعني الفاكهة ﴿ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ يعني العشب .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة ﴾ يعني صيحة القيامة ، سمّيت بذلك لأنها تصخّ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى كاد تصمّها .

(61/803)

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ ﴾ لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه وقيل : حذراً من مطالبتهم إيّاه لما بينه وبينهم من التبعاتّ والمظالم ، وقيل : لعلمه بأنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه من الله شيئاً .

سمعت السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت عبد الله بن طاهر الأبهري يقول في هذه الآية : يفر منهم إذا ظهر له عجزهم وقلّة حيلتهم إلى مَنْ يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد سوى ربّه الذي لا يعجزه شيء ، ويمكن من فسحة التوكّل واستراح في ظل التفويض .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا مخلّد قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحق بن بشر قال : أخبرني شيخ لنا عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم وأول من يفر من أمه إبراهيم وأول من يفر من إبنه نوح ، وأول من يفر من أخيه هابيل بن آدم ، وأول من يفر من صاحبته

نوح ثم لوط ، ثم تلا هذه الآية ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ وقال يروون أن هذه الآية نزلت فيهم .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس قال : أخبرنا أبو بكر بن محمد بن حمدون بن خالد قال : حدّثنا أبو حنيفة محمد بن عمرو قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا خليد بن دعلج عن قتادة في قول الله سبحانه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ قال : يفرّ ها بيل من قابيل وأمه وأبيه ، قال : يفر النبي صلى الله عليه وسلم من أمه وإبراهيم من أبيه وصاحبته وبنيه ، قال : لوط من صاحبته ونوح من ابنه .

﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ يشغله عن شأن غيره قال خفاف :

ستغنيك حرب بني مالك . . . عن الفحش والجهل في المحفل

قال الفراء : وقرأ بعض القراء وهو ابن محيض (بعينه) وهو شاذ .

(62/803)

أخبرني الحسين قال : حدّثنا عبد الله بن عبد الرحمن قال : حدّثنا محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا ابن أبي أوس قال : حدّثنا أبي عن محمد بن عياش عن عطاء بن بشار " عن سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

يُبعث الناس حفاة عراة عزلا قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان " .

فقلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : " قد شُغل الناسُ ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ " .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ مشرقة مضيئة ، يقال : أسفر الصبح إذا أضاء ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ فرحة .

أخبرنا الحسين قال : حدّثنا أبو علي الحسين بن أحمد الفامي قال : حدّثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار قال : حدّثنا يحيى بن معين قال : أخبرنا إسحاق بن الأشعث عن شمر بن عطية عن عطاء في قول الله سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ قال : من طول ما اغبرت في سبيل الله .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غُبار ، ذكر أن البهائم التي يصيّرها الله سبحانه تراباً بعد القضاء بينها حُوِّلَ ذلك التراب في وجوه الكفرة ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ ظلمة وكآبة وكسوف وسواد ، قال ابن عباس : يغشاها ذلّة ، قال ابن زيد : الفرق بين الغبرة والقترة أن القترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء ، والغبرة ما كان أسفل في الأرض ﴿ أولئك ﴾ الذين يصنع بهم هذا ﴿ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 135.130 ﴾

وقال الزمخشرى :

سورة عبس

مكية ، وآياتها 42 وقيل 41 [نزلت بعد النجم] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة عبس (80) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (4)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُوَ يَخْشى (9)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ابن أمّ مكتوم «1» - وأمّ مكتوم أمّ أبيه ، واسمه عبد اللّه بن شريح ابن مالك بن ربيعة الفهري من بنى عامر بن لؤي - وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام . والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة :

يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم «2» . فقال : يا رسول اللّه ، أقرئنى

وعلمني مما

---

(1) . ذكر الزمخشري سبب نزول الآية ، وهو أن ابن أم مكتوم الأعمى . . . الخ» قال أحمد : وإنما أخذ الاختصاص من تصدير الجملة بضمير المخاطب وجعله مبتدأ مخبرا عنه وهو كثيرا ما يتلقى الاختصاص من ذلك ، ولقد غلط في تفسير الآية ، وما كان له أن يبلغ ذلك .

(2) . ذكره الثعلبي بلا إسناد ، وأخرجه ابن أبى حاتم من رواية العوفى عن ابن عباس نحوه دون قوله «صناديد قريش» ودون سياق نسب ابن أم مكتوم . وكذا أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة . قال : ذكر لنا فذكره . وبهذا الاسناد أن النبي صلى اللّه عليه وسلم استخلفه بعد ذلك على المدينة مرتين يصلى بأهلها . ورواه الترمذي والحاكم من حديث عائشة رضى اللّه عنها نحوه «تنبيه» النسب الذي ساقه في غاية التخليط ، يظهر لمن له أدنى إلمام بالأخبار والأنساب . قال ابن سعد : أما أهل المدينة فيقولون اسمه عبد اللّه . وأما أهل العراق وهشام الكلبي فيقولون اسمه عمرو ثم أجمعوا على نسبه . فقالوا : ابن قيس بن زياد بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ابن عامر بن لؤي . وأمه عاتكة هي أم مكتوم بنت عبد اللّه بن عامر بن مخزوم . وقال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون . أخبرنا جويبر عن الضحاك . قال «كان النبي صلى اللّه عليه وسلم تصدى لرجل من قريش يدعوه إلى الإسلام فأقبل عبد اللّه بن أم مكتوم الأعمى ، فجعل يسأل رسول اللّه

صلى اللّه عليه وسلم وهو يعرض عنه ويعبس في وجهه ، ويقبل على الآخر . فعاتب اللّه رسوله فقال عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى - الآيات فدعاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأكرمه واستخلفه على المدينة مرتين» .

(64/803)

علمك اللّه ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين ، وقال أنس : رأيته يوم القادسية وعليه درع وله راية سوداء «1» . وقرئ : عبس ، بالتشديد للمبالغة ونحوه : كلح في كلح أَنْ جاءَهُ منصوب بتولي ، أو بعبس ، على اختلاف المذهبين . ومعناه : عبس ، لأن جاءه الأعمى . أو أعرض لذلك . وقرئ : آأن جاءه بهمزتين وبألف بينهما ، ووقف على عَبَسَ وَتَوَلَّى ثم ابتدئ ، على معنى : ألأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكارا عليه . وروى أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ، ولا تصدى لغني . وفي الإخبار عما فرط منه ، ثم الإقبال عليه بالخطاب : دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانبا جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية

مواجها له بالتوبيخ وإلزام الحجة . وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك ، كأنه يقول : قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى ، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفا وترؤفا وتقريبا وترحيبا ، ولقد تأدّب الناس بأدب اللّه في هذا تأدبا حسنا ، فقد روى عن سفيان الثوري رحمه اللّه أنّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء وَما يُدْرِيكَ وأى شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى ؟ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أى يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم أَوْ يَذَّكَّرُ أو يتعظ فَتَنْفَعَهُ ذكراك ، أى : موعظتك ، وتكون له لطفا في بعض الطاعات . والمعنى : أنك لا تدرى ما هو مترقب منه ، من تزكّ أو تذكر ، ولو دريت لما فرط ذلك منك . وقيل : الضمير في لَعَلَّهُ للكافر . يعنى أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام ، أو يتذكر فتقرّبه الذكرى إلى قبول الحق ، وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن .

وقرئ : فتنفعه ، بالرفع عطفا على يذكر . وبالنصب جوابا للعلّ ، كقوله فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى ، تَصَدَّى تتعرض بالإقبال عليه ، والمصاداة . المعارضة ، وقرئ : تصدى ، بالتشديد ، بإدغام

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة . أخبرنى أنس بهذا وكذا رواه أبو يعلى والطبري من رواية قتادة عن أنس رضى اللّه عنه .

التاء في الصاد . وقرأ أبو جعفر : تصدى ، بضم التاء ، أى : تعرّض . ومعناه : يدعوك داع إلى التصدي له : من الحرص والتهالك على إسلامه ، وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ، يَسْعى يسرع في طلب الخير وَهُوَ يَخْشى اللّه أو يخشى الكفار ، وأذاهم في إتيانك . وقيل : جاء وليس معه قائد ، فهو يخشى الكبوة تَلَهَّى تتشاغل ، من لهى عنه . والتهى . وتلهى . وقرأ طلحة بن مصرف : تتلهى . وقرأ أبو جعفر : تلهى ، أى : يلهيك شأن الصناديد . فإن قلت : قوله فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كأن فيه اختصاصا . قلت ، نعم ، ومعناه : إنكار التصدي والتلهي عليه ، أى : مثلك خصوصا لا ينبغي له أن يتصدى للغنىّ ويتلهى عن الفقير .

[سورة عبس (80) : الآيات 11 إلى 16]

كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15)

كِرامٍ بَرَرَةٍ (16)

كَلَّا ردع عن المعاتب عليه ، وعن معاودة مثله إِنَّها تَذْكِرَةٌ أى موعظة يجب الاتعاظ والعمل بموجبها فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ أى كان حافظا له غير ناس ، وذكر الضمير لأنّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ فِي صُحُفٍ صفة لتذكرة ، يعنى : أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح

مُكَرَّمَةٍ عند اللّه مَرْفُوعَةٍ في السماء . أو مرفوعة المقدار مُطَهَّرَةٍ منزهة عن أيدى الشياطين ، لا يمسها إلا أيدى ملائكة مطهرين سَفَرَةٍ «1» كتبة ينتسخون الكتب من اللوح بَرَرَةٍ أتقياء . وقيل : هي صحف الأنبياء ، كقوله إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى وقيل السفرة : القرّاء . وقيل : أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة عبس (80) : الآيات 17 إلى 23]

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23)

قُتِلَ الْإِنْسانُ دعاء عليه ، وهي من أشنع دعواتهم «2» ، لأنّ القتل قصارى شدائد

---

(1) . قوله «سفرة» في الصحاح : واحدهم سافر ، ككافر وكفرة . (ع)

(2) . قال محمود : «دعاء عليه وهو من أشنع دعائهم . . . الخ» قال أحمد : ما رأيت كاليوم قط عبدا ينازع ربه ، اللّه تعالى يقول ثُمَّ شَقَقْنَا فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة ، كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ وعلم جرا . والزمخشري يجعل الاضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه ، فيجعل إضافة الفعل إلى اللّه تعالى من باب إضافة الشق إلى الحراث ، لأنه السبب . قتل القدري ما أكفره على قول ، وما أضله على آخر ، وإذا جعل شق الأرض مضافا إلى الحراث حقيقة ، وإلى اللّه مجازا ، فما يمنعه أن يجعل

الحراث هو الذي صبب الماء وأنبت الحب ، والعقب والقضب : حقيقة ، وهل هما إلا واحد .

(66/803)

الدنيا وفظائعها . وما أَكْفَرَهُ تعجب «1» من إفراطه في كفران نعمة اللّه ، ولا ترى أسلوبا أغلظ منه . ولا أخشن مسا ، ولا أدل على سخط ، ولا أبعد شوطا في المذمة ، مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه ، إلى أن انتهى وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها ، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط «2» وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ من أى شيء حقير «3» مهين خلقه ، ثم بين ذلك الشيء بقوله مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ فهيأه لما يصلح له ويختص به . ونحوه وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً . نصب السبيل بإضمار «يسر» وفسره بيسر والمعنى : ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمّه . أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريقى الخير والشر بإقداره وتمكينه ، كقوله إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : بين له سبيل الخير والشر فَأَقْبَرَهُ فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له ، ولم يجعله مطروحا على وجه الأرض جزرا للسباع والطير كسائر

الحيوان.

يقال: قبر الميت إذا دفنه. وأقبره الميت. إذا أمره أن يقبره ومكنه منه. ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحا أَنْشَرَهُ أنشأه النشأة الأخرى. وقرئ: نشره كَلَّا ردع للإنسان عما هو عليه لَمَّا يَقْضِ لم يقض بعد، مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أَمَرَهُ اللّه حتى يخرج عن جميع أوامره، يعنى: أنّ إنسانا لم يخل من تقصير قط.

[سورة عبس (80): الآيات 24 إلى 32]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدائِقَ غُلْباً (30) وَفاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32)

---

(1). قوله «تعجب من إفراطه» لعله: تعجيب. (ع)

(2). قوله «من الكفران والغمط» بطر النعمة وتحقيرها. أفاده الصحاح. (ع)

(3). قوله «من أى شيء خلقه من أى شيء حقير» لعله: أى من شيء ... الخ». (ع)

ولما عدد النعم في نفسه : أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه ، فقال فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ إلى مطعمه الذي يعيش به كيف دبرنا أمره أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ يعنى الغيث . قرئ بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على البدل من الطعام . وقرأ الحسين بن على رضى اللّه عنهما . أنى صببنا ، بالإمالة على معنى : فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء . وشققنا : من شق الأرض بالنبات ويجوز أن يكون من شقها بالكراب على «1» البقر ، وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . والحب : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما . والقضب : الرطبة «2» .

والمقضاب : أرضه ، سمى بمصدر قضبه إذا قطعه ، لأنه يقضب مرّة بعد مرّة وَحَدائِقَ غُلْباً يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء ، فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها ، كما تقول : حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا ، أى : عظاما غلاظا . والأصل في الوصف بالغلب : الرقاب ، فاستعير . قال عمرو بن معد يكرب :

يمشى بها غلب الرّقاب كأنّهم بزل كسين من الكحيل جلالا «3»

والأب : المرعى ، لأنه يؤبّ أى يؤم وينتجع . والأبّ والأمّ : أخوان . قال :

جذمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ به والمكرع «4»

وعن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه أنه سئل عن الأب فقال : أىّ سماء تظلني ، وأىّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب اللّه ما لا علم لي به «5» . وعن عمر رضى اللّه عنه : أنه قرأ هذه

الآية فقال :

---

(1) . قوله «من شقها بالكراب» في الصحاح : كربت الأرض ، إذا قلبتها للحرث . (ع)

[. . . . .]

(2) . قوله «و القضب الرطبة» في الصحاح «القضبة ، والقضب» الرطبة . وفيه أيضا «الرطبة» بالفتح :

القضب اه وفيه دور . وقال بعض الفضلاء «القضب» : هو المسمى في مصر بالبرسيم الحجازي . (ع)

(3) . لعمرو بن معديكرب . ويقال : أسد أغلب ، أى : غليظ العنق ، والغلب : جمعه ، ثم استعير لكل غليظ والبزل : جمع بازل للمذكر والمؤنث من الإبل إذا انفطر نأيه ، وذلك في السنة التاسعة : والكحيل : القطران .

والجلال : جمع جل : يصف مفازة تمشى فيها أسود غلاظ الأعناق ، كأنها فتيات من الإبل دهنت بالقطران حتى صار عليها كالجلال ، فكسين : استعارة مصرحة ، والجلال : ترشيح . ويروى : كأنهم ، باستعارة ضمير العقلاء لغيرهم .

(4) . الجذم – بالكسر وقد يفتح : الأصل الذي يقتطع منه غيره . والأب والأم – بالفتح والتشديد – بمعنى المرعى ، لأنه يؤب ويؤم ، أى : يقصد . والمكرع : المنهل . يقول : نحن من قبيلة قيس ونجد هي ديارنا ، ولنا به أى في نجد المرعى والمروي . وفيه تمدح بالشرف

والشجاعة على غيره.

(5) . أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن. حدثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر رضى اللّه عنه سئل عنه فذكره ورواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد من هذا الوجه. وهذا منقطع.

ورواه يحيى الحماني وابن عبد البر في العلم من طريقه من رواية إبراهيم النخعي عن أبى معمر عن أبى بكر فذكره.

(68/803)

كل هذا قد عرفنا، فما الأب؟ ثم رفض عصا كانت بيده «1» وقال: هذا لعمر اللّه التكلف، وما عليك يا ابن أمّ عمر أن لا تدرى ما الأب، ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. فإن قلت: فهذا يشبه النهى عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته. قلت:

لم يذهب إلى ذلك، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل، وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم، فأراد أنّ الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره، وقد علم من فحوى الآية أنّ الأب بعض ما أنبته اللّه للإنسان متاعا له

أو لإنعامه ، فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر للّه - على ما تبين لك ولم يشكل - مما عدّد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن .

[سورة عبس (80) : الآيات 32 إلى 41]

مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32) فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36)

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41)

يقال : صخّ لحديثه ، مثل : أصاخ له ، فوصفت النفخة بالصاخة مجازا ، لأنّ الناس يصخون لها يَفِرُّ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئا ، وبدأ بالأخ ، ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب ، كأنه قال : يفرّ من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه . وقيل : يفرّ منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات .

يقول الأخ : لم تواسنى بمالك . والأبوان : قصرت في برنا . والصاحبة : أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت . والبنون : لم تعلمنا ولم ترشدنا ، وقيل : أوّل من يفرّ من أخيه : هابيل ،

ومن أبويه :

إبراهيم ومن صاحبته : نوح ولوط ، ومن ابنه : نوح يُغْنِيهِ يكفيه في الاهتمام به . وقرئ : يعنيه أي يهمه مُسْفِرَةٌ مضيئة متهللة ، من أسفر الصبح : إذا أضاء . وعن ابن عباس رضى اللّه

---

(1) . أخرجه الطبري والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن وهب عن يونس وعمرو بن الحارث . ورواه الحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من طريق صالح بن كيسان : وابن مردويه من رواية شعيب كلهم عن الزهري «أن إنسانا أخبره أنه سمع عمر فذكره . وله طريق أخرى من رواية حميد عن أنس أخرجها الحاكم . وروى الحاكم أيضا من وجه آخر عن عمر رضى اللّه عنه أنه سأل ابن عباس رضى اللّه عنهما عن الآية فقال : هو نبت الأرض مما تأكله الدواب والأنعام . ولا يأكله الناس .

(69/803)

عنهما : من قيام الليل ، لما روى في الحديث «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار «1» ، وعن الضحاك : من آثار الوضوء . وقيل : من طول ما اغبرت في سبيل اللّه غَبَرَةٌ غبار يعلوها قَتَرَةٌ سواد كالدخان ، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ،

كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت ، وكأن اللّه عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة ، كما جمعوا الفجور إلى الكفر .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر «2»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 700 . 706﴾

---

(1) . تقدم في سورة الفتح .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(70/803)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمَى ﴾

روى سعيد عن قتادة أن ابن أم مكتوم ، وهو عبد الله بن زائدة من بني فهر ، وكان ضريراً ، أتى رسول الله رسول الله صلى الله عليه سلم يستقرئه وهو يناجي بعض عظماء قريش - وقد طمع في إسلامهم - قال قتادة : هو أمية بن خلف ، وقال مجاهد : هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، فأعرض النبي صلى الله عليه وسلم عن الأعمى وعبس في وجهه ، فعاتبه الله تعالى في إعراضه وتوليه فقال " عبس وتولّى " أي قطّب واعرض " أن جاءه الأعمى " يعني

ابن ام مكتوم .

﴿ وما يُدريك لعلّه يَزَّكى ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يؤمن ، قاله عطاء .

الثاني : يتعبد بالأعمال الصالحة ، قاله ابن عيسى .

الثالث : يحفظ ما يتلوه عليه من القرآن ، قاله الضحاك .

الرابع : يتفقه في الدين ، قاله ابن شجرة .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ قال السدّي : لعله يزّكى ويّذكرُ ، والألف صلة ، وفي الذكرى وجهان :

أحدها : الفقه .

الثاني : العظة .

قال ابن عباس : فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نظر إليه مقبلاً بسط له رداءه حتى يجلس عليه إكراماً له .

قال قتادة : واستخلفه على صلاة الناس بالمدينة في غزاتين من غزواته ، كل ذلك لما نزل فيه .

﴿ كلاّ إنّها تَذْكِرَةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن هذه السورة تذكرة ، قاله الفراء والكلبي .

الثاني : أن القرآن تذكرة ، قاله مقاتل .

﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فمن شاء الله ألهمه الذكر ، قاله مقاتل .

الثاني : فمن شاء أن يتذكر بالقرآن أذكره الله ، وهو معنى قول الكلبي .

﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مكرمة عند الله ، قاله السدي .

الثاني : مكرمة في الدين لما فيها من الحكم والعلم ، قاله الطبري .

الثالث : لأنه نزل بها كرام الحفظة .

ويحتمل قولاً رابعاً : أنها نزلت من كريم ، لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه .

﴿ مرفوعةٍ ﴾ فيه قولان :

(71/803)

أحدهما : مرفوعة في السماء ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : مرفوعة القدر والذكر ، قاله الطبري .

ويحتمل قولاً ثالثاً : مرفوعة عن الشُبه والتناقض .

﴿ مُطَهّرةٍ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : من الدنس ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : من الشرك ، قاله السدي .

الثالث : أنه لا يمسها إلا المطهرون ، قاله ابن زيد .

الرابع : مطهرة من أن تنزل على المشركين ، قاله الحسن .

ويحتمل خامساً : لأنها نزلت من طاهر مع طاهر على طاهر .

﴿ بأيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن السفرة الكتبة ، قاله ابن عباس ، قال المفضل : هو مأخوذ من سفر يسفر سفراً ، إذا كتب ، قال الزجاج : إنما قيل للكتّاب سِفْر وللكاتب سافر من تبيين الشيء وإيضاحه ، كما يقال أسفر الصبح إذا وضح ضياؤه وظهر ، وسفرت المرأة إذا كشفت نقابها .

الثاني : أنهم القّراء ، قال قتادة لأنهم يقرؤون الأسفار .

الثالث : هم الملائكة ، لأنهم السفرة بين يدي الله ورسله بالرحمة ، قال زيد ، كما يقال سَفَر بين القوم إذا بلغ صلاحاً ، وأنشد الفراء :

وما أدَعُ السِّفارةَ بين قوْمي . . . وما أَمْشي بغِشٍ إنْ مَشَيْتُ

﴿ كِرام بَرَرةٍ ﴾ في الكرام ثلاثة أقاويل :

أحدها : كرام على ربهم ، قاله الكلبي .

الثاني : كرام عن المعاصي فهم يرفعون أنفسهم عنها ، قاله الحسن .

الثالث : يتكرمون على من باشر زوجته بالستر عليه دفاعاً عنه وصيانة له ، وهو معنى قول الضحاك .

ويحتمل رابعاً : أنهم يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم .

وفي " بررة " ثلاثة أوجه :

أحدها : مطيعين ، قاله السدي .

الثاني : صادقين واصلين ، قاله الطبري .

الثالث : متقين مطهرين ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن البررة مَن تعدى خيرهم إلى غيرهم ، والخيرة من كان خيرهم مقصوراً عليهم .

﴿ قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَه ﴾ في " قتل " وجهان :

أحدهما : عُذِّب .

الثاني : لعن .

وفي " الإنسان " ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه إشارة إلى كل كافر ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه أمية بن خلف ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه عتبة بن أبي لهب حين قال : إني كفرت برب النجم إذا هوى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللَّهم سلّطْ عليه كلبك " فأخذه الأسد في طريق الشام ، قاله ابن جريج والكلبي .

وفي " ما أَكْفَرَه " ثلاثة أوجه :

أحدها : أن " ما " تعجب ، وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ، والمعنى : أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا .

الثاني : أي شيء أكفره ، على وجه الاستفهام ، قاله السدي ويحيى بن سلام .

الثالث : ما ألعنه ، قاله قتادة .

﴿ ثم السبيلَ يَسّرَهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : خروجه من بطن أمه ، قاله عكرمة والضحاك .

الثاني : سبيل السعادة والشقاوة ، قاله مجاهد .

الثالث : سبيل الهدى والضلالة ، قاله الحسن .

ويحتمل رابعاً : سبيل منافعه ومضاره .

﴿ ثُمَّ أَماتَهُ فأَقْبَرَهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جعله ذا قبر يدفن فيه ، قاله الطبري ، قال الأعشى :

لو أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها . . . عاشَ ولمْ يُنْقلْ إلى قابر

الثاني : جعل من يقبره ويواريه ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ ثُمَّ إذا شاءَ أَنشَرَهُ ﴾ يعني أحياه ، قال الأعشى :

حتى يقولَ الناسُ مما رأوْا . . . يا عجباً للميّت الناشِرِ

﴿ كلاّ لما يَقْضِ ما أَمَرَهُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الكافر لم يفعل ما أمر به من الطاعة والإيمان ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنه على العموم في المسلم والكافر ، قال مجاهد : لا يقضي أحد أبداً ما افترض عليه ، وكلاّها هنا لتكرير النفي وهي موضوعة للرد .

ويحتمل وجه حمله على العموم أن الكافر لا يقضيه عمراً ، والمؤمن لا يقضيه شهراً .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلى طعامه الذي يأكله وتحيا نفسه به ، من أي شيء كان ، قاله يحيى .

الثاني : ما يخرج منه أي شيء كان ؟ ثم كيف صار بعد حفظ الحياة وموت الجسد .

قال الحسن : إن ملكاً يثني رقبة ابن آدم إذا جلس على الخلاء لينظر ما يخرج منه .

ويحتمل إغراؤه بالنظر إلى وجهين :

أحدهما : ليعلم أنه محل الأقذار فلا يطغى .

الثاني : ليستدل على استحالة الأجسام فلا ينسى .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبّاً ﴾ يعني المطر .

﴿ ثم شَقَقْنَا الأرضَ شقّاً ﴾ يعني بالنبات .

﴿ فَأَنْبَتْنَا فيها حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ والقضب : القت والعلق سمي بذلك لقضبه بعد ظهوره .

﴿ وزَيْتوناً ونَخْلاً * وحدائقَ غُلْباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : نخلاً كراماً ، قاله الحسن .

الثاني : الشجر الطوال الغلاظ ، قال الكلبي : الْغلب الغِلاظ ، قال الفرزدق :

عَوَى فأَثارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيّاً . . . فَوَيْلَ ابنِ المراغةِ ما استثار

وفي " الحدائق " ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها ما التف واجتمع ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه نبت الشجر كله .

الثالث : أنه ما أحيط عليه من النخل والشجر ، وما لم يحط عليه فليس بحديقة حكاه أبو صالح .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن الحدائق ما تكامل شجرها واختلف ثمرها حتى عم خيرها .

ويحتمل الغُلْب أن يكون ما غلبت عليه ولم تغلب فكان هيناً .

﴿ وفاكهةً وأبّاً ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن الأبّ ما ترعاه البهائم ، قاله ابن عباس : وما يأكله الآدميون الحصيدة ، قال الشاعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

له دعوة ميمونة ربحها الصبا . . . بها يُنْبِتُ الله الحصيدة والأَبّا

الثاني : أنه كل شيء ينبت على وجه الأرض ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه كل نبات سوى الفاكهة ، وهذا ظاهر قول الكلبي .

الرابع : أنه الثمار الرطبة ، قاله ابن أبي طلحة .

الخامس : أنه التبن خاصة ، وهو يحكي عن ابن عباس أيضاً ، قال الشاعر :

فما لَهم مَرْتَعٌ للسّوا . . . م والأبُّ عندهم يُقْدَرُ

ووجدت لبعض المتأخرين سادساً : أن رطب الثمار هو الفاكهة ، ويابسها الأبّ .

ويحتمل سابعاً : أن الأبّ ما أخلف مثل أصله كالحبوب ، والفاكهة ما لم يخلف مثل أصله من الشجر .

روي أن عمر بن الخطاب قرأ ﴿ عبس وتولّى ﴾ فلما بلغ إلى قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبّا ﴾ قال : قد عرفنا الفاكهة ، فما الأبّ ؟ ثم قال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف وألقى العصا من يده .

وهذا مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم فهم كنبات الزرع بعد دثوره ، وتضمن امتناناً عليهم بما أنعم .

﴿ فإذا جاءَتِ الصّاخّةُ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها النفخة الثانية التي يصيخ الخلق لاستماعها ، قاله الحسن ، ومنه قول الشاعر :

يُصِيخُ للنْبأَةِ أَسْماعه . . . إصاخَةَ الناشدِ للمُنْشِد

الثاني : أنه اسم من أسماء القيامة ، لإصاخة الخلق إليها من الفزع ، قاله ابن عباس .

﴿ يوم يَفِرُّ المرءُ مِن أخيه وأُمّه وابيه وصاحِبَته وبنيه ﴾ وفي فراره منهم ثلاثة أوجه :

أحدها : حذراً من مطالبتهم إياه للتبعات التي بينه وبينهم .

الثاني : حتى لا يروا عذابه .

الثالث : لاشتغاله بنفسه ، كما قال تعالى بعده :

﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي يشغله عن غيره .

﴿ وجوهٌ يومئذٍ مُسفِرةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مشرقة .

الثاني : فرحة ، حكاه السدي .

﴿ ضَاحكةٌ مُسْتَبْشِرةٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ضاحكة من مسرة القلب .

الثاني : ضاحكة من الكفار شماتة وغيظاً ، مستبشرة بأنفسها مسرة وفرحاً .

﴿ ووجوهٌ يومَئذٍ عليها غبرَةٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه غبار جعل شيناً لهم ليتميزوا به فيعرفوا .

الثاني : أنه كناية عن كمد وجوههم بالحزن حتى صارت كالغبرة .

﴿ ترْهقُها قَتَرةٌ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : تغشاها ذلة وشدة ، قاله ابن عباس .

الثاني : خزي ، قال مجاهد .

الثالث : سواد ، قاله عطاء .

الرابع : غبار ، قاله السدي ، وقال ابن زيد : القترة ما ارتفعت إلى السماء والغبرة : ما

انحطت إلى الأرض .

الخامس : كسوف الوجه ، قاله الكلبي ومقاتل .

(75/803)

﴿ أولئك هم الكَفَرَةُ الفَجرَةُ ﴾ يحتمل جمعه بينهما وجهين :

أحدهما : أنهم الكفرة في حقوق الله ، الفجرة في حقوق العباد .

الثاني : لأنهم الكفرة في أديانهم ، الفجرة في أفعالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 202.210 ﴾

(76/803)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ عبس وتولَّى ﴾

قال المفسرون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، وأُمية وأُبَيّاً ابني خلف ، ويَدْعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فجاء ابن أم

مكتوم الأعمى ، فقال : علِّمني يا رسول الله مما علَّمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرِّر النداء ، ولا يدري أنه مشتغل بكلام غيره ، حتى ظهرت الكراهية في وجهه صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل على القوم يكلِّمهم ، فنزلت هذه الآيات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه بعد ذلك ، ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي .

وذهب قوم ، منهم مقاتل ، إلى أنه إنما جاء ليؤمن ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم اشتغالاً بالرؤساء ، فنزلت فيه هذه الآيات .

ومعنى "عبس" قطَب وكَلَح "وتَوَلَّى" أعرض بوجهه ﴿ أن جاءه ﴾ أي : لأن جاءه .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، والحسن ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران "آن جاءه" بهمزة واحدة مفتوحة ممدودة .

وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع ، "أَأَن" بهمزتين مقصورتين مفتوحتين .

و ﴿ الأعمى ﴾ هو ابن أم مكتوم ، واسمه عمرو بن قيس .

وقيل : اسمه عبد الله بن عمرو ﴿ وما يدريك لعلَّه يَزَّكَّى ﴾ أي : يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح ، وما يتعلَّمه منك .

وقال مقاتل : لعله يؤمن ﴿ أو يَذَّكَّرُ ﴾ أي : يتعظ بما يتعلمه من مواعظ القرآن ﴿ فتنفعَه الذكرى ﴾ قرأ حفص عن عاصم "فتنفعه" بفتح العين ، والباقون برفعها .

قال الزجاج : من نصب ، فعلى جواب "لعل" ومن رفع ، فعلى العطف على "يزَّكَّى" .

قوله تعالى : ﴿ أما من استغنى ﴾ قال ابن عباس : استغنى عن الله وعن الإيمان بماله .

قال مجاهد : "أما من استغنى" : عتبة ، وشيبة ، ﴿ فأنت له تَصَدَّى ﴾ .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، "تصَّدَّى" بتشديد الصاد .

(77/803)

وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، "تَصَدَّى" بفتح التاء ، والصاد وتخفيفها ، وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وعمرو بن دينار "تَتَصَدَّى" بتاءين مع تخفيف الصاد .

قال الزجاج : الأصل : تتصدى ، ولكن حذفت التاء الثانية لاجتماع تاءين .

ومن قرأ "تَصَدَّى" بإدغام التاء ، فالمعنى أيضاً : تتصدى ، إلا أن التاء أدغمت في الصاد لقرب مخرج التاء من الصاد .

قال ابن عباس : "تَصَدَّى" تقبل عليه بوجهك .

وقال ابن قتيبة : تتعرض .

وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع ، والجحدري ، ﴿ تُصْدَى ﴾ بتاء واحدة مضمومة ،

وتخفيف الصاد .

قوله تعالى : ﴿ وما عليك ﴾ أي : أي شيءٍ عليك في أن لا يُسْلِمَ مَنْ تدعوه إلى الإسلام ؟

يعني : أنه ليس عليه إلا البلاغ .

﴿ وأمَّا من جاءك يسعى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يمشي .

والثاني : يعمل في الخير ، وهو ابن أم مكتوم ﴿ وهو يخشى ﴾ الله ﴿ فأنت عنه تلهّى ﴾

وقرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرف ، وأبو الجوزاء "تتلهى" بتاءين .

وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وابن السميفع ، والجحدري ، "تُلْهَى" بتاءٍ واحدة خفيفة مرفوعة .

قال الزجاج : أي : تتشاغل عنه .

يقال : لهيت عن الشيء ألهى عنه : إذا تشاغلتَ عنه .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا تفعل ذلك .

﴿ إنها ﴾ في المكني عنها قولان .

أحدهما : آيات القرآن ، قاله مقاتل .

والثاني : هذه السورة ، قاله الفراء "والتذكرة" بمعنى التذكير ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ مفسر في آخر [المدثر : 55] .

ثم أخبر بجلالة القرآن عنده ، فقال تعالى : ﴿ في صُحُفٍ مُكرَّمة ﴾ أي : هو في صحف ،

أي : في كتب مكرَّمة ، وفيها قولان .

أحدهما : أنها اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل .

والثاني : كتب الأنبياء ، ذكره الثعلبي .

فعلى هذا يكون معنى "مرفوعة" عالية القدر .

وعلى الأول يكون رفعها كونها في السماء .

وفي معنى "المطهرة" أربعة أقوال .

أحدها : مطهرة من أن تنزل على المشركين ، قاله الحسن .

(78/803)

والثاني : مطهرة من الشرك والكفر ، قاله مقاتل .

والثالث : لأنه لا يمسها إلا المطهرون ، قاله الفراء .

والرابع : مطهرة من الدنس ، قاله يحيى بن سلام .

قوله تعالى : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة ، قاله الجمهور .

والثاني : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله وهب بن منبه .

وفي معنى "سفرة" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الكَتَبَة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قال الزجاج : واحدهم : سَافر ، وسَفَرَة ، مثل كَاتِب ، وكَتَبَة ، وكافِر وكَفَرة .

وإنما قيل للكتّاب : سفر ، وللكاتب : سافر ، لأن معناه أنه يبين الشيء ويوضحه .

يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء .

وسفرت المرأة .

إذا كشفت النقاب عن وجهها .

ومنه : سفرتُ بين القوم ، أي : كشفتُ ما في قلب هذا ، وقلب هذا ، لأُصْلِحَ بينهم .

والثاني : أنهم القراء ، قاله قتادة .

والثالث : أنهم السفراء ، وهم المصلحون .

قال الفراء : تقول العرب : سفرتُ بين القوم ، أي : أصلحتُ بينهم ، فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله ، كالسفير الذي يصلح بين القوم .

قال الشاعر :

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمي . . .

وَمَا أَمشي بِغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ

قوله تعالى : ﴿ كِرَامٍ ﴾ أي : على ربِّهم ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أي : مطيعين .

قال الفراء : واحد ﴿ البررة ﴾ في قياس العربية : بَارٌّ ، لأن العرب لا تقول : فَعَلَة ينوون به الجمع إلا والواحد منه فاعل ، مثل كافر ، وكَفَرة ، وفاجر ، وفَجَرَة .

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ﴾ أي : لعن .

والمراد بالإنسان هاهنا : الكافر .

وفيمن عنى بهذا القول ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أشار إلى كل كافر ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه أُمية بن خلف ، قاله الضحاك .

والثالث : عتبة بن أبي لهب ، قاله مقاتل .

وفي قوله تعالى : ﴿ ما أكفره ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : ما أشد كفره ، قاله ابن جريج .

والثاني : أي شيء أكفَره ؟ قاله السدي .

(79/803)

فعلى هذا يكون استفهام توبيخ .

الثالث : أنه على وجه التعجُّب ، وهذا التعجب يؤمر به الآدميون والمعنى : اعجبوا أنتم

من كفره ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ من أيِّ شيءٍ خَلَقَه ﴾ ثم فسره فقال تعالى : ﴿ من نطفةٍ خَلَقه ﴾ ، وفي معنى "فقدره" ثلاثة أقوال .

أحدها : قدَّر أعضاءه : رأسه ، وعينيه ، ويديه ، ورجليه ، قاله ابن السائب .

والثاني : قدَّره أطواراً : نطفة ، ثم علقة ، إلى آخر خلقه ، قاله مقاتل .

والثالث : فقدره على الاستواء ، قاله الزجاج .

﴿ ثم السبيل يسَّره ﴾ فيه قولان .

أحدهما : سهَّل له العلم بطريق الحق والباطل ، قاله الحسن ، ومجاهد .

قال الفراء : والمعنى : ثم يسره للسبيل .

والثاني : يسر له السبيل في خروجه من بطن أمه ، قاله السدي ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فأقبرَه ﴾ قال الفراء : أي : جعله مقبوراً ، ولم يجعله ممن يلقى للسباع والطير ، فكأنَّ القبر مما أُكْرِم به المسلم .

ولم يقل : قبره ، لأن القابر هو الدافن بيده .

والمُقْبِرُ الله ، لأنه صيَّره مقبوراً ، فليس فعله كفعل الآدمي .

والعرب تقول : بَتَرْتُ ذَنَبَ البعير ، والله أبتره .

وَعضَبْتُ قَرْنَ الثور ، والله أَعْضَبَه .

وطردتُ فلاناً عني ، والله أطرده ، أي : صيَّره طريداً .

وقال أبو عبيدة : أقبره : أي أمر أن يقبر ، وجعل له قبراً .

قالت بنو تميم لعمر بن هبيرة لما قتل صالح بن عبد الرحمن : أقبرنا صالحاً ، فقال : دونكموه .

والذي يدفن بيده هو القابر .

قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها . . .

عاش ولَمْ يُسْلَم إلى قَابِرِ

قوله تعالى : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي : بعثه .

يقال : أنشر الله الموتى ، فَنُشِرُوا ، ونَشَرَ الميّتُ : حَيِيَ [هو] بِنَفْسه ، وواحدهم ناشر .

قال الأعشى :

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مَمَّا رَأَوْا . . .

يَا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ قال الحسن : حقاً ﴿ لمّا يقضِ ما أمره ﴾ به ربُّه ، ولم يؤدِّ ما فرض عليه .

وهل هذا عام ، أم خاص ؟ فيه قولان .

أحدهما : أنه عام .

قال مجاهد : لا يقضي أحد أبداً كُلَّ ما افترض الله عليه .

والثاني : أنه خاص للكافر لم يقض ما أُمِرَ به من الإيمان والطاعة ، قاله يحيى بن سلام .

ولما ذَكَرَ خَلْق ابن آدم ، ذكر رزقه ليعتبر وليستدلَّ بالنبات على البعث ، فقال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ قال مقاتل : يعني به عتبة بن أبي لهب .

ومعنى الكلام : فلينظر الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته ؟ ثم بين فقال تعالى : ﴿ أنّا ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر "إنا" بالكسر .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ﴿ أنا صببنا ﴾ بفتح الهمزة في الوصل وفي الابتداء ، ووافقهم رويس على فتحها في الوصل ، فإذا ابتدأ كسر .

قال الزجاج : من كسر "إنا" فعلى الابتداء والاستئناف ، ومن فتح ، فعلى البدل من الطعام ، المعنى : فلينظر الإنسان أنا صببنا .

قال المفسرون : أراد بصب الماء : المطر .

﴿ ثم شققنا الأرض ﴾ بالنبات ﴿ شقاً فأنبتنا فيها حباً ﴾ يعني به جميع الحبوب التي

يُتَغَذَّى بها ﴿ وعِنَباً وقَضْباً ﴾ قال الفراء : هو الرَّطبة .

وأهل مكة يسمون القَتَّ : القضب .

قال ابن قتيبة : ويقال : إنه سمي بذلك ، لأنه يُقْضَبُ مرة بعد مرة ، أي : يقطع ، وكذلك القَصيل ، لأنه يُقْصَلُ ، أي يقطع .

قوله تعالى : ﴿ وزيتوناً ونخلاً وحدائق غُلْباً ﴾ قال الفراء : كل بستان كان عليه حائط ، فهو حديقة ، وما لم يكن عليه حائط لم يقل : حديقة .

والغُلْب : ما غلظ من النخل .

قال أبو عبيدة : يقال : شجرة غَلْباء : إذا كانت غليظة .

وقال ابن قتيبة : الغُلب : الغِلاظ الأعناق .

وقال الزجاج : هي المتكاثفةُ ، العظامُ .

قوله تعالى : ﴿ وفاكهة ﴾ يعني : ألوان الفاكهة ﴿ وأباً ﴾ فيه قولان .

(81/803)

أحدهما : أنه ما ترعاه البهائم ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، واللغويون .

وقال الزجاج : هو جميع الكلأ التي تعتلفه الماشية .

والثاني : أنه الثمار الرطبة ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ قد بَيَّنَّاه في السورة التي قبلها [النازعات : 33] .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ وهي الصيحة الثانية .

قال ابن قتيبة : الصاخة تصِخُّ صَخّاً ، أي : تُصِمُّ .

يقال : رجل أصخ ، وأصلخ : إذا كان لا يسمع .

والداهية صاخة أيضاً .

وقال الزجاج : هي الصيحة التي تكون عليها القيامة ، تصخ الأسماع ، أي : تصمها ، فلا تسمع إلا ما تدعى به لإحيائها .

ثم فسر في أي وقت تجيء ، فقال تعالى : ﴿ يوم يَفِرُّ المرء من أخيه ﴾ قال المفسرون : المعنى : لا يلتفت الإنسان إلى أحد من أقاربه ، لِعِظَم ما هو فيه .

قال الحسن : أول من يَفِرُّ من أخيه هابيل ، ومن أُمه وأبيه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح .

وقال قتادة : يفر هابيل من قابيل ، والنبي صلى الله عليه وسلم من أُمه ، وإبراهيم من أبيه ، ولوط من صاحبته ، ونوح من ابنه .

قوله تعالى : ﴿ لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يُغنيه ﴾ قال الفراء : أي : يَشْغَلُه عن قرابته .

وقال ابن قتيبة : أي : يَصْرِفه ويصدُّه عن قرابته ، يقال : اغْنِ عني وجهك ، أي : اصرفه ،

واغْن عني السفيه .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والزهري ، وأبو العالية ، وابن السميفع ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة ، "يَعنيه" بفتح الياء والعين غير معجمة .

قال الزجاج : معنى الآية : له شأن لا يقدر مع الاهتمام به على الاهتمام بغيره .

وكذلك قراءة من قرأ "يغنيه" بالغين ، معناه : له شأن لا يهمه معه غيره .

وقد روى أنس بن مالك قال : قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم : أنحشر عراةً ؟ قال : نعم .

قالت : واسوءتاه ، فأنزل الله تعالى ﴿ لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

(82/803)

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مُسْفِرة ﴾ أي : مضيئة قد علمت ما لها من الخير ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ لسرورها ﴿ مستبشرة ﴾ أي : فرحة بما نالها من كرامة الله عز وجل ﴿ ووجوه يومئذ عليها غَبَرة ﴾ أي : غبار .

وقال مقاتل : أي سواد وكآبة ﴿ ترهقها ﴾ أي : تغشاها ﴿ قَتَرة ﴾ أي : ظُلمة .

وقال الزجاج : يعلوها سواد كالدخان .

ثم بَيَّن مَنْ أَهْلُ هذه الحال ، فقال تعالى : ﴿ أولئك هم الكَفَرة الفَجَرة ﴾ وهو جمع كافر وفاجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 26.36 ﴾

(83/803)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾

أي كلح وقطب وجهه وتولى أي أعرض بوجهه .

(84/803)

﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ يعني ابن أم مكتوم ، واسمه عمرو ، وقيل عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة ، وقيل عمرو قيس بن زائدة بن الأصم بن زهرة بن رواحة القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي ، واسم أمه عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد أسلم قديماً بمكة ، وذلك أنه أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب ، وأبي بن خلف ، وأخاه

أمية بن خلف ويدعوهم إلى الله يرجو إسلامهم فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله ؛ وجعل يناديه ويكرر النّداء ، وهو لا يدري أنه مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقطعه كلامه ، وقال في نفسه يقول هؤلاء الصّناديد إنما اتبعه الصّبيان ، والعبيد ، والسّفلة فعبس وجهه وأعرض عنه ، وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم ، فأنزل الله هذه الآيات معاتبة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك يكرمه إذا رآه ، ويقول مرحباً بمن عاتبني الله فيه ويقول له هل لك من حاجة ، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين وكان من المهاجرين الأولين ، وقيل قتل شهيداً بالقادسية قال أنس : رأيته يوم القادسية ، وعليه درع ومعه راية سوداء ، عن عائشة ا قالت " أنزلت ﴿ عبس وتولى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجعل يقول يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عظماء قريش من المشركين فجعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرض عنه ويقبل على الآخرين ويقول أترى بما أقول بأساً فيقول لا ففي هذا أنزلت " أخرجه التّرمذي ، وقال حديث غريب ﴿ وما يدريك ﴾ أي أي شيء يجعلك دارياً ﴿ لعله يزكى ﴾ أي يتطهر من الذّنوب بالعمل الصّالح وما يتعلمه منك .

﴿ أو يذكر ﴾ أي يتعظ ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ أي الموعظة ﴿ أما من استغنى ﴾ قال ابن عباس : عن الله وعن الإيمان بما له من المال ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أي تتعرض له ، وتقبل عليه وتصغى إلى كلامه ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي لا يؤمن ، ولا يهتدي وإنما عليك البلاغ ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ يعني يمشي يعني ابن أم مكتوم ﴿ وهو يخشى ﴾ أي الله ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تتشاغل وتعرض عنه ﴿ كلا ﴾ أي لا تفعل بعدها مثلها ﴿ إنها ﴾ يعني الموعظة وقيل آيات القرآن ﴿ تذكرة ﴾ أي موعظة للخلق ﴿ فمن شاء ﴾ أي من عباد الله ﴿ ذكره ﴾ أي اتعظ به يعني القرآن ثم وصف جلالة القرآن ، ومحله عنده فقال ﴿ في صحف مكرمة ﴾ يعني القرآن في اللّوح المحفوظ ﴿ مرفوعة ﴾ أي رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة في السّماء السابعة ﴿ مطهرة ﴾ يعني الصحف لا يمسها إلا المطهرون ، وهم الملائكة ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال ابن عباس : يعني كتبة ، وهم الملائكة الكرام الكاتبون ، واحدهم سافر ومنه قيل للكتاب سفر ، وقيل هم الرّسل من الملائكة إلى الأنبياء واحدهم سفير ، ثم أثنى عليهم .

﴿ كرام ﴾ أي هم كرام على الله ﴿ بررة ﴾ أي مطيعين له جمع بار .

قوله : ﴿ قتل الإنسان ﴾ أي لعن الكافر وطرد ﴿ ما أكفره ﴾ أي أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه ، وأياديه عنده وهذا على سبيل التّعجب ، أي أعجبوا من كفره وقيل معناه أي شيء حمله على الكفر ، نزلت هذه الآية في عتبة بن أبي لهب ، وقيل في أمية بن خلف ، وقيل في الذين قتلوا يوم بدر ، وقيل الآية عامة في كل كافر ، ثم بين من أمره ما كان ينبغي أن يعلم أن الله تعالى : خالقه منه فقال تعالى : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ لفظه استفهام ومعناه التّقرير ، ثم فسر ذلك فقال تعالى ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ يعني خلقه أطواراً نطفة ثم علقة ، ثم مشغة ، إلى آخر خلقه ، وقيل قدره يعني خلق رأسه ، وعينيه ويديه ، ورجليه على قدر ما أراده ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ أي سهل له طريق خروجه من بطن أمه ، وقيل سهل له العلم بطريق الحق والباطل ، وقيل يسر على كل أحد ما خلق له وقدر عليه .

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي جعل له قبراً يوارى فيه ، وقيل جعله مقبوراً ، ولم يجعله ملقى للسّباع ، والوحوش والطّيور ، أو أقبره معناه ستره الله بحيث يقبر وجعله ذا قبر يدفن فيه ، وهذه تكرمة لبني آدم على سائر الحيوانات .

ثم قال تعالى : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي أحياه بعد موته للبعث ، والحساب وإنما قال تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد فهو إلى مشيئة الله تعالى متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر للإنسان عن تكبره وتجبره وترفعه

، وعن كفره وإصراره على إنكار التوحيد ، وإنكار البعث والحساب ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ أي لم يفعل ما أمره به ربه ، ولم يؤد ما فرض عليه ، ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر فإنه موضع الاعتبار فقال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ إلى قدرة ربه فيه أي كيف قدره ربه ، ويسره ودبره له وجعله سبباً لحياته ، وقيل مدخل طعامه ومخرجه .

ثم بين ذلك فقال تعالى : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ يعني المطر .

(87/803)

﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أي بالنبات ﴿ فأنبتنا فيها ﴾ أي بذلك الماء ﴿ حباً ﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها الإنسان ﴿ وعنباً ﴾ يعني أنه غذاء من وجه ، وفاكهة من وجه ، فلهذا أتبعه الحب ﴿ وقضباً ﴾ يعني القت وهو الرطب سمي بذلك لأنه يقتضب ، أي يقطع في كل الأيام ، وقيل القضب هو العلف كله الذي تعلف به الدواب .

﴿ وزيتوناً ﴾ وهو ما يعصر منه الزيت ﴿ ونخلاً وحدائق ﴾ جمع حديقة ﴿ غلباً ﴾ يعني غلاظ الأشجار ، وقيل الغلب الشجر الملتف بعضه على بعض .

وقال ابن عباس : طوالاً ﴿ وفاكهة ﴾ يعني جميع ألوان الفاكهة ﴿ وأبا ﴾ يعني الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس مما يأكله الدواب والأنعام ، وقيل فاكهة ما يأكله الناس ، والأب

ما يأكله الدّواب .

وقال ابن عباس : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس .

والأنعام روى إبراهيم التيمي أن أبا بكر سئل عن قوله : ﴿ وفاكهة وأبّاً ﴾ فقال أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم (خ) عن أنس أن عمر قرأ ﴿ وفاكهة وأبّاً ﴾ قال فما الأب ، ثم قال ما كلفنا أو قال ما أمرنا بهذا لفظ البخاري ، وزاد غيره ثم قال اتبعوا ما بين لكم هذا الكتاب وما لا فدعوه .

(88/803)

﴿ متاعاً لكم ﴾ يعني الفواكه والحب ، والعشب منفعة لكم ﴿ ولأنعامكم ﴾ ثم ذكر أهوال القيامة فقال تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصّاخة ﴾ يعني صيحة القيامة سميت صاخة لأنها تصخ أسماع الخلق ، أي تبالغ في أسماعهم حتى تكاد تصمها ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته ، وبنيه ﴾ أي إنه لا يلتفت إلى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه ، والمراد من الفرار التّباعد ، والسبب في ذلك الاحتراز عن المطالبة بالحقوق فالأخ يقول ما واسيتني بمالك ، والأبوان يقولان قصرت في برنا ، والصاحبة تقول لم توفني حقي والبنون يقولون ما علمتنا وما أرشدتنا ، وقيل أول من يفر هابيل من أخيه قابيل ، والنبي (

صلى الله عليه وسلم) من أمه وإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام من أبيه ولوط من صاحبته ونوح من ابنه ، وقيل يفر المؤمن من موالاة هؤلاء ، ونصرتهم والمعنى أن هؤلاء الذين كانوا يقربونهم في الدنيا ، ويتقوون بهم ويتعززون بهم يفرون منهم في الدّار الآخرة ، وفائدة الترتيب كأنه قيل يوم يفر المرء من أخيه بل من أبويه لأنهما أقرب من الإخوة بل من الصّاحبة ، والولد لأن تعلقه بهما أشد من تعلقه بالأبوين ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي يشغله شأن نفسه عن شأن غيره عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه قال : " تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت امرأة أيبصر أحدنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض قال : يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه " أخرجه التّرمذي وقال : حديث حسن صحيح ولما ذكر الله تعالى حال القيامة ، وأهوالها بين حال المكلفين ، وأنهم على قسمين منهم السعداء والأشقياء . ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ أي مشرقة مضيئة من أسفر الصبح إذا أضاء ، وقيل مسفرة من قيام اللّيل ، وقيل من أثر الوضوء ، وقيل من الغبار في سبيل الله ﴿ ضاحكة ﴾ أي عند الفراغ من الحساب ﴿ مستبشرة ﴾ أي بالسرور فرحة بما تنال من كرامة الله ، ورضوانه .

(89/803)

ثم وصف الأشقياء فقال تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أي سواد وكآبة للهم الذي نزل بهم ﴿ ترهقها قترة ﴾ أي تعلوها ، وتغشاها ظلمة ، وكسوف وقال ابن عباس : تغشاها ذلة والفرق بين الغبرة والقترة أن الغبرة ما كان أسفل في الأرض ، والقترة ما ارتفع من الغبار فلحق بالسماء ﴿ أولئك ﴾ أي الذين صنع بهم هذا ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ جميع كافر وفاجر والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 208 . 211 ﴾

(90/803)

وقال النسفى :

﴿ عَبَسَ ﴾

كلح أي النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض ﴿ أن جَاءَهُ ﴾ لأن جاءه ومحله نصب لأنه مفعول له ، والعامل فيه ﴿ عبس ﴾ أو تولى على اختلاف المذهبين ﴿ الأعمى ﴾ عبد الله بن أم مكتوم ، وأم مكتوم أم أبيه ، وأبوه شريح بن مالك ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام فقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه

لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه بعدها ويقول : " مرحباً بمن عاتبني فيه ربي " واستخلفه على المدينة مرتين ﴿ وما يدريك ﴾ وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى ﴿ لعلّه يزكى ﴾ لعل الأعمى يتطهر بما يسمع منك من دنس الجهل .

وأصله يتزكى فأدغمت التاء في الزاي ، وكذا ﴿ أو يَذَّكَّرُ ﴾ يتعظ ﴿ فَتَنفَعَهُ ﴾ نصبه عاصم غير الأعشى جواباً ل "لعل" وغيره رفعه عطفاً على ﴿ يذكر ﴾ ﴿ الذكرى ﴾ ذكراك أي موعظتك أي أنك لا تدري ما هو مترقب منه من ترك ، أو تذكر ولو دريت لما فرط ذلك منك .

﴿ أمّا مَنِ استغنى ﴾ أي من كان غنياً بالمال ﴿ فأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ تتعرض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه ﴿ تصدى ﴾ بإدغام التاء في الصاد : حجازي ﴿ وما عليك ألاّ يزّكّى ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام إن عليك إلا البلاغ ﴿ وأمّا من جاءَكَ يسعى ﴾ يسرع في طلب الخير ﴿ وهو يخشى ﴾ الله أو الكفار أي أذاهم في إتيانك أو الكبوة كعادة العميان ﴿ فأنت عنه تلهّى ﴾ تتشاغل وأصله تتلهى .

ورُوي أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ولا تصدى لغني .

ورُوي أن الفقراء في مجلس الشورى كانوا أمراء .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع أي لا تعد إلى مثله ﴿ إِنَّهَا ﴾ إن السورة أو الآيات ﴿ تذكرةٌ ﴾ موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ فمن شاء أن يذكره ذكره.

(91/803)

أو ذكر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ، والمعنى فمن شاء الذكر ألهمه الله تعالى إياه ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ صفة ل ﴿ تذكرة ﴾ أي أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح، أو خبر مبتدأ محذوف أي هي في صحف ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ عند الله ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ في السماء أو مرفوعة القدر والمنزلة ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ عن مس غير الملائكة أو عما ليس من كلام الله تعالى ﴿ بأيدي سفرةٍ ﴾ كتبة جمع سافر أي الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح ﴿ كِرَامٍ ﴾ على الله أو عن المعاصي ﴿ بررةٍ ﴾ أتقياء جمع بار.

﴿ قتل الإِنسَانُ ﴾ لعل الكافر أو هو أمية أو عتبة ﴿ ما أَكْفَرَهُ ﴾ استفهام توبيخ أي أي شيء حمله على الكفر، أو هو تعجب أي ما أشد كفره ﴿ مِنْ أَيِّ شيءٍ خَلَقَهُ ﴾ من أي حقير خلقه! وهو استفهام ومعناه التقرير.

ثم بين ذلك الشيء فقال ﴿ مِن نُّطفةٍ خلقه فَقَدَّرَهُ ﴾ على ما يشاء من خلقه.

﴿ ثمّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ نصب السبيل بإضمار يسر أي ثم سهل له سبيل الخروج من بطن

أمه أو بين له سبيل الخير والشر ﴿ ثمّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ جعله ذا قبر يواري فيه لا كالبهائم كرامة له قبر الميت دفنه وأقبره الميت أمره بأن يقبره ومكنه منه ﴿ ثمّ إذا شاء أنشره ﴾ أحياه بعد موته ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ ﴾ لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان.

(92/803)

ولما عدد النعم في نفسه من ابتداء حدوثه إلى آن انتهائه أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ الذي يأكله ويحيا به كيف دبرنا أمره ﴿ أَنَّا ﴾ بالفتح: كوفي على أنه بدل اشتمال من الطعام، وبالكسر على الاستئناف: غيرهم ﴿ صَبَبْنَا الماءَ صبًّا ﴾ يعني المطر من السحاب ﴿ ثمّ شققنا الأرض شقًّا ﴾ بالنبات ﴿ فأنبتنا فيها حبًّا ﴾ كالبر والشعير وغيرهما مما يتغذى به ﴿ وعنباً ﴾ ثمرة الكرم أي الطعام والفاكهة ﴿ وَقَضْباً ﴾ رطبة سمي بمصدر قضبه أي قطعه لأنه يقضب مرة بعد مرة ﴿ وزيتوناً وَنَخْلاً وحدائِقَ ﴾ بساتين ﴿ غُلْباً ﴾ غلاظ الأشجار جمع غلباء ﴿ وفاكهةً ﴾ لكم ﴿ وأَبًّا ﴾ مرعى لدوابكم ﴿ مَّتَاعاً ﴾ مصدر أي منفعة ﴿ لّكم ولأنعامكم فإذا جاءت الصَّاخَّةُ ﴾ صيحة القيامة لأنها تصخ الآذان أي تصمها وجوابه محذوف لظهوره

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ لتبعات بينه وبينهم أو لاشتغاله بنفسه ﴿ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ وزوجته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أحب .

قيل : أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ ﴾ في نفسه ﴿ يُغْنِيهِ ﴾ يكفيه في الاهتمام به ويشغله عن غيره .

﴿ وجوهٌ يومئذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة من قيام الليل أو من آثار الوضوء ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي أصحاب هذه الوجوه وهم المؤمنون ضاحكون مسرورون ﴿ ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرةٌ ﴾ غبار ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ﴿ أولئك ﴾ أهل هذه الحالة ﴿ هُمُ الْكَفَرَةُ ﴾ في حقوق الله ﴿ الفَجَرَةُ ﴾ في حقوق العباد ، ولما جمعوا الفجور إلى الكفر جمع إلى سواد وجوههم الغبرة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 332 . 334 ﴾

(93/803)

وقال ابن جزى :

سورة عبس

﴿ عَبَسَ وتولى ﴾

أي عبس في وجه الأعمى وأعرض عنه ، وقال ابن عطية : في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتب ؛ لأن في ذلك بعض الإعراض ، وقال الزمخشري : في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار ، وقال غيرهما ، هو إكرام للنبي صلى الله عليه وسلم وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب ، وهذا أحسن ﴿ أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ في موضع مفعول من أجله ، وهو منصوب بتولى أو عبس . وذكر ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى ليدل أن عماه هو الذي أوجب احتقاره ، وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كان لمنفعة ، أو يشهد صاحبها ، ومنه قول المحدثين سليمان الأعمش ، وعبد الرحمن الأعرج وغير ذلك ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أيّ شيء يطلعك على حال هذا الأعمى ﴿ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ أي يتطهر وينتفع في دينه بما يسمع منك .

﴿ أَمَّا مَنِ استغنى * فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ أي تتعرّض للغني رجاء أن يسلم ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى ﴾ أي لا حرج عليك أن لا يتزكى هذا الغني ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى ﴾ إشارة إلى عبد الله بن أم مكتوم ، ومعنى يسعى يسرع في مشيته من حرصه على طلب الخير ﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ الله أو يخاف الكفار وإذايتهم له على اتباعك ، وقيل : جاء وليس معه من

يقوده ، فكان يخشى أن يقع ، وهذا ضعيف ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ أي تشتغل عنه بغيره من قولك : لهيت عن الشيء إذا تركته ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأدّب بما أدبه الله في هذه السورة فلم يُعرض بعدها عن فقير ولا تعرّض لغني ، وكذلك اتبعه فضلاء العلماء ، فكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كالأمراء ، وكان الأغنياء يتمنون أن يكونوا فقراء .

(94/803)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن معاودة ما وقع العتاب فيه ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أن هذا الكلام المتقدّم تذكرة أو موعظة للنبي صلى الله عليه وسلم ، والآخر أن القرآن تذكرة لجميع الناس ، فلا ينبغي أن يُوثر فيه أحد على أحد ، وهذا أرجح لأنه يناسبه : ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ ، وما بعده ، وأنّث الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ على معنى القصة أو الموعظة أو السورة أو القراءة ، وذكَّرها في قوله : ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ على معنى الوعظ أو الذكرى والقرآن ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ صفة لتذكرة أي ثابتة في صحف ، وهي الصحف المنسوخة من اللوح المحفوظ وقيل : هي مصاحف المسلمين ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ إن كانت الصحف المصاحف فمعناه مرفوعة المقدار ، وإن كان صحف الملائكة

فمعناه كذلك ، أو مرفوعة في السماء ومطهرة أي منزهة عن أيدي الشياطين ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ هي الملائكة ، والسفرة جمع سافر وهو الكاتب ؛ لأنهم يكتبون القرآن ، وقيل : لأنهم سفراء بين الله وبين عبيده ، وقيل : يعني القرّاء من الناس . والأول أرجح . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة " أي أنه يعمل مثل عملهم في كتابة القرآن وتلاوته ، أو له من الأجر على القرآن مثل أجورهم .

(95/803)

﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ دعاء عليه على ما جرت به عادة العرب من الدعاء بهذا اللفظ ، ومعناه تقبيح حاله ، وأنه ممن يستحق أن يقال له ذلك ، وقيل : معناه لعن ، وهذا بعيد ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تعجيب من شدّة كفره ، مع أنه يجب عليه خلاف ذلك ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ توقيف وتقرير ثم أجاب عنه بقوله ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ يعني المني ، ومقصد الكلام تحقير الإنسان ، معناه أنه يجب أن يعلم الرب الذي خلقه ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي هيأه لما يصلح له ومنه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] ، وقيل : معناه جعله على مقدار معلوم في إعطائه وأجله ورزقه وغير ذلك ﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ نصب السبيل بفعل مضمر فسره يسره ، وفي معناه ثلاثة أقوال : أحدها : يسر سبيل خروجه من بطن أمه

، والآخر أنه سبيل الخير والشر لقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] ، الثالث : سبيل النظر السديد المؤدي إلى الإيمان ، والأول أرجح لعطفه على قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ وهو قول ابن عباس ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي جعله ذا قبر ، يقال : قبرت الميت إذا دفنته ، وأقبرته إذا أمرت أن يدفن ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي بعثه من قبره ، يقال : نشر الميت إذا قام ، وأنشره الله والإشارة إذا شاء ليوم القيامة ، أي الوقت الذي يقدر أن ينشره فيه .

(96/803)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان عما هو فيه ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾ أي لم يقض الإنسان على تطاول عمره ما أمره الله ، قال بعضهم : لا يقضي أحدا أبداً جميع ما افترض الله عليه إذ لا بدّ للعبد من تفريط ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ أمر بالاعتبار في الطعام كيف خلقه الله بقدرته ويسره برحمته ، فيجب على العبد طاعته وشكره ويقبح معصيته والكفر به ، وقيل : فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعاً ، فينظر حقارة الدنيا وخساسة نفسه ، والأول أشهر وأظهر في معنى الآية ، على أن القول الثاني صحيح وانظر كيف فسره بقوله : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ﴾ وما بعده ليعدّد النعم ويظهر القدرة ، وقرئ إنا صببنا الماء بفتح

الهمزة على البدل من الطعام ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض ﴾ يعني يخرج النبات منها ﴿ حَبّاً ﴾ يعني القمح والشعير وسائر الحبوب ﴿ وَقَضْباً ﴾ قيل : هي الفصفصة ، وقيل : هي علف البهائم ، واختار ابن عطية أنها البقول وشبهها مما يؤكل رطباً ﴿ غُلْباً ﴾ أي غليظة ناعمة ﴿ وَأَبّاً ﴾ الأبّ المرعى عند ابن عباس والجمهور ، وقيل : التبن وقد توقف في تفسيره أبو بكر رضي الله عنهما .

(97/803)

﴿ الصآخة ﴾ القيامة وهي مشتقة من قولك : صخ الأذن إذا أصمها بشدة صياحه ، فكأنه إشارة إلى النفخة في الصور ، أو إلى شدة الأمر حتى يصخ من يسمعه لصعوبته وقيل : هي من قولك : أصاخ للحديث إذا استمعه ، والأول هو الموافق للاشتقاق ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ الآية ذكر فرار الإنسان من أحبابه ، ورتبهم على ترتيبهم في الحنو والشفقة فبدأ بالأقل وختم بالأكثر ، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره ؛ وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه ؛ وقيل : إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات والأول أرجح وأظهر ، لقوله : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي هو مشغول بشأنه من الحساب والثواب والعقاب ، حتى لا يسعه ذكر غيره ، وانظر قول الأنبياء عليهم السلام ، يومئذ :

نفسي نفسي ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أي مضيئة من السرور ، وهو من قولك : أسفر الصبح إذا أضاء ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي غبار ، والقترة أيضاً الغبار . قال ابن عطية : الغبرة من العبوس والكرب ، كما يقتر وجه المهموم والمريض ، والقترة هي غبار الأرض ، وقال الزمخشري : الغبرة : غبار يعلوها ، والقترة سواد ، فيعظم قبحها باجتماع الغبار والسواد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 180.178 ﴾

(98/803)

وقال البيضاوى :

سورة عبس

مكية وآيها ثنتان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَاءهُ الأعمى ﴾

روي : " أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإِسلام ، فقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه

فنزلت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، واستخلفه على المدينة مرتين " وقرىء "عَبَّسَ" بالتشديد للمبالغة و﴿ أَن جَاءهُ ﴾ علة ل ﴿ تولى ﴾ ، أو ﴿ عَبَسَ ﴾ على اختلاف المذهبين ، وقرىء "آأن" بهمزتين وبألف بينهما بمعنى ألئن جاءه الأعمى فعل ذلك ، وذكر الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقوم والدلالة على أنه أحق بالرأفة والرفق ، أو لزيادة الإنكار كأنه قال : تولى لكونه أعمى كالالتفات في قوله :

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ أي : وأي شيء يجعلك دارياً بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك . وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرى ﴾ أو يتعظ فتنفعه موعظتك ، وقيل الضمير في ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ للكافر أي أنك طمعت في تزكيه بالإسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره ، فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن ، وقرأ عاصم فتنفعه بالنصب جواباً للعل .

﴿ أَمَّا مَنِ استغنى فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ تتعرض له بالإقبال عليه وأصله تتصدى ، وقرأ ابن كثير ونافع "تصدى" بالإدغام وقرىء . "تصدى" أي تعرض وتدعى إلى التصدي .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يسعى ﴾ يسرع طالباً للخير .

﴿ وَهُوَ يخشى ﴾ الله أو أذية الكفار في إتيانك ، أو كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له .

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ﴾ تتشاغل ، يقال لها عنه والتهى و ﴿ تلهى ﴾ ، ولعل ذكر التصدق والتلهي للإشعار بأن العتاب على اهتمام قلبه بالغني وتلهيه عن الفقير ، ومثله لا ينبغي له ذلك .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن المعاتب عليه أو عن معاودة مثله . ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ حفظه أو اتعظ به والضميران للقرآن ، أو العتاب المذكور وتأنيث الأول لتأنيث خبره .

﴿ فِى صُحُفٍ ﴾ مثبتة فيها صفة لتذكرة ، أو خبر ثان أو خبر لمحذوف . ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ عند الله .

﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ القدر . ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين :

﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ كتبة من الملائكة أو الأنبياء ينتسخون الكتب من اللوح أو الوحي ، أو سفراء يسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسله ، أو الأمة جمع سافر من السفر ، أو السفارة والتركيب للكشف يقال سفرت المرأة إذا كشفت وجهها .

﴿ كِرَامٍ ﴾ أعزاء على الله أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم . ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أتقياء .

﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ دعاه عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفران ، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ .

﴿ مِنْ أَيّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ بيان لما أنعم عليه خصوصاً من مبدأ حدوثه ، والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله :

﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ فهيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال ، أو ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أطواراً إلى أن تم خلقته .

﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ ثم سهل مخرجه من بطن أمه بأن فتح فوهة الرحم وألهمه أن ينتكس ، أو ذلل له سبيل الخير والشر ونصب السبيل بفعل يفسره الظاهر للمبالغة في التيسير ، وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام ، وفيه على المعنى الأخير إيماء بأن الدنيا طريق والمقصد غيرها ولذلك عقبه بقوله :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ وعد الإِماتة والإِقبار في النعم لأن الإِماتة وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع ، وفي ﴿ إِذَا شَاءَ ﴾ إشعار بأن وقت النشور غير متعين في نفسه ، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإِنسان بما هو عليه . ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ لم يقض بعد من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله بأمره ، إذ لا يخلو أحد من تقصير ما .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسان إِلَى طَعَامِهِ ﴾ إتباع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الماء صَبّاً ﴾ استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام ، وقرأ الكوفيون بالفتح على البدل منه بدل الاشتمال .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرض شَقّاً ﴾ أي بالنبات أو بالكراب ، وأسند الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب .

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ كالحنطة والشعير .

﴿ وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ يعني الرطبة سميت بمصدر قضبه إذا قطعه لأنها تقضب مرة بعد أخرى .

﴿ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً ﴾ عظاماً وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها ، أو لأنها ذات أشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب .

﴿ وفاكهة وَأَبًّا ﴾ ومرعى من أب إذا أم لأنه يؤم وينتجع ، أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيء للرعي ، أو فاكهة يابسة تؤوب للشتاء .

﴿ متاعا لَّكُمْ ولأنعامكم ﴾ فإن الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف .

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصاخة ﴾ أي النفخة وصفت بها مجازاً لأن الناس يصخون لها .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وصاحبته وَبَنِيهِ ﴾ لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه ، أو للحذر من مطالبتهم بما قصر في حقهم وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة كأنه قيل : يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه .

(101/803)

﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ يكفيه في الاهتمام به ، وقرىء "يعنيه" أي يهمه .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة من إسفار الصبح .

﴿ ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ لما ترى من النعيم .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ غبار وكدورة .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ يَغشاها سواد وظلمة .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ الذين جمعوا إلى الكفر الفجور ، فلذلك يجمع إلى سواد

وجوههم الغبرة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 451. 455 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(102/803)

وقال أبو حيان :

سورة عبس

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

وقرأ الجمهور ؛ ﴿ عبس ﴾ مخففاً ، ﴿ أن ﴾ بهمزة واحدة ؛ وزيد بن علي : بشد الباء ؛ وهو والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى : آأن بهمزة ومدة بعدها ؛ وبعض القراء : بهمزتين محققتين ، والهمزة في هاتين القراءتين للاستفهام ، وفيهما يقف على تولى .

والمعنى : ألأن جاءه كاد كذا .

وجاء بضمير الغائب في ﴿ عبس وتولى ﴾ إجلالاً له عليه الصلاة والسلام ، ولطفاً به أن يخاطبه لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفى .

وجاء لفظ ﴿ الأعمى ﴾ إشعاراً بما يناسب من الرفق به والصغو لما يقصده ، ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً .

والضمير في ﴿ لعله ﴾ عائد على ﴿ الأعمى ﴾ ، أي يتطهر بما يتلقن من العلم ، أو ﴿ يذكر ﴾ : أي يتعظ ، ﴿ فتنفعه ﴾ ذكراك ، أي موعظتك .

والظاهر مصب ﴿ يدريك ﴾ على جملة الترجي ، فالمعنى : لا تدري ما هو مترجى منه من تزك أو تذكر .

وقيل : المعنى وما يطلعك على أمره وعقبى حاله .

ثم ابتدأ القول : ﴿ لعله يزكى ﴾ : أي تنمو بركته ويتطهر لله .

وقال الزمخشري : وقيل : الضمير في ﴿ لعله ﴾ للكافر ، يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام ، أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق ، وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . انتهى .

وهذا قول ينزه عنه حمل القرآن عليه .

وقرأ الجمهور : ﴿ أو يذكر ﴾ بشد الذال والكاف ، وأصله يتذكر فأدغم ؛ والأعرج وعاصم في رواية : أو يذكر ، بسكون الذال وضم الكاف .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتنفعه ﴾ ، برفع العين عطفاً على ﴿ أو يذكر ﴾ ؛ وعاصم في المشهور ، والأعرج وأبو حيوة أبي عبلة والزعفراني : بنصبهما .

قال ابن عطية : في جواب التمني ، لأن قوله : ﴿ أو يذكر ﴾ في حكم قوله ﴿ لعله يزكى ﴾ . انتهى .

وهذا ليس تمنياً ، إنما هو ترج وفرق بين الترجي والتمني .

وقال الزمخشري : وبالنصب جواباً للعل ، كقوله : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ انتهى .

والترجي عند البصريين لا جواب له ، فينصب بإضمار أن بعد الفاء .

(103/803)

وأما الكوفيون فيقولون : ينصب في جواب الترجي ، وقد تقدم لنا الكلام على ذلك في قوله : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ في قراءة حفص ، ووجهنا مذهب البصريين في نصب المضارع .

﴿ أما من استغنى ﴾ : ظاهره من كان ذا ثروة وغنى .

وقال الكلبي : عن الله .

وقيل : عن الإيمان بالله .

قيل : وكونه بمعنى الثروة لا يليق بمنصب النبوة ، ويدل على ذلك أنه لو كان من الثروة لكان المقابل : وأما من جاءك فقيراً حقيراً .

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والأعرج وعيسى والأعمش وجمهور السبعة : ﴿ تصدى ﴾ بخف الصاد ، وأصله يتصدى فحذف ؛ والحرميان : بشدها ، أدغم التاء في الصاد ؛ وأبو جعفر : تصدى ، بضم التاء وتخفيف الصاد ، أي يصدك حرصك على إسلامه .

يقال : تصدى الرجل وصديته ، وهذا المستغنى هو الوليد ، أو أمية ، أو عتبة وشيبة ، أو أمية وجميع المذكورين في سبب النزول ، أقوال .

قال القرطبي : وهذا كله غلط من المفسرين ، لأنه أمية والوليد كانا بمكة ، وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ، وماتا كافرين ، أحدهما قبل الهجرة والآخر في بدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ، ولا حضر معه مفرداً ولا مع أحد . انتهى .

والغلط من القرطبي ، كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما ؟ وهو وهم منه ، وكلهم من قريش ، وكان ابن أم مكتوم بها : والسورة كلها مكية بالإجماع .

وكيف يقول : وابن أم مكتوم بالمدينة ؟ كان أولاً بمكة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية .

وابن أم مكتوم هو عبد الله بن سرح بن مالك بن ربيعة الفهري ، من بني عامر بن لؤي ، وأم مكتوم أم أبيه عاتكة ، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها .

(104/803)

﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ : تحقير لأمر الكافر وحض على الإعراض عنه وترك الاهتمام به ، أي : وأي شيء عليك في كونه لا يفلح ولا يتطهر من دنس الكفر ؟ ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ : أي يمشي بسرعة في أمر دينه ، ﴿ وهو يخشى ﴾ : أي يخاف الله ، أو يخاف الكفار وأذاهم ، أو يخاف العثار والسقوط لكونه أعمى ، وقد جاء بلا قائد يقوده .

﴿ تلهى ﴾ : تشتغل ، يقال : لها عن الشيء يلهى ، إذا اشتغل عنه .

قيل : وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو . انتهى .

ويمكن أن يكون منه ، لأن ما يبنى على فعل من ذوات الواو وتنقلب واوه ياء لكسرة ما قبلها ، نحو : شقي يشقى ، فإن كان مصدره جاء بالياء ، فيكون من مادة غير مادة اللهو .

وقرأ الجمهور : ﴿ تلهى ﴾ ؛ والبزي عن ابن كثير : عنه وتلهى ، بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل ؛ وأبو جعفر : بضمها مبنياً للمفعول ، أي يشغلك دعاء الكافر للإسلام ؛ وطلحة : بتاءين ؛ وعنه بتاء واحدة وسكون اللام .

﴿ كلا إنها ﴾ : أي سورة القرآن والآيات ، ﴿ تذكرة ﴾ : عظة ينتفع بها .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ : أي فمن شاء أن يذكر هذه الموعظة ذكره ، أتى بالضمير مذكراً لأن التذكرة هي الذكر ، وهي جملة معترضة تتضمن الوعد والوعيد ، ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ واعترضت بين تذكرة وبين صفته ، أي تذكرة : كائنة .

﴿ في صحف ﴾ ، قيل : اللوح المحفوظ ، وقيل : صحف الأولياء المنزلة ، وقيل : صحف المسلمين ، فيكون إخباراً بمغيب ، إذ لم يكتب القرآن في صحف زمان ، كونه عليه السلام بمكة ينزل عليه القرآن ، مكرمة عند الله ، ومرفوعة في السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلام ، أو مرفوعة عن الشبه والتناقض ، أو مرفوعة المقدار .

﴿ مطهرة ﴾ : أي منزهة عن كل دنس ، قاله الحسن .

وقال أيضاً : مطهرة من أن تنزل على المشركين .

وقال الزمخشري : منزهة عن أيدي الشياطين ، لا تمسها إلا أيدي ملائكة مطهرة .

﴿ سفرة ﴾ : كتبة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ . انتهى .

(105/803)

﴿ بأيدي سفرة ﴾ ، قال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبة .

وقال أيضاً : لأنهم يسفرون بين الله تعالى وأنبيائه .

وقال قتادة : هم القراء ، وواحد السفرة سافر .

وقال وهب : هم الصحابة ، لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والعلم .

﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ ، قيل : نزلت في عتبة بن أبي لهب ، غاضب أباه فأسلم ، ثم

استصلحه أبوه وأعطاه مالاً وجهزه إلى الشام ، فبعث إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه كافر برب النجم إذا هوى .

وروي أنه (صلى الله عليه وسلم) قال : " اللهم ابعث عليه كلبك يأكله " فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء ، فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح حياً ، فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله .

فأقبل الأسد إلى الرجال ووثب ، فإذا هو فوقه فمزقه ، فكان أبوه يندبه ويبكي عليه ، وقال : ما قال محمد شيئاً قط إلا كان ، والآية ، وإن نزلت في مخصوص ، فالإنسان يراد به الكافر .

وقتل دعاء عليه ، والقتل أعظم شدائد الدنيا .

﴿ ما أكفره ﴾ ، الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره ، والتعجب بالنسبة للمخلوقين ، إذ هو مستحيل في حق الله تعالى ، أي هو ممن يقال فيه ما أكفره .

وقيل : ما استفهام توقيف ، أي : أي شيء أكفره ؟ أي جعله كافراً ، بمعنى لأي شيء يسوغ له أن يكفر .

﴿ من أي شيء خلقه ﴾ : استفهام على معنى التقرير على حقارة ما خلق منه .

ثم بين ذلك الشيء الذي خلق منه فقال : ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ : أي فهيأه لما يصلح له .

وقال ابن عباس : أي في بطن أمه ، وعنه قدر أعضاءه ، وحسناً ودميماً وقصيراً وطويلاً وشقياً وسعيداً .

وقيل : من حال إلى حال ، نطفة ثم علقة ، إلى أن تم خلقه .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ : أي ثم يسر السبيل ، أي سهل .

قال ابن عباس وقتادة وأبو صالح والسدي : سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان ، وتيسيره له هو هبة العقل .

(106/803)

وقال مجاهد والحسن وعطاء وابن عباس في رواية أبي صالح عنه : السبيل العام اسم الجنس في هدى وضلال ، أي يسر قوماً لهذا ، كقوله : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وعن ابن عباس : يسره للخروج من بطن أمه .

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ : أي جعل له قبراً صيانة لجسده أن يأكله الطير والسباع .

قبره : دفنه ، وأقبره : صيره بحيث يقبر وجعل له قبراً ، والقابر : الدافن بيده .

قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى قبرها . . .

عاش ولم ينقل إلى قابر

﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ : أي إذا أراد إنشاره أنشره ، والمعنى : إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه الله ، وهو يوم القيامة .

وفي كتاب اللوامح شعيب بن الحبحاب : شاء نشره ، بغير همز قبل النون ، وهما لغتان في الأحياء ؛ وفي كتاب ابن عطية : وقرأ شعيب بن أبي حمزة : شاء نشره .

﴿ كلا ﴾ : ردع للإنسان عن ما هو فيه من الكفر والطغيان .

﴿ لما يقض ﴾ : يفي من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ، ﴿ ما أمره ﴾ به الله تعالى ، فالضمير في يقض للإنسان .

وقال ابن فورك : لله تعالى ، أي لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له .

ولما عدّد تعالى نعمه في نفس الإنسان ، ذكر النعم فيما به قوام حياته ، وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه حتى صار بصدد أن يطعم .

والظاهر أن الطعام هو المطعوم ، وكيف ييسره الله تعالى بهذه الوسائط المذكورة من صب الماء وشق الأرض والإنبات ، وهذا قول الجمهور .

وقال أبيّ وابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : ﴿ إلى طعامه ﴾ : أي إذا صار رجيعاً ليتأمل عاقبة الدنيا على أي شيء يتفانى أهلها .

وقرأ الجمهور : إنا بكسر الهمزة ؛ والأعرج وابن وثاب والأعمش والكوفيون ورويس : ﴿ أنا ﴾ بفتح الهمزة ؛ والحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنهما : أني بفتح الهمزة مما لا ؛ فالكسر على الاستئناف في ذكر تعداد الوصول إلى الطعام ، والفتح قالوا على البدل ، ورده قوم ، لأن الثاني ليس الأول .

قيل : وليس كما ردوا لأن المعنى : فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه ، فترتب البدل وصح . انتهى .

كأنهم جعلوه بدل كل من كل ، والذي يظهر أنه بدل الاشتمال .

وقراءة أبي مما لا على معنى : فلينظر الإنسان كيف صببنا .

وأسند تعالى الصب والشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب ، وصب الماء هو المطر .

والظاهر أن الشق كناية عن شق الفلاح بما جرت العادة أن يشق به .

وقيل : شق الأرض هو بالنبات .

﴿ حباً ﴾ : يشمل ما يسمى حباً من حنطة وشعير وذرة وسلت وعدس وغير ذلك .

﴿ وقضباً ﴾ ، قال الحسن : العلف ، وأهل مكة يسمون القت القضب .

وقيل : الفصفصة ، وضعف لأنه داخل في الأب .

وقيل : ما يقضب ليأكله ابن آدم غضاً من النبات ، كالبقول والهليون .

وقال ابن عباس : هو الرطب ، لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

﴿ غلباً ﴾ ، قال ابن عباس : غلاظاً ، وعنه : طوالاً ؛ وعن قتادة وابن زيد : كراماً ؛ ﴿ وفاكهة ﴾ : ما يأكله الناس من ثمر الشجر ، كالخوخ والتين ؛ ﴿ وأباً ﴾ : ما تأكله البهائم من العشب .

وقال الضحاك : التين خاصة .

وقال الكلبي : كل نبات سوى الفاكهة رطبها ، والأب : يابسها .

﴿ الصاخة ﴾ : اسم من أسماء القيامة يصم نبأها الآذان ، تقول العرب : صختهم الصاخة ونابتهم النائبة ، أي الداهية .

وقال أبو بكر بن العربي : الصاخة هي التي تورث الصمم ، وأنها لمسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة ، كقوله :

أصمهم سرّهم أيام فرقتهم . . .

فهل سمعتم بسرّ يورث الصمما

وقول الآخر :

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا . . .

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعه تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة . انتهى .

(108/803)

﴿ يوم يفر ﴾ : بدل من إذا ، وجواب إذا محذوف تقديره : اشتغل كل إنسان بنفسه ، يدل عليه : ﴿ لكل امرِىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ، وفراره من شدّة الهول يوم القيامة ، كما جاء من قول الرسل : "نفسي نفسي" .

وقيل : خوف التبعات ، لأن الملابسة تقتضي المطالبة .

يقول الأخ : لم تواسني بمالك ، والأبوان قصرت في برنا ، والصاحبة أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت ، والبنون لم تعلمنا وترشدنا .

وقرأ الجمهور : ﴿ يغنيه ﴾ : أي عن النظر في شأن الآخر من الإغناء ؛ والزهري وابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميقع : يعنيه بفتح الياء والعين المهملة ، من قولهم : عناني الأمر : قصدني .

﴿ مسفرة ﴾ : مضيئة ، من أسفر الصبح : أضاء ، و﴿ ترهقها ﴾ : تغشاها ، ﴿ قترة ﴾ : أي غبار .

والأولى ما يغشاه من العبوس عند الهم ، والثانية من غبار الأرض .

وقيل : ﴿ غبرة ﴾ : أي من تراب الأرض ، وقترة : سواد كالدخان .

وقال زيد بن أسلم : الغبرة : ما انحطت إلى الأرض ، والقترة : ما ارتفعت إلى السماء .

وقرأ الجمهور : قترة ، بفتح التاء ؛ وابن أبي عبلة : بإسكانها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(109/803)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

التفسير : أطبق المفسرون على أن الذي عبس هو الرسول صلى الله عليه وسلم والأعمى هو ابن أم مكتوم واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الزهري . وذلك أنه أتى رسول الله وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . فقال : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم شغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت ، فكان رسول الله صلى هلله عليه

وسلم بعد ذلك يكرمه ويقول : إذا رآه : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين . وقال أنس : رأيته يوم القادسية وعليه درع وله راية سوداء .

(110/803)

والجار محذوف على القياس متعلق ب ﴿ عبس ﴾ أو ب ﴿ تولى ﴾ على اختلاف في باب تنازع الفعلين للكوفيين والبصريين والتقدير : عبس لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك . يروى أنه صلى الله عليه وسلم ما عبس بعدها في وجه فقير قط ولا تصدّى لغني . قال أهل المعاني : في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب دلالة على مزيد الإنكار كمن يشكو جانياً بطريق الغيبة وهو حاضر ثم يقبل على الجاني مواجهاً بالتوبيخ . قالوا : وفي ذكر الأعمى نحو من الإنكار أيضاً لأن العمى يوجب العطف والرأفة عند ذوي الآداب غالباً لا التولي والعبوس ، ولا يخفى أن نظر النبي صلى الله عليه وسلم كان على أمر كلي هو رجاء إسلام قريش فإنه في الظاهر أهم من إجابة رجل أعمى على الفور إلا أنه سبحانه عدّ هذا الجزئي كلياً من جهة أخرى هي تطييب قلوب الفقراء والضعفاء وإهمال جانب أهل الغنى والثراء ، فإن هذا أدخل في الإخلاص وابتغاء رضوان الله وذلك مظنة التهمة والرياء . يحكى عن

سفيان الثوري أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراء . وأيضاً فائدة الإرشاد والتعليم بالنسبة إلى هذا الأعمى أمر معلوم وبالنسبة إلى أولئك أمر موهوم لأنه جاء طالباً مسترشداً وأنهم جاءوا مستهزئين معاندين ، وترك المعلوم للموهوم خارج عن طريق الاحتياط وإلى هذا المعنى أشار بقوله ﴿ وما يدريك لعله ﴾ لعل الأعمى ﴿ يزكى ﴾ عما لا ينبغي ﴿ أو يذكر ﴾ يتعظ ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ فيفعل ما ينبغي . وقيل : الضمير في ﴿ لعله ﴾ للكافر يعني أي شيء أدراك بحال كل من أولئك الكفرة حتى طمعت في تطهرهم من الأوزار وانتفاعهم بالاذكار . ثم زاد تصريحاً لما فعل قائلاً ﴿ أما من استغنى ﴾ أي بالمال . وقال عطاء : عن الإيمان . وقال الكلبي : أي عن الله . والأول أولى لأنهم كانوا أغنياء وما توجه الخطاب إلا من هذه الجهة وإن كان إسلامهم موهوماً ﴿ فأنت له تصدّى ﴾ تتعرض وأصله تتصدد من الصدد وهو ما استقبلك فصار قبالك ﴿ وما عليك ﴾ يحتمل أن تكون " ما " استفهامية

(111/803)

ونافية يعني أي وبال يعود عليك أو ليس عليك بأس في أن لا يتزكى ذلك المستغني إن عليك إلا البلاغ فما الموجب للحرص والتهالك على إسلامه حتى تكسر قلوب الفقراء بالعبوس

والإعراض ، وهذا معنى قوله ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ يسرع في طلب الخير ﴿ وهو يخشى ﴾ الله أو يخشى الكفار وأذاهم في إتيانك . وقيل : يخشى الكيوة لأنه أعمى ما كان له قائد ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تتشاغل . قال أهل المعاني : بناء الكلامين على ضمير المخاطب تقوية إنكار التصدي والتهلي عليه أي مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدّى لغنى ويتلهى عن الفقير . قوله ﴿ كلا ﴾ ردع عن المعاتب عليه وعن معاودة مثله أي لا تفعل مثل ذلك . ثم قال ﴿ إنها ﴾ يعني آيات القرآن وهو قول مقاتل ، أو هذه السورة وهو قول الكلبي واختاره الأخفش ﴿ تذكرة ﴾ وهي في معنى الذكر والوعظ فلذلك قال ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ والمراد أن هذا القرآن أو هذا التأديب الذي عرفناكه في إجلال الفقراء وعدم الالتفات إلى أهل الدنيا ثبت في اللوح المحفوظ الذي قد وكل بحفظه أكابر الملائكة .

(112/803)

وفيه أن القرآن الذي بلغ في العظمة إلى هذا الحد أيّ حاجة له إلى أن يقبله هؤلاء الكفرة ، فسواء قبلوه أو لا فلا تلتفت إليهم واجتهد في تطيب قلوب الفقراء الذين هم أهل الإخلاص وحزب الله . ثم وصف الصحف بأنها مكرمة عند الله مرفوعة في السماء أو مرفوعة

المقدار مطهرة عن أهل الخبائث لا يمسها إلا المطهرون من تلك الملائكة وتلك الصحف ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة : هم الكتبة من الملائكة واحدها سافر مثل كتبة وكاتب ، وقد مرّ في أول التفسير أن التركيب يدل على الكشف فبالكتابة يتبين ما في الضمير ويتضح . قال الفراء : اشتقاق السفرة من السفارة لأن الملائكة سفرة بين الله ورسوله ولا يخفى ما في السورة من معنى الكشف أيضاً ﴿ كرام ﴾ على ربهم . وقال عطاء : أراد أنهم يكرمون من أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة ﴿ بررة ﴾ أتقياء واحدها بارّ . وقيل : هي صحف الأنبياء فيكون كقوله ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ [الأعلى : 18] وقيل : السفرة القراء . وقيل : الصحابة ثم عجب من صناديد قريش وأضرابهم من أهل العجب والكفر المرتفعين على الفقراء مع أن أوّلهم نطفة مذرة وآخرهم جيفة قذرة وهم فيما بين الوقتين حملة عذرة فقال ﴿ قتل الإنسان ﴾ وهو دعاء عليه أشنع دعوة لأنه لا أفظع من القتل و ﴿ ما أكفره ﴾ تعجب من حال إفراطه في الكفران وتلقي نعم خالقه بالجحود والطغيان ، وهذا قد ورد على أسلوب كلام العرب وأنه لا يمكن أن يحمل في حقه تعالى إلا على إرادة إيصال العقاب الشديد وليكون لطفاً للمعتبرين المتعجبين المتأملين في مراتب حدوثهم التي أوّلها نطفة وأشار إليها بقوله ﴿ من أي شيء خلقه من نطفة ﴾ والاستفهام لزيادة التقرير في التحقير .

ثم قال ﴿ فقدّره ﴾ فحمله الفراء على أطواره بعد كونه نطفة إلى وقت إنشائه خلقاً آخر ، وعلى أحواله من كونه ذكراً أو أنثى وشقياً أو سعيداً . وقال الزجاج : قدره على الاستواء كقوله ﴿ ثم سوّاك رجلاً ﴾ [الكهف : 37] ويحتمل أن يراد فقدر كل عضو في الكمية والكيفية على التقدير اللائق بمصلحته . وأما المرتبة الوسطى فإليها الإشارة بقوله ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ وهو نصب على شريطة التفسير فمن فسر التقدير بالأطوار فسر السبيل بمخرج الولد من بطن أمه . يقال : إن رأس المولود في بطن أمه يكون من فوق ورجله من تحت ، فإذا جاء وقت الخروج انقلب بإلهام الله تعالى إياه على أن نفس خروج الولد حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب وعلى التفاسير الأخر فالمراد تسهيل سبيل الخير والشر كقوله

(114/803)

﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ [الدهر : 3] وأشار إلى المرتبة الأخيرة بقوله ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي جعله ذا قبر فيكون متعدياً إلى واحد ، ويحتمل أن يكون الثاني محذوفاً أي فأقبره غيره . يقال : قبر الميت إذا دفنه بنفسه ، وأقبر غيره الميت إذا أمره بدفنه ، فالمراد أن الله

سبحانه أمر بدفن الأموات الإنسية تكرمة لهم دون أن يطرحوا على وجه الأرض طعمة للسباع كسائر الحيوان ﴿ ثم ﴾ إن في كل هذه الانتقالات دلالات واضحة على أنه سبحانه ﴿ إذا شاء ﴾ أن ينشر الإنسان ببعثه من قبره ﴿ أنشره ﴾ قوله ﴿ كلا ﴾ يجوز أن يكون ردعاً للإنسان عن تكبره وترفعه أو عن كفره وإنكاره المعاد . وقال في الكشاف : وهذا هو ردع للإنسان عما هو عليه فهذا قول مجاهد إن إنساناً لم يخل من تقصير قط فلم يقض أحد من لدن آدم إلى هذه الغاية جميع ما كان مفروضاً عليه . وقال آخرون : معناه أن الإنسان الكافر لم يقض بعد ما أمره الله من التأمل في دلائل التوحيد والبعث . وقال الأستاذ أبو بكر بن فورك : القضاء بمعنى الحكم والضمير لله أي لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان وترك التكبر بل أمره بما لم يحكم له به . وحين فرغ من دلائل الأنفس أردفها بدلائل الآفاق قائلاً ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ نظر استدلال وتدبر ﴿ إلى طعامه ﴾ الذي يعيش به كيف دبرنا أمره من إنزال الماء من السماء ، ثم شق الأرض بالنبات أو بالكراب على البقر فيكون إسناد الفعل إلى السبب . والحب ما يصلح للقوت كالحنطة والشعير ، والقضب العلف بعينه قاله الحسن . وقال أكثر المفسرين : إنه القت لأنه يقضب مرة بعد أخرى أي يقطع . والغلب الغلاظ الأعناق في الأصل يقال : أسد أغلب ، ثم استعير للحدائق أنفسها لتكاثف أشجارها ولأشجارها لعظمها وغلظها . ثم أجمل

الفاكهة ليعم الكل وأجمل العلف بقوله ﴿ وأبا ﴾ للعموم وهو المرعى لأنه يؤب أي يؤم وينتجع . والأب والأم إخوان قاله جار الله . وقيل : الأب الفاكهة اليابسة المعدّة للبقاء .

(115/803)

والفاء في قوله ﴿ فإذا جاءت ﴾ مثل ما مر في " النازعات " ﴿ والصاخة ﴾ النفخة الأخيرة . قال الزجاج : أصل الصخ الطعن والصك صخ رأسه بالحجر أي شدخه ، والغراب يصخ بمنقاره في دبر البغير أي يطعن ، والنفخة لشدّتها تصك الآذان . وقال جار الله : يقال صخ لحديثه مثل أصاخ له فوصف النفخة بالصاخة مجاز لأن الناس يصخون لها أي يستمعون . وفرار المرء من الجماعة المذكورين إما بالصورة وذلك للاحتراز عن المطالبة بالتبعات يقول الأخ : ما واسيتني بمالك . ويقول الأبوان : قصرت في برنا . وتقول الصاحبة : أطعمتني الحرام وفعت كذا وكذا ، والبنون يقولون : لم تعلمنا ولم ترشدنا .

(116/803)

قال جار الله : إنما بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ، والفرار إنما يقع من الأبعد ثم من الأقرب ، وأخر الصاحبة والبنين لأن البنين أقرب وأحب فكأنه قيل : يفر من أخيه بل من أبيه بل من صاحبته وبنيه . وأقول : هذا القول يستلزم أن تكون الصاحبة أقرب وأحب من الأبوين ولعله خلاف العقل والشرع ، والأصوب أن يقال : أراد أن يذكر بعض من هو مطيف بالمرء في الدنيا من أقاربه في طرفي الصعود والنزول فبدأ بطرف الصعود لأن تقديم الأصل أولى من تقديم الفرع ، وذكر أوّلاً في كل من الطرفين من هو معه في درجة واحدة وهو الأخ في الأول ، والصاحبة في الثاني على أن وجود البنين موقوف على وجود الصاحبة فكانت بالتقديم أولى . وقيل : أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح . والأنسب عندي أن يكون الفار قابيل وقد جاء هكذا في بعض الروايات ، والأظهر أن الفرار المعنيّ هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء بدليل قوله ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي يصرفه ويصدّه عن قرابته . قال ابن قتيبة : ويقال أغن عني وجهك أي اصرفه . وعندي أن اشتقاقه من الغنى وذلك أن من أغناك فقد صرفك عن نفسك أو عن طلب حاجته . ثم ذكر أن الناس يومئذ فريقان وأن أهل الكمال تلوح على وجوههم أنوار الكمال من أسفر الصبح إذا أضاء يستبشرون بأنواع المسار ، ويضحكون بدل ما كانوا يبكون في الدنيا خوفاً من عقاب الله تعالى ، وأن أهل النقائص يظهر على وجوههم سواد مع غبرة كوجوه الزنوج مثلاً إذا أعبرت . والقترة سواد كالدخان جمع الله في

وجوههم ظلمة الضلال والكفر مع غبار الفجور والفسق ولهذا نعى عليهم بقوله ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ أعاذنا الله في الدارين من مثل أحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 446 . 450 ﴾

(117/803)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة عبس

مكية وتسمى سورة السفرة

وهي اثنان وأربعون آية ومائة وثلاثون كلمة وثلاثمائة وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الواحد القهار ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بإنعامه الأبرار والفجار

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه برحمته في دار القرار .

﴿ عبس ﴾ أي : كلح وجهه النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وتولى ﴾ أي : أعرض بوجهه لأجل ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ وهو ابن أمّ مكتوم وأم مكتوم أمّ ابيه واسمها عاتكة بنت عامر بن مخزوم ، واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤيّ ، وذلك أنه جاءه وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن

عبد المطلب ، وأمية ابن خلف ، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ويسلم بإسلامهم أتباعهم ، فتعلو كلمة الله تعالى ، فقال : يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى وكرّر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد : إنما اتبعه العميان والعبيد والسفلة فعبس وجهه وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه ، وإذا رآه قال : "مرحباً بمن عاتبني فيه ربي" ، ويبسط له رداءه ويقول له : "هل لك حاجة ؟" واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين غزاهما . قال أنس بن مالك : رأيته يوم القادسية راكباً وعليه درع وله راية سوداء .

﴿ وما يدريك ﴾ أي : أيّ شيء يجعلك دارياً بحاله ﴿ لعله ﴾ أي : الأعمى ﴿ يزكى ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الزاي ، أي : يتطهر من الذنوب بما يسمع منك وفي ذلك إيماء بأنّ إعراضه كان لتزكية غيره .

(118/803)

﴿ أو يذكر ﴾ فيه إدغام التاء في الذال أي : يتعظ وتسبب عن تزكيته وتذكره قوله تعالى : ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ أي : العظمة المسموعة منك ، وقرأ عاصم بنصب العين والباقون برفعها ، فمن رفع فهو نسق على قوله تعالى : ﴿ أو يذكر ﴾ ومن نصب فعلى جواب الترجي كقوله تعالى في غافر : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ (غافر :)

. وقال ابن عطية في جواب التمني لأن قوله تعالى : ﴿ أو يذكر ﴾ في حكم قوله تعالى : ﴿ لعله يزكى ﴾ .

واعترض عليه أبو حيان : بأنّ هذا ليس تمنياً وإنما هو ترجٍ. وأجيب عنه : بأنه إنما يريد التمني المفهوم وقت الذكرى .

وقرأ الذكرى أبو عمرو وحمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش بين اللفظين ، والباقون بالفتح وقيل : الضمير في لعله للكافر يعني : أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر فتقرّبه الذكرى إلى قبول الحق وما يدريك أنّ ما طمعت فيه كائن .

﴿ أما من استغنى ﴾ أي : بالمال ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : استغنى عن الله وعن الإيمان بما له من المال .

﴿ فأنت له ﴾ أي : دون الأعمى ﴿ تصدّى ﴾ أي : تتعرّض له بالإقبال عليه والمصادّة المعارضة وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الصاد بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها والباقون بالتخفيف .

﴿ وما ﴾ أي : فعلت ذلك والحال أنه ما ﴿ عليك ﴾ أي : وليس عليك بأس ﴿ ألا يزكى ﴾ أي : في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم إن عليك إلا البلاغ .

﴿ وأما من جاءك ﴾ حال كونه ﴿ يسعى ﴾ أي : يسرع في طلب الخير وهو ابن أمّ مكتوم ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه ﴿ يخشى ﴾ أي : الله أو الكفار في أذاهم على الإتيان إليك . وقيل : جاء وليس معه قائد فهو يخشى الكبوة ، وقرأ قالون وأبو عمرو والسدّي بسكون الهاء والباقون بضمها .

(119/803)

﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ فيه حذف التاء الآخرة في الأصل ، أي : تتشاغل ، وقرأ ﴿ وتولى ﴾ ، ﴿ الأعمى ﴾ ، ﴿ يزكى ﴾ ، ﴿ من استغنى ﴾ ، ﴿ تصدّى ﴾ ، ﴿ يزكى ﴾ ، ﴿ يسعى ﴾ ، ﴿ يخشى ﴾ ، ﴿ تلهى ﴾ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وورش وأبو عمرو بين بين ، والفتح عن ورش قليل والباقون بالفتح .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع من العاتب عليه وعن معاودة مثله . فإن قيل : ما فعله ابن أمّ مكتوم كان يستحق عليه التأديب والزجر ، فكيف عاتب الله تعالى رسوله صلى الله عليه

وسلم على تأديبه ، لأنه وإن كان أعمى فقد سمع مخاطبته صلى الله عليه وسلم لأولئك الكفار ، وكان بسماعه يعرف شدّة اهتمام النبيّ صلى الله عليه وسلم بشأنهم ، فكان إقدامه على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم لغرض نفسه قبل تمام كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم معصية عظيمة ، وأيضاً فإنّ الأهمّ يقدّم على المهمّ ، وكان قد أسلم وتعلم ما يحتاج من أمر الدين ، وأما أولئك الكفار فلم يكونوا أسلموا ، وكان إسلامهم سبباً لإسلام غيرهم ، فكان كلام ابن أمّ مكتوم كالسبب في قطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل ، وذلك يحرم أيضاً . فإنّ الله تعالى ذمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات بمجرّد ندائهم ، فهذا النداء الذي هو كالصارف للكفار عن الإيمان أولى أن يكون ذنباً ، وأيضاً فمع هذا الاعتناء كيف لقب بالأعمى ، وأيضاً فالنبيّ صلى الله عليه وسلم له أن يؤدّب أصحابه بما يراه مصلحة ، والتعبيس من ذلك القبيل ؟

أجيب : بأنّ ما فعله ابن أمّ مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالماً بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم مشغولاً بغيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكنه لم يعلم بذلك . وأيضاً الله سبحانه وتعالى إنما عاتبه على ذلك حتى لا تنكسر قلوب الضعفاء ، أو ليعلم أنّ المؤمن الفقير خير من الغنيّ الكافر .

(120/803)

وقال ابن زيد : إنما عبس النبيّ صلى الله عليه وسلم لابن أمّ مكتوم وأعرض عنه لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه فدفعه ابن أمّ مكتوم وأبى إلا أن يتكلم مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فكان في هذا نوع جفاء منه ، ومع هذا نزل في حقه ذلك ، وأما ذكره بلفظ الأعمى فليس للتحقير بل كان بسبب عماه يستحق أن يزيده تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً ، ولقد تأدب الناس بأدب الله تعالى في هذا تأدباً حسناً ، فقد روي عن سفيان الثوري رضي الله عنه : أنّ الفقراء كانوا بمجلسه أمراء ، وأما كونه صلى الله عليه وسلم كان مأذوناً له في تأديب أصحابه فلأنّ تقديمهم ربما يوهم ترجيح تقديم الأغنياء على الفقراء فلهذا السبب عوتب .

قال الحسن رضي الله عنه : لما تلا جبريل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه الآيات عاد وجهه كأنما نسف فيه الرماد ينتظر ما يحكم الله تعالى عليه فلما قال :

﴿ كلا ﴾ سرّي عنه أي : لا تفعل مثل ذلك ، وقد بينا نحن أنّ ذلك محمول على ترك الأولى . ثم قال الله تعالى : ﴿ إنها ﴾ أي : هذه السورة . وقال مقاتل رضي الله عنه : آيات القرآن . وقيل : القرآن ، وأنثه لتأنيث خبره وهو قوله تعالى : ﴿ تذكرة ﴾ أي : عظة للخلق يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي : كان حافظاً له غير ناس ، وذكر الضمير لأنّ التذكرة في معنى

الذكر والوعظ .

ثم إنّ الله تعالى أخبر عن جلالة ذلك عنده فقال سبحانه ﴿ في صحف ﴾ أي : منتسخة من اللوح المحفوظ ، وقيل : هي كتب الأنبياء عليهم السلام ، دليله قوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ (الأعلى ، الآيتان : ـ)

. ﴿ مكرمة ﴾ أي : عند الله تعالى .

﴿ مرفوعة ﴾ أي : في السماء السابعة أو مرفوعة المقدار ﴿ مطهرة ﴾ أي : منزهة عن أيدي الشياطين لا يمسها إلا أيدي ملائكة كرام مطهرين .

(121/803)

كما قال تعالى : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ أي : كتبة ينسخونها من اللوح المحفوظ وهم الملائكة الكرام الكاتبون واحدهم سافر يقال : سفرت ، أي : كتبت ، ومنه قيل للكتاب : سفر وجمعه أسفار . وقيل : هم الرسل من الملائكة واحدهم سفير وهو الرسول ، وسفير القوم هو الذي يسعى بينهم بالصلح ، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم .

ثم أثنى تعالى عليهم بقوله سبحانه : ﴿ كرام ﴾ أي : على الله تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في كرام قال : مكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إلا إذا خلا بزوجته

أو برز لغائط وقيل : يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم . وقوله : ﴿ بررة ﴾ جمع بارّ كساحر وسحرة وفاجر وفجرة ، والبارّ هو الصادق المطيع . ومنه برّ فلان في يمينه أي : صدق ، وفلان يبر خالقه أي : يطيعه . فمعنى بررة مطيعين صادقين لله تعالى في أعمالهم .

ولما ذكر تعالى ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين عجب عباده المؤمنين من ذلك فقال سبحانه .

﴿ قتل الإنسان ﴾ أي : لعن الكافر ، وقوله تعالى : ﴿ ما أكفره ﴾ استفهام توبيخ ، أي : ما أشدّ تغطيته للحق وجحده له وعناده فيه لإنكاره البعث وإشراكه بربه وغير ذلك مما حمله على الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ استفهام تقرير .

ثم بينه بقوله تعالى : ﴿ من نطفة ﴾ أي : ماء يسير جدّاً لا من غيره . ﴿ خلقه ﴾ أي : أوجده مقدّراً على ما هو عليه من التخطيط ﴿ فقدّره ﴾ أي : علقة ثم مضغة إلى آخر خلقه فكأنه قيل : وأي سبب في هذا الترفع مع أنّ أوّله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بين الوقتين حامل عذرة ، فإنّ خلقة الإنسان تصلح أن يستدل بها على وجود الصانع ؛ لأنه يستدل بها على أحوال البعث والحشر . قيل : نزلت في عتبة بن أبي لهب والظاهر العموم .

فإن قيل : الدعاء على الإنسان إنما يليق بالعاجز فالقادر على الكل كيف يليق به ذلك ، والتعجب أيضاً إنما يليق بالجاهل بسبب الشيء ، فالعالم به كيف يليق به ذلك ؟

(122/803)

أجيب : بأنّ ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقهم لأعظم العقاب حيث أتوا بأعظم القبائح . كقولهم إذا تعجبوا من شيء : قاتله الله ما أحسنه ، وأخزاه الله ما أظلمه ، والمعنى : اعجبوا من كفر الإنسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا .

وقيل : الاستفهام استفهام تحقير له فذكر أوّل مراتبه وهو قوله تعالى : ﴿ من نطفة خلقه ﴾ ولا شك أنّ النطفة شيء حقير مهين ، ومن كان أصله ذلك كيف يتكبر وقوله تعالى : ﴿ فقدّره ﴾ أي : أطواراً وقيل : سوّاه كقوله تعالى : ﴿ ثم سوّاك رجلاً ﴾ (الكهف :) أو قدّر كل عضو في الكيفية والكمية بالقدر اللائق لمصلحته كقوله تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ (الفرقان :)

ثم ذكر المرتبة الوسطى بقوله تعالى : ﴿ ثم ﴾ بعد انتهاء المدّة ﴿ السبيل ﴾ أي : طريق خروجه من بطن أمّه ﴿ يسره ﴾ أي : سهل له أمره في خروجه بأن فتح له الرحم وألهمه الخروج منه ، ولا شك أنّ خروجه من أضيق المسالك من أعجب العجائب يقال : إنه كان

رأسه في بطن أمّه من فوق ورجلاه من تحت ، فإذا جاء وقت الخروج انقلب فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام المراد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ (البلد :)

أي : التمييز بين الخير والشرّ .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سبيل الشقاء والسعادة . وقال ابن زيد : سبيل الإسلام . قال أبو بكر بن طاهر : يسر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه لقوله صلى الله عليه وسلم "كل ميسر لما خلق له" . ثم ذكر المرتبة الأخيرة بقوله تعالى : ﴿ ثم أماته ﴾ وأشار إلى إيجاب المبادرة بالتجهيز بالفاء المعقبة في قوله تعالى : ﴿ فأقبره ﴾ أي : جعله في قبر يستره إكراماً له ، ولم يجعله ممن يلقى على وجه الأرض تأكله الطير وغيرها .

(123/803)

﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي : أحياه بعد موته للبعث ، ومفعول شاء محذوف أي : شاء إنشاره وأنشره جواب إذا ، وقرأ قالون وأبو عمرو البزي بإسقاط الهمزة الأولى مع المدّ والقصر ، وسهل الثانية ورش وقنبل ولهما أيضاً إبدالها ألفاً والباقون بتحقيقهما .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان عما هو عليه ، وقيل : معناها حقاً . قال الأوّل الزمخشري وتبعه البيضاوي ، وقال الثاني الجلال المحلي . ﴿ لما يقض ﴾ أي : يفعل ﴿ ما

أمره ﴾ به ربه من الإيمان وترك التكبر . وقيل : لم يوف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم عليه السلام . وقيل : المعنى : إن ذلك الإنسان الكافر لم يقض ما أمره به من التأمّل في دلائل الله تعالى والتدبر في عجائب خلقه .

ولما كانت عادة الله تعالى جارية في القرآن أنه كلما ذكر دلائل الإنسان ذكر عقبها دلائل الآفاق بدأ من ذلك بما يحتاج إليه الإنسان بقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ أي : يوقع النظر التامّ بكل شيء يقدر على النظر به من بصره وبصيرته ﴿ إلى طعامه ﴾ أي : الذي هو قوام حياته كيف هيأ له أسباب المعاش ليستعدّ بها للمعاد .

قال الحسن ومجاهد : فلينظر إلى طعامه إلى مدخله ومخرجه . وروي عن الضحاك أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا ضحاك ، ما طعامك ؟" قلت : يا رسول الله ، اللحم واللبن ، قال : "فشرابك ماذا ؟" قلت : الماء قد علمته ، قال : "فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا" .

وروي عن ابن عمر أنّ الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه فيأتيه الملك فيقول انظر إلى ما تحليت به إلام صار .

(124/803)

وقرأ ﴿ أنا صببنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الماء ﴾ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الهمزة على أنه بدل اشتمال بمعنى أنّ صب الماء سبب في إخراج الطعام فهو مشتمل عليه بهذا التقدير ، أو أنه تقدير لام العلة ، أي : فلينظر لأنا ثم حذف الخافض ، وقال البغوي : أنا بالفتح على تكرير الخافض مجازه فلينظر إلى أنا وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف تعديداً لنعمه تعالى عليه ، وقوله تعالى ﴿ صباً ﴾ تأكيد ، والمراد بالماء المطر .

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جميع ما في الوجود ولو نقص منه شيء اختل أمره وبدأ أولاً بالسماوي لأنه أشرف وبالماء الذي هو حياة كل شيء تنبيهاً له على ابتداء خلقه . ثنى بالأرض التي هي كالأنثى بالنسبة إلى السماء فقال تعالى ﴿ ثم ﴾ أي : بعد مهلة من إنزال الماء ﴿ شققنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ الأرض ﴾ أي : بالنبات الذي هو في غاية الضعف عن شق أضعف الأشياء فكيف بالأرض اليابسة ، وقوله تعالى ﴿ شقاً ﴾ تأكيد .

ثم سبب عن الشق ما هو كالتفسير له فقال تعالى : ﴿ فأنبتنا ﴾ أي : بما لنا من القدرة التامة ﴿ فيها ﴾ أي : بسبب الشق ﴿ حباً ﴾ أي : قمحاً وشعيراً وسلتاً وسائر ما يحصد ويدخر ، وقدّم ذلك لأنه كالأصل في التغذية ﴿ وعنباً ﴾ وذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه ﴿ وقضباً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الرطب لأنه يقتضب من النخل ، أي : يقطع ورجحه بعضهم لذكره بعد العنب لأنهما

يقترنان كثيراً ، وقيل : القت الرطب ، وقيل : كل ما يقضب من البقول لبني آدم ، وقيل : هو الرطبة والمقضاب أرضه ، سمي بمصدر قضبه إذا قطعه لأنه يقضب مرة بعد أخرى . وقال الحسن : القضب العلف للدواب .

﴿ وزيتوناً ﴾ وهو ما يعصر منه الزيت يكون فيه حرافة وغضاضة فيه إصلاح المزاج .

وقوله تعالى : ﴿ ونخلاً ﴾ جمع نخلة ، وكل من هذه الأشجار مخالف للآخر في الشكل والحمل وغير ذلك مع المرافقة في الأرض والسقي .

(125/803)

وقوله تعالى ﴿ وحدائق غلباً ﴾ جمع أغلب وغلباء كحمر في أحمر وحمراء ، أي : بساتين كثيرة الأشجار . والأصل في الوصف بالغلب الرقاب ، يقال : رجل أغلب وامرأة غلباء غليظا الرقبة فاستعير . قال عمرو بن معد يكرب:

*يمشي بها غلب الرجال كأنهم ** بزل كسين من الكحيل جلالا*

وقال مجاهد ومقاتل : الغلب الملتفة الشجر بعضه في بعض . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الطوال . وقيل : غلاظ الأشجار .

﴿ وفاكهة ﴾ وهي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ ، قال النووي في منهاجه

: ويدخل في فاكهة رطب وعنب ورمّان وأترج ورطب ويابس أي : كالتمر والزبيب ، قال : قلت : وليمون ونبق وبطيخ ولب فستق وبندق وغيرها في الأصح . ﴿ وأباً ﴾ وهو ما تأكله الدواب لأنه يؤب أي : يؤمّ وينتجع إليه . وقال عكرمة : الفاكهة ما يأكله الناس ، والأب ما تأكله الدواب ، وقيل : التبن . وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سئل عن الأب فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا علم لي به . وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا عرفنا فما الأب ؟ ثم رفض عصا كانت بيده ، ثم قال : هذا لعمر الله التكلف وما عليك يا ابن أمّ عمر أن لا تدري ما الأبّ ، ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه .

فإن قيل : هذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته ؟

(126/803)

أجيب : بأنه لم يذهب إلى ذلك ولكن القوم كانت أكثر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم الذي لا يعمل به تكلفاً عندهم ، فأراد أنّ الآية مسوقة عندهم في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أنّ الأب بعض ما أنبته الله تعالى للإنسان متاعاً له أو لإنعامه ، فعليك بما هو أهمّ من النهوض بالشكر لله

تعالى على ما بين لك ، ولم يشكل مما عدّد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذي هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك من مشكلات القرآن .

﴿ متاعاً ﴾ أي : العشب ، أي : منفعة أو تمتيعاً كما تقدّم في السورة قبلها ﴿ لكم ﴾ أي : الفاكهة ﴿ ولأنعامكم ﴾ وتقدّم أيضاً في السورة التي قبلها معرفة الأنعام والحكمة في الاقتصار عليها .

ولما ذكر تعالى هذه الأشياء وكان المقصود منها ثلاثة : أوّلها : الدلائل الدالة على التوحيد ، وثانيها : الدلائل الدالة على القدرة والمعاد . وثالثها : أنّ هذا الإله الذي أحسن إلى عبيده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان لا يليق بالعاقل أن يتمرّد على طاعته وأن يتكبر على عبيده أتبع ذلك بما يكون كالمؤكد لهذه الأغراض وهو شرح أحوال القيامة ، فإن الإنسان إذا سمعها خاف فيدعوه ذلك الخوف إلى التأمّل في الدلائل والإيمان بها والإعراض عن الكفر ، ويدعوه أيضاً إلى ترك التكبر على الناس وإلى إظهار التواضع فقال تعالى:

﴿ فإذا جاءت ﴾ أي : كانت ووجدت لأنّ كل ما هو كائن لاقيك وجاء إليك

﴿ الصاخة ﴾ أي : صيحة القيامة وهي النفخة الثانية التي تصخ الأذن ، أي : تصمها لشدّة وقعتها . مأخوذة من صخه بالحجر أي : صكه به . وقال الزمخشري : صخ لحديثه مثل أصاخ فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً ، لأنّ الناس يصخون لها . وقال ابن العربي :

الصاخة التي تورث الصمم وإنها لمسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة كقوله:

*أصمني سرّهم أيام فرقتهم ** وهل سمعتم بسرّ يورث الصمما *

(127/803)

وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف دل عليه قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ أي : اشتغل كل واحد بنفسه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء ﴾ بدل من إذا ﴿ من أخيه وأمّه وأبيه وصاحبته ﴾ أي : زوجته ﴿ وبنيه ﴾ لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً كقوله تعالى : ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ (الدخان :)

فيفرّ المرء من هؤلاء الذين كان يفرّ إليهم في دار الدنيا ويستجير بهم لكثرة ما يشغله . وبدأ بالأخ لأنه أدناهم رتبة في الحب والذب ، ثم بالأمّ لأنها كانت مشاركة له في الإلف ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم للأخ ، وهو لها آلف وعليها أحنّ وعليها أرق وأعطف ، ثم بالأب لأنه أعظم منها في الإلف لأنه أقرب منها في النوع ، وللولد عليه من المعاطفة ما له من مزيد النفع أكثر ممن قبله ، ثم بالصاحبة لأنّ الزوجة التي هي أهل لأن تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق في الوداد ، وكان الإنسان أذب عنها عند الشدائد ، ثم بالولد لأنّ له من المحبة والمعاطفة

بالسرور والمشاورة في الأمر ما ليس لغيره ، ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره .

فقدّم أدناهم مرتبة في الحب والذب ، فأدناهم على سبيل الترقي وأخر الأوجب في ذلك فالأوجب بخلاف ما في سورة سأل فكأنه قيل : يفرّ المرء من أخيه بل من أمّه بل من أبيه بل من صاحبته بل من بنيه ، وقيل : يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات . يقول الأخ : لم تواسني بمالك ، والأبوان : قصرت في برّنا ، والصاحبة : أطعمتني الحرام وفعلت وصنعت ، والبنون : لم تعلمنا ولم ترشدنا ، وقيل : أوّل من يفرّ من أخيه هابيل ، ومن أبويه إبراهيم عليه السلام ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح .

(128/803)

ولما ذكر الفرار أتبعه سببه فقال تعالى : ﴿ لكل امرئ ﴾ وإن كان أعظم الناس مروءة ﴿ منهم يومئذ ﴾ أي : إذ تكون هذه الدواهي العظام والشدائد والآلام . ﴿ شأن ﴾ أي : أمر عظيم . وقوله تعالى : ﴿ يغنيه ﴾ حال ، أي : يشغله عن شأن غيره . وعن سودة رضي الله تعالى عنها زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يبعث الناس حفاة عراة غرلاً ـ أي : بالقلفة ـ قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان" فقلت : يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال صلى الله عليه وسلم

"قد شغل الناس ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ " . وقال قتيبة : يغنيه أي : يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال : أغن عني وجهك أي : اصرفه . وقال أهل المعاني : يغنيه أي : ذلك الهمّ الذي حصل له قد ملأ صدره ، فلم يبق فيه متسع لهم آخر ، فصار شبيهاً بالغنى في أنه ملك شيئاً كثيراً .

ولما ذكر تعالى حال القيامة في الهول بين أنّ المكلفين على قسمين : سعداء وأشقياء فوصف سبحانه السعيد بقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ أي : إذ كان ما تقدّم من الفرار وغيره ﴿ مسفرة ﴾ أي : مضيئة متهللة من أسفر الصبح إذا أضاء . وعن ابن عباس : من قيام الليل لما روي في الحديث "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهارِ" . وعن الضحاك من آثار الوضوء . وقيل : من طول ما اغبرّت في سبيل الله تعالى .

﴿ ضاحكة ﴾ أي : مسرورة فرحة . قال الكلبيّ : يعني بالفراغ من الحساب

﴿ مستبشرة ﴾ أي : بما آتاها الله تعالى من الكرامة .

ثم وصف الشقيّ بقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ ﴾ أي : إذ وجد ما ذكر . ﴿ عليها غبرة ﴾ أي : غبار .

﴿ ترهقها ﴾ أي : تعلوها ﴿ قترة ﴾ أي : سواد كالدخان ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه كما يرى في وجوه الزنوج إذا اغبرّت .

﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء الذين يصنع بهم هذا ﴿ هم ﴾ أي : خاصة ﴿ الكفرة الفجرة ﴾ جمع الكافر والفاجر وهو الكاذب والمفتري على الله تعالى فجمع تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور إلى الكفر .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر" حديث موضوع ، وكان من حق البيضاوي أن لا يعبر بقال بل بعن كالزمخشري أو نحوها ، ويأتي مثله في نظائره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 256 . 265 ﴾

(130/803)

وقال القاسمى :

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : < بينا رسول الله صلى الله عليه

وسلم يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا > ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له : عبد الله بن أم مكتوم ، يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبيَّ صلى الله عليه وسلم آيةً من القرآن وقال : يا رسول الله ! علِّمني مما علمك الله < فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبس في وجهه ، وتولى وكرِه كلامه ، وأقبل على الآخرين فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم نجواه > وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك اللهُ بعض بصره وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ الآيات ؛ فلما نزل فيه ما نزل < أكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلَّمه ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة في شيء > ؟

قال ابن كثير : وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف ، أنها نزلت في ابن أم مكتوم ، والمشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو . والله أعلم . انتهى .

وقال الرازي : أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى هو الرسول صلوات الله عليه ، وأجمعوا أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . قال الشهاب : وهو مكيّ قرشي من المهاجرين

الأولين .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة في أكثر غزواته . وكان ابنَ خال خديجة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها .

(131/803)

وقيل : عميَ رضي الله عنه بعد نور . وقيل : ولد أعمى ؛ ولذا لقبت أمُّه أم مكتوم .

والتعرض لعنوان عماه ؛ إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه صلى الله عليه وسلم وتشاغله بالقوم ، وإما لزيادة الإنكار ، كأنه قيل : تولى لكونه أعمى . وكان يجب أن يزيده لعماه ، تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ أي : يتطهر – بما يتلَقن منك – من الجهل أو الإثم . وفي الالتفات إلى الخطاب إنكار للمواجهة بالعتب أولاً ؛ إذ في الغيبة إجلال له صلى الله عليه وسلم ؛ لإيهام أن من صَدر منه ذلك غيره ، لأنه لا يصدر عنه مثله ؛ كما أن في الخطاب إيناساً بعد الإيحاش ، وإقبالاً بعد إعراض .

وقال أبو السعود : وكلمة لعلَّ مع تحقق التزكي واردةٌ على سنن الكبرياء ، أو على اعتبار معنى الترجي بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ؛ للتنبيه على أن الإعراض عنه عند كونه

مرجوّ التزكي ، مما لا يجوز ، فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكي ؟ كما في قولك : لعلك ستندم على ما فعلت . وفيه إشارة إلى أن إعراضه كان لتزكية غيره . وأن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلاً .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي : يعتبر ويتعظ فتنفعه موعظتك . وتقديم التزكية على التذكر من باب تقديم التخلية على التحلية .

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ أي : بماله وقوته عن سماع القرآن والهداية والموعظة .

﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ أي : تعرض بالإقبال عليه ، رجاء أن يسلم ويهتدي .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ أي : وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام ؛ إنْ عليك إلا البلاغ . قال الرازي : أي : لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، إلى أنْ تعْرِض عمن أسلم ، للاشتغال بدعوتهم .

﴿ وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى ﴾ أي : يسرع في طلب الخير .

﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أي : يخاف الله ويتقيه .

(132/803)

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أي : تعرض وتتشاغل بغيره .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآيات حث على الترحيب بالفقراء والإقبال عليهم في مجلس العلم وقضاء حوائجهم ، وعدم إيثار الأغنياء عليهم . وقال الزمخشري : لقد تأدب الناس بأدب الله في هذا تأدباً حسناً . فقد روي عن سفيان الثوريّ رحمه الله أن الفقراء كانوا في مجلسه أمراءَ .

الثاني : في هذه الآيات ونحوها دليل على عدم ضنّه صلى الله عليه وسلم بالغيب . قال ابن زيد : كان يقال : لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم من الوحي شيئاً ، كتم هذا عن نفسه .

الثالث : قال الرازي : القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية ، وقالوا : لمّا عاتبه الله في ذلك الفعل دل على أن ذلك الفعل كان معصية . وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين ، إلا بحسب هذا الاعتبار الواحد ، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء . وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه السلام ، وإذا كان كذلك ، كان ذلك جارياً مجرى ترك الاحتياط وترك الأفضل ؛ فلم يكن ذلك ذنباً البتة .

وأجاب الإمام ابن حزم في " الفِصَل " بقوله : وأما قوله :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ الآيات ، فإنه كان عليه السلام قد جلس إليه عظيم من عظماء قريش

، ورجا إسلامه . وعلم عليه السلام أنه لو أسلم لأسلم بإسلامه ناسٌ كثير وأظهرَ الدين ، وعلم أن هذا الأعمى الذي يسأله عن أشياء من أمور الدين لا يفوته ، وهو حاضر معه ؛ فاشتغل عنه – عليه السلام – بما خاف فوته من عظيم الخير عما لا يخاف فوته ، وهذا غاية النظر في الدِّين والاجتهاد في نُصرة القرآن في ظاهر الأمر ونهاية التقرب إلى الله ، الذي لو فعله اليوم منا فاعل لأُجر ؛ فعاتبه الله عز وجل على ذلك إذ كان الأولى عند الله تعالى أن يُقبل على ذلك الأعمى الفاضل البَر التقي ، وهذا نفس ما قلناه . انتهى .

(133/803)

وقال القاشاني : كان صلى الله عليه وسلم في حِجر تربية ربِّه ، لكونه حبيباً ، فكما ظهرت نفسه بصفة حجبت عنه نور الحق ، عوتب وأدب كما قال : < أدَّبني ربِّي فأحسَن تأديبي > إلى أن تخلق بأخلاقه تعالى . انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ كَلَّا ﴾ ردْعٌ عن المعاتَب عليه وعن معاودة مثله . قال أنس رضي الله عنه : < كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه > رواه أبو يعلى . وقوله تعالى ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أي : أن المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

قال الشهاب : وكون عتابه على ما ذكر عظة ؛ لأنه مع عظمة شأنه ومنزلته عند الله إذا

عوتب على مثله . فما بالك بغيره ؟ وجوّز عود الضمير للآيات وللسورة ، والوصية بالمساواة بين الناس ، ولدعوة الإسلام . وقوله تعالى :

﴿ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴾ أي : حفظه . على أنه من الذِّكر خلاف النسيان : أو اتعظ به ، من : التذكير .

قال الزمخشري : وذكّر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ . وقيل : الضمير للقرآن ، والكلام استطراد .

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ يعني صحف آيات التنزيل وسوره .

﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي : عالية المقدار ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ من التغيير والنقص والضلالة .

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ جمع سافر بمعنى سفير . أو هو الذي سعى بين قومه بالصلح والسلام . يقال : سفر بين القوم ، إذا أصلح بينهم ، ومنه قوله :

~وما أدعُ السفارةَ بين قومي وما أَمْشي بِغِشٍّ إن مَشَيْتُ

والسفرة ، إما الملائكة لأنهم يسفرونَ بالوحي بين الله تعالى ورسله ، كأنه محمول بأيديهم ، وإما الأنبياء لأنهم وسائط في الوحي يبلغونه للناس .

﴿ كِرَامٍ ﴾ أي : عنده تعالى لاصطفائهم للرسالة ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أي : أخيار ، جمع : بارٍّ ، وهو صانع البِر والخير .

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ قال الرازي : اعلم أنه تعالى لمَّا بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسلمين ، عجّب عباده المؤمنين من ذلك ، فكأنه قيل : وأيُّ سبب في هذا العجب والترفع ؟ مع أنّ أوله نطفه قذرة وآخره جيفةٌ مَذِرة وفيما بين الوقتين حمَّال عَذِرة ؛ فلا جرم ذكر تعالى ما يصلح أن يكون علاجاً لعجبهم ، وما يصلح أن يكون علاجاً لكفرهم ؛ فإن خلق الْإِنْسَانْ تصلح لأن يستدل بها على وجود الصانع وعلى القول بالبعث والحشر والنشر ، ومرجعه إلى أن المراد بالْإِنْسَانْ من استغنى عن القرآن الكريم الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة للإقبال عليه والإيمان به . وجوز أن يراد بالْإِنْسَانْ الجنس المنتظم للمستغني ، ولأمثاله من أفراده ، لا باعتبار جميع أفراده .

لطائف :

الأولى : قال الزمخشري :

﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانْ ﴾ دعاء عليه وهي من أشنع دعواتهم ؛ لأن القتل قُصارى شدائد الدنيا وفظائعها .

الثانية : قال ابن جرير : في قوله :

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ وجهان : أحدهما التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده . والآخر ما الذي أكفره ، أي : أي : شيء أكفره ؟ ، وعلى الثانية فالهمزة للتبصير كأَغدَّ

البعيرُ .

الثالثة : قال الزمخشري في هذه الآية : ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ولا أخشن منتناً ولا أدل على سخط ولا أبعد شوطاً في المذمة ، مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة ، على قِصر متنه ؛ وسرُّه ما أشار له الرازي من أن قوله :

﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب . وقوله :

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات .

الرابعة : أفاد في " الكشف " أن الدعاء ليس على حقيقته ، لامتناعه منه تعالى ، لأن منشأه العجز ، فالمراد به إظهار السخط باعتبار جزئه الأول ، وشدة الذم باعتبار جزئه الثاني ، أي : لاستحالة التعجب بمعناه المعروف أيضاً .

(135/803)

﴿ مِنْ أَيِّ : شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [18 - 21]

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَيِّ : شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفر ، بتفصيل ما أفاض عليه من مبدأ فطرته إلى منتهى عمره من فنون النِّعم الموجب لقضاء حقها بالشكر

والطاعة ، مع إخلاله بذلك .

وفي الاستفهام عن مبدأ خلقه ، ثم بيانه بقوله تعالى :

﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ﴾ تحقيرله ، أي : من أي : شيء حقير مَهين خلقه ؟ من نطفة مذرة خلقه ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أي : فهيَّأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال ، أو فقدره أطواراً إلى أن تمَّ خلقه .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ أي : سهَّله ، وهو مَخرجه من رَحِم أمّه بعد اجتنانه وتعاصيه . أو سبيل الإسلام .

قال ابن زيد : هداه للإسلام الذي يسَّره له وأعلمه به ، أي : بما غرز في فطرته من الخير ، وأودع في غريزته من وجدان معرفة الخالق . وقال مجاهد : يعني سبيل الشقاء والسعادة وهو كقوله :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ [الْإِنْسَانْ : 3] ، واختاره أبو مسلم قال : المراد من هذه الآية هو المراد من قوله :

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : 10] ، فهو يتناول التمييز بين كل خير وشر يتعلق بالدنيا ، وبين كل خير وشر يتعلق بالدِّين ، أي : جعلناه متمكناً من سلوك سبيل الخير والشر . والتيسير يدخل فيه الإقدار والتعريف والعقل وبعثة الأنبياء وإنزال الكتب ، نقله الرازي .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أي : جعله ذا قبر يواري فيه ؛ تكرمةً له ، ولم يجعله مطروحاً على وجه الأرض للطير والسباع ، كالحيوان . قال الفراء : ولم يقل : فقبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله تعالى يقال : قبر الميت ، إذا دفنه ، و : أقبر الميت ، إذا أمر غيرهُ بأن يجعله في القبر .

(136/803)

وقال ابن جرير : القابر هو الدافن الميت بيده ، كما قال الأعشى :

~ولو أسندت ميتاً إلى نحْرِها عاشَ ولم ينقل إلى قابرِ

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أي : بعثه بعد مماته وأحياه ؛ وإنما قال :

﴿ إِذَا شَاءَ ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد ، فهو مَوكُول إلى مشيئته تعالى ، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم .

قال الشهاب : وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار ، لأن وقتهما معين إجمالاً ، على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعية .

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : أي : ليس الأمر كما يقول الْإِنْسَانْ الكافر ، من أنه قد أدّى حقّ الله عليه في نفسه وماله ، فإنه لمّا يؤد ما فرَض عليه من الفرائض ربُّهُ .

وقال القاشاني : لمَّا بين أن القرآن تذكرة للمتذكرين تعجَّب من كفران الْإِنْسَانْ واحتجابه حتى يحتاج إلى التذكير . وعدد النِّعم الظاهرة التي يمكن بها الاستدلال على المنعم بالحس ، من مبادئ خلقته ، وأحواله في نفسه ، وما هو خارج عنه مما لا يمكن حياته إلا به . وقرر أنه مع اجتماع الدليلين ، أي : النظر في هذه الأحوال الموجب لمعرفة الموجد المنعم والقيام بشكره ، وسماع الوعظ والتذكير بنزول القرآن ، لما يقض في الزمان المتطاول ما أمره الله به من شكر نعمته ، باستعمالها في إخراج كماله إلى الفعل ، والتوصل بها إلى المنعم ، بل احتجب بها وبنفسه عنه . انتهى .

ولما فصل تعالى النعم المتعلقة بحدوثه ، تأثرها بتعداد النعم المتعلقة ببقائه .

فقال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ أي : فإن لم يشهد خلق ذاته ، وعمي عن الآيات في نفسه ، وأصر على جحوده توحيدَ ربِّه ، فلينظر إلى طعامه ومأكله الذي هو أقرب الأشياء لديه . ماذا صنعنا في إحدائه وتهيئته لأنْ يكون غذاءً صالحاً .

وقوله تعالى :

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء ﴾ أي : من المُزن ﴿ صَبّاً ﴾ أي : شديداً ظاهراً . وقد قرئ بكسر همزة إنا ، على الاستئناف المبيّن لكيفية حدوث الطعام ، وبالفتح على البدلية ، بدل اشتمال ، بمعنى سببية الأول للثاني أو تقوم الثاني بالأول . فهو من اشتمال الثاني عليه أو بدل كلّ ، ادّعاءً .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ﴾ أي : صدَعْناها بالنبات ، أو شققنا أجزاءها بعد الريّ ليتخلل الهواء والضباء في جوفها .

﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ يعني حَبَّ الزرع ، وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما من الحبوب .

﴿ وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ وهو كل ما أكل من النبات رطباً ، كالقثاء والخيار ونحوهما . سمي قضباً لأنه يقضب ، أي : يقطع مرة بعد أخرى .

﴿ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ ﴾ جمع حديقة وهي البساتين ذوات الأشجار المثمرة ، عليها حوائط تحيط بها ﴿ غُلْباً ﴾ جمع غَلباء ، أي : ضخمة عظيمة ، وعِظمها إما لاتساعها البالغ حدَّ البصر ، أو لغلظ أشجارها وتكاثفها والتفافها .

﴿ وَفَاكِهَةً ﴾ أي : ما يؤكل من ثمار الأشجار ﴿ وَأَبّاً ﴾ وهو المَرعى الذي تأكله البهائم من العُشب والنبات .

﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي : تمتيعاً . مفعول له لـ : أنبتنا ، أو مصدر حذف فعله وجُرِدَ من الزوائد ، أي : متعكم بذلك متاعاً ، وجعلكم تنتفعون به أنتم وأنعامكم .

(138/803)

﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ ﴾ يعني الداهية الشديدة ، وهي صيحة القيامة وصوت زلزالها الهائل المصمّ للآذان . يقال صخّه يصخه ، ضرب أذنه فأصمَّها ، وصاح بهم صيحة تصخّ الآذان ، وقد صخ صخيخاً ، وهو صوته إذا قرع . وصخ لحديثه إذا أصاخ له بمعنى : استمع ، كما في " الأساس " ، ويجوز على الأخير أن تجعل بمعنى المستمعة ، مجازاً في الإسناد . وجواب إذا محذوف يدل عليه ما بعده ، كيشتغل كلٌّ بنفسه ، أو افترق الناس :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ ﴾ أي : زوجته .

﴿ وَبَنِيهِ ﴾ أي : لاشتغاله بنفسه ؛ وعلمه بأنهم لا ينفعونه . قال الشهاب : يعني أن الإقبال عليهم إما للنفع أو للانتفاع ، وكلاهما منتفٍ لاشتغاله بنفسه عن نفس غيره ، وعلمه بعدم نفعه . وتأخير الأحبّ فالأحب للمبالغة ؛ فهو للترقي ، كذا قيل .

قال الشهاب : والظاهر أنه لم يقصد ذلك لاختلاف الناس والطباع فيه .

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أي : يكفيه في الاهتمام به ، كأنه ذلك الهم الذي

نزل به قد ملأ صدره فلم يبق فيه متسع لهمٍّ آخر ، فصار شبيهاً بالغني .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أي : مضيئة .

﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أي : مسرورة بنيل كرامة الله والنعيم المتزايد ، وهي وجوه المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقدَّموا من الخير والعمل الصالح ما ملؤوا به صحفَهم .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي : غبار وكدورة .

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي : تغشاها ظلمة .

﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ أي : الفسَقة الذين لا يبالون ما أتوا به من معاصي الله ، وركبوا من محارمه ، فجوزوا بسوء أعمالهم وخبث نياتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 324.332 ﴾

(139/803)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة عبس

الدرس الأول: 1 – 16 حادثة الرسول مع ابن أم مكتوم

(عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ أما من استغنى فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى , فأنت عنه تلهى ؟ ! كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره , في صحف مكرمة , مرفوعة مطهرة , بأيدي سفرة , كرام بررة) . .

إن هذا التوجيه الذي نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جدا . أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة . إنه معجزة , هو والحقيقة التي أراد إقرارها في الأرض , والآثار التي ترتبت على إقرارها بالفعل في حياة البشرية . ولعلها هي معجزة الإسلام الأولى , ومعجزته الكبرى كذلك . ولكن هذا التوجيه يرد هكذا – تعقيبا على حادث فردي – على طريقة القرآن الإلهية في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة فرصة لتقرير الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

وإلا فإن الحقيقة التي استهدف هذا التوجيه تقريرها هنا والآثار الواقعية التي ترتبت بالفعل على تقريرها في حياة الأمة المسلمة , هي الإسلام في صميمه . وهي الحقيقة التي أراد الإسلام – وكل رسالة سماوية قبله – غرسها في الأرض .

هذه الحقيقة ليست هي مجرد : كيف يعامل فرد من الناس ؟ أو كيف يعامل صنف من الناس ؟ كما هو المعنى القريب للحادث وللتعقيب . إنما هي أبعد من هذا جدا , وأعظم من هذا جدا . إنها : كيف يزن الناس كل أمور الحياة ؟ ومن أين يستمدون القيم التي يزنون

بها ويقدرون ؟

والحقيقة التي استهدف هذا التوجيه إقرارها هي: أن يستمد الناس في الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة , آتية لهم من السماء , غير مقيدة بملابسات أرضهم , ولا بمواضعات حياتهم , ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواضعات وتلك الملابسات .

(140/803)

وهو أمر عظيم جدا , كما أنه أمر عسير جدا . عسير أن يعيش الناس في الأرض بقيم وموازين آتية من السماء . مطلقة من اعتبارات الأرض . متحررة من ضغط هذه الاعتبارات .

ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك ضخامة الواقع البشري , وثقله على المشاعر , وضغطه على النفوس , وصعوبة التخلي عن الملابسات والضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس , المنبثقة من أحوال معاشهم , وارتباطات حياتهم , وموروثات بيئتهم , ورواسب تاريخهم , وسائر الظروف الأخرى التي تشدهم إلى الأرض شدا , وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها على النفوس .

كذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) قد احتاجت - كي تبلغه - إلى هذا التوجيه من ربه ; بل إلى هذا العتاب الشديد , الذي يبلغ حد التعجيب من تصرفه !

وإنه ليكفي لتصوير عظمة أي أمر في هذا الوجود أن يقال فيه: إن نفس محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) قد احتاجت - كي تبلغه - إلي تنبيه وتوجيه !

نعم يكفي هذا . فإن عظمة هذه النفس وسموها ورفعتها , تجعل الأمر الذي يحتاج منها - كي تبلغه - إلى تنبيه وتوجيه أمرا أكبر من العظمة , وأرفع من الرفعة ! وهذه هي حقيقة هذا الأمر , الذي استهدف التوجيه الإلهي إقراره في الأرض , بمناسبة هذا الحادث المفرد . . أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء , طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كله . . وهذا هو الأمر العظيم . .

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل , ليقوموا به القيم كلها , هو: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . . هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل ! وهي قيمة سماوية بحتة , لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقا . .

(141/803)

ولكن الناس يعيشون في الأرض , ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى ; كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم . وهم يتعاملون بقيم أخرى . . فيها النسب , وفيها القوة , وفيها المال . وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية . . اقتصادية وغير اقتصادية . . تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض . فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض . .

ثم يجيء الإسلام ليقول: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . . فيضرب صفحا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس , العنيفة الضغط على مشاعرهم , الشديدة الجاذبية إلى الأرض . ويبدل من هذا كلهتلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء , المعترف بها وحدها في ميزان السماء !

ثم يجيء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة . وليقرر معها المبدأ الأساسي:وهو أن الميزان ميزان السماء , والقيمة قيمة السماء . وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس , وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات , لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده !

ويجيء الرجل الأعمى الفقير . . ابن أم مكتوم . . إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش . عتبة وشيبة ابني ربيعة , وأبي جهل عمرو بن هشام , وأمية بن خلف , والوليد بن المغيرة , ومعهم العباس بن عبد المطلب . . والرسول

(صلى الله عليه وسلم) يدعوهم إلى الإسلام ; ويرجو بإسلامهم خيرا للإسلام في عسرته وشدته التي كان فيها بمكة ; وهؤلاء النفر يقفون في طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ; ويصدون الناس عنه , ويكيدون له كيدا شديدا حتى ليجمدوه في مكة تجميدا ظاهرا . بينما يقف الآخرون خارج مكة , لا يقبلون على الدعوة التي يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها , وأشدهم عصبية له , في بيئة جاهلية قبلية , تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار .

(142/803)

يجيء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر . لا لنفسه ولا لمصلحته , ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام . فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة ; ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها , بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار . .

يجيء هذا الرجل , فيقول لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله . . ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما هو فيه من الأمر . فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه . وتظهر الكراهية في وجهه – الذي

لا يراه الرجل – فيعبس ويعرض . يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير . الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير ; والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه , وإخلاصه لأمر دعوته , وحبه لمصلحة الإسلام , وحرصه على انتشاره !

وهنا تتدخل السماء . تتدخل لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر ; ولتضع معالم الطريق كله , ولتقرر الميزان الذي توزن فيه القيم – بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات . بما في ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر . بل كما يراها سيد البشر (صلى الله عليه وسلم) .

وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم , صاحب الخلق العظيم , في أسلوب عنيف شديد . وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: (كلا !) وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب ! ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين !

(143/803)

والأسلوب الذي تولى به القرآن هذا العتاب الإلهي أسلوب فريد , لا تمكن ترجمته في لغة الكتابة البشرية . فلغة الكتابة لها قيود وأوضاع وتقاليد , تغض من حرارة هذه الموحيات

في صورتها الحية المباشرة . وينفرد الأسلوب القرآني بالقدرة على عرضها في هذه الصورة في لمسات سريعة . وفي عبارات متقطعة . وفي تعبيرات كأنها انفعالات , ونبرات وسمات ولمحات حية !

(عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) . . بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب – سبحانه – أن يواجه به نبيه وحبيبه . عطفا عليه , ورحمة به , وإكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه !

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (13) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)

(144/803)

ثم يستدير التعبير – بعد مواراة الفعل الذي نشأ عنه العتاب – يستدير إلى العتاب في صيغة الخطاب . فيبدأ هادئا شيئا ما :(وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟) . . ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير – الذي جاءك راغبا فيما عندك من الخير – وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . وما يدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله , فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء ؟ الأمر الذي يتحقق كلما تفتح قلب للهدى وتمت حقيقة الإيمان فيه . وهو الأمر العظيم الثقيل في ميزان الله . .

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ; وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب: أما من استغنى , فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى ؟ ! وأما من جاءك يسعى وهو يخشى , فأنت عنه تلهى ؟ ! . . أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة . . أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره , وتجهد لهدايته , وتتعرض له وهو عنك معرض !(وما عليك ألا يزكى ؟) . . وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه ؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه . وأنت لا تنصر به . وأنت لا تقوم بأمره . .(وأما من جاءك يسعى)طائعا مختارا ,(وهو يخشى)ويتوقى(فأنت عنه تلهى !) . . ويسمى الإنشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقي تلهيا . . وهو وصف شديد . .

ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر: (كلا !) . . لا يكن ذلك أبدا . . وهو خطاب يسترعي النظر في هذا المقام .

(145/803)

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها , واستغناءها عن كل أحد . وعن كل سند وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها , كائنا ما كان وضعه ووزنه في موازين الدنيا : (إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة .) . . فهي كريمة في كل اعتبار . كريمة في صحفها , المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلغوها . وهم كذلك كرام بررة . . فهي كريمة طاهرة في كل ما يتعلق بها , وما يمسها من قريب أو من بعيد . وهي عزيزة لا يتصدى بها للمعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ; فهي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها . .

هذا هو الميزان . ميزان الله . الميزان الذي توزن به القيم والإعتبارات , ويقدر به الناس والأوضاع . . وهذه هي الكلمة . كلمة الله . الكلمة التي ينتهي إليها كل قول , وكل حكم , وكل فصل .

وأين هذا ؟ ومتى ؟ في مكة , والدعوة مطاردة , والمسلمون قلة . والتصدي للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ; والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصي . إنما هي الدعوة أولا وأخيرا . ولكن الدعوة إنما هي هذا الميزان , وإنما هي هذه القيم , وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم في حياة البشر . فهي لا تعز ولا تقوى ولا تنصر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم . .

(146/803)

ثم إن الأمر – كما تقدم – أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد , ومن موضوعه المباشر . إنما هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء لا من الأرض , ومن الاعتبارات السماوية لا من الاعتبارات الأرضية . . (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . . والأكرم عند الله هو الذي يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال , ولو تجرد من كل المقومات والاعتبارات الأخرى , التي يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضي ومواضعاتهم الأرضية . النسب والقوة والمال . . وسائر القيم الأخرى , لا وزن لها حين تتعرى عن الإيمان والتقوى . والحالة الوحيدة التي يصح لها فيها وزن واعتبار هي حالة ما إذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى .

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي استهدف التوجيه الإلهي إقرارها في هذه المناسبة , على طريقة القرآن في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة , وسيلة لإقرار الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

ولقد انفعلت نفس الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهذا التوجيه , ولذلك العتاب .

انفعلت بقوة وحرارة , واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلها , وفي حياة الجماعة المسلمة . بوصفها هي حقيقة الإسلام الأولى .

وكانت الحركة الأولى له (صلى الله عليه وسلم) هي إعلان ما نزل له من التوجيه والعتاب في الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقا . أمر لا يقوى عليه إلا رسول , من أي جانب نظرنا إليه في حينه .

نعم لا يقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد , بهذه الصورة الفريدة في خطأ أتاه ! وكان يكفي لأي عظيم - غير الرسول - أن يعرف هذا الخطأ وأن يتلافاه في المستقبل . ولكنها النبوة . أمر آخر . وآفاق أخرى !

(147/803)

لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة , مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم , في بيئة لا مكان فيها لغير هذه الاعتبارات , إلى حد أن يقال فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !) . . وهذا نسبه فيهم , لمجرد أنه هو شخصيا لم تكن له رياسة فيهم قبل الرسالة !

ثم إنه لا يكون مثل هذا الأمر في مثل هذه البيئة إلا من وحي السماء . فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض . . ومن هذه الأرض بذاتها في ذلك الزمان ! !

وهي قوة السماء التي دفعت مثل هذا الأمر في طريقه ; فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى البيئة من حوله ; فيتقرر فيها بعمق وقوة واندفاع , يطرد به أزمانا طويلة في حياة الأمة المسلمة .

لقد كان ميلادا جديدا للبشرية كميلاد الإنسان في طبيعته . وأعظم منه خطرا في قيمته . . أن ينطلق الإنسان حقيقة – شعورا وواقعا – من كل القيم المتعارف عليها في الأرض , إلى قيم أخرى تتنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما في الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية , وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل , ووشائج متلبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر . ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع , مسلما بها من الجميع . وأن يستحيل الأمر العظيم الذي احتاجت نفس محمد

(صلى الله عليه وسلم) كي تبلغه إلى التنبيه والتوجيه , أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم , وشريعة المجتمع المسلم , وحقيقة الحياة الأولى في المجتمع الإسلامي لآماد طويلة في حياة المسلمين .

(148/803)

إننا لا نكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد . لأننا لا نتمثل في ضمائرنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ما تنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذي يخيل لبعض أصحاب المذاهب "التقدمية ! " أن جانبا واحدا منها – هو الأوضاع الاقتصادية – هو الذي يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة ! كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ في ضيق أفق , وفي جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة !

إنها المعجزة . معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام في ذلك الزمان . .

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التي صاحبت ذلك الحادث الكوني العظيم . . ولكن المسألة لم تكن هينة ولا يسيرة في البيئة العربية , ولا في المسلمين أنفسهم . . غير أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد استطاع – بإرادة الله , وبتصرفاته هو وتوجيهاته المنبعثة من

حرارة انفعاله بالتوجيه القرآني الثابت – أن يزرع هذه الحقيقة في الضمائر وفي الحياة ; وأن يحرسها ويرعاها , حتى تتأصل جذورها , وتمتد فروعها , وتظلل حياة الجماعة المسلمة قرونا طويلة . . على الرغم من جميع عوامل الانتكاس الأخرى . .

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ; ويقول له كلما لقيه: " أهلا بمن عاتبني فيه ربي " وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة . .

ولكي يحطم موازين البيئة وقيمها المنبثقة من اعتبار الأرض ومواضعاتها , زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية , لمولاه زيد بن حارثة . ومسألة الزواج والمصاهرة مسألة حساسة شديدة الحساسية . وفي البيئة العربية بصفة خاصة .

وقبل ذلك حينما آخى بين المسلمين في أول الهجرة , جعل عمه حمزة ومولاه زيدا أخوين . وجعل خالد بن رويحة الخثعمي وبلال بن رباح أخوين !

(149/803)

وبعث زيدا أميرا في غزوة مؤتة , وجعله الأمير الأول , يليه جعفر بن أبي طالب , ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري , على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار , فيهم خالد بن الوليد .

وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنفسه يشيعهم . . وهي الغزوة التي استشهد فيها الثلاثة رضي الله عنهم .

وكان آخر عمل من أعماله (صلى الله عليه وسلم) أن أمر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم , يضم كثرة من المهاجرين والأنصار , فيهم أبو بكر وعمر وزيراه , وصاحباه , والخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد بن أبي وقاص قريبه (صلى الله عليه وسلم) ومن أسبق قريش إلى الإسلام .

وقد تململ بعض الناس من إمارة أسامة وهو حدث . وفي ذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما -: بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعثا أمر عليهم أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - فطعن بعض الناس في إمارته , فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل . وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة , وإن كان لمن أحب الناس إلي . وإن هذا لمن أحب الناس إلي . .

ولما لغطت ألسنة بشأن سلمان الفارسي , وتحدثوا عن الفارسية والعربية , بحكم إيحاءات القومية الضيقة , ضرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضربته الحاسمة في هذا الأمر فقال: " سلمان منا أهل البيت " فتجاوز به - بقيم السماء وميزانها - كل آفاق النسب الذي يستعزون به , وكل حدود القومية الضيقة التي يتحمسون لها . . وجعله من أهل البيت رأسا !

ولما وقع بين أبي ذر الغفاري وبلال بن رباح – رضي الله عنهما – ما أفلت معه لسان أبي ذر بكلمة "يا بن السوداء" . . غضب لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غضبا شديدا ; وألقاها في وجه أبي ذر عنيفة مخيفة: يا أبا ذر طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل . . ففرق في الأمر إلى جذوره البعيدة . . إما إسلام فهي قيم السماء وموازين السماء . وإما جاهلية فهي قيم الأرض وموازين الأرض !

ووصلت الكلمة النبوية بحرارتها إلى قلب أبي ذر الحساس ; فانفعل لها أشد الانفعال , ووضع جبهته على الأرض يقسم ألا يرفعها حتى يطأها بلال . تكفيرا عن قولته الكبيرة !

وكان الميزان الذي ارتفع به بلال هو ميزان السماء . . عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام منفعة عندك . فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة" . فقال: ما عملت في الإسلم عملا أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهورا تاما في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول عن عمار بن ياسر وقد استأذن عليه: "

ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب " . . وقال عنه: " ملئ عمار – رضي الله عنه – إيمانا إلى مشاشه " . . وعن حذيفة – رضي الله عنه قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي – وأشار إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما – واهتدوا بهدي عمار . وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه " .

وكان ابن مسعود يحسبه الغريب عن المدينة من أهل بيت رسول الله . . عن أبي موسى – رضي الله عنه – قال: قدمت أنا وأخي من اليمن , فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من كثرة دخولهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولزومهم له" .

(151/803)

وجليبيب – وهو رجل من الموالي – كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخطب له بنفسه ليزوجه امرأة من الأنصار . فلما تأبى أبواها قالت هي: أتريدون أن تردوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه . فرضيا وزوجاها .

وقد افتقده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الوقعة التي استشهد فيها بعد فترة

قصيرة من زواجه . . عن أبي برزة الأسلمي – رضي الله عنه – قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مغزى له , فأفاء الله عليه . فقال لأصحابه: " هل تفقدون من أحد ؟ " قالوا: نعم فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال: " هل تفقدون من أحد ؟ " قالوا: نعم فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال: " هل تفقدون من أحد ؟ " فقالوا: لا . قال: " لكني أفقد جليبيبا " فطلبوه , فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فوقف عليه , ثم قال: " قتل سبعة ثم قتلوه . هذا مني وأنا منه . هذا مني وأنا منه " . ثم وضعه على ساعديه , ليس له سريرا إلا ساعدا النبي (صلى الله عليه وسلم)

قال: فحفر له , ووضع في قبره ولم يذكر غسلا .

بذلك التوجيه الإلهي وبهذا الهدي النبوي كان الميلاد للبشرية على هذا النحو الفريد . ونشأ المجتمع الرباني الذي يتلقى قيمه وموازينه من السماء , طليقا من قيود الأرض , بينما هو يعيش على الأرض . . وكانت هذه هي المعجزة الكبرى للإسلام . المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة إله , وبعمل رسول . والتي تدل بذاتها على أن هذا الدين من عند الله , وأن الذي جاء به للناس رسول !

وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صاحبه الأول أبو بكر , وصاحبه الثاني عمر . . أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر , وأشد

اثنين انطباعا بهدى رسول الله , وأعمق اثنين حبا لرسول الله , وحرصا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

(152/803)

حفظ أبو بكر – رضي الله عنه – عن صاحبه (صلى الله عليه وسلم) ما أراده في أمر أسامة . فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة , على رأس الجيش الذي أعده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة . أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل . فيستحيي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشي . فيقول: " يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن " . . فيقسم الخليفة: " والله لا تنزل . ووالله لا أركب . وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ؟ " . .

ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر . وقد حمل عبء الخلافة الثقيل . ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة . وأسامة هو الأمير . فلا بد من استئذانه فيه . فإذا الخليفة يقول: " إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل " . . يا لله ! إن رأيت أن تعينني فافعل . . إنها آفاق عوال , لا يرقى إليها الناس إلا بإرادة الله , على يدي رسول من عند الله !

ثم تمضي عجلة الزمن فنرى عمر بن الخطاب خليفة يولي عمار بن ياسر على الكوفة .

ويقف بباب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام , وأبو سفيان بن حرب , وجماعة من كبراء قريش من الطلقاء ! فيأذن قبلهم لصهيب وبلال . لأنهما كانا من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر . فتورم أنف أبي سفيان , ويقول بانفعال الجاهلية: "لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! " . . فيقول له صاحبه – وقد استقرت في حسه حقيقة الإسلام: "أيها القوم . إني والله أرى الذي في وجوهكم . إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعي القوم إلى الإسلام ودعيتم . فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ " .

(153/803)

ويفرض عمر لأسامة بن زيد أكبر مما يفرض لعبد الله بن عمر . حتى إذا سأله عبد الله عن سر ذلك قال له: "يا بني . كان زيد – رضي الله عنه – أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من أبيك ! وكان أسامة – رضي الله عنه – أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منك ! فآثرت حب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على حبي " . . يقولها عمر وهو يعلم أن حب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنما كان مقوما بميزان السماء !

ويرسل عمر عمارا ليحاسب خالد بن الوليد – القائد المظفر صاحب النسب العريق – فيلببه بردائه . . ويروى أنه أوثقه بشال عمامته حتى ينتهي من حسابه فتظهر براءته فيفك وثاقه ويعممه بيده . . وخالد لا يرى في هذا كله بأسا . فإنما هو عمار صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) السابق إلى الإسلام الذي قال عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما قال !

وعمر هو الذي يقول عن أبي بكر – رضي الله عنهما – هو سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالا . الذي كان مملوكا لأمية بن خلف . وكان يعذبه عذابا شديدا . حتى اشتراه منه أبو بكر وأعتقه . . وعنه يقول عمر بن الخطاب . . عن بلال . . سيدنا !

وعمر هو الذي قال: "ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته" يقول هذا , وهو لم يستخلف عثمان ولا عليا , ولا طلحة ولا الزبير . . إنما جعل الشورى في الستة بعده ولم يستخلف أحدا بذاته !

وعلي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – يرسل عمارا والحسن بن علي – رضي الله عنهما – إلى أهل الكوفة يستنفرهم في الأمر الذي كان بينه وبين عائشة – رضي الله عنها – فيقول: "إني لأعلم أنها زوجة نبيكم (صلى الله عليه وسلم) في الدنيا والآخرة , ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو تتبعوها" . . فيسمع له الناس في شأن عائشة أم المؤمنين , وبنت الصديق أبي بكر – رضي الله عنهم جميعا .

وبلال بن رباح يرجوه أخوه في الإسلام أبو رويحة الخثعمي أن يتوسط له في الزواج من قوم من أهل اليمن . فيقول لهم: "أنا بلال بن رباح , وهذا أخي أبو رويحة , وهو امرؤ سوء في الخلق والدين . فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه , وإن شئتم أن تدعوا فدعوا " . . فلا يدلس عليهم , ولا يخفي من أمر أخيه شيئا , ولا يذكر أنه وسيط وينسى أنه مسؤول أمام الله فيما يقول . . فيطمئن القوم إلى هذا الصدق . . ويزوجون أخاه , وحسبهم – وهو العربي ذو النسب – أن يكون بلال المولى الحبشي وسيطه !

واستقرت تلك الحقيقة في المجتمع الإسلامي , وظلت مستقرة بعد ذلك آمادا طويلة على الرغم من عوامل الانتكاس الكثيرة . "وقد كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة . وكان عبد الله ابن عمر يذكر ويذكر معه مولاه نافع . وأنس بن مالك ومعه مولاه ابن سيرين . وأبو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز . وفي البصرة كان الحسن البصري . وفي مكة كان مجاهد بن جبر , وعطاء بن رباح , وطاووس بن كيسان هم الفقهاء . وفي مصر تولى الفتيا يزيد بن أبي حبيب في أيام عمر بن عبد العزيز وهو مولى أسود من دنقلة " . .

وظل ميزان السماء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها . . وفي اعتبار أنفسهم وفي اعتبار الناس من حولهم . ولم يرفع هذا الميزان من الأرض إلا قريبا جدا بعد أن طغت الجاهلية طغيانا شاملا في أنحاء الأرض جميعا . وأصبح الرجل يقوم برصيده من الدولارات في أمريكا زعيمة الدول الغربية . وأصبح الإنسان كله لا يساوي الآلة في المذهب المادي المسيطر في روسيا زعيمة الدول الشرقية . أما أرض المسلمين فقد سادت فيها الجاهلية الأولى , التي جاء الإسلام ليرفعها من وهدتها ; وانطلقت فيها نعرات كان الإسلام قد قضى عليها . وحطمت ذلك الميزان الإلهي وارتدت إلى قيم جاهلية زهيدة لا تمت بصلة إلى الإيمان والتقوى . .

(155/803)

ولم يعد هنالك إلا أمل يناط بالدعوة الإسلامية أن تنقذ البشرية كلها مرة أخرى من الجاهلية ; وأن يتحقق على يديها ميلاد جديد للإنسان كالميلاد الذي شهدته أول مرة , والذي جاء ذلك الحادث الذي حكاه مطلع هذه السورة ليعلنه في تلك الآيات القليلة الحاسمة العظيمة .

.

الدرس الثاني: 17 – 23 تذكير الإنسان بأصله وتكريمه ورعاية الله له

وبعد تقرير تلك الحقيقة الكبيرة في ثنايا التعقيب على ذلك الحادث , في المقطع الأول من السورة , يعجب السياق في المقطع الثاني من أمر هذا الإنسان , الذي يعرض عن الهدى , ويستغني عن الإيمان , ويستعلي على الدعوة إلى ربه . . يعجب من أمره وكفره , وهو لا يذكر مصدر وجوده , وأصل نشأته , ولا يرى عناية الله به وهيمنته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة ; ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه:

(قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ! من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا ! لما يقض ما أمره) . .

(قتل الإنسان !) . . فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه . . فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره . وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته . .

ما أكفره ! . . ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته . ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه , ولتواضع في دنياه , ولذكر آخرته . .

وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويعرض ? وما هو أصله وما هو مبدؤه ?

(من أي شيء خلقه ?) . .

إنه أصل متواضع زهيد يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته , ومن تقديره وتدبيره:

(من نطفة خلقه فقدره) . .

من هذا الشيء الذي لا قيمة له ; ومن هذا الأصل الذي لا قوام له . . ولكن خالقه هو

الذي قدره . قدره . من تقدير الصنع وإحكامه . وقدره: من منحه قدرا وقيمة فجعله خلقا سويا , وجعله خلقا كريما . وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع , إلى المقام الرفيع الذي تسخر له فيه الأرض وما عليها .

(156/803)

(ثم السبيل يسره) . .

فمهد له سبيل الحياة . أو مهد له سبيل الهداية . ويسره لسلوكه بما أودعه من خصائص واستعدادات . سواء لرحلة الحياة , أو للإهتداء فيها .

حتى إذا انتهت الرحلة , صار إلى النهاية التي يصير إليها كل حي . بلا اختيار ولا فرار:

(ثم أماته فأقبره) . .

فأمره في نهايته كأمره في بدايته , في يد الذي أخرجه إلى الحياة حين شاء , وأنهى حياته حين شاء , وجعل مثواه جوف الأرض , كرامة له ورعاية , ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر . وأودع فطرته الحرص على مواراة ميته وقبره . فكان هذا طرفا من تدبيره له وتقديره .

حتى إذا حان الموعد الذي اقتضته مشيئته , أعاده إلى الحياة لما يراد به من الأمر:

(ثم إذا شاء أنشره) . .

فليس متروكا سدى ; ولا ذاهبا بلا حساب ولا جزاء . . فهل تراه تهيأ لهذا الأمر واستعد ?

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24)

(كلا ! لما يقض ما أمره) . .

الإنسان عامة , بأفراده جملة , وبأجياله كافة . . لما يقض ما أمره . . إلى آخر لحظة في حياته . وهو الإيحاء الذي يلقيه التعبير بلما . كلا إنه لمقصر , لم يؤد واجبه . لم يذكر أصله ونشأته حق الذكرى . . ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر . ولم يقض هذه الرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب والجزاء . . هو هكذا في مجموعه . فوق أن الكثرة تعرض وتتولى , وتستغني وتتكبر على الهدى !

الدرس الثالث: 24 – 32 رعاية الله للإنسان والحيوان في الطعام

وينتقل السياق إلى لمسة أخرى في مقطع جديد . . فتلك هي نشأة هذا الإنسان . . فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه في هذه الرحلة ? وهي شيء واحد من أشياء يسرها له خالقه ?

(فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها

حبا , وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم) . .

(157/803)

هذه هي قصة طعامه . مفصلة مرحلة مرحلة . هذه هي فلينظر إليها ; فهل له من يد فيها ? هل له من تدبير لأمرها ? إن اليد التي أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته , هي ذاتها اليد التي أخرجت طعامه وأبدعت قصته . .

(فلينظر الإنسان إلى طعامه) . . ألصق شيء به , وأقرب شيء إليه , وألزم شيء له . . لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضروري الحاضر المكرر . لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة , فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب . وهي معجزة كمعجزة خلقه ونشأته . وكل خطوة من خطواتها بيد القدرة التي أبدعته:

إنا صببنا الماء صبا . . وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة , في أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان . فأما حين تقدم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهدا من هذا المطر الذي يتكرر اليوم ويراه كل أحد . وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود

المحيطات الكبيرة التي يتبخر ماؤها ثم ينزل في صورة مطر , أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولا في السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا !

(158/803)

وفي هذا يقول أحد علماء العصر الحاضر: "إذا كان صحيحا أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالي 12 . 000 درجة . أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض . فعندئذ كانت كل العناصر حرة . ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيميائي ذي شأن . ولما أخذت الكرة الأرضية , أو الأجزاء المكونة لها في أن تبرد تدريجيا , حدثت تركيبات , وتكونت خلية العالم كما نعرفه . وما كان للأكسيجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى 4000 درجة فارنهايت . وعند هذه النقطة اندفعت معا تلك العناصر , وكونت الماء الذي نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية . ولا بد أنه كان هائلا في ذلك الحين . وجميع المحيطات كانت في السماء . وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتحدت كانت غازات في الهواء . وبعد أن تكون الماء في الجو الخارجي سقط نحو الأرض . ولكنه لم يستطع الوصول إليها . إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال . وبالطبع

جاء الوقت الذي صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانيا في شكل بخار . ولما كانت المحيطات في الهواء فإن الفيضانات التي كانت تحدث مع تقدم التبريد كانت فوق الحسبان . وتمشى الجيشان مع التفتت . . . . . الخ" .

أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً (26) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدَائِقَ غُلْباً (30) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (31) مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)

وهذا الفرض – ولو أننا لا نعلق به النص القرآني – يوسع من حدود تصورنا نحن للنص والتاريخ الذي يشير إليه . تاريخ صب الماء صبا . وقد يصح هذا الفرض , وقد تجد فروض أخرى عن أصل الماء في الأرض . ويبقى النص القرآني صالحا لأن يخاطب به كل الناس في كل بيئة وفي كل جيل .

(159/803)

ذلك كان أول قصة الطعام: (أنا صببنا الماء صبا) . . ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء في أي صورة من صوره , وفي أي تاريخ لحدوثه ; ولا أنه صبه على الأرض صبا , لتسير قصة الطعام في هذا الطريق !

(ثم شققنا الأرض شقا) . . وهذه هي المرحلة التالية لصب الماء . وهي صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائي الذي يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته , وتدبير غير تدبيره . ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها . أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق وينمو على وجهها , ويمتد في الهواء فوقها . . وهو نحيل نحيل , والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة . ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقا , وتعينه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف . وهي معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة ; ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة في النبتة الرخية .

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصوير في هذا النص . وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور . إنه قد يكون ذلك التفتت في صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة التي يشير إليها الفرض العلمي السابق . وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التي يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التي كانت تكسو وجه الأرض وتكون قشرتها ; حتى وجدت طبقة الطمي الصالحة للزرع . وكان هذا أثرا من آثار الماء تاليا في تاريخه لصب الماء صبا . مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذي تشير إليه النصوص . .

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذي حدث , وهو الذي تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة في القصة هي النبات بكل صنوفه وأنواعه . التي يذكر منها هنا

أقربها للمخاطبين , وأعمها في طعام الناس والحيوان:

(فأنبتنا فيها حبا) . . وهو يشمل جميع الحبوب . ما يأكله الناس في أية صورة من صوره , وما يتغذى به الحيوان في كل حالة من حالاته .

(160/803)

(وعنبا وقضبا) . . والعنب معروف . والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التي تقطع مرة بعد أخرى . . (وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا) . . والزيتون والنخل معروفان لكل عربي والحدائق جمع حديقة , وهي البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و(غلبا) جمع غلباء . أي ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار . والفاكهة من ثمار الحدائق و "الأب" أغلب الظن أنه الذي ترعاه الأنعام . وهو الذي سأل عنه عمر بن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوما ! كما سبق في الحديث عن سورة النازعات ! فلا نزيد نحن شيئا !

هذه هي قصة الطعام . كلها من إبداع اليد التي ابدعت الإنسان . وليس فيها للإنسان يد يدعيها , في أية مرحلة من مراحلها . . حتى الحبوب والبذور التي قد يلقيها هو في الأرض . . إنه لم يبدعها , ولم يبتدعها . والمعجزة في إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان

وإدراكه . والتربة واحدة بين يديه , ولكن البذور والحبوب منوعة , وكل منها يؤتي أكله في القطع المتجاورات من الأرض . وكلها تسقى بماء واحد , ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ; وتحفظ في البذرة الصغيرة خصائص أمها التي ولدتها فتنقلها إلى بنتها التي تلدها . . كل أولئك في خفية عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضي أمرها , ولا يستشار في شأن من شؤونها . .

فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

(161/803)

هذه هي القصة التي أخرجتها يد القدرة: (متاعا لكم ولأنعامكم) . . إلى حين . ينتهي فيه هذا المتاع ; الذي قدره الله حين قدر الحياة . ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع . أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجيء :

الدرس الرابع: 33 - 42 في الصاخة وجوه مسفرة مستبشرة ووجوه معذبة

فإذا جاءت الصاخة , يوم يفر المرء من أخيه , وأمه وأبيه , وصاحبته وبنيه . لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . . وجوه يومئذ مسفرة , ضاحكة مستبشرة , ووجوه يومئذ عليها غبرة , ترهقها قترة , أولئك هم الكفرة الفجرة . .

فهذه هي خاتمة المتاع . وهذه هي التي تتفق مع التقدير الطويل , والتدبير الشامل , لكل خطوة وكل مرحلة في نشأة الإنسان . وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع . مع الذي جاء يسعى وهو يخشى . والذي استغنى وأعرض عن الهدى . ثم هذان هما في ميزان الله .

"والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ , يكاد يخرق صماخ الأذن , وهو يشق الهواء شقا , حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا !

"وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه: مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به: (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه , وصاحبته وبنيه) . . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ; ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا , وتقطع تلك الوشائج تقطيعا .

"والهول في هذا المشهد هول نفسي بحت , يفزع النفس ويفصلها عن محيطها . ويستبد بها استبدادا . فلكل نفسه وشأنه , ولديه الكفاية من الهم الخاص به , الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد : (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) . .

"والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفي طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير , لتصوير الهم الذي يشغل الحس والضمير: (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) !

ذلك حال الخلق جميعا في هول ذلك اليوم . . إذا جاءت الصاخة . . ثم يأخذ في تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين , بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك:

(162/803)

(وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة) . .

فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة , راجية في ربها , مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . فهي تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هي قد عرفت مصيرها , وتبين لها مكانها , فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . .

(ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة) . .

فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة , ويغشاها سواد الذل والانقباض . وقد عرفت ما قدمت فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء . . (أولئك هم الكفرة الفجرة) . . الذين لا

يؤمنون بالله وبرسالاته , والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته . .

وفي هذه الوجوه وتلك قد ارتسم مصير هؤلاء وهؤلاء . ارتسم ملامح وسمات من خلال الألفاظ والعبارات . وكأنما الوجوه شاخصة , لقوة التعبير القرآني ودقة لمساته .

بذلك يتناسق المطلع والختام . . المطلع يقرر حقيقة الميزان . والختام يقرر نتيجة الميزان .

وتستقل هذه السورة القصيرة بهذا الحشد من الحقائق الضخام , والمشاهد والمناظر , والإيقاعات والموحيات . وتفي كلها هذا الوفاء الجميل الدقيق . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3822 . 3835 ﴾

(163/803)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) ﴾

سبب نزول هذه السورة باتفاق المفسرين ، أنه صلى الله عليه وسلم كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش ، فأتاه ابن أم مكتوم ، وهو رجل أعمى وقال : " أقرِئني يا رَسُول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلّمني مما علَّمكَ الله " وكرر ذلك ، فلم يتفق ذلك وما هو مشتغل به صلى الله عليه وسلم ، وما يرجوه ما هو أعظم ، فعبس وتولى عنه منصرفاً ، لما هو مشتغل

به .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على قوله تعالى : ﴿ أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ ما نصه : عبّر تعالى عن هذا الصَّحابي الجَليل الذي هو عبد الله بن أم مكتوم ، بلقَب يكرهه الناس ، مع أنه قال : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب ﴾ [الحجرات : 11] .

والجواب : هو ما نبه عليه بعض العلماء : من أن السر في التعبير عنه بلفظ الأعمى ، للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه اه منه بلفظه .

وقال الفخر الرازي : إنه وإن كان أعمى لا يرى ، فإنه يسمع وبسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقدامه على مقاطعته يكون مرتكباً معصية ، فكيف يعاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذوراً لعدم الرؤية ، فليس معذوراً لإمكان سماعه ، ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به .

والظاهر والله تعالى أعلم : أن كلام الرازي ليس بعيداً عمَّا ذكره الشيخ ، لأن معناه أنه عاقبه لعدم رفقه به . ومراعاة حالة عماه .

فعليه ، يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد وسادة القوم ، وكأنه يقول لهم : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] ، فهذا كفيف البصر ، ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن ، وجاء مع عماه يسعى طلباً للمزيد ، وأنتم تغلقت قلوبكم وعميت بصائركم فلم تدركوا الحقيقة ولم تبصروا نور الإيمان ، كما في الآية الكريمة : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

مما اتفق عليه المحدثون : جواز ذكر مثل هذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص ، فقالوا : الأعمى والأعور والأعرج . وفي الحرف قالوا : الخراز ، والخرقى ، ونحوذ ذلك ، وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال ومثله : ليس تنابزاً بالألقاب في هذا الفن . والله تعالى أعلم .

ومثله : إذا كان للتعريف في غرض سليم دون تنقص كما قدمنا .

وقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ ، فإن فيه مثل ما في قوله تعالى : ﴿ أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ لأن العبوس أمر لا يتفق في الظاهر مع قوله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[القلم : 4] وقوله : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] . ولم أقف على جواب لذلك ، ولم يتعرض له الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب .

والذي يظهر والله تعالى أعلم ، أنه لا يتأتى معه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بما يسيء إلى هذا لاصحابي في نفسه بشيء يسمعه فيزعجه ، كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم إنما هو تقطيب الجبين ، وهذه حركة مرئية لا مسموعة .

والحال : أن هذا أعملى لا يرى تلك الحركة ، فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم .

(165/803)

ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير في دينه . كما قال في حنين : وأكل أقواماً إلى ما في قلوبهم ، أي لما أعطى المؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار على ما هو معروف في القصة ، فلم يعاتبه الله على ذلك ورضي الأنصار وبكوا فرحاً ورضا .

ثم إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح ، يكاد يكون جبلياً مما كان منه صلى الله عليه وسلم ، فهو من باب الجبلية تقريباً ، كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها .

ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول له : " مرحباً فيمن

عاتبني فيه ربي " ، ويكرمه ، وقد استخلفه على المدينة مرتين .

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران :

الأول : التسامي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم غلى ما لا نهاية له ، إلى حد اللحظ بالعين ، والتقطيب بالجبين ، ولو لمن لا يراه ، كما قال صلى الله عيله وسلم : " ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين " وذلك في صلح الحديبية .

والثاني : تأديب للأمة وللدعاة خاصة ، في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين ، في قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء : 23] .

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ [عبس : 11 - 12] ، بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعي في الدعوة إلى الله غنياً ولا فقيراً ، وأن يصبر على ضعفه المؤمنين . لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما رواء ذلك من مسؤولية ، فلا يتكلف لهم .

(166/803)

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين ، لإيمانهم في قوله تعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 28 - 29] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنعام : 52] .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شيء من هذا البيان عند هذه الآية ، وبين أن هذا التنبيه قد وقع من نبي الله نوح إلى قومه ، حينما ازدروا ضعفة المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ﴾ [هود : 27] - إلى قوله : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ [هود : 29] .

وقد دلت هذه الآية وأمثالها ، على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان ، عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . فقال : هكذا هم أتباع الرسل .

وقال العلماء في ذلك : لأنهم أقرب إلى الفطرة ، وأبعد عن السلطان والجاه ، فليس لديهم

حرص على منصب يضيع ، ولا جاه يهدر ، ويجدون في الدين عزاً ورفعة ، وهكذا كان بلال وصهيب وعمار ، وهكذا هو ابن أم مكتوم رضي الله عنهم .

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7)

(167/803)

بيان لموقفه صلى الله عليه وسلم من جميع الأمة ، وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستغنى ، شفقة بهم ورحمة ، كما بين تعالى حاله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة : 128] وكقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ ، بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس عليه ممن لا يتزكى ، وقد صرح تعالى بذلك في قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [الرعد : 7] وقوله : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ [الشورى : 48] ، وقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ [البقرة : 272] ، ومثل ذلك .

وقد جمع الأمرين من الجانبين في قوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : 114 - 115] .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22)

معلوم أن كلمة : كلا : ردع عمَّا سبق ، وهو في جملته منصب على التصدي لمن استغنى ؟ الإلحاح عليهم والحرص على سماعهم منه ، ولكن الله تعالى يقول : إن منزلة القرآن والوحي والدين أعلى منزلة من أن تبذل لقوم هذه حالتهم فهي على ما هي عليه من تكريم ورفعة وطهرة وصيانة ، وما عليها من حفظة صفرة كرام بررة أحرى بأن يسعى إليها ، والخير لمن أتاها يطلبها .

(168/803)

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ ، وهذا للتهديد لا للتخيير بدليل ما بعده ﴿ قُتِلَ الإنسان مَآ أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] ، قتل الإنسان : دعاء عليه ، والإنسان : للجنس الكافر ، وما أكفره : أي ما أشد كفره بها ، بعد هذا كله من علو منزلتها .

وقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَآ أَكْفَرَهُ ﴾ قيل : ما أكفره هنا ، ما أفعله أي ما أشد كفره .

وقال الزمخشري : هي تعجب من أفراطه في كفران نعم الله .

وقيل : أي شيء حمله على التكذيب والكفر ؟ وكلها محتملة .

ولعلّ المعنى الأول أظهر لقوله قبله : قتل الإنسان ، ولمجيء هذا المعنى في مواضع أخر : إن الإنسان لظلوم كفار ، وكذلك فعول في قوله : ﴿ وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : 66] ، وهكذا صفة الجاحدين لآيات الله ، كما في قوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان : 32] .

ثم رد تعالى عليه ذلك برده إياه إلى أصل خلقته ، ليتعظ من نفسه في قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ [عبس : 18 - 21] ، لأن هذه الثلاثة مسلم بها ، ورتب عليها الرابعة ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 22] .

وقوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ تقدم مراراً بيان أصل خلق الإنسان وأطواره .

وقوله : ﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ قيل : السبيل إلى خروجه من بطن أمه ، حيث أدار رأسه إلى جهة الخروج ، بدلاً مما كان عليه إلى أعلى ، وهذا من التيسير في سبيل خروجه ، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره ، وهو اختيار ابن جرير .

وقيل : السبيل : أي الدين في وضوحه ، ويسر العمل به ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] ، وهو مروي عن الحسن وابن زيد ، ورجحه ابن كثير .

(169/803)

ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح ، لأن تيسير الولادة أمر عام في كل حيوان ، وهو مشاهد ملموس ، فلا مزية للإنسان فيه على غيره ، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله وهو القدرة في قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس : 19] .

وقد يكون تيسير الولادة داخلاً تحت قوله : فقدره . أي قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه ، وتقديرات جسمه وقدر حياته ، وقدر مماته ، كما هو معلوم .

أما تيسير سبيل الدين ، فهو الخاص بالإنسان ، وهو المطلوب التوجه إليه . وهو لاذي يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره . وبين إماتته وإقباره . أي فترة حياته في الدنيا ، أي خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا . ويسر له الدين في التكاليف . ثم أماته ليرى ماذا عمل ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : 22] .

ولذا جاء في النهاية بقوله : كلا لما يض ما أمره . وليس هنا ما يدل على الأمر . إلاَّ السبيل يسره . والله تعالى أعلم .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31)

بعد ما بين له مم خلق ، بين له هنا كيف يطعمه ، وفي كليهما آية على القدرة .

وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما . فصب الماء من السماء إلى الأرض ، يقابل دفق الماء في الرحم . وشق الأرض للنبات ، يقابل خروجه إلى الدنيا . وإنبات أنواع النباتات ، يقابل تقادير الخلق المختلفة .

وفي التنصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان وزيتون ونخيل وفواكه متعددة ، وحدائق ملتفة ، لظهور معنى المغايرة فيها ، مع أنها من أصلين مشتركين : الماء من السماء . والتربة في الأرض ، يسقى بماء واحد .

(170/803)

ومرة أخرى . يقال للشيوعيين والدهريين : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [عبس : 17 - 18] .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ

بِمَسْبُوقِينَ على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة : 58 – 65] .

إنَّهم بلا شك لا يدعون لأنفسهم فعل شيء من ذلك . وإنهم ليعلمون أن لها خالقاً مدبراً . ولكنهم يكابرون .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] ، صدق الله العظيم ، وكذب كل كفار أثيم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان خلق الإنسان في مواطن متعددة سابقة آخرها في سورة الرحمن ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ [الرحمن : 14] ، وبيان طعامه في كل من سورتي الواقعة والجاثية .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41)

الإسفار : الإضاءة ، وهو تهلل الوجه بالسرور ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الإنسان : 11] ، والاستبشار من تقدم البشرى في قوله تعالى : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليوم

جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الحديد : 12] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة الحديد .

(171/803)

وقوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 40 - 41] ، بينهم تعالى بأنهم هم الكفرة الفجرة .

وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في سورة الرحمن على الكلام على قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الرحمن : 41] .

وقد جمع لهم هنا بين الكافر والفجور ، وهما الكفر في الاعتقاد والفجور في الأعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 27] ، والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(172/803)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى لَا خِلَافَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى ، وَقَدْ رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ مَالِكٌ : إنَّ هِشَامَ بْنَ عُرْوَةَ حَدَّثَهُ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ نَزَلَتْ ﴾ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ جَاءَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ، وَعِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ ، وَيَقُولُ : يَا فُلَانُ ، هَلْ تَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ، فَيَقُولُ : لَا ، مَا أَرَى بِمَا تَقُولُ بَأْسًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴾ .

قَالَتْ الْمَالِكِيَّةُ مِنْ عُلَمَائِنَا : اسْمُ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ عَمْرٌو ، وَيُقَالُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَالرَّجُلُ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ، وَيُكَنَّى أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ مُسْنَدًا قَالَ : أَنْبَأَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الْأُمَوِيُّ ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : هَذَا مَا عَرَضْنَا عَلَى هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : نَزَلَتْ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فَذَكَرَ مِثْلَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ .

وَمَعْنَاهُ نَحْوُهُ حَيْثُمَا وَقَعَ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا قَصَدَ تَأَلُّفَ الرَّجُلِ الطَّارِئِ ثِقَةً بِمَا كَانَ فِي قَلْبِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ مِنْ الْإِيمَانِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ .

وَأَمَّا قَوْلُ عُلَمَائِنَا : إِنَّهُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهُ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، فَهَذَا كُلُّهُ بَاطِلٌ وَجَهْلٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الدِّينَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أُمَيَّةَ وَالْوَلِيدَ كَانَا بِمَكَّةَ ، وَابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ كَانَ بِالْمَدِينَةِ ، مَا حَضَرَ مَعَهُمَا وَلَا حَضَرَا مَعَهُ ، وَكَانَ مَوْتُهُمَا كَافِرَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَالْآخَرُ فِي بَدْرٍ وَلَمْ يَقْصِدْ قَطُّ أُمَيَّةُ الْمَدِينَةَ ، وَلَا حَضَرَ عِنْدَهُ مُفْرَدًا وَلَا مَعَ أَحَدٍ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ عِنْدَ ذِكْرِنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ فَلْيَنْظُرْ هُنَالِكَ فِيهِ مَنْ احْتَاجَ إِلَيْهِ هَاهُنَا .

(174/803)

وَقَدْ قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : إِنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْقَاضِي : لَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ كِرَامًا بَرَرَةً ، وَلَكِنْ لَيْسُوا بِمُرَادِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَا قَارَبُوا الْمُرَادِينَ بِهَا ؛ بَلْ هِيَ لَفْظَةٌ مَخْصُوصَةٌ بِالْمَلَائِكَةِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ ، وَلَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا سِوَاهُمْ ، وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ فِي مُتَنَاوِلِهَا غَيْرُهُمْ .

رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي أَنَّهَا نَزَلَتْ وَأَمْثَالُهَا فِي مَعْرِضِ الِامْتِنَانِ ، وَتَحَقَّقَ الْقَوْلُ فِيهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(175/803)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة عبس

أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2)

قوله : ﴿ أَن جَآءَهُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مفعولٌ من أجلِه ، وناصبُه : إمَّا " تَوَلَّى " وهو قولُ البَصْريين ، وإمَّا " عَبَسَ " وهو قولُ الكوفيين . والمختارُ مذهبُ البَصْريين لعَدَمِ الإضمارِ في الثاني ، وقد عَرَفْتَ تحقيقَ هذا فيما تقدَّمَ مِنْ مسائلِ التنازع . والتقدير : لأَنْ جاءَه الأعمى فَعَلَ هذَيْنِ الفِعلَيْنِ . والخلافُ في موضع " أَنْ " بعد حَذْفِ الجارِّ مشهورٌ . وقيل : " أَنْ " بمعنى " إذ " نقله مكي .

وقرأ زيدُ بنُ عليّ " عَبَّس " بالتشديد . والعامَّةُ على " أَنْ " بهمزةٍ واحدةٍ . وزيد بن علي وعيسى وأبو عمران الجوني بهمزتَيْن . وقال الزمخشري : " وقُرِىء آأَنْ بهمزتين وبألفٍ بينهما ، وُقِفَ على " عَبَس وتولَّى " ثم ابْتُدِىء على معنى : ألأَنْ جاءَه الأعمى فَعَل ذلك " .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3)

قوله : ﴿ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ : الظاهرُ أجراءُ الترجّي مُجرى الاستفهامِ لما بينهما من معنى الطلبِ في التعليق ؛ لأنَّ المعنى منصَبٌّ على تَسَلُّطِ الدِّراية على الترجِّي ؛ إذ التقدير : لا يَدْري ما هو مترجَّى منه التزكيةُ أو التذكُّرُ . وقيل : الوقفُ على "يَدْري " والابتداءُ بما بعده على معنى : وما يُطْلِعُك على أمرِه وعاقبةِ حالِه ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ .

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4)

قوله : ﴿ فَتَنفَعَهُ ﴾ : قرأ عاصم بنصبه ، والباقون برفعه . فأمَّا نصبُه فعلى جوابِ الترجِّي كقوله : ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ في سورة المؤمن [الآية : 37] وهو مذهبٌ كوفيٌّ ، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك . وقال ابن عطية : " في جواب التمني ؛ لأنَّ قولَه " أو يَذَّكَّرُ " في حكم قولِه " لعلَّه يزَّكَّى " . قال الشيخ : " وهذا ليس تمنياً إنما هو تَرَجٍّ " . قلت : إنما يريد التمنيَ المفهومَ من الكلام ، ويدلُّ له ما قال أبو البقاء : " وبالنصب على جواب التمنِّي في المعنى " وإلاَّ فالفرقُ بين التمني والترجِّي لا يَجْهَلُه أبو محمد . وقال مكي : " مَنْ نصبه جَعَلَه جوابَ " لعلَّ " بالفاء لأنه غيرُ موجَبٍ فأشبه التمنيَ والاستفهامَ ، وهو غيرُ معروفٍ عند البصريين " . وقرأ عاصمٌ في روايةٍ والأعرجُ " أو يَذْكُرُ " بسكونِ الذالِ وتخفيفِ الكافِ مضمومةً مضارعَ ذَكَرَ .

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6)

قوله : ﴿ تصدى ﴾ تقدَّمَتْ/ فيه قراءتا التثقيلِ والتخفيفِ ، ومعناه تتعرَّضُ . يُقال : تَصَدَّى ، أي : تَعَرَّضَ وأصلُه تَصَدَّدَ من الصَّدَدِ ، وهو ما استقبلك وصار قُبالتَك ، فأبدلَ أحدَ الأمثالِ حرفَ علةٍ نحو : تَظَنَّيْتُ وقَصَّيْتُ أَظْفاري و :

4498 تَقَضِّيَ البازيْ . . . . . قال الشاعر :

4499 تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كأنَّ جَبينَه . . . سِراجُ الدُّجى تُجْبَى إليه الأساوِرُ

وقيل : هو من الصَّدى ، وهو الصوتُ المسموعُ في الأماكنِ الخاليةِ والأجرامِ الصُّلبةِ . وقيل : من الصَّدى وهو العطش ، والمعنى على التعرض ، ويُتَمَحَّلُ لذلك إذا قلنا : أَصلُه من الصوت أو العطش .

(177/803)

وقرأ أبو جعفر " تُصَدَّى " بضمِّ التاءِ وتخفيفِ الصادِ ، أي : تَصَدّيك يُحَرِّضُك على إسلامِه . يقال : تَصَدّي الرجلِ وتَصْدِيَتُه . وقال الزمخشري : " وقُرِىء " تُصَدَّى " بضم التاء ، أي : تُعَرَّضُ ، ومعناه : يَدْعوك داعٍ إلى التَّصَدّي له من الحِرْصِ والتهالُكِ على إسلامِه " .

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7)

قوله : ﴿ أَلَّا يزكى ﴾ : مبتدأٌ خبرُه عليك ، أي : ليس عليك عَدَمُ تَزْكيتِه .

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8)

قوله : ﴿ يسعى ﴾ : حالٌ مِنْ فاعل " جاءكَ " وقوله " وهو يَخْشى " جملةٌ حاليةٌ مِنْ فاعلِ " يَسْعى " ، فهو حالٌ مِنْ حالٍ . وجَعْلُها حالاً ثانية معطوفةً على الأولى ليس بالقويِّ .

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

قوله : ﴿ تلهى ﴾ : أَصلُه تَتَلَهَّى مِنْ لَهِيَ يَلْهى بكذا ، أي : اشتغل ، وليس هو من اللهو في شيءٍ . وقال الشيخ : " ويمكنُ أن يكونَ منه ؛ لأنَّ ما يُبْنى على فَعِل من ذواتِ الواو تَنْقَلِبُ واوه ياءً لانكسارِ ما قبلَها نحو : شَقِي يَشْقى . فإن كان مصدرُه جاء بالياءِ فيكونُ مِنْ مادةٍ غيرِ مادةِ اللهو " . قلت : الناسُ إنما لم يَجْعلوه من اللهو لأَجْلِ أنه مُسْنَدٌ إلى ضمير النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولا يَليق بمَنْصِبه الكريم أَنْ يَنْسُبَ اللَّهُ تعالى إليه التفعُّلَ من اللهو بخِلاف الاشتغال ، فإنه يجوز أَنْ يَصْدُرَ منه في بعض الأحيان ، ولا ينبغي أَنْ يُعْتَقَدَ غيرُ هذا ، وإنما سَقَط الشيخ .

(178/803)

وقرأ ابن كثير في روايةِ البزّي عنه " عَنْهو تَّلَهَّى " بواوٍ هي صلةُ لهاءِ الكناية وتشديدِ التاءِ ، والأصل تَتَلَهَّى فأدغم ، وجاز الجَمْعُ بين ساكنَيْن لوجود حرفِ علةٍ وإدغامٍ ، وليس لهذه الآيةِ نظيرٌ : وهو أنه إذا لقي صلةَ هاءِ الكناية ساكنٌ آخرُ ثَبَتَتِ الصلةُ بل يجبُ الحَذْفُ . وقرأ أبو جعفر " تُلُهِّي " بضم التاء مبنياً للمفعولِ ، أي : يُلْهِيْكَ شأنُ الصَّناديد . وقرأ طلحة " تَتَلَهَّى " بتاءَيْن وهي الأصلُ ، وعنه بتاءٍ واحدةٍ وسكونِ اللام .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11)

قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ : الضمير للسورةِ أو للآيات .

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12)

قوله : ﴿ ذَكَرَهُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ الضميرُ لله تعالى ؛ لأنه مُنَزِّلُ التذكِرَة ، وأن تكونَ للتذكرة ، وذكَّر ضميرَها لأنها بمعنى الذِّكْر والوَعْظ .

فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13)

قوله : ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ : صفةٌ ل " تَذْكِرة " فقوله ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين الصفةِ وموصوفِها . ونحوُها : ﴿ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى ربِّهِ سَبِيلاً ﴾ ويجوز أَنْ يكون " في صُحُف " خبراً ثانياً ل " إنَّها " ، والجملةُ معترضةٌ بين الخبرَيْن .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15)

قوله : ﴿ سَفَرَةٍ ﴾ : جمعُ سافِر وهو الكاتبُ ، ومثلُه كاتِب وكَتَبَة . وسَفَرْتُ بين القومِ أَسْفِر سِفارة : أَصْلَحْتُ بينهم . قال :

4500 فما أَدَعُ السَّفارة بين قومي . . . وما أَسْعى بِغِشٍّ إنْ مَشَيْتُ

وأَسْفَرَتِ المرأةُ : كَشَفَتْ نِقابها .

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)

قوله : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : إمَّا تعجبٌ ، وإمَّا استفهامُ تعجبٍ .

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20)

(179/803)

قوله : ﴿ ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ الضميرُ للإنسانِ . والسبيل ظرفٌ ، أي : يَسَّر للإنسان الطريقَ ، أي : طريق الخيرِ والشرِّ كقولِه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] . وقال أبو البقاء : " ويجوز أن ينتصِبَ بأنه مفعولٌ ثانٍ لِيَسَّره ، والهاء للإنسان ، أي : يَسَّره السبيلَ ، أي : هداه له " . قلت : فلا بُدَّ مْن تضمينِه معنى أَعْطى حتى يَنْصِبَ اثنين ، أو يُحْذفُ حرفُ الجرِّ ، أي : يَسَّره للسبيل ، ولذلك قَدَّره بقولِه : هداه له . ويجوزُ أَنْ يكون " السبيل " منصوباً على الاشتغال بفعلٍ مقدر ، والضميرُ له ، تقديره : ثم يَسَّر السبيلَ يَسَّره ، أي : سَهَّله للناس كقوله : ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] ، وتقدَّم مثلُه في قولِه : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 3] .

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)

قوله : ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ : أي : جَعَلَ له قَبْراً . يُقال : قَبَرَه إذا دَفَنَه وأَقْبَره ، أي : جَعَلَه بحيث يُقْبَرُ ، وجَعَلَ له قبراً ، والقابرُ : الدافنُ بيده . قال الأعشى :

4501 لو أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها . . . عاشَ ولم يُنْقَلْ إلى قابرِ

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22)

قوله : ﴿ شَآءَ ﴾ : مفعولُه محذوفٌ ، أي : شاءَ إنْشارَه . وأَنْشَرَه : جوابُ "إذا" . وقرأ شعيبُ بن أبي حمزة نَشَره ثلاثياً ، ونقلها أبو الفضلِ أيضاً وقال : "هما لغتان بمعنى الإِحياء" .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)

(180/803)

قوله : ﴿ مَآ أَمَرَهُ ﴾ : "ما" موصولةٌ . قال أبو البقاء : "بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : ما أمره به" . قلت : وفيه نظرٌ من حيث إنَّه قَدَّر العائدَ مجروراً بحرفٍ لم يَجُرَّ الموصولَ : ولا أمره به . فإنْ قلت : "أمرَ" يتعدَّى إليه بحَذْفِ الحرفِ فأُقَدِّرُه غيرَ مجرورٍ . قلت : إذا قَدَّرْتَه غيرَ مجرورٍ : فإمَّا أَنْ تقدِّرَه متصلاً أو منفصلاً ، وكلاهما مُشْكِلٌ ؛ لِما قَدَّمْتُ في أولِ البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] .

أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25)

قوله : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ﴾ : قرأ الكوفيون "أَنَّا" بفتح الهمزة غيرَ ممالةِ الألف .

والباقون بالكسر . والحسنُ بن عليّ بالفتحِ والإمالةِ . فأمَّا القراءةُ الأولى ففيها ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها بدلٌ مِنْ " طعامِه " فتكونُ في محلِّ جر . استشكل بعضُهم هذا الوجهَ ، وَرَدَّه : " بأنه ليس الأولَ فيُبْدَلَ منه ؛ لأنَّ الطعامَ ليس صَبَّ الماءِ . ورُدَّ على هذا بوجهَيْن ، أحدهما : أنَّه بدلُ كلٍّ مِنْ كلٍّ بتأويلٍ : وهو أنَّ المعنى : فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى إنعامِنا في طعامِه فصَحَّ البدلُ ، وهذا ليسَ بواضح . والثاني : أنَّه مِنْ بدلِ الاشتمالِ بمعنى : أنَّ صَبَّ الماءِ سببٌ في إخراجِ الطعامِ فهو مشتملٌ عليه بهذا التقدير . وقد نحا مكي إلى هذا فقال : لأنَّ هذه الأشياءَ مشتملةٌ على الطعامِ ، ومنها يتكوَّنُ ؛ لأنَّ معنى " إلى طعامه " : إلى حدوثِ طعامِه كيف يتأتَّى ؟ فالاشتمالُ على هذا إنما هو من الثاني على الأولِ ؛ لأنَّ الاعتبارَ إنما هو في الأشياءِ التي يتكوَّن منها الطعامُ لا في الطعامِ نفسِه " .

(181/803)

والوجه الثاني : أنَّها على تقديرِ لامِ العلةِ ، أي : فلينظُرْ لأنَّا ، ثم حُذِفَ الخافضُ فجرى الخلافُ المشهورُ في محلِّها . والوجهُ الثالث : أنَّها في محلِّ رفعٍ خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، أي : هو أنَّا صَبَبْنا ، وفيه ذلك النظرُ المتقدِّم ؛ لأنَّ الضميرَ إنْ عاد على الطعام فالطعامُ ليس هو نفسَ الصَّبِّ ، وإنْ عاد على غيرِه فهو غيرُ معلومٍ ، وجوابُه ما تقدَّمَ .

وأمّا القراءةُ الثانية فعلى الاستئنافِ تعديداً لِنعَمِه عليه . وأمَّا القراءةُ الثالثةُ فهي " أنَّى " التي بمعنى "كيف " وفيها معنى التعجبِ ، فهي على هذه القراءةِ كلمةٌ واحدةٌ ، وعلى غيرِها كلمتان .

وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28)

قوله : ﴿ وَقَضْباً ﴾ : القَضْبُ هنا قيل : الرُّطَبُ لأنه يُقْضَبُ من النخلِ ، أي : يُقْطَعُ . ورجَّحه بعضُهم بذِكْرِه بعد قوله : " وعِنَباً " وكثيراً ما يَقْترنان . وقيل : القَتُّ ، كذا يُسَمّيه أهلُ مكة . وقيل : كلُّ ما يُقْضَبُ من البُقولِ لبني آدم . وقيل : هو الرَّطْبَةُ . والمقاضِبُ : الأرضُ التي تُنْبِتُها . قال الراغب : " والقَضيب كالقَضْب ، لكنَّ القضيبَ من فروعِ الشجرِ ، والقَضْبَ في البَقْلِ . والقَضْبُ أي : بالفتح قَطْعُ القَضْبِ والقَضيبِ ، وعنه عليه السلام : " أنه كان إذا رأى في ثوبٍ تَصْليباً قَضَبَه " وسيفٌ قاضِبٌ وقَضيبٌ ، أي : قاطعٌ ، فقضيب هنا بمعنى فاعِل ، وفي الأولِ بمعنى مَفْعول ، وناقة قَضِيبٍ لما يُؤْخَذُ من بين الإبلِ ولم تُرَضْ ، وكلُّ ما لم يُهَذَّبْ فهو مقتضَبٌ ، ومنه " اقتضابُ الحديثِ "

لِما لم يُتَرَوَّ ويُهَذَّبْ . وقال الخليل : " القضيب : أغصانُ الشجرِ لِيُتَّخَذَ منها قِسِيٌّ / أو سِهامٌ

.

وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30)

قوله: ﴿ غُلْباً ﴾: جمعُ أَغْلَب وغَلْباء كحُمْر في أَحْمر وحَمْراء. يقال: حديقةٌ غَلْباءُ، أي: غليظةُ الشجرِ ملتفَّتُه، واغْلَوْلَبَ العُشْبُ، أي: غَلُظَ. وأصلُه في وصفِ الرِّقاب. يقال: رجلٌ أغلبُ، وامرأةٌ غَلْباءُ، أي: غليظا الرَّقَبةِ. قال عمرو بن معدي كرب:

4502 يَسْعَى بها غُلْبُ الرِّقابِ كأَنَّهُمْ . . . بُزْلٌ كُسِيْنَ من الكُحَيْلِ جِلالا

والغَلَبَةُ: القَهْرُ، أن تَنالَ وتُصيبَ غَلَبَةَ رقبتِه، هذا أصله.

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31)

قوله: ﴿ وَأَبّاً ﴾: الأَبُّ للبهائم بمنزلةِ الفاكهةِ للناس. وقيل: هو مُطْلَقُ المَرْعى. قال بعضُهم يمدح النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم:

4503 له دَعْوَةٌ مَيْمونَةٌ رِيحُها الصَّبا . . . بها يُنْبِتُ اللَّهُ الحَصيدةَ والأَبّا

وقيل: الأَبُّ يابسُ الفاكهةِ، وسُمِّي المَرْعى أَبّاً لأنه يُؤَمُّ ويُنْتَجَعُ، والأَبُّ والأَمَّ بمعنىً. قال:

4504 جِذْمُنا قَيْسٌ ونَجْدٌ دارُنا . . . ولنا الأَبُّ بها والمَكْرَعُ

وأَبَّ لكذا، أي: تَهَيَّأَ، يَؤُبُّ أَبّاً وأَبابة وأَباباً. وأَبَّ إلى وطنِه، إذا نَزَعَ إليه نُزوعاً، تَهَيَّأَ لِقَصْدِه، وكذا أَبَّ لِسَيْفِه، أي: تهيَّأَ لِسَلِّه. وقولُهم: "إِبَّانَ ذلك" هو فِعْلان منه، وهو الزمانُ المُهَيَّأُ لِفِعْلِه ومجيئِه.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33)

قوله : ﴿ الصآخة ﴾ : الصَّيحَةُ التي تَصُخُّ الآذانَ ، أي : تَصُمُّها لشِدَّةِ وَقْعَتِها . وقيل : هي مأخوذةٌ مِنْ صَخَّه بالحجَرِ ، أي : صَكَّه به . وقال الزمخشري : " صَخَّ لحديثِه مثلَ أصاخ فوُصِفَتِ النَّفْخَةُ بالصاخَّة مجازاً ؛ لأنَّ الناسَ يَصِخُّون لها " . وقال ابن العربي : " الصَّاخَّة : التي تُوْرِثُ الصَّمَمَ ، وإنها لَمُسْمِعَةٌ ، وهذا مِنْ بديع الفصاحة كقوله :

(183/803)

4505 أَصَمَّهُمْ سِرُّهُمْ أيَّامَ فُرْقَتِهِمْ . . . فهل سَمِعْتُمْ بسِرٍ يُوْرِث الصَّمَما

وقال :

4506 أَصَمَّ بك النَّاعي وإنْ كانَ أَسْمَعا . . . . . .

. . . . . .

وجوابُ " إذا " محذوفٌ ، يَدُلُّ عليه قولُه ﴿ لِكُلِّ امرىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ، أي : التقديرُ : فإذا جاءَتِ الصَّاخةُ اشتغل كلُّ أحدٍ بنفسِه .

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ﴾ : بدلٌ مِنْ " إذا " ، ولا يجوزُ أَنْ يكونَ " يُغْنِيْه " عاملاً في " إذا " ولا في " يومَ " لأنه صفةٌ لشأْن ، ولا يتقدَّمُ معمولُ الصفةِ على موصوفِها . والعامَّةُ على " يُغْنيه " من

الإِغناء ، وابن محيصن والزُّهريُّ وابن أبي عبلة وحميد وابن السَّمَيْفَع "يَعْنِيه" بفتح الياء وبالعينِ المهملةِ ، مِنْ قولِهم : عَناني الأمرُ ، أي : قَصَدني .

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40)

قوله : ﴿ غَبَرَةٌ ﴾ : الغَبَرَةُ : الغُبارُ ، والقَتَرَةُ : سَوادٌ كالدُّخان . وقال أبو عبيدة : " القَتَرُ في كلامِ العربِ : الغبارُ جمعُ القَتَرة " . قال الفرزدق :

4507 مُتَوَّجٌ برِداءِ المُلْكِ يَتْبَعُه . . . مَوْجٌ ترى فوقَه الراياتِ والقَتَرا

قلت : وفي عطفِه على الغَبَرة ما يَرُدُّ هذا ، إلاَّ أَنْ يقولَ : لَمَّا اختلفَ اللفظانِ حَسُن العطفُ كقولِه :

4508 . . . . . .

. . . . . كَذِباً ومَيْنا

وقوله :

4509 . . . . . .

. . . . النَّأْيُ والبُعْدُ

وهو خلافُ الأصلِ . والعامَّةُ على فتحِ التاءِ مِنْ " قَتَرة " ، وأَسْكنها ابنُ أبي عبلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 685. 697 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الجمع)

وهو ضمّ الشئ بتقريب بعضه من بعض .

جمعته فاجتمع .

وقد ورد الجمع فى القرآن على ثلاثين وجهاً :

الأَوّل لجمع المال والنّعمة ﴿ جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ ، وجمع النَّهْب والغارة ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ وجمع الإلزام والحجّة ﴿ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ ﴾ وجمع إظهار القُدرة ﴿ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ وجمع الهَوْل والهَيْبة وجَمْع الشَّمس والقمر ، وجمع القراءَة والمتابعة ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ وجمع الحِرص والآفة ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ وجمع يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ وله نظائر .

(185/803)

وجمع الجماعة والجُمعة ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ وجمع الانتظار بين الدّنيا والآخرة ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وجمع الحرب والهزيمة ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ ، وجمع الإرادة والمشيئة ﴿ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ وجمع المصير والرّجعة ﴿ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ وجمع القضاء والحكومة ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ وجمع السجدة والتحيّة ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ وجمع الوسواس والغواية ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وجمع هديّة الهداية ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وجمع الرّجوع من الغُربة ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وجمع السَّحَرَة للمكر والحيلة ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وجَمْع النَّاس المِنظَارَة والعِبْرَة ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وجمع التعظيم والحرمة ﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ وجمع الغلبة والنُصرة ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ وجمع العجز والجهالة ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ وجمع العَرْض والسّياسة ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ وجَمْع التأْخير والمهْلة

(186/803)

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وجمع التعْبير والملامة ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وجمع التحذير والخَشية ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ وجمع طلب

العلم والحكمة ﴿ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ ﴿ بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ وجمع أَرباب النبوّة والرّسالة ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ وجمع الاتّفاق والعِزّة ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ وجمع الجُرأة والغفلة ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وجمع الحضور فى الحضرة ﴿ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ وجمع الفضل والرّحمة ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وجمع الهُدَى والضَّلالة ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ وجمع الظَّفر والغنيمة ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ ويقال المجموع جَمْع وجَمَاعة وجميع .

وورد الجمع فى القرآن على ثلاثين وجهاً أَيضاً : للمِنَّة علينا بما فى السّماوات والأَرض ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ وتسخير الموجودات لنا ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ وقرئ : جميعاً مِنَّةً .

رجوع الكلّ إلىّ فى العاقبة ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ حَشْر الكلّ عندنا ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ القوّة كلّها لنا ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ العزّة كلّها لنا ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ نَشْر الكل من بطن الأَرض جميعاً ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ﴾ يودّ الكافر او يفتدى بكل ما فى الأَرض جميعاً ﴿ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ اليهود لا يقاتلونكم إلاَّ وهم فى حصونٍ حصينة ﴿ لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ لا تحسبوا أَنَّ اليهود متَّفقون ظاهراً وباطناً ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ

شَتَّى ﴾ ادّعت كفّارُ مكّة أنّهم كلّهم متوازرون منتقمون ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ السّماءُ والأَرض فى قَبضة قدرتنا ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ جميعُ الشفاعات مسلّمة بحكمنا ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ نحطُّ العفو على الذُّنوب كلّها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ الخلائق كلّهم يأْتون حضوراً بحضرتنا ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ لمّا عصيتَنا يا آدم اخْرجْ من جهتنا مع سائر العاصين ﴿ اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً ﴾ ادّعى عسكر فرعون أنّهم كلّهم على حَذَرٍ فى أَمرهم ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ لا بأْس عليكم فى التَّفرّق والاجتماع إذا كنتم أَصدقاء ﴿ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ توبوا يا أَهل الإيمان ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ نادِ يا محمّد أنّى رسول الله إلى كلّ الخلائق ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ ولو أَردنا لهدينا الكلّ ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ ولو أَراد الله لأَورد النّاس مورد الإيمان ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ تعلّق رجاءُ يعقوب بوصول أَولاده إليه كلّهم ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ نحن قهرنا فرعون ومن معه ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ﴾ سيبرز الكل فى عَرَصات القيامة ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ الأَخابث وما عملوا إلى النّار ﴿ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ﴾ يعاقب بعضهم

بعضاً فى دخولها ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً ﴾ ونحن نجمع المنافقين والكافرين فيها ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴾ لأَنَّ جهنَّم

(188/803)

موعد المسيئين يملؤها منهم ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قال الشاعر :

*صَوْن الفتى عِرْضَه عمّا يدنّسه * وصونه ماله ما ليس يجتمع*

*ما طاب قوم وإن عَزُّوا وإن كَثُروا * حتى يطيب لهم تفريقُ ما جمَعوا* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 390 . 394 ﴾

(189/803)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة عبس

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم كريم بسط للمؤمنين بساط جوده ، اسم عزيز انسد على الأولين والآخرين طريق وجوده .

. وأتى بذلك ولا حد له ؟ من الذي يدركه بالزمان والزمان خلقه ؟ ومن الذي يحسبه في المكان والمكان فعله ؟ ومن الذي يعرفه إلا وبه يعرفه ؟ ومن الذي يذكره إلا وبه يذكره

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) ﴾

نَزَلَت في ابن أمِّ مكتوم ، وكان ضريراً . . أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف الجُمْحي – يرجو الرسول صلى الله عليه وسلم إيمانَهما ، فَكَرِهَ أَنْ يَقْطَعَ حديثَه معهما ، فأعرض عن ابن أمِّ مكتوم ، وعَبَسَ وَجْهُه ، فأنزل اللَّهُ هذه الآية .

وجاء في التفسير : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج على أثرِه ، وأَمَرَ بطلبِه ، وكان بعد ذلك يَبَرُّه ويُكْرِمُه ، فاستخلفه على المدينة مرتين .

وجاء في التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْبَسْ – بعد هذا – في وجهِ فقيرٍ قط ، ولم يُعْرِضْ عنه .

ويقال : في الخطاب لُطْفٌ . . . وهو أنه لم يواجهه بل قالَه على الكناية .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ .

أي يتذكر بما يتعلم منك أو .

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ .

أمَّا مَنْ استغنى عن نَفْسِه فإنه استغنى عن الله .

ويقال : استغنى بما له فأنت له تصدَّى ، أي تُقْبِلُ عليه بوجهك .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ ﴾ فأنت لا تُؤَخَذُ بألا يتزكّى هو فإنما عليكَ البلاغ .

﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَى ﴾ .

لطَلَبِ العِلْم ، ويخشى الله فأنت عنه تَتَلَهَّى ، وتتشاغل . . . وهذا كله مِنْ قبيلِ العتاب معه لأَجْلِ الفقراء .

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ .

(190/803)

القرآن تذكرة ؛ فَمَنْ شاء الله أن يَذْكُرَه ذَكَرَه ، ومَنْ شاء الله ألا يَذْكُرَه لم يُذَكِّرْه ؛ أي بذلك جرى القضاءُ ، فلا يكون إلا ما شاء اللَّهُ .

ويقال : الكلامُ على جهة التهديد ؛ ومعناه : فَمَنْ أراد أن يذكره فليذكره ، ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره ! كقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] .

وقال سبحانه : ﴿ ذَكَرَهُ ﴾ ولم يقل " ذَكَرَها " لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ .

أي صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك ، وفي اللوح المحفوظ .

﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .

مرفوعة في القَدْر والرتبة ، مطهرة من التناقض والكذب .

﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ .

أي : الملائكة الكَتَبة .

﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

كرام عند الله بَرَرَة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ ﴾ .

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كُفْره ! . .

﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .

خَلَقَه وصَوَّرَه وقَدَّره أطواراً : من نطفةٍ ، ثم عَلَقَةٍ ، ثم طوراً بعد طور .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .

يَسَّرَ عليه السبيلَ في الخير والشرّ ، وألهمه كيف التصرُّف .

ويقال : يَسَّرَ عليه الخروجَ من بطن أُمّه يخرج أولاً رأسه منكوساً .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .

أي : جعل له قَبْراً لئلا تفترسَه السِّباعُ والطيورُ ولئلا يفتضح .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ .

بَعَثَه من قبره .

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾ .

أي : عصى وخالَفَ ما أُمِرَ به .

ويقال : لم يقضِ الله له ما أمره به ، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَا عصاه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ غُلْباً ﴾ .

(191/803)

في الإشارة : صَبَبْنا ماءَ الرحمةِ على القلوب القاسية فَلانَتْ للتوبة ، وصببنا ماءَ التعريف على القلوب فنبتت أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد .

﴿ وَقَضْباً ﴾ أي القَتّ .

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْباً ﴾ متكاثفةً غلاظاً .

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ .

الفاكهة : جمع الفواكه ، و ﴿ وَأَبّاً ﴾ : المرعى .

﴿ مَّتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . . . ﴾ .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ ﴾ أي : القيامة ؛ فيومئذٍ يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم بيّن ما سبب ذلك فقال .

﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

لا يتفرّغ إلى ذاك ، ولا ذاك إلى هذه . كذلك قالوا : الاستقامةُ أَنْ تشهدَ الوقتَ قيامةً ، فما من وليٍّ ولا عارفٍ إلاَّ وهو – اليومَ – بقلبه يَفِرُّ من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

فالعارفُ مع الخَلْق ولكنه يُفارقهم بقلبه – قالوا :

فلقد جعلتك في الفؤادِ مُحَدِّثي . . . وأَبَحْتُ جسمي مَنْ أراد جلوسي

قوله جلّ ذكره : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ .

وسببُ استبشارهم مختلفٌ ؛ فمنهم مَنْ استبشاره لوصوله إلى جنّته ، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته . . . ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربّه فرآه .

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ .

وهي غَبَرَةُ الفُسَّاق . ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ . وهي ذُلُّ الحجاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 691.687 ﴾

(192/803)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (4)

الإعراب :

(أن) حرف مصدريّ (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة يدريك . .

والمصدر المؤول (أن جاءه الأعمى) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو (اللام) متعلّق بـ (عبس وتولّى) أي لأن جاءه .

جملة : " عبس . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " تولّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " جاءه الأعمى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ما يدريك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة " 1 " .

وجملة : " يدريك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " لعلّه يزّكّى . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل يدريك .

وجملة : " يزّكّى . . . " في محلّ رفع خبر لعنّ .

4 - (أو) حرف عطف (الفاء) فاء السببيّة (تنفعه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء .

والمصدر المؤوّل (أن تنفعه . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر منتزع من الترجّي المتقدّم أي عسى لديك تزكية أو تذكير فنفع من ذكرى . .

وجملة : " يذّكّر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يزّكّى .

وجملة : " تنفعه الذكرى " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

الصرف :

(1) تولّى : فيه إعلال بالقلب أصله تولّي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(3) يزّكّى : فيه إبدال تاء التفعّل زايا للمجانسة ، أصله يتزكّى ، ثم أدغمت مع فاء الكلمة بعد تسكينها وزنه يتفعّل . . وفيه إعلال بالقلب أصله يتزكّي - بياء في آخره - تحرّكت

الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(4) يذّكّر : فيه إبدال تاء التفعّل ذالا للمجانسة قياسه كقياس يزّكّى .

الفوائد :

- توجيه وعتاب :

---

(1) في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب .

(193/803)

سبب نزول الآيات هو أن عبد اللّه بن أم مكتوم ، واسمه عمرو ، وقيل : عبد اللّه ابن شريح بن مالك بن ربيعة . وقيل : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن أهرة بن رواحة القرشي الفهري ، من بني عامر بن لؤي ، واسم أمه عاتكة بنت عبد اللّه

المخزومية ، وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد أسلم قديما بمكة ، وذلك

أنه أتى النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل وعمه العباس وأبي بن خلف وأخاه أمية ، ويدعوهم إلى الإسلام ، يرجو إيمانهم ، فقال ابن أم مكتوم : يا رسول اللّه أقرئني وعلمني مما علمك اللّه ، وجعل يناديه ويكرر النداء ، وهو لا يدري أنه مقبل على غيره ، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) لقطعه

كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد : إنما اتبعه الصبيان والعبيد ، فعبس وجهه ، وأعرض عنه ، وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فأنزل اللّه هذه الآيات ، معاتبة لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) . فكان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) بعد ذلك يكرمه إذا رآه ويقول : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول له : هل لك من حاجة . واستخلفه على المدينة مرتين .

وكان من المهاجرين الأولين ، وقيل : قتل شهيدا بالقادسية .

- (لعلّ) :

هي حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر ولها معان :

1 - التوقع : وهو ترجّي المحبوب والإشفاق من المكروه ، نحو : (لعل الحبيب واصل) و(لعل الرقيب حاصل) وتختص بالممكن .

2 - التعليل : كقوله تعالى : (فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) .

3 - الاستفهام : أثبته الكوفيون ، ولهذا علق بها الفعل في نحو قوله تعالى (لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً) (وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) .

(194/803)

ويقترن خبرها (بأن) كثيرا ، حملا على (عسى) ، كقول متمم بن نويرة :

لعلك يوما أن تلمّ ملمة عليك من اللائي يدعنك أجدعا

[سورة عبس (80) : الآيات 5 إلى 10]

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُوَ يَخْشى (9)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

الإعراب :

(أمّا) حرف شرط وتفصيل (من) موصول في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب أمّا (له) متعلّق بـ (تصدّى) (الواو) حاليّة (ما) نافية " 1 " ، (عليك) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أّلا) حرف مصدريّ ونصب وحرف نفي . .

والمصدر المؤوّل (أّلا يزّكّى . .) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر " 2 " .

جملة : " من استغنى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " استغنى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أنت له تصدّى " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " تصدّى " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنت) .

وجملة : " ما عليك أّلا يزّكّى " في محلّ نصب حال من فاعل تصدّى .

وجملة : " يزّكّى " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

8 - 10 (الواو) عاطفة (أمّا من جاءك) مثل أمّا من استغنى (الواو) حاليّة (الفاء) رابطة للجواب (عنه) متعلّق بـ (تلهّى) .

وجملة : " من جاءك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " جاءك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يسعى . . . " في محلّ نصب حال من فاعل جاءك .

وجملة : " هو يخشى . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يسعى .

وجملة : " يخشى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " أنت عنه تلهّى " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " تلهّى " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنت) .

---

(1) أو اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره (عليك) . [. . . . .]

(2) أو في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بخبر ما الاستفهاميّة أي : ما عليك في عدم التزكّي ؟

الصرف :

(5) استغنى : فيه إعلال بالقلب أصله استغني ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا وزنه استفعل .

(6) تصدّى : حذفت منه إحدى التاءين تخفيفا ، وفيه إعلال بالقلب قياسه كقياس استغنى .

(8) يسعى : فيه إعلال بالقلب شأنه شأن استغنى .

(9) يخشى : فيه إعلال بالقلب شأنه شأن استغنى .

(10) تلهّى : فيه إعلال بالقلب شأنه شأن استغنى ، وفيه حذف إحدى التاءين تخفيفا .

[سورة عبس (80) : الآيات 11 إلى 16]

كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15)

كِرامٍ بَرَرَةٍ (16)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (شاء) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، ومثله جواب الشرط (ذكره) ، (في صحف) متعلّق بحال

من ضمير الغائب في (ذكره) " 1 " ، (بأيدي) متعلّق بـ (مرفوعة) . .

جملة : " إنّها تذكرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من شاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

---

(1) أو متعلّق بنعت لتذكرة . . . أو متعلّق بخبر إنّ ثان وما بينهما اعتراض .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(196/803)

وجملة : " ذكره . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

الصرف :

(11) تذكرة : مصدر سماعيّ للرباعيّ ذكّر ، وزنه تفعلة بفتح التاء وكسر العين .

(13) مكرّمة : مؤنّث مكرّم ، اسم مفعول من الرباعيّ كرّم ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

(15) سفرة : جمع سافر بمعنى كاتب ، اسم فاعل من الثلاثيّ سفر باب ضرب ، ووزن سفرة فعلة بثلاث فتحات .

---

(16) بررة : جمع بارّ بمعنى مطيع ، اسم فاعل من الثلاثيّ برّ باب ضرب وباب فتح وزنه فعلة كسفرة .

[سورة عبس (80) : الآيات 17 إلى 22]

قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)

ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22)

الإعراب :

(ما) تعجبيّة نكرة تامة بمعنى شيء في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (من أيّ) متعلّق بـ (خلقه) ، (من نطفة) متعلّق بـ (خلقه) الثاني (الفاء) عاطفة وكذلك (ثمّ) في المواضع الثلاثة (السبيل) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره المذكور بعده . .

جملة : " قتل الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما أكفره . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أو هي استفهاميّة مبتدأ خبره جملة أكفره . . .

وجملة : " أكفره . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) التعجّبيّة .

وجملة : " خلقه (الأولى) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقه (الثانية) " لا محلّ لها بدل من جملة خلق الأولى .

وجملة : " قدّره . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقه الثانية .

وجملة : " (يسّره) السبيل " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدّره .

وجملة : " يسّره . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أماته . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة المقدّرة .

وجملة : " أقبره . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أماته .

وجملة : " شاء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أنشره " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(21) أماته : فيه إعلال بالقلب بعد الإعلال بالتسكين ، أصله أموته ، سكّنت الواو ونقلت حركتها إلى الميم . . ثمّ قلبت الواو ألفا لانفتاح ما قبلها وتحركها في الأصل ، وزنه

أفعله بفتح الهمزة والعين بينهما فاء ساكنة.

[سورة عبس (80) : آية 23]

(199/803)

كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23)

الإعراب:

(كلّا) ردع وزجر عمّا في الإنسان من تكبّر وإصرار على إنكار التوحيد (لمّا) حرف نفي وقلب وجزم (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به، والعائد محذوف أي: ما أمره به.

جملة: "يقض . . . " لا محلّ لها استئناف فيه معنى التعليل.

وجملة: "أمره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

الصرف:

(يقض)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، وزنه يفع.

[سورة عبس (80) : الآيات 24 إلى 32]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27) وَعِنَباً وَقَضْباً (28)

وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدائِقَ غُلْباً (30) وَفاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة " 1 " ، (اللام) لام الأمر (إلى طعامه) متعلّق بـ (ينظر) ، (صبّا) مفعول مطلق منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّا صببنا . .) في محلّ جرّ بدل اشتمال من طعامه .

جملة : " لينظر الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " صببنا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

26 - 32 (ثمّ) حرف عطف وكذلك (الفاء) و(الواو) في المواضع الأربعة (شقّا) مفعول مطلق منصوب (فيها) متعلّق بـ (أنبتنا) ، ومنع (حدائق) من التنوين لأنه على صيغة منتهى الجموع (متاعا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي متّعكم بذلك متاعا " 3 " ، (لكم) متعلّق بـ (متاعا) وكذلك (لأنعامكم) . .

وجملة : " شققنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة صببنا .

وجملة : " أنبتنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة شققنا .

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر .

(2) أو هي جواب شرط مقدّر أي : إن أردتهم معرفة قدرة اللّه وتدبيره فلينظر الإنسان

. . .

(3) انظر (33) من سورة النازعات .

(200/803)

الصرف :

(25) صبّا : مصدر سماعيّ للثلاثيّ صبّ وزنه فعل بفتح فسكون ، وعينه ولامه من حرف واحد .

(26) شقّا : مصدر سماعيّ للثلاثي شقّ وزنه فعل بفتح فسكون ، وعينه ولامه من حرف واحد .

(28) قضبا : اسم للعشب الطريّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(30) غلبا : اسم للشجر الغليظ الملتفّ ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(31) أبّا : اسم للعشب اليابس وقيل هو التبن ، وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى " ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا " .

إسناده إلى ضميره تعالى مجاز من باب الإسناد إلى السبب ، وإن كان اللّه عز وجل هو

الموجد حقيقة ، ويكون إسناد الفعل حقيقة لمن قام به ، لا من صدر عنه إيجادا .

[سورة عبس (80) : الآيات 33 إلى 37]

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة ، وجواب إذا مقدّر (يوم) ظرف زمان منصوب بدل من (إذا) ، (من أخيه) متعلّق بـ (يفرّ) ، (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (لكلّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (شأن) ، (منهم) متعلّق بنعت لكلّ امرئ (يومئذ) ظرف منصوب - أو مبني - مضاف إلى ظرف مبنيّ

متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به لكلّ . .

جملة : " جاءت الصاخّة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط مقدّر أي يشغل كلّ بنفسه .

وجملة : " يفرّ المرء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لكلّ امرئ منهم شأنه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يغنيه . . . " في محلّ رفع نعت لشأن .

الصرف :

(33) الصاخّة : اسم بمعنى الداهية التي تصخّ الخلائق لها أي يستمعون إليها وهي النفخة الثانية ، وفي المختار : الصاخّة الصيحة تصمّ بشدّتها ، وهي على وزن اسم الفاعل ، والتاء للمبالغة .

(36) صاحبته : مؤنّث صاحب ، اسم فاعل من الثلاثيّ صحب ، وزنه فاعل .

[سورة عبس (80) : الآيات 38 إلى 42]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

الإعراب :

(وجوه) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (يومئذ) مرّ إعرابه " 2 " متعلّق بالخبر (ضاحكة) ، (مسفرة) نعت لوجوه مرفوع .

جملة : " وجوه . . . ضاحكة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) وصفت النكرة فجاز إعرابها مبتدأ . .

(2) في الآية السابقة (37) .

40 - 42 (الواو) عاطفة (وجوه يومئذ . .) مثل الأولى (عليها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (غبرة) (هم) ضمير فصل . .

وجملة : " وجوه . . . عليها غبرة " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " عليها غبرة " في محلّ رفع نعت لوجوه .

وجملة : " ترهقها قترة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (وجوه) .

وجملة : " أولئك . . . الكفرة " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(38) مسفرة : مؤنّث مسفر ، اسم فاعل من الرباعيّ أسفر بمعنى أضاء ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(39) مستبشرة : مؤنّث مستبشر ، اسم فاعل من السداسيّ استبشر ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(40) غبرة : اسم للتراب أو ما دقّ منه ، وزنه فعلة بثلاث فتحات .

(41) قترة : اسم للظلمة والسواد ، أو لما ارتفع من الغبار إلى السماء وزنه فعلة بثلاث فتحات .

(42) الفجرة : جمع فاجر اسم فاعل من الثلاثي فجر وزنه فاعل والجمع فعلة بثلاث فتحات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 241 . 251 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(80) سورة عبس

مكيّة وآياتها ثنتان وأربعون

[سورة عبس (80) : الآيات 1 إلى 17]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (4)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُوَ يَخْشى (9)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14)

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرامٍ بَرَرَةٍ (16) قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17)

اللغة :

(تَصَدَّى) أصلها تتصدى أي تتعرض بالإقبال عليه والمصاداة المعارضة ويقال : تصدى أي تعرض وأصله تصدد من الصدد وهو ما استقبلك وصار قبالتك فأبدل أحد الأمثال حرف علّة وقيل هو من

الصدى وهو الصوت المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة وقيل من الصدى وهو العطش والمعنى على التعرّض .

الإعراب :

(203/803)

(عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى) عبس وتولى فعلان ماضيان مبنيان على الفتح وفاعلهما مستتر تقديره هو وإنما جيء في هذين الموضعين وفي موضع ثالث بعدهما إجلالا له عليه الصلاة والسلام ولطفا به لما في المشافهة والمجابهة بتاء الخطاب ما لا يخفى ، وأن جاءه في موضع نصب مفعول لأجله وناصبه إما عبس وإما تولى ، وجاءه فعل ماض ومفعول به والأعمى فاعل والأولى أن يقال أن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بعبس لأن المجيء ليس من أفعال القلوب فاحتل شرط من شروط نصب المفعول لأجله (وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى) الواو عاطفة

وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة يدريك خبر والكاف في موضع المفعول الأول ليدري وجملة الترجّي في موضع المفعول الثاني ، ولعله لعلّ واسمها وجملة يزّكّى أي يتطهر خبر لعل وقيل مفعول يدريك الثاني محذوف مقدّر والتقدير وما يدريك أمره ومغبة حاله وجملة لعله يزكّى ابتدائية وأو حرف عطف ويذكر عطف على يزّكّى والفاء هي فاء السببية وتنفعه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والهاء مفعول به والذكرى فاعل ، وقرىء فتنفعه بالرفع على أن الفاء عاطفة وتنفعه بالرفع عطف على أو يذكر (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى) أما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول مبتدأ وجملة استغنى صلة لا محل لها والفاء رابطة وأنت ضمير بارز منفصل في محل رفع مبتدأ وله متعلقان بتصدى وجملة تصدى خبر

(204/803)

أنت والجملة الاسمية خبر من والواو حالية وما نافية وعليك خبر مقدم وأن وما في حيّزها مبتدأ مؤخر أي ليس عليك بأس في عدم تزكيته بالإسلام ، واختار أبو حيان أن تكون ما استفهامية للإنكار فتكون مبتدأ وعليك خبرها وألا يزكّى منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بما تعلق به عليك أي الاستقرار والجملة حال من الضمير في تصدى (وَأَمَّا

مَنْ جاءَكَ يَسْعى ، وَهُوَ يَخْشى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّى) الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة جاءك لا محل لها لأنها صلة من وجملة يسعى حال من فاعل جاءك والواو حالية وهو مبتدأ وجملة يخشى خبر والجملة حال من فاعل يسعى فهي حال متداخلة والفاء رابطة لجواب أما وأنت مبتدأ وعنه متعلقان بتلهى وتلهى أي تتلهى فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت والجملة خبر وجملة أنت عنه تلهى خبر من أي تتشاغل أي هو من لهى بكذا يلهى أي تشاغل به وليس هو من اللهو في شيء لأنه مسند إلى ضمير النبي ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب إليه الفعل من اللهو بخلاف الاشتغال فإنه يجوز أن يصدر عنه في بعض الأحيان ، وفي القاموس " لها لهوا لعب كالتهى وألهاه ذلك ولهي به كرضي أحبه ، وعنه سلا وغفل وترك ذكره ولها كدعا لهّيا ولهيانا وتلهى " (كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ) كلا حرف ردع وزجر لكل إنسان عن ارتكاب مثل المعاتب عليه ، روي أنه عليه السلام ما عبس بعد ذلك في وجه فقير قطّ ولا تصدى لغني ، وإن واسمها وتذكرة خبر إن والضمير للموعظة أو السورة والفاء اعتراضية ومن اسم شرط جازم مبتدأ وشاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله هو والمفعول محذوف أي الاتعاظ وذكره فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وهو في محل جزم جواب الشرط والجملة اعتراضية لا محل لها (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ

كِرامٍ بَرَرَةٍ) في صحف خبر ثان لإنها ومكرمة وما بعدها نعت

لصحف وبأيدي نعت أيضا أو خبر لمبتدأ محذوف وسفرة مضاف إليه وما بعده نعت

والسفرة جمع سافر وهو الكاتب ومثله كاتب وكتبة وسفرت بين القوم أسفر سفارة

أصلحت بينهم وفي المختار : " وسفر الكتاب كتبه وبابه ضرب " . (قُتِلَ الْإِنْسانُ ما

أَكْفَرَهُ) الجملة دعائية لا محل لها ومعنى قتل لعن وعذب والإنسان نائب فاعل وما نكرة تامة

بمعنى شيء

في محل رفع مبتدأ وأكفر فعل ماض وفاعله مستتر وجوبا تقديره هو " هنا خاصة " والهاء

مفعول به ، قالوا : قاتله اللّه ما أخبثه وأخزاه اللّه ما أظلمه والمعنى أعجبوا من كفر الإنسان

بجميع ما ذكرنا بعد هذا ، وقيل ما استفهامية مبتدأ وجملة أكفره خبر أي أيّ شيء دعاه

إلى الكفر وهو استفهام توبيخ ولا داعي لهذا لأنه تعجب من إفراطه في كفره والتعجب

بالنسبة إلى المخلوقين إذ هو مستحيل في حق اللّه تعالى أي هو ممن يقال فيه ما أكفره

وللزمخشري عبارة مستحسنة قال " ما أكفره تعجب من إفراطه في كفران النعمة ولا ترى

أسلوبا أغلظ منه ولا أخشن مسّا ولا أدلّ على سخط ولا أبعد شوطا في المذمّة مع تقارب

طرفيه ولا أجمع للأئمة على قصر متنه " .

الفوائد :

روى التاريخ : أن عبد اللّه بن أم مكتوم بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي ، وأم مكتوم أم أبيه واسمها عاتكة بنت عامر المخزومي وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد ، الذي في النووي على مسلم أن ابن أم مكتوم اسمه عبد اللّه بن عمرو وأم مكتوم زوجة عمرو فهي أم عبد اللّه وقيل اسمه عمرو واسم أبيه زائد ، جاءه وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى

(206/803)

الإسلام رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ويسلم بإسلامهم أتباعهم فتعلو كلمة اللّه تعالى فقال : يا رسول اللّه أقرئني وعلّمني مما علّمك اللّه تعالى وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت فكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويقول له : هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين . قال القرطبي : " وهذا كله غلط من المفسرين لأن أمية والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما وماتا كافرين أحدهما قبل الهجرة والآخر في بدر ولم

يقصد قطّ أمية المدينة ولا حضر معه مفردا ولا مع أحد " . وقال أبو حيان :

" والغلط من القرطبي كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معهما وهو وهم منه وكلهم من قريش وكان ابن أم مكتوم بها والسورة مكية كلها بالإجماع وكيف يقول : وابن أم مكتوم بالمدينة كان أولا بمكة ثم هاجر إلى المدينة وكانوا جميعا بمكة حين نزول هذه الآية " . وهناك رواية أخرى ذهب إليها بعضهم وهي أن المحدّث عنه بالعبوس ليس النبي صلّى اللّه عليه وسلم بل هو رجل من بني أمية وهو الذي عبس لما أتى ابن أم مكتوم لأن العبوس كما يقول الشريف المرتضى ليس من صفاته صلّى اللّه عليه وسلم مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين . وهذا كله يراه القارئ في المطولات فليرجع إليها إن شاء .

[سورة عبس (80) : الآيات 18 إلى 42]

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (22)

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (27)

وَعِنَباً وَقَضْباً (28) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (29) وَحَدائِقَ غُلْباً (30) وَفاكِهَةً وَأَبًّا (31)
مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (32)
فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصاحِبَتِهِ
وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (40)
تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (41) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

اللغة :

(غُلْباً) جمع أغلب كحمر في أحمر وحمراء يقال : حديقة غلباء أي غليظة الشجر ملتفة الحدائق فالحدائق ذات أشجار غلاظ فهو مجاز مرسل كالمرسن بمعنى الغليظ مطلقا وفيه تجوّز في الإسناد أيضا لأن الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها ، وعبارة الزمخشري :

" ويحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيريد تكاتفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول : حديقة ضخمة وأن يجعل شجرها غلبا أي عظاما غلاظا والأصل في الوصف بالغلب الرقاب فاستعير : قال عمرو بن معد يكرب :

يمشي بها غلب الرقاب كأنهم بزل كسّين من الكحيل جلالا "

ويقال أسد أغلب أي غليظ العنق والقلب جمعه ثم استعير لكل غليظ ، والبزل جمع بازل

للمذكر والمؤنث من الإبل إذا انفطر نابه وذلك في السنة التاسعة ، والكحيل القطران ، والجلال جمع جلّ ، يصف مفازة تمشي فيها أسود غلاظ الأعناق كأنها فتيات من الإبل دهنت بالقطران حتى صار عليها كالجلال ، فكسين استعارة مصرّحة والجلال ترشيح ويروى كأنهم باستعارة ضمير العقلاء لغيرهم .

(208/803)

وفي الأساس واللسان ما خلاصته : " بينهما غلاب أي مغالبة وتغالبوا على البلد وغلبته على الشيء : أخذته منه وهو مغلوب عليه وأ يغلب أحدكم أن يصاحب الناس معروفا بمعنى أيعجز وهو رجل حر وقد أبى أفنغلبه على نفسه : أفنكرهه ، وشاعر مغلّب : غلب كثيرا أو غلّب فهو ذم ومدح ، قال امرؤ القيس :

فإنك لم يفخر عليك كعاجز ضعيف ولم يغلبك مغلّب

ومن المجاز : هضبة غلباء وعزة غلباء واغلولب العشب وحدائق غلبا " .

(أبًّا) في المصباح : " الأبّ : المرعى الذي لم يزرعه الناس مما تأكله الدواب والأنعام " ويبدو أنه مأخوذ من أبه إذا قصده لأنه يؤم وينتجع له أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيىء للرعي وعبارة الزمخشري : " والأب المرعى لأنه يؤب أي يؤم وينتجع والأب والأم أخوان ، قال :

جذمنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ به والمكرع "

والجذم بالكسر وقد يفتح الأصل الذي يقتطع منه غيره والأب

والأم بالفتح والتشديد بمعنى المرعى لأنه يؤبّ ويؤمّ أي يقصد والمكرع : المنهل . يقول : نحن من قبيلة قيس ونجد هي دارنا ولنا به أي في نجد المرعى والمروي وفيه تمدح بالشرف والشجاعة .

وقيل إن الصحابة وهم أهل الحجاز وأصحاب اللغة التي نزل بها القرآن لم يفهموا بعض الغريب في آيات الكتاب ، من ذلك ما أخرجه أبو عبيد في الفضائل عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله تعالى : " وفاكهة وأبا " فقال : أي سماء تظلّني وأي أرض تقلّني إن أنا قلت في كتاب اللّه ما لا أعلم . ونقل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر " وفاكهة وأبا " فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟

(209/803)

ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو الكلف يا عمر ، وفي رواية ثم رفض عصا كانت بيده وقال : هذا لعمر اللّه التكلف وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الأبّ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه . وقد علّق الزمخشري على كلمة عمر تعليقا بديعا

نورده فيما يلي :

" فإن قلت فهذا يشبه النهي عن تتبع معاني القرآن والبحث عن مشكلاته قلت : لم يذهب إلى ذلك ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل وكان التشاغل بشيء من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم فأراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته اللّه للإنسان متاعا له ولأنعامه فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر للّه على ما تبين لك ولم يشكل مما عدّد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأبّ ومعرفة البنات الخاص الذي هو اسم له واكتف بالمعرفة الجملية إلى أن يتبين لك في غير هذا الوقت ، ثم وصّى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن " .

كيف بدأ تفسير القرآن ؟

(210/803)

و نرى استيفاء لهذا البحث الهام أن نعرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل لعلاقته التامة بالمنهج الذي جرينا عليه في هذا الكتاب فالواقع أن القرآن شغل طوائف كثيرة من الناس فترة من الزمن ، شغل به أهل الإيمان ، وتتبعه أهل الكفر كلّ من ناحية اهتمامه ، وأول ما

بدأت دراسات القرآن وتفسيره زمن الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ففي عهده نرى أعرابيا يسأله في معنى بعض ألفاظ القرآن في مثل قوله تعالى " ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " قائلا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ وفسّره النبي صلّى اللّه عليه وسلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى : " إن الشرك لظلم عظيم " وروي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم في كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرها كثير من الأحاديث التي تتعلق بتفسير القرآن وبعضها ينحصر في ذكر فضائله وتفسير بعض آياته تفسيرا مختصرا يبيّن وجه التشريع أو الموعظة في الآية وروي عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند اللّه جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا " على أنه قد لا يوضع موضع الاعتبار كل ما جاء من الحديث في التفسير ، فأحمد بن حنبل – في القرن الثالث الهجري – يقول : ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازي ، ولعلّه يقصد بالتفسير الذي خلط فيه الناس بين الصحيح وغير الصحيح من الحديث مما كان مدار أخذ وردّ وقول كثيرين في عصره .

على أن الصحابة وقفوا في صدر الإسلام موقفين : متحرّج من القول في القرآن ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعبد اللّه بن عمر وغيرهم وكان عبد اللّه يأخذ على ابن عباس تفسيره القرآن بالشعر والقسم الثاني الذين لم يتحرّجوا وفسّروا القرآن حسب ما فهموا من الرسول أو حسب

فهمهم الخاص بالمقارنة إلى الشعر العربي وكلام العرب ومن هؤلاء علي بن أبي طالب وعبد اللّه بن عباس ومن أخذ عنهما وقد وقف ابن عباس على رأس المفسرين بالرأي المتخذين شعر العرب وسيلة إلى كشف معاني القرآن وكان علي بن أبي طالب يثني على ابن عباس ويقول : كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .

وفي كامل المبرد وأغاني أبي الفرج الأصبهاني أنه دخل عمر بن أبي ربيعة وهو غلام على ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك يا ابن أخي ؟ فأنشده :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أوم رائح فمهجر

حتى أتمّها وهي ثمانون بيتا فقال له الأزرق : للّه أنت يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين ويأتيك غلام من قريش ينشدك سفها فتسمعه فقال : تاللّه ما سمعت سفها فقال : أما أنشدك ؟

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشي فيخسر

فقال : ما هكذا قال إنما قال : فيضحى وأما بالعشي فيخصر ، قال : أو تحفظ الذي قال ؟

فقال والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه ثم أنشدها من أولها إلى آخرها فقيل له : ما رأينا أروى منك فقال : ما سمعت شيئا قطّ فنسيته وإني لأسمع صوت النائحة فأسدّ أذني كراهة أن أحفظ ما تقول ، ثم إن نافعا اتفق له أنه سأل ابن عباس عن قوله تعالى " لا تظمأ فيها ولا تضحى " قال : لا تعرق فيها من شدة حرّ الشمس قال :

وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر " فيضحى " ومن هؤلاء الصحابة الذين يذهبون هذا المذهب ابن مسعود وأبيّ بن كعب وغيرهما وتبعهم الحسن البصري وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم .

(212/803)

(الصَّاخَّةُ) في المختار : " الصاخة : الصيحة تصمّ بشدتها تقول صخ الصوت من باب ردّ ومنه سمّيت القيامة الصاخة " وقال الزمخشري : " صخ لحديثه مثل أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازا لأن الناس يصخون لها " وقال أبو بكر بن العربي : " الصاخة هي التي تورث الصمم وإنها لمسمعة وهذا من بديع الفصاحة كقوله :

أصمّهم سرّهم أيام فرقتهم فهل سمعتم بسر يورث الصمما

وقول أبي تمام :

أصم بك الناعي وإن كان اسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

ولعمر اللّه أن صيحة القيامة مسمعة تصمّ عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة .

(تَرْهَقُها) في المختار : " رهقه غشيه باب طرب ومنه قوله تعالى :

ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة ، وفي الحديث : إذا صلّى أحدكم على الشيء فليرهقه أي فليغشه ولا يبعد عنه " .

(قَتَرَةٌ) سواد كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه .

الإعراب :

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في بيان ما أنعم عليه بعد المبالغة في وصفه بكفران نعم خالقه ، ومن أيّ شيء متعلقان بخلقه والاستفهام للتقرير مع التحقير جمع بينهما بعض المفسرين فقال : " هنا الاستفهام لتقرير التحقير ، ومن

نطفة بدل بإعادة الجار من قوله من أي شيء خلقه والفاء للترتيب في الذكر وقدّره فعل ماض وفاعل مستتر جوازا تقديره هو ومفعول به (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي والسبيل منصوب على الاشتغال بفعل

مقدّر تقديره ثم يسّر السبيل يسّره والتعريف لإفادة العموم ، وجملة يسّره مفسّرة ، وعبارة السمين : قوله ثم السبيل يسّره يجوز أن يكون الضمير للإنسان والسبيل ظرف أي يسّر للإنسان الطريق أي طريق الخير أو الشر كقوله وهديناه النجدين ، وقال أبو البقاء : ويجوز أن ينتصب بأنه مفعول ثان ليسّره والهاء للإنسان أي يسّره للسبيل أي هداه له قلت فلا بدّ من تضمينه معنى أعطى حتى ينصب اثنين أو يحذف حرف الجر أي يسّره للسبيل أي هداه له . وما بعده عطف عليه ، وقال فأقبره ولم يقل فقبره لأن القابر هو الدافن بيده والمقبر هو اللّه تعالى يقال :

(214/803)

قبر الميت إذا دفنه بيده وأقبره إذا أمر غيره أن يجعله في قبر ، ومفعول المشيئة محذوف والتقدير إذا شاء إنشاره (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ) ردع وزجر للإنسان المسترسل في عمايته المغترّ باغتراره المتطاول تيها بعجبه ولما حرف نفي جازم ويقض فعل مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف حرف العلة وجزم بلما للدلالة على أن العجب والكبر ما زالا يلازمان الإنسان حتى الساعة التي هو فيها وما مفعول به وجملة أمره صلة والعائد محذوف أي به (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في تعداد النعم المترادفة

على الإنسان واللام لام الأمر وينظر فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والإنسان فاعل وإلى طعامه متعلقان بينظر (أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا) أنّا بفتح الهمزة وهي وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بدل اشتمال من طعامه والمعنى أن صبّ الماء سبب في إخراج الطعام فهو مشتمل عليه وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف المبين لكيفية إحداث الطعام وأن واسمها وجملة

صببنا فعل وفاعل والماء مفعول به وصبا مفعول مطلق (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في إعرابها ، وسيأتي سرّ إسناد الشقّ له تعالى في باب البلاغة (فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا وَحَدائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبًّا) الفاء عاطفة وأنبتنا فعل وفاعل وفيها متعلقان بأنبتنا وحبا مفعول به وما بعده عطف عليه .

(215/803)

و القضب والقضبة : الرطبة (مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ) متاعا مصدر مؤكد لأنبتنا لأن إنباته الأشياء إمتاع لجميع الكائنات الحيّة أو مفعول لأجله والعامل فيه محذوف تقديره فعل ذلك متاعا لكم ، ولكم متعلقان بمتاعا ولأنعامكم عطف على لكم (فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) الفاء

استئنافية والكلام مستأنف مسوق للشروع في بيان أحوالهم يوم المعاد ولك أن تجعل الفاء عاطفة والكلام معطوف لترتيب ما بعدها على ما قبلها من النعم السوابغ والآلاء المترادفة ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب المحذوف المفهوم من قوله لكل امرئ والتقدير اشتغل كل واحد بنفسه ، وجملة جاءت في محل جر بإضافة الظرف إليها والصاخة فاعل ويوم بدل من إذا أي يفرّ فيه وجملة يفرّ في محل جر بإضافة الظرف إليها والمرء فاعل ومن أخيه متعلقان بيفر وما بعده عطف على أخيه ولكل امرئ خبر مقدّم ومنهم نعت لامرىء ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بيفنيه والتنوين عوض عن أي يوم إذ حصلت هذه الأمور المتعددة وشأن مبتدأ مؤخر وجملة يغنيه نعت لشأن (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) وجوه مبتدأ سوّغ الابتداء به مع أنه نكرة التنويع ويومئذ ظرف أضيف لمثله متعلق بمسفرة والتنوين عوض عن جملة ومسفرة خبر وجوه وضاحكة ومستبشرة خبران آخران لوجوه (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ) الواو عاطفة ووجوه مبتدأ ويومئذ ظرف أضيف لمثله متعلق بترهقها وعليها خبر مقدم وغبرة مبتدأ

مؤخر والجملة خبر وجوه وجملة ترهقها قترة خبر ثان لوجوه وترهقها فعل مضارع ومفعول به مقدم وقترة مبتدأ مؤخر (أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أولئك مبتدأ وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان والكفرة الفجرة خبران لأولئك أو لهم والجملة خبر أولئك .

البلاغة :

الإسناد المجازي في قوله : (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) إسناد مجازي ، فقد أسند تعالى الشق إلى نفسه من باب إسناد الفعل إلى السبب وقيل الإسناد حقيقي وإن القول بمجازيته هو من أقوال المعتزلة ، ولكن البيضاوي نفسه يتبع الزمخشري في مجازية الإسناد فيقول : أسند الشق إلى نفسه تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، والحق مع الزمخشري في هذا فإن مجازيته لا تعني أن أفعال العباد مخلوقة لهم لأن الفعل إنما يسند حقيقة لمن قام به لا لمن أوجده فالاعتراض عليه تعسّف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 374 . 387﴾

(217/803)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

وَلِجَمَاعَةِ مِنْ الْفُضَلَاءِ كَلَامٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ ﴿ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾

لِمَ ابْتَدَأَ بِالْأَخِ وَمِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنْ يُبْدَأَ بِالْأَهَمِّ ؟

فَلَمَّا سُئِلْت عَنْ هَذَا قُلْت : إنَّ الِابْتِدَاءَ يَكُونُ فِي كُلِّ مَقَامٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ فَتَارَةً يَقْتَضِي الِابْتِدَاءَ بِالْأَعْلَى وَتَارَةً بِالْأَدْنَى وَهُنَا الْمُنَاسَبَةُ تَقْتَضِي الِابْتِدَاءَ بِالْأَدْنَى لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ فِرَارِهِ عَنْ أَقَارِبِهِ مُفَصَّلًا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَلَوْ ذَكَرَ الْأَقْرَبَ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِ الْأَبْعَدِ فَائِدَةٌ طَائِلَةٌ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إذَا فَرَّ مِنْ الْأَقْرَبِ فَرَّ مِنْ الْأَبْعَدِ وَلَمَا حَصَلَ لِلْمُسْتَمِعِ اسْتِشْعَارُ الشِّدَّةِ مُفَصَّلَةً فَابْتُدِئَ بِنَفْيِ الْأَبْعَدِ مُنْتَقِلًا مِنْهُ إلَى الْأَقْرَبِ فَقِيلَ أَوَّلًا . ﴿ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ ثَمَّ شِدَّةً تُوجِبُ ذَلِكَ . وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ غَيْرِهِ وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَفِرَّ . فَقِيلَ ﴿ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ الشِّدَّةَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ بِحَيْثُ تُوجِبُ الْفِرَارَ مِنْ الْأَبَوَيْنِ . ثُمَّ قِيلَ ﴿ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ فَعُلِمَ أَنَّهَا طَامَّةٌ بِحَيْثُ تُوجِبُ الْفِرَارَ

(218/803)

مِمَّا لَا يَفِرُّ مِنْهُمْ إلَّا فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ وَهِيَ الزَّوْجَةُ وَالْبَنُونَ وَلَفْظُ صَاحِبَتِهِ أَحْسَنُ مِنْ زَوْجَتِهِ . قُلْت : فَهَذَا فِي الْخَبَرِ وَنَظِيرُهُ فِي الْأَمْرِ قَوْلُهُ : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ فَإِنَّ الْوَاجِبَاتِ نَوْعَانِ عَلَى التَّرْتِيبِ . فَيُقَدَّمُ فِيهِ الْأَعْلَى فَالْأَعْلَى كَمَا فِي كَفَّارَةِ الظِّهَارِ

وَالْقَتْلِ وَالْيَمِينِ وَعَلَى التَّخْيِيرِ فَابْتَدَأَ فِيهَا بِأَخَفِّهَا لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ كَانَ مُجْزِيًا لَا نَقْصَ فِيهِ وَإِنْ ذَكَرَ الْأَعْلَى بَعْدَهُ لِلتَّرْغِيبِ فِيهِ لَا لِلْإِيجَابِ فَانْتِقَالُ الْقَلْبِ مِنْ الْعَمَلِ الْأَدْنَى إلَى الْأَعْلَى أَوْلَى مِنْ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْأَعْلَى ثُمَّ يُذْكَرُ لَهُ الْأَدْنَى فَيَزْدَرِيهُ الْقَلْبُ . وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ الْأَعْلَى ابْتِدَاءً كَانَ لَنَا فِي تَرْتِيبِهِ رِوَايَتَانِ وَإِذَا نَصَرْنَا الْمَشْهُورَ قُلْنَا قَدَّمَ فِيهِ الْأَعْلَى لِأَنَّ الْأَدْنَى بِقُدْرَتِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ . وَلِهَذَا لَمَّا ابْتَدَأَ بِالْأَثْقَلِ فِي حُدُودِ الْمُحَارِبِينَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا عَلَى التَّخْيِيرِ وَلَا عَلَى التَّرْتِيبِ ؛ بَلْ بِحَسَبِ الْجَرَائِمِ وَلَيْسَ فِي لَفْظِ الْآيَةِ مَا يَقْتَضِي التَّخْيِيرَ كَمَا يَتَوَهَّمُهُ طَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ الْوَاجِبُ أَوْ الْجَزَاءُ هَذَا

(219/803)

أَوْ هَذَا أَوْ هَذَا كَمَا قَالَ : فَكَفَّارَتُهُ هَذَا أَوْ هَذَا أَوْ هَذَا وَكَمَا قَالَ : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ : إنَّمَا جَزَاؤُهُمْ هَذَا أَوْ هَذَا أَوْ هَذَا فَالْكَلَامُ فِيهِ نَفْيٌ وَإِثْبَاتٌ : تَقْدِيرُهُ : مَا جَزَاؤُهُمْ إلَّا أَحَدُ الثَّلَاثَةِ كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ أَيْ مَا هِيَ إلَّا لِهَؤُلَاءِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْخِطَابِ يُثْبِتُ لِلْمَذْكُورِ مَا نَفَاهُ عَنْ غَيْرِهِ فَلَمَّا نَفَى الْجَوَازَ لِغَيْرِ الْأَصْنَافِ أَثْبَتَ الْجَوَازَ لَا الْوُجُوبَ وَلَا

الِاسْتِحْقَاقِ كَمَا فَهِمَهُ مَنْ اعْتَقَدَ وُجُوبَ الِاسْتِيعَابِ مِنْ ظَاهِرِ الْخِطَابِ وَهُنَا نَفَى أَنْ يَكُونَ مَا سِوَى أَحَدِ هَذِهِ جَزَاءً فَأَثْبَتَ أَنْ يَكُونَ جَزَاءُ الْمُحَارِبِ أَحَدَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ .

وَالْمُحَارِبُونَ جُمْلَةً لَيْسُوا وَاحِدًا فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ . الْآيَةِ وَبَيْنَ الْآيَتَيْنِ مِنْ وُجُوهٍ :

أَحَدُهَا : أَنَّ الْمُحَارِبِينَ ذُكِرُوا بِاسْمِ الْجَمْعِ وَمُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ تَقْتَضِي تَوْزِيعَ الْأَفْرَادِ عَلَى الْأَفْرَادِ فَلَوْ قِيلَ : جَزَاءُ الْمُعْتَدِينَ إمَّا الْقَتْلُ وَإِمَّا الْقَطْعُ وَإِمَّا الْجَلْدُ وَإِمَّا الصَّلْبُ وَإِمَّا الْحَبْسُ : لَمْ يَقْتَضِ هَذَا التَّخْيِيرَ فِي كُلِّ مُعْتَدٍ بَيْنَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ بَلْ تَوْزِيعُ الْعُقُوبَاتِ عَلَى أَنْوَاعِهِمْ كَذَلِكَ إذَا قِيلَ : جَزَاءُ الْمُحَارِبِينَ كَذَا أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ ﴾

(220/803)

الثَّانِي : أَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْيُ جَوَازِ مَا سِوَى [ذَلِكَ] (1) وَإِثْبَاتُ ضِدِّهِ وَهِيَ جَوَازُ الْمَذْكُورِ فِي الْجُمْلَةِ وَذَلِكَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُخَيَّرًا أَوْ مُعَيَّنًا بِخِلَافِ مَا إذَا لَمْ يَكُنْ الْمَقْصُودُ إلَّا مُجَرَّدَ الْإِثْبَاتِ ؛ فَإِنَّ إثْبَاتَهُ بِصِيغَةِ التَّخْيِيرِ يَدُلُّ عَلَيْهِ . وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي مَوَادِّ الْإِثْبَاتِ الْمَحْضِ أَوْ مَوَادِّ الْحَصْرِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْخَصْمِ الْمُدَّعِي : ﴿ شَاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ ﴾ وَفِي لَفْظٍ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إلَّا ذَلِكَ ﴾ فَحَصَرَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَلَيْسَ الْغَرَضُ التَّخْيِيرَ .

وَكَذَلِكَ يُقَالُ : الْوَاجِبُ فِي الْقَتْلِ الْقِصَاصُ أَوْ الدِّيَةُ وَلَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إلَّا بِوُضُوءٍ أَوْ تَيَمُّمٍ وَلَا بُدَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ الظُّهْرِ أَوْ الْجُمُعَةِ وَلَا يُتْرَكُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ إلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُعَاهَدٌ وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ إذَا كَانَ بَعْضُ الْمَقْصُودِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ نَفْسَ مَا سِوَى الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ كَانَ مَدْلُولُهُ إثْبَاتًا يَقْتَضِي النَّفْيَ وَهُوَ الْوُجُودُ الْمُشْتَرَكُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهَا أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَيَّنًا أَوْ مُخَيَّرًا وَأَمَّا إذَا أُثْبِتَتْ ابْتِدَاءً فَلَوْ لَمْ تَكُنْ مُخَيَّرَةً بَلْ مُعَيَّنَةً وَلَمْ يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ كَانَ تَلْبِيسًا . "الْوَجْهُ الثَّالِثُ" وَهُوَ لَطِيفٌ أَنْ يُقَالَ : مَفْهُومُ (أَوْ) إثْبَاتُ التَّقْسِيمِ الْمُطْلَقِ كَمَا قُلْنَا : إنَّ الْوَاوَ مَفْهُومُهَا التَّشْرِيكُ الْمُطْلَقُ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فَأَمَّا التَّرْتِيبُ : فَلَا يَنْفِيهِ

(221/803)

وَلَا يُثْبِتُهُ ؛ إذْ الدَّالُّ عَلَى مُجَرَّدِ الْمُشْتَرَكِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمُمَيَّزِ فَكَذَلِكَ (أَوْ) هِيَ لِلتَّقْسِيمِ الْمُطْلَقِ وَهُوَ ثُبُوتُ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ مُطْلَقًا وَذَلِكَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى سَبِيلِ التَّخْيِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِ . أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّرْتِيبِ أَوْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْزِيعِ وَهُوَ ثُبُوتُ هَذَا فِي حَالٍ وَهَذَا فِي حَالٍ كَمَا أَنَّهُمْ قَالُوا : هِيَ فِي الطَّلَبِ يُرَادُ بِهَا الْإِبَاحَةُ تَارَةً كَقَوْلِهِمْ : تَعَلَّمْ النَّحْوَ أَوْ الْفِقْهَ وَالتَّخْيِيرُ أُخْرَى . كَقَوْلِهِمْ : كُلْ السَّمَكَ أَوْ اللَّبَنَ وَأَرَادُوا بِالْإِبَاحَةِ جَوَازَ الْجَمْعِ . وَهِيَ فِي

نَفْسِهَا تُثْبِتُ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ وَهُوَ أَحَدُ الِاثْنَيْنِ . إمَّا مَعَ إبَاحَةِ الْآخَرِ أَوْ حَظْرِهِ فَلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِنَفْسِهَا بَلْ مِنْ جِهَةِ الْمَادَّةِ الْخَاصَّةِ ؛ وَلِهَذَا جَمَعْنَا بَيْنَ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَطْعِ عَلَى رِوَايَةٍ فَإِنَّ (أَوْ لَا تَنْفِي ذَلِكَ فَإِذَا كَانَ حَرْفٌ أَوْ يَدُلُّ عَلَى مُجَرَّدِ إثْبَاتِ أَحَدِ الْمَذْكُورَاتِ فَهُنَا مَسْلَكَانِ : " أَحَدُهُمَا " أَنْ يُقَالَ : إذَا كَانَتْ فِي مَادَّةِ الْإِيجَابِ أَفَادَتْ التَّخْيِيرَ وَإِذَا كَانَتْ فِي مَادَّةِ الْجَوَازِ أَفَادَتْ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ عَنْ النُّحَاةِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي مَعَانِي الْحُرُوفِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : يُرَادُ بِهَا تَارَةً الْإِذْنُ فِي أَحَدِ الشَّيْئَيْنِ مَعَ حَظْرِ الْآخَرِ وَتَارَةً الْإِذْنُ فِي أَحَدِهِمَا وَإِنْ ضَمَّ إلَيْهِ الْآخَرَ كَمَا ذَكَرُوهُ مِنْ الْأَمْثِلَةِ . وَحِينَئِذٍ فَهَذِهِ الْآيَةُ فِي مَادَّةِ الْجَوَازِ لِأَنَّ الْمَنْفِيَّ هُوَ الْجَوَازُ . فَيَكُونُ

(222/803)

الْمُثْبَتُ هُوَ الْجَوَازُ كَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ بِخِلَافِ آيَةِ الْكَفَّارَةِ ؛ فَإِنَّهَا فِي مَادَّةِ الْوُجُوبِ . " الْمَسْلَكُ الثَّانِي " أَنْ يُقَالَ : لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَادَّتَيْنِ الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ ؛ بَلْ وَفِي الْوُجُوبِ قَدْ يُبَاحُ الْجَمْعُ . كَمَا لَوْ كَفَرَ بِالْجَمِيعِ مَعَ الْغِنَى ؛ لَكِنْ يُقَالُ : دَلَالَتُهَا فِي الْجَمِيعِ عَلَى التَّفْرِيقِ الْمُطْلَقِ ضِدُّ دَلَالَةِ (الْوَاوِ . ثُمَّ إنْ لَمْ يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى تَرْتِيبٍ وَلَا تَعْيِينٍ : جَازَ فِعْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْخِصَالِ لِعَدَمِ مَا يَدُلُّ عَلَى التَّعْيِينِ وَالتَّرْتِيبِ لَا لِلدَّلِيلِ الْمُنَافِي لِذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ :

﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فَإِنَّ الرَّقَبَةَ الْمُعَيَّنَةَ يَجْزِي عِتْقُهَا ؛ كَثُبُوتِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ فِيهَا وَعَدَمِ مَا يُوجِبُ الْمُعَيَّنَ لَا لِدَلِيلٍ دَلَّ عَلَى نَفْسِ الْمُعَيَّنِ ؛ وَإِنْ دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى التَّعْيِينِ وَالتَّرْتِيبِ : قُلْنَا بِهِ كَمَا نَقُولُ بِتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ وَلَيْسَ تَقْيِيدُ الْمُطْلَقِ رَفْعًا لِظَاهِرِ اللَّفْظِ بَلْ ضَمُّ حُكْمٍ آخَرَ إلَيْهِ وَهَذَا مَسْلَكٌ حَسَنٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَنَظَائِرِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ مَا يُثْبِتُهُ اللَّفْظُ وَبَيْنَ مَا يَنْفِيهِ فَإِذَا قُلْنَا فِي الْمُحَارِبِينَ بِالتَّعْيِينِ لِدَلِيلٍ خَبَرِيٍّ أَوْ قِيَاسِيٍّ كَانَ كَالْقَوْلِ بِالتَّرْتِيبِ فِي الْوُضُوءِ وَالْإِيمَانِ فِي الرَّقَبَةِ وَنَحْوِهِمَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 79.74 ﴾

(223/803)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/804)

الجزء الرابع بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التكوير)

(4/804)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التكوير)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة التكوير

مقصودها التهديد الشديد بيوم الوعيد الذي هو محط الرحال ، لكونه أعظم مقام لظهور الجلال ، لمن طذب بأن هذا القرآن تذكرة لمن ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة ، والدلالة على حقية كونه كذلك بأن السفير به أمين في الملأ الأعلى مكين المكانف فيما هنالك والموصل بعه إلينا منزه عن التهمة برئ من النقص لما يعلمونه من حاله قبل النبوة وما كانوا يشهدون له به من أمره ولم يأتهم بعدها إلا بما هو شرف له وتذكير بما في أنفسهم وفي الآفاق ومن الآيات ، وذلك كاف لهم في الحكم بأنه صدق والعم اليقين بأنه حق ، واسمها التكوير أدل ما فيها على ذلك بتأمل الظرف وجوابه وما فيه من بديع القول وصوابه ، وما تسبب عنه من عظم الشأن لهذا القرآن

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 335 ﴾

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا الشمس كورت)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها تسع وعشرون فى عدّ الجميع ، وثمان فى عدّ أَبى جعفر ، أَسقط أَبو جعفر ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ وكلماتها مائة وأَربعون .

وحروفها خمسمائة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها (تسنَّم) .

تسمّى سورة كُوِّرت ، وسورة التكوير ؛ لمفتتحها .

مقصود السّورة : بيان أَحوال القيامة ، وأَهوالها ، وذِكر القَسَم بأَنَّ جبريل أَمين على الوحى ، مكِينٌ عند ربّه ، وأَنَّ محمّدًا – صلَّى الله عليه وسلَّم – لأمتّهم ولا بخيل بقول الحقِّ ، وبيان حقيقة المشيئة والإِرادة فى قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

المنسوخ فيها آية واحدة : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ [م] وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ ن .

المتشابهات

قوله : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ ، وفى الانفطار : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ ؛ لأَنَّ معنى

﴿ سُجِّرَتْ ﴾ عند أَكثر المفسّرين : أُوقدت ، فصارت ناراً ، من قولهم : سجّرت التنوّرة .

وقيل : بحار جهنَّم تُملأُ حميماً ، فيعذَّبُ بها أَهلُ النَّار .

فخُصّت هذه السّورة بسُجّرت ؛ موافقةً لقوله تعالى ﴿ سُعِّرَتْ ﴾ ليقع الوعيد بتسعير النار وتسجير البحار ، وفى الانفطار وافق قوله : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أَى تساقطت ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ أَى سالت مياهها ففاضت على وجه الأَرض ، ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ : قلبت وأُثيرت .

وهذه أَشياءُ كلّها زالت [عن] أَماكِنها ، فلاقت كلُّ واحدة قرائنَها .

(7/804)

قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ ، وفى الانفطار ﴿ قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ ، لأَنَّ ما فى هذه السّورة متَّصل بقوله : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ فقرأَها رَبابها ، فعلمت ما أَحضرت ، وفى الانفطار متَّصل بقوله : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ والقبور كانت فى الدنيا فتتذكر ما قدّمت فى الدّنيا ، وما أَخَّرت فى العُقْبى ، وكلّ خاتمة لائقة بمكانها .

وهذه السّورة من أَوّلها إلى آخرها شرط وجزاء ، وقسم وجواب .

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث الواهية حديث أُبيّ : مَنْ أَحبّ أَن ينظر إِلى يوم القيامة فليقرأ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، ومن قرأَها أَعاذه الله أَن يفضحه حين ينشر صحيفته ، وحديث على : يا عليّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب الصّالحين ، وله بكلّ آية ثوابُ عِتْق رقبةٍ ، ووجدت فى بعض الحواشى عن بعض المفسرين : مَنْ لدغته العقربُ يقرأ ثلاث مرّات ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، وينفُخها فى ماء ، ثمّ يشربه ، يسكنْ فى الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 503.504 ﴾

(8/804)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة التكوير

465.مسألة :

قوله تعالى (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6)

وفى سورة انفطرت

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) .

جوابه :

جاء هنا (سُجِّرَتْ) لتناسب (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) .

قيل : تسجر فتصير نارا فتسجر بها جهنم .

وآية انفطرت : مناسبة لبقية الآيات ، لأن معناه : تغبير أوصاف تلك الأشياء عن حالاتها ، وتنقلها عن أماكنها ، فناسب ذلك انفجار البحار لتغيرها عن حالها مع بقائها .

466 – مسألة : .

قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) وفى الأخرى : (مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) ؟ .

جوابه :

مع تنويع الخطاب فإن " أَحْضَرَتْ " مطلقا في الأعمال والصحائف والجزاء وقوله تعالى : (قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) تفصيل لتلك الأعمال . وقيل : ما قدمته للدنيا وأخرته للآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 373. 375﴾

(9/804)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة التكوير

لم يثبت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه سماها تسمية صريحة ، وفي حديث الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (مَنْ سَرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عين فليقرأ إذا الشمس كُورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت) وليس هذا صريحاً في التسمية لأن صفة يوم القيامة ليست في جميع هذه السورة بل هو في الآيات الأول منها ، فتعين أن المعنى : فليقرأ هذه الآيات ، وعنونت في (صحيح البخاري) وفي (جامع الترمذي) (سورة إذا الشمس كُورت) ، وكذلك عنونها الطبري .

وأكثر التفاسير يسمونها (سورة التكْوير) وكذلك تسميتها في المصاحف وهو اختصار لمدلول (كُورت) .

وتسمى (سورة كُورت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها . ولم يعدها في (الإِتقان) مع السور التي لها أكثر من اسم .

وهي مكية بالاتفاق .

وهي معدودة السابعة في عداد نزول سور القرآن ، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى .

وعدد آيها تسع وعشرون .

أغراضها

اشتملت على تحقيق الجزاء صريحاً .

وعلى إثبات البعث وابتُدىء بوصف الأهوال التي تتقدمه وانتقل إلى وصف أهوال تقع عقبه .

وعلى التنويه بشأن القرآن الذي كذبوا به لأنه أوعدهم بالبعث زيادة لتحقيق وقوع البحث إذا رَمَوا النبي (صلى الله عليه وسلم) بالجنون والقرآن بأنه يأتيه به شيطان . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 139. 140 ﴾

(10/804)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة التكوير

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى حقيقة القيامة , وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل , يشمل الشمس والنجوم

والجبال والبحار , والأرض والسماء , والأنعام والوحوش , كما يشمل بني الإنسان .

والثانية حقيقة الوحي , وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله , وصفة النبي الذي يتلقاه , ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه , ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم ونزلت لهم الوحي .

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقالها . فتقلب كل شيء , وتنثر كل شيء ; وتهيج الساكن وتروع الآمن ; وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود ; وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا , يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه , وتتشبث به , فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار , الذي له وحده البقاء والدوام , وعنده وحده القرار والاطمئنان . .

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن , لتلوذ بكنف الله , وتأوي إلى حماه , وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار . .

وفي السورة – مع هذا – ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة , سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه , أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق , فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء .

ولولا أن في التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارئ في هذا الزمان , لآثرت ترك السورة تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها , مالا تؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر ; وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق .

ولكن لا بد مما ليس منه بد . وقد بعدنا في زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن ! . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3836 . 3837 ﴾

(11/804)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة التكوير

مكية وآياتها تسع وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة التكوير من السور المكية ، وهي تعالج حقيقتين هامتين هما : (حقيقة القيامة) وحقيقة (الوحي والرسالة) وكلاهما من لوازم الإيمان وأركانه .

* ابتدات السورة الكريمة ببيان القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال ، والبحار ، والأرض ، والسماء ، والأنعام ، والوحوش ، كما

يشمل البشر ويهز الكون هزا عنيفا طويلا ، ينتثر فيه كل ما في الوجود ، ولا يبقى شيء إلا قد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب [إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت] الآيات .

* ثم تناولت (حقيقة الوحي) وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي ، والرسول الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور العلم والإيمان [فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين ، حول القرآن العظيم ، وذكرت أنه موعظة من الله تعالى لعباده [فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم [وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 523 ﴾

(12/804)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة التكوير

تكوير الشمس : لفها كتكوير العمامة والمراد منه اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوئها ، وانكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى ضوؤها ، وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التي تزلزل الأرض ، فتقطّع أوصالها وتفصل منها أجبالها ، وتقذفها فى الفضاء والعشار : واحدها عشراء (بضم العين وفتح الشين) وهى الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى المخاطبين وقت التنزيل ، قال الأعشى فى المدح :

هو الواهب المائة المصطفا ة إما مخاضا وإما عشارا

وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم الهول وشدة الكرب ، حشرت : أي ماتت وهلكت ، وتسجير البحار : تفجير الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحرا واحدا ، زوّجت : أي قرنت الأرواح بأجسادها ، الموءودة : هى التي دفنت وهى صغيرة ، وقد كان ذلك عادة فاشية فيهم فى الجاهلية ، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا حتى افتخر بذلك الفرزدق فقال :

ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم توءد

يريد جدّه صعصعة ، وكان يشتريهن من آبائهن ، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة ،

والمراد بالصحف صحف الأعمال التي تنشر على العباد حين يقفون للحساب ، كشطت : أي كشفت وأزيلت عما فوقها كما يكشط جلد الذبيحة عنها ، سعرت : أي أوقدت إيقادا شديدا ، أزلفت : أي أدنيت من أهلها وقربت منهم ، ما أحضرت : أي ما أعدّ لها من خير أو شر .

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخفى يقال خنس فلان بين القوم إذا انقبض واختفى ، والكنّس واحدها كانس أو كانسة من قولهم : كنس الظبى إذا دخل كناسه وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر والمراد بالخنس الجوار الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها : غيبوبتها عن البصر نهارا ، وكنوسها : ظهورها للبصر ليلا ، فهى تظهر فى أفلاكها ، كما تظهر الظباء فى كنسها .

(13/804)

وعسعس : أي أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر نوره ، قال علقمة بن قرط :

حتى إذا الصبح لها تنفّسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

والرسول : هو جبريل عليه السلام ، وكريم : أي عزيز على اللّه ، ذى قوة : أي فى حفظه ، مكين : أي ذى مكانة وجاه عند ربه يعطيه ما سأله يقال مكن فلان لدى

فلان إذا كانت له عنده حظوة ومنزلة ، ثمّ (بفتح الثاء) أي هناك ، أمين :

أي على وحيه ورسالاته ، صاحبكم : هو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، بالأفق المبين :

أي بالأفق الواضح ، وضنين : أي بخيل ، رجيم : أي مرجوم مطرود من رحمة اللّه ، فأين

تذهبون : أي أيّ مسلك تسلكون وقد قامت عليكم الحجة ، أن يستقيم :

أي على الطريق الواضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 52.

58 ﴾ . باختصار .

(14/804)

وقال الفراء :

سورة (التكوير)

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . . . ﴾ ذهب ضوءُها .

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: [/1] ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ . . . ﴾ .

أى: انتثرت وقعت على وجه الأرض .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ . . . ﴾ .

والعشار: لُقُح الإبل عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى أبو الأحوص سلام إبن سليم عن سعيد بن مسروق عن عكرمة قال: حشرها : موتها .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . . . ﴾ .

أفضى بعضها إلى بعض فصارت بحرا واحدا .

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى أبو الأحوص سلام ابن سليم عن سعيد بن مسروق أبى سفيان عن عكرمة فى قوله: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال: يقرن الرجل بقرينه الصالح فى الدنيا فى الجنة ، ويقرن الرجل الذى كان يعمل العمل السيء بصاحبه الذى كان يعينه على ذلك فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

قال الفراء: وسمعت بعض العرب يقول: زوجت إبلى، ونهى الله أن يقرن بين اثنين، وذلك أن يقرن البعير بالبعير فيعتلفان معا، ويرحلان معا.

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى حِبَّان عن الكلبى عن أبى صالح عن أبيه عن ابن عباس، وحدثنى على بن غراب عن ابن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. . . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ. . . ﴾ وقال: هى التى تسأل ولا تسأل

(15/804)

وقد يجوز أن يَقرأ: ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾، والمعنى: بأى ذنب قُتِلْتُ. كما تقول فى الكلام: عبد الله بأى ذنب ضرِبَ، وبأى ذنب ضُرِبْتُ. وقد مرّ له نظائر من الحكاية، من ذلك [/ب] قول عنترة:

الشاتِمى عِرضى ولم أشتمها * والناذرين إذا لقيتهما دمى

والمعنى: أنهما كانا يقولان: إذا لقينا عنترة لنقتلنه. فجرى الكلام فى شعره على هذا المعنى واللفظ مختلف، وكذلك قوله

رَجْلان من ضَبة أخبرانا * إنا رأينا رجلا عريانا

والمعنى: أخبرانا أنهما ، ولكنه جرى على مذهب القول ، كما يقول: قال عبد الله: إنه إنه لذاهب وإنى ذاهب ، والذهاب له فى الوجهين جميعا .

ومن قرأ: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . . . ﴾ ففيه وجهان: سئلتْ: فقيل لها : ﴿ بِأَيِّ ذَنب قُتلتِ . . . ﴾ ثم يجوز قُتلتْ . كما جاز فى المسألة الأولى ، ويكون سئلت: سئل عنها الذين وأدُوها . كأنك قلت: طلبتْ منهم ، فقيل: أين أولادُكم ؟ وبأى ذنب قتلتموهم ؟ وكل الوجوه حسنٌ بيّنٌ إلاَّ أن الأكثر (سُئلتْ) فهو أحبُّها إلىّ .

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . . . ﴾ .

شدّدها يحيى بن وثاب ، وأصحابه ، وخففها آخرون من أهل المدينة وغيرهم . وكلٌّ صواب ، قال الله جل وعز: ﴿ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ ، فهذا شاهد لمن شدّد ، ومنشورة عربى ، والتشديد فيه والتخفيف لكثرته ، وأنه جمع ؛ كما تقول: مررت بكباش مذبّحة ، ومذبوحةٍ ، فإذا كان واحدا لم يجز إلا التخفيف ، كما تقول: رجل مقتول ، ولا تقول: مُقَتَّل .

﴿ وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ . . . ﴾ .

نُزعت وطويت ، وفى [/١] قراءة عبد الله: "قشطت" بالقاف ، وهما لغتان ، والعرب تقول: القافور والكافور ، والقَفُّ والكَفُّ. إذا تقارب الحرفان فى المخرج تعاقبا فى اللغات: كما يقال: جدف ، وجدث ، تعاقبت الفاء الثاء فى كثير من الكلام ، كما قيل: الأثافى والأثائى ، وثوب فُرْقبى وثُرقبى ، ووقعوا فى عاثورِ شَرّ ، وعافور شر .

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . . . ﴾ .

خففها الأعمش وأصحابه ، وشددها الآخرون .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ . . . ﴾ .

جواب لقوله: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ولما بعدها ، ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ قربت .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . . . ﴾ .

وهى النجوم الخمسة تَخنُس فى مجراها ، ثم ترجع وتكنِس: تستتر كما تكنس الظباء فى المغار ، وهو الكِناسُ . والخمسة: بَهرام ، وزُحَل ، وعُطارد ، والزُّهَرة ، والمشترى .

وقال الكلبى: البِرْجيس: يعنى المشترى .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . . . ﴾ .

اجتمع المفسرون: على أن معنى "عسعس": أدبر: وكان بعض أصحابنا يزعم أن عسعس: دنا من أوله وأظلم، وكان أبو البلاد النحوى ينشد فيه

عَسْعَسَ حتى لو يشاءُ ادّنا * كان له من ضوئِهِ مَقْبسُ

يريد: إذ دنا، ثم يلقى همزة إذ، ويُدغم الذال فى الدال، وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع.

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . . . ﴾ .

إذا ارتفع النهار، فهو تنفس الصبح.

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . . . ﴾ .

يعنى: جبريل صلى الله عليه، وعلى جميع الأنبياء.

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . . . ﴾ [/ب].

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس بن الربيع عن عاصم ابن أبى النجود عن زر بن حبيش قال: أنتم تقرءون: (بضنين) ببخيل، ونحن نقرأ (بظنين) بِمتَّهم. وقرأ عاصم وأهل الحجاز وزيد بن ثابت (بضنين) وهو حسن، يقول: يأتيه غيب السماء، وهو منفوس فيه فلا يضن به عنكم، فلو كان مكان: على - عن - صلح أو الباء كما تقول: ما هو بضنين بالغيب. والذين قالوا: بظنين. احتجوا بأن على تقوّى قولهم، كما تقول: ما أنت على فلان بمتهم، وتقول: ما هو على الغيب بظنين: بضعيف، يقول: هو محتمل له، والعرب تقول للرجل الضعيف أو الشىء القليل: هو ظنون. سمعت بعض قضاعة يقول: ربما دلّك على الرأى الظنون، يريد: الضعيف من الرجال، فإن يكن معنى ظنين: ضعيفاً، فهو كما قيل: ماءٌ شريب، وشروب، وقرونى، وقرينى، وسمعت: قرونى وقرينى، وقرُونتى وقرينتى - إلا أنّ الوجه ألاّ تدخِل الهاء. وناقة طعوم وطعيم، وهى التى بين الغثّة والسمينة.

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . . . ﴾.

العرب تقول: إلى أينَ تذهب؟ وأينَ تذهب؟ ويقولون: ذهبت الشامَ، وذهبت السوق، وانطلقت الشام، وانطلقت السوق، وخرجت الشام - سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة:

خرجت ، وانطلقت ، وذهبت . وقال الكسائى: سمعت العرب تقول: انطُلِقَ به الفورَ ، فتنصب على معنى إلقاء الصفة ، وأنشدنى بعض بنى عُقَيل .

تَصيحُ بنا حَنيفةُ إذ رأتنا * وأىّ الأرض تذهبُ للصِّياح

يريد : إلى أى الأرض تذهب [/ا] واستجازوا فى هؤلاء الأحرف إلقاءَ (إلى) لكثرة استعمالهم إياها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 239. 243 ﴾

(18/804)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة التكوير

[التكوير]: [التلفيف] على جهة الاستدارة ، من كور العمامة . أي: طويت الشمس .

(انكدرت) [2] انقضت . (وإذا العشار) [4] جمع العشراء ، وهي الناقة أتت من لقاحها عشرة أشهر ، وهي أعز أموالهم ، قال: 1386- فإن تنكحوني بنت هند فإنني سأمنحها ألفي مشوف على الصدر

1387- وأنحر من كوم العشار قلائصاً تفري المدى منها الملوى من النحر . (عطلت) [4] أهملت . (سجرت) [6] ملئت ناراً . (زوجت) [7] ضم الشكل إلى شكله . قال

عمر رضي الله عنه: "الفاجر مع الفاجر، والصالح مع الصالح".

وقيل: قرنت بجزائها وأعمالها. (وإذا الموءودة) [8] المثقلة بالتراب. قال قتادة: "كان أحدهم يقتل بنته، ويغذو كلبه، فأبى الله ذلك عليهم". (كشطت) [11] الكشط: النزع عن شدة التزاق. (علمت نفس ما أحضرت) [14] أي: عملت من خير وشر. (فلا أقسم بالخنس) [15] الخمسـ[ـة] السيارة، لأنها تخنس/في سيرها و[تتردد] في مواضعها، وربما [وقفت] مدة، أو رجعت القهقرى. ومعنى رجوعها: مسيرها إلى خلاف التوالي في أسافل التدوير، فترى متحركة إلى خلاف التدوير. ومعنى وقوفها: إبطاؤها في حالتي الاستقامة والرجوع حتى يبلغ حد الوقوف على الحركة بالرؤية [شكاً] في ما يرى من مسير جرمها على محيط التدوير إلى خلاف التوالي، ومسير مركز التدوير إلى التوالي.

(الجواري الكنس) [16] ويستتر العلوي منها بالسفلي عند القرانات، كما تستتر الظباء [في] كنايسها، كما قال أوس: 1388 - ألم تر أن الله أنزل مزنة وعفر الظباء في الكناس تقمع. لفظ (الكنس) تضمنت أبواباً عظيمة من علم التنجيم. منها: باب الاجتماع، وباب الكسوف، وباب القرانات، وباب اختلاف المناظر، وباب مقادير الأقطار في المناظر، وباب دقائق السقوط والمكث، وباب الانحرافات، وباب الحال المسماة طرف الليل، وباب الاحتراق، وباب التصميم،

وباب تحت الشعاع ، إلى غير ذلك مع كثرة الفصاحة ، وحسن الموازنة بين "الخنس" و"الكنس" .

(19/804)

(والليل إذا عسعس) [17] أظلم وأدبر ، من الأضداد . قال الراجز: 1389- حتى إذا ما ليلهن عسعسا 1390- ركبن من حد الظلام حندسا . [وقال]: 1391- حتى إذا الصبح لها تنفسا 1392- وانجاب عنها ليلها وعسعسا .

(وما هو على الغيب بظنين) [24] بمتهم ، كما قال الشماخ: 1393- كلا يومي طوالة وصل أروى ظنين آن مطرح الظنين/1394- وما أروى ولو كرمت علينا بأدنى من [موقفة حرون]

وقيل: معناه ليس بضعيف ، كما قال الرياحي: 1395- وإن علالتي وجراء حول لذو شق على الضرع الظنين 1396- عذرت البزل إن هي صاولتني فما بالي وبال ابني لبون .

[تمت سورة التكوير] . انتهى انتهى . اهـ ﴿باهر البرهان صـ 1630.1639﴾

(20/804)

وقال الأخفش :

سورة (التكوير)

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾

قال ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ وواحدتها "العُشَراءُ" مثل "النُفَسَاء" و"النِفاسُ" للجميع .

وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد الثامن والسبعون بعد المئتين]:

رُبَّ شريبٍ لَك ذي حُساس * ريانَ يَمْشِي مِشْيَةَ النِّفَاسِ

ويقال: "النُّفاس" .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾

وقال بعضهم ﴿ سُجِرَتْ ﴾ وخَفَّفَها بعضهم واحتج بـ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ والوجه التثقيل [183] لأن ذلك اذا كسر جاء على هذا المثال يقل "قُطِّعُوا" و"قُبِّلوا" ولا يقال للواحد "قُطِّعَ" يعني يده ولا "قُتِّلَ" .

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾

وقال ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ "وَأَدَهُ" "يَئِدُهُ" "وَأْداً" مثل "وَعَدَهُ" "يَعِدُهُ" "وَعْداً" العين نحو الهمزة.

وقال ﴿ سُئِلَتْ ﴾ ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ وقال بعضهم ﴿ سَأَلَتْ ﴾ هي .

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾

وقال ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ خفيفة وثقَّل بعضهم لأنّ جرّها شُدِدّ عليهم .

﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾

وقال ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ فواحدها "كانِس" و[الجمع]* "كُنَّس" كما تقول: "عاطِل" و"عُطَّل" .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾

وقال ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ يقول "أي: ببخيل" وقال بعضهم ﴿ بِظَنِينٍ ﴾ أي: بمتَّهَم لأن بعضَ العربِ يقول "ظننت زيدا" فـ"هو ظنين" أي: اتَّهَمْتهُ فـ"هو مُتَّهَم" . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 568 ﴾

(21/804)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة التكوير

«1»

1 - كُوِّرَتْ قال أبو عبيدة : «تكوّر - أي تلفّ - كما تكوّر العمامة» .

وقال بعض المفسرين : «كوّرت» أي ذهب ضوؤها .

2 - انْكَدَرَتْ : انتثرت وانصبّت .

4 - والْعِشارُ من الإبل : الحوامل . واحدتها : «عشراء» ، وهي : التي اتي عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعد ما تضع .

يقول : عطّلها أهلها من الشغل بأنفسهم .

6 - سُجِّرَتْ : ملئت . يقال : يفضي بعضها إلى بعض ، فتصير شيئا واحدا .

7 - وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ : قرنت بأشكالها في الجنة والنار .

8 - والْمَوْؤُدَةُ : البنت تدفن حية .

11 - وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ أي نزعت فطويت كما يقشط الغطاء عن الشيء .

---

(1) هي مكية . وتسمى سورة إذا الشمس كورت .

(22/804)

وَكَأْساً دِهاقاً أي مترعة ملأى .

13 - أُزْلِفَتْ : أدنيت .

15 - و16 - وبِالْخُنَّسِ [الْجَوارِ الْكُنَّسِ] : النجوم الخمسة الكبار ، لأنها تخنس - أي

ترجع في مجراها - وتكنس - [أي] تستتر - كما تكنس الظّباء [في المغار، وهو: الكناس].

17 - وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ قال ابو عبيدة: إذا أقبل ظلامه.

وقال غيرة: إذا أدبر.

24 - وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ، أي بمتّهم على ما يخبر به عن اللّه عز وجل.

ومن قرأ: بِضَنِينٍ، أراد: ببخيل. أي ليس بخيل عليكم، يعلّم ما غاب عنكم: مما ينفعكم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 441.442﴾

(23/804)

وقال الغزنوى:

[سورة التكوير]

1 كُوِّرَتْ: طويت «1».

2 انْكَدَرَتْ: انقضت «2».

6 سُجِّرَتْ: ملئت نارا «3».

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 287، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 516،

وتفسير الطبري : 30/ 64 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 289 . [. . . . .]

(2) تفسير البغوي : 4/ 451 ، وتفسير القرطبي : 19/ 227 ، واللسان : 5/ 135 (كدر) .

(3) ينظر تفسير الطبري : 30/ 67 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 290 ، والمفردات للراغب : 224 ، واللسان : 4/ 345 (سجر) .

(24/804)

---

7 زُوِّجَتْ : ضمّ الشّكل إلى شكله ، الفاجر مع الفاجر/ والصّالح مع [105/ ب] الصّالح «1» . وقيل «2» : قرنت بجزائها وأعمالها .

8 الْمَوْؤُدَةُ : المثقلة بالتراب .

11 كُشِطَتْ : «الكشط» : النزع عن شدّة التزاق «3» .

15 بِالْخُنَّسِ : الخمسة السّيّارة «4» لأنّها تخنس في سيرها وتتردد ، وربّما وقفت مدة أو رجعت القهقرى ، ومعنى رجوعها : مسيرها إلى خلاف التوالي في أسافل التدوير ، ومعنى وقوفها : إبطاؤها [في السير] «5» في حالتي الاستقامة والرجوع «6» .

16 الْجَوارِ الْكُنَّسِ : أي : تكنس وتستتر العلوي منها بالسّفلي عند

(1) أخرج عبد الرازق نحو هذا القول في تفسيره : 2/ 351 عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ، وكذا الطبري في تفسيره : 30/ 69 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 603 ، كتاب التفسير : «تفسير سورة إذا الشمس كورت» ، قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 429 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وسعيد بن منصور ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في «البعث» ، وأبي نعيم عن عمر رضي اللّه تعالى عنه . واختار الطبري هذا القول وكذا ابن كثير في تفسيره : 8/ 355 .

(2) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 290 ، والماوردي في تفسيره : 4/ 308 ، والبغوي في تفسيره :

4/ 452 ، ونقله الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 70 عن الزجاج.

(3) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 516 ، وتفسير الطبري : 30/ 73 ، وتفسير المشكل لمكي : 377 ، وتفسير القرطبي : 19/ 235 ، واللسان : 7/ 378 (كشط) .

(4) وهي زحل ، وعطارد ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة .

ينظر هذا القول في معاني الفراء : 3/ 242 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 517 ،

وتفسير الطبري : 30/ 74 ، وتفسير القرطبي : 19/ 236 .

(5) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» و«ك» .

(6) راجع هذا المعنى في تفسير البغوي : 4/ 453 ، وزاد المسير : 9/ 42 ، وتفسير الفخر الرازي : 31/ 72 ، وتفسير القرطبي : 19/ 237 .

(25/804)

القرانات كما تستتر الظباء في الكناس «1» .

17 عَسْعَسَ : أظلم «2» .

18 وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ : يقال : تنفّس الصّبح عن ريحانة ، وأنت في نفس من أمرك ، أي : في سعة «3» .

وفي الحديث «4» : «الرّيح نفس الرّحمن» ، أي : تفرّج الكرب وتنشر الغيث «5» .

24 بظنين «6» : بمتّهم «7» . قال ابن سيرين «8» : لم يكن عليّ يظنّ في قتل عثمان ، أي : يتّهم .

وبالضّاد : بخيل «9» ، أي : لا يبخل بأخبار السّماء كما يضنّ الكاهن رغبة في الحلوان .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 866 ـ 868 ﴾

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 242 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 517 ، واللسان : 6/ 198 (كنس) .

(2) معاني الفراء : 3/ 242 ، وتفسير المشكل لمكي : 377 ، وتفسير الماوردي : 4/ 411 ، واللسان : 6/ 139 (عسس) .

(3) ينظر النهاية لابن الأثير : 5/ 93 ، واللسان : 6/ 237 (نفس) .

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 272 ، كتاب التفسير ، «من سورة البقرة» عن أبي بن كعب رضي اللّه عنه موقوفا ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(5) غريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 425 ، والنهاية : 5/ 94 .

(6) بالظاء ، قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، والكسائي ، وقرأ باقي السبعة بالضاد . السبعة لابن مجاهد : 673 ، والتبصرة لمكي : 372 ، والتيسير للداني : 220 .

[. . . . .]

(7) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 243 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 288 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 517 ، وتفسير الطبري : 30/ 81 ، ومعاني الزجاج : 5/ 293 .

(8) هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري ، أبو بكر ، الإمام التابعي الفقيه المفسر المحدث

الثقة . توفي سنة 110 للهجرة .

ترجمته في الطبقات الكبرى لابن سعد : 7/ 193 ، والمعرفة والتاريخ : 2/ 54 ،

وتقريب التهذيب : 483 .

(9) ينظر معاني الفراء : 3/ 342 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 517 ، وتفسير

الطبري :

30/ 81 ، ومعاني الزجاج : 5/ 293 .

(26/804)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة التكوير

عدد 7 - 81 وتسمى كورت

نزلت بمكة بعد (المسد) وهي تسع وعشرون آية ومثلها في عد الآي الفتح والحديد ومائة

وأربع كلمات ، وخمسمائة وثلاثون حرفا ، ويوجد في القرآن سبع سور مبدوءة بلفظ إذا :

هذه ، والواقعة ، والمنافقون ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، والنصر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "إِذَا" ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "الشَّمْسُ" الجرم المعهود أحد الكواكب السيارة السبع وقد أخبر اللّه بما تؤول إليه عند إرادته ابادة هذا الكون بقوله "كُوِّرَتْ 1" لغت وغورت واضحات وذهب نورها "وَإِذَا النُّجُومُ" يشمل بقية السيارات وغيرها كالثريا والشعرى وبنات نعش وغيرها "انْكَدَرَتْ 2" اغبرّت وذهب ضوءها وانقضت من أماكنها وسقطت من مواقعها وفرط نظامها وتناثرت "وَإِذَا الْجِبالُ" الشامخات الرّواسي "سُيِّرَتْ 3" من أماكنها فارتجت عن وجه الأرض وصارت هباء "وَإِذَا الْعِشارُ" الإبل العشر التي مر عليها عشرة أشهر وهي أنفس مال العرب وكذلك غيرها من الحيوانات "عُطِّلَتْ 4" أهملت وتركت بلا راع لهول ما يشاهدون في ذلك اليوم وكانوا قبله يلازمونها "وَإِذَا الْوُحُوشُ" دواب البر والبحر "حُشِرَتْ 5" جمعت في المحل الذي يريده اللّه بذلك اليوم ليقتص بعضها من بعض ومن القرناء للجلحاء ثم تكون ترابا فيتمنى الكافر إذ ذاك

لو كان مثلها تخلصا من العذاب الأليم ، وفي هذه الآية إيذان بأن هول القيامة لا يقتصر على البشر وما يألفه من الحيوانات بل يتعدى إلى دواب البحر والبرّ وإلى الجمادات أيضا ، وهذا يكون بعد النفخة الثانية .

ثبتنا اللّه وعافانا ومن شره وقانا – راجع تفسير الآية الأخيرة من سورة النساء في ج 2 – "وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ 6" التهبت بالنار وذهب ماؤها وصارت تضطرم ، يؤيده قوله صلّى اللّه عليه وسلم : إن البحر غطاء جهنم أو طباقها .

وقيل امتلأت أخذا من سجر التنور إذا امتلأ حطبا وعليه يكون المعنى تفجرت على بعضها فصارت بحرا واحدا إلا أنه لم يبق بحر إذ ذاك (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ) راجع هذه الآية 40 من سورة ابراهيم في ج 2 "وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ 7" قرنت أرواحها بأجسادها وكل نفس مع من يشاكلها الصالحة بالصالحة والعاصية بالعاصية وألحق كل امرئ بشيعته "وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ" الطفلة المقبورة حية "سُئِلَتْ 8" أي سئل وائدها فيقال له من قبل الملائكة "بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ 9" هذه الموءودة كبيرة كانت أو صغيرة وهكذا كل مقبور حيّ يسأل وائده عن سبب واده فيصمت إذ لا جواب له ولا عذر فيذبح الوائد في نار جهنم ذبحا زائدا على عذابه الذي يستحقه للقتل بلا ذنب وهذا الذبح لا يميته لأن النار لا موت فيها وإنما يذيقه عذاب الذبح ثم يبقيه حيا للعذاب الآخر .

أو سئلت هي سؤال تلطف لتقول : وأدني فلان بلا ذنب ، ويكون سؤال توبيخ لوائدها بصرف الخطاب إليه ، وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض كما في قوله تعالى : (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) الآية 115 من المائدة في ج 3 وقرىء قتّلت بالتشديد ، وفي هذا

دليل على أن أطفال المشركين لا يعذّبون وان التعذيب لا يكون بلا ذنب ، وهو كذلك في الآخرة أما في الدنيا فقد يقع من بعض الناس جورا ومن اللّه عدلا قال :

وله أن يؤلم الأطفالا ووصفه بالظالم استحالا

قال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية تحفر حفرة عند ولادتها فتتمخض فإن ولدت جارية دفنتها وإن ولدت غلاما حبسته ، وكان الرجل في الجاهلية إذا أراد

(28/804)

بقاء ابنته حية ألبسها جبة صوف ورعاها بالمواشي فاذا أراد قتلها بعد قال لأمها زينيها لأذهب بها لاحمائها وكان قد هيأ لها قبرا فيأخذها اليه فيدفنها فيه ويهيل عليها التراب ، يا ويلهم مما يعملون .

مطلب أول من سنّ الوأد ومن منعه :

أول من سنّ الوأد ربيعة ، وذلك أنه أغير عليهم فنهبت بنت أميرهم وقيل زوجته وبعد الصلح أراد استردادها فخيرت بينه وبين من هي عنده فاختارت من هي عنده فغضب وسن الوأد ففعلوه غيرة وقلدهم غيرهم .

أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني وابن

مردويه عن خذامة بنت وهب قالت : سألت رسول اللّه في العزل (هو ان يجامع الرجل زوجته وينزل خارجا) فقال ذلك الوأد الخفي ومن هنا قال من قال بحرمته ، الصحيح أنه مكروه لما فيه من قطع النسل وأذية الزوجة .

وتسميته بالوأد الخفي لا يستلزم حرمته ولا يدل على أن حكمه حكم الوأد فقد صح عنه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال (الربا شرك خفي) ولم يقل أحد أن حكمه حكم الشرك .

مطلب الاستمناء باليد والعلاج لمنع الحمل :

أما الاستمناء باليد فجائز إذا خشي الزنا وإلا فهو حرام لورود : (ناكح اليد ملعون) وإن الاقتران باللعن يدل على الحرمة كما ذكره الأصوليون وما يستعمله بعض الناس من العلاجات لعدم الحمل فلا يتعدى الكراهة ، وهو دون العزل ، لأنه لا يحمل على الاسقاط لعدم تكون الجنين .

أما إذا كان استعمال الدواء لقطع النسل خوفا من عدم القدرة على تربيته كما يقوله بعض قليلي الإيمان ففيه عدم الاعتماد على اللّه والثّقة برزقه فهذا وليد الذين ذمهم اللّه بقوله (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ) الآية 152 من الأنعام في ج 2 ونظيرتها (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) الآية 31 من الاسراء الآتية وهؤلاء الذين لا يتوكلون على اللّه ويسيئون الظن به وهو القائل (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) قد

يخشى على إيمانهم .

أما استعمال الأدوية بعد تكون الجنين وقبل نفخ الروح فهو حرام لما فيه من معنى الإتلاف ، أما بعد نفخ الروح فهو حرام قطعا وفعله جناية لما فيه من إتلاف النفس وأول من منع الوأد صعصعة بن ناجية فافتخر به الفرزدق بقوله :

ومنا الذي منع الوائدات وأحيا الوليد فلم يوءد

وفي رواية : وجدّي الذي إلخ ، قال تعالى "وَإِذَا الصُّحُفُ" التي اثبتت فيها أعمال الخلق "نُشِرَتْ 10" للحساب والجزاء

"إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ 11" قلعت فطويت ونزعت "وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ 12" بالوقود فاشتد لهيبها للنكال والتنكيل بأعداء اللّه ، ونقل ونكّل يخفف ويشدد ويتوب أحدهما عن الآخر في المعنى الا أن المشدد يدل على التكثير "وَإِذَا الْجَنَّةُ" التي وعدها اللّه للمتقين "أُزْلِفَتْ 13" قربت منهم ليدخلوها وحينذاك "عَلِمَتْ نَفْسٌ" أي كل نفس فالتنوين للعوض وهو جواب إذا المكررة من أول السورة إلى هنا "ما أَحْضَرَتْ 14" لذلك اليوم من خير أو شر فيفوز الطائع ويهلك العاصي .

مطلب علامات الساعة :

قال أبيّ بن كعب : ستّ آيات قبل القيامة : بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس

، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فتحركت الأرض واضطربت وفزعت الانس والجن ، واختلطت الدواب والطير والوحش ، وماج بعضهم في بعض ، فذلك قوله تعالى "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ" "أي سجرت" فحينئذ تقول الجن للانس نحن نأتيكم بالخبر فينطلقون إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السفلى وإلى السماء السابقة العليا إذ جاءتهم ريح فأماتتهم .

وقال ابن عباس هي اثنتا عشرة خصلة ست في الدنيا وست في الآخرة .

(30/804)

فالتي في الدنيا أي في آخر يوم من أيامها من أول السورة إلى (سُجِّرَتْ) والتي في الآخرة من (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) إلى (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) ، وروى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : الشمس والقمر يكوران يوم القيامة ، وعن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ، (وإِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ) ، (وإِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ) قال تعالى "فَلا أُقْسِمُ" لا هنا للتأكيد وليست بزائدة كما قاله بعض المفسرين لأن كلام اللّه لا

زيادة فيه كما أنه لا نقص فيه البتة كما نوهنا به في بحث القراءات في المقدمة وسيأتي لهذا البحث صلة في سورة القيامة الآتية .

وأعلم أنه لا يقال ما معنى القسم من الحضرة الإلهية لأن المؤمن يصدقه القسمين الأولين بقوله : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) الآية 18 من آل عمران في ج 2

والأقسام الموجودة في القرآن على نوعين قسم بنفسه الكريمة وهي في سبعة مواضع فقط : 1 (قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ) الآية 53 من سورة يونس ، 2 (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ) الآية 92 من سورة الحجر ، 3 (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ) من سورة المعارج ، 4 (فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ) الآية 23 من سورة الذاريات في ج 2 ، 5 (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ) الآية 64 من سورة النساء ، 6 (قُلْ بَلى وَرَبِّي) الآية 7 من سورة التغابن في ج 3 ، 7 (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ) الآية 68 من سورة مريم الآتية وقسم بمخلوقاته وهو كثير مثل : (وَالضُّحى ، وَالشَّمْسِ ، وَاللَّيْلِ ، وَالْعَصْرِ ، وَالتِّينِ) وغيرها .

(31/804)

واقسم الله "بِالْخُنَّسِ 15" ثم فسرها على طريق عطف البيان فقال "الْجَوارِ الْكُنَّسِ 16" وهي النجوم الجاريات الباديات ليلا المستترة نهارا .

شبه اللّه تعالى ظلام الليل بكناس الأسد لاجتماع الستر في كل فكأن النجوم حينما تغيب وتتأخر طيلة النهار مثل الأسد الذي يخنس في كناسه ثم يظهر وإنما أقسم فيها لما فيها من النفع للبشر وغيره ، قال علي كرم اللّه وجهه هي النجوم الخمسة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد فإنها تخنس في مجاريها تحت ضوء الشمس والقمر وهي تتمة السيارات السبع الشمس والقمر وانها تجري في محورها بانتظام

لا يتغير ولا يتبدل إلى اليوم الذي نوّه به والخنس تأخر الأنف عن الشفة مع الارتفاع قليلا في الارنبة ويوصف به بقر الوحش والظباء "وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ 17" أقبل ظلامه وأدبر لأن عسعس من الأضداد يكون للاقبال والأدبار ومثله الصريم يطلق على الليل والصبح ، والسدفة الظلمة والضياء ، الجون الأسود والأبيض "وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ 18" بدا واسفر واقبل ضوءه وقيل انه شبه الليل بالنسمة (المكروب) وهو الحيوان الصغير الذي قد لا يرى الا بالمكبرات لأنه مخزون فاذا تنفس الصبح وجد رائحته فكأنه تخلص من المخزن فعبر بالتنفس عنه فهو استعادة لطيفة وانما قال تنفس لأن في أقبال الصبح روحا ونسيما فيجعل ذلك نفسا على المجاز وجواب القسم قوله (انه) اي القرآن العظيم مطلب مكانة جبريل وقوته :

المنزل عليك يا حبيبي "لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ 19" علينا هو جبريل عليه السلام لأنه تلقاه من ربه ونزل به على محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهذا الرسول "ذِي قُوَّةٍ" قدرة عظيمة على ما

يكلفه به ربه وله مقام عال "عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ" تعالت عظمته "مَكِينٍ 20" في المنزلة والجاه مكانة ورفعة وشرفا

(32/804)

"مطاع" في السموات من قبل الملائكة أجمع ومن طاعتهم له امتثالهم أمره يفتح أبواب السموات ليلة المعراج ومن قوته وشدة بأسه اقتلاع قرى قوم لوط من الماء الأسود اي من أقصى تخوم الأرض المتصلة بالماء وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها بأهلها اجمع فأنه أبصر إبليس يوما يكلم عيسى عليه السلام على عقاب الأرض المقدسة فنفحه بجناحه فالقاه إلى أقصى جبل بالهند وانه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وانه يهبط إلى الأرض ثم يصعد إلى السماء في اسرع من رد البصر "ثَمَّ أَمِينٍ 21" على الوحي الذي يتلقاه من ربه فيوصله إلى الأنبياء كما أخذه "وَما صاحِبُكُمْ" يا اهل مكة المنزل عليه هذا القرآن المجيد "بِمَجْنُونٍ 22" كما تزعمون وان ما يقوله ليس من نفسه بل هو من عند اللّه ، أقسم جل شأنه بأن هذا القرآن نزل به جبريل من عنده وأخبرهم بأن جبريل أمين على وحيه وأقسم لهم بأن محمدا ليس

(33/804)

مجنونا كما يقولون ولم يؤثر ذلك فيهم لهذا قال تعالى (فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الآية 46 من سورة الحج في ج 3 وقال جل قوله (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ) من الآية 115 من الأعراف الآتية ، وهذا قسم آخر على تصديق ما اخبر به محمد ورقه بن نوفل الذي مر ذكره في مطلب الوحي في المقدمة بانه أي جبريل حقيقة وتلقى منه أوائل سورة العلق المارة بقوله "وَلَقَدْ رَآهُ" وعزتي وجلالي لقد رأى محمد جبريل على صورته الحقيقية "بِالْأُفُقِ" الشرقي على القول الصحيح وما قيل بالغربي ليس بشيء وهو قوله بالحديث المار في المقدمة في بحث نزول الوحي انه جالس على كرسي بين السماء والأرض "الْمُبِينِ 23" الظاهر البين الذي لا خفاء عليه روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال رسول اللّه لجبريل إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها بالسماء ، فقال لن تقوى على ذلك ، قال بلى ان شاء اللّه ، قال فأين تشاء ان اتخيل لك ؟

(34/804)

قال بالأبطح ، قال لا يسعني ، قال فبمنى ، قال لا تسعني ، قال بعرفات ، قال لا تسعني ، قال بحراء ، قال ان يسعني ، فواعده ، فخرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم في ذلك الوقت فاذا هو

بجبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض فلما رآه صلّى اللّه عليه وسلم خر مغشيا عليه فتحول جبريل عن صورته وضمه إلى صدره وقال يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت اسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة وان العرش لعلى كاهله ، وانه ليتضائل أحيانا من مخافة اللّه جل جلاله وسما شأنه حتى يصير كأنه حصو (حيوان صغير كالعصفور) حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته وهذه الرؤية التي وقعت ليلة الاسراء غير التي اخبر اللّه عنها في هذه السورة بل التي ذكرها في بحث نزول الوحي وانما أتى بها هنا تأييدا لرؤيته الأولى التي أتت عليه من غير طلب منه ورجع يرجف بها فؤاده من شدة ما لحقه من الخوف كما تقدم مفصلا قال تعالى "وَما هُوَ" اي رسولكم محمد "عَلَى الْغَيْبِ" مما يخبر به من ت (9)

الوحي واخبار السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا في علمه لوحينا اليه "بِضَنِينٍ" بخيل لا يبوح به إليكم وقرىء بظنين بالظاء ، أي ليس بمثلهم لأنه أمين أرسل مبلغا ما يوحى اليه من ربه إلى البشر كما تلقاه ، اي انه لا يتهم بالبخل لأنه لا يريد أجرا على ما يبلغه كالكاهن ولا يظن به انه يزيد او ينقص من الوحي وأنتم تسمونه الأمين فإذا كان أمينا على ما عندكم أفلا يكون أمينا على ما عند اللّه ؟

والقراءة بالظاء حسنة على التأويل الذي جرينا عليه لأن قومه لا يتهمونه بالبخل ويعرفون كرمه ، ولو أريد البخل على القراءة بالضاد لقال (بالغيب) لأن فعله يتعدى به ويقال بخل به لا عليه فلا تجوز "وَما هُوَ" أي القرآن بقول "شَيْطانٍ رَجِيمٍ 25" تتلقاه الكهنة والسحرة كما تزعم قريش ولا عن لسان الشيطان بل وحي إلهي من اللّه إلى رسوله "فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ 26" فيما تتقولون مذاهب شتى لا نصيب لها من الصحة ، وهذا استفهام تضليل لهم كما يقال لتارك الجادة المستقيمة إذا ضل السبيل وسلك السبل العديدة المنشعبة عن الطريق يمينا وشمالا : اين تذهب فقد ضللت أي اي طريق تسلكونه ، أيين من طريق محمد الذي فيه الهداية إلى النجاة "إِنْ هُوَ" ما هذا القرآن المنزل عليه "إِلَّا ذِكْرٌ" عظة وعبرة "لِلْعالَمِينَ 27" اجمع وهو تذكرة ايضا "لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ" ايها الناس "أَنْ يَسْتَقِيمَ 28" على الحق ويتمسك بطريق الاستقامة وذلك لان مشيئة العبد بسلوك ما يوصل المعبود موقوفة على مشيئته قال سلمان بن موسى لما نزلت هذه الآية قال أبو مهل ، ذلك إلينا ان شئنا استقمنا وإلا فلا فأنزل اللّه بعدها "وَما تَشاؤُنَ" أيها الناس فعل شيء ولا تركه "إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ 29" فعله لأنه مالك الخلق كلهم وأعمالهم فلا يقدر أحد ان يعمل خيرا الا بتوفيقه ولا شرا الا بخذلانه .

وفقنا اللّه لما به سعادة الدارين آمين ، واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة الا باللّه

العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى صحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 123.130 ﴾

(36/804)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة التكوير

مكية

عملت نفسا ما أحضرت تام والوقف على ما قبله من رؤس الآي جائز وقال أبو عمرو كاف

ثم أمين تام بمجنون كاف المبين وكذا بضنين شيطان رجيم جائز تذهبون تام وكذا أ ،

يستقيم وآخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(37/804)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة التكوير

مكية

تسع وعشرون آية وكلمها مائة وأربع كلمات وحروفها خمسمائة وثلاث وثلاثون حرفاً

الوقف التام علمت نفس ما أحضرت وقال بعضهم الوقف على رأس كل آية حسن لا بأس به لضرورة انقطاع النفس إلى بلوغ الوقف فإذا علم أن نفسه لا يبلغ ذلك جاز له الوقف دونه ثم يبتدئ به وجواب إذا الشمس علمت نفس وما بعده معطوف عليه يحتاج من الجواب إلى مثل ما يحتاج إليه الأول فيقدّر لكل آية جواب فكانه قال إذا وقعت هذه الأشياء علمت نفس ما أحضرت سجرت وقتلت بالتشديد والتخفيف فيهما فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسجرت بتخفيف الجيم والباقون بالتشديد وقرأ أبو جعفر قتلت بتشديد التاء على التكثير وقرأ ابن عباس سألت مبيناً للفاعل قتلت بضم التاء الأخيرة التي للمتكلم حكاية كلامها ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت لقيل قتلت بكسر التاء الأخيرة وقرأ العامة قتلت بتاء التأنيث الساكنة وقرأ الأخوان وابن كثير وأبو عمرو وسعرت بالتشديد والباقون بالتخفيف قال ابن عباس من أول السورة إلى وإذا الجنة أزلفت اثنتا عشرة خصلة ست في الدنيا وست في الآخرة ولا وقف من قوله فلا أقسم بالخنس إلى قوله أمين على أن جواب القسم أنه لقول رسول ومن قال أنه وما صاحبكم بمجنون لم يقف على شيء قبله إلى قوله

بمجنون فلا يوقف على الخنس ولا على تنفس ولا على كريم لأن ما بعده نعته ولا على أمين لأن جواب القسم على القول الثاني لم يأت

بمجنون (تام) والمعنى أقسم بهذه الأشياء أن القرآن نزل به جبريل وما صاحبكم بمجنون على ما زعمتم

المبين (كاف) ومثله بظنين على القراءتين قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء المشالة والباقون بالضاد

رجيم (جائز)

تذهبون (تام) ورأس آية

(38/804)

للعالمين ليس بوقف لأن قوله لمن شاء بدل بعض من قوله للعالمين بإعادة حرف الجر فإن من شاء أن يستقيم بعض العالمين أن يستقيم مفعول شاء أي لمن شاء الاستقامة ويجوز أن يكون لمن شاء خبراً مقدماً ومفعول شاء محذوف وأن يستقيم مبتدأ

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(39/804)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة التكوير

مكية وآيها عشرون وثمان في عد أبي جعفر وتسع في غيره خلافها آية فأين تذهبون تركها أبو جعفر القراآت اختلف في (سجرت) الآية 6 فابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بخلف عن رويس بتخفيف الجيم على الأصل وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بتشديدها على التكثير وهي رواية أبي الطيب عن رويس وأبدل همز بأي يا مفتوحة الأصبهاني بخلفه كما مر في بأي أرض وبأيكم بخلاف ما فيه الفاء نحو فبأي فإنه لا خلاف عنه في إبداله ولم ينبه في الأصل هنا على الخلاف عن المطوعي المودة بحذف الهمزة على وزن الموزة ويوقف عليها لحمزة بالنقل فيصير اللفظ بواوين أولاهما مضمومة والثانية ساكنة كمعونة وبالإبدال مع الإدغام إجراء للأصلي مجرى الزائد على وزن بلوطة لكنه يضعف للثقل كما في النشر وحكم حذف الهمزة والواو بين بين وهما ضعيفان ويوقف له على سئلت بالتسهيل كالياء وبالإبدال واوا مكسورة على مذهب الأخفش

واختلف في (قتلت) الآية 9 فأبو جعفر بتشديد التاء على التكثير والباقون بتخفيفها

واختلف في (نشرت) الآية 10 فنافع وابن عامر وعاصم وابو جعفر ويعقوب بتخفيف

الشين والباقون بتشديدها للمبالغة

واختلف في (سعرت) الآية 12 فنافع وابن ذكوان وحفص وأبو بكر من طريق العليمي ورويس بتشديد العين والباقون بتخفيفها وهي رواية يحيى عن أبي بكر وأمال الجوار الدوري عن الكسائي فقط ووقف بالياء عليه يعقوب كما مر في الوقف على المرسوم ومر حكم حرفي رآه في نظيره مما اتصل بمضمر نحو ( ) وإذا رآك الذين كفروا (بالأنبياء فراجعه واختلف في ﴿ بظنين ﴾ الآية 24 فابن كثير وابو عمرو والكسائي ورويس بالظاء

(40/804)

المثالة فعيل بمعنى مفعول من ظننت فلان اتهمته ويتعدى لواحد أي وما محمد على الغيب وهو ما يوحي الله إليه بمتهم أي لا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا يحرف وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بالضاد بمعنى بخيل بما يأتيه من قبل ربه اسم فاعل من ضن بخل المرسوم بضنين بالضاد في الكل قال أبو عبيد نختار قراءة الظاء لأنهم لم يبخلوه بل كذبوه ولا مخالفة في الرسم إذ لا مخالفة بينهما إلا في تطويل رأس الظاء على الضاد قال الجعبري وجه بضنين أنه رسم برأس معوجة وهو غير طرف فاحتمل القراءتين وفي مصحف ابن مسعود بالظاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة التكوير "

كورت ، سيرت ، حشرت ، ذكر ، جلي .

" سجرت " خفف الجيم المكي والبصريان وشددها غيرهم .

" الموءودة " ولا توسط لورش ولا مد في الواو التي بعد الميم بل هو كغيره من القراء ، وفيه لورش ثلاثة البدل على أصله . ولحمزة فيه وقفا النقل والإدغام لأصالة الياء .

" سئلت " لحمزة فيه وقفا التسهيل بين بين والإبدال واوا محضة على مذهب الأخفش .

" قتلت " شدد التاء أبو جعفر وخففها الباقون .

" نشرت " شدد الشين المكي والبصري والأخوان وخلف وخففها الباقون ورقق ورش راءه .

" سعرت " شدد العين المدنيان ورويس وابن ذكوان وحفص وخففها الباقون ولا يخفيى ترقيق رائه لورش .

" الجوار " وقف عليه يعقوب بالياء وغيره بحذفها .

" ثم " وقف عليه رويس بهاء السكت والباقون بغيرها .

" بضنين " قرأ المكي والبصري ورويس والكسائي بالظاء والباقون بالضاد .

" العالمين " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" سورة عبس من السور الإحدى عشرة " .

" رءوس الآي " :

" وتولى ، الأعمى " يزكى معا الذكرى ، استغنى ، تصدى ، يسعى ، يخشى ، تلهى ، وهي معدودة بالإجماع ، وقد أمالها الأخوان وخلف ، وقللها كلها البصري إلا الذكرى فأمالها وقللها كلها ورش من غير استثناء .

" ما ليس برأس آية " :

" شاء الأربعة " وجاءه وجاءك وجاءت لابن ذكوان وخلف وحمزة . الجوار لدوري الكسائي ولا تقليل فيه لورش .

رآه بإمالة الهمزة والراء لشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه فيهما وبإمالة الهمزة وحدها للبصري وبتقليلهما لورش وبفتحهما للباقين وهو الوجه الثاني لابن ذكوان .

المدغم

" الكبير " النفوس زوجت ، الموءودة سئلت ، أقسم بالخنس . لقول رسول ، الغيب بضنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 346 . 347 ﴾

(42/804)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة التكوير

قوله تعالى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ يقرأ بالتخفيف والتشديد فالحجة لمن حفف انه اراد به ملئت مرة واحدة ودليله قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ والحجة لمن شدد انه اراد انها تفتح فيفضي بعضها الى بعض فتصير بحرا واحدا

والفرق بين الخلف في هذا والاتفاق على تخفيف ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ان حشر الوحوش انما هو موتها وفناؤها او حشرها لتقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها كوني ترابا والتشديد انما هو للمداومة وتكرير الفعل ولا وجه لذلك في حشر الوحوش

قوله تعالى ﴿ نشرت ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد انه اراد نشر كل صحيفة منها فقد دام الفعل وتكرر ودليله قوله ﴿ أن يؤتى صحفا منشرة ﴾

والحجة لمن حفف انه اراد نشرها مرة واحدة ودليله قوله في ﴿ رق منشور ﴾ والحجة في قوله ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ كالحجة فيما تقدم

قوله تعالى ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ يقرأ بالضاد والظاء فوجه الضاد يراد به ما هو بخيل ووجه الظاء يراد به ما هو بمتهم والغيب ها هنا ما غاب عن المخلوقين واستتر مما أوحى الله عز وجل اليه واعلمه به واما قوله ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ قيل بالله عز وجل وقيل بما غاب عنهم مما أنبأهم به الرسول عليه السلام من أمر الآخرة والبعث والنشور وقيل بيوم القيامة والغيب عند العرب الليل لظلمته وستره كل شيء بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 364 ﴾

(43/804)

وقال ابن زنجلة :

81 - سورة التكوير

وإذا البحار سجرت

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وإذا البحار سجرت بالتخفيف حجتهما قوله والبحر المسجور ولم يقل المسجر واعلم أن التخفيف يقع على القليل والكثير نظير قوله قتل الخراصون و قتل

أصحاب الأخدود وهم جماعة وكذلك سجرت

وقرا الباقون سجرت بالتشديد وحجتهم قوله وإذا البحار ولو كان واحدا لكان تخفيفا كما قال والبحر المسجور والعرب

تقول سجرت التنور لا تقول غيره و سجرت التنانير بالتشديد ومعنى سجرت أي أفضى بعضها إلى بعض فصارت بحرا واحدا وغذا الصحف نشرت

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وإذا الصحف نشرت بالتخفيف وحجتهم قوله في رق منشور فرد ما اختلوا فيه إلى ا أجمعوا عليه أولى

وقرأ الباقون وإذا الحصف نشرت بالتشديد قالوا إنه ذكر الصحف وهي جماعة تنشره مرة بعد مرة والتشديد للتكثير كما قال سبحانه وغلقت الأبواب وحجتهم إجماع الجميع على قوله صحفا منشرة ولم يقل منشورة وإذا الجحيم سعرت 12

قرأ نافع وابن عامر وحفص وإذا الجحيم سعرت بالتشديد أي أوقدت مرة بعد مرة وحجتهم قوله كلما خبت زدناهم سعيرا فهذا يدل على كثرة وشيء بعد شيء فحقه التشديد

وقرأ الباقون سعرت بالتخفيف أي أوقدت وحجتهم قوله وكفى بجهنم سعيرا قوله سعيرا فقيل في معنى مسعور وهذا إنما يجيء من فعل

وما هو على الغيب بضنين 24

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وما هو على الغيب بضنين بمعنى ما هو بمتهم على الوحي أنه من الله ليس محمد صلى الله عليه و سلم متهما

وقرأ الباقون بضنين بالضاد أي ببخيل يقول لا يبخل محمد صلى الله عليه آتاه الله من العلم والقرآن ولكن يرشد ويعلم ويؤدي عن الله جل وعز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 752.750 ﴾

(44/804)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة التكوير 81

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها مئة وأربع كلمات

وحروفها خمس مئة وثلاثة وعشرون حرفا

وهي عشرون وتسع آيات في جميع العدد إلا في عد أبي جعفر فإنها وثمان

اختلافها آية (﴿ فأين تذهبون ﴾) لم يعدها أبو جعفر وحده وعدها الباقون وشيبة

وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

كورت

1 انكدرت

2 سيرت

3 عطلت

4 حشرت

5 سجرت

6 زوجت

7 سئلت

8 قتلت

9 نشرت

10 كشطت

11 سعرت

12 أزلفت

13 أحضرت

14 بالخنس

15 الكنس

16 عسعس

17 تنفس

18 كريم

19 مكين

20 أمين

21 بمجنون

22 المبين

23 بضنين

24 رحيم

25 تذهبون

26 للعالمين

27 يستقيم

28 العالمين

29 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 265﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إذا الشمس) أي إذا كورت الشمس ، وجواب إذا (علمت نفس) و (الجوارى) صفة للخنس .

قوله تعالى (عند ذى العرش) يجوز أن يكون نعتا لرسول ، وأن يكون نعتا لمكين ، و (ثم) معمول مطاع ، وقرئ بضم الثاء ، والهاء في (رآه) لجبريل عليه السلام ، و (بظنين) بالظاء : أي بمتهم ، وبالضاد : أي ببخيل ، وعلى تتعلق به على الوجهين .

قوله تعالى (فأين تذهبون) أي إلى أين ، فحذف حرف الجر كما قالوا ذهبت الشام ، ويجوز أن يحمل .

على المعنى كأنه قال: أين تؤمنون ، و (لمن شاء) بدل بإعادة الجار ، و (إلا أن يشاء الله) أي إلا وقت مشيئته ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة التكوير

[سورة التكوير (81) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6)

"إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة و"الشَّمْسُ" نائب فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده والجملة في محل جر بالإضافة "كُوِّرَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة الفعلية مفسرة لا محل لها . والآيات التي تليها معطوفة عليها وإعرابها واحد .

[سورة التكوير (81) : الآيات 7 الى 9]

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

الآية معطوفة على ما قبلها والتي تليها معطوفة أيضا و"بِأَيِّ" متعلقان بقتلت و"ذَنْبٍ" مضاف إليه "قُتِلَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة مفعول به ثان لسئلت .

[سورة التكوير (81) : الآيات 10 الى 14]

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12)
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (14)

الآيات الأربع "10 - 13" معطوفة على ما قبلها وإعرابها واضح و"عَلِمَتْ نَفْسٌ" ماض وفاعله و"ما" مفعول به والجملة جواب الشرط لا محل لها و"أَحْضَرَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة التكوير (81) : الآيات 15 الى 22]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)
ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22)

(47/804)

"فَلا" الفاء حرف استئناف و"لا" زائدة "أُقْسِمُ" مضارع فاعله مستتر و"بِالْخُنَّسِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها. و"الْجَوارِ" صفة الخنس و"الْكُنَّسِ" صفة ثانية "وَاللَّيْلِ" معطوف على الخنس و"إِذا" ظرف زمان و"عَسْعَسَ" ماض فاعله مستتر

والجملة في محل جر بالإضافة.

"وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ" معطوفة على ما قبلها. "إِنَّهُ" إن واسمها "لَقَوْلُ" اللام المزحلقة و"قول" خبر إن والجملة الاسمية جواب القسم و"رَسُولٍ" مضاف إليه و"كَرِيمٍ" صفة و"ذِي" صفة ثانية لرسول و"قُوَّةٍ" مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان و"ذِي" مضاف إليه و"الْعَرْشِ" مضاف إليه أيضا و"مَكِينٍ" صفة ثالثة لرسول و"مُطاعٍ" صفة رابعة و"ثَمَّ" ظرف مكان بمعنى هناك و"أَمِينٍ" صفة خامسة لرسول. "وَما" الواو حرف عطف و"ما" نافية تعمل عمل ليس و"صاحِبُكُمْ" اسمها و"بِمَجْنُونٍ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما.

[سورة التكوير (81): الآيات 23 الى 26]

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم و"قد" حرف تحقيق "رَآهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها و"بِالْأُفُقِ" متعلقان بالفعل و"الْمُبِينِ" صفة الأفق.

"وَما" الواو حالية "وَما" نافية حجازية و"هُوَ" اسمها و"عَلَى الْغَيْبِ" متعلقان بما بعدهما و"بِضَنِينٍ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حالية "وَما" الواو حرف عطف و"ما" حجازية و"هُوَ" اسمها و"بِقَوْلِ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما و"شَيْطانٍ" مضاف إليه و"رَجِيمٍ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَيْنَ" الفاء الفصيحة و"أين" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية "تَذْهَبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة التكوير (81) : الآيات 27 الى 29]

إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29)

"إِنْ" نافية "هُوَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "ذِكْرٌ" خبر "لِلْعالَمِينَ" متعلقان بالخبر والجملة مستأنفة لا محل لها . "لِمَنْ" بدل من قوله للعالمين "شاءَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل "أَنْ يَسْتَقِيمَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول شاء "وَما" الواو حالية "ما" نافية "تَشاؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال و"إِلَّا" حرف استثناء "أَنْ يَشاءَ اللَّهُ" مضارع منصوب بأن ولفظ الجلالة فاعله "رَبُّ الْعالَمِينَ" بدل مضاف إلى العالمين والمصدر المؤول من أن والفعل في محل

جر بالإضافة لظرف زمان . التقدير وقت أن يشاء اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 423. 424﴾

(49/804)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة التكوير

فِيهَا حديثان

1461 - الحَدِيث الأول

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ يحْشر النَّاس حُفَاة عُرَاة فَقَالَت أم سَلمَة كَيفَ بالنسَاء فَقَالَ شغل النَّاس يَا أم سَلمَة قَالَت وَمَا شغلهمْ قَالَ نشر الصُّحُف فِيهَا مَثَاقِيل الذَّر وَمَثَاقِيل الْخَرْدَل

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سعيد بن سُلَيْمَان عَن عبد الحميد ابْن سُلَيْمَان ثَنَا مُحَمَّد بن أبي مُوسَى عَن عَطاء بن يسَار عَن أم سَلمَة قَالَت سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول يحْشر النَّاس . . . فَذكره

والْحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ عَن عَائِشَة من رِوَايَة عبد الله بن أبي مليكَة عَن الْقَاسِم عَنْهَا قَالَت سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول يحْشر النَّاس يَوْم الْقِيَامَة حُفَاة عُرَاة غرلًا قَالَت يَا رَسُول الله الرِّجَال وَالنِّسَاء جَمِيعًا ينظر بَعضهم إِلَى بعض قَال يَا عَائِشَة الْأَمر أَشد من أَن ينظر بَعضهم إِلَى بعض انْتَهَى وَفِي لفظ للْبُخَارِيّ الْأَمر أد من أَن يهمهم ذَلِك وَهُوَ فِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم فِي تَفْسِير سُورَة عبس من حَدِيث سَوْدَة وَقَال فِيهِ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدِيث عَائِشَة وَحَدِيث سَوْدَة فَقَط

1462 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَال من قَرَأَ سُورَة إِذا الشَّمْس كورت) أَعَاذَهُ الله أَن يَفْضَحهُ حِين تنشر صَحِيفَته

(50/804)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 163.164 ﴾

(51/804)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة إذا الشّمس كوّرت» (81)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» (1) مثل تكوير العمامة ، تلفّ فتمحى . .

«انْكَدَرَتْ» (2) يقال : انكدر فلان انصب ، قال العجّاج :

أبصر خربان فضاء فانكدر «1»

«2» [930] .

«وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ» (8) وأد ولده حيّا قال الفرزدق :

ومنّا الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

«3» [931] وهو صعصعة بن ناجية جدّه . .

«وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ» (13) أدنيت . .

«فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِ الْكُنَّسِ» (15 ، 16) هى النجوم . .

«وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ» (17) قال بعضهم : إذا أقبلت ظلماؤه «4» ، وقال بعضهم : إذا ولّى ألا تراه .

قال «وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ «5»» (18) قال علقمة بن قرط :

---

(1) . - 3 - 5 «مثل . . . فانكدر» رواه القرطبي (19/ 235) عن أبى عبيدة .

(2) . - 930 : ديوانه ص 17 .

(3) . - 931 : ديوانه ص 203 واللسان (وأد) والقرطبي 19/ 231 وشواهد الكشاف 102 .

(4) . - 11 «إذا . . . ظلامه» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن قتيبة عن أبى عبيدة (القرطين 2/ 205) .

(5) . - 11 13 «و الليل . . . تنفس» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 533)

حتّى إذا الصّبح لها تنفّسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

«1» [932].

«وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بظنين» (24) أي متّهم. و«بِضَنِينٍ» يضنّ به «2» ويضنّ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 287. 288﴾

---

(1). - 932: الطبري 30/ 43 والقرطبي 19/ 236 وهو منسوب للعجاج فى شواهد الكشاف 157. [. . . . .]

(2). - 2 «بظنين. . . يضن به»: كما فى البخاري وأشار إليه ابن حجر بأنه قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 533).

«ظنين بالظاء» قراءة ابن كثير وابن عمرو والكسائي واختاره أبو عبيد. . . وقرأ الباقون بالضاد (القرطبي 19/ 240).

(53/804)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «إذا الشمس كوّرت»

[سورة التكوير (81) : الآيات 8 الى 9]

وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

قوله تعالى : وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [8 ، 9] وهذه استعارة .

والمراد - والله أعلم - أنها سئلت لا لاستخراج الجواب منها ، ولكن لاستخراج الجواب من قاتلها . ويكون ذلك على جهة التوبيخ للقاتل إذ قتل من لا يعرب عن نفسه ، ولم يذنب ذنبا يؤخذ بجريرته . وقيل معنى سئلت أي طلب بدمها ، كما يقول القائل : سألت فلانا حقى عليه . أي طالبته به .

وإنما سميت موءودة للثّقل الذي يلقى عليها من التراب . وتقول : آدنى هذا الأمر . أي أثقلنى . ومنه قوله تعالى وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ «2» أي لا يثقله ذلك ، كما يثقل أحدنا فى الشاهد حفظ المتشعبات ، وضبط المنتشرات .

[سورة التكوير (81) : الآيات 15 الى 16]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16)

وقوله سبحانه : فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ، الْجَوارِ الْكُنَّسِ [15 ، 16] وهاتان استعارتان . فهما جميعا فى صفة النجوم . فأما الخنّس فالمراد بها التي تخنس نهارا ، وتطلع ليلا . والخنّس جمع خانس وهو الذي يقبع ويستسرّ ، ويخفى ويستتر . وأما الكنّس

فجمع كانس ، وهو أيضا المتوارى المستخفى ، مشبّها بانضمام الوحشية إلى كناسها ، وهو الموضع الذي تأوى إليه من ظلال شجر . وألفاف خمر «1» . وجمعه كنّس .

فشبه سبحانه انقباء النجوم فى بروجها ، بتوارى الوحوش فى كنسها .

[سورة التكوير (81) : آية 18]

وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18)

وقوله تعالى : وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ [18] وهذه من الاستعارات العجيبة .

والتنفس ها هنا عبارة عن خروج ضوء الصبح من عموم غسق الليل . فكأنه متنفّس من كرب ، أو متروّح من همّ ، ومن ذلك قولهم : قد نفّس عن فلان الخناق . أي انجلى كربه ، وانفسح قلبه . وقد يجوز أن يكون معنى إِذا تَنَفَّسَ أي إذا انشق وانصدع .

من قولهم : تنفّس الإناء إذا انشق ، وتنفست القوس إذا انصدعت . وهذا التأويل يخرج اللفظ من باب الاستعارة . وقد استقصينا الكلام على هذا المعنى ، فى كتابنا الكبير ، عند موضع اقتضى ذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 359. 360 ﴾

---

(1) هكذا بالأصل ، ولعلها ثمر .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة التكوير

بدأت سورة التكوير باثنى عشر حدثا تلابس قيام الساعة ، وعودة الناس إلى ربهم للحساب الكبير 1 - " إذا الشمس كورت" . توقف إشعاعها وساد الظلام . 2 - " وإذا النجوم انكدرت " تساقطت واختل نظامها . 3 - " وإذا الجبال سيرت " . نسفت وتفتت . 4 - " وإذا العشار عطلت " . جفت السحب وامتنع المطر . 5 - " وإذا الوحوش حشرت " . تلاقت من مقارها البعيدة . 6 - " وإذا البحار سجرت " . فاضت على شواطئها وطاردت الحيوان والإنسان . 7 - " وإذا النفوس زوجت " عادت الأرواح إلى الأبدان بعد ما فارقتها أمدا . . 8 - " وإذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت ؟ " هذا بدء المؤاخذة على الجرائم التى اقترفها الناس . 9 - " وإذا الصحف نشرت " كل إنسان يتقدم بكتاب أعماله . 10 - " وإذا السماء كشطت " امحت معالمها . 11 - " وإذا الجحيم سعرت " لاستقبال المجرمين . 12 - " وإذا الجنة أزلفت " . قربت بنعيمها من الصالحين ، " علمت نفس ما أحضرت " . إن هذه الآيات لخصت ما وقع قبل

قيام الساعة وتوزع الناس على مصايرهم ! ! وقد علمنا أن الأرض صغرى بنات الشمس ، وأن الشمس وأسرتها شئ ضئيل فى العالم

(56/804)

الضخم ، ومع ذلك فإن الأرض ضمت الجنس الذى يستغفر حملة العرش لأخطائه ! إنه جنس غلفته النعم الإلهية ، ومع ذلك فصلته بالله مضطربة وكنوده له شديد . وفى هذه السورة يقسم الله بالكواكب المسخرة بأمره على أن القرآن حق وأن محمدا أرسل به هداية للناس ورحمة من الله " فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم " . إنه قسم بعظمة الكون على عظمة الوحى ، فكلاهما دليل على الله . هذه آية صامتة ، وتلك آية ناطقة . والقرآن هو الكتاب الوحيد الذى تتلوه فتشعر بعمق الصلة بين الأرض وسائر الفلك ، وبينها جميعا وبين الخالق الكبير . وقد ذكرت الآيات جبريل - روح القدس - فبينت أنه ملك مقرب له عند الله مكانة العبد الأمين " ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين " . وأنه حمل الوحى إلى محمد الذى تلقاه وبلغه ، واصطبغ بروحه وتخلق بأخلاقه ، وجاهد به الزائفين والجاحدين ، وأقام به دولة ضمت المشارق والمغارب . وسورة التكوير من أوائل ما نزل ، ومع ذلك فقد قررت

عالمية الرسالة ، وأن العصابة التى تتنكر لها فى مكة عائق محقور " فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم " . على العبد أن يضع البذور الصالحة وسينضج الله له ما بذر وما زرع أحد تفاحا فأخرج الله له بصلا ! ! ما يجنى أحد إلا ما غرس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 502 . 503 ﴾

(57/804)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(58/804)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة التكوير

أقول: لما ذكر في عبس: (فإِذا جاءت الصاخة يومَ يفِرُ المرءُ مِن أَخيه) ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين وفي الحديث: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: (إِذا الشمسُ

كُورت) و(إذا السماءُ انفطرت) و (إذا السماءُ انشقَت) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 147 ﴾

(59/804)

قوله تعالى ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الواحد القهار (الرحمن) الذي عمت نعمة إيجاده وبيانه الأبرار والفجار (الرحيم) الذي خص أهل وداده بما أسعدهم في دار القرار .

لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة لجحودهم بما لهذا القرآن من التذكرة ، ابتدئت هذه بإتمام ذلك ، فصور ذلك اليوم بما يكون فيه من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتى كأنه رأى عين كما رواه الإمام أحمد والترمذي والطبراني وغيرهم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجال ثقات أن النبي ـ صلى

الله عليه وسلم ـ قال : " من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة رأي العين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ " [التكوير : 1] فقال بادئاً بعالم الملك والشهادة لأنه أقرب تصوراً لما يغلب على الإنسان من الوقوف مع المحسوسات ، معلماً بأنه سيخرب تزهيداً في كل ما يجر إليه وحثاً على عدم المبالاة والابتعاد من التعلق بشيء من أسبابه : ﴿ إذا الشمس ﴾ أي التي هي أعظم آيات السماء الظاهرة وأوضحها للحس .

(60/804)

ولما كان المهول مطلق تكويرها الدال على عظمة مكورها ، بني للمفعول على طريقة كلام القادرين قوله : ﴿ كورت ﴾ أي لفت بأيسر أمر من غير كلفة ما أصلاً ، فأدخلت في العرش – كما قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فذهب ما كان ينبسط من نورها ، من كورت العمامة – إذا لففتها فكان بعضها على بعض وانطمس بعضها ببعض ، والثوب – إذا جمعته فرفعته ، فالتكوير كناية عن رفعها أو إلقائها في جهنم زيادة في عذاب أهلها ولا سيما عبدتها ، أو ألقيت عن فلكها ، من طعنه فكوره أي ألقاه مجتمعاً ، والتركيب للإدارة والجمع والرفع للشمس ، فعل دل عليه "كورت " لأن " إذا " تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط ، ولما كان التأثير في الأعظم دالاًّ على التأثير فيما دونه بطريق الأولى ، أتبع ذلك قوله معمماً

بعد التخصيص : ﴿ وإذا النجوم ﴾ أي كلها صغارها وكبارها ﴿ انكدرت ﴾ أي انقضّت فتهاوت وتساقطت وتناثرت حتى كان ذلك كأنه بأنفسها من غير فعل فاعل في غاية الإسراع ، أو أظلمت ، من كدرت الماء فانكدر ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة – في البحر ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضرمها فتصير ناراً ، وقال الكلبي وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوماً ، لا يبقى نجم إلاّ وقع .

ولما بدأ بأعلام السماء لأنها أشهر وأعم تخويفاً وإرهاباً ، وذكر منها اثنين هما أشهر ما فيها وأعمها نفعاً ، أتبعها أعلام الأرض فقال مكرراً للظرف لمزيد الاعتناء بالتهويل : ﴿ وإذا الجبال ﴾ أي التي هي في العالم السفلي كالنجوم في العالم العلوي ، وهي أصلب ما في الأرض ، ودل على عظمة القدرة بالبناء للمفعول فقال : ﴿ سيرت ﴾ أي وقع تسييرها بوجه الأرض فصارت كأنها السحاب في السير والهباء في النثر لتستوي الأرض فتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيها ، لأن ذلك اليوم لا يقبل العوج في شيء من الأشياء بوجه .

(61/804)

ولما ذكر أعلام الجماد ، أتبعه أعلام الحيوان النافع الذي هو أعز أموال العرب وأغلبها على وجه دل على عظم الهول فقال : ﴿ وإذا العشار ﴾ أي النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر ، جمع عشراء مثل نفساء ، وهي أحب أموال العرب إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع اللحم والظهر واللبن والوبر ، " روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر في أصحابه بعشار من النوق حفّل ، فأعرض عنها وغض بصره فقيل له : يا رسول الله ! هذا أنفس أموالنا ، لم لا تنظر إليها ؟ فقال : قد نهاني الله عن ذلك ، ثم تلا ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا ﴾ [طه : 131] الآية " ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام السنة ﴿ عطلت ﴾ أي تركت مهملة كأنه لا صاحب لها مع أنها أنفس أموالهم ، فكانت إذا بلغت ذلك أحسنت إليها وأعزتها واشتد إقبالها عليها : وقالت : جاء خيرها من ولد ولبن ، لأن الأمر ، لاشتغال كل أحد بنفسه ، أهول من أن يلتفت أحد إلى شيء وإن عز .

ولما ذكر المقرعات الدالات على إرادة أمر عظيم ، قرب ذلك الأمر بإفهام أنه الحشر ، ودل على عمومه بذكر ما يظن إهماله فقال : ﴿ وإذا الوحوش ﴾ أي دواب البر التي لا تأنس بأحد التي يظن أنه لا عبرة بها ولا التفات إليها فما ظنك بغيرها ﴿ حشرت ﴾ أي بعثت وجمعت من كل أوب قهراً لإرادة العرض على الملك الأعظم والفصل فيما بينها في أنفسها حتى يقتص للجماء من القرناء وبينها وبين غيرها أيضاً حتى يسأل العصفور قاتله ، لم قتله ؟ قال قتادة : يحشر كل شيء للقصاص حتى الذباب – انتهى .

ولا يستوحش الوحش من الناس ولا الناس من الوحوش من شدة الأهوال ، وذلك أهول وأفزع وأخوف وأفظع ، قال القشيري : ولا يبعد أن يكون ذلك بإيصال منافع إليها جوازاً لا وجوباً كما قاله أهل البدع - انتهى .

وكل شيء في الدنيا يحضر في تلك الدار ، فإذا وقع الفصل جعل الخبيث في جهنم زيادة في عذاب أهلها ، والطيب في الجنة زيادة في نعيم أهلها .

(62/804)

ولما أفهم هذا الحشر ، ذكر ما يدل على ما ينال أهل الموقف من الشدائد من شدة الحر فقال : ﴿ وإذا البحار ﴾ أي على كثرتها ﴿ سجرت ﴾ أي فجر بعضها إلى بعض حتى صارت بحراً واحداً وملئت حتى كان ما فيها أكثر منها وأحمئت حتى كان كالتنور التهاباً وتسعراً فكانت شراباً لأهل النار وعذاباً عليهم ، ولا يكون هذا إلا وقد حصل من الحر ما يذيب الأكباد .

ولما ذكر من الآيات العلوية من عالم الملك اثنين ومن السفلية أربعة ، فأفهم جميع الخلق أن الأمر في غاية الخطر فتشوفت النفوس إلى ما يفعل ، قال ذاكراً لما أراد من عالم الغيب والملكوت ، وهو أمور ستة على عدد ما مضى من عالم الملك والشهادة ترغيباً في الأعمال

الصالحة والقرناء الصالحين لئلا يزوج بما يسوءه وابتدأ بما يناسب تكوير الشمس : ﴿ وإذا النفوس ﴾ أي من كل ذي نفس من الناس وغيرهم ﴿ زوجت ﴾ أي قرنت بأبدانها وجمع كل من الخلق إلى ما كانت نفسه تألفه وتنزع إليه ، فكانوا أصنافاً كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ [الصافات : 22 ، 23] والتفاف الأزواج كالتفاف الشمس حتى يذهب نورها .

ولما صرح الأمر فكانت القلوب أحر من الجمر ، ذكر ما هو المقصود الأعظم وهو السؤال على وجه يفهم العموم فقال : ﴿ وإذا الموءودة ﴾ أي ما دفن من الأولاد حياً بعد الولادة أو حصل تسبب في قتله قبل الولادة بدواء ونحوه ، سميت موءودة لما يوضع عليها من التراب فيثقلها فيقتلها " وأداً " مقلوب " آداً " إذا أثقل ، وإلقاؤها في البئر المحفور لها قريب من انكدار النجوم وتساقطها .

(63/804)

ولما كان هذا أهون القتل عندهم وكانوا يظنون أنه مما لا عبرة به ، بين أنه معتنىً به وأنه لا بد من بعثها وجعلها بحيث تعقل وتجيب وإن كان نفخ الروح فيها في زمن يسير فقال : ﴿ سئلت ﴾ أي وقع سؤالها عما يليق أن تسأل عنه ، ثم قيل على طريق الاستئناف

تخويفاً للوالدين : ﴿ بأي ﴾ أي بسبب أيّ ﴿ ذنب ﴾ يا أيها الجاهلون ﴿ قتلت ﴾ أي استحقت به عندكم القتل وهي لم تباشر سوءاً لكونها لم تصل إلى حد التكليف ، فما ظنك بمن هو فوقها وبمن هو جان ، وسؤالها هو على وجه التبكيت لقاتلها ، فإن العرب كانت تدفن البنات أحياء مخافة الإملاق أو لحوق العار بهن ، ويقولون : نردها إلى الله هو أولى بها ، فلا يرضون البنات لأنفسهم ويرضونها لخالقهم ، وكان فيهم من يتكرم عن ذلك ومن يفدي الموءودات ويربيهن ، وليس في الآية دليل على تعذيب أطفال الكفرة ولا عدمه ، فإن الكافر الذي يستحق الخلود قد يكون مستأمناً فلا يحل قتله ، والأطفال ما عملوا ما يستحقون به القتل ، ويؤخذ من سؤال المؤدة تحريم الظلم لكل أحد وكف اليد واللسان عن كل إنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 335 . 338 ﴾

(64/804)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ سجرت ﴾ بالتخفيف : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب . ﴿ قتلت ﴾ بالتشديد : يزيد و ﴿ نشرت ﴾ مخففاً : أبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم غير يحيى

وحماد ﴿ الجوار ﴾ ممالة : قتيبة ونصير وأبو عمرو في رواية ﴿ بظنين ﴾ بالظاء : ابن كثير وعلي وأبو عمرو ويعقوب . الباقون : بالضاد .

الوقوف ﴿ كورت ﴾ ه ص ﴿ انكدرت ﴾ ه ص ﴿ سيرت ﴾ ه ك ﴿ عطلت ﴾ ه ك ﴿ حشرت ﴾ ه ك ﴿ سجرت ﴾ ه ك ﴿ زوّجت ﴾ ه ك ﴿ سئلت ﴾ ه ك ﴿ قتلت ﴾ ه ج لاعتراض الاستفهام بين النسق ﴿ نشرت ﴾ ه ص ﴿ كشطت ﴾ ه ك ﴿ سعرت ﴾ ه ك ﴿ أزلفت ﴾ ه ك الاستفهام بين السنق ﴿ نشرت ﴾ ه ص ﴿ كشطت ﴾ ه ك ﴿ سعرت ﴾ ه ك ﴿ أزلفت ﴾ ه ك ﴿ أحضرت ﴾ ه ط لتمام الشرط والجزاء والتقدير إذا كورت الشمس كورت ارتفعت الشمس بفعل مضمر تفسيره الظاهر وكذلك ما بعدها . وقوله ﴿ علمت ﴾ جواب عن الكل وهو العامل في "إذا" وما عطف عليها ﴿ بالخنس ﴾ ه لا ﴿ الكنس ﴾ ه لا ﴿ عسعس ﴾ ه ك ﴿ تنفس ﴾ ه ك ﴿ كريم ﴾ ه ك ﴿ مكين ﴾ ه ك ﴿ أمين ﴾ ه ط بناء على أن ما بعده مستأنف ومن جعل ﴿ وما صاحبكم ﴾ وما بعدها معطوف على جواب القسم لم يقف على ﴿ أمين ﴾ إلى قوله ﴿ فأين تذهبون ﴾ . ﴿ بمجنون ﴾ ه ج ﴿ المبين ﴾ ه ج ﴿ بضنين ﴾ ه ج ﴿ رجيم ﴾ ه ج ﴿ تذهبون ﴾ ه ط ﴿ للعالمين ﴾ ه لا لأن ما بعده بدل البعض ﴿ يستقيم ﴾ ه ﴿ العالمين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 451. 452 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

اعلم أنه تعالى ذكر اثني عشر شيئاً ، وقال : إذا وقعت هذه الأشياء فهنالك ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] فالأول : قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وفي التكوير وجهان أحدهما : التلفيف على جهة الاستدارة كتكوير العمامة ، وفي الحديث " نعوذ بالله من الحور بعد الكور " أي من التشتت بعد الألفة والطي واللف ، والكور والتكوير واحد ، وسميت كارة القصار كارة لأنه يجمع ثيابه في ثوب واحد ، ثم إن الشي الذي يلف لا شك أن يصير مختفياً عن الأعين ، فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس وتصييرها غائبة عن الأعين بالتكوير ، فلهذا قال بعضهم : كورت أي طمست ، وقال آخرون : انكسفت ، وقال الحسن : محى ضؤوها وقال المفضل بن سلمة : كورت أي ذهب ضؤوها ، كأنها استترت في كارة الوجه الثاني : في التكوير يقال : كورت الحائط ودهورته إذا طرحته حتى يسقط ، قال الأصمعي : يقال طعنه فكوره إذا صرعه ، فقوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ أي ألقيت ورميت عن الفلك وفيه قول ثالث : يروى عن عمر أنه لفظة مأخوذة من الفارسية ، فإنه يقال للأعمى كور ، وههنا سؤالان : السؤال الأول : ارتفاع

الشمس على الابتداء أو الفاعلية الجواب : بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر ، يفسره كورت لأن ﴿ إذا ﴾ ، يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط .

السؤال الثاني : روي أن الحسن جلس بالبصرة إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن فحدث عن أبي هريرة أنه عليه السلام ، قال : " إن الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة ، فقال الحسن ، وما ذنبهما ؟ قال : إني أحدثك عن رسول الله " فسكت الحسن ، والجواب : أن سؤال الحسن ساقط ، لأن الشمس والقمر جمادان فإلقاؤهما في النار لا يكون سبباً لمضرتهما ، ولعل ذلك يصير سبباً لازدياد الحر في جهنم ، فلا يكون هذا الخبر على خلاف العقل الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ .

(66/804)

أي تناثرت وتساقطت كما قال تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ [الإنفطار : 2] والأصل في الانكدار الانصباب ، قال الخليل : يقال انكدر عليهم القوم إذا جاؤوا أرسالاً فانصبوا عليهم ، قال الكلبي : تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على وجه الأرض ، قال عطاء : وذلك أنها في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من النور ، وتلك السلاسل في أيدي الملائكة ، فإذا مات من في السماء والأرض تساقطت تلك

السلاسل من أيدي الملائكة .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .

أي عن وجه الأرض كقوله : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ [النبأ : 20] أو في الهواء كقوله : ﴿ تمر مر السحاب ﴾ [النمل : 88] .

الرابع : قوله : ﴿ وإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ .

فيه قولان : القول الأول : المشهور أن ﴿ العشار ﴾ جميع عشراء كالنفاس في جمع نفساء ، وهي التي على حملها عشرة أشهر ، ثم اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ، وهي أنفس ما يكون عند أهلها وأعزها عليهم ، و ﴿ عطلت ﴾ قال ابن عباس : أهملها أهلها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة ، وليس شيء أحب إلى العرب من النوق الحوامل ، وخوطب العرب بأمر العشار لأن أكثر مالها وعيشها من الإبل .

والغرض من ذلك ذهاب الأموال وبطلان الأملاك ، واشتغال الناس بأنفسهم كما قال : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء : 88 ، 98] وقال : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الأنعام : 94] .

والقول الثاني : أن العشار كناية عن السحاب تعطلت عما فيها من الماء ، وهذا وإن كان مجازاً إلا أنه أشبه بسائر ما قبله ، وأيضاً فالعرب تشبه السحاب بالحامل ، قال تعالى :

﴿ فالحاملات وقراً ﴾ [الذاريات : 2] .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ .

(67/804)

كل شيء من دواب البر مما لا يستأنس فهو وحش ، والجمع الوحوش ، و ﴿ حشرت ﴾ جمعت من كل ناحية ، قال قتادة : يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص ، قال المعتزلة : إن الله تعالى يحشر الحيوانات كلها في ذلك اليوم ليعوضها على آلامها التي وصلت إليها في الدنيا بالموت والقتل وغير ذلك ، فإذا عوضت على تلك الآلام ، فإن شاء الله أن يبقى بعضها في الجنة إذا كان مستحسناً فعل ، وإن شاء أن يفنيه أفناه على ما جاء به الخبر ، وأما أصحابنا فعندهم أنه لا يجب على الله شيء بحكم الاستحقاق ، ولكنه تعالى يحشر الوحوش كلها فيقتص للجماء من القرناء ، ثم يقال لها موتى فتموت ، والغرض من ذلك هذه القصة ههنا وجوه أحدها : أنه تعالى إذا كان (يوم القيامة) يحشر كل الحيوانات إظهاراً للعدل ، فكيف يجوز مع هذا أن لا يحشر المكلفين من الإنس والجن ؟ الثاني : أنها تجتمع في موقف القيامة مع شدة نفرتها عن الناس في الدنيا وتبددها في الصحاري ، فدل هذا على أن اجتماعها إلى الناس ليس إلا من هول ذلك اليوم والثالث : أن هذه الحيوانات بعضها

غذاء للبعض ، ثم إنها في ذلك اليوم تجتمع ولا يتعرض بعضها لبعض وما ذاك إلا لشدة هول ذلك اليوم ، وفي الآية قول آخر : لابن عباس وهو أن حشر الوحوش عبارة عن موتها ، يقال إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة ، وقرىء حشرت بالتشديد .

السادس : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ .

(68/804)

قرىء بالتخفيف والتشديد ، وفيه وجوه : أحدها : أن أصل الكلمة من سجرت التنور إذا أوقدتها ، والشيء إذا وقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة ، فحينئذ لا يبقى في البحار شيء من المياه ألبتة ، ثم إن الجبال قد سيرت على ما قال : ﴿ وسيرت الجبال ﴾ [النبأ : 20] وحينئذ تصير البحار والأرض شيئاً واحداً في غاية الحرارة والإحراق ، ويحتمل أن تكون الأرض لما نشفت مياه البحار ربت فارتفعت فاستوت برؤوس الجبال ، ويحتمل أن الجبال لما اندكت وتفرقت أجزاؤها وصارت كالتراب وقع ذلك التراب في أسفل الجبال ، فصار وجه الأرض مستوياً مع البحار ، ويصير الكل بحراً مسجوراً وثانيها : أن يكون ﴿ سجرت ﴾ بمعنى ﴿ فجرت ﴾ وذلك لأن بين البحار حاجزاً على ما قال : ﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ [الرحمن : 19 ، 20] فإذا رفع الله

ذلك الحاجز فاض البعض في البعض ، وصارت البحار بحراً واحداً ، وهو قول الكلبي :

وثالثها : ﴿ سجرت ﴾ أوقدت ، قال القفال : وهذا التأويل يحتمل وجوهاً الأول : أن تكون جهنم في قعور البحار ، فهي الآن غير مسجورة لقيام الدنيا ، فإذا انتهت مدة الدنيا أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار ، فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك والثاني : أن الله تعالى يلقي الشمس والقمر والكواكب في البحار ، فتصير البحار مسجورة بسبب ذلك والثالث : أن يخلق الله تعالى بالبحار نيراناً عظيمة حتى تتسخن تلك المياه ، وأقول هذه الوجوه متكلفة لا حاجة إلى شيء منها ، لأن القادر على تخريب الدنيا وإقامة القيامة لا بد وأن يكون قادراً على أن يفعل بالبحار ما شاء من تسخين ، ومن قلب مياهها نيراناً من غير حاجة منه إلى أن يلقى فيها الشمس والقمر ، أو يكون تحتها نار جهنم .

واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا ، ويمكن وقوعها أيضاً بعد قيام القيامة ، وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين ، أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة .

(69/804)

السابع : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

وفيه وجوه أحدها : قرنت الأرواح بالأجساد وثانيها : قال الحسن : يصيرون فيها ثلاثة أزواج كما قال : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون ﴾ [الواقعة : 107] وثالثها : أنه يضم إلى كل صنف من كان طبقته من الرجال والنساء ، فيضم المبرز في الطاعات إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله وأهل المعصية إلى مثله ، فالتزويج أن يقرن الشيء بمثله ، والمعنى أن يضم كل واحد إلى طبقته في الخير والشر ورابعها : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان كما قال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] قيل فزدناهم من الشياطين وخامسها : قال ابن عباس زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين وسادسها : قرن كل امرىء بشيعته اليهودي باليهودي والنصراني بالنصراني ، وقد ورد في خبر مرفوع وسابعها : قال الزجاج : قرنت النفوس بأعمالها .

واعلم أنك إذا تأملت في الأقوال التي ذكرناها أمكنك أن تزيد عليها ما شئت .

الثامن : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴾ .

﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

فيه مسائل : المسألة الأولى :

وأديئد مقلوب من آد يئود أوداً ثقل قال تعالى : ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ [البقرة : 255] أي يثقله ؛ لأنه إثقال بالتراب كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد بقاء حياتها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغت قامتها ستة أشبار فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أقاربها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها إلى البئر فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي البئر بالأرض ، وقيل : كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنت رمتها في الحفرة ، وإذا ولدت ابناً أمسكته ، وههنا سؤالان : السؤال الأول : ما الذي حملهم على وأد البنات ؟ الجواب : الخوف من لحوق العار بهم من أجلهم أو الخوف من الإملاق ، كما قال تعالى :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] وكانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات بالملائكة ، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد فافتخر الفرزدق به في قوله :

ومنا الذي منع الوائدات . . فأحيا الوئيد فلم توأد

السؤال الثاني : فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذي قتلت به ، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها ؟ الجواب : سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها ، وهو كتبكيت النصارى في قوله لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ [المائدة : 116] .

المسألة الثانية :

(71/804)

قرىء سألت ، أي خاصمت عن نفسها ، وسألت الله أو قاتلها ، وقرىء قتلت بالتشديد ، فإن قيل : اللفظ المطابق أن يقال : ﴿ سئلت * بأي ذنب قتلت ﴾ ومن قرأ سألت فالمطابق أن يقرأ : ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ فما الوجه في القراءة المشهورة ؟ قلنا : الجواب : من وجهين الأول : تقدير الآية : وإذا الموؤودة سئلت (أي سئل) الوائدون عن أحوالها بأي ذنب قتلت والثاني : أن الإنسان قد يسأل عن حال نفسه عند المعاينة بلفظ المغايبة ، كما إذا أردت أن تسأل زيداً عن حال من أحواله ، فتقول : ماذا فعل زيد في ذلك المعنى ؟ ويكون زيد هو المسئول ، وهو المسئول عنه ، فكذا ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 61ـ64 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

قال ابن عباس : تكويرها : إدخالها في العرش .

والحسن : ذهاب ضوئها .

وقاله قتادة ومجاهد : وروي عن ابن عباس أيضاً .

سعيد بن جُبير : عُوِّرَتْ .

أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحي .

وقال الربيع بن خيثم : "كورت" رمُي بها ؛ ومنه : كوّرته فتكوّر ، أي سقط .

قلت : وأصل التكوير : الجمع ، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لاثها وجمعها فهي تُكَوَّر ويمحي ضوءها ، ثم يُرمْى بها في البحر .

والله أعلم .

وعن أبي صالح : كوّرت : نكّستْ .

﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ أي تهافتت وتناثرت .

وقال أبو عبيدة : انصبت كما تنصَبّ العُقاب إذا انكسرت .

قال العجّاج يصف صقراً :

أَبصرَ خِربان فضاء فانكدر . . .

تقضِّيَ البازِي إذا البازِي كَسَر

وروَى أبو صالح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يَبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض ، حتى يفزَع أهل الأرض السابعة مما لَقِيت وأصاب العليا " ، يعني الأرض .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت ؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور ، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات ، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة ؛ لأنه مات من كان يمسكها .

ويحتمل أن يكون انكدارها طَمْس آثارها .

وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها .

وعن ابن عباس أيضاً : انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها .

والمعنى متقارب .

﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ يعني قُلِعت من الأرض ، وسيرت في الهواء ؛ وهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] .

(73/804)

وقيل سيرُها تحوّلها عن منزلة الحجارة ، فتكون كثيباً مَهيلا ، أي رملاً سائلاً ، وتكون كالعِهن ، وتكون هباء منثوراً ، وتكون سَراباً ، مثل السراب الذي ليس بشيء .

وعادت الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أَمتا .

وقد تقدم في غير موضع والحمد لله .

﴿ وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ﴾ أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ؛ الواحدة عُشَراء ، أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وبعد ما تضع أيضاً .

ومن عادة العرب أن يسمُّوا الشيء باسمه المتقدّم وإن كان قد جاوز ذلك ؛ يقول الرجل لفرسه وقد قَرِح : هاتوا مُهْري ، يسميه بمتقدّم اسمه ؛ قال عنترة :

لا تذكري مُهْرِي وما أطعمتُه . . .

فيكونَ جِلدُكِ مثلَ جِلدِ الأَجرب

وقال أيضاً :

وحَمَلْتُ مُهرِي وسْطَها فمضاها . . .

وإنما خص العِشار بالذكر ، لأنها أعز ما تكون على العرب ، وليس يُعَطلها أهلها إلا حال القيامة .

وهذا على وجه المثل ؛ لأن في القيامة لا تكون ناقة عُشَرَاءَ ، ولكن أراد به المثل ؛ أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عُشَراءُ لعطَّلها واشتغل بنفسه ، وقيل : إنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضاً ، ورأوا الوُحوش والدوابّ محشورة ، وفيها عِشارهم التي كانت أنفس أموالهم ، لم يعبئوا بها ، ولم يهمَّهم أمرُها .

وخُوطبت العرب بأمر العِشار ؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل .

وروَي الضحاك عن ابن عباس : عُطِّلت : عَطَّلها أهلها ، لاشتغالهم بأنفسهم .

وقال الأعشى :

هو الواهِبُ المائةَ المصطفا . . .

ةَ إما مَخاضاً وإما عِشارَا

وقال آخر :

ترى المرءَ مهجوراً إذا قلَّ مالهُ . . .

وبيتُ الغِنى يُهْدَى له ويُزارُ

وما ينفعُ الزوّارَ مالُ مَزُورِهِم . . .

إذا سَرَحَتْ شَوْلٌ له وعِشارُ

يقال : ناقة عُشَراء ، وناقتان عُشَراوان ، ونوق عِشارٌ وعُشَراوات ، يبدلون من همزة التأنيث واواً .

(74/804)

وقد عَشَّرت الناقة تعشيراً : أي صارت عُشَراء .

وقيل : العِشار : السحاب يُعَطَّل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ؛ والعرب تشبه السحاب بالحامل .

وقيل : الديار تُعَطَّل فلا تُسكن .

وقيل : الأرض التي يُعَشَّر زرْعها تعطل فلا تزرع .

والأوّل أشهر ، وعليه من الناس الأكثر .

﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ أي جمعتْ والحشر : الجمع .

عن الحسن وقتادة وغيرهما .

وقال ابن عباس : حَشْرها : موتها .

رواه عنه عِكرمة .

وحَشْر كل شيء : الموت غيرَ الجن والإنس ، فإنهما يُوافيان يوم القيامة .

وعن ابن عباس أيضاً قال : يُحْشَر كل شيء حتى الذُّباب .

قال ابن عباس : تحشر الوحوش غداً : أي تجمع حتى يُقتصَّ لبعضها من بعض ، فيقتصَّ للجَمّاء من القَرْناء ، ثم يقال لها كوني تراباً فتموت .

وهذا أصح مما رواه عنه عِكرمة ، وقد بيناه في كتاب "التذكرة" مستوفى ، ومضى في سورة "الأنعام" بعضُه .

أي إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف ببني آدم .

وقيل : عُنِي بهذا أنها مع نُفْرتها اليوم من الناس وتنددها في الصحارَى ، تنضم غداً إلى الناس من أهوال ذلك اليوم .

قال معناه أبيُّ بن كعب .

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ أي ملئت من الماء ؛ والعرب تقول : سَجَرت الحوضَ أَسجِّره سَجْرا : إذا ملأته ، وهو مسجور ، والمسجور والساجر في اللغة : الملآن .

وروى الربيع بن خيثم : سُجِّرت : فاضت ومُلئت .

وقاله الكلبيّ ومقاتل والحسن والضحاك .

قال ابن أبي زَمْنين : سُجِّرت : حقيقته مُلِئت ، فيفِيض بعضها إلى بعض ، فتصير شيئاً

واحداً .

وهو معنى قول الحسن .

وقيل : أرسِل عَذْبها على مالحها ، ومالحها على عذبها ، حتى امتلأت .

عن الضحاك ومجاهد : أي فُجرت فصارت بحراً واحداً .

القشيريّ : وذلك بأن يرفع الله الحاجز الذي ذكره في قوله تعالى : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 20] ، فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار ، فعمت الأرض كلها ، وصارت البحار بحراً واحداً .

(75/804)

وقيل : صارت بحراً واحداً من الحميم لأهل النار .

وعن الحسن أيضاً وقتادة وابن حيان : تيبس فلا يبقى من مائها قطرة .

القُشَيْريّ : وهو من سَجَرْت التنور أَسْجُره سَجْرا : إذا أحميته ، وإذا سُلّط عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة ، وتُسَيَّر الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً ، بأن يُمْلأَ مكان البحار بتراب الجبال .

وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة ؛ يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض ، بعضها إلى

بعض ، فتقلَب ناراً .

قلت : ثم تُسَيَّر الجبال حينئذ ، كما ذكر القشيري ، والله أعلم .

وقال ابن زيد وشَمِر وعطية وسفيان ووهب وعلي بن أبي طالب وابن عباس في رواية الضحاك عنه : أُوقدت فصارت ناراً .

قال ابن عباس : يُكَوِّر الله الشمس والقمر والنجوم في البحر ، ثم يبعث الله عليها ريحاً دَبُوراً ، فتنفخُه حتى يصير ناراً .

وكذا في بعض الحديث : " يأمر الله جل ثناؤه الشمس والقمر والنجوم فينتثرون في البحر ، ثم يبعث الله جل ثناؤه الدَّبور فيسجِّرها ناراً ، فتلك نار الله الكبرى ، التي يعذب بها الكفار " قال القشيْري : قيل في تفسير قول ابن عباس ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ أوقدت ، يحتمل أن تكون جهنم في قُعور من البحار ، فهي الآن غير مسْجورةٍ لقوام الدنيا ، فإذا انقضت الدنيا سُجِّرت ، فصارت كلها ناراً يدخلها الله أهلها .

ويحتمل أن تكون تحت البحر نار ، ثم يوقد الله البحر كله فيصير ناراً .

وفي الخَبَر : البحر نار في نار وقال معاوية بن سعيد : بحر الروم وسْط الأرض ، أسفله آبار مُطْبقة بنُحاس يُسَجَّر ناراً يوم القيامة .

وقيل : تكون الشمس في البحر ، فيكون البحر ناراً بحر الشمس .

ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل يوم القيامة ويكون من أشراطها ،

ويجوز أن يكون يوم القيامة ، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة .

قلت : رُوِي عن عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طَبَق جَهَنم .

(76/804)

وقال أبيّ بن كعب : ست آيات من قَبْل يوم القيامة : بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودُهِشوا ، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقطت ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحرّكت واضطربت واحترقت ، فصارت هباء منثوراً ، ففزعت الإنس إلى الجنّ والجنّ إلى الإنس ، واختلطت الدوابُّ والوحوش والهوامُّ والطير ، وماج بعضها في بعض ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ ثم قالت الجنّ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجّج ، فبينما هم كذلك تصدّعتِ الأرض صَدْعة واحدة إلى الأرض السابعة السُّفلَى ، وإلى السماء السابعة العليا ، فبينما هم كذلك إذا جاءتهم ريح فأماتتهم .

وقيل : معنى "سُجِّرت" : هو حُمْرة مائها ، حتى تصير كالدم ؛ مأخوذ من قولهم : عين سَجْراء : أي حمراء .

وقرأ ابن كثير "سُجِرَت" وأبو عمرو أيضاً ، إخباراً عن حالها مرة واحدة .

وقرأ الباقون بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قال النعمان بن بشير : قال النبي صلى الله عليه وسلم " وإِذا النفوس زُوِّجت " قال : "يُقْرَن كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله "

وقال عمر بن الخطاب : يُقْرَن الفاجر مع الفاجر ، ويقرن الصالح مع الصالح .

وقال ابن عباس : ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة ، السابقون زوج يعني صنفاً وأصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج .

وعنه أيضاً قال : زُوِّجت نفوس المؤمنين بالحُور العين ، وقُرن الكافر بالشياطين ، وكذلك المنافقون .

وعنه أيضاً : قُرِن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار ، فيضم المَبرِّز في الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، وأهل المعصية إلى مثله ؛ فالتزويج أن يُقرن الشيء بمثله ؛ والمعنى : وإذا النفوس قُرنت إلى أشكالها في الجنة والنار .

(77/804)

وقيل : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من مَلِك وسطلان ، كما قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد : جُعلوا أزواجاً على أشباه أعمالهم ليس بتزويج ، أصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ؛ وقد قال جل ثناؤه : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : 22] أي أشكالهم .

وقال عِكرمة : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قرنت الأرواح بالأجساد ؛ أي ردت إليها .

وقال الحسن : ألحق كل امرىء بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يُلْحَق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين .

وقيل : يُقْرَن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، على جهة البغض والعداوة ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين .

وقيل : قُرِنت النفوس بأعمالها ، فصارت لاختصاصها به كالتزويج .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾

الموءودة المقتولة ؛ وهي الجارية تدفن وهي حية ، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب ، فيؤودها أي يثقلها حتى تموت ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يثقله ؛

وقال متمم بن نُويرة :

ومَوءودة مَقبورة فِي مَفازةٍ . . .

بآمِتها مَوْسودة لم تُمَهّد

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين ؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به .

الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق ، وإما خوفاً من السبيْ والاسترقاق .

وقد مضى في سورة "النحل" هذا المعنى ، عند قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب ﴾ [النحل : 59] مستوفًى .

وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا ، ويمنعون منه ، حتى افتخر به الفرزدق ، فقال :

ومِنّا الَّذي منعَ الوِائداتِ . . .

فأحيا الوِئيد فلم يُوأَدِ

(78/804)

يعني جدّه صعصعة كان يشتريهن من آبائهن ، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة .

وقال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة ، وتمخضت على رأسها ، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة ، وردّتِ التراب عليها ، وإن ولدت غلاماً حبسته ، ومنه قول الراجز :

سَمَّيتها إذ وُلِدتْ تموتُ . . .

والقبرُ صِهرٌ ضامِنٌ زِمّيتُ

الزِّميت الوقور ، والزميت مثال الفِسيق أوقر من الزِّميتِ ، وفلان أزمت الناس أي أوقرهم ، وما أشد تَزَمته ؛ عن الفراء .

وقال قتادة : كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ، ويغذو كلبه ، فعاتبهم الله على ذلك ، وتوعدهم بقوله : "وإذا الموءودة سئِلت" قال عمر في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ قال :

" جاء قيس ابن عاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنى وأدت ثمانَ بنات كنّ لي في الجاهلية ، قال : "فأعتِق عن كل واحدة منهن رقبة" قال : يا رسول الله إني صاحب إبل ، قال : "فأهْدِ عن كل واحدة منهنّ بَدَنة إن شئت" " وقوله تعالى : "سُئِلت" سؤال الموءودة سُؤال توبيخ لقاتلها ، كما يقال للطفل إذا ضُرِب : لم ضُرِبت ؟ وما ذنبك ؟ قال الحسن : أراد الله أن يُوبِّخ قاتلها ؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب .

وقال ابن أسلم : بأي ذنب ضُرِبت ، وكانوا يُضربونها .

وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى "سئلت" قال : طُلِبت ؛ كأنه يريد كما يُطلب بدم القتيل .

قال : وهو كقوله : ﴿ وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولاً ﴾ [الأحزاب : 15] أي مطلوباً .

فكأنها طُلِبت منهم ، فقيل أين أولادكم ؟ ! وقرأ الضحاك وأبو الضُّحا عن جابر بن زيد وأبي صالح "وإِذا الموءودة سَأَلت" فتتعلق الجارية بأبيها ، فتقول : بأيّ ذنب قتلتني ؟ ! فلا يكون له عذر ؛ قاله ابن عباس وكان يقرأ ﴿ وَإِذَا الموءودة سألت ﴾ وكذلك هو في مصحف أُبيّ .

(79/804)

وروى عِكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدُها بثدييها ، ملطخاً بدمائه ، فيقول يا ربّ ، هذه أمي ، وهذه قتلتني " والقول الأوّل عليه الجمهور ، وهو مثل قوله تعالى لعيسى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] ، على جهة التوبيخ والتبكيت لهم ، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها ، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها ؛ لأن هذا مما لا يصح إلا بذنب ، فبأيّ ذنب كان ذلك ، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها ، كان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها .

والله أعلم .

وقريء "قُتِّلت" بالتشديد ، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعَذَّبون ، وعلى أن التعذيب لا يُستَحقّ إلا بذنب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

أي لفت من كورت العمامة إذا لففتها وهو مجاز عن رفعها وإزالتها من مكانها بعلاقة اللزوم فإن الثوب إذا أريد رفعه يلف لفاً ويطوى ثم يرفع ونحوه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ [الأنبياء : 104] ويجوز أن يراد لف ضوئها المنبسط في الآفاق المنتشر في الأقطاء إما على أن الشمس مجاز عن الضوء فإنه شائع في العرف أو على تقدير المضاف أو على التجوز في الإسناد ويراد من لفه إذهابه مجازاً بعلاقة اللزوم كما سمعت آنفاً أو رفعه وستره استعارة كما قيل وقد اعتبر تشبيه الضوء بالجواهر والأمور النفيسة التي إذا رفعت لفت في ثوب ثم تعتبر الاستعارة ويجعل التكوير بمعنى اللف قرينة ليكون هناك استعارة مكنية تخييلية وكون المراد إذهاب ضوئها مروى عن الحسن وقتادة ومجاهد وهو ظاهر ما رواه جماعة عن ابن عباس من تفسيره كورت باظلمت والظاهر أن ذاك مع بقاء جرمها كالقمر في خسوفه وفي الآثار ما يؤيد ذلك وقيل أن ذاك عبارة عن إزالة نفس الشمس والذهاب بها للزوم العادي واستلزام زوال اللازم لزوال الملزوم ويجوز أن يكون المراد بكورت ألقيت عن

فلكها وطرحت من طعنه فحوره وكوره أي ألقاه مجتمعاً على الأرض والقاؤها في جهنم مع عبدتها كما يدل عليه بعض الأخبار المرفوعة ويذهب إذ ذاك نورها كما صرح به القرطبي أو في "البحر" كما يدل عليه خبر ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عتيك وفيه أن الله تعالى يبعث ريحاً دبوراً فتنفخه أي البحر حتى يرجع ناراً وعظم جرم الشمس اليوم لا يقتضي استحالة القائها في البحر ذلك اليوم لجواز اختلاف الحال في الوقتين والله عز وجل على كل شيء قدير لكن جاء في الأخبار الصحيحة أن الشمس تدنو يوم القيامة من الرؤوس في المحشر حتى تكون قدر ميل ويلجم الناس العرق يومئذٍ ولا بحر حينئذٍ لتلقى فيه بعد فلا تغفل وعن أبي صالح كورت نكست وفي رواية عن ابن عباس تكويرها إدخالها في العرش وعن مجاهد أيضاً اضمحلت ومدار التركيب على

(81/804)

الإدارة والجمع هذا ولم نقف لأحد من السلف على إرادة لفها حقيقة وللمتأخرين في جواز إرادته خلاف فقيل لا تجوز إرادته لأن الشمس كرية مصمتة وغاية اللف هي الإدارة وهي حاصلة فيها وقيل تجوز لأن كون الشمس كذلك مما لا يثبته أهل الشرع وعلى تسليمه يجوز أن يحدث فيها قابلية اللف بأن يصيرها سبحانه منبسطة ثم يلفها وله عز وجل في ذلك ما له

من الحكم ويبعد إرادة الحقيقة فيما أرى كونها كيفما كانت من الأجرام التي لا تلف كالثياب نعم القدرة في كل وقت لا يتعاصاها شيء وارتفاع الشمس بفعل مضمر يفسره المذكور عند جمهور البصريين لاختصاص إذا الشرطية عندهم بالفعل وعلى الابتداء عند الأخفش والكوفيين لعدم الاختصاص عندهم وكون التقدير خلاف الأصل وكذا يقال في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ أي انقضت وسقطت كما أخرجه عبد بن حميد عن مجاهد وقتادة ومنه انكدر البازي إذا نزل بسرعة على ما يأخذه قال العجاج يمدح عمر بن معمر التيمي :

إذا الكرام ابتدروا الباع بدر . . .

تقضي البازي إذا البازي كسر

داني جناحيه من الطود فمر . . .

أبصر خربان فضاء فانكدر

(82/804)

وهذا إحدى روايتين عن ابن عباس وروي عنه أنه قال لا يبقى يومئذٍ نجم إلا سقط في الأرض وعنه أيضاً أن النجوم قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور بأيدي ملائكة من نور فإذا مات من في السموات والأرض تساقطت من أيديهم وظاهر هذا أن النجوم ليست في جرم أفلاك لها كما يقول الفلاسفة المتقدمون بل معلقة في فضاء ويقرب منه من وجه قول الفلاسفة المحدثين فإنهم يقولون بكونها في فضاء أيضاً لكن بقوى متجاذبة لا معلقة بسلاسل بأيدي ملائكة وليس وراء ما يشاهد منها الأسماء بمعنى جهة علو لا سماء بالمعنى المعروف وإن صح خبر الحبر وهو في حكم المرفوع لم نعدل عن ظاهره إلا أن ظهر استحالته وهيهات ذلك وحينئذٍ فالأمر سهل وقد ذكر بعض المتألهين أن الملائكة قد تطلق على الأرباب النورية كما في خبر إن لكل شيء ملكاً وأن كل قطرة من قطرات المطر ينزل معها ملك وخبر أتاني ملك الجبال وملك البحار وتسمى المثل الأفلاطونية وهي أنوار مجردة قائمة بنفسها مدبرة بإذن الله تعالى للمربوبات حافظة إياها وهي المنمية والغاذية والمولدة في النباتات والحيوانات ويقال في السلاسل أنه أريد بها القوى التي بها حفظ الأوضاع أو نحو ذلك وقيل انكدرت تغيرت وانطمس نورها كما هو الرواية الأخرى عن ابن عباس من كدرت الماء فانكدر ففيه تشبيه انطماس نورها بتكدر الماء الذي لا يبقى معه صفاؤه ورونق منظره وتكون هي حينئذٍ على ما في بعض الآثار مع عبدتها في النار وظاهر أن النجوم لا تشمل الشمس وقيل تشملها وذكرها بعدها تعميم بعد تخصيص فلا تغفل .

﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ أي أزيلت عن أماكنها من الأرض بالرجفة الحاصلة على أن التسيير مجاز عن ذلك وقيل سيرت بعد رفعها في الجو كما قال تعالى ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] وهذا إنما يكون بعد النفخة الثانية .

(83/804)

﴿ وَإِذَا العشار ﴾ جمع عشراء كنفاس جمع نفساء وهي الناقة التي أتى عليها من يوم أرسل فيها الفحل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وقد يقال لها ذلك بعد ما تضع أيضاً وهي أنفس ما يكون عند أهلها وأعز شيء عليهم ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تركت مهملة لا راعي لها ولا طالب وقيل عطلها أهلها عن الحلب والصر وقيل عن أن يرسل فيها الفحول وذلك إذا كان قبيل قيام القيامة لاشتغال أهلها بما عراهم مما يكون إذ ذاك وقيل إن هذا التعطيل يوم القيامة فقال القرطبي الكلام على التمثيل إذ لا عشار حينئذٍ والمعنى أنه لو كانت عشار لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم وقيل على الحقيقة أي إذا قاموا من القبور وشاهدوا الوحوش والأنعام والدواب محشورة ورأوا عشارهم التي كانت كرائم أموالهم فيها لم يعبؤا بها لشغلهم بأنفسهم وهو كما ترى وقيل المراد بالعشاء السحاب على تشبيه

السحابة المتوقع مطرها بالناقة العشراء القريب وضع حملها وفيه استعارة لطيفة مع المناسبة التامة بينه وبين ما قبله فإن السحب تنعقد على رؤوس الجبال وترى عندها ولا ينافيه كونه مناسباً لما بعده على الأول فإنه معنى حقيقي مرجح بنفسه وتعطيلها مجاز عن عدم ارتقاب مطرها لأنهم في شغل عنه وقيل عن عدم إمطارها وقيل هي الديار تعطل فلا تسكن وقيل الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع وقرأ مضر عن اليزيدي عطلت بالتخفيف والبناء للمجهول ونقله في اللوامح عن ابن كثير ثم قال هو وهم إنما هو عطلت بفتحتين بمعنى تعطلت لأن تشديده للتعدية يقال عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه وعطلت المرأة فهي عاطل إذا لم يكن عليها حلى فلعل هذه القراءة لغة استوى فيها فعلت وافعلت أي في التعدي وقيل اوظهر أنه عدي بالحرف ثم حذف وأوصل الفعل بنفسه .

(84/804)

﴿ وَإِذَا الوحوش ﴾ جمع وحش وهو حيوان البر الذي ليس في طبعه التأنس ببني آدم والمراد به ما يعم البهائم مطلقاً ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت من كل جانب وذلك قبيل النفخة الأولى حين تخرج نار تفر الناس والأنعام منها حتى تجتمع وقيل أميتت من قولهم إذا أجحنت السنة الناس حشرتهم ونحوه ما أخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنهق ال حشرها

موتها وعن ابن عباس تفسير الحشر بالجمع إلا أنه قال كما أخرجه جماعة وصححه الحاكم جمعت بالموت فلا تبعث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين وقيل بعثت للقصاص فيحشر كل شيء حتى الذباب وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً وعن قتادة وجماعة وفي رواية عن الحبر تحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها لبعض فيقتص للجماء من القرناء ثم يقال لها موتي فتموت وقيل إذا قضى بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس والظبي وقيل يبقى كل ما لم ينتفع به إلا المؤمن كشاة لم يأكل منها إلا هو ويدخل ما يبقى الجنة على حال لائقة بها وذهب كثير إلى بعض جميع الحيوانات ميلاً إلى هذه الأخبار ونحوها فقد أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة في هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء " وزاد أحمد بن حنبل وحتى الذرة من الذرة ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفاً ولا أهلاً للكرامة بوجه وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحاً لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام وإلى هذا القول أميل ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول لأن لهم ما يصلح مستنداً في الجملة والله تعالى أعلم وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون حشرت بالتشديد للتكثير .

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ أي أحميت بأن تغيض مياهها وتظهر النار في مكانها ولذا ورد على ما قيل أن البحر غطاء جهنم أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى يكون مالحها وعذبها بحراً واحداً من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه وقيل ملئت نيراناً تضطرم لتعذيب أهل النار وقيل ملئت تراباً تسوية لها بأرض المحشر وليس له مستند أثر عن السلف ونقل في "البحر" عن كتاب لغات القرآن إن سجرت بمعنى جمعت بلغة خثعم ولعل جمعها عليه بالتفجير وقال ابن عطية يحتمل أن يكون المعنى ملكت وقيد اضطرابها حتى لا يخرج عن الأرض من الهول فيكون ذلك مأخوذاً من ساجور الكلب وهو خشبة تجعل في عنقه ويقال سجره إذا شده به وقرأ ابن كثير وأبو عمرو سجرت بالتخفيف .

﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ أي قرنت كل نفس بشكلها أخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن النعمان بن بشير عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن ذلك فقال يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء في النار فذلك تزويج الأنفس وفي حديث مرفوع رواه النعمان أيضاً ما يقتضي ظاهره ذلك وقال بعض هذا في الموقف أن يقرن بين الطبقات الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل وقال مقاتل بن سليمان

تقرن نفوس المؤمنين بأزواجهم من الحور وغيرهن ونفوس الكافرين بالشياطين وقيل تقرن كل نفس بكتابها وقيل بعملها وجوز أن يراد تقرن كل نفس بخصمها فلا يمكنها الفرار منه وأنت تعلم أن كون كل نفس ذا خصم بين الانتفاء وأياً ما كان فالنفس بمعنى الذات والتزويج جعل الشيء زوجاً أي مقارناً وقال عكرمة والضحاك والشعبي تقرن النفوس بأزواجها وذلك عند البعث والنفس عليه بمعنى الروح وقرأ عاصم زوجت على فوعلت .

(86/804)

﴿ وَإِذَا ﴾ وهي البنت التي تدفن حية من الوأد وهو الثقل كأنها سميت بذلك لأنها تثقل بالتراب حتى تموت وقيل هو مقلوب الأود وحكاه المرتضى في درره عن بعض أهل اللغة وهو غير مرتضى عند أبي حيان وكانت العرب تئد البنات مخافة لحوق العار بهم من أجلهن وقيل مخافة الإملاق ولعله بالنسبة إلى بعضهم ومنهم من يقول الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فالحقوا البنات به تعالى فهو عز وجل أحق بهن وذكر غير واحد أنه كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري

فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض وقيل كانت الحامل إذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها فيها وإن ولدت ابناً حبسته ورأيت إذ أنا يافع في بعض الكتب أن أول قبيلة وأدت من العرب ربيعة وذلك أنهم أغير عليهم فنهبت بنت لأمير لهم فاستردها بعد الصلح فخيرت برضا منه بين أبيها ومن هي عنده فاختارت من هي عنده وآثرته على أبيها فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ما وقع وشاع في العرب غيرهم والله تعالى أعلم بصحة ذلك وقرأ البزي في رواية الموؤدة كمعونة فاحتمل أن يكون الأصل الموؤدة كقراءة الجمهور فنقل حركة الهمزة إلى الواو قبلها وحذفت ثم همزت تلك الواو قبلها وحذفت ثم همزت تلك الواو واحتمل أن يكون اسم مفعول من آد والأصل المأوودة فحذف أحد الواوين فصارت المودة كما حذف من مقوول فصار مقولاً وقرىء الموودة بضم الأولى وتسهيل الهمزة أعني التسهيل بحذفها ونقل حركتها إلى ما قبلها وفي "مجمع البيان" والعهدة عليه روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنهم قرؤا

المودة بفتح الميم والواو والمراد بها الرحم والقرابة وعن أبي جعفر قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ويراد بقتلها قطعها أو هو على حقيقته والإسناد مجازي والمراد قتل المتصف بها وتوجيه السؤال إلى الموؤدة في قوله تعالى : ﴿ الموءودة سُئِلَتْ ﴾ .

(88/804)

﴿ بِأَيّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ دون الوائد مع أن الذنب له دونها لتسليتها وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته فإن المجني عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونسبت إليه الجناية دون الجاني كان ذلك بعثاً للجاني على التفكر في حال نفسه وحال المجني عليه فيرى براءة ساحته وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض كما في قوله تعالى ﴿ أَأَنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إلهين ﴾ [المائدة : 116] وقرأ أبي وابن مسعود والربيع بن خيثم وابن يعمر سألت أي خاصمت أو سألت الله تعالى أو قاتلها وإنما قيل قتلت لما أن الكلام أخبار عنها لا حكاية لما خوطبت به حين سئلت ليقال قتلت على الخطاب ولا حكاية لكلامها حين سألت ليقال قتلت على الحكاية عن نفسها وقد قرأ كذلك علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن مسعود أيضاً وجابر بن يزيد وأبو الضحى ومجاهد وقرأ الحسن والأعرج

سيلت بكسر السين وذلك على لغة من قال ﴿ سال ﴾ بغير همز وقرأ أبو جعفر بشد الياء لأن الموؤدة اسم جنس فناسب التكثير باعتبار الأشخاص وفي الآية دليل على عظم جناية الوأد وقد أخرج البزار والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أعتق عن كل واحدة رقبة قال : إني صاحب إبل قال فاهد عن كل واحدة بدنة " وكان الأمر للندب لا للوجوب لتوقف صحة التوبة عليه فإن الإسلام يجب ما قبله من مثل ذلك وفيه تعظيم أمر الوأد وكان من العرب من يستقبحه كصعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق كان يفتدي الموؤدات من قومه بني تميم وبه افتخر الفرزدق في قوله :

وجدي الذي منع الوائدات . . .

فأحيا الوئيد فلم تفتد

(89/804)

وأخرج الطبراني عنه قال قلت يا رسول الله إني عملت أعمالاً في الجاهلية فهل فيها من أجر أحييت ثلثمائة وستين من الموؤدة اشترى كل واحد منهن بناقتين عشراوين وجمل فهل في

ذلك من أجر فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لك أجره إذ منَّ الله تعالى عليك بالإسلام وعد من الواد العزل " لما أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني وابن مردويه عن خذامة بنت وهب قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال ذلك الوأد الخفي ومن هنا قيل بحرمته وأنت تعلم أن المسألة خلافية فقد قال الإمام النووي في شرح "صحيح مسلم" العزل وهو أن يجامع فإذا قارب الإنزال نزع وأنزل خارج الفرج مكروه عندنا في كل حال وكل امرأة سواء رضيت أم لا لأنه طريق إلى قطع النسل وأما التحريم فقد قال أصحابنا يعني الشافعية لا يحرم في مملوكته ولا في زوجته الأمة سواء رضيت أم لا لأن عليه ضرراً في مملوكته بمصيرها أم ولد وامتناع بيعها وعليه ضرر في زوجته الرقيقة بمصير ولده رقيقاً تبعاً لأمه وأما زوجته الحرة فإن أذنت فيه لم يحرم وإلا فوجهان أصحهما لا يحرم ثم الأحاديث التي ظاهرها التعارض في هذا المطلب يجمع بينها بأن ما ورد منها في النهي محمول على كراهة التنزيه وما ورد في الإذن في ذلك محمول على أنه ليس بحرام وليس معناه نفي الكراهة انتهى وأجيب على الحديث السابق بأن تسميته بالوأد الخفي لا يدل على أن حكمه حكم الوأد الظاهر فقد صح أن الرياء شرك خفي ولم يقل أحد بأن حكمه حكمه ولا يبعد أن يكون الاستمناء باليد كالعزل وأداً خفياً وذكر بعضهم أنه إذا لم يخش الزنا حرام وإن خشي لم يحرم وكذا لا يبعد أن يكون التفخيذ مع من يحل له وطؤها كذلك ولم أر قائلاً بحرمته وتمام الكلام في هذا المقام في كتب الفقه فلتراجع

واستدل الزمخشري بالآية على أن أطفال المشركين لا يعذبون وعلى أن العذاب لا يستحق إلا بالذنب أما الأول فلان تبكيت قاتلها يباين

(90/804)

تعذيبها لأن استحقاق التبكيت لبراءتها من الذنب فمتى بكت سبحانه الكافر ببراءتها من الذنب كيف يكر سبحانه عليها فيفعل بها ما ينسى عنده فعل المبكت من العذاب السرمدي وأما الثاني فلإشارة قوله تعالى : ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ إلى أن القتل إنما يصار إليه بذنب وأنه لا يستحسن ارتكابه دونه ومعلوم أن في معناه كل تعذيب ثم الآية لما دلت على أن الموؤدة لا ذنب لها ليتم التبكيت تضمنت عدم استحقاقها العقاب وزعم أن ابن عباس سئل عن ذلك فاحتج بهذه الآية وتعقب بأن مبنى ما ذكره التحسين والتقبيح وقد بين ما فيهما في موضعه وعلى التسليم نمنع انحصار سبب التبكيت في البراءة على أن القتل للباعث المذكور في القرآن بمعنى خشية الإملاق رذيلة يستحق بها التبكيت استحق بها المقتول التعذيب الأخروي أولاً وإشارة الآية على أن باعثهم على القتل لم يكن الذنب لا إلى أن الذنب أعني ما يستحق به الموؤدة التعذيب معدوم من كل وجه وما روي عن ابن عباس

لا نسلم صحته وفي الأخبار ما ينافيه أخرج الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن سلمة بن يزيد الجعفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(91/804)

" الوائدة والموؤدة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فيعفو الله تعالى عنها وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله تعالى إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين " وتفسيره على ما قيل ما روى أبو داود عن عائشة قلت : يا رسول الله فذراري المشركين فقال من آبائهم قلت بلا عمل قال : الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين وفي مسند الإمام أحمد سألت خديجة عن ولدين ما بالهما في الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هما في النار وأنت تعلم أن في مسألة الأطفال من هذه الحيثية ما عدا أطفال الأنبياء عليهم السلام فإنهم أجمع على كونهم من أهل الجنة كما قال اللقاني خلافاً فقد قال الإمام النووي في شرح "صحيح مسلم" " أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة لأنه ليس مكلفاً وتوقف فيه بعض من لا يعتد به لحديث عائشة توفي صبي من الأنصار فقالت طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه قال صلى الله عليه وسلم أو

غير ذلك : يا عائشة إن الله تعالى خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب أبائهم " وأجاب العلماء عنه بأنه لعله عليه الصلاة والسلام نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع ويحتمل أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم صلى الله عليه وسلم قال ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم " ما من مسلم يموت له ثلاث من الولد لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله تعالى الجنة بفضله ورحمته إياهم " وغير ذلك من الأحاديث وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الأكثرون هم في النار تبعاً لآبائهم لحديث سئل عن أولاد المشركين من يموت منهم صغيراً فقال عليه الصلاة والسلام : الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين أي

(92/804)

وغير ذلك وتوقفت طائفة فيهم وقالت الثالثة وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ويستدل له بأشياء منها حديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة حوله أولاد الناس قالوا يا رسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى

نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء : 15] ولا يتوجه على المولود التكليف ويلزمه قول الرسول حتى يبلغ وهذا متفق عليه والجواب عن حديث " الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين "

(93/804)

أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار وحقيقة لفظة الله تعالى أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا ولم يبلغوا والتكليف لا يكون إلا بالبلوغ انتهى وتعقب ما ذكره من الاحتمال في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها بأنه يأباه ما ذكره من حديث إبراهيم عليه السلام فإن حديث عائشة كان بالمدينة لأنه في صبي من الأنصار وبناؤه عليه الصلاة والسلام عليها إنما كان فيها وحديث إبراهيم عليه السلام كان بمكة لأن الظاهر أن تلك الرؤية كانت ليلة المعراج وهو قد كان فيها ومنه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم قد علم أن الأطفال كلهم في الجنة يومئذٍ فكيف يحتمل أن يكون ما قاله بعد قاله قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة وأيضاً إذا كان حديث إبراهيم عليه السلام في مكة يضعف الجواب الأول عن حديث عائشة باحتمال أن تكون قالت ما قالت لأنه بلغها ذلك الحديث ثم ما ذكر من أن المذاهب في أطفال المشركين ثلاثة الظاهر أنه مبني على ما وقف عليه وإلا فهي غير منحصرة فيها بل منها أنهم في برزخ بين الجنة والنار ومنها أنهم يمتحنون بدخول النار يوم القيامة فمن كتب له

السعادة أطاع بدخولها فيرد إلى الجنة ومن كتب له الشقاوة امتنع فيسحب إلى النار كما جاء في بعض الروايات فلا يحكم على معين منهم بجنة ولا نار وعليه حمل الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين وفي اختيارات الشيخ ابن تيمية إن هذا أحسن الأجوبة فيهم وقال الجلال السيوطي هو الصحيح المعتمد ومنها ما ذكره هذا الجلال واختاره الإمام الرباني الفاروقي السرهندي قدس سره أنهم يحشرون ثم يصيرون تراباً كالوحوش وإن أريد مما تقدم من أنهم في الجنة كونهم فيها كسائر أهلها فهناك قول آخر وهو أنهم فيها خدماً لأهلها وقد نقله النسفي في بحر الكلام على أهل السنة والجماعة وفيه أحاديث جمة والظاهر أن المراد بأطفال المشركين الأطفال الذين ولدوا لهم وهم مشركون ولو آمنوا بعد ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام السابق في ولدي خديجة هما

(94/804)

في النار وهو يعكر على من يقول أطفال الذين ماتوا مشركين في النار وأطفال المشركين الذين آمنوا بعد موتهم في الجنة إكراماً لهم والذي اختاره القول بأن الأطفال مطلقاً وكذا فرخ الزنا ومن جن قبل البلوغ في الجنة فهو إلا خلق بكرم الله تعالى وواسع رحمته عز وجل والأوفق للحكمة بحسب الظاهر والأكثر تأيداً بالآيات ولا بعد في ترجح الأخبار الدالة على ذلك بما

ذكر على الأخبار الدالة على خلافه والقول بأن ما تضمنته هاتيك الأخبار كان منه عليه الصلاة والسلام قبل علمه صلى الله عليه وسلم بأن الأطفال في الجنة بعيد عندي نعم جوز أن يكون قد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنهم من أهل النار بناءً على أخبار الوحي به كإخباره بالوعيدات التي يعفو الله تعالى عنها من حيث إنه مقيد بشرط كان لم يشملهم الفضل مثلاً لكنه لم يذكر معه كما لو يذكر معها لحكمة ثم أخبر عليه الصلاة والسلام بأنهم من أهل الجنة بناءً على أخبار الوحي به أيضاً ويكون متضمناً للأخبار بأن شرط كونهم من أهل النار لا يتحقق فضلاً من الله تعالى وكرماً ويكون ذلك كالعفو عما يقتضيه الوعيد ومثل ذلك إخباره بما ذكر بناءً على مشاهدة كونهم في الجنة عند إبراهيم عليه السلام فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(95/804)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

الافتتاح بـ ﴿ ذا ﴾ افتتاح مشوِّق لأن ﴿ إذا ﴾ ظرف يستدعي متعلَّقاً ، ولأنه أيضاً شرط يؤذن بذكر جَواب بعده ، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعند ما يسمعه

يتمكن من نفسه كمال تمكّن ، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة ﴿ إذا ﴾ .

وتعدّدِ الجمل التي أضيف إليها اثنتيْ عشرة مرة ، فإعادة كلمة ﴿ إذا ﴾ بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب ، وهذا الإِطناب اقتضاهُ قصد التهويل ، والتهويل من مقتضيات الإِطناب والتكرير ، كما في قصيدة الحارث بن عَبَّاد البَكري :

قرّبا مَربط النعامة مني الخ

وفي إعادة ﴿ إذا ﴾ إشارة إلى أن مضمون كل جملة من هذه الجمل الثنتي عشرة مستقل بحصول مضمون جملة الجواب عند حصوله بقطع النظر عن تفاوت زمان حصول الشروط فإن زمن سؤال الموءودة ونشر الصحف أقرب لعلم النفوس بما أحضرت أقرب من زمان تكوير الشمس وما عطف عليه مما يحصل قبل البعث .

وقد ذكر في هذه الآيات اثنا عشر حدثاً فستة منها تحصل في آخر الحياة الدنيوية ، وستة منها تحصل في الآخرة .

وكانت الجمل التي جعلت شروطاً ل ﴿ إذا ﴾ في هذه الآية مفتتحة بالمسند إليه المخبَر عنه بمسندٍ فعْلِيَ دون كونها جملاً فعلية ودون تقدير أفعال محذوفة تفسرها الأفعال المذكورة وذلك يؤيد قول نحاة الكوفة بجواز وقوع شرط ﴿ إذا ﴾ جملة غيرَ فعلية وهو الراجح لأن ﴿ إذا ﴾ غير عريقة في الشرط .

وهذا الأسلوب لقصد الاهتمام بذكر ما أسندت إليه الأفعال التي يغلب أن تكون شروطاً ل

﴿ إذا ﴾ لأن الابتداء بها أدخل في التهويل والتشويق وليفيد ذلك التقديمُ على المسند الفعلي تَقَوِّيَ الحكم وتأكيده في جميع تلك الجمل رداً على إنكار منكريه فلذلك قيل : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ولم يقل : إذا كورت الشمس ، وهكذا نظائره .

وجواب الشروط الاثني عشر هو قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ وتتعلق به الظروف المشْرَبة معنى الشرط .

(96/804)

وصيغة الماضي في الجمل الثِّنْتَي عشرة الواردة شروطاً ل ﴿ إذا ﴾ مستعملةٌ في معنى الاستقبال تنبيهاً على تحقق وقوع الشرط .

وتكوير الشمس : فساد جِرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها فيختل لاختلاله نظام سيرها ، من قولهم : كَوَّر العمامة ، إذا أدخل بعضها في بعض ولفّها ، وقريب من هذا الإطلاق إطلاق الطيّ في قوله تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب ﴾ [الأنبياء : 104] .

وفسر ﴿ كورت ﴾ بمعنى غورت .

رواهُ الطبري عن ابن جبير وقال : هي كلمة معربة عن الفارسية وأن أصلها بالفارسية كُور

بِكْر (بضم الكاف الأولى وسكون الراء الأخيرة) وعلى ذلك عُدّت هذه الكلمة مما وقع في القرآن من المعرّب .

وقد عدها ابن السبكي في نظمه الكلمات المعربة في القرآن .

وإذا زال ضوء الشمس انكدرت النجوم لأن معظمها يستنير من انعكاس نور الشمس عليها .

والانكدار : مطاوع كَدَّره المضاعف على غير قياس ، أي حصل للنجوم انكدار من تكدير الشمس لها حين زال عنها انعكاس نورها ، فلذلك ذكر مطاوع كدر دون ذكر فاعل التكدير .

والكُدرة : ضد الصفاء كتغير لون الماء ونحوه .

وفسر الانكدار بالتساقط والانقضاض ، وأنشدوا قول العجاج يصف بازياً :

أبصَر خِرْبَانَ فَضَاءً فانكدر

ومعنى تساقطها تساقط بعضها على بعض واصطدامها بسبب اختلال نظام الجاذبية الذي جعله الله لإمساكها إلى أمد معلوم .

وتسيير الجبال انتقالها من أماكنها بارتجاج الأرض وزلزالها .

وتقدم في سورة النبأ .

و﴿ العِشار ﴾ جمع عُشراء وهي الناقة الحامل إذا بلغت عشرة أشهر لحملها فقاربت أن

تضع حملها لأن النوق تحمل عاماً كاملاً ، و ﴿ العشار ﴾ أنفس مكاسب العرب ومعنى ﴿ عطلت ﴾ تركت لا ينتفع بها .

والكلام كناية عن ترك الناس أعمالهم لشدة الهول .

وعلى هذا الوجه يكون ذلك من أشراط الساعة في الأرض فيناسب ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ .

(97/804)

ويجوز أن تكون ﴿ العشار ﴾ مستعارة للأسحبة المحملة بالمطر ، شبهت بالناقة العُشراء .

وهذا غير بعيد من الاستعمال ، فهم يطلقون مثل هذه الاستعارة للسحاب ، كما أطلقوا على السحابة اسم بكر في قول عنترة :

جَادت عليه كلُّ بِكر حُرَّةٍ

فتركن كُل قَرارة كالدرهم . . .

فأطلق على السحابة الكثيرة الماء اسم البكرِ الحرة ، أي الأصيلة من النوق وهي في حملها الأول .

ومعنى تعطيل الأسحبة أن يَعْرض لها ما يحبس مطرها عن النزول ، أو معناه أن الأسحبة الثقال لا تتجمع ولا تحمل ماء ، فمعنى تعطيلها تكونها ، فيتوالى القحط على الأرض فيهلك الناس والأنعام .

وعلى هذا الوجه فذلك من أشراط الساعة العلوية فيناسب تكوير الشمس وانكدار النجوم .

و﴿ الوحوش ﴾ : جمع وَحش وهو الحيوان البري غير المتأنس بالناس .

وحَشرها : جمعها في مكان واحد ، أي مكان من الأرض عند اقتراب فناء العالم فقد يكون سبب حشرها طوفاناً يغمر الأرض من فيضان البحار فكلما غمر جزءاً من الأرض فرت وحوشه حتى تجتمع في مكان واحد طالبة النجاة من الهلاك ، ويُشعر بهذا عطف ﴿ وإذا البحار سُجرت ﴾ عليه .

وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدة الهول فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيءٌ منها على الآخر من شدة الرعب ، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس ، وليس هذا الحشرَ الذي يُحشَر الناس به للحساب بل هذا حشر في الدنيا وهو المناسب لما عدّ معه من الأشراط ، وروي معناه عن أبي بن كعب .

وتسجير البحار : فيضانها قال تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ في سورة الطور (6) .

والمراد تجاوز مياهها معدل سطوحها واختلاط بعضها ببعض وذلك من آثار اختلال قوة كرة الهواء التي كانت ضاغطة عليها ، وقد وقع في آية سورة الانفطار (3) : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ وإذا حدث ذلك اختلط ماؤها برملها فتغير لونه .

يقال : سَجّر مضاعفاً وسَجَر مخففاً .

(98/804)

وَقُرِىء بهما فقرأه الجمهور مشدداً .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مخففاً .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ شروع في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يوم القيامة وقد انتقل إلى ذكرها لأنها تحصل عقب الستة التي قبلها وابتدىء بأولها وهو تزويج النفوس ، والتزويج : جعل الشيء زوجاً لغيره بعد أن كان كلاهما فرداً ، والتزويج أيضاً : جعل الأشياء أنواعاً متماثلة قال تعالى : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ [الرعد : 3] لأن الزوج يطلق على النوع والصنف من الأشياء والنفوس : جمع نفس ، والنفس يطلق على الروح ، قال تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك ﴾ [الفجر : 27 ، 28] وقال : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ [الأنعام : 93] .

وتطلق النفس على ذات الإنسان قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق ﴾ [الأنعام : 151] وقال : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ [الجمعة : 2] وقال : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] أي فليسلم الداخل على أمثاله من الناس .

فيجوز أن يكون معنى النفوس هنا الأرواح ، أي تزوج الأرواح بالأجساد المخصصة لها فيصير الروح زَوجاً مع الجسد بعد أن كان فرداً لا جسم له في برزخ الأرواح ، وكانت الأجساد بدون أرواح حين يعاد خلقها ، أي وإذا أعطيت الأرواح للأجساد .

وهذا هو البعث وهو المعنى المتبادر أولاً ، وروي عن عكرمة .

ويجوز أن يكون المعنى وإذا الأشخاص نُوعت وصنفت فجعلت أصنافاً : المؤمنون ، والصالحون ، والكفار ، والفجار ، قال تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون ﴾ [الواقعة : 7 10] الآية .

ولعل قصد إفادة هذا التركيب لهاذين المعنيين هو مقتضِيَ العدول عن ذكر ما زُوجت النفوس به .

وأول منازل البعث اقتران الأرواح بأجسادها ، ثم تقسيم الناس إلى مراتبهم للحشر ، كما قال تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] ثم قال : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ [الزمر : 71] ثم قال : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ [الزمر : 73] الآية .

وقد ذكروا معاني أخرى لتزويج النفوس في هذه الآية غير مناسبة للسياق .

وبمناسبة ذكر تزويج النفوس بالأجساد خص سؤال الموءودة بالذكر دون غيره مما يُسأل عنه المجرمون يوم الحساب .

ذلك لأن إعادة الأرواح إلى الأجساد كان بعد مفارقتها بالموت ، والموت إما بعارض جسدي من انحلال أو مرض وإما باعتداء عدواني من قتل أو قتال ، وكان من أفظع الاعتداء على إزهاق الأرواح من أجسادها اعتداء الآباء على نفوس أطفالهم بالوأد ، فإن الله جعل في الفطرة حرص الآباء على استحياء أبنائهم وجعل الأبوين سبب إيجاد الأبناء ، فالوأْد أفظع أعمال أهل الشرك وسؤال الموءودة سؤال تعريضي مراد منه تهديد وائدها وَرُعْبِهِ بالعذاب .

وظاهر الآية أن سؤال الموءودة وعقوبة من وأدها أول ما يُقْضَى فيه يوم القيامة كما يقتضي ذلك جعلُ هذا السؤال وقتاً تعلم عنده كل نفس ما أحضرت فهو من أول ما يعلم به حين

الجزاء .

والوأْدُ : دفن الطفلة وهي حيّة : قيل هو مقلوب آداه ، إذا أثقله لأنه إثقال الدفينة بالتراب .

قال في "الكشاف" : "كانَ الرجل إذا وُلدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر تَرعَى له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية يقول لأمها طيّبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها ثم يدفَعُها من خَلْفها ويُهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض .

(100/804)

وقيل : كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإن ولدت ابناً حبسته ا ه .

وكانوا يفعلون ذلك خشية من إغارة العدوّ عليهم فيسبي نساءهم ولخشية الإِملاق في سني الجدب لأن الذكر يحتال للكسب بالغارة وغيرها والأنثى عالة على أهْلها ، قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [الإسراء : 31] وقال : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون

أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ [النحل : 58 ، 59] .

وإذ قد فشا فيهم كراهية ولادة الأنثى فقد نما في نفوسهم بغضها فتحركت فيها الخواطر الإِجرامية فالرجل يكره أن تولد له أنثى لذلك ، وامرأته تكره أن تولد لها أنثى خشية من فراق زوجها إياها وقد يهجر الرجل امرأته إذا ولدت أنثى .

وقد توارثت هذا الجهل أكثر الأمم على تفاوت بينهم فيه ، ومن كلام بعضهم وقد ماتت ابنته : "نِعم الصهْر القَبر" .

ومن آثار هذا الشعور حرمان البنات من أموال آبائهن بأنواع من الحيل مثل وقف أمْوالهم على الذكور دون الإِناث وقد قال مالك : إن ذلك من سنة الجاهلية ، ورأى ذلك الحُبس باطلاً ، وكان كثير من أقرباء الميت يلجئون بناته إلى إسقاط حقهن في ميراث أبيهن لأخوتهن في فور الأسف على موت أبيهن فلا يمتنعن من ذلك ويرين الامتناع من ذلك عاراً عليهن فإن لم يفعلن قطَعَهن أقرباؤهن .

وتعرف هذه المسألة في الفقه بهبة بنات القبائل .

وبعضهم يعدها من الإِكراه .

ولم يكن الوأد معمولاً به عند جميع القبائل ، قيل : أول من وأد البنات من القبائل ربيعةُ ، وكانت كندة تئد البنات ، وكان بنو تميم يفعلون ذلك ، ووأدَ قيسُ بن عاصم المِنْقَري من بني

تميم ثمان بنات له قبل إسلامه .

ولم يكن الوأد في قريش البتةَ .

(101/804)

وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق من بني تميم يفتدي من يعلم أنه يريد وأد ابنته من قومه بناقتين عُشَرَاوين وجَمَل ، فقيل : إنه افتدى ثلاثمائة وستين موءودة ، وقيل : وسبعين وفي "الأغاني" : وقيل : أربعمائة .

وفي "تفسير القرطبي" : فجاء الإِسلام وقد أحيا سبعين موءودة ومثل هذا في "كتاب الشعراء" لابن قتيبة وبين العددين بون بعيد فلعل في أحدهما تحريفاً .

وفي توجيه السؤال إلى الموءودة : ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ في ذلك الحشر إدخال الروع على من وأدها ، وجعل سؤالها عن تعيين ذنب أوجَب قتلها للتعريض بالتوبيخ والتخطئة للذي وأدها وليكون جوابُها شهادة على من وأدها فيكون استحقاقه العقاب أشد وأظهر .

وجملة : ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ بيان لجملة ﴿ سئلت ﴾ .

و(أي) اسم استفهام يطلب به تميز شيء من بين أشياء تشترك معه في حال .

والاستفهام في ﴿ بأي ذنب ﴾ تقريري ، وإنما سئلت عن تعيين الذنب الموجب قتلها دون

أن تُسأل عن قاتلها لزيادة التهديد لأن السؤال عن تعيين الذنب مع تحقق الوائد الذي يسمع ذلك السؤال أن لا ذنب لها إشعار للوائد بأنه غير معذور فيما صنع بها .

وينتزع من قوله تعالى : ﴿ سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ الواردِ في سياق نفي ذنب عن الموءودة يوجب قتلها استدلالٌ على أنّ من ماتوا من أطفال المشركين لا يعتبرون مشركين مثل آبائهم ، وأول من رأيته تعرض لهذا الاستدلال الزمخشري في "الكشاف" .

وذكر أن ابن عباس استدل على هذا المعنى قال في "الكشاف" : "وفيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذَّبون وإذاً بكَّتَ الله الكافر ببراءة الموءودة من الذنب فما أقبح به وهو الذي لا يَظلِم مثقال ذرة أن يكر على هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فِعل المبكّت من العذاب السرمدي .

وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فاحتج بهذه الآية ا ه .

فأشار إلى ثلاثة أدلة:

(102/804)

أحدها : دلالة الإِشارة ، أي لأن قوله تعالى : ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ يشير إلى أنها لا ذنب لها ، وهذا استدلال ضعيف لأن الذنب المنفي وجودُه بطريقة الاستفهام المشوب بإنكار

إنما هو الذنب الذي يخول لأبيها وأدها لا إثباتَ حرمتها وعصمة دمها فتلك قضية أخرى على تفصيل فيها .

الثاني : قاعدة إحالة فعل القبيح على الله تعالى على قاعدة التحسين ، والتقبيح عند المعتزلة وإحالتهم الظلم على الله إذا عذب أحداً بدون فعله ، وهو أصل مختلف فيه بين الأشاعرة والمعتزلة .

فعندنا أنَّ تصرف الله في عبيده لا يوصف بالظلم خلافاً لهم على أن هذا الدليل مبنيٌّ على أساس الدليل الأول وقد علمت أنه غير سالم من النقض .

الثالث : ما نسبه إلى ابن عباس وهو يشير إلى ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة أنه قال : قال ابن عباس : أطفال المشركين في الجنة ، فمن زعم أنهم في النار فقد كذَّب بقول الله تعالى : ﴿ وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ .

وقد أجيب عن القول المروي عن ابن عباس بأنه لم يبلغ مبلغ الصحّة .

وهذه مسألة من أصول الدين لا يكتفى فيها إلا بالدليل القاطع .

واعلم أن الأحاديث الصحيحة في حكم أطفال المشركين متعارضة ، فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد أو ذراري المشركين .

فقال : " الله أعلم بما كانوا عاملين " وهذا الجواب يحتمل الوقف عن الجواب ، أي الله أعلم بحالهم كقول موسى عليه السلام : ﴿ علمُها عند ربي في كتاب ﴾ [طه : 52] جواباً لقول فرعون : ﴿ فما بال القرون الأولى ﴾ [طه : 51] .

ويحتمل أن المعنى الله أعلم بحال كل واحد منهم لو كبر مَاذا يكون عاملاً من كفر أو إيمان ، أي فيعامله بما علم من حاله .

وأخرج البخاري ومسلم (ببعض اختلاف في اللفظ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كل مولود يولد على الفِطرة فأبواه يُهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه " الحديث .

زاد في رواية مسلم : ثُم يقول (أي أبو هريرة) اقرأوا : ﴿ فطرت اللَّه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللَّه ذلك الدين القيم ﴾ [الروم : 30] فيقتضي أنهم يولدون على فطرة الإسلام حتى يدخل عليه من أبويه أو قريبه أو قرينه ما يُغيره عن ذلك وهذا أظهر ما يستدل به في هذه المسألة .

وقال المازري في "المعلم" : فاضطرب العلماء فيهم .

والأحاديث وردت ظواهرها مختلفة واختلاف هذه الظواهر سَبب اضطراب العلماء في ذلك والقطع ههنا يبعُد ا ه .

وقول أبي هريرة : واقرأوا : ﴿ فطرت اللَّه التي فطر الناس عليها ﴾ الخ مصباح ينير وجه الجمع بين هذه الأخبار : وقد ورد في حديث الرؤيا عن سمرة بن جندب ما هو صريح في ذلك إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وأما الرجل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام وأما الوِلْدَانُ الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة " .

قال سمرة فقال بعض المسلمين : يا رسول الله " وأولادُ المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولادُ المشركين " .

واختلفت أقوال العلماء في أولاد المشركين فقال ابن المبارك وحمّاد بن سلمة وحمّاد بن زيد وإسحاق بن راهويه والشافعي هُم في مشيئة الله .

والصحيح الذي عليه المحققون والجمهور أنهم في الجنة وهو ظاهر قول أبي هريرة .

(104/804)

وذهب الأزارقة إلى أن أولاد المشركين تبع لآبائهم ، وقال أبو عبيد : سألت محمد بن الحسن عن حديث : "كل مولود يولد على الفطرة" فقال : كان ذلك أول الإِسلام قبل أن تنزل الفرائض وقبل أن يفرض الجهاد .

قال أبو عبيد : كأنه يعني أنه لو ولد على الفطرة لم يَرِثاه لأنه مسلم وهما كافران فلما فرضت

الفرائض على خلاف ذلك جاز أن يسمى كافراً وعلم أنه يولد على دينهما .

وهنالك أقوال أخرى كثيرة غير معزوة إلى معيّن ولا مستندة لأثر صحيح .

وذكر المازري : أن أطفال الأنبياء في الجنة بإجماع وأن جمهور العلماء على أن أطفال بقية المؤمنين في الجنة وبعض العلماء وقف فيهم ، وقال النووي : أجمع من يُعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة .

وقرأ الجمهور : "قُتلت" بتخفيف المثناة الأولى ، وقرأه أبو جعفر بتشديدها وهي تفيد معنى أنه قَتْل شديد فظيع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(105/804)

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ إذا الشمس كورت ﴾

قرأ قارىء ﴿ إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت ﴾

وفي الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل يا سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب فلم هدم الأبنية وسير الجبال ودك الأرض

وفطر السماء ونثر النجوم وكور الشمس

فقال إنما بني لهم الدار للسكني والتمتع وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها لانتقال الساكن منها

فأراد أن يعلمهم بأن الكونين كانت معمورة بهم وفي إحالة الأحوال وإظهار تلك الأهوال وبيان المقدرة بعد بيان العزة وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد الكواكب والشمس والقمر والأوثان فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فإذا راوا آلهتهم قد انهدمت وأن معبوداتهم قد انثرت وانفطرت ومحالها قد تشققت ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر له رب يصرفه كيف يشاء تكذيبا لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم فكم لله تعالى من حكمة في هدم هذه الدار ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه وانفراده بالربوبية وانقياد المخلوقات بإسرها لقهره وإذ عانها لمشيئته فتبارك الله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 3 صـ 182 ﴾

(106/804)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل هذا على عموم السؤال ، ذكر ما ينشأ عنه مما يدل على النعيم أو النكال فقال :

﴿ وإذا الصحف ﴾ أي الأوراق التي كتبت فيها أعمال العباد ﴿ نشرت ﴾ أي فرقت مفتحة تفتيحاً عظيماً على أربابها بأيسر أمر فتأتي السعيد في يمينه من تلقاء وجهه على وجه يكون فيه بشارة له ، وتأتي الشقي من وراء ظهره وفي شماله بعد أن كانت طويت عند موته ، ونشرها مثل تسيير الجبال وتطايرها ، فمن اعتقد أن صحيفته ثابتة فترديه أو تنجيه لم يضع فيها إلا حسناً من قول أو عمل أو اعتقاد .

ولما ذكر ما يطلق وينشر ، أتبعه ما يطوى ويحصر ، ليبدو ما فوقه من العجائب وينظر ، فقال : ﴿ وإذا السماء ﴾ أي هذا الجنس كله ، أفرده لأنه يعلم بالقدرة على بعضه القدرة على الباقي ﴿ كشطت ﴾ أي قلعت بقوة عظيمة وسرعة زائدة وأزيلت عن مكانها التي هي ساترة له محيطة به ، أو عن الهواء المحيط بسطحها الذي هو كالروح لها كما يكشط الإهاب عما هو ساتر له ومحيط به مع شدة الالتزاق به لأن ذلك يوم الكشف والإظهار ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ [ق : 22] وكشطها هو مثل انكشاف الناس عن العشار

وتفرقهم عنها ، فمن اعتقد زوالها أعرض عن ربط همته بشيء منها وناط أموره كلها بربها .

ولما زالت الموانع ظهرت عجائب الصنائع التي هي غايات المطالب ، ونهايات الرغائب والرهائب ، فقال : ﴿ وإذا الجحيم ﴾ أي النار الشديدة التأجج والتي بعضها فوق بعض والعظيمة في مهواة عميقة ﴿ سعرت ﴾ أي أوقدت إيقاداً شديداً بأيسر أمر وقربت من الكافرين بغاية السرعة ، فكان الأمر في غاية العسر ، وذلك قريب من نتيجة ما يحصل من الهول من حشر الوحوش .

ولما ذكر دار الأعداء البعداء ترهيباً ، أتبعه دار المقربين السعداء ترغيباً ، فقال : ﴿ وإذا الجنة ﴾ أي البستان ذو الأشجار الملتفة والرياض المعجبة ﴿ أزلفت ﴾ أي قربت من المؤمنين ونعمت ببرد العيش وطيب المستقر ، ودرجت درجاتها وهيئت ، وملئت حياضها ومصانعها ، وزينت صحافها ونظفت أرضها وطهرت عن كل ما يشين ، وحسنت رياضها بكل ما يزين ، من قول أهل اللغة ، الزلف – محركة : القربة والدرجة والحياض الممتلئة والزلفة : المصنعة الممتلئة والصحفة والأرض المنكوسة ، والزلف – بالكسر .

الروضة ، ومعنى هذا ضد سجر البحار ، فالآية من الاحتباك : ذكر التسعير أولاً دال على ضده في الجنة ثانياً ، وذكر التقريب ثانياً دال على مثله أولاً .

ولما كانت هذه الأشياء لهولها موجبة لاجتماع الهم وصرف الفكر عما يشغله من زينة أو لهو أو لعب أو سهو ، فكان موجباً للعلم بما يرجى نعيماً أو يوجب جحيماً ، وكان ذلك موجباً لتشوف السامع إلى ما يكون ، قال تعالى كاشفاً تلك النعمة بالعامل في " إذا " وما عطف عليها : ﴿ علمت نفس ﴾ أي كل واحدة من النفوس ، فالتنكير فيه مثله في " ثمرة خير من جرادة " ودلالة هذا السياق المهول على ذلك يوجب اليقين فيه ﴿ ما ﴾ أي كل شيء ﴿ أحضرت ﴾ أي عملت وأوجدت ، فكان أهلاً للحضور ، وكان عمله لها سبباً لإحضار القدير إياه لها في ذلك اليوم محفوظاً لم يغب عنه منها ذرة من خيره وشره ، فلأجل ذلك كان لكل امرىء شأن يعنيه ، فإنه لا بد أن يكون في أعماله ما لا يرضيه وما يستصغره عن حضرة العلي الكبير ، فمن اعتقد ذلك رغب في أن لا يحضر إلا ما يسره ، ورهب في إحضار ما يسوءه فيضره ، وجميع هذه الأشياء الاثني عشر المعدودة المذكورة في حيز " إذا " في الآخرة بعد النفخة الثانية على ما تقدم في الحاقة أنه الظاهر ، وأنه رواية عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، لأن التهويل بعد القيام أنسب ، وأدخل في الحكمة وأغرب .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال سبحانه ﴿ فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من

أخيه ﴾ [عبس : 33 - 34] الآيات إلى آخر السورة ، كان مظنة لاستفهام السائل عن الوقوع متى يكون ؟ فقال تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ [التكوير : 1] ووقوع تكوير الشمس وانكدار النجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار كل ذلك متقدم على فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه - إلى ما ذكر إلى آخر السورة لاتصال ما ذكر في مطلع سورة التكوير بقيام الساعة ، فيصح أن يكون أمارة للأول وعلماً عليه . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 338.340 ﴾

(108/804)

فصل

قال الفخر :

التاسع : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .

قرىء بالتخفيف والتشديد يريد صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ، ثم تنشر إذا حوسب ، ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها ، أي فرقت بينهم .

العاشر : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ .

أي كشفت وأزيلت عما فوقها ، وهو الجنة وعرش الله ، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ،

والغطاء عن الشيء ، وقرأ ابن مسعود : قشطت ، واعتقاب القاف والكاف كثير ، يقال لبكت الثريد ولبقته ، والكافور والقافور .

قال الفراء : نزعت فطويت .

الحادي عشر : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ .

أوقدت إيقاداً شديداً وقرىء سعرت بالتشديد للمبالغة ، قيل : سعرها غضب الله ، وخطايا بني آدم ، واحتج بهذه الآية من قال : النار غير مخلوقة الآن ، قالوا : لأنها تدل على أن تسعيرها معلق بيوم القيامة .

الثاني عشر : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ .

أي أدنيت من المتقين ، كقوله : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ .

ولما ذكر الله تعالى هذه الأمور الإثني عشر ذكر الجزاء المرتب على الشروط الذي هو مجموع هذه الأشياء فقال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

ومن المعلوم أن العمل لا يمكن إحضاره ، فالمراد إذن ما أحضرته في صحائفها ، وما أحضرته عند المحاسبة ، وعند الميزان من آثار تلك الأعمال ، والمراد : ما أحضرت من استحقاق الجنة والنار فإن قيل كل نفس تعلم ما أحضرت ، لقوله : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ [آل عمران : 30] فما معنى قوله : ﴿ علمت نفس ﴾ ؟ قلنا : الجواب : من وجهين الأول : أن هذا هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط ،

وإن كان اللفظ موضوعاً للقليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ [الحجر : 2] كمن يسأل فاضلاً مسألة ظاهرة ويقول : هل عندك فيها شيء ؟ فيقول : ربما حضر شيء وغرضه الإشارة إلى أن عنده في تلك المسألة ما لا يقول به غيره .

(109/804)

فكذا ههنا الثاني : لعل الكفار كانوا يتعبون أنفسهم في الأشياء التي يعتقدونها طاعات ثم بدا لهم يوم القيامة خلاف ذلك فهو المراد من هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 64.65 ﴾

(110/804)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

هذه كلها أوصاف يوم القيامة ، و" تكوير الشمس " : هو أن تدار ويذهب بها إلى حيث شاء الله كما يدار كور العمامة ، وعبر المفسرون عن ذلك بعبارات ، فمنهم من قال : ذهب

نورها قاله قتادة ، ومنهم من قال : رمي بها ، قاله الربيع بن خيثم وغير ذلك مما هو أشياء توابع لتكويرها ، و" انكدار النجوم " : هو انقضاضها وهبوطها من مواضعها ، ومنه قول الراجز [العجاج] : [الرجز]

أبصر خربان فلاة فانكدرْ . . . تقضّي البازي إذا البازي كسرْ

(111/804)

وقال ابن عباس : ﴿ انكدرت ﴾ : تغيرت ، من قولهم : ماء كدر ، أي متغير اللون ، وتسيير الجبال هو قبل نسفها ، وإنما ذلك في صدر هول القيامة ، و: ﴿ العشار ﴾ جمع عشراء وهي الناقة التي قد مر لحملها عشرة أشهر ، وهي أنفس ما عند العرب وتهممهم بها عظيم للرغبة في نسلها ، فإنها تعطل عند أشد الأهوال ، وقرأ مضر عن اليزيدي : " عطِلت " بتخفيف الطاء ، و" حشر الوحوش " : جمعها ، واختلف الناس في هذا الجمع ما هو ؟ فقال ابن عباس : ﴿ حشرت ﴾ بالموت لا تبعث في القيامة ولا يحضر في القيامة غير الثقلين ، وقال قتادة وجماعة : ﴿ حشرت ﴾ للجمع يوم القيامة ، ويقتص للجماء من القرناء فجعلوا ألفاظ هذا الحديث حقيقة لا مجازاً مثالاً في العدل . وقال أبيّ بن كعب : ﴿ حشرت ﴾ في الدنيا في أول هول يوم القيامة فإنها تفر في الأرض وتجتمع إلى بني آدم

تأنيساً بهم ، وقرأ الحسن : " حشّرت " بشد الشين على المبالغة ، و" تسجير البحار " ، قال قتادة والضحاك معناه : فرغت من مائها وذهب حيث شاء الله وقال الحسن : يبست ، وقال الربيع بن خيثم معناه : ملئت ، وفاضت وفجرت من أعاليها ، وقال أبي بن كعب وابن عباس وسفيان ووهب وابن زيد : معناه : أضرمت ناراً كما يسجر التنور ، وقال ابن عباس : جهنم في البحر الأخضر ، ويحتمل أن يكون المعنى ملكت ، وقيد اضطرابها حتى لا تخرج على الأرض بسبب الهول فتكون اللفظة مأخوذة من ساجور الكلب ، وقيل : هذه مجاز في جهنم ، تسجر يوم القيامة وقد تقدم تظير هذه الأقوال منصوصة لأهل العلم في تفسير قوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور : 6] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " سجِرت " بتخفيف الجيم ، وقرأ الباقون : بشدها ، وهي مترجحة بكون البحار جميعاً كما قال : ﴿ كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ [الإسراء : 13] ، وكما قال : ﴿ صحفاً منشرة ﴾ [المدثر : 52] ، ومثله ﴿ قصر مشيد ﴾ [الحج : 45] و ﴿ بروج مشيدة ﴾ [النساء : 78] ، لأنها جماعة ، وذهب قوم

من الملحدين إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأحواله عند موته ، والشمس نفسه والنجوم عيناه وحواسه ، والعشار ساقاه ، وهذا قول سوء وخيم غث ذاهب إلى إثبات الرموز في كتاب الله تعالى ، و" تزويج النفوس " : هو تنويعها ، لأن الأزواج هي الأنواع والمعنى : جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن وكل شكل مع شكله ، رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقاله عمر بن الخطاب وابن عباس ، وقال : هذا نظير قوله تعالى :

(113/804)

﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] وفي الآية على هذا حض على خليل الخير ، فقد قال عليه السلام : " المرء مع من أحب " ، وقال : " فلينظر أحدكم من يخالل " ، وقال الله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [الزخرف : 67] ، وقال مقاتل بن سليمان : زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور وغيرهن ، وقال عكرمة والضحاك والشعبي : زوجت الأرواح الأجساد ، وقرأ عاصم : " زوجت " غير مدغم ، و﴿ الموءودة ﴾ : اسم معناه المثقل عليها ، ومنه : ﴿ ولا يؤوده ﴾ [البقرة : 255] ومنه أتأد ، أي توقد ، وأثقل وعرف هذا الاسم في النبات اللواتي كان قوم من العرب

يدفنونهن أحياء يحفر الرجل شبه البر أو القبر ثم يسوق ابنته فيلقيها فيها ، وإذا كانت صغيرة جداً خدّ لها في الأرض ودفنها ، وبعضهم : كان يفعل ذلك خشية الإملاق وعدم المال ، وبعضهم : غيرة وكراهية للبنات وجهالة وقرأ الجمهور : " الموءودة " بالهمز من وأد في حرف ابن مسعود : " وإذا الماودة " ، وقرأ البزي : " المووَدة " بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعمش : " المَوْدة " بسكون الواو على وزن : الفعلة وقرأ بعض السلف : " المَوَدّة " بفتح الواو والدال المشددة ، جعل البنت مودة ، وقرأ جمهور الناس : " سئلت " ، وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك ، لأنها تسأل ليصير الأمر إلى سؤال الفاعل ، ويحتمل أن تكون مسؤولة عنها مطلوباً الجواب منهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ [الإسراء : 34] ، وكما يسأل التراث والحقوق .

(114/804)

وقرأ ابن عباس وأبيّ بن كعب وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد وجماعة كثيرة منهم ابن مسعود والربيع بن خيثم : " سألت " ، ثم اختلف هؤلاء فقرأ أكثرهم : " قَتَلْتَ " بفتح التاء وسكون اللام ، وقرأ أبو جعفر : " قتّلت " بشد التاء على المبالغة ، وقرأ ابن عباس وجابر وأبو الضحى ومجاهد : " قتْلتُ " بسكون اللام وضم التاء ، وقرأ الأعرج والحسن : "

سيلت " بكسر السين وفتح اللام دون همز ، واستدل ابن عباس بهذه الآية في أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله تعالى قد انتصر لهم من ظلمهم ، و" الصحف المنشورة " : قيل هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل امرىء كتابه ، وقيل هي الصحف التي تتطاير بالإيمان ، والشمائل بالجزاء ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وأبو رجاء وقتادة : " نشِرت " بتخفيف الشين المسكورة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي : " نشّرت " بشد الشين على المبالغة ، و" الكشط " : التقشير ، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ ، و" كشط السماء " : هو طيها كطي السجل ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " قشطت " بالقاف وهما بمعنى واحد ، و﴿ سعرت ﴾ معناه : أضرمت نارها ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم : " سعّرت " بشد العين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : بتخفيفها وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال قتادة : سعرها غضب الله تعالى وذنوب بني آدم و﴿ أزلفت ﴾ الجنة معناه : قربت الغرض المقصود بقوله ﴿ وإذا ﴾ ﴿ وإذا ﴾ في جميع ما ذكر إما تم بقوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ ، أي ما أحضرت من شر فدخلت به جهنم أو من خير فدخلت به الجنة ، و﴿ نفس ﴾ هنا اسم جنس ، أي عملت النفوس ووقع الإفراد لتنبيه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾

أي فُتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التي كَتَبَت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر ، تُطْوَى بالموت ، وتنشر في يوم القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته ، فيعلم ما فيها ، فيقول : ﴿ مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] .

وروَى مَرْثَد بن وَدَاعة قال : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية : 10] إلى قوله : ﴿ الأيام الخالية ﴾ [الحاقة : 24] وتقع صحيفة الكافر في يده "فِي سَمُومٍ وحَمِيم إلى قوله : ولا كريم" .

ورُوِي " عن أمّ سلمة رضي الله عنها .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يُحْشَر الناس يوم القيامة حُفاة عراة" فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء ؟ قال : "شُغِل الناس يا أمَّ سَلَمة" .

قلت : وما شَغَلَهم ؟ قال : "نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل الخردل" "

وقد مضى في سورة "سُبْحان" قول أبي الثوّار العدَوِيّ : هما نَشْرَتان وطَيَّة ، أما ما حييت يا بن آدم فصحيفتك المنشورة ، فأملِ فيها ما شئت ، فإذا مِت طوِيت ، حتى إذا بُعثت نشِرت ﴿ اقرأ كِتابك كفى بنفسِك اليوم عليك حسِيباً ﴾ [الإسراء : 14] .

وقال مقاتل : إذا مات المرء طُوِيت صحيفة عمله ، فإذا كان يوم القيامة نُشِرت .

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق الأمر يا بن آدم .

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو "نُشِرَتْ" مخففة ، على نشرت مرة واحدة ، لقيام الحجة .

الباقون بالتشديد ، على تكرار النشر ، للمبالغة في تقريع العاصي ، وتبشير المطيع .

وقيل : لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

(116/804)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ : الكشط : قَلْع عن شدّة التزاق ؛ فالسماء تُكْشَط كما يكْشَط الجلد عن الكبش وغيره ، والقَشْط : لغة فيه .

وفي قراءة عبد الله ﴿ وَإِذَا السماء قُشِطَت ﴾ وكَشَطْتُ البعير كشطاً : نزعت جلده ، ولا يقال سَلَخْته ؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كَشَطْته أو جَلَّدته ، وانكشط : أي ذهب

؛ فالسماء تُنْزَع من مكانها كما ينزع الغِطاء عن الشيء .

وقيل : تُطْوَى كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماءَ كَطَيِّ السجلِ لِلْكُتُبِ ﴾ ، فكأن المعنى : قِلعت فطويت .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أي أوقدت فأُضْرمت للكفار وزيدَ في إحمائها .

يقال : سَعَّرْتُ النار وأسعرتها .

وقراءة العامة بالتخفيف من السعير .

وقرأ نَافع وابن ذَكوانَ ورُوَيْس بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة .

قال قتادة : سَعَّرها غضب الله وخطايا بني آدم .

وفي الترمذِيّ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنةٍ حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مُظلمة " ورُوِي موقوفاً .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ أي دَنَتْ وقُرِّبت من المتقين .

قال الحسن : إنهم يُقَرَّبون منها ؛ لا أنها تزول عن موضعها .

وكان عبد الرحمن بن زيد يقول : زُينت : أُزْلِفَتْ ؟ والزلفى في كلام العرب : القُربة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : 90] وتزلف فلان تقرب .

قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ يعني ما عملت من خير وشر .

وهذا جواب ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ وما بعدها .

قال عمر رضي الله عنه لهذا أُجري الحديث .

(117/804)

ورُوِيَ عن ابن عباس وعمر رضي الله عنهما أنهما قرآها ، فلما بلغا "عِلمت نفس ما أحْضَرت" قالا لهذا أجريت القصة ؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء ، علمت نفس ما أحضرت من عملها .

وفي الصحيحين عن عديّ بن حاتم قال .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم بين يديه ، فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل " وقال الحسن : "إذ الشمس كورت" قسم وقع على قوله : "عِلمت نفس ما أحضرت" كما يقال : إذا نفَرَ زيد نفر عمرو .

والقول الأوّل أصح .

وقال ابن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ اثنتا عشرة خصلة : ستة في الدنيا ، وستة في الآخرة ؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبيّ بن كعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(118/804)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

أي لُفَّتْ من كَوَّرتَ العمامةَ إذا لففتَها ، على أَنَّ المرادَ بذلكَ إمَّا رفعُها وإزالتُها منْ مقرّها فإنَّ الثوبَ إذا أُريدَ رفعُهُ يُلفُّ لفاً ويُطْوى ، ونحوه قولُه تعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ وإمَّا لَفُّ ضوئِها المنبسطِ في الآفاقِ المُنتشرِ في الأقطارِ ، على أَنَّه عبارةٌ عنْ إزالتها والذهابِ بها بحكمِ استلزامِ زوالِ اللازمِ لزوالِ الملزومِ أو ألقيتْ عن فلكها كَما وُصفتِ النجومُ بالانكدارِ من طعنَهُ فكوّرَهُ إذا ألقاهُ عَلى الأرضِ . وعن أبي صالحٍ كُورتْ نُكّستْ وعن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا تكويرُهُا إدخالُها في العرشِ . ومدارُ التركيبِ على الإدارةِ والجمعِ . وارتفاعُ الشمسِ على أَنَّه فاعلٌ لفعلٍ مضمرٍ يُفسّرُه المذكورُ وعندَ البعضِ عَلى الابتداءِ . ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ أي انقضَّتْ وَقيلَ : تناثرتْ وَتساقطتْ .

رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا أَنَّه لا يَبْقَى يومئذٍ نجمٌ إلا سقطَ في الأرضِ ، وعنْهُ رضيَ اللهُ عنْهُ أنَّ النُّجومَ قناديلُ معلقةٌ بينَ السماءِ والأرضِ بسلاسلَ منْ نورٍ بأيدي ملائكةٍ من نورٍ فإذَا ماتَ منْ في السمواتِ ومنْ في الأرضِ تساقطتْ من أيديهم وقيلَ : انكدارُها انطماسُ نُورِها ويُروَى أنَّ الشمسَ والنجومَ تُطرحُ في جهنَم ليراهَا مَنْ عبدَها كما قالَ : إنكُم وما تعبدونَ من دونِ اللهِ حصبُ جهنَم ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ أيْ عنْ أماكِنِها بالرجفة الحاصلةِ لا في الجوِّ فإنَّ ذلكَ بعدَ النفخة الثانيةِ .

(119/804)

﴿ وَإِذَا العشار ﴾ جمعُ عُشَراءَ وهيَ الناقةُ التي أتى على حملِها عشرةُ أشهرٍ ، وهو اسمُها إلى أنْ تضعَ لتمامِ السنةِ وهي أنفسُ ما يكونُ عندَ أهلِها وأعزُّها عليهمْ . ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تُركتْ مهملةً لاشتغالِ أهلِها بأنفسِهم ، وقيلَ العشارُ السحائبُ فإنَّ العربَ تُشبهها بالحامل ومنهُ قولُه تعالىَ : ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ وتعطيلُها عدمُ إمطارِها وقُرِئَ عُطِلَتْ بالتخفيفِ . ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ أي جُمعتْ من كلِّ جانبٍ وقيلَ : بُعثتْ للقصاصِ . قالَ قتادةُ يُحشرُ كلُّ شيءٍ حتَّى الذبابُ للقصاصِ فإذَا قُضِيَ بينَها رُدَّتْ تُراباً فلا يَبقَى منها إلا ما فيهِ سرورٌ لبني آدمَ وإعجابٌ بصورتِه كالطاووسِ ونحوِه . وقُرِئَ

حُشِّرَتْ بالتشديدِ ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ أي أُحميَتْ أو مُلئَتْ بتفجيرِ بعضِها إلى بعضٍ حتَّى تعودَ بحراً واحداً . من سجَّر التنورَ إذا ملأَهُ بالحطبِ ليحميَهُ وقيلَ : مُلئَتْ نيراناً تضطرمُ بهَا لتعذيب أهلِ النارِ ، وعن الحسنِ يذهبُ ماؤُها حتَّى لا يبقى فيها قطرةٌ . وقُرِىءَ سُجِرَتْ بالتخفيفِ .

(120/804)

﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ أي قُرِنتْ بأجسادها أو قُرِنتْ كلُّ نفسٍ بشكلِها أو بكتابِها أو بعملِها أو نفوسُ المؤمنينَ بالحُورِ ، ونفوسُ الكافرينَ بالشياطين ﴿ وَإِذَا الموءدة ﴾ أي المدفونة حيةً وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق أو لحوقِ العارِ بهم من أجلهنَّ ، قيلَ : كانَ الرجلُ منهُم إذَا وُلدتْ له بنتٌ ألبسها جُبَّةً من صُوفٍ أو شَعَرٍ حَتَّى إذَا بلغتْ ستَّ سنينَ ذهبَ بها إلى الصحراءِ وقد حفرَ لها حُفرةً فيُلقيها فيهَا ويُهيلُ عليها الترابَ وقيلَ : كانتِ الحاملُ إذا أقربتْ حفرتْ حُفرةً فتمخضتْ على رأسِ الحُفرةِ فإذا ولدتْ بنتاً رمتْ بهَا وإنْ ولدتْ ابناً حبستْهُ ﴿ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ توجيهُ السؤالِ إليهَا لتسليتِها وإظهارِ كمالِ الغيظِ والسَّخطِ لوائدها وإسقاطِه عن درجةِ الخطابِ والمبالغةِ في تبكيتِه كما في قولِه تعالى : ﴿ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمِّىَ إلهين مِن ﴾ وقُرِىءَ سَأَلَتْ أي

خاصمتْ أو سألتِ اللهَ تعالَى أو قاتِلَها وإنما قيلَ : قُتلتْ لما أنَّ الكلامَ إخبارٌ عنها لا حكايةٌ لما خُوطبتْ بِهِ حينَ سُئلتْ ليقالَ قُتِلْتِ على الخطابِ ولا حكايةٌ لكلامِها حينَ سَألتْ ليقالَ قُتِلْتُ على الحكايةِ عن نفسِها . وقد قُرِئَ كذلكَ وبالتشديدِ أيضاً وعن ابن عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنه سُئِلَ عن أطفالِ المشركينَ فقالَ لا يُعذَّبون واحتجَّ بهذِهِ الآيةِ .

(121/804)

﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ أيْ صحفُ الأعمالِ فإنَّها تُطوى عندَ الموتِ وتنشرُ عند الحسابِ . عنِ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه قالَ : "يُحشرُ النَّاسُ عُراةً حُفاةً" فقالتْ أمُّ سلمةَ فكيفَ بالنساءِ فقالَ : "شُغلَ الناسُ يا أُمَّ سلمةَ" قالتْ وما شغلَهُم قالَ : "نشرُ الصحفِ فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيلُ الخردلِ" . وقيلَ نُشرتْ أي فُرِّقتْ بينَ أصحابِها ، وعن مَرْثَدِ بنِ وَدَاعةَ : إذا كانَ يومُ القيامةِ تطايرتِ الصحفُ من تحت العرشِ فتقعُ صحيفةُ المؤمنِ في يدِهِ في جنةٍ عاليةٍ وتقعُ صحيفةُ الكافرِ في يدِه في سَمومٍ وحميمٍ أي مكتوبٌ فيها ذلكَ وهيَ صُحفٌ غيرُ صحفِ الأعمالِ . ﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ قُطعتْ وأُزيلتْ كما يُكشطُ الإهابُ عن الذبيحةِ والغطاءُ عن الشيءِ المستورِ بِهِ وقُرِئَ قُشطتْ ، ، واعتقابُ الكافِ والقافِ غيرُ عزيزٍ كالكافُورِ والقافُورِ . ﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أي أُوقدتْ

إيقاداً شديداً قيلَ سَعَّرهَا غضبُ اللهِ عزَّ وجلَّ وخَطَايَا بني آدمَ وقُرِىءَ سُعِرَتْ بالتَّخفيفِ. ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ أي قُرِّبَتْ من المتقينَ كقولِه تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ قيلَ: هذهِ اثنتا عشرةَ خصلةً ستٌّ منها في الدُّنيا أي فيمَا بينَ النفختينِ وهُنَّ من أول السورةِ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ على أنَّ المرادَ بحشرِ الوحوشِ جمعُها من كلِّ ناحيةٍ لا بعثُها للقصاصِ وستٌّ في الآخرةِ أي بعدَ النفخةِ الثانيةِ. وقولُه تعالَى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ جوابُ إذَا على أنَّ المرادَ بها زمانٌ واحدٌ ممتدٌّ يسعَ ما في سباقها وسباقِ ما عُطفَ عليها من الخصالِ، مبدؤُه النفخةُ الأُولى ومنتهاهُ فصلُ القضاءِ بينَ الخلائقِ لكنْ لا بمعْنى أنها تعلمُ ما تعلمُ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ ذلكَ الوقتِ المديدِ، أو عند وقوعِ

(122/804)

داهيةٍ من تلكَ الدواهِي بلْ عند نشرِ الصحفِ إلا أنَّه لما كانَ بعضُ تلك الدَّواهِي من مباديهِ وبعضُها من روادفِه نُسبَ علمُها بذلكَ إلى زمانِ وقوعِ كُلِّها تهويلاً للخطب وتفظيعاً للحال، والمرادُ بمَا أَحضرتْ أعمالُها من الخيرِ والشرِّ وبحضورِها إما حضورُ صحائِفها كما يعربُ عنه نشرُها وإما حضورُ أنفسِها على ما قالُوا من أنَّ الأعمالَ الظاهرةَ في هذه النشأةِ بصور

عرضيةٍ تبرزُ في النشأة الآخرة بصور جوهريةٍ مناسبةٍ لها في الحسنِ والقُبحِ على كيفياتٍ مخصوصةٍ وهيئاتٍ مُعينةٍ حتى إنَّ الذنوبَ والمعاصيَ تتجسمُ هنالكَ وتتصورُ بصورةِ النَّارِ . وعَلى ذلكَ حُملَ قولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ وكذا قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في حقِّ من يشربُ من آنيةِ الذهبِ والفضَّةِ " إنما يُجرجرُ في بطنِه نارَ جهنمَ " ولا بُعدَ في ذلكَ ، ألا يرى أن العلمَ يظهرُ في عالمِ المثالِ على صُورةِ اللبنِ كما لا يَخْفى على مَنْ له خبرةٌ بأحوالِ الحضرات الخمس وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يؤتى بالأعمال الصالحةِ على صورٍ حسنةٍ وبالأعمال السيئةِ على صورٍ قبيحةٍ فتوضعُ في الميزان وأيّاً ما كانَ فإسنادُ إحضارِها إلى النفسِ مَعَ أنَّها تحضرُ بأمرِ الله تعالى كما ينطقُ به قولُه تعالى :

(123/804)

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ الآيةَ لأنَّها لمَّا عمِلَتها في الدُّنيا فكأنَّها أحضرتْهَا في الموقفِ ومَعْنى علمِها بها حينئذٍ أنها تُشاهدُها على ما هيَ عليه في الحقيقة فإنْ كانتْ صالحةً تشاهدُها على صور أحسنَ ممَّا كانتْ تشاهدها عليه في الدنيا لأن

الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقة وإن كانت سيئةً تشاهدُها على خلاف ما كانتْ تشاهدُها عليه ههُنا لأنها كانتْ مزينةً لها موافقةً لهواهَا . وتنكيرُ النفسِ المفيدُ لثبوتِ العلمِ المذكورِ لفردٍ من النفوسِ أو لبعضٍ منها للإيذانِ بأن ثبوتَهُ لجميعِ أفرادِها قاطبةً من الظهورِ والوضوحِ بحيثُ لا يكادُ يحومُ حولَهُ شائبةُ اشتباهٍ قطعاً يعرفُه كلُّ أحدٍ ولَو جيءَ بعبارةٍ تدلُّ على خلافِه وللرمزِ إلى أنَّ تلكَ النفوسَ العالمةَ بما ذُكِرَ مع توفرِ أفرادِها وتكثرِ أعدادِها مما يُستقلُّ بالنسبةِ إلى جنابِ الكبرياءِ الذي أشيرَ إلى بعضِ بدائعِ شؤونِه المنبئةِ عن عظمِ سُلطانِه ، وأما مَا قيلَ منْ أنَّ هذَا من قبيلِ عكسِ كلامِهم الذي يقصدونَ به الإفراطَ فيما يُعكسُ عنْهُ وتمثيله بقولِه تعالى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ وبقولِ منْ قالَ

(124/804)

قَدْ أترِكَ القَرْنَ مُصفرّاً أناملُهُ . . . وبقولِ من قالَ حينَ سُئلَ عن عددِ فرسانِه : رُبّ فارسٍ عندِي ، وعندُه المقانبُ ، قاصداً بذلكَ التماديَ في تكثيرِ فُرسانِه وإظهارَ براءتِه من التزيدِ وأنَّه ممَّن يقللُ كثيرَ مَا عندَهُ فضلاً أنْ يتزيدَ فمن لوائحِ النظرِ الجليلِ إلا أنَّ الكلامَ المعكوسَ عنْهُ فيما ذُكِرَ من الأمثلةِ مما يقبلُ الإفراطَ والتماديَ فيه فإنَّه في الأولِ كثيراً ما يودُّ وفي الثانِي كثيراً

ما أترك وفي الثالث كثيرٌ من الفرسانِ وكلُّ واحدٍ من ذلكَ قابلٌ للإفراطِ والمبالغةِ فيهِ لعدمِ انحصارِ مراتبِ الكثرةِ وقدْ قُصدَ بعكسِه ما ذكر من التمادي في التكثير حسبما فُصّل أما فيما نحن فيه فالكلام الذي عكس عنْهُ عملتْ كلُّ نفسٍ ما أحضرتْ كما صرّحَ به القائلُ وليسَ فيه إمكانُ التكثيرِ حتَّى يُقصدَ بعكسِه المبالغةُ والتَّمادِي فيهِ وإنما الذي يمكنُ فيه من المبالغةِ ما ذكرناهُ فتأملْ . ويجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ للإشعارِ بأنَّه إذا علمتْ حينئذٍ نفسٌ من النفوسِ ما أحضرتْ وجبَ على كلِّ نفسٍ إصلاحُ عملِها مخافةَ أنْ تكونَ هيَ تلكَ التي علمتْ ما أحضرتْ فكيفَ وكلُّ نفسٍ تعلمُه على طريقةِ قولِك لمن تنصحُه لعلكَ ستندمُ على ما فعلتَ وربَّما ندمَ بالإنسانُ على ما فعلَ فإنك لا تقصدُ بذلكَ أنَّ ندمَهُ مرجوُّ الوجودِ لا متيقنٌ بهِ أو نادرُ الوقوعِ بلْ تريدُ أنَّ العاقلَ يجبُ عليهِ أنْ يجتنبَ أمراً يُرجى فيهِ الندمُ أو قلَّما يقعُ فيهِ فكيفَ بهِ إذا كانَ قطعَي الوجودِ كثيرَ الوقوعِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(125/804)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾

أي صحف الأعمال أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال إذا مات الإنسان طويت صحيفته ثم تنشر يوم القيامة فيحاسب بما فيها وقيل نشرت أي فرقت بين أصحابها عن مرثد بن وداعة إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم أي مكتوب فيها ذلك وهي صحف غير صحف الأعمال وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي نشرت بالتشديد للمبالغة في النشر بمعنييه أو لكثرة الصحف أو لشدة التطاير .

﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ قلعت وأزيلت كما يكشف الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء المستور به فأصل الكشط السلخ واستعير هنا للإزالة وقرأ عبد الله قشطت بالقاف مكان الكاف واعتقابهما غير عزيز كالكافور والقافور وعربي قح وكح .

﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أي أوقدت إيقاداً شديداً قال قتادة سعرها غضب الله تعالى وخطايا بني آدم وقرأ جمع منهم علي كرم الله تعالى وجهه سعرت بالتخفيف .

(126/804)

﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ أي قربت من المتقين كقوله تعالى : ﴿ وأزلفت للجنة للمتقين غير بعيد ﴾ [ق : 31] أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية أنه قال : ست آيات

من هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون وست في الآخرة إذا الشمس كورت إلى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ [التكوير : 1-6] هذه في الدنيا وإذا النفوس زوجت إلى ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ [التكوير : 7-13] هذه في الآخرة وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب أنه قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ انكدرت النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش فماجوا بعضهم في بعض وأهملت العشار وقال الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فإما تتهم وقال بعضهم : إن الست الأولى فيما بين النفختين وأنه مراد من قال إنها في الدنيا وقيل هي فيما قبل النفخة الأولى وما بعدها إلى النفخة الثانية فلا تغفل .

(127/804)

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق

لكن لا بمعنى أن النفس تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد أو عند وقوع داهية من تلك الدواهي بل عند نشر الصحف إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مباديه وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كلها تهويلاً للخطب وتفظيعاً للحال والمراد بما أحضرت أعمالها من الخير والشر وبحضور الأعمال أما حضور صحائفها كما يعرب عنه نشرها وأما حضور أنفسها على ما قالوا من أن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح على كيفيات مخصوصة وهيئات معينة حتى أن الذنوب والمعاصي تتجسم هنالك وتتصور وحمل على ذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] وعن ابن عباس ما يؤيده ويؤيده أيضاً حديث ذبح الموت ونحوه قيل ولا بعد في ذلك ألا يرى أن العلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن كما لا يخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد حكي عن بعض الأكابر أنهم يشاهدون في هذه النشأة الأعمال عند العروج بها إلى السماء وكان ذلك بنوع من التجسد وأياً ما كان فإسناد إحضارها إلى النفس مع أنها تحضر بأمر الله تعالى كما تؤذن به قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران : 30] الآية لأنها لما عملتها في الدنيا فكأنها أحضرتها في الموقف ومعنى علمها بها على التقدير الأول اطلاعها عليها مفصلة في الصحف بحيث لا يشذ عنها منها شيء كما ينبىء عنه قولهم ﴿ مال هذا

الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ [الكهف : 49] وعلى التقدير الثاني أنها تشاهدها على ما هي عليه في

(128/804)

الحقيقة فإن كانت صالحة تشاهدها على صور أحسن مما كانت تدركها في الدنيا لأن الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقة وإن كانت سيئة تشاهدها على خلاف ما كانت عندها في الدنيا كانت مزينة لها موافقة لهواها وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم لفرد من النفوس أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة قطعاً يعرفه كل أحد ولو جيء بعبارة تدل على خلافه وللرمز إلى أن تلك النفوس العالمة بما ذكر مع توفر أفرادها وتكثر أعدادها مما تستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياء والعظمة الذي أشير إلى بعض بدائع شؤونه المنبئة عن عظم سلطانه عز وجل وفي "الكشاف" إن هذا من عكس كلامهم الذي يقصدون فيه الإفراط فيما يعكس عنه ومنه قوله تعالى :

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : 2] ومعناه كم وأبلغ وقول القائل

: قد أترك القرم مصفراً أنامله . . .

كان أثوابه مجت بفرصاد

(129/804)

وتقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندي أولاً تعدم عندي فارساً وعنده المقانب وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلاً أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين وبين بالكشف أنه يفيد ذلك مع ما في خصوص كل موقع من فائدة خاصة وذكر أن من الفوائد ههنا تهويل اليوم بتقليل الأنفس العالمة وإن كن جميعها وإظهار أنه كلام من غاية العظمة والكبرياء وأن من يغير هذه الأجرام العظام ويبدلها صفات وذوات تستقل الأنفس الإنسانية في جنب قدرته سبحانه أيما استقلال وتعقب ذلك أبو السعود بما لا يخلو عن نظر كما لا يخفى على ذي نظر جليل فضلاً عن ذي نظر دقيق وجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذٍ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي عملت ما أحضرت فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم ما فعلت وربما ندم الإنسان على ما فعل

فإنك لا تقصد بذلك أن ندمه مرجو الوجود لا متيقن به أو نادر الوجود بل تريد أن العاقل يجب عليه أن يجتنب أمراً يرجى منه الندم أو قل ما يقع فيه فكيف إذا كان قطعي الوجود كثير الوقوع واشتهر أن النكرة هنا في معنى العموم وهي قد تعم في الإثبات إذا اقتضى المقام أو نحوه ذلك ومنه قول ابن عمر لبعض أهل الشام وقد سأله عن المحرم إذا قتل جرادة أيتصدق بتمرة فدية لها تمرة خير من جرادة قيل ولهذا العموم ساغ الابتداء بالنكرة فيه وقول بعض أنه لا عموم فيها بل العموم جاء من تساوي نسبة الجزء إلى أفراد الجنس قيل مبني على ظن منافاة العموم للوحدة والإفراد وأنت تعلم أن ذلك إنما ينافي العموم الشمولي دون البدلي وقال بعض لا يبعد أن يقال استفيد العموم بجعلها في حيز النفي معنى لأن علمت نفس في معنى لم تجهل نفس لأن الحكم بالشيء يستلزم نفي ضده ليس بشيء وإلا لعمت

(130/804)

كل نكرة في الإثبات بنحو هذا التأويل وعن عبد الله بن مسعود أن قارئاً قرأ هذه السورة عنده فلما بلغ علمت نفس ما أحضرت قال وانقطاع ظهرياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(131/804)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10)

ونشر الصحف حقيقته : فتح طيّات الصحيفة ، أو إطلاق التفافها لتقرأ كتابتها ، وتقدم في قوله : ﴿ أن يؤتَى صُحفاً مُنَشَّرَة ﴾ في سورة المدثر (52) ، وعند قوله : ﴿ كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ في سورة الإسراء (13) .

والمراد : صحف الأعمال ، وهي إما صحف حقيقية مخالفة للصحف المألوفة ، وإما مجازية أطلقت على أشياء فيها إحصاءُ أعمال الناس ، وقد تقدم غير مرة .

وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب : ﴿ نُشِرت ﴾ بتخفيف الشين .

وقرأه الجمهور بتشديد الشين للتكثير لكثرة الصحف المنشورة .

والكشط : إزالة الإهاب عن الحيوان الميّت وهو أعم من السلخ لأن السلخ لا يقال إلا في إزالة إهاب البقر والغنم دون إزالة إهاب الإبل فإنه كشط ولا يقال : سلخ ، والظاهر أن المراد إزالة تقع في يوم القيامة لأنها ذكرت في أثناء أحداث يوم القيامة بعد قوله : ﴿ وإذا النفوس زوجت وإذا الموؤدة سئلت ﴾ وقوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ .

فالظاهر أن السماء تبقَى منشقة منفطرة تعرج الملائكة بينهما وبين أرض المحشر حتى يتم

الحساب فإذا قضي الحساب أزيلت السماء من مكانها فالسماء مكشوطة والمكشوط عنه هو عالم الخلود ، ويكون ﴿ كشطت ﴾ إستعارة للإزالة .

(132/804)

ويجوز أن يكون هذا من الأحداث التي جُعلت أشراطاً للساعة وأُخر ذكره لمناسبة ذكر نشر الصحف لأن الصحف تنشرها الملائكة وهم من أهل السماء فيكون هذا الكشط من قبيل الانشقاق في قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] والانفطار في قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ إلى قوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ [الانفطار : 1 5] فيكون الكشط لبعض أجزاء السماء والمكشوط عنه بعض آخر ، فيكون من قبيل قوله تعالى : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ [الأعراف : 40] ومن قبيل الطي في قوله تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] لأن ظاهره اتصالُ طيّ السماء بإعادة الخلق ، وتصير الأشراط التي تحصل قبل البعث سبعة والأحداث التي تقع بعد البعث خمسة .

والجحيم أصله : النار ذات الطبقات من الوَقود من حَطب ونحوه بعضها فوق بعض ، وصار

علَماً بالغلبة على جهنم دار العذاب في الآخرة في اصطلاح القرآن ، وتسعيرها أو إسعارها : إيقادها ، أي هُيِّئت لعذاب من حقّ عليهم العذاب .

وقرأ نافع وابن ذكوان عن ابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ورويس عن يعقوب : ﴿ سُعّرت ﴾ بتشديد العين مبالغة في الإِسعار .

وقرأه الباقون بالتخفيف .

وقوبلت بالجنة دار النعيم واسم الجنة علم بالغلبة على دار النعيم ، و ﴿ أزلفت ﴾ قربت ، والزلفى : القرب ، أي قربت الجنة من أهلها ، أي جعلت بقرب من محشرهم بحيث لا تَعَب عليهم في الوصول إليها وذلك كرامة لهم .

(133/804)

واعلم أن تقديم المسند إليه في الجمل الِثْنتي عشرة المفتتحات بكلمة ﴿ إذا ﴾ من قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ إلى هنا ، والإِخْبار عنه بالمسند الفعلي مع إمكان أن يقال : إذا كورت الشمس وإذا انكدرت النجوم ، وهكذا كما قال : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] أن ذلك التقديم لإفادة الاهتمام بتلك الأخبار المجعولة علامات ليوم البعث توسلاً بالاهتمام بأشراطه إلى الاهتمام به وتحقيق وقوعه .

وإن إطالة ذكر تلك الجمل تشويق للجواب الواقع بعدها بقوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ .

وجملة : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ يتنازع التعلق به كلمات ﴿ إذا ﴾ المتكررة .

وعن عمر بن الخطاب : "أنه قرأ أول هذه السورة فلما بلغ ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ قال : لهذا أجريت القصة" أي هو جواب القسم ومعنى ﴿ علمت ﴾ أنها تعلم بما أحضرت فتعلمه .

وقوله ﴿ نفس ﴾ نكرة في سياق الشرط مُراد بها العموم ، أي علمت كل نفس ما أحضرتْ ، واستفادة العموم من النكرة في سياق الإثبات تحصل من القرينة الدالة على عدم القصد إلى واحد من الجنس ، والقرينة هنا وقوع لفظ نفس في جواب هذه الشروط التي لا يخطر بالبال أن تكون شروطاً لشخص واحد ، وقد قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ [آل عمران : 30] .

والإحضار : جعل الشيء حاضراً .

ومعنى : ﴿ علمتْ نفس ما أحضرت ﴾ حصول اليقين بما لم يكن لها به علم من حقائق الأعمال التي كان علمها بها أشتاتاً : بَعْضه معلوم على غير وجهه ، وبعضه معلوم صورتُه مجهولةٌ عواقبه ، وبعضه مغفول عنه .

فنزّل العلم الذي كان حاصلاً للناس في الحياة الدنيا منزلة عدم العلم ، وأثبت العلم لهم في

ذلك اليوم علم أعمالهم من خير أو شر فيعلَم ما لم يكن له به علم مما يحقره من أعماله ويتذكر ما كان قد علمه من قبل ، وتذكُّر المنسي والمغفول عنه نوع من العلم .

وما أحضرته هو ما أسلفته من الأعمال .

(134/804)

ولما كانت الأعمال تظهر آثارها من ثواب وعقاب يومئذ عبر عن ظهور آثارها بالإحضار لشبيه به كما يحضر الزاد للمسافر ففي فعل : ﴿ أحضرت ﴾ استعارة .

ويطلق على ذلك الإعداد كقول النبي صلى الله عليه وسلم للذي سأله متى الساعة : " ماذا أعددت لها " .

وأسند الإحضار إلى النفوس لأنها الفاعلة للأعمال التي يظهر جزاؤها يومئذ فهذا الإسناد من إسناد فعل الشيء إلى سَبب فعله ، فحصل هنا مجازان : مجاز لغوي ، ومجاز عقلي ، وحقيقتهما في قوله تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ .

وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها حاصلة عند حصول مجموع الشروط التي ذكرت في الجمل الثنتي عشرة لأن بعض الأحوال التي تضمنتها الشروط مقارن لحصول علم النفوس

بأعمالها وهي الأحوال الستة المذكورة أخيراً ، وبعض الأحوال حاصل من قبل بقليل وهي الأحوال الستة المذكورة أولاً .

فنزل القريب منزلة المقارن ، فلذلك جعل الجميع شروطاً ل ﴿ إذا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(135/804)

فصل

قال القرطبى :

الجزء الأول من باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت وفي أسماء يوم القيامة

الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر غلى يوم القيامة فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت قال : هذا حديث حسن .

فصل : قلت : وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها وتكور شمسها وانكدار نجومها وتناثر كواكبها إلى غير ذلك من أفزاعها

وأهوالها ، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم بعد نشر صحفهم وقراء كتبهم وأخذها بأيمانهم وشمائلهم أو من وراء ظهورهم في موقفهم على ما يأتي بيانه . قال الله تعالى إذا السماء انشقت وقال إذا السماء انفطرت وقال : ويوم تشقق السماء بالغمام فتراها واهية منفطرة متشققة كقوله تعالى : وفتحت السماء فكانت أبواباً ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض . وقيل : إن [الباء] بمعنى [عن] أي تشقق عن سحاب أبيض . ويقال : انشقاقها لما يخلص غليه من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت المياه وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم ورفعه ، وقد قيل : إن السماء تتلون فتصفر ثم تحمر أو تحمر ثم تصفر كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة ثم إلى الغبرة . قاله الحليمي .

وقوله تعالى : إذا الشمس كورت قال ابن عباس رضي الله عنه تكويرها إدخالها في العرش . وقال : ذهاب ضوئها . قاله الحسن وقتادة . وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد .

وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتمحى ، وقال الربيع بن خيثم كورت رمى بها ومنه كورته فتكور أي سقط .

قلت : وأوصل التكوير الجمع مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها أي لا تها

وجمعا فهي تكور ثم يمحى ضوءها ثم يرمى بها والله أعلم .

وقوله تعالى : وإذا النجوم انكدرت أي انتثرت قيل تتناثر من أيدي الملائكة لأنهم يموتون . وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة . وقال ابن عباس رضي الله عنه : انكدرت تغيرت وأصل الانكدار الانصباب فتسقط في البحار فتصير معها نيراناً إذا ذهبت المياه .

وقوله وإذا الجبال سيرت هو مثل قوله وتسير الجبال أي تحول عن منزلة الحجارة فتكون كثيباً مهيلاً أي رملاً سائلاً وتكون كالعهن ، وتكون هباء منبثاً ، وتكون سراباً مثل السراب الذي ليس بشيء ، وقيل : إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم كما تصير السماء من حرها كالمهل . قال الحليمي : وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض ، فإذا ارتفعت وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر .

قوله وإذا العشار عطلت أي عطلها أهلها فلم تحلب من الشغل بأنفسهم والعشار : الإبل الحوامل واحدها عشراء وهي التي أتي عليها في الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعد ما تضع ، وإنما خص العشار بالذكر لأنها أعز ما يكون على العرب ، فأخبر أنه تعطل يوم القيامة . ومعناه : أنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهد بعضهم بعضاً

ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم لم يعبئوا بها ولم يهمهم أمرها ، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها في الدنيا ، وأهل العشار يرونها فلا يجدون إليها سبيلاً . وقيل : العشار السحار يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر . وقيل : العشار الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع . والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر .

وقوله : وإذا الوحوش حشرت أي جمعت والحشر الجمع وقد تقدم .

وقوله : وإذا البحار

(137/804)

سجرت أي أوقدت وصارت ناراً . رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه وقال قتادة : غار ماؤها فذهب ، وقال الحسن والضحاك : فاضت . قال ابن أبي زمنين سجرت حقيقته ملئت فيقضي بعضها إلى بعض فتصير شيئاً واحداً وهو معنى قول الحسن ويقال : إن الشمس تلف ثم تلقى في البحار فمنها تحمى وتنقلب ناراً . قال الحليمي : ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذ تكون أكثرها لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة ، فإذا كورت وألقيت في

البحر فصارت ناراً ازدادت امتلاء .

وقوله : وإذا النفوس زوجت تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد من دون الله شيئاً يلحق بعضهم ببعض والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين . وقال عكرمة : المعنى تقرن بأجسادها أي ترد إليها . وقيل : يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان . وقيل : يقرن المؤمنون بالحور العين والكافرون بالشياطين .

وقوله : وإذا الموؤدة سئلت يعني بنات الجاهلية كانوا يدفنونهن أحياء لخصلتين .

إحدهما : كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به .

الثانية : مخافة الحاجة والإملاق وسؤال الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها كما يقال للطفل إذا ضرب لم ضربت وما ذنبك ؟ وقال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لانها قتلت بغير ذنب وبعضهم يقرأ وإذا الموؤدة سئلت تعلق الجارية بأبيها فتقول بأي ذنب قتلتني ؟ وقيل : معنى سئلت يسأل عنها كما قال إن العهد كان مسؤولا .

وقوله : وإذا الصحف نشرت أي للحساب وسيأتي .

وقوله : وإذا السماء كشطت قيل معناه طويت كما قال الله تعالى : يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب أي كطي الصحيفة على ما فيها فاللام بمعنى [على] يقال : كشطت السقف أي قلعته فكان المعنى قلعت فطويت . والله أعلم . والكشط والقشط سواء و

هو القلع وقيل : السجل كاتب للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف في الصحابة من اسمه سجل .

وقوله : وإذا الجحيم سعرت أي أوقدت .

وقوله : وإذا الجنة أزلفت أي قربت لأهلها وأدنيت علمت نفس ما أحضرت أي من عملها وهو مثل قوله : علمت نفس ما قدمت وأخرت ومثل قوله : ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر فهو يوم الانشقاق ويوم الانفطار ويوم التكوير ويوم الانكدار ويوم الانتثار ويوم التسيير قال الله تعالى : وتسير الجبال سيراً وإذا الجبال سيرت ويوم التعطيل ويوم التسجير ويوم التفجير ويوم الكشط والطي ويوم المد لقوله تعالى : وإذا الأرض مدت إلى غير ذلك من أسماء القيامة وهي الساعة الموعود أمرها ولعظمها أكثر الناس السؤال عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنزل الله عز وجل على رسوله يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتةً وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه وهذا جميع كلام العرب ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمهوا له خمسمائة

اسم . وله نظائر . فالقيامة لما عظم أمرها ، وكثرت أهوالها ، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف كثيرة . منها ما ذكرناه ، مما وقع في هذه السور الثلاث . وقيل : إن الله تعالى يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها فتوقف بين يدي الله تعالى ويوم الجمعة فيها زاهراء مضيئة يعرفها الخلائق فيوم القيامة يوم يتضمن الأيام كلها فسمى بكل حال يوماً فقيل : يوم ينفخ في الصور ثم قيل : يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ثم قيل : يوم ينظر المرء ما قدمت يداه فهذه حالة أخرى . ثم قيل : يوم تعرضون ثم قيل : يومئذ يصدر الناس أشتاتاً . فهذه أحوال فقد يجري يوم القيامة بطوله على هذه الأحوال كل حال منها كاليوم المتجدد ولذلك كررت في قوله تعالى : و

(139/804)

ما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين . لآن ذلك اليوم وما بعده يوم ، واليوم العظيم متضمن لهذه الأيام فهو لله يوم وللخلائق أيام فقد عرفت أيامهم في يومه وقد بطل الليل والنهار . قاله الترمذي الحكيم ومما قيل في معنى ما ذكرنا من النظم قول بعضهم :

مثل لنفسك أيها المغرور يوم القامة والسماء تمور

إذ كورت شمس النهار وأدنيت حتى على رأس العباد تسير

وإذا النجوم تساقطت وتناثرت وتبدلت بعد الضياء كدور

وإذا البحار تفجرت من خوفها ورأيتها مثل الجحيم تفور

وإذا الجبال تقلعت بأصولها فرأيتها مثل السحاب تسير

وإذا العشار تعطلت وتخربت خلت الديار فما بها معمور

وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت وتقول للأملاك أين نسير

وإذا تقاة المسلمين تزوجت من حور عين زانهن شعور

وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها وبأي ذنب قتلها ميسور

وإذا الجليل طوى السما بيمينه طي السجل كتابه المنشور

وإذا الصحائف عند ذاك تساقطت تبدى لنا يوم القصاص أمور

وإذا الصحائف نشرت فتطايرت وتهتكت للمؤمنين ستور

وإذا السماء تكشطت عن أهلها ورأيت أفلاك السماء تدور

وإذا الجحيم تسعرت نيرانها فلها على أهل الذنوب زفير وإذا لجنان تزخرفت وتطيبت

لفتى على طول البلاء صبور وإذا الجنين بأمه متعلق يخشى القصاص وقلبه مذعور

هذا بلا ذنب يخاف جناية كيف المصر على الذنوب دهور

ومنها الساعة قال الله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة وقال ويوم

تقوم الساعة يبلس المجرمون . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون وقال ويوم تقوم الساعة

أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وهو في القرآن كثير ، والساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء الزمان غير محدود وفي العرف على جزء من أربعة وعشرين جزءاً من يوم وليلة والذين هما أصل الأزمنة ، وتقول العرب أفعل كذا الساعة ، وأنا الساعة في أمر كذا تريد الوقت الذي أنت فيه ، والذي

(140/804)

يليه تقريباً له وحقيقة الإطلاق فيها أن الساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه وهو المسمى بالآن وسميت به القيامة إما لقربها فإن كل آت قريب ، وإما أن تكون سميت بها تنبيهاً على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود وتكسر العظام وقيل: إنما سميت بالساعة لأنها تأتي بغتة في ساعة ، وقيل : إنما سميت بالساعة لأن الله تعالى يأمر السماء أن تمطر بماء الحيوان حتى تنبت الأجساد في مدافنها ومواضعها حيث كانت من بحر أو بر وتستقل وتتحرك بحياتها بماء الحيوان ، وليست فيها أرواح ثم تدعى الأرواح ، فأرواح المؤمنين تتوقد نوراً ، وأرواح الكافرين تتوهج ظلمة ، فإذا دعا الأرواح ألقاها في الصور ثم يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور فإذا نفخ فيه خرجت من الصور ثم أمرت أن تلحق الأجساد فتبعث إلى الأجساد في أسرع من اللمحة ، وأنما سميت الساعة

لسعي الأرواح إلى الأجساد في تلك السرعة فهي سائغ وجمعها ساعة كقولك ، بائع وباعة وضائع وضاعة وكائل وكالة ، فوصف أن سائر أموره في السرعة كلمح البصر وأمر السائق أقرب من لمح البصر . قاله الترمذي الحكيم .

وذكر أبو نعيم الحافظ بإسناده عن وهب بن منبه قال : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء وقطرت العظاة دماً ومنها القيامة قال الله تعالى لا أقسم بيوم القيامة وهي في العربية مصدر قام يقوم ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب ، واختلف في تسميتها بذلك على أربعة أقوال .

الأول : لوجود هذه الأمور فيها .

الثاني : لقيام الخلق من قبورهم إليها . قال الله تعالى يوم يخرجون من الأجداث سراعاً .

الثالث : لقيام الناس لرب العالمين كما روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يوم يقوم أحدكم في رشحه إلى نصف أذنيه قال ابن عمر رضي الله عنهما [يقومون مائة سنة] . ويروى عن كعب [يقومون ثلاثمائة سنة] .

(141/804)

الرابع : لقيام الروح والملائكة صفاً . قال الله تعالى يوم يقوم الروح والملائكة صفاً .

قال علماؤنا : واعلم أن كل ميت مات فقد قيامته ، ولكنها قيامة صغرى وكبرى ، فالصغرى هي ما يقوم على كل إنسان في خاصته من خروج روحه وفراق أهله وانقطاع سعيه وحصوله على عمله . إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر ، والقيامة الكبرى هي التي تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة ، والدليل على أن كل ميت يموت فقد قامت قيامته قول النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من الأعراب وقد سألوه متى القيامة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال : إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم أخرجه مسلم وغيره ، وقال الشاعر :

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي غداة أقيل الحاملون جنازتي

وعجل أهلي حفر قبري وصبروا خروجي وتعجيلي إليه كرامتي

كأنهم لم يعرفوا قط سيرتي غداة أتى يومي علي وساعتي

ومنها : يوم النفخة . قال الله تعالى يوم ينفخ في الصور وقد مضى القول فيه .

ومنها : يوم الزلزلة ويوم الرجفة . قال الله تعالى يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة وقد تقدم .

ومنها : يوم الناقور كقوله تعالى فإذا نقر في الناقور وقد تقدم القول فيه والحمد لله .

ومنها : القارعة سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها يقال : قد أصابتهم قوارع الدهر

أي أهواله وشدائده ، قالت الخنساء :

تعرفني الدهر نهشاً وحزاً وأوجعني الدهر قرعاً وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها .

ومنها : يوم البعث وحقيقته إثارة الشيء عن خفاء وتحريكة عن سكون ، قال عنترة :

وعصابة شم الأنوف بعثهم ليلاً وقد مال الكرا بطلاها

وقال امرؤ القيس :

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعاً بين غات ونسوان

وقد تقدم القول فيه وفي صفته والحمد لله . ومنها : يوم النشور وهو عبارة عن الإحياء .

يقال : قد أنشر الله الموتى فنشروا أي أحياهم

(142/804)

الله فحييوا ومنه قوله تعالى وانظر إلى العظام كيف ننشزها أي نحييها ، وقد يكون معناه التفريق من ذلك قولك أمرهم نشر .

ومنها : يوم الخروج قال الله تعالى يوم يخرجون من الأجداث سراعاً فأوله الخروج من القبور وآخره خروج المؤمنين من النار ثم لا خروج ولا دخول على ما يأتي .

ومنها : يوم الحشر وهو عبارة عن الجمع ، وقد يكون مع الفعل إكراه قال الله تعالى : وأرسل في المدائن حاشرين أي من يسوق السحرة كرهاً وقد مضى القول في الحشر مستوفي والحمد لله .

ومنها : يوم العرض قال الله تعالى : يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية وقال : وعرضوا على ربك صفاً وحقيقتة إدراك الشيء بإحدى الحواس ليعلم حاله وغايته السمع والبصر فلا يزال الخلق قياماً في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما شاء الله أن يقوموا حتى يلهموا أو يهتموا . فيقولون : قد كنا نستشفع في الدنيا فهلم فلنسال الشفاعة إلى ربنا فيقولون : أئتوا آدم الحديث وسيأتي .

قال ابن العربي : وفي كيفية العرض أحاديث كثيرة المعول منها على تسعة أحاديث في تسعة أوقات :

الأول : الحديث المشهور الصحيح رواه أبي هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما واللفظ له قال : إن ناساً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب ، وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فها سحاب ، قالوا : لا يا رسول الله . قال : ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد

كان يعبد غير الله من الأصنام والنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب ، فيدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزيز بن

(143/804)

الله . فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ، ثم تدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله . فيقال لهم : كذبتم ما تخذ الله من صاحبة ولا ولد . فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها . قال : فماذا تنتظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً . حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم . فيكشف عن

ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم وذكر الحديث وسيأتي تمامه إن شاء الله تعالى .

الثاني : صح حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من نوقش الحساب عذب ، قلت يا رسول الله أليس الله يقول فسوف يحاسب حساباً يسيراً قال : ليس ذلك الحساب ذلك العرض وسيأتي .

الثالث : روى الحسن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات وسيأتي .

الرابع : روي عن أنس رضي الله عنه أنه قال عن النبي صلى

الله عليه وسلم يجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج الحديث ، وسيأتي .

الخامس : ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد الخدري واللفظ له ، يؤتى بعبد

يوم القيامة فيقال له ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وتركتك ترأس وترتع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا . فيقول : لا . فيقال له : اليوم أنساك كما نسيتني وهذا حديث صحيح . قلت : خرجه مسلم والترمذي مطولاً .

السادس : ثبت من طرق صحاح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة فيضع عليه كنفه فيقول له عبدي تذكر يوم كذا وكذا حين فعلت كذا وكذا فلا يزال يقرره حتى يرى أنه هلك . ثم يقول له : عبدي أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .

السابع : وفي الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً وآخر أهل النار خروجاً من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها وذكر الحديث .

الثامن : وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يخرج من النار أربعة فيعرضون على الله فيلتفت أحدهم فيقول : أي رب إذا أخرجتني منها فلا تعدني فيها فينجيه الله منها .

وروى مسلم يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول لهم : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك وذكر حديث الشفاعة قال الله تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار وذلك قوله في

الحديث المتقدم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً قال القاضي أبو بكر بن العربي : وهذا مما أغفله الأئمة في التفسير .

التاسع : العرض على الله ولا أعلمه في الحديث إلا قوله في النص المتقدم حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين ، وذكر الحديث .

قلت

(145/804)

: إذا تتبعت الأحاديث في هذا الباب على هذا السياق كان الحسن والصحيح منها أكثر من تسعة .

وقد خرج عن أبي بردة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع الحديث وسيأتي .

وقوله في الحديث الآخر إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله .

وخرج مسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان الحديث وسيأتي .

وخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب الحديث وسيأتي .

ويتضمن من غير رواية البخاري عرض اللوح المحفوظ ثم إسرافيل ثم جبرائيل ثم الأنبياء نبياً نبياً صلوات الله عليهم أجمعين ، وسيأتي .

وخرج الترمذي وابن ماجه حديث الرجل الذي ينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً وسيأتي .

وهذا كله من باب العرض على الله . وإذا تتبعت الأحاديث كانت أكثر من هذا في مواطن مختلفة وأشخاص متباينة والله أعلم ، وفي بعض الخبر أنه يتمنى رجال أن يبعث بهم إلى النار ، ولا تعرض قبائحهم على الله تعالى ، ولا يكشف مساوئهم على رؤوس الخلائق .

قلت : وأما ما وقع ذكره في الحديث من كشف الساق وذكر الصورة فيأتي إيضاحه ذلك وكشفه إن شاء الله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما ما جاء من طول هذا اليوم ووقوف الخلائق فيه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فقد جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فقلت : ما أطول هذا . فقال النبي

صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده أنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلاة

(146/804)

المكتوبة يصليها في الدنيا ذكره قاسم بن أصبغ وقيل : غير هذا وسيأتي .

ومنها : يوم الجمع وحقيقته في العربية ضم واحد إلى واحد ، فيكون شفعاً أو زوجاً إلى زوج فيكون جمعاً . قال الله تعالى : يوم يجمعكم ليوم الجمع وقال ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه وهو في القرآن كثير .

ومنها : يوم التفرق قال الله تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون * وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون وهو معنى قوله تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير .

ومنها : يوم الصدع والصدر أيضاً قال الله تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتاً وقال يومئذ يصدعون ومعناهما معنى الإسم الذي قبله .

ومنها : يوم البعثرة ومعناه تتبع الشيء المختلط مع غيره حتى يخلص منه فيخلص الله تعالى الأجسام من التراب والكافرين من المؤمنين والمنافقين ، ثم يخلص المؤمنين من المنافقين كما في

الحديث الصحيح : إن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد خرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومنها : ما روي أنه يخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم وهو صحيح أيضاً وسيأتي . وقال صلى الله عليه وسلم يؤخذ برجال ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .

ومنها : يوم الفزع وحقيقته ضعف النفس عن حمل المعاني الطارئة عليها خلاف العادة ، فإن استمر كان جبناً وعند ذلك تتشوق النفس إلى ما يقويها فلأجل ذلك قالوا : فزعت من كذا أي ضعفت عن حمله عن طريانه على خلاف العادة ، وفزعت إلى كذا أي تشوقت نفسي عند ذلك إلى ما يقويها على ما نزل بها والآخرة كلها خلاف العادة وهي فزع كلها وفي التنزيل لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وقد اختلف فيه فقيل هو قوله لا بشرى يومئذ للمجرمين . وقيل ، إذا طبقت النار على أهلها وذبح الموت بين

(147/804)

الجنة والنار . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار وعنه أن الفزع الأكبر النفخة الآخرة وتتلقاهم الملائكة بالبشارة حتى يخرجوا من قبورهم .

ومنها : يوم التناد بتخفيف الدال من النداء وتشديدها من ند إذا ذهب وهو قال تعالى يوم تولون مدبرين وهو الذهاب في غير قصد . وروي أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات والأرض الحديث ، وقد تقدم التي يقول الله ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير الله الجبال ويرج الأرض بأهلها رجاً وهي التي يقول الله يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة * أبصارها خاشعة فيميد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهو الذي يقول الله تعالى يوم التناد * يوم تولون مدبرين قال ابن العربي : وقد رويت في ذلك آثار كثيرة هذا أمثلها فدعوها ، فالمعنى الواحد يكفينا منها ومن هولها ومن تحقيق المعنى لها .

قلت : قد بينا أقوال العلماء في ذلك عند ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه في باب أين تكون الناس فتأمله هناك .

ومنها : يوم الدعاء وهو النداء أيضاً .

والنداء على ثمانية وجوه فيما ذكر ابن العربي :

الأول : نداء أهل الجنة أهل النار بالتقريع .

الثاني : نداء أهل النار لأهل الجنة بالاستغاثة كما أخبر الله عنهم .

الثالث : يدعى كل أناس بإمامهم وهو قوله لتتبع كل أمة ما كانت تعبد قال المؤلف : ويقال بكتابهم وقيل : نبيهم . قال سري السقطي : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها فيقال يا أمة موسى يا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .

الرابع : نداء الملك ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن فلان

ابن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً وسيأتي .

الخامس : النداء عند ذبح الموت يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت .

السادس : نداء أهل النار يا حسرتنا ويا ويلنا .

السابع : قول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين .

الثامن : نداء الله تعالى أهل الجنة فيقول : يا أهل الجنة هل رضيت ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : أعطيتكم أفضل من ذلك رضائي .

الجزء الثاني من باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت وفي أسماء يوم القيامة

قال المؤلف رضي الله عنه : ونداء تاسع ذكره أبو نعيم عن مروان بن محمد قال : قال أبو حازم الأعرج : يخاطب نفسه يا أعرج ينادي يوم القيامة يا أهل خطيئة كذا وكذا وكذا فتقوم معهم ، ثم ينادي يا أهل خطيئة أخرى فتقوم معهم فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة وفي التنزيل يوم يناديهم فيقول أين شركائي الآية التي في القصص وحم السجدة ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين وبالنداء في الأخبار كثير يأتي بيانها وذكرها في باب من يدخل الجنة بغير حساب .

ومنها : يوم الواقعة . وأصل وقع في كلام العرب كان ووجد ، وجاءت الشريعة في تأكيد ذلك بثبوت ما وجد قال الله تعالى : وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم والمراد بالقول هنا إخبار الباري عن الساعة وأنها قريبة ، ومن أعظم علاماتها الدابة ، وسيأتي ذكرها وما للعلماء فيها من الأشراط إن شاء الله تعالى وقوله كاذبة مصدر كالباقية والعاقبة أي ليس لوقعتها مقالة كاذبة .

(149/804)

ومنها : الخافضة الرافعة أي ترفع قوماً في الجنة وتخفض أخرى في النار ، والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة والعز والإهانة ، ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يمكن منه الفعل يقولون ليل قائم ونهار صائم وفي التنزيل بل مكر الليل والنهار والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله تعالى وحده ، فرفع أولياءه في أعلى الدرجات وجعل أعداءه في أسفل الدركات قال الله تعالى يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا وقال صلى الله عليه وسلم في حديث جابر رضي الله عنه : نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس . قال ابن العربي وهذا حديث فيه تخليط في كتاب مسلم لم يتقنه رواية . ومعناه : أن جميع الخلق على بسيط من الأرض سواء إلا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته فإنهم يرفعون جميعهم على شبه من الكوم ويخفض الناس عنهم ، وفي رواية : أكون أنا وأمتي يوم القيامة على تل فيكسوني ربي حلة خضراء ، ثم يؤذن لي فذلك المقام المحمود .

(150/804)

قلت : وهذا الرفع في المكان بحسب الزيادة في المكانة . قال ابن العربي : وهي أنواع فرفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالشفاعة في أول الخلق وبأنه أول من يدخل الجنة ويقرع بابها ، ورفع العادلين بالحديث الصحيح المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، ورفع القراء إلى حيث انتهت قراءتهم . يقال : اقرأ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ، وسيأتي ورفع الشهداء فقال في الحديث الصحيح إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله الحديث وسيأتي ، ورفع كافل اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار مالك بالسبابة والوسطى يريد في الجوار وقال صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغائر في أفق السماء وأن أبا بكر وعمر منهم وأنعما ، ورفع عائشة على فاطمة رضي الله عنهما ، فإن عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم وفاطمة مع علي رضي الله عنهما .

ومنها : يوم الحساب ومعناه أن الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة يعدد عليهم نعمه ، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشف منها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر .

وجاء عن النبي أنه قال : ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فقيل إن الله يحاسب المكلفين بنفسه ويخاطبهم معاً ولا يحاسبهم واحداً بعد واحد و

المحاسبة حكم . فلذلك تضاف إليه كما يضاف الحكم إليه قال الله تعالى : ألا له الحكم وقال وهو خير الحاكمين .

(151/804)

وفي الخبر : أنه يوقف شيخ للحساب فيقول الله له : يا شيخ ما أنصفت غذوتك بالنعم صغيراً فلما كبرتك عصيتني أما إني لا أكون لك كما كنت لنفسك اذهب فقد غفرت لك ما كان قبل ، وإنه ليؤتى بالشاب كثير الذنوب فإذا وقف تضعضعت أركانه واصطكت ركبتاه فيقول الرب جل جلاله : أما استحييتني أما راقبتني أما خشيت نقمتي أما علمت أني مطلع عليك خذوه إلى أمه الهاوية ، وقيل : إن الملائكة يحاسبون بأمر الله كما أن الحكام يحكمون بأمر الله تعالى . وقد قال الله تعالى : إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً إلى قوله ولا يكلمهم الله وإن من لم يكن بهذه الصفة فإن الله تعالى يكلمه فيكلم المؤمنين ويحاسبهم حساباً يسيراً من غير ترجمان إكراماً لهم ، كما أكرم موسى عليه السلام في الدنيا بالكليم ، ولا يكلم الكفار فتحاسبهم الملائكة ويميزهم بذلك عن أهل الكرامة فتتسع قدرته لمحاسبة الخلق كلهم معاً كما تتسع قدرته لإحداث خلائق كثيرة معاً .

قال الله تعالى : ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة أي إلا كخلق نفس واحدة .

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسئل عن محاسبة الخلق فقال : كما يرزقهم في غداة واحدة كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة . وفي صحيح مسلم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر وليس في سحابة قالتا : لا . قال : فوالذي نفس محمد بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . قال : فيلقى العبد فيقول : أيأفل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترتع ؟ فيقول : بلى فيقول : أفظننت أنك ملاقي

(152/804)

؟ فيقول : لا . فيقول : إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وتصدقت وصمت ويثني بخير ما استطاع قال : فيقول ها هن إذاً ثم يقول الآن نبعث شاهداً عليك فيقول في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه . ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظام بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق

وذلك الذي يسخط الله عليه ، وقد قال الله تعالى اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً أي حاسباً فعيلاً بمعنى فاعل ، وإذا نظر فيها ورأى أنه قد هلك فإن أدركته سابقة حسنة وضعت له لا إله إلا الله في كفة فرجحت له السموات والأرض . وفي رواية فطاشت السجلات وثقلت البطاقة وسيأتي وقال من نوقش الحساب عذب .

ومنها : يوم السؤال والباري سبحانه وتعالى يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريراً لإقامة الحجة وإظهاراً للحكمة . قال الله تعالى : سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة وقال واسألهم عن القرية التي كانت حاضرةً البحر وقال : واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا وهو في القرآن كثير وقال : ليسأل الصادقين عن صدقهم وقال : وإذا الموؤدة سئلت وقال : فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون قيل : عن لا إله إلا الله . وقال : إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا وقال عليه السلام لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع الحديث وسيأتي .

وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .

ومنها : يوم الشهادة ويوم يقوم

الأشهاد .

والشهادة على أربعة أنواع :

(153/804)

شهادة محمد وأمته تحقيقاً لشهادة الرسل على قومها .

الثاني : شهادة الأرض والأيام والليالي بما عمل فيها وعليها .

الثالث : شهادة الجوارح قال الله تعالى : يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وقال : وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وذلك بين أيضاً في حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الرابع : حديث أنس رضي الله عنه وفيه ويختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ، وسيأتي بيان هذا الباب كله إن شاء الله تعالى .

ومناه : يوم الجدال قال الله تعالى : يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها أي تخاصم وتحاج عن نفسها . وجاء في الخبر : أن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي من شدة أهوال يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل في أمته . على ما يأتي .

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار يا كعب : خوفنا هيجنا حدثنا نبهنا فقال كعب : يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين

نبياً لأتت عليك تارات ولا يهمك إلا نفسك وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي منتخب إلا وقع جاثياً على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل ليدلى بالخلة فيقول رب أنا خليلك إبراهيم لا أسألك اليوم إلا نفسي . قال يا كعب : اين نجد ذلك في كتاب الله تعالى ؟ قال : قوله تعالى : يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون .

وقال ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد ، فتقول الروح : رب الروح منك أنت خلقته لم يكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ولا عين أبصر بها ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت فدخلت في هذا الجسد فضعف عليه أنواع العذاب ونجني . فيقول الجسد : رب أنت خلقتني بيدك فكنت كالخشبة ليس لي يد أبطش بها ولا قدم أسعى بها ولا بصر أبصر به و

(154/804)

لا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشعاع الشمس فيه نطق لساني وبه أبصر عيني وبه مشت رجلي وبه سمعت أذني فضعف عليه أنواع العذاب ونجني قال : فيضرب الله لهما مثلاً أعمى ومقعد أدخلا بستاناً فيه ثمار فالأعمى لا يبصر والمقعد لا ينالها ، فنادى المقعد

للأعمى ائتني فاحملني آكل وأطعمك فدنا منه فحمله فأصابا من الثمرة فعلى من يكون العذاب . قالا : عليهما ، قال : عليكم جميعاً العذاب .

قال المؤلف رضي الله عنه وأرضاه : ومن هذا الباب قول الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا إلى غير ذلك مما في معناه حسب ما يأتي .

ومنها : يوم القصاص . وفيه أحاديث كثيرة يأتي ذكرها في باب إن شاء الله تعالى .

ومنها : يوم الحاقة . وسميت بذلك لأن الأمور تحق فيها . قاله الطبري كأنه جعلها من باب : ليلي نائم كما تقدم .

وقيل : سميت حاقة لأنها كانت من غير شك . وقيل : سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام النار .

ومنها يوم الطامة . معناها الغالبة من قولك طم الشيء إذا علا وغلب ، ولما كانت تغلب كل شيء كان لها هذا الاسم حقيقة دون كل شيء . قال الحسن : الطامة النفخة الثانية ، وقيل : حين يساق أهل النار إلى النار .

ومنها : يوم الصاخة قال عكروة : الصاخة : النفخة الأولى والطامة : النفخة الثانية قال الطبري أحسبه من صخ فلان فلاناً إذا أصمه . قال ابن العربي : الصاخة التي تورث الصمم وإنها المسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة حتى لقد قال بعض أحداث الأسنان حديثي الأزمان :

أصم بك الناعي وإن كنت أسمعا

وقال آخر :

أصمني شرهم أيام فرقتهم فهل سمعتم بشر يورث الصمما

ولعمرو الله إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة ، وبهذا كله كان يوماً عظيماً كما قال الله تعالى في وصفه بالعظيم . وكل شيء كبر في أجزائه فهو عظيم . كذلك ما كبر في معانيه . وبهذا المعنى كان الباري عظيماً ، لسعة قدرته وعلمه وكثرة ملكه الذي لا يحصى ، و

(155/804)

لما كان أمر الآخرة لا ينحصر كان عظيماً بالإضافة إلى الدنيا ولما كان محدثاً له أول صار حقيراً بالإصافة إلى العظيم الذي لا يحد .

ومنها : يوم الوعيد وهو أن الباري سبحانه أمر ونهى ووعد وأوعد فهو أيضاً يوم الوعد والوعد للنعيم والوعيد للعذاب الأليم ، وحقيقة الوعيد هو الخبر عن العقوبة عند المخالفة ، والوعد الخبر عنى المثوبة عند الموافقة ، وقد ضل في هذه المسألة المبتدعة وقالوا : إن من أذنب ذنباً واحداً فهو مخلد في النار تخليد الكفار أخذاً بظاهر هذا اللفظ في آي فلم يفهموا

العربية ولا كتاب الله وأبطلوا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسيأتي الرد عليهم في أبواب من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ومنها : يوم الدين . وهو في لسان العرب الجزاء قال الشاعر :

حصادك يوماً ما زرعت وإنما يدان الفتى فيه كما هو دائن

وقال آخر :

واعلم يقيناً أن ملكك زائل واعلم بأنك كما تدين تدان

ومنها : يوم الجزاء . قال الله تعالى : اليوم تجزون ما كنتم تعملون وقال : اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وهو أيضاً يوم الوفاء . قال الله تعالى : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق أي حسابهم وجزاؤهم والجنة جزاء الحسنات والنار جزاء السيئات . قال الله تعالى في المعنيين جزاء بما كانوا يكسبون وجزاء بما كانوا يعملون وقال في جهة الوعيد كذلك نجزي كل كفور .

ومنها : يوم الندامة . وذلك أن المحسن إذا رأى جزاء إحسانه والكافر جزاء كفره ندم المحس أن لا يكون مستكثراً ، وندم المسيء أن لا يكون استعتب ، فإذا صار الكافر إلى عذاب لا نفاد له تحسر ، فلذلك سمي يوم الحسرة قال الله تعالى : وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وذلك عند ذبح الموت على ما يأتي وهم في غفلة يعني الآن عن ذلك اليوم . والحسرة : عبارة عن استشكاف المكروه بعد خفائه .

ومنها : يوم التبديل . قال الله تعالى : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات و

قد تقدم القول في ذلك مستوفى .

(156/804)

ومنها : يوم التلاق . قال الله تعالى : لينذر يوم التلاق وهو عبارة عن اتصال المعنيين بسبب

من أسباب العلم والجسمين . وهو أنواع أربعة :

الأول : لقاء الأموات لمن سبقهم إلى الممات فيسألونهم عن أهل الدنيا كما تقدم .

والثاني : عمله وقد تقدم .

الثالث : لقاء أهل السموات لأهل الأرض في المحشر وقد تقدم .

الرابع : لقاء الخلق للباري سبحانه وتعالى وذلك يكون في عرصات القيامة وفي الجنة على ما

يأتي .

ومنها : يوم الآزفة . تقول العرب أزف كذا أي قرب قال الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

وهي قريبة جداً وكل آت قريب وإن بعد مداه قال الله تعالى : وما يدريك لعل الساعة تكون

قريباً وما يستبعد الرجل من الساعة ومدته ساعة .

ومنها : يوم المآب . ومعناه الرجوع إلى الله تعالى ولم يذهب عن الله شيء فيرجع إليه . وإنما حقيقته أن العبد يخلق الله فيه ما شاء من أفعاله لما خلق فيه علماً وخلق فيه إيثاراً واختياراً ظن الناس أنه شيء أو أن له فعلاً ، فإذا أماته وسلب ما كان أعطاه أذعن وآب في وقت لا ينفعه الإياب ، ولم يزل عن الله تعالى في حال فهو الأواب .

ومنها : يوم المصير . وهو يوم المآب بعينه قال الله تعالى : ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير فالخلق سائرون إلى أمر الله تعالى . وآخر ذلك ذار القرار وهي الجنة أو النار قال الله تعالى في حق الكافرين : قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار .

ومنها : يوم القضاء . وهو أيضاً يوم الحكم والفصل ، وسيأتي أن أول ما يقضى فيه الدماء وقال صلى الله عليه وسلم : ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الحديث وفيه كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد والفصل هو الفرق والقطع فيفصل يومئذ بين المؤمن والكافر والمسيء والمحسن . قال الله تعالى : يوم

القيامة يفصل بينكم الآية وهو يوم الحكم لأن إنفاذ الحكم هو إنفاذ العلم قال الله تعالى : الملك يومئذ لله يحكم بينهم الآية . وقال ذلكم حكم الله يحكم بينكم .

ومنها : يوم الوزن . قال الله تعالى : والوزن يومئذ الحق الآية . وسيأتي الكلام في الميزان ووزن الأعمال فيه في أبواب إن شاء الله .

ومنها : يوم عقيم . وهو في اللغة عبارة عن من لا يكون له ولد . ولما كان الولد يكون بين الأبوين وكان الأيام تتوالى قبل وبعد جعل الاتباع بالتعدية فيها كهيئة الولادة . ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم .

ومنها : يوم عسير . وهذا في حق الكافرين خاصة . والعسر ضد اليسر فهو عسير على الكافرين ، لأنهم لا يرون فيه أملاً ولا يقطعون فيه رجاء حتى إذا خرج المؤمنون من النار طلبوا مثل ذلك ، فيقال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون فحينئذ يكون المنع الصريح على ما يأتي بيانه في أبواب النار إن شاء الله تعالى ، وأما المؤمنون فتنحل عقدهم بيسر إلى يسر ، فينحل طول الوقوف إلى تعجيل الحساب وتثقيل الموازين وجواز الصراط والضلال بالأعمال ، ولا تنحل للكافرين من هذه العقد عقدة واحدة إلا إلى أشد منها حتى إلى جهنم دار القرار .

ومنها : يوم مشهود . سمي بذلك لأنه يشهده كل مخلوق وقيل : سمي بذلك لأن الشهداء يشهدون فيه على ما يأتي والله أعلم .

ومنها : يوم التغابن . سمي بذلك لأن الناس يتغابنون في المنازل عند الله : فريق في الجنة وفريق في السعير . وحقيقته في لسان العرب : ظهور الفضل في المعاملة لأحد المتعاملين والدنيا والآخرة دار العملين وحالين وكل واحد منهما لله ولا يعطى أحدهما إلا لمن ترك نصيبه من الأخرى : قال الله تعالى من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وقال : من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ومن أراد الآخرة فسعيه

مشكور ، وحظه في الآخرة موفور .

(158/804)

ومنها : يوم عبوس قمطرير ، والقمطرير : الشديد وقيل الطويل . وأما العبوس فهو الذي يعبس فيه سمي باسم ما يكون فيه ، كما يقال ليل قائم ونهار صائم وكلوح الوجه ، وعبوسه هو قبض ما بين العينين وتغير السحنة عن عادتها الطلقة . يقال : يوم طلق إذا كانت شمسه نيرة فاترة وإذا كانت شمسه مدجية قد غطاها السحاب . قيل : يوم عبوس وأول العبوس والكلوح عند الخروج من القبور ورؤية الأعمال في الصور القبيحة كما تقدم ، وآخر ذلك كلوح النار وهو الكلوح الأعظم يشوي الوجوه ويسقط الجلود على ما يأتي ، ومع العبوس

تشخص الأبصار وهي ثبوتها راكدة على منظر واحد لهول لا ينتقل منه إلى غيره كما قال سبحانه ليوم تشخص فيه الأبصار .

ومنها : يوم تبلى السرائر . ومعناه إخراج المخبآت بالاختبار بوزن الأعمال في الصحف ويكشف الساق عند السجود على ما يأتي .

ومنها : يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . وهو مثل قوله واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون وقال : يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً فكل نفس بما كسبت رهينة لا يغنى أحد عن أحد شيئاً ، بل ينفصل كل واحد عن أخيه وأبيه ، ولذلك كان يوم الفصل ويوم الفرار . قال الله تعالى : إن يوم الفصل كان ميقاتاً وقال تعالى : يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه أما إنه يجزي ويقضي ويعطي ويغني بغير اختياره من حسناته ما عليه من الحقوق على ما يأتي بيانه في أحاديث المفلس إن شاء الله تعالى .

ومنها : يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً . والدع الدفع أي يدفعون إلى جهنم ويسحبون فيها وجوههم كما قال تعالى : يوم يسحبون في النار على وجوههم .

ومنها : يوم التقلب وهو التحول . قال الله تعالى : يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار أي قلوب الكفار وأبصارهم

فتقلب قلوب الكفار انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا هي ترجع إلى أماكنها ولا هي تخرج ، فأما تقلب الأبصار فالزرقة بعد الحكل والعمى بعد البصر . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك والإبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم . وقيل : إن قلوب الشاكين تتحول عما كانت عليه من الشك وكذلك أبصارهم لرؤيتهم اليقين إلا أن ذلك لا ينفعهم في الآخرة .

ومنها : يوم الشخوص والإقناع . قال الله تعالى : إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار أي لا تغمض فيه من هول ما ترى في ذلك اليوم . قاله الفراء .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : تشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يغتمضون مهطعين أي مديمي النظر .

قال مجاهد والضحاك : مقنعي رؤوسهم أي رافعي رؤوسهم وإقناع الرأس رفعه . قاله ابن عباس ومجاهد ، وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد . فإن قيل : فقد قال الله تعالى في غير هذه الآية خاشعة أبصارهم وقال : خشعاً أبصارهم فكيف يكون الرافع رأسه الناظر نظراً طويلاً حتى إن طرفه لا يرتد إليه خاشع البصر ؟ .

فالجواب أنهم يخرجون حال المضي إلى الموقف خاشعة أبصارهم ، وفي هذه الحال وصفهم الله تعالى بخشوع الأبصار وإذا توافوا وضمهم الموقف وطال القيام عليهم فإنهم يصيرون من

الحيرة كأنهم لا قلوب لهم ويرفعون رؤوسهم فينظرون النظر الطويل ولا يرتد إليهم طرفهم كأنهم قد نسوا الغمض أو جلهوه فهو تعسير عليهم .

ومنها : هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

وذلك حين يقال لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون وتطبق عليهم جهنم على ما يأتي بيانه في أبواب النار .

ومنها : يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وإن أذن لهم بأن يمكنوا منها لا بأن يقال لهم اعتذروا كقوله ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا الآية وكقوله ربنا أخرجنا منها الآية .

ومنها : ولا

يكتمون الله حديثاً .

(160/804)

ومنها : يوم الفتنة . قال الله تعالى يوم هم على النار يفتنون أي يعذبون من قولك فتنت الذهب إذا رميت به في النار .

ومنها : يوم لا مرد له من الله يريد يوم القيامة أي لا يرده أحد بعد ما حكم الله به وجعل له أجلاً ووقتاً .

ومنها : يوم الغاشية . وسميت بذلك لأنها تغشى بإفزاعها . أي تعمهم بذلك . ومنه غاشية السرج . ومنها : فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد .

ومنها : يوم لا بيع فيه ولا خلال قال الله تعالى قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والخلة والخلال الصداقة والمودة .

ومنها : يوم لا ريب فيه ، وإن وقع فيه رب الكفار أي شك فليس فيه ريب لقيام الأدلة الظاهرة عليه كما قال الله تعالى أفي الله شك فليس في الباري شك لقيام الأدلة عليه ولشهادة أفعاله ولاقتضاء المحدث أن يكون له محدث ، ولكن قد شك فيه قوم ونفاه آخرون ، ولم يوجب ذلك شكا فيه لقيام الأدلة عليه ، فكذلك يوم القيامة لا ريب ولا شك فيه مع النظر في الدليل والعلم ، فإذا خلق الله تعالى الرين على القلب كان الشك . قال الله تعالى ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

ومنها : يوم تبيض وجوه وتسود وجوه وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

ومنها : يوم الأذان : دخل طاووس على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله واحذر يوم الأذان فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين

فصعق هشام ، فقال طاووس : هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة .

ومنها : يوم الشفاعة قال الله تعالى من ذا الذي يشفع عنده إلا

(161/804)

بإذنه وقال تعالى ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وقال لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له وقال فما لنا من شافعين وسيأتي بيانه .

ومنها : يوم العرق ، وسيأتي بيانه في أحاديث في الباب بعد هذا بحول الله وقوته .

ومنها يوم القلق والجولان . وهو عبارة عند عدم الاستقرار والثبوت يقال : قلق الرجل يقلق قلقاً إذا لم يستقر ومثله جال يجول إذا لم يثبت .

ومنها : يوم الفرار . قال الله تعالى يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه فيفر كل واحد من صاحبه حذراً من مطالبته إياه ، إما لما بينهم من التبعات أو لئلا يروا ما هو فيه من الشدة . وقال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما يتبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى . وقال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأول من يفر من ابنه نوح ، وأول من يفر من امرأته لوط . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم ، وهذا

فرار التبري نجانا الله من أهوال هذا اليوم بحق محمد نبي الرحمة وصحبه الكرام البررة ، وجعلنا ممن حشر في زمرتهم ولا خالف بنا على طريقهم ومذهبهم بمنه وكرمه آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

قال المؤلف : وقد سرد تسمية هذه الأيام على التوالي من غير تفسير غير واحد من العلماء . منهم ابن نجاح في سبل الخيرات ، وأبو حامد الغزالي في غير موضع من كتبه كالإحياء وغيره ، والقتبي في كتاب عيون الأخبار ، وهذا تفسيرها حسب ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين ، وربما زدنا عليه في ذلك والحمد لله على ذلك . ولا يمتنع أن تسمي غير ما ذكرنا بحسب الأحوال الكائنة فيه من الازدحام والتضايق واختلاف الأقدام الخزي والهوان والذل والافتقار والصغار والانكسار ويوم الميقات والمرصاد إلى غير ذلك من الأسماء ، وسيأتي التنبية على ذلك إن شاء الله تعالى في الباب بعد هذا . انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 240.268 ﴾

(162/804)

قوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ

(20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق للترهيب ، وكان الأليق بآخر عبس أن يكون للكفرة ، وكان أعظم ما يحضره الكفرة من أعمالهم بعد الشرك التكذيب بالحق ، وأعظمه التكذيب بالقرآن ، وذلك التكذيب هو الذي جمع الخزي كله للمكذب به في قوله ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] الذي السياق كله له ، وإنما استحق المكذب به ذلك لأن التكذيب به يوقع في كل حرج مع أنه لا شيء أظهر منه في أنه كلام الله لما له من الرونق والجمع للحكم والأحكام والمعارف التي لا يقدر على جمعها على ذلك الوجه وترتيبها ذلك الترتيب إلا الله ، ثم وراء ذلك كله أنه معجز ، سبب عن هذا التهديد قوله مقسماً بما دل على عظيم قدر المقسم عليه بترك الإقسام بأشياء هي من الإجلال والإعظام في أسنى مقام : ﴿ فلا أقسم ﴾ أي لأجل حقية القرآن لأن الأمر فيه غنىً عن قسم لشدة ظهوره وانتشار نوره ، ولذلك أشار إلى عيوب تلحق هذه الأشياء التي ذكرها والقرآن منزه عن كل شائبة نقص ، لأنه كلام الملك الأعلى فقال : ﴿ بالخنس ﴾ أي الكواكب التي يتأخر طلوعها عن طولع الشمس فتغيب في النهار لغلبة ضياء الشمس لها ، وهي النجوم ذوات الأنواء التي كانوا يعظمونها بنسبة الأمطار والرحمة – التي ينزلها الله – إليها ، قالوا : وهي القمر فعطارد فالزهرة فالشمس

فالمريخ فالمشتري فزحل وقد نظمها بعضهم متدلياً فقال :

زحل اشترى مريخه من شمسه . . .

فتزهرت لعطارد أقمار

(163/804)

ثم أبدل منها أعظمها فقال : ﴿ الجوار الكنس ﴾ أي السيارة التي تختفي وتغيب بالنهار تحت ضوء الشمس ، من كنس الوحش - إذا دخل كناسه وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر ، وقال الرازي : يكنس ويستتر العلوي منها بالسفلي عند القرانات كما تستتر الظباء في الكناس ، وقال قتادة : تسير بالليل وتخنس بالنهار فتخفى ولا ترى ، وروي ذلك أيضاً عن علي رضي الله تعالى عنه ، قال البغوي : وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء والكنوس أن تأوي إلى مكانسها .

وقال القشيري : إن ذلك غروبها ، وإنما نفى الإقسام بها لأنها وإن كانت عظيمة في أنفسها بما ناط بها سبحانه من المصالح وأنتم تعظمونها وتغلون فيها لأن فيها نقائص الغيبوبة وانبهار النور ، والقرآن المقسم لأجله منزه عن ذلك ، بل هو الغالب على كل ما سواه من الكلام غلبة هي أعظم من غلبة ضياء الشمس لنور ما سواها من الكواكب ، فلذلك لا يليق أن يقسم

بها لأجله .

ولما ذكر غيابها ففهم منه محله وهو النهار ، ذكر محل ظهورها فأفهم الظهور فقال :

﴿ والّيل ﴾ أي الذي هو محل ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها ﴿ إذا عسعس ﴾ أي أقبل ظلامه ، واعتكر سواده وقتامه ، فظهرت الكواكب زهراً منثوراً في بيداء تلك الغياهب ، فإن فيه نقصاناً بالظلام وغير ذلك من الأحكام ، وقيل : معناه أدبر ، وقيل : أظلم ، وقيل : انتصف ، وقيل : انقضى ، وسعسع بمعناه فهو ما لا يستحيل بالانعكاس ، والآية من الاحتباك : ذكر خنوس الكواكب وكنوسها أولاً يفهم ظهورها ثانياً ، وذكر الليل ثانياً يفهم حذف النهار أولاً .

(164/804)

ولما كان ربما ظن ظان أن ما نقص بالظلام عن صلاحية الإقسام يتأهل ذلك بزواله ، قال نافياً لذلك : ﴿ والصبح ﴾ أي الذي هو أعدل أوقات النهار ﴿ إذا تنفس ﴾ أي أضاء وأقبل روحه ونسيمه ، وأنسه ونعيمه ، واتسع نوره ، وانفرج به عن الليل ديجوره ، وذلك بعد إقبال الليل ثم إدباره أي لا أقسم به لأنه وإن كان ذا نور ونعمة وحبور وبهجة وسرور فإن ذلك يتضاءل عن نور القرآن ، وما فيه من النعيم والرضوان ، " وأين الثريا من يد المتناول

" على أن تنفسه بالبرد واللطافة تنسخه الشمس بالحر والكثافة ، وتنفس القرآن بنفحات القدس ونعيم المواعظ والأنس لا ينسخه شيء .

(165/804)

ولما بين أن هذه الأشياء – التي لولاها لما طاب لهم عيش ولا تهنؤوا بحياة ، وهي من الفضل بحيث لا يعلمه إلا خالقها – تصغر عن أن يقسم بها على شيء من فضائل القرآن لما له من عظيم الشأن الذي لا يطيق التعبير عنه البيان ، ويتضاءل دونه اللسان ، قال مجيباً لذلك إخباراً عما هو محقق في نفسه الأمر أعظم من تحقق هذه الأشياء المقسم بها ، هادٍ إلى مصالح الدارين أكثر من هدايتها ، مبيناً للسفيرين به الملكي والبشري عليهما الصلاة والسلام والتحية والإكرام مؤكداً لما يستحقه السياق كما يستحقه مع ما لهم من الإنكار تنبيهاً على ضعف عقولهم وعظيم سفههم بعد أن أقسم بثلاثة أقسام ، فإن نفي الإقسام بها بما ذكر من نقائصها – كالإقسام – بها مع بيان أن المقسم عليه أعظم منها بما لا يقايس : ﴿ إنه ﴾ أي هذا الذكر الذي تقدم في عبس بعض ما يستحق من الأوصاف الجميلة والنعوت الجليلة ﴿ لقول رسول ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام نحن أرسلناه به إلى خير خلقنا وجعلناه بريداً بيننا وبينه لاقتضاء الحكمة ذلك ، وهي أن يكون خلاصة الخلق

ذا جهتين : واحدة ملكية يتلقى بها من الملائكة عليهم السلام لكون غيره من البشر لا يطيق ذلك ، وأخرى بشرية يتلقى بها من المبعوث إليهم ، ومن المعلوم أن الرسول إنما وظيفته تبليغ ما أرسل به فهو سفير محض ، والذي أوحاه وإن كان قوله لكونه نطق به وبلغه من غير مشاركة شيطان ولا غيره هو قول الله من غير شك لكونه معبراً عن الصفة القديمة النفسية ، ولو كان قول الرسول مستقلاً به لما كان لوصفه بالرسالة مدخل فما كانت البلاغة تقتضي ذكره بالوصف .

(166/804)

ولما بين بوصف الرسالة أنه ليس بقوله إلا لكونه مرسلاً به ومبلغاً له ، وأنه في الحقيقة قول من أرسله ، وصفه بما أفهمه الوصف مما يوجب حفظه من غير تحريف ما ولا تغيير أصلاً بوجه من الوجوه ، وذلك ببيان منزلته عند الله ووجاهته وبيان قدره ونفوذ كلمته فقال :

﴿ كريم ﴾ أي انتفت عنه وجوه المذام كلها وثبتت له وجوه المحامد كلها ، فهو جواد شريف النفس ظاهر عليه معالي الأخلاق بريء من أن يلم شيء من اللوم بساحته ، فلذلك هو يفيض الخيرات بإذن ربه على من أمر به العالمين ، فيؤدي ما أرسل به كما هو لقيامه بالرسالة قيام الكرام فلم يغير فيها شيئاً أصلاً ولا فرط حتى يمكن غيره أن يحرف أو يغير ،

والكرم اجتماع كمالات الشيء اللائقة به .

ولما اقتضى هذا القوة ، صرح به تأكيداً فقال : ﴿ ذي قوة ﴾ أي على ضبط ما أرسل به بنفسه وعلى المدافعة للغير عن أن يدخل فيه شيئاً من نقص ، وأكد القوة بقوله : ﴿ عند ذي العرش ﴾ أي الملك الأعلى المحيط عرشه بجميع الأكوان الذي لا عندية في الحقيقة إلا له ﴿ مكين ﴾ أي بالغ المكنة عنده عظيم المنزلة جداً بليغ فيها فهو بحيث لا يتأتى منه تفريط ما في إبلاغ شيء مما أرسل به لأنه لا يغيره الأحوال ولا يعمل فيه تضاد الشهوات ، لأنه لا شهوة له إلاّ ما يأمر به مرسله سبحانه وتعالى .

ولما كان المتمكن في نفسه قد لا يكون له أعوان ، قال : ﴿ مطاع ثم ﴾ أي في الملأ الأعلى فهم عليهم السلام أطوع شيء له ، قال الحسن : فرض الله على أهل السماوات طاعة جبريل عليه الصلاة والسلام كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(167/804)

ولما كان ذلك يقتضي الأمانة ، صرح بها فقال : ﴿ أمين ﴾ أي بليغ الأمانة فهو مصدق القول مقبول الأمر موثوق به في أمر الرسالة وإفاضة العلوم على القلوب روحاني مطهر جوهراً

وفعلاً وحالاً ، ومن كان بهذه الصفات العظيمة كان بحيث لا يأتي إلاّ في أمر مهم جداً لأن الملوك لا يرسلون خواصهم إلا في مثل ذلك ، ولذلك ائتمنه الله تعالى على رسالته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 340.343 ﴾

(168/804)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ .

﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ .

الكلام في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ قد تقدم في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] ، ﴿ الجوار الكنس ﴾ فيه قولان : الأول : وهو المشهور الظاهرة أنها النجوم الخنس جمع خانس ، والخنوس والانقباض والاستخفاء تقول : خنس من بين القوم وانخنس ، وفي الحديث " الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس " أي انقبض ولذلك سمي الخناس ﴿ والكنس ﴾ جمع كانس وكانسة يقال : كنس إذا دخل الكناس وهو مقر الوحش يقال كنس الظباء في كنسها ، وتكنست المرأة إذا دخلت هودجها تشبه بالظبي إذا

دخل الكناس .

ثم اختلفوا في خنوس النجوم وكنوسها على ثلاثة أوجه فالقول الأظهر : أن ذلك إشارة إلى رجوع الكواكب الخمسة السيارة واستقامتها فرجوعها هو الخنوس وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس ، ولا شك أن هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عظيمة باهرة القول الثاني : ما روي عن علي عليه السلام وعطاء ومقاتل وقتادة أنها هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل أي تظهر في أماكنها كالوحش في كنسها والقول الثالث : أن السبعة السيارة تختلف مطالعها ومغاربها على ما قال تعالى : ﴿ بِرَبِّ المشارق والمغارب ﴾ [المعارج : 40] ولا شك أن فيها مطلعاً واحداً ومغرباً واحداً هما أقرب المطالع والمغارب إلى سمت رؤوسنا ، ثم إنها تأخذ في التباعد من ذلك المطلع إلى سائر المطالع طول السنة ، ثم ترجع إليه فخنوسها عبارة عن تباعدها عن ذلك المطلع ، وكنوسها عبارة عن عودها إليه ، فهذا محتمل فعلى القول الأول يكون القسم واقعاً بالخمسة المتحيرة ، وعلى القول الثاني يكون القسم واقعاً بجميع الكواكب وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرته يكون القسم واقعاً بالسبعة السيارة ، والله أعلم بمراده .

(169/804)

والقول الثاني : أن ﴿ الجوار الكنس ﴾ وهو قول ابن مسعود والنخعي أنها بقر الوحش ، وقال سعيد بن جبير : هي الظباء ، وعلى هذا الخنس من الخنس في الأنف وهو تقعير في الأنف فإن البقر والظباء أنوفها على هذه الصفة ﴿ والكنس ﴾ جمع كانس وهي التي تدخل الكناس والقول هو الأول ، والدليل عليه أمران :

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)

وهذا بالنجوم أليق منه ببقر الوحش .

الثاني : أن محل قسم الله كلما كان أعظم وأعلى رتبة كان أولى ، ولا شك أن الكواكب أعلى رتبة من بقر الوحش .

الثالث : أن (الخنس) جمع خانس من الخنوس ، وإما جمع خنساء وأخنس من الخنس خنس بالسكون والتخفيف ، ولا يقال : الخنس فيه بالتشديد إلا أن يجعل الخنس في الوحشية أيضاً من الخنوس وهو اختفاؤها في الكناس إذا غابت عن الأعين .

قوله تعالى : ﴿ واليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ ذكر أهل اللغة أن عسعس من الأضداد ، يقال : عسعس الليل إذا أقبل ، وعسعس إذا أدبر ، وأنشدوا في ورودها بمعنى أدبر قول العجاج :

حتى إذا الصبح لها تنفساً . . وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وأنشد أبو عبيدة في معنى أقبل :

مدرجات الليل لما عسعسا . .

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)

ثم منهم من قال : المراد ههنا أقبل الليل ، لأن على هذا التقدير يكون القسم واقعاً بإقبال الليل وهو قوله : ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ وبإدباره أيضاً وهو قوله : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ومنهم من قال : بل المراد أدبر وقوله : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي امتد ضوءه وتكامل فقوله : ﴿ والليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] إشارة إلى أول طلوع الصبح ، وهو مثل قوله : ﴿ والليل إِذَا أَدْبَرَ * والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ [المدثر : 34 33] وقوله : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ إشارة إلى تكامل طلوع الصبح فلا يكون فيه تكرار .

وأما قوله تعالى : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي إذا أسفر كقوله : ﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ [المدثر : 34] ثم في كيفية المجاز قولان :

(170/804)

أحدهما : أنه إذا أقبل الصبح أقبل بأقباله روح ونسيم ، فجعل ذلك نفساً له على المجاز ، وقيل تنفس الصبح .

والثاني : أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي جلس بحيث لا يتحرك ، واجتمع

الحزن في قلبه ، فإذا تنفس وجد راحة .

فههنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس وهو استعارة لطيفة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه فقال :

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)

وفيه قولان :

الأول : وهو المشهور أن المراد أن القرآن نزل به جبريل : فإن قيل : ههنا إشكال قوي وهو أنه حلف أنه قول جبريل ، فوجب علينا أن نصدقه في ذلك ، فإن لم نقطع بوجوب حمل اللفظ على الظاهر ، فلا أقل من الاحتمال ، وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن هذا القرآن يحتمل أن يكون كلام جبريل لا كلام الله ، وبتقدير أن يكون كلام جبريل يخرج عن كونه معجزاً ، لاحتمال أن جبريل ألقاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الإضلال ، ولا يمكن أن يجاب عنه بأن جبريل معصوم لا يفعل الإضلال ، لأن العلم بعصمة جبريل ، مستفاد من صدق النبي ، وصدق النبي مفرع على كون القرآن معجزاً ، وكون القرآن معجزاً يتفرع على عصمة جبريل ، فيلزم الدور وهو محال والجواب : الذين قالوا : بأن القرآن إنما كان معجزاً للصرفة ، إنما ذهبوا إلى ذلك المذهب فراراً من هذا السؤال ، لأن الإعجاز على ذلك القول ليس في الفصاحة ، بل في سلب تلك العلوم والدواعي عن القلوب ، وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى .

القول الثاني : أن هذا الذي أخبركم به محمد من أمر الساعة على ما ذكر في هذه السورة ليس بكهانة ولا ظن ولا افتعال ، إنما هو قول جبريل أتاه به وحياً من عند الله تعالى ، واعلم أنه تعالى وصف جبريل ههنا بصفات ست أولها : أنه رسول ولا شك أنه رسول الله إلى الأنبياء فهو رسول وجميع الأنبياء أمته ، وهو المراد من قوله : ﴿يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل : 2] وقال : ﴿نَزَلَ بِهِ الروح الامين * على قَلْبِكَ﴾ [الشعراء : 193 194] وثانيها : أنه كريم ، ومن كرمه أنه يعطي أفضل العطايا ، وهو المعرفة والهداية والإرشاد .

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20)

وثالثها : قوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ ثم منهم من حمله على الشدة ، روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل " ذكر الله قوتك ، فماذا بلغت ؟ قال رفعت قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحي حتى إذا سمع أهل السماء نباح الكلاب وأصوات الدجاج قلبتها " وذكر مقاتل أن شيطاناً يقال له الأبيض صاحب الأنبياء قصد أن يفتن النبي صلى الله عليه وسلم فدفعه جبريل دفعة رقيقة وقع بها من مكة إلى أقصى الهند ، ومنهم من حمله على القوة في أداء

طاعة الله وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف ، وعلى القوة في معرفة الله وفي مطالعة جلال الله .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ وهذه العندية ليست عندية المكان ، مثل قوله : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 19] وليست عندية الجهة بدليل قوله "أنا عند المنكسرة قلوبهم" بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم .

وأما ﴿ مَّكِينٍ ﴾ فقال الكسائي : يقال قد مكن فلان عند فلان بضم الكاف مكناً ومكانة ، فعلى هذا المكين هو ذو الجاه الذي يعطي ما يسأل .

مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21)

(172/804)

وخامسها : قوله تعالى : ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ ﴾ اعلم أن قوله : ﴿ ثَمَّ ﴾ إشارة إلى الظرف المذكور أعني ﴿ عِندَ ذِى العرش ﴾ [التكوير : 20] والمعنى أنه عند الله مطاع في ملائكته المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ، وقرىء ﴿ ثَمَّ ﴾ تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة .

وسادسها : قوله : ﴿ أَمِينٍ ﴾ أي هو ﴿ أَمِينٍ ﴾ على وحي الله ورسالاته ، قد عصمه الله من الخيانة والزلل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 66.68 ﴾

(173/804)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾

أي أقسم ، و "لا" زائدة ، كما تقدّم .

﴿ بالخنس * الجوار الكنس ﴾ هي الكواكب الخمسة الدَّراريّ : زُحَل والمُشتري وعُطارِد والمِرّيخُ والزُّهَرة ، فيما ذكر أهل التفسير .

والله أعلم .

وهو مَرويّ عن عليّ كرم الله وجهه .

وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما لأنها تَستقبل الشمس ؛ قاله بكر بن عبد الله المُزَني .

الثاني لأنها تقطع المجرّة ؛ قاله ابن عباس .

وقال الحسن وقتادة : هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت ، وقاله عليّ رضي الله

عنه ، قال : هي النجوم تخنِس بالنهار ، وتظهر بالليل ؛ وتكنِس في وقت غروبها ؛ أي تتأخر عن البَصر لخفائها ، فلا تُرَى .

وفي الصحاح : و "الخُنَّس" : الكواكب كلها .

لأنها تخنِس في المغيب ، أو لأنها تخنِس نهاراً .

ويقال : هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة .

وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس * الجوار الكنس ﴾ : إنها النجوم الخمسة ؛ زُحل والمشتري والمِرّيخ والزُّهَرة وعطارد ؛ لأنها تَخنِس في مجراها ، وتَكْنِس ، أي تستتر كما تكنِس الظباء في المغار ، وهو الكناس .

ويقال : سميت خُنَّسا لتأخرها ، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم ، يقال : خَنَس عنه يَخْنُس بالضم خنوساً : تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلَّفه ومضى عنه .

والخَنَس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، والرجل أخنس ، والمرأة خنساء ، والبقر كلها خُنْس .

وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ هي بقر الوحش .

روي هُشَيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شُرَحبيل قال قال لي عبد الله ابن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخنس ؟ قلت : هي بقر الوحش ؛ قال : وأنا أرى

ذلك .

وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله .

وروي عن ابن عباس : إنما أقسم الله ببقر الوحش .

(174/804)

وروي عنه عِكرمة قال : "الخُنَّس" : البقر و "الكنَّس" : هي الظباء ، فهي خُنَّس إذا رأين الإنسان خَنَسْنَ وانقبضن وتأخرن ودخلن كِناسهنّ .

القشيريّ : وقيل على هذا "الخُنَّس" من الخَنَس في الأنف ، وهو تأخُر الأرنبة وقصر القَصَبة ، وأنوف البقر والظباء خنس .

والأصح الحمل على النجوم ، لذكر الليل والصبح بعد هذا ، فذكر النجوم أليق بذلك .

قلت : لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك .

وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعي أنها بقر الوحش .

وعن ابن عباس وسعيد بن جُبير أنها الظباء .

وعن الحجاج بن منذر قال : سألت جابر بن زيد عن الجواري الكُنَّس ، فقال : الظباء

والبقر ، فلا يبعد أن يكون المراد النجوم .

وقد قيل : إنها الملائكة ؛ حكاه الماورديّ .

والكُنَّس الغُيَّب ؛ مأخوذة من الكِناس ، وهو كِناس الوحش الذي يختفي فيه .

قال أَوس بن حَجَر :

ألم تر أنَّ اللَّهَ أنزل مُزْنَهُ . . .

وعُفْرُ الظباءِ في الكِناس تَقَمَّعُ

وقال طَرَفة :

كأَنْ كِناسَيْ ضالةٍ يَكْنُفانِها . . .

وأَطْرَ قِسِيٍّ تحتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ

وقيل : الكُنوس أن تأوي إلى مكانسها ، وهي المواضع التي تأوي إليها الوحش والظباء .

قال الأعشى :

فلمَّا أتينا الحي أَتْلَعَ أناس . . .

كما أَتلَعَتْ تحتَ المكانِس رَبْربُ

يقال : تَلَع .

النهار ارتفع وأتلعتِ الظبية من كِناسها : أي سَمَت بجيدها .

وقال امرؤ القيس :

تَعَشَّى قليلاً ثم أَنحى ظُلُوفه . . .

يثير التراب عن مَبيتٍ ومَكْنِسِ

والكُنَّس : جمع كانِس وكانِسة ، وكذا الخُنَّس جمع خانِس وخانِسة .

والجواري : جمع جارية من جرى يجري .

﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعسَ أدبَر ؛

حكاه الجوهريّ .

وقال بعض أصحابنا : إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض .

المهدويّ .

(175/804)

﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ أدبر بظلامه ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وروي عنهما أيضاً وعن الحسن وغيره : أقبل بظلامه .

زيد بن أسلم : "عسعسَ" ذهب .

الفرّاء : العرب تقول عسعس وسَعْسَع إذا لم يبق منه إلا اليسير .

الخليل وغيره : عسعس الليل إذا أقبل أو أدبر .

المبرد : هو من الأضداد ، والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد ، وهو ابتداء الظلام في أوّله ، وإدباره في آخره ؛ وقال علقمة بن قرط :

حتى إذا الصبحُ لها تنفّسا . . .

وانجاب عنها ليلُها وعَسْعَسَا

وقال رُؤْبة :

يا هندُ ما أسرعَ ما تَسَعْسَعَا . . .

من بَعْدِ ما كان فَتًى سَرَعْرَعَا

وهذه حجة الفراء .

وقال امرؤ القيس :

عَسْعَسَ حتّى لو يشاءُ ادنا . . .

كانَ لنا مِن نارِهِ مَقْبِسُ

فهذا يدل على الدنوّ .

وقال الحسن ومجاهَد : عَسَعَسَ : أظلم ؛ قال الشاعر :

حتى إذا ما ليلُهن عسعسَا . . .

رِكبن مِن حد الظلامِ حِندِسَا

الماورديّ : وأصل العسّ الامتلاء ؛ ومنه قيل للقدح الكبير عُسّ لامتلائه بما فيه ، فأطلق

على إقبال الليل لابتداء امتلائه ؛ وأطلق على إدباره لانتهاء امتلائه على ظلامه ؛

لاستكمال امتلائه به .

وأما قول امرىء القيس :

أَلَمَّا على الربعِ القديمِ بِعسْعَسَا . . .

فموضع بالبادية .

وعسعس أيضاً اسم رجل ؛ قال الرجز :

وعَسْعَسَ نِعْمَ الفتى تبياه . . .

أي تعتمده .

ويقال للذئب العَسْعَس والعَسْعاس والعَسَّاس ؛ لأنه يَعُسُّ بالليل ويطلب .

ويقال للقنافذ العَسَاعس لكثرة ترددها بالليل .

قال أبو عمرو : والتعسعس الشم ، وأنشد :

كمنخر الذِّئبِ إذا تَعَسْعَسَا . . .

والتعسعس أيضاً : طلب الصيد بالليل .

قوله تعالى : ﴿ والصبحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي امتد حتى يصير نهاراً واضحاً ؛ يقال للنهار إذا

زاد : تنفس .

وكذلك الموج إذا نضح الماء .

ومعنى التنفس : خروج النسيم من الجوف .

وقيل : "إِذا تنفس" أي انشق وانفلق ؛ ومنه تنفست القوس أي تصدعت .

(176/804)

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هذا جواب القسم .

والرسول الكريم جبريل ؛ قاله الحسن وقتادة والضحاك .

والمعنى "إِنه لقول رسولٍ" عن الله "كرِيم" على الله .

وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام ، ثم عداه عنه بقوله "تنزيل مِن رب العالمِين" ليعلم أهل التحقيق في التصديق ، أن الكلام لله عز وجل .

وقيل : هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ : من جعله جبريل فقوّته ظاهرة ؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال : من قوّته قلعه مدائن قوم لُوط بقوادم جناحه .

﴿ عِندَ ذِي العرش ﴾ أي عند الله جل ثناؤه ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي ذي منزلة ومكانة ؛ فُروي عن أبي صالح قال : يدخل سبعين سُرادِقاً بغير إذن .

﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ ﴾ : أي في السموات ؛ قال ابن عباس : من طاعة الملائكة جبريل ، أنه لما أَسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان :

افتح له ، ففتح ، فدخل ورأى ما فيها ، وقال لمالك خازن النار : افتح له جهنم حتى ينظر إليها ، فأطاعه وفتح له .

﴿ أَمِينٍ ﴾ أي مؤتمن على الوحي الذي يجيء به .

ومن قال : إن المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى "ذِي قوةٍ" على تبليغ الرسالة "مُطاعٍ" أي يطيعه من أطاع الله جلّ وعزّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(177/804)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾

جمع خانس من الخنوس وهو الانقباض والاستخفاء .

﴿ الجَوَارِ ﴾ جمع جارية من الجري وهو المر السريع وأصله لمر الماء ولما يجري بجريه ﴿ الجوار الكنس ﴾ جمع كانس وكانسة من كنس الوحش إذا دخل كناسه وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر والمراد بها على ما أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه الكواكب

أي جميعها فقيل لأنها تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها وفي تفسير تكنس بتطلع خفاء وقيل لأنها تخنس نهاراً وتخفى عن العيون مع طلوعها وكونها فوق الأفق وتكنس بعد طلوعها في المغيب وتدخل فيه كما تكنس الظباء في الكنس فتكون تحت الأفق بعد إن كانت فوقه وروي تفسيرها بالكواكب عن الحسن وقتادة أيضاً وأخرج ابن أبي حاتم عن الأمير كرم الله تعالى وجهه أنه قال : هي خمسة أنجم زحل وعطارد والمشتري وبهرام يعني المريخ والزهرة والخنس الرواجع من خنس إذا تأخر ووصفت بما ذكر في الآية لأنها تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها بحسب الرؤية وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها وتسمى المتحيرة لاختلاف أحوالها في سيرها فيما يشاهد فلها استقامة ورجعة وإقامة فبينما تراها تجري إلى جهة إذا بها راجعة تجري إلى خلاف تلك الجهة وبينما تراها تجري إذا بها مقيمة لا تجري وسبب ذلك على ما قال المتقدمون من أهل الهيئة كونها في تداوير في حوامل مختلفة الحركات على ما بين في موضعه وللمحدثين منهم النافين لما ذكر غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم وهي مع الشمس والقمر يقال لها السيارات السبع لأن سيرها بالحركة الخاصة مما لا يكاد يخفى على أحد بخلاف غيرها من الثوابت وأخرج الخطيب في كتاب النجوم وابن مردويه عن ابن عباس أنها المرادة هنا ووصفها ب الخنس بمعنى الرواجع قيل

من باب التغليب إذ لا جعة للشمس ولا للقمر وبالخنس لاختفائها في مغيبها وقيل الوصفان باعتبار أنها تغيب عن العيون وتطلع

(178/804)

في أماكنها على نحو ما تقدم على تقدير أن يكون المراد بها الكواكب جميعها وكون السيارات هي هذه السبع هو المعروف عند المتقدمين من المنجمين وأما اليوم فقد ضموا إليها كواكب أخر يقال لها وستاً وزونوا وبالاس وسرس وأورونوس ويسمى هرشل وهو اسم المنجم الذي ظفر به بالرصد وبينوا مقدار أقطارها وأبعادها وحركاتها ولولا مخافة التطويل لذكرت ذلك وعدوا من جملة السيارات الأرض بناءً على زعمهم أن لها حركة حول الشمس واشتهر أنهم لم يعدوا القمر منها لكونه من توابع الأرض بزعمهم وأخرج الحاكم وصححه وجماعة من طرق عن ابن مسعود أنها بقر الوحش وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعبد بن حميد عن مجاهد وأبي ميسرة والحسن وحكاه في "البحر" عن النخعي وجابر بن زيد وجماعة وأخرج ابن جرير عن الحبر أنها الظباء وروي ذلك أيضاً عن ابن جبير والضحاك قالوا والخنس تأخر الأنف عن الشفة مع ارتفاع قليل من الأرنبة وتوصف به بقر الوحش والظباء ومنه قول بعض المولدين :

ما سلم الظبي على حسنه . . .

كلا ولا البدر الذي يوصف

فالظبي فيه خنس بين . . .

والبدر فيه كلف يعرف

﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ أي أدبر ظلامه أو أقبل وكلاهما مأثوران عن ابن عباس وغيره وهو من الأضداد عند المبرد وقال الراغب العسعسة والعساس رقة الظلام وذلك في طرفي الليل فهو من المشترك المعنوي عنده وليس من الأضداد وفسر عسعس هنا بأقبل وأدبر معاً وقال ذلك في مبدأ الليل ومنتهاه وقال الفراء أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر وعليه العجاج يصف الخمر أو المفازة .

حتى إذا الصبح لها تنفسا . . .

وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقيل هي لغة قريش خاصة وقيل كونه بمعنى أقبل ظلامه أوفق بقوله تعالى :

﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ فإنه أول النهار فيناسب أول الليل وقيل كونه بمعنى أدبر أنسب بهذا لما بين أدبار الليل وتنفس الصبح من الملاصقة فيكون بينهما مناسبة الجوار والمراد من تنفس الصبح على ما ذكر غير واحد إضاءته وتبلجه وفي "الكشاف" أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز وقيل تنفس الصبح وعنى بالمجاز الاستعارة لأنه لما كان النفس ريحاً خاصاً يفرح عن القلب انبساطاً وانقباضاً شبه ذلك النسيم بالنفس وأطلق عليه الاسم استعارة وجعل الصبح متنفساً لمقارنته له ففي الكلام استعارة مصرحة وتجوز في الإسناد وظاهر كلام بعضهم أنه بعد الاستعارة يكون ذلك كناية عن الإضاءة وجوز أن يكون هناك مكنية وتخييلية بأن يشبه الصبح بماش وآت من مسافة بعيدة ويثبت له التنفس المراد به هبوب نسيمه مجازاً على طريق التخييل كما في ﴿ ينقضون عهد الله ﴾ [البقرة : 27] وقال الإمام النهار بغشيان الليل المظلم كالمكروب وكما أنه يجد راحة بالتنفس كذلك تخلص الصبح من الظلام وطلوعه كأنه تخلص من كرب إلى راحة وهذا أدق مما في "الكشاف" كما لا يخفى وجوز أن يقال إن الليل لما غشي النهار ودفع به إلى تحت الأرض فكأنه أماته ودفنه فجعل ظهور ضوئه كالتنفس الدال على الحياة وهو نحو مما نقل عن الإمام وقيل تنفس أي توسع وامتد حتى صار نهاراً والظاهر أن التنفس في الآية إشارة إلى الفجر الثاني الصادق وهو المنتشر ضوءه معترضاً بالأفق بخلاف الأول الكاذب وهو ما يبدو مستطيلاً وأعلاه أضوأ منت باقيه ثم يعدم وتعقبه ظلمة أو يتناقص

حتى ينغمر في الثاني على زعم بعض أهل الهيئة أو يختلف حاله في ذلك تارة وتارة بحسب الأزمنة والعروض على ما قيل وسمي هذا الكاذب عارضاً ففي خبر مسلم " لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا العارض لعمود الصبح حتى يستطير " أي ينتشر ذلك العموم في نواحي الأفق وكلام بعض الأجلة يشعر بأنه فيها إشارة إلى الكاذب حيث قال يؤخذ من

(180/804)

تسمية الفجر الأول عارضاً للثاني أنه يعرض للشعاع الناشىء عنه الفجر الثاني انحباس قرب ظهوره كما يشعر به التنفس في قوله تعالى : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ فعند ذلك الانحباس يتنفس منه شيء من شبه كوة والمشاهد في المنحبس إذا خرج بعضه دفعة أن يكون أوله أكثر من آخره ويعلم من ذلك سبب طول العمود وأضاءه أعلاه إلى آخر ما قال وفيه بحث ثم الظاهر أن تنفس الصبح وضياءه بواسطة قرب الشمس إلى الأفق الشرقي بمقدار معين وهو في المشهور ثمانية عشر جزءاً وقول الإمام : إنه يلزم على ذلك بناءً على كرية الأرض واستضاءة أكثر من نصفها من الشمس دائماً ظهور الضياء وتنفس الصبح إذا فارقت الشمس سمت القدم من دائرة نصف النهار وذلك بعيد نصف الليل والواقع خلافه تشكيك فيما يقرب أن يكون بديهياً وفيه غفلة عن أحوال ظل الأرض وانعكاس الأشعة من

أبصار سكنة أقطارها فتأمل ولا تغفل والواو في قوله تعالى والصبح والليل على ما نقل عن ابن جني للعطف وإذا ليس معمولاً لفعل القسم لفساد المعنى إذ التقييد بالزمان غير مراد حالاً كان أو استقبالاً وإنما هو على ما اختاره غير واحد معمول مضاف مقدر من نحو العظمة لأن الإقسام بالشيء إعظام له كأنه قيل ولا أقسم بعظمة الليل زمان عسعس وبعظمة النهار زمان تنفس على نحو قولهم عجباً من الليث إذا سطا فإنه ليس المعنى على تقييد بالليل كائناً إذا عسعس والحال مقدرة أي مقدراً كونه في ذلك الوقت وصرح العلامة التفتازاني في التلويح في مثله أن إذا بدل من الليل إذ ليس المراد تعليق القسم وتقييده بذلك الوقت ولهذا منع المحققون كونه حالاً من الليل لأنه أيضاً يفيد تقييد القسم بذلك الوقت وسيأتي إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الشمس ما يتعلق بهذا المقام أيضاً .

(181/804)

﴿ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن الجليل الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة وجعل الضمير للإخبار عن الحشر والنشر تعسف ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ هو كما قال ابن عباس وقتادة والجمهور جبريل عليه السلام ونسبته إليه عليه السلام لأنه واسطة فيه وناقل له عن مرسله وهو الله عز وجل ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي عزيز على الله سبحانه وتعالى وقيل متعطف على المؤمنين .

﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ أي شديد كما قال سبحانه ﴿ شديد القوى ﴾ [النجم : 5] وجاء في قوته أنه عليه السلام بعث إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن وفي كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري فحملها بمن فيها من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب ثم هوى بها فأهلكها وقيل المراد القوة في أداء طاعة الله تعالى وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر زمان التكليف وقيل لا يبعد أن يكون المراد قوة الحفظ والبعد عن النسيان والخلط ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ أي ذي مكانة رفيعة وشرف عند الله العظيم جل جلاله عندية إكرام وتشريف لا عندية مكان فالظرف متعلق بمكين وهو فعيل من المكانة وقد كثر استعمالها كما في الصحاح حتى ظن أن الميم من أصل الكلمة واشتق منه تمكن كما اشتق من المسكنة تمسكن وجوز أن يكون مصدراً ميمياً من الكون وأصله مكون بكسر الواو فصار بالنقل والقلب مكيناً وأريد بالكون الوجود كأنه من كمال الوجود صار عين الوجود والأول هو الظاهر وقيل إن الظرف متعلق بمحذوف وقع صفة أخرى لرسول أي كائن عند ذي العرش الكينونة اللائقة وهو كما ترى .

(182/804)

﴿ مطاع ﴾ فيما بين الملائكة المقربين عليهم السلام يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ﴿ ثَمَّ ﴾ ظرف مكان للبعيد وهو يحتمل أن يكون ظرفاً لما قبله وجعل إشارة إلى ﴿ عند ذي العرش ﴾ [التكوير : 20] والمراد بكونه مطاعاً هناك كونه مطاعاً في ملائكته تعالى المقربين كما سمعت ويحتمل أن يكون ظرفاً لما بعده أعني قوله سبحانه : ﴿ أَمِينٌ ﴾ والإشارة بحالها وأمانته على الوحي وفي رواية عنه عليه السلام أنه قال : " أمانتي أني لم أومر بشيء فعدوته إلى غيره " ولأمانته أنه عليه السلام يدخل الحجب كما في بعض الآثار بغير إذن وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبو البرهسم وابن مقسم ثم بضم الثاء حرف عطف تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة وقال صاحب اللوامح هي بمعنى الواو لأن جبريل عليه السلام كان بالصفتين معاً في حال واحدة ولو ذهب ذاهب إلى الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنى مطاع في الملأ الأعلى على ثم أمين عند انفصاله عنهم حال وحيه إلى الأنبياء عليهم السلام لجاز إن ورد به أثر انتهى والمعول عليه ما سمعت والمقام يقتضي تعظيم الأمانة لأن دفع كون القرآن افتراء منوط بأمانة الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(183/804)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) ﴾

الفاء لتفريع القسم وجوابه على الكلام السابق للإشارة إلى ما تقدم من الكلام هو بمنزلة التمهيد لما بعد الفاء فإن الكلام السابق أفاد تحقيق وقوع البعث والجزاء وهم قد أنكروه وكذبوا القرآن الذي أنذرهم به ، فلما قُضي حق الإنذار به وذكر أشراطه فرع عنه تصديق القرآن الذي أنذرهم به وأنه موحى به من عند الله .

فالتفريع هنا تفريع معنىً وتفريع ذِكرٍ معاً ، وقد جاء تفريع القَسَم لمجرد تفريع ذكر كلام على كلام آخر كقول زهير :

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله

رجال بَنَوْه من قريش وجُرْهُم . . .

عَقِب نسيب معلقته الذي لا يتفرع عن معانيه ما بَعْد القَسَم وإنما قصد به أن ما تقدم من الكلام إنما هو للإقبال على ما بعد الفاء ، وبذلك يظهر تفوق التفريع الذي في هذه الآية على تفريع بيت زهير .

ومعنى : (لا أقسم) : إيقاع القسم ، وقد عُدّت (لا) زائدة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ في سورة الواقعة (75) .

والقسم مراد به تأكيد الخبر وتحقيقه ، وأدمج فيه أوصاف الأشياء المُقْسَم بها للدلالة على

تمام قدرة الله تعالى .

و(الخُنّس) : جمع خانسة ، وهي التي تخنس ، أي تختفي ، يقال : خنست البقرة والظبية ، إذا اختفت في الكناس .

و(الجواري) : جمع جارية ، وهي التي تجري ، أي تسير سيراً حثيثاً .

و﴿ الكنس ﴾ : جمع كانسة ، يقال : كَنسَ الظبي ، إذا دخل كِناسه (بكسر الكاف) وهو البيت الذي يتخذه للمبيت .

(184/804)

وهذه الصفات أريد بها صفات مجازية لأن الجمهور على أن المراد بموصوفاتها الكواكب ، وصفن بذلك لأنها تكون في النهار مختفية عن الأنظار فشبهت بالوحشية المختفية في شجر ونحوه ، فقيل : الخُنَّس وهو من بديع التشبيه ، لأن الخنوس اختفاء الوحش عن أنظار الصيادين ونحوهم دون سكون في كناس ، وكذلك الكواكب لأنها لا تُرى في النهار لغلبة شعاع الشمس على أفقها وهي مع ذلك موجودة في مطالعها .

وشبه ما يبدو للأنظار من تنقلها في سمت الناظرين للأفق باعتبار اختلاف ما يسامتها من جزء من الكرة الأرضية بخروج الوحش ، فشبهت حالة بُدُوّها بعد احتجابها مع كونها

كالمتحركة بحالة الوحش تجري بعد خنوسها تشبيه التمثيل .

وهو يقتضي أنها صارت مرئية فلذلك عقب بعد ذلك بوصفها بالكُنّس ، أي عند غروبها تشبيهاً لغروبها بدخول الظبي أو البقرة الوحشية كِناسها بعد الانتشار والجري .

فشبه طلوع الكوكب بخروج الوحشية من كناسها ، وشبه تنقل مَرآها للناظر بجري الوحشية عند خروجها من كناسها صباحاً ، قال لبيد :

حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت

بَكَرَتْ تَزل عن الثرى أزلامُها . . .

وشبه غروبها بعد سيرها بكنوس الوحشية في كناسها وهو تشبيه بديع فكان قوله : ﴿ بالخنس ﴾ استعارة وكان ﴿ الجوار الكنس ﴾ ترشيحين للاستعارة .

وقد حصل من مجموع الأوصاف الثلاث ما يشبه اللغز يحسب به أن الموصوفات ظباء أو وحوش لأن تلك الصفات حقائقها من أحوال الوحوش ، والإلغاز طريقة مستملحة عند بلغاء العرب وهي عزيزة في كلامهم ، قال بعض شعرائهم وهو من شواهد العربية :

فقلت أعيراني القَدوم لعلّني

أخُطُّ بها قبْراً لأبيض ماجد . . .

أراد أنه يصنع بها غِمداً لسيف صقيل مهند .

وعن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن عباس : حمل هذه الأوصاف على حقائقها المشهورة ، وأن الله أقسم بالظباء وبقر الوحش .

والمعروف في إقسام القرآن أن تكون بالأشياء العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى أو الأشياء المباركة .

(185/804)

ثم عطف القسم بـ ﴿ الليل ﴾ على القسم بـ "الكواكب" لمناسبة جريان الكواكب في الليل ، ولأن تعاقب الليل والنهار من أجل مظاهر الحكمة الإلهية في هذا العالم .

وعسعس الليل عَسْعَاساً وعسعسة ، قال مجاهد عن ابن عباس : أقبل بظلامه ، وقال مجاهد أيضاً عن ابن عباس معناه : أدبر ظلامه ، وقاله زيد بن أسلم وجزم به الفراء وحكى عليه الإجماع .

وقال المبرد والخليل : هو من الأضداد يقال : عسعس ، إذا أقبل ظلامه ، وعسعس ، إذا أدبر ظلامه .

قال ابن عطية : قال المبرد : أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معاً اهـ .

وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حَالَين صالحين للقسم به فيهما لأنهما من مظاهر

القدرة إذ يعقب الظلام الضياء ثم يعقب الضياء الظلام ، وهذا إيجاز .

وعُطف عليه القسم بالصُبح حين تنفسه ، أي انشقاق ضوئه لمناسبة ذكر الليل ، ولأن تنفس الصبح من مظاهر بديع النظام الذي جعله الله في هذا العالم .

والتنفس : حقيقته خروج النَفس من الحيوان ، استعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النَفَس على طريقة الاستعارة المصرحة ، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجُعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس مع تشبيه النسيم بالأنفاس .

وضمير ﴿ إنه ﴾ عائد إلى القرآن ولم يسبق له ذكر ولكنه معلوم من المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث فإنه مما أخبرهم به القرآن وكذبوا بالقرآن لأجل ذلك .

والرسول الكريم يجوز أن يراد به جبريل عليه السلام ، وصف جبريل برسول لأنه مرسل من الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن .

وإضافة "قول" إلى ﴿ رسول ﴾ إما لأدنى ملابسة لأن جبريل يبلغ ألفاظ القرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيحكيها كما أمره الله تعالى فهو قائلها ، أي صادرة منه ألفاظها .

وفي التعبير عن جبريل بوصف ﴿ رسول ﴾ إيماء إلى أن القول الذي يبلغه هو رسالة من الله مأمور بإبلاغها كما هي .

قال ابن عطية : وقال آخرون الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم في الآية كلها أ هـ .

ولم يُعين اسم أحد ممن قالوا هذا من المفسرين .

واستُطرد في خلال الثناء على القرآن الثناءُ على المَلَك المرسل به تنويهاً بالقرآن فإجراء أوصاف الثناء على ﴿ رسول ﴾ للتنويه به أيضاً ، وللكناية على أن ما نزل به صِدق لأن كمال القائل يدل على صدق القول .

ووُصِفَ ﴿ رسول ﴾ بخمسة أوصاف:

الأول : ﴿ كريم ﴾ وهو النفيس في نوعه .

والوصفان الثاني والثالث : ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ .

فالقوة حقيقتها مقدرة الذات على الأعمال العظيمة التي لا يَقدر عليها غالباً .

ومن أوصافه تعالى : "القوي" ، ومنها مقدرة الذات من إنسان أو حيوان على كثير من الأعمال التي لا يقدر عليها أبناء نوعه .

وضدها الضعف قال تعالى : ﴿ اللَّه الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ [الروم : 54] .

وتطلق القوة مجازاً على ثبات النفس على مرادها والإِقدام ورباطة الجأش ، قال تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ [مريم : 12] وقال : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ [البقرة :

63] ، فوصف جبريل بـ ﴿ ذي قوة ﴾ يجوز أن يكون شدة المقدرة كما وصف بذلك في قوله تعالى : ﴿ ذو مرة ﴾ [النجم : 6] ، ويجوز أن يكون في القوة المجازية وهي الثبات في أداء ما أرسل به كقوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ [النجم : 5] لأنّ المناسب للتعليم هو قوة النفس ، وأما إذا كان المراد محمد صلى الله عليه وسلم فوصفه بـ ﴿ ذي قوة عند ذي العرش ﴾ يراد بها المعنى المجازي وهو الكرامة والاستجابة له .

والمكين : فعيل ، صفة مشبهة من مكُن بضم الكاف مكانة ، إذا علت رتبته عند غيره ، قال تعالى في قصة يوسف مع المِلك : ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ [يوسف : 54] .

(187/804)

وتوسيط قوله : ﴿ عند ذي العرش ﴾ بين ﴿ ذي قوة ﴾ و ﴿ مكين ﴾ ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز ، أي هو ذو قوة عند الله ، أي جعل الله مقدرة جبريل تخوّله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير ، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى .

ووصف النبي صلى الله عليه وسلم بذلك على نحو ما تقدم .

والعندية عندية تعظيم ، وعناية ، ف (عند) للمكان المجازي الذي هو بمعنى الاختصاص والزُلفى .

4

وعُدل عن اسم الجلالة إلى ﴿ ذي العرش ﴾ بالنسبة إلى جبريل لتمثيل حال جبريل ومكانته عند الله بحالة الأمير الماضي في تنفيذ أمر الملك وهو بمحل الكرامة لديه .

وأما بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فللإِشارة إلى عظيم شأنه إذ كان ذا قوة عند أعظم موجود شأناً .

الوصف الرابع : ﴿ مطاع ﴾ أن يطيعه من معه من الملائكة كما يطيع الجيش قائدهم ، أو النبي صلى الله عليه وسلم مطاع : أي مأمور الناسُ بطاعة ما يأمرهم به .

و﴿ ثَمَّ ﴾ بفتح الثاء اسم إشارة إلى المكان ، والمشار إليه هو المكان المجازي الذي دلّ عليه قوله : ﴿ عند ذي العرش ﴾ فيجوز تعلق الظرف بـ ﴿ مطاع ﴾ وهو أنسب لإجراء الوصف على جبريل ، أي مطاع في الملأ الأعلى فيما يأمر به الملائكة والنبي صلى الله عليه وسلم مطاعٌ في العالم العلوي ، أي مقرَّر عند الله أن يطاع فيما يأمر به .

ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ أمين ﴾ ، وتقديمه على متعلَّقه للاهتمام بذلك المكان ، فوصف جبريل به ظاهر أيضاً ، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم به لأنه مقررةٌ أمانته في الملأ الأعلى .

والأمين : الذي يحفظ ما عُهد له به حتى يؤدّيه دون نقص ولا تغيير ، وهو فعيل إما بمعنى مفعول ، أي مأمون من أمنه على كذا .

(188/804)

وعلى هذا يقال : امرأة أمين ، ولا يقال : أمينة ، وإما صِفة مشبهة من أمُن بضم الميم إذا صارت الأمانة سجيته ، وعلى هذا الوجه يقال : امرأة أمينة ، ومنه قول الفقهاء في المرأة المشتكية أضرار زوجها : يجعلان عند أمينة وأمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(189/804)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾

ظاهر هذه الآية يتوهم منه الجاهل أن القرآن كلام جبريل مع أن الآيات القرآنية مصرحة

بكثرة بأنه كلام الله كقوله: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وكقوله: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ .

والجواب واضح من نفس الآية لأن الإيهام الحاصل من قوله أنه لقول يدفعه ذكر الرسول لأنه يدل على أن الكالم لغيره لكنه أرسل بتبليغه فمعنى قوله رسول أي تبليغه عمن أرسله من غير زيادة ولا نقص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 310 ﴾

(190/804)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

.12 ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

والمدلول اللغوي لهاتين الآيتين الكريمتين : أقسم قسما مؤكدا بالخنس الجوار الكنس ,

والسؤال الذي يتبادر إلي الذهن هو : ماهي هذه الخنس الجوار الكنس التي أقسم بها ربنا (تبارك وتعالي) هذا القسم المؤكد , وهو (تعالي) غني عن القسم ؟

وقبل الاجابة علي هذا التساؤل لابد لنا :

أولا : من التأكيد علي حقيقة قرآنية مهمة مؤداها أن الآية أو الآيات القرآنية التي تتنزل بصيغة القسم تأتي بمثل هذه الصياغة المؤكدة من قبيل تنبيهنا إلي عظمة الأمر المقسوم به , وإلي أهميته في انتظام حركة الكون , أو في استقامة حركة الحياة أو فيهما معا , وذلك لأن الله (تعالي) غني عن القسم لعباده .

ثانيا : أن القسم في القرآن الكريم بعدد من الأمور المتتابعة لا يستلزم بالضرورة ترابطها , كما هو وارد في سورة التكوير , وفي العديد غيرها من سور القرآن الكريم من مثل سور الذاريات , الطور , القيامة , الانشقاق , البروج , الفجر , البلد , الشمس , والعاديات , ومن هنا كانت ضرورة التنبيه علي عدم لزوم الربط بين القسم الأول في سورة التكوير :

فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس

والقسم الذي يليه في الآيتين التاليتين مباشرة حيث يقول الحق (تبارك وتعالي) :

والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس *

(التكوير :18,17)

وهو ما فعله غالبية المفسرين للأسف الشديد , فانصرفوا عن الفهم الصحيح لمدلول هاتين

الآيتين الكريمتين .

ثالثا : تشهد الأمور الكونية المقسوم بها في القرآن الكريم للخالق (سبحانه وتعالي) بطلاقة القدرة , وكمال الصنعة , وتمام الحكمة , وشمول

(191/804)

العلم , ومن هنا فلابد لنا من إعادة النظر في مدلولاتها كلما اتسعت دائرة المعرفة الانسانية بالكون ومكوناته , وبالسنن الإلهية الحاكمة له حتي يتحقق وصف المصطفي (صلي الله عليه وسلم) للقرآن الكريم بأنه : لا تنتهي عجائبه , ولا يخلق علي كثرة الرد , وحتي يتحقق لنا جانب من أبرز جوانب الإعجاز في كتاب الله وهو ورود الآية أو الآيات في كلمات محدودة يري فيها أهل كل عصر معني معينا , وتظل هذه المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد , وليس هذا لغير كلام الله .

رابعا : بعد القسم بكل من الخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس يأتي جواب القسم :

إنه لقول رسول كريم (التكوير :19)

ومعني جواب القسم أن هذا القرآن الكريم ـ ومنه الآيات الواردة في مطلع سورة التكوير

واصفة لأهوال القيامة , وما سوف يصاحبها من الأحداث والانقلابات الكونية التي تفضي إلي إفناء الخلق , وتدمير الكون , ثم إعادة الخلق من جديد . هو كلام الله الخالق الموحي به إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) بواسطة ملك من ملائكة السماء المقربين , عزيز علي الله (تعالي) , وهذا الملك المبلغ عن الله الخالق هو جبريل الأمين (عليه السلام) , ونسبة القول إليه هو باعتبار قيامه بالتبليغ إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) .

خامسا : إن هذا القسم القرآني العظيم جاء في سياق التأكيد علي حقيقة الوحي الإلهي الخاتم الذي نزل إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه أجمعين وعلي من تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين) , والذي جاء للناس كافة لينقلهم من ظلمات الكفر والشرك والضلال إلي نور التوحيد الخالص لله الخالق بغير شريك ولا شبيه ولا منازع , ومن فوضي وحشية الإنسان إلي ضوابط الايمان وارتقائها بكل ملكات الإنسان إلي مقام التكريم الذي كرمه

به الله , ومن جور الأديان إلي عدل الرحمن , كما جاء هذا القسم المؤكد بشيء من صفات الملك الذي حمل هذا الوحي إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) , وعلي شيء من صفات هذا النبي الخاتم الذي تلقي الوحي من ربه , وحمله بأمانة إلي قومه , رغم معاندتهم له , وتشككهم فيه , وادعائهم الكاذب عليه (صلي الله عليه وسلم) تارة بالجنون (وهو المشهود له منهم برجاحة العقل وعظيم الخلق) , وأخري بأن شيطانا يتنزل عليه بما يقول (وهو المعروف بينهم بالصادق الأمين) , وذلك انطلاقا من خيالهم المريض الذي صور لهم أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالنظم الفريد , وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد . وقد تلقي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) كل ذلك الكفر والجحود والاضطهاد بصبر وجلد واحتساب حتي كتب الله تعالي له الغلبة والنصر فأدي الأمانة , وبلغ الرسالة , ونصح البشرية , وجاهد في سبيل الله حتي أتاه اليقين .

وتختتم سورة التكوير بالتأكيد علي أن القرآن الكريم هو ذكر للعالمين وأن جحود بعض الناس له , وصدهم عنه , وإيمان البعض الآخر به وتمسكهم بهديه هي قضية شاء الله تعالي أن يتركها لاختيار الناس وفقا لارادة كل منهم , مع الايمان بأن هذه الإرادة الانسانية لا تخرج عن مشيئة الله الخالق الذي فطر الناس علي حب الايمان به , ومن عليهم بتنزل هدايته علي فترة من الرسل الذين تكاملت رسالاتهم في هذا الوحي الخاتم الذي نزل به جبريل الأمين علي قلب النبي والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) , وأنه علي الرغم من

كل ذلك فإن أحدا من الناس ـ مهما أوتي من أسباب الذكاء والفطنة ـ لا يقدر علي تحقيق الاستقامة علي منهج الله تعالي إلا بتوفيق من الله . وهذه دعوة صريحة إلي الناس كافة ليطلبوا الهداية من رب العالمين في كل وقت وفي كل حين .

والقسم بالأشياء الواردة بالسورة هو للتأكيد علي أهميتها لاستقامة أمور الكون

(193/804)

وانتظام الحياة فيه , وعلي عظيم دلالاتها علي طلاقة القدرة الإلهية التي أبدعتها وصرفت أحوالها وحركاتها بهذه الدقة المبهرة والاحكام العظيم .

الخنس الجوار الكنس في اللغة العربية

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (المتوفي سنة 395 هـ) , تحقيق عبد السلام هارون (الجزء الخامس , الطبعة الثانية 1972 م , ص 141 , ص 223) وفي غيره من معاجم اللغة تعريف لغوي للفظي الخنس والكنس يحسن الاستهداء به في فهم مدلول الخنس الجوار الكنس كما جاءا في آيتي سورة التكوير علي النحو التالي :

أولا : الخنس :

خنس : الخاء والنون والسين أصل واحد يدل علي استخفاء وتستر , قالوا : الخنس

الذهاب في خفيه , يقال خنست عنه , وأخنست عنه حقه .

والخنس : النجوم تخنس في المغيب , وقال قوم : سميت بذلك لأنها تخفي نهارا وتطلع ليلا , والخناس في صفة الشيطان , لأنه يخنس إذا ذكر الله تعالي , ومن هذا الباب الخنس في الأنف انحطاط القصبة , والبقر كلها خنس .

ومعني ذلك أن الخنس جمع خانس أي مختف عن البصر , والفعل خنس بمعني استخفي وتستر , يقال خنس الظبي إذا اختفي وتستر عن أعين المراقبين .

والخنوس يأتي أيضا بمعني التأخر , كما يأتي بمعني الانقباض والاستخفاء . وخنس بفلان وتخنس به أي غاب به , وأخنسه أي خلفه ومضي عنه .

ثانيا : الجوار :

أي الجارية . (في أفلاكها) وهي جمع جارية , من الجري وهو المر السريع .

ثالثا : الكنس :

(كنس) الكاف والنون والسين تشكل أصلين صحيحين , أحدهما يدل علي سفر شئ عن وجه شئ وهو كشفه والأصل الآخر يدل علي استخفاء , فالأول كنس البيت , وهو سفر التراب عن وجه أرضه , والمكنسه آلة الكنس , والكناسة مايكنس .

والأصل الآخر : الكناس : بيت الظبي , والكانس : الظبي يدخل كناسه , والكنس :

الكواكب تكنس في بروجها كما تدخل الظباء في كناسها , قال أبو عبيدة : تكنس في المغيب .

(194/804)

وقيل الكنس جمع كانس (أي قائم بالكنس) أو مختف من كنس الظبي أي دخل كناسه وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر , وسمي كذلك لأنه يكنس الرمل حتي يصل إليه . وعندي أن الكنس هي صيغة منتهي الجموع للفظة كانس أي قائم بعملية الكنس , وجمعها كانسون , أو للفظة كناس وجمعها كناسون , والكانس والكناس هو الذي يقوم بعملية الكنس (أي سفر شيء عن وجه شيء آخر , وإزالته) , لأنه لا يعقل أن يكون المعني المقصود في الآية الكريمة للفظة الكنس هي المنزوية المختفية وقد استوفي هذا المعني باللفظ الخنس , ولكن أخذ

اللفظتين بنفس المعني دفع بجمهور المفسرين إلي القول بأن من معاني فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس *: أقسم قسما مؤكدا بالنجوم المضيئة التي تختفي بالنهار وتظهر بالليل وهو معني الخنس , والتي تجري في أفلاكها لتختفي وتستتر وقت غروبها كما تستتر الظباء في كناسها (أي مغاراتها) وهو معني الجوار الكنس , قال القرطبي : هي النجوم تخنس بالنهار

, وتظهر بالليل , وتكنس وقت غروبها أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار وهو الكناس , وقال مخلوف : أقسم الله تعالي بالنجوم التي تخنس بالنهار أي يغيب ضوؤها فيه عن الأبصار مع كونها فوق الأفق , وتظهر بالليل , وتكنس أي تستتر وقت غروبها أي نزولها تحت الأفق كما تكنس الظباء في كنسها . . وقال بعض المتأخرين من المفسرين : هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية , وتجري في أفلاكها وتختفي .

ومع جواز هذه المعاني كلها إلا أني أري الوصف في هاتين الآيتين الكريمتين : فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس * . ينطبق انطباقا كاملا مع حقيقة كونية مبهرة تمثل مرحلة خطيرة من مراحل حياة النجوم يسميها علماء الفلك اليوم باسم الثقوب السود (Black Holes) .

(195/804)

وهذه الحقيقة لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وورودها في القرآن الكريم الذي أنزل قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه التعبيرات العلمية الدقيقة علي نبي أمي (صلي الله عليه وسلم) , في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين , هي شهادة صدق علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته ,

وعلي أن سيدنا محمدا بن عبدالله كان موصولا بالوحي , معلما من قبل خالق السماوات والأرض , وأنه (صلي الله عليه وسلم) ما كان ينطق عن الهوي , إن هو إلا وحي يوحي .

الخنس الجوار الكنس في نظر بعض الفلكيين المسلمين المعاصرين

يري بعض الفلكيين المسلمين المعاصرين في الوصف القرآني : الخنس الجواري الكنس أنه وصف للمذنبات

(Comets) ,

وهي أجرام سماوية ضئيلة الكتلة (لا تكاد تصل كتلتها إلي واحد من المليون من كتلة الأرض) ولكنها مستطيلة بذنبها إلي ما قد يصل إلي 150 مليون كيلو متر مما يجعلها أكبر أجرام المجموعة الشمسية , حيث تتحرك في مدارات حول الشمس , بيضاوية تقع الشمس في أحد طرفيها ونحن نراها كلما اقتربت من الشمس , وهذه المدارات لا تتبع قوانين الجاذبية بدقة , وتتميز بشئ من اللامركزية , وبميل أكبر علي مستوي مدار الأرض , مما يجعل المذنبات تظهر وتختفي بصورة دورية علي فترات تطول وتقصر . والمذنبات تتكون أساسا من خليط من الثلج والغبار , وللمذنب رأس وذنب , وللرأس نواة يبلغ قطرها عدة كيلو مترات قليلة عبارة عن كرة من الثلج والغبار تحيط بها هالة من الغازات والغبار , وتحيط بالهالة سحابة من غاز الإيدروجين قد يصل قطرها إلي مليون كيلو متر .

والغبار المكون للمذنبات شبيه في تركيبه الكيميائي والمعدني بتركيب بعض النيازك , وأما الثلج فهو خليط من ثلج كل من الماء , وثاني أكسيد الكربون , والأمونيا , والميثين .

(196/804)

وبالتفاعل مع كل من أشعة الشمس والرياح الشمسية يندفع من رأس المذنب ذيل من الغازات والأبخرة والغبار قد يصل طوله إلي 150 مليون كيلو متر , ومن هنا كانت التسمية بالمذنبات , وللكثير من المذنبات ذيلان أحدهما ترابي ويبدو أصفر اللون في أشعة الشمس , والآخر مكون من غازات متأينة في حالة البلازما (أليكترونات وأيونات) ويبدو أزرق اللون في أشعة الشمس , والذنب الغازي يندفع بفعل الرياح الشمسية في خط مستقيم خلف رأس المذنب بينما ينعقف منثني الذنب الترابي بلطف خلف رأس المذنب إلي أعلي , وهذان الذنبان قد يتواجدان معا أو يتواجد أحدهما في المذنب الواحد , في عكس اتجاه أشعة الشمس بانحراف قليل نظرا لدوران نواة رأس المذنب (التي تتراوح كتلتها بين مائة مليون , وعشرة مليون

مليون طن) وللمذنب مجال مغناطيسي ثابت علي طوله .

ووجه الشبه الذي استند إليه هذا النفر من الفلكيين المسلمين المعاصرين بين المذنبات

والوصف القرآني الخنس الجواري الكنس هو أن المذنب يقضي فترة تتراوح بين عدة أيام وعدة شهور مجاورا للشمس في زيارة خاطفة , فيظهر لنا بوضوح وجلاء ولكنه يقضي معظم فترة دورانه بعيدا عن الشمس فيختفي عنا تماما ويستتر , فإذا ما اقترب من الشمس ظهر لنا وبان , ولكن سرعان ما يقفل راجعا حتي يختفي تماما عن الأنظار , واعتبروا ذلك هو الخنوس , ولكن الوصف القرآني بالخنس يعني الاختفاء الكامل , ولا يعني الظهور ثم الاختفاء .

(The Missing Mass in the universe)

ما هي الثقوب السود ؟ :

يعرف الثقب الاسود بأنه أحد أجرام السماء التي تتميز بكثافتها الفائقة وجاذبيتها الشديدة بحيث لا يمكن للمادة ولا لمختلف صور الطاقة ومنها الضوء أن تفلت من اسرها , ويحد الثقب الاسود سطحا يعرف باسم أفق الحدث

(The Event Horizon),

وكل ما يسقط داخل هذا الأفق لا يمكنه الخروج منه , أو إرسال أية إشارة عبر حدوده .

(197/804)

وقد أفادت الحسابات النظرية في الثلث الاول من القرن العشرين إلي إمكانية وجود مثل هذه الأجرام السماوية ذات الكثافات الفائقة والجاذبية الشديدة [كارل شفارز تشايلد 1916 م , روبرت أوبنهاير

Karl schwars child,1916 Robert)1934

(oppenheimer,1934

إلا أنها لم تكتشف إلا في سنة 1971 , بعد اكتشاف النجوم النيوترونية بأربع سنوات ففي خريف سنة 1967 م أعلن الفلكيان البريطانيان توني هيويش

(Tony Hewish)

وجوسلين بل

(Jocelyn Bell)

عن اكتشافهما لأجرام سماوية صغيرة الحجم (بأقطار في حدود 16 كيلو متر) تدور حول محورها بسرعات مذهلة بحيث تتم دورتها في فترة زمنية تتراوح بين عدد قليل من الثواني إلي اجزاء لاتكاد تدرك من الثانية الواحدة وتصدر موجات راديوية منتظمة أكدت أن تلك الأجرام هي نجوم

نيوترونية

(Neutron Stars)

ذات كثافة فائقة تبلغ بليون طن للسنتيمتر المكعب .

وفي سنة 1971 م اكتشف علماء الفلك أن بعض النجوم العادية تصدر وابلا من الاشعة السينية , ولم يجدوا تفسيرا علميا لذلك إلا وقوعها تحت تأثير أجرام سماوية غير مرئية ذات كثافات خارقة للعادة , ومجالات جاذبية عالية الشدة , وذلك لأن النجوم العادية ليس في مقدورها إصدار الأشعة السينية من ذاتها , وقد سميت تلك النجوم الخفية باسم الثقوب السود

(Black Holes),

(198/804)

وقد سميت بالثقوب لقدرتها الفائقة علي ابتلاع كل ما تمر به أو يدخل في نطاق جاذبيتها من مختلف صور المادة والطاقة من مثل الغبار الكوني والغازات والاجرام السماوية المختلفة , ووصفت بالسواد لأنها معتمة تماما لعدم قدرة الضوء علي الإفلات من مجال جاذبيتها علي الرغم من سرعته الفائقة المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية (299792,458 كم / ث) وقد اعتبرت الثقوب السود مرحلة الشيخوخة في حياة النجوم وهي المرحلة التي قد تسبق انفجارها وعودة مادتها الي دخان السدم دون ان

يستطيع العلماء حتي هذه اللحظة معرفة كيفية حدوث ذلك .

كيف تتكون الثقوب السود ؟

تعتبر الثقوب السود كما ذكرنا من قبل مرحلة الشيخوخة في حياة النجوم , ولكي نفهم كيفية تكونها لابد لنا من معرفة المراحل السابقة في حياة تلك النجوم .

والنجوم هي أجرام سماوية غازية التركيب في غالبيتها , شديدة الحرارة , ملتهبة , مضيئة بذاتها , يغلب علي تركيبها غاز الايدروجين الذي يكون أكثر من 74 من مادة الكون المنظور , والذي تتحد ذراته مع بعضها البعض في داخل النجوم بعملية تعرف باسم الاندماج النووي

(Nuclear Fusion)

مطلقة الطاقة الهائلة ومكونة عناصر أعلي في وزنها الذري من الأيدورجين (أخف العناصر المعروفة لنا علي الإطلاق وأبسطها من ناحية البناء الذري ولذلك يوضع في الخانة رقم واحد في الجدول الدوري للعناصر

التي يعرف منها اليوم 105 عنصرا) و والنجوم تتخلق ابتداء من الغبار (الدخان)

الكوني الذي يكون السدم , وينتشر في فسحة السماء ليملأها وتتكون النجوم في داخل

السدم بفعل دوامات عاتية تؤدي الي تجاذب المادة تثاقليا وتكثفها علي ذاتها حتي تتجمع

الكتلة اللازمة لتخليق النجم , وتبدأ عملية الاندماج النووي فيه , وتنطلق منه الطاقة

وينبعث الضوء , وبعد الميلاد تمر النجوم بمراحل متتابعة من الطفولة فالشباب فالشيخوخة

والهرم علي هيئة ثقب أسود يعتقد ان مصيره النهائي هو الانفجار والتحول الي الدخان مرة

أخري , وإن كنا لا ندري حتي هذه اللحظة كيفية حدوث ذلك , ومن المراحل المعروفة لنا

في دورة حياة النجوم ما يعرف باسم نجوم النسق العادي

(Main Sequence Stars)

والعمالقة الحمر

(Red Giants),

والأقزام البيض

(White Dwarfs),

والأقزام السود

(Black Dwarfs)

والنجوم النيوترونية

(Neutron Stars),

والثقوب السود

(Black Holes)

فعندما تبدأ كمية الإيدروجين بداخل النجم في التناقص نتيجة لعملية الاندماج النووي ,

وتبدأ كمية الهيليوم الناتجة عن تلك العملية في التزايد تبدأ طاقة النجم في الاضمحلال

تدريجيا وترتفع درجة حرارة قلب النجم إلي عشرة ملايين درجة كلفن (الصفر المئوي

يساوي 273 درجة كلفن) مؤديا بذلك إلي بدء دورة جديدة من عملية الاندماج النووي

وإلي انبعاث المزيد من الطاقة التي تؤدي الي مضاعفة حجم النجم الي مئات الأضعاف

فيطلق عليه اسم العملاق الاحمر

(Red Giant),

وبتوالي عملية الاندماج النووي يأخذ النجم في استهلاك طاقته دون إمكانية انتاج المزيد

منها مما يؤدي الي تقلصه في الحجم وانهياره اما الي قزم أبيض

(White Dwarf)

أو إلي نجم نيوتروني

(Neutron Star)

أو الي ثقب أسود

(Black Hole)

حسب كتلته الأصلية التي بدأ تواجده بها .

فإذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم أقل من كتلة الشمس فإن الإليكترونات في

(200/804)

مادة النجم تقاوم عملية تقلصه ابتداء ثم تنهار هذه المقاومة ويبدأ النجم في التقلص حتي يصل الي حجم أقل قليلا من حجم الارض , متحولا إلي قزم أبيض , وهذه المرحلة من مراحل حياة النجوم قد تتعرض لعدد من الانفجارات النووية الهائلة والتي تنتج عن تزايد الضغط في داخل النجم , وتسمي هذه المرحلة باسم النجوم الجديدة أو النجوم المستجدة

(Novae)

فإذا زاد تراكم الضغط في داخل القزم الابيض فإنه ينفجر انفجارا كاملا محدثا نورا في السماء يقارب نور بليون شمس كشمسنا , وتسمي هذه المرحلة باسم النجم المستعر الأعظم

(Supernova)

يفني علي إثرها القزم الابيض وتتحول مادته الي دخان , وتحدث هذه الظاهرة مرة واحدة

في كل قرن من الزمان لكل مجرة تقريبا , ولكن مع الأعداد الهائلة للمجرات في الجزء المدرك لنا من الكون فإن هذه الظاهرة تحدث في الكون المدرك مرة كل ثانية تقريبا .

أما إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم أكبر من كتلة الشمس فإنه ينهار عند استهلاك طاقته متحولا الي نجم نيوتروني وفيه تتحد البروتونات والأليكترونات منتجة النيوترونات , وهذا النجم النيوتروني ينبض في حدود ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة ومن هنا يعرف باسم

النجم النابض

(Pulsating Star

أو النابض

(Pulsar) .

وهناك من النجوم النيوترونية ما هو غير نابض

(Non-Pulsating Neutron Star)

وقد يستمر هذا النجم النيوتروني في الانهيار حتي يصل الي مرحلة الثقب الأسود إذا كانت كتلته الابتدائية تسمح بذلك فإذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم تزيد علي كتلة الشمس بمرة ونصف المرة تقريبا (1,4 قدر كتلة الشمس) ولكنها تقل عن خمسة أضعاف كتلة الشمس فإن عملية التقلص تنتهي به إلي نجم نيوتروني لا يزيد قطره علي عشرة كيلو مترات تقريبا , ويسمي بهذا الاسم لأن الذي يقوم بعملية مقاومة التقلص التثاقلي

(Gravitational Contraction)

فيه هي النيوترونات لأن الإليكترونات في داخل

كتلة النجم تعجز عن ذلك .

(201/804)

أما إذا زادت الكتلة الابتدائية للنجم علي خمسة أضعاف كتلة الشمس فلا يتمكن أي من الإليكترونات أو النيوترونات من مقاومة عملية التقلص التثاقلي للنجم فتستمر حتي يصل النجم إلي مرحلة الثقب الأسود , وهذه المرحلة لا يمكن إدراكها بصورة مباشرة , ولكن يمكن تحديد مواقعها بعدد من الملاحظات غير المباشرة من مثل صدور موجات شديدة من الأشعة السينية من الأجرام الواقعة تحت تأثيرها , واختفاء كل الأجرام السماوية بمجرد الاقتراب من مجال جاذبيتها .

ومع إدراكنا لانتهاء حياة النجوم بالانفجار علي هيئة نجم مستعر أو نجم مستعر أعظم , أو بفقدانه للطبقات الخارجية منه وتحوله إلي مادة عظيمة الكثافة شديدة الجاذبية مثل النجوم النيوترونية أو الثقوب السود , إلا أن طبيعة تلك الثقوب السود وطريقة فنائها تبقي معضلة كبري أمام كل من علماء الفلك والطبيعة الفلكية , فحسب قوانين الفيزياء التقليدية لا

يستطيع الثقب الأسود فقد أي قدر من كتلته مهما تضاءل , ولكن حسب قوانين فيزياء الكم فإنه يتمكن من الإشعاع وفقدان كل من الطاقة والكتلة وهي سنة الله الحاكمة في جميع خلقه , ولكن تبقي كيفية تبخر مادة الثقب الأسود بغير جواب , وتبقي كتلته , وحجمه , وكثافته , وطبيعة كل من المادة والطاقة فيه , وشدة حركته الزاوية , وشحناته الكهربية والمغناطيسية من الأسرار التي يكافح العلماء إلي يومنا هذا من أجل استجلائها .

فسبحان الذي خلق النجوم وقدر لها مراحل حياتها . . .

وسبحان الذي أوصلها إلي مرحلة الثقب الأسود , وجعله من أسرار الكون المبهرة . . .

وسبحان الذي أقسم بتلك النجوم المستترة , الحالكة السواد , الغارقة بالظلمة . . .

وجعل لها من الظواهر مايعين الإنسان علي إدراك وجودها علي الرغم من تسترها واختفائها , وسبحان الذي مكنها من كنس مادة السماء وابتلاعها وتكديسها , ثم وصفها لنا من قبل أن نكتشفها بقرون متطاولة

بهذا الوصف القرآني المعجز فقال (عز من قائل)

فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس .

ولا أجد وصفا لتلك المرحلة من حياة النجوم المعروفة باسم الثقوب السود أبلغ من وصف الخالق (سبحانه وتعالي) لها بالخنس الكنس فهي خانسة أي دائمة الاختفاء والاستتار بذاتها , وهي كانسة لصفحة السماء , تبتلع كل ما تمر به من المادة المنتشرة بين النجوم , وكل ما يدخل في نطاق جاذبيتها من أجرام السماء , وهي جارية في أفلاكها المحددة لها , فهي خنس جوار كنس وهو تعبير أبلغ بكثير من تعبير الثقوب السود الذي اشتهر وذاع بين المشتغلين بعلم الفلك . .

ومن أصدق من الله قيلا

(النساء :122)

ومن العجيب أن العلماء الغربيين يسمون هذه الثقوب السود تسمية مجازية عجيبة حين يسمونها بالمكانس العملاقة التي تبتلع (أو تشفط) كل شيء يقترب منها إلي داخلها :

(Giant Vaccum Cleanersthat Suckineverythinginsight)

وتبقي الثقوب السود صورة مصغرة للجرم الأول الذي تجمعت فيه مادة الكون ثم انفجر ليتحول إلي سحابة من الدخان , وأن من هذا الدخان خلقت السموات والأرض , وتتكرر العملية اليوم أمام أنظار المراقبين من الفلكيين حيث تتخلق النجوم الابتدائية من تركز المادة

في داخل السدم عبر دوامات تركيز المادة

(Accretionwhirls)

أو

(Accretion Vertigos)

ومنها تتكون النجوم الرئيسية

(Main Sequeence Stars)

والتي قد تنفجر حسب كتلتها إلي عمالقة حمر

(Red Giants)

أو نجوم مستعرة

(Novae)

أو فوق مستعرة

(Supernovae),

وقد يؤدي انفجار العمالقة الحمر إلي تكون سدم كوكبية

(Planetary Nebulae)

والتي تنتهي إلي تكون الأقزام البيض

(White Dwarfs)

والتي تستمر في التبرد حتي تنتهي إلي مايعرف باسم الأقزام السود

(Black Dwarfs)

وهي من النجوم المنكدرة , كما قد يؤدي انفجار فوق المستعرات الي تكون نجوم نيوترونية

نابضة أو غير نابضة

(Non-Pulsating or

Pulsating Neutron Stars or Pulsars)

أو ثقوب سود

(Black Holes)

(203/804)

حسب كتلتها الابتدائية , وقد تفقد الثقوب السود كتلتها إلي دخان السماء عن طريق

تبخر تلك المادة علي هيئة أشباه النجوم المرسلة لموجات راديوية عبر مراحل متوسطة

عديدة

ثم تتفكك هذه لتعود مرة أخري إلي دخان السماء مباشرة أو عبر هيئة كهيئة السدم حتي

تشهد لله الخالق بالقدرة الفائقة علي أنه وحده الذي يبدأ الخلق ثم يعيده , وأنه وحده علي

كل شيء قدير . ومن المبهر حقا أن يشهد علماء الفلك بأن 90

من مادة الكون المنظور (ممثلة بمادة المجرات العادية) هي مواد خفية لا يمكن للإنسان رؤيتها بطريقة مباشرة , وأن من هذه المواد الخفية : الثقوب السود , والأقزام البنية غير المدركة (Undetected Brown Dwarfs),

والمادة الداكنة

(Dark Matter)

واللبنات الأولية للمادة

(Subatomic Particles)

وغيرها , وأن كتلة الجزء المدرك من الكون تقدر بأكثر من مائة ضعف الكتلة الظاهرة .

أما عن القسم التالي في السورة والذي يقول فيه الحق (تبارك وتعالي) : والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس فهما قضيتان مستقلتان عن الخنس الجوار الكنس سنعرض لهما إن شاء الله تعالي في مقام آخر وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الرؤية)

وهى النَّظر بالعين ، وبالقلب .

رأَيته رُؤْيةً ورَأْيًا ورَاءَةً ورأْيةً ورِئْيانًا ، وَارْتأَيته واسترْأَيته .

والحمد لله على رِيَّتك بزنة نِيَّتك أَى رؤيتك .

والرَّآء – كشدَّاد – : الكثير الرُّؤْيَة .

والرُئِىُّ – كصُلِىّ – والرُّؤَاءُ – كغراب – والْمَرْآة – بالفتح – : المنظر ، وقيل : الأَوّل : حسن المنظر كالتَرْئِيَة .

وا ستراه : استدعى رؤيته .

وأَريتُه إِيّاهُ إراءَةً وإِرْآءً .

وراءَيته مراءَاةً ورِياءً : أَريته على خلاف ما أَنا عليه .

ونحذف الهمزة فى مضارع رأَى فيقال : يرى .

والرّؤية تختلف بحسب قُوَى النّفس : الأَوّل بالحاسة وما يجرى مجارها ، قال تعالى : ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ ، وهذا ممّا أُجرى مُجْرى الرّؤية بالحاسّة ، فإِنَّ الحاسّة لا تصحّ على الله تعالى .

والثانى بالوَهْم والتخيّل ، نحو : أُرَى أَنَّ زيدًا منطلق .

والثالث بالتَّفكر : ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ﴾ , والرّابع بالعَقْل ، نحو : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، وعلى ذلك حُمل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ .

/ورأَى إِذا عُدّى إِلى مفعولين اقتضى معنى العلم .

ويُجرى أَرأَيتَ مُجرى أَخْبِرْنى ، ويدخل عليه الكاف ويُترك التَّاءُ على حاله مفتوحة فى التثنية والجمع والتأنيث ، تقول : أَرأَيتَك ، أَرأَيتَكما ، أَرأَيتَكم ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ ، وفيه معنى التَّنبيه .

والرّأْى : اعتقاد النَفْس أَحد النّقيضين عن غلبة الظنّ ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ﴾ ، أَى يظنونهم بحسب مقتضى مشاهدة العين مثليهم ، تقول : فعل ذلك رأْى عَين .

الرَّوِيَّة والتروية : التفكّر فى الشىء ، والإِمالة بين خواطر لنفس فى تحصيل الرّأْى .

والمُرَئِّى : المتفكر .

وإذا عدّى رأَيت بإلى اقتضى معنى النظر المؤدّى إلى الاعتبار ، نحو : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ،

وقولُهُ : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ أَى بما علَّمك وعرَّفك .

والرَّاية : العلامة المنصوبة للرؤْية .

وأَرْأَى : صار له رَئِىٌّ من الجنّ .

وهو جنىٌّ يُرَى فيُحَبّ .

والرُّؤْيا : ما رأَيته فى منامك ، والجمع رُؤًى كهُدًى ، وقد تخفَّف الهمزة من الرّؤيا فيقال بالواو .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أَى رأَى بعضهم بعضاً ، وقيل : تقاربا وتقابلا حتى صار كلٌّ واحد بحيث يتمكَّن من رؤْية الآخر .

وفى الحديث : "إنَّ المؤْمن والكافر لا يتراءَى ناراهما" .

وهو مَرْآة بكذا أَى مخْلَقة ، وأَنا أَرْأَى : أَخلق وأَجدر .

والمِرآةُ – كمِحساة – : ما تراءَيت فيه .

والرِّئة : موضع النفَس والرِّيح من الحيوان .

والجمع ، رِئات ورِئُونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 116 .
119 ﴾

(206/804)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/805)

الجزء الخامس بعد الثمانمائة

من الآية ﴿ 22 ﴾ من (سورة التكوير)

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ آخر السورة

(4/805)

قوله تعالى ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصفه السفير الملكي وهو جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الصفات الخمس التي

أزالت عن القرآن كل لبس ، وكان وصفه بها إنما هو لأجل إثبات شرف الرسول البشري الذي هو بين الحق وعامة الخلق ، وهو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ما يقوله كلام الله حقاً ، وكانوا يصفونه بما هو في غاية النزاهة عنه وهم يعلمون ذلك ، أبطله مبكتاً لهم بالكذب وموبخاً بالبلادة بقوله زيادة في شرفه حيث كان هو المدافع عنه : ﴿ وما صاحبكم ﴾ أي الذي طالت صحبته لكم وأنتم تعلمون أنه في غاية الكمال حتى أنه ليس له وصف عندكم إلا الأمين ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ بمجنون ﴾ أي كما تبتهونه به من غير استحياء من الكذب الظاهر مع ظهور التناقض فعل ألأم اللئام ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، فما القرآن الذي يتلوه عليكم قول مجنون ولا قول متوسط في العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكملاء ، وهذا النفي المؤكد ثابت له دائماً على سبيل الاستغراق لكل زمان – هذا ما دل عليه الكلام لا ما قال الزمخشري أنه يدل على أفضلية جبريل عليه السلام على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى بقية الملائكة ، فإنه ما سيق لذلك ولا هو والله مما يرضي جبريل عليه السلام ، قال الأصبهاني هنا : هذا يدل على فضله وأما أنه يدل على أنه أفضل من جميع الملائكة ومن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يمكنه ، وقال في قوله تعالى في البقرة :

﴿ وملائكته ورسله ﴾ [البقرة : 285] : ولم يلزم من تقديم الملائكة في الذكر تفضيلهم على الرسل ، وأما تقديم جبريل على ميكائيل فليس ببعيد أن يكون للشرف كما أن

تخصيصهما بالذكر لفضلهما ، وقال في النجم : ثم دنا جبريل من ربه عز وجل ، وهذا قول مجاهد يدل عليه ما روي في الحديث : " إن أقرب الملائكة إلى الله عز وجل جبريل عليه السلام " – انتهى .

(5/805)

ولو صح هذا الحديث لكان فيه كفاية لكن لم أجده أصلاً ، وقال الأصبهاني في عم في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ [النبأ : 38] عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو أعظم الملائكة خلقاً وأشرف منهم ، وأقرب من رب العالمين – انتهى .

فهذا كما ترى صريح في تفضيل الروح ، وقال السهيلي في غزوة بدر في كتابه الروض : ونزل جبريل عليه السلام بألف من الملائكة فكان في خمسمائة في الميمنة ، وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في الميسرة ، ووراءهم مدد من الملائكة لم يقاتلوا وهم الآلاف المذكورون في سورة آل عمران ، وكان إسرافيل عليه السلام وسط الصف لا يقاتل كما يقاتل غيره من الملائكة عليهم الصلاة والسلام – انتهى .

وهذا يدل على شرف إسرافيل عليه السلام لأن موقفه موقف رئيس القوم وفعله فعله – والله أعلم .

ولما كان المجنون لا يثبت ما يسمعه ولا ما يبصره حق الإثبات ، فكان التقدير بعد هذا النفي : فلقد سمع من رسولنا إليه ما أرسل به حق السمع ، ما التبس عليه فيه حق بباطل ، عطف عليه الإخبار برفعه شأنه في رؤية ما لم يره غيره وأمانته وجوده فقال : ﴿ ولقد رآه ﴾ أي المرسل إليه وهو جبريل عليه الصلاة والسلام على صورته الحقيقية ليلة المعراج وبعرفات ، جامعاً إلى حس السمع حس البصر ﴿ بالأفق المبين ﴾ أي الأعلى الذي هو عند سدرة المنتهى ، حيث لا يكون لبس أصلاً ، ولا يكون لشيطان على ذلك المكان سبيل فعرفه حق المعرفة ، وقال البيضاوي : بمطلع الشمس الأعلى - يعني وهو مشرق الأنوار ، والأفق : الناحية التي تفوق وتعلو .

(6/805)

ولما انتفى ما يظن من لبس السمع وزيغ البصر ، لم يبق إلا ما يتعلق بالتأدية فنفى ما يتوهم من ذلك بقوله : ﴿ وما ﴾ أي سمعه ورآه والحال أنه ما ﴿ هو على الغيب ﴾ أي الأمر الغائب عنكم في النقل عنه ولا في غيره من باب الأولى ﴿ بضنين ﴾ أي بمتهم ، من الظنة وهي التهمة ، كما يتهم الكاهن لأنه يخطىء في بعض ما يقول ، فهو حقيق بأن يوثق بكل شيء يقوله في كل أحواله ، هذا في قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب بالظاء ،

والمعنى في قراءة الباقين بالضاد : ببخيل كما يبخل الكاهن رغبة في الحلوان ، بل هو حريص على أن يكون كل من أمته عالماً بكل ما أمره الله تعالى بتبليغه .

ولما أثبت له الأمانة والجود بعد أن نفى عنه ما بهتوه به ، وكان الجنون أظهر من قول المجنون لأن بعض المجانين ربما تكلم الكلام المنتظم في بعض الأوقات فنفاه لذلك ، وكان قول الكاهن أظهر من الكهانة ، نفى القول فقال : ﴿ وما هو ﴾ أي القرآن الذي من جملة معجزاته الإخبار بالمغيبات ، وأعرق في النفي بالتأكيد بالباء فقال : ﴿ بقول شيطان ﴾ .

ولما كان الشيطان لا ينفك عن الطرد لأن اشتقاقه من شطن وشاط ، وذلك يقتضي البعد والاحتراق ، وصفه بما هو لازم له فقال : ﴿ رجيم ﴾ أي مرجوم باللعن وغيره من الشهب لأجل استراق السمع مطرود عن ذلك ، لأن القائل له ليس بكاهن كما تعلمون ، وبقي مما قالوه السحر وهو لا يحتاج إلى نفيه لأنه ليس بقول ، بل هو فعل صرف أو قول مقترن به ، والأضغاث وهي لذلك واضحة العوار فلم يعدها ، فمن علم هذه الأوصاف للقرآن والرسولين الآتيين به الملكي والبشري أحبه وأحبهما ، وبالغ في التعظيم والإجلال ، وأقبل على تلاوته في كل أوقاته ، وبالغ في السعي في كل ما يأمر به والهرب مما ينهى عنه ، ليحصل له الاستقامة رغبة في مرافقة من أتى به ورؤية من أتى من عنده .

(7/805)

ولما لم يدع وجهاً يلبس به على من لا يعرف حاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، سبب عنه قوله موبخاً منكراً : ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي بقلوبكم عن هذا الحق المبين يا أهل مكة المدعين لغاية الفطنة وقد علمتم هذا الحفظ العظيم في الرسولين الملكي والبشري فمن أين يأتي ما تدعون من التخليط في هذا الكتاب العظيم الذي دل على حفظه ببرهان عجزكم عن معارضة شيء منه ؟ وهو استضلال لهم واستجهال على أبلغ وجه في كل ما كانوا ينسبونه إليه بحيث صار ضلالهم معروفاً لا لبس فيه .

ولما كان الحال قد صار في الوضوح إلى أنه إذا نبه صاحبه بمثل هذا القول نظر أدنى نظر ، فقال من غير وقفة : لا أين ، قال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو ﴾ أي القرآن الذي أتاكم به ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أي شرف للخلق كلهم من الجن والإنس والملائكة وموعظة بليغة عظيمة لهم .

ولما تشرف الوجود كله بإظهاره فيه نوع تشرف ، أطلق هذه العبارة .

ولما كان الذي ثم شرفه المهتدي ، فكان الوعظ والشرف إنما هو له في الحقيقة قال : ﴿ لمن شاء منكم ﴾ أي أيها المخاطبون ﴿ أن يستقيم ﴾ أي يطلب القوم ويوجده .

ولما كان ذلك ربما تعنت به المتعنت في خلق الأفعال ، قال نافياً لاستقلالهم ومثبتاً للكسب : ﴿ وما تشاءون ﴾ أي أيها الخلائق الاستقامة ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي الملك الأعلى

الذي لا حكم لأحد سواه مشيئتكم ، وإن لم يشأها لم تقدروا على مشيئة ، فادعوه مخلصين له الدين يشأ لكم ما يرضيه فيوفقكم إليه ، وعن وهب بن منبه أنه قال : الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بضع وتسعون كتاباً قرأت منها بضعاً وثمانين كتاباً فوجدت فيها : من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر - انتهى .

ومن تأمل هذه الآية أدنى تأمل علم أن كلام المعتزلة بعدها في القدر دليل على أن الإنسان إذا كان له هوىً لا يرده شيء أصلاً ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ [الرعد : 33] .

(8/805)

ولما وصف نفسه سبحانه بأنه لا يخرج شيء عن أمره ، أتبع ذلك الوصف بما هو كالعلة لذلك فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ أي الموجد لهم والمالك والمحسن إليهم والمربي لهم وهو أعلم بهم منهم ، فلأجل ذلك لا يقدرون إلا على ما قدرهم عليه ، ويجب على كل منهم طاعته والإقبال بالكلية عليه سبحانه وتعالى وشكره استمطاراً للزيادة ، فلهذه الربوبية صح تصرفه في الشمس وما تبعها مما ذكر أول السورة لإقامة الساعة لأجل حساب الخلائق ، والإنصاف بينهم بقطع كل العلائق ، كما يفعل كل رب مع من يربيه فكيف بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ! فقد التقى طرفاها على أشرف الوجوه وأجلاها ، وانتظم أول الانفطار

بما له من بديع الأسرار ، فالتكوير كالانشقاق والتفطير ، والانكدار مثل التساقط والانتشار ، والله سبحانه هو أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 343 . 346 ﴾

(9/805)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾

واحتج بهذه الآية من فضل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم فقال : إنك إذا وازنت بين قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : 19 21] وبين قوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ ظهر التفاوت العظيم : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ بالأفق المبين ﴾ يعني حيث تطلع الشمس في قول الجميع ، وهذا مفسر في سورة النجم ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ ﴾ أي وما محمد على الغيب بظنين والغيب ههنا القرآن وما فيه من الأنباء والقصص والظنين المتهم يقال : ظننت زيدا في معنى اتهمته ، وليس من الظن الذي يتعدى إلى مفعولين ، والمعنى ما محمد على القرآن بمتهم أي هو ثقة

فيما يؤدي عن الله ، ومن قرأ بالضاد فهو من البخل يقال ضننت به أضن أي بخلت ، والمعنى ليس ببخيل فيما أنزل الله ، قال الفراء : يأتيه غيب السماء ، وهو شيء نفيس فلا يبخل به عليكم ، وقال أبو علي الفارسي : المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً ، واختار أبو عبيدة القراءة الأولى لوجهين : أحدهما : أن الكفار لم يبخلوه ، وإنما اتهموه فنفي التهمة أولى من نفي البخل وثانيها : قوله : ﴿ عَلَى الغيب ﴾ ولو كان المراد البخل لقال بالغيب لأنه يقال : فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25)

كان أهل مكة يقولون : إن هذا القرآن يجيء به شيطان فيلقيه على لسانه ، فنفى الله ذلك ، فإن قيل القول بصحة النبوة موقوف على نفي هذا الاحتمال ، فكيف يمكن نفي هذا الاحتمال بالدليل السمعي ؟ ﴿ قُلْنَا ﴾ بينا أن على القول بالصرفة لا تتوقف صحة النبوة على نفي هذا الاحتمال ، فلا جرم يمكن نفي هذا الاحتمال بالدليل السمعي .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)

(10/805)

وهذا استضلال لهم يقال لتارك الجادة اعتسافاً ، أين تذهب ؟ مثلت حالهم بحالة في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ، والمعنى أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم ، قال الفراء : العرب تقول إلى أين تذهب وأين تذهب ، وتقول ذهبت الشام وانطلقت السوق ، واحتج أهل الاعتزال بهذه الآية وجهه ظاهر .

ثم بين أن القرآن ما هو ، فقال :

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27)

أي هو بيان وهداية للخلق أجمعين .

ثم قال : ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾

وهو بدل من العالمين ، والتقدير : إن هو إلا ذكر لمن شاء منكم أن يستقيم ، وفائدة هذا الإبدال أن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر ، فكأنه لم يوعظ به غيرهم ، والمعنى أن القرآن إنما ينتفع به من شاء أن يستقيم ، ثم بين أن مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله .

فقال تعالى :

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

أي إلا أن يشاء الله تعالى أن يعطيه تلك المشيئة ، لأن فعل تلك المشيئة صفة محدثة فلا بد في حدوثها من مشيئة أخرى فيظهر من مجموع هذه الآيات أن فعل الاستقامة موقوف على

إرادة الاستقامة .

وهذه الإرادة موقوفة الحصول على أن يريد الله أن يعطيه تلك الإرادة ، والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء ، فأفعال العباد في طرفي ثبوتها وانتفائها ، موقوفة على مشيئة الله وهذا هو قول أصحابنا ، وقول بعض المعتزلة إن هذه الآية مخصوصة بمشيئة القهر والإلجاء ضعيف لأنا بينا أن المشيئة الاختيارية شيء حادث ، فلا بد له من محدث فيتوقف حدوثها على أن يشاء محدثها إيجادها ، وحينئذ يعود الإلزام ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 68. 69 ﴾

(11/805)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فلا ﴾ إما أم تكون " لا " زائدة ، وإما أن يكون رد القول قرش في تكذيبهم بنبوة محمد عليه السلام ، وقولهم إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك ، ثم أقسم الله تعالى ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ فقال جمهور المفسرين : إن ذلك الدراري السبعة : الشمس والقمر وزحل وعطارد والمريخ والزهرة والمشتري ، وقال علي بن أبي طالب : المراد

الخمسة دون الشمس والقمر . وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها أي تتقهقر فيما ترى العين ، وهو جوار في السماء ، وأثبت يعقوب الياء في " الجواري " في الوقف وحذفها الباقون وهي تكنس في أبراجها أي تستتر ، وقال علي بن أبي طالب أيضاً والحسن وقتادة : المراد النجوم كلها لأنها تخنس بالنهار حين تختفي ، وقال عبد الله بن مسعود والنخعي وجابر بن زيد وجماعة من المفسرين : المراد ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ : بقر الوحش لأنها تفعل هذه الأفعال في كناسها وهي المواضع التي تأوي إليها من الشجر والغيران ونحوه ، وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك : هي الظباء ، وذهب هؤلاء في الخنس إلى أنه من صفة الأنوف لأنها يلزمها الخنس ، وكذلك هي بقر الوحش أيضاً ومن ذلك قول الشاعر [الطويل]

سوى نار بض أو غزال صريمة . . . أغن من الخنس المناخر توأم

" وعسعس الليل " في اللغة : إذا كان غير مستحكم الإظلام ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ذلك وقت إقباله وبه وقع القسم ، وقال زيد بن أسلم وابن عباس ومجاهد وقتادة : ذلك عند إدباره وبه وقع القسم ، ويرجع هذا قوله بعد : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ ، فكأنهما حالان متصلتان ويشهد له قول علقمة بن قرط : [الرجز]

حتى إذا الصبح لها تنفّسا . . . وانجاب عنها ليلها وعسعسا

وقال المبرد أبو العباس : أقسم بإقباله وإدباره ، قال الخليل : يقال عسعس الليل وسعسع إذا أقبل وأدبر ، و" تنفس الصبح " : استطار واتسع ضوؤه ، وقال علوان بن قس : [الطويل]

(12/805)

وليل دجوجي تنفس فجره . . . لهم بعد أن خالوه لن يتنفسا

والضمير في ﴿ إنه ﴾ للقرآن ، و" الرسول الكريم " في قول جمهور المتأولين : جبريل عليه السلام ، وقال آخرون : هو محمد عليه السلام في الآية ، والقول الأول أصح ، و﴿ كريم ﴾ في هذه الآية يقتضي رفع المذام ، ثم وصفع بقوة منحه الله إياها ، وختلف الناس في تعليق : ﴿ عند ذي العرش ﴾ ، فذهب بعض المتأولين إلى تعلقه بقوله : ﴿ ذي قوة ﴾ ، وذهب آخرون إلى أن الكلام تم في قوله : ﴿ ذي قوة ﴾ وتعلق الظرف : ب ﴿ مكين ﴾ ، و﴿ مكين ﴾ معناه : له مكانة ورفعة ، وقوله تعالى : ﴿ مطاع ثم أمين ﴾ أي مقبول القول مصدق بقوله مؤتمن على ما يرسل به ، ويؤدي من وحي وامتثال أمر ، وقرأ أبو جعفر : " ثُم أمين " بضم الثاء ، وذكر الله تعالى نفسه بالإضافة إلى عرشه تنبيهاً على عظم ملكوته ، وأجمع المفسرون على أن قوله : ﴿ وما صاحبكم ﴾ يراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في ﴿ رآه ﴾ : جبريل عليه السلام ، وهذه الرؤية التي كانت بعد أمر غار حراء

حين رآه على كرسي بين المساء والأرض ، وقيل هذه الرؤيا التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء ، وسمى ذلك الموضع أفقاً مجازاً ، وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم رؤية ثانية بالمدينة ، وليست هذه ، ووصف الأفق ب ﴿ المبين ﴾ ، لأنه كان بالشرق من حيث تطلع الشمس ، قاله قتادة وأيضاً فكل أفق فهو في غاية البيان ، وقوله تعالى ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ بالضاد بمعنى : بخيل أي يشح به ، ولا يبلغ ما قيل له ، ويبخل كما يفعل الكاهن حتى يعطى حلوانه ، وبالضاد هي خطوط المصاحف كلها ، فيما قاله الطبري وهي قراءة نافع وعاصم وابن عامر وحمزة وعثمان بن عفان وابن عباس والحسن وأبي رجاء والأعرج وأبي جعفر وشيبة وجماعة وافرة .

(13/805)

وقرأ ابن كثير وعمرو والكسائي وابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروة بن الزبير ومسلم وابن جندب ومجاهد وغيرهم : " بظنين " ، بالظاء أي بمتهم ، وهذا في المعنى نظير وصفه ب ﴿ آمين ﴾ ، وقيل معناه : بضعف القوة عن التبليغ من قولهم : بئر ظنون إذا كانت قليلة الماء ، ورجح أبو عبيد قراءة : الظاء مشالة لأن قريشاً لم تبخل محمداً صلى الله عليه وسلم فيما

يأتي به وإما كذبته ، فقيل ما هو بمتهم ، ثم نفى تعالى عن القرآن أن يكون كلام شيطان على ما قالت قريش : إن محمداً كاهن ، و﴿ رجيم ﴾ معناه : مرجوم مبعد بالكواكب واللعنة وغير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ فأين تذهبون ﴾ توقيف وتقرير على معنى : أين المذهب لأحد عن هذه الحقائق ، و" الذكر " هنا : مصدر بمعنى التذكرة ، ثم خصص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبيهاً وذكراً لتكسبهم أفعال الاستقامة ، ثم بين تعالى أن تكسب المرء على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء ، وروي أنه نزل قوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ فقال أبو جهل : هذا أمر قد وكل إلينا ، فإن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فنزلت ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ يقول الله تعالى : يا ابن آدم تريد وأريد فتتعب فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(14/805)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون حتى يتهم في قوله .

وهو جواب القسم .

وقيل : أراد النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم أن يرى جبريل في الصورة التي يكون بها عند ربه جلّ وعز فقال : ما ذاك إليّ ؛ فأذن له الرب جل ثناؤه ، فأتاه وقد سدّ الأفق ، فلما نظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم خرّ مغشياً عليه ، فقال المشركون : إنه مجنون ، فنزلت : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ وإنما رأى جبريل على صورته فهابه ، وورد عليه ما لم تحتمل بنيته ، فخرّ مغشياً عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ﴾

أي رأى جبريل في صورته ، له ستمائة جَناح .

﴿ بالأفق المبين ﴾ أي بمطلع الشمس من قِبل المَشْرق ؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع الشمس فهو مُبين .

أي من جهته تُرَى الأشياء .

وقيل : الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ؛ قال الشاعر :

أَخَذْنا بِآفاقِ السماءِ عليكُمُ . . .

لنا قَمراها والنجومُ الطوالِعُ

الماورديّ : فعلى هذا ، فيه ثلاثة أقاويل ؛ أحدها : أنه رآه في أفق السماء الشرقيّ ؛ قاله سفيان .

الثاني : في أفق السماء الغربيّ ، حكاه ابن شجرة .

الثالث : أنه رآه نحو أجياد ، وهو مَشْرق مكة ؛ قاله مجاهد .

وحكى الثعلبيّ عن ابن عباس ، " قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : "إني أحبُّ أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء" قال : لن تقدر على ذلك .

قال : "بلى" قال : فأين تشاء أن أتخيل لك ؟ قال : "بالأبطح" قال : لا يسعُني .

قال : "فبِمنًى" قال : لا يسعني .

قال : "فبعرفات" قال : ذلك بالحرى أن يسعني .

(15/805)

فواعده فخرج النبي صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل بخَشْخَشةٍ وكَلْكلةٍ من جبال عَرَفات ، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ؛ ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم خرّ مغشياً عليه ، فتحول جبريل في صورته ، وضمه إلى صدره .

وقال : يا محمد لا تخف ؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحياناً من خشية الله ، حتى

يصير مثل الوَصَع يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته " وقيل : إن محمداً عليه السلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين .

وهو معنى قول ابن مسعود .

وقد مضى القول في هذا في "والنجم" مستوفًى ، فتأمله هناك .

وفي "المبين" قولان : أحدهما أنه صفة الأفق ؛ قاله الربيع .

الثاني أنه صفة لمن رآه ؛ قاله مجاهد .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ ﴾ : بالظاء ، قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائيّ ، أي بمتَّهم ، والظنة التُّهمَة ؛ قال الشاعر :

أما وكِتاب اللَّهِ لا عن شناءةٍ . . .

هُجِرتُ ولكِنّ الظنِينَ ظَنِينُ

واختاره أبو عُبيد ؛ لأنهم لم يُبَخِّلوه ولكن كذبوه ؛ ولأن الأكثر من كلام العرب : ما هو بكذا ، ولا يقولون : ما هو على كذا ، إنما يقولون : ما أنت على هذا بمتَّهم .

وقرأ الباقون "بِضَنِينٍ" بالضاد : أي ببخيل من ضَنِنْت بالشيء أضنّ ضِنًّا (فهو) ضنِين .

فروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : لا يضنّ عليكم بما يعلم ، بل يُعَلِّم الخَلْقَ كلام الله وأحكامه .

وقال الشاعر :

أَجود بِمكنونِ الحديثِ وإنِني . . .

بِسِرّكِ عمن سالِني لضَنِينُ

والغَيْب : القرآن وخبر السماء .

ثم هذا صفة محمد عليه السلام .

وقيل : صفة جبريل عليه السلام .

وقيل : بظَنين : بضعيف .

حكاه الفراء والمبرد ؛ يقال : رجل ظِنين : أي ضعيف .

وبئر ظَنونٌ : إذا كانت قليلة الماء ؛ قال الأعشى :

ما جُعِل الجُدُّ الظَّنونُ الذي . . .

(16/805)

جُنّب صَوْبَ اللجبِ الماطِرِ

مِثلَ الفُراتِيِّ إذا ما طما . . .

يقذِف بالبُوصِيِّ والماهِرِ

والظَّنون : الدين الذي لا يدري أيقضيه آخذه أم لا ؟ ومنه حديث عليّ عليه السلام في

الرجل يكون له الدين الظنون ، قال : يزكيه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقاً .

والظَّنون : الرجل السيِّيء الخلق ؛ فهو لفظ مشترك .

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ أي مرجوم ملعون ، كما قالت قريش .

قال عطاء : يريد بالشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ قال قتادة : فإلى أين تعدِلون عن هذا القول وعن طاعته .

كذا روَى مَعْمر عن قتادة ؛ أي أين تذهبون عن كتابي وطاعتي .

وقال الزجاج : فأيّ طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بَيَّنت لكم .

ويقال : أين تذهب ؟ وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشامَ وخرجت العراقَ وانطلقت السوقَ : أي إليها .

قال : سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة ؛ وأنشد بعض بني عُقَيل :

تصِيح بنا حنِيفةُ إذْ رأتنا . . .

وأيَّ الأرضِ تذهبُ بالصياحِ

يريد إلى أي أرض تذهب ، فحذف إلى .

وقال الجنيد : معنى الآية مقرون بآية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا

خَزَائِنُهُ ﴾ [الحجر : 21] المعنى : أيَّ طريق تسلكون أينَ من الطريق الذي بينه الله لكم.

وهذا معنى قول الزجاج.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي مَوْعظة وزَجْر.

و"إنْ" بمعنى "ما".

وقيل : ما محمد إلا ذِكر.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي يتبع الحق ويقيم عليه.

وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى : لما نزلت ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قال أبو جهل : الأمر إلينا.

(17/805)

إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم وهذا هو القَدَر، وهو رأس القَدَرية فنزلت : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾، فبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله، ولا شراً إلا بخذلانه.

وقال الحسن : والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لها.

وقال وهب بن مُنبه : قرأتُ في سبعة وثمانين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء : من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر .

وفي التنزيل : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الأنعام : 111] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [يونس : 100] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56]

والآي في هذا كثير ، وكذلك الأخبار ، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام ، وأضل بالكفر ، كما تقدم في غير موضع .

ختمت السورة والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(18/805)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾

أي الكواكبِ الرواجع مِنْ خَنَسَ إذَا تأخرَ وهيَ ما عَدَا النيرينَ منَ الدَّراري الخمسةِ وهيَ بهرامُ وزُحَلُ وعُطَارِدُ والزُّهْرَةُ والمُشتَرى وُصفتْ بقولِه تعالَى : ﴿ الجوار الكنس ﴾ لأنها

تَجْري مع الشمسِ والقمرِ وترجعُ حتَّى تختفي تحتَ ضوءِ الشمسِ فخنُوسها رجوعُها وكنوسُها اختفاؤُها تحتَ ضوئِها من كنسَ الوحشُ إذا دخل كُناسَهُ وهو البيتُ الذي يتخذهُ من أغصانِ الشجرِ وقيل هي جميعُ الكواكبِ تخنِسُ بالنهار فتغيبُ عنِ العُيونِ وتكنسُ بالليل أي تطلعُ في أماكنِها كالوحشِ في كُنُسِها .

﴿ واليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ أي أدبرَ ظلامُه أو أقبلَ فإنَّه منَ الأضَّدادِ وكذلكَ سعسعَ قالَ الفراءُ أجمعَ المفسرونَ على أنَّ معنى عسعسَ أدبرَ وعليه قولُ العَجَّاجِ :

حَتَّى إذَا الصُّبْحُ تَنفَّسَا . . . وَانجَابَ عنَها ليلُها وعَسْعَسَا

(19/805)

وقيلَ هيَ لغةُ قريشٍ خاصَّة وقيلَ : مَعْنى إقبالِ ظلامِه أوفقُ لقولِه تعالى : ﴿ والصبحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ لأنَّه أولُ النهارِ وقيل : إدبارُه أقربُ من تنفسِ الصبحِ ومعناهُ أنَّ الصبحَ إذا أقبلَ يقبلُ بإقبالِه رَوحٌ ونسيمٌ فجعلَ ذلكَ نفساً لَهُ مجازاً فقيلَ تنفَّسَ الصبحُ . ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي القرآنَ الكريمَ الناطقَ بما ذُكِرَ من الدَّواهِي الهائلةِ ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هو جبريلُ عليهِ السَّلامُ قالَه من جهةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ شديدةٍ كقولِه تعالَى ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ وقيلَ المرادُ القوةُ في أداءِ طاعةِ اللهِ تعالَى وتركِ الإخلالِ بها من أولِ الخلقِ إلى آخرِ زمانِ

التكليفِ ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ ذِي مكانةٍ رفيعةٍ عندَ الله تعالى عنديةَ إكرامٍ وتشريفٍ لا عنديةَ مكانٍ ﴿ مطاع ﴾ فيما بينَ ملائكتِه المقربينَ يصدرُون عن أمرِه ويرجعونَ إلى رأيه ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ على الوَحْي ، وثمَّ ظرفٌ لما قبلَهُ وقيلَ : لما بعدَهُ . وقرىء ثُمَّ ، تعظيماً لوصفِ الأمانةَ وتفضيلاً لها على سائرِ الأَوْصَافِ ﴿ وَمَا صاحبكم ﴾ هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما تبهتُه الكفرةُ والتعرضُ لعنوانِ المصاحبةِ للتلويحِ بإحاطتِهم بتفاصيلِ أحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خبراً ، وعلمُهم بنزاهتِه عليه السَّلامُ عمَّا نسبُوه إليهِ بالكليةِ . وقد استُدلَّ بهِ على فضلِ جبريلَ عليه عليهما السَّلامُ للتباينِ البينِ بين وصفيهما ، وهو ضعيفٌ إذِ المقصودُ ردُّ قولِ الكفرةِ في حقِّهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . ﴿ إنما يعلمه بشرٌ ﴾ ﴿ أفترى على الله كذباً أم بهِ جنَّة ﴾ لا تعدادُ فضائلِهما والموازنةُ بينهُما .

(20/805)

﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ ﴾ أي وبالله لقد رأى رسولُ الله جبريلَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ بالأفق المبين ﴾ بمطلعِ الشمسِ الأَعْلى ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَى الغيب ﴾ على ما يخبرُه من الوَحْيِ إليهِ وغيرِه من الغيوبِ ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ أي ببخيلٍ لا

يبخلُ بالوَحْي ولا يُقصّرُ في التبليغ والتعليمِ . وقُرِىءَ بظنينٍ أي بمتهمٍ من الظنة وهي التهمةُ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شيطانٍ رَّجِيمٍ ﴾ أي قولِ بعضِ المُسترقةِ للسمعِ وهو نفيٌ لقولِهم إنَّه كهانةٌ وسحرٌ . ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ استضلالٌ لهم فيما يسلكونَهُ في أمرِ القرآنِ والفاءُ لترتيبِ ما بعدَهَا على ما قبلَها من ظهورِ أنَّه وحيٌ مبينٌ ، وليس مِمَّا يقولونَ في شيءٍ كما تقولُ لمن تركَ الجادَّةَ بعدَ ظهورِها هذا الطريقُ الواضحُ فأينَ تذهبُ ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هُو ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ موعظةٌ وتذكيرٌ لهم . وقولُه تعالَى ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ ﴾ بدلٌ من العالمينَ بإعادةِ الجارّ .

وقولُه تعالَى : ﴿ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ مفعولُ شاءَ أيْ لمَنْ شاءَ منكُم الاستقامةَ بتحرّي الحقّ وملازمةِ الصوابِ . وإبدالُه منَ العالمينَ لأنَّهم المنتفعونَ بالتذكيرِ ﴿ وَمَا ﴾ أي الاستقامةَ مشيئةَ مستتبعةَ لها في وقتٍ من الأوقاتِ ﴿ تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله ﴾ أي إلا وقتَ أنْ يشاءَ اللهُ تعالَى تلكَ المشيئةَ أي المستتبعة للاستقامةِ فإن مشيئتَكُم لا تستتبعُها بدون مشيئةِ اللهِ تعالى لها ﴿ رَبّ العالمين ﴾ مالكُ الخلقِ ومربيهم أجمعينَ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(21/805)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا صاحبكم ﴾

هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما تبهته الكفرة قاتلهم الله تعالى وفي التعرض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم على ما هو الحق تكذيب لهم بألطف وجه إذ هو إيماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن فأنتم أعرف به وبأنه صلى الله عليه وسلم أتم الخلق عقلاً وأرجحهم قيلاً وأكملهم وصفاً وأصفاهم ذهناً فلا يسند إليه الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون .

واستدل الزمخشري بالمبالغة في ذكر جبريل عليه السلام وتركها في شأن النبي صلى الله عليه وسلم على أفضليته عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وأجابوا بما بحث فيه والوجه في الجواب على ما في "الكشف" أن الكلام مسوق لحقية المنزل دلالة على صدق ما ذكر فيه من أهوال القيامة وقد علمت أن من شأن البليغ أن يجرد الكلام لما ساق له لئلا يعد الزيادة لكنة وفضولاً ولا خفاء أن وصف الآتي بالقول يشد من عضد ذلك أبلغ شد وأما وصف من أنزل عليه فلا مدخل له في البين إلا إذا كان الغرض الحث على اتباعه فلهذا لم تدل المبالغة في شأن جبريل عليه السلام وعد صفاته الكوامل وترك ذلك في شأن نبينا عليه أفضل الصلوات والتسليمات على تفضيله بوجه .

وقال بعضهم إن لأحد من هو معزز معظم مقرب لديه دل على أن المرسل إليه بمكانة عنده

ليس فوقها مكانة وقد علمت أن المقام ليس للمبالغة في مدح المنزل عليه وقيل المراد بالرسول هو نبينا صلى الله عليه وسلم كالمراد بالصاحب وهو خلاف الظاهر الذي عليه الجمهور .

(22/805)

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ أي وبالله تعالى لقد رأى صاحبكم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسول الكريم جبريل عليه السلام على كرسي بين السماء والأرض بالصورة التي خلقه الله تعالى عليها له ستمائة جناح ﴿ بالافق المبين ﴾ وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق كما روى عن الحسن وقتادة ومجاهد وسفيان وفي رواية عن مجاهد أنه صلى الله عليه وسلم رآه عليه السلام نحو جياد وهو مشرق مكة وقيل إن المراد به مطلع رأس السرطان فإنه أعلى المطالع لأهل مكة وهذه الرؤية كانت فيها بعد أمر غار حراء .

وحكى ابن شجرة أنه أفق السماء الغربي وليس بشيء .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في الآية رآه في صورته عند سدرة المنتهى والأفق على هذا قيل بمعنى الناحية وقيل سمي ذلك أفقاً مجازاً .

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَى الغيب ﴾ على ما يخبر به من

الوحي إليه وغيره من الغيوب ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ من الضن بكسر الضاد وفتحها بمعنى البخل أي ببخيل لا يبخل بالوحي ولا يقصر في التبليغ والتعليم ومنح كل ما هو مستعد له من العلوم على خلاف الكهنة فإنهم لا يطلعون على ما يزعمون معرفته إلا بإعطاء حلوان وقرأ ابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروة وهشام بن جندب ومجاهد وغيرهم ومن السبعة النحويان وابن كثير بظنين بالظاء أي بمتهم من الظنة بالكسر بمعنى التهمة وهو نظير الوصف السابق ب ﴿ امين ﴾ .

(23/805)

وقيل معناه بضعيف القوة على تبليغ الوحي من قولهم بئر ظنون إذا كانت قليلة الماء والأول أشهر ورجحت هذه القراءة عليها بأنها أنسب بالمقام لاتهام الكفرة له صلى الله عليه وسلم ونفي التهمة أولى من نفي البخل وبأن التهمة تتعدى بعلى دون البخل فإنه لا يتعدى بها إلا باعتبار تضمينه معنى الحرص ونحوه لكن قال الطبري بالضاد خطوط المصاحف كلها ولعله أراد المصاحف المتداولة فإنهم قالوا بالظاء خط مصحف ابن مسعود ثم أن هذا لا ينافي قول أبي عبيدة أن الظاهر والضاد في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى زيادة يسير قد تشتبه كما لا يخفى والفرق بين الضاد والظاء مخرجاً أن الضاد

مخرجها من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ومنهم من يتمكن من إخراجها منهما والظاء مخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا واختلفوا في إبدال إحداهما بالأخرى هل يمتنع وتفسد به الصلاة أم لا فقيل تفسد قياساً ونقله في المحيط البرهاني عن عامة المشايخ ونقله في الخلاصة عن أبي حنيفة ومحمد وقيل لا استحساناً ونقله فيها عن عامة المشايخ كأبي مطيع البلخي ومحمد بن سلمة وقال جمع أنه إذا أمكن الفرق بينهما لتعمد ذلك وكان مما لم يقرأ به كماً هنا وغير المعنى فسدت صلاته وإلا فلا لعسر التمييز بينهما خصوصاً على العجم وقد أسلم كثير منهم في الصدر الأول ولم ينقل حثهم على الفرق وتعليمه من الصحابة ولو كان لازماً لفعلوه ونقل وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه ويفتي به وقد جمع بعضهم الألفاظ التي لا يختلف معناها ضاداً وظاء في رسالة صغيرة ولقد أحسن بذلك فليراجع فإنه مهم .

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ بِقَوْلِ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ أي بقول بعض المسترقة للمسع لأنها هي التي ترجم وهو نفي لقولهم أنه كهانة .

(24/805)

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر القرآن العظيم كقولك تارك الجادة الذاهب في بنيات الطريق أين تذهب والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور أنه وحي.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ موعظة وتذكير عظيم لمن يعلم وضمير هو للقرآن أيضاً وجوز كون الضميرين للرسول عليه الصلاة والسلام أي وما هو ملتبس بقول شيطان رجيم كما هو شأن الكهنة إن هو إلا ﴿ مُذَكِّرٌ للعالمين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ ﴾ الخ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمره صلى الله عليه وسلم وهو كما ترى وقوله سبحانه:

﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ ﴾ بدل من العالمين بدل بعض من كل والبدل هو المجرور وأعيد معه العامل على المشهور وقيل هو الجار والمجرور وجوز أن يكون بدل كل من كل لإلحاق من لم يشأ بالبهائم ادعاء وهو تكلف وقوله تعالى: ﴿ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ مفعول شاء أي لمن شاء منكم الاستقامة بتحري الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير.

(25/805)

﴿ وَمَا ﴾ أي الاستقامة بسبب من الأسباب ﴿ تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ أي إلا بأن ﴿ يَشَاء الله ﴾ تعالى مشيئتكم فمشيئتكم بسبب مشيئة الله تعالى ﴿ رَبّ العالمين ﴾ أي ملك الخلق ومربيهم أجمعين وما تشاءون الاستقامة مشيئة نافعة مستتبعة لها إلا بأن يشاءها الله تعالى فله سبحانه الفضل والحق عليكم باستقامتكم إن استقمتم روى عن سليمان بن موسى والقاسم بن مخيمرة أنه لما نزلت ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوير : 28] قال أبوجهل جعل الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ ﴾ الآية وأن وما معها هنا على ما ذكرنا في موضع خفض باضمار باء السببية وجوز أن تكون للمصاحبة وذهب غير واحد إلى أن الاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي وما تشاءون الاستقامة في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله تعالى شأنه استقامتكم وهو مبني على ما نقل عن الكوفيين من جواز نيابة المصدر المؤول من أن والفعل عن الظرف وفي الباب الثامن من المغنى أن أن وصلتها لا يعطيان حكم المصدر في النيابة عن ظرف الزمان تقول جئتك صلاة العصر ولا يجوز جئتك أن تصلي العصر فالأولى ما ذكرنا أولاً وإليه ذهب مكي وذهب القاضي إلى الثاني وقد اعترض عليه أيضاً بأن ما لنفي الحال وأن خاصة للاستقبال فيلزم أن يكون وقت مشيئته تعالى المستقبل ظرفاً لمشيئة العبد الحالية وأجيب بأنا لا نسلم أن ما مختصة بنفي الحال ومن ادعى اختصاصها بذلك اشترط انتفاء القرينة على خلافه ولم تنتف ههنا لمكان أن في حيزها أو بأن كون أن

للاستقبال مشروط بانتفاء قرينة خلافه وههنا قد وجدت لمكان ما قبلها فهي لمجرد المصدرية وقيل يندفع الاعتراض بجعل الاستثناء منقطعاً فليجعل كذلك وإن كان الأصل فيه الاتصال وليس بشيء وقد أورد على وجه السببية الذي ذكرناه نحو ذلك وهو أنه يلزم من كون ما لنفي الحال وأن للاستقبال سببية المتأخر للمتقدم ومما ذكر يعلم الجواب كما لا

(26/805)

يخفى فتأمل جميع ذلك والله تعالى الهادي لأوضح المسالك .

وقال بعض أهل التأويل الشمس شمس الروح والنجوم نجوم الحواس والجبال جبال القوالب وهي تسير كل وقت إلا أنه يظهر ذلك للمحجوب إذا كشف له الغطاء والعشار عشار القوى القالبية والوحوش وحوش الأخلاق الذميمة النفسانية والبحار بحار العناصر الطبيعية والنفوس القوى النفسانية وتزويجها قرن كل قوة بعملها والموؤدة الخواطر الإلهامية التي ترد على السالك فيئدها في قبر القالب ويظلمها والصحف على ظاهرها والسماء سماء الصدر والجحيم جحيم النفس وتسعيرها بنيران الهوى والجنة جنة القلب والخنس الأنوار المودعة في القوى القلبية والليل الأنوار الجلالية والصبح الأنوار الجمالية إلى آخر ما قال ويستدل بحال البعض على البعض وقد حكى أبو حيان شيئاً من نحو ذلك وعقبه بتشنيع

فظيع وهو لا يتم إلا إذا أنكر إرادة الظاهر وأما إذا لم تنكر وجعل ما ذكر ونحوه من باب الإشارة فلا يتم أمر التشنيع كما حقق ذلك في موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(27/805)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين .

وأما عند الكوفيين والأخفش ، فهو مرتفع على الابتداء .

والتكوير الجمع ، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها .

قال الزجاج : لفت ، كما تلف العمامة ، يقال : كورت العمامة على رأسي أكورها كوراً ، وكوّرتها تكويراً : إذا لففتها .

قال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف ، فتجمع .

قال الربيع بن خثيم : ﴿ كورت ﴾ أي : رمى بها ، ومنه كورته فتكوّر أي : سقط .

وقال مقاتل ، وقتادة ، والكلبي : ذهب ضوؤها .

وقال مجاهد : اضمحلت .

قال الواحدي : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف ، فيرمى بها .

فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لفّ جرمها ، أو لفّ ضوئها ، أو الرمي بها ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ أي : تهافتت ، وانقضت ، وتناكرت ، يقال : انكدر الطائر من الهواء إذا انقضّ ، والأصل في الانكدار الانصباب .

قال الخليل : يقال : انكدر عليهم القوم إذا جاءوا أرسالاً ، فانصبوا عليهم .

قال أبو عبيدة : انصبت ، كما ينصب العقاب .

قال الكلبي وعطاء : تمطر السماء يومئذٍ نجوماً ، فلا يبقى نجم في السماء إلاّ وقع على الأرض ، وقيل : انكدارها طمس نورها .

﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ أي : قلعت عن الأرض ، وسيرت في الهواء ، ومنه قوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] .

﴿ وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ﴾ العشار : النوق الحوامل التي في بطونها أولادها الواحدة عشراء ، وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع .

وخصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب ، وأعزّه عندهم ، ومعنى ﴿ عطلت ﴾ : تركت هملاً بلا راع ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم .

قيل : وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشراء ، بل المراد : أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم ، أو نوق عشار لتركها ، ولم يلتفت إليها اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة ، وسيأتي آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا في الدنيا .

وقيل : العشار السحاب ، فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله : ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ [الذاريات : 2] وتعطيلها عدم إمطارها قرأ الجمهور : ﴿ عطلت ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف .

وقيل : المراد أن الديار تعطل ، فلا تسكن .

وقيل : الأرض التي تعشر زرعها تعطل ، فلا تزرع .

﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ الوحوش ما توحش من دوابّ البرّ ، ومعنى ﴿ حشرت ﴾ : بعثت حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتصّ للجماء من القرناء .

وقيل : حشرها موتها ، وقيل : إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبدّدها في الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم .

قرأ الجمهور ﴿ حشرت ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الحسن ، وعمرو بن ميمون بالتشديد .

﴿ وَإِذَا البحار سُجّرَتْ ﴾ أي : أوقدت ، فصارت ناراً تضطرم .

وقال الفرّاء : ملئت بأن صارت بحراً واحداً ، وكثر ماؤها ، وبه قال الربيع بن خثيم ،

والكلبي ، ومقاتل ، والحسن ، والضحاك .

وقيل : أرسل عذبها على مالحها ، ومالحها على عذبها حتى امتلأت ، وقيل : فجرت ، فصارت بحراً واحداً .

وروي عن قتادة ، وابن حبان أن معنى الآية : يبست ، ولا يبقى فيها قطرة ، يقال : سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته .

وقال القشيري : هو من سجرت التنور أسجره سجراً إذا أحميته .

قال ابن زيد ، وعطية ، وسفيان ، ووهب ، وغيرهم : أوقدت ، فصارت ناراً ، وقيل : معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم ، من قولهم عين سجراء أي : حمراء .

قرأ الجمهور ﴿ سجرت ﴾ بتشديد الجيم .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، بتخفيفها .

(29/805)

﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء في النار .

وقال عطاء : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين ، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين .

وقيل : قرن كل شكل إلى شكله في العمل ، وهو راجع إلى القول الأوّل .

وقيل : قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان ، كما في قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] وقال عكرمة : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ يعني : قرنت الأرواح بالأجساد .

وقال الحسن : ألحق كل امرىء بشيعته اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئًا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين .

وقيل : يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان ، أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين .

وقيل : قرنت النفوس بأعمالها ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ أي : المدفونة حية ، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار ، أو الحاجة ، يقال : وأد يئد وأداً ، فهو وائد ، والمفعول به موءود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن ، فيطرح عليها التراب ، فيثقلها فتموت ، ومنه : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] أي : لا يثقله ، ومنه قول متمم بن نويرة :

وموءودة مقبورة في مغارة . . . ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت . . . والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور : ﴿ الموءودة ﴾ بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة .

وقرأ البزي في رواية عنه بهمزة مضمومة ، ثم واو ساكنة .

وقرأ الأعمش : " المودة " بزنة الموزة .

وقرأ الجمهور ﴿ سئلت ﴾ مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل .

وقرأ الجمهور ﴿ قتلت ﴾ بالتخفيف مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير .

(30/805)

وقرأ عليّ ، وابن مسعود ، وابن عباس سألت مبنياً للفاعل : " قتلت " بضم التاء الأخيرة .

ومعنى ﴿ سئلت ﴾ على قراءة الجمهور أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب ، ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها ، وتوبيخ له شديد .

قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وفي مصحف أبيّ " وإذا الموءودة سألت بأيّ ذنب قتلتني " .

﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ يعني : صحائف الأعمال نشرت للحساب ؛ لأنها تطوى

عند الموت ، وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته ، فيعلم ما فيها ، فيقول : ﴿ مَّالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] .

قرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأبو عمرو ﴿ نشرت ﴾ بالتخفيف .

وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير ﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ الكشط قلع عن شدّة التزاق ، فالسماء تكشط ، كما يكشط الجلد عن الكبش ، والقشط بالقاف لغة في الكشط ، وهي : قراءة ابن مسعود .

قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف .

وقال الفراء : نزعت ، فطويت .

وقال مقاتل : كشفت عما فيها .

قال الواحدي : ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه .

﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أي : أوقدت لأعداء الله إيقاداً شديداً .

قرأ الجمهور " سعرت " بالتخفيف ، وقرأ نافع ، وابن ذكوان ، وحفص بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرّة بعد مرّة .

قال قتادة : سعرها غضب الله ، وخطايا بني آدم .

﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ أي : قرّبت إلى المتقين ، وأدنيت منهم .

قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها .

وقال ابن زيد : معنى ﴿ أزلفت ﴾ تزينت .

والأوّل أولى لأن الزلفى في كلام العرب القرب .

قيل : هذه الأمور الاثنا عشر : ستّ منها في الدنيا ، وهي من أوّل السورة إلى قوله : ﴿ وَإِذَا البحار سُجّرَتْ ﴾ ، وستّ في الآخرة وهي : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوّجَتْ ﴾ إلى هنا .

(31/805)

وجواب الجميع قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ على أن المراد الزمان الممتدّ من الدنيا إلى الآخرة ، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كلّ جزء من أجزاء هذا الوقت الممتدّ ، بل المراد : علمت ما أحضرته عند نشر الصحف يعني : ما عملت من خير ، أو شرّ ، ومعنى ﴿ ما أحضرت ﴾ : ما أحضرت من أعمالها ، والمراد حضور صحائف الأعمال ، أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصوّر بصور تدلّ عليها وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس ، أو لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور ، والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ، ويدلّ على هذا قوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران : 30] وقيل : يجوز أن يكون

ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كلّ نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت ، فكيف وكلّ نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ لا زائدة ، كما تقدّم تحقيقه ، وتحقيق ما فيه من الأقوال في أوّل سورة القيامة أي : فأقسم بالخنس ، وهي : الكواكب وسميت الخنس من خنس : إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار ، فتخفى ولا ترى ، وهي : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، كما ذكره أهل التفسير .

ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس ، وتقطع المجرّة .

وقال في الصحاح : الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب ، أو لأنها تخفى نهاراً ، أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة .

قال الفراء : إنها الكواكب الخمسة المذكورة لأنها تخنس في مجراها ، وتكنس أي : تستتر ، كما تكنس الظباء في المغار ، ويقال : سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم .

(32/805)

يقال : خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلفه ومضى عنه ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، ومعنى : ﴿ الجوار ﴾ أنها تجري مع الشمس والقمر ، ومعنى : ﴿ الكنس ﴾ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها ، وقيل : خنوسها خفاؤها بالنهار ، وكنوسها غروبها .

قال الحسن ، وقتادة : هي النجوم التي تخنس بالنهار ، وإذا غربت ، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفائها فلا ترى ، وتظهر بالليل ، وتكنس في وقت غروبها .

وقيل : المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس ، وبالجوار ، وبالكنس .

وقال عكرمة : الخنس البقر ، والكنس الظباء ، فهي : تخنس إذا رأت الإنسان ، وتنقبض ، وتتأخر ، وتدخل كناسها .

وقيل : هي الملائكة .

والأوّل أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا ، والكنس مأخوذ من الكناس الذي يختفي فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة .

﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ قال أهل اللغة : هو من الأضداد ، يقال : عسعس الليل إذا أقبل ، وعسعس إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله : ﴿ والصبحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر ، كذا حكاه عنه الجوهري ، وقال

الحسن : أقبل بظلامه .

قال الفراء : العرب تقول : عسعس الليل إذا أقبل ، وعسعس الليل إذا أدبر ، وهذا لا ينافي ما تقدّم عنه ، لأنه حكي عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدبر ، وإن كان في الأصل مشتركاً بين الإقبال والإدبار .

قال المبرد : هو من الأضداد .

قال : والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد ، وهو : ابتداء الظلام في أوّله ، وإدباره في آخره .

قال رؤبة بن العجاج :

يا هند ما أسرع ما تعسعسا . . . من بعد ما كان فتى ترعرعا

وقال امرؤ القيس :

عسعس حتى لو نشاء إذ دنا . . . كان لنا من ناره مقتبس

وقوله :

(33/805)

الماء على الربع القديم تعسعسا . . . ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التنفس في الأصل : خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفساً له

مجازاً .

قال الواحدي : تنفس أي : امتدّ ضوؤه حتى يصير نهاراً ، ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس ، وقيل : ﴿ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ إذا انشقّ ، وانفلق ، ومنه تنفست القوس أي : تصدّعت .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني : جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلاً به ، وقيل : المراد بالرسول في الآية محمد صلى الله عليه وسلم ، والأوّل أولى .

ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ أي : ذي قوّة شديدة في القيام بما كلف به ، كما في قوله : ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] ، ومعنى : ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ : أنه ذو رفعة عالية ، ومكانة مكينة عند الله سبحانه ، وهو في محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف ، فلما قدّم صار حالاً ، ويجوز أن يكون نعتاً لرسول ، يقال : مكن فلان عند فلان مكانة أي : صار ذا منزلة عنده ومكانة .

قال أبو صالح : من مكانته عند ذي العرش أنه يدخل سبعين سرادقاً بغير إذن ، ومعنى ﴿ مطاع ﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ، ويطيعونه ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ قرأ الجمهور بفتح ﴿ ثمّ ﴾ على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع ، أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع في السماوات ، أو أمين فيها أي : مؤتمن على الوحي وغيره ، وقرأ هشيم ، وأبو جعفر

، وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة ، وكان العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ، ومن قال : إن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : أنه ذو قوّة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع يطيعه ، من أطاع الله أمين على الوحي .

(34/805)

﴿ وَمَا صاحبكم بِمَجْنُونٍ ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون ، وغيره في شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم ، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ بالأفق المبين ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي : وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين أي : بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء .

وقيل : الأفق المبين أقطار السماء ونواحيها ، ومنه قول الشاعر :

أخذنا بأقطار السماء عليكم . . . لنا قمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ بالأفق المبين ﴾ مع أنه قد رآه غير مرّة لأنه رآه هذه المرّة في صورته له ستمائة جناح ، قال سفيان : إنه رآه في أفق السماء الشرقي .

وقال ابن بحر : في أفق السماء الغربي .

وقال مجاهد : رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة ، و ﴿ المبين ﴾ صفة للأفق قاله الربيع .

وقيل : صفة لمن رآه قاله مجاهد : وقيل معنى الآية : ولقد رأى محمد ربه عزّ وجلّ ، وقد تقدّم القول في هذا في سورة النجم ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي : محمد ﴿ عَلَى الغيب ﴾ يعني : خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائباً علمه من أهل مكة ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ بمتهم أي : هو ثقة فيما يؤدّي عن الله سبحانه .

وقيل : ﴿ بضنين ﴾ ببخيل أي : لا يبخل بالوحي ، ولا يقصر في التبليغ ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء ، فقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : " بظنين " بالظاء المشالة أي : بمتهم ، والظنة التهمة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأنهم لم يبخلوا ولكن كذبوه .

(35/805)

وقرأ الباقون ﴿ بضنين ﴾ بالضاد أي : ببخيل ، من ضننت بالشيء أضنّ ضناً : إذا بخلت .

قال مجاهد أي : لا يضن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه .

وقيل : المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين ، والأوّل أولى .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ أي : وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب .

قال الكلبي : يقول إن القرآن ليس بشعر لا كهانة ، كما قالت قريش .

قال عطاء : يريد بالشيطان الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه .

ثم بكتهم سبحانه ووبخهم ، فقال : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي : أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قاله قتادة .

وقال الزجاج : معناه أيّ : طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم ، يقال أين تذهب ، وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشام ، وخرجت العراق ، وانطلقت السوق أي : إليها .

قال : سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة ، وأنشد لبعض بني عقيل :

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا . . . وأيّ الأرض تذهب بالصياح

تريد إلى أيّ الأرض تذهب ، فحذف إلى .

(36/805)

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ أي : ما القرآن إلاّ موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم ، وقوله : ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار ، ومفعول المشيئة : ﴿ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي : لمن شاء منكم الاستقامة على الحقّ والإيمان والطاعة ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ العالمين ﴾ أي : وما تشاءون الاستقامة إلاّ أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلاّ بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [يونس : 100] وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملئكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْء قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الأنعام : 111] وقوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ [القصص : 56] والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقيّ في الشعب عن ابن عباس في

قوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ قال : أظلمت ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ قال : تغيرت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والديلمي عن أبي مريم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في قوله : ﴿ إِذَا السماء كُوِّرَتْ ﴾ قال : كوّرت في جهنم ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ قال : انكدرت في جهنم ، فكل من عبد من دون الله فهو : في جهنم ، إلاّ ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن أبي العالية قال : ست آيات من هذه السورة في الدنيا ، والناس ينظرون إليها ، وست في الآخرة ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ إلى ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ هذه في الدنيا ، والناس ينظرون إليها .

(37/805)

﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ إلى ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ هذه في الآخرة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأهوال ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبيّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجنّ إلى

الإنس ، والإنس إلى الجنّ ، واختلطت الدوابّ ، والطير ، والوحش ، فماجوا بعضهم في بعض ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ قال : الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر ، فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة ، وإلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كلّ شيء الموت غير الجنّ والإنس ، فإنهما يوافيان يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والخطيب في المتفق ، والمفترق عنه في قوله : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ قال : يحشر كلّ شيء يوم القيامة حتى إن الدوابّ لتحشر .

وأخرج البيهقي في البعث عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ قال : تسجر حتى تصير ناراً .

وأخرج الطبراني عنه : ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ قال : اختلط ماؤها بماء الأرض .

(38/805)

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، كذلك تزويج الأنفس وفي رواية : ثم قرأ :

﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] .

وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعاً .

وأخرج البزار ، والحاكم في الكنى ، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال : جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعتق عن كل واحدة رقبة ، " قال : إني صاحب إبل ، قال : " فأهد عن كل واحدة بدنة " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ قال : قربت .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ قال : هي الكواكب تكنس بالليل ، وتخنس بالنهار ، فلا ترى .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ قال : خمسة أنجم : زحل ،

وعطارد ، والمشتري ، وبهرام ، والزهرة ، ليس شيء يقطع المجرّة غيرها .

وأخرج ابن مردويه ، والخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في الآية قال : هي النجوم السبعة : زحل ، وبهرام ، وعطارد ، والمشتري ، والزهرة ، والشمس ، والقمر ، خنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار .

(39/805)

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن سعد ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود في قوله : ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ قال : هي بقر الوحش .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هي البقر تكنس إلى الظلّ .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : هي : الظباء .

وأخرج ابن راهويه ، وعبد بن حميد ، والبيهقيّ في الشعب عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ الجوار الكنس ﴾ : قال : هي : الكواكب .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ الخنس ﴾ البقر ﴿ الجوار الكنس ﴾ الظباء ،

ألم ترها إذا كانت في الظلّ كيف تكنس بأعناقها ، ومدّت نظرها .

وأخرج أبو أحمد الحاكم في الكنى عن أبي العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب ، فأتاه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ما ﴿ الجوار الكنس ﴾ فطعن عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل ، فألقاها عن رأسه ، فقال عمر : أحروريّ ؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقاً لأنحيت القمل عن رأسك ، وهذا منكر ، فالحرورية لم يكونوا في زمن عمر ، ولا كان لهم في ذلك الوقت ذكر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ والليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ قال : إذا أدبر ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

وأخرج الطبراني عنه ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ قال : إقبال سواده .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بالأفق المبين ﴾ قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إنما عنى جبريل أن محمداً رآه في صورته عند سدرة المنتهى .

وأخرج ابن مردويه عنه بالأفق المبين ، قال : السماء السابعة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ بضنين ﴾ بالضاد ، وقال : ببخيل .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ " وما هو على الغيب بظنين " بالظاء قال : ليس بمتهم .

وأخرج الدارقطني في الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب في تاريخه عن عائشة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقرؤه ﴿ بظنين ﴾ بالظاء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كذبوا يا محمد ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 387 . 394 ﴾

(41/805)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) ﴾

عطف على جملة : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [التكوير : 19] فهو داخل في خبر القَسَم جواباً ثانياً عن القَسَم ، والمعنى : وما هو (أي القرآن) بقول مجنون كما تزعمون ، فبعد أن أثنى الله على القرآن بأنه قول رسول مُرسَلٍ من الله وكان قد تضمن ذلك ثناءً على النبي صلى الله عليه وسلم بأنه صادق فيما بلغه عَن الله تعالى ، أعقبه بإبطال بهتان المشركين فيما اختلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من قولهم : ﴿ معلّم مجنون ﴾ [الدخان : 14] وقولهم : ﴿ افترى على اللَّه كذباً أم به جنة ﴾ [سبأ : 8] ، فأبطل قولهم إبطالاً مؤكداً ومؤيداً ، فتأكيده بالقَسم وبزيادة الباء بعد النفي ، وتأييده بما أومأ إليه وصفه بأن الذي بلّغه صاحِبُهم ، فإن وصف صاحب كناية عن كونهم يعلمون خُلقه وعقلَه ويعلمون أنه ليس بمجنون ، إذ شأن الصاحب أن لا تَخفى دقائقُ أحواله على أصحابه .

والمعنى : نفي أن يكون القرآن من وساوس المجانين ، فسلامة مُبَلِّغِه من الجنون تقتضي سلامة قوله عن أن يكون وَسْوَسَة .

ويجري على ما تقدم من القول بأن المراد بـ ﴿ رسول كريم ﴾ [التكوير : 19] النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون قوله : ﴿ صاحبكم ﴾ هنا إظهاراً في مقام الإِضمار للتعريض بأنه معروف عندهم بصحة العقل وأصالة الرأي .

والصاحب حقيقته : ذو الصحبة ، وهي الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة والموافقة ، ومنه قيل للزوج : صاحبةٌ وللمسافر مع غيره صاحبٌ ، قال امرؤ القيس :

بَكَى صاحبي لَمَّا رأي الدَّرْبَ دونَه

وقال تعالى حكاية عن يوسف : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ [يوسف : 39] ، وقال الحريري في "المقامة الحادية والعشرين" : "ولا لَكم مني إلا صُحْبَة السفينة" .

(42/805)

وقد يتوسعون في إطلاقه على المخالِط في أحوال كثيرة ولو في الشر ، كقول الحجاج يخاطب الخوارج : "ألسْتُم أصحابي بالأهواز حينَ رمتم الغدر ، واستبطنتم الكفر" .

وقول الفضل اللّهبِي :

كلّ له نيَّة في بُغْضِ صاحبه

بنعمةِ اللَّه نَقْلِيكم وتَقْلُونا . . .

والمعنى : أن الذي تخاصمونه وتكذبونه وتصفونه بالجنون ليس بمجنون وأنكم مخالطوه وملازموه وتعلمون حقيقته فما قولكم عليه : "إنه مجنون" إلا لقصد البهتان وإساءة السمعة .

فهذا موقع هذه الجملة مع ما قبلها وما بعدها ، والقصد من ذلك إثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم ولا يخطر بالبال أنها مسوقة في معرض الموازنة والمفاضلة بين جبريل ومحمد عليهما السلام والشهادة لهما بمزاياهما حتى يشم من وفرة الصفات المجراة على جبريل أنه أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم

ولا أن المبالغة في أوصاف جبريل مع الاقتصاد في أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم تؤذن بتفضيل أولهما على الثاني .

ومن أسمج الكلام وأضعف الاستدلال قول صاحب "الكشاف" : "وناهيك بهذا دليلاً على جلالة مكانة جبريل عليه السلام ومباينة منزلته لمنزلة أفضل الإنس محمد صلى الله عليه وسلم إذا وازنت بين الذِّكْرين وقايست بين قوله:

﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ [التكوير : 19 ، 20] ، وبين قوله : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ أ هـ .

(43/805)

وكيف انصرف نظرُه عن سياق الآية في الرد على أقوال المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقولوا في جبريل شيئاً لأن الزمخشري رام أن ينتزع من الآية دليلاً لمذهب أصحاب

الاعتزال من تفضيل الملائكة على الأنبياء ، وهي مسألة لها مجال آخر ، على أنك قد علمتَ أن الصفات التي أجريت على ﴿ رسول في قوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ إلى قوله : ﴿ أمين ﴾ [التكوير : 19 21] ، غيرُ متعين انصرافُها إلى جبريل فإنها محتملة الانصراف إلى محمد صلى الله عليه وسلم وقد يطغى عليه حب الاستدلال لعقائد أهل الاعتزال طغياناً يرمي بفهمه في مهاوي الضَّآلة ، وهل يسمح بال ذي مسكة من علم بمجاري كلام العقلاء أن يتصدى متصد لبيان فضل أحد بأن ينفي عنه أنه مجنون ، وهذا كله مبني على تفسير : ﴿ رسول كريم ﴾ بجبريل فأما إن أريد به محمد صلى الله عليه وسلم أوْ هو وجبريل عليهما السلام فهذا مقتلَع من جذره .

ولا يخفى أن العدول عن اسم النبي العَلَم إلى ﴿ صاحبكم ﴾ لما يؤذن به ﴿ صاحبكم ﴾ من كونهم على علم بأحواله ، وأما العدول عن ضميره إن كان المراد بـ ﴿ رسول ﴾ خصوص النبي صلى الله عليه وسلم فمن الإظهار في مقام الإِضمار للوجه المذكور وإذا أريد بـ ﴿ رسول ﴾ كلاهما فذكر ﴿ صاحبكم ﴾ لتخصيص الكلام به .

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23)

عطف على جملة : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ [التكوير : 22] .

والمناسبة بين الجملتين أن المشركين كانوا إذا بلغهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر أنه نَزل عليه جبريل بالوحي من وقت غار حراء فما بعده استهزأوا وقالوا : إن ذلك الذي

يتراءى له هو جنّي ، فكذبهم الله بنفي الجنون عنه ثم بتحقيق أنه إنما رأى جبريل القويّ الأمين .

فضمير الرفع عائد إلى صاحب من قوله : ﴿ وما صاحبكم ﴾ وضمير النصب عائد إلى ﴿ رسول كريم ﴾ [التكوير : 19] ، وسياق الكرم يبين معاد الرائي والمرئي .

(44/805)

و"الأُفُق" : الفضاء الذي يبدو للعين من الكُرة الهوائية بين طرفي مطلع الشمس ومغربها من حيث يلوح ضوء الفجر ويبدو شَفَق الغروب وهو يلوح كأنه قبة زرقاء والمعنى رآه ما بين السماء والأرض .

و﴿ المبين ﴾ : وصف الأفق ، أي للأفق الواضح البيّن .

والمقصود من هذا الوصف نعت الأفق الذي تراءى منه جبريل للنبيء عليهما الصلاة والسلام بأنه أفق واضح بيّن لا تشتبه فيه المرئيات ولا يتخيل فيه الخيال ، وجُعلت تلك الصفة علامة على أن المرئي ملَك وليس بخيال لأن الأخيلة التي يتخيلها المجانين إنما يتخيلونها على الأرض تابعةً لهم على ما تعودوه من وقت الصحة ، وقد وَصَف النبي صلى الله عليه وسلم المَلَك الذي رآه عند نزول سورة المدثر بأنه على كُرسي جالس بين السماء

والأرض ، ولهذا تكرر ذكر ظهور المَلَك بالأفق في سورة النجم (5 9) في قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى إلى أن قال : أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴾ [النجم : 12 15] الآيات ، قيل : رأى النبي جبريل عليهما السلام بمكة من جهة جبل أجياد من شرقيّه .

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)

الضمير عائد إلى ﴿ صاحبكم ﴾ [التكوير : 22] كما يقتضيه السياق فإن المشركين لم يدّعوا أن جبريل ضنين على الغيب ، وإنما ادعوا ذلك للنبيء صلى الله عليه وسلم ظلماً وزوراً ، ولقرب المعاد .

و ﴿ الغيب ﴾ : ما غاب عن عِيان الناس ، أو عن علمهم وهو تسمية بالمصدر .

والمراد ما استأثر الله بعلمه إلا أن يُطلع عليه بعض أنبيائه ، ومنه وحي الشرائع ، والعلم بصفات الله تعالى وشؤونه ، ومشاهدة مَلك الوحي ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في سورة البقرة (3) .

وكتبت كلمة بضنين ﴾ في مصاحف الأمصار بضاد ساقطة كما اتفق عليه القراء .

وحكي عن أبي عبيدٍ ، قال الطبري : هو ما عليه مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به .

وفي "الكشاف" : "هو في مصحف أُبي بالضاد وفي مصحف ابن مسعود بالظاء" وقد اقتصر الشاطبي في منظومته في الرسم على رسمه بالضاد إذ قال :

والضَادُ في ﴿ بضنين ﴾ تَجمع البشرا

وقد اختلف القراء في قراءته فقرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف وروَح عن يعقوب بالضاد الساقطة التي تخرج من حافة اللسان مما يلي الأضراس وهي القراءة الموافقة لرسم المصحف الإمام .

وقرأه الباقون بالظاء المشالة التي تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا العُليا ، وذكر في "الكشاف" أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بهما ، وذلك مما لا يحتاج إلى التنبيه ، لأن القراءتين مَا كانتا متواترتين إلا وقد رُويتا عن النبي صلى الله عليه وسلم

والضاد والظاء حرفان مختلفان والكلمات المؤلفة من أحدهما مختلفة المعاني غالباً إلا نحو حُضَضِ بضادين ساقطتين وحُظظ بظاءين مشالين وحُضظ بضاد ساقطة بعدها ظاء مشالة وثلاثتها بضم الحاء وفتح ما بعد الحاء .

فقد قالوا : إنها لغات في كلمة ذات معنى واحد وهو اسم صَمَغ يقال له : خولان .

ولا شك أن الذين قرأوه بالظاء المشالة من أهل القراءات المتواترة وهم ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب قد رووه متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك فلا يقدح في قراءتهم كونُها مخالفة لجميع نسخ مصاحف الأمصار لأن تواتر القراءة أقوى من تواتر الخط إن اعتبر للخط تواتر .

وما ذُكر من شرط موافقة القراءة لما في مصحف عثمان لتكون قراءة صحيحة تجوز القراءة بها ، إنما هو بالنسبة للقراءات التي لم تُرْو متواترة كما بيناه في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير .

(46/805)

وقد اعتذر أبو عبيدة عن اتفاق مصاحف الإمام على كتابتها بالضاد مع وجود الاختلاف فيها بين الضاد والظاء في القراءات المتواترة ، بأن قال : "ليس هذا بخلاف الكتَّاب لأن الضاد والظاء لا يختلف خطهما في المصاحف إلا بزيادة رأس إحداهما على رأس الأخرى فهذا قد يتشابه ويتدانَى" أ هـ .

يريد بهذا الكلام أن ما رسم في المصحف الإمام ليس مخالفة من كتَّاب المصاحف للقراءات المتواترة ، أي أنهم يراعون اختلاف القراءات المتواترة فيكتبون بعض نسخ المصاحف على

اعتبار اختلاف القراءات وهو الغالب .

وههنا اشتبه الرسم فجاءت الظاء دقيقة الرأس .

ولا أرى للاعتذار عن ذلك حاجة لأنه لما كانت القراءتان متواترتين عن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمد كتاب المصاحف على إحداهما وهي التي قرأ بها جمهور الصحابة وخاصة عثمان بن عفان ، وأوكلوا القراءة الأخرى إلى حفظ القارئين .

وإذ تواترت قراءة ﴿ بضنين ﴾ بالضاد الساقطة ، و ﴿ بظنين بالظاء المشالة علمنا أن الله أنزله بالوجهين وأنه أراد كلا المعنيين .

فأما معنى ضنين بالضاد الساقطة فهو البخيل الذي لا يعطي ما عنده مشتقّ من الضَنّ بالضاد مصدر ضَنَّ ، إذا بخل ، ومضارعه بالفتح والكسر .

(47/805)

فيجوز أن يكون على معناه الحقيقي ، أي وما صاحبكم ببخيل أي بما يوحَى إليه وما يخبر به عن الأمور الغيبية طلباً للانتفاع بما يخبر به بحيث لا ينبئكم عنه إلا بِعِوَض تُعطونه ، وذلك كناية عن نفي أن يكون كاهناً أو عرّافاً يتلقّى الأخبار عن الجنِ إذ كان المشركون يترددون على الكهان ويزعمون أنهم يخبرون بالمغيبات ، قال تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما

تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ [الحاقة : 41 42] فأقام لهم الفرق بين حال الكهان وحال النبي صلى الله عليه وسلم بالإِشارة إلى أن النبي لا يسألهم عوضاً عما يخبرهم به وأن الكاهن يأخذ على ما يخبر به ما يسمونه حُلْواناً ، فيكون هذا المعنى من قبيل قوله تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ [الفرقان : 57] ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ [الأنعام : 90] ونحو ذلك .

ويجوز أن يكون "ضنين" مجازاً مرسلاً في الكِتمان بعلاقة اللزوم لأن الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم ، أي ما هو بكاتم الغيب ، أي ما يوحى إليه ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ﴿ ايتِ بقرآن غيرِ هذا أو بَدِّله ﴾ [يونس : 15] وقالوا : ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء : 93] .

ويتعلق ﴿ على الغيب ﴾ بقوله : ﴿ بضنين ﴾ .

وحرف (على) على هذا الوجه بمعنى الباء مثل قوله تعالى : ﴿ حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ [الأعراف : 105] أي حقيق بي ، أو لتضمين "ضنين" معنى حريص ، والحرص : شدة البخل وما محمد بكاتم شيئاً من الغيب فما أخبركم به فهو عين ما أوحيناه إليه .

وقد يكون البخيل على هذه كناية عن كاتم وهو كناية بمرتبة أخرى عن عدم التغيير .

والمعنى : وما صاحبكم بكاتم شيئاً من الغيب ، أي ما أخبركم به فهو الحق .

وأما معنى "ظنين" بالظاء المشالة فهو فعيل بمعنى مفعول مشتق من الظن بمعنى التهمة ، أي مظنون .

(48/805)

ويراد أنه مظنون به سوءٌ ، أي أن يكون كاذباً فيما يخبر به عن الغيب ، وكثر حذف مفعول ظنين بهذا المعنى في الكلام حتى صار الظن يطلق بمعنى التهمة فَعُدّي إلى مفعول واحد .

وأصل ذلك أنهم يقولون : ظَنّ به سُوءاً ، فيتعدى إلى متعلّقه الأول بحرف باء الجر فلما كثر استعماله حذفوا الباء ووصلوا الفعل بالمجرور فصار مفعولاً فقالوا ظنه : بمعنى اتهمه ، يقال : سُرِق لي كذا وظَنَنْت فلاناً .

وحرف ﴿ على ﴾ في هذا الوجه للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الظرفية نحو ﴿ أو أجِدُ على النار هدى ﴾ [طه : 10] ، أي ما هو بمتهم في أمر الغيب وهو الوحي أن لا يكون كما بلغه ، أي أن ما بَلَّغَهُ هو الغيب لا ريب فيه ، وعكسه قولهم : ائتمنه على كذا .

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25)

عطف على : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [التكوير : 19] ، وهذا رجوع إلى ما أقسم عليه من أن القرآن قول رسول كريم ، بعد أن استُطرد بينهما بتلك المستطردات الدالة على

زيادة كمال هذا القول بقُدسية مصدره ومكانةِ حامله عند الله وصدقِ متلقيه منه عن رؤية محققة لا تخيل فيها ، فكان التخلص إلى العَود لتنزيه القرآن بمناسبة ذكر الغيب في قوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ [التكوير : 24] .

فإن القرآن من أمر الغيب الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم وفيه كثير من الأخبار عن أمور الغيب الجنة والنار ونحو ذلك .

وقد علم أن الضمير عائد إلى القرآن لأنه أخبر عن الضمير بالقول الذي هو من جنس الكلام إذ قال : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ [التكوير : 25] فكان المخبر عنه من قبيل الأقوال لا محالة ، فلا يتوهم أن الضمير عائد إلى ما عاد إليه ضمير : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ .

(49/805)

وهذا إبطال لقول المشركين فيه أنه كاهن ، فإنهم كانوا يزعمون أن الكهان تأتيهم الشياطين بأخبار الغيب ، قال تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ [الحاقة : 41 42] وقال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ [الشعراء : 210 ، 211] وقال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل

الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ [الشعراء : 221 ، 222] وهم كانوا يزعمون أن الكاهن يتلقى عن شيطانه ويُسمون شيطانَه رَئِيّاً .

وفي حديث فترة الوحي ونزول سورة والضحى : أن حمالة الحطب امرأة أبي لهب وهي أم جميل بنتُ حرب قالت للنبيء صلى الله عليه وسلم "أرى شيطانَك قد قلاك" .

و﴿ رجيم ﴾ فعيل بمعنى مفعول ، أي مرجوم ، والمرجوم : المبعد الذي يتباعد الناس من شره فإذا أقبل عليهم رجموه فهو وصف كاشف للشيطان لأنه لا يكون إلا مُتَبَّرأ منه .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)

جملة : ﴿ فأين تذهبون ﴾ معترضة بين جملة : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ [التكوير : 25] وقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [التكوير : 27] .

والفاء لتفريع التوبيخ والتعجيز على الحجج المتقدمة المثبتة أن القرآن لا يجوز أن يكون كلام كاهن وأنَّه وحي من اللَّه بواسطة الملك .

وهذا من اقتران الجملة المعترضة بالفاء كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ في سورة عبس (12) .

و(أين) اسم استفهام عن المكان .

وهو استفهام إنكاري عن مكان ذهابهم ، أي طريق ضلالهم ، تمثيلاً لحالهم في سلوك طرق الباطل بحال من ضل الطريق الجادة فيسأله السائل منكراً عليه سلوكه ، أي اعدلْ عن هذا

الطريق فإنه مضلة .

ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في التعجيز عن طلب طريق يسلكونه إلى مقصدهم من الطعن في القرآن .

والمعنى : أنه قد سدت عليكم طرق بهتانكم إذ اتضح بالحجة الدامغة بطلان ادعائكم أن القرآن كلام مجنون أو كلام كاهن ، فماذا تدعون بعد ذلك .

(50/805)

واعلم أن جملة أين تذهبون قد أرسلت مثلاً ، ولعله من مبتكرات القرآن وكنت رأيت في كلام بعضهم : أين يذهب بك ، لمن كان في خطأ وعماية .

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27)

بعد أن أفاقهم من ضلالتهم أرشدهم إلى حقيقة القرآن بقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، وهذه الجملة تنزل منزلة المؤكدة لجملة : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ [التكوير : 25] ولذلك جردت عن العاطف ، ذلك أن القصر المستفاد من النفي والاستثناء في قوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ يفيد قصر القرآن على صفة الذكر ، أي لا غير ذلك وهو قصر إضافي قصد منه إبطال أن يكون قول شاعر ، أو قول كاهن ، أو قول مجنون ، فمن جملة

ما أفاده القصر نفي أن يكون قول شيطان رجيم ، وبذلك كان فيه تأكيد لجملة : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ .

والذكر اسم يجمع معاني الدعاء والوعظ بحسن الأعمال والزجر عن الباطل وعن الضلال ، أي ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس يَنْتَفِعون به في صلاح اعتقادهم ، وطاعة الله ربهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وآداب بعضهم مع بعض ، والمحافظة على حقوقهم ، ودوام انتظام جماعتهم ، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه .

ف"العالمين" يعمّ كل البشر لأنهم مدعوون للاهتداء به ومستفيدون مما جاء فيه .

فإن قلت : القرآن يشتمل على أحاديث الأنبياء والأمم وهو أيضاً معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف قصر على كونه ذكراً .

قلت : القصر الإِضافي لا يقصد منه إلا تخصيص الصفة بالموصوف بالنسبة إلى صفة أخرى خاصة ، على أنك لك أن تجعل القصر حقيقياً مفيداً قصر القرآن على الذكر دون غير ذلك من الصفات ، فإن ما اشتمل عليه من القصص والأخبار مقصود به الموعظة والعبرة كما بينت ذلك في المقدمة السابعة .

وأما إعجازه فله مدخل عظيم في التذكير لأن إعجازه دليل على أنه ليس بكلام من صُنع البشر ، وإذا عُلم ذلك وقع اليقين بأنه حق .

وأبدل من ﴿ للعالمين ﴾ قوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ بدل بعض من كل ، وأعيد مع البدل حرف الجر العامل مثله في المبدل منه لتأكيد العامل كقوله تعالى : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان ﴾ [الأنعام : 99] وقوله : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ وتقدم في سورة الأعراف (75) .

والخطاب في قوله : منكم ﴾ للذين خوطبوا بقوله : ﴿ فأين تذهبون ﴾ [التكوير : 26] وإذا كان القرآن ذكراً لهم وهم من جملة العالمين كان ذكر : ﴿ لمن شاء أن يستقيم ﴾ من بقية العالمين أيضاً بحكم قياس المساواة ، ففي الكلام كناية عن ذلك .

وفائدة هذا الإِبدال التنبيه على أن الذين تذكروا بالقرآن وهم المسلمون قد شاؤوا الاستقامة لأنفسهم فنصحوا أنفسهم ، وهو ثناء عليهم .

وفي مفهوم الصلة تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ما حال بينهم وبين التذكر به إلا أنهم لم يشاؤوا أن يستقيموا ، بل رضوا لأنفسهم بالاعوجاج ، أي سوء العمل والاعتقاد ، ليعلم السامعون أن دوام أولئك على الضلال ليس لقصور القرآن عن هديهم بل لأنهم أبوا أن يهتدوا به ، إما للمكابرة فقد كانوا يقولون:

﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] وإما للإِعراض عن تلقيه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم

تغلبون ﴾ [فصلت : 26] .

والاستقامة مستعارة لصلاح العمل الباطني ، وهو الاعتقاد ، والظاهري وهو الأفعال والأقوال تشبيهاً للعمل بخط مستقيم تشبيهَ معقول بمحسوس .

ثم إن الذين لم يشاءوا أن يستقيموا هم الكافرون بالقرآن وهم المسوق لهم الكلام ، ويلحق بهم على مقادير متفاوتة كل من فرط في الاهتداء بشيء من القرآن من المسلمين فإنه ما شاء أن يستقيم لما فَرَط منه في أحوال أو أزمان أو أمكنة .

(52/805)

وفي هذه الآية إشارة بينة على أن من الخطأ أن يوزن حال الدين الإِسلامي بميزان أحوال بعض المسلمين أو معظمهم كما يفعله بعض أهل الأنظار القاصرة من الغربيين وغيرهم إذ يجعلون وجهة نظرهم التأمل في حالة الأمم الإِسلامية ويَسْتَخلصون من استقرائها أحكاماً كلية يجعلونها قضايا لفلسفتهم في كنه الديانة الإِسلامية .

وهذه الآية صريحة في إثبات المشيئة للإِنسان العاقل فيما يأتي ويدع ، وأنه لا عذر له إذا قال : هذا أمر قُدِّر ، وهذا مكتوب عند الله ، فإن تلك كلمات يضعونها في غير محالها ، وبذلك يبطل قول الجبرية ، ويثبت للعبد كسب أو قدرة على اختلاف التعبير .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

يجوز أن تكون تذييلاً أو اعتراضاً في آخر الكلام.

ويجوز أن تكون حالاً.

والمقصود التكميل والاحتراس في معنى لمن شاء منكم أن يستقيم، أي ولمن شاء له ذلك من العالمين، وتقدم في آخر سورة الإنسان قوله تعالى: ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ [الإنسان: 29، 30].

والفرق بينهما أن في هذه الآية وُصف الله تعالى بـ ﴿ ربُّ العالمين ﴾ وهو مفيد التعليل لارتباط مشيئة من شاء الاستقامة من العالمين لمشيئة الله ذلك لأنه رب العالمين فهو الخالق فيهم دواعيَ المشيئة وأسبابَ حصولها المتسلسلة وهو الذي أرشدهم للاستقامة على الحق، وبهذا الوصف ظهر مزيد الاتصال بين مشيئة الناس الاستقامة بالقرآن وبين كون القرآن ذكراً للعالمين.

وأما آية سورة الإنسان فقد ذيلت: ﴿ إنَّ الله كان عليماً حكيماً ﴾ [الإنسان: 30] أي فهو بعلمه وحكمته ينوط مشيئته لهم الاستقامة بمواضع صلاحيتهم لها فيفيد أن من لم يشأ أن يتخذ إلى ربه سبيلاً قد حرمه الله تعالى من مشيئته الخير بعلمه وحكمته كناية عن شقائهم.

و ﴿ ما ﴾ نافية ، والاستثناء من مصادر محذوفة دل عليها قوله : ﴿ إلا أن يشاء اللَّه ﴾ وتقدم بيان ذلك في سورة الإنسان .

وفي هذه الآية وآية سورة الإنسان إفصاح عن شرف أهل الاستقامة بكونهم بمحل العناية من ربّهم إذا شاء لهم الاستقامة وهيأهم لها ، وهذه العناية معنى عظيم تحير أهل العلم في الكشف عنه ، فمنهم من تطوح به إلى الجبر ومنهم من ارتمى في وهدة القدر ، ومنهم من اعتدل فجزم بقوة للعباد حادثة يكون بها اختيارهم لسلوك الخير أو الشر فسماها بعض هؤلاء قدرة حادثة وبعضهم سماها كسباً .

وحملوا ما خالف ذلك من ظواهر الآيات والأخبار على مقام تعليم الله عبادَه التأدب مع جلاله .

وهذا أقصى ما بلغت إليه الأفهام القويمة في مجامل متعارض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

ومن ورائه سلك دقيق يشُدّه قد تقصر عنه الأفهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

وأخرج أحمد والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ومسلم وابن ماجة والبيهقي في سننه عن عمرو بن حوشب أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طريق علي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : أظلمت ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال تغيرت ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ يقول : سألت .

وأخرج ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : أغورت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : أغورت ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : تناثرت ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ قال : ذهبت ﴿ وإذا العشار ﴾ عشار الإبِل ﴿ عطلت ﴾ لا راعي لها ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : أوقدت ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال : الأمثال للناس جمع بينهم ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ قال : اجتبذت .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : هي بالفارسية كور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ كورت ﴾ قال : غورت . قال يعقوب : وهي بالفارسية كور يهود .

وأخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي مريم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله : " ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : "كورت في جهنم " ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : " انكدرت في جهنم ، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى ابن مريم وأمه ولو رضيا أن يعبدا لدخلاها " " .

(55/805)

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأهوال وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ويبعث الله ريحاً دبوراً فتنفخه حتى يرجع ناراً .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الشمس والقمر مكوران يوم القيامة ، زاد البزار في مسنده في النار " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية رضي الله عنه قال : ست آيات من هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون إليه ، وست في الآخرة ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ إلى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ هذه الدنيا والناس ينظرون إليه ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ ، ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ هذه الآخرة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الأهوال وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبيّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذا وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت واختلطت ففزعت الجن إلى الإِنس والإِنس إلى الجن ، واختلط الدواب والطير والوحش فماجوا بعضهم في بعض ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : اختلطت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ أهملها أهلها ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : الجن والإِنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هي نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذا انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة

وإلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال : نكست .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال : اضمحلت .

(56/805)

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال : ذهب ضوءها ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : تساقطت ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : حشرها موتها ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : ذهب ماؤها ، غار ماؤها قال : سجرت وفجرت سواء ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ زوجت الأرواح الأجساد .

وأخرج عبد بن حميد وابن حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال : ذهب ضوءها فلا ضوء لها ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : تساقطت وتهافتت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : سيبها أهلوها أتاهم ما شغلهم عنها فلم تصر ولم تحلب ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : إن هذه الخلائق

موافيه يوم القيامة فيقضي الله فيها ما يشاء ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : ذهب ماؤها ولم يبق منها قطرة ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : الحق كل إنسان بشيعته اليهود باليهود والنصراني بالنصراني ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ قال : هي في بعض القراءة ﴿ سألت بأي ذنب قتلت ﴾ قال : لا بذنب وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه ، فعاب الله ذلك عليهم ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ قال : صحيفتك يا ابن آدم يملي ما فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة فينظر الرجل ما يمل في صحيفته ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ قال : أوقدت ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ قال : قربت ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ من عمل قال : قال عمر رضي الله عنه إلى ههنا آخر الحديث .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : هي الإبِل ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : حشرها موتها ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : ترجع الأرواح إلى أجسادها ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ قال : أطفال المشركين . قال ابن عباس : الموءودة هي المدفونة ، كانت المرأة في الجاهلية إذا هي حملت فكان أوان ولادها حفرت حفرة فتمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإن ولدت جارية رمت بها في تلك الحفرة ، وإن ولدت غلاماً حبسته .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فمن زعم أنهم في النار فقد كذب بل هم في الجنة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن خيثم في قوله : ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال : رمي بها ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : تناثرت ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ قال : سارت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ لم تحلب ولم تصر وتخلى منها أهلها ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : أتى عليها أمر الله ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : فاضت ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : كل رجل مع صاحب عمله ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ قال : كانت العرب من أفعل الناس لذلك ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أوقدت ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ قربت إلى ههنا انتهى الحديث فريق في الجنة وفريق في السعير .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإِنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : يحشر كل شيء حتى إن الذباب ليحشر .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : اختلط ماؤها بماء الأرض . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول :

لقد نازعتهم حسباً قديماً . . . وقد سجرت بحارهم بحاري

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : فتحت وسيرت .

وأخرج البيهقي في البعث من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : تسجر حتى تصير ناراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن والضحاك رضي الله عنه ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : غار ماؤها فذهب .

(58/805)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن شمر بن عطية رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : تسجر كما يسجر التنور .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن

جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في البعث وأبو نعيم في الحلية عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله : ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع السوء في النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : هو الرجل يزوّج نظيره من أهل النار يوم القيامة ، ثم قرأ ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : 22] .

وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ إذا النفوس زوّجت ﴾ قال : " هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة والنار " " .

وأخرج ابن منيع عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال : تزويجها أن يؤلف كل قوم إلى شبههم ، وقال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصبحتين ، ومقدار ما بينهما أربعون عاماً ، فينبت منه كل خلق بلي من الإنسان أو طير أو دابة ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على وجه الأرض قد نبتوا ثم ترسل الأرواح فتزوج الأجساد ، فذلك قول الله ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال : زوّج الروح للجسد .

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : زوّج الروح من الجسد وأعيدت الأرواح في الأجساد .

(59/805)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبي قال : زوّج المؤمنون الحور العين والكفار الشياطين .

وأخرج الفراء عن عكرمة في قوله : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال : يقرن الرجل في الجنة بقرينه الصالح في الدنيا ، ويقرن الرجل الذي كان يعمل السوء في الدنيا بقرينه الذي كان يعينه في النار .

وأخرج أحمد والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن سلمة بن زيد الجعفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الوئيد والموءودة في النار ، إلا أن تدرك الإِسلام فيعفو الله عنها " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الضحى مسلم

بن صبيح أنه قرأ : " وإذا الموءودة سألت " قال : طلبت قاتلها بدمائها .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والطبراني وابن مردويه عن خدامة بنت وهب قالت : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال : " ذاك الوأد الخفي وهو ﴿ الموءودة ﴾ " " .

وأخرج الطبراني عن صعصعة بن ناجية المجاشعي وهو جد الفرزدق قال : " قلت يا رسول الله إني عملت أعمالاً في الجاهلية فهل لي فيها من أجر ؟ قال : وما عملت ؟ قال : أحييت ثلثمائة وستين موءودة أشتري كل واحد منهن بناقتين عشراوين وجمل ، فهل لي في ذلك من أجر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لك أجره إذ منّ الله عليك بالإِسلام " .

وأخرج البزار والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ قال :

" جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أعتق عن كل واحدة رقبة ، قال إني صاحب إبل . قال : فأهد عن كل واحدة بدنة " " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ قال : إذا مات الإِنسان طويت صحيفته ثم تنشر يوم القيامة فيحاسب بما فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال عمر : لما بلغ ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ قال : لهذا أجري الحديث .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن علي في قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ قال : هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الأصبغ بن نباتة عن عليّ في قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ قال : خمسة أنجم زحل وعطارد والمشتري وبهرام والزهرة ليس في الكواكب شيء يقطع المجرة غيرها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الخنس نجوم تجري يقطعن المجرة كما يقطع الفرس .

وأخرج ابن مردويه والخطيب في كتاب النجوم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس ﴾ قال : هي النجوم السبعة زحل وبهرام وعطارد والمشتري والزهرة والشمس والقمر ، خنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود في قوله : ﴿ بالخنس الجواري الكنس ﴾ قال : هي بقر الوحش .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ الجواري الكنس ﴾ قال : البقر تكنس إلى الظل .

وأخرج ابن المنذر من طريق خصيف عن ابن عباس ﴿ الجواري الكنس ﴾ قال : هي الوحش تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالخنس ﴾ قال : الظباء .

وأخرج عبد بن حميد وابن راهويه والبيهقي في البعث عن عليّ ﴿ الجواري الكنس ﴾ قال : هي الكواكب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس ﴾ قال : هي النجوم تبدو بالليل وتخفى بالنهار تكنس .

(61/805)

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ بالخنس الجواري الكنس ﴾ قال : النجوم تخنس بالنهار .

وأخرج عبد بن حميد عن المغيرة قال : سأل إبراهيم مجاهداً عن قول الله ﴿ فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس ﴾ قال : لا أدري . قال إبراهيم : ولم لا تدري ؟ قال : إنكم تقولون عن عليّ إنها النجوم ، فقال : كذبوا .

فقال مجاهد : هي بقر الوحش ، والخنس الجواري حجرتها . فقال إبراهيم : هو كما قلت .

وأخرج عبد بن حميد عن بكر بن عبد الله المزني قال : ﴿ بالخنس الجواري الكنس ﴾ هي النجوم الدراري التي تجري تستقبل المشرق .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي ميسرة قال : ﴿ الجواري الكنس ﴾ بقر الوحش .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ الجواري الكنس ﴾ قال : هي الظباء إذا كنست كوانسها .

وأخرج عبد بن حميد عن جابر بن زيد ﴿ الجواري الكنس ﴾ قال : هي الظباء ألم ترها إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت نظرها ؟ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ الجواري الكنس ﴾ قال : البقر .

وأخرج الحاكم أبو أحمد في الكنى عن العدبس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل

فقال : يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس ؟ فطعن عمر مخصرة معه في عمامة الرجل ، فألقاها عن رأسه ، فقال عمر : أحروري والذي نفس عمر بن الخطاب بيده ؟ لو وجدتك محلوقاً لأنحيت القمل عن رأسك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال : إذا أدبر ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال : إذا بدا النهار حين طلع الفجر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال : إذا أدبر ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال : إذا أضاء وأقبل .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال : إذا أظلم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال : إقباله ، ويقال : إدباره .

(62/805)

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال : إقبال سواده قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول النابغة :

كأنما خدما قالوا وما وعدوا . . . ال تضمنه من عسعس

وأخرج الطحاوي والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن علي أنه خرج حين طلع الفجر فقال : نعم ساعة الوتر هذه ، ثم تلا ﴿ والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ قال : جبريل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ قال : هو جبريل وفي قوله : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : كنا نحدث أنه الأفق الذي يجيء منه النهار وفي لفظ إنه الأفق من حيث تطلع الشمس .

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : ما أحسن ما أثنى عليك ربك ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ فما كانت قوتك وما كانت أمانتك ؟ قال : أما قوّتي فإني بعثت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن ، وفي كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج ونباح الكلاب ، ثم هويت بهم فقتلتهم ، وأما أمانتي فلم أومر بشيء فعدوته إلى غيره " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : " قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل ليلة الإِسراء اكشف عن النار ، فكشف عنها فنظر إليها فذلك قوله : ﴿ مطاع ثم أمين ﴾ على الوحي

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن أبي صالح في قوله : ﴿ مطاع ثم أمين ﴾ قال : أمين على سبعين حجاباً يدخلها بغير إذن ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم وفي قوله : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : كنا نحدث أنه الأفق الذي يجيء منه النهار ، وفي لفظ : إن الأفق من حيث تطلع الشمس .

(63/805)

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : جبريل في رفرف أخضر قد سد الأفق .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : إنما عنى جبريل أن محمداً رآه في صورته عند سدرة المنتهى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " هو رأى جبريل بالأفق ، والأفق الصبح " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : السماء السابعة .

وأخرج الدارقطني في الأفراد والخطيب في تاريخه والحاكم وصححه وابن مردويه عن عاشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها " وما هو على الغيب بظنين " بالظاء .

وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه عن ابن الزبير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها " وما هو على الغيب بظنين " وفي لفظ ﴿ بضنين ﴾ بالضاد .

وأخرج عبد بن حميد عن هشام بن عروة قال : كان أبي يقرؤها " وما هو على الغيب بظنين " فقيل له : في ذلك . فقال : قالت عائشة : إن الكتاب يخطئون في المصاحف .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقرأ " بظنين " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ بضنين ﴾ وقال : ببخيل .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : زعموا أنها في المصاحف وفي مصحف عثمان ﴿ بضنين ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن مجاهد وهرون قال : في حرف أبيّ بن كعب ﴿ بضنين ﴾ يعني بالضاد .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ يقول : ما كان يضن عليكم بما يعلم .

(64/805)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضن بما أنزل الله عليه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ قال : كان هذا القرآن غيباً أعطاه الله تعالى محمداً بذله وعلمه ودعا إليه وما ضن به .

وأخرج ابن المنذر عن الزهري ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ قال : لا يضن بما أوحي إليه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأها " وما هو على الغيب بظنين " قال : ما هو على القرآن بمتهم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس " وما هو على الغيب بظنين " قال : ليس بمتهم على ما جاء به وليس بضنين على ما أوتي به .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي قال : الظنين

المتهم ، والضنين البخيل .

وأخرج عبد بن حميد عن زر قال : الغيب القرآن في قراءتنا " بظنين " متهم وفي قراءتكم ﴿ بضنين ﴾ ببخيل .

وأخرج عبد بن حميد عن زر قال : الغيب القرآن في قراءتنا " بظنين " متهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قال : أن يتبع الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قالوا : الأمر إليها إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كذبوا يا محمد ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن سعد والبيهقي في الأسماء والصفات عن وهب بن منبه قال : قرأت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء وجدت في كلها أن من أضاف إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر .

(65/805)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سلمان بن موسى قال : لما نزلت ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قال أبو جهل : جعل الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن القاسم بن مخيمرة قال : لما نزلت ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قال أبو جهل : أرى الأمر إلينا فنزلت ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 425.436 ﴾

(66/805)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الحاكم أبو الفضل قال حدثنا محمد بن أحمد الكاتب المروزي حدثنا محمد بن حموية النيسابوري قال : حدثنا إبراهيم بن موسى قال : حدثنا هشام عن عبد الله عن يحيى بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلْيَقْرَأْ إِذَا الشَّمْسُ

كُوِّرتْ " وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ يعني : ذهب ضوؤها وكذلك قال الضحاك وعكرمة يعني : اضمحلت وذهبت ويقال تكور كما تكور العمامة يعني : جُمِع ضوؤها ولُفّ كما تُلف العمامة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ يعني : تناثرت وتساقطت ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ يعني : قُلعت عن الأرض وسُيِّرت في الهواء كقوله : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كذلك الله يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [الكهف : 47] يعني : خالية ليس عليها شيء من الماء والشجر وغيرها ثم قال : ﴿ وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ﴾ يعني : النوق الحوامل عطّلها أربابها اشتغالاً بأنفسهم وواحدها : عشراء وهي الناقة التي أتت على حملها عشرة أشهر وهي في الحمل فلا يعطلها أهلها إلا في يوم القيامة وهذا على وجه المثل لأن في يوم القيامة لا يكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل يعني : أن هول يوم القيامة بحال لو كان عند الرجل عشراء يعطلها واشتغل بنفسه ثم قال : ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ يعني : جُمِعَتْ ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ يعني : ضجرت بعضها إلى بعض فصارت بحراً واحداً فملئت وكثر ماؤها كقوله : ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور : 6] يعني : الممتلىء ويقال : سجرت أي أحميت بالكواكب إذا تساقطت وفيها قال ابن عباس إذا كان يوم القيامة كوّر الله تعالى الشمس والقمر والنجوم في البحر ثم بعث

الله تعالى ريحاً دبوراً فتنفخها فتصير ناراً وهو قوله : ﴿ وَإِذَا البحار سُجّرَتْ ﴾ أي : أحميت .

وقال قتادة : سجرت أي : غار ماؤها ، وقال الزجاج وقد قيل إنه جعل مياهها ناراً يعذب بها الكفار فهذه الأشياء الست التي ذكرها قبل النفخة الأخيرة والتي ذكرها بعدها تكون بعد النفخة الأخيرة وهو قوله : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوّجَتْ ﴾ قال الكلبي ومقاتل : يعني : نفوس المؤمنين قرنت بالحور العين ونفوس الكفار بالشياطين .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوّجَتْ ﴾ قال الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح وقال أبو العالية الرياحي قرنت الأجساد بالأرواح وقال القتبي الزوج القرين كقوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وأزواجهم وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : 22] يعني : قرناءهم ثم قال : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوّجَتْ ﴾ أي : قرنت نفوس الكفار بعضها ببعض والعرب تقول زوجت إبلي إذا قرنت بعضها ببعض ويقال : وإذا النفوس زوجت يعني الأبرار مع الأبرار في زمرة والأشرار مع الأشرار في زمرة ثم قال : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَيّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

وكان العرب إذا ولد لأحدهم ابنة دفنها حية وهي الموءودة فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلك أبوك وإنما يكون السؤال على وجه التوبيخ لقائلها يوم القيامة لأن جوابها قتلت بغير ذنب وهو مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَءَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمِّىَ إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سبحانك مَا يَكُونُ لى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ [المائدة : 116] وإنما سؤاله وجوابه تبكيت على من ادعى هذا عليه وقال عكرمة الموؤودة المدفونة ، كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت فكانت أوان ولادتها حفرت حفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وإن ولدت غلاماً حبسته وقرىء في الشاذ ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ يعني : المقتولة سئلت لأبويها بأي ذنب قتلتماني ولا ذنب لي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ يعني ؛ تطايرت الصحف وهي الكتب التي فيها أعمال بني آدم ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو سجرت وسعرت مخففتين ، ونشرت مشددة وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم سجرت وسعرت مشددتين ونشرت مخففة وقرأ حمزة والكسائي سجرت ونشرت مخففتين وسعرت مشددة فمن شددها فلتكثير ومن خففها فعلى غير التكثير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ يعني : نزعت من أماكنها كما يكشف الغطاء عن الشيء يعني : كشفت عما فيها ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا الجحيم

سُعِّرَتْ ﴾ يعني : للكافرين ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ يعني : قربت للمتقين فجواب هذه الأشياء قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ يعني ؛ عند ذلك تعلم كل نفس ما عملت من خير أو شر وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا

(69/805)

وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَءُوفٌ بالعباد ﴾ [آل عمران : 30] الآية .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ يعني : الذي خنس بالنهار وظهر بالليل ، ويقال الخنس النجوم التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل ﴿ الجوار الكنس ﴾ الجوار التي تجري والكنس التي ترتفع وتغيب ، وقال أهل التفسير الخنس يعني : خمسة من الكواكب فهران ، وزحل ، ومشتري ، وعطارد ، وزهرة التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل ، الجواري لأنهن تجري بالليل في السماء ﴿ الكنس ﴾ يعني : تستتر كما تكنس الظباء وقال أهل اللغة الخنس واحدها خانس كراكع وركَّع وقال بعضهم : الخنس أرادها هنا الوحوش والظباء وظباء الوحوش والجواري الكنس التي تدخل الكنائس وهذا غصن من أغصان الشجر ويكون معناه : أقسم برب هذه الأشياء وروى عكرمة عن ابن عباس : ﴿ الخنس ﴾

المعز ، والكنس : الظباء ألم ترى إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت ببصرها ؟ وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ هي بقر الوحش وقال علي بن أبي طالب : هي النجوم ، وقال القتبي هي النجوم الخمسة الكبار لأنها تخنس أي ترجع في مجراها وتكنس أي تستتر كما تكنس الظباء ثم قال عز وجل : ﴿ واليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ يعني : إذا أدبر وقال الزجاج : ﴿ عَسْعَسَ ﴾ إذا أقبل .

(70/805)

وعسعس : إذا أدبر والمعنيان يرجع إلى شيء واحد وهذا ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره وقال مجاهد ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أي إذا أظلم ثم قال عز وجل : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ يعني : إذا استضاء وارتفع ، ويقال إذا امتد حتى يصير النهار بيناً ، فأقسم بهذه الأشياء ، ويقال يخالف هذه الأشياء ﴿ أَنَّهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ على ربه يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو جبريل عليه السلام ثم أثنى على جبريل وبيَّن فضله فقال : ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ يعني : ذا شدة ويقال : أعطاه الله تعالى القوة ومن قوته أنه قلع مدائن قوم لوط بجناحه ثم قال عز وجل : ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ يعني : عند

رب العرش له منزلة ﴿ مطاع ﴾ يعني : يطيعه أهل السماوات ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ فيما استودعه الله من الرسالات ويقال : ﴿ مطاع ﴾ يعني : طاعته على أهل السموات واجبه كطاعة محمد صلى الله عليه وسلم على أهل الأرض ﴿ أَمِينٌ ﴾ على الرسالة والوحي ، ويقال : ﴿ أَمِينٌ ﴾ في السماء كما أن محمد صلى الله عليه وسلم أمين في الأرض ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا صاحبكم ﴾ الذي يدعوكم إلى التوحيد لله تعالى ﴿ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَءاهُ ﴾ يعني : رأى محمدٌ صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ﴿ بالافق المبين ﴾ عند مطلع الشمس ثم قال : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ ﴾ أي : ليس فيما يوحَى إليه من القرآن ببخيل وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بظنين بظاء وهكذا قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿ بظنين ﴾ يعني : بمتَّهم أنه يزيد فيه أو ينقص والباقون بالضاد يعني : البخيل ثم قال : ﴿ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ يعني : القرآن ليس بمنزلة قول الكهان .

(71/805)

قوله عز وجل : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ يعني : تذهبون عن طاعتي وكتابي ويقال : أنى تذهبون يعني : تعدلون عن أمري وقال الزجاج معناه فبأي طريق تسلكون أيين من هذه

الطريقة التي بينت لكم ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ يعني : ما هذا القرآن إلا عظة للجن والإنس .

قوله تعالى : ﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ يعني : لمن شاء أن يستقيم على التوحيد فليستقم ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ العالمين ﴾ فأعلمهم أن المشيئة والتوفيق والخذلان إليه وأن الأمور كلها بمشيئة الله تبارك وتعالى وإرادته والله الموفق وصلى الله على سيدنا محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 528 . 531 ﴾

(72/805)

وقال الثعلبى :

سورة التكوير

﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أظلمت ، عطية عنه : ذهبت ، مجاهد : أضمحلت ، قتادة : ذهب ضوؤها ، سعيد بن جبير : عوّرت وهي بالفارسية كوريكرد . أبو صالح : نكست ، وعنه أيضاً : أُلقيت ، يقال : طعنه فكوّره ، أي : ألقاه ، ربيع بن هيثم : رُمي بها . واصل التكوّر في كلام العرب جمع بعض الشيء إلى بعض كتكوير العمامة ، وهو لفّها على الرأس ، وتكوير الكارة من النبات ، وهو جمع بعضها إلى

بعض ولفّها ، فمعنى قوله ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ : جمع بعضها إلى بعض ، ثم لف فرمي بها وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوئها ، دليله ونظيره قوله سبحانه ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] .

﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ أي تناثرت من السماء فتساقطت على الأرض ويقال : انكدر الطائر أي سقط عن عشّه .

قال العجاج :

أبصر ضربان فضاء فانكدر . . . . وانكدر القوم إذا جاؤا أرسالا حتى انصبوا عليهم ،

قال ذو الرمّة :

فانصاع جانبه الوحشي وانكدرت . . . يلجين لا يأتلي المطلوبُ والطّلبُ

ابن عباس : تغيّرت .

﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ عن وجه الأرض فصارت هباء منبثاً ﴿ وَإِذَا العشار ﴾ وهي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر واحدتها عُشراء ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة وهي أنفس ما تكون عند أهلها وأعزّها عليهم . ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ سُيّبت وأهملت تركها أربابها وكانوا [. . . .] لأذنابها فلم تركب ولم تحلب ، ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها . لاتيان ما يشغلهم عنها .

﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ .

أخبرنا عبد الخالق قال : أخبرنا ابن حبيب قال : حدّثنا أبو العباس البرتي قال : حدّثنا أبو نعيم قال : حدّثنا سفيان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ قال : حشرها موتها ، وقال ابن عباس : حشر كلّ شيء الموت غير الجنّ والإنس فإنهما يوقفان يوم القيامة ، وقال أُبيّ بن كعب وإذا ﴿ الوحوش حُشِرَتْ ﴾ أي اختلطت . قتادة : جمعت ، وقيل : بعثت ليقضي الله [بينها] .

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ قرأ أهل مكّة والبصرة بالتخفيف وغيرهم بالتشديد ، واختلفوا في معناه فقال ابن زيد وشمر بن عطيّة وسفيان ووهب : أُوقدت فصارت ناراً . قال ابن عباس : يكوّر الله الشمس والقمر والنجوم في البحر فيبعث عليها ريحاً دبوراً فينفخه حتى يصير ناراً .

وقال مجاهد ومقاتل والضحّاك : يعني فجر بعضها في بعض العذب والملح فصارت البحور كلّها بحراً واحداً .

قال الحلبي : ملئت ، ربيع بن حيثم : فاضبّت ، الحسن : يبست ، قتادة : ذهب ماؤها فلم يبق فيها قطرة ، وقتل : صارت مياهها بحراً واحد له من الحميم لأهل النار .

وأخبرنا عقيل أنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثنا الحسن بن الحريث قال : حدّثنا الفضل موسى عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : حدّثني أُبيّ بن كعب قال : ستّ آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فجردت واضطربت واحترقت وفزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم في بعض فذلك قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هي نار تأجج .

(74/805)

قال : فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة العليا ، قال : فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم .

﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ أخبرنا الحسن قال : أخبرنا السُني قال : أخبرنا أبو يعلي قال : حدّثنا محمد بن بكار قال : حدّثنا الوليد بن أبي نور عن سماك عن النعمان بن بشير أنه قال

: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قال : [الضرباء] كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن خالد قال : حدّثنا أحمد بن خالد الوهبي قال : حدّثنا إسماعيل عن سماك بن حرب إنّه سمع النعمان بن بشير يقول : قال عمر بن الخطاب : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قال : الفاجر مع الفاجر ، والصالح مع الصالح ، قال ابن عباس : ذلك حتى يكون الناس أزواجاً ثلاثة ، وقال الحسن وقتادة : أُلحِقَ كلّ امريء بشيعته ، اليهود باليهود والنصارى بالنصارى ، الربيع بن خيثم بحشر المرء مع صاحب عمله : مقاتل : زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين ونفوس الكافرين بالشياطين نظيرها ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : 22] ، وقيل : زوجت النفوس بأعمالها .

وأخبرنا محمد بن حمدون قال : أخبرنا مكي قال : حدّثنا حمد بن الأزهر قال : حدّثنا أسباط عن أبيه عن عكرمه في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قال زوّجت الأرواح في الأجساد .

(75/805)

﴿ وَإِذَا الموءودة ﴾ وهي الجارية المقتولة المدفونة حيّة سمّيت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤدها أي يثقلها حتى تموت ، قالوا : وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحيها ألبسها جبّة من صوف أو شعر ترعى الإبل والغنم في البادية وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال أبوها لأمها طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر لها بئراً في الصحراء فإذا بلغ بها البئر قال لها : انظري إلى هذا البئر فيدفعها من خلفها في البئر لم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض ، فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب ﴾ [النحل : 59] وقال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فإذا ولدت جارية رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت غلاماً حبسته ، وكانت طوائف من العرب يفعلون ذلك وفيه يقول قائلهم :

سميتها إذ ولدت تموت . . . والقبر صهر ضامن رميت

وقال قتادة : كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه فعاب الله تعالى ذلك عليهم وأوعدهم .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان أن قال : حدّثنا الفراتي قال : حدّثنا محمد بن مهدي الأبلي ويحيى بن موسى قالا : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا إسرائيل بن يونس عن سماك ابن حرب عن النعمان بن بشير قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يقول في قول الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ قال : " جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني وأدت ثمان بنات في الجاهلية ، قال : " فأعتق عن كلّ واحدة منهم رقبة " .

قال : يا رسول الله إني صاحب إبل . قال : " فانحر عن كل واحدة منهنّ بدنة إن شئت " .

(76/805)

﴿ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ قراءة العامة على الفعل المجهول فيهما ، ولها وجهان : أحدهما : سئلت هي فقيل لها : بأي ذنب قتلت وبأي فجور قتلت ؟ كما يقال : قال عبد الله إنه ذاهب وإني ذاهب ، وقال عبد الله بأي ذنب ضربت وبأي ذنب ضرب ، كلاهما سائغ جائز ، والآخر : سُئل عنها الذين وأدوها كأنّك قلت : طلبت منهم فقيل : أين أولادكم وبأي ذنب قتلتموهم .

وأخبرنا الحسن بن محمد بن عبد الله المقريء قال : أخبرنا البغوي ببغداد قال : حدّثنا ابن أبي شيبة قال : حدّثنا زياد بن أيوب دلويه قال : حدّثنا هشام عن رجل ذكروا أنه هارون ، قال زياد : ولم اسمعه أنا من هاشم عن جابر بن زيد أنه كان يقرأ ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ ومثله قرأ أبو الضحى ومسلم بن صبح .

﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ قرأ أهل المدينة والشام والبصرة إلاّ أبا عمرو بالتخفيف غيرهم بالتشديد لقوله سبحانه ﴿ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر : 52] .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا هارون قال : حدّثنا اليسيّري قال : حدّثنا سعيد بن سليمان عن عبد الحمد بن سليمان قال : حدّثنا محمد بن أبي موسى عن عطاء بن بشار عن أم سلمه قالت : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة " قالت يا رسول الله كيف بالنساء ؟ قال : " شغل الناس يا أم سلمة " قالت : وما شغلهم قال : " نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل " .

﴿ وَإِذَا السمآء كُشِطَتْ ﴾ أي فعلت ونزعت وجذبت عن أماكنها ثم طويت ، وفي قراءة عبد الله : قشطت بالقاف وهما لغتان ، والقاف والكاف في كلام العرب يتعاقبان مخرجيهما كما يقال : الكافور والقافور والقف والكُف .

﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ قرأ أهل المدينة بالتشديد غيرهم بالتخفيف واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لأنها واحدة واختلف فيه بن عاصم وبن عامر ، ومعناه : أوقدت ، قال قتادة : سعّرها غضب الله وخطايا بني آدم .

(77/805)

﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ قرّبت لأهلها نظيرها قوله : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : 90] ﴿ عَلِمَتْ ﴾ عند ذلك ﴿ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ من خير أو شرّ وهو جواب لقوله : ﴿ إِذَا الشمس ﴾ وما بعدها كما يقال : إذا قام زيد قعد عمر ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِمَتْ ﴾ : اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا وستة في الآخرة .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس * الجوار الكنس ﴾ قال قوم : هي النجوم الخمسة الذراري السيارة تخنس في مجارتها فترجع ورائها ويكنس في وقت اختفائها غروبها كما يكنس الظباء في مغارها ، وقال قتادة : هي النجوم تبدوا بالليل وتخفى بالنهار فلا تُرى ودليل هذا التأويل ما روى شعبة عن سماك عن خالد بن عرعرة أن رجلا من مراد قال لعلي : ما الخنس الجوار الكنس ؟ قال : هي الكواكب تخنس بالنهار فلا تُرى وتكنس بالليل فتأوي إلى مجاريها ، وهي بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري ، قال ابن زيد : معنى الخنس : أنها تخنس أي تتأخر عن مطالعها كل سنة لها في كل عام تأخر يتأخره عن تعجيل ذلك الطلوع يخنس عنه والكنس يكنسن بالنهار فلا تُرى .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن النواب قال : حدّثنا رضوان بن أحمد بن عبد الجبار قال : حدّثنا أبو معونة عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله في قوله سبحانه : ﴿ الجوار الكنس ﴾ قال : هي بقر الوحش ، وإليه ذهب إبراهيم وجابر بن زيد وقال سعيد بن

جبير : هي الظباء وهي رواية العوفي عن ابن عباس .

وأصل الخنس الرجوع إلى وراء ، والكنوس أن يأوي إلى مكانسها ، وهي المواضع التي يأوي إليها الوحش قال الأعشى :

فلما لحقنا الحي أتلع أنس . . . كما أتلعت تحت المكانس ربرب

ويقال لها الكناس أيضاً ، قال طرفه بن العبد :

كأن كناسي ضالة يكنفانها . . . وأطرقسي تحت صلب مؤيد

وقال أوس بن حجر :

ألم تر أن الله أنزل مزنه . . . وعفر الظباء في الكناس تقمع

(78/805)

﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ قال الحسن : أقبل بظلامه ، وقال الآخرون : أدبر ، يقول العرب : عسعس الليل وسعسع إذا أدبر ولم يبق منه إلاّ اليسير ، قال علقمة بن فرط :

حتى إذا الصبح لها تنفسا . . . وانجاب عنها ليلها وعسعسّا

وقال رؤبة :

يا هند ما أسرع ما تسعسعا . . . من بعد أن كان فتى سرعرعا

من بعد إن كان فتى سرّعرعا .

﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أقبل وأضاء وبدأ أوله وقيل : أمتد وارتفع .

﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَقَوْلُ ﴾ لتنزيل ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهو جبريل (عليه السلام) ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ ﴾ في السماء يطيعه الملائكة ﴿ أَمِينٍ ﴾ على الوحي ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ ﴾ محمد ﴿ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ يعني جبريل على صورته ﴿ بالأفق المبين ﴾ وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق الذي يجيء منه النهار ، قاله مجاهد وقتادة .

(79/805)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا مخلد قال : حدّثنا ابن علويه قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا إسحق بن بشر قال : حدّثنا ابن جريج عن عكرمة ، ومقاتل عن عكرمة عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " إني أحبّ أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء " قال : لن تقوى على ذلك ، قال : " بلى " قال : فأين تشاء أن أتخيل لك ؟ قال : " بالأبطح " قال : لا يسعني قال : " فبمنى " قال : لا يسعني قال : " فبعرفات " قال : ذاك بالحرى أن يسعني ، فواعده فخرج النبي صلى الله عليه وسلم

للوقت ، فإذا هو بجبريل (عليه السلام) قد أقبل من جبال عرفات بخشخشه وكلكله قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجله في الأرض ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم خرّ مغشياً عليه فتحوّل جبريل في صورته فضمّه إلى صدره ، وقال : يا محمد لا تخف ، فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في النجوم السابعة ، وإن العرش لعلى كاهله ، وإنّه ليتضائل أحياناً من مخافة الله عزّوجل حتى يصير مثل الوضع يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلاّ عظمته " .

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ يعني محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ عَلَى الغيب ﴾ أي الوحي وخبر السماء وما اطّلع عليه من علم الغيب ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ قرأ زيد بن ثابت والحسن وابن عمرو والأشهب وعاصم والأعمش وحمزة وأهل المدينة والشام بالضاد ، وكذلك في حرف أُبيّ بن كعب ومصحفه ، وهي قراءة ابن عباس برواية مجاهد واختيار أبي حاتم ومعناه : يبخل يقول : [يأتيه] علم الغيب وهو منقوش فيه فلا يبخل به عليكم بل يعلّمكم ويخبركم به ، يقول العرب : ضننت بالشيء بكسر النون أضن به ضناً وضنانة فأنا ضنين ، أي بخيل ، قال الشاعر :

أجود بمضنون التلاد وانني . . . بسرك عمن سالني لضنين

وقرأ الباقون بالظاء وكذلك هو في حرف ابن مسعود ومصحفه وهي قراءة عبد الله وعروة ابني الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبي عبد السلمي ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ومعناه يتهمهم يقال : فلان يُظن بمال ويزن بمال أي يتهمّ به ، والظنّة : التهمة ، قال الشاعر :

أما وكتاب الله لا عن شناءة . . . هجرت ولكن الظنين ظنين

واختار أبو عبيد هذه القراءة وقال : أنهم لم يبخّلوه فيحتاج أن ينفى عنه ذلك البخل ، وإنما كذّبوه واتهموه ، ولأنّ الأكثر من كلام العرب ما هو بظنين بكذا ولا يقولون على كذا إنّما يقولون : ما أنت على كذا بمتهم ، وقيل بظنين .

بضعيف حكاه الفراء والمبرّد يقال : رجل ظنين أي ضعيف ، وبئر ضنون إذا كانت ضعيفة الماء ، قال الأعشى :

ما جعل الجد الظنون الذي . . . جُنّب صوب اللجب الماطر

مثل الفراتي إذا ما طما . . . يقذف بالبوصي والماهر

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ يعني القرآن ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ يعني قال : أين تعدلون عن هذا القرآن ، وفيه الشفاء والبيان ، قال الكسائي : سمعت العرب تقول : انطلق به الغور ، وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشام وخرجت العراق وانطلقت السوق ، أي [. . . . .] قال سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة وأنشدني بعض بني عقيل :

تصيح بنا حنيفة إذ رأتنا . . . وأي الأرض تذهب بالصياح

يريد إلى أي الأرض تذهب .

وقال الواسطي : فأين تذهبون من ضعف إلى ضعف ارجعوا إلى فُسحة الربوبيّة ليستقر بكم القرار ، وقال الجنيد : معنى هذه الآية مقرون بآية اخرى وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] فأين يذهبون .

(81/805)

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي يتبع الحق ويعمل به ويقيم عليه ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ أخبرنا أبو بكر بن عبدوس المزكى قال : أخبرنا أبو حامد بن بلال البزاز قال : حدّثنا أحمد بن يوسف السلمي قال : حدّثنا أبو مسهر قال : حدّثني سعيد عن سليمان بن موسى قال : لما أنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قال أبو جهل بن هشام : ذاك إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا [الفرمي] قال : حدّثني مالك بن سليمان قال : حدّثنا بقية عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال : لمّا أنزل الله سبحانه على رسوله : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن عمر بن مهران قال : حدّثنا أبو مسلم الكنجي قال : حدّثنا جعفر بن جبير بن فرقد قال : سمعت رجلا سأل الحسن عن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ فقال الحسن : والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها .

وأخبرني الحسن قال : حدّثنا أحمد بن علي بن الحسين قال : حدّثنا علي بن أحمد بن بسطام قال : حدّثنا إبراهيم بن الحجاج الشامي قال : حدّثنا حماد بن سلمة قال : حدّثنا أبو سنان عن وهب بن منبّه قال : الكتب التي أنزلها الله سبحانه على الأنبياء بضع وتسعون كتاباً قرأت منها بضعاً وثمانين كتاباً فوجدت فيها (من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر) .

قال الواسطي : أعجزك في جميع أوصافك فلا تشاء إلاّ مشيئته ولا تعمل إلاّ بقوته ولا تطيع إلاّ بفضله ولا تعصي . إلاّ بخذلانه فماذا يبقى لك وماذا تفتخر من أفعالك وليس من فعلك شيء ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 136.144 ﴾

(83/805)

وقال الزمخشرى :

سورة التكوير

مكية ، وآياتها 29 [نزلت بعد المسد] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكوير (81) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12)
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)

في التكوير وجهان : أن يكون من كوّرت العمامة إذا لففتها ، أى : يلف ضوءها لفا فيذهب

(84/805)

انبساطه وانتشاره في الآفاق ، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها ، لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطا غير ملفوف . أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها ، لأنّ الثواب إذا أريد رفعه لف وطوى ، ونحوه قوله يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ وأن يكون من طعنه فجوّره وكوّره : إذا ألقاه ، أى : تلقى وتطرح عن فلكها ، كما وصفت النجوم بالانكدار . فإن قلت : ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية ؟ قلت : بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كوّرت ، لأنّ «إذا» يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط انْكَدَرَتْ انقضت . قال :

أبصر خربان فضاء فانكدر «1»

ويروى في الشمس والنجوم : أنها تطرح في جهنم ليراها من عبدها ، كما قال إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ . سُيِّرَتْ أى على وجه الأرض وأبعدت . أو سيرت في الجوّ تسيير السحاب كقوله وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ . والعشار في جمع عشراء ، كالنفاس

في جمع نفساء :

وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ، وهي أنفس ما تكون عند أهلها وأعزها عليهم عُطِّلَتْ تركت مسيبة مهملة . وقيل : عطلها أهلها عن الحلب والصر ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقرئ : عطلت ، بالتخفيف حُشِرَتْ جمعت من كل ناحية . قال قتادة :

يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص . وقيل : إذا قضى بينها ردّت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبنى آدم وإعجاب بصورته ، كالطاوس ونحوه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : حشرها موتها .

يقال : إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة . وقرئ : حشرت ، بالتشديد سُجِّرَتْ قرئ بالتخفيف والتشديد ، من سجر التنور : إذا ملأه بالحطب ، أى : ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود مجرا واحدا . وقيل : ملئت نيرانا تضطرم لتعذيب أهل النار . وعن الحسن :

يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة زُوِّجَتْ قرنت كل نفس بشكلها . وقيل : قرنت الأرواح

---

(1) إذا الكرام ابتدروا الباع بدر تقضى البازي إذا البازي كسر

«انى جناحيه من الطود فمر أبصر خربان فضاء فانكدر

العجاج يمدح عمر بن عبيد اللّه التميمي . والباع بالمهملة : قدر مد اليدين ، والمراد به الكرم

مجازا . وبدر : أسرع وغلب الكرام ، وتقضى : نصب به ، وأصله : تقضض ، أبدل الثاني حرف علة وكسر الأول ، أى : أمال جناحيه ودانا هما من الجبل العظيم ، ومر : سار على وجه الجبل . وخربان - جمع خرب - : طائر يقال له الحبارى ، وهو مضاف لفضاء ، فانكدر : أى انقض وسقط عليها فيأكلها . ويروى صدر هذا الرجز :

لقد سما ابن معمر حين اعتمر مغزى بعيدا من بعيد وضبر

تقضى البازي . . . الخ . واعتمر : أى زار . والمغزى : مكان الغزو . وضبره ضبرا : جمعه جمعا . يقول : ارتفع قدره حين غزا موضعا بعيدا من الشام ، وجمع لذلك جيشا عظيما ، وأسرع كاسراع البازي إلى الحبارى : بالغ في وصف البازي تصويرا لحال المشبه ، ومبالغة في مدحه .

(85/805)

بالأجساد . وقيل بكتبها وأعمالها . وعن الحسن : هو كقوله وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً وقيل : نفوس المؤمنين بالحور ، ونفوس الكافرين بالشياطين . وأد يئد مقلوب من آد يئود : إذا أثقل . قال اللّه تعالى وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا لأنه إثقال بالتراب : كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها : ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها

تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها : طيبيها وزينيها ، حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئرا في الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها ، حتى تستوي البئر بالأرض . وقيل : كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابنا حبسته . فإن قلت :

ما حملهم على وأد البنات ؟ قلت : الخوف من لحوق العار بهم من أجلهنّ . أو الخوف من الإملاق ، كما قال اللّه تعالى وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ وكانوا يقولون : إن الملائكة بنات اللّه ، فألحقوا البنات به ، فهو أحق بهنّ . وصعصعة بن ناجية ممن منع الوأد ، فبه افتخر الفرزدق في قوله :

ومنّا الّذى منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم توأد «1»

فإن قلت : فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذي قتلت به ، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها ؟ قلت : سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . إلى قوله . . . سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ وقرئ : سألت ، أى :

خاصمت عن نفسها ، وسألت اللّه أو قاتلها ، وإنما قيل قُتِلَتْ بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت . فقيل : قتلت . أو كلامها حين سئلت لقيل :

قتلت . وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنهما : قتلت ، على الحكاية . وقرئ : قتلت ، بالتشديد . وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب ، وإذا بكت اللّه الكافر ببراءة الموؤدة من الذنب : فما أقبح به ، وهو الذي لا يظلم مثقال ذرّة أن يكرّ

---

(1) . للفرزدق ، يفتخر بجده صعصعة : قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأسلم وقال : يا رسول اللّه ، عملت أعمالا في الجاهلية فهل لي فيها من أجر ؟ فقال : وما عملت ؟ قال : قد أحييت ثلاثا وستين من الموؤدة أشترى الواحدة منهن بناقتين عشراويتين وجمل ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : هذا من باب البر ولك أجره إذ من اللّه عليك بالإسلام . ويقال : وأد بنته إذا دفنها وهي حية ، وكانت كندة تفعل ذلك خوف العار والفقر . ويروى : فأحيا الوئيد وهي أوقع . والوئيد يقال للمفرد والجمع مذكرا أو مؤنثا . ويروى : وجدي ، أى : هو الذي منع الجماعات الدافنات بناتهن حيات وفداهن من الموت ، فكأنه أحياهن ، فأطلق الوئيد على المشرفات على الموت مجازا ، والأحياء ترشيح .

عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ما تنسى عنده فعل المبكت من العذاب الشديد السرمد . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه سئل عن ذلك ، فاحتجّ بهذه الآية نُشِرَتْ قرئ بالتخفيف والتشديد ، يريد : صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ، ثم تنشر إذا حوسب . عن قتادة : صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ، ثم تنشر يوم القيامة ، فلينظر رجل ما يملى في صحيفته .

وعن عمر رضى اللّه عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق الأمر يا ابن آدم . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «يحشر الناس عراة حفاة» فقالت أمّ سلمة : كيف بالنساء ؟ فقال : شغل الناس يا أمّ سلمة» قالت : وما شغلهم ؟ قال : نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل الخردل «1» ويجوز أن يراد : نشرت بين أصحابها ، أى فرقت بينهم . وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم أى مكتوب فيها ذلك ، وهي صحف غير صحف الأعمال كُشِطَتْ كشفت وأزيلت ، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشيء . وقرأ ابن مسعود : قشطت . واعتقاب الكاف والقاف كثير . يقال : لبكت الثريد ولبقته ، والكافور والقافور سُعِّرَتْ أو قدت إيقادا شديدا . وقرئ : سعرت بالتشديد للمبالغة . قيل : سعرها غضب اللّه تعالى وخطايا بنى آدم أُزْلِفَتْ أدنيت من المتقين ، كقوله تعالى وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ قيل

: هذه اثنتا عشرة خصلة . ست منها في الدنيا ، وست في الآخرة .

وعَلِمَتْ : هو عامل النصب في إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وفيما عطف عليه . فإن قلت : كل نفس تعلم ما أحضرت ، كقوله يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً لا نفس واحدة . فما معنى قوله عَلِمَتْ نَفْسٌ ؟ قلت : هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما بعكس عنه . ومنه قوله عز وجل : رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ ومعناه : معنى كم وأبلغ منه . وقول القائل :

قد أترك القرن مصفرّا أنامله «2»

وتقول لبعض قوّاد العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : رب فارس عندي . أولا تعدم عندي فارسا ، وعنده المقانب «3» ، وقصده بذلك التمادي في تكثير فرسانه ، ولكنه أراد

---

(1) . أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن أبى موسى عن عطاء بن يسار عن أم سلمة بهذا . وأصله في الصحيحين عن عائشة ، وأخرجه الحاكم من حديث سودة .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 202 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قوله «وعنده المقانب في الصحاح «المقنب» : ما بين لثلاثين إلى الأربعين من الخيل .

(ع)

إظهار براءته من التزيد ، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده ، فضلا أن يتزيد ، فجاء بلفظ التقليل ، ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنّ قارئا قرأها عنده ، فلما بلغ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ قال : وانقطاع ظهرياه .

[سورة التكوير (81) : الآيات 15 إلى 18]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18)

بِالْخُنَّسِ الرواجع ، بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعا إلى أوله . والْجَوارِ السيارة . والْكُنَّسِ «1» الغيب من كنس الوحشي : إذا دخل كناسه . قيل : هي الدراري

(1) . تعرض الزمخشري في تفسيره العامل الخ . قال أحمد : هذا الجواب لا يستمر ، لأجل ظهور الفعل الثاني في قوله فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ولما أعضل الجواب عن هذا السؤال في سورة التكوير : التزم الشيخ أبو عمرو بن الحاجب إجازة التعطف على عاملين ، واتخذ هذه الآية وزره ومعضده في مخالفة سيبويه ، ورد على الزمخشري جوابه في سورة والشمس وضحاها ، لأنه لم يطرد له هاهنا ، وكان على رده يستحسن تيقظ فطنته في استنباطه ،

ونحن والله الموفق نلتزم مذهب سيبويه في امتناع العطف على عاملين في جعل الواو الثانية عاطفة ، ويجرى جواب الزمخشري هاهنا وينفصل عن هذه الآية فتقول : قوله وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ هذه الواو الأولى ابتداء قسم ، والواو في قوله وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ عاطفة فيطرد ما قال الزمخشري . فإن قيل : فقد خالفتم سيبويه ، فانه لا يرى الواو المتعقبة للقسم ابتداء قسم بل عاطفة ، وقد جعلتم الواو الأولى وهي متعقبة للقسم ابتداء قسم ؟ قلنا : إنما تكلم سيبويه في الواو المتعقبة للقسم بالواو وأما الآية فالقسم الأول فيها بالباء والفعل ، فجعلنا الواو بعد ذلك قسما وتبعا ، وهو أبلغ ، كأنه أقسم قسمين بشيئين مختلفين . فان قبل : أجل . إنما تكلم سيبويه على الواو المتعقبة للقسم بالواو ، فما الفرق بين المتعقبة للقسم بالواو والمتعقبة للقسم بالباء ؟ وما هما إلا سواء ، فان كل واحد منهما آلة له ، والتاء تدل على الباء فحكمهما واحد ؟ قلنا : ليستا سواء فان القسم منى صدر بالواو ولم يله واو أخرى ، فجعلها قسما آخر فيه تكرار منكره ، إذ الآلة واحدة ، ولا كذلك إذا اختلفت الآلة ، فان عاملة التكرار مأمونة إذا ، ألا ترى أنه لو صدر القسم بالواو ، ثم تلاه قسم بالباء ، لتحتم جعلهما قسمين مستقلين ، فكذلك لو حولف هذا الترتيب .

وأيضا ، فإنه إن كان المانع لسيبويه من جعل الواو الثانية قسما مستقلا مجيء الجواب واحدا ، واحتياج الواو الأولى إلى محذوف ، فالعطف يغنى عن تقدير محذوف ، فيتعين ، فلا يلزم اطراد الباء لأنها أصل القسم لا سيما مع التصريح بفعل القسم ثم تأكيده بزيادة لا ، فان في

مجموع ذلك ما يغنى عن إفراده بجواب مذكور ، ولا كذلك الواو فإنها ضعيفة المكنة في باب القسم بالنسبة إلى الباء ، فلا يلزم من حذف جواب تمكنت الدلالة عليه حذف جواب دونه في الوضوح ، وأختم الكلام على هذا السؤال بنكتة بديعة فأقول : إنما خصصت إيراد السؤال بالواو الثانية في قوله وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ دون الثالثة لأنه غير متوجه عليها . ألا تراك لو جعلتها عاطفة لم يلزمك العطف على عاملين ، لأنك تجعلها نائبة عن الباء وتجعل إذا فيها منصوبة بالفعل مباشرة إذا لم يتقدم في جملة الفعل ظرف تعطف عليه إذا ، فتصير بمثابة قولك : مررت بزيد وعمرو اليوم ، فاليوم منصوب بالفعل مباشرة ، وفهم من المثال أن مرورك بزيد مطلق غير مقيد بظرف ، وإنما المقيد باليوم مرورك بعمرو خاصة لكن يطابق الآية ، فان الظرف فيها وإن عمل فيه الفعل مباشرة فهو مقيد القسم بالليل ، لا للقسم بالخنس .

(88/805)

الخمسة : بهرام «1» ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة ، والمشترى : تجرى مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها : وكنوسها : اختفاؤها تحت ضوء الشمس . وقيل : هي جميع الكواكب ، تخنس بالنهار فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل :

أى تطلع في أماكنها ، كالوحش في كنسها . عسعس الليل وسعسع : إذا أدبر . قال العجاج

:

حتّى إذا الصّبح لها تنفّسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا «2»

وقيل : عسعس : إذا أقبل ظلامه . فإن قلت : ما معنى تنفس الصبح ؟ قلت : إذا أقبل

الصبح :

أقبل بإقباله روح ونسيم ، فجعل ذلك نفسا له على المجاز . وقيل : تنفس الصبح .

[سورة التكوير (81) : الآيات 19 إلى 21]

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21)

إِنَّهُ الضمير للقرآن لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ هو جبريل صلوات اللّه عليه «3» ذِي قُوَّةٍ

---

(1) . قوله «بهرام» : ليس بعربي ، والمراد به : المريخ . (ع) [. . . . .]

(2) . العجاج. وتنفس الصبح : اتساع ضوئه ، أو إقباله بضوء ونسيم . وضمير «لها»

الشمس ، وقيل :

للمفازة . وانجاب : انقطع وانفصل عنها ظلام الليل . وعسعس : ولى مدبرا وزال ظلامه ،

فهو توكيد لما قبله .

ويجوز أن الضمير لبقرة وحشية مثلا .

(3) . قال محمود : «المراد بالرسول الكريم : جبريل عليه السلام . وقوله عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ

ليدل على عظم منزلته ومكانته ، وثم إشارة إلى الظرف المذكور يعنى عند ذى العرش الخ»

قال أحمد : ما كان جبريل صلوات اللّه عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوى على التقصير في حق البشير النذير عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولقد اتبع الزمخشري هواه في تمهيد أصول مذهبه الفاسد ، فأخطأ على الأصل والفرع جميعا ، ونحن فبين ذلك بحول اللّه وقوته فنقول : أولا اختلف أهل التفسير ، فذهب منهم الجم الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم هاهنا إلى آخر النعوت :

محمد صلى اللّه عليه وسلم . فإن يكن كذلك واللّه أعلم فذلك فضل اللّه المعتاد على نبيه ، وإن كان المراد جبريل عليه السلام فقد اختلف الناس في المفاضلة بين الملائكة والرسل ، والمشهور عن أبى الحسن : تفضيل الرسل . ومذهب المعتزلة : تفضيل الملائكة ، إلا أن المختلفين أجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبيلين الجليلين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسل ، لأن التفضيل وإن كان ثابتا إلا أن في التعيين إيذاء للمفضول ، وعليه حمل الحذاق قوله صلى اللّه عليه وسلم «لا تفضلوني على يونس بن متى» أى لا تعينوا مفضولا على التخصيص ، لأن التفضيل على لتعميم ثابت بإجماع المسلمين ، أى تفضيل النبي صلى اللّه عليه وسلم على النبيين أجمعين ، وكان جدي رحمه اللّه يوضح ذلك بمثال فيقول : لو قلت بحضرة جماعة من الفقهاء : فلان أفضل أهل عصره ، لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل وإن لزم اندراجهم في المفضولين ، ولو عينت واحدا منهم وقلت :

فلان أفضل منك وأتقى للّه ، لأسرع به الأذى إلى بعضك . وإذا تقرر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص ، علمت أن الزمخشري أخطأ على أصله لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يعتقد ، لا يجوز أن يقال أحد من الملائكة على التخصيص أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص ، لا سيما في سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام ، ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل ، وبعد أن نكله في تعيينه النبي صلى اللّه عليه وسلم وعده مفضولا إلى اللّه فنقول : لم يذكر فيها نعت إلا والنبي صلى اللّه عليه وسلم مثله ، أولها : رسول كريم ، فقد قال في حقه صلى اللّه عليه وسلم في آخر سورة الحاقة إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وقد قيل أيضا : إن المراد جبريل ، إلا أنه يأباه قوله وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ وقد وافق الزمخشري على ذلك فيما تقدم ، فهذا أول النعوت وأعظمها .

وأما قوله ذِي قُوَّةٍ فليس محل الخلاف ، إذ لا نزاع في أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية ومن يقتلع المدائن بريشة من جناحه ، لا مراء في فضل قوته على قوة البشر . وقد قيل هذا في تفسير قوله ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى وقوله عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ فقد ثبت طاعة الملائكة أيضا لنبينا صلى اللّه عليه وسلم ، ورد أن جبريل عليه السلام قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : إن اللّه يقرئك السلام ، وقد أمر ملك الجبال أن يطيعك عند ما آذته قريش فسلم عليه الملك وقال : إن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فصبر النبي

صلى اللّه عليه وسلم واحتسب .

وأعظم من ذلك وأشرف : مقامه المحمود في الشفاعة الكبرى يوم لا يتقدمه أحد ، إذ يقول اللّه تعالى له : ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع . وأما أمين فقد قال وهو الصادق المصدوق : واللّه إني لأمين في الأرض أمين في السماء ، وحسبك قوله : وما هو على الغيب بظنين . إن قرأته بالظاء فمعناه أنه صلى اللّه عليه وسلم أمين على الغيب غير متهم ، وإن قرأته بالضاد رجع إلى الكرم ، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين الفاضل والمفضول سواء ، وما لي مباحثة في أصل المسألة ، ولكن الرد عليه في خطئه على كل قول يتعين ، وإلا فالمسئلة في غير هذا الكتاب . فنسأل اللّه أن يثبتنا على الايمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، وعلى القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن يعمر قلوبنا بحبهم ، وأن يجعل توسلنا إليه بهم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(89/805)

كقوله تعالى شَدِيدُ الْقُوى ذُو مِرَّةٍ لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن ، قال : عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ليدل على عظم منزلته ومكانته ثَمَّ إشارة إلى الظرف المذكور ، أعني : عند ذي العرش ، على أنه عند اللّه مطاع في ملائكته المقرّبين يصدرون عن أمره ويرجعون

إلى رأيه. وقرئ: ثم، تعظيما للأمانة، وبيانا لأنها أفضل صفاته المعدودة.

[سورة التكوير (81): آية 22]

وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22)

وَما صاحِبُكُمْ يعنى: محمدا صلى اللّه عليه وسلم بِمَجْنُونٍ كما تبهته الكفرة «1»، وناهيك بهذا دليلا على جلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة، ومباينة منزلته «2» أفضل الإنس محمد صلى اللّه عليه وسلم: إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما، وقايست بين قوله إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وبين قوله وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ.

---

(1). قوله «كما تبهته الكفرة» أى تتهمه بما ليس فيه. (ع)

(2). قوله «و مباينة منزلته . . . الخ» يعنى ارتفاع منزلته على منزلة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهو مبنى على مذهب المعتزلة من تفضيل الملك على البشر. ومذهب أهل السنة: تفضيل رؤساء البشر. وإنما ذكر جبريل بتلك الصفات واقتصر على نفى الجنون عن النبي صلى اللّه عليه وسلم لأن جبريل مجهول لهم، بخلاف محمد صلى اللّه عليه وسلم فاقه صاحبهم، ولذا اقتصر على نفى ما بهتوه به. (ع)

[سورة التكوير (81) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25)

وَلَقَدْ رَآهُ ولقد رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جبريل بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ بمطلع الشمس الأعلى وَما هُوَ وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحى إليه وغير ذلك بِضَنِينٍ بمتهم من الظنة وهي التهمة . وقرئ : بضنين ، من الضنّ وهو البخل أى : لا يبخل بالوحي فيزوى بعضه غير مبلغه ، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه ، وهو في مصحف عبد اللّه بالظاء ، وفي مصحف أبىّ بالضاد . وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقرأ بهما . وإتقان الفصل بين الضاد والظاء : واجب . ومعرفة مخرجيهما مما لا بد منه للقارئ ، فإنّ أكثر العجم لا يفرّقون بين الحرفين ، وإن فرقوا ففرقا غير صواب ، وبينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، وكان عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه ، وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين ، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم

والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فإن قلت : فإن وضع المصلى أحد الحرفين مكان صاحبه . قلت : هو كواضع الذال مكان الجيم ، والثاء مكان الشين ، لأن التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما وَما هُوَ وما القرآن بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ أى بقول بعض المسترقة للسمع ، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكينة .

[سورة التكوير (81) : الآيات 26 إلى 29]

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29)

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادّة اعتسافا أو ذهابا في بنيات الطريق «1» :

أين تذهب ، مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ بدل من العالمين وإنما أبدلوا منهم لأنّ الذين شاءوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر ، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعا وَما تَشاؤُنَ الاستقامة يا من

---

(1) . قوله «في بنيات الطريق» في الصحاح «بقيات الطريق» : هي الطرق الصحار تتشعب من الجادة . (ع)

يشاؤها إلا بتوفيق اللّه «1» ولطفه. أو: وما تشاؤنها أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر اللّه وإلجائه.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاذه اللّه أن يفضحه حين تنشر صحيفته» «2». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 706. 714﴾

(1). قوله «يا من يشاؤها إلا بتوفيق اللّه» تأويل المشيئة بذلك مبنى على أن فعل العبد بخلق العبد وإرادته.

لا بخلق اللّه تعالى ولا بإرادته: وهو مذهب المعتزلة. ومذهب أهل السنة: أنه يخلق اللّه تعالى وإرادته كظاهر الآيات. وقوله بقسر اللّه، أى بجبره العبد على الفعل، لكن الجبر ينافي الاختيار المصحح للتكليف واستحقاق الثواب والعقاب، ويمكن أنه أراد بقسر اللّه إرادته المستلزمة لوجود المراد، كما سبق له في الكتاب غير مرة التعبير بارادة القسر، لكن استلزام الارادة للمراد لا يستلزم قسر العبد وجبره عند أهل السنة، وإن كان اللّه هو الخالق لفعل العبد، لأنهم أثبتوا العبد الكسب، خلافا للمعتزلة. وتفصيل المقام في علم التوحيد.

(ع)

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(92/805)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إذا الشمسُ كُوِّرَتْ ﴾

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : يعني ذهب نورها وأظلمت ، قاله ابن عباس .

الثاني : غُوِّرَت ، وهو بالفارسية كوبكرد ، قاله ابن جبير .

الثالث : اضمحلت ، قاله مجاهد .

الرابع : نكست ، قاله أبو صالح .

الخامس : جمعت فألقيت ، ومنه كارة الثياب لجمعها ، وهو قول الربيع بن خيثم .

﴿ وإذا النجوم انْكَدَرَتْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : تناثرت ، قاله الربيع بن خيثم .

الثاني : تغيرت فلم يبق لها ضوء ، قاله ابن عباس .

الثالث : تساقطت ، قاله قتادة ، ومنه قول العجاج :

أبصَرَ خرْبان فضاء فانكَدَرْ . . . تَقضِّيَ البازي إذا البازي كَسَر

ويحتمل رابعاً : أن يكون انكدارها طمس آثارها ، وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها .

﴿ وإذا الجبالُ سُيِّرتْ ﴾ يعني ذهبت عن أماكنها ، قال مقاتل : فسويت بالأرض كما خلقت أول مرة وليس عليها جبل ولا فيها واد .

﴿ وإذا العِشارُ عُطِّلتْ ﴾ والعشار : جمع عشراء وهي الناقة إذا صار لحملها عشرة أشهر ، وهي أنفس أموالهم عندهم ، قال الأعشى :

هو الواهبُ المائةَ المصْطفا . . . ةَ إمّا مخاضاً وإمّا عِشاراً

فتعطل العشار لاشتغالهم بأنفسهم من شدة خوفهم .

وفي " عطلت " تأويلان :

أحدهما : أُهملت ، قاله الربيع .

الثاني : لم تحلب ولم تدر ، قاله يحيى بن سلام .

وقال بعضهم : العشار : السحاب تعطل فلا تمطر .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أنها الأرض التي يعشر زرعها فتصير للواحد عُشراً ، تعطل فلا تزرع .

﴿ وإذا الوُحوشُ حُشِرتْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : جمعت ، قاله الربيع .

الثاني : اختلطت ، قاله أبي بن كعب فصارت بين الناس .

الثالث : حشرت إلى القيامة للقضاء فيقتص للجمّاء من القرناء ، قاله السدي .

الرابع : أن حشرها بموتها ، قاله ابن عباس .

﴿ وإذا البحارُ سُجِّرتْ ﴾ فيه ثمانية تأويلات :

أحدها : فاضت ، قاله الربيع .

الثاني : يبست ، قاله الحسن .

(93/805)

الثالث : ملئت ، أرسل عذبها على مالحها ، ومالحها على عذبها حتى امتلأت ، قاله أبو الحجاج.

الرابع : فجرت فصارت بحراً واحداً ، قاله الضحاك .

الخامس : سيرت كما سيرت الجبال ، قاله السدي .

السادس : هو حمرة مائها حتى تصير كالدم ، مأخوذ من قولهم عين سجراء أي حمراء .

السابع : يعني أوقدت فانقلبت ناراً ، قاله عليّ رضي الله عنه وابن عباس وأُبي بن كعب .

الثامن : معناه أنه جعل ماؤها شراباً يعذب به أهل النار ، حكاه ابن عيسى .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف " سجرت " إخباراً عن حالها مرة واحدة ، وقرأ الباقون بالتشديد إخباراً عن حالها في تكرار ذلك منها مرة بعد أخرى .

﴿ وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني عُمل بهن عملٌ مثل عملها ، فيحشر العامل بالخير مع العامل بالخير إلى الجنة ، ويحشر العامل بالشر مع العامل بالشر إلى النار ، قاله عطية العوفي : حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة .

الثاني : يزوج كل رجل نظيره من النساء فإن من أهل الجنة زوّج بامرأة من اهل الجنة ، وإن كان من أهل النار زوّج بامرأة من أهل النار ، قاله عمر بن الخطاب ، ثم قرأ :

﴿ احْشُروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ الثالث : معناه ردّت الأرواح إلى الأجساد ، فزوجت بها أي صارت لها زوجاً ، قاله عكرمة والشعبي .

الرابع : أنه قرن كل غاو بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل خامساً : زوجت بأن أضيف إلى كل نفس جزاء عملها ، فصار لاختصاصها به كالتزويج .

﴿ وإذا الموءوجة سُئِلَتْ ﴾ والموءودة المقتولة ، كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت امرأته بنتاً دفنها حية ، إما خوفاً من السبي والاسترقاق ، وإما خشية الفقر والإملاق ، وكان ذوو

الشرف منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه حتى افتخر الفرزدق فقال :

ومِنّا الذي مَنَعَ الوائداتِ . . . فأحْيا والوئيدَ فلم تُوأَدِ

(94/805)

وسميت موءودة للثقل الذي عليها من التراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا يئوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله ، وقال متمم بن نويرة :

وموءودةٍ مقبورة في مفازةٍ . . . بآمتها موسودة لم تُمهّدِ

فقال توبيخاً لقاتلها وزجراً لمن قتل مثلها ﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ واختلف هل هي السائلة أو المسئولة ، على قولين :

أحدهما : وهو قول الأكثرين أنها هي المسئولة : ﴿ بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ فتقول : لا ذنب لي ، فيكون ذلك أبلغ في توبيخ قاتلها وزجره .

الثاني : أنها هي السائلة لقاتلها لم قتلت ، فلا يكون له عذر ، قاله ابن عباس وكان يقرأ : وإذا الموءودة سألت .

قال قتادة : يقتل أحدهما بنته ويغذو كلبه ، فأبى الله سبحانه ذلك عليهم .

﴿ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ يعني صحف الأعمال إذا كتب الملائكة فيها ما فعل أهلها من

خير وشر ، تطوى بالموت وتنشر في القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها قيقول : " ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحْصاها ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي بتشديد نشّرت على تكرار النشر ، وقرأ الباقون بالتخفيف على نشرها مرة واحدة ، فإن حمل على المرة الواحدة فلقيام الحجة بها ، وإن حمل على التكرار ففيه وجهان :

أحدهما : للمبالغة في تقريع العاصي وتبشير المطيع .

الثاني : لتكرير ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

﴿ وإذا السماءُ كُشِطَتْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها يعني ذهبت ، قاله الضحاك .

الثاني : كسفت ، قاله السدي .

الثالث : طويت ، قاله يحيى بن سلام ، كما قال تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء ﴾ الآية .

﴿ وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أحميت ، قاله السدي .

الثاني : أُوقدت ، قاله معمر عن قتادة .

الثالث : سعّرها غضب الله وخطايا بني آدم ، قاله سعيد عن قتادة .

﴿ وإذا الجنّة أُزْلِفَتْ ﴾ أي قرّبت ، قال الربيع : إلى هاتين الآيتين ما جرى الحديث فريق في الجنة وفريق في السعير .

(95/805)

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ ﴾ يعني ما عملت من خير وشر . وهذا جواب ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وما بعدها ، قال عمر بن الخطاب : لهذا جرى الحديث ، وقال الحسن : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قسم وقع على قوله ﴿ علمت نفسٌ ما أَحضَرَتْ ﴾ .

﴿ فلا أُقسِمُ بالخُنّسِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : خمسة الأنجم وهي : زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة ، قاله عليّ .

وفي تخصيصها بالذكر وجهان :

أحدهما : لأنها لا تستقبل الشمس ، قاله بكر بن عبد الله المزني .

الثاني : لأنها تقطع المجرة ، قاله ابن عباس .

الثالث : أن الخنس بقر الوحش ، قاله ابن مسعود .

الرابع : أنها الظباء ، قاله ابن جبير .

ويحتمل تأويلاً خامساً : أنها الملائكة لأنها تخنس فلا تُرى ، وهذا قَسَمٌ مبتدأ ، و " لا " التي في قوله ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ فيها الأوجه الثلاثة التي في ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ .

﴿ الجوار الكُنّسِ ﴾ فيها التأويلات الخمسة :

أحدها : النجوم ، قاله الحسن ، سميت بالجواري الكنس لأنها تجري في مسيرها .

الثاني : أنها النجوم الخمسة ، وهو قول عليّ .

والكنّس ، الغيّب ، مأخوذ من الكناس وهو كناس الوحش التي تختفي فيه ، قال أوس بن حجر :

ألم تر أن الله أنزل مُزْنَهُ . . . وعُفْرُ الظباءِ في الكِناس تَقَمّعُ

الثالث : أنها بقر الوحش لاختفائها في كناسها ، قاله ابن مسعود .

الرابع : الظباء ، قاله ابن جبير .

الخامس : هي الملائكة .

﴿ والليلِ إذا عَسْعَسَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أظلم ، قاله ابن مسعود ومجاهد ، قال الشاعر :

حتى إذ ما لَيْلُهُنَّ عَسْعَسا . . . رَكِبْنَ مِن حَدّ الظّلامِ حِنْدساً

الثاني : إذا ولى ، قاله ابن عباس وابن زيد ، قال الشاعر :

حتى إذا الصبح لها تنفسا . . . وانجاب عنها ليلها وعسعسا

الثالث : إذا أقبل ، قاله ابن جبير وقتادة ، وأصله العس وهو الامتلاء ، ومنه قيل للقدح الكبير عس لامتلائه بما فيه ، فانطلق على إقبال الليل لابتداء امتلائه ، وانطلق على ظلامه لاستكمال امتلائه ،

﴿ والصبحِ إذا تَنَفّسَ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : طلوع الفجر ، قاله عليّ وقتادة .

الثاني : طلوع الشمس ، قاله الضحاك .

وفي " تنفّسَ " وجهان :

أحدهما : بان إقباله .

الثاني : زاد ضوؤه .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن يكون تنفس بمعنى طال ، مأخوذ من قولهم قد تنفس النهار إذا طال .

﴿ إنه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ ﴾ وهو جواب القسم ، يعني القرآن .

وفي الرسول الكريم قولان :

أحدهما : جبريل ، قاله الحسن وقتادة والضحاك .

الثاني : النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عيسى ، فإن كان المراد به جبريل فمعناه قول رسول للَّه كريم عن رب العاليمن لأن أصل القول الذي هو القرآن ليس من الرسول ، إنما الرسول فيه مبلغ على الوجه الأول ، ومبلغ إليه على الوجه الثاني .

﴿ مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ ﴾ هو جبريل في أصح القولين ، يعني مطاعاً فيمن نزل عليه من الأنبياء ، أميناً فيما نزل به من الكتب .

﴿ وما صاحبكم بمجنونٍ ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ وفي الذي رآه قولان :

أحدهما : أنه رأى ربه بالأفق المبين ، وهو معنى قول ابن مسعود .

الثاني : رأى جبريل بالأفق المبين على صورته التي هو عليها ، وفيها قولان :

أحدهما : أنه رآه ببصره ، قاله ابن عباس وعائشة .

الثاني : بقلبه ، ولم يره ببصره ، قاله أبو ذر .

وفي " الأفق " قولان :

أحدهما : أنه مطلع الشمس .

الثاني : أقطار السماء ونواحيها ، قال الشاعر :

أخَذْنا بآفاقِ السماءِ عليكمُ . . . لنا قَمَراها والنُّجومُ الطّوالعُ

فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه رآه في أفق السماء الشرقي ، قاله سفيان .

والثاني : في أفق السماء الغربي ، حكاه ابن شجرة .

(97/805)

الثالث : أنه رآه نحو أجياد ، وهو مشرق مكة ، قاله مجاهد ، ﴿ وما هو على الغَيْبِ بضنين ﴾ قرأ بالظاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وفيه وجهان :

أحدهما : وما محمد على القرآن بمتهم أن يأتي بما لم ينزل عليه ، قاله ابن عباس .

الثاني : بضعيف عن تأديته ، قاله الفراء .

وقرأ الباقون بالضاد ، وفيه وجهان :

أحدهما : وما هو ببخيل أن يعلِّم كما تعلّم .

الثاني : وما هو بمتهم أن يؤدي ما لم يؤمر به .

﴿ فأَيْنَ تَذْهَبون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فإلى أين تعدلون عن كتاب الله تعالى وطاعته ، قاله قتادة .

الثاني : فأي طريق أهدى لكم وأرشد من كتاب الله ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل ثالثاً : فأين تذهبون عن عذابه وعقابه .

﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاءَ اللهُ ربُّ العالَمين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : وما تشاؤون الاستقامة على الحق إلا أن يشاء الله لكم .

الثاني : وما تشاؤون الهداية إلا أن يشاء الله بتوفيقه : وقيل إن سبب نزول هذه الآية أنه لما نزل قوله تعالى :

﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قال أبو جهل : ذلك إلينا إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 211.219 ﴾

(98/805)

وقال ابن الجوزى :

سورة التكوير

روى أبو عبد الله الحاكم في "صحيحه" من حديث عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ " .

وفي قوله تعالى : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أظلمت ، رواه الوالبي عن ابن عباس ، وكذلك قال الفراء : ذهب ضوؤها ، وهذا قول قتادة ، ومقاتل .

والثاني : ذَهَبَتْ ، رواه عطية عن ابن عباس ، وكذلك قال مجاهد : اضمحلَّتْ .

والثالث : غُوِّرَتْ ، روي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وابن الأنباري ، وهذا من قول الناس بالفارسية : كُورْبكرد .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : هو بالفارسية كورُبورْ .

والرابع : أنها تُكَوَّرُ مثل تكوير العمامة ، فتلفُّ وتمحى ، قاله أبو عبيد .

قال الزجاج : ومعنى "كُوِّرت" جمع ضوؤها ، ولُفَّتْ كما تلف العمامة .

ويقال : كَوَّرْتُ العمامة على رأسي أُكَوِّرُها : إذا لَفَفْتَها .

قال المفسرون : تُجمع الشمس بعضُها إلى بعض ، ثم تُلَفُّ ويرمى بها في البحر .

وقيل : في النار .

وقيل تعاد إلى ما خلقت منه .

قوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرَتْ ﴾ أي : تناثرت ، وتهافتت .

يقال انكدر الطائر في الهواء : إذا انقضَّ ﴿ وإذا الجبال سُيِّرت ﴾ عن وجه الأرض ، فاستوت مع الأرض ﴿ وإذا العشار عُطِّلَتْ ﴾ قال المفسرون وأهل اللغة : العشار :

النوق الحوامل ، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر فقيل لها : العشار لذلك ، وذلك الوقت أَحْسَنُ زَمَانِ حَمْلِها ، وهي تضع إذا وَضَعَتْ لتمامٍ في سنة ، فهي أنفس ما للعرب عندهم ، فلا يعطلونها إلا لإتيان ما يَشْغَلهم عنها ، وإنما خوطبت العرب بأمر العشار ، لأن أكثر عيشهم وما لهم من الإبل .

ومعنى "عُطِّلت" سُيِّبَتْ وأُهْمِلَتْ ، لإشتغالهم عنها بأهوال القيامة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش ﴾ يعني : دوابَّ البحر ﴿ حشرت ﴾ وفيه قولان .

(99/805)

أحدهما : ماتت ، قاله ابن عباس .

والثاني : جمعت إلى القيامة ، قاله السدي .

وقد زدنا هذا شرحاً في [الأنعام : 111] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا البِحار سُجِّرت ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو "سُجِرَتْ" بتخفيف الجيم ، وقرأ الباقون بتشديدها .

وفي المعنى ثلاثة أقوال :

أحدها : أُوقِدَتْ فاشتعلت ناراً ، قاله علي وابن عباس .

والثاني : يبست ، قاله الحسن .

والثالث : ملئت بأن صارت بحراً واحداً ، وكثر ماؤها ، قاله ابن السائب ، والفراء ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا النُّفوس زُوِّجَتْ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : قرنت بأشكالها ، قاله عمر رضي الله عنه .

الصالح مع الصالح في الجنة ، والفاجر مع الفاجر في النار ، وهذا قول الحسن ، وقتادة .

والثاني : رُدَّت الأرواح إلى الأجساد ، فَزُوِّجَت بها ، قاله الشعبي .

وعن عكرمة كالقولين .

والثالث : زُوِّجت أنفس المؤمنين بالحور العين ، وأنفس الكافرين بالشياطين ، قاله عطاء ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الموؤودة سئلت ﴾ قال اللغويون : الموؤودة : البنت تُدْفَن وهي حَيَّةٌ ، وكان هذا من فعل الجاهلية .

يقال : وَأَدَ وَلَدَهُ ، أي : دفنه حياً .

قال الفرزدق :

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الوَائِدَا . . .

تِ فَأَحْيَا الوَئِيدَ وَلَمْ يُوأَدِ

يعني : صعصعة بن صوحان ، وهو جَدّ الفرزدق .

قال الزجاج : ومعنى سؤالها : تبكيت قاتليها في القيامة ، لأن جوابها : قتلت بغير ذنب .

ومثل هذا التبكيت قوله تعالى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ؟ ! ﴾ [المائدة : 116] .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، وهارون عن أبي عمرو "سَأَلَتْ" بفتح السين ، وألف بعدها ﴿ بأيِّ ذنب قُتِلَتُ ﴾ بإسكان اللام ، وضم التاءَ الأخيرة .

وسؤالها هذا أيضاً تبكيت لقاتليها .

(100/805)

قال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت ، فكان أوان ولادها حفرت حفيرة ، فتمخَّضت على رأس الحفيرة ، فإن ولدت جارية رَمَتْ بها في الحفيرة ، وإن ولدت غلاماً حبسته .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قرأ نافع ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وابن عامر ، ويعقوب "نُشِرَتْ" بالتخفيف ، والباقون بالتشديد .

والمراد بالصحف : صحائف أعمال بني آدم تنشر للحساب ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾

قال الفراء : نُزِعَتْ ، فطُوِيَتْ .

وفي قراءة عبد الله "قُشِطَتْ" بالقاف ، وهكذا تقوله قيس ، وتميم ، وأسد ، بالقاف .

وأما قريش ، فتقوله بالكاف ، والمعنى واحد .

والعرب تقول : القافور ، والكافور ، والقسط ، والكسط .

وإذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات ، كما يقال : حَدَثٌ ، وَحدَتٌ .

قال ابن قتيبة : كُشِطَتْ كما يُكْشَطُ الغِطَاء عن الشيء ، فطُوِيَتْ .

وقال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف .

و ﴿ سُعِرت ﴾ أُوقدت .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم "سُعِّرت" مشددة .

قال الزجاج : المعنى واحد .

إلا أن معنى المشدد : أُوقدت مرة بعد مرة .

و ﴿ أُزْلِفَتْ ﴾ قُرِّبَتْ من المتقين .

وجواب هذه الأشياء ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ أي : إذا كانت هذا الأشياء

عَلِمَتْ في ذلك الوقت كلُّ نفس ما أحضرت من عمل ، فأثيبتْ على قدر عملها .

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال في قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ : لهذا

جرى الحديث .

وقال ابن عباس : من أول السورة إلى ها هنا اثنتا عشرة خصلة ، ستة في الدنيا ، وستة في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة ، والمعنى : أقسم ﴿ بالخُنَّس ﴾ وفيها خمسة أقوال .

أحدها : أنها خمسة أنجم تَخْنُس بالنهار فلا تُرى ، وهي زُحَل ، وعُطَارد ، والمشتري ، والمرِّيخ ، والزُّهرة ، قاله علي ، وبه قال مقاتل ، وابن قتيبة .

وقيل : اسم المشتري : البرجس .

واسم المريخ : بهرام .

(101/805)

والثاني : أنها النجوم ، قاله الحسن وقتادة على الإطلاق ، وبه قال أبو عبيدة .

والثالث : أنها بقر الوحش ، قاله ابن مسعود .

والرابع : الظباء ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والخامس : الملائكة ، حكاه الماوردي .

والأكثرون على أنها النجوم .

قال ابن قتيبة : وإنما سماها خُنَّساً ، لأنها تسير في البروج والمنازل ، كسير الشمس والقمر ، ثم تَخْنُس ، أي : ترجع ، بينا يرى أحدها في آخر البروج كَرَّ راجعاً إلى أوله ، وسماها كُنَّساً ، لأنها تكنس ، أي : تسير كما تكنس الظباء ، وقال الزجاج : تخنس ، أي : تغيب ، وكذلك تكنس ، أي : تغيب في المواضع التي تغيب فيها .

وإذا كان المراد الظباء فهو يدخل الكناس ، وهو الغصن من أغصان الشجر .

ووقف يعقوب على "الجواري" بالياء .

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ولَّى ، قاله ابن عباس ، وابن زيد ، والفراء .

والثاني : أقبل ، قاله ابن جبير ، وقتادة .

قال الزجاج : يقال : عسعس الليل : إذا أقبل .

وعسعس : إذا أدبر .

واستدل من قال : إن المراد : إدباره بقوله تعالى ﴿ والصبح إذا تَنَفَّس ﴾ وأنشد أبو عبيدة لعلقمة بن قرط :

حتى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَّسا . . .

وإنجاب عنها لَيْلُها وعَسْعَسَا

وفي قوله تعالى ﴿ تَنَفَّس ﴾ قولان .

أحدهما : أنه طلوع الفجر ، قاله علي وقتادة .

والثاني : طلوع الشمس ، قاله الضحاك .

قال الزجاج : معناه : إذا امتد حتى يصير نهاراً بَيِّناً .

وجواب القسم في قوله : ﴿ فلا أقسم بالخُنَّس ﴾ وما بعده قولُه ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني : أن القرآن نزل به جبريل .

وقد بيَّنَّا هذا في [الحاقة : 40] .

ثم وصف جبريل بقوله تعالى : ﴿ ذي قوة ﴾ وهو كقوله تعالى : ﴿ ذو مرة ﴾ وقد شرحناه في [النجم آية : 6] ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ يعني : في المنزلة ﴿ مُطَاع ثَمَّ أمين ﴾ أي : في السموات تطيعه الملائكة .

(102/805)

فَمِنْ طَاعَةِ الملائكة له : أنه أَمَرَ خازن الجنة ليلة المعراج حتى فتحها لمحمد صلى الله عليه وسلم فدخلها ورأى ما فيها ، وأمر خازن جهنم ففتَح له عنها حتى نظر إليها .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وابن مسعود ، وأبو حيوة ، "ثُمَّ" بضم الثاء .

ومعنى "أَمين" على وحي الله ورسالاته .

قال أبو صالح : أمين على أن يدخل سبعين سرادقاً من نور بغير إذن .

قوله تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ، والخطاب لأهل مكة .

قال الزجاج : وهذا أيضاً من جواب القسم ، وذلك أنه أقسم أن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمداً ليس بمجنون كما يقول أهل مكة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال المفسرون : رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته بالأفق ، وقد ذكرنا هذا في سورة [النجم : 7] .

قوله تعالى : ﴿ وما هو ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ على الغيب ﴾ أي : على خبر السماء الغائب عن أهل الأرض ﴿ بضنين ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي ، ورويس ، "بظنين" بالظاء ، وقرأ الباقون بالضاد .

قال ابن قتيبة : من قرأ بالظاء ، فالمعنى : ما هو بمُتَّهم على ما يخبر به عن الله ، ومن قرأ بالضاد ، فالمعنى : ليس ببخيل عليكم بعلم ما غابَ عنكم مما ينفعكم .

وقال غيره : ما يكتمه كما يكتم الكاهن ليأخذ الأجر عليه .

قوله تعالى : ﴿ وما هو ﴾ يعني : القرآن ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾ قال مقاتل : وذلك أن كفار مكة قالوا : إنما يجيء به الشيطان ، فيلقيه على لسان محمد .

قوله تعالى : ﴿ فأين تذهبون ﴾ قال الزجاج : معناه : فأيَّ طريق تسلكون أَبْيَنَ من هذه الطريقة التي قد بَيَّنَتُ لكم ؟ ﴿ إن هو ﴾ أي : ما هو ، يعني : القرآن ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أي : موعظة للخلق أجمعين ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ على الحق والإيمان .

والمعنى : أن القرآن إنما يتعظ به من استقام على الحق .

وقد بيَّنَّا سبيل الإستقامة ، فمن شاء أخذ في تلك السبيل .

(103/805)

ثم أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه بما بعد هذا ، وقد بَيَّنَّا هذا في سورة [الإنسان : 30] قال أبو هريرة : لما نزلت ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قالوا : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقيل : القائل لذلك أبو جهل .

وقرأ أبو بكر الصديق ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران : "وما يشاؤون" بالياء .

فصل

وقد زعم بعض ناقلي التفسير أن قوله تعالى ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ وقوله تعالى في [عبس : 12] ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ وقوله تعالى في سورة [الإنسان : 29] وفي سورة

[المزمل : 18] ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ كله منسوخ بقوله تعالى ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ ولا أرى هذا القول صحيحاً ، لأنه لو جاز وقوع مشيئتهم مع عدم مشيئته توجَّه النسخ .

فأما إذ أخبر أن مشيئتهم لا تقع إلا بعد مشيئته ، فليس للنسخ وجه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 37 . 45 ﴾

(104/805)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إذا الشّمس كورت ﴾

قال ابن عباس : أظلمت ، وغورت ، وقيل اضمحلت ، وقيل لفت كما تلف العمامة ، وأصل التكوير جمع بعض الشيء إلى بعض ومعناه أن الشّمس يجمع بعضها إلى بعض ، ثم تلف فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها ، قال ابن عباس : يكور الله الشّمس ، والقمر ، والنّجوم يوم القيامة في البحر ، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضربها فتصير ناراً .

(خ) عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " الشّمس والقمر يكوران يوم القيامة " قيل إن الشّمس ، والقمر ، جمادان فإلقاؤهما في النّار يكون سبباً لازدياد الحر في

جهنم .

﴿ وإذا النّجوم انكدرت ﴾ أي تناثرت من السماء ، وسقطت على الأرض .

قال الكلبي وعطاء : تمطر السّماء يومئذ نجوماً ، فلا يبقى نجم إلا وقع ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أي عن وجه الأرض ، فصارت هباء منثوراً .

﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ يعني النوق الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها ، واحدتها عشراء ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة ، وهي أنفس مال عند العرب فإذا كان ذلك اليوم عطلت ، وتركت هملاً بلا راع أهملها أهلها ، وقد كانوا لازمين لأذنابها ولم يكن مال أعجب إليهم منها لما جاءهم من أهوال يوم القيامة .

﴿ وإذا الوحوش ﴾ يعني من دواب البر ﴾ حشرت ﴾ أي جمعت يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض .

وقال ابن عباس : حشرها موتها قال : وحشر كل شيء موته غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال ابن عباس : أوقدت فصارت ناراً تضطرم ، وقيل فجر بعضها في بعض العذاب ، والملح حتى صارت البحار كلها بحراً واحداً وقيل صارت مياهها من حميم أهل النّار ، وقيل سجرت أي يبست ، وذهب ماؤها فلم تبق فيها قطرة .

قال أبي بن كعب : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينما النّاس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشّمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النّجوم فتحركت ، واضطربت ، وفزعت الإنس ، والجن ، واختلطت الدّواب ، والطّير ، والوحش ، وماج بعضهم في بعض .

فذلك قوله تعالى : ﴿ إذا الشّمس كورت وإذا النّجوم انكدرت وإذا الجبال سيرت وإذا العشار عطلت وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت ﴾ فحينئذ تقول الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فينطلقون إلى البحر ، فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى ، وإلى السماء السابعة العليا ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم ، وعن ابن عباس قال : هي اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا ، وستة في الآخرة ، وهي ما ذكر بعد هذه .

وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : يقرن بين الرّجل الصّالح مع الرجل الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السّوء مع الرجل السوء في النّار ، وقيل ألحق كل امرىء بشيعته اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، وقيل يحشر الرجل مع صاحب عمله ، وقيل زوّجت النّفوس بأعمالها ، وقيل زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين ، وقرنت نفوس الكافرين بالشّياطين ،

وقيل معنى زوّجت ردت الأرواح إلى الأجساد .

﴿ وإذا الموءودة سئلت ﴾ يعني الجارية التي دفنت ، وهي حية سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب ، فيئدها ، أي يثقلها حين تموت ، وكانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية .

(106/805)

تدفن البنات حية مخافة العار ، والحاجة ، وروي عن ابن عباس قال : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت ، وكان أوان ولادتها حفرت حفيرة ، فتمخضت على رأس الحفيرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفيرة ، وإذا ولدت غلاماً حبسته ، وقيل كان الرجل في الجاهلية إذا ولدت له بنت ، وأراد بقاءها حية ألبسها جبة صوف ، أو شعر وتركها ترعى الإبل ، والغنم في البادية ، وإذا أراد قتلها تركها حتى تشب ، فإذا بلغت قال لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر بئراً في الصّحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها ، فإذا نظرت دفعها من ورائها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي بالأرض ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الوائدة ، والموءودة في النّار " أخرجه أبو داود ، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد ، ولم يئد فافتخر به الفرزدق في شعره فقال :

ومنا الذي منع الوائدات . . .

وأحيا الوئيد فلم توأد

﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ معناه تسأل الموءودة ، فيقال لها ، بأي ذنب قتلت ، ومعنى سؤالها لها توبيخ قاتلها .

لأنها قتلت بغير ذنب .

﴿ وإذا الصّحف نشرت ﴾ يعني صحائف الأعمال تنشر للحساب ﴿ وإذا السّماء كشطت ﴾ أي نزعت ، وطويت ، وقيل قلعت كما يقلع السقف ، وقيل كشفت ، وأزيلت عمن فيها .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أوقدت لأعداء الله تعالى ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قربت لأولياء الله .

﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ يعني عند ذلك تعمل كل نفس ما أحضرت من خير ، أو شر وهذا جواب لقوله إذا الشّمس كورت إلى هنا .

(107/805)

قوله : ﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة والمعنى أقسم ، وقد تقدم ذلك في قوله ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ يعني النّجوم تبدو بالليل ، فتظهر ، وتخنس بالنهار تحت نور الشّمس ، ونحو هذا المعنى روي عن علي بن أبي طالب ، وقيل هي النّجوم الخمسة زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، تخنس في مجاريها ، أي ترجع وراءها في الفلك ، وتنكس ، أي تستر وقت اختفائها ، وقيل إنها تخنس ، أي تتأخر عن مطالعها ، والكنس معناه أنها لا ترى بالنهار ، وقيل هي الظباء ، وهي رواية عن ابن عباس ، وأصل الخنوس الرّجوع إلى وراء ، والكنوس هو أن تأوي إلى كناسها ، وهو الموضع الذي يأوي إليه الوحوش .

﴿ واللّيل إذا عسعس ﴾ أي أقبل بظلامه وقيل أدبر ، والعسعسة رقة الظّلام ، وذلك يكون في طرف الليل .

﴿ والصّبح إذا تنفس ﴾ أي أقبل وبدا أوله وقيل أسفر .

(108/805)

وفي تنفسه قولان أحدهما : أن في إقبال الصبح روحاً ، ونسيماً فجعل ذلك نفساً على المجاز الثاني ، أنه شبه الليل بالمكروب المحزون ، فإذا تنفس وجد راحة ، فكأنه تخلص من

الحزن ، فعبر عنه بالتنفس ، فهو استعارة لطيفة ، ولما ذكر المقسم به أتبعه بالمقسم عليه فقال تعالى : ﴿ إنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ يعني جبريل والمعنى أن جبريل نزل به عن الله : ﴿ ذي قوة ﴾ وكان من قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط الأربع من الماء الأسود ، وحملها على جناحه ، فرفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، وأنه أبصر إبليس يكلم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدسة ، فنفحه بجناحه نفحة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند ، وأنه صاح صيحة بثمود ، فأصبحوا جاثمين ، وأنه يهبط من السّماء إلى الأرض ، ثم يصعد في أسرع من رد الطّرف ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي في المنزلة والجاه ﴿ مطاع ثم ﴾ أي في السموات تطيعه الملائكة ، ومن طاعة الملائكة له أنهم فتحوا أبواب السّموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله ﴿ أمين ﴾ يعني على وحي الله تعالى إلى أنبيائه ﴿ وما صاحبكم ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) يخاطب كفار مكة ﴿ بمجنون ﴾ وهذا أيضاً من جواب القسم أقسم على أن القرآن نزل به جبريل وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ليس بمجنون كما يقول أهل مكة ، وذلك أنهم قالوا إنه مجنون ، وأن ما يقوله ليس هو إلا من عند نفسه فنفى الله عنه الجنون ، وكون القرآن من عند نفسه .

(109/805)

﴿ ولقد رآه ﴾ يعني رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جبريل على صورته التي خلق فيها ﴿ بالأفق المبين ﴾ يعني بالأفق الأعلى من ناحية المشرق حيث تطلع الشّمس ، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لجبريل عليه الصّلاة والسّلام " إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السّماء قال : لن تقوى على ذلك قال ، بلى قال فأين تشاء أن أتخيل لك قال بالأبطح ، قال لا يسعني ذلك ، قال : فبمنى قال لا يسعني ذلك قال فبعرفات ، قال : لا يسعني ذلك قال بحراء قال إن يسعني فواعده فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذلك الوقت .

فإذا هو بجبريل قد أقبل من حيال عرفات بخشخشة ، وكلكله قد ملأ ما بين المشرق ، والمغرب ، ورأسه في السماء ، ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبي (صلى الله عليه وسلم) خر مغشياً عليه ، فتحول جبريل عن صورته ، وضمه إلى صدره ، وقال : يا محمد لا تخف ، فكيف لو رأيت إسرافيل ، ورأسه تحت العرش ، ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وإن العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله جلّ جلاله وعلا علاؤه وشأنه حتى يصير كالصّعو ، يعني العصفور حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته " ﴿ وما هو ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ على الغيب ﴾ أي الوحي وخبر السّماء ، وما اطلع عليه مما كان غائباً عن علمه من القصص والأنباء .

﴿ بضنين ﴾ قرأ بالظاء ، ومعناه بمتهم والمظنة التهمة ، وقرىء بضنين بالضاد ، ومعناه ببخيل يقول إنه يأتيه علم الغيب ، ولا يبخل به عليكم ، ويخبركم به ، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً ، وهو أجرة الكاهن ، وقراءة الظاء أولى لأنهم لم يبخلوه ، وإنما اتهموه ، فنفى الله عنه تلك التهمة ، ولو أراد البخل لقال وما هو بالغيب .

(110/805)

﴿ وما هو ﴾ يعني القرآن ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾ يعني إن القرآن ليس بشعر ، ولا كهانة كما قالت قريش ، وقيل كانوا يقولون إن شيطاناً يلقيه على لسانه ، فنفى الله ذلك عنه ، ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي فأين تعدلون عن القرآن ، وفيه الشفاء ، والهدى ، والبيان ، وقيل معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم .

﴿ إن هو ﴾ يعني ما في القرآن ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أي موعظة للخلق أجمعين ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي يتبع الحق ، ويقيم عليه ، وينتفع به ثم بين أن مشيئة العبد موقوفة بمشيئته فقال تعالى : ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أعلمهم الله أن المشيئة في التوفيق للاستقامة إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله ، وتوفيقه ،

وفيه إعلام أن أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله تعالى ؛ ولا شراً إلا بخذلانه ، ومشيئته والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 212.216 ﴾

(111/805)

وقال النسفى :

سورة التكوير

مكية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إذا الشّمس كُوِّرَتْ ﴾ ذهب بضوئها من كورت العمامة إذا لفقتها أي يلف ضوءها لفاً فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق .

وارتفاع ﴿ الشمس ﴾ بالفاعلية ورافعها فعل مضمر يفسره ﴿ كورت ﴾ لأن "إذا" يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط ﴿ وإذا النّجوم انكدرت ﴾ تساقطت ﴿ وإذا الجبال سُيِّرَت ﴾ عن وجه الأرض وأبعدت أو سيرت في الجو تسيير السحاب ﴿ وإذا العشارُ ﴾ جمع عشراء وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ أهملت عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم وكانوا يحبسونها

إذا بلغت هذه الحالة لعزتها عندهم ويعطلون ما دونها .

﴿ عطلت ﴾ بالتخفيف عن اليزيدي ﴿ وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ جمعت من كل ناحية .

قال قتادة : يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص فإذا قضى بينها ردت أتراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم كالطاوس ونحوه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : حشرها موتها .

يقال : إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتم السنة .

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ ﴿ سُجّرَتْ ﴾ مكي وبصري من سجر التنور إذا ملأه بالحطب أي ملئت ، وفجر بعضاً إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً .

وقيل : ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قرنت كل نفس بشكلها الصالح مع الصالح في الجنة والطالح مع الطالح في النار ، أو قرنت الأرواح بالأجساد ، أو بكتبها وأعمالها ، أو نفوس المؤمنين بالحور العين ونفوس الكافرين بالشياطين ﴿ وَإِذَا الموءودة ﴾ المدفونة حية ، وكانت العرب تئد البنات خشية الإملاق وخوف الاسترقاق ﴿ سُئِلَتْ ﴾ سؤال تلطف لتقول بلا ذنب قتلت ، أو لتدل على قاتلها ، أو هو توبيخ لقاتلها بصرف الخطاب عنه كقوله : ﴿ أأنت قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : 116] الآية ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ وبالتشديد : يزيد .

وفيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ ﴿ فُتِحَتْ ﴾ وبالتخفيف : مدني وشامي وعاصم وسهل ويعقوب .

والمراد صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثم تنشر إذا حوسب ، ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أي فرقت بينهم ﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف ﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً .

بالتشديد : شامي ومدني وعاصم غير حماد ويحيى للمبالغة ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ أدنيت من المتقين كقوله : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] .

فهذه اثنتا عشرة خصلة ست منها في الدنيا والباقية في الآخرة .

ولا وقف مطلقاً من أول السورة إلى ﴿ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ لأن عامل النصب في ﴿ إِذَا الشمس ﴾ وفيما عطف عليه جوابها وهو ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي كل نفس ولضرورة انقطاع النفس على كل آية جوز الوقف ﴿ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ من خير وشر .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ "لا" زائدة ﴿ بالخنس ﴾ بالرواجع بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ

راجعاً إلى أوله ﴿ الجوار ﴾ السيارة ﴿ الكنس ﴾ الغيب من كنس الوحش إذا دخل كناسه .

قيل : هي الدراري الخمسة : بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري ، تجري مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفي تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس .

وقيل : هي جميع الكواكب ﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ أقبل بظلامه أو أدبر فهو من الأضداد .

﴿ والصبحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ امتد ضوءه .

ولما كان إقبال الصبح يلازمه الروح والنسيم جعل ذلك نفساً له مجازاً وجواب القسم ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ أي جبريل عليه السلام .

وإنما أضيف القرآن إليه لأنه هو الذي نزل به ﴿ كَرِيمٍ ﴾ عند ربه ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ قدرة على ما يكلف لا يعجز عنه ولا يضعف ﴿ عِندَ ذِى العرش ﴾ عند الله ﴿ مَّكِينٍ ﴾ ذي جاه ومنزلة .

(113/805)

ولما كانت على حال المكانة على حسب حال المكين قال ﴿ عِندَ ذِى العرش ﴾ ليدل على عظم منزلته ومكانته ﴿ مطاع ثَمَّ ﴾ أي في السماوات يطيعه من فيها أو عند ذي العرش أي عند الله يطيعه ملائكته المقربون يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ﴿ أَمِينٍ ﴾ على الوحي ﴿ وَمَا صاحبكم ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ كما تزعم الكفرة وهو عطف على جواب القسم.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته ﴿ بالأفق المبين ﴾ بمطلع الشمس ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب ﴾ وما محمد على الوحي ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ ببخيل من الضن وهو البخل أي لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحلوان بل يعلمه كما علم ولا يكتم شيئاً مما علم.

﴿ بظنين ﴾ مكي وأبو عمرو وعلي أي بمتهم فينقص شيئاً مما أوحي إليه أو يزيد فيه من الظنة وهي التهمة ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ وما القرآن ﴿ بِقَوْلِ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ طريد وهو كقوله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ [الشعراء : 210].

أي ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيات الطريق أي تذهب ؟.

مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل.

وقال الزجاج : معناه فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم ؟ وقال

الجنيد : فأين تذهبون عنا وإن من شيء إلا عندنا ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ ما القرآن إلا عظة للخلق ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ ﴾ بدل من ﴿ العالمين ﴾ ﴿ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أي القرآن ذكر لمن شاء الاستقامة يعني أن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعوظين جميعاً ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ الاستقامة ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ الله رَبُّ العالمين ﴾ مالك الخلق أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 335 . 337 ﴾

(114/805)

وقال ابن جزى :

سورة التكوير

﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

قال ابن عباس : ذهب ضوءها وأظلمت وقيل : رمي بها ، وقيل : اضمحلت . وأصله من تكوير العمامة لأنها إذا لفت زال انبساطها وصغر جرمها ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ أي تساقطت من مواضعها ، وقيل : تغيرت ، والأول أرجح لأنه موافق لقوله : ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ وروي أن الشمس والنجوم تطرح في جهنم ليراها من عبدها ، كما قال

: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ أي حملت وبعد ذلك تفتت فتصير هباء ثم تتلاشى ﴿ وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ﴾ العشار جمع عَشْراء وهي الناقة الحامل التي مر لحملها عشرة أشهر ، وهي أنفس ما عند العرب وأعزها فلا تعطل إلا من شدة الهول ، وتعطيلها هو تركها سائبة أي ترك حبلها ﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت ، وفي صفة حشرها ثلاثة أقوال : أحدها أنها تحشر أي تبعث يوم القيامة ، ليقتص لبعضها من بعض ثم تكون تراباً . والآخر أنها تحشر بموتها دفعة واحدة عند هول القيامة قاله ابن عباس ، وقال : إنها لا تبعث وأنه لا يحضر القيامة إلا الإنس والجن والثالث أنها تجمع في أول أهوال القيامة وتفر في الأرض فذلك حشرها .

(115/805)

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً ، والآخر مُلئت نيراناً لتعذيب أهل النار ، والثالث فرغت من مائها ويبست . وأصله من سَحْرتُ التنور إذا ملأتها ، فالقول الأول والثاني أليق بالأصل . والأول والثالث موافق لقوله " فجرت " ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها أن التزويج بمعنى التنويع لأن الأزواج هي الأنواع ، فالمعنى جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن ، والثاني : زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين ، والثالث : زوجت الأرواح والأجساد أي ردت إليها عند البعث الأول هو الأرجح ، لأنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عمر بن الخطاب وابن عباس ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ الموؤدة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حية من كراهته لها ، ومن غيرته عليها فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلت على وجه التوبيخ لقاتلها ، وقرأ ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ بضم القاف وسكون اللام وضم التاء ، واستدل ابن عباس بهذه الآية على أن اولاد المشركين في الجنة لأن الله ينتصر لهم ممن ظلمهم ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل أحد كتابه ، وقيل : هي الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمائل بالجزاء ﴿ وَإِذَا السمآء كُشِطَتْ ﴾ الكشط هو التقشير كما يكشط جلدة الشاة حي تسلخ ، وكشط السماء هو طيها كطي السجل قاله ابن عطية ، وقيل : معناه كشفت وهذا أليق بالكشط ﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أي أوقدت وأحميت . ﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ أي قربت ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ هذا جواب إذا المكررة في المواضع قبل هذا ، ومعناه علمت كل نفس ما أحضرت من عمل ، فلفظ النفس مفرد يراد بكه الجنس والعموم

وقال ابن عطية : إنما أفدرها ليبين حقارتها وذلتها ، وقال الزمخشري : هذا من

(116/805)

عكس كلامهم الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الحجر : 2] ومعناه التكثير ، وكذلك هنا معناه أعم الجموع ﴿ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ عبارة عن الحسنات والسيئات .

(117/805)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ ذكرت نظائره ﴿ بالخنس * الجوار الكنس ﴾ يعني الدراري السبعة وهي الشمس والقمر وزحل وعطارد والمريخ والمشتري والزهرة وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها أي تتقهقر ، فيكون النجم في البرج ثم بكرّ راجعاً وهي جواري في الفلك ، وهي تنكنس في أبراجها أي تستتر وهو مشتق من قولك : كنس الوحش إذا دخل كناسه وهو موضعه . وقيل : يعني الدراري الخمسة وهو مشتق بضوء الشمس . وقيل : يعني النجوم كلها ، لأنها تخنس في جريها وتنكنس بالنهار أي تستر ، وتختفي بضوء الشمس . وقيل : يعني بقر الوحش ، فالخنس على هذا من خنس الأنف والكنس من سكناها في

كناسها ﴿ والليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ يقال عسعس إذا كان غير مستحكم الظلام ، فقيل : ذلك في أوله ، وقيل : في آخره وهذا أرجح ، لأن آخر الليل أفضل ، ولأنه أعقبه بقوله : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي استطار واتسع ضوؤه ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ الضمير للقرآن والرسول الكريم جبريل ، وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . قال السهيلي : لا يجوز أن يقال إنه محمد عليه السلام ؛ لأن الآية نزلت في الرد على الذين قالوا إن محمداً قال القرآن ، فكيف يخبر الله أنه قوله : وإنما أراد جبريل ، وإضاف القرآن إليه لأنه جاء به ، وهو في الحقيقة قول الله تعالى ، وهذا الذي قال السهيلي لا يلزم ، فإنه قد يضاف إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه تلقاه عن جبريل عليه السلام ، وجاء به إلى الناس ، ومع ذلك فالأظهر أنه جبريل وصفه بقوله : ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ وقد وصف جبريل بهذا لقوله : (شديد القوى) و (ذو مرة) ﴿ عِندَ ذِي العرش ﴾ يتعلق بذي قوة ، وقيل : بمكين ، وهذا أظهر والمكين الذي له مكانة أي جاه وتقريب ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ هذا الظرف إشارة إلى الظرف المذكور قبله . وهو عند ذي العرش أي مطاع في ملائكة ذي العرش ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم باتفاق ﴿ وَلَقَدْ

رَآهُ بالأفق المبين ﴾ ضمير الفاعل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وضمير المفعول لجبريل عليه السلام ، وهذه الرؤية له بغار حراء على كرسي بين السماء والأرض . وقيل : الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء ، ووصف هذا الأفق بالمبين لأنه روي أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، وأيضاً كل أفق فهو مبين ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ ﴾ الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم . ومن قرأ بالضاد فمعناه بخيل أي لا يبخل بأداء ما ألقى إليه من الغيب ، وهو الوحي ، ومن قرأ بالظاء فمعناه متهم أي لا يتهم على الوحي ، بل هو أمين عليه . ورجح بعضهم هذه القرءاة بأن الكفار لم ينسبوا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى البخل بالوحي بل اتهموه فنفى عنه ذلك ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ الضمير للقرآن ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ خطاب لكفار قريش أي ليس لكم زوال عن هذه الحقائق . وقد تقدم تفسير بقية السورة في نظائره فيما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 180.182 ﴾

(119/805)

وقال البيضاوى :

سورة التكوير

مكية وآيها تسع وعشرون آية بسم

الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾

لفت من كورت العمامة إذا لففتها بمعنى رفعت لأن الثوب إذا أريد رفعه لف ، أو لف ضوؤها فذهب انبساطه في الآفاق وزال أثره ، وألقيت عن فلكها من طعنه فكوره إذا ألقاه مجتمعاً والتركيب للإرادة والجمع وارتفاع الشمس بفعل يفسره ما بعدها أولى لأن إذا الشرطية تطلب الفعل .

﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ انقضت قال :

أَبْصِرْ خَرْبَانَ فَضَاءَ فانكدر . . . أو أظلمت من كدرت الماء فانكدر .

﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ عن وجه الأرض أو في الجو .

﴿ وَإِذَا العشار ﴾ النوق اللواتي أتى على حملهن عشرة أشهر جمع عشراء . ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تركت مهملة ، أو السحائب عطلت عن المطر ، وقرىء بالتخفيف .

﴿ وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ﴾ جمعت من كل جانب أو بعثت للقصاص ثم ردت تراباً ، أو أميتت من قولهم إذا أجحفت السنة بالناس حشرتهم ، وقرىء بالتشديد .

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً ، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح

بالتخفيف .

﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ قرنت بالأبدان أو كل منها بشكلها ، أو بكتابها وعملها أو نفوس المؤمنين بالحور ونفوس الكافرين بالشياطين .

﴿ وَإِذَا الموءودة ﴾ المدفونة حية وكانت العرب تئد البنات مخافة الإِملاق ، أو لحوق العار بهم من أجلهم .

﴿ سُئِلَتْ بِأَىّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ تبكيتاً لوائدها كتبكيت النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أَأَنت قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونى وَأُمّىَ إِلهين مِن دُونِ الله ﴾ وقرىء "سألت" أي خاصمت عن نفسها وسألت ، وإنما قيل ﴿ قُتِلَتْ ﴾ على الإِخبار عنها وقرىء " قُتِلَتْ" على الحكاية .

(120/805)

﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ يعني صحف الأعمال فإنها تطوى عند الموت وتنشر وقت الحساب . وقيل ﴿ نُشِرَتْ ﴾ فرقت بين أصحابها . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالتشديد للمبالغة في النشر ، أو لكثرة الصحف أو شدة التطاير .

﴿ وَإِذَا السماء كُشِطَتْ ﴾ قلعت وأزيلت كما يكشط الإِهاب عن الذبيحة ، وقرىء

﴿ قشطت ﴾ واعتقاب القاف والكاف كثير .

﴿ وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً وقرأ نافع وابن عامر وحفص ورويس بالتشديد .

﴿ وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ﴾ قربت من المؤمنين . ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ وإنما صح والمذكور في سياقها اثنتا عشرة خصلة ست منها في مبادىء قيام الساعة قبل فناء الدنيا وست بعده ، لأن المراد زمان متسع شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها ، و ﴿ نَفْسٌ ﴾ في معنى العموم كقولهم تمرة خير من جرادة .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ بالكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر ، وهي ما سوى النيرين من الكواكب السيارات ولذلك وصفها بقوله :

﴿ الجوار الكنس ﴾ أي السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس من كنس الوحش إذا دخل كناسه ، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر .

﴿ والليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أقبل ظلامه أو أدبر وهو من الأضداد يقال عسعس الليل وسعسع إذا أدبر .

﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي أضاء غبرته عند إقبال روح ونسيم .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآن . ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني جبريل فإنه قاله عن الله تعالى .

﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ كقوله شديد القوى . ﴿ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ عند الله ذي مكانة .

﴿ مطاع ﴾ في ملائكته . ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ على الوحي ، وثم يحتمل اتصاله بما قبله وما بعده ، وقرىء ﴿ ثُمَّ ﴾ تعظيماً للأمانة وتفضيلاً لها على سائر الصفات .

(121/805)

﴿ وَمَا صاحبكم بِمَجْنُونٍ ﴾ كما تبهته الكفرة واستدل بذلك على فضل جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ضعيف إذ المقصود منه نفي قولهم ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ افترى على الله كذباً ﴿ أم به جنة ﴾ لا تعداد فضلهما والموازنة بينهما .

﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ ﴾ ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ بالأفق المبين ﴾ بمطلع الشمس .

﴿ وَمَا هُوَ ﴾ وما محمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ عَلَى الغيب ﴾ على ما يخبره من الموحى إليه وغيره من الغيوب . ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ بمتهم من الظنة ، وهي التهمة ، وقرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ بالضاد من الضن وهو البخل أي لا يبخل بالتبليغ والتعليم ، والضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، والظاء من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ يقول بعض المسترقة للسمع ، وهو نفي لقولهم إنه لكهانة وسحر .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ، كقولك لتارك الجادة : أين تذهب .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ تذكير لمن يعلم .

﴿ لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ بتحري الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير .

﴿ وَمَا تَشَاءونَ ﴾ الاستقامة يا من يشاؤها . ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم فله الفضل والحق عليكم باستقامتكم . ﴿ رَبّ العالمين ﴾ مالك الخلق كله .

قال عليه الصلاة والسلام " من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حين تنتشر صحيفته " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 456 . 459 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة التكوير

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

قال الزمخشري : فإن قلت : ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية ؟ قلت : بل على الفاعلية ، رافعها فعل مضمر يفسره ﴿ كورت ﴾ ، لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط . انتهى .

ومن طريقته أنه يسمي المفعول الذي لم يسم فاعله فاعلاً ، ولا مشاحة في الاصطلاح .

وليس ما ذكر من الإعراب مجمعاً على تحتمه عند النحاة ، بل يجوز رفع الشمس على الابتداء عند الأخفش والكوفيين ، لأنهم يجيزون أن تجيء الجملة الاسمية بعد إذا ، نحو : إذا زيد يكرمك فأكرمه .

﴿ انكدرت ﴾ ، عن ابن عباس : تساقطت ؛ وعنه أيضاً : تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها ، من قولهم : ماء كدر : أي متغير .

وتسيير الجبال : أي عن وجه الأرض ، أو سيرت في الجو تسيير السحاب ، كقوله : ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ وهذا قبل نسفها ، وذلك في أول هول يوم القيامة .

والعشار : أنفس ما عند العرب من المال ، وتعطيلها : تركها مسيبة مهملة ، أو عن الحلب لاشتغالهم بأنفسهم ، أو عن أن يحمل عنها الفحول ؛ وأطلق عليها عشاراً باعتبار ما سبق

لها ذلك .

قال القرطبي : وهذا على وجه المثل ، لأنه في القيامة لا يكون عشراء ، فالمعنى : أنه لو كان عشراء لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم .

وقيل : إذا قاموا من القبور شاهدوا الوحوش والدواب محشورة وعشارهم فيها التي كانت كرائم أموالهم ، لم يعبؤا بها لشغلهم بأنفسهم .

وقيل : العشار : السحاب ، وتعطيلها من الماء فلا تمطر .

والعرب تسمي السحاب بالحامل .

وقيل : العشار : الديار تعطل فلا تسكن .

وقيل : العشار : الأرض التي يعشر زرعها ، تعطل فلا تزرع .

(123/805)

وقرأ الجمهور : ﴿ عطلت ﴾ بتشديد الطاء ؛ ومضر عن اليزيدي : بتخفيفها ، كذا في كتاب ابن خالويه ، وفي كتاب اللوامح عن ابن كثير ، قال في اللوامح ، وقيل : هو وهم إنما هو عطلت بفتحتين بمعنى تعطلت ، لأن التشديد فيه التعدي ، يقال : منه عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه ، وعطلت المرأة فهي عاطل إذا لم يكن عليها الحلى ، فلعل هذه

القراءة عن ابن كثير لغة استوى فيها فعلت وأفعلت ، والله أعلم . انتهى .

وقال امرؤ القيس :

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش . . .

إذا هي نصته ولا بمعطل

﴿ حشرت ﴾ : أي جمعت من كل ناحية .

فقال ابن عباس : جمعت بالموت ، فلا تبعث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين .

وعنه وعن قتادة وجماعة : يحشر كل شيء حتى الذباب .

وعنه : تحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقتص للجماء من القرناء ، ثم يقال لها موتي فتموت .

وقيل : إذا قضى بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته ، كالطاووس ونحوه .

وقال أبيّ : في الدنيا في أول الهول تفر في الأرض وتجتمع إلى بني آدم تآنساً بهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ حشرت ﴾ بخف الشين ؛ والحسن وعمرو بن ميمون : بشدها .

﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ : تقدم أقوال العلماء في سجر البحر في الطور ، والبحر المسجور ، وفي كتاب لغات القراءآت ، سجرت : جمعت ، بلغة خثعم .

وقال هنا ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى : ملكت وقيد اضطرابها حتى لا تخرج على

الأرض من الهول ، فتكون اللفظة مأخوذة من ساجور الكلب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بخف الجيم ؛ وباقي السبعة : بشدها .

قال ابن عطية : وذهب قوم إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأحواله عند الموت .

فالشمس نفسه ، والنجوم عيناه وحواسه ، وهذا قول ذاهب إلى إثبات الرموز في كتاب الله تعالى . انتهى .

(124/805)

وهذا مذهب الباطنية ، ومذاهب من ينتمي إلى الإسلام من غلاة الصوفية ، وقد أشرنا إليهم في خطبة هذا الكتاب ؛ وإنما هؤلاء زنادقة تستروا بالانتماء إلى ملة الإسلام .

وكتاب الله جاء بلسان عربي مبين ، لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ، ولا إيماء لشيء مما تنتحله الفلاسفة ولا أهل الطبائع .

ولقد ضمن تفسيره أبو عبد الله الرازي المعروف بابن خطيب الري أشياء مما قاله الحكماء عنده وأصحاب النجوم وأصحاب الهيئة ، وذلك كله بمعزل عن تفسير كتاب الله عز وجل .

وكذلك ما ذكره صاحب التحرير والتحبير في آخر ما يفسره من الآيات من كلام من ينتمي إلى الصوف ويسميها الحقائق ، وفيها ما لا يحل كتابته ، فضلاً عن أن يعتقد ، نسأل الله تعالى السلامة في ديننا وعقائدنا وما به قوام ديننا ودنيانا .

﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ : أي المؤمن مع المؤمن والكافر مع الكافر ، كقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قاله عمر وابن عباس ؛ أو نفوس المؤمنين بأزواجهم من الحور العين وغيرهن ، قاله مقاتل بن سليمان ؛ أو الأزواج الأجساد ، قاله عكرمة والضحاك والشعبي .

وقرأ عاصم في رواية : زووجت على فوعلت ، والمفاعلة تكون بين اثنين .

والجمهور : بواو مشددة .

وقال الزمخشري : وأد يئد ، مقلوب من آد يؤد إذا أثقل .

قال الله تعالى : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ لأنه إثقال بالتراب . انتهى .

ولا يدعي في وأد أنه مقلوب من آد ، لأن كلاً منهما كامل التصرف في الماضي والأمر والمضارع والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول ، وليس فيه شيء من مسوغات ادعاء القلب .

والذي يعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة والآخر ليس كذلك ، أو كونه مجرداً من حروف الزيادة والآخر فيه مزيداً وكونه أكثر تصرفاً

والآخر ليس كذلك ، أو أكثر استعمالاً من الآخر ، وهذا على ما قرروا أحكم في علم التصريف .

فالأول كيئس وأيس ، والثاني كطأمن واطمأن ، والثالث كشوايع وشواع ، والرابع كلعمري ورعملي .

(125/805)

وقرأ الجمهور : ﴿ الموءودة ﴾ ، بهمزة بين الواوين ، اسم مفعول .

وقرأ البزي في رواية : الموؤدة ، بهمزة مضمومة على الواو ، فاحتمل أن يكون الأصل الموؤدة كقراءة الجمهور ، ثم نقل حركة الهمزة إلى الواو بعد حذف الهمزة ، ثم الواو المنقول إليها الحركة .

واحتمل أن يكون اسم مفعول من آد ؛ فالاصل مأوودة ، فحذف إحدى الواوين على الخلاف الذي فيه المحذوف واو المد أو الواو التي هي عين ، نحو : مقوول ، حيث قالوا : مقول .

وقرىء المودة ، بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة ، أعني التسهيل بالحذف ، ونقل حركتها إلى الواو .

وقرأ الأعمش : المودة ، بكسون الواو على وزن الفعلة ، وكذا وقف لحمزة بن مجاهد .

ونقل القراء أن حمزة يقف عليها كالمودة لأجل الخط لأنها رسمت كذلك ، والرسم سنة متبعة .

وقرأ الجمهور : ﴿ سئلت ﴾ مبنياً للمفعول ، ﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ : كذلك وخف الياء وبتاء التأنيث فيهما ، وهذا السؤال هو لتوبيخ الفاعلين للوأد ، لأن سؤالها يؤول إلى سؤال الفاعلين .

وجاء قتلت بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت لقيل : قتلت .

وقرأ الحسن والأعرج : سئلت ، بكسر السين ، وذلك على لغة من قال : سأل بغير همز .

وقرأ أبو جعفر : بشد الياء ، لأن الموؤدة اسم جنس ، فناسب التكثير باعتبار الأشخاص .

وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد : سألت مبنياً للفاعل ، قتلت بسكون اللام وضم التاء ، حكاية لكلامها حين سئلت .

وعن أبيّ وابن مسعود أيضاً والربيع بن خيثم وابن يعمر : سألت مبنيا للفاعل .

﴿ بأي ذنب قتلت ﴾ : مبنياً للمفعول بتاء التأنيث فيهما إخباراً عنهما ، ولو حكي كلامها لكان قتلت بضم التاء .

وكان العرب إذا ولد لأحدهم بنت واستحياها ، ألبسها جبة من صوف أو شعر وتركها ترعى الإبل والغنم ، وإذا أراد قتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها : طيبيها ولينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر حفرة أو بئراً في الصحراء ، فيذهب بها إليها ويقول لها انظري فيها ؛ ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي بالأرض .

وقيل : كانت الحامل إذا قرب وضعها حفرت حفرة فتمخضت على رأسها ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته .

وقد افتخر الفرزدق ، وهو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية ، بجده صعصعة ، إذ كان منع وأد البنات فقال :

ومنا الذي منع الوائدات . . .

فأحيا الوئيد ولم يوئد

﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ : صحف الأعمال كانت مطوية على الأعمال ، فنشرت يوم القيامة ليقرأ كل إنسان كتابه .

وقيل : الصحف التي تتطاير بالإيمان والشمائل بالجزاء ، وهي صحف غير صحف

الأعمال .

وقرأ أبو رجاء وقتادة والحسن والأعرج وشيبة وأبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم : نشرت بخف الشين ؛ وباقي السبعة : بشدّها .

وكشط السماء : طيها كطي السجل .

وقيل : أزيلت كما يكشط الجلد عن الذبيحة .

وقرأ عبد الله : قشطت بالقاف ، وهما كثيراً ما يتعاقبان ، كقولهم : عربي قح وكح ، وتقدّمت قراءته قافوراً ، أي كافوراً .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص : ﴿ سعرت ﴾ بشد العين ؛ وباقي السبعة : بخفها ، وهي قراءة عليّ .

قال قتادة : سعرها غضب الله تعالى وذنوب بني آدم ، وجواب إذا وما عطفت عليه ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ : ونفس تعم في الإثبات من حيث المعنى ، ما أحضرت من خير تدخل به الجنة ، أو من شر تدخل به النار .

وقال ابن عطية : ووقع الإفراد لينبه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه . انتهى .

وقرئت هذه السورة عند عبد الله ، فلما بلغ القارىء ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ ، قال عبد الله : "وا انقطاع ظهراه" .

﴿ بالخنس ﴾ ، قال الجمهور : الدراري السبعة : الشمس والقمر ، وزحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة ، والمشتري .

وقال : على الخمسة دون الشمس والقمر ، تجري الخمسة مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تخفى مع ضوء الشمس ، قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : تخنس في جريها التي يتعهد فيها ترى العين ، وهي جوار في السماء ، وهي تكنس في أبراجها ، أي تستتر .

وقال علي أيضاً والحسن وقتادة : هي النجوم كلها لأنها تخنس وتكنس بالنهار حين تختفي .

وقال الزمخشري : أي تخنس بالنهار وتكنس بالليل ، أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها . انتهى .

وقال عبد الله والنخعي وجابر بن زيد وجماعة : المراد ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ : بقر الوحش ، لأنها تفعل هذه الأفعال في كنائسها .

وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك : هي الظباء ، والخنس من صفة الأنوق لأنها يلزمها

الخنس ، وكذا بقر الوحش .

﴿ عسعس ﴾ بلغة قريش ، وقال الحسن : أقبل ظلامه ، ويرجحه مقابلته بقوله : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ ، فهما حالتان .

وقال المبرد : أقسم بإقباله وإدباره وتنفسه كونه يجيء معه روح ونسيم ، فكأنه نفس له على المجاز .

﴿ أنه ﴾ : أي إن هذا المقسم عليه ، أي إن القرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ ؛ الجمهور : على أنه جبريل عليه السلام .

وقيل : محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكريم صفة تقتضي نفي المذام كلها وإثبات صفات المدح اللائقة به .

﴿ ذي قوة ﴾ : كقوله : ﴿ شديد القوى ﴾ ﴿ عند ذي ﴾ : الكينونة اللائقة من شرف المنزلة وعظم المكانة .

وقيل : العرش متعلق بمكين مطاع .

ثم إشارة إلى ﴿ عند ذي العرش ﴾ : أي إنه مطاع في ملائكة الله المقربين يصدرون عن أمره .

وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبو البرهشيم وابن مقسم : ثم ، بضم الثاء : حرف عطف ،

والجمهور : ﴿ ثم ﴾ بفتحها ، ظرف مكان للبعيد .

وقال الزمخشري : وقرىء ثم تعظيماً للأمانة وبياناً لأنها أفضل صفاته المعدودة . انتهى .

(128/805)

وقال صاحب اللوامح : بمعنى مطاع وأمين ، وإنما صارت ثم بمعنى الواو بعد أن مواضعتها للمهلة والتراخي عطفاً ، وذلك لأن جبريل عليه السلام كان بالصفتين معاً في حال واحدة ، فلو ذهب ذاهب إلى الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنى مطاع في الملأ الأعلى ، ﴿ ثم أمين ﴾ عند انفصاله عنهم ، حال وحيه على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لجاز أن لو ورد به أثر انتهى .

﴿ أمين ﴾ : مقبول القول يصدق فيما يقوله ، مؤتمن على ما يرسل به من وحي وامتثال أمر .

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ : نفى عنه ما كانوا ينسبونه إليه ويبهتونه به من الجنون .

﴿ ولقد رآه ﴾ : أي رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) جبريل عليه السلام ، وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض في صورته له ستمائة جناح .

وقيل : هي الرؤية التي رآه فيها عند سدرة المنتهى ، وسمى ذلك الموضع أفقاً مجازاً .

وقد كانت له عليه السلام ، رؤية ثانية بالمدينة ، وليست هذه .

ووصف الأفق بالمبين لأنه روي أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، قاله قتادة وسفيان .

وأيضاً فكل أفق في غاية البيان .

وقيل : في أفق السماء الغربي ، حكاه ابن شجرة .

وقال مجاهد : رآه نحو جياد ، وهو مشرق مكة .

وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروة وهشام بن جندب ومجاهد وغيرهم ، ومن السبعة النحويان وابن كثير : بظنين بالظاء ، أي بمتهم ، وهذا نظير الوصف السابق بأمين .

وقيل : معناه بضعيف القوة على التبليغ من قولهم : بئر ظنون إذا كانت قليلة الماء ، وكذا هو بالظاء في مصحف عبد الله .

وقرأ عثمان وابن عباس أيضاً والحسن وأبو رجاء والأعرج وأبو جعفر وشيبة وجماعة غيرهم وباقي السبعة : بالضاد ، أي ببخيل يشح به لا يبلغ ما قيل له ويبخل ، كما يفعل الكاهن حتى يعطى حلوانه .

قال الطبري : وبالضاد خطوط المصاحف كلها .

﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ : أي الذي يتراءى له إنما هو ملك لا مثل الذي يتراءى للكهان .

﴿ فأين تذهبون ﴾ : استضلال لهم ، حيث نسبوه مرة إلى الجنون ، ومرة إلى الكهانة ، ومرة إلى غير ذلك مما هو بريء منه .

وقال الزمخشري : كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيات الطريق : أي تذهب ؟ مثلت حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل . انتهى .

﴿ ذكر ﴾ : تذكرة وعظة ، ﴿ لمن شاء ﴾ : بدل من ﴿ للعالمين ﴾ ، ثم عذق مشيئة العبيد بمشيئة الله تعالى .

قال ابن عطية : ثم خصص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبيهاً وذكراً لتلبسهم بأفعال الاستقامة .

ثم بين تعالى أن تكسب العبد على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء . انتهى .

وقال الزمخشري : وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شاءوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم

المنتفعون بالذكر ، فكأنه لم يوعظ به غيرهم ، وإن كانوا موعوظين جميعاً .

﴿ وما تشاءون ﴾ الاستقامة يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله تعالى ولطفه ، ما تشاءونها أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه . انتهى .

ففسر كل من ابن عطية والزمخشري المشيئة على مذهبه .

وقال الحسن : ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(130/805)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما ذكر الطامة والصاخة في خاتمتي السورتين المتقدمتين أردفهما بذكر سورتين مشتملتين على أمارات القيامة وعلامات يوم الجزاء . أما هذه ففيها اثنا عشر شيئاً أوّلها تكوير الشمس وفيه وجهان : أحدهما إزالة النور لأن التكوير هو التلفيف على جهة الاستدارة كتكوير العمامة . وفي الحديث " نعوذ بالله من الحور بعد الكور " أي من التشتت بعد الألفة والاجتماع ، ومنه كارة القصار وهي ثوب واحد يجمع ثيابه فيه .

ولا يخفى أن الشيء الذي يلف يصير مخفياً عن الأعين فعبر عن إزالة النور عن جرم الشمس وصيرورتها غائبة عن الأعين بالتكوير . الثاني أن يكون من قولهم طعنه فحوره وكوره إذا ألقاه أي ألقيت ورميت عن الفلك . وثانيها انكدار النجوم أي تساقطها وتناثرها والأصل في الانكدار الانصباب وكل متراكب ففهي كدورة فلهذا يقال للجيش الكثير دهماء . قال الخليل : انكدر عليهم القوم إذا جاءوا أرسالاً فانصبوا عليهم . قال الكلبي : تمطر السماء يومئذ نجوماً فقال عطاء : وذلك أنها في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من النور وتلك السلاسل في أيدي الملائكة ، فإذا مات من في السماء والأرض تساقطت تلك السلاسل من أيدي الملائكة . ويروى في الشمس والنجوم أنها تطرح في جهنم ليراها من عبدها .

(131/805)

وثالثها تسيير الجبال وقد مر في سورة " عم " . ورابعها تعطيل العشار وهي جمع عشراء كالنفاس في نفساء . والعشراء الناقة التي أتى عليها من يوم أرسل عليها الفحل عشرة أشهر ، ثم هو اسمها إلى أن تضع الحمل لتمام السنة ، وهي أنفس ما يكون عند أهلها وهم العرب فخوطبوا بما هو مركوز في أذهانهم مصوّر في خزانة خيالهم ، والغرض بيان شدّة الاشتغال

بأنفسهم حتى يعطلوا ويهملوا ما هو أهم شيء عندهم . وقيل : العشار هي السحاب تعطلت عما فيها من الماء ، ولعله مجاز من حيث إن العرب تشبه السحاب بالحامل . قال الله تعالى ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ [الذاريات : 2] وخامسها حشر الوحوش والوحش ضد ما يستأنس به من دواب البر . قال قتادة : يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص ، وفيه أنه سبحانه إذا كان لا يهمل أمر الوحوش فكيف يهمل أمر المكلفين . قال الإمام فخر الدين : وفيه دليل على أن هول ذلك اليوم بلغ مبلغاً لا يفرغ الوحوش للنفار عن الإنسان ولا بعضها للاحتراز عن بعض مع العداوة الطبيعية بين بعض الأصناف حتى صار بعضها غذاء بعض . قلت : هذا الاستدلال ضعيف فإن الوحوش في الدنيا أيضاً مجتمعة مع الناس ومع أضدادها لكن في أمكنة مختلفة ، فلم لا يجوز أن تكون في القيامة أيضاً كذلك . وعن ابن عباس في رواية إن حشر الوحوش عبارة عن موتها وذلك إذا قضى بينها فردّت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه . يقال : إذا اجتاحت السنة الناس وأموالهم حشرتهم السنة أي أماتتهم . السادس تسجير البحار أي تنشيف ما فيها من الرطوبة حتى لا يبقى فيها شيء من المياه وقد سبق في " الطور " . السابع تزويج النفوس وهو اقتران الأرواح بالأجساد . وقال الحسن : هو كقوله ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] أي صنفتم أصنافاً ثلاثة وقريب منه قول من قال : هو أن

يضم كل واحد إلى من يجانسه في طبقته من خير أو شر . وقول من قال : هو أن يقرن بين الرجل وبين من كان

(132/805)

يلازمه في الدنيا من ملك أو سلطان . وقال ابن عباس : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بالشياطين ، ويقرب منه قول الزجاج هو أن تقرن النفوس بأعمالها . الثامن سؤال الموؤدة . قال جار الله : وأد يئد مقلوب آد يؤد إذا أثقل لأنه إثقال بالتراب ، وكانوا يدفنون بناتهم في الأرض أحياء خوفاً من الفقر ولخوف العار كما مر في " النحل " وغيره . ومعنى هذا السؤال تبكيت قاتلها كما يخاطب عيسى بقوله ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ [المائدة : 116] والغرض تبكيت النصارى . وقيل : الموؤدة هي التي تسأل نفسها فهي السائلة والمسؤول عنها . وإنما قيل ﴿ قتلت ﴾ ماضياً مجهولاً غائباً بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت لقيل قتلت مجهولاً مخاطباً ، ولو حكى كلامها حين سألت لقيل قتلت متكلماً مجهولاً وبه قرأ ابن عباس .

(133/805)

قالت المعتزلة وبه يحتج صاحب الكشاف : إن في الآية دلالة على أن أطفال المشركين لا يعذبون لأنه تعالى إذا بكت الكافر بسببها فلأن لا يعذبها أولى . ويمكن أن يجاب بأن تعذيب الوائد للوأد من جهة أنه تصرف في ملك الله تعالى بغير حق لا ينافي تعذيب الموؤدة من جهة أخرى وهي أن حكمها في الإسلام والكفر حكم أبيها . التاسع نشر صحف الأعمال . عن قتادة : هي صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك حين موتك ثم تنشر يوم القيامة فلينظر رجل يملى في صحيفته . ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أي فرقت بينهم . وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم أي مكتوب فيها ذلك وهي صحف غير صحف الأعمال قاله في الشكاف . العاشر كشط السماء كما يكشط الإهاب عن الذبيحة . والغطاء عن الشيء أي كشفت وأزيلت عما فوقها وهو الجنة وعرش الله تعالى . الحادي عشر والثاني عشر تسعير الجحيم أي إيقادها وإزلاف الجنة أي إدناؤها . استدل بعضهم بالآية على أن النار غير مخلوقة الآن لأنه علق تسعيرها بيوم القيامة ، ويمكن المعارضة بأنها تدل على أن الجنة مخلوقة وإلا لم يمكن إزلافها على أن تعليق تسعير الجحيم بيوم القيامة لا ينافي وجودها قبل ذلك غير موقدة ايقاداً شديداً . وقيل : يسعرها غضب الله عز وجل وخطايا بني آدم .

وقوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ كقوله ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ [آل عمران : 30] والتنوين في ﴿ نفس ﴾ للتقليل على أنه مفيد للتكثير بحسب المقام نحو ﴿ قد يعلم الله ﴾ [النور : 63] ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ [الحجر : 2] ويجوز عندي أن يكون للتعظيم أو للنوع يعني النفس الإنسانية لا النباتية ولا الحيوانية ولا الفلكية عند القائلين بها . وإسناد الإحضار إلى الأنفس مجاز لأن الملائكة أحضروها في الصحف أو في الموازين إلا أنها لما تسبب منها ذلك أسند إليها على أن آثار أعمالها إنما تلوح عليها . قال أهل التأويل : هذه الأحوال يمكن اعتبارها في وقت القيامة الصغرى وهي حالة الموت ، فالشمس النفس الناطقة ، وتكويرها قطع تعلقها ، وانكدار النجوم تساقط القوى ، وتسيير الجبال انعزال الأعضاء الرئيسة عن أفعالها ، والعشار البدن يهمل أمرها ، وحشر الوحوش ظهور نتائج الأفعال البهيمية والسبعية على الشخص ، وتسجير البحار نفاد الأوهام الباطلة والأماني الفارغة فإنه بحر لا ساحل له دون الموت الاختياري أو الاضطراري ، وتزويج النفوس انضمام كل ملكة إلى جنسها الظلمة إلى الظلمة والنور إلى النور ، والموؤدة القوّة التي ضيعها المكلف في غير ما خلقت لأجله .

وسمعت بعض المحققين من أساتذتي أنها كل مسألة سنحت للخاطر ولم تقيد بالكتابة حتى غابت . والسماء سماء الأرواح والباقي ظاهر . وحين أثبت المعاد شرع في النبوّات فأكدها بالحلف . والخنس جمع خانس ، والكنس جمع كانس . والأكثرون على أنها السيارات الخمسة الجاريات مع النيرين في أفلاكها بالارتباطات المعلومة من الهيئة وقد ذكرنا طرفاً منها في البقرة بقوله ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ [الآية : 164] وفي قوله ﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ [البقرة : 29] فخنوسها رجوعها ومنه الخناس للشيطان ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس ومنه كنس الوحش إذا دخل كناسه . والمنجمون يسمون زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد متحيرة لمشاهدة الوقوف والرجوع منها بعد الاستقامة وهي حركتها الخاصة من المغرب إلى المشرق على توالي البروج أي من الحمل إلى الثور ثم إلى الجوزاء وهكذا على الترتيب . فإذا تحركت القهقري بعكس هذا الترتيب شبه الحركة اليومية . يقال : إنها راجعة أقسم الله بها إذ أحوالها أغرب ورباطاتها مع الشمس أعجب كما بين في ذلك العلم . وعن علي رضي الله عنه وهو قول عطاء ومقاتل وقتادة أنها هي جميع الكواكب وخنوسها غيبتها عن البصر بالنهار

وكنوسها ظهورها للبصر في الليل كما يظهر الوحش من كناسه . وعن ابن مسعود والنخعي أنها بقر الوحش وخنوسها صفة لأنوفها ومنه " رجل أخنس وامرأة خنساء " وفي هذا القول بعد عن الخنس المقسم بها لأنه لا يناسب ما بعده . وقال أهل التأويل : هي الحواس الخمس تظهر آثارها تارة وتغيب أخرى . ثم أقسم بالليل والنهار . ومعنى عسعس أقبل وأدبر فهو من الأضداد ، وتنفس الصبح مجاز عن تخلصه من ظلمة الليل كتنفس المكروب إذا وجد راحة أو مجاز عما يكون عنده من روح ونسيم . والضمير في ﴿ إنه ﴾ للقرآن ، والرسول الكريم جبرائيل ، وكرمه على ربه أن جعله واسطة بينه وبين أشرف عباده وهم الأنبياء ، وكرمه في نفسه أنه لا يدل إلا على الخير والكمال . ومعنى كون

القرآن قول جبرائيل أنه وصل منه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن النزاع وقع من الكفرة في أنه قول محمد أو هو من السماء فأثبت الثاني ليلزم نفي الأول . وفي لفظ رسوله دلالة على أنه ليس قوله بالاستقلال . وقوله ﴿ ذي قوّة ﴾ كقوله ﴿ ذي مرة ﴾ [النجم : 6] وقد مر بالنجم . وقوله ﴿ عند ذي العرش ﴾ أي عند ربه بالقرب كقوله ﴿ ومن عنده ﴾ [الرعد : 43] والمكين ذو الجاه الذي يعطى ما يسأل يقال مكن فلان بضم

الكاف مكانة . وقوله ﴿ ثم ﴾ إشارة إلى الظرف المذكور أي مطاع عند الله في الملائكة المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ﴿ أمين ﴾ على الوحي والسفارة وقد عصمه الله من الخيانة والزلل . استدل في الكشاف بالآيات على تفضيل الملك على الأنبياء وقال : لأنه وصف جبرائيل بصفات الكرامة ، ثم وصف النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ وشتان بين الوصفين .

(137/805)

قلت : أمثال هذا التغليط من باب الجنون وهذا نشأ من سماع لفظ المجنون . والتحقيق أن ذكر جبرائيل ومدحه وقع استطراداً لبيان مدح النبي صلى الله عليه وسلم والمبالغة في صدقه فإن الكفرة زعموا أن القرآن إفك افتراه مجنون به وأعانه عليه قوم آخرون فلم يكن بد من نفي الجنون عنه . ووصف جبرائيل بالأمانة والمكانة وغيرهما فإن شرف الرسول يدل على شرف المرسل إليه وصدقه ، فالعجب من الزمخشري أنه كيف سمع لفظ المجنون فاعتراه حتى استدل به على مفضولية أشرف المخلوقات ، ولم يعلم أن ذكر جبرائيل ووصفه بأوصاف الكمال اتفق لغرض تزكية النبي صلى الله عليه وسلم . والعجب من الإمام فخر الدين الرازي أيضاً أنه كيف أورد حجته الواهية في تفسيره ولم يتعرض للجواب

عنه مع كمال حرصه على تزييف أدلتهم . ثم حكى أنه قد رأى جبرائيل على صورته الأصلية بحيث حصل عنده علم ضروري بأنه ملك مقرب لا شيطان رجيم فقال ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ وهو أفق الشمس كما مر في " النجم " . ثم أخبر عن صدقه وإشفاقه فقال ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ ومن قرأ بالظاء الذي مخرجه من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا كالذال والثاء فهو من الظنة التهمة أي ليس بمتهم بل هو ثقة فيام يؤدي عن الله بواسطة جبرائيل . ومن قرأ بالضاد الذي مخرجه من أصل حافة اللسان وما بينهما من الأضراس ومن يمين اللسان أو يساره وإخراجه من الجانب الأيسر الأسهل ، وقد يسهل على بعض الناس كلاهما فمعناه أنه لا يضن بالوحي أي لا يبخل به من الضن وهو البخل ، وفيه أنه يكتم شيئاً من الوحي مما أمر بإظهاره وأنه لا يمنع المستعدّين من الإرشاد والكمال ﴿ فأين تذهبون ﴾ بعد هذه البيانات وفيه استضلال لهم كقولك لتارك لجادّة إعتسافاً أين تذهب ، مثلت حالهم في ترك الحق والعدول عنه إلى الباطل براكب التعاسيف الذي يستأهل أن يقال له أين تذهب . قوله ﴿ لمن شاء ﴾ فائدة هذا الإبدال أن نفع التذكير يعود إليهم فكأن غيرهم لم يوعظ

(138/805)

والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السموات والأرض .

ولا يخفى ما بينها وبين قوله ﴿ فأين تذهبون ﴾ من التناسب والطباق وفيه دليل القدرية إلا أن قوله ﴿ وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ﴾ فيه دليل الجبرية كما مر في آخر ﴿ هل أتى ﴾ وغيره والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 452.456 ﴾

(139/805)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة التكوير

مكية وهي تسع وعشرون آية ومائة وأربع كلما تو أربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاط علمه بالكائنات ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ وجوده سائر البريات ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بنعيم الجنات .

واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس ﴾ أي : التي هي أعظم آيات السماء الظاهرة وأوضحها للحس ﴿ كوّرت ﴾ فقال ابن عباس : أظلمت . وقال قتادة : ذهب ضوءها . وقال سعيد بن جبير : غوّرت . وقال مجاهد : اضمحلت . وقال الزجاج : لفت كما تلف العمامة ، يقال : كرت العمامة على رأسي أكوّرها كوراً ، وكورتها تكويراً إذا

لففتها ، وأصل التكوير جمع بعض الشيء إلى بعض ، فمعناه أنّ الشمس يجمع بعضها إلى بعض ، ثم تلف ، فإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها . قال ابن عباس : يكوّر الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة في البحر ، ثم يبعث عليها ريحاً دبوراً فتضرمها فتصير ناراً . وعن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الشمس والقمر يكوّران يوم القيامة" .

تنبيه : ارتفاع الشمس على الفاعلية ورافعها فعل مضمر يفسره كوّرت ؛ لأن إذا تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط .

﴿ وإذا النجوم ﴾ أي : كلها كبارها وصغارها ﴿ انكدرت ﴾ أي : انقضت وتساقطت على الأرض .

قال تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ والأصل في الانكدار الانصباب .

قال العجاج في مدحه لعمرو بن معديكرب:

*إذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر ** تقضي البازي إذا البازي كسر

أبصر خربان فضاء فانكدر

أي : فانقض وسقط ، والخربان جمع خرب وهو ذكر الحبارى ، والباع يستعمل في الكرم ، يقال : فلان كريم الباع ؛ والمعنى : أنّ الكرام إذا ابتدروا فعل المكرمات بدرهم عمرو ، أي : أسرع كانقضاض البازي .

وروي عن ابن عباس أنّ النجوم قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور بأيدي الملائكة عليهم السلام ، فإذا مات من في السموات ومن في الأرض تساقطت تلك الكواكب من أيدي الملائكة ، لأنه مات من كان يمسكها .

(140/805)

﴿ وإذا الجبال ﴾ التي هي في العالم السفلي كالنجوم في العالم العلوي ، وهي أصلب ما في الأرض . ﴿ سيرت ﴾ أي : ذهب بها عن وجه الأرض فصارت هباء منبثاً ، وصارت الأرض قاعاً صفصفاً .

﴿ وإذا العشار ﴾ أي : النوق الحوامل جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء ، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ، وهي أنفس ما يكون عند أهلها . روي أنه صلى الله عليه وسلم "مرّ في أصحابه بعشار من النوق فغض بصره ، فقيل له : هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر إليها ؟ فقال : قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا : ﴿ ولا تمدّنّ عينيك ﴾ (الحجر :)

الآية" .

﴿ عطلت ﴾ أي : تركت مسيبة مهملة بلا راع ، أو عطلها أهلها عن الحلب والصر

لاشتغالهم بأنفسهم ، أو السحاب عطلت عن المطر والعرب تشبه السحاب بالحامل ، والأوّل على وجه المثل لأنّ في القيامة لا تكون ناقة عشراء ، والمعنى : أنّ يوم القيامة بحالة لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه .

﴿ وإذا الوحوش ﴾ أي : دواب الأرض التي لا تأنس بأحد التي تظن أنها لا عبرة بها ولا التفات إليها فما ظنك بغيرها ﴿ حشرت ﴾ أي : جمعت بعد البعث ليقتص لبعضها من بعض ثم تصير تراباً . قال قتادة : يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص . وقيل : إذا قضي بينها ردّت تراباً فلا يبقى منه إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس ونحوه . وعن ابن عباس حشرها موتها ، يقال إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم : حشرتهم السنة .

(141/805)

وقرأ ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أي : على كثرتها ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها . قال ابن عباس : أوقدت فصارت ناراً تضطرم . وقال مجاهد : فجر بعضها في بعض العذب والملح ، فصارت البحار كلها بحراً واحداً . وقال القشيري : يرفع الله تعالى الحاجز الذي ذكره ، فإذا رفع ذلك البزرخ تفجرت مياه البحار فعمت الأرض كلها

وصارت بحراً واحداً . وروى أبو العالية عن أبيّ بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم ؛ إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على الأرض فتحرّكت واضطربت وفزعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ ، واختلطت الدواب والطير والوحش ، وماج بعضهم في بعض فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أي : اختلطت ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال الجنّ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فانطلقوا إلى البحر ، فإذا هو نار تتأجج . قال : فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى ، وإلى السماء السابعة العليا ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم . وعن ابن عباس قال : هي اثنتا عشرة خصلة ستة في الدنيا وستة في الآخرة ، وهي ما ذكر من بعد .

﴿ وإذا النفوس ﴾ أي : من كل ذي نفس من الناس وغيرهم ﴿ زوّجت ﴾ أي : قرنت بأجسادها ، وروي أنّ عمر سئل عن هذه الآية ، فقال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار . وقال الحسن وقتادة : ألحق كل امرىء بشيعته ، اليهود باليهود والنصارى بالنصارى . وقال عطاء : زوّجت نفوس المؤمنين بالحور العين ، وقرنت نفوس الشياطين بالكافرين .

﴿ وإذا الموؤدة ﴾ أي : الجارية المدفونة حية . كان الرجل في الجاهلية إذ ولد له بنت ، فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمّها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيذهب بها إلى البئر ، فيقول لها : انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي بالأرض .

وقال ابن عباس : كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإذا ولدت ولداً حبسته . وكانوا يفعلون ذلك لخوف لحوق العار بهم من أجلهنّ ، أو الخوف من الإملاق ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ (الأنعام :)

وكانوا يقولون : إنّ الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به فهو أحق بهنّ ، وكان صعصعة بن ناجية ممن منع الوأد وفيه افتخر الفرزدق في قوله:

*ومنا الذي منع الوائدات ** وأحيا الوئيد فلم توءد*

﴿ سئلت بأيّ ﴾ أي : بسبب أيّ ﴿ ذنب ﴾ يا أيها الجاهلون ﴿ قتلت ﴾ أي : استحقت به عندكم القتل ، وهي لم تباشر سوءاً لكونها لم تصل إلى حدّ التكليف .

فإن قيل : ما معنى سؤالها عن ذنبها الذي قتلت به ، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها

؟

أجيب : بأن سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ (المائدة :)

(143/805)

. وروي أنّ قيس بن عاصم "جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني وأدت ثمان بنات كنّ لي في الجاهلية . فقال صلى الله عليه وسلم أعتق عن كل واحدة منهنّ رقبة . قال : يا رسول الله ، إني صاحب إبل ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم أهد عن كل واحدة منهنّ بدنة إن شئت" . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدها بيدها ملطخاً بدمائه فيقول : يا رب هذه أمّي وهذه قتلتني" .

﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أي : فتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها أعمال العباد من خير وشر تطوى بالموت ، وتنشر في القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول : ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغير

ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (الكهف :)

. وروي عن عمر أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق الأمر يا ابن آدم . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يحشر الناس حفاة عراة" فقالت أمّ سلمة : كيف بالنساء ؟ فقال : "شغل الناس يا أمّ سلمة" . قالت : وما يشغلهم ، قال : "نشر الصحف فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل" . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين والباقون بتشديدها على تكرير النشر للمبالغة في تقريع العاصي وتبشير المطيع وقيل لتكرير ذلك من الإنسان .

﴿ وإذا السماء ﴾ أي : هذا الجنس كله أفرده لأنه يعلم بالقدرة على بعضه القدرة على الباقي . ﴿ كشطت ﴾ أي : نزعت عن أماكنها كما ينزع الجلد عن الشاة والغطاء عن الشيء . قال القرطبي : يقال : كشطت البعير كشطاً نزعت جلده ولا يقال سلخت لأنّ العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلدته ، والمعنى : أزيلت عما فوقها . وقال القرطبي : طويت .

(144/805)

﴿ وإذا الجحيم ﴾ أي : النار الشديدة التأجج ﴿ سعرت ﴾ أي : أججت فأضرمت للكفار وزيد في إحمائها يقال سعرت الناء وأسعرتها . روي أنه صلى الله عليه وسلم قال :

"أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة" واحتج بهذه الآية من قال : النار مخلوقة الآن لأنه يدل على أنّ سعيرها معلق بيوم القيامة . وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم بتشديد العين والباقون بتخفيفها .

﴿ وإذا الجنة ﴾ أي : البستان ذو الأشجار الملتفة والرياض المعجبة ﴿ أزلفت ﴾ أي : قرّبت لأهلها ليدخلوها . قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها . وقال عبد الله بن زيد : زينت والزلفى في كلام العرب القربة .

وقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ﴾ جواب إذا أوّل السورة وما عطف عليها ، أي : علمت كل نفس من النفوس وقت هذه المذكورات وهو يوم القيامة ، فالتنكير فيه مثله في تمرة خير من جرادة ، ودلالة هذا السياق للهول على ذلك يوجب اليقين فيه ﴿ ما ﴾ أي : كل شيء ﴿ أحضرت ﴾ من خير وشر .

روي عن ابن عباس وعمر أنهما قرأا فلما بلغا ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ قالا : لهذا أجريت القصة . قال الرازي : ومعلوم أنّ العمل لا يمكن إحضاره فالمراد إذن ما أحضرته في صحائفها ، أو ما أحضرته عند المحاسبة وعند الميزان من آثار تلك الأعمال . وعن ابن مسعود : أنّ قارئاً قرأها عنده ، فلما بلغ ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ قال : واقطع ظهراه .

﴿ فلا أقسم ﴾ لا مزيدة ، أي : أقسم ﴿ بالخنس الجوار الكنس ﴾ هي النجوم الخمسة زحل والمشتري والمرّيخ والزهرة وعطارد تخنس بضم النون ، أي : ترجع في مجراها وراءها بينا نرى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوّله ، وتكنس بكسر النون تدخل في كناسها ، أي : تغيب في المواضع التي تغيب فيها فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس . وقيل : هي جميع الكواكب تخنس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل ، أي : تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها .

﴿ والليل ﴾ أي : الذي هو محل ظهور النجوم وزوال خنوسها وذهاب كنوسها ﴿ إذا عسعس ﴾ قال البغوي : قال الحسن : أقبل بظلامه . وقال آخرون : أدبر ، تقول العرب عسعس الليل وسعسع إذا أدبر ، ولم يبق منه إلا القليل .

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي : امتدّ حتى يصير نهاراً بيناً ، يقال للنهار إذا زاد تنفس ، ومعنى التنفس : خروج النسيم من الجوف ، وفي كيفية المجاز قولان : الأوّل : أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم ، فجعل ذلك نفساً له على المجاز ، فقيل : تنفس الصبح . الثاني : أنه شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي حبس بحيث لا يتحرّك ، فإذا تنفس

وجد راحة فهنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من ذلك الحزن ، فعبر عنه بالتنفس .

وقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي : القرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ هو المقسم عليه ، والمعنى : أنه لقول رسول عن الله تعالى كريم على الله تعالى ، أي : انتفت عنه وجوه المذامّ كلها ، وثبت له وجوه المحامد كلها ، وهو جبريل عليه السلام . وأضاف الكلام إليه لأنه قاله عن الله عز وجلّ .

﴿ ذي قوّة ﴾ أي : شديد القوى . روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : من قوّته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها ، وأبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدّسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، ويهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف .

(146/805)

﴿ عند ذي العرش ﴾ أي : الملك الأعلى المحيط عرشه بجميع الأكوان الذي لا عند في الحقيقة إلا له ، وهو الله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : ﴿ مكين ﴾ أي : ذي مكانة متعلق به عند ، أي : ذي منزلة ومكانة ليس عندية جهة بل عندية إكرام وتشريف كقوله تعالى :

"أنا عند المنكسرة قلوبهم" وقيل : قويّ في أداء طاعة الله تعالى وترك الإخلال بها .

﴿ مطاع ثمّ ﴾ أي : في السموات . قال الحسن : فرض الله تعالى على أهل السموات طاعة جبريل عليه السلام كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس : "من طاعة جبريل عليه السلام الملائكة أنه لما أسري بالنبيّ صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان : افتح له ففتح فدخلها فرأى ما فيها" .

﴿ أمين ﴾ أي : بليغ الأمانة على الوحي الذي يجيء به . وقيل : الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى حينئذ : ذي قوة على تبليغ الوحي ﴿ مطاع ﴾ أي : يطيعه من أطاع الله تعالى .

﴿ وما صاحبكم ﴾ أي : الذي طالت صحبته لكم ، وأنتم تعلمون أنه في غاية الكمال حتى إنه ليس له وصف عندكم إلا الأمين ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا عطف على أنه إلى آخر المقسم عليه .

وأغرق في النفي فقال تعالى : ﴿ بمجنون ﴾ أي : كما زعمتم يتهم في قوله : ﴿ بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ (الصافات :)

فما القرآن الذي يتلوه عليكم قول مجنون ، ولا قول متوسط في العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكمل .

تنبيه : استدلّ بذلك بعضهم على فضل جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه

وسلم حيث عدّ فضائل جبريل عليه السلام واقتصر على نفي الجنون عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو كما قال البيضاوي : ضعيف ؛ إذ المقصود منه نفي قولهم إنما يعلمه بشر ، وقولهم افترى على الله كذباً ، وقولهم أم به جنة لا تعديد فضله والموازنة بينهما .

(147/805)

﴿ ولقد رآه ﴾ أي : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها ، وله ستمائة جناح . ﴿ بالأفق المبين ﴾ أي : البين ، وهو الأفق الأعلى الذي عند سدرة المنتهى حيث لا يكون لبس أصلاً ، ولا يكون للشيطان على ذلك المكان سبيل فعرفه حق المعرفة . وقال مجاهد وقتادة : بالأفق الأعلى من ناحية المشرق . وعن ابن عباس "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : "إني أحب أن أراك على صورتك التي تكون فيها في السماء" قال : لن تقوى على ذلك ، قال : "بلى" . قال : فأين تشاء أن أتخيل لك ، قال : "بالأبطح" . قال : لا يسعني ، قال : "فبمنى" . قال : لا تسعني . قال : "فبعرفات" . قال ذلك بالحري أن يسعني ، فواعده فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو بجبريل قد أقبل من جبل عرفات بخشخشة وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض ، فلما رآه النبيّ صلى الله عليه

وسلم خرّ مغشياً عليه ، قال : فتحوّل جبريل عن صورته فضمه إلى صدره ، وقال : يا محمد لا تخف فكيف لو رأيت إسرافيل ، ورأسه تحت العرش ورجلاه في التخوم السابعة ، وإنّ العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يصير مثل الوصع . يعني : العصفور . حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته . وقيل : إنّ محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل بالأفق المبين ، وهو قول ابن مسعود وقد مرّ ذلك في سورة النجم .

(148/805)

﴿ وما ﴾ أي : وسمعه ورآه والحال أنه ما ﴿ هو ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ على الغيب ﴾ أي : ما غاب من الوحي وخبر السماء ، ورؤية جبريل وغير ذلك مما أخبر به . وقرأ ﴿ بنين ﴾ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء المشالة من الظنة ، وهي التهمة ، أي : فليس بمتهم ، والباقون بالضاد موافقة للمرسوم من الضن وهو البخل ، أي : فليس ببخيل بالوحي فيزوي بعضه ، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً وهو في مصحف عبد الله بالظاء ، وفي مصحف أبيّ بالضاد ، وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما .

قال الزمخشري : وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ، ومعرفة مخرجيهما مما لا بدّ منه

للقارئ ، فإنّ أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقاً غير صواب ، وبينهما بون بعيد ، فإنّ مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، وكان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه ، وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين . وأمّا الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء ، ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان ، واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب .

فإن قلت : فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكان صاحبه ، قلت : هو كوضع الذال مكان الجيم والثاء مكان السين لأنّ التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما اه . كلامه بحروفه .

(149/805)

﴿ وما هو ﴾ أي : القرآن الذي من جملة معجزاته الإخبار بالمغيبات . وأغرق في النفي بالتأكيد بالباء فقال تعالى : ﴿ بقول شيطان ﴾ أي : مسترق للسمع فيوحيه إليه كما يوحيه إلى بعض الكهنة ﴿ رجيم ﴾ أي : مرجوم مطرود بعيد من الرحمة ، وذلك أنّ قريشاً كانوا

يقولون : إنّ هذا القرآن يجيء به شيطان فيلقيه على لسانه ، يريدون بالشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه ، فنفى الله تعالى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فأين ﴾ منصوب بقوله تعالى : ﴿ تذهبون ﴾ لأنه ظرف مبهم ، وقال أبو البقاء : أي إلى أين فحذف الجار ، أي : فأيّ طريق تسلكون في إنكاركم القرآن وإعراضكم عنه ، وفي هذا استضلال لهم فيما يسلكون من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن كقولك لتارك الجادّة أين تذهب .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو ﴾ أي : القرآن الذي آتاكم به الرسول ﴿ إلا ذكر ﴾ أي : عظة وشرف ﴿ للعالمين ﴾ من إنس وجنّ وملك .

وقوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار ﴿ أن يستقيم ﴾ باتباع الحق . قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، وهذا هو القدر وهو رأس القدرية فنزل ﴿ وما تشاؤون ﴾ الاستقامة على الحق ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي : إلا وقت أن يشاء الملك الأعظم الذي بيده كل شيء مشيئتكم الاستقامة عليه ﴿ رب العالمين ﴾ أي : مالك الخلق . وفي هذا إعلام أنّ أحداً لا يعمل خيراً إلا بتوفيق الله تعالى ، ولا شراً إلا بخذلانه . ونقل البغوي في أوّل السورة بإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من أحب أن ينظر في يوم القيامة فليقرأ ﴿ إذا الشمس

كوّرت ﴾ " .

وأمّا قول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحه حسن تنشر صحيفته" . فحديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 266 . 274 ﴾

(150/805)

وقال القاسمي :

سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ أي : أزيلت من مكانها ، وأُلقيت عن فلكها ، ومُحي ضوؤها

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ أي : تنثرت وانقضّت .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أي : رفعت عن وجه الأرض ونُسفت ، من أثر الرجفة والزلزال الذي قطع أوصالها .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ أي : تُركت مهملة لا راعي لها ولا طالب . والعشار جمع عُشَرَاءَ وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر ؛ وخصها لأنها أنفس أموالهم ، أي :

فإذا هذه الحوامل التي يتنافس فيها أهلها أهملت ، فتركت من شدة الهول النازل بهم ، فكيف بغيرها ؟ !

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أي : جمعت من كل جانب واختلطت ، لِما دهم أوكارها ومكامِنها من الزلزال والتخريب ، فتخرج هائمة مذعورة من أثر زلزال الأرض وتقطع أوصالها .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أي : ملئت بتفجير بعضها إلى بعض ، حتى تعود بحراً واحداً . من : سجر التنور ، إذا ملأه بالحطب . كقوله : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ وقيل : المعنى تأججت ناراً ، قال القفال : يحتمل أن تكون جهنم في قعور البحار, فهي الآن غير مسجورة لقوام الدنيا ، فإذا انتهت مدة الدنيا ، أوصل الله تأثير تلك النيران إلى البحار ، فصارت بالكلية مسجورة بسبب ذلك . وأوضحه الإمام بقوله : وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً . فإن ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزق طبقاتها العليا ، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ولا يبقى في البحار إلا النار . أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد ورد به بعض الأخبار . ورد أن < البحر غطاء جهنم > ، وإن لم يعرف في صحيحها . ولكن البحث العلمي أثبت ذلك . ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال النار . انتهى .

قال الرازي : واعلم أن هذه العلامات الستة يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا ، ويمكن وقوعها أيضاً بعد قيام القيامة ، وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين ، أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة . انتهى .

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت الأرواح بأجسادها ، أو ضمت إلى أشكالها في الخير والشر ، وصُنِّفَت أصنافاً ليحشر كل إلى من يجانسه من السعداء والأشقياء .

﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ يعني البنات التي كانت طوائف العرب يقتلونهن ، قال السيد المرتضى في "أماليه" : الموءودة هي المقتولة صغيرة ، وكانت العرب في الجاهلية تئد البنات ، بأن يدفنوهنَّ أحياء ، وهو قوله تعالى ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ [النحل : 59] ، وقوله تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 140] ، ويقال أنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين : أحدهما أنهم كانوا يقتلونهن خشية الإملاق . قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ﴾ [الأنعام : 151] . قال المرتضى : وجدت أبا علي الجبائيّ وغيرَه يقول : إنما قيل لها : موءودة ؛ لأنها ثقلت بالتراب الذي طرح عليها حتى ماتت ، وفي هذا بعض النظر ؛ لأنهم يقولون من الموءودة وَأَدَ يَئِدُ وَأْداً ، والفاعل وائد ، والفاعلة وائدة ، ومن الثقل يقولون : آدَني الشيء يؤودني ، إذا أثقلني ، أَوْداً . انتهى .

وإنما قال : بعض النظر ؛ لأن القلب معهود في اللغة ، فلا يبعد أن يكون وأد مقلوباً من آد .

وقال المرتضى : فإن سأل سائل : كيف يصح أن يسأل من لا ذنب له ولا عقل ، فأي فائدة في سؤالها عن ذلك ، وما وجه الحكمة فيه ؟ والجواب من وجهين :

(152/805)

أحدهما : أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة في قتلها ، وسئل عن قتله لها بأي ذنب كان ، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة . فالقَتَلة ها هنا هم المسؤولون على الحقيقة ، لا المقتولة ، وإنما المقتولة مسؤول عنها . ويجري هذا مجرى قولهم : سألت حقي ، أي : طالبت به ومثله ، على تعالى :

﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 34] أي : مطالَباً به مسؤولاً عنه .

والوجه الآخر أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة ، على سبيل التوبيخ له ، والتقريع له ، والتنبيه له ، على أنه لا حجة له في قتلها . ويجري هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام :

(153/805)

﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ [المائدة : 116] على طريق التوبيخ لقومه ، وإقامة الحجة عليهم . فإن قيل على هذا الوجه : كيف يخاطب ويسأل من لا عقل له ولا فهم ؟ فالجواب أن في الناس من زعم أن الغرض بهذا القول ، إذا كان تبكيت الفاعل وتهجينه وإدخال الغم عليه في ذلك الوقت على سبيل العقاب ، لم يمتنع أن يقع ، وإن لم يكن من الموءودة فهم له ؛ لأن الخطاب ، وإن علق عليها وتوجه إليها ، والغرض في الحقيقة به غيرها ، قالوا : وهذا يجري مجرى من ضرب ظالم طفلاً من ولده فأقبل على ولده يقول له : ضُربتَ ما ذنبك وبأي شيء استحلَّ هذا منك ؟ فغرضه تبكيت الظالم لا خطاب الطفل . والأولى أن يقال في هذا : أن الأطفال ، وإن كانوا من جهة العقول لا يجب في وصولهم إلى الأغراض المستحقة ، أن يكونوا كاملي العقول ، كما يجب مثل ذلك في الوصول إلى الثواب ، فإن كان الخبر متظاهراً والأمّة متفقة على أنهم في الآخرة وعند دخولهم الجنان يكونون على أكمل الهيئات وأفضل الأحوال ، وأن عقولهم تكون كاملة ، فعلى هذا يحسن توجه الخطاب إلى الموءودة ؛ لأنها تكون في تلك الحال ممن تفهم الخطاب وتعقله . وإن كان الغرض منه التبكيت للقاتل وإقامة الحجة عليه . انتهى .

قال الشهاب : والتبكيت قرره الطيبيّ ، بأن المجنيّ عليه إذا سئل بمحضر الجاني ونسبت له الجناية دون الجاني ، بعث ذلك الجاني على التفكّر في حاله وحال المجني عليه . فيرى براءة

ساحته وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب . وهذا استدراج على طريق التعريض ، وهو أبلغ من التصريح . والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصيل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له ؛ حتى يبين من صدر عنه ذلك ، كما سئل عيسى دون الكفَرة ، وهو فنٌّ من البديع بديع . انتهى .

وقال الزمخشريّ : وإنما قيل : ﴿ قُتِلَتْ ﴾ بناءً على أن الكلام إخبار عنها .

تنبيه :

(154/805)

قال السيوطي في " الإكليل " : في الآية تعظيم شأن الوأد ، وهو دفن الأولاد أحياءً . وأخرج مسلم أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن العزل فقال : < الوأد الخفيّ . وهي : إذا الموءودة سئلت > . انتهى .

وقد روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب في هذه الآية قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إني وأدت بنات لي في الجاهلية . قال : < أعتق عن كل واحدة منهن رقبة > . قال : يا رسول الله ! إني صاحب إبل . قال : < فانحر عن كل واحدة منهن بَدَنَةَ > .

وروى الدارمي في أوائل مسنده أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان ، فكنا نقتل الأولاد ، وكانت عندي ابنة لي ، فلما أجابت ، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها ، فدعوتها يوماً فاتبعتني ، فمررت حتى أتيتُ بئراً من أهلي غير بعيد فأخذت بيدها فرديتها في البئر ، وكان آخر عهدي بها أن تقول : يا أبتاهُ يا أبتاهُ < فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وكفَ دمعُ عينيه > . فقال له رجل من جلساء رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحزنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : < كفَّ فإنه يسأل عمَّا أهمه > . ثم قال له : < أعد عليَّ حديثك > . فأعاده . < فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته > . ثم قال له : < إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا ، فاستأنف عملك > .

وكان للعرب تفنن في الوأد ، فمنهم من إذا صارت ابنته سداسية يقول لأمها : طيّبيها وزيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها – وقد حفر لها بئراً في الصحراء – فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظري فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويُهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض .

ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع ، حفر حفرة لتتمخّض على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته . وقد اشتهر صعصعة بن ناجية بن عقال – جد الفرزدق بن غالب – بأنه كان ممن فدى الموءودات في الجاهلية ، ونهى عن قتلهن ، قيل : إنه أحيا ألف موءودة ، وقيل دون ذلك ؛ وقد افتخر الفرزدق بهذا في قوله :

~ومنا الذي منع الوائداتِ وأحيا الوئيدَ فَلَمْ يُوأَدِ

وفي قوله أيضاً :

~أنا ابنُ عِقالٍ وابن ليلى وغالبِ وفَكَّاكُ أغلال الأسير المكفَّرِ

~وكان لنا شيخانِ ذو القبر منهما وشيخٌ أجار الناسَ من كل مَقْبَرِ

~على حينِ لا تُحْيَى البناتُ وإذ همُ عُكُوف على الأصنام حولَ المدوَّرِ

~أنا ابن الذي ردّ المنيةَ فضلُهُ وما حسبٌ دافعتُ عنهُ بمُعْوِرِ

~أَبي أَحَدُ الغَيْثَيْنَ صعصعةُ الذي متى تُخْلِفِ الجوزاءُ والنجمُ يُمْطِرِ

~أجارَ بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ على القبر ، يعلمْ أنه غير مُخْفِرِ

~وفارق ليلٍ من نساء أتت أبى تُعالج ريحاً ليلها غير مُقْمِرِ

~فقالت أجر لي ما ولدتُ فإنني أتيتك من هَزْلى الحمولة مُقْتِرِ

~رأى الأرض منها راحة فرمى بها إلى خُدَدٍ منها وفي شر مَحْفَرِ

~فقال لها نامي فأنت بذمتي لبنتك جارٌ من أبيها القَنَوَّرِ

(156/805)

وروى أبو عبيدة : أن صعصعة هذا وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم . قال : وكان صعصعة منع الوأد في الجاهلية ، فلم يدع تميماً تئدُ وهو يقدر على ذلك ، فجاء الإسلام وقد فدى في بعض الروايات أربعمائة موءودة ، وفي أخرى ثلاثمائة ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : بأبي أنت وأمي ! أوصني . فقال : < أوصيك بأمك وأبيك ، وأختك وأخيك ، وأدانيك أدانيك > ، فقال : زدني . فقال عليه الصلاة والسلام : < احفظ ما بين لحييك ورجليك > . ثم قال عليه الصلاة والسلام : < ما من شيء بلغني عنك فعلته > ؟ فقال : يا رسول الله ! رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم أدر أين الصواب ، غير أني علمت أنهم ليسوا عليه ، فرأيتهم يئدون بناتهم ، فعرفت أن ربهم عزَّ وجل لم يأمرهم بذلك فلم أتركهم ، ففديت ما قدرت عليه .

ويقال : إنه اجتمع جرير والفرزدق يوماً عند سليمان بن عبد الملك فافتخرا . فقال الفرزدق : أنا ابن محيي الموتى ، فقال له سليمان : أنت ابن محيي الموتى ؟ فقال : إن جدي

أحيا الموءودة ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : 32] ، وقد أحيا جدي اثنتين وتسعين موءودة ، فتبسم سليمان ، وقال : إنك مع شعرك لفقيه . نقله المرتضى في " أماليه " وبالجملة ، فكان الوأد عادة من أشنع العوائد في الجاهلية ، مما يدل على نهاية القسوة وتمام الجفاء والغلظة .

قال الإمام : انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار ، كيف استبدلت بالرحمة والرأفة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ؟ فما أعظم نعمة الإسلام على الْإِنْسَانْية بأسرها بمحوه هذه العادة القبيحة . انتهى .

ومن أثر نعمته أن صار أدباء الصدر الأول يَصوغون في مدحهن ما هو أبهى من عقود الجُمان ، فمن ذلك قول معن بن أوس :

~رأيتُ رجالاً يكرهون بناتِهِمْ وفيهن لا نُكْذَبْ نساء صوالحُ

(157/805)

~وفيهن والأيام يعثرن بالفتى خوادِمُ لا يَمْلَلْنَهُ ونوائحُ

وقال العلويّ الجمانيّ في صديق له ولدت له بنت فسخطها ، شعراً :

~قالوا له ماذا رُزِقْتَا فأصاخ ثُمَّتَ قال بنتا

~وأجلّ من ولد النساء أبو البنات فِلِمْ جزعتا

~إن الذين تودّ من بين الخلائق ما استطعتا

~نالوا بفضل البنتِ ما كَبَتُوا به الأعداء كبتاً

وحكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته ، فقال : من هذه يا معاوية ؟ فقال : هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف . فقال : أَمِطْها عنك . قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنهن يلدن الأعداء ، ويقرّبنَ البعداء ، ويُورِثْنَ الشحناء ، ويُثْرنَ البغضاءَ . قال : لا تقل ذلك يا عمرو ! فوالله ما مَرّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الزمان ، ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن ، وإنك لواجدٌ خالاً قد نفعه بنو أخته ، وأباً قد رفعه نسل بنيه . فقال : يا معاوية ! دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إليّ منهن ، وإني لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إلىّ منهن .

وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت : أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون :

~فلو كان النساء كمن وَجَدْنا لَفُضِّلَت النساءُ على الرجالِ

~وما التأنيثُ لاسمِ الشمس عَيْبٌ وما التذكير فَخْرٌ للهلالِ

والله تعالى يعرفك البركة في مطلعها والسعادة بموقعها ، فادّرع اغتباطاً واستأنف نشاطاً ؛

فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة وبها وُعِد المتقون وفيها ينعم المرسلون ؛ فهنيئاً لك هنيئاً بما أوتيتَ ، وأوزعك الله شكرَ ما أعطيت .

(158/805)

ونسختُ رقعة لأبي الفرج الببغاء : اتصل بي خبر المولودة المسعودة كرَّم الله عرقها ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيُّرك عند اتصال الخبر وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القدر ، وقد علمت أنهن أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهن في الترتيب فقال عز من قائل : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ ﴾ [الشورى : 49] ، وما سماه الله تعالى هبة فهو بالشكر أولى وبحسن التقبُّل أحْرَى ؛ فهنأك الله بورود الكريمة عليك ، وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك .

والنوادر في هذا لا تحصى ، وكلها من بركة الإسلام وفضله .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [10 - 14]

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قال ابن جرير : أي : صحف أعمال العباد نشرت لهم بعد أن كانت مطوية على ما فيها مكتوب من الحسنات والسيئات .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ أي : قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم : 48] ,

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ أي : أوقد عليها فأحميت . قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بني آدم .

﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أي : قربت للمتقين .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ أي : علمت كل نفس عند ذلك ما قدمت من خير فتصير به إلى الجنة ، أو شر فتصير به إلى النار ، أي : تبيّن لها عند ذلك ما كانت جاهلة به ، وما الذي كان فيه صلاحها من غيره . و ﴿ عَلِمَتْ ﴾ جواب لجميع ما سبق من الشروط .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ أي : الرواجع من النجوم ، من خنَس إذا رجع وتأخر . قال الزمخشريّ : بينا ترى النجم في آخر البرج ، إذ كرّ راجعاً إلى أوله .

﴿ الْجَوَارِ ﴾ جمع جارية ، من الجري ﴿ الْكُنَّسِ ﴾ أي : الغيّب التي تدخل في بروجها ، في رأي العين ، من : كنس الوحش إذا دخل كناسهُ وهو بيتهُ المتخذ من أغصان الشجر ، فهو في الأصل مجاز بطريق التشبيه ، ثم صار بالغلبة في الاستعمال حقيقة .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أي : أدبر ولم يبق إلا اليسير ، وذلك وقت السحر .

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أي : أقبل وتَبيّن ، أو هبّ نسيمه اللطيف أو انجابت عنه غمة الليل وكربته ؛ تشبيهاً بمن نفس عنه كربه . قال الإمام : أقسم الله تعالى بهذه الدراريّ ليُنوه بشأنها من جهة ما في حركاتها من الدلائل على قدرة مصرّفها ومقدرها ؛ وإرشاد تلك الحركات إلى ما في كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعتها في القسم بما يبعدها عن مراتب الألوهية من الخنوس والكنوس ؛ تقريعاً لمن خصها بالعبادة واتخذها من دونه أرباباً . وفي الليل إذا أدبر زوال تلك الغمة التي تغمر الأحياء بانسدال الظلمة بعد ما استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها . وفي الصبح إذا تنفس بشرى الأنفس بالحياة الجديدة في النهار الجديد ، تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات والاستدراك والاستعداد لما هو آت . انتهى .

وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني روح القدس الذي ينفث في روعِه صلى الله عليه وسلم وهو جبريل عليه السلام . والضمير إما للبعث والجزاء ، المفهوم من قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ أو للمذكور وهو هذا أو للقرآن ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ أي : على تحمُّل أعباء الرسالة ، وعلى كل ما يؤمر به ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم : 5] , ﴿ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أي : صاحب مكانة وشرف ومنزلة لديه تعالى

﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ ﴾ أي : في الملأ الأعلى ﴿ أَمِينٍ ﴾ أي : على وحيه تعالى ورسالته .

(160/805)

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [22 - 25]

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ أي : ليس ممن يتكلم عن جنَّة ويهذي هذيان المجانين .

﴿ بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : 37] ، وهذا نفي لما كان يبهتُه به أعداؤه ، صلى الله عليه وسلم ؛ حسداً ولؤماً .

قال الشهاب : وفي قوله ﴿ صَاحِبُكُم ﴾ تكذيب لهم بألطف وجه ؛ إذ هو إيماء إلى أنه

نشأ بين أظهركم من ابتداء أمره إلى الآن ، فأنتم أعرف به وبأنه أتم الخلق عقلاً وأرجحُهم نبلاً وأكملهم وأصفاهم ذهناً ، فلا يَسند له الجنون إلا من هو مركب من الحمق والجنون . ولله در البحتريّ في قوله :

~إذا مَحَاسِنِي اللَّاتي أُدِلُّ بها كانت ذُنُوبي فقل لي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ أي : ولقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل بالأفق الأعلى ، المظهر لما يرى فيه .

قال ابن كثير : والظاهر – والله أعلم – أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى ، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ [النجم 13 – 15] ، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

والقصد من بيان رؤيته لجبريل عليهما السلام متمثلاً له ، هو التحقيق الموحي به ، وأن أمره مبني على مشاهدة وعيان ، لا على ظن وحسبان ، وما سبيله كذلك فلا مدخل للريب فيه .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي : ببخيل .

(161/805)

قال مجاهد : ما يضن عليكم بما يعلم ، أي : لا يبخل بالتعليم والتبليغ . وقال الفراء : يأتيه غيبُ السماء ، وهو شيء نفيس ، فلا يبخل به عليكم . وقال أبو علي الفارسيّ : المعنى أنه يخبر بالغيب فيبينه ولا يكتمه ، كما يكتم الكاهن ذلك ويمتنع من إعلامه حتى يأخذ عليه حلواناً . وقرئ : ﴿ بظنين ﴾ بالظاء ، أي : ما هو بمهتم على ما يخبر به من الغيب . قال القاشاني : لامتناع استيلاء شيطان الوهم وجنّ التخيل عليه ، فيخلط كلامه ويمتزج المعنى القدسي بالوهميّ والخياليّ ؛ لأن عقله صُفّي عن شوب الوهم . والمعنى أنه صادق فيما يخبر به من الوحي واليوم الآخر والجزاء ، ليس من شأنه أن يُتهم فيه ، كما قال هرقل لأبي سفيان : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ؛ فعرفتُ أنهُ لم يكن ليدَع الكذبَ على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

تنبيه :

قال ابن جرير : وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب ، ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقه وإن اختلفت قراءتهم به ، وذلك ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ بالضاد ؛ لأن ذلك كله كذلك في خطوطها . فأولى التأويلين بالصواب في ذلك ، تأويل من تأوّلهُ : وما محمد – على ما علَّمهُ الله من وحيه وتنزيله – ببخيل بتعليمكموه أيها الناس ، بل هو حريص على أن تؤمنوا به وتتعلموه . انتهى . واختار أبو عبيدة القراءة بالظاء لوجهين :

أحدهما : أن الكفار لم يبخلوه ، وإنما اتهموهُ ، فنفي التهمة أولى من نفي البخل .

وثانيهما : قوله :

﴿ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ ولو كان المراد البخل لقال : بالغيب ؛ لأنه يقال : فلان ضنين بكذا ، وقلما يقال : على كذا .

(162/805)

وقال الشهاب : قال في " النشر " : هو بالضاد في جميع المصاحف ، ولا ينافي هذا قول أبي عبيدة ، أن الضاد و الظاء في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى ، زيادة يسيرة ، قد تشتبه . وهو كما قال . ويعرفه من قرأ الخط المسند . وليس فيه اتهام لنقلة المصاحف كما توهم ؛ لأن ما نقلوه موافق للقراءة المتواترة . ولا بد مما ذكره أبو عبيدة ، لأنهم اشترطوا في القراءات موافقة الرسم العثمانيّ ، ولولاه كانت قراءة الظاء مخالفة له . انتهى .

قال ابن كثير : وكلتا القراءتين متواترة ومعناها صحيح كما تقدم .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أي : من إلقاء الشيطان المطرود عن بلوغ هذا المقام ، وهو نفي لقولهم : إنه كهانة .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [26 – 29]

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أي : أي : مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة ؟ لا جَرَم أنكم تنحون الضلال بعد هذه المزاعم في الوحي ومبلغه ، فمن سلك طرقها فقد بعد عن الصواب ، بما لا يضبط ولم يتقرّب إليه بوجه ، كمن سلك طريقاً يبعدهُ عن سمت مقصد ، فيقال : أين تذهب .

قال الزمخشريّ : استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافاً أو ذهاباً في بنيّات الطريق : أين تذهب ؟ مُثلت حالهم بحاله ، في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي : القرآن المتلوّ عليكم ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : تذكرة وعظة لهم .

قال الإمام : موعظة يتذكّرون بها ما غرز الله في طباعهم من الميل إلى الخير ؛ وإنما أنساهم ذكره ما طرأ على طباعهم من ملكات السوء التي تحدثها أمراض الاجتماع . وقوله تعالى :

(163/805)

﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ بدل من ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : إنه ذكرى لمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، بصرف إرادته وميله إليه والثبات عليه ، أما من أعرض

ونأى ، فمن أين تنفعهُ الذكرى ، وقد زادهُ الران عمى ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : وما تشاؤون شيئاً من فعالكم ، إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم وإقداركم عليها والتخلية بينكم وبينها .

وفائدة هذا الإخبار هو الإعلام بالافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدرهُ الله عز وجل ؛ فهو خاضع لسلطان مشيئته ، مقهور تحت تدبيره وإرادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 333.344 ﴾

(164/805)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة التكوير

الدرس الأول: 1 – 14 من مشاهد يوم القيامة

إذا الشمس كورت , وإذا النجوم انكدرت , وإذا الجبال سيرت , وإذا العشار عطلت , وإذا الوحوش حشرت , وإذا البحار سجرت , وإذا النفوس زوجت , وإذا الموءودة سئلت: بأي ذنب قتلت ? وإذا الصحف نشرت , وإذا السماء كشطت , وإذا الجحيم سعرت , وإذا الجنة أزلفت . . علمت نفس ما أحضرت . .

هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود , والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية , والوحوش النافرة والأنعام الأليفة , ونفوس البشر , وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور , ويعلم كل مجهول ; وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف ; وكل شيء من حولها مقلوب !

وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده . الكون المنسق الجميل , الموزون الحركة , المضبوط النسبة , المتين الصنعة , المبني بأيد وإحكام . أن هذا الكون سينفرط عقد نظامه , وتتناثر أجزاؤه , وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ; وينتهي إلى أجله المقدر , حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائيا من هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره في المشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة – مهما بدت لها ثابتة – وتتصل بالحقيقة الباقية . . حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول , حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول . ولكي تنطلق من إسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود . إلى الحقيقة المطلقة التي لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس , ولا مظهر من المظاهر التي تقيدها في ظرف أو إطار محدود !

وهذا هو الشعور العام الذي ينسرب إلى النفس وهي تطالع مشاهد هذا الانقلاب المرهوب .

(165/805)

فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات , فعلمها عند الله ; وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)

وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنا وتفكيرنا . . وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر , أو يتفجر من باطنها بركان جائح , أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير , أو صاعقة . . وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان . . كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال . .

وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة . . تسليات أطفال !!!

فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئًا عن حقيقة ما يجري للكائنات , فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة !

إن تكوير الشمس قد يعني برودتها , وانطفاء شعلتها , وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء . كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ 12000 درجة , والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة . . استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض , وتكور لا ألسنة له ولا امتداد !

قد يكون هذا , وقد يكون غيره . . أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

(166/805)

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذي يربطها , وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها . . والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث . وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا . . مجموعتنا الشمسية مثلا . أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين

من النجوم . . أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله . فوراء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عددا ولا نهاية . فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله . .

وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء , كما جاء في سورة أخرى:(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا) . .(وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا) . .(وسيرت الجبال فكانت سرابا) . . فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال , فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها , وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض , والذي يقول عنه القرآن:(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . .)وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل . .

أما قوله سبحانه:(وإذا العشار عطلت) . . فالعشار هي النوق الحبالى في شهرها العاشر . وهي أجود وأثمن ما يملكه العربي . وهي في حالتها هذه تكون أغلى ما تكون عنده , لأنها مرجوة الولد واللبن , قريبة النفع . ففي هذا اليوم الذي تقع فيه هذه الأهوال تهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة , ولا يهتم بشأنها أحد . . والعربي المخاطب ابتداء بهذه الآية لا يهمل هذه العشار ولا ينفض يده منها إلا في حالة يراها أشد ما يلم به !

وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (9)

(وإذا الوحوش حشرت) . . فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشعاب ; ونسيت مخاوفها بعضها من بعض , كما نسيت فرائسها , ومضت هائمة على وجوهها , لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عادتها , ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب ؟ !

وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها [التي تحدثنا عنها في سورة النازعات] وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض . . وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال في موضع آخر: (وإذا البحار فجرت) . . فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة , وهو أشد هولا . أو على أي نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ; فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر , فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول ; وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة !

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها . ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة , كما قال في موضع آخر: (وكنتم أزواجا ثلاثة) أي صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة !

(168/805)

وإذا الموءودة سئلت: بأي ذنب قتلت ? وقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر . وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية , التي جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها , ويرفع البشرية كلها . فقال في موضع: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ? ألا ساء ما يحكمون !) . . وقال في موضع: وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا [أي البنات] ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ? . . وقال في موضع ثالث: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) . .

وكان الوأد يتم في صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يفتنون في هذا بشتى

الطرق . فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها , ثم يقول لأمها :طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ! وقد حفر لها بئرا في الصحراء , فيبلغ بها البئر , فيقول لها :انظري فيها . ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها . وإن كان ابنا قامت به معها ! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعي , فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله !

فأما الذين لا يئدون البنات ولا يرسلونهن للرعي , فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس . . كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11)

(169/805)

فإن أعجبته تزوجها , لا عبرة برغبتها هي ولا إرادتها ! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك . . وكان بعضهم يطلق المرأة

ويشترط عليها ألا تنكح غيره إلا من أراد . إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها . .

وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها . .

وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها , فيحبسها عن الزواج , رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها ! أو يزوجها من ابنه الصغير طمعا في مالها أو جمالها . .

فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة . يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج , كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام . ويقول: إن الموءودة ستسأل عن وأدها . . فكيف بوائدها ؟ !

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا ; لولا أن تتنزل بها شريعة الله ونهجه في كرامة البشرية كلها , وفي تكريم الإنسان: الذكر والأنثى ; وفي رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلي الأعلى . فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الإسلام , لا من أي عامل من عوامل البيئة .

وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض , تحققت للمرأة الكرامة , فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها . لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها في ميزانها . إنما الوزن للروح الإنساني الكريم المتصل بالله . وفي هذا يتساوى الذكر والأنثى .

وحين تعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله , وأن الذي جاء به رسول أوحي إليه .

. تعد هذه النقلة في مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل التي لا تخطئ . حيث لم تكن توجد في البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهي بالمرأة إلى هذه الكرامة ; ولا دافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهي ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها , وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة . فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاء , يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوي محض كذلك !

(وإذا الصحف نشرت)صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها , فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها , ويرجف ويذوب من كشفها ! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة !

إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم ; كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء , ويظهر المستور , ويفتضح المكنون في الصدور ?

وهذا التكشف في خفايا الصدور يقابله في الكون مشهد مثله:(وإذا السماء كشطت) .

. وأول ما يتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس .

وكشطها إزالتها . . فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء . ولكنا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية , التي توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفي . .

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (14)

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)

ثم تجيء الخطوة الأخيرة في مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب:

(وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت) . .

(171/805)

حيث تتوقد الجحيم وتتسعر , ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها . . أما أين هي ? وكيف تتسعر وتتوقد ? وبأي شيء تتوقد ? فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى: (وقودها الناس والحجارة) . وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها !

وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها , وتبدو لهم سهولة مدخلها , ويسر ولوجها . فهي مزلفة مقربة مهيأة . واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها ! !

عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها , في كيان الكون , وفي أحوال الأحياء والأشياء .

عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت , وما تزودت به لهذا اليوم , وما حملت معها للعرض , وما أحضرت للحساب:

(علمت نفس ما أحضرت) . .

كل نفس تعلم , في هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها . . تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها . . تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً مما أحضرت , ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه . . تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها , معهود في حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء , ولم يبقى إلا وجه الله الكريم , الذي لا يتحول ولا يتبدل . . فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم , فتجده – سبحانه – عندما يتحول الكون كله ويتبدل !

وبهذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب .

الدرس الثاني: 15 – 18 القسم ببعض المظاهر الكونية

ثم يجيء المقطع الثاني في السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة , تختار لها تعبيرات أنيقة . . القسم على طبيعة الوحي , وصفة الرسول الذي يحمله , والرسول الذي يتلقاه , وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله:

فلا أقسم بالخنس , الجوار الكنس , والليل إذا عسعس , والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم , ذي قوة عند ذي العرش مكين , مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين , وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ? إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين . .

والخنس الجوار الكنس . . هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهي تجري وتختبئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب , وهناك إيحاء شعوري بالجمال في حركتها . في اختفائها وفي ظهورها . في تواريها وفي سفورها . في جريها وفي عودتها . يقابله إيحاء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه .

(والليل إذا عسعس) . . أي إذا أظلم . ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين: عس . عس . وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل , وهو

يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى !

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)

وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .

ومثله: (والصبح إذا تنفس) . . بل هو أظهر حيوية , وأشد إيحاء . والصبح حي يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي . وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيرا لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح .

(173/805)

وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى: (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس , والليل إذا عسعس , والصبح إذا تنفس) . . ثروة شعورية وتعبيرية . فوق ما يشير إليه من حقائق كونية . ثروة جميلة بديعة رشيقة ; تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر , وهي

تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر .

الدرس الثالث: 19 - 21 من صفات جبريل عليه السلام

يلوح بهذه المشاعر الكونية التي يخلع عليها الحياة ; ويصل روح الإنسان بأرواحها من خلال التعبير الحي الجميل عنها ; لتسكب في روح الإنسان أسرارها , وتشي لها بالقدرة التي وراءها , وتحدثها بصدق الحقيقة الإيمانية التي تدعى إليها . . ثم يذكر هذه الحقيقة في أنسب الحالات لذكرها واستقبالها :

(إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين) . .

إن هذا القرآن , وهذا الوصف لليوم الآخر . . لقول رسول كريم . . وهو جبريل الذي حمل هذا القول وأبلغه . . فصار قوله باعتبار تبليغه .

ويذكر صفة هذا الرسول , الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه . . (كريم) عند ربه . فربه هو الذي يقول . . (ذي قوة) . . مما يوحي بأن هذا القول يحتاج في حمله إلى قوة . (عند ذي العرش مكين) . . في مقامه ومكانته . . وعند من ؟ عند ذي العرش العلي الأعلى . (مطاع ثم) هناك في الملأ الأعلى . (أمين) . . على ما يحمل وما يبلغ . .

وهذه الصفات في مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه . كما توحي بعناية الله سبحانه بالإنسان , حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه , ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه . . وهي عناية تخجل هذا الكائن

, الذي لا يساوي في ملك الله شيئا , لولا أن الله – سبحانه – يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة !

الدرس الرابع: 22 – 27 رد اتهامات الكفار للرسول وإثبات حقيقة الوحي

(174/805)

فهذه صفة الرسول الذي حمل القول وأداه , فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو (صاحبكم) . . عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا . فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون . وتذهبون في أمره المذاهب , وهو (صاحبكم) الذي لا تجهلون . وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين:

(وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين) . .

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة , ويعرفون رجاحة عقله , وصدقه وأمانته وتثبته , قالوا عنه: إنه مجنون . وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول . قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار . وقاله بعضهم عجبا ودهشة من هذا القول الذي لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون . وتمشيا مع ظنهم

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد . وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد . وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق , وهو أنه وحي وتنزيل من رب العالمين .

(175/805)

فجاء القرآن يحدثهم في هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع , وحيوية مشاهده الجميلة . ليوحي إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة , التي أنشأت ذلك الجمال . على غير مثال . وليحدثهم بصفة الرسول الذي حمله , والرسول الذي بلغه . وهو صاحبهم الذي عرفوه . غير مجنون . والذي رأى الرسول الكريم – جبريل – حق الرؤية , بالأفق المبين الواضح الذي تتم فيه الرؤية عن يقين . وأنه (صلى الله عليه وسلم) لمؤتمن على الغيب , لا تظن به الظنون في خبره الذي يرويه عنه , فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين . (وما هو بقول شيطان رجيم) فالشياطين لا توحي بهذا النهج القويم . ويسألهم مستنكرا : (فأين تذهبون ؟) . . أين تذهبون في حكمكم وقولكم ؟ أو أين تذهبون

منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم !

إن هو إلا ذكر للعالمين ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم , وحقيقة نشأتهم , وحقيقة الكون من حولهم . .(للعالمين) . . فهو دعوة عالمية من أول مرحلة . والدعوة في مكة محاصرة مطاردة . كما تشهد مثل هذه النصوص المكية . .

الدرس الخامس: 28 القرآن هدى لمن يريد الإستقامة والهداية

وأمام هذا البيان الموحي الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم , وقد منحهم الله هذا التيسير:

(لمن شاء منكم أن يستقيم) . .

أن يستقيم على هدى الله , في الطريق إليه , بعد هذا البيان , الذي يكشف كل شبهة , وينفي كل ريبة , ويسقط كل عذر . ويوحي إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم .

والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد . وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحي الموقظ . وما ينحرف عن طريق الله – بعد ذلك – إلا من يريد أن ينحرف . في غير عذر ولا مبرر !

الدرس السادس: 29 الهداية بيد الله يهبها لمن يطلبها

فإذا سجل عليهم إمكان الهدى , ويسر الاستقامة , عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم . حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء هي مشيئة الله سبحانه . . (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) . .

وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى , التي يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار , ويسر الاهتداء , إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شيء كان أو يكون !

وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق , يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة: حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون , والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان .

ولا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين , ليدركوا ما هو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى

المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق , ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3837.3844 ﴾

(177/805)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) ﴾

اختلف في معنى كُوِّرَت هنا أكثر من عشرة أقوال ، وكلها تدور على نهاية أمرها :

فقيل : كورت : لف بعضها على بعض ، فأنطمس نورها .

وقيل : حجبت بكارة ، أي لفت بها .

وقيل : ألقيت في البحر .

وقيل : دخلت في العرش .

وقيل : اضمحلت .

وقيل : نكست .

وقال ابن جرير : نقول كما قال الله تعالى : ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ .

والذين يشهد له القرآن ، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها ، لأن الله تعالى

جعل لها أجلاً مسمى ، ومعن ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان : 29] .

فمفهومه : أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها .

وهو ما يشير إليها قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر وَخَسَفَ القمر وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 7 – 9] ، أي بعد أن لم يجتمعا قط ، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت ، كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك : هو القول بأنه بمعنى نكست . أي ردت إلى حيث أتت ، كما في الحديث ، فتطلع من مغربها ، وعليه فتجتمع مع القمر .

وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2)

قيل : انكدرت انصبت ، وقيل : تغيرت من الكدرة ، وكلَّها متلازمة ولا تعارض .

ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ [الانفطار : 2] .

ويشهد للثاني : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ﴾ [المرسلات : 8] ، لأَنَّها غدا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها ، فقد ذهب نورها وطمست .

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3)

أي ذهب بها من مكانها .

(178/805)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان حالة الجبال في نهاية الدنيا في عدة مواطن . من أهمها عند قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] ، وعند قوله تعالى من سورة الكهف : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] .

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

لثقل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] .

والموءودة : المثقلة بالتراب حتى الموت ، وهي الجارية ، كانت تدفن حية ، فكانوا يحفرون لها الحفرة ويلقونها فيها ، ثم يهيلون عليها التراب .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ إشعار بأنه لا ذنب لها ، فتقتل بسببه ، بل الجرم على قاتلها .

ولكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها تبكيتاً لوائدها .

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه قوله : أمران في الجاهلية . أحدهما : يبكيني والآخر يضحكني .

أما الذي يبكيني : فقد ذهبت بابنة لي لوأدها ، فكنت أحفر لها الحفرة وتنفض التراب عن لحيتي وهي لا تدري ماذا أريد لها ، فإذا تذكرت ذلك بكيت .

والأخرى : كنت أصنع إلهاً من التمر أضعه عند رأس يحرسني ليلاً ، فإذا أصبحت معافى أكلته ، فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسي .

أما سبب إقدامهم على هذه الجريمة الشنيعة وما دفعهم على ارتكابها ، فقد ناقشه الشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بتوسع ، عند قوله تعالى من سورة النحل : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : 57 – 59] .

وبهذه المناسبة ، فإن هنا تنبيهين لا بد من إيرادهما .

(179/805)

الأول منهما : ما يشبه الوأد في هذه الآونة الحديثة ، وهو التعرض لمنع الحمل بأي وسيلة كانت .

وقد بحثت هذه المسألة قديماً وحديثاً . أما قديماً ففي عملية العزل ، وجاء فيه حديث جابر "كنا نعزل والقرآن ينزل " رواه مسلم . زاد إسحاق قال سفيان : لو كان شيئاً ينهى عنه لنهانا عنه القرآن . وجاء فيه : فبلغ ذلك النَّبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا .

كما جاء التحذير الشديد في حديث حذامة بنت وهب أخت عكاشة قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس قال : " لقد هممت أن أنهي عن الغيلة فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً " ، فسألوه عن العزل ، فقال : " ذلك الوأد الخفي "

زاد عبد الله في حديثه عن المقري زيادة وهي : وإذا الموءودة سئلت .

ففي الحديث الأول : ما يفيد التقرير .

وفي الثاني : ما يفيد شدة النكير .

وجاء في صحيح مسلم أيضاً عن أبي سعيد " غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بني المصطلق ، فسبينا كرائم العرب ، فطالت علينا الغربة ، ورغبنا في الفداء ، فأردنا أن نستمتع ونعزل ، فقلنا : نفعل ذلك ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، لا نسأله ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب

الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون "

وفي رواية : " إن الله كتب من هو خالق إلى يوم القيامة "

وفي رواية : " فقال لنا : " وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكلم لتفعلون . ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هي كائنة "

وفي رواية : " لا عَليكم ألاَّ تفعَلوا ، فإنما هو القدر "

قال أبو محمد : وقوله : لا عليكم أقرب إلى النهي .

وقال الحسن : والله لكأن هذا زجرٌ .

(180/805)

فأنت ترى قوله صلى الله عليه وسلم : وإنكم لتفعلون ، مشعر بعدم علمه سابقاً ، مما يتعارض مع الزيادة في حديث جابر ، فبلغ ذلك النَّبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، نبقي قول جابر ، مما يستدل به المجوزون ، ويعارضه : وهي الموءودة ، أو الوأد الخفي .

وكان للوأد عند العرب في الجاهلية سببان :

الأول : اقتصادي ، خشية إملاق ، ومن إملاق حاضر .

والثاني : حمية وغيرة .

وقد رد القرآن عليهم في السبب الأول ، في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 31] .

وقوله : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام : 151] .

وأخيراً كان هذا التساؤل شديد التوبيخ لهم ، ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ .

وفي هذه الآية أثيرت مرة أخرى وبشكل آخر أثارها أعداء المسلمين مكيدة للسذج ، أثيرت من الناحية الاقتصادية .

وكان مبدؤها المعروف عند كتاب هذا العصر بنظرية " مالتس " والآن لغرض عسكري لتقليل عدد جنود المسلمين ، حينما علم العدو أن الإسلام يبيح تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، فأرادوا أن يوقفوا هذا النمو .

ويكفي أن نورد هنا قوله صلى الله عليه وسلم : " تناكحوا تناسلوا فإِنّي مباه بكم الأمم " وفي رواية " مكاثر بكم الأمم "

وفيه " تزوجوا الولود الودود " ونحو ذلك .

وقد كنت جمعت في ذلك بحثاً في محاضرة وافية في هذا الغرض ، من حيث السياسة والاقتصاد ، والدفاع مع عمل إحصائيات للدول التي تطالب بهذا العمل ، مما يدفع رأي كل قائل به .

والذي يهمنا في هذا المقام تنبيه المسلمين ، إلى أن هذه الدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل

منشؤها من اليهود ، وتشجيعها في الشرق من دول الغرب ، وكثير من الدول الغربية تبذل المال الطائل لتفشي هذا الأمر في دول الشرق الأوسط وخاصة الإسلامية والعربية .

التنبيه الثاني

(181/805)

وهو حول ما يصرِّح به دعاة تحرير المرأة في صورة مناصرة لها ، والواقع أنهم دعاة شقائها ومعاداة لها ، وهدم لما مكنها الله منه في ظل الإسلام .

وذلك أن المرأة في الجاهلية كانت هذه حالة من حالاتها توأد حية ، وتورث كالمتاع ، ومهملة الشخصية إلى غير ذلك . فحباها الإسلام ما يثبت خَسيتها ابتداء من إيفائها حقها في الحياة كالرجل ، ثم اختيارها في الزواج ، وحقها في الميراث إلى غير ذلك .

وقد تقدم الحديث عن ذلك في عدة محلات ، منها للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، عند قوله تعالى : ﴿ الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النسآء ﴾ [النساء : 34] .

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى من سورة الحج : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ

أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السعير ﴾ [الحج : 3 – 4] .

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13)

الزلفى : القربى ، وأزلفت : قربت ، وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة ق عند قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] .

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)

المراد بالنفس هنا : العموم ، أي كل نفس ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ [آل عمران : 30] الآية .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15)

ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ نفى القسم ، ولكنه قسم قطعاً ، بدليل التصريح بجواب القسم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وبهذا يترجح ما تقدم في أول سورة القيامة ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] .

ومثل الآتي ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] .

تنبيه يجمع المفسرون أن للّه تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، لأنها دالة على قدرته ، وليس للمخلوق أن يحلف إلا بالله تعالى .

ولكن هل في المغيرة بما يقسم الله تعالى به معنى مقصود ، أم لمجرد الذكر ، وتعدد المقسم به ؟

وبعد التأمل ، ظهر والله تعالى أعلم ، أنه سبحانه لا يقسم بشيء في موضع دون غيره ، إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع ، يكون بين المقسم به ، والمقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفياً .

وهذا فعلاً ما تقتضيه الحكمة والإعجاز في القرآن ، وإن كنت لم أقف على بحث فيه .

ولكنّ مما يشير إلى هذا الموضوع ، ما جاء بالإقسام بمكة مرتين ، وفي حالتين متغايرتين .

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : 1 – 4] .

والموضع الثاني : قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ وهذا البلد الأمين لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 1 – 4] .

فالمقسم به في الموضعين : مكة المكرمة ، والمقسم عليه في الموضعين خلق الإنسان ، ولكن في الموضع الأول كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته ، إلى كده في حياته ، إلى نهايته ومماته .

من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله ، ولحقت به أمه ، وهو في طفولته ، وبعد الوحي كابد مع قومه ولقى منهم عنتاً شديداً ، حتى تآمروا على قتله ، فكأنه يقول له : اصبر على ذلك ، فإن المكابدة لا بد منها ، هي ملازمة للإنسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك .

وفي ذكر ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ إشعار ببدء المكابدة ، وبأشدها من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ، ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون أي وصف .

(183/805)

أما في الموضع الثاني : فالمقسم عليه ، وإن كان هو خلق الإنسان ، لا أنه في أحسن تقويم ، وهي أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضاً للنعم ، وتعددها من التين والزيتون ، سواء كان المراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها ، وهو بيت المقدس مع طور سينين .

فجاء بمكة أيضاً ولكن بوصف مناسب فقال : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : 3]

فكأنه يقول : إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة ، أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقته وحسن تقويمه وفضله على سائر مخلوقاته . والله تعالى أعلم .

وهنا يقسم بحالات الكواكب على أصح الأقوال ، في ظهورها واختفائها وجريانها ،

وبالليل إذا عسعس : أقبل وأدبر ، أو أضاء وأظلم ، والصبح إذا تنفس : أي أظهرت وأشرق ، وهما أثران من آثار الشمس في غروبها وشروقها .

والمقسم عليه : هو أن القرآن قول رسول كريم كأنه يقول : إن القرآن المقسم عليه حاله في الثبوت والظهور ، وحال الناس معه . كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم في ظهورها تارة ، واختفائها أخرى .

وكحال الليل واصبح فهو عند أناس موضع ثقة وهداية كالصبح في إسفاره ، قلوبهم متفتحة إليه وعقولهم مهتدية به ، فهو لهم روح ونور ، وعند اناس مظلمة أمامه قلوبهم عمى عنه بصائرهم ، وفي آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، وأناس تارة وتارة كالنجوم أحياناً ، تارة ينقدح نوره في قلوبهم ، فتظهر معالمه فيسيرون معه ، وتارة يغيب عنهم نوره فتخنس عنه عقولهم وتكنس دونه قلوبهم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ كُلَّمَا أَضَآءَ لَهُمْ مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ [البقرة : 20] .

وليس بعيداً أن يقال : إنه من وجه آخر ، تعتبر النجوم كالكتب السابقة ، مضى عليها الظهور في حينها والخفاء بعدها .

والليل إذا عسعس : هو ظلام الجاهلية .

والصبح إذا تنفس : يقابله ظهور الإسلام ، وأنه سينتشر ضوء النهار ، ولا تقوى قوة قط على حجبه ، وسيعم الآفاق كلها ، مهما وقفوا دونه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [الصف : 8] .

وقد يكون في هذا الإيراد غرابة على بعض الناس ، ولا سيما وأني لم أقف على بحث مستقل فيه ، ولا توجيه يشير إليه ، ولكن مع التتبع وجدت اطراده في مواضع متعددة ، وجدير بأن يفرد برسالة .

ومما أطرد فيه هذا التوجيه سورة الضحى ، يقول الله تعالى : ﴿ والضحى والليل إِذَا سجى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 1 – 3] ، فإن المقسم عليه عدم تركه صلى الله عليه وسلم ولا التخلي عنه ، فجاء بالمقسم به قسمي الزمن ليلاً ونهاراً ، كأنه يقول له : ما قلاك ربك ولا تخلى عنك ، لا في ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك ، ولا في ظلمة الليل حين تأوي إلى بيتك .

ومعلوم ما كان من عمه أبي طالب حينما كان يجعله ينام مع اولاده ليلاً ، حتى إذا أخذ الجميع مضاجعهم يأتي خفية فيقيمه من مكانه . ويضع أحد أولاده محله ، حتى لو كان أحد نواه بسوء ، وقد رآه في مكانه الأول يصادف ولده ، ويسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ﴾ [الضحى : 4] ، أي من كل ما طلعت عليه الشمس وسجاه الليل .

ومنه أيضاً : وهو أشد ظهوراً في سورة العصر قال تعالى : ﴿ والعصر إِنَّ الإِنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1 - 3] ، إلى آخر السورة . فإن المقسم عليه هو حالة الإنسان ، الغالية عليه من خسر ، إلاَّ من استثنى الله تعالى ، فكان المقسم به ، والعصر المعاصر للإنسان : طيلة حياته وهو محل عمله ، الذي به يخسر ويربح .

وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه .

(185/805)

وكنت قد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول : إن العمر وزمن الحياة حجة على الإنسان كالرسالة والنذارة سواء ، وذكر قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير ﴾ [فاطر : 37] ، فجعل في الآية التعمير ، وهو إشغال العمر موجباً للتذكر والتأمل ، ومهلة للعمل ، كما تخبر إنساناً بأمر ثم تمهله إلى أن يفعل ما مر به ، فهو أمكن في الحجة عليه .

فكان القسم في العصر على الربح والخسران ، أنسب ما يكون بينهما ، إذ جعلت حياة الإنسان كسوق قائمة والسلعة فيه العمل والعامل هو الإنسان . كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [الصف : 10- 11] .

وفي الحديث الصحيح عند مسلم : " سبحان الله تملأ الميزان ، وفيه كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " ، فإن كان يشغل عمره في الخير فقد ربح ، وأعتق نفسه وإلاَّ فقد خسر وأهلكها " .

ويشير لذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : 111] .

فصح أن الدنيا سوق ، والسلعة فيها عمل الإنسان ، والمعاملة فيه مع الله تعالى ، فظهر الربط والمناسبة مع المقسم به ، والمقسم عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أجمعوا على أن المراد بالقول هو القرآن ، وأما المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : 20 - 22] .

فصاحبكم هنا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي صحبهم منذ ولادته وذو القوة

عند ذي العرش : هو جبريل عليه السلام ، وفي إسناد القول إليه ما قد يثير شبهة أن القول منه ، مع أنه كلام الله تعالى .

(186/805)

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، بإيراد النصوص الصريحة في أن القرآن كلام الله تعالى ، وقال : وإن في نفس هذه الآية ما يرد هذه الشبهة ، ويثبت تلك الحقيقة ، وهي قوله تعالى : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ لأن الرسول لا يأتي بقول من عنده ، وإنما القول الذي جاء به هو ما أرسل به من غيره ، إلى ما أرسل إليه به .

تنبيه

في وصف جبريل عليه السلام بتلك الأوصاف .

نص في تمكينه من حفظ ما أرسل به ، وصيانته عن التغيير والتبديل ، لأنه مكين ، فلا يصل إليه ما يخل برسالته ، ولأَنَّه مطاع ثم . والمطاع لا يؤثر عليه غيره ، والأمين لا يخون ولا يبدل ، فكان القرآن الذي جاء به مصوناً من أن يتسلط أحد عليه فيغيره ، ومن أن يغيره الذي جاء به ، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقي القرآن الكريم .

وقوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : 22] بيان لتتمة السند ، حيث قال :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الغيبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير : 23 - 24] ، فنفى عنه صلى الله عليه وسلم نقص التلقي بنفي آفة الجنون ، فهو في كمال العقل وقوة الإدراك ، ومن قبل أثبت له كمال الخلق

﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] .

وأثبت له اللقيا ، فلم يلتبس عليه جبريل بغيره ، وهي أعلى درجات السند ، فاجتمع له صلى الله عليه وسلم الكمال الخلقي .

والكمال الخلقي - بضم الخاء وكسرها - أي الكمال حساً ومعنى ، ثم نفى عنه التهمة بأن يضمن بشيء مما أرسل به مع نفاسته وعلو منزلته وجليل علومه ، وأنه كلام رب العالمين .

وفي الختام إفهامهم : بأنه ليس بقول شيطان رجيم ، حيث تقدم ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 212] .

(187/805)

وأن من يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، فلم يبق لهم موج للانصراف عنه ، وألزموا بالأخذ به حيث أصبح من الثبات أنه كلام الله ، جاء به رسول كريم ، وبلغة لصاحبكم صاحب الخلق العظيم ، وليس بقول شيطان رجيم

فلزمهم الأخذ به ، وإلاَّ فأين تذهبون . أين تسيرون عنه ، بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره ؟

ونظير هذا السند في تمجيد القرآن وإثبات إتيانه من الله ، قوله تعالى في أول سورة النجم : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ذُو مِرَّةٍ فاستوى وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ [النجم : 2 – 7] .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)

بمثابة من يسد عليهم الطريق إلا له لأنه – أي القرآن – ليس في نزوله من الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شبهة ولا تهمة ، فليس للعاقل أن يحيد عنه ، وكل ذهاب إلى غيره فطرق مسدود ، وضلال وهلاك .

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28)

أي بعد هذا البيان وقوة هذا السند ، وإظهار ثبوت الرسالة ، فقد أعذر من أنذر ، لمن شاء منكم أن يستقيم .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

فيه قضية القدر والإرادة الكونية والقدرية .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في عدة مواطن .

منها في سورة الزخرف عند قوله تعالى : ﴿ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف :

20] ، وفيها مناظرة المعتزلي مع السني . ومنها في سورة الذاريات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ [الذاريات : 56 – 57] ، والفرق بين الإرادة الكونية والقدرية .

تنبيه

(188/805)

إذا كان الكثيرون يستدلون في قضية القضاء والقدر بهذه الآية ، فإنه ينبغي ألاَّ تغفل أهميتها في جانب الضراعة إلى الله دائماً ، بطلب التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلاً من عنده ، كما أمرنا في الصلاة في كل ركعة منها أن نطلبه هذا الطلب ﴿ 1649;هْدِنَا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

تنبيه آخر

لقد أجملت الاستقامة هنا ، وهي منبه عليها في سورة الفاتحة : إلى صراط الذين أنعم الله عليهم ، كما هو معلوم . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(189/805)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة التكوير

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1)

قوله : ﴿ إِذَا الشمس ﴾ : في ارتفاع " الشمسِ " وجهان ، أصحُّهما : أنها مرفوعةٌ بفعلٍ مقدرٍ مبنيٍّ للمفعول ، حُذِف وفَسَّره ما بعده على الاشتغالِ . والرفعُ على هذا الوجهِ أعني إضمارَ الفعل واجبٌ عند البصريين ؛ لأنهم لا يُجيزون أَنْ يَلِيَها غيرُه ، ويتأوَّلون ما أَوْهَمَ خلافَ ذلك ، والثاني : أنها مرفوعةٌ بالابتداء ، وهو قول الكوفيين والأخفش لظواهرَ قد جاءَتْ في الشعر ، وانتصر له ابنُ مالك وهناك أظهَرْتُ معه البحثَ . وقال الزمخشري : " ارتفاعُ الشمسُ على الابتداءِ أو الفاعليةِ . قلت : بل على الفاعليةِ " ثم ذكرَ نحوَ ما تقدم . ويعني بالفاعليةِ ارتفاعَها بفعلٍ في الجملةِ ، وقد مرَّ أنه يُسَمَّى مفعولُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه فاعلاً . وتقدَّم تفسير التكوير في أوّلِ " تنزيل " . وارتفاعُ " النجوم " وما بعدَها كما تقدَّم في " الشمس " .

وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2)

والانْكِدار : الانتثارُ ، أي : انصَبَّتْ كما يَنْصَبُّ العُقابُ إذا كُسِرَتْ . قال العَجَّاجُ يصفُ

صَقْراً :

4510 أَبْصَرَ خِرْبانَ الفَلاةِ فانكَدَرْ . . . تَقَضِّيَ البازيْ إذا البازيْ كَسَرْ

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4)

والعِشار : جمع عُشَراء ، وهي الناقةُ التي مَرَّ لحَمْلِها عشرةُ أشهرٍ ، ثم هو اسمُها إلى أَنْ تَضَعَ في تمام السنةِ ، وكذلك "نِفاس" في جَمْع نُفَساء . وقيل : العِشارُ : السَّحابُ . وعُطِّلت ، أي : لا تُمْطر . وقيل : الأرضُ التي تَعَطَّل زَرْعُها . والتَّعْطيل : الإهمالُ . ومنه قيل للمرأة : "عاطِلٌ" إذا لم يكُنْ عليها حُلِيّ . وتقدَّم/في "بئرٍ مُعَطَّلةٍ" . وقال امرؤ القيس :

4511 وجِيْدٍ كجِيْدِ الرِّئْمِ ليس بفاحشٍ . . . إذا هي نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ

(190/805)

وقرأ ابنُ كثيرٍ في روايةٍ "عُطِلت" بتخفيفِ الطاءِ . قال الرازي : "هو غَلَطٌ ، إنما هو "عَطَلَتْ" بفتحتَيْنِ بمعنى تَعَطَّلَتْ ؛ لأنَّ التشديدَ فيه للتعدي . يُقال : عَطَّلْتُ الشيءَ وأَعْطَلْتُه فَعَطَلَ" .

والوحوش : ما لم يَتَأَنَّسْ من حيوانِ البَرِّ . والوَحْشُ أيضاً : المكانُ الذي لا أُنْسَ فيه ، ومنه لَقِيْتُه بوَحْشِ إصْمِت ، أي : ببلدٍ قَفْرٍ . والوحشُ : الذي يَبيت جوفُه خالياً من الطعام ،

وجمعُه أَوْحاش ، ويُسَمَّى المنسوبُ إلى المكانِ الوَحْشِ : وَحْشِيّ ، وعَبَّر بالوَحْشِيِّ عن الجانبِ الذي يُضادُّ الإِنسيَّ ، والإِنسيُّ ما يُقْبَلُ من الإِنسان ، وعلى هذا وحشيُّ الفَرَس وإِنْسِيُّه . وقرأ الحسن وابن ميمون بتشديد الشينِ مِنْ حُشِّرَتْ .

وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6)

قوله : ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو " سُجِرَتْ " بتخفيف الجيم ، والباقون بتثقيلِها على المبالغةِ والتكثيرِ . وتقدَّم اشتقاقُ هذه المادةِ .

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)

قوله : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ : العامَّةُ على تشديد الواوِ مِنْ التزويجِ ، ورُوي عن عاصمٍ " زُوْوِجَتْ " على فُوْعِلَتْ . قال الشيخ : " والمُفَاعَلَةُ تكون بين اثنين " انتهى . قلت : وهي قراءةٌ مُشْكِلَةٌ : لأنه ينبغي أَنْ يُلفَظَ بواوٍ ساكنةٍ أخرى مكسورةٍ . وقد تقدَّم لك أَنَّه اجتمع مِثْلان ، وسَكَنَ أَوَّلُهما وَجَبَ الإِدغام حتى في كلمتين ، ففي كلمةٍ واحدةٍ بطريقِ الأَوْلى .

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8)

قوله : ﴿ الموءودة ﴾ : هي البنتُ تُدْفَنُ حيةً مِنْ الوَأْدِ ، وهو الثِّقَلُ ؛ لأنَّها تُثْقَلُ بالترابِ والجَنْدَل . يقال : وَأَدَه يَئِدُهُ كوَعَدَه يَعِدُه . وقال الزمخشري : " وَأَدَ يَئِدُ ، مقلوبٌ مِنْ آدَ يَؤُوْدُ إذا أَثْقَلَ . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة : 255] لأنه إثْقالٌ بالتراب " . قال الشيخ : " ولا يُدَّعى ذلك ؛ لأنّ كلاً منهما كاملُ التصرُّفِ في الماضي والأمرِ والمضارعِ والمصدرِ واسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ ، وليس فيه شيءٌ مِنْ مُسَوّغات ادّعاءِ القَلْبِ . والذي يُعْلَمُ به الأصالةُ مِنْ القَلْب : أَنْ يكونَ أحدُ النَّظْمَيْن فيه حُكْمٌ يَشْهَدُ له بالأصالةِ ، والآخرُ ليس كذلك أو كونُه مجرداً من حروف الزيادة والآخر فيه مزيداً ، وكونُه أكثرَ تصرفاً والآخر ليس كذلك ، أو أكثرَ استعمالاً من الآخرِ ، وهذا على ما قُرِّرَ وأُحْكِمَ في علمِ التصريفِ . فالأول : كيَئِس وأيِسَ . والثاني : كَطَأْمَنْ واطمأنَّ . والثالث : كشوايع وشواعِي . والرابع : كلَعَمْري ورَعَمْلي " .

(192/805)

وقرأ العامَّةُ : " المَوْءُوْدَة " بهمزةٍ بينَ واوَيْن ساكنتَيْن كالمَوْعودة . وقرأ البزيُّ في روايةٍ بهمزةٍ مضمومةٍ ثم واوٍ ساكنةٍ . وفيها وجهان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ كقراءةِ الجماعة ثم نَقَلَ حركةَ الهمزةِ إلى الواوِ قبلها ، وحُذِفَتِ الهمزةُ ، فصار اللفظُ المَوُوْدَة : واوٌ مضمومةٌ ثم أخرى

ساكنةٌ ، فقُلبت الواوُ المضمومةُ همزةً نحو : " أُجوه " في وُجوه ، فصار اللفظُ كما ترى ، ووزنُها الآن المَفُوْلة ؛ لأنَّ المحذوفَ عينُ الكلمةِ . والثاني : أَنْ تكونَ الكلمةُ اسمَ مفعولٍ مِنْ آدَه يَؤُوده مثلَ : قاده يَقُوده . والأصلُ : مأْوُودة ، مثلَ مَقْوُوْدة ، ثم حَذَفَ إحدى الواوين على الخلافِ المشهورِ في الحَذْفِ مِنْ نحو : مَقُوْل ومَصُوْن فوزنُها الآن : إمَّا مَفُعْلَة إنْ قلنا : إنَّ المحذوفَ الواوَ الزائدةُ ، وإمَّا مَفُوْلة إنْ قُلْنا : إنَّ المحذوفَ عينُ الكلمةِ ، وهذا يُظْهِرُ فَضْلَ عِلْمِ التصريفِ .

وقُرِئَ " المَوُوْدة " بضمِّ الواو الأولى على أنه نَقَل حركةَ الهمزةِ بعد حَذْفِها ولم يَقْلِبَ الواوَ همزةً . وقرأ الأعمش " المَوْدَة " بزنةِ المَوْزَة . وتوجيهُه : أنه حَذَفَ الهمزةَ اعتباطاً ، فالتقى ساكنان ، فحَذَفَ ثانيهما ، ووزنُها المَفْلَة ؛ لأنَّ الهمزةَ عينُ الكلمةِ ، وقد حُذِفَتْ . وقال مكي : " بل هو تخفيفٌ قياسِيٌّ ؛ وذلك أنَّه لمَّا نَقَل حركةَ الهمزةِ إلى الواوِ لم يَهْمِزْها ، فاستثقلَ الضمَّةَ عليها ، فسَكَّنها ، فالتقى ساكنان فحَذَفَ الثاني ، وهذا كلُّه خروجٌ عن الظاهرِ ، وإنما يظهر في ذلك ما نَقَله القُرَّاء في وقفِ حمزةَ : أنه يقفُ عليها كالمَوْزَة . قالوا : لأجل الخطِّ لأنها رُسِمَتْ كذلك ، والرسمُ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ .

(193/805)

والعامَّةُ على " سُئِلت " مبنياً للمفعولِ مضمومَ السين . والحسنُ بكسرِها مِنْ سال يَسال كما تقدَّم . وقرأ أبو جعفر " قُتِّلَتْ " بتشديد التاءِ على التكثيرِ ؛ لأنَّ المرادَ اسمُ الجنسِ ، فناسبَه التكثيرُ .

وقرأ عليٌّ وابن معسود وابن عباس " سَأَلَتْ " مبنياً للفاعل ، " قُتِلْتُ " بضمِّ التاءِ الأخيرة التي للمتكلم حكايةً لكلامِها . وعن أُبَيّ وابن مسعود أيضاً وابن يعمرَ " سَأَلَتْ " مبنياً للفاعل ، " قُتِلَتْ " بتاءِ التأنيث الساكنةِ كقراءةِ العامة .

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10)

قوله : ﴿ نُشِرَتْ ﴾ : قرأ الأخَوان وابن كثير وأبو عمرو بالتثقيل . والباقون بالتخفيف .

ونافعٌ وحفصٌ وابنُ ذكوانَ/ " سُعِّرَتْ " بالتثقيل ، والباقون بالتخفيف .

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)

قوله : ﴿ عَلِمَتْ ﴾ : هذا جوابُ " إذا " أولَ السورةِ وما عُطِفَ عليها .

قوله : ﴿ كُشِطَتْ ﴾ [التكوير : 11] ، أي : قُشِرَتْ ، مِنْ قولهم : كَشَطَ جِلْدَ الشاةِ ، أي : سَلَخَها . وقرأ عبد الله " قُشِطَتْ " بالقاف ، وقد تقدَّم أنهما يَتعقبان كثيراً ، وأنه قُرِىء " قافوراً " و " كافوراً " في ﴿ هَلْ أَتى عَلَى الإنسان ﴾ .

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15)

قوله : ﴿ بالخنس ﴾ : جمعُ خانِس ، والخُنُوس : الانقباضُ . يقال : خَنَسَ من القوم

وانْخَنَسَ . وفي الحديث : " فانْخَنَسْتُ " ، أي : اسْتَخْفَيْتُ . والخَنَسُ : تأخُّرُ الأَنْفِ عن الشَّفَة مع ارتفاع الأَرْنَبةِ قليلاً . ويقال : رجلٌ أَخْنَسُ وامرأةٌ خَنْساءُ . ومنه الخَنساءُ الشاعرة . والخُنَّسُ في القرآن قيل : كواكبُ سبعةٌ : القمران وزُحَلُ والزهرةُ والمُشْتري والمَرِّيخ وعُطارِد . والكُنَّسُ : الدَّاخلة في الكِناس وهو بيتُ الوحشِ . والجواري : جمعُ جارية . وقيل : هي بَقَرُ الوحشِ ؛ لأنَّ هذه صفتُها وقيل : الظِّباء ، قالوا : لأنَّ الخَنَسَ يكون فيها .

(194/805)

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17)

قوله : ﴿ عَسْعَسَ ﴾ : يقال : عَسْعَسَ وسَعْسَعَ أقبل . قال العَجَّاج :

4512 حتى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَّسا . . . وانْجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسا

أي : أَدْبَر . وقيل : هو لهما على طريق الاشتراك . وقيل : أَدْبَرَ بلغةِ قريشٍ خاصةً . وقيل : أقبل ظلامُه ، ويُرَجِّحُه مقابلتُه بقولِه ﴿ والصبحِ إذا تَنَفَّسَ ﴾ وهذا هو قريبٌ من إدْباره .

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20)

قوله : ﴿ عِندَ ذِي العرش ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً ل " رسولٍ " ، وأن يكونَ حالاً مِنْ " مَكين " ، وأصلُه الوصفُ ، فلمَّا قُدِّمَ نُصِبَ حالاً .

مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21)

قوله : ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ : العامَّةُ على فَتْحِ الثاءِ ؛ لأَنَّه ظرفُ مكانٍ للبعيدِ . والعاملُ فيه " مُطاعٍ " . وأبو البرهسم وأبو جعفر وأبو حيوة بضمِّها جعلوها عاطفةً ، والتراخي هنا في الرتبةِ ؛ لأنَّ الثانية أعظمُ من الأولى .

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)

قوله : ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء بمعنى مُتَّهم ، مِنْ ظَنَّ بمعنى اتَّهم فيتعدَّى لواحدٍ . وقيل : معناه بضعيفِ القوةِ عن التبليغ مِنْ قولِهم : " بئرٌ ظَنُونٌ " ، أي : قليلةُ الماءِ . وفي مصحفِ عبد الله كذلك ، والباقون بالضاد بمعنى : ببخيلٍ بما يأتيه من قِبَلِ ربِّه ، إلاَّ أنَّ الطبريَّ نَقَلَ أنَّ الضادَ خطوطُ المصاحفِ كلِّها ، وليس كذلك لِما مرَّ ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، وهذا دليلٌ على التمييز بين الحرفين ، خِلافاً لمَنْ يقول : إنه لو وقع أحدُهما مَوْقِعَ الآخرِ لجاز ، لِعُسْرِ معرفتِه . وقد شَنَّعَ الزمخشري على مَنْ يقول ذلك ، وذكر بعضَ المخارج وبعضَ الصفاتِ ، بما لا يَليق التطويلُ فيه . و " على الغيب " متعلقٌ ب " ظَنِين " أو " بضَنِين " .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)

قوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ : "أين" منصوبٌ ب" تَذْهبون" لأنه ظرفٌ مُبْهَمٌ . وقال أبو البقاء : "أي : إلى أين ، فحذف حرفَ الجر كقولك : ذهبتُ الشامَ . ويجوز أَنْ يُحْمَلَ على المعنى كأنه قال : أين تؤمنون" . يعني أنه على الحذفِ ، أو على التضمين . وإليه نحا مكي أيضاً ، ولا حاجة إلى ذلك البتة ؛ لأنه ظرفُ مكانٍ مبهمٌ لا مُخْتَصٌّ .

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28)

قوله : ﴿ لِمَن شَآءَ ﴾ : بدلٌ مِنْ "العالمين" بإعادةِ العاملِ ، وعلى هذا فقولُه "أن يَسْتقيمَ" مفعولُ "شاء" ، أي : لِمَنْ شاء الاستقامة ، ويجوز أَنْ يكونَ "لِمَنْ شاء" خبراً مقدماً ، ومفعول "شاء" محذوفٌ ، و "أَنْ يَسْتَقيم" مبتدأ . وقد مَرَّ له نظيرٌ .

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ : أي : إلاَّ وقتَ مشيئةِ الله ، وقال مكي : "وأنْ في موضع خفضٍ بإضمارِ الباءِ ، أو في موضعِ نصبٍ بحذفِ الخافضِ" يعني أنَّ الأصلَ : إلاَّ بأَنْ ، وحينئذٍ تكونُ للمصاحبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 699.

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة التكوير

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة أثلجت من قوم قلوبا ، وأوهجت من آخرين قلوبا ، من المطيعين أثلجتها ، ومن العاصين أ , هجتها ، ومن المريدين أبهجتها ، ومن العارفين أزعجتها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .

ذَهَبَ ضَوْؤُها .

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ .

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .

أُزِيلَتْ عنها مناكبُها .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ .

وهي النُّوق الحوامل التي أتى حَمْلُها عَشْرَةَ أشهر . . . أهملت في ذلك اليوم لشدة أهواله ، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها) .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ .

أُحْيِيَتْ ، وجُمِعَتْ في القيامة لِيُقْتَصَّ لبعضها من بعض ؛ فيقتصّ للجّماء من القَرْناء – وهذا على جهة ضَرْبِ المثل ؛ إذ لا تكليف عليها .

ولا يبعد أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه ألالم – اليومَ – على العِوَضِ . . جوازاً لا وجوباً على ما قالَه أهلُ البِدَع .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ .

أُوقدت – مِنْ سَجَرْتُ التنور أَسْجُرُه سَجْراً ، أي : أَحْمَيْتُه .

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .

بالأزواج .

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .

نُشِرَتْ ، أي : بُسِطَت .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَت ﴾ .

أي : نُزِعَتْ وطُوِيَتْ .

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ .

أُوقِدَت .

﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ .

أي : قُرِّبَتْ من المتقين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

هو جوابٌ لهذاه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفي قيام هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتجلِّي هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

(197/805)

فمن اختلاف أحوالهم : أنَّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما يُرَدُّون .

ونجومُ علومِهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريدين في بعض الأحوال ، فعند ذلك ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ .

أي : أُقْسِمُ ، والخُنَّس والكُنَّس هي النجوم إذا غربت .

ويقال : البقر الوحشي .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ .

عسعس . أي جاءَ وأقبل . ﴿ تَنَفَّسَ ﴾ : خرج من جوف الليلِ .

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

إن هذا القرآنَ لقولُ رسولٍ كريمٍ ، يعني به جبريل عليه السلام .

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

﴿ مَكِينٍ ﴾ من المكانة ، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آلِ لوطٍ وقلَبَها .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ .

وهذا أيضاً من جواب القَسَم .

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ .

رأى محمدٌ جبريلَ عليه السلام بالأفق المبين ليلةَ المعراج .

ويقال : رأى ربَّه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .

بمُتَّهَمٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ .

إلى متى تتطوحون في أودية الظنون والحسبان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاَّ رجعتم إلى مولاكم فيما سرَّكم أو أساءكم ؟

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ .

ما هذا القرآن إلاَّ ذكرى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ . . . وقد مضى القول في الاستقامة .

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أَنْ يشاؤوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 692.695 ﴾

(198/805)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة التّكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا

الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12)

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (14)

الإعراب :

(إذا) ظرف للمستقبل في محلّ نصب متعلّق بالجواب علمت ، وكذا بقية الظروف المعطوفة

(الشمس) فاعل لفعل محذوف يفسّره ما بعده

تقديره انطوت ، وكذلك تعرب الأسماء بعد الظروف التالية (الجبال) فاعل لفعل محذوف

تقديره انتثرت (العشار) فاعل لفعل محذوف تقديره سرحت وحدها (الوحوش) فاعل

لفعل محذوف تقديره اجتمعت (البحار) فاعل لفعل محذوف تقديره اختلطت أو امتلأت

(النفوس) فاعل لفعل محذوف تقديره اقترنت (الموؤدة) فاعل لفعل محذوف تقديره تظلّمت

(بأيّ) متعلّق بـ (قتلت) و(الباء) سببيّة (الصحف) فاعل لفعل محذوف تقديره ظهرت

(السماء) فاعل لفعل محذوف تقديره زالت (الجحيم) فاعل لفعل محذوف تقديره اشتعلت

(الجنّة) فاعل لفعل محذوف تقديره قربت " 1 " ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ،

والعائد محذوف . .

جملة : " (انطوت) الشمس . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجملة الشرط وفعله

وجوابه . . لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : "كوّرت . . . "لا محلّ لها تفسيريّة .

وجمل : "الشرط وفعله وجوابه الإحدى عشرة التالية . . . "لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

والجمل : "المقدّرة بعد (إذا) . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) هذا ، وأجاز بعض المفسّرين إعراب الأسماء المذكورة كلّ منها نائب فاعل لفعل محذوف من جنس الفعل المبني للمجهول الوارد بعدها . . .

(199/805)

والجمل : "المذكورة بالبناء للمجهول . . . "لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : "قتلت . . . "في محلّ نصب مفعول به لفعل السؤال المعلّق بالاستفهام بتقدير حرف الجرّ عن .

وجملة : "علمت نفس . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "أحضرت . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(4) العشار : جمع عشراء ، اسم للناقة الحامل وزنه فعلاء

بضمّ ففتح ، والجمع فعال بكسر الفاء .

(5) الوحوش : جمع وحش ، اسم لدابة الأرض وزنه فعل بفتح فسكون ، والجمع فعول بضمّ الفاء .

(8) الموؤدة : اسم للجارية تدفن حيّة ، وهو اسم مفعول من الثلاثيّ وأد ، وزنه مفعول .

البلاغة

التنكير : في قوله تعالى " عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ " .

تنكير النفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس ، أو لبعض منها ، للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة ، من الظهور والوضوح ، بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعا ، يعرفه كل أحد ، إذا هذا التنكير يفيد العموم .

[سورة التكوير (81) : الآيات 15 إلى 22]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لا) زائدة (بالخنّس) متعلّق بـ (أقسم) ، (الجوار) بدل من الخنّس مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة لقراءة الوصل (الكنّس) نعت للجواري

مجرور (الواو) عاطفة في الموضعين (الليل) معطوف على الخنّس مجرور (إذا) ظرف في محلّ نصب جرّد من الشرط

(200/805)

متعلّق بـ (أقسم) ، (الصبح إذا تنفّس) مثل الليل إذا عسعس (اللام) في موضع لام القسم للتوكيد عوض من المزحلقة (ذي) نعت لرسول مجرور (عند) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (مكين) " 1 " وهو نعت لرسول مجرور (ثمّ) ظرف مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بـ (مطاع) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (مجنون) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

جملة : " أقسم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عسعس . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تنفّس . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّه لقول . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " ما صاحبكم بمجنون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

الصرف :

(15) الخنّس : جمع خانس ، اسم فاعل من الثلاثيّ خنس باب نصر بمعنى تأخّر وتنحّى ، وهو اسم للكوكب السيار ما عدا القمر ، وزنه فاعل ، والجمع فعّل بضمّ الفاء وفتح العين المشدّدة .

(16) الكنّس : اشتقاقه كاشتقاق الخنّس وبمعناه من الثلاثيّ كنس باب ضرب بمعنى غاب في موضعه .

(21) مطاع : اسم مفعول من الرباعيّ أطاع ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين ، وفيه إعلال بالقلب أصله مطوع ، تحرّكت الطاء بالفتح بنقل حركة الواو ، ثمّ قلبت الواو ألفا لأنّ ما قبلها مفتوح .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ " .

لما كان النفس ريحا خاصا ، يفرج عن القلب ، انبساطا وانقباضا ، شبه ذلك النسيم

---

(1) أو بحال من مكين .

بالنفس ، وأطلق عليه اسم الاستعارة . وجعل الصبح متنفسا لمقارنته له . ويجوز أن يكون بعد الاستعارة كناية عن الإضاءة . ويجوز أن يكون هناك مكنية وتخييلية ، بأن يشبه الصبح بماش وآت من مسافة بعيدة ، ويثبت له التنفس المراد به هبوب نسيمه ، مجازا على طريق التخييل .

[سورة التكوير (81) : الآيات 23 إلى 26]

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم (قد) حرف تحقيق (بالأفق) متعلّق بحال من الهاء في (رآه) " 1 " .

وجملة : " قد رآه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما صاحبكم بمجنون " 2 " .

24 - (الواو) عاطفة - أو حالية - (ما) نافية عاملة عمل ليس (هو) أي الرسول عليه السلام (على الغيب) متعلّق بـ (ضنين) ، (ضنين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

وجملة : " ما هو . . . بضنين " لا محلّ لها معطوفة على جملة رآه " 3 " .

25 - (الواو) عاطفة (ما هو بقول) مثل ما هو بضنين ، وضمير الغائب يعود على القرآن الكريم .

وجملة : " ما هو بقول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما هو بضنين .

---

(1) أو متعلّق بـ (رآه) والباء للظرف .

(2) في الآية (22) السابقة .

(3) يجوز أن تكون الجملة في محلّ نصب حال من فاعل رآه . [. . . . .]

(202/805)

---

26 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أين) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (تذهبون) بتقدير حرف جرّ إلى .

وجملة : " تذهبون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن تبيّن لكم أمر محمد والقرآن فأين تذهبون . . .

الصرف :

(24) ضنين : صفة مشبهة من الثلاثي ضنّ باب ضرب بمعنى بخل بالشيء وزنه فعيل .

الفوائد :

- إعراب أسماء الشرط والاستفهام ونحوها ، وجميعها مبنية ، ما عدا (أي) فهي معربة .

ومحلها من الإعراب : إن دخل عليها جار أو مضاف فمحلها الجر كقوله تعالى (عَمَّ يَتَساءَلُونَ) وقولنا (صبيحة أيّ يوم سفرك ؟) و(غلام من جاءك ؟) .

(203/805)

وإن وقعت على زمان فهي ظرف زمان كقوله تعالى (أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) ، أو مكان فهي في محل نصب على الظرفية المكانية كقوله تعالى : (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) ، أو حدث فهي نائب مفعول مطلق كقوله تعالى (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ، فإن وقع بعدها اسم نكرة نحو (من أب لك ؟) فهي مبتدأ ، أو اسم معرفة نحو (من أبوك) فهي خبر أو مبتدأ ، ولا يقع هذان النوعان في أسماء الشرط لاختصاصها بالأفعال ، وإلا فإن وقع بعدها فعل لازم فهي مبتدأ نحو (من قام) ونحو (من يقم أقم معه) ، والأصح كما يقول ابن هشام أن الخبر فعل الشرط لا فعل الجواب ، وبعضهم يرى أن فعلي الشرط والجواب معا هما الخبر ، وإن وقع بعدها فعل متعد ، فإن كان واقعا عليها فهي مفعول به كقوله تعالى (أَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ) و(أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى) و(مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ) ، وإن كان واقعا على ضميرها نحو (من رأيته) أو متعلقها نحو (من رأيت أخاه ؟) فهي مبتدأ أو منصوبة بمحذوف مقدر بعدها يفسره المذكور .

- تنبيه :

إذا وقع اسم الشرط مبتدأ ، فهل خبره فعل الشرط وحده لأنه اسم تام وفعل الشرط مشتمل على ضميره ، فقولك (من يقم) لو لم يكن فيه معنى الشرط لكان بمنزلة قولك (كل من الناس يقوم) ؟ أو فعل الجواب لأن الفائدة به تمت ، ولالتزامهم عود ضمير منه إليه على الأصح ، ولأن نظيره هو الخبر في قولك (الذي يأتيني فله درهم) ، أو مجموعهما لأن قولك (من يقم أقم معه) بمنزلة قولك "كل من الناس إن يقم أقم معه" . والصحيح الأول ، وإنما توقفت الفائدة على الجواب من حيث التعلق فقط ، لا من حيث الخبرية . هذا ما أورده ابن هشام في المغني .

[سورة التكوير (81) : الآيات 27 إلى 29]

(204/805)

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29)

الإعراب :

(إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (لمن) بدل من العالمين بإعادة الجارّ (منكم) متعلّق بحال من

فاعل شاء (أن) حرف مصدريّ ونصب (الواو) استئنافيّة (ما) نافية (إلّا) للحصر (أن) حرف مصدريّ ونصب (ربّ) نعت للفظ الجلالة.

والمصدر المؤوّل (أن يستقيم) في محلّ نصب مفعول به.

والمصدر المؤوّل (أن يشاء . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف وهو الباء متعلّق بـ (تشاؤون) " 1 ".

---

(1) يجوز أن يكون المصدر في محلّ نصب على الظرفيّة بحذف مضاف أي: إلّا وقت مشيئة اللّه . . ومفعول (تشاؤون)، و(يشاء اللّه) محذوف تقديره الاستقامة على الحقّ.

(205/805)

جملة: "إن هو إلّا ذكر . . . " لا محلّ لها تعليلية لمضمون النفي المتقدّم.

وجملة: "شاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "يستقيم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "ما تشاؤون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يشاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن). انتهى انتهى. اهـ

﴿ الجدول حـ 30 صـ 253. 260 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(81) سورة التّكوير

مكيّة وآياتها تسع وعشرون

[سورة التكوير (81) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (4)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9)

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12)

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (14)

اللغة :

(كُوِّرَتْ) لفّت وذهب بضوئها وفي المصباح : "كار الرجل العمامة كورا من باب قال أدارها

على رأسه وكل دور كور تسميته بالمصدر والجمع أكوار مثل ثوب وأثواب ، وكوّرها بالتشديد مبالغة ومنه يقال

كورت الشيء إذا لففته على وجه الاستدارة وقوله تعالى : إذا الشمس كوّرت المراد به طويت كطي السجل " وعبارة الزمخشري : " في التكوير وجهان : أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها أي يلف ضوءها لفّا فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها لأنها ما دامت باقية كان ضياؤها منبسطا غير ملفوف أو يكون لفّها عبارة عن رفعها وسترها لأن الثوب إذا أريد رفعه لفّ وطوي ونحوه قوله : يوم نطوي السماء ، وأن يكون من طعنه فجوّره وكوّره إذا ألقاه أي تلقى وتطرح عن فلكها كما وصفت النجوم بالانكدار " ويتلخص مما أوردته معاجم اللغة ما يلي : " كار يكور كورا العمامة على رأس لفّها وأدارها وكور اللّه الليل على النهار : أدخل هذا في هذا وكورت الشمس جمع ضوءها ولفّ كما تلف العمامة قيل : اضمحلت وذهبت " .

(207/805)

(انْكَدَرَتْ) انقضت وتساقطت على الأرض والأصل في الانكدار الانصباب ، وقال أبو عبيدة : انكدرت انصبّت كما تنصبّ العقاب إذا كسرت ، قال العجاج يصف صقرا :

أبصر حرمات فلاة فانكدر تقصي البازي إذا البازي كسر

(الْعِشارُ) النوق الحوامل جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة وهي أنفس ما يكون عند أهلها ، وروي أنه صلّى اللّه عليه وسلم مرّ في أصحابه بعشار من النوق فغضّ بصره فقيل له : هذه أنفس أموالنا فلم لا تنظر إليها فقال : قد نهاني اللّه عن ذلك ثم تلا : ولا تمدنّ عينيك الآية .

(سُجِّرَتْ) سجر يسجر سجرا من باب نصر التنور ملأه وقودا وأحماه وسجر الماء النهر ملأه وسجر البحر فاض وسجر الماء في حلقه صبّه وسجر الكلب شدّه بالساجور وسجر الشيء أرسله ، هذا ما ذكرته

معاجم اللغة بصدد هذه المادة وفي الأساس : "كلب مسجور ومسجّر ومسوجر وقد سجرته وسجّرته وسوجرته : طوقته الساجور وهو طوق من حديد مسمّر بمسامير حديدة الأطراف ، وبحر مسجور ومسجّر ، وعين مسجورة ومسجّرة : مفعمة وسجر السيل الآبار والأحساء ومررنا بكل حاجر وساجر وهو كل مكان مرّ به السيل فملأه وسجر التنور ملأه سجورا وهو وقوده وسجره بالمسجرة وهي المسعر . ومن المجاز : سجرت الناقة سجرا وسجّرت تسجيرا : مدّت حنينتها في إثر ولدها وملأت به فاها قال :

حنّت إلى برك فقلت لها : قرّي بعض الحنين فإن سجرك شائقي

ومنه ساجرته مساجرة وهي المخالّة والمخالطة وهو سجيري وهم سجرائي لأن كل واحد منهما يسجر إلى صاحبه : يحنّ ومنه ماء أسجر وهو الذي خالطته كدرة وحمرة من ماء السماء يقال : إن فيه لسجرة وإنه لأسجر وقطرة سجراء وعين سجراء قال الحويدرة :

بغريض سارية أدرّته الصبا من ماء أسجر أطيب المستنقع

(208/805)

وعين سجراء : خالطت بياضها حمرة وإن في عينك لسجرة وفي أعناقهم السواجير أي الأغلال " وقد مرّ شيء من معنى هذه المادة في الطور وعلى هذا كثرت الأقوال في المراد بها هنا وقد أحصى القرطبي كعادته الأقوال فيه ونشير إليها بإيجاز :

1- وإذا البحار سجرت : أي ملئت من الماء فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئًا واحدا .

2- وقيل أرسل عذبها على مالحها حتى امتلأت .

3- وقيل صارت بحرا واحدا .

4- وقيل يبست فلا يبقى من مائها قطرة .

5- وقيل أوقدت فصارت نارا .

6- وقيل : هي حمرة مائها حتى تصير كأنها الدم .

(الْمَوْؤُدَةُ) قال في الأساس : وأد ابنته أثقلها بالتراب " وإذا الموءودة سئلت " وقال الفرزدق :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد "

ووأد ابنته يئدها من باب ضرب : دفنها في التراب وهي حيّة فالابنة وئيد ووئيدة وموءودة . وقال الزمخشري في الكشاف : " وأد يئد مقلوب من آد يئود إذا أثقل ، قال اللّه تعالى : ولا يئوده حفظهما لأنه إثقال بالتراب " وتعقبه أبو حيان في البحر فقال : لا يدعى في وأد أنه مقلوب من آد لأن كلّا منهما كامل التصرّف في الماضي والأمر والمضارع والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول وليس فيه شيء من مسوّغات ادّعاء القلب والذي تعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة والآخر ليس كذلك أو كونه مجردا من حروف الزيادة والآخر فيه مزيد أو كونه أكثر تصرفا والآخر ليس كذلك أو أكثر استعمالا من الآخر وهذا على ما قرر وأحكم في علم التصريف فالأول كيئس وأيس والثاني كطأمن واطمأن والثالث كشوائع وشواع والرابع كلعمري ورعملي " .

الإعراب :

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجوابها في الإثني عشر

موضعا التي وقعت فيها قوله : علمت نفس كما سيأتي وهي متعلقة بجوابها والشمس نائب فاعل بفعل مقدّر يفسره ما

(209/805)

بعده وإلى هذا جنح الزمخشري ومنع أن يرتفع بالابتداء لأن إذا تتقاضى الفعل لما فيها من معنى الشرط ولكن ما منعه الزمخشري من وقوع المبتدأ بعدها أجازه الكوفيون والأخفش من البصريين وجملة كورت مفسرة لا محل لها (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) عطف على ما تقدم مماثلة لها في الإعراب ولكن النجوم هنا فاعل بفعل يفسّره قوله " انكدرت " (وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ ، وَإِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ) عطف أيضا والجبال والعشار نائبا فاعل بفعل محذوف ومعنى تعطيلها تركها بلا راع ولا حلب لما دهاهم من الأمر (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) عطف أيضا (وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) عطف أيضا والمعنى ردّت الأرواح إلى أجسادها وهذا بناء على أن التزويج بمعنى جعل الشيء زوجا والنفوس على هذا بمعنى الأرواح ، وقيل : يقرن كل امرئ بشيعته وكل مشاكل بمشاكله فيقرن بين الرجل الصالح والرجل الصالح في الجنة (وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) عطف أيضا وبأي متعلقان بقتلت والجملة سدّت مسدّ مفعول سئلت الثاني وكان العرب إذا ولد لأحدهم

بنت واستحياها ألبسها جبّة من صوف أو شعر وتركها ترعى الإبل والغنم وإذا أراد قتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها : طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها وقد حفر حفرة أو بئرا في الصحراء فيذهب بها إليها ويقول لها : انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض ، وقد افتخر الفرزدق وهو أبو فراس همّام بن غالب بن صعصعة بجدّه صعصعة إذ كان منع وأد البنات كما تقدم (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) عطف على ما تقدم أيضا (عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ) الجملة لا محل لها لأنها جواب إذا كما تقدم وعلمت نفس فعل ماض و

(210/805)

فاعل وما مفعول به وجملة أحضرت لا محل لها لأنها صلة ما .

البلاغة :

التنكير :

في قوله " علمت نفس ما أحضرت " التنكير في نفس وفائدته العموم ، وقد يعترض معترض بأن النكرة لا تفيد العموم إلا إذا كانت في سياق النفي ، وعلى هذا فهي هنا واقعة في سياق

الإثبات وهي فيه تكون للإفراد أو النوعية فكيف يتفق الإفراد والنوعية مع المقام الذي يناسبه العموم ، والجواب عن هذا الاعتراض أن ما ذكر من كونها في سياق النفي والإثبات أكثري لا كلّي فلا ينافي أنه قد يقصد بها العموم بمعونة المقام وثمّة جواب آخر عن هذا الاعتراض وهو أن النكرة هنا وقعت في سياق الشرط وسياق الشرط كسياق النكرة في أن النكرة للعموم إذا وقعت في كلّ منهما .

[سورة التكوير (81) : الآيات 15 إلى 29]

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19)

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)

وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (27) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (29)

اللغة :

(بِالْخُنَّسِ) الخنس : الكواكب كلها والسيارات منها فقط أو بعضها

من الخنس وهو الرجوع لأنها ترجع في مجراها وراءها والفعل خنس يخنس من باب دخل ، وفي الصحاح : الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب ولأنها تخفى نهارا ويقال : هي الكواكب السيّارة منها دون الثابتة ، وقال الفرّاء في قوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس أنها النجوم الخمسة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد لأنها تخنس في مجراها وتكنس كما تكنس الظباء في المغار ، والخنس أيضا مأوى الظباء والظباء نفسها والبقر الوحشية .

(الْكُنَّسِ) في المصباح : وكناس الظبي بالكسر بيته وكنس الظبي كنوسا من باب نزل دخل كناسه ، وتكنس الظبي تغيب واستتر في كناسه وتكنس الرجل : دخل في الخيمة وتكنست المرأة دخلت في الهودج .

(عَسْعَسَ) أقبل بظلامه أو أدبر قال العجاج :

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

الإعراب :

(فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ، الْجَوارِ الْكُنَّسِ ، وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ) الفاء استئنافية ولا تقدم القول فيها فجدد به عهدا وأقسم فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وبالخنس متعلق بأقسم والجواري نعت أو بدل والكنس نعت للجواري ، والليل :

الواو للقسم أيضا والليل مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وإذا ظرف متعلق بفعل القسم وجملة عسعس في محل جر بإضافة الظرف إليها ، والصبح إذا تنفس عطف على الجملة السابقة وإنما لم نعطف الليل على الخنس لأن الواو ابتداء قسم فإن قيل فقد خالفتم سيبويه فإنه لا يرى الواو المتعقبة للقسم ابتداء قسم بل

(212/805)

عاطفة وقد جعلتم الواو الأولى وهي متعقبة للقسم ابتداء قسم ؟ قلنا إنما تكلم سيبويه في الواو وأما الآية فالقسم الأول فيها بالباء والفعل فجعلنا الواو بعد ذلك قسما وتبعا وهو أبلغ كأنه أقسم بشيئين مختلفين فإن قيل أجل إنما تكلم سيبويه على الواو المتعقبة للقسم فما الفرق بين الواو المتعقبة للقسم بالواو والواو المتعقبة للقسم بالباء وما هما إلا سواء فإن كل واحد منهما آلة له والتاء تدل على الباء فحكمهما واحد قلنا ليستا سواء فإن القسم متى صدر بالواو ولم تله واو أخرى فجعلها قسما الآخر فيه تكرار مستكره إذ الآلة واحدة ولا كذلك الآية إذ اختلفت الآلة فإن عاملة التكرار مأمونة إذا ألا ترى أنه لو صدر القسم بالواو ثم تلاه قسم بالباء لتحتم جعلهما قسمين مستقلين فكذلك لو خولف هذا الترتيب وأيضا فإنه إن كان المانع لسيبويه من جعل الواو الثانية قسما مستقلا فجيء الجواب واحدا

واحتياج الواو الأولى إلى محذوف فالعطف يغني عن تقدير محذوف فلا يلزم اطّراد الباء لأنها أصل القسم لا سيما مع التصريح بفعل القسم ثم تأكيده بزيادة لا فإن في مجموع ذلك ما يغني عن إفراده بجواب مذكور ولا كذلك الواو فإنها ضعيفة المكنة في القسم بالنسبة إلى الباء فلا يلزم من حذف جواب تمكنت الدلالة عليه حذف جواب دونه في الوضوح. ونختم الكلام على هذا السؤال بنكتة بديعة :

(213/805)

و هي أنه إنما خصصت إيراد السؤال بالواو الثانية في قوله والليل إذا عسعس دون الثالثة لأنه غير متوجه عليها ، ألا تراك لو جعلتها عاطفة لم يلزمك العطف على عاملين لأنك تجعلها نائبة عن الباء وتجعل إذا فيها منصوبة بالفعل مباشرة إذا لم يتقدم في جملة الفعل ظرف تعطف عليه إذا فتصير بمثابة قولك مررت بزيد وعمرو اليوم فاليوم منصوب بالفعل مباشرة وفهم من المثال أن مرورك بزيد مطلق غير مقيد بظرف وإنما المقيد باليوم مرورك بعمرو خاصة لكن يطابق الآية فإن الظرف فيها وإن عمل فيه الفعل مباشرة فهو مقيد للقسم بالليل لا للقسم بالخنس

(214/805)

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) الجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وإن واسمها واللام المزحلقة وقول خبرها ورسول مضاف إليه وكريم نعت ، وسيأتي المراد به في باب الفوائد (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) ذي قوة صفة ثانية لرسول وعند ذي العرش حال من مسكين لأنه كان في الأصل صفة له فلما قدم نصب حالا ، ومكين صفة ثالثة ومطاع صفة رابعة وثم ظرف بمعنى هناك متعلق بمطاع وأمين صفة خامسة (وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) الواو عاطفة والجملة عطف على إنه لقول رسول كريم وما نافية حجازية وصاحبكم اسمها والباء حرف جر زائد ومجنون مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) عطف على قوله إنه لقول إلخ فهو داخل في حيز المقسم به واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ورآه فعل ماض وفاعل مستتر وبالأفق متعلقان برآه والمبين نعت للأفق (وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) عطف أيضا وما نافية حجازية وهو اسمها وعلى الغيب متعلقان بضنين والباء حرف جر زائد وضنين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما وعلى بمعنى الباء أي فلا يبخل به عليكم بل يخبركم به وقرىء بظنين بالظاء المعجمة أي بمتهم ، وفي المصباح : " والظنة بالكسر التهمة وهي اسم من ظننته من باب قتل إذا اتهمته فهو ظنين فعيل بمعنى مفعول وفي السبعة وما هو على الغيب بظنين أي بمتهم " وفي المصباح أيضا : " ضن بالشيء يضنّ من باب تعب ضنا وضنّة بالكسر وضنانة بالفتح بخل

فهو بخيل ومن باب ضرب لغة فيه " (وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ) عطف أيضا وهو نفي لقولهم أنه كهانة وسحر (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) الفاء عاطفة وأين اسم استفهام في محل نصب ظرف مكان مبهم لا مختص متعلق بتذهبون ، وتذهبون فعل مضارع مرفوع وفاعل أي فأي طريق تسلكون (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ لِمَنْ شاءَ

(215/805)

مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) إن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر وذكر خبر وللعالمين متعلقان بذكر أو نعت له ولمن بدل من قوله للعالمين بإعادة العامل وهو اللام وجملة شاء لا محل لها لأنها صلة من ومنكم حال وأن وما في حيّزها مفعول به لشاء (وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة وما نافية وتشاءون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وإلا أداة حصر وأن وما بعدها في موضع نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بتشاءون والله فاعل ورب العالمين بدل أو نعت لله واختار البيضاوي نصب المصدر المؤول على الظرفية وعبارته : " وما تشاءون الاستقامة يا من تشاءونها إلا أن يشاء الله أي إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم فله الفضل والحق عليكم باستقامتكم " .

الفوائد :

اختلف أهل التفسير فذهب منهم الجمّ الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم هاهنا إلى آخر النعوت محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فإن يكن الأمر كذلك فذلك فضل اللّه المعتاد على نبيّه ، وذهب منهم الجم الغفير أيضا إلى أن المراد به جبريل عليه السلام ، وقد شجر الخلاف حول المفاضلة بين الملائكة والرسل ، والمشهور عن أبي الحسن الأشعري تفضيل الرسل ، ومذهب المعتزلة تفضيل الملائكة إلا أن المختلفين أجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبيلين الجليلين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسل لأن التفضيل وإن كان ثابتا إلا أن في التعيين إيذاء للمفضول ، وعليه حمل الحذّاق قوله صلّى اللّه عليه وسلم : لا تفضّلوني على يونس بن متى أي لا تعينوا مفضولا على التخصيص لأن التفضيل على التعميم ثابت بإجماع المسلمين ، أي تفضيل النبي صلّى اللّه عليه وسلم على جميع النبيين أجمعين . وكان ابن فارس ، رحمه اللّه ، يوضّح ذلك بمثال فيقول : لو

(216/805)

قلت بحضرة جماعة من الفقهاء : فلان أفضل أهل عصره لكان في الجماعة احتمال لهذا التفضيل وإن لزم اندراجهم في المفضولين ولو عينت واحدا منهم وقلت : فلان أفضل منك لأسرع به الأذى إلى بعضك .

وقال القاضي البيضاوي : " واستدل به على فضل جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام حيث عدّ فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عنه صلّى اللّه عليه وسلم وهو ضعيف إذ المراد منه ردّ قولهم إنما يعلّمه بشر افترى على اللّه كذبا أم به جنة ، لا تعداد فضلهما والموازنة بينهما " .

أما الكرخي فقال : " ثم إنك إذا أمعنت النظر وقفت على أن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام إدماج لتعظيم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذي العرش بأن جعل السفير بينه وبينه مثل هذا الملك المقرّب المطاع الأمين فالقول في هذه الصفات بالنسبة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رفعة منزلة له كالقول في قوله ذي العرش بالنسبة إلى رفعة منزلة جبريل عليه السلام " .

أما الزمخشري فقد أتى بما لعل جبريل صلوات اللّه عليه ما كان ليرضى به من تقصير في حق البشير النذير بقوله : " وناهيك بهذا دليلا على مكانة جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة ومباينة لمنزلة أفضل الإنس محمد صلّى اللّه عليه وسلم إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما وقايست بين قوله : إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين وبين قوله : وما صاحبكم بمجنون " .

وقد ردّ ابن المنير كعادته على الزمخشري فقال : " ثم يعود الكلام

على الآية بعد تسلم أن المراد جبريل وبعد أن نكله في تعيينه النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعدّه مفضولا إلى اللّه فنقول : لم يذكر فيها نعت إلا وللنبي صلّى اللّه عليه وسلم مثله أو لها رسول كريم فقد قال في حقه صلّى اللّه عليه وسلم في آخر سورة الحاقة إنه لقول رسول كريم وقد قيل أيضا أن المراد جبريل إلا أنه يأباه قوله : وما هو بقول شاعر وقد وافق الزمخشري على ذلك فيما تقدم فهذا أول الفوت وأعظمها وأما قوله ذي قوة فليس محل الخلاف إذ لا نزاع في أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية ومن يقتلع المدائن بريشة من جناحه لا مراء في فضل قوته على قوة البشر وقد قيل هذا في تفسير قوله : ذو مرة فاستوى وقوله عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين فقد نبتت طاعة الملائكة أيضا لنبيّنا صلّى اللّه عليه وسلم وورد أن جبريل عليه السلام قال للنبي : إن اللّه يقرئك السلام وقد أمر ملك الجبال يطيعك عند ما آذته قريش فسلم عليه الملك وقال : إن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت فصبر النبي صلّى اللّه عليه وسلم واحتسب ، وأعظم ذلك وأشرف مقامه المحمود في الشفاعة الكبرى يوم لا يتقدمه أحد إذ يقول اللّه تعالى له : ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع وأما أمين فقد قال واللّه إني لأمين في الأرض أمين في السماء وحسبك قوله : وما هو على الغيب بظنين إن قرأته بالظاء فمعناه أنه صلّى اللّه عليه وسلم أمين على الغيب غير متهم وإن قرأته بالضاد رجع إلى الكرم فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت

المشتركة بين الفاضل والمفضول سواء " .

البلاغة :

1- في قوله : " والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس " استعارة مكنية ، فقد شبّه الليل بإنسان يقبل ويدبر ثم حذف المشبه وأخذ منه

(218/805)

شيئا من لوازمه وهي لفظة عسعس أي أقبل وأدبر كما شبّه الصبح بكائن حي يتنفس فحذف المشبه وأتى بشيء من لوازمه وهو التنفس أي خروج النفس من الجوف ، أو يقال أنه شبّه الليل بالمكروب الحزين الذي حبس بحيث لا يتحرك فإذا تنفس وجد راحته وهنا لما طلع الصبح فكأنه تخلص من الحزن كلية فعبّر عن ذلك بالتنفس .

2- وفي قوله " فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس " فن الالتزام فقد لزمت النون قبل السين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 388.400﴾

(219/805)

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَتْلُ النَّفْسِ إلَّا بِذَنْبٍ مِنْهَا فَلَا يَجُوزُ قَتْلُ الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ ؛ لِأَنَّ الْقَلَمَ مَرْفُوعٌ عَنْهُمَا فَلَا ذَنْبَ لَهُمَا وَهَذِهِ الْعِلَّةُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَكَّ فِيهَا فِي النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ صِبْيَانِ أَهْلِ الْحَرْبِ وَأَمَّا الْعِلَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النِّسَاءِ فَكَوْنُهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْقِتَالِ عَلَى الصَّحِيحِ الَّذِي هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَوْ كَوْنُهُمْ يَصِيرُونَ لِلْمُسْلِمِينَ . فَأَمَّا التَّعْلِيلُ بِهَذَا وَحْدَهُ فِي الصَّبِيِّ فَلَا وَالْآيَةُ تَقْتَضِي ذَمَّ قَتْلِ كُلِّ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ وَسُؤَالَهَا تَوْبِيخَ قَاتِلِهَا وَقَوْلُهُ فِي السُّورَةِ : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ هُوَ جِبْرِيلُ وَهُوَ نَظِيرُ مَا فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ تَنَزَّلَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ لَا الشَّيَاطِينُ ؛ بِخِلَافِ الْإِفْكِ وَنَحْوِهِ فَإِنَّهُ تَنْزِلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ فَوَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَفَّاكِ وَالشَّاعِرِ وَالْكَاهِنِ وَبَيْنَ الْمَلَكِ وَالشَّيْطَانِ وَالْعُلَمَاءِ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَخْبَرَ أَنَّ مَشِيئَتَهُمْ مَوْقُوفَةٌ عَلَى مَشِيئَتِهِ وَمَعَ هَذَا فَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ وُجُودَ الْفِعْلِ مِنْهُمْ ؛ إذْ أَكْثَرُ مَا فِيهِ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ شَائِينَ وَلَا يَقَعُ الْفِعْلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَشَاؤُهُ مِنْهُمْ كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وَمَعَ هَذَا فَلَا بُدَّ مِنْ إرَادَةِ الْفِعْلِ مِنْهُمْ حَتَّى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ إعَانَتَهُمْ وَتَوْفِيقَهُمْ . فَهُنَا أَرْبَعُ إرَادَاتٍ : إرَادَةُ الْبَيَانِ وَإِرَادَةُ الْمَشِيئَةِ وَإِرَادَةُ الْفِعْلِ وَإِرَادَةُ الْإِعَانَةِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 80 . 81 ﴾

(221/805)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/806)

الجزء السادس بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الانفطار)

(4/806)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الانفطار)

(5/806)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الانفطار

مقصودها التحذير من الانهماك في الأعمال السيئة اغترارا بإحسان الرب وكرمه ونسيانا ليوم الدين الذي يحاسب فيه على النقير والقطمير ، ولا تغني فيه نفس عن نفس شيئًا ، واسمها الانفطار أدل ما فيها على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 347 ﴾

(6/806)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا السماء انفطرت)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها تسع عشرة .

وكلماتها مائة .

وحروفها ثلاثمائة وتسعَ عشرة .

فواصل آياته (مَكِنه) .

على الهاءِ آخِرُ السّورة .

تسمّى سورة (انفطرت) وسورة (الانفطار) ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : الخبر عن حال السّماءِ ونجومها فى آخر الزَّمان ، وبيان غَفْلَة الإِنسان ، وذكر الملائكة الموكَّلين بما يصدر من اللسان والأَركان ، وبيان إِيجاد الحقِّ – تعالى – الحكم يوم يُحشر الإِنس والجان .

السورة محكمة .

وسبق ما فيها من المتشابه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تكرار أَفاد التعظيم ليوم الدّين .

وقيل : أَحدهما للمؤمنين ، والثَّانى للكافرين .

فضل السّورة

فيه عن أُبىّ : مَنْ قرأَها أَعطاه الله من الأَجر بعدد كلّ قبر حسنةً ، وبعدد كلّ قَطْرة ماءِ حسنة ، وأَصلح الله شأنه يوم القيامة .

وعن على : يا علىّ مَنْ قرأَها جعل الله كلّ آية فى ميزانه أَثقل من السّموات ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب الَّذين عَمروا بيت المقدس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 505 ﴾

(7/806)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الانفطار

سميت هذه السورة (سورة الانفطار) في المصاحف ومعظم التفاسير .

وفي حديث رواه الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (مَن سَرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عَيْن فليقرأ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت) . قال الترمذي : حديث حسن غريب . وقد عرفت ما فيه من الاحتمال في أول سورة التكوير .

وسميت في بعض التفاسير : (سورة إذا السماءُ انفطرت) وبهذا الاسم عنونها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) . ولمْ يُعدَّها صاحب (الإِتقان) مع السور ذات أكثر من

اسم وهو (الانفطار) .

ووجه التسمية وقوع جملة : (إذا السماء انفطرت ((الانفطار : 1) في أولها فعرفت بها .

وسميت في قليل من التفاسير (سورة انفطرت) ، وقيل : تسمى (سورة المنفطرة) أي السماء المنفطرة .

وهي مكية بالاتفاق .

وهي معدودة الثانية والثمانين في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة النازعات وقبل سورة الانشقاق .

وعدد آيها تسع عشرة آية .

أغراضها

واشتملت هذه السورة على : إثبات البعث ، وذكر أهوال تتقدمه .

(8/806)

وإيقاظ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله تعالى وعن النظر في دلائل وقوع البعث والجزاء .

والإعلام بأن الأعمال محصاة . وبيان جزاء الأعمال خيرها وشرها .

وإنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئاً ينجيهم من جزاء الله إياهم على سيّىء أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 169 . 170 ﴾

(9/806)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الإنفطار

تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكوني الذي تتحدث عنه سورة التكوير . ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى , وسمتا خاصا بها , وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوف بالقلب البشري فيها ; وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد . هادئ عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان في طياته وعيد !

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب , فلا تكون هي طابع السورة الغالب – كما هو الشأن في سورة التكوير – لأن جو العتاب أهدأ , وإيقاع العتاب أبطأ . . وكذلك إيقاع السورة الموسيقي . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق في شخصية السورة والتوافق !

إنها تتحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب , وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت , في ذلك اليوم الخطير . .

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد , لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته , ولكنه لا يعرف للنعمة حقها , ولا يعرف لربه قدره , ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ? في أي صورة ما شاء ركبك) . .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَاماً كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16)

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهي التكذيب بالدين - أي بالحساب - وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيدا , ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم: (كلا . بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين) . .

(10/806)

فأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله , وتجرد النفوس من كل حول فيه , وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل:(وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا , والأمر يومئذ لله) . .

فالسورة في مجموعها حلقة في سلسلة الإيقاعات والطرقات التي يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3845 . 3846 ﴾

(11/806)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الانفطار

مكية وآياتها تسع عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة الانفطار من السور المكية ، وهي تعالج - كسابقتها (سورة التكوير) - الإنقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة ، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ، وحال الفجار ، يوم البعث والنشور

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الإنقلاب الذي يحدث في الكون ، من انفطار

السماء وإنتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء [إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت] .

* ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه ، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة [يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك] ؟

* ثم ذكرت علة هذا الجحود والإنكار ، ووضحت أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون عليه أعماله ، ويتعقبون أفعاله [كلا بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين [يعلمون ما تفعلون

* وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين : أبرار ، وفجار ، وبينت مآل كل من الفريقين إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله ، وتجرد النفوس يومئذ من كل حول وقوة وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان [وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 527 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الانفطار

انفطرت : أي انشقت ، انتثرت : أي تساقطت متفرقة ، فجرت : أي فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز واختاط عذبها بملحها ، بعثرت : أي قلب ترابها الذي حثى على موتاها ، وأزيل وأخرج من دفن فيها ، ما قدمت : أي من أعمال الخير ، وما أخرت : أي منها بالكسل والتسويف .

ما غرك : أي أىّ شىء خدعك وجرّأك على العصيان ؟ الكريم : أي العلى العظيم فسواك : أي جعل أعضاءك سوّية سليمة معدّة لمنافعها ، فعدلك : أي جعلك معتدلا متناسب الخلق ، فى أي صورة ما شاء ركبك : أي ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأحكمها ، وكلمة (ما) جاءت زائدة لتفخيم المعنى وتعظيمه ، وهى طريقة متبعة فى كلامهم عند إرادة التهويل ، وسلوك سبيل التعظيم .

كلا : كلمة تفيد نفى شىء قد تقدم وتحقيق غيره ، والدين : الجزاء ، حافظين أي يحصون

أعمالكم خيرا كانت أو شرا ، والأبرار : واحدهم برّ ، وهو من يفعل البر (بكسر الباء) ويتقى اللّه فى كل أفعاله ، والفجار : واحدهم فاجر ، وهو التارك لما شرعه اللّه وحدّه لعباده ، يصلونها : أي يقاسون حرها ، يوم الدين : أي يوم الجزاء ، ما أدراك : أي ما أعلمك وعرفك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 63. 67 ﴾ . باختصار .

(13/806)

وقال الفراء :

سورة (الانفطار)

﴿ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ . . . ﴾ : انشقت .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . . . ﴾ .

خرج ما فى بطنها من الذهب والفضة ، وخرج الموتى بعد ذلك ، وهو من أشراط الساعة: أن تخرج الأرضُ أفلاذَ كبدها من ذهبها وفضتها . قال الفراء: الأفلاذ القِطَعُ من الكبد المشرح والمشرحة ، الواحد فِلذٌ ، وفِلْذةٌ .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ من عملها ﴿ وَأَخَّرَتْ . . . ﴾ .

وما أخرت: ما سنت من سنة حسنة ، أو سيئة فعُمل بها .

وجواب: ﴿ إذا السَّماء انفطَرتْ ﴾ قوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . . . ﴾ .

قرأها الأعمشُ وعاصم: "فَعَدَلَك" مخففة . وقرأها أهل الحجاز: "فعدَّلك" مشددة .

فمن قرأها بالتخفيف فوجهه والله أعلم: فصرفكَ إلى أيِّ صورةٍ شاءَ إما : حَسَنٌ ، أو قَبيحٌ ، أو طويل ، أو قصير .

قال: [حدثنا الفراء قال]: وحدثنى بعض المشيخة عن ليثٍ عن ابن أبى نَجِيح أنه قال: فى صورة عمٍّ فى صورة أبٍ ، فى صورة بعض القرابات تشبيها .

ومن قرأ: "فعدَّلك" مشددة ، فإنه أراد ـ والله أعلم: جعلك معتدلا معدّل الخلق ، وهو أعجب الوجهين إلىّ ، وأَجودُهما فى العربية ؛ لأنك تقول: فى أى صورة ما شاء ركبك ، فتجعل ـ فى ـ للتركيب أقوى فى العربية من أن يكون فى للعدل ؛ [/ب] لأنك تقول: عَدَلتك إلى كذا وكذا ، وصرفتك إلى كذا وكذا ، أجود من أن تقول: عَدلتك فيه ، وصَرفتك فيه .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ . . . ﴾ .

(14/806)

بالتاء ، وقرأ بعض أهل المدينة بالياءِ ، وبعضهم بالتاءِ ، والأعمشُ وعاصمٌ بالتاء ، والتاء أحسنُ الوجهين لقوله: "وإنَّ عَلَيكُم" ولم يقل: عليهم .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ . . . ﴾ .

يقول: إذا دخلوها فليسوا بمُخْرَجين منها . اجتمع القراء على نصب ﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ ﴾ والرفع جائز لو قُرِىءَ به . زعم الكسائى: أن العرب تُؤثر الرفعَ إذا أضافوا اليوم إلى يفعل ، وتفعلُ ، وأفعلُ ، ونفعلُ فيقولون: هذا يومُ نفعلُ ذاك ، وأفعل ذاك ، ونفعلُ ذاك . فإذا قالوا: هذا يومَ فعلتَ ، فأضافوا يوم إلى فعلتُ أو إلى إذْ آثروا النصب ، وأنشدونا:

عَلى حينَ عاتبْتُ المشيبَ على الصِّبا * وقُلتُ أَلَمَّا تَصْحُ والشَّيبُ وازِعُ ؟

وتجوز فى الياءِ والتاءِ ما يجوز فى فعلت ، والأكثر ما فسّر الكسائى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 243 . 245 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (الانفطار)

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾

قال ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أي: كذا خلقك ، وبعضهم يخففها فمن ثقل ﴿ عَدَّلَك ﴾ فانما يقول "عَدَّلَ خَلْقَكَ" و"عَدَلَكَ" أي: عدل بعضك ببعضك فجعلك مستويا معتدلا وهو في معنى "عدّلك" .

وقال ﴿ خَلَقَكَ ﴾ و ﴿ رَكَّبَكَ ﴾ ﴿ كَلاَّ ﴾ وان شئت قلت ﴿ خَلَقَك ﴾ و ﴿ رَكَّبَكْ ﴾ ﴿ كَلاَّ ﴾ فادغمت لأنهما حرفان مثلان . والمثلان يدغم احدهما في صاحبه وان شئت اذا تحركا جميعا ان تسكن الأول وتحرّك الآخر . واذا سكن الأول لم يكن الادغام وان تحرك الأول وسكن الآخر لم يكن الادغام .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾

وقال ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ فجعل اليوم حيناً كأنه حين قال ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾

[17] قال "في حين لا تَمْلِكُ نَفْسٌ" . وقال بعضهم ﴿يَوْمُ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ فجعله تفسيرا لليوم الأول كأنه قال: "هُوَ يوم لا تملك" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 569﴾

(16/806)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الانفطار

«1»

1 - انْفَطَرَتْ : انشقّت .

3 - فُجِّرَتْ أي فجّر بعضها إلى بعض .

4 - بُعْثِرَتْ : قلبت وأخرج ما فيها . يقال : بعثرت المتاع وبحثرته ، إذا جعلت أسفله أعلاه .

7 - فَعَدَلَكَ : قوّم خلقك .

ومن قرأ : فَعَدَلَكَ بالتخفيف ، أراد : صرفك إلى ما شاء من الصّور في الحسن والقبح .

9 - تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ أي بالجزاء والحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ

(1) هي مكية . وتسمى سورة إذا السماء انفطرت .

(17/806)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الانفطار

عدد 32 - 82

نزلت بمكة بعد سورة النازعات ، وهي تسع عشرة آية وثمانون كلمة ، وثلاثمائة وعشرون حرفا .

وتسمى سورة المنفطرة وانفطرت .

ومثلها في عدد الآي سورة الأعلى ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ويوجد سور مبدوءة بما بدئت به ، ألمعنا إليها قبل ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت بها من اللفظة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قال تعالى : "إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ" 1 انشقت ، قال ابن عبّاس : ما كنت أعرف معنى فاطر حتى اختلف اعرابي مع آخر في بئر فقال أنا فطرته ، أي شققته وحفرته "وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ" 2 تساقطت من مواقعها "وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ" 3 على

بعضها وزالت البرازخ من

بينها فاختلطت "وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ" 4 بعث من فيها وقيل أصلها بعثت وأثيرت فهي منحوتة مثل سبحل وحمدل وحوقل ودمعز وصلعم إلى غير ذلك مما جاء في باب النحت ، وما قاله أبو حيان بأن الراء ليست من أحرف الزيادة فلا تدخل في باب النحت فهو سهو منه لأن النحت غير التركيب ، وعليه يكون المعنى نبشت وأخرج أهلها ، وجواب إذا "عَلِمَتْ نَفْسٌ" برة كانت أو فاجرة "ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ" 5 في الدنيا من عمل فإنها تعلمه حينذاك صالحا أو سيئا إذ تنشر الصحف بعد البعث في المحشر فيقف كل على عمله ، ثم يقال لأهل تلك النفوس بعد أن يستقر بهم الحال في الموقف "يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" 6 حتى تنكر هذا اليوم العظيم بالدنيا وتسوف بالتوبة ولا ترجع إلى ربك الذي رباك ولا تسلك طريق هداك وإلى متى :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

(18/806)

وإلى متى تترك الحق وتتمادى في الباطل ، وتعرض عن الرحمن ، وتلازم الأوثان ، أي شيء خدعك حتى ضيعت ربك مع ترالي نعمه عليك ، أغرك جهلك ، أم غشك حمقك ، أو

أزاغك شيطانك عن طاعة الإله الواحد ، الذي لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد ؟ وهذه الآية عامة في كل كافر ، وما قيل إنها نزلت في كلدة بن خلف إذ ضرب حضرة الرسول ولم يعاقبه عليها لم يثبت ، ولم يوجد ما يعضده .

واعلم أن التعرض في هذه الآية لكرمه دون قهره وانتقامه وبقية صفاته المانعة من الاغترار إيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا لاغتراره حسبما يغويه شيطانه ويقول له افعل ما تشاء فإن ربك كريم كما تفضل عليك بالدنيا يتفضل عليك بالآخرة ، كقول بعض شياطين الإنس هداهم اللّه :

تكثّر ما استطعت من الخطايا ستلقى في غد ربا غفورا

تعضّ ندامة كفيك مما تركت مخافة الذنب السرورا

وقول أبي نواس :

خلياني والمعاصي واتركا ذكر القصاص

وعلى اللّه وإن أسرفت في الذنب خلاصي

وهذا قياس عقيم مشتق من قياس إبليس المار في الآية 12 من سورة الأعراف المارة في ج 1 ، وأماني باطلة توجب الإقبال على الذنوب والإعراض عن الثواب ، وإذا كان يعتقد يقينا بأن اللّه غفور رحيم ويقدم على معصيته فلم لا يقول اللّه رزاق كريم ويترك العمل ؟ ولكن اعتقاده ذلك باطل من تسويل إبليس .

هذا وقد ألمعنا قبل إلى أن هذه الآية من باب تلقين الحجة للعبد حتى يقول غرني كرمك يا رب تفطينا للجواب الذي لقنه وتعريضا لألطافه عليه كالتعريض بذكر الرحمن في بعض الآيات دون غيره من الصفات ، وقد يكون هذا لمن يريد اللّه رحمته من المؤمنين العاصين ولهم أعمال صالحة ، لا للكافرين والمشركين ، وقد وصف جل شأنه بقوله "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ" 7 وجعلك متناسب الخلق ماشيا على قدميك آكلا بيدك "فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ" 8 من الصور التي اقتضتها مشيئته من الحسن والكمال والشبه بأبويك أو أحدهما أو غيرهما من جنسك في الطول والقصر والبياض والحمار "كَلَّا" لا تغتروا بكرم اللّه فتعبدوا غيره أو تشركوا به شيئا أو تجعلوه ذريعة لارتكاب المعاصي ولا تغفلوا عمن أنشأكم من العدم إلى الوجود وغمركم بنعمه "بَلْ تُكَذِّبُونَ" باعتقادكم هذا "بِالدِّينِ" 9 الذي جاءكم به رسولكم ، دين أبيكم إبراهيم ، دين الاعتقاد بالإله الواحد والرسل والبعث والجزاء عقابا وثوابا ، وكيف تكذبون به "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ" 10 مراقبين يدونون كل ما يقع منكم

"كِراماً كاتِبِينَ" 11 لأقوالكم وأفعالكم وإثباتها في صحفكم المحفوظة لديهم بأمرنا "يَعْلَمُونَ

ما تَفْعَلُونَ" 12 بسركم وجهركم لا يخفى عليه شيء من أحوالكم .

مطلب في الحفظة الكرام وعددهم ، وبحث في الشفاعة وسلمان بن عبد اللّه :

كان الفضيل رحمه اللّه إذا قرأ هذه الآية قال ما أشدها على الغافلين .

وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لأمر الجزاء ، وإعلام بأنه عند اللّه من جلائل الأمور ، إذ استعمل عليه هؤلاء الكرام عنده الذين لا يعصونه طرفة عين .

وهؤلاء غير الحفظة المذكورين في الآية 13 من سورة الرعد الآتية في ج 3 لأن مع كل إنسان عددا من الملائكة ، روي عن عثمان أنه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كم من ملك على الإنسان

(20/806)

فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين ملكا .

قال المهدوي في الفيصل إن كل آدمي يوكل به من حين وقوعه نطفة في الرحم إلى موته أربعمائة ملك .

وأخرج البزار عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه ينهاكم عن التعري ، فاستحيوا من ملائكة اللّه تعالى الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا

عند إحدى ثلاث حاجات : الغائط والجنابة والغسل .

ولا يمنع هذا من كتبها ما يصدر عنه فيها ويجعل لها امارة على الاعتقاد القلبي ونحوه ، ويلزمان العبد إلى مماته فيقومان على قبره يسبحان ويهللان ويكبران ويكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة إن كان مؤمنا ، ويلعنانه إن كان كافرا إلى يوم القيامة .

راجع الآية 18 من سورة ق في ج 1 ، وله صلة في سورة الرعد ج 3 عند قوله تعالى (لَهُ مُعَقِّباتٌ . . .

يَحْفَظُونَهُ) الآية .

(21/806)

قال تعالى "إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ" 13 بالغ وسرور جليل في ذلك اليوم "وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" 14 عظيم فظيع خارج عن عقل أهل الدنيا معرفته أجارنا اللّه منه ، والمراد بالفجار هنا الكفرة المتوغلين في الكفر لا العصاة إذ تطلق كلمة فجر على الكاذب والزاني والكافر "يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ" 15 حينما يدانون بأعمالهم القبيحة بعد الحساب يوم القيامة "وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ" 16 بل محضرون ومطروحون فيها لا يفارقونها طرفة عين ، فالمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار ، وهذه كقوله تعالى (وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ) وقوله

تعالى (وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ) الآيتين 48 من سورة الحجر المارة و167 من البقرة في ج 3 ، ثم عظم شأن ذلك اليوم فقال "وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ" 17 أيها الإنسان الغافل "ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ" 18 استفهام تعجب جوابه هو يوم ترتعد فيه الفرائص وتشقق لهوله القلوب ، وإن ما فية لا تجابهه قوى البشر ، وهذا الخطاب عام إلى كل من يتأتى منه الدّراية ، وفي التكرير زيادة التفخيم والتعجب .

وما قيل إن الخطاب خاص بالكافر أو خاص بحضرة الرسول لم يثبت فيه شيء ، وإن بين هذين القولين وبين الآية المفسرة من البعد ما لا يخفى .

ثم وصف ذلك ببعض صفاته فقال "يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً" فيه من المنافع مؤمنة كانت أو كافرة ، وتخصيصها بالكافرة على قول بعض المفسرين لا مبرر له أيضا ، لأن النفس المؤمنة بما فيها نفوس الأنبياء فمن دونهم لا تملك شيئا فيه إلا بتمليك اللّه تعالى إياها .

راجع الآية 28 من سورة الأنبياء المارة ، "وَالْأَمْرُ" يكون كله "يَوْمَئِذٍ" في ذلك اليوم كما في غيره "لِلَّهِ" 19 وحده اللهم عاملنا فيه بما أنت أهله بلطفك وأنت المنفرد فيه ، فلا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى غيرك .

قال ابن عباس كل ما في القرآن (ما أدرك) فقد أدراه وكل ما فيه (وما يدريك) فقد طوى عنه .

وقال سليمان بن عبد الملك وهو من خير ملوك بني أمية بعد عمر ابن عبد العزيز لأنه افتتح خلافته بعمارة البيت المقدس والجامع الأموي بدمشق ، إذ كان والده بدأ بهما وتوفي قبل إكمالهما ، كما أن داود عليه السلام بدأ بعمارة الأول وتوفي قبل إكماله ، فأكمله ابنه سليمان صلوات اللّه عليهما وسلامه ، وختمها باستخلاف عمر بن عبد العزيز الذي كان في أعماله وأقواله يعد من الخلفاء الراشدين ، لأبي حازم المزني : ليت شعري مالنا عند اللّه ؟ قال يا أمير المؤمنين اعرض عملك على كتاب اللّه تعالى فتعلم مالك عنده ، قال أين أجد ذلك في كتابه جل شأنه ؟ قال عند قوله تعالى (إِنَّ الْأَبْرارَ) الآية المارة ، قال وأين رحمة اللّه إذا ، قال هي قريب من المحسنين ، قال صدقت .

وليس في هذه الآية ما يدل على نفي الشفاعة كما زعمه بعضهم ، لأن كونها لا تكون إلا بأمر اللّه دليل على وجودها ، ولو أنها يراد بها النفي لما قيدها بالأمر ولم يقيدها به إلا لأنه يريد وجودها ، وتفويض من ارتضاه لها من أنبيائه وأوليائه ، وحاشاه من منعها ، كيف وهو أرحم الراحمين ، وقد أمر عباده بأن يشفع بعضهم لبعض وما كان أمر الرسول قط إلا من أمر اللّه لأنه لا ينطق عن هوى ، راجع الآية 255 من البقرة في ج 3 ، والآية 14 من من النساء

في ج 3 في بحث الشفاعة .

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 425.429 ﴾

(23/806)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الانفطار

مكية

قدمت وأخرت تام وكذا ركبك واختار بعضهم الوقف على فسواك وبعضهم على فعدلك ما تفعلون تام بغائبين كاف ثم ما أدراك ما يوم الدين تام لمن قرا يوم لا تملك بالرفع وليس بوقف لمن قراه بالنصب ظرفا لنفس شيأ حسن آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(24/806)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الانفطار

مكية

عشر آيات وكلمها ثمانون كلمة وحروفها ثلثمائة وسبعة وعشرون حرفاً ولا وقف من أولها إلى قوله وأخرت فلا يوقف على انفطرت ولا على انتثرت ولا على فجرت والوقف التام علمت نفس ما قدمت وأخرت لأنه جواب إذا

ما غرك بربك الكريم ليس بوقف لأن الذي بعده نعت له أو بدل منه ويجوز القطع إلى الرفع أو إلى النصب وقرأ ابن جبير والأعمش ما أغرك فيحتمل أن تكون ما استفهامية أو تعجبية ولا وقف من قوله الذي خلقك إلى قوله ركبك وجوز بعضهم الوقف على فسواك لمن خفف فعدلك أي قومك وقيل عدلك عن الكفر إلى الإيمان قرأ الكوفيون فعدلك مخففاً والباقون مثقلاً

ركبك (تام) وقف يحيى بن نصير النحوي على كلا يريد ليس كما غررت به وخولف إذ لا مقتضى للوقوف عليها

بالدين (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف ان جعل جملة حالية والواو واو الحال أي تكذبون بيوم الجزاء والكاتبون الحفظة يضبطون أعمالكم لأن تجازوا عليها ولا يوقف

على لحافظين لأن كراماً صفة حافظين ولايوقف على كاتبين لأن يعلمون حال من ضمير كاتبين 0

ما تفعلون (تام) للابتداء بان

لفي نعيم (جائز) ومثله لفي جحيم ان جعل يصلونها مستأنفاً وليس بوقف ان جعل حالاً

يوم الدين (حسن)

بغائبين (كاف)

مايوم الدين الأوّل ليس بوقف لعطف ما بعده عليه

مايوم الدين الثاني (تام) لمن قرأ يوم لا تملك بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو هو بدل من يوم الدين الأول وعليه فلا وقف وبها قرأ ابن كثير وأبو عمرو وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر بالنصب بفعل مضمر أي أعنى أو بنى يوم مع ما بعده على الفتح كخمسة عشر وليس بوقف لمن قرأه بالنصب ظرفاً لما دل عليه ولعل المانع للعلامة السمين من جعل يوم بدلاً من يوم الدين اختلافهما لأن يوم الصلى غير يوم الجزاء وقال الكواشي فتح يوم لاضافته إلى غير متمكن وهو في محل رفع

(25/806)

شيأ (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف ان جعل ما بعده في موضع الحال

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(26/806)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الانفطار :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

روى عن سعيد بن جبير : "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" ، ممدودة ، على التعجب .

قال أبو الفتح : هذا كقول الله "سبحانه" : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي : على أفعال أهل النار ، ففيه حذف مضافين شيئًا على شيء كما قدمنا في قوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ 1 ﴾ ، وغير ذلك .

وقيل في قوله : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ : أي : ما الذي دعاهم إلى الصبر على موجبات النار ؟ فكذلك يجوز أن يكون قوله أيضا : "مَا أَغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" ، أي : ما الذي

دعاك إلى الاغترار به ؟ غر الرجل ، فهو غار ، أي : غفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 353 ﴾

(27/806)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الانفطار

مكية وآيها تسع عشرة مشبه الفاصلة موضع فسواك القراآت اختلف في (فعدلك) الآية 7 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدال وافقهم الحسن والأعمش والباقون بتشديدها أي سوى خلقك وعدله وجعلك متناسب الأطراف وقراءة التخفيف تحتمل هذا أي عدل بعض أعضائك ببعض

واختلف في ( ) بل تكذبون ( ) الآية 9 فأبو جعفر بالياء من تحت وافقهم الحسن والباقون بالتاء من فوق خطابا للكفار وأدغم لام بل تكذبون حمزة والكسائي وهشام عند الجمهور وصوبه عنه في النشر وأمال أدراك أبو عمرو وابن ذكوان وأبو بكر بخلفهما وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) يوم لا تملك ( ) الآية 19 فابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع الميم خبر مبتدأ

مضمر أي هو يوم وافقهم ابن محيصن واليزيدي والباقون بالنصب على الظرف حركة إعراب عند البصريين ويجوز عند الكوفيين أن تكون حركة بناء وعلى التقدير في موضع رفع خبرا لمحذوف أي الجزاء يوم لا تملك أو في موضع نصب على الظرف أي يدانون يوم لا تملك أو مفعول به أي أذكر ويجوز على رأي من بنى أن يكون في موضع رفع خبرا لمحذوف أي هو يوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(28/806)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الانفطار "

" فجرت " بعثرت ، كراما ، يصلونها جلي .

" فعدلك " خفف الدال الكوفيون وشددها غيرهم .

" تكذبون " قرأ أبو جعفر بياء الغيبة وغيره بتاء الخطاب .

" يوم لا " رفع الميم المكي والبصريان ونصبها غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 347 ﴾

(29/806)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الانفطار

قوله تعالى ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ وما اشبهها مما اخبر فيه عن مستقبل بلفظ الماضي فمعناه انه كائن عنده لا محالة وواقع لا شك فيه

والفعل الماضي يأتي بلفظه ومعناه الاستقبال في ثلاثة مواضع فيما اخبر الله عز وجل به وفي الشرط وفي الدعاء فما اتاك في هذه الثلاثة بلفظ الماضي فمعناه الاستقبال ودليله واضح بين

قوله تعالى ﴿ فعدلك ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فوجه التشديد فيه قومك وساوى بين ما ازدوج من اعضائك ووجه التخفيف انه صرفك الى أي صورة شاء من طويل وقصير وحسن وقبيح

فأما قوله ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ فمعناه ان النطفة اذا قامت اربعين يوما صارت علقة اربعين يوما ومضغة اربعين يوما ثم يرسل الله تعالى اليها ملكا معه تراب من تربة العبد فيعجنه بها ثم يقول يا رب طويل ام قصير غني أم فقير شقي ام سعيد فهذا معنى قوله ﴿ كيف يشاء ﴾

قوله تعالى ﴿ وما أدراك ﴾ يقرأ بالإمالة والتفخيم وبين ذلك وقد ذكرت الحجة فيه وما كان في كتاب الله تعالى من قوله ﴿ وما أدراك ﴾ فقد ادراه وما كان فيه من قوله ﴿ وما يدريك ﴾ فلم يدره بعد

قوله تعالى ﴿ يوم لا تملك ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع انه جعله بدلا من اليوم الاول واضمر له ﴿ هو ﴾ اشارة الى ما تقدم وكناية عنه فرفعه به والحجة لمن نصب انه جعله ظرفا للدين والدين الجزاء

فإن قيل فما معنى قوله ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وكل الامور له تعالى في ذلك اليوم وغيره فقل لما كان الله تعالى قد استخلف قوما فيما هو ملك له ونسب الملك اليهم مجازا عرفهم انه لا يملك يوم الدين احد ولا يستخلف فيه من عباده سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 364 . 365 ﴾

(30/806)

وقال ابن زنجلة :

82 - سورة الانفطار

الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك 8 , 7

قرأ عاصم وحمزة والكسائي فعدلك بالتخفيف قال الفراء وجهه والله أعلم فصرفك إلى أي صورة شاء إما حسن أو قبيح أو طويل أو قصير وعن أبي نجيح قال في صورة أب أو في صورة عم وليست في من صلة عدلك لأنك لا تقول عدلتك

في كذا إنما تقول عدلتك إلى كذا أي صرفتك إليه وإنما هي متعلقة ب ركبك كأن المعنى في أي صورة شاء أن يركبك وقال آخرون فعدك فسوى خلقك قال محمد بن يزيد المبرد فعدك أي قصد بك إلى الصورة المستوية ومنه العدل الذي هو الإنصاف أي هو قصد إلى الاستواء فقولك عدل الله فلانا أي سوى خلقه فإن قيل فأين الباء التي تصحب القصد حتى يصح ما تقول قلت إن العرب قد تحذف حروف الجر قال الله جل وعز وإذا كالوهم أو وزنوهم فحذف اللامين فكذلك فعدلك بمعنى فعدل بك

وقرا الباقون فعدلك التشديد يعني فقومك جعل خلقك معتدلا بدلالة قوله لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم أي معتدل الخلق ليس منه شيء بزائد على شيء فيفسده وقال قوم معناه حسنك وجملك ثم ما أدرك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا 19 , 18

قرأ ابن كثير وأبو عمر يوم لا تملك نفس لنفس بالرفع جعلوه صفة لقوله يوم الدين ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف لما قال وما أدراك ما يوم الدين قال يوم لا تملك نفس لنفس

وقرأ الباقون بالنصب على معنى هذه الأشياء المذكورة تكون يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 752 . 754 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الانفطار 82

مكية وقد ذكر نظيرتها في البصري ونظيرتها في الكوفي الأعلى واقرأ وفي غيرهما الأعلى فقط

وكلمها إحدى وثمانون كلمة

وحروفها ثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفا

وهي تسع عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ فسواك ﴾) ورؤوس الآي

انفطرت

1 انتثرت

2 فجرت

3 بعثرت

4 وأخرت

5 الكريم

6 فعدلك

7 ركبك

8 بالدين

9 لحافظين

10 كاتبين

11 تفعلون

12 نعيم

13 جحيم

14 الدين

15 بغائبين

16 الدين

17 الدين

18 لله

19 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 266﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

جواب (إذا علمت) و (ما غرك) استفهام لا غير ، ولو كان تعجبا لقال ما أغرك .

و(عدلك) بالتشديد قوم خلقك ، وبالتخفيف على هذا المعنى ، ويجوز أن يكون معناه صرفك على الخلقة المكروهة .

قوله تعالى (ما شاء) يجوز أن تكون " ما " زائدة ، وأن تكون شرطية ، وعلى الأمرين الجملة نعت لصورة ، والعائد محذوف: أي ركبك عليها ، وفي تتعلق بركبك وقيل لا موضع للجملة لأن في تتعلق بأحد الفعلين ، فالجميع كلام واحد ، وإنما تقدم الإستفهام عن ما هو حقه ، و (كراما) نعت ، و (يعلمون) كذلك ، ويجوز أن يكون حالا: أي يكتبون عالمين .

قوله تعالى (يصلونها) يجوز أن يكون حالا من الضمير في الخبر ، وأن يكون نعتا لجحيم .

قوله تعالى (يوم لا تملك) يقرأ بالرفع: أي هو يوم ، وبالنصب على تقدير أعنى يوم ، وقيل

التقدير: يجازون يوم، ودل عليه ذكر الدين، وقيل حقه الرفع،

ولكن فتح على حكم الظرف كقوله تعالى " ومنا دون ذلك " وعند الكوفيين هو مبنى على الفتح، والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(33/806)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الانفطار

[سورة الانفطار (82): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)

سبق إعراب مثل هذه الآيات في سورة التكوير.

[سورة الانفطار (82): آية 6]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

"يا" حرف نداء و"أَيُّهَا" منادى مبني على الضم و"ها" حرف تنبيه و"الْإِنْسانُ" بدل و"ما" اسم استفهام مبتدأ و"غَرَّكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر ما و"بِرَبِّكَ" متعلقان بالفعل و"الْكَرِيمِ" صفة.

[سورة الانفطار (82) : آية 7]

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7)

"الَّذِي" صفة ثانية لربك و"خَلَقَكَ" ماض ومفعوله والجملة صلة و"فَسَوَّاكَ" معطوف على خلقك و"فَعَدَلَكَ" معطوف أيضا.

[سورة الانفطار (82) : آية 8]

فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8)

"فِي أَيِّ" متعلقان بركبك و"صُورَةٍ" مضاف إليه و"ما" زائدة "شاءَ" ماض فاعله مستتر والجملة صفة صورة و"رَكَّبَكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال.

[سورة الانفطار (82) : آية 9]

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"بَلْ" حرف إضراب انتقالي "تُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله و"بِالدِّينِ" متعلقان بالفعل، والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة الانفطار (82) : آية 10]

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10)

"وَإِنَّ" الواو حالية وإن حرف مشبه بالفعل و"عَلَيْكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "لَحافِظِينَ" اللام المزحلقة و"حافظين" اسم إن المؤخر والجملة حال.

[سورة الانفطار (82) : آية 11]

كِراماً كاتِبِينَ (11)

صفتان لحافظين.

[سورة الانفطار (82) : آية 12]

يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12)

"يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله و"ما" مفعول به والجملة حال و"تَفْعَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة.

[سورة الانفطار (82) : آية 13]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13)

"إِنَّ الْأَبْرارَ" إن واسمها "لَفِي" اللام المزحلقة و"فِي نَعِيمٍ" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة

مستأنفة لا محل لها

[سورة الانفطار (82) : آية 14]

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح.

[سورة الانفطار (82) : آية 15]

يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15)

"يَصْلَوْنَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة حال و"يَوْمَ الدِّينِ" ظرف زمان مضاف إلى الدين.

[سورة الانفطار (82) : آية 16]

وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16)

"وَما" الواو حالية و"ما" حجازية تعمل عمل ليس و"هُمْ" اسمها و"عَنْها" متعلقان بما بعدها و"بِغائِبِينَ" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة حال.

[سورة الانفطار (82) : آية 17]

وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17)

"وَما" الواو حرف استئناف و"ما" اسم استفهام مبتدأ "أَدْراكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر ما والجملة الاسمية مستأنفة و"ما يَوْمُ" مبتدأ وخبره و"الدِّينِ"

مضاف إليه والجملة سدت مسد مفعول أدراك الثاني .

[سورة الانفطار (82) : آية 18]

ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واحد .

[سورة الانفطار (82) : آية 19]

يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

(35/806)

"يَوْمَ" مفعول به لفعل محذوف و"لا" نافية "تَمْلِكُ نَفْسٌ" مضارع وفاعله و"لِنَفْسٍ" متعلقان بالفعل و"شَيْئاً" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة . "وَالْأَمْرُ" الواو حرف استئناف و"الْأَمْرُ" مبتدأ و"يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله متعلق بمحذوف خبر المبتدأ و"لِلَّهِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة الاسمية مستأنفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 3 صـ 425.426﴾

(36/806)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الانفطار

فِيهَا حديثان

1463 - قَوْله

عَن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه انه صَاح بِغُلَام لَهُ مَرَّات فَلم يُلَبِّهِ فَنظر فَإِذا هُوَ بِالْبَاب فَقَال لَهُ مَالك لَا تُجِيبنِي فَقَال لِثِقَتِي بِحِلْمِك وَأَمني من عُقُوبَتك فَاسْتحْسن جَوَابه وَأَعْتقهُ

1464 - الحَدِيث الأول

قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما تَلا قَوْله تَعَالَى مَا غرّك بربّك الْكَرِيم قَال غره جَهله

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو عبد الله بن فَنْجَوَيْهِ واسْمه الْحُسَيْن بن مُحَمَّد ثَنَا أَبُو عَلّي بن حَنش الْمقري ثَنَا أَبُو الْقَاسِم بن الْفضل الْمقري ثَنَا عَلّي بن الْحُسَيْن الْمقدمِي وَعلي بن هَاشم قَالَا ثَنَا كثير بن هِشَام ثَنَا جَعْفَر بن برْقَان ثَنَا صَالح ابْن مِسْمَار قَال بَلغنِي أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَلا هَذِه الْآيَة يأيها الْإِنْسَان مَا غرّك بربّك الْكَرِيم قَال غره جَهله

وَعَن الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتَاب فَضَائِل الْقُرْآن حَدثنَا كثير ابْن هِشَام وَذكره سَوَاء

إِلَّا أَنه قَالَ غره حلمه وَالنُّسْخَة صَحِيحَة

1465 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ من قَرَأَ إِذا السَّمَاء انفطرت كتب الله لَهُ بِعَدَد كل قَطْرَة من السَّمَاء حَسَنَة وَبِعَدَد كل قبر حَسَنَة

(37/806)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن اسْلَمْ عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره وَزَاد وَأصْلح لَهُ شَأْنه يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 167 . 168 ﴾

(38/806)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة إذا السّماء انفطرت» (82)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«بُعْثِرَتْ» (4) أثيرت «1» ، يقول الرجل للرجل : بعثرت حوضى ، جعلت أسفله أعلاه «2» . .

«ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ» (18) توعّد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 288 ﴾

---

(1) . - 5 «أثيرت» : كما فى الطبري 30/ 47 .

(2) . - 5 - 6 «حوضى . . . أعلاه» : كما فى البخاري (فتح الباري 8/ 534) والطبري والقرطين 2/ 205 .

(39/806)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الانفطار

فى أثناء الحياة الدنيا ، كان يقال للإنسان: انظر فوقك " ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور " ؟ لا فتوق ولا شقوق ، السماء محبوكة الأطراف ! والكواكب تتهادى لا عطل ولا توقف . لكن عند قيام الساعة يتغير كل شىء : " إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت " . الشقوق ملأت الآفاق . والكواكب انفرط عقدها فلا يمسكها نظام ، والبحار طغت على الشواطئ ، وأهل القبور يستعدون للخروج وهم شاعرون بالحرج والحيرة ! ونسمع هنا معاتبة مؤسفة " يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك " . ما فعلت فى أمس الدابر ؟ وما قدمت لمستقبلك الخالد ؟ لقد كانت وصايا الحق أهون شىء على الإنسان ! كان المرء يمرق إلى أهوائه كالسهم ، فإذا كلف بجهاد أو صلاة تقاعس واسترخى ! إن الدار الآخرة ستكون مفاجأة كئيبة لأغلب الناس " كلا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون " إن الملائكة الحفظة يثبتون فى سجلاتهم كل شىء حتى يواجه الإنسان بما قدم وأخر . . دون زيادة أو نقص ، ثم يذهب الخلائق إلى مستقرهم العتيد " إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 504 ﴾

(40/806)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(41/806)

"فصل"

قال السيوطى :

سورة الانفطار

أقول: قد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا ، مع زيادة تآخيهما في المقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 147﴾

(42/806)

قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الجلال كما أن له الجمال (الرحمن) الذي عم بالرحمة ليشكر فغر ذلك أهل الضلال (الرحيم) الذي خص من أراد بالتوفيق لما يرضى من الخصال .

ولما ختمت التكوير بأنه سبحانه لا يخرج عن مشيئته وأنه موجد الخلق ومدبرهم ، وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له " أرحام تدفع وأرض تبلع ومن مات فات وصار إلى الرفات ولا عود بعد الفوات " افتتح الله سبحانه هذه بما يكون مقدمة لمقصود التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخرابه ليحاسب الناس فيجزي كلاًّ منهم من المحسن والمسيء بما عمل فقال : ﴿ إذا السماء ﴾ أي على شدة إحكامها واتساقها وانتظامها ﴿ انفطرت ﴾ أي انشقت شقوقاً أفهم سياق التهويل أنه صار لبابها أطراف كثيرة فزال ما كان لها من الكرية الجامعة للهواء الذي الناس فيه كالسمك في الماء ، فكما أن الماء إذا انكشف عن الحيوانات البحرية هلكت ، كذلك يكون الهواء مع

الحيوانات البرية ، فلا تكون حياة إلا ببعث جديد ونقل عن هذه الأسباب ، ليكون الحساب بالثواب والعقاب .

(43/806)

ولما كان يلزم من انفطارها وهيها وعدم إمساكها لما أثبت بها ليكون ذلك أشد تخويفاً لمن تحتها بأنهم يترقبون كل وقت سقوطها أو سقوط طائفة منها فوقهم فيكونون بحيث لا يقر لهم قرار ، قال : ﴿ وإذا الكواكب ﴾ أي النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار المرصعة ترصيع المسامير في الأشياء المتماسكة التي دبر الله في دار الأسباب بها الفصول الأربعة والليل والنهار ، وغير ذلك من المقاصد الكبار ، وكانت محفوظة بانتظام السماء ﴿ انتثرت ﴾ أي تساقطت متفرقة كما يتساقط الدر من السلك إذا انقطع تساقطاً كأنه لسرعته لا يحتاج إلى فعل فاعل لقوة تداعيه إلى التساقط .

ولما كان إخباره بما دل على وهي السماء مشعراً بوهي الأرض لأنها أتقن منها وأشرف إذ هي للأرض بمنزلة الذكر للأنثى ، وكان الانفعال ربما أوهم أن ذلك يكون بغير فاعل ، صرح بوهي الأرض معبراً بالبناء للمفعول دلالة على أن الكل بفعله ، وأن ذلك عليه يسير ، فقال مخبراً بانفطار الأراضي أيضاً ليجمع بين التخويف بالمطل والترويع بالمقل : ﴿ وإذا

البحار ﴾ المتفرقة في الأرض وهي ضابطة لها أتم ضبط لنفع العباد على كثرتها ﴿ فجرت ﴾ أي تفجيراً كثيراً بزوال ما بينها من البرازخ الحائلة ، وقال الربيع : بفيضها وخروج مائها عن حدوده فاختلط بعضها ببعض من ملحها وعذبها فصارت بحراً واحداً ، فصارت الأرض كلها ماء ولا سماء ولا أرض فأين المفر .

ولما كان ذلك مقتضياً لغمر القبور فأوهم أن أهلها لا يقومون كما كان العرب يعتقدون أن من مات فات ، قال دافعاً لذلك على نمط كلام القادرين إشارة إلى سهولة ذلك عليه : ﴿ وإذا القبور ﴾ أي مع ذلك كله ﴿ بعثرت ﴾ أي نبش ترابها على أسهل وجه عن أهلها فقاموا أحياء كما كانوا ، فرأوا ما أفظعهم وهالهم وروّعهم .

(44/806)

ولما كانت هذه الشروط كلها التي جعلت أشراطاً على الساعة موجبة لعلوم دقيقة ، وتكشف كل واحدة منها عن أمور عجيبة ، وكانت كلها دالة على الانتقال من هذه الدار إلى دار أخرى لخراب هذه الدار ، ناسب أن يجيب " إذ " بقوله : ﴿ علمت نفس ﴾ أي جميع النفوس بالإنباء بالحساب وبما يجعل لها سبحانه بقوة التركيب من ملكة للاستحضار كما قال تعالى : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك ﴾ والدال على إرادة العموم التعبير بالتنكير في

سياق التخويف والتحذير مع العلم بأن النفوس كلها في علم مثل هذا وجهله على حد سواء ، فمهما ثبت للبعث ثبت للكل ، ولعله نكر إشارة إلى أنه ينبغي لمن وهبه الله عقلاً أن يجوّز أنه هو المراد فيخاف : ﴿ ما قدمت ﴾ أي من عمل ﴿ وأخرت ﴾ أي جميع ما عملت من خير أو شر أو غيرهما ، أو ما قدمت قبل الموت وما أخرت من سنة تبقى بعده .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير لاتحاد القصد فاتصالها بها واضح وقد مضى نظير هذا – انتهى .

ولما كان ذلك خالعاً للقلوب ، وكان الإنسان إذا اعتقد البعث قد يقول تهاوناً ببعض المعاصي : المرجع إلى كريم ولا يفعل بي إلا خيراً ، أنتج قوله منادياً بأداة البعد لأن أكثر الخلق مع ذلك معرض ، منكراً سبحانه وتعالى على من يقول هذا اغتراراً بخدع الشيطان إنكاراً يهد الأركان : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ أي البشر الآنس بنفسه الناسي لما يعنيه ﴿ ما غرك ﴾ أي أدخلك في الغرة ، وهي أن ترى فعلك القبيح حسناً أو ترى أنه يعفى عنك لا محالة ، وذلك بمعنى قراءة سعيد بن جبير والأعمش : أغرك – بهمزة الإنكار ، وتزيد المشهورة معنى التعجب ﴿ بربك ﴾ أي المحسن إليك الذي أنساك إحسانه ما خلقت له من خلاص نفسك بعمل ما شرعه لك .

(45/806)

ولما كان التعبير بالرب مع دلالته على الإحسان يدل على الانتقام عند الإمعان في الإجرام لأن ذلك شأن المربي ، فكان ذلك مانعاً من الاغترار لمن تأمل ، أتبعه ما هو كذلك أيضاً ظاهره لطف وباطنه جبروت وقهر ، فقال للمبالغة في المنع عن الاغترار ، ﴿ الكريم ﴾ أي الذي له الكمال كله المقتضي لئلا يهمل الظالم بل يمهله ، ولا يسوي بين المحسن والمسيء والموالي والمعادي والمطيع والعاصي ، المقتضي لأن يبالغ في التقرب إليه بالطاعة شكراً له ، وأن لا يعرض أحد عنه لأن بيده كل شيء ولا شيء بيد غيره ، فيجب أن يخشى شدة بطشه لأنه كذلك يكون المتصف بالكرم لا يكون إلا عزيزاً ، فإنه يكون شديد الحلم عظيم السطوة عند انتهاك حرمته بعد ذلك الحلم فإنه يجد أعواناً كثيرة على مراده ، ولا يجد المعاقب عذراً في تقصيره بخلاف اللئيم فإنه لا يجد أعواناً فلا يشتد أخذه ، فصار الإنكار بواسطة هذين الوصفين أشد وأغلظ من هذه الجهة ، ومن جهة أنه كان ينبغي أن يستحيي من المحسن الذي لا تكدير في إحسانه بوجه ، فلا يعصى له أمر ولا يفرط له في حق ، ومع ذلك ففي ذكر هذين الوصفين تلقين الحجة ، قال أبو بكر الوراق : لو سألني لقلت : غرني كرم الكريم وحلمه ، وقال علي ـ رضى الله عنه ـ : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ، وقال الإمام الغزالي في شرحه للأسماء : هو الذي إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجا ، ولا يبالي لمن أعطى ولا كم أعطى ، وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا

يرضى ، وإذا جفى عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به وإليه التجأ ، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء .

(46/806)

ولما ذكر هذين الوصفين الدالين على الكمالين ، بالجلال ، دل عليهما تقريراً لهما بإفاضة الجود في التربية بوصف الجمال بالإكرام لئلا يعتقد الإنسان بما له من الطغيان أنه حر مالك لنفسه يفعل ما يشاء فقال : ﴿ الذي خلقك ﴾ أي أوجدك من العدم مهيئاً لتقدير الأعضاء ﴿ فسوّاك ﴾ عقب تلك الأطوار بتصوير الأعضاء والمنافع بالفعل ﴿ فعدلك ﴾ أي جعل كل شيء من ذلك سليماً مودعاً فيه قوة المنافع التي خلقه الله لها ، وعدل المزاج حتى قبل الصورة ، والتعديل جعل البنية متناسبة الخلقة ، وكذا العدل في قراءة الكوفيين بالتخفيف أي فأمالك عن تشويه الخلقة وتقبيح الصورة ، وجعلك معتدلاً في صورتك ، وكل هذا يقتضي غاية الشكر والخوف منه إن عصى ، لأنه كما قدر على التسوية يقدر على التشويه وغيره من العذاب .

ولما أضاء بهذا إضاءة الشمس أنه عظيم القدرة على كل ما يريد ، أنتج قوله معلقاً ب " ركب " : ﴿ في أيّ صورة ﴾ من الصور التي تعرفها والتي لا تعرفها من الدواب والطيور

وغير ذلك من الحيوان ، ولما كان المراد تقرير المعنى غاية التقرير ، أثبت النافي في سياق الإثبات لينتفي ضد ما أثبته الكلام فيصير ثبات المعنى على غاية من القوة التي لا مزيد عليها ، فقال : ﴿ ما شاء ركبك ﴾ أي ألف تركيب أعضائك وجمع الروح إلى البدن ، روى الطبراني في معاجمه الثلاثة برجال ثقات عن مالك بن الحويرث ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إذا أراد الله جل اسمه أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها ، فلما كان اليوم السابع أحضر الله له كل عرق بينه وبين آدم ، ثم قرأ ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ [الانفطار : 8] " فتحرر بهذا الإنسان رقيق رقاً لازماً ، ومن خلع ربقة ذلك الرق اللازم وكل إلى نفسه فهلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 347 . 350 ﴾

(47/806)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات ﴿ فجرت ﴾ بالتخفيف : ابن شنبوذ عن أهل مكة ﴿ فعدلك ﴾ مخففاً : يزيد وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير المفضل ﴿ ركبك كلا ﴾ مدغماً : أبو عمرو

وقتيبة عنه ﴿ يكذبون ﴾ عل الغيبة : يزيد ﴿ يوم لا ﴾ بالرفع : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب . الآخرون : بالفتح .

الوقوف ﴿ انفطرت ﴾ ه‌ك ﴿ انتثرت ﴾ ه‌ك ﴿ فجرت ﴾ ه‌ك ﴿ بعثرت ﴾ ه‌ك ﴿ وأخرت ﴾ ه‌ط ﴿ الكريم ﴾ ه‌لا ﴿ فعدلك ﴾ ه‌ط بناء على أن الظرف بعده متعلق ب ﴿ ركبك ﴾ ومن خفف ﴿ فعدلك ﴾ لم يقف بناء على أنه جعل "في" بمعنى "إلى" أي فعدلك إلى أي صورة ما شاء ﴿ ركبك ﴾ ه‌ط بناء على أن "كلا" توكيد لتحقيق بل ومن جعله ردعاً عن الاعتراف لم يقف ﴿ بالدين ﴾ ه‌ج لاحتمال ما بعده الحال والاستئناف والوصل أجوز إلا من قرأ ﴿ يكذبون ﴾ على الغيبة فإنه يقف مطلقاً للعدول ﴿ لحافظين ﴾ ه‌لا ﴿ كاتبين ﴾ ه‌ك ﴿ تفعلون ﴾ ه ﴿ نعيم ﴾ ه‌ج ﴿ جحيم ﴾ ه‌ج لاحتمال أن ما بعده مستأنف أو صفة جحيم ﴿ بغائبين ﴾ ه‌ط لابتداء النفي أو الاستفهام ﴿ الدين ﴾ ه ﴿ يوم الدين ﴾ ه‌لا لمن قرأ ﴿ يوم ﴾ بالنصب أي ذلك في يوم ومن رفعه على أنه بدل من يوم الدين فلا وقف . ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ لله ﴾ ه‌ط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 457 ﴾

(48/806)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

اعلم أن المراد أنه إذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة ، فهناك يحصل الحشر والنشر ، وفي تفسير هذه الآيات مقامات الأول : في تفسير كل واحد من هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة وهي ههنا أربعة ، اثنان منها تتعلق بالعلويات ، واثنان آخران تتعلق بالسفليات الأول : قوله : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ أي انشقت وهو كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء * بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] ، ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ، ﴿ فَإِذَا انشقت السماء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] ، ﴿ وَفُتِحَتِ السماء فَكَانَتْ أبوابا ﴾ [النبأ : 19] و ﴿ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 18] قال الخليل : ولم يأت هذا على الفعل ، بل هو كقولهم : مرضع وحائض ، ولو كان على الفعل لكان منفطرة كما قال : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ أما الثاني وهو قوله : ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ فالمعنى ظاهر لأن عند انتقاض تركيب السماء لا بد من انتثار الكواكب على الأرض .

واعلم أنا ذكرنا في بعض السورة المتقدمة أن الفلاسفة ينكرون إمكان الخرق والالتئام على الأفلاك ، ودليلنا على إمكان ذلك أن الأجسام متماثلة في كونها أجساماً ، فوجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر ، إنما قلنا : إنها متماثلة لأنه يصح تقسيمها إلى السماوية والأرضية ومورد التقسيم مشترك بين القسمين ، فالعلويات والسفليات مشتركة في أنها أجسام ، وإنما قلنا : إنه متى كان كذلك وجب أن يصح على العلويات ما يصح على السفليات ، لأن المتماثلات حكمها واحد فمتى يصح حكم على واحد منها ، وجب أن يصح على الباقي ، وأما الإثنان السفليان : فأحدهما : قوله : ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ وفيه وجوه أحدهما : أنه ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخاً ، وحينئذ يصير الكل بحراً واحداً ، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها .

وثانيها : أن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة ، فإذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها وثالثها : قال الحسن : فجرت أي يبست .

واعلم أن على الوجوه الثلاثة ، فالمراد أنه تتغير البحار عن صورتها الأصلية وصفتها ، وهو كما ذكر أنه تغير الأرض عن صفتها في قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ [ابراهيم : 48] وتغير الجبال عن صفتها في قوله : ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً

صَفْصَفاً ﴾ [طه : 106 105] ورابعها : قرأ بعضهم : ﴿ فُجّرَتْ ﴾ بالتخفيف ، وقرأ مجاهد : ﴿ فُجّرَتْ ﴾ على البناء للفاعل والتخفيف ، بمعنى بغت لزوال البرزخ نظراً إلى قوله : ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 20] لأن البغي والفجور أخوان .

(50/806)

وأما الثاني : فقوله : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ فاعلم أن بعثر وبحثر بمعنى واحد ، ومركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما ، والمعنى أثيرت وقلب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها ، ثم ههنا وجهان أحدهما : أن القبور تبعثر بأن يخرج ما فيها من الموتى أحياء ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] والثاني : أنها تبعثر لإخراج ما في بطنها من الذهب والفضة ، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ، ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى ، والأول أقرب ، لأن دلالة القبور على الأول أتم .

المقام الثاني : في فائدة هذا الترتيب ، واعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا ، وانقطاع التكاليف ، والسماء كالسقف ، والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار ، فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف ، وذلك هو قوله : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾

ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب ، وذلك هو قوله : ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض وهو قوله : ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ ثم إنه تعالى يخرب آخر الأمر الأرض التي هي البناء ، وذلك هو قوله : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر .

(51/806)

المقام الثالث : في تفسير قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ وفيه احتمالان الأول : أن المراد بهذه الأمور ذكر يوم القيامة ، ثم فيه وجوه أحدها : وهو الأصح أن المقصود منه الزجر عن المعصية ، والترغيب في الطاعة ، أي يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم ، فلم يقصر فيه وما أخر فقصر فيه ، لأن قوله : ﴿ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ يقتضي فعلاً و ﴿ مَا أخرت ﴾ يقتضي تركاً ، فهذا الكلام يقتضي فعلاً وتركاً وتقصيراً وتوفيراً ، فإن كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار ، وإن كان قدم العمل الصالح وأخر الكبائر فمأواه الجنة وثانيها : ما قدمت من عمل أدخله في الوجود وما أخرت من سنة يستن بها من بعده من خير أو شر وثالثها : قال الضحاك : ما قدمت من الفرائض وما أخرت أي ما ضيعت ورابعها : قال أبو مسلم : ما قدمت من الأعمال في أول عمرها وما أخرت في آخر عمرها ، فإن قيل : وفي أي

موقف من مواقف القيامة يحصل هذا العلم ؟ قلنا : أما العلم الإجمالي فيحصل في أول زمان الحشر ، لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر . وأما العلم التفصيل ، فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة .

الاحتمال الثاني : أن يكون المراد قيل : قيام القيامة بل عند ظهور أشراط الساعة وانقطاع التكاليف ، وحين لا ينفع العمل بعد ذلك كما قال : ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمانها خَيْرًا ﴾ [الأنعام : 158] فيكون ما عمله الإنسان إلى تلك الغاية ، هو أول أعماله وآخرها ، لأنه لا عمل له بعد ذلك ، وهذا القول ذكره القفال .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

(52/806)

اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه ، وذلك من وجهين الأول : أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين ، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم ؟ الثاني : أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها ، إما أن يقال : إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة ، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثاً ، وهو غير جائز على

الحكيم ، وإن خلقها لحكمة ، فتلك الحكمة ، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد ، والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع .

فتعين الثاني ، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد ، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا .

(53/806)

والأول باطل لأن الدنيا دار بلاء وامتحان ، لا دار الانتفاع والجزاء ، ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى ، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم ، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر ، وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] إلى أن قال : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ [التين : 7] وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة ، وتصلح أيضاً مع من ينفي الإبتداء والإعادة معاً ، لأن الخلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر ، فإن قيل : بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم ، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا

الاستدلال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ [التين : 8] فكان يجب أن يقول في هذه السورة : ما غرك بربك الحكيم الجواب : أن الكريم يجب أن يكون حكيماً ، لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيراً لا كرماً .

أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرماً ، إذا ثبت هذا فنقول : كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه ، أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني ، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم ، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم ، ولنرجع إلى التفسير .

(54/806)

أما قوله : ﴿ يا أيها الإنسانُ ﴾ ففيه قولان : أحدهما : أنه الكافر ، لقوله من بعد ذلك : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ [الإنفطار : 9] وقال عطاء عن ابن عباس : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقال الكلبي ومقاتل : نزلت في ابن الأسد بن كلدة بن أسيد وذلك أنه ضرب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى ، وأنزل هذه الآية والقول الثاني : أنه يتناول جميع العصاة وهو الأقرب ، لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ .

أما قوله : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ فالمراد الذي خدعك وسول لك الباطل حتى تركت

الواجبات وأتيت بالمحرمات ، والمعنى ما الذي أمنك من عقابه ، يقال : غره بفلان إذا أمنه المحذور من جهته مع أنه غير مأمون ، وهو كقوله : ﴿ لا يَغُرَّنَّكُم بالله الغرور ﴾ [لقمان : 33] هذا إذا حملنا قوله : ﴿ يا أيها الإنسانُ ﴾ على جميع العصاة ، وأما إذا حملناه على الكافر ، فالمعنى ما الذي دعاك إلى الكفر والجحد بالرسل ، وإنكار الحشر والنشر ، وههنا سؤالات :

(55/806)

الأول : أن كونه كريماً يقتضي أن يغتر الإنسان بكرمه بدليل المعقول والمنقول ، أما المعقول فهو أن الجود إفادة ما ينبغي لا لعوض ، فلما كان الحق تعالى جواداً مطلقاً لم يكن مستعيضاً ، ومتى كان كذلك استوى عنده طاعة المطيعين ، وعصيان المذنبين ، وهذا يوجب الاغترار لأنه من البعيد أن يقدم الغني على إيلام الضعيف من غير فائدة أصلاً ، وأما المنقول فما روي عن علي عليه السلام ، أنه دعا غلامه مرات فلم يجبه ، فنظر فإذا هو بالباب ، فقال له : لم لم تجبني ؟ فقال : لثقتي بحلمك ، وأمني من عقوبتك ، فاستحسن جوابه ، وأعتقه ، وقالوا أيضاً : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ، ولما ثبت أن كرمه يقتضي الاغترار به ، فكيف جعله ههنا مانعاً من الاغترار به ؟ والجواب : من وجوه أحدها : أن معنى الآية أنك

لما كنت ترى حلم الله على خلقه ظننت أن ذلك لأنه لا حساب ولا دار إلا هذه الدار ، فما الذي دعاك إلى هذا الاغترار ، وجرأك على إنكار الحشر والنشر ؟ فإن ربك كريم ، فهو لكرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطاً في مدة التوبة ، وتأخيراً للجزاء إلى أن يجمع الناس في الدار التي جعلها لهم للجزاء ، فالحاصل أن ترك المعاجلة بالعقوبة لأجل الكرم ، وذلك لا يقتضي الاغترار بأنه لا دار بعد هذه الدار وثالثها : أن كرمه لما بلغ إلى حيث لا يمنع من العاصي موائد لطفه ، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم ، كان أولى فإذن كونه كريماً يقتضي الخوف الشديد من هذا الاعتبار ، وترك الجراءة والاغترار وثالثها : أن كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد في الخدمة والاستحياء من الاغترار والتواني ورابعها : قال بعض الناس : إنما قال : ﴿ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ ليكون ذلك جواباً عن ذلك السؤال حتى يقول غرني كرمك ، ولولا كرمك لما فعلت لأنك رأيت فسترت ، وقدرت فأمهلت ، وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد من قوله : ﴿ يا أيها الإنسانُ ﴾ ليس الكافر .

(56/806)

السؤال الثاني : ما الذي ذكره المفسرون في سبب هذا الاغترار ؟ قلنا وجوه : أحدها : قال قتادة : سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان له وثانيها : قال الحسن : غره حمقه وجهله

وثالثها : قال مقاتل : غره عفو الله عنه حين لم يعاقبه في أول أمره ، وقيل : للفضيل بن عياض إذا أقامك الله يوم القيامة ، وقال لك : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ ماذا تقول ؟ قال : أقول غرتني ستورك المرخاة .

السؤال الثالث : ما معنى قراءة سعيد بن جبير ما أغرك ؟ قلنا : هو إما على التعجب وإما على الاستفهام من قولك غر الرجل فهو غار إذا غفل ، ومن قولك بيتهم العدو وهم غارون ، وأغره غيره جعله غاراً ، أما قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَكَ ﴾ فاعلم أنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الأمور الثلاثة كالدلالة على تحقق ذلك الكرم أولها : الخلق وهو قوله : ﴿ الذي خَلَقَكَ ﴾ ولا شك أنه كرم وجود لأن الوجود خير من العدم ، والحياة خير من الموت ، وهو الذي قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] ، وثانيها : قوله : ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ أي جعلك سوياً سالم الأعضاء تسمع وتبصر ، ونظيره قوله : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 37] قال ذو النون : سواك أي سخر لك المكونات أجمع ، وما جعلك مسخراً لشيء منها ، ثم أنطق لسانك بالذكر ، وقلبك بالعقل ، وروحك بالمعرفة ، وسرك بالإيمان ، وشرفك بالأمر والنهي وفضك على كثير ممن خلق تفضيلاً وثالثها : قوله : ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : قال مقاتل : يريد عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع ، وهو كقوله : ﴿ بلى قادرين على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : 4] وتقريره ما عرف في علم التشريح أنه سبحانه ركب جانبي هذه الجثة على التسوي حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في ثقبها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها ، واستقصاء القول فيه لا يليق بهذا العلم ، وقال عطاء عن ابن عباس : جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية ، وقال أبو علي الفارسي : عدل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم ، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعداً لقبول العقل والقدرة والفكر ، وصيرك بسبب ذلك مستولياً على جميع الحيوان والنبات ، وواصلاً بالكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم .

(58/806)

البحث الثاني : قرأ الكوفيون فعدلك بالتخفيف ، وفيه وجوه أحدها : قال أبو علي الفارسي : أن يكون المعنى عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت والثاني : قال الفراء

: ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أي فصرفك إلى أي صورة شاء ، ثم قال : والتشديد أحسن الوجهين لأنك تقول : عدلتك إلى كذا كما تقول صرفتك إلى كذا ، ولا يحسن عدلتك فيه ولا صرفتك فيه ، ففي القراءة الأولى جعل في من قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ ﴾ صلة للتركيب ، وهو حسن ، وفي القراءة الثانية جعله صلة لقوله : ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ وهو ضعيف ، واعلم أن اعتراض القراء إنما يتوجه على هذا الوجه الثاني ، فأما على الوجه الأول الذي ذكره أبو علي الفارسي فغير متوجه والثالث : نقل القفال عن بعضهم أنهما لغتان بمعنى واحد ، أما قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ففيه مباحث الأول : ما هل هي مزيدة أم لا ؟ فيه قولان : الأول : أنها ليست مزيدة ، بل هي في معنى الشرط والجزاء فيكون المعنى في أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك ، وبناء على هذا الوجه ، قال أبو صالح ومقاتل : المعنى إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة كلب أو صورة حمار أو خنزير أو قرد والقول الثاني : أنها صلة مؤكدة والمعنى في أي صورة تقتضيها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة ، فإنه سبحانه يركبك على مثلها ، وعلى هذا القول تحتمل الآية وجوهاً أحدها : أن المراد من الصور المختلفة شبه الأب والأم ، أو أقارب الأب أو أقارب الأم ، ويكون المعنى أنه سبحانه يركبك على مثل صور هؤلاء ويدل على صحة هذا ما روى أنه عليه السلام قال في هذا الآية :

" إذا استقرت النطفة في الرحم ، أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم " ، والثاني : وهو الذي ذكره الفراء والزجاج أن المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والأنوثة ، ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر في غاية الظهور ، لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء وتأثير طبع الأبوين فيه على السوية ، فالفاعل المؤثر بالطبيعة في القابل المتشابه لا يفعل إلا فعلاً واحداً ، فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار ، قال القفال : اختلاف الخلق والألوان كاختلاف الأحوال في الغنى والفقر والصحة والسقم ، فكما أنا نقطع أنه سبحانه إنما ميز البعض عن البعض في الغنى والفقر ، وطول العمر وقصره ، بحكمة بالغة لا يحيط بكنهها إلا هو ، فكذلك نعلم أنه إنما جعل البعض مخالفاً للبعض ، في الخلق والألوان بحكمة بالغة ، وذلك لأن بسبب هذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسيء والقريب عن الأجنبي ، ثم قال : ونحن نشهد شهادة لا شك فيها أنه سبحانه لم يفرق بين المناظر والهيئات إلا لما علم من صلاح عباده فيه وإن كنا جاهلين بعين الصلاح القول الثالث : قال الواسطي : المراد صورة المطيعين والعصاة فليس من ركبه على صورة الولاية كمن ركبه على صورة العداوة ، قال آخرون : إنه إشارة إلى صفاء الأرواح وظلمتها ، وقال الحسن : منهم من صوره ليستخلصه لنفسه ، ومنهم من صوره ليشغله بغيره مثال الأول : أنه خلق آدم ليخصه

بألطاف بره وإعلاء قدره وأظهر روحه من بين جماله وجلاله ، وتوجه بتاج الكرامة وزينه بردا ء الجلال والهيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 70 . 75 ﴾

(60/806)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾

أي تشققت بأمر الله ؛ لنزول الملائكة ؛ كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] .

وقيل : تفطَّرت لهيبة الله تعالى .

والفَطْر : الشَّقّ ؛ يقال : فطرته فانفطر ، ومنه فَطر ناب البعير : طلع ، فهو بعير فاطر ، وتفطَّر الشيء : شقَّق ، وسيفُ فُطار أي فيهُ شقوق ؛ قال عنترة :

وسيفي كالعقِيقةِ وهو كِمعِي . . .

سِلاحِي لا أَفَلَّ ولا فُطَارا

وقد تقدّم في غير موضع .

﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت ؛ نثرتْ الشيء أنثره نثراً ، فانتثر ، والاسم

النّثار .

والنُّثار بالضم : ما تناثر من الشيء ، ودُرّ مُنثَّر ، شدد لكثرة .

﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ أي فجر بعضها في بعض ، فصارت بحراً واحداً ، على ما تقدّم .

قال الحسن : فُجِّرت : ذهب ماؤها ويبِست ؛ وذلك أنها أوّلا راكدة مجتمعة ، فإذا فُجِّرت تفرّقت ، فذهب ماؤها .

وهذه الأشياء بين يدي الساعة ، على ما تقدّم في ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ .

﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ أي قُلِبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء ؛ يقال : بعثرت المتاع : قلبته ظهراً لبطن ، وبعثرت الحوض وبحثرته : إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه .

وقال قوم منهم الفرّاء : "بعثِرت" : أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة .

وذلك من أشراط الساعة : أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ مثل : ﴿ ينبأُ الإنسان يومئذ بما قدم وأَخر ﴾ [القيامة : 13] وتقدّم .

وهذا جواب "إذا السماء أنفطرت" لأنه قَسَم في قول الحسن وقع على قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ يقول : إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت ، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك .

وقيل : أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة ، فحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها ، فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها .

وقيل : هو خبر ، وليس بقسم ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾

خاطب بهذا منكري البعث .

وقال ابن عباس : الإنسان هنا : الوليد بن المغيرة .

وقال عكرمة : أبيّ بن خلف .

وقيل : نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدة الجُمَحِيّ .

عن ابن عباس أيضاً : " ما غرك بربك الكريم " أي ما الذي غرك حتى كفرت ؟ " بربك الكريم " أي المتجاوز عنك .

قال قتادة : غره شيطانه المسلَّط عليه .

الحسن : غره شيطانه الخبيث .

وقيل : حمقه وجهله .

رواه الحسن عن عمر رضي الله عنه .

وروى غالب الحنفي قال : " لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ قال : "غره الجهل" " وقال صالح بن مسمار : بلغنا " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ " يا أَيُّهَا الإنسان ما غرك بربك الكريم" ؟ فقال : "غره جهلُه" " وقال عمر رضي الله عنه : كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

وقيل : غره عفو الله ، إذ لم يعاقبه في أوّل مرة .

قال إبراهيم بن الأشعث : قيل للفُضَيل ابن عياض : لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه ، فقال لك : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الانفطار : 6] ؟ ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول غَرَّني سُتُورك المرخاة ، لأن الكريم هو السَّتَّار .

نظمه ابن السَّماك فقال :

يا كاتمَ الذنب أما تستحي . . .
واللَّهُ في الخُلْوة ثانيكَا
غَرَّكَ من ربك إمهالُهُ . . .
وسَتْرُه طولَ مَساويكَا

وقال ذو النون المصريّ : كم من مغرور تحت السَّتْر وهو لا يشعر .

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهري :

يا من غلا في العُجْب والتيهِ . . .

وغره طولُ تماديهِ

أَمْلَى لك الله فبارزته . . .

ولم تخف غِبّ مَعاصيهِ

(62/806)

وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يُلَبِّه ، فنظر فإذا هو بالباب ،

فقال : مالك لم تُجبني ؟ فقال .

لثقتي بحلمك ، وأمني من عقوبتك .

فاستحسن جوابه فأعتقه .

وناس يقولون : ما غرك : ما خَدَعك وسَوَّل لك ، حتى أضعت ما وجب عليك ؟ وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة ، فيقول له : ي بن آدم ماذا غرك بي ؟ يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ ﴿ الذي خَلَقَكَ ﴾ أي قدرَّ خلقَك من نطفة ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ في بطن أمك ، وجعل لك يدين ورجلين وعينين

وسائر أعضائك ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أي جعلك معتدلاً سَوِيّ الخَلْق ؛ كما يقال : هذا شيء معدّل .

وهذه قراءة العامة ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ قال الفراء : وأبو عبيد : يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

وقرأ الكوفيون : عاصم وحمزة والكسائي : "فعدَلك" مخففاً أي : أمالك وصرفك إلى أيّ صورة شاء ، إما حسناً وإما قبيحاً ، وإما طويلاً وإما قصيراً .

وقال موسى بن عليّ بن أبي رَباح اللَّخْمي عن أبيه عن جده قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم :

" إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم " أما قرأت هذه الآية ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ : " فيما بينك وبين آدم " (وقال عكرمة وأبو صالح : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾) : إن شاء في صورة إنسان ، وإن شاء في صورة حمار ، وإن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير .

وقال مكحول : إن شاء ذكراً ، وإن شاء أنثى .

قال مجاهد : "فِي أي صورةٍ" أي في أي شبه من أبٍ أو أم أو عم أو خالٍ أو غيرهم .

و "في" متعلقة ب "ركبك" ، ولا تتعلق ب "عدَلك" ، على قراءة من خفف ؛ لأنك تقول عَدَلْت إلى كذا ، ولا تقول عَدَلت في كذا ؛ ولذلك منع الفراء التخفيف ؛ لأنه قدّر "في" متعلقة ب "عدَلك" ، و "ما" يجوز أن تكون صلة مؤكدة ؛ أي في أي صورة شاء ركبك . ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قِرد أو حمار أو خنزير ، ف "ما" بمعنى الشرط والجزاء ؛ أي في صورة ما شاء يركبك ركبك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(64/806)

وقال الآلوسى :

﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾

أي انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] ونزل الملائكة تنزيلاً والكلام في ارتفاع السماء كما مر في ارتفاع ﴿ الشمس ﴾ .

﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت متفرقة وهو استعارة لإزالتها حيث شبهت بجواهر قطع سلكها وهي مصرحة أو مكنية .

﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من البرزخ واختلط العذب بالإجاج وصارت بحراً واحداً وروى أن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء الجار فتصير مستوية أي في أن لا ماء وأريد أن البحار تصير واحدة أولاً ثم تنشف الأرض جميعاً فتصير بلا ماء ويحتمل أن يراد بالاستواء بعد النضوب عدم بقاء مغايض الماء لقوله تعالى : ﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ [طه : 107] وقرأ مجاهد والربيع بن خيثم والزعرفاني والثوري فجرت بالتخفيف مبنياً للمفعول وعن مجاهد أيضاً فجرت به مبنياً للفاعل بمعنى نبعت لزوال البرزخ من الفجور نظر إلى قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 20] لأن البغي والفجور أخوان .

(65/806)

﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ قلب ترابها الذي حتى على موتاها وأزيل وأخرج من دفن فيها على ما فسر به غير واحد وأصل البعثرة على ما قيل تبديد التراب ونحوه وهو إنما يكون لإخراج شيء تحته فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً وعليه ما سمعت وقد يتجوز به عن البعث والإخراج كما في ﴿ العاديات حيث أسند فيها لما في القبور دونها كما هنا وزعم بعض أنه مشترك بين النبش والإخراج وذهب بعض الأئمة كالزمخشري والسهيلي إلى أنه

مركب من كلمتين اختصاراً ويسمى ذلك نحتاً وأصل بعثر بعث وأثير ونظيره بسمل وحمدل وحوقل ودمعز أي قال بسم الله والحمد لله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى وأدام لله تعالى عزه إلى غير ذلك من النظائر وهي كثيرة في لغة العرب وعليه يكون معناه النبس والإخراج معاً واعترضه أبو حيان بأن الراء ليست من أحرف الزيادة وهو توهم منه فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين والزيادة على بعض الحروف الأصول كم كلمة واحدة كما فصل في الزهر نقلاً عن أئمة اللغة نعم الأصل عدم التركيب .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ جواب إذا لكن لا على أنها تعلمه عند البعث بل عند نشر الصحف لما عرفت أن المراد بها زمان واحد مبدؤه قبيل النفخة الأولى أو هي ومنتهاه الفصل بين الخلائق لا أزمنة متعددة بحسب كلمة إذا وإنما كررت لتهويل ما في حيزها من الدواهي والكلام فيه كالذي مر في نظيره ومعنى ما قدم وأخر ما أسلف من عمل خير أو شر وأخر من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده قاله ابن عباس وأبي مسعود وعن ابن عباس أيضاً ما قدم معصية وأخر طاعة وهو قول قتادة وقيل ما عمل ما كلف به وما لم يعمل منه وقيل ما قدم من أمواله لنفسه وما أخر لورثته وقيل أول عمله وآخره ومعنى علمها بهما علمها التفصيلي حسبما ذكر فيما قدم .

﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾

أي أي شيء خدعك وجراك على عصيانك تعالى وارتكاب ما لا يليق بشأن عز شأنه وقد علمت ما بين يديك وما سيظهر من أعمالك عليك والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه من صفات الجلال المانعة ملاحظتها عن الاغترار للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مداراً لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة أو يقول له نحو ذلك مما مبناه الكرم كقول بعض شياطين الإنس :

تكثر ما استطعت من الخطايا . . .

ستلقى في غد رباً غفوراً

تعض ندامة كفيك مما . . .

تركت مخافة الذنب السرورا

فإنه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الايمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان دون العكس ولذا قال بعض العارفين لو لم أخف الله تعالى لم أعصه فكأنه قيل ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه وتدعو إلى خلافه وقيل إن هذا تلقين للحجة وهو من الكرم أضاً فإنه إذا قبل له ما غرك الخ يتفطن للجواب الذي لقنه ويقول كرمه كما قيل يعرف حسن الخلق والإحسان بقلة الآداب في الغلمان ولم

يرتض ذلك الزمخشري وكان الاغترار بذلك في النظر الجليل وإلا فهو في النظر الدقيق كما سمعت وعن الفضيل أنه قال غره ستره تعالى المرخي وقال محمد بن السماك :

يا كاتم الذنب أما تستحي . . .

والله في الخلوة رائيكا

غرك من ربك إمهاله . . .

وستره طول مساويك

وقال بعضهم :

يقول مولاي أما تستحي . . .

مما أرى من سوء أفعالك

فقلت يا مولاي رفقاً فقد . . .

جرأني كثرة أفضالك

(67/806)

وقال قتادة غره عدوه المسلط عليه وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية فقال الجهل وقاله عمر رضي الله تعالى عنه وقرأ ﴿ أنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب : 72

] والفرق بين هذا وبين ما ذكروا لا يخفى على ذي علم واختلف في الإنسان المنادى فقيل الكافر بل عن عكرمة أنه أبي بن خلف وقيل الأعم الشامل للعصاة وهو الوجه لعموم اللفظ ولوقوعه بين المجمل ومفصله أعنى ﴿ علمت نفس ﴾ [الأنفطار : 5] ﴿ وأن الأبرار وأن الفجار ﴾ [الإنفطار : 13 ، 14] وأما قوله تعالى : ﴿ بَلِ يُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ [الانفطار : 9] ففي "الكشف" أما أن يكون ترشيحاً لقوة اغترارهم بإيهام أنهم أسوأ حالاً من المكذبين تغليظاً وأما لصحة خطاب الكل بما وجد فيما بينهم وقرأ ابن جبير والأعمش ما أغرك بهمزة فاحتمل أن يكون تعجباً وأن تكون ما استفهامية كما في قراءة الجمهور وأغرك بمعنى أدخلك في الغرة وقوله سبحانه :

﴿ الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم مومية إلى صحة ما كذب من البعث والجزاء موطئة لما بعد حيث نبهت على أن من قدر على ذلك بدأ أقدر عليه إعادة والتسوية جعل الأعضاء سوية سليمة معدة لمنافعها وهي في الأصل جعل الأشياء على سواء فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتم به وعدلها عدل بعضها ببعض بحيث اعتدلت من عدل فلاناً بفلان إذا ساوى بينهما أو صرفها عن خلقة غير ملائمة لها من عدل بمعنى صرف وذهب إلى الأول الفارسي وإلى الثاني الفراء وقرأ غير واحد من السبعة عدلك بالتشديد أي صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه ونقل القفال عن بعضهم إن عدل وعدل بمعنى واحد .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) ﴾

صورة اقتضتها مشيئته تعالى وحكمته جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب الحسن ونحوها فالجار والمجرور متعلق بركبك وأي للصفة مثلها في قوله : أرأيت أي سوالف وخدود . . .

(68/806)

برزت لنا بن اللوى وزرود

ولما أريد التعميم لم يذكر موصوفها وجملة شاء صفة لها والعائد محذوف وما مزيدة وإنما لم تعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيان لعدلك وجوز أن يكون الجار والمجرور في موضع الحال أي ركبك كائناً في أي في صورة شاءها وقيل أي موصولة صلتها جملة شاءها كأنه قيل ركبك في الصورة التي شاءها وفيه أنه صرح أبو علي في التذكرة بأن أياً الموصولة لا تضاف إلى نكرة وقال ابن مالك في الألفية واخصصن بالمعرفة موصولة أياً .

وفي شرحها للسيوطي مع اشتراط ما سبق يعني كون المعرفة غير مفردة فلا تضفها إلى نكرة خلافاً لابن عصفور ويجوز أن تجعل أي شرطية والماضي في جوابها في معنى المستقبل إذا نظر إلى تعلق المشيئة وترتب التركيب عليه فجيء بصورة إلى الماضي نظر إلى المشيئة وأداة

الشرط نظراً إلى المتعلق والترتب ويجوز أن يكون الجار متعلقاً بعدلك وحينئذ يتعين في أي الصفة كأنه قيل فعدلك في صورة أي صورة أي في صورة عجيبة ثم حذف الموصوف زيادة للتفخيم والتعجيب وأي هذه منقولة من الاستفهامية لكنها لانسلاخ معناها عنها بالكلية عمل فيها ما قبلها ويكون ما شاء ركبك كلاماً مستأنفا وما أما موصولة أو موصوفة مبتدأ أو مفعولاً مطلقاً لركبك أي ما شاء من التركيب ركبك فيه أو تركيباً شاء ركبك وجوز أن تكون شرطية وشاء فعل الشرط وركبك جزاؤه أي إن شاء تركيبك في أي صورة غير هذه الصورة ركبك فيها والجملة الشرطية في موضع الصفة لصورة والعائد محذوف ولم يجوزوا على هذا الوجه تعلق الظرف بركبك لأن معمول ما في حيز الشرط لا يجوز تقديمه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(69/806)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

الافتتاح بـ ﴿ إذا ﴾ افتتاح مشوِّق لما يرد بعدها من متعلقها الذي هو جواب ما في (إذا) من معنى الشرط كما تقدم في أول سورة إذا الشمس كورت ، سوى أن الجمل المتعاطفة

المضاف إليها هي هنا أقل من اللاتي في سورة التكوير لأن المقام لم يقتض تطويل الإِطناب كما اقتضاه المقام في سورة التكوير وإن كان في كلتيهما مقتض للإِطناب لكنه متفاوت لأن سورة التكوير من أول السور نزولاً كما علمت آنفاً .

وأما سورة الانفطار فبينها وبين سورة التكوير أربع وسبعون سورة تكرر في بعضها إثبات البعث والجزاء والإِنذار وتقرر عند المخاطبين فأغنى عن تطويل الإِطناب والتهويل .

و﴿ إذا ﴾ ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط .

والمعربون يقولون : خافض لشرطه منصوب بجوابه ، وهي عبارة حسنة جامعة .

والقول في الجمل التي أضيف إليها ﴿ إذا ﴾ من كونها جملاً مفتتحة بمسند إليه مخبر عنه بمسند فعلي دون أن يؤتى بالجملة الفعلية ودون تقدير أفعال محذوفة قبل الأسماء ، لقصد الاهتمام بالمسند إليه وتقوية الخبر .

وكذلك القول في تكرير كلمة (إذا) بعد حروف العطف كالقول في جمل ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ [التكوير : 1] .

و﴿ انفطرت ﴾ : مطاوع فطر ، إذا جعل الشيء مفطوراً ، أي مشقوقاً ذا فطور ، وتقدم في سورة الملك .

وهذا الانفطار : انفراج يقع فيما يسمى بالسماء وهو ما يشبه القبة في نظر الرائي يراه تسير فيه الكواكب في أسْمات مضبوطة تسمى بالأفلاك تشاهد بالليل ، ويعرف سمتها في النهار

، ومشاهدتها في صورة متماثلة مع تعاقب القرون تدل على تجانس ما هي مصورة منه فإذا اختلّ ذلك وتخللته أجسام أو عناصر غريبة عن أصل نظامه تفككت تلك الطباق ولاح فيها تشقق فكان علامة على انحلال النظام المتعلق بها كله .

(70/806)

والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضاً في سورة الانشقاق وهو حدث يكون قبل يوم البعث وأنه من أشراط الساعة لأنه يحصل عند إفساد النظام الذي أقام الله عليه حركات الكواكب وحركة الأرض وذلك يقتضيه قرنه بانتثار الكواكب وتفجر البحار وتبعثر القبور .

وأما الكشط الذي تقدم في سورة التكوير (11) في قوله : ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ فذلك عرض آخر يعرض للسماوات يوم الحشر فهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان : 25] .

والانتثار : مطاوع النثر ضد الجمع وضد الضم ، فالنثر هو رمي أشياء على الأرض بتفرق .

وأما التفرق في الهواء فإطلاق النثر عليه مجاز كما في قوله تعالى : ﴿ فجعلناه هباء منثوراً

﴾ [الفرقان : 23] .

فانتثار الكواكب مستعار لتفرق هيئات اجتماعها المعروفة في مواقعها ، أو مستعار لخروجها من دوائر أفلاكها وسموتها فتبدو مضطربة في الفضاء بعد أن كانت تلوح كأنها قارّة ، فانتثارها تبددها وتفرق مجتمعها ، وذلك من آثار اختلال قوة الجاذبية التي أقيم عليها نظام العالم الشمسي .

وتفجير البحار انطلاق مائها من مستواه وفيضانه على ما حولها من الأرضين كما يتفجر ماء العين حين حفرها لِفساد كرة الهواء التي هي ضاغطة على مياه البحار وبذلك التفجير يعمّ الماء على الأرض فيهلك ما عليها ويختل سطحها .

ومعنى : ﴾ بعثرت ﴾ : انقلبَ باطنها ظاهِرَها ، والبعثرة : الانقلاب ، يقال : بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض .

قال في "الكشاف" : "بعثر مركب من البعث مع راء ضُمت إليه" .

وقال البيضاوي قيل : إن بعثر مركب من بعث وراء الإِثارة كبسمل انتهى انتهى . ا هـ ، ونقل مثله عن السهيلي .

وأن بعثر منحوت من بعث وإثارة مثل : بسمل ، وحَوْقل ، فيكون في بعثر معنى فعلين بَعَثَ وأَثَار ، أي أخرج وقلب ، فكأنه قلب لأجل إخراج ما في المقلوب .

والذي اقتصر عليه أئمة اللغة أن معنى بعثر : قلب بَعض شيء على بعضه .

وبعثرة القبور : حالة من حالات الانقلاب الأرضي والخسف خصت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألقت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر من جثث كاملة ورفات ، فإن كان البعث عن عدم كما مال إليه بعض العلماء أو عن تفريق كما رآه بعض آخر ، فإن بعث الأجساد الكاملة يجوز أن يختص بالبعث عن تفريق ويختص بعث الأجساد البالية والرمم بالكون عن عدم .

وجملة : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ جوابٌ لما في ﴿ إذا ﴾ من معنى الشرط ، ويتنازع التعلق به جميع ما ذكر من كلمات ﴿ إذا ﴾ الأربع .

وهذا العلم كناية عن الحساب على ما قدمت النفوس وأخرت .

وعِلم النفوس بما قدمت وأخرت يحصل بعد حصول ما تضمنته جمل الشرط بـ ﴿ إذا ﴾ إذ لا يلزم في ربط المشروط بشرطه أن يكون حصوله مقارناً لحصول شرطه لأنّ الشروط اللغوية أسباب وأمارات وليست عِللاً ، وقد تقدم بيان ذلك في سورة التكوير .

صيغة الماضي في قوله : ﴿ انفطرت ﴾ وما عطف عليه مستعملة في المستقبل تشبيهاً لتحقيق وقوع المستقبل بحصول الشيء في الماضي .

وإثبات العلم للناس بما قدموا وأخروا عند حصول تلك الشروط لعدم الاعتداد بعلمهم بذلك الذي كان في الحياة الدنيا ، فنزل منزلة عدم العلم كما تقدم بيانه في قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ في سورة التكوير (14) .

ونفس ﴾ مراد به العموم على نحو ما تقدم في : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ في سورة التكوير (14) .

وما قدمت وأخرت ﴾ : هو العمل الذي قدمتْه النفس ، أي عملته مقدماً وهو ما عملته في أول العمر ، والعملُ الذي أخرته ، أي عملته مؤخراً أي في آخر مدة الحياة ، أو المراد بالتقديم المبادرة بالعمل ، والمراد بالتأخير مقابله وهو ترك العمل .

والمقصود من هذين تعميم التوقيف على جميع ما عملته ومثله قوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ في سورة لا أقسم بيوم القيامة (13) .

(72/806)

والعلم يتحقق بإدراك ما لم يكن معلوماً من قبل ويتذكر ما نُسي لطول المدة عليه كما تقدم في نظيره في سورة التكوير .

وهذا وعيد بالحساب على جميع أعمال المشركين ، وهم المقصود بالسورة كما يشير إليه

قوله بعد هذا : ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ [الانفطار : 9] ، ووعد للمتقين ، ومختلط لمن عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

استئناف ابتدائي لأن ما قبله بمنزلة المقدمة له لتهيئة السامع لتلقي هذه الموعظة لأن ما سبقه من التهويل والإنذار يهيّىء النفس لقبول الموعظة إذ الموعظة تكون أشدّ تغلغلاً في القلب حينئذ لما يشعر به السامع من انكسار نفسه ورقّة قلبه فيزول عنه طغيان المكابرة والعناد فخطر في النفوس ترقب شيء بعد ذلك .

النداء للتنبيه تنبيهاً يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه فليس النداء مستعملاً في حقيقته إذ ليس مراداً به طلب إقبال ولا هو موجّه لشخص معين أو جماعة معينة بل مثله يجعله المتكلم موجّهاً لكل من يسمعه بقصد أو بغير قصد .

فالتعريف في ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الجنس ، وعلى ذلك حمله جمهور المفسرين ، أي ليس المراد إنساناً معيناً ، وقرينة ذلك سياق الكلام مع قوله عَقِبَه ﴿ بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : 9 ، 10] الآية .

وهذا العموم مراد به الذين أنكروا البعث بدلالة وقوعه عقب الإنذار بحصول البعث ويدل على ذلك قوله بعده : ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ [الانفطار : 9] فالمعنى : يا أيها الإنسان الذي أنكر البعث ولا يكون منكر البعث إلا مشركاً لأن إنكار البعث والشرك مُتلازمان

يومئذ فهو من العامّ المراد به الخصوص بالقرينة أو من الاستغراق العرفي لأن جمهور المخاطبين في ابتداء الدعوة الإِسلامية هم المشركون .

و﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ ما غرك بربك ﴾ استفهامية عن الشيء الذي غرّ المشرك فحمله على الإِشراك بربه وعلى إنكار البعث .

(73/806)

وعن ابن عباس وعطاء : الإِنسان هنا الوليد بن المغيرة ، وعن عكرمة المراد أبيّ بن خلف ، وعن ابن عباس أيضاً : المراد أبو الأشد بن كَلَدَة الجُمحِي ، وعن الكلبي ومقاتل : نزلت في الأسود بن شَرِيق .

والاستفهام مجاز في الإِنكار والتعجيب من الإِشراك بالله ، أي لا موجب للشرك وإنكار البعث إلا أن يكون ذلك غروراً غرّه عنا كناية عن كون الشرك لا يخطر ببال العاقل إلا أن يغره به غار ، فيحتمل أن يكون الغرور موجوداً ويحتمل أن لا يكون غروراً .

والغرور : الإِطماع بما يتوهمه المغرور نفعاً وهو ضرّ ، وفعلُه قد يسند إلى اسم ذات المُطمع حقيقة مثل : ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ [لقمان : 33] أو مجازاً نحو : ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ [الجاثية : 35] فإن الحياة زمان الغرور ، وقد يسند إلى اسم معنى من

المعاني حقيقة نحو : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ [آل عمران : 196] .

وقول امرىء القيس :

أغرَّك مني أن حبك قاتلي

أو مجازاً نحو قوله تعالى : ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام : 112] .

ويتعدى فعله إلى مفعول واحد ، وقد يذكر مع مفعوله اسم ما يتعلق الغرور بشؤونه فيعدى إليه بالباء ، ومعنى الباء فيه الملابسة كما في قوله : ﴿ ولا يغرنكم باللَّه الغرور ﴾ [لقمان : 33] ، أي لا يغرنكم غروراً متلبساً بشأن الله ، أي مصاحباً لشؤون الله مصاحبة مجازية وليست هي بَاء السببية كما يقال : غره ببذل المال ، أو غرّه بالقول .

وإذ كانت الملابسة لا تتصوّر ماهيتها مع الذوات فقد تعين في باء الملابسة إذا دخلت على اسم ذات أن يكون معها تقدير شأن من شؤون الذات يفهم من المقام ، فالمعنى هنا : ما غرك بالإِشراك بربك كما يدل عليه قوله : ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ الآية فإن منكر البعث يومئذ لا يكون إلاّ مشركاً .

(74/806)

وإيثار تعريف الله بوصف "ربك" دون ذكر اسم الجلالة لما في معنى الرب من الملك والإِنشاء والرفق ، ففيه تذكير للإِنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه فهو تعريض بالتوبيخ .

وكذلك إجراء وصف الكريم دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة .

والوصف الثالث الذي تضمنته الصلة : ﴿ فعَدَّلك في أيّ صورة ﴾ جامع لكثير مما يؤذن به الوصفان الأولان فإن الخلق والتسوية والتعديل وتحسين الصورة من الرفق بالمخلوق ، وهي نعم عليه وجميع ذلك تعريض بالتوبيخ على كفران نعمته بعبادة غيره .

وذكر عن صالح بن مسمار قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فقال : "غره جهله" ، ولم يذكر سنداً .

وتعداد الصلات وإن كان بعضها قد يغني عن ذكر البعض فإن التسوية حالة من حالات الخلق ، وقد يغني ذكرها عن ذكر الخلق كقوله : ﴿ فسواهن سبع سماوات ﴾ [البقرة : 29] ولكن قُصد إظهار مراتب النعمة .

وهذا من الإِطناب المقصود به التذكير بكل صلة والتوقيف عَليها بخصوصها ، ومن مقتضيات الإِطناب مقام التوبيخ .

والخَلق : الإِيجاد على مقدار مقصود .

والتسْوية : جعل الشيء سويّاً ، أي قويماً سليماً ، ومن التسوية جعل قواه ومنافعه الذاتية متعادلة غير متفاوتة في آثار قيامها بوظائفها بحيث إذا اختل بعضها تطرق الخلل إلى البقية فنشأ نقص في الإِدراك أو الإِحساس أو نشأ انحراف المزاج أو ألم فيه ، فالتسوية جامعة لهذا المعنى العظيم .

والتعديل : التناسب بين أجزاء البدن مثل تناسب اليدين ، والرجلين ، والعينين ، وصورة الوجه ، فلا تفاوت بين متزاوجها ، ولا بشاعة في مجموعها .

وجعَله مستقيم القامة ، فلو كانت إحدى اليدين في الجنب ، والأخرى في الظهر لاختلّ عملهما ، ولو جعل العينان في الخلف لانعدمت الاستفادة من النظر حال المشي ، وكذلك مواضع الأعضاء الباطنة من الحَلق والمعدة والكبد والطحال والكليتين .

(75/806)

وموضع الرئتين والقلب وموضع الدماغ والنخاع .

وخلق الله جسد الإِنسان مقسمةً أعضاؤه وجوارحه على جهتين لا تفاوت بين جهة وأخرى منهما وجعل في كل جهة مثل ما في الأخرى من الأوردة والأعصاب والشرايين .

وفرع فعل "سواك" على ﴿ خلقك ﴾ وفِعل "عدّلك" على "سوّاك" تفريعاً في الذكر نظراً

إلى كون معانيها مترتبة في اعتبار المعتبر وإن كان جميعاً حاصلاً في وقت واحد إذ هي أطوار التكوين من حين كونه مضغة إلى تمام خلقه فكان للفاء في عطفها أحسن وقع كما في قوله تعالى:

﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾ [الأعلى: 2، 3].

وقرأ الجمهور: ﴿ فعدّلك ﴾ بتشديد الدال.

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الدال، وهما متقاربان إلا أن التشديد يدل على المبالغة في العدل، أي التسوية فيفيد إتقان الصنع.

وقوله: ﴿ في أي صورة ﴾ اعلم أن أصل ﴿ أي ﴾ أنها للاستفهام عن تمييز شيء عن مشاركيه في حاله كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ في سورة عبس (18) وقوله تعالى: ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ [الأعراف: 185].

والاستفهام بها كثيراً ما يراد به الكناية عن التعجب أو التعجيب من شأن ما أضيفت إليه ﴿ أيّ ﴾ لأن الشيء إذا بلغ من الكمال والعظمة مبلغاً قوياً يُتساءل عنه ويُستفهم عن شأنه، ومن هنا نشأ معنى دلالة ﴿ أيّ ﴾ على الكمال، وإنما تحقيقه أنه معنى كنائي كثر استعماله في كلامهم، وإنما هي الاستفهامية، و ﴿ أيّ ﴾ هذه تقع في المعنى وصفاً لنكرة إمّا نعتاً نحو: هو رجل أيُّ رجل، وإما مضافة إلى نكرة كما في هذه الآية، فيجوز أن يتعلق قوله: ﴿ في أي صورة ﴾ بأفعال خلقَك، فسوّاك، فعدّلك" فيكون الوقف على

﴿ في أي صورة ﴾ .

ويجوز أن يتعلق بقوله ﴿ ركبك ﴾ فيكون الوقف على قوله ﴿ فعدلك ﴾ ويكون قوله ﴿ ما شاء ﴾ معترضاً بين ﴿ في أي صورة ﴾ وبين ﴿ ركَّبَك ﴾ .

والمعنى على الوجهين : في صورة أيّ صورة ، أي في صورة كاملة بديعة .

(76/806)

وجملة ﴿ ما شاء ركبك ﴾ بيان لجملة ﴿ عدَّلك ﴾ باعتبار كون جملة ﴿ عدّلك ﴾ مفرعة عن جملة ﴿ فسوَّاك ﴾ المفرغة عن جملة ﴿ خلقك ﴾ فبيانها بيان لهما .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية التي هي بمعنى الملابسة ، أي خلقك فسوّاك فعدلك ملابساً صورة عجيبة فمحل ﴿ في أي صورة ﴾ محل الحال من كاف الخطاب وعامل الحال ﴿ عدّلك ﴾ ، أو ﴿ ركّبك ﴾ ، فجعلت الصورة العجيبة كالظرف للمصوّر بها للدلالة على تمكنها من موصوفها .

و﴿ ما ﴾ يجوز أن تكون موصولة مَا صدقُها تركيب ، وهي في موضع نصب على المفعولية المطلقة و﴿ شاء ﴾ صلة ﴿ ما ﴾ والعائد محذوف تقديره : شاءه .

والمعنى : ركّبك التركيب الذي شاءه قال تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف

يشاء ﴾ [آل عمران : 6] .

وعُدل عن التصريح بمصدر ﴿ ركّبك ﴾ إلى إبهامه بـ ﴿ ما ﴾ الموصولة للدلالة على تفخيم الموصول بما في صلته من المشيئة المسندة إلى ضمير الرب الخالق المبدع الحكيم وناهيك بها .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ شاء ﴾ صفة ل ﴿ صورة ﴾ ، والرابط محذوف و ﴿ ما ﴾ مزيدة للتأكيد ، والتقدير : في صورة عظيمة شاءها مشيئةً معينة ، أي عن تدبير وتقدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(77/806)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كرم)

الكَرَم ضدّ اللُّؤم .

كَرُمَ – بالضمّ – كَرَامة وكَرَما وكَرَمة – محرّكتين – فهو كَرِيم وكرِيمة وكِرْمة – بالكسر – ومَكْرُم ومَكْرُمة وكُرَام وكُرّام وكُرّامة ، والجمع : كُرماءُ وكِرَام وكرائم .

وجمع الكُرَّام : كُرَّامون .

ورجل كَرَم – محركة – أَى كريم ، يستوى فيه الواحد والجمع .

ويا مَكْرُمان للكريم الواسع الخُلُق .

وأَكرمه وكرّمه : عظَّمه ونزَّهه .

واختلفوا فى معنى الكريم على ثلاثين قولاً ذكرناها فى غير هذا الموضوع .

والكَرَم إذا وُصف الله به فهو اسم لإِحسانه وإِنعامه ، وإِذا وُصف به الإِنسان فهو اسم للأَخلاق والأَفعال المحمودة / الَّتى تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتَّى يَظهر منه ذلك .

قال بعض العلماءِ : الكرم كالحُرِّية إِلاَّ أَنَّ الحرِّية قد تقال فى المحاسن الصَّغيرة والكبيرة ، والكرم لا يقال إِلاَّ فى الكبيرة ؛ كإِنفاق مال فى تجهيز جيش الغُزَاة ، وتحمّل حَمَال ترقأ بها دماء قوم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ إِنما كان كذلك لأَنَّ الكرم الأَفعال المحمودة ، وأَكرمها ما يقصد به أَشرف الوجوه ، وأَشرف الوجوه ما يقصد به وجه الله ، فمَن قصد بها ذلك فهو التَّقىّ .

فإِذاً أَكرم النَّاس أَتقاهم .

وكل شىء يَشرف فى بابه وُصف بالكريم ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وأَرض مَكْرُمة وكَرَمٌ وكريمة : طيّبة .

والكريمان : الحجّ والجهاد .

والإِكرام والتكريم : أَن يوصل إِلى الإِنسان نفع لا تلحقه فيه غضاضة ، أَو يوصف إِليه شيء شريف .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ، أَى جعلهم كراماً .

قال الشاعر :

*إِذا ما أَهان امرؤ نفسَه * فلا أَكرم الله مَنْ أَكْرَمَهْ*

وقيل ، وردت هذه المادَّة فى القرآن على اثنى عشر وجها :

(78/806)

1- بمعنى الأَشرف والأَفضل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

2- بمعنى العزيز العظيم : ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

3- بمعنى المزيَّن المحسَّن : ﴿ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ ، ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ، أَى حسن .

4- بمعنى العجيب الغريب : ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

5- بمعنى المنظوم المعجز : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ، أَى معجز فى النظم .

6- بمعنى الذليل المَهين على سبيل التهكم : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ، أَى الذليل المهين .

7- بمعنى جبريل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

8- بمعنى ملائكة الملكوت : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

9- بمعنى الملائكة الموكَّلين ببنى آدم : ﴿ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ .

10- بمعنى بنى آدم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ .

11- بمعنى يوسف الصِّديق : ﴿ إِنْ هَذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وفى الحديث الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إِسحاق ابن إِبراهيم" .

12- بمعنى العظيم الغفار التوَّاب : ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ ، ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 243. 245 ﴾

(79/806)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن الذي يعلم يوم القيامة ما قدم وما أخر نفس واحدة وقد جاءت آيات أخر تدل على أن كل نفس تعلم ما قدمت وأخرت كقوله: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ وقوله: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ - إلى غير ذلك من الآيات

والجواب - أن المراد بقوله نفس كل نفس والنكرة وإن كانت لا تعم إلا في سياق النفي أو الشرط أو الامتنان كما تقرر في الأصول ، فإن التحقيق إنها ربما أفادت العموم بقرينة السياق من غير نفي أو شرط أو امتنان كقوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ في التكوير والانفطار وقوله أن مثل نفس وقوله أن تقول نفس يا حسرتي والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 311 ﴾

(80/806)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أوضح سبحانه غاية الإيضاح الدليل على قدرته على الإعادة بالابتداء ، وبين تعالى أنه ما أوجب للإنسان ، الخسار بنسيان هذا الدليل الدال على تلك الدار إلا الاغترار ، وكان الاغترار يطلق على أدنى المعنى ، بين أنه ارتقى به الذروة فقال : ﴿ كلا ﴾ أي ما أوقعكم أيها الناس في الإعراض عمن يجب الإقبال عليه ويقبح غاية القباحة الإعراض بوجه عنه مطلق الغرور ﴿ بل ﴾ أعظمه وهو أنكم ﴿ تكذبون ﴾ أي على سبيل التجديد بتحدد إقامة الأدلة القاطعة وقيام البراهين الساطعة ﴿ بالدين ﴾ أي الجزاء الذي وظفه الله في يوم البعث ، فارجعوا عن الغرور مطلقاً خاصاً وعاماً ، وارتدعوا غاية الارتداع ﴿ وإنّ ﴾ أي والحال أن ﴿ عليكم ﴾ أي ممن أقمناهم من جندنا من الملائكة ﴿ لحافظين ﴾ لهم على أعمالكم غاية العلو فهم بحيث لا يخفى عليهم منها جليل ولا حقير .

ولما أثبت لهم الحفظ ، نزههم عن الزيادة والنقص فقال : ﴿ كراماً ﴾ أي فهم في غاية ما يكونون من طهارة الأخلاق والعفة والأمانة .

ولما ثبت الحفظ والأمانة بغاية الإبانة ، وكان الحافظ ربما ينسى قال : ﴿ كاتبين ﴾ أي هم

راسخون في وصف الكتابة يكتبونها في الصحف كما يكتب الشهود بينكم العهود ليقع الجزاء على غاية التحرير .

(81/806)

ولما أفهم الاستعلاء والتعبير بالوصف إحاطة الاطلاع على ما يبرز من الأعمال ، صرح به فقال : ﴿ يعلمون ﴾ أي على التجدد والاستمرار ﴿ ما تفعلون ﴾ أي تجددون فعله من خير وشر بالعزم الثابت والداعية الصادقة سواء كان مبنياً على علم أو لا ، فكيف يكون مع هذا تكذيب بالجزاء على النقير والقطمير هل يكون إحصاء مثاقيل الذر من أعمالكم عبثاً وهل علمتم بملك يكون له رعية يتركهم هملاً فلا يحاسبهم على ما في أيديهم وما عملوه ، ولأجل تكذيبهم بالدين أكد المعنى المستلزم له وهو أمر الحفظة غاية التأكيد ، والتعبير بالمستقبل يدل على أنهم يعلمون كل ما انقدح في القلب وخطر في الخاطر قبل أن يفعل ، وأما ما لم يجر في النفس له ذكر فلا يعلمونه كما بينه حديث :

" ومن هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 350 . 351 ﴾

(82/806)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين بالدلائل العقلية على صحة القول بالبعث والنشور على الجملة ، فرع عليها شرح تفاصيل الأحوال المتعلقة بذلك ، وهو أنواع :

النوع الأول : أنه سبحانه زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ و ﴿ بَلِ ﴾ حرف وضع في اللغة لنفي شيء قد تقدم وتحقق غيره ، فلا جرم ذكروا في تفسير ﴿ كَلاَّ ﴾ وجوهاً الأول : قال القاضي : معناه أنكم لا تستقيمون على توجيه نعمي عليكم وإرشادي لكم ، بل تكذبون بيوم الدين الثاني : كلا أي ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله ، ثم كأنه قال : وإنكم لا ترتدعون عن ذلك بل تكذبون بالدين أصلاً الثالث : قال القفال : كلا أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور ، لأن ذلك يوجب أن الله تعالى خلق الخلق عبثاً وسدى ، وحاشاه من ذلك ، ثم كأنه قال : وإنكم لا تنتفعون بهذا البيان بل تكذبون ، وفي قوله : ﴿ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ وجهان الأول : أن يكون المراد من الدين الإسلام ، والمعنى أنكم تكذبون بالجزاء على الدين والإسلام الثاني : أن يكون المراد من الدين الحساب ، والمعنى أنكم تكذبون بيوم الحساب .

النوع الثاني : قوله تعالى :

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)

والمعنى التعجب من حالهم ، كأنه سبحانه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 17 18] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : 61] ثم ههنا مباحث :

(83/806)

الأول : من الناس من طعن في حضور الكرام الكاتبين من وجوه : أحدها : أن هؤلاء الملائكة ، إما أن يكونوا مركبين من الأجسام اللطيفة كالهواء والنسيم والنار ، أو من الأجسام الغليظة ، فإن كان الأول لزم أن تنتقض بنيتهم بأدنى سبب من هبوب الرياح الشديدة وإمرار اليد والكم والسوط في الهواء ، وإن كان الثاني وجب أن نراهم إذ لو جاز أن يكونوا حاضرين ولا نراهم ، لجاز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار وفيلات وبوقات ، ونحن لا نراها ولا نسمعها وذلك دخول في التجاهل ، وكذا القول في إنكار صحائفهم

وذواتهم وقلمهم وثانيها : أن هذا الاستكتاب إن كان خالياً عن الفوائد فهو عبث وذلك غير جائز على الله تعالى ، وإن كان فيه فائدة فتلك الفائدة ، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد والأول : محال لأنه متعال عن النفع والضر ، وبهذا يظهر بطلان قول من يقول : إنه تعالى إنما استكتبها خوفاً من النسيان الغلط والثاني : أيضاً محال ، لأن أقصى ما في الباب أن يقال : فائدة هذا الاستكتاب أن يكونوا شهوداً على الناس وحجة عليهم يوم القيامة إلا أن هذه الفائدة ضعيفة ، لأن الإنسان الذي علم أن الله تعالى لا يجور ولا يظلم ، لا يحتاج في حقه إلى إثبات هذه الحجة ، والذي لا يعلم ذلك لا ينتفع بهذه الحجة لاحتمال أنه تعالى أمرهم بأن يكتبوا تلك الأشياء عليه ظلماً وثالثها : أن أفعال القلوب غير مرئية ولا محسوسة فتكون هي من باب المغيبات ، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى على ما قال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] وإذا لم تكن هذه الأفعال معلومة للملائكة استحال أن يكتبوها والآية تقضي أن يكونوا كاتبين علينا كل ما نفعله ، سواء كان ذلك من أفعال القلوب أم لا ؟ والجواب : عن الأول : أن هذه الشبهة لا تزال إلا على مذهبنا بناء على أصلين أحدهما : أن البنية ليست شرطاً للحياة عندنا والثاني : أي عند سلامة الحاسة

وحضور المرئي وحصول سائر الشرائط لا يجب الإدراك ، فعلى الأصل الأول يجوز أن تكون الملائكة أجراماً لطيفة تتمزق وتتفرق ولكن تبقى حياتها مع ذلك ، وعلى الأصل الثاني يجوز أن يكونوا أجساماً كثيفة لكنا لا نراها والجواب : عن الثاني أن الله تعالى إنما أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم ، ولما كان الأبلغ عندهم في المحاسبة إخراج كتاب بشهود خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة ، فيخرج لهم كتب منشورة ، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره ، فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خلفته وفعلت كذا وكذا ، فكذا ههنا والله أعلم بحقيقة ذلك الجواب : عن الثالث أن غاية ما في الباب تخصيص هذا العموم بأفعال الجوارح ، وذلك غير ممتنع .

البحث الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ وإن كان خطاب مشافهة إلا أن الأمة مجمعة على أن هذا الحكم عام في حق كل المكلفين ، ثم ههنا احتمالان :

أحدهما : أن يكون هناك جمع من الحافظين ، وذلك الجمع يكونون حافظين لجميع بني آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم .

وثانيهما : أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخرة ، ثم يحتمل أن يكون الموكل

بكل واحد من بني آدم واحداً من الملائكة لأنه تعالى قابل الجمع بالجمع ، وذلك يقتضي مقابلة الفرد بالفرد ، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة كما قيل : اثنان بالليل ، وإثنان بالنهار ، أو كما قيل : إنهم خمسة .

(85/806)

البحث الثالث : أنه تعالى وصف هؤلاء الملائكة بصفات أولها : كونهم حافظين وثانيها : كونهم كراماً وثالثها : كونهم كاتبين ورابعها : كونهم يعلمون ما تفعلون ، وفيه وجهان أحدهما : أنهم يعلمون تلك الأفعال حتى يمكنهم أن يكتبوها ، وهذا تنبيه على أن الإنسان لا يجوز له الشهادة إلا بعد العلم والثاني : أنهم يكتبونها حتى يكونوا عالمين بها عند أداء الشهادة .

واعلم أن وصف الله إياهم بهذه الصفات الخمسة يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظم شأنهم ، وفي تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء ، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ، هؤلاء العظماء الأكابر ، قال أبو عثمان : من يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه ، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 75 . 77 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾

يجوز أن تكون "كَلاَّ" بمعنى حقًّا و "ألاَ" فيبتدأ بها .

ويجوز أن تكون بمعنى "لا" ، على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقُّون .

يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ وكذلك يقول الفراء : يصير المعنى : ليس كما غُررت به .

وقيل : أي ليس الأمر كما تقولون ، من أنه لا بعث .

وقيل : هو بمعنى الردع والزجر .

أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه ، فتتركوا التفكر في آياته .

ابن الأنباريّ : الوقف الجيّد على "الدينِ" ، وعلى "ركبك" ، والوقف على "كَلاّ" قبيح .

﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ ﴾ يأهل مكة ﴿ بالدين ﴾ أي بالحساب ، و "بل" لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره .

وإنكارهم للبعث كان معلوماً ، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾

أي رُقباء من الملائكة ﴿ كِرَاماً ﴾ أي عليّ ؛ كقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ وهنا ثلاث مسائل :

الأولى رُوِي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكرِمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الخِرَاءة أو الجماع ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم (حائط) أو بغيره ، أو ليستره أخوه " ورُوي عن عليّ رضي الله عنه قال : لا يزال المَلَكَ مولياً عن العبد ما دام باديَ العورة .

ورُوِي .

" إن العبد إذا دخل الحمام بغير مِئزر لعنه ملكاه " .

الثانية واختلف الناس في الكُفّار هل عليهم حفَظَة أم لا ؟ فقال بعضهم : لا ؛ لأن أمرهم ظاهر ، وعملهم واحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الرحمن : 41] .

وقيل : بل عليهم حفظة ؛ لقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة : 25] وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ [الانشقاق : 10] ، فأخبر أن الكفار يكون لهم كُتّاب ، ويكون عليهم حفَظَة .

فإن قيل : الذي على يمينه أيَّ شيء يكتب ولا حسنة له ؟ قيل له : الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه ، ويكون شاهداً على ذلك وإن لم يكتب .

والله أعلم .

الثالثة سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبدَ قد هم بحسنة أو سيئة ؟ قال : إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النَّتْن .

وقد مضى في "ق" عند قوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] زيادة بيان لمعنى هذه الآية .

وقد كره العلماء الكلام عند الغائط والجماع ، لمفارقة الملك العبد عند ذلك .

وقد مضى في آخر "آلِ عِمران" القول في هذا .

وعن الحسن : يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم .

وقيل : يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدّثتم به أنفسكم .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾

أي انشقتْ لنزول الملائكةِ ، كقولِه تعالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السماء فَكَانَتْ أبوابا ﴾ والكلامُ في ارتفاع السماءِ كما مرَّ في ارتفاعِ الشمسِ ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطتْ متفرقةً ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ فُتحَ بعضُها إلى بعضٍ فاختلطَ العذبُ بالأُجاجِ وزالَ ما بينهما من البرزخ الحاجزِ وصارتِ البحارُ بَحْراً واحِداً ورُوِيَ أن الأرضَ تنشفُ الماءَ بعد امتلاءِ البحارِ فتصيرُ مستويةً وهو مَعْنى التسجيرِ عند الحسنِ رضيَ الله عنه ، وقيلَ : إنَّ مياه البحارِ الآنَ راكدةٌ مجتمعةٌ فإذَا فجرتْ تفرقتْ وذهبتْ وقُرِىءَ فُجِرَتْ بالتخفيفِ مبنياً للمفعولِ وَمبنياً للفاعلِ أيضاً بمْعَنى بغتْ من الفجورِ نظراً إلى قولِه تعالى ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ أي قُلبَ ترابُها وأُخرجَ موتاهَا ونظيرُه بَحْثر لفظاً ومَعْنى وهُما مركبانِ من البعثِ والبحثِ مع راءٍ ضُمَّتْ إليهمَا . وقولُه تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ جوابُ إذا لكنْ لاَ على أنَّها تعلمُه عندَ البعثِ بل عند نشرِ الصحفِ لما عرفتَ من أنَّ

المرادَ بها زمانٌ واحدٌ مبدؤُه النفخةُ الأُولى ومنتهاهُ الفصلُ بينَ الخلائقِ لا أزمنةٌ حسب تعددِ كلمةِ إذَا وإنما كُررتْ لتهويلِ ما في حيزهَا من الدَّواهِي ، والكلامُ فيهَا كالذي مرَّ تفصيلُه في نظيرِهما ومَعْنى ما قَدَّم وأخَّر ما أسلفَ من عملِ خيرٍ أو شرَ وأخَّر من سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ يُعملُ بها بعدَهُ قالَه ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ ، وعن ابن عباسٍ أيضاً ما قدمَ منْ معصيةٍ وأخَّر من طاعةٍ وهو قولُ قتادةٍ وقيلَ : ما قدمَ من أمواله لنفسه وما أخَّر لورثته ، وقبل ما قدَّم من فرض وأخَّر من فرض ، وقيل : أولُ عملِه وآخرُهُ ومعنى علمِها بهما علمُها التفصيليُّ حسبما ذُكِرَ

(89/806)

فيَما مرَّ مراراً .

﴿ يا أيها الإنسان مَا غرَّكَ بربِّكَ الكريم ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ خدعكَ وجرَّأكَ على عصيانِه وقد علمتَ ما بينَ يديكَ من الدواهِي التامَّةِ والعراقيلِ الطَّامة وما سيكونُ حينئذٍ من مُشاهدةِ أعمالِك كُلِّها . والتعرضُ لعنوانِ كرمِه تعالَى للإيذانِ بأنَّه ليسَ مما يصلُح أن يكونَ مداراً لاغترارِه حسبَما يغويهِ الشيطانُ ويقولُ له افعلْ ما شئتْ فإنَّ ربكَ كريمٌ قد تفضلَ عليكَ في الدُّنيا وسيفعلُ مثلَه في الآخرةِ فإنَّه قياسٌ عقيمٌ وتمنيةٌ باطلةٌ بل هُو ممَّا يوجبُ

المبالغةَ في الإقبالِ على الإيمانِ والطاعةِ والاجتنابِ عن الكفرِ والعصيانِ كأنَّه قيلَ : ما حملكَ على عصيانِ ربّكَ الموصوفِ بالصفاتِ الزاجرةِ عنهُ الداعيةِ إلى خلافِه . وقولُه تعالى ﴿ الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ صفةٌ ثانيةٌ مقررةٌ للربوبيةِ مبيِّنة للكرم منبهةٌ على أنَّ منْ قدرَ على ذلكَ بدءاً قدرَ عليه إعادةً ، والتسويةُ جعلُ الأعضاءِ سليمةً سويةً مُعدةً لمنافعها وعدلها عدلَ بعضِها ببعضٍ بحيثُ اعتدلتْ ولَم تتفاوتْ أو صَرْفُها عن خِلْقةٍ غيرِ ملائمةٍ لها . وقُرِىءَ فعدّلكَ بالتشديدِ أيْ صيَّركَ مُعتدلاً متناسبَ الخلقِ من غير تفاوتٍ فيه ﴿ في اي صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾ أي ركبكَ في أيِّ صورةٍ شاءَهَا من الصور المختلفةِ ومَا مزيدةٌ وشاءَ صفةٌ لصورةٍ أي ركبكَ في أيِّ صورةٍ شاءَها واختارَها لكَ من الصورِ العجيبةِ الحسنةِ كقولِه تعالَى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وإنما لَمْ يعطفْ الجملةَ على ما قبلَها لأنها بيانٌ لعدلكَ .

(90/806)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ عن الاغترارِ بكرمِ الله تعالَى وجعلِه ذريعةً إلى الكفرِ والمعاصِي مع كونِه موجباً للشكرِ والطاعةِ وقولُه تعالى : ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ إضرابٌ عن جملةٍ مقدرةٍ ينساقُ إليها الكلامُ كأنَّه قيلَ بعد الردعِ بطريقِ الاعتراضِ وأنتم لا ترتدعونَ عن ذلكَ بل

تجترئونَ على أعظمِ من ذلكَ حيثُ تكذبونَ بالجزاءِ والبعثِ رأساً أو بدينِ الإسلامِ الذي هُما من جملةِ أحكامِه فلا تصدقونَ سؤالاً ولا جواباً ولا ثواباً ولا عقاباً وقيلَ : كأنه قيل إنكُم لا تستقيمونَ على ما توجبُه نِعَمِي عليكُم وإرشادِي لكُم بل تكذبونَ الخ وقال القفالُ : ليسَ الأمرُ كما تقولونَ من أنَّه لا بعثَ ولا نشورَ ثم قيلَ : أنتُم لا تتبينونَ بهذا البيانِ بل تكذبونَ بيومِ الدينِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ حالٌ من فاعلِ تكذبونَ مفيدةٌ لبطلانِ تكذيبِهم وتحققِ ما يكذبونَ بهِ أي تكذبونَ بالجزاءِ والحالُ أنَّ عليكُم من قبلِنا لحافظينَ لأعمالِكم .

﴿ كِراماً ﴾ لدينَا ﴿ كاتبين ﴾ لَها ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من الأفعالِ قليلاً وكثيراً ويضبطونَهُ نَقيراً وقِطْميراً لتجازوا بذلكَ وفي تعظيمِ الكاتبينِ بالثناءِ عليهم تفخيمٌ لأمرِ الجزاءِ وأنه عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ من جلائلِ الأمورِ حيثُ يستعملُ فيه هؤلاءِ الكرامَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 9 صـ ﴾

(91/806)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى وجعله ذريعة إلى الكفر والمعاصي مع كونه

موجباً للشكر والطاعة وقوله تعالى : ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ إضراب عن جملة مقدرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجترؤن على أعظم منه حيث تكذبون بالجزاء والبعث رأساً أو بدين الإسلام اللذين هما من جملة أحكامه فلا تصدقون سؤالاً ولا جواباً ولا ثواباً ولا عقاباً وفيه ترق من الأهون إلا الأغلظ وعن الراغب بل هنا لتصحيح الثاني وإبطال الأول كأنه قيل ليس هنا مقتضى لغروركم ولكن تكذيبهم حملهم على ما ارتكبوه وقيل تقدير الكلام أنكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمي عليكم وإرشادي لكم بل تكذبون الخ وقيل إن كلاً ردع عما دل عليه هذه الجملة من نفيهم البعث وبل إضراب عن مقدر كأنه قيل ليس الأمر كما تزعمون من نفي البعث والنشور ثم قيل لا تتبينون بهذا البيان بل تكذبون الخ وأدغم خارجة عن نافع ركبك كلا كأبي عمرو في إدغامه الكبير وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو بشر يكذبون بياء الغيبة وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ حال من فاعل ﴿ تكذبون ﴾ مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقيق ما يكذبون به من الجزاء على لوجهين في الدين أي تكذبون بالجزاء والحال إن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم .

﴿ كِراماً ﴾ لدينا ﴿ كاتبين ﴾ لها .

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من الأفعال قليلاً كان أو كثيراً ويضبطونه نقيراً أو قطميراً وليس ذلك للجزاء وإقامة الحجة وإلا لكان عبثاً ينزه عنه الحكيم العليم وقيل جيء بهذه الحال استبعاد للتكذيب معها وليس بذاك وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيم لأمر الجزاء وأنه عند الله عز وجل من جلائل الأمور حيث استعمل سحبانه فيه هؤلاء الكرام لديه تعالى ثم إن هؤلاء الحافظين غير المعقبات في قوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد : 11] فمع الإنسان عدة ملائكة روى عن عثمان أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم كم من ملك على الإنسان فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين ملكاً قال المهدوي في الفيصل وقيل إن كل آدمي يوكل به من حين وقوعه نطفة في الرحم إلى موته أربعمائة ملك ومن يكتب الأعمال ملكان كاتب الحسنات وهو في المشهور على العاتق الأيمن وكاتب ما سواها وهو على العاتق الأيسر والأول أمين على الثاني فلا يمكنه من كتابة السيئة الأبعد مضى ست ساعات من غير مكفر لها ويكتبان كل شيء حتى الاعتقاد والعزم والتقرير وحتى الأنين في المرض وكذا يكتبان حسنات الصبي على الصحيح ويفارقان المكلف عند الجماع ولا يدخلان مع العبد الخلاء وأخرج البزار عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى

ثلاث حاجات الغائط والجنابة والغسل " ولا يمنع ذلك من كتبهما ما يصدر عنه ويجعل الله تعالى لهما أمارة على الاعتقاد القلبي ونحوه ويلزمان العبد إلى مماته فيقومان على قبره يسبحان ويهللان ويكبران ويكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة إن كان مؤمناً ويلعنانه إلى يوم القيامة إن كان كافراً واستظهر بعضهم أنهما اثنان بالشخص وقيل بالنوع وقيل كاتب الحسنات يتغير دون كاتب

(93/806)

السيئات ونصوا على أن المجنون لا حفظة عليه وورد في بعض الآثار ما يدل على أن بعض الحسنات ما يكتبها غير هذين الملكين والظواهر تدل على أن الكتب حقيقي وعلم الآلة وما يكتب فيه مفوض إلى الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(94/806)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) ﴾

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عما هو غرور بالله أو بالغرور مما تضمنه قوله : ﴿ ما غرك بربك ﴾ [الانفطار : 6] من حصور ما يغرّ الإِنسان بالشرك ومن إغْراضه عن نعم الله تعالى بالكفر ، أو من كون حالة المشرك كحالة المغرور كما تقدم من الوجهين في الإِنكار المستفاد من قوله : ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ .

والمعنى : إشراكك بخالقك باطل وهو غُرور ، أو كالغرور .

ويكون قوله بعده : ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ إضراباً انتقالياً من غرض التوبيخ والزجر على الكفر إلى ذكر جرم فظيع آخر ، وهو التكذيب بالبعث والجزاء ويشمله التوبيخ بالزجر بسبب أنه معطوف على توبيخ وجزر لأن ﴿ بل ﴾ لا تخرج عن معنى العطف أي العطف في الغرض لا في نسبة الحكم .

ولذلك يتبع المعطوف بها المفرد في إعراب المعطوف عليه فيقول النحويون : إنها تُتْبَع في اللفظ لا في الحكم ، أي هو اتباعُ مناسبة في الغرض لا اتباعٌ في النسبة .

ويجوز أن يكون ﴿ كلاّ ﴾ إبطالاً لوجود ما يغرّ الإِنسان أن يشرك بالله ، أي لا عذر للإِنسان في الإِشراك بالله إذ لا يوجد ما يغرّه به .

ويكون قوله : ﴿ بل تكذبون ﴾ إضراباً إبطالياً ، وما بعد ﴿ بل ﴾ بياناً لِما جرّأهم على الإِشراك وأنه ليس غروراً إذ لا شبهة لهم في الإِشراك حتى تكون الشبهة كالغرور ، ولكنهم أصروا على الإِشراك لأنهم حسبوا أنفسهم في مأمن من تبعته فاختاروا الاستمرار عليه

لأنه هوى أنفسهم ، ولم يعبأوا بأنه باطل صُراح فهم يكذبون بالجزاء فذلك سبب تصميم جميعهم على الشرك مع تفاوت مداركهم التي لا يخفى على بعضِها بطلانُ كون الحجارة آلهة ، ألا ترى أنهم ما كانوا يرون العذاب إلا عذاب الدنيا .

(95/806)

وعلى هذا الوجه يكون فيه إشارة إلى أن إنكار البعث هو جُماع الإِجرام ، ونظير هذا الوجه وقع في قوله تعالى : ﴿ فما لهم لا يؤمنون وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون بل الذين كفروا يكذبون ﴾ في سورة الانشقاق (20 ، 22) .

وقرأ الجمهور : تكذبون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأه أبو جعفر بياء الغيبة على الالتفات .

وفي صيغة المضارع من قوله : ﴿ تكذبون بالدين ﴾ إفادة أن تكذيبهم بالجزاء متجدد لا يقلعون عنه ، وهو سبب استمرار كفرهم .

وفي المضارع أيضاً استحضار حالة هذا التكذيب استحضاراً يقتضي التعجيب من تكذيبهم لأن معهم من الدلائل ما لحقه أن يقلع تكذيبهم بالجزاء .

والدين : الجزاء .

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10)

عطف على جملة ﴿ تكذبون بالدين ﴾ [الانفطار : 9] تأكيداً لثبوت الجزاء على الأعمال .

وأكد الكلام بحرف ﴿ إنَّ ﴾ ولام الابتداء ، لأنهم ينكرون ذلك إنكاراً قويّاً .

و ﴿ لحافظين ﴾ صفة لمحذوف تقديره : لملائكة حافظين ، أي مُحْصين غير مضيعين لشيء من أعمالكم .

وجمع الملائكة باعتبار التوزيع على الناس : وإنما لكل أحد ملكان قال تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : 17 ، 18] ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن لكل أحد ملكين يحفظان أعماله " وهذا بصريح معناه يفيد أيضاً كفاية عن وقوع الجزاء إذ لولا الجزاء على الأعمال لكان الاعتناء بإحصائها عبثاً .

وأجري على الملائكة الموكّلين بإحصاء أعمالهم أربعةُ أوصاف هي : الحفظ ، والكرم ، والكتابة ، والعلم بما يعلمه الناس .

وابتدىء منها بوصف الحفظ لأنه الغرض الذي سبق لأجله الكلام الذي هو إثبات الجزاء على جميع الأعمال ، ثم ذكرت بعده صفات ثلاث بها كمال الحفظ والإِحصاء وفيها تنويهٌ بشأن الملائكة الحافظين .

فأما الحفظ : فهو هنا بمعنى الرعاية والمراقبة ، وهو بهذا المعنى يتعدى إلى المعمول بحرف الجر ، وهو (على) لتضمنه معنى المراقبة .

والحفيظ : الرقيب ، قال تعالى : ﴿ اللَّه حفيظ عليهم ﴾ [الشورى : 6] .

وهذا الاستعمال هو غير استعمال الحفظ المعدّى إلى المفعول بنفسه فإنه بمعنى الحراسة نحو قوله : ﴿ يحفظونه من أمر اللَّه ﴾ [الرعد : 11] .

فالحفظ بهذا الإِطلاق يجمع معنى الرعاية والقيام على ما يوكل إلى الحفيظ ، والأمانة على ما يوكل إليه .

وحرف (على) فيه للاستعلاء لتضمنه معنى الرقابة والسلطة .

وأما وصف الكرم فهو النفاسة في النوع كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ في سورة النمل (29) .

فالكرم صفتهم النفسية الجامعة للكمال في المعاملة وما يصدر عنهم من الأعمال ، وأما صفة الكتابة فمراد بها ضبط ما وكّلوا على حفظه ضبطاً لا يتعرض للنسيان ولا للإِجحاف ولا للزيادة ، فالكتابة مستعارة لهذا المعنى ، على أن حقيقة الكتابة بمعنى الخط

غير ممكنة بكيفية مناسبة لأمور الغيب .

وأما صفة العلم بما يفعله الناس فهو الإِحاطة بما يصدر عن الناس من أعمال وما يخطر ببالهم من تفكير مما يراد به عمل خير أو شر وهو الهَم .

وما تفعلون ﴾ يعم كل شيء يفعله الناس وطريق علم الملائكة بأعمال الناس مما فطر الله عليه الملائكة الموكّلين بذلك .

ودخل في ﴿ ما تفعلون ﴾ : الخواطر القلبية لأنها من عمل القلب أي العقل فإن الإِنسان يُعمل عقله ويعزم ويتردد ، وإن لم يشع في عرف اللغة إطلاق مادة الفعل على الأعمال القلبية .

واعلم أنه ينتزع من هذه الآية أن هذه الصفات الأربع هي عماد الصفات المشروطة في كل من يقوم بعمل للأمة في الإِسلام من الولاة وغيرهم فإنهم حافظون لمصالح ما استحفظوا عليه وأول الحفظ الأمانة وعدم التفريط .

فلا بد فيهم من الكرم وهو زكاء الفطرة ، أي طهارة النفس .

(97/806)

ومن الضبط فيما يجري على يديه بحيث لا تضيع المصالح العامة ولا الخاصة بأن يكون ما يصدره مكتوباً ، أو كالمكتوب مضبوطاً لا يستطاع تغييره ، ويمكن لكل من يقوم بذلك العمل بعد القائم به ، أو في مغيبه أن يعرف ماذا أجري فيه من الأعمال ، وهذا أصل عظيم في وضع الملفات للنوازل والتراتيب ، ومنه نشأت دواوين القضاة ، ودفاتر الشُّهود ، والخِطاب على الرسوم ، وإخراج نسخ الأحْكام والأحباس وعقود النكاح .

ومن إحاطة العلم بما يَتعلق بالأحوال التي تسند إلى المؤتمن عليها بحيث لا يستطيع أحد من المخالطين لوظيفه أن يموّه عليه شيئاً ، أو أن يلبس عليه حقيقة بحيث ينتفي عنه الغلط والخطأ في تمييز الأمور بأقصى ما يمكن ، ويختلف العلم المطلوب باختلاف الأعمال فيقدم في كل ولاية من هو أعلم بما تقتضيه ولايته من الأعمال وما تتوقف عليه من المواهب والدراية ، فليس ما يشترط في القاضي يشترط في أمير الجيش مثلاً ، وبمقدار التفاوت في الخصال التي تقتضيها إحدى الولايات يكون ترجيح من تسند إليه الولاية على غيره حرصاً على حفظ مصالح الأمة ، فيقدم في كل ولاية من هو أقوى كفاءة لإِتقان أعمالها وأشدّ اضطلاعاً بممارستها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(98/806)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت نتيجة حفظ الأعمال الجزاء عليها ، أنتج ذلك بيان ما كانت الكتابة لأجله تفريقاً بين المحسن والمسيء الذي لا يصح في حكمة حكيم ولا كرم كريم غيره بقوله على سبيل التأكيد ، لأجل تكذيبهم : ﴿ إن الأبرار ﴾ أي العاملين بما هو واسع لهم مما يرضي الله جلت قدرته ﴿ لفي نعيم ﴾ أي محيط بهم لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه أصلاً في الدنيا في نعيم الشهود ، وفي الآخرة في نعيم الرؤية والوجود في هذه الدار معنىً وفي الآخرة حساً ، فكل نعيم في الجنة لهم من المنح الآجلة فرقائقه في هذه الدنيا لهم عاجلة ﴿ وإنّ الفجار ﴾ أي الذي شأنهم الخروج مما ينبغي الاستقرار فيه من رضا الله إلى سخطه ﴿ لفي جحيم ﴾ أي نار تتوقد غاية التوقد يصلون بها جحيم العقوبة الفظيعة كما كانوا في الدنيا في جحيم البعد والقطيعة .

ولما كان السياق للترهيب ، وصف عذاب الفجار فقال : ﴿ يصلونها ﴾ أي يغمسون فيها كالشاة المصلية فيباشرون حرها ﴿ يوم الدين ﴾ أي الجزاء على الأعمال المضبوطة على

مثاقيل الذر .

ولما كان العذاب على ما نعهده لا بد أن ينقضي ، بين أن عذابه على غير ذلك فقال :

﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ هم عنها ﴾ أي الجحيم ﴿ بغائبين ﴾ أي بثابت لهم غيبة ما عنها في وقت ما ، بل هم فيها خالدون جزاء لأعمالهم وفاقاً وعدلاً طباقاً حتى الآن في دار الدنيا وإن كانوا لا يحسون بها إلا بعد الموت لأن الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا .

ولما علم أن الوعيد الأعظم يوم الدين ، هول أمره بالسؤال عنه إعلاماً بأنه أهل لأن يصرف العمر إلى الاعتناء بأمره والسؤال عن حقيقة حاله سؤال إيمان وإذعان لا سؤال كفران وطغيان ، ليكون أقعد في الوعيد به فقال : ﴿ وما أدراك ﴾ أي أعلمك وإن اجتهدت في طلب الدراية به ﴿ ما يوم الدين ﴾ أي أيّ شيء هو في طوله وأهواله وفظاعته وزلزاله .

(99/806)

ولما كانت أهواله زائدة على الحد ، كرر ذلك السؤال لذلك الحال فقال معبراً بأداة التراخي زيادة في التهويل : ﴿ ثم ما أدراك ﴾ أي كذلك ﴿ ما يوم الدين ﴾ .

ولما بين أنه من العظمة بحيث لا تدركه دراية دار وإن عظم وإن اجتهد ، لخص أمره في شرح ما يحتمله العقول منه على سبيل الإجمال دافعاً ما قد يقوله بعض من لا عقل له : إن كان

انضممت والتجأت إلى بعض الأكابر وقصدت بعض الأماثل فأخلص قهراً أو بشفاعة ونحوها ، فقال مبدلاً من " يوم الدين " في قراءة ابن كثير والبصريين بالرفع : ﴿ يوم ﴾ وهو ظرف ، قال الكسائي : العرب تؤثر الرفع إذا أضافوا الليل واليوم إلى مستقبل ، وإذا أضافوا إلى فعل ماض آثروا النصب ﴿ لا تملك ﴾ أي بوجه من الوجوه في وقت ما ﴿ نفس ﴾ أيّ نفس كانت من غير استثناء ، ونصبه الباقون على الظرف ، ويجوز أن تكون الفتحة للبناء لإضافته إلى غير متمكن ﴿ لنفس شيئاً ﴾ أي قل أو جل ، وهذا وإن كان اليوم ثابتاً لكنه في هذه الدار بطن سبحانه في الأسباب ، فتقرر في النفوس أن الموجودين يضرون وينفعون لأنهم يتكلمون ويبطشون ، وأما هناك فالمقرر في النفوس خلاف ذلك من أنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه إذناً ظاهراً ، ولا يكون لأحد فعل ما إلا بإذنه كذلك ، فالأمر كله له دائماً ، لكن اسمه الظاهر هناك ظاهر واسمه الباطن هذا مقرر لموجبات الغرور .

ولما كان التقدير : فلا أمر لأحد من الخلق أصلاً ، لا ظاهراً ولا باطناً ، عطف عليه قوله : ﴿ والأمر ﴾ أي كله ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كان البعث للجزاء ﴿ لله ﴾ أي مختص به لا يشاركه فيه مشارك ظاهراً كما أنه لا يشاركه فيه باطناً ، ويحصل هناك الكشف الكلي فلا يدعي أحد لأحد أمراً من الأمور بغير إذن ظاهر خاص ، وتصير المعارف بذلك ضرورية ، فلذلك كان الانفطار والزلازل الكبار ، والإحصاء لجميع الأعمال الصغار

والكبار ، وقد رجع أخرها كما ترى إلى أولها ، والتف مفصلها بموصلها - والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 351.353 ﴾

(100/806)

فصل

قال الفخر :

النوع الثالث : من تفاريع مسألة الحشر قوله تعالى :

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13)

اعلم أن الله تعالى لما وصف الكرام الكاتبين لأعمال العباد ذكر أحوال العاملين فقال :

﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وهو نعيم الجنة ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وهو النار ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

أن القاطعين بوعيد أصحاب الكبائر تمسكوا بهذه الآية ، فقالوا : صاحب الكبيرة فاجر ، والفجار كلهم في الجحيم ، لأن لفظ الجحيم إذا دخل عليه الألف واللام أفاد الاستغراق والكلام في هذه المسألة قد استقصيناه في سورة البقرة ، وههنا نكت زائدة لا بد من ذكرها

: قالت الوعيدية حصلت في هذه الآية وجوه دالة على دوام الوعيد أحدها : قوله تعالى : ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين ﴾ ويوم الدين يوم الجزاء ولا وقت إلا ويدخل فيه ، كما تقول يوم الدنيا ويوم الآخرة الثاني : قال الجبائي : لو خصصنا قوله : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ لكان بعض الفجار يصيرون إلى الجنة ولو صاروا إليها لكانوا من الأبرار وهذا يقتضي أن لا يتميز الفجار عن الأبرار ، وذلك باطل لأن الله تعالى ميز بين الأمرين ، فإذن يجب أن لا يدخل الفجار الجنة كما لا يدخل الأبرار النار والثالث : أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ وهو كقوله : ﴿ وَمَا هُم بخارجين مِنْهَا ﴾ [المائدة : 37] وإذا لم يكن هناك موت ولا غيبة فليس بعدهما إلا الخلود في النار أبد الآبدين ، ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة ثبت بقاء أصحاب الكبائر أبداً في النار ، وثبت أن الشفاعة للمطيعين لا لأهل الكبائر والجواب عنه : أنا بينا أن دلالة ألفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنية ضعيفة والمسألة قطعية .

(101/806)

والتمسك بالدليل الظني في المطلوب القطعي غير جائز ، بل ههنا ما يدل على قولنا : لأن استعمال الجمع المعرف بالألف واللام في المعهود السابق شائع في اللغة ، فيحتمل أن يكون

اللفظ ههنا عائداً إلى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين ، والكلام في ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء ، سلمنا أن العموم يفيد القطع ، لكن لا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر ، والدليل عليه قوله تعالى في حق الكفار : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 42] فلا يخلو إما أن يكون المراد ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة ﴾ الذين يكونون من جنس الفجرة أو المراد ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة ﴾ وهم ﴿ الفجرة ﴾ والأول : باطل لأن كل كافر فهو فاجر بالإجماع ، فتقييد الكافر بالكافر الذي يكون من جنس الفجرة عبث ، وإذا بطل هذا القسم بقي الثاني ، وذلك يفيد الحصر ، وإذا دلت هذه الآية على أن الكفار هم الفجرة لا غيرهم ، ثبت أن صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق ، سلمنا إن الفجار يدخل تحته الكافر والمسلم ، لكن قوله : ﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ معناه أن مجموع الفجار لا يكونون غائبين ، ونحن نقول بموجبه : فإن أحد نوعي الفجار وهم الكفار لا يغيبون ، وإذا كان كذلك ثبت أن صدق قولنا إن الفجار بأسرهم لا يغيبون ، يكفي فيه أن لا يغيب الكفار ، فلا حاجة في صدقه إلى أن لا يغيب المسلمون ، سلمنا ذلك لكن قوله : ﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ يقتضي كونهم في الحال في الجحيم وذلك كذب ، فلا بد من صرفه عن الظاهر ، فهم يحملونه على أنهم بعد الدخول في الجحيم يصدق عليهم قوله : ﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ ونحن نحمل ذلك على أنهم في الحال ليسوا غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم ، إلا أن ثبوت الاستحقاق لا ينافي العفو ، سلمنا ذلك لكنه معارض بالدلائل الدالة

على العفو وعلى ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر ، والترجيح لهذا الجانب ، لأن دليلهم لا بد وأن يتناول جميع

(102/806)

الفجار في جميع الأوقات ، وإلا لم يحصل مقصودهم ، ودليلنا يكفي في صحته تناوله لبعض الفجار في بعض الأوقات ، فدليلهم لا بد وأن يكون عاماً ، ودليلنا لا بد وأن يكون خاصاً والخاص مقدم على العام ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

فيه تهديد عظيم للعصاة حكي أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة وهو يريد مكة ، فقال لأبي حازم : كيف القدوم على الله غداً ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، قال : فبكى ، ثم قال : ليت شعري ما لنا عند الله ! فقال أبو حازم : أعرض عملك على كتاب الله ، قال : في أي مكان من كتاب الله ؟ قال : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وقال جعفر الصادق عليه السلام : النعيم المعرفة والمشاهدة ، والجحيم ظلمات الشهوات وقال بعضهم : النعيم القناعة ، والجحيم الطمع ، وقيل : النعيم التوكل ، والجحيم الحرص ، وقيل : النعيم

الاشتغال بالله ، والجحيم الاشتغال بغير الله تعالى .

النوع الرابع : من تفاريع الحشر تعظيم يوم القيامة ، وهو قوله تعالى :

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في الخطاب في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فقال بعضهم : هو خطاب للكافر على وجه الزجر له ، وقال الأكثرون : إنه خطاب للرسول ، وإنما خاطبه بذلك لأنه ما كان عالماً بذلك قبل الوحي .

المسألة الثانية :

الجمهور على أن التكرير في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ لتعظيم ذلك اليوم ، وقال الجبائي : بل هو لفائدة مجددة ، إذ المراد بالأول أهل النار ، والمراد بالثاني أهل الجنة ، كأنه قال : وما أدراك ما يعامل به الفجار في يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يعامل به الأبرار في يوم الدين ؟ وكرر يوم الدين تعظيماً لما يفعله تعالى من الأمرين بهذين الفريقين .

المسألة الثالثة :

في : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ ﴾ قراءتان الرفع والنصب ، أما الرفع ففيه وجهان أحدهما : على البدل من يوم الدين والثاني : أن يكون بإضمار هو فيكون المعنى هو يوم لا تملك ، وأما النصب ففيه وجوه أحدها : بإضمار يدانون لأن الدين يدل عليه وثانيها : بإضمار اذكروا وثالثها : ما ذكره الزجاج يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه يبنى على الفتح لإضافته إلى قوله : ﴿ لاَ تَمْلِكُ ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح ، وإن كان في موضع رفع أو جر كما قال :

لم يمنع الشرب منهم غير أن نطقت . . حمامة في غصون ذات أو قال

فبنى غير على الفتح لما أضيف إلى قوله إن نطقت ، قال الواحدي : والذي ذكره الزجاج من البناء على الفتح إنما يجوز عند الخليل وسيبويه ، إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي ، نحو قولك على حين عاتبت ، أما مع الفعل المستقبل ، فلا يجوز البناء عندهم ، ويجوز ذلك في قول الكوفيين ، وقد ذكرنا هذه المسألة عند قوله : ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] ورابعها : ما ذكره أبو علي وهو أن اليوم لما جرا في أكثر الأمر ظرفاً ترك على حالة الأكثرية ، والدليل عليه إجماع القراء والعرب في قوله : ﴿ مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ﴾ [الأعراف : 168] ولا يرفع ذلك أحد .

ومما يقوي النصب قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة * يَوْمَ يَكُونُ الناس ﴾ [القارعة : 3 4

] وقوله : ﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين * يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 12 13] فالنصب في ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ ﴾ مثل هذا .

المسألة الرابعة :

تمسكوا في نفي الشفاعة للعصاة بقوله : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ وهو كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ [البقرة : 48] والجواب : عنه قد تقدم في سورة البقرة .

المسألة الخامسة :

أن أهل الدنيا كانوا يتغلبون على الملك ويعين بعضهم بعضاً في أمور ، ويحمي بعضهم بعضاً ، فإذا كان يوم القيامة بطل ملك بنى الدنيا وزالت رياستهم ، فلا يحمي أحد أحداً ، ولا يغني أحد عن أحد ، ولا يتغلب أحد على ملك ، ونظيره قوله : ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] وهو وعيد عظيم من حيث إنه عرفهم أنه لا يغني عنهم إلا البر والطاعة يومئذ دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء .

قال الواحدي : والمعنى أن الله تعالى لم يملك في ذلك اليوم أحداً شيئاً من الأمور ، كما ملكهم في دار الدنيا .

قال الواسطي : في قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ إشارة إلى فناء غير الله تعالى ، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات ، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه .

وأما قوله : ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ فهو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله ، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم وفي الآخرة ، ولم يتغير من حال إلى حال ، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر ، لا إلى أحوال المنظور إليه ، فالكاملون لا تتفاوت أحوالهم بحسب تفاوت الأوقات ، كما قال : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، وكحارثة لما أخبر بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "كأني أنظر وكأني وكأني " والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 77 . 79 ﴾

(105/806)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

هذه أوصاف يوم القيامة ، و" انفطار السماء " : تشققها على غير نظام مقصود إنما هو انشقاق لتزول بنيتها وانتثار الكواكب سقوطها من مواضعها التي هي فيها كنظام ، و" تفجير البحار " : يحتمل أن يكون من امتلائها فتفجر من أعاليها وتفيض على ما وليها ، ويحتمل أن يكون تفجير تفريع ، ويحتمل أن يكون فيضانها ، فيذهب الله ماءها حيث شاء ، وقيل : فجر بعضها إلى بعض فاختلط العذب بالملح وصارت واحداً ، وهذا نحو الاختلاف في ﴿ سجرت ﴾ [التكوير : 6] في السورة التي قبل ، وقرأ مجاهد والربيع بن خيثم : " فجِرت " بتخفيف الجيم ، و" بعثرة القبور " : نبشها عن الموتى الذين فيها ، وقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ﴾ هو جواب ﴿ إذا ﴾ ، و﴿ نفس ﴾ هنا اسم الجنس وإفرادها لتبين لذهن السامع حقارتها وقلتها وضعفها عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى ، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى : ﴿ ما قدمت وأخرت ﴾ إنها عبارة عن جميع الأعمال لأن هذا التقسيم يعم الطاعات المعمولة والمتروكة وكذلك المعاصي . وقال ابن عباس والقرظي محمد بن كعب : ﴿ ما قدمت ﴾ في حياتها وما ﴿ أخرت ﴾ مما سنته فعمل به بعد موتها ، ثم خاطب تعالى جنس ابن آدم على جهة التوبيخ والتنبيه على أي شيء أوجب أن يغتر بربه الكريم فيعصيه ويجعل له نداً وغير ذلك من أنواع الكفر وهو الخالق الموجد بعد العدم ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : " جهله " وقاله عمر وقرأ ﴿ انه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ، وقال قتادة : عدوه المسلط

عليه ، وقال بعض العلماء : غره ستر الله عليه ، وقال غيره : غره كرم الله ، ولفظة الكريم تلقن هذا الجواب ، فهذا من لطف الله تعالى لعباده العصاة من المؤمنين ، وقرأ ابن جبير والأعمش : " ما أغرك " على وزن أفعلك ، والمعنى ما عاك إلى الاغترار أن يكون المعنى تعجباً محضاً ، وقرأ الجمهور : " فعدّلك " بتشديد الدال ، وكان صلى الله عليه وسلم : إذا نظر إلى

(106/806)

الهلال ، وقال : " آمنت بالذي خلقك فسواك فعدلك " لم يختلف الرواة في شد الدال ، وقرأ الكوفيون والحسن وأبو جعفر وطلحة والأعمش وأبو رجاء وعيسى بن عبيد : " فعدَلك " بتخفيف الدال ، والمعنى عدل أعضاءك بعضها ببعض أي وازن بينهما ، وقوله تعالى : ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ ، ذهب الجمهور إلى أن ﴿ في ﴾ متعلقة ب ﴿ ركبك ﴾ ، أي في قبيحة أو حسنة أو مشوهة أو سليمة ونحو هذا ، وذهب بعض المتأولين أن المعنى ﴿ فعدلك ﴾ ﴿ في أي صورة ﴾ : بمعنى إلى أي صورة حتى قال بعضهم : لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار ، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى : الوعيد والتهديد ، أي الذي إن شاء ركبك في صورة حمار أو خنزير أو غيره ، و ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما

شاء ﴾ ، زائدة فيها معنى التأكيد ، والتركيب والتأليف وجمع الشيء إلى شيء ، وروى خارجة عن نافع : " ركبك كلا " بإدغام الكاف في الكاف ، ثم رد على سائر أقوالهم ورد عنها بقوله : ﴿ كلا ﴾ ، ثم أثبت لهم تكذيبهم بالدين ، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص في الكفار ، وقرأ جمهور الناس : " تكذبون " بالتاء من فوق ، وقرأ الحسن وأبو جعفر : " يكذبون " بالياء ، و﴿ الدين ﴾ هنا يحتمل أن يريد الشرع ، ويحتمل أن يريد الجزاء والحساب .

و" الحافظون " : هم الملائكة الذين يكتبون أعمال ابن آدم ، وقد وصفهم بالكرم الذي هو نفي المذام . و﴿ يعلمون ﴾ ما يفعل ابن آدم لمشاهدتهم حاله ، وقد روي حديث ذكره سفيان : يقتضي أن العبد إذا عمل سيئة مما لا ترى ولا تسمع ، مثل الخواطر المستصحبة ونحوها أن الملك يجد ريح تلك الخطرة الخفية بإدراك قد خلقه الله لهم .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13)

(107/806)

﴿ الأبرار ﴾ : جمع بر وهو الذي قد اطرد بره عموماً فيرونه في طاعته إياه ، وبر أبويه وبر الناس في دفع ضره عنهم وجلب ما استطاع الخير إليهم ، وبر الحيوان وغير ذلك في أن لم

يفسد شيئاً منها عبثاً ولغير منفعة مباحة ، و﴿ الفجار ﴾ : الكفار ، و" يصلون " معناه : يباشرون حرّها بأبدانهم ، و﴿ يوم الدين ﴾ هو يوم الجزاء ، وقوله تعالى : ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ قال بعض المتأولين : هذا تأكد في الإخبار عن أنهم يصلونها ، وأنهم لا يمكنهم الغيب عنها يومئذ ، وقال آخرون : ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ في البرزخ ، كأنه تعالى لما أخبر عن صليهم إياها يوم الدين وذلك أنهم يرون مقاعدهم من النار عدوة وعشية فهم مشاهدون لها ، ثم عظم تعالى قدر هول يوم القيامة بقوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب : " يومُ لا تملك " برفع الميم من " يومُ " على معنى هو يوم ، وقرأ الباقون والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج : " يومَ " بالنصب على الظرف ، والمعنى : الجزاء يوم فهو ظرف في معنى خبر الابتداء ، ثم أخبر تعالى بضعف الناس يومئذ وأنه لا يغني بعضهم عن بعض وأن الأمر له تبارك وتعالى ، وقال قتادة كذلك : هو اليوم ولكنه هنالك لا ينازعه أحد ولا يمكن هو أحداً في شيء منه كما يمكنه في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(108/806)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾

تقسيم مثل قوله : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] .

وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ .

فَأَمَّا الذين آمَنُواْ ﴾ [الروم : 14-15] الآيتين .

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يصيبهم لهبُها وحَرّهُا ﴿ يَوْمَ الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب ، وكرر ذكره تعظيماً لشأنه ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ القارعة * مَا القارعة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1-3] وقال ابن عباس فيما روي عنه : كل شيء من القرآن من قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ ؟ فقد أدراه ، وكل شيء من قوله : "وما يُدْرِيك" فقد طُوِي عنه .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو "يومُ" بالرفع على البدل من "يومُ الدينِ" أو رداً على اليوم الأوّل ، فيكون صفة ونعتاً ل"يوم الدينِ" .

ويجوز أن يرفع بإضمار هو .

الباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلاّ أنه ، نصب ؛ لأنه مضاف غير متمكن ؛ كما تقول : أعجبني يوم يقومُ زيد .

وأنشد المبرد :

مِن أَيِّ يومَيَّ مِنَ الموتِ أَفِرّ . . .

أيومَ لم يقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ

فاليومان الثانيان مخفوضان بالإضافة ، عن الترجمة عن اليومين الأوّلين ، إلا أنهما نصبا في اللفظ ؛ لأنهما أضيفا إلى غير محضٍ .

وهذا اختيار الفراء والزجَّاج.

وقال قوم : اليوم الثاني منصوب على المحل ، كأنه قال في يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً .

وقيل : بمعنى : إن هذه الأشياء تكون يومَ ، أو على معنى يُدانون يومَ ؛ لأن الدِّين يدل عليه ، أو بإضمار اذكر .

﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ لا ينازعه فيه أحد ؛ كما قال : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار * اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ [غافر : 16-17] .

تمت السورة والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(109/806)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾

استئنافٌ مسوق لبيان نتيجةِ الحفظِ والكتابِ من الثوابِ والعقابِ وفي تنكيرِ النعيمِ

والجحيمِ من التفخيمِ والتهويلِ ما لا يَخْفى . وقولُه تعالَى : ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ إما صفةٌ لجحيمٍ أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ منْ تهويلِها كأنَّه قيلَ : ما حالُهم فيها فقيلَ يُقاسونَ حرَّهَا ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ يومَ الجزاءِ الذي كانُوا يكذبونَ بِهِ ﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ طرفةَ عينٍ فإن المرادَ دوامُ نفيِ الغَيبةِ لا نفي دوامِ الغيبة لما مرَّ مِراراً من أنَّ الجملةَ الاسميةَ المنفيةَ قد يُرادُ بها استمرارُ النَّفيِ لا نفيُ الاستمرارِ باعتبارِ ما تفيدُه من الدوامِ والثباتِ بعد النَّفيِ لا قبلَهُ وقيل : معناهُ وما كانُوا غائبينَ عنها قيلَ : ذلكَ بالكليةِ بل كانُوا يجدونَ سمومَها في قبورِهم حسبَما قال النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " القبرُ روضةٌ من رياض الجنةِ أو حفرةٌ من حُفَرِ النيرانِ " وقولُه تعالَى :

(110/806)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ تفخيمٌ لشأنِ يومِ الدينِ الذي يكذبونَ به إثرَ تفخيمٍ وتهويلٌ لأمرِه بعدَ تهويلٍ ببيانِ أنَّه خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخلقِ على أيِّ صورةٍ تصورُوه فهو فوقَها وكيفما تخيلوه فهو أطمُّ من ذلكَ وأعظمُ أيْ وأيُّ شيءٍ جعلكَ دارياً ما يومُ الدينِ ، على أنَّ ما الاستفهاميةَ خبرٌ ليومِ الدينِ لا بالعكسُ كما هُو رأي سيبويهِ لما مرَّ من أنَّ مدارَ الافادةِ هُو الخبرُ لا المبتدأُ ، ولا ريبَ في أنَّ مناطَ إفادةِ الهولِ والفخامةِ

هُنا هو مَا لا يومَ الدينِ أيْ أيُّ شيءٍ عجيبٍ هو في الهولِ والفظاعةِ لما مرَّ غيرَ مرةٍ أن كلمةَ مَا قد يطلبُ بها الوصفُ وإن كانتْ موضوعةً لطلبِ الحقيقةِ وشرحِ الاسمِ يقالُ ما زيدٌ فيقالُ في الجوابِ كاتبٌ أو طبيبٌ وفي إظهارِ يومُ الدينِ في موقعِ الاضمارِ تأكيدٌ لهولِه وفخامتِه .

(111/806)

وقولُه تعالَى : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ بيانٌ إجماليٌّ لشأنِ يومِ الدينِ إثرَ إبهامِه وبيانِ خروجِه عنْ علومِ الخلقِ بطريقِ إنجازِ الوعدِ فإنَّ نفيَ إدرائِهم مشعرٌ بالوعدِ الكريمِ بالإدراءِ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : كلُّ ما في القرآنِ من قولِه تعالَى ما أدراكَ فقدْ أدراهُ وكلُّ ما فيهِ من قولِه وما يدريكَ فقد طُويَ عنْهُ . ويومَ مرفوعٌ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وحركتُه الفتحِ لإضافتِه إلى غيرِ متمكنٍ كأنَّه قيلَ : هُو يومَ لا يملكُ فيه نفسٌ من النفوسِ شيئاً من الأشياءِ الخ أو منصوبٌ بإضمارِ اذكُرْ كأنَّه قيلَ : بعد تفخيمِ أمرِ يومِ الدينِ وتشويقِه عليه الصلاةُ والسلامُ إلى معرفتِه اذكُر يومَ لا تملكُ نفسٌ الخ فإنه يُدريكَ ما هُو وقيلَ بإضمارِ يُدانونَ وليسَ بذاكَ فإنه عارٍ عن إفادةِ ما يفيدُه ما قبلَهُ كما أنَّ إبدالَهُ من يومِ الدينِ على قراءةِ الرفعِ كذلكَ بل الحقُّ حينئذٍ الرفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾

استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتب من الثواب والعقاب وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفى من التفخيم والتهويل وقوله تعالى :

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أما صفة للجحيم أو حال من ضمير الفجار في الخبر أو استئناف مبني على سؤال نشأ من تهويلها كأنه قيل ما حالهم فيها فقيل يقاسون حرها وقرأ ابن مقسم يصلونها مشدداً مبنياً للمفعول .

﴿ يَوْمِ الدين ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به استقلالاً أو في ضمن تكذيبهم بالإسلام .

﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ طرفة عين فإن المراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بخارجين منها ﴾ [المائدة : 37] في الدلالة على سرمدية العذاب وأنهم لا يزالون محسين بالنار وقيل معناه وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم حسبما قال النبي صلى الله عليه وسلم القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار على أن غائبين من حكاية الحال الماضية والجملة قيل

على الوجهين في موضع الحال لكنها على الأول حال مقدرة وعلى الثاني من باب ﴿ جاؤكم حصرت صدورهم ﴾ [النساء : 90] وقيل إنها على الأول حالية دون الثاني لانفصال ما بين صلى النار وعذاب القبر بالبعث وما في موقف الحساب بل هي عليه معطوفة على ما قبلها ويحتمل اسم الفاعل فيها أعني غائبين على الحال أي وما هم عنها بغائبين الآن لتغاير المعطوف عليه الذي أريد به الاستقبال والكلام على ما عرف في أخباره تعالى من التعبير عن المستقبل بغيره لتحققه فلا يرد أن بعض الفجار في زمرة الأحياء بعد وبعضهم لم يخلق كذلك وعذاب القبر بعد الموت فكيف يحمل غائبين على الحال وقوله تعالى :

(113/806)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ تفخيم لشأن يوم الدين الذي يكذبون به أثر تفخيم وتعجيب منه بعد تعجيب والخطاب فيه عام والمراد أن كنه أمره بحيث يدركه دراية داري وقيل الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم وقيل للكافر والإظهار في موضع الإضمار تأكيد لهول يوم الدين وفخامته وقد تقدم الكلام في تحقيق كون الاستفهام في مثل ذلك مبتدأ أو خبراً مقدماً فلا تغفل وقوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ بيان إجمالي لشأن يوم الدين إثر أبهامه وإفادة خروجه عن الدائرة الدراية قيل بطريق إنجاز الوعد فإن نفي الإدراء مشعر بالوعد الكريم بالادراء على ما روى عن ابن عباس من أنه قال كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿ مَا أَدْرَاكَ فَقَدْ ﴾ وكل ما فيه من قوله عز وجل : ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ [الأحزاب : 63] فقد طوى عنه ويوم منصوب بإضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتشويقه صلى الله عليه وسلم إلى معرفته اذكر يوم لا تملك نفس من النفوس لنفس من النفوس مطلقاً لا للكافرة فقط كما روى عن مقاتل شيئاً من الأشياء الخ فإنه يدريك ما هو أو مبني على الفتح محله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف على رأي من يرى جواز بناء الظرف إذا أضيف إلى ير متمكن وهم الكوفيون أي هو يوم لا تملك الخ وقيل هو نصب على الظرفية بإضمار يدانون أو يشتد الهول أو نحوه مما يدل عليه السياق أو هو مبنى على الفتح محله الرفع على أنه بدل من يوم الدين وكلاهما ليسا بذاك لخولهما عن إفادة ما أفاده ما قبل وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو يوم بالرفع بلا تنوين على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو يوم لا بدل لما سمعت آنفاً وقرأ محبوب عن أبي عمرو يوم بالرفع والتنوين فجملة لا تملك

الخ في موضع الصفة له والعائد محذوف أي في والأمر كما قال في الكشف واحد الأوامر لقوله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] فإن الأمر من شأن الملك المطاع واللام للاختصاص أي الأمر له تعالى لا لغيره سبحانه لا شركة ولا استقلالاً أي أن التصرف جميعه في قبضة قدرته عز وجل لا غير وفي تحقيق قوله تعالى ﴿ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ لدلالته على أن الكل مسوسون مطيعون مشتغلون بحال أنفسهم مقهورون بعبوديتهم لسطوات الربوبية وقيل واحد الأمور أعني الشأن وليس بذاك وقول قتادة فيما أخرجه عنه

(115/806)

عبد بن حميد وابن المنذر أي ليس ثم أحد يقضي شيئاً ولا يصنع شيئاً غير رب العالمين تفسير لحاصل المعنى لا إيثار لذلك هذا وقوله وحده ليس بحجة يترك له الظاهر والمنازعة في الظهور مكابرة وأياً ما كان فلا دلالة في الآية على نفي الشفاعة يوم القيامة كما لا يخفى والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(116/806)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾

قال الواحدي : قال المفسرون : انفطارها انشقاقها كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] والفطر : الشق ، يقال : فطرته فانفطر ، ومنه فطر ناب البعير : إذا طلع ، قيل : والمراد : أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها ، وقيل : انفطرت لهيبة الله .

﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ أي : تساقطت متفرقة يقال : نثرت الشيء أنثره نثراً .

﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ أي : فجر بعضها في بعض ، فصارت بحراً واحداً ، واختلط العذب منها بالمالح .

وقال الحسن : معنى ﴿ فجرت ﴾ ذهب ماؤها ، ويبست ، وهذه الأشياء بين يدي الساعة ، كما تقدّم في السورة التي قبل هذه ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ أي : قلب ترابها ، وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال : بعثر يبعثر بعثرة : إذا قلب التراب ، ويقال : بعثر المتاع قلبه ظهراً لبطن ، وبعثرت الحوض وبعثرته إذا هدمته ، وجعلت أعلاه أسفله .

قال الفراء : ﴿ بعثرت ﴾ أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة ، وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها .

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدّم فقال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ والمعنى :

أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، والكلام في إفراد نفس هنا ، كما تقدّم في السورة الأولى في قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] ومعنى ﴿ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ : ما قدّمت من عمل خير أو شرّ ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة ، وأجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ، ووزر من عمل بها .

(117/806)

وقال قتادة : ما قدّمت من معصية ، وأخرت من طاعة ، وقيل : ما قدّم من فرض ، وأخّر من فرض ، وقيل : أوّل عمله وآخره .

وقيل : إن النفس تعلم عند البعث بما قدّمت وأخرت علماً إجمالياً لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلي ، فإنما يحصل عند نشر الصحف .

﴿ يا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ هذا خطاب الكفار : أي : ما الذي غرّك ، وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك

، وجعلك عاقلاً فاهماً ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها .

قال قتادة : غرّه شيطانه المسلط عليه .

وقال الحسن : غرّه شيطانه الخبيث ، وقيل : حمقه وجهله .

وقيل : غرّه عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أوّل مرّة ، كذا قال مقاتل ﴿ الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أي : خلقك من نطفة ، ولم تك شيئًا ، فسوّاك رجلاً تسمع وتبصر وتعقل ، ﴿ فعدلك ﴾ جعلك معتدلاً .

قال عطاء : جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة .

وقال مقاتل : عدّل خلقك في العينين ، والأذنين ، واليدين ، والرجلين ، والمعنى : عدل بين ما خلق لك من الأعضاء .

قرأ الجمهور : ﴿ فعدّلك ﴾ مشدّداً ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بالتخفيف ، واختار أبو حاتم ، وأبو عبيد القراءة الأولى .

قال الفراء ، وأبو عبيد : يدلّ عليها قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ومعنى القراءة الأولى : أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى القراءة الثانية : أنه صرفه ، وأماله إلى أيّ صورة شاء ، إما حسناً وإما قبيحاً ، وإما طويلاً وإما قصيراً .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ في أيّ صورة متعلق بركبك ، و " ما " مزيدة ، و ﴿ شاء ﴾ صفة لصورة ، أي : ركّبك في أيّ صورة شاءها من الصور المختلفة ، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله : ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ والتقدير : فعدّلك : ركبك في أيّ صورة شاءها ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي : ركبك حاصلاً في أيّ صورة .

ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدّلك .

واعترض عليه بأن " أيّ " لها صدر الكلام ، فلا يعمل فيها ما قبلها .

قال مقاتل ، والكلبي ، ومجاهد : في أيّ شبه من أب أو أمّ ، أو خال أو عم .

وقال مكحول : إن شاء ذكراً ، وإن شاء أنثى ، وقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله ، وجعله ذريعة إلى الكفر به ، والمعاصي له ، ويجوز أن يكون بمعنى : حقاً ، وقوله : ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ إضراب عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام ، كأنه قيل : بعد الردع ، وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء ، أو بدين الإسلام .

قال ابن الأنباري : الوقف الجيد على الدين ، وعلى ركبك ، وعلى ﴿ كلاَّ ﴾ قبيح ، والمعنى : بل تكذبون يا أهل مكة بالدين ، أي : بالحساب ، وبل لنفي شيء تقدّم ، وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم ، وإن لم يجر له ذكر .

قال الفراء : كلا ليس الأمر ، كما غررت به .

قرأ الجمهور ﴿ تكذبون ﴾ بالفوقية على الخطاب .

وقرأ الحسن ، وأبو جعفر ، وشيبة بالتحتية على الغيبة .

وجملة : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون ، أي : تكذبون ، والحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم ، والحافظين : الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ، ويكتبونها في الصحف .

(119/806)

ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ، وجملة : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير كاتبين ، أو على النعت ، أو مستأنفة .

قال الرازي : والمعنى التعجيب من حالهم كأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

[ق: 17، 18].

ثم بيّن سبحانه حال الفريقين فقال: ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيقت له، وهي كقوله سبحانه: ﴿ فَرِيقٌ فِى الجنة وَفَرِيقٌ فِى السعير ﴾ [الشورى: 7] وقوله: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين ﴾ صفة ل ﴿ جحيم ﴾؛ ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجارّ، والمجرور، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر، كأنه قيل ما حالهم؟ فقيل: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين ﴾ أي: يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به، ومعنى ﴿ يصلونها ﴾: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها، وحرّها يومئذ.

قرأ الجمهور ﴿ يصلونها ﴾ مخففاً مبنياً للفاعل، وقرىء بالتشديد مبنياً للمفعول.

﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أي: لا يفارقونها أبداً، ولا يغيبون عنها، بل هم فيها، وقيل: المعنى: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها في قبورهم.

(120/806)

ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ أي: يوم الجزاء، والحساب، وكرّره تعظيماً لقدره، وتفخيماً لشأنه، وتهويلاً لأمره،

كما في قوله : ﴿ القارعة * مَا القارعة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1 3] و ﴿ الحاقة * مَا الحاقة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 – 3] والمعنى : أيّ شيء جعلك دارياً ما يوم الدين .

قال الكلبي : الخطاب للإنسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو برفع : " يوم " على أنه بدل من ﴿ يوم الدين ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف .

وقرأ أبو عمرو في رواية : " يوم " بالتنوين ، والقطع عن الإضافة .

وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير : أعني أو اذكر ، فيكون مفعولاً به ، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأي الكوفيين ، وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه بدل من يوم الدين .

قال الزجاج : يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه مبنيّ على الفتح لإضافته إلى قوله : ﴿ لاَ تَمْلِكُ ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن ، فقد يبنى على الفتح ، وإن كان في موضع رفع ، وهذا الذي ذكره إنما يجوز عند الخليل ، وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي ، وأما إلى الفعل المستقبل ، فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي ، والفرّاء ، وغيرهما ، والمعنى : أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئاً

من النفع أو الضرّ ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ وحده لا يملك شيئًا من الأمر غيره كائناً ما كان .

قال مقاتل : يعني لنفس كافرة شيئًا من المنفعة .

(121/806)

قال قتادة : ليس ثم أحد يقضي شيئًا ، أو يصنع شيئًا إلا الله ربّ العالمين ، والمعنى : أن الله لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئًا من الأمور ، كما ملكهم في الدنيا ، ومثل هذا قوله :

﴿ لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذَا البحار فُجّرَتْ ﴾ قال : بعضها في بعض ، وفي قوله : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ قال : بحثت .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ قال : ما قدّمت من خير ، وما أخّرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، أو سنة سيئة تعمل بعده ، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيئًا .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من استنّ خيراً فاستنّ به فله أجره ، ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استن شرّاً فاستنّ به ، فعليه وزره ، ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم " وتلا حذيفة : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ قال : غرّه والله جهله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل ، وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 394 . 397 ﴾

(122/806)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) ﴾

فصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنها استئناف بياني جوابٌ عن سؤال يخطر في نفس السامع يثيره قوله : ﴿ بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : 9 ، 10]

الآية لتشوف النفس إلى معرفة هذا الجزاء ما هو ، وإلى معرفة غاية إقامة الملائكة لإِحصاء الأعمال ما هي ، فبُين ذلك بقوله : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ الآية .

وأيضاً تتضمن هذه الجملة تقسيم أصحاب الأعمال فهي تفصيل لجملة ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار : 12] وذلك من مقتضيات فصل الجملة عن التي قبلها .

وجيء بالكلام مؤكداً بـ ﴿ إن ﴾ ولا الابتداء ليساوي البيانُ مبيّنهُ في التحقيق ودفع الإنكار .

وكرر التأكيد مع الجملة المعطوفة للاهتمام بتحقيق كونهم في جحيم لا يطمعوا في مفارقته .

و﴿ الأبرار ﴾ : جمعُ برّ بفتح الباء وهو التقيّ ، وهو فَعْل بمعنى فاعل مشتق من بَرَّ يبر ، ولفعل برّ اسم مصدر هو برّ بكسر الباء ولا يعرف له مصدر قياسيّ بفتح الباء كأنهم أماتوه لئلا يلتبس بالبَرّ وهو التقيّ .

وإنما سمي التقيّ بَرّاً لأنه بَرَّ ربه ، أي صدقه ووفى له بما عهد له من الأمر بالتقوى .

و﴿ الفُجَّار ﴾ : جمع فاجر ، وصيغة فُعَّال تطّرد في تكسير فاعل المذكر الصحيح اللام .

والفاجر : المتصف بالفجور وهو ضد البرور .

والمراد بـ ﴿ الفجّار ﴾ هنا : المشركون ، لأنهم الذين لا يغيبون عن النار طرفة عين وذلك هو الخلود ، ونحن أهل السنة لا نعتقد الخلود في النار لغير الكافر .

فأما عصاة المؤمنين فلا يخلدون في النار وإلا لبطلت فائدة الإِيمان .

والنعيم : اسم ما يَنْعم به الإِنسان .

والظرفية من قوله : "في نعيم" مجازية لأن النعيم أمر اعتباري لا يكون ظرفاً حقيقة ، شبه دوام التنعم لهم بإحاطة الظرف بالمظروف بحيث لا يفارقه .

وأما ظرفية قوله : ﴿ لفي جحيم ﴾ فهي حقيقية .

(123/806)

والجحيم صار علماً بالغلبة على جهنم ، وقد تقدم في سورة التكوير وفي سورة النازعات .

وجملة ﴿ يصلونها ﴾ صفة ل ﴿ جحيم ﴾ ، أو حال من ﴿ الفجار ﴾ ، أو حال من الجحيم ، وصَلْيُ النار : مَسُّ حرّها للجسم ، يقال : صلي النارَ ، إذا أحس بحرّها ، وحقيقته : الإِحساس بحرّ النار المؤلم ، فإذا أريد التدفّي قيل : اصطلى .

و ﴿ يوم الدين ﴾ ظرف ل ﴿ يصلونها ﴾ وذُكر لبيان : أنهم يصلونها جزاء عن فجورهم لأن الدين الجزاء ويوم الدين يوم الجزاء وهو من أسماء يوم القيامة .

وجملة ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ عطف على جملة ﴿ يصلونها ﴾ ، أي يَصْلون حرّها ولا يفارقونها ، أي وهم خالدون فيها .

وجيء بقوله ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ جملة اسمية دون أن يقال : وما يغيبون عنها ، أو

وما يفارقونها ، لإفادة الاسمية الثبات سواء في الإثبات أو النفي ، فالثّبات حالة للنسبة الخبرية سواء كانت نسبة إثبات أو نسبة نفي كما في قوله تعالى ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ في سورة البقرة (167) .

وزيادة الباء لتأكيد النفي .

وتقديم عنها ﴾ على متعلقه للاهتمام بالمجرور ، وللرعاية على الفاصلة .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17)

يجوز أن تكون حالية ، والواو واو الحال ، ويجوز أن تكون معترضة إذا جُعل ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ [الانفطار : 19] بدلاً من ﴿ يوم الدين ﴾ المنصوب على الظرفية كما سيأتي .

و﴿ ما أدراك ما يوم الدين ﴾ : تركيب مركب من ﴿ ما ﴾ الاستفهامية وفعل الدراية المعدّى بالهمزة فصار فاعله مفعولاً زائداً على مفعولي دَرى ، وهو من قبيل : أعلم وأرَى ، فالكاف مفعوله الأول ، وقد علق على المفعولين الآخرين بـ ﴿ ما ﴾ الاستفهامية الثانية .

والاستفهام الأول مستعمل كناية عن تعظيم أمر اليوم وتهويله بحيث يَسْأل المتكلم من يسمعه عن الشيء الذي يحصِّل له الدراية بكنه ذلك اليوم ، والمقصود أنه لا تصل إلى كنهه دراية دارٍ .

والاستفهام الثاني حقيقي ، أي سأل سائل عن حقيقة يوم الدين كما تقول : علمت هل زيد قائم ، أي علمت جواب هذا السؤال .

ومثل هذا التركيب مما جرى مجرى المثل فلا يغير لفظه ، وقد تقدم بيانه مستوفى عند قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 3] .

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18)

تكرير للتهويل تكريراً يؤذن بزيادته ، أي تجاوزه حدّ الوصف والتعبير فهو من التوكيد اللفظي ، وقرن هذا بحرف ﴿ ثمّ ﴾ الذي شأنه إذا عطف جملة على أخرى أن يفيد التراخي الرتبي ، أي تباعد الرتبة في الغرض المسوق له الكلام ، وهي في هذا المقام رتبة العظمة والتهويل ، فالتراخي فيها هو الزيادة .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ .

في هذا بيان للتهويل العظيم المجمل الذي أفاده قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ [الانفطار : 17 ، 18] إذ التهويل مشعر بحصول ما يخافه المهوَّل لهم فاتبع ذلك بزيادة التهويل مع التأييس من وجدان نصير أو معين .

وقرأه الجمهور بفتح ﴿ يوم ﴾ فيجوز أن يجعل بدلاً مطابقاً ، أو عطف بيان من ﴿ يومُ الدين ﴾ المرفوع بـ ﴿ ما أدراك ﴾ وتجعل فتحتُه فتحةَ بناء لأن اسم الزمان إذا أضيف

إلى جملة فعلية وكان فعلها معرباً جاز في اسم الزمان أن يبنى على الفتح وأن يعرب بحسب العوامل .

ويجوز أيضاً أن يكون بدلاً مطابقاً من ﴿ يوم الدين ﴾ المنصوب على الظرفية في قوله : ﴿ يَصلونها يومَ الدين ﴾ [الانفطار : 15] ، ولا يفوت بيان الإبهام الذي في قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ [الانفطار : 17] لأن ﴿ يومُ الدين ﴾ المرفوع المذكور ثانياً هو عين ﴿ يوم الدين ﴾ المنصوب أولاً ، فإذا وقع بيان للمذكور أولاً حصل بيان المذكور ثانياً إذ مدلولهما يوم متّحد .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مرفوعاً ، فيتعين أن يكون بدلاً أو بياناً من ﴿ يوم الدين ﴾ الذي في قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ .

(125/806)

ومعنى ﴿ لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ : لا تقدر نفس على شيء لأجل نفس أخرى ، أي لنَفعها ، لأن شأن لام التعليل أن تدخل على المنتفِع بالفعل عكسَ (على) ، فإنها تدخل على المتضرر كما في قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة : 286] ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما أملك لك من اللَّه من شيء ﴾ في سورة

الممتحنة (4) .

وعموم نفس ﴾ الأولى والثانية في سياق النفي يقتضي عموم الحكم في كل نفس .

و﴿ شيئاً ﴾ اسم يدل على جنس الموجود ، وهو متوغل في الإبهام يفسره ما يقترن به في الكلام من تمييز أو صفة أو نحوهما ، أو من السياق ، ويبينه هنا ما دلّ عليه فعل ﴿ لا تملك ﴾ ولام العلة ، أي شيئاً يغني عنها وينفعها كما في قوله تعالى : ﴿ وما أغني عنكم من اللَّه من شيء ﴾ في سورة يوسف (67) ، فانتصب شيئاً ﴾ على المفعول به لفعل ﴿ لا تملك ﴾ ، أي ليس في قدرتها شيء ينفع نفساً أخرى .

وهذا يفيد تأييس المشركين من أن تنفعهم أصنامهم يومئذ كما قال تعالى : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ [الأنعام : 94] .

﴿ شَيْئاً والامر يَوْمَئِذٍ ﴾ .

وجملة ﴿ والأمر يومئذ للَّه ﴾ تذييل ، والتعريف في ﴿ الأمر ﴾ للاستغراق .

والأمر هنا بمعنى : التصرف والإِذن وهو واحد الأوامِر ، أي لا يأمر إلا الله ويجوز أن يكون الأمر مرادفاً للشيء فتغيير التعبير للتفنن .

والتعريف على كلا الوجهين تعريف الجنس المستعمل لإِرادة الاستغراق ، فيعم كل الأمور وبذلك العموم كانت الجملة تذييلاً .

وأفادت لام الاختصاص مع عموم الأمر أنه لا أمر يومئذ إلا لله وحده لا يصدر من غيره فعل ،

وليس في هذا التركيب صيغة حصر ولكنه آيل إلى معنى الحصر على نحو ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّه ﴾ [الفاتحة : 2] .

(126/806)

وفي هذا الختام رد العجز على الصدر لأن أول السورة ابتدىء بالخبر عن بعض أحوال يوم الجزاء وختمت السورة ببعض أحواله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(127/806)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

وأخرج ابن المنذر عن السدي ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ قال : انشقت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طريق عكرمة عن ابن

عباس ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال : بعضها في بعض ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قال : بحثت .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن خيثم ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال : فجر بعضها في بعض فذهب ماؤها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ خرج ما فيها من الموتى .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قي قوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ قال : ما قدمت من خير وأخرت من سنة صالحة يعمل بها بعده ، فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً أو سنة سيئة يعمل بها بعده ، فإن عليه مثل وزر عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال : ما قدمت من عمل خير أو شر وما أخرت من سنة يعمل بها من بعده .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من استن خيراً فاستن به فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منتقص من أجورهم ، ومن استن شراً فاستن به فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم " وتلا حذيفة ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ علمت

نفس ما قدمت وأخرت ﴾ قال : ما أدت إلى الله مما أمرها به وما ضيعت . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ما قدمت ﴾ من خير وما ﴿ أخرت ﴾ من حق الله تعالى لم تعمل به .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ ما قدمت ﴾ من خير ﴿ وما أخرت ﴾ ما حدث به نفسه لم يعمل به .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد " ما قدمت من خير وما أخرت " ما أمرت أن تعمل فتركت .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء ﴿ ما قدمت ﴾ بين أيديها وما ﴿ أخرت ﴾ وراءها من سنة يعمل بها من بعده .

(128/806)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية ﴿ يا أيها الإِنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ فقال : غره والله جهله .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ﴿ يا أيها الإِنسان ما غرك ﴾ قال : أبيّ بن خلف .

وأخرج عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا

هذه الآية ﴿ يا أيها الإِنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ثم قال : جهله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ربيع بن خيثم ﴿ ما غرك ﴾ قال : الجهل .

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ فسوّاك فعدلك ﴾ مثقل .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن شاهين وابن قانع والطبراني وابن مردويه من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن جده " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ما ولد لك ؟ قال يا رسول الله : ما عسى أن يولد لي إما غلام وإما جارية . قال : فمن يشبه ؟ قال يا رسول الله : ما عسى أن يشبه أباه وإما أمه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عند هامه لا تقولن هذا إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم فركب خلقه في صورة من تلك الصور ، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ من نسلك ما بينك وبين آدم " .

وأخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه بسند جيد والبيهقي في الأسماء والصفات عن مالك بن الحويرث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أراد الله أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها ، فإذا كان اليوم السابع أحضر الله كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن عبد الله بن بريدة " أن رجلاً من الأنصار ولدت له امرأته غلاماً أسود فأخذ بيد امرأته فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : والذي بعثك بالحق لقد تزوجني بكراً وما أقعدت مقعده أحداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صدقت إن لك تسعة وتسعين عرقاً وله مثل ذلك ، فإذا كان حين الولد اضطربت العروق كلها ليس منها عرق إلا يسأل الله أن يجعل الشبه له " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ قال : إما قبيحاً وإما حسناً ، وشبه أب أو أم أو خال أو عم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والرامهرمزي في الأمثال عن أبي صالح ﴿ في أيّ صورة ما شاء ركبك ﴾ قال : إن شاء حماراً وإن شاء خنزيراً وإن شاء فرساً وإن شاء إنساناً .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ في أيّ صورة ما شاء ركبك ﴾ قال : إن شاء قرداً ، وإن شاء صورة خنزير ، والله تعالى أعلم .

أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ قال : بالحساب ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل وحافظين في النهار يحفظان عمله ويكتبان أثره .

وأخرج البزار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حاجات : الغائط والجنابة والغسل " .

(130/806)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الظهيرة فرأى رجلاً يغتسل بفلاة من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أما بعد فاتقوا الله واكرموا الكرام الكاتبين الذين معكم ليس يفارقونكم إلا عند إحدى منزلتين : حيث يكون الرجل على خلائه ، أو يكون مع أهله ، لأنهم كرام كما سماهم الله فيستتر أحدكم عند ذلك بجرم حائط أو بعيره فإنهم لا ينظرون إليه " " .

وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وآخرها استغفاراً إلا قال الله : قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة " .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ قال : تعظيم يوم القيامة يوم يدان الناس فيه بأعمالهم وفي قوله : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ قال : ليس

ثم أحد يقضي شيئاً ولا يصنع شيئاً غير رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 437.440 ﴾

(131/806)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾

يعني : انفجرت لهيبة الرب تبارك وتعالى ويقال : انفجرت لنزول الملائكة لقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملئكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ يعني : تساقطت ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ يعني : فتحت بعضها في بعض وصارت بحراً واحداً ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ يعني : بعثرت وأخرج ما فيها ، ويقال : بعثرت المتاع وبعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه ثم قال عز وجل : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ يعني : ما عملت من خير وشر يعني ما عملت من سنة صالحة أو سيئة ،

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهُدَى فَاتُّبِعَ فَلَهُ أَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلاَّ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الضَّلاَلَةِ

فَاتُّبِعَ فَلَهُ وزرُ مَنْ اتَّبَعَهُ إلاَّ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً " ويقال : ﴿ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ أي : ما عملت وما ﴿ أخرت ﴾ يعني : أضاعت العمل فلم تعمل .

ثم قال عز وجل : ﴿ القرءان خَلَقَ الإنسان ﴾ يعني : يا أيها الكافر ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ يعني : لم يعجل بالعقوبة ، وقال مقاتل : نزلت في كلدة بن أسيد حيث ضرب النبي صلى الله عليه وسلم بقوسه فلم يعاقبه النبي صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك حمزة فأسلم حمية لذلك ثم أراد أن يعود كلدة لضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية فأسلم حمزة يومئذٍ " .

(132/806)

ويقال نزلت في جميع الكفار ما غرك يعني : ما خدعك حين كفرت بربك الكريم المتجاوز لمن تاب ﴿ الذى خَلَقَكَ ﴾ من النطفة ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ يعني : فسوى خلقك ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ يعني : خلقك معتدل القامة ﴿ مَا يجادل صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾ يعني : شبهك بأي صورة شاء إن شاء بالوالد وإن شاء بالوالدة قرأ عاصم والكسائي وحمزة فعدلك بالتخفيف والباقون بالتشديد فمن قرأ بالتخفيف جعل في المعنى إلى فكأنه قال فعدلك إلى أي صورة شاء أن يركبك يعني صرفك إلى ما شاء من الصور من الحسن والقبح ومن قرأ

بالتشديد فمعناه قومك ويكون ما صلة وقد تم الكلام عند قوله فعدلك ثم ابتدأ فقال : في أي صورة شاء ركبك ، ويقال : في ما معنى الشرط والجزاء والمعنى أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك ويكون شاء بمعنى يشاء ثم قال عز وجل : ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : لا يؤمن هذا الإنسان بما ذكره من أمره وصورته ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ يعني : تكذبون بأنكم مبعوثون يوم القيامة ثم أعلم الله تعالى أن أعمالكم محفوظة عليهم فقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ من الملائكة يحفظون أعمالكم ﴿ كِرَاماً كاتبين ﴾ يعني : كراماً على الله تعالى كاتبين يعني يكتبون أعمال بني آدم عليه السلام ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من الخير والشر ، وروى مجاهد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَكْرِمُوا الكِرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لاَ يُفَارِقُونَكُمْ إِلاَّ عِنْدَ إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ الجَنَابَةِ والْغَائِطِ " .

(133/806)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الابرار ﴾ يعني : المؤمنين المصدقين في أيمانهم ﴿ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ يعني : في الجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم ومن كان مثل حالهم ﴿ وَإِنَّ الفجار ﴾ يعني : الكفار ﴿ لَفِى جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين ﴾ يعني : يدخلون فيها يوم القيامة ﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ يعني : لا يخرجون منها

أبداً ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ تعظيماً لذلك اليوم ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ يعني : كيف تعلم حقيقة ذلك اليوم ولم تعاينه ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ يعني : لا تنفع نفس مؤمنة لنفس كافرة شيئاً بالشفاعة قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالضم والباقون بالنصب فمن قرأ بالضم معناه يوم لا تملك ومن قرأ بالنصب فلنزع الخافض يعني في يوم ثم قال : ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ يعني : الحكم والقضاء لله تعالى وهو يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 532.533 ﴾

(134/806)

وقال الثعلبى :

سورة الانفطار

﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾

انشقت ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ تساقطت ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ أي فجر بعضها في بعض عدنها في ملحها وملحها في عدنها فصارت بحراً واحداً ، وقال الحسن : ذهب ماؤها ، وقال الكلبي : مليت .

﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ بحثت ونثرت وأثيرت فاستخرج ما في الأرض من الكنوز ومن

فيها من الموتى أحياء ، يقال : بعثرت الحوض وبحثرته إذا هدمته فجعلت أسفله أعلاه ، وهذا من أشراط الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضّتها وأموالها ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ من عمل صالح أو طالح .

﴿ وَأَخَّرَتْ ﴾ من سنّة حسنة أو سيئة ، وقال عكرمة : ما قدّمت من الفرائض التي أدّتها واخّرت من الفرائض التي ضيّعتها ، وقيل : ما قدمت من الأعمال وأخّرت من المظالم ، وقيل : ما قدّمت من الصدقات وأخرّت من التركات ، وقيل ما قدّمت من الاسقاط والإفراط وما أخرت من الأولاد وهذا جواب إذا .

﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ .

أخبرنا عبد الله الفتحوي قال : حدّثنا أبو علي المقريء قال : حدّثنا أبو القاسم ابن الفضل المقريء قال : حدّثنا علي بن الحسين قال : حدّثنا المقدّمي وعلي بن هاشم قالا : حدّثنا كثير بن هشام قال : حدّثنا جعفر بن برقان قال : حدّثني صالح بن مسمار قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ قال : جهله ، وقال قتادة : غرّة شيطانه عدوه المسّلط عليه .

وحدّثني الحسن بن محمد بن الحسن قال : حدّثني أبي عن جدّي عن علي بن الحسن الهلالي عن إبراهيم بن الأشعث قال : قيل للفضّيل بن عياض : لو أقامك الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بين يديه فقال : ما غرّك بربّك الكريم ماذا كنت تقول ؟ قال : أقول غرني

ستورك المرخاة ، نظمه محمد ابن السماك فقال :

يا كاتم الذنب أما تستحي . . . الله في الخلوة ثانيكا

(135/806)

غرك من ربّك إمهاله . . . وستره طول مساويكا

وقال : مقاتل : غرّه عفو الله حين لم يعجّل عليه بالعقوبة ، وتلا [نصر] بن مغلس هذه الآية فقال : غرّه رفق الله به .

وسمعت أبا القاسم الحلبي يقول : سمعت أبي يقول : سمعت علي بن محمد الورّاق يقول : سمعت يحيى بن معاذ يقول : لو أقامني الله سبحانه بين يديه فقال : ما غرّك بي ؟ قلت : غرّني بك برّك بي سابقاً وآنفاً .

وسمعته يقول : أخبرنا عبد الله بن محمد بن صالح المغافري يقول : سمعت حماد بن بكر يحكي عن بعضهم أنه قال : لو سألني عن هذا ربي لقلت : غرّني حلمك ، وسمعته يقول : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن يزيد النسقي يقول : سمعت أبا عبد الله حسن أبي بكر الورّاق يقول : سمعت أبا بكر الورّاق يقول : لو قال لي ما غرّك بربّك الكريم لقلت : غرّني كرم الكريم .

قال أهل الإشارة : إنّما قال : ﴿ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ؛ لأنه كان لفتة الإجابة حتى يقول : غرّني كرم الكريم ، قال منصور بن عمار لو قيل : ما غرّك بي ؟ قلت : يا رب ما غرّني إلاّ ما علمته من فضلك على عبادك وصفحك عنهم ، وروى أبو وائل عن ابن مسعود قال : ما منكم من أحد إلاّ سيخلو الله سبحانه وتعالى به يوم القيامة فيقول : يا بن آدم ما غرّك بي يا بن آدم ماذا عملت فيما علمت يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟

وسمعت أبا القاسم النيسابوري يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبيد الله الشامي وأبا الحسن محمد بن الحسين القاضي الجرجاني يقولان : سمعنا إبراهيم بن فاتك يقول : سمعت يوسف بن الحسين يقول : سمعت ذا النون المصري يقول : كم من مغرور تحت الستر وهو لا يشعر .

وأنشدني الحسن بن جعفر البابي يقول : أنشدني منصور بن عبد الله الأصفهاني يقول : أنشدنا أبو بكر بن طاهر الأبهري في هذا المعنى :

يا من غلا في الغنى والتيه . . . وغرّه طول تماديه

أملى لك الله فبارزته . . . ولم تخف غبّ معاصيه

(136/806)

﴿ الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ قرأ أهل الكوفة بتخفيف الدال أي صرفك وأمالك إلى أي صورة شاء قبيحاً أو جميلا وقصيراً أو طويلا ، وقرأ الباقون بالتشديد أي قوّمك وجعلك معتدل الخلق ، وهو اختيار الفراء وأبي عبيد لقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

﴿ في أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ قال مجاهد : في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم .

وأنبأني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن العسكري قال : حدّثنا عبد الرحمن بن محمّد بن منصور قال : حدّثنا مطهر بن الهيثم قال : حدّثنا موسى بن علي عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (. . . .) : " وما ولد لك " قال : يا رسول الله وما عسى أن يولد لي إمّا غلام وإما جارية . قال صلى الله عليه وسلم " من شبه " قال : فمن شبه إمه وأباه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لا تقل هكذا إنّ النطفة إذا أستقرت في الرحم أحضر الله كلّ نسب بينهم وبين آدم ، أما قرأت هذه الآية ﴿ في أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ " قال صلى الله عليه وسلم " إن شاء في صورة إنسان وإن شاء في صورة حمار وإن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة كلب وإن شاء في صورة خنزير " .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ قراءة العامة بالتاء لقوله سبحانه ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ ﴾ وقراءة

أبو جعفر بالياء ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ رقباء يحفظون عليكم أعمالكم .

﴿ كِرَاماً ﴾ على الله ﴿ كَاتِبِينَ ﴾ يكتبون أقوالكم وأفعالكم .

(137/806)

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الأبرار ﴾ يعني الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء فرائض الله وإجتناب معاصيه ، وأخبرنا عبد الرحمن بن يحيى العدل قال : حدّثنا علي المؤمل قال : حدّثنا أحمد بن عثمان قال : حدّثنا هشام بن عامر قال : حدّثنا سعد بن يحيى بن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن محارب بن [دثار] عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنما سماهم الله الأبرار لأنّهم برّوا الأباء والأبناء ، كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق " .

﴿ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ يَوْمَ الدين ﴾ يوم القيامة ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ قراءة أهل مكّة والبصرة برفع الميم ردّاً على اليوم الأول ، وقراءة غيرهم بالنصب أي في يوم ، واختاره أبو عبيد قال : لأنها اضافة غير محضة ﴿

والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 145 .

148 ﴾

(138/806)

وقال الزمخشري :

سورة الانفطار

مكية ، وآياتها 19 [نزلت بعد النازعات] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الانفطار (82) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)

انْفَطَرَتْ انشقت فُجِّرَتْ فتح بعضها إلى بعض ، فاختلط العذب بالمالح ، وزال البرزخ الذي بينهما ، وصارت البحار بحرا واحدا . وروى أنّ الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار ، فتصير مستوية ، وهو معنى التسجير عند الحسن ، وقرئ : فجرت ، بالتخفيف . وقرأ

مجاهد : فجرت على البناء للفاعل والتخفيف ، بمعنى : بغت لزوال البرزخ نظرا إلى قوله تعالى لا يَبْغِيانِ لأنّ البغي والفجور أخوان . بعثر وبحثر بمعنى ، وهما مركبان من البعث والبحث

(139/806)

مع راء مضمومة إليهما . والمعنى : بحثت وأخرج موتاها . وقيل : لبراءة المبعثرة ، لأنها بعثرت أسرار المنافقين .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 6 إلى 8]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8)

فإن قلت : ما معنى قوله : ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به «1» ، وإنما يغتر بالكريم ، كما يروى عن على رضى اللّه عنه أنه صاح بغلام له كرّات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب ، فقال له : مالك لم تجبني ؟ قال : لثقتي بحلمك وأمنى من عقوبتك ، فاستحسن جوابه وأعتقه»

. وقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه . قلت :

معناه أنّ حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم اللّه عليه ، حيث خلقه حيا لينفعه ، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعد ما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب ، اغترارا بالتفضل الأوّل ، فإنه منكر خارج من حد الحكمة ، ولهذا قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما تلاها . «غرّه جهله» «3» وقال عمر رضى اللّه عنه : غرّه حمقه وجهله .

وقال الحسن : غره واللّه شيطانه الخبيث ، أى : زين له المعاصي وقال له : افعل ما شئت ، فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أوّلا وهو متفضل عليك آخرا ، حتى ورطه . وقيل للفضيل ابن عياض : إن أقامك اللّه يوم القيامة وقال لك : ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ما ذا تقول ؟ قال أقول : غرتني ستورك المرخاة . وهذا على سبيل الاعتراف بالخطإ في الاغترار بالستر ، وليس باعتذار كما يظنه الطماع ، ويطن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم : إنما قال بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ دون سائر صفاته ، ليلقن عبده الجواب حتى يقول : غرّنى كرم الكريم . وقرأ سعيد بن جبير :

ما أغرّك ، إما على التعجب ، وإما على الاستفهام ، من قولك : غرّ الرجل فهو غارّ : إذا غفل ،

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : قوله ما غرك بربك الكريم ما معناه وكيف يطابق الوصف بالكرم . . . الخ» ؟

قال أحمد : حجة الزمخشري ها هنا فارغة ، فان الآية إنما وردت في الكفار ، بدليل قوله كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ونحن نوافقه على خلودهم وانقطاع معاذيرهم ، لا على أن تخليدهم واجب على اللّه تعالى بمقتضى الحكمة ، فان اللّه لا يجب عليه شيء . ويجوز عقلا أن يثيب الكافر ويخلده في الجنة ، وبالعكس في المؤمن ، ولولا ورود السمع باثابة المؤمنين وعذاب الكافرين فيتعين المصير إليه ، لكان ما ذكرناه في الجواز والاحتمال ، فان اللّه عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

(2) . لم أجده .

(3) . أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن صالح بن سمار قال بلغني أن النبي صلى اللّه عليه وسلم تلا هذه الآية فذكره .

(140/806)

من قولك : بيتهم العدوّ وهم غارّون . وأغرّه غيره : جعله غارا فَسَوَّاكَ فجعلك سويا سالم الأعضاء فَعَدَلَكَ فصيرك معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه ، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا إحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، ولا بعض الشعر فاحما وبعضه أشقر . أو جعلك معتدل الخلق تمشى قائما لا كالبهائم . وقرئ :

فعدلك بالتخفيف. وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون بمعنى المشدّد، أى: عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت. والثاني فَعَدَلَكَ فصرفك. يقال: عدله عن الطريق يعنى: فعدلك عن خلقة غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق. أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات. ما في ما شاءَ مزيدة، أى: ركبك في أىّ صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة، والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه.

فإن قلت: هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها؟ قلت: لأنها بيان لعدلك. فإن قلت: بم يتعلق الجار؟ قلت: يجوز أن يتعلق بركبك. على معنى: وضعك في بعض الصور ومكنك فيه، وبمحذوف: أى ركبك حاصلا في بعض الصور، ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعدلك، ويكون في «أى» معنى التعجب «1»، أى فعدلك في صورة عجيبة، ثم قال: ما شاء ركبك. أى. ركبك ما شاء من التراكيب، يعنى تركيبا حسنا.

[سورة الانفطار (82): الآيات 9 إلى 12]

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10) كِراماً كاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12)

كَلَّا ارتدعوا عن الاغترار بكرم اللّه والتسلق به، وهو موجب الشكر والطاعة، إلى

عكسهما الذي هو الكفر والمعصية ، ثم قال بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ أصلا وهو الجزاء . أو دين الإسلام . فلا تصدّقون ثوابا ولا عقابا وهو شر من الطمع المنكر وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ تحقيق لما يكذبون به من الجزاء ، يعنى أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها . وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم : تعظيم لأمر الجزاء ، وأنه عند اللّه من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه ، ويجازى به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة . وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة «2» ولطف للمؤمنين . وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال : ما أشدّها من آية على الغافلين .

---

(1) . قوله «معنى التعجب» لعله : التعجيب . (ع)

(2) . قوله «و تشوير العصاة» أى إخجال اه كذا بهامش وفي الصحاح «الشوار» الفرع . ومنه قيل :

شور به أى كأنه أبدى عورته . (ع)

[سورة الانفطار (82) : الآيات 13 إلى 16]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15) وَما هُمْ

عَنْها بِغائِبِينَ (16)

وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ كقوله وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها ويجوز أن يراد : يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك ، يعنى : في قبورهم . وقيل : أخبر اللّه في هذه السورة أنّ لابن آدم ثلاث حالات : حال الحياة التي يحفظ فيها عمله ، وحال الآخرة التي يجازى فيها ، وحال البرزخ وهو قوله وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 17 إلى 19]

وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

يعنى أن أمر يوم الدين بحيث لا ندرك دراية دار كنهه في الهول والشدّة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه ، والتكرير لزيادة التهويل ، ثم أجمل القول في وصفه فقال يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً أى لا تستطيع دفعا عنها ولانفعا لها بوجه ولا أمر إلا للّه وحده . من رفع فعلى البدل من يوم الدين ، أو على : هو يوم لا تملك . ومن نصب فبإضمار يدانون ، لأنّ الدين يدل عليه . أو بإضمار اذكر . ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في محل الرفع .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ إذا السماء انفطرت كتب اللّه له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ

4 صـ 717.714 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(142/806)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إذا السماءُ انْفَطَرتْ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : انشقت .

الثاني : سقطت ، قال الشاعر :

كانوا سعوداً سماءَ الناس فانفطرت . . . فأصبح الشمل لم ترفع له عُمُد

﴿ وإذا الكواكب انتَثَرتْ ﴾ يعني تساقطت ، قال ابن عباس ، تسقط سوداء لا ضوء لها .

﴿ وإذا البحار فُجِّرَتْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يبست ، قاله الحسن .

الثاني : خلطت فصارت بحراً واحداً ، وهذا معنى قول ابن عباس ، قال : وهو سبعة أبحر

فتصير بحراً واحداً .

الثالث : فجر عذبها في مالحها : ومالحها في عذبها ، قاله قتادة .

ويحتمل رابعاً : أي فاضت .

﴿ وإذا القبور بُعْثِرتْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بحثت وثوّرت ، قاله ابن عباس وعكرمة ، وقال الفراء : فيخرج ما في بطنها من الذهب والفضة ، وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها ثم تخرج الموتى .

الثاني : حركت للبعث ، قاله السدي .

الثالث : بعث من فيها من الأموات ، قاله قتادة .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قدّمَتْ وأَخرَتْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما عملت وما تركت ، قاله ابو رزين .

الثاني : ما قدمت من طاعة ، وأخرت من حق الله ، قاله ابن عباس .

الثالث : ما قدمت من الصدقات وما أخرت من الميراث .

ويحتمل ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة ، لأنه خارج مخرج الوعيد ، وهذا جواب ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ لأنه خبر ، وجعلها الحسن قَسَماً وقعت على قوله ﴿ علمت نفس ﴾ الآية .

والأظهر ما عليه الجماعة من أنه خبر وليس بقسم .

﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربّكَ الكريم ﴾ في الإنسان ها هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه إشارة إلى كل كافر .

الثاني : أنه أبي بن خلف ، قاله عكرمة .

الثاث : أنه أبو الأشد بن كلدة بن أسد الجمحي ، قاله ابن عباس .

وفي الذي غرَّه قولان :

أحدهما : عدوه الشيطان ، قاله قتادة .

الثاني : جهله ، وهو قول عمر بن الخطاب .

ويحتمل قولاً ثالثاً : إنه إمهاله .

(143/806)

" الكريم " الذي يتجاوز ويصفح ، وروى الحسن أن عمر بن الخطاب لما قرأ ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ . . . . . الآية ، قال : حمقه وجهله .

﴿ الذي خَلَقَك فسَوَّاك فَعدَلك ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : فسوى خلقك وعدل خلقتك .

الثاني : فسوَّى أعضاءك بحسب الحاجة وعدلها في المماثلة لا تفضل يد على يد ، ولا رجل على رجل .

الثالث : فسواك إنساناً كريماً وعدل بك عن أن يجعلك حيواناً بهيماً .

قال أصحاب الخواطر : سوّاك بالعقل وعدلك بالإيمان .

﴿ فِي أَيِّ صورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما شاء ركبك من شبه أم أو أب أو خال أو عم ، قاله مجاهد .

الثاني : من حسن أو قبح أو طول أو قصر أو ذكر أو أنثى ، قاله ابن عيسى .

الثالث : في أي صورة من صور الخلق ركبك حتى صرت على صورتك التي أنت عليها أيها الإنسان لا يشبهك شيء من الحيوان .

وروى موسى بن علي بن رباح اللخمي عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجده : " ما وِلدَ لك ؟ " قال : يا رسول الله وما عسى أن يولد لي إما غلام وإما جارية ، قال رسول الله : " ومن عسى أن يشبه ؟ " قال : إما أباه وإما أمه ، فقال عليه السلام عندها : " مه لا تقولن هكذا ، إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم أما قرأت في كتاب الله : في أي صورة ما شاء ركبك . "

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبونَ بالدِّين ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بالحساب والجزاء ، قاله ابن عباس .

الثاني : بالعدل والقضاء ، قاله عكرمة .

الثالث : بالدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وإنَّ عليكم لحافِظِينَ ﴾ يعني الملائكة ، يحفظ كلَّ إنسان ملكان ، أحدهما عن يمينه يكتب الخير ، والآخر عن شماله يكتب الشر .

﴿ كِراماً كاتِبينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كراماً على الله ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : كراماً بالإيمان ، قاله السدي .

(144/806)

الثالث : لأنهم لا يفارقون ابن آدم إلا في موطنين عند الغائط وعند الجماع يعرضان عنه ويكتبان ما تكلم به ، فلذلك كره الكلام عند الغائط والجماع .

ويحتمل رابعاً : كراماً لأداء الأمانة فيما يكتبونه من عمله فلا يزيدون فيه ولا ينقصون منه .

وفي قوله تعالى : ﴿ إنّ الأبرارَ لفي نَعيم * وإن الفُجّارَ لفي جَحيمٍ ﴾ قولان :

أحدهما : في الآخرة فيكون نعيم الأبرار في الجنة بالثواب ، وجحيم الفجار في النار بالعقاب .

والقول الثاني : أنه في الدنيا ، فعلى هذا فيه أربعة أوجه ذكرها أصحاب الخواطر .

أحدها : النعيم القناعة ، والجحيم الطمع .

الثاني : النعيم التوكل ، والجحيم الحرص .

الثالث : النعيم الرضا بالقضاء ، والجحيم السخط فيما قدر وقضى .

الرابع : النعيم بالطاعة ، والجحيم بالمعيصية .

﴿ وما هُمْ عنها بغائبين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن القيامة تحقيق للبعث فعلى هذا يجوز أن يكون هذا الخطاب متوجهاً إلى الأبرار والفجار جميعاً .

الثاني : عن النار ، ويكون الخطاب متوجهاً إلى الفجار دون الأبرار ، والمراد بأنهم لا يغيبون عنها أمران :

أحدهما : تحقيق الوعيد .

الثاني : تخليد الفجار .

﴿ وما أدْراك ما يومُ الدِّين * ثُمَّ ما أدْراكَ ما يومُ الدِّين ﴾ يعني يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة ، وفي تكراره وجهان :

أحدهما : تفخيماً لشأنه وتعظيماً لأمره .

الوجه الثاني : أن الأول خطاب للفجار والثاني خطاب للأبرار ترغيباً .

﴿ يومَ لا تَمْلِك نفسٌ لنَفْسٍ شيئاً ﴾ يعني لا يملك مخلوق لمخلوق نفعاً ولا ضراً .

﴿ والأمر يومئذٍ للَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في الجزاء بالثواب والعقاب .

الثاني : في العقوبة والانتقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 220 .

224 ﴾

(145/806)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾

انفطارها : انشقاقها .

و ﴿ انتثرت ﴾ بمعنى تساقطت .

و ﴿ فجرت ﴾ بمعنى فُتح بعضها في بعض فصارت بحراً واحداً .

وقال الحسن : ذهب ماؤها ، و ﴿ بُعْثِرَتْ ﴾ بمعنى أثيرت .

قال ابن قتيبة : قُلِبَتْ فأُخْرِجَ ما فيها .

يقال بَعْثَرْتُ المتاع وبَحْثَرْتُه : إذا جعلتَ أسفله أعلاه .

قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدَّمت وأخَّرت ﴾ هذا جواب الكلام .

وقد شرحناه في قوله تعالى ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخَّر ﴾ [القيامة : 13] .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه عُنِيَ به أبو الأشدين ، وكان كافراً ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

وقد ذكرنا اسمه في [المدثر : 30] .

والثاني : أنه الوليد بن المغيرة ، قاله عطاء .

والثالث : أُبيّ بن خلف ، قاله عكرمة .

والرابع : أنه أشار الى كل كافر ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ما غرَّكَ ﴾ قال الزجاج : أي : ما خَدَعك وسوَّل لك حتى أضعتَ ما وجب عليك ؟ .

وقال غيره : المعنى : ما الذي أمَّنك من عقابه وهو كريم متجاوز إذْ لم يعاقبك عاجلاً ؟

وقيل للفضيل بن عياض : لو أقامك الله سبحانه يوم القيامة ، وقال : ما غرَّك بربك الكريم ، ماذا كنت تقول ؟ قال : أقول : غرني سُتورك المرخاة .

وقال يحيى بن معاذ : لو قال لي : ما غرك بي ؟ قلت : بِرُّك سالفاً وآنفاً .

قيل : لما ذكر الصفة التي هي الكرم ها هنا دون سائر صفاته ، كان كأنه لقَّن عبده الجواب ، ليقول : غرَّني كرم الكريم .

قوله تعالى : ﴿ الذي خلقك ﴾ ولم تك شيئاً ﴿ فسوَّاك ﴾ إنساناً تسمع وتبصر ﴿ فَعَدلك ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر "فعدَّلك" بالتشديد .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي "فَعَدَلك" بالتخفيف .

قال الفراء : من قرأ بالتخفيف ، فوجهه والله أعلم فصوَّرك إلى أي صورة شاء ، إما حَسَن ، وإما قبيح ، وإما طويل ، وإما قصير .

(146/806)

وقيل : في صورة أب ، في صورة عم ، في صورة بعض القرابات تشبيها .

ومن قرأ بالتشديد ، فإنه أراد والله أعلم- : جعلك معتدلاً ، معدَّل الخلقة .

وقال غيره : عدَّل أعضاءك فلم تفضل يد على يد ، ولا رِجل على رجل ، وعدل بك أن يجعلك حيواناً بهيماً .

قوله تعالى : ﴿ في أي صورة ما شاء ركَّبك ﴾ قال الزجاج : يجوز أن تكون "ما" زائدة .

ويجوز أن تكون بمعنى الشرط والجزاء ، فيكون المعنى : في أي صورة ما شاء أن يركِّبك فيها ركبك .

وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : في أي صورة من صور القرابات ركَّبك ، وهو معنى قول مجاهد .

والثاني : في أي صورة ، من حسن ، أو قبح ، أو طول ، أو قصر ، أو ذَكَر ، أو أنثى ، وهو معنى قول الفراء .

والثالث : إن شاء أن يركِّبك في غير صورة الإنسان ركبك ، قاله مقاتل .

وقال عكرمة : إن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير .

والرابع : إن شاء في صورة إنسان بأفعال الخير .

وإن شاء في صورة حمار بالبلادة والبله ، وإن شاء في صورة كلب بالبخل ، أو خنزير بالشره ، ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ بل تكذِّبون بالدِّين ﴾ وقرأ أبو جعفر "بالياء" أي : بالجزاء والحساب ، تزعمون أنه غير كائن .

ثم أعلمهم أن أعمالهم محفوظة ، فقال تعالى ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ أي : من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ﴿ كراماً ﴾ على ربِّهم ﴿ كاتبين ﴾ يكتبون أعمالكم ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ من خير وشر ، فيكتبونه عليكم .

قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ وذلك في الآخرة إذا دخلوا الجنة ﴿ وإن الفجار ﴾ وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون .

والثاني : الظَّلَمة .

ونقل عن سليمان بن عبد الملك أنه قال لأبي حازم : يا ليت شعري ما لنا عند الله ؟ فقال له : اعرض عملك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عنده ، فقال : وأين أجده ؟ قال : عند قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾ قال سليمان : فأين رحمة الله ؟ قال : قريب من المحسنين .

(147/806)

قوله تعالى : ﴿ يصلونها ﴾ يعني : يدخلون الجحيم مقاسين حرَّها ﴿ يوم الدِّين ﴾ أي : يوم الجزاء على الأعمال ﴿ وما هم عنها ﴾ أي : عن الجحيم ﴿ بغائبين ﴾ وهذا يدل على تخليد الكفار .

وأجاز بعض العلماء أن تكون "عنها" كناية عن القيامة ، فتكون فائدة الكلام تحقيق البعث .

ويشتمل هذا على الأبرار والفجار .

ثم عظَّم ذلك اليوم بقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدِّين ﴾ ثم كرَّر ذلك تفخيماً لشأنه ، وكان ابن السائب يقول : الخطاب بهذا للإنسان الكافر ، لا لرسول الله صلى الله عليه

وسلم.

قوله تعالى: ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو "يوم" بالرفع والباقون بالفتح.

قال الزجاج: من رفع "اليوم"، فعلى أنه صفة لقوله تعالى: "يوم الدين".

ويجوز أن يكون رفعه بإضمار "هو"، ونصبه على معنى: هذه الأشياء المذكورة تكون ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ قال المفسرون: ومعنى الآية أنه لا يملك الأمرَ أحدٌ إلا الله، ولم يملِّك أحداً من الخلق شيئاً كما ملَّكهم في الدنيا.

وكان مقاتل يقول: لا تملك نفس لنفسٍ كافرةٍ شيئاً من المنفعة.

والقول على الإطلاق أصح، لأن مقاتلاً فيما أحسب خاف نفي شفاعة المؤمنين.

والشفاعة إنما تكون عن أمر الله وتمليكه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير جـ 9 صـ 46. 50 ﴾

(148/806)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ إذا السّماء انفطرت ﴾

أي انشقت ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أي فجر بعضها في بعض واختلط العذب بالملح ، فصارت بحراً واحداً ، وقيل معنى فجرت فاضت .

﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أي بحثرت ، وقلب ترابها وبعث من فيها منه الموتى أحياء .

﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ يعني علمت في ذلك اليوم ما قدمت من عمل صالح ، أو سيىء ، وأخرت بعدها من حسنة أو سيئة ، وقيل ما قدمت من الصّدقات وأخرت من الزّكوات ، وهذه أحوال يوم القيامة .

قوله : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ أي ما خدعك ، وسول لك الباطل حتى صنعت ما صنعت ، وضيعت ما أوجب عليك ، والمعنى ماذا أمنك من عقابه ، قيل نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل في أبي الشّريق ، واسمه أسيد بن كلدة ، وقيل كلدة بن خلف ، وكان كافراً ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يعاقبه الله وأنزل الله هذه الآية ، وقيل الآية عامة في كل كافر وعاص ، يقول ما الذي غرك ، قيل غره حمقه ، وجهله وقيل تسويل الشّيطان له ، وقيل غره عفو الله عنه حيث لم يعاجله بالعقوبة في أول مرة بربك الكريم ، أي المتجاوز عنك ، فهو بكرمه لك لم يعاجلك بعقوبته بل بسط لك المدة لرجاء التّوبة .

قال ابن مسعود " ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة .

فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ! ماذا عملت ؟ فيما علمت يا ابن آدم ؟ ماذا أجبت المرسلين " ، وقيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله يوم القيامة فيقول لك يا ابن آدم ما غرك بربك الكريم ؛ ماذا كنت تقول .

قال : أقول غرني ستورك المرخاة ، وقال يحيى بن معاذ : لو أقامني بين يديه ، وقال ما غرك بي أقول غرني بربك بي سالفاً وآنفاً ، وقال أبو بكر الوراق لو قال لي ما غرك بربك الكريم لقلت غرني كرم الكريم ، وقال بعض أهل الإشارة .

إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه ، وصفاته كأنه لقنه حجته في الإجابة حتى يقول غرني كرم الكريم .

(149/806)

﴿ الذي خلقك ﴾ أي أوجدك من العدم إلى الوجود ﴿ فسواك ﴾ أي جعلك سوياً سالم الأعضاء ، تسمع وتبصر ﴿ فعدلك ﴾ أي عدل خلقك في مناسبة الأعضاء فلم يجعل بعضها أطول من بعض ، وقيل معناه جعلك قائماً معتدلاً حسن الصّورة ، ولم يجعلك كالبهيمة المنحنية ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ أي في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم ، وجاء في الحديث " إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضر كل عرق بينه وبين آدم ثم

قرأ : ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ " ، وقيل معناه إن شاء ركبك في صورة إنسان ، وإن شاء في صورة دابة أو حيوان ، وقيل في أي صورة ما شاء ركبك من الصور المختلفة بحسب الطول ، والقصر ، والحسن ، والقبح والذكورة ، والأنوثة ، وفي هذه دلالة على قدرة الصانع المختار القادر .

وذلك أنه لما اختلفت الهيئات ، والصفات دل ذلك على كمال القدرة ، واتساع الصنعة ، وأن المدبر المختار هو الله تعالى .

قوله : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ أي بيوم الحساب والجزاء ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ يعني رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ﴿ كراماً ﴾ أي على الله ﴿ كاتبين ﴾ أي يكتبون أقوالكم وأعمالكم ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ يعني من خير أو شر .

قوله ﴿ إن الأبرار ﴾ يعني الذين بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء ما افترض الله عليهم ، واجتناب معاصيه .

﴿ لفي نعيم ﴾ يعني نعيم الجنة ﴿ وإن الفجار لفي جحيم ﴾ روي أن سليمان بن عبد الملك قال : لأبي حازم المزني ليت شعري ما لنا عند الله ، فقال له : اعرض عملك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله ، قال : أين أجد ذلك في كتاب الله ؟ قال : عند قوله ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ قال سليمان فأين رحمة الله قال قريب من المحسنين ﴿ يصلونها يوم الدين ﴾ يعني يوم القيامة لأنه يوم الجزاء .

(150/806)

﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي عن النّار ثم عظم شأن ذلك اليوم فقال تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ قيل المخاطب بذلك هو الكافر ، وهو على وجه الزّجر له ، وقيل هو خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) : والمعنى أي شيء أعلمك به لو لم نعرفك أحواله ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ التكرير لتعظيم ذلك اليوم ، وتفخيم شأنه ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ أي لا تملك نفس كافرة شيئاً من المنفعة ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ يعني أنه لم يملك الله في ذلك أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 216.218 ﴾

(151/806)

وقال النسفى :

سورة الانفطار

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾

انشقت ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ تساقطت ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ فتح بعضها إلى بعض وصارت البحار بحراً واحداً ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ بحثت وأخرج موتاها وجواب "إذا" ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أي كل نفس برة وفاجرة ﴿ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ ما عملت من طاعة ﴿ وَأَخَّرَتْ ﴾ وتركت فلم تعمل أو ما قدمت من الصدقات وما أخرت من الميراث ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ قيل : الخطاب لمنكري البعث ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم * الذى خَلَقَكَ ﴾ أي شيء خدعك حتى ضيعت ما وجب عليك مع كرم ربك حيث أنعم عليك بالخلق والتسوية والتعديل ؟ وعنه عليه السلام حين تلاها غره جهله .

وعن عمر رضي الله عنه : غره حمقه .

وعن الحسن : غره شيطانه .

وعن الفضيل : لو خوطبت أقول غرتني ستورك المرخاة .

وعن يحيى بن معاذ أقول : غرني برك بي سالفاً وآنفاً ﴿ فَسَوَّاكَ ﴾ فجعلك مستوي الخلق سالم الأعضاء ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ فصيّرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه فلم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا إحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، أو جعلك معتدل الخلق تمشي قائماً لا كالبهائم .

وبالتخفيف : كوفي وهو بمعنى المشدد أي عدّل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت فكنت معتدل الخلقة متناسباً ﴿ فِى أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ "ما" مزيد للتوكيد أي ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر ، ولم تعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها لأنها بيان ل ﴿ عدلك ﴾ والجار يتعلق ب ﴿ رَكَّبَكَ ﴾ على معنى وضعك في بعض الصور ومكنك فيها ، أو بمحذوف أي ركبك حاصلاً في بعض الصور .

(152/806)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ أصلاً وهو الجزاء أو دين الإسلام فلا تصدقون ثواباً ولا عقاباً ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿ كِرَاماً كاتبين ﴾ يعني أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم .

وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأمور ، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتقين .

وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال : ما أشدها من آية على الغافلين ! ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى

نَعِيمٍ ﴾ إن المؤمنين لفي نعيم الجنة ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ وإن الكفار لفي النار ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين ﴾ يدخلونها يوم الجزاء .

﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أي لا يخرجون منها كقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بخارجين مِنْهَا ﴾ [المائدة : 37] [البقرة : 167] .

ثم عظم شأن يوم القيامة فقال ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ فكرر للتأكيد والتهويل وبينه بقوله ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ أي لا تستطيع دفعاً عنها ولا نفعاً لها بوجه وإنما تملك الشفاعة بالإذن .

﴿ يَوْم ﴾ بالرفع : مكي وبصري أي هو يوم ، أو بدل من ﴿ يَوْم الدين ﴾ ومن نصب فبإضمار "اذكر" أو بإضمار يدانون لأن الدين يدل عليه ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أي لا أمر إلا لله تعالى وحده فهو القاضي فيه دون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 337.338 ﴾

(153/806)

وقال ابن جزى :

سورة الانفطار

﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾

أي انشقت ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ أي سقطت من مواضعها ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ أي فرغت وقيل : فجر بعضها إلى بعض فاختلط ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ أي نبشت على الموتى الذين فيها ، وقال الزمخشري : أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء والمعنى بحثت وأخرج موتاها ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ هاذ هو الجواب ومعناه : علمت كل نفس جميع أعمالها ، وقيل ما قدمت في حياتها وما أخرت مما تركته بعد موتها من سنَّتها أو وصيَّة أوصت بها ، وأفردت النفس والمراد به العموم حسبما ذكرنا في التكوير .

(154/806)

﴿ يا أَيُّهَا الإنسان ﴾ خطاب لجنس بني آدم ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ هذا توبيخ وعتاب معناه : أي شيء غرّك بربك حتى كفرت به أو عصيته ، أو غفلت عنه فدخل في العتاب الكفار وعصاة المؤمنين ، ومن يغفل عن الله في بعض الأحياء من الصالحين . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ما غرّك بربك الكريم فقال : غرّه جهله وقال عمر : غرّه جهله وحمقه . وقرأ : إنه كان ظلوماً جهولاً ، وقيل : غرّه الشيطان المسلط عليه .

وقيل : غرّه ستر الله عليه وقيل : غرّه طمعه في عفو الله عنه . ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد منهما مما يغرّ الإنسان ، إلا أن بعضها يغرّ قوماً وبعضها يغر قوماً آخرين ، فإن قيل : ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور ؟ فالجواب : أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكراً لإحسانه ومقابلة لكرمه ، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ بالتشديد والتخفيف أي عدل أعضاءك وجعلها متوازية فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ، ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى ولا إحداهما كحلاء والأخرى زرقاء ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود وشبه ذلك من الموازنة ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ المجرور يتعلق بركبك وما زائدة ، والمعنى ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح ، والطول والقصر ، والذكورة والأنوثة ، وغير ذلك من اختلاف الصور ، ويحتمل أن يتعلق المجرور بمحذوف تقديره : ركبك حاصلاً في أي صورة ، وقيل : يتعلق بعدلك على أن يكون بمعنى صرفك إلى أي صورة شاء ، هذا بعيد ، ولا يمكن إلا مع قراءة عدلك بالتخفيف .

(155/806)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع الغرور المذكور قبل ، والتكذيب المذكور بعد ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ هذا خطاب للكفار والدين هنا يحتمل أن يكون بمعنى الشريعة أو الحساب أو الجزاء ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ يعني الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعلمون الأعمال لمشاهدتهم لها ، وأما ما لا يرى ولا يسمع من الخواطر والنيات والذكر بالقلب فقيل : إن الله ينفرد بعلم ذلك ، وقيل إن الملك يجد لها ريحاً يدركها به ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ ﴾ في هذه الآية وفيما بعدها من أدوات البيان المطابقة والترصيع ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أن معناه لا يخرجون منها إذا دخلوها ، والآخر : لا يغيبون عنها في البرزخ قبل دخولها لأنهم يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ تعظيم له وتهويل ، وكرّره للتأكيد والمعنى أنه من شدته بحيث لا يدري أحد مقدار هوله وعظمته .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ أي لا يقدر أحد على منفعة أحد ، وقرئ يوم بالرفع على البدل من يوم الدين ، أو على إضمار مبتدأ ، أو بالنصب على الظرفية بإضمار فعل تقديره فعل يجازون يوم الدين أو النصب على المفعولية بإضمار فعل تقديره اذكر ، ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في موضع رفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 183.182 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الانفطار

مكية وآيها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ انشقت .

﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ تساقطت متفرقة .

﴿ وَإِذَا البحار فُجّرَتْ ﴾ فتح بعضها إلى بعض فصار الكل بحراً واحداً .

﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ قلب ترابها وأخرج موتاها . وقيل إنه مركب من بعث وراء الإثارة كبسمل ونظيره بحثر لفظاً ومعنى .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ من عمل أو صدقة . ﴿ وَأَخَّرَتْ ﴾ من سيئة أو تركت ، ويجوز أن يراد بالتأخير التضييع وهو جواب ﴿ إِذَا ﴾ .

﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه ، وذكر ﴿ الكريم ﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم وتسوية الموالي والمعادي والمطيع والعاصي ، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام والإشعار بما به يغره الشيطان ، فإنه يقول له افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا

يعاجل بالعقوبة ، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجد في طاعته لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه .

﴿ الذى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم منبهة على أن من قدر على ذلك أولاً قدر عليه ثانياً ، والتسوية جعل الأعضاء سليمة مسواة معدة لمنافعها ، والتعديل جعل البنية معدلة متناسبة الأعضاء ، أو معدلة بما تسعدها من القوى . وقرأ الكوفيون "فَعَدَلَكَ" بالتخفيف أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت ، أو فصرفك عن خلقه غيرك وميزك بخلقة فارقت خلقة سائر الحيوان .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ أي ركبك في أي صورة شاءها ، و﴿ مَا ﴾ مزيدة وقيل شرطية ، و﴿ رَكَّبَكَ ﴾ جوابها والظرف صلة ﴿ عدلك ﴾ ، وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيان لعدلك .

(157/806)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله وقوله : ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ﴾ إضراب إلى بيان ما هو السبب الأصلي في اغترارهم ، والمراد ﴿ بالدين ﴾ الجزاء أو الإسلام .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين كِرَاماً كاتبين يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تحقيق لما يكذبون به ورد لما

يتوقعون من التسامح والإهمال ، وتعظم الكتبة بكونهم كراماً عند الله لتعظيم الجزاء .

﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الفجار لَفِى جَحِيمٍ ﴾ بيان لما يكتبون لأجله .

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يقاسون حرها . ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ .

﴿ وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ . لخلودهم فيها . وقيل معناه وما يغيبون عنها قبل ذلك إذ كانوا يجدون سمومها في القبور .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ تعجيب وتفخيم لشأن ال ﴿ يَوْم ﴾ ، أي كنه أمره بحيث لا تدركه دراية دار .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ تقرير لشدة هوله وفخامة أمره إجمالاً ، ورفع ابن كثير والبصريان ﴿ يَوْم ﴾ على البدل من ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ ، أو الخبر المحذوف .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة ، وبعدد كل قبر حسنة " والله أعلم . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 460.462 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة الانفطار

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

انفطارها تقدم الكلام فيه ، وانتثار الكواكب : سقوطها من مواضعها كالنظام .

وقرأ الجمهور : ﴿ فجرت ﴾ بتشديد الجيم ؛ ومجاهد والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري : بخفها ، وتفجيرها من امتلائها ، فتفجر من أعلاها وتفيض على ما يليها ، أو من أسفلها فيذهب الله ماءها حيث أراد .

وعن مجاهد : فجرت مبنياً للفاعل مخففاً بمعنى : بغت لزوال البرزخ نظراً إلى قوله تعالى : ﴿ لا يبغيان ﴾ لأن البغي والفجر متقابلان .

﴿ بعثرت ﴾ ، قال ابن عباس : بحثت .

وقال السدي : أثيرت لبعث الأموات .

وقال الفراء : أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة .

وقال الزمخشري : بعثر وبحثر بمعنى واحد ، وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما ، والمعنى : بحثت وأخرج موتاها .

وقيل : لبراءة المبعثرة ، لأنها بعثرت أسرار المنافقين . انتهى .

فظاهر قوله أنهما مركبان أن مادتهما ما ذكر ، وأن الراء ضمت إلى هذه المادة ، والأمر ليس كما يقتضيه كلامه ، لأن الراء ليست من حروف الزيادة ، بل هما مادتان مختلفتان وإن اتفقا من حيث المعنى .

وأما أن إحداهما مركبة من كذا فلا ، ونظيره قولهم : دمث ودمثر وسب وسبطر .

﴿ ما قدمت وأخرت ﴾ : تقدم الكلام على شبهه في سورة القيامة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما غرك ﴾ ، فما استفهامية .

وقرأ ابن جبير والأعمش : ما أغرك بهمز ، فاحتمل أن يكون تعجباً ، واحتمل أن تكون ما استفهامية ، وأغرك بمعنى أدخلك في الغر .

وقال الزمخشري : من قولك غر الرجل فهو غار ، إذا غفل من قولك بينهم العدو وهم غارون ، وأغرة غيره : جعله غاراً . انتهى .

وروي أنه عليه الصلاة والسلام قرأ : ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ ، فقال : جهله وقاله عمر رضي الله تعالى عنه وقرأ أنه كان ظلوماً جهولاً ، وهذا يترتب في الكافر والعاصي .

وقال قتادة : عدوه المسلط عليه ، وقيل : ستر الله عليه .

(159/806)

وقيل : كرم الله ولطفه يلقن هذا الجواب ، فهذا لطف بالعاصي المؤمن .

وقيل : عفوه عنه إن لم يعاقبه أول مرة .

وقال الفضيل رضي الله عنه : ستره المرخى .

وقال ابن السماك :

يا كاتم الذنب أما تستحي . . .

والله في الخلوة رائيكا

غرك من ربك إمهاله . . .

وستره طول مساويكا

وقال الزمخشري : في جواب الفضيل ، وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ .

بالاغترار : بالستر ، وليس باعتذار كما يظنه الطماع ، ويظن به قصاص الحشوية ، ويروون عن أئمتهم إنما قال : ﴿ بربك الكريم ﴾ دون سائر صفاته ، ليلقن عبده الجواب حتى يقول : غرني كونه الكريم . انتهى .

وهو عادته في الطعن على أهل السنة .

﴿ فسواك ﴾ : جعلك سوياً في أعضائك ، ﴿ فعدلك ﴾ : صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت .

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وطلحة والأعمش وعيسى وأبو جعفر والكوفيون : بخف

الدال ؛ وباقي السبعة : بشدها .

وقراءة التخفيف إما أن تكون كقراءة التشديد ، أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت ، وإما أن يكون معناه فصرفك .

يقال : عدله عن الطريق : أي عدلك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق ، أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات .

والظاهر أن قوله : .

﴿ في أي صورة ﴾ يتعلق بربك ، أي وضعك في صورة اقتضتها مشيئة من حسن وطول وذكورة ، وشبه ببعض الأقارب أو مقابل ذلك .

وما زائدة ، وشاء في موضع الصفة لصورة ، ولم يعطف ﴿ ركبك ﴾ بالفاء كالذي قبله ، لأنه بيان لعدلك ، وكون في أي صورة متعلقاً بربك هو قول الجمهور .

وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي ركبك حاصلاً في بعض الصور .

وقال بعض المتأولين : إنه يتعلق بقوله : ﴿ فعدلك ﴾ ، أي : لك في صورة ، أي صورة ؛ وأي تقتضي التعجيب والتعظيم ، فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار ؛ وعلى هذا تكون ما منصوبة بشاء ، كأنه قال : أي تركيب حسن شاء ركبك ، والتركيب : التأليف وجمع شيء إلى شيء .

وأدغم خارجة عن نافع ركبك كلا ، كأبي عمرو في إدغامه الكبير .

وكلا : ردع وزجر لما دل عليه ما قبله من اغترارهم بالله تعالى ، أو لما دل عليه ما بعد كلا من تكذيبهم بيوم الجزاء والدين أو شريعة الإسلام .

وقرأ الجمهور : ﴿ بل تكذبون ﴾ بالتاء ، خطاباً للكفار ؛ والحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو بشر : بياء الغيبة .

﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ : استئناف إخبار ، أي عليهم من يحفظ أعمالهم ويضبطها .

ويظهر أنها جملة حالية ، والواو واو الحال ، أي تكذبون بيوم الجزاء .

والكاتبون : الحفظة يضبطون أعمالكم لأن تجازوا عليها ، وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء .

وقرأ الجمهور : ﴿ يصلونها ﴾ ، مضارع صلى مخففاً ؛ وابن مقسم : مشدّداً مبنياً للمفعول .

﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ ، فيكتبون ما تعلق به الجزاء .

قال الحسن : يعلمون ما ظهر دون حديث النفس .

وقال سفيان : إذا هم العبد بالحسنة أو السيئة ، وجد الكاتبان ريحها .

وقال الحسين بن الفضل : حيث قال يعلمون ولم يقل يكتبون دل على أنه لا يكتب الجميع فيخرج عنه السهو والخطأ وما لا تبعة فيه .

﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ : أي عن الجحيم ، أي لا يمكنهم الغيبة ، كقوله : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ وقيل : إنهم مشاهدوها في البرزخ .

لما أخبر عن صلبهم يوم القيامة ، أخبر بانتفاء غيبتهم عنها قبل الصلي ، أي يرون مقاعدهم من النار .

﴿ وما أدراك ﴾ : تعظيم لهول ذلك اليوم .

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو : ﴿ يوم لا تملك ﴾ برفع الميم ، أي هو يوم ، وأجاز الزمخشري فيه أن يكون بدلاً مما قبله .

وقرأ محبوب عن أبي عمرو : يوم لا تملك على التنكير منوناً مرفوعاً فكه عن الإضافة وارتفاعه على هو يوم ، ولا تملك جملة في موضع الصفة ، والعائد محذوف ، أي لا تملك فيه .

(161/806)

وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج وباقي السبعة : يوم بالفتح على الظرف ، فعند البصريين هي حركة إعراب ، وعند الكوفيين يجوز أن تكون حركة بناء ، وهو على التقديرين في موضع رفع خبر المحذوف تقديره : الجزاء يوم لا تملك ، أو في موضع نصب على الظرف ، أي يدانون يوم لا تملك ، أو على أنه مفعول به ، أي اذكر يوم لا تملك . ويجوز على رأي من يجيز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر المبتدأ محذوف تقديره : هو .

﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ : عام كقوله : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ﴾ وقال مقاتل : لنفس كافرة شيئاً من المنفعة .

﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ ، قال قتادة : وكذلك هو اليوم ، لكنه هناك لا يدعي أحد منازعة ، ولا يمكن هو أحداً مما كان ملكه في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(162/806)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

التفسير : إنه سبحانه يذكر طرفاً آخر من أشراط الساعة في هذه السورة . فأوّلها انفطار

السماء أي انشقاقها كقوله في الفرقان ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] وكما يجيء في قوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] وفيه كذا في قوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ إبطال قول من زعم أن الفلكيات لا تنخرق . أما الدليل المعقول الذي ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره وهو أن الأجسام متماثلة في الجسمية فيصح على كل واحد منها ما يصح على الباقي لكن السفليات يصح عليها الانخراق فيصح على العلويات أيضاً فغير مفيد ولا مقنع ، لأن الخصم لو سلم الصحة فله أن ينازع في الوقوع لمانع كالصورة الفلكية وغيرها . وأما تفجير البحار فقد فسروها بفتح بعضها إلى بعض حتى تصير البحار كلها بحراً واحداً وذلك التزلزل الأرض وتصدعها حتى يرتفع الحاجز الذي بين البحار الشرقية وبين البحار الغربية . وقد فسره في الكشاف بزوال البرزخ بين العذب والمالح حتى يختلطا وهو تصوّر فاسد نشأ من مجرّد سماع لفظ ارتفاع البرزخ . وعن الحسن : إن الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية وهو معنى التسجير عنده كما مر في السورة المتقدّمة . قال جار الله : بعثر وبحثر بمعنى وهما من البعث والبحث زيد فيهما الراء والمعنى بحثت القبور وأخرج موتاها . ولأهل التأويل أن يحملوا بعثرة القبور على كشف الأسرار والأحوال الخفية ، ومعنى التقديم والتأخير قد سبق في القيامة في قوله

﴿ بنبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ﴾ [القيامة : 13] والمراد جميع أعمالها وإنما يحصل بها العلم الإجمالي عند الموت أو في أوائل أشراطه ثم يزيد شيئاً فشيئاً إلى حين مطالعة صحيفة العمل . ولما أخبر عن وقوع الساعة والحشر بين ما يدل عليه عقلاً فقال ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ هو الكافر المنكر للبعث عند طائفة لقوله بعد ذلك ﴿ كلا بل تكذبون ﴾ وقد يخص ببعضهم فروي عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة . وعن الكلبي ومقاتل في الأشد بن كلدة . وذلك أنه ضرب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى وأنزل الآية . والأقرب أنها تتناول جميع العصاة وخصوص السبب لا يقدح في العموم ، وههنا سؤال وهو أنه تعالى وصف نفسه في هذا المقام بالكرم وهذا الوصف يقتضي الاغترار به حتى قالت العقلاء : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه . وسمع الموبذ في مجلس أنوشروان ضحك الخدم فقال : أما يهاب هؤلاء الغلمان . فقال : إنما يهابنا أعداؤنا . وعن علي رضي الله عنه أنه دعا غلامه مرات فلم يجبه فنظر فإذا هو بالباب فقال لم لم تجبني ؟ فقال : لثقتي بتحملك وأمني من عقوبتك فاستحسن جوابه فأعتقه . " قال مؤلف الكتاب " : إني في عنفوان الشباب رأيت فيما يرى النائم أن القيامة قد قامت وقد دار في خلدي أن الله تعالى لو خاطبني بقوله ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك ﴾ فمادّا أقول ؟ ألهمني الله في المنام أن أقول : غرني كرمك يا رب . ثم إني وجدت هذا

المعنى قد ذكر في بعض التفاسير . وعن الفضيل بن عياض أنه قال : أقول في الجواب غرتني ستورك المرخاة . وإذا ثبت أن الكرم يقتضي أن يغتر بصاحبه فكيف وقع الإنكار عليه ؟ والجواب من وجهين : الأول أن كل كريم فهو حكيم لأن إيصال النعم إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة كان تبذيراً لا كرماً فكأنه سبحانه قال : كيف اغترت بكرمي وكرمي حقيقي صادر عن الحكمة وهي تقتضي أن لا يهمل وإن أمهل ، وأن ينتقم للمظلوم من

(164/806)

الظالم ولو بعد حين ، وأن يعيد الناس لأجل المجازاة حتى يظهر المحسن من المسيء والبر من الفاجر لا يضيع حقوق الناس ؟ .

والحاصل أن الكرم بالخلق والتسوية وهي انتصاب القامة أو سلامة الأعضاء ، وبالتعديل وهو تناسبها أو جعله مستعدّاً لقبول الكمالات لا يقتضي أن لا يعيده إلى الحالة الأولى لأجل المجازاة ، بل يجب أن يعيده تتميماً للنعمة وإظهاراً للحكمة . الثاني أن كرمه السابق بالخلق وغيره لا يوجب كرماً لاحقاً بالعفو والغفران لجميع المعاصي لأن غاية الكرم هو أن يبتدىء بالنعم من غير عوض ولا غرض ، أما الكريم إذا أمر المنعم عليه بشيء وإنه يتلقاه بالعصيان

فليس من الكرم أن يغمض عن جرمه بل قد يعدّ ذلك ضعفاً وذلة ولا سيما إذا كان المأمور به هو معرفة المنعم ولهذا روي عن عمر مرفوعاً " غره جهله " .

(165/806)

وعن الحسن : غره والله شيطانه الخبيث حتى طمع في الكرم اللاحق لأجل الكرم السابق . خصوصاً إذا لم يكن ممن حصل له معرفة ربه في الدنيا . قال النحويون : " ما " في ﴿ ما شاء ﴾ مزيدة قلت : وذلك بالنظر إلى أصل المعنى وإلا فهي مفيدة للتأكيد أي في كل صورة من الصور شاء كقوله ﴿ هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ [آل عمران : 6] وإنما لم يقل " ففي أي صورة " بالفاء العاطفة على نسق ما تقدّمها لأنها كالبيان بعد ذلك . والجارّ متعلق بركب أي ركبك في أي صورة اقتضتها حكمته أو بمحذوف أي حاصلاً في بعض الصور المرادة . وجوّز جار الله أن يتعلق ب ﴿ عدّلك ﴾ ويكون في أيّ معنى التعجب أي فعدّلك في صورة عجيبة ثم قال ما شاء أي ركبك ما شاء من التركيب . قال الحسن : منهم من صوّره ليستخلصه له ، ومنهم من صوّره ليشغله بغيره . قلت : الأوّلون مظاهر اللطف والجمال ، والآخرون مظاهر القهر والجلال . ثم زجرهم عن الاغترار بقوله ﴿ كلاّ ﴾ وهي حرف وضع في اللغة لنفي ما تقدم وتحقيق غيره أي ليس الأمر كما تقولون

من أنه لا بعث ولا نشور ، ولئن فرض فالله كريم غفار للذنوب ، ولئن قدّر أنه معاقب فلعله غير عالم بالجزئيات فكيف يحاسب فنبههم الله تعالى على خطئهم بأن تكذيبهم بالجزاء إنما وقع في حال تسليط الحفظة عليهم ، وهذا التكذيب أيضاً من جملة ما يكتبونه . أو نقول : لما ردعهم عن الطمع الفارغ والأمل المنكر أضرب عنه إلى ما هو شر منه وهو إنكار الجزاء أصلاً . وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم إشارة إلى أن أمر الجزاء عند الله تعالى من عظائم الأمور والاشغال . قال بعضهم : من لم يزجره عن المعاصي مراقبة الله إياه كيف يردّه عنها الكرام الكاتبون ؟ قلت : لا ريب أن الأول أصل والثاني فرع إلا أن المكلف لإلفه بالمحسوسات يزجره ما هو أقرب إلى عالم الحس أكثر ما يزجره ما هو أقرب إلى عالم الأرواح ولهذا تقع الزواجر والروادع في المدينة الفاضلة . ثم ذكر فائدة كتابة الحفظة

(166/806)

وغايتها فقال ﴿ إن الأبرار ﴾ إلى آخره .

يحكى أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة وهو يريد مكة فقال لأبي حازم : كيف القدوم على الله غداً ؟ فقال : أما المحسن فالكغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه . قال : فبكى ثم قال : ليت شعري مالنا عند الله فقال أبو حازم : اعرض عملك

على كتاب الله قال : في أي مكان ؟ قال في قوله ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ قال جعفر الصادق : النعيم المعرفة والمشاهدة ، والجحيم ظلمات الشهوات . وقال آخرون : النعيم القناعة والتوكل ، والجحيم الطمع والحرص ، وقال العارفون : النعيم الاشتغال بالله والجحيم الاشتغال بما سواه . وقوله ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ كقوله وما هم بخارجين منها أو أراد ما كانوا يغيبون عنها قبل ذلك أي في قبورهم فيكون قد بين حال البرزخ كما شرح حال المبدأ والمنتهى . ثم نبه بقوله ﴿ وما أدراك ﴾ مرتين أن يوم الدين مما لا يكتنه كنه شدته ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه لم يعرفه إلا بالوحي . وقيل : للكافر . ثم وصفه مجملاً بقوله ﴿ يوم لا تملك ﴾ إلى آخره أي لا ملك ولا تصرف في ذلك بظاهر وحقيقة الإله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 457 .

460 ﴾

(167/806)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الانفطار

مكية وهي تسع عشرة آية وثمانون كلمة وثلاثمائة وسبعة وعشرون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي خلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴿ الرحمن ﴾ الذي دبر الكائنات تدبيراً ﴿ الرحيم ﴾ الذي أرسل رسوله للخلق نذيراً .

﴿ إذا السماء ﴾ أي : على شدّة إحكامها واتساقها وارتفاعها ﴿ انفطرت ﴾ أي : انشقت لنزول الملائكة كقوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ (الفرقان :)

﴿ وإذا الكواكب ﴾ أي : النجوم الصغار والكبار كلها الغراء الزاهرة المتوقدة توقد النار المرصعة ترصيع المسامير ﴿ انتثرت ﴾ أي : تساقطت متفرّقة ؛ لأنّ عند انتقاض تركيب السماء تنتثر النجوم على الأرض .

﴿ وإذا البحار ﴾ المتفرّقة في الأرض وهي ضابطة لها أتم ضبط لنفع العباد على كثرتها ﴿ فجرت ﴾ أي : فتح بعضها في بعض فاختلط العذب بالملح وزال البرزخ الذي بينها فصارت البحار بحراً واحداً وروي أنّ الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستوية . وهو معنى التسجير عند الحسن في قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (التكوير :)

وقال هنا : فجرت بغت .

﴿ وإذا القبور ﴾ أي : مع ذلك كله ﴿ بعثرت ﴾ أي : قلبت ، يقال : بعثره وبحثره بالعين والحاء . قال الزمخشري : وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما ، أي : فهما بمعنى ، والمعنى : قلب أعلاها أسفلها وقلب باطنها ظاهرها ، وخرج ما فيها من

الموتى أحياء ، وقيل : التبعثر إخراج ما في بطنها من الذهب والفضة ، ثم تخرج الموتى بعد ذلك ، وجواب إذا أوّل السورة وما عطف عليه .

﴿ علمت نفس ﴾ أي : كل نفس وقت هذه المذكورات ، وهو يوم القيامة ﴿ ما قدّمت ﴾ من عمل ﴿ وأخرت ﴾ أي : جميع ما عملت من خير أو شر أو غيرهما . فإن قيل : أي وقت من القيامة يحصل هذا العلم . قال الرازي : أمّا العلم الإجمالي فيحصل في أوّل زمان الحشر ؛ لأنّ المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أوّل الأمر ، وأمّا العلم التفصيلي ، فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة .

(168/806)

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ أي : البشر الآنس بنفسه الناسي لما يعنيه خطاب لمنكري البعث . وروى عطاء عن ابن عباس : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة . وقال الكلبي ومقاتل : نزلت في أبي الشريق ضرب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعاقبه الله تعالى في أوّل أمره . وقيل : تتناول جميع العصاة لأنّ الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ﴿ ما غرّك بربك ﴾ أي : ما خدعك وسوّل لك الباطل حتى تركت ما أوجب عليك المحسن إليك وأتيت بالمحرّمات ﴿ الكريم ﴾ أي : الذي له الكمال كله المقتضي لأن لا يهمل الظالم

ولا يسوى بين المحسن والمسيء ، هذا إذا حملنا الإنسان على جميع العصاة ، فإن حملناه على الكافر وهو ظاهر الآية فالمعنى : ما الذي دعاك إلى الكفر وإنكار الحشر والنشر .

فإن قيل : كونه كريماً يقتضي أن يغترّ الإنسان بكرمه لأنه جواد مطلق ، والجواد الكريم يستوي عنده طاعة المطيع وعصيان المذنب ، وهذا يوجب الاغترار كما يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه صيح بغلام له مرّات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب فقال له : لم لا تجيبني ؟ فقال : لثقتي بحلمك وأمني عقوبتك ، فاستحسن جوابه وأعتقه . وقالوا أيضاً : من كرم ساء أدب غلمانه . وإذا ثبت أنّ كرمه يقتضي الاغترار به فكيف جعله ههنا مانعاً من الاغترار ؟

أجيب : بأنّ حق الإنسان أن لا يغتر بكرم الله تعالى عليه حيث خلقه حياً ، وتفضل عليه فهو من كرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطاً في مدّة التوبة ، وتأخيراً للجزاء إلى أن يجمع الناس للجزاء فالحاصل أنّ تأخير العقوبة لأجل الكرم ، وذلك لا يقتضي الاغترار بهذا التفضيل فإنه منكر خارج عن حدّ الحكمة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها : "غرّه جهله" . وقال عمر : غرّه حمقه وجهله . وقال الحسن : غرّه والله شيطانه الخبيث ، أي : زين له المعاصي . وقال له : افعل ما شئت فربك الكريم الذي تفضل عليك بما تفضل به أوّلاً ، وهو متفضل عليك آخراً حتى ورّطه .

وقيل للفضيل بن عياض : إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك : ﴿ ما غرّك بربك الكريم ﴾ ماذا تقول له ؟قال : أقول غرّني ستورك المرخاة ، وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ في الاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظنه الطماع ، ويظنّ به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم أنما قال ﴿ بربك الكريم ﴾ دون سائر صفاته ليلقن عبده الجواب حتى يقول : غرّني كرم الكريم . وقال مقاتل : غرّه عفو الله حيث لم يعاقبه أوّل مرّة . وقال السدي : غرّه رفق الله تعالى به . وقال قتادة : سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخلو الله تعالى به يوم القيامة فيقول : ما غرّك بي يا ابن آدم ؟ ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟

﴿ الذي خلقك ﴾ أي : أوجدك من العدم مهيأ بتقدير الأعضاء ﴿ فسوّاك ﴾ عقب تلك الأطوار بتصوير الأعضاء والمنافع بالفعل ﴿ فعدلك ﴾ أي : جعل كل شيء من ذلك سليماً مودعاً فيه قوّة المنافع التي خلقه الله تعالى لها .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ الذي ﴾ يحتمل الإتباع على البدل والبيان والنعت والقطع إلى الرفع والنصب . واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الأمور الثلاثة كالدلالة على تحقيق ذلك الكرم فقوله سبحانه ﴿ الذي خلقك ﴾ أي : بعد أن لم تكن لا شك أنه كرم لأنه وجود ، والوجود خير من العدم ، والحياة خير من الموت . كما قال تعالى :

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ (البقرة :)

وقوله تعالى : ﴿فسوّاك﴾ أي : جعلك مستوي الخلقة سالم الأعضاء غاية في الكرم كما قال تعالى : ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً﴾ (الكهف :)

(170/806)

أي : معتدل الخلق والأعضاء . وقال ذو النون المصري : أي : سخر لك المكوّنات أجمع ، وما جعلك مسخراً لشيء منها ، ثم أنطق لسانك بالذكر وقلبك بالعقل وروحك بالمعرفة ومدّك بالإيمان وشرفك بالأمر والنهي ، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الدال والباقون بالتشديد ، بمعنى جعلك متناسب الأطراف فلم يجعل إحدى يديك أو رجليك أطول ، ولا إحدى عينيك أوسع فهو من التعديل . وهو كقوله تعالى : ﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾ (القيامة :)

. وقال عطاء عن ابن عباس : جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية . وقال أبو علي الفارسي : عدلك خلقك في أحسن تقويم مستوياً على جميع الحيوان والنبات ، وواصلاً في الكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم . وأمّا قراءة التخفيف فتحتمل هذا أي : عدل بعض أعضائك ببعض ويحتمل أن يكون من العدول ، أي : صرفك

إلى ما شاء من الهيئات والأشكال . ونقل القفال عن بعضهم : أنهما لغتان بمعنى واحد .

﴿ في أيّ صورة ﴾ أي : من الصور التي تعرفها والتي لا تعرفها من الدواب والطيور وغير ذلك من الحيوان وغيره ، وما في قوله تعالى : ﴿ ما شاء ﴾ مزيدة ، وفي أيّ متعلق بركب في قوله تعالى ﴿ ركبك ﴾ أي : ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة ، والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه . فإن قيل : هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ما قبلها ؟

أجيب : بأنها بيان لعدلك ويجوز أن تتعلق بمحذوف ، أي : ركبك حاصلاً في بعض الصور ، ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ، ويجوز أن يتعلق بعدلك ويكون في أي معنى التعجب ، أي : فعدلك في صورة عجيبة : ثم قال : ﴿ ما شاء ركبك ﴾ من التراكيب يعني : تركيباً حسناً .

(171/806)

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله تعالى والتعلق به ، وهو موجب الشكر والطاعة إلى عكسهما الذي هو الكفر والمعصية . وقوله تعالى : ﴿ بل تكذبون ﴾ أي : يا كفار مكة ﴿ بالدين ﴾ إضراب إلى ما هو السبب الأصلي في اغترارهم والمراد بالدين

الجزاء على الأعمال والإسلام .

﴿ وإنّ ﴾ أي : والحال أنّ ﴿ عليكم ﴾ أي : ممن أقمناهم من جندنا من الملائكة

﴿ لحافظين ﴾ أي : على أعمالكم بحيث لا يخفى عليهم منها جليل ولا حقير .

﴿ كراماً ﴾ أي : على الله تعالى ﴿ كاتبين ﴾ أي : لهذه الأعمال في الصحف كما تكتب الشهود منكم العهود ليقع الجزاء على غاية التحرير .

تنبيه : هذا الخطاب وإن كان خطاب مشافهة إلا أنّ الأمّة أجمعت على عموم هذا الخطاب في حق المكلفين ، وقوله تعالى : ﴿ حافظين ﴾ جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم ، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخر ، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة ، كما قيل : اثنان بالليل واثنان بالنهار ، أو كما قيل : إنهم خمسة .

واختلفوا في الكفار هل عليهم حفظة . فقيل : لا لأنّ أمرهم ظاهر وعملهم واحد ، قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (الرحمن :)

وقيل : عليهم حفظة وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأمّا من أوتي كتابه بشماله ﴾ (الحاقة :)

وقوله تعالى : ﴿ وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ (الانشقاق :)

فأخبر أنّ لهم كتاباً وأنّ عليهم حفظة .

فإن قيل فأي شيء يكتب الذي عن يمينه ولا حسنة له ؟

أجيب : بأنّ الذي عن شماله يكتب بإذن صاحبه ويكون صاحبه شاهداً على ذلك وإن لم يكتب . وفي هذه الآية دلالة على أنّ الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم لوصف الملائكة بكونهم حافظين كراماً كاتبين .

(172/806)

﴿ يعلمون ﴾ أي : على التجدد والاستمرار ﴿ ما تفعلون ﴾ فدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى إنهم يكتبونها ، فإذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة ، وفي تعظيم الكتبة تعظيم لأمر الجزاء ، فإنه عند الله من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه وفيه إنذار وتهويل للعصاة ، ولطف بالمؤمنين . وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال : ما أشدها من آية على الغافلين .

ولما وصف تعالى الكرام الكاتبين لأعمال العباد ذكر أحوال العاملين ، وقسمهم قسمين ، وبدأ بقسم أهل السعادة .

فقال تعالى : ﴿ إنّ الأبرار ﴾ أي : المؤمنين الصادقين في إيمانهم بأداء فرائض الله تعالى واجتناب معاصيه ﴿ لفي نعيم ﴾ أي : محيط بهم أبد الآبدين ، وهو نعيم الجنة الذي لا

نهاية له .

ثم ذكر قسم أهل الشقاوة بقوله تعالى : ﴿ وإنّ الفجار ﴾ الذي من شأنهم الخروج عما ينبغي الاستقرار فيه من رضا الله تعالى إلى سخطه ، وهم الكفار ﴿ لفي جحيم ﴾ أي : نار محرقة تتوقد غاية التوقد فهم فيها أبد الآبدين .

﴿ يصلونها ﴾ أي : يدخلونها ويقاسون حرّها ﴿ يوم الدين ﴾ أي : يوم الجزاء وهو يوم القيامة .

﴿ وما هم عنها ﴾ أي : الجحيم ﴿ بغائبين ﴾ أي : مخرجين ، ويجوز أن يراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك في قبورهم . وقيل : أخبر الله تعالى في هذه السورة أنّ لابن آدم ثلاث حالات حالة الحياة التي يحفظ فيها عمله ، وحالة الآخرة التي يجازى فيها ، وحالة البرزخ وهو قوله تعالى : ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ .

وروي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم المدني : ليت شعري ما لنا عند الله ، قال : اعرض عملك على كتاب الله تعالى ، فإنك تعلم ما لك عند الله تعالى ، قال : فأين أجد ذلك في كتاب الله ؟ قال : عند قوله تعالى : ﴿ إنّ الأبرار لفي نعيم ﴾ الآية .

قال سليمان : فأين رحمة الله تعالى ؟ قال : قريب من المحسنين .

ثم عظم سبحانه وتعالى ذلك اليوم فقال : ﴿ وما أدراك ﴾ أي : وما أعلمك وإن اجتهدت في تطلب الدراية به ﴿ ما يوم الدين ﴾ أي : أيّ شيء هو في طوله وهوله وفظاعته وزلزاله .

ثم كرره تعجباً لشأنه فقال تعالى : ﴿ ثم ما أدراك ﴾ أي : كذلك ﴿ ما يوم الدين ﴾ أي : إنّ يوم الدين الذي بحيث لا تدرك دراية دار كنهه في الهول والشدّة ، وكيفما تصوّرته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه . والتكرير لزيادة التهويل .

ثم أجمل تعالى القول في وصفه فقال سبحانه : ﴿ يوم لا تملك ﴾ أي : بوجه من الوجوه في وقت ما ﴿ نفس ﴾ أي : أيّ نفس كانت ﴿ لنفس شيئاً ﴾ أي : قل أو جل ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع يوم على أنه خبر مبتدأ مضمر ، أي : هو يوم . وجوّز الزمخشري أن يكون بدلاً مما قبله ، يعني : يوم الدين ، والباقون بالفتح بإضمار أعني أو اذكر .

﴿ والأمر ﴾ أي : كله ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ كان البعث للجزاء ﴿ لله ﴾ أي : ملك الملوك لا أمر لغيره فيه فلا يملك الله تعالى في ذلك اليوم أحداً شيئاً كما ملكهم في الدنيا .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة" . حديث موضوع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 275 . 280 ﴾

وقال القاسمي :

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ ﴾

أي : انشقت كما في آية ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ ﴾ [الفرقان : 25] , ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أي : تساقطت . والانتثار استعارة لإزالة الكواكب ؛ حيث شبهت بجواهر قُطِعَ سلكها . وهي مصرحة أو مكنية .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ أي : فتح بعضها إلى بعض ، لزوال الحاجز بزلزلة الأرض وارتجافها .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ أي : بحثت وأخرج موتاها .

قال الشهاب : يعني أزيل التراب التي ملئت به وكان حتى على موتاها ، فانفتحت وخرج من دفن فيها . وهذا معنى البعثرة ، وحقيقتها تبديد التراب أو نحوه ، وهو إنما يكون لإخراج شيء تحته ، فقد يذكر ويراد معناه ولازمه معاً ، كما هنا . وقد يتجوّز به عن البعث

والإخراج كما في سورة العاديات . والفارق بينهما أنه أسند هنا للقبور فكان على حقيقته . وَثَمّ لما فيها ، فكانت مجازاً عما ذكر . ثم قال : وذهب بعض الأئمة كالزمخشري والسهيلي إلى أنه مركب من كلمتين اختصاراً ، ومثله كثير في لغة العرب ويسمى نحتاً . وأصله : بعث ، و أثير أي : حرك وأخرج ، وله نظائر كبسمل وحقول ودمعز ، أي : قال : بسم الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأدام اللهُ عزَّه . فعلى هذا يكون معناه النبش والإخراج معاً . ولا يرد عليه أن الراء ليست من أحرف الزيادة ، كما توهمه أبو حيان ، فإنه فرق بين التركيب والنحت من كلمتين ، والزيادة على بعض الحروف الأصول من كلمة واحدة ، كما فصله في " المزهر " نقلاً عن أئمة اللغة .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ ﴾ أي : لذلك اليوم من عمل صالح أو سيّىء ﴿ وَأَخَّرَتْ ﴾ أي : تركت من خير أو شر ، أو المعنى : ما قدمت من عمل طيب لم تقصر فيه ، وما أخرت : أي : قصرت فيه . والمراد بالعلم بالتقديم والتأخير ، وجدان الجزاء عليهما ، وتحقق مصداق الوعد عليهما .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ أي : أي : شيء خدعك وجرأك على عصيانه والانحراف عن فطرته ؛ وذكر ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار ؛ لأنه بمعنى العظيم الجليل الكامل في نعوته ، ومن كان كذلك فجدير بأن يرهب عقابه ويخشى انتقامه وعذابه ، لاسيما وله من النعم العظيمة والقدرة الكاملة ما يزيد في الرهبة ، كما قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ﴾ أي : جعلك سويّاً متساوي الأعضاء والقوة . وأصل التسوية جعل الأشياء على سواء ؛ فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتم به ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أي : جعلك معتدلا متناسب الخلق ، معتدل القامة ، لا كالبهائم . وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى المشدد ، أو بمعنى صرفك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة ، مزتَ بها على سائر الحيوان ﴿ فِي أي : صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾ أي : في أي : صورة شاءها ركبك عليها . يعني أنه ركبك في صورة هي أبدع الصور وأعجبها . فـ ﴿ أي : ﴾ استفهامية ، والمجرور متعلق بـ ﴿ رَكَّبَكَ ﴾ ، و ﴿ مَا ﴾ زائدة وجملة ﴿ شَاء ﴾ صفة ﴿ صُورَةٍ ﴾ والقصد أن ما خلق هذا الخلق البديع وسواه وعدله بقدرته وتقديره ، حتى أحكم صورته في ذلك التركيب ، لجدير بأن يُتّقى بأسه ويحذر بطشُه ويرهب أشدَّ ترهيب .

تنبيه :

قال الإمام ابن القيم في " الجواب الكافي " في بحث كون القرآن من أوله إلى آخره صريحاً في

ترتيب الجزاء بالخير والشر ، والأحكام الكونية ، على الأسباب ما تتمته : فليحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب ، وهذا من أهم الأمور فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ، ولا بد . ولكن تغالطه نفسُه .

(176/806)

ثم ذكر من أنواع المغترين من يغتر بفهم فاسد فهمِه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة فاتكلوا عليه . قال : كاغترار بعض الجهال بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ فيقول : كرمه . وقد يقول بعضهم : إنه لقن المغتر حجته . وهذا جهل قبيح ، وإنما غره بربه الغرور ، وهو الشيطان ونفسُه الأمارة بالسوء وجهله وهواه ؛ وأتى سبحانه بلفظ ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال لحقه ؛ ووضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه ، واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به . انتهى .

وفي مثل هذا الغرور يجب – كما قال الغزاليّ – على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول : إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب . و : إنه مع أنه كريم ، خلّد الكفار في النار أبد الآباد . مع أنه لم يضره كفرهم ، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا ، وهو

قادر على إزالتها ، فمن هذه سنته في عباده – وقد خوفني عقابه – فكيف لا أخافه ؟ وكيف أغتر به ؟

(177/806)

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل ، فما لا يبعث على العمل فهو تمنن وغرور ، ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم ، وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى ، وإهمالهم السعي للآخرة ، فذلك غرور . وقد روي أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة . وقد كان ذلك ، فقد كان الناس في الإعصار الأول يواظبون على العبادات ، و ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : 60] يخافون على أنفسهم ، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله ، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم في الخلوات ، وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون ، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينا ، فعلى ماذا كان بكاء

أولئك وخوفهم وحزنهم ؟ !

ثم قال : والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف ، ولا يتفكر فيه متفكِّر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه ، وإن كان مؤمناً بما فيه . وترى الناس يهذّونه هذّاً : يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها ، وكأنهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب ، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه ، وهل في العالم غرور يزيد على هذا ؟ انتهى .

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾

(178/806)

قال الإمام : أي : لا شيء يغرك ويخدعك ، بل إن سعة عطاء ربك وحكمته في كرمه ، تدلك وتوحي إلى نفسك أنك مبعوث في يوم آخر لثواب أو عقاب ، وإنما الذي يقع منك أيها الْإِنْسَانْ هو العناد والتكذيب بالدين ، أي : الجزاء ، أي : الانصراف عمداً وعناداً عما يدعو إليه الشعور الأول ، وعن الدليل الذي تقيمه الرسل ، والحجة التي يأتي بها الأنبياء ، مع أن الله تعالى لم يترك عملاً من أعمالك إلا حفظه وأحصاه عليك حتى يوفيك جزاءه كما قال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ أي : رقباء يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ﴿

كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ أي : يكتبون ما تقولون .

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي : من خير أو شر ، أي : يحصونه عليكم ، فلا يغفلون ولا ينسون .

قال الرازيّ : أن الله تعالى أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم ؛ لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم ، ولمّا كان الأبلغ عندهم في المحاسبة إخراج كتاب بشهود ، خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة فيَخرج لهم كتب منشورة ، ويَحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم ، كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره ، فيقولون له : أعطاك الملك كذا وكذا ، وفعل بك كذا وكذا ، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا . فكذا ها هنا . والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن الحفظة الكرام وعملهم ، من الغيب الذي لا يمكن اكتناهه ؛ فيجب الإيمان به ، كما ورد مع تفويض كنهه إلى بارئه تعالى . ومن الفضول في العلم التوسع فيما لا يدرك بالنظر وتسويد وجوه الصحف بها . وبالله سبحانه التوفيق .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : أن الذين برّوا بأداء فرائض الله ، واجتناب معاصيه ، لفي نعيم الجنان ينعمون فيها .

والأبرار جمع بَرّ بفتح الباء وهو المتصف بالبِر بكسرها ، أي : الطاعة . قال الأصفهاني : وقد اشتمل عليه قوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 177] , وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ أي : الذين فجروا عن أمر الله ، أي : انشقوا عنه وخالفوه ، وهم من لم توجد فيهم نعوت الأبرار المذكورة في الآية قبل .

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي : يوم يُدان العباد بالأعمال ، فيجازون بها

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أي : بخارجين ، لأنهم مخلدون في صليّها . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ تفخيم لأمر ذلك اليوم وتعظيم لشأنه ، أي : أي : شيء أعلمك به ؟ أي : أنت لا تدريه مع أنه من أوجب ما تهمّ درايته والبحث عنه . والخطاب للإنسان المتقدم أول السورة .

ثم فسر تعالى بعض شأنه بقوله : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ أي : من دفع ضر أو كشف همٍّ ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أي : أمر الملك الظاهر ونفوذ القضاء القاهر ، يومئذ لله

وحده ؛ لاضمحلال الممالك وذهاب الرياسات .

قال الرازيّ : وهو وعيد عظيم ، من حيث إنه عرّفهم أنه لا يغني عنهم إلا البر والطاعة يومئذ ، دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 345.349 ﴾

(180/806)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الانفطار

الدرس الأول: 1 – 5 بعض مشاهد القيامة في الطبيعة

(إذا السماء انفطرت , وإذا الكواكب انتثرت , وإذا البحار فجرت , وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت) . .

وقد تحدثنا في السورة الماضية عن الإيحاء الذي يتسرب في الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير , وتهزه هزة الانقلاب المثير , فلا يبقى شيء على حاله في هذا الكون الكبير . وقلنا : إن هذا الإيحاء يتجه إلى خلع النفس من كل ما تركن إليه في هذا الوجود , إلا الله سبحانه خالق هذا الوجود , الباقي بعد أن يفنى كل موجود . والاتجاه

بالقلب إلى الحقيقة الوحيدة الثابتة الدائمة التي لا تحول ولا تزول , ليجد عندها الأمان والاستقرار , في مواجهة الانقلاب والاضطراب والزلزلة والانهيار , في كل ما كان يعهده ثابتا مستقرا منتظما انتظاما يوحي بالخلود ! ولا خلود إلا للخالق المعبود !

ويذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء . . أي انشقاقها . وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى: قال في سورة الرحمن: (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) . . وقال في سورة الحاقة: (وانشقت السماء . فهي يومئذ واهية) . . وقال في سورة الانشقاق: (إذا السماء انشقت . . .) . . فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب . أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به , كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون . . وكل ما يستقر في الحس هو مشهد التغير العنيف في هيئة الكون المنظور , وانتهاء نظامه هذا المعهود , وانفراط عقده , الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق . .

(181/806)

ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب . بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة , وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعداها ,

ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية . ولو انتثرت – كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها – وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق – غير المنظور – الذي يشدها ويحفظها , لذهبت في الفضاء بددا , كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها !

وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه: الأكسوجين والهيدروجين ; فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين – كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم . . فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة ! . . أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال . . إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال !

وبعثرة القبور . . إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة . وإما أن تكون حادثا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل , الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها – كما أنشأها أول مرة – لتتلقى حسابها وجزاءها . .

يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث: (علمت نفس ما قدمت وأخرت) . . أي ما فعلته أولا وما فعلته أخيرا . أو ما فعلته في الدنيا , وما تركته وراءها من آثار فعلها . أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها , وما ادخرته للآخرة بعدها .

على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبا لتلك الأهوال العظام . وواحدا منها مروعا لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها !

(182/806)

والتعبير القرآني الفريد يقول: (علمت نفس) . . وهو يفيد من جهة المعنى: كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع . . كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت . فلهذا العلم وقعه العنيف الذي يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة . والتعبير يلقي هذا الظل دون أن يذكره نصا . فإذا هو أرشق كذلك وأوقع !

الدرس الثاني: 6 – 8 عتاب الإنسان والجماد في خلق الله له

وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر , يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر , فإذا هو غافل لاه سادر . . هنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضي , وفيها وعيد خفي , وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه: نعمة خلقه في هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه في أي صورة تتجه إليها مشيئته . ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . وهو لا يشكر ولا يقدر:

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم , الذي خلقك فسواك فعدلك , في أي صورة ما شاء

ركبك) . .

إن هذا الخطاب: (يا أيها الإنسان)ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه , وهو "إنسانيته" التي بها تميز عن سائر الأحياء ; وارتفع إلى أكرم مكان ; وتجلى فيها إكرام الله له , وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل: (ما غرك بربك الكريم ?)يا أيها الإنسان الذي تكرم عليك ربك , راعيك ومربيك , بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . . يا أيها الإنسان ما الذي غرك بربك , فجعلك تقصر في حقه , وتتهاون في أمره , ويسوء أدبك في جانبه ? وهو ربك الكريم , الذي أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ; ومن هذا الإغداق إنسانيتك التي تميزك عن سائر خلقه , والتي تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغي وما لا ينبغي في جانبه ?

(183/806)

ثم يفصل شيئًا من هذا الكرم الإلهي , الذي أجمله في النداء الموحي العميق الدلالة , المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة في التعبير . يفصل شيئًا من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية . فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله ; وهو القادر على أن يركبه في أي صورة وفق مشيئته

. فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده , ومن فضله وحده , ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذي لا يشكر ولا يقدر . بل يغتر ويسدر !

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ؟) . .

إنه خطاب يهز كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته , ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه , وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل , ويذكره هذا الجميل , بينما هو سادر في التقصير , سيء الأدب في حق مولاه الذي خلقه فسواه فعدله . .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة , الكاملة الشكل والوظيفة , أمر يستحق التدبر الطويل , والشكر العميق , والأدب الجم , والحب لربه الكريم , الذي أكرمه بهذه الخلقة , تفضلا منه ورعاية ومنة . فقد كان قادرا أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها . فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين , سوي الخلقة , معتدل التصميم , وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو , وأعجب من كل ما يراه حوله .

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي , وفي تكوينه العقلي , وفي تكوينه الروحي سواء , وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء !

وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني العضوي ودقته وإحكامه وليس

هنا مجال التوسع الكامل في عرض عجائب هذا التكوين . ولكنا نكتفي بالإشارة إلى بعضها . .

(184/806)

هذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي . . الجهاز العظمي . والجهاز العضلي . والجهاز الجلدي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . والجهاز التنفسي . والجهاز التناسلي . والجهاز اللمفاوي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر . . كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشا أمامها . وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس !

"تقول مجلة العلوم الإنجليزية: إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة ; وإنه من الصعب جدا – بل من المستحيل – أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك , ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة . وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائيا . وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة , وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها , ثم يزول الضغط بقلب الورقة . واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم

الإنسان من ملعقة , إلى سكين , إلى آلة الكتابة . وتفتح النوافذ وتغلقها , وتحمل كل ما يريده الإنسان . . واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما " .

و"إن جزءا من أذن الإنسان [الأذن الوسطى] هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية [قوس] دقيقة معقدة , متدرجة بنظام بالغ , في الحجم والشكل , ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ , بشكل ما , كل وقع صوت أو ضجة , من قصف الرعد إلى حفيف الشجر . فضلا عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأركسترا ووحدتها المنسجمة " . .

(185/806)

"ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب , ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلا ونهارا , والذي تعتبر حركته لاإرادية , الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة , كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين , أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع , فهو

أقوى مطهر . . . " .

"وجهاز الذوق في الإنسان هو اللسان , ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات غشائه المخاطي . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة , فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذي الحلمات فروع من العصب اللساني البلعومي , والعصب الذوقي . وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية , فينتقل الأثر إلى المخ . وهذا الجهاز موجود في أول الفم , حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به , وبه يحس المرء المرارة والحلاوة , والبرودة والسخونة , والحامض والملح , واللاذع ونحوه . ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة , يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب ؟ وما حجمها ؟ وكيف تعمل منفردة , وتتجمع بالإحساس عند المخ" ؟ .

"ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم , ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو المحيط , نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية " .

"ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي , وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل , فإننا ندرك توا أنه عملية عجيبة . إذ تهضم تقريبا كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها !

"فأولا نضع في هذا المعمل أنواعا من الطعام كمادة غفل دون أي مراعاة للمعمل نفسه , أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له ! فنحن نأكل شرائح اللحم والكرنب والحنطة والسمك المقلي , وندفعها بأي قدر من الماء . .

"ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة , وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات , وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة , تصبح غذاء لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية , وتعني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية , وبإمكان إنتاج الهرمونات , وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة , ومستعدة لمواجهة كل ضرورة . وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى , للقاء كل حالة طارئة , مثل الجوع , وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله .

إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي , بصرف النظر كلية تقريبا عما نتناوله , معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية [أوتوماتيكية] لإبقائنا على الحياة . وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد , تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا , التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض . ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمرا , وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان , كما تتلقاها الخلية المختصة !

(187/806)

فها هنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان ! وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ! ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام ! .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشيء الكثير . ولكن هذه الأجهزة – على إعجازها الواضح – قد يشاركه فيها الحيوان في صورة من الصور . إنما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التي هي موضع الامتنان في هذه السورة . بصفة

خاصة:(الذي خلقك فسواك فعدلك) . بعد ندائه: (يا أيها الإنسان) . .

هذا الإدراك العقلي الخاص , الذي لا ندري كنهه . إذ أن العقل هو أداتنا لإدراك ما ندرك . والعقل لا يدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك ! !

هذه المدركات . . نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي الدقيق . ولكن أين يختزنها ! إنه لو كان هذا المخ شريطا مسجلا لاحتاج الإنسان في خلال الستين عاما التي هي متوسط عمره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثرات , لكي يذكرها بعد ذلك , كما يذكرها فعلا بعد عشرات السنين !

ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة والمعاني المفردة , والحوادث المفردة , والصور المفردة , ليجعل منها ثقافة مجمعة . ثم ليرتقي من المعلومات إلى العلم ? ومن المدركات إلى الإدراك ? ومن التجارب إلى المعرفة ?

هذه هي إحدى خصائص الإنسان المميزة . . وهي مع هذا ليست أكبر خصائصه , وليست أعلى مميزاته . فهنالك ذلك القبس العجيب من روح الله . . هنالك الروح الإنساني الخاص , الذي يصل هذا الكائن بجمال الوجود , وجمال خالق الوجود ; ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذي ليس له حدود . بعد الإتصال بومضات الجمال في هذا الوجود .

هذا الروح الذي لا يعرف الإنسان كنهه – وهل هو يعلم ما هو أدنى وهو إدراكه للمدركات الحسية ؟ ! – والذي يمتعه بومضات من الفرح والسعادة العلوية حتى وهو على هذه الأرض . ويصله بالملأ الأعلى , ويهيئه للحياة المرسومة بحياة الجنان والخلود . وللنظر إلى الجمال الإلهي في ذلك العالم السعيد !

هذا الروح هو هبة الله الكبرى لهذا الإنسان . وهو الذي به صار إنسانا . وهو الذي يخاطبه بإسمه: (يا أيها الإنسان) . . ويعاتبه ذلك العتاب المخجل ! (ما غرك بربك الكريم ؟)هذا العتاب المباشر من الله للإنسان . حيث يناديه – سبحانه – فيقف أمامه مقصرا مذنبا مغترا غير مقدر لجلال الله , ولا متأدب في جنابه . . ثم يواجهه بالتذكير بالنعمة الكبرى . ثم بالتقصير وسوء الأدب والغرور !

إنه عتاب مذيب . . حين يتصور "الإنسان" حقيقة مصدره , وحقيقة مخبره , وحقيقة الموقف الذي يقفه بين يدي ربه , وهو يناديه ذلك النداء , ثم يعاتبه هذا العتاب:

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك , في أي صورة ما شاء ركبك) . .

ثم يكشف عن علة الغرور والتقصير - وهي التكذيب - بيوم الحساب - ويقرر حقيقة الحساب , واختلاف الجزاء , في توكيد وتشديد :

الدرس الثالث: 9 - 16 الرقابة على الإنسان وافتراق الأبرار عن الفجار (كلا ! بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين , كراما كاتبين , يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم , يصلونها يوم الدين , وما هم عنها بغائبين) . .

وكلا كلمة ردع وزجر عما هم فيه . وبل كلمة إضراب عما مضى من الحديث . ودخول في لون من القول جديد . لون البيان والتقرير والتوكيد . وهو غير العتاب والتذكير والتصوير . .

(189/806)

(كلا . بل تكذبون بالدين) . . تكذبون بالحساب والمؤاخذة والجزاء . وهذه هي علة الغرور , وعلة التقصير . فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف , فتطيع ربها وتعبده حبا فيه , لا خوفا من عقابه , ولا طمعا في ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه , وتتطلع إليه , لتلقى ربها الذي تحبه وتشتاق لقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يكذب الإنسان تكذيبا بهذا اليوم , فلن يشتمل

على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب , ولن يستيقظ فيه ضمير .

تكذبون بيوم الدين . . وأنتم صائرون إليه , وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لا يضيع منه شيء , ولا ينسى منه شيء :(وإن عليكم لحافظين , كراما كاتبين , يعلمون ما تفعلون) . .

وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان – من الملائكة – التي ترافقه , وتراقبه , وتحصي عليه كل ما يصدر عنه . . ونحن لا ندري كيف يقع هذا كله , ولسنا بمكلفين أن نعرف كيفيته . فالله يعلم أننا لم نوهب الاستعداد لإدراكها . وأنه لا خير لنا في إدراكها . لأنها غير داخلة في وظيفتنا وفي غاية وجودنا . فلا ضرورة للخوض فيما وراء المدى الذي كشفه الله لنا من هذا الغيب . ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى . وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله , ليرتعش ويستيقظ , ويتأدب ! وهذا هو المقصود !

ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة , فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم . .(كراما) . . ليستجيش في القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام . فإن الإنسان ليحتشم ويستحيي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل في لفظ أو حركة أو تصرف . . فكيف به حين يشعر ويتصور أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة(كرام)لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال ؟ !

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر بإقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الإدراك المألوف . .

ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب , القائم على ما يكتبه الكرام الكاتبون:

(إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين) . .

فهو مصير مؤكد , وعاقبة مقررة . أن ينتهي الأبرار إلى النعيم . وأن ينتهي الفجار إلى الجحيم . والبر هو الذي يأتي أعمال البر حتى تصبح له عادة وصفة ملازمة . وأعمال البر هي كل خير على الإطلاق . والصفة تتناسق في ظلها مع الكرم والإنسانية . كما أن الصفة التي تقابلها : (الفجار) فيها سوء الأدب والتوقح في مقارفة الإثم والمعصية . والجحيم هي كفء للفجور ! ثم يزيد حالهم فيها ظهورا . . (يصلونها يوم الدين) . . ويزيدها توكيدا وتقريرا : (وما هم عنها بغائبين) لا فرارا ابتداء . ولا خلاصا بعد الوقوع فيها ولو إلى حين ! فيتم التقابل بين الأبرار والفجار . وبين النعيم والجحيم . مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم !

الدرس الرابع: 17 - 19 الهول يوم الدين وعجز الناس والأمر لله

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب , فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه . يعود إليه ليقرر حقيقته

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (19)

الذاتية في تضخيم وتهويل بالتجهيل وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة في عون أو تعاون . وليقرر تفرد الله بالأمر في ذلك اليوم العصيب:

(وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا , والأمر يومئذ لله) . .

(191/806)

والسؤال للتجهيل مألوف في التعبير القرآني . وهو يوقع في الحس أن الأمر أعظم جدا وأهول جدا من أن يحيط به إدراك البشر المحدود . فهو فوق كل تصور وفوق كل توقع وفوق كل مألوف .

وتكرار السؤال يزيد في الاستهوال . .

ثم يجيء البيان بما يتناسق مع هذا التصوير: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا) . . فهو العجز الشامل . وهو الشلل الكامل . وهو الانحسار والانكماش والانفصال بين النفوس المشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس ! (والأمر يومئذ لله) . . يتفرد به سبحانه . وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة . ولكن في هذا اليوم - يوم الدين - تتجلى هذه الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء , ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون !

ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل في نهاية السورة , مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج في مطلعها . وينحصر الحس بين الهولين . . وكلاهما مذهل مهيب رعيب ! وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3846 . 3852 ﴾

(192/806)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) ﴾

أي انشقت ، كما في سورة الانشقاق ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الأنشاق : 1] ، قيل :

هيبة الله .

وقيل : لنزول الملائكة ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في سورة الشورى عند الكلام على قوله تعالى في وصف أهوال القيامة ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : 17 – 18] .

ومثل الانفطار والتشقق الانفراج ، كقوله : ﴿ فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ إِذَا السماء فُرِجَتْ ﴾ [المرسلات : 8 – 9] .

وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

أي بعثر من فيها . كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ [العاديات : 9 – 10] .

وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار ، كبعثرة الحب من الكف كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ [المعارج : 43] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة ق عند قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ [ق : 44] .

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)

أي كل نفس ، كما تقدم في سورة التكوير .

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على ذلك في دفع إيهام الاضطراب في سورة الانفطار هذه ، عند نفس الآية .

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة الكهف عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : 37] ، أي هذه أطوار الإنسان في خلقته .

(193/806)

ومما يشهد لحسن الخلقة ، وكمال الصورة قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم ، كما قال : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 6] .

وتقدم في صورة الحشر ﴿ هُوَ الله الخالق البارىء المصور ﴾ [الحشر : 24] .

وفي اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى .

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك في سورة ق عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ ﴾ [ق : 17 - 18] .

وأحال عندها على بعض ما جاء في سورة مريم عند قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ [مريم : 79] .

وبين رحمة الله تعالى علينا وعليه أن هذه الكتابة لإقامة الحجة على الإنسان ، كما في قوله : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13 - 14] .

وقيل في حافظين : يحفظون بدن الإنسان .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأنعام عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : 61] مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد : 11] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن في وصف الحفظة هنا بهذه الصفات ، من كونهم حافظين كراماً يعلمون ، فاجتمعت لهم كل صفات التأهيل ، لا على درجات الكتابة من حفظ وعلو منزلة ، وعلم بما يكتبون .

وكأنه توجيه لما ينبغي لولاة الأمور مراعاته في استكتاب الكتاب والأمناء .

ولذا قالوا : على القاضي أن يتخير كاتباً أميناً حسن الخط فاهماً .

ومن هذا الوصف يعلم أنه لا يختلط عليهم علم بعمل ، وكونهم حفظة لا يضيعون شيئاً ، ولو كان مثقال الذرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] الآية .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13)

أي دائم ، كما في قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [التوبة : 21 - 22] .

وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17)

دليل من دلة خلود الكفار في النار .

لقوله : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ [الانفطار : 14 - 16] .

كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النار ﴾ [البقرة : 167] .

وهكذا غالباً أسلوب المقابلة بين الفريقين وما لهما .

ثم بين أن ذلك يوم الدين وهو يوم الجزاء ، كما تقدم في سورة الفاتحة ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] .

ثمّ بين تعالى شدة الهول في ذلك اليوم ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ [الانفطار : 17] .

وتقدم في ﴿ الحاقة مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1 – 2] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ القارعة مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1 – 2] .

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

(195/806)

أي لشدة هوله وضعف الخلائق ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس : 34 – 35] ، وقوله : ﴿ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 37] .

ولحديث الشفاعة : "كل نبي يقول : نفسي نفسي ، إلى أن تنتهي إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها "

وحديث فاطمة : "اعملي . . . . " .

وقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، ونحو ذلك .

وقوله : ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، ظاهر هذه الآية تقييد الأمر بالظرف المذكور ، ولكن الأمر لله في ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] .

وقوله : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] ، أي يتصرف في خلقه بما يشاء من أمره لا يشركه أحد ، كما لا يشركه أحد في خلقه .

ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : 154] .

وقال : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : 128] ونحو ذلك .

ولكن جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد ، لأنه قد يكون في الدنيا لبعض الناس بعض الأوامر ، كما في مثل قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ﴾ [طه : 132] .

وقوله : ﴿ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] .

وقوله : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] ، وهي كلها في الواقع أوامر نسبية . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

ولكن يوم القيامة حقيقة الأمر كله ، والملك كله لله تعالى وحده ، لقوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

فلا أمر مع أمره ، ولا متقدم عليه حتى ولا بكلمة ، إلاَّ من أذن له الرحمن وقال صواباً ، وهو كقوله : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن ﴾ [الفرقان : 26] ، مع أن هنا في الدنيا ملوكاً ، كما في قصة يوسف ، ﴿ وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ ﴾ [يوسف : 50] .

وفي قصة الخضر وموسى ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف : 79] .

أما يوم القيامة فيكونون كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] .

وكقوله : ﴿ هَّلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة : 29] ، فقد ذهب كل سلطان ولك ملك ، والملك يومئذ لله الواحد القهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الانفطار

وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3)

قوله : ﴿ فُجِّرَتْ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للمفعول مثقَّلاً . وقرأ مجاهد مبنياً للفاعل مخففاً ، من الفُجور ، نظراً إلى قولِه : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 20] ، فلمَّا زال البَرْزَخُ بَغَيا . وقرأ مجاهد أيضاً والربيع ابن خُثَيْم والزعفرانيُّ والثوري مبنياً للمفعول مخففاً .

وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

قوله : ﴿ بُعْثِرَتْ ﴾ : أي : قُلِبَتْ . يقال : بَعْثَره وبَحْثَره بالعين والحاء . قال الزمخشري : " وهما مركبان من البَعْث والبَحْث مضموماً إليهما راءٌ " يعني : أنهما ممَّا اتَّفق معناهما ؛ لأنَّ الراءَ مزيدةٌ فيهما إذ ليسْت مِنْ حروفِ الزيادةِ ، وهذا كـ " دَمِث ودِمَثْر ، وسَبِطَ وسِبَطْر . و " عَلِمَتْ " جوابُ " إذا " .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)

قوله : ﴿ مَا غَرَّكَ ﴾ : العامَّةُ على " غَرَّكَ " ثلاثياً و " ما " استفهاميةٌ في محلِّ رفع بالابتداء . وقرأ ابن جبير والأعمش " ما أَغَرَّكَ " فاحتمل أَنْ تكونَ استفهاميةً ، وأن تكونَ تعجبيةً . ومعنى أغرَّه : أدخله في الغِرَّة أو جعله غارّاً .

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7)

قوله : ﴿ الذي خَلَقَكَ ﴾ : يحتمل الإِتباعَ على البدلِ والبيان والنعتِ ، والقطعَ إلى الرفع أو النصب .

قوله : ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ قرأ الكوفيون " عَدَلَك ، مخففاً . والباقون/ مثقلاً . فالتثقيل بمعنى : جَعَلكَ متناسِبَ الأطرافِ ، فلم يجعَلْ إحدى يَدَيْكَ أو رِجْلَيْكَ أطولَ ، ولا إحدى عينَيْك أَوْسَعَ ، فهو من التَّعْديلِ . وقراءةُ التخفيفِ تحتمل هذا ، أي : عَدَلَ بعضَ أعضائِك ببعضٍ . وتحتمل أَنْ تكونَ من العُدولِ ، أي : صَرَفَك إلى ما شاء من الهيئاتِ والأشكالِ والأشباهِ .

(198/806)

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8)

قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ ﴾ : يجوز فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ يتعلَّقَ ب " رَكَّبَكَ " و " ما " مزيدةٌ على هذا ، و " شاءَ " صفةٌ ل " صورةٍ " ، ولم يَعْطِفْ " رَكَّبَكَ " على ما قبله بالفاءِ ، كما عَطَفَ ما قبلَه بها ؛ لأنه بيانٌ لقولِه : " فَعَدَلَكَ " . والتقدير : فَعَدَلَكَ : ركَّبك في أيِّ صورةٍ من الصورِ العجيبةِ الحسنةِ التي شاءها . والمعنى : وَضَعَكَ في صورةٍ اقتضَتْها مَشيئتُه : مِنْ حُسْنٍ وقُبْحٍ وطُولٍ وقِصَرٍ وذُكورةٍ وأُنوثةٍ . الثاني : أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على

أنه حالٌ ، أي : ركَّبك حاصلاً في بعض الصور . الثالث : أنه يتعلَّقُ بعَدَلَكَ ، نقله الشيخ عن بعض المتأوِّلين ، ولم يَعْتَرِضْ عليه ، وهو مُعْتَرَضٌ : بأنَّ في " أيّ " معنى الاستفهام ، فلها صدرُ الكلام فكيف يعمل فيها ما تقدَّمَها ؟

وكأنَّ الزمخشري استشعر هذا فقال : " ويكونُ في " أيّ " معنى التعجبِ ، أي : فَعَدَلَكَ في أيِّ صورةٍ عجيبةٍ " . وهذا لا يَحْسُنُ أَنْ يكونَ مُجَوِّزاً لِتَقَدُّمِ العاملِ على اسمِ الاستفهامِ ، وإنْ دَخَلَه معنى التعجب . ألا ترى أنَّ كيف وأَنَّى وإنْ دَخَلهما معنى التعجبِ لا يتقدَّمُ عاملُهما عليهما . وقد اختلف النحويون في اسم الاستفهام إذا قُصِدَ به الاستثباتُ : هل يجوزُ تقديمُ عامِلِه أم لا ؟ والصحيح أنه لا يجوزُ ، وكذلك لا يجوز أن يتقدَّمَ عاملُ " كم " الخبريةِ عليها لشَبَهِها في اللفظ بالاستفهاميةِ فهذا أَوْلَى ، وعلى تعلُّقِها ب " عَدَلَكَ " تكون " ما " منصوبةً ب " شاء " ، أي : ركَّبَكَ ما شاءَ من التركيبِ ، أي : تركيباً حَسَناً ، قاله الزمخشري ، فظاهرُه أنها منصوبةٌ على المصدر .

(199/806)

وقال أبو البقاء : " ويجوز أَنْ تكونَ " ما " زائدةً ، وأَنْ تكونَ شرطيةً ، وعلى الأمرَيْن : الجملةُ نعتٌ ل " صورة " ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : ركَّبك عليها . و " في " تتعلَّقُ ب " ركَّبك

" . وقيل : لا موضعَ للجملةِ ؛ لأن " في " تتعلَّقُ بأحد الفعلَيْن ، والجميعُ كلامٌ واحدٌ ، وإنما تقدُّمُ الاستفهامِ على " ما " هو حَقُّه . قوله : " بأحد الفعلَيْنِ " يعني : شاءَ وركَّبك .

وتَحَصَّل في " ما " ثلاثةُ أوجهٍ : الزيادةُ ، وكونُها شرطيَّةً ، وحينئذٍ جوابُها محذوفٌ ، والنصبُ على المصدريةِ ، أي : واقعةٌ موقعَ مصدرٍ .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9)

والعامَّةُ : "يُكَذِّبُون " خطاباً . والحسن وأبو جعفر وشَيْبَةُ بياء الغَيْبة .

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10)

قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ الجملةُ حالاً مِنْ فاعل تُكَذِّبون ، أي : تُكَذِّبون والحالةُ هذه ، ويجوز أَنْ تكونَ مستأنفةً ، أخبرهم بذلك لينزَجِروا .

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)

قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً ، وأَنْ يكونَ حالاً من ضمير "كاتبين " ، وأَنْ يكونَ نعتاً ل " جحيم " ، وأَنْ يكونَ مستأنفاً .

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15)

قوله : ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ : يجوزُ فيه أَنْ يكونَ حالاً من الضمير في الجارِّ لوقوعِه خبراً ، وأَنْ يكونَ مستأنفاً . وقرأ العامَّةُ "يَصْلَوْنَها " مخففاً مبنياً للفاعل . وابن مقسم مشدَّداً مبيناً

للمفعول ، وتقدَّم مثلُه .

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

(200/806)

قوله : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع " يوم " على أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو يومُ . وجَوَّز الزمخشري أَنْ يكونَ بدلاً مِمَّا قبلَه ، يعني قولَه : " يومَ الدين " . وقرأ أبو عمروٍ في روايةٍ " يومٌ " مرفوعاً منوناً على قَطْعِه عن الإضافة ، وجَعَلَ الجملةَ نعتاً له ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : لا يَمْلِكُ فيه . وقرأ الباقون " يومَ " بالفتح . وقيل : هي فتحةُ إعرابٍ ، ونصبُه بإضمار أعني أو يَتجاوزون ، أو بإضمار اذكُرْ ، فيكونُ مفعولاً به ، وعلى رأي الكوفيين يكون خبراً لمبتدأ مضمر ، وإنما بُني لإضافتِه للفعل ، وإن كان معرباً ، كقولِه ﴿ هذا يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ [المائدة : 119] وقد تقدَّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 713.709 ﴾

(201/806)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الانفطار

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة منيعة ليس يسمو إلى فهمها كل خاطر ، فإذا كان الخاطر غير عاطر فهو عن علم حقيقتها متقاصر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ ﴾ .

أي : انشقت .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ .

تساقطت وتهافتت .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ .

أي : فُتِحَ بعضها على بعض .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .

أي : قُلِبَ ترابُها ، وبُعِثَ الموتى الذين فيها ، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أي إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما قدَّمت من خيرها

وشَرَّها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .

أي : ما خَدعَكَ وما سَوَّلَ لكَ حتى عَمِلْتَ بمعاصيه ؟

ويقال : سَأَلَه وكأنما في نَفْسِ السؤال لقَّنَه الجوابَ يقول : غَرَّني كَرَمُكَ بي ، ولولا كَرَمُكَ لَمَا فَعَلْتُ ؛ لأنَّك رأيت فَسَتَرْتَ ، وقدّرْتَ فأَمْهَلْتَ .

ويقال : إن المؤمِنَ وثِقَ بِحُسْنِ إفضالِه فاغتَّر بطولِ إمهالِه فلم يرتكبْ الزلَّة لاستحاله ، ولكنَّ طولَ حِلمه عنه حَمَله على سوء خصالِه ، وكما قلت :

يقول مولاي : أمَا تستحي . . . مما أرى من سوء أفعالِكَ

قلت : يا مولاي رفقاً فقد . . . جرَّأني كثرةُ أفضالِك

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

أي : ركَّبَ أعضاءَكَ على الوجوه الحكميَّة ﴿ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ ﴾ ، من الحُسْنِ والقُبْح ، والطولِ والقِصَر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصِّفة ، و " في " بمعنى " على " ؛ فيكون معناه : على أي صفة شاء ركَّبَكَ ؛ من السعادة أو الشقاوة ، والإيمان أو المعصية . . .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .

أي : القيامة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوّفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتقاصر حشمتهم من اطّلاع الحق ولو علموا ذلك حقَّ العلم لكانَ توقيّهم عن المخالفاتِ لرؤيته – سبحانه ، واستحياؤهم من اطلاّعه – أتمَّ من رُؤية الملائكة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .

﴿ الأَبْرَارَ ﴾ : هم المؤمنون ؛ اليومَ في نعمة العصمة ، وغداً هم في الكرامة والنعمة ﴿ الْفُجَّارَ ﴾ : اليومَ في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشِّرْكِ الموجبِ للفُرقة ، وغداً في النار على وجه التخليد والتأبيد .

ويقال : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ . في رَوْحِ الذِّكْر ، وفي الأُنسِ . في أوان خَلْوَتهم .

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ . في ضيق قلوبهم وتَسَخُّطِهم على التقدير ، وفي ظُلُمات تدبيرهم ، وضيق اختيارهم .

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ .

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي النار . ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ . يوم القيامة .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا ﴾ عن النار . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ قالها على جهة التهويل .

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

الأمر لله يومئذٍ ، ولله من قبله ومن بعده ، ولكن ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ تنقطع الدعاوَى ، إذ يتضح الأمرُ وتصير المعارفُ ضرورية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 696. 699 ﴾

(203/806)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)

الإعراب :

(السماء) فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده ، ومثله (الكواكب) ، (البحار) فاعل

لفعل محذوف تقديره ثارت (القبور) فاعل لفعل محذوف تقديره تبعثرت (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف .

جملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " (انفطرت) السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه " 1 " .

وجملة : " انفطرت (المذكورة) " لا محلّ لها تفسيريّة " 2 " .

وجملة : " علمت نفس . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قدّمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أخّرت " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدّمت .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 6 إلى 8]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8)

الإعراب :

(أيها) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الإنسان) بدل من أي - أو عطف بيان عليه - تبعه في الرفع لفظا (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة غرّك (بربّك) متعلّق بـ (غرّك) ، (الذي) موصول في محلّ نعت ثان لربّك (الفاء) عاطفة في الموضعين (في أيّ) متعلّق بـ (ركّبك) " 3 " ، و(أيّ) اسم شرط جازم " 4 " ، معرب (ما)

زائدة " 5 " ، (شاء) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، وكذلك الجواب ركّبك . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما غرّك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) وكذلك الجمل المقدّرة الباقية .

---

(2) وكذلك الجمل المذكورة بعد إذا .

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من ضمير الخطاب في ركّبك .

(4) أو هي الكمالية ، وجملة شاء استئناف بيانيّ ، أو اسم استفهام فيه معنى التأنيب والعتاب بعدم التبصّر ، وجملة شاء نعت لصورة بتقدير الرابط وجملة ركّبك بيان .

(5) أو اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدم .

وجملة : " غرّك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " خلقك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " سوّاك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " عدلك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سوّاك .

وجملة : " شاء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ركّبك . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 9 إلى 12]

كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10) كِراماً كاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12)

الإعراب :

(كلّا) للردع والزجر (بل) للإضراب الانتقاليّ (بالدين) متعلّق بـ (تكذّبون) ، (الواو) حاليّة - أو استئنافيّة - (عليكم) متعلّق بخبر مقدّم (اللام) للتوكيد (حافظين) اسم إنّ منصوب (ما) حرف مصدريّ " 1 " . .

والمصدر المؤوّل (ما تفعلون) في محلّ نصب مفعول به .

جملة : " تكذّبون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ عليكم لحافظين . . . " في محلّ نصب حال من ضمير تكذّبون " 2 " .

وجملة : " يعلمون . . . " في محلّ نصب نعت آخر لحافظين " 3 " .

وجملة : " تفعلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ نصب ، والعائد محذوف .

(2) أو استئنافيّة لا محلّ لها .

(3) أو حال من الضمير في كاتبين والعامل فيها معنى التوكيد .

(205/806)

الفوائد :

- أعمالك مسجلة عليك : أفادت هذه الآيات أن الإنسان موكل به رقباء من الملائكة ، يسجلون عليه أعماله الحسنة أو السيئة ، وهم مطلعون عليه في جميع أحواله . وقد ورد ذلك في سورة (ق) في قوله تعالى : (ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) أي ما يتكلم من كلام يخرج من فيه إلا اطلع عليه ملك حافظ وملك حاضر أينما كان ، فهما لا يفارقانه إلا وقت الغائط ، وعند جماعه ، وعند انكشاف عورته المغلّظة ، فإنّهما يتأخران عنه ، فلا يجوز للإنسان أن يتكلم في هاتين الحالتين حتى لا يؤذي الملائكة بدنوهما منه ليكتبا ما يقول . قيل : إنهما يكتبان عليه كل شيء يتكلم به حتى أنينه في مرضه ، وقيل : لا يكتبان إلا ما له أجر أو ثواب أو عقاب .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي أمامة ، قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا

، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر .

وجدير بالذكر ، أن اللّه عز وجل غني عن توكيل ملائكة بالعباد ، فهو مطلع على كل شيء ، لقوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ، ولكن كتابة أعمال الإنسان وأقواله تكون حجة عليه يوم القيامة ، كما أن شعوره بملازمة الملائكة له تزيده رهبة وخشية وقربا من اللّه عز وجل .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 13 إلى 16]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15) وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16)

الإعراب :

(اللام) المزحلقة للتوكيد (في نعيم) متعلّق بخبر إنّ ، ومثله لفي جحيم . . (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يصلونها) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (عنها) متعلّق بـ (غائبين) ، (غائبين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . .

جملة : " إنّ الأبرار لفي نعيم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ الفجّار لفي جحيم " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يصلونها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " ما هم عنها بغائبين " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصلونها .

البلاغة

الوصل : في قوله تعالى " إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجّار لفي جحيم " .

في الكلام – من مقتضيات الوصل – اتفاق الجملتين في الخبرية والإنشائية مع الاتصال ، أي الجامع بينهما هنا التضاد .

[سورة الانفطار (82) : الآيات 17 إلى 19]

وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ في المواضع الأربعة (يوم) خبر المبتدأ ما الثاني والرابع (يوم) الثالث متعلّق بفعل

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت لجحيم .

محذوف تقديره يجازون " 1 " ، (لا) نافية (لنفس) متعلّق بـ (تملك) بتضمينه معنى تقدّم (الواو) حاليّة (يومئذ) ظرف منصوب – أو مبنيّ – بدل من يوم الأخير (للّه) خبر المبتدأ (الأمر) .

جملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " ما يوم . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " أدراك (الثانية) " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) الثالث .

وجملة : " ما يوم الدين . . (الثانية) " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك (الثاني) .

وجملة : " لا تملك نفس . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " الأمر . . . للّه " في محلّ نصب حال من فاعل تملك والرابط مقدّر " 2 " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 261. 266 ﴾

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به لفعل محذوف تقديره أعني .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(209/806)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(82) سورة الانفطار

مكيّة وآياتها تسع عشرة

[سورة الانفطار (82) : الآيات 1 إلى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9)

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (10) كِراماً كاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (12) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)

يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (15) وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (16) وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

اللغة :

(بُعْثِرَتْ) قال الزمخشري : " بعثر وبحثر بمعنى وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما والمعنى بحثت وأخرج موتاها وقيل لبراءة المبعثرة لأنها بعثرت أسرار المنافقين " وفي المختار : " بحثره فتبحثر أي بدده فتبدد وقال الفراء : بحثر متاعه وبعثره أي فرّقه وقلب بعضه على بعض وقال أبو الجراح : بحثر الشيء وبعثره أي استخرجه وكشفه "

.

الإعراب :

(إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ، عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه والسماء فاعل لفعل محذوف يدل عليه المذكور وجملة انفطرت مفسّرة وجملة انفطرت السماء في محل جر بإضافة الظرف إليها والظرف متعلق بالجواب وهو علمت وما بعده عطف عليه والبحار والقبور نائب فاعل لفعل محذوف وجملة علمت لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعلمت نفس فعل وفاعل وما مفعول به وجملة أخّرت لا محل لها لأنها صلة ما (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) يا حرف نداء وأيها منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب بيا والهاء للتنبيه والإنسان بدل وما اسم استفهام مبتدأ وجملة غرّك خبره وبربك متعلقان بغرّك والكريم صفة لربك ، وقرأ ابن جبير والأعمش ما أغرّك فاحتمل أن تكون أن استفهامية وأن تكون تعجبية . وإنما قال سبحانه : الكريم دون غيره من أسمائه الحسنى وصفاته لأنه تعالى كأنه لقنه الإجابة حتى يقول : غرّني كرم الكريم (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) الذي صفة ثانية لربك مقرّة بالربوبية

وجملة خلقك صلة الذي ، فسوّاك عطف على خلقك وكذلك فعدلك (فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ) الجار والمجرور متعلقان بركبك وما زائدة وجملة شاء صفة لصورة والمفعول به محذوف أي شاءها والمعنى وصفك في أيّ صورة اقتضتها مشيئته من حسن ودمامة وطول وقصر وذكورة وأنوثة ، وعدلك أي صيّرك معتدل القامة متناسب الخلقة من غير تفاوت . ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي ركّبك حال كونك حاصلا في بعض الصور وقال الزمخشري : " ويجوز أن يتعلق بعدلك ويكون في أيّ معنى التعجب أي فعدلك في صورة عجيبة " (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) كلا حرف ردع وزجر وبل حرف إضراب انتقالي إلى بيان السبب الأصيل في اغترارهم ، وعبارة الراغب : " بل هنا لتصحيح الثاني وإبطال الأول كأنه قيل ليس هنا ما يقتضي أن يغرّهم به تعالى شيء ولكن تكذيبهم هو الذي حملهم على ما ارتكبوه " وتكذبون فعل مضارع مرفوع وفاعل وبالدين متعلقان بتكذبون (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ) الواو حالية مقررة للإنكار والجملة حالية من الواو في تكذبون أي تكذبون والكتبة يكتبون كل ما يصدر عنكم ويجوز أن تكون الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لإخبارهم بذلك ليرتدعوا عما هم عليه وإن حرف مشبّه بالفعل ، وعليكم خبرها المقدّم واللام للتأكيد وحافظين اسم إن أو هو صفة لاسمها أي ملائكة ، وكراما نعت لحافظين وكاتبين نعت ثان (يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ) الجملة نعت ثالث ويعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وما مفعول به وجملة تفعلون صلة والعائد محذوف أي تفعلونه

(إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) الجملة مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدّر تقديره لم يكتبون ذلك فكأنه قيل ليجازي الأبرار بالنعيم والفجّار بالجحيم .

(212/806)

و إن واسمها واللام المزحلقة وفي نعيم خبرها وجملة وإن الفجّار إلخ عطف على الجملة السابقة مماثلة لها في إعرابها (يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ) الجملة حال من الضمير من الجار والمجرور وهو لفي جحيم ، ويصلونها فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والهاء مفعول به ويوم الدين ظرف متعلق بيصلونها ، ويجوز أن تكون جملة يصلونها مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدّر تقديره وماذا يئول إليه أمرهم في الجحيم (وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ) أراد يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك أي في قبورهم (وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ) الواو عاطفة وما اسم استفهام إنكاري في محل رفع مبتدأ وجملة أدراك خبر وأدراك فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره هو والكاف مفعول به أول وما اسم استفهام معناه التهويل والتعظيم في محل رفع مبتدأ ويوم الدين خبره والجملة المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني قال ابن عباس :

"كلّ ما في القرآن من قوله ما أدراك فقد أدراه وكل ما فيه من قوله وما يدريك فقد طوى عنه

" (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) يوم مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر وجعله أبو البقاء ظرفا متعلقا بمحذوف تقديره يجازون ، وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو بدل من يوم الدين ، وجملة لا تملك في محل جر بإضافة الظرف إليها ونفس فاعل والتنوين للتعميم أي كل نفس وشيئا مفعول به والأمر مبتدأ ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بمحذوف حال والتنوين عوض عن جملة ولله خبر الأمر .

البلاغة :

1- في قوله " إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجّار لفي جحيم " الوصل وقد تقدم القول في الوصل والفصل وفيه من مقتضيات الوصل اتفاق الجملتين في الخبرية والإنشائية مع الاتصال أي الجامع بينهما وهو هنا التضاد .

(213/806)

2- وفي هاتين الآيتين أيضا فن الترجيع وهو ضرب من السجع وذلك أن تكون كل لفظة في صدر البيت أو فقرة النثر موافقة لنظيرتها في الوزن والروي والإعراب ومما ورد منه شعرا قول أبي فراس :

وأفعالنا للراغبين كريمة وأموالنا للطالبين نهاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 401.405﴾

(214/806)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/807)

الجزء السابع بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المطففين)

(4/807)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المطففين)

(5/807)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المطففين

مقصودها شرح آخر الانفطار بأنه لا بد من دينونة العباد يوم التناد بإسكان الأولياء أهل الرشاد دار النعيم ، والأشقياء أهل الضلال والعناد غار الجحيم ، ودل على ذلك بانه مربيهم والمحسن إليهم بعموم النعمة ، ولا يتخيل عاقل أن أحدا يربي أحدا من غير سؤال عما حمله إياه وكلفه به ولا أنه لا ينصف بعض من يربيهم من بعض ، واسمها التطفيف أدل ما فيها على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 354 ﴾

(6/807)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ويل للمطففين)

السّورة مكّيّة .

وآياتها ستّ وثلاثون .

وكلماتها مائة وتسع .

وحروفها أَربعمائة وثلاثون .

وفواصل آياتها (من) سمّيت (المطفِّفين) لمفتتحها .

(293/1)

معظم مقصود السّورة : تمام الكيل والميزان ، والاحترازُ عن البَخْس والنُّقصان ، وذكر السّجّين لأَهل العصيان ، وذكر العِلّيين لأَهل الإِيمان ، ودَلال المؤمنين والمطيعين فى نعيم الجنان ، وذُلّ العصيان فى عذاب النّيران ، ومكافأَتهم على وَفْق الجُرْم (والكفران فى قوله ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

السّورة محكمة بتمامها .

فيها من المتشابه قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وبعده : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ التقدير فيها : إِنّ كتاب الفجّار لكتاب مرقوم فى سجّين ، وإِنّ كتاب الأَبرار لكتاب مرقوم فى علّيين .

ثمّ ختم الأَوّل بقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، لأَنه فى حقّ الكفّار ، وختم الثّانى بقوله : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فختم كلّ واحد بما لا يصلح سواه مكانه .

فضل السّورة

فيه الحديثان الضّعيفان : عن أُبىّ : مَنْ قرأَها سقاه الله من الرّحيق المختوم يوم القيامة ،

وعن عليّ : يا عليّ من قرأَها كان فى الجنّة رفيق خَضِر ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب العادلين بالحقِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 506 . 507 ﴾

(7/807)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المطففين

سميت هذه السورة في كتب السنة وفي بعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) ، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) ، والترمذي في (جامعه) .

وسميت في كثير من كتب التفسير والمصاحف (سورة المطففين) اختصاراً .

ولم يذكرها في (الإِتقان) في عداد السور ذوات أكثر من اسم وسماها (سورة المطففين) وفيه نظر .

وقد اختُلف في كونها مكية أو مدنية أو بعضها مكي وبعضها مدني . فعن ابن مسعود والضحاك ومقاتل في رواية عنه : أنها مكية ، وعن ابن عباس في الأصح عنه وعكرمة والحسن والسدّي ومقاتل في رواية أخرى عنه : أنها مدنيّة ، قال : وهي أول سورة نزلت

بالمدينة ، وعن ابن عباس في رواية عنه وقتادة : هي مدنيّة إلاّ ثمان آيات من آخرها من قوله : (إن الذين أجرموا ((المطففين : 29) إلى آخرها .

وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة فهي لذلك مكية ، لأن العبرة في المدني بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن .

قال ابن عطية : احتج جماعة من المفسرين على أنها مكية بذكر الأساطير فيها أي قوله : (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ((القلم : 15) . والذي نختاره : أنها نزلت قبل الهجرة لأن معظم ما اشتملت عليه التعريض بمنكري البعث .

ومن اللطائف أن تكون نزلت بين مكة والمدينة لأن التطفيف كان فاشياً في البلدين . وقد حصل من اختلافهم أنها : إما آخر ما أنزل بمكة ، وإما أول ما أنزل بالمدينة ، والقول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قول حسن .

(8/807)

فقد ذكر الواحدي في (أسباب النزول) عن ابن عباس : قال لما قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى : (ويل للمطففين (فأحسَنوا الكيل بعد ذلك .

وعن القُرظي (كان بالمدينة تجار يطففون الكيل وكانت بياعاتهم كسبة القمار والملامسة والمنابذة والمخاصرة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى السوق وقرأها ، وكانت عادة فشَت فيهم من زمن الشرك فلم يتفطن بعض الذين أسلموا من أهل المدينة لما فيه من أكل مال الناس ، فرأى إيقاظهم لذلك ، فكانت مقدمة لإِصلاح أحوال المسلمين في المدينة مع تشنيع أحوال المشركين بمكة ويثرب بأنهم الذين سنُّوا التطفيف .

وما أنسب هذا المقصد بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخل إليها النبي (صلى الله عليه وسلم) لئلا يشهد فيها منكراً عاماً فإن الكيل والوزن لا يخلو وقت عن التعامل بهما في الأسواق وفي المبادلات .

وهي معدودة السادسة والثمانين في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة العنكبوت وقبل سورة البقرة .

وعدد آيها ست وثلاثون .

أغراضها

اشتملت على التحذير من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنه تحيل على أكل مال الناس في حال المعاملة أخذاً وإعطاء .

وأن ذلك مما سيحاسبون عليه يوم القيامة .

وتهويل ذلك اليوم بأنه وقوف عند ربّهم ليفصل بينهم وليجازِيَهم على أعمالهم وأن الأعمال محصاة عند الله .

ووعيد الذين يكذّبون بيوم الجزاء والذين يكذّبون بأن القرآن منزل من عند الله .

(9/807)

وقوبل حالهم بضده من حال الأبرار أهل الإِيمان ورفع درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين وذكر صور من نعيمهم .

وانتقل من ذلك إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل إذ كان المشركون يسْخَرون من المؤمنين ويلمزونهم ويستضعفونهم وكيف انقلب الحال في العالم الأبدي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 187.189 ﴾

(10/807)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة المطففين

هذه السورة تصور قطاعا من الواقع العملي الذي كانت الدعوة تواجهه في مكة – إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب , وهز المشاعر , وتوجيهها إلى هذا الحدث الجديد في حياة العرب وفي حياة الإنسانية , وهو الرسالة السماوية للأرض , وما تتضمنه من تصور جديد شامل محيط .

هذا القطاع من الواقع العملي تصوره السورة في أولها , وهي تتهدد المطففين بالويل في اليوم العظيم ,(يوم يقوم الناس لرب العالمين) . . كما تصوره في ختامها وهي تصف سوء أدب الذين أجرموا مع الذين آمنوا , وتغامزهم عليهم , وضحكهم منهم , وقولهم عنهم: (إن هؤلاء لضالون !) .

وهذا إلى جانب ما تعرضه من حال الفجار وحال الأبرار ; ومصير هؤلاء وهؤلاء في ذلك اليوم العظيم .

وهي تتألف من أربعة مقاطع . . يبدأ المقطع الأول منها بإعلان الحرب على المطففين: (ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ; وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ? يوم يقوم الناس لرب العالمين ?) . .

ويتحدث المقطع الثاني عن الفجار في شدة وردع وزجر , وتهديد بالويل والهلاك , ودمغ بالإثم والاعتداء , وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الانطماس , وتصوير لجزائهم يوم القيامة , وعذابهم بالحجاب عن ربهم , كما حجبت الآثام في الأرض قلوبهم , ثم بالجحيم

مع الترذيل والتأنيب: كلا . إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ? كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ! الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم , إذا تتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال: هذا الذي كنتم به تكذبون . .

(11/807)

والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم . والنعيم المقرر لهم . ونضرته التي تفيض على وجوههم . والرحيق الذي يشربون وهم على الأرائك ينظرون . . وهي صفحة ناعمة وضيئة: (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ? كتاب مرقوم , يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم , على الأرائك ينظرون , تعرف في وجوههم نضرة النعيم , يسقون من رحيق مختوم , ختامه مسك – وفي ذلك فليتنافس المتنافسون – ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون) . .

والمقطع الأخير يصف ما كان الأبرار يلاقونه في عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع في مقابله ما آل إليه أمر الأبرار وأمر الفجار في عالم الحقيقة

الدائم الطويل:

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون , وإذا مروا بهم يتغامزون , وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا :إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ?) . .

والسورة في عمومها تمثل جانبا من بيئة الدعوة , كما تمثل جانبا من أسلوب الدعوة في مواجهة واقع البيئة , وواقع النفس البشرية . . . وهذا ما سنحاول الكشف عنه في عرضنا للسورة بالتفصيل . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3854 ﴾

(12/807)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المطففين

مكية وآياتها ست وثلاثون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، تعالج أمور العقيدة

وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء .

* ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين فى الكيل والوزن ، الذين لا يخافون الآخرة ، ولا يحسبون حسابا للوقفة الرهيبة ، بين يدي أحكم الحاكمين [ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين

* ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار ، وصورت جزاءهم يوم القيامة ، حيث يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد [كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين] الآيات .

* ثم عرضت لصفحة المتقين الأبرار ، وما لهم من النعيم الخالد الدائم في دار العز والكرامة ، وذلك في مقابلة ما أعده الله للأشقياء الأشرار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب [إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

* وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال الكفرة الفجار من عباد الرحمن الأخيار حيث كانوا يهزءون منهم في الدنيا ، ويسخرون عليهم لإيمانهم وصلاحهم [إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون] إلى آخر السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 530 . 531 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المطففين

ويل : أي هلاك عظيم ، والتطفيف : البخس فى الكيل والوزن وسمى بذلك لأن ما يبخس شىء حقير طفيف ، اكتالوا على الناس : أي اكتالوا من الناس حقوقهم ، يستوفون : أي يأخذونها وافية كاملة ، كالوهم : أي كالوا لهم ، يخسرون :

أي ينقصون الكيل والميزان ، يقوم الناس لرب العالمين : أي يقف الناس للعرض على خالقهم ، ويطول بهم الموقف إجلالا لعظمة ربهم .

سجين : اسم للكتاب الذي دوّنت فيه أعمال الفجرة من الثقلين ، مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقما ، معتد : أي متجاوز منهج الحق ، أثيم : أي يكثر من ارتكاب الآثام : وهى المعاصي ، أساطير الأولين : أي أخبار الأولين أخذها محمد عن بعض السابقين .

ران على قبله : أي غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق .

وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، قال الفرّاء : كثرت منهم المعاصي والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها ، لمحجوبون : أي لمطرودون عن أبواب الكرامة ، لصالوا الجحيم : أي لداخلوا النار وملازموها .

عليين : أي فى مكان عال وقد تقدم أن سجينا مكان فى نهاية السفلى ، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين وأعمال الخاسرين ، وليس علينا أن نعرف ما هما ؟

(14/807)

أمن أوراق أو أخشاب أو معادن أخرى ، والأرائك . هى الأسرّة فى الحجال (والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة) وحجلة العروس بيت : أي خيمة تزين بالثياب والأسرّة والستور ، ونضرة النعيم : بهجته ورونقه ، ورحيق : أي شراب خالص لا غش فيه ، مختوم : أي ختمت أوانيه وسدت ، ختامه مسك : أي ما يختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين ، وأصل التنافس : التشاجر على الشيء والتنازع فيه بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، والمراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ، ليلحقوا بالعاملين ، والمزاج والمزج : الشيء الذي يمزج بغيره ، والمزج : خاط أحد الشيئين بالآخر ، والتسنيم : عين من ماء تجرى من أعلى

إلى أسفل ، وهو أشرف شراب فى الجنة ، ويكون صرفا للمقرّبين ممزوجا لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة ، والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكرهم .

الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب استهزاء وسخرية ، وقد يراد به العيب فيقال غمز فلان فلانا إذا عابه وذكره بسوء . ويقال فلان لا مغمز فيه : أي ليس فيه ما يعاب به ، فكهين : أي معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان ، حافظين : أي رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم ، والتثويب والإثابة : المجازاة . يقال ثوّبه وأثابه إذا جازاه كما قال : سأجزيك أو يجزيك عنى مثوّب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 71 . 83 ﴾ . باختصار .

(15/807)

وقال الفراء :

سورة (المطففين)

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . . . ﴾ .

نزلت أول قدوم النبى صلى الله عليه إلى المدينة ، فكأن أهلها إذا ابْتاعوا كَيْلاً أو وزناً

استوفَوْا وأفرطوا . وإذا باعوا كيلا أو وزناً نقَصُوا ؛ فنزلت ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فانتهَوْا ، فهم أوفى الناس كَيْلاً إلى يومهم هذا .

[قال] قال الفراء : ذُكِرَ أن "ويل" وادٍ فى جهنم ، والويل الذى نعرف .

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ . . . ﴾ .

يريد : اكتالوا من الناس ، وهما تعتقبان: عَلَى ومِن ـ فى هذا الموضع ؛ لأنه حقّ عليه ؛ فإذا قال: اكتلتُ عليك ، فكأنه قال: أخذتُ ما عليك ، وإذا قال: اكتلت منك ، فهو كذلك: استوفيت منك .

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ . . . ﴾ .

الهاء فى موضع نصب ، تقول: قد كِلتك طعاما كثيرا ، وكِلتنى مثله . تريد : كِلتَ لى ، وكِلتُ لك ، وسُمِعَت أعرابية تقول: إذا صَدَرَ الناس أتينا التاجر ، فيكيلنا المُدَّ والمُدَّين إلى الموسم المقبل ، فهذا شاهد ، وهو من كلام أهل الحجاز ، ومن جاورهم من قيس .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ . . . ﴾ .

هو تفسير اليوم المخفوض لمّا ألقى اللام من الثانى ردّه إلى "مبعوثونَ ، يومَ يقومُ النّاسُ" فلو

خفضت يومَ بالرَّد على اليوم الأوَّلِ كان صوابا .

وقد تكونُ فى موضع خفض إلاَّ أنها أضيفت إلى يفعلُ ، فنصبت إذ أضيفت إلى غير محضٍ ، ولو رفع على ذلك ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ ﴾ كما قال الشاعر:

فَكُنْتُ كذى رِجْلين: رجلٌ صحيحةٌ * وأخرى رمَى فيها الزَّمانُ فَشَلَّتِ

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . . . ﴾ .

(16/807)

ذكروا أنها الصخرة التى تحت الأرض ، ونرى أنه صفة من صفاتها ؛ لأنه لو كان لها اسما لم يجر .

وإن قلت: أجريتُه لأنى ذهبت بالصخرة إلى أنها الحجر الذى فيه الكتاب كان وجها .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . . . ﴾ .

يقول: كثرت المعاصى والذنوب منهم ، فأَحاطت بقلوبهم فذلك الرَّين عليها . وجاء فى الحديث: ان عمرَ بنِ الخطاب رحمه الله ، قال للأسيفع أصبَح قدرِين به . يقول: قد أحاط

بماله [/ب] ، الدين وأنشدنى بعض العرب:

* لم تروحتى هجرت ورين بى *

يقول: حتى غُلبتُ من الإعياء ، كذلك غلبَةُ الدَّينِ ، وغلبةُ الذنوبِ .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . . . ﴾ .

يقول القائل: كيف جمعت (عِلِّيون) بالنون ، وهذا من جمع الرجال ؛ فإن العرب إذا جمعت جمعا لا يذهبون فيه إلى أن له بناءً من واحد واثنين ، فقالوه فى المؤنث ، والمذكر بالنون ، فمن ذلك هذا ، وهو شىء فوق شىء غير معروف واحده ولا أثناه .

وسمعتُ بعضَ العرب يقول: أَطْعَمَنا مرقة مَرَقَيْن يريد : الألحُمَ إذا طبخت بمرق .

قال ، وقال الفراء مرة أخرى: طبخت بماء واحد . قال الشاعر:

قد رَوِيَتْ إلا الدُّهَيْدِهينَا * قُلَيِّصاتٍ وأُبَيْكِرينَا

فجمع بالنون ؛ لأنه أراد : العدد الذى لا يُحَدُّ ، وكذلك قول الشاعر:

فأصبحت المذاهِبُ قد أذاعت * بِهَا الإعصارُ بعد الوابلينا

أراد : المطر بعد المطر غير محدود . ونرى أن قول العرب:

عشرون ، وثلاثون ؛ إذ جعل للنساء وللرجال من العدد الذى يشبه هذا النوع ، وكذلك عليّون: ارتفاعٌ بعد ارتفاع ؛ وكأنه لا غاية له .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . . . ﴾ .

(17/807)

يقول . بريق النعيم ونداء ، والقراء مجتمعون على (تعرف) إلا أبا جعفر المدنى ؛ فإنه قرأ: "تُعرَفُ فى وجُوهِهِمْ نَضْرَةُ النَّعِيم" ، و "يُعرف" أيضا يجوز ؛ لأنّ النَّضْرَةَ اسمٌ مؤنثٌ مأخوذ من فعلٍ وتذكير فعله قبله [/١] وتأنيثه جائزان .

مثل قوه: ﴿ وأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ وفى موضع آخر: ﴿ وأخذَت ﴾ .

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ خَاتَمُهُ مِسْكٌ . . . ﴾ .

قرأ الحسنُ وأهل الحجاز وعاصم والأعمش "ختامه مسك" . حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: [و] حدثنى محمد بن الفضل عن عطاء بن السَّائب عن أبى عبد الرحمن عن علىّ أنه قرأ "خَاتَمُهُ مِسْكٌ" [حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد] قال: حدثنا الفراء قال: [و] حدثنى أبو الأحوص عن أشعث بن أبى الشعناء المحاربى قال: قرأ علقمة بن قيس "خاتَمُهُ مِسْكٌ" . وقال: أما رأيت المرأة تقول للعطار: اجعل لى

خاتمه مسكا تريد: آخره، والخاتم والختام متقاربان فى المعنى، إلا أن الخاتم: الاسم، والختام: المصدر، قال الفرزدق:

فَبِتْنَ جنابَتَىَّ مُصَرَّعَاتٍ * وبِتُّ أُفُضُّ أَغْلاَقَ الخِتَامِ

ومثل الخاتم، والختام قولك للرجل: هو كريم الطابع، والطباع، وتفسيره: أنّ أحدهم إذا شرب وجد آخر كأسه ريح المسك.

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمِزَاجُهُ... ﴾.

مزاج الرحيق ﴿ مِن تَسْنِيمٍ... ﴾ من ماء يتنزل عليهم من مَعالٍ. فقال: ﴿ من تسنيم، عيناً ﴾ تتسنمهم عينا فتنصب (عينا) على جهتين: إحداهما أن تنوِىَ من تسنيمِ عينٍ، فإذا نونت نصبت. كما قرأ من قرأ ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ، يتيماً ﴾، وكما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ﴾، وكما قال من قال: ﴿ فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعمِ ﴾ والوجه الآخر: أَن تَنْوِىَ من ماء سُنِّم عينا.

(18/807)

كقولك رفع عينا يشرب بها ، وإن [لم] يكن التسنيم اسماً للماء فالعين نكرة ، والتسنيم معرفة ، وإن كان اسماء للماء فالعين معرفة ، فخرجت أيضا نصبا .

﴿ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ فَاكِهِينَ . . . ﴾ : مُعجَبين ، وقد قرِىء: "فَكِهِين"

وكلّ صواب مثل: طمِع وطامع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 249.245 ﴾

(19/807)

وقال الأخفش :

سورة (المطففين)

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

[183 ب] قال ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أيْ: "اذا كالوا الناس أَوْوَزَنُوهُم" لأنَّ أَهْلَ الحجاز يقولون "كِلْتُ زَيْداً" و "وَزَنْتُه" أي: "كِلْتُ لَهُ" و "وَزَنْتُ لَهُ" .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[وقال] ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ ﴾ فجعله في الحين كما تقول "فلانٌ اليومَ صالحٌ"

تريد به الآن في هذا الحين وتقول هذا بالليل "فلانٌ اليومَ ساكِنٌ" اي: الآن ، اي: هذا الحين ولا نعلم أحدا قرأها جرا والجرّ جائز .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

وقال ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ تقول فيه : "رانَ" "يَرِينُ" "رَيْناً" .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾

وقال ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ﴾ فجعله على ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ [25] ﴿ عَيْناً ﴾ وان شئت جعلته على المدح فتقطع من أول الكلام كأنك تقول: "أَعْنِي عَيْناً" .

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

وقال ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ ان شئت أدغمت وان شئت لم تدغم لأن اللام مخرجها بطرف اللسان قريب من اصول الثنايا والثاء بطرف اللسان واطراف الثنايا الا ان اللام بالشق الايمن ادخل في الفم . وهي قريبة المخرج منها ولذلك قيل ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ فادغمت اللام في التاء لأن مخرج التاء والثاء قريب من مخرج اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 570. 571 ﴾

(20/807)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة المطففين

«1»

1 - (المطفف) : الذي لا يوفي الكيل . يقال : إناء طفّان ، إذا لم يك مملوءا .

3 - وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ أي كالوا لهم ، [أ] ووزنوا لهم .

يقال : كلتك ووزنتك ، بمعنى : كلت لك ، ووزنت لك . وكذلك : عددتك وعددت لك .

يُخْسِرُونَ : ينقصون .

7 - لَفِي سِجِّينٍ : فعيل ، من «سجنت» .

19 ،

20 - مَرْقُومٌ : مكتوب . و«الرّقم» : الكتاب . قال أبو ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدواة يذبرها الكاتب الحميري

14 - كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ أي غلب . يقال : رانت الخمر على عقله ، أي غلبت .

25 - (الرحيق) : الشراب الذي لا غشّ فيه .

---

(1) هي مكية وقيل مدنية ، أو معظمها مدني .

ويقال : «الرّحيق» : الخمر العتيقة .

26 – خِتامُهُ مِسْكٌ أي آخر طعمه وعاقبته إذا شرب .

27 – وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ يقال : أرفع شراب في الجنة .

ويقال : يمزج بماء ينزل من تسنيم ، أي من علو .

وأصل هذا من «سنام البعير» ومنه : «تسنيم القبور» .

وهذا اعجب إليّ ، لقول المسيّب بن علس في وصف امرأة :

كأنّ بريقتها – للمزاج من ثلج تسنيم شيبت – عقارا

أراد : كأن بريقتها عقارا شيبت للمزاج من ثلج تسنيم ، يريد جبلا .

36 – هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ [ما كانُوا يَفْعَلُونَ] ؟ أي هل جزوا بما كانوا يعلمون ؟ ! . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 444.445 ﴾

وقال الغزنوى :

[سورة المطففين]

3 وَإِذا كالُوهُمْ : كالوا لهم ، ولكنّه لما تقدم «اكتال» عليه كان «كاله» أفصح .

7 سِجِّينٍ : «فعّيل» من «السّجن» «1» ، وهو تحت الأرض السّابعة . عن ابن عباس «2» .

9 مَرْقُومٌ : [مكتوب] «3» كالرّقم في الحجر لا ينمحي «4» .

---

(1) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 289 ، وتفسير الطبري : 30/ 94 ، ومعاني الزجاج :

5/ 298 ، واللسان : 13/ 203 (سجن) .

(2) نقله القرطبي في تفسيره : 19/ 257 ، وعزاه - أيضا - إلى قتادة ، وسعيد بن جبير ، ومقاتل ، وكعب .

وأخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 30/ 94 عن مجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 444 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد رحمه اللّه .

(3) في الأصل : «مكتوم» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 289، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 519، وتفسير القرطبي: 19/ 258.

(23/807)

---

14 رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ: غلب وغطّى «1». وفي حديث «2» عمر رضي اللّه عنه: «أصبح قد رين به» أي: أحاط بماله الدّين.

18 عِلِّيِّينَ: مراتب عالية، جمعت جمع العقلاء تفخيما، والواحد «علّيّ» وهي في السّماء السّابعة «3».

26 خِتامُهُ مِسْكٌ: آخر طعمه «4».

27 مِنْ تَسْنِيمٍ: عين عالية «5» تتسنّم منازل أهل الجنّة.

36 ثُوِّبَ: جوزي. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 869.

870 ﴾

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 519، وتفسير الطبري: 30/ 97، وتفسير القرطبي:

30/ 260.

(2) أخرجه الإمام مالك في الموطأ : 2/ 770 كتاب الوصية ، باب «جامع القضاء» وذكره الفراء في معانيه : 3/ 246 ، وأبو عبيد في غريب الحديث : 3/ 269 ، والزمخشري في الفائق :

2/ 184 ، وابن الجوزي في غريب الحديث : 1/ 427 ، وابن الأثير في النهاية : 2/ 290 ، والقرطبي في تفسيره : 19/ 360 .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 101 عن كعب ، ومجاهد . ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 421 عن ابن زيد .

قال الطبري – رحمه اللّه – : «و الصّواب أن يقال في ذلك كما قال جل ثناؤه : إن كتاب أعمال الأبرار لفي ارتفاع إلى حد قد علم اللّه جل وعز منتهاه ، ولا علم عندنا بغايته ، غير أن ذلك لا يقصر عن السماء السابعة ، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك» .

(4) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 520 ، وتفسير المشكل لمكي : 379 ، وتفسير القرطبي : 19/ 265 . [. . . . .]

(5) تفسير الطبري : 30/ 108 ، وتفسير الماوردي : 4/ 422 ، واللسان : 12/ 307 (سنم) .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المطففين

عدد 36 - 86 - 83

نزلت بمكة بعد سورة العنكبوت وهي ست وثلاثون آية ، ومئة وتسع وستون كلمة ، وتسعمئة وثلاثون حرفا وتسمى سورة التطفيف .

لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

لا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ، إلا سورة الهمزة ، ولا سورة مختومة بما ختمت به ، ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "وَيْلٌ" الشر الشديد والحزن المزيد والهلاك العظيم والعذاب الأليم ، قيل هو واد في جهنم خاص "لِلْمُطَفِّفِينَ" 1 الذين ينقصون الكيل والميزان ، ويدخل فيه الذراع وما ضاهاه ، أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم (ويل) واد في جهنم

يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره ، وفي صحيح ابن حبان والحاكم واد بين جبلين يهوي فيه الكافر إلخ .

وروى ابن أبي حاتم عن عبد اللّه أنه واد في جهنم من قيح .

مطلب التطفيف في الكيل والوزن والذراع ، والحكم الشرعي فيها :

ثم وصف اللّه تعالى هؤلاء المطففين بقوله عز قوله "الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ" 2 الكيل تماما بل بزيادة على المعتاد إذا اشتروا منهم ، وبقوله جل قوله "وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ" 3 ينقصون الكيل والميزان عند ما يبيعونهم شيئا ، وهذه صفة كاشفة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الويل ، ولم يقل جل شأنه ينقصون ، لأن من يسرق في الكيل والميزان والذراع مثلا يسرق شيئا طفيفا بحيث لا يحس به غالبا ، ولهذا قال المطففين .

واعلم أن حرف على ومن يعتقبان في هذا الموضع ، لأنه حق عليه ، فإذا قال اكتلت عليك فكأنه قال أخذت ما عليك ، وإن قال أكتلت منك فكأنه قال استوفيت منك ، وكالوهم من باب الحذف والإيصال أي كالوا لهم ، ويقال كاله ووزنه أي كال له ووزن له ، كما يقال نصحتك ونصحت لك ، وعليه قوله :

لقد جنيتك أكمؤا وعسقلا ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

واعلم أن هذه السورة آخر ما نزل بمكة قبل الهجرة ، وقد ذم اللّه فيها التطفيف وحذر منه ، لأن الرسول صلّى اللّه عليه وسلم قادم إلى المدينة ، وعادة أكثر أهلها التطفيف ليتلوها عليهم أول قدومه كي ينزجروا عن هذه الخصلة القبيحة المستوجبة العذاب الأكبر في الآخرة ، والذم الكثير في الدنيا ، وهذه أول رحمة من اللّه نالت أهل المدينة بقدومه صلّى اللّه عليه وسلم ، وكان كذلك ، لأنه عند دخوله استفتحهم فيها فظن من سمعها أنها نزلت بالمدينة حتى قال بعضهم إنه كان رجل في المدينة يدعى أبا جهينة يشتري بصاع ويبيع بصاع دونه ، وأنها نزلت فيه .

ومنهم من قال إنها نزلت بالطريق بين مكة والمدينة ، والصحيح أنها نزلت في مكة كما ذكرنا وهو أرجح الأقوال الواردة فيها ، واللّه اعلم .

وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائدا ويدفع لغيره ناقصا ، ويتناول القليل والكثير ، وإنما شدد اللّه تعالى في هذا لأن عامة خلقه

محتاجون إلى معاملات الناس وهي مبنية على الكيل والوزن والذراع ، والبايع أمين فيما يكيل ويزين ويذرع ، والناس يتبايعون ويتعاقدون بالأمانة التي هي ملاك الأمر بينهم أنفسهم وبينهم وبين ربهم ، والخيانة مذمومة ملعونة ملعون مرتكبها ، لهذا بدأ صلّى اللّه عليه وسلم دعوته في المدينة بها ليرتدعوا عما هم عليه من التطفيف ، وليصدقوا في معاملاتهم ،

ويتناهوا فيما بينهم فتحسن معاملاتهم بعضهم مع بعض ، وينجرّ عملهم إلى الإحسان مع خلق اللّه قال نافع كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له اتق اللّه أوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العرق .

وقال قتادة أوف يا ابن آدم كما تحب ان يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك .

وقال الفضيل بخس الميزان سوء يوم القيامة .

(26/807)

قال تعالى "أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ" المطففون "أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ" 4 من قبورهم محشورون مساقون "لِيَوْمٍ عَظِيمٍ" 5 ألا يتحققون نشرهم من قبورهم فيه ألا يعلمون عظم ذلك اليوم وهوله ، وأدخلت هزة الاستفهام على لا النافية للتوبيخ ، لأنها ليست للتنبيه بل للإنكار والتعجب من سوء حالهم وجرأتهم على التطفيف الذميم وعدم خوفهم "يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ" في الموقف للحساب ويعرضون "لِرَبِّ الْعالَمِينَ" 6 فيتمثلون أمامه فيحاسبهم على النقير والفتيل والقطمير .

روى البخاري ومسلم عن نافع عن ابن عمر أنه تلا هذه قال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه .

وروى البغوي عن المقداد قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول تدنو الشمس من رءوس الخلائق يوم القيامة حتى تكون منهم كمقدار ميل .

زاد الترمذي أو ميلين .

قال سليم بن عامر واللّه ما أدري ما يعني بالميل مسافة الأرض أو ما يكتحل به العين .

قال يكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبه ، ومنهم من يكون إلى ركبته ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق الجاما ، وأشار صلّى اللّه عليه وسلم إلى فيه .

وروى الحاكم وصححه والطبراني وغيرهما عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال خمس بخمس قيل يا رسول اللّه ما خمس بخمس ؟ قال ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، وما طفقوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا

بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر .

ورواه غيره مرفوعا .

وقال عكرمة أشهد أن كل كيال ووزان في النار ، فقيل له إن ابنك كيال ووزان ، فقال أشهد أنه في النار وكأنه رحمه اللّه أراد المبالغة لما علم أن الغالب فيهم التطفيف ، ومن هذا ما

روي عن أبي ذر رضي اللّه عنه لا تلتمسوا الحوائج ممن رزقه في رءوس المكاييل وألسنة الموازين .

(27/807)

وقد استدل بعض العلماء من قوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ) على منع القيام للناس لاختصاصه باللّه تعالى ، وليس بشيء ، لأن هذا القيام خاص للمرء بين يدي ربه ، وأما القيام للشخص إذا قدم عليه فلا بأس به ، كيف وقد قال صلّى اللّه عليه وسلم قوموا لسيدكم .

إذ في القيام زيادة احترام للمسلم وإظهار للمودة والمحبة ومدعاة للتآلف والتراحم .

وفي عدمه احتقار له ، وقد يؤدي إلى التقاطع والتباغض ، وربما أدى

إلى القتال ، إلا أنه ينبغي للشخص المقام له أن لا يحبه ، لما جاء في الخبر من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوا مقعده في النار – أو كما قال – .

هذا ، والحكم الشرعي : التطفيف حرام ومن الكبائر ، وتجب على معتاده التوبة حالا ، ورد ما طفف لصاحبه ، لأن التوبة بدون رد المظالم لا تتم ، راجع شروطها في الآية 27 من سورة الشورى المارة ، وقد علمت أن التطفيف من أهم الأمور التي يجب أن يتباعد عنها ، لأنه منوط بالناس كافة .

قال تعالى "كَلَّا" لا يفعلوا ذلك وليرتدعوا وينزجروا عما هم عليه من التطفيف ، ولينتهوا وينتبهو للغفلة عن يوم البعث يوم الوقوف أمام رب العالمين ، وليندموا ويتوبوا قبل أن يحل بهم غضب الملك الجبار المنتقم ، ثم أتبع هذا التحذير بوعيد الفجار على العموم الذين من جملتهم المطففين بقوله جل قوله "إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ" يشمل الكفرة كما مر في الآية 14 من سورة الانفطار لا سيما وقد جاءت هذه الآية بمقابل الآية 22 الآتية ، والمراد بالكتاب هنا صحائف أعمالهم "لَفِي سِجِّينٍ" 7 وهو علم كتاب جامع على ديوان الشر ، وهو الذي يدون فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس ، وتشير هذه الآية إلى أن المطففين فجار ، وقد أشار إليهم صلّى اللّه عليه وسلم بقوله : التجار يحشرون فجارا يوم القيامة ، أي الذين هذا شأنهم ، أما المتباعدون عن الشبهات ، فقد قال فيهم : التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والشهداء ، ثم قال

(28/807)

تهويلا بكتاب الفجار وقبحه "وَمَا أَدْرَاكَ" أيها الإنسان "ما سِجِّينٌ" 8 هو شيء عظيم لا تدركه دراية دار فهو "كِتَابٌ مَرْقُومٌ" 9 مكتوب فيه بخط غليظ لأن الرقم الخط الغليظ بحيث يعلم ما فيه من اطلع عليه عن بعد لأول نظرة بلا تفكر ولا إمعان ، قال الشاعر :

سأرقم في الماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم

وهذا الكتاب علامة على شقاوة صاحبه وكونه من أهل النار وفي لفظة سجين إشارة إلى سجن صاحبه في جهنم ومبالغة في شؤم ذلك السجن ، بفتح السين ولقب به الكتاب لأنه سبب الحبس ، وهو شر موضع في جهنم في مكان موحش مظلم في مسكن إبليس وذريته ، كما وردت الآثار بذلك ، وقيل إن سجين اسم الموضع لما أخرج ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعا : إن الفلق جب من جهنم مغطى وسجين جب فيها مفتوح ، وهذا أولى ، إذ يكون الكتاب وسجين على ظاهرهما لولا قوله تعالى (وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ) إذ أبدل الكتاب منه ، وقد أجاب الإمام النسفي عن هذا في تفسيره بأن سجين كتاب جامع هو ديوان أهل الشر دوّن اللّه فيه أعمال الشياطين والكفرة من الإنس والجن ، وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة ، أو معلوم بحيث يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، وعليه يكون المعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان بخط غليظ مميز عن غيره ، وقال بعضهم إن نون سجين بدل من لام ، وأصله سجيل مثل جبرين في جبريل ، ومرقوم من رقم الكتاب إذا أعجمه وبيّنه ، ويطلق الرقم على العدد عند أهل الحساب ، وليس بمراد هنا .

هذا واللّه أعلم .

"وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ" يوم يخرج ذلك الكتاب في ذلك اليوم العصيب "لِلْمُكَذِّبِينَ" 10 بذلك اليوم

الفظيع لما ينالهم من وبال وحقارة على رءوس الأشهاد ، وذل ومهانة وعذاب لا تطيقه الأوتاد ، اللهم إنا نتبرأ إليك مما يوجب فضيحتنا يوم التناد

(29/807)

ثم وصفهم بقوله عز قوله "الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ" 11 يوم الجزاء صفة كاشفة موضحة لحالهم .

قال تعالى متعجبا من جرأتهم على التكذيب في ذلك اليوم المهول "وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ" أحد "إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ" 12 كثير الإثم منهمك في الشهوات القبيحة متجاوز

الحد فيها غال في التقليد ، لأنه جعل قدرة اللّه قاصرة عن الإعادة وعلمه تعالى قاصرا عن معرفة الأجزاء المتفرقة التي لا بد منها في الإعادة ، وجعل علة الإعادة محالة عليه ، وهو تعالى ليس عليه شيء محال البتة "إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا" الدالة على البعث والجزاء "قالَ" ذلك الأثيم لفرط جهله وقلة عقله وكثرة طيشه وشدة إعراضه عن الحق الذي لا محيد عنه لو كان فيه لمحة من حلم أو لمعة من علم لما قال "أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ" 13 خرافاتهم المتناقلة وأباطيلهم التي ألفوها على الآباء من قبل ، ولم يظهر لها أثر حتى الآن .

قيل نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث أو الوليد بن المغيرة ، وأيا كان فالآية عامة ، والكلام

مطلق يدخل فيه كل من اتصف بصفات الذّم المارة هما وغيرهما "كَلَّا" ليس الأمر كذلك ، أي مثل ما قال ذلك الأثيم وأضرابه من الباطل والتكذيب "بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ" 14 من الآثام الخبيثة ، وهذه الجملة بيان لما أدى بهم إلى التقوه بذلك الكلام الفظيع ، أي ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة ، ولكن أغشيت قلوبهم وغطبت بأوساخ الذنوب وصداها حتى غلب عليها السوء وحال بينهم وبين معرفة الحق كثافة الحجب الحاصلة من طبقات الرين عليها ، فلم تقدر أن تعي شيئًا أو يوقر فيها شيء من الحق ، فقالوا ما قالوا .

(30/807)

أخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إن العبد إذا أخطأ بكت في قلبه نكتة ، فإذا نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه ، وهو الران الذي قال اللّه (بل ران) إلخ .

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه والسنائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم عنه بلفظ : من أذنب ذنبا وبزيادة سوداء صفة لنكتة ، وقد يأتي الرّين بمعنى الطبع ، أخرج عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبي المجير أنه عليه الصلاة والسلام قال : أربع خصال

مفسدة للقلوب مجاراة الأحمق فإن جاريته كنت مثله وإن سكت عنه سلمت منه ، وكثرة الذنوب مفسدة للقلوب وقال تعالى (بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) ، والخلوة بالنساء والاستمتاع بهن والعمل برأيهن ، ومجالسة الموتى قيل يا رسول اللّه من هم ؟ قال كل غني قد أبطره غناه .

مطلب القراءات السبع ، ورؤية اللّه في الآخرة ، والقيام للزائر :

(31/807)

هذا ، وقد وقف حفص على / بل / وقفا خفيفا يسيرا ليتبين الإظهار ، وهذا الانفصال باللفظ تباعدا بين التنوين والنون الساكنة وأحد حروف الإظهار الخمسة عشر ، وقرأ غيره بإدغام اللام في الراء ولم يقف ، وقرىء / ران / بالإمالة وهي إحدى القراءات السبع الجائز تداولها إذ لا نقص ولا زيادة فيها ، وقد ذكرنا قبلا أن المد والإشباع وتخفيف الحرف بالسكون عند توالي الحركات والوصل والقطع والتفخيم والترقيق والإمالة والإتباع ونقل الحركة وحذفها كله جائز لا حرج فيه ، وإن الممنوع هو ما يخالف رسم القرآن من دون ذلك ، وان ما قيل إن ابن عباس قرأ كذا وابن مسعود قرأ كذا وغيرهما بما فيه زيادة أو نقص أو تبديل لبعض الكلمات فهو عبارة عن كلمات تفسيرية لبعض كلم القرآن كتبوها على هامش

أو بين سطور مصاحفهم لا غير ، فلا يجوز عدها من القرآن ، لأن تفسير الكلمات أو تأويلها لا يكون من القرآن ، ولا يجوز أن ينطق بها أو يقرأها على أنها من القرآن ، بل يتكلم بها في غير القراءة على أنها معان لبعض كلماته تدبر ، قال تعالى "كَلَّا" حقا وصدقا "إِنَّهُمْ" الذين اعتراهم الرين بسبب كثرة الذنوب حتى أعمى قلوبهم "عَنْ رَبِّهِمْ" ومالك أمرهم "يَوْمَئِذٍ" في يوم الدين "لَمَحْجُوبُونَ" 15 عنه لا يرونه في الآخرة والحجاب عن رؤيته فيها عذاب أليم لهم غير العذاب الذي يستحقونه على كسبهم القبيح .

هذا ، وان اللّه تعالى حاضر في ذلك الموقف الذي هو حاكمه وناظر فيه جميع خلقه ، ويراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، وإن الحرمان من رؤيته عذاب عظيم لا بضاهيه عذاب .

(32/807)

وفي هذه الآية دلالة كافية على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، وإلا لم يكن للتخصيص فائدة ، ولأن اللّه ذكر الحجاب في معرض التهديد للكافرين ، فلا يجوز حصوله للمؤمنين ، ولأنه كما حجب قوما بسخطه دل على أن قوما يرونه برضاه ، لأن الكفار كما حجبوا في الدنيا عن التوحيد حجبوا في الآخرة عن الرؤية ، قال مالك بن أنس رحمه اللّه لما حجب اللّه أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، ومن أنكر رؤيته كالمعتزلة قال إن الكلام تمثيل

للاستخفاف بهم والإهانة لهم ، لأنه لا يؤذن بالدخول على الملوك إلا

للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم ، قال :

إذا اعتروا باب ذي عبيّة رجبوا والناس من بين مرجوب ومحبوب

ومعنى اعتروا غشوا ، والعبيّة بضم العين وتشديد الباء والياء الملك المتكبر ، ورجبوا

هابوا وفزعوا لعظمة ودهشة مقابلته ، راجع بحث الرؤية في الآية 23 من سورة القيامة في

ج 1 وما ترشدك إليه من المواضع .

ثم أخبر اللّه تعالى عن هؤلاء الكفرة بأنهم مع كونهم محجوبين يحرقون في النار أيضا بقوله جل

قوله "ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ" 16 يقاسون حرقها عند ما يزجون فيها ، وهذا عندهم

أشد بلاء من الحجاب ، أما عند المؤمنين فالحجاب عندهم أعظم أنواع العذاب ، قال

الحسن :

لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا "ثُمَّ يُقالُ"

لهم من قبل خزنة جهنم تقريعا وتوبيخا "هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ" 17 في الدنيا فذوقوه

الآن جزاء تكذيبكم "كَلَّا" ليس الأمر كما يتوهم المتوهمون ويزعم الزاعمون من إنكار

البعث ، فهو حاصل لا محالة .

ثم طفق يذكر مقام المؤمنين الموقنين القائمين بالعدل بالكيل والميزان الموقين للناس حقوقهم المؤدين حق اللّه المصدقين بكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجزاء بقوله عزّ قوله "إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ" 18 وهذا بمقابلة كتاب الفجار ، ومقرّه بالسماء السابعة تحت العرش ، ولهذا قال منوها بعلوه ومعظما لشأنه "وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ" 19 أيها الإنسان هو في الحسن والعلو والكرامة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، معناه بما يريده اللّه ، وإن ما جاء في تفسيره وتأويله فبحسب ما يحتمله اللفظ بالنسبة العقول البشر كالحالة في سجين في القبح والمذمة ، وهو أيها السائل عنه "كِتابٌ مَرْقُومٌ" مكتوب بخط غليظ يعلم ما فيه من يطلع عليه عن بعد الأول نظرة دون دقة وروّية ، وهو علامة على سعادة صاحبه وكونه من أهل الجنة ، وفيه إشارة إلى علو درجات صاحبه فيها ، ومبالغة في بركة ذلك العلو وشرفه ، لأنه وصف من العلو اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ولقب به لأنه سبب لارتفاع صاحبه إلى أعالي درجات الجنة ، وهو في أحسن موضع بالجنة موضوع في مكان مؤنس منير تحت العرش ، وهو عبارة

عن كتاب جامع هو علم لديوان أهل الخير دون اللّه به أعمال الأنبياء والشهداء والملائكة والعارفين وصلحاء الأمة من الأولين والآخرين ، وعليون على ما ظهر لك من التفسير هو كتاب مرقوم مسطور فيه كل عمل صالح ظاهر الكتابة ، معلم بعلامة يعلم منها من رآه لأول

لمحة أنه جامع لكل خير فيما كتب من أعمال الأبرار ، مدون فيه بخط واضح مميز عن غيره ، ومنه رقم الثوب أي نقشه لظهوره للرائي عن بعد وتمييزه عن الثوب

(34/807)

"يَشْهَدُهُ" من الملائكة "الْمُقَرَّبُونَ" 21 لكرامة أهله وشرفهم عند ربهم ، أخرج ابن المبارك عن قمرة بن حبيب قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن الملائكة يرفعون اعمال العبد من عباد اللّه تعالى يستكثرونه ويزكونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء اللّه تعالى من سلطانه ، فيوحي اللّه تعالى إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويستحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء اللّه من سلطانه ، فيوحي إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ، إن عبدي هذا أخلص لي في عمله فاجعلوه في عليين .

مطلب مقام الأبرار والفجار ، وشراب كل منهما ، والجنة والنار :

قال تعالى "إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ" 22 جمع بار وهم المتصفون بطاعة اللّه المنتهون عن مخالفته ، المؤمنون بالبعث ، الموفون الكيل والميزان ، وهذا بمقابلة قوله تعالى (إِنَّ الْفُجَّارَ) بما يدل

على أن المراد بهم الكفار لا غير ، فهؤلاء الكرام مقرهم عند اللّه في نعيم الجنة الدائم ، وهذا بيان اللّه تعالى بحسن أحوالهم في الآخرة جزاء أعمالهم الطاهرة ، كأنه قيل قد علمنا كتابهم فما هو حالهم ، فيقال نعيم الجنان تراهم "عَلَى الْأَرَائِكِ" الأسرة في الحجال "يَنْظُرُونَ" 23 إلى عظمة ربهم جل جلاله وإلى ما أعده إليهم في داره الباقية ، وإلى ما شاءوا من رغائب مناظر الجنة ، وهم في محلهم لا يحجب أبصارهم الحجال التي هم فيها ولا غيرها ، وفي قوله تعالى ينظرون إشارة إلى أنه لا نوم في الجنة ، كما وردت بذلك الأخبار ، لما في النوم من زوال الشعور وغفلة الحواس ، وهذا لا يناسب ذلك المقام .

قال تعالى "تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ" الباهية الحسنة اللامعة النضرة "نَضْرَةَ النَّعِيمِ" 24 بهجته

(35/807)

و رونقه لما ترى من النور الساطع عليها الحاصل من سرور قلوبهم ، وفيها أيضا رمز لعدم النوم لأنه يسلب نور الوجه ويغير بهجته كما هو مشاهد في الدنيا ، والخطاب لكل من له حظ من الخطاب إيذانا بأن ما لهم من آثار النعمة واضحة لا يختصّ بها راء دون راء "يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ" 25 لم تمسه يد البتة ، والرحيق اسم نوع من أشربة الجنة أبيض اللون طيب الطعم كريم الرائحة لا غول فيها ولا إثم ، وقد ختم عليها لشرفها وبفاستها

بكلمة كن فكانت ، كما أنها تفتح عند شربها بالإرادة ، ولذلك فلا يفض ختمها لمن يشربها إلا عند إرادة الشرب ، قال حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

(36/807)

و هذه الخمرة غير الأنهار الجارية في الجنة ، ولها أناس مخصوصون ، فكما أن أهل الجنة درجات متفاوتون في السكنى والمقام والنزهة ، فكذلك هم درجات في المأكل والمشرب والملبس ، متفاوتون متفاضلون بنسبة تفاضلهم في الأعمال ، والفرق بينهما لا يقاس بالفرق بين تفاضل أهل الدنيا ، كما لا تقاس الدنيا بالآخرة ، وهذا الشراب "خِتَامُهُ مِسْكٌ" خالص لا بضاهيه مسك الدنيا باللون والرائحة والطعم ، وانك أيها الشارب له تجد طعمه فيها عند شربها من غير طوح الشدادة لأنها ليست من خشب أو شمع أو غيره مما يفعله أهل الدنيا لخمرتهم الخبيثة ، بل هي بحيث عند ما تضعها بين الشفتين تصمحل في الشراب كأنها لم تكن ، ولهذا يقول اللّه تعالى لأهل الدنيا "وَفِي ذَلِكَ" الشراب المختص للأبرار والكرام "فَلْيَتَنَافَسِ" وليرغب فيه لا في خمرة الدنيا الدنسة المزيلة للعقل ، ولا في شهواتها المنافية للعزة والمهابة والكرامة ، "الْمُتَنَافِسُونَ" 26 الراغبون ، ويتباهى به المتباهون ،

فعلى العاقل أن يبادر لطاعة اللّه في دنياه ليتوصل إلى هذا النعيم المقيم ، لأنه مما يحرص عليه ويطمع فيه ويريده كل أحد لنفسه ، وينفس به أي يعز عليه ويبخل به ويفضله على غيره ، ويستأثر به ، وأصل التنافس التغالب في الشيء ، والنفيس مأخوذ من النفس لعزّتها ، كأن كلّا من الشخصين يريد أن يختص به لنفسه ، وقال البغوي : أصله من النفيس الذي تحرص عليه النفوس وتشح به على غيرها "وَمِزاجُهُ" مخلوط

ذلك الشراب المسمى بالرحيق ليس ماء عاديا مثل ما يخلط أهل الدنيا شرابهم البدي ليخفف نتنه وحدته ، بل يشاب "مِنْ تَسْنِيمٍ" 27 علم لماء عين بالجنة على غاية من الصفاء والحلاوة والبهاء والرقة ، خلقه اللّه تعالى خاصة لمزج شراب أهل الجنة الذي هو من ذلك النوع .

روي عن ابن مسعود وابن عباس وحذيفة بن اليمان أنها عين من عيون إحدى الجنان العالية .

(37/807)

وهو مصدر مأخوذ من سنم إذا ارتفع ومنه سنام البعير .

وهذه العين هي ارفع شراب أهل الجنة ، ومن خواصها أنها تأتي أهلها الذين يشربون منها

أو يمزجون شرابهم منها من جهة الفوق ، لأنها تجري بالهواء بلا أخدود ، ماؤها كريم لكونه "عَيْناً" حال من تسنيم ، وضح يجيء الحال منه مع أنه جامد ، لتأويله بمشتق ، كجارية مثلا ، أو لأنه وصف بقوله تعالى "يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ" 28 من اللّه تعالى الدانون عنده بتفضله عليهم لما أسلفوه من أعمال طيبة ، وهذه هي المدامة التي تواصى بها أهل الذوق من أهل الحقيقة الكاملين ، وقد أطنبوا في مدحها ووصفها ، ولم أقف على أفضل من أقوال ابن الفارض رحمه اللّه فيها بقصيدته الرنانة التي لم يسبق بمثلها واللّه أعلم وأولها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وآخرها :

على نفسه قليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

وأحسن بيت فيها قوله فيها :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

تهذب أخلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لا له عزم

وكل بيت فيها أحسن من الآخر وأبلغ وأفصح ، وفيها من أنواع البديع ما لا يستغني عنه البديع .

هذا وقدمنا في الآية 46 من الصافات ما يتعلق في هذا البحث فراجعه .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا" من عامة الخلق وخاصة الرؤساء منهم كأبي جهل والوليد بن

المغيرة والعاص بن وائل وأشباههم في كل عصر "كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا" كعمار وخباب وصهيب وبلال وسليمان وشبههم من فقراء المسلمين الصادقين المخلصين في الدنيا "يَضْحَكُونَ" 29 منهم لمّا يرونهم

استهزاء بهم وسخرية "وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ"

(38/807)

---

30 أيضا بأن يشير بعضهم إلى بعض بأعينهم وجوارحهم وشفاههم إشارات وحركات تدل على استحقارهم وإهانتهم والطعن بهم ، والسب والشتم والتغيير بما هم عليه من الفقر والكآبة ، فنزلت هذه الآية بهم .

وجاء في البحر أن عليا كرم اللّه وجهه وجماعة من المؤمنين معه مروا بجمع من كفار مكة فصاروا يضحكون منهم ويستخفون بهم فنزلت قبل أن يصل علي وجماعته لحضرة الرسول ليخبروه بذلك ، وعند وصولهم إليه تلاها عليهم ، وهي صالحة للوجهين وعامة في كل من يفعل فعلهم إلى يوم القيامة ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

وهنا الآية واقعة حال من أولئك الكفرة قبل نزول هذه الآية بدليل قوله تعالى (كانُوا) وجيء بها هنا تمهيدا لذكر بعض أحوال أولئك الأشرار مع هؤلاء الأبرار .

قال تعالى "وَإِذَا انْقَلَبُوا" في مجالسهم ورجعوا "إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ" 31 متلذذين فرحين مستبشرين بما فعلوه من الاستخفاف بأولئك الكرام ، معجبين بما ذكروهم فيه في غيبتهم عن أهلهم ويتفكهون به لما له من الوقع في قلوبهم الخبيثة "وَإِذا رَأَوْهُمْ" رأى الكافرون المؤمنين "قالُوا" بعضهم لبعض على مسمع منهم "إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ" 32 في انتسابهم إلى محمد وإيمانهم به ، يريدون جنس المؤمنين لا الذين مروا بهم فقط ، وجاء التأكيد بأن واللام لمزيد الاعتناء بسببهم فيقولون إنه خدعهم بقوله وتركوا هذه اللذائذ المحسوسة لما يرجيهم به من شهوات الآخرة الموهومة ، فهم قوم تركوا الحقيقة أملا بالخيال ، وهذا هو عين الضلال لأنهم يظنون أنهم على شيء والحال ليس هم على شيء أصلا ، قاتلهم اللّه أنى يؤفكون ، ألم يعلموا أنهم هم الظالمون الضالون ، ولكن السيء لا يرى إلا السيء ، فالمؤمن مرآة أخيه ، والكافر مرآة نفسه ، والدن ينضح بما فيه ، فلما ذا يقولون هذا ، واللّه تعالى يقول "وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ" 33 لهم يراقبون أعمالهم ، ولم يتوكلوا عليهم ، بل أمروا بإصلاح أنفسهم وتهذيبها مما يضرها ، وتطهيرها مما يدنسها ، فاشتغالهم بها أولى من تتبع أحوال

غيرهم وتسفيه أحلامهم وترك أنفسهم تمرح في هواها وتحارب مولاها ، ألا يحملون أنفسهم على قبول الحق ، وينهونها عن الضلال ؟ قال تعالى "فَالْيَوْمَ" أي يوم القيامة

(40/807)

يوم البعث والحساب والجزاء ترى "الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ" 34 بمقابلة ضحكهم عليهم بالدنيا حين كانوا يرونهم أذلاء مهانين بأعينهم بسبب تسلطهم عليهم وإيقاع الهوان بهم بعد العزة والرفاه ، وإرهاقهم بأنواع العذاب بعد التنعم والترف إذ انقلب الأمر بالعكس عند ما أفضى المؤمنون إلى الآخرة ، فصاروا يسخرون من الكفار كما كانوا يستهزئون بهم في الدنيا حالة عزّهم وكبريائهم ، إذ غاب عنهم ما كانوا فيه ، وتباعد عنهم ما كانوا يأملون ، وزجوا في العذاب ، ولاقوا من الأسى ما لم يكن بالحسبان ، وذلك سبب ضحك المؤمنين منهم ، لأن ما لاقوه في الدنيا من الوبال قد زال وانقلبوا إلى رضاء ربهم ورحمته ، كما أن أولئك زال عنهم نعيم الدنيا ، وغشيهم عذاب الآخرة الدائم ، فاستوجبوا الضحك عليهم لما هم فيه من البلاء ، والمؤمنون في السرور والهناءة ، وهناك الضحك لا هنا :

هذى الجمال لا جمال خيبر هذا أبرّ ربنا وأظهر

قال تعالى (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الآية 33 من تبارك المارة ، فأولئك في الجحيم وهؤلاء "عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ" 35 هذه الجملة حال من فاعل يضحكون أي يضحكون منهم حالة كونهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان وهم متكئون على سررهم ، وأرائك الجنة من الدر والياقوت ، قال أبو صالح : تفتح للكافرين أبواب النار وهم فيها ويقال لهم أخرجوا فإذا انتهوا إليها أغلقت دونهم ، فيفعل فيهم ذلك مرارا ، والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون منهم .

مطلب معني ثوب وفضل الفقر والفقراء وما يتعلق بهم :

(41/807)

قال تعالى "هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ" بعمل اللّه هذا بهم في الموقف وفي الجحيم ، وهل جوزوا في الآخرة جزاء "ما كانُوا يَفْعَلُونَ" 36 بالمؤمنين في الدنيا من الأذى والاستهتار والضحك وغيره ، وهذا الاستفهام استفهام تقرير ، أي بل إنهم جوزوا حق جزائهم على إجرامهم في الدنيا ، وحق لهم أن يفعل بهم هذا لأنهم لم يحسبوا لهذا اليوم حسابا .

واعلم أن ثوّب وأثيب بمعنى واحد ، قال أوس :

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

ومثاله في الشر قول أبي عبده :

ألا أبلغ أبا حسن رسولا فمالك لا تجيء إلى الثواب

(42/807)

و قال المبرّد هو فعل من الثواب يثوب إلى من علم جزاء عمله خيرا أو شرا ، ويعرف بالقرينة ، والثواب والتثويب والإثابة سواء ، وفعل ثوب يطلق على المجازات بالخير والشر ، ولكن اشتهر بالخير وجاء هنا مرادا به الشر على طريق التهكم كقوله تعالى (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) الآية 31 من آل عمران في ج 3 ، وقوله (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الآية 49 من سورة الدخان المارة ، فكأنه تعالى شأنه يقول للمؤمنين هل كافيناكم على عملكم الدنيوي وأثبناكم جزاءه خيرا ، وهل جازينا الكفرة على أفعالهم وعاقبناهم عليها ، أم لا ، فيكون هذا القول من اللّه للمؤمنين زائدا في سرورهم وحبورهم لما فيه من تعظيمهم وإكرامهم ، وزائدا للكافرين في أسفهم وحزنهم لما فيه من هوانهم وشقائهم ، وما حل بهم هذا إلا بسبب تكبرهم على الفقراء وإهانتهم لهم مع كفرهم وجحودهم ، وما كان استخفافهم بفقراء المؤمنين إلا بسبب غناهم وكثرة اتباعهم التي هي من نعم اللّه عليهم ، فبدلا من أن يشكروها ويخبتوا للذي خصّهم بها ، طغوا وبغوا ، قال تعالى (إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ

اسْتَغْنى) الآية 7 من سورة العلق ، وقد سئل أبو حنيفة رحمه اللّه عن الغنى والفقر ، فقال وهل طغى من طغى من خلق اللّه إلا بالغنى ، وتلا هذه الآية .

وإن المحققين يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا من كثرة الأموال والأولاد والعشيرة ، ولهذا كان الأصحاب رضوان اللّه عليهم يرون الفقر فضيلة ، وقد حدث الحسن رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاما ، فقال جليس الحسن أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء ؟ فقال تغديت اليوم ؟ قال نعم ، قال فهل عندك ما تتعشى به ؟ قال نعم ، قال فإذا أنت من الأغنياء .

(43/807)

وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يبيت طاريا ليالي ماله ولا لأهله عشاء ، وكان عامة طعامه الشعير ، وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللهم توفني فقيرا ولا تتوفني غنيا ، واحشرني في زمرة المساكين .

وقال جابر رضي اللّه عنه : دخل النبي صلّى اللّه عليه وسلم على ابنته فاطمة الزهراء

رضي اللّه عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى وقال تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة .

قال تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) الآية 3 من سورة والضحى في ج 1 ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها اللّه تعالى لمن اختاره ولا يختاره إلا أولياء اللّه .

وقال صلّى اللّه عليه وسلم هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم ، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أمتي الجنة قبل اغنيائها بخمسمائة عام والأغنياء يحاسبون على زكاتهم .

وقال صلّى اللّه عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به (أي ثوبين خلقين أو كساءين باليين من غير الصوف) لو أقسم على اللّه لأبرّه .

أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه إياها ، ولم يعطه من الدنيا شيئًا ، ولو أقسم على اللّه تعالى بإعطائه لأعطاه إياها ، ولكنه لا يفعل .

وقال صلّى اللّه عليه وسلم إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به (ثم بين صفة الذين لا يؤبه بهم بقوله) الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم ، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تلجلج في صدره ، لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم .

هؤلاء الفقراء الذين كانوا ولا يزالون أهل الدنيا يسخرون منهم ، وهم خير منهم عند اللّه تعالى .

(44/807)

وقال صلّى اللّه عليه وسلم اتخذوا عند الفقراء أيادي (في الدنيا) فإن لهم دولة يوم القيامة ، أي يحتاج إليهم الأغنياء والأمراء ، فإذا أكرموهم بالدنيا فإنهم يشفعون لهم في الآخرة ، اللهم وفقنا لرضاك ، ومتعنا بالعافية ، واسبل علينا سترك ، واجعلنا أهلا لعفوك ، واجعل رزقنا كفافا ، ولا تحوجنا إلى شرار خلقك ، واغرس في قلوبنا حب الفقراء والمساكين من عبادك الصالحين ، ووفقنا للتصدّق عليهم من كرمك وفضلك وجودك المسبل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين .

هذا أيها الناس حال الفقراء في الآخرة الدائمة ، فما هو حال الأغنياء فيها لأن حالهم في الدنيا ليس بشيء مهما كان إذا لم يكن لهم عند اللّه مقام في الآخرة ، لأن هذه الدنيا مهما بلغ العبد فيها من الثراء في المال والجاه فمصيرها الزوال ، فاسعوا رحمكم اللّه لما يبقى ، وأكرموا الفقراء لأنهم سيسخرون من الأغنياء يوم القيامة كما كان الأغنياء يسخرون منهم في الدنيا .

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا

قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه

أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

وهذا آخر ما نزل في مكة المكرمة من سور القرآن الكريم ولم يبق من القسم المكي إلا آيات

أثبتناها ضمن سورها المدنية كما سنأتي على ذكرها في محلها إن شاء الله ، وسنشير إليها

كما أشرنا في القسم المكي إلى الآيات المدنيات المثبتة ضمن سورها المكية ، وقد ذكرنا

شيئا من هجرة الرسول بعد نزول سورة المطففين واجتماع قريش على الصورة المبينة في

الآية 40 من سورة العنكبوت المارة ، وقد وعدنا بإكمال قصة الهجرة بعد تفسير الآية

60 منها ، وهانذا أوفي بذلك فأقول ومن الله التوفيق :

مطلب بقية قصة الهجرة وفضل أبي بكر الصديق وجوار ابن الدغنة له :

(45/807)

إن حضرة الرسول وأبا بكر لما ذهبا إلى الغار ، وجاء المشركون إليه ، فلم يدخلوه لما رأوا

عليه من نسج العنكبوت الدال على عدم دخوله من قبل أحد رجعوا يتحرونه خارج مكة ،

لأنهم يعلمون أن أحدا لا يدخله داره بعد أن تحالفوا وتواثقوا على قتله ، وبقي صلّى الله

عليه وسلم ورفيقه في الغار ثلاثة أيام .

روى البخاري ومسلم عن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه قال نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا ، فقلت يا رسول اللّه لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه ، فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما ؟ .

قال الشيخ محي الدين النووي :

معناه ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد ، وهو كقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) الآية من آخر سورة النحل المارة ، ويشير قوله هذا إلى عظيم توكله صلّى اللّه عليه وسلم حتى في هذا المقام ، وتؤذن بفضل أبي بكر واختصاصه برفقته هذه لحضرة الرسول التي أشار اللّه إليها في قوله (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا) ، وقوله في صدر هذه الآية 42 من سورة التوبة ج 3 (إلّا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار) وتعد هذه من أجل مناقبه رضي اللّه عنه في هذه الحادثة من أوجه كثيرة ، منها اللفظ الدال على أن اللّه تعالى ثالثهما كما مر في الحديث ، ومنها التنويه في الآية المذكورة بصحبته ،

ومنها بذله نفسه لحضرة الرسول ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ، ومنها ملازمة النبي صلّى اللّه عليه وسلم ومعاداة الناس من أجله ، ومنها أنه جعل نفسه وقاية لحضرة الرسول ، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه ذكر عنده

أبو بكر ، فقال وددت أن عملي كله مثل عمله يوما واحدا من أيامه ، وليلة واحدة من لياليه .

(46/807)

أما الليلة فليلة سار مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى الغار ، فلما انتهيا إليه قال واللّه لا تدخله حتى أدخل قبلك ، فإن كان فيه شيء أصابني دونك ، فدخله وكنسه ووجد في جانبه ثقبا فشق إزاره وسدّه به ، ووجد ثقبين آخرين فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول اللّه أدخل ، فدخل ووضع رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في رجله من الثقب ، فلم يتحرك مخافة أن ينتبه حضرة الرسول ، فسقطت دموعه على وجهه الشريف ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم مالك يا أبا بكر ؟ قال لدغت فداك أبي وأمي ، فتفل على محل اللدغة فذهب ما يجده من ألم ببركته صلّى اللّه عليه وسلم .

وما قيل إنه انتقض عليه وكان سبب موته بعيد عن الصحة ، لأن ما بين اللدغة وبين موته ما يزيد على إحدى عشرة سنة ، فلا يعقل بقاء أثر اللدغة تلك المدة ، على أن السم إذا برىء منه صاحبه نفع وجوده كما هو معلوم طبا ومشاهدة ، وأما يومه فلما قبض صلّى اللّه عليه وسلم ارتدت العرب ، وقالوا لا نؤدي الزكاة فقال لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه ، فقلت يا

خليفة رسول اللّه تألّف الناس وارفق بهم ، فقال لي : أجبار في الجاهلية حوار في الإسلام ، إنه قد انقطع الوحي وتم الدين ، أينقص وأنا حي ؟

- أخرجه في جامع الأصول ولم يرقم عليه علامة لأحد - قال البغوي : وروي أنه حين انطلق مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول اللّه مالك يا أبا بكر ؟ فقال أذكر الطلب فأمشي خلفك ، وأذكر الرصد فأمشي بين يديك ، فلما انتهيا إلى الغار قال مكانك يا رسول اللّه حتى أستبرئ الغار ، فدخل فاستبرأه ، ثم قال انزل يا رسول اللّه ، فنزل وقال له إن أقتل وأنا رجل واحد من المسلمين ، وإن قتلت هلكت الأمة .

(47/807)

قال الزهري لما دخل رسول اللّه الغار وأبو بكر أرسل اللّه سبحانه وتعالى زوجا من حمام حتى باضت أسفل النقب ، ونسجت العنكبوت بيتا ، وقيل أتت يمامة على فم الغار وقال صلّى اللّه عليه وسلم

اللهم أعم أبصارهم ، فجعل الطلب يضربون يمينا وشمالا حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت .

هذا وقد وجدت في بعض التفاسير هذه الأبيات منسوبة لأبي بكر رضي اللّه عنه ، فأثبتها وهي :

قال النبي ولم يجزع يوقرني ونحن في سدف في ظلمة الغار

لا تخش شيئا فإن اللّه ثالثنا وقد تكفل لي منه بإظهار

وإنما كيد من تخشى بوادره كيد الشياطين قد كادت لكفار

واللّه مهلكهم طرّا بما صنعوا وجاعل المنتهى منهم إلى النار

(48/807)

و منها أنه صلّى اللّه عليه وسلم لما اختفى في الغار كان مطلعا على باطن أبي بكر في سرّه وإعلانه بأنه من المؤمنين الموقنين المخلصين ، ولذلك اختار صحبته في ذلك الوقت الرهيب والمكان المخوف ، ومنها أن هذه الهجرة كانت بإذن اللّه تعالى فخص بصحبته فيها الصديق دون غيره من أهله وعشيرته ، وهذا التخصيص يدل على فضل أبي بكر وشرفه على غيره ، ومنها أن اللّه تعالى عاتب أهل الأرض كلهم بقوله عز قوله (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) الآية المارة من التوبة سوى أبي بكر ، وهذا دليل كاف على فضله على أهل الأرض كلهم عدا صاحبه ، ومنها أنه رضي اللّه عنه لم يتخلف عن رسول اللّه في سفر ولا حضر بل

كان ملازما له في الشدة والرخاء وهذا مما يدل على صدق محبته له وكثرة مودته بحيث لا تستطيع نفسه الكريمة مفارقة حضرة الرسول في اليسر والعسر ، ومنها مؤالسته للنبي صلّى اللّه عليه وسلم في الغار وبذل نفسه له وفداء زوجه أمامه كما تقدم ذكره حال المشي وحال الدخول وحال الاستقرار في الغار مما يحقق تمحضه فيه ، ولهذا جعله اللّه تعالى ثاني رسوله بقوله عز قوله (ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ) الآية المارة من التوبة ، وفي هذا نهاية الفضيلة وغاية الكرامة له .

وقال بعض العلماء : إن أبا بكر ثاني رسول اللّه في أكثر الأحوال ، ومنها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم دعا الخلق إلى الإيمان باللّه وبكتابه فكان أبو بكر أول من أجاب دعوته ، وهو أول من دعا إلى الإيمان بعد رسول اللّه فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير ، فآمنوا على يديه وحملهم إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فأقروا له بالإيمان ، ومنها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم لم يقف في موقف من غزواته إلا وأبو بكر

(49/807)

معه لشدة حرصه عليه ، ومنها أنه لما مرض صلّى اللّه عليه وسلم قام مقامه في الإمامة بأمره صلّى اللّه عليه وسلم مما يدل على تفضيله على سائر الأصحاب ، ومنها أنه ثانيه في

تربته صلّى اللّه عليه وسلم لأنه دفن بجانبه وفي هذا دليل على فضله أيضا ، ومنها أن اللّه تعالى نص على صحبته دون غيره بقوله جل قوله (إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا) الآية الآنفة الذكر من التوبة ، ومنها أن اللّه تعالى كان ثالثهما ، ومن كان اللّه معه فهو كاف على فضله وشرفه على غيره ، ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بقوله تعالى (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) الآية المذكورة أيضا ، قال ابن عباس المراد أبو بكر لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كانت عليه السكينة من قبل ذلك .

هذه نبذة قليلة من فضائله رضي اللّه عنه قال الأبوصيري :

وما حوى الغار من خير ومن كرم وكل طرف من الكفار عنه عمي

فالصدق في الغار والصديق لم يرما وهم يقولون ما في الغار من أرم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية اللّه أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

(50/807)

هذا وبعد أن بقي النبي صلّى اللّه عليه وسلم وصاحبه في الغار ثلاثة أيام بلياليها لا حامي لهما إلا اللّه ولم تترك قريش محلا إلا دخلته تفتش عليه ، وكان أبو بكر منذ أخبره حضرة

الرسول بإذن اللّه بالهجرة ووافق على استصحابه معه استحضر راحلتين ليركبا عليهما وصار يعلفهما ، وقيل أن يذهبا إلى الغار استدعيا رجلا من بني عدي وسلماهما إليه وأمراه بإكرامهما ، وواعداه أن يحضرهما إليهما بعد صبيحة ثلاث إلى الغار ، وفي الوقت المذكور أتى بهما إليهما فخرجا من الغار والناس نيام بعد والعيون منقطعة ، فركب كل منهما واحدة واستصحبا الديلى دليلا ومشيا على بركة اللّه قاصدين المدينة ، كما جاء في الحديث الصحيح الذي هو من إفراد البخاري المروي عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت : لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين الإسلامي ، ولم يمر علينا يوم إلا ويأتينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد (بفتح الراء وكسر الغين موضع بينه وبين مكة خمس ليالي مما يلي البحر لأن طريقهما كان على الساحل)

(51/807)

لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة ، فقال أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي ، فقال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب

الحق ، فأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، تخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق .

- ولو قال كما قال مؤمن آل فرعون (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) الآية 28 من سورة المؤمن المارة لأن الجلاء أخر القتل عندهم بل أشد ، ولكنه لا يدين بدين اللّه حتى يقول ذلك بتوفيق اللّه ، وإنما وصفه بأوصافه الكريمة وهو لها أهل - .

(52/807)

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وفي رواية : فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها ويقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساؤنا وأبناؤنا ، فقال ذلك ابن الدغنه لأبي بكر ، فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقذّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان رجلا لا يكاد يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك اشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ،

فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال له قد علمت الذي عاهدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإمّا أن ترجع إلي ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني خفرت في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر إني أردّ إليك جوارك وأرضى

بجوار اللّه ، والنبي صلّى اللّه عليه وسلم يومئذ بمكة ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم للمسلمين إني أريت دار هجرتكم سبخة ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان .

(53/807)

فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلم على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي ، فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي ؟ قال نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول اللّه ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر وهو الخبط أربعة ، أشهر .

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة : فبينما نحن جلوس يوما في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة قال قائل هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي ، واللّه ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر ، قالت فجاء رسول اللّه فاستأذن فأذن له ، فدخل فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم لأبي بكر أخرج من عندك ، فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه ، قال فإني قد أذن لي في الخروج ، قال أبو بكر الصحبة يا رسول اللّه بأبي أنت وأمي ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نعم ، قال أبو بكر فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه إحدى راحلتي هاتين ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالثمن ، قالت عائشة فجهزناهما أحسن الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها (التي تشد به وسطها) فربطت به فم الجراب ، فبذاك سميت ذات النطاقين ، قالت ثم لحق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد اللّه بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن (صادق فطن مرن سريع الفهم سريع الانتقال) ، فيدلج (الإدلاج بالتخفيف السير أول الليل وبالتشديد آخره) من عندهما بسحر فيصبح مع

قريش بمكة كباثت فيها ، فلا يسمع أمرا يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك اليوم حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة (المنحة الشاة ذات اللبن) من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل (بكسر الراء وسكون السين اللبن) حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث واستأجر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عدي هاديا خرّيتا

(55/807)

(الخرّيت الماهر في الدلالة) قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي (أي أخذ نصيبا من حلفهم وعهدهم) وهو على دين كفار قريش ، فآمناه ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ، فأتاهما صبح ثلاث ، فارتحلا ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي ، فأخذ بهم طريق الساحل ، وفي هذا قال الأبو صيري ينعى حال قريش وقبح صنيعهم مع حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والضباء

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء

وجفوه وحن جذع إليه وقلوه ووده الغرباء

وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء

واختفى منهم على قرب مرآه من شدة الظهور الخفاء

الأبيات من قصيدته التي قل أن توجد قصيدة مدح ببلاغتها وجمعها للمعاني ، ولهذا قالوا ما مدح خير البرية بأحسن من البراءة والهمزية ، وكلاهما له رحمه اللّه .

مطلب قصة سراقة بن مالك الجشعمي حين الحق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

(56/807)

قال ابن شهاب فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة ابن مالك بن جشعم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جشعم يقول : جاءنا رسول كفار قريش لما هاجر رسول صلّى اللّه عليه وسلم إلى المدينة ومعه صديقه رضي اللّه عنه ، يخبرنا أنهم أرسلوا في أثرهما الرسل ، وبثوا العيون ، ونصوا الأشراك ، وأقاموا الأرصاد ليحولوا دون هجرته ، فلم يظفروا به ، وأنهم جعلوا جائزة قدرها مئة ناقة لمن يقتل أحدهما أو يأسره ، ومئتان لمن يقتلهما أو يأتي بهما ، قال سراقة فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال يا سراقة إني قد رأيت أسودة

بالساحل (أي أشخاصا) أراهما محمدا وأصحابه ، قال سراقة فعرفت أنهم هم ، فقلت له إنهم ليسوا هم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ، ثم لبثت في المجلس ساعة ، ثم قمت ، فدخلت البيت فأمرت جاريتي أن تخرج الفرس وراء الأكمة (هي التل المرتفع) فتحبسها علي ، وأخذت رمحي ، فخرجت من ظهر البيت كي لا يراني أحد ، لأختص

(57/807)

بتلك الجائزة دون قسيم أو شريك ، قال فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تضرب بي (تعدو عدوا دون الإسراع) ، ثم صرت أشتد في أثرهم حتى دنوت منهم ، فعثرت فرسي ، فخررت عنها ، فقمت وأهويت بيدي إلى كنانتي (الجعبة التي فيها السهام) فاستخرجت منها الأزلام (الأقداح التي كانوا يتفاءلون بها) فاستقسمت بها أضرهم أم لا ، فخرج الذي أكره ، فركبت فرسي وعصيت الأزلام ، فلا زالت تضرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات يمينا وشمالا ، وإذ ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ثم زجرتها فلم تكد تخرج يديها فنهضت ، فلما استوت قائمة إذا الأثر يين

يديها غثان (غبار) ساطع في السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ثانيا فخرج الذي أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسي حتى جئتهم ، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم ان سيظهر أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقد رأيت أن الخوف دخل أبا بكر ، ولكن الرسول ثابت فؤاده ، ولما ناديت بالأمان ترجلت خشية أن يصيب فرسي ما أصابها قبل ، حتى إني خشيت على نفسي أن يصيبها ما أصاب فرسي ، فقلت له يا رسول اللّه إن قومك قد جعلوا فيك وفي صاحبك الدية ، وإنهم يريدون قتلكما وإني راجع رادهم عنك ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزأني (لم يأخذا مني شيئا) ولم يسألاني إلا أن قالا أخف عنا ما استطعت ، فقلت يا رسول اللّه أدع اللّه أن يطلق لي جوادي ولك عهد وميثاق أن أرجع وأردّ عنك ، واكتب لي كتاب أمن بأنك إذا أظهرك اللّه وملكت رقاب الناس وجئتك أن تكرمني ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم اللهم إن كان صادقا فيما يقول فأطلق له جواده ، وأمر عامر بن فهيرة أن يكتب لي العهد ، فأبيت إلا أن يكون الكاتب أبا بكر ، فأمره ، فكتب له رقعة من أديم ما أراد من العهد ، أمانا له عند ظهور أمره .

(58/807)

وهذا مما يؤيد عدم معرفته صلّى اللّه عليه وسلم الكتابة كما ذكرنا في الآية 48 من سورة العنكبوت المارة ، قال ثم عرضت عليه ثانيا أن يتزود من مالي ما شاء فقال يا سراقة إذا لم ترغب في دين الإسلام فإني لا أرغب في إبلك ومواشيك ، فقلت مرني بما شئت ، فقال لا تترك أحدا يلحقنا ، وقال كيف بك يا سراقة إذا

تسورت بسواري كسرى ؟ فقلت متعجبا كسرى بن هرمز ؟ قال نعم ، فرجعت ومضى رسول اللّه ومن معه لجهة المدينة ، قال سراقة ولما عدت إلى مكة اجتمع إليّ الناس يسألونني عما حدث لي مع رسول اللّه ، فأنكرت أولا رؤيته بتاتا ، ولكنهم عادوا علي واستخبروني فأخبرت أبا جهل بما حدث فلامني على ما كان مني ، فأنشدته معتذرا بما ألقى اللّه على قلبي ولساني فقلت :

أبا حكم واللّه لو كنت شاهدا لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمدا رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

قالوا ولما كان عام الفتح وكان رسول اللّه عائدا من غزوة حنين بالجعرانة ، إذا بصائح يصيح يا رسول اللّه ، حتى أنخرط في كتيبة الأنصار وهو ينادي يا رسول أنا سراقة بن مالك ، وهذا كتاب عهدي منك ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم أدنوه ، فهذا اليوم يرى وفاء ، وقال له إن وعد الحرّ دين ، فأسلم وحسن إسلامه وحظي بسواري كسرى زمن خلافة ابن

الخطاب ، وأخبر بأن هذا مما أخبره محمد صلّى اللّه عليه وسلم بهما عام الهجرة .

فهي من معجزاته صلّى اللّه عليه وسلم .

(59/807)

قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين ، كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة (أرض ذات حجارة خارج المدينة فينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم (أشرف على بناء مرتفع من أبنيتهم) لأمر ينظر إليه ، فبصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي نفسه أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه ، قال فثار المسلمون إلى السلاح وظهروا يتلقون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين غرة ربيع الأول سنة 54 أربع وخمسين من ميلاده الشريف ، الثالث عشر من البعثة

المقدسة ، فجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقام أبو بكر للناس يتلقاهم ويصرفهم والتي صامت ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يعرف رسول

(60/807)

اللّه يحيي أبا بكر لأنه هو الذي يتلقاهم ويصافحهم ويجلسهم مجالسهم ، ويقصد بذلك عدم تكليف حضرة الرسول واحتراما وتكريما لمقامه ، فظنوا أنه هو الرسول ، ولما قربت الشمس من مجلسهما ورأى أبو بكر أن الشمس أصابت حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم قام فظلل عليه بردائه ، فعرف الناس كلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عند ذاك ، فلبث صلّى اللّه عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أخبر اللّه عنه بأنه أسس على التقوى في الآية 110 من سورة التوبة في ج 3 ، وصلى فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه ، ثم ركب راحلته فسار والناس تمشي خلفه حتى بركت عند مسجد الرسول صلّى اللّه عليه وسلم الآن بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربدا للتمر (بيدر التمر) وهو ملك لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء اللّه المنزل ، ثم دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الغلامين فساومهما

بالمربد ليتخذه مسجدا ، فقالا بل نهبه لك يا رسول اللّه ، فأبى رسول اللّه أن يقبله منهما هبة ، حتى ابتاعه منهما بما أرضاهما ، ثم بناه مسجدا ، وطفق رسول اللّه ينقل مع أصحابه اللبن والتراب ويعين أصحابه في بنائه ، وكان يقول أثناء شغله معهم :

هذي الحمال لا حمال خيبر هذا أبرّ ربنا وأطهر

يعني بذلك أن الحجارة التي تحملها لبناء المسجد أفضل عند اللّه تعالى مما يحمل من خيبر من المال والميرة وغيرها من أنواع التجارة ، وفي رواية بالجيم من التجميل أو من الجمال وعليه يكون المعنى أن ما تحمله الجمال من خيبر مما هو جميل بنفسه أو أن الجمال فقط وهي الإبل ليست بشيء بالنسبة لما هم فيه من بناء المسجد الشريف والرواية الأولى أشهر ، قالوا وكان يقول صلّى اللّه عليه وسلم :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

(61/807)

و قيل إنه تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسمّه ، قال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول اللّه تمثل بيت شعر تام غير هذا البيت ، وهو من الرجز ولا يسمى الرجز شعرا ، وقد ذكرنا ما يتعلق بهذا في الآية 68 من سورة الشعراء والآية 70 من سورة يس في ج 1 ،

أخرجه البخاري ، وقد أخرج الدارقطني وابن

شاهين وابن مردويه وغيرهم عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لأبي

بكر رضي اللّه عنه أنت صاحبي في الغار وأنت رفيقي على الحوض .

وأخرج ابن عساكر من حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما وأبي هريرة مثله ، وأخرج هود

ابن عدي عن طريق الزهري عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال لحسان هل

قلت في أبي بكر شيئا ؟ قال نعم ، قال قل ، فقال رضي اللّه عنه من جملة ما قال في حقه :

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدوّ به إذ صاعد الجبلا

وكان حب رسول اللّه قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول اللّه حتى بدت نواجذه ، ثم قال صدقت يا حسان هو كما قلت ، وقال

بعضهم إن شبان قريش ذهبوا نحو الغار بأسلحتهم حتى كانوا عنه قدر أربعين ذراعا فتقدم

أحدهم وهو أمية بن خلف فقال إن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد ، فانصرفوا ، وزاد

البيهقي في الدلائل أن أبا بكر صار يمشي مرة عن يساره ، ومرة عن يمينه ، وانه قال لحضرة

الرسول لا آمن عليك وان محمدا صلّى اللّه عليه وسلم صار يمشي على أطراف أصابعه

حتى حقيت رجلاه ، فلما رأى ذلك أبو بكر حمله على كاهله وجعل يشتد به حتى فم

الغار ، قالوا وجرح صبع أبي بكر أثناء كله الغار ، فجعل يمسح الدم ويقول :

ما أنت إلا أصبح دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

و ذهب الذين كانوا في طلبه صفر الأكف سود الوجوه ، وصار له بعض من كان عليه ، وهذا أول خير من فضائل الهجرة ، إذ صاروا يتلاومون على فعلهم الذي سبب هجرته عنهم فقد أخرج ابن سعد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن أنس رضي اللّه عنه قال : لما خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأبو بكر التفت أبو بكر ، فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال يا نبي اللّه هذا فارس قد لحق ربنا ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم اللهم اصرعه ، فصرع عن فرسه ، فقال يا رسول اللّه مرني بما شئت ، قال تقف مكانك لا تتركنّ أحدا يلحق بنا ، فكان أول النهار جاهدا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وآخر النهار مسلحة له ، وكان هذا الفارس سراقة المار ذكره في الحديث الأول الذي رواه البخاري .

وصح من حديث الشيخين وغيرهما أن القوم طلبوا رسول

اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأبا بكر ، وقال أبو بكر ولم يدركنا إلا سراقة على فرس له ، فقلت يا رسول اللّه هذا الطلب قد لحقنا ، فقال لا تحزن إن اللّه معنا كما أشار اللّه بهذا في الآية 42 من سورة التوبة في ج 3 ، حتى إذا دنا فكان بيننا وبينه قدر رمح أو رمحين أو ثلاثة ، قلت يا رسول اللّه هذا الطلب قد لحقنا وبكيت ، قال لم تبك ؟ قلت أما واللّه ما أبكي على نفسي ولكن أبكي عليك ، فدعا عليه الصلاة والسلام ، وقال اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه إلى بطنها في أرض جلدة (قوية) ووثب عنها ، وفي رواية : قال اللهم اكفناه بما شئت وكيف شئت ، فساخت قوائم فرسه في الأرض ولم تقو على مغادرتها فهال الأمر سراقة وانخلع قلبه فزعا وهلعا ، فترجل خشية أن يصيبه ما أصاب فرسه ، ونادى الأمان يا محمد أنظرني أكلمك ، أنا لك نافع غير ضار ، وقال يا محمد إن هذا عملك فادع ربك أن ينجيني مما أنا فيه ، فو اللّه لأعمين على من ورائي من الطلب ، واني راجع رادهم عنك ، وهذه كنانتي فخذ منها سهما فإنك ستمر بإبلي رغنمي في موقع كذا وكذا فخذ منها حاجتك ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا حاجة لي فيها ، ودعا له ، فانطلق راجعا إلى مكة وقال ما قال كما مر آنفا ، ورجع إلى أصحابه من بقية الطلب ، ومضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وأنا معه حتى قدمنا المدينة .

الحديث .

قالوا وكان في استقبال الرسول جماعة من أهل المدينة غير المهاجرين ، وكان معهم الفتيات

يفتين فرحا باستقباله صلّى اللّه عليه وسلم ، ومن جملة ما نقل عن أناشيدهن :

أقبل البدر علينا من ثبات الوداع وجب الشكر علينا ما دعى للّه داع

ومنهن من قلن :

نحن بنات من بني النجار يا حبذا محمد من جار

(64/807)

و يضربن بالدف ويظهرن معالم الفرح والسرور بقدومه بما جرت عليه عادتهم رضي اللّه عنهن وأرضاهن ، فيظهر من هذه المعجزات التي أظهرها اللّه على يدي رسوله في مكة وآخرها قضية سراقة أن حضرة الرسول لم يهجر بلده مكة وقومه وعشيرته فيها عن ضعف أو خوف ، كيف وقد أخبره اللّه تعالى في إنزال العذاب فيهم مرارا فلم يفعل لشدة حرصه على إسلامهم ، وكان يجابه ربه بقوله اللهم اهد

(65/807)

قومي فإنهم لا يعلمون ، وإنما كانت هجرته هذه اتباعا لأمر اللّه تعالى وتقديره الأزلي في ذلك ، وكان فيها الخير والبركة وعلو الكلمة وشرف السمعة ، وان قومه بعد رجوعهم من طلبه وسماعهم قول سراقة وما جرى له معه ، راجعوا أنفسهم ورأوا أنهم مقصرون تجاهه ، وانشقوا في الرأي وأوقعوا اللوم على الذين قرورا قتله في دار الندوة حتى نشأ عنه تركه إياهم وصاروا يمحصون أقواله ويفندون أفعاله ، فلم يروا منها ما يوجب النقد أو النفع الخاص أو الضرر لأحد ، أو أن ذلك لطلب الرياسة أو المال أو غيره ، وإنما يدعو لتوحيد اللّه ، وهذا شيء لم يألفوه من قبل ولم يتلقوا شيئا منه عن آبائهم فخالفوه ، ويدعو للاعتراف بالبعث بعد الموت وهو لا تقبله عقولهم ، وان هذين الأمرين ما كان أحد منهم يقسر على الاعتراف بهما ، وإنما على طريق النصح والإرشاد وليس إلا ، لذلك تيقنوا ان سقط في أيديهم وندموا على ما فعلوا وعنقوا غيرهم عليه ، وقالوا إنه سيجد في المدينة أنصارا وأعوانا ربما أنّهم سيهاجموكم في عقر داركم هذه ، وقد أوقع اللّه الرعب في قلوبهم وصاروا يترقبون خوف الكرة عليهم بمن دان بدينه ، وكان ذلك ، إذ أظهره اللّه عليهم وأتم أمره فيهم ، كما سيأتي في قصة الفتح إن شاء اللّه تعالى عند تفسير الآية الأولى من سورة الفتح في ج 3 ، هذا وما ذكرناه من الأحاديث هو خلاصة ما جاء في الهجرة وسببها وكيفيتها ، ومن أراد التفصيل فعليه بمراجعة سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية ، ففيهما الكفاية .

ومما تقدم تبين لك أيها القارئ عظيم فضل سيدنا علي كرم اللّه وجهه ، لأنه هادى بنفسه الكريمة في طاعة ابن عمه محمد صلّى اللّه عليه وسلم حينما دعاه حالة إحاطة شبان قريش بداره وأخبره بما قصدوه من قتله ، وقال له أنت تنام في مكاني في بيتي وتبقى لتؤدي الأمانات وغيرها كما مر آنفا ، فلم يتلكأ وقبل عن طيب نفس ورضى قلب ، فتركه صلّى اللّه عليه وسلم على فراشه وخرج على الصورة المارة ، وحثا على رءوس شبان قريش التراب ولم يحسوا به .

هذا وان ما قاله بعض المتنطعين من ان رسول اللّه هاجر مكرها وخشية من القتل قول لا قيمة له ، كيف وقد تعهد اللّه له بالنصر وحماه من مواقف الكفر كلها طيلة ثلاث عشرة سنة في مكة ، وقد خيره اللّه في إهلاك أهلها فأبى عليهم وسأل ربه هدايتهم ، وانه خرج من بين شبان قريش الذين كانوا سالين سيوفهم ليقتلوه عند خروجه فلم يتعرض له أحد منهم لأنه بحجاب من اللّه تعالى الذي معه في كل أحواله ، ولكن ما كانت الهجرة إلا تنفيذا لما هو في علم اللّه ولأن خير الإسلام وأهل مكة متوقف عليها ، راجع الآية 103 من آل عمران ج 3 ، كما أن ما قاله بعض من لا خلاق له في الدنيا ولا نصيب في الآخرة ولا حظ له عند اللّه تعالى من أن حضرة الرسول إنما استخلف عينا على فراشه ليقتله شبان قريش المحيطون بداره ويتخلص منه ، وان سبب مصاحبة أبي بكر له ليكيده به ، ما هو إلا قول زور وكذب

وافتراء وبهت غني عن الرد ، إذ لا يصدقه عاقل ولا يقول به جاهل كيف وهو ابن عمه ووزيره ووصيه وصهره وسيفه وعدته للنوازل ، وهو منه بمنزلة هرون من موسى ، قاتل الله صاحب هذا القيل ومن يصغي إليه ، وما هو إلا ناشىء عن محض عداء وخالص فتنه من قلب ضال ولسان مضل ، أبعده الله في الدنيا عن الصواب ، وشدد له في الآخرة العذاب ، وأهانه بالهوان يوم المعاد (ومن يضلل الله فماله من هاد) .

هذا والله أعلم وأستغفر الله العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 508 . 536 ﴾

(67/807)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المطففين

مكية أو مدنية

يخسرون تام وكذا الرب العالمين كلا قال أبو حاتم بمعنى إلا وكذا جميع ما يأتي منها في هذه السورة فلا يوقف عليها وقال أبو عمرو يجوز أن تكون بمعنى رد ما قبلها فيوقف عليها لفي

سجين صالح مرقوم تام بيوم الدين حسن الأولين تام وكذا يكسبون لمحجوبون مفهوم به تكذبون تام لفي عليين كاف ما عليون صالح المقربون تام ينظرون كاف وكذا نضرة النعيم صالح ختامه مسك حسن المتنافسون كاف المقتربون تام عليهم حافظين كاف يضحكون صالح ولك أن تقف على الأرائك كذا قيل وفيه تعسف والأولي أن تقف على ينظرون آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(68/807)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الرحيق ﴿ المطففين ﴾

مكية أو مدنية ست وثلاثون آية إجماعاً كلمها مائة وتسع وتسعون كلمة وحروفها سبعمائة وثلاثون حرفاً

يستوفون (حسن) للفصل بين تناقض الحالين للاعتبار والوصل أولى

يخسرون (تام) وهو جواب إذاً ومفعولاً يخسرون محذوفان أي يخسرون الناس متاعهم قال السدي قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فنزلت والضمير كالوهم أو وزنوهم منصوب يرجع إلى الناس يقال

كلته وكلت له وزنته ووزنت له كالوهم كلمة واحدة وكذلك أو وزنزهم والمعنى كالوا لهم أو وزنولهم فحذفت اللام ووقع الفعل على هم فصارا حرفاً واحداً وليس بعد الواو ألف فلا يوقف على كالوا دون هم وكذلك يقال في وزنوهم أنه كلمة واحدة لأن المكنى به المنصوب مع ناصبه حرف واحد لأنهم أسقطوا الألف من كالواو وزنوا فدل ذلك على أنهما حرف واحد ولو كانا حرفين لكتبوا فيهما الألف بل رسما بغير ألف فاصلة

ولا وقف من قوله ألا يظن إلى العالمين فلا يوقف على مبعوثون لتعلق اللام ولا على عظيم ان جعل يوم في موضع جر بدلاً من يوم عظيم وان نصب بفعل مقدر حسن الوقف على عظيم وكذا إن رفع على المحل خبر مبتدأ محذوف ونصب يوم لاضافته للفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين

لرب العالمين (تام) عند أبي حاتم وكلا عنده بمعنى الا التي للتنبيه يبتدأ بها الكلام وقال أبو عمرو يوقف عليها ردّا وزجراً لما كانوا عليه من التطفيف

لفي سجين الأول (كاف)

ماسجين (جائز) لكونه رأس آية على أن كتاب بدل من سجين وكاف أن جعل خبر مبتدأ محذوف وهو مشكل لأن كتاب ليس هو المكان وقيل التقدير هو محل كتاب ثم حذف المضاف

مرقوم الأول (تام)

ويل يومئذ للمكذبين (كاف) إن رفع الذين أو نصب على الذم وليس بوقف إن جر نعتاً أو بدلاً أو بياناً

بيوم الدين (كاف)

أثيم (حسن)

(69/807)

الأولين (تام) عند أبي حاتم ومثله يكسبون ولا مقتضى يوجب الوقف على كلا

لمحجوبون (جائز) ومثله الجحيم

تكذبون (تام)

لفي عليين (كاف)

ما عليون (جائز)

مرقوم الثاني ليس بوقف لأن الجملة بعده صفته ومعنى مرقوم مكتوب قال أبو العباس

سأرقم في الماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم

المقربون (تام) للابتداء بان

لفي نعيم ليس بوقف

ينظرون (كاف) ان جعل ينظرون حالاً وكذا إن جعل على الأرائك متعلقاً بينظرون وأما ان جعل على الأرائك متعلقاً بقوله لفي نعيم كان الوقف على الأرائك حسناً ولم يحسن على نعيم

نضرة النعيم (كاف) ومثله مختوم على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل متصلاً بما قبله

ختامه مسك (كاف) قرأ الكسائي خاتمه بفتح التاء بعد الألف والباقون بتقديم التاء على الألف

المتنافسون (كاف) من تسنيم ليس بوقف لأن عيناً حال من تسنيم و مفعول ثان ليسقون

المقربون (تام)

يضحكون (تام)

يتغامزون (حسن) ومثله فاكهين على القراءتين قرأ حفص فكهين بغير ألف بعد الفاء والباقون بها

لضالون (تام) لأنه آخر كلام الكفار والذي بعده من كلام الله تعالى

حافظين (تام)

يضحكون (جائز) إن جعل ينظرون حالاً من الضمير في يضحكون أي يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من العذاب لأن لأهل الجنة كوى ينظرون منها إلى أهل النار وليس

بوقف أن جعل على الأرائك ظرفاً ليضحكون ولك أن تقف على الأرائك وتجعل

يضحكون عاملاً فيها والتقدير يضحكون على الأرائك ثم تبتدئ ينظرون

وينظرون حسن للإبتداء بالاستفهام

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(70/807)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة المطففين

مكية وقيل مدنية قيل إلا من إن الذين أجرموا إلى آخرها فمكي وآيها ست وثلاثون القراآت

عن الحسن إذا يتلى بمد الهمز على الاستفهام الإنكاري وتتلى بالياء من تحت ومر آخر

السابقة حكم إمالة إدراك معا وأمال بل ران شعبة وحمزة والكسائي وخلف وفتحه

الباقون وسكت حفص على لام بل سكتة لطيفة بلا تنفس وصلا ويبتدىء ران ومن لازمه

إظهار اللام المتفق على إدغامها إلا ما حكاه في الأصل عن المبهج عن قالون من إظهار اللام

عند الراء نحو بل رفعه وهو غير مقزوء به والران الصدأ وقال الحسن الذنب على الذنب

حتى يموت عليه وقال السدي حتى يسود القلب أعاذنا الله منه بمنه وكرمه ومر حكم إمالة كتاب الأبرار في أول المكرر بآخر آل عمران مع الأبرار

واختلف في (تعرف) الآية 24 فأبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء مبنيا للمفعول و نضرة بالرفع نائب الفاعل والباقون بفتح التاء وكسر الراء مبنيا للفاعل (نضرة) بالنصب مفعوله أي تعرف يا محمد أو كل من صح منه المعرفة

واختلف في (ختامه) الآية 26 فالكسائي ﴿ خاتمه ﴾ بفتح الخاء وألف بعدها ثم تاء مفتوحة جعله اسما لما يختم به الكأس على معنى عاقبته وآخره مسك والباقون بكسر الخاء وبعدها تاء وبعدها ألف بوزن فعال على معنى الختام الذي هو الطين الذي يختم به الشيء جعل بدله المسك وقيل خلطه وقيل مقطع شربه توجد فيه رائحة المسك وقرأ فكهين بغير ألف حفص وابو جعفر واختلف عن ابن عامر من روايتيه فرواه أبو العلاء الهمداني عن الداجوني عن هشام كذلك وكذا رواه الرملي عن الصوري والشذائي عن ابن الأخرم عن الأخفش كلاهما عن ابن ذكوان ورواه بالألف كالباقين الحلواني وباقي أصحاب الداجوني عن هشام وكذا رواه المطوعي عن الصوري والأخفش كلاهما عن ابن ذكوان وأدغم لام (هل ثوب) حمزة الكسائي وهشام في المشهور عنه

المرسوم ختمه بحذف الألف فيما رواه نافع وكتبوا كالوهم أو وزنوهم بواو ولا ألف بعدها فيهما فهم مفعول به على الصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(72/807)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة المطففين "

" يخسرون " أساطير ، مختوم ختامه ، عليهم ، جلي .

" بل ران " سكت حفص سكتة لطيفة من غير تنفس على لام " بل " ويلزم منه إظهار اللام وغيره يترك السكت مع إدغام اللام في الراء بلا غنة .

" وتعرف في وجوههم نضرة " قرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء في تعرف مع رفع التاء في نضرة ، والباقون بفتح التاء وكسر الراء ونصب التاء .

" ختامه " قرأ الكسائي بفتح الخاء وألف بعدها وبعد الألف تاء مفتوحة فميم مضمومة وغيره بكسر الخاء وتاء مفتوحة بعدها ألف وبعد الألف ميم مضمومة .

" أهلهم انقلبوا " كسر الهاء والميم وصلا البصريان وضمهما وصلا الأخوان وخلف وكسر

الهاء وضم الميم وصلا الباقون ووقف العشرة بكسر الهاء وسكون الميم .

" فكهين " حذف الألف بعد الفاء حفص وأبو جعفر وأثبتها الباقون .

" يفعلون " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

فسواك وتتلى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . شاء لخلف وابن ذكوان وحمزة . أدراك بالإمالة للبصري وشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه وبالتقليل لورش . الناس لدوري البصرى . الفجار والكفار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش وأن لشعبة والأخوين وخلف ، الأبرار بالإمالة للبصري والكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل لورش وحمزة . وإدغام راء الأبرار والفجار في لام لفي لا يمنع إمالة الألف التي قبلها نظرا لعروض هذا الإدغام .

المدغم

" الصغير " بل تكذبون ، وهل ثوب لهشام والأخوين .

" الكبير " ركبك كلا ، الفجار لفي ، يكذب به ، الأبرار لفي ، تعرف في ، يشرب بها ، ولا إدغام في إن الأبرار لفي وإن الفجار لفي لفتح الراء بعد ساكن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 347 . 348 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة المطففين

قوله تعالى ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ اتفق القراء على ادغام اللام في الراء لقربها منها في المخرج الا ما رواه حفص عن عاصم من وقوفه على اللام وقفه خفيفة ثم يبتديء ﴿ ران على قلوبهم ﴾ ليعلم بانفصال اللام من الراء وأن كل واحدة منهما كلمة بذاتها فرقا بين ما ينفصل من ذلك فيوقف عليه وبين ما يتصل فلا يوقف عليه كقولك ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فاما الامالة فيه والتفخيم فقد ذكرت علل ذلك في عدة مواضع

قوله تعالى ﴿ ختامه مسك ﴾ اجماع القراء فيه على كسر الخاء وكون التاء قبل الالف يراد به آخر شرابهم مسك أي مختوم بمسك والختام اسم ما يطبع عليه الخاتم من كل مختوم عليه الا ما اختاره الكسائي من فتح الخاء وتأخير التاء مفتوحة بعد الالف يريد به آخر الكأس التي يشربونها مسك كما تقول خاتمته مسك وكسر التاء ايضا جائز وقد ذكر في الاحزاب

قوله تعالى ﴿ إن كتاب الأبرار ﴾ يقرأ بالامالة والتفخيم وقد ذكر مع نظائره

قوله تعالى ﴿ فاكهين ﴾ يقرأ بإثبات الالف وحذفها والحجة فيه كالحجة في قوله ﴿

فارهين ﴾ و ﴿ لابثين ﴾ والمعنى فيه معجبين ومنه الفكاهة وهي المزاح والدعابة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 365 . 366 ﴾

(74/807)

وقال ابن زنجلة :

83 - سورة المطففين

كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون 14

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بل ران على قلوبهم بالإمالة وقرأ الباقون بغير الإمالة

وإنما جاءت الإمالة لأن الألف منقلبة من ياء وترك الإمالة أحسن لأنه ليس فيها ياء في لفظها

ولا كسرة بعدها ولا قبلها

وقرأ حفص بل ران بإظهار اللام عند الراء قال لأن بل من كلمة و ران من كلمة أخرى

وقرأ الباقون بالإدغام لقرب المخرجين ختمه مسك 26

قرأ الكسائي خاتمه مسك بالألف بين الخاء التاء وفتح التاء

وقرأ الباقون ختامه مسك بكسر الخاء وبعد التاء ألف وحجتهم أن المعنى في ذلك آخره

مسك كأنه إذا شرب أحدهم الكأس وجد آخر شرابه مسكا وختام كل شيء آخره أي

آخر ما يجدونه رائحة المسك وهو مصدر ختمه يختمه ختما وختاما

وحجة الكسائي أن الخاتم الاسم وهو الذي يختم به الكأس بدلالة قوله قبلها يسقون من رحيق مختوم ثم أخبر عن كيفيته فقال مختوم بخاتم من مسك وقال قوم خاتمه أي آخره كما كان من قرأ خاتم النبيين بالفتح كان معناه آخرهم

وكان علقمة يقول خاتمه وقال أما رأيت المرأة تأتي العطار وتشتري منه العطر فتقول اجعل لي خاتمه مسكا قال الفراء الخاتم والختام متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين 31

قرا حفص انقلبوا فكهين بغير ألف وقرأ الباقون بالألف قال الفراء فاكهين وفكهين لغتان مثل طمعين وطامعين وبخلين وباخلين ومعنى فاكهين معجبين بما هم فيه يتفكهون بذكر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 754 . 755﴾

(75/807)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة التطفيف 83

مكية وقال عكرمة عن ابن عباس نزلت بالمدينة أول ما قدمها النبي وذكر أن أهلها كانوا من أخبث الناس كيلا فلما نزلت أحسنوا الكيل وقد ذكر نظيرتها في غير عدد الكوفي ولا نظير لها فيه

وكلمها مئة وتسع وستون كلمة

وحروفها سبع مئة وثلاثون حرفا

وهي ثلاثون وست آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ولا مما يشبه الفواصل شيء

ورؤوس الآي

للمطففين

1 يستوفون

2 يخسرون

3 مبعوثون

4 عظيم

5 العالمين

6 سجين

7 سجين

8 مرقوم

9 للمكذبين

10 الدين

11 أثيم

12 الأولين

13 يكسبون

14 لمحجوبون

15 الجحيم

16 تكذبون

17 عليين

18 عليون

19 مرقوم

20 المقربون

21 نعيم

22 ينظرون

23 النعيم

24 مختوم

25 المتنافسون

26 تسنيم

27 المقربون

28 يضحكون

29 يتغامزون

30 فاكهين

31 لضالون

32 حافظين

33 يضحكون

34 ينظرون

35 يفعلون

36 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 267﴾

(76/807)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التطفيف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (كالوهم) "في" هم وجهان: أحدهما هو ضمير مفعول متصل ، والتقدير: كالوا لهم ، وقيل هذا الفعل يتعدى بنفسه تارة وبالحرف أخرى ، والمفعول هنا محذوف: أي كالوهم الطعام ونحو ذلك ، وعلى هذا لا يكتب كالوا و وزنوا بالألف والوجه الثاني أنه ضمير منفصل مؤكد لضمير الفاعل ، فعلى هذا يكتبان بالألف .

قوله تعالى (ألا يظن) الأصل لا النافية دخلت عليها همزة الاستفهام ، وليست ألا التى للتنبيه ، لأن ما بعد تلك مثبت ، وها هنا هو منفى .

قوله تعالى (يوم يقوم الناس) هو بدل من موضع الجار والمجرور ، وقيل التقدير: يبعثون يوم يقوم الناس ، وقيل التقدير: أعنى ، وقيل هو مبنى وحقه الجر أو الرفع ، والنون في (سجين) أصل من السجن وهو الحبس ، وقيل هو بدل من اللام .

قوله تعالى (كتاب) أي هو محل كتاب لأن السجين مكان ، وقيل التقدير: هو كتاب من غير حذف ، والتقدير: وما أدراك ما كتاب سجين .

قوله تعالى (ثم يقال) القائم مقام الفاعل مضمر تفسره الجملة بعده ، وقيل هو الجملة نفسها ،

وأما (عليون) فواحدها على وهو الملك ، وقيل هو صيغة للجمع مثل عشرين ، وليس له واحد ، والتقدير : عليون محل كتاب ، وقيل التقدير : ما كتاب عليين ، و (ينظرون) صفة للابرار ويجوز أن يكون حالا ، وأن يكون مستأنفا ، وعلى يتعلق به ، ويجوز أن يكون حالا إما من الضمير في المجرور قبلها ، أو من الفاعل في ينظرون .

قوله تعالى (عينا) أي أعنى عينا ، وقيل التقدير : يسقون عينا : أي ماء عين وقيل هو حال من تسنيم ، وتسنيم علم ، وقيل تسنيم مصدر ، وهو الناصب عينا ، و (يشرب بها) قد ذكر في الإنسان .

قوله تعالى (هل ثوب) موضع الجملة نصب بينظرون ، وقيل لا موضع له ، وقيل التقدير : يقال لهم هل ثوب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(77/807)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المطففين

[سورة المطففين (83) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1)

"وَيْلٌ" مبتدأ مرفوع و"لِلْمُطَفِّفِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 2]

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2)

"الَّذِينَ" بدل من المطففين و"إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة "اكْتَالُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"عَلَى النَّاسِ" متعلقان بما قبلهما "يَسْتَوْفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 3]

وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)

"وَإِذا" معطوفة على إذا الأولى "كالُوهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "أَوْ" حرف عطف "وَزَنُوهُمْ" معطوف على كالوهم . "يُخْسِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 4]

أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)

"أَلا" الهمزة حرف استفهام و"لا" نافية و"يَظُنُّ" مضارع مرفوع و"أُولئِكَ" فاعل "أَنَّهُمْ

مَبْعُوثُونَ" أن واسمها وخبرها . والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يظن .

[سورة المطففين (83) : آية 5]

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5)

"لِيَوْمٍ" متعلقان بمبعوثون و"عَظِيمٍ" صفة .

[سورة المطففين (83) : آية 6]

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6)

"يَوْمَ" ظرف زمان "يَقُومُ النَّاسُ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة و"لِرَبِّ" متعلقان بالفعل و"الْعالَمِينَ" مضاف إليه .

[سورة المطففين (83) : آية 7]

كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِنَّ كِتابَ" إن واسمها المضاف إلى "الْفُجَّارِ" مضاف إليه "لَفِي" اللام المزحلقة و"فِي سِجِّينٍ" خبر إن والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 8]

وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (8)

"وَما" الواو حرف استئناف و"ما" اسم استفهام مبتدأ "أَدْراكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة و"ما سِجِّينٌ" مبتدأ وخبره والجملة سدت مسد المفعول الثاني لأدراك.

[سورة المطففين (83) : آية 9]

كِتابٌ مَرْقُومٌ (9)

"كِتابٌ" بدل من سجين و"مَرْقُومٌ" صفة كتاب.

[سورة المطففين (83) : آية 10]

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10)

"وَيْلٌ" مبتدأ و"يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله و"لِلْمُكَذِّبِينَ" خبر المبتدأ والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة المطففين (83) : آية 11]

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11)

"الَّذِينَ" صفة المكذبين و"يُكَذِّبُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة الذين و"بِيَوْمِ" متعلقان بالفعل و"الدِّينِ" مضاف إليه.

[سورة المطففين (83) : آية 12]

وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12)

"وَما" الواو حالية و"ما" نافية "يُكَذِّبُ" مضارع مرفوع و"بِهِ" متعلقان بالفعل و"إِلَّا" حرف حصر و"كُلُّ" فاعل مضاف إلى "مُعْتَدٍ" و"أَثِيمٍ" صفة والجملة حال.

[سورة المطففين (83) : آية 13]

إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)

"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة و"تُتْلى" مضارع مبني للمجهول و"عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل و"آياتُنا" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة. "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها و"أَساطِيرُ" خبر لمبتدأ محذوف و"الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة المطففين (83) : آية 14]

كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (14)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر و"بَلْ" حرف انتقال وإضراب "رانَ" ماض مبني على الفتح و"عَلى قُلُوبِهِمْ" متعلقان بالفعل و"ما" فاعل ران والجملة مستأنفة لا محل لها "كانُوا" ماض ناقص

والواو اسمه "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كان وجملة كانوا . . صلة ما .

[سورة المطففين (83) : آية 15]

كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِنَّهُمْ" إن واسمها و"عَنْ رَبِّهِمْ" متعلقان بالخبر "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله والجملة مستأنفة لا محل لها "لَمَحْجُوبُونَ" خبر واللام المزحلقة .

[سورة المطففين (83) : آية 16]

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (16)

"ثُمَّ" حرف عطف "إِنَّهُمْ" إن واسمها واللام المزحلقة و"صالوا" خبر إن المرفوع بالواو وحذفت النون للإضافة و"الْجَحِيمِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المطففين (83) : آية 17]

ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

"ثُمَّ" حرف عطف "يُقالُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها و"هذَا الَّذِي" مبتدأ وخبره "كُنْتُمْ" كان واسمها و"بِهِ" متعلقان بما بعدهما والجملة صلة و"تُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر كنتم .

[سورة المطففين (83) : آية 18]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِنَّ كِتابَ" إن واسمها المضاف إلى "الْأَبْرارِ" مضاف إليه "لَفِي" اللام المزحلقة و"فِي عِلِّيِّينَ" خبر إن والجملة مستأنفة.

[سورة المطففين (83) : آية 19]

وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19)

كإعراب الآية رقم - 8 - .

[سورة المطففين (83) : آية 20]

كِتابٌ مَرْقُومٌ (20)

كإعراب الآية رقم - 9 - ومرقوم صفة لكتاب.

(80/807)

[سورة المطففين (83) : آية 21]

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)

"يَشْهَدُهُ" مضارع ومفعوله و"الْمُقَرَّبُونَ" فاعل والجملة صفة ثانية لكتاب.

[سورة المطففين (83) : آية 22]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

"إِنَّ الْأَبْرارَ" إن واسمها "لَفِي" اللام المزحلقة و"فِي نَعِيمٍ" خبر إن والجملة مستأنفة .

[سورة المطففين (83) : آية 23]

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23)

"عَلَى الْأَرائِكِ" الجار والمجرور متعلقان بما بعدهما و"يَنْظُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة حال .

[سورة المطففين (83) : آية 24]

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24)

"تَعْرِفُ" مضارع فاعله مستتر و"فِي وُجُوهِهِمْ" متعلقان بالفعل و"نَضْرَةَ" مفعول به مضاف إلى "النَّعِيمِ" والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 25]

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25)

"يُسْقَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل و"مِنْ رَحِيقٍ" متعلقان بالفعل و"مَخْتُومٍ" صفة والجملة مستأنفة .

[سورة المطففين (83) : آية 26]

خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26)

"خِتامُهُ مِسْكٌ" مبتدأ وخبره والجملة صفة ثانية لرحيق ، "وَفِي" الواو حرف استئناف و"فِي ذِلكَ" متعلقان بما بعدهما "فَلْيَتَنافَسِ" الفاء حرف عطف ومضارع مجزوم بلام الأمر و"الْمُتَنافِسُونَ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المطففين (83) : آية 27]

وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27)

"وَمِزاجُهُ" الواو حرف عطف ومبتدأ و"مِنْ تَسْنِيمٍ" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة المطففين (83) : آية 28]

عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

"عَيْناً" مفعول به لفعل محذوف تقديره أمدح "يَشْرَبُ" مضارع مرفوع و"بِهَا" متعلقان بالفعل و"الْمُقَرَّبُونَ" فاعل مؤخر والجملة صفة عينا .

[سورة المطففين (83) : آية 29]

(81/807)

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها و"أَجْرَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "كانُوا" كان واسمها

والجملة خبر إن وجملة إن الذين . . مستأنفة و"مِنَ الَّذِينَ" متعلقان بيضحكون و"آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين و"يَضْحَكُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا .

[سورة المطففين (83) : آية 30]

وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30)

"وَإِذا"

الواو حرف عطف "إِذا"

ظرفية شرطية غير جازمة "مَرُّوا"

ماض وفاعله و"بِهِمْ"

متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة . "يَتَغامَزُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 31]

وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31)

"وَإِذَا" الواو حرف عطف "إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة "انْقَلَبُوا" ماض وفاعله و"إِلى أَهْلِهِمُ" متعلقان بما قبلهما والجملة في محل جر بالإضافة و"انْقَلَبُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها و"فَكِهِينَ" حال .

[سورة المطففين (83) : آية 32]

وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32)

"وَإِذا" الواو حرف عطف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَوْهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة و"قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ" إن واسمها واللام المزحلقة و"لَضالُّونَ" خبر إن والجملة مقول القول .

[سورة المطففين (83) : آية 33]

وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33)

"وَما" الواو حالية "ما" نافية "أُرْسِلُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل و"عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل و"حافِظِينَ" حال والجملة حال .

[سورة المطففين (83) : آية 34]

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34)

"فَالْيَوْمَ" الفاء حرف استئناف و"اليوم" ظرف زمان و"الَّذِينَ" مبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة و"مِنَ الْكُفَّارِ" متعلقان بما بعدهما "يَضْحَكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة المطففين (83) : آية 35]

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35)

"عَلَى الْأَرائِكِ" الجار والمجرور متعلقان بما بعدهما "يَنْظُرُونَ" الجملة حال.

[سورة المطففين (83) : آية 36]

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)

"هَلْ" حرف استفهام "ثُوِّبَ" ماض مبني للمجهول و"الْكُفَّارُ" نائب فاعل والجملة مقول قول محذوف و"ما" مفعول به "كانُوا" كان واسمها "يَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة ما. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 430.427﴾

(83/807)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة المطففين

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1466 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم الْمَدِينَة وَكَانُوا أَخبث كَيْلا فَنزلت فَأَحْسنُوا الْكَيْل

وَقيل قدمهَا وَبهَا رجل يعرف بأبي جُهَيْنَة وَمَعَهُ صَاعَان يَكِيل بِأَحَدِهِمَا وَيَكْتَال بِالْآخر

وَقيل كَانَ أهل الْمَدِينَة تجارًا يُطَفِّفُونَ وَكَانَت مُبَايَعَتهمْ الْمُنَابذَة وَالْمُلَامَسَة وَالْمُخَابَرَة فَنزلت

فَخرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقرأها عَلَيْهِم وَقَالَ خمس بِخمْس قيل يَا رَسُول الله وَمَا خمس بِخمْس قَالَ مَا نقض قوم الْعَهْد إِلَّا سلط الله عَلَيْهِم الْفقر وَمَا ظَهرت فيهم الْفَاحِشَة إِلَّا فَشَا فيهم الْمَوْت وَلَا طَفَّفُوا الْكَيْل إِلَّا منعُوا النَّبَات وَأخذُوا بِالسِّنِينَ وَلَا منعُوا الزَّكَاة إِلَّا حبس عَنْهُم الْقطر

قلت

الأول رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث يزِيد بن أبي سعيد النَّحْوِيّ عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَة فَكَانُوا من أَخبث النَّاس كَيْلا فَأنْزل الله تَعَالَى ويل لِلْمُطَفِّفِينَ . . . إِلَى أخر الْآيَة فَأَحْسنُوا الْكَيْل بعد ذَلِك انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الرَّابِع عشر من الْقسم الثَّالِث

وَالْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْبيُوع وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ انْتَهَى

وَالثَّانِي نَقله الثَّعْلَبِيّ عَن السّديّ وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول وَفِي الْوَسِيط وَالثَّالِث غَرِيب

(84/807)

وَحَدِيث خمس بِخمْس رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْجهَاد من حَدِيث بشر بن المُهَاجر عَن عبد الله بن بُرَيْدَة عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا نقض قوم الْعَهْد إِلَّا كَانَ الْقَتْل فيهم وَلَا ظَهرت فيهم فَاحِشَة إِلَّا سلط الله عَلَيْهِم الْمَوْت وَلَا منع قوم الزَّكَاة إِلَّا حبس الله عَنْهُم الْقطر وَمَا نَقَصُوا الْمِكْيَال وَالْمِيزَان إِلَّا أخذُوا بالسِّنِينَ وَمَا حكمُوا بِغَيْر مَا أنزل الله إِلَّا فَشَا فيهم الْفقر انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَرُوِيَ فِي كتاب الْفِتَن من حَدِيث حَفْص بن غيلَان عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن عبد الله بن عمر مَرْفُوعا نَحوه وَصَححهُ

وَرُوِيَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث إِسْحَاق بن عبد الله بن كيسَان حَدثنِي أبي عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم عَن مُجَاهِد وَطَاوُس عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا نَحوه وَقَالَ فِيهِ وَلَا طففُوا الْمِكْيَال إِلَّا منعُوا النَّبَات أخذُوا بالسِّنِينَ

1467 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن الْمَلَائِكَة لتَصْعَد بِعَمَل العَبْد فيستقلونه فَإِذا انْتَهوا بِهِ إِلَى مَا شَاءَ الله من سُلْطَانه أوحى إِلَيْهِم أَنْتُم الْحفظَة عَلَى عبَادي وَأَنا الرَّقِيب عَلَى مَا فِي قلبه وَإِنَّهُ قد أَخْلص عمله فَاجْعَلُوهُ فِي عليين فقد غفرت لَهُ وَإِنَّهَا لتَصْعَد بِعَمَل العَبْد فَيُزَكُّونَهُ فَإِذا انْتَهوا بِهِ إِلَى مَا شَاءَ أوحى إِلَيْهِم أَنْتُم الْحفظَة عَلَى عَبدِي وَأَنا الرَّقِيب عَلَى قلبه وَإِنَّهُ لم يخلص عمله فَاجْعَلُوهُ فِي سِجِّين

(85/807)

قلت رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتَاب الزّهْد وَالرَّقَائِق أخبرنَا أَبُو بكر بن أبي مَرْيَم الغساني عَن ضَمرَة بن حبيب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن الْمَلَائِكَة ليصعدون بعَمَل العَبْد فيستقلونه وَيَحْتَقِرُونَهُ حَتَّى ينْتَهوا بِهِ حَيْثُ شَاءَ الله من سُلْطَانه فَيُوحِي الله إِلَيْهِم إِنَّكُم حفظَة عَلَى عمل عَبدِي وَأَنا رَقِيب عَلَى مَا فِي نَفسه فضاعفوا لَهُ واكتبوه لَهُ فِي عليين وَإِن الْمَلَائِكَة ليرفعون عمل العَبْد من عباد الله فيكثرونه ويزكونه حَتَّى ينْتَهوا بِهِ حَيْثُ شَاءَ الله بن سُلْطَانه فَيُوحِي الله إِلَيْهِم أَنكُمْ حفظَة عَلَى عمل عَبدِي وَأَنا رَقِيب عَلَى مَا فِي نَفسه إِن عَبدِي هَذَا لم يخلص لي عمله فَاجْعَلُوهُ فِي سِجِّين انْتَهَى

1468 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة المطففين سقَاهُ الله من الرَّحِيق الْمَخْتُوم يَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون ابْن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة المطففين . . . إِلَى آخِره

قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله قَالَ أبي سَلام بن سليم هُوَ سَلام الطَّوِيل وَهُوَ مَتْرُوك الحَدِيث

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا أَبُو عَمْرو احْمَد بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم ثَنَا أَبُو أُمَيَّة مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم ثَنَا عَمْرو بن سُفْيَان الْقطيعِي ثَنَا الْحسن بن عجلَان

(86/807)

وَهُوَ ابْن أبي جَعْفَر الْجعْفرِي ثَنَا عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي ابْن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ ويل لِلْمُطَفِّفِينَ سقَاهُ الله من الرَّحِيق الْمَخْتُوم قيل يَا رَسُول الله وَمَا الرَّحِيق الْمَخْتُوم قَالَ غُدْرَان الْخمر انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا بسنديه فِي آل عمرَان بِلَفْظ المُصَنّف

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 171.174 ﴾

(87/807)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة ويل للمطففين» (83)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» (1) المطفّف الذي لا يوفى «1» على الناس من الناس . .

«وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ» (3) إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، قال خفاف :

يصيدك قافلا والمخّ رار

«2» [933] .

«لَفِي سِجِّينٍ «3»» (7) فى حبس ، فعّيل من السجن كما يقال : فسّيق من الفسق . .

«مَرْقُومٌ» (9) مكتوب . .

«كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ» (14) غلب على قلبه والخمر ترين على عقل السكران والموت

يرين على الميّت قال أبو زبيد :

ثم لما رآه رانت به الخمر وألّا ترينه بأنقاء

«4» [934] .

«نَضْرَةَ النَّعِيمِ» (24) مصدر «ناضرة» . .

«رَحِيقٍ» (25) الرحيق (25) الذي ليس فيه غشّ ، رحيق معرّق من مسك أو خمر .

---

(1) . - 3 «لا يوفى» : كما فى البخاري وأشار إليه ابن حجر بأنه قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 524)

(2) . - 933 : وهو من كلمة تنسب إلى السليك فى الكامل ص 471 .

(3) . - 6 «سجين» : قال القرطبي (19/ 256) وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : لفى سجين لفى حبس وضيق شديد فعيل من السجن كما يقول فسيق وشريب .

(4) . - 934 : فى القرطبي 19/ 258 .

«مَخْتُومٍ» (25) له ختام . عاقبة ريح .

«خِتامُهُ» (26) عاقبته . .

«مِنْ تَسْنِيمٍ» (27) معرفة.

قال «عَيْناً» (28) فجاءت نكرة فنصبتها صفة لها «1» . .

«هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ» (36) هل جوزى «2» . . . انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 289. 290﴾

---

(1) . - 2 - 3 «من . . . لها» نقله الطبري (30/ 60) قائلا: وقال آخر من البصريين من تسنيم . . . صفة لها.

(2) . - 4 «جوزى»: كما فى البخاري وأشار إليه ابن حجر (فتح الباري 8/ 254). وأما الذي يليه فبعضه مخروم لا يفهم.

(89/807)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «المطففون»

وبقية المفصل إلى آخر القرآن العظيم

[سورة المطففين (83): آية 15]

كَلَّآ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)

قوله سبحانه : كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [15] وهذه استعارة مجاز ، لأن الحجاب لا يطلق إلا على من يصح عليه الظهور والبطون ، والاستتار والبروز .

وذلك من صفة الأجسام المحدثة ، والأشخاص المؤلفة . والمراد بذكر الحجاب هاهنا أنهم ممنوعون من ثواب اللّه سبحانه ، مذودون عن دخول جنته ، ودار مقامته . وأصل الحجب المنع . ومنه قولنا فى الفرائض : الإخوة يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس . أي يمنعونها من الثلث ، ويردّونها إلى السدس . ومن ذلك أيضا قولهم : حجب فلان عن باب الأمير . أي ردّ عنه ، ودفع دونه . ويجوز أن يكون كذلك معنى آخر ، وهو أن يكون المراد أنهم غير مقربين عند اللّه سبحانه بصالح الأعمال واستحقاق الثواب . فعبّر سبحانه عن هذا المعنى بالحجاب . لأن المبعد المقصى يحجب عن الأبواب ، ويبعد من الجناب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 361 ﴾

(90/807)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المطففين

وسورة المطففين تجئ بعد الانفطار كأنها تكملة لها ، وتفصيل لعلاقات العمل بالجزاء . وهى علاقة يستحيل فصمها ، وإن اختل تصور المسلمين لها فى أيام اضمحلالهم . هناك أنانيون لا يشعرون إلا بمطالبهم وإن كانت باطلا ، ويضيقون بمطالب غيرهم وإن كانت حقا . هؤلاء ينطلقون فى المدائن والقرى كأنهم وحوش نهمة لا يعرفون إلا ما يشتهون . وقد يكون المظهر القريب للتطفيف ما قاله تعالى " الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " . بيد أن هذا السلوك يطرد فى صور شتى للحياة . فهناك ناس كما يقول العامة " بعيرهم جمل " . أما ما يملكه الآخرون فلا حرمة له . ! ويستحيل أن تصلح الحياة بتلك المشاعر المتناقضة المتظالمة ولا بوجهات النظر القائمة على الهوى الشخصى " إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون " . الإيمان بالله واليوم الآخر يعصم من هذه الدنايا ، ويقيد الأيدى فلا تفتك ، والرغبات فلا تجمح ، والضمائر فلا تجور ، ولذلك قال فى المطففين " ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين " . ومستقبل الناس عند ربهم لا تقرره فلتات اللسان ولا عثرات الطريق ، وإنما تقرره مناهج مرسومة وعادات مستحكمة . فالخطأ العابر يوشك المؤمن أن يطهر منه ، أما البرنامج الموضوع لحياة هابطة فهو أساس الهلاك . وفى الحديث " إن العبد إذا أخطأ خطيئة ،

نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه . فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه " . وذلك هو الران الذى قال الله فيه "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالو الجحيم" . وقال الحسن البصرى: " الران هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت " .

(91/807)

إن الذين يألفون الدنايا ويعيشون كالحشرات فى السراديب والحفر لا تفتح لهم أبواب السماء ، إنهم لم يحاولوا التسامى فكيف يرتفعون ؟ "كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم * ويل يومئذ للمكذبين " . أما الذين يتحملون تكاليف التقوى ومشقات التزكية . . أما الذين يساندون الحق ويصابرون أعباءه ، فلهم شأن آخر " كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم" . والمجاهدون الأوائل كان يزينهم بريق الصدق وشرف الاعتقاد ، ولكن قلة عددهم وضعف سلاحهم نال منهم وأغرى بهم ، فكافأهم الله بهذه الخاتمة المضيئة ، وجزاهم على تحمل السخرية والأذى بمقعد صدق ورحيق مختوم . " إن الذين أجرموا كانوا من

الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين " .

ربما تكرر المنظر فى هذا العصر ، ووجدنا منكرين للألوهية يلمزون أهل الإيمان ويتندرون بهم فى المجالس ! وليس ذلك مثار شكواى ! إن المؤمنين الأقدمين كانوا يمثلون جيلا من أحرار العقول وكبار القلوب ، كانوا فى أسواق المال وساحات القتال جن سليمان ، فلما نصرهم الله بعد محنتهم ملأوا الدنيا حضارة ونضارة ! ! أما الخلوف التى تحمل الإسلام الآن فهم كأولاد العبقرى الذين ورثوا شهرته ولم يزلوا كفايته ، لا يقبل منهم أن يقدموا الإسلام وهم ما زكوا به نفسا ولا رفعوا به رأسا . والحق أن الدعاة المخلصين يحاربون فى جبهتين . . وليست الجبهة التى ينطلقون منها بأشرف من الجبهة التى يتجهون إليها . .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 506.505 ﴾

(92/807)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(93/807)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة المطففين

أقول: الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظيرتها من خمسة أوجه: الافتتاح ب (إِذا السماءُ) ، والتخلص ب (يا أَيها الإِنسانُ) ، وشرح حال يوم القيامة ، ولهذا ضمت بالحديث السابقن والتناسب في المقدار ، وكونها مكية وهذه السورة مدنية ، ومفتتحها ومخلصها غير مالها ، لنكتة ألهمنيها الله وذلك أن السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار ، وقع في صدر يوم القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة العرق والأهوال ، فذكره في هذه السورة بقوله: (يومَ يقومُ النّاسُ لِربِ العالمين) ولهذا ورد في الحديث: (يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه) ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الكتب ، فأخذ باليمن ، وأخذ بالشمال ، وأخذ من وراء الظهر ، ثم بعد ذلك يقع الحساب هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث ، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب ، عن السورة التي قبلها ، والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادئ يوم القيامة ووجه آخر ، وهو: أنه جل جلاله لما قال في الانفطار: (وإِنَّ عليكُم لحافظين كِراماً كاتبين) وذلك في الدنيا ، ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان ، وهو: كتاب

مرقوم جعل في عليين ، أو في سجين ، وذلك أيضاً في الدنيا ، لكنه عقَّب بالكتابه ، إما في يومه ، أو بعد الموت في البرزخ كما في الآثار فهذه حالة ثانية في الكتاب ذكرت في السورة الثانية

(94/807)

وله حالة ثالثة متأخرة فيها ، وهي أخذ صاحبه باليمين أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التي فيها ذلك ، عن السورة التي فيها الحالة الثانية ، وهي الانشقاق ، فلله الحمد على ما من بالفهم لأسرار كتابه ثم رأيت الإمام فخر الدين قال في سورة المطففين أيضاً : اتصال أولها بآخر ما قبلها ظاهر ، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته: (لا تَمِلكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأَمرُ يومئذٍ لله) وذلك يقتضى تهديداً عظيماً للعصاة ، فلهذا أتبعه بقوله: (ويلٌ للمُطَفِفين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 147.149 ﴾

(95/807)

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الحكمة البالغة والقدرة الكاملة (الرحمن) الذي عم بنعمة الإيجاد والبيان الشاملة (الرحيم) الذي أكرم حزبه بالتوفيق لحسن المعاملة .

(96/807)

ولما ختم الانفطار بانقطاع الأسباب وانحسام الأنساب يوم الحساب ، وأبلغ في التهديد بيوم الدين وأنه لا أمر لأحد معه ، وذكر الأشقياء والسعداء ، وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير ، وكانت المعصية بالبخس فيها من أخس المعاصي وأدناها ، حذر من الخيانة فيها وذكر ما أعد لأهلها وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم فحلمه وصفه على نوع من المعاصي ، كل ذلك تنبيهاً للأشقياء الغافلين على ما هم فيه من السموم الممرضة المهلكة ، ونبه على الشفاء لمن أراده فقال : ﴿ ويل ﴾ أي هلاك ثابت عظيم في كل حال من أحوال

الدنيا والآخرة ﴿ للمطففين ﴾ أي الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس ، وفي ذلك تنبيه على أن أصل الآفات الخلق السيىء وهو حب الدنيا الموقع في جمع الأموال من غير وجهها ولو بأخس الوجوه : التطفيف الذي لا يرضاه ذو مروءة وهم من يقاربون ملء الكيل وعدل الوزن ولا يملؤون ولا يعدلون ، وكأنه من الإزالة أي أزال ما أشرف من أعلى الكيل ، من الطف ، وهو ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق ، ومنه ما في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : كنت فارساً فسبقت الناس حتى طفت لي الفرس مسجد بني زريق – يعني أن الفرس وثب حتى كاد يساوي المسجد ، ويقال : طف الرجل الحائط – إذا علاه ، أو من القرب ، من قولهم : أخذت من متاعي ما خف وطف ، أي قرب مني ، وكل شيء أدنيته من شيء فقد أطففته ، والطفاف من الإناء وغيره : ما قارب أن يملأه ، ولا يتم ملأه ، وفي الحديث : "كلكم بنو آدم طف الصاع" ، أو من الطفف وهو التقتير ، يقال : طفف عليه تطفيفا – إذا قتر عليه ، أو من الطفيف وهو من الأشياء الخسيس الدون والقليل ، فكأن التضعيف للإزالة على المعنى الأول كما مضى ، وللمقاربة الكثيرة على المعنى الثاني أي أنه يقار ملء المكيال مقاربة كبيرة مكراً وخداعاً حتى يظن صاحب الحق أنه وفى ولا يوفي ، يقال : أطف فلان لفلان – إذا أراد ختله ، وإذا نهى عن هذا فقد

نهى عما نقص أكثر بمفهوم الموافقة ، وعلى المعنى الثالث بمعنى التقتير والمشاحة في الكيل ، وعلى المعنى الرابع بمعنى التنقيص والتقليل فيه ، وكأنه اختير هذا اللفظ لأنه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلا الشيء اليسير جداً ، هذا أصله في اللغة وقد فسره الله سبحانه وتعالى فقال : ﴿ الذين إذا اكتالوا ﴾ أي عالجوا الكيل أو الوزن فاتزنوا – بما دل عليه ما يأتي ، وعبر بأداة الاستعلاء ليكون المعنى : مستعلين أو متحاملين ﴿ على الناس ﴾ أي خاصة بمشاهدتهم كائنين من كانوا لا يخافون شيئاً ولا يراعون أحداً ، بل صارت الخيانة والوقاحة لهم ديدناً ، وهذا الفعل يتعدى بمن وعلى ، يقال : اكتال من الرجل وعليه ، ويجوز أن يكون اختيار التعبير بعلى هنا مع ما تقدم للإشارة إلى أنهم إذا كان لهم نوع علو بأن كان المكتال منه ضعيفاً خانوه فيكون أمرهم دائراً على الرذالة وسفول الهمة التي لا أسفل منها ﴿ يستوفون ﴾ أي يوجدون لأنفسهم الوفاء وهو تمام الكيل بغاية الرغبة والمبالغة في الملء ، فكأنه ذكر " اكتالوا " ولم يذكر " اتزنوا " لأنه لا يتأتى في الوزن من المعالجة ما يتأتى في الكيل ، ولأنهم يتمكنون في الاكتيال من المبالغة في استيفاء المؤدي إلى الزيادة ما لا يتمكنون من مثله في الاتزان ، وهذا بخلاف الإخسار فإن التمكن بسببه حاصل في الموضعين فلذلك ذكرهما فيه .

ولما أفهم تقديم الجار الاختصاص فأفهم أنهم إذا فعلوا من أنفسهم لا يكون كذلك ، صرح به فقال : ﴿ وإذا كالوهم ﴾ أي كالوا الناس أي حقهم أي ما لهم من الحق ﴿ أو وزنوهم ﴾ أي وزنوا ما عليهم له من الحق ، يقال : اكتال من الرجل وعليه وكال له الطعام وكاله الطعام ، ووزنت الرجل الشيء ووزنت له الشيء ، ولعله سبحانه اختار " على " في الأول والمعدى إلى اثنين في الثاني لأنه أدل على حضور صاحب الحق ، فهو في غيبته أولى ، فهو أدل على المرون على الوقاحة ، فهما كلمتان لا أربع لأنه ليس بعد الواو ألف جمع ، قال البغوي : وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين يقف على كالوا ووزنوا ويبتدىء هم ، قال أبو عبيدة : والاختيار الأولى ، قال البغوي : يعني أن كل واحدة كلمة لأنهم كتبوهما بغير ألف باتفاق المصاحف ، وقال الزمخشري : ولا يصح أن يكون ضميراً للمطففين لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد ، وذلك أن المعنى : إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا ، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر ، والتعلق في إبطاله بخط المصحف وأن الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابته

فيه ركيك لأن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط - انتهى .

ولا شك أن في خط المصحف تقوية لهذا الوجه المعنوي وتأكيداً ﴿ يخسرون ﴾ أي يوجدون الخسارة بالنقص فيما يكيلون لغيرهم ، والحاصل أنهم يأخذون وافياً أو زائداً ويعطون ناقصاً .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال سبحانه وتعالى في سورة الانفطار ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 10] الآية وكان مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى : ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفا بنا حاسبين ﴾

(99/807)

[الأنبياء : 47] أتبع الآية المتقدمة بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم ، وذلك التطفيف في المكيال والميزان والانحراف عن إقامة القسط في ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففين : 1] ثم أردف تهديدهم وتشديد وعيدهم فقال : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ [المطففين : 4 - 5] ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى ختامها - انتهى .

ولما ذكر سبحانه وتعالى أنهم أدمنوا على هذه الرذائل حتى صارت لهم خلقاً مرنوا عليه وأنسوا به وسكنوا إليه ، وكان ذلك لا يكون إلا ممن أمن العقاب وأنكر الحساب ، أنتج ذلك الإنكار عليهم على أبلغ الوجوه لإفهامه أن حالهم أهل لأن يتعجب منه ويستفهم عنه وأن المستفهم عن حصوله عندهم الظن ، وأما اليقين فلا يتخيل فيهم لبعد أحوالهم الجافية وأفهامه الجامدة عنه فقال تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك ﴾ أي الأخساء البعداء الأرجاس الأراذل يتجدد لهم وقتاً من الأوقات ظن أن لم يتيقنوا بما مضى من البراهين التي أفادت أعلى رتب اليقين ، فإنهم لو ظنوا ذلك ظناً نهاهم إن كان لهم نظر لأنفسهم عن أمثال هذه القبائح ، ومن لم تفده تلك الدلائل القاطعة ظناً يحتاط به لنفسه فلا حس له أصلاً ﴿ أنهم ﴾ وعبر باسم المفعول فقال : ﴿ مبعوثون ﴾ إشارة إلى القهر على أهون وجه بالبعث الذي قد ألفوا مثله من القهر باليقظة بعد القهر بالنوم ﴿ ليوم ﴾ أي لأجله وفيه ، وزاد التهويل بقوله : ﴿ عظيم ﴾ أي لعظمة ما يكون فيه من الجمع والحساب الذي يكون عنه الثواب والعقاب مما لا يعلمه على حقيقته إلا هو سبحانه وتعالى .

(100/807)

ولما عظم ذلك اليوم تحذيراً منه ، وزاده تعظيماً بأن أتبعه على سبيل القطع قوله ناصباً بتقدير " أعني " إعلاماً بأن الجحد فيه بأعين جميع الخلائق فهو فضيحة لا يشبهها فضيحة : ﴿ يوم يقوم ﴾ أي على الأرجل ﴿ الناس ﴾ أي كل من فيه قابلية الحركة ، وذلك يوم القيامة خمسين ألف سنة لا ينظر إليهم سبحانه – رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمرو رفعه ورجاله ثقات ﴿ لرب العالمين ﴾ أي لأجل حكم موجد الخلائق ومربيهم كلهم فلا ينسى أحداً من رزقه ولا يهمله من حكمه ولا يرضى بظلم أحد ممن يربيه فهو يفيض لكل من كل بحكم التربية ، كل ذلك من استفهام الإنكار وكله الظن ، ووصف اليوم بما وصف وغير ذلك للإبلاغ في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه ، وروى الحاكم من رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ رفعه : " ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر " ومن طريق عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً نحوه ، وللطبراني من طريق الضحاك عن مجاهد وطاوس عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مرفوعاً نحوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 354 ـ 357 ﴾

(101/807)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ بل ران ﴾ حفص يقف على ﴿ بل ﴾ وقفة يسيرة ومع ذلك يصل . وقرأ الحلواني عن قالون مظهراً ﴿ ران ﴾ بالإمالة : حمزة وعلي وخلف وحماد ويحيى ﴿ تعرف ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ نضرة ﴾ بالرفع : يزيد ويعقوب ﴿ خاتمه ﴾ بالألف بعد الخاء والتاء مفتوحة : عليّ . ﴿ أهلهم ﴾ بكسر الهاء والميم : أبو عمرو وسهل ويعقوب ، وقرأ حمزة وعلي وخلف بضمهما . الباقون : بضم ميم الجمع فقط ﴿ فكهين ﴾ مقصوراً : يزيد وحفص ﴿ هل ثوب الكفار ﴾ بالإدغام : حمزة وعلى وهشام .

(102/807)

الوقوف ﴿ للمطففين ﴾ ه لا ﴿ يستوفون ﴾ ه للفصل بين تناقض الحالين ولكن يلزم تفريق الوصفين مع اتفاق الجملتين ﴿ يخسرون ﴾ ه للاستفهام ﴿ عظيم ﴾ ه لا لأن التقدير لأمر يوم عظيم في يوم كذا وهو بدل بني على الفتح للإضافة إلى الجملة ﴿ لرب العالمين ﴾ ه ط لأن " كلا " لتحقيق أنّ بمعنى " ألا " التي للتنبيه أو حقاً أو هو ردع عن التطفيف وكذا

أخواتها في السورة ﴿ سجين ﴾ ه ط ﴿ ما سجين ﴾ ه ط للحذف أي هو كتاب ﴿ مرقوم ﴾ ه ط لأن ﴿ ويل ﴾ مبتدأ ﴿ للمكذبين ﴾ ه لا ﴿ الدين ﴾ ه ط للابتداء بالنفي ﴿ أثيم ﴾ ه لأن الشرطية بعده صفة أخرى له ﴿ الأوّلين ﴾ ه والوقف لما ذكر ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ لمحجوبون ﴾ ه لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ الجحيم ﴾ ه ك لاختلاف الجملتين ﴿ تكذبون ﴾ ه ك ﴿ عليين ﴾ ه ك ﴿ عليون ﴾ ه ك ﴿ مرقوم ﴾ ه لا لأن ما بعده صفة ﴿ المقربون ﴾ ه ط ﴿ نعيم ﴾ ه لا لأن ما بعده حال أو صفة ﴿ ينظرون ﴾ ه لا لذلك ﴿ النعيم ﴾ ه ج لأن ما بعده يصلح مستأنفاً أو حالاً ﴿ مختوم ﴾ ه لا لأن ما بعده وصف ﴿ مسك ﴾ ط ﴿ المتنافسون ﴾ ه ط ﴿ تسنيم ﴾ ه لا بناء على أن ﴿ عيناً ﴾ حال كما قال الزجاج. فإن أريد النص على المدح جاز الوقف ﴿ المقربون ﴾ ه ط ﴿ يضحكون ﴾ ه ط للآية ولكن إتمام الكلام أولى ﴿ يتغامزون ﴾ ه ك لذلك ﴿ فكهين ﴾ ه ك ﴿ لضالون ﴾ ه لا لأن المنفية حال ﴿ حافظين ﴾ ه ط لتبدل الكلام معنى ﴿ يضحكون ﴾ ه لا ﴿ ينظرون ﴾ ه ط ﴿ يفعلون ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 461. 462﴾

(103/807)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر ، لأنه تعالى بين في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر كله لله وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة ، فلهذا أتبعه بقوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ والمراد الزجر عن التطفيف ، وهو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية ، وذلك لأن الكثير يظهر فيمنع منه ، وذلك القليل إن ظهر أيضاً منع منه ، فعلمنا أن التطيف هو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية ، وههنا مسائل :

المسألة الأول : الويل ، كلمة تذكر عند وقوع البلاء ، يقال : ويل لك ، وويل عليك .

المسألة الثانية :

في اشتقاق لفظ المطفف قولان الأول : أن طف الشيء هو جانبه وحرفه ، يقال : طف الوادي والإناء ، إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلىء فهو طفافه وطفافه وطففه ، ويقال : هذا طف المكيال وطفافه ، إذا قارب ملأه لكنه بعد لم يمتلىء ، ولهذا قيل : الذي يسيء الكيل ولا يوفيه مطفف ، يعني أنه إنما يبلغ الطفاف والثاني : وهو قول الزجاج : أنه إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف ، لأنه يكون الذي لا يسرق في المكيال والميزان

إلا الشيء اليسير الطفيف ، وههنا سؤالات :

الأول : وهو أن الاكتيال الأخذ بالكيل ، كالاتزان الأخذ بالوزن ، ثم إن اللغة المعتادة أن يقال : اكتلت من فلان ، ولا يقال : اكتلت على فلان ، فما الوجه فيه ههنا ؟ .

الجواب : من وجهين الأول : لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً فيه إضرار بهم وتحامل عليهم ، أقيم على مقام من الدالة على ذلك الثاني : قال الفراء : المراد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان لأنه حق عليه ، فإذا قال اكتلت عليك ، فكأنه قال أخذت ما عليك ، وإذا قال اكتلت منك ، فهو كقوله استوفيت منك .

(104/807)

السؤال الثاني : هو أن اللغة المعتادة أن يقال كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ، ولا يقال كلته ووزنته فما وجه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ ؟ والجواب من وجوه : الأول : أن المراد من قوله (كالوهم أو وزنوهم) كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الجار وأوصل الفعل . قال الكسائي والفراء : وهذا من كلام أهل الحجاز ، ومن جاورهم يقولون : زنى كذا ، كلى كذا ، ويقولون صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك ، فعلى هذا الكناية في كالوهم ووزنوهم في موضع نصب الثاني : أن يكون على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه

مقامه ، والتقدير : وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم الثالث : يروى عن عيسى بن عمر ، وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيداً لما في كالوا ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا ، وزعم الفراء والزجاج أنه غير جائز ، لأنه لو كان بمعنى كالوهم لكان في المصحف ألف مثبتة قبل هم ، واعترض صاحب "الكشاف" على هذه الحجة ، فقال إن خط المصحف لم يراع في كثير منه حد المصطلح عليه في علم الخط والجواب أن إثبات هذه الألف لو لم يكن معتاداً في زمان الصحابة فكان يجب إثباتها في سائر الأعصار ، لما أنا نعلم مبالغتهم في ذلك ، فثبت أن إثبات هذه الألف كان معتاداً في زمان الصحابة فكان يجب إثباته ههنا .

السؤال الثالث : ما السبب في أنه قال : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا ﴾ ولم يقل إذا انزنوا ، ثم قال : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ فجمع بينهما ؟ أن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر

السؤال الرابع : اللغة المعتادة أن يقال خسرته ، فما الوجه في أخسرته ؟ الجواب قال الزجاج : أخسرت الميزان وخسرته سواء أي نقصته ، وعن المؤرج يخسرون ينقصون بلغة قريش .

المسألة الثالثة :

عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم نبي الله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وقيل كان أهل المدينة تجاراً يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، فنزلت هذه الآية ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم ، وقال " خمس بخمس " قيل يا رسول الله ، وما خمس بخمس ؟ قال ما نقص قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر " .

المسألة الرابعة :

الذم إنما لحقهم بمجموع أنهم يأخذون زائداً ، ويدفعون ناقصاً ، ثم اختلف العلماء ، فقال بعضهم : هذه الآية دالة على الوعيد ، فلا تتناول إلا إذا بلغ التطفيف حد الكثير ، وهو نصاب السرقة ، وقال آخرون بل ما يصغر ويكبر دخل تحت الوعيد ، لكن بشرط أن لا يكون معه توبة ولا طاعة أعظم منها ، وهذا هو الأصح .

المسألة الخامسة :

احتج أصحاب الوعيد بعموم هذه الآية ، قالوا : وهذه الآية واردة في أهل الصلاة لا في الكفار ، والذي يدل عليه وجهان الأول : أنه لو كان كافراً لكان ذلك الكفر أولى باقتضاء

هذا الويل من التطفيف ، فلم يكن حينئذ للتطفيف أثر في هذا الويل ، لكن الآية دالة على أن الموجب لهذا الويل هو التطفيف الثاني : أنه تعالى قال : للمخاطبين بهذه الآية : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين : 4 ، 5] فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة ، والتهديد بهذا لا يحصل إلا مع المؤمن ، فثبت بهذين الوجهين أن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة والجواب : عنه ما تقدم مراراً ، ومن لواحق هذه المسألة أن هذا الوعيد يتناول من يفعل ذلك ومن يعزم عليه إذ العزم عليه أيضاً من الكبائر .

(106/807)

واعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم ، وذلك لأن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر المكيال والميزان ، فلهذا السبب عظم الله أمره فقال : ﴿ والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 7 – 9] وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] وعن قتادة : " أوف يا ابن آدم الكيل كما تحب أن يوفي لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك " وعن الفضيل : بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة ، وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان : قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين ! أراد

بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم في أخذ القليل ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ الكثير ، وتأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن .

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)

(107/807)

اعلم أنه تعالى وبخ هؤلاء المطففين فقال : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ ﴾ الذين يطففون ﴿ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة ، وفي الظن ههنا قولان : الأول : أن المراد منه العلم ، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يكون المخاطبون بهذا الخطاب من جملة المصدقين بالبعث ، ويحتمل أن لا يكونوا كذلك أما الاحتمال الأول : فهو ما روي أن المسلمين من أهل المدينة وهم الأوس والخزرج كانوا كذلك ، وحين ورد النبي صلى الله عليه وسلم كان ذلك شائعاً فيهم ، وكانوا مصدقين بالبعث والنشور ، فلا جرم ذكروا به ، وأما إن قلنا : بأن المخاطبين بهذه الآية ما كانوا مؤمنين بالبعث إلا أنهم كانوا متمكنين من الاستدلال عليه ، لما في العقول من إيصال الجزاء إلى المحسن والمسيء ، أو إمكان ذلك إن لم يثبت وجوبه ، وهذا مما يجوز أن يخاطب به من ينكر البعث ، والمعنى ألا يتفكرون حتى يعلموا أنهم مبعوثون ، لكنهم قد أعرضوا عن التفكر ، وأراحوا أنفسهم عن متاعبه ومشاقه ، وإنما يجعل العلم

الاستدلال ظناً ، لأن أكثر العلوم الاستدلالية راجع إلى الأغلب في الرأي ، ولم يكن كالشك الذي يعتدل الوجهان فيه لا جرم سمي ذلك ظناً القول الثاني : أن المراد من الظن ههنا هو الظن نفسه لا العلم ، ويكون المعنى أن هؤلاء المطففين هب أنهم لا يجزمون بالبعث ولكن لا أقل من الظن ، فإن الأليق بحكمة الله ورحمته ورعايته مصالح خلقه أن لا يهمل أمرهم بعد الموت بالكلية ، وأن يكون لهم حشر ونشر ، وأن هذا الظن كاف في حصول الخوف ، كأنه سبحانه وتعالى يقول : هب أن هؤلاء لا يقطعون به أفلا يظنونه أيضاً ، فأما قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(108/807)

قرىء ﴿ يَوْمٍ ﴾ بالنصب والجر ، أما النصب فقال الزجاج : يوم منصوب بقوله ﴿ مَّبْعُوثُونَ ﴾ والمعنى ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ، وقال الفراء : وقد يكون في موضع خفض إلا أنه أضيف إلى يفعل فنصب ، وهذا كما ذكرنا في قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ ﴾ وأما الجر فلكونه بدلاً من ﴿ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

هذا القيام له صفات :

الصفة الأولى : سببه وفيه وجوه أحدها : وهو الأصح أن الناس يقومون لمحاسبة رب العالمين ، فيظهر هناك هذا التطفيف الذي يظن أنه حقير ، فيعرف هناك كثرته واجتماعه ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] وثانيها : أنه سبحانه يرد الأرواح إلى أجسادها فتقوم تلك الأجساد من مراقدها ، فذاك هو المراد من قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وثالثها : قال أبو مسلم معنى : ﴿ يَقُومُ النَّاسُ ﴾ هو كقوله : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة : 238] أي لعبادته فقوله : ﴿ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لمحض أمره وطعته لا لشيء آخر ، على ما قرره في قوله : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

الصفة الثانية : كيفية ذلك القيام ، روي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : " يقوم أحدكم في رشحه إلى أنصاف أذنيه " وعن ابن عمر : أنه قرأ هذه السورة ، فلما بلغ قوله ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بكى نحيباً حتى عجز عن قراءة ما بعده " .

الصفة الثالثة : كمية ذلك القيام ، روى عنه عليه السلام أنه قال : " يقوم الناس مقدار ثلثمائة سنة من الدنيا لا يؤمر فيهم بأمر " وعن ابن مسعود : " يمكثون أربعين عاماً ثم يخاطبون " وقال ابن عباس : وهو في حق المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة .

واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعاً من التهديد ، فقال أولا : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : 1] وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء ، ثم قال ثانياً : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ ﴾ وهو استفهام بمعنى الإنكار ، ثم قال ثالثاً : ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة ، ثم قال رابعاً : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وفيه نوعان من التهديد أحدهما : كونهم قائمين مع غاية الخشوع ونهاية الذلة والانكسار والثاني : أنه وصف نفسه بكونه رباً للعالمين ، ثم ههنا سؤال وهو كأنه قال قائل : كيف يليق بك مع غاية عظمتك أي تهيء هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيلة لأجل الشيء الحقير الطفيف ؟ فكأنه سبحانه يجيب ، فيقول عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة في القدرة والعظمة في الحكمة ، فعظمة القدرة ظهرت بكوني رباً للعالمين ، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن انتصف للمظلوم من الظالم بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف ، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم ، فلأجل إظهار العظمة في الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين في محفل القيامة ، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل ، وفي

إظهار العيب وإخفائه ، وفي طلب الإنصاف والانتصاف ، ويقال : من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه ، فليس بمنصف والمعاشرة والصحبة من هذه الجملة ، والذي يرى عيب الناس ، ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ، ومن طلب حق نفسه من الناس ، ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه لنفسه ، فهو من هذه الجملة والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 80.83 ﴾

(110/807)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

﴿ ويل ﴾ معناه : الثبور والحزن والشقاء الأدوم ، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أن وادياً في جهنم يسمى " ويلاً " ورفع ﴿ ويل ﴾ على الابتداء ، ورفع على معنى ثبت لهم واستقر وما كان في حيز الدعاء والترقب فهو منصوب نحو قولهم : رعياً وسقياً ، و" المطفف " : الذي ينقص الناس حقوقهم ، والتطفيف : النقصان أصله في الشيء الطفيف وهو النزر ، والمطفف إنما يأخذ بالميزان شيئاً طفيفاً ، وقال سلمان : الصلاة مكيال ، فمن أوفى وفي له ، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين ، وقال بعض العلماء : يدخل

التطفيف في كل قول وعمل ، ومنه قول عمر طففت ، ومعناه : نقصت الأجر والعمل وكذا قال مالك رحمه الله : يقال لكل شيء وفاء وتطفيف فقد جاء بالنقيضين ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن التطفيف هو تجاوز الحد في وفاء ونقصان ، والمعنى والقرائن بحسب قول قول تبين المراد وهذا عند جد صحيح ، وقد بين تعالى أن التطفيف إنما أراد به أمر الوزن والكيل ، و ﴿ اكتالوا على الناس ﴾ معناه : قبضوا منهم و ﴿ كالوهم ﴾ معناه : قبضوهم ، يقال : كلت منك واكتلت عليك ، ويقال : وكلت لك فلما حذفت اللام تعدى الفعل ، قال الفراء والأخفش .

وأنشد أبو زيد : [الكامل]

ولقد جنتك أكمؤاً وعساقلاً . . . ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

(111/807)

وعلى هذا المعنى هي قراءة الجمهور ، وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ويقف على " كالوا " و" وزنوا " بمعنى : هم يخسرون إذا كالوا ووزنوا . ورويت عن حمزة ، فقوله : " هم " تأكيد للضمير ، وظاهر هذه الآية يقتضي أن الكيل والوزن على البائع وليس ذلك بالجلي ، وصدر الآية هو في المشترين ، فذمهم بأنهم ﴿ يستوفون ﴾ ويشاحون في ذلك ، إذ لا

تمكنهم الزيادة على الاستيفاء لأن البائع يحفظ نفسه ، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة المندوب إليها ، ثم ذكر أنه إذا باعوا أمكنهم من الظلم والتطفيف أن يخسروا لأنهم يتولون الكيل للمشتري منهم وذلك بحالة من يخسر البائع إن قدر ، و﴿ يخسرون ﴾ معدى بالهمزة يقال : خسر الرجل وأخسره غيره ، والمفعول ل ﴿ كالوهم ﴾ محذوف ، ثم وقفهم تعالى على أمر القيامة وذكرهم بها وهذا مما يؤيد أنها نزلت بالمدينة في قوم من المؤمنين وأريد بها مع ذلك من غبر من الأمة ، و﴿ يظن ﴾ هنا بمعنى : يعلم ويتحقق ، و" اليوم العظيم " : يوم القيامة ، و﴿ يوم ﴾ ظرف عمل فيه فعل مقدر يبعثون ونحوه ، وقال الفراء : هو بدل من ﴿ ليوم عظيم ﴾ ، لكنه بني ويأبى ذلك البصريون ، لأنه مضاف إلى معرب ، وقام الناس فيه ﴿ لرب العالمين ﴾ يختلف الناس فيه بحسب منازلهم ، فروى عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(112/807)

" يقام فيه خمسين ألف سنة " . وهذا بتقدير شدته ، وقيل : ثلاثمائة سنة ، قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عمر : مائة سنة وقيل ثمانون سنة ، وقال ابن مسعود أربعون سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يؤمرون ولا يكلمون ، وقيل غير هذا ، ومن هذا كله

آثار مروية ومعناها : إن لكل قوم مدة ما تقتضي حالهم وشدة أمرهم ذلك ، وروي أن القيام فيه على المؤمن على قدر ما بين الظهر إلى العصر ، وروي عن بعض الناس : على قدر صلاة ، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس ، وهو أيضاً مختلف ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر : " أنه يلجم الكافر إلجاماً " ويروى أن بعض الناس يكون فيه إلى أنصاف ساقيه وبعضهم إلى فوق ، وبعضهم إلى أسفل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(113/807)

وقال القرطبى :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى روَى النَّسائي عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا .

وعن ابن عباس أيضاً قال : هي : أوّل سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم

ساعة نزل المدينة ، وكان هذا فيهم ؛ كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بَخَسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا ، فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا .

وقال قوم : نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة ، واسمه عمرو ؛ كان له صاعان يأخذ بأحدهما ، ويعطي بالآخر ؛ قاله أبو هريرة رضي الله عنه .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ ﴾ أي شدة عذاب في الآخرة .

وقال ابن عباس : إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صَديد أهل النار ، فهو قول تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ أي الذين يَنْقصون مكاييلهم وموازينهم .

ورُوِي عن ابن عمر قال : المطفِّف : الرجل يستأجر المكيال وهو يعلم أنه يَحِيف في كيله فوزره عليه .

وقال آخرون : التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث .

وفي الموطّأ قال مالك : ويقال لكل شيء وفاءٌ وتطفيف .

وروي عن سالم بن أبي الجعْد قال : الصلاة بمكيال ، فمن أوفَى له ومن طَفَّف فقد علمتم ما قال الله عز وجل في ذلك : "ويل لِلمطفِفِين" .

الثالثة قال أهل اللغة : المطفِّف مأخوذ من الطَّفِيف ، وهو القليل ، والمطفِّف هو المقِلّ حق صاحبه بنقصانه عن الحق ، في كيل أو وزن .

وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفِّف ؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف ، وإنما أخذ من طَفِّ الشيءِ وهو جانبه .

(114/807)

وطِفاف المَكُّوك وطَفافه بالكسر والفتح : ما ملأ أصباره ، وكذلك طَفُّ المَكُّوكِ وطَفَفُه ؛

وفي الحديث : "كلكم بنو آدم طَفُّ الصاعِ لم تملئوه " وهو أن يقرب أن يمتلىء فلا يفعل ؛

والمعنى بعضُكم من بعض قريب ، فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى .

والطُّفاف والطُّفافة بالضم : ما فوق المكيالِ .

وإناء طُفاف : إذا بلغ المِلء طفافه ؛ تقول منه : أطفَفْت .

والتطفيف : نقص المِكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره ، أي جوانبه ؛ يقال : أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها .

وقول ابن عمر حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سَبْق الخيل : كنت فارساً يومئذ فسبقت الناس حتى طَفَّف بي الفَرَس مسجدَ بني زُرَيق ، حتى كاد يساوي المسجد .

يعني : وثب بي .

الرابعة المطفِّف : هو الذي يُخْسر في الكيل والوزن ، ولا يوفي حَسْب ما بيناه ؛ وروي ابن

القاسم عن مالك : أنه قرأ ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فقال : لا تُطَفِّفْ ولا تَخْلُب ، ولكن أرسلْ وصُبّ عليه صَبّاً ، حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تُمْسِك .

وقال عبد الملك بن الماجشون : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسح الطُّفاف ، وقال : إن البركة في رأسه .

قال : وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديد .

قوله تعالى : ﴿ الذين إِذَا اكْتَالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ قال الفَراء : أي من الناس ؛ يقال : اكتلت منك : أي استوفيت منك ، ويقال اكتلت ما عليك : أي أخذت ما عليك .

وقال الزَّجاج : أي إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ؛ والمعنى : الذين إذا استوفوا أخذوا الزيادة ، وإذا أوفَوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا ، فلا يرضَون للناس ما يرضون لأنفسهم .

الطبري : "على" بمعنى عند .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ : أي كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام ، فتعدى الفعل فَنَصب ؛ ومثله نصحتك ونصحت لك ، وأمرتك به وأمرتكه ؛ قاله الأخفش والفراء .

قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول إذا صَدَر الناسُ أتينا التاجرَ فيكيلنا المُدّ والمُدّين إلى الموسم المقبل .

وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس .

قال الزجاج : لا يجوز الوقف على "كالُوا" و "ووزنوا" حتى تصل به "هُمْ" قال : ومن الناس من يجعلها توكيداً ، ويجيز الوقف على "كالُوا" و "وزَنوا" والأوّل الاختيار ؛ لأنها حرف واحد .

هو قول الكسائيّ .

قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ، ويقف على "كالوا" و "وزنوا" ويبتدىء "هُمْ يخسِرون" قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك أيضاً .

قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما : الخطّ ؛ وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا "كالوا" و "وزنوا" بالألف ، والأخرى : أنه يقال : كِلْتك ووزنتُك بمعنى كلت لك ، ووزنت لك ، وهو كلام عربي ؛ كما يقال : صِدْتُك وصِدْت لك ، وكسبتُك وكسبْتُ لَك ، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك .

قوله : ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ : أي يَنْقُصون ؛ والعرب تقول : أخسرت الميزان وخَسَرته .

و"هم" في موضع نصب ، على قراءة العامة ، راجع إلى الناس ، تقديره "وإذا كالوا" الناس "أو وزنوهم يُخْسِرون" وفيه وجهان : أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الجار ، وأوصل الفعل ، كما قال :

ولقَدْ جَنَيتُكَ أَكْمُؤًا وعساقِلاً . . .

ولقد نهيتُك عن بنات الأَوبرِ

أراد : جنيت لك ، والوجه الآخر : أن يكون على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مُقامه ، والمضاف هو المكيل والموزون .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : إنكم معاشر الأعاجم وَلِيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم : المِكيالَ والمِيزان .

(116/807)

وخَصَّ الأعاجم ، لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعاً ، وكانا مُفرَقين في الحَرَمين ؛ كان أهل مكة يزِنون ، وأهل المدينة يكيلون .

وعلى القراءة الثانية "هُمْ" في موضع رفع بالابتداء ؛ أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم

يخسرون .

ولا يصح ؛ لأنه تكون الأُولى مُلغاة ، ليس لها خبر ، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها : وإذا كالوا هم يَنْقُصون ، أو وزنوا هم يُخْسرون .

الثانية قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " خمس بخمسٍ : ما نقض قوم العهد إلا سَلَّط الله عليهم عدوّهم ، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون ، وما طَفَّفوا الكيلَ إلا مُنعوا النَّبات ، وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حَبَس الله عنهم المَطَر " خرجه أبو بكر البزار بمعناه ، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ابن عمر .

وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

وقال مالك بن دينار : دَخَلْت على جارٍ لي قد نزل به الموت ، فجعل يقول : جَبَلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول ؟ أتهجر ؟ قال : يا أبا يحيى ، كان لي مكيالان ، أكيل بأحدهما ، وأكتال بالآخر ؛ فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر ، حتى كَسَرتهما ، فقال : يا أبا يحيى ، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عِظَماً ، فمات من وجَعه .

وقال عكرمة : أشهدُ على كل كَيال أو وزّان أنه في النار .

قيل له : فإن ابنك كيال أو وزان .

فقال : أشهد أنه في النار .

قال الأصمعيّ : وسمعت أعرابية تقول : لا تَلْتَمِس المروءة ممن مروءته في رؤوس المكاييل ، ولا ألسنة الموازين .

ورُوي ذلك عن عليّ رضي الله عنه ، وقال عبدُ خير : مر عليّ رضي الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح ، فأكفأ الميزان ، ثم قال : أقم الوزن بالقسط ؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت .

كأنه أمره بالتسوية أوّلاً ليعتادها ، ويُفضل الواجبَ من النفل .

(117/807)

وقال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول : اتق الله وأوف الكيل والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العَرَق ليلْجِمُهم إلى أنصاف آذانهم .

وقد رُوِي أن أبا هريرة قدم المدينة وقد خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى خيبر واستخلف على المدينة سِباع بن عُرْفُطة ، فقال أبو هريرة : فوجدناه في صلاة الصبح فقرأ في الركعة الأولى "كهيعص" وقرأ في الركعة الثانية "ويل لِلمطففِين" قال أبو هريرة : فأقول في صلاتي : ويْل لأبي فلان ، كان له مكيالان إذا اكتال اكتال بالوافي ، وإذا كال كال بالناقص .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم ، في الاجتراء على

التطفيف ، كأنهم لا يُخْطرون التطفيف ببالهم ، ولا يُخَمِّنون تخميناً ﴿ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴾ فمسؤولون عما يفعلون .

والظن هنا بمعنى اليقين ؛ أي ألا يُوقن أولئك ، ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن .

وقيل : الظن بمعنى التردد ، أي إن كانوا لا يستيقنون بالبعث ، فهلا ظنُّوه ، حتى يتدبروا ويبحثوا عنه ، ويأخذوا بالأحوط ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ شأنه وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى العامل في "يومَ" فعل مضمر ، دل عليه "مبعوثون" .

والمعنى يبعثون "يومَ يقوم الناس لرب العالمين" .

ويجوز أن يكون بدلاً من يوم في "لِيومٍ عظِيم" ، وهو مبني .

وقيل : هو في موضع خفض ؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن .

وقيل : هو منصوب على الظرف أي في يوم ، ويقال : أقم إلى يومَ يخرج فلان ، فتنصب يوم ، فإن أضافوا إلى الاسم فحينئذ يخفضون ويقولون : أقم إلى يومِ خروج فلان .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : إنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم .

الثانية وعن عبد الملك بن مروان : أن أعرابياً قال له : قد سمعتَ ما قال الله تعالى في المطففين ؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزْن .

وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وكلمةِ الظن ، ووصفِ اليوم بالعظيم ، وقيامِ الناس فيه لله خاضعين ، ووصفِ ذاته برب العالمين ، بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم في التطفيف ، وفيما كان في مثل حاله من الحيف ، وترك القيام بالقسط ، والعمل على التسوية والعدل ، في كل أخذٍ وإعطاءٍ ، بل في كل قول وعمل .

الثالثة قرأ ابن عمر : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فبكى حتى سَقَط ، وامتنع من قراءة ما بعده ، ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " يومَ يقوم الناس لرب العالمين ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فمنهم من يبلغ العَرَق كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبتيه ، ومنهم من يبلغ حِقْويه ، ومنهم من يبلغ صدره ، ومنهم من يبلغ أذنيه ، حتى إن أحدهم ليغيب في رَشْحه كما يغيب الضِّفدع " ورَوى ناس عن ابن عباس قال : يقومون مقدار ثلثمائة سنة .

قال : ويهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة .

ورُوي عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقومون ألف عام في

الظُّلة " ورَوَى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه "

وعنه أيضاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يقوم مائة سنة " وقال أبو هريرة قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لبشير الغِفاريّ : " "كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين ، لا يأتيهم فيه خبر ، ولا يؤمر فيه بأمر" قال بشير : المستعان الله " .

(119/807)

قلت : قد ذكرناه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدريّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه لَيُخَفَّف عن المؤمن ، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة المكتوبة يصلّيها في الدنيا " في "سأل سائل" .

وعن ابن عباس : يَهون على المؤمنين قدرُ صلاتهم الفريضة .

وقيل : إن ذلك المقام على المؤمن كزوال الشمس ؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 63] جعلنا الله منهم بفضله وكرمه وجوده .

ومنه آمين .

وقيل : المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم لرب العالمين ؛ قاله ابن جُبير .

وفيه بُعد ؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك ، وهي صحيحة ثابتة ، وحسُبك بما في صحيح مسلم والبخاريّ والترمذيّ من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

" يوم يقوم الناسِ لِرب العالمِين " قال : " يقوم أحدهم في رشْحه إلى نصف أذنيه " ثم قيل : هذا القيام يوم يقومون من قبورهم .

وقيل : في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا .

وقال يزيد الرشك : يقومون بين يديه للقضاء .

الرابعة القيام لله رب العالمين سبحانه حَقير بالإضافة إلى عظمته وحقه ، فأما قيام الناس بعضهم لبعض فاختلف فيه الناس ؛ فمنهم من أجازه ، ومنهم من منعه .

وقد رُوي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر بن أبي طالب واعتنقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يومِ تيب عليه .

" وقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار حين طلع عليه سعد بن مُعاذ : "قوموا إلى سيِّدكم" " وقال أيضاً : " من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأْ مقعده من النار " وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته ، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه ، فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والوُصلة فإنه جائز ، وخاصة عند الأسباب ، كالقدوم من السفر ونحوه .

وقد مضى في آخر سورة "يوسف" شيء من هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(120/807)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

قيل اليول شدة الشر وقيل الحزن والهلاك وقيل العذاب الأليم وقيل جبل في جهنم وأخرج ذلك عن عثمان مرفوعاً ابن جرير بسند فيه نظر وذهب كثير إلى أنه واد في جهنم فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره " وفي "صحيحي" ابن حبان والحاكم بلفظ " واد بين جبلين يهوى فيه الكافر " الخ وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله أنه واد في جهنم من قبح وفي كتاب المفردات للراغب قال الأصمعي ويل قنوح وقد يستعمل للتحسر ومن قال ويل واد في جهنم لم يرد أن يولاً في اللغة موضوع لهذا وإنما أراد من قال الله تعالى فيه ذلك فقد استحق مقراً من النار وثبت ذلك له انتهى والظاهر إن إطلاقه على ذلك كإطلاق جهنم على ما هو المعروف فيها فلينظر من أي نوع ذلك الإطلاق وأياً ما كان

فهو مبتدأ وإن كان نكرة لوقوعه في موقع الدعاء وللمطففين خبره والتطفيف البخس في الكيل والوزن لما أن ما يبخس في كيل أو وزن واحد شيء طفيف أي نزر حقير والتفعيل فيه للتعدية أو للتكثير ولا ينافي كونه من الطفيف بالمعنى المذكور لأن كثرة الفعل بكثرة وقوعه وهو بتكراره لا بكثرة متعلقه وعن الزجاج أنه من طف الشيء جانبه وقوله تعالى :

(121/807)

﴿ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ الخ صفة مخصصة للمطففين الذين نزلت فيهم الآية أو صفة كاشفة لحالهم شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الويل أي إذا أخذوا من الناس ما أخذوا بحكم الشراء ونحوه كيلا يأخذونه وافياً وافراً وتبديل كلمة علي هنا بمن قيل لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء أو للإشارة إلى أنه اكتيال مضر للناس لا على اعتبار الضرر من حيث الشرط الذي يتضمنه إذا لإخلاله بالمعنى بل في نفس الأمر بموجب الجواب بناء على أن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً من غير نقص بل مجرد الأخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا بأي وجه يتيسر من وجوه الحيل وكانوا يفعلونه بكبس المكيل ودعدعة المكيال إلى غير ذلك وقيل إن ذلك لاعتبار أن اكتيالهم لما لهم من الحق على الناس فعن الفراء ان من وعلى يعتقبان في هذا الموضع فيقال اكتلت عليه أي أخذت ما

عليه كيلا واكتلت منه أي استوفيت منه كيلا وتعقب بأنه مع اقتضائه لعدم شمول الحكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيء بطريق الشراء ونحوه مع أنه الشائع فيما بينهم يقتضي أن يكون معنى الاستيفاء أخذ ما لهم على الناس وافياً من غير نقص إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرض الحق فلا يكون مداراً لذمهم والدعاء عليهم وحمل ما لهم عليهم على معنى ما سيكون لهم عليهم مع كونه بعيداً جداً مما لا يجدي نفعاً فإن اعتبار كون المكيل لهم حالاً كان أو مآلاً يستدعي كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتماً انتهى وأقول : أن قطع النظر عن كون الآية نازلة في مطففين صفتهم أخذ مكيل الناس إذا اكتالوا وافراً حسبما يريدون فلا بأس بحملها على ما يدل على أن المأخوذ حق حالاً أو مآلا وكون المتبادر حينئذ من الاستيفاء أخذ ما لهم وافياً من غير نقص مسلم لكنه لا يضر قوله فلا يكون مداراً لذمهم والدعاء عليهم قلنا مدار الذم ما تضمنه مجموع المتعاطفين والكلام كقولك فلان يأخذ حقه من الناس تاماً ويعطيهم

(122/807)

حقهم ناقصاً وهي عبارة شائعة في الذم بل الذم بها أشد من الذم بنحو يأخذ ناقصاً وكونه دون الذم بنحو قولك يأخذ زائداً ويعطى ناقصاً لا يضر كما لا يخفى ثم يقال إن الأغلب في

اكتيال الشخص من شخص كون المكيل حقاً له بوجه من الوجوه ولعل مبنى كلام الفراء على ذلك فتأمل وجوز على أن تكون على متعلقة ب ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ ويكون تقديمها على الفعل لإفادة الخصوصية أي يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها وتعقب بأن القصر بتقديم الجار والمجرور إنما يكون فيما يمكن تعلق الفعل بغير المجرور أيضاً حسب تعلقه به فيقصد بالتقديم قصره عليه بطريق القلب أو الأفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام ولا ريب في أن الاستيفاء الذي هو عبارة عن الأخذ الوافي مما لا يتصور ان يكون على أنفسهم حتى يقصد بتقديم الجار والمجرور قصره على الناس على أن الحديث واقع في الفعل لا فيما وقع عليه انتهى وأجيب بأن المراد بالاستيفاء المعدي بعلي على ذلك الأضرار فكأنه قيل إذا اكتالوا يضرون الناس خاصة ولا يضرون أنفسهم بل ينفعونها والقصر بطريق القلب والاضرار مما يمكن أن يكون لأنفسهم كما يمكن أن يكون للناس وإن كان ما به الإضرار مختلفاً حيث أن اضرارهم أنفسهم بأخذ الناقص وإضرارهم الناس بأخذ الزائد ثم أن خصوصية ما وقع عليه الفعل هو مدار الذم والدعاء بالويل وبه يجاب عما في حيز العلاوة انتهى ولا يخفى ما فيه فتدبر والضمير المنفصل في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ للناس وما تقدم في الأخذ من الناس وهذا في الإعطاء فالمعنى وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ينقصون وكال تستعمل مع المكيل باللام وبدونه فقد جاء في اللغة على ما قيل كال له وكاله بمعنى كال له وجعل غير واحد كاله من

باب الحذف والإيصال على أن الأصل كال له فحذف الجار وأوصل الفعل كما في قوله

: ولقد جنيتك اكمؤا وعساقلا . . .

ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

(123/807)

وقولهم في المثل الحريص يصيدك لا الجواد أي جنيت لك ويصيد لك وجوز أن يكون الكلام على حذف المضاف وهو مكيل وموزون وإقامة المضاف مقامه والأصل وإذا كالوا مكيلهم أو وزنوهم وعن عيسى بن عمر وحمزة إن المكيل له والموزون له محذوف وهم ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو وكانا يقفان على الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادوا وقال الزمخشري لا يصح كون الضمير مرفوعاً للمطففين لأنه يكون المعنى عليه إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص اخسروا وهو كلام متنافر لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر وذلك على ما في "الكشف" لأن التأكيد اللفظي يدفعه المقام فليس المراد أن يحقق أن الكيل صدر منهم لا من عبيد هممثلاً والتقوى وحده يدفعه ترك الفاء في جواب إذا لأن الفصيح إذ ذاك فهم يخسرون فيتعين الحمل على التخصيص ويظهر العذر في ترك الفاء إذا المعنى لا يخسر إلا هم ويلزم التنافر وفوات المقابلة

هذا وهم أولاً في كالوهم مانع من هذا التقدير أشد المنع والحمل على حذف الخبر من أحدهما وهو شطر الجزاء لا نظير له وقيل إنه يبعد كون الضمير مرفوعاً عدم إثبات الألف بعد الألف بعد الواو وقد تقرر في علم الخط إثباتها بعدها في مثل ذلك وجرى عليه رسم المصحف العثماني في نظائره وكونه هنا بالخصوص مخالفاً لما تقرر ولما سلك في النظائر بعيد كما لا يخفى ولعل الاقتار على الاكتيال في صورة الاستيفاء وذكر الكيل والوزن في صورة الأخسار أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة وإذا أعطوا كالوا ووزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً والحاصل أنه إنما جاء النظم الجليل هكذا ليطابق من نزل فيهم فالصفة تنعى عليهم ما كانوا عليه من زيادة البخس والظلم وهذا صحيح جعلت الصفة مخصصة لهؤلاء المطففين كما هو الأظهر أو كاشفة لحالهم فقد أريد بالأول معهود ذهني وقال

(124/807)

شيخ مشايخنا العلامة السيد صبغة الله الحيدري في ذلك أن التطفيف في الكيل يكون بشيء قليل لا يعبأ به في الأغلب دون التطفيف في الوزن فأن أدنى حميلة فيه يفضي إلى شيء كثير وأيضاً الغالب فيما يوزن ما هو أكثر قيمة مما يكال فإذا أخبرت الآية بأنهم لا

يبقون على الناس ما هو قليل مهين من حقوقهم علم أنهم لا يبقون عليهم الكثير الذي لا يتسامح به أكثر الناس بل أهل المروآت أيضاً إلا نادراً بالطريق الأولى بخلاف ما إذا ذكر أنهم يخسرون الناس بالأشياء الجزئية كما يفهم من ذكر الأخسار في الكيل فإنه لا يعلم منه أنهم يخسرونهم بالشيء الكثير أيضاً بل ربما يتوهم من تخصيص الجزئية بالذكر أنهم لا يتجرؤن على أخسارهم بكليات الأموال فلا بد في الشق الثاني من ذكر الأخسار في الوزن أيضاً فتكون الآية منادية على ذميم أفعالهم ناعية عليهم بشنيع أحوالهم انتهى وتعقب بأنه لا يحسم السؤال لجواز أن يقال لم لم يقل إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا وزنوهم يخسرون ليعلم من القرينتين أنهم يستوفون الكير ويخسرون بالنزر الحقير بالطريق الأولى ويكون في الكلام ما هو من قبيل الاحتباك وقال الزجاج المعنى إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل وكذلك إذا اتزنوا استوفوا الوزن ولم يذكر إذا اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن ومراده على ما نص عليه الطيبي أنه استغنى بذكر إحدى القرينتين عن الأخرى لدلالة القرينة الآتية عليها وهو كما ترى وقيل إن المطففين باعة وهم في الغالب يشترون الشيء الكثير دفعة ثم يبيعونه متفرقاً في دفعات وكم قد رأينا منهم من يشتري من الزارعين مقداراً كثيراً من الحبوب مثلاً في يوم واحد فيدخره ثم يبيعه شيئاً فشيئاً في أيام عديدة ولما كانت العادة الغالبة أخذ الكثير بالكيل ذكر الاكتيال فقط في صورة الاستيفاء

ولما كان ما يبيعونه مختلفاً كثرة وقلة ذكر الكيل والوزن في صورة الاعطاء أو لما كان اختيار ما به

(125/807)

تعيين المقدار مفوضاً إلى رأي من يشتري منهم ذكراً معاً في تلك الصورة إذ منهم من يختار الكيل ومنهم من يختار الوزن وأنت تعلم أن كون العادة الغالبة أخذ الكثير في الكيل غير مسلم على الإطلاق ولعله في بعض المواضع دون بعض وأهل بلدنا مدينة السلام اليوم لا يكتالون ولا يكيلون أصلاً وإنما عادتهم الوزن والاتزان مطلقاً وعدم التعرض للمكيل والموزون في الصورتين على ما قال غير واحد لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملة المطففين في الأخذ والإعطاء لا في خصوصية المأخوذ والمعطى .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه من التطفيف والهمزة للانكار والتعجيب ولا نافية فليست ألا هذه الاستفتاحية أو التنبيهية بل مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية والظن على معناه المعروف وأولئك إشارة إلى المطففين ووضعه موضع ضميرهم للاشعار بمناط الحكم الذي هو وصفهم فإن الاشارة إلى الشيء متعرضة له من حيث اتصافه بوصفه وأما الضمير فلا يتعرض للوصف وللإيذان بأنهم ممتازون بذلك

الوصف القبيح عن سائر الناس أكمل امتياز نازلون منزلة الأمور المشار إليه إشارة حسية وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد أي ألا يظن أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنهم مبعوثون .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لا يقادر قدر عظمه فإن من يظن ذلك وإن كان ظناً ضعيفاً لا يكاد يتجاسر على أمثال هذه القبائح فكيف بمن يتيقنه ووصف اليوم بالعظم لعظم ما فيه كما أن جعله علة للبعث باعتبار ما فيه وقدر بعضهم مضافاً أي لحساب يوم وقيل الظن هنا بمعنى اليقين والأول أولى وأبلغ وعن الزمخشري أنه سبحانه جعلهم اسوأ حالاً من الكفار لأنه أثبت جل شأنه للكفار ظناً حيث حكى سبحانه عنهم ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ [الجاثية : 32] ولم يثبته عز وجل لهم والمراد أنه تعالى نزلهم منزلة من لا يظن ليصح الانكار وقوله تعالى :

(126/807)

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لحكمه تعالى وقضائه عز وجل منصوب بإضمار أعني وجوز أن يكون معمولاً لمبعوثون أو مرفوع المحل خبراً لمبتدأ مضمر أي هو أو ذلك يوم أو مجرور كما قال الفراء بدلاً من ﴿ يوم عظيم ﴾ [المطففين : 5] وهو على الوجهين مبني على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين وقد مر غير مرة

ويؤيد الوجهين قراءة زيد بن علي يوم بالرفع وقراءة بعضهم كما حكى أبو معاذ يوم بالجر وفي هذا الإنكار والتعجيب وإيراد الظن والاتيان باسم الإشارة ووصف يوم قيامهم بالعظمة وإبدال يوم يقوم الخ منه على القول به ووصفه تعالى بربوبية العالمين من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم في التطفيف ما لا يخفى وليس ذلك نظراً إلى التطفيف من حيث هو تطفيف بل من حيث إن الميزان قانون العدل الذي قامت به السموات والأرض فيعم الحكم التطفيف على الوجه الواقع من أولئك المطففين وغيره وصح من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عباس وغيره مرفوعاً خمس بخمس قيل يا رسول الله وما خمس بخمس قال ما نقض قوم العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله تعالى إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله تعالى وأوف الكيل فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى أن العرق ليلجمهم وعن كرمة أشهد أن كل كيال ووزان في النار فقيل له إن ابنك كيال ووزان فقال أشهد أنه في النار وكأنه أراد المبالغة لما علم أن الغالب فيهم التطفيف ومن هذا القبيل ما روى عن أبي رضي الله تعالى عنه لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤس المكاييل وألسن الموازين والله تعالى أعلم .

واستدل بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ الخ على منع القيام للناس لاختصاصه بالله تعالى وأجاب عنه الجلال السيوطي بأنه خاص بالقيام للمرء بين يديه أما القيام له إذا قدم ثم الجلوس فلا وأنت تعلم أن الآية بمعزل عن أن يستدل بها على ما ذكر ليحتاج إلى هذا الجواب وأرى الاستدلال بها على ذلك من العجب العجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(128/807)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

افتتاح السورة باسم الويل مؤذن بأنها تشتمل على وعيد فلفظ ﴿ ويل ﴾ من براعة الاستهلال ، ومثله قوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ [المسد : 1] .

وقد أخذ أبو بكر بن الخازن من عكسه قوله في طالع قصيدة بتهنئته بمولود :

بُشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا

والتطفيف : النقص عن حق المقدار في الموزون أو المكيل ، وهو مصدر طفف إذ بلغ

الطُفافة .

والطُفافَ (بضم الطاء وتخفيف الفاء) مَا قصر عن ملء الإِناء من شراب أو طعام ، ويقال : الطَفّ بفتح الطاء دون هاء تأنيث ، وتطلق هذه الثلاثة على ما تجاوز حَرف المِكيال مما يُملأ به وإنما يكون شيئاً قليلاً زائداً على ما ملأ الإِناء ، فمن ثَمّ سميت طفافة ، أي قليل زيادة .

ولا نعرف له فعلاً مجرداً إذ لم ينقل إلا بصيغة التفعيل ، وفعله : طفّف ، كأنهم راعَوا في صيغة التفعيل معنى التكلف والمحاولة لأن المُطفف يحاول أن ينقص الكيل دون أن يشعر به المُكتال ، ويقابله الوفاء .

و﴿ ويل ﴾ كلمة دعاء بسوء الحال ، وهو في القرآن وعيد بالعقاب وتقريع ، والويل : اسم وليس بمصدر لعدم وجود فعل له ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة البقرة (79) .

وهو من عمل المتصدين للتجر يغتنمون حاجة الناس إلى الابتياع منهم وإلى البيع لهم لأن التجار هم أصحاب رؤوس الأموال وبيدهم المكاييل والموازين ، وكان أهل مكة تجاراً ، وكان في يثرب تجار أيضاً وفيهم اليهود مثل أُبي رافع ، وكعب بن الأشرف تاجريْ أهل الحجاز وكانت تجارتهم في التمر والحبوب .

وكان أهل مكة يتعاملون بالوزن لأنهم يتجرون في أصناف السلع ويزنون الذهب والفضة

وأهل يثرب يتعاملون بالكيل .

والآية تؤذن بأن التطفيف كان متفشياً في المدينة في أول مدة الهجرة واختلاط المسلمين بالمنافقين يُسبب ذلك .

(129/807)

واجتمعت كلمة المفسرين على أن أهل يثرب كانوا من أخبث الناس كيلاً فقال جماعة من المفسرين : إن هذه الآية نزلت فيهم فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

رواه ابن ماجه عن ابن عباس .

وكان ممن اشتهر بالتطفيف في المدينة رجل يكنى أبا جُهينة واسمه عمرو كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر .

فجملة الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ إدماج ، مسوقة لكشف عادة ذميمة فيهم هي الحرص على توفير مقدار ما يبتاعونه بدون حق لهم فيه ، والمقصود الجملة المعطوفة عليها وهي جملة : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ فهم مذمومون بمجموع ضمن الجملتين .

والاكتيال : افتعال من الكيل ، وهو يستعمل في تسلم ما يُكال على طريقة استعمال أفعال :

ابتاع ، وارتهن ، واشتَرى ، في معنى أخذ المبيع وأخذ الشيء المرهون وأخذ السلعة المشتراة ، فهو مطاوع كال ، كما أن ابتاع مطاوع باع ، وارتهن مطاوع رهن ، واشترى مطاوع شرى ، قال تعالى:

﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ [يوسف : 63] أي نأخذ طعاماً مكيلاً ، ثم تنوسي منه معنى المطاوعة .

وحق فعل اكتال أن يتعدى إلى مفعول واحد هو المكيل ، فيقال : اكتال فلان طعاماً مثل ابتاع ، ويعدى إلى ما زاد على المفعول بحرف الجر مثل (من) الابتدائية فيقال : اكتال طعاماً من فلان ، وإنما عدي في الآية بحرف ﴿ على ﴾ لتضمين ﴿ اكتالوا ﴾ معنى التحامل ، أي إلقاء المشقة على الغير وظِلمه ، ذلك أن شأن التاجر وخُلقه أن يتطلب توفير الربح وأنه مظنة السعة ووجود المال بيده فهو يستعمل حاجة من يأتيه بالسلعة ، وعن الفراء (مِن) و (على) يتعاقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك فكقوله : استوفيت منك .

(130/807)

فمعنى : ﴿ اكتالوا على الناس ﴾ اشتروا من الناس ما يباع بالكيل ، فحذف المفعول لأنه معلوم في فعل ﴿ اكتالوا ﴾ أي اكتالوا مكيلاً ، ومعنى كَالُوهم باعوا للناس مكيلاً فحذف المفعول لأنه معلوم .

فالواوان من ﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ عائدان إلى اسم الموصول والضميران المنفصلان عائدان إلى الناس .

وتعدية "كالوا" ، و"وزنوا" إلى الضميرين على حذف لام الجر .

وأصله كَالُوا لهم ووزنوا لهم ، كما حذفت اللام في قوله تعالى في سورة البقرة (233) ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم ﴾ أي تسترضعوا لأولادكم ، وقولهم في المثل الحريصُ يصيدك لا الجوادُ أي الحريص يصيد لك .

وهو حذف كثير مثل قولهم : نصحتك وشكرتك ، أصلهما نصحت لك وشكرت لك ، لأن فعل كال وفعل وزن لا يتعديان بأنفسهما إلا إلى الشيء المكيل أو الموزون يقال : كال له طعاماً ووزن له فضة ، ولكثرة دورانه على اللسان خففوه فقالوا : كاله ووزنه طعاماً على الحذف والإِيصال .

قال الفراء : هو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس يقولون : يكيلنا ، يعني ويقولون أيضاً : كالَ له ووزن له .

وهو يريد أن غير أهل الحجاز وقيس لا يقولون : كال له ووزن له ، ولا يقولون إلاّ : كاله ووزنه

، فيكون فعل كال عندهم مثل باع .

والاقتصار على قوله : إذا اكتالوا ﴾ دون أن يقول : وإذا اتَّزنوا كما قال : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ اكتفاء بذكر الوزن في الثاني تجنباً لفعل : "اتزنوا" لقلة دورانه في الكلام فكان فيه شيء من الثقل .

ولنكتة أخرى وهي أن المطففين هم أهل التجر وهم يأخذون السلع من الجالبين في الغالب بالكيل لأن الجالبين يجلبون التمر والحنطة ونحوهما مما يكال ويدفعون لهم الأثمان عيناً بما يوزن من ذهب أو فضة مسكوكين أو غيرَ مسكوكين ، فلذلك اقتُصر في ابتياعهم من الجالبين على الاكتيال نظراً إلى الغالب ، وذكر في بيعهم للمبتاعين الكيل والوزن لأنهم يبيعون الأشياء كيلاً ويقبضون الأثمان وزناً .

(131/807)

وفي هذا إشارة إلى أن التطفيف من عمل تجارهم .

و﴿ يستوفون ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ والاستيفاء أخذ الشيء وافياً ، فالسين والتاء فيه للمبالغة في الفعل مثل : استجاب .

ومعنى ﴿ يخسرون ﴾ يوقعون الذين كالوا لهم أو وزنوا لهم في الخسارة ، والخسارة النقص

من المال من التبايع .

وهذه الآية تحذير للمسلمين من التساهل في التطفيف إذ وجوده فاشياً في المدينة في أول هجرتهم وذم للمشركين من أهل المدينة وأهل مكة .

وحسبهم أن التطفيف يجمع ظلماً واختلاساً ولؤماً ، والعرب كانوا يتعيرون بكل واحد من هذه الخلال متفرّقة ويتبرؤون منها ، ثم يأتونها مجتمعة ، وناهيك بذلك أفناً .

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)

استئناف ناشىء عن الوعيد والتقريع لهم بالويل على التطفيف وما وصفوا به من الاعتداء على حقوق المبتاعين .

والهمزة للاستفهام التعجيبي بحيث يَسأل السائل عن علمهم بالبعث ، وهذا يرجح أن الخطاب في قوله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففين : 1] موجه إلى المسلمين .

ويرجع الإِنكار والتعجيب من ذلك إلى إنكار ما سيق هذا لأجله وهو فعل التطفيف .

فأما المسلمون الخلص فلا شك أنهم انتهوا عن التطفيف بخلاف المنافقين .

والظن : مستعمل في معناه الحقيقي المشهور وهو اعتقاد وقوع الشيء اعتقاداً راجحاً على طريقة قوله تعالى : ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] .

وفي العدول عن الإِضمار إلى اسم الإِشارة في قوله : ﴿ ألا يظن أولئك ﴾ لقصد تمييزهم وتشهير ذكرهم في مقام الذم ، ولأنّ الإِشارة إليهم بعد وصفهم ب"المطففين" تؤذن بأن

الوصف ملحوظ في الإِشارة فيؤذن ذلك بتعليل الإِنكار .

واللام في قوله : ﴿ ليوم عظيم ﴾ لام التوقيت مثل ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] .

(132/807)

وفائدة لام التوقيت إدماج الرد على شبهتهم الحاملة لهم على إنكار البعث باعتقادهم أنه لو كان بعث لبُعثت أمواتُ القرون الغابرة ، فأوماً قوله ﴿ ليوم ﴾ أن للبعث وقتاً معيناً يقع عنده لا قبله .

ووصف يوم بـ ﴿ عظيم ﴾ باعتبار عظمة ما يقع فيه من الأهوال ، فهو وصف مجازي عقلي .

و ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ بدل من "يوم عظيم" بدلاً مطابقاً وفتحته فتحة بناء مثل ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ في سورة الانفطار (19) على قراءة الجمهور ذلك بالفتح .

ومعنى يقوم الناس ﴾ أنهم يكونون قياماً ، فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحالة .

واللام في ﴿ لرب العالمين ﴾ للأجل ، أي لأجل ربوبيته وتلقي حكمه .

والتعبير عن الله تعالى بوصف "رب العالمين" لاستحضار عظمته بأنه مالك أصناف المخلوقات.

واللام في ﴿ العالمين ﴾ للاستغراق كما تقدم في سورة الفاتحة.

قال في "الكشاف" "وفي هذا الإِنكار، والتعجيب، وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته ب"رب العالمين" بيان بليغ لعظيم الذنب وتفاقم الإِثم في التطفيف وفيما كان مثل حالهِ من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية" أ هـ.

ولما كان الحامل لهم على التطفيف احتقارهم أهل الجَلب من أهل البوادي فلا يقيمون لهم ما هو شعار العدل والمساواة، كان التطفيف لذلك منبئاً عن إثم احتقار الحقوق، وذلك قد صار خلقاً لهم حتى تخلقوا بمكابرة دعاة الحق، وقد أشار إلى هذا التنويه به قوله تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ [الرحمن: 97] وقولُه حكاية عن شعيب: ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [الشعراء: 182، 183]. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(133/807)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى يوم)

اليَوْمُ يُعَبّر به عن وَقْت طُلُوع الفجر إلى غروب الشمس ، وقيل : يُعبَّر به عن مدّة من الزّمان أَىَّ مدّة كانت ، والجمع : أَيَّامٌ .

ويَوْمٌ أَيْوَمُ ، ويَوِمٌ كفَرِحٍ ووَوِمٌ ، وذُو أَيَّام ، وذُوا أَيَاويمَ : آخِرُ يَوْم فى الشَّهْر ، أَو معناه شَدِيدٌ ، مثل لُيْلٍ أَلْيَلَ .

وأَيام الله : نِعَمة .

ويا وَمَهُ يِواماً ومُياوَمَةً : عامَلَهُ لِلْيَوْم .

وقيل : ليس للدّين عِوَضٌ ، ولا لِلْبَدنِ خَلَفٌ ، ولا لِلْيَوْم بَدَلٌ ، ومن كانت مَطِيَّتُه اللَّيل والنَّهار ، فإِنَّه يُسارُ به وإِنْ لم يَسِرْ .

وفيه يقول القائل :

*ومنْ عَجَب الأَيام أَنَّكَ قاعِدٌ * عَلَى الأَرْضِ فى الدُّنْيا وأَنْتَ تَسِيرُ*

*فَسَيْرُك يا هذا كَسَيْرِ سَفِينَةٍ * بقَوْمٍ قُعودٍ والقُلُوع تَطِيرُ*

وقال آخر :

*حَتَّى مَتَى أَنْتَ فى الأَيام تَحْسَبُها * وإِنَّما أَنْتَ فيها بَيْنَ يَوْمَيْن*

*يَوْمٌ تَوَلَّى ويَوْمٌ أَنْتَ تأْمُلَه * لعلَّه أَجْلَب الأَيَّامِ للحَيْن*

وقال آخر فى ذلك :

*وما الدَّهْرُ إلاَّ ما مَضَى وهْوَ فائِتٌ * وما سوْفَ يَأْتِى وهْوَ غَيْرُ مُحصَّل*

*فحظكَ يَوْمٌ أَنْتَ فيه فَإِنَّه * زمان الفَتَى منْ مُجْمَل ومُفصَّل*

وقيل : الأَيام خمسةٌ : يَوْمُ المِيثاق ، وهو يوم الشهاد ؛ ويَوْمُ دُخُولك فى الدُّنْيا ، وهو يَوْم الوِلادَة ؛ ويومُ خُرُوجك منها ، وهو يوم ظهور الشَّقاوَة والسَّعادة ؛ ويومُ خُروجِك من القَبْر ، وهو يوم الإِعادَة ؛ ويَوْمُ نُزولِك فى الجَنَّة أَو النَّار ، وهو يَوْمُ الزِيادة ، فلأَهل النار ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ ، ولأَهل الجنَّة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ .

وفى بعض الآثار : "ما مِنْ يَوْمٍ طَلَعَت شَمْسُه

(134/807)

إلاَّ ويَقُول : يَابْنَ آدَمَ ، أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ ، وإِنِّى على ما تَعْمَلُ شَهِيد ، فاغْتَنِمْ طُلُوع شَمْسِى ، فلو غابَتْ وغَرَبَتْ لَمْ تَرَنى إلى يوم القيامة" .

/وذُكِرَ اليومُ فى القرآن على قسْمَين : الأَول أَيام مُخْتَلِفاتٌ ، والثانى مُقْتَرناتٌ بأَسماءِ القيامة .

أَمّا المختلفات.

1 – فقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

2 – قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ . . .

﴾ إلى قوله: ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ .

3 – ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

4 – ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

5 – ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

6 – ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .

7 – ﴿ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

8 – ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ .

9 – ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ .

10 – ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ .

11 – ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

12 – ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ .

13 – ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ .

14 – ﴿ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ .

15 - ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًا ﴾ .

16 - ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

17 - ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ .

18 - ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ .

19 - ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ .

20 - ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ ، ﴿ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

وأَمّا اليوم المُقْتَرِن بأَسماءِ القِيامة وصفاتها :

فقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى

(135/807)

كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ، وقولُه تعالَى : ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ .

(136/807)

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ قال تعالى : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ ، وقال

تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ ، وقال تعالى

: ﴿يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَامْتَازُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ ، وقال تعالى :

(138/807)

﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ وقال تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ﴾ وقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ وقال تعالى : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ﴾ وقال تعالى : ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ﴾ وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ

أَرْضَعَتْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال

(139/807)

تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْماً ﴾ ،

وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وقال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ

وَاهِيَةٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 413. 421 ﴾

(140/807)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أنهى سبحانه ما أراد من تعظيم ذلك اليوم والتعجيب ممن لم يفده براهينه أن يجوزه والإنكار عليه ، وكان مع ما فيه من التقريع مفهماً للتقرير ، نفى بأداة الردع للمبالغة في النفي مضمون ما وقع الاستفهام عنه فقال : ﴿ كلا ﴾ أي لا يظن أولئك ذلك بوجه من الوجوه لكثافة طباعهم ووقوفهم مع المحسوس دأب البهائم بل لا يجوزونه ، ولو جوزوه لما وقعوا في

ظلم أحد من يسألون عنه في ذلك اليوم المهول ، وما أوجب لهم الوقوع في الجرائم إلا الإعراض عنه ، وقال الحسن رحمه الله تعالى : هي بمعنى حقاً متصلة بما بعدها – انتهى . وهي مع ذلك مفهمة للردع الذي ليس بعده ردع عن اعتقاد مثل ذلك والموافقة لشيء مما يوجب الخزي فيه .

(141/807)

ولما أخبر عن إنكارهم ، استأنف إثبات ما أنكروه على أبلغ وجه وأفظعه مهولاً لما يقع لهم من الشرور وفوات السرور ، مؤكداً لأجل إنكارهم فقال : ﴿ إن كتاب ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ الفجار ﴾ أي صحيفة حساب هؤلاء الذين حملهم على كفرهم مروقهم وكذا كل من وافقهم في صفاتهم فكان في غاية المروق مما حق ملابسته وملازمته ، وأبلغ في التأكيد فقال : ﴿ لفي سجين ﴾ هو علم منقول في صيغة المبالغة عن وصف من السجن وهو الحبس لأنه سبب الحبس في جهنم أي إنه ليس فيه أهلية الصعود إلى محل الأقداس إشارة إلى أن كتابهم إذا كان في سجن عظيم أي ضيق شديد كانوا هم في أعظم ، قال ابن جرير : وهي الأرض السابعة – انتهى وهو يفهم مع هذه الحقيقة أنهم في غاية الخسارة لأنه يقال لكل من انحط : صار تراباً ولصق

بالأرض – ونحو ذلك ، ثم زاد في هوله بالإخبار بأنه أهل لأن يسأل عنه ويضرب إلى العالم به – إن كان يمكن – آباط الإبل فقال : ﴿ وما أدراك ﴾ أي جعلك دارياً وإن اجتهدت في ذلك ﴿ ما سجين ﴾ أي أنه بحيث لا تحتمل وصفه العقول ، وهو مع ذلك في أسفل سافلين ويشهده المبعدون من الشياطين وسائر الظالمين ، يصعد بالميت منهم إلى السماء فتغلق أبوابها دونه فيرد تهوي به الريح تشمت به الشياطين .

وكل ما قال فيه : " وما أدراك " فقد أدراه به بخلاف " وما يدريك " .

ولما أتم ما أراد من وصفه ، أعرض عن بيانه إشارة إلى أنه من العظمة بحيث إنه يكل عنه الوصف ، واستأنف أمر الكتاب المسجون فيه فقال محذراً منه مهولاً لأمره : ﴿ كتاب ﴾ أي عظيم لحفظه النقير والقطمير ﴿ مرقوم ﴾ أي مسطور بين الكتابة كما تبين الرقمة البيضاء في جلد الثور الأسود ، ويعلم كل من رآه أنه غاية في الشر ، وهو كالرقم في الثوب والنقش في الحجر لا يبلى ولا يحمى .

(142/807)

ولما أعلم هذا بما للكتاب من الشر ، استأنف الإخبار بما أنتجه مما لأصحابه فقال :

﴿ ويل ﴾ أي أعظم الهلاك ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ يقوم الناس لما تقدم : ولما كان الأصل : لهم ،

أبدله بوصف ظاهر تعميماً وتعليقاً للحكم به فقال : ﴿ للمكذبين ﴾ أي الراسخين في التكذيب بكل ما ينبغي التصديق به .

ولما أخبر عن ويلهم ، وصفهم بما يبين ما كذبوا به ويبلغ في ذمهم فقال : ﴿ الذين يكذبون ﴾ أي يوقعون التكذيب لكل من ينبغي تصديقه ، مستهينين ﴿ بيوم ﴾ أي بسبب الإخبار بيوم ﴿ الدين ﴾ أي الجزاء الذي هو سر الوجود ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ يكذب ﴾ أي يوقع التكذيب ﴿ به إلا كل معتد ﴾ أي متجاوز للحد في العناد أو الجمود والتقليد لأن محطة نسبة من ثبت بالبراهين القاطعة أنه على كل شيء قدير إلى العجز عن إعادة ما ابتدأه ﴿ أثيم ﴾ أي مبالغ في الانهماك في الشهوات الموجبة للآثام ، وهي الذنوب ، فاسود قلبه فعمي بنظر الشهوات التي حفت بها النار عما عداها .

ولما أثبت له الإبلاغ في الإثم ، دل عليه بقوله بأداة التحقق : ﴿ إذا تتلى ﴾ أي من أي تال كان ، مستعلية بما لها من البراهين ﴿ عليه آياتنا ﴾ أي العلامات الدالة على ما أريد بيانها له مع ما لها من العظمة بالنسبة إلينا ﴿ قال ﴾ أي من غير توقف ولا تأمل بل بحظ نفس أوقعه في شهوة المغالبة التي سببها الكبر : ﴿ أساطير الأولين ﴾ أي من الأباطيل وليست كلام الله ، فكان لفرط جهله بحيث لا ينتفع بشواهد النقل كما أنه لم ينظر في دلائل العقل .

ولما كان هذا قد صار كالأنعام في عدم النظر بل هو أضل سبيلاً لأنه قادر على النظر دونها ، قال رادعاً له ومكذباً ومبيناً لما أدى به إلى هذا القول وهو لا يعتقده : ﴿ كلا ﴾ أي ليرتدع ارتداعاً عظيماً ولينزجر انزجاراً شديداً ، فليس الأمر كما قال في المتلو ولا هو معتقد له اعتقاداً جازماً لأنه لم يقله عن بصيرة ﴿ بل ران ﴾ أي غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للسماء والصدأ للمرآة ، وجمع اعتباراً بمعنى "كل" لئلا يتعنت متعنت ، فقال معبراً بجمع الكثرة إشارة إلى كثرتهم : ﴿ على قلوبهم ﴾ أي كل من قال هذا القول ﴿ ما كانوا ﴾ أي بجبلاتهم الفاسدة ﴿ يكسبون ﴾ أي يجددون كسبه مستمرين عليه من الأعمال الردية ، فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، فيتراكم الذنب على القلب فيسود ، فلذلك كانوا يقولون مثل هذا الاعتقاد ، بل هو شيء يسدون به المجلس ويقيمون لأنفسهم عند العامة المعاذير ويفترون به عزائم التالين بما يحرقون من قلوبهم – أحرق الله قلوبهم وبيوتهم بالنار – فإنهم لا ينقطعون في عصر من الأعصار ولا يخشون من عار ولا شنار ، روى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " إذا أذنب العبد نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب صقل منها ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي قال الله سبحانه وتعالى " وقال الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء : قد سبق أن الإنسان لا يخلو في

مبدأ خلقته عن اتباع الشهوات ، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة ، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً ، فإذا تراكم الرين صار طبعاً كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل التصقيل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في

(144/807)

تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصورة في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار ، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة ، وإليه الإشارة بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" وأتبع السيئة الحسنة تمحها " .

ولما كان ادعاؤهم إنما هو قول قالوه بأفواههم لا يتجاوزها عظيماً جداً ، أعاد ردعهم عنه وتكذيبهم فيه فقال : ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما قالوا من الأساطير لا في الواقع ولا

عندهم فليرتدعوا عنه أعظم ارتداع .

ولما كان قول الإنسان لما لا يعتقده ولا هو في الواقع كما في غاية العجب لا يكاد يصدق ، علله مبيناً أن الحامل لهم عليه إنما هو الحجاب الذي ختم به سبحانه على قلوبهم ، فقال مؤكداً لمن ينكر ذلك من المغرورين : ﴿ إنهم عن ربهم ﴾ أي عن ذكر المحسن إليهم وخشيته ورجائه ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ قالوا هذا القول الفارغ .

ولما كان المانع إنما هو الحجاب ، بني للمفعول قوله : ﴿ لمحجوبون ﴾ فلذلك استولت عليهم الشياطين والأهوية ، فصاروا يقولون ما لو عقلت البهائم لاستحيت من أن تقوله ، والأحسن أن تكون الآية بياناً وتعليلاً لويلهم الذي سبق الإخبار به ، ويكون التقدير : يوم إذ كان يوم الدين ، ويكون المراد الحجاب عن الرؤية ، ويكون في ذلك بشارة للمؤمنين بها .

(145/807)

وقال البغوي : قال أكثر المفسرين : عن رؤيته ، وقال : إن الإمامين الشافعي وشيخه مالكاً استدلا بهذه الآية على الرؤية ، وأسند الحافظ أبو نعيم في الحلية في ترجمة الشافعي أنه قال : في هذه الآية دلالة على أن أولياءه يرونه على صفته ، وقال ابن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته ، وقال الحسن : لو علم الزاهدون

والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا .

وقال القشيري : ودليل الخطاب يوجب أن يكون المؤمنون يرونه كما يعرفونه اليوم انتهى .

وفيه تمثيل لإهانتهم بإهانة من يمنع الدخول على الملك .

ولما بين ما لهم من العذاب بالحجاب الذي هو عذاب القلب الذي لا عذاب أشد منه ، لأنه يتفرع عنه جميع العذاب ، شرع يبين بعض ما تفرع عنه من عذاب القالب مؤكداً لأجل إنكارهم معبراً بأداة التراخي إعلاماً بعلو رتبته في أنواع العذاب فقال : ﴿ ثم إنهم ﴾ أي بعد ما شاء الله من إمهالهم ﴿ لصلوا الجحيم ﴾ أي لدخلو النار العظمى ويقيمون فيها مقاسون لحرها ويغمسون فيها كما تغمس الشاة المصلية أي المشوية .

ولما بين ما لهم من الفعل الذي هو للقلب والقالب ، أتبعه القول بالتوبيخ والتبكيت الذي هو عذاب النفس ، وبناه للمفعول لأن المنكىء سماعه لا كونه من معين ، وإشارة إلى أنه يتمكن من قوله لهم كل من يصح منه القول من خزنة النار ومن أهل الجنة وغيرهم لأنه لا منعة عندهم : ﴿ ثم يقال ﴾ أي لهم بعد مدة تبكيتاً وتقريعاً وتنديماً وتبشيعاً : ﴿ هذا ﴾ أي العذاب الذي هو حالّ بكم ﴿ الذي كنتم ﴾ أي بما لكم من الجبلات الخبيثة ﴿ به ﴾ أي خاصة لأن تكذيبكم بغيره بالنسبة إليه لما له من القباحة ولكم من الرسوخ فيه والملازمة له (؟) ﴿ تكذبون ﴾ أي توقعون التكذيب به وتجددونه مستمرين عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 357 . 361 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) ﴾

واعلم أنه سبحانه لما بين عظم هذا الذنب أتبعه بذكر لواحقه وأحكامه فأولها : قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً الأول : أنه ردع وتنبيه أي ليس الأمر على ما هم عليه من التطفيف والغفلة ، عن ذكر البعث والحساب فليرتدعوا ، وتمام الكلام ههنا الثاني : قال أبو حاتم : ﴿ كَلاَّ ﴾ ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً ﴿ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجِّينٍ ﴾ وهو قول الحسن .

النوع الثاني : أنه تعالى وصف كتاب الفجار بالخيبة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم ، وههنا سؤالات .

السؤال الأول : السجين اسم علم لشيء معين أو اسم مشتق عن معنى ؟ قلنا فيه قولان : الأول : وهو قول جمهور المفسرين : أنه اسم علم على شيء معين ، ثم اختلفوا فيه ، فالأكثرون على أنه الأرض السابعة السفلى ، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء وقتادة

ومجاهد والضحاك وابن زيد ، وروى البراء أنه عليه السلام قال : " سجين أسفل سبع أرضين " قال عطاء الخراساني : وفيها إبليس وذريته ، وروى أبو هريرة أنه عليه السلام قال : " سجين جب في جهنم " وقال الكلبي ومجاهد : سجين صخرة تحت الأرض السابعة .

القول الثاني : أنه مشتق وسمي سجيناً فعيلاً من السجن ، وهو الحبس والتضييق كما يقال : فسيق من الفسق ، وهو قول أبي عبيدة والمبرد والزجاج ، قال الواحدي : وهذا ضعيف والدليل على أن سجيناً ليس مما كانت العرب تعرفه قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ما سجين ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت وقومك .

ولا أقول هذا ضعيف ، فلعله إنما ذكر ذلك تعظيماً لأمر سجين .

(147/807)

كما في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ [الإنفطار : 17] قال صاحب "الكشاف" : والصحيح أن السجين فعيل مأخوذ من السجن ، ثم إنه ههنا اسم علم منقول من صف كحاتم وهو منصرف ، لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف ، إذا عرفت هذا ، فنقول قد ذكرنا أن الله تعالى أجرى أموراً مع عباده على ما تعارفوه من التعامل فيما بينهم وبين عظمائهم .

فالجنة موصوفة بالعلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين ، والسجين موصوف بالتسفل والظلمة والضيق وحضور الشياطين الملعونين ، ولا شك أن العلو والصفاء والفسحة وحضور الملائكة المقربين ، كل ذلك من صفات الكمال والعزة ، وأضدادها من صفات النقص والذلة ، فلما أريد وصف الكفرة وكتابهم بالذلة والحقارة ، قيل : إنه في موضع التسفل والظلمة والضيق ، وحضور الشياطين ، ولما وصف كتاب الأبرار بالعزة قيل : إنه ﴿ لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ [المطففين : 18] .

و ﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ [المطففين : 21] .

السؤال الثاني : قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه ﴿ فِى سِجّينٍ ﴾ ثم فسر سجيناً ب ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ فكأنه قيل : إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه ؟ أجاب القفال : فقال قوله : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ ليس تفسيراً لسجين ، بل التقدير : كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وإن كتاب الفجار كتاب مرقوم ، فيكون هذا وصفاً لكتاب الفجار بوصفين أحدهما : أنه في سجين والثاني : أنه مرقوم ، ووقع قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجّينٌ ﴾ فيما بين الوصفين معترضاً ، والله أعلم .

(148/807)

والأولى أن يقال : وأي استبعاد في كون أحد الكتابين في الآخر ، إما بأن يوضع كتاب الفجار في الكتاب الذي هو الأصل المرجوع إلى في تفصيل أحوال الأشقياء ، أو بأن ينقل ما في كتاب الفجار إلى ذلك الكتاب المسمى بالسجين ، وفيه وجه ثالث : وهو أن يكون المراد من الكتاب ، الكتابة فيكون في المعنى : كتابة الفجار في سجين ، أي كتابة أعمالهم في سجين ، ثم وصف السجين بأنه ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ فيه جميع أعمال الفجار .

السؤال الثالث : ما معنى قوله : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ؟ قلنا فيه وجوه : أحدها : مرقوم أي مكتوبة أعمالهم فيه وثانيها : قال قتادة : رقم لهم بسوء أي كتب لهم بإيجاب النار وثالثها : قال القفال : يحتمل أن يكون المراد أنه جعل ذلك الكتاب مرقوماً ، كما يرقم التاجر ثوبه علامة لقيمته ، فكذلك كتاب الفاجر جعل مرقوماً برقم دال على شقاوته ورابعها : المرقوم : ههنا المختوم ، قال الواحدي : وهو صحيح لأن الختم علامة ، فيجوز أن يسمى المرقوم مختوماً وخامسها : أن المعنى كتاب مثبت عليهم كالرقم في الثوب ينمحي ، أما قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أنه متصل بقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ ﴾ أي : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : 83] ويل لمن كذب بأخبار الله والثاني : أن قوله : ﴿ مَّرْقُومٌ ﴾ معناه رقم برقم يدل على الشقاوة يوم القيامة ، ثم قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ في ذلك اليوم من ذلك الكتاب ، ثم إنه تعالى أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال : ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

الأولين ﴾ ومعناه أنه لا يكذب بيوم الدين إلا من كان موصوفاً بهذه الصفات الثلاثة فأولها : كونه معتدياً ، والاعتداء هو التجاوز عن المنهج الحق وثانيها : الأثيم وهو مبالغة في ارتكاب الإثم والمعاصي .

(149/807)

وأقول الإنسان له قوتان قوة نظرية وكمالها في أن يعرف الحق لذاته ، وقوة عملية وكمالها في أن يعرف الخير لأجل العمل به ، وضد الأول أن يصف الله تعالى بما لا يجوز وصفه به ، فإن كل من منع من إمكان البعث والقيامة إنما منع إما لأنه لم يعلم تعلق علم الله بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات ، أو لأنه لم يعلم تعلق قدرة الله بجميع الممكنات .

فهذا الاعتداء ضد القوة العملية ، هو الاشتغال بالشهوة والغضب وصاحبه هو الأثيم ، وذلك لأن المشتغل بالشهوة والغضب قلما يتفرغ للعبادة والطاعة ، وربما صار ذلك مانعاً له عن الإيمان بالقيامة .

وأما الصفة الثالثة : للمكذبين بيوم الدين فهو قوله : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أَساطير الأولين ﴾ والمراد منه الذين ينكرون النبوة ، والمعنى إذا تلي عليه القرآن قال أساطير الأولين ، وفيه وجهان أحدهما : أكاذيب الأولين والثاني : أخبار الأولين وأنه عنهم أخذ أي

يقدح في كون القرآن من عند الله بهذا الطريق ، وههنا بحث آخر : وهو أن هذه الصفات الثلاثة هل المراد منها شخص معين أولاً ؟ فيه قولان : الأول : وهو قول الكلبي : أن المراد منه الوليد بن المغيرة ، وقال آخرون : إنه النضر بن الحارث ، واحتج من قال : إنه الوليد بأنه تعالى قال في سورة ن :

(150/807)

﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ [ن : 10] إلى قوله ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [ن : 12] إلى قوله ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أساطير الأولين ﴾ [ن : 15] فقيل إنه : الوليد بن المغيرة ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : وما يكذب بيوم الدين من قريش أو من قومك إلا كل معتد أثيم ، وهذا هو الشخص المعين والقول الثاني : أنه عام في حق جميع الموصوفين بهذه الصفات ، أما قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فالمعنى ليس الأمر كما يقوله من أن ذلك أساطير الأولين ، بل أفعالهم الماضية صارت سبباً لحصول الرين في قلوبهم ، ولأهل اللغة في تفسير لفظة الرين وجوه ، ولأهل التفسير وجوه أخر ، أما أهل اللغة فقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها والخمر ترين على عقل السكران ، والموت يرين على الميت فيذهب به ، قال الليث : ران النعاس والخمر في الرأس إذا رسخ

فيه ، وهو يريد رينا ، وريوناً ، ومن هذا حديث عمر في أسيفع جهينة لما ركبه الدين "أصبح قد رين به" قال أبو زيد : يقال : رين بالرجل يران به رينا ًإذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه .

(151/807)

قال أبو معاذ النحوي : الرين أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والأقفال أشد من الطبع ، وهو أن يقفل على القلب ، قال الزجاج : ران على قلوبهم بمعنى غطى على قلوبهم ، يقال : ران على قلبه الذنب يرين رينا ًأي غشيه ، والرين كالصدإ يغشى القلب ومثله العين ، أما أهل التفسير ، فلهم وجوه : قال الحسن : ومجاهد هو الذنب على الذنب ، حتى تحيط الذنوب بالقلب ، وتغشاه فيموت القلب ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إياكم والمحقرات من الذنوب ، فإن الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيماً ضخمة " وعن مجاهد القلب كالكف ، فإذا أذنب الذنب انقبض ، وإذا أذنب ذنباً آخر انقبض ثم يطبع عليه وهو الرين ، وقال آخرون : كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله ، وروي هذا مرفوعاً في حديث أبي هريرة ، قلت : لا شك أن تكرر الأفعال سبب لحصول ملكة

نفسانية ، فإن من أراد تعلم الكتابة فكلما كان إتيانه بعمل الكتابة أكثر كان اقتداره على عمل الكتابة أتم ، إلى أن يصير بحيث يقدر على الإتيان بالكتابة من غير روية ولا فكرة ، فهذه الهيئة النفسانية ، لما تولدت من تلك الأعمال الكثيرة كان لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الهيئة النفسانية ، إذا عرفت هذا فنقول : إن الإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب ، حصلت في قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب ، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله ، وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة ، فإذن الذنوب كلها ظلمات وسواد ، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثر في حصولها ، فذلك هو المراد من قولهم : كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب ، ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة ، لا جرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة ، فبعضها يكون ريناً وبعضها طبعاً وبعضها

أقفالاً ، قال القاضي ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع ، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالاً بعد حال متجرئين عليه وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع ، فاستمروا وصعب الأمر عليهم ، ولذلك بين أن علة الرين كسبهم ، ومعلوم إن

إكثارهم من اكتساب الذنوب لا يمنع من الإقلاع والتوبة ، وأقول قد بينا أن صدور الفعل حال استواء الداعي إلى الفعل ، والداعي إلى الترك محال لامتناع ترجيح الممكن من غير مرجح ، فبأن يكون ممتنعاً حال المرجوحية كان أولى ، ولما سلم القاضي أنهم صاروا بسبب الأفعال السالفة راجحاً ، فوجب أن يكون الإقلاع في هذه الحالة ممتنعاً ، وتمام الكلام قد تقدم مراراً في هذا الكتاب .

(153/807)

أما قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فاعلم أنهم ذكروا في ﴿ كَلاَّ ﴾ وجوهاً أحدها : قال صاحب "الكشاف" : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الكسب الرائن عن قلوبهم وثانيها : قال القفال : إن الله تعالى حكى في سائر السور عن هذا المعتدي الأثيم أنه كان يقول إن كانت الآخرة حقاً ، فإن الله تعالى يعطيه مالاً وولداً ، ثم إنه تعالى كذبه في هذه المقالة فقال : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 78] وقال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] ولما كان هذا مما قد تردد ذكره في القرآن ترك الله ذكره ههنا وقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما يقولون : من أن لهم في الآخرة حسنى بل هم عن ربهم

يومئذ لمحجوبون وثانيها : أن يكون ذلك تكريراً وتكون ﴿ كَلاَّ ﴾ هذه هي المذكورة في قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ ﴾ أما قوله : ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فقد احتج الأصحاب على أن المؤمنين يرونه سبحانه قالوا : ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة ، وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار ، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن ، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمن أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه أحدها : قال الجبائي : المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون أي ممنوعون ، كما يقال في الفرائض : الإخوة يحجبون الأم على الثلث ، ومن ذلك يقال : لمن يمنع عن الدخول هو حاجب ، لأنه يمنع من رؤيته وثانيها : قال أبو مسلم : ﴿ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ أي غير مقربين ، والحجاب الرد وهو ضد القبول ، والمعنى هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله وهو المراد من قوله تعالى :

(154/807)

﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القيامة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ﴾ [آل عمران : 77] ، وثالثها : قال القاضي : الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية ، فإنه قد يقال : حجب فلان عن الأمير ، وإن كان قد رآه من البعد ، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال ،

بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن وجدان رحمته تعالى ورابعها : قال صاحب "الكشاف" : كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم والجواب : لا شك أن من منع من رؤية شيء يقال : إنه حجب عنه ، وأيضاً من منع من الدخول على الأمير يقال : إنه حجب عنه ، وأيضاً يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة ، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة في مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعاً للاشتراك في اللفظ ، وذلك هو المنع .

ففي الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية ، وفي الثاني حصل المنع من الوصول إلى قربه ، وفي الثالثة : حصل المنع من استحقاق الثلث ، فيصير تقدير الآية : كلا إنهم عن ربهم يومئذ لممنوعون ، والمنع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى ، وهو إما العلم ، وإما الرؤية ، ولا يمكن حمله على العلم ، لأنه ثابت بالاتفاق للكفار ، فوجب حمله على الرؤية .

أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل ، وكذا ما قاله صاحب "الكشاف" : ترك للظاهر من غير دليل ، ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين .

قال مقاتل : معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب ، لا يرون ربهم ، والمؤمنون يرون ربهم ، وقال الكلبي : يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون ، والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه ، وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية ، فقال : لما حجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه ، وعن الشافعي لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ فالمعنى لما صاروا محجوبين في عرصة القيامة إما عن رؤية الله على قولنا ، أو عن رحمة الله وكرامته على قول المعتزلة ، فعند ذلك يؤمر بهم إلى النار ثم إذا دخلوا النار ، وبخوا بتكذيبهم بالبعث والجزاء ، فقيل لهم : ﴿ هذا الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا ، والآن قد عاينتموه فذوقوه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 84.88 ﴾

(156/807)

وقال ابن عطية :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) ﴾

هذه الآية وما بعدها بظهر أنها من نمط المكي ، وهذا أحد الأقوال التي ذكرناها قبل ، و ﴿

كلاّ ﴾ يجوز أن يكون ردّاً لأقوال قريش ، ويحتمل أن يكون استفتاحاً بمنزلة " ألا " ، وهذا قول أبي حاتم واختياره ، و﴿ الفجار ﴾ الكفار ، وكتابهم يراد فيه الذي فيه تحصيل أمرهم وأفعالهم ، ويحتمل عندي أن يكون المعنى وعدادهم وكتاب كونهم هو في سجين ، أي هنالك كتبوا في الأزل ، وقرأ أبو عمرو والأعرج وعيسى : ﴿ الفجار ﴾ بالإمالة و﴿ الأبرار ﴾ [المطففين : 18] بالفتح قاله أبو حاتم ، واختلف الناس في : ﴿ سجّين ﴾ ما هو ؟ فقال الجمهور : هو فعيل من السجن كسكير وشريب أي في موضع ساجن ، فجاء بناء مبالغة ، قال مجاهد : وذلك في صخرة تحت الأرض السابعة ، وقال كعب حاكياً عن التوراة وأبيّ بن كعب : هو في شجرة سوداء هنالك ، وقيل عن النبي صلى الله عليه وسلم : في بر : هنالك وقيل تحت خد إبليس ، وقال عطاء الخرساني : هي الأرض السفلى ، وقاله البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة : ﴿ سجين ﴾ ، عبارة عن الخسران والهوان ، كما نقول : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول ، وقال قوم من اللغويين : ﴿ سجين ﴾ ، عبارة عن الخسران والهوان ، كما نقول : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول ، وقال قوم من اللغويين : ﴿ سجين ﴾ نونه بدل من لام هو بدل من " السجيل " وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ تعظيم لأمر هذا السجين وتعجب منه ، ويحتمل أن يكون تقرير استفهام ، أي هذا مما لم يكن يعرفه قبل الوحي . وقوله تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ من قال بالقول الأول في ﴿ سجين ﴾ ف ﴿

كتاب ﴾ مرتفع عنده على خبر ﴿ إن ﴾ ، والظرف الذي هو : ﴿ لفي سجين ﴾ ملغى ، ومن قال في ﴿ سجين ﴾ بالقول الثاني ف ﴿ كتاب ﴾ مرتفع على خبر ابتداء مضمر ، والتقدير هو كتاب مرقوم ، ويكون هذا الكلام مفسر في السجين ما هو ؟ و ﴿ مرقوم ﴾ معناه : مكتوب ، رقم لهم بشر ، ثم أثبته تعالى ﴿

(157/807)

للمكذبين ﴾ بيوم الحساب والدين بالويل ، وقوله : ﴿ يومئذ ﴾ ، إشارة إلى ما يتضمنه المعنى في قوله ﴿ كتاب مرقوم ﴾ وذلك أنه يتضمن أنه يرتفع ليوم عرض وجزاء ، وبهذا يتم الوعيد ويتجه معناه و" المعتدي " : الذي يتجاوز حدود الأشياء ، و" الأثيم " : بناء مبالغة في آثم ، وقرأ الجمهور : " تتلى " ، بالتاء ، وقرأ أبو حيوة : " يتلى " ، بالياء من تحت ، و" الأساطير " : جمع أسطورة وهي الحكايات التي سطرت قديماً ، قيل هو جمع : أسطار ، وأسطار : جمع سطر ، ويروى أن هذه الآية نزلت بمكة في النضر بن الحارث بن كلدة وهو الذي كان يقول : ﴿ أساطير الأولين ﴾ ، وكان هو قد كتب بالحيرة أحاديث رستم واسبنذباذ ، وكان يحدث بها أهل مكة ، ويقول أنا أحسن حديثاً من محمد ، فإنما يحدثكم ب ﴿ أساطير الاولين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ زجر ورد لقولهم : ﴿ أساطير

الأولين ﴾ ، ثم أوجب أن ما كسبوا من الكفر والطغيان ، والعتو ، قد ﴿ ران على قلوبهم ﴾ ، أي غطى عليها وغلب فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً ولا يخلص إلى قلوبهم خير ، ويقال : رانت الخمر على عقل شاربها وران الغش على قلب المريض ، وكذلك الموت ، ومنه قول الشاعر : [الخفيف]

(158/807)

ثم لما رآه رانت به الخمر وإن لا يرينه باتقاء . . . والبيت لأبي زيد ، وقال الحسن وقتادة : الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب ، ويروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل إذا أذنب صارت نقطة سوداء على قلبه ثم كذلك حتى يتغطى " فذلك الرين الذي قال الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : ﴿ بل ران ﴾ بإدغام في الراء ، وقرأ نافع : ﴿ بل ران ﴾ غير مدغمة ، وقرأ عاصم : ﴿ بل ﴾ ويقف ثم يبتدئ ﴿ ران ﴾ ، وقرأ حمزة والكسائي : الإدغام وبالإمالة في ﴿ ران ﴾ ، وقرأ نافع أيضاً : بالإدغام ، والإمالة ، قال أبو حاتم : القراءة بالفتح والإدغام ، وعلق اللوم بهم فيما كسبوه وإن كان ذلك يخلق منه واختراع لأن الثواب والعقاب متعلق بكسب العبد ، و ﴿ كلا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ كلا

إنهم على ربهم ﴾ يصلح فيها الوجهان اللذان تقدم ذكرهما ، والضمير في قوله : ﴿ إنهم عن ربهم ﴾ هو للكفار ، قال بالرؤية وهو قوله أهل السنة ، قال إن هؤلاء لا يرون ربهم فهم محجوبون عنه ، واحتج بهذه الآية مالك بن أنس عن مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب وإلا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصص ، وقال الشافعي : لما حجب قوم بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضى ، ومن قال بأن لا رؤية وهو قول المعتزلة ، قال في هذه الآية : إنهم محجوبون عن رحمة ربهم وغفرانه ، وصلي الجحيم مباشرة حر النار دون حائل ، وقوله تعالى : ﴿ ثم يقال هذا الذي ﴾ ، على معنى التوبيخ لهم والتقريع ، وقوله تعالى : ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ ، مفعول لم يسم فاعله لأنه قول بني له الفعل الذي يقال ، وقوله : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى تعذيبهم وكونهم في الجحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(159/807)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ ﴾

قال قوم من أهل العلم بالعربية : ﴿ كَلاَّ ﴾ : ردْع وتنبيه ؛ أي ليس الأمر على ما هم عليه

من تطفيف الكيل والميزان ، أو تكذيب بالآخرة ، فليرتدعوا عن ذلك .

فهي كلمة رَدْع وزَجْر ، ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفجار ﴾ .

وقال الحسن : ﴿ كَلاَّ ﴾ بمعنى حَقًّا .

ورَوَى ناس عن ابن عباس "كَلاَّ" قال : ألا تصدقون ؛ فعلى هذا : الوقفُ "لِرب العالمِين .

وفي تفسير مقاتل : إن أعمال الفجار .

وروي ناس عن ابن عباس قال : إن أرواح الفجار وأعمالهم "لَفِي سجِينٍ" .

وروى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال : سجِّين صخرة تحت الأرض السابعة ، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها .

ونحوه عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جُبير ومقاتل وكعب ؛ قال كعب : تحتها أرواح الكفار تحت خدّ إبليس .

وعن كعب أيضاً قال : سجين صخرة سوداء تحت الأرض السابعة ، مكتوب فيها اسم كل شيطان ، تلقى أنفس الكفار عندها .

وقال سعيد بن جبير : سجين تحت خد إبليس .

يحيى بن سلام : حجر أسود تحت الأرض ، يكتب فيه أرواح الكفار .

وقال عطاء الخُراساني : هي الأرض السابعة السفلى ، وفيها إبليس وذرّيته .

وعن ابن عباس قال : إن الكافر يحضُره الموت ، وتحضره رسل الله ، فلا يستطيعون لبغض

الله له وبغضهم إياه ، أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ، ورفعوه إلى ملائكة العذاب ، فأروه ما شاء الله أن يُرُوه من الشر ، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة ، وهي سِجِّين ، وهي آخر سلطان إبليس ، فأثبتوا فيها كتابه .

(160/807)

وعن كعب الأحبار في هذه الآية قال : إن رُوح الفاجر إذا قبضت يُصْعد بها إلى السماء ، فتأبى السماء أن تقبلها ، ثم يُهْبط بها إلى الأرض ، فتأبى الأرض أن تقبلَها ، فتدخل في سبع أرضين ، حتى يُنْتَهى بها إلى سِجِّين ، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من سجين من تحت خدّ إبليس رَقّ ، فيرقم فيوضع تحت خد إبليس .

وقال الحسن : سِجِّين في الأرض السابعة .

وقيل : هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التي ظنوا أنها تنفعهم .

قال مجاهد : المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء .

وقال : سجين صخرة في الأرض السابعة .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سجين جُب في جهنم وهو مفتوح "

" وقال في الفلق : "إنه جُبّ مغطى" " وقال أنس : هي دَرَكة في الأرض السفلى .

وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " سجين أسفلَ الأرض السابعة " وقال عِكرمة : "سجِين : خسار وضلال ؛ كقولهم لمن سقط قدره : قد زلق بالحضيض .

وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : "لفِي سجِينٍ" لفي حبس وضيق شديد ، فِعيّل من السَّجْن ؛ كما يقول : فِسيّق وشِرّيب ؛ قال ابن مقبل :

ورُفقةٍ يضرِبون البَيْضَ ضاحِية . . .

ضَرْباً تواصتْ به الأبطالُ سجِّيناً

والمعنى : كتابهم في حبس ؛ جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم ، أو لأنه يَحُل من الإعراض عنه والإبعاد له مَحَلّ الزجر والهوان .

وقيل : أصله سِجّيل ، فأبدلت اللام نوناً .

وقد تقدّم ذلك .

وقال زيد بن أسلم : سجِّين في الأرض السافلة ، وسجِيل في السماء الدنيا .

القُشيريّ : سجِّين : موضع في السافلين ، يدفن فيه كتاب هؤلاء ، فلا يظهر بل يكون في ذلك الموضع كالمسجون .

وهذا دليل على خبث أعمالهم ، وتحقير الله إياها ؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار : "يشهده

المقربون" .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك .

(161/807)

ثم فسره له فقال : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي مكتوب كالرقْم في الثوب ، لا يُنْسَى ولا يُمْحى .

وقال قتادة : مرقوم أي مكتوب ، رقم لهم بشر : لا يُزاد فيهم أحدَ ولا يَنْقُص منهم أحد .

وقال الضحاك : مرقوم : مختوم ، بلغة حمير ؛ وأصل الرقم : الكتابة ؛ قال :

سأُرقم في الماءِ القَراحِ إليكُمُ . . .

على بعدِكُم إن كان للماءِ راقِمُ

وليس في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ما يدل على أن لفظ سجين ليس عربياً ، كما لا يدل في قوله : ﴿ القارعة * مَا القارعة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1-3] بل هو تعظيم لأمر سجين .

وقد مضى في مقدّمة الكتاب والحمد لله أنه ليس في القرآن غير عربيّ .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي شدةٌ وعذاب يوم القيامة للمكذبين .

ثم بيّن تعالى أمرهم فقال : ﴿ الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ أي بيوم الحساب والجزاء

والفصل بين العباد .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي فاجر جائز عن الحق ، معتد على الخلق في معاملته إياهم ، وعلى نفسه ، وهو أثيم في ترك أمر الله .

وقيل هذا في الوليد بن المغيرة وأبي جهل ونظرائهما ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ وقراءة العامة "تُتْلَى" بتاءين ، وقراءة أبي حَيْوة وأبي سِماك وأشهب العُقَيلي والسُّلَمي : "إذا يُتْلَى" بالياء .

وأساطير الأولين : أحاديثهم وأباطيلهم التي كتبوها وزخرفوها .

واحدها أُسْطورة وإِسطارة ، وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ :

"كَلاّ" : ردْع وزجْر ، أي ليس هو أساطيرَ الأَوّلينَ .

وقال الحسن : معناها حقاً "رَانَ على قُلُوبهمْ" .

(162/807)

وقيل : في الترمذيّ : عن أبي هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قلبه نُكْتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب ، صُقِل

قلبه ، فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلُوَ على قلبه ، وهو (الرَّانُ) الذي ذكر الله في كتابه "كَلاّ بلْ رَان على قُلُوبهمْ ما كانوا يَكْسِبون" " قال : هذا حديث حسن صحيح .

وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب .

قال مجاهد : هو الرجل يُذْنب الذنب ، فيحيط الذنب بقلبه ، ثم يدنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ، حتى تُغَشِّي الذنوب قلبه .

قال مجاهد : هي مثل الآية التي في سورة البقرة : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ . . . الآية .

ونحوه عن الفراء ؛ قال : يقول كثرت المعاصي منهم والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرَّيْنُ عليها .

ورُوي عن مجاهد أيضاً قال : القلب مثل الكهف ورفع كفه ، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض ، وضم إصبعه ، فإذا أذنب الذنب انقبض ، وضم أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها ، حتى يُطْبَع على قلبه .

قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرَّين ، ثم قرأ ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

ومثله عن حذيفة رضي الله عنه سواء .

وقال بكر بن عبد الله : إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة ، ثم صار إذا أذنب

ثانياً صار كذلك ، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنْخُل ، أو كالغِربال ، لا يعي خيراً ، ولا يثبُت فيه صلاح.

وقد بيَّنا في "البقرة" القولَ في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا معنى لإعادتها .

وقد روى عبد الغني بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئاً الله أعلم بصحته ؛ قال : هو الرَّان الذي يكون على الفخذين والساق والقدم ، وهو الذي يُلْبس في الحرب .

(163/807)

قال : وقال آخرون : الران : الخاطر الذي يخطر بقلب الرجل .

وهذا مما لا يُضْمن عُهْدة صحتِه .

فالله أعلم .

فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا .

وكذلك أهلُ اللغة عليه ؛ يقال : رَانَ على قلبه ذنبُه يَرِينُ رَيْنا ورُيونا أي غلب .

قال أبو عُبيدة في قوله : "كَلاَّ بلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكسِبُونَ" أي غلب ؛ وقال أبو

عُبيد : كل ما غلبك وعَلاكَ فقد ران بك ، ورانك ، وران عليك ؛ وقال الشاعر :

وكَمْ رانَ مِن ذنبٍ على قِلب فاجرٍ . . .

فتابَ مِن الذنبِ الذي رَانَ وانجلى

ورانتْ الخمر على عقله : أي غلبته ، وران عليه النُّعاسُ : إذا غطّاه ؛ ومنه قول عمر في الأُسَيفع أُسَيْفعِ جُهَيْنة : فأصبح قد رِينَ به .

أي غلبته الديون ، وكان يَدّانُ ؛ ومنه قول أبي زُبَيد يصف رجلاً شرب حتى غلبه الشراب سُكْراً ، فقال :

ثم لما رآه رانتْ بِهِ الخم . . .

رُ وأَنْ لا تَرِينَه بِاتقاءِ

فقوله : رانت به الخمر ، أي غلبت على عقله وقلبه .

وقال الأمويّ : قد أران القوم فهم مُرِينون : إذا هلكت مواشيهم وهُزِلت .

وهذا من الأمر الذي أتاهم مما يغلبهم ، فلا يستطيعون احتماله .

قال أبو زَيد يقال : قد رِينَ بالرجل رَيْنا : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ، ولا قبل له

وقال : أبو مُعاذ النحويّ : الرَّين : أن يسودّ القلب من الذنوب ، والطَّبَع أن يُطْبَع على القلب ، وهذا أشد من الرَّين ، والإقفال أشد من الطَّبَع .

الزَّجّاج : الرَّين : هو كالصدأ يُغَشِّي القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين ، يقال : غِين على

قلبه : غُطِّي .

والغَين : شجر ملتف ، الواحدة غيناء ، أي خضراء ، كثيره الورق ، ملتفة الأغصان .

وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب .

وذكر الثعلبيّ عن ابن عباس : "ران على قلوبِهم" : أي غطَّى عليها .

وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله .

(164/807)

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل "ران" بالإمالة ؛ لأن فاء الفعل الراء ، وعينه الألف منقلبة من ياء ، فحسنت الإمالة لذلك .

ومن فتح فعلى الأصل ؛ لأن باب فاء الفعل في (فَعَلَ) الفتح ، مثل كال وباع ونحوه .

واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ووقف حفص "بَلْ" ثم يبتديء "رَانَ" وقفاً يُبَيِّن اللام ، لا للسكت .

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ ﴾ أي حقاً "إنهم" يعني الكفار ﴿ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وقيل : "كلاَّ" ردع وزجر ، أي ليس كما يقولون ، بل ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ

﴾ .

قال الزجاج : في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرىَ في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، ولا خست منزلة الكفار بأنهم يحجبون .

وقال جل ثناؤه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ .

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22-23] فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه ، وقال مالك بن أنس في هذه الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه .

وقال الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضا .

ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا .

وقال الحسين بن الفضل : لما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ : أي عن كرامته ورحمته ممنوعون .

وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

وعلى الأول الجمهور ، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الجحيم ﴾ أي ملازموها ، ومحترقون فيها غير خارجين منها ، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [النساء : 56] و ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : 97] .

ويقال : الجحيم الباب الرابع من النار .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم أي تقول لهم خزنة جهنم ﴿ هذا الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ رسل الله في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(166/807)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

قيلَ : الويلُ شدةُ الشرِّ وقيلَ : العذابُ الأليمُ ، وقيلَ : هو وادٍ في جهنمَ يهوي فيه الكافرُ أربعينَ خريفاً قبل أنْ يبلغَ قعرَهُ ، وقيلَ وقيلَ ، وأياً ما كانَ فهو مبتدأٌ وإنْ كان نكرةً لوقوعِه في موقعِ الدُّعاءِ . والتطفيفُ البخسُ في الكيل والوزنِ لأنَّ ما يُبخسُ شيءٌ طفيفٌ حقيرٌ . ورويَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قدمَ المدينةَ وكانَ أهلُها من أخبثِ الناسِ كيلاً

فنزلتْ فأحسنُوا الكيلَ . وقيلَ : قدمَها عليهِ الصلاةُ والسلامُ وبها رجلٌ يعرفُ بأبي جهينةَ ومعه صاعانِ يكيلُ بأحدِهما ويكتالُ بالآخرِ ، وقيلَ : كانْ أهلُ المدينةِ تجاراً يطففونَ وكانتْ بياعاتُهم المنابذةَ والملامسةَ والمخاضرةَ فنزلتْ فخرجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقرأَها عليهمُ وقالَ : " خمسٍ بخمسٍ ما نقصَ قومٌ العهدَ إلا سلَّط اللهُ عليهم عدوَّهم وما حكمُوا بغيرِ ما أنزلَ اللهُ إلا فشَا فيهم الفقرُ وما ظهرتْ فيهم الفاحشةُ إلا فشَا فيهم الموتُ ولا طففُوا الكيلَ إلا مُنِعوا النباتَ وأُخِذاوا بالسنينَ ولا منعُوا الزكاةَ إلا حُبس عنهم القطرُ " وقولُه تعالَى : ﴿ الذين إذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ إلخ صفةٌ كاشفةٌ للمطففينَ شارحةٌ لكيفية تطفيفِهم الذي استحقُّوا بهِ الذمَّ والدعاءَ أي إذَا اكتالُوا منَ النَّاسِ مكيلَهم بحكمِ الشراءِ ونحوِهِ يأخذونَهُ وافياً وافراً وتبديلُ كلمةِ عَلَى بمنَ لتضمينِ الاكتيالِ مَعْنى الاستيلاءِ أو للإشارةِ إلى أنَّه اكتيالٌ مضرٌّ بهم لكنْ لاَ علَى اعتبارِ الضررِ في حيزِ الشرطِ الذي يتضمنُه كلمةُ إذَا لإخلالِه بالمَعْنى بلْ في نفسِ الأمرِ بموجبِ الجوابِ فإنَّ المرادَ بالاستيفاءِ ليسَ أخذَ الحقِّ وافياً من غيرِ نقصٍ بل مجردُ الأخذِ الوافِي الوافِر حسبما أرادُوا بأيِّ وجهٍ تيسرَ من وجوهِ الحيلِ وكانُوا يفعلونَهُ بكبسِ المكيلِ وتحريكِ المكيالِ والاحتيالِ في ملئِهِ وأما ما

قيلَ : من أنَّ ذلكَ للدلالةِ على أنَّ اكتيالَهُم لمَا لَهُم على النَّاسِ فمعَ اقتضائِه لعدمِ شمولِ الحكمِ لاكتيالِهم قبلَ أنْ يكونَ لهم على الناسِ شيءٌ بطريقِ الشراءِ ونحوِه معَ أنَّه الشائعُ فيما بينَهم يقتضِي أنْ يكونَ معنى الاستيفاءِ أخذُ ما لهم عليهم وافياً من غيرِ نقصٍ إذْ هُو المتبادرُ منه عند الإطلاقِ في معرضِ الحقِّ فلا يكونُ مداراً لذمّهم والدعاءِ عليهم وحملِ ما لهم عليهم على مَعْنى ما سيكونُ لهم عليهم مع كونِه بعيداً جداً مما لا يُجدي نفعاً فإنَّ اعتبارَ كونِ المكيلِ لهم حالاً كان أو مآلاً يستدعِي كونَ الاستيفاءِ بالمعنى المذكورِ حَتْماً وهكذا حالُ ما نُقلَ عنِ الفرَّاءِ من أنَّ مِنْ وعَلَى تعتقبانِ في هذا الموضعِ لأنَّه حقٌّ عليهِ فإذَا قال اكتلتُ عليكَ فكأنَّه قال أخذتُ ما عليكَ وإذا قال اكتلتُ منكَ فكقولِه استوفيتُ منكَ فتأملْ .

وقد جُوِّز أنْ تكونَ على متعلقةً بيستوفونَ ويكون تقديمُها على الفعلِ لإفادة الخصوصيةِ أي يستوفونَ على النَّاسِ خاصَّة فأما أنفسُهم فيستوفونَ لها وأنتَ خبيرٌ بأنَّ القصرَ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ وإنما يكونُ فيما يمكنُ تعلقُ الفعلِ بغيرِ المجرورِ أيضاً حسبَ تعلقِه به فيقصد بالتقديمِ قصرُه عليه بطريقِ القلبِ أو الإفرادِ أو التعيينِ حسبما يقتضيهِ المقامُ ، ولا ريبَ في أنَّ الاستيفاءَ الذي هو عبارةٌ عن الأخذ الوافي مما لا يتصورُ أن يكونَ على أنفسهم حَتَّى يقصد بتقديم الجارِّ والمجرورِ قصرُه على النَّاسِ على أنَّ الحديثَ واقعٌ في الفعلِ لا فيما وقعَ عليهِ فتدبرْ . والضميرُ البارزُ في قولِه تعالى ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ للنَّاسِ أيْ إذ

كالُوا لهم أو وزنُوا لهم للبيعِ ونحوِه ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ أي ينقصونَ يقالُ خسِر الميزانَ وأخسرَهُ فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ كما في قولِه :

(168/807)

وَلَقَدْ جَنَيتُكَ أَكْمُؤاً وعَسَاقِلاً . . . أي جنيتُ لكَ ، وجعلُ البارزِ تأكيداً للمستكنِّ مما لا يليقُ بجزالةِ التنزيلِ ولعلَّ ذكرَ الكيلِ والوزنِ في صورةِ الإخسارِ والاقتصارِ على الاكتيالِ في صورةِ الاستيفاءِ لما أنهم لم يكونوا متمكنينَ من الاحتيالِ عند الاتزانِ تمكنهم منه عند الكيلِ والوزنِ ، وعدمُ التعرضِ للمكيلِ والموزونِ في الصورتينِ لأن مساقَ الكلامِ لبيانِ سوءِ معاملتِهم في الأخذِ والإعطاءِ لا في خصوصيةِ المأخوذِ والمُعطَى .

وقولُه تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ استئنافٌ واردٌ لتهويلِ ما ارتكبُوه من التطفيفِ والتعجيبِ من اجترائِهم عليهِ وأولئكَ إشارةٌ إلى المطففينَ ووضعُه موضعَ ضميرِهم للإشعارِ بمناطِ الحُكمِ الذي هُو وصفُهم فإنَّ الإشارةَ إلى الشيءِ متعرضةٌ له من حيثُ اتّصافُه بوصفِه وأما الضميرُ فلا يتعرضُ لوصفِه وللإيذانِ بأنَّهم ممتازونَ بذلكَ الوصفِ القبيحِ عن سائرِ النَّاسِ أكملَ امتيازٍ نازلونَ منزلةَ المشارِ إليها إشارةً حسيةً ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ ببُعدُ درجتِهم في الشَّرارةِ والفسادِ أي ألا يظنُّ أولئكَ

الموصوفونَ بذلكَ الوصفِ الشنيعِ الهائلِ أنَّهم مبعوثونَ ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لا يُقادَرُ قدرُ عِظَمِه وعِظَمِ ما فيهِ ومحاسبونَ فيهِ على مقدارِ الذرةِ والخردلةِ فإنَّ من يظنُّ ذلكَ وإن كان ظناً ضعيفاً متاخماً للشكِّ والوهمِ لا يكادُ يتجاسرُ على أمثالِ هاتيكَ القبائحِ فكيفَ بمن تيقنَه وقولُه تعالَى :

(169/807)

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناسُ لِرَبِّ العالمين ﴾ أي لحُكمِه وقضائِه منصوبٌ بإضمارِ أعنِي وقيلَ بمبعوثونَ أو مرفوعُ المحلِّ خبراً لمبتدأٍ مضمرٍ أو مجرورٌ بدلاً من يومٍ عظيمٍ مبنيٌّ على الفتحِ لإضافتِه إلى الفعلِ وإنْ كانَ مضارعاً كما هو رأيُ الكوفيينَ ويؤيد الأخيرينِ القراءةُ بالرفعِ وبالجرِّ . وفي هَذا الإنكارِ والتعجيبِ وإيرادِ الظنِّ ووصفِ اليومِ بالعِظمِ وقيامِ الناسِ فيه كافَّةً للهِ تعالَى خاضعينَ ووصفِه تعالَى بربوبيةِ العالمينَ من البيانِ البليغِ لعظمِ الذنبِ وتفاقمِ الإثمِ في التطفيفِ وأمثالِه ما لا يَخْفَى .

(170/807)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ عما كانُوا عليهِ من التطفيفِ والغفلةِ عن البعثِ والحسابِ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجّينٍ ﴾ الخ . تعليل للردع أو وجوب الارتداعِ بطريقِ التحقيقِ وسجينٌ علمٌ لكتابٍ جامعٍ هو ديوانُ الشرِّ دُوّنَ فيه أعمالُ الشياطينِ وأعمالُ الكفرةِ والفسقةِ من الثقلينِ ، منقولٌ من وصفٍ كحاتمٍ ، وأصلُه فِعّيلٌ من السجنِ وهو الحبسُ والتضييقُ لأنَّه سببُ الحبسِ والتضييقِ في جهنَمَ أو لأنَّه مطروحٌ كما قيلَ تحتَ الأرضِ السابعةِ في مكانٍ مُظلمٍ موحشٍ وهو مسكنُ إبليسَ وذريته فالمَعْنى أنَّ كتابَ الفجَّارِ الذينَ من جُمْلتِهم المطففونَ أي ما يكتبُ من أعمالِهم أو كتابةَ أعمالِهم لفي ذلكَ الكتابِ المُدونِ فيه قبائحُ أعمالِ المذكورينَ . وقولُه تعالَى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجّينٌ ﴾ تهويلٌ لأمرِه أي هُو بحيثُ لا يبلغه درايةُ أحدٍ . وقولُه تعالى : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ أي مسطورٌ بينُ الكتابةِ أو معلَّمٌ يعلُم مَنْ رآهُ أنه لا خيرَ فيه وقيلَ : هو اسمُ المكانِ والتقديرُ ما كتابُ السجينِ أو محلُّ كتابٍ مرقومٍ . وقولُه تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ متصلٌ بقولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناسِ لِرَبِّ العالمين ﴾ وما بينهما اعتراضٌ وقولُه تعالى : ﴿ الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ ذامةٌ للمكذبينَ أو بدلٌ منه أو مرفوعٌ أو منصوبٌ على الذمِّ .

(171/807)

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ أي متجاوزٍ عن حدودِ النَّظرِ والاعتبارِ غالٍ في التقليدِ حتَّى استقصرَ قُدرةَ الله تعالى وعلمَهُ عنِ الإعادةِ مع مشاهدتِه للبدءِ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي منهمكٍ في الشهواتِ المخدجةِ الفانيةِ بحيثُ شغلتْهُ عمَّا وراءَها منَ اللذاتِ التامةِ الباقيةِ وحملتْه على إنكارِها . ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ﴾ الناطقةُ بذلكَ ﴿ قَالَ ﴾ من فرطِ جهلِهِ وإعراضِه عن الحقِّ الذي لا محيدَ عنْهُ ﴿ أساطير الأولين ﴾ أي هي حكاياتُ الأولينَ قال الكلبيُّ المرادُ بالمُعتدي الأثيمِ هو الوليدُ بنُ المغيرةِ ، وقيلَ : النَّضرُ بنُ الحارثِ ، وقيلَ عامٌّ لكلِّ منَ اتصفَ بالأوصافِ المذكورةِ ، وقُرِئَ إذا يُتلى بتذكيرِ الفعلِ ، وقُرِئَ أَإِذَا تُتلى على الاستفهامِ الإنكاريِّ .

(172/807)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ للمعتدي الأثيمِ عن ذلكَ القولِ الباطلِ وتكذيبٌ له فيهِ . وقولُه تعالَى : ﴿ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بيانٌ لما أدَّى بهم إلى التفوهِ بتلكَ العظيمةِ أي ليسَ في آياتِنا ما يصحُّ أنْ يقالَ في شأنِها مثلُ هذه المقالاتِ الباطلةِ بلْ رَكِبَ على قلوبِهم وغلبَ عليها ما كانُوا يُكسبونَها من الكفرِ والمعاصِي حتى صارتْ كالصدأِ في المرآةِ فحالَ ذاكَ بينَهم وبينَ معرفةِ الحقِّ كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ العبدَ كلما أذنبَ ذنباً حصلَ في قلبِه نكتةٌ

سوادُ حتى يسودَّ قلبُه " . ولذلكَ قالُوا ما قالُوا والرينُ الصدأُ يقالُ رانَ عليهِ الذنبُ وغانَ عليهِ ريناً وغيناً ، ويُقالُ رانَ فيه النومُ أي رسخَ فيهِ ، وقُرِئَ بإدغامِ اللامِ في الراءِ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ وزجرٌ عن الكسبِ الرائنِ ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فلا يكادونَ يَرَونَهُ بخلافِ المؤمنينَ ، وقيلَ : هو تمثيلٌ لإهانتِهم بإهانةِ من يُحجبُ عن الدخولِ على الملوكِ . وعن ابنِ عبَّاسٍ وقَتَادةَ وابنِ أبي مليكةَ : محجوبونَ عن رحمتِه ، وعن ابنِ كيسانَ : عن كرامتِه . ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الجحيم ﴾ أي داخِلُو النارِ وثمَّ لتراخِي الرتبةِ فإنَّ صلْيَ الجحيمِ أشدُّ من الإهانةِ والحرمانِ من الرحمةِ والكرامةِ . ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهُم توبيخاً وتقريعاً من جهةِ الزبانيةِ ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فذوقُوا عذابَهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(173/807)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ﴿ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجِّينٍ ﴾ الخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق وكتاب قيل بمعنى مكتوب أي ما يكتب من أعمال الفجار لفي الخ وقلي مصدر بمعنى الكتابة وفي

الكلام مضاف مقدر أي كتابة عمل الفجار ﴿ لَفِى ﴾ الخ والمراد بالفجار هنا على ما قال أبو حيان الكفار وعلى ما قال غير واحد ما يعمهم والفسقة فيدخل فيهم المطففون وسجين قيل صفة كسكير واختار غير واحد أنه علم لكتاب جامع وهو ديوان الشر دون فيه أعمال الفجرة من الثقلين كما قال تعالى :

(174/807)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ فإن الظاهر أن كتاب بدل من سجين أو خبر مبتدا محذوف هو ضمير راجع إليه أي هو كتاب وأصله وصف من السجن بفتح السين لقب به الكتاب لأنه سبب الحبس فهو في الأصل فعيل بمعنى فاعل أو لأنه ملقى كما قيل تحت الأرضين في مكان وحش كأنه مسجون فهو مبعنى مفعول ولا يلزم على جعله علماً لما ذكر كون الكتاب ظرفاً للكتاب لما سمعت من تفسير كتاب الفجار وعليه يكون الكتاب المذكور ظرفاً للعمل المكتوب فيه أو ظرفاً للكتابة وقيل الكتاب على ظاهره والكلام نظير أن تقول إن كتاب حساب القرية الفلانية في الدستور الفلاني لما يشتمل على حسابها وحساب أمثالها في أن الظرفية فيه من ظرفية الكل للجزء وعن الإمام لا استبعاد في أن يوضع أحدهما في الآخر حقيقة أو ينقل ما في أحدهما للآخر وعن أبي علي أن قوله تعالى :

﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ أي موضع كتاب فكتاب على ظاهره وسجين موضع عنده ويؤيده ما أخرج ابن جرير عن أبي هريرة مرفوعاً أن الفلق جب في جهنم مغطى وسجين جب فيها مفتوح وعليه يكون سجين لشر موضع في جهنم وجاء ف عدة آثار أنه موضع تحت الأرض السابعة ولا منافاة بين ذلك وبين الخبر المذكور بناء على القول بأن جهنم تحت الأرض وفي "الكشف" لا يبعد أن يكون سجين علم الكتاب وعلم الموضع أيضاً جمعاً بين ظاهر الآية وظواهر الأخبار وبعض من ذهب إلى أنه في الآية علم الموضع قال وما أدراك سجين على حذف مضاف أي وما أدراك ما كتاب سجين وقال ابن عطية من قال بذلك فكتاب عنده مرفوع على أنه خبر أن والظرف الذي هو ﴿ لَفِى سِجّينٍ ﴾ ملغى وتعقب بأن إلغاءه لا يتسنى إلا إذا كان معمولاً للخبر أعني كتاب أو لصفته أعني مرقوم وذلك لا يجوز لأن كتاب موصوف فلا يعمل ولأن مرقوم الذي هو صفته لا يجوز أن تدخل اللام في معموله ولا يجوز أن يتقدم معموله على الموصوف وفيه نظر وقيل كتاب خبر ثان لأن وقيل خبر مبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى كتاب

(175/807)

الفجار ومناط الفائدة الوصف والجملة في البين اعتراضية وكلا القولين خلاف الظاهر وعن عكرمة أن سجين عبارة عن الخسارة والهوان كما تقول بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول والكلام في ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ الخ عليه يعلم مما ذكرنا وهذا خلاف المشهور وزعم بعض اللغويين أن نونه بدل من لام وأصله سجيل فهو كجبرين في جبريل فليش مشتقاً من السجن أصلاً ومرقوم من رقم الكتاب إذا أعجمه وبينه لئلا يلغو أي كتاب بين الكتابة أو من رقم الكتاب إذا جعله له رقماً أي علامة أي كتاب معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه وقال ابن عباس والضحاك مرقوم مختوم بلغة حمير وذكر بعضهم أنه يقال رقم الكتاب بمعنى ختمه ولم يخصه بلغة دون لغة وفي "البحر" مرقوم أي مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحى وهو كما ترى وشاع الرقم في الكتابة قال أبو حيان وهو أصل معناه ومنه قول الشاعر

: سأرقم في الماء القراح إليكم . . .

على بعدكم إن كان للماء راقم

وأما الرقم المعروف عند أهل الحساب فالظاهر أنه بمعنى العلامة وخص بعلامة العدد فيما بينهم وقوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ متصل بقوله تعالى ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [المطففين : 6] وما بينهما اعتراض والمراد للمكذبين بذلك اليوم فقوله تعالى :

﴿ الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ أما مجرور على أنه صفة ذامة للمكذبين أو بدل منه أو

مرفوع أو منصوب على الذم وجوز أن يكون صفة كاشفة موضحة وقيل هو صفة مخصصة فارقة على أن المراد المكذبين بالحق والأول أظهر لأن قوله تعالى :

(176/807)

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ الخ يدل على أن القصد إلى المذمة أي وما يذكب بيوم الدين الأكل متجاوز حدود النظر والاعتبار غال في التقليد حتى جعل قدرة الله تعالى قاصرة عن الإعادة وعلمه سبحانه قاصراً عنمعرفة الأجزاء المتفرقة التي لا بد في الإعادة منها فعد الإعادة محالة عليه عز وجل ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي كثير الآثام منهمك في الشهوات المخدجة الفانية بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية وحملته على إنكارها .

﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا ﴾ الناطقة بذلك ﴿ قَالَ ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق الذي لا محيد عنه ﴿ أساطير الاولين ﴾ أي هي حكايات الأولين يعني هي أباطيل جاء بها الأولون وطال أمد الأخبار بها ولم يظهر صدقها أو أباطيل ألقيت على آبائنا الأولين وكذبوها ولسنا أول مكذب بها حتى يكون التكذيب منا عجلة وخروجاً عن طريق الحزم والاحتياط والأول أظهر والآية قيل نزلت في النضر بن الحرث وعن الكلبي أنها نزلت في

الوليد بن المغيرة وأياً ما كان فالكلام على العموم وقرأ أبو حيوة وابن مقسم إذا يتلى بتذكير الفعل وقرىء إذا تتلى على الاستفهام الإنكاري .

(177/807)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه وقوله عز وجل ﴿ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بيان لما أدى بهم إلى التفوه بتلك العظيمة أي ليس في آياتنا ما يصحح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما استمروا على اكتسابه من الكفر والمعاصي حتى صار كالصدا في المرآة فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق فلذلك قالوا ما قالوا والرين في الأصل الصدأ يقال ﴿ رَانَ ﴾ عليه الذنب وغان عليه رينا وغنياً ويقال ﴿ رَانَ ﴾ فيه النوم أي رسخ فيه وفي "البحر" أصل الرين الغلبة يقال رانت الخمر على عقل شاربها أي غلبت وران الغشي على عقل المريض أي غلب وقال أبو زيد يقال رين بالرجل يران به رينا إذا وقع فيما لا يستطيع منه الخروج وأريد به حب المعاصي الراسخ بجامع أنه كالصدا المسود للمرآة والفضة مثلاً المغير عن الحالة الأصلية وأخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن العبد إذا أذنب ذنباً

نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى في القرآن كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون " وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه قال كانوا يرون أن الرين هو الطبع وذكروا له أسباباً وفي حديث أخرجه عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبي المجبر أنه عليه الصلاة والسلام قال " أربع خصال مفسدة للقلوب مجاراة الأحمق فإن جاريته كنت مثله وإن سكت عنه سلمت منه وكثرة الذنوب مفسدة للقلوب وقد قال الله تعالى بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون والخلوة بالنساء والاستمتاع بهن والعمل برأيهن ومجالسة الموتى قيل يا رسول الله من هم قال كل غني قد أبطره غناه " وقرىء بإذغام اللام في الراء وقال أبو جعفر بن الباذش أجمعوا يعني القراء على

(178/807)

إدغام اللام في الراء إلا ما كان من وقف حفص على بل وقفاً خفيفاً يسيراً لتبيين الإطهار وليس كما قال من الإجماع ففي "اللوامح" عن قالون من جميع طرقه إظهار اللام عند الراء نحو قوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : 158] ﴿ بل ربكم ﴾ [الأنبياء : 56] وفي كتاب ابن عطية وقرأ نافع بل ران غير مدغم وفيه أيضاً وقرأ نافع أيضاً بالإذغام

والإمالة وقال سيبويه في اللام مع الراء نحو أشغل رحمه البيان والإدغام حسنان وقال أيضاً فإذا كانت يعني اللام غير لام التعريف نحو لام هل وبل فإن الإدغام أحسن فإن لم تدغم فهي لغة لأهل الحجاز وهي عربية جائزة وفي "الكشاف" قرىء بادغام اللام في الراء وبالإظهار والإدغام أجود وأميلت الألف وفحمت فليحفظ .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر عن الكسب الرائن أو بمعنى حقاً ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي هؤلاء المكذبين ﴿ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ لا يرونه سبحانه وهو عز وجل حاضر ناظر لهم بخلاف المؤمنين فالحجاب مجاز عن عدم الرؤية لأن المحجوب لا يرى ما حجب أو الحجب المنع والكلام على حذف مضاف أي عن رؤية ربهم لممنوعون فلا يرونه سبحانه واحتج بالآية مالك على رؤية المؤمنين له تعالى من جهة دليل الخطاب وإلا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص وقال الشافعي لما حجب سبحانه قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا وقال أنس بن مالك لما حجب عز وجل أعداءه سبحانه فلم يروه تجلى جل شأنه لأوليائه حتى رأوه عز وجل ومن أنكر رؤيته تعالى كالمعتزلة قال إن الكلام تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم كما قال :

إذا اعتروا باب ذي عبية رجبوا . . .

والناس من بين مرجوب ومحجوب

أو هو بتقدير مضاف أي عن رحمة ربهم مثلاً لمحجوبون وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد تقدير ذلك وعن ابن كيسان تقدير الكرامة لكنهم أرادوا عموم المقدر لرؤية وغيرها من ألطافه تعالى والجار والمجرور متعلق بمحجوبون وهو العامل في يومئذ والتنوين فيه تنوين عوض والمعوض عنه هنا ﴿ يقوم الناس ﴾ [المطففين : 6] السابق كأنه قيل إنهم لمحجوبون عن ربهم يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ مقاسو حرها على ما قال الخليل وقيل داخلون فيها وثم قيل لتراخي الرتبة لكن بناء على ما عندهم فإن صلى الجحيم عندهم أشد من حجابهم عن ربهم عز وجل وأما عند المؤمنين لا سيما الواهين به سبحانه منهم فإن الحجاب عذاب لا يدانيه عذاب .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ لهم تقريعاً وتوبيخاً من جهة الخزنة أو أهل الجنة ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ فذوقوا عذابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

ويل مبتدأ ، وسوّغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز .

قال مكي والمختار : في ويل ، وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافاً أو معرّفاً كان الاختيار فيه النصب نحو قوله : ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا ﴾ [طه : 61] و ﴿ للمطففين ﴾ خبره ، والمطفف : المنقص ، وحقيقته الأخذ في الكيل ، أو الوزن شيئاً طفيفاً أي : نزراً حقيراً .

قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو القليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن .

قال الزجاج : إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف ، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف .

قال أبو عبيدة ، والمبرد : المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن ، والمراد بالويل هنا شدّة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشرّ الشديد ، أو هو واد في جهنم .

قال الكلبي : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يسيئون كيلهم ، ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فنزلت هذه الآية .

وقال السديّ : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان بها رجل يقال له أبو

جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية .

قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً إلى يومهم هذا .

ثم بيّن سبحانه المطففين من هم ؟ فقال : ﴿ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي : يستوفون الاكتيال ، والأخذ بالكيل .

قال الفرّاء : يريد اكتالوا من الناس ، وعلى ومن في هذا الموضع يعتقبان ، يقال : اكتلت منك أي : استوفيت منك ، وتقول : اكتلت عليك أي : أخذت ما عليك .

قال الزجاج : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اتزنوا ؛ لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع ، فأحدهما يدل على الآخر .

(181/807)

قال الواحدي : قال المفسرون : يعني : الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أي : كالوا لهم ، أو وزنوا لهم ، فحذفت اللام فتعدّى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال ، ومثله : نصحتك ، ونصحت لك ، كذا قال الأخفش ، والكسائي ، والفرّاء .

قال الفرّاء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر ، فيكيلنا المدّ والمدّين إلى الموسم المقبل .

قال : وهو من كلام أهل الحجاز ، ومن جاورهم من قيس .

قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيداً أي : توكيداً للضمير المستكنّ في الفعل ، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا ، قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا ، ثم يقول : هم يخسرون .

قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك .

قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما الخط ، ولذلك كتبوها بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف .

والأخرى أنه يقال : كلتك ، ووزنتك بمعنى : كلت لك ، ووزنت لك ، وهو كلام عربيّ ؛ كما يقال صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك ، وشكرتك وشكرت لك ، ونحو ذلك .

وقيل : هو على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون أي : وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم ، ومعنى ﴿ يخسرون ﴾ : ينقصون كقوله : ﴿ وَلَا تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [الرحمن : 9] والعرب تقول : خسرت الميزان ، وأخسرته .

ثم خوّفهم سبحانه فقال : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ والجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف ، وتفظيعه ، وللتعجيب من حالهم في الاجتراء عليه ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المطففين ، والمعنى : أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون ، فمسؤولون عما يفعلون .

قيل : والظنّ هنا بمعنى اليقين أي : لا يوقن أولئك ، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن ، وقيل : الظنّ على بابه ، والمعنى : إن كانوا لا يستيقنون البعث ، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ، ويبحثوا عنه ، ويتركوا ما يخشون من عاقبته .

واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم ، لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ، ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ انتصاب الظرف ب ﴿ مبعوثون ﴾ المذكور قبله ، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون .

أي : يبعثون يوم يقوم الناس ، أو على البدل من محل ليوم ، أو بإضمار أعني ، أو هو في محلّ رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو في محلّ جرّ على البدل من لفظ ليوم ، وإنما بني على الفتح في هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل .

قال الزجاج : ﴿ يوم ﴾ منصوب بقوله : ﴿ مبعوثون ﴾ ، المعنى : ألا يظنون أنهم يبعثون

يوم القيامة ؟ ومعنى ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ : يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين ، أو لجزائه ، أو لحسابه ، أو لحكمه وقضائه .

وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ، ومزيد إثمه ، وفظاعة عقابه .

وقيل المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس ﴾ قيامهم في رشحهم إلى أنصاف آذانهم ، وقيل : المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد ، وقيل : المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء ، والأوّل أولى .

(183/807)

قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ هي : للردع ، والزجر للمطففين الغافلين عن البعث ، وما بعده .

ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجّينٍ ﴾ وعند أبي حاتم أن ﴿ كلا ﴾ بمعنى : حقاً متصلة بما بعدها على معنى : حقاً إن كتاب الفجار لفي سجين ، وسجين هو ما فسره به سبحانه من قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجّينٌ * كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم أي : مسطور ، قيل : هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم له .

وقال قتادة ، وسعيد بن جبير ، ومقاتل ، وكعب : إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب ، فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وبه قال مجاهد ، فيكون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير : محل كتاب مرقوم .

وقال أبو عبيدة ، والأخفش ، والمبرد ، والزجاج ﴿ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ : لفي حبس وضيق شديد ، والمعنى : كأنهم في حبس ، جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم وهوانها .

قال الواحدي : ذكر قوم أن قوله : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ تفسير لسجين ، وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بياناً لكتاب المذكور في قوله : ﴿ إِنَّ كتاب الفجار ﴾ على تقدير هو كتاب مرقوم أي : مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أي : ما يكتب من أعمالهم ، أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله ، وتعظيمه ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ثم بيّنه بقوله : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ .

قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك .

قال قتادة : ومعنى ﴿ مرقوم ﴾ : رقم لهم بشرّ كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر .

وكذا قال مقاتل .

(184/807)

وقد اختلفوا في نون سجين ، فقيل : هي أصلية ، واشتقاقه من السجن ، وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير ، وسكير ، وفسيق من الخمر والسكر والفسق .

وكذا قال أبو عبيدة ، والمبرد ، والزجاج .

قال الواحدي : وهذا ضعيف ؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً .

ويجاب عنه : بأنه رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة ، وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية . . . ضرباً تواصت به الأبطال سجينا

وقيل : النون بدل من اللام ، والأصل سجيل ، مشتقاً من السجل ، وهو الكتاب .

قال ابن عطية : من قال : إن سجيناً موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن ، والظرف وهو قوله : ﴿ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب ، فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسراً لسجين ما هو ؟ كذا قال .

قال الضحاك : مرقوم مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة .

قال الشاعر :

سأرقم بالماء القراح إليكم . . . على بعدكم إن كان للماء راقم

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث ، وبما جاءت به الرسل .

ثم بيّن سبحانه هؤلاء المكذبين فقال : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ والموصول صفة للمكذبين ، أو بدل منه ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : فاجر جائر متجاوز في الإثم منهمك في أسبابه .

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : أحاديثهم وأباطيلهم التي زخرفوها .

قرأ الجمهور ﴿ إذا تتلى ﴾ بفوقيتين .

وقرأ أبو حيوة ، وأبو السماك ، والأشهب العقيلي ، والسلمي بالتحتية ، وقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ للردع ، والزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل ، وتكذيب له ، وقوله : ﴿ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأوّلين .

قال أبو عبيدة : ران على قلوبهم : غلب عليها ريناً ، وريوناً ، وكل ما غلبك ، وعلاك فقد ران بك ، وران عليك .

قال الفرّاء : هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب ، فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها .

قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب .

قال مجاهد : القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض ، وضم إصبعه ، فإذا أذنب ذنباً آخر انقبض ، وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه .

قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين .

ثم قرأ هذه الآية .

قال أبو زيد : يقال قد رين بالرجل ريناً : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ، ولا قبل له به .

وقال أبو معاذ النحوي : الرين أن يسودّ القلب من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب ، وهو أشدّ من الرين ، والإقفال أشدّ من الطبع .

قال الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين .

ثم كرّر سبحانه الردع ، والزجر فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ وقيل : كلا بمعنى حقاً أي : حقاً إنهم ، يعني : الكفار عن ربهم يوم القيامة لا يرونه أبداً .

قال مقاتل : يعني : أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم .

قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

قال الزجاج : في هذه الآية دليل على أنّ الله عزّ وجلّ يرى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة .

(186/807)

وقال جلّ ثناؤه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23]

فأعلم جلّ ثناؤه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه .

وقيل : هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك .

وقال قتادة ، وابن أبي مليكة : هو أن لا ينظر إليهم برحمته ، ولا يزكيهم .

وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾

أي : داخلو النار ، وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخي الرتبة ؛ لأن صلي الجحيم

أشدّ من الإهانة ، وحرمان الكرامة .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : تقول لهم خزنة جهنم تبكيتاً وتوبيخاً : هذا الذي كنتم به تكذبون في الدنيا ، فانظروه وذوقوه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات ، وأخذوا بالسنين "

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عمر : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناسِ لِرَبِّ العالمين ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه "

وأخرج الطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناسِ لِرَبِّ العالمين ﴾ قال : " فكيف إذا جمعكم الله ، كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم " وأخرج أبو يعلى ، وابن حبان ، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناسِ لِرَبِّ العالمين ﴾ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً .

وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعاً .

وأخرج الطبراني عن ابن عمر أنه قال : يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي ربّ العالمين يوم القيامة ؟ قال : " ألف سنة لا يؤذن لهم " وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء ، فتأبى السماء أن تقبلها ، فيهبط بها إلى الأرض ، فتأبى أن تقبلها ، فيدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين ، وهو خدّ إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ، ويوضع تحت خد إبليس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ سِجِّينٍ ﴾ : أسفل الأرضين .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبيّ قال : " الفلق جب في جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح " قال ابن كثير : هو حديث غريب منكر لا يصحّ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ سِجِّينٍ ﴾ الأرض السابعة السفلى " وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن ماجه ، والطبراني ، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن كعب

بن مالك قال : لما حضرت كعباً الوفاة أتته أمّ بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابني ، فأقرئه مني السلام ، فقال : غفر الله لك يا أمّ بشر نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حين شاءت ، وإن نسمة الكافر في سجين ؟ " قال : بلى ، قالت : فهو ذلك .

وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان .

(188/807)

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 397 . 401 ﴾

(189/807)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) ﴾

إبطال وردع لما تضمنته جملة : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ [المطففين : 4] من التعجيب من فعلهم التطفيف ، والمعنى : كلا بل هم مبعوثون لذلك اليوم العظيم ولتلقي قضاء رب العالمين فهي جواب عما تقدم .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كتاب ﴾ .

استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر يوم القيامة .

وهو تعريض بالتهديد للمطففين بأن يكون عملهم موجباً كَتْبه في كتاب الفجار .

و﴿ الفجار ﴾ غلب على المشركين ومن عسى أن يكون متلبساً بالتطفيف بعد سماع النهي عنه من المسلمين الذي ربما كان بعضهم يفعله في الجاهلية .

والتعريف في ﴿ الفجار ﴾ للجنس مراد به الاستغراق ، أي جميع المشركين فيعم المطففين وغير المطففين ، فوصف الفجار هنا نظير ما في قوله : ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 42] .

وشمول عموم الفجار لجميع المشركين المطففين منهم وغير المطففين يُعنى به أن المطففين منهم المقصود الأول من هذا العموم ، لأن ذكر هذا الوصف والوعيد عليه عقب كلمة الردع عن

أعمال المطففين قرينة على أن الوعيد موجّه إليهم .

و"الكتابُ" المكتوبُ ، أي الصحيفة وهو هنا يحتمل شيئاً تحصى فيه الأعمال ، ويحتمل أن يكون كناية عن إحصاء أعمالهم وتوقيفهم عليها ، وكذلك يَجري على الوجهين قولُه : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ وتقدمت نظائره غير مرة .

و﴿ سجين ﴾ حروف مادته من حروف العربية ، وصيغته من الصيغ العربية ، فهو لفظ عربي ، ومن زعم أنه معرّب فقد أغرب .

روي عن الأصمعي : أن العرب استعملوا سجين عوضاً عن سلْتِين ، وسلتين كلمة غير عربية .

(190/807)

ونون ﴿ سجين ﴾ أصلية وليست مبدلة عن اللام ، وقد اختلف في معناه على أقوال أشهرها وأولاها أنه عَلَم لواد في جهنم ، صيغ بزنة فِعّيل من مادة السجن للمبالغة مثل : الملك الضِّليل ، ورجل سِكّير ، وطعام حِرّيف (شديد الحرافة وهي لذع اللسان) سمي ذلك المكان سجيناً لأنه أشدّ الحَبْس لمن فيه فلا يفارقه وهذا الاسم من مصطلحات القرآن لا يعرف في كلام العرب من قبل ولكن مادته وصيغته موضوعتان في العربية وضعاً

نوعياً .

وقد سمع العرب هذا الاسم ولم يطعنوا في عربيته .

ومحمل قوله : ﴿ لفي سجين ﴾ إن كان على ظاهر الظرفية كان المعنى أن كتب أعمال الفجار مودعة في مكان اسمه ﴿ سجين ﴾ أو وصفه ﴿ سجين ﴾ وذلك يؤذن بتحقيره ، أي تحقير ما احتوى عليه من أعمالهم المكتوبة فيه ، وعلى هذا حمله كثير من المتقدمين ، وروى الطبري بسنده حديثاً مرفوعاً يؤيد ذلك لكنه حديث منكر لاشتمال سنده على مجاهيل .

وإن حُملت الظرفيةُ في قوله : ﴿ لفي سجين ﴾ على غير ظاهرها ، فجَعْل كتاب الفجّار مظروفاً في ﴿ سجين ﴾ مجاز عن جعل الأعمال المحصاة فيه في سجّين ، وذلك كناية رمزية عن كون الفجار في سجّين .

وجملة ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ معترضة بين جملة : ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ وجملة ﴿ كتاب مرقوم ﴾ وهو تهويل لأمر السجّين تهويل تفظيع لحال الواقعين فيه وتقدم ﴿ ما أدراك ﴾ في سورة الانفطار (17) .

وقوله : كتاب مرقوم ﴾ خبر عن ضمير محذوف يعود إلى ﴿ كتاب الفجار ﴾ والتقدير هو أي كتاب الفجار كتاب مرقوم ، وهذا من حذف المسند إليه الذي اتُّبع في حذفه استعمالُ العرب إذا تحدثوا عن شيء ثم أرادوا الإخبار عنه بخبر جديد .

والمرقوم : المكتوب كتابةً بينة تشبه الرقم في الثوب المنسوج .

وهذا الوصف يفيد تأكيد ما يفيده لفظ ﴿ كتاب ﴾ سواء كان اللفظ حقيقة أو مجازاً .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11)

(191/807)

جملة : ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ يجوز أن تكون مبينة لمضموم جملة : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ [المطففين : 4 ، 5] فإن قوله : ﴿ يومئذ ﴾ يفيد تنوينُه جملةً محذوفة جعل التنوين عوضاً عنها تقديرها : يومَ إذ يقوم الناس لرب العالمين ويل فيه للمكذبين .

ويجوز أن تكون ابتدائيّة وبَيْن المكذبين بيوم الدين والمطففين عموم وخصوص وجهي فمن المكذبين من هم مطففون ومن المطففين مسلمون وأهل كتاب لا يكذبون بيوم الدين ، فتكون هذه الجملة إدماجاً لتهديد المشركين المكذبين بيوم الدين وإن لم يكونوا من المطففين .

وقد ذُكر المكذبون مجملاً في قوله : ﴿ للمكذبين ﴾ ثم أعيد مفصلاً ببيان متعلق التكذيب ، وهو ﴿ بيوم الدين ﴾ لزيادة تقرير تكذيبهم أذهان السامعين منهم ومن غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب ، فالصفة هنا للتهديد وتحذير المطففين المسلمين من أن

يستخفوا بالتطفيف فيكونوا بمنزلة المكذبين بالجزاء عليه .

ومعنى التكذيب ب"يوم الدين" التكذيب بوقوعه .

فالتكذيب بيوم الجزاء هو منشأ الإقدام على السيئات والجرائم ، ولذلك أعقبه بقوله : ﴿ وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ أي أن تكذيبهم به جهل بحكمة الله تعالى في خلق الناس وتكليفهم إذ الحكمة من خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم وحفظ نظامهم .

فلذلك جاءتهم الشرائع آمرة بالصلاح وناهية عن الفساد .

ورتب لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة ، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة .

كل على حسب عمله : فلو أهمل الخالق تقويم مخلوقاته وأهمل جزاء الصالحين والمفسدين ، لم يكن ذلك من حكمة الخلق قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى اللَّه الملك الحق ﴾ [المؤمنون : 115 ، 116] .

وقد ذكر للمكذبين بيوم الدين ثلاثة أوصاف وهي : معتد ، أثيم ، يقول إن الآيات أساطير الأولين .

والاعتداء : الظلم ، والمعتدي : المشرك والكافر بما جاءه من الشرائع لأنهم اعتدوا على الله بالإشراك ، وعلى رسله بالتكذيب ، واعتدوا على دلائل الحق فلم ينظروا فيها أو لم يعملوا بها .

والأثيم : مبالغة في الآثِم ، أي كثير الإثم .

وصيغة القصر من النفي والاستثناء تفيد قصر صفة التكذيب بيوم الدين على المعتدين الآثمين الزاعمين القرآن أساطير الأولين .

فهو قصر صفة على موصوف وهو قصر حقيقي لأن يوم الدين لا يكذب به إلا غير المتدينين المشركون والوثنيون وأضرابهم ممن جمع الأوصاف الثلاثة ، وأعظمها التكذيب بالقرآن فإن أهل الكتاب والصابئة لا يكذبون بيوم الدين ، وكثير من أهل الشرك لا يكذبون بيوم الدين مثل أصحاب ديانة القبط .

فالذين يكذبون بيوم الدين هم مشركو العرب ومن شابههم مثل الدّهريين فإنهم تحققت فيهم الصفتان الأولى والثانية وهي الاعتداء والإثم وهو ظاهر ، وأما زعم القرآن أساطيرَ الأولين فهو مقالة المشركين من العرب وهم المقصود ابتداء وأما غيرهم ممن لم يؤثر عنهم هذا القول فهم متهيئون لأن يقولوه ، أو يقولوا ما يساويه أو يَؤُول إليه ، لأن من لم يعرض عليهم القرآنُ منهم لو عرض عليه القرآن لكذَّب به تكذيباً يساوي اعتقاد أنه من وضع البشر ، فهؤلاء وإن لم

يقولوا القرآن أساطير الأولين فظنهم في القرآن يساوي ظن المشركين فنزلوا منزلة من يقوله .

ولك أن تجعل القصر ادعائياً ولا تلتفت إلى تنزيل من لم يقل ذلك في القرآن .

ومعنى الادعاء أن من لم يُؤثَر عنهم القول في القرآن بأنه أساطير الأولين قد جعل تكذيبهم بيوم الدين كَلا تكذيبٍ مبالغة في إبطال تكذيب المشركين بيوم الدين .

وجملة : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ صفة لمعتد أو حال منه .

والآيات هنا القرآن وأجزاؤه لأنّها التي تُتْلَى وتُقرأ .

(193/807)

والأساطير : جمع أسطورة وهي القصة ، والأكثر أن يراد القصة المخترعة التي لم تقع وكان المشركون يُنَظِّرون قِصص القرآن بقصة رُستم ، وإسفنديار ، عند الفرس ، ولعل الكلمة معربة عن الرومية ، وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ في سورة الأنعام (25) .

والمراد بالأولين الأمم السابقة لأن الأول يطلق على السابق على وجه التشبيه بأنه أول بالنسبة إلى ثان بعده وإن كان هو قد سبقتْه أجيال ، وقد كان المشركون يصفون القرآن بذلك لِمَا سمعوا فيه من القصص التي سيقت إليهم مساق الموعظة والاعتبار ، فحسبوها

من قصص الأسمار .

واقتصروا على ذلك دون ما في أكثر القرآن من الحقائق العالية والحكمة ، بهتاناً منهم .

وممن كانوا يقولون ذلك النضر بن الحارث وكان قد كتب قصة رستم وقصة إسفنديار وجدها في الحِيرَة فكان يحدث بها في مكة ويقول : أنا أحسن حديثاً من محمد فإنما يحدثكم بأساطير الأولين .

وليس المراد في الآية خصوصه لأن كلمة كل معتد ﴾ ظاهر في عدم التخصيص .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

اعتراض بالردع وبيان له ، لأن ﴿ كلاّ ﴾ ردع لقولهم أساطير الأولين ، أي أن قولهم باطل .

وحرف ﴿ بل ﴾ للإبطال تأكيداً لمضمون ﴿ كلاّ ﴾ وبياناً وكشفاً لما حملهم على أن يقولوا في القرآن ما قالوا وأنه ما أعمى بصائرَهم من الرّين .

والرّين : الصدأ الذي يعلو حديدَ السيف والمِرآة ، ويقال في مصدر الرَّين الرانُ مثل العيب والعَاب ، والذيْم والذام .

وأصل فعله أن يسند إلى الشيء الذي أصابه الرَّيْن ، فيقال : ران السيف وران الثوب ، إذا أصابه الرَّيْن ، أي صار ذا رين ، ولما فيه من معنى التغطئة أطلق على التغطية فجاء منه فعل ران بمعنى غشي ، فقالوا : ران النعاس على فلان ، ورانت الخمر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ران على قلوبهم ﴾ هو من باب رَان الرينُ على السيف ، وليس من باب رانَ السيفُ ، ومن استعمال القرآن هذا الفعل صار الناس يقولون : رِين على قلب فلان وفلان مَرينٌ على قلبه .

والمعنى : غَطَّت على قلوبهم أعمالهم أن يدخلها فهمُ القرآن والبونِ الشاسِع بينه وبين أساطير الأولين .

وقرأ الجمهور بإدغام اللام في الراء بعد قلبها راء لتقارب مخرجيها .

وقرأه عاصم بالوقف على لام (بل) والابتداء بكلمة ران تجنباً للإدغام .

وقرأه حفص بسكتة خفيفة على لام ﴿ بل ﴾ ليبين أنها لام .

قال في "اللسان" : إظهار اللام لغة لأهل الحجاز .

قال سيبويه : هما حسنان ، وقال الزجاج : الإِدغام أرجح .

والقلوب : العقول ومَحالُّ الإِدراك .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ختم اللَّه على قلوبهم ﴾ في سورة البقرة (7) .

ومن كلام رعاة الأعراب يخاطبون إبلهم في زمن شدة البرد إذا أوردوها الماءَ فاشمأزت منه

لبرده بَرِّديهِ تَجديه سَخيناً أي بَلْ رديه وذلك من المُلَح الشبيهة بالمعاياة إذ في ظاهره طلب تبريده وأنه بالتبريد يوجد سخيناً .

وما كانوا يكسبون ﴾ ما عملوه سالفاً من سيئات أعمالهم وجماحهم عن التدبر في الآيات حتى صار الإعراض والعناد خُلُقاً متأصلاً فيهم فلا تفهم عقولهم دلالة الأدلة على مدلولاتها .

روى الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نُكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صُقِلَ قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو الران الذي ذكر الله في كتابه : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ " قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

(195/807)

ومجيء ﴿ يكسبون ﴾ بصيغة المضارع دون الماضي لإفادة تكرر ذلك الكسب وتعدده في الماضي .

وفي ذكر فعل ﴿ كانوا ﴾ دون أن يقال : ما يكسبون ، إشارة إلى أن المراد : ما كسبوه في أعمارهم من الإشراك قبل مجيء الإسلام فإنهم وإن لم يكونوا مناط تكليف أيامئذ .

فهم مخالفون لما جاءت به الشرائع السالفة وتواتر وشاع في الأمم من الدعوة إلى توحيد الله بالإلهية على قول الأشعري وأهل السنة في توجيه مؤاخذة أهل الفترة بذنب الإشراك بالله حسبما اقتضته الأدلة من الكتاب والسنة أو مخالفون لمقتضى دلالة العقل الواضحة على قول الماتريدي والمعتزلة ولحق بذلك ما اكتسبوه من وقت مجيء الإسلام إلى أن نزلت هذه السورة فهي مدة ليست بالقصيرة .

و﴿ كلاّ ﴾ الثانية تأكيد ل ﴿ كلا ﴾ الأولى زيادة في الردع ليصير توبيخاً .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ ﴿ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الجحيم * ثُمَّ يُقَالُ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ ﴾ .

جملة : ﴿ إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ وما عطف عليها ابتدائية وقد اشتملت الجملة ومعطوفاها على أنواع ثلاثة من الويل وهي الإهانة ، والعذاب ، والتقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب .

فأما الإهانة فحجْبُهم عن ربهم ، والحجب هو الستر ، ويستعمل في المنع من الحضور لدى الملك ولدى سيد القوم ، قال الشاعر الذي لم يسمّ وهو من شواهد "الكشاف" :

إذا اعتروا باب ذي عُبّيَّه رجبوا

والناسُ من بين مَرجوب ومَحْجوب . . .

وكلا المعنيين مراد هنا لأن المكذبين بيوم الدين لا يرون الله يوم القيامة حين يراه أهل الإيمان .

(196/807)

ويوضح هذا المعنى قوله في حكاية أحوال الأبرار : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ [المطففين : 23] وكذلك أيضاً لا يدخلون حضرة القدس قال تعالى : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ [الأعراف : 40] ، وليكون الكلام مفيداً للمعنيين قيل : "عن ربهم لمحجوبون" دون أن يقال : عن رؤية ربهم ، أو عن وجه ربهم كما قال في آية آل عمران (77) : ﴿ ولا ينظر إليهم يوم القيامة .

﴿ وأما العذاب فهو ما في قوله : ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ .

وقد عطفت جملته بحرف ﴿ ثم ﴾ الدالة في عطفها الجُملَ على التراخي الرتبي وهو ارتقاء في الوعيد لأنه وعيد بأنهم من أهل النار وذلك أشد من خزي الإهانة .

و"صالوا" جمع صال وهو الذي مسه حر النار ، وتقدم في آخر سورة الانفطار .

والمعنى : أنهم سيصلون عذاب جهنم .

وأما التقريع مع التأييس من التخفيف فهو مضمون جملة : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به

تكذبون ﴾ فعطف الجملة بحرف ﴿ ثم ﴾ اقتضى تراخي مضمون الجملة على مضمون التي قبلها ، أي بُعد درجته في الغرض المسوق له الكلام .

واقتضى اسم الإِشارة أنهم صاروا إلى العذاب ، والإِخبار عن العذاب بأنه الذي كانوا به يكذبون يفيد أنه العذاب الذي تكرر وعيدهم به وهم يكذّبونه ، وذلك هو الخلود وهو درجة أشد في الوعيد ، وبذلك كان مضمون الجملة أرقى رتبة في الغرض من مضمون الجملة المعطوفة هي عليها .

أو يكون قوله : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ إشارة إلى جواب مالك خازن جهنم المذكور في قوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾

[الزخرف : 77 ، 78] فطوي سؤالهم واقتصر على جواب مالك خازن جهنم اعتماداً على قرينة عطف جملة هذا المقال بـ ﴿ ثم ﴾ الدالة على التراخي .

وبني فعل ﴿ يقال ﴾ للمجهول لعدم تعلق الغرض بمعرفة القائل والمقصد هو القول .

وجيء باسم الموصول ليُذكَّروا تكذيبهم به في الدنيا تنديماً لهم وتحزيناً .

وتقديم ﴿ به ﴾ على ﴿ تكذبون ﴾ للاهتمام بمعاد الضمير مع الرعاية على الفاصلة

والباء لتعدية فعل ﴿ تكذبون ﴾ إلى تفرقة بين تعديته إلى الشخص الكاذب فيعدّى

بنفسه وبين تعديته إلى الخبر المكذَّب فيعدّى بالباء .

ولعل أصلها باء السببية والمفعول محذوف ، أي كذب بسببه من أخبره به ، ولذلك قدره

بعض المفسرين : هذا الذي كنتم به تكذبون رسل الله في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(198/807)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾

قال بعض السلف في قوله تعالى كلا بل ران ! على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال هو الذنب

بعد الذنب وقال الحسن هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب وقال غيره لما كثرت

ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم وأصل هذا أن القلب يصدي من المعصية فاذا زادت

غلب الصدي حتي يصير رانا ثم يغلب حتي يصير طبعا وقفلا وختما فيصير القلب في غشاوة وغلاف فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواب الكافى صـ 68 ﴾

(199/807)

وقال أيضا :

وأما الران فقد قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال أبو عبيدة غلب عليها والخمر ترين على عقل السكران والموت يرون على الميت فيذهب به ومن هذا حديث اسيفع جهينة وقول عمر فأصبح قد رين به أي غلب عليه وأحاط به الرين وقال أبو معاذ النحوي الرين أن يسود القلب من الذنوب والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرين والإقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب وقال الفراء كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها وقال أبو إسحاق ران غطى يقال ران على قلبه الذنب يرين رينا أي غشيه قال والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين قلت أخطأ أبو إسحاق فالغين ألطف شيء وأرقه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه

ليغان على قلبي وأني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها وقال مجاهد هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب وقال مقاتل غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال عبد الله بن مسعود كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم رينا على قلوبهم فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم فهو خالق السبب ومسببه لكن السبب باختيار العبد والمسبب خارج عن قدرته واختياره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ شفاء العليل صـ 200 . 201 ﴾

(200/807)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ

(23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ربما أفهم أنهم يرون جميع عذابهم إذ ذاك ، نفاه بقوله : ﴿ كلا ﴾ أي ليس هو المجموع بل هو فرد من الجنس فلهذا عمل عليه الجنس وهو نزلهم والأمر أطم وأعظم من أن يحيط به الوصف .

(201/807)

ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب الذي جره إليهم إقبالهم على الدنيا بادئاً به لأن المقام من أول السورة للوعيد وصوادع التهديد ، أتبعه ما للمصدقين الذين أقبل بهم إلى السعادة ترك الحظوظ وإعراضهم عن عاجل شهوات الدنيا ، فقال مؤكداً لأجل تكذيبهم : ﴿ إن كتاب الأبرار ﴾ أي صحيفة حسنات الذين هم في غاية الاتساع في شرح صدورهم ، واتساع عقولهم وكثرة أعمالهم وزكائها وغير ذلك من محاسن أمورهم ﴿ لفي عليّين ﴾ أي أماكن

منسوبة إلى العلو ، وقع النسب أولاً إلى فعليّ ثم جمع وإن كان لا واحد له من لفظه كعشرين وأخواته ، قال الكسائي : إذا جمعت العرب ما لا يذهبون فيه إلى أن له بناء من واحد واثنين فإنهم يجمعون بالواو والنون في المذكر والمؤنث – انتهى ، فهي درجات متصاعدة تصعد إلى الله ولا تحجب عنه كما يحجب ما للأشقياء بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له بحسب رتب الأعمال ، وكل من كان كتابه من الأبرار في مكان لحق به كما أن من كان كتابه من الفجار في سجين لحق به ، قال الرازي في اللوامع : من ترقى علمه عن الحواس والأوهام وفعله عن مقتضى الشهوة والغضب فهو حقيق بأن يكون عليّاً ، ومن كان علمه وإدراكه مقصوراً على الحواس والخيال والأوهام وفعله على مقتضى الشهوات البهيمية فهو حقيق بأن يكون في سجين .

ولما كان هذا أمراً عظيماً ، زاد في تعظيمه بقوله : ﴿ وما ﴾ أي وأي شيء ﴿ أدراك ﴾ أي جعلك دارياً وإن بالغت في الفحص ﴿ ما عليّون ﴾ فإن وصفه لا تسعه العقول ويلزمه لعلوه فضاء مطلق واتساع مبين .

ولما عظم المكان فعلمت عظمة الكتاب ، ابتدأ الإخبار عنه على سبيل القطع زيادة في عظمته فقال : ﴿ كتاب ﴾ أي عظيم ﴿ مرقوم ﴾ أي فيه أن فلاناً أمن من النار فيا له من رقم ما أحسنه وما أبهاه وما أجمله .

ولما عظمه في نفسه وفي مكانه ، عظمه في حضّاره فقال : ﴿ يشهده المقربون ﴾ أي يحضره حضوراً تاماً دائماً لا غيبة فيه الجماعة الذين يعرف كل أحد أنه ليس لهم عند كل من يعتبر تقريبه إلا التقريب من ابتدائه إلى انتهائه هم شهود هذا المسطور وهم الملائكة يشيعونه من سماء إلى سماء ويحفون به سروراً وتعظيماً لصاحبه ويشهده من في السماوات من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصديقين والشهداء والصالحين ، فالآية مع الأولى من الاحتباك : ذكر سجين أولاً دال على الاتساع ثانياً ، وذكر عليين والمقربين ثانياً دال على أسفل سافلين والمبعدين أولاً .

ولما عظم كتابهم بهذه الفضائل ، التفتت النفي إلى معرفة حالهم فقال شافياً لعي هذا الالتفات مؤكداً لأجل من ينكر : ﴿ إن الأبرار ﴾ أي الذين هذا كتابهم ﴿ لفي نعيم ﴾ أي محيط بهم ضد ما فيه الفجار من الجحيم : ولما كان لا شيء أنعم للإنسان من شيء عال يجلس عليه ويمد بصره إلى ما يشتهي مما لديه ، قال مبيناً لذلك النعيم : ﴿ على الأرائك ﴾ أي الأسرة العالية مع هذا العلو المطلق في الحجال التي يعيي الفكر وصفها لما لها من العلو من ترصيع اللؤلؤ والياقوت وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر ﴿ ينظرون ﴾ أي إلى ما يشتهون من الجنان والأنهار والحور والولدان ، ليس لهم شغل غير ذلك وما شابهه من المستلذات .

وقال الإمام القشيري : أثبت النظر ولم يبين المنظور إليه لاختلافهم : منهم من ينظر إلى قصوره ، ومنهم من ينظر إلى حوره ، ومنهم ومنهم ، والخواص على دوام الأوقات إلى الله تعالى ينظرون كما أن الفجار دائماً عن ربهم محجوبون .

(203/807)

ولما وصف نعيمهم ، أخبر أنهم من عراقتهم فيه يعرفهم به كل ناظر إليهم فقال تعالى : ﴿ تعرف ﴾ أي أيها الناظر إليهم – هذا على قراءة الجماعة ، وقرأ أبو جعفر ويعقوب بالبناء للمفعول ، وهو أدل على العموم ﴿ في وجوههم ﴾ عند رؤيتهم ﴿ نضرة النعيم ﴾ أي بهجته ورونقه وحسنه وبريقه وطراوته ، من نضر النبات – إذا أزهر ونوّر ، وقال الحسن رحمه الله تعالى : النضرة في الوجه والسرور في القلب .

ولما كانت مجالس الأنس لا سيما في الأماكن النضرة لا تطيب إلا بالمآكل والمشارب ، وكان الشراب يدل على الأكل ، قال مقتصراً عليه لأن هذه السور قصار يقصد فيها الجمع مع الاختصار قال : ﴿ يسقون ﴾ بانياً له للمفعول دلالة على أنهم مخدومون أبداً لا كلفة عليهم في شيء ﴿ من رحيق ﴾ أي شراب خالص صاف عتيق أبيض مطيب في غاية اللذة ، فإنهم قالوا : إن الرحيق الخمر أو أطيبها أو أفضلها أو الخالص أو الصافي ، وضرب من

الطيب .

ولا شك أن العاقل لا يشرب الخمر مطلقاً فكيف بأعلاها إلا إذا كان مستكملاً لمقدماتها من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وغير ذلك ، ولما كان الختم لا يكون إلا لما عظمت رتبته وعزت نفاسته ، قال مريداً الحقيقة ، أو الكناية عن نفاسته : ﴿ مختوم ﴾ أي فهو مع نفاسته سالم من الغبار وجميع الأقذاء والأقذار .

ولما كان الختم حين الفك لا بد أن ينزل من فتاته في الشراب قال : ﴿ ختامه مسك ﴾ وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : إن المراد بختامه آخر طعمه ، فيحصل أن ختامه في أول فتحه وفي آخر شربه المسك ، وذلك يقتضي أن لا يكون يفتحه إلا شاربه ، وأنه يكون على قدر كفايته فيشربه كله ، والعبارة صالحة لأن يكون الختام أولاً وآخراً ، وهو يجري مجرى افتضاض البكر .

(204/807)

ولما كان التقدير : فيه يبلغ نهاية اللذة الشاربون ، عطف عليه قوله : ﴿ وفي ذلك ﴾ أي الأمر العظيم البعيد المتناول وهو العيش والنعيم والشراب الذي هذا وصفه ﴿ فليتنافس ﴾ أي فليرغب غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار ﴿ المتنافسون ﴾ أي

الذين من شأنهم المنافسة وهو أن يطلب كل منهم أن يكون ذلك المتنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره لأنه نفيس جداً ، والنفيس هو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه .

والمنافسة في مثل هذا بكثرة الأعمال الصالحات والنيات الخالصة .

ولما ذكر الشراب ، أتبعه مزاجه على ما يتعارفه أهل الدنيا لكن بما هو أشرف منه ، فقال مبيناً لحال هذا المسقي : ﴿ ومزاجه ﴾ أي يسقون منه والحال أن مزاج هذا الرحيق ﴿ من تسنيم ﴾ علم على عين معينة وهو – مع كونه علماً – دال على أنها عالية المحل والرتبة ، والشراب ينزل عليهم ماؤها من العلو – ، وقال حمزة الكرماني : ماؤها يجري على الهواء متنسماً ينصب في أواني أهل الجنة على مقدار الحاجة ، فإذا امتلأت أمسك ، وهو في الشعر اسم جبل عال وكذا التنعيم وأصله من السنام ، ولذلك قطعها مادحاً فقال : ﴿ عيناً يشرب بها ﴾ أي بسببها على طريقة المزاج منها ﴿ المقربون ﴾ أي الذين وقع تقريبهم من اجتذاب الحق لهم إليه وقصر هممهم عليه ، كل شراب يريدونه ، وأما الأبرار فلا يشربون بها إلا الرحيق ، وأما غيرهم فلا يصل إليها أصلاً ، وقال بعضهم : إن المقربين يشربون من هذه العين صرفاً ، والأبرار يمزج لهم منها والفرق ظاهر – هنياً لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 361 . 364 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الفجار المطففين ، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون ، فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث ومن أن كتاب الله أساطير الأولين .

(206/807)

واعلم أن لأهل اللغة في لفظ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ أقوالاً ، ولأهل التفسير أيضاً أقوالاً ، أما أهل اللغة قال أبو الفتح الموصلي : ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ جمع علي وهو فعيل من العلو ، وقال الزجاج : إعراب هذا الاسم كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ، كما تقول : هذه قنسرون ورأيت قنسرين ، وأما المفسرون فروي عن ابن عباس أنها السماء الرابعة ، وفي رواية أخرى إنها السماء السابعة ، وقال قتادة ومقاتل : هي قائمة العرش اليمنى فوق السماء السابعة ، وقال الضحاك : هي سدرة المنتهى ، وقال الفراء : يعني ارتفاعاً بعد ارتفاع لا غاية له ، وقال

الزجاج: أعلى الأمكنة، وقال آخرون: هي مراتب عالية محفوظة بالجلالة قد عظمها الله وأعلى شأنها، وقال آخرون: عند كتاب أعمال الملائكة، وظاهر القرآن يشهد لهذا القول الأخير لأنه تعالى قال لرسوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ تنبيهاً له على أنه معلوم له، وأنه سيعرفه ثم قال: ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فبين أن كتابهم في هذا الكتاب المرقوم الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكأنه تعالى كما وكلهم باللوح المحفوظ فكذلك يوكلهم بحفظ كتب الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب على وجه الإعظام له ولا يمتنع أن الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار فإنهم يسلمونها إلى هؤلاء المقربين فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم أو ينقلون ما في تلك الصحائف إلى ذلك الكتاب الذي وكلوا بحفظه ويصير علمهم شهادة لهؤلاء الأبرار، فلذلك يحاسبون حساباً يسيراً، لأن هؤلاء المقربين يشهدون لهم بما حفظوه من أعمالهم، وإذا كان هذا الكتاب في السماء صح قول من تأول ذلك على أنه في السماء العالية، فتتقارب الأقوال في ذلك، وإذا كان الذي ذكرناه أولى.

(207/807)

واعلم أن المعتمد في تفسير هذه الآية ما بينا أن العلو والفسحة والضياء والطهارة من علامات السعادة ، والسفل والضيق والظلمة من علامات الشقاوة ، فلما كان المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين ، وفي أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم ، كان المقصود من وضع كتاب الأبرار في أعلى عليين ، وشهادة الملائكة لهم بذلك إجلالهم وتعظيم شأنهم ، وفي الآية وجه آخر ، وهو أن المراد من الكتاب الكتابة ، فيكون المعنى أن كتابة أعمال الأبرار في عليين ، ثم وصف عليين بأنه كتاب مرقوم فيه جميع أعمال الأبرار ، وهو قول أبي مسلم .

أما قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ففيه تأويلان أحدهما : أن المراد بالكتاب المرقوم كتاب أعمالهم والثاني : أنه كتاب موضوع في عليين كتب فيه ما أعد الله لهم من الكرامة والثواب ، واختلفوا في ذلك الكتاب ، فقال مقاتل : إن تلك الأشياء مكتوبة لهم في ساق العرش .

وعن ابن عباس أنه مكتوب في لوح من زبرجد معلق تحت العرش .

وقال آخرون : هو كتاب مرقوم بما يوجب سرورهم ، وذلك بالضد من رقم كتاب الفجار بما يسوءهم ، ويدل على هذا المعنى قوله : ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني الملائكة الذي هم في عليين يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب ، ومن قال : إنه كتاب الأعمال ، قال : يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة كرامة للمؤمن .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما عظم كتابهم في الآية المتقدمة عظم بهذه الآية منزلتهم ، فقال : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة أولها : قوله : ﴿ عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ ﴾ قال القفال : الأرائك الأسرة في الحجال ، ولا تسمى أريكة فيما زعموا إلا إذا كانت كذلك ، وعن الحسن : كنا لا ندري ما الأريكة حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك .

(208/807)

أما قوله : ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه أحدها : ينظرون إلى أنواع نعمهم في الجنة من الحور العين والولدان ، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس والمراكب وغيرها ، قال عليه السلام : " يلحظ المؤمن فيحيط بكل ما آتاه الله وإن أدناهم يتراءى له مثل سعة الدنيا " والثاني : قال مقاتل : ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون في النار والثالث : إذا اشتهوا شيئاً نظروا إليه فيحضرهم ذلك الشيء في الحال ، واعلم أن هذه الأوجه الثلاثة من باب أنواع جنس واحد وهو المنظور إليه ، فوجب حمل اللفظ على الكل ، ويخطر ببالي تفسير رابع : وهو أشرف من الكل وهو أنهم ينظرون إلى ربهم ويتأكد هذا التأويل بما إنه قال بعد هذه الآية : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى

على ما قال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 23] ومما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللذات ، وما هو إلا رؤية الله تعالى وثانيها : قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المعنى إذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة بسبب ما ترى في وجوههم من القرائن الدالة على ذلك ثم في تلك القرائن قولان :

أحدهما : أنه ما يشاهد في وجوههم من الضحك والاستبشار ، على ما قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : 38 39] .

والثاني : قال عطاء إن الله تعالى يزيد في وجوههم من النور والحسن والبياض ما لا يصفه واصف ، وتفسير النضرة : قد سبق عند قوله : ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ تَعْرِفُ ﴾ على البناء للمفعول ﴿ جنات النعيم ﴾ بالرفع .

وثالثها : قوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في بيان أن الرحيق ما هو ؟ قال الليث : ﴿ الرحيق ﴾ الخمر .

وأنشد لحسان .

بردى يصفق بالرحيق السلسل . . وقال أبو عبيدة والزجاج : ﴿ الرحيق ﴾ من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده ، ولعله هو الخمر الذي وصفه الله تعالى بقوله : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصافات : 47] .

المسألة الثانية :

ذكر الله تعالى لهذا : ﴿ الرحيق ﴾ صفات :

الصفة الأولى : قوله : ﴿ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ وفيه وجوه : الأول : قال القفال : يحتمل أن هؤلاء يسقون من شراب مختوم قد ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وهناك خمر آخر تجري منها أنهار كما قال :

﴿ وأنهار مّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين ﴾ [محمد : 15] إلا أن هذا المختوم أشرف في الجاري الثاني : قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج : المختوم الذي له ختام أي عاقبة والثالث : روي

عن عبد الله في مختوم أنه ممزوج ، قال الواحدي : وليس بتفسير لأن الختم لا يكون تفسيره المزج ، ولكن لما كانت له عاقبة هي ريح المسك فسره بالممزوج ، لأنه لو لم يمتزج بالمسك لما حصل فيه ريح المسك الرابع : قال مجاهد مختوم مطين ، قال الواحدي : كان مراده من الختم بالطين ، هو أن لا تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار ، والأقرب من جميع هذه الوجوه الوجه الأول الذي ذكره القفال الصفة الثانية : لهذا الرحيق قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ وفيه وجوه الأول : قال القفال : معناه أن الذي يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك ، كالطين الذي يختم به رؤوس القوارير ، فكان ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم ، وهذا الوجه مطابق للوجه الأول الذي حكيناه عن القفال في تفسير قوله : ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ ، الثاني : المراد من قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي عاقبته المسك أي يختم له آخره بريح المسك ، وهذا الوجه مطابق للوجه الذي حكيناه عن أبي عبيدة في تفسير قوله : ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ كأنه تعالى قال من رحيق له عاقبة ، ثم فسر تلك العاقبة فقال : تلك العاقبة مسك أي من شربه كان ختم شربه على ريح المسك ، وهذا قول علقمة والضحاك وسعيد بن جبير ، ومقاتل وقتادة قالوا : إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك ، والمعنى لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرجها ، مع طيب الطعم ، والختام آخر كل شيء ، ومنه يقال : ختمت القرآن ، والأعمال بخواتيمها ويؤكده قراءة علي عليه السلام ، واختيار الكسائي فإنه يقرأ : (خاتمه مسك) أي آخره كما يقال : خاتم النبيين ، قال الفراء : وهما متقاربان في

المعنى إلا أن الخاتم اسم والختام مصدر كقولهم : هو كريم الطباع والطابع الثالث : معناه خلطه مسك ، وذكروا أن فيه تطيباً

(211/807)

لطعمه .

وقيل : بل لريحه وأقول : لعل المراد أن الخمر الممزوج بهذه الأفاويه الحارة مما يعين على الهضم وتقوية الشهوة ، فلعل المراد منه الإشارة إلى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم ، وهذا القول رواه سعيد بن جبير عن الأسود عن عائشة تقول المرأة لقد أخذت ختم طيني ، أي لقد أخذت أخلاط طيني ، قال أبو الدرداء هو شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به آخر شربهم ، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيب ريحه .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ قال الواحدي : يقال : نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه ، والتنافس تفاعل منه كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به ، والمعنى : وفي ذلك فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله .

واعم أن مبالغة الله تعالى في الترغيب فيه تدل على علو شأنه ، وفيه إشارة إلى أن التنافس

يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(212/807)

تسنيم علم لعين بعينها في الجنة سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه ، إما لأنها أرفع شراب في الجنة ، وإما لأنها تأتيهم من فوق ، على ما روي أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم ، وإما لأنها لأجل كثرة ملئها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه ، أو لأنه عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض ، فهو التسنيم أيضاً ، وذلك لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع ، ومنه سنام البعير وتسنمت الحائط إذا علوته ، وأما قول المفسرين : فروى ميمون بن مهران أن ابن عباس سأل عن تسنيم ، فقال هذا مما يقول الله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] ويقرب منه ما قال الحسن : وهو أنه أمر أخفاه الله تعالى لأهل الجنة قال الواحدي : وعلى هذا لا يعرف له اشتقاق وهو اسم معرفة ، وعن عكرمة : ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ من تشريف :

المسألة الثانية :

أنه تعالى ذكر أن تسنيم عين يشرب بها المقربون ، قال ابن عباس : أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم ، لأنه يشربه المقربون صرفاً ، ويمزج لأصحاب اليمين .

واعلم أن الله تعالى لما قسم المكلفين في سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام : المقربون ، وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، ثم إنه تعالى لما ذكر كرامة المذكورين في هذه السورة بأنه يمزج شرابهم من عين يشرب بها المقربون ؛ علمنا أن المذكورين في هذا الموضع هم أصحاب اليمين ، وأقول : هذا يدل على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة ، فتسنيم أفضل أنها الجنة ، والمقربون أفضل أهل الجنة ، والتسنيم في الجنة الروحانية هو معرفة الله ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، والرحيق هو الابتهاج بمطالعة عالم الموجودات ، فالمقربون لا يشربون إلا من التسنيم ، أي لا يشتغلون إلا بمطالعة وجهه الكريم ، وأصحاب اليمين يكون شرابهم ممزوجاً ، فتارة يكون نظرهم إليه وتارة إلى مخلوقاته .

المسألة الثانية :

عينا نصب على المدح وقال الزجاج : نصب على الحال ، وقوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ كقوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] وقد مر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 88.92 ﴾

(214/807)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾

"كَلاَّ" بمعنى حقاً ، والوقف على "تكذبون" .

وقيل أي ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا ، بل كتابهم في سجين ، وكتاب المؤمنين في عِليين .

وقال مقاتل : كَلاّ ، أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يَصْلَونه .

ثم استأنف فقال : "إِن كتاب الأبرارِ" مرفوع في عليين على قدر مرتبتهم .

قال ابن عباس : أي في الجنة .

وعنه أيضاً قال : أعمالهم في كتاب الله في السماء .

وقال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعني السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين .

ورَوَي ابن الأجلح عن الضحاك قال : هي سِدْرة المنتهى ، ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها ، فيقولون : رب ! عبدك فلان ، وهو أعلم به منهم ، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختوم بأمانه من العذاب .

فذلك قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار ﴾ .

وعن كعب الأحبار قال : إن روح المؤمن إذا قبضت صُعد بها إلى السماء ، وفُتحت لها أبواب السماء ، وتلقَّتها الملائكة بالبشرى ، ثم يخرجون معها حتى ينتهوا إلى العرش ، فيخرج لهم من تحت العرش ، رَقّ فيرقم ويختم فيه النجاة من الحساب يوم القيامة ويشهده المقربون .

وقال قتادة أيضاً : "فِي عِليِّين" هي فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى .

وقال البَرَاء بن عازِب قال النبي صلى الله عليه وسلم : " عِلّيون في السماء السابعة تحت العرش " وعن ابن عباس أيضاً : هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش ، أعمالهم مكتوبة فيه .

وقال الفراء : عِليون ارتفاع بعد ارتفاع .

وقيل : عليون أعلى الأمكنة .

وقيل : معناه علوّ في علوّ مضاعف ، كأنه لا غاية له ؛ ولذلك جمع بالواو والنون .

وهو معنى قول الطبريّ .

قال الفراء : هو اسم موضوع على صفة الجمع ، ولا واحد له من لفظة ؛ كقولك : عشرون وثلاثون ، والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية ، قالوا في المذكر والمؤنث بالنون .

(215/807)

وهي معنى قول الطبري .

وقال الزجاج : إعراب هذا الأسم كإعراب الجمع ، كما تقول : هذه قِنَّسْرون ، ورأيت قِنسرين .

وقال يونس النحوي واحدها : عِليّ وعِلية .

وقال أبو الفتح : عِليين : جمع عِليّ ، وهو فِعّيل من العلوّ .

وكان سبيله أن يقول عِلّية كما قالوا للغرفة عِلّية ؛ لأنها من العلو ، فلما حذف التاء من عِلية عوضوا منها الجمع بالواو والنون ، كما قالوا في أرضين .

وقيل : إن عليين صفة للملائكة ، فإنهم الملأ الأعلى ؛ كما يقال : فلان في بني فلان ؛ أي هو في جملتهم وعندهم .

والذي في الخبر من حديث ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أهل

عِليين لينظرون إلى الجنة من كذا ، فإذا أشرف رجل من أهل عِليين أشرقت الجنة لضياء وجهه ، فيقولون : ما هذا النور ؟ فيقال أشرف رجل من أهل عِليين الأبرار أهل الطاعة والصدق "

وفي خبر آخر : " إن أهل الجنة ليرون أهل عِليين كما يُرى الكوكب الدُّرِّيُّ في أفق السماء " يدل على أن عِليين اسم الموضع المرتفع .

وروى ناس عن ابن عباس في قوله "عِليين" قال : أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عليون ؟ على جهة التفخيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة .

ثم فسره له فقال : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ .

وقيل : إن "كتاب مرقوم" ليس تفسير العِليين ، بل تم الكلام عند قوله "عليون" ثم ابتدأ وقال : "كتاب مرقوم" أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار ؛ قاله القشيريّ .

(216/807)

وروي : أن الملائكة تصعد بعمل العبد فيستقبلّونهُ فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم : إنكم الحفَظَة على عبدي ، وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وإنه أخلص لي عمله ، فاجعلوه في عليين ، فقد غفرت له ، وإنها لتصعد بعمل العبد ، فيتركونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وإنه لم يخلص لي عمله ، فاجعلوه في سِجّين .

قوله تعالى : ﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ أي يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة .

وقال وهب وابن إسحاق : المقربون هنا إسرافيل عليه السلام ، فإذا عمل المؤمن عمل البر ، صَعِدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض ، حتى ينتهي بها إلى إسرافيل ، فيختم عليها ويكتب فهو قوله : "يشهده المقربون" أي يشهد كتابتهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار ﴾

أي أهل الصدق والطاعة .

﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أي نَعْمة ، والنَّعمة بالفتح : التنعيم ؛ يقال : نَعَّمه الله وناعمه فتنعم ، وامرأة منعَّمة ومناعَمة بمعنى .

أي إن الأبرار في الجنات يتنعمون .

﴿ عَلَى الأرآئك ﴾ وهي الأسرة في الحجال ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أي إلى ما أعدّ الله لهم من

الكرامات ؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد .

وقال مقاتل : ينظُرون إلى أهل النار .

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ينظرون إلى أعدائهم في النار " ذكره المَهْدَوِيّ .

وقيل : على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله .

قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أي بهجته وغضارته ونوره ؛ يقال : نضر النبات : إذا ازهر ونوّر .

وقراءة العامة "تعرِفُ" بفتح التاء وكسر الراء "نَضْرةَ" نصباً ؛ أي تعرف يا محمد .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق : "تُعْرَف" بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول "نضرة" رفعاً .

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ أي من شراب لا غِش فيه .

(217/807)

قاله الأخفش والزجّاج .

وقيل ، الرحيق الخمر الصافية .

وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر .

والمعنى واحد .

الخليل : أصفى الخمر وأجودها .

وقال مقاتل وغيره : هي الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ، قال حسان :

يَسْقون مَنْ وَرَدَ البريصَ عليْهِمُ . . .

بَرَدَى يُصَفَّق بالرحيقِ السلسلِ

وقال آخر :

أمْ لا سبيلَ إلى الشباب وذكره . . .

أَشْهى إلىّ مِن الرحيقِ السَّلْسَلِ

﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال مجاهد : يختم به آخر جُرْعة .

وقيل : المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما في الكأس ، انختم ذلك بخاتم المسْك .

وكان ابن مسعود يقول : يجدون عاقبتها طعم المسك .

ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا : ختامه آخر طعمه .

وهو حسن ؛ لأن سبيل الأشربة أن يكون الكَدَر في آخرها ، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك .

وعن مسروق عن عبد الله : قال المختوم الممزوج .

وقيل : مختوم أي ختمت ومنعت عن أن يمسها ماس إلى أن يَفُكَّ ختامها الأبرار .

وقرأ عليّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي "خاتَمه" بفتح الخاء والتاء وألف بينهما .

قاله علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتَمه مسكاً ، قاله الفراء .

وفي الصحاح : والخِتام : الطين الذي يُخْتم به .

وكذا قال مجاهد وابن زيد : خُتم إناؤه بالمسك بدلاً من الطين .

حكاه المهدويّ .

وقال الفرزدق :

وبِت أَفُضّ أَغلاق الخِتامِ . . .

وقال الأعشى :

وأبرزها وعليها خَتَمْ . . .

أي عليها طينة مختومة ؛ مثل نَفْضٍ بمعنى منفوضٍ ، وقَبْضٍ بمعنى مقبوضٍ .

وذكر ابن المبارك وابن وهب ، واللفظ لابن وهب ، عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : "خِتامه مِسْك" : خَلْطه ، ليس بخاتم يختم ، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائكم : إن خِلْطه من الطِّيب كذا وكذا .

إنما خِلْطه مسك ؛ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختِمون به آخر أشربتهم ، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها ، لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

وروي أُبَيُّ بن كعب قال : " قيل يا رسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : "غُدْران الخمر" "

وقيل : مختوم في الآنية ، وهو غير الذي يجري في الأنهار .

فالله أعلم .

﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ أي وفي الذي وصفناه من أمر الجنة ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ أي فليرغب الراغبون ؛ يقال : نَفَسْت عليه الشيء أَنْفسِه نفاسة : أي ضِننت به ، ولم أحبَّ أن يصير إليه .

وقيل : الفاء بمعنى إلى ، أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل ؛ نظيره : لِمِثلِ هذا فليعملِ العامِلون" .

﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ وهو شراب ينصبّ عليهم من علوّ ، وهو أشرف شراب في الجنة .

وأصل التسنيم في اللغة : الارتفاع ، فهي عين ماء تجري من علو ألى أسفل ؛ ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه ، وكذلك تسنيم القبور .

وروي عن عبد الله قال : تسنيم عين في الجنة يشرب بها المقرّبون صِرْفاً ، ويمزج منها كأس

أصحاب اليمين فتطيب .

وقال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ قال : هذا مما قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] وقيل : التسنيم عين تجري في الهواء بقدرة الله تعالى ، فتنصبُّ في أواني أهل الجنة على قدر مائها ، فإذا امتلأت أمسك الماء ، فلا تقع منه قطرة على الأرض ، ولا يحتاجون إلى الاستقاء ؛ قاله قتادة .

ابن زيد : بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش .

وكذا في مراسيل الحسن .

وقد ذكرناه في سورة "الإنسان" .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ أي يشرب منها أهل جنة عدنٍ ، وهم أفاضل أهل الجنة ، صِرْفاً ، وهي لغيرهم مِزاج .

و"عينا" نصب على المدح .

(219/807)

وقال الزجاج : نصب على الحال من تسنيم ، وتسنِيم معرفة ، ليس يعرف له اشتقاق ، وإن جعلته مصدراً مشتقاً من السنام ف "عينا" نصب ؛ لأنه مفعول به ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَوْ

إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ﴾ [البلد : 14-15] وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم .

وعند الأخفش ب "يُسْقَون" أي يسقون عينا أو من عين .

وعند المبرد بإضمار أعني على المدح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(220/807)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ تكرير للردع السابق في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الفجار ﴾ [المطففين : 7] الخ ليعقب بوعد الأبرار كما عقب ذاك بوعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور والإيفاء بر وقيل ردع عن التكذيب فلا تكرار ﴿ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عالين ﴾ .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19)

الكلام نحو ما مر في نظيره بيد أنهم اختلفوا في عليين على وجه آخر غير اختلافهم في سجين فقال غير واحد هو علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع على فعيل من العلو كسجين من السجن سمي بذلك أما لأنه سبب الارتفاع

إلى أعالي درجات الجنان أو لأنه مرفوع في السماء السابعة أو عند قائمة العرش اليمني مع الملائكة المقربين عليهم السلام تعظيماً له وقيل هو المواضع العلية واحده على وكان سبيله أن يقال علية كما قالوا للغرفة علية فلما حذفوا التاء عوضوا عنها الجمع بالواو والنون وحكى ذلك عن أبي الفتح بن جني وقيل هو وصف لملائكة ولذلك جمع بالواو والنون وقال الفراء هو اسم موضوع على صيغة الجمع ولا واحد له من لفظه كعشرين وثلاثين والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء واحداً ولا تثنية أطلقوه في المذكر والمؤنث بالواو والنون .

﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب أي يحضرونه على أن يشهد من الشهود بمعنى الحضور وحضوره كناية عن حفظه في الخارج أو يشهدون بما فيه يوم القيامة على أن من الشهادة وعلى الوجهين المراد بالمقربين جمع من الملائكة عليهم السلام كذا قالوا .

(221/807)

وأخرج عبد بن حميد من طريق خالد بن عرعرة وأبي عجيل أن ابن عباس سأل كعباً عن هذه الآية فقال إن المؤمن يحضره الموت ويحضره رسل ربه عز وجل فلا هم يستطيعون أن يؤخروه ساعة ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدفعوه إلى ملائكة الرحمة فأروه ما شاء الله تعالى أن يروه من الخير ثم عرجوا بروحه إلى السماء

فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة فيضعونه بين أيديهم ولا ينتظرون به صلاتكم عليه فيقولون اللهم هذا عبدك فلان قبضنا نفسه ويدعون له بما شاء الله تعالى أن يدوا له فنحن نحب أن تشهدنا اليوم كتابه فينشر كتابه من تحت العرش فيثبتون اسمه فيه وهم شهود فذلك قوله تعالى : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ وسأله عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كتاب الفجار ﴾ [المطففين : 7] الآية فقال إن العبد الكافر يحضره الموت ويحضره رسل ربه سبحانه فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدعوه إلى ملائكة العذاب فأروه ما شاء الله تعالى أن يروه من الشر ثم هبطوا به إلى الأرض السفلى وهو سجين وهي آخر سلطان إبليس فأثبتوا كتابه فيها الحديث وفي بعض الأخبار ما ظاهره أن نفس العمل يكون في سجين ويكون في عليين فقد أخرج ابن المبارك عن صخرت بن حبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله تعالى يستكثرونه ويزكونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجني ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويستحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين " وبأدنى تأويل يرجع إلى ما تضمنته الآية فلا تغفل وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ شروع في بيان محاسن أحوالهم إثر بيان حال كتابهم والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل هذا حال كتابهم فما حالهم فأجيب بما ذكر أي أنهم لفي نعيم عظيم .

﴿ على الأرائك ﴾ أي على الأسرة في الحجال وقد تقدم تمام الكلام فيها ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ أي إلى ما شاؤا من رغائب مناظر الجنة وما تحجب الحجال أبصارهم وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد إلى ما أعد الله تعالى لهم من الكرامات وقال مقاتل إلى أهل النار أعدائهم ولم يرتضه بعض ليكون ما في آخر السورة تأسيساً وقيل ينظر بعضهم إلى بعض فلا يحجب حبيب عن حبيبه وقيل النظر كناية عن سلب النوم فكأنه قيل لا ينامون وكأنه لدفع توهم النوم من ذكر الأرائك المعدة للنوم غالباً وفيه إشارة إلى أنه لا نوم في الجنة كما وردت به الأخبار لما فيه من زوال الشعور وغفلة الحواس إلى غير ذلك مما لا يناسب ذلك المقام وليه يكون قوله سبحانه :

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أي بهجة النعيم ورونقه لنفي ما يوهمه سلب النوم من الضعف وتغير بهجة الوجه كما في الدنيا وهو وجه لا يعرف فيه الناظر نضرة التحقيق

والخطاب في تعرف لكل من له حظ من الخطاب للإيذان بأن مال هم من آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختص براء دون راء وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحة وشيبة ويعقوب تعرف مبنياً للمفعول نضرة رفعاً على النيابة عن الفاعل وجوز بعضهم أن يكون نائب فاعل تعرف ضمير ﴿ الأبرار ﴾ وفي وجوههم نضرة مبتدأ وخبر كأنه قيل تعرف الأبرار بأن في وجوههم نضرة النعيم وليس بشيء كما لا يخفى وقرأ زيد بن علي كذلك إلا أنه قرأ يعرف بالياء إذ تأنيث نضرة مجازي .

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ قال الخليل هو أجود الخمر وقال الأخفش والزجاج الشراب الذي لا غش فيه قال حسان

: يسقون من ورد البريص عليهم . . .

بردى يصفق بالرحيق السلسل

وفسر ههنا بالشراب الخالص مما يكدر حتى الغول .

(223/807)

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين كما روى عن مجاهد وذكر أن طين الجنة مسك معجون والظاهر أن الختام ما يختم به وإن الختم على حقيقته

وكذا إسناده وقولنا مختوم أوانيه الخ اليس لأن الإسناد مجازي بل لأن الختم على الشيء أعني الاستيثاق منه بالختم طريقه ذلك وختم اعتناء به وإظهاراً لكرامة شاربه وكان ذلك بما هو على هيئة الطين ليكون على النهج المألوف ويجوز أن يكون ذلك تمثيلاً لكمال نفاسته وإلا فليس ثمة غبار أو ذباب أو خيانة ليصان عن ذلك بالختم وقال ابن عباس وابن جبير والحسن المعنى خاتمته ونهايته رائحة رائحة مسك إذا شرب أي يجد شاربه ذلك عند انتهاء شربه وكان ذلك لأن اشتغال الذائقة بكمال لذته تمنع عن إدراك الرائحة فإذا انقطع الشرب أدركت وإلا فالرائحة لا تختص بالانهاء وقيل المعنى ذو نهاية نهايته وما يبقى بعد شربه ويشرب في أوانيه مسك وليس كشراب الدنيا نهايته وما يرسب في إنائه طين أو نحوه وهو كما ترى وقيل إن الرحيق يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك فالمعنى ذو ختام ختام مزاجه مسك وهو مع كونه خلاف الظاهر وفيما بعد ما يبعده في الجملة يحتاج إلى نقل يعود عليه وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه والنخعي والضحاك وزيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والكسائي خاتمه بألف بعد الخاء وفتح التاء والمراد ما يختم به أيضاً فإن فاعلاً بالفتح يكون أيضاً اسم آلة كالقالب والطابع لكنه سماعي وعن الضحاك وعيسى وأحمد بن جبير الإنطاكي عن الكسائي كسر التاء أي آخره رائحة مسك والجمل السابقة أعني على الأرائك ينظرون و ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ ﴾ الخ و ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ الخ قيل أحوال مترادفة وقيل مستأنفات كجملة ﴿ أن الأبرار ﴾ [المطففين : 22] الخ وقعت أجوبة للسؤال في

حالهم والفصل للتنبيه على استقلال كل في بيان كرامتهم ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى الرحيق وهو الأنسب بما بعد أو إلى ما ذكر من أحوالهم وما فيه من معنى

(224/807)

البعد للإشعار بعلو مرتبته وبعد منزلته وجوز أن يكون لكونه في الجنة والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى : ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ وقدم للاهتمام أو للحصر أي فليتنافس وليرغب فيه لا في خمور الدنيا أولاً في غيره من ملاذها ونعيمها ﴿ المتنافسون ﴾ أي الراغبون في المبادرة إلى طاعة الله تعالى وقيل أي فليعمل لأجله أي لأجل تحصيله خاصة والفوز به العاملون كقوله تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ [الصافات : 61] أي فليستبق في تحصيل ذلك المتسابقون وأصل التنافس التغالب في الشيء النفيس وأصله من النفس لعزتها قال الواحدي نفست الشيء أنفسه نفاسة والتنافس تفاعل منه كان كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به وقال البغوي أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه ويقال نفست عليه بالشيء أنفس نفاسة إذا بخلت به عليه وفي مفردات الراغب المنافسة مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره وهي بهذا المعنى من شرف النفس وعلو الهمة والفرق بينها وبين

الحسد أظهر من أن يخف واستشكل ذلك التعلق بأنه يلزم عليه دخول العاطف على العاطف إذ التقدير فليتنافس في ذلك وأجيب بأنه بتقدير القول أي ويقولون لشدة التلذذ من غير اختيار في ذلك فليتنافس المتنافسون أي في الدنيا على معنى أنه كان اللائق بهم أن يتنافسوا في ذلك وقيل الكلام على تقدير حرف الشرط والفاء واقعة في جوابه أي وإن أريد تنافس فليتنافس في ذلك المتنافسون وتقديم الظرف ليكون عوضاً عن الشرط في شغل حيزه وهو أنفس مما تقدم وقوله تعالى :

(225/807)

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ عطف على ﴿ ختامه مسك ﴾ [المطففين : 26] صفة أخرى لرحيق مثله وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته وتسنيم علم لعين بعينها في الجنة كما روى عن ابن مسعود وعن حذيفة اليمان أنه قال عين من عدن سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه إما لأن شرابها أرفع شراب في الجنة على ما روى عن ابن عباس أو لأنها تأتيهم من فوق على ما روى عن الكلبي وروى أنها تجرى في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم وقيل سميت بذلك لرفعة من يشرب بها ولا يلزم من كونه علماً لما ذكر منع صرفه للعلمية والتأنيث لأن العين مؤنثة إذ هي قد تذكر بتأويل الماء أو نحوه ومن بيانية أو تبعيضية

أي ما يمزج به ذلك الرحيق هو تسليم أي ماء تلك العين أو بعض ذلك وجوز أن تكون ابتدائية

﴿ عَيْناً ﴾ نصب على المدح وقال الزجاج على الحال من تسنيم قيل وصح كونه حالاً مع جموده لوصفه بقوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ أو لتأويله بمشتق كجارية وأنت تعلم أن الاشتقاق غير لازم والباء أما زائدة أي يشربها أو بمعنى من أي يشرب منها أو على تضمين يشرب معنى يروى أي يشرب راوين بها أو يروى بها شاربي المقربون أو صلة الالتذاذ أي يشرب ملتذاً بها أو الامتزاج أي يشرب الرحيق ممتزجاً بها أو الاكتفاء أي يشب مكتفين بها أوجه ذكروها وفي كونها صلة الامتزاج مقال فقد قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح يشرب بها المقربون صرفاً وتمزج للأبرار ومذهب الجمهور أن الأبرار هم أصحاب اليمين وأن المقربين هم السابقون كأنهم إنما كان شرابهم صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحي القيوم فهي الرحيق التي لا يقاس بها رحيق والمدامة التي تواصي على شربها ذووا الأذواق والتحقيق

.

على نفسه فليبك من ضاع عمره . . .

وليس له مها نصيب ولا سهم

وقال قوم الأبرار والمقربون في هذه السورة بمعنى واحد يشمل كل من نعم في الجنة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(226/807)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) ﴾

ردع وإبطال لما تضمنه ما يقال لهم : ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [المطففين : 17]

فيجوز أن تكون كلمة ﴿ كلا ﴾ مما قيل لهم مع جملة ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾

ردعاً لهم فهي من المحكى بالقول .

ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله في القرآن إبطالاً لتكذيبهم المذكور .

﴿ كَلَّا إِنَّ كتاب الابرار لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كتاب مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ﴾ .

يظهر أن هذه الآيات المنتهية بقوله : ﴿ يشهده المقربون ﴾ من الحكاية وليست من الكلام

المحكي بقوله : ﴿ ثم يقال ﴾ الخ ، فإن هذه الجملة بحذافرها تشبه جملة : ﴿ إن كتاب

الفجار لفي سجين ﴾ [المطففين : 7] الخ أسلوباً ومقابلةً .

فالوجه أن يكون مضمونها قسيماً لمضمون شبيهها فتحصل مقابلة وعيد الفجار بوعد

الأبرار ومن عادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير والعكس لأن الناس راهب وراغب فالتعرضُ لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة وإن كان المقام من أول السورة مقام إنذار .

ويكون المتكلم بالوعد والوعيد واحداً وجَّه كلامه للفجار الذين لا يظنون أنهم مبعوثون ، وأعقبه بتوجيه كلام للأبرار الذين هم بضد ذلك ، فتكون هذه الآيات معترضة متصلة بحرف الردع على أوضح الوجهين المتقدمين فيه .

ويجوز أن تكون من المحكي بالقول في : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [المطففين : 17] فتكون محكية بالقول المذكور متصلة بالجملة التي قبلها وبحرف الإبطال على أن يكون القائلون لهم : ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ على وجه التوبيخ ، أعقبوا توبيخهم بوصف نعيم المؤمنين بالبعث تنديماً للذين أنكروه وتحسيراً لهم على ما أفاتوه من الخير .

و﴿ الأبرار ﴾ : جمع بر بفتح الباء ، وهو الذي يعمل البِر ، وتقدم في السورة التي قبل هذه .

(227/807)

والقول في الكتاب ومظروفيته في عِلّيين ، كالقول في ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ [المطففين : 7] .

وعليون : جمع عِلّيّ ، وَعِلّيٌّ على وزن فعّيل من العلو ، وهو زنة مبالغة في الوصف جاء

على صورة جمع المذكر السالم وهو من الأسماء التي ألحقت بجمع المذكر السالم على غير قياس .

وعن الفراء أن ﴿ عليين ﴾ لا وَاحد له .

يريد : أن عليين ليس جمع (عِلِيٌّ) ولكنّه عَلَم على مكان الأبرار في الجنّة إذ لم يسمع عن العرب (عِلّيّ) وإنّما قالوا : عِلِّيَّة للغرفة ، وعليون عَلَم بالغلبة لمحلة الأبرار .

واشتق هذا الاسم من العلوّ ، وهو علوّ اعتباري ، أي رفعة في مراتب الشرف والفضل ، وصيغ على صيغة جمع المذكر لأن أصل تلك الصيغة أن تجمع بها أسماء العقلاء وصفاتهم ، فاستُكمل له صيغة جمع العقلاء الذكور إتماماً لشرف المعنى باستعارة العلو وشرف النوع بإعطائه صيغة التذكير .

والقول في ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ كالقول في ﴿ وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ﴾ [المطففين : 8 ، 9] المتقدم .

و ﴿ يشهده ﴾ يطلعون عليه ، أي يعلن به عند المقربين ، وهم الملائكة وهو إعلان تنويه بصاحبه كما يُعلن بأسماء النابغين في التعليم ، وأسماء الأبطال في الكتائب .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

مضمون هذه الجملة قسيم لمضمون جملة : ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين : 15] إلى آخرها .

ولذلك جاءت على نسيج نظم قسيمتها افتتاحاً وتوصيفاً وفصلاً ، وهي مبيّنة لجملة : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ [المطففين : 18] فموقعها موقع البيان أو موقع بدل الاشتمال على كلا الوجهين في موقع التي قبلها على أنه يجوز أن تكون من الكلام الذي يقال لهم ، وهو المحكي بقوله : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [المطففين : 17] فيكون قولُ ذلك لهم ، تحسيراً وتنديماً على تفريطهم في الإيمان .

وأحد الوجهين لا يناكد الوجه الآخر فيما قُرر للجملة من الخصوصيات .

(228/807)

وذُكر الأبرار بالاسم الظاهر دون ضميرهم .

خلافاً لما جاء في جملة : ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين : 15] تنويهاً بوصف الأبرار .

وقوله : ﴿ على الأرائك ﴾ خبر ثان عن الأبرار ، أي هم على الأرائك ، أي متكئون عليها .

والأرائك : جمع أريكة بوزن سفينة ، والأريكة : اسم لمجموع سَرير ووسادِته وحَجلةٍ منصوبة عليهما ، فلا يقال : أريكة إلا لمجموع هذه الثلاثة ، وقيل : إنها حبشيَّة وتقدم عند

قوله تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ في سورة الإنسان (13) .

و ﴿ ينظرون ﴾ في موضع الحال من الأبرار .

وحذف مفعول ﴿ ينظرون ﴾ إما لدلالة ما تقدم عليه من قوله في ضدهم : ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [المطففين : 15] والتقدير : ينظرون إلى ربهم ، وإما لقصد التعميم ، أي ينظرون كل ما يبهج نفوسهم ويسرهم بقرينة مقام الوعد والتكريم .

وقرأ الجمهور : ﴿ تَعرف ﴾ بصيغة الخطاب ونصب ﴿ نضرة ﴾ وهو خطاب لغير معين .

أي تعرف يا من يراهم .

وقرأه أبو جعفر ويعقوب "تُعْرَف" بصيغة البناء للمجهول ورفع "نضرةُ" .

ومآل المعنيين واحد إلا أن قراءة الجمهور جرت على الطريقة الخاصة في استعماله .

وجرت قراءة أبي جعفر ويعقوب على الطريقة التي لا تختص به .

والخطابُ بمثله في مقام وصف الأمور العظيمة طريقة عربية مشهورة ، وهذه الجملة خبر ثالث عن ﴿ الأبرارَ ﴾ أو حال ثانية له .

والنضْرة : البهجة والحُسن ، وإضافة ﴿ نضرة ﴾ إلى ﴿ النعيم ﴾ من إضافة المسبب إلى السبب ، أي النضرة والبهجة التي تكون لوجه المسرور الراضي إذ تبدو على وجهه ملامح السرور .

وجملة ﴿ يسقون من رحيق ﴾ خبر رابع عن الأبرار أو حال ثالثة منه .

وعبر بـ ﴿ يسقون ﴾ دون : يشربون ، للدلالة على أنهم مخدُومون يخدمهم مخلوقات لأجل ذلك في الجنة .

وذلك من تمام الترفه ولذة الراحة .

والرحيق : اسم للخمر الصافية الطيبة .

(229/807)

والمختوم : المسدود إناؤه ، أي بَاطيَتُه ، وهو اسم مفعول من خَتمه إذا شدّ بصنف من الطين معروف بالصلابة إذا يبس فيعسر قلعه وإذا قلع ظهر أنه مقلوع كانوا يجعلونه للختم على الرسائل لئلا يقرأ حاملها ما فيها ولذلك يقولون من كرم الكتاب ختمه ويجعلون علامة عليه ، تطبع فيه وهو رَطْب فإذا يبس تعذر فسخها ، ويسمى ما تُطبع به خاتَماً بفتح الفوقية ، وكان الملوك والأمراء والسادة يجعلون لأنفسهم خواتيم يضعونها في أحد الخنصرين ليجدوها عند إصدار الرسائل عنهم ،

قال جرير :

إن الخليفة أن الله سربله

سِرْبَال مُلك به تُزجَى الخواتيم . . .

والختام بوزن كتاب : اسم للطين الذي يُختم به كانوا يجعلون طين الختام على محل السداد من القارورة أو الباطية أو الدن للخمر لمنع تخلل الهواء إليها وذلك أصلح لاختمارها وزيادةِ صفائها وحفظ رائحتها .

وجُعل ختام خمر الجنة بعجين المسك عوضاً عن طين الخَتم .

والمِسك مادة حيوانية ذاتُ عَرْف طيب مشهور طيبه وقوة رائحته منذ العصور القديمة ، وهذه المادة تتكون في غُدّة مملوءة دَماً تخرج في عنق صنف من الغزال في بلاد التيبيت من أرض الصين فتبقى متصلة بعنقه إلى أن تيبس فتسقط فيلتقطها طلابها ويتجرون فيها .

وهي جِلدة في شكل فأر صغير ولذلك يقولون : فَأرة المسك .

وفُسر ﴿ ختامه مسك ﴾ بأن المعنى ختام شُربه ، أي آخر شربه مسك ، أي طعم المسك بمعنى نكهته ، وأنشد ابن عطية قول ابن مُقْبِل :

مما يُعتِّق في الحانوت قَاطفُها

بالفُلفل الجَوْن والرُّمانِ مَخْتومُ . . .

أي ينتهي بلذع الفلفل وطَعْم الرمان .

وجملة : ﴿ ختامه مسك ﴾ نعت ل ﴿ رحيق ﴾ .

أو بدل مفصل من مجمل ، أو استئناف بياني ناشىء عن وصف الرحيق بأنه ﴿ مختوم ﴾

أنْ يسأل سائل عن ختامها أي شَيء هو من أصناف الختام لأن غالب الختام أن يكون بطين أو سداد .

وجملة : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ختامه مسك ﴾ وجملة ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ .

(230/807)

واعلم أن نظم التركيب في هذه الجملة دقيق يحتاج إلى بيان وذلك أن نجعل الواو اعتراضية فقوله : ﴿ وفي ذلك ﴾ هو مبدأ الجملة .

وتقديم المجرور لإفادة الحصر أي وفي ذلك الرحِيقِ فليتنافس الناس لا في رحيق الدنيا الذي يتنافس فيه أهل البذخ ويجلبونه من أقاصي البلاد وينفقون فيه الأموال .

ولما كانت الواو اعتراضية لم يكن إشكال في وقوع فاء الجواب بعدها .

والفاءُ إما أن تكون فصيحة ، والتقدير : إذا علمتم الأوصاف لهذا الرحيق فليتنافس فيه المتنافسون ، أو التقدير : وفي ذلك فلتتنافسوا فليتنافس فيه المتنافسون فتكون الجملة في قوة التذييل لأن المقدر هو تنافس المخاطبين ، والمصرح به تنافس جميع المتنافسين فهو تعميم بعد تخصيص ، وإما أن تكون الفاء فاء جواب لشرط مقدر في الكلام يؤذن به تقديم

المجرور لأن تقديم المجرور كثيراً ما يعامل معاملة الشرط ، كما روي قولُ النبي صلى الله عليه وسلم "كما تكونوا يُوَلّ عليكم " بجزم "تكونوا" و"يُوَلّ" ، فالتقدير : إن علمتم ذلك فليتنافس فيه المتنافسون .

وإما أن تكون الفاء تفريعاً على محذوف على طريقة الحذف على شريطة التفسير ، والتقدير : وتنافسوا صيغة أمر في ذلك ، فليتنافس المتنافسون فيه ، ويكون الكلام مؤذناً بتوكيد فعل التنافس لأنه بمنزلة المذكور مرتين ، مع إفادة التخصص بتقديم المجرور .

وجملة : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ معترضة بين جملة : ﴿ يسقون من رحيق ﴾ الخ وجملة : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ .

والتنافس : تفاعل من نَفِسَ عليه بكذا إذا شح به عليه ولم يره أهلاً له وهو من قبيل الاشتقاق من الشيء النّفيس ، وهو الرفيع في نوعه المرغوب في تحصيله .

وقد قيل : إن الأصل في هذه المادة هو النَفْس .

فالتنافس حصول النفاسة بين متعدد .

ولام الأمر في ﴿ فليتنافس ﴾ مستعملة في التحريض والحث .

و﴿ مِزاجه ﴾ : ما يمزج به .

وأصله مصدر مازج بمعنى مزَج ، وأطلق على الممزوج به فهو من إطلاق المصدر على المفعول ، وكانوا يمزجون الخمر لئلا تغلبهم سَوْرتها فيسرع إليهم مغيب العقول لأنهم يقصدون تطويل حصة النشوة للالتذاذ بدبيب السكر في العقل دون أن يغُتّه غتّاً فلذلك أكثر ما تشرب الخمر المعتقة الخالصة تُشرب ممزوجة بالماء .

قال كعب بن زهير :

شُجَّت بذي شبم من ماء محقبة

صَاف بأبْطَحَ أضحى وهَو مَشمول . . .

وقال حسان :

يَسقون مَن وَرَدَ البريضَ عليهمُ

بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ . . .

وتنافسهم في الخمر مشهور من عوائدهم وطفحت به أشعارهم .

كقول لبيد :

أغلي السِّباء بكل أدكن عاتق

أو جونة قُدحت وفُض ختامها . . .

و﴿ تسنيم ﴾ علم لعين في الجنة منقول من مصدر سنَّم الشيءَ إذا جعله كهيئة السِّنام .

ووجهوا هذه التسمية بأن هذه العين تصبّ على جنانهم من علوّ فكأنها سَنام .

وهذا العلم عربي المادة والصِّيغة ولكنه لم يكن معروفاً عند العرب فهو مما أخبر به القرآن ، ولذا قال ابن عباس لمَّا سئل عنه : "هذا مما قال الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] ، يريد لا يعلمون الأشياء ولا أسماءها إلا ما أخبر الله به .

ولغرابة ذلك احتيج إلى تبيينه بقوله : ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ ، أي حال كون التسنيم عيناً يشرب منها المقرّبون .

و ﴿ المقرَّبون ﴾ : هم الأبرار ، أي فالشاربون من هذا الماء مقربون .

وباء ﴿ يشرب بها ﴾ إما سببية ، وعُدي فعل ﴿ يشرب ﴾ إلى ضمير العين بتضمين ﴿ يشرب ﴾ معنى : يمزج ، لقوله : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ أي يمزجون الرحيق بالتسنيم .

وإمَّا باء الملابسة وفعل ﴿ يشرب ﴾ معدّى إلى مفعول محذوف وهو الرحيق ، أي يشربون الرحيق ملابسين للعين ، أي محيطين بها وجالسين حولها .

أو الباء بمعنى (مِن) التبعيضية وقد عده الأصمعي والفارسي وابن قتيبة وابن مالك في معاني الباء ، وينسب إلى الكوفيين .

واستشهدوا له بهذه الآية وليس ذلك ببيّن فإنّ الاستعمال العربي يكثر فيه تعدية فعل الشرب بالباء دون (مِن) ، ولعلهم أرادوا به معنى الملابسة ، أو كانت الباء زائدة كقول أبي ذؤيب يصف السحاب :

شَرْبنَ بماء البحر ثم ترفَّعت

متَى لُجَج خُضر لَهُن نَئيجُ . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(233/807)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾

فأخبر الله تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقا لكونه مكتوبا كتابة حقيقية وخص تعالى كتاب الإبرار بإنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويها بكتاب الأبرار وما وقع لهم به وإشهارا له

وإظهارا بين خواص خلقه كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة تنويها بأسم المكتوب له وإشادة بذكره وهذا نوع من صلاة الله سبحانه وتعالى وملائكته على عبده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 70 ﴾

(234/807)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/808)

الجزء الثامن بعد الثمانمائة

من الآية ﴿ 29 ﴾ من (سورة المطففين)

وحتى الآية ﴿ 36 ﴾ من السورة

(4/808)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه جزاء الكافر بالجحيم وجزاء المؤمن بالنعيم ، وكان من أجل النعيم الشماتة بالعدو ، علل جزاء الكافر بما فيه شماتة المؤمن به لأنه اشتغل في الدنيا بما لا يغني ، فلزم من ذلك تفويته لما يغني ، فقال مؤكداً لأن ذا المروءات والهمم العاليات والطبع السليم والمزاج القويم لا يكاد يصدق مثل هذا ، وأكده إشارة إلى أن من حقه أن لا يكون : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ أي قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ﴿ كانوا ﴾ أي في الدنيا ديدناً وخلقاً وطبعاً وجبلة ﴿ من الذين آمنوا ﴾ أي ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان ﴿ يضحكون ﴾ أي يجددون الضحك كلما رأوهم أو ذكروهم استهزاء بهم وبحالاتهم التي هم عليها من علامات الإيمان في رثاثة أحوالهم وقلة أموالهم واحتقار الناس لهم مع ادعائهم أن الله تعالى لا بد أن ينصرهم ويعلي أمرهم ﴿ وإذا مروا ﴾ أي الذين آمنوا ﴿ بهم ﴾ أي بالذين أجرموا في أي وقت من الأوقات يستهزئون و ﴿ يتغامزون ﴾ أي يغمز بعض الذين أجرموا بعضاً لأذى الذين آمنوا .

(5/808)

ولما وصفهم في مواضع التردد والتقلب ، وصفهم في المنازل فقال : ﴿ وإذا انقلبوا ﴾ أي رجع الذين أجرموا برغبتهم في الرجوع وإقبالهم عليه من غير تكره ﴿ إلى أهلهم ﴾ أي منازلهم التي هي عامرة بجماعتهم ﴿ انقلبوا ﴾ حال كونهم ﴿ فاكهين ﴾ أي متلذذين غاية التلذذ بما كان من مكنتهم ورفعتهم التي أوصلتهم إلى الاستسخار بغيرهم ، قال : ابن برجان : وذكر عليه الصلاة والسلام : " إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً – كما بدأ ، يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر " وفي أخرى : يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة .

وفي أخرى : العالم فيهم أنتن من جيفة حمار – فالله المستعان .

ولما ذكر مرورهم بهم ، ذكر مطلق رؤيتهم لهم فقال : ﴿ وإذا رأوهم ﴾ أي رأى الذين أجرموا الذين آمنوا ﴿ قالوا ﴾ أي عند رؤيتهم للذين آمنوا مؤكدين لأنهم يستشعرون أن كل ذي عقل يكذبهم مشيرين إلى تحقيرهم بأداة القرب : ﴿ إن هؤلاء ﴾ أي الذين آمنوا ﴿ لضالون ﴾ أي عريقون في الضلال لأنهم تركوا الدنيا لشيء أجل لا صحة له ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ أرسلوا ﴾ أي من مرسل ما ﴿ عليهم ﴾ أي على الذين آمنوا خاصة حتى يكون لهم بهم هذا الاعتناء في بيوتهم وخارجها عند مرورهم وغيره ﴿ حافظين ﴾ أي عريقين في حفظ أعمال الذين آمنوا فما اشتغالهم بهم إلى هذا الحد أن كانوا عندهم في عداد الساقط المهمل كما يزعمون فما هذه المراعاة المستقصية لأحوالهم وإن كانوا في

عداد المنظور إليه المعتنى به فليبينوا فساد حالهم بوجه تقبله العقول ويقوم عليه دليل أو ليتبعوهم وإلا فهم غير عارفين بمواضع الإصلاح وتعاطي الأمور على وجهها فما أحقهم بقول القائل :

أوردها سعد وسعد مستمل . . .

ما هكذا تورد يا سعد الإبل

(6/808)

ولما كان لا نعيم أفضل من الشماتة بالعدو لا سيما إذا كانت على أعلى طبقات الشماتة قال تعالى : ﴿ فاليوم ﴾ أي فتسبب عن هذا من فعلهم في دار العمل أنه يكون في دار الجزاء ﴿ الذين آمنوا ﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان ﴿ من الكفار ﴾ خاصة ، وهم الراسخون في الكفر من عموم الذين أجرموا ، في الحشر والجنة سخرية وهزؤاً ، فإن الذين آمنوا لا يضحكون من عصاة المؤمنين لو رأوهم يعذبون بل يرحمونهم لاشتراكهم في الدين ﴿ يضحكون ﴾ قصاصاً وجزاء حين يرون ما هم فيه من الذل سروراً بحالهم شكراً لله على ما أعطاهم من النجاة من النار والنقمة من أعدائهم ، قال أبو صالح : تفتح لهم الأبواب ويقال : اخرجوا ، فيسرعون فإذا وصلوا إلى الأبواب غلقت في وجوههم وردوا على أقبح

حال ، فيضحك المؤمنون – انتهى .

ويا لها من خيبة وخجلة وسواد وجه وتعب قلب وتقريع نفس من العذاب بالنار وبالشماتة والعار ، حال كون الذين آمنوا ملوكاً ﴿ على الأرائك ﴾ أي الأسرة العالية المزينة التي هي من حسنها أهل لأن يقيم المتكىء بها ﴿ ينظرون ﴾ أي يجددون تحديق العيون إليهم كلما أرادوا فيرون ما هم فيه من الهوان والذل والعذاب بعد العزة والنعيم نظر المستفهم ﴿ هل ثوب ﴾ بناه للمفعول لأن الملذذ مطلق مجازاتهم ﴿ الكفار ﴾ أي وقع تثويب العريقين في الكفر أي إعطاؤهم الثواب والجزاء على أنهى ما يكون ، فالجملة في محل نصب " ينظرون " ﴿ ما كانوا ﴾ أي نفس فعلهم بما هو لهم كالجبلات ﴿ يفعلون ﴾ أي بدواعيهم الفاسدة ورغباتهم المعلولة ، فالجملة في موضع المفعول ، وقد علم أن لهم الويل الذي افتتحت السورة بالتهديد به لمن يفعل فعل من لا يظن أنه يجازى على فعله ، وآخرها فيمن انتقص الأعراض في خفاء ، وأولها فيمن انتقص الأموال كذلك ، وجفاء العدل والوفاء ، والله الهادي للصواب ، وإليه المرجع والمآب وإليه المتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 366.364 ﴾

(7/808)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما وصف كرامة الأبرار في الآخرة ذكر بعد ذلك قبح معاملة الكفار معهم في الدنيا في استهزائهم وضحكهم ، ثم بين أن ذلك سينقلب على الكفار في الآخرة ، والمقصود منه تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في سبب النزول وجهين الأول : أن المراد من قوله : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ أكابر المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصى بن وائل السهمي كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم الثاني : جاء علي عليه السلام في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المسألة الثانية :

أنه تعالى حكى عنهم أربعة أشياء من المعاملات القبيحة فأولها : قوله : إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون أي يستهزئون بهم وبدينهم وثانيها : قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يتفاعلون من الغمز ، وهو الإشارة بالجفن والحاجب ويكون الغمز أيضاً بمعنى العيب وغمزه إذا عابه ، وما في فلان غميزة أي ما يعاب به ، والمعنى أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاء ويعيبونهم ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمْ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا ، أو يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء ، قرأ عاصم في رواية حفص عنه : ﴿ فَكِهِينَ ﴾ بغير ألف في هذا الموضع وحده ، وفي سائر القرآن ﴿ فاكهين ﴾ بالألف وقرأ الباقون فاكهين بالألف ، فقيل : هما لغتان ، وقيل : فاكهين أي متنعمين مشغولين بما هم فيه من الكفر والتنعم بالدنيا وفكهين معجبين ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ ﴾ أي هم على ضلال في تركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدري هل له وجود أم لا ، وهذا آخر ما حكاه تعالى عن الكفار .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حافظين ﴾ يعني أن الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين ، يحفظون عليهم أحوالهم ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل ،

فيعبون عليهم ما يعتقدونه ضلالاً ، بل إنما أمروا بإصلاح أنفسهم .

أما قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(9/808)

المعنى أن في هذا اليوم الذي هو يوم تصقع الأعمال والمحاسبة يضحك المؤمن من الكافر ، وفي سبب هذا الضحك وجوه أحدها : أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس ، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء ، ولأنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء ، وأنهم قد باعوا باقياً بفان ويرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد ، ودخلوا الجنة فأجلسوا على الأرائك ينظرون إليهم كيف يعذبون في النار وكيف يصطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً الثاني : قال أبو صالح : يقال لأهل النار وهم فيها اخرجوا وتفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذاك هو سبب الضحك .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ عَلَى الأَرائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ حال من يضحكون أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر .

ثم قال تعالى : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ ثوب بمعنى أثيب أي الله المثيب ، قال أوس :

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب . . وحسبك أن يثني عليك وتحمدي

قال المبرد : وهو فعل من الثواب ، وهو ما يثوب أي يرجع إلى فاعله جزاء ما عمله من خير أو شر ، والثواب يستعمل في المكافأة بالشر ، ونشد أبو عبيدة :

ألا أبلغ أبا حسن رسولا . . فما لك لا تجيء إلى الثواب

(10/808)

والأولى أن يحمل ذلك على سبيل التهكم كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] والمعنى كأنه تعالى يقول للمؤمنين : هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم ، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة ؟ فيكون هذا القول زائداً في سرورهم ، لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم

والاستخفاف بأعدائهم ، والمقصود منها أحوال القيامة .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 92.93 ﴾

(11/808)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) ﴾

لما ذكر تعالى أمر ﴿ كتاب الفجار ﴾ [المطففين : 7] ، عقب بذكر كتاب ضدهم ليبين الفرق ، و ﴿ الأبرار ﴾ جمع بر ، وقرأ ابن عامر : " الأبرار " بكسر الراء ، وقرأ نافع وابن كثير بفتحها ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : بإمالتها ، و ﴿ عليون ﴾ قيل هو جمع على وزن فعل بناء مبالغة يريد بذلك الملائكة ، فلذلك أعرب بالواو والنون ، وقيل يريد المواضع العلية لأنه علو فوق علو ، فلما كان هذا الاسم على هذا الوزن لا واحد له أشبه عشرين فأعرب بإعراب الجموع إذا أشبهها ، وهذا أيضاً كقنسرين فإنك تقول طابت قنسرين ودخلت قنسرين ، واختلف الناس في الموضع المعروف ، ب ﴿ عليين ﴾ ما هو ؟ فقال قتادة : قائمة العرش اليمنى ، وقال ابن عباس : السماء السابعة تحت العرش ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الضحاك : هو عند سدرة المنتهى ، وقال ابن

عباس : ﴿ عليون ﴾ : الجنة ، وقال مكي : هو في السماء الرابعة ، وقال الفراء عن بعض العلماء : في السماء الدنيا ، والمعنى أن كتابهم الذي فيه أعمالهم هنالك تهمماً بها وترفيعاً لها ، وأعمال الفجار في سجين في أسفل سافلين ، لأنه روي عن أبيّ بن كعب وابن عباس : أن أعمالهم يصعد بها إلى السماء فتأباها ، ثم ترد إلى الأرض فتأباها أرض بعد أرض حتى تستقر في سجن تحت الأرض السابعة ، و﴿ كتاب مرقوم ﴾ في هذه الآية خبر ﴿ إن ﴾ والظرف ملغى ، و﴿ المقربون ﴾ في هذه الآية : الملائكة المقربون عند الله تعالى أهل كل سماء ، قاله ابن عباس وغيره ، و﴿ الأرائك ﴾ : جمع أريكة وهي السرر في الحجال ، و﴿ ينظرون ﴾ معناه إلى ما عندهم من النعيم ، ويحتمل أن يريد ينظر بعضهم إلى بعض ، وقيل عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ينظرون إلى أعدائهم في النار كيف يعذبون " ، وقرأ جمهور الناس " تَعرِف " على مخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح التاء وكسر الراء " نضرةَ " نصباً ، وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحة ويعقوب : " تُعرَف " بضم

(12/808)

التاء وفتح الراء ، " نضرةُ " رفعاً ، وقرأ " يعرف " بالياء ، لأن تأنيث النضرة ليس بحقيقي والنضرة النعمة والرونق و" الرحيق " : الخمر الصافية ، ومه قول حسان : [الكامل]

يسقون من ورد البريص عليهم . . . بردى يصفق بالرحيق السلسل

و﴿ مختوم ﴾ ، يحتمل أن يختم على كؤوسه التي يشرب بهما تهمماً وتنظيفاً ، والأظهر أنه مختوم شرابه بالرائحة المسكينة حسبما فسر قوله تعالى : ﴿ ختامه مسك ﴾ ، واختلف المتأولون في قوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ فقال علقمة وابن مسعود معناه : خلطه ومزاجه ، فقال ابن عباس والحسن وابن جبير معناه : خاتمته أن يجد الرائحة عند خاتمته .

الشرب رائحة المسك ، وقال أبو علي : المراد لذاذة المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم ، وكذلك قوله : ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ [الإنسان : 5] ، وقوله تعالى : ﴿ زنجبيلاً ﴾ [الإنسان : 17] أي يحذي اللسان ، وقد قال ابن مقبل : [البسيط]

مما يفتق في الحانوت ناطقها . . . بالفلفل الجوز والرمان مختوم

(13/808)

قال مجاهد معناه : طينه الذي يختم به مسك بدل الطين الذي في الدنيا ، وهذا إنما يكون في الكووس لأن خمر الآخرة ليست في دنان إنما هي في أنهار ، وقرأ الجمهور : " ختامه " ، وقرأ الكسائي وعلي بن أبي طالب والضحاك والنخعي " خاتمه " ، وهذه بينة المعنى : أنه يراد بها الطبع على الرحيق ، وروي عنهم أيضاً كسر التاء ، ثم حرض تعالى على الجنة بقوله :

﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ ، والتنافس في الشيء المغالاة فيه وأن يتبعه كل واحد نفسه ، فكأن نفسيهما يتباريان فيه ، وقيل هو من قولك شيء نفسي ، فكان هذا يعظمه ثم يعظمه الآخر ويستبقان إليه ، و" المزاج " : الخلط ، والضمير عائد على الرحيق ، واختلف الناس في ﴿ تسنيم ﴾ فقال ابن عباس وابن مسعود : ﴿ تسنيم ﴾ أشرف شراب في الجنة وهو اسم مذكر لماء عين في الجنة وهي عين يشربها المقربون صرفاً . ويمزج رحيق الأبرار بها ، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح وغيرهم ، وقال مجاهد ما معناه : إن تسنيماً مصدر من سنمت إذا عليت ومنه السنام ، فكأنها عين قد عليت على أهل الجنة فهي تنحدر ، وذهب قوم إلى أن ﴿ الأبرار ﴾ و" المقربين " في هذه الآية لمعنى واحد ، يقال : لكل من نعم في الجنة ، وذهب الجمهور من المتأولين إلى أن منزلة الأبرار دون المقربين ، وأن ﴿ الأبرار ﴾ : هم أصحاب اليمين وأن المقربين هم السابقون ، و ﴿ عيناً ﴾ منصوب إما على المدح ، وإما أن يعمل فيه ﴿ تسنيم ﴾ على رأي من رآه مصدراً ، أو ينتصب على الحال من ﴿ تسنيم ﴾ أو ﴿ يسقون ﴾ ، قاله الأخفش وفيه بعد ، وقوله تعالى : ﴿ يشرب بها ﴾ معناه : يشربها كقول الشاعر [أبو ذؤيب الهذلي] : [الطويل]

شربن بماء البحر ثم تصعدت . . . متى لجج خضر لهن نئيج

ثم ذكر تعالى أن الأمر الذي ﴿ أجرموا ﴾ بالكفر أي كسبوه كانوا في دنياهم ﴿ يضحكون ﴾ من المؤمنين ويستخفون بهم ويتخذونهم هزؤاً ، وروي أن هذه الآية نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين ، وروي أنها نزلت بسبب أن علي بن أبي طالب وجمعاً معه مروا بجمع من كفار مكة ، فضحكوا منهم واستخفوا بهم عبثاً ونقصان عقل ، فنزلت الآية في ذلك .

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30)

(15/808)

الضمير في ﴿ مروا ﴾ للمؤمنين ، ويحتمل أن يكون للكفار وأما الضمير في ﴿ يتغامزون ﴾ فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك ، وكذلك في قوله : ﴿ انقلبوا فاكهين ﴾ معناه : أصحاب فاكهة ومزح ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين يقال : رجل فاكه كلابن وتامر هكذا بألف ، وهي قراءة الجمهور ، ويقال : رجل فكه من هذا المعنى . وقرأ عاصم في رواية حفص : " فكهين " بغير ألف ، وهي قراءة أبي جعفر وأبي رجاء والحسن وعكرمة ، أما الضمير في : ﴿ رأوا ﴾ وفي ﴿ قالوا ﴾ : قال الطبري وغيره : هو للكفار ، والمعنى

أنهم يرمون المؤمنين بالضلال ، والكفار لم يرسلوا على المؤمنين حفظة لهم ، وقال بعض علماء التأويل : بل المعنى بالعكس ، وإن معنى الآية : وإذا رأى المؤمنون الكفار قالوا إنهم لضالون وهو الحق فيهم ، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم ، فكأن في الآية حضاً على الموادعة ، أي أن المؤمنين لم يرسلوا حافظين على الكفار ، وهذا كله منسوخ على هذا التأويل بآية السيف ، ولما كانت الآيات المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة ، وأن الويل يومئذ للمكذبين ساغ أن يقول : ﴿ فاليوم ﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون ، و ﴿ الذين ﴾ رفع بالابتداء وقوله تعالى : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ معناه : إلى عذابهم في النار ، قال كعب : لأهل الجنة كوى ينظرون منها ، وقال غيره بينهم جسم عظيم شفاف يرون حالهم ، و ﴿ هل ثُوِّب الكفار ﴾ ؟ تقرير وتوقيف لمحمد عليه السلام وأمته ، ويحتمل أن يريد : ﴿ ينظرون هل ثوب ﴾ والمعنى هل جوزي ، ويحتمل أن يكون المعنى يقول بعضهم لبعض ، وقرأ ابن محيصن وأبو عمرو وحمزة والكسائي : " هثوب " بإدغام اللام في الثاء ، قال سيبويه : وذلك حسن وإن كان دون إدغام في الراء لتقاربهما في المخرج ، وقرأ الباقون : " هل ثوب " لا يدغمون ، وفي قوله تعالى : ﴿ ما كانوا ﴾ ، حذف تقديره جزاء ما كانوا أو عقاب ما كانوا يفعلون .

نجز تفسير سورة ﴿ المطففين ﴾ بحمد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾

وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم ، والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك .

روي ناس عن ابن عباس قال : هو الوليد بن المغيرة ، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ؛ وأولئك ﴿ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل عَمار ، وخَبَّاب وصُهَيب وبلال ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ على وجه السخرية .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ ﴾ عند إتيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ : يغمز بعضهم بعضاً ، ويشيرون بأعينهم .

وقيل : أي يعيّرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ؛ يقال : غمزت الشيء بيدي ؛ قال :

وكنت إذا غمزتُ قناةَ قومٍ . . .

كَسَرْت كُعوبَها أو تستقِيما

" وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد غمزني ، فقبضت رجلي "

الحديث ؛ وقد مضى في "النساء" .

وغمزته بعيني .

وقيل : الغمز : بمعنى العيب ، يقال غمزه : أي عابه ، وما في فلان غَمْزة أي عيب .

وقال مقاتل : نزلت في عليّ بن أبي طالب جاء في نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَلَمَزهُمُ المنافقون ، وضحكوا عليهم وتغامزوا .

﴿ وَإِذَا انقلبوا ﴾ أي انصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذَويهم ﴿ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ أي مُعَجِّبين منهم .

وقيل : مُعْجَبون بما هم عليه من الكفر ، متفكهون بذكر المؤمنين .

وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسلميّ : "فَكِهِين" بغير ألف .

الباقون بألف .

قال الفراء : هما لغتان مثل طمِع وطامِع وحذِر ، وحاذِر وقد تقدم في سورة "الدخان" والحمد لله .

وقيل : الفكِه : الأشِر البطر والفاكه : الناعم المتنعم .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي إذا رأى هؤلاء الكفار أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ ﴾ في اتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ لأعمالهم، موكلين بأحوالهم، رقباء عليهم ﴿ فاليوم ﴾ يعني هذا اليوم الذي هو يوم القيامة ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا .

نظيره في آخر سورة "المؤمنين" وقد تقدم.

وذكر ابن المبارك : أخبرنا محمد بن بشار عن قتادة في قوله تعالى ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ قال : ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول إن بين الجنة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوَى ؛ قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ فاطلع فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الصافات : 55] قال : ذُكِر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تَغْلِي .

وذكر ابن المبارك أيضاً : أخبرنا الكلبيّ عن أبي صالح في قوله تعالى ﴿ الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] قال : يقال لأهل النار وهم في النار : اخرجوا، فتفتح لهم أبواب النار، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلِّقت دونهم ؛ فذلك قوله ؛

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] ويضحك منهم المؤمنون حين غُلِّقَتْ دونهم فذلك قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ .

﴿ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ﴾ ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وقد مضى هذا في أول سورة "البقرة" .

ومعنى "هل ثُوِّب" أي هل جُوزي بسخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فُعِل بهم ذلك .

وقيل : إنه متعلق ب"ينظرون" أي ينظرون : هل جُوزي الكفار ؟ فيكون معنى هل (التقرير) وموضعها نصباً ب"ينظرون" .

(18/808)

وقيل : استئناف لا موضع له من الإعراب .

وقيل : هو إضمار على القول ، والمعنى ؛ يقول بعض المؤمنين لبعض "هل ثُوِّب الكفار" أي أُثيب وجُوزي .

وهو من ثاب يثوب أي رجع ؛ فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويستعمل في الخير والشَّر .

ختمت السورة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ عمَّا كانُوا عليهِ بعد ردعٍ وزجرٍ إثرَ زجرٍ . وقولُه تعالَى ﴿ إنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ محلِ كتابِ الأبرارِ بعدَهُ بيانُ سوءِ حالِ الفُجَّارِ مُتصلاً ببيانِ سُوءِ حالِ كتابِهم وفيه تأكيدٌ للردعِ ووجوبُ الارتداعِ . وكتابُهم ما كُتبَ من أعمالِهم وعليونَ علمٌ لديوانِ الخيرِ الذي دُوِّنَ فيه كلُّ ما عملتْهُ الملائكةُ وصلحاءُ الثقلينِ منقولٌ من جمعٍ على فعيلٍ من العُلوِّ ، سُمِّيَ بذلكَ إمَّا لأنَّه سببُ الارتفاعِ إلى أعالِي الدرجاتِ في الجنةِ وإمَّا لأنَّهُ مرفوعٌ في السماءِ السابعةِ حيثُ يسكنُ الكروبيونَ تكريماً له وتعظيماً والكلامُ في قولِه تعالى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلّيُّونَ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ كما مرَّ في نظيرِه .

وقولُه تعالَى :

﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ صفةٌ أُخرى لكتابَ أي يحضرونَهُ ويحفظونَهُ أو يشهدونَ بما فيه يومَ القيامةِ . ﴿ إنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ شروعٌ في بيانِ محاسنِ أحوالِهم إثرَ بيانِ حالِ كتابِهم على طريقةِ ما مرَّ في شأنِ الفجَّارِ ﴿ على الأرائك ﴾ أي على الأسرةِ في الحجالِ ولا يكادُ تطلقُ الأريكةُ على السريرِ عندهم إلا عندَ كونِه في الحَجَلةِ ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ أي إلى ما

شاءوا مدَّ أعينِهم إليه من رغائب مناظرِ الجنةِ وإلى ما أولاهُم الله تعالى من النعمةِ والكرامةِ وإلى أعدائهم يعذبونَ في النارِ وما تحجبُ الحجالُ أبصارَهُم عن الإدراك .

(20/808)

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أي بهجةَ التنعمِ وماءَهُ ورونقَهُ . والخطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن له حظٌّ منَ الخطابِ للإيذانِ بأنَّ ما لَهم من آثارِ النعمةِ وأحكامِ البهجةِ بحيثُ لا يختصُّ برؤيةِ راءٍ دُونَ راءٍ ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ شرابٍ خالصٍ لا غشَّ فيهِ . ﴿ مَّخْتُومٍ * ختامه مِسْكٌ ﴾ أي مختومٌ أوانيه وأكوابُه بالمسكِ مكانَ الطينِ ولعلَّه تمثيلٌ لكمالِ نفاستِه ، وقيل : ختامُه مسكٌ أي مقطعُه رائحةُ مسكٍ . وقُرِىءَ خَاتَمهُ بفتحِ التاء وكسرِها أي ما يُختم به ويُقطع . ﴿ وَفِى ذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الرحيقِ وهو الأنسبُ لما بعدَهُ أو إلى ما ذُكرَ من أحوالِهم . وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ إما للإشعارِ بعلوِّ مرتبتِه وبُعد منزلتِه أو لكونِه في الجنةِ أي في ذلكَ خاصَّةً دونَ غيرِه ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ أي فليرغبْ الراغبونَ بالمبادرة إلى طاعة الله وقيلَ : فليعملِ العاملونَ كقولِه تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ وقيل : فليستبقِ المستبقونَ وأصلُ التنافسِ التغالبُ في الشيء النفيسِ وأصلُه من النفس لعزتها قال الواحديُّ : نفستُ الشيءَ أنفسُه نفاسةً ، والتنافسُ تفاعلٌ منه كأنَّ

كلَّ واحدٍ من الشخصينِ يريدُ أنْ يستأثرَ به . وقال البغويُّ : وأصلُه من الشيءِ النفيسِ الذي يحرصُ عليه نفوسُ الناسِ ويريدُه كلُّ أحدٍ لنفسِه وينفسُ به على غيرِه أي يضنّ بهِ .

(21/808)

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ عطفٌ على ختامُه ، صفةٌ أخرى لرحيقٍ مثله وما بينَهما اعتراضٌ مقررٌ لنفاستِه أي ما يمزجُ به ذلكَ الرحيقُ من ماءِ تسنيمٍ على أنَّ مِنْ بيانيةٌ أو تبعيضيةٌ أو من نفِسه على أنَّها ابتدائيةٌ . والتسنيمُ علمٌ لعينٍ بعينِها سميتُ به إمَّا لأنَّها أرفعُ شرابٍ في الجنةِ ، وإمَّا لأنَّها تأتيهُم من فوقِ . رُويَ أنَّها تجري في الهواءِ متسنمة فتنصب في أوانيهم ﴿ عَيْناً ﴾ نصبَ على الاختصاصِ وجوازُ أنْ يكونَ حالاً من تسنيمٍ مع كونِه جامداً لاتصافِه بقولِه تعالى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ فإنَّهم يشربونها صِرفاً وتمزجُ لسائر أهلِ الجنةِ فالباءُ مزيدةٌ أو بمَعْنى منْ . وقولُه تعالى :

(22/808)

﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ الخ حكايةٌ لبعضِ قبائحِ مُشركي قريشٍ جيءَ بها تمهيداً لذكرِ بعضِ أحوالِ الأبرارِ في الجنةِ ﴿ كَانُواْ ﴾ في الدُّنيا ﴿ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ أي يستهزئونَ بفقرائهم كعمارٍ وصهيبٍ وخبَّابٍ وبلالٍ وغيرِهم من فقراءِ المؤمنينَ . وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ إمَّا للقصرِ إشعاراً بغايةِ شناعةِ ما فعلُوا أي كانُوا من الذينَ آمنوا يضحكونَ مع ظهورِ عدمِ استحقاقِهم لذلكَ على منهاجِ قولِه تعالى : ﴿ أَفِى الله شَكٌّ ﴾ أو لمراعاةِ الفواصلِ . ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ﴾ أي فقراءُ المؤمنين ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بالمشركينَ وهم في أنديتِهم وهو الأظهرُ إن جازَ العكسُ أيضاً ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يغمزُ بعضهم بعضاً ويشيرونَ بأعينِهم ﴿ وَإِذَا انقلبوا ﴾ من مجالسِهم ﴿ إلى أَهْلِهِمْ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ ملتذينَ بذكرِهم بالسوءِ والسخريةِ منهم وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم كانُوا لا يفعلونَ ذلكَ بمرأى من المارينَ بهم ويكتفونَ حينئذٍ بالتغامزِ وقُرِئَ فاكهينَ قيلَ : هُمَا بمَعْنَى ، وقيلَ : فكهينَ أشرينَ ، وقيلَ : فرحينَ وفاكهينَ متفكهينَ ، وقيلَ : ناعمينَ ، وقيلَ : مازحينَ . ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أينما كانُوا ﴿ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَء لَضَالُّونَ ﴾ أي نسبُوا المسلمينَ ممن رأوهم ومن غيرهم إلى الضلالِ بطريقِ التأكيدِ . ﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ على المسلمينَ ﴿ حافظين ﴾ حالٌ من واوِ قالُوا : أي قالُوا ذلكَ والحالُ أنَّهم من جهةِ الله تعالى موكلينَ بهم يحفظونَ عليهم أحوالَهم ويهيمنونَ على أعمالِهم ويشهدونَ برشدِهم وضلالِهم وهذا تهكمٌ بهم وإشعارٌ بأنَّ ما اجترأوا عليه من القولِ من وظائفِ من أرسلَ من جهتِه تعالى وقد جُوِّزَ أن يكونَ ذلكَ من

جملةِ قولِ المجرمينَ كأنَّهم قالُوا إنَّ هؤلاءِ لضالونَ وما أُرسلوا علينا حافظينَ إنكاراً لصدِّهم عن الشركِ ودعائِهم إلى الإسلامِ وإنما قيلَ : عليهم نقلاً

(23/808)

له بالمعنى كما في قولك حلفَ ليفعلنَّ لا بالعبارةِ كما في قولِك حلف لأفعلنَّ .

﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ ﴾ أي المعهودنَ من الفقراءِ ﴿ مّنَ الكفار ﴾ أي من المعهودينَ وهو الأظهرُ وإن أمكنَ التعميمُ من الجانبينِ ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونَهم أذلاَّ مغلولينَ قد غِشيهم فنونُ الهوانِ والصَّغارِ بعد العزةِ والكبرِ ورهقهم ألوانُ العذابِ بعد التنعمِ والترفهِ . وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ للقصرِ تحقيقاً للمقابلةِ أي فاليومَ هم من الكفارِ يضحكونَ لا الكفارُ منهم كما كانُوا يفعلونَ في الدُّنيا . وقولُه تعالى : ﴿ عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ ﴾ حالٌ من فاعلِ يضحكونَ أي يضحكونَ منهم ناظرينَ إليهم وإلى ما هُم فيه من سوءِ الحالِ وقيلَ : يفتح للكفارِ بابٌ إلى الجنةِ فيقالُ لهم : اخرجُوا إليها فإذا وصلُوا إليها أُغلقَ دُونهم يفعلُ بهم ذلكَ مراراً ويضحكُ المؤمنونَ منهم ويأباهُ قولُه تعالى : ﴿ هَلْ ثُوّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ فإنه صريحٌ في أنَّ ضحكَ المؤمنين منهم جزاءٌ لضحكِهم منهم في الدُّنيا فلا بدَّ من المجانسةِ

والمشاكلةِ حتماً والتثويبُ والإثابةُ المجازاةُ وقُرِىءَ بإدغامِ اللامِ في الثاءِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(24/808)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ الخ

حكاية لبعض قبائح مشركي قريش أبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم جيء بها تمهيداً لذكر بعض أحوال الأبرار في الجنة ﴿ كَانُواْ ﴾ أي في الدنيا كما قال قتادة : ﴿ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ كانوا يستهزؤن بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من الفقراء وفي "البحر" روى أن علياً كرم الله تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مروا بجميع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم فنزلت ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ قبل أن يصل علي كرم الله تعالى وجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي "الكشاف" حكاية ذلك عن المنافقين وأنهم قالوا ربنا اليوم الأصلع أي سيدنا يعنون علياً كرم الله تعالى وجهه وإنما قالوا استهزاء ولعل الأول أصح وتقديم الجار والمجرور إما للقصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا أي كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على

منهاج قوله تعالى : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم : 10] لمراعاة الفواصل .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ﴾ أي المؤمنون ﴿ بِهِمْ ﴾ أي بالذين أجرموا وهم في أنديتهم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم استهزاء بالمؤمنين وإرجاع ضمير مروا للمؤمنين وضمير بهم للمجرمين هو الأظهر الأوفق بحكاية سبب النزول واستظهر أبو حيان العكس معللاً له بتناسق الضمائر .

(25/808)

﴿ وَإِذَا انقلبوا ﴾ أي المجرمون ورجعوا من مجالسهم ﴿ إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ ملتذين باستخفافهم بالمؤمنين وكان المراد بذلك الإشارة إلى أنهم يعدون صنيعهم ذلك من أحسن ما اكتسبوه في غيبتهم عن أهلهم أ إلى أن له وقعاً في قلوبهم ولم يفعلوه مراعاة لأحد وإنما فعلوه لحظ أنفسهم وقيل فيه إشارة إلى أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بما رأى من المارين بهم ويكتفون حينئذ بالتغامز وقرأ الجمهور فاكهين بالألف قيل هما بمعنى وقيل فكهين أشرين وقيل فرحين وفاكهين قيل متفكهين وقيل ناعمين وقيل مادحين .

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32)

يعنون جنس المؤمنين مطلقاً لا خصوص المرئيين منهم والتأكيد لمزيد الاعتناء بسببهم .

﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حافظين ﴾ جملة حالية من ضمير قالوا أي قالوا ذلك والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى على المؤمنين موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم وهذا تهكم واستهزاء بهم وإشعاراً بأن ما اجترؤا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى وجوز أن يكون من جملة قول المجرمين والأصل وما أرسلوا علينا حافظين إلا أنه قيل عليهم نقلاً بالمعنى عى نحو قال زيد ليفعلن كذا وغرضهم بذلك إنكار صد المؤمنين إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الايمان .

﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ ﴾ أي المعهودون من الفقراء ﴿ مّنَ الكفار ﴾ أي من المعهوندين وجوز التعميم من الجانبين ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلولين قد غشيتهم فنون الهوان والصغار بعد العز والكبر ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعم والترفه والظرف والجار والمجرور متعلقان بيضحكون وتقديم الجار والمجرور قيل للقصر تحقيقاً للمقابلة أي واليوم هم من الكفار يضحكون لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا وقوله تعالى :

(26/808)

﴿ عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ ﴾ حال من فاعل يضحكون أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من سوء الحال وقيل يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم هلم هلم فإذا

وصلوا إليها أغلق دونهم يفعل ذلك مراراً حتى أن أحدهم يقال له هلم فما يأتي من إياسه ويضحك المؤمنون منهم وتعقب بأن قوله تعالى :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ يأباه فإنه صريح في أن ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم في الدنيا فلا بد من المجانسة والمشاكلة حتماً والحق أنه لا أباه كما لا يخفى والتثويب والإثابة المجازاة ويقال ثوبه وأثابه إذا جازاه ومنه قول الشاعر

: سأجزيك أو يجزيك عني مثوب . . .

وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

وظاهر كلامهم إطلاق ذلك على المجازاة بالخير والشر واشتهر بالمجازاة بالخير وجوز حمله عليه هنا على أن المراد التهكم كما قيل به في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] ﴿ وذق أنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] كأنه تعالى يقول للمؤمنين هل أثبنا هؤلاء على ما كانوا يفعلون كما أثبناكم على ما كنتم تعلمون هذا القول زائداً في سرورهم لما فيه من تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم والجملة الاستفهامية حينئذ معمولة لقول محذوف وقع حالاً من ضمير يضحكون أو من ضمير ينظرون أي يضحكون أو ينظرون مقولاً لهم هل ثوب الخ ولم يتعرض لذلك الجمهور وفي "البحر" الاستفهام لتقرير المؤمنين والمعنى قد جوزي الكفار ما كانوا الخ وقيل هل ثوب متعلق بينظرون والجملة في موضع نصب به بعد إسقاط حرف الجر الذي هو إلى انتهى وما مصدرية أو موصولة

والعائد محذوف أي يفعلونه والكلام بتقدير مضاف أي ثواب أو جزاء ما كانوا الخ وقيل هو بتقدير باء السببية أي هل ثوب الكفار بما كانوا وقرأ النحويان وحمزة وابن محيصن بإدغام اللام في الثاء والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(27/808)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) ﴾

قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ للردع ، والزجر عما كانوا عليه ، والتكرير للتأكيد ، وجملة : ﴿ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيّينَ ﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن يكون كلا بمعنى : حقاً ، والأبرار : هم المطيعون ، وكتابهم صحائف حسناتهم .

قال الفراء : عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له ، ووجه هذا أنه منقول من جمع عليّ من العلوّ .

قال الزجاج : هو إعلاء الأمكنة .

قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع ؛ لأنه على لفظ الجمع ، ولا واحد له من لفظه نحو : ثلاثين ، وعشرين ، وقنسرين .

قيل : هو علم لديوان الخير الذي دوّن فيه ما عمله الصالحون .

وحكى الواحدي عن المفسرين أنه السماء السابعة .

قال الضحاك ، ومجاهد ، وقتادة يعني : السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين .

وقال الضحاك : هو سدرة المنتهى ينتهي إليه كل شيء من أمر الله لا يعدوها ، وقيل هو الجنة ، وقال قتادة أيضاً : هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى ، وقيل : إن عليين صفة للملائكة ، فإنهم في الملأ الأعلى ، كما يقال فلان في بني فلان أي : في جملتهم ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ أي : وما أعلمك يا محمد أيّ شيء عليون على جهة التفخيم والتعظيم لعليين ، ثم فسره فقال : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ أي : مسطور ، والكلام في هذا كالكلام المتقدم في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين : 8 ، 9] وجملة : ﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب ، والمعنى : أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ، وقيل : يشهدون بما فيه يوم القيامة .

قال وهب وابن إسحاق : المقرّبون هنا إسرافيل ، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة ، ولها نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى تنتهي بها إلى إسرافيل ، فيختم عليها .

ثم ذكر سبحانه حالهم في الجنة بعد ذكر كتابهم ، فقال : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ أي : إن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره ﴿ عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ ﴾ الأرائك : الأسرة التي في الحجال ، وقد تقدّم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة .

قال الحسن : ما كنا ندري ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن ، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير .

ومعنى : ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ : أنهم ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامات ، كذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وغيرهما .

وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار ، وقيل : ينظرون إلى وجهه ، وجلاله .

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أي : إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور ، والحسن ، والبياض ، والبهجة ، والرونق ، والخطاب لكلّ راء يصلح لذلك ، يقال أنضر النبات : إذا أزهر ونوّر .

قال عطاء : وذلك أن الله زاد في جمالهم ، وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف .

قرأ الجمهور ﴿ تعرف ﴾ بفتح الفوقية ، وكسر الراء ، ونصب نضرة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ، ويعقوب ، وشيبة ، وطلحة ، وابن أبي إسحاق بضم الفوقية ، وفتح الراء على البناء للمفعول ، ورفع نضرة بالنيابة ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ قال أبو عبيدة ،

والأخفش ، والمبرد ، والزجاج : الرحيق من الخمر ما لا غشّ فيه ، ولا شيء يفسده .

والمختوم الذي له ختام .

وقال الخليل : الرحيق أجود الخمر ، وفي الصحاح الرحيق صفرة الخمر .

وقال مجاهد : هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم . . . بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهد : ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ : مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى : أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار .

وقال سعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي : ختامه آخر طعمه .

(29/808)

وهو معنى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك .

وقيل : مختوم أوانيه من الأكواب ، والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته ، وطيب رائحته .

والحاصل أن المختوم ، والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره ، أو من ختم الشيء

وهو جعل الخاتم عليه ، كما تختم الأشياء بالطين ، ونحوه .

قرأ الجمهور : ﴿ ختامه ﴾ وقرأ عليّ ، وعلقمة ، وشقيق ، والضحاك ، وطاووس ، والكسائي : " خاتمه " بفتح الخاء ، والتاء ، وألف بينهما .

قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمه مسكاً : أي : آخره ، والخاتم ، والختام يتقاربان في المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم ، والختام المصدر ، كذا قال الفراء قال في الصحاح : والختام الطين الذي يختم به ، وكذا قال ابن زيد .

قال الفرزدق :

وبتن بجانبي مصرّعات . . . وبت أفضّ أغلاف الختام

﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ أي : فليرغب الراغبون ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة ، وقيل : إن في بمعنى إلى ، أي : وإلى ذلك ، فليتبادر المتبادرون في العمل ، كما في قوله : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ [الصافات : 61] وأصل التنافس التشاجر على الشيء ، والتنازع فيه ، بأن يحب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه ، يقال نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة أي : ظننت به ، ولم أحبّ أن يصير إليه .

قال البغوي : أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ، فيريده كل واحد

لنفسه ، وينفس به على غيره أي : يضن به .

قال عطاء : المعنى : فليستبق المستبقون .

(30/808)

وقال مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون ، وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ معطوف على ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ صفة أخرى لرحيق أي : ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم ، وهو شراب ينصبّ عليهم من علو ، وهو أشرف شراب الجنة ، وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع ، فهي عين ماء تجري من علوّ إلى أسفل ، ومنه سنام البعير لعلوّه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور ، ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ وانتصاب عيناً على المدح . وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن تكون ﴿ عيناً ﴾ حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ وقال الأخفش : إنها منصوبة ب ﴿ يسقون ﴾ أي : يسقون عيناً ، أو من عين ، وقال الفرّاء : إنها منصوبة ب ﴿ تسنيم ﴾ على أنه مصدر مشتق من السنام ، كما في قوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ﴾ [البلد : 14 ، 15] والأوّل أولى ، وبه قال المبرّد .

قيل : والباء في بها زائدة أي : يشربها ، أو بمعنى من أي : يشرب منها .

قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش ، قيل : يشرب بها المقرّبون صرفاً ، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ وهم كفار قريش ، ومن وافقهم على الكفر ﴿ كَانُواْ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ أي : كانوا في الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ ﴾ أي : وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ من الغمز ، وهو الإشارة بالجفون والحواجب : أي : يغمز بعضهم بعضاً ، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم ، وقيل : يعيرونهم بالإسلام ، ويعيبونهم به ﴿ وَإِذَا انقلبوا ﴾ أي : الكفار ﴿ إلى أَهْلِهِمْ ﴾ من مجالسهم ﴿ انقلبوا فاكهين ﴾ أي : معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين ، والطعن فيهم ، والاستهزاء بهم ، والسخرية منهم .

(31/808)

والانقلاب : الانصراف .

قرأ الجمهور : " فاكهين " وقرأ حفص ، وابن القعقاع ، والأعرج ، والسلمي : ﴿ فكهين ﴾ بغير ألف .

قال الفرّاء : هما لغتان ، مثل طمع وطامع ، وحذر وحاذر .

وقد تقدّم بيانه في سورة الدخان أن الفكه : الأشر البطر ، والفاكه : الناعم المتنعم ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي : إذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ في اتباعهم محمداً ، وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر ، ويجوز أن يكون المعنى : وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول ، والأوّل أولى ، وجملة : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافظين ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل قالوا : أي : قالوا ذلك أنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم .

﴿ فاليوم الذين ءامَنُوا ﴾ المراد باليوم : اليوم الآخر ﴿ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ والمعنى : أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ، وجملة : ﴿ عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يضحكون ﴾ : أي : يضحكون منهم ناظرين إليهم ، وإلى ما هم فيه من الحال الفظيع ، وقد تقدّم تفسير الأرائك قريباً .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله ، وهم يعذبون في النار ، فضحكوا منهم ، كما ضحكوا منهم في الدنيا .

وقال أبو صالح : يقال لأهل النار اخرجوا ، ويفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا

إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ .

(32/808)

﴿ هَلْ ثُوّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين ، والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوّب بمعنى : أثيب ، والمعنى : هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين ؟ وقيل : الجملة في محل نصب بينظرون ، وقيل : هي على إضمار القول : أي : يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوّب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويطلق على الخير والشرّ .

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ إِنّ كتاب الابرار لَفِى عِلّيّينَ ﴾ قال : روح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء ، ففتح لها أبواب السماء ، وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهي بها إلى العرش ، وتعرج الملائكة ، فيخرج لها من تحت العرش رقّ ، فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لَفِى عِلّيّينَ ﴾ قال : الجنة ، وفي قوله : ﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ قال : أهل السماء .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والطبراني ، وابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين " وأخرج ابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ نَضْرَةَ النعيم ﴾ قال : عين في الجنة يتوضئون منها ويغتسلون ، فتجري عليهم نضرة النعيم .

وأخرج عبد بن حميد ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ قال : الرحيق الخمر ، والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ قال : ممزوج ﴿ ختامه مِسْكٌ ﴾ قال : طعمه وريحه .

(33/808)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِن رَّحِيقٍ ﴾ قال : خمر ، وقوله : ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ قال : ختم بالمسك .

وأخرج الفريابي ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن مسعود في قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك ، ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول خلطه من الطيب كذا وكذا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي عن أبي الدرداء ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : هو : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها ، لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾ أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمتقين ، ويمزج لأصحاب اليمين .

وأخرج ابن المبارك ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ قال : عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ، ويشربها المقرّبون صرفاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ قال : هذا مما قال الله ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 402 . 404 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) ﴾

هذه من جملة القول الذي يقال يوم القيامة للفجار المحكيّ بقوله تعالى : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [المطففين : 17] لأنه مرتبط بقوله في آخره : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ إذ يتعين أن يكون قوله : ﴿ فَاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ حكاية كلام يصدر في يوم القيامة ، إذ تعريف "اليوم" باللام ونصبه على الظرفية يقتضيان أنه يوم حاضر موقّت به الفعل المتعلق هو به ، ومعلوم أن اليوم الذي يَضحَك فيه المؤمنون من الكفار وهم على الأرائك هو يوم حاضر حين نزول هذه الآيات وسيأتي مزيد إيضاح لهذا ولأن قوله : ﴿ كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ ظاهر في أنه حكاية كونٍ مضى ، وكذلك معطوفاته من قوله : "وإذا مَرّوا ، وإذا انقلبوا ، وإذا رَأوهم" فدل السياق على أن هذا الكلام حكاية قول ينادي به يوم القيامة مِن حضرة القدس على رؤوس الأشهاد .

فإذا جريتَ على ثاني الوجهين المتقدمين في موقع جُمل ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ [المطففين : 18] الآيات ، من أنها محكية بالقول الواقع في قوله تعالى : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [المطففين : 17] إلى هنا فهذه متصلة بها .

والتعبير عنهم بالذين أجرموا إظهار في مقام الإِضمار على طريقة الالتفات إذ مقتضى الظاهر أن يقال لهم : إنكم كنتم من الذين آمنوا تضحكون ، وهكذا على طريق الخطاب وإن جريت على الوجه الأول بجعل تلك الجمل اعتراضاً ، فهذه الجملة مبدأ كلام متصل بقوله : ﴿ ثم إنهم لصَالوا الجحيم ﴾ [المطففين : 16] واقع موقع بدل الاشتمال لمضمون جملة : ﴿ إنهم لصالوا الجحيم ﴾ [المطففين : 16] باعتبار ما جاء في آخر هذا من قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ فالتعبير بالذين أجرموا إذَن جار على مقتضى الظاهر وليس بالتفات .

(35/808)

وقد اتّضح بما قرَّرناه تناسب نظم هذه الآيات من قوله : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ [المطففين : 18] إلى هنا مزِيدَ اتضاح ، وذلك مما أغفل المفسرون العناية بتوضيحه ، سوى أن ابن عطية أورد كلمة مجملة فقال : "ولما كانت الآيات المتقدمة قد نيطت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذبين ساغ أن يقول : ﴿ فاليوم ﴾ على حكاية ما يقال أ هـ . و ﴿ إذا ﴾ في المواضع الثلاثة مستعمل للزمان الماضي كقوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ﴾ [

التوبة : 92] وقوله : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ [النساء : 83] .

والمقصود من ذكره أنه بعد أن ذكر حال المشركين على حِدة ، وذكر حال المسلمين على حِدة ، أعقب بما فيه صفة لعاقبة المشركين في معاملتهم للمؤمنين في الدنيا ليعلموا جزاء الفريقين معاً .

وإصدار ذلك المقال يوم القيامة مستعمل في التنديم والتشميت كما اقتضته خلاصته من قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ إلى آخر السورة .

والافتتاح بـ ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ بصورة الكلام المؤكد لإفادة الاهتمام بالكلام وذلك كثير في افتتاح الكلام المراد إعلانه ليتوجه بذلك الافتتاح جميع السامعين إلى استماعه للإِشعار بأنه خبر مهم .

والمراد بـ ﴿ الذين أجرموا ﴾ المشركون من أهل مكة وخاصة صناديدهم .

وهم أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبي معيط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن هشام ، والنضْر بن الحارث ، كانوا يضحكون من عمار بن ياسر ، وخباب بن الأرَتّ ، وبلال ، وصهيب ، ويستهزئون بهم .

وعبر بالموصول وهذه الصلة : ﴿ الذين أجرموا ﴾ للتنبيه على أن ما أخبر به عنهم هو إجرام ، وليظهر موقع قوله : ﴿ هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ [المطففين : 36] .

والإِجرام : ارتكاب الجُرم وهو الإثم العظيم ، وأعظم بالإِجرام الكُفر ويؤذن تركيب "كانوا يضحكون" بأن ذلك صفة ملازمة لهم في الماضي ، وصوغ ﴿ يضحكون ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم وأنه ديدن لهم .

وتعدية فعل ﴿ يضحكون ﴾ إلى الباعث على الضحك بحرف ﴿ مِن ﴾ هو الغالب في تعدية أفعال هذه المادة على أن (مِن) ابتدائية تشبِّه الحالةُ التي تبعث على الضحك بمكان يَصدر عنه الضحك ، ومثله أفعال : سخر منه ، وعجب منه .

ومعنى يضحكون منهم : يضحكون من حالهم فكان المشركون لبطرهم يهزأوون بالمؤمنين ومعظمهم ضعاف أهل مكة فيضحكون منهم ، والظاهر أن هذا يحصل في نواديهم حين يتحدثون بحالهم بخلاف قوله : ﴿ وإذا مرّوا بهم يتغامزون ﴾ .

واعلم أنه إذا كان سبب الضحك حالة خاصة من أحوال كان المجرور اسم تلك الحالة نحو : ﴿ فتبسم ضاحكاً مِن قولها ﴾ [النمل : 19] وإذا كان مجموعَ هيئة الشيء كان المجرور اسم الذات صاحبة الأحوال لأن اسم الذات أجمع للمعروف من أحوالها نحو : ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ [المؤمنون : 110] .

وقول عبد يغوث الحارث :

وتَضحك منّي شَيْخَةٌ عبشميّة

كأنْ لَم تَرى قبلي أسيراً يمانياً . . .

والتغامز : تفاعل من الغمز ويُطلق على جسّ الشيء باليد جسّاً مكيناً ، ومنه غمز القناة لتقويمها وإزالةِ كعوبها .

وفي حديث عائشة : "لقد رأيتني ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا مضطجعة بينه وبين القبلة فإذا أراد أن يسجد غمزَ رِجْلَيَّ فقبضتُهما" .

ويطلق الغمز على تحريك الطَّرْف لقصد تنبيه الناظر لما عسى أن يفوته النظر إليه من أحوال في المقام وكلا الإِطلاقين يصح حمل المعنى في الآية عليه .

وضمير ﴿ مروا ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ الذين أجرموا ﴾ فيكون ضمير ﴿ بهم ﴾ عائداً إلى ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، ويجوز العكس ، وأما ضمير ﴿ يتغامزون ﴾ فمتمحّض للعود إلى ﴿ الذين أجرموا ﴾ .

(37/808)

والمعنى : وإذا مرّ المؤمنون بالذين أجرموا وهم في مجالسهم يتغامز المجرمون حين مرور المؤمنين أوْ وإذا مرّ الذين أجرموا بالذين آمنوا وهم في عملهم وفي عسر حالهم يتغامز المجرمون حين مرورهم ، وإنما يتغامزون من دون إعلان السخرية بهم اتقاء لتطاول المؤمنين عليهم بالسب لأن المؤمنين قد كانوا كثيراً بمكة حين نزول هذه السورة ، فكان هذا دأب المشركين في معاملتهم وهو الذي يُقرَّعُون به يوم القيامة .

والإِنقلاب : الرجوع إلى الموضع الذي جيء منه .

يقال : انقلب المسافر إلى أهله وفي دعاء السفر : "أعوذُ بك من كآبة المنقلب" .

وأصله مستعار من قَلَب الثوب ، إذا صرفه من وجه إلى وجه آخر ، يقال : قلب الشيء ، إذا أرجعه .

وأهل الرجل : زوجه وأبناؤه ، وذكر الأهل هنا لأنهم ينبسط إليهم بالحديث فلذلك قيل : ﴿ إلى أهلهم ﴾ دون : إلى بيوتهم .

والمعنى : وإذا رجع الذين أجرموا إلى بيوتهم وخلَصوا مع أهلهم تحدثوا أحاديث الفكاهة معهم بذكر المؤمنين وذمهم .

وتكرير فعل : ﴿ انقلبوا ﴾ بقوله : ﴿ انقلبوا فاكهين ﴾ من النسج الجزل في الكلام كان يكفي أن يقول : وإذا انقلبوا إلى أهلهم فَكِهوا ، أو إذا انقلبوا إلى أهلهم كانوا فاكهين .

وذلك لما في إعادة الفعل من زيادة تقرير معناه في ذهن السامع لأنه مما ينبغي الاعتناء به ،

ولزيادة تقرير ما في الفعل من إفادة التجدد حتى يكون فيه استحضار الحالة .

قال ابن جنّي في كتاب "التنبيه على إعراب الحماسة" عند قول الأحوص :

فإذَا تَزولُ تزولُ عن مُتَخَمّطٍ

تُخْشَى بَوادِرُه على الأقران . . .

محال أن تقول إذا قمتُ قمتُ وإذا أقعدُ أقعد لأنه ليس في الثاني غير ما في الأول ، أي فلا يستقيم جعل الثاني جواباً للأول .

(38/808)

وإنما جاز أن يقول فإذا تزول تزول لما اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المفادة منه الفائدة ومثله قول الله تعالى : ﴿ هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ﴾ [القصص : 63] ولو قال : هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم لم يفدِ القول شيئاً لأنه كقولك الذي ضربتُه ضربتُه والتي أكرمتُها أكرمتُها ولكن لما اتصل بـ ﴿ أغويناهم ﴾ الثانية قولُه : ﴿ كما غوينا ﴾ أفاد الكلام كقولك الذي ضربتُه ضربتُه لأنه جاهل .

وقد كان أبو عَلي امتنع في هذه الآية مما أخذناه غير أن الأمر فيها عندي على ما عرفتك أ هـ .

وقد مضى ذلك في سورة القصص وفي سورة الفرقان .

و﴿ فاكهين ﴾ اسم فاعل فاكه ، وهو من فَكِه من باب فرح إذا مزَح وتحدّث فأضحَكَ ، والمعنى : فاكهين بالتحدث عن المؤمنين ، فحذف متعلق ﴿ فاكهين ﴾ للعلم بأنه من قبيل متعلقات الأفعال المذكورة معه .

وقرأ الجمهور : ﴿ فاكهين ﴾ بصيغة الفاعل .

وقرأه حفص عن عاصم وأبو جعفر "فكهين" بدون ألف بعد الفاء على أنه جمع فَكِه ، وهو صفة مشبهة وهما بمعنى واحد مثل فارح وفرح .

وقال الفراء : هما لغتان .

وجملة : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ حكت ما يقوله الذين أجرموا في المؤمنين إذا شاهدوهم أي يجمعون بين الأذى بالإِشارات وبالهيئة وبسوء القول في غيبتهم وسوء القول إعلاناً به على مسامع المؤمنين لعلهم يرجعون عن الإِسلام إلى الكفر ، أم كان قولاً يقوله بعضهم لبعض إذا رأوا المؤمنين كما يفكهون بالحديث عن المؤمنين في خلواتهم ، وبذلك أيضاً فارق مضمون هذه الجملة مضمون الجمل التي قبلها مع ما في هذه الجملة من عموم أحوال رؤيتهم سواء كانت في حال المرور بهم أو مشاهدة في مقرهم .

ومرادهم بالضلال : فساد الرأي .

لأن المشركين لا يعرفون الضلال الشرعي ، أي هؤلاء سيئوا الرأي إذِ اتبعوا الإِسلام وانسلخوا عن قومهم ، وفرطوا في نعيم الحياة طمعاً في نعيم بعد الموت وأقبلوا على الصلاة والتخلّق بالأخلاق التي يراها المشركون أوهاماً وعنتاً لأنهم بمعزل عن مقدرة قَدْر الكمال النفساني وما همهم إلا التلذذ الجثماني .

وكلمة ﴿ إذا ﴾ في كل جملة من الجمل الثلاث ظرف متعلّق بالفعل الموالي له في كل جملة .

ولم يعرج أحد من المفسّرين على بيان مفاد جملة : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ مع ما قبلها .

وقال المهايمي في "تبصرة الرحمان" : "وإذا رأوهم يُؤْثِرون الكمالاتِ الحقيقية على الحسية" فقدَّر مفعولاً محذوفاً لفعل ﴿ رأوهم ﴾ لإِبداء المغايرة بين مضمون هذه الجملة ومضمون الجُمل التي قبلها وقد علمت عدم الاحتياج إليه ولقد أحسن في التنبيه عليه .

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد ولام الابتداء لقصد تحقيق الخبر .

وجملة : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ في موضع الحال أي يلمزوهم بالضلال في حال أنهم لم يرسلهم مرسل ليكونوا موكلين بأعمالهم فدل على أن حالهم كحال المرسَل ولذلك نُفي أن يكونوا أرسلوا حافظين عليهم فإن شدة الحرص على أن يقولوا : إن هؤلاء لضالون ، كلما رأوهم يشبه حال المرسَل ليتتبع أحوال أحد ومن شأن الرسول الحرص على التبليغ .

والخبر مستعمل في التهكم بالمشركين ، أي لم يكونوا مقيَّضين للرقابة عليهم والاعتناء بصلاحهم .

فمعنى الحِفظ هنا الرَّقابة ولذلك عدّي بحرف (على) ليتسلط النفي على الإرسال والحِفظ ومعنَى الاستعلاء المجازي الذي أفاده حرف (على) فينتفي حالُهم الممثَّلُ .

وتقديم المجرور على متعلَّقه للاهتمام بمفاد حرف الاستعلاء وبمجروره معَ الرعاية على الفاصلة .

(40/808)

وأفادت فاء السّببيّة في قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ ، أن استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا كان سبباً في جزائهم بما هو من نوعه في الآخرة إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين فكان جزاء وفاقاً .

وتقديم "اليوم" على ﴿ يضحكون ﴾ للاهتمام به لأنه يوم الجزاء العظيم الأبدي وقوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ في اتصال نظمه بما قبله غموض .

وسكت عنه جميع المفسرين عدا ابن عطية .

ذلك أن تعريف اليوم باللام مع كونه ظرفاً منصوباً يقتضي أن اليوم مراد به يومٌ حاضر في وقت

نزول الآية نظير وقتِ كلام المتكلم إذا قال : اليوم يكون كذا ، يتعين أنه يخبر عن يومه الحاضر ، فليس ضَحِك الذين آمنوا على الكفار بحاصل في وقت نزول الآية وإنما يحصل يوم الجَزاء ، ولا يستقيم تفسير قوله : ﴿ فاليوم ﴾ بمعنى : فيوم القيامة الذين آمنوا يضحكون من الكفار ، لأنه لو كان كذلك لكان مقتضى النظم أن يقال فيومئذ الذين آمنوا من الكفار يضحكون .

وابن عطية استشعر إشكالها فقال : "ولما كانت الآيات المتقدمة قد نيطت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذبين ساغ أن يقول : ﴿ فاليوم ﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون أهـ .

وهو انقداح زناد يحتاج في تَنَوُّرِه إلى أعواد .

فإمّا أن نجعل ما قبله متصلاً بالكلام الذي يقال لهم يوم القيامة ابتداء من قوله : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ [المطففين : 17] إلى هنا كما تقدم .

وإمّا أن يجعل قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا ﴾ الخ مقول قول محذوف دل عليه قوله في الآية قبله : ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ .

والتقدير : يقال لهم اليومَ الذين آمنوا يضحكون منكم .

(41/808)

وقدم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ دون أن يقال : فاليوم يضحك الذين آمنوا ، لإِفادة الحصر وهو قصر إضافي في مقابلة قوله : ﴿ كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ أي زال استهزاء المشركين بالمؤمنين فاليومَ المؤمنون يضحكون من الكفار دون العكس .

وتقديم ﴿ من الكفار ﴾ على متعلَّقه وهو ﴿ يضحكون ﴾ للاهتمام بالمضحوك منهم تعجيلاً لإِساءتهم عند سماع هذا التقريع .

وقوله : ﴿ من الكفار ﴾ إظهار في مقام الإِضمار ، عُدل عن أن يقال : منهم يضحكون ، لما في الوصف المظهر من الذم للكفار .

ومفعول ﴿ ينظرون ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ من الكفار يضحكون ﴾ تقديره : ينظرونهم ، أي يشاهدون المشركين في العذاب والإِهانة .

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

فذلكةٌ لما حُكي من اعتداء المشركين على المؤمنين وما ترتب عليه من الجزاء يوم القيامة ، فالمعنى فقَد جوزي الكفار بما كانوا يفعلون وهذا من تمام النداء الذي يعلق به يوم القيامة .

والاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ تقريري وتعجيب من عدم إِفلاتهم منه بعد دهور .

والاستفهام من قبيل الطلب فهو من أنواع الخطاب .

والخطاب بهذا الاستفهام موجه إلى غير معيّن بل إلى كل من يسمع ذلك النداء يوم القيامة .

وهذا من مقول القول المحذوف .

و﴿ ثُوِّب ﴾ أعطِيَ الثوابَ ، يقال : ثَوَّبَهُ كما يقال : أثابه ، إذا أعطاه ثواباً .

والثواب : هو ما يجازى به من الخير على فعل محمود وهو حقيقته كما في "الصحاح" ، وهو ظاهر "الأساس" ولذلك فاستعماله في جزاء الشر هنا استعارة تهكمية .

وهذا هو التحقيق وهو الذي صرح به الراغب في آخر كلامه إذ قال : إنه يستعمل في جزاء الخير والشر .

أراد أنه يستعار لجزاء الشر بكثرة فلا بد من علاقة وقرينة وهي هنا قوله : ﴿ الكفار ﴾ ما كانوا يفعلون كقول عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منا . . .

فعجَّلنا القِرى أن تَشْتُمونا

قَرَيْناكم فعَجَّلْنا قِراكم . . .

(42/808)

قُبيل الصُّبح مِرْداة طحونا

ومن قبيل قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : 24] .

و ﴿ ما كانوا يفعلون ﴾ موصول وهو مفعول ثان لفعل ﴿ ثوب ﴾ إذ هو من باب أعطى .

وليس الجزاء هو ما كانوا يفعلونه بل عبر عنه بهذه الصلة لمعادلته شدَّةَ جرمهم على طريقة التشبيه البليغ ، أو على حذف مضاف تقديره : مثلَ ، ويجوز أن يكون على نزع الخافض وهو باء السببية ، أي بما كانوا يفعلون .

وفي هذه الجملة محسن براعة المقطع لأنها جامع لما اشتملت عليه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(43/808)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : أول ما نزل بالمدينة ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

وأخرج النسائي وابن ماجة وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان بسند صحيح عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

وأخرج ابن سعد والبزار والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل سباع بن عرفطة على المدينة لما خرج إلى خيبر فقرأ ﴿ ويل للمطففين ﴾ فقلت : هلك فلان له صاع يعطي به وصاع يأخذ به .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر أنه قرأ ﴿ ويل للمطففين ﴾ فبكى وقال : هو الرجل يستأجر الرجل أو الكيال وهو يعلم أنه يخيف في كيله فوزره عليه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سلمان قال : إنما الصلاة مكيال فمن أوفى أوفي له ، ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله في المطففين .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في شعب الإِيمان عن وهب بن منبه قال : تركك المكافأة تطفيف . قال الله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

أخرج مالك وهناد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه " .

(44/808)

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمر قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال : " كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم " " .

وأخرج عن ابن مسعود إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً .

وأخرج أحمد في الزهد عن القاسم بن أبي بزة قال : حدثني من سمع أن عمر قرأ ﴿ ويل للمطففين ﴾ حتى بلغ ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة فيهون ذلك اليوم على المؤمن كتدلي الشمس من الغروب حتى تغرب .

وأخرج الطبراني عن ابن عمرو أنه قال : " يا رسول الله : كم قيام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة ؟ قال : " ألف سنة لا يؤذن لهم " " .

وأخرج ابن المنذر عن كعب في الآية قال : يقومون ثلاثمائة عام لا يؤذن لهم بالقعود ، فأما

المؤمن فيهون عليه كالصلاة المكتوبة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : يقومون مقدار ثلاثمائة سنة ، ويخفف الله ذلك اليوم ويقصره على المؤمن كمقدار نصف يوم أو كصلاة مكتوبة .

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة يقوم الناس على أقدامهم يوم القيامة ثلاثمائة سنة ، ويهون ذلك اليوم على المؤمن كقدر الصلاة المكتوبة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبشير الغفاري : "كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس لرب العالمين مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا لا يأتيهم خبر من السماء ، ولا يؤمر فيهم بأمر ؟ قال بشير : المستعان بالله يا رسول الله . قال : إذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من شر يوم القيامة ومن شر الحساب " .

(45/808)

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه : " أن رجلاً كان له من رسول الله صلى الله عليه وسلم : مقعد يقال له بشير ففقده النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً فرآه شاحباً فقال : ما غير لونك يا بشير ؟ قال : اشتريت بعيراً فشرد عليّ فكنت في طلبه ، ولم أشترط فيه شرطاً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن البعير الشرود يرد منه إنما غير

لونك غير هذا . قال : لا . قال : فكيف بيوم يكون مقداره خمسين ألف سنة ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ " .

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها فيهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى السجين ، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خد إبليس لهلاكه للحساب ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ﴾ وقوله : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ قال : إن روح المؤمن إذا عرج بها إلى السماء فتنفتح لها أبواب السماء ، وتلقاه الملائكة بالبشرى حتى ينتهي بها إلى العرش ، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العرش رق فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة للحساب يوم القيامة ، ويشهد الملائكة المقربون ، فذلك قوله : ﴿ وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب رضي الله عنه في الآية قال : قد رقم الله على الفجار ما هم عاملون في سجين ، فهو أسفل ، والفجار منتهون إلى ما قد رقم الله عليهم ، ورقم على الأبرار ما هم عاملون في عليين ، وهم فوق فهم منتهون إلى ما قد رقم

الله عليهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجين أسفل الأرضين .

(46/808)

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الفلق جب في جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال : عملهم في الأرض السابعة لا يصعد .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال : تحت الأرض السفلى فيها أرواح الكفار ، وأعمالهم أعمال السوء .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والمحاملي في أماليه عن مجاهد رضي الله عنه قال : سجين صخرة تحت الأرض السابعة في جهنم تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال : تحت الأرض السفلى .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق عن قتادة ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال

: هو أسفل الأرض السابعة ﴿ كتاب مرقوم ﴾ قال : مكتوب . قال قتادة : ذكر لنا أن عبد الله بن عمر كان يقول : الأرض السفلى فيها أرواح الكفار وأعمالهم السوء .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سجين الأرض السابعة السفلى " .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو قال : الأرض السفلى فيها أرواح الكفار وأعمالهم السوء .

وأخرج ابن المبارك عن ابن جريج قال : بلغني أن ﴿ سجين ﴾ الأرض السلفى ، وفي قوله : ﴿ مرقوم ﴾ قال : مكتوب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كتاب مرقوم ﴾ قال : رقم لهم بشر .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ﴿ لفي سجين ﴾ قال : لفي خسار .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الملك يرفع العمل للعبد يرى أن في يديه منه سروراً حتى ينتهي إلى الميقات الذي وصفه الله له ، فيضع العمل فيه فيناديه الجبار من فوقه إرم بما معك في ﴿ سجين ﴾ وسجين الأرض السابعة . فيقول الملك : ما رفعت إليه إلا حقاً فيقول : صدقت إرم بما معك في سجين .

وأخرج عبد بن حميد وابن ماجة والطبراني والبيهقي في البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعباً الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابني فاقرئه مني السلام فقال لها : غفر الله لك يا أم بشر نحن أسفل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت ، وإن نسمة الكافر في سجين ؟ قال : بلى فهو ذلك " .

وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال : التقى سلمان وعبد الله بن سلام فقال أحدهما لصاحبه : إن مت قبلي فالقني فأخبرني بما صنع ربك بك ، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك . فقال عبد الله : كيف يكون هذا ؟ قال : نعم ، إن أرواح المؤمنين تكون في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ، ونفس الكافر في سجين والله أعلم .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

أخرج أحمد وعبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححاه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن العبد إذا أذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه . وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن بعض الصحابة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من قتل مؤمناً أسودَّ سدس قلبه ، وإن قتل اثنين أسود ثلث قلبه ، وإن قتل ثلاثة رين على قلبه فلم يبال ما قتل ، فذلك قوله : ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ " .

(48/808)

وأخرج الفريابي والبيهقي عن حذيفة رضي الله عنه قال : القلب هكذا مثل الكف فيذنب الذنب فينقبض منه ثم يذنب الذنب فينقبض منه حتى يختم عليه فيسمع الخير ، فلا يجد له مساغاً يجمع فإذا اجتمع طبع عليه ، فإذا سمع خيراً دخل في أذنيه حتى يأتي القلب فلا يجد فيه مدخلاً فذلك قوله : ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال : كانوا يرون أن القلب مثل الكف ، وذكر مثله .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ قال : إذا عمل الرجل الذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ثم يعمل الذنب بعد ذلك ، فينكت في قلبه نكتة سوداء ، ثم كذلك حتى يسود عليه ، فإذا ارتاح العبد ، قال : ييسر له عمل صالح فيذهب من السواد بعضه ثم ييسر له عمل صالح أيضاً فيذهب من السواد

بعضه ، ثم ييسر له أيضاً عمل صالح فيذهب من السواد بعضه ، ثم كذلك حتى يذهب السوء كله .

(49/808)

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " لن تنفكروا بخير ما استغنى أهل بدوكم عن أهل حضركم وليسوقنهم السنون والسنات حتى يكونوا معكم في الديار ، ولا تمتنعوا منهم لكثرة من يسير عليكم منهم قال : يقولون طالما جعنا وشبعتم ، وطالما شقينا ونعمتم فواسونا اليوم ولتستصعبن بكم الأرض حتى يغيظ أهل حضركم أهل بدوكم ، ولتميلن بكم الأرض ميلة يهلك منا من هلك ويبقى من بقي حتى تعتق الرقاب ، ثم تهدأ بكم الأرض بعد ذلك حتى يندم المعتقون ، ثم تميل بكم الأرض ميلة أخرى فيهلك فيها من هلك ويبقى من بقي يقولون : ربنا نعتق ربنا نعتق ، فيكذبهم الله كذبتم كذبتم ، أنا أعتق قال : وليبتلين أخريات هذه الأمة بالرجف ، فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإن عادوا عاد الله عليهم الرجف والقذف والخذف والمسخ والخسف والصواعق ، فإذا قيل : هلك الناس هلك الناس هلك الناس فقد هلكوا ، ولن يعذب الله أمة حتى تعذر قالوا : وما عذرها ؟ قال :

يعترفون بالذنوب ولا يتوبون ولتطمئن القلوب بما فيها من برها وفجورها كما تطمئن الشجرة بما فيها حتى لا يستطيع محسن يزداد إحساناً ولا يستطيع مسيء استعتاباً . قال الله : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ قال : أعمال السوء ذنب على ذنب حتى مات قلبه واسود .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ قال : أثبتت على قلبه الخطايا حتى غيرته .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ران ﴾ قال : طبع .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : الران الطابع .

(50/808)

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد رضي الله عنه في الآية كانوا يرون أن الرين هو الطبع .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه كانوا يرون أن القلب مثل الكف فيذنب الذنب

فينقبض منه ، ثم يذنب الذنب فينقبض ، حتى يختم عليه ويسمع الخير فلا يجد له مساغاً .

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه قال : الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الإِقفال ، والإِقفال أشد ذلك كله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ قال : يعمل الذنب فيحيط بالقلب ، فكلما عمل ارتفعت حتى يغشى القلب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ قال : الذنب على الذنب ، ثم الذنب على الذنب حتى يغمر القلب فيموت .

وأخرج عبد بن حميد من طريق خليد بن الحكم عن أبي الخير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع خصال تفسد القلب : مجاراة الأحمق فإن جاريته كنت مثله ، وإن سكت عنه سلمت منه ، وكثرة الذنوب مفسدة القلوب ، وقد قال : ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ والخلوة بالنساء ، والاستمتاع منهن ، والعمل برأيهن ، ومجالسة الموتى قيل وما الموتى قال : كل غني قد أبطره غناه " .

أخرج عبد بن حميد عن أبي مليكة الزيادي رضي الله عنه في قوله : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال : المنان والمختال والذي يقطع يمينه بالكذب ليأكل أموال الناس والله أعلم .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ كلا

إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ قال : عليون فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى ﴿ كتاب مرقوم ﴾ قال : رقم لهم بخير ﴿ يشهده المقربون ﴾ قال : المقربون من ملائكة الله .

وأخرج عبد بن حميد عن كعب رضي الله عنه قال : هي قائمة العرش اليمنى .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : عليون السماء السابعة .

(51/808)

وأخرج عبد بن حميد من طريق الأجلح عن الضحاك رضي الله عنه قال : إذا قبض روح العبد المؤمن يعرج به إلى السماء الدنيا ، فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية . قال الأجلح : فقلت : وما المقربون ؟ قال : أقربهم إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهي به إلى سدرة المنتهى . فقال الأجلح : فقلت للضحاك : ولم تسمى سدرة المنتهى ؟ قال : لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها فيقولون : رب عبدك فلان وهو أعلم به منهم ، فيبعث الله إليهم بصك مختوم يأمنه من العذاب ، وذلك قوله : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ لفي عليين ﴾ قال : الجنة ، وفي قوله : ﴿ يشهده المقربون ﴾ قال : كل أهل سماء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ يشهده المقربون ﴾ قال : هم مقربو أهل كل سماء إذا مر بهم عمل المؤمن شيعه مقربو كل أهل سماء حتى ينتهي العمل إلى السماء السابعة ، فيشهدون حتى يثبت السماء السابعة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما ، كتاب مرقوم في عليين " .

(52/808)

وأخرج عبد بن حميد من طريق خالد بن عرعرة وأبي عجيل أن ابن عباس سأل كعباً عن قوله تعالى : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ الآية ، قال : إن المؤمن يحضره الموت ويحضره رسل ربه فلا هم يستطيعون أن يؤخروه ساعة ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ، فدفعوه إلى ملائكة الرحمة ، فأروه ما شاء الله أن يروه من الخير ، ثم عرجوا بروحه إلى السماء فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة ، فيضعونه بين أيديهم ، ولا ينتظرون به صلاتكم عليه ، فيقولون : اللهم هذا

عبدك فلان قبضنا نفسه ، فيدعون له بما شاء الله أن يدعوا ، فنحن نحب أن يشهدنا اليوم كتابه ، فينثر كتابه من تحت العرش فيثبتون اسمه فيه ، وهم شهوده ، فذلك قوله : ﴿ كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ وسأله عن قوله : ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ الآية ، قال : إن العبد الكافر يحضره الموت ويحضره رسل الله ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه فدفعوه إلى ملائكة العذاب ، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر ثم هبطوا به إلى الأرض السفلى وهي سجين ، وهي آخر سلطان إبليس ، فأثبتوا كتابه فيها ، وسأله عن ﴿ سدرة المنتهى ﴾ فقال : هي سدرة نابتة في السماء السابعة ، ثم علت على الخلائق إلى ما دونها و

﴿ عندها جنة المأوى ﴾ [النجم : 15] قال : جنة الشهداء .

(53/808)

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء بن يسار قال : لقيت رجلاً من حمير كأنه علامة يقرأ الكتب فقلت له : الأرض التي نحن عليها ما سكانها ؟ قال : هي على صخرة خضراء تلك الصخرة على كف ملك ، ذلك الملك قائم على ظهر حوت منطو بالسموات والأرض من تحت العرش . قلت : الأرض الثانية من سكانها ؟ قال : سكانها الريح العقيم ، لما أراد

الله أن يهلك عاداً أوحى إلى خزنتها أن افتحوا عليهم منها باباً . قالوا : يا ربنا مثل منخر الثور ؟ قال : إذن تكفأ الأرض ومن عليها . فضيق ذلك حتى جعل مثل حلقة الخاتم ، فبلغت ما حدث الله . قلت : الأرض الثالثة من ساكنها ؟ قال : فيها حجارة جهنم . قلت : الأرض الرابعة من ساكنها ؟ قال : فيها كبريت جهنم . قلت : الأرض الخامسة من ساكنها ؟ قال : فيها عقارب جهنم . قلت : الأرض السادسة من ساكنها ؟ قال : فيها حيات جهنم . قلت : الأرض السابعة من ساكنها ؟ قال : تلك سجين فيها إبليس موثق يد أمامه ويد خلفه ، ورجل خلفه ورجل أمامه . كان يؤذي الملائكة ، فاستعدت عليه فسجن هناك ، وله زمان يرسل فيه ، فإذا أرسل لم تكن فتنة الناس بأعي عليهم من شيء .

وأخرج ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله يستكثرونه ويزكونه حتى يبلغوا به حيث يشاء الله من سلطانه ، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه . إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين . ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحتقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه ، فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه . إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين " .

وأخرج ابن الضريس عن أم الدرداء قالت : إن درج الجنة على عدد آي القرآن ، وإنه يقال لصاحب القرآن اقرأ وارقه فإن كان قد قرأ ثلث القرآن كان على الثلث من درج الجنة ، وإن كان قد قرأ نصف القرآن كان على النصف من درج الجنة ، وإن كان قد قرأ القرآن كان في أعلى عليين ، ولم يكن فوقه أحد من الصديقين والشهداء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : إن لأهل عليين كوى يشرفون منها فإذا أشرف أحدهم أشرقت الجنة ، فيقول أهل الجنة قد أشرف رجل من أهل عليين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن كعب قال : يرى في الجنة كهيئة البرق فيقال : ما هذا ؟ قيل : رجل من أهل عليين تحوّل من غرفة إلى غرفة .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ﴾ قال : عاقبته مسك ، قوم يمزج لهم بالكافور ، ويختم لهم بالمسك ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : شراب من أشرف الشراب عيناً في الجنة يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن مجاهد في قوله : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال : الخمر ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : طينه

مسك ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : تسنيم عليهم من فوق دورهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن الحسن ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال : هي الخمرة ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : خفايا أخفاها الله لأهل الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال : الخمر ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : آخر طعمه مسك .

وأخرج عبد بن حميد عن علقمة ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : خلطه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مالك بن الحارث ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : هي عين في الجنة يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة .

(55/808)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : التسنيم أفضل شراب أهل الجنة . ألم تسمع يقال للرجل إنه لفي السنام من قوله .

وأخرج ابن المنذر عن علي قال : ﴿ نضرة النعيم ﴾ هي عين في الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فيجري عليهم نضرة النعيم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود ﴿ مختوم ﴾ قال : ممزوج ﴿ ختامه مسك ﴾ قال :

طعمه وريحه .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال : الرحيق الخمر والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والبيهقي في البعث من طريق عليّ عن ابن عباس ﴿ من رحيق مختوم ﴾ قال : ختم بالمسك .

وأخرج الفريابي والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك . ألم تر إلى المرأة من نسائكم تقول خلطه من الطيب كذا وكذا .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن علقمة مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن أبي الدرداء ﴿ ختامه مسك ﴾ قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلى وجد ريحها .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي سعيد رفعه : " أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم " .

وأخرج البيهقي عن عطاء قال : التسنيم اسم العين التي تمزج بها الخمر .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس ﴿ تسنيم ﴾ أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمقربين ويمزج لأصحاب اليمين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المبارك وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشرب بها المقربون صرفاً .

(56/808)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : هذا مما قال الله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن حذيفة بن اليمان قال : تسنيم عين في عدن يشرب بها المقربون صرفاً ويجري تحتهم أسفل منهم إلى أصحاب اليمين فيمزج أشربتهم كلها الماء والخمر واللبن والعسل يطيب بها أشربتهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي قال : تسنيم عين تنصب عليهم من فوق وهو

شراب المقربين .

أخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ قال : في الدنيا ويقولون والله إن هؤلاء لكذبة ، وما هم على شيء ، استهزاء بهم .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في البعث عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المستهزئين بالناس في الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنة فيقال : هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال : هلم هلم فيجيء بكربه وغمه ، فإذا أتاه أغلق دونه ، فما يزال كذلك حتى إنه ليفتح له الباب فيقول : هلم هلم فلا يأتيه من إياسه " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ قال : قال كعب : إن بين أهل الجنة وأهل النار كوى لا يشاء الرجل من أهل الجنة أن ينظر إلى عدوه من أهل النار إلا فعل .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ هل ثوِّب ﴾ قال : جوزي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 441.453 ﴾

(57/808)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

يعني : الشدة من العذاب للذين ينقصون المكيال والميزان وإنما سمي الذي يخون في المكيال والميزان مطففاً لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الخفيف الطفيف ثم بيّن أمرهم فقال : ﴿ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ يعني : استوفوا من الناس لأنفسهم وعلى بمعنى عن بمعنى إذا اكتالوا عن الناس يستوفون يتمون الكيل والوزن ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ يعني : إذا باعوا من غيرهم ينقصون الكيل ﴿ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ يعني : ينقصون الكيل وقال بعضهم كالوهم حرفان يعني : كالوا ثم قال : هم وكذلك وزنوا ثم قال : هم يخسرون وذكر عن حمزة الزيات أنه قال هكذا ومعناه هم إذا كالوا أو وزنوا ينقصون وكان الكسائي يجعلها حرفاً واحداً كالوهم أي : كالوا لهم وكذلك وزنوا لهم وقال أبو عبيدة وهذه هي القراءة لأنهم كتبوها في المصاحف بغير ألف ولو كان مقطوعاً لكتبوا كالواهم بالألف ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ يعني : ألا يعلم المطفف وألا يستيقن بالبعث قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ يعني : يبعثون بعد الموت ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : يوم القيامة هولها شديد ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ يعني : في يوم يقوم الخلائق بين يدي الله تعالى وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يَقُومُ

النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ يَعْنِي : خَمْسَمِائَةِ عَامٍ وَذَلِكَ الْمَقَامُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَتَوَلِّي الشَّمْسَ " وروى نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يَقُومُ أَحَدُكُمْ ورشحه إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ " وقال ابن مسعود : إن الكافر ليلجم بعرقه حتى يقول أرحني ولو إلى النار ثم قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : لا يستيقنون البعث ثم استأنف ، فقال : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفجار ﴾ ويقال : هذا موصول بكلا إن كتاب يعني حقاً إن كتاب

(58/808)

الفجار ﴿ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ يعني : أعمال الكفار لفي سجين قال مقاتل وقتادة : السجين الأرض السفلى ، وقال الزجاج : السجين فعيل من السجن والمعنى : كتابهم في حبس جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم وقال مجاهد : سجين صخرة تحت الأرض السفلى فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وقال عكرمة : ﴿ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ أي : لفي خسارة وقال الكلبي : السجين الصخرة التي عليها الأرضون وهي مسجونة فيها أعمال الكفار وأرواحهم فلا تفتح لهم أبواب السماء ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ثم أخبر فقال : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ يعني : مكتوباً ويقال : مكتوب مختوم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني : شدة العذاب ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ يعني : شدة العذاب للمكذبين .

ثم بيّن فقال عز وجل : ﴿ الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ يعني : يجحدون بالبعث ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ ﴾ يعني : بيوم القيامة ﴿ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ يعني : كل معتد بالظلم آثم عاص لربه ويقال : كل مقيد للخلق أثيم يعني فاجر وهو الوليد بن المغيرة وأصحابه ومن كان في مثل حالهم ثم قال : ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أَساطير الاولين ﴾ يعني : أحاديث الأولين وكذبهم .

(59/808)

ثم قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني : لا يؤمن ﴿ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني : ختم ، ويقال : غطى على قلوبهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : ما عملوا من أعمالهم الخبيثة ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِذَا أَذْنَبَ العَبْدُ ذَنْباً كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاء فِي قَلْبِهِ فَإِذَا تَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ وَذَلِكَ قَوْلِه ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ " وقال قتادة : الذنب على الذنب حتى مات القلب (أسود) ويقال : غلف على قلوبهم ويقال : غطا على قلوبهم وقال أهل اللغة الرين : هو الصدأ والصدأ هو اسم البعد كما قال : ويصدهم عن سبيل الله يغشى على القلب ثم قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ يعني : لا يرونه يوم القيامة ويقال عن رحمته لممنوعون ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ

لَصَالُواْ الجحيم ﴾ يعني : دخلوا النار ﴿ ثُمَّ يُقَالُ ﴾ يعني : يقول لهم الخزنة ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ يعني : تجحدون ، وقلتم إنه غير كائن ثم قال عز وجل : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الابرار لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ يعني : حقاً إن كتاب المصدقين لفي عليين وهو فوق السماء السابعة ، فرفع كتابهم على قدر مرتبتهم ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلّيُّونَ ﴾ ثم وصفه فقال : ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ يعني : مكتوباً مختوماً في عليين ﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ يعني : يشهد على ذلك الكتاب سبعة أملاك من مقربي أهل كل سماء وقال بعضهم : الكتاب أراد به الروح والأعمال يعني : يرفع روحه وأعماله إلى عليين .

(60/808)

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الابرار لَفِى نَعِيم عَلَى الارائك يَنظُرُونَ ﴾ يعني : المؤمنين الصالحين لفي نعيم في الجنة على الأرائك ينظرون يعني على سرر في الحجال ينظرون إلى أهل النار ، ويقال : ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ يعني : أثر النعمة وسرورهم في وجوههم ظاهر ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ يعني : يسقون خمراً بيضاء ، وقال الزجاج : الرحيق الشراب الذي لا غش فيه ، قال القتبي : الرحيق الخمر العتيقة ، ثم قال : ﴿ مَّخْتُومٍ خِتَامه مِسْكٌ ﴾ يعني : إذا شرب منه رجل وجد عند فراغه من

الشراب ريح المسك قرأ الكسائي مسك ، وروي عن الضحاك أنه قرأ مثله والباقون ختامه مسك ومعناهما واحد ، والخاتم اسم والختام مصدر يعني : يجد شاربه ريح المسك حين ينزع الإناء من فيه ثم قال عز وجل : ﴿ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ يعني : بمثل هذا الثواب فليتبادر المتبادرون ، ويقال : فليتحاسد المتحاسدون ويقال : فليواظب المواظبون وليجتهد المجتهدون وهذا كما قال لمثل هذا فليعمل العاملون ثم قال : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ يعني : مزاج الخمر من ماء اسمه تسنيم وهو من أشرف الشراب في الجنة وإنما سمي تسنيماً لأنه يتسنم عليهم فينصب عليهم انصباباً ، وقال عكرمة : ألم تسمع إلى قول الرجل يقول إني لفي السنام من قومه فهو في السنام من الشراب ، وقال القتبي أصله من سنام البعير يعني : المرتفع ثم وصفه فقال عز وجل : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ يعني : التسنيم عيناً يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ يعني : أشركوا ﴿ كَانُواْ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ يعني : من ضعفاء المؤمنين يضحكون ويسخرون ويستهزؤون بهم ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يعني : يطعنون ويغتابون وذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر بنفر من

المنافقين ومعه نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون ، ويقال حكاية عن كفار مكة أنهم كانوا يضحكون من ضعفاء المسلمين وإذا مروا بهم وهم جلوس يتغامزون يعني يتطاعنون بينهم ويقولون هؤلاء الكسالى : ﴿ وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ يعني : رجعوا معجبين بما هم فيه ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ يعني : رأوا المؤمنين ﴿ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَء لَضَالُّونَ ﴾ يعني : تركوا طريقهم ﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حافظين ﴾ يعني : ما أرسل هؤلاء حافظين على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليحفظوا عليهم أعمالهم ، قال مقاتل : هذا كله في المنافقين يعني : ما وكل المنافقون بالمؤمنين يحفظون عليهم أعمالهم ، قرأ عاصم في رواية حفص انقلبوا فكهين بغير ألف وفي رواية حفص والباقون بالألف ومعناهما واحد وقال بعضهم : فاكهين ناعمين فكهين فرحين .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ يعني : في الجنة يضحكون على أهل النار وهم على سرر في الحجال وأعداؤهم في النار ﴿ عَلَى الارائك يَنظُرُونَ ﴾ إلى أعدائهم يعذبون في النار ﴿ هَلْ ثُوّبَ الكفار ﴾ يعني : جوزوا ، ويقال : هل جوزي الكفار وعوقبوا إلا ﴿ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : إلا بما عملوا في الدنيا من الاستهزاء ، وقال مقاتل : يعني : قد جوزي الكفار بأعمالهم الخبيثة جزاءً شراً والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 534.537 ﴾

وقال الثعلبى :

سورة المطففين

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

يعني الذين ينقصون الناس ويبخسون حقوقهم في الكيل والوزن ، وأصله من الشيء الطفيف وهو النزر القليل ، وإناءٌ طفاف إذا لم يكن ملآن ، ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء في حسبة أو عدد : هم كطف الصاع ، يعني ذلك : كقرب الملء منه ناقص عن الملء .

﴿ الذين إِذَا اكتالوا ﴾ أخذوا ﴿ عَلَى الناس ﴾ أي منهم ، وعلى ومن تتعاقبان في هذا الموضع ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ حقوقهم منه ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ أي كالوا لهم أو وزنوا لهم ، يقال : وزنتك حقّك ، وكِلْتك طعامك بمعنى وزنت لك وكلت لك ، قال الفراء : وهي لغة أهل الحجاز ومَنْ جاورهم من [. . . . .] قال : وسمعتُ أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المد والمدين إلى الموسم المقبل .

قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين حرفين ويقف على : كالوا ووزنوا ، ثمّ يبتدئ فيقول : هم يخسرون ، قال : وأحسب قراءة حمزة أيضاً كذلك ، قال أبو عبيد : والأختيار أن يكون كلمة واحدة من جهتين : إحداهما : الخط ، وذلك أنهم كتبوها بغير

ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا ووزنوا بالألف على ما كتبوا الأفعال كلّها مثل : فاءوا وجاءوا [. . .] المصاحف إلاّ على إسقاطها .

والجهة الأُخرى : أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى كلتُ لك ووزنت لك ، وهو كلام عربي كما يقال : صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ومثله كثير .

﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ ينقصون .

حدّثنا أبو محمد المخلدي قال : أخبرنا ابن الشرقي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشر قال : حدّثنا علي بن الحسين بن واقد ، قال : حدّثني أبي قال : حدّثني يزيد النحوي أن عكرمة حدّثه عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل .

(63/808)

وقال القرطبي : كان بالمدينة تجارٌ يُطفّفون وكانت بياعتهم كشبه القِمار والمنابذة والملامسة والمخاطرة فأنزل الله سبحانه هذه الآية . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السوق وقرأها عليهم ، وقال السدي : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله سبحانه

هذه الآية .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا بن يوسف قال : حدّثنا ابن عمران قال : حدّثنا أبو الدرداء ، عبد العزيز [بن منيب] قال : حدّثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن الضحاك ومجاهد وطاووس عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خمس لخمس " قالوا : يا رسول الله وما خمس لخمس ؟ قال : " ما نقض قوم العهد إلاّ سلّط عليهم عدوّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلاّ فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلاّ فشا فيهم الموت ، ولا طفّفوا الكيل إلاّ منعوا النبات وإخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلاّ حبس عنهم القطر " .

وأخبرني بن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجة قال : حدّثنا ابن أيوب قال : حدّثنا القصواني قال : حدّثنا سنان بن حاتم قال : حدّثنا حفص قال : حدّثنا مالك بن دينار قال : دخلتُ على جار لي وقد نزل به الموت فجعل يقول : جبلين من نار جبلين من نار ، قال : قلت : ما تقول أتهجر ؟ قال : يا أبا يحيى كان لي مكيالان ، كنت أكيل بأحدهما وأكتال بالآخر ، قال : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر فقال : يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر إزداد عظماً فمات في وجعه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا بن صقلان قال : حدّثنا محمد بن محمد بن النفاخ الباهلي قال : حدّثنا بركة بن محمد الحلبي عن عثمان بن عبدالرحمن عن النضر بن عدي

قال : سمعتُ عكرمة يقول : أشهد على كلّ كيّال أو وزّان أنّه في النار ، قيل له : إنّ ابنك كيال أو وزان ، قال : أنا أشهد أنه في النار .

(64/808)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا الفضل بن الفضل قال : حدّثني عبد الله بن زكريا القاضي قال : حدّثنا العباس بن عبد الله بن أحمد قال : حدّثنا المبرد قال : حدّثنا الرياسي عن الأصمعي قال : قال لي إعرابي : لا تلتمس الحوائج ممن مروءته في رؤس المكاييل والسن الموازين ، وروى عبد خير أن عليّاً مرّ على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح ، فكفا الميزان ، ثم قال : أقم الوزن بالقسط ، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت ، وقال نافع كان ابن عمر يمرّ بالبائع فيقول : اتّقِ الله وأوفِ الكيل والوزن ، فإن المطفّفين يوقفون يوم القيامة حتى أن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم .

﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ يستيقن ﴿ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالمين ﴾ أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا وكيع عن هشام صاحب [الدستواني] عن القمر بن أبي [ابزى] قال : حدّثني من سمع ابن عمر قرأ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فلما بلغ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالمين

﴿ بكى حتى خرّوا وامتنع من قراءة ما بعده .

﴿ كَلاَّ ﴾ قال الحسن : حقاً ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفجار ﴾ الذي كتب فيه أعمالهم ﴿ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ قال عبد الله بن عمر ومغيث بن سمي وقتاده ومجاهد والضحاك وابن زيد : هي الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفّار وأعمالهم ، يدلّ عليه ما أخبرنا الحسين قال : حدّثنا موسى قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا المسيّب قال : حدّثنا الأعمش عن المنهال عن زادان عن البرك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سجين أسفل سبع أرضين "

(65/808)

وأخبرني أبو عبد الله الفنجوي قال : حدّثنا أبو علي المقريء قال : حدّثنا أبو [القاسم بن] الفضل قال : حدّثنا محمد بن حميد قال : حدّثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري قال : حدّثنا حفص ابن حميد عن سمر بن عطية قال : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : أخبرني عن قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ ﴾ فقال : إنّ روح الفاجر يُصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثم يهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها فيُهبط تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجّين ، وهي حدّ إبليس ، فيخرج

لها من سجين من تحت حدّ إبليس رق فيرقم ويختم ويوضع تحت حدّ إبليس بمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة ، وإليه ذهب سعيد بن جبير قال : سجّين تحت حدّ إبليس ، وقال عطاء الخراساني : هي الأرض السُفلى وفيها إبليس وذريته .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا الفضل قال : حدّثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال : قراءتي على يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرنا ابن وهب قال : وحدّثني عمارة بن عيسى عن يونس بن يزيد عمّن حدّثه عن ابن عباس أنه قال لكعب الأحبار : أخبرني عن سجّين وعليّين ، فقال كعب : والذي نفسي بيده لأخبرنّك عنها إلاّ بما أجدُ في كتاب الله المنزل ، أما سجّين فإنّها شجرة سوداء تحت الأرضين السبع مكتوب فيها كلّ اسم شيطان ، فإذا قبضت نفس الكافر عرج بها إلى السماء فغلقت أبواب السماء دونها ، ثم رمى بها إلى سجين فذلك سجين ، وأما عليّيون فإنّه إذا قُبضت نفس المسلم عرج بها إلى السماء وفتحت لها أبواب السماء حتى تنتهي إلى العرش ، قال : فيخرج كفّ من العرش فيكتبُ له نُزله وكرامته فذلك عليّون .

وقال الكلبي : هي صخرة تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السموات منها ، يجعل كتاب الفجار تحتها ، وقال وهب : هي آخر سلطان إبليس .

وأخبرني عقيل : إن المعافى أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثني إسحاق بن وهب الواسطي قال : حدّثنا مسعود بن موسى بن مشكان قال : حدّثنا نصر بن خزيمة عن شعيب بن صفوان عن القرطي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الفلق جبّ في جهنم مغطّى وأما سجين جبّ في جهنم مفتوح " .

وأخبرنا أبو القمر الصفار قال : أخبرنا حاجب بن أحمد قال : حدّثنا محمد بن حماد قال : حدّثنا يحيى بن سليم الطائفي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ ﴾ قال : سجّين صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجّار تحتها ، وقال عكرمة : أي لفي خسار وضلال ، والمعنى أنه أراد بطلان أعمالهم وذهابها بلا محمده ولا ثواب وهذا سائغ مستفيض في كلام الناس ، يقولون لمن خمل ذكره وسقط قدره قد لزق بالحضيض ، وقال الأخفش : لفي حبس ضيق شديد ، وهو فعّيل من السجّن كما يقال فسّيق وشرّيب قال ابن مقبل :

ورفقه يضربون البيّض ضاحيّة . . . ضرباً تواصت به الأبطال سّجيناً

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ مَا سِجِّينٌ ﴾ أي ذلك الكتاب الذي في السجّين ثم منّ فقال : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي هو كتاب ﴿ مَّرْقُومٌ ﴾ مكتوب مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به وقال قتادة : رُقم لهم بشرّ وقيل : مختوم بلغة حمير . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِّلْمُكَذِّبِينَ * الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ﴾ قراءة العامة تتلى ، وقرأ أبو حيان بالياء لتقديم الفعل .

(67/808)

﴿ قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين * كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أخبرنا الحسين قال : حدّثنا الفضل قال : حدّثنا أبو الحسن أحمد بن مكرم التربي ببغداد قال : حدّثنا علي المكرمي قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : سمعت محمد بن عجلان يقول : حدّثني القعقاع بن حكم أن أبا صالح السمّان قال أن أبا هريرة حدّثه أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنّ العبد إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب صُقل قلبه وإن عاد زادت حتى يسوّد قلبه " قال : فذلك قوله سبحانه ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ " وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب ، وقال حذيفة بن اليمّان : القلب مثل الكفّ فإذا أذنب العبد انقبض وقبض أصبعاً من أصابعه ثم إذا أذنب انقبض وقبض إصبعاً أخرى ، ثم إذا أذنب انقبض وقبض أصابعه ثم يطبع عليه فكانوا يرون أنّ ذلك هو الرين ، ثمّ قرأ هذه الآية .

وقال بكر بن عبد الله : إنّ العبد إذا أصاب الذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة ثمّ إذا أذنب

ثانياً صار كذلك فإذا كثرت الذنوب صار القلبُ كالمنخل أو كالغربال ، وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى لعله يصديء القلب ، وقال ابن عباس : طبع عليها ، عطا : غشيت على قلوبهم فهوت بها فلا يفزعون ولا يتحاشون ، وقيل : قلبها فجعل أسفلها أعلاها ، نظيره قوله سبحانه ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ﴾ [الأنعام : 110] وأصل الرين الغلبة ، يقال : رانت الخمر على عقله إذا غلبت عليه فسكر ، وقال أبو زبيد الطائي :

ثم إذا رآه رانت به الخم . . . ر وأن لا يرينه باتّقاء

وقال الراجّز :

لم نرو حتى هجّرت ورين بي . . . ورين بالسّاقي الذي أمسّى معي

معنى الآية غلب على قلوبهم وأحاطت بها حتى غمرتها وغشيتها .

(68/808)

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال بعضهم : من كرامته ورحمته ممنوعون ، وقال قتادة : هو أن لا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، وقال أكثر المفسرين : عن رؤيته ، قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

أخبرنا الحسن بن محمد بن جعفر قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن صالح بن هاني قال :

حدّثنا الحسين بن الفضل قال : حدّثنا عفان بن مسلم الصفار عن الربيع بن صبيح وعبد الواحد بن زيد قالا : قال الحسن : لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربّهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا ، وقال يحيى بن سليمان : بن نضلة : يُسئل مالك بن أنس عن هذه الآية قال : لها حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رآوه ، وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد يقول : سمعت أبا علي الحسن بن أحمد [الشبوي] بها يقول : سمعت أبا نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي يقول : سمعت الربيع بن سليمان يقول : كنت ذات يوم عند الشافعي رضي الله عنه وجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قول الله سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فكتب فيه : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، فقلت له : أوتدين بهذا يا سيدي ؟ فقال : والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أن يرى ربّه في المعاد لما عبده في الدنيا .

(69/808)

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الجحيم ﴾ لداخلوا النار ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هذا الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ أخبرني الحسين قال : حدّثنا موسى قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا المسيّب عن الأعمش عن النهال عن زادان عن البراء

بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عليين في السماء السابعة تحت العرش "

وقال ابن عباس هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيها ،

وقال كعب وقتادة : هو قائمة العرش اليمنى ، مقاتل : ساق العرش ، علي ابن أبي طلحة

وعطاء عن ابن عباس : هو الجنة ، عطية عنه : أعمالهم في كتاب الله في السماء ،

الضحاك : سدرة المنتهى ، وقال أهل المعاني : علو بعد علو وشرف بعد شرف ، ولذلك

جمعت بالياء والنون لجمع الرجال إذا لم يكن له نبأ من واحد ولا ثانية ، قال الفراء : هو اسم

موضوع على صفة الجمع لا واحد له من لفظه كقولك عشرين وثلاثين ، وقال يونس النحوي

: واحدها عليّ وعليّه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا بن حمدان قال : حدّثنا أبو الحسن محمد بن إسحاق

الملحمي قال : حدّثنا محمد بن يونس قال : حدّثنا عفان قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن

عصام ابن يهدله عن خيثمة عن عبد الله بن عمرو في قوله سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ

الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ قال : إنّ أهل عليين لينظرون إلى أهل الجنة من كذا فإذا أشرف رجل

أشرقت الجنة وقالوا : قد طلع علينا رجل من أهل عليين .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ رقم له بخير وفي الآية تقديم وتأخير ، مجازها :

إنّ كتاب الأبرار مرقوم في عليين وهي محل الملائكة ، ومثله إن كتاب الفجّار كتاب مرقوم

وهي سجين ، وهي محل إبليس وجنوده .

﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ الملائكة ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ﴾ أي ما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعمة ، الأرائك : كلّ ما يتكيء عليه ، وقيل : السرير في الحجلة ، وقال مقاتل : ينظرون إلى [أعدائهم] كيف يعذّبون ، وقال ابن عطاء : على أرائك المعرفة ينظرون إلى المعروف وعلى أرائك القربة ينظرون إلى الرؤوف .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أي عصارته وبريقه ونوره يقال أنضر النبات إذا أزهر ونوّر ، وقراءة العامة ﴿ تَعْرِفُ ﴾ بفتح التاء وكسر الراء ﴿ نَضْرَةَ ﴾ نصب ، وقرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل .

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ خمر صافية طيبة وقيل : هي الخمر العتيقة ، مقاتل : الخمر البيضاء . قال حسان :

يسقون من ورّد البريص عليهم . . . بردا يُصفّق بالرحيق السَلسَل

وقال آخر :

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره . . . أشهى إليّ من الرحيق السلسل

﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ ختمت ومُنعت عن أن يمسها ماس أو تنالها يد إلى أن يفكّ خَتْمها الأبرار يوم

القيامة ، وقال مجاهد : مطيّن .

﴿ خِتَامُهُ ﴾ طينة ﴿ مِسْكٌ ﴾ قال ابن زيد : ختامه عند الله سبحانه : مسّك وختامها اليوم في الدنيا طين ، وقال ابن مسعود : مختوم ممزوج ، ختامه خلطو مسك ، وقال علقمة : طعمه وريحه مسك ، وقال الآخرون : عاقبته وآخر طعمه مسك ، قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك ، وروى عبد الرحمن بن سابط عن أبي الدرداء في قوله سبحانه ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل إصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلاّ وجد طيبها .

وختم كلّ شيء الفراغ منه ، ومنه ختم القرآن ، والأعمال بخواتيمها ، وقراءة العامة (ختامه) بتقديم التاء وقرأ الكسائي (خاتمه) وهي قراءة علي وعلقمة .

(71/808)

أخبرنا محمد بن عبدوس قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : أخبرنا محمد بن الجهم قال : أخبرنا يحيى بن زرارة الفراء قال : حدّثني محمد بن الفضل عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ خاتمه مسك .

وباسناده عن الفراء قال : حدّثني أبو الأحوص عن أشعث بن أبي الشعثاء المحاربي قال :

قرأ علقمة بن قيس (خاتمه مسك) وقال : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل لي خاتمه مسكاً ، تريد آخره ، والخاتم والختام واحد كما يقال للرجل الكريم : الطابع والطباع ، وقال الفرزدق :

فبتن بجانبي مصّرعات . . . وبتّ أفضُ أغلاق الختام

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ، وقال مجاهد فليعمل العاملون ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ﴾ [السجدة : 17] ، مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون ، ابن حيان : فليتسارع المتسارعون ، عطا : فليستبق المتسابقون ، زيد بن أسلم : فليتشاح المتشاحون ، ابن جرير : فليجدوا في طلبه وليحرصوا عليه ، وأصله من الشيء النفيس ، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس ، ويطلبه ويتمناه ويريده كل واحد منهم لنفسه وينفس به على غيره أي يضنُ .

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ شراب ينصب عليه من علو ، ومنه سنام البعير وتسنيم القبور قال الضحاك : هو شراب اسمه تسنيم وهو أشرف الشراب ، مقاتل : يسمى تسنيماً ؛ لأنه يتسنّم فيصب عليه انصباباً من فوقهم في غرفهم ومنازلهم تجري من جنّة عدن إلى أهل الجنان ، قال ابن مسعود وابن عباس : هو خالص للمقربين يشربونها صرفاً ويمزج لساير أهل الجنة .

وأخبرنا عبد الله بن حامد في آخرين قالوا : أخبرنا مكيّ قال : حدّثنا عمار بن رجاء قال : حدّثنا سويد بن عمرو الكلبي قال : حدّثنا حماد بن سملة عن علي بن زيد عن يونس بن مهران عن ابن عباس ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ قال : هذا مما قال الله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] ، وعن بعضهم : أنها عين تجري في الهواء متسنماً فتصب في أواني أهل الجنّة على مقدار ملئها ، فإذا امتلأت أمسك الماء حتى لا يقع منه قطرة على الأرض فلا يحتاجون إلى الأستقاء وهو معنى قول قتادة ، وأصل الكلمة مأخوذ من علوّ المكان والمكانة ، فيقال للشيء المرتفع : سنام ، وللرجل الشريف : سنام وهو اسم معرفة مثل التنعيم وهو اسم جبل .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ﴾ أي منها ، وقيل يشربها ﴿ المقربون ﴾ قال الحريري والواسطي : يشرب بها المقرّبون صرفاً على بساط القرب في مجلس الأُنس ورياض القُدس بكأس الرضا على مشاهدة الحقّ سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ اشركوا أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مترفي مكّة ﴿ كَانُواْ مِنَ الذين ﴾ عمّار وخبّاب وصهيب وبلال وأصحابهم من فقراء

المؤمنين . ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ وبهم يستهزؤون ومن إسلامهم يتعجبون .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذلك أنه جاء في نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع فضحكنا منه فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات قبل أن يصل عليّ وأصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(73/808)

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يغمز بعضاً ويشيرون بالأعين ﴿ وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ ﴾ حين يأتون محمد يرون أنهم على شيء ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ ﴾ يعني المشركين ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني على المؤمنين ﴿ حَافِظِينَ ﴾ لأعمالهم موكلين بأحوالهم . ﴿ فاليوم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا وذلك أنّه يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم أخرجوا إليها فإذا وصلوا إليه أغلق دونهم يفعل بهم ذلك مراراً ويضحك المؤمنون منهم وهم ﴿ عَلَى الأرآئك ﴾ من الدر والياقوت ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إليهم كيف يعذبون ، قال كعب : بين الجنة والنار كوىً فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو له كان في الدنيا اطّلع من

بعض تلك الكوى ، دليله قوله سبحانه ﴿ فاطلع فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الصافات : 55] ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ جوزي ﴿ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ ثوّب وأثاب بمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 149.157 ﴾

(74/808)

وقال الزمخشرى :

سورة المطففين

مكية ، وآياتها 36 [نزلت بعد العنكبوت ، وهي آخر سورة نزلت بمكة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المطففين (83) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

التطفيف : البخس في الكيل والوزن ، لأنّ ما يبخس شيء طفيف حقير . وروى أن

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلا ، فنزلت ، فأحسنوا الكيل «1» وقيل : قدمها وبها رجل يعرف بأبى جهينة ومعه صاعان : يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر «2» .

وقيل : كان أهل المدينة تجارا يطففون ، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، فنزلت فخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقرأها «3» عليهم . وقال : «خمس بخمس» : قيل : يا رسول اللّه ، وما خمس بخمس ؟ قال «ما نقض قوم العهد إلا سلط اللّه عليهم عدوّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر «4»» وعن على رضى اللّه عنه : أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له : أقم الوزن بالقسط ، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل . وعن ابن عباس : إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين : بهما هلك من كان قبلكم : المكيال والميزان ، وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرّقين في الحرمين : كان أهل مكة يزنون

---

(1) . أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما . [. . . . .]

(2) . نقله الثعلبي عن السدى .

(3) . لم أجده .

(4) . أخرجه الحاكم من رواية عبد اللّه بن بريدة عن أبيه رفعه «ما نقض قوم العهد . . . الحديث» وفيه بشر ابن المهاجر . وفيه مقال ، ومن طريق عطاء بن أبى رباح عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا نحوه .

(75/808)

وأهل المدينة يكيلون . وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له : اتق اللّه وأوف الكيل ، فإنّ المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إن العرق ليلجمهم . وعن عكرمة : أشهد أنّ كل كيال ووزان في النار ، فقيل له : انّ ابنك كيال أو وزان ، فقال : أشهد أنه في النار .

وعن أبىّ رضى اللّه عنه : لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤس المكاييل وألسن الموازين . لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم « 1 » ويتحامل فيه عليهم : أبدل «على» مكان «من» للدلالة على ذلك . ويجوز أن يتعلق «على» بيستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية ، أى :

يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها : وقال الفراء «من» و«على»

يعتقبان في هذا الموضع ، لأنه حق عليه ، فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك . والضمير في كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ضمير منصوب راجع إلى الناس . وفيه وجهان : أن يراد : كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، كما قال ،

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن نبات الأوبر «2»

والحريص يصيدك لا الجواد ، بمعنى : جنيت لك ، ويصيد لك . وأن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل أو الموزون ، ولا يصح أن يكون ضميرا مرفوعا للمطففين ، لأنّ الكلام يخرج به إلى نظم فاسد ، وذلك أنّ المعنى : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا أعطوهم أخسروا ، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر

---

(1) . قال محمود : «لما كان اكتيالهم على الناس اكتيالا يضرهم . . . الخ» قال أحمد : لا منافرة فيه ، ولا يجعل هذا القائل الضمير دالا على مباشرة ولا إشعار أيضا فيه بذلك ، إنما يكون نظم الكلام على هذا الوجه : إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه ، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه ، سواء باشروه أولا ، وهذا أنظم كلام وأحسنه والله أعلم ، والذي يدلك على أن الضمير لا يعطى مباشرة الفعل أن لك أن تقول : الأمراء هم

الذين يقيمون الحدود لا السوقة ، ولست تعنى أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم ، وإنما معناه أن فعل ذلك من جهتهم خاصة .

(2) . «جنى لا يتعدى إلا لواحد والثاني باللام ، فالأصل : جنيت لك ، فحذف الجار وأوصل الضمير .

أو ضمنه معنى : أبحتك ، فعداه لهما . والأكمؤ : جمع كمأ ، كأفلس وفلس ، وهو واحد الكمأة ، وهي لنوع كبير من نبات يسمى شحمة الأرض ، سمى كمأة لاشتهاره بها .

والعساقل : جمع عسقول كعصفور ، وكان حقه : عساقيل ، فحذفت الياء الوزن . وقيل : إنه جمع عسقل ، وهو نوع صغير منها جيد أبيض ، ونبات أوبر : نوع ردىء منها أسود مزغب ، كأن عليه وبر . وقيل : هو جنس آخر يشبه القلقاس أو اللفت . ونبات أوبر : جمع ابن أوبر ، لأنه علم لما لا يعقل . وأل فيه زائدة . وقال المبرد : هو اسم جنس ، قال فيه معرفة ، والبيت من باب التمثيل مثال ؟ ؟ ؟ من أغرى على الطيب ، فعدل إلى الخبيث ، ثم يرجع يتندم على عاتبته .

(76/808)

لأنّ الحديث واقع في الفعل لا في المباشر ، والتعلق في إيطاله بخط المصحف ، وأنّ الألف التي تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه : ركيك ، لأنّ خط المصحف لم يراع في كثير منه حدّ المصطلح عليه في علم الخط ، على أنى رأيت في الكتب المخطوطة بأيدى الأئمة المتقنين هذه الألف مرفوضة لكونها غير ثابتة في اللفظ والمعنى جميعا ، لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع ، وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها في نحو قولك : هم لم يدعوا ، وهو يدعو ، فمن لم يثبتها قال : المعنى كاف في التفرقة بينهما . وعن عيسى بن عمر وحمزة : أنهما كانا يرتكبان ذلك ، أى يجعلان الضميرين للمطففين ، ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا . فإن قلت :

هلا قيل : أو اتزنوا ، كما قيل أَوْ وَزَنُوهُمْ ؟ قلت : كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة ، لأنهم يدعدعون «1» ويحتالون في الملء ، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعا يُخْسِرُونَ ينقصون . يقال : خسر الميزان «2» وأخسره أَلَا يَظُنُّ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف ، كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ومحاسبون على مقدار الذرّة والخردلة . وعن قتادة : أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك . وعن الفضيل : بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة .

وعن عبد الملك بن مروان : أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال اللّه في المطففين : أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس فيه للّه خاضعين ، ووصفه ذاته برب العالمين : بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء ، بل في كل قول وعمل . وقيل : الظنّ بمعنى اليقين ، والوجه ما ذكر ، ونصب يَوْمَ يَقُومُ بمبعوثون . وقرئ بالجر بدلا من لِيَوْمٍ عَظِيمٍ وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ بكى نحيبا وامتنع من قراءة ما بعده .

[سورة المطففين (83) : الآيات 7 إلى 9]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (8) كِتابٌ مَرْقُومٌ (9)

---

(1) . قوله «يدعدعون ويحتالون» في الصحاح الدعدعة تحريك المكيال ونحوه ليسعه الشيء . ودعدعت الشيء :

ملأته . (ع)

(2) . قوله «يقال خسر الميزان» عبارة الصحاح : خسرت الشيء وأخسرته : نقصته .

(ع)

كَلَّا ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب ، ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه ، ثم أتبعه وعيد الفجار على العموم . وكتاب الفجار : ما يكتب من أعمالهم . فإن قلت : قد أخبر اللّه عن كتاب الفجار بأنه في سجين ، وفسر سجينا بكتاب مرقوم ، فكأنه قيل : إن كتابهم في كتاب مرقوم ، فما معناه : قلت : سِجِّينٍ كتاب جامع هو ديوان الشر : دوّن اللّه فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والانس ، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة . أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان ، وسمى سجينا : فعيلا من السجن ، وهو الحبس والتضييق ، لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ، أو لأنه مطروح - كما روى تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم ، وهو مسكن إبليس وذرّيته استهانة به وإذالة « 1 » ، وليشهده الشياطين المدحورون ، كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقرّبون . فإن قلت : فما سجين ، أصفة هو أم اسم ؟ قلت : بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم ، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف

[سورة المطففين (83) : الآيات 10 إلى 17]

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ مما وصف به للذم لا للبيان ، كقولك فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث كَلَّا ردع للمعتدى الأثيم عن قوله رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها :

وهو أن يصر على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه ، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه .

وعن الحسن : الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب . يقال : ران عليه الذنب وغان عليه ، رينا وغينا ، والغين : الغيم ، ويقال : ران فيه النوم رسخ فيه ، ورانت به الخمر : ذهبت به .

وقرئ بإدغام اللام في الراء وبالإظهار ، والإدغام أجود ، وأميلت الألف وفخمت كَلَّا ردع عن

---

(1) . قوله «استهانة به وإذالة» أى : إهانة . كما في الصحاح . (ع)

الكسب الرائن على قلوبهم . وكونهم محجوبين عنه : تمثيل «1» للاستخفاف بهم «2» وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم . قال :

إذا اعتروا باب ذى عبية رجبوا والنّاس من بين مرجوب ومحجوب «3»

عن ابن عباس وقتادة وابن أبى مليكة : محجوبين عن رحمته . وعن ابن كيسان : عن كرامته :

[سورة المطففين (83) : الآيات 18 إلى 21]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)

كَلَّا ردع عن التكذيب . وكتاب الأبرار : ما كتب من أعمالهم . وعليون : علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين ، منقول من جمع «علىّ» فعيل من العلو كسجين من السجن ، سمى بذلك إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات في الجنة ، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون ، تكريما له وتعظيما . روى «إن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه ، فإذا انتهوا به إلى ما شاء اللّه من سلطانه أوحى إليهم إنكم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وأنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين ، فقد غفرت له ، وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه ، فإذا انتهوا به إلى ما

شاء اللّه أوحى إليهم : أنتم الحفظة على

---

(1) . قال محمود : «كونهم محجوبين عنه تمثيل . . . الخ» قال أحمد : هذا عند أهل السنة على ظاهره من أدلة الرؤية ، فان اللّه تعالى لما خص الفجار بالحجاب دل على أن المؤمنين الأبرار مرفوع عنهم الحجاب ، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراك بالعين ، وإلا فالحجاب على اللّه تعالى بغير هذا التفسير محال ، هذا هو الحق وما بعد الحق إلا الضلال ، وما أرى من جحد الرؤية المدلول عليها بقواطع الكتاب والسنة يحظي بها . واللّه المسئول في العصمة .

(2) . قوله «تمثيل للاستخفاف بهم» مبنى على مذهب المعتزلة : وهو عدم جواز الرؤية عليه تعالى . وذهب أهل السنة إلى جوازها . وفي النسفي : قال الزجاج : في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم ، وإلا لا يكون التخصيص مفيدا ، وقال الحسن بن الفصل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده ، حجبهم في العقبى عن رؤيته . وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلى لأوليائه حتى رأوه . وكذا في الخازن . وفيه أيضا : قال الشافعي : في الآية دلالة على أن أولياء اللّه يرون اللّه جل جلاله .

(3) . غزوا : قصدوا . وروى : اعتروا ، أى : نزلوا به وأصابوه . والعبية : الكبر والفخر . قال صلى اللّه عليه وسلم «إن اللّه تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية بالآباء»

الناس رجلان : مؤمن تقى وكافر شقى» . ورجبة الرجل : عظمته . يقول إنهم يلجون أبواب العظماء لا تمنعهم الحجاب ، بخلاف غيرهم فإنهم تارة وتارة .

(79/808)

عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه . وإنه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين «1»»

[سورة المطففين (83) : الآيات 22 إلى 28]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26)

وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

الْأَرائِكِ الأسرة في الحجال «2» يَنْظُرُونَ إلى ما شاءوا مدّ أعينهم إليه من مناظر الجنة ، وإلى ما أولاهم اللّه من النعمة والكرامة ، وإلى أعدائهم يعذبون في النار ، وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك نَضْرَةَ النَّعِيمِ بهجة التنعم وماءه ورونقه ، كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه . وقرئ : تعرف ، على البناء للمفعول . ونضرة النعيم - بالرفع . الرحيق الشراب الخالص الذي لا غش فيه مَخْتُومٍ تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك

مكان الطينة. وقيل خِتامُهُ مِسْكٌ مقطعه رائحة مسك إذا شرب. وقيل: يمزج بالكافور، ويختم مزاجه بالمسك. وقرئ: خاتمه، بفتح التاء وكسرها، أى: ما يختم به ويقطع فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ فليرتغب المرتغبون تَسْنِيمٍ علم لعين بعينها: سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه:

إمّا لأنها أرفع شراب في الجنة وإمّا لأنها تأتيهم من فوق، على ما روى أنها تجرى في الهواء متسنمة فتنصب في أوانيهم. وعَيْناً نصب على المدح. وقال الزجاج: نصب على الحال. وقيل: هي للمقربين، يشربونها صرفا. وتمزج لسائر أهل الجنة.

[سورة المطففين (83): الآيات 29 إلى 33]

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32) وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33)

هم مشركو مكة: أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم: كانوا يضحكون

---

(1). أخرجه ابن المبارك في الزهد: أخبرنا أبو بكر ابن أبى مريم عن حمزة بن حبيب قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم... فذكره.

(2). قوله «الأسرة في الحجال» في الصحاح: الحجلة - بالتحريك -: واحدة حجال العروس: وهي بيت يزين بالثياب والأسرة والستور. (ع)

من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزؤن بهم . وقيل : جاء على ابن أبى طالب رضى اللّه عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه ، فنزلت قبل أن يصل علىّ إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يَتَغامَزُونَ

يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم فَكِهِينَ ملتذين بذكرهم والسخرية منهم ، أى : ينسبون المسلمين إلى الضلال وَما أُرْسِلُوا على المسلمين حافِظِينَ موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم ، وهداتهكم بهم . أو هو من جملة قول الكفار ، وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا : إنّ هؤلاء لضالون ، وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكارا لصدّهم إياهم عن الشرك ، ودعائهم إلى الإسلام ، وجدّهم في ذلك .

[سورة المطففين (83) : الآيات 34 إلى 36]

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)

عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ حال من يَضْحَكُونَ أى : يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر . ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه : وهم على الأرائك آمنون . وقيل : يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : اخرجوا إليها ، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم ، يفعل ذلك بهم مرارا ، فيضحك المؤمنون منهم . ثوّبه وأثابه : بمعنى ، إذا جازاه . قال أوس :

سأجزيك أو يجزيك عنّى مثوّب وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي «1»

وقرئ بإدغام اللام في التاء .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المطففين سقاه اللّه من الرحيق المختوم يوم القيامة «2»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 718. 724﴾

---

(1) . لأوس بن حجر . ويقال : ثوبه وأثابه : إذا جازاه . فالمثوب المجازى أى : سأجزيك يا فرسي بنفسي ، أو يجزيك بدلا عنى مجاز غيرى . أو مجازاة ناشئة عنى ، وكافيك من الناس أن يثنوا عليك ويحمدوك ، فعليك :

نائب الفاعل . ويجوز أن يكون المثوب المنادى للحرب مشيرا بطرف ثوبه ، ليرى من بعيد فيغاث . [. . . . .]

(2) . أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي سندهم إلى أبى بن كعب .

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

قال ابن عباس : كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً ، إلى أن أنزل الله تعالى : ﴿ ويل للطففين ﴾ فأحسنوا الكيل ، قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا .

أعمض بعض المتعمقة فحمله على استيفاء العبادة بين الناس جهراً ، وفي النقصان سراً .

وفي " ويل " سبعة أقاويل :

أحدها : أنه واد في جهنم ، رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

الثاني : صديد أهل النار ، قاله ابن مسعود .

الثالث : أنه النار ، قاله عمر مولى عفرة .

الرابع : أنه الهلاك ، قاله بعض أهل اللغة .

الخامس : أنه أشق العذاب .

السادس : أنه النداء بالخسار والهلاك ، وقد تستعمله العرب في الحرب والسلب .

السابع : أن أصله ويْ لفلان ، أي الجور لفلان ، ثم كثر استعمال الحرفين فوصلا بلام

الإضافة .

والمطفف : مأخوذ من الطفيف وهو القليل ، والمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن .

قال الزجاج : بل مأخوذ من طف الشيء وهي جهته .

﴿ الذين إذا اكْتالوا على الناسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي من الناس ، ويريد بالاستيفاء الزيادة على ما استحق .

﴿ وإذا كالُوهم أو وَزَنُوهم يُخْسِرون ﴾ يعني كالوا لهم أو وزنوا لهم بحذف هذه الكلمة لما في الكلام من الدلالة عليها ، ﴿ يخسرون ﴾ ، ينقصون فكان المطفف يأخذ زائداً ويعطي ناقصاً .

﴿ يومَ يَقُومُ الناسُ لربِّ العَالَمِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يوم يقومون من قبورهم ، قاله ابن جبير .

الثاني : يقومون بين يديه تعالى للقضاء ، قاله يزيد بن الرشك .

قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم لبشير الغفاري : "كيف أنت صانع يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلاثمائة سنة لرب العالمين ، لا يأتيهم فيه خبر ولا يؤمر فيه بأمر ، " قال بشير : المستعان الله .

الثالث : أنه جبريل يقوم لرب العالمين ، قاله ابن جبير .

ويحتمل رابعاً : يقومون لرب العالمين في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا .

(82/808)

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ أما "كلا" ففيه وجهان :

أحدهما : حقاً .

الثاني : أن كلا للزجر والتنبيه .

وأما "سجّين" ففيه ثمانية أقاويل :

أحدها : في سفال ، قاله الحسن .

الثاني : في خسار ، قاله عكرمة .

الثالث : تحت الأرض السابعة ، رواه البراء بن عازب مرفوعاً .

قال ابن أسلم : سجّين : الأرض السافلة ، وسجّيل : سماء الدنيا .

قال مجاهد : سجّين صخرة في الأرض السابعة ، فيجعل كتاب الفجار تحتها .

الرابع : هو جب في جهنم ، روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الفلق جُبٌّ في جهنم مغطّى ، وسجّين جب في جهنم مفتوح."

الخامس : أنه تحت خد إبليس ، قاله كعب الأحبار .

السادس : أنه حجر أسود تحت الأرض تكتب فيه أرواح الكفار ، حكاه يحيى بن سلام .

السابع : أنه الشديد قاله أبو عبيدة وأنشد :

ضرباً تَواصَتْ به الأبطالُ سِجّينا . . . الثامن : أنه السجن ، وهو فِعّيل من سجنته ، وفيه مبالغة ، قاله الأخفش عليّ بن عيسى ، ولا يمتنع أن يكون هو الأصل واختلاف التأويلات في محله .

ويحتمل تاسعاً : لأنه يحل من الإعراض عنه والإبعاد له محل الزجر والهوان ﴿ كِتابٌ مَرْقومٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : مكتوب ، قاله أبو مالك .

الثاني : أنه مختوم ، وهو قول الضحاك .

الثالث : رُقِم له بَشَرٌ لا يزاد فيهم أحد ، ولا ينقص منهم أحد ، قاله محمد بن كعب وقتادة .

ويحتمل قولاً رابعاً ، إن المرقوم المعلوم .

﴿ كلاّ بل رانَ على قُلوبِهم ما كانوا يَكْسبونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن " ران " : طبع على قلوبهم ، قاله الكلبي .

الثاني : غلب على قلوبهم ، قاله ابن زيد ، ومنه قول الشاعر :

وكم ران من ذنْب على قلب فاجر . . . فتاب من الذنب الذي ران وانجلى

الثالث : ورود الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، قاله الحسن .

الرابع : أنه كالصدإ يغشى القلب كالغيم الرقيق ، وهذا قول الزجاج .

(83/808)

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن عليين الجنة ، قاله ابن عباس .

الثاني : السماء السابعة ، قاله ابن زيد ، قال قتادة : وفيها أرواح المؤمنين .

الثالث : قائمة العرش اليمنى ، قاله كعب .

الرابع : يعني في علو وصعود إلى الله تعالى ، قاله الحسن .

الخامس : سدرة المنتهى ، قاله الضحاك .

ويحتمل سادساً : أن يصفه بذلك لأنه يحل من القبول محلاً عالياً .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الطراوة والغضارة ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنها البياض ، قاله الضحاك .

الثالث : أنها عين في الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فتجري عليهم نضرة النعيم ، قاله

عليّ .

ويحتمل رابعاً : أنها استمرار البشرى بدوام النعمة .

﴿ يُسقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ وفي الرحيق ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه عين في الجنة مشوب بمسك ، قاله الحسن .

الثاني : أنه شراب أبيض يختمون به شرابهم ، قاله ابن أبي الدرداء .

الثالث : أنه الخمر في قول الجمهور ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم . . . بَرَدَى يُصَفَّق بالرحيق السّلْسَلِ

لكن اختلفوا أي الخمر هي على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها الصافية ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : أنها أصفى الخمر وأجوده ، قاله الخليل .

الثالث : أنها الخالصة من غش ، حكاه الأخفش .

الرابع : أنها العتيقة .

وفي " مختوم " ثلاثة أقاويل :

أحدها : ممزوج ، قاله ابن مسعود .

الثاني : مختوم في الإناء بالختم ، وهو الظاهر .

الثالث : ما روى أُبيّ بن كعب ، قال : قيل يا رسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : "

غُدران الخمر . "

﴿ خِتامُه مِسْكٌ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : مزاجه مسك ، قاله مجاهد .

الثاني : عاقبته مسك ، ويكون ختامه آخره ، كما قال الشاعر :

صرف ترقرق في الحانوت باطنه . . . بالفلفل الجون والرمان مختوما

قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك .

(84/808)

الثالث : أن طعمه وريحه مسك ، رواه ابن أبي نجيح .

الرابع : أن ختمه الذي ختم به إناؤه مِسْك ، قاله ابن عباس .

﴿ وفي ذلك فلْيَتنافَسِ المُتنافِسونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فليعمل العاملون ، قاله مجاهد .

الثاني : فليبادر المبادرون ، قاله أبو بكر بن عياش والكلبي .

وفيما أخذ منه التنافس والمنافسة وجهان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الشيء النفيس ، قاله ابن جرير .

الثاني : أنه مأخوذ من الرغبة فيما تميل النفوس إليه ، قاله المفضل .

﴿ ومِزاجُهُ مِن تَسْنيمٍ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها أن التسنيم الماء ، قاله الضحاك .

الثاني : أنها عين في الجنة ، فيشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين ، قاله ابن مسعود .

وقال حذيفة بن اليمان : تسنيم عين في عدْن ، وعدْن دار الرحمن وأهل عدْن جيرانه .

الثالث : أنها خفايا أخفاها الله لأهل الجنة ، ليس لها شبه في الدنيا ولا يعرف مثلها .

وأصل التسنيم في اللغة أنها عين ماء تجري من علو إلى سفل ، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، وكذلك تسنيم القبور .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : أن يكون المراد به لذة شربها في الآخرة أكثر من لذته في الدنيا ، لأن مزاج الخمر يلذ طعمها ، فصار مزاجها في الآخرة بفضل لذة مزاجها من تسنيم لعلو الآخرة على الدنيا .

﴿ وإذا انقَلَبوا إلى أهْلِهم انقَلَبوا فَكِهينَ ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص فكهين بغير ألف وقرأ غيره بألف ، وفي القراءتين أربعة تأويلات :

أحدها : فرحين ، قاله السدي .

الثاني : معجبين ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

وقد فكهت من الدنيا فقاتلوا . . . يوم الخميس بِلا سلاح ظاهر

الثالث : لاهين .

الرابع : ناعمين ، حكى هذين التأويلين عليّ بن عيس .

وروى عوف عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال ربكم عز وجل : وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة " .

(85/808)

﴿ هل ثوِّب الكفارُ ما كانوا يَفْعَلونَ ﴾ هذا سؤال المؤمنين في الجنة عن الكفار حين فارقوهم ، وفيه تأويلان :

أحدهما : معناه هل أثيب الكفار ما كانوا يعلمون في الكفر ، قاله قتادة .

الثاني : هل جوزي الكفار على ما كانوا يفعلون ، قاله مجاهد .

فيكون " ثُوِّب " مأخوذاً من إعطاء الثواب .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : أن يكون معناه هل رجع الكفار في الآخرة عن تكذيبهم في الدنيا على وجه التوبيخ ، ويكون مأخوذاً من المثابِ الذي هو الرجوع ، لا من الثواب الذي هو الجزاء ،

كما قال تعالى : ﴿ وإذا جعَلْنا البيتَ مثابةً للناس ﴾ أي مرجعاً .

ويحتمل تأويلاً رابعاً : هل رجع من عذاب الكفار على ما كانوا يفعلون ، لأنهم قد علموا أنهم عذبوا ، وجاز أن يظنوا في كرم الله أنهم قد رحموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 225.232 ﴾

(86/808)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾

قال ابن عباس : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

وقال السدي : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وبها رجل يقال له : أبو جهينة ، ومعه صاعان ، يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية .

وقد شرحنا معنى "الويل" في [البقرة : 79] .

وقال ابن قتيبة : المطفف : الذي لا يوفي الكيل ، يقال : إناء طَفَّانُ : إذا لم يكن مملوءاً .

وقال الزجاج : إنما قيل : مطفِّف ، لأنه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلا الشيء

الطفيف ، وإنما أخذ من طَفَّ الشيء ، وهو جانبه .

قوله تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس ﴾ أي : من الناس .

ف "على" بمعنى "من" في قول المفسرين واللغويين .

قال الفراء : "على" ، و "من" يعتقبان في هذا الموضع ، لأنك إذا قلت : اكتلت عليك ، فكأنك قلت : أخذت ما عليك ، [كيلاً] ، وإذا قلت : اكتلت منك ، فهو كقولك : استوفيت منك .

[كيلاً] .

قال الزجاج : المعنى : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، وكذلك إذا اتَّزنوا ، ولم يَذْكُرْ "إذا اتَّزنوا" ، لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يُكَال ويُوزَن ، فأحدهما يدل على الآخر ﴿ وإذا كالوهم ﴾ أي : كالوا لهم ﴿ أو وزنوهم ﴾ أي : وزنوا لهم ﴿ يُخسِرون ﴾ أي : ينقصون في الكيل ، والوزن .

فعلى هذا لا يجوز أن يقف على "كالوا" ومِنَ الناس من يجعل "هم" توكيداً لما كالوا ، ويجوز أن يقف على "كالوا" والاختيار الأول .

قال الفراء : سمعت أعرابية تقول :

إذا صدر الناس أتينا التاجر ، فيكليلنا المدَّ والمدِّين إلى الموسم المقبل .

قوله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ؟ ! ﴾ قال الزجاج : المعنى : لو ظنوا أنهم يُبْعَثُون ما نقصوا في الكيل والوزن ﴿ ليوم عظيم ﴾ يعني به يوم القيامة ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ منصوب بقوله تعالى "مبعوثون" .

قال المفسرون : والظن ها هنا بمعنى العلم واليقين .

ومعنى : يقوم الناس ، أي : من قبورهم ﴿ لرب العالمين ﴾ أي : لأمره ، أو لجزائه وحسابه ، وقيل : يقومون بين يديه لفصل القضاء .

وفي "الصحيحين" من حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : في هذه الآية : " يقوم أحدهم في رَشَحِهِ إلى أنصاف أذنيه " وقال كعب : يقفون ثلاثمائة عام .

قال مقاتل : وذلك إذا خرجوا من قبورهم .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر ، أي : ليس الأمر على ما هم عليه ، فليرتدعوا .

وها هنا تم الكلام عند كثير من العلماء .

وكان أبو حاتم يقول : "كلا" ابتداء يتصل بما بعده على معنى "حقاً" ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ قال مقاتل : إن كتاب أعمالهم ﴿ لفي سجين ﴾ وفيها أربعة أقوال :

أحدها : أنها الأرض السابعة ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، ومقاتل .

وروي عن مجاهد قال : "سجين" صخرة تحت الأرض السابعة ، يجعل كتاب الفجار تحتها ، وهذه علامة لخسارتهم ، ودلالة على خساسة منزلتهم .

والثاني : أن المعنى إن كتابهم لفي سفال ، قاله الحسن .

والثالث : لفي خسار ، قاله عكرمة .

والرابع : لفي حبس ، فعّيل من السجن ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ هذا تعظيم لأمرها .

وقال الزجاج : أي : ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك .

قوله تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي : ذلك الكتاب الذي في سجين كتاب مرقوم ، أي : مكتوب .

قال ابن قتيبة : والرقم : الكتاب ، قال أبو ذؤيب :

عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَقْمِ الدَّوَا . . .

ةِ يَزْبُرُه الكَاتِبُ الحِمْيَرِيُّ

وأنشده الزجاج : "يَذْبِرها" بالذال المعجمة ، وكسر الباء .

قال الأصمعي : يقال : زبر : كتب ، وذبر : قرأ .

وروى أبو عمرو عن ثعلب ، عن ابن الأعرابي ، قال : الصواب : زبرت بالزاي كتبت .

وذبرت بالذال أتقنت ما حفظت .

قال : والبيت يزبرها ، بالزاي والضم .

وقال ابن قتيبة : يروى "يزبرُها" و"يذبرُها" وهو مثله ، يقال : زبر الكتاب يزبرُه ، ويزبرِه .

وذَبره يذبرُه ، ويذبِره .

وقال قتادة : رقّم له بشرٍّ ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه الكافر .

وقيل : المعنى : إنه مثبت لهم كالرقم في الثوب ، لا ينسى ولا يمحى حتى يجازوا به .

قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا منتظم بقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ وما بينهما كلام معترض .

وما بعده قد سبق بيانه إلى قوله تعالى : ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر "بل ران" بفتح الراء مدغمة ، وقرأ أبو بكر عن عاصم "بل ران" مدغمة بكسر الراء .

وقرأ حفص عن عاصم "بل" بإظهار اللام "ران" بفتح الراء .

قال اللغويون : أي : غلب على قلوبهم ، يقال : الخمرة ترين على عقل السكران .

قال الزجاج : قرئت بإدغام اللام في الراء ، لقرب ما بين الحرفين ، وإظهار اللام جائز ، لأنه من

كلمة ، والرأس من كلمة أخرى .

ويقال : ران على قلبه الذَّنب يرين ريناً : إذا غشي على قلبه ، ويقال : غان يغين غنياً ، والغين كالغيم الرقيق ، والرين كالصدأ يغشى على القلب .

وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول : الغين يقال : بالراء ، وبالغين ، ففي القرآن "كلا بل ران" وفي الحديث " إنه ليغان على قلبي " وكذلك الراية تقال بالراء ، وبالغين ، والرميصاء تكتب "بالغين" ، وبالراء ، لأن الرمص يكتب بهما .

قال المفسرون : لما كثرت معاصيهم وذنوبهم أحاطت بقلوبهم .

قال الحسن : هو الذَّنب على الذَّنب حتى يعمى القلب .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : لا يصدّقون .

ثم استأنف ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال ابن عباس : إنهم عن النظر إلى ربهم يومئذ لمحجوبون ، والمؤمن لا يحجب عن رؤيته .

(89/808)

وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يَرَوْه تجلَّى لأوليائه حتى رأوه .

وقال الشافعي : لما حجب قوما بالسُّخْطِ دل على أن قوماً يَرَوْنه بالرضى .

وقال الزجاج : في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يُرى في القيامة .

ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، ولا خسَّت منزلة الكفار بأنهم يحجبون عن ربهم .

ثم من بعد حجبهم عن الله يدخلون النار ، فذلك قوله تعالى ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم يقال ﴾ أي : يقول لهم خزنة النار : ﴿ هذا ﴾ العذاب ﴿ الذي كنتم به تكذبون .

كلا ﴾ أي : لا يؤمن بالعذاب الذي يصلاه .

ثم أعلم أين محل ﴿ كتاب الأبرار ﴾ فقال تعالى : ﴿ لفي عليِّين ﴾ وفيها سبعة أقوال .

أحدها : أنها الجنة ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أنه لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش فيه أعمالهم مكتوبة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها السماء السابعة ، وفيها أرواح المؤمنين ، قاله كعب ، وهو مذهب مجاهد ، وابن زيد .

والرابع : أنها قائمة العرش اليمنى ، قاله قتادة .

وقال مقاتل : ساق العرش .

والخامس : أنه سدرة المنتهى ، قاله الضحاك .

والسادس : أنه في علو وصعود إلى الله عز وجل ، قاله الحسن .

وقال الفراء : في ارتفاع بعد ارتفاع .

والسابع : أنه أعلى الأمكنة ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما عليُّون ﴾ هذا تعظيم لشأنها .

قوله تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ الكلام فيه كالكلام في الآية التي قبلها .

قوله تعالى : ﴿ يشهده المقربون ﴾ أي : يحضر المقرَّبون من الملائكة ذلك المكتوب ، أو ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [الانفطار : 13] إلى قوله تعالى : ﴿ ينظرون ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : إلى ما أعطاهم الله من الكرامة .

والثاني : إلى أعدائهم حين يعذَّبون .

قوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ وقرأ أبو جعفر ، ويعقوب ، "تُعرَف" بضم التاء ، وفتح الراء "نضرةُ" بالرفع .

(90/808)

قال الفراء : بريق النعيم ونداه ، قال المفسرون : إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعيم ، لما ترى من الحسن والنور .

وفي "الرحيق" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الخمر ، قاله الجمهور .

ثم اختلفوا أي الخمر هي على أربعة أقوال .

أحدها : أجود الخمر ، قاله الخليل بن أحمد .

والثانية : الخالصة من الغش ، قاله الأخفش .

والثالث : الخمر البيضاء ، قاله مقاتل .

والرابع : الخمر العتيقة ، حكاه ابن قتيبة .

والقول الثاني : أنه عين في الجنة مشوبة بالمسك ، قاله الحسن .

والثالث : أنه الشراب الذي لا غش فيه ، قاله ابن قتيبة ، والزجاج .

وفي قوله تعالى ﴿ مختوم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : ممزوج ، قاله ابن مسعود .

والثاني : مختوم على إنائه ، وإلى نحو هذا ذهب مجاهد .

والثالث : له ختام ، أي : عاقبة ريح ، وتلك العاقبة هي قوله تعالى : ختامه مسك ، أي : عاقبته .

هذا قول أبي عبيدة .

﴿ ختامه مسك ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة "ختامه" بكسر الخاء ، وبفتح التاء ، وبألف بعدهما ، مرفوعه الميم .

وقرأ الكسائي "خَاتَمه" بخاء مفتوحة ، بعدها ألف ، وبعدها تاء مفتوحة .

وروى الشيزري "خَاتِمه" مثل ذلك ، إلا أنه يكسر التاء .

وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وعروة ، وأبو العالية : "خَتَمه" بفتح الخاء والتاء و [بضم] الميم من غير ألف .

وللمفسرين في قوله تعالى : ﴿ ختامه مسك ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : خلطه مسك ، قاله ابن مسعود ، ومجاهد .

والثاني : أن ختمه الذي يختم به الإناء مسك ، [قاله ابن عباس .

والثالث : أن طعمه وريحه مسك ، قاله علقمة .

والرابع : أن آخر طعمه مسك] قاله سعيد بن جبير ، والفراء ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج في آخرين .

قوله تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أي : فليجدُّوا في طلبه ، وليحرصوا عليه بطاعة الله .

والتنافس : كالتشاحّ على الشيء ، والتنازع فيه .

قوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ فيه قولان .

(91/808)

أحدهما : أنه اسم عين في الجنة يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين .

والثاني : أن التسنيم الماء ، قاله الضحاك .

قال مقاتل : وإنما سمي تسنيماً ، لأنه يتسنّم عليه من جنة عدن ، فينصبُّ عليهم انصباباً ، فيشربون الخمر من ذلك الماء .

قال ابن قتيبة : يقال : إن التسنيم أرفع شراب في الجنة .

ويقال : إنه يمتزج بماءٍ ينزل من تسنيم ، أي : من علو .

وأصل هذا من سنام البعير ، ومن تسنيم القبور .

وهذا أعجب إليَّ ، لقول المسيَّب بن عَلَس في وصف امرأة :

كَأَنَّ بِرِيقَتِهَا لِلْمِزَا . . .

جِ مِنْ ثَلْجِ تَسْنِيمَ شِيْبَتْ عُقَاراً

أراد كأن بريقتها عُقَاراً شِيْبَتْ للمزاج من ثلج تسنيم ، يريد : جبلاً .

قال الزجاج: المعنى: ومزاجه من تسنيم عيناً تأتيهم من تسنيم، أي: من علو يَتَسَنَّم عليهم من الغرف.

ف "عيناً" في هذا القول منصوبة، كما قال تعالى: ﴿ أو إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَة يتيماً ﴾ [البلد: 15] ويجوز أن تكون "عيناً" منصوبة بقوله: يُسْقَوْن عيناً، أي: من عين.

وقد بينا معنى ﴿ يشرب بها ﴾ في [هل أتى: 6].

قوله تعالى: ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ أي: أشركوا ﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ يعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل عمَّار، وبلال، وخبَّاب وغيرهم ﴿ يضحكون ﴾ على وجه الإستهزاء بهم ﴿ وإذا مرُّوا ﴾ يعني: المؤمنين ﴿ بهم ﴾ أي: بالكفار ﴿ يتغامزون ﴾ أي: يشيرون بالجفن والحاجب استهزاءً بهم ﴿ وإذا انقلبوا ﴾ يعني الكُفار ﴿ إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي: متعجِّبين بما هم فيه يتفكَّهون بذكرهم.

وقرأ أبو جعفر، وحفص عن عاصم، وعبد الرزاق عن ابن عامر "فكهين" بغير ألف.

(92/808)

وقد شرحنا معنى القراءتين في [يس: 55] ﴿ وإذا رأَوْهم ﴾ أي: رأَوْا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ يقول الله تعالى ﴿ وما

أُرسلوا ﴾ يعني الكفار ﴿ عليهم ﴾ أي : على المؤمنين ﴿ حافظين ﴾ يحفظون أعمالهم عليهم ، أي : لم يُوَكَّلوا بحفظ أعمالهم ﴿ فاليوم ﴾ يعني : في الآخرة ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ إذا رَأَوْهم يعذَّبون في النار .

قال أبو صالح : يقال لأهل النار وهم فيها : اخرجوا ، وتفتح لهم أبوابها ، فإذا أقبلوا يريدون الخروج ، غُلِّقت أبوابها دونهم .

والمؤمنون .

﴿ على الأرآئك ينظرون ﴾ إلى عذاب عدوِّهم .

قال مقاتل : لكل رجل من أهل الجنة ثلمة ينظرون إلى أعداء الله كيف يعذَّبون .

فيحمدون الله على ما أكرمهم به ، فهم يكلِّمون أهل النار ويكلمونهم إلى أن تطبق النار على أهلها ، فتسد حينئذ الكوى .

قوله تعالى : ﴿ هل ثُوِّب الكفار ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وهارون عن أبي عمرو "هل ثوب" بإدغام اللام .

أي : هل جوزوا وأُثيبوا على استهزائهم بالمؤمنين في الدنيا ؟ وهذا الإستفهام بمعنى التقرير .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 51.61 ﴾

وقال الخازن :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

قوله : ﴿ ويل ﴾ أي قبح وهي كلمة تذكر عند وقوع البلاء ، يقال ويل له وويل عليه ، وقيل ويل اسم واد في جهنم ﴿ للمطففين ﴾ يعني الذين ينقصون المكيال والميزان لأنه لا يكاد المطفف يسرق في الكيل والوزن ، إلا الشيء اليسير الطّفيف قال ابن عباس : لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة كانوا من أخبث النّاس كيلاً .

فأنزل الله : ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل ، وقيل لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة ، وبها رجل يقال له أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية وجعل الويل للمطففين ثم بين من هم .

فقال تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا على النّاس يستوفون ﴾ يعني أنهم إذا اكتالوا من النّاس ، ومن وعلى يتعاقبان ، وقيل معناه إذا اكتالوا من النّاس ، أي اشتروا شيئاً استوفوا عليهم لأنفسهم الكيل والوزن .

﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ يعني وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم للناس كما يقال نصحتك ونصحت لك .

﴿ يخسرون ﴾ أي ينقصون الكيل والوزن وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً

ويدفع إلى غيره ناقصاً ، ويتناول الوعيد القليل والكثير لكن إذا لم يتب منه فإن تاب منه ورد الحقوق إلى أهلها قبلت توبته ومن فعل ذلك ، وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر ، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والذرع ، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن ، قال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له اتق الله أوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العرق ، وقال قتادة : أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك ، قال الفضيل : بخس الميزان سواد يوم القيامة .

(94/808)

﴿ ألا يظن ﴾ أي ألا يعلم ويستيقن ﴿ أولئك ﴾ أي الذين يفعلون هذا الفعل ، وهم المطففون ﴿ أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ يوم يقوم النّاس ﴾ يعني من قبورهم ﴿ لرب العالمين ﴾ أي لأمره وجزائه وحسابه (ق) عن نافع " أن ابن عمر تلا ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم النّاس لرب العالمين ﴾ ، قال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه " ، وروي مرفوعاً عن المقداد قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " تدنو الشّمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى تكون منهم

كمقدار ميل " زاد التّرمذي أو ميلين " قال سليم بن عامر والله ما أدري ما يعني بالميل مسافة الأرض ، أو الميل ما تكتحل به العين قال فيكون النّاس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيديه إلى فيه " قوله : ﴿ كلا ﴾ قيل إنه ردع وتنبيه أي ليس الأمر على ما هم عليه من بخس الكيل والميزان ، فليرتدعوا عنه فعلى هذا تم الكلام هنا ، وقيل كلا ابتداء يتصل بما بعده على معنى حقاً ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ أي الذي كتبت فيه أعمالهم ﴿ لفي سجين ﴾ قال ابن عمر هي الأرض السابعة السفلى ، وفيها أرواح الكفار وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن البراء قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " سجين أسفل سبع أرضين وعليون في السماء السابعة تحت العرش " وقال شمر بن عطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : أخبرني عن قول الله ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ قال إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء ، فتأبى السماء أن تقبلها ثم يهبط بها إلى الأرض ، فتأبى أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين ، وهو موضع جند إبليس فيخرج لها من سجين رق ، فليتم ويختم ويوضع تحت جند إبليس لمعرفتها الهلاك بحساب يوم القيامة ، وقيل هي صخرة

تحت الأرض السابعة السفلى خضراء خضرة السماء منها فتقلب ، ويجعل كتاب الفجار تحتها ، قال وهب : هي آخر سلطان إبليس وجاء في الحديث

﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ، ولا قومك ، وقيل إنما قال ذلك تعظيماً لأمر سجين ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس هذا تفسيراً للسجن وإنما هو بيان للكتاب المذكور في قوله ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ والمعنى إن كتاب الفجار مرقوم أي مكتوب فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثّوب لا ينسى ولا يمحى حتى يحاسبوا به ، ويجازوا عليه ، وقيل مرقوم رقم عليه بشر كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر ، وقيل مرقوم أي مختوم وهو بلغة حمير ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ قيل إنه متصل بقوله يوم يقوم النّاس لرب العالمين ومعنى الآية ويل لمن كذب بهذا اليوم ، وقيل معناه مرقوم بالشّقاوة ، ثم قال ويل يومئذ للمكذبين أي في ذلك اليوم من ذلك الكتاب المرقوم عليهم بالشقاوة ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء ﴿ وما يكذب به ﴾ أي بيوم القيامة ﴿ إلا كل معتد ﴾ أي متجاوز عن نهج الحق ﴿ أثيم ﴾ هو مبالغة في الآثم وهو المرتكب الإثم والمعاصي ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ أي أكاذيب الأولين .

(96/808)

قوله : ﴿ كلا ﴾ أي لا يؤمن ثم استأنف فقال ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن العبد إن أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذي قال الله : ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ " أخرجه التّرمذي وقال : حديث حسن صحيح وأصل الرّان الغلبة ومعنى الآية أن الذّنوب والمعاصي غلبت على قلوبهم وأحاطت بها ، وقيل هو الذنب على الذّنب حتى يميت القلب وقال ابن عباس : ران على قلوبهم طبع عليها ، وقيل الرين أن يسود القلب من الذّنوب ، والطّبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرّين والإقفال أشد من الطّبع وقيل الرّين التغطية ، والمعنى أنه يغشى القلب شيء كالصدى فيغطيه فعند ذلك يموت القلب .

﴿ كلا ﴾ قال ابن عباس يريد لا يصدقون وقيل معناه ليس الأمر كما يقولون إن لهم في الاخرة خيراً ثم استأنف فقال تعالى : ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قيل عن كرامته ورحمته ممنوعون ، وقيل إن الله لا ينظر إليهم ولا يزكيهم وهذا التّفسير فيه ضعف أما حمله على منع الكرامة والرّحمة فهو عدول عن الظّاهر بغير دليل ، وكذا الوجه الثاني فإن من حجب عن الله فإن الله لا ينظر إليه نظر رحمة ، ولا يزكيه والذي ذهب إليه أكثر المفسرين أنهم محجوبون عن رؤية الله ، وهذا هو الصّحيح واحتج بهذه الآية من أثبت الرّؤية للمؤمنين

قالوا : لولا ذلك لم يكن للتّخصيص فائدة ، ووجه آخر وهو أنه تعالى ذكر الحجاب في معرض الوعيد والتّهديد للكفار ، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمنين ، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمنين قال الحسن : لو عمل الزّاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدّنيا .

(97/808)

وقيل كما حجبهم في الدّنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته وسئل مالك عن هذه الآية ، فقال : لما حجب الله أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، وقال الشافعي في قوله ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ دلالة على أن أولياء الله يرون الله جلّ جلاله وعنه كما حجب قوماً بالسّخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبون عن الله يدخلون النّار .

فقال عز من قائل ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أي لداخلو النّار ﴿ ثم يقال ﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿ هذا ﴾ أي هذا العذاب ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ يعني في الدنيا ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما يتوهمه الفجار من إنكار البعث ، وقيل كلا أي لا يؤمنون بالعذاب الذي يصلونه ، ثم بين محل كتاب الأبرار فقال تعالى : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ جمع

علي من العلو ، وقيل هو موضوع على صفة الجمع لا واحد له من لفظه وتقدم من حديث البراء المرفوع إن عليين في السّماء السابعة تحت العرش وقال ابن عباس : هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش أعمالهم مكتوبة فيه ، وقيل هو قائمة العرش اليمنى وقال ابن عباس في رواية عنه هي الجنة ، وقيل هي سدرة المنتهى ، وقيل معناه علو بعد علو وشرف بعد شرف ، وقيل هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة وقد عظّمها الله وأعلاها .

﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ تنبيهاً له على عظم شأنه ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسير العليين ، والمعنى أن كتاب الأبرار كتاب مرقوم في عليين فيه ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة ، وقيل مكتوب فيه أعمالهم وعليون محل الملائكة وضده سجين ، وهو محل إبليس وجنوده .

﴿ يشهده المقربون ﴾ يعني الملائكة الذين هم في عليين يشهدون ، أي يحضرون ذلك المكتوب ومن قال إنه كتاب الأعمال قال : يشهد ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين المقربون من الملائكة لكرامة المؤمن .

(98/808)

قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار ﴾ يعني المطيعين لله ﴿ لفي نعيم ﴾ يعني نعيم الجنة ﴿ على الأرائك ﴾ جمع أريكة وهي الأسرة في الحجال ﴿ ينظرون ﴾ أي إلى ما أعد الله لهم من نعيم الجنة ، وقيل ينظرون إلى أعدائهم كيف يعذبون في النّار ، وقيل ينظرون إلى ربهم سبحانه وتعالى ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ يعني أنك إذا رأيتهم تعرف أنهم من أهل النعمة لما ترى على وجوههم من النّور والحسن والبياض ، قيل النضرة في الوجه والسرور في القلب ﴿ يسقون من رحيق ﴾ يعني الخمر الصّافية الطّيبة البيضاء ﴿ مختوم ﴾ يعني ختم على ذلك الشراب ومنع من أن تمسه الأيدي إلى أن يفك ختمه الأبرار .

فإن قلت قد قال في سورة محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وأنهار من خمر ﴾ والنهر لا يختم عليه فكيف طريق الجمع بين الآيتين ، قلت يحتمل أن يكون المذكور في هذه الآية .

(99/808)

في أوان مختوم عليها ، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار ، وإنما ختم عليها لشرفها ونفاستها ﴿ ختامه مسك ﴾ أي طينته التي ختم عليه بها مسك بخلاف خمر الدّنيا فإن ختامها طين وقال ابن مسعود مختوم أي ممزوج ختامه أي آخر طعمه ، وعاقبته مسك ، وقيل يمزج لهم بالكافور ويختم لهم بالمسك ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أي

فليرغب الرّاغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ، ليحصل لهم هذا الشّراب المختوم بالمسك وقيل أصله من الشيء النّفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ، ويريده كل أحد لنفسه وينفس به على غيره أي يضن ويبخل ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ أي شراب ينصب عليهم من غرفهم ومنازلهم وقيل يجري في الهواء مسنماً فيصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها فإذا امتلأت أمسك وأصل هذه الكلمة من العلو ومنه سنام البعير لأنه أعلاه ، وقيل هو شراب اسمه تسنيم وهو من أشرف شراب أهل الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس : هو خالص للمقربين يشربونه صرفاً ويمزج لسائر أهل الجنة ، وسئل ابن عباس عن قوله من تسنيم فقال : هذا مما قال الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾

(100/808)

﴿ عيناً يشرب بها ﴾ أي منها وقيل يشربها ﴿ المقربون ﴾ أي صرفاً وقوله : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ أي أشركوا يعني كفار قريش أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مترفي أهل مكة ﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ أي من عمار وخباب وصهيب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿ يضحكون ﴾ أي منهم ويستهزئون بهم ﴿ وإذا مروا بهم ﴾ يعني مر المؤمنون الفقراء بالكفار الأغنياء ﴿ يتغامزون ﴾ يعني يتغامز الكفار

والغمز الإشارة بالجفن والحاجب أي يشيرون إليها بالأعين استهزاء بهم ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ يعني الكفار ﴿ انقلبوا فكهين ﴾ أي معجبين بما هم فيه ، وقيل ينقلبون بذكرهم كأنهم يتفكهون بحديثهم ﴿ وإذا رأوهم ﴾ يعني رأوا أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أي هم في ضلال يأتون محمداً ويرون أنهم على شيء .

قال الله : ﴿ وما أرسلوا ﴾ يعني المشركين ﴿ عليهم ﴾ يعني على المؤمنين ﴿ حافظين ﴾ أي لأعمالهم والمعنى أنهم لم يوكلوا بحفظ أعمالهم قوله : ﴿ فاليوم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ وسبب هذا الضحك أن الكفار لما كانوا في الدّنيا يضحكون من المؤمنين لما هم فيه من الشدة والبلاء فلما أفضوا إلى الآخرة انعكس ذلك الأمر فصار المؤمنون في السرور والنّعيم وصار الكفار في العذاب والبلاء ، فضحك المؤمنون من الكافرين لما رأوا حالهم وقال أبو صالح : تفتح للكافرين أبواب النّار وهم فيها ويقال لهم اخرجوا فإذا انتهوا إليها أغلقت دونهم فيفعل ذلك بهم مراراً والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون منهم وقال كعب بين الجنة والنّار كوى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوه في الدّنيا من الكفار اطلع عليه من تلك الكوى وهو يعذب فيضحك منه فذلك قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ .

﴿ على الأرائك ﴾ جمع أريكة وهو السرير ويتخذ في الحجلة وهي الكلة يزين بها البيت ، وأرائك الجنة من الدر والياقوت ﴿ ينظرون ﴾ يعني إليهم وهم في النّار يعذبون قال الله تعالى ﴿ هل ثُوِّبَ الكفار ﴾ أي جوزي الكفار ﴿ ما كانوا يفعلون ﴾ أي بالمؤمنين من الاستهزاء والضحك وهذا الاستفهام بمعنى التقرير ، وثوب ، وأثيب بمعنى ، قال أوس :

سأجزيك أو يجزيك عني مُثَوِّبٌ . . .

وحسبك أن يثنى عليك وتحمدي

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 218 .

223 ﴾

(102/808)

وقال النسفى :

سورة المطففين

مختلف فيها وهي ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ للذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن ﴿ الذين إِذَا اكْتَالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة .

ولما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل على مكان من للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلق "على" ب ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الاختصاص أي يستوفون على الناس خاصة .

وقال الفراء : "من" و "على" يعتقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه ، فإذا قال : اكتلت عليك فكأنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك فكأنه قال : استوفيت منك .

والضمير المنصوب في ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ راجع إلى الناس أي كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل .

وإنما لم يقل أو اتزنوا كما قيل ﴿ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ اكتفاء ، ويحتمل أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء ، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ ينقصون يقال خسر الميزان وأخسره .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة .

أدخل همزة الاستفهام على "لا" النافية توبيخاً وليست "ألا" هذه للتنبيه ، وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة ، ولو ظنوا أنهم يبعثون ما نقصوا في الكيل والوزن .

(103/808)

وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له : لقد سمعت ما قال الله في المطففين ، أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ونصب ؟ ! ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس ﴾ بمبعوثون ﴿ لِرَبّ العالمين ﴾ لأمره وجزائه .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ هنا بكى نحيباً وامتنع من قراءة ما بعده ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه أي ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ، ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه .

ثم اتبعه وعيد الفجار على العموم فقال ﴿ إِنّ كتاب الفجار ﴾ صحائف أعمالهم ﴿ لَفِى ﴾ ﴿ سِجّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجّينٌ * كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ فإن قلت : قد أخبر الله

تعالى عن كتاب الفجار بأنه في سجين وفسر سجيناً بكتاب مرقوم فكأنه قيل : إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه ؟ قلت : سجين كتاب جامع هو ديوان الشرّ دوّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس ، وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه من رقم الثياب علامتها .

والمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان .

وسمي سجيناً فعّيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ، أو لأنه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس وذريته ، وهو اسم علم منقول من وصف كحاتم منصرف لوجود سبب واحد وهو العلمية فحسب ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم يخرج المكتوب ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ الجزاء والحساب ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ ﴾ بذلك اليوم ﴿ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ مجاوز للحد ﴿ أَثِيمٍ ﴾ مكتسب للإثم ﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءايا تنا ﴾ أي القرآن ﴿ قَالَ أساطير الأولين ﴾ أي أحاديث المتقدمين .

وقال الزجاج : أساطير أباطيل واحدها أسطورة مثل أحدوثة وأحاديث .

(104/808)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول ﴿ بَلْ ﴾ نفي لما قالوا ويقف حفص على ﴿ بَل ﴾ وقيفة ﴿ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ عطاها كسبهم أي غلب على قلوبهم حتى غمرها ما كانوا يكسبون من المعاصي .

وعن الحسن : الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب .

وعن الضحاك : الرين موت القلب .

وعن أبي سليمان : الرين والقسوة زماماً الغفلة ودواؤهما إدمان الصوم فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ ﴾ عن رؤية ربهم ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ لممنوعون والحجب : المنع قال الزجاج : في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم وإلا لا يكون التخصيص مفيداً .

وقال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في العقبى عن رؤيته .

وقال مالك بن أنس رحمه الله : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه .

وقيل : عن كرامة ربهم لأنهم في الدنيا لم يشكروا نعمه فيئسوا في الآخرة عن كرامته مجازاة .

والأول أصح لأن الرؤية أقوى الكرامات فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الجحيم ﴾ ثم بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلون النار ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي هذا العذاب هو الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتنكرون وقوعه .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن التكذيب ﴿ إِنَّ كتاب الأبرار ﴾ ما كتب من أعمالهم والأبرار المطيعون الذين لا يطففون ويؤمنون بالبعث لأنه ذكر في مقابلة الفجار ، وبيّن الفجار بأنهم المكذبون بيوم الدين .

(105/808)

وعن الحسن : البر الذي لا يؤذي الذر ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ هو علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع "عليّ" فعيل من العلو سمي به لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة ، أو لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ ما الذي أعلمك يا محمد ﴿ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ أي شيء هو ﴿ كتاب مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ تحضره الملائكة .

قيل : يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء إذا رفع ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ ﴾ تنعم في الجنان ﴿ على الأرآئك ﴾ الأسرة في الحجال ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إلى كرامة الله ونعمه وإلى أعدائهم كيف يعذبون ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ بهجة التنعم وطراوته ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ شراب خالص لا غش فيه ﴿ مَّخْتُومٍ * ختامه مِسْكٌ ﴾ تختم أوانيه بمسك بدل الطين الذي يختم به الشراب في الدنيا .

أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابه أو ختامه مسك مقطعه رائحة مسك أي توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه .

﴿ خاتمه ﴾ عليّ ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ ﴾ الرحيق أو النعيم ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ فليرغب الراغبون وذا إنما يكون بالمسارعة إلى الخيرات والانتهاء عن السيئات ﴿ وَمِزَاجُهُ ﴾ ومزاج الرحيق ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ هو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنّمه إذا رفعه لأنها أرفع شراب في الجنة ، أو لأنها تأتيهم من فوق وتنصب في أوانيهم ﴿ عَيْناً ﴾ حال أو نصب على المدح ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ أي منها ﴿ المقربون ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم : يشربها المقربون صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين .

﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ كَانُواْ مِنَ الذين ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ في الدنيا استهزاء بهم .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالعين طعناً فيهم وعيباً لهم .

(106/808)

قيل : جاء علي رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا وقالوا : أترون هذا الأصلع فنزلت قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم ﴿ وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ ﴾ أي إذا رجع إلى الكفار منازلهم ﴿ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ متلذذين بذكرهم والسخرية منهم .

وقرأ غير حفص ﴿ فاكهين ﴾ أي فرحين ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ وإذا رأى الكافرون المؤمنين ﴿ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ ﴾ أي خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات ، فقد تركوا الحقيقة بالخيال وهذا هو عين الضلال ﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ ﴾ وما أرسل الكفار ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين ﴿ حافظين ﴾ يحفظون عليهم أحوالهم ويرقبون أعمالهم بل أمروا بإصلاح أنفسهم فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع غيرهم وتسفيه أحلامهم ﴿ فاليوم ﴾ أي من يوم القيامة ﴿ الذين ءَامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ ثم كما ضحكوا منهم هنا مجازاة ﴿ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ﴾ حال أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والاستكبار وهم على الأرائك آمنون .

وقيل : يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : هلموا إلى الجنة ، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذا فعل بهم ما ذكر ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 339.342 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة المطففين

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾

(108/808)

التطفيف في اللغة هو البخس والنقص وفسره بذلك الزمخشري واختاره ابن عطية ، وقيل : هو تجاوز الحد في زيادة أو نقصان واختاره ابن الفرس ، وهو الأظهر لأن المراد به هنا بخس حقوق الناس في المكيال والميزان ، بأن يزيد الإنسان على حقه أو ينقص من حق غيره ، وسبب نزول السورة أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فالسورة على هذا مدنية ، وقيل مكية لذكر أساطير الأولين ، وقيل : نزل بعضها بمكة . ونزل أمر التطفيف بالمدينة ؛ إذ كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله بهذه السورة ﴿ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ معنى اكتالوا على الناس قبضوا منهم بالكيل فعلى بمعنى من وإنما أبدلت منها لما تضمن الكلام من معنى التحامل عليهم ، ويجوز أن يتعلق على الناس بيستوفون وقدم المفعول لإفادة التخصيص ﴿

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ معنى يخسرون ينقصون حقوق الناس وهو من الخسارة ، يقال : خسر الرجل وأخسره غيره إذا جعله يخسر ، وكالوهم معناه : كالوا لهم ﴿ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ معناه وزنوا لهم ، ثم حذف حرف الجرّ فانتصب المفعول لأن هذين الفعلين يتعدى كل واحد منهما تارة بنفسه وتارة بحرف الجرّ يقال : كلتك وكلت لك ووزنتك ووزنت لك بمعنى واحد . وحذف المفعول الثاني ، وهو المكيل والموزون ، والواو التي هي ضمير الفاعل للمطففين والهاء الذي هي ضمير المفعول للناس . فالمعنى إذا كالوا أو وزنوا لهم طعاماً أو غيره مما يكال أو يوزن يخسرونهم حقوقهم ، وقيل : إن " هم " في كالوهم أو وزنوهم تأكيد للضمير الفاعل ، ورُوي عن حمزة أنه كان يقف على كالوا ووزنوا ثم يبتدئ " هم " ليبين هذا المعنى ، وهو ضعيف من وجهين ، أحدهما : أنه لم يثبت في المصحف ألف بعد الواو في كالوا ووزنوا فدلّ ذلك على أن هم ضمير المفعول . والآخر أن المعنى على هذا أن المطففين إذا تولوا الكيل أو

الوزن نقصوا ، وليس ذلك بمقصود لأن الكلام واقع في الفعل لا في المباشر ، ألا ترى أن اكتالوا على الناس معناه : قبضوا منهم وكالوهم أو وزنوهم معناه : دفعوا لهم . فقابل القبض

بالدفع . وأما على هذا الوجه الضعيف فهو خروج عن المقصود ، قال ابن عطية : ظاهر الآية أن الكيل والوزن على البائعين وليس ذلك بالجلي . قال : صدر الآية في المشترين ، فهم الذين يستوفون أو يشاحُّون ويطلبون الزيادة ، وقوله : وإذ كالوهم أو وزنوهم في البائعين فهم الذين يُخْسِرون المشتري .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ، وهذا تهديد للمطففين وإنكار لفعلهم ، وكان عبد الله بن عمر إذا مر بالبائع يقول له : اتق الله وأوف الكيل ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الظرف منصوب بقوله : مبعوثون وقيل : بفعل مضمر أو بدل من يوم عظيم ، وقيام الناس يوم القيامة على حسب اختلافهم ، فمنهم من يقوم خمسين ألف سنة وأقل من ذلك حتى أن المؤمن يقوم على قدر الصلاة مكتوبة .

(110/808)

﴿ كَلَّا ﴾ ردع على التطفيف أو افتتاح كلام ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ كتاب الفجار هو ما يكتب من أعمالهم ، والفجار هنا يحتمل أن يريد به الكفار أو المطففين وإن كانوا مسلمين ، والأول أظهر لقوله بعد هذا : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وسجين : اسم

علم منقول من صفة على وزن فعيل للمبالغة ، وقد عظم أمره بقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، ثم فسره بأنه : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي مسطور بين الكتابين وهو كتاب جامع يكتب فيه أعمال الشياطين والكفار ، والفجار وهو مشتق من السجن بمعنى الحبس ، لأنه سبب الحبس و التضييق ، في جهنم ولأنه في مكان الهوان والعذاب كالسجن ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه في الأرض السفلى ، وروُي عنه أنه في بئر هناك ، وحكى كعب عن التوراة أنه في شجرة سوداء هنالك ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون معنى الآية أن عدد الفجار في سجين أي كتبوا هنالك في الأزل .

﴿ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ قد ذكر ﴿ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب ، فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي ، وفي الحديث : " إن العبد إذا أذنب ذنباً صارت نكتة سوداء في قلبه فإذا زاد ذنب آخر زاد السواد فلا يزال كذلك حتى يتغطى وهو الران " ﴿ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ حُجب الكفار عن الله ، على أن المؤمنين لا يُحجبون وقد استدل بها مالك والشافعي على صحة رؤية المؤمن لله في الآخرة ، وتأويلها المعتزلة أن معناها محجوبون عن رحمته .

(111/808)

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ عليّون اسم علم للكتاب الذي تكتب فيه الحسنات ، وهذا جمع منقول من صفة علي ، على وزن فعيل للمبالغة وقد عظمه بقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وهو مشتق من العلوّ لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة ، أو لأنه مرفوع في مكان علي ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تحت العرش ، وقال ابن عباس : هو الجنة وارتفع كتاب مرقوم في الموضعين على أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره هو كتاب ، وقال ابن عطية : كتاب مرقوم خبر إن والظرف ملغى . وهذا تكليف يفسد به المعنى ، وقد روي في الأثر ما روي في الآية وهو أن الملائكة تصعد بصحيفة فيها عمل العبد فإن رضيه الله قال اجعلوه في عليين ، وإن لم يرضه قال اجعلوه في سجين ﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ يعني الملائكة المقربين .

﴿ الأرآئك ﴾ قد ذكر ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ينظرون إلى أعدائهم في النار ، وقيل : ينظرون إلى الجنة وما أعطاهم الله فيها ﴿ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أي بهجته ورونقه ، كما يرى في وجوه أهل الرفاهية العافية والخطاب في : ﴿ تَعْرِفُ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب من غير تعيين .

(112/808)

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ الرحق الخمر الصافية ، والمختوم فسره الله بأن ختامه مسك ، وقرئ ختامه بألف بعد التاء ، وخاتمه بألف بعد الخاء وبفتح التاء وكسرها وفي معناه ثلاثة أقوال : أحدها أنه من الختم على الشيء ، بمعنى جعل الطابع عليه ، فالمعنى أنه ختم على فم الإناء الذي هو فيه بالمسك ، كما يختم على أفواه آنية الدنيا بالطين إذا قصد حفظها ، وصيانتها ، الثاني أنه من ختم الشيء أي تمامه ، فمعناه : خاتم شربه مسك أي يجد الشارب عند آخر شربه رائحة المسك ولذته الثالث أن معناه مزاجه مسك أي مزج الشراب بالمسك ، وهذا خارج عن اشتقاق اللفظ ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ التنافس في الشيء هو الرغبة فيه ، والمغالاة في طلبه والتزاحم عليه ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ تسنيم اسم لعين في الجنة ، يشرب منها المقربون صرفاً ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار ، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار ، فالمقربون هم السابقون والأبرار هم أصحاب اليمين ﴿ عَيْناً ﴾ منصوب على المدح بفعل مضمر ، أو على الحال من تسنيم ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ بمعنى يشربها فالباء زائدة ويحتمل أن يكون بمعنى يشرب منها أو كقولك شربت الماء بالعسل .

(113/808)

﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ نزلت هذه الآية في صناديد قريش ، كأبي جهل وغيره ، مر بهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من المؤمنين ، فضحكوا منهم واستخفوا بهم ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي يغمز بعضهم إلى بعض ويشير بعينيه ، والضمير في مروا يحتمل أن يكون للمؤمنين أو للكفار ، والضمير في يتغامزون للكفار لا غير ﴿ فَكِهِينَ ﴾ من الفكاهة وهي اللهو ، أي يتفكرون بذكر المؤمنين ، والاستخفاف بهم قاله الزمخشري . ويحتمل أن يريد يتفكهون بنعيم الدنيا ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ ﴾ أي إذا رأى الكفار المؤمنين نسبوهم إلى الضلال ، وقيل : إذا رأى المؤمنون الكفار نسبوهم إلى الضلال والأول أظهر وأشهر ﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي ما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم ، وكأنه قال : كلامهم بالمؤمنين فضول منهم ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ يعني باليوم يوم القيامة إذ قد تقدم ذكره ، فيضحك المؤمنون فيه من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ معنى ثوب جوزي ، يقال : ثوبه وأثابه إذا جازاه . وهذه الجملة يحتمل أن تكون متصلة بما قبلها في موضع مفعول ينظرون ، فتوصل مع ما قبلها أو تكون توقيفاً فيوقف قبلها ويكون معمول " ينظرون " محذوفاً حسبما ذكرنا في ينظرون الذي قبل هذا وهذا أرجح لاتفاق الموضعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 183.186 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة المطففين

مختلف فيها وآيها ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

التطفيف البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس طفيف أي حقير . روي أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوه ، وفي الحديث " خمس بخمس ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر " ﴿ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية ، وإنما أبدل ﴿ على ﴾ بمن للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس ، أو اكتيال يتحامل فيه عليهم .

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ أي إذا كالوا الناس أو وزنوا لهم . ﴿ يُخْسِرُونَ ﴾ فحذف

الجار وأوصل الفعل كقوله :

وَلَقَد جَنَيْتُكَ أَكمؤاً وَعَسَاقلا . . . بمعنى جنيت لك أو كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه ، ولا يحسن جعل المنفصل تأكيداً للمتصل فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع ، لا في المباشرة وعدمها ويستدعي إثبات الألف بعد الواو كما هو خط المصحف في نظائره .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴾ فإن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح ، فكيف بمن تيقنه وفيه انكار وتعجيب من حالهم .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظمه لعظم ما يكون فيه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس ﴾ نصب بمبعوثون أو بدل من الجار والمجرور ويؤيده القراءة بالجر ﴿ لِرَبّ العالمين ﴾ لحكمه .

وفي هذا الانكار والتعجيب وذكر الظن ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس فيه لله ، والتعبير عنه برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه .

(115/808)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب . ﴿ إِنّ كتاب الفجار ﴾ ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم . ﴿ لَفِى سِجّينٍ ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من

الثقلين كما قال :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي مسطور بين الكتابة أو معلم بعلم من رآه أنه لا خير فيه ، فعيل من السجن لقب به الكتاب لأنه سبب الحبس ، أو لأنه مطروح كما قيل : تحت الأرضين في مكان وحش ، وقيل هو اسم مكان والتقدير ما كتاب السجين ، أو محل كتاب مرقوم فحذف المضاف .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالحق أو بذلك .

﴿ الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ صفة مخصصة أو موضحة أو ذامة .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز عن النظر غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الإعادة . ﴿ أَثِيمٍ ﴾ منهمك في الشهوات المخدجة بحيث أشغلته عما وراءها وحملته على الإتقان لما عداه .

﴿ إِذَا تتلى عَلَيْهِ ءاياتنا قَالَ أساطير الأولين ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لم تنفعه دالائل العقل .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن هذا القول . ﴿ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ رد لما قالوه وبيان لما أدى بهم إلى هذا القول ، بأن غلب عليهم حب المعاصي بالانهماك فيها حتى صار ذلك صدأ على قلوبهم فعمي عليهم معرفة الحق والباطل ، . فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات كما قال عليه الصلاة والسلام " إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه

نكتة سوداء حتى يسود قلبه " والرين الصدأ ، وقرأ حفص ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ بإظهار اللام .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن الكسب الرائن . ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فلا يرونه بخلاف المؤمنين ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة من يمنع عن الدخول على الملوك ، أو قدر مضافاً مثل رحمة ربهم ، أو قرب ربهم .

(116/808)

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الجحيم ﴾ ليدخلون النار ويصلون بها .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ تقوله لهم الزبانية .

﴿ كَلاَّ ﴾ تكرير ليعقب بوعد الأبرار كما عقب الأول بوعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور والإيفاء بر ، أو ردع عن التكذيب . ﴿ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلّيُّونَ كتاب مَّرْقُومٌ ﴾ الكلام فيه ما مر في نظيره .

﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ يحضرونه فيحفظونه ، أو يشهدون على ما فيه يوم القيامة .

﴿ إِنَّ الأبرار لَفِى نَعِيمٍ على الأرائك ﴾ على الأسرة في الحجال . ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ إلى ما يسرده من النعم والمتفرجات .

﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ بهجة التنعم وبريقه ، وقرأ يعقوب "تُعْرِفُ" على

البناء للمفعول و"نَضْرَةُ" بالرفع .

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ شراب خالص . ﴿ مَّخْتُومٍ ختامه مِسْكٌ ﴾ أي مختوم أوانيه بالمسك مكان الطين ، ولعله تمثيل لنفاسته ، أو الذي له ختام أي مقطع هو رائحة المسك ، وقرأ الكسائي "خَاتِمَة" بفتح التاء أي ما يختم به ويقطع . ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ ﴾ يعني الرحيق أو النعيم . ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ فليرتغب المرتغبون .

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ علم لعين بعينها سميت تسنيماً لارتفاع مكانها أو رفعة شرابها .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ فإنهم يشربونها صرفاً لأنهم لم يشتغلوا بغير الله ، وتمزج لسائر أهل الجنة وانتصاب ﴿ عَيْناً ﴾ على المدح أو الحال ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ والكلام في الباء كما في ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ يعني رؤساء قريش . ﴿ كَانُواْ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ كانوا يستهزئون بفقراء المؤمنين .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم .

(117/808)

﴿ وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ انقلبوا فاكهين ﴾ متلذذين بالسخرية منهم ، وقرأ حفص "فَكِهِينَ" ﴾ .

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَؤُلاَء لَضَالُّونَ ﴾ وإذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال .

﴿ وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين . ﴿ حافظين ﴾ يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدهم وضلالهم .

﴿ فاليوم الذين ءَامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلوبين في النار . وقيل يفتح لهم باب إلى الجنة فيقال لهم اخرجوا إليها ، فَإِذَا وصلوا أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم .

﴿ عَلَى الأرائك يَنظُرُونَ ﴾ حال من ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ ثُوّبَ الكفار ﴾ أي هل أثيبوا . ﴿ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بادغام اللام في الثاء .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 463. 467 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة المطففين

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأن يومه ، ذكر ما أعد لبعض العصاة ، وذكرهم بأخس ما يقع من المعصية ، وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته .

﴿ إذا اكتالوا على الناس ﴾ : قبضوا لهم ، ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ ، أقبضوهم .

وقال الفراء : من وعلى يعتقبان هنا ، اكتلت على الناس ، واكتلت من الناس .

فإذا قال : اكتلت منك ، فكأنه قال : استوفيت منك ؛ وإذا قال : اكتلت عليك ؛ فكأنه قال : أخذت ما عليك ، والظاهر أن على متعلق باكتالوا كما قررنا .

وقال الزمخشري : لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم ، أبدل على مكان من للدلالة على ذلك ؛ ويجوز أن يتعلق بيستوفون ، أي يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها . انتهى .

وكال ووزن مما يتعدى بحرف الجر ، فتقول : كلت لك ووزنت لك ، ويجوز حذف اللام ، كقولك : نصحت لك ونصحتك ، وشكرت لك وشكرتك ؛ والضمير ضمير نصب ، أي

كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف حرف الجر ووصل الفعل بنفسه ، والمفعول محذوف وهو المكيل والموزون .

وعن عيسى وحمزة : المكيل له والموزون له محذوف ، وهم ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع الذي هو الواو .

وقال الزمخشري : ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين ، لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد ، وذلك أن المعنى : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا أعطوهم أخسروا .

وإن جعلت الضمير للمطففين ، انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر ، لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر . انتهى .

ولا تنافر فيه بوجه ، ولا فرق بين أن يؤكد الضمير وأن لا يؤكد ، والحديث واقع في الفعل .

(119/808)

غاية ما في هذا أن متعلق الاستيفاء ، وهو على الناس ، مذكور وهو في ﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ ، محذوف للعلم به لأنه معلوم أنهم لا يخسرون الكيل والميزان إذا كان لأنفسهم ، إنما يخسرون ذلك لغيرهم .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هل لا .

قيل أو اتزنوا ، كما قيل أو وزنوهم ؟ قلت : كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة ، لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء ، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً .

﴿ يخسرون ﴾ : ينقصون . انتهى .

ويخسرون معدّى بالهمزة ، يقال : خسر الرجل وأخسره غيره .

﴿ ألا يظن ﴾ : توقيف على أمر القيامة وإنكار عليهم في فعلهم ذلك ، أي ﴿ ليوم عظيم ﴾ ، وهو يوم القيامة ، ويوم ظرف ، العامل فيه مقدر ، أي يبعثون يوم يقوم الناس .

ويجوز أن يعمل فيه مبعوثون ، ويكون معنى ﴿ ليوم ﴾ : أي لحساب يوم .

وقال الفراء : هو بدل من يوم عظيم ، لكنه بني وقرىء ﴿ يوم يقوم ﴾ بالجر ، وهو بدل من ﴿ ليوم ﴾ ، حكاه أبو معاد .

وقرأ زيد بن عليّ : يوم بالرفع ، أي ذلك يوم ، ويظن بمعنى يوقن ، أو هو على وضعه من الترجيح .

وفي هذا الإنكار والتعجب ، ووصف اليوم بالعظم ، وقيام الناس لله خاضعين ، ووصفه برب العالمين ، دليل على عظم هذا الذنب وهو التطفيف .

﴿ كلا ﴾ : ردع لما كانوا عليه من التطفيف ، وهذا القيام تختلف الناس فيه بحسب

أحوالهم ، وفي هذا القيام إلجام العرق للناس ، وأحوالهم فيه مختلفة ، كما ورد في الحديث .

والفجار : الكفار ، وكتابهم هو الذي فيه تحصيل أعمالهم .

﴿ وسجين ﴾ ، قال الجمهور : فعيل من السجن ، كسكير ، أو في موضع ساجن ، فجاء بناء مبالغة ، فسجين على هذا صفة لموضع المحذوف .

قال ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية . . .

ضرباً تواصت به الأبطال سجينا

(120/808)

وقال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ ما سجين ﴾ ، أصفة هو أم اسم ؟ قلت : بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم ، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف . انتهى .

وكان قد قدم أنه كتاب جامع ، وهو ديوان الشر ، دوّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس ، وهو : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ : مسطور بين الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، والمعنى : أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك

الديوان . انتهى .

واختلفوا في سجين إذا كان مكاناً اختلافاً مضطرباً حذفنا ذكره .

والظاهر أن سجيناً هو كتاب ، ولذلك أبدل منه ﴿ كتاب مرقوم ﴾ .

وقال عكرمة : سجين عبارة عن الخسار والهوان ، كما تقول : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الجمود .

وقال بعض اللغويين : سجين ، نونه بدل من لام ، وهو من السجيل ، فتلخص من أقوالهم أن سجين نونه أصلية ، أو بدل من لام .

وإذا كانت أصلية ، فاشتقاقه من السجن .

وقيل : هو مكان ، فيكون ﴿ كتاب مرقوم ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي هو كتاب .

وعني بالضمير عوده على ﴿ كتاب الفجار ﴾ ، أو على ﴿ سجين ﴾ على حذف ، أي هو محل ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ، و ﴿ كتاب مرقوم ﴾ تفسير له على جهة البدل أو خبر مبتدأ .

والضمير المقدر الذي هو عائد على ﴿ سجين ﴾ ، أو كناية عن الخسار والهوان ، هل هو صفة أو علم ؟ ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ : أي ليس ذلك مما كنت تعلم .

مرقوم : أي مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحى .

قال قتادة : رقم لهم : بشر ، لا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد .

وقال ابن عباس والضحاك : مرقوم : مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة ، ومنه قول الشاعر :

سأرقم في الماء القراح إليكم . . .

على بعدكم إن كان للماء راقم

وتبين من الإعراب السابق أن ﴿ كتاب مرقوم ﴾ بدل أو خبر مبتدأ محذوف .

وكان ابن عطية قد قال : إن سجيناً موضع ساجن على قول الجمهور ، وعبارة عن الخسار على قول عكرمة ، من قال : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ .

(121/808)

من قال بالقول الأول في سجين ، فكتاب مرتفع عنده على خبر إن ، والظرف الذي هو ﴿ لفي سجين ﴾ ملغى .

ومن قال في سجين بالقول الثاني ، فكتاب مرقوم على خبر ابتداء مضمر التقدير هو ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ، ويكون هذا الكتاب مفسراً لسجين ما هو . انتهى .

فقوله : والظرف الذي هو ﴿ لفي سجين ﴾ ملغى قول لا يصح ، لأن اللام التي في ﴿ لَفِى سِجّينٍ ﴾ داخلة على الخبر ، وإذا كانت داخلة على الخبر ، فلا إلغاء في الجار والمجرور ،

بل هو الخبر .

ولا جائز أن تكون هذه اللام دخلت في ﴿ لفي سجين ﴾ على فضلة هي معمولة للخبر أو لصفة الخبر ، فيكون الجار والمجرور ملغى لا خبراً ، لأن كتاب موصوف بمرقوم فلا يعمل ، ولأن مرقوماً الذي هو صفة لكتاب لا يجوز أن تدخل اللام في معموله ، ولا يجوز أن يتقدم معموله على الموصوف ، فتعين بهذا أن قوله : ﴿ لفي سجين ﴾ هو خبر إن .

﴿ الذين يكذبون ﴾ : صفة ذم ، ﴿ كل معتد ﴾ : متجاوز الحد ، ﴿ أثيم ﴾ : صفة مبالغة .

وقرأ الجمهور : ﴿ إذا ﴾ ؛ والحسن : أئذا بهمزة الاستفهام .

والجمهور : ﴿ تتلى ﴾ بتاء التأنيث ؛ وأبو حيوة وابن مقسم : بالياء .

قيل : ونزلت في النضر بن الحرث .

﴿ بل ران ﴾ ، قرىء بإدغام اللام في الراء ، وبالإظهار وقف حمزة على بل وقفاً خفيفاً يسير التبيين الإظهار .

وقال أبو جعفر بن الباذش : وأجمعوا ، يعني القراء ، على إدغام اللام في الراء إلا ما كان من سكت حفص على بل ، ثم يقول : ﴿ ران ﴾ ، وهذا الذي ذكره ليس كما ذكر من الإجماع .

ففي كتاب اللوامح عن قالون : من جميع طرقه إظهار اللام عند الراء ، نحو قوله : ﴿ بل

رفعه الله إليه ﴾ ﴿ بل ربكم ﴾ وفي كتاب ابن عطية ، وقرأ نافع : ﴿ بل ران ﴾ غير مدغم ، وفيه أيضاً : وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة .

وقال سيبويه : اللام مع الراء نحو : أسفل رحمه البيان والإدغام حسنان .

وقال الزمخشري : وقرى بإدغام اللام في الراء ، وبالإظهار والإدغام أجود ، وأميلت الألف وفخمت . انتهى .

(122/808)

وقال سيبويه : فإذا كانت ، يعني اللام ، غير لام المعرفة ، نحو لام هل وبل ، فإن الإدغام في بعضها أحسن ، وذلك نحو : هل رأيت ؟ فإن لم تدغم فقلت : هل رأيت ؟ فهي لغة لأهل الحجاز ، وهي غريبة جائزة . انتهى .

وقال الحسن والسدي : هو الذنب على الذنب .

وقال الحسن : حتى يموت قلبه .

وقال السدي : حتى يسود القلب .

وفي الحديث نحو من هذا .

فقال الكلبي : طبع على قلوبهم .

وقال ابن سلام : غطى .

﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ ، قال ابن عطية : وعلق اللوم بهم فيما كسبوه ، وإن كان ذلك بخلق منه تعالى واختراع ، لأن الثواب والعقاب متعلقان بكسب العبد .

والضمير في قوله : ﴿ أنهم ﴾ ، فمن قال بالرؤية ، وهو قول أهل السنة ، قال إن هؤلاء لا يرون ربهم ، فهم محجوبون عنه .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18)

لما ذكر تعالى أمر كتاب الفجار ، عقبه بذكر كتاب ضدهم ليتبين الفرق .

عليون : جمع واحده عليّ ، مشتق من العلو ، وهو المبالغة ، قاله يونس وابن جني .

قال أبو الفتح : وسبيله أن يقال علية ، كما قالوا للغرفة علية ، فلما حذفت التاء عوضوا منها الجمع بالواو والنون .

وقيل : هو وصف للملائكة ، فلذلك جمع بالواو والنون .

وقال الفراء : هو اسم موضوع على صفة الجمع ، ولا واحد له من لفظه ، كقوله : عشرين وثلاثين ؛ والعرب إذا جمعت جمعاً ، ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية ، قالوا في المذكر والمؤنث بالواو والنون .

وقال الزجاج : أعرب هذا الاسم كإعراب الجمع ، هذه قنسرون ، ورأيت قنسرين .

وعليون : الملائكة ، أو المواضع العلية ، أو علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما علمته

الملائكة وصلحاء الثقلين ، أو علو في علو مضاعف ، أقوال ثلاثة للزمخشري .

وقال أبو مسلم : ﴿ كتاب الأبرار ﴾ : كتابة أعمالهم ، ﴿ لفي عليين ﴾ .

ثم وصف عليين بأنه ﴿ كتاب مرقوم ﴾ فيه جميع أعمال الأبرار .

وإذا كان مكاناً فاختلفوا في تعيينه اختلافاً مضطرباً رغبنا عن ذكره .

(123/808)

وإعراب ﴿ لفي عليين ﴾ ، و﴿ كتاب مرقوم ﴾ كإعراب ﴿ لفي سجين ﴾ ، و﴿ كتاب مرقوم ﴾ .

وقال ابن عطية : و﴿ كتاب مرقوم ﴾ في هذه الآية خبر إن والظرف ملغى . انتهى .

هذا كما قال في ﴿ لفي سجين ﴾ ، وقد رددنا عليه ذلك وهذا مثله .

والمقربون هنا ، قال ابن عباس وغيره : هم الملائكة أهل كل سماء ، ﴿ ينظرون ﴾ ، قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : إلى ما أعد لهم من الكرامات .

وقال مقاتل : إلى أهل النار .

وقيل : ينظر بعضهم إلى بعض .

وقرأ الجمهور : ﴿ تعرِف ﴾ بتاء الخطاب ، للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو

للناظر .

﴿ نضرة النعيم ﴾ ، نصباً .

وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحة وشيبة ويعقوب والزعفراني : تعرف مبنياً للمفعول ، نضرة رفعاً ؛ وزيد بن عليّ : كذلك ، إلا أنه قرأ : يعرف بالياء ، إذ تأنيث نضرة مجازي ؛ والنضرة تقدّم شرحها في قوله : ﴿ نضرة وسروراً ﴾ ﴿ مختوم ﴾ ، الظاهر أن الرحيق ختم عليه تهمماً وتنظفاً بالرائحة المسكية ، كما فسره ما بعده .

وقيل : تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ختامه ﴾ : أي خلطه ومزاجه ، قاله عبد الله وعلقمة .

وقال ابن عباس وابن جبير والحسن : معناه خاتمته ، أي يجد الرائحة عند خاتمة الشراب ، رائحة المسك .

وقال أبو عليّ : أي إبزاره المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم .

وقيل : يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك .

وفي الصحاح : الختام : الطين الذي يختم به ، وكذا قال مجاهد وابن زيد : ختم إناؤه بالمسك بدل الطين ، وقال الشاعر :

كأن مشعشعاً من خمر بصرى . . .

نمته البحث مشدود الختام

وقرأ عليّ والنخعي والضحاك وزيد بن عليّ : وأبو حيوة وابن أبي عبلة والكسائي : خاتمه ، بعد الخاء ألف وفتح التاء ، وهذه بينة المعنى ، إنه يراد بها الطبع على الرحيق .

(124/808)

وعن الضحاك وعيسى وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي : كسر التاء ، أي آخره مثل قوله : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ وفيه حذف ، أي خاتم رائحته المسك ؛ أو خاتمه الذي يختم به ويقطع .

﴿ من تسنيم ﴾ ، قال عبد الله وابن عباس : هو أشرف شراب الجنة ، وهو اسم مذكر لماء عين في الجنة .

وقال الزمخشري : ﴿ تسنيم ﴾ : علم لعين بعينها ، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه .

و ﴿ عيناً ﴾ نصب على المدح .

وقال الزجاج : على الحال . انتهى .

وقال الأخفش : يسقون عيناً ، ﴿ يشرب بها ﴾ : أي يشربها أو منها ، أو ضمن يشرب معنى يروى بها أقوال .

﴿ المقرّبون ﴾ ، قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح : يشربها المقربون صرفاً ويمزج للأبرار .

ومذهب الجمهور : الأبرار هم أصحاب اليمين ، وأن المقرّبين هم السابقون .

وقال قوم : الأبرار والمقرّبون في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكل من نعم في الجنة .

وروي أن علياً وجمعاً معه من المؤمنين مروا بجمع من كفار قريش ، فضحكوا منهم واستخفوا بهم عبثاً ، فنزلت : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ ، قبل أن يصل عليّ رضي الله تعالى عنه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكفار مكة هؤلاء قيل هم : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ؛ والمؤمنون : عمار ، وصهيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم من فقراء المؤمنين .

والظاهر أن الضمير في ﴿ مروا ﴾ عائد على ﴿ الذين أجرموا ﴾ ، إذ في ذلك تناسق الضمائر لواحد .

وقيل : للمؤمنين ، أي وإذا مرّ المؤمنون بالكافرين يتغامز الكافرون ، أي يشيرون بأعينهم .

و ﴿ فكهين ﴾ : أي متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم .

وقرأ الجمهور : فاكهين بالألف ، أي أصحاب فاكهة ومزح وسرور باستخفافهم بأهل الإيمان ؛ وأبو رجاء والحسن وعكرمة وأبو جعفر وحفص : بغير ألف ، والضمير المرفوع في ﴿ رأوهم ﴾ عائد على المجرمين ، أي إذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال ، وهم محقون في

نسبتهم إليه .

﴿ وما أرسلوا ﴾ على الكفار ، ﴿ حافظين ﴾ .

(125/808)

وفي الإشارة إليهم بأنهم ضالون إثارة للكلام بينهم .

وكان في الآية بعض موادعة ، أي إن المؤمنين لم يرسلوا حافظين على الكفار ، وهذا على القول بأن هذا منسوخ بآية السيف .

وقال الزمخشري : وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين ، إنكاراً لصدّهم إياهم عن الشرك ، ودعائهم إلى الإسلام ، وجدهم في ذلك .

ولما تقدّم ذكر يوم القيامة قيل : ﴿ فاليوم الذين آمنوا ﴾ ، واليوم منصوب بيضحكون منهم في الآخرة ، وينظرون حال من الضمير في يضحكون ، أي يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والعذاب بعد العزة والنعيم .

وقال كعب لأهل الجنة : كوى ينظرون منها إلى أهل النار .

وقيل : ستر شفاف بينهم يرون منه حالهم .

﴿ هل ثوب ﴾ : أي هل جوزي ؟ يقال : ثوبه وأثابه إذا جازاه ، ومنه قول الشاعر :

سأجزيك أو يجزيك عني مثوب . . .

وحسبك أن يثني عليك وتحمد

وهو استفهام بمعنى التقرير للمؤمنين ، أي هل جوزوا بها ؟ وقيل : ﴿ هل ثوب ﴾ متعلق بينظرون ، وينظرون معلق بالجملة في موضع نصب بعد إسقاط حرف الجر الذي هو إلى . وقرأ الجمهور : ﴿ هل ثوب ﴾ بإظهار لام هل ؛ والنحويان وحمزة وابن محيصن : بإدغامها في الثاء ؛ وفي قوله : ﴿ ما كانوا ﴾ حذف تقديره جزاء أو عقاب : ﴿ ما كانوا يفعلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(126/808)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

التفسير : إنه سبحانه لما ذكر في السورة المتقدمة بعض أشراط الساعة وأخبر عن طرف من أحوالها وأهوالها صدّر هذه السورة بالنعي على قوم آثروا الحياة الزائلة على الحياة الباقية ، وتهالكوا في الحرص على استيفاء أسبابها حتى اتسموا بأخس السمات وهي التطفيف . والتركيب يدل على القليل وطف الشيء جانبه وحرفه ، وطف الوادي والإناء

إذا بلغ الشيء الذي فيه حرفه ولم يمتلىء . وقال الزجاج : إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكون الذي يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوا الكيل .

(127/808)

قلت : إن كانت السورة مدنية فظاهر ، وإن كانت مكية فلعل النبي حين قدم المدينة قرأها عليهم . وهكذا الوجه فيما روي أن أهل المدينة كانوا تجاراً يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة يعني بيع الغرر كالطير في الهواء فنزلت ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم فقال " خمس بخمس . قيل : يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر " وعن علي رضي الله عنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له : أقم الوزن بالقسط ثم أرجح بعد ذلك ما شئت . كأنه أخبره بالتسوية أوّلاً ليعتادها ويفصل الواجب من النفل . وعن أبيّ : لا

تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤوس المكاييل وألسن الموازين . والاكتيال الأخذ بالكيل كالاتزان الأخذ بالوزن . قال الفراء : " من " و " على " يعتقبان في هذا الموضع . فمعنى اكتلت عليك أخذت ما عليك ، ومعنى أكتلت منك استوفيت منك . وقال أهل البيان : وضع " على " مكان " من " للدلالة على أن اكتيالهم من الناس اكتيال فيه ضرر . وجوز أن يتعلق الجار ب ﴿ يستوفون ﴾ والتقديم للتخصيص أي يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها . والضمير في ﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ منصوب راجع إلى الناس والأصل كالوا لهم ووزنوا لهم فحذف المضاف وأصل الفعل . قال الكسائي والفراء : هذه لغة الحجاز ومنه المثل " الحريص يصيدك لا الجواد " أي الحريص يصيد لك لا الفرس الجواد . ويجوز أن يكون على حذف المضاف والتقدير وإذا كالوا مكيلهم أو وزنوا موزونهم . وعن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين للمطففين على أنهما توكيد للمرفوع ويقفان عند الواوين وقفة يبينان بها ما أرادا . وخطأهما بعضهم بأن الألف التي تكتب بعد

واو الجمع غير ثابتة فيه ، ولو كان الضميران للتأكيد لم يكن بدل من الألف ، وزيفت هذه التخطئة بأن خط المصحف لا يقاس عليه فكم من أشياء فيه خارجة عن اصطلاح الخط . وقد ذكر الزمخشري في إبطال قولهما أن المعنى حينئذ يؤل إلى قول القائل وإذا تولوا الكيل والوزن هم على الخصوص بأنفسهم اخسروا أي نقصوا ، وهذا كلام متنافر لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر . قلت : النظم على قولهما باقٍ على حالته من الإعجاز والفصاح لأنه يفيد ضرباً من التوبيخ ، فإنهم إذا أخسروا وقد تولوا الكيل أو الوزن بأنفسهم ولم يمنعهم من ذلك مانع من الدين والمروءة ، فلأن يرضوا بالإخسار وقد تولاه لأجلهم من تعلق بهم يكون أولى ، ومن قلة مروأتهم ودينهم أنهم كانوا متمكنين في الإعطاء من البخس في الكيل وفي الوزن جميعاً ولهذا قال سبحانه ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ وأما في الأخذ فالميزان غالباً يكون بيد البائع فلا يتمكن المشتري من التصرف فيه بالزيادة المعتد بها فإن الكفة تميل بأدنى ثقل ، وإنما يتمكن في الاكتيال بأن يحتال في مكياله بالتحريك ووضع اليد عليه بقوّة فلهذا لم يقل هناك " أو اتزنوا " وأعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم لأن مدار معاملات الخلق عليهما ، ولهذا جرى على قوم شعيب بسببه ما جرى .

وذهب بعض العلماء إلى أن المطفف لا يتناوله الوعيد إلا إذا بلغ تطفيفه نصاب السرقة . والأكثرون على أن قليله وكثيره يوجب الوعيد . وبالغ بعضهم حتى عد العزم عليه من الكبائر .

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله : لفظ المطفف يتناول التطفيف في الوزن والكيل ، وفي إظهار العيب وإخفائه ، وفي طلب الإنصاف والانتصاف ، ومن لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف . والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه فهو من هذه الجملة ، ومن طلب حق من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلب لنفسه فهو من هذه الجملة ، والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يطلب من أحد لنفسه حقاً . ويحكى أن أعرابياً قال لعبد الملك بن مروان : إن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ووزن ؟ ثم زاد في توبيخهم بقوله ﴿ ألا يظن ﴾ فإن كانوا من أهل الإسلام كما روي أن أهل المدينة كانوا يفعلون ذلك فالظن بمعنى العلم ، وإن كانوا كفاراً منكري البعث فالظن بمعناه الأصلي . والمراد هب أنهم لا يقطعون بالبعث أفلا يظنون أيضاً كقوله ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : 32] وفي الإشارة إليهم ب ﴿ أولئك ﴾ وقد ذكرهم عما قريب تبعيد لهم عن رتبة الاعتبار بل عن درجة الإنسانية . وفي هذا الإنكار ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لرب العالمين بيان بليغ لعظم هذا الذنب كما إذا قال الحالف والله الطالب الغالب الحي

القيوم . ففيه تعظيم شأن المقسم عليه . عن النبي صلى الله عليه وسلم " يقوم النس مقدار ثلثمائة سنة من الدنيا لا يؤمر فيها بأمر " قال ابن عباس : هو في حق المؤمنين كقدر انصرافهم من الصلاة . وفيه أنه إذا ظهر التطفيف الذي يظن به أنه حقير فكيف بسائر الظلامات ؟ وحمل بعضهم هذا القيام على ردّ الأرواح إلى أجسادها حتى يقوموا من مراقدهم . وعن أبي مسلم : أراد به الخضوع التام كقوله ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ [البقرة : 238] ثم بيّن أن كل ما يعمل من خير أو شر فإنه مكتوب عند الله .

(130/808)

وقدم ديوان الشرور لأن المذكور قبله هو وعيد أهل الفجور . وسجين " فعيل " من السجن وهو الحبس والتضييق جعل علماً لديوان الشر الجامع لأعمال الكفرة والفسقة والشياطين ، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا العلمية ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً للسجين بل التقدير : كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وإن كتاب الفجار مرقوم . وموقع قوله ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ اعتراض تعظيماً لأمر السجين ، ولأن ذلك لم يكن مما كان العرب تعرفه أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك . وقيل : مرقوم أي مطروح وعلى هذا يكون سجين اسم مكان . ثم اختلفوا ، فعن ابن عباس في رواية عطاء وقتادة ومجاهد والضحاك وعن البراء

مرفوعاً أنه أسفل أرضين وفيها إبليس وذريته . وعن أبي هريرة مرفوعاً أنه جب في جهنم . وقال الكلبي : صخرة تحت الأرض السابعة . والتحقيق أنه سبحانه أجرى أمور عباده على ما تعارفوه فيما بينهم ، ولا شك أن السفلة والظلمة والضيق وحضور الشياطين الملاعين من صفات البغض فوصف الله كتاب الفجار بأنه في هذا الموضع استهانة بهم وبأعمالهم ، كما أنه وصف كتاب الأبرار بأنه في عليين وتشهده الملائكة المقربون تعظيماً لحالهم . ثم أوعد المكذبين ووصفهم بقوله ﴿ الذين يكذبون ﴾ للذم لا للبيان لأن كل مكذب فالوعيد يتناوله سواء كان مكذباً بالبعث أو بسائر آيات الله تعالى فهو كقولك " فعل فلان الفاسق الخبيث " . وإنما خص التكذيب بالبعث لتقدّم ذكره وذكر ما يتعلق به . ثم بالغ في الذم بقوله ﴿ وما يكذب به إلاّ كلُّ معتد أثيم ﴾ متجاوز عن حد الاعتدال في استعمال القوة النظرية إما في طرف الإفراط وهو الجريرة حتى عدّ الممكن محالاً وأقدم على التكذيب ، وإما في طرف التفريط وهو البله والغباوة حتى قنع بالاستبعاد المحض وأعرض عن النظر في دلائل البعث من الخلق الأوّل وغيره . أثيم في إعمال القوى البدينة في غير مواقعها حتى أثمر له الباطل بدل الحق ، وحكم على آيات الله بأنها أساطير الأوّلين ، وفيه

إنكار للنبوّة أيضاً . ثم أضرب عن أن يكون لهم اختبار فيما قالوه أو يكون لهم ارعواء عما ارتكبوه ، لأن ما كسبوه قد ران على قلوبهم أي ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها . قال أهل اللغة : ران النعاس والخمر في الرأس يرين ريناً وريوناً إذا رسخ فيه ، ولهذا قال الحسن : هو الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب . قلت : الغين هو الحجاب الرقيق الذي يزول عن كثب ومثله الغيم . والرين هو الغليظ الذي لا يرجى زواله ولهذا جاء في الحديث " إنه ليغان على قلبي " وأما الرين فمن صفة الكفار الذين صارت ملكاتهم الذميمة في غاية الرسوخ حتى أظلم سطوح قلوبهم بل دخلت الظلمة أجوافها وبلغت الكدورة صفاقها .

ثم قال ﴿ كلا ﴾ حقاً وهو ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ وذلك أن النور لا يرى إلا بالنور ، فإذا كانت نفوسهم في غاية الظلمة الذاتية والعرضية الحاصلة من الملكات الردية احتجبوا عن نور الله ومنعوا من رؤيته . قال أهل السنة كثرهم الله : وفي تخصيصهم بالحجب دلالة على أن أهل الإيمان والأعمال الصالحة لا يكونون محجوبين عن ربهم . وقالت المعتزلة : المضاف محذوف أي عن رحمة ربهم أو كرامته . وقال في الكشاف : هو تمثيل للاستخفاف بهم لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين . ثم أخبر بقوله ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أي داخلوها عن بقية حالهم وأنهم لا يتركون عن حجب الحرمان بل يعذبون بنار القطيعة والهجران لأنهما متلازمان ﴿ ثم

يقال ﴿ في معرض التوبيخ ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ جمعاً بين عذاب الوجل وعذاب الخجل .

(132/808)

ثم شرع في قصة الأبرار . وعليون جمع " عليّ " " فعيل " من العلو وإعرابه كإعراب الجمع لأنه على صورته وإن صار مفرداً كقنسرين من حيث إنه جعل علماً لديوان الخير الذي فيه أعمال الملائكة وصلحاء الثقلين ، إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة ، وإما لأنه مرفوع من السماء السابعة حيث يحضره الملائكة المقربون . وقال مقاتل : هو في ساق العرش . وعن ابن عباس : هو لوح من زبرجد معلق تحت العرش . وبالجملة كتاب الأبرار ضد كتاب الفجار بجميع معانية كما عرفت من بقية حال الأبرار . ومفعول ﴿ ينظرون ﴾ محذوف ليشمل أنواع نعيمهم في الجنة من الحور العين والأطعمة والأشربة والملابس والمراكب والمساكن وكل ما أعدّ الله لهم . قال عليه السلام " يلحظ المؤمن فيحيط بكل ما آتاه الله وإن أدناهم منزلة من له مثل سعة الدنيا " وقال مقاتل : ينظرون إلى عدوّهم حين يعذبون ولا يحجب الحجاب أبصارهم عن الإدراك . وقال بعضهم : ينظرون إلى الله تعالى بدليل قوله ﴿ تعرف ﴾ يا من له أهل العرفان ﴿ في وجوههم نضرة ﴾ وقوله

في موضع آخر ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : 22 ، 23] ولا ريب أن هناك قرائن وأحوالاً تعرف بها بهجتهم وازدهاؤهم بالضحك والاستبشار بل بتجلي الأنوار والآثار . والرحيق الخمر الصافية التي لا غش فيها ﴿ مختوم ﴾ أوانيه ﴿ ختامه ﴾ أي ما يختم به ﴿ مسك ﴾ مكان الطينة أو الشمعة . وإنما ختم تكريماً وصيانة على ما جرت به العادة فكأنها أشرف من الخمر الجارية في أنهارها من الجنة . وقيل : ختامه أي مقطعه رائحة المشك إذا شرب . وهذا قول علقمة والضحاك وسعيد بن جبير ومقاتل وقتادة . قال الفراء : الختام آخر كل شيء ومنه يقال : ختمت القرآن ، والأعمال بخواتيمها ، والخاتم مثله وأنت خاتم النبيين . والتركيب يدل على القطع والانتهاء بجميع معانيه . عن أبي الدرداء مرفوعاً : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شربهم ، لو أن رجلاً من أهل الدنيا

(133/808)

أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحه الطيبة .

(134/808)

قال بعضهم : مزج الخمر بالأدوية الحارة مما يعين على الهضم وتقوية الشهوة ، فلعل فيه إشارة إلى قوة شهوتهم وصحة أبدانهم . ثم رغب في العمل الموجب لهذا الكرامة قائلاً ﴿ وفي ذلك فيتنافس المتنافسون ﴾ فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله . قال أهل اللغة : نفست لعيه الشيء نفاسة إذا ضننت به وأن لا تحب أن يصير إليه ، والتنافس تفاعل منه فإن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به لما يظهر من نفسه من الجد والاعتمال في الطاعة والعبودية . والجملة معترضة ، وفي تقديم الجار إشارة إلى أن السعي والإتعاب يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم لا في النعيم الزائل . وتسنيم علم لعين بعينها في الجنة من سنمه إذا رفعه لأنها أرفع شراب هناك ، ولأنها تأتيهم من فوق على ما روي أنها تجري في الهواء متسمنة فتصب في أوانيهم ، أو لأنها لكثرة مائها تعلو على كل شيء تمرّ به ، أو يرى فيها ارتفاع وانخفاض . والتركيب يدل على الارتفاع ومنه سنام البعير عن ابن عباس : أشرف شراب أهل الجنة هو التسنيم فالمقرّبون يشربونها صرفاً وتمزج لأصحاب اليمين . فقال بعض أهل العرفان : وذلك أن المقرّبين السابقين لا يشتغلون إلا بمطالعة وجه الله الكريم ، وأما أهل اليمين فإنه يكون شرابهم ممزوجاً لأن نظرهم تارة إلى الله وتارة إلى الخلق . ثم حكى قبائح أفعال الكافرين على أن التكلم واقع في يوم القيامة بدليل قوله عقيبه ﴿ فاليوم ﴾ قال المفسرون : هم مشركو مكة أبو جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما ، كانوا

يضحكون من عمار وصهيب وبال وغيرهم من فقراء المؤمنين . وقيل : جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه فنزلت هذه الآي قبل أن يصل علي كرم الله وجهه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . والتغامز تفاعل من الغمز وهو الإشارة بالعين أو الحاجب أو الشفة ، وأكثر ذلك إنما يكون على

(135/808)

سبيل الخبث . ومعنى ﴿ فكهين ﴾ متلذذين بذكرهم والسخرية منهم . قوله ﴿ وما أرسلوا ﴾ حال معترضة إنكاراً من الله عليهم وتهكماً بهم أي ينسبون المسلمين إلى الضلال والحال أنهم لم يرسلوا على المسلمين موكلين بهم حافظين عليهم أحوالهم . وجوز في الكشاف أن تكون المنفية من جملة قول الكفار فيكون إنكاراً لصدّهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام . قلت : لو كان من جملة قولهم لكان الظاهر أن يقال : وما أرسلوا أي المسلمون علينا . يروى أنه يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم : اخرجوا إليها . فإذا وصلوا إليها أغلق الباب دونهم يفعل ذلك بهم مراراً فيضحك المؤمنون منهم ناظرين إليهم على الأرائك . ولا يخفى ما في هذا الإخبار والحكاية من تسلية المؤمنين وتثبيتهم على

الإسلام والتصبر على متاعب التكاليف وأذية الأعداء في أيام معدودة لنيل ثواب لا نهاية له ولا غاية . قال المبرد : ثوّب وأثاب بمعنى ، وقد تستعمل الإثابة في الشر كالمجازاة ، ويجوز أن يراد التهكم نحو ﴿ فبشرهم بعذاب ﴾ [آل عمران : 21] وفي هذا القول مزيد غيظ وتوبيخ للكافرين ونوع سرور وتنفيس للمؤمنين . ويحتمل أن يكون الاستفهام للتقرير أي هل قدرنا على الإثابة نحو ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ [الأعراف : 44] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 462. 467 ﴾

(136/808)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة المطففين

مدنية في قول الحسن وعكرمة ومقاتل .

قال مقاتل : وهي أوّل سورة نزلت بالمدينة ، وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمان آيات وهي قوله تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ إلى آخرها فهو مكيّ . وقال الكلبي وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة ، ولعل هذا هو سبب الاختلاف وقال ابن مسعود والضحاك : مكية .

وهي ست وثلاثون آية وتسع وتسعون كلمة وسبعمائة وثمانون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي توكل عليه كفاه ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ جوده الأبرار والعصاة ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل طاعته بهداه .

﴿ ويل ﴾ مبتدأ ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ، وهو إمّا كلمة عذاب أو هلاك ثابت عظيم في كل حال من أحوال الدنيا والآخرة ، أو واد في جهنم . وقوله تعالى :

﴿ للمطففين ﴾ خبره ، والتطفيف البخس في الكيل والوزن ؛ لأنّ ما يبخس شيء طفيف حقير . قال الزجاج : وإنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان : مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف .

وروى ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ، وكانوا من أبخس الناس كيلاً فنزلت فأحسنوا الكيل ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم وقال : "خمس بخمس" قيل : يا رسول الله ما خمس ؟ قال : "ما نقض قوم العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوّهم ، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر" . وقال : السدي : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يعرف بأبي جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فنزلت .

وقيل : كان أهل المدينة تجاراً يطففون ، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت . وعن عليّ أنه مرّ برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له : أقم الوزن بالقسط ، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت كأنه أمر بالتسوية أوّلاً ليعتادها ويفصل الواجب من النفل . وعن ابن عباس : إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان ، وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعاً وكانا مفرّقين في الحرمين ، كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون . وعن ابن عمر أنه كان يمرّ بالبائع فيقول : اتق الله وأوف الكيل ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إنّ العرق يلجمهم إلى أنصاف آذانهم . وعن عكرمة أشهد أنّ كل كيال ووزان في النار فقيل له : إن ابنك كيال أو وزان فقال : أشهد أنه في النار . وعن أبيّ : لا تلتمس الحوائج ممن رزقه في رؤوس المكاييل وألسن الموازين .

ثم بين تعالى المطففين من هم بقوله تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا ﴾ أي : عالجوا الكيل ﴿ على الناس ﴾ أي : كائنين من كانوا لا يخافون شيئاً ، ولا يراعون أحداً بل صارت الخيانة والوقاحة لهم ديدناً ﴿ يستوفون ﴾ أي : إذا كالوا منهم وأبدل على مكان من للدلالة على أن اكتيالهم من الناس اكتيال يضرهم ويتحامل فيه عليهم ، ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدّم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية ، أي : يستوفون على الناس خاصة ، وأمّا

أنفسهم فيستوفون لها . وقال الفراء : من وعلى يتعاقبان في هذا الموضع لأنه حق عليه ، فإذا قال : اكتلت عليك فكأنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا قال : اكتلت منك فكقوله : استوفيت منك .

﴿ وإذا كالوهم ﴾ أي : كالوا للناس أي : حقهم ، أي : مالهم من الحق ﴿ أو وزنوهم ﴾ أي : وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل ، كما قال القائل:

*ولقد جنيتك أكمؤاً وعساقلاً ** ولقد نهيتك عن بنات الأوبر*

(138/808)

وقال آخر : والحريص بصيدك لا الجواد . بمعنى جنيت لك ويصيد لك ويقال : وزنتك حقك ، وكلتك طعامك ، أي : وزنت لك وكلت لك ، ونصحتك ونصحت لك ، وكسبتك وكسبت لك والأكمؤ جمع كمأة ، والعساقل ضرب منها ، وأصله : عساقيل لأنّ واحدها عسقول كعصفور فحذفت الياء للضرورة ، وبنات أوبر ضرب من الكمأة رديء .

﴿ يخسرون ﴾ جواب إذا ، وهو يتعدى بالهمزة . يقال : خسر الرجل وأخسرته أنا مفعوله محذوف ، أي : يخسرون الناس متاعهم . وقيل : يخسرون أي : ينقصون بلغة فارس أي :

ينقصون الكيل أو الوزن .

وقوله تعالى : ﴿ ألا يظنّ أولئك ﴾ أي : الأخساء البعداء الأراذل ﴿ أنهم مبعوثون ليوم ﴾ أي : لأجله أو فيه ، وزاد التهويل بقوله تعالى : ﴿ عظيم ﴾ إنكاراً وتعجيباً من حالهم في الاجتراء على التطفيف ، كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة . وقيل : الظنّ بمعنى اليقين . وقوله تعالى:

(139/808)

﴿ يوم ﴾ يجوز نصبه بمبعوثون ، أو بإضمار أعني ، أو بدل من محل يوم فناصبه يبعثون ﴿ يقوم الناس ﴾ أي : من قبورهم ﴿ لرب العالمين ﴾ أي : الخلائق لأجل أمره وجزائه وحسابه . وعن ابن عمر أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يوم يقول الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه" . وعن المقداد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد . حتى تكون قيد ميل أو اثنين ـ قال سليم : لا أدري أي : الميلين يعني : مسافة الأرض أو الميل الذي تكتحل به العين ـ قال : فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه على حقويه ، ومنهم من

يلجمه إلجاماً ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يشير بيده إلى فيه يقول : ألجمه إلجاماً" . وعن قتادة : أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك . وعن الفضيل : بخس الميزان سواد الوجوه يوم القيامة . وعن عبد الملك بن مروان أنّ أعرابياً قال له : سمعت ما قال الله في المطففين أراد بذلك أنّ المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم ، الذي سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ، وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظنّ ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله تعالى خاضعين ، ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف ، وترك القيام بالقسط والعمل على السوية ، والعدل في كل أخذ وإعطاء بل في كل قول وعمل .

(140/808)

وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ بكى نحيباً وامتنع من قراءة ما بعده . وعن بعض المفسرين أنّ لفظ التطفيف يتناول التطفيف في الوزن والكيل . وفي إظهار العيب وإخفائه وفي طلب الإنصاف والانتصاف ، ويقال : من لم يرض لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه فليس بمنصف ، والمعاشرة والصحبة في

هذه المادّة ، والذي يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه من هذه الجملة ، ومن طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطلبه .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع ، أي : ليس الأمر على ما هم عليه فليرتدعوا ، وههنا تم الكلام . وقال الحسن : كلا ابتداء متصل بما بعده على معنى حقاً ، وجرى الجلال المحلي وأكثر المفسرين على الأوّل .

﴿ إنّ كتاب الفجار ﴾ أي : كتب أعمال الكفار وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف . واختلف في معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لفي سجين ﴾ فقيل : هو كتاب جامع ، وهو ديوان الشر دوّن الله تعالى فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجنّ والإنس ، وقيل : هو مكان تحت الأرض السابعة وهو محل إبليس وجنوده . وقال عبد الله بن عمر : سجين في الأرض السابعة السفلى فيها أرواح الكفار .

وعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سجين أسفل سبع أرضين وعليون في السماء السابعة تحت العرش" . وقال الكلبي : هو صخرة تحت الأرض السابعة خضراء خضرة السموات منها يجعل كتاب الفجار فيها . وقال وهب : هي آخر سلطان إبليس .

وعن كعب الأحبار : أنّ روح الفاجر يعني : الكافر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، ثم هبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجين ، وهو موضع جند إبليس وذلك استهانة بها ، ويشهدها الشياطين

المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقرّبون . وقال عكرمة : لفي سجين ، أي : في خسار وضلال .

﴿ وما أدراك ﴾ أي : جعلك دارياً وإن اجتهدت في ذلك .

(141/808)

﴿ ما سجين ﴾ وقال الزجاج : أي : ليس لك ذلك ما كنت تعلمه أنت ولا قومك .

وقوله تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً لسجين بل هو بيان للكتاب المذكور في قوله تعالى : ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ أي : هو كتاب مرقوم ، أي : مسطور بين الكتابة مكتوب فيه أعمالهم مثبت عليهم كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى حتى يجازون به ، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه . وقيل : الرقم الختم بلغة حمير ، واقتصر على هذا الجلال المحلي . وقال قتادة : رقم عليه بشرّ كأنه علم بعلامة يعرف بها أنه كافر . والمعنى : أنّ ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان ، وسمي سجيناً فعيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق في جهنم ، أو لأنه مطروح تحت الأرض كما مرّ .

فإن قيل : سجين هل هو اسم أو صفة ؟

أجيب : بأنه اسم علم منقول من وصف كحاتم ، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب

واحد وهو التعريف .

﴿ ويل ﴾ أي : أعظم الهلاك ﴿ يومئذ ﴾ أي : إذ تقوم الناس لما تقدّم ﴿ للمكذبين ﴾ أي : بذلك أو بالحق . وقوله تعالى:

﴿ الذين يكذبون بيوم ﴾ أي : بسبب الإخبار بيوم ﴿ الدين ﴾ أي : الجزاء الذي هو سر الوجود بدل أو بيان للمكذبين ، ثم أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين بثلاث صفات ذكر أولها بقوله تعالى:

﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه ما ﴿ يكذب به ﴾ أي : بذلك اليوم ﴿ إلا كل معتد ﴾ أي : متجاوز عن النظر غال في التقليد ، حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه ، فاستحال منه الإعادة . ثم ذكر الصفة الثانية بقوله تعالى : ﴿ أثيم ﴾ أي : منهمك في الشهوات المحرجة بحيث اشتغل عما وراءها وحملته على الإنكار لما عداها . ثم ذكر الصفة الثالثة بقوله تعالى:

﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ أي : القرآن ﴿ قال أساطير الأوّلين ﴾ أي : الحكايات سطرت قديماً جمع أسطور بالضم ، وذلك لفرط جهله وإعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لا تنفعه دلائل العقل ، وهذا عام في كل موصوف بذلك ، وقال الكلبي : هو الوليد بن المغيرة . وقيل : هو النضر بن الحارث . وقوله تعالى:

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر ، أي : ليس هو أساطير الأوّلين ، وقال الحسن : معناها حقاً كما مرّ . ﴿ بل ران ﴾ أي : غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم السماء ﴿ على قلوبهم ﴾ أي : كل من قال هذا القول ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ أي : كما يركب الصدأ من إصرارهم على الكبائر وتسويف التوبة حتى طبع على قلوبهم فلا تقبل الخير ولا تميل إليه . روى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكتت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها وإذا زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلكم الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه المبين" . وقال أبو معاذ : الران أن يسودّ القلب من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشدّ من الران ، والأقفال أشدّ من الطبع ، وهو أن يقفل على القلب ، قال تعالى : ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ (محمد :)

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب ويغشى فيموت القلب . قال صلى الله عليه وسلم "إياكم والمحقرات من الذنوب فإنّ الذنب على الذنب يوقد على صاحبه جحيماً ضخمة" . وعن الحسن : الذنب بعد الذنب يسود القلب . يقال : ران عليه الذنب وغان عليه ربنا وغينا والغين الغيم ، ويقال : ران فيه النوم : رسخ فيه ، ورانت به الخمرة ذهبت به . وقرأ حمزة وشعبة والكسائي بالإمالة : محضة ، والباقون بالفتح وسكت حفص على اللام وقفة لطيفة من غير قطع والباقون بغير سكت .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم ، وقيل : بمعنى حقاً كما مرّ ﴿ إنهم عن ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم ﴿ يومئذ لمحجوبون ﴾ أي : فلا يرونه بخلاف المؤمنين فإنهم يرونه كما ثبت لك في الأحاديث الصحيحة . وقال الحسن : لو علم الزاهدون والعابدون أنهم لا يرون ربهم في المعاد لزهقت أنفسهم في الدنيا . وسئل مالك عن هذه الآية فقال : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه .

(143/808)

وفي قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ دلالة على أنّ أولياء الله يرون الله تعالى ، ومن نفى الرؤية كالزمخشري جعله تمثيلاً للاستخفاف بهم وإهانتهم ؛ لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء والمكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأذناب المهانون عندهم .

وعن ابن عباس وقتادة : محجوبون عن رحمته . وعن ابن كيسان : عن كرامته .

﴿ ثم إنهم ﴾ أي : بعد ما شاء الله تعالى من إمهالهم ﴿ لصالوا الجحيم ﴾ أي : لداخلوا النار المحرقة .

﴿ ثم يقال ﴾ أي : تقول لهم الخزنة ﴿ هذا ﴾ أي : العذاب ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي : في دار الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿كلا﴾ ردع عن التكذيب ، وقيل : معناها حقاً كما مرّ .

وقال البيضاوي : تكرير للأوّل ليعقب بوعد الأبرار كما عقب بوعيد الفجار إشعار بأنّ التطفيف فجور والإيفاء برّ ، وردع عن التكذيب ﴿إنّ كتاب الأبرار﴾ أي : كتب أعمال المؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿لفي عليين﴾ وعليون علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته صلحاء الثقلين ، منقول من جمع فعيل من العلو كسجين من السجن ، سمي بذلك إمّا لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة ، وإمّا لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له وتعظيماً . وروي "أنّ الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقبلونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم إنكم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وإنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين ، وقد غفرت له وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم أنتم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على قلبه ، وإنه لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين" . وعن البراء مرفوعاً : "عليين في السماء السابعة تحت العرش" . وقال ابن عباس : هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش ، أعمالهم مكتوبة فيها . وقال كعب وقتادة : هو قائمة العرش اليمنى . وقال عطاء

عن ابن عباس : هو الجنة . وقال الضحاك : سدرة المنتهى . وقال بعض أهل المعاني علو بعد علو وشرف بعد شرف ، ولذلك جمعت بالياء والنون . قال الفراء : هو اسم موضع على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه مثل عشرين وثلاثين .

﴿ وما أدراك ﴾ أي : جعلك دارياً وإن بالغت في الفحص ﴿ ما عليون ﴾ أي : ما كتاب عليين هو ﴿ كتاب ﴾ أي : عظيم ﴿ مرقوم ﴾ أي : فيه أنّ فلاناً أمن من النار رقماً ، يا له من رقم ما أبهاه وأجمله .

﴿ يشهده المقرّبون ﴾ يحضرونه فيشهدون على ما فيه يوم القيامة ، أو يحفظونه .

ولما عظم كتابهم عظم منزلتهم بقوله تعالى:

(145/808)

﴿ إنّ الأبرار لفي نعيم ﴾ أي : في الجنة ثم بين ذلك النعيم بأمور ثلاثة : أوّلها : قوله تعالى: ﴿ على الأرائك ﴾ أي : الأسرة في الحجال ، ولا يسمى أريكة إلا إذا كان كذلك ، والحجال بكسر الحاء جمع حجلة ، وهي بيت يزين بالثياب والستور والأسرة ، قاله الجوهري . ﴿ ينظرون ﴾ أي : إلى ما شاؤوا مدّ أعينهم إليه من مناظر الجنة ، وإلى ما أولاهم الله تعالى من النعمة والكرامة ، وإلى أعدائهم يعذبون في النار ، وما تحجب الحجال

أبصارهم عن الإدراك . وقال الرازي : ينظرون إلى ربهم بدليل قوله تعالى:

﴿ تعرف ﴾ أي : أيها الناظر إليهم ﴿ في وجوههم ﴾ عند رؤيتهم ﴿ نضرة النعيم ﴾ أي : بهجته وحسنه ورونقه كما ترى في وجوه الأغنياء وأهل الترفه ، أو الخطاب إمّا للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو لكل ناظر ، وقال الحسن : النضرة في الوجه والسرور في القلب وهذا هو الأمر الثاني . وأمّا الثالث فهو قوله تعالى:

﴿ يسقون من رحيق ﴾ أي : خمر صافية طيبة وقال مقاتل : الخمر البيضاء . وقال الرازي : لعله الخمر الموصوف بقوله تعالى : ﴿ لا فيها غول ﴾ (الصافات :)

﴿ مختوم ﴾ أي : ختم ومنع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه الأبرار . وقال القفال : يحتمل أن يكون ختم عليه تكريماً له بالصيانة على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان ، وهناك خمر أخرى تجري انهاراً لقوله تعالى : ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ (محمد :) إلا أنّ هذا المختوم أشرف من الجاري .

﴿ ختامه مسك ﴾ أي : آخر شربه يفوح منه مسك ، فالمختوم الذي له ختام ، أي : آخر شربه ، وختم كل شيء الفراغ منه . وقال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك . وقال ابن زيد : ختامه عند الله مسك . وقيل : طينه مسك . وقيل : تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة .

﴿ وفي ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم البعيد التناول ، وهو العيش والنعيم أو الشراب الذي هذا وصفه ﴿ فليتنافس ﴾ أي : فليرغب غاية الرغبة بجميع الجهد والاختيار ﴿ المتنافسون ﴾ أي : الذين من شأنهم المنافسة ، وهو أن يطلب كل منهم أن يكون ذلك المتنافس فيه لنفسه خاصة دون غيره ؛ لأنه نفيس جداً ، والنفيس هو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتتغالى فيه ، والمنافسة في مثل هذا بكثرة الأعمال الصالحة والنيات الخالصة .

وقال مجاهد : فليعمل العاملون نظيره قوله تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ (الصافات :)

وقال مقاتل بن سليمان : فليسارع المتسارعون . وقال عطاء : فليستبق المستبقون . وقال الزمخشري : فليرتقب المرتقبون . والمعنى : واحد . وأصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه ، وينفس فيه على غيره أي : يضنّ .

﴿ ومزاجه ﴾ أي : ما يمزج به ذلك الرحيق ﴿ من تسنيم ﴾ وهو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه ؛ لأنها تأتيهم من فوق على ما روي أنها تجري في الهواء مسنمة فتصب في أواني أهل الجنة على مقدار الحاجة ، فإذا امتلأت أمسكت .

وقوله تعالى : ﴿ عيناً ﴾ نصب على المدح ، وقال الزجاج : نصب على الحال . ﴿ يشرب

بها ﴾ أي : بسببها على طريقة المزج منها ﴿ المقرّبون ﴾ وضمن يشرب معنى يلتذ ، فهم يشربونها صرفاً ، وتمزج سائر أهل الجنة .

﴿ إنّ الذين أجرموا ﴾ أي : قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وهم رؤوساء قريش .

﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ وهم فقراء الصحابة عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ﴿ يضحكون ﴾ أي : استهزاء بهم .

﴿ وإذا مرّوا ﴾ أي : المؤمنون ﴿ بهم ﴾ أي : بالذين أجرموا ﴿ يتغامزون ﴾ أي : يشير المجرمون إلى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء بهم . وقيل : يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم . x

(147/808)

قيل : جاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخروا منه المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع وضحكوا منه ، فنزلت قبل أن يصل عليّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم

﴿ وإذا انقلبوا ﴾ أي : رجع الذين أجرموا برغبتهم في الرجوع وإقبالهم عليه من غير تكرّه ﴿ إلى أهلهم ﴾ أي : منازلهم التي هي عامرة بجماعتهم . وقرأ حمزة والكسائي في الوصل

بضم الهاء والميم ، وأبو عمرو بكسر الهاء ، والباقون بكسر الهاء وضم الميم ﴿ انقلبوا ﴾ حالة كونهم ﴿ فاكهين ﴾ أي : متلذذين بما كان من مكنتهم ورفعتهم التي أوصلتهم إلى الاستسخار بغيرهم ، قال ابن برجان : روي عنه عليه الصلاة والسلام : "إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ" "يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر" وفي أخرى : "يكون المؤمن فيهم أذل من الأمة" وفي أخرى : "العالم فيهم أنتن من جيفة حمار فالله المستعان" . وقرأ حفص بغير ألف بين الفاء والكاف والباقون بالألف ، قيل هما بمعنى ، وقيل : فكهين فرحين وفاكهين ناعمين . وقيل : فاكهين أصحاب فاكهة ومزاح .

﴿ وإذا رأوهم ﴾ أي : رأى المجرمون المؤمنين ﴿ قالوا ﴾ أي : المجرمون ﴿ إنّ هؤلاء ﴾ أي : المؤمنين ﴿ لضالون ﴾ أي : لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يرون أنهم على شيء ، وهم على ضلال في تركهم التنعيم الحاضر بسبب شيء لا يدرى هل له وجود أم لا ؟

قال الله تعالى : ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنهم ما ﴿ أرسلوا ﴾ أي : الكفار ﴿ عليهم ﴾ أي : على المؤمنين ﴿ حافظين ﴾ أي : موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم ، وهذا تهكّم بهم . وقيل : هو من جملة قول الكفار ، وأنهم إذا رأوا المسلمين قالوا : إنّ هؤلاء لضالون ، وأنهم لم يرسلوا عليهم حافظين ، إنكار لصدّهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام ، وجدّهم في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فاليوم ﴾ منصوب بيضحكون ، ولا يضر تقديمه على المبتدأ ؛ لأنه لو تقدّم العامل هنا لجاز ؛ إذ لا لبس بخلاف : زيد قام في الدار لا يجوز في الدار زيد قام ، ومعنى فاليوم أي : في الآخرة ﴿ الذين آمنوا ﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان ﴿ من الكفار يضحكون ﴾ وفي سبب هذا الضحك وجوه منها :

أنّ الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدينا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس ، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر ، ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه .

ومنها أنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء ، وأنهم باعوا الباقي بالفاني .

ومنها أنهم يرون أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد .

ومنها : قال أبو صالح : يقال لأهل النار وهم فيها : اخرجوا وتفتح لهم أبوابها فإذا رأوها وقد فتحت أبوابها أقبلوا إليها يريدون الخروج والمؤمنون ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غُلِّقت دونهم ، يفعل ذلك بهم مراراً فذلك سبب الضحك .

ومنها : أنهم إذا دخلوا الجنة وأجلسوا على الأرائك ينظرون إلى الكفار كما قال تعالى :

﴿ على الأرائك ﴾ أي : الأسرة العالية ﴿ ينظرون ﴾ إليهم كيف يعذبون في النار ويرفعون أصواتهم بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً .

تنبيه : ينظرون حال من يضحكون ، أي : يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان . وقال كعب : بين الجنة والنار كوى ، إذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوّ له كان في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال تعالى : ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ (الصافات :)

فإذا اطلعوا من الجنة على أعدائهم وهم يعذبون في النار ضحكوا .

قال الله تعالى : ﴿ هل ثوّب الكفار ﴾ أي : هل جوزوا ﴿ ما كانوا يفعلون ﴾ أي : جزاء استهزائهم بالمؤمنين ، ومعنى الاستفهام ههنا : التقرير ، وثوّبه وأثابه بمعنى واحد إذا جازاه . قال أوس:

*سأجزيك أو يجزيك عني مثوّب

(149/808)

** وحسبك أن يثنى عليك وتحمدى

وقرأ الكسائي وهشام بإدغام اللام في الثاء والباقون بالإظهار . وقول البيضاوي تبعاً

للزمخشري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة المطففين سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم يوم القيامة" . حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 281.291 ﴾

(150/808)

وقال القاسمى :

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾

أي : هلاك لهم . قال الأصفهاني : ومن قال :

﴿ وَيْلٌ ﴾ وادٍ في جهنم فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا ، وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحَق مقراً من النار .

ثم بين تعالى المطففين بقوله ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أي : إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافياً وزائداً على إيهام أن بذلك تمام الكيل ، وإذا فعلوا ذلك في الكيل الذي هو أجلّ مقداراً ، ففي الوزن بطريق الأوْلى . وإيثار ﴿ عَلَى ﴾ على من

للإشارة إلى ما فيه عملهم من المنكر من الاستعلاء والقهر ، شأن المتغلب المتحامل المتسلط الذي لا يستبرئ لدِينه وذمته : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أي : كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتمام ، ففيهما حذف وإيصال .

قال ابن جرير : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقك ، وكلتك طعامَك ، بمعنى وزنت لك وكلت لك .

تنبيه :

(151/808)

في " الإكليل " : في الآية ذم التطفيف والخيانة في الكيل والوزن ، أي : لأنه من المنكر فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في الأخذ والدفع ، ولو في القليل ؛ لأن من دَنُؤَت نفسُه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملَكته ، وأنه لا يقعده عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير : وأصل التطفيف من الشيء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفِّف : المقلِّل حق صاحب الحق عما له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء في حسبة أو عدد : هم سواء

كطفِّ الصاع ، يعني بذلك كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء . وقد أمر تعالى بالوفاء في الكيل والميزان . فقال تعالى في عدة آيات : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء : 35] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : 9] ، وقصَّ تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [4 – 6]

ثم قال سبحانه متوعداً لهم : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ أي : من قبورهم بعد مماتهم .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : عظيم الهول جليل الخطب كثير الفزع ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية .

(152/808)

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ أي : لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون في موقف يغشى المجرم فيه من الهول ما يود الافتداء بكل مستطاع . وفي تأثر الويل لمطففين بما ذكر في هاتين الآيتين مبالغات في

المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه ، ووجه ذلك -كما لخصه الشهاب- أن في ذكر الظن من التجهيل مع اسم الاشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً ووصف يوم قيامهم بالعظمة وإبدال ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه .

والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان رب العالمين للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوتهُ ظالم قويّ ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف . وفي تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا كيف يهمل تعطيل قانون عدله في عباده ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة . فتأمّل هذا المقام ، ففيه ما تتحيّر فيه الأوهام .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن التطفيف الذي يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به ﴿ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ ﴾ أي : ما كتب فيه من عملهم السيىء وأحصي عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانٍ ، وهو الفجور ، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل ﴿ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي : مسطور بيّن الكتابة . أو معلّم برقم ينبئ عن قبحه . سمي سجيناً - فعّيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق - لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ، فهو بمعنى فاعل في الأصل ؛ أو لأنه مطروح في أسفل مكان مظلم ، فهو بمعنى مفعول ، كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده ، والتقدير : ما كتاب سجين أو محل كتاب مرقوم ؟

فحذف المضاف ، وقيل : إنه مشترك بين المكان والكتاب . وقال الأصفهاني : السجين اسم لجهنم بإزاء عِلّيِين . وزيد لفظُه تنبيهاً على زيادة معناهُ . وقيل : هو اسم للأرض السابعة .

(153/808)

ثم قال : وقد قيل : إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فسّرهُ ، وكل ما ذكره بقوله :

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ تركه مبهماً ، وفي هذا الموضع ذكر : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ وكذا في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ ثم فسّر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفي هذه الطبقة موضعها الكتب التي يتبع هذا الكتاب ، لا هذا . انتهى .

وقال القاشانيّ : ﴿ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ في مرتبة من الوجود مسجون أهلها في حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخسّاء في أسفل مراتب الطبيعة ودركاتها ، وهو ديوان أعمال أهل الشرّ ؛ ولذلك فسّر بقوله :

﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي : ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم كتاب مرقوم برقوم هيئات رذائلهم وشرورهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : بيوم الحساب

والمجازاة ، وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف ؛ لأن إصرارهم على التعدي والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ ﴾ أي : مجاوز طور الفطرة الْإِنْسَانِيَة بتجاوزه حد العدالة إلى الإفراط في أفعاله بالبغي والعدوان ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي : مبالِغ في ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصي

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما سطروهُ من الأحاديث والأخبار ، يريد أنه ليس بوحي رباني ، ولا تنزيل إلهيّ ، مع نصوع بيانه وشواهد برهانه .

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [14]

(154/808)

﴿ كَلَّا ﴾ أي : ليست هذه الآيات بأساطير الأولين ، بل هي الحق المبين والشفاء لما في الصدور ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : غطى على مداركهم ما اكتسبوهُ من الآثام حتى كدّر جوهرها وصار صدأ عليها بالرسوخ فيها . والرين أصل معناه الصدأ والوسخ القارّ ، شبه به حب المعاصي الراسخ في النفس ، وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكةٌ راسخة لا تقبل الزوال ، وصفة للنفس قارّة فيها ؛ فبكثرة المعاصي يرسخ حبها في

القلب بحيث لا يزول ، كالصدأ الذي لا يزول بسهولة . قال في " الأساس " : الران ما غطى القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب ، من قولهم : ران عليه الشراب والنُّعاس ، و : ران به ، إذا غلب على عقله ، و : رينَ بفلان ، ونظيره الغين .

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [15] .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم ، أو بمعنى حقاً ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضي أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو الساتر من ستارة بزّ وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ؛ لأن المحجوب لا يرى ما حجب ، وتارة للإهانة ؛ لأن الحقير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء ؛ لذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أي : معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف الله ، فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به ، وإنما يوصف به الخلق ، كما في هذه الآية . فإذا أجري على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سببيّ لا حقيقيّ . بل التشبيه للخلق .

(155/808)

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أي : محترقون بها . وقد أشار القاشانيّ إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما اكتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدّر جوهرها وغيَّرها عن طباعها ، فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب المغفرة ، ولذلك قال :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطريّ ، كالماء الكبريتي مثلاً ؛ إذ لو روّق أو صعّد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها ، بخلاف الماء المسخن الذي استحالت كيفيته دون طبيعته ولهذا استحقوا الخلود في العذاب . وحكم عليهم بقوله :

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ انتهى .

قال ابن القيم في " بدائع الفوائد " في هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار ، فألم الحجاب يفعل في قلوبهم وأرواحهم نظير ما تفعله النار في أجسامهم ، كحال من حِيل بينه وبين أحب الأشياء إليه في الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب ، فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحبوب لا غنى لها عنه ، وهي ممنوعة من الوصول إليه ، فكيف إن حصل لها – مع تواري المحبوب عنها وطول احتجابه – بغضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأي نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذي لا يتصوره إلا من بلي به أو بشيء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما في احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم

والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين في الدنيا لصورة ، منتهى حسنها إلى ما يعلم ، كيف يضجّون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالموت أو أشد منه من بين ساعة ، كما قال :

~وكنتُ أرَى كالموت من بَين ليلةٍ فكيف بَبَيْنٍ كَان ميعادَهُ الحشرُ

(156/808)

وإنما يتبينَ الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لا سعادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له ، فخلقَ العين للإبصار ، والأذن للسمع ، والأنف للشم ، واللسان للنطق ، واليد للبطش ، والرجل للمشي ، والروح لمعرفته ومحبته والابتهاج بقربه والتنعم بذِكره ، وجعل هذا كمالها وغايتها ، فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالاً من العين والأذن واللسان واليد والرجل التي تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه . بل لا نسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة ، بل ألمها أشد الألم ، وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزه عليها ، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر

بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لا حياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذي لا تقرّ عينها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكليتها على محبته والشوق إلى لقائه ، فهذا غاية كمالها وأعظم نعيمها وجنّتها العاجلة في الدنيا ، فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب الذي كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه ، وفي حديث الرؤية : < فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى وجهه > .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمُحبيه بين نوعي النعيم : نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب ، والنكاح والتمتع بما في الجنة ، في قوله :

﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ [الْإِنْسَانْ : 11] الآيات .

(157/808)

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : في الدنيا . قال الإمام : تبكيتاً لهم وزيادة في التنكيل بهم ، فإن اشد شيء على الْإِنْسَانْ ، إذا أصابه مكروه أن يذكر وهو يتألم له : بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها ، وأسباب التقصي عنه كانت في مكنته

فأغفلها .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [18 - 21]

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقاً ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ قال القاشانيّ : أي : ما كتب من صور أعمال السعداء وهيئات نفوسهم النورانية وملكاتهم الفاضلة في عليين ، وهو مقابل للسجين ، في علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير .

كما قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ أي : محل شريف رقم بصور أعمالهم : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : يحضره المقربون من حضرة ذي الجلال ، كما في آية ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] .

والمقربون هم الأبرار : أعاد ذكرهم بوصف ثانٍ ؛ تنويهاً بهم وتعديداً لصفاتهم . أو هم الملائكة إجلالاً لهم وتعظيماً لشأنهم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [22 - 26]

ولما عظم تعالى كتابهم تأثره بتعظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أي

: عظيم دائم ، وذلك نعيمهم في الجنان .

﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ أي : على الأسِرة والمتكآت ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة وأفانين النعيم .

(158/808)

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أي : بهجته ورونقه ، كما يُرى على وجوه المترفهين ماؤه وحُسنه .

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ أي : خمر ، إلا أنه خص بالخالص الذي لا غش فيه ، كما قال حسان :

~يسْقُون منْ وَرَدَ البَريص عليهمُ بَردَى يُصَفَّقَ بالرحيق السَّلْسَلِ

ومنه قولهم : مسك رحيق لا غش فيه ، وحسب رحيق لا شوب فيه .

وقوله تعالى :

﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ أي : ختم على أوانيه تكريماً له لصيانته عن أن تمسه الأيدي على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان .

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ قال القفال : أي : الذي يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق هو المسك

، كالطين الذي يختم به رؤوس القوارير فكأن ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

وعن بعض السلف واللغويين : المختوم الذي له ختام ، أي : عاقبة ، وقد فسرت بالمسك ، أي : من شربه كان ختم شربه على ريح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرَجها ، على خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة ﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ أي : النعيم المنوه به وما تلاهُ ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أي : فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى :

قال ابن جرير : التنافس أن ينفس الرجل على الرجل بالشيء يكون له ، ويتمنى أن يكون له دونَه ، وهو مأخوذ من الشيء النفيس ، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه وتشتهيه ، وكأن معناه في ذلك : فليجدّ الناس فيه وإليه ، فليستبقوا في طلبه ولتحرص عليه نفوسهم . وقال الرازيّ : إن مبالغتهُ تعالى في الترغيب فيه تدل على علوّ شأنه . وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء . وقوله تعالى :

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [27 - 28]

(159/808)

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ عطف على ﴿ خِتَامُهُ ﴾ صفة أخرى لـ : ﴿ رَّحِيقٍ ﴾ وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته ، أي : ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم . والتسنيم في الأصل مصدر سنَمه بمعنى رفعهُ ، ومنه السنام . سمي الماء به لارتفاعه وانصبابه من علوّ .

وقد بينهُ بقوله ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : يشربون بها الرحيق ، والكلام في الباء ، كما في آية ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الْإِنْسَانْ : 6] ، من كونها زائدة ، أو بمعنى : من ، أو صلة الامتزاج ، أو الالتذاذ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [29 - 31]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ يعني كفار قريش ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ أي : استهزاءً بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه ، ونبذهم ما أَلْفَوْا عليه آباءهم .

(160/808)

قال الإمام : الذين أجرموا هم المعتدون الأئمة الذين شَرَيَتْ نفوسهم في الشر ، وصَمّتْ آذانهم عن سماع دعوة الحق : هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا ؛ ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالَم ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأي الدَّهماء وفي ضلال العامة ، وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه ، ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق إلى قلوبهم فَيُسِرُّ بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القويّ المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه في المنزع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً ، كذلك كان شأن جماعة من قريش ، كأبي جهل والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل وأشياعهم ، وهكذا يكون شأن أمثالهم في كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع وخفي طريق الحق بينَ طرق الباطل ، وجهل معنى الدِّين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن ، وحركات أركان لا تشايعها السرائر ، وتحكَّمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل ، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب ، وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب ، وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل ، واستوى في ذلك الكبير والصغير ، والأمير والمأمور ، والجاهل والملقب بلقب العالم . إذا صار الناس إلى هذه الحال ، ضعُف صوت الحق وازدرى السامعون منهم

بالداعي إليه ، وانطبق عليهم نصُّ الآية الكريمة . انتهى .

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ﴾ أي : الذين آمنوا ﴿ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ أي : يغمز بعضهم بعضاً استهزاءً وسخريةً . والغمز : الإشارة بالجفن والحاجب .

(161/808)

قال السيوطيّ : وفي هذا دلالة على تحريم السخرية بالمؤمنين ، والضحك منهم ، والتغامز عليهم ﴿ وَإِذَا انقَلَبُواْ ﴾ أي : هؤلاء المجرمون من مجالسهم ﴿ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ أي : متلذذين بالسخرية وحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان ، أو بما هم فيه من الشرك والطغيان والتنعم بالدنيا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ أي : رأوا المؤمنين ﴿ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ ﴾ أي : لتركهم ما عليه العامة ، والاعتصام بغيره . وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ أي : هؤلاء المجرمون القائلون ما ذكر ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على المسلمين ﴿ حَافِظِينَ ﴾ أي : لأعمالهم . جملة حالية من : واو ﴿ قَالُوا ﴾ أي : قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترؤوا

عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوّز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين ، كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام ، وإنما قيل : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ نقلاً له بالمعنى كما في قولك : حلف ليفعلنّ ، لا بالعبارة ، كما في قولك : حلف لأفعلنّ ، أفاده أبو السعود

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ تفريع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخريتهم في الدنيا ، و اليوم : يوم الدين والجزاء . وضحكهم من الكفار ضحك السرور بما نزل بعدوّه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر .

﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ إلى ما أوتوا من النعيم ، وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون في الدنيا .

(162/808)

والجملة متعلقة بـ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ في محل نصب بعد إسقاط الجار ، أو مستأنفة .

والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيماً لهم وتكريماً وزيادة في مسرتهم ، أي : هل رأيتم كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أي : أنه فعل . و ما مصدرية أو موصولة .

وثوّبهُ وأثابه بمعنى جازاهُ ، وهو من ثاب ، بمعنى رجع . فالثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويستعمل في الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : 108 - 111] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 350.360 ﴾

(163/808)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المطففين

الدرس الأول: 1 - 6 ذم المطففين ومظاهر التطفف

(ويل للمطففين:الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون , وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم:يوم يقوم الناس لرب العالمين ?) . .

تبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين:(ويل للمطففين) . . والويل:الهلاك . وسواء

كان المراد هو تقرير أن هذا أمر مقضي , أو أن هذا دعاء . فهو في الحالين واحد فالدعاء من الله قرار . .

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)

وتفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين . فهم: (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) . . فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة . ويعطونها للناس ناقصة إذا كانوا بائعين . .

ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين , الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب على ما يكسبون في الحياة الدنيا ; وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدي الله في يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين: (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ? يوم يقوم الناس لرب العالمين ?) . .

والتصدي لشأن المطففين بهذا الأسلوب في سورة مكية أمر يلفت النظر . فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية: كتقرير وحدانية الله , وانطلاق مشيئته , وهيمنته على الكون والناس . . . وكحقيقة الوحي والنبوة . . وكحقيقة الآخرة والحساب والجزاء . مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية في عمومها , وربطها بأصول العقيدة . أما التصدي لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق – كمسألة التطفيف في الكيل

والميزان – والمعاملات بصفة عامة , فأمر جاء متأخرا في السورة المدنية عند التصدي لتنظيم حياة المجتمع في ظل الدولة الإسلامية , وفق المنهج الإسلامي , الشامل للحياة . .

(164/808)

ومن ثم فإن التصدي لهذا الأمر بذاته في هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه . وهو يشي بعدة دلالات متنوعة , تكمن وراء هذه الآيات القصار . .

إنه يدل أولا على أن الإسلام كان يواجه في البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء , الذين كانوا في الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة , التي تكاد تكون احتكارا . فقد كانت هنالك أموالا ضخمة في أيدي هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام . كما افتتحوا أسواقا موسمية كسوق عكاظ في موسم الحج , يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار !

والنصوص القرآنية هنا تشي بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل , ويعلن عليهم هذه الحرب , كانوا طبقة الكبراء ذوي النفوذ , الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون . فهم يكتالون (على الناس) . . لا من الناس . . فكأن لهم سلطانا على الناس بسبب من

الأسباب , يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسرا . وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقا . وإلا فليس في هذا ما يستحق إعلان الحرب عليهم . إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم , ويستوفون ما يريدون إجبارا . فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حق الناس , دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفة ولا استيفاء حق . . ويستوي أن يكون هذا بسلطان الرياسة والجاه القبلي . أو بسلطان المال وحاجة الناس لما في أيديهم منه ; واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هذا الجور منهم ; كما يقع حتى الآن في الأسواق . . فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحقت هذه اللفتة المبكرة .

(165/808)

كما أن هذه اللفتة المبكرة في البيئة المكية تشي بطبيعة هذا الدين ; وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية ; وإقامتها على الأساس الأخلاقي العميق الأصيل في طبيعة هذا المنهج الإلهي القويم . فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الأخلاقي في التعامل . وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية , لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة . وأرسل هذه الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين . وهم يومئذ

سادة مكة , أصحاب السلطان المهيمن – لا على أرواح الناس ومشاعرهم عن طريق العقيدة الوثنية فحسب , بل كذلك على اقتصادياتهم وشؤون معاشهم . ورفع صوته عاليا في وجه الغبن والبخس الواقع على الناس وهم جمهرة الشعب المستغلين لكبرائه المتجرين بأرزاقه , المرابين المحتكرين , المسيطرين في الوقت ذاته على الجماهير بأوهام الدين ! فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوي موقظا للجماهير المستغلة . ولم يكن قط مخدرا لها حتى وهو محاصر في مكة , بسطوة المتجبرين , المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والدين !

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

(166/808)

ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقية التي جعلت كبراء قريش يقفون في وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة . فهم كانوا يدركون – ولا ريب – أن هذا الأمر الجديد الذي جاءهم به محمد (صلى الله عليه وسلم) ليس مجرد عقيدة تكمن في الضمير , ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة , بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وصلاة يقيمونها لله بلا أصنام ولا أوثان . . كلا . لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعني منهجا يحطم كل أساس

الجاهلية التي تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم . وأن طبيعة هذا المنهج لا تقبل مثنوية ولا تلتئم مع عنصر أرضي غير منبثق من عنصرها السماوي ; وأنها تهدد كل المقومات الأرضية الهابطة التي تقوم عليها الجاهلية . . ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التي لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها . الحرب التي تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها في وجه الأوضاع الإسلامية . لا عن مجرد الاعتقاد والتصور المجردين . .

والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامي على حياة البشر في كل جيل وفي كل أرض يدركون هذه الحقيقة . يدركونها جيدا . ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة , ومصالحهم المغتصبة , وكيانهم الزائف . . وسلوكهم المنحرف . . هذه كلها هي التي يهددها المنهج الإسلامي القويم الكريم !

والطغاة البغاة الظلمة المطففون – في أية صورة من صور التطفيف في المال أو في سائر الحقوق والواجبات – هم الذين يشفقون أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف ! الذي لا يقبل المساومة , ولا المداهنة , ولا أنصاف الحلول ?

(167/808)

ولقد أدرك ذلك الذين بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من نقباء الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة: قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم . قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن ! فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه , على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه , فهو والله خير الدنيا والآخرة , قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال: " الجنة " . . قالوا: ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقد أدرك هؤلاء – كما أدرك كبراء قريش من قبل – طبيعة هذا الدين . وأنه قائم كحد السيف للعدل والنصفة وإقامة حياة الناس على ذلك , لا يقبل من طاغية طغيانا , ولا من باغ بغيا , ولا من متكبر كبرا . ولا يقبل للناس الغبن والخسف والاستغلال . ومن ثم يحاربه كل طاغ باغ متكبر مستغل ; ويقف لدعوته ولدعاته بالمرصاد .

(ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟) . .

وإن أمرهم لعجيب . فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين

لرب العالمين , ليس لهم مولى يومئذ سواه , وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء , وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولي ولا نصير . . إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي ليصدهم عن التطفيف , وأكل أموال

(168/808)

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)

الناس بالباطل , واستخدام السلطان في ظلم الناس وبخسهم حقهم في التعامل . . ولكنهم ماضون في التطفيف كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ! وهو أمر عجيب , وشأن غريب !

الدرس الثاني: 7 – 14 عذاب الكفار في النار وبعض جرائمهم في الدنيا

وقد سماهم المطففين في المقطع الأول . فأما في المقطع الثاني فيسميهم الفجار . إذ يدخلهم في زمرة الفجار , ويتحدث عن هؤلاء . يتحدث عن اعتبارهم عند الله , وعن حالهم في الحياة . وعما ينتظرهم يوم يبعثون ليوم عظيم .

كلا ! إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ? كتاب مرقوم . ويل يومئذ

للمكذبين:الذين يكذبون بيوم الدين ; وما يكذب به إلا كل معتد أثيم , إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون . .

إنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم . . فالقرآن يردعهم عن هذا ويزجرهم , ويؤكد أن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم . . ويحدد موضعه زيادة في التوكيد . ويوعدهم بالويل في ذلك اليوم الذي يعرض فيه كتابهم المرقوم:(كلا . إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ? كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين) ! .

(169/808)

والفجار هم المتجاوزون للحد في المعصية والإثم . واللفظ يوحي بذاته بهذا المعنى . وكتابهم هو سجل أعمالهم . ولا ندري نحن ماهيته ولم نكلف هذا . وهو غيب لا نعرف عنه إلا بمقدار ما يخبرنا عنه صاحبه ولا زيادة – فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن:إنه في سجين . ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود في التعبير القرآني:(وما أدراك ما سجين ?)فيلقي ظلال التفخيم ويشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه , وأضخم من أن يحيط به علمه . ولكنه بقوله: (إن كتاب الفجار لفي سجين)يكون قد حدد له موضعا

معينا , وإن يكن مجهولا للإنسان . وهذا التحديد يزيد من يقين المخاطب عن طريق الإيحاء بوجود هذا الكتاب . وهذا هو الإيحاء المقصود من وراء ذكر هذه الحقيقة بهذا القدر , دون زيادة .

ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول: إنه (كتاب مرقوم) . . أي مفروغ منه , لا يزاد فيه ولا ينقص منه , حتى يعرض في ذلك اليوم العظيم .

فإذا كان ذلك: كان (ويل يومئذ للمكذبين) !

ويحدد موضوع التكذيب , وحقيقة المكذبين:

(الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين) . . فالاعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ; وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه: (أساطير الأولين) . . لما يحويه من قصص الأولين المسوقة فيه للعبرة والعظة , وبيان سنة الله التي لا تتخلف , والتي تأخذ الناس في ناموس مطرد لا يحيد .

ويعقب على هذا التطاول والتكذيب بالزجر والردع: (كلا !) ليس كما يقولون . .

ثم يكشف عن علة هذا التطاول وهذا التكذيب ; وهذه الغفلة عن الحق الواضح وهذا الانطماس في قلوب المكذبين:

(بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . .

أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية . والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ;

(170/808)

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22)

ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور , ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت . .

روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجة من طرق , عن محمد بن عجلان , عن القعقاع بن حكيم , عن أبي صالح , عن أبي هريرة , عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت " . . وقال الترمذي حسن صحيح . ولفظ النسائي: " إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى

تعلو قلبه , فهو الران الذي قال الله تعالى:(كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . .

"

وقال الحسن البصري:هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت . .

ذلك حال الفجار المكذبين . وهذه هي علة الفجور والتكذيب . . ثم يذكر شيئا عن مصيرهم في ذلك اليوم العظيم . يناسب علة الفجور والتكذيب:

كلا ! إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال:هذا الذي كنتم به تكذبون . .

(171/808)

لقد حجبت قلوبهم المعاصي والآثام , حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا . وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة . . فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم , وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى , التي لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها . ممن قال فيهم في سورة القيامة:

(وجوه يومئذ ناضرة , إلى ربها ناظرة) . .

وهذا الحجاب عن ربهم , عذاب فوق كل عذاب , وحرمان فوق كل حرمان . ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم ; وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم: (ثم إنهم لصالوا الجحيم) . . ومع الجحيم التأنيب وهو أمر من الجحيم: (ثم يقال: هذا الذي كنتم به تكذبون) ! !

الدرس الثالث: 18 - 28 صور من نعيم الأبرار في الجنة

ثم يعرض الصفحة الأخرى . صفحة الأبرار . على العهد بطريقة القرآن في عرض الصفحتين متقابلتين في الغالب , لتتم المقابلة بين حقيقتين وحالين ونهايتين:

(كلا ! إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ? كتاب مرقوم , يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم , على الأرائك ينظرون , تعرف في وجوههم نضرة النعيم , يسقون من رحيق مختوم , ختامه مسك . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون) . .

وكلمة (كلا) تجيء في صدر هذا المقطع زجرا عما ذكر قبله من التكذيب في قوله: (ثم يقال: هذا الذي كنتم به تكذبون) . . ويعقب عليه بقوله: (كلا) ثم يبدأ الحديث عن الأبرار في حزم وفي توكيد .

فإذا كان كتاب الفجار في (سجين) فإن كتاب الأبرار في (عليين) . . . والأبرار هم الطائعون الفاعلون كل خير . وهم يقابلون الفجار العصاة المتجاوزين لكل حد . .

(172/808)

ولفظ (عليين) يوحي بالعلو والارتفاع مما قد يؤخذ منه أن (سجين) يفيد الانحطاط والسفول . ثم يعقب عليه بسؤال التجهيل والتهويل المعهود : (وما أدراك ما عليون ؟) . . فهو أمر فوق العلم والإدراك !

ويعود من هذا الظل الموحي إلى تقرير حقيقة كتاب الأبرار . . فهو (كتاب مرقوم يشهده المقربون) وقد

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25)

سبق ذكر معنى مرقوم . ويضاف إليه هنا أن الملائكة المقربين يشهدون هذا الكتاب ويرونه . وتقرير هذه الحقيقة هنا يلقي ظلا كريما طاهرا رفيعا على كتاب الأبرار . فهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة , ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات . وهذا ظل كريم شفيف , يذكر بقصد التكريم .

ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم , أصحاب هذا الكتاب الكريم . ويصف ما هم فيه من نعيم في ذلك اليوم العظيم:

(إن الأبرار لفي نعيم) . . يقابل الجحيم الذي ينتهي إليه الفجار . . (على الأرائك ينظرون) أي إنهم في موضع التكريم , ينظرون حيث يشاءون , لا يغضون من مهانة , ولا يشغلون عن النظر من مشقة . . وهم على الأرائك وهي الأسرة في الحجال . وأقرب ما يمثلها عندنا ما نسميه "الناموسية" أو الكلة ! وصورتها الدنيوية كانت أرقى وأرق مظاهر النعيم عند العربي ذي العيشة الخشنة ! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله . وهي على أية حال أعلى من كل ما يعهده الإنسان مما يستمده من تجاربه في الأرض وتصوراته !

وهم في هذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام , تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء:

(تعرف في وجوههم نضرة النعيم) . .

(يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك) . .

(173/808)

والرحيق الشراب الخالص المصفى , الذي لا غش فيه ولا كدرة . ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك , قد يفيد أنه معد في أوانيه , وأن هذه الأواني مقفلة مختومة , تفض عند الشراب , وهذا يلقي ظل الصيانة والعناية ! . كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية ! وهذه الصورة لا يدركها البشر إلا في حدود ما يعهدون في الأرض . فإذا كانوا هنالك كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود !

وقبل أن يتم وصف الشراب الذي يجيء في الآيتين التاليتين: (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) . . أي أن هذا الرحيق المختوم يفض ختامه ثم يمزج بشيء من هذه العين المسماة: (تسنيم) التي (يشرب بها المقربون) . . قبل أن يتم الوصف يلقي بهذا الإيقاع , وبهذا التوجيه: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . . وهو إيقاع عميق يدل على كثير . . .

إن أولئك المطففين , الذين يأكلون أموال الناس بالباطل , ولا يحسبون حساب اليوم الآخر , ويكذبون بيوم الحساب والجزاء , ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية . . إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق إليه , وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب ما يرتكب في سبيل متاع من متاع الأرض زائل . .

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس . إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي

ذلك التكريم: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . . فهو مطلب يستحق المنافسة , وهو أفق يستحق السباق , وهو غاية تستحق الغلاب .

والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم , إنما يتنافسون في حقير قليل فان قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه . فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . .

(174/808)

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (27) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29)

ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا . بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعا . والسعي لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع . والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض . أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين !

والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين . إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة , ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح

والتقوى وظيفة المؤمن الحق . على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله , ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله – سبحانه – وهو يقول: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون .

وإن قوله (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . . لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة , بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها . ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه ! إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود , وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله . وإن متاع هذه الأرض في ذاته محدود . ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر . وإن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ !

ألا إن السباق إلى هناك . . (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . .

الدرس الرابع: 29 – 34 من جرائم المجرمين ضد المؤمنين في الدنيا واختلاف الموقف يوم القيامة

وكأنما أطال السياق في عرض صور النعيم الذي ينتظر الأبرار , تمهيدا للحديث عما كانوا يلقون في الأرض من الفجار . من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء . . وقد أطال في عرضه كذلك . ليختمه بالسخرية من الكفار , وهم يشهدون نعيم الأبرار :

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . . وما أرسلوا عليهم حافظين) . .

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون , على الأرائك ينظرون) . .

(هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) . .

والمشاهد التي يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا , وسوء أدبهم معهم , وتطاولهم عليهم , ووصفهم بأنهم ضالون . . مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة . ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور ! !

(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) . . كانوا . . فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة . فإذا المخاطبون به في الآخرة . يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا . وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا !

إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم , وسخرية منهم . إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

(176/808)

عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء . . فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا . وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة . وهم يسلطون عليهم الأذى , ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع , مما يصيب الذين آمنوا , وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين !

(وإذا مروا بهم يتغامزون) . . يغمز بعضهم لبعض بعينه , أو يشيره بيده , أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهي حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب , والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين , وإصابتهم بالخجل والربكة , وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !

(وإذا انقلبوا إلى أهلهم) بعد ما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم . . (انقلبوا فكهين) . . راضين عن أنفسهم , مبتهجين بما فعلوا , مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير . فلم يتلوموا ولم يندموا , ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا . وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير !

(وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون) !

وهذه أعجب . . فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال . وأن يزعموا حين يرون المؤمنين , أن المؤمنين ضالون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف في تشهير وتحقير : (إن هؤلاء لضالون !) . .

والفجور لا يقف عند حد , ولا يستحيي من قول , ولا يتلوم من فعل . واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون , إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تجاوز لجميع الحدود !

(177/808)

والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا , ولا ليناقش طبيعة الفرية . فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من

شأنهم , ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر :(وما أرسلوا عليهم حافظين) . . وما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين , وما أقيموا عليهم رقباء , ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم ! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير !

وينهي بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا في الدنيا . . ما كان . . ويطوي هذا المشهد الذي انتهى . ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا في ذلك النعيم:

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون) . .

اليوم والكفار محجوبون عن ربهم , يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم , فيصلون الجحيم , مع الترذيل والتأنيب حين يقال: (هذا الذي كنتم به تكذبون) . .

اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . في ذلك النعيم المقيم , وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم . .

فاليوم . . الذين آمنوا من الكفار يضحكون . .

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل:

(هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا (الثواب) المعروف من الكلمة . فنحن نشهد هم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا . فهو ثوابهم إذن . ويا للسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام !

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته – مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا في الدنيا – كما أطال من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه . فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري , كما أنه فن عال في العلاج الشعوري . فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لا يتركهم بلا عون , من تثبيته وتسريته وتأسيته .

وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين , فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذي يصف هذه المواجع . فهو يراها , وهو لا يهملها – وإن أمهل الكافرين حينا – وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون . وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه في تنزيله . فهو إذن شيء في ميزانه . . . وهذا يكفي ! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة .

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجع . قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة , تحسه وتقدره , وتستريح إليه وتستنيم !

ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها , ونعيمها في جناته , وكرامتها في الملأ الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم في الملأ الأعلى وعذابهم في الجحيم , مع الإهانة والترذيل . . تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل . وهي تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هذا التذوق يمسح على مرارة ما هي فيه من أذى وسخرية وقلة وضعف . وقد يبلغ في بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة , وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم .

(179/808)

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة , وأذاهم البالغ , وسخريتهم اللئيمة . . الجنة للمؤمنين , والجحيم للكافرين . وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل . . وهذا كان وحده الذي وعد به النبي (صلى الله عليه وسلم) المبايعين له . وهم يبذلون الأموال والنفوس !

فأما النصر في الدنيا , والغلب في الأرض , فلم يكن أبدا في مكة يذكر في القرآن المكي في معرض التسرية والتثبيت . .

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة . ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال , بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء . وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل . . حتى إذا وجدت هذه القلوب , وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت , آتاها النصر في الأرض , وائتمنها عليه . لا لنفسها . ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة , مذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ; ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه !

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة . بعد ذلك . وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة , تراها الأجيال . فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام . إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3854 . 3863 ﴾

(181/808)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) ﴾

التطفيف : التنقيص من الطفيف ، وهو الشيء القليل .

وقد فسره ما بعده في قوله تعالى : ﴿ الذين إِذَا اكْتَالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : 2 – 3] .

قالوا : نزلت في رجل كان له مكيالان كبير وصغير ، إذا اكتال لنفسه على غيره ، اكتال

بالمكيال الكبير ، وإذا اكل من عنده لغيره ، اكتال بالمكيل الصغير ، ففي كلتا الحالتين تطفيف ، أي تنقيص على الناس من حقوقهم .

والتقديم في افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين ، يشعر بشدة خطر هذا العمل ، وهو فعلاً خطيراً ، لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل ، فإذا اختل أحدث خللاً في اقتصاده ، وبالتالي اختلال في التعامل ، وهو فساد كبير .

وأكبر من هذا كله ، وجود الربا إذا بيع جنس بجنسه ، وحصل تفاوت في الكيل أو الوزن .

وفيه كما قال تعالى : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : 279] .

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن ، والحث على العناية بهما في عدة مواطن ، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام .

فقد ورد في الأنعام والأعراف وهود وبني إسرائيل والرحمن والحديد ، أي في ست سور من القرآن الكريم .

أولاً في سورة الأنعام ، في سياق ما يعرف بالوصايا العشر ، ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ [الأنعام : 151] . وذكر برّ الوالدين والنهي عن قتل الأولاد والقرب من الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله ، والنهي عن مال اليتيم .

ثم قال : ﴿ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ﴾ [الأنعام : 152] .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عندها كلاماً موجزاً مفيداً ، بأن الأمر هنا بقدر الوسع ، ومن أخل من غير قصد التعدي ، لا حرج عليه .

وقال : ولم يذكر هنا عقوبة لمن تعمد ذلك ، ولكنه توعده بالويل في موضع آخر ، وساق أول هذه السورة : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

كما بين عاقبة الوفاء بالكيل بقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : 59] أي مآلا .

وهنا يلفت كلامه رحمه الله النظر إلى نقطة هامة . وهي في قوله تعالى : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : 152] ، حيث إن التطفيف الزيادة الطفيفة ، والشيء الطفيف القليل .

فكأن الآية هنا تقول : تحروا بقدر المستطاع من التطفيف ولو يسيراً .

وبعد بذل الجهد لا نكلف نفساً إلاَّ وسعها ، وهذا غاية في التحري مع شدة التحذير والتوعد بالويل ، وإذا كان الوعيد بالويل على الشيء الطفيف ، فما فوقه من باب أولى .

الموضع الثاني في سورة الأعراف من قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ

اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الكيل والميزان وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

[الأعراف: 85].

فاقترن الأمر بالوفاء بالكيل، بالأمر بعبادة الله وحده، لأن في الأمرين إعطاء كل ذي حق حقه، من غير ما نقص.

وبين أن في عدم الإيفاء المطلوب بخس الناس أشياءهم، وفساد في الأرض بعد إصلاحها.

(183/808)

الموضع الثالث في سورة هود، ومع شعيب أيضاً: ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يا قوم اعبدوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: 84 - 86].

وبنفس الأسلوب أيضاً كما تقدم، ربطه بعبادة الله تعالى وحده، وتكرار الأمر بعد النهي،

ولا تنقصوا المكيال والميزان ، ثم أوفوا الكيل والميزان بالقسط نهي عن نقصه ، وأمر بإيفائه نص على المفهوم بالتأكيد . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، مع التوجيه بأن ما عند الله خير لهم .

الموضع الرابع في سورة بني إسرائيل ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ [الإسراء : 29] ، أي اعتدال في الإنفاق مع نفسه ، فضلاً عن غيره ، ثم إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ثم ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء : 31] ، وكلها في مجال الاقتصاد وبعدها ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ [الإسراء : 32 - 33] .

وقد يكون الباعث عليهما أيضاً غرض مالي ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء : 34] ، وهو من أخص أبواب المال .

ثم الوفاء بالعهد ثم ﴿ وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [الإسراء : 35] ، فمع ضروريات الحياة حفظا لنفس والعرض والمال يأتي الحفاظ على الكيل والوزن .

الموضع الخامس في سورة الشورى وهو أعم مما تقدم ، وجعله مقرونا بإنزال الكتاب في قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند هذه الآية ، بما أشرنا إلى أنه عام ، فقال : الميزان هنا مراد به العدل والإنصاف ، وأن هذا المعنى متضمن آلة الوزن وزيادة .

وأورد بقية الآيات هنا في مبحث مفصل ، فذكر آية الرحمن وآية الحديد ، وتكلم على الجميع بالتفصيل .

وفي قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] ، مقابلة عظيمة بين رفع السماء الذي هو حق وعدل وقدرة ، والميزان وضعه في الأرض ، لتقوموا بالعدل والإنصاف ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض .

وفي سورة الحديد اقتران الميزان بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزانِ لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] .

ومعلوم أن الميزان الذي أنزل مع الكتاب هو ميزان الحق والعدل ، والنهي عن أكل أموال الناس بغير حق ، وعدم بخس الناس أشياءهم .

فكانت هذه الآية أعم وأشمل آيات الوفاء في الكيل والوزن . بمثابة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأمانات إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل ﴾ [النساء

: 58] .

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه .

وكذلك هنا الميزان مع الكتاب المنزل ، وبه يستوفي كل إنسان حقه في أي نوع من أنواع التعامل ، فكل من غش في سلعة أو دلَّس أو زاد في عدد ، أو نقص أو زاد في ذرع ، أو نقص فهو مطفف للكيل ، داخل تحت الوعيد بالويل .

(185/808)

فمن باع ذهباً مثلاً على أنه صافٍ من الغش وزن درهم ، وفيه من النحاس عشر الدرهم ، فقد نقص وطفف لنفسه فأخذ حق درهم كامل . ذهباً ، ونقص حيث أعطى درهماً إلا عشر .

ومن باع رطلاً سمناً وفيه عشر الرطل شحماً ، فقد طفف بمقدار هذا العشر لنفسه ، ونقص وبخس المشتري بمقدار ذلك :

وهكذا من باع ثوباً عشر أمتار وهو ينقص ربع المتر فقد طفف وبخس بمقدار هذا الربع .

وهكذا في القسمة بين الناس وبين الأولاد ، وبين الأهل وكل ما فيه عطاء ، وأخذ بين اثنين ، الله تعالى أعلم .

ومن باب ما يذكره العلماء في مناسبات السورة بعضها من بعض .

فقد قال أبو حيان لما ذكر السورة التي قبلها مصير الأبرار والفجار يوم القيامة ، ذكر هنا من موجبات ذلك وأهمها تطفيف الكيل ، وبخس الوزن ، وهذا في الجملة متوجه ، ولكن صريح قوله تعالى في السورة السابقة ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار : 4 – 5] ، فهو وإن كان عاماً في كل ما قدمه لنفسه من عمل الخير ، وما أخر من أداء الواجبات عليه ، فإنه يتضمن أيضاً خصوص ما قدم من وفاء في الكيل ورجحان في الوزن ، وما أخر في تطفيف في الكيل وبخس طمعاً في المال وجمعاً للتراث ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : 19 – 24] .

ومن هنا يعلم للعاقل أن ما طفف من كيل أو بخس من وزن ، مهما جمع منه ، فإنه يؤخره وراءه ومسؤول عنه ، ونادم عليه ، وقائل : يا ليتني قدمت لحياتي ، ولات ساعة مندم .

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

تقريع وتوبيخ لهؤلاء الناس ، وفيه مسألتان :

الأولى : أن الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث أو اليقين موجود ، لكنهم يعملون على غير الموقنين أي غير مبالين ، كما قال الشاعر في مثل ذلك ، وهو ما يسمى في البلاغة بلازم الفائدة :

جاء شَقيق عارضاً رمحه . . . إن بَني عمك فيهم رماح

فالمتكلم يعلم أن شقيقاً عالم بوجود الرماح في بني عمه ، وأنهم مستعدون للحرب معه ، ولكنه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد ، بأن وضع رمحه أمامه معترضاً فهو بمنزلة من لا يؤمن بوجود الرماح في بني عمه ، وهو لم يرد بكلامه معه أن يخبره بأمر يجهله ، ولكنه أراد أن ينبهه لما يجب عليه فعله من التأهب والاستعداد ، وهكذا هنا ، وهذا عام في كل مسوف ومتساهل كما جاء : طلا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " إلخ .

إي وهو مؤمن بالإيمان ولوازمه من الجزاء والحساب .

المسألة الثانية من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : 6] يفهم أن مطفف الكيل والوزن وهو يعلمون هذا حقيقة غالباً ولا يطلع عليه الطرف الآخر ، فيكون الله تعالى هو المطلع على فعله ، فهو الذي سيحاسبه ويناقشه ، لأنه خان الله الذي لا تخفى عليه خافية سبحانه ، ولذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل : يوم يقتص لكل إنسان من غريمه ، ويستوفي كل ذي حق حقه .

تحذير شديد

قال القرطبي عند هذه الآية : وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له : قد سمعت ما قال الله في المطففين فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أخوال المسلمين بلا كيل ولا وزن . اه .

إِنها مقالة ينبغي أن تقال لكل آكل أموال الناس بغير حق أياً كان هو ، وبأي وجه يكون ذلك .

تنبيه

من الملعوم أن كل متبايعين يطلب كل منهما الأحظ لنفسه ، فالمطفف لا بد أن يخفي طريقه على غريمه .

وذكر علماء الحسبة طرقاً عديدة مما ينبغي لولي الأمر خاصة ، وللمتعامل مع غيره عامة ، أن يتنبه لها .

(187/808)

من ذلك قالوا : أولاً من ناحية المكيال قد يكون جرم المكيال ليناً فيضغطه بين يديه ، فتتقارب جوانبه فينقص ما يحتوي عليه ، ولذا يجب أن يكون إناء الكيل صلباً ، والغالب جعله من الخشب أو ما يعادله .

ومنها : أنه قد يكون خشباً منقوراً من جوفه ، ولكن لا يبلغ بالتجويف إلى نهاية المقدار المطلوب ، فيرى من خارجه كبيراً ، ولكنه من الداخل صغير لقرب قعره .

ومنها : قد يكون منقوراً إلى نهاية الحد المطلوب ، ولكنه يدخل فيه شيئاً يشغل فراغه من أسفله ، ويثبته في قعره . فينقص ما يكال بقدر ما يشغل الفراغ المذكور ، فقد يضع ورقاً أو خرقاً أو جبساً أو نحو ذلك .

ثانياً : من ناحية الميزان قد يبرد السنج ، أي معايير الوزن حتى ينقص وزنها ، وقد يجوف منها شيئاً ويملأ التجويف بمادة أخف منها .

ولذا يجب أن يتفقد أجزاء المعايير ، وقد يتخذ معايراً من الحجر فتتناقص بكثرة الاستعمال بسبب ما يتحتت منها على طول الأيام .

ومنها : أن يضع تحت الكفة التي يزن فيها السلعة شيئاً مثقلاً لاصقاً فيها ن لينتقص من الموزون بقدر هذا الشيء .

ولكيلا يظهر هذا ، فتراه دائماً يضع المعيار في الكفة الثانية لتكون راجحة بها .

وهناك أنواع كثيرة ، كأن يطرح السلعة في الكفة بقوة ، فترجح بسبب قوة الدفع ، فيأخذ السلعة حالاً قبل أن ترجع إلى أعلا ، موهماً الناظر أنها راجحة بالميزان .

أما آلة الذرع فقد يكون المقياس كاملاً واقياً ، ولكنه بعد أن يقيس المتر الأول بالآلة إلى

الخف ، ويسحب بالمذروع إلى الأمام بمقدار الكف مثلاً ، فيكون النقص من المذروع بقدر ما سحب من القماس .

(188/808)

وكلها أمور قد تخفى على كثير من الناس ، وقد وقع لي مع بائع أن لاحظت عليه في مزان مما يرفعه بيده حتى أعاد الوزن خمس مرات في كل مرة ، يأتي بطريقة تغاير الأخرى ، حتى قضى ما عنده فالتفت إليّ وقال لي : لا أبيع بهذا السعر ، فقلت له : خذ ما تريد وزن كما أريد ، فطلب ضعف الثمن فأعطيته فأعطاني الميزان لأزن بنفسي .

وهنا ينبغي أن ننبه على حالات الباعة حينما يكون السعر مرتفعاً وتجد بائعاً يبيع برخص ، فقد يكون لعلة في الوزن أو في السلعة أو مضرة الآخر .

تنبيه آخر

بهذه الأسباب وحقائقها وشدة خطرها كان عمر رضي الله عنه يتجوّل في السوق بنفسه ، ويتفقد المكيال والميزان . يخرج من السوق من يجد في مكياله أو ميزانه نقصاناً ، ويقول : لا تمنع عنا المطر .

وهكذا يجب على ولاة الأمور تفقد ذلك باستمرار ، ولا سيما في البلاد التي يقل فيها الوازع

الديني وتشتد فيها الأسعار ، بما يلجىء الباعة إلى التحايل أو العناد .

وقد منع عمر بائع زبيب أرخص السعر لعلمه أن تاجراً قدم ومعه زبيب بكثرة ، فقيل لعمر : لماذا منعت البيع برخص ؟ فقال : لأنه يفسد السوق ، فيخسر اقادم فيمتنع من الجلب إلى المدينة ، وهذا قد ربح من قبل .

تنبيه آخر

مما ينبغي أن يعلم أن نوع المكيال ومقداره ونوع الميزان ومقداره مرجعه إلى السلطان ، كما قال علماء الحسبة : أن على الأمة أن تطيع السلطان في أربع : في نوع المكيال والميزان ، ونوع العملة التي يطرحها للتعامل بها ، وإعلان الحرب او قبول الصلح .

فإذا اتخذ الصاع أو المد أو الكيلة أو الويبة أو القدح ، أو أي نوع كبيراً أو صغيراً ، فيجب التقييد به في الأسواق .

وكذلك الوزن اتخذ الدهرم والاوقية والرطل أو الأقة أو اتخذ الجرام والكيلوا فكل ذلك له .

أما إذا كان الأمر بين اثنين في قسمة مثلاً كقسمة صبرة من حب فتراضوا على أن يقتسموها بإناء كبير للسرعة وكان مضبوطاً ، لا تختلف به المرات ، بأن يكون صلباً ويمكن الكيل به .

(189/808)

أو كذلك الوزن اتفقوا على قطعة حديد معينة ، لكل واحد وزنها عدة مرات فلا بأس بذلك ، لأن الغرض قسمة المجموع لا مثامنة على الأجزاء .

أما المكاييل الإسلامية الأساسية والموازين ، فقد تقدم بيانها من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في زكاة ما يخرج من الأرض ، وزكاة النقدين ، وقدمنا بيان مقابلها بالوزن الحديث في زكاة الفطر ، عند قوله تعالى : ﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [المعارج : 24 - 25] وبالله تعالى التوفيق .

غريبة

في ليلة الفراغ من كتابة هذا المبحث رأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يرى النائم ، وبعد أن ذهب عني رأيت من يقول لي : إن لتطفيف الكيل والوزن دخلا في الربا ، فألحقته في أول البحث ، بعد أن تأملته فوجدته صحيحاً بسبب المفاضلة .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

ران : بمعنى غطى كما في الحديث " إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، وما يزال كذلك حتى يغطيه " الحديث .

وقال الشاعر :

وكم ران من ذنب عَلى قلب فاجر . . . فتاب من الذنب الَّذي ران فانجلى

وقال أبو حيان : وأصل الرين : الغلبة : يقال : رانت الخمر على عقل شاربها واشتدت :

ثم لما رآه رانت بِه الخ . . . مر وألا يريه بأُنْتفاء

بيان القراءات في هذه الآية :

قال أبو حيان : قرئ بل ران بإدغام اللام في الراء وبالإظهار وقف حفص على بل وقفاً خفيفاً يسيراً ليتبين الإظهار .

وقال أبو جعفر بن الباذش : وأجمعوا ، يعني القراء ، على إدغام اللام في الراء ، إلاَّ ما كان من سكت حفص على بل ، ثم يقول : ران

وهذا الذي ذكره كما ذكر من الإجماع .

ففي كتاب اللوامع عن قالون من جميع طرقه : إظهار اللام عند الراء نحو قوله : بل رفعه الله إليه بل ربكم .

وفي كتاب ابن عطية . وقرأ نافع : بل ران من غير مدغم .

وفيه أيضاً : وقرأ نافع أيضاً : بالإدغام والإمالة .

وقال سيبويه : البيان والإدغام حسنان .

(190/808)

وقال الزمخشري : وقرئ بإدغام اللام في الراء . وبالإظهار والإدغام أجود ، وأمليت الألف وفخمت . اه .

أما المعنى فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك وافياً في سورة الكهف عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف : 57] . الآية .

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26)

توجيه إل ما ينبغي أن تكون فيه المنافسة ، وهي بمعنى الرغبة في الشيء .

قال أبو حيان : نافس في الشيء رغب فيه ، ونفست عليه بالشيء أنفس نفاسة ، إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه .

والذي يظهر لي والله تعالى أعلم : أن ذلك من المطالبة والمكاثرة بالشيء النفيس ، فكل يسابق إليه ليحوزه لنفسه .

وفي هذه الآية الكريمة لفت لأول السورة ، إذا كان أولئك يسعون لجمع المال بالتطفيف ، فلهم الويل يوم القيامة .

وإذا كان الأبرار لفي نعيم يوم القيامة ، وهذا شرابهم ، فهذا هو محل المنافسة ، لا في التطفيف من الحب أو أي مكيل أو موزون .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30)

وصفهم بالإجرام هنا يعشر بأنه السبب في ضحكهم من المؤمنين وتغمزهم بهم ، وتقدم في سورة البقرة بيان موجب آخر في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الحياة الدنيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ [البقرة : 212] .

وقد بين تعالى في سورة البقرة أن الذين اتقوا فوق هؤلاء يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هناك ، وأحال على هذه الآية في البيان لنوع السخرية ، وزاد البيان في سورة الأحقاف على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] .

(191/808)

ومن الدافع لهم على هذا القول ونتيجة قولهم ، وساق آية المطففين عندها ، وكذلك عند أول سورة الواقعة على قوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ [الواقعة : 3] .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة ، بل تقدم التنبيه على أنها من غيرها ممن تقدم من الأمم .

ففي قوم نوح : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود : 38

].

وكان نفس الجواب عليهم : ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود : 38 – 39].

وجاء بما يفيد أكثر من ذلك حتى بالرسل في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنبياء : 41].

ومثلها في سورة الأنبياء بنص الآية المذكورة.

تنبيه

إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفه المؤمنين ، وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها ، فإن الداعية إلى الله تعالى يجب عليه ألا يتأثر بسخرية أحد منه ، ويعلم أنه على سنن غيره من الدعاة إلى الله تعالى ، وأن الله تعالى سينتصر له إما عاجلاً وإما آجلاً ، كما في نهاية كل سياق من هذه الآيات.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

وهذا رد على سخرية المشركين منه في الدنيا ، وهو كما قال تعالى : ﴿ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [البقرة : 212].

(192/808)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه في سورة المؤمنون على الكلام على قوله :

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليوم بِمَا صبروا أَنَّهُمْ هُمُ الفائزون ﴾ [المؤمنون : 111] ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(193/808)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى النَّسَائِيّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ﴿ لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ كَانُوا مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ كَيْلًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ

ذَلِكَ .

﴿ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَفْسِيرِ اللَّفْظِ : قَالَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ : الْمُطَفِّفُونَ هُمْ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .

وَقِيلَ لَهُ الْمُطَفِّفُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْرِقُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إلَّا الشَّيْءَ الطَّفِيفَ ، مَأْخُوذٌ مِنْ طَفِّ الشَّيْءِ وَهُوَ جَانِبُهُ .

وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : ﴿ كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ ﴾ يَعْنِي بَعْضُكُمْ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إلَّا بِالتَّقْوَى .

وَفِي الْمُوَطَّأِ : قَالَ مَالِكٌ : [يُقَالُ] : لِكُلِّ شَيْءٍ وَفَاءٌ وَتَطْفِيفٌ ، وَالتَّطْفِيفُ ضِدُّ التَّوْفِيَةِ .

(194/808)

وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، وَقَدْ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى خَيْبَرَ ، فَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ سِبَاعَ بْنَ عَرْفَطَةَ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَوَجَدْنَاهُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى " كهيعص " وَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَأَقُولُ فِي صَلَاتِي : " وَيْلٌ لِأَبِي فُلَانٍ ، لَهُ مِكْيَالَانِ ، إذَا اكْتَالَ اكْتَالَ بِالْوَافِي ، وَإِذَا كَالَ كَالَ بِالنَّاقِصِ " .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ يَعْنِي كَالُوا لَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْ الْأَفْعَالِ يَأْتِي كَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ : شَكَرْت فُلَانًا وَشَكَرْت لَهُ ، وَنَصَحْت فُلَانًا وَنَصَحْت لَهُ ، وَاخْتَرْت أَهْلِي فُلَانًا وَاخْتَرْت مِنْ أَهْلِي فُلَانًا ، سَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ فِي التَّعَدِّي مُقْتَصِرًا أَوْ مُتَعَدِّيًا أَيْضًا ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ؛ فَبَدَأَ بِالْكَيْلِ قَبْلَ الْوَزْنِ ؛ وَالْوَزْنُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَالْكَيْلُ مُرَكَّبٌ عَلَيْهِ ، وَكِلَاهُمَا لِلتَّقْدِيرِ ، لَكِنَّ الْبَارِئَ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الْمِيزَانَ لِمَعْرِفَةِ الْأَشْيَاءِ بِمَقَادِيرِهَا ؛ إذْ يَعْلَمُهَا سُبْحَانَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَلَا مُقَدِّرٍ .

(195/808)

ثُمَّ قَدْ يَأْتِي الْكَيْلُ عَلَى الْمِيزَانِ بِالْعُرْفِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْمِكْيَالُ مِكْيَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَالْمِيزَانُ مِيزَانُ أَهْلِ مَكَّةَ ﴾ فَالْأَقْوَاتُ وَالْأَدْهَانُ يُعْتَبَرُ فِيهَا الْكَيْلُ [دُونَ الْوَزْنِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ وَهِيَ تُكْتَالُ بِالْمَدِينَةِ فَجَرَى فِيهَا الْكَيْلُ] ، وَكَذَلِكَ الْأَمْوَالُ الرِّبَوِيَّةُ يُعْتَبَرُ فِيهَا الْمُمَاثَلَةُ بِالْكَيْلِ دُونَ الْوَزْنِ ، حَاشَا النَّقْدَيْنِ ، حَتَّى أَنَّ الدَّقِيقَ وَالْحِنْطَةَ يُعْتَبَرُ فِيهِمَا الْكَيْلُ ، وَلَيْسَ لِلْوَزْنِ فِيهِمَا طَرِيقٌ ، وَإِنْ ظَهَرَ بَيْنَهُمَا زَيْغٌ فَهُوَ كَظُهُورِهِ بَيْنَ الْبُرَّيْنِ ، وَذَلِكَ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَرَأَ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [مَرَّتَيْنِ قَالَ : مَسَحَ الْمَدِينَةَ مِنْ التَّطْفِيفِ وَكَرِهَهُ كَرَاهِيَةً شَدِيدَةً .

وَرَوَى أَشْهَبُ قَالَ : قَرَأَ مَالِكٌ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾] ، فَقَالَ : لَا تُطَفِّفْ وَلَا تَجْلِبْ وَلَكِنْ أَرْسِلْ وَصُبَّ عَلَيْهِ صَبًّا ، حَتَّى إذَا اسْتَوَى أَرْسِلْ يَدَك وَلَا تُمْسِكْ .

وَقَالَ

عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْمَاجِشُونِ : ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّطْفِيفِ ﴾

وَقَالَ : إنَّ الْبَرَكَةَ فِي رَأْسِهِ .

قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ كَيْلَ فِرْعَوْنَ كَانَ طِفَافًا مَسْحًا بِالْحَدِيدَةِ .

(196/808)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَالَ عُلَمَاءُ الدِّينِ : التَّطْفِيفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الصَّلَاةِ وَالْوُضُوءِ وَالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : كَمَا أَنَّ السَّرِقَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَسْوَأُ السَّرِقَةِ مَنْ يَسْرِقُ صَلَاتَهُ ؛ فَلَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى مَالِكٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ،

حَتَّى أَنَّ أَحَدَهُمْ لَيَغِيبُ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ ﴾ .

وَعَنْهُ أَيْضًا ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَقُومُ مِائَةَ سَنَةٍ ﴾ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْقِيَامُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ حَقِيرٌ بِالْإِضَافَةِ إلَى عَظَمَتِهِ وَحَقِّهِ ؛ فَأَمَّا قِيَامُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَازَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ .

وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ إلَى جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَاعْتَنَقَهُ ﴾ وَقَامَ طَلْحَةُ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ يَوْمَ تيب عَلَيْهِ .

﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَنْصَارِ حِينَ طَلَعَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : قُومُوا لِسَيِّدِكُمْ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا : ﴿ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

(197/808)

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ أَنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إلَى حَالِ الرَّجُلِ وَبِنِيَّتِهِ ، فَإِنْ انْتَظَرَ لِذَلِكَ وَاعْتَقَدَهُ لِنَفْسِهِ حَقًّا فَهُوَ مَمْنُوعٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى طَرِيقِ الْبَشَاشَةِ وَالْوَصْلَةِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ ، وَخَاصَّةً عِنْدَ الْأَسْبَابِ ، كَالْقُدُومِ مِنْ السَّفَرِ وَنَحْوِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة التطفيف

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1)

قوله : ﴿ وَيْلٌ ﴾ : مبتدأٌ ، وسَوَّغَ الابتداءَ به كونُه دعاءً . ولو نُصِبَ لجاز . وقال مكي : " والمختارُ في " وَيْل " وشبهِه إذا كان غيرَ مضافٍ الرفعُ . ويجوزُ النصبُ ، فإنْ كانَ مضافاً أو مُعَرَّفاً كان الاختيارُ/ فيه النصبَ نحو : ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا ﴾ [طه : 61] . و " للمُطَفِّفين " خبرُه .

والمُطَفِّفُ : المُنَقِّصُ . وحقيقتُه : الأَخْذُ في كيلٍ ، أو وَزْنٍ ، شيئاً طفيفاً ، أي : نَزْراً حقيراً ، ومنه قولُهم : " دونَ الطَّفيف " ، أي : الشيء التافِه لقلَّتِه .

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2)

قوله : ﴿ عَلَى الناس ﴾ : فيه أوجهٌ : أحدُها : أنَّه متعلِّقٌ ب " اكْتالوا " و " على " و " مِنْ " تَعْتَقِبان هنا . قال الفراء : " يقال : اكْتَلْتُ على الناس : استَوْفَيْتُ منهم ، واكْتَلْتُ منهم :

أَخَذْتُ ما عليهم " وقيل : " على " بمعنى " مِنْ " . يقال : اكْتَلْتُ عليه ومنه ، بمعنىً ، والأول أُوضحُ . وقيل : " على " تتعلَّقُ ب " يَسْتَوْفُون " . قال الزمخشري : " لَمَّا كان اكْتِيالُهم اكتيالاً يَضُرُّهُمْ ويُتَحامَلُ فيه عليهم أبدلَ " على " مكانَ " مِنْ " للدلالة على ذلك . ويجوز أن تتعلَّقَ ب " يَسْتَوْفون " ، وقدَّم المفعولَ على الفعل لإفادةِ الخصوصيةِ ، أي : يَسْتَوْفون على الناس خاصةً ، فأمَّا أنفسُهم فَيَسْتَوْفون لها " انتهى . وهو حسنٌ .

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)

(199/808)

قوله : ﴿ كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ : رُسِمتا في المصحفِ بغير ألفٍ بعد الواوِ في الفعلَيْن ، فمِنْ ثَمَّ اختلفَ الناسُ في " هم " على وجهين ، أحدهما : هو ضميرُ نصبٍ ، فيكونُ مفعولاً به ، ويعودُ على الناس ، أي : وإذا كالُوا الناسَ ، أو وَزَنوا الناسَ . وعلى هذا فالأصلُ في هذَيْن الفعلَيْن التعدّي لاثنين ، لأحدِهما بنفسِه بلا خِلافٍ ، وللآخرِ بحرفِ الجرّ ، ويجوزُ حَذْفُه . وهل كلٌّ منهما أصلٌ بنفسِه ، أو أحدُهما أصلٌ للآخر ؟ خلافٌ مشهورٌ . والتقدير : وإذا كالوا لهم طعاماً أو وَزَنُوه لهم ، فحُذِف الحرفُ والمفعولُ المُسَرَّح . وأنشد الزمخشريُّ :

4513 ولقد جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وعَساقِلاً . . . ولقد نَهَيْتُك عَن بناتِ الأَوْبَرِ

أي : جَنَيْتُ لك . والثاني : أنه ضميرُ رفعٍ مؤكّدٍ للواو . والضميرُ عائدٌ على المطففين ، ويكونُ على هذا قد حَذَفَ المَكيلَ والمَكيلَ له والموزونَ والموزونَ لهُ . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ رَدَّ هذا ، فقال : " ولا يَصِحُّ أَنْ يكونَ ضميراً مرفوعاً للمطفّفين ؛ لأنَّ الكلامَ يَخْرُجُ به إلى نَظْم فاسدٍ ، وذلك أنَّ المعنى : إذا أخذوا من الناسِ اسْتَوْفُوا ، وإذا أعطَوْهم أَخْسَروا . فإنْ جَعَلْتَ الضميرَ للمطفّفين انقلبَ إلى قولِك : إذا أخذوا من الناسِ اسْتَوْفَوْا ، وإذا تَوَلَّوا الكيلَ أو الوزنَ هم على الخصوص أَخْسَروا ، وهو كلامٌ مُتَنَافِرٌ ؛ لأنَّ الحديثَ واقعٌ في الفعل لا في المباشر " .

(200/808)

قال الشيخ : " ولا تنافُرَ فيه بوجهٍ ، ولا فرقَ بين أَنْ يؤكَّد الضميرُ أو لا يُؤَكَّد ، والحديثُ واقعٌ في الفعل . غايةُ ما في هذا أنَّ متعلقَ الاستيفاء وهو على الناس مذكورٌ ، وهو في ﴿ كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ محذوفٌ للعلم به ؛ لأنه من المعلوم أنهم لا يُخْسِرون ذلك لأنفسهم " .

قلت : الزمخشريُّ يريدُ أَنْ يُحافظَ على أنَّ المعنى مرتبطٌ بشيئَيْن : إذا أخذوا مِنْ غيرِهم ، وإذا أَعْطَوْا غيرَهم ، وهذا إنما يَتِمُّ على تقديرِ أَنْ يكونَ الضميرُ منصوباً عائداً على الناس ، لا على كونِه ضميرَ رفعٍ عائداً على المطفّفين ، ولا شكَّ أن هذا المعنى الذي ذكَره

الزمخشريُّ وأرادَه أَتَمُّ وأَحسنُ مِنْ المعنى الثاني . ورجَّح الأوّلَ سقوطُ الألفِ بعد الواوِ ، ولأنه دالٌّ على اتصالِ الضميرِ ، إلاَّ أنَّ الزمخشري استدركه فقال : " والتعلُّقُ في إبطالِه بخطِّ المصحفِ وأنَّ الألفَ التي تُكتب بعد واوِ الجمع غيرُ ثابتةٍ فيه ، ركيكٌ لأنَّ خَطَّ المصحفِ لم يُراعِ في كثيرٍ منه حَدَّ المصطلحِ عليه في علمِ الخطِّ ، على أني رأيتُ في الكتب المخطوطةِ بأيدي الأئمة المُتْقِنين هذه الألفَ مرفوضةً لكونِها غيرَ ثابتةٍ في اللفظِ والمعنى جميعاً ؛ لأنَّ الواوَ وحدَها مُعْطِيَةٌ معنى الجَمْع ، وإنما كُتِبت هذه الألفُ تَفْرِقَةً بين واوِ الجمعِ وغيرِها في نحو قولِك : " هم [لم] يَدْعُوا " ، و " هو يَدْعُو " ، فمَنْ لم يُثْبِتْها قال : المعنى كافٍ في التفرقةِ بينهما ، وعن عيسى بنِ عمرَ وحمزةَ أنَّها يرتكبان ذلك ، أي : يجعلان الضميرَيْن للمطففين ، ويقفان عند الواوَيْن وُقَيْفَةً يُبَيِّنان بها ما أرادا " .

(201/808)

ولم يَذْكُر فعلَ الوزنِ أولاً ؛ بل اقتصر على الكيلِ ، فقال : " إذا اكْتالوا " ولم يَقُلْ : أو اتَّزَنوا ، كما قال ثانياً : أو وَزَنُوهم . قال الزمخشري : " كأنَّ المطفِّفين كانوا لا يأخذون ما يُكال ويُوْزَنُ إلاَّ بالمكاييلِ دون الموازينِ لتمكُّنهم بالاكتيالِ من الاستيفاءِ والسَّرِقَةِ ؛ لأنَّهم يُدَعْدِعُون ويَحْتالون في المَلْء ، وإذا أَعْطَوْا / كالُوا ووزَنوا لتمكُّنِهم من البَخْسِ في النوعَيْن

جميعاً " .

قولُه : "يُخْسِرون " جوابُ " إذا " وهو مُعَدَّىً بالهمزة . يقال : خَسِرَ الرجلُ ، وأَخْسَرْتُه أنا ، فمفعولُه محذوفٌ ، أي : يُخْسِرون الناسَ مَتاعَهم .

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)

قوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ : الظاهرُ أنَّها " ألا " التحضيضيةُ ، حَضَّهم على ذلك ، ويكونُ الظنُّ بمعنى اليقين . وقيل : هل لا النافيةُ دخَلَتْ عليها همزةُ الاستفهامِ .

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ : يجوزُ نصبُه ب " مَبْعُوثون " ، قاله الزمخشري : أو ب يُبْعَثون " مقدَّراً ، أو على البدلِ مِنْ محلِّ " يوم " ، أو بإضمارِ " أَعْني " ، أو هو مرفوعُ المحلِّ خبراً لمبتدأ مضمرٍ ، أو مجرورٌ بدلاً من " ليومٍ عظيمٍ " ، وإنما بُني في هذَيْن الوجهَيْن على الفتحِ لإضافتِه للفعل ، وإن كان مضارعاً ، كما هو رأي الكوفيين ، ويَدُلُّ على صحة هذَيْن الوجهين قراءةُ زيدِ بنِ علي " يومُ يقومُ " بالرفعِ ، وما حكاه أبو معاذٍ القارئُ " يوم " بالجرِّ على ما تقدَّم .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7)

قوله : ﴿ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ : اختلفوا في نون " سِجِّين " . فقيل : هي أصليةٌ . اشتقاقهُ من السِّجْنِ وهو الحَبْسُ ، وهو بناءُ مبالغةٍ ، فسِجِّين من السَّجْنِ كسِكِّير من السُّكْر . وقيل : بل هي بدلٌ من اللامِ ، والأصلُ : سِجِّيْل ، مشتقاً من السِّجِلِّ وهو الكتابُ . واختلفوا فيه أيضاً : هل هو اسمُ موضعٍ ، أو اسمُ كتابٍ مخصوص ؟ وهل هو صفةٌ أو عَلَمٌ منقولٌ مِنْ وصفٍ كحاتِم . وهو مصروفٌ إذ ليس فيه إلاَّ سببٌ واحدٌ وهو العَلَمِيَّةُ ، وإذا كان اسمَ مكانٍ ، فقوله "كتابٌ مَرْقُوْمٌ" : إمَّا بدلٌ منه ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ ، وهو ضميرٌ يعودُ عليه ، وعلى التقديرَيْن فهو مُشْكِلٌ ؛ لأنَّ الكتابَ ليس هو المكانَ فقيل : التقدير : هو مَحَلُّ كتابٍ ، ثم حُذِفَ المضافُ . وقيل : التقديرُ : وما أدراك ما كتابُ سِجِّين ؟ فالحذفُ ، إمَّا مِنْ الأولِ ، وإمَّا مِنْ الثاني : وأمَّا إذا قُلْنا : إنه اسمٌ ل "كتاب" فلا إشكال .

(203/808)

وقال ابن عطية : " مَنْ قال : إنَّ سِجِّيناً موضعٌ فكتابٌ مرفوعٌ ، على أنه خبرُ " إنّ " والظرفُ الذي هو " لفي سِجِّين " مُلْغَى ، ومَنْ جعله عبارةً عن الخَسارة ، فكتابٌ خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، التقدير : هو كتابٌ ، ويكونُ هذا الكلامُ مفسِّراً لِسِجِّين ما هو ؟ " انتهى ، وهذا لا يَصِحُّ البتة ؛ إذ دخولُ اللامِ يُعَيِّنُ كونَه خبراً فلا يكونُ مُلْغى . لا يقال : اللامُ تَدْخُلُ

على معمولِ الخبرِ فهذا منه فيكونُ مُلْغى ؛ لأنه لو فُرِضَ الخبرُ وهو "كتابٌ" عاملاً أو صفتُه عاملةٌ وهو "مرقوم" لامتنعَ ذلك . أمَّا مَنْعُ عملِ "كتابٌ" فلأنَّه موصوف ، والمصدرُ الموصوفُ لا يعمل . وأمَّا امتناعُ عملِ "مرقومٌ" فلأنَّه صفةٌ ، ومعمولُ الصفةِ لا يتقدَّمُ على موصوفِها . وأيضاً فاللامُ إنما تدخُلُ على معمولِ الخبر بشرطِه ، وهذا ليس معمولاً للخبرِ ، فتعيَّنَ أَنْ يكونَ الجارُّ هو الخبرَ ، وليس بملغى . وأمَّا قولُه ثانياً "ويكون هذا الكلامُ مفسِّراً لسِجِّين ما هو" فمُشْكِلٌ ؛ لأنَّ الكتابَ ليس هو الخسَارَ الذي جُعِلَ الضميرُ عائداً عليه مُخْبِراً عنه ب "كتابٌ" .

وقال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجار بأنه في سِجِّين وفَسَّر سِجِّيناً ب "كتاب مرقوم" فكأنه قيل : إنَّ كتابَهم في كتابٍ مرقوم فما معناه ؟ قلت : "سِجِّين "كتابٌ جامعٌ ، هو ديوانُ الشرِّ دَوَّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكَفَرَةِ والفَسَقَةِ من الجنِّ والإنسِ ، وهو كتابٌ مَسْطورٌ بَيِّنُ الكِتابةِ ، أو مَعْلَمٌ يَعْلَمُ مَنْ رآهُ أنه لا خَيْرَ فيه فالمعنى : أنَّ ما كُتِبَ مِن أعمالِ الفُجَّارِ مُثْبَتٌ في ذلك الديوانِ ، ويُسَمَّى سِجِّيلاً فِعِّيلاً من السَّجْلِ وهو الحَبْسُ والتضييق ؛ لأنه سببُ الحِبْسِ والتضييق في جهنم" انتهى .

كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9)

والرَّقْمُ : الخَطُّ . وقيل : الخَتْمُ بلغة حِمْيَرٍ ، والصحيحُ الأولُ . قال : /

4514 سأَرْقُمُ في الماءِ القَراحِ إليكُمُ . . . على بُعْدِكُمْ إنْ كان للماءِ راقِمُ

وتقدَّمت هذه المادةُ في الكهف .

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11)

قوله : ﴿ الذين يُكَذِّبُونَ ﴾ : يجوزُ فيه الإتباعُ نعتاً وبدلاً وبياناً ، والقطعُ رفعاً ونصباً .

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)

قوله : ﴿ إذَا ﴾ : العامَّةُ على الخبر . والحسن " أإذا " على الاستفهامِ الإنكاريِّ .

والعامَّةُ " تُتْلى " بتاءين مِنْ فوقُ ، وأبو حيوة وابن مقسم بالياء مِنْ تحتُ ؛ لأنَّ التأنيث مجازيٌّ .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)

قوله : ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ : قد تقدَّم وَقْفُ حفص على " بل " في الكهف . والرَّيْنُ والرانُ الغِشاوة على القلبِ ، كالصَّدأ على الشيءِ الصقيلِ من سيفٍ ومِرْآة ونحوِهما . قال الشاعر :

4515 وكم رانَ مِنْ ذنبٍ على قلبِ فاجرٍ . . . فتابَ مِن الذنبِ الذي رانَ وانْجَلَى

وأصلُ الرَّيْنِ : الغلبةُ ، ومنه : رانَتِ الخمرُ على عقلِ شاربِها . وران الغَشْيُ على عقل

المريض . قال :

4516 . . . . . رانَتْ به الخَمْ . . . رُ . . . . . .

. . . . . .

وقال الزمخشري : " يقال : ران عليه الذنبُ وغان ، رَيْناً وغَيْناً . والغَيْنُ الغَيْم . ويقال : ران فيه النومُ : رَسَخَ فيه ، ورانَتْ به الخمرُ : ذهَبَتْ به " . وحكى أبو زيد : " رِيْنَ بالرَّجل رَيْناً : فجاء مصدرُه مفتوحَ العين وساكنَها . و " ما كانوا " هو الفاعلُ . و " ما " يُحتمل أَنْ تكونَ مصدريةً ، وأَنْ تكونَ بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ . وأُمِيْلَتْ ألفُ " ران " وفُخِّمَتْ ، فأمالها الأخَوان وأبو بكر وفَخَّمها الباقون ، وأُدغِم لامُ " بل " في الراء وأُظْهِرَتْ .

(205/808)

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)

قوله : ﴿ عَن رَّبِّهِمْ ﴾ : متعلّقٌ بالخبرِ ، وكذلك " يومئذٍ " . والتنوينُ عوضٌ من جملةٍ تقديرُها ، يومَ إذ يقومُ الناسُ ؛ لأنه لم يناسِبْ إلاَّ تقديرُها .

ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

قوله : ﴿ يُقَالُ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ القائمُ مقامَ الفاعلِ ما دلَّتْ عليه جملةُ قولِه ﴿ هذا الذي كُنتُمْ ﴾ . ويجوزُ أَنْ يكونَ الجملةَ نفسَها ، ويجوزُ أَنْ يكونَ المصدرَ ، وقد تقدَّم تحريرُه أولَ البقرة .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18)

قوله : ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ : هو خبر " إنَّ " .

وقال ابنُ عطية هنا كما قال هناك ، ويُرَدُّ عليه بما تقدَّم . وعِلِّيُّون جمع عِلِّيّ ، أو هو اسمُ مكانٍ في أعلى الجنة ، وجَرَى مَجْرَى جمع العقلاء فرُفع بالواوِ ونُصِبَ وجُرَّ بالياء مع فوات شرطِ العقل . وقال أبو البقاء : " واحدُهم عِلِّيّ وهو الملك . وقيل : هي صيغةُ الجمع مثلَ عشرين " ثم ذكر نحواً مِمَّا ذَكَرَهُ في " سِجِّين " مِنْ الحَذْفِ المتقدِّم . وقال الزمخشري : " عِلِّيُّون : عَلَمٌ لديوانِ الخير الذي دُوِّن فيه كلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثقلَيْنِ ، منقولٌ مِنْ جَمْع " عِلِّيّ " فِعِّيل من العُلُوك " سِجِّين " مِنْ السَّجْن " ، سُمِّيَ بذلك : إمَّا لأنه سببُ الارتفاعِ ، وإمَّا لأنه مرفوعٌ في السماءِ السابعةِ " . قلت : وتلك الأقوالُ الماضيةُ في " سِجِّين " كلُّها عائدةٌ هنا .

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)

قوله : ﴿ يَشْهَدُهُ ﴾ : جملةٌ يجوزُ أَنْ تكونَ صفةً ثانيةً ، وأَنْ تكونَ مستأنفةً .

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24)

قوله : ﴿ تَعْرِفُ ﴾ : العامَّةُ على إسنادِ الفعلِ إلى المخاطب ، أي : تَعْرِفُ أنت يا محمدُ ، أو كلُّ مَنْ صَحَّ منه المعرفةُ .

(206/808)

وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وشيبةُ وطلحةُ ويعقوبُ والزعفراني " تُعْرَفُ " مبنياً للمفعول ، " نَضْرَةُ " رَفْعٌ على قيامِها مقامَ الفاعلِ . وعلي بن زيد كذلك إلاَّ أنَّه بالياءِ أسفلَ لأنَّ التأنيثَ مجازي .

[وقوله : ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ حالٌ من الضمير المستكنِّ في الخبر أو مستأنف] [و " على الأرائك " متعلق ب " يَنْظرون " أو حال من ضميره ، أو حال مِنْ ضمير المستكنّ في الخبر]

.

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25)

قوله : ﴿ مِن رَّحِيقٍ ﴾ : الرحيق : الشرابُ الذي لا غِشَّ فيه ، وقيل : أجودُ الخمر .

وقال حسان :

4517 . . . . . بَرَدى يُصَفِّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26)

قوله : ﴿ خِتَامُهُ ﴾ : قرأ الكسائيُّ " خاتَمهُ " بفتح التاءِ بعد الألف . والباقون بتقديمها على الأف ، فوجهُ قراءةِ الكسائيِّ أنَّه جعله اسماً لِما تُخْتَمُ به الكأسُ بدليلِ قولِه " مَخْتوم " ، ثم بَيَّنَ الخاتَمَ ما هو ؟ ورُوِيَ عن الكسائيِّ أيضاً كَسْرُ التاءِ ، فيكونُ كقولِه تعالى : ﴿ وَخَاتَمَ النبيين ﴾ [الأحزاب : 40] والمعنى خاتَمٌ رائحتُهُ مِسْكٌ ، ووجهُ قراءةِ الجماعةِ أنَّ الخِتَامَ هو الطينُ الذي يُخْتَمُ به الشيءُ ، فجُعِل بَدَلَه المِسْكُ . قال الشاعر :

4518 كأنَّ مُشَعْشَعاً مِنْ خَمْرِ بُصْرى . . . . . البُخْتُ مَسْدودَ الخِتَامِ

وقيل : خَلْطُه ومِزاجُه . وقيل : خاتِمتُه ، أي : مَقْطَعُ شُرْبِه يَجِدُ فيه الإنسانُ ريحَ المِسْكِ . والتنافُسُ : المغالبة في الشيء النفيسِ . يقال : نَفِسْتُ به نَفاسَةً ، أي : بَخِلْتُ به ، وأصلُه مِنْ النَّفْس لِعِزَّتها .

وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27)

(207/808)

قوله : ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ : التَّسْنيم اسمٌ لعَيْنٍ في الجنة . قال الزمخشري : " تَسْنِيم عَلَمٌ لعَيْنٍ بعينها ، سُمِّيت بالتَّسْنيم الذي هو مصدرُ سَنَمَه : إذا رفعه " . قلت : وفيه نظرٌ ؛ لأنه كان

مِنْ حَقِّه أن يُمْنَعَ الصرفَ للعَلَمِيَّة والتأنيث ، وإنْ كان مجازياً . ولا يَقْدَحُ في ذلك كونُه مذكَّرَ الأصلِ ؛ لأنَّ العِبْرَةَ بحالِ العَلَمِيَّةِ . ألا ترى نَصَّهم على أنه لو سُمِّي بزيد امرأةٌ وَجَبَ المَنْعُ ، وإن كان في " هِنْد " وجهان . اللهم إلاَّ أَنْ تقولَ : ذَهَبَ بها مَذْهَبَ الهِنْد ونحوِه ، فيكونَ كواسِط ودابِق .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

قوله : ﴿ عَيْناً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنَّه حالٌ ، قاله الزجاج ، يعني مِنْ " تَسْنيم " لأَنَّه عَلَمٌ لشيءٍ بعينِه ، إلاَّ أنه يُشْكِل بكونه جامداً . الثاني : أنه منصوبٌ على المدح ، قاله الزمخشري . الثالث : أنها منصوبةٌ بـ يُسْقَوْنَ مقدراً ، قاله الأخفش . وقوله : "يَشْرب" بها ، أي : مِنْها ، أو الباءُ زائدةٌ ، أو ضُمِّن "يَشْرَبُ" معنى يَرْوي . وتقدَّم هذا مُشْبعاً في سورة الإنسان .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29)

قوله : ﴿ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ : متعلِّقٌ بـ "يَضْحكون" ، أي : مِنْ أجلِهم ، وقُدِّمَ لأجل الفواصلِ . والتغامُز : الرَّمْزُ بالعينِ .

وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31)

قوله : ﴿ فَكِهِينَ ﴾ : قرأ حفص " فَكِهين " دون ألف . والباقون بها . فقيل : هما بمعنى . وقيل : فكهين : أَشِرين ، وفاكهين : مِنْ التفكُّهِ . وقيل : فكِهين : فَرِحين ، وفاكهين ناعمين

. وقيل : فاكهين أصحابُ فاكهةٍ ومزاج .

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32)

(208/808)

قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ المرفوعُ للكفار ، والمنصوبُ للمؤمنين ، ويجوزُ العكسُ ، وكذلك الضميران في " أُرْسِلوا عليهم " .

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34)

قوله : ﴿ فاليوم ﴾ : منصوبٌ ب "يَضْحَكون" . ولا يَضُرُّ تقديمُه على المبتدأ ؛ لأَنَّه لو تقدَّم العاملُ هنا لجاز ؛ إذا لا لَبْسَ ، بخلاف " زيدٌ قام في الدار " لا يجوز : في الدار زيدٌ قام .

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35)

قوله : ﴿ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ﴾ : كما تقدَّم في نظيره .

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

قوله : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ الجملةُ الاستفهاميةُ معلِّقةً للنظرِ قبلها ، فتكونَ في محلِّ نصب بعد إسقاطِ الخافض . ويجوز أَنْ تكونَ على إضمارِ القول ، أي : يقولون : هل ثُوِّبَ . وثُوِّبَ ، أي : جُوْزِيَ . يُقال : ثَوَّبه وأثابه . قال الشاعر :

4519 سَأَجْزِيك أو يَجْزيك عني مُثَوِّبٌ . . . وحَسْبُك أَنْ يُثْنَى عليك وتُحْمَدَا

وأدغم أبو عمروٍ والكسائيُّ وحمزةُ لامَ "هل" في الثاء . وقوله "ما كانوا" فيه حَذْفٌ، أي : ثوابَ ما كانوا . و "ما" موصولٌ اسميٌّ أو حرفيٌّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 10 صـ 715.728﴾

(209/808)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المطففين

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز رداؤه كبرياؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاؤه ، وجلاله جماله ، وجماله جلاله ، الوجود له غير مستفتح ، والموجود منه غير مستقبح ، المعهود منه لطفه ، المأمول منه لطفه ، كيفما قسم للعبد عبده ، إن أقصاه فالحكم حكمه ، وإن أدناه فالأمر أمره .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو

وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾

﴿ وَيْلٌ ﴾ : الويلُ كلمةٌ تُذْكَر عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك ! و " المطفّف " ، الذي يُنْقِصُ الكيْلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين يعامِلون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا ، ويتجلَّى ذلك في : الوزن والكيْلِ ، وفي إظهار العيب ، وفي القضاء والأداء والاقتضاءْ ؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فيس بمنصف . وأمَّا الصِّدِّيقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكلِّ مَنْ لهم معهم معاملة – والصدقُ عزيزٌ ، وكذلك أحوالهم في الصُّحْبَةِ والمعاشرة . . . فالذي يرى عَيْبَ الناسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو من هذه الجملة – جملة المطففين – كما قيل :

وتُبْصِرُ في العينِ منّي القَذَى . . . وفي عينِكَ الجذْعَ لا تُبْصِرُ

ومَنْ اقتضى حقَّ نَفْسه – دون أن يَقْضِيَ حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه – فهو من جملة المطففين .

والفتى مَنْ يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحدٍ لنفسه حقّاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي : ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحَاسَبون غداً ، وأنهم مُطَالَبون بحقوق الناس ؟ .

ويقال : مَنْ لم يَذْكُرْ – في حال معاملةِ الناسِ – معاينة القيامة ومحاسبتها فهو في خسرانٍ في معاملته .

ويقال : مَنْ كان صاحبَ مراقبة لله ربِّ العالَمين استشعر الهيبةَ في عاجِلِه ، كما يكون حالُ الناسِ في المحشر ؛ لأنَّ اطلاعَ الحقِّ اليومَ كاطلاعه غداً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ؟ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ .

﴿ سِجِّينٍ ﴾ قيل : هي الأرض السابعة ، وهي الأرض السفلى ، يُوضَع كتابُ أعمالِ الكفار هنالك إذلالاً لهم وإهانة ، ثم تُحْمَل أرواحُهم إلى ما هنالك .

ويقال : " السِّجين " جُبٌّ في جهنم . وقيل : صخرةٌ في الأرض السفلى ، وفي اللغة السِّجين : فعيلٌ من السجن .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ . استفهامٌ على جهة التهويل .

﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ . أي مكتوب ؛ كَتَبَ اللَّهُ فيه ما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون .

وإنما المكتوبُ على بني آدم في الخير والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما تعلَّق به علمه وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذي علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خَلْقِه إلاَّ مَنْ شاءَ

من المقربين بالقَدْرِ الذي أراده ؛ فإنه يُجري عليهم في دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التقدير .

ثم قال : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

ويلٌ للذين لا يُصَدّقون بيوم الدين ، وما يُكذِّبُ به إلا كل مُجَاوِزٍ للحَدّ الذي وُضِعَ له ؛ إذا يُتْلَى عليه القرآن كَفَرَ به .

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)

(211/808)

أي : غَطَّى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من المعاصي . . . وكما أنهم – اليومَ – ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليلُ الخطابِ يوجِبُ أن يكونَ المؤمنون يَرَوْنَه غداً كما يعرفونه اليوم .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18)

﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ أعلى الأمكنة ، تحمل إليه أرواح الأبرار تشريفاً لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرة المنتهى . ويقال : فوق السماء السابعة . كتابٌ مرقوم فيه أعمالهم مكتوبة يشهده المقربون من الملائكة .

﴿ إِنَّ الأَبرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ .

اليومَ وغداً : اليومَ في رَوْحِ العرفان ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأُنسِ القُربة وبَسْطِ الوصلة . وغداً – في الجنة وما وُعِدوا به من فنون الزلفة والقربة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ .

أَثْبَتَ النظرَ ولم يُبَيِّنْ المنظور إليه لاختلافهم في أحوالهم ؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره . ومنهم من ينظر إلى حُرِه ، ومنهم ومنهم . . . ومنهم الخواصُّ فهم على دوامِ الأوقات إلى الله – سبحانه – يَنْظُرون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .

مَنْ نظر إليهم عَلِمَ أنَّ أثَرَ نَظَرِه إلى مولاه ما يلوح على وجه من النعيم ؛ فأحوال المحبِّ شهودٌ عليه أبداً . فإنْ كان الوقتُ وقتَ وصالٍ فاختيالُه ودلالُه ، وسرورُه وحبورُه ، ونشاطُه ونبساطُه . وإنْ كان الوقتُ وقتَ غيبةٍ وفراق فالشهودُ عليه نحولُه وذبولُه ، وحنينُه ، ودموعُه وهجوعُه . . .

وفي معناه قلت : (1)

يا مَنْ تَغَيُّرُ صورتي لَمَّا بدا . . . – لجميع ما ظنوا بنا – تحقيقُ

وقلت :

ولَمَّا أَتَى الواشين أَنِّي زُرْتُها . . . جَحَدْتُ حذاراً أَنْ تَشِيعَ السرائرُ

فقالوا : نرى في وجهِك اليومَ نضرةً . . . كَسَتْ مُحيَّاك . . وها ذاك ظاهِرُ !

وبُرْدُكَ لا ذاك الذي كان قبلَه . . . به طِيبُ نَشْرٍ لم تُشِعْهُ المجامِرُ

---

(1) نسعد كثيرا جدا بهذا الشعر الذي صاغه القشيري ، فهو شاعر مقلّ ، ولكنه – كما هو واضح – رقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يا من تغيّر صورتى – لمّا بدا – تحقيق لجميع ما ظنوا بنا أي أن ما ظهر على أسرّتى من أشياء حاولت كتمانها قد حقّق ظنون الواشين والعاذلين . . فلا فائدة . . فالصبّ تفضحه عيونه ! ونحسب أن ما قبل النص ، وما يقصده النص الثاني يؤيدان تذوقنا على هذا النحو .

(212/808)

فما كان منّي من بيانٍ أُقيمه . . . وهيهات أن يخفي مُريبٌ مساتِرُ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ . ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ أي رحيقٌ لا غِشَّ فيه .

ويقال : عتيقٌ طَيِّبٌ .

ويقال : إنهم يشربون شرابا آخره مِسْكٌ .

ويقال : بل هو مختومٌ قبل حضورهم .

ويقال : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ . ممنوعٌ من كلِّ أحدٍ ، مُعَدٌّ مُدَّخَرٌ لكلِّ أحدٍ باسمه .

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ . وتنافُسُهم فيه بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والسباقُ إلى القُرْب ، وتعليقُ القلبِ بالله ، والانسلاخُ عن الاخلاقِ الدَّنِيَّة ، وجَوَلانُ الهِمَمِ في الملكوت ، واستدامةُ المناجاة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

﴿ تَسْنِيمٍ ﴾ : أي : عينٌ تسَنَّمُ عليهم من عُلُوٍّ .

وقيل : ميزابٌ يَنْصَبُّ عليهم من فوقهم .

ويقال : سُمِّي تسنيماً ؛ لأن ماءَه يجري في الهواء مُتَسَنِّماً فينصبُّ في أواني أهل الجنة ؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجاً ، ومنهم مَنْ يُسْقى صِرْفاً . . . الأولياء يُسْقَون مزجاً ، والخواصُ يُسْقَون صِرْفاً .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30)

كانوا يضحكون استهزاءً بهم ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ ! .

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

﴿ هل . . . ﴾ استفهام يراد منه التقرير .

ويقال : إذا رأوا أهلَ النارَ يُعذَّبون لا تأخذهم بهم رأْفة ، ولا تَرِقُّ لهم قلوبُهم ، بل يضحكون ويستهزئون ويُعَيِّرونهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 699. ﴿704

(213/808)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة المطفّفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3)

الإعراب :

(ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (للمطفّفين) متعلّق بخبر المبتدأ (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت للمطففين " 2 " ، (على الناس) متعلّق بـ (اكتالوا) " 3 " ، (أو) للعطف . .

جملة : " ويل للمطفّفين . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

---

(1) الذي سوّغ الابتداء به دلالته على الدعاء .

(2) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة استئناف بيانيّ . [. . . . .]

(3) قال الزمخشريّ : لمّا كان اكتيالهم اكتيالا يتحامل فيه عليهم أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلّق بـ (يستوفون) .

(214/808)

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اكتالوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يستوفون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " الشرط الثاني وفعله وجوابه " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشرط الأولى .

وجملة : " كالوهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " وزنوهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة كالوهم .

وجملة : " يخسرون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الصرف :

(المطفّفون) ، جمع المطفّف ، اسم فاعل من الرباعيّ طفّف ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين .

(2) اكتالوا : فيه إعلال بالقلب ، قلب عين الفعل ألفا ، تحرّكت بعد فتح ، وزنه افتعلوا .

(يستوفون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يستوفيون – بياء بعد الفاء – نقلت حركة الياء إلى الفاء للثقل ، ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين ، وزنه يستفعون .

(3) كالوهم : فيه إعلال بالقلب قياسه كما في اكتالوا . .

البلاغة :

(215/808)

المقابلة : في قوله تعالى " الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ " .

وذلك أن المعنى : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا أعطوهم أخسروا .

الفوائد :

ولا تنقصوا الناس أشياءهم : أفادت هذه الآيات الوعيد

الشديد ، والعذاب الأليم في الآخرة للذين ، ينقصون الكيل والميزان ، ويبخسون الناس حقوقهم ، وإن كان لهم حق استوفوه كاملا . ويتناول هذا الوعيد القليل والكثير من بخس الحق ، وهذا الذنب كبيرة من الكبائر ، فمن لم يتب منه خشي عليه من سوء الخاتمة ، أما إن

تاب ورد الحقوق إلى أهلها قبلت توبته ، ومن أصر على ذلك كان مصرّا على كبيرة من الكبائر ، وذلك لأن عامة الخلق يحتاجون إلى المعاملات ، وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والذرع ، فلهذا السبب عظم اللّه عز وجل أمر الكيل والوزن . قال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول له : اتق اللّه ، أوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون يوم القيامة حتى يلجمهم العرق . وقال قتادة : أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك ، واعدل كما تحب أن يعدل لك ، وقال الفضيل : بخس الميزان سواد يوم القيامة .

[سورة المطففين (83) : الآيات 4 إلى 6]

أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ (لا) نافية (ليوم) متعلّق بـ (مبعوثون) . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم مبعوثون) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يظنّ .

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره يبعثون (لربّ) متعلّق بـ (يقوم) .

جملة : " يظنّ أولئك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقوم الناس . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

[سورة المطففين (83) : الآيات 7 إلى 9]

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر عمّا كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث (اللام) المزحلقة للتوكيد (في سجين) متعلّق بخبر إنّ (الواو) استئنافيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة أدراك (ما) مثل الأول خبره (سجّين) ، (كتاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . .

جملة : " إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " ما سجّين . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة : " (هو) كتاب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(سجّين) ، اسم علم إمّا لكتاب جمعت فيه أعمال الشياطين والكفرة والفسقة . . أو اسم علم لمكان بعينه ، وزنه فعّيل بكسر الفاء والعين المشدّدة ، مأخوذ من السجن ، وقيل النون عوض من اللام والأصل سجّيل وهو مشتّق من السجلّ وهو الكتاب .

(مرقوم) ، اسم مفعول من الثلاثيّ رقم ، وزنه مفعول .

[سورة المطففين (83) : الآيات 10 إلى 13]

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)

---

(1) أو اعتراضية بين كتاب الاول والجملة البيانية المبينة له

(217/808)

الإعراب :

(ويل . . . للمكذّبين) مثل ويل للمطفّفين " 1 " ، (يومئذ) بدل من (يوم يقوم) " 2 " ، (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت للمكذّبين " 3 " ، (بيوم) متعلّق بـ (يكذّبون) ، (الواو) حالية - أو استئنافيّة - (ما) نافية (به) متعلّق بـ (يكذّب) ، (إلّا) للحصر (كلّ) فاعل (يكذّب) مرفوع (عليه) متعلّق بـ (تتلى) . . .

جملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكذّبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما يكذب به إلّا كلّ . . . " في محلّ نصب حال من يوم الدين " 4 " .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ رفع نعت لكلّ معتد .

وجملة : " تتلى عليه آياتنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " (هي) أساطير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة المطففين (83) : آية 14]

كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (14)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (على قلوبهم) متعلّق بـ (ران) ،

---

(1) في الآية (1) من السورة .

(2) في الآية (6) من هذه السورة .

(3) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة استئناف بيانيّ .

(4) أو لا محلّ لها استئنافيّة .

(ما) موصول في محلّ رفع فاعل، والعائد محذوف.

جملة: "ران على قلوبهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كانوا يكسبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يكسبون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا.

الصرف:

(ران)، فيه إعلال بالقلب، أصله رين - مضارعه يرين - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا.

[سورة المطففين (83): الآيات 15 إلى 17]

كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

الإعراب:

(عن ربّهم) جار ومجرور متعلّق بـ (محجوبون) وهو بحذف مضاف أي عن رؤية ربّهم، وكذلك الظرف (يومئذ)، والتنوين عوض من جملة أي يوم إذ يقوم الناس (اللام) المزحلقة للتوكيد في الموضعين (ثمّ) للعطف في الموضعين (الذي) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (هذا)، (به) متعلّق بـ (تكذّبون).

جملة : "إنّهم . . . لمحجوبون" لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "إنّهم لصالوا الجحيم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "يقال . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "هذا الذي . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : "كنتم به تكذّبون" لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) هي في الأصل جملة مقول القول .

وجملة : " تكذّبون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(محجوبون) ، جمع محجوب ، اسم مفعول من الثلاثيّ حجب ، وزنه مفعول .

البلاغة

التمثيل : في قوله تعالى "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ" .

من أنكر رؤيته تعالى كالمعتزلة قال : إن الكلام تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم .

[سورة المطففين (83) : الآيات 18 إلى 21]

كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21)

الإعراب :

(كلّا إنّ . . . كتاب مرقوم) مثل الآية كلّا إنّ . . . كتاب مرقوم" 1 " . . . مفردات وجملا .

وجملة : "يشهده المقرّبون . . . "في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ المقدّر (هو) .

الصرف :

(علّيون) ، جمع علّيّ ، صفة مشتّقة وزنه فعّيل بكسر الفاء والعين المشددة ، أو هو مفرد على صيغة الجمع لا واحد له من لفظه معناه الكتاب الجامع لأعمال الخير .

الفوائد :

- كلّا :

وهي حرف معناه الردع والزّجر ، وأجاز النحاة الوقف عليها والابتداء بما

(1) في الآية (7) من هذه السورة وما يليها .

(221/808)

بعدها . وقال جماعة : متى سمعت (كلّا) في سورة فاحكم بأنها مكيّة ، لأن فيها معنى التهديد والوعيد ، وأكثر ما نزل ذلك بمكة ، لأن أكثر العتوّ كان بها ، وهذا كلام فيه نظر ، لأن كلا أحيانا لا تحمل معنى الزجر كقوله تعالى (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين . كلا إن كتاب الفجار لفي سجّين) .

ورأى الكسائي وأبو حاتم ومن وافقهما أن معنى الردع والزجر ليس مستمرا فيها ، فزاد فيها معنى ثانيا يصح عليه أن يوقف دونها ويبتدأ بها ، ثم اختلفوا من تعيين ذلك المعنى على ثلاثة أقوال :

1 - قال الكسائي ومتابعوه : تكون معنى حقا .

2 - قال أبو حاتم ومتابعوه : تكون بمعنى (ألا) الاستفتاحية .

3 - قال النضر بن شميل والفراء ومن وافقهما : تكون حرف جواب بمنزلة (إي) و(نعم) وحملوا عليه قوله تعالى : (كلا والقمر) فقالوا معناه : إي والقمر .

وقول أبي حاتم أولى من قولهما ، لأنه أكثر اطرادا ، لأن أنّ تكسر بعد (ألا) الاستفتاحية

ولا تكسر بعد حقا ، ولأن تفسير حرف بحرف أولى من تفسير حرف باسم . وقد تحمل (كلا) أحيانا معنى الردع ومعنى الاستفتاح ، كقوله تعالى : (رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) لأنها لو كانت بمعنى حقا لما كسرت همزة إن بعدها ، ولو كانت بمعنى نعم لكانت للوعد بالرجوع ، لأنها بعد الطلب ، كما يقال (أكرم فلانا) فتقول :

(نعم) .

[سورة المطففين (83) : الآيات 22 إلى 28]

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26)

وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

الإعراب :

(اللام) المزحلقة للتوكيد (في نعيم) متعلّق بخبر إنّ (على الأرائك) متعلّق بحال من فاعل ينظرون (في وجوههم) متعلّق بـ (تعرف) ، (من رحيق) متعلّق بـ (يسقون) ، (الواو) اعتراضيّة (في ذلك) متعلّق بفعل (يتنافس) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (الواو) عاطفة (من تسنيم) متعلّق بخبر المبتدأ (مزاج) ، (عينا) مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني ، أو أمدح ، أو يسقون (بها) متعلّق بـ (يشرب) بتضمينه معنى يرتوي أو يلتذّ .

جملة : " إنّ الأبرار لفي نعيم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينظرون . . . " في محلّ رفع خبر ثان " 1 " .

وجملة : " تعرف . . . " في محلّ رفع خبر ثالث " 2 " .

وجملة : " يسقون . . . " في محلّ رفع خبر رابع " 3 " .

وجملة : " ختامه مسك . . . " في محلّ جرّ نعت ثان لرحيق .

وجملة : " ليتنافس المتنافسون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن تمّ التنافس في الأشياء فليتنافس المتنافسون في ذلك . . وجملة الشرط المقدّرة اعتراضيّة لا محلّ لها .

وجملة : " مزاجه من تسنيم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ختامه مسك .

وجملة : " يشرب بها المقرّبون . . . " في محلّ نصب نعت لـ (عينا) .

الصرف :

(25) رحيق : اسم للخمرة الخالصة ، وزنه فعيل .

(1 ، 2 ، 3) أو في محلّ نصب حال من ضمير خبر إنّ ، والعامل فيها التوكيد . . ويجوز أن تكون استئنافا بيانيّا فلا محلّ لها .

(223/808)

(مختوم) ، اسم مفعول من الثلاثيّ ختم ، وزنه مفعول .

(26) ختامه : إمّا اسم للشيء الذي يختم به ، أو هو مصدر بمعنى الخلط والمزج أو بمعنى الختم بفتح الخاء وزنه فعال بكسر الفاء .

(مسك) ، اسم للرائحة الطّيبة وهو جامد ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(المتنافسون) ، جمع المتنافس ، اسم فاعل من الخماسيّ تنافس ، وزنه متفاعل بضمّ الميم وكسر العين .

(27) تسنيم : قيل هو علم لعين بعينها في الجنّة . وهو في الأصل مصدر قياسيّ للرباعيّ سنّم ، بمعنى رفع ، أو مستعمل على أنه مصدر مفسّر بـ (عينا) ، وزنه تفعيل .

[سورة المطففين (83) : الآيات 29 إلى 32]

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَإِذا

انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32)

الإعراب :

(من الذين) متعلّق بـ (يضحكون) ، (بهم) متعلّق بـ (مرّوا) ، (إلى أهلهم) متعلّق بـ (انقلبوا) ، (فكهين) حال منصوبة من فاعل انقلبوا (اللام) المزحلقة للتوكيد . .

جملة : "إنّ الذين أجرموا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أجرموا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كانوا . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "آمنوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : "يضحكون . . . "في محلّ نصب خبر كانوا . .

وجملة : "الشرط وفعله وجوابه . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة يضحكون " 1 "

.

وجملة : "مرّوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "يتغامزون . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "الشرط الثاني وفعله وجوابه . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة يضحكون " 2 " .

وجملة : "انقلبوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انقلبوا (الثانية) . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إذا رأوهم قالوا . . . " في محلّ نصب - أو رفع - معطوفة على جملة الشرط وفعله وجوابه السابقة .

وجملة : " رأوهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّ هؤلاء لضالّون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(224/808)

---

(31) فكهين : جمع فكه . . صفة مشبّهة من الثلاثيّ فكه باب فرح ، وزنه فعل بفتح فكسر .

[سورة المطففين (83) : آية 33]

وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33)

الإعراب :

(الواو) حاليّة (ما) نافيّة (عليهم) متعلّق بـ (حافظين) " 3 " ، (حافظين) حال منصوبة من

الواو في (أرسلوا) .

---

(1) أو على جملة خبر انّ : (كانوا . . .)

(2) أو في محلّ رفع معطوفة على جملة كانوا . . أو معطوفة على جملة الشرط وفعله وجوابه الأولى .

(3) الضمير في (عليهم) يعود على المؤمنين .

جملة : " ما أرسلوا . . . " في محلّ نصب حال من فاعل قالوا .

[سورة المطففين (83) : الآيات 34 إلى 36]

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (36)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اليوم) ظرف زمان متعلّق بـ (يضحكون) الآتي ، (من الكفار) متعلّق بـ (يضحكون) بعده ، (على الأرائك) متعلّق بحال من فاعل ينظرون " 1 " ، (هل) حرف استفهام (ما) حرف مصدريّ " 2 " . .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ نصب بنزع الخافض أي : ممّا كانوا . . .

جملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان الذين أجرموا يضحكون من الذين آمنوا في الدنيا فالذين آمنوا يضحكون اليوم من الكافرين .

وجملة : " يضحكون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " ينظرون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يضحكون .

وجملة : " ثوّب الكفّار . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 267. 278 ﴾

---

(1) وانظر الآية (23) من هذه السورة .

(2) أو اسم موصول في محلّ نصب بنزع الخافض . . والعائد محذوف . [. . . . .]

(3) أو هي في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام بتقدير حرف الجرّ . . وقيل هي في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : يقول المؤمنون لبعضهم : هل ثوّب الكفّار . . .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(83) سورة المطفّفين

مكيّة وآياتها ستّ وثلاثون

[سورة المطففين (83) : الآيات 1 إلى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (6) كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (8) كِتابٌ مَرْقُومٌ (9)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13)

اللغة :

(لِلْمُطَفِّفِينَ) التطفيف : البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس شيء طفيف حقير ، وطفف المكيال نقصه قليلا وقال الزجّاج : " وإنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف " .

(اكْتَالُوا) قال الفرّاء يقال اكتلت على الناس استوفيت منهم واكتلت منهم : أخذت ما عليهم فعلى بمعنى من .

(227/808)

(سِجِّينٍ) قال الزمخشري : " فإن قلت قد أخبر اللّه عن كتاب الفجار إنه في سجين وفسّر سجينا بكتاب مرقوم فكأنه قيل : إن كتابهم في كتاب مرقوم فما معناه ؟ قلت : سجين كتاب جامع هو ديوان الشر دوّن اللّه فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة أو معلّم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ، فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجّار مثبت في ذلك الديوان ، وسمي سجينا فعيلا من السجن وهو الحبس والتضييق لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم " إلى أن يقول : " فإن قلت : فما سجين أصفة هو أم اسم ؟ قلت بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف " .

وعبارة أبي حيان : " وسجين قال الجمهور فعيل من السجن كسكير أو في موضع ساجن فجاء بناء مبالغة في سجين على هذا صفة لموضع محذوف قال ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجينا "

ثم أورد ما قاله الزمخشري قال : " واختلفوا في سجين إذا كان مكانا اختلافا مضطربا حذفنا ذكره والظاهر أن سجينا هو كتاب ولذلك أبدل منه كتاب مرقوم وقال عكرمة : سجين عبارة عن الخسار والهوان كما تقول بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الجمود وقال بعض اللغويين سجين نونه بدل من لام وهو من السجل فتلخص من أقوالهم أن سجينا نونه أصلية أو بدل من لام وإذا كانت أصلية فاشتقاقه من السجن " .

وأورد صاحب القاموس في مادة سجن ما نصّه : " وكسكين الدائم الشديد موضع فيه كتاب الفجّار وواد في جهنم أعاذنا اللّه تعالى منها أو حجر في الأرض السابعة " .

(مَرْقُومٌ) مكتوب مسطور وأصل الرقم الكتابة ، ومنه قول الشاعر :

سأرقم في الماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم

الإعراب :

(228/808)

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) ويل مبتدأ وسوّغ الابتداء به كونه دعاء وللمطففين خبره ، ولو نصب لجاز وقيل : " والمختار في ويل وشبهه إذا كان غير مضاف الرفع ويجوز فيه النصب فإن كان مضافا أو معرّفا كان الاختيار فيه النصب نحو ويلكم لا تفترّوا " ، (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى

النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) الذين صفة للمطففين وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط وهو متعلق بالجواب المحذوف وتقديره قبضوا منهم وجملة اكتالوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وعلى الناس متعلقان باكتالوا وقيل متعلقان بيستوفون وإنما قدّم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية قال الزمخشري : " لما كان اكتيالهم اكتيالا يضرّهم ويتحامل فيه عليهم أبدل على مكان من للدلالة على ذلك ويجوز أن يتعلق بيستوفون وقدّم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية أي يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها " وقد جعل ابن هشام " على " بمعنى " من " موافقا بذلك الزمخشري .

وجملة يستوفون في موضع نصب على الحال من فاعل الجواب المحذوف أي قبضوا منهم مستوفين (وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متعلق بالجواب المحذوف وتقديره استوفوا

لها وجملة كالوهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وكالوهم فعل ماض وفاعل والهاء منصوب بنزع الخافض أي كالوا لهم الطعام وأو حرف عطف ووزنوهم عطف على كالوهم موازن له في إعرابه وعبارة الزمخشري " والضمير في كالوهم أو وزنوهم ضمير منصوب راجع إلى الناس وفيه وجهان : أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال :

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن نبات الأوبر

فجنى لا يتعدى إلا لواحد وللثاني باللام فالأصل جنيت لك فحذف الجار وأوصل الضمير أو ضمنه معنى انجتك فعدّاه لهما ، والأكمؤ جمع كمء كأفلس وهو واحد الكمأة وهي لنوع كبير من نبات يسمى شحمة الأرض سمي كمأة لاشتهاره بها والعساقل جمع عسقول كعصفور وكان حقه عساقيل فحذفت الياء للوزن وقيل أنه جمع عسقل وهو نوع صغير منها جيد أبيض ونبات أوبر نوع رديء منها أسود مزغب كأن عليه وبرا وقيل هو جنس يشبه القلقاس أو اللفت ونبات أوبر جمع ابن أوبر لأنه علم لما لا يعقل وأل فيه زائدة وقال المبرد : هو اسم جنس ، والبيت هو من باب التمثيل لحال من اغري على الطيب فعدل إلى الخبيث ثم رجع يتندم على عاقبته . ونعود إلى ما نحن بصدده فنقول ومن أمثلة المنصوب بنزع الخافض قولهم الحريص يصيدك لا الجواد والأصل يصيد لك وما قيل من أن هم ضمير رفع مؤكد للواو في كالوهم خطأ . وأو حرف عطف ووزنوهم معطوف على كالوهم ويقال في إعرابه ما قيل في كلوهم أي وزنوا لهم ، وعبارة أبي حيان : " وكال ووزن مما يتعدى بحرف الجر فتقول كلت لك ووزنت لك ويجوز حذف اللام كقولك نصحت لك ونصحتك

وشكرت لك وشكرتك والضمير ضمير نصب أي كالوا لهم ووزنوا لهم فحذف حرف الجر ووصل الفعل بنفسه

(230/808)

و المفعول محذوف وهو المكيل والموزون " وجملة يخسرون حال من الجواب المحذوف (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ولا نافية ويظن فعل مضارع مرفوع والظن هنا بمعنى اليقين أي ألا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن ، وأولئك فاعل والإشارة للمطففين وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي يظن وأن واسمها ومبعوثون خبرها وليوم متعلقان بمبعوثون أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف وإنما بني على الفتح لإضافته إلى الفعل وعظيم نعت ويوم بدل من ليوم تابع له على المحل ومحله النصب بمبعوثون المذكور أو بمقدّر مثله لأن البدل على نية تكرير العامل وجملة يقوم الناس في محل جر بإضافة الظرف إليها ولرب العالمين متعلقان بيقوم ، وعن ابن عمران قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين بكى نحيبا وامتنع من قراءة ما بعده ، وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال اللّه في المطففين أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به فما ظنك بنفسك

وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن (كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ كِتابٌ مَرْقُومٌ) كلا ردع وزجر لهم عن التطفيف والغفلة عن الحساب والبعث وإن واسمها واللام المزحلقة وفي سجين خبر إن وما اسم استفهام مبتدأ وجملة أدراك خبر وما اسم استفهام مبتدأ وسجين خبر والجملة الاسمية المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني وكتاب بدل من سجين أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو كتاب مرقوم ومرقوم صفة كتاب ، وإذا اعتبر سجين اسم موضع فالأرجح الخبرية أو تقدير مضاف من سجين ليندفع الاعتراض بأن سجينا اسم موضع فكيف يفسّر بكتاب مرقوم (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

(231/808)

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) ويل مبتدأ كما تقدم ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بويل وللمكذبين خبر والذين نعت للمكذبين وجملة يكذبون لا محل لها لأنها صلة الذين وبيوم الدين متعلقان بيكذبون (وَما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) الواو عاطفة أو حالية وما نافية ويكذب فعل مضارع مرفوع وبه متعلق بيكذب وإلا أداة حصر وكل معتد أثيم فاعل يكذب (إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بجوابه وهو قال وجملة تتلى في محل جر بإضافة الظرف إليها وعليه متعلقان بتتلى وآياتنا

نائب فاعل تتلى وجملة قال لا محل لها لأنها جواب إذا وأساطير الأولين خبر لمبتدأ محذوف أي هي . وتقدم أن الأساطير جمع أسطورة أو أساطرة بالكسر وهي الحكاية التي سطرت قديما .

البلاغة :

في قوله " الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون " مقابلة أتت على أحسن وجه وأنظمه أي إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه سواء باشروه أو لا ، فالضمير لا يدل على مباشرة ولا إشعار أيضا بذلك والذي يدلك على أن الضمير لا يعطي مباشرة الفعل إن لك أن تقول : الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوقة لست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم وإنما معناه أن فعل ذلك من جهتهم خاصة ، قيل كان أهل المدينة تجّارا يطففون وكانت بياعاتهم المنابزة والملامسة والمخاطرة فنزلت فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقرأها عليهم وقال : خمس بخمس قيل : يا رسول اللّه : وما خمس بخمس ؟ قال : ما نقض قوم العهد إلا سلّط اللّه عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ،

و لا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر . وقيل نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، أي يأخذ بواحد ويعطي بآخر .

[سورة المطففين (83) : الآيات 14 إلى 36]

كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18)

وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (19) كِتابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (23)

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (26) وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (32) وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ (33)

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

اللغة :

(رانَ) غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للسماء وفي المختار :

(233/808)

" الرين الطبع والدنس يقال ران ذنبه على قلبه من باب باع وريونا أيضا غلب وقال أبو عبيدة : كل ما غلبك فقد ران بك ورانك وران عليك ورين الرجل إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به " وعبارة الزمخشري : " ران على قلوبهم : ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها وهو أن يصرّ على الكبائر ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه فلا يقبل الخير ولا يميل إليه وعن الحسن : الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب ، يقال ران عليه الذنب وغان عليه رينا وغينا والذين الغيم ويقال ران فيه النوم رسخ فيه ورانت به الخمر ذهبت به " قلت : وران يائية وواوية وهي هنا يائية ، يقال : ران يرين رينا وريونا الشيء فلانا وعليه وبه : غلب عليه تقول : ران هواه على قلبه أي غلب عليه ورانت نفسه : خبثت وغشت وران الموت عليه وبه ذهب ورين به : وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا طاقة له به ومات ووقع

في غم وأران إرانة القوم هلكت ماشيتهم فهم مرينون والران حذاء كالخف إلا أنه أطول منه والرّينة : الخمر لغلبتها على العقل .

أما الواوية فيقال : ران يرون رونا من باب دخل الأمر : اشتد ورانت الليلة اشتد هولها أو غمّها والرّون بضم الراء المشددة الشدة والجمع رءون ورونة الشيء بالضم معظمه وشدته يقال كشف اللّه عنك رونة هذا الأمر أي شدّته وغمته والأرونان الصعب ويقال الأرونان والأروناني الشديد في كل شيء من حرّ وبرد وجلبة وصياح وحزن وفرح ومؤنثه أرونانة وأرونانية .

(234/808)

(عِلِّيُّونَ) قال الزمخشري : " وعليون علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين منقول من جمع عليّ فعيل من العلو كسجين من السجن سمي بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريما له وتعظيما " وعبارة أبي حيان : عليون جمع واحده عليّ مشتق من العلو وهو المبالغة قاله يونس وابن جنّي قال أبو الفتح وسبيله أن يقال عليّة كما قالوا للغرفة عليّة فلما حذفت التاء عوّضوا منها الجمع بالواو والنون وقيل هو وصف للملائكة

فلذلك جمع بالواو والنون ، وقال الفراء : هو اسم موضوع على صيغة الجمع ولا واحد له من لفظه كقوله عشرين وثلاثين والعرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالواو والنون ، وقال الزجّاج أعرب هذا الاسم كإعراب الجمع هذه قنسرون ورأيت قنسرين وقال ابن هشام في بحث ما ألحق بجمع المذكر السالم " والرابع ما سمي به من هذه الجمع وما ألحق به كعليون " أي فإنه ملحق بهذا الجمع ومسمى به أعلى الجنة ، وقال الراغب : قيل هو اسم أشرف الجنان كما أن سجين هو أشرف النيران وقيل بل ذلك في الحقيقة اسم سكانها وهذا أقرب إلى العربية إذا كان هذا الجمع يخصّ الناطقين والواحد عليّ ومعناه أن الأبرار في جملة هؤلاء .

الإعراب :

(كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) كلا حرف ردع وزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه ، وبل حرف عطف وإضراب وران فعل ماض مبني على الفتح وعلى قلوبهم متعلقان بران وما فاعل وجملة كانوا لا محل لها لأنها صلة وكان واسمها

وجملة يكسبون خبر كانوا (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) كلا حرف ردع وزجر أيضا عن الكسب الرائن على قلوبهم وإن واسمها وعن ربهم متعلقان بمحجوبون ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بمحجوبون أيضا ومحجوبون خبر إن والتنوين في إذ عوض عن جملة تقديرها يوم إذ يقوم الناس ، وسيأتي معنى قوله محجوبون في باب البلاغة (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ) ثم حرف عطف لتراخي الرتبة فإن صلي الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة ، وإن واسمها واللام المزحلقة وصالوا الجحيم خبر إن (ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) ثم حرف عطف للترتب والتراخي أيضا ويقال فعل مضارع مبني للمجهول ونائب لفاعل مستتر تقديره هو وهذا مبتدأ والذي خبره وجملة كنتم صلة وكان واسمها وبه متعلقان بتكذبون وجملة تكذبون خبر كنتم (كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ) كلا تأكيد للردع ووجوب الارتداع وإن واسمها واللام المزحلقة وفي عليين خبرها وعلامة جر عليين الياء نيابة عن الكسرة لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والواو حرف عطف وما اسم استفهام مبتدأ وجملة أدراك خبر وما اسم استفهام للتفخيم والتعظيم مبتدأ وعليون خبر وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجملة المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني (كِتابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) كتاب بدل من عليون أو خبر لمبتدأ محذوف وهو الأولى ومرقوم نعت لكتاب وجملة يشهده نعت ثان والهاء مفعول به والمقربون فاعل (إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرائِكِ

يَنْظُرُونَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في محاسن أحوالهم ، وإن واسمها واللام المزحلقة وفي نعيم خبرها وعلى الأرائك متعلقان بينظرون وجملة ينظرون حالية من الضمير المستكن

(236/808)

في خبر إن أو مستأنفة والمراد بالأرائك السرر في الحجال والحجال كما يقول الجوهري جمع حجلة بالتحريك واحده حجال

العروس وهو بيت يزّين بالثياب والأسرّة ، وقال الشهاب : الحجلة بفتحتين بيت مربع من الثياب الفاخرة يرخى على السرير يسمى في عرف الناس بالناموسية أي الكلة (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) كلام مستأنف مسوق لإيذان المخاطب بالالتفات إليهم والتأمل في آثار النعيم على وجوههم وقرىء بالبناء للمجهول فتكون نضرة النعيم نائب فاعل وفي وجوههم متعلقان بتعرف ونضرة النعيم مفعول به (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ) يسقون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومن رحيق متعلقان بيسقون ومختوم نعت ، أي خمر خالصة من كل شائبة أو غش ، وختامه مسك مبتدأ وخبر والجملة نعت ثان لرحيق والظاهر أن الرحيق ختم عليه لتوفير

النظافة والرائحة المسكية كما فسّره بعد ، وفي الصحاح : " الختام الطين الذي يختم به وكذا قال مجاهد وابن زيد ختم إناؤه بالمسك بدل الطين قال :

كأن مشعشعا من خمر بصرى نمته البحت مشدود الختام "

(237/808)

و الواو حرف عطف وفي ذلك متعلقان بقوله فليتنافس والفاء عاطفة لزيادة الاهتمام واللام لام الأمر ويتنافس فعل مضارع مجزوم باللام والمتنافسون فاعل ، وفي المختار : " ونفس الشيء من باب ظرف صار مرغوبا فيه ونافس في الشيء منافسة ونفاسا بالكسر إذا رغب فيه على وجه المباراة في الكرم وتنافسوا فيه أي رغبوا " (وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) الواو عاطفة ومزاجه مبتدأ ومن تسنيم خبر وهو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه لأنها تأتيهم من فوق على ما روي أنها تجري في الهواء فيشربونها صرفا للمقربين وممزوجة لسائر أهل الجنة وقيل سميت بالتسنيم لأنها أرفع شراب في الجنة ، وعينا منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره أمدح ، وقال الزجّاج : نصب على الحال من تسنيم بوصفها علما ، قال أبو البقاء :

" وقيل تسنيم مصدر وهو الناصب عينا " وقال الأخفش يسقون عينا .

وجملة يشرب نعت عينا وبها متعلقان بيشرب أي منها على أن التضمين في الحرف أو يكون التضمين بالفعل أي يلتذ بها ، والمقربون فاعل يشرب (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ) كلام مستأنف مسوق لتسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم بما أعدّ للأبرار في الجنة .

وإن واسمها وجملة أجرموا لا محل لها لأنها صلة الذين وجملة كانوا خبر إن وكان واسمها ومن الذين متعلقان بيضحكون وجملة يضحكون خبر كانوا فقد كان مشركو مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم يضحكون من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزئون بهم وقيل جاء علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في نفر من المؤمنين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه (وَإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ)

الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بيتغامزون وجملة مروا بهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة يتغامزون لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وإذا ظرف مستقبل أيضا وجملة انقلبوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وإلى أهلهم متعلقان

بانقلبوا وجملة انقلبوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وفكهين حال أي معجبين وقرىء فاكهين أي فرحين ناعمين (وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ) الواو عاطفة أيضا وإذا ظرف مستقبل وجملة رأوهم في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة قالوا لا محل لها والضمير المرفوع عائد على المؤمنين والمنصوب على المجرمين أي إذا رأى المؤمنون المجرمين ينسبونهم إلى الضلال ويجوز العكس ، وإن واسمها وخبرها والجملة مقول قولهم (وَما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ) الواو حالية والجملة حال من الواو في قالوا

(239/808)

و ما نافية وأرسلوا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل وعليهم متعلقان بحافظين وحافظين حال (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ) الفاء عاطفة للتفريع واليوم ظرف متعلق بيضحكون والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة ومن الكفّار متعلقان بيضحكون أيضا وجملة يضحكون خبر الذين وعلى الأرائك متعلقان بينظرون وجملة ينظرون حالية من الضمير في يضحكون أي يضحكون حال كونهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من التردّي والهوان (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ) الجملة مقول قول محذوف أي يقولون هل ثوب وأجازوا أن تكون الجملة معلقة بالاستفهام في محل نصب بنزع الخافض

وثوب فعل ماض مبني للمجهول والكفار نائب فاعل وثوب هنا بمعنى الجزاء أي هل أثيبوا أو هو من ثاب بمعنى رجع لأن الثواب هو ما يرجع على الإنسان في مقابل عمله وما في موضع نصب مفعول به ثان وجملة كانوا صلة ما وجملة يفعلون خبر كانوا قال أوس :

سأجزيك أو يجزيك عنّي مثوب وحسبك أن يثني عليك وتحمدي

البلاغة :

في قوله "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم لأنه لا يؤذن على ذوي العلية والمراتب السامية إلا للمقربين المكرمين لديهم ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء الموسومون بالمهانة والقماءة والصغار ، وقد رمق أبو تمام سماء هذا المعنى فقال مبررا احتجاب المعتصم عن الرعية :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 406.418 ﴾

(240/808)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الانشقاق)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الانشقاق)

(5/809)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الانشقاق

مقصودها الدلالة على آخر المطففين من أن الأولياء ينعمون والأعداء يعذبون ، لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث ولا بالعرض على الملك الذي أوجدهم ورباهم كما يعرض الملوك عبيدهم ويحكمون بينهم فينقسمون إلى أهل ثواب وأهل عقاب واسمها الانشقاق أدل دليل على ذلك بتأمل الظرف وجوابه الدلال على الناقد البصير وحسابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 367 ﴾

(6/809)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا السماء انشقت)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها ثلاث وعشرون عند الشّامى والبصرىّ ، وخمس عند الباقين .

وكلماتها مائة وسبع .

وحروفها أَربعمائة وثلاث وثلاثون .

والمختلف فيها اثنان ﴿ بِيَمِيْنِهِ ﴾ ﴿ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ .

فواصل آياتها (قهرتمان) على الرّاءِ ﴿ يَحُوْر ﴾ وعلى الميم ﴿ أَلِيْم ﴾ .

وتسمّى سورة (انشقت) وسورة الانشقاق ؛ لافتتاحها .

مقصود السّورة : بيانُ حال الأَرض والسّماءِ فى طاعة الخالِق – تعالى – وإِخراج الأَموات للبعث ، والاشتغال بالبرّ والإِحسان ، وبيان سهولة الحساب للمطيعين ، والإِخبار عن فَرَحهم وسرورهم بنعيم الجنان ، وبكاء العاصين والكافرين ، وويلهم بالثبوت فى دَرَكات النيران ، والقَسَم بتشقُّق القمر ، واطّلاع الحقّ على الإِسرار والإِعلان ، وجزاء المطيعين من غير امتنان ، فى قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

السّورة محكمة بتمامها .

متشابه سورة انشقت

قوله : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ مرتين ، لأَن الأَول متصل بالسماءِ ، والثانى متصل بالأَرض .

ومعنى أَذِنت : سميت وانقادت ، وحق لها أَن تسمع وتطيع ، وإِذا اتصل واحد بغير ما اتصل به الآخر لا يكون تكرارا .

قوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ وفى البروج ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ راعى فواصل الآى ، مع صحة اللفظ وجودة المعنى .

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث المتروكة حديث أُبىّ : مَن قرأَها أَعاذه الله أَن يعطيه كتابه وراءَ ظهره ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها كَتَب الله له بعدد أَوراق الأَشجار ، ونبات الأَرض حسنات ، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثُوابِ أَولياءِ الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 508 . 509 ﴾

(7/809)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة إذا السماء انشقت (2)

467 - مسألة :

قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) وفى

الحاقة : (بشماله) تقدم جوابه في سورة الحاقة .

468 - مسألة :

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

وفى سورة التين : (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) بالفاء ؟ .

جوابه :

أن الاستثناء في سورة التين متصل ، فتم الكلام به . والاستثناء في "انشقت" : منقطع بمعنى "لكن " فلم يتم

الكلام به ، لأن المراد "بأسفل سافلين " هرمه وضعفه وضعف حواسه وعدم قدرته على الأعمال فصار تقديره : لكن من كان يعمل صالحا فإنا لا نقطع ثوابهم وأجورهم بسبب ضعفهم كما ورد في الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 375.376 ﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الانشقاق

سميت في زمن الصحابة : (سورة إذا السماء انشقت) . ففي (الموطأ) عن أبي سلمة : (أن أبا هريرة قرأ بهم إذا السماء انشقت فسجد فيها فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سجد فيها) . فضمير (فيها) عائد إلى) إذا السماء انشقت ((الانشقاق : 1) بتأويل السورة ، وبذلك عنونها البخاري والترمذي وكذلك سماها في (الإتقان) .

وسماها المفسرون وكتَّاب المصاحف (سورة الانشقاق) باعتبار المعنى كما سميت السورة السابقة (سورة التطفيف) و (سورة انشقت) اختصاراً .

وذكرها الجعبري في (نظمه) في تعداد المكي والمدني بلفظ (كَدْح) فيحتمل أنه عنى أنه اسم للسورة ولم أقف على ذلك لغيره .

ولم يذكرها في (الإِتقان) مع السور ذوات أكثر من اسم .

وهي مكية بالاتفاق .

وقد عدت الثالثة والثمانين في تعداد نزول السور نزلت بعد سورة الانفطار وقبل سورة الروم

.

وعدّ آيها خمساً وعشرين أهل العدد بالمدينة ومَكة والكوفة وعدّها أهلُ البصرة والشام ثلاثاً وعشرين .

أغراضها

ابتدئت بوصف أشراط الساعة وحلول يوم البعث واختلاف أحوال الخلق يومئذ بين أهل نعيم وأهل شقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 217 ﴾

(9/809)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الإنشقاق

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكوير , ثم في سورة الانفطار . ومن قبل في سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض , في طواعية وخشوع ويسر :(إذا السماء انشقت , وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت , وألقت ما فيها وتخلت , وأذنت لربها وحقت) . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب "الإنسان" , وإلقاء الخشوع في قلبه لربه . وتذكيره بأمره ; وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده . حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (8) وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9)

(10/809)

السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا , وينقلب إلى أهله مسرورا , وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا , ويصلى سعيرا . إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا) . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة , مما يقع تحت حس "الإنسان" لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير , مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة , لا مفر لهم من ركوبها ومعاناتها : (فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق ; لتركبن طبقا عن طبق) . .

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيبا من حال الناس الذين لا يؤمنون ; وهذه هي حقيقة أمرهم , كما عرضت في المقطعين السابقين . وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء في مطلع السورة: (فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ?) . . ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم: (بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3864 . 3865﴾

(11/809)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الانشقاق

مكية وآياتها خمس وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة الانشقاق مكية ، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة ، كشأن سائر السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة ، وصورت الإنقلاب الذي يحدث

في الكون عند قيام الساعة [إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت

* ثم تحدثت عن مصير الإنسان ، الذي يكد ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه ، ليقدم لآخرته ما يشتهي من صالح أو طالح ، ومن خير أو شر ، ثم هناك الجزاء العادل [يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا] الآيات

* ثم تناولت موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ويركبون الأخطار والأهوال ، في ذلك اليوم الرهيب العصيب ، الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد [فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق] الآيات

* وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله ، مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم [فما لهم لا يؤمنون ، وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون ، والله أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب أليم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 536 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الانشقاق

انشقت : أي تشقّقت بالغمام كما جاء فى قوله : " وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ " وأذنت لربها : أي استمعت له كما قال :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بشرّ عندهم أذنوا

وحقّت : أي وحق لها أن تمتثل ذلك أي يجدر بها أن تكون كذلك ، قال كثير :

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا وحقّت لها العتبى لدينا وقلّت

مدت : أي بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وألقت ما فيها : أي ألقت ما فى جوفها من الموتى والكنوز ، وتخلت : أي خلت مما فيها فلم يبق فيها شىء ، كادح : أي جاهد مجدّ . قال شاعرهم :

ومضت بشاشة كلّ عيش وبقيت أكدح للحياة وأنصب

فملاقيه : أي فملاق له عقب ذلك ، ينقلب : أي يرجع ، أهله : أي عشيرته المؤمنين ، وراء ظهره : أي بؤتاه بشماله من وراء ظهره ، والثبور : الهلاك أي ينادى ويقول : وا ثبوراه أقبل فهذا أوانك ، ويصلى : أي يقاسى ، وسعيرا : أي نارا مستعرة ، مسرورا : أي فرحا ،

يحور : أي يرجع قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

والمراد أنه لن يرجع إلى اللّه ، بلى : أي بلى يحور ويرجع .

الشفق : هو الحمرة التي تشاهد فى الأفق الغربي بعد الغروب ، وأصله رقة الشيء ، يقال

ثوب شفق : أي لا يتماسك لرقته ، ومنه أشفق عليه : أي رق له قلبه قال :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزّال على الحرم

وسق : أي ضم وجمع ، يقال وسقه فاتسق واستوسق : أي جمعه فاجتمع ، وإبل

مستوسقة : أي مجتمعة قال :

إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لم يجدن سائقا

واتسق أي اجتمع نوره وصار بدرا ، لتركبنّ : أي لتلاقنّ ، والطبق : الحال المطابقة لغيرها ،

قال الأقرع بن حابس :

إنى امرؤ حلبت الدهر أشطره وساقنى طبق منه إلى طبق

(13/809)

والمراد لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت وما بعده ، لا يسجدون : أي لا يخضعون ولا يستكينون ، يوعون : أي يجمعون فى صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغي ، والبشارة : الإخبار بما يسر ، واستعملت فى العذاب تهكما ، وممنون : أي مقطوع من قولهم منّ فلان الحبل إذا قطعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 87.94 ﴾ . باختصار .

(14/809)

وقال الفراء :

سورة (الانشقاق)

﴿ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ . . . ﴾ .

تشقق بالغمام .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

وقوله عز وجل: [/ب] ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . . . ﴾ .

سمعت وحق لها ذلك . وقال بعض المفسرين: جواب ﴿ إِذا السّماء انشقت ﴾ قوله:

﴿ وأذنت ﴾ ونرى أنه رأى ارتآه المفسر ، وشبهه بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ لأنا لم نسمع جواباً بالواو فى "إذ" مبتدأة ، ولا قبلها كلام ، ولا فى "إذا" إذا ابتدئت ، وإنما تجيب العرب بالواو فى قوله: حتى إذا كان ، و "فلما أن كان" لم يجاوزوا ذلك .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، واقْتَرَبَ ﴾ بالواو ، ومعناه: اقترب . والله أعلم . وقد فسرناه فى غير هذا الموضع .

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾

وقوله عز وَجل: ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ . . . ﴾ .

بسطت ومُدّدت كما يمدّد الأديم العكاظى والجواب فى: ﴿ إذا السماءُ انشقَّت ﴾ ، وفى ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ كالمتروك ؛ لأنَّ المعنى معروف قد تردّد فى القرآن معناه فعرف . وإن شئت كان جوابه: يأيها الإنسان . كقول القائل: إذا كان كذا وكذا فيأيها الناس ترون ما عملتم من خير أو شر . تجعل يأيها الإنسان هو الجواب ، وتضمر فيه الفاء ، وقد فسِّر جواب: إذا السماء ـ فيما يلقى الإنسان من ثواب وَعقاب ـ وكأن المعنى: ترى الثواب والعقاب إذا انشقت السماء .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ . . . ﴾ .

يقال: إن أيمانهم تُغل إلى أعناقهم، وتكون شمائلهم وراءَ ظهورهم.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً . . . ﴾.

(15/809)

الثبور أن يقول: واثبوراه، واويلاه، والعرب تقول: فلان يدعو لَهَفه إذا قال: والهَفَاه.

﴿ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾

وقوله: ﴿ وَيَصْلَى سَعِيراً . . . ﴾.

قرأ الأعمش وعاصم: "وَيَصْلَى"، وقرأ الحسن والسلمى وبعض أهل المدينة: "وَيُصَلَّى"

وقوله: ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾.

يشهد للتشديد لمن قرأ "وَيُصَلَّى"، و "يَصْلى" أيضاً جائز لقول الله عز وجل:

﴿ يَصْلَوْنَها ﴾، و ﴿ يَصْلاَها ﴾. وكل صواب واسع [/1].

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ . . . بَلَى . . . ﴾.

أن لن يعود إلينا إلى الآخرة. بلى ليحورَنَّ، ثم استأنف فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ

بَصِيراً . . . ﴾ .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ . . . ﴾ .

والشفق: الحمرة التى فى المغرب من الشمس [حدثنا أبو العباس قال:] حدثنا محمد قال: حدثنا الفراءُ قال: حدثنى ابن أبى يحيى عن حسين بن عبد الله بن ضُمَيرة عن أبيه عن جده رفعه قال: الشفق: الحمرة. قال الفراء: وكان بعض الفقهاء يقول: الشفق: البياض لأنّ الحمرة تذهب إذا أظلمت، وإنما الشفق: البياض الذى إذا ذهب صُلِّيت العشاء الآخرة، والله أعلم بصواب ذلك. وسمعْتُ بعض العرب يقول: عليه ثوبٌ مصبوغ كأنه الشفق، وكان أحمر، فهذا شاهد للحمرة.

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . . . ﴾: وما جمع.

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ . . . ﴾ .

اتساقه: امتلاؤه ثلاث عشرة إلى ست عشرة فيهن اتساقه.

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال:] حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس بن الربيع عن أبى إسحاق: أن مسروقا قرأ: "لتركَبنَّ يا محمد حالاً بعد حال" وذُكر عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ "لَتركَبنّ" وفسر "لتركَبن" السماء حالاً بعد حال.

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال:] ، حدثنا الفراء قال: وحدثنى سفيان بن عيينة عن عمرو عن ابن عباس أنه قرأ "لتركَبنَّ" وفسر: لَتصِيرَن الأمورُ حالا بعد حال للشدة. والعرب تقول: وقع فى بناتِ طبق، إذا وقع فى الأمر الشديد، فقد قرأ هؤلاء: "لتركَبن" واختلفوا فى التفسير. وقرأ أهل المدينة وكثير من الناس: "لتركُبن طَبَقاً" يعنى: الناس عامة! وَالتفسير: الشدة وقال بعضهم فى الأول: لتركَبن أنت يا محمد سماءً بعد سماء، وَقرئت: "لَيَرْكَبُنَّ طبَقاً عنْ طَبَقٍ" وَمعانيهما معروفة، "لتركُبنَّ"، كأنه خاطبهم، "وَلَيَرْكَبُنَّ" أخبر عنهم.

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ بِمَا يُوعُونَ . . . ﴾ .

الإيعاء: ما يجمعون فى صدورهم من التكذيب والإثم. والوعى لو قيل: وَالله أعلم بما

يوعون [/ب] لكَان صوابا ، ولكنه لا يستقيم فى القراءَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 252.249 ﴾

(17/809)

وقال الأخفش :

سورة (الانشقاق)

وقال الأخفش :

ومن سورة (الانشقاق)

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

قال ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي: وَحُقَّ لَها .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾

[وقال] ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ تقول: "أَوْعيتُ [184] في قلبي كذا وكذا" كما تقول "أَوْعَيْتُ الزادَ في الوعاء" وتقول "وَعَتْ أُذُنِي" وقال ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾

وأما ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ فعلى معنى ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً

فَمُلاَقِيهِ ﴾ [6] ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴾ على التقديم والتأخير. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ معاني القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 574 ﴾

(18/809)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الانشقاق

«1»

2 - قوله : وَأَذِنَتْ لِرَبِّها : استمعت ، وَحُقَّتْ أي حقّ لها .

6 - إِنَّكَ كادِحٌ ، أي عامل ناصب في معيشتك ، إلى لقاء ربِّكَ .

11 - فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً أي بالثبور ، وهو : الهلكة .

14 - إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ أي لن يرجع ويبعث .

16 - بِالشَّفَقِ : الحمرة [التي ترى] بعد مغيب الشمس .

17 - وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ أي جمع وحمل . ومنه : «الوسق» ، وهو : الحمل .

18 - وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أي امتلأ في الليالي البيض .

19 - لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ أي حالا بعد حال «2» . قال الشاعر :

---

(1) هي مكية . وتسمى سورة إذا السماء انشقت .

(2) قال الطبري ، لتلاقون إيها الناس من شدائد يوم القيامة وأهواله حالا بعد حال وأمرا بعد أمر .

قال ابن عباس : لتركبن طبقا عن طبق حالا بعد حال قال هذا نبيكم صلّى اللّه عليه وسلم . أخرجه البخاري .

(19/809)

كذلك المرء : إن ينسأ له أجل يركب على طبق من بعده طبق

23 - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ أي يجمعون في صدورهم وقلوبهم يقال : أوعيت المتاع ، [إذا جعلته في الوعاء] .

25 - غَيْرُ مَمْنُونٍ أي غير مقطوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 446 . 447 ﴾

(20/809)

وقال الغزنوى:

[سورة الانشقاق]

2 أَذِنَتْ: سمعت وأطاعت، وَحُقَّتْ: حقّ لها السّمع والطاعة «1».

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 249، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 521، وتفسير الطبري: 30/ 113، ومعاني القرآن للزجاج: 5/ 303.

(21/809)

3 مُدَّتْ: بسطت وسوّيت باندكاك الجبال «1».

6 كادِحٌ: ساع دؤوب «2».

17 وَسَقَ: جمع «3».

18 اتَّسَقَ: استوى «4».

19 طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ: حالا عن حال «5». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 870. 871﴾

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 250 ، وتفسير الطبري : 30/ 113 ، وتفسير القرطبي : 19/ 270 .

(2) معاني القرآن للزجاج : 5/ 304 ، والمفردات للراغب : 426 ، واللسان : 2/ 569 (كدح) .

(3) معاني القرآن للفراء : 3/ 251 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 521 ، وتفسير الطبري :

30/ 119 ، وتفسير القرطبي : 19/ 276 .

(4) ينظر تفسير الطبري : (30/ 121 ، 122) ، ومعاني الزجاج : 5/ 305 ، وتفسير القرطبي :

19/ 278 .

(5) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 251 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 521 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (30/ 122 ، 123) عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الانشقاق

عدد 33 - 83 و84

نزلت بمكة بعد سورة الانفطار ، وهي خمس وعشرون آية ، ومئة وسبع كلمات ، وأربعمائة وثلاثون حرفا ، وتسمى سورة انشقت .

لا يوجد مثلها في عدد الآي ، ولا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قال تعالى : "إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ 1 وَأَذِنَتْ" سمعت وأجابت وأذعنت وخضعت "لِرَبِّها" في ذلك الانشقاق ، وهو مثل انفطرت في السورة المارة من حيث المعنى .

وأعلم أن انشقاق السماء وإن ثبت في هذه الآية نصا إلا أن موضعه وكيفيته غير معلومة على القطع ، وقد عثرنا على ما أخرج ابن أبي حاتم عن علي كرم اللّه وجهه أنها تنشق من المجرّة ، وقد جاء بالآثار أن المجرة باب السماء ، وقال بعضهم إنها وسط السماء ، وقال أهل الهيئة إنها نجوم صغار متقاربة بعضها من بعض ، وقولهم هذا لا ينافي كونها باب السماء ووسطه ، وان مصعد الملائكة ومهبطهم منها واللّه أعلم .

وما قيل إن النبي صلّى اللّه عليه وسلم حين أرسل معاذا إلى اليمن وقال له إنهم سائلوك عن المجرة فقل لهم إنها لعاب حية تحت العرش لا يصح ، وليس هو من متعلقات الدين حتى

يوصيه به .

وأذن بمعنى سمع وارد في كلام العرب ، قال قغيد :

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا وما هم أذنوا من صالح دفنوا

وقال الآخر :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

أي سمعوا وصاروا كلهم آذانا وسماعها انقيادها لأمر اللّه بما يراد منها .

(23/809)

"وَحُقَّتْ" 2 أي وحق لها إطاعة ربها ، وليس لها أن تأباه أو تمتنع عنه لأنها مخلوقة له ، ولا على المخلوق إلا إطاعة خالقه "وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ" 3 بسطت وسوّيت باندكاك جبالها وبنائها في أوديتها وبحورها "وَأَلْقَتْ ما فِيها" من الأموات المكفوتين بها "وَتَخَلَّتْ" 4 عن كل ما فيها "وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ" 5 وحق لها أن تنقاد لأمره في ذلك كله لأنه هو الذي صنعها وأودع مكوناته فيها .

أخرج أبو القاسم الجيلي في الديباج عن ابن عمر رضي اللّه عنهما أنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنا أول من تنشق عنه الأرض ، فأجلس جالسا في قبري ، وان

الأرض تحرك بي ، فقلت لها مالك ؟ فقالت إن ربي أمرني أن ألقي ما في جوفي وأن أتخلى فأكون كما كنت ، إذ لا شيء فيّ وذلك قوله تعالى (وَأَلْقَتْ) الآية .

ولا تكرار هنا لأن الآية الأولى لما يتعلق بالسماء ، وهذه

بالأرض ، وتكرير إذا لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة ، وجواب إذا محذوف

تقديره وقع من الهول ما تقصر عنه عبارة الفقهاء الفصحاء ويكل عنه لسان العلماء

البلغاء .

(24/809)

قال تعالى "يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ" المراد به الجنس فيدخل فيه كل إنسان "إِنَّكَ كادِحٌ" جاهد وساع مدافع في عملك وسائر فيه "إِلى رَبِّكَ كَدْحاً" عظيما ، الكدح عمل الإنسان جهده في الخير والشر وهو مفعول لكادح "فَمُلاقِيهِ" 6 أي مواجه ربك يوم الجزاء فتقف أمامه فيجازيك على عملك الخير بأحسن منه والشر بمثله "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ" 7 في ذلك اليوم الذي وعدكم به الرسل "فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً" 8 وينال الثواب المترتب عليه "وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ" المعدين له في الجنة من أهل الجنة ومن المؤمنين المتصلين به أهل الدنيا "مَسْرُوراً" 9 بما أوتي من الخير والكرامة وهذا الكتاب الذي يأخذه يفرح به ،

راجع الآية 19 فما بعدها من سورة الحاقة ، وحق له أن يسر لأنها مؤديه إلى جنة ربه ورضاه ، فمن ينجح بأعلى شهادة بالدنيا عبارة عن أنها تخوله مزاولة الطب والمحاماة أو الهندسة والزراعة أو السياسة أو القضاء من مناصب الدنيا الفانية وفي نهايتها التعب والعناء ، تراه يطير فرحا ، فكيف بمن يفوز بالدار الباقية وما فيها من حور وولدان وما كل ومشارب وملابس وسرور لا يفنى ، وشتان بين المسرورين كما بين الدنيا والآخرة "وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ" 10 إهانة له وكراهية لرؤيته وبعضا لإمساكه

(25/809)

"فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً" 11 يصيح يا ويلاه يا هلاكاه ، وهذا أشد حسرة وأكثر تأثرا وأعظم حزنا ممن يسقط في آخر دورة من أدوار تعليمه إذ يرجى له أن يمهل ليكمل أو يؤذن له بما دون ذلك ، وأما هذا فيلاقي العذاب الأليم ويخلد في الجحيم ولا يجاب دعاؤه ولا يسمع نداؤه "وَيَصْلَى سَعِيراً" 12 نارا تأجج يحرق فيها لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة طيبة "إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ" بدار الدنيا "مَسْرُوراً" 13 باتباع هواه وركوب شهوته والعكوف على ملاذه "إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ" 14 يرجع إلى ربه ولن يحيى بعد موته وليس كما ظن "بَلَى " إنه يعود إلى ربه ويبعث من قبره ويحاسب على فعله "إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً" 15 من يوم خلقه إلى يوم

حشره إلى

ما بعد ذلك ، والبصير لا يخفى عليه شيء ، وهو مبالغة من باصر ، وهو من يدرك الأمور المحسوسة والمعقولة ببصره وبصيرته ، ولما كان اللّه تعالى عالما بأحواله كلها فلا يجوز في حكمته إهماله ، بل لا بد من إثابته على صالح عمله ومعاقبته على سيئه .

روى البخاري ومسلم عن عائشة كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وان النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال من حوسب عذّب ، قالت فقلت أو ليس يقول اللّه عز وجل (يُحاسَبُ حِسابا يَسِيراً) قالت فقال ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب عذّب .

قال تعالى "فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ" 16 الحمرة التي تبقى بالأفق بعد غروب الشمس وتظهر قبل طلوعها بعد البياض "وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ" 17 جمع وضمّ ما كان منتشرا في النهار من الناس والدواب والهوام والحيتان والطير ، لأن ما كان طوره الانتشار في النهار ، قد يجتمع في الليل ، وبالعكس فإن ما كان منضما بالنهار قد ينتشر بالليل ، ويقال طعام موسوق أي مجموع ومستوسقة مجتمعة ، قال الشاعر :

إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لم يجدن سائقا

ويأتي وسق بمعنى عمل أي وما عمل فيه وعليه قوله :

فيوما ترانا صالحين وتارة تقوم بنا كالواسق المتلبّب

وما جاء بأن يحور بمعنى يرجع قوله :

وما المرء إلا كالشهاب ووضوءه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

والشفق مأخوذ من الرقة يقال شيء شفق أي لا يتماسك لوقته ، ومنه أشفق عليه خاف عليه ورق له ، والشفقة من الإشفاق والشفق ، قال الشاعر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم

والوسق في العرف ستون صاعا أو حمل بعير ، وهذا مما يدل على أن الصاع المستعمل الآن في بعض البلاد غيره قبلا ، لأن ستين منه الآن لا يحملها جملان ، راجع الآية 141 من سورة الأنعام المارة تعلم تفصيل هذا ، ويأتي وسق بمعنى طرد أي وما أطرده إلى أماكنه من الدواب وغيرها ، ومن ضوء النهار ، ومنه الوسيقة قال في القاموس وهي من الإبل كالرفقة من الناس ، فإذا سرقت طردت معا ،

ولا حاجة هنا لتقدير لفظ (رب) أي أقسم برب الشفق كما قاله بعض المفسرين ، لأن اللّه تعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه جمادا كان أو ناميا ، وحكم لا في هذا القسم حكمها في (لا أقسم بيوم القيامة) المارة في ج 1 فراجعها .

قال تعالى "وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ" 18 ثمّ نوره وجمع وكملت استدارته فصار بدرا "لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ" 19 أي لتداولنّ أيها الناس في حياتكم ومماتكم حالا بعد حال مماثلة ومطابقة وموافقة لأختها في الشدة والهول ، قال الأعرج بن جابس :

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره وساقني طبق منه إلى طبق

وقد تأتي عن التي معناها المجاوزة بمعنى بعد كما في قولهم : سادرك كابرا عن كابر ، أي بعد كابر ، وعليه قوله :

ما زلت أقطع منها منهلا عن منهل حتى أنخت بباب عبد الواحد

(27/809)

لأن المجاوزة والبعد متقاربان ، واللام في لتركبن واقعة في جواب القسم ، وجاء لفظ الطبق بمعنى عشرين عاما أخرج نعيم بن حماد وأبو نعيم عن مكحول أنه قال في الآية تكونون في كل عشرين سنة على حال لم تكونوا على مثلها ، أي قبلها .

وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في كل عشرين عاما تحدثون أمرا لم تكونوا عليه ، وعلى هذا المعنى ما جاء في القاموس من جملة معاني الطبق ، ويأتي بمعنى القرآن ، قال العباس بن عبد المطلب يمدح حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاء بنورك الأفق

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق

وعليه يكون المعنى لتركبن سنن من قبلكم قرنا بعد قرن ، إلا أن هذين المعنيين الآخرين خلاف الظاهر ، والمعول على الأول ، وهو ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : لتتبعنّ سنن الذين من قبلكم وأحوالهم شبرا بعد شبر وذراعا بعد ذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم .

قلنا يا رسول اللّه اليهود والنصارى ؟

قال فمن ؟ أي فمن دونهم أو من قبلهم أو هم أنفسهم ، وهو حديث صحيح ولكن لا يراد أنه جاء مفسرا لهذه الآية ، تدبر ومن خصّ هذا الخطاب لسيد المخاطبين

فقط من المفسرين أراد لتركبن سماء بعد سماء إذ يطلق على السماء طبق أيضا ، لكون الواحدة فوق الأخرى ، قال تعالى (سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً) الآية 3 من سورة الملك المارة ، وقد أوله بما يشير إلى المعراج ، على أن المعراج وقع قبل هذا بأكثر من سنتين ، وذكرنا آنفا بما يشعر إلى التعميم ، وهو المناسب بسياق التنزيل وسباق الآي .

قال تعالى "فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ" 20 بك يا سيد الرسل أي شيء جرى لهم ، وما منع هؤلاء الكفرة عن الإيمان بك وقد آتيناهم من دواعيه ما يسمعون ويبصرون ويعون إن كان لهم سمع وبصر وعقل ينتفعون بها ، وما آتيناهم هذه الجوارح والحواس إلا ليستدلوا بها على وحدانيتنا ويصدقوا رسلنا

"وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ" الذي أنزلناه عليك لصلاحهم ورشدهم ، فما بالهم "لا يَسْجُدُونَ" 21 لنا ولا يخضعون لقدرتنا ولا يخشون هيبتنا ؟ ثم انتقل من عدم سجودهم إلى تكذيبهم فقال "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ" 22 بك وبكتابك "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ" 23 في صدورهم ويجمعون فيها من التكذيب والبغض لك والحقد عليك ، والإيعاء هو جعل الشيء في وعاء وعليه قوله :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وأريد به هنا الإضمار وهو ما يضمرونه لحضرة الرسول من العداء .

وما قيل إن المراد بهم المنافقون لا يصح وإنما هم قريش الذين كانوا يحيكون لحضرة الرسول المكايد ، والسورة هذه كلها مكية إجماعا ، ومكة لا يوجد فيها منافقون إذ ذاك ، لأن النفاق وقع بعد الهجرة في المدينة ، حتى ان لفظته لم تعرف إذ ذاك .

قال تعالى تهكما بهم "فَبَشِّرْهُمْ" يا سيد الرسل على سبيل التبكيت والتقريع "بِعَذابٍ أَلِيمٍ"

24 لا تطيقه قواهم ويظهر على بشرتهم سوءه "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" هذا استثناء منقطع من ضمير بشرهم المنصوب ، فتكون البشارة في ذلك العذاب الفظيع خاصة بالمكذبين ، أما المؤمنون العاملون صالحا ف "لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ" 25 منقوص ولا مقطوع .

وهذه الجملة تدحض قول من قال إن الاستثناء متصل على أن يراد بالمستثنى من آمن وعمل صالحا من آمن وعمل بعد منهم أي أولئك الكفرة ، لأن الأجر المذكور لا يخص المؤمنين منهم

(29/809)

بل المؤمنين عامة ، والسجدة في هذه السورة من عزائم السجود ، ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بمثل هذه اللفظة ، روى البخاري ومسلم عن رافع قال :

صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد ، فقلت ما هذه ؟

قال سجدت بها خلف أبي القاسم صلّى اللّه عليه وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه .

ولمسلم عنه قال : سجدنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في (اقرأ باسم ربك) و(إذا السماء انشقت) وهذه السجدة آخر السجدات الواردة في القسم المكي وهي اثنتا عشرة

سجدة وبقي في القسم المدني سجدة الرعد والحج فقط تتمة الأربع عشرة سجدة ، ومن قال بالسجدة آخر الحج أبلغها خمس عشرة .

وقدمنا ما يتعلق بالسجود في الآية 15 من سورة السجدة المارة ، وفيها ما يرشدك لغيرها من المواقع فراجعها ففيها كفاية .

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 429.435 ﴾

(30/809)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الانشقاق

مكية

قيل جواب إذا وأذنت والواو صلة وقيل جوابها محذوف وعيهما فحققت تام وقيل الآية تقدم وتأخير وتقديره يا أَيُّهَا الإنسان أنك كادح إلا ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت

كأنه قال تلقون جزاء أعمالكم إذا السماء انشقت يعني يوم القيامة وعليه اقتصر الأصل فملاقيه تام مسرورا كاف وكذا سعيرا ومسرورا بلى حسن ويجز الابتداء به بصيرا تام وكذا عن طبق لا يسجدون كاف وكذا يكذبون بما يوعدون صالح اليم كاف بجعل ألا بمعنى لكن آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(31/809)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الانشقاق

مكية عشرون وثلاث آيات في البصري والشامي وخمس في عد الباقين وكلمها مائة وسبع كلمات وحروفها أربعمائة وثلاثون حرفاً

في إذا احتمالان أحدهما أنها شرطية والثاني أنها ظرفية فقيل شرطية وجوابها وأذنت والواو صلة وقيل الجواب فملاقيه أوانه يا أَيُّهَا الإنسان أوانه مقدر تقديره بعثتم وقيل تقديره لاقى كل انسان كدحه وقيل فأما من أوتي كتابه بيمينه وعليه فالوقف سعيراً وقيل مقدر بعدها أي إذا كانت هذه الكوائن يظهر أمر عظيم وقيل هو ما صرَّح به في سورتي التكوير والانفطار من قوله علمت نفس قاله الزمخشري وهو حسن وعلى الاحتمال الثاني فهي

منصوبة مفعولاً بها بإضمار اذكر وقيل مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو زائدة والتقدير وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض أي يقع الأمران معافى وقت واحد قاله الأخفش والعامل في إذا كانت ظرفاً عند الجمهور جوابها إمَّا ملفوظاً به أو مقدراً ورفعت السماء بفعل مقدر على الاشتغال واضمار الفعل واجب عند البصريين لأنهم لايجيزون أن يلي إذا غير الفعل ويتأوّلون ما أوهم خلاف ذلك اهـ سمين مع زيادة للإيضاح وقوله وجوابها وأذنت والواو زائدة زيادتها مردودة لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها ومع لما كقوله فلما أسلما وتله للجبين وناديناه معناه ناديناه فلا تقحم الواو إلا مع هذين فقط كما نبهنا عليه في سورة الزمر ومعنى وأذنت أس استمعت وانقادت وفي الحديث ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن قوله ما أذن بكسر الذال المعجمة وقوله كاذنه بفتح الذال قاله الهروي معناه ما استمع والله لايشغله سمع عن سمع قال الشاعر

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال وان يروا سبة طاروا بها فرحاً منى وما سمعوا من صالح دفنوا

وحقت الأولى (تام) على أن جواب إذا وحقت والواو زائدة

(32/809)

وتخلت (حسن) إن كانت الواو في وألقت زائدة والتقدير وإذا الأرض مدت ألقت ما فيها

وتخلت وليس بوقف إن لم تجعل زائدة ولا يوقف على مدت لأن الجواب بعد

وحقت الثانية (تام) إن لم يجعل الجواب فملاقيه

وملاقيه (تام) إن لم يجعل الجواب فأما من أوتي كتابه بيمينه ولا يوقف على يسير العطف ما

بعده على ما قبله

مسروراً (كاف) ولا يوقف على ثبور العطف ما بعده عليه

سعيراً (كاف) على استئناف ما بعده

مسروراً (كاف)

بلى (حسن) وتام عند نافع لأن النفي في قوله لن يحور من مقتضيات الوقف عليها ومعنى لن

يحور لن يرجع إلى الله تعالى وقيل الوقف لن يجوز ومستأنف بلى إنَّ ربه كان به بصيراً

وبصيراً (تام) ولا يوقف على شيء من قوله فلا أقسم إلى قوله عن طبق 0

والوقف على طبق (كاف)

لايؤمنون ليس بوقف لأنَّ الاستفهام الإنكاري واقع على الجملتين فلا يفصل بينهما بالوقف

لايسجدون (كاف) ومثله يكذبون وكذا يوعون قال في التقريب وعى العلم يعيه وعياً

حفظه

بما يوعون (كاف) على استئناف ما بعده ومعنى يوعون أي بما يضمرون في قولهم من

التكذيب

أليم تجاوزه ووصله بما بعده أولى سواء كان الاستثناء متصلاً أو منقطعاً

الصالحات (حسن) وما بعده مستأنف

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(33/809)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الانشقاق

مكية وآيها عشرون وثلاث بصري ودمشقي وأربع حمصي وخمس حجازي وكوفي خلافها

كادح كدحا حمصي فملاقيه غيره بيمينه حجازي وكوفي ومثلها وراء ظهره

القراآت واختلف في ( ) ويصلى سعيرا (الآية 12 فنافع وابن كثير وابن عامر والكسائي

بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام مضارع صلى مبنيا للمفعول معدى بالتضعيف إلى

مفعولين الأول الضمير النائب والثاني سعيرا وافقهم ابن محيصن والحسن والباقون بفتح الياء

وسكون الصاد وتخفيف اللام من صلى مخففا مبنيا للفاعل معدى لواحد وهو سعيرا

وأمالها حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وإذا قلل رقق اللام حتما لما مر أن التغليظ والإمالة ضدان وأمال بلى أبو بكر بخلفه وحمزة والكسائي وخلف بالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو بكماله على ما مر وقصره في الطيبة على الدوري

واختلف في (لتركبن) الآية 19 فابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بفتح الباء على خطاب الواحد روى فيه خطاب الإنسان المتقدم الذكر أي لتركبن هولا بعد هول وافقهم ابن محيصن والأعمش والباقون بضمها على خطاب الجمع روعي فيها معنى الإنسان إذ المراد به الجنس وضمة الباء تدل على واو الجمع وأبدل أبو جعفر همزة قرى ياء مفتوحة وإدخال الأصبهاني معه في ذلك الواقع في الأصل هنا سهو أو سبق قلم ونقل القرآن ابن كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(34/809)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الانشقاق "

" يسيرا " سعيرا ، بصيرا . عليهم القرآن ، أجر غير ، جلي .

" ويصلى " قرأ نافع والمكي وابن عامر والكسائي بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام

وغيرهم بفتح الياء وإسكان الصاد وتخفيف اللام ولورش فيه تغليظ اللام مع الفتح وترقيقها مع التقليل .

" لتركبن " قرأ المكي والأخوان وخلف بفتح الباء الموحدة وغيرهم بضمها .

" قرئ " أبدل أبو جعفر الهمزة ياء مفتوحة وصلا ساكنة وقفا ووافق حمزة أبا جعفر في الوقف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 348 ﴾

(35/809)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الانشقاق

قوله تعالى ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ يقرأ بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام وبفتح الياء واسكان الصاد وتخفيف اللام فالحجة لمن شدد انه اراد بذلك دوام العذاب عليهم ودليله قوله ﴿ وتصلية جحيم ﴾ لان وزنها تفعلة وتفعلة لا تأتي الا مصدرا ل فعلته بتشديد العين كقولك عزيته تعزية والحجة لمن خفف انه اخذه من صلى يصلي فهو صال ودليله قوله تعالى ﴿ إلا من هو صال الجحيم ﴾ والسعير في اللغة شدة حر النار وسرعة توقدها

فأما قوله ﴿ زدناهم سعيرا ﴾ فقيل وقودا وتلهبا وقيل قلقا كالجنون

قوله تعالى ﴿ لتركبن طبقا عن طبق ﴾ يقرأ بضم الباء وفتحها فالحجة لمن قرأه بالضم انه خاطب بالفعل جمعا واصله لتركبون فذهبت الواو لسكونها وسكون النون المدغمه فبقيت الباء على اصلها الذي كانت عليه والحجة لمن قرأه بالفتح انه افرد النبي عليه السلام بالخطاب واراد به لتركبن يا محمد طبقا من اطباق السماء بعد طبق ولترتقين حالا بعد حال وهذه اللام دخلت للتأكد او لجواب قسم مقدر والنون للتأكيد ايضا وهي تدخل في الفعل ثقيلة وخفيفة في مواضع قد ذكرت في يونس

وكان المحمدان ابن مجاهد وابن الانباري يتعمدان الوقف اذا قرآ بهذه السورة في صلاة الصبح على قوله ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ثم يبتدئان بقولك ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ فسئلا عن ذلك فقالا الاستثناء ها هنا منقطع مما قبله غير متصل به وانما هو بمعنى لكن الذين آمنوا واذا كان الاستثناء منقطعا مما قبله كان الابتداء مما يأتي بعده وجه الكلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 366 . 367 ﴾

(36/809)

وقال ابن زنجلة :

84 – سورة الانشقاق

ويصلى سعيرا

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويصلى سعيرا بفتح الياء وسكون الصاد أي يصلى هو أي يصير إلى النا رمن صلي يصلى فهو صال وحجتهم إجماع الجميع على قوله يصلى النار الكبرى و إلا من هو صال الجحيم فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى ومعنى يصلى أي أنه يقاسي حرها من صليت النار أي قاسيت حرها

وقرأ الباقون ويصلى بالتشديد من قوله صليته أصليه تصلية والمعنى أن الملائكة يصلونه بحر النار

وجتهم ثم الجحيم صلوه وقوله وتصلية جحيم وروى خارجة عن نافع ويصلى بضم الياء وإسكان الصاد من أصلاه وهو يصليه مثل عظمت الأمر وأعظمته وصليته النار وأصليته والمعنى واحد لأنه إذا أصلي فقد صلي وإذا صلي فإنما صلي وصلي لتركبن طبقا عن طبق فما لهم لا يؤمنون 20 , 19

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي لتركبن طبقا بفتح الباء أي لتركبن يا محمد حالا بعد حال يذكر حالات النبي صلى الله عليه من يوم أوحي إليه إلى يوم قبضه الله وقد روي أيضا لتركبن يا محمد سماء بعد سماء يعني في لمعارج وقال آخرون منهم ابن عباس لتركبن أي لتصيرن الأمور

حالا بعد حال بتغيرها واختلاف الأزمان يعني الشدة ف الأمور فاعلة وتكون التاء لتأنيث الجمع

وقال آخرون منهم ابن مسعود وأنه قرأ لتركبن السماء حالا بعد حال تكون وردة كالدهان وتكون كالمهل في اخلاتف هيأتها فتكون التاء لتأنيث السماء

وقرأ الباقون لتركبن برفع الباء وحجتهم في ذلك أنه يخاطب الناس في ذلك لأنه كر من يؤتى كتابه بيمينه وبشماله ثم ذكر ركوبهم طبقا عن طبق ثم قال فما لهم لا يؤمنون المعنى لتركبن حالا بعد حال من إحياء وإماتة وبعث حتى تصيروا إلى الله عن الحسن قال لتركبن حالا بعد حال ومنزلا عن منزل وعن مجاهد لتركبن أمرا بعد أمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 755. 757 ﴾

(37/809)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الانشقاق 84

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها مئة وتسع كلمات

وحروفها أربع مئة وثلاثون حرفا ككلم البروج وحروفها

وهي عشرون وثلاث آيات في البصري والشامي وخمس في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ كتابه بيمينه ﴾ كتابه وراء ظهره) لم يعدهما البصري والشامي

وعدهما الباقون وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

انشقت

1 وحقت

2 مدت

3 وتخلت

4 وحقت

5 فملاقيه

6 بيمينه

7 يسيرا

8 مسرورا

9 ظهره

10 ثبورا

11 سعيرا

12 مسرورا

13 يحور

14 بصيرا

15 بالشفق

16 وسق

17 اتسق

18 طبق

19 لا يؤمنون

20 لا يسجدون

21 يكذبون

22 يوعون

23 أليم

24 ممنون

25 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 268﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

جواب (إذا) فيه أقوال: أحدها أذنت والواو زائدة .

والثانى هو محذوف

تقديره: يقال يا أيها الإنسان إنك كادح ، وقيل التقدير: بعثتم أو جوزيتم ، ونحو ذلك مما دلت عليه السورة .

والثالث أن " إذا " مبتدأ ، وإذا الأرض خبره ، والواو زائدة حكى عن الأخفش .

والرابع أنها لاجواب لها ، والتقدير: اذكر إذا السماء ، والهاء في " ملاقيه " ضمير ربك ، وقيل هو ضمير الكدح: أي ملاقي جزائه ، و (مسرورا) حال ، و (ثبورا) مثل التى في الفرقان (وما وسق) " ما " بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة ، أو مصدرية .

قوله تعالى (لتركبن) على خطاب الجماعة ، ويقرأ على خطاب الواحد ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل الإنسان المخاطب ، و (طبقا) مفعول ، و (عن) بمعنى بعد ، والصحيح أنها على بابها وهى صفة: أي طبقا حاصلا عن طبق: أي حالا عن حال ،

وقيل جيلا عن جيل ، و (لا يؤمنون) حال ، و (إلا الذين آمنوا) استثناء ، ويجوز أن يكون متصلا ، وأن يكون منقطعا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(39/809)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الانشقاق

[سورة الانشقاق (84) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1)

"إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة "السَّماءُ" فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده "انْشَقَّتْ" ماض فاعله مستتر والجملة مفسرة والجملة المقدرة في محل جر بالإضافة .

[سورة الانشقاق (84) : آية 2]

وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (2)

"وَأَذِنَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "لِرَبِّها" متعلقان بالفعل

"وَحُقَّتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 3]

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3)

"وَإِذَا" الواو حرف عطف والكلام معطوف على ما قبله وإعرابه واضح .

[سورة الانشقاق (84) : آية 4]

وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4)

الجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 5]

وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (5)

سبق إعرابها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 6]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6)

"يا أَيُّهَا" يا حرف نداء ومنادى مبني على الضم "الْإِنْسانُ" بدل "إِنَّكَ" إن واسمها "كادِحٌ" خبرها والجملتان الاسمية والندائية ابتدائيتان لا محل لهما "إِلى رَبِّكَ" متعلقان بكادح "كَدْحاً" مفعول مطلق "فَمُلاقِيهِ" الفاء حرف عطف "ملاقيه" معطوف على كادح.

[سورة الانشقاق (84) : آية 7]

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (7)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف "أما" حرف شرط وتفصيل "مَنْ" اسم موصول مبتدأ "أُوتِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة من "كِتابَهُ" مفعول به ثان "بِيَمِينِهِ" متعلقان بالفعل.

[سورة الانشقاق (84) : آية 8]

فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8)

(40/809)

"فَسَوْفَ" الفاء واقعة في جواب الشرط "سوف" للاستقبال "يُحاسَبُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "حِساباً" مفعول مطلق "يَسِيراً" صفة والجملة الفعلية خبر من.

[سورة الانشقاق (84) : آية 9]

وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9)

"وَيَنْقَلِبُ" مضارع فاعله مستتر "إِلى أَهْلِهِ" متعلقان بالفعل "مَسْرُوراً" حال والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 10 الى 11]

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (11)

"وَأَمَّا" الواو حرف عطف "أَمَّا مَنْ أُوتِيَ" سبق إعرابه "كِتابَهُ" مفعول به ثان "وَراءَ" منصوب بنزع الخافض "ظَهْرِهِ" مضاف إليه "فَسَوْفَ" الفاء رابطة "سوف يَدْعُوا" سوف للاستقبال ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر من "ثُبُوراً" مفعول به .

[سورة الانشقاق (84) : آية 12]

وَيَصْلى سَعِيراً (12)

"وَيَصْلى " مضارع فاعله مستتر "سَعِيراً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 13]

إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13)

"إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "فِي أَهْلِهِ" متعلقان بما بعدهما "مَسْرُوراً" خبر كان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 14]

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14)

"إِنَّهُ" إن واسمها "ظَنَّ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية بدل من سابقتها "أَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ يَحُورَ" مضارع منصوب

بلن والجملة الفعلية خبر أن المخففة والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي ظن .

[سورة الانشقاق (84) : آية 15]

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15)

(41/809)

"بَلى " حرف جواب "إِنَّ رَبَّهُ" إن واسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "بِهِ" متعلقان بما بعدهما "بَصِيراً" خبر كان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية جواب قسم مقدر .

[سورة الانشقاق (84) : آية 16]

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16)

"فَلا" الفاء حرف استئناف "لا" زائدة "أُقْسِمُ" مضارع فاعله مستتر "بِالشَّفَقِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 17]

وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17)

"وَاللَّيْلِ" معطوف على الشفق "وَما" اسم موصول معطوف على الليل "وَسَقَ" ماض فاعله

مستتر والجملة صلة ما .

[سورة الانشقاق (84) : آية 18]

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18)

"وَالْقَمَرِ" معطوف على ما قبله "إِذَا" ظرف زمان "اتَّسَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الانشقاق (84) : آية 19]

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19)

"لَتَرْكَبُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المذكورة للتوكيد "طَبَقاً" مفعول به "عَنْ طَبَقٍ" متعلقان بمحذوف صفة طبقا .

[سورة الانشقاق (84) : آية 20]

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20)

"فَما" الفاء حرف استئناف "ما" اسم استفهام مبتدأ "لَهُمْ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "لا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية حال .

[سورة الانشقاق (84) : آية 21]

وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21)

"وَإِذا" الواو حرف عطف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "قُرِئَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْقُرْآنُ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "لا" نافية "يَسْجُدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها . وجملة إذا . . معطوفة على ما قبلها .

(42/809)

[سورة الانشقاق (84) : آية 22]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22)

"بَلِ" حرف إضراب وانتقال "الَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "يُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 23]

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23)

"وَاللَّهُ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" متعلقان بما قبلهما "يُوعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله ، معنى يوعون : يجمعون في صحفهم الذنوب ،

والجملة صلة ما .

[سورة الانشقاق (84) : آية 24]

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24)

"فَبَشِّرْهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر "بِعَذابٍ" متعلقان بالفعل "أَلِيمٍ" صفة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 25]

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

"إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِينَ" مستثنى منصوب "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "لَهُمْ أَجْرٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر "غَيْرُ مَمْنُونٍ" صفة مضاف إلى ممنون والجملة مستأنفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 431. 433﴾

(43/809)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الانشقاق

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1469 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا أذن الله لشَيْء كَإِذْنِهِ لنَبِيّ يتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَقد تقدم فِي سُورَة إِبْرَاهِيم

1470 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من يُحَاسب يعذب فَقيل يَا رَسُول الله فَسَوف يُحَاسب حسابا يَسِيرا قَالَ ذَلِك الْعرض من نُوقِشَ فِي الْحساب عذب

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَفِي الْعلم وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث عبد الله بن أبي مليكَة عَن عَائِشَة قَالَت سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول من حُوسِبَ يَوْم الْقِيَامَة عذب فَقلت أَلَيْسَ قد قَالَ الله فَسَوف يُحَاسب حسابا يَسِيرا قَالَ لَيْسَ ذَلِك الْحساب إِنَّمَا ذَلِك الْعرض من نُوقِشَ الْحساب يَوْم الْقِيَامَة عذب انْتَهَى

1471 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ ذَات يَوْم واسجد واقترب فَسجدَ هُوَ وَمن مَعَه من الْمُؤمنِينَ وقريش تصفق فَوق رؤوسهم وَتَصْفَر فَنزلت

وَإِذا قرئَ عَلَيْهِم الْقُرْآن لَا يَسْجُدُونَ

1472 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن أبي هُرَيْرَة انه سجد فِي إِذا السَّمَاء انشقت وَقَالَ وَالله مَا سجدت فِيهَا إِلَّا بعد أَن رَأَيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سجد فِيهَا

(44/809)

قلت وَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث أبي رَافع عَن أبي هُرَيْرَة انه قَرَأَ إِذا السَّمَاء انشقت فَسجدَ فَقلت مَا هَذِه السَّجْدَة قَالَ لَو لم أر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يسجدها لم أَسجد زَاد فِي رِوَايَة فَلَا أَزَال أَسجد بهَا حَتَّى أَلْقَاهُ انْتَهَى

1473 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة انشقت أَعَاذَهُ الله أَن يُعْطِيهِ كِتَابه وَرَاء ظَهره

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم وَهَذَا الْمَتْن

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 177.178 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة الإنشقاق :

قوله تعالى : (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) ، الآية/ 16 .

قال مجاهد : الشفق النهار ، ألا تراه قال : (وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ) ، الآية/ 17 .

وقال قائلون : الشفق البياض .

وقال آخرون : الحمرة ، وعلى كل واحد من اللفظين أمارات ، واللفظ يحتملهما جميعا .

قوله تعالى : (وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ) ، الآية/ 21 :

لا يظهر في سجود التلاوة ، لأن ذلك يبعد أن يكون مرادا من بين الواجبات كلها ، فدل أن المراد به أنهم لا يذعنون ولا يطيعون في العمل بموجباته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 429﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة إذا السّماء انشقّت» (84)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ» (2) أذنت : استمعت قال رؤبة :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

«1» [210] حقّت : حقّ لها . .

«إِنَّكَ كادِحٌ» (6) يقال : فلان يكدح فى عيشه قال :

وطول الدهر يكدح فى سفال

[935] .

«ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ» (14) أن لن يرجع . .

«ما وَسَقَ» (17) ما علا فلم يمتنع منه شىء فإذا جلّل الليل الجبال والأشجار والبحار

والأرض فأجمعت له فقد وسقها «2» ، قال الشاعر :

مستوسقات لو وجدن سائقا

«3» [936] .

«وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ» (18) إذا تمّ .

---

(1) . - 210 : نسبة هذا البيت من البسيط هنا إلى رؤبة الراجز مع نسبته غير مرة إلى قعنب بن أم صاحب غريبة .

(2) . - 9 - 10 «أي ما . . . وسقها» الذي ورد فى الفروق : مروى فى اللسان عن أبى عبيدة (وسق) .

(3) . - 936 : الرجز فى ملحق ديوان العجاج ص 84 ، وفى الطبري 30/ 66 والقرطبي 19/ 275 .

(47/809)

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ» (19) أي لتركبنّ سنة الأولين وسنة من كان قبلكم . .

«أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ» (23) كما يوعى المتاع ، ووعته أذنى . .

«أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» (25) ليس فيه منّ ويجيء أيضا «مَمْنُونٍ» مقطوع والحبل المقطوع ممنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 291. 292 ﴾

(48/809)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الانشقاق»

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 3 الى 4]

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4)

وقوله تعالى : وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ [3 ، 4] وهذه استعارة .

والمراد بها بعث الأموات ، وإعادة الرفات . فكأن الأرض كانت حاملا بهم فوضعتهم ، أو حاملة لهم فألقتهم ، فكانوا كالجنين المولود ، والثقل المنبوذ .

[سورة الانشقاق (84) : آية 17]

وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17)

وقوله سبحانه : وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ [17] وهذه استعارة . ومعنى «وسق» هاهنا أي ضم وجمع . فكأنه يضم الحيوانات الإنسية إلى مساكنها ، والحيوانات الوحشية إلى

موالجها ، والطيور إلى أوكارها ومواكنها «1» . فكأنه ضم ما كان بالنهار منتشرا ، وجمع ما كان متبددا متفرقا . والأوساق مأخوذة من ذلك ، لأنها الأحمال التي يجمع فيها الطعام وما يجرى مجراه . ويقال : طعام موسوق . أي مجموع فى أوعيته .

وقد قيل : إن معنى «وسق» أي طرد . والوسيقة : الطريدة . فكأن الليل يطرد الحيوانات كلها إلى مثاويها ، ويسوقها إلى مخافيها .

[سورة الانشقاق (84) : آية 19]

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19)

وقوله سبحانه : لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ [19] وهذه استعارة على بعض التأويلات .

والمراد بها لتنقلبنّ من حال شديدة إلى حال مثلها ، من حال الموت وشدته ، إلى حال الحشر وروعته .

وقيل : لتركبن سنّة من كان قبلكم من الأمم .

وقيل : المراد بذلك تنقّل الناس فى أحوال الأعمار ، وأطوار الخلق والأخلاق . والعرب تسمى الدواهي «بنات طبق» . وربما سمّوا الداهية : أم طبق . قال الشاعر «2» .

قد طرّقت ببكرها أمّ طبق فنتجوها خبرا ضخم العنق .

موت الإمام فلقة من الفلق

---

(1) الموكن والموكنة بكسر الكاف فيهما : عش الطائر . [. . . . .]

(2) هو خلف الأحمر . وأصله مولى لأبى بردة من فرغانة ، ولكنه حفظ كلام العرب وشعرهم وأخبارهم ، حتى صار يقول الشعر فيجيده وينحله الشعراء المتقدمين . وكان الأصمعى من رواته ، كما سمع هو من حماد الرواية . وأخباره فى «طبقات الأدباء» و«الشعر والشعراء» و«العقد الفريد» و«الفهرست» .

وتوفى سنة 180 ه .

وأم طبق : هى الداهية . والخبر : الناقة الغزيرة اللبن ، والفلقة : الداهية . وفى «ثمار القلوب» للثعالبى : قال الأصمعى : أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر ، وكنا فى حلقة يونس ، فجاء خلف الأحمر فسلم ، ولم يكن الخبر فشا ، ثم قال : «قد طرقت ببكرها أم طبق» . فقال يونس : وما ذاك يا أبا محرز ؟

فقال : «فنتجوها خبرا ضخم العنق» . فقال : لم أدر بعد ! فقال : «موت الإمام فلقة من الفلق» .

فارتفعت الضجة بالبكاء والاسترجاع- ص 207 من «الثمار» .

وانظر الخبر فى «لسان العرب» مادة طبق . وفى الورقة 60 من كتاب «المعول عليه ، فى المضاف والمضاف إليه» للمحبى ، وهو مخطوط مصور بمجمع اللغة العربية

والفلق أيضا من أسماء الدواهي . واحدها فلقة وفليقة .

[سورة الانشقاق (84) : آية 23]

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23)

وقوله سبحانه : وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ [23] وهذه استعارة . والمراد بها ما يسرّون فى قلوبهم ، ويكنّون فى صدورهم .

يقول : القائل أوعيت هذا الأمر فى قلبى . أي جعلته فيه كما يجعل الزاد فى وعائه ، ويضمّ المتاع فى عيابه ، فالقلوب أوعية لما يجعل فيها من خير أو شر ، وعلم أو جهل ، أو باطل أو حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 361.363 ﴾

(51/809)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الانشقاق

" إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت " . نحن نظن السماء هى القبة الزرقاء فوقنا

ولا ندرى شيئا عن طباقها ولا سكانها ولا طبيعة الحياة فيها ! وقد أخبرنا الله أن السماء ستنشق ، وخبره حق وسيظهر ذلك مع قيام الساعة . كما أن الأرض ستمد وتتخلى عما فى باطنها من نفيس وخسيس ! عند بدء الخليقة قيل للأرض والسماء " ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " ومع انتهاء العالم تستجيب الأرض والسماء لما يراد بهما . ويقول الله فى كلتيهما " وأذنت لربها وحقت " ، أى استمعتا إليه . وهل يملكان إلا السمع والطاعة ؟ " يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه " . لقد كانت الدنيا دار تكليف وامتحان جاد شاق وعلى المرء أن يختار . أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج طريقان شتى ! مستقيم وأعوج ! " فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا " . ومعنى وراء ظهره أنه يأخذه بشماله من خلف ظهره كأن الله يمقت رؤية وجهه ! ! فقد كان فى الدنيا ينكر وجوده ، ويطرح وحيه ، ولا يعرف إلا المادة وفناءها " بلى إن ربه كان به بصيرا " . عارفا بعمله كله . ! وتتضمن السورة بعدئذ قسما بالشفق " والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقا عن طبق " . أى حالا بعد حال ! والشفق هو الحمرة الممتدة فى الآفاق بعد العصر إيذانا بالغروب . . وقد بدا لى فى هذا القسم فهم ، إن كان حقا فمن الله وله المنة ، وإن كان خطأ فمن نفسى وأسأله العفو . إن الشفق هنا إيماءة إلى تاريخ المسلمين وما يعتريه من عسر ويسر وهزيمة ونصر .

وقد بدا لى ذلك وأنا أطالع حديثا للترمذى رواه عن أبى سعيد الخدرى ، قال صلى بنا رسول الله يوما صلاة العصر ، ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه . وكان فيما قال: "إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فناظر كيف تعملون " . ثم قال عليه الصلاة والسلام: " ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه " ومضى عليه السلام فى خطابه الجليل . قال أبو سعيد وجعلنا نلتفت إلى الشمس ، هل بقى من النهار شىء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إلا إنه لم يبق من الدنيا – فيما مضى منها – إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه" . هذا الأمد القليل الباقى قبل قيام الساعة هو تاريخنا ، وما ظهر من دول وما يبقى ! ! لقد جئنا فى أصيل العالم أو فى شفقه والغروب موشك . والسؤال الخطير: هل أدينا رسالتنا وأنصفنا الناس من أنفسنا ؟ وركبنا طبقا عن طبق أو انتقلنا من حال ؟ إلى حال فهل اعتبرنا ؟ " فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون " . إن المسلمين سيسألون عن كتابهم لماذا لم يقوموا به ويعطوا الناس صورة حسنة له ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 507.508 ﴾

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

قوله تعالى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) ذي الجلال والإكرام (الرحمن) الذي كملت نعمته فشملت الخاص والعام (الرحيم) الذي أتمها بعد العموم على أوليائه فأسعدهم بإتمام الإنعام .

لما ختمت التطفيف بأن الأولياء في نعيم ، وأن الأعداء في جحيم ثواباً وعقاباً ، ابتدأ هذه

بالإقسام على ذلك فقال : ﴿ إذا السماء ﴾ أي على ما لها من الإحكام والعظمة والحكمة الذي لا يقدر على مثلها غيره جلت قدرته ﴿ انشقت ﴾ أي فصارت واهية وفتحت أبواباً فتخربت وتهدمت ، وذلك بعد القيام من القبور كما مضى في الحاقة عن إحدى روايتي ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿ وأذنت ﴾ أي كانت شديدة الاستماع والطواعية والانقياد على أتم وجه كمن له أذن واعية ونفس مطمئنة راضية ﴿ لربها ﴾ أي لأمر المخترع لها والمدبر لجميع أمرها ، وهي الآن وإن كانت منقادة فانقيادها ظاهر لأكثر الخلق وهم المثبتة ، وأما المعطلة فربما نسبوا تأثيراتها إلى الطبائع والكواكب وأما عند الانشقاق فيحصل الكشف التام فلا يبقى لأحد شبهة ﴿ وحقت ﴾ بالبناء للمفعول بمعنى أنها مجبولة على أن ذلك حق عليها ثابت لها ، فهي حقيقة به لأنها مربوبة له سبحانه ، وكل مربوب فهو حقيق بالانقياد لربه ، وهي لم تزل مطيعة له في ابتدائها وانتهائها ، لكن هناك يكون الكشف التام لجميع الأنام .

(55/809)

ولما بدأ بالعالم العلوي لكونه أشرف لأنه أعلى مكانة ومكاناً ، ثنى بالسفلي فقال تعالى : ﴿ وإذا الأرض ﴾ أي على ما لها من الصلابة والثخانة والكثافة ، وأشار بالبناء للمفعول

إلى سهولة الفعل فيها عليه سبحانه وتعالى وسرعة انفعالها مع كونه أعجب من انشقاق السماء فإنه ربما كان في الشيء لوهيه من تطاول مرور الزمان عليه بخلاف المد فقال :

﴿ مدت ﴾ أي بسطت بسط الأديم ومطت فامتطت فزيد في سعتها جداً بعد أن تمهدت فصارت دكاء فزالت جبالها وآكامها وتلالها ، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً كما أن الأديم إذا مد كان كذلك فزال تثنيه واتسع .

ولما كان الجلد جديراً بأنه إذا مد أن يبين عن كل ما فيه من غيره قال : ﴿ وألقت ما فيها ﴾ أي أخرجت ما في بطنها من الأموال والكنوز والأموات إخراجاً سريعاً كأنها تقذفه قذفاً ، وذلك أيضاً كالبساط إذا نقض ﴿ وتخلت ﴾ أي تعمدت وتكلفت الخلو عن ذلك والترك له بغاية جهدها ، أي فعل ذلك سبحانه فعلاً كانت الأرض كأنها فاعلة له على هذا الوجه ، فصارت خلية عن كل شيء كان في بطنها ، وصار بارزاً على ظهرها ، ولما كان هذا ربما أوهم أنه بغير أمره سبحانه وتعالى قال : ﴿ وأذنت لربها ﴾ أي فعلت ذلك بإذن الخالق لها والمربي وتأثرت في ذلك عن تأثيره لا بنفسها ، وفعلت فيه كله فعل السميع المجيب

﴿ وحقت ﴾ أي وكانت حقيقة بذلك كما أن كل مربوب كذلك وتكرير " إذا " للتنبيه على ما في كل من الجملتين من عظيم القدرة ، والجواب محذوف – لأنه في غاية الانكشاف بما دل عليه المقام مع ما تقدم من المطففين وما قبلها من السور وما يأتي في هذه السورة

تقديره : ليحاسبن كل أحد على كدحه كله فليثوبنّ الكفار ما كانوا يفعلون وليجازين أهل الإسلام بما كانوا يعملون .

(56/809)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم في الانفطار التعريف بالحفظة وإحصائهم على العباد في كتبهم ، وعاد الكلام إلى ذكر ما يكتب على البر والفاجر واستقرار ذلك في قوله تعالى : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليّين ﴾ [المطففين : 18] وقوله : ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ [المطففين : 7] أتبع ذلك بذكر التعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض ، وأن أخذها بالأيمان عنوان السعادة ، وأخذها وراء الظهر عنوان الشقاء إذ قد تقدم في السورتين قبل ذكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مضمناتها فمنها ما هو في عليين ومنها ما هو في سجين إلى يوم العرض ، فيؤتى كل كتابه فآخذ بيمينه وهو عنوان سعادته ، وآخذ من وراء ظهره وهو عنوان هلاكه ، فتحصّل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقراراً وتفريقاً يوم العرض ، وافتتحت السورة بذكر انشقاق السماء ومد الأرض وإلقائها ما فيها وتحليها تعريفاً بهذا اليوم العظيم بما يتذكر به من سبقت سعادته والمناسبة بينة – انتهى .

ولما كان الجواب ما ذكرته ، أتبعه شرحه فقال منادياً بأداة صالحة للبعد لأن المنادى أدنى الأسنان بادئاً بالأولياء لأن آخر التطفيف الذي هذا شرح له إدخال السرور عليهم : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ أي الآنس بنفسه الناسي لربه .

(57/809)

ولما كان أكثر الناس منكراً للبعث أكد فقال : ﴿ إنك كادح ﴾ أي ساع وعامل مع الجهد لنفسك من خير أو شر ، وأكثره مما يؤثر خدوشاً وشيناً وفساداً وشتاتاً ، منتهياً ﴿ إلى ربك ﴾ الذي أوجدك ورباك بالعمل بما يريد معنىً وبالموت حساً ، وأشار إلى اجتهاد كل فيما هو فيه وخلق له بالتأكيد بالمصدر فقال : ﴿ كدحاً ﴾ أي عظيماً ﴿ فملاقيه ﴾ أي فمتعقب كدحك لقاؤك لربك ، وأنه ينكشف لك أنك كنت في سيرك إليه كالمجتهد في لقائه اجتهاد من يسابق في ذلك آخر ، وكل ذلك تمثيل لنفوذ إرادته ومضي أقضيته بسبب الانتهاء إليه ، وحقيقته تلاقي جزاءه وينكشف لك من عظيم أمره ما ينكشف للملاقي مع من يلقاه بسبب اللقاء ، وهذا أمر أنت ساع فيه غاية السعي لأن من كان الليل والنهار مطيتيه أوصلاه بلا شك إلى منتهى سفره شاء أو أبى ، فذكر هذا على هذا النمط حث

على الاجتهاد في الإحسان في العمل لأن من أيقن بأنه لا بد له من العرض على الملك أفرغ جهده في العمل بما يحمده عليه عند لقائه .

(58/809)

ولما كان من المعلوم أن عبيد الملك إذا عرضوا عليه ، كان فيهم المقبول والمردود ، بسبب أن كدحهم تارة يكون حسناً وتارة يكون سيئاً ، قال معرفاً أن الأمر في لقائه كذلك على ما نعهد ، فمن كان مقبولاً أعطي كتاب حسناته بيمينه لأنه كان في الدنيا من أهل اليمين أي الدين المرضي ، ومن كان مردوداً أعطي كتابه بشماله لأنه كان في الدنيا مع أهل الشمال وهو الدين الباطل الذي يعمل من غير إذن المالك ، فكأنه يفعل من ورائه ، فترجم هذا الغرض بقوله سبحانه وتعالى مفصلاً للإنسان المراد به الجنس جامعاً للضمير بعد أن أفرده تنصيصاً على حشر كل فرد : ﴿ فأما من أوتي ﴾ بناه للمفعول إشارة إلى أن أمور الآخرة كلها قهر وفي غاية السهولة عليه سبحانه وتعالى ، وفي هذه الدار للأمر وإن كان كذلك إلا أن الفرق في انكشاف ستر الأسباب هناك فلا دعوى لأحد ﴿ كتابه ﴾ أي صحيفة حسابه التي كتبتها الملائكة وهو لا يدري ولا يشعر ﴿ بيمينه ﴾ من أمامه وهو المؤمن المطيع ﴿ فسوف يحاسب ﴾ أي يقع حسابه بوعد لا خلف فيه وإن طال الأمد لإظهار الجبروت

والكبرياء والقهر ﴿ حساباً يسيراً ﴾ أي سهلاً لا يناقش فيه لأنه كان يحاسب نفسه فلا يقع له المخالفة إلا ذهولاً ، فلأجل ذلك تعرض أعماله فيقبل حسنها ويعفو عن سيئها .

ولما كان هذا دالاً على العفو ، أتبعه ما يدل على الإكرام فقال : ﴿ وينقلب ﴾ أي يرجع من نفسه من غير مزعج برغبة وقبول ﴿ إلى أهله ﴾ أي الذين أهله الله بهم في الجنة فيكون أعرف بهم وبمنزله الذي أعد له منه بمنزله في الدنيا .

(59/809)

ولما كانت السعادة في حصور السرور من غير قيد ، بنى للمفعول قوله : ﴿ مسروراً ﴾ أي قد أوتي جنة وحريراً ، فإنه كان في الدنيا في أهله مشفقاً من العرض على الله مغموماً مضروراً يحاسب نفسه بكرة وعشياً حساباً عسيراً مع ما هو فيه من نكد الأهل وضيق العيش وشرور المخالفين ، فذكر هنا الثمرة والمسبب لأنها المقصودة بالذات ، وفي الشق الآخر السبب والأصل ، وقد استشكلت الصديقة أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا هذه الآية بما " روي عنها في الصحيح بلفظين أحدهما " ليس أحد يحاسب إلا هلك " والثاني " من نوقش الحساب عذب " قالت عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا : فقلت : يا رسول الله ! أليس الله يقول ﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ [الانشقاق : 8] الآية ، فقال : ـ صلى الله

عليه وسلم ـ : إنما ذلك العرض " فإن كان اللفظ الأول هو الذي سمعته فالإشكال فيه واضح ، وذلك أنه يرجع إلى كلية موجبة هي " كل من حوسب هلك " والآية مرجع إلى جزئية سالبة وهي " بعض من يحاسب لا يهلك " وهو نقيض ، وحينئذ يكون اللفظ الثاني من تصرف الرواة ، وإن كان الثاني هو الذي سمعته فطريق تقدير الإشكال فيه أن يقال : المناقشة في اللغة من الاستقصاء وهو بلوغ الغاية ، وذلك في الحساب بذكر الجليل والحقير والمجازاة عليه ، فرجع الأمر أيضاً إلى كلية موجبة هي " كل من حوسب بجميع أعماله عذب " وذلك شامل لكل حساب سواء كان يسيراً أو لا ، لأن الأعم يشمل جميع أخصّياته ، والآية مثبتة أن من أعطي كتابه بيمينه يحاسب عليه ولا يهلك ، والصديقة ـ رضى الله عنه ـ ا عالمة بأن الكتاب يثبت فيه جميع الأعمال من قوله تعالى : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ﴾ [الكهف : 49] ومن حديث الحافظين وغير ذلك ، فرجع الأمر إلى أن بعض من يحاسب بجميع أعماله لا يهلك ، وحينئذ فالظاهر التعارض فسألت ، فأقرها ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإشكال وأجابها بما حاصله أن المراد بالحساب في الحديث مدلوله المطابقي ،

(60/809)

وهو ذكر الأعمال كلها – والمقابلة على كل منها ، وذلك هو معنى المناقشة ، فمعنى " من نوقش الحساب " من حوسب حساباً حقيقياً بذكر جميع أعماله والمقابلة على كل منها ، وأن المراد بالحساب في الآية جزء المعنى المطابقي وهو ذكر الأعمال فقط من غير مقابلة ، وذلك بدلالة التضمن مجازاً مرسلاً لأنه إطلاق اسم الكل على الجزء ، ولأجل هذا كانت الصديقة رضي الله تعالى عنها تقول بعد هذا في تفسير الآية : يقرر بذنوبه ثم يتجاوز عنها – كما نقله عنها أبو حيان ، وعلى ذلك دل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الشيخان عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ :

" إن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيضع كنفه عليه ويستره ثم يقول له : أتعرف ذنب كذا – حتى يذكره بذنوبه كلها ويرى في نفسه أنه قد هلك ، قال الرب سبحانه : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم " ولفظ "كنفه " يدل على ذلك فإن كنف الطائر جناحه ، وهو إذا وقع فرخه في كنفه عامله بغاية اللطف ، فالله تعالى أرحم وألطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 367 . 371 ﴾

(61/809)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ ويصلى ﴾ ثلاثياً مفتوح العين مبنياً للفاعل : أبو عمرو وسهل ويعقوب ويزيد وحمزة وعاصم وخلف . الباقون ﴿ يصلى ﴾ بالتشديد مبنياً للمفعول ﴿ لتركبن ﴾ بفتح الباء للتوحيد والخطاب للإنسان : ابن كثير وحمزة وعلي وخلف . الآخرون : بالضم على خطاب أفراد الجنس .

الوقوف ﴿ انشقت ﴾ ه لا ﴿ وحقت ﴾ ه ك ﴿ مدّت ﴾ ه ك ﴿ وتخلت ﴾ ه ك ﴿ وحقت ﴾ ه ط لأن الجواب محذوف أي إذا كانت هذه الأمارات ظهر ما ظهر ﴿ فملاقيه ﴾ ه ط وقد يقال عامل " إذا " ﴿ فملاقيه ﴾ أي إذا السماء انشقت لاقى كدحه فلا وقف إلى قوله ﴿ فملاقيه ﴾ وقيل : قوله ﴿ فأما من أوتي ﴾ الشرط مع جوابه جواب للشرط الأول ، وقوله ﴿ يأيها الإنسان ﴾ إلى قوله ﴿ فملاقيه ﴾ اعترض ولا وقف على ﴿ بيمينه ﴾ ﴿ يسيراً ﴾ ه ك ﴿ مسروراً ﴾ ه ط ﴿ ظهره ﴾ ه لا ﴿ ثبوراً ﴾ ه لا ﴿ سعيراً ﴾ ه ط ﴿ مسروراً ﴾ ه ﴿ يحور ﴾ ه لا ﴿ بلى ﴾ ج لجواز تعلق بلى بما قبله وبما بعده ﴿ بصيراً ﴾ ه ط للإبتداء بالقسم ﴿ بالشفق ﴾ ه لا ﴿ وسق ﴾ ه لا ﴿ اتسق ﴾ ه لا ﴿ طبق ﴾ ه ك ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ك ﴿ لا يسجدون ﴾ ه ط ﴿ يكذبون ﴾ ه ز للآية والوصل أوجب لأن الواو للحال ﴿ يوعون ﴾ ه ز لفاء التعقيب ﴿

أليم ﴾ ه لا ﴿ ممنون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 468 .

469 ﴾

(62/809)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

أما انشقاق السماء فقد مر شرحه في مواضع من القرآن ، وعن علي عليه السلام أنها تنشق من المجرة ، أما قوله : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ ومعنى أذن له استمع ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن " وأنشد أبو عبيدة والمبرد والزجاج قول قعنب :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

والمعنى أنه لم يوجد في جرم السماء ما يمنع من تأثير قدرة الله تعالى في شقها وتفريق أجزائها ، فكانت في قبول ذلك التأثير كالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المالك أنصت له وأذعن ، ولم يمتنع فقوله : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] يدل على نفاذ القدرة

في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً ، وقوله ههنا : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ يدل على نفوذ القدرة في التفريق والإعدام والإفناء من غير ممانعة أصلاً ، وأما قوله : ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ فهو من قولك هو محقوق بكذا ، وحقيق به .

(63/809)

يعني وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع وذلك لأنه جسم ، وكل جسم فهو ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فإن الوجود والعدم بالنسبة إليه على السوية ، وكل ما كان كذلك ، كان ترجيح وجوده على عدمه أو ترجيح عدمه على وجوده ، لا بد وأن يكون بتأثير واجب الوجود وترجيحه فيكون تأثير قدرته في إيجاده ، وإعدامه ، نافذاً سارياً من غير ممانعة أصلاً ، وأما الممكن فليس له إلا القبول والاستعداد ، ومثل هذا الشيء حقيق به أن يكون قابلاً للوجود تارة ، وللعدم أخرى من واجب الوجود ، أما قوله : ﴿ وَإِذَا الأَرض مُدَّتْ ﴾ ففيه وجهان الأول : أنه مأخوذ من مد الشيء فامتد ، وهو أن تزال حبالها بالنسف كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] يسوي ظهرها ، كما قال : ﴿ قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴾ [طه : 107 106] وعن ابن عباس مدت مد الأديم الكاظمي ، لأن الأديم إذا مد زال كل انثناء فيه واستوى والثاني :

أنه مأخوذ من مده بمعنى أمده أي يزاد في سعتها يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب ، واعلم أنه لا بد من الزيادة في وجه الأرض سواء كان ذلك بتمديدها أو بإمدادها ، لأن خلق الأولين والآخرين لما كانوا واقفين يوم القيامة على ظهرها ، فلا بد من الزيادة في طولها وعرضها ، أما قوله : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ فالمعنى أنها لما مدت رمت بما في جوفها من الموتى والكنوز ، وهو كقوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ [الإنفطار : 4] ﴿ وَبُعْثِرَ مَا فِى القبور ﴾ [العاديات : 9] وكقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً * أَحْيَاءاً وأمواتا ﴾ [المرسلات : 26 25] وأما قوله : ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ فالمعنى وخلت غاية الخلو حتى لم يبق في باطنها شيء كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو ، كما يقال : تكرم الكريم ، وترحم الرحيم .

(64/809)

إذا بلغا جهدهما في الكرم الرحمة وتكلفاً فوق ما في طبعهما ، واعلم أن التحقيق أن الله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء من بطن الأرض إلى ظهرها ، لكن الأرض وصفت بذلك على سبيل التوسع ، وأما قوله : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ فقد تقدم تفسيره إلا أن الأول في السماء وهذا في الأرض ، وإذا اختلف وجه الكلام لم يكن تكراراً .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] إلى قوله : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ شرط ولا بد له من جزاء واختلفوا فيه على وجوه أحدها : قال صاحب الكشاف : حذف جواب إذا ليذهب الوهم إلى كل شيء فيكون أدخل في التهويل وثانيها : قال الفراء : إنما ترك الجواب لأن هذا المعنى معروف قد تردد في القرآن معناه فعرف ، ونظيره قوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ترك ذكر القرآن لأن التصريح به قد تقدم في سائر المواضع وثالثها : قال بعض المحققين : الجواب هو قوله : ﴿ فملاقيه ﴾ وقوله : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ [الإنشقاق : 6] معترض ، وهو كقول القائل إذا كان كذا وكذا يا أيها الإنسان ترى عند ذلك ما عملت من خير أو شر ، فكذا ههنا .

(65/809)

والتقدير إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله ورابعها : أن المعنى محمول على التقديم والتأخير فكأنه قيل : يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه إذا السماء انشقت وقامت القيامة وخامسها : قال الكسائي : إن الجواب في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه ﴾

[الإنشقاق : 7] واعترض في الكلام قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ والمعنى إذا السماء انشقت ، وكان كذا وكذا من أوتي كتابه بيمينه فهو كذا ومن أوتي كتابه وراء ظهره فهو كذا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : 38] ، وسادسها : قال القاضي : إن الجواب ما دل عليه قوله : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ كأنه تعالى قال : يا أيها الإنسان ترى ما عملت فاكدح لذلك اليوم أيها الإنسان لتفوز بالنعيم أما قوله : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ ففيه قولان : الأول : أن المراد جنس الناس كما يقال : أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، فكذا ههنا .

(66/809)

وكأنه خطاب خص به كل واحد من الناس ، قال القفال : وهو أبلغ من العموم لأنه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العام فإنه لا يكون كذلك والثاني : أن المراد منه رجل بعينه ، وههنا فيه قولان : الأول : أن المراد به محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى أنك تكدح في إبلاغ رسالات الله وإرشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار ، فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل وهو غير ضائع عنده الثاني : قال ابن عباس : هو أُبيّ بن خلف ، وكدحه جده واجتهاده في طلب الدنيا ، وإيذاء الرسول عليه السلام ،

والإصرار على الكفر ، والأقرب أنه محمول على الجنس لأنه أكثر فائدة ، ولأن قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإنشقاق : 7] ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ [الإنشقاق : 10] كالنوعين له ، وذلك لا يتم إلا إذا كان جنساً ، أما قوله : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ فاعلم أن الكدح جهد الناس في العمل والكدح فيه حتى يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه ، أما قوله : ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه أحدها : إنك كادح إلى لقاء ربك وهو الموت أي هذا الكدح يستمر ويبقى إلى هذا الزمان ، وأقول في هذا التفسير نكتة لطيفة ، وذلك لأنها تقتضي أن الإنسان لا ينفك في هذه الحياة الدنيوية من أولها إلى آخرها عن الكدح والمشقة والتعب ، ولما كانت كلمة إلى لانتهاء الغاية ، فهي تدل على وجوب انتهاء الكدح والمشقة بانتهاء هذه الحياة ، وأن يكون الحاصل بعد هذه الدنيا محض السعادة والرحمة ، وذلك معقول ، فإن نسبة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الدنيا إلى رحم الأم ، فكما صح أن يقال : يا أيها الجنين إنك كادح إلى أن تنفصل من الرحم ، فكان ما بعد الانفصال عن الرحم بالنسبة إلى ما قبله خالصاً عن الكدح والظلمة فنرجوا من فضل الله أن يكون الحال فيما بعد الموت كذلك وثانيهما : قال القفال : التقدير إنك كادح في دنياك كدحاً تصير به إلى ربك فبهذا

التأويل حسن استعمال حرف إلى ههنا وثالثها : يحتمل أن يكون دخول إلى على معنى أن الكدح هو السعي ، فكأنه قال : ساع بعملك ﴿ إلى ربّكَ ﴾ أما قوله تعالى :

﴿ فملاقيه ﴾ ففيه قولان : الأول : قال الزجاج : فملاق ربك أي ملاق حكمه لا مفر لك منه ، وقال آخرون : الضمير عائد إلى الكدح ، إلا أن الكدح عمل وهو عرض لا يبقى فملاقاته ممتنعة ، فوجب أن يكون المراد ملاقاة الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال ، ويتأكد هذا التأويل بقوله بعد هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بِيَمِينِهِ ﴾ .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9)

فالمعنى فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ وسوف من الله واجب وهو كقول القائل : اتبعني فسوف نجد خيراً ، فإنه لا يريد به الشك ، وإنما يريد ترقيق الكلام .

والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله ، ويعرف أن الطاعة منها هذه ، والمعصية هذه ، ثم يثاب على الطاعة ويتجاوز عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة على صاحبه ولا مناقشة ، ولا يقال له : لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه ولا بالحجة عليه .

فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذراً ولا حجة فيفتضح ، ثم إنه عند هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله مسروراً فائزاً بالثواب آمناً من العذاب ، والمراد من أهله أهل الجنة من الحور العين أو من زوجاته وذرياته إذا كانوا مؤمنين ، فدلت هذه الآية على أنه سبحانه أعد له ولأهله في الجنة ما يليق به من الثواب ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم حاسبني حساباً يسيراً ، قلت وما الحساب اليسير ؟ قال : ينظر في كتابه ويتجاوز عن سيئاته ، فأما من نوقش في الحساب فقد هلك " وعن عائشة قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نوقش الحساب فقد هلك " فقلت : يا رسول الله إن الله يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ قال : " ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب عذب " وفي قوله : يحاسب إشكال لأن المحاسبة تكون بين اثنين ، وليس في القيامة لأحد قبل ربه مطالبة فيحاسبه وجوابه : أن العبد يقول : إلهي فعلت المعصية الفلانية ، فكأن ذلك بين الرب والعبد محاسبة والدليل على أنه تعالى خص الكفار بأنه لا يكلمهم ، فدل ذلك على أنه يكلم

المطيعين والعبد يكلمه فكانت المكالمة محاسبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 94.97 ﴾

(69/809)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾

أي انصدعت ، وتفطرتْ بالغَمام ، والغَمام مثل السحاب الأبيض .

وكذا رَوَى أبو صالح عن ابن عباس .

وروي عن عليّ عليه السلام قال : تُشَقّ من المجرة .

وقال : المُجَرَّة باب السماء .

وهذا من أشراط الساعة وعلاماتها .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي سمِعت ، وحق لها أن تسمع .

رُوِي معناه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أَذِن الله لشيء كَأَذَنه لنبيّ يتغنى بالقرآن " أي ما استمع الله لشيء ؛ قال الشاعر :

صُمٌّ إذا سمِعوا خيراً ذُكِرتُ به . . .

وإن ذُكِرتْ بِسُوءٍ عِندهم أَذِنُوا

أي سمعوا .

وقال قعنب بن أمّ صاحب :

إِنْ يأذَنُوا رِيبةً طاروا بها فرحاً . . .

وما هُمُ أَذِنوا من صالحٍ دَفَنُوا

وقيل : المعنى وحقَّق الله عليها الاستماعَ لأمره بالانشقاق .

وقال الضحاك : حُقَّتْ : أطاعت ، وحُقّ لها أن تطيع ربها ، لأنه خلقها ؛ يقال : فلان محقوق بكذا .

وطاعة السماء : بمعنى أنها لا تمتنع مما أراد الله بها ، ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجيب .

وقال قتادة : حق لها أن تفعل ذلك ؛ ومنه قول كثير :

فإن تكنِ العُتْبى فأَهلاً ومَرْحَباً . . .

وحُقَّتْ لها العُتْبَى لدينا وقَلَّتِ

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ أي بُسِطَت ودُكَّت جِبالها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تُمَدّ مَدَّ الأديم " لأن الأديم إذا مدّ زال كل انثناء فيه وامتد واستوى .

قال ابن عباس وابن مسعود : ويزاد ، وسعتها كذا وكذا ؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه ، لكثرة الخلائق فيها .

وقد مضى في سورة "إبراهيم" أن الأرض تبدل بأرض أخرى وهي الساهِرة في قول ابن عباس على ما تقدم عنه .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي أخرجت أمواتها ، وتخلت عنهم .

(70/809)

وقال ابن جُبَير : ألقت ما في بطنها من الموتى ، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء .

وقيل : ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها ، وتخلت منها .

أي خلا جوفها ، فليس في بطنها شيء ، وذلك يؤذن بعظم الأمر ، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة .

وقيل : تَخَلَّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها .

وقيل : أَلْقَتْ ما استودعت ، وتخلت مما استحفظت ؛ لأن الله تعالى استودعها عباده أحياء وأمواتاً ، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتاً .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي في إلقاء موتاها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تسمع أمره .

واختلف في جواب "إذا" فقال الفراء : "أَذِنت" .

والواو زائدة ، وكذلك "وأَلْقَتْ" .

ابن الأنباري : قال بعض المفسرين : جواب "إذا السماء انشقت" "أَذِنت" ، وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط ؛ لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع "حتى إذا" كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] ومع "لما" كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ ﴾

[الصافات : 103-104] معناه "ناديناهُ" والواو لا تقحم مع غير هذين .

وقيل : الجواب فاء مضمرة كأنه قال : "إذا السماء انشقت" فايأيها الإنسان إنك كادح .

وقيل : جوابها ما دل عليه "فمُلاقِيهِ" أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أي ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾ "إِذا السماء انشقت" .

قال المبرد .

وعنه أيضاً : الجواب "فأما من أوتي كِتابه بِيمينِهِ" وهو قول الكسائي ؛ أي إذا السماء انشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح ما قيل فيه وأحسنه .

قيل : هو بمعنى اذكر ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ .

وقيل : الجواب محذوف لعلم المخاطبين به ؛ أي إذا كانت هذه الأشياء علم المكذِّبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم .

(71/809)

وقيل : تقدّم منهم سؤال عن وقت القيامة ، فقيل لهم : إذا ظهرت أشراطها كانت القيامة ، فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها .

والقرآن كالآية الواحدة في دلالة البعض على البعض .

وعن الحسن : إن قوله ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ قسم .

والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾

المراد بالإنسان الجنس أي يا بن آدم .

وكذا روى سعيد عن قتادة : يا بن آدم ، إن كَدْحَك لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ولا قوّة إلا بالله .

وقيل : هو مُعَيَّن ؛ قال مقاتل : يعني الأسود بن عبد الأسد .

ويقال : يعني أُبَيَّ بن خَلَف .

ويقال : يعني جميع الكفار ؛ أيها الكافر إنك كادح .

والكدح في كلام العرب : العمل والكسب ؛ قال ابن مقبل :

وما الدهرُ إلا تارتانِ فمِنهما . . .

أَموت وأُخرى أبتغِي العيش أكدح

قال آخر :

ومَضَتْ بشاشةُ كل عيشٍ صالِحٍ . . .

وبَقِيتُ أَكدحِ للحياةِ وأَنصِب

أي أعمل .

وروى الضحاك عن ابن عباس : "إِنك كادِح" أي راجع "إِلى ربك كدحاً" أي رجوعاً لا محالة ﴿ فَمُلاَقِيهِ ﴾ أي مُلاقٍ ربك .

وقيل : مُلاقٍ عملك .

القتبيّ "إِنك كادح" أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك .

والملاقاة بمعنى اللقاء أي تلقى ربك بعملك .

وقيل أي تلاقي كتاب عملك ؛ لأن العمل قد انقضى ولهذا قال : " فأما مَنْ أُوتِيَ كِتابه بيمينه" .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهو المؤمن ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ لا مناقشة فيه .

(72/809)

كذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث " عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من حوسب يوم القيامة عُذِّب" قالت : فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ فقال : "ليس ذاكِ الحساب ، إنما ذلكِ العَرْضُ ، مَنْ نُوقِش الحساب يوم القيامة عذب" " أخرجه البخاري ومسلم والترمذيّ .

وقال حديث حسن صحيح .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أزواجه في الجنة من الحور العين "مسروراً" أي مغتبطاً قرير العين .

ويقال إنها نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد ، هو أوّل من هاجر من مكة إلى المدينة .

وقيل : إلى أهله الذين كانوا له في الدينا ، ليخبرهم بخلاصه وسلامته .

والأوّل قول قتادة .

أي إلى أهله الذين قد أعدّهم الله له في الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(73/809)

وقال الثعالبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ الآية ،

هذه أَوْصافُ يوم القيامةِ ﴿ وَأَذِنَتْ ﴾ معناه : اسْتَمَعَتْ وسَمِعَتْ أَمْرَ ربّها ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ أَذَنَهُ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بالقُرآنِ " ، و ﴿ حُقَّتْ ﴾ قال ابن عباس : معناه : وحُقَّ لها أَنْ تَسْمَع وتطيع ، ويحتمل أَن يريدَ : وحُقَّ لها أن تنشقَ لشدةِ الهولِ وخوفِ اللَّه تعالى ، ومدُّ الأَرْضِ هي إزالةُ جبالِها حتى لا يبقى فيها عوجٌ ولا أَمْتٌ ، وفي الحديث : " تُمَدُّ مَدَّ الأَدِيمِ " ، و ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ يعني : من الموتَى ؛ قاله الجمهورُ . وخَرَّجَ الختلي أبو القاسمِ إسحاقُ بن إبراهيم في كتاب «الدّيباج» له بسندهِ عن نافعٍ عن ابن عمرَ " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ إِذَا السماء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ قال : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقَّ عَنْهُ الأَرْضُ فَأَجْلِسُ جَالِساً فِي قَبْرِي ، فَيُفْتَحُ لِي بَابٌ إِلَى السَّمَاءِ بِحِيَالِ رَأْسِي

حتى أَنْظُرَ إِلَى العَرْشِ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ مِنْ تَحْتِي ؛ حتى أَنْظُرَ إِلَى الأَرْضِ السَّابِعَةِ ؛ حتى أَنْظُرَ إلى الثرى ، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ عَنْ يَمِينِي حتى أَنْظُرَ إِلَى الجَنَّةِ وَمَنَازِلِ أَصْحَابِي ، وَإِنَّ الأَرْضَ تَحَرَّكَتْ تَحْتِي فَقُلْتُ : مَا لَكِ أَيَّتُهَا الأَرْضُ ؟ قَالَتْ : إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُلْقِيَ مَا فِي جَوْفِي ، وأَنْ أَتَخَلَّى ؛ فَأَكُونَ كَمَا كُنْتُ ؛ إِذْ لاَ شَيْءَ فِيَّ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ " ، الحديثَ ، انتهى من «التذكرة» ، و ﴿ تخلّت ﴾ معناه خَلَّتْ عَمَّا كَانَ فيها لَمْ تَتَمَسَّكْ منهم بشيء .

(74/809)

﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ . . . ﴾ الآية ،

الكادحُ : العاملُ بشدّةٍ واجتهادٍ ، والمعنى : إنَّك عامل خيراً أو شراً ، وأنتَ لا محالةَ ملاقِيه ، أي : فكنْ على حَذَرٍ من هذهِ الحالِ ، واعملْ صالحاً تَجدْه ، وأما الضميرُ في ﴿ مُلاَقِيهِ ﴾ فقال الجمهور : هو عائدٌ على الربّ تعالى ، وقال بعضُهم : هو عائدٌ على الكَدْحِ * ت * : وهو ظاهرُ الآيةِ ، والمعْنَى ملاقٍ جزاءَه ، والحسابُ اليسيرُ : هو العَرْضُ ؛ ومن نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ ؛ كذا في الحديث الصحيح ، وعن عائشةَ : هو أن يعرفَ ذنوبَه ثم يُتَجَاوَزَ

عنْه ، ونحوُه في الصحيح عن ابن عمر ، انتهى ، وفي الحديث " عن عائشةَ قالتْ : سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ في بَعْضِ صَلاَتِهِ : «اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَاباً يَسِيراً ، فَلَمَّا انصرف ؛ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْحِسَابُ اليَسِيرُ ؟ قال : أَنْ يَنْظُرَ في كِتَابِهِ ويَتَجَاوَزَ عَنْهُ ؛ إنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَا عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ هَلَكَ ، وكُلُّ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةَ تَشُوكُهُ» " ، قال صاحب «السلاح» : رواه الحَاكِمُ في «المُسْتَدْرَكِ» ، وقال : صحيحٌ على شَرْطِ مُسْلِمٍ ، انتهى ، ورَوَى ابن عُمَرَ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدُّنْيَا ، هَوَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ " ؛ قال عِزُّ الدينِ بنُ عَبدِ السَّلاَمِ في اختصاره ل«رعاية المحاسبي» : أجمع العلماءُ على وجوبِ محاسَبَةِ النفسِ فيما سَلَفَ من الأعمال وفيما يُسْتَقْبَلُ منها ، «فالْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتمنى عَلَى اللَّهِ» ، انتهى .

(75/809)

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي : الذين أعدَّهمُ اللَّه لهُ في الجنةِ ، وأما الكافر فرُوِيَ أنَّ يَدَه تدخُلُ من صَدْرِه حتَّى تَخْرُجَ من وراءِ ظهرِه فيأخذ كتابَه بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾

أي بالغمام كما روى عن ابن عباس وذهب إليه الفراء والزجاج كما في "البحر" ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] فالقرآن يفسر بعضه بعضاً وقيل تنشق لهول يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 16] وبحث فيه بأنه لا ينافي أن يكون الانشقاق بالغمام وأخرج ابن أبي حاتم عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها تنشق من المجرة وفي الآثار أنها باب السماء وأهل الهيئة يقولون إنها نجوم صغار متقاربة جداً غير متميزة في الحسن ويظهر ذلك ظهوراً بيناً لمن نظر إليها بالارصاد ولا منافاة على ما قيل من أن المراد بكونها باب السماء أن مهبط الملائكة عليهم السلام ومصعدهم من جهتها وذلك بجامع كونها نجوماً صغاراً متقاربة غير متميزة في الحسن وخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذاً إلى أهل اليمن فقال له يا معاذ إنهم سائلوك عن المجرة فقل هي لعاب حية تحت العرش ومنه قيل إنها في "البحر" المكفوف تحت السماء لا يكاد يصح والقول المذكور لا ينبغي أن يحكي إلا لينبه على حاله وقرأ عبيد بن

عقيل عن أبي عمرو وانشقت وكذا ما بعد من نظائره بإشمام التاء كسراً في الوقف وحكى عنه أيضاً الكسر أبو عبيد الله بن خالويه وذلك لغة طيء على ما قيل وعن أبي حاتم سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه لتاء أي تاء التأنيث اللاحقة للفعل وهي لغة ولعل ذلك لأن الفواصل قد تجري مجرى القوافي فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي كما في قول كثير عزة من قصيدة

وما أنا بالداعي لعزة بالردي . . .

ولا شامت إن قيل عزة ذلت

إلى غير ذلك من أبيات تلك القصيدة تكسر في الفواصل وإجراء الفواصل في الوقف مجرى القوافي مهيع معروف كقوله تعالى : ﴿ الظنونا ﴾ و ﴿ الرسولا ﴾ في سورة الأحزاب وحمل الوصل على حالة الوقف موجود أيضاً في الفواصل .

(77/809)

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي استمعت له تعالى يقال أذن إذا سمع قال الشاعر

: صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . .

وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا

وقال قعنب

: إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا . . .

وما هم أذنوا من صالح دفنوا

والاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة أي انقادت لتأثير قدرته عز وجل حين تعلقت إرادته سبحانه بانشقاقه انقياد المؤمور المطواع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم وهذه الجملة ونظيرتها بعد قيل بمنزلة قوله تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] في الانباء عن كون ما نسب إلى السماء والأرض من الانشقاق والمد وغيرهما جارياً على مقتضى الحكمة على ما قرروه ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد لكن لا بعد إن لم تكن كذلك بل في نفسها وحد ذاتها من قولهم هو محقوق بكذا وحقيق به وحاصل المعنى انقادت لربها وهي حقيقة وجديرة بالانقياد لما أن القدرة الربانية لاي تعاصاها أمر من الأمور لا لأمر اختصت به من بين الممكنات وذكر بعضهم أن أصل الكلام حق الله تعالى عليها بذلك أي حكم عليها بتحتم الانقياد على معنى أراده سبحانه منها إرادة لا نقض لها وقيل المعنى وحق لها أن تنشق لشدة الهول والجملة على ما اختاره بعض الأجلة اعتراض مقرر لما قبلها وقيل معطوفة عليه وليس بذاك .

﴿ وَإِذَا الأَرض مُدَّتْ ﴾ قال الضحاك بسطت باندكاك جبالها وآكامها وتسويتها

فصارت قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً وقال بعضهم زيدت سعة وبسطة من مده بمعنى أمده أي زاده ونحوه ما قيل جرت فزاد انبساطها وعظمت سعتها وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه "

(78/809)

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ أي رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز كما أخرج ذلك عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة وإليه ذهب الزجاج واقتصر بعضهم كابن جبير وجماعة على الموتى بناء على أن إلقاء الكنوز إذا خرج الدجال وكأن من ذهب إلى الأول لا يسلم إلقاء الكنوز يومئذ ولو سلم يقول يجوز أن لا يكون عاماً لجميع الكنوز وإنما يكون كذلك يوم القيامة والقول بأن يوم القيامة متسع يجوز أن يدخل فيه وقت خروج الدجال ينبغي أن يلقى ولا يلتفت إليه ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أي وخلت عما فيها غاية الخلو حتى لم يبق فيها شيء من ذلك كأنها تكلفت في ذلك أقصى جهدها فصيغة التفعل للتكلف والمقصود منه المبالغة كما في قولك تحلم الحليم وتكرم الكريم وقيل تخلت ممن على ظهرها من الإحياء وقيل مما على ظهرها من جبالها وبحارها وكلا القولين كما ترى وقد أخرج أبو القاسم الجيلي في

الديباج عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول من تنشق عنه الأرض فاجلس جالساً في قبري وأن الأرض تحرك بي فقلت لها مالك فقالت إن ربي أمرني أن ألقى ما في جوفي وأن أتخلى فأكون كما كنت إذ لا شيء في ذلك وقوله تعالى :

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ وتخلت .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاء وما بعده ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ الكلام فيه نظير ما تقدم وفيه إشارة إلى أن ما ذكر وإن أسند إلى الأرض فهو بفعل الله تعالى وقدرته عز وجل وتكرير كلمة إذا لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة .

﴿ ويا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾

أي جاهد ومجد جداً في عملك من خير وشر ﴿ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ أي طول حياتك إلى لقاء ربك أي إلى الموت وما بعده من الأحوال الممثلة باللقاء والكدح جهد النفس في العمل حتى يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه قال ابن مقيل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما . . .

أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقال آخر

: ومضت بشاشة كل عيش صالح . . .

وبقيت أكدح للحياة وأنصب ﴾

فملاقيه ﴾ أي فملاق له عقيب ذلك لا محالة من غير صارف يوليك عنه والضمير له عز وجل أي فملاقي جزائه تعالى وقيل هو للكدح أي فملاقي جزاء الكدح وبولغ فيه على نحو إنما هي أعمالكم ترد إليكم والظاهر أن ملاقيه معطوف على كادح على القولين

وقال ابن عطية بعد ذكره الثاني فالفاء على هذا عاطفة جملة الكلام على الجملة التي قبلها والتقدير فأنت ملاقيه ولا يظهر وجه التخصيص والمراد بالإنسان الجنس كما يؤذن به التقسيم بعد وقال مقاتل المراد به الأسود بن هلال المخزومي جادل أخاه أبا سلمة في أمر البعث فقال أبو سلمة أي والذي خلقك لتركبن الطبقة ولتوافين العقبة فقال الأسود فأين الأرض والسماء وما حال الناس وكأنه أراد أنها نزلت فيه وهي تعم الجنس وقيل المراد أبي بن خلف كان يكدح في طلب الدنيا وإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والإصرار على الكفر ولعل القائل أراد ذلك أيضاً وأبعد غاية الإبعاد من ذهب إلى أنه الرسول عليه الصلاة والسلام على أن المعنى إنك تكدح في إبلاغ رسالات الله عز وجل وإرشاد عباده سبحانه واحتمال الضرر من الكفار فأبشر فإنك تلقى الله تعالى بهذا العمل وهو غير ضائع عنده جل شأنه وجواب إذا قيل قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ الخ كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ [الإنشقاق : 6] الخ اعتراض وقيل هو محذوف للتهويل أي كان ما كان مما يضيق عنه نطاق البيان وقدره بعضهم نحو ما صرح به في سورتي التكوير والانفطار وقيل هو ما دل عليه ﴿ القرءان خَلَقَ الإنسان ﴾ الخ وتقديره لاقى الإنسان كدحه وقيل هو نفسه على حذف الفاء والأصل في أيها الإنسان أو بتقدير يقال وقال الأخفش والمبرد هو قوله تعالى : ﴿ فملاقيه ﴾ بتقدير فأنت ملاقيه ليكون مع المقدر جملة وعلى هذا جملة يا أيها الإنسان الخ معترضة وقال ابن الانباري والبلخي هو ﴿ وأذنت ﴾ على زيادة الواو كما قيل في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 73] وعن الأخفش أن إذا هنا لا جواب لها لأنها ليست بشرطية بل هي في ﴿ إذا السماء ﴾ [الانشقاق : 1] متجردة عنها مبتدأ وفي ﴿ وإذا الأرض ﴾ [الانشقاق : 3] خبر والواو زائدة أي وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض وقيل لا جواب لها لأنها ليست بذلك بل متجردة عن الشرطية واقعة مفعولاً لا ذكر محذوفاً ولا

يخفى ما في بعض هذه الأقوال من الضعف ولعل الأولى منها الأولان والحساب اليسير السهل الذي لا مناقشة فيه كما قيل وفسره عليه الصلاة والسلام بالعرض وبالنظر في الكتاب مع التجاوز فقد أخرج الشيخان والترمذي وأبو داود عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ليس أحد يحاسب إلا هلك قلت يا رسول الله جعلني الله تعالى فداك أليس الله تعالى يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ قال ذلك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك " وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه والحاكم

(81/809)

وصححه عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف عليه الصلاة والسلام قلت يا رسول الله ما الحساب اليسير قال أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي عشيرته المؤمنين مبتهجاً بحاله قائلاً ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] وقيل أي فريق المؤمنين ملطاً وإن لم يكونوا عشيرته إذ كل المؤمنين أهل للمؤمن من جهة الاشتراك في الايمان وقيل أي إلى خاصته ومن أعده الله تعالى له في

الجنة من الحور والغلمان وأخرج هذا ابن المنذر عن مجاهد وقرأ زيد بن علي ويقلب مضارع قلب مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(82/809)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

قدم الظرف ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ على عامله وهو ﴿ كادح ﴾ للتهويل والتشويق إلى الخبر وأول الكلام في الاعتبار : يا أيها الإِنسان إنك كادح إذا السماء انشقت الخ .

ولكن لما تعلق ﴿ إذا ﴾ بجزء من جملة ﴿ إنك كادح ﴾ وكانت ﴿ إذا ﴾ ظرفاً متضمناً معنى الشرط صار : يا أيها الإنسان إنك كادح جواباً لشرط ﴿ إذا ﴾ ولذلك يقولون ﴿ إذا ﴾ ظرف خافض لشرطه منصوب بجوابه ، أي خافض لجملة شرطه بإضافته إليها منصوباً بجوابه لتعلقه به فكلاهما عامل ومعمول باختلاف الاعتبار .

و ﴿ إذا ﴾ ظرف للزمان المستقبل ، والفعل الذي في الجملة المضافة إليه ﴿ إذا ﴾ مؤول بالمستقبل وصيغ بالمضيّ للتنبيه على تحقق وقوعه لأن أصل ﴿ إذا ﴾ القطع بوقوع الشرط .

وانشقت مطاوع شَقَّها ، أي حين يشقُّ السماءَ شَاق فتنشق ، أي يريد الله شقها فانشقت كما دل عليه قوله بعده : ﴿ وأذنت لربها ﴾ .

والانشقاق هذا هو الانفطار الذي تقدم في قوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] وهو انشقاق يلوح للناس في جوّ السماء من جرّاء اختلال تركيب الكرة الهوائية أو من ظهور أجرام كوكبية تخرج عن دوائرها المعتادة في الجو الأعلى فتنشق القبة الهوائية فهو انشقاق يقع عند اختلال نظام هذا العالم .

وقدّم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ دون أن يقال : إذا انشقت السماء لإفادة تقوّي الحكم وهو التعليق الشرطي ، أي إن هذا الشرط محقق الوقوع ، زيادة على ما يقتضيه ﴿ إذا ﴾ في الشرطية من قصد الجزم بحصول الشرط بخلاف (إنْ) .

﴿ وأذنت ﴾ ، أي استمعت ، وفِعل أَذِن مشتق من اسم جامد وهو اسم الأُذْن بضم الهمزة آلة السمع في الإِنسان يقال أَذِن له كما يقال : استمع له ، أي أصغى إليه أُذُنَهُ .

وهو هنا مجاز مرسل في التأثر لأمر الله التكويني بأن تنشق .

وليس هو باستعارة تبعية ولا تمثيلية .

والتعبير بـ "ربها" دون غير ذلك من أسماء الله وطرق تعريفه ، لِمَا يؤذن به وصف الرب من الملك والتدبير .

وجملة : ﴿ وحقت ﴾ معترضة بين المعطوفة والمعطوف عليه .

والمعنى : وهي محقوقة بأن تَأْذِن لربّها لأنها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سمكها واشتدّ خَلقها وطال زمان رتقها فما ذلك كله إلا من تقدير الله لها ، فهو الذي إذا شاء أزالها .

فمتعلّق ﴿ حقّت ﴾ محذوف دل عليه فعل : ﴿ وأذنت لربها ﴾ ، أي وحقت بذلك الانقياد والتأثر يقال : حُقّ فلان بكذا ، أي توجه عليه حقّ .

ولما كان فاعل توجيه الحَق غيرَ واضح تعيينُه غالباً ، كان فهل حُقّ بكذا ، مبنياً للمجهول في الاستعمال ، ومرفوعه بمعنى اسم المفعول ، فيقال : حقيق عليه كذا ، كقوله تعالى : ﴿ حقيق على أن لا أقول على اللَّه إلا الحق ﴾ [الأعراف : 105] وهو محقوق بكذا ، قال الأعشى :

لمحقُوقه أن تستجيبي لصوته

وأن تعلمي أن المُعان مُوفقُ . . .

والقول في جملة : ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ مثل القول في جملة ﴿ إذا السماء انشقت ﴾

في تقديم المسند إليه على المسند الفعلي .

ومَدّ الأرض : بسطها ، وظاهر هذا أنها يُزال ما عليها من جبال كما يُمد الأديم فتزول انثناءاته كما قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ [طه : 105 107] .

ومن معاني المدّ أن يكون ناشئاً عن اتساع مساحة ظاهرها بتشققها بالزلازل وبروز أجزاء من باطنها إلى سطحها .

ومن معاني المدّ أن يزال تكويرها بتمدد جسمها حتى تصير إلى الاستطالة بعد التكوير .

وذلك كله مما يؤذن باختلال نظام سير الأرض وتغير أحوال الجاذبية وما يحيط بالأرض من كرة الهواء فيعقب ذلك زوالُ هذا العالم .

(84/809)

وقوله : ﴿ وألقت ما فيها ﴾ صالح للحمل على ما يناسب هذه الاحتمالات في مدّ الأرض ومحتمل لأن تنقذف من باطن الأرض أجزاء أخرى يكون لانقذافها أثر في إتلاف الموجودات مثلُ البراكين واندفاعُ الصخور العظيمة وانفجار العيون إلى ظاهر الأرض فيكون طوفان .

﴿ وتخلت ﴾ أي أخرجت ما في باطنها فلما يبق منه شيء لأن فعل تخلّى يدل على قوة الخلوّ عن شيء لما في مادة التفعل من الدلالة على تكلف الفعل كما يقال تكرم فلان إذا بالغ في الإِكرام.

والمعنى: إنه لم يبق مما في باطن الأرض شيء كما قال تعالى: ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة: 2].

وتقدم الكلام على نظير قوله: ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ آنفاً.

وجملة: ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح ﴾ إلى آخره جواب ﴿ إذا ﴾ باعتبار ما فُرع عليه من قوله: ﴿ فملاقيه ﴾ ونسب هذا إلى المبرد، أي لأن المعطوف الأخير بالفاء في الأخبار هو المقصود مما ذكر معه.

فالمعنى: إذا السماء انشقت وإذا الأرض مُدّت لاقيتَ ربك أيها الإنسان بعد كدحك لملاقاته فكان قوله: ﴿ إنك كادح إدماجاً بمنزلة الاعتراض أمام المقصود.

وجوز المبرد أن يكون جواب إذا ﴾ محذوفاً دل عليه قوله: ﴿ فملاقيه ﴾ والتقدير: إذا السماء انشقت إلى آخره لاقيتَ أيها الإنسان ربك.

وجوز الفرّاء أن يكون جواب ﴿ إذا ﴾ قوله ﴿ وأذنت لربها ﴾ وإن الواو زائدة في الجواب.

ورده ابن الأنباري بأن العرب لا تقحم الواو إلا إذا كانت ﴿ إذا ﴾ بعد (حتى) كقوله

تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] أو بعد (لما) كقوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم ﴾ [الصافات : 103 ، 104] الآية .

وقيل : الجواب : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ [الانشقاق : 7] ، ونسب إلى الكسائي واستحسنه أبو جعفر النحاس .

(85/809)

والخطاب لجميع الناس فاللام في قوله : ﴿ الإنسان ﴾ لتعريف الجنس وهو للاستغراق كما دل عليه التفصيل في قوله : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه إلى قوله : كان به بصيراً ﴾ [الانشقاق : 15] .

والمقصود الأول من هذا وعيد المشركين لأنهم الذين كذبوا بالبعث .

فالخطاب بالنسبة إليهم زيادة للإِنذار ، وهو بالنسبة إلى المؤمنين تذكير وتبشير .

وقيل : أريد إنسان معين فقيل : هو الأسود بن عبد الأسد (بالسين المهملة في "الاستيعاب" و"الإِصابة" ووقع في "الكشاف" بالشين المعجمة كما ضبطه الطيبي وقال هو في "جامع الأصول" بالمهملة) ، وقيل : أُبيّ بن خلف ، وقد يكون أحدهما سبب النزول أو هو

ملحوظ ابتداء .

والكدحُ : يطلق على معان كثيرة لا تتحقق أيُّها الحقيقة ، وقد أهمل هذه المادة في "الأساس" فلعله لأنه لم يتحقق المعنى الحقيقي .

وظاهر كلام الراغب أن حقيقته : إتعاب النفس في العمل والكد .

وتعليق مجروره في هذه الآية بحرف (إلى) تؤذن بأن المراد به عمل ينتهي إلى لقاء الله ، فيجوز أن يضمن ﴿ كادح ﴾ معنى ساعٍ لأن كدح الناس في الحياة يتطلبون بعمل اليوم عملاً لغد وهكذا ، وذلك يتقضَّى به زمن العمر الذي هو أجل حياة كل إنسان ويعقبه الموت الذي هو رجوع نفس الإنسان إلى محض تصرف الله ، فلما آل سعيه وكدحه إلى الموت جُعِل كدحُه إلى ربه .

فكأنه قيل : إنك كادح تسعى إلى الموت وهو لقاء ربك ، وعليه فالمجرور ظرف مستقر هو خبر ثان عن حرف (إنَّ) ، ويجوز أن يضمن ﴿ كادح ﴾ معنى ماش فيكون المجرور ظرفاً لغواً .

و﴿ كدحاً ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة لتأكيد ﴿ كادح ﴾ المضمن معنى ساع إلى ربك ، أي ساع إليه لا محالة ولا مفر .

وضمير النصب في "ملاقيه" عائد إلى الرب ، أي فملاق ربك ، أي لا مفر لك من لقاء الله

ولذلك أكد الخبر بإن .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7)

(86/809)

هذا تفصيل الإجمال الذي في قوله : ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ [الانشقاق : 6] أي رجوع جميع الناس أولئك إلى الله ، فمن أوتي كتابه بيمينه فريق من الناس هم المؤمنون ومن أوتي كتابه وراء ظهره فريق آخر وهم المشركون كما دلّ عليه قوله : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ ، وبين منتهاهما مراتب .

وإنما جاءت هذه الآية على اعتبار تقسيم الناس يومئذ بين أتقياء ومشركين .

والكِتاب : صحيفة الأعمال ، وجعل إيتاؤه إياه بيمينه شعاراً للسعادةِ لما هو متعارف من أن اليد اليمنى تتناول الأشياء الزكية وهذا في غريزة البشر نشأ عن كون الجانب الأيمن من الجسد أقدر وأبدر للفعل الذي يتعلق العزم بعمله فارتكز في النفوس أن البركة في الجانب الأيمن حتى سَموا البركة والسعادة يُمناً ، ووسموا ضدها بالشؤم فكانت بركة اليمين مما وضعه الله تعالى في أصل فطرة الإنسان ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ في سورة [الصافات : 28] ، وقوله : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب

اليمين ﴾ [الواقعة : 27] .

وقوله : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ في سورة [الواقعة : 41] ، وقوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ في سورة [الواقعة : 8 ، 9] .

والباء في قوله : بيمينه ﴾ للملابسة أو المصاحبة ، أو هي بمعنى (في) ، وهي متعلقة بـ ﴿ أوتي ﴾ .

وحرف (سوف) أصله لحصول الفعل في المستقبل ، والأكثر أن يراد به المستقبل البعيد وذلك هو الشائع ، ويقصد به في الاستعمال البليغ تحقق حصول الفعل واستمراره ومنه قوله تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ في سورة [يوسف : 98] ، وهو هنا مفيد للتحقق والاستمرار بالنسبة إلى الفعل القابل للاستمرارِ وهو ينقلب إلى أهله مسروراً وهو المقصود من هذا الوعد .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ في سورة [النساء : 30] .

والحساب اليسير : هو عَرْض أعماله عليه دون مناقشة فلا يَطول زمنه فيعجَّل به إلى الجنة ، وذلك إذا كانت أعماله صالحة ، فالحساب اليسير كناية عن عدم المؤاخذة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(88/809)

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ وأما من أوتي ﴾ أي بغاية السهولة وإن أبى هو ذلك ﴿ كتابه ﴾ أي صحيفة حسابه ﴿ وراء ظهره ﴾ أي في شماله إيتاء مستغرقاً لجميع جهة الوراء التي هي علم السوء لأنه كان يعمل ما لم يأذن به الله ، فكأنه عمل من ورائه مما يظن أنه يخفى عليه سبحانه ، فكان حقيقاً بأن تعل يمينه إلى عنقه ، وتكون شماله إلى وراء ظهره ، ويوضع كتابه فيها ، وهذا احتباك : ذكر اليمين أولاً يدل على الشمال ثانياً ، وذكر الوراء ثانياً يدل على الأمام أولاً ، وسر ذلك

أنه ذكر دليل المودة والرفق بالمصافحة ونحوها في السعيد ، ودليل الغدر والاغتيال في الشقي ﴿ فسوف يدعوا ﴾ أي بوعد لا محالة في وقوعه أبداً ﴿ ثبوراً ﴾ أي حسرة وندماً بنحو قوله : واثبوراه ، وهو الهلاك الجامع لأنواع المكاره كلها لأن أعماله في الدنيا كانت أعمال الهالكين .

ولما كان ذلك لا يكون إلا لبلاء كبير ، أتبعه ما يمكن أن يكون علة له فقال : ﴿ ويصلى سعيراً ﴾ أي ويغمس في النار التي هي في غاية الاتقاد ويقاسي حرها وهي عاطفة عليه ومحطية به لأنه كان تابعاً لشهواته التي هي محفوفة بها فأوصلته إليها وأحاطت به .

(89/809)

ولما ذكر هذا العذاب الذي لا يطاق ، أتبعه سببه ترهيباً منه واستعطافاً إلى التوبة وتحذيراً من السرور في دار الحزن ، فقال مؤكداً تنبيهاً على أنه لا ينبغي أن يصدق أن عاقلاً يثبت له سرور في الدنيا : ﴿ إنه كان ﴾ أي بما هو له كالجبلة والطبع ﴿ في أهله ﴾ أي في دار العمل ﴿ مسروراً ﴾ أي ثابتاً له السرور بطراً بالمال والجاه فرحاً به مخلداً إليه مترفاً مع الفراغ والفرار عن ذكر حساب الآخرة كما قال في التي قبلها ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ﴾ [المطففين : 31] ، لا يحزن أحدهم لذنب عمله ولا لقبيح ارتكبه ، بل يسر

بكونه يأتي له ذلك فهو يحاسب في الآخرة حساباً عسيراً ، وينقلب إلى أعدائه مغموماً كسيراً ، وقد بان أن الكلام من الاحتباك : ذكر الحساب اليسير الذي هو الثمرة والمسبب أولاً يدل على حذف ضده ثانياً ، وذكر السرور في الأهل الذي هو السبب في الثاني يدل على حذف ضده وهو سبب السعادة وهو الغم ومحاسبة النفس في الأول ، فهو احتباك في احتباك ، ثم علل ثبات سروره فقال مؤكداً تنبيهاً أيضاً على أنه لا يصدق أن أحداً ينكر البعث مع ما له من الدلائل التي تفوت الحصر : ﴿ إنه ظن ﴾ لضعف نظره ﴿ أن ﴾ أي أنه ﴿ لن يحور ﴾ أي يرجع إلى ربه أو ينقص أو يهلك

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24]

فلهذا كان يعمل عمل من لا يخاف عاقبة ﴿ بلى ﴾ ليرجعن صاغراً ناقصاً هالكاً ، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لأجل من ينكر : ﴿ إن ربه ﴾ أي الذي ابتدأ إنشاءه ورباه ﴿ كان ﴾ أزلاً وأبداً ﴿ به ﴾ أي هذا الشقي في إعادته كما كان في ابتدائه وفي جميع أعماله وأحواله التي لا يجوز في عدل عادل ترك الحساب عليها ﴿ بصيراً ﴾ أي ناظراً له وعالماً به أبلغ نظر وأكمل علم ، فتركه مهملاً مع العلم بأعماله مناف للحكمة والعدل والملك ، فهو شيء لا يمكن في العقل بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 371.372 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) ﴾

فللمفسرين فيه وجوه أحدها : قال الكلبي : السبب فيه لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ويده اليسرى خلف ظهره وثانيها : قال مجاهد : تخلع يده اليسرى فتجعل من وراء ظهره وثالثها : قال قوم : يتحول وجهه في قفاه ، فيقرأ كتابه كذلك ورابعها : أنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين يمنع من ذلك وأوتي من وراء ظهره بشماله فإن قيل أليس أنه قال في سورة الحاقة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة : 25] ولم يذكر الظهر والجواب : من وجهين أحدهما : يحتمل أن يؤتى بشماله وراء ظهره على ما حكيناه عن الكلبي وثانيها : أن يكون بعضهم يعطي بشماله ، وبعضهم من وراء ظهره .

فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11)

فاعلم أن الثبور هو الهلاك ، والمعنى أنه لما أوتي كتابه من غير يمينه علم أنه من أهل النار فيقول : واثبوراه ، قال الفراء : العرب تقول فلان يدعوا لهفه ، إذا قال : والهفاه ، وفيه وجه آخر ذكره القفال ، فقال : الثبور مشتق من المثابرة على شيء ، وهي المواظبة عليه فسمي هلاك الآخرة ثبور لأنه لازم لا يزول ، كما قال : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65

] وأصل الغرام اللزوم والولوع .

وَيَصْلَى سَعِيرًا (12)

ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(91/809)

يقال : صلى الكافر النار ، قال الله تعالى : ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء : 10] وقال : ﴿ وَتَصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [آل عمران : 115] وقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 1] وقال : ﴿ لاَ يصلاها إِلاَّ الأشقى * الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ [الليل : 16 15] والمعنى أنه إذا أعطى كتابه بشماله من وراء ظهره فإنه يدعو الثبور ثم يدخل النار ، وهو في النار أيضاً يدعو ثبوراً ، كما قال : ﴿ دَّعَوَا هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [الفرقان : 13] وأحدهما لا ينفي الآخر ، وإنما هو على اجتماعهما قبل دخول النار وبعد دخولها ، نعوذ بالله منها ومما قرب إليها من قول أو عمل .

المسألة الثانية :

قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو ويصلى بضم الياء والتخفيف كقوله : ﴿ نصله جهنم ﴾

وهذه القراءة مطابقة للقراءة المشهورة لأنه يصلى فيصلى أي يدخل النار .

وقرأ ابن عامر ونافع والكسائي بضم الياء مثقلة كقوله : (وتصلية جحيم) وقوله : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 31] .

إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13)

(92/809)

فقد ذكر القفال فيه وجهين أحدهما : أنه كان في أهله مسروراً أي منعماً مستريحاً من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من الصلاة والصوم والجهاد مقدماً على المعاصي آمناً من الحساب والثواب والعقاب لا يخاف الله ولا يرجوه فأبدله الله بذلك السرور الفاني غماً باقياً لا ينقطع ، وكان المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه متقياً من المعاصي غير آمن من العذاب ولم يكن في دنياه مسروراً في أهله فجعله الله في الآخرة مسروراً فأبدله الله تعالى بالغم الفاني سروراً دائماً لا ينفذ الثاني : أن قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ كقوله : ﴿ وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : 31] أي متنعمين في الدنيا معجبين بما هو عليه من الكفر فكذلك ههنا يحتمل أن يكون المعنى أنه كان في أهله مسروراً بما هم عليه من الكفر بالله والتكذيب بالبعث يضحك ممن آمن به وصدق

بالحساب ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " .

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14)

فاعلم أن الحور هو الرجوع والمحار المرجع والمصير وعن ابن عباس .

ما كنت أدري ما معنى يحور ، حتى سمعت إعرابية تقول لابنتها حوري أي ارجعي ، ونقل القفال عن بعضهم أن الحور هو الرجوع إلى خلاف ما كان عليه المرء كما قالوا : "نعوذ بالله من الحور بعد الكور" فعلى الوجه الأول معنى الآية أنه ظن أن لن يرجع إلى الآخرة أي لن يبعث ، وقال مقاتل وابن عباس : حسب أن لا يرجع إلى الله تعالى ، وعلى الوجه الثاني أنه ظن أن لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الدنيا من السرور والتنعم .

بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)

ثم قال تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي ليبعثن ، وعلى الوجه الثاني يكون المعنى أن الله تعالى يبدل سروره بغم لا ينقطع وتنعمه ببلاء لا ينتهي ولا يزول .

(93/809)

أما قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ فقال الكلبي : كان بصيراً به من يوم خلقه إلى أن بعثه ، وقال عطاء : بصيراً بما سبق عليه في أم الكتاب من الشقاء ، وقال مقاتل : بصيراً متى بعثه ، وقال الزجاج : كان عالماً بأن مرجعه إليه ولا فائدة في هذه الأقوال ، إنما الفائدة في وجهين ذكرهما القفال الأول : أن ربه كان عالماً بأنه سيجزيه والثاني : أن ربه كان عالماً بما يعمله من الكفر والمعاصي فلم يكن يجوز في حكمته أن يهمله فلا يعاقبه على سوء أعماله ، وهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 98.97 ﴾

(94/809)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

هذه أوصاف يوم القيامة ، و" انشقاق السماء " : هو تفطيرها لهول يوم القيامة ، كما قال : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ [الحاقة : 16] ، وقال الفراء والزجاج وغيره : هو تشققها بالغمام ، وقال قوم : تشققها تفتيحها أبواباً لنزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة ، وقرأ أبو عمرو : " انشقت " يقف على التاء كأنه يشمها شيئاً من الجر ،

وكذلك في أخواتها ، قال أبو حاتم : سمعت إعراباً فصيحاً في بلاد قيس بكسر هذه التاءات ، وهي لغة ، ﴿ وأذنت ﴾ معناه : استمتعت ، وسمعت ، أي أمره ونهيه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن " ، ومنه قول الشاعر [قعنب بن أم صاحب] : [البسيط]

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . . وإن ذُكِرْتُ بشرٍّ عندهم أذنوا

(95/809)

وقوله تعالى : ﴿ وحقت ﴾ ، قال ابن عباس وابن جبير معناه : وحق لها أن تسمع وتطيع ، ويحتمل أن يريد : وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى ، و" مد الأرض " : هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عوج ولا أمت فذلك مدها ، وفي الحديث : " إن الله تعالى يمد الأرض يوم القيامة مد الأديم العكاظي " ﴿ وألقت ما فيها ﴾ : يريد الموتى قاله الجمهور ، وقال الزجاج : ومن الكنوز ، وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال ، وإنما تلقي يوم القيامة الموتى ، ﴿ وتخلت ﴾ معناه : خلت عما كان فيها أي لم تتمسك منهم بشيء ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ مخاطبة للجنس ، و" الكادح " : العامل بشدة وسرعة واجتهاد مؤثر ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من سأل وله ما

يغنيه حاءت مسألته خدوشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة " والمعنى أنك عامل خيراً أو شراً وأنت لا محالة في ذلك سائر إلى ربك ، لأن الزمن يطير بعمر الإنسان ، فإنما هو مدة عمره في سير حثيث إلى ربه ، وهذه آية وعظ وتذكير ، أي فكر على حذر من هذه الحال واعمل عملاً صالحاً تجده ، وقرأ طلحة : بإدغام كاف كادح ومن هذه اللفظة قول الشاعر : [الوافر]

وما الإنسان إلا ذو اغترار . . . طوال الدهر يكدح في سفال

(96/809)

وقال قتادة : من استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل ، وقوله تعالى : ﴿ فملاقيه ﴾ معناه : فملاقي عذابه أو تنعيمه ، واختلف النحاة في العامل : في ﴿ إذا ﴾ ، فقال بعض النحاة العامل : ﴿ انشقت ﴾ وأبى ذلك كثير من أئمتهم ، لأن ﴿ إذا ﴾ : مضافة إلى ﴿ انشقت ﴾ ومن يجز ذلك تضعف عنده الإضافة ، وأبى ذلك كثير من أئمتهم ، لأن ﴿ إذا ﴾ مضافة إلى ﴿ انشقت ﴾ ومن يجز ذلك يضعف عنده الإضافة ، ويقوى معنى الجزاء ، وقال آخرون منهم : العامل ﴿ فملاقيه ﴾ ، وقال بعض حذاقهم : العامل فعل مضمر ، وكذلك اختلفوا في جواب ﴿ إذا ﴾ ، فقال كثير من النحاة : هو محذوف

لعلم السامع به ، وقال أبو العباس المبرد والأخفش : هو في قوله : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ ، إذا انشقت السماء ، انشقت فأنت ملاقي الله ، وقيل التقدير في أيها الإنسان ، وجواب ﴿ إذا ﴾ في الفاء المقدرة ، وقال الفراء عن بعض النحاة : هو ﴿ أذنت ﴾ على زيادة تقدير الواو ، وأما الضمير ﴿ فملاقيه ﴾ ، فقال جمهور المتأولين هو عائد على الرب ، فالفاء على هذا عاطفة ملاق على كادح ، وقال بعض الناس : هو عائد على الكدح ، فالفاء على هذا عاطفة جملة على التي قبلها ، والتقدير فأنت ملاقيه ، والمعنى ملاقي جزائه خيراً كان أو شراً ، ثم قسم تعالى الناس إلى : المؤمن والكافر ، فالمؤمنون يعطون كتبهم بأيمانهم ومن ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم فإنه يعطى كتابه عند خروجه من النار ، وقد جوز قوم أن يعطاه أولاً قبل دخوله النار ، وهذه الآية ترد على هذا القول ، و" الحساب اليسير " : هو العرض : وأما من نوقش الحساب ، فإنه يهلك ويعذب ، وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" من حوسب عذب " فقالت عائشة : ألم يقل الله ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا ذلك العرض ، وأما من نوقش الحساب فيهلك " وفي الحديث من طريق ابن عمر : " إن الله تعالى يدني العبد حتى يضع عليه كنفه ، فيقول : ألم أفعل بك كذا وكذا يعدد عليه نعمه ثم يقول له : فلم فعلت كذا وكذا لمعاصيه ، فيقف العبد حزيناً فيقول الله تعالى : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم "

وقالت عائشة : سمعت رسول النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم حاسبني حساباً يسيراً " قلت يا رسول الله ، وما هو ؟ فقال : " أن يتجاوز عن السيئات " وروي عن عمر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من حاسب نفسه في الدنيا ، هون الله تعالى حسابه يوم القيامة " ، وقوله تعالى : ﴿ إلى أهله ﴾ أي الذين أعد الله له في الجنة ، إما من نساء الدنيا ، وإما من الحور العين وإما من الجميع ، والكافر يؤتى كتابه من ورائه لأن يديه مغلولتان ، وروي أن يده تدخل من صدره حتى تخرج من وراء ظهره ، فيأخذ كتابه بها ، ويقال إن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة بن عبد الأسد ، وكان أبو سلمة من أفضل المؤمنين ، وأخوه من عتاة الكافرين ، ﴿ ويدعو ثبوراً ﴾ معناه : يصيح منتحباً ، واثبوراه ، واخزياه ، ونحو هذا مما معناه : هذا وقتك ، وزمانك أي احضرني ، والثبور ، اسم جامع للمكاره كالويل ، وقرأ ابن كثير ونافع ، وابن عامر والكسائي والحسن وعمر بن عبد العزيز والجحدري وأبو السناء والأعرج : " ويُصلّى " بشد اللام وضم الياء على المبالغة ، وقرأ نافع أيضاً وعاصم

وأبو عمرو وحمزة وأبو جعفر وقتادة وعيسى وطلحة والأعمش : بفتح الياء على بناء الفعل للفاعل ، وفي مصحف ابن مسعود : " وسيصلى " ، وقوله تعالى : ﴿ في أهله ﴾ يريد في الدنيا أي تملكه ذلك لا يدري إلا السرور بأهله دون معرفة الله والمؤمن إن سر بأهله لا حرج عليه ، وقوله تعالى : ﴿ إنه

(98/809)

ظن أن لن يحور ﴾ ، معناه : لن يرجع إلى الله تعالى مبعوثاً محشوراً ، قال ابن عباس : لم أعلم ما معنى ﴿ ويحور ﴾ ، حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حوري ، أي ارجعي ، والظن هنا على بابه ، و ﴿ أن ﴾ وما بعدها تسد مسد مفعولي ظن وهي ﴿ أن ﴾ المخففة من الثقيلة ، والحور : الرجوع على الأدراج ، ومنه : اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور . ثم رد تعالى على ظن هذا الكافر بقوله : ﴿ بلى ﴾ ، أي يحور ويرجع ، ثم أعلمهم أن الله تعالى لم يزل ﴿ بصيراً ﴾ بهم لا تخفى عليه أفعال أحد منهم ، وفي هذا وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(99/809)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾

نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة ؛ قاله ابن عباس .

ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر .

قال ابن عباس : يمدّ يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه مَلَك ، فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره .

وقال قتادة ومقاتل : يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره ، فيأخذ كتابه كذلك .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ أي بالهلاك فيقول : يا ويلاه ، يا ثبوراه .

﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ أي ويدخل النار حتى يصلى بحرّها .

وقرأ الحِرْميان وابن عامر والكسائي "ويُصَلَّى" بضم الياء وفتح الصاد ، وتشديد اللام ؛ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 31] وقوله : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : 94] .

الباقون "ويَصْلَى" بفتح الياء مخففاً ، فعل لازم غير متعد ؛ لقوله : "إلا من هو صالِ الجحِيم" وقوله : ﴿ يَصْلَى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 12] وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الجحيم ﴾

[المطففين : 16] .

وقراءة ثالثة رواها أبان عن عاصم وخارجة عن نافع وإسمعيل المكي عن ابن كثير "ويُصْلَى" بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففاً ؛ كما قرىء "وسَيُصْلَون" بضم الياء ، وكذلك في "الغاشية" قد قرىء أيضاً : "تُصْلَى ناراً" وهما لغتان صلى وأصلى ؛ كقوله : "نزل .

وأنزل" ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مَسْرُوراً ﴾ قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ [الطور : 26-27] .

قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحِك فيها والتفكه .

فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ .

(100/809)

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب ، ثم يثاب أو يعاقب .

يقال : حار يحور إذا رجع ؛ قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ . . .

يحورُ رَماداً بعد إذا هو ساطِعُ

وقال عِكرمة وداود بن أبي هند ، يحور كلمة بالحبشية ، ومعناها يرجع .

ويجور أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق ؛ ومنه الخبز الحُوارَى ؛ لأنه يرجع إلى البياض .

وقال ابن عباس : ما كنت أدري : ما يحور ؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها : حُورى ، أي ارجَعي إليّ ، فالحَوْر في كلام العرب الرجوع ؛ ومنه قوله عليه السلام : " اللهم إني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر " يعني : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحُور بالضم .

وفي المثل "حُورٌ في محارة" أي نقصان في نقصان .

يضرب للرجل إذا كان أمره يُدْبِر ؛ قال الشاعر :

واستعجلوا عن خفِيف المضغِ فازدردوا . . .

والذم يبقَى وزاد القومِ في حُوْرِ

والحُورْ أيضاً : الاسم من قولك : طحَنَتِ الطاحنة فما أحارت شيئاً ؛ أي ما ردت شيئاً من الدقيق .

والحُورْ أيضاً : الهلكة ؛ قال الراجز :

في بِئرِ لا حُورٍ سَرَى ولا شَعَر . . .

قال أبو عبيدة : أي بئر حُورِ ، و "لا" زائدة .

وروي "بعد الكون" ومعناه من انتشار الأمر بعد تمامه .

وسئِل معمر عن الحَوْر بعد الكون ، فقال : هو الكُنْتِيّ .

فقال له عبد الرزاق : وما الكُنْتِيّ ؟ فقال : الرجل يكون صالحاً ثم يتحول رجل سَوْء .

قال أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ : كنتِيّ ، كأنه نسب إلى قوله : كنت في شبابي كذا .

قال :

فأصبحت كُنتِيا وأصبحت عاجِنا . . .

وشر خِصالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ

عجن الرجل : إذا نهض معتمداً على الأرض من الكبر .

وقال ابن الأعرابي : الكنتِيّ : هو الذي يقول : كنت شاباً ، وكنت شجاعاً ، والكانِيّ هو الذي يقول : كان لي مال وكنت أهب ، وكان لي خيل وكنت أركب .

قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي ليس الأمر كما ظنّ ، بل يحور إلينا ويرجع .

(101/809)

﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ قبل أن يخلقه ، عالماً بأن مرجعه إليه .

وقيل : بلَى ليَحُورنّ وليرجعَنّ .

ثم استأنف فقال : "إن ربه كان بِهِ بصيرا" من يوم خلقه إلى أن بعثه .

وقيل : عالماً بما سبق له من الشقاء والسعادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ نزلت في الأسود بن عبد الأسد أخي أبي سلمة ؛ قاله ابن عباس .

ثم هي عامة في كل مؤمن وكافر .

قال ابن عباس : يمدّ يده اليمنى ليأخذ كتابه فيجذبه مَلَك ، فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره .

وقال قتادة ومقاتل : يفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره ، فيأخذ كتابه كذلك .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ أي بالهلاك فيقول : يا ويلاه ، يا ثبوراه .

﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ أي ويدخل النار حتى يصلى بحرّها .

وقرأ الحِرْميان وابن عامر والكسائي "ويُصَلّى" بضم الياء وفتح الصاد ، وتشديد اللام ؛ كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 31] وقوله : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : 94] .

الباقون "ويَصْلَى" بفتح الياء مخففاً ، فعل لازم غير متعد ؛ لقوله : "إلا من هو صالِ الجحِيم" وقوله : ﴿ يَصْلَى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 12] وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الجحيم ﴾ [المطففين : 16] .

وقراءة ثالثة رواها أبان عن عاصم وخارجة عن نافع وإسمعيل المكي عن ابن كثير "ويُصْلَى" بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففاً ؛ كما قرىء "وسَيُصْلَون" بضم الياء ، وكذلك في "الغاشية" قد قرىء أيضاً : "تُصْلَى ناراً" وهما لغتان صلى وأصلى ؛ كقوله : "نزل .

(102/809)

وأنزل" ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مَسْرُوراً ﴾ قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ [الطور : 26-27] .

قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحِك فيها والتفكه .

فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب ، ثم يثاب أو يعاقب .

يقال : حار يحور إذا رجع ؛ قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ . . .

يحورُ رَماداً بعد إذا هو ساطِعُ

وقال عِكرمة وداود بن أبي هند ، يحور كلمة بالحبشية ، ومعناها يرجع .

ويجور أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق ؛ ومنه الخبز الحُوارَى ؛ لأنه يرجع إلى البياض .

وقال ابن عباس : ما كنت أدري : ما يحور ؟ حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها : حُورى ، أي ارجَعي إليّ ، فالحَوْر في كلام العرب الرجوع ؛ ومنه قوله عليه السلام : " اللهم إني أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر " يعني : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحُور بالضم .

وفي المثل "حُورٌ في محارة" أي نقصان في نقصان .

يضرب للرجل إذا كان أمره يُدْبِر ؛ قال الشاعر :

واستعجلوا عن خفِيف المضغِ فازدردوا . . .

والذم يبقَى وزاد القومِ في حُوْرِ

والحُورْ أيضاً : الاسم من قولك : طحَنَتِ الطاحنة فما أحارت شيئاً ؛ أي ما ردت شيئاً

من الدقيق .

والحُورْ أيضاً : الهلكة ؛ قال الراجز :

في بئرِ لا حُورٍ سَرَى ولا شَعَر . . .

قال أبو عبيدة : أي بئر حُورٍ ، و "لا" زائدة .

وروي "بعد الكون" ومعناه من انتشار الأمر بعد تمامه .

وسئِل معمر عن الحَوْر بعد الكون ، فقال : هو الكُنْتِيّ .

(103/809)

فقال له عبد الرزاق : وما الكُنْتِيّ ؟ فقال : الرجل يكون صالحاً ثم يتحول رجل سَوْء .

قال أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ : كنتِيّ ، كأنه نسب إلى قوله : كنت في شبابي كذا .

قال :

فأصبحت كُنتِيا وأصبحت عاجِنا . . .

وشر خِصالِ المرءِ كُنْتُ وعاجِنُ

عجن الرجل : إذا نهض معتمداً على الأرض من الكبر .

وقال ابن الأعرابي : الكنتِيّ : هو الذي يقول : كنت شاباً ، وكنت شجاعاً ، والكانِيّ هو

الذي يقول : كان لي مال وكنت أهب ، وكان لي خيل وكنت أركب .

قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ أي ليس الأمر كما ظنّ ، بل يحور إلينا ويرجع .

﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ قبل أن يخلقه ، عالماً بأن مرجعه إليه .

وقيل : بلَى ليَحُورنّ وليرجعَنّ .

ثم استأنف فقال : "إن ربه كان بِهِ بصيرا" من يوم خلقه إلى أن بعثه .

وقيل : عالماً بما سبق له من الشقاء والسعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(104/809)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابه وَرَاء ظَهْرِهِ ﴾

أي يؤتاه بشماله من وراء ظهره قيل تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله وروى أن شماله تدخل في صدره حتى تخرج من وراء ظهره فيأخذ كتابه بها فلا تدافع بين ما هنا وما في سورة الحاقة حيث لم يذكر فيه الظهر ثم هذا إن كان في الكفرة وما قبله في المؤمنين المتقين فلا تعرض هنا للعصاة كما استظهره في "البحر" وقيل لا بعد في

إدخال العصاة في أهل اليمين أما لأنهم يعطون كتبهم باليمين بعد الخروج من النار كما اختاره ابن عطية أو لأنهم يعطونها بها قبل لكن مع حساب فوق حساب المتقين ودون حساب الكافرين ويكون قوله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ [الاشتقاق : 8] من وصف الكل بوصف البعض وقيل إنهم يعطونها بالشمال وتمييز الكفرة بكون الإعطاء من وراء ظهورهم ولعل ذلك لأن مؤتي الكتب لا يتحملون مشاهدة وجوههم لكمال بشاعتها أو لغاية بغضهم إياهم أو لأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ يطلبه ويناديه ويقول يا ثبوراه تعالى فهذا أو أنك والثبور الهلاك وهو جامع لأنواع المكاره .

﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ يقاسي حرها أو يدخلها وقرأ أكثر السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج يصلي بضم الياء وفتح الصاد واللام مشددة من التصلية لقوله تعالى ﴿ وتصلية جحيم ﴾ [الواقعة : 94] وقرأ أبو الأشهب وخارجة عن نافع وأبان عن عاصم والعتكي وجماعة عن أبي عمرو يصلي بضم الياء ساكن الصاد مخفف اللام مبنياً للمفعول من الأصلاء لقوله تعالى : ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّم ﴾

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ ﴾ في الدنيا ﴿ مَسْرُوراً ﴾ فرحاً بطراً مترفاً لا يخطر بباله أمور الآخرة ولا يتفكر في العواقب ولم يكن حزيناً متفكراً في حاله ومآله كسنة الصلحاء والمتقين والجملة استئناف لبيان علة ما قبلها وقوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ تعليل لسروره في الدنيا أي ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً للمعاد وقيل ظن أن لن يرجع إلى العدم أي ظن أنه لا يموت وكان غافلاً عن الموت غير مستعد له وليس بشيء والحور الرجوع مطلقاً ومنه قول الشاعر :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه . . .

يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

والتقييد هنا بقرينة المقام وإن مخففة من الثقيلة سادة ما في حيزها مسد مفعولي الظن على المشهور .

﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد لن وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ تحقيق وتعليل له أي بلى يحور البتة أن ربه عز وجل الذي خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء بصيراً بحيث لا تخفى عليه سبحانه منها خافية فلا بد من رجعه وحسابه ومجازاته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10)

ومن أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ هو الكافر .

والمعنى : إنه يؤتى كتابه بشماله كما تقتضيه المقابلة بـ ﴿ من أوتي كتابه بيمينه ﴾ وذلك أيضاً في سورة الحاقة قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ ، أي يعطى كتابه من خلفه فيأخذه بشماله تحقيراً له ويناول له من وراء ظهره إظهاراً للغضب عليه بحيث لا ينظر مُناوِلُه كتابَه إلى وجهه .

وظرف ﴿ وراء ظهره ﴾ في موضع الحال من ﴿ كتابه ﴾ .

و ﴿ ينقلب إلى أهله ﴾ أي يرجع .

والانقلاب : الرجوع إلى المكان الذي جيء منه ، وقد تقدم قريباً في سورة المطففين .

والأهل : العشيرة من زوجة وأبناء وقرابة .

وهذا التركيب تمثيل لحال المحاسَب حساباً يسيراً في المسرّة والفوز والنجاة بعد العمل الصالح في الدنيا ، بحال المسافر لتجارة حين يرجع إلى أهله سالماً رابحاً لما في الهيئة المشبه بها من وفرة المسرة بالفوز والربح والسلامة ولقاء الأهل وكلهم في مسرة ، فذلك وجه الشبه بين الهيْأتين وهو السرور المألوف للمخاطبين فالكلام استعارة تمثيلية .

وليس المراد رجوعه إلى منزله في الجنة لأنه لم يكن فيه من قبل حتى يقال لمصيره إليه انقلاب

، ولأنه قد لا يكون له أهل .

وهو أيضاً كناية عن طول الراحة لأن المسافر إذا رجع إلى أهله فارق المتاعب زمان .

والمراد بالدعاء في قوله : ﴿ يدعو ثبوراً ﴾ النداء ، أي ينادي الثبور بأن يقول : يا ثبوري ، أو يا ثبورا ، كما يقال : يا ويلي ويا ويلتنا .

والثبور : الهلاك وسوء الحال وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء وتعس .

والنداء في مثل هذه الكلمات مستعمل في التحسر والتوجع من معنى الاسم الواقع بعد حرف النداء .

﴿ ويصلى ﴾ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي بتشديد اللام مضاعف صلاهُ إذا أحرقَه .

(107/809)

وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف ﴿ ويصلى ﴾ بفتح التحتية وتخفيف اللام مضارع صَلِي اللازم إذا مسته النار كقوله : ﴿ يصْلَوْنَها يوم الدين ﴾ [الانفطار : 15] .

وانتصب ﴿ سعيراً ﴾ على نزع الخافض بتقدير يُصلَّى بسعير ، وهذا الوجه هو الذي

يطرد في جميع المواضع التي جاء فيها لفظ النار ونحوه منصوباً بعد الأفعال المشتقة من الصلي والتصلية ، وقد قدمنا وجهه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وسيصلون سعيراً ﴾ في سورة [النساء : 10] فانظره .

وقوله : ﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ مستعمل في التعجيب من حالهم كيف انقلبت من ذلك السرور الذي كان لهم في الحياة الدنيا المعروف من أحوالهم بما حكي في آيات كثيرة مثل قوله : ﴿ أولي النعمة ﴾ [المزمل : 11] وقوله : ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ﴾ [المطففين : 31] فآلوا إلى ألم النار في الآخرة حتى دَعوا بالثبور .

وتأكيد الخبر من شأن الأخبار المستعملة في التعجيب كقول عمر لحذيفة بن اليمان : "إنَّك عَلَيه لجريء" (أي على النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذه الجملة معترضة .

وموقع جملة : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ موقع التعليل لمضمون جملة : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ إلى آخرها .

وحرف (إنّ) فيها مُغْنٍ عن فاء التعليل ، فالمعنى : يصلى سعيراً لأنه ظن أن لن يحور ، أي لن يرجع إلى الحياة بعد الموت ، أي لأنه يُكَذِّبُ بالبعث ، يقال : حار يحور ، إذا رجع إلى المكان الذي كان فيه ، ثم أطلق على الرجوع إلى حالة كان فيها بعدَ أن فارقها ، وهو المراد هنا وهو من المجاز الشائع مثل إطلاق الرجوع عليه في قوله : ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ [

يونس : 23] وقوله : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ [الطارق : 8] وسُمي يومُ البعث يومَ المعاد .

وجيء بحرف ﴿ لن ﴾ الدال على تأكيد النفي وتأييده لحكاية جزمهم وقطعهم بنفيه .

(108/809)

وحرف ﴿ بلى ﴾ يجاب به الكلام المنفي لإبطال نفيه وأكثر وقوعه بعد الاستفهام عن النفي نحو : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف : 172] ويقع بعد غير الاستفهام أيضاً نحو قوله تعالى:

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ﴾ [التغابن : 7] .

وموقع ﴿ بلى ﴾ الاستئناف كأحرف الجواب .

وجملة : ﴿ إن ربه كان به بصيراً ﴾ مبينة للإِبطال الذي أفاده حرف ﴿ بلى ﴾ على وجه الإجمال يعني أن ظنه باطل لأن ربه أنبأه بأنه يبعث .

والمعنى : إن ربه عليم بمآله .

وتأكيد ذلك بحرف ﴿ إنَّ ﴾ لرده إنكاره البعث الذي أخبر الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فآل المعنى الحاصل من حرف الإِبطال ومن حرف التأكيد إلى معنى :

أن ربه بصير به وأما هو فغير بصير بحاله كقوله : ﴿ واللَّه يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة : 216] .

وتعدية ﴿ بصيراً ﴾ بالباء لأنه من بَصُر القاصر بضم الصاد به إذا رآه رؤية محققة ، فالباء فيه معناها الملابسة أو الإلصاق .

وفيه إشارة إلى حكمة البعث للجزاء لأن رب الناس عليم بأحوالهم فمنهم المصلح ومنهم المفسد والكل متفاوتون في ذلك فليس من الحكمة أن يذهب المفسد بفساده وما أَلْحَقَهُ بالموجودات من مضار وأن يهمل صلاح المصلح ، فجَعَل الله الحياة الأبدية وجعلها للجزاء على ما قدّم صاحبها في حياته الأولى .

وأطلق البصر هنا على العلم التام بالشيء .

وعلق وصف (بصير) بضمير الإنسان الذي ظن أن لن يحور ، والمراد : العِلم بأحواله لا بذاته .

وتقديم المجرور على متعلَّقه للاهتمام بهذا المجرور ، أي بصير به لا محالة مع مراعاة الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(109/809)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ الآية ، هذه الآية الكريمة تدل على أن من لم يعط كتابه بيمينه أنه يعطاه وراء ظهره وقد جاءت آية يفهم منها أنه يؤتاه بشماله وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي ﴾ .

الآية .

والجواب ظاهر وهو أنه لا منافاة بين أخذه بشماله وايتائه وراء ظهره لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 312 ﴾

(110/809)

فصل

قال القرطبى :

باب ما جاء في تطاير الصحف عند العرض والحساب وإعطاء الكتب باليمين والشمال

ومن أول من يأخذ كتابه بيمينه من هذه الأمة ، وفي كيفية وقوفهم للحساب وما يقبل منهم

من الأعمال ، وفي دعائهم بأسماء آباهم وبيان قوله يوم ندعوا كل أناس بإمامهم وفي تعظيم خلق الإنسان الذي يدخل الناس به النار أو الجنان وذكر القاضي العدل ومن نوقش عذب .

قال الترمذي : وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : [حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخف الحساب على من حاسب نفسه في الدنيا] وقال عطاء الخراساني : يحاسب العبد يوم القيامة عند معارفة ليكون أشد عليه . ذكره أبو نعيم .

البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوسب يوم القيامة عذب . قالت فقلت يا رسول الله : أليس قد قال الله فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً ؟ فقال : ليس ذلك الحساب إنما ذلك عرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب أخرجه مسلم والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

أبو داود الطيالسي قال : حدثنا عمر بن العلاء اليشكري قال : حدثني صالح بن طبرج عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول وذكر عندها القضاة ، فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرة قط .

الترمذي عن الحسن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ بيمينه وأخذ بشماله قال أبو عيسى ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(111/809)

قلت : قوله وقد رواه بعضهم هو وكيع بن الجراح . ذكره ابن ماجه قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا وكيع عن علي بن علي فذكره .

قال الترمذي :

وتكلم يحيى بن سعيد القطان في علي بن علي ، وخرجه أبو بكر البزار أيضاً عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ، وأما الثالثة فتطاير الكتب يميناً وشمالاً .

وذكره الترمذي الحكيم في الأصل السادس والثمانين قال : فروى لنا عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم : أن الناس يعرضون ثلاث عرضات يوم القيامة ، فأما عرضتان فجدال ومعاذي ، وأما العرضة الثالثة فتطاير الصحف فالجدال لأهل الأهواء يجادلون لأنهم لا يعرفون ربهم فيظنون أنهم إذا جادلوه نجوا وقامت حجتهم ، والمعاذير لله تعالى يعتذر الكريم إلى آدم وإلى أنبيائه ويقيم حجته عندهم على الأعداء ، ثم يبعثهم إلى النار ، فإنه يجب أن يكون عذره عند أنبيائه وأوليائه ظاهراً حتى لا تأخذهم الحيرة ، ولذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أحد أحب إليه المدح من الله ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، والعرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض الأكبر يخلو بهم فيعاتبهم في تلك الخلوات من يريد أن يعاتبهم حتى يذوق وبال الحياء ويرفض عرقاً بين يديه ويفيض العرق منهم على أقدامهم من شدة الحياء ، ثم يغفر لهم ويرضى عنهم .

وذكر أبو جعفر العقيلي من حديث نعيم بن سالم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الكتب كلها تحت العرش فإذا كان يوم الموقف بعث الله ريحاً فتطيرها بالإيمان والشمائل أول خط فيها : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً .

أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : ذكرت النار فبكيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ؟ قلت : ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال

: أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً . عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز .

وذكر أبو بكر أحمد بن ثابت الخطيب ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله شعاع كشعاع الشمس فقيل له : أين يكون أبو بكر يا رسول الله ؟ قال : هيهات زفته الملائكة إلى الجنان .

وخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده في كتاب التوحيد له عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم ، فإنكم مسؤلون محاسبون ، يا ملائكتي أقيموا عبادي طفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب .

وأسند سمرة بن عطية قال : يؤتى بالرجل يوم القيامة للحساب ، وفي صحيفته أمثال الجبال من الحسنات ، فيقول رب العزة تبارك وتعالى : صليت يوم كذا وكذا ، ليقال : فلان صلى ، أنا الله لا إله إلا أنا ، لي الدين الخالص ، صمت يوم كذا وكذا ، ليقال : صام فلان ، أنا الله لا إله إلا أنا ، لي الدين الخالص ، تصدقت يوم كذا وكذا ليقال : تصدق فلان ، أنا الله لا إله إلا أنا ، لي الدين الخالص ، فما زال يمحى شيء بعد شيء حتى تبقى صحيفته ما فيها شيء ، فيقول ملكاه : ألغير الله كنت تعمل ؟

قلت : ومثل هذا لايقال من جهة الرأي فهو مرفوع ، وقد رفع معناه الدار قطني في سننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجاء يوم القيامة بصحف مختومة فتنصب بين يدي الله عز وجل

(113/809)

فيقول الله تعالى : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما رأينا إلا خيراً فيقول الله عز وجل ـ وهو أعلم ـ : إن هذا كان لغيري ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجهي . خرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : يوم ندعوا كل أناس بإمامهم قال : يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسمه ستون ذراعاً ، ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعد ، فيقولون : اللهم آتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم ، ويقول : أبشروا لكل مسلم مثل هذا ، قال : وأما الكافر فيسود وجهه ويمد في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم ، ويلبس تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من شر هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا قال : فيأتيهم فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وروي أن عيسى عليه السلام مر بقبر فوكزه برجله وقال : يا صاحب هذا القبر قم بإذن الله فقام إليه رجل ، وقال : يا روح الله ما الذي أردت فإني لقائم في الحساب منذ سبعين سنة حتى أتتني الصيحة الساعة أن أجب روح الله ، فقال عيسى : يا هذا لقد كنت كثير الذنوب والخطايا ما كان عملك ؟ فقال : والله يا روح الله ما كنت إلا حطاباً أحمل الحطب على رأسي آكل حلالاً وأتصدق ، فقال عيسى : يا سبحان الله حطاباً يحمل الحطب على رأسه ، يأكل حلالاً ويتصدق ، وهو قائم في الحساب منذ سبعين سنة ، ثم قال له : يا روح الله كان من توبيخ ربي لي أن قال : اكتراك عبدي لتحمل له حزمة ، فأخذت منها عوداً فتخللت به وألقيته في غير مكانه امتهاناً منك بي ، وأنت تعلم أني أنا الله المطلع عليك

وأراك .

فصل : قال الله تعالى وكل إنسان

(114/809)

ألزمناه طائره في عنقه قال الزجاج : ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق . وقال إبراهيم بن أدهم كل آدمي في عنقه قلادة يكتب فيها نسخة عمله فإذا مات طويت وإذا بعث نشرت وقيل له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وقال ابن عباس رضي الله عنه : طائره عمله ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي .

وقال أبو السوار العدوي : وقرأ هذه الآية وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه قال : هما نشرتان وطية أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت فإذا مت طويت ، حتى إذا بعثت نشرت اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتونها بعد البعث حوسبوا بها . قال الله تعالى فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً . فدل على أن المحاسبة تكون عند إتيان الكتب ، لأن الناس إذا بعثوا لا يكون ذاكرين لأعمالهم . قال الله تعالى يوم يبعثهم

الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه .

وقد تقدم القول في محاسبة الله تعالى لخلقه في يوم الحساب من أسماء القيامة فإذا بعثوا من قبورهم إلى الموقف وقاموا فيه ما شاء تعالى على ما تقدم حفاة عراة وجاء وقت الحساب يريد الله أن يحاسبهم فيه أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأوتوها ، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء ، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو من وراء ظهره وهم الأشقياء ، فعند ذلك يقرأ كل كتابه وأنشدوا :

مثل وقوفك يوم العرض عرياناً مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانا

والنار تلهب من غيظ ومن حنق على العصاة ورب العرش غضبانا

اقرأ كتابك يا عبدي على مهل فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا

لما قرات ولم تنكر قراءته إقرار من عرف الأشياء عرفاناً

نادى الجليل : خذوه يا

(115/809)

ملائكتي وامضوا بعبد عصى للنار عطشانا

المشركون غداً في النار يلتهبوا والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب ونصبت الموازين وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق أين فلان ابن فلان هلم إلى العرش على الله تعالى وقد وكلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى الله لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذ قرع النداء قلبك ، فعلمت أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ، وطار قلبك . تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم وأنت في أيديهم وقد طار قلبك واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك .

فتوهم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك لا تغادر بلية كتمتها ولا مخبأة أسررتها ، وأنت تقرأ ما قيها بلسان كليل وقلب منكسر والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك ، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكرتها ، وكم من شيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً ، فيا حسرة قلبك ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك فأما من أوتي كتابه بيمينه فعلم أنه من أهل الجنة فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه وذلك حين يأذن الله فيقرأ كتابه .

فإذا كان الرجل رأساً في الخير يدعوا إليه ويأمر به ويكثر تبعه عليه دعي باسمه واسم أبيه فيتقدم ، حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه السيئات وفي ظاهره

الحسنات ، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سيئاتك وقد غفرت لك ، فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً ، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحاً ، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه حسناتك قد ضوعفت لك فيبيض وجهه ، ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويكسى حلتين ويحلى كل مفصل

(116/809)

فيه وبطول ستين ذراعاً وهي قامة آدم ويقال له : انطلق إلى أصحابك فبشرهم وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فإذا أدبر قال هاؤم اقرؤوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه قال الله تعالى فهو في عيشة راضية أي مرضية قد رضيها في جنة عالية في السماء قطوفها ثمارها وعناقيدها دانية أدنيت منهم فيقول لأصحابه هل تعرفونني ؟ فيقولون قد غمرتك كرامة الله من أنت فيقول أنا فلان ابن فلان ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية أي قدمتم في أيام الدنيا .

وإذا كان الرجل رأساً في الشر يدعو إليه ويأمره به فيكثر تبعه عليه ونودي باسمه واسم أبيه ، فيتقدم إلى حسابه فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره

السيئات ، فيبدأ بالحسنات فيقرؤها ويظن أنه سينجو ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : هذه حسناتك وقد ردت عليك ، فيسود وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً ولا يزداد وجهه إلا سوداً ، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه : هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك أي يضاعف عليه العذاب ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل . قال : فينظر إلى النار وتزرق عيناه ويسود وجهه ويكسى سرابيل القطران ، ويقال له : انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا فينطلق وهو يقول : يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية يعني الموت هلك عني سلطانيه تفسير ابن عباس رضي الله عنهما هلكت عني حجتي . قال تعالى خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه أي اجعلوه يصلى الجحيم ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه والله أعلم بأي ذراع . قال الحسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سبعون ذراعاً بذراع الملك . وسيأتي في كتاب النار لهذه السلسلة مزيد بيان . فاسلكوه فيها أي تدخل من فيه حتى تخرج من دبره قاله الكلبي ، وقيل : بالعكس . وقيل :

يدخل عنقه فيها ثم يجر بها ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لأذابته فينادي أصحابه فيقول هل تعرفونني فيقولون لا ولكن قد نرى ما بك من الخزي فمن أنت فيقول أنا فلان ابن فلان لكل إنسان منكم مثل هذا .

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فتخلع كتفه اليسرى فتجعل يده خلفه فيأخذ بها كتابه ، وقال مجاهد : يحول مجاهد وجهه في موضع قفاه فيقرأ كتابه كذلك . فتوهم نفسك إن كنت من السعداء وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه قد حل لك الكمال والحسن والجمال كتابك في يمينك آخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق هذا فلان ابن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً .

أما إن كنت من أهل الشقاوة فيسود وجهك وتتخطى الخلائق . كتابك في شمالك أو من وراء ظهرك تنادي بالويل والثبور وملك آخذ بضبيعك ينادي على رؤوس الخلائق ألا إن فلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً .

قلت : قوله ألا إن فلان ابن فلان دليل على أن الإنسان يدعى في الآخرة باسمه واسم أبيه ، وقد جاء صريحاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم . خرجه أبو نعيم الحافظ . قال حدثنا أبو عمر بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال : حدثنا

زكريا بن يحي قال : حدثنا هشيم عن داود بن عمر عن عبد الله بن أبي زكريا عن أبي الدرداء فذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 289 . 297 ﴾

(118/809)

قوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه بإنكاره لما أتاه به الرسل من الحشر على وجه موضح للدليل على بطلان إنكاره ولم يرجع ، سبب عنه الإقسام على صحة ذلك لأنه ليس عند النذير الناصح الشفوق بعد إقامة الأدلة إلاّ بالإيمان على صحة ما قال نظراً منه للمنصوح وشفقة عليه ، وكان ترك الحلف على ما هو ظاهر أبلغ من الحلف لما في ذلك الترك من تنبيه المخاطب على النظر والتأمل فقال : ﴿ فلا أقسم ﴾ أي أحلف حلفاً عظيماً هو كقاموس البحر بهذه

الأمور التي سأذكرها لما لها من الدلالة على القدرة على الإبداء والإعادة ، لا أقسم بها وإن كانت في غاية العظم بما لها من الدلالات الواضحة لأن المقسم عليه أجل منها وأظهر فهو غني عن الإقسام ﴿ بالشفق ﴾ أي الضياء الذي يكون في المغرب عقب غروب الشمس أطباقاً حمرة ثم صفرة ثم كدرة إلى بياض ثم سواد ، وكذلك الليل أوله بياض بغبرة ثم تتزايد غبرته قليلاً إلى أن يسود مربادا فيوسق كل شيء ظلاماً ، سمي شفقاً لرقته ومنه الشفقة لرقة القلب ﴿ والّيل ﴾ أي الذي يغلبه فيذهبه ﴿ وما وسق ﴾ أي جمع في بطنه وطرد وساق من ذلك الشفق ومن النهار الذي كان قبله والنجوم التي أظهرها وغير ذلك من الغرائب التي تدل على أن موجده بعد أن لم يكن ومذهب ما كان به قادر على الإبداء والإعادة وكل ما يريد ﴿ والقمر ﴾ أي الذي هو آيته ﴿ إذا اتسق ﴾ أي انتظم واستوى واجتمع كماله وتم أمره ليلة إبداره بعد أن كان قد غاب أصلاً ثم بدأ هلالاً خفياً ضئيلاً دقيقاً ولم يزل يزداد حتى يتم ثم ينقص إلى أن يخفى ثم يعود إلى حاله دليلاً أظهر من الشمس على قدرة موجده كذلك على كل أمر من الإبداء والإعادة .

(119/809)

ولما كانت هذه الأمور عظيمة جداً لا يقدر عليها إلا الله تعالى ولها من المنافع ما لا يعلمه حق علمه إلا هو سبحانه وتعالى ، وكل منها مع ذلك دال على تمام قدرته تعالى على الذي يراد تقريره في العقول وإيضاحه من القدرة التامة على إعادة الشيء كما كان سواء ، ونفي الإقسام بها دليلاً على أن ذلك في غاية الظهور ، فالأمر فيه غني عن الإقسام ، قال في موضع جواب القسم مقروناً باللام الدالة على القسم ذاكراً ما هو في الظهور والبداهة بحيث لا يحتاج إلى تنبيه عليه بغيره ذكره : ﴿ لتركبن ﴾ أي أيها المكلفون – هذا على قراءة الجماعة بضم الباء دلالة على حذف واو الجمع ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتحها على أن الخطاب للانسان باعتبار اللفظ ﴿ طبقاً ﴾ مجاوزاً ﴿ عن طبق ﴾ أي حالاً بعد حال من أطوار الحياة وأدوار العيش وغمرات الموت ثم من أمور البرزخ وشؤون البعث ودواهي الحشر بدليل ما كان لكم قبل ذلك سواء بتلك القدرة التي كونت تلك الكوائن وأوجدت تلك العجائب سواء ، فتكونون في تمكن الوجود في كل طبق بحال التمكن على الشيء بالركوب ، وكل حال منها مطابق للآخر في ذلك فإن الطبق ما يطابق غيره ، ومنه قيل للغطاء : طبق – لمطابقته المغطى ، والطبق كل ما ساوى شيئاً ووجه الأرض والقرن من الزمان أو عشرون سنة ، وكلها واضح الإرادة هنا وهو بديهي الكون ، فأول أطباق الإنسان جنين ، ثم وليد ، ثم رضيع ثم فطيم ، ثم يافع ، ثم رجل ، ثم شاب ، ثم كهل ، ثم

شيخ ، ثم ميت ، وبعده نشر ثم حشر ثم حساب ثم وزن ثم صراط ثم مقرّ ، ومثل هذه الأطباق المحسوسة أطباق معنوية من الفضائل والرذائل .

(120/809)

ولما ظهر المراد ولم يبق إلا العناد ، سبب عن ذلك الإنكار عليهم والتوبيخ والتقريع والتهديد ، فقال معرضاً عن خطابهم إلى الغيبة إيذاناً باستحقاقهم للأخذ إن لم يرجعوا : ﴿ فما لهم ﴾ أي وأي شيء لهؤلاء الذين أنزلنا عليهم هذا الكتاب المعجز في أنهم ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي يوقعون الإيمان ويجدد دونه كل وقت على الاستمرار بكل ما دعا إليه هذا الكتاب الذي خصهم بهم ملك الملوك وقد وضحت الدلالة وقامت البراهين لا سيما دلائل القيامة هل هي إلا واحدة من هذه الأطباق المنتقل إليها لأن من كان اليوم على حالة وغداً على أخرى جدير بأن يعلم أن تدبيره إلى سواه ، ومن لم يعلم ذلك فليس لجنونه دواء ، ومن علم أن تدبيره إلى سواء علم أن المشيئة في التدبير – إليه لا إلى نفسه ، وقيل لأبي بكر الوراق : ما الدليل على الصانع ؟ قال : تحويل الحالات وعجز القوة وضعف الأركان وقهر المشيئة ، وفسخ العزيمة .

﴿ وإذا قرىء ﴾ أي من أي قارىء كان ﴿ عليهم القرآن ﴾ أي الجامع لكل ما ينفعهم في

دنياهم وأخراهم الفارق بين كل ملتبس من الحرام والحلال وغير ذلك ﴿ لا يسجدون ﴾ أي يخضعون بالقلب ويتذللون للحق بالسجود اللغوي فيسجدون بالقالب السجود الشرعي لتلاوته لأنه ملك الكلام ، قد أبان عن معارف لا تحصر ، مع الشهادة لنفسه بإعجازه أنه من عند الله ، ليس لهم في ذلك عذر إلا الجهل أو العجز ، ولا جهل مع القرآن ولا عجز مع القوة والاختيار .

(121/809)

ولما كان هذا استفهاماً إنكارياً معناه النفي ، فكان التقدير : إنهم لا يؤمنون ولا عذر لهم في ذلك أصلاً ، أضرب عنه بقوله : ﴿ بل ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر تعميماً وتنبيهاً على الوصف الذي حملهم على التكذيب فقال : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ستروا مرائي عقولهم الدالة على الحق ﴿ يكذبون ﴾ أي بالقرآن وبما دل عليه من حقائق العرفان المعلية إلى أوج الإيمان بالواحد الديان ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ أعلم ﴾ أي منهم أنفسهم ﴿ بما يوعون ﴾ أي يضعون في أوعية صدورهم من الكفر والعداوة بسبب الشهوات الشاغلة لهم وهي حب الرئاسة وادعاء الألوهية الشاغلة لهم عن التدبر لهذا القرآن وعن شواهد الموجودات .

ولما كان هذا موجباً لشديد الإنذار ، وضع موضعه تهكماً بهم وإعلاماً بأن الغضب قد بلغ منتهاه قوله : ﴿ فبشرهم ﴾ أي أخبرهم يا أفضل الخلق وأكملهم وأعد لهم خبراً يغير إبشارهم ﴿ بعذاب أليم ﴾ أي شديد الألم لشدة إيلامه ، إن كان لهم يوماً من الأيام بشارة فهي هذه .

ولما أخبر عنهم بهذا الهوان ، وكان قد عبر عنهم بأدنى الأسنان إشارة إلى أن منهم من يقبل الإيمان ، استثنى منهم فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان ﴿ وعملوا ﴾ دلالة على صدق إيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ .

(122/809)

ولما تقدم أن من حوسب عذب ، وأن الناجي إنما يكون حسابه عرضاً ، علم أنه ليس للأعمال دخل في الحقيقة في الأجر ، وإنما المدار كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التغمد بالرحمة حتى في تسمية النعيم أجراً ، أسقط الفاء المؤذنة بالسبب تنبيهاً على ذلك بخلاف ما في سورة التين لما يأتي من اقتضاء سياقها للفاء فقال : ﴿ لهم أجر ﴾ أي عظيم وثواب جزيل يعلمه الله تعالى وهو التجاوز عن صغائرهم وسترها ﴿ غير ممنون ﴾ أي مقطوع أو منقوص أو يمتن عليهم به في الدنيا والآخرة يؤتون ذلك في يوم الدين يوم تنشق

السماء وتمد الأرض ويثوب الكفار ما كانوا يفعلون ، فقد رجع آخرها على أولها ، واعتلق مفصلها حق الاعتلاق بموصلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 372 .

375 ﴾

(123/809)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بالشفق ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن هذا قسم ، وأما حرف لا فقد تكلمنا فيه في قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] ومن جملة الوجوه المذكورة هناك أن لا نفي ورد لكلام قبل القسم وتوجيه هذا الوجه ههنا ظاهر ، لأنه تعالى حكى ههنا عن المشرك أنه ظن أن لن يحور فقوله لا رد لذلك القول وإبطال لذلك الظن ثم قال بعده أقسم بالشفق .

المسألة الثانية :

قد عرفت اختلاف العلماء في أن القسم واقع بهذه الأشياء أو يخالفها ، وعرفت أن المتكلمين زعموا أن القسم واقع برب الشفق وإن كان محذوفاً ، لأن ذلك معلوم من حيث ورد الحظر بأن يقسم الإنسان بغير الله تعالى .

المسألة الثالثة :

تركيب لفظ الشفق في أصل اللغة لرقة الشيء ، ومنه يقال : ثوب شفق كأنه لا تماسك لرقته ، ويقال : للرديء من الأشياء شفق ، وأشفق عليه إذا رق قلبه عليه والشفقة رقة القلب ثم اتفق العلماء على أنه اسم للأثر الباقي من الشمس في الأفق بعد غروبها إلا ما يحكى عن مجاهد أنه قال : الشفق هو النهار ، ولعله إنما ذهب إلى هذا لأنه تعالى عطف عليه الليل فيجب أن يكون المذكور أولاً هو النهار فالقسم على هذا الوجه واقع بالليل والنهار اللذين أحدهما معاش والثاني سكن وبهما قوام أمور العالم ، ثم اختلفوا بعد ذلك فذهب عامة العلماء إلى أنه هو الحمرة وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ، ومن أهل اللغة قول الليث والفراء والزجاج .

قال صاحب "الكشاف" : وهو قول عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه أنه البياض وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه .

واحتجوا عليه بوجوه أحدها : قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر ، قال : فدل ذلك على أن الشفق هو الحمرة وثانيها : أنه جعل الشفق وقتاً للعشاء الأخيرة فوجب أن يكون المعتبر هو الحمرة لا البياض لأن البياض يمتد وقته ويطول لبثه ، والحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس ثم بعدت الشمس عن الأفق ذهبت الحمرة وثالثها : أن اشتقاق الشفق لما كان من الرقة ، ولا شك أن الضوء يأخذ في الرقة والضعف من عند غيبة الشمس فتكون الحمرة شفقاً .

أما قوله : ﴿ واليل وَمَا وَسَقَ ﴾ فقال أهل اللغة : وسق أي جمع ومنه الوسق وهو الطعام المجتمع الذي يكال ويوزن ثم صار اسماً للحمل واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت والراعي يسقها أي يجمعها قال صاحب "الكشاف" : يقال وسقه فاتسق واستوسق ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع .

وأما المعنى فقال القفال : مجموع أقاويل المفسرين يدل على أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ على جميع ما يجمعه الليل من النجوم ورجوع الحيوان عن الانتشار وتحرك ما يتحرك فيه الهوام ، ثم هذا يحتمل أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها لاشتمال الليل عليها فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38] وقال سعيد بن جبير ما عمل فيه ، قال القفال : يحتمل أن يكون ذلك هو تهجد العباد فقد مدح الله تعالى بها المستغفرين بالأسحار فيجوز أن يحلف بهم وإنما قلنا : إن الليل جمع هذه الأشياء كلها لأن ظلمته كأنها تجلل الجبال والبحار والشجر والحيوانات ، فلا جرم صح أن يقال : وسق جميع هذه الأشياء ، أما قوله : ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ فاعلم أن أصل الكلمة من الاجتماع يقال : وسقته فاتسق كما يقال : وصلته فاتصل ، أي جمعته فاجتمع ويقال : أمور فلان متسقة أي مجتمعة على الصلاح كما يقال : منتظمة ، وأما أهل المعاني فقال ابن عباس إذا اتسق أي استوى واجتمع وتكامل وتم واستدار وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستة عشر ، ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر ما به أقسم أتبعه بذكر ما عليه أقسم فقال : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ على خطاب الإنسان في يا أيها الإنسان : ﴿ ولتركبن ﴾ بالضم على خطاب الجنس لأن النداء في قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ [الإنشقاق : 6]

للجنس ﴿ ولتركبن ﴾ بالكسر على خطاب النفس ، وليركبن بالياء على المغايبة أي ليركبن الإنسان .

المسألة الثانية :

(126/809)

الطبق ما طابق غيره يقال : ما هذا يطبق كذا أي لا يطابقه ، ومنه قيل : للغطاء الطبق وطباق الثرى ما يطابق منه ، قيل : للحال المطابقة لغيرها طبق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ أي حالاً بعد حال كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول ، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة من قولهم هو على طبقات والمعنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة ، ولنذكر الآن وجوه المفسرين فنقول : أما القراءة برفع الياء وهو خطاب الجمع فتحتمل وجوهاً : أحدها : أن يكون المعنى لتركبن أيها الإنسان أموراً وأحوالاً أمراً بعد أمر وحالاً بعد حال ومنزلاً بعد منزل إلى أن يستقر الأمر على ما يقضي به على الإنسان أول من جنة أو نار فحينئذ يحصل الدوام والخلود ، إما في دار الثواب أو في دار العقاب ويدخل في هذه الجملة أحوال الإنسان من يكون نطفة إلى أن يصير شخصاً ثم يموت فيكون في البرزخ ، ثم

يحشر ثم ينقل ، إما إلى جنة وإما إلى نار وثانيها : أن معنى الآية أن الناس يلقون يوم القيامة أحوالاً وشدائد حالاً بعد حال وشدة بعد شدة كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله أن البعث كائن وأن الناس يلقون فيها الشدائد والأهوال إلى أن يفرغ من حسابهم فيصير كل أحد إلى أعدله من جنة أو نار وهو نحو قوله :

(127/809)

﴿ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [التغابن : 7] وقوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم : 42] وقوله : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً ﴾ [المزمل : 17] ، وثالثها : أن يكون المعنى أن الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة عما كانوا عليه في الدنيا فمن وضيع في الدنيا يصير رفيعاً في الآخرة ، ومن رفيع يتضع ، ومن متنعم يشقى ، ومن شقي يتنعم ، وهو كقوله : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ [الواقعة : 3] وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية لأنه تعالى لما ذكر حال من يؤتى كتابه وراء ظهره ، أنه كان في أهله مسروراً ، وكان يظن أن لن يحور أخبر الله أنه يحور ، ثم أقسم على الناس أنهم يركبون في الآخرة طبقاً عن طبق أي حالاً بعد حالهم في الدنيا ورابعها : أن يكون المعنى لتركبن سنة الأولين ممن كان قبلكم في التكذيب بالنبوة والقيامة ، وأما القراءة بنصب الياء ففيها قولان :

الأول : قول من قال : إنه خطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا التقدير ذكروا وجهين أحدهما : أن يكون ذلك بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بالظفر والغلبة على المشركين المكذبين بالبعث ، كأنه يقول : أقسم يا محمد لتركبن حالاً بعد حال حتى يختم لك بجميل العافية فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم .

وفي هذا الوجه احتمال آخر يقرب مما ذكرنا ، وهو أن يكون المعنى أنه يركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدة .

(128/809)

واحتمال ثالث : وهو يكون المعنى أن الله تعالى يبدله بالمشركين أنصاراً من المسلمين ، ويكون مجاز ذلك من قولهم طبقات الناس ، وقد يصلح هذا التأويل على قراءة من قرأ بضم الباء ، كأنه خطاب للمسلمين بتعريف تنقل الأحوال بهم وتصييرهم إلى الظفر بعد وهم بعد الشدة التي يلقونها منهم ، كما قال : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : 186] الآية وثانيهما : أن يكون ذلك بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم بصعوده إلى السماء لمشاهدة ملكوتها ، وإجلال الملائكة إياه فيها ، والمعنى لتركبن يا محمد السموات طبقاً عن طبق ، وقد قال تعالى : ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً ﴾ [الملك : 3] وقد فعل الله

ذلك ليلة الإسراء ، وهذا الوجه مروي عن ابن عباس وابن مسعود وثالثها : لتركبن يا محمد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى .

القول الثاني : في هذه القراءة ، أن هذه الآية في السماء وتغيرها من حال إلى حال ، والمعنى لتركبن السماء يوم القيامة حالة بعد حالة ، وذلك لأنها أولاً تنشق كما قال : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ثم تنفطر كما قال : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [الإنفطار : 1] ثم تصير : ﴿ وَرْدَةً كالدهان ﴾ [الرحمن : 37] وتارة : ﴿ كالمهل ﴾ [المعارج : 8] على ما ذكر الله تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن فكأنه تعالى لما ذكر في أول السورة أنها تنشق أقسم في آخر السورة أنها تنتقل من أحوال إلى أحوال ، وهذا الوجه مروي عن ابن مسعود .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ عَن طَبَقٍ ﴾ أي بعد طبق كقول الشاعر :

ما زلت أقطع منهلا عن منهل . . حتى أنخت بباب عبد الواحد

ووجه هذا أن الإنسان إذا صار من شيء إلى شيء آخر فقد صار إلى الثاني بعد الأول فصلحت بعد وعن معاقبة ، وأيضاً فلفظة عن تفيد البعد والمجاوزة فكانت مشابهة للفظة بعد .

أما قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(129/809)

الأقرب أن المراد ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بصحة البعث والقيامة لأنه تعالى حكى عن الكافر : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الإنشقاق : 14] ثم أفتى سبحانه بأنه يحور فلما قال بعد ذلك : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ دل على أن المراد : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالبعث والقيامة ، ثم اعلم أن قوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار ، وهذا إنما يحسن عند ظهور الحجة وزوال الشبهات ، الأمر ههنا كذلك ، وذلك لأنه سبحانه أقسم بتغييرات واقعة في الأفلاك والعناصر ، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار ، ولما بعدها وهو ظلمة الليل ، وكذا قوله : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ فإنه يدل على حدوث ظلمة بعد نور ، وعلى تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلى النوم ، وكذا قوله : ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ فأنه يدل على حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً ، إنه تعالى أقسم بهذه الأحوال المتغيرة على تغير أحوال الخلق ، وهذا يدل قطعاً على صحة القول بالبعث ، لأن القادر على تغيير الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال وصفة إلى صفة بحسب

المصالح ، لا بد وأن يكون في نفسه قادراً على جميع الممكنات عالماً بجميع المعلومات .

ومن كان كذلك كان لا محالة قادراً على البعث والقيامة ، فلما كان ما قبل هذه الآية كالدلالة العقلية القاطعة على صحة البعث والقيامة لا جرم قال على سبيل الاستبعاد :

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

المسألة الثانية :

قال القاضي : لا يجوز أن يقول الحكيم فيمن كان عاجزاً عن الإيمان ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلما قال ذلك دل على كونهم قادرين ، وهذا يقتضي أن تكون الاستطاعة قبل الفعل ، وأن يكونوا موجدين لأفعالهم ، وأن لا يكون تعالى خالقاً للكفر فيهم .

فهذه الآية من المحكمات التي لا احتمال فيها ألبتة ، وجوابه قد مر غير مرة .

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21)

(130/809)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنهم أرباب الفصاحة والبلاغة فعند سماعهم القرآن لا بد وأن يعلموا كونه معجزاً ، وإذا

علموا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب طاعته في الأوامر والنواهي ، فلا جرم استبعد الله منهم عند سماع القرآن ترك السجود والطاعة .

المسألة الثانية :

قال ابن عباس والحسن وعطاء والكلبي ومقاتل : المراد من السجود الصلاة وقال أبو مسلم : الخضوع والاستكانة ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود عند آيات مخصوصة ، وهذه الآية منها .

المسألة الثالثة :

روي أنه عليه السلام : "قرأ ذات يوم : ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] فسجد هو ومن معه من المؤمنين ، وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر" فنزلت هذه الآية واحتج أبو حنيفة على وجوب السجدة بهذا من وجهين الأول : أن فعله صلى الله عليه وسلم يقتضي الوجوب لقوله تعالى : ﴿ واتبعوه ﴾ والثاني : أن الله تعالى ذم من يسمعه فلا يسجد ، وحصول الذم عند الترك يدل على الوجوب .

المسألة الرابعة :

مذهب ابن عباس أنه ليس في المفصل سجدة ، وعن أبي هريرة أنه سجد ههنا ، وقال : والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها ، وعن أنس صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان ، فسجدوا وعن الحسن هي غير واجبة .

أما قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ فالمعنى أن الدلائل الموجبة للإيمان ، وإن كانت جلية ظاهرة لكن الكفار يكذبون بها إما لتقليد الأسلاف ، وإما للحسد وإما للخوف من أنهم لو أظهروا الإيمان لفاتتهم مناصب الدنيا ومنافعها .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23)

فأصل الكلمة من الوعاء ، فيقال : أوعيت الشيء أي جعلته في وعاء كما قال : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [المعارج : 18] والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الشرك والتكذيب فهو مجازيهم عليه في الدنيا والآخرة .

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24)

استحقوه على تكذيبهم وكفرهم .

(131/809)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

ففيه قولان قال : صاحب "الكشاف" الاستثناء منقطع ، وقال : الأكثرون معناه إلا من تاب منهم فإنهم وإن كانوا في الحال كفاراً إلا أنهم متى تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر وهو الثواب العظيم .

وفي معنى : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وجوه أحدها : أن ذلك الثواب يصل إليهم بلا من ولا أذى وثانيها : من غير انقطاع وثالثها : من غير تنغيص ورابعها : من غير نقصان ، والأولى أن يحمل اللفظ على الكل ، لأن من شرط الثواب حصول الكل ، فكأنه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشوائب دائم لا انقطاع فيه ولا نقص ولا بخس ، وهذا نهاية الوعد فصار ذلك ترغيباً في العبادات ، كما أن الذي تقدم هو زجر عن المعاصي والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 98.103 ﴾

(132/809)

وقال ابن عطية :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) ﴾

" لا " زائدة ، والتقدير فأقسم ، وقيل : " لا " راد على أقوال الكفار وابتداء القول ﴿ أقسم ﴾ ، وقسم الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها ، وتعريضها للعبرة ، إذ القسم بها منبه منها و ﴿ الشفق ﴾ ، الحمرة التي تعقب غيبوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب ، وقيل ﴿ الشفق ﴾ هنا النهار كله قاله مجاهد ، وهذا قول ضعيف ، وقال أبو هريرة وعمر بن عبد العزيز : ﴿ الشفق ﴾ : البياض الذي تتلوه الحمرة ، و ﴿ وسق ﴾ :

معناه جمع وضم ، ومنه الوسق أي الأصوع المجموعة ، والليل يسق الحيوان جملة أي يجمعها في نفسه ويضمها ، وكذلك جميع المخلوقات التي في أرض والهواء من البحار والجبال والرياح وغير ذلك ، و" اتساق القمر " : كماله وتمامه بدراً ، فالمعنى امتلأ من النور ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وابن عباس وعمر بخلاف عنهما ، وأبو جعفر والحسن والأعمش وقتادة وابن جبير : " لتركُبُن " بضم الباء على مخاطبة الناس ، والمعنى " لتركبن " الشدائد : الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال أو تكون من النطفة إلى الهرم كما تقول طبقة بعد طبقة و﴿ عن ﴾ تجيء في معنى بعد كما يقال : ورث المجد كابراً عن كابر وقيل المعنى " لتركبن " هذه الأحوال أمة بعد أمة ، ومنه قول العباس بن عبد المطلب عن النبي عليه السلام :

وأنت لما بعثت أشرقت الأ . . . رض وضاءت بنورك الطرق

تنقل من صالب إلى رحم . . . إذا مضى علم بدا طبق

أي قرن من الناس لأنه طبق الأرض ، وقال الأقرع بن حابس : [البسيط]

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره . . . وساقني طبق منه إلى طبق

أي حال بعد حال ، وقيل المعنى : " لتركبن " الآخرة بعد الأولى ، وقرأ عمر بن الخطاب أيضاً : " ليركبن " على أنهم غيب ، والمعنى على نحو ما تقدم ، وقال ابو عبيدة ومكحول : المعنى " لتركبن " سنن من قبلكم .

قال القاضي أبو محمد : كما جاء في الحديث : " شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع " ، فهذا هو ﴿ طبق عن طبق ﴾ ، ويلتئم هذا المعنى مع هذه القراءة التي ذكرنا عن عمر بن الخطاب ، ويحسن مع القراءة الأولى ، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وعمرو بن مسعود ومجاهد والأسود ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وعيسى : " لتركَبن " ، بفتح الباء على معنى : أنت يا محمد ، وقيل المعنى : حال بعد حال من معالجة الكفار ، وقال ابن عباس المعنى : سماء بعد سماء في الإسراء ، وقيل هي عدة بالنصر ، أي " لتركَبن " العرب قبيلاً بعد قبيل ، وفتحاً بعد فتح كما كان ووجد بعد ذلك ، قال ابن مسعود : المعنى : " لتبركَبن " السماء في أهوال القيامة ، حالاً بعد حال تكون كالمهل وكالدهان وتتفطر وتتشقق ، فالسماء هي الفاعلة ، وقرأ ابن عباس أيضاً وعمر رضي الله عنهما : " ليركبن " بالياء على ذكر الغائب ، فإما أن يراد محمد صلى الله عليه وسلم على المعاني التمقدمة ، وقاله ابن عباس يعني : نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وإما ما قال الناس في كتاب النقاش من أن المراد : القمر ، لأنه يتغير أحوالاً من سرار واستهلال وإبدار ، ثم وقف تعالى نبيه ، والمراد أولئك الكفار بقوله : ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ ، أي

من حجتهم مع هذه البراهين الساطعة ، وقرأ الجمهور : "يُكذّبون" بضم الياء وشد الذال ، وقرأ الضحاك : بفتح الباء وتخفيف الذال وإسكان الكاف ، و ﴿ يوعون ﴾ معناه : يجمعون من الأعمال والتكذيب والكفر ، كأنهم يجعلونها في أوعية ، تقول : وعيت العلم وأوعيت المتاع ، وجعل البشارة في العذاب لما صرح له ، وإذا جاءت مطلقة ، فإنما هي من الخبر ، ثم استثنى تعالى من كفار قريش القوم الذين كان سبق لهم الإيمان في قضائه ، و ﴿ ممنون ﴾ معناه : مقطوع من قولهم : حبل منين أي مقطوع ، ومنه قول الحارث بن حلّزة اليشكري : [الخفيف]

(134/809)

فترى خلفهن من شدة الرجع . . . منيناً كأنني أهباء

يريد غباراً متقطعاً ، وقال ابن عباس : ﴿ ممنون ﴾ بمعنى : معدود عليهم محسوب منغص بالمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(135/809)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾

أي فأقسم و "لا" صلة .

﴿ بالشفق ﴾ أي بالحمرة التي تكون عند مغيب الشمس حتى تأتي صلاة العشاء الآخرة .

قال أشهب وعبد الله بن الحكم ويحيى بن يحيى وغيرهم ، كثير عددهم ، عن مالك : الشَّفَق الحمرة التي في المغرب ، فإذا ذهبت الحمرة فقد خرجتُ من وقت المغرب ووجبتْ صلاة العشاء .

وروى ابن وهب قال : أخبرني غير واحد عن عليّ بن أبي طالب ومُعاذ بن جبل وعُبادة ابن الصامت وشدّاد بن أوس وأبي هريرة : أن الشفَق الحمرة ، وبه قال مالك بن أنس .

وذكر غير ابن وهب من الصحابة : عمر وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأَنَساً وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير ، ومن التابعين : سعيد بن جبير ، وابن المسيب وطاوس ، وعبد الله بن دينار ، والزهريّ ، وقال به من الفقهاء الأوزاعيّ ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحاق .

وقيل : هو البياض ؛ رُوي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وعمر بن عبد العزيز والأوزاعيّ وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه .

وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه .

ورُوِي عن ابن عمر أيضاً أنه البياض والاختيار الأوّل ؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه ؛ ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ : كأنه الشفق وكان أحمر ، فهذا شاهد للحمرة ؛ وقال الشاعر :

وأحمر اللون كمحمرّ الشفق . . .

وقال آخر :

قم يا غلام أعِني غير مرتبكٍ . . .

على الزمانِ بكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ

ويقال للمَغْرة الشفق .

وفي الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أوّل الليل إلى قريب من العَتَمة .

قال الخليل : الشفق : الحمرة ، من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، إذا ذهب قيل : غاب الشفق .

ثم قيل : أصل الكلمة من رقة الشيء ؛ يقال : شيء شَفِق أي لا تماسك له لرقته .

وأشفق عليه : أي رق قلبه عليه ، والشفقة : الاسم من الإشفاق ، وهو رِقة القلب ،

وكذلك الشَّفَق ؛ قال الشاعر :

تهوَى حَياتِي وأهوى موتها شَفَقاً . . .

والموتُ أَكرم نَزَّالٍ على الحُرَمِ

فالشفَق : بقية ضوء الشمس وحمرتها فكأن تلك الرّقة عن ضوء الشمس .

وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلاً .

وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض ، فرأيته يتردّد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب .

وقال ابن أبي أويس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر قال علماؤنا : فلما لم يتحدد وقته سقط اعتباره .

وفي سُنَن أبي داود عن النعمان بن بَشير قال : أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة ؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يصليها لسقوط القمر لثالثة .

وهذا تحديد ، ثم الحكم معلق بأوّل الاسم .

لا يقال : فينقض عليكم بالفجر الأوّل ، فإنا نقول الفجر الأوّل لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بين الفجر بقوله وفعله فقال :

" وليس الفجر أن تقول هكذا فرفع يده إلى فوق ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها " وقد مضى بيانه في آية الصيام من سورة "البقرة" ، فلا معنى للإعادة .

وقال مجاهد : الشفق : النهار كله ألا تراه قال "والليلِ وما وَسَق" .

وقال عِكرمة : ما بقي من النهار .

والشفق أيضاً : الرديء من الأشياء ؛ يقال : عطاء مُشفَّق أي مقلل قال الكُميت :

ملكَ أغَرَ مِن الملوك تحلَّبَتْ . . .

للسائلين يداه غيرَ مُشفِّقِ

(137/809)

قوله تعالى : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وضم ولف ، وأصله من سَوْرة السلطان وغضبه ؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه ، ولكن خرج من باب الرحمة فمزح بها ، فسكن الخلق إليه ثم ابذعروا والتفوا وانقبضوا ، ورجع كل إلى مأواه فسكن فيه من هَوْله وحشا ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [القصص : 73] أي بالليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] أي بالنهار على ما تقدم .

فالليل يجمع ويضم ما كان منتشراً بالنهار في تَصَرّفه .

هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم ؛ قال ضابيء ابن الحارث البرجُمِيّ :

فإني وإِياكُمْ وشوقاً إِليكُمْ . . .

كقابِضِ ماءٍ لم تَسِقْه أناملُهْ

يقول : ليس في يدهِ من ذلك شيء كما أنه ليس في يد القابض على الماء شيء ؛ فإذا جلل الليل الجبال والأشجار والبحار والأرض فاجتمعت له ، فقد وَسَقَها .

والوسْق : ضمك الشيء بعضه إلى بعض ، تقول : وَسَقْتُه أَسِقُه وَسْقاً .

ومنه قيل للطعام الكثير المجتمع : وَسْقٌ ، وهو ستون صاعاً .

وطعام مُوسَق : أي مجموع ، وإبل مُسْتَوْسِقة أي مجتمعة ؛ قال الراجز :

إنَّ لَنَا قِلائِصاً حقائِقاً . . .

مُسْتَوْسقاتٍ لو يَجِدْنَ سائِقاً

وقال عِكرمة : "وما وَسَق" أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوِي ، فالوَسْق بمعنى الطْرد ، ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر : وسِيقة ، قال الشاعر :

كما قافَ آثارَ الوسِيقةِ قائِفُ . . .

وعن ابن عباس : "وما وَسَق" أي وما جنّ وستر .

وعنه أيضاً : وما حَمَل ، وكل شيء حملته فقد وَسَقْته ، والعرب تقول : لا أفعله ما وَسَقَتْ

عيني الماء ، أي حملته .

ووسَقَت الناقةُ تَسِق وَسْقاً : أي حملت وأغلقت رحمها على الماء ، فهي ناقة واسق ،

ونوق وِسَاق مثل نَائِم ونيام ، وصاحِب وصحِاب ، قال بشر بن أبي خازم :

أَلَظَّ بِهِن يحدوهُنّ حتى . . .

(138/809)

تبينتِ الحِيالُ مِن الوِساقِ

ومَواسيق أيضاً .

وأوسقت البعير : حَمَّلتة حملَه ، وأوسَقَتِ النخلة : كثر حملها .

وقال بمان الضحاك ومقاتل ابن سليمان : حمل من الظلمة .

قال مقاتل : أو حمل من الكواكب .

القشيريّ : ومعنى حَمَل : ضم وجمع ، والليل يجلل بظلمته كل شيء فإذا جللها فقد وسقها .

ويكون هذا القَسَم قسماً بجميع المخلوقات ، لاشتمال الليل عليها ، كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾

[الحاقة: 38-39] وقال ابن جُبير: "وما وَسَق" أي وما عمل فيه، يعني التهجد والاستغفار بالأسحار، قال الشاعر:

ويوماً ترانا صالحين وتارةً . . .

تقومُ بِنا كالواسِق المتلَبِّب

أي كالعامل.

قوله تعالى: ﴿ والقمرِ إذَا اتسق ﴾ أي تم وأجتمع واستوى.

قال الحسن: اتسق: أي امتلأ واجتمع.

ابن عباس: استوى.

قتادة: استدار.

الفراء: اتساقه: امتلاؤه واستواؤه ليالِيَ البدر، وهو افتعال من لوسْق الذي هو الجمع، يقال: وسقته فاتسق، كما يقال: وصلته فاتصل، ويقال: أمر فلان مُتَّسِق: أي مجتمع على الصلاح منتظم.

ويقال: اتسق الشيء: إذا تتابع: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ قرأ أبو عمر وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخَعيّ والشعبيّ وابن كثير وحمزة الكسائي "لَتَرْكَبَنَّ" بفتح الباء خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم، أي لتركَبَنَّ يا محمد حالاً بعد حال، قاله ابن عباس.

الشعبي : لتركَبَنَّ يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة ، ورُتبه بعد رتبة ، في القربة من الله تعالى .

ابن مسعود : لتركَبَن السماء حالاً بعد حال ، يعني حالاتها التي وصفها الله تعالى بها من الاِنشقاق والطيّ وكونها مرة كالمُهلِ ومرة كالدّهانِ .

وعن إبراهيم عن عبد الأعلى : "طبقاً عن طبقٍ" قال : السماء تَقَلَّبُ حالاً بعد حال .

(139/809)

قال : تكون وردة كالدهان ، وتكون كالمهل ؛ وقيل : أي لتركَبَن أيها الإنسان حالاً بعد حال ، من كونك نطفة ثم علقه ثم مضغة ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً .

فالخطاب للإنسان المذكور في قوله : ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ هو اسم للجنس ، ومعناه الناس .

وقرأ الباقون "لتركَبُنّ" بضم الباء ، خطاباً للناس ، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ، قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله .

أي لتركبن حالاً بعد حال من شدائد القيامة ، أو لتركَبُن سُنَّة من كان قبلكم في التكذيب

واختلاق على الأنبياء .

قلت : وكله مراد ، وقد جاءت بذلك أحاديث ، فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن علي عن جابر رضي الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل ؛ إن الله لا إله غيره إذا أراد خَلْقه قال للملك أكتب رزقه وأثره وأجله ، وأكتب شقياً أو سعيداً ، ثم يرتفع ذلك الملك ، ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك ، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فإذا جاءه الموت ارتفع ذانك الملكان ، ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه ، فإذا أدخِل حفرته رُدّ الروح في جسده ، ثم يرتفع ملك الموت ، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ، ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات ، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه ، ثم حضرا معه ، واحد سائق والآخر شهيد "

(140/809)

ثم قال الله عز وجل "لقد كنت في غفلة مِن هذا فكشفنا عنك غِطاءك ، فبصرك اليوم حَدِيد" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ قال : "حالاً بعد حال" " ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قُدَّامَكُمْ أمراً عظيماً

فاستعينوا بالله العظيم " فقد اشتمل هذا الحديث على أحوال تعتري الإنسان ، من حين يُخْلق إلى حين يُبعث ، وكله شدّة بعد شدة ، حياة ثم موت ، ثم بعث ثم جزاء ، وفي كل حال من هذه شدائد .

وقال صلى الله عليه وسلم : " لتركبُن سَنَن من قبلكم شبراً بشبراً ، وذراعاً بذارع ، حتى لو دخلوا جُحر ضَبّ لدخلتموه" قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : "فَمَنْ" " ؟ خرجه البخاريّ : وأما أقوال المفسرين ، فقال عكرمة : حالاً بعد حال ، فطيما بعد رضيع ، وشيخاً بعد شَباب ، قال الشاعر :

كذِلك المرءُ إن يُنْسَأْ لهُ أَجلٌ . . .

يَرْكَب على طَبَقٍ مِن بعدِهِ طَبَقُ

(141/809)

وعن مكحول : كلَّ عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه : وقال الحسن : أمراً بعد أمر ، رخَاء بعد شدّة ، وشدّة بعد رَخاء ، وغنًى بعد فقر ، وفقراً بعد غنًى ، وصحة بعد سُقْم ، وسقماً بعد صحة : سعيد بن جبير : منزلة بعد منزلة ، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة : وقيل : منزلة عن

منزلة ، وطبَقاً عن طبق ، وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه ، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ، لأن كل شيء يجري إلى شكله : ابن زيد : ولتصيرُن من طَبَق الدنيا إلى طَبَق الآخرة : وقال ابن عباس : الشدائد والأهوال : الموت ، ثم البعث ، ثم العَرْض ، والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد : وقَع في بَناتِ طَبَق ، وإحدى بنات طَبَق ، ومنه قيل للداهية الشديدة : أم طَبَق ، وإحدى بناتِ طَبَق : وأصلها من الحَيّات ، إذ يقال للحية أم طَبَق لتحوِّيها : والطبق في اللغة : الحال كما وصفنا ، قال الأقرع بن حابس التميميّ :

إني امرؤ قد حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ . . .

وساقني طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم ، وإثبات الصانع ، قالت الحكماء : من كان اليوم على حالة ، وغداً على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه : وقيل لأبي بكر الورّاق : ما الدليل على أن لهذا العالم صانعاً ؟ فقال : تحويل الحالات ، وعجز القوة ، وضعف الأركان ، وقهر النية : ونسخ العزيمة : ويقال : أتانا طَبَقٌ من الناس وطبق من الجراد : أي جماعة : وقول العباس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

تَنْقُل مِن صالبٍ إلى رَحِمٍ . . .

إذا مضَى عالَمٌ بدا طَبَقُ

أي قرن من الناس .

يكون طباقَ الأرض أي ملأها .

والطَّبَق أيضاً : عظم رقيق يفصل بين الفَقارين .

ويقال : مضى طبق من الليل ، وطَبَق من النهار : أي معظم منه .

والطبق : واحد الأطباق ، فهو مشترك .

(142/809)

وقرىء "لتركبِن" بكسر الباء ، على خطاب النفس و "لَيَرْكَبَن" بالياء على ليركبن الإنسان .

و"عن طبقٍ" في محل نصب على أنه صفة ل "طبقاً" أي طبقاً مجاوزاً لطبق .

أو حال من الضمير في "لتركبن" أي لتركبن طبقاً مجاوِزِين لطبق ، أو مجاوزاً أو مجاوزة على حسب القراءة .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات .

وهذا استفهام إنكار .

وقيل : تعجب أي اعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ أي لا يُصَلُّون .

وفي الصحيح : إن أبا هريرة قرأ ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها .

وقد قال مالك : إنها ليست من عزائم السجود ؛ لأن المعنى لا يُذْعِنون ولا يطيعون في العمل بواجباته .

ابن العربي : والصحيح أنها منه ، وهي رواية المَدَنيين عنه ، وقد اعتضد فيها القرآن والسنة .

قال ابن العربيّ : لما أَمَمْت بالناس تركت قراءتها ؛ لأني إن سجدت أنكروه ، وإن تركتها كان تقصيراً مني ، فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدي .

(143/809)

وهذا تحقيق وعدِ الصادق بأن يكون المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : " لولا حِدْثان قومِك بالكفر لهدمتُ البيت ، ولرددته على قواعد إبراهيم " ولقد كان شيخنا أبو بكر الفِهْريّ يرفع يديه عند الركوع ، وعند الرفع منه ، وهو

مذهب مالك والشافعي ويفعله الشّيعة ، فحضر عندي يوماً في مَحْرَس ابن الشَّواء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر ، ودخل المسجد من المَحْرس المذكور ، فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعداً على طاقات البحر ، أتنسم الريح من شدة الحر ، ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده ، مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ، ويتطلع على مراكب تَخْت المِيناء ، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرقيّ كيف دخل مسجدنا ؟ فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به إلى البحر ، فلا يراكم أحد .

فطار قلبي من بين جوانحي وقلت : سبحان الله هذا الطُّرطُوشيّ فقيه الوقت .

فقالوا لي : ولَم يرفع يديه ؟ فقلت : كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك ، في رواية أهل المدينة عنه .

وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته ، وقمت معه إلى المسكَن من المحرس ، ورأى تغير وجهي ، فأنكره ، وسألني فأعلمته ، فضحك وقال : ومن أين لي أن أُقتل على سنةٍ ؟ فقلت له : ولا يحل لك هذا ، فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك .

فقال : دع هذا الكلام ، وخذ في غيره .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾

محمداً صلى الله عليه وسلم وما جاء به .

وقال مقاتل : نزلتْ في بني عمرو بن عُمَير وكانوا أربعة ، فأسلم اثنان منهم .

وقيل : هي في جميع الكفار .

﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب .

كذا رَوي الضحاك عن ابن عباس .

وقال مجاهد : يكتمُون من أفعالهم .

(144/809)

ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ؛ مأخوذ من الوِعاء الذي يَجْمع ما فيه ؛

يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوِعاء ؛ قال الشاعر :

الخير أبقى وإِن طال الزمانُ بِهِ . . .

والشرُّ أَخبث ما أوعيت مِن زادِ

ووعاه أي حفظه ؛ تقول : وَعَيْتُ الحديث أعِيهِ وَعياً ، وأُذُنٌ واعِية .

وقد تقدم .

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي مُوجع في جهنم على تكذيبهم .

أي اجعل ذلك بمنزلة البشارة .

﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ استثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذين صَدّقوا بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وعملوا الصالحات ، أي أدّوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أي ثواب ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ولا مقطوع ؛ يقال : مَنَنْتُ الحبل : إذا قطعته .

وقد تقدم .

وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله "لهم أجر غير ممنون" فقال : غير مقطوع .

فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يُشْكُرَ حيث يقول :

فترى خَلْفَهُنَّ مِن سُرْعةِ الرجْ . . .

عِ مَنيناً كأَنَّهُ أَهباءُ

قال المبرد : المنين : الغبار ؛ لأنها تقطعه وراءها .

وكل ضعيف منين وممنون .

وقيل : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لا يُمنّ عليهم به .

وذكر ناس من أهل العلم أن قوله "إلا الذِين آمنوا وعمِلوا الصالِحاتِ" ليس استثناء ، وإنما هو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه والحمد لله .

تمت سورة الانشقاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(145/809)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾

أي بالغمامِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ وعن عليَ رضي الله تعالى عنه تنشقُ من المجرة ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي واستمعتْ أي انقادتْ وأذعنتْ لتأثيرِ قُدرتِهِ تعالى حين تعلقتْ إرادتهُ بانشقاقِها انقيادَ المأمورِ المطواعِ إذا وردَ عليه أمرُ الآمرِ المُطاعِ ، والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافة إليها للإشعارِ بعلةِ الحُكْمِ وهذه الجملةُ ونَظيرتُها الآتيةُ بمنزلة قولِه تعالى : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ في الإنباء عن كونِ ما نُسبَ إلى السماءِ والأرضِ من الانشقاق والمد وغيرِهما جارياً على مُقْتضَى الحكمةِ كما أُشيرَ إليهِ فيما سلفَ ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي جُعلت حقيقةً بالاستماع والانقيادِ لكنْ لا بعدَ أنْ لم تكنْ كذلك بلْ في نفسها وحدِّ ذاتها من قولهم هو محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به والمَعْنى انقادتْ لربِّها وهيَ حقيقةٌ بذلكَ لكنْ لا على أنَّ المرادَ خصوصيةُ ذاتها من بين سائرِ المقدوراتِ بل خصوصيةُ المقدرةِ

القاهرةِ الربانيةِ التي يتأتى لها كلُّ مقدورٍ ولا يتخلفُ عنها أمرٌ من الأمورِ فحقُّ الجملةِ أن تكونَ اعتراضاً مقرراً لما قبلَها لا معطوفةً عليهِ ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ أي بُسطتْ بإزالة جبالِها وآكامِها من مقارّها وتسويتِها بحيثُ صارتْ قاعاً صفصفاً لا ترَى فيها عوجاً ولا أمتاً أو زيدتْ سعَةً وبسطةً منْ مدَّهُ بمعنى أمدَّه أي زادَهُ ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ أي رمتْ ما في جوفِها من الموتَى والكنوزِ كقولِه تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ وخلتْ عمَّا فيها غايةَ الخلوّ حتَّى لم يبقَ فيها شيءٌ منه كأنَّها تكلفتْ في ذلكَ أقصَى جُهدِها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاءِ والتخلّي ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أيْ وهيَ حقيقةٌ بذلكَ أي شأنُها ذلكَ بالنسبةِ إلى القدرةِ الربانيةِ وتكريرُ كلمةِ إذا معَ اتحادِ الأفعالِ المنسوبةِ إلى السماءِ والأرضِ

(146/809)

وقُوعاً في الوقتِ الممتدِّ الذي هُو مدلولُها قد مرَّ سِرُّه فيمَا مَرَّ .

(147/809)

﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى ربِّكَ كَدْحاً ﴾ أي جاهدٌ ومجدٌّ إلى الموت وما بعدَهُ من الأحوالِ التي مُثِّلتْ باللقاءِ مبالغٌ في ذلكَ فإنَّ الكدحَ جهدُ النفسِ في العملِ والكدُّ فيهِ بحيثُ يؤثرُ فيها من كَدَحَ جلدَهُ إذا خدَشَهُ ﴿ فملاقيه ﴾ أي فملاقٍ لهُ عقيبَ ذلكَ لا محالةَ من غيرَ صارفٍ يلويكَ عَنْهُ وقولُه تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه بيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ الخ . قيلَ : جوابُ إذا كما في قولِه تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ القرءان خَلَقَ الإنسان ﴾ الخ ، اعتراضٌ وقيلَ : هو محذوفٌ للتهويلِ والإيماءِ إلى قصورِ العبارةِ عن بيانِه أوْ للتعويلِ على دلالةِ ما مَرَّ في سورةِ التكويرِ والانفطارِ عليهِ وقيلَ : هو ما دلَّ عليهِ قولُه تعالى : ﴿ القرءان خَلَقَ الإنسان ﴾ الخ تقديرُه لاقَى الإنسانُ كَدحَهُ وقيلَ : هو قولُهُ تعالى فملاقيهِ وما قبله اعتراضٌ وقيلَ : هو يا أيها الإنسانُ الخ بإضمارِ القولِ ومعنى يسيراً سهلاً لا مناقشةَ فيه ولا اعتراضَ وعن الصديقةِ رضي الله عنها هُو أن يُعرّفَ ذنوبَهُ ثم يُتجاوزَ عَنْهُ ﴿ وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي عشيرتِه المؤمنينَ أو فريقَ المؤمنينَ مُبتهجاً بحالِه قائلاً هاؤُم اقرؤوا كتابيه ، وقيلَ : إلى أهلِهِ في الجنةِ من الحورِ والغلمانِ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابه وَرَاء ظَهْرِهِ ﴾ أي يُؤتاهُ بشمالِه من وراءِ ظهرِه قيلَ : تُغلُّ يمناهُ إلى عنقِه ويجعلُ شمالُه وراءَ ظهرِه فيؤتى كتابَهُ بشمالِه وقيلَ : تخلعُ يدُه اليُسْرَى من وراءِ ظهرِه ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ أي يتمنَّى

الثبورَ وهو الهلاكُ ويدعُوه يا ثبوارهُ تعالَ فإنه أوانُكَ وأنَّى له ذلكَ ﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ أي يدخلُها وقُرِىءَ

(148/809)

يُصلّى كقوله تعالى : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ وقرىءَ ويصلى كما في قوله تعالى : ﴿ لِلظَّالِمِينَ نَارًا . ﴾ ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ ﴾ فيما بينَ أهلِه وعشيرتِه في الدُّنيا ﴿ مَسْرُوراً ﴾ مترفاً بَطِراً مستبشراً كديدنِ الفجارِ الذينَ لا يهمهم ولا يخطُر ببالِم أمورُ الآخرةِ ولا يتفكرونَ في العواقبِ ولم يكُنْ حَزيناً متفكراً في حالِه ومآلِه كسنةِ الصلحاءِ والمتقينَ والجملةُ استئنافٌ لبيانِ علةِ ما قَبلها .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ تعليلٌ لسرورِه في الدُّنيا أي يظنُّ أنْ لَنْ يَرجعَ إلى الله تعالى تكذيباً للمعادِ وأنْ مخففةٌ مِنْ أنَّ سادَّةٌ معَ ما في حيزِها مسدَّ مفعولَيْ الظنِّ أو أحدَهُما عَلى الخِلافِ المعروفِ ﴿ بلى ﴾ إيجابٌ لما بعدَ لَنْ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ تحقيقٌ وتعليلٌ لهُ أيْ بَلَى ليحورَنَّ ألبتةَ إنَّ ربَّهُ الذي خلقَهُ كانَ به وبأعمالِه الموجبةِ للجزاءِ بصيراً بحيثُ لا يَخْفى منها خافيةٌ فلا بُدَّ مِنْ رجعهِ وحسابه وجزائه عليها حَتماً ، وقيلَ : نزلتْ الآيتانِ في أبي سَلَمةَ بنِ عبْدِ الأشد وأخيه الأسودِ ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ

بالشفق ﴾ هي الحمرةُ التي تُشاهدُ في أفقِ المغربِ بعد الغروبِ أو البياضُ الذي يليها سُميَ بِهِ لرقتِه ومنْهُ الشفقةُ التي هي عبارةٌ عنْ رقةِ القلبِ ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ وما جمعَ وضمَّ يقالُ : وسقَهُ فاتَّسقَ واستوسقَ أي جمعهُ فاجتمعَ وما عبارةٌ عمَّا يجتمعُ بالليلِ ويأوِي إلى مكانِهِ من الدوابِّ وغيرِها ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ أي اجتمعَ وتمَّ بدراً ليلة أربعَ وعشرةَ .

(149/809)

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ أي لتُلاقُنَّ حالاً بعدَ حالٍ كُلُّ واحدةٍ منهَا مطابقةٌ لأختها في الشدةِ والفظاعةِ وقيلَ : الطبقُ جمع طبقةٍ وهي المرتبةُ وهو الأوفقُ للركوبِ المنبىءُ عن الاعتلاءِ والمَعْنَى لتركَبُنَّ أحوالاً بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشدةِ بعضُها أرفعُ من بعضٍ وهي الموتُ وما بعدَه من مواطنِ القيامةِ ودواهيها وقُرِىءَ لَتَرْكَبَنَّ بالإفرادِ على خطابِ الإنسانِ باعتبارِ اللفظِ لا باعتبارِ شمولِهِ لأفرادِه كالقراءةِ الأولى وقُرِىءَ بكسرِ الياءِ على خطابِ النفسِ وليَرْكَبَنَّ بالياءِ أي ليركَبَنَّ الإنسانُ ومحلُّ عن طبقٍ النصبُ على أنَّه صفةٌ لطبقاً أي طبقاً مجاوزاً لطبقٍ أو حالٌ من الضميرِ لتركبنَّ أي لتركبنَّ طبقاً مجاوزينَ أو مجاوزاً أو مجاوزةً على حسبِ القراءةِ والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لترتيبِ ما بعدَها منَ الإنكارِ والتعجيبِ على ما قبلَها من أحوالِ يومِ القيامةِ وأهوالِها الموجبةِ للإيمانِ

والسجودِ أيْ إذا كانَ حالُهم يومَ القيامةِ كما ذُكِرَ فأيُّ شيءٍ لهم حالَ كونِهم غيرَ مؤمنينَ أي أيُّ شيءٍ يمنعُهم من الإيمانِ معَ تعاضدِ موجباتِه .

(150/809)

وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرءان لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ جملةٌ شرطيةٌ محلُّها النصبُ عَلى الحاليةِ نسقاً على ما قَبلَها أيْ فأيُّ مانعٍ لهم حالَ عدمِ سجودِهم وخضوعِهم واستكانتِهم عندَ قراءةِ القُرآنِ ، وقيلَ : قرأ النبيُّ عليه الصلاةُ والسَّلامُ ذاتَ يومٍ : ﴿ واسجدْ واقتربْ ﴾ فسجدَ هُو ومَنْ مَعَهُ من المؤمنينَ وقريشٌ تصفقُ فوقَ رؤوسهم وتصفرْ فنزلتْ وبه احتجَّ أبُو حنيفةٍ رحمَهُ الله تعالَى عَلى وجوبِ السجدةِ وعنِ ابن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما ليسَ في المفصلِ سجدةٌ ، وعن أبي هريرةٍ رضي الله عنهُ أنَّه سجَدَ فيها وقالَ : والله ما سجدتُ إلا بعدَ أن رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يسجدُ فيها . وعن أنسٍ رضيَ الله عَنْهُ صليتُ خلفَ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رضيَ الله عنهم فسجدُوا وعن الحسنِ هي غيرُ واجبةٍ ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ بالقرآنِ الناطقِ بما ذُكِرَ من أحوالِ القيامةِ وأهوالِها مع تحققِ موجباتِ تصديقِهِ ولذلكَ لا يخضعونَ عندَ تلاوتِه ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ بما يضمرونَ في قلوبِهم ويجمعونَ في صدورِهم من الكفرِ والحسدِ والبغي

والبغضاءِ أو بما يجمعونَ في صحفهم من أعمالِ السوءِ ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذابِ علماً فعلياً ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأنَّ علمَهُ تعالَى بذلكَ على الوجه المذكورِ موجبٌ لتعذيبهم حتماً ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ استثناءٌ منقطعٌ إنْ جُعلَ الموصولُ عبارةً عن المؤمنينَ كافَّة ومتصلٌ إنْ أريدَ به منْ امنَ منهمُ بعدَ ذلكَ وقولُه تعالى ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غيرُ مقطوعٍ أو ممنونٍ به عليهم استئنافٌ مقررٌ لما أفادَهُ الاستثناءُ من انتفاءِ العذابِ عنهم ومبينٌ لكيفيتهِ ومقارنته للثوابِ العظيمِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(151/809)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالشفق ﴾

هي الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب وأصله من رقة الشيء يقال شيء شفق أي لا يتماسك لرقته ومنه أشفق عليه رق قلبه والشفقة من الإشفاق وكذلك الشفق قال الشاعر

: تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا . . .

والموت أكرم نزال على الحرم

وقيل البياض الذي يلي تلك الحمرة ويرى بعد سقوطها وفي تسمية ذلك شفقاً خلاف فالجمهور على أنه لا يسمى به وأبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وأبوحنيفة رضي الله تعالى عنهم على أنه يسمى وروى أسد بن عمرو عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه رجع عن ذلك إلى ما عليه الجمهور وتمام الكلام عليه في "شروح الهداية" وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة أنه هنا النهار كله .

وروى ذلك عن الضحاك وابن أبي نجيح وكأنه شجعهم على ذلك عطف الليل عليه وعن عكرمة أيضاً أنه ما بقي من النهار والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا عرفت هذا أو إذا تحقق الحور بالبعث فلا أقسم بالشفق .

﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ وما ضم وجمع يقال وسقه فاتسق واستوسق أي جمعه فاجتمع ويقال طعام موسوق أي مجموع وابل مستوسقة أي مجتمعة قال الشاعر

: إن لنا قلائصا حقائقا . . .

مستوسقات لم يجدن سائقاً

ومنه الوسق الأصواع المجتمعة وهي ستون صاعاً أوحمل بعير لاجتماعه على ظهره وما تحتمل المصدرية والموصولة والجمهور على الثاني والعائد محذوف أي والذي وسقه والمراد به ما يجتمع بالليل ويأي إلى مكانه من الدواب وغيرها وعن مجاهد ما يكون فيه من خير أو

شر وقيل ما ستره وغطى عليه بظلمته وقيل ما جمعه من الظلمة وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جبير أنه قال وما وسق وما عمل فيه ومنه قوله

: فيوماً ترانا صالحين وتارة . . .

تقوم بنا كالواسق المتلبب

وقيل وسق بمعنى طرد أي وما طرده إلى أماكنه من الدواب وغيرها أو ما طرده من ضوء النهار ومنه الوسيقة قال في "القاموس" وهي من الإبل كالرفقة من الناس فإذا سرقت طردت معاً .

(152/809)

﴿ والقمر إذَا اتسق ﴾ أي اجتمع نورع وصار بدراً .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ خطاب لجنس الإنسان المنادى أولاً باعتبار شموله لأفراده والمراد بالكوب الملاقاة والطبق في الأصل ما طابق غيره مطلقاً وخص في العرف بالحال المطابقة لغيرها ومنه قول الأقرع بن حابس .

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره . . .

وساقني طبق منه إلى طبق

وعن للمجاوزة وقال غير واحد هي بمعنى بعد كما في قولهم سادوك كابراً عن كابر وقوله :

ما زلت أقطع منهلاً عن منهل . . .

حتى أنخت بباب عبد الواحد

(153/809)

والمجاوزة والبعدية متقاربان والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لطبقاً أو حالاً من فاعل تركبن والظاهر أن نصب طبقاً على أنه مفعول به أي لتلاقن حالاً مجاوز لحال أو كائنة بعد حال أو مجاوزين لحال أو كائنين بعد حال كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول وجوز كون الركوب على حقيقته وتجعل الحال مركوبة مجازاً وقيل نصب طبقاً على التشبيه بالظرف أو الحالية وقال جمع الطبق جمع طبقة كتخم وتخمة وهي المرتبة ويقال إنه اسم جنس جمعي واحدة ذلك والمعنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها ورجحه الطيبي فقال هذا الذي يقتضيه النظم وترتب الفاء في ﴿ فلا أقسم ﴾ [الانشقاق : 16] على قوله تعالى : ﴿ بلى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ [الانشقاق : 15] وفسر بعضهم الأحوال بما يكون في الدنيا من كونهم نطفة إلى الموت وما يكون في الآخرة من البعث إلى حين المستقر في إحدى

الدارين وقيل يمكن أن يراد بطبقاً عن طبق الموت المطابق للعدم الأصلي والإحياء المطابق للإحياء السابق فيكون الكلام قسماً على البعث بعد الموت ويجري فيه ما ذكره الطيبي وأخرج نعيم بن حماد وأبو نعيم عن مكحول أنه قال في الآية تكونون في كل عشرين سنة على حال لم تكونوا على مثلها وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في كل عشرين عاماً تحدثون أمراً لم تكونوا عليه فالطبق بمعنى عشرين عاماً وقد عد ذلك في "القاموس" من جملة معانيه وما ذكر بيان للمعنى المراد وقيل الطبق هنا القرن من الناس مثله في قول العباس بن عبد المطلب يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر . . .

ض وضاءت بنورك الأفق

تنقل من صالب إلى رحم . . .

إذا مضى عالم بدا طبق

(154/809)

وإن المعنى لتركبن سنن من مضى قبلكم قرناً بعد قرن وكلا القولين خلاف الظاهر وقرأ عمر وابن مسعود وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن

وثاب وطلحة وعيسى والأخوان وابن كثير ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ بتاء الخطاب وفتح الباء وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنهما أيضاً كسرا تاء المضارعة وهي لغة بني تميم على أنه خطاب للإنسان أيضاً لكن باعتبار اللفظ لا باعتبار الشمول وأخرج البخاري عن ابن عباس أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم روى عن جماعة وكأن من ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام هو المراد بالإنسان فيما تقدم يذهب إليه وعليه يراد لتركبن أحوالاً شريفة بعد أخرى من مراتب القرب أو مراتب من الشدة في الدنيا باعتبار ما يقاسيه صلى الله عليه وسلم من الكفرة ويعانيه في تبليغ الرسالة أو الكلام عدة بالنصر أي لتلاقن فتحاً بعد فتح ونصراً بعد نصر وتبشيراً بالمعراج أي لتركبن سماء بعد سماء كما أخرجه عبد بن حميد عن ابن عباس وابن مسعود وأيد بالتوكيد بالجملة القسمية والتعقيب بالإنكارية وأخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن مسعود أنه قال في ذلك يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر وفي وراية السماء تكون كالمهل وتكون مردة كالدهان وتكون واهية وتشقق فتكون حالاً بعد حال فالتاء للتأنيث والضمير الفاعل عائد على السماء وقرأ عمر وابن عباس أيضاً ليركبن بالياء آخر الحروف وفتح الباء على الالتفات من خطاب الإنسان إلى الغيبة وعن ابن عباس يعني نبيكم عليه الصلاة والسلام فجعل الضمير له صلى الله عليه وسلم والمعنى على نحو ما تقدم وقيل الضمير الغائب يعود على القمر لأنه يتغير أحوالاً من سرار واستهلال وأبدار وقرأ عمر أيضاً ليركبن بياء الغيبة وضم الباء على أن ضمير الجمع للإنسان باعتبار الشمول

وقرىء بالتاء الفوقية وكسر الباء على تأنيث الإنسان المخاطب باعتبار النفس وأمر تقدير الحالية المشار إليها فيما مر على هذه القراآت لا

(155/809)

يخفى والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ جوز أن تكون لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ الخ على بعض الأوجه الموجبة للايمان والسجود أي إذا كان حالهم يوم القيامة كما أشير إليه فأي شيء لهم حال كونهم غير مؤمنين أي أي شيء يمنعهم من الايمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وسائر ما يجب الايمان به مع تعاضد موجباته من الأهوال التي تكون لتاركه يومئذ وجوز أن يكون لترتيب ذلك على ما قيل من عظيم شأنه عليه الصلاة والسلام المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ الخ على بعض آخر من الأوجه السابقة فيه أي إذا كان حاله وشأنه صلى الله عليه وسلم ما أشير إليه فأي شيء يمنعهم من الايمان به عليه الصلاة والسلام وجوز أن يكون لترتيب ذلك على ما تضمنه قوله سبحانه ﴿ فلا أقسم ﴾ [الانشقاق : 16] الخ مما يدل على صحة البعث من التغييرات العلوية والسفلية الدالة على

كمال القدرة وإليه ذهب الإمام أي إذا كان شأنه تعالى شأنه كما أشير إليه من كونه سبحانه وتعالى عظيم القدرة واسع العلم فأي شيء يمنعهم عن الايمان بالبعث الذي هو من جملة الممكنات التي تشملها قدرته عز وجل ويحيط بها علمه جل جلاله .

(156/809)

﴿ وَإِذْ قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرءان لاَيَسْجُدُونَ ﴾ عطف على الجملة الحالية فهي حالية مثلها أي فأي مانع لهم حال عدم سجودهم عند قراءة القرآن والسجود مجاز عن الخضوع اللازم له على ما روى عن قتادة أو المراد به الصلاة وفي قرن ذلك بالايمان دلالة على عظم قدرها كما لا يخفى أو هو على ظاهره فالمراد بما قبله قرىء القرآن المخصوص أو وفيه آية سجدة وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سجد عند قراءة هذه الآية أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] و﴿ اقرأ باسم رَبّكَ ﴾ [العلق : 1] وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي رافع قال صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ فسجد فقلت له فقال سجدت خلفي أبي القاسم صلى الله عليه وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه عليه الصلاة والسلام وفي ذلك رد

على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حيث قال ليس في المفصل وهو من سورة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من الفتح وقيل هو قول الأكثر من الحجرات سجدة وهي سنة عند الشافعي الشافعي وواجبة عند أبي حنيفة قال الإمام روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ ذات يوم ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر فنزلت هذه الآية واحتج أبو حنيفة على وجوب السجدة بهذا من وجهين الأول إن فعله عليه الصلاة والسلام يقتضي الوجوب لقوله تعالى ﴿ أتبعوه ﴾ الثاني أنه تعالى ذم من يسمعه ولا يسجد وحصول الذم عند الترك يدل على الوجوب انتهى وفيه بحث مع أن الحديث كما قال ابن حجر لم يثبت .

(157/809)

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي بالقرآن وهو انتقال عن كونهم لا يسجدون عند قراءته إلى كونهم يكذبون به صريحاً ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم وقرأ الضحاك وابن أبي عبلة يكذبون مخففاً وبفتح الياء .

﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بالذي يضمرونه في صدورهم من الكفر والحسد والبغضاء والبغي فما موصولة والعائد محذوف وأصل الإيعاء جعل الشيء في وعاء وفي

مفردات الراغب الإيعاء حفظ الأمتعة في وعاء ومنه قوله

: والشر أخبث ما أوعيت من زاد . . .

وأريد به هنا الإضمار مجازاً وهو المروي عن ابن عباس ولا يلزم عليه كون الآية في حق المنافقين مع كون السورة مكية كما لا يخفى وفسره بعضهم بالجمع وحكى عن ابن زيد وجوز أن يكون المعنى والله تعالى أعلم بما يجمعونه في صحفهم من أعمال السوء وأياً ما كان فعلم الله تعالى بذلك كناية عن مجازاته سبحانه عليه وقيل المراد الإشارة إلى أن لهم وراء التكذيب قبائح عظيمة كبيرة يضيق عن شرحها نطاق العبارة وقال بعضهم يحتمل أن يكون المعنى والله تعالى أعلم بما يضمرونه في أنفسهم من أدلة كونه أي القرآن حقاً فيكون المراد المبالغة في عنادهم وتكذيبهم على خلاف علمهم والظاهر أن الجملة على هذا حال من ضمير ﴿ يكذبون ﴾ وكونها كذلك على ما قيل من الإشارة خلاف الظاهر وقرأ أبو رجاء بما يعون من وعي يعي .

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مرتب على الاخبار بعلمه تعالى بما يوعون مراداً به مجازاتهم به وقيل على تكذيبهم وقيل الفاء فصيحة أي إذا كان حالهم ما ذكر ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ الخ والتبشير في المشهور الاخبار بسار والتعبير به ههنا من باب

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

وجوز أن يكون ذلك على تنزيلهم لأنهماكهم في المعاصي الموجبة للعذاب وعدم استرجاعهم عنها منزلة الراغبين في العذاب حتى كان الاخبار به تبشيراً وإخباراً بسار والفرق بين الوجهين يظهر بأدنى تأمل وأبعد جداً من قال إن ذلك تعريض بمحبة نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم البشارة فيستعار لأمره عليه الصلاة والسلام بالإنذار لفظ البشارة تطييباً لقلبه صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

استثناء منقطع من الضمير المنصوب في ﴿ فبشرهم ﴾ وجوز أن يكون متصلاً على أن يراد بالمستثنى من آمن وعمل الصالحات من آمن وعمل بعد منهم أي من أولئك الكفرة والمضي في الفعلين باعتبار علم الله تعالى أوهما بمعنى المضارع ولا يخفى ما فيه من التكلف مع أن الأول أنسب منه بقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لأن الأجر المذكور لا يخص المؤمنين منهم بل المؤمنين كافة وكون الاختصاص إضافياً بالنسبة ءلى الباقين على الكفر منهم خلاف الظاهر على أنإيهام الاختصاص بالمؤمنين منهم يكفي في الغرض كما لا يخفى والتنوين في أجر للتعظيم ومعنى غير ممنون غير مقطوع من من إذا قطع أو غير معتد به ومحسوب عليهم من من عليه إذا اعتد بالصنيعة وحسبها وجعل بعضهم المن بهذا المعنى من من بمعنى قطع أيضاً لما أنه يقطع النعمة ويقتضي قطع شكرها والجملة على ما قيل

استئناف مقرر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عن المذكورين ومبين لكيفيته ومقارنته للثواب العظيم الكثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(159/809)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾

هو كقوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] في إضمار الفعل وعدمه .

قال الواحدي : قال المفسرون : انشقاقها عن علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها : انفطارها بالغمام الأبيض ، كما في قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] وقيل : تنشقّ من المجرّة ، والمجرّة باب السماء .

واختلف في جواب إذا ، فقال الفرّاء : إنه أذنت ، والواو زائدة ، وكذلك ألقت .

قال ابن الأنباري : هذا غلط ، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله : ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 1] ومع لما ، كقوله : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وناديناه ﴾ [الصافات : 103 ، 104] ولا تقحم مع غير هذين .

وقيل : إن الجواب قوله : ﴿ فملاقيه ﴾ أي : فأنت ملاقيه ، وبه قال الأخفش .

وقال المبرد : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً أي : يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ، فملاقيه إذا السماء انشقت .

(160/809)

وقال المبرد أيضاً : إن الجواب قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وبه قال الكسائي ، والتقدير : إذا السماء انشقت ، فمن أوتي كتابه بيمينه ، فحكمه كذا ، وقيل هو : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ على إضمار الفاء ، وقيل : إنه ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ على إضمار القول أي : يقال له يا أيها الإنسان وقيل : الجواب محذوف تقديره بعثتم ، أو لاقى كلّ إنسان عمله ، وقيل : هو ما صرّح به في سورة التكوير أي : علمت نفس هذا ، على تقدير أن إذا شرطية ، وقيل : ليست بشرطية وهي منصوبة بفعل محذوف أي اذكر ، أو هي مبتدأ ، وخبرها إذا الثانية ، والواو مزيدة ، وتقديره : وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض ، ومعنى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ : أنها أطاعته في الانشقاق من الإذن ، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي : وحقّ لها أن تطيع وتنقاد وتسمع ، ومن استعمال الإذن في الاستماع قول الشاعر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . . وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر :

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحا . . . مني وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل : المعنى : وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق : أي : جعلها حقيقة بذلك .

قال الضحاك : ﴿ حقت ﴾ أطاعت ، وحقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال : فلان محقوق بكذا ، ومعنى طاعتها : أنها لا تمتنع مما أراده الله بها .

قال قتادة : حقّ لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا . . . وحقت لها العتبى لدينا وقلت

﴿ وَإِذَا الأَرض مُدَّتْ ﴾ أي : بسطت كما تبسط الأدم ؛ ودكت جبالها حتى صارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

قال مقاتل : سوّيت كمدّ الأديم ، فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها ، وقيل : مدّت زيد في سعتها ، من المدد ، وهو : الزيادة .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ أي : أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز ، وطرحتهم إلى ظهرها ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ من ذلك .

(161/809)

قال سعيد بن جبير : ألقت ما في بطنها من الموتى ، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي : سمعت وأطاعت لما أمرها من الإلقاء والتخلي ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي : وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له .

وقد تقدّم بيان معنى الفعلين قبل هذا ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ المراد جنس الإنسان ، فيشمل المؤمن والكافر ، وقيل : هو الإنسان الكافر ، والأوّل أولى لما سيأتي من التفصيل ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ الكدح في كلام العرب : السعي في الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شرّاً ، والمعنى : أنك ساع إلى ربك في عملك ، أو إلى لقاء ربك ، مأخوذ من كدح جلده : إذا خدشه .

قال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما . . . أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

قال قتادة ، والضحاك ، والكلبي : عامل لربك عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ أي : فملاق عملك ، والمعنى : أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله ، وما يترتب عليه من الثواب والعقاب .

قال القتيبي : معنى الآية : إنك كادح : أي : عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك ، والملاقاة بمعنى اللقاء : أي : تلقى ربك بعملك ، وقيل : فملاق كتاب عملك ؛ لأن العمل قد انقضى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهم : المؤمنون : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً

يَسِيراً ﴾ لا مناقشة فيه .

قال مقاتل : لأنها تغفر ذنوبه ، ولا يحاسب بها .

(162/809)

وقال المفسرون : هو أن تعرض عليه سيئاته ، ثم يغفرها الله ، فهو الحساب اليسير ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي : وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم في الجنة من عشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد ، وقد سبقوه إلى الجنة ، أو إلى من أعدّه الله له في الجنة من الحور العين ، والولدان المخلدين ، أو إلى جميع هؤلاء مسروراً مبتهجاً بما أوتي من الخير والكرامة .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ قال الكلبي : لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلفه .

وقال قتادة ، ومقاتل : تفك ألواح صدره وعظامه ، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره ، فيأخذ كتابه كذلك ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ أي : إذا قرأ كتابه قال : يا ويلاه يا ثبوراه ، والثبور الهلاك ﴿ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ أي : يدخلها ، ويقاسي حرّ نارها وشدّتها .

قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وعاصم بفتح الياء ، وسكون الصاد ، وتخفيف اللام .

وقرأ الباقون بضم الياء ، وفتح اللام ، وتشديدها ، وروى إسماعيل المكي عن ابن كثير ، وكذلك خارجة عن نافع ، وكذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرؤوا بضم الياء ، وإسكان الصاد من أصلى يصلى ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي : كان بين أهله في الدنيا مسروراً باتباع هواه ، وركوب شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخرة بباله ، والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا في أهله مسروراً ، والمعنى : أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث ، وجحده للدار الآخرة ، و " أن " في قوله : ﴿ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ هي : المخففة من الثقيلة سادّة مع ما في حيزها مسدّ مفعولي ظنّ ، والحور في اللغة : الرجوع ، يقال حار يحور : إذا رجع ، وقال الراغب : الحور التردّد في الأمر ، ومنه نعوذ بالله من الحور بعد الكور : أي من التردّد في الأمر بعد المضيّ فيه ، ومحاورة الكلام مراجعته ، والمحار المرجع والمصير .

قال عكرمة ، وداود بن أبي هند : يحور كلمة بالحبشية ، ومعناها يرجع .

قال القرطبي : الحور في كلام العرب : الرجوع ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني

أعوذ بك من الحور بعد الكور " يعني : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفي المثل ، حور في محار : أي : نقصان في نقصان ، ومنه قول الشاعر :

والذم يبقى وزاد القوم في حور . . . والحور أيضاً : الهلكة ، ومنه قول الراجز :

في بئر لا حور سرى وما شعر . . . قال أبو عبيدة : أي : في بئر حور ، ولا زائدة .

﴿ بلى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ بلى إيجاب للمنفيّ بلن أي : بلى ليحورنّ وليبعثنّ .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ أي : كان به وبأعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية .

(164/809)

قال الزجاج : كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالشفق ﴾ " لا " زائدة ، كما تقدّم في أمثال هذه العبارة ، وقد قدّمنا الاختلاف فيها في سورة القيامة ، فارجع إليه ، والشفق : الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة .

قال الواحدي : هذا قول المفسرين ، وأهل اللغة جميعاً .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق ، وكان أحمر ،

وحكاه القرطبي عن أكثر الصحابة ، والتابعين والفقهاء .

وقال أسد بن عمر ، وأبو حنيفة : في إحدى الروايتين عنه إنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ، ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع .

قال الخليل : الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة .

قال في الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أوّل الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا ، ومنه قول الشاعر :

قم يا غلام أعنى غير مرتبك . . . على الزمان بكأس حشوها شفق

وقال آخر :

أحمر اللون كحمرة الشفق . . . وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال : ﴿ واليل وَمَا وَسَقَ ﴾ وقال عكرمة : هو ما بقي من النهار ، وإنما قالا هذا لقوله بعده : ﴿ واليل وَمَا وَسَقَ ﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا ، على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال : الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء ، وروي عن أسد بن عمر الرجوع ﴿ واليل وَمَا وَسَقَ ﴾ الوسق عند أهل اللغة : ضم الشيء بعضه إلى بعض ، يقال استوسقت الإبل : إذا اجتمعت وانضمت ، والراعي يسقها : أي : يجمعها .

قال الواحدي : المفسرون يقولون : وما جمع ، وضم ، وحوى ، ولف ، والمعنى : أنه جمع ، وضمّ ما كان منتشراً بالنهار في تصرّفه ، وذلك أن الليل إذا أقبل آوى كل شيء إلى مأواه ،

ومنه قول ضابىء بن الحرث البرجمي :

فإني وإياكم وسوقاً إليكم . . . كقابض شيئًا لم تنله أنامله

(165/809)

وقال عكرمة ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي : وما ساق من شيء إلى حيث يأوي ، فجعله من السوق لا من الجمع ، وقيل : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي : وما جُنَّ وستر ، وقيل : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي : وما حمل ، وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول : لا أحمله ما وسقت عيني الماء ، أي : حملته ، ووسقت الناقة تسق وسقاً ، أي : حملت .

قال قتادة ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان : وما وسق ، وما حمل من الظلمة ، أو حمل من الكواكب .

قال القشيري : ومعنى حمل : ضمّ وجمع ، والليل يحمل بظلمته كل شيء .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ وما وسق ﴾ أي : وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار ، والأوّل أولى .

﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ أي : اجتمع ، وتكامل .

قال الفراء : اتساقه امتلاؤه ، واجتماعه ، واستواؤه ليلة ثالث عشر ، ورابع عشر إلى ستّ

عشرة ، وقد افتعل من الوسق الذي هو الجمع .

قال الحسن : اتسق امتلأ ، واجتمع .

وقال قتادة : استدار ، يقال : وسقته فاتسق ، كما يقال : وصلته فاتصل ، ويقال أمر فلان متسق أي : مجتمع منتظم ، ويقال اتسق الشيء : إذا تتابع .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ هذا جواب القسم .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وابن كثير ، وأبو عمرو : " لتركبنّ " بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي العالية ، ومسروق ، وأبي وائل ، ومجاهد ، والنخعي ، والشعبي ، وسعيد بن جبير ، وقرأ الباقون بضم الموحدة خطاباً للجمع ، وهم الناس .

وقال الشعبي ، ومجاهد : لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء .

(166/809)

قال الكلبي : يعني : تصعد فيها ، وهذا على القراءة الأولى ، وقيل : درجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفعة المنزلة ، وقيل المعنى : لتركبنّ حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها في الشدّة ، وقيل المعنى : لتركبنّ أيها الإنسان حالاً بعد حال من

كونك نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم حياً ، وميتاً ، وغنياً ، وفقيراً ، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله : ﴿ يأَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى ربّكَ كَدْحاً ﴾ واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم القراءة الثانية قالا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقرأ عمر : " ليركبنّ " بالتحتية ، وضم الموحدة على الإخبار ، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة ، وفتح الموحدة أي : ليركبنّ الإنسان ، وروي عن ابن مسعود ، وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهي لغة ، وقرىء بفتح حرف المضارعة ، وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس .

وقيل : إن معنى الآية : ليركبنّ القمر أحوالاً من سرار ، واستهلال ، وهو بعيد .

قال مقاتل ﴿ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ يعني : الموت والحياة .

وقال عكرمة : رضيع ، ثم فطيم ، ثم غلام ، ثم شابّ ، ثم شيخ .

ومحل ﴿ عن طبق ﴾ النصب على أنه صفة ل ﴿ طبقاً ﴾ أي : طبقاً مجاوزاً لطبق ، أو على الحال من ضمير لتركبنّ أي : مجاوزين ، أو مجاوزاً .

﴿ فما لهم لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ الاستفهام للانكار ، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار ، والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة ، أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى : أيّ شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك .

﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرءان لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ هذه الجملة الشرطية ، وجوابها في محل نصب على الحال أي : أيّ مانع لهم حال عدم سجودهم ، وخضوعهم عند قراءة القرآن .

قال الحسن ، وعطاء ، والكلبي ، ومقاتل : مالهم لا يصلون .

(167/809)

وقال أبو مسلم : المراد الخضوع ، والاستكانة .

وقيل : المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة .

وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا ؟ وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الدليل على السجود ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد ، والبعث ، والثواب ، والعقاب : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي : بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب ، وقال مقاتل : يكتمون من أفعالهم .

وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به . . . والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

ويقال : وعاه حفظه ، ووعيت الحديث أعيه وعياً ، ومنه : ﴿ أُذُنٌ واعية ﴾ [الحاقة : 12] ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم ؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ هذا الاستثناء منقطع أي : لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله ، والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون أي : غير مقطوع ، يقال مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الشاعر :

فترى خلفهنّ من سرعة الرج . . . ع منيناً كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار ؛ لأنه تقطعه وراءها ، وكل ضعيف منين وممنون .

وقيل : معنى ﴿ غير ممنون ﴾ أنه لا يمنّ عليهم به ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إن أريد من آمن منهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ قال : تنشقّ السماء من المجرّة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ قال : سمعت حين كلمها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ قال : أطاعت ، وحقت بالطاعة .

وأخرج الحاكم عنه وصححه قال : سمعت وأطاعت ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ قال : أخرجت ما فيها من الموتى ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ عنهم .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ قال : سواري الذهب .

وأخرج الحاكم : قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه " وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ قال : عامل عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ قال : فملاق عملك .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس أحد يحاسب إلا هلك " ، فقلت أليس يقول الله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ ؟ قال : " ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك " وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته : " اللهم حاسبني حساباً يسيراً " ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : " أن ينظر في كتابه ، فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك " وفي بعض ألفاظ الحديث الأوّل ، وهذا الحديث الآخر : " من نوقش

الحساب عذّب " وأخرج البزار ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي ، والحاكم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كنّ فيه يحاسبه الله حساباً يسيراً ، ويدخله الجنة برحمته : تعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ قال : الويل .

(169/809)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ قال : يبعث .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ قال : أن لن يرجع .

وأخرج سمويه في فوائده عن عمر بن الخطاب قال : ﴿ الشفق ﴾ الحمرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : ﴿ الشفق ﴾ النهار كله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ قال : وما دخل فيه .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه ﴿ وَمَا وَسَقَ

﴾ قال : وما جمع .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ والقمر إذَا اتسق ﴾ قال : إذا استوى .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن الأنباري من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ واليل وَمَا وَسَقَ ﴾ قال : وما جمع ، أما سمعت قوله :

إن لنا قلائصاً نقانقا . . . مستوسقات لو يجدن سائقا

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ والقمر إذَا اتسق ﴾ قال : ليلة ثلاثة عشر .

وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ قال : حالاً بعد حال .

وأخرج البخاري عن ابن عباس ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ حالاً بعد حال ، قال : هذا نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو عبيد في القراءات ، وسعيد ابن منصور ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : " لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ " يعني : بفتح الباء من ﴿ تركبنّ ﴾ .

وقال : يعني : نبيكم صلى الله عليه وسلم حالاً بعد حال .

وأخرج الطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عنه قال : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ يا محمد السماء ﴿ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ .

(170/809)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم في الكنى ، والطبراني ، وابن منده ، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ : " لتركبنّ " يعني : بفتح الباء .

وقال لتركبنّ يا محمد سماء بعد سماء .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عنه : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ قال : يعني : السماء تنفطر ، ثم تنشق ، ثم تحمّر .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقي عنه أيضاً في الآية قال : السماء تكون كالمهل ، وتكون وردة كالدّهان ، وتكون واهية ، وتشقق ، فتكون حالاً بعد حال .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ قال : يسرّون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 405.410 ﴾

(171/809)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) ﴾

الفاء لتفريع القسم وجوابه ، على التفصيل الذي في قوله : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ [الانشقاق : 7] إلى هنا : فإنه اقتضى أن ثمة حساباً وجزاء بخير وشر فكان هذا التفريع فذلكة وحوصلة لما فصل من الأحوال وكان أيضاً جمعاً إجمالياً لما يعترض في ذلك من الأهوال .

وتقدم أن : "لا أقسم" يراد منه أُقسم ، وتقدم وجه القسم بهذه الأحوال والمخلوقات عند قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ في سورة التكوير (15) .

ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسَم عليه لأنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظلمة وظهور النور معها ، أو في خلالها ، وذلك مناسب لما في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ من تفاوت الأحوال التي يختبط فيها الناس يومَ القيامة أو في حياتهم الدنيا ، أو من ظهور أحوال خير من خلال أحوال شرّ أو انتظار تغير الأحوال إلى ما يرضيهم إن كان الخطاب للمسلمين خاصة كما سيأتي .

ولعل ذِكر الشفق إيماء إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأن غروب الشمس مِثْل حالة الموت ، وأن ذكر الليل إيماء إلى شدة الهول يوم الحساب وذكر القمر إيماء إلى حصول الرحمة

للمؤمنين .

والشفق : اسم للحمرة التي تظهر في أفق مغرب الشمس أثر غروبها وهو ضياء من شعاع الشمس إذا حجبها عن عيون الناس بعضُ جرم الأرض ، واختلف في تسمية البياض الذي يكون عقب الاحمرار شفقاً .

و﴿ ما وَسَق ﴾ (مَا) فيه مصدرية ، ويجوز أن يكون موصولة على طريقة حذف العائد المنصوب .

والوسْق : جمع الأشياء بعضها إلى بعض فيجوز أن يكون المعنى وما جمع مما كان منتشراً في النهار من ناس وحيوان فإنها تأوي في الليل إلى مآويها وذلك مما جعل الله في الجبلة من طلب الأحياء السكون في الليل قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ [القصص : 73] ، وذلك من بديع التكوين فلذلك أُقْسم به قسماً أدمجت فيه منّة .

(172/809)

وقيل : ما وسقه الليل : النجوم ، لأنها تظهر في الليل ، فشبه ظهورها فيه بوسق الواسِق أشياء متفرقة .

وهذا أنسب بعطف القمر عليه .

واتساق القمر : اجتماع ضيائه وهو افتعال من الوَسْق بمعنى الجمع كما تقدم آنفاً وذلك في ليلة البدر ، وتقييد القسم به بتلك الحالة لأنها مظهر نعمة الله على الناس بضيائه .

وأصل فعل اتّسق : اوتَسَق قلبت الواو تاء فوقية طلباً لإدغامها في تاء الافتعال وهو قلب مطرد .

وجملة : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ نسج نظمها نسجاً مجملاً لتوفير المعاني التي تذهب إليْها أفهام السامعين ، فجاءت على أبدع ما يُنسج عليه الكلام الذي يُرسل إرسال الأمثال من الكلام الجامع البديع النسْج الوافر المعنى ولذلك كثرت تأويلات المفسرين لها .

فلمعاني الركوب المجازية ، ولمعاني الطبَق من حقيقي ومجازي ، مُتَّسَع لما تفيده الآية من المعاني ، وذلك ما جعَل لإيثار هذين اللفظين في هذه الآية خصوصية من أفنان الإعجاز القرآني .

فأما فعل ﴿ لتركبن ﴾ فحقيقته متعذرة هنا وله من المعاني المجازية المستعملة في الكلام أو التي يصح أن تراد في الآية عدةٌ ، منها الغلَب والمتابعة ، والسلوك ، والاقتحام ، والملازمة ، والرفعة .

وأصل تلك المعاني إما استعارة وإما تمثيل يقال : ركب أمراً صعباً وارتكب خطأً .

وأما كلمة ﴿ طبق ﴾ فحقيقتها أنها اسم مفرد للشيء المساوي شيئاً آخر في حجمه

وقدره ، وظاهر كلام "الأساس" و"الصحاح" أن المساواة بقيد كون الطبق أعلى من الشّيء لمُسَاويه فهو حقيقة في الغِطاء فيكون من الألفاظ الموضوعة لمعنى مقيَّد كالخِوان والكأس ، وظاهر "الكشاف" أن حقيقته مطلق المساواة فيكون قَيد الاعتلاء عارضاً بغلبة الاستعمال ، يقال : طابَق النعل النعل .

وأيامَّا كان فهو اسم على وزن فَعَل إما مشتق من المطابقة كاشتقاق الصفة المشبهة ثم عومل معاملة الأسماء وتنوسي منه الاشتقاق .

(173/809)

وإما أن يكون أصله اسمَ الطبَق وهو الغطاء لُوحظ فيه التشبيه ثم تنوسي ذلك فجاءت منه مادة المطابقة بمعنى المُساواة فيكون من المشتقات من الأسماء الجامدة .

ويطلق اسماً مفرداً للغطاء الذي يغطى به ، ومنه قولهم في المثل : "وافَقَ شنّ طبَقه" أي غِطاءَه وهذا من الحقيقة لأن الغطاء مساوٍ لما يغطّيه .

ويطلق الطبق على الحالة لأنها ملابسة لصاحبها كملابسة الطبق لما طُبق عليه .

ويطلق اسماً مفرداً أيضاً على شيء متخذ من أدم أوْ عود ويؤكل عليه وتوضع فيه الفواكه ونحوها ، وكأنه سمي طبقاً لأن أصله أن يستعمل غِطَاءَ الآنية فتوضع فيه أشياء .

ويطلق اسمَ جمعٍ لطبقة : وهي مكان فوق مكان آخر معتبر مثلَه في المقدار إلا أنه مرتفع عليه .

وهذا من المجاز يقال : أتانا طَبق من الناس ، أي جماعة .

ويقارن اختلاف معاني اللفظين اختلاف معنى ﴿ عن ﴾ من مجاوزة وهي معنى حقيقي ، أو من مرادفةِ كلمة (بعد) وهو معنى مجازي .

وكذلك اختلاف وجه النصب للفظ طبقاً بين المفعول به والحال ، وتزداد هذه المحامل إذا لم تُقْصَر الجمل على ما له مناسبة بسياق الكلام من موقع الجملة عقب آية : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح ﴾ [الانشقاق : 6] الآيات .

ومن وقوعها بعد القسم المشعر بالتأكيد ، ومن اقتضاء فعل المضارعة بعد القسم أنه للمستقبل .

فتتركب من هذه المحامل معانٍ كثيرة صالحة لتأويل الآية .

فقيل المعنى : لتركُبن حالاً بعد حال ، رواه البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم والأظهرُ أنه تهديد بأهوال القيامة فتنوين "طبق" في الموضعين للتعظيم والتهويل و ﴿ عن ﴾ بمعنى (بعد) والبعدية اعتبارية ، وهي بعدية ارتقاء ، أي لَتُلاقُنَّ هَوْلاً أعظم من هول ، كقوله تعالى : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ [النحل : 88] .

وإطلاق الطبق على الحالة على هذا التأويل لأن الحالة مطابقة لعمل صاحبها .

وروى أبو نعيم عن جابر بن عبد الله تفسير الأحوال بأنها أحوال موت وإحياء ، وحشر ، وسعادة أو شقاوة ، ونعيم أو جحيم ، كما كتب الله لكل أحد عند تكوينه رواه جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن كثير هو حديث مُنْكَر وفي إسناده ضعفاء ، أو حالاً بعد حال من شدائد القيامة وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن مع اختلاف في تعيين الحال .

وقيل : ﴿ لتركبن ﴾ منزلة بعد منزلة على أن طبقاً اسم للمنزلة ، وروي عن ابن زيد وسعيد بن جبير أي لتَصِيرُنَّ من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة ، أو إن قوماً كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة ، فالتنوين فيهما للتنويع .

وقيل : من كان على صلاح دعاه إلى صلاح آخر ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ، لأن كل شيء يجرُّ إلى شكله ، أي فتكون الجملة اعتراضاً بالموعظة وتكون ﴿ عن ﴾ على هذا على حقيقتها للمجاوزة ، والتنوين للتعظيم .

ويحتمل أن يكون الركوب مجازاً في السير بعلاقة الإطلاق ، أي لتحضُرن للحساب جماعات بعد جماعات على معنى قوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ [القيامة : 30]

وهذا تهديد لمنكريه ، وأن يكون الركوب مستعملاً في المتابعة ، أي لتَتَّبِعُنَّ .

وحذف مفعول : "تركبن" بتقدير : ليَتبعن بعضُكم بعضاً ، أي في تصميمكم على إنكار البعث .

ودليل المحذوف هو قوله : ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ ويَكون ﴿ طبقاً ﴾ مفعولاً به وانتصاب ﴿ طبقاً ﴾ إما على الحال من ضمير ﴿ تركَبُنّ ﴾ .

وإما على المفعولية به على حسب ما يليق بمعاني ألفاظ الآية .

وموقع ﴿ عن طبق ﴾ موقع النعت ل ﴿ طبقاً ﴾ .

ومعنى ﴿ عن ﴾ إما المجاوزة ، وإما مرادفة معنى (بعد) وهو مجاز ناشىء عن معنى المجاوزة ، ولذلك لما ضمَّن النابغة معنى قولهم : "ورثوا المجد كابراً عن كابر" غيَّر حرف (عن) إلى كلمة (بعد) فقال :

لآلِ الجُلاَحِ كَابِراً بعدَ كابِر

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ﴿ لتركبن ﴾ بضم الموحدة على خطاب الناس .

(175/809)

وقرأه الباقون بفتح الموحدة على أنه خطاب للإنسان من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح ﴾ [الانشقاق : 6] .

وحُمل أيضاً على أن التاء الفوقية تاء المؤنثة الغائبة وأن الضمير عائد إلى السماء ، أي تعتريها أحوال متعاقبة من الانشقاق والطيّ وكونها مرة كالدِّهان ومرة كالمُهل .

وقيل : خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية : قيل : هي عِدة بالنَّصر ، أي لتركبن أمر العرب قبيلاً بعد قبيل وفتحاً بعد فتح كما وجد بعد ذلك (أي بعد نزول الآية حين قويَ جانبُ المسلمين) فيكون بشارة للمسلمين ، وتكون الجملة معترضة بالفاء بين جملة : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ [الانشقاق : 14] وجملة : ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ [الانشقاق : 20] .

وهذا الوجه يجري على كلتا القراءتين .

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)

يجوز أن يكون التفريع على ما ذكر من أحوال مَن أوتي كتابه وراء ظهره ، وأعيد عليه ضمير الجماعة لأن المراد بـ (من) الموصولة كل من تحق فيه الصلة فجرى الضمير على مدلول (مَن) وهو الجماعة .

والمعنى : فما لهم لا يخافون أهوال يوم لقاء الله فيؤمنوا .

ويجوز أن يكون مفرعاً على قوله : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾

[الانشقاق : 6] ، أي إذا تحققت ذلك فكيف لا يؤمن بالبعث الذين أنكروه .

وجيء بضمير الغيبة لأن المقصود من الإِنكار والتعجيب خصوص المشركين من الذين شملهم لفظ الإِنسان في قوله : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح ﴾ لأن العناية بموعظتهم أهم فالضمير التفات .

ويجوز أن يكون تفريعاً على قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ [الانشقاق : 19] فيكون مخصوصاً بالمشركين باعتبار أنهم أهم في هذه المواعظ .

والضمير أيضاً التفات .

ويجوز تفريعه على ما تضمنه القسم من الأحوال المقسم بها باعتبار تضمن القَسَم بها أنها دلائل على عظيم قدرة الله تعالى وتفرده بالإلهية ففي ذكرها تذكرة بدلالتها على الوحدانية .

والالتفات هو هو .

(176/809)

وتركيب "ما لهم لا يؤمنون" يشتمل على (مَا) الاستفهامية مُخبر عنها بالجار والمجرور .

والجملةُ بعد ﴿ لهم ﴾ حال من (ما) الاستفهامية .

وهذا الاستفهام مستعمل في التعجيب من عدم إيمانهم وفي إنكار انتفاء إيمانهم لأن شأن الشيء العجيب المنكَر أن يُسأل عنه فاستعمال الاستفهام في معنى التعجيب والإِنكار مجاز بعلاقة اللزوم ، واللام للاختصاص .

وجملة : ﴿ لا يؤمنون ﴾ في موضع الحال فإنها لو وقع في مكانها اسمٌ لَكان منصوباً كما في قوله تعالى : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾ [النساء : 88] والحال هي مناط التعجيب ، وقد تقدم تفصيل القول في تركيبه وفي الصّيغ التي ورد عليها أمثال هذا التركيب عند قوله تعالى : ﴿ قالوا وما لنا ألاَّ نقاتل في سبيل الله ﴾ في سورة البقرة (246) .

ومتعلق يؤمنون ﴾ محذوف يدل عليه السّياق ، أي بالبعث والجزاء .

ويجوز تنزيل فعل ﴿ يؤمنون ﴾ منزلة اللازم ، أي لا يتصفون بالإِيمان ، أي ما سبب أن لا يكونوا مؤمنين ، لظهور الدلائل على انفراد الله تعالى بالإلهية فكيف يستمرون على الإِشراك به .

والمعنى : التعجيب والإِنكار من عدم إيمانهم مع ظهور دلائل صدق ما دُعوا إليه وأُنذروا به .

و﴿ لا يسجدون ﴾ عطف على ﴿ لا يؤمنون ﴾ ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن ﴾ ظرف قدم على عامله للاهتمام به وتنويه شأن القرآن .

وقراءة القرآن عليهم قراءته قراءةَ تبليغ ودعوة .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عليهم القرآن جماعات وأفراداً وقد قال له عبد الله بن أبيّ بن سلول : "لا تَغْشَنا به في مجالسنا" وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن على الوليد بن المغيرة كما ذكرناه في سورة عبس .

والسجود مستعمل بمعنى الخضوع والخشوع كقوله تعالى:

(177/809)

﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : 6] وقوله : ﴿ يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً للَّه ﴾ [النحل : 48] ، أي إذا قرىء عليهم القرآن لا يخضعون لله ولمعاني القرآن وحجته ، ولا يؤمنون بحقيته ودليل هذا المعنى مقابلته بقوله : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ [الانشقاق : 22] .

وليس في هذه الآية ما يقتضي أنَّ عند هذه الآية سجدةً من سجود القرآن والأصحّ من قول مالك وأصحابه أنها ليست من سجود القرآن خلافاً لابن وَهب من أصحاب مالك فإنه جعل سجودات القرآن أربع عشرة .

وقال الشافعي : هي سُنة .

وقال أبو حنيفة : واجبة .

والأرجح أن عزائم السجود المسنونة إحدى عشرة سجدة وهي التي رويت بالأسانيد الصحيحة عن الصّحابة .

وإن ثلاث آيات غير الإِحدى عشرة آية رويت فيها أخبار أنها سجد النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءتها منها هذه وعارضتها روايات أخرى فهي : إمّا قد تُرك سجودها ، وإمّا لم يؤكد ومنها قوله تعالى هنا : ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ .

وقال ابن العربي السجود في سورة الانشقاق قول المدنيين من أصحاب مالك ا ه .

قلت : وهو قول ابن وهب ولا خصوصية لهذه الآية بل ذلك في السجدات الثلاث الزائدة على الإِحدى عشرة وقد قال مالك في "الموطأ" بعد أن رَوى حديث أبي هريرة : " الأمر عندنا أن عزائم السجود إحدى عشرة سجدة ليس في المفصل منها شيء " وقال أبو حنيفة والشافعي : سجدات التلاوة أربع عشرة بزيادة سجدة سورة النجم وسجدة سورة الانشقاق وسجدة سورة العلق .

وقال أحمد : هن خمس عشرة سجدة بزيادة السجدة في آخر الآية من سورة الحجّ ففيها سجدتان عنده .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22)

يجوز إنه إضراب انتقالي من التعجيب من عدم إيمانهم وإنكاره عليهم إلى الإِخبار عنهم بأنهم مستمرون على الكفر والطعن في القرآن ، فالكلام ارتقاء في التعجيب والإِنكار .

فالإِخبار عنهم بأنهم يكذبون مستعمل في التعجيب والإِنكار فلذلك عبر عنه بالفعل المضارع الذي يستروح منه استحضار الحالة مثل قوله : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] .

ويجوز أن يكون ﴿ بل ﴾ إضراباً إبطالياً ، أي لا يوجد ما لأجله لا يؤمنون ولا يصدقون بالقرآن بل الواقع بضد ذلك فإن بواعث الإِيمان من الدلائل متوفرة ودواعي الاعتراف بصدق القرآن والخضوع لدعوته متظاهرة ولكنهم يكذبون ، أي يستمرون على التكذيب عناداً وكبرياء ويومىء إلى ذلك قوله : ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ [الانشقاق : 23] . وهذان المعنيان نظيرُ الوجهين في قوله تعالى في سورة الانفطار (109) ﴿ بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين .

﴿ وفي اجتلاب الفعل المضارع دلالة على حدوث التكذيب منهم وتجدده ، أي بل هم مستمرون على التكذيب عناداً وليس ذلك اعتقاداً فكما نُفي عنهم تجدُّد الإِيمان وتجدد الخضوع عند قراءة القرآن أُثبت لهم تجدد التكذيب .

٧

وقوله : الذين كفروا ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال : بل هم

يكذبون ، فعدل إلى الموصول والصلة لما تؤذن به الصلة من ذمهم بالكفر للإيماء إلى علة الخبر ، أي أنهم استمروا على التكذيب لتأصل الكفر فيهم وكونهم ينعتون به .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23)

اعتراض بين جملة ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ [الانشقاق : 22] ، وجملة : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [الانشقاق : 24] وهو كناية عن الإنذار والتهديد بأن الله يجازيهم بسوء طويتهم .

ومعنى ﴿ بما يوعون ﴾ بما يُضمرون في قلوبهم من العناد مع علمهم بأنَّ ما جاء به القرآن حق ولكنهم يظهرون التّكذيب به ليكون صدودهم عنه مقبولاً عند أتباعهم وبين مجاوريهم .

(179/809)

وأصل معنى الإيعاء : جعل الشيء وعاء والوعاء بكسر الواو الظرف لأنه يُجمع فيه ، ثم شاع إطلاقه على جمع الأشياء لئلا تفوت فصار مشعراً بالتقتير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وجَمَع فأوعى ﴾ [المعارج : 18] وفي الحديث : " لا تُوعي فيُوعي الله عليكِ " واستعمل في هذه الآية في الإخفاء لأنّ الإيعاء يستلزم الإخفاء فهو هنا مجاز مرسل .

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24)

تفريع على جملة ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ [الانشقاق : 22] .

وفعل "بشّرهم" مستعار للإنذار والوعيد على طريقة التهكم لأن حقيقة التبشير : الإخبار بما يَسرّ وينفع .

فلما علق بالفعل عذاب أليم كانت قرينة التهكم كنَار على عَلم .

وهو من قبيل قول عمرو بن كلثوم :

قَرَيْنَاكُم فعجَّلْنا قِراكُم

قُبَيْل الصبح مرْدَاةً طَحُونا . . .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

يجوز أن يكون الاستثناء متصلاً : إمَّا على أنه استثناء من الضمير في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ [الانشقاق : 19] جرياً على تأويله بركوب طباق الشدائد والأهوال يوم القيامة وما هو في معنى ذلك من التهديد .

وإمّا على أنه استثناء من ضمير الجمع في ﴿ فبشرهم ﴾ [الانشقاق : 24] والمعنى إلا الذين يؤمنون من الذين هم مشركون الآن كقوله تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ [البقرة : 160] وقوله في سورة البروج (10) : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا الآية وفعل آمنوا ﴾ على هذا الوجه مراد به المستقبل ، وعبّر عنه

بالماضي للتنبيه على معنى : مَن تحقق إيمانهم ، وما بينهما من قوله : ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ [الانشقاق : 20] إلى هنا تفريع معترض بين المستثنى والمستثنى منه خصّ به الأَهمَّ ممن شملهم عموم ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ [الانشقاق : 19] .

(180/809)

وقيل : هو استثناء منقطع من ضمير ﴿ فبشرهم ﴾ فهو داخل في التبشير المستعمل في التهكم زيادة في إدخال الحزن عليهم .

فحرف ﴿ إلاّ ﴾ بمنزلة (لكن) والاستدراك فيه لمجرد المضادة لا لِدفع توهم إرادة ضد ذلك ومثل ذلك كثير في الاستدراك ، وأما تعريف بعضهم الاستدراك بأنه تعقيب الكلام برفع ما يُتوهم ثبوته أو نفيُه ، فهو تعريف تقريبي .

وجملة ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ استئناف بياني كأنَّ سائلاً سأل : كيف حالهم يوم يكون أولئك في عذاب أليم ؟

والأجر غير الممنون هو الذي يعطاه صاحبُه مع كرامة بحيث لا يعرَّض له بمنة كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [الأحقاف : 14] ونحوه مما ذكر فيه مع الجزاء سببُه ، والمعنى : أن أجرهم سرور لهم لا تشوبه شائبة كدر فإن المنّ ينغّص الإِنعام قال

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] وقال النابغة :

عليَّ لعَمْرو نعمةٌ بعدَ نعمة

لوالده ليستْ بذات عقارب . . .

ومن نوابغ الكلم للعلامة الزمخشري : طعم الآلاءِ أحْلَى من المَنّ .

وهو أمرّ من الآلاء مَعَ المَنّ .

ويجوز أن يكون ﴿ غير ممنون ﴾ بمعنى غير مقطوع يُقال : مننت الحبل ، إذا قطعته ، قال تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ [الواقعة : 32 ، 33] .

سأل نافع بن الأزرق الخارجي عبدَ اللَّه بن عباس عن قوله : ﴿ غير ممنون ﴾ فقال : غير مقطوع ، فقال : هل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يَشكر (يعني الحارث بن حلزة) حيث يقول :

فتَرى خَلفَهُنّ من سرعة الرَّجْ

ع منيناً كأنه أهْباء . . .

المنين : الغبار لأنها تقطعه وراءها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ لتركبن طبقا عن طبق ﴾

أي حالا بعد حال فأول أطباقة كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم مولودا ثم رضيعا ثم فطميا ثم صحيحا أو مريضا غنيا أو فقيرا معافى أو مبتلى إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه إلى أن يموت ثم يبعث ثم يوقف بين يدي الله تعالى ثم يصير إلى الجنة أو النار فالمعنى لتركبن حالا بعد حال ومنزلا بعد منزل وأمرا بعد أمر ذكرنا بعض أطباق الجنين في البطن من حين كونه نطفة إلى وقت ولاده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تحفة المودود صـ 203 ﴾

(182/809)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردوية عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : 1] .

وأخرج البغوي في معجمه والطبراني عن صفون بن عسال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ .

وأخرج ابن خزيمة والروياني في مسنده والضياء المقدسي في المختارة عن بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ ونحوها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ قال : تنشق السماء من المجرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأذنت ﴾ قال : أطاعت ﴿ وحقت ﴾ قال : حققت بالطاعة .

وأخرج ابن المنذر عن السدي ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ قال : أطاعت وحق لها أن تطيع .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وأذنت لربها ﴾ سمعت حيث كلمها .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ قال : سمعت وأطاعت ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ وألقت ما فيها ﴾ أخرجت ما فيها من الموتى ﴿ وتخلت ﴾ عنهم .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وألقت ما فيها ﴾ قال : سواري الذهب .

(183/809)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن عمرو قال : كان البيت قبل الأرض بألفي سنة ، وذلك قول الله : ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ قال : مدت من تحته مداً .

وأخرج الحاكم عن ابن عمرو قال : إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وحشر الله الخلائق الإِنس والجن والدواب والوحوش ، فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين

الدواب حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء بنطحتها ، فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها : كوني تراباً ، فيراها الكافر فيقول : ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ .

وأخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه " .

وأخرج أبو القاسم الختلي في الديباج عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ الآية قال :

" أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فأجلس جالساً في قبري وإن الأرض تحركت بي ، فقلت لها : ما لك ؟ فقالت : إن ربي أمرني أن ألقي ما في جوفي ، وأن أتخلى فأكون كما كنت إذ لا شيء فيّ ، فذلك قوله : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ قال : سمعت وأطاعت . وفي قوله : ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ قال : أخرجت أثقالها وما فيها من الكنوز والناس ، وفي قوله : ﴿ يا أيها الإِنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ قال : عامل له عملاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك ﴿ يا أيها الإِنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ قال : عامل إلى ربك عملاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ قال : عامل عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ قال : ملاق عملك .

(184/809)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه عن عاشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس أحد يحاسب إلا هلك ، فقلت : أليس الله يقول : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال : ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك " .

وأخرج أحمد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن عاشة : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته : اللهم حاسبني حساباً يسيراً ، فلما انصرف قلت يا رسول الله : ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك " .

وأخرج ابن المنذر عن عائشة في قوله : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال : يعرف ذنوبه ثم يتجاوز له عنها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عائشة قالت : من حوسب يوم القيامة أدخل الجنة ،

وقالت : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ ثم تلت ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] .

وأخرج البزار والطبراني والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً : " ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته : تعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك " .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿ وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ قال : إلى أهل له في الجنة ، وفي قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ قال : تخلع يده فتجعل من وراء ظهره .

وأخرج ابن المنذر عن حميد بن هلال قال : ذكر لنا أن الرجل يدعى إلى الحساب يوم القيامة فيقال : يا فلان هلم إلى الحساب . قال : حتى يقول أما يراد غيري مما يحضر به من الحساب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ يدعوا ثبوراً ﴾ قال : الويل .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ قال : في الدنيا .

(185/809)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في البعث عن مجاهد في قوله : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ قال : تجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ قال : لن يبعث .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ أن لن يحور ﴾ قال : أن لن يرجع .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ أن لن يحور ﴾ أن لن يرجع إلينا .

وأخرج الطستي في مسائله والطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ أن لن يحور ﴾ قال : أن لن يرجع بلغة الحبشة . يقول : أن لن يرجع إلى الله في الآخرة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوءه . . . يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ قال : ألم تسمع الحبشي إذا قيل له حر إلى أهلك ، أي اذهب ؟ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن العوام بن حوشب قال : قلت لمجاهد : الشفق قال : إن الشفق من الشمس .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر قال: الشفق الحمرة.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والليل ما وسق ﴾ قال: وما دخل فيه.

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ والليل وما وسق ﴾ قال: وما جمع.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ والليل وما وسق ﴾ يقول: ما أوى فيه وما جمع من حياته وعقاربه ودوابه.

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ وما وسق ﴾ قال: ما عمل فيه.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ قال: إذا استوى.

(186/809)

وأخرج الطستي في مسائله والطبراني وابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ قال: اتساقه اجتماعه. قال:

وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول ابن صرمة :

إن لنا قلائصاً نقانقا . . . مستوسقات لو يجدن سائقاً

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ قال : إذا استدار .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ والليل وما وسق ﴾ قال : وما جمع أما سمعت قوله :

إن لنا قلائصاً نقانقا . . . مستوسقات لو يجدن سائقاً

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ قال : ليلة ثلاث عشرة .

وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : حالاً بعد حال .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : أمراً بعد أمر .

وأخرج البخاري عن ابن عباس ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ حالاً بعد حال . قال : هذا نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبي عبيد في القراءات وسعيد بن منصور وابن منيع وابن جرير وعبد بن حميد وابن

المنذر عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ يعني بفتح الباء قال : هذا نبيكم صلى الله عليه وسلم حالاً بعد حال .

وأخرج أبو عبيد في القراءات وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ يعني بفتح الباء قال : يعني نبيكم صلى الله عليه وسلم حالاً بعد حال .

وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : يا محمد السماء طبقاً بعد طبق .

(187/809)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والحاكم في الكنى وابن منده في غرائب شعبة وابن مردويه والطبراني عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : لتركبن بالنصب يا محمد سماء بعد سماء .

وأخرج البزار عن ابن مسعود ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ يا محمد حالاً بعد حال .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الشعبي ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ يا محمد حالاً بعد حال .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود في الآية قال : السماء تكون ألواناً كالمهل ، وتكون وردة كالدهان ، وتكون واهية ، وتشقق فتكون حالاً بعد حال .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن مكحول في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : في كل عشرين عاماً تحدثون أمراً لم تكونوا عليه .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : قوم كانوا في الدنيا خسيساً أمرهم فارتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا أشرافاً فاتضعوا في الآخرة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال : حالاً بعد حال ، بينما صاحب الدنيا في رخاء إذ صار في بلاء ، وبينما هو في بلاء إذ صار في رخاء .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مكحول في قوله : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ قال : تكونون في كل عشرين سنة على حال لم تكونوا على مثلها .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية أنه قرأ ﴿ لتركبن طبقاً ﴾ بالنصب .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عمرو بن العلاء عن مجاهد أنه قرأ ﴿ لتركبن طبقاً ﴾ بالنصب .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ لتركبن ﴾ بالتاء ورفع الباء على الجماع.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ قال: يسرون.

(188/809)

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة ﴿ بما يوعون ﴾ قال: يكتمون، وفي قوله: ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ قال: غير محسوب.

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ قال: غير منقوص. وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول زهير:

فضل الجواد على الخيل البطاء فلا . . . يعطي بذلك ممنوناً ولا ترفا. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 454. 460 ﴾

(189/809)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾

يعني : انفرجت لهيبة الرب عز وجل ويقال انشقت لنزول الملائكة ، وما شاء من أمره .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ يعني : أطاعت السماء لربها بالسمع والطاعة .

﴿ وَحُقَّتْ ﴾ يعني : وحق لها ، أن تطيع لربها الذي خلقها .

﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ أي : بسطت ومدت الأديم ليس فيها جبل ، ولا شجر ، حتى يتسع فيها جميع الخلائق .

وروى علي بن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، مَدَّ اللهُ تَعَالَى الأَرْضَ مَدَّ الأَدِيمِ ، حَتَّى لا يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنَ النَّاسِ ، إِلاَّ مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ لِكَثْرَةِ الْخَلاَئِقِ فِيهَا " .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ يعني : ألقت الأرض ما فيها ، من الكنوز والأموات ، وتخلت عنها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ يعني : أجابت الأرض لربها بالطاعة ، وأدت إليه ما مستودعها من الكنوز والموتى ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ يعني : وحق للأرض ، أن تطيع ربها الذي خلقها .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَحُقَّتْ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ قال مقاتل : يعني : الأسود بن عبد الأسد .

ويقال : أبي بن خلف ، ويقال : في جميع الكفار .

يعني : أيها الكفار ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ يعني : ساع بعملك .

﴿ إلى ربّكَ كَدْحاً ﴾ يعني : سعياً ، ويقال : معناه .

إنك عامل لربك عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ في عملك ما كان من خير أو شر .

فالأول قول مقاتل ، والثاني قول الكلبي ، وقال الزجاج : الكدح في اللغة ، السعي في العمل ،

وجاء في التفسير ، إنك عامل عملاً فملاقيه .

أي : ملاق ربك .

قيل : فملاقي عملك .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِيَمِينِهِ ﴾ يعني : المؤمن ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ يعني : حساباً هيناً ﴿ وَيَنقَلِبُ ﴾ أي : يرجع ﴿ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ الذي أعد الله له في الجنة سروراً به .

(190/809)

وروى ابن أبي مليكة ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ نُوقِشَ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ " فقلت : أليس يقول الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ

يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ يعني : هيناً .

قال : "ليس ذلك في الحساب ، إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش للحساب يوم القيامة ، عذب" .

ويقال : حساباً يسيراً ، لأنه غفرت ذنوبه ، ولا يحاسب بها ، ويرجع من الجنة مستبشراً .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ يعني : الكافر ، يخرج يده اليسرى من وراء ظهره ، يعطى كتابه بها ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ يعني : بالويل والثبور على نفسه .

﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ يعني : يدخل في الآخرة ناراً وقوداً .

قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ بنصب الياء ، وجزم الصاد مع التخفيف .

والباقون ﴿ ويصلى ﴾ بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد .

فمن قرأ ﴿ يَصْلَى ﴾ بالتخفيف ، فمعناه : أنه يقاسي حر السعير وعذابه .

يقال : صليت النار ، إذا قاسيت عذابها وحرها .

ومن قرأ بالتشديد ، فمعناه أنه يكثر عذابه في النار ، حتى يقاصي حرها .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ يعني : في الدنيا مسروراً ، بما أعطي في الدنيا ، فلم يعمل للآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ قال مقاتل : ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى في

الآخرة ، وهي لغة الحبشة ، وقال قتادة : يعني : ظن أن لن يبعثه الله تعالى .

وقال عكرمة : ألم تسمع إلى قول الحبشي ، إذا قيل له حر يعني : أرجع إلى أهلك .

ثم قال : ﴿ بلى ﴾ يعني : ليرجعنّ إلى ربه في الآخرة ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ يعني : كان عالماً به ، من يوم خلقه إلى يوم بعثه .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالشفق ﴾ يعني : أقسم بالشفق ، والشفق الحمرة ، والبياض الذي بعد غروب الشمس .

وهذا التفسير ، يوافق قول أبي حنيفة رحمه الله .

(191/809)

وروي عن مجاهد ، أنه قال : الشفق هو ضوء النهار .

وروي عنه أنه قال : الشفق النهار كله ، وروي عن ابن عمر أنه قال : الشفق الحمرة ، وهذا يوافق قول أبي يوسف ، ومحمد ، رحمهما الله .

ثم قال : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ يعني : ساق وجمع وضم .

وقال القتبي أي : حمل وجمع منه الوسق ، وهو الحمل ، وقال الزجاج أي : ضم وجمع وقال مقاتل : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ يعني : ما يساق معه من الظلمة والكواكب ، وقال الكلبي

يعني : ما دخل فيه ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ يعني : إذا استوى ، وتم إلى ثلاثة عشرة ليلة ، ويقال : إذا اتسق يعني : تم وتكامل .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي لتركبن بنصب التاء ، والباقون بالضم ، فمن قرأ بالنصب ، فمعناه لتركبن يا محمد من سماء إلى سماء ، ومن قرأ بالضم فالخطاب لأمته أجمعين ، يعني : لتركبن حالاً بعد حال ، حتى يصيروا إلى الله تعالى من إحياء ، وإماتة ، وبعث .

ويقال : يعني : مرة نطفة ومرة علقة ، ويقال : حالاً بعد حال ، مرة تعرفون ومرة لا تعرفون ، يعني : يوم القيامة .

ويقال : يعني : السماء لتحولن حالاً بعد حال ، مرة تتشقق بالغمام ، ومرة تكون كالدهان .

قرأ بعضهم ليركبن بالياء ، يعني : ليركبن هذا المكذب طبقاً عن طبق ، يعني : حالاً بعد حال ، يعني : الموت ثم الحياة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : كفار مكة لا يصدقون بالقرآن ﴿ وَإِذَا قُرِىء عَلَيْهِمُ القرءان لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ يعني : لا يخضعون لله تعالى ولا يوحدونه .

ويقال : ولا يستسلمون لربهم ، ولا يسلمون ولا يطيعون .

ويقال : لا يصلون لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ يعني : يجحدون بالقرآن والبعث ، أنه لا يكون .

وقال مقاتل : نزلت في بني عمرو بن عمير ، وكانوا أربعة ، فأسلم اثنان منهم .

ويقال : هذا في جميع الكفار .

(192/809)

ثم قال عز وجل : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ يعني : يكتمون في صدورهم من الكذب والجحود .

ويقال : مما يجمعون في قلوبهم من الخيانة .

ويقال : معناه والله أعلم بما يقولون ويخفون .

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني : شديداً دائماً ، وقال مقاتل : ثم استثنى الاثنين اللذين أسلما فقال : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ يقال : هذا الاستثناء لجميع المؤمنين ، يعني : الذين صدقوا بتوحيد الله تعالى .

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : أدوا الفرائض والسنن ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني : غير منقوص ، ويقال : غير مقطوع ، ويقال : لهم أجر لا يمن عليهم ، ومعنى قوله ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني : اجعل مكان البشارة للمؤمنين بالرحمة ، والجنة للكفار بالعذاب الأليم ، على وجه التعبير ، لأن ذلك لا يكون بشارة في الحقيقة ، والله الموفق بمنه

وكرمه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 540.538 ﴾

(193/809)

وقال الثعلبى :

سورة الانشقاق

﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾

أي سمعت أمر ربها بالإنشقاق وطاعته ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي وحق لها أن تطيع ربّها وحق الله ذلك عليه .

﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ مدّ الأديم العكاظي وزيد في سعتها . ﴿ وَأَلْقَتْ ﴾ أخرجت ﴿ مَا فِيهَا ﴾ من الموتى والكنوز ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ وخلت فليس في باطنها شيء . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ، واختلفوا في جواب قوله ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ فقيل جوابه متروك ؛ لأنّ المعنى مفهوم ، وقيل جوابه ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾ ومجازه : إذا السماء انشقت لقي كل كادح ما عمله ، قال المبّرد : فيه تقديم وتأخير تقديره ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾ ﴿ إِذَا السمآء

انشقت ﴾ ، وقيل : جوابه ﴿ وَأَذِنَتْ ﴾ ، وحينئذ يكون الواو زائدة .

ومعنى قوله ﴿ كَادِحٌ إلى ربّكَ كَدْحاً ﴾ أي عامل واصل به إلى ربّك عملا فملاقيه ومجازى به خيراً كان أو شراً ، وقال القتيبي ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك ، والكدح : السعي والجهد في الأمر حتى يكدح ذلك فيه ، أي يؤثّر ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من سأل وله ما يغنيه جاءت مسلته يوم القيامة خدوشاً أو خموشاً أو كدوحاً في وجه " أي أثر الخدش ، قال ابن مقبل :

وما الدهر إلاّ تارتان فمنهما . . . أموت وأُخرى أبتغي العيش أكدح

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا موسى قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا إسحاق بن بشر عن سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " النادم ينتظر الرحمة والمعجب ينتظر المقت وكل عامل سيقدم على ما سلف " .

(194/809)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ﴾ ديوان أعماله ﴿ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ . أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مندة قال : حدّثنا

محمد بن غالب قال : حدّثني سعيد بن سليمان قال : حدّثنا مبارك بن فضالة عن أيوب عن أبي مليكة " عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من يحاسب يعذّب " قالوا : يا رسول الله أليس قد قال الله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ قال : " ذاكم العرض ولكن من نوقش الحساب عذّب " .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ فتغُلّ يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده الشمال وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ، وقال مجاهد : يخلع يده وراء ظهره .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ ينادى بالويل والهلاك ﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ قرأ أبو جعفر وأيوب وكوفي غير الكسائي بفتح الياء والتخفيف واختاره أبو عبيد لقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 163] ، وقوله ﴿ يَصْلَى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 12] وقرأ الباقون بضم الياء وتشديد اللام ، واختاره أبو حاتم لقوله سبحانه ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 31] ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : 94] ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ سمعت السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القاسم المصري يقول : قال ابن عطاء لنفسه متابعاً ساعياً .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ يرجع إلينا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بك من الحور بعد الكور " وقال ابن عباس : كنت لا أدري ما معنى يحور حتى سمعت إعرابية تدعوا

بنيةً لها فتقول : حوري حوري أي أرجعي ، وقال الشاعر :

وما المرء إلاّ كالشهاب وضوءه . . . يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

(195/809)

ثم قال : ﴿ بلى ﴾ ، أي ليس كما ظن بلى يحور إلينا ويبعث .

﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً * فَلاَ أُقْسِمُ بالشفق ﴾ قال مجاهد وغيره : هو النهار كلّه ، عكرمة : ما بقى من النهار ، وقال ابن عباس وأكثر الناس : هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس وبغيبوبته يتعلّق أول وقت العشاء الآخرة وإليه ذهب من الصحابة ابن مسعود وابن الزبير وعمر وابنه وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس وأنس بن مالك وأبو قتادة الأنصاري وأبو هريرة وجابر بن عبد الله ومن التابعين سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير وطاووس وعبد الله بن دينار ومكحول ، ومن الفقهاء مالك والأوزاعي والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وابن عبيد وأحمد وإسحاق ، وقال قوم : هو البياض ، وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة ، والأختيار القول الأول ؛ لأجماع العبادلة عليه ، ولأن الشواهد في كلام العرب وأشعارهم تشهد له ، قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الثور أحمر كأنه الشقق ، وقال الشاعر :

أحمر اللون كمحمر الشفق . . . وقال آخر :

قم يا غلام أعني غير محتشم . . . على الزمان بكأس حشوها شفق

ويقال للحفرة الشفق ، وزعم الحكماء أنَّ البياض لا يغيب أصلا قال الخليل : صعدت منارة اسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردّد من أفق الى أفق ولم أره يغيب ، والله أعلم بالصواب .

(196/809)

﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وجمل ، ويقال : وسقته أسقه وسقاً ، ومنه قيل للطعام المجتمع الكبير : وسق وهو ستون صاعاً ، وطعام موسّق أي مجموع في غرارة ووعاء ، وقال مجاهد : برواية ابن أبي نجيح : وما آوي فيه من دابة ، منصور عنه : ومالفّ وأظلم عليه ودخل فيه ، عكرمة : وما جمع فيه منّ دوابة وعقاربة وحيّاته وظلمته ، ضحاك ومقاتل : وما ساق من ظلمه فاذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه ، وقال الأستاذ أبو القاسم بن حبيب : شيبه أن يكون على هذا القول من المقلوب ، لأن أصل ساق يسوق ، عثمان : حمل من الظلمة ، أبو حيان : أقبل من ظلمة أو كوكب ، سعيد بن جبير : وما عمل فيه ، وروى ابن أبي مليكة وابن جبير عن ابن عباس : وما جمع قال : ألم تسمع قول الشاعر :

أن لنا قلائصاً حقائقاً . . . مستوسقات لو يجدن سائقاً

﴿ والقمر إذَا اتسق ﴾ أي أجتمع واستوى وتمّ نوره ، قتادة : إذا أستدار وقيل : سار ، مرّة الهمداني : أرتفع وهو في الأيام البيض ، ويقال : أتسق الشيء إذا تتابع ، واستوسق من الأبل إذا أجتمعت وأنضمت وهو أفتعل من الوسق .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ قرأ أهل مكة والكوفة إلاّ عاصماً بفتح التاء ، وهي قراءة عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وأبي العالية ، وقالوا : يعني لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ودرجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة ، وقيل : أراد به السماء تتغير لون بعد لون فتصير تارة كالدهان وتارة كالمهل وتشقق بالغمام مرّة ويطوي أخرى ، وقرأ الآخرون بضمّة وأختاره أبو عبيد قال : لأنَّ المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم إنَّما ذكر قبل الآية من يؤتى منهم كتابة بيمينه وشماله ثم قال : بعدّها فما لهم لا يؤمنون وذكر ركوبهم طبقاً بعد طبق بينهما .

(197/809)

واختلف المفسرون في معنى الآية فقال أكثرهم : حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر في مواقف القيامة عن محمد بن مروان عن الكلبي ، حيان عنه : مرّة يعرفون ومرة يجهلون ، قاتل : يعني

الموت ثم الحياة ثم الموت ثم الحياة ، عطا : مرّة فقراً ومرة غنى ، عمرو بن دينار عن ابن عباس : الشدائد والأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ، والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد : وقع في بنات طبق وفي أخرى بنات طبق ، أبو عبيدة : لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالكم ، عكرمة : حالا بعد حال ، رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ ، قالت الحكماء : يشتمل الأنسان من كونه نطفة الى أن يهرم ويموت على سبعة وثلاثين حالا من سبعة وثلاثين اسماً : نطفة ثم علقة ثم مضعة ثم خلقاً آخر ثم جنيناً ثم وليداً ثم رضيعاً ثم فطيماً ثم يافعاً ثم ناشئاً ثم مترعرعاً ثم حزوراً ثم مراهقاً ثم محتلماً ثم بالغاً ثم أمرد ثم طارداً ثم طارا ثم باقلا ثم مسيطراً ثم مطرخما ثم مختطاً ثم صملا ثم ملتحياً ثم مستوياً ثم مصعداً ثم مجتمعاً والشاب يجمع ذلك كلّه ثم ملهوزاً ثم كهلاً ثم أشمط ثم شيخاً ثم أشيب ثم حوقلاً ثم صفتاناً ثم هرماً ثم ميتاً ، فهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ .

﴿ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ والطبق في اللغة الحال ، قال الأقرع بن حابس :

إني أمرؤ قد حلبت الدهر أشطره . . . وساقني طبق منه الى طبق

فلست أصبو الى خل يفارقني . . . ولا تقبض أحشائي من الفرق

وأنشدني أبو القاسم عبد الله بن محمد البابي قال : أنشدني أبو سعيد عثمان بن جعفر بن نصره الموصلي قال : أنشدنا أبو يعلي أحمد بن علي المثنى :

الصبر أجمل والدنيا مفجعة . . . من ذا الذي لم يذق من عيشه رنقاً

إذا صفا لك من مسرورها طبق . . . أهدى لك الدهر من مكروهها طبقاً

(198/809)

وقال مكحول في هذه الآية : في كل عشرين عاماً يحدثون أمراً لم يكونوا عليه ، وهذا أدلّ دليل على حدث العالم وأثبات الصانع ، قالت الحكماء : من كان اليوم على حالة وغداً أخرى فليعلم أن يديره الى سواه ، وقيل لأبي بكر الوراق : ما الدليل على أنَّ لهذا العالم صانع فقال : تحويل الحالات وعجز القوة وضعف الأركان وقهر المنّة وفسخ العزيمة .

سمعت أبا القاسم المفّر يقول : سمعت أبا الفضل أحمد بن محمد بن حمدون النسّوي يقول : سمعت أبا عبد الرحمن الأرزياني يقول : دخل أبو الفم علي بن محمد بن زيد العلوي بطبرستان عائداً فأنشأ يقول :

إني أعتللت ولا كانت بك العلل . . . وهكذا الدَّهر فيه الصاب والعسل

إنَّ الذي لا تحل الحادثات به . . . ولا يغير فيه الله لا الرجل

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَيَسْجُدُونَ ﴾ لا يخضعون ولا يستكينون له ، وقال الكلبي ومقاتل : لا يصلّون .

أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن يوسف بقرأتي عليه قال : أخبرنا مكّي قرأةً عليه سنة تسع عشر وثُلثمائه قال : حدّثني محمد بن يحيى قال : وفيها قرأ علي بن عبد الله بن نافع المدّني وحدّثني مطرف بن عبد الله عن مالك بن أنس عن عبد الله بن زيد مولى الأسود بن سفيان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن أحمد أنَّ أبا هريرة قرأ ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها .

وأخبرنا أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن نوح قرأه عليه سنة ست وثمانين وثلثمائة قال : أخبرنا أبو العباس السراج قال : حدثنا قتيبة عن الليث عن بكر عن نعيم بن عبد الله بن محمد قال : صليت مع أبي هريرة فوق هذا المسجد فقرأ ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ فسجد فيها وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها .

(199/809)

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ قال مجاهد : يكتمون ، قتادة : يوعون في صدورهم ، ابن زيد يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة . ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ أخبرهم ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

غير منقوص ولا مقطوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 158.

163﴾

(200/809)

وقال الزمخشري:

سورة الانشقاق

مكية، وآياتها 25 [نزلت بعد الانفطار] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الانشقاق (84): الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4)

وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (5)

حذف جواب إذا ليذهب المقدّر كل مذهب. أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار. وقيل: جوابها ما دلّ عليه فَمُلاقِيهِ أى إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه. ومعناه:

إذا انشقت بالغمام ، كقوله تعالى وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وعن على رضى اللّه عنه : تنشق من المجرّة . أذن له : استمع له « 1 » . ومنه قوله عليه السلام : «ما أذن اللّه لشيء كاذنه لنبي يتغنى بالقرآن «2» . وقول جحاف بن حكيم :

أذنت لكم لمّا سمعت هريركم «3»

والمعنى : أنها فعلت في انقيادها للّه حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع ، كقوله أَتَيْنا طائِعِينَ . وَحُقَّتْ من قولك هو محقوق بكذا وحقيق به ، يعنى : وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع . ومعناه الإيذان بأنّ القادر الذات «4» يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك مُدَّتْ من مدّ الشيء فامتدّ :

---

(1) . قال محمود : «معنى أذنت استمعت . . . الخ» قال أحمد : نغص تفسير الآية بقوله : القادر بالذات وما باله لا يقول : القادر الذي عمت قدرته الكائنات ، حتى لا يكون إلا بقدرته : حقيق أن يسمع له ويطاع ، فيثبت للّه صفة الكمال ، ويوحده حق توحيده : وهو خير من سلب صفة الكمال عن اللّه تعالى وإشراك مخلوقاته به - جل ربنا وعز -

(2) . متفق عليه ، وقد تقدم في سورة إبراهيم .

(3) أذنت لكم لما سمعت هريركم فأسمعتمونى بالخنا والفواحش

لجحاف بن حكيم . وأذنت : أصخت وأصغيت بأذنى لكلامكم حين سمعت صوتكم ،

وضمن أسمعتمونى معنى :

أعلتمونى ، فعداه بالباء . ويجوز أنها زائدة . والخنا : الزنا وتوابعه مما يتعلق بالنساء ، والفواحش : أعم من ذلك

(4) . قوله «الإيذان بأن القادر بالذات» هذا التعبير مبنى على مذهب المعتزلة من أنه تعالى قادر بذاته لا بقدرة زائدة على ذاته ، عالم بذاته لا بعلم زائد على ذاته . ومذهب أهل السنة : أنه قادر بقدوة زائدة : هل ذاته ، عالم بعلم زائد على ذاته وهكذا ، كما في الحوادث

وهو أن تزال جبالها وآكامها وكل أمت فيها ، حتى تمتدّ وتنبسط ويستوي ظهرها ، كما قال تعالى قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : مدّت مدّ الأديم العكاظي ، لأن الأديم إذا مدّ زال كل انثناء فيه وأمت واستوى أو من مدّه بمعنى أمدّه ، أى : زيدت سعة وبسطة وَأَلْقَتْ ما فِيها ورمت بما في جوفها مما دفن فيها من الموتى والكنوز وَتَخَلَّتْ وخلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء في باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو ، كما يقال : تكرم الكريم ، وترحم الرحيم : إذا بلغا جهدهما في

الكرم والرحمة ، وتكلفا فوق ما في طبعهما وَأَذِنَتْ لِرَبِّها في إلقاء ما في بطنها وتخليها .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 6 إلى 15]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8) وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (10)

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (11) وَيَصْلى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15)

الكدح : جهد النفس في العمل والكدّ فيه حتى يؤثر فيها ، من كدح جلده : إذا خدشه . ومعنى كادِحٌ إِلى رَبِّكَ جاهد إلى لقاء ربك ، وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء فَمُلاقِيهِ فملاق له لا محالة لا مفرّ لك منه ، وقيل : الضمير في ملاقيه للكدح يَسِيراً سهلا هينا لا يناقش فيه ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه ، كما يناقش أصحاب الشمال . وعن عائشة رضى اللّه عنها : هو أن يعرّف ذنوبه ، ثم يتجاوز عنه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال :

«من يحاسب يعذب» فقيل يا رسول اللّه : فسوف يحاسب حسابا يسيرا . قال «ذلكم العرض ، من نوقش في الحساب عذب» «1» إِلى أَهْلِهِ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين . أو إلى فريق المؤمنين .

أو إلى أهله في الجنة من الحور العين وَراءَ ظَهْرِهِ قيل : تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره . وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره .

يَدْعُوا ثُبُوراً يقول : يا ثبوراه . والثبور : الهلاك . وقرئ : ويصلى سعيرا ، كقوله وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ويصلى : بضم الياء والتخفيف ، كقوله وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ . فِي أَهْلِهِ فيما بين ظهرانيهم : أو معهم ، على أنهم كانوا جميعا مسرورين ، يعنى أنه كان في الدنيا مترفا بطرا مستبشرا كعادة

---

(1) . متفق عليه من حديث عائشة .

الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة ولا يفكرون في العواقب ، ولم يكن كئيبا حزينا متفكرا كعادة الصلحاء والمتقين وحكاية اللّه عنهم إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ . ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ لن يرجع إلى اللّه تعالى تكذيبا بالمعاد . يقال : لا يحور ولا يحول ، أى : لا يرجع ولا يتغير .

قال لبيد :

يحور رمادا بعد إذ هو ساطع «1»

وعن ابن عباس : ما كنت أدرى ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى

، أى : ارجعي بَلى إيجاب لما بعد النفي في لَنْ يَحُورَ أى : بلى ليحورنّ إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه ، فلا بدّ أن يرجعه ويجازيه عليها . وقيل : نزلت الآيتان في أبى سلمة بن عبد الأشدّ وأخيه الأسود بن عبد الأشد .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 16 إلى 19]

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19)

الشفق : الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس ، وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء ، إلا ما يروى عن أبى حنيفة رضى اللّه عنه في إحدى الروايتين :

أنه البياض . وروى أسد بن عمرو : أنه رجع عنه ، سمى لرقته . ومنه الشفقة على الإنسان :

رقة القلب عليه وَما وَسَقَ وما جمع وضم ، يقال : وسقه فاتسق واستوسق . قال :

مستوسقات لو يجدن سائقا «2»

ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين : اتسع واستوسع . ومعناه : وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها إِذَا اتَّسَقَ إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة . قرئ :

لتركبن ، على خطاب الإنسان في يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ولتركبن ، بالضم على خطاب الجنس ، لان

النداء للجنس ، ولتركبن بالكسر على خطاب النفس ، وليركبن بالياء على : ليركبن

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الرابع صفحة 13 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) إن لنا قلائصا حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

القلائص : جمع قلوص وهي الفتية من الإبل . والحقائق : جمع حقة ، التي استحقت الحمل عليها ، أو استحقت ضراب الفحل . ويقال : وسقه فاتسق واستوسق ، أى : جمع عليه الأحمال فتحمل ، أو جمعه فاجتمع ومستوسقات :

محملات أو مجتمعات ، وأو بمعنى إلى ، أى : واقفات إلى أن يجدن من يسوقهن فيسرن .

ويروى : لو يجدن .

وفيه معنى التمني . ويجوز أن جوابه مقدر ، أى : لأسرعن :

الإنسان . والطبق : ما طابق غيره . يقال : ما هذا بطبق لذا ، أى : لا يطابقه . ومنه قيل للغطاء الطبق . وإطباق الثرى : ما تطابق منه ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها : طبق .

ومنه قوله عز وعلا طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ أى حالا بعد حال : كل واحدة مطابقة لأختها في الشدّة والهول :

ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة ، من قولهم : هو على طبقات . ومنه : طبق الظهر لفقاره الواحدة : طبقة ، على معنى : لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقات في الشدّة بعضها أرفع من بعض . وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها . فإن قلت : ما محل عن طبق ؟ قلت :

النصب على أنه صفة لطبقا ، أى : طبقا مجاوزا لطبق . أو حال من الضمير في لتركبن ، أى :

لتركبن طبقا مجاوزين لطبق . أو مجاوزا . أو مجاوزة ، على حسب القراءة : وعن مكحول : كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 20 إلى 25]

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

لا يَسْجُدُونَ لا يستكينون ولا يخضعون . وقيل . قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر «1» ، فنزلت . وبه احتج ابو حنيفة رضى اللّه عنه على وجوب السجدة . وعن ابن عباس ليس في المفصل سجدة . وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه : أنه سجد فيها وقال :

واللّه ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسجد «2»

فيها . وعن أنس : صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان فسجدوا . وعن الحسن : هي

غير واجبة الَّذِينَ كَفَرُوا إشارة إلى المذكورين بِما يُوعُونَ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون

من الكفر والحسد والبغي والبغضاء . أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء

ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا استثناء منقطع .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة انشقت أعاذه اللّه أن يعطيه كتابه

وراء ظهره» «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 725. 728﴾

---

(1) . لم أجده .

(2) . متفق عليه بمعناه .

(3) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبى بن كعب .

(204/809)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِذا السماءُ انشَقَّتْ ﴾

وهذا من أشراط الساعة ، قال عليّ رضي الله عنه : تنشق السماء من المجرة ، وفيه ثلاثة

أوجه :

أحدها : أنه محذوف الجواب وتقديره : إذا السماء انشقت رأى الإنسان ما قدّم من خير وشر .

الثاني : أن جوابه ﴿ كادح إلى ربك كدحاً ﴾ .

الثالث : معناه أذكر إذا السماء انشقت .

﴿ وأَذِنَتْ لِرّبها وحُقّتْ ﴾ معنى أذنت لربها أي سمعت لربها ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء كإذانه لنبي يتغنى بالقرآن أي ما استمع الله لشيء ، وقال الشاعر :

صُمٌّ إذا سَمِعوا خيْراً ذُكِرتُ به . . . وإنْ ذُكِرْتُ بسُوءٍ عندهم أَذِنوا

أي سمعوا .

﴿ وحُقّتْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أطاعت ، قاله الضحاك .

الثاني : معناه حق لها أن تفعل ذلك ، قاله قتادة ، ومنه قول كثيّر :

فإن تكُنْ العُتْبى فأهْلاً ومرحبا . . . وحُقّتْ لها العُتبى لدَيْنَا وَقَلَّت .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أنها جمعت ، مأخوذ من اجتماع الحق على نافيه وحكى ابن الانباري أن ﴿ أذنت لربها وحقت ﴾ جواب القسم ، والواو زائدة .

﴿ وإذا الأرضُ مُدَّتْ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أن البيت كان قبل الأرض بألفي عام ، فمدت الأرض من تحته ، قاله ابن عمر .

الثاني : أنها أرض القيامة ، قاله مجاهد ، وهو أشبه بسياق الكلام .

وفي ﴿ مُدَّتْ ﴾ وجهان :

أحدهما : سويت ، فدكّت الجبال ويبست البحار ، قاله السدي .

الثاني : بسطت ، قاله الضحاك ، وروى عليّ بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مدّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه " .

﴿ وأَلْقَتْ ما فيها وتَخلّتْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ألقت ما في بطنها من الموتى ، وتخلت عمن على ظهرها من الأحياء ، قاله ابن جبير .

الثاني : ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها ، وهو معنى قول قتادة .

ويحتمل ثالثاً : هو أعم ، أنها ألقت ما استوعدت ، وتخلت مما استحفظت لأن الله استودعها عباده أحياء وأمواتاً ، واستحفظها بلاده مزارع وأقواتاً .

﴿ يا أيها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربك كدْحاً فملاقيه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إنك ساعٍ إلى ربك سعياً حتى تلاقي ربك ، قاله يحيى بن سلام ، ومنه قول الشاعر :

ومَضَتْ بشاشةُ كلِّ عَيْشٍ صالحٍ . . . وَبقيتُ أَكْدَحُ للحياةِ وأَنْصَبُ

أي أعمل للحياة . ويحتمل قولاً ثالثاً : أن الكادح هو الذي يكدح نفسه في الطلب إن تيسّر أو تعسّر .

﴿ فأمّا مَنْ أُوتي كِتابَه بيمينه ﴾ روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" يعرض الناس ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وفي الثالثة تطير الكتب من الأيدي ، فبين آخذٍ كتابه بيمينه ، وبين آخذٍ كتابه بشماله " .

﴿ فسوف يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً ﴾ وفي الحساب ثلاثة أقاويل :

أحدها : يجازى على الحسنات ويتجاوز له عن السيئات ، قاله الحسن .

الثاني : ما رواه صفوان بن سليم عن عائشة قالت : سئل رسول الله عن الذي يحاسب حساباً يسيراً ، فقال : " يعرف عمله ثم يتجاوز عنه ، ولكن من نوقش الحساب فذلك هو الهالك " .

الثالث : أنه العرض ، روى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ فقال : " ذلك العرض يا عائشة ، من نوقش في الحساب يهلك " .

﴿ وَيَنقَلِبُ إلى أهْلِه مَسْروراً ﴾ قال قتادة : إلى أهله الذين قد أعدهم الله له في الجنة .

ويحتمل وجهاً ثانياً : أن يريد أهله الذين كانوا له في الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته .

﴿ إنَّه ظَنَّ أن لن يَحُورَ ﴾ أي لن يرجع حياً مبعوثاً فيحاسب ثم يثاب أو يعاقب ، يقال : حار يحور ، إذا رجع ، ومنه الحديث : " أعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر " ، يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وروي : " بعد الكَوْن " ، ومعناه انتشار الأمر بعد تمامه .

(206/809)

وسئل معمر عن الحور بعد الكَوْن فقال : الرجل يكون صالحاً ثم يتحول امرء سوء .

وقال ابن الأعرابي : الكُنّي : هو الذي يقول : كنت شاباً وكنت شجاعاً ، والكاني : هو الذي يقول : كان لي مال وكنت أهب وكان لي خيل وكنت أركب ، وأصل الحور الرجوع ، قال لبيد :

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه . . . يَحُورُ رماداً بَعْد إذ هو ساطعُ .

وقال عكرمة وداود بن أبي هند : يحور كلمة بالحبشية ، ومعناها يرجع وقيل للقصار حواري لأن الثياب ترجع بعمله إلى البياض .

﴿ بلى إنّ ربّه كان به بَصيراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مشاهداً لما كان عليه .

الثاني : خبيراً بما يصير إليه .

﴿ فلا أُقْسِمُ بالشّفَقِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه شفق الليل وهو الحمرة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه بقية ضوء الشمس ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه ما بقي من النهار ، قاله عكرمة .

الرابع : أنه النهار ، رواه ابن ابي نجيح .

﴿ واللّيلِ وما وَسقَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : وماجمع ، قاله مجاهد ، قال الراجز :

إن لنا قلائصاً حقائقا . . . مستوسقات أو يجدن سائقا

الثاني : وما جَنّ وستر ، قاله ابن عباس .

الثالث : وما ساق ، لأن ظلمة الليل تسوق كل شيء إلى مأواه ، قاله عكرمة . الرابع : وما عمل فيه ، قاله ابن جبير ، وقال الشاعر :

ويوماً ترانا صالحين وتارةً . . . تقوم بنا كالواسق المتَلَبِّبِ

أي كالعامل .

﴿ والقَمَرِ إذا اتّسَق ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : إذا استوى ، قاله ابن عباس ، وقولهم اتسق الأمر إذا انتظم واستوى .

قال الضحاك : ليلة أربع عشرة هي ليلة السواء .

الثاني : والقمر إذا استدار ، قاله عكرمة .

الثالث : إذا اجتمع ، قاله مجاهد ، ومعانيها متقاربة .

ويحتمل رابعاً : إذا طلع مضيئاً .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنِ طَبَقٍ ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : سماء بعد سماء ، قاله ابن مسعود والشعبي .

(207/809)

الثاني : حالاً بعد حال ، فطيماً بعد رضيع وشيخاً بعد شاب ، قاله عكرمة ، ومنه قول الشاعر :

كذلك المرءُ إن يُنْسَأ له أجَلٌ . . . يَرْكَبْ على طَبَقٍ مِن بَعْده طَبَقُ

الثالث : أمراً بعد أمر ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقراً بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقماً بعد صحة ، قاله الحسن .

الرابع : منزلة بعد منزلة ، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا مرتفعين في الدنيا فاتضعوا في الآخرة ، قاله سعيد بن جبير .

الخامس : عملاً بعد عمل ، يعمل الآخر عمل الأول ، قاله السدي .

السادس : الآخرة بعد الأولى ، قاله ابن زيد .

السابع : شدة بعد شدة ، حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء ، وفي كل حال من هذه شدة ، وقد روى معناه جابر مرفوعاً .

﴿ واللهُ أَعْلَمُ بما يُوعُونَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بما يُسِرون في قلوبهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : بما يكتمون من أفعالهم ، قاله مجاهد .

الثالث : بما يجمعون من سيئاتهم ، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع ما فيه وهو معنى قول ابن زيد .

﴿ فلهم أَجْرٌ غيرُ ممنون ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : غير محسوب ، قاله مجاهد .

الثاني : غير منقوص ، قاله السدي .

الثالث : غير مقطوع ، قاله ابن عباس .

الرابع : غير مكدّر بالمن والأذى ، وهو معنى قول الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 233. 239 ﴾

(208/809)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾

قال المفسرون : انشقاقها من علامات الساعة .

وقد ذكر ذلك في مواضع من القرآن .

[الفرقان : 225 ، الرحمن : 37 ، الحاقة : 16] ﴿ وأَذِنَتْ لربها ﴾ أي : استمعت وأطاعت في الانشقاق ، من الأذن ، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه ، وأنشدوا :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذُكِرْتُ بِهِ . . .

فَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُم أَذِنُوا

﴿ وحُقَّتْ ﴾ أي : حقّ لها أن تُطيع ربَّها الذي خلقها ﴿ وإذا الأرض مُدَّتْ ﴾ قال ابن عباس : تُمَدُّ مَدَّ الأديم ، ويزاد في سَعَتها ، وقال مقاتل : لا يبقى جبل ولا بناءٌ إلا دخل

فيها .

قوله تعالى : ﴿ وأَلْقَتْ ما فيها من الموتى ﴾ والكنوز ﴿ وتخلَّتْ ﴾ أي : خلت من ذلك ، فلم يبق في باطنها شيء .

واختلفوا في جواب هذه الأشياء المذكورات على أربعة أقوال .

أحدها : أنه متروك ، لأن المعنى معروف قد تردَّد في القرآن .

والثاني : أنه ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ كقول القائل ، إذا كان كذا وكذا في أيها الناس تَرَوْن ما عملتم ، فيجعل : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ هو الجواب ، وتضمر فيه الفاء ، كأن المعنى : يرى الثواب والعقاب إذا السماء انشقت ، وذكر القولين الفراء .

والثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه إذا السماء انشقت" قاله المبرد .

والرابع : أن الجواب مدلول عليه بقوله تعالى "فملاقيه" .

فالمعنى : إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : إنك عامل لربك عملاً ، قاله ابن عباس .

والثاني : ساعٍ إلى ربك سَعْياً ، قاله مقاتل .

قال الزجاج : و "الكدح" في اللغة : السعي ، والدأب في العمل في باب الدنيا والآخرة .

قال تميم بن مقبل :

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ فمِنْهما . . .

أَمُوت وأُخرى أَبْتَغي العَيْشَ أَكْدَحُ

(209/809)

وفي قوله تعالى ﴿ إلى ربك ﴾ قولان .

أحدهما : عامل لربك ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : إلى لقاء ربك ، قاله ابن قتيبة .

وفي قوله تعالى : ﴿ فملاقيه ﴾ قولان .

أحدهما : فملاقٍ عَمَلَكَ .

والثاني : فملاقٍ ربَّك ، كما ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فسوف يحاسَب حساباً يسيراً ﴾ وهو أن تعرض عليه سيئاته ، ثم يغفرها الله له .

وفي "الصحيحين" من حديث عائشة ، قالت : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نوقش الحساب هلك ، فقلت : يا رسول الله ، فإن الله يقول : "فسوف يحاسب حساباً

يسيراً" قال : "ذلك العرض" " .

قوله تعالى : ﴿ وينقلب إلى أهله ﴾ يعني : في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿ مسروراً ﴾ بما أُوتي من الكرامة ﴿ وأما من أُوتي كتابه وراء ظهره ﴾ قال المفسرون : تُغَلُّ يده اليمنى إلى عنقه ، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ قال الزجاج : يقول : يا ويلاه ، يا ثبوراه ، وهذا يقوله كلُّ من وقع في هلكة .

قوله تعالى : ﴿ ويصلى سعيراً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، "ويُصَلَّى" بضم الياء ، وتشديد اللام .

وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة "ويصلى" بفتح الياء خفيفة ، إلا أن حمزة والكسائي يميلانها .

وقد شرحناه في سورة [النساء : 11] .

قوله تعالى : ﴿ إنه كان في أهله ﴾ يعني في الدنيا ﴿ مسروراً ﴾ باتباع هواه ، وركوب شهواته .

﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي : لن يرجع إلى الآخرة ، ولن يبعث وهذه صفة الكافر .

قال اللغويون : الحور في اللغة : الرجوع ، وأنشدوا للبيد :

وَمَا المرْءُ إلا كالشّهَابِ وَضَوْئِهِ . . .

يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ

قوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ قال الفراء : المعنى : بلى ليحورون ، ثم استأنف ، فقال تعالى : ﴿ إن ربه كان به بصيراً ﴾ قال المفسرون : بصيراً به على جميع أحواله .

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ قد سبق بيانه .

(210/809)

فأما "الشفق" فقال ابن قتيبة : هما شفقان : الأحمر ، والأبيض ، فالأحمر : من لدن غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء ثم يغيب ، ويبقى الشفق الأبيض إلى نصف الليل .

وللمفسرين في المراد "بالشفق" هاهنا ستة أقوال .

أحدها : الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس .

وقد روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الشفق : الحمرة" ، وهذا قول عمر ، وابنه ، وابن مسعود ، وعبادة ، وأبي قتادة ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأنس ، وابن المسيب ، وابن جبير ، وطاووس ، ومكحول ، ومالك ، والأوزاعي ، وأبي يوسف ، والشافعي ، وأبي عبيد ، وأحمد ، وإسحاق ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول وعليه ثوب مصبوغ : كأنه الشفق ، وكان أحمر .

والثاني : أنه النهار .

والثالث : الشمس ، روي القولان عن مجاهد .

والرابع : ما بقي من النهار ، قاله عكرمة .

والخامس : السواد الذي يكون بعد ذهاب البياض ، قاله أبو جعفر محمد ابن علي .

والسادس : أنه البياض ، قاله عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ والليل وما وسق ﴾ أي : وما جمع وضم .

وأنشدوا :

إنَّ لنا قَلائصاً حَقَائِقا . . .

مُسْتَوْسِقَاتٍ لو يَجِدْنَ سَائِقَا

قال أبو عبيدة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ ما علا فلم يمنع منه شيء ، فإذا جلل الليل الجبال ، والأشجار ، والبحار ، والأرض ، فاجتمعت له ، فقد وسقها .

وقال بعضهم : معنى : "ما وسق" : ما جمع مما كان منتشراً بالنهار في تصرفه إلى مأواه .

قوله تعالى : ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ قال الفراء : اتساقه : اجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، إلى ست عشرة .

قوله تعالى : ﴿ لتركبنَّ طبقاً عن طبق ﴾ قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي "لتركبن" بفتح التاء والباء ، وفي معناه قولان .

أحدهما : أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم في معناه قولان .

أحدهما : لتركبنَّ سماءً بعد سماءٍ ، قاله ابن مسعود ، والشعبي ، ومجاهد .

(211/809)

والثاني : لتركبن حالاً بعد حال ، قاله ابن عباس ، وقال : هو نبيُّكم .

والقول الثاني : أن الإشارة إلى السماء .

والمعنى : أنها تتغير ضروباً من التغيير ، فتارة كالمُهْل ، وتارةً كالدِّهان ، روي عن ابن مسعود أيضاً .

وقرأ عاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر "لتركبنَّ" بفتح التاء ، وضم الباء ، وهو خطاب لسائر الناس .

ومعناه .

لتركبنَّ حالاً بعد حال .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو الجوزاء ، وأبو الأشهب ، "ليركبَنّ" بالياء ، ونصب الباء .

وقرأ أبو المتوكل ، وأبو عمران ، وابن يعمر "ليركُبُنَّ" بالياء ، وضم الباء .

و"عن" بمعنى : "بعد" .

وهذا قول عامة المفسرين واللغوين ، وأنشدوا للأقرع بن حابس .

إنّي امْرُؤٌ قد حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ . . .

وَسَاقَنِي طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ

ثم في معنى الكلام خمسة أقوال .

أحدها : أنه الشدائد ، والأهوال ، ثم الموت ، ثم البعث ، ثم العرض ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الرخاء بعد الشدة ، والشدة بعد الرخاء ، والغنى بعد الفقر ، والفقر بعد الغنى ، والصحة بعد السقم ، والسقم بعد الصحة ، [قاله الحسن .

والثالث : أنه كون الإنسان رضيعاً ثم فطيماً ثم غلاماً شاباً ثم شيخاً] ، قاله عكرمة .

والرابع : أنه تغير حال الإنسان في الآخرة بعد الدنيا ، فيرتفع من كان وضيعاً ، ويتضع من كان مرتفعاً ، وهذا مذهب سعيد بن جبير .

والخامس : أنه ركوب سنن من كان قبلهم من الأولين ، قاله أبو عبيدة .

وكان بعض الحكماء يقول : من كان اليوم على حالة ، وغداً على حالة أخرى ، فليعلم أن تدبيره إلى سواه .

قوله تعالى : ﴿ فما لهم ﴾ يعني : كفار مكة ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي : لا يؤمنون بمحمد والقرآن ، وهو استفهام إنكار ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يصلُّون ، قاله عطاء ، وابن السائب .

والثاني : لا يخضعون له ، ويستكينون ، قاله ابن جرير ، واختاره القاضي أبو يعلى .

(212/809)

قال : وقد احتج بها قوم على وجوب سجود التلاوة ، وليس فيها دلالة على ذلك ، وإنما المعنى : لا يخشعون ، ألا ترى أنه أضاف السجود إلى جميع القرآن ، والسجود يختص بمواضع منه .

قوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذِّبون ﴾ بالقرآن ، والبعث ، والجزاء ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ في صدورهم ويضمرون في قلوبهم من التكذيب .

قال ابن قتيبة : "يوعون" : يجمعون في قلوبهم .

وقال الزجاج : يقال : أوعيت المتاع في الوعاء ، ووعيت العلم .

قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي أخبرهم بذلك .

وقال الزجاج : اجعل للكفار بدل البشارة للمؤمنين بالجنة والرحمة ، العذابَ الأليم .

و"الممنون" عند أهل اللغة : المقطوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 62 .

﴿ 69

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إذا السّماء انشقت ﴾

يعني عند قيام السّاعة وهي من علاماتها ﴿ وأذنت لربها ﴾ أي سمعت أمر ربها بالانشقاق ، وأطاعته من الأذن وهو الاستماع ﴿ وحقت ﴾ أي حق لها أن تطيع أمر ربها ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ يعني مد الأديم العكاظي وزيد في سعتها ، وقيل سويت فلا يبقى فيها بناء ولا جبل ﴿ وألقت ما فيها ﴾ أي أخرجت ما في بطنها من الموتى والكنوز ﴿ وتخلت ﴾ أي من ذلك الذي كان في بطنها من الموتى والكنوز ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ واختلفوا في جواب إذا فقيل جوابه محذوف تقديره إذا كان هذه الأشياء يرى الإنسان الثواب أو العقاب ، وقيل جوابه يا أيها الإنسان إنك كادح والمعنى إذا انشقت السّماء لقي كل كادح ما عمله وقيل جوابه وأذنت وحينئذ تكون الواو زائدة ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ أي ساع إليه في عملك سعياً والكدح عمل الإنسان وجهده في الأمرين الخير والشّر ، وقيل معناه عامل لربك عملاً وقيل معناه إنك كادح في لقاء ربك وهو الموت ، والمعنى أن هذا الكدح يستمر بك إلى الموت ، وقيل معناه إنك تكدح في دنياك

كدحاً تصير به إلى ربك .

﴿ فملاقيه ﴾ أي فملاق جزاء عملك .

﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ سوف من الله واجب والحساب اليسير هو أن تعرض عليه أعماله ، فيعرف بالطاعة ، والمعصية ثم يثاب على الطاعة ، ويتجاوز له عن المعصية فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة فيه على صاحبه ، ولا مناقشة ولا يقال له لم فعلت هذا ولا يطالب بالعذر فيه ، ولا الحجة عليه فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذراً ، ولا حجة فيفتضح (ق) عن ابن أبي مليكة أن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : من حوسب عذب قال : فقلت ، أوليس يقول الله فسوف يحاسب حساباً يسيراً قالت فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عذب .

(214/809)

﴿ وينقلب إلى أهله ﴾ يعني في الجنة من الحور العين والآدميات ﴿ مسروراً ﴾ أي بما أوتي من الخير والكرامة ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ يعني أنه تغل يده اليمنى إلى عنقه ، وتجعل يده اليسرى وراء ظهره ، فيعطى كتابه بشماله من وراء ظهره ، وقيل تخلع

يده الشّمال فتخرج من وراء ظهره فيعطي بها كتابه ﴿ فسوف يدعوا ثبوراً ﴾ يعني عند إعطائه كتابه بشماله من وراء ظهره يعلم أنه من أهل النّار فيدعو بالويل والهلاك ، فيقول يا ويلاه يا ثبوراه ﴿ ويصلى سعيراً ﴾ أي ويقاسي التهاب النّار وحرها ﴿ إنه كان في أهله ﴾ يعني في الدنيا ﴿ مسروراً ﴾ يعني باتباع هواه وركوب شهواته ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي لن يرجع إلينا ولن يبعث والحور الرجوع ﴿ بلى ﴾ ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا ، ويبعث ويحاسب ﴿ إن ربه كان به بصيراً ﴾ أي من يوم خلقه إلى أن يبعث قوله : ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ تقدم الكلام ﴿ لا أقسم ﴾ في سورة القيامة .

وأما الشّفق فقال مجاهد : هو النهار كله وحجته في ذلك أنه عطف عليه فيجب أن يكون المذكور أولاً هو النهار فعلى هذا الوجه يكون القسم باللّيل والنهار اللذين فيهما معاش العالم وسكونه ، وقيل هو ما بقي من النّهار وقال ابن عباس ، وأكثر المفسرين : هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشّمس ، وهو مذهب عامة العلماء ، وقيل هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة وهو مذهب أبي حنيفة ﴿ واللّيل وما وسق ﴾ أي جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار من الخلق والدواب والهوام وذلك أن اللّيل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه ، وقيل وما عمل فيه ويحتمل أن يكون ذلك تهجد العباد ، فيجوز أن يقسم به .

﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي اجتمع وتم نوره وذلك في الأيام البيض ، وقيل استدار واستوى ، ولما ذكر المقسم به أتبعه بالمقسم عليه فقال تعالى ﴿ لتركبن ﴾ قرىء بفتح الباء وهو خطاب الواحد والمعنى لتركبن يا محمد ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ يعني سماء بعد سماء وقد فعل الله ذلك معه ليلة أسري به ، فأصعده سماء بعد سماء ، وقيل درجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى : وقيل معناه لتركبن حالاً بعد حال (خ) عن ابن عباس قال : لتركبن طبقاً عن طبق حالاً بعد حال هذا لنبيكم (صلى الله عليه وسلم) ومعنى هذا يكون لك الظفر والغلبة على المشركين حتى يختم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم وقرىء لتركبن بضم الباء ، وهو الأشبه ويكون خطاب الجمع والمعنى لتركبن أيها النّاس حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر ، وذلك في موقف القيامة تتقلب بهم الأحوال فيصيرون في الآخرة على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا .

وقال ابن عباس يعني الشّدائد وأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ، وقيل حال الإنسان حالاً بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ، وقيل معناه لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم .

(ق) عن أبي سعيد الخدري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " لتتبعن سنن من كان قبلكم وأحوالهم شبراً بعد شبر وذراعاً بعد ذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنّصارى قال فمن " ، وقيل في معنى الآية إنه أراد به السّماء تتغير لوناً بعد لون فتصير تارة وردة كالدّهان وتارة كالمهل وتنشق مرة وتطوي أخرى ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ يعني بالبعث والحساب وهو استفهام إنكار ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ يعني لا يصلون فعبر بالسّجود عن الصّلاة لأنه جزء منها ، وقيل أراد به سجود التلاوة وهذه السّجدة أحد سجدات القرآن عند الشّافعي ومن وافقه (ق) عن رافع قال " صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إذا السّماء انشقت ﴾ فسجد ، فقلت ما هذا قال : سجدت بها خلف أبي القاسم (صلى الله عليه وسلم) فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه ولمسلم عنه قال : " سجدنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ﴿ وإذا السّماء انشقت ﴾

﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ يعني بالقرآن والبعث ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ يعني يجمعون في صدورهم من التكذيب ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ يعني على عنادهم وكفرهم ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ يعني غير مقطوع ولا

منقوص في الآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 223.226 ﴾

(217/809)

وقال النسفى :

سورة الانشقاق

﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ تصدعت وتشققت ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ سمعت وأطاعت وأجابت ربها إلى الانشقاق ولم تأب ولم تمتنع ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وحق لها أن تسمع وتطيع لأمر الله إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ بسطت وسويت باندكاك جبالها وكل أمت فيها ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ ورمت ما في جوفها من الكنوز والموتى ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ وخلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو .

يقال : تكرم الكريم إذا بلغ جهده في الكرم وتكلف فوق ما في طبعه ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخليها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ، وحذف جواب "إذا" ليذهب المقدر كل مذهب ، أو اكتفاء بما على بمثلها من سورتي التكوير والانفطار ،

أو جوابه ما دل عليه ﴿ فملاقيه ﴾ أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه .

﴿ يا أيها الإنسان ﴾ خطاب للجنس ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء ﴿ فملاقيه ﴾ الضمير للكدح وهو جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها ، والمراد جزاء الكدح إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقيل : لقاء الكدح لقاء كتاب فيه ذلك الكدح يدل عليه قوله ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ أي كتاب عمله ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ سهلاً هيناً وهو أن يجازي على الحسنات ويتجاوز عن السيئات .

(218/809)

وفي الحديث " من يحاسب يعذب " فقيل : فأين قوله ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ ؟ قال : " ذلكم العرض من نوقش في الحساب عذب " ﴿ وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين ، أو إلى فريق المؤمنين ، أو إلى أهله في الجنة من الحور العين ﴿ مَسْرُوراً ﴾ فرحاً ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ قيل : تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ يقول : يا

ثبوراه والثبور الهلاك ﴿ ويصلى ﴾ عراقي غير علي ﴿ سَعِيراً ﴾ أي ويدخل جهنم ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ في الدنيا ﴿ فِى أَهْلِهِ ﴾ معهم ﴿ مَسْرُوراً ﴾ بالكفر يضحك ممن آمن بالبعث .

قيل : كان لنفسه متابعاً وفي مراتع هواه راتعاً .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ لن يرجع إلى ربه تكذيباً بالبعث .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبنتها : حوري أي ارجعي ﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿ لَّن يَحُورَ ﴾ أي بلى ليحورن ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ ﴾ وبأعماله ﴿ بَصِيراً ﴾ لا يخفى عليه فلا بد أن يرجعه ويجازيه عليها .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالشفق ﴾ فأقسم بالبياض بعد الحمرة أو الحمرة ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ جمع وضم والمراد ما جمعه من الظلمة والنجم ، أو من عمل فيه من التهجد وغيره ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ اجتمع وتم بدراً افتعل من الوسق ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ أيها الإنسان على إرادة الجنس ﴿ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ حالاً بعد حال ، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول .

والطبق ما طابق غيره يقال : ما هذا بطبق لذا أي لا يطابقه ، ومنه قيل للغطاء الطبق ، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة من قولهم : هو على طبقات ، أي لتركبن أحوالاً بعد

أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها .

(219/809)

ومحل ﴿ عَن طَبَقٍ ﴾ نصب على أنه صفة ل ﴿ طَبَقاً ﴾ أي طبقاً مجاوزاً لطبق ، أو حال من الضمير في ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ أي لتركبن طبقاً مجاوزين لطبق .

وقال مكحول : في كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه .

وبفتح الباء : مكي وعلي وحمزة .

والخطاب له عليه السلام أي طبقاً من طباق السماء بعد طبق أي في المعراج .

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فما لهم في أن لا يؤمنوا ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرءان لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ لا يخضعون ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث والقرآن ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، أو بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصالحات ﴾ استثناء منقطع ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع أو غير منقوص ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 342 . 344 ﴾

(220/809)

وقال ابن جزى :

سورة الانشقاق

﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾

اختلف في هذا الانشقاق هل هو تشققها بالغمام ؛ أو انفتاحها أبواباً ، وجوب إذا محذوف ليكون أبلغ في التهويل ، إذ يقدّر السامع أقصى ما يتصوره ، وحذف للعلم به ، اكتفاءً بما في سورة التكوير والانفطار من الوجوب . وقيل : الجواب ما دل عليه ، فملاقيه : أي إذا السماء انشقت لقي الإنسان ربه ، وقيل : الجواب أذنت على زيادة الواو وهذا ضعيف ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ معنى أذنت في اللغة : استمعت ، وهو عبارة عن طاعتها لربها ، وأنها انقادت لله حين أراد انشقاقها ، وكذلك طاعة الأرض لما أراد مدّها وإلقاء ما فيها ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي حق لها أن تسمع وتطيع لربها ، أو حق لها أن تنشق من أهوال القيامة ، وهذه الكلمة من قولهم : هو حقيق بكذا ، أو محقوق به . أي : عليه أن يفعله ، فالمعنى :

يحق على السماء أن تسمع وتطيع لربها ، أو يحق عليها أن تتشقق ، ويحتمل أن يكون أصله حققت بفتح الحاء وضم القاف على معنى التعجب ، ثم أدغمت القاف في القاف التي بعدها ونقلت حركتها إلى الحاء ﴿ وَإِذَا الأَرض مُدَّتْ ﴾ أي زال ما عليها من الجبال حتى صارت مستوية ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي ألقت ما في جوفها من الموتى للحشر ، وقيل : ألقت ما فيها من الكنوز . وهذا ضعيف ؛ لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال قبل القيامة ، والمقصود ذكر يوم القيامة ، وتخلت : أي بقيت خالية مما كان فيها .

(221/809)

﴿ يا أَيُّهَا الإنسان ﴾ خطاب للجنس ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ ﴾ الكدح في اللغة هو : الجد والاجتهاد والسرعة ، فالمعنى أنك في غاية الاجتهاد في السير إلى ربك ، لأن الزمان يطير ، وأنت في كل لحظة تقطع حظاً من عمرك القصير ، فكأنك سائر مسرع إلى الموت ، ثم تلاقي ربك ، وقيل : المعنى إنك ذو جِد فيما تعمل من خير أو شر ، ثم تلقى ربك فيجازيك به والأول أظهر ، لأن كادح تعدى بإلى لما تضمن معنى السير ، ولو كان بمعنى العمل لقال : لربك ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ذكر في الحاقة ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ يحتمل أن يكون اليسير بمعنى القليل ، أو بمعنى هيّن سهل ، وفي الحديث أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " من نوقش الحساب عذّب . فقالت عائشة : ألم يقل الله فسوف يحاسب حساباً يسيراً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فيهلك " وفي الحديث أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن الله يدني العبد يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه فيقول : فعلت كذا وكذا ويعدد عليه ذنوبه ثم يقول : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم " ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من حاسب نفسه في الدنيا هون الله عليه حسابه يوم القيامة " ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي يرجع إلى أهله في الجنة مسروراً بما أعطاه الله ، والأهل : زوجاته في الجنة من نساء الدنيا أو من الحور العين ، ويحتمل أن يريد قرابته من المؤمنين ، وبذلك فسره الزمخشري .

(222/809)

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ يعني : الكافر . ورُوي أن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة بن عبد الأسد ، وكان من فضلاء المؤمنين ، وفي أخيه أسود ، وكان من عتاة الكافرين ، ولفظها أعم من ذلك . فإن قيل : كيف قال من الكافر هنا أن يؤتى كتابه وراء ظهره وقال في الحاقة بشماله ؟ فالجواب من وجهين أحدهما : أن يديه تكونان مغلولتين إلى

عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه ، وقيل : تدخل يده اليسرى في صدره وتخرج من ظهره فيأخذ بها كتابه ﴿ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ أي يصيح بالويل والثبور ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي كان في الدنيا مسروراً مع أهله ، متنعماً غافلاً عن الآخرة ، وهذا في مقابلة ما حكى عن المؤمن أنه ينقلب إلى أهله مسروراً في الجنة ، وهو ضد ما حكي عن المؤمنين في الجنة من قولهم : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي لا يرجع إلى الله ، والمعنى أنه يكذب بالبعث ﴿ بلى ﴾ أي يحور ويبعث .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ ذكر في نظائره ﴿ بالشفق ﴾ هي الحمرة التي تبقى بعد غروب الشمس ، وقال أبو حنيفة : هو البياض ، وقيل : هو النهار كله . وهذا ضعيف والأول هو المعروف عند الفقهاء وعند أهل اللغة ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ أي جمع وضم ، ومنه الوسق وذلك الليل يضم الأشياء ويسترها بظلامه ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ أي إذا كمل ليلة أربعة عشر ، ووزن اتسق افتعل وهو مشتق من الوسق ، فكأنه امتلأ نوراً . وفي الآية من أدوات البيان لزوم ما لا يلزم ، لالتزام السين قبل القاف في وسق واتسق .

(223/809)

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ الطبق في اللغة له معنيان : أحدهما : ما طابق غيره . يقال : هذا طِبق لهذا إذا طابقه ، والآخر : جمع طبقة . فعلى الأول يكون المعنى لتركبن حالاً بعد حال كل واحدة منها مطابقة للأخرى ، وعلى الثاني يكون المعنى لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات بعضها فوق بعض ، ثم اختلف في تفسير هذه الأحوال ، وفي قراءة تركَبن فأما من قرأ بضم الباء فهو خطاب لجنس الإنسان ، وفي تفسير الأحوال على هذا ثلاثة أقوال أحدها أنها شدائد الموت ثم البعث ثم الحساب ثم الجزاء ، والآخر : أنها كون الإنسان نطفة ثم علقة إلى أن يخرج إلى الدنيا ثم إلى أن يهرم ثم يموت ، والثالث لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم . وأما من قرأ تركَبَنَّ بفتح الباء فهو خطاب للإنسان على المعاني الثلاثة التي ذكرنا ، وقيل : هي خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف القائلون بهذا على ثلاثة أقوال أحدها : لتركبن مكابدة الكفار حالاً بعد حال ، والآخر : لتركبن فتح البلاد شيئاً بعد شيء ، والثالث لتركبن السموات في الإسراء بعد سماء ، وقوله : ﴿ عَن طَبَقٍ ﴾ في موضع الصفة لطبقاً أو في موضع حال من الضمير في تركبن ، قاله الزمخشري .

(224/809)

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ الضمير لكفار قريش ، والمعنى أي شيء يمنعهم من الإيمان ﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها وليست عند مالك من عزائم السجدات ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني المذكورين ووضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالكفر ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب أو بما يجمعون في صحائفهم ، يقال أوعيت المال وغيره إذا جمعته ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وضع الباشرة في موضع النذارة تهكماً بهم ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ يعني من قضى له بالإيمان من هؤلاء الكفار ، فالاستثناء على هذا متصل ، وإلى هذا أشار ابن عطية ، وقال الزمخشري : هو منقطع ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قد ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 186. 188﴾

(225/809)

وقال البيضاوى :

سورة الانشقاق

مكية وآيها خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾

بالغمام كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه : تنشق من المجرة .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ واستمعت له أي انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي يأذن للآمر ويذعن له . ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد يقال : حق بكذا فهو محقوق وحقيق .

﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ بسطت بأن لا تزال جبالها وآكامها .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ في الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شيء في باطنها .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ في الإلقاء والتخلي . ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ للإذن وتكرير ﴿ إِذَا ﴾ لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة ، وجوابه محذوف للتهويل بالإبهام أو الاكتفاء بما مر في سورتي "التكوير" و"الانفطار" أو لدلالة قوله .

﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فملاقيه ﴾ عليه وتقديره لاقى الإنسان كدحه أي جهداً يؤثر فيه من كدحه إذا خدشه ، أو ﴿ فملاقيه ﴾ و ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ ﴾ اعتراض ، والكدح إليه السعي إلى لقاء جزائه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ سهلاً لا يناقش فيه .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ إلى عشيرته المؤمنين ، أو فريق المؤمنين ، أو ﴿ أَهْلِهِ ﴾ في الجنة من الحور .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره . قيل تغل يمناه إلى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ يتمنى الثبور ويقول يا ثبوراه وهو الهلاك .

﴿ ويصلى سَعِيراً ﴾ وقرأ الحجازيان والشامي "ويصلى" لقوله تعالى : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ وقرىء "ويصلى" لقوله تعالى : ﴿ ونصله جَهَنَّمَ . ﴾

(226/809)

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ﴾ أي في الدنيا . ﴿ مَسْرُوراً ﴾ بطراً بالمال والجاه فارغاً عن الآخرة .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ لن يرجع إلى الله تعالى .

﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد ﴿ لَنْ ﴾ . ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ عالماً بأعماله فلا يهمله بل يرجعه ويجازيه .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشفق ﴾ الحمرة التي ترى في أفق المغرب بعد الغروب . وعن أبي حنيفة

رحمه الله تعالى : أنه البياض الذي يليها ، سمي به لرقته من الشفقة .

﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ وما جمعه وستره من الدواب وغيرها يقال : وسقه فاتسق واستوسق ، قال :

مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقاً . . . أو طرده إلى أماكنه من الوسيقة .

﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ اجتمع وتم بدراً .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ حالاً بعد حال مطابقة لأختها في الشدة ، وهو لما طابق غيره فقيل للحال المطابقة ، أو مراتب من الشدة بعد المراتب هي الموت ومواطن القيامة وأهوالها ، أو هي وما قبلها من الدواهي على أنه جمع طبقة . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي "لَتَرْكَبُنَّ" بالفتح على خطاب الإنسان باعتبار اللفظ ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى "لَتَرْكَبُنَّ" حالاً شريفة ومرتبة عالية بعد حال ومرتبة ، أو ﴿ طَبَقاً ﴾ من أطباق السماء بعد طبق ليلة المعراج وبالكسر على خطاب النفس ، وبالياء على الغيبة و﴿ عَن طَبَقٍ ﴾ صفة ل ﴿ طَبَقاً ﴾ أو حال من الضمير بمعنى مجاوز ال ﴿ طَبَقٍ ﴾ أو مجاوزين له .

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بيوم القيامة .

﴿ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرءان لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ لا يخضعون أو ﴿ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ لتلاوته . لما روي : أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿ واسجد واقترب ﴾ فسجد بمن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم فنزلت . واحتج به أبو حنيفة على وجوب السجود فإنه ذم لمن سمعه ولم يسجد . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سجد فيها وقال : والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها .

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي بالقرآن .

﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ بما يضمرون في صدورهم من الكفر والعداوة .

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ استهزاء بهم .

﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ استثناء منقطع أو متصل ، والمراد من تاب وآمن منهم . ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مقطوع أو ﴿ مَمْنُونٍ ﴾ به عليهم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الانشقاق أعاذه الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 468 . 471 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة الانشقاق

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

قال ابن خالويه : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ بكسر التاء ، عبيد عن أبي عمرو .

وقال ابن عطية ، وقرأ أبو عمرو : ﴿ انشقت ﴾ ، يقف على التاء كأنه يشمها شيئاً من الجر ، وكذلك في أخواتها .

قال أبو حاتم : سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات ، وهي لغة .

انتهى .

وذلك أن الفواصل قد تجري مجرى القوافي .

فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي ، تكسر في الفواصل ؛ ومثال كسرها في القوافي قول كثير عزة :

وما أنا بالداعي لعزة بالردى . . .

ولا شامت أن نعل عزة زلت

وكذلك باقي القصيدة .

وإجراء الفواصل في الوقف مجرى القوافي مهيع معروف ، كقوله تعالى : ﴿ الظنونا ﴾ و ﴿ الرسولا ﴾ في سورة الأحزاب .

وحمل الوصف على حالة الوقف أيضاً موجود في الفواصل .

﴿ وأذنت ﴾ : أي استمعت وسمعت أمره ونهيه ، وفي الحديث : " ما أذن الله بشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن " وقال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . .

وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال قعنب :

إن يأذنوا ريبة طاروا بها فرحاً . . .

وما هم أذنوا من صالح دفنوا

وقال الحجاف بن حكيم :

أذنت لكم لما سمعت هريركم . . .

وأذنها : انقيادها الله تعالى حين أراد انشقاقها ، فعل المطيع إذا ورد عليه أمر المطاع أنصت وانقاد ، كقوله تعالى : ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ ﴿ وحقت ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير : وحق لها أن تسمع .

وقال الضحاك : أطاعت وحق لها أن تطيع .

وقال قتادة : وحق لها أن تفعل ذلك ، وهذا الفعل مبني للمفعول ، والفاعل هو الله تعالى ، أي وحق الله تعالى عليها الاستماع .

ويقال : فلان محقوق بكذا وحقيق بكذا ، والمعنى : أنه لم يكن في جرم السماء ما يمنع من تأثير القدرة في انشقاقه وتفريق أجزائه وإعدامه .

قيل : ويحتمل أن يريد : وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى .

(229/809)

وقال الزمخشري : وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ، ومعناه : الإيذان بأن القادر الذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك ، انتهى .

وفي قوله القادر الذات دسيسة الاعتزال ، وما أولع هذا الرجل بمذهب الاعتزال ، يدسه متى أمكنه في كل ما يتكلم به .

﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ ، قال مجاهد : سويت .

وقال الضحاك : بسطت باندكاك جبالها ، ومنه الحديث : " تمد الأرض مد الأديم العكاظي حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه " ، وذلك أن الأديم إذا مَد زال ما

فيه ما تئن وانبسط ، فتصير الأرض إذ ذاك كما قال تعالى : ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ ، قال ابن جبير والجمهور : ألقت ما في بطنها من الأموات ، وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء .

وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها .

وقال الزجاج : ومن الكنوز ، وضعف هذا بأن ذلك يكون وقت خروج الدجال ، وإنما تلقى يوم القيامة الموتى .

﴿ وتخلت ﴾ : أي عن ما كان فيها ، لم تتمسك منهم بشيء .

وجاء تخلت : أي تكلفت أقصى جهدها في الخلو .

كما تقول : تكرم الكريم : بلغ جهده في الكرم وتكلف فوق ما في طبعه ، ونسبة ذلك إلى الأرض نسبة مجازيه ، والله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء من باطنها .

وجواب إذا محذوف ، فإما أن يقدره الذي خرج به في سورة التكوير أو الانفطار ، أو ما يدل عليه : ﴿ إنك كادح ﴾ ، أي لاقى كل إنسان كدحه .

وقال الأخفش والمبرد : هو ملاقيه ، إذا انشقت السماء فأنت ملاقيه .

وقيل : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ ، على حذف الفاء تقديره : في أيها الإنسان .

وقيل : ﴿ وأذنت ﴾ على زيادة الواو ؛ وعن الأخفش : ﴿ إذا السماء ﴾ مبتدأ ، خبره

﴿ وإذا الأرض ﴾ على زيادة الواو ، والعامل فيها على قول الأكثرين : الجواب إما المحذوف الذي قدروه ، وإما الظاهر الذي قيل إنه جواب .

(230/809)

قال ابن عطية : وقال بعض النحويين : العامل انشقت ، وأبى ذلك كثير من أئمتهم ، لأن إذا مضافة إلى انشقت ، ومن يجيز ذلك تضعف عنده الإضافة ويقوى معنى الجزاء ، انتهى .

وهذا القول نحن نختاره ، وقد استدللنا على صحته فيما كتبناه ، والتقدير : وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض .

وقيل : لا جواب لها إذ هي قد نصبت باذكر نصب المفعول به ، فليست شرطاً .

﴿ وأذنت لربها ﴾ : أي في إلقاء ما في بطنها وتخليها .

والإنسان : يراد به الجنس ، والتقسيم بعد ذلك يدل عليه .

وقال مقاتل : المراد به الأسود بن عبد الأسد بن هلال المخزومي ، جادل أخاه أبا سلمة في أمر البعث ، فقال أبو سلمة : والذي خلقك لتركبن الطبقة ولتوافين العقبة .

فقال الأسود فأين : الأرض والسماء وما جال الناس ؟ انتهى .

وكان مقاتلاً يريد أنها نزلت في الأسود ، وهي تعم الجنس .

وقيل : المراد أبيّ بن خلف ، كان يكدح في طلب الدنيا وإيذاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) والإصرار على الكفر .

وأبعد من ذهب إلى أنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والمعنى : إنك تكدح في إبلاغ رسالات الله تعالى وإرشاد عباده واحتمال الضر من الكفار ، فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل ، وهو غير ضائع عنده .

﴿ إنك كادح ﴾ : أي جاهد في عملك من خير وشر إلى ربك ، أي طول حياتك إلى لقاء ربك ، وهو أجل موتك ، ﴿ فملاقيه ﴾ : أي جزاء كدحك من ثواب وعقاب .

قال ابن عطية : فالفاء على هذا عاطفة جملة الكلام على التي قبلها ، والتقدير : فأنت ملاقيه ، ولا يتعين ما قاله ، بل يصح أن يكون معطوفاً على كادح عطف المفردات .

وقال الجمهور : الضمير في ملاقيه عائد على ربك ، أي فملاقي جزائه ، فاسم الفاعل معطوف على اسم الفاعل .

﴿ حساباً يسيراً ﴾ قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : يقرر ذنوبه ثم يتجاوز عنه .

وقال الحسن : يجازي بالحسنة ويتجاوز عن السيئة .

(231/809)

وفي الحديث : " من حوسب عذب " ، فقالت عائشة : ألم يقل الله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " إنما ذلك العرض ، وأما من نوقش الحساب فيهلك " .

﴿ وينقلب إلى أهله ﴾ : أي إلى من أعد الله له في الجنة من نساء المؤمنات ومن الحور العين ، أو إلى عشيرته المؤمنين ، فيخبرهم بخلاصه وسلامته ، أو إلى المؤمنين ، إذ هم كلهم أهل إيمان .

وقرأ زيد بن علي : ويقلب مضارع قلب مبنياً للمفعول .

﴿ وراء ظهره ﴾ : روي أن شماله تدخل من صدره حتى تخرج من وراء ظهره ، فيأخذ كتابه بها .

قال ابن عطية : وأما من ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم ، يعني عصاة المؤمنين ، فإنه يعطى كتابه عند خروجه من النار .

وقد جوز قوم أن يعطاه أولاً قبل دخوله النار ، وهذه الآية ترد على هذا القول ، انتهى .

والظاهر من الآية أن الإنسان انقسم إلى هذين القسمين ولم يتعرض للعصاة الذين يدخلهم الله النار .

﴿ يدعو ثبوراً ﴾ : يقول : واثبوراه ، والثبور : الهلاك ، وهو جامع لأنواع المكاره .

وقرأ قتادة وأبو جعفر وعيسى وطلحة والأعمش وعاصم وأبو عمرو وحمزة : ﴿ ويصلى

﴿ بفتح الياء مبنياً للفاعل ؛ وباقي السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج : بضم الياء وفتح الصاد واللام مشددة ؛ وأبو الأشهب وخارجة عن نافع ، وأبان عن عاصم ، وعيسى أيضاً والعتكي وجماعة عن أبي عمرو : بضم الياء ساكن الصاد مخفف اللام ، بني للمفعول من المتعدي بالهمزة ، كما بني ويصلى المشدد للمفعول من المتعدي بالتضعيف .

﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ : أي فرحاً بطراً مترفاً لا يعرف الله ولا يفكر في عاقبته لقوله تعالى : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ بخلاف المؤمن ، فإنه حزين مكتئب يتفكر في الآخرة .

﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ : أي أن لن يرجع إلى الله ، وهذا تكذيب بالبعث .

﴿ بلى ﴾ : إيجاب بعد النفي ، أي بلى ليحورن .

(232/809)

﴿ إن ربه كان به بصيراً ﴾ : أي لا تخفي عليه أفعاله ، فلا بد من حوره ومجازاته .

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ : أقسم تعالى بمخلوقاته تشريفاً لها وتعريضاً للاعتبار بها ، والشفق تقدم شرحه .

وقال أبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة : هو البياض الذي يتلوه الحمرة .

وروى أسد بن عمرو أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا إلى قول الجمهور .

وقال مجاهد والضحاك وابن أبي نجيح : إن الشفق هنا كأنه لما عطف عليه الليل قال ذلك .

قال ابن عطية : وهذا قول ضعيف ، انتهى .

وعن مجاهد : هو الشمس ؛ وعن عكرمة : ما بقي من النهار .

﴿ وما وسق ﴾ : ما ضم من الحيوان وغيره ، إذ جميع ذلك ينضم ويسكن في ظلمة الليل .

وقال ابن عباس : ﴿ وما وسق ﴾ : أي ما غطى عليه من الظلمة .

وقال مجاهد : وما ضم من خير وشر .

وقال ابن جبير : وما ساق وحمل .

وقال ابن بحر : وما عمل فيه ، ومنه قول الشاعر :

فيوماً ترانا صالحين وتارة . . .

تقوم بنا كالواسق المتلبب

وقال ابن الفضل : لف كل أحد إلى الله ، أي سكن الخلق إليه ورجع كل إلى ما رآه لقوله : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ .

وقرأ عمر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو

العالية وابن وثاب وطلحة وعيسى والأخوان وابن كثير : بتاء الخطاب وفتح الباء .

فقيل : خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أي حالاً بعد حال من معالجة الكفار .

وقال ابن عباس : سماء بعد سماء في الإسراء .

وقيل : عدة بالنصر ، أي لتركبن أمر العرب قبيلاً بعد قبيل وفتحاً بعد فتح كما كان ووجد بعد ذلك .

وقال الزمخشري : وقرىء ﴿ لتركبن ﴾ على خطاب الإنسان في ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ .

وقال ابن مسعود المعنى : لتركبن السماء في أهوال القيامة حالاً بعد حال ، تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتنشق ، فالتاء للتأنيث ، وهو إخبار عن السماء بما يحدث لها ، والضمير الفاعل عائد على السماء .

وقرأ عمر وابن عباس أيضاً : بالياء من أسفل وفتح الباء على ذكر الغائب .

(233/809)

قال ابن عباس : يعني نبيكم (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : الضمير الغائب يعود على القمر ، لأنه يتغير أحوالاً من إسرار واستهلال وإبدار .

وقال الزمخشري : ليركبن الإنسان .

وقرأ عمر وابن عباس أيضاً وأبو جعفر والحسن وابن جبير وقتادة والأعمش وباقي السبعة : بتاء الخطاب وضم الباء ، أي لتركبن أيها الإنسان .

وقال الزمخشري : ولتركبن بالضم على خطاب الجنس ، لأن النداء للجنس ، فالمعنى : لتركبن الشدائد : الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال ، أو يكون الأحوال من النطفة إلى الهرم ، كما تقول : طبقة بعد طبقة .

قال نحوه عكرمة .

وقيل : عن تجيء بمعنى بعد .

وقيل : المعنى لتركبن هذه الأحوال أمة بعد أمة .

ومنه قول العباس بن عبد المطلب في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر . . .

ض وضاءت بنورك الأفق

تنقل من صالب إلى رحم . . .

إذا مضى عالم بدا طبق

وقال مكحول وأبو عبيدة : المعنى لتركبن سنن من قبلكم .

وقال ابن زيد : المعنى لتركبن الآخرة بعد الأولى .

وقرأ عمر أيضاً : ليركبن بياء الغيبة وضم الباء .

قيل : أراد به الكفار لا بيان توبيخهم بعده ، أي يركبون حالاً بعد أخرى من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس : لتركبن بكسر التاء ، وهي لغة تميم .

قيل : والخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقرىء بالتاء وكسر الباء على خطاب النفس ، وطبق الشيء مطابقة لأن كل حال مطابقة للأخرى في الشدة .

ويجوز أن تكون اسم جنس ، واحدة طبقة ، وهي المرتبة من قولهم : هم على طبقات .

و ﴿ عن طبق ﴾ في موضع الصفة لقوله : ﴿ طبقاً ﴾ ، أو في موضع الحال من الضمير في ﴿ لتركبن ﴾ .

وعن مكحول ، كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه .

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ : تعجب من انتفاء إيمانهم وقد وضحت الدلائل .

﴿ لا يسجدون ﴾ : لا يتواضعون ويخضعون ، قاله قتادة .

وقال عكرمة : لا يباشرون بجباههم المصلى .

وقال محمد بن كعب : لا يصلون .

وقرأ الجمهور : ﴿ يكذبون ﴾ مشدداً ؛ والضحاك وابن أبي عبلة : مخففاً وبفتح الياء .

﴿ بما يوعون ﴾ : بما يجمعون من الكفر والتكذيب ، كأنهم يجعلونه في أوعية وعيت العلم وأوعيت المتاع ، قال نحوه ابن زيد .

وقال ابن عباس : بما تضمرون من عداوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين .

وقال مجاهد : بما يكتمون من أفعالهم .

وقرأ أبو رجاء : بما يعون ، من وعى يعي .

﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ : أي سبق لهم في علمه أنهم يؤمنون .

﴿ غير ممنون ﴾ : غير مقطوع .

وقال ابن عباس : ﴿ ممنون ﴾ : معدد عليهم ، محسوب منغص بالمن ، وتقدم الكلام على ذلك في فصلت ، والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(235/809)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

التفسير : عن علي رضي الله عنه أن السماء تنشق من المجرّة . ومعنى ﴿ أذنت لربها ﴾

استمعت له ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن " والمراد أنها لم تمتنع عن قبول ما أريد بها من الإنشقاق والانفطار فعل المأمور والمطواع الذي أصغى لحديث آمره ﴿ وحقت ﴾ بذلك لأن الممكن لا بدّ له أن يقع تحت قدرة الواجب لذاته . ومدّ الأرض تسوية جبالها وآكامها بحيث لا يبقى فيها عوج . عن ابن عباس : مدّت مدّ الأديم العكاظي لأن الأديم إذا مدّ زال ما فيه من الانثناء واستوى . وقيل : من مدّه بمعنى أمدّه أي زيد في سعتها أو بسطتها ليمكن وقوف الخلائق الأوّلين والآخرين عليها ﴿ وألقت ما فيها ﴾ أي رمت بما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿ وتخلت ﴾ أي خلت غاية الخلو كأنها تكلفت أقصى ما يمكنها من الفراغ . وقوله ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ ليس بمكرر لأن الأوّل في السماء وهذا في الأرض وحذف جواب " إذا " ليذهب الوهم كل مذهب ، أو اكتفاء بما مر في سورتي " التكوير " و " الانفطار " . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير . والمعنى ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ إذا السماء انشقت ، والأقرب أن الإنسان للجنس بدليل التفصيل بعده . وقيل : هو رجل بعينه إما محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى إنك تكدح في تبليغ رسالات الله فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل ، وأما أمية بن خلف وإنه يجتهد في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس .

والكدح جهد النفس في العمل حتى تأثرت من كدحت جلده إذا خدشته أي جاهد إلى وقت لقاء ربك وهو الموت وما بعده . وفيه أن الدنيا دار عناء وتعب ولا راحة ولا فرح فيها . والضمير في قوله ﴿ فملاقيه ﴾ للرب أي فملاق له ألبتة فهو كالتأكيد للمذكور ، ويجوز أن يكون للكدح أي لجزائه يؤيده التفصيل الذي بعده . عن عائشة أن الحساب اليسير هو أن يعرّف ذنوبه ثم يتجاوز عنه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " من يحاسب يعذب فقيل : يا رسول الله ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال : ذلكم العرض من نوقش في الحساب عذب " أقول ﴿ سوف ﴾ من الكريم إطماع فيمكن أن تكون الفائدة في إيراده أن يكون المؤمن على ثقة واطمئنان بالوعد ، ويمكن أن يكون إشارة إلى طول الامتداد بين مواقف ذلك اليوم ﴿ وينقلب إلى اهله ﴾ من الحور العين في الجنة أو إلى قرنائه من المؤمنين أو إلى عشيرته كقوله ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم ﴾ [الرعد : 23] ومعنى ﴿ وراء ظهره ﴾ أن تغل يمناه إلى عنقه ويجعل شماله وراء ظهره ويؤتى كتابه بشماله ومن وراء ظهره . وقيل : تخلع يده اليسرى من وراء ظهره . وقيل : تجعل وجوههم إلى خلف فيكون الكتاب قد أوتي من جانب ظهره ولكن بشماله كما في " الحاقة " . والوراء ههنا بمعنى مجرد الجانب ، أو معنى قدام . والثبور الهلاك ودعاؤه أن يقول : واثبوراه " . وسمي المواطأة على الشيء مثابرة على الشيء مثابرة

لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه في طلبه والنفس تمنعه عن ذلك أنه كان أي في الدنيا مسروراً في أهله كقوله ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ [المطففين : 31] وفيه أن الفرح في الدنيا يعقب الغم في الآخرة لقوله ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ [التوبة : 82] ومن كان في الدنيا حزيناً متفكراً في أمر الآخرة كان حاله في الآخرة بالعكس . والفرح المنهي عنه ما يتولد من البطر والترفه لا الذي يكون من الرضا بالقضاء ومن حصول بعض

الكمالات والفضائل النفسية لقوله ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : 58] ثم بين أن سروره إنما كان لأجل أن البعث والنشور لم يكن محققاً عنده فقال ﴿ إنه ظنّ أن لن يحور ﴾ أي أن يرجع إلى الله أو إلى خلاف حاله من السرور والتنعم . عن ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنت لها : حوري أي ارجعي . ثم نفى منطوقه بقوله ﴿ بلى ﴾ أي بلى يحور . وفي قوله ﴿ إن ربه كان بصيراً ﴾ إشارة إلى أن العلم التام بأحوال المكلفين يوجب إيصال الجزاء إليهم ، فلا بد من دار سوى دار التكليف وإلا كان قدحاً في القدرة والحكمة .

قال الكلبي : ﴿ كان به بصيراً ﴾ من يوم خلقه إلى أن بعثه . وقال عطاء : بصيراً بما سبق عليه في أم الكتاب من الشقاء ثم أكد وقوع القيامة وما يتبعها من الأهوال بقوله ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ وهو الحمرة الباقية من آثار الشمس في الأفق الغربي قاله ابن عباس والكلبي ومقاتل . وعن الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر . وعن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه البياض ، وأنه روى أنه رجع عنه لأن البياض يمتد وقته فلا يصلح للتوقيت ، ولأن التركيب يدل على الرقة ومنه الشفقة لرقة القلب . ثم إن الضوء يأخذ من عند غيبة الشمس في الرقة والضعف . وعن مجاهد أن الشفق ههنا النهار لما في النور من الرقة واللطافة كما أن في الظلمات الغلظ والكثافة ، لأن القسم بالنهار يناسب القسم بالليل في قوله ﴿ والليل وما وسق ﴾ والتركيب يدل على الاجتماع والضم ومنه الوسق لأنه جامع لستين صاعاً . واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت ، وقد وسقها الراعي أي جمعها ونظيره في وقوع " افتعل " و " استفعل " مطاوعين لفعل " اتسع " و " استوسع " . أقسم الله سبحانه بجميع ما ضمه الليل وآواه وستره من النجوم والدواب وغيرها . ويمكن أن يكون من جملته أعمال العباد الصالحين . ثم أقسم بالقمر إذا اتسق أي اجتمع نوره وتكامل كما يقال " أمور فلان متسقة " أي مجتمعة على الصلاح كما يقال

منتظمة . والطبق ما يطابق غيره ومنه قيل للغطاء " الطبق " . ثم قيل للحال المطابقة لغيرها طبق .

(239/809)

وقوله ﴿ عن طبق ﴾ حال من فاعل ﴿ لتركبن ﴾ أو صفة أي طبقاً مجاوزاً لطبق ، ف " عن " تفيد البعد والمجاوزة أي حالاً بعد حال ، كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول . وجوز أن يكون جمع طبقة أي أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدّة ، فبعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من أهوال القيامة كأنهم لما انكروا البعث أقسم الله سبحانه أن ذلك كائن وأن الناس يلقون بعد الموت شدائد متنوّعة وأحوالاً مترتبة حتى يتبين السعيد من الشقي والمحسن من المسيء . وقيل : لتركبن سنة الأولين من المكذبين المهلكين . عن مكحول : كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه . والركوب على هذه التفاسير مجاز عن الحصول على تلك الحالة . وقد يقال على قراءة فتح الباء : إنها صيغة الغائبة والضمير للسماء وأحوالها المختلفة انشقاقها ثم انفطارها ، ولعل هذا كمال الانحراف ثم صيرورتها وردة كالدهان أو كالمهل وهذا القول مناسب لأول السورة وهو

مرويّ عن ابن مسعود . وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أعباء الرسالة وأنه يجب عليه أن يتلقاه بالصبر والتحمل إلى أوان الظفر والغلبة كقوله

(240/809)

﴿ لتبلوّن في أموالكم وأنفسكم ﴾ [آل عمران : 86] وعن ابن عباس وابن مسعود أن المراد حديث الإسراء وأن النبي صلى الله عليه وسلم ركب أطباق السماء . وبين القسم والمقسم عليه مناسبة لأنه أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك والعناصر على صحة إيجاد سائر التغايير من أحوال القيامة وغيرها ، ولا شك أن القادر على بعض التغايير المعتبرة قادر على أمثالها فلا جرم قال على سبيل الاستبعاد ﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ وتأويل الآية أن النفس إذا استغرقت في بعض المجهولات التصورية والتصديقية كان المناسبة شبيهة بالشمس الغاربة ، فإذا أقبلت على تحصيل قضية من تلك القضايا المجهولة مثلاً تجلى عليها نور من النفس يترجح به عندها أحد طرفي النقيض على الآخر ، لكن ما لم تكن جازمة فذلك النور كالشفق بالنسبة إلى ضياء الشمس ، ثم إذا سبحت في لجة المعلومات لها طالبة للحد الأوسط عرضت هناك شبهة شبيهة بالليل وما وسقه ، فإذا حصل الحدّ الأوسط بالتحقيق وانتقل الذهن منه إلى النتيجة الحقة صارت المسألة كالبدر التم وهو

المستفاد ضوءه من النفس الناطقة القدسية التي يكاد زيتها يضيء ولو ولو لم تمسسه نار . و ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ هي مراتب العلوم النظرية من أوّل بدايتها وهي كونها عقلاً هيولانياً إلى نهايتها وهي كونها عقلاً مستفاداً فكأنه سبحانه اقسم بأحوال المعلومات المستخلصة على إمكان حصول العلم بها . ثم وبخهم على أنهم لا ينظرون في الدلائل حتى يورثهم الإيمان والسجود عند تلاوة القرآن . وقوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ و ﴿ لا يسجدون ﴾ في موضع الحال والعامل معنى الفعل في ﴿ فما لهم ﴾ عن ابن عباس ، عباس والحسن وعطاء والكسائي ومقاتل : المراد من السجود ههنا الصلاة . وقال أبو مسلم وغيره : أراد به الخضوع والاستكانة . والأكثرون على أنه السجود نفسه . ثم اختلفوا فعن أبي حنيفة وجوبه لأنه ذمهم على الترك . وعن الحسن وهو قول الشافعي أنه ستة كسائر سجدات التلاوة عنده . ثم بين بقوله ﴿ بل

الذين كفروا يكذبون ﴾ أن الدلائل الموجبة للإيمان وتوابعه وإن كانت جلية ظاهرة لكن الكفار يكذبون بها تقليداً للأسلاف أو عناداً . ثم أجمل وعيدهم بقوله ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ أي يجمعون ويضمرون في صدورهم من الشرك والعناد وسائر العقائد الفاسدة

والنيات الخبيثة فهو يجازيهم على ذلك . وقيل : بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء . ثم صرح بالوعيد قائلاً ﴿ فبشرهم ﴾ وقوله ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ استثناء منقطع عند الزمخشري ولا بأس بكونه متصلاً كأنه قال : إلا من آمن منهم فله أجر غير مقطوع أو هز من المنة ، بني الكلام ههنا على الاستئناف فلم يحتج إلى الفاء ، وعلى التعقيب في التين فأورد الفاء والاستئناف أجمع مقدّمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 469 . 472 ﴾

(242/809)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الانشقاق

مكية وهي ثلاث أو خمس وعشرون آية ومائة وسبع كلمات وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي شقق الأرض بالنبات ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ جوده أهل الأرض والسموات ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل طاعته بالجنات .

وقوله تعالى : ﴿ إذا السماء ﴾ أي : على ما لها من الأحكام والعظمة ﴿ انشقت ﴾

كقوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ (التكوير :)

في إضمار الفعل وعدمه ، وفي إذا هذه احتمالان : أحدهما : أن تكون شرطية ، والثاني : أن تكون غير شرطية . فعلى الأوّل في جوابها أوجه : أحدها : أنه محذوف ليذهب المقدر كل مذهب ، أو اكتفاء بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار ، وهو قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ﴾ (الإنفطار : ، وسورة التكوير :)

والثاني : جوابها ما دل عليه ﴿ فملاقيه ﴾ الثالث : أنه ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ على حذف الفاء وعلى كونها غير شرطية فهي مبتدأ ، وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة ، تقديره : وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض ، أي : يقع الأمران في وقت . قاله الأخفش . وقيل : إنه منصوب مفعولاً به بإضمار اذكر انشقاقها بالغمام ، وهو من علامات القيامة كقوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ (الفرقان :)

وعن عليّ تنشق من المجرّة . قال ابن الأثير : المجرّة هي البياض المعترض في السماء والسراب من جانبها .

﴿ وأذنت ﴾ أي : سمعت وأطاعت في الانشقاق ﴿ لربها ﴾ أي : لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي ورد عليه الأمر من جهة المطاع ، فأنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع ، كقوله : ﴿ أتينا طائعين ﴾ (فصلت :)

﴿ وحقت ﴾ أي : حق لها أن تسمع وتطيع بأن تنقاد ولا تمتنع . يقال : حق بكذا فهو

محقوق وحقيق .

﴿ وإذا الأرض ﴾ أي : على ما لها من الصلابة ﴿ مدّت ﴾ أي : زيد في سعتها كمدّ الأديم ولم يبق عليها بناء ولا جبل ، كما قال تعالى : ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمّتا ﴾ (طه : ـ)

(243/809)

وعن ابن عباس مدّت مدّ الأديم العكاظيّ لأنّ الأديم إذا مدّ زال كل انثناء فيه وأمت واستوى .

﴿ وألقت ﴾ أي : أخرجت ﴿ ما فيها ﴾ من الكنوز والموتى كقوله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (الزلزلة :)

. ﴿ وتخلت ﴾ أي : خلت منها حتى لم يبق في بطنها شيء ، وذلك يؤذن بعظم الأمر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدّة ، ووصفت الأرض بذلك توسعاً وإلا فالتحقيق أنّ الله تعالى هو المخرج لتلك الأشياء من الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ تقدّم تفسيره ، وهذا ليس بتكرار لأنّ الأول في السماء وهذا في الأرض ، وتقدّم جواب إذا . ومن جملة ما قيل فيه : وما عطف عليه أنه

محذوف دل عليه ما بعده ، تقديره : لقي الإنسان عمله وذلك كله يوم القيامة . واختلف في الإنسان في قوله تعالى:

﴿ يا أيها الإنسان ﴾ أي : الآنس بنفسه الناسي لأمر ربه ﴿ إنك كادح ﴾ فقيل : المراد جنس الإنسان كقولك : يا أيها الرجل ، فكأنه خطاب خص به أحد من الناس . قال القفال : وهو أبلغ من العموم ؛ لأنه قائم مقام التنصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التعيين بخلاف اللفظ العامّ . وقيل : المراد منه رجل بعينه ، فقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى : إنك كادح في إبلاغ رسالات الله تعالى وإرشاد عباده وتحمل الضرر من الكفار ، فأبشر فإنك تلقى الله تعالى بهذا العمل . وقال ابن عباس : هو أبيّ بن خلف وكدحه هو جدّه واجتهاده في طلب الدنيا ، وإيذاء النبيّ صلى الله عليه وسلم والإصرار على الكفر . والكدح : جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه .

(244/809)

ومعنى كادح ﴿ إلى ربك ﴾ أي : جاهد إلى لقائه وهو الموت ، أي : هذا الكدح يستمرّ إلى هذا الزمن وقال القفال : تقديره إنك كادح في دنياك . ﴿ كدحاً ﴾ تصير إلى ربك . وقوله تعالى : ﴿ فملاقيه ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على كادح ، والسبب فيه ظاهر ، وأن يكون

خبر مبتدأ مضمر أي : فأنت ملاقيه ، وقيل : جواب إذا ، والضمير في ملاقيه إمّا للرب أي : ملاقي حكمه لا مفر لك منه ، وإمّا للكدح إلا أنّ الكدح عمل وهو عرض لا يبقى ، فملاقاته ممتنعة ، فالمراد جزاء كدحك من خير أو شرّ . وقال الرازي : المراد ملاقاة الكتاب الذي فيه بيان تلك الأعمال ، ويؤكد هذا قوله تعالى بعده:

﴿ فأمّا من أوتي كتابه ﴾ أي : كتاب عمله الذي كتبته الملائكة . ﴿ بيمينه ﴾ أي : من أمامه وهو المؤمن المطيع .

﴿ فسوف يحاسب ﴾ أي : يقع حسابه بوعد لا خلف فيه ، وإن طال الأمد لإظهار الجبروت والكبرياء والقهر . ﴿ حساباً يسيراً ﴾ هو عرض عمله عليه كما فسر في حديث الصحيحين وفيه : "من نوقش الحساب هلك" وفي رواية : "من حوسب عذب" . وقالت عائشة : "أليس يقول الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ فقال : إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب عذب" وإنما حوسب حساباً سهلاً لأنه كان يحاسب نفسه فلا تقع له المخالفة إلا ذهولاً ، فلأجل ذلك تعرض أعماله فيقبل حسنها ويعفى عن سيئها .

﴿ وينقلب ﴾ أي : يرجع بنفسه من غير مزعج برغبة وقبول ﴿ إلى أهله ﴾ أي : الذين أهله بهم في الجنة من الحور العين والآدميات والذريات إذا كانوا مؤمنين ﴿ مسروراً ﴾ أي : قد أوتي جنة وحريراً ، فإنه كان في الدنيا في أهله مشفقاً من العرض على الله يحاسب

نفسه حساباً عسيراً مع ما هو فيه من نكد الأهل وضيق العيش .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾

(245/809)

﴿ وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ وهو الكافر تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه .

﴿ فسوف يدعو ﴾ أي : بوعد لا خلف في وقوعه ﴿ ثبوراً ﴾ يقول : يا ثبوراه ، والثبور : الهلاك ، كقوله تعالى : ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ (الفرقان :)

﴿ ويصلى سعيراً ﴾ أي : يدخل النار الشديدة . وقرأ أبو عمرو وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام ، والباقون بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ، وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، وإذا فتح ورش غلظ اللام ، وإذا أمال رقق والباقون بالفتح .

﴿ إنه كان ﴾ أي : بما هو له كالجبلة ﴿ في أهله ﴾ أي : عشيرته في الدنيا ﴿ مسروراً ﴾ قال القفال : أي : منعماً مستريحاً من التعب بأداء العبادات واحتمال مشقة الفرائض من

الصلاة والجهاد مقدماً على المعاصي آمناً من الحساب والثواب والعقاب لا يخاف الله تعالى ، ولا يرجوه فأبدله الله تعالى بذلك السرور غماً باقياً لا ينقطع .

وقيل : إنّ قوله تعالى : ﴿ إنه كان في أهله مسروراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ﴾ (المطففين :)

أي : متنعمين في الدنيا معجبين بما هم عليه من الكفر بالله تعالى والتكذيب بالبعث ، ويضحكون ممن آمن بالله تعالى ، وصدّق بالحساب كما قال صلى الله عليه وسلم "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" . ﴿ إنه ظنّ ﴾ أي : لضعف نظره ﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي : أنه ﴿ لن يحور ﴾ أي : لن يرجع إلى الله تعالى تكذيباً بالمعاد . يقال : لا يحور ولا يحول ، أي : لا يرجع ولا يتغير . قال لبيد :

*وما المرء إلا كالشهاب وضوئه

**يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وعن ابن عباس : ما كنت أدري ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حوري ، أي : ارجعي .

وقوله تعالى : ﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد النفي في لن يحور ، أي : بلى ليحورنّ . ﴿ إنّ ربه ﴾ أي : الذي ابتدأ إنشاؤه ورباه ﴿ كان ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ به بصيراً ﴾ أي : من يوم خلقه إلى يوم بعثه ، أو بأعماله لا ينساها . وقال عطاء : بصيراً بما سبق عليه في أمّ الكتاب من الشقاوة .

واختلفوا في الشفق في قوله تعالى:

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ فقال مجاهد : هو النهار كله . وقال عكرمة : ما بقي من النهار . وقال ابن عباس وأكثر المفسرين : هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس . وقال قوم : هو البياض الذي يعقب تلك الحمرة .

تنبيه : سمي بذلك لرقته ، ومنه الشفقة على الإنسان رقة القلب عليه واللام في لا أقسم مزيدة للتأكيد .

﴿ والليل ﴾ أي : الذي يغلبه ويذهبه ﴿ وما وسق ﴾ أي : ما جمع وضم يقال وسقه فاتسق واستوسق قال الشاعر :

مستوسقات لو يجدن سائقاً

ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع ، ومعناه : وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها .

﴿ والقمر ﴾ أي : الذي هو آيته ﴿ إذا اتسق ﴾ أي : إذا اجتمع واستوى ليلة أربع

عشرة . وقال قتادة : استدار وهو افتعل من الوسق .

تنبيه : قد اختلف العلماء في القسم بهذه الأشياء هل هو قسم بها أو بخالقها ؟ فذهب المتكلمون . إلى أنّ القسم واقع بربها وإن كان محذوفاً ؛ لأنّ ذلك معلوم من حيث ورود الحظر بأن يقسم بغير الله تعالى أو بصفة من صفاته ، وقد مرّ أنّ ذلك يكره في حق الإنسان ، فإنّ الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وجواب القسم .

(247/809)

﴿ لتركبنّ ﴾ أي : أيها الناس ، أصله تركبون حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال والواو لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح الباء الموحدة على خطاب الإنسان ، والباقون بضمها على خطاب الجمع ، وهو معنى الإنسان إذ المراد به الجنس أي : لتركبنّ أيها الإنسان ﴿ طبقاً ﴾ مجاوزاً ﴿ عن طبق ﴾ أي : حالاً بعد حال . قال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ . وعن ابن عباس : الموت ثم البعث ثم العرض . وعن عطاء : مرّة فقيراً ومرّة غنياً . وقال أبو عبيدة : لتركبن سنن من كان قبلكم وأحوالهم لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال :

فمن ؟" .

وقوله تعالى : ﴿ فما لهم ﴾ أي : الكفار ﴿ لا يؤمنون ﴾ استفهام إنكار ، أي : أيّ مانع لهم من الإيمان ، أو أي حجة في تركه بعد وجود براهينه .

﴿ و ﴾ ما لهم ﴿ إذا قرئ ﴾ أي : من أي : قارئ قراءة مشروعة ﴿ عليهم القرآن ﴾ أي : الجامع لكل ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم الفارق بين كل ملتبس ﴿ لا يسجدون ﴾ أي : لا يخضعون بأن يؤمنوا به لإعجازه ، أو لا يصلون ، قاله مقاتل ، أو لا يسجدون لتلاوته لما روى أنه صلى الله عليه وسلم "قرأ ﴿ واسجد واقترب ﴾ (العلق :)

(248/809)

فسجد ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق رؤوسهم فنزلت" . وعن أبي هريرة قال : "سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ " . وعن نافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . وليس في ذلك دلالة على وجوبها فهي مندوبة . وعن الحسن : هي واجبة . واحتج أبو حنيفة على وجوب السجود بأنه تعالى ذمّ من سمعه ولم يسجد .

وعن ابن عباس : ليس في المفصل سجدة ، وما روى أبو هريرة يخالفه . وعن أنس : صليت خلف أبي بكر وعمر وعثمان فسجدوا .

﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي : بالقرآن والبعث .

﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ أي : بما يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغي والبغضاء ، أو بما يجمعون في صحفهم من الكفر والتكذيب وأعمال السوء ، ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي : مؤلم استهزاء بهم ، أو أنّ البشارة بمعنى الإخبار ، أي : أخبرهم .

وقوله تعالى : ﴿ إلا ﴾ استثناء منقطع ، أي : لكن ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ تحقيقاً لإيمانهم ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ أي : غير مقطوع ولا منقوص ولا ممنون به عليهم .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أعاذه الله تعالى أن يعطيه كتابه وراء ظهره" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 292 . 297 ﴾

وقال القاسمي :

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ ﴾

أي : انصدعت وتقطعت كما تقدم في قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار : 1] , ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : سمعت له في تصدعها وتشققها ، وهو مجاز عن الانقياد والطاعة . والمعنى أنها انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها ، انقياد المطوع الذي يستمع للآمر ويذعن له . قال ابن جرير : العرب تقول : أذن لك في هذا أذناً ، بمعنى استمع لك . ومنه الخبر الذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : < ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيٍّ يتغنى بالقرآن > . يعني ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبيّ يتغنى بالقرآن .

ومنه قول الشاعر :

~صُمٌّ إذَا سَمِعُوا خَيْراً ذكرتُ به وإن ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عندهم أَذِنُوا

ومعنى قوله تعالى :

﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أي : حق لها ووجب أن تنقاد لأمر القادر ولا تمتنع ، وهي حقيقة بالانقياد لأنها مخلوقة له في قبضة تصرفهُ . قال المعرب : الأصل حق الله طاعتها ، ولما كان الإسناد في الآية إلى السماء نفسها ، والتقدير : وحقت هي ، كان أصل الكلام على تقدير مضاف

في الضمير المستكنّ في الفعل ، أي : وحق سماعها وطاعتها ، فحذف المضاف ، ثم أسند الفعل إلى ضميره ، ثم استتر فيه

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي : بسطت وجعلت مستوية ، وذلك بنسف جبالها وآكامها كما قال :

﴿ قَاعاً صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً ﴾ [طه : 106 - 107] ، ولذا قال ابن عباس : مدت مدَّ الأديم العكاظيّ ؛ لأن الأديم إذا مدّ زال كل انثناء فيه واستوى .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ أي : ما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ أي : وخلت غاية الخلوّ ، حتى لم يبق شيء في باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلوّ

(250/809)

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : انقادت له في التخلية ، وحق لها ذلك ؛ وإعادة الآية للتنبيه على أن ذلك تحت سلطان الجلال الإلهي وقهره ومشيئته . وجواب ﴿ إِذَا ﴾ محذوف للتهويل بالإبهام ، أي : كان ما كان مما لا يفي به البيانُ ، أو لاقى الْإِنْسَانُ كدحه ، كما قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾

قال ابن جرير : أي : إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به ، خيراً كان أو شراً . المعنى : فليكن عملك مما ينجيك من سخطه ، ويوجب لك رضاهُ ، ولا يكن مما يسخطه عليك فتهلك . وقال القاشانيّ : أي : إنك ساعٍ مجتهد في الذهاب إليه بالموت ، أي : تسير مع أنفاسك سريعاً ، كما قيل : أنفاسك خطاك إلى أجَلِك ، أو مجتهد مجدٌّ في العمل : خيراً أو شراً ، ذاهب إلى ربك فملاقيه ضرورة . قال : والضمير إما للرب وإما للكدح . وأصل الكدح جهد النفس في العمل والكد فيه ، حتى يؤثر فيها ، من : كدَح جلده ، إذا خدشه ، فاستعير للجد في العمل وللتعب ، بجامع التأثير في ظاهر البشرة .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وهم من آمن وعمل صالحاً واتصف بما وصف به الأبرار ، في غير ما آية .

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ قال ابن جرير : بأن ينظر في أعماله فيغفر له سيئها ويجازى على حسنها . وقال القاشاني : بأن تمحى سيئاته ويعفى عنه ويثاب بحسناته دفعة واحدة ، لبقاء فطرته على صفائها ونوريتها الأصلية .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي : زوجته وأقاربه ، أو قومه من يجانسهُ ويقارنهُ من أصحاب اليمين ﴿ مَسْرُوراً ﴾ أي : بنجاته من العذاب ، أو بصحبتهم ومرافقتهم ، وبما أوتي من حظوظه .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أي : أعطي كتاب عمله بشماله من وراء ظهره ، وهو على هيئة المغضوب عليه ، أمام الملك المنصرف به عن ذاك المقام إلى دار الهوان ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [النحل : 60] ,

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴾ أي : ينادى بالهلاك وهو أن يقول : واثبوراه ! واويلاه ! وهو من قولهم دعا فلان لهفهُ ، إذا قال : والهفاهُ . ﴿ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ أي : يدخل ناراً يحترق بها .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ أي : منعماً مستريحاً من التفكر في الحق والدعاء إليه والصبر عليه لا يهمه إلا أجوفاه ، بطراً بالنعم ، ناسياً لمولاه ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي : لن يرجع إلى ربه ، أو إلى الحياة بالبعث لاعتقاده أنه يحيي ويموت ولا يهلكه إلا الدهر ؛ فلم يك يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً ولا يبالي ما ركب من المآثم ، على خلاف ما قيل المؤمنين ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور : 26] ، ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 20] , ﴿ بَلَى ﴾ أي : ليحورن وليرجعن إلى ربه حياً كما كان قبل مماته ﴿ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ أي : بما أسلف في أيامه الخالية فيجازيه عليه .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ وهي الحمرة في الأفق من ناحية مغرب الشمس ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي : جُمع وضمَّ مما سكن وهدأ فيه من ذي روح كان يطير أو يدب نهاراً ، كذا قال ابن جرير والأظهر أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها ، لاشتمال الليل عليها ، فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38 - 39] ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ أي : اجتمع وتمَّ نوره وصار كاملاً . ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ أي : حالاً بعد حال ، والمعني بالحال الأولى البعث للجزاء على الأعمال ، وبالثانية الحياة الأولى . وفيه تنبيه على مطابقة كل واحدة لأختها ؛ فإن الحياة الثانية تماثل الأولى وتطابقها من حيث الحس والإدراك والألم واللذة ، وإن خفي اكتناهها . وجوز أن يكون ﴿ طَبَقاً ﴾ جمع طبقة وهي المرتبة ، أي : لتركبن مراتب شديدة مجاوزة عن مراتب وطبقات ، وأطواراً مرتبة بالموت وما بعده من موطن البعث والنشور .

قال الشهاب : الطبق معناهُ ما طابق غيرهُ مطلقاً في الأصل ، ثم إنهُ خص بما ذكر ، وهو الحال المطابقة أو مراتب الشدة المتعاقبة .

و﴿ عَنِ ﴾ للمجاوزة أو بمعنى : بعد . والبعدية والمجاوزة متقاربان لكنه ظاهر في الثاني

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بهذا الحديث ، وقد أقام لهم الحجة على التوحيد والبعث .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أي : لا يَخضعون ولا يستكينون ولا ينقادون .

قال في " الإكليل " : وقد استدل به على مشروعية سجدة التلاوة .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [22 - 25]

(253/809)

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ أي : بآيات الله وتنزيله المبين لما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها ، مع تحقيق موجبات تصديقه ، والإضراب عن محذوف تقديره - كما قال الإمام - لا تظن أن قرع القرآن لم يكسر أغلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم ، بلى قد بلغ وأقنع فيما بلغ ، ولكن العناد هو الذي يمنعهم عن الإيمان ويصدهم عن الإذعان ، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل ، وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن هدايته ،

فالإضراب يرمي إلى محذوف من القول يدل عليه السابق واللاحق .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي : بما يسرون في صدورهم من حقية التنزيل ، وإن أخفوه عناداً . أو بما يضمرون من البغي والمكر ، فسيجزيهم عليه . ولذا قال :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي : جزاء على تكذيبهم وإعراضهم وبغيهم .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء منقطع أو متصل ، على أن المراد بمن آمن من أسلم منهم فآمنوا باعتبار ما مضى أو بمعنى : يؤمنون ، وكونه منقطعاً أظهر لمجيء ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ بغير فاء . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 361.365 ﴾

(254/809)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الانشقاق

الدرس الأول: 1 – 5 بعض مشاهد الكون في الآخرة

إنها سورة هادئة الإيقاع , جليلة الإيحاء , يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها سورة التكوير في جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم , خطوة خطوة . في راحة ويسر , وفي إيحاء هادئ عميق . والخطاب فيها : (يا أيها الإنسان) فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية

شتى , متعاقبة تعاقبا مقصودا . . فمن مشهد الاستسلام الكوني . إلى لمسة لقلب "الإنسان" . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشري أخرى . إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون . .

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر . . وهو ما لا يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير . . ولكنه القرآن ميسر للذكر ; يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العليم الخبير !

(إذا السماء انشقت , وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت , وألقت ما فيها وتخلت , وأذنت لربها وحقت) . .

وانشقاق السماء سبق الحديث عنه في سور سابقة . أما الجديد هنا فهو استسلام السماء لربها ; ووقوع الحق عليها , وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها :

(وأذنت لربها وحقت) . .

فإذن السماء لربها :استسلامها وطاعتها لأمره في الانشقاق ,(وحقت) . . أي وقع عليها الحق . واعترفت بأنها محقوقة لربها . وهو مظهر من مظاهر الخضوع , لأن هذا حق عليها مسلم به منها .

والجديد هنا كذلك هو مد الأرض:(وإذا الأرض مدت) . . وقد يعني هذا مط رقعتها وشكلها ,مما ينشأ عن انقلاب النواميس التي كانت تحكمها , وتحفظها في هذا الشكل الذي انتهت إليه – والمقول إنه كرويأو بيضاوي – والتعبير يجعل وقوع هذا الأمر لها آتيا من فعل خارج عنها ,مما يفيده بناء الفعل للمجهول:(مدت) .

(وألقت ما فيها وتخلت) . . وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقي ما فيها وتتخلى عنه . وما فيها كثير . منه تلك الخلائق التي لا تحصى , والتي طوتها الأرض في أجيالها التي لا يعلم إلا الله مداها . ومنه سائر ما يختبئ في جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لا يعلمها إلا بارئها . وقد حملت حملها هذا أجيالا بعد أجيال , وقرونا بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم:ألقت ما فيها وتخلت . .

(وأذنت لربها وحقت) . . هي الأخرى كما أذنت السماء لربها وحقت . واستجابت لأمره مستسلمة مذعنة , معترفة أن هذا حق عليها , وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها .

.

وتبدو السماء والأرض – بهذه الآيات المصورة – ذواتي روح . وخليقتين من الأحياء .

تستمعان للأمر , وتلبيان للفور , وتطيعان طاعة المعترف بالحق , المستسلم لمقتضاه , استسلاما لا التواء فيه ولا إكراه .

ومع أن المشهد من مشاهد الانقلاب الكوني في ذلك اليوم . فإن صورته هنا يظللها الخشوع والجلال والوقار والهدوء العميق الظلال . والذي يتبقى في الحس منه هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع في غير ما جلبة ولا معارضة ولا كلام !

الدرس الثاني: 6 – 15 كدح الإنسان وملاقاته له من يأخذ كتابه بيمينه ومن يأخذه وراء ظهره

وفي هذا الجو الخاشع الطائع يجيء النداء العلوي للإنسان , وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلما لربه هذا الاستسلام:

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) . .

(256/809)

(يا أيها الإنسان) . . الذي خلقه ربه بإحسان ; والذي ميزه بهذه "الإنسانية" التي تفرده في هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه , وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه , وأودعه القدرة على الإتصال به , وتلقي قبس من نوره

, والفرح باستقبال فيوضاته , والتطهر بها أو الارتفاع إلى غير حد , حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه , وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) . . يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا , تحمل عبئك , وتجهد جهدك , وتشق طريقك . . لتصل في النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه المآب . بعد الكد والكدح والجهاد . .

يا أيها الإنسان . . إنك كادح حتى في متاعك . . فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن جهد بدن وكد عمل , فهو جهد تفكير وكد مشاعر . الواجد والمحروم سواء . إنما يختلف نوع الكدح ولون العناء , وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان . . ثم في النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء .

يا أيها الإنسان . . إنك لا تجد الراحة في الأرض أبدا . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام . . والتعب واحد في الأرض والكدح واحد – وإن اختلف لونه وطعمه – أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك . . فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض . وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد . .

يا أيها الإنسان . . الذي امتاز بخصائص "الإنسان" . . ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك به الله , اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولأن هذه اللمسة الكامنة في هذا النداء , فإنه يصل بها مصائر الكادحين عندما يصلون

إلى نهاية الطريق ,

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (11)

ويلقون ربهم بعد الكدح والعناء :

(257/809)

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا , ويصلى سعيرا . إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا) . .

والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد , الذي آمن وأحسن , فرضي الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حسابا يسيرا . فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب . والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفيها غناء . .

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من نوقش الحساب عذب " قالت: قلت: أفليس قال الله تعالى: (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) . قال: " ليس ذلك بالحساب , ولكن ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب " . .

وعنها كذلك قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول في بعض صلاته: "

اللهم حاسبني حسابا يسيرا " . . فلما انصرف قلت: يا رسول الله, ما الحساب اليسير ؟ قال: " أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك " . .

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه . . ثم ينجو (وينقلب إلى أهله مسرورا) . . من الناجين الذين سبقوه إلى الجنة . . وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنة . كل ومن أحب من أهله وصحبه . ويصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللا فرحا مسرورا بالنجاة واللقاء في الجنان !

وهو وضع يقابل وضع المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيء , الذي يؤتى كتابه وهو كاره: (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا) . .

والذي ألفناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال . فهذه صورة جديدة: صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر . وليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره . فهي هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة !

ونحن لا ندري حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر . إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول ; وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني . وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما . وما وراء ذلك من الأشكال إنما يحيي المشهد ويعمق أثره في الحس , والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون !

فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحا , وقطع طريقه إلى ربه كدحا – ولكن في المعصية والإثم والضلال – يعرف نهايته , ويواجه مصيره , ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثبورا , وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به , يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . وهذا هو المعنى الذي أراده المتنبي وهو يقول: كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وَيَصْلَى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً (15) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18)

فإنما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذي ليس بعده شقاء ! .

.(ويصلى سعيرا) . . وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه . . وهيهات هيهات !

وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعا إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى

هذا الشقاء . .

(إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور) . .

وذلك كان في الدنيا . . نعم كان . . فنحن الآن – مع هذا القرآن – في يوم الحساب والجزاء وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيدا في الزمان والمكان !

(259/809)

(إنه كان في أهله مسرورا) . . غافلا عما وراء اللحظة الحاضرة ; لاهيا عما ينتظره في الدار الآخرة , لا يحسب لها حسابا ولا يقدم لها زادا . . (إنه ظن أن لن يحور) إلى ربه , ولن يرجع إلى بارئه , ولو ظن الرجعة في نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئا للحساب !

(بلى إن ربه كان به بصيرا) . .

إنه ظن أن لن يحور . ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعا على أمره , محيطا بحقيقته , عالما بحركاته وخطواته , عارفا أنه صائر إليه , وأنه مجازيه بما كان منه . . وكذلك كان , حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور في علم الله . والذي لم يكن بد أن يكون !

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح – في

صورة من صور الكدح – تقابلها صورة ذلك السعيد , وهو ينقلب إلى أهله مسرورا في حياة الآخرة المديدة , الطليقة , الجميلة , السعيدة , الهنيئة , الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء . .

الدرس الثالث: 16 – 19 القسم بمشاهد الكون على تغيير أحوال الناس

ومن هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة , يعود السياق بهم إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيشون فيه حياتهم , وهم غافلون عما تشي به هذه اللمحات من التدبير والتقدير , الذي يشملهم كذلك , ويقدر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال:

(فلا أقسم بالشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق . . لتركبن طبقا عن طبق) . .

وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها , لتوجيه القلب البشري إليها , وتلقي إيحاءاتها وإيقاعاتها . . لمحات ذات طابع خاص . طابع يجمع بين الخشوع الساكن , والجلال المرهوب . وهي تتفق في ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

(260/809)

فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب . . وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة . ويحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجى عميق .

كما يحس برهبة الليل القادم , ووحشة الظلام الزاحف . ويلفه في النهاية خشوع وخوف خفي وسكون !

(والليل وما وسق) . . هو الليل وما جمع وما حمل . . بهذا التعميم , وبهذا التجهيل , وبهذا التهويل . والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير . . ويذهب التأمل بعيدا , وهو يتقصى ما يجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر , وعوالم خافية ومضمرة , سارية في الأرض وغائرة في الضمير . . ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة , ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآني القصير: (والليل وما وسق) . . إنما يغمره من النص العميق العجيب , رهبة ووجل , وخشوع وسكون تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون !

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24)

(والقمر إذا اتسق) . . مشهد كذلك هادئ رائع ساحر . . وهو القمر في ليالي اكتماله . . وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحي بالصمت الجليل , والسياحة المديدة , في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور . . وهو جو له صلة خفية بجو الشفق , والليل وما وسق . يلتقي معهما في الجلال والخشوع السكون . .

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة , ويخاطب بها القلب البشري , الذي يغفل عن خطابها الكوني . ويلوح بالقسم بها ليبرزها للمشاعر والضمائر , في حيويتها , وجمالها وإيحائها وإيقاعها , ودلالتها على اليد التي تمسك بأقدار هذا الكون , وترسم خطواته , وتبدل أحواله . . وأحوال الناس أيضا وهم غافلون:

(261/809)

(لتركبن طبقا عن طبق) . . أي لتعانون حالا بعد حال , وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال . ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها . والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي , كقولهم: "إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه" . . وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة . وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق , فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة , مقدرة كذلك مرسومة , كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق , والليل وما وسق , والقمر إذا اتسق . حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم , الذي تحدثت عنه الفقرة السالفة . . وهذا التتابع المتناسق في

فقرات السورة , والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى , ومن جولة إلى جولة , هو سمة من سمات هذا القرآن البديع . .

الدرس الرابع: 20 – 25 لوم وعذاب الكفار لعدم إيمانهم وثواب المؤمنين الصالحين

وفي ظل هذه اللمحات الأخيرة , والمشاهد والجولات السابقة لها في السورة , يجيء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون . وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله في أنفسهم وفي الوجود :

فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ? . .

أجل ! فما لهم لا يؤمنون ?

إن موحيات الإيمان في لمحات الوجود , وفي أحوال النفوس , تواجه القلب البشري حيثما توجه ; وتتكاثر عليه أينما كان . وهي من الكثرة والعمق والقوة والثقل في ميزان الحقيقة بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها . بينما هي تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها !

(فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ?) وهو يخاطبهم بلغة الفطرة , ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله في الأنفس والآفاق . ويستجيش في هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود . . وهو "السجود" .

.

إن هذا الكون جميل . وموح . وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش في القلب البشري أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل . وموح . وفيه من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشري بالوجود الجميل , وبارئ الوجود الجليل . ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بحقيقة خالقه العظيم . . (فما لهم لا يؤمنون ? وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ?) . .

إنه لأمر عجيب حقا . يضرب عنه السياق ليأخذ في بيان حقيقة حال الكفار , وما ينتظرهم من مآل:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

(بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم) . .

بل الذين كفروا يكذبون . يكذبون إطلاقا . فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل . والله أعلم بما يكنون في صدورهم , ويضمون عليه جوانحهم , من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب . .

ويترك الحديث عنهم , ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم: (فبشرهم بعذاب أليم) . . ويا

لها من بشرى لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

وفي الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذبون , فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون . ويجيء هذا العرض في السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين:

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون) . .

وهو الذي يقال عنه في اللغة إنه استثناء منقطع . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء في تلك البشارة السوداء ثم استثنوا منها ! ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى !

والأجر غير الممنون . . هو الأجر الدائم غير المقطوع . . في دار البقاء والخلود . .

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير , تنتهي السورة القصيرة العبارة , البعيدة الآماد في مجالات الكون والضمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3865 . 3870 ﴾

(263/809)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) ﴾

تقدم الكلام عليه في أول سورة الانفطار ، عند قوله تعالى : ﴿ إِذَا السماء انفطرت ﴾ [

الانفطار : 1] ، والإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورتي الشورى وقَ .

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2)

تقدم بيان مادة أذن في سورة الجمعة ، عند الكلام على الأذان ، وأذنت هنا بمعنى استمعت وأطاعت ، وحقت أي حق لها أو هي محقوقة بذلك ، أي لا يوجد ممانع لهذا الأمر .

وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازي في أذنت ، أي لما لم يكن ممانعة من تشققها ، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع .

وقد قدمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالة لا كهي بالنسبة للمخلوقين ، في مبحث أول الحشر في معنى التسبيح من الجمادات .

وقد جاء صريحاً في السماء والأرض من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3)

أي سويت وأزيلت جبالها ، وسويت وهادها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال

فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ [طه : 105-107] .

ومن هذا الحديث عن ابن عباس وعن عبي . وساق هذا الثاني ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى علي بن الحسين أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى " الحديث . وعن ابن عباس " تمد كما يمد الأديم العكاظي " .

(264/809)

وعند القرطبي عن ابن عباس " يزاد فيها كذا وكذا " .

وقال الرازي : هو بمعنى تبدل الأرض غير الأرض ، والواقع أن استبدال الأرض غير الأرض ليس على معنى الذهاب بهذه الموجودة والإتيان بأرض جديدة ، لما جاء في حديث الأذان : " ما من حجر ولا مدر ولا شجر ، يسمع صوت المؤذن إلا سيشهد له يوم القيامة " والذي يؤتى له من جديد ، لا يتأَّتى له أن يشهد على شيء لم يشهده ، وعلى كل فإن تسيير الجبال وتسوية الأرض لا شك أنه يوجد زيادة في وجه الأرض ومساحتها ، فسواء مدت بكذا وكذا . كما قال ابن عباس ، أو مدت بتوسعة أديمها وزيد في بسطها ، بعد أن تلقى ما في

جوفها كالشيء السميك إذا ما ضغط ، فخفت سماكته وزادت مساحته ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ [الفجر : 21] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 13-16] .

فيكون مد الأرض بسبب دكها ، فيزاد في بسطها ، ولعل هذا الوجه هو ما يشهد له القرآن لجمع الأمرين هنا وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ، فهو وفق ما في هذه السورة ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] وبعدها ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق : 3] والله أعلم .

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4)

قيل : ألقت كنوزها وتخلت عنها ، ورد هذا بأن ذلك قد يكون قبل الساعة .

وقيل : ألقت الموتى وتخلت عنهم بعد قيامهم وبعثهم من قبورهم فلم يبق في جوف الأرض أحد .

وقوله تعالى : وتخلت : أي بعد أن كانت لهم كفاتاً أحياءً وأمواتاً ، وبعد أن كانت لهم مهاداً ، لفظتهم وتخلت عنهم ، وهذا ما يزيد في رهبة الموقف وشدته والتضييق على العباد ، والا ملجأ لهم ولا منجى إلا إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر ﴾ [القيامة : 11-12] .

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5)

أي كما أذنت السماء ، فالكون كله إذن مطيع منقاد لأوامر الله ، طوعاً أو كرهاً .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)

قيل : الإنسان للجنس وقيل لفرد ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن السياق يدل للأول للتقسيم الآتي ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، وأما من أوتي كتابه بشماله ، لأنه لا يكون لفرد ، وإنما للجنس وعلى أنه للجنس فالكدح العمل جهد النفس .

وقال ابن مقبل :

وما الدَّهر إلا تارتان فمنهما . . . أموت وأخرى أبتغي العَيش أكدح

وقال غيره مشيراً إلى أن الكدح فيه معنى النصب :

ومضت بشاشة كُل عيش صالح . . . وبقيت أكدح للحياة وأُنصب

ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : 4] ، كما قدمنا في محله .

تنبيه

من هذا العرض القرآني الكريم من مقدمة تغيير أوضاع الكون سماء وأرضاً ، ووضع الإنسان في يكدح إلى ربه كدحاً فملاقيه ، أي بعمله الذي يحصل عليه من خلال كدحه ، فإن العاقل المتبصر لا يجعل كدحه إلاّ فيما يرضي الله ويرضي هو به ، إذا لقي ربه ما دام أنه كادح ، لا محالة كما هو مشاهد .

تنبيه آخر

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ﴾ عام في الشمول لكل إنسان مهما كان حاله من مؤمن وكافر ، ومن بر وفاجر ، والكل يكدح ويعمل جاهد التحصيل ما هو مقبل عليى ، كما في الحديث : " اعملوا كل ميسر لما خلق له " أي ومجد فيه وراض به ، وهذا منتهى حكمة العليم الخبير .

(266/809)

ومما هو جدير بالتنبيه عليه ، هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جومها ، والأرض مع مساحة أصلها أذنت لربها وحقت ، مع أنها لم تتحمل أمانة ، ولن تسأل عن واجب فكيف بالأنسان على ضعفه ، ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء ﴾ [النازعات : 27] ، وقد تحمل

أمانة التكليف فأشفقن منها وحملها الإنسان ، فكان أحق بالسمع والطاعة في كدحه ، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7)

في هذا التفصيل بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه ، وما سجل عليه في كتاب أعماله ، وذلك بعد أن تقدم في الانفطار قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 10-14] .

وجاء في المطففين ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ ﴾ [المطففين : 7] ثم بعده ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين : 18] .

جاء هنا بيان إتيانه هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض ، في بيان مآل العلم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله .

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر ، عند كل من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : 71] في سورة الإسراء - إلى قوله تعالى - ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء : 71] ، وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، وأحال على أول السورة .

وقوله : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] ، في سورة الكهف وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين .

فالأولى : يحاسب حساباً يسيراً وهو العرض فقط دون مناقشة ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها " من نوقش الحساب عذّب "

(267/809)

والثانية : يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ، ومنه : المواطأة على الشيء سميت مثابرة ، لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه في طلبه .

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية ، وذلك بين سرورين أحدهما آجل والآخر عاجل .

فالأول في حق من أوتي كتابه بيمينه ، أنه ينقلب إلى أهله مسروراً ينادي فرحاً ﴿ هَآؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 19] ، وأهله آنذاك في الجنة من الحور والولدان ، ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [الرعد : 23] .

وقوله : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] ، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم ، وهذا من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله ، وهذا مما يزيد سرور العبد ، وهو السرور الدائم .

والآخر سرور عاجل ، وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم ، لأنهم كانوا في أملهم مسرورين في

الدنيا ، وشتان بين سرور وسرور .

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك في الدنيا ، بأنهم يصلون سعيراً ، ولم يبين سبب سرور الآخرين ، ولكن ينبه في موضع آخر وهو خوفهم من الله في قوله تعالى : ﴿ قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ﴾ [الطور : 26-28] .

وهنا يقال : إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ، ولم يعطه الأمنان معاً ، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40-41] .

(268/809)

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لا يبالي فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيراً ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَا أَصْحَابُ الشمال فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا

وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: 41-47]، تكذيباً للبعث. وقوله هذا هو بعينه المذكور في الآيات ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾. وقوله: ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُور ﴾، هذا الظن مثل ما تقدم في حق المطففين ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ [المطففين: 4-5]، مما يشعر أن عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه، هو الدافع لكل سوء والمضيع لكل خير، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع لكل شر، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما في مستهل المصحف ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 2] الآيات.

في هذا التفصيل بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه، وما سجل عليه في كتاب أعماله، وذلك بعد أن تقدم في الانفطار قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: 10-14].

وجاء في المطففين ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ [المطففين: 7] ثم بعده ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: 18].

جاء هنا بيان إتيانه هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض، في بيان مآل العلم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله.

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر ، عند كل من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : 71] في سورة الإسراء – إلى قوله تعالى – ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء : 71] ، وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، وأحال على أول السورة .

وقوله : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] ، في سورة الكهف وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين .

فالأولى : يحاسب حساباً يسيراً وهو العرض فقط دون مناقشة ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها " من نوقش الحساب عذّب "

والثانية : يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ، ومنه : المواطأة على الشيء سميت مثابرة ، لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه في طلبه .

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية ، وذلك بين سرورين أحدهما آجل والآخر عاجل .

فالأول في حق من أوتي كتابه بيمينه ، أنه ينقلب إلى أهله مسروراً ينادي فرحاً ﴿ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : 19] ، وأهله آنذاك في الجنة من الحور والولدان ، ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [الرعد : 23] .

وقوله : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] ، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم ، وهذا من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله ، وهذا مما يزيد سرور العبد ، وهو السرور الدائم .

والآخر سرور عاجل ، وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم ، لأنهم كانوا في أملهم مسرورين في الدنيا ، وشتان بين سرور وسرور .

(270/809)

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك في الدنيا ، بأنهم يصلون سعيراً ، ولم يبين سبب سرور الآخرين ، ولكن ينبه في موضع آخر وهو خوفهم من الله في قوله تعالى : ﴿ قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ﴾ [الطور : 26-28] .

وهنا يقال : إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ، ولم يعطه الأمنان معاً ، فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40-41] .

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لا يبالي فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيراً ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَآ أَصْحَابُ الشمال فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : 41-47] ، تكذيباً للبعث . وقوله هذا هو بعينه المذكور في الآيات ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُور ﴾ ، هذا الظن مثل ما تقدم في حق المطففين ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولئك أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴾ [المطففين : 4-5] ، مما يشعر أن عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه ، هو الدافع لكل سوء والمضيع لكل خير ، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع لكل شر ، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما في مستهل المصحف ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] الآيات .

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16)

الشفق : لغة : رقة الشيء .

قال القرطبي : يقال شيء شفيق ، أي لا تماسك له لرقته ، وأشفق عليه أي رق قلبه عليه ، والشفقة الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب ، وكذلك الشفق .

قال الشاعر :

تهوى حَياتي وأهوى موتها شفقاً . . . والموت أكرم نزال على الحرم

فالشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها ، فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس .

ونقل عن الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب ، قيل : غاب الشفق . اه .

وهذا ما عليه الأئمة الثلاثة في توقيت وقت المغرب من غروب الشمس إلى غياب الشفق ، وهو الحمرة بعد الغروب ، كما قال الخليل .

وعند أبي حنيفة رحمه الله : أن الشفق هو البياض الذي بعده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في بيان أوقات الصلوات الخمس عند قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : 17-18] ، ورجح أن الشفق : الحمرة .

ونقل القرطبي قولاً ، قال : وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلاً .

وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب .

وقال ابن أويس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر ، ثم قال : قال علماؤنا : فلما لم يتجدد وقته سقط اعتباره . اه .

فهو بهذا يرجح مذهب الجمهور في معنى الشفق ، والنصوص في ذلك من السنة فيها مقال .

فقد روى الدارقطني حديثاً مرفوعاً : " الشفق الحمرة "

وتكلم عليه الشوكاني ثم ذكر من يقول به من الصحابة وهم ابن عمر ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وعبادة . ومن الأئمة : الشافعي ، وابن أبي ليلى ، والثوري ، وأبو سيف ومحمد ، من الفقهاء ، والخليل والفراء من أهل اللغة .

فأنت ترى أن أبا يوسف ومحمداً من أصحاب أبي حنيفة وافقا الجمهور .

وفي شرح الهداية أيضاً : رواية عن أبي حنيفة .

(272/809)

أما ما ذكره القرطبي ففيه نظر ، أي من جهة عدم غياب البياض ، فإن المعروف عند علماء الفلك أن بين الأحمر والأبيض مقدار درجتين ، والدرجة تعادل أربع دقائق ، وعليه فالفرق بسيط ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق : 17] ، هو الجمع والضم للشيء الكثير ،

ومنه سمي الوسق بمقدار معين من مكيل الحب ، وهو ستون صاعاً . وقيل : فيه معان أخرى ، ولكن هذا أرجحها .

والمعنى هنا : والليل وما جمعه من المخلوقات . قيل : كأنه أقسم بكل شيء كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38- 39] .

وقوله : ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ ، أي اتسع أي تكامل نوره ، وهو افتعل من وسق ، والقاعدة الصرفية أن فاء الفعل المثالي ، أي الذي فؤه واو ، إذا بني على افتعل تقلب الواو تاء وتدغم التاء في التاء ، كما في : وصلته فاتصل ووزنته فاتزن ، أو تصل أو تزن ، وهكذا هنا أو تسق .

وقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ .

قال ابن جرير : اختلف القراء في قراءته ، فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة لتركبن بفتح التاء والباء ، واختلف قارئوا ذلك في معناه ، فقال بعضهم : يعني يا محمد ، ويعني حالات الترقي والعلو والشدائد مع القوم ، وهذا المعنى عن مجاهد وابن عباس .

وقيل : طبقاً عن طبق : يعني سماء بعد سماء ، أى طباق السماء ، وهو عن الحسن وأبي العالية ومسروق .

وعن ابن مسعود : أنها السماء تتغير أحوالها تتشقق بالغمام ، ثم تحمر كالمهل ، إلى غير

ذلك . وقد رجح القراءة الأولى والمعنى الأول .

وقرأ عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين : لتركبن بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة .

وذكر المفسرون لمعناه حالاً بعد معان حال معان عديدة طفولة وشباباً وشيخوخة ، فقراً وغنى ، وقوة وضعفاً ، حياة وموتاً وبعثاً ، رخاء وشدة ، إلى كل ما تحتمله الكلمة .

(273/809)

وقال القرطبى : الكل محتمل ، وكله مراد ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن ذلك إنما هو بعامة الناس ويكون يوم القيامة ، إذ السياق في أصول البعث ، إذا السماء انشقت ، وإذا الأرض مدت ، فأما من أوتي كتابه بيمينه وذكر الحساب المنقلب ، ثم التعبير بالمستقبل ، لتركبن ، ولو كان لأمر الدنيا من تغير الأحوال لكان أولى به الحاضر أو الماضي ، وإن كان من المستقبل ما سيأتي من الزمن لكنه ليس بجديد ، إذ تقلب الأحوال في شأن الحياة أمر مستقر فى الأذهان ، ولا يحتاج إلى هذا الأسلوب .

أما أمور الآخرة من بعث ، وحشر ، وعرض ، وميزان وصراط وتطاير كتب ، واختلاف أحوال الناس باختلاف المواقف ، فى عرصات القيامة فهى الحرية بالتنبيه عليها

وبالتحذير منها والعمل لأجلها فى كدحه إلى ربه ، فلذا جاء بذلك وهو مشعر باستمرار حالة اللإنسان بعد الكدح إلى حالات متعددة ودرجات متفاوتة .

ولو اعتبرنا حال المقسم به من حيث تطور الحال من شفق أو آخر ضوء الشمس ثم ليل ، وما جمع وغطى بظلامه ، ثم قمر يبدأ هلالاً إلى اتساق نوره ، لكان انتقالاً من تغير حركات الزمن الى تغير أحوال الإنسان قطعاً ، وأن القادر على ذلك في الدنيا قادر على ذلك في الآخرة .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

قيل : المن : القطع والنقص ، ومنه قول الشاعر :

لمعفر قهد تناثر شلوه . . . عنس كواسب ما يمن طعامها

والقهد : ضرب من الضأن تعلوه حمرة صغيرة آذانه ، والكواسب : الوحوش ، أى ذئاب أو سباع لا ينقطع طعامها .

وقال القرطبي : مننت الحبل إذا قطعته .

وسأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس عنها فقال : غير مقطوع ، فقال هل تعرف ذلك العرب ؟

قال : نعم ، قد عرفه أخو يُشْكرَ ، حيث يقول :

غترى خَلفهن من سرعة الرج . . . ع منيناً كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار لأنها تقطعه وراءها .

وقيل : غير ممنون أي غير ممنون به عليهم ، لنكمل النعمة عليهم .

(274/809)

وقال ابن جرير : غير ممنون أي غير محسوب ولا منقوص . وذكره ابن عباس ومجاهد .

وقال ابن كثير : غير مقطوع ، كقوله تعالى : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] ، ورد قول من قال إنه غير ممنون به عليهم ، لأن لله تعالى أن يمتن على عباده وهم ما دخلوا الجنة الا بفضل من الله ومنه عليهم . انتهى .

ومما يهد لقول ابن جرير غير محسوب عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 37] وخصوصه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر : 40] .

قوله تعالى : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ [النبأ : 36] ، فهو بمعنى كافيا من قولك : حسبي بمعنى كافيني .

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن كلاً من المعنيين مقصود ولا مانع منه ، وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين ، لأن المن الممنوع هو ما فيه أذى وتنقيص ، كما في قوله :

﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ﴾ [البقرة : 262] ، أما المن من الله تعالى على عبده ، فهو عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(275/809)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ ، ق

َال مُجَاهِدٌ : الشَّفَقُ النَّهَارُ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : " الشَّفَقُ الْبَيَاضُ " وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ : " الشَّفَقُ السَّوَادُ الَّذِي يَكُونُ إِذَا ذَهَبَ الْبَيَاضُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الشَّفَقُ فِي الْأَصْلِ الرِّقَّةُ ، وَمِنْهُ ثَوْبٌ شَفَقٌ إِذَا كَانَ رَقِيقًا ، وَمِنْهُ الشَّفَقَةُ وَهُوَ رِقَّةُ الْقَلْبِ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا أَصْلَهُ فَهُوَ بِالْبَيَاضِ أَوْلَى مِنْهُ بِالْحُمْرَةِ ؛ لِأَنَّ أَجْزَاءَ الضِّيَاءِ رَقِيقَةٌ فِي هَذِهِ

الْحَالِ وَفِي وَقْتِ الْحُمْرَةِ أَكْثَفُ .

وَقَوْلُه تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ ، يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى وُجُوبِ سَجْدَةِ التِّلَاوَةِ لِذَمِّهِ لِتَارِكِ السُّجُودِ عِنْدَ سَمَاعِ التِّلَاوَةِ ؛ وَظَاهِرُهُ يَقْتَضِي إيجَابَ السُّجُودِ عِنْدَ سَمَاعِ سَائِرِ الْقُرْآنِ ، إلَّا أَنَّا خَصَصْنَا مِنْهُ مَا عَدَا مَوَاضِعَ السُّجُودِ وَاسْتَعْمَلْنَاهُ فِي مَوَاضِعِ السُّجُودِ بِعُمُومِ اللَّفْظِ وَلَأَنَّا لَوْ لَمْ نَسْتَعْمِلْهُ عَلَى ذَلِكَ كُنَّا قَدْ أَلْغَيْنَا حُكْمَهُ رَأْسًا .

(276/809)

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْخُضُوعَ ؛ لِأَنَّ اسْمَ السُّجُودِ يَقَعُ عَلَى الْخُضُوعِ ؛ قِيلَ لَهُ : هُوَ كَذَلِكَ ، إلَّا أَنَّهُ خُضُوعٌ عَلَى وَصْفٍ ، وَهُوَ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ ، كَمَا أَنَّ الرُّكُوعَ وَالْقِيَامَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ وَسَائِرَ الْعِبَادَاتِ خُضُوعٌ وَلَا يُسَمَّى سُجُودًا ؛ لِأَنَّهُ خُضُوعٌ عَلَى صِفَةٍ إذَا خَرَجَ عَنْهَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ .

آخِرُ سُورَةِ إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ

﴾

(277/809)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي الشَّفَقِ : قَالَ أَشْهَبُ ، وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ ، وَغَيْرُهُمْ ، وَكَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، عَنْ مَالِكٍ : الشَّفَقُ : الْحُمْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْمَغْرِبِ ، فَإِذَا ذَهَبَتْ الْحُمْرَةُ فَقَدْ خَرَجَ وَقْتُ الْمَغْرِبِ ، وَوَجَبَتْ صَلَاةُ الْعِشَاءِ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ ، عَنْ مَالِكٍ : الشَّفَقُ : الْحُمْرَةُ فِيمَا يَقُولُونَ ، وَلَا أَدْرِي حَقِيقَةَ ذَلِكَ ، وَلَكِنِّي أَرَى الشَّفَقَ الْحُمْرَةَ .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ قَالَ مَالِكٌ وَإِنَّهُ لَيَقَعُ فِي قَلْبِي .

وَمَا هُوَ إلَّا شَيْءٌ فَكَّرْت فِيهِ مُنْذُ قَرِيبٍ : أَنَّ الْبَيَاضَ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ حُمْرَةِ الشَّفَقِ أَنَّهُ مِثْلُ الْبَيَاضِ الَّذِي يَكُونُ قَبْلَ الْفَجْرِ ، فَكَمَا لَا يُمْنَعُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا مَنْ أَرَادَ الصِّيَامَ ، فَلَا أَدْرِي هَذَا يَمْنَعُ الصَّلَاةَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَبِهِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ ، وَقَتَادَةُ ، وَشَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُعَاذٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ التَّابِعِينَ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الْبَيَاضُ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَالْأَوْزَاعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَجَمَاعَةٍ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مِثْلُهُ .

(278/809)

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ اللُّغَةِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، وَاعْتَضَدَ بَعْضُهُمْ بِالِاشْتِقَاقِ وَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ الرِّقَّةِ ، وَالَّذِي يُعَضِّدُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ وَقْتُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ مَا لَمْ يَسْقُطْ نُورُ الشَّفَقِ ﴾ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَلَى حَالَيْنِ : كَثِيرٍ وَقَلِيلٍ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَقَّفَ فِيهِ مَالِكٌ مِنْ جِهَةِ اشْتِقَاقِهِ ، وَاخْتِلَافِ إطْلَاقِهِ ، ثُمَّ فَكَّرَ فِيهِ مُنْذُ قَرِيبٍ ، وَذَكَرَ كَلَامًا مُجْمَلًا ، تَحْقِيقُهُ أَنَّ الطَّوَالِعَ أَرْبَعَةٌ : الْفَجْرُ الْأَوَّلُ ، وَالثَّانِي ، وَالْحُمْرَةُ ، وَالشَّمْسُ .

وَكَذَلِكَ الْغَوَارِبُ أَرْبَعَةٌ :

الْبَيَاضُ الْآخَرُ ، وَالْبَيَاضُ الَّذِي يَلِيهِ ، الْحُمْرَةُ ، الشَّفَقُ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : كَمَا يَتَعَلَّقُ الْحُكْمُ فِي الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ بِالطَّالِعِ الثَّانِي مِنْ الْأَوَّلِ فِي الطَّوَالِعِ ،

كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّقَ الْحُكْمُ بِالْغَارِبِ مِنْ الْآخَرِ ، وَهُوَ الْبَيَاضُ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ الْمُحَقِّقُونَ : وَكَمَا قَالَ ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ فَكَانَ الْحُكْمُ مُتَعَلِّقًا بِالْفَجْرِ الثَّانِي ، كَذَلِكَ إذَا قَالَ حَتَّى يَغِيبَ الشَّفَقُ يَتَعَلَّقُ الْحُكْمُ بِالشَّفَقِ الثَّانِي ؛ وَهَذِهِ تَحْقِيقَاتٌ قَوِيَّةٌ عَلَيْنَا .

(279/809)

وَاعْتَمَدَ عُلَمَاؤُنَا عَلَى ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ ﴾ وَالْحُكْمُ يَتَعَلَّقُ بِأَوَّلِ الِاسْمِ ، وَكَذَلِكَ كُنَّا نَقُولُ فِي الْفَجْرِ ، إلَّا أَنَّ النَّصَّ قَطَعَ بِنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : لَيْسَ الْفَجْرُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَرَفَعَ يَدَهُ إلَى فَوْقٍ ، وَلَكِنَّهُ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا وَبَسَطَهَا وَقَالَ : لَيْسَ الْمُسْتَطِيلُ ، وَلَكِنَّهُ الْمُسْتَطِيرُ يَعْنِي الْمُنْتَشِرَ ، وَلِأَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ قَالَ : ﴿ أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِوَقْتِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ ، كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّيهَا لِسُقُوطِ الْقَمَرِ لِثُلُثِهِ ﴾ وَقَالَ الْخَلِيلُ : رَقَبْت مَغِيبَ الْبَيَاضِ فَوَجَدْته يَتَمَادَى إلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ : رَأَيْته يَتَمَادَى إلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ فَلَمَّا لَمْ يَتَحَدَّدْ وَقْتُهُ مِنْهُ سَقَطَ اعْتِبَارُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَرَأَ : ﴿ إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ فَسَجَدَ فِيهَا ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ رَسُولَ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ فِيهَا ﴾ وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : إنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا مِنْهُ ، وَهِيَ رِوَايَةُ الْمَدَنِيِّينَ عَنْهُ .

وَقَدْ اعْتَضَدَ فِيهَا الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : لَمَّا أَمَمْت بِالنَّاسِ تَرَكْت قِرَاءَتَهَا ؛ لِأَنِّي إنْ سَجَدْت أَنْكَرُوهُ ، وَإِنْ تَرَكْتهَا كَانَ تَقْصِيرًا مِنِّي ، فَاجْتَنَبْتهَا إلَّا إذَا صَلَّيْت وَحْدِي .

(280/809)

وَهَذَا تَحْقِيقُ وَعْدِ الصَّادِقِ بِأَنْ يَكُونَ الْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا .

وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَةَ لَوْلَا حِدْثَانُ عَهْدِ قَوْمِك بِالْكُفْرِ لَهَدَمْت الْبَيْتَ وَرَدَدْته عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ .

﴾ وَقَالَ كَانَ شَيْخُنَا أَبُو بَكْرٍ الْفِهْرِيُّ يَرْفَعُ يَدَيْهِ عِنْدَ الرُّكُوعِ ، وَعِنْدَ رَفْعِ الرَّأْسِ مِنْهُ ، وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ ، وَتَفْعَلُهُ الشِّيعَةُ ، فَحَضَرَ عِنْدِي يَوْمًا بِمُحْرِسِ ابْنُ الشَّوَّاءِ بِالثَّغْرِ مَوْضِعُ تَدْرِيسِي عِنْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ مِنْ الْمُحْرِسِ الْمَذْكُورِ ، فَتَقَدَّمَ إلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَأَنَا فِي مُؤَخَّرِهِ قَاعِدٌ عَلَى طَاقَاتِ الْبَحْرِ ، أَتَنَسَّمُ الرِّيحَ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَمَعَهُ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ أَبُو ثَمْنَةَ رَئِيسُ الْبَحْرِ وَقَائِدُهُ ، مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ ، وَيَتَطَلَّعُ

عَلَى مَرَاكِبَ تَحْتَ الْمِينَاءِ ، فَلَمَّا رَفَعَ الشَّيْخُ يَدَيْهِ فِي الرُّكُوعِ وَفِي رَفْعِ الرَّأْسِ مِنْهُ قَالَ أَبُو ثَمْنَةَ وَأَصْحَابُهُ : أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَذَا الْمَشْرِقِيِّ كَيْفَ دَخَلَ مَسْجِدَنَا ؟ فَقُومُوا إِلَيْهِ فَاقْتُلُوهُ وَارْمُوا بِهِ فِي الْبَحْرِ ، فَلَا يَرَاكُمْ أَحَدٌ .

فَطَارَ قَلْبِي مِنْ بَيْنِ جَوَانِحِي ، وَقُلْت : سُبْحَانَ اللَّهِ ، هَذَا الطُّرْطُوشِيُّ فَقِيهُ الْوَقْتِ .

فَقَالُوا لِي : وَلِمَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ ؟ فَقُلْت : كَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ فِي رِوَايَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَنْهُ .

(281/809)

وَجَعَلْت أُسَكِّنُهُمْ وَأُسْكِتُهُمْ ، حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ ، وَقُمْت مَعَهُ إلَى الْمَسْكَنِ مِنْ الْمُحْرِسِ ، وَرَأَى تَغَيُّرَ وَجْهِي ، فَأَنْكَرَهُ ، وَسَأَلَنِي فَأَعْلَمْته فَضَحِكَ ، وَقَالَ : وَمِنْ أَيْنَ لِي أَنْ أُقْتَلَ عَلَى سُنَّةٍ ، فَقُلْت لَهُ : وَلَا يَحِلُّ لَك هَذَا فَإِنَّك بَيْنَ قَوْمٍ إنْ قُمْت بِهَا قَامُوا عَلَيْك ، وَرُبَّمَا ذَهَبَ دَمُك .

فَقَالَ : دَعْ هَذَا الْكَلَامَ وَخُذْ فِي غَيْرِهِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ : ﴿ صَلَّيْت خَلْفَ أَبِي هُرَيْرَةَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ

يَعْنِي الْعَتَمَةَ فَقَرَأَ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ فَسَجَدَ فِيهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ قُلْتُ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، وَإِنَّ هَذِهِ السَّجْدَةَ مَا كُنَّا نَسْجُدُهَا .

قَالَ : سَجَدَهَا أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا خَلْفَهُ ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُهَا حَتَّى أَلْقَى أَبَا الْقَاسِمِ ﴾ .

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْجُدُ فِيهَا مَرَّةً ، وَمَرَّةً لَا يَسْجُدُ ، كَأَنَّهُ لَا يَرَاهَا مِنْ الْعَزَائِمِ عَزَائِمِ الْقُرْآنِ وَقَدْ بَيَّنَّا الصَّحِيحَ فِي ذَلِكَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ [بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(282/809)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الانشقاق

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1)

قوله : ﴿ إِذَا السماء ﴾ : كقوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] في إضمار الفعلِ وعَدَمِه . وفي " إذا " هذه احتمالان ، أحدهما : أَنْ تكونَ شرطيةً . والثاني : أَنْ

تكونَ غير شرطيةٍ . فعلى الأول في جوابها خمسةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه " أَذِنَتْ " ، والواوُ مزيدةٌ . الثاني : أنه " فَمُلاقِيه " ، أي : فأنت مُلاقِيْه . وإليه ذهب الأخفش . الثالث : أنَّه ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان ﴾ على حَذْفِ الفاء . الرابع : أنه ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان ﴾ أيضاً ، ولكن على إضمارِ القول ، أي : يقال : يا أيها الإِنسانُ . الخامس : أنه مقدرٌ تقديرُه : بُعِثْتُم . وقيل : تقديرُه : لاقى كلُّ إنسانٍ كَدْحَه . وقيل : هو ما صَرَّح به في سورتَيْ التكوير والانفطار ، وهو قولُه : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ [التكوير : 14] ، [الانفطار : 5] قاله الزمخشري ، وهو حسنٌ .

وعلى الاحتمال الثاني فيها وجهان ، أحدُهما : أنها منصوبةٌ مفعولاً بها ، بإضمار اذكرْ . والثاني : أنها مبتدأٌ ، وخبرُها " إذا " الثانية ، والواوُ مزيدةٌ ، تقديرُه : وقتُ انشقاقِ السماءِ وقتُ مَدِّ الأرض ، أي : يقع الأمران في وقتٍ واحد ، قاله الأخفشُ أيضاً . والعاملُ فيها إذا كانت ظرفاً عند الجمهور جوابُها : إمَّا الملفوظُ به ، وإمَّا المقدَّرُ . وقال مكي : " وقيل : العاملُ " انْشَقَّتْ " .

وقال ابن عطية : " قال بعضُ النحاة : العامل " انْشَقَّتْ " ، وأبى ذلك كثيرٌ من أئمتهم ؛ لأنَّ " إذا " مضافةٌ إلى " انشَقَّتْ " ، ومَنْ يُجِزْ ذلك تَضْعُفْ عنده الإِضافةُ ويَقْوى معنى الجزاء .

وقرأ العامَّةُ " انشَقَّتْ " بتاءِ التأنيث ساكنةً ، وكذلك ما بعده . وقرأ أبو عمرو في روايةِ عُبَيْد بن عقيل بإشمام الكسر في الوقف خاصة ، وفي الوصل بالسكونِ المَحْض . قال أبو الفضل : " وهذا من التغييرات التي تلحق الرويَّ في القوافي . وفي هذا الإشمام بيانُ أنَّ هذه التاءَ من علامةِ تأنيثِ الفعل للإناث ، وليسَتْ مِمَّا على ما في الأسماءِ ، فصار ذلك فارقاً بين الاسمِ والفعل فيمَنْ وقَفَ على ما في الأسماء بالتاءِ ، وذلك لغة طيِّىء ، وقد حُمِل في المصاحف بعضُ التاءات على ذلك " .

وقال ابن عطية : " وقرأ أبو عمرو " انشَقَّتْ " يقف على التاء كأنه يُشِمُّها شيئاً من الجرّ ، وكذلك في أخواتها . قال أبو حاتم : " سمعتُ أعرابياً فصيحاً في بلادِ قيسٍ يكسِرُ هذه التاءات " . وقال ابن خالَويه : " انشَقَّت " بكسر التاء عُبَيْد عن أبي عمرو . قلت : كأنه يريدُ إشمامَ الكسرِ ، وأنه في الوقفِ دونَ الوصل لأنه مُطْلَقٌ ، وغيرُه مقيَّدٌ ، والمقيَّدُ يَقْضي على المطلق . وقال الشيخ : " وذلك أنَّ الفواصلَ تجري مَجْرى القوافي ، فكما أن هذه التاءَ تُكسر في القوافي تُكْسَرُ في الفواصل . ومثال كُسرِها في القوافي قول كُثيِّر عَزَّةَ :

4520 وما أنا بالدَّاعي لِعَزَّةَ بالرَّدى . . . ولا شامِتٍ إنْ نَعْلُ عَزَّةَ زلَّتِ

وكذلك باقي القصيدة ، / وإجراءُ الفواصلِ في الوقف مُجْرى القوافي مَهْيَعٌ معروفٌ ، كقولِه تعالى : ﴿ الظنونا ﴾ [الآية : 10] ﴿ الرسولا ﴾ [الآية : 66] في الأحزاب ، وحَمْلُ

الوصلِ على الوقفِ موجودٌ أيضاً .

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2)

(284/809)

قوله : ﴿ وَأَذِنَتْ ﴾ : عَطْفٌ على " انْشَقَّتْ " ، وقد تقدَّم أنه جوابٌ على زيادةِ الواوِ ، ومعنى " أَذِنَتْ " ، أي : استمعَتْ أَمْرَه . يُقال : أَذِنْتُ لك ، أي : استَمَعْتُ كلامَك . وفي الحديث : " ما أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ إذْنَه لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن " وقال الشاعر :

4521 صُمٌّ إذا سَمِعوا خيراً ذُكِرْتُ به . . . وإن ذُكِرْتُ بسُوْءٍ عندهم أَذِنوا

وقال آخر :

4522 إنْ يَأْذَنُوا رِيْبةً طاروا بها فَرَحاً . . . وما هُمُ أَذِنُوا مِنْ صالحٍ دَفَنوا

وقال الجحَّافُ بنُ حكيم :

4523 أَذِنْتُ لكمْ لَمَّا سَمِعْتُ هريرَكُمْ . . . . . .

والاستعارةُ المذكورةُ في قولِه تعالى : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] أو الحقيقةُ عائدٌ ههنا .

قوله : ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ الفاعلُ في الأصلِ هو اللَّهُ تعالى ، أي : حَقَّ اللَّهُ عليها ذلك ، أي : بسَمْعِه وطاعتِه . يُقال : هو حقيقٌ بكذا وتَحَقَّق به ، والمعنى : وحُقَّ لها أَنْ تفعلَ .

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3)

قوله : ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ﴾ : كالأولِ ، وقد تقدَّم أنه يجوز أَنْ يكونَ خبرَ "إذا" الأولى على زيادةِ الواو .

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6)

قوله : ﴿ كَادِحٌ ﴾ : الكَدْحُ : قال الزمخشري : "جَهْدُ النفس [في العمل] والكَدُّ فيه ، حتى يُؤَثِّر فيها ، ومنه كَدَحَ جِلدَه إذا خَدَشَه . ومعنى "كادِحٌ" ، أي : جاهِدٌ إلى لقاءِ ربِّك وهو الموتُ" . انتهى . وقال ابن مقبل :

4524 وما الدَّهْرُ إلاَّ تارتان فمِنْهما . . . أموتُ وأخرى أَبْتغي العيشَ أَكْدَحُ

وقال آخر :

4525 ومَضَتْ بَشاشَةُ كلِّ عيشٍ صالحٍ . . . وبَقِيْتُ أَكْدَحُ للحياةِ وأُنْصَبُ

وقال الراغب : "وقد يُستعمل الكَدْحُ استعمالَ الكَدْمِ بالأسنان . قال الخليل : الكَدْحُ دونَ الكَدْم" .

قوله : ﴿ فَمُلاَقِيهِ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ عطفاً على كادح . والتسبيبُ فيه ظاهرٌ . ويجوز أَنْ يكونَ خبر مبتدأ مضمرٍ ، أي : فأنت مُلاقيه . وقد تقدَّم أنه يجوزُ أَنْ يكونَ جواباً للشرط . وقال ابنُ عطية : " فالفاءُ على هذا عاطفةٌ جملةَ الكلامِ على التي قبلها . والتقدير : فأنت مُلاقيه " يعني بقوله : " على هذا " ، أي : على عَوْدِ الضميرِ على كَدْحِك . قال الشيخ : " ولا يَتَعَيَّنُ ما قاله ، بل يجوزُ أَنْ يكونَ مِنْ عَطْفِ المفردات " . والضمير : إمَّا للربِّ ، وإمَّا للكَدْح ، أي : مُلاقٍ جزاءَ كَدْحِك .

وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9)

قوله : ﴿ مَسْرُوراً ﴾ : حالٌ مِنْ فاعل "يَنْقَلِبُ" . وقرأ زيد بن علي " ويُقْلَبُ " مبنياً للمفعول مِنْ قَلَبه ثلاثياً .

وَيَصْلَى سَعِيرًا (12)

قوله : ﴿ ويصلى ﴾ : قرأ أبو عمرو وحمزةُ وعاصمٌ بفتح الياء وسكونِ الصادِ وتخفيفِ اللام ، والباقون بالضم والفتح والتثقيل . وقد تقدَّم تخريجُ القراءتَيْن في النساء عند قوله : ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء : 10] وأبو الأشهب ونافع وعاصم وأبو عمرو في روايةٍ عنهم "يُصْلى " بضمِّ الياء وسكونِ الصاد مِنْ " أَصْلى " .

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14)

قوله: ﴿ أَن لَّن ﴾: هذه "أَنْ" المخففةُ كالتي في أول القيامة، وهي سادَّةٌ مَسَدَّ المفعولَيْن أو أحدِهما على الخلاف. و "يَحُوْرُ" معناه يَرْجِعُ. يقال: حار يَحُورُ حَوْراً. قال لبيد:

4526 وما المَرْءُ إلاَّ كالشِّهابِ وضَوْءُه . . . يَحُوْرُ رَماداً بعد إذ هو ساطعٌ

(286/809)

ويُسْتعمل بمعنى صار فيَرْفع الاسمَ ويَنْصِبُ الخبرَ عند بعضِهم، وبهذا البيتِ يَسْتَدِلُّ قائِلُه. ومَنْ منع نَصَبَ "رماداً" على الحال. وقال الراغب: "الحَوْرُ التردُّد: إمَّا بالذاتِ وإمَّا بالفكرة. وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾، أي: لن يُبْعَثَ. وحار الماءُ في الغَديرِ، تَرَدَّد فيه. وحار في أمْرِه وتَحَيَّر، ومنه "المِحْوَرُ" للعُوْدِ الذي تجري عليه البَكَرة لتردُّدِه. وقيل: "نعوذُ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْر"، أي: مِنْ التردُّد في الأمر بعد المُضِيِّ فيه، ومحاورةُ الكلام: مراجعتُه".

بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)

قوله: ﴿ بلى ﴾: جوابٌ للنفي في "لن"، و "إنَّ" جوابُ قسمٍ مقدرٍ.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16)

قوله: ﴿ بالشفق ﴾: قال الراغب: "الشَّفَقُ: اختلاطُ ضوءِ النهارِ بسوادِ الليل عند

غُروبِ الشمس . والإِشفاقُ : عنايةٌ مختلِطَةٌ بخوفٍ ؛ لأنَّ المُشْفِقَ يحبُّ المُشْفَقَ عليه ، ويَخاف ما يلحقُه ، فإذا عُدِّيَ ب " مِنْ " فمعنى الخوفِ فيه أظهرُ ، وإذا عُدِّي ب " على " فمعنى العنايةِ فيه أظهرُ " . وقال الزمخشري : " الشَّفَقُ : الحُمْرَةُ التي تُرى في الغرب بعد سقوطِ الشمسِ ، وبسقوطِه يخرُجُ وقتُ المغربِ ويَدْخُلُ وقتُ العَتَمَةِ عند عامَّةِ العلماء ، إلاَّ ما يُرْوى عن أبي حنيفةَ في إحدى الروايتَيْن أنه البياضُ وروى أسدُ بن عمرو أنه رَجَعَ عنه . سُمِّي شَفَقاً لرِقَّته ، ومنه الشَّفَقَةُ على الإنسان : رِقَّةُ القلب عليه " . انتهى .

والشَّفَقُ شفقان : الشَّفَقُ الأحمر ، والآخر الأبيضُ ، والشَّفَق والشَّفَقَةُ اسمان للإِشفاقِ .

قال الشاعر :

4527 تَهْوَى حياتي وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقا . . . والموتُ أكرَمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17)

(287/809)

قوله : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ موصولةً اسميةً أو حرفيةً ، أو نكرةً . ووسَقَ ، أي : جَمَعَ . ومنه " الوَسَقُ " لجماعة الآصُعِ وهو ستون صاعاً . والوِسْق بالكسر الاسمُ ، وبالفتح المصدرُ وطعامٌ مَوْسوق ، أي : مجموعٌ . يقال : وَسَقَه فاتَّسق واسْتَوْسَقَ . ونظيرُ

وقوعِ افتعل واستفعل مطاوعَيْن اتّسعَ واستَوْسَع . وقيل : وَسَق ، أي : عَمِلَ فيه . قال الشاعر :

4528 فيَوْماً ترانا صالِحِيْنَ وتارةً . . . تقومُ بنا كالواسِقِ المُتَلَبِّبِ

وإبل مُسْتَوسِقَة . قال الراجز : /

4529 إنَّ لنا قَلائِصاً حَقائِقا . . . مُسْتَوْسِقاتٍ لو تَجِدْنَ سائِقا

قوله : ﴿ إذَا اتسق ﴾ ، أي : امتلأ . قال الفراء : " وهو امتلاؤُه واستواؤُه ليالِيَ البدر " وهو افتعلَ من الوَسْقِ وهو الضمُّ والجَمْعُ كما تقدَّم . وأَمْرُ فلانٍ مُتَّسِقٌ ، أي : مُجتَمعُ على ما يَسْتُرُ .

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19)

قوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ : هذا جوابُ القسم . وقرأ الأخَوان وابن كثير بفتحِ التاءِ على خطابِ الواحد ، والباقون بضمّها على خطاب الجمع . وتقدَّم تصريفُ مثِله . فالقراءةُ الأولى رُوْعي فيها : إمَّا خطابُ الإنسانِ المتقدِّمِ الذِّكْرِ في قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان ﴾ [الانشقاق : 6] ، وإمَّا خطابُ غيرِه . وقيل : هو خطابٌ للرسول ، أي : لتركَبَنَّ مع الكفارِ وجهادِهم . وقيل : التاءُ للتأنيثِ والفعلُ مسندٌ لضميرِ السماء ، أي : لتركَبَنَّ السماءَ حالاً بعد حال : تكون كالمُهْلِ وكالدِّهان ، وتَنْفَطر وتَنشَقُّ . وهذا قولُ ابنِ مسعود . والقراءة الثانيةِ رُوْعِي فيها معنى الإنسان إذ المرادُ به الجنسُ .

وقرأ عمر "لَيَرْكَبُنَّ" بياء الغَيْبة وضَمِّ الباء على الإخبار عن الكفار . وقرأ عمر أيضاً وابن عباس بالغَيبة وفتحِ الباء ، أي : لَيركَبَنَّ الإنسانُ . وقيل : ليركَبَنَّ القمرُ أحوالاً مِنْ سَرار واستهلال وإبدار . وقرأ عبد الله وابن عباس "لَتِرْكَبَنَّ" بكسر حَرْفِ المضارعة وقد تقدَّم تحقيقُه في الفاتحة . وقرأ بعضُهم بفتح حرف المضارعة وكسرِ الباء على إسناد الفعل للنفس ، أي : لَتَرْكَبِنَّ أنت يا نفسُ .

قوله : ﴿ طَبَقاً ﴾ مفعولٌ به ، أو حالٌ كما سيأتي بيانُه . والطَّبَقُ : قال الزمخشري : " ما طابَقَ غيرَه . يُقال : ما هذا بطَبَقٍ لذا ، أي : لا يطابقُه . ومنه قيل للغِطاء : الطَّبَقُ . وأطباق الثرى : ما تَطابَقَ منه ، ثم قيل للحال المطابقةِ لغيرِها : طَبَقٌ . ومنه قولُه تعالى : ﴿ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ ، أي : حالاً بعد حال ، كلُّ واحدةٍ مطابقةٌ لأختها في الشدَّةِ والهَوْلِ . ويجوز أنْ يكونَ جمعَ "طبقة" وهي المرتبةُ ، مِنْ قولهم : هم على طبقاتٍ ، ومنه "طَبَقات الظهر" لِفقارِه ، الواحدةُ طَبَقَة ، على معنى : لَتَرْكَبُنَّ أحوالاً بعد أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشدَّة ، بعضُها أرفعُ من بعض ، وهي الموتُ وما بعده من مواطنِ القيامة " انتهى . وقيل : المعنى : لتركَبُنَّ هذه الأحوال أمةً بعد أمةٍ . ومنه قولُ العباس فيه عليه السلام :

4530 وأنتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْـ . . . أرضُ وضاءَتْ بنورِكَ الطُّرُقُ

تُنْقَلُ مِنْ صالِبٍ إلى رَحِمٍ . . . إذا مضى عالَمٌ بدا طَبَقُ

يريد : بدا عالَمٌ آخرُ : فعلى هذا التفسير يكون " طبقاً " حالاً لا مفعولاً به . كأنه قيل : متتابِعين أُمَّةً بعد أُمَّة . وأمَّا قولُ الأقرعِ :

4531 إنِّي امرُؤٌ قد حَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَه . . . وساقَني طبَقاً منه إلى طَبَقِ

(289/809)

فيحتملُ الأمرين ، أي : ساقَني مِنْ حالةٍ إلى أخرى ، أو ساقني من أمةٍ وناسٍ إلى أمةٍ وناسٍ آخرين ، ويكون نصبُ " طَبَقاً " على المعنيَيْن على التشبيه بالظرف ، أو الحال ، أي : منتقلاً . والطَّبَقُ أيضاً : ما طابقَ الشيءَ ، أي : ساواه ، ومنه دَلالةُ المطابقةِ . وقال امرؤ القيس :

4532 دِيْمَةٌ هَطْلاءُ فيها وَطَفٌ . . . طَبَقُ الأرضِ تَحَرَّى وتَدُرّ

قوله : ﴿ عَن طَبَقٍ ﴾ في " عن " وجهان ، أحدُهما : أنها على بابها ، والثاني : أنها بمعنى " بَعْدَ " .

وفي محلِّها وجهان ، أحدهما : أنها في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ فال " تَرْكَبُنَّ " . والثاني :

أَنَّها صفةٌ ل " طَبَقا " . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما محلُّ " عن طَبَق " ؟ قلت : النصبُ على أنَّه صفةٌ ل " طبقا " ، أي : طبقاً مجاوزاً لطبق ، أو حالٌ من الضمير في " لتركَبُنَّ " ، أي : لتركَبُنَّ طبقاً مجاوزِيْن لطبَق أو مجاوزاً أو مجاوزةً على حَسَبِ القراءة " . وقال أبو البقاء : " وعن بمعنى بَعْدَ . والصحيح أنها على بابِها ، وهي صفةٌ ، أي : طبقاً حاصلاً عن طَبَق ، أي : حالاً عن حال . وقيل : جيلاً عن جيل " انتهى . يعني الخلافَ المتقدِّمَ في الطبق ما المرادُ به ؟ هل هو الحالُ أو الجيلُ أو الأمةُ ؟ كما تقدَّم نَقْلُه ، وحينئذٍ فلا يُعْرَبُ " طَبَقاً " مفعولاً به بل حالاً ، كما تقدَّم ، لكنه لم يَذْكُرْ في " طبقاً " غيرَ المفعولِ به . وفيه نظرٌ لما تقدَّمَ مِن استحالتِه معنى ، إذ يصير التقديرُ : لتركَبُنَّ أمةً بعد أمَّةٍ ، فتكون الأمةُ مركوبةً لهم ، وإن كان يَصِحُّ على تأويلٍ بعيدٍ جداً وهو حَذْفُ مضافٍ ، أي : لَتركَبُنَّ سَنَنَ أو طريقةَ طبقٍ بعد طبقٍ .

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)

قوله : ﴿ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ : حالٌ ، وقد تقدَّم مثلُه .

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21)

قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ﴾ : شرطٌ، و "لا يَسْجُدون" . جوابُه . وهذه الجملةُ الشرطيةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ أيضاً نَسَقاً على ما قبلها ، أي : فما لهم إذا قُرِئ عليهم القرآن لا يَسْجُدون ؟ .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22)

قوله : ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ الياءِ وفتحِ الكافِ وتشديدِ الدال . والضحَّاك وابنُ أبي عبلة بالفتحِ والإِسكانِ والتخفيفِ/ . وتقدَّمت هاتان القراءتان أولَ البقرة .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23)

قوله : ﴿ يُوعُونَ ﴾ : هذه هي العامَّةُ مِنْ أَوْعى يُوْعي . وأبو رجاء "يَعُوْن" مِنْ وعى يَعِي .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

قوله : ﴿ إلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ متصلاً ، وأن يكون منقطعاً . هذا إذا كانت الجملةُ مِنْ قولِه : "لهم أَجْرٌ" مستأنفةً أو حاليةً . أمَّا إذا كان الموصولُ مبتدأً ، والجملةُ خبرَه ، فالاستثناء وليس مِنْ قبيلِ استثناءِ المفرداتِ ، ويكونُ من قسمِ المنقطعِ ، أي : لكِن الذين آمنوا لهم كيتَ وكيتَ . وتقدَّم معنى "المَمْنون" في حمِ السجدة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 729. 741 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الانشقاق

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم جليل جلاله لا بالأشكال ، وجماله لا على احتذاء الأمثال ، وأفعاله لا بأغراض وأعلال ن وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو كالذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز فناء ولا زوال .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴾ .

﴿ انشَقَتْ ﴾ : انصدعت .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .

أي قابَلَتْ أمرَ رَبِّها بالسمع والطاعة . . . وحقَّ لها أن تفعل ذلك .

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .

بُسِطَت بانكدار آكامها وجبالِها حتى صارت ملساء ، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلَّت عنها . . . وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء في قوله : ﴿ فَمُلاَقِيهِ ﴾ أي يَلْقَى الإنسانُ ما يستحقه على أعماله .

قوله جلّ ذكره: ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾.

﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ ﴾: يأيها المُكلَّفُ... إنَّك ساعٍ بما لَكَ سَعْياً ستلقى جزاءَه؛ بالخير خيراً وبالشَّرّ شرّاً.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾.

وهو المؤمن المحسن.

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾.

أي حساباً لا مَشقَّة فيه. ويقال: ﴿ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ أي يُسْمِعُه كلامَه - سبحانه - بلا واسطة، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابِه ما في الحساب من عناءٍ.

ويقال: ﴿ حِسَاباً يَسِيراً ﴾: لا يُذَكِّرُه ذنوبَه. ويقال: ألم أفعل كذا؟ وألم أفعل كذا؟ يعُدُّ عليه إحسانَه... ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يُذكِّرُه عصيانَه.

﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾.

أي بالنجاة والدرجات، وما وَجَدَ من المناجاة، وقبول الطاعات، وغفران الزَّلاّت.

ويقال: بأن يُشفِّعَه فيمن يتعلَّق به قلبُه. ويقال: بألا يفضحه.

ويقال : بأن يَلْقى ربَّه ويُكَلِّمَه قبل أَنْ يُدْخِلَه الجنة فيَلْقى حَظِيَّتَه من الحورِ العين .

قوله جلّ ذكره ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ .

وهو الكافر .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ﴾ .

أي وَيْلاً .

﴿ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴾ .

جهنم .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ .

من البَطَرِ والمدح .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ .

أنه لن يرجعَ إلينا ، ولن يُبْعَثَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ .

بالحُمْرَةِ التي تعقب غروبَ الشمس .

﴿ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .

وما جَمَعَ وضمَّ .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ .

تَمَّ واستوى واجتمع .

ويقال : الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم ، وأُذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم ، وذلك زمانُ قبضٍ بعد بَسْطٍ ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبَ جَمْعٍ . ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ : ليالي غيبتهم وهم بوصف الاستياقِ ؛ أو ليالي وصالهم وهم في روح التلاقي ، أو ليالي طَلَبِهم وهم بنعتِ القَلَبِ والاحتراقِ .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : إذا ظَهَرَ سلطانُ العرفان على القلوب فلا بَخْسَ ولا نُقْصان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾ .

أي حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةً بعد شدَّة .

ويقال : تاراتُ الإنسانِ طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً .

ويقال : طالباً ثم واصلاً ثم مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغِنَى ، والصحة والسَقَم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ في الآخرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أي فما الكُفَّارِ أُمَّتِكَ لا يُصَدّقون . . . وقد ظهرت البراهين ؟

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لاَ يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ

﴾ .

﴿ يُوعُونَ ﴾ أي تنطوي عليه قلوبُهم – من أَوْعَيْتُ المتاعَ في الظَّرْفِ أي جعلته فيه .

(293/809)

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أجرٌ غيرُ مقطوع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 705 . 708 ﴾

(294/809)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الإنشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4)

وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (5)

الإعراب :

الظرف (إذا) متعلّق بالجواب المقدّر أي علمت النفوس أعمالها " 1 " ، (السماء) فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده (لربّها) متعلّق بـ (أذنت) " 2 " ، ونائب الفاعل للمجهول (حقّت) ضمير يعود على السماء وذلك

---

(1) أو ما في معناه ، وقيل : الجواب هو فملاقيه أي فأنت ملاقيه ، في الآية (6) من هذه السورة .

(2) أذنت لربّها : استمعت وأطاعت .

بحذف مضاف أي حقّ سمعها وطاعتها " 1 " ، (الأرض) فاعل لفعل محذوف تقديره انبسطت (فيها) متعلّق بمحذوف صلة ما ، والضمير في (حقّت) الثاني يعود على الأرض .

جملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " (انشقّت) السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انشقّت (المذكورة) " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " أذنت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فعل الشرط .

وجملة : " حقّت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة فعل الشرط .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الابتداء .

وجملة : " (انبسطت) الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " مدّت . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " ألقت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة انبسطت .

وجملة : " تخلّت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ألقت .

وجملة : " أذنت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تخلّت .

وجملة : " حقّت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أذنت .

الصرف :

(ألقت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، حذفت لام الفعل قبل تاء التأنيث وزنه أفعت .

---

(1) أو أن السماء جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد فلا حاجة لتقدير مضاف .

(تخلّت) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، حذفت لام الفعل قبل تاء التأنيث وزنه تفعّت .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ . . . " .

حيث شبه حال الأرض بحال المرأة الحامل ، تلقي ما في بطنها عند الشدة والهول ، ثم حذف المشبه به ، واستعار لفظ الإلقاء .

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ . . . " .

حيث شبّهت حال السماء في انقيادها لتأثير قدرة اللّه تعالى حيث أراد ، بانقياد المستمع المطيع للأمر ، ثم حذف المشبه به ، وأستعير لفظ الإذن والاستماع المستعمل في غايته .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 6 إلى 15]

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (7)
فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8) وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ
وَراءَ ظَهْرِهِ (10)
فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (11) وَيَصْلى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ
أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15)

الإعراب :

(أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الإنسان) بدل من أيّ – أو عطف بيان عليه – تبعه في الرفع لفظا (إلى ربّك) متعلّق بـ (كادح) بحذف مضاف أي إلى لقاء ربّك (كدحا) مفعول مطلق

(297/809)

منصوب (الفاء) عاطفة (ملاقيه) معطوف على كادح مرفوع " 1 " .

جملة : " النداء : أيّها الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّك كادح . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

7 – 9 (الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (كتابه) مفعول به منصوب (بيمينه) متعلّق بـ (أوتي) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (سوف) حرف استقبال (حسابا) مفعول مطلق منصوب (إلى أهله) متعلّق بـ (ينقلب) ، (مسرورا) حال منصوبة من فاعل ينقلب وجملة : " من أوتي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " أوتي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة : " يحاسب . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ينقلب . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة يحاسب .

10 - 15 (الواو) عاطفة (من أوتي كتابه) مثل الأولى (وراء) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (أوتي) ، (ثبورا) مفعول به منصوب ومثله (سعيرا) ، (في أهله) متعلّق بـ (مسرورا) ، (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمها محذوف أي أنّه .

والمصدر المؤوّل (أن لن يحور . .) معطوفة على سدّ مسدّ مفعولي ظنّ .

(بلى) حرف جواب لإيجاب المنفيّ (به) متعلّق بـ (بصيرا) .

وجملة : " من أوتي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من أوتي (الأولى) .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره أنت ، والجملة لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء إنّك كادح .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . . ويجوز أن تكون الجملة صلة (من) إذا أعرب موصولا ، وجملة سوف يحاسب هي الخبر بزيادة الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط .

وجملة : " أوتي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " سوف يدعو . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يصلى . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة يدعو .

وجملة : " إنّه كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان في أهله . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّه ظنّ . . . " لا محلّ لها تعليل آخر . . .

وجملة : " ظنّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) .

---

(1) راجع الصفحة السابقة حاشية رقم (2) .

وجملة : " لن يحور . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

وجملة : " إنّ ربّه كان . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر بعد بلى ، أي بلى يرجع إلى اللّه لأن ربّه كان به بصيرا .

وجملة : " كان به بصيرا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثالث) .

الصرف :

(6) كادح : اسم فاعل من الثلاثيّ كدح ، وزنه فاعل .

(كدحا) ، مصدر سماعيّ لفعل كدح باب فتح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(8) مسرورا : اسم مفعول من الثلاثيّ سرّ ، وزنه مفعول .

(11) يصلى : فهي إعلال بالقلب ، أصله يصلي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 16 إلى 19]

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لا) زائدة (بالشفق) متعلّق بـ (أقسم) ،

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة ، (ما) مصدرية " 1 " ، (إذا) ظرف في محلّ نصب مجرّد من الشرط متعلّق بـ (أقسم) ، (اللام) لام القسم (تركبنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (عن طبق) متعلّق بنعت لـ (طبقا) . .

والمصدر المؤوّل (ما وسق) في محلّ جرّ معطوف على الشفق .

جملة : " لا أقسم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " وسق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) " 2 " .

وجملة : " اتسق . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تركبنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

الصرف :

(16) الشفق : اسم لاختلاط ضوء النهار بسواد الليل بعد الغروب ، أو اسم للحمرة التي ترى في الأفق بعيد المغرب .

(18) اتّسق : فيه إبدال الواو – فاء الكلمة – تاء لمجيئها قبل تاء الافتعال ، والأصل اوتسق ، وزنه افتعل .

---

(1) أو اسم موصول ، أو نكرة موصوفة ، في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي وسقه . .

(2) أو صلة الموصول الاسميّ ، أو في محلّ جرّ نعت للنكرة الموصوفة (ما) .

---

(19) طبقا : اسم بمعنى الحال وزنه فعل بفتحتين .

الفوائد :

– عن :

وترد على ثلاثة أوجه :

1 – أحدها : أن تكون حرفا جارا ، وجميع ما ذكر لها عشرة معان :

1 – المجاوزة : مثل : (سافرت عن البلد) و(رميت السهم عن القوس)

2 – البدل : كقوله تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً) ، وفي الحديث (صومي عن أمك) .

3 – الاستعلاء : كقوله تعالى (فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) .

4 – التعليل : كقوله تعالى (وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ) .

5 – مرادفة (بعد) نحو قوله تعالى (عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ) وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ) .

6 – الظرفية : كقول الأعشى ميمون بن قيس :

وآس سراة الحي حيث لقيتهم ولا تك عن حمل الرباعة وانيا

الرباعة : نجوم الحمالة ، قيل إن ونى لا يتعدى إلا (بفي) بدليل قوله تعالى (وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي) .

7 – مرادفة (من) كقوله تعالى (هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ) 8 – الاستعانة : مثل (رميت عن القوس) لأنه يقال (رميت القوس) .

9 – أن تكون زائدة للتعويض عن أخرى محذوفة ، كقول الشاعر :

أتجزع أن نفس أتاها حمامها فهلا التي عن بين جنبيك تدفع

قال ابن جني : أراد فهلا تدفع عن التي بين جنبيك ، فحذفت عن من أول الموصول وزيدت بعده .

(301/809)

---

10 - أن تكون بمعنى الباء ، نحو قوله تعالى : (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى) أي : بالهوى 2 - الوجه الثاني : أن تكون حرفا مصدريا ، وذلك أن بني تميم يقولون في نحو أعجبني أن تفعل : (عن تفعل) 3 - الوجه الثالث : أن تكون أسماء بمعنى جانب ، كقول قطري بن الفجاءة :

فلقد أراني للرماح دريئة من عن يميني مرة وأمامي

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 20 إلى 21]

فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لهم) متعلّق بخبر ما (لا) نافية (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (قرئ) ، (لا) مثل الأولى . .

جملة : " ما لهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كان هذا أمرهم يوم القيام فما

لهم لا يؤمنون . .

وجملة : " لا يؤمنون . . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب في (لهم) .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يؤمنون .

وجملة : " قرئ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا يسجدون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 22 إلى 25]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بعذاب) متعلّق بـ (بشّرهم) ، (إلّا) للاستثناء (الذين) موصول في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (أجر) ، (غير) نعت لأجر مرفوع . .

---

(1) أو اسم موصول ، أو نكرة موصوفة في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي يوعونه .

والمصدر المؤوّل (ما يوعون . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) بمعنى عالم .

جملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يكذّبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " اللّه أعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 1 " .

وجملة : " يوعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) " 2 " .

وجملة : " بشّرهم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن استمرّوا في كذبهم فبشّرهم . . .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " لهم أجر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " .

الصرف :

(23) يوعون : ماضيه أوعى الشيء أي وضعه في الوعاء وهنا بمعنى يضمرون ، وفي الفعل إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف أصله يوعيون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الضمّة إلى العين قبلها – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقائها

ساكنة مع واو الجماعة - إعلال بالحذف - وزنه يفعون بضمّ الياء والعين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 279. 287﴾

---

(1) أو في محلّ نصب حال.

(2) أو صلة الموصول الاسميّ . . أو في محلّ جرّ نعت للنكرة، والعائد فيهما محذوف أي يوعونه.

(3) إذا أعربت (إلّا) بمعنى لكن فالموصول مبتدأ وجملة لهم أجر خبره.

(303/809)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(84) سورة الانشقاق

مكيّة وآياتها خمس وعشرون

[سورة الانشقاق (84): الآيات 1 إلى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ (4)

وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ (5) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8) وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (9)

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً (11) وَيَصْلى سَعِيراً (12) إِنَّهُ كانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14)

بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً (15)

اللغة :

(وَأَذِنَتْ) استمعت أمره يقال أذنت لك أي استمعت كلامك ، وفي الحديث : " ما أذن اللّه لشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن " وقال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وفي المختار : " وأذن له استمع وبا به طرب ومنه قوله تعالى :

وأذنت لربها وحقّت " ويقال : أذن يأذن أذنا إليه وله استمع له معجبا أو عام ولرائحة الطعام اشتهاه وأذن بالشيء كسمع إذنا بالكسر ويحرّك وأذانا وأذانة علم به ، فأذنوا بحرب أي كونوا على علم وآذنه الأمر وبه أعلمه وأذّن تأذينا أكثر الإعلام وفلانا عرك أذنه ورده عن الشرب فلم يسقه والنعل وغيرها جعل لها أذنا ، وفعله بإذني وأذيني : بعلمي ، وأذن له في

الشيء كسمع إذنا بالكسر وأذينا أباحه له ، واستأذنه : طلب منه الإذن إلى آخر هذه المادة العجيبة .

(304/809)

(كادِحٌ) جاهد في عملك والكدح جهد النفس في العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه وفي المختار : " الكدح العمل والسعي والكد والكسب وهو الخدش أيضا وباب الكل قطع وقوله تعالى : إنك كادح إلى ربك أي ساع وبوجهه كدوح أي خدوش وهو يكدح لعياله ويكتدح أي يكتسب " ومن طريف أمر الكاف والدال إذا وقعا فاء وعينا للكلمة دلّت على الجهد والدأب والتأثير يقال فلان كدود : يكدّ نفسه في العمل ويتعبها . ومن المجاز كدّ لسانه بالكلام وقلبه بالفكر وكدّت الدواب الأرض بالحوافر وهي الكديد وكردت رأسي وجلدي بالأظفار إذا حككته حكا بإلحاح ومنه قول كثير :

غنيت فلم أردد كم عن بغيّة وجعت فلم أكدد كم بالأصابع

أي لم ألح عليكم في السؤال وبئر كدود لا ينال ماؤها إلا بجهد وناقة كدود ورجل كدود : لا ينال درّها وخيره إلا بعد عسر ، وكان ابن هبيرة يقول : كدوني فإني مكد أي سلوني فإني أعطي على السؤال ، وكدر الماء عن ابن الأعرابي فيه اللغات الثلاث وماء أكدر وكدر بين

الكدر ومن المجاز كدر عينه وتكدر وخذ ما ضفا ودع ما كدر وكدر عليّ فلان وهو كدر الفؤاد عليّ قال :

وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

وله كدس من الطعام وأكداس قال المتلمس :

لم تدر بصرى بما آليت من قسم ولا دمشق إذا ديس الكداديس

أراد الأكداس وهو اسم جمع وكدس الطعام فتكدس ولا يخفى ما فيه من الثقل والجهد .

وكدمه عضّه بأدنى الفم وحمار مكدّم معضض .

وإنه لذو كدنة وعبالة وهي غلظ وثقله ومنه الكودن وهو البرذون التركي .

وأكدى الحافر بلغ الكدية وهي صلابة الأرض فمنعته كقولهم أجبل الحافر ، ومن المجاز أكدى الرجل : أخفق ولم يظفر بحاجته وفلان مكد لا ينمى ماله إلى آخر ما جاء من هذه المادة .

(ثُبُوراً) الثبور الهلاك وفي المصباح : " وثبر اللّه الكافر ثبورا من باب قعد أهلكه وثبر هو ثبورا هلك يتعدى ولا يتعدى " .

(يَحُورَ) يرجع ، قال الراغب : الحور التردد في الأمر ومنه نعوذ باللّه من الحور بعد الكور أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه ومحاورة الكلام مراجعته ، والحور العود الذي تجري فيه البكرة لترددها عليه ، وفي المختار : " حار رجع وبابه قال ودخل " فالمصدر بوزن قول ودخول يقال حورا وحؤورا ومحارا ومحارة . هذا وتأتي حار بمعنى صار فترفع الاسم وتنصب الخبر .

الإعراب :

(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ) إذا ظرف لما يستقبل من

الزمن والسماء فاعل بفعل محذوف يفسّره ما بعده والتقدير إذا انشقّت السماء انشقت لأن إذا الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية وما جاء من هذا ونحوه فمؤول محافظة على قاعدة الاختصاص وقد تقدم القول مفصلا فيه في سورة التكوير ، وجملة انشقت مفسّرة لا محل لها وجملة انشقت المحذوفة في محل جر بإضافة الظرف إليها وجواب إذا محذوف وإنما حذف تنبيها على أنه شيء لا يحيط به الوصف أو ليذهب المقدّر كل مذهب وقيل جوابها ما دلّ عليه فملاقيه أي إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه وقيل لا جواب لها

إذ هي قد نصبت باذكر نصب المفعول به فليست شرطا ، والواو حرف عطف وأذنت فعل ماض ولربها متعلقان بأذنت أي استمعت له وحقّت فعل ماض مبني للمجهول ، واعلم أن الفاعل في هذا التركيب هو اللّه تعالى أي حقّ اللّه عليها ذلك أي سمعه وطاعته يقال هو حقيق بكذا وتحقق به والمعنى وحقّ لها أن تفعل ذلك فالفاعل إذن محذوف وهو اللّه تعالى والمفعول به هو سمعها وطاعتها وهو غير مذكور بل الإسناد في الآية إنما هو للسماء نفسها فيحتاج إلى تقدير والتقدير وحقّت هي أي حقّ سمعها وطاعتها أي حقّه اللّه تعالى عليها وأوجبه وألزمها به هذا هو الظاهر ، وأجاز البيضاوي أن يكون نائب الفاعل هو ضمير السماء المستكن في الفعل من غير تقدير ونص عبارته " وحقّت أي جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد " (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ) عطف على ما تقدم مماثل له في إعرابه (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ) يا حرف نداء وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه والإنسان بدل وإن واسمها وكادح خبرها وإلى ربك متعلقان بكادح ، و" إلى " هنا معناها الغاية أي غاية كدحك في الخير والشر تنتهي بلقاء ربك وهو الموت ، وكدحا مفعول مطلق و

الفاء حرف عطف وملاقيه عطف على كادح ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوف أي فأنت ملاقيه

فعلى الأول يكون من عطف المفرد على المفرد وعلى الثاني يكون من باب عطف الجمل (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) الفاء استئنافية وأما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول مبتدأ وجملة أوتي صلة لا محل لها ونائب الفاعل مستتر يعود على من وكتابه مفعول به ثان وبيمينه متعلقان بأوتي (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً) الفاء رابطة لجواب أما وسوف حرف استقبال ويحاسب فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وحسابا مفعول مطلق ويسيرا نعت حسابا (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً) الواو حرف عطف وينقلب فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو وإلى أهله متعلقان بينقلب ومسرورا حال وجملة سوف يحاسب خبر من (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً) عطف على الجملة السابقة مماثل له في إعرابه ووراء ظهره منصوب بنزع الخافض أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره والفاء رابطة وجملة سوف يدعو ثبورا خبر من وثبورا مفعول يدعو أي ينادي هلاكه بقوله يا ثبوراه لأن نداء ما لا يعقل يراد به التمنّي فالدعاء بمعنى الطلب بالنداء (وَيَصْلَى سَعِيراً) عطف على يدعو وسعيرا مفعول يصلّى (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً) تعليل لما يلاقيه وإن واسمها وجملة كان خبرها وفي أهله حال ومسرورا خبر كان (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) تعليل ثان وإن واسمها وجملة ظن خبرها والظن

هنا بمعنى العلم والتيقن وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويحور فعل مضارع منصوب بلن وجملة لن يحور خبر أن وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي ظن (بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً) بلى حرف جواب لإيجاب ما بعد النفي وإن و

(308/809)

اسمها وجملة كان خبرها وبه متعلقان ببصيرا وبصيرا خبر كان وجملة إن وما في حيّزها جواب قسم مقدّر أو تعليل لما أفادته بلى من إيجاب لما بعد لن .

البلاغة :

1- في قوله " وأذنت لربها وحقّت " استعارة مكنيّة فقد شبّهت حال السماء في انقيادها لتأثير قدرة اللّه تعالى حيث أراد انشقاقها بانقياد المستمع المطواع للأمر ثم حذف المشبه به واستعير لفظ الإذن والاستماع المستعمل في غايته .

2- في قوله " وألقت ما فيها وتخلت " استعارة مكنية فقد شبّهت حال الأرض بحال المرأة الحامل تلقي ما في بطنها عند الشدّة والهول ثم حذف المشبه به واستعير لفظ الإلقاء .

[سورة الانشقاق (84) : الآيات 16 إلى 25]

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (19) فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20)

وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

اللغة :

(الشفق) قال الزمخشري " الشفق الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه

البياض وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه . وسمي شفقا لرقته ومنه الشفقة على الإنسان وهي رقة القلب عليه " وقال الراغب : " الشفق اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس والإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وإذا عدّي بعلى فمعنى العناية فيه أظهر "

وقال السمين : " والشفق شفقان : الشفق الأحمر والشفق الأبيض والشفق والشفقة اسمان للاشفاق " وقال أبو حيان : " الشفق الحمرة بعد مغيب الشمس حين تأتي صلاة العشاء الآخرة قيل أصله من رقة الشيء يقال شيء مشفق أي لا يتماسك لرقته ومنه أشفق عليه رقّ قلبه والشفقة الاسم من الشفاق وكذلك الشفق قال الشاعر :

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم "

وعبارة القاموس : " الشفق محركة الحمرة في الأفق من الغروب إلى العشاء الآخرة أو إلى قربها أو إلى قريب العتمة " وهذا هو الصحيح ، ومنه قول الشاعر :

قم يا غلام أعنّي غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق

(وَسَقَ) جمع وضم يقال وسقه فانشق واستوسق ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين اتسع واستوسع وفي القاموس : " وسقه يسقه من باب ضرب جمعه وحمله ومنه والليل وما وسق " .

(اتَّسَقَ) اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة ، قال الفراء " وهو امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر " وهو افتعل من الوسق وهو الضم والجمع كما تقدم وأمر فلان متسق أي مجتمع على ما يسر .

الإعراب :

(فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ) الفاء الفصيحة لأنها في جواب شرط مقدم أي إذا عرفت هذا أو إذا تحققت الرجوع بالبعث فلا أقسم وقد تقدم القول في لا أقسم فجدّد به عهدا ، وبالشفق متعلقان بأقسم والليل عطف على الشفق والواو حرف عطف وما يجوز أن تكون موصولة اسمية ويجوز أن تكون نكرة موصوفة ويجوز أن تكون مصدرية وعلى كونها موصولة أو نكرة موصوفة فعائد الصلة أو الصفة محذوف أي وسقه أي جمعه والمعنى ضم ما كان ساربا بالنهار من أصناف الخلق وأنواع الكائنات لأن كل شيء منها في الليل يعود إلى مأواه ، والقمر عطف أيضا وإذا ظرف خال من معنى الشرط متعلق بفعل القسم أي وقت اتّساقه واستوائه واللام جواب القسم وتركبن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال لأنه من الأفعال الخمسة والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون نون التوكيد الثقيلة وطبقا حال أو مفعول به وعن طبق أي أمة من الناس صفة لطبقا أي طبقا مجاوزا الطبق وعلى كون طبقا مفعولا به يكون على حذف مضاف أي لتركبن سنن أو طريقة طبقة بعد طبق ، وعبارة الزمخشري : " فإن قلت ما محل عن طبق ؟

قلت : النصب على أنه صفة لطبقا أي طبقا مجاوزا لطبق أو حال من الضمير في لتركبن أي لتركبن طبقا مجاوزين لطبق أو مجاوزا أو مجاوزة على حسب القراءة " وقال الزمخشري

أيضا : " قرىء لتركبن على خطاب الإنسان في يا أيها الإنسان ولتركبن بالضم على خطاب الجنس لأن النداء للجنس ولتركبن بالكسر على خطاب النفس وليركبن بالياء على ليركبن الإنسان والطبق : ما طابق غيره يقال : ما هذا بطبق لذا أي لا يطابقه ومنه قيل للغطاء الطبق وإطباق الثرى ما تطابق منه ثم قيل للحال

(311/809)

المطابقة لغيرها طبق ومنه قوله عزّ وجلّ : طبقا عن طبق ، أي حالا بعد حال كل واحدة مطابقة لأختها في الشدّة والهول ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة من قولهم هو على طبقات ومنه طبق الظهر لفقاره الواحدة طبقة على معنى لتركبنّ أحوالا بعد أحوال هي طبقات في الشدّة بعضها أرفع من بعض وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها " قلت ومن ورود الطبق بمعنى الأمة قول العباس بن عبد المطلب في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق

(فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) الفاء الفصيحة وما اسم استفهام مبتدأ ولهم خبر وجملة لا يؤمنون حال

(وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ) الجملة معطوفة على الجملة الحالية السابقة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قرىء في محل جر بإضافة الظرف إليها والقرآن نائب فاعل وجملة لا يسجدون لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ) حرف إضراب انتقالي والذين مبتدأ وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الذين وجملة يكذبون خبر الذين (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ) الواو حرف عطف والله مبتدأ واعلم خبره وبما متعلقان بأعلم وجملة يوعون لا محل لها لأنها صلة ما أي يضمرون في قلوبهم من التكذيب (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ) فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبعذاب متعلقان ببشرهم وأليم نعت (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) إلا حرف استثناء والاستثناء منقطع فهو بمعنى لكن والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على الصلة داخل في حيّزها ولهم خبر مقدّم وأجر مبتدأ مؤخر وغير ممنون نعت أي غير مقطوع ولا منقوص والجملة الاسمية خبر الذين ،

(312/809)

هذا ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا فيكون الذين مستثنى .

البلاغة :

في قوله " والليل وما وسق والقمر إذا اتسق " فن الالتزام أو لزوم ما لا يلزم ، ومنهم من يسمّيه الاعنات وقد تقدمت الإشارة إليه وهو أن يلتزم الشاعر في شعره والناثر في نثره حرفا أو حرفين فصاعدا قبل حرف الروي على قدر طاقته مشروطا بعدم الكلفة ، وقلنا أن لأبي العلاء المعري ديوانا التزم فيه ما لا يلزم . أما في الآية فقد التزمت النون قبل القاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 419.428 ﴾

(313/809)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العاشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/810)

الجزء العاشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة البروج)

(4/810)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة البروج)

(5/810)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة البروج

مقصودها الدلالة على القدرة على مقصود الانشقاق الذي هو صريح آخرها من تنعيم الولي وتعذيب الشقي بمن عذبه في الدنيا ممن لا يمكن في العادة أن يكون عذابه ذلك إلا من الله وحده تسلية لقلوب المؤمنين وتثبيتا لهم على أذى الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 376 ﴾

(6/810)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والسماء ذات البروج)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها اثنتان وعشرون .

وكلماتها مائة وتسع .

وحروفها أَربعمائة وثمان وخمسون .

وفواصل آياتها (قرط ظب جدّ) .

سمّيت سورة البروج ؛ لذكرها فى أَوّلها .

معظم مقصود السّورة : القَسَم على أَصحاب الأخدود ، وكمال ملكة المِلك المعبود ، وثواب المؤمنين فى جِوار المقام المحمود ، وعذاب الكافرين فى الجحيم المورود ، وما للمطيع والعاصى من كرم الغفور الودود ، والإِشارة إِلى هلاك فرعون وثمود .

والسّورة محكمة بكمالها .

متشابه سورة البروج :

قوله : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (ذلك) مبتدأ ، و (الفوز) خبره .

و(الكبير) صفته .

وليس فى القرآن نظيره .

فضل السّورة

فيه حديث أُبى : من قرأَها فله (بكلّ يوم الجمعة وكل يوم عرفة) يكون فى دار الدّنيا عشرُ حسنات ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها كتب الله له بكلّ نجم فى السّماءِ عشر

حسنات ، ورَفَع له عشر درجات ، وكأَنَّما صام بكل آية قرأَها عشرة أَيام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 510. 511 ﴾

(7/810)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة البروج

روى أحمد عن أبي هريرة : (أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج) . وهذا ظاهر في أنها تسمى سورة (السماء ذات البروج) لأنه لم يحك لفظ القرآن ، إذ لم يذكر الواو .

وأخرج أحمد أيضاً عن أبي هريرة : (أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمرَ أن يُقرأ في العشاء بالسماوات) ، أي السماء ذات البروج والسماء والطارق فمجمعها جمع سماء وهذا يدل على أنّ اسم السورتين : سورة السماء ذات البروج ، سورة السماء والطارق . وسميت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير (سورة البروج) .

وهي مكية باتفاق .

ومعدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السور ، نزلت بعد سورة (والشمس وضحاها) وقبل سورة (التين) .

وآيها اثنتان وعشرون آية .

من أغراض هذه السورة

ابتدئت أغراض هذه السورة بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مِثلُ قوم فتنوا فريقاً ممن آمن بالله فجعلوا أخدوداً من نار لتعذيبهم ليكون المثَل تثبيتاً للمسلمين وتصبيراً لهم على أذى المشركين وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإِيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثله ولم يصدهم ذلك عن دينهم .

(8/810)

وإشعار المسلمين بأن قوة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر .

والتعريض للمسلمين بكرامتهم عند الله تعالى .

وضرب المثل بقوم فرعون وثمود وكيف كانت عاقبة أمرهم ما كذَّبوا الرسل ، فحصلت

العبرة للمشركين في فتنهم المسلمين ، وفي تكذيبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتنويه بشأن القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 236. 237 ﴾

(9/810)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة البروج

هذه السورة القصيرة تعرض , حقائق العقيدة , وقواعد التصور الإيماني . . أمورا عظيمة وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى , وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية – وأحيانا كل كلمة في الآية – أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة . .

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود . .

والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام – قيل إنهم من النصارى الموحدين – ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين , وأرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم , فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقا في الأرض , وأوقدوا فيه النار , وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا , على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون

لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة , ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين: (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) . .

تبدأ السورة بقسم: (والسماء ذات البروج , واليوم الموعود , وشاهد ومشهود , قتل أصحاب الأخدود . .) فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة , واليوم الموعود وأحداثه الضخام , والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه . . تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع في لمحات خاطفة , تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل . . مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها , وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها , وارتفعت إلى الأوج الذي يشرف الإنسان في أجياله جميعا . والتلميح إلى بشاعة الفعلة , وما يكمن فيها من بغي وشر وتسفل , إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين: (النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) . .

(10/810)

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة في شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيماني الأصيل:

إشارة إلى ملك الله في السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع في السماوات والأرض: الله (الذي له ملك السماوات والأرض . والله على كل شيء شهيد) . .

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الطغاة الفجرة السفلة ; وإلى نعيم الجنة . . ذلك الفوز الكبير . . الذي ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة , وارتفعوا على فتنة النار والحريق: (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير) . .

وتلويح ببطش الله الشديد , الذي يبدئ ويعيد: (إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد) . . وهي حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التي أزهقت في الحادث , وتلقي وراء الحادث إشعاعات بعيدة . .

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعني أمرا . .

(وهو الغفور الودود) الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح !

(ذو العرش المجيد . فعال لما يريد) . . وهي صفات تصور الهيمنة المطلقة, والقدرة المطلقة, والإرادة المطلقة . . وكلها ذات اتصال بالحادث . . كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة, وهم مدججون بالسلاح . . (هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ؟) وهما مصرعان متنوعان في طبيعتهما وآثارهما . ووراءهما - مع حادث الأخدود - إشعاعات كثيرة .

وفي الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون: (بل الذين كفروا في تكذيب . والله من ورائهم محيط) . .

(11/810)

ويقرر حقيقة القرآن, وثبات أصله وحياطته: (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) . . مما يوحي بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير, في كل الأمور .

هذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3871.3872﴾

(12/810)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة البروج

مكية وآياتها اثنان وعشرون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية ، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة (أصحاب الأخدود) وهي قصة التضحية بالنفس ، في سبيل العقيدة والإيمان

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ، ومداراتها الضخمة ، التي تدور فيها تلك الأفلاك ، وباليوم العظيم المشهود وهو " يوم القيامة " ، وبالرسل والخلائق ، على هلاك ودمار المجرمين ، الذين طرحوا المؤمنين في النار ، ليفتنوهم عن دينهم [والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود] الآيات

* ثم تلاها الوعيد والإنذار ، لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة [إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق

* وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الإنتقام من أعدائه الكفرة ، الذين فتنوا عباده

وأولياءه إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد]

* وختمت السورة الكريمة بقصة الطاغية الجبار " فرعون " وما أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان [هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط] إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 540 ﴾

(13/810)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة البروج

البروج : واحدها برج ، ويطلق على الحصن والقصر العالي وعلى أحد بروج السماء الاثني عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ، فيسير القمر فى كل برج منها يومين وثلث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوما ثم يستتر ليلتين ، وتسير الشمس فى كل برج منها شهرا ، ستة منها فى شمال خط الاستواء وستة فى جنوبه فالتى فى شماله هى :

الحمل والثور والجوزاء والسّرطان والأسد والسّنبلة ، والتي فى جنوبه هى الميزان والعقرب والقوس والجدى والدّلو والحوت . وتقطع الثلاثة الأولى فى ثلاثة أشهر أوّلها اليوم العشرون من شهر مارس ، وهذه المدة هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الحادي والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هى فصل الصيف ، وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا ، أولها اليوم الثاني والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة هى فصل الخريف ، وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثاني والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء ، واليوم الموعود : هو يوم القيامة ، لأن اللّه قد وعد به ، والشاهد والمشهود : جميع ما خلق اللّه تعالى فى هذا العالم ، فإن كل ما خلقه شاهد على جليل قدرته وعظيم حكمته .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

وهو مشهود أيضا لكل ذى عينين ، والأخدود : الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود : قوم كافرون ذوو بأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فغاظهم إيمانهم فحملوهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا فى الأرض وحشوه بالنار وألقوهم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق يشهدون الإحراق وما نقموا منهم : أي ما عابوا عليهم ، العزيز : أي الذي لا تغلب قوته ، الحميد : أي الذي يحمد على كل حال .

فتنوا : أي ابتلوا وامتحنوا ، عذاب الحريق : هو عذاب جهنم ذكر تفسيرا وبيانا له ، الفوز الكبير : أي الذي تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لا تفنى .

البطش : الأخذ بالعنف والشدة ، يبدئ ويعيد : أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى ، ليجازيهم بما عملوا فى حياتهم الأولى ، الغفور : أي الذي يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته ، الودود : أي الذي يحب أولياءه ويتودّد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم ، ذو العرش : أي صاحب الملك والسلطان والقدرة النافذة ، المجيد : أي السامي القدر المتناهي فى الجود والكرم ، تقول العرب : " فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار " : أي تناهيا فى الاحتراق حتى يقتبس منهما .

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء اللّه واجتمعوا على أذاهم ، فرعون : هو طاغية مصر ، ثمود : قبيلة بائدة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه اللّه علينا ، محيط : أي هم فى قبضته وحوزته كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك ، مجيد : أي شريف محفوظ : أي مصون من التحريف ، والتغيير والتبديل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 97.106 ﴾ . باختصار .

وقال الفراء :

سورة (البروج)

﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . . . ﴾ .

اختلفوا فى البروج ، فقالوا : هى النجوم ، وقالوا : هى البروج التى تجرى فيها الشمس والكواكب المعروفة: اثنا عشر برجاً ، وَقالوا : هِى قصور فى السماءِ ، والله أعلم بصواب ذلك .

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾

وقول جل وَعز: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . . . ﴾ .

ذكروا أنه القيامة ، ﴿ وَشَاهِدٍ . . . ﴾ يوم الجمعة ، ﴿ وَمَشْهُودٍ . . . ﴾ يوم عرفة ، وَيقال: الشاهد أيضاً يوم القيامة ، فكأنه قال: واليوْم الموعوْد وَالشاهد ، فيجعلُ الشاهد من صلة الموعود ، يتبعه فى خفضه .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . . . ﴾ .

يقال فى التفسير: إن جواب القسم فى قوله: "قُتِلَ" ، كما كان جواب ﴿ وَالشّمسِ وَضُحَاها ﴾ فى قوله ! ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ : هذا فى التفسير ، ولم نجد العرب تدع القسم بغير لام يُسْتَقْبَل بها أو "لا" أو "إن" أو "ما" فإن يكن كذلك فكأنه مما ترك فيه الجواب: ثم استؤنف موضع الجواب بالخير ، كما قيل: يأيها الإنسان فى كثير من الكلام .

وقوله جل وعز: ﴿ الأُخْدُودِ . . . ﴾ .

كان مالك خدّ لقوم أخاديد فى الأرض ، ثم جمع فيها الحطب ، وألهب فيها النيران ، فأحرق بها قوما وقعد الذين حفروها حولها ، فرفع الله النار إلى الكفرة الذين حفروها فأحرقتهم ، ونجا منها المؤمنون ، فذلك قوله عز وجل: ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ فى الدنيا . ويقال: إنها أحرقت من فيها ، ونجا الذين فوقها .

(16/810)

واحتج قائل هذا بقوله: ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ، والقول الأول أشبه بالصواب ، وذلك لقوله: ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ولقوله فى صفة الذين آمنوا ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ ، يقول: فازوا من عذاب الكفار ، وعذاب الآخرة ،

فأكْبِر به فوزا .

وقوله عز وجل: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . . . ﴾ .

يقول: قتلهم النار ، ولو قرئت: "النارُ ذاتُ الوَقُودِ" ، بالرفع كان صوابا ، وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلْمّى ، ﴿ وكَذَلِكَ زَيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهم ﴾ . رفع الشركاء بإعادة الفعل: زينه لهم شركاؤهم . كذلك قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ قتلتهم النار ذات الوقود . ومن خفض: "النارِ ذاتِ الْوَقُودِ" وهى فى قراءة العوام ـ جعل النار هى الأخدود إذ كانت النار فيها كأنه قال: قتل أصحاب النار ذات الوقود .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ . . . ﴾ .

خفضه يحيى وأصحابه .

وبعضهم رفعه جعله من صفة الله تبارك وتعالى . وخفْضُه من صفة العرش ، كما قال: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ فوصف القرآن بالمَجَادة .

وكذلك قوله: ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

من خفض جعله من صفة اللوح ، ومن رفع جعله للقرآن ، وقد رفع المحفوظ شيبة ، وأبو جعفر المدنيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 252 ـ 254 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (البروج)

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾

موضع قسمها – والله أعلم – على ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ أضمر اللام كما قال ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ يريد ان شاء الله "لَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" والقى اللام . وان شئت على التقديم كأنه قال ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [1] وقال بعضهم ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [12] .

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾

وأما قوله ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ فعلى البدل .

وأما ﴿ الْوَقُودِ ﴾ فالحطب و"الوُقُودُ" الفِعل وهو "الاتّقاد" .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾

وقال ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ فـ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ جرّ على ﴿ الْعَرْشِ ﴾ والرفع على قوله ﴿ ذُو ﴾ وكذلك ﴿ مَّحْفُوظٌ ﴾ جر على "اللَّوْح" ورفع على "القرآن" . انتهى انتهى . اهـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 575.576 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة البروج «1»

1 - الْبُرُوجِ : بروج النجوم ، وهي اثنا عشر برجا .

ويقال : «البروج» : القصور .

2 - والْيَوْمِ الْمَوْعُودِ : يوم القيامة .

3 - وَشاهِدٍ في يوم الجمعة . كأنه أقسم بمن يشهده .

وَمَشْهُودٍ : يوم الجمعة ، ويوم عرفة .

4 - الْأُخْدُودِ : الشقّ [العظيم المستطيل] في الأرض . وجمعه :

«أخاديد» «2» .

وكان رجل من الملوك خدّ لقوم في الأرض أخاديد ، وأوقد فيها نارا ، ثم ألقي قوما من

المؤمنين في تلك الأخاديد .

10 - فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ أي عذبوهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ

448 ﴾

---

(1) هي مكية. وتسمى سورة والسماء ذات البروج.

(2) قال مجاهد: الأخدود شق في الأرض. [. . . . . .]

(19/810)

وقال الغزنوى:

[سورة البروج]

«الشّاهد» «1»: الملك والرّسول، و«المشهود»/: الإنسان «2». [106/أ]

و«الأخدود» «3»: شقّ في الأرض «4». هبّت نار الأخدود إلى أصحابها

---

(1) في قوله تعالى: وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ [آية: 3].

(2) في معنى «الشاهد»، و«المشهود» اختلاف كثير، وقد ذكر الطبري - رحمه اللّه - في تفسيره: (30/ 128 - 131) الأقوال التي وردت في ذلك، ثم عقّب عليها بقوله: «و الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللّه أقسم بشاهد شهد، ومشهود شهد، ولم يخبرنا مع إقسامه بذلك أيّ شاهد وأيّ مشهود أراد، وكل الذي ذكرنا أن العلماء قالوا: هو المعنى مما يستحق أن يقال: «شاهد ومشهود» اه -.

(3) في قوله تعالى: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ [آية: 4].

(4) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 522 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 307 ، واللسان :

3/ 161 (خدد) .

(20/810)

القعود عليها فأحرقتهم «1» .

22 فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ عن أنس «2» : إنّه على التمثيل ، أي : كأنّ القرآن لحفظ القلوب إياه في لوح محفوظ ، وإلّا فإنّما يحتاج إليه من ينسى .

ويروى «3» : أنّ اللّوح شيء يلوح للملائكة فيعرفون به ما يلقى إليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 871.872 ﴾

---

(1) ينظر خبر أصحاب الأخدود في تفسير الطبري : (30/ 132 - 134) ، وتفسير البغوي :

4/ 467 ، وتفسير ابن كثير : 8/ 388 .

(2) لم أقف على هذا القول المنسوب إلى أنس رضي اللّه تعالى عنه .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 431 ، عن بعض المفسرين ، وكذا القرطبي في

تفسيره : 19/ 299 ، وعزاه الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 126 ، إلى بعض المتكلمين . [. . . . .]

(21/810)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة البروج

عدد 27 - 85

نزلت بمكة بعد سورة والشمس ، وهي اثنتان وعشرون آية ، ومثلها في عدد الآي المجادلة فقط ، ومائة وتسع كلمات ، واربعمائة وخمسة وستون حرفا ، ويوجد سورة الطارق مبدوءة بما بدئت به ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ 1" القصور الاثني عشر ستة منها شمالية ، ثلاثة ربيعية وهي الحمل والثور والجوزاء وابتداء الحمل من الاعتدال الربيعي وثلاثة صيفية : السرطان والأسد والسنبلة وابتداء السرطان من نقطة الانقلاب الصيفي والشمال يسار القبلة ،

وستة جنوبية ثلاثة خريفية وهي الميزان والعقرب والقوس وابتداء الميزان من الاعتدال الخريفي ، وثلاثة شتائية :

(22/810)

الجدي والدلو والحوت وابتداء الجدي من الانقلاب الشتوي والجنوب يمين القبلة فتكون السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم وهي مدة دخول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من تلك البروج ، وكل برج ثلاثون درجة فمجموعها ثلاثمائة وستون درجة ، كل درجة بمقدار أربع دقائق ، ومجموعها أربع وعشرون ساعة وأن الشمس تقطع هذه البروج كلها مرة في السنة كل برج في شهر ، وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمان وعشرين يوما وكسور ، وسيأتي تفصيلها عند تفسير الآية 39 من سورة يس الآتية ومعناها لغة القصر ، والحصن وأصله الأمر الظاهر ثم صار حقيقة للقصر العالي لظهوره ويقال لما ارتفع من سور المدينة برج أيضا وشبهت بالقصور لعلوها ولأن النجوم نازلة فيها والمراد بها هنا اجزاء الفلك الأعظم المسمى بالفلك الأطلس وفلك الأفلاك ، وزعموا أنه العرش بلسان الشرع ، لكنها لم تكن ظاهرة حساد لّوا عليها بما سامتها وقت تقسيم الفلك الأعلى من الصور المعروفة أي الاثني عشر برجا المار ذكرها لأنها في الفلك الثامن المسمى عندهم بفلك

الثوابت أو بالكرسي بلسان الشرع على ما زعموا ، فبرج الحمل مثلا ليس إلا جزءا من أثنى عشر جزءا من الفلك الأعلى سامته صورة الحمل من الثوابت وقت التقسيم وبرج الثور كذلك مسامتة صورة الثور منها في ذلك الوقت أيضا وهكذا وإنما قيل وقت التقسيم لأن كل صورة قد خرجت لحركتها وإن كانت بطيئة عما كانت مسامتة له من تلك البروج حتى كاد يسامت اليوم الحمل برج الثور والثور برج الجوزاء وهكذا ، وطول كل برج ثلاثون درجة وعرضه مائة وثمانون درجة منها تسعون في جهة الشمال ، وتسعون في جهة القبلة .

وقال مجاهد وعكرمة وقتاده المراد بالبروج النجوم .

(23/810)

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه حديثا بلفظ الكواكب وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن أبي صالح أنها النجوم والكواكب العظام والأول أولى وأنسب بالمقام ، وقد أقسم اللّه بها لما فيها من عظيم حكمته ومرور الكواكب السيارة فيها ومسيرها على قدر معلوم لا يختلف أبدا إلى حلول اليوم المعلوم "وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ 2" لخرابها وبعث الخلق وحسابهم وجزائهم "وَشَاهِدٍ" فيه على الأعمال الواقعة من الخلق "وَمَشْهُودٍ 3" فيه من

أهوال وخوارق أقسم اللّه تعالى بيوم القيامة لعظمة ما فيه ، وبأنبيائه الذين يشهدون على أممهم بما وقع منهم قال تعالى : (وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً) الآية 41 من سورة النساء في ج 3 وباليوم المشهود لما فيه من العجائب التي يطلع عليها كافة الخلق قال تعالى :

"فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ" الآية 35 من سورة مريم الآتية وقال تعالى (ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) الآية 103 من سورة هود من ج 2 .

وما قيل ان ذلك اليوم هو يوم الجمعة أو يوم التروية أو يوم عرفه اللّه جل شأنه والمشهود يوم عرفة أو يوم النحر أو آدم عليه السلام لا وجه له ، وسياق النظم ينافيه وكل ما جاء في هذا من الأحاديث لا عبرة بها لأنها لم تثبت بصورة يصح الإحتجاج بها وجواب القسم (قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ 4) الشقوق المستطيلة في الأرض المعمولة لتعذيب الناس ، واعلم أن الذين وصفوا بهذا ثلاثة ولم يعلم المراد به منهم في هذه الآية وهي تنطبق عليهم الأذل أبطاموس الرومي عملها بالشام .

والثاني بختنصر بفارس والثالث دو نواس باليمن إلا أن التي بالشام وفارس لم تشتهر عند العرب .

ت (15)

مطلب قصة أصحاب الأخدود :

وإنما المشهور عندهم حادثة اليمن التي وقعت بنجران وهي أقرب إلى مكة ونزل بها القرآن تذكير لكفار قريش وتسلية لأصحاب الرسول صلّى اللّه عليه وسلم لحملهم على الصبر مما يلاقونه في قومهم وتحمل المشاق في الدين طلبا لزيادة الثواب ، وأصح ما جاء في هذه القصة ما رواه صهيب في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم إليه غلاما ليعلمه السحر لأنه قد يحتاج إليه فيما يتعلق بملكه ورعيته وكان في طريق الغلام عند ما يذهب إلى الساحر راهب فإذا مر به سمع منه فيعجبه كلامه ، فرأى ذات يوم بطريقه دابة حبست الناس فأخذ حجرا وقال اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فضربها فقتلها وصار بعد ذلك مرجعا للناس يبرىء الأكمه والأبرص فعمي جليس الملك فذهب إليه فأبرأه ، فقال له الملك من رد عليك بصرك ؟ فقال ربي ، فغضب من سماع كلمته لزعمه أن لا رب غيره فعذبه وقال له لا أتركك حتى تعلمني من رد عليك بصرك ، فقال الغلام ، فجاء به فعذبه حتى دله على الراهب فجاء به واراده على الرجوع عن دينه إلى دينه ، فلم يفعل ، فقصه بالمنشار ثم كلف الغلام بالرجوع فأبى فأمر عونته ان يطرحوه في ذروة الجبل فأخذوه فرجف بهم الجبل فسقطوا ونجا الغلام ، فأمر الملك ان يوضع في قرقوب ويلقى وسط البحر ، فوضعوه وذهبوا ليقذفوه فانكفأت السفينة فغرقوا ونجا ، ثم جيء به امام الملك ليرى كيف يتمكن من قتله فقال له لا تقدر حتى تجمع

الناس في صعيد واحد وتصلبني على جزع وتأخذ سهما من كنانتي وتقول باسم رب الغلام ثم ترميني ، ففعل فرماه فمات ، فقال الناس آمنا برب الغلام وفي رواية مسلم كررت ثلاثا راجع آخر الجزء الأخير من صحيحه قبل كتاب التفسير ، فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر ، فأمر بحفر أخدود وأضرمها نارا وأتى بالناس واحدا واحدا فمن رجع عن دين الغلام تركه ومن أصر ألقاه فيه وبقي هكذا حتى جيء له بامرأة معها صبي وهي

(25/810)

مصرة على دين الغلام ولما أرادوا طرحها بالأخدود تقاعست فقال لها ابنها لا تتأخري يا أماه فإنك على الحق فصبرت فرماها فيه اه باختصار من الخازن .

وفي هذا الحديث الذي أخرجه مسلم إثبات كرامة الأولياء

وجواز الكذب للمصلحة لأن الغلام كان يتأخر عند الراهب ويقول للساحر تأخرت عند أهلي ، ويقول لأهله تأخرت عند الساحر وفي رواية ابن عباس أن الملك كان بنجران من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل مولد النبي صلّى اللّه عليه وسلم بسبعين سنة وكان الغلام اسمه عبد اللّه ابن ثامر ، وكان أبوه أسلمه إلى الساحر ليعلمه وصار يتردد على الراهب وذكر الحديث ، وذكر منبّه نحوه ، وقال محمد بن اسحق

عن عبد اللّه بن أبي بكر أن خربة احتفرت في زمن عمر فوجدوا فيها عبد اللّه بن ثامر واضعا يده على ضربته في رأسه إذا أميطت عنها انبعثت دما وإذا تركت ارتدت مكانها ، وفي يده خاتم حديد مكتوب عليه ربي اللّه فأعادوا عليه حفرته وما ذلك على اللّه بعزيز .

قال تعالى "النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ 5" بدل من الأخدود ووصفها تعظيما لأمرها وارتفاع لهيبها من الحطب وأجساد الناس "إِذْ هُمْ" الكفرة عونة الملك المأمورون بإلقاء من لم يرجع عن دين الغلام "عَلَيْها" أي الأخدود "قُعُودٌ 6" على شفريها لئلا ينفلت منهم أحد "وَهُمْ" الكفرة المذكورون "عَلى ما يَفْعَلُونَ" من التعذيب والإلقاء "بِالْمُؤْمِنِينَ" الممتنعين عن الكفر "شُهُودٌ" بأنهم لم يفرطوا بما أمرهم به الملك ويشهد بعضهم لبعض بعدم التقصير في تنفيذ أمره "وَما نَقَمُوا" عابوا وكرهوا "مِنْهُمْ" أي المصرين على دين الغلام شيئا ما "إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا" أي غير إيمانهم "بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ 8" وهذا استثناء مفصح عن براءتهم مما يعاب وينكر وينتقد على منهاج قولهم :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(26/810)

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) وما بينهما وما فيهما ، وصف اللّه نفسه المقدسة بكونه عزيزا قادرا غالبا يخشى عقابه وحميدا شكورا منعما يرجى ثوابه ، وبأن له عموم الخلق ملكا وعبيدا ومن كان كذلك وجبت طاعته والإيمان برسله وكتبه (وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ 9) بما فعلوه بالمؤمنين وفيه تهديد ووعيد للكافرين وأمان ووعد للمؤمنين (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ) وأرادوهم على تغيير دينهم وعذبوهم على امتناعهم في الكفر بالأنبياء (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) حال

حياتهم ولم يؤمنوا قبل وفاتهم وماتوا على كفرهم (فَلَهُمْ) في الآخرة (عَذابُ جَهَنَّمَ) لكفرهم باللّه وعدم تصديق رسله (وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ .) لتعذيبهم غيرهم أي أن لهم عذابين قال تعالى "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ" أي المخصص لهم الآية 88 من سورة النحل في ج 2 .

أي عذابا لكفرهم وعذابا لصدهم الناس عن الإيمان وفي هذه الآية .

دليل على أن توبة القاتل مقبولة بالنسبة لعمومها ، وبالنظر لخصوصها لا لأن الإسلام يجب ما قبله تأمل ،

(27/810)

قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ) في دنياهم وما توا لى ذلك (لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذِلِكَ) وعد اللّه فيه (الْفَوْزُ الْكَبِيرُ 11" الذي لا أكبر منه لأنه حق ثابت لكل من هذه صفته ولكل من عذّب لأجل دينه من أهل الأخدود وغيرهم ، راجع تفسير الآية 10 من سورة والليل المارة "إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ 12" قوي جدا لا يضاهيه بطش أبدا ، وهو الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تفاقم فيا ويل الظالمين الجبارين من انتقام اللّه "إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ" خلقهم في الدنيا فيغريهم بالمال والولد ويخدعهم بالجاه والسلطان ويملي لهم بما يشتهون ويؤملون ليختبرهم "وَيُعِيدُ 13" خلقهم ثانيا كما كانوا عليه في الدنيا حتى القلقة يعيدها لموضعها ويعرض عليهم أعمالهم حتى الذرة فما فوقها ليجازيهم "وَهُوَ الْغَفُورُ" كثير المغفرة لمن أراد من عباده وهو "الْوَدُودُ 14" بهم عظيم الحب لأهل طاعته وهو "ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ 15" علوه وعظمته وهيبته ، يقرأ بالرفع على أنه صفة للّه وبالكسر على أنه صفة للعرش "فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ 16" تكوينه في خلقه ورحمة من يريد رحمته وعذاب من يريد تعذيبه ، لا يعجزه شيء ولا يسأل عما يفعل ، ثم ذكر نوعا من شدة بطشه وانه لا يمنعه مانع مما يريد فعله تعالى "هَلْ أَتاكَ" يا حبيبي "حَدِيثُ الْجُنُودِ 17" الذين تحزبوا على رسلهم ضد حقهم وأخص منهم "فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ 18" كيف فعلنا بهم حين تجمعوا على أنبيائهم ، وإنما خصّ قصتهما لتداولها على ألسنة العرب ومعلوميتها عند

أهل مكة لعلهم يتعظون بما حل فيهم ، ويرتدعون عما هم عليه ، ولكنهم لم ينجع بهم ، لذلك أضرب

(28/810)

عن تأميل رسوله بإيمان من لم يقدر له الإيمان من كفرة قومه بقوله "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ 19" مستمر لك ولما جئت به من القرآن كما كذب أولئك رسلهم ولم يعتبر قومك بمن أهلكناهم من الأمم السالفة "وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ 20" قادر على إنزال العذاب بهم مثل من تقدمهم لا يفلت منهم أحد لأنهم في قبضته ولا نجاة لهم من بأسه وهذا هو معنى الإحاطة من محيط ومحاط به وفيها تعويذ للكفرة لأنهم نبذوا اللّه وراء ظهورهم وأقبلوا على شهواتهم واعلم يا سيد الرسل أن الذي تتلوه على قومك ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا هو من تلقاء نفسك ولا من خرافات الأولين ولا مما يتقوله الأقدمون ولا من تعليم الغير

"بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ 21" عظيم الشأن عالي البرهان ثابت عندنا ومدون "فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ 22" من التبديل والتغيير والتحريف والنقص والزيادة وقرىء بالكسر على أنه صفة للوح وبالرفع على أنه صفة للقرآن مثل لفظ المجيد المتقدم في الآية 15 المارة وكلاهما

جائز هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 224. 229 ﴾

(29/810)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة البروج

مكية

شهود تام إن جعل جواب القسم قتل أصحاب الأخدود وجائز لطول الكلام إن جعل جواب القسم إن بطش ربك لشديد كما قيل به والأرض كاف شهيد تام وكذا الحريق الأنهار كاف الكبير تام وما ذكرنا انه تام من هذه الوقف إنما يأتي على قول الأول إما على الثاني فكاف لشديد تام ويعيد صالح المجيد كاف لما يريد تام في تكذيب صالح محيط كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(30/810)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة البروج

مكية اثنتان وعشرون آية إجماعاً وكلمها مائة وتسع كلمات وحروفها أربعمائة وثلاثون حرفاً كحروف الانشقاق

ومشهود (تام) على أنَّ جواب القسم محذوف

شهود (تام) على أنَّ جواب القسم قتل أصحاب الأخدود وحذفت اللام من الجواب أي لقد قتل بناء على أنَّه خبر لادعاء وقيل هو أن الذين فتنوا فالوقف على الحريق قال أبو جعفر وأصح الأجوبة في جواب القسم إنَّ بطش ربك لشديد واختلف في الشاهد والمشهود فقيل الشاهد أعضاء بني آدم والمشهود ابن آدم دليله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقال الحسن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم القيامة وقال ابن المسيب الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة وقيل الشاهد يوم الاثنين والمشهود يوم الجمعة وفيهما نحو من خمسة وعشرين قولاً ليس هذا محل ذكرها

قعود (كاف) ومثله شهود

الحميد ليس بوقف

والأرض (كاف)

شهيد (تام)

عذاب جهنم (حسن)

الحريق (تام)

الأنهار (حسن)

الكبير (تام) على استئناف ما بعده فإن جعل ما بعده جواب القسم لم يوقف على شيء من أوّل السورة إلى هذا الموضع لاتساق الكلام فإن ضاق نفس القارئ عاد من أوّل الكلام ليكون الكلام متصلاً بعضه ببعض

لشديد (تام)

ويعيد (كاف)

الودود (حسن) إن جعل ذو خبر لمبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل ذو صفة لما قبله

ذو العرش (حسن) لمن قرأ المجيد بالرفع على الإبتداء وليس بوقف إن جعل نعتاً لما قبله

المجيد (كاف) بالجرِّ نعتٌ للعرش أو لربك في قوله إنَّ بطش ربك وهي قراءة الأخوين والباقون بالرفع خبر بعد خبر أو نعت لذو

لما يريد (تام) للابتداء بالاستفهام

الجنود (حسن) إنَّ نصب فرعون وثمود بفعل مضمر وليس بوقف إن جرَّ بدلاً من الجنود

في تكذيب (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف ان جعل ما بعده في موضع الحال

محيط (كاف)

مجيد ليس بوقف لأنَّ ما بعده صفته

(31/810)

محفوظ (تام) على القراءتين أعني الرفع والجرّ قرأ نافع محفوظ بالرفع نعت لقرآن والباقون بالجرِّ نعت للوح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(32/810)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة البروج

مكية وآيها اثنان وعشرون القراآت عن الحسن (قتل) الآية 4 بالتشديد وعنه (الوقود)

الآية 5 بضم الواو

واختلف في دال (المجيد) الآية 15 فحمزة والكسائي وخلف بخفضها نعتا إما للعرش

وإما لربك في إن بطش ربك وافقهم الحسن والأعمش والباقون برفعها خبر بعد خبر أو نعت لذو وأمال أتيك حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (محفوظ) الآية 22 فنافع بالرفع نعتا لقرآن قال الله تعالى وإنا له لحافظون والباقون بالكسر نعتا للوح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(33/810)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة البروج "

" يبدئ " وهو قرآن ، جلي .

" المجيد " قرأ الأخوان وخلف بخفض الدال والباقون برفعها .

" محفوظ " قرأ نافع برفع الظاء وغيره بخفضها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 348 ﴾

(34/810)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة البروج

قوله تعالى ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ يقرأ بكسر الدال وضمها فالحجة لمن قرأه بالخفض انه جعله وصفا للعرش ومعنى المجيد الرفيع ودليه قوله تعالى ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ والحجة لمن قرأه بالرفع انه جعله نعتا لله عز وجل مردودا على قوله ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ المجيد ذو العرش فأخره ليوافق رؤوس الآي ودليله

قوله ﴿ إنه حميد مجيد ﴾ واما قوله ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ فلا خلاف في رفعه

قوله تعالى ﴿ في لوح محفوظ ﴾ اجماع القراء على قراءته بالخفض الا ما اختاره نافع من الرفع فيه والعلة في الوجهين كالعلة في المجيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 367 . 368 ﴾

(35/810)

وقال ابن زنجلة :

85 – سورة البروج

ذو العرش المجيد 15

قرأ حمزة والكسائي ذو العرش المجيد بالخفض وقر الباقون بالرفع جعلو صفة ل ذو والمجد هو الشرف فأسندوه إلى الله تعالى إذ كان أولى أن يكون من أوصافاهه ومن خفض فإنه جعله صفة للعرش وأنه أجراه مجرى قوله رب العرش الكريم فوصف العرش بالكرم كما وصفه بالمجد بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ

قرأ نافع في لوح محفوظ بالرفع جعله نعتا للقرآن بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوحه قال ومعنى حفظ القرآن أنه يؤمن من تحريفه وتبديله وتغييره فلا يلحقه في لك شيء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 757 ﴾

(36/810)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة البروج 85

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المدني الأخير والمكي ولا نظير لها فيهما

وكلمها مئة وتسع كلمات

وحروفها أربع مئة وثلاثون حرفا ككلم الانشقاق وحروفها

وهي اثنتان وعشرون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف وليس فيها مما يشبه الفواصل

شيء ورؤوس الآي

البروج

1 الموعود

2 ومشهود

3 الأخدود

4 الوقود

5 قعود

6 شهود

7 الحميد

8 شهيد

9 الحريق

10 الكبير

11 لشديد

12 ويعيد

13 الودود

14 المجيد

15 لما يريد

16 الجنود

17 وثمود

18 في تكذيب

19 محيط

20 مجيد

21 محفوظ

22 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 269﴾

(37/810)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الواو للقسم ، وجوابه محذوف: أي لتبعثن ونحوه ، وقيل جوابه قتل: أي لقد قتل ، وقيل جوابه: إن بطش ربك (واليوم الموعود) أي الموعود به ، و (النار) بدل من الأخدود ، وقيل التقدير: ذى النار لأن الأخدود هو الشق في الأرض ، وقرئ شاذا بالرفع: أي هو النار ، و (إذ هم) ظرف لقتل ، وقيل التقدير: اذكر (فلهم عذاب جهنم) قيل هو مثل قوله تعالى " فإنه ملاقيكم " (فرعون وثمود) قيل هما بدلان من الجنود ، وقيل التقدير: أعنى ، والمجيد بالرفع نعت لله عزوجل ، وبالجر للعرش ، و (محفوظ) بالرفع نعت للقرآن العظيم ، وبالجر للوح.

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(38/810)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة البروج

[سورة البروج (85) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (1)

"وَالسَّماءِ" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "ذاتِ الْبُرُوجِ" صفة مضافة إلى البروج، والبروج: الكواكب في السماء.

[سورة البروج (85) : آية 2]

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2)

"وَالْيَوْمِ" معطوف على السماء "الْمَوْعُودِ" صفة اليوم.

[سورة البروج (85) : آية 3]

وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3)

معطوفان على ما قبلهما.

[سورة البروج (85) : آية 4]

قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (4)

"قُتِلَ" ماض مبني للمجهول "أَصْحابُ الْأُخْدُودِ" نائب فاعل مضاف إلى الأخدود والجملة الفعلية جواب القسم.

[سورة البروج (85) : آية 5]

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5)

"النَّارِ" بدل اشتمال من أصحاب الأخدود "ذاتِ الْوَقُودِ" صفة النار مضافة إلى الوقود.

[سورة البروج (85) : آية 6]

إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (6)

"إِذْ هُمْ" ظرف زمان ومبتدأ "عَلَيْها" متعلقان بالخبر "قُعُودٌ" خبر والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة.

[سورة البروج(85) : آية 7]

وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)

"وَهُمْ" الواو حرف عطف "هُمْ" مبتدأ "عَلى ما" متعلقان بشهود "يَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "بِالْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بالفعل "شُهُودٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها.

[سورة البروج(85) : آية 8]

وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)

(39/810)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" نافية "نَقَمُوا" ماض وفاعله "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها "إِلَّا" حرف استثناء "أَنْ يُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "الْعَزِيزِ

الْحَمِيدِ" بدلان من لفظ الجلالة .

[سورة البروج (85) : آية 9]

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)

"الَّذِي" بدل ثالث من لفظ الجلالة "لَهُ" خبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَاللَّهُ" مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر شهيد "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة حال "شَهِيدٌ" خبر .

[سورة البروج (85) : آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (10)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "فَتَنُوا" ماض وفاعله "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به "وَالْمُؤْمِناتِ" معطوف على المؤمنين والجملة الفعلية صلة الذين و "ثُمَّ" حرف عطف "لَمْ يَتُوبُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَلَهُمْ" الفاء زائدة "لَهُمْ عَذابُ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر "جَهَنَّمَ" مضاف إليه والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن الذين . . مستأنفة "وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ" معطوفة على ما قبلها .

[سورة البروج (85) : آية 11]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

(40/810)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة الفعلية صلة الذين "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "لَهُمْ جَنَّاتٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن الذين . . مستأنفة لا محل لها . "تَجْرِي" مضارع مرفوع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات "ذلِكَ الْفَوْزُ" مبتدأ وخبره "الْكَبِيرُ" صفة والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة البروج (85) : آية 12]

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)

"إِنَّ بَطْشَ" إن واسمها "رَبِّكَ" مضاف إليه "لَشَدِيدٌ" اللام المزحلقة "شديد" خبر إن والجملة مستأنفة.

[سورة البروج (85) : آية 13]

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13)

"إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "يُبْدِئُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن وجملة إنه تعليل "وَيُعِيدُ" معطوف على يبدئ.

[سورة البروج (85) : آية 14]

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14)

"وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ" مبتدأ وخبران والجملة حال.

[سورة البروج (85) : آية 15]

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15)

"ذُو الْعَرْشِ" ذو خبر ثالث مضاف إلى العرش "الْمَجِيدُ" خبر أيضا.

[سورة البروج (85) : آية 16]

فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (16)

"فَعَّالٌ" خبر أيضا "لِما" متعلقان بما قبلهما "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة البروج (85) : آية 17]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)

"هَلْ" حرف استفهام "أَتاكَ" ماض ومفعوله "حَدِيثُ الْجُنُودِ" فاعل مضاف إلى الجنود والجملة مستأنفة.

[سورة البروج (85) : آية 18]

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

"فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ" بدل من الجنود وما بعده معطوف عليه .

[سورة البروج(85) : آية 19]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)

(41/810)

"بَلِ" حرف إضراب وانتقال "الَّذِينَ" مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي تَكْذِيبٍ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة البروج(85) : آية 20]

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20)

"وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ" متعلقان بالخبر محيط ، والجملة مستأنفة .

[سورة البروج(85) : آية 21]

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21)

"بَلْ" حرف إضراب وانتقال "هُوَ قُرْآنٌ" مبتدأ وخبره "مَجِيدٌ" صفة والجملة مستأنفة .

[سورة البروج (85) : آية 22]

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

"فِي لَوْحٍ" صفة ثانية لقرآن "مَحْفُوظٍ" صفة لوح. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 3 صـ 434. 436﴾

(42/810)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة البروج

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1474 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه كَانَ لبَعض الْمُلُوك سَاحر فَلَمَّا كبر ضم إِلَيْهِ خَادِمًا وَكَانَ فِي طَرِيق الْغُلَام رَاهِب فَسمع مِنْهُ فَرَأَى فِي طَرِيقَة ذَات يَوْم دَابَّة قد حبست النَّاس فَأخذ حجرا وَقَالَ اللَّهُمَّ إِن كَانَ الراهب أحب إِلَيْك من السَّاحر فَاقْتُلْهَا فَقَتلهَا وَكَانَ الْغُلَام بعد ذَلِك يُبرئ الأكمه والأبرص ويُبرئ من الأدواء إِذْ عمي جليس الْملك فَأَبْرَأَهُ فَأَبْصَرَهُ

الْملك فَسَأَلَهُ من رد عَلَيْك بَصرك فَقَالَ رَبِّي فَغَضب فَعَذَّبَهُ فَدل عَلَى الْغُلَام فَعَذَّبَهُ فَدل عَلَى الراهب فَلم يرجع الراهب عَن دينه فقد بِالْمِنْشَار وَأَبَى الْغُلَام فَذهب بِهِ إِلَى جبل لِيطْرَح من ذروته فَدَعَا فَرَجَفَ بالقوم وطاحوا وَنَجَا فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى قُرْقُور فَلَججُوا بِهِ ليغرقوه فَدَعَا فَانْكَفَأَت بهم السَّفِينَة فَغَرقُوا وَنَجَا فَقَالَ للْملك لست بقَاتِلِي حَتَّى تجمع النَّاس فِي صَعِيد وَاحِد وَتَصْلُبنِي عَلَى جذع وَتَأْخُذ سَهْما من كِنَانَتِي وَتقول باسم الله رب الْغُلَام ثمَّ ترميني بِهِ فَرَمَاهُ فَوَقع فِي صَدره فَوضع يَده عَلَيْهِ وَمَات فَقَالَ النَّاس آمنا بِرَبِّ الْغُلَام فَقيل للْملك نزل بك مَا كنت تحذر فَأمر بِأَخَادِيدَ فِي أَفْوَاه السكك وَأوقدت فِيهَا النيرَان فَمن لم يرجع طَرحه فِيهَا حَتَّى جَاءَت امْرَأَة مَعهَا صبي فَتَقَاعَسَتْ أَن تقع فِيهَا فَقَالَ الصَّبِي يَا أُمَّاهُ

اصْبِرِي فَإِنَّك عَلَى الْحق فَاقْتَحَمت وَقيل لَهَا قَعِي وَلَا تُنَافِقِي وَقيل مَا هِيَ إِلَّا غُمَيْضَة فَصَبَرت

(43/810)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي آخر الْكتاب وَبَوَّبَ عَلَيْهِ بَاب قصَّة الْأُخْدُود وَأَسْنَدَ إِلَى عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى عَن صُهَيْب أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ كَانَ ملك

فِيمَن كَانَ قبلكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحر فَلَمَّا كبر قَالَ للْملك إِنِّي قد كَبرت فَابْعَثْ لِي غُلَاما أعلمهُ السحر فَبعث إِلَيْهِ غُلَاما يُعلمهُ فَكَانَ فِي طَرِيقه إِذا سلك رَاهِب وَسمع كَلَامه وَأَعْجَبهُ فَكَانَ إِذا أَتَى السَّاحر مر بالرَّاهِب وَقعد إِلَيْهِ وَإِذا أَتَى السَّاحر ضربه فَشَكا ذَلِك إِلَى الراهب فَقَالَ إِذا خشيت السَّاحر فَقل حَبَسَنِي أَهلِي وَإِذا خشيت أهلك فَقل حَبَسَنِي السَّاحر فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِك إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّة عَظِيمَة قد حبست النَّاس فَقَالَ الْيَوْم أعلم السَّاحر أفضل أم الراهب أفضل فَأخذ حجرا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِن كَانَ أَمر الراهب أحب إِلَيْك من أَمر السَّاحر فَاقْتُلْ هَذِه الدَّابَّة حَتَّى يمْضِي النَّاس فَرَمَاهَا فَقَتلهَا وَمَضَى النَّاس . . . إِلَى آخِره الحَدِيث فِيهِ زِيَادَة وَنقص وَيُقَارب فِي الْمَعْنى

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس من الْقسم الثَّالِث وَفِي آخِره فَجَاءَت امْرَأَة بابْن لَهَا ترْضِعه وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَن تقع فِي النَّار فَقَالَ الصَّبِي يَا أمه اصْبِري فَإِنَّك عَلَى الْحق وَهُوَ لفظ النَّسَائِيّ أَيْضا

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَقَالَ فِيهِ فَاقْتَحمت فَقَالَ لَهَا امْضِي وَلَا تُنَافِقِي

وَرَوَاهُ احْمَد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

(44/810)

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي كتاب الْمَغَازِي وَقَالَ فِي آخِره وَأما الْغُلَام فَإِنَّهُ دفن وَذكر انه أخرج فِي زمن عمر بن الْخطاب وَيَده عَلَى صُدْغه كَمَا وَضعهَا حِين قتل قَالَ وَالْأُخْدُود بنَجْرَان انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان

فِي الْبَاب السَّادِس عشر بسَنَدِهِ وَمَتنه وَلَيْسَ عِنْدهم قصَّة الْمَرْأَة قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم رَوَاهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا صُهَيْب وَلَا نعلم رَوَاهُ إِلَّا ثَابت الْبنانِيّ عَن عبد الرَّحْمَن ابْن أبي لَيْلَى عَن صُهَيْب انْتَهَى

1475 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنهم حِين اخْتلفُوا فِي أَحْكَام الْمَجُوس قَالَ هم أهل كتاب وَكَانُوا مُتَمَسّكِينَ بِكِتَابِهِمْ وَكَانَت الْخمر قد أحلّت لَهُم فَتَنَاولهَا بعض مُلُوكهمْ فَسَكِرَ فَوَقع عَلَى أُخْته فَلَمَّا صَحا نَدم وَطلب الْمخْرج فَقَالَت لَهُ الْمخْرج أَن تخْطب النَّاس فَتَقول يأيها النَّاس إِن الله قد أحل نِكَاح الْأَخَوَات ثمَّ تخطبهم بعد ذَلِك أَن الله حرمه فَخَطب فَلم يقبلُوا فَقَالَت لَهُ ابْسُطْ فيهم السَّوْط فَلم يقبلُوا فَقَالَت لَهُ ابْسُطْ فيهم السَّيْف فَلم يقبلُوا فَأَمَرته بالأخاديد وَإِيقَاد النَّار وَطرح من أبي فِيهَا فهم الَّذين أَرَادَهُم الله تبَارك وَتَعَالَى بقوله قتل أَصْحَاب الْأُخْدُود . . . الْآيَة

قلت رَوَاهُ عبد بن حميد فِي تَفْسِيره عَن الْحسن بن مُوسَى ثَنَا يَعْقُوب بن عبد الله القمي ثَنَا جَعْفَر بن أبي الْمُغيرَة عَن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى قَالَ لما هزم الْمُسلمُونَ أهل الأسفيدهار انصرفوا فَجَاءَهُمْ نعي عمر فَاجْتمعُوا فَقَالُوا أَي شَيْء يجْرِي عَلَى الْمَجُوس من الْأَحْكَام فَإِنَّهُم لَيْسُوا بِأَهْل كتاب وَلَيْسوا من مُشْركي الْعَرَب فَقَالَ عَلّي بن أبي طَالب بل هم أهل كتاب وَكَانُوا مُتَمَسّكِينَ بِكِتَابِهِمْ وَكَانَت الْخمر أحلّت لَهُم فَتَنَاولهَا ملك من مُلُوكهمْ فَسَكِرَ فَوَقع عَلَى أُخْته . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَمن طَرِيق عبد بن حميد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ أَيْضا فِي تَفْسِيره ثَنَا ابْن حميد ثَنَا يَعْقُوب القمي ثَنَا جَعْفَر عَن ابْن أَبْزَى فَذكره إِلَى قَوْله فَوَقع عَلَى أُخْته قَالَ فَلَمَّا ذهب عَنهُ السكر

(46/810)

قَالَ لَهَا وَيحك مَا الْمخْرج مِمَّا ابْتليت بِهِ فَقَالَت اخْطُبْ النَّاس فَقل يأيها النَّاس إِن الله قد أحل نِكَاح الْأَخَوَات فَقَالَ النَّاس بَرِئْنَا إِلَى الله من هَذَا القَوْل مَا أَتَانَا بِهِ نَبِي وَلَا وَجَدْنَاهُ فِي كتاب فَرجع إِلَيْهَا نَادِما فَقَالَ لَهَا وَيحك إِن النَّاس قد أَبَوا أَن يقرُّوا بذلك فَقَالَت ابْسُطْ فيهم

السِّيَاط فَفعل فَأَبَوا أَيضا فَرجع إِلَيْهَا نَادِما فَقَال إِنَّهُم قد أَبَوا فَقَالَت اُخْطُبْهُمْ فَإِن أَبَوا فَجرد فيهم السَّيْف فَفعل فَأَبَوا عَلَيْهِ أَيضا فَقَال لَهَا إِنَّهُم قد أَبَوا فَقَالَت خد لَهُم الْأُخْدُود ثمَّ اعرضهم عَلَيْهَا فَمن اقر وَإِلَّا فَاقْذِفْهُ فِي النَّار فَأَنْزل الله فيهم قتل أَصْحَاب الْأُخْدُود النَّار ذَات الْوقُود إِلَى قَوْله وَلَهُم عَذَاب الْحَرِيق قَال فَلم يزَالُوا مُنْذ ذَلِك يسْتَحلُّونَ نِكَاح الْأُمَّهَات وَالْأَخَوَات وَالْبَنَات انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث الْهَيْثَم بن جميل ثَنَا يَعْقُوب القمي عَن جَعْفَر عَن سعيد بن جُبَير قَال لما انهزم أهل أسفيدهار قَال عمر ابْن الْخطاب مَا هم يهود وَلَا نَصَارَى وَلَيْس لَهُم كتَاب فَقَال عَلّي بن أبي طَالب لَهُم كتَاب وَلكنه رفع وَذَلِكَ أَن ملكا لَهُم سكر . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتَاب الْمعرفَة فِي أَوَاخِر السّير أخبرنَا أَبُو مَنْصُور الدَّامغَانِي إجَازَة عَن أبي بكر الْإِسْمَاعِيلِيّ عَن يُوسُف بن يَعْقُوب عَن أبي الرّبيع عَن يَعْقُوب القمي بِهِ

1476 - الْحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَنه وَقع إِلَى نَجْرَان رجل مِمَّن كَانَ عَلَى دين عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام فَدَعَاهُمْ فَأَجَابُوا فَسَار إِلَيْهِم ذُو نواس الْيَهُودِيّ بجُنُوده من حمير فَخَيرهمْ بَين الْيَهُودِيَّة وَالنَّار فَأَبَوا فَأحرق مِنْهُم اثْنَي عشر ألفا فِي الأخاديد وَقتل سبعين ألفا وَذكر أَن طول الْأُخْدُود أَرْبَعُونَ ذِرَاعا وَعرضه اثْنَا عشر ذِرَاعا

(48/810)

قلت رَوَاهُ ابْن هِشَام فِي أَوَائِل السِّيرَة حَدثنَا زِيَاد بن عبد الله البكائي عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق حَدثنِي يزِيد بن زِيَاد عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ إِن أهل نَجْرَان كَانُوا أهل شرك يعْبدُونَ الْأَوْثَان . . . فَذكر الْخَبَر بطُولِهِ إِلَى أَن قَالَ وَاسْتَجْمَعَ أهل نَجْرَان عَلَى دين عبد الله بن الثَّامِر وَكَانَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام من الْإِنْجِيل وَحكمه وَجعل عبد الله بن الثَّامِر لَا يجد بنَجْرَان أحدا بِهِ ضرّ إِلَّا أَتَاهُ فَاتبعهُ عَلَى أمره ودعا لَهُ فَعُوفِيَ فَمن هُنَالك كَانَ أصل النَّصْرَانِيَّة بنَجْرَان حَتَّى رفع شَأْنه إِلَى ملك نَجْرَان فَدَعَاهُ ثمَّ أرسل بِهِ إِلَى جبل عَظِيم فَأَلْقَاهُ من أَعْلَاهُ إِلَى الْأَرْض فَقَامَ لَيْسَ بِهِ بَأْس ثمَّ بعث بِهِ فَأَلْقَاهُ فِي بَحر بعيد الْغَوْر فَخرج بِهِ لَيْسَ بِهِ بَأْس فَقَالَ لَهُ عبد الله بن الثَّامِر إِنَّك لن تقدر عَلَي حَتَّى توحد الله فَوحد الْملك الله وآمن بِهِ ثمَّ أَخذ الْملك عَصا فَضرب بهَا عبد الله بن الثَّامِر فَشَجَّهُ فَهَلَك وَهلك

الْملك وَاجْتمعت أهل نَجْرَان عَلَى دين عبد الله بن الثَّامِر فَسَار إِلَيْهم ذُو نواس بجُنُوده فَدَعَاهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّة وَخَيرهمْ بَين ذَلِك وَالْقَتْل فَاخْتَارُوا الْقَتْل فَخدّ لَهُم الْأُخْدُود فَحرق بالنَّار وَقتل بِالسَّيْفِ وَمثل بهم حَتَّى قتل عشْرين ألفا فَفِي ذِي نواس وَجُنُوده انْزِل الله تَعَالَى قتل أَصْحَاب الْأُخْدُود النَّار ذَات الْوقُود الْآيَة انْتَهَى مُلَفقًا من كَلَام طَوِيل

(49/810)

وَنَقله الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن وهب بن مُنَبّه أَن رجلا كَانَ عَلَى دين عِيسَى فَوَقع إِلَى نَجْرَان فَدَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ فَسَار إِلَيْهم ذُو نواس الْيَهُودِيّ فَخَيرهمْ بَين الْيَهُودِيَّة وَالنَّار فَأَبَوا عَلَيْهِ فَخدّ الأخاديد فَأحرق اثْنَي عشر ألفا

وَقَالَ الْكَلْبِيّ كَانَ أَصْحَاب الْأُخْدُود سبعين ألفا وهم نَصَارَى نَجْرَان وَذَلِكَ أَن ملكا بنَجْرَان أَخذ بهَا قوما مُؤمنين فَخدّ لَهُم فِي الأَرْض سَبْعَة أخاديد طول كل أخدُود أَرْبَعُونَ ذِرَاعا وَعرضه اثْنَا عشر ذِرَاعا ثمَّ طرح فِيهَا النفط وَالنَّار ثمَّ عرضهمْ عَلَيْهَا فَمن أَبَى قَذَفُوهُ فِيهَا وَمن رَضِي تركُوهُ إِلَى آخر الْقِصَّة

1477 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه كَانَ إِذا ذكر أَصْحَاب الْأُخْدُود تعوذ من جهد الْبلَاء

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أَبْوَاب كَلَام الْأَنْبِيَاء فِي بَاب كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثَنَا أَبُو أُسَامَة عَن عَوْف عَن الْحسن قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا ذكر أَصْحَاب الْأُخْدُود تعوذ من جهد الْبلَاء انْتَهَى

1478 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ من قَرَأَ سُورَة البروج أعطَاهُ الله بِعَدَد كل يَوْم جُمُعَة وكل يَوْم عَرَفَة تكون فِي الدُّنْيَا عشر حَسَنَات

(50/810)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ اخبرني مُحَمَّد بن الْقَاسِم ثَنَا إِسْمَاعِيل بن نجيد ثَنَا مُحَمَّد ابْن إِبْرَاهِيم بن سعد ثَنَا سعيد بن حَفْص قَالَ قَرَأت عَلَى معقل بن عبيد الله عَن عِكْرِمَة بن خَالِد عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ وَالسَّمَاء ذَات البروج . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 181.186 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة البروج» (85)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الْبُرُوجِ» (1) كل برج يومين وثلث وهو للشمس شهر «1» وهى اثنا عشر برجا ، يسير القمر فى كل برج يومين وثلث فذلك ثمانية وعشرون منزلة ثم يستسرّ ليلتين ومجرى الشمس فى كل برج منها شهر . .

«النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ» (5) جرّها على الأوّل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 293 ﴾

---

(1) . - 3 - 5 «وهى . . . شهرا» الذي ورد فى الفروق . رواه القرطبي (19/ 281) عن أبى عبيدة .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة البروج

"والسماء ذات البروج" المدارات التى تتنقل فيها الكواكب . " واليوم الموعود " . يوم الحساب . " وشاهد ومشهود " الله وملائكته ورسله شهود على الناس . " قتل أصحاب الأخدود " لعنوا وهلكوا . والأخدود شق فى الأرض ملئ بالمواد الملتهبة وألقى المؤمنون به ليحترقوا فيه . وشهداء الحق كثيرون فى تاريخ البشر وقساوة الظلمة ليس لها حدود . . . وقد عرفت بعض الشهداء فرأيت فى تكوينهم كأنهم خلقوا لهذا المصير ، فهم يحتقرون الباطل وأهله ولا يرون حرجا فى افتداء الحق بأرواحهم ! سمعت أحدهم يخطب قبل موته يقول: إن فناء فى الحق هو عين البقاء ! وجاءنى بعض الشباب من نصف قرن يودعوننى ذاهبين إلى الميدان فى فلسطين ، وقد ذهبوا ولم يعودوا . وكانت شجاعتهم حديث الراحل والمقيم ! ! وقرأت نبأ المرأة المؤمنة التى قادها الزبانية إلى الأخدود ، وكان معها ولدها فتقاعست قليلا ـ لعله من أجل ولدها ـ فقال لها ابنها اثبتى فأنت على الحق ، فاقتحمت النار ! ! وقرأت نبأ غلام الراهب الذى أبلى بلاء حسنا فى نشر الإيمان ، فحكم عليه بالقتل . وأرسله الملك المدعى للألوهية مع نفر من أتباعه لينفذوا الحكم . .

فعاد إلى الملك يقول له إن ربى أنقذنى من رجالك . فأرسله مع آخرين ، فنجا منهم ، وتكررت المحاولات وتكرر الفشل ! ثم قال الغلام للملك تريد قتلى ؟ قال ! نعم ! قال اجمع أهل المدينة واصلبنى أمامهم وصوب إلى السهم وأنت تقول باسم الله رب الغلام . ثم أطلق السهم ! فقتله ! ! ولكنه قتل معه خرافة الفرعون المتأله . . وعرف الأحمق أنه هدم ألوهيته بنفسه . قال المؤرخون فشق الأخدود لحرق المؤمنين ! " النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " .

(53/810)

وكم من أفراد وجماعات ماتوا فى سبيل الله وكسبوا الدار الآخرة . وقد هدد الله الفتانين من أهل مكة كى يدعوا جرائمهم " إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق " . والجزاء من جنس العمل . ثم ذكرت السورة بعض صفات الجلال والجمال ليخشى من يخشى ويتوب من يتوب . " إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد " . ومع هذا التذكير بصفات الله إشارة موجزة إلى ما فعل بالجبابرة الأقدمين . إنه أملى لهم قليلا ثم أخذهم أخذ عزيز

مقتدر . " وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين" ويلفت النظر هنا وصف الظلمة بأنهم "جنود " " هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود " إن الحكم العادى بعيد الفتك ، ويكثر البلاء مع الانقلابات العسكرية ، التى تغتال الإيمان وأهله ، وينال الدين منها ضر شديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 509. 510 ﴾

(54/810)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(55/810)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة البروج والطارق

أقول: هما متآخيتان فقرنتا ، وقدمت الأولى لطولها ، وذكرا بعد الانشقاق للمؤاخاة في

الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد في الحديث ذكر السموات مراداً بها السور الأربع ، كما قيل: المسبحات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 149 ﴾

(56/810)

قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما (الرحمن) الذي عم الخلائق عدلا وحلما (الرحيم) الذي خص أولياءه بإتمام النعمة عليهم عينا كما أظهره رسما .

(57/810)

لما ختم تلك بثواب المؤمن وعقاب الكافر والاستهزاء به بعد أن ذكر أنه سبحانه أعلم بما يضمر الأعداء من المكر وما يرومون من الأنكاد للأولياء وتوعدهم بما لا يطيقون ، وكانوا قد عذبوا المؤمنين بأنواع العذاب واجتهدوا في فتنة من قدروا عليه منهم ، وبالغوا في التضييق عليهم حتى ألجؤوهم إلى شعب أبي طالب وغيره من البروج في البلاد ، ومفارقة الأهل والأولاد ، ابتدأ هذه بما أوقع بأهل الجبروت ممن تقدمهم على وجه معلم أن ذلك الإيقاع منه سبحانه قطعاً ، ومعلم أن الماضين تجاوزوا ما فعل هؤلاء إلى القذف في النار ، وأن أهل الإيمان ثبتوا ، وذلك لتسلية المؤمنين وتثبيتهم ، وتوعيد الكافرين وتوهيتهم وتفتيتهم ، فقال مقسماً لأجل إنكارهم وفعلهم في التمادي في عداوة حزب الله فعل المنكر أن الله ينتقم لهم بما يدل على تمام القدرة على القيامة : ﴿ والسماء ﴾ أي العالية غاية العلو المحكمة غاية الإحكام ﴿ ذات البروج ﴾ أي المنازل للكواكب السيارة التي ركبها الله تعالى على أوضاع جعل في بعضها قوة التسبب للإبداء والإعادة بالإنبات وفي بعضها قوة التربية كذلك ، وفي الأخرى قوة الاستحصاد بأسباب خفية أقامها سبحانه لا ترونها ، غير أنكم لكثرة إلفكم لذلك صرتم تدركون منه بالتجارب أموراً تدلكم على تمام القدرة ، فنسبها بعضكم إلى الطبيعة لقصور النظر في أسباب الأسباب وكلال الفكر عن النفوذ إلى نهاية ما تصل إليه الألباب ، فاستبدل بالشكر الكفر ، واستدل بالآيات على ضد ما تدل عليه لجمود الذهن وانعكاس الفكر ، والمراد بها المنازل الاثنا عشر : الحمل – والثور –

والجوزاء – والسرطان – والأسد – والسنبلة – والميزان – والعقرب – والقوس – والجدي – والدلو – والحوت – وهي تقطعها الشمس في السنة ، أو هي الثمانية والعشرون التي يقطعها القمر في الشهر ، وهي منازل الشمس هذه الاثنا عشر بسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثاً ، فذلك ثمانية وعشرون يوماً ويستسر ليلتين ،

(58/810)

فذلك شهر ، وهو إشارة إلى أن الذي فصل السماء هذا التفصيل وسخر فيها هذه الكواكب لمصالح الإنسان لا يتركه سدىً ، بل لا بد من دينونته على ما يفعله من خير وشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارة وتكون فيها الثوابت وعظام الكواكب ، سميت بروجاً لظهورها ، أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها ، وأصل التركيب للظهور .

ولما كانت هذه الجملة من القسم دالة على البعث قال تصريحاً : ﴿ واليوم الموعود ﴾ أي يوم القيامة الذي تحقق الوعد به وثبت ثبوتاً لا بد منه بما دل عليه من قدرتنا في مخلوقاتنا وأنا سببنا له أسباباً هي عتيدة لديكم وأنتم لا ترونها ولا تحسون شيئاً منها ولم تبينها لكم الرسل لقصور عقولكم عنها بأكثر من الدلالة بالأسباب التي ألفتموها على مثلها من غير فرق غير أنه وإن كان العقل لا يستقل به ولا يفقه منه غير السماء للوعد به من الرسل فهو لا

يحيله بعد سماعه .

ولما كان الجمع لأجل العرض ، وكان العرض لا بد فيه من شهود ومشهود عليهم وجدال على عهود ، قال منكّراً للإبهام للتعظيم والتعميم مثل ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] : ﴿ وشاهد ﴾ أي كريم من الأولياء ﴿ ومشهود ﴾ أي في نفسه من الأعيان والآثار الهائلة ، أو عليه فإنه يوم تشهده جميع الخلائق ، ويحضر فيه من العجائب أمور يكل عنها الوصف ، ويحضره الأنبياء الشاهدون وأممهم المشهود عليهم ، ولا تبقى صغيرة من الأعمال ولا كبيرة إلاّ أحصيت ، وفي ذلك أشد وعيد لجميع العبيد .

(59/810)

ولما كان جواب القسم على ما دل عليه مقصود السورة وسوابقها ولواحقها : لنثوبن الفريقين الأولياء والأعداء ، ولندينن كلاًّ بما عمل ، دل عليه بأفعاله في الدنيا ببعض الجبابرة فيما مضى ، وفيما يفعل بجبابرة من كذب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال بادئاً بمن عذب بعذاب الله في القيامة للبداءة في آخر الانشقاق بقسم المكذبين وهم المحدث عنهم ، معبراً بما يصلح للدعاء والحقيقة تسلية للمؤمنين وتثبيتاً لهم بما وقع لأمثالهم ، وتحذيراً مما كان لأشكالهم : ﴿ قتل ﴾ أي لعن بأيسر أمر وأسهله من كل لاعن لعناً لا فلاح معه ، ووقع في

الدنيا أنه قتل حقيقة ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ أي الخد العظيم ، وهو الشق المستطيل في الأرض كالنهر ، روي أن ملكاً من الكفار – وروي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه كان من حمير – من ملوك اليمن ، وكان قبل مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبعين سنة ، آمن في زمانه ناس كثير ، فخدّ لهم أخدوداً في الأرض وسجره ناراً وعرض من آمن عليه ، فمن رجع عن دينه تركه ، ومن ثبت – وهم الأغلب – قذفه في ذلك الأخدود فأحرقه .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : وردت هذه السورة في معرض الالتفات والعدول إلى إخبار نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما تضمنته هذه السورة من قصة أصحاب الأخدود ، وقد تقدم هذا الضرب في سورة المجادلة وسورة النبأ ، وبينا وقوعه في أنفس السور ومتونها وهو أقرب فيما بين السورتين وأوضح – أنتهى .

(60/810)

ولما ذمهم سبحانه وتعالى ، بين وجه ذمهم ببدل اشتمال من أخدودهم فقال : ﴿ النار ﴾ أي العظيمة التي صنعوها لعذاب أوليائنا ، وزاد في تعظيمها بقوله : ﴿ ذات الوقود ﴾ أي الشيء الذي نوقد به من كل ما يصلح لذلك من الحطب وغيره ، وعلق ب " قتل " قوله : ﴿ إذ هم ﴾ أي بظواهرهم وضمائرهم ﴿ عليها ﴾ أي على جوانب أخدودها

﴿ قعود ﴾ أي يحفظونها ويفعلون مما يأمرهم ملكهم في أمرها من إلقاء الناس وغيره فعل القاعد المطمئن الذي ليس له شغل غيرها ﴿ وهم على ما يفعلون ﴾ أي خاصة بقوة دواعيهم إلى فعله ورغبتهم فيه من الفتنة بالعرض على النار وغيره مكررين ذلك الفعل ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان الذي لم يثنهم العذاب عنه ﴿ شهود ﴾ أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنه لم يقصر فيما أمره به ويشهدون يوم القيامة بما تشهد به عليهم أيديهم وأرجلهم على أنفسهم بهذا الظلم ، ويشهد بعضهم على بعض ويعادي بعضهم بعضاً ، ويحيل كل على الآخر طمعاً في النجاة .

ولما كان هذا الفعل العظيم لا يكون من عاقل إلا لسبب يليق به ، بين أنه إنما هو لسبب يبعد منه ، فقال على طريقة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

﴿ وما نقموا ﴾ أي أنكروا وكرهوا ﴿ منهم ﴾ من الحالات وكان ديناً لهم ونقصاً فيهم ﴿ إلا أن يؤمنوا ﴾ أي يجددوا الإيمان مستمرين عليه ﴿ بالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال .

ولما كان ربما أوهم ترك معالجته سبحانه لهم لكونهم يعذبون من آمن به لأجل الإيمان به ما لا يليق ، نفى ذلك بقوله واصفاً له بما يحقق وجوب العبادة له وتفرده بها : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شيء ، فلا يظن إمكانه من أهل ولايته لعجز ، بل هو يبتليهم ليعظم أجورهم ويعظم عقاب أعدائهم ويعظم الانتقام منهم ﴿ الحميد ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال ، فهو يثيب من أصيب فيه أعظم ثواب ، وينتقم ممن آذاه بأشد العذاب ، وقرر ذلك بقوله : ﴿ الذي له ﴾ أي خاصة ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ أي على جهة العموم مطلقاً ، فكل ما فيهما جدير بأن يعبده وحده ولا يشرك به شيئاً .

ولما قدم سبحانه التحذير بالشاهد والمشهود ، وأن الكافرين شهود على أنفسهم ، زاد في التحذير بأنه سبحانه أعظم شهيد في ذلك اليوم وغيره فهو لا يحتاج إلى غيره ، ولكنه أجرى ذلك على ما نتعارفه فقال : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ على كل شيء ﴾ أي هذا الفعل وغيره ﴿ شهيد ﴾ أي أتم شهادة لا يغيب عنه شيء أصلاً ، ولا يكون شيء ولا يبقى إلا بتدبيره ، ومن هو بهذه الصفات العظيمة لا يهمل أولياءه أصلاً ، بل لا بد أن ينتقم لهم من أعدائه ويعليهم بعلائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 376 . 379 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ المجيد ﴾ بالجر صفة للعرش : حمزة وعلي وخلف والمفضل . الآخرون : بالرفع خبراً بعد خبر ﴿ محفوظ ﴾ بالرفع صفة للقرآن : نافع .

الوقوف ﴿ البروج ﴾ ه لا ﴿ ألموعود ﴾ ه ﴿ ومشهود ﴾ ه ط بناء على أن جواب القسم محذوف وأن معنى قتل لعن وأصحاب الأخدود هم أهل الظلم ، وإن جعل قتل بمعناه الأصلي وأصحاب الأخدود هم المظلومون صح جواباً للقسم بتقدير : لقد قتل ولا وقف على ﴿ الأخدود ﴾ لأن النار بدل اشتمال منه ﴿ الوقود ﴾ ه لا ﴿ قعود ﴾ ه لا ﴿ شهود ﴾ ه ط ﴿ الحميد ﴾ ه لا ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ شهيد ﴾ ه ط ﴿ الحريق ﴾ ه ط ﴿ الأنهار ﴾ ط ﴿ الكبير ﴾ ه ط إلا لمن جعل ﴿ إن بطش ربك ﴾ جواباً للقسم وسائر الوقوف ههنا لا بد منها لطول الكلام ﴿ لشديد ﴾ ه ك ﴿ ويعيد ﴾ ه ج لاختلاف الجملتين ﴿ الودود ﴾ ه لا ﴿ المجيد ﴾ ه لا ﴿ يريد ﴾ ه ج لابتداء الاستفهام ﴿ الجنود ﴾ ه لا لأن ما بعده بدل ﴿ وثمود ﴾ ه ط للإضراب ﴿ تكذيب ﴾ ه لا لأن

الواو للحال ﴿ محيط ﴾ ه ج ﴿ مجيد ﴾ ه لا ﴿ محفوظ ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 473 ﴾

(63/810)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

اعلم أن في البروج ثلاثة أقوال : أحدها : أنها هي البروج الإثنا عشر وهي مشهورة وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة ، وذلك لأن سير الشمس فيها ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس فيدل ذلك على أن لها صانعاً حكيماً ، قال الجبائي : وهذه اليمين واقعة على السماء الدنيا لأن البروج فيها ، واعلم أن هذا خطأ وتحقيقه ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [الصافات : 6] ، وثانيها : أن البروج هي منازل القمر ، وإنما حسن القسم بها لما في سير القمر وحركته من الآثار العجيبة وثالثها : أن البروج هي عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها .

وأما اليوم الموعود فهو يوم القيامة ، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال

القفال : يحتمل أن يكون المراد واليوم الموعود لانشقاق السماء وفنائها وبطلان بروجها .

وأما الشاهد والمشهود ، فقد أضطرب أقاويل المفسرين فيه ، والقفال أحسن الناس كلاماً فيه ، قال : إن الشاهد يقع على شيئين أحدهما : الشاهد الذي تثبت به الدعاوى والحقوق والثاني : الشاهد الذي هو بمعنى الحاضر ، كقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ [الأنعام : 73] ويقال : فلان شاهد وفلان غائب ، وحمل الآية على هذا الاحتمال الثاني أولى ، إذ لو كان المراد هو الأول لما خلا لفظ المشهود عن حرف الصلة ، فيقال : مشهود عليه ، أو مشهود له .

(64/810)

هذا هو الظاهر ، وقد يجوز أن يكون المشهود معناه المشهود عليه فحذفت الصلة ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ العهد كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : 34] أي مسئولاً عنه ، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إن حملنا الشهود على الحضور احتملت الآية وجوهاً من التأويل أحدها : أن المشهود هو يوم القيامة ، والشاهد هو الجمع الذي يحضرون فيه ، وهو مروي عن ابن عباس والضحاك ، ويدل على صحة هذا الاحتمال وجوه الأول : أنه لا حضور أعظم من ذلك الحضور ، فإن الله تعالى يجمع فيه خلق الأولين والآخرين من الملائكة والأنبياء والجن

والإنس ، وصرف اللفظ إلى المسمى الأكمل أولى والثاني : أنه تعالى ذكر اليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، ثم ذكر عقيبة : ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ وهذا يناسب أن يكون المراد بالشاهد من يحضر في ذلك اليوم من الخلائق ، وبالمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب الثالث : أن الله تعالى وصف يوم القيامة بكونه مشهوداً في قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهِدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : 37] وقال : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] وقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 52] وقال : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : 53] وطريق تنكيرهما إما ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] كأنه قيل : وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود ، وأما الإبهام في الوصف كأنه قيل : وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما ، وإنما حسن القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة إذ كان هو يوم الفصل والجزاء ويوم تفرد الله تعالى فيه بالملك والحكم ، وهذا الوجه اختيار ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن بن علي وابن المسيب والضحاك والنخعي والثوري وثانيها : أن يفسر المشهود بيوم الجمعة وهو قول ابن عمر وابن

الزبير : وذلك لأنه يوم يشهده المسلمون للصلاة ولذكر الله .

(66/810)

ومما يدل على كون هذا اليوم مسمى بالمشهود خبران الأول : ما روى أبو الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة " والثاني : ما روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : " تحضر الملائكة أبواب المسجد فيكتبون الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف " وهذه الخاصية غير موجودة إلا في هذا اليوم فيجوز أن يسمى مشهوداً لهذا المعنى ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً > ﴾ [الإسراء : 78] وروى : " أن ملائكة الليل والنهار يحضرون وقت صلاة الفجر فسميت هذه الصلاة مشهودة لشهادة الملائكة " فكذا يوم الجمعة وثالثها : أن يفسر المشهود بيوم عرفة والشاهد من يحضره من الحاج وحسن القسم به تعظيماً لأمر الحج روي أن الله تعالى يقول للملائكة يوم عرفة : " أنظروا إلى عبادي شعثاً غبراً أتوني من كل فج عميق أشهدكم أني قد غفرت لهم وأن إبليس يصرخ ويضع التراب على رأسه لما يرى من ذلك " والدليل على أن يوم عرفة مسمى بأنه مشهود قوله تعالى : ﴿ وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ ﴾ [الحج : 27 28] ،

ورابعها : أن يكون المشهود يوم النحر وذلك لأنه أعظم المشاهد في الدنيا فإنه يجتمع أهل الشرق والغرب في ذلك اليوم بمنى والمزدلفة وهو عيد المسلمين ، ويكون الغرض من القسم به تعظيم أمر الحج وخامسها : حمل الآية على يوم الجمعة ويوم عرفة ويوم النحر جميعاً لأنها أيام عظام فأقسم الله بها كما أقسم بالليالي العشر والشفع والوتر ، ولعل الآية عامة لكل يوم عظيم من أيام الدنيا ولكل مقام جليل من مقاماتها وليوم القيامة أيضاً لأنه يوم عظيم كما قال : ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : 5 6] وقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : 37] ويدل

(67/810)

على صحة هذا التأويل خروج اللفظ في الشاهد والمشهود على النكرة ، فيحتمل أن يكون ذلك على معنى أن القصد لم يقع فيه إلى يوم بعينه فيكون معرفاً أما الوجه الأول : وهو أن يحمل الشاهد على من تثبت الدعوى بقوله ، فقد ذكروا على هذا التقدير وجوهاً كثيرة أحدها : أن الشاهد هو الله تعالى لقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾

(68/810)

[آل عمران : 18] وقوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله ﴾ [الأنعام : 19] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : 53] والمشهود هو التوحيد ، لقوله : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] والنبوة : ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وثانيها : أن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود عليه سائر الأنبياء ، لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ [الفتح : 8] وثالثها : أن يكون الشاهد هو الأنبياء ، والمشهود عليه هو الأمم ، لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ ، ورابعها : أن يكون الشاهد هو جميع الممكنات والمحدثات ، والمشهود عليه واجب الوجود ، وهذا احتمال ذكرته أنا وأخذته من قول الأصوليين هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب ، وعلى هذا التقدير يكون القسم واقعاً بالخلق والخالق ، والصنع والصانع وخامسها : أن يكون الشاهد هو الملك ، لقوله تعالى : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ والمشهود عليه هم المكلفون وسادسها : أن يكون الشاهد هو الملك ، والمشهود عليه هو الإنسان الذي تشهد عليه جوارحه يوم القيامة ، قال : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ [النور : 24] ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ [فصلت : 21] وهذا قول عطاء الخراساني .

وأما الوجه الثالث : وهو أقوال مبنية على الروايات لا على الاشتقاق فأحدها : أن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، روى أبو موسى الأشعري أنه عليه الصلاة والسلام قال : " اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة ذخيرة الله لنا " وعن أبي هريرة مرفوعاً قال : " المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه منه " وعن سعيد بن المسيب مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة " وهذا قول كثير من أهل العلم كعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وأبي هريرة وابن المسيب والحسن البصري والربيع بن أنس ، قال قتادة : شاهد ومشهود ، يومان عظمهما الله من أيام الدنيا ، كما يحدث أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وثانيها : أن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وذلك لأنهما يومان عظمهما الله وجعلهما من أيام أركان أيام الحج ، فهذان اليومان يشهدان لمن يحضر فيهما بالإيمان واستحقاق الرحمة ، وروى أنه عليه السلام ذبح كبشين ، وقال في أحدهما : " هذا عمن يشهد لي بالبلاغ "

فيحتمل لهذا المعنى أن يكون يوم النحر شاهداً لمن حضره بمثل ذلك لهذا الخبر وثالثها : أن الشاهد هو عيسى لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [المائدة : 117] ، ورابعها : الشاهد هو الله والمشهود هو يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس : 52] وقوله : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ [المجادلة : 7] ، وخامسها : أن الشاهد هو الإنسان ، والمشهود هو التوحيد لقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [

(70/810)

الأعراف : 172] وسادسها : أن الشاهد الإنسان والمشهود هو يوم القيامة ، أما كون الإنسان شاهداً فلقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : 172] وأما كون يوم القيامة مشهوداً فلقوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين ﴾ [الأعراف : 172] فهذه هي الوجوه الملخصة ، والله أعلم بحقائق القرآن .

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)

اعلم أنه لا بد للقسم من جواب ، واختلفوا فيه على وجوه أحدها : ما ذكره الأخفش وهو

أن جواب القسم قوله : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ واللام مضمرة فيه ، كما قال : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9] يريد .

(71/810)

لقد أفلح ، قال : وإن شئت على التقديم كأنه قيل : قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج وثانيها : ما ذكره الزجاج ، وهو أن جواب القسم : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] وهو قول ابن مسعود وقتادة وثالثها : أن جواب القسم قوله : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ [البروج : 10] الآية كما تقول : والله إن زيداً لقائم ، إلا أنه اعترض بين القسم وجوابه ، قوله : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ [البروج : 10] ورابعها : ما ذكره جماعة من المتقدمين أن جواب القسم محذوف ، وهذا اختيار صاحب "الكشاف" إلا أن المتقدمين ، قالوا : ذلك المحذوف هو أن الأمر حق في الجزاء على الأعمال وقال صاحب "الكشاف" : جواب القسم هو الذي يدل عليه قوله : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء ، أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك لأن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل

مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم ، ويعلموا أن كفار مكة عند الله بمنزلة أولئك الذين كانوا في الأمم السالفة يحرقون أهل الإيمان بالنار ، وأحقاء بأن يقال فيهم : قتلت قريش كما : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ أما قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا قصة أصحاب الأخدود على طرق متباينة ونحن نذكر منها ثلاثة :

أحدها : أنه كان لبعض الملوك ساحر ، فلما كبر ضم إليه غلام ليعلمه السحر ، وكان في طريق الغلام راهب ، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب ثم رأى الغلام في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً ، وقال : اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فقوني على قتلها بواسطة رمي الحجر إليها ، ثم رمى فقتلها ، فصار ذلك سبباً لإعراض الغلام عن السحر واشتغاله بطريقة الراهب ، ثم صار إلى حيث يبرىء الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء ، فاتفق أن عمي جليس للملك فأبرأه فلما رآه الملك قال : من رد عليك نظرك ؟ فقال ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب

فأحضر الراهب وزجره عن دينه فلم يقبل الراهب قوله فقد بالمنشار ، ثم أتوا بالغلام إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا الله ، فرجف بالقوم فهلكوا ونجا ، فذهبوا به إلى سفينة لججوا بها ليغرقوه ، فدعا الله فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا ، فقال للملك : لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ، وتقول : بسم الله رب الغلام ثم ترميني به ، فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام .

فقيل للملك : نزل بك ما كنت تحذر ، فأمر بأخاديد في أفواه السكك ، وأوقدت فيها النيران ، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبي : يا أماه اصبري فإنك على الحق ، فصبرت على ذلك .

(73/810)

الرواية الثانية : روي عن علي عليه السلام أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال : هم أهل الكتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكها فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له : المخرج أن تخطب الناس فتقول : إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول : بعد ذلك حرمه ،

فخطب فلم يقبلوا منه ذلك فقالت له : أبسط فيهم السوط فلم يقبلوا ، فقالت : أبسط فيهم السيف فلم يقبلوا ، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أتى فيها الذين أرادهم الله بقوله : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ .

الرواية الثالثة : أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا ، فأحرق منهم إثني عشر ألفاً في الأخاديد ، وقيل سبعين ألفاً ، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء " فإن قيل : تعارض هذه الروايات يدل على كذبها ، قلنا : لا تعارض فقيل : إن هذا كان في ثلاث طوائف ثلاث مرات مرة باليمن ، ومرة بالعراق ، ومرة بالشام ، ولفظ الأخدود ، وإن كان واحداً إلا أن المراد هو الجمع وهو كثير من القرآن ، وقال القفال : ذكروا في قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس في شيء منها ما يصح إلا أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكاً كافراً كان حاكماً عليهم فألقاهم في أخدود وحفر لهم ، ثم قال : وأظن أن تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيهاً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه فقد كان مشركوا قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الأخبار من

مبالغتهم في إذاء عمار وبلال .

المسألة الثانية :

(74/810)

الأخدود : الشق في الأرض يحفر مستطيلاً وجمعه الأخاديد ومصدره الخد وهو الشق يقال : خد في الأرض خداً وتخدد لحمه إذا صار طرائق كالشقوق .

المسألة الثالثة :

يمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود القاتلين ، ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين ، والرواية المشهورة أن المقتولين هم المؤمنون ، وروي أيضاً أن المقتولين هم الجبابرة لأنهم لما ألقوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين ، وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواقدي وتأولوا قوله :

﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ [البروج : 10] أي لهم عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : ذكروا في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدود ﴾ وجوهاً ثلاثة وذلك لأنا إما أن نفسر أصحاب الأخدود بالقاتلين أو

بالمقتولين .

أما على الوجه الأول ففيه تفسيران أحدهما : أن يكون هذا دعاء عليهم أي لعن أصحاب الأخدود ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] ﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ [الذاريات : 10] والثاني : أن يكون المراد أن أولئك القاتلين قتلوا بالنار على ما ذكرنا أن الجبابرة لما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت النار عليهم فقتلتهم ، وأما إذا فسرنا ، أصحاب الأخدود بالمقتولين كان المعنى أن أولئك المؤمنين قتلوا بالإحراق بالنار ، فيكون ذلك خبراً لا دعاء .

المسألة الرابعة :

قرىء قتل بالتشديد .

أما قوله تعالى : ﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

النار إنما تكون عظيمة إذا كان هناك شيء يحترق بها إما حطب أو غيره ، فالوقود اسم لذلك الشيء لقوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا النار والحجارة ﴾ [البقرة : 24] وفي : ﴿ ذَاتِ الوقود ﴾ تعظيم أمر ما كان في ذلك الأخدود من الحطب الكثير .

المسألة الثانية :

قال أبو علي : هذا بدل الاشتمال كقولك : سلب زيد ثوبه فإن الأخدود مشتمل على النار .

المسألة الثالثة :

قرىء الوقود بالضم ، أما قوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

العامل في إذ قتل والمعنى لعنوا في ذلك الوقت الذي هم فيه قعود عند الأخدود يعذبون المؤمنين .

المسألة الثانية :

في الآية إشكال وهو أن قوله : ﴿ هُمْ ﴾ ضمير عائد إلى أصحاب الأخدود ، لأن ذلك أقرب المذكورات والضمير في قوله : ﴿ عَلَيْهَا ﴾ عائد إلى النار فهذا يقتضي أن أصحاب الأخدود كانوا قاعدين على النار ، ومعلوم أنه لم يكن الأمر كذلك والجواب : من وجوه أحدها : أن الضمير في هم عائد إلى أصحاب الأخدود ، لكن المراد ههنا من أصحاب الأخدود المقتولون لا القاتلون فيكون المعنى إذ المؤمنين قعود على النار يحترقون مطرحون على النار وثانيها : أن يجعل الضمير في ﴿ عَلَيْهَا ﴾ عائد إلى طرف النار وشفيرها والمواضع التي يمكن الجلوس فيها ، ولفظ ، على مشعر بذلك تقول مررت عليها تريد

مستعلياً بمكان يقرب منه ، فالقائلون كانوا جالسين فيها وكانوا يعرضون المؤمنين على النار ، فمن كان يترك دينه تركوه ومن كان يصبر على دينه ألقوه في النار وثالثها : هب أنا سلمنا أن الضمير في هم عائد إلى أصحاب الأخدود بمعنى القاتلين ، والضمير في عليها عائد إلى النار ، فلم لا يجوز أن يقال : إن أولئك القاتلين كانوا قاعدين على النار ، فإنا بينا أنهم لما ألقوا المؤمنين في النار ارتفعت النار إليهم فهلكوا بنفس ما فعلوه بأيديهم لأجل إهلاك غيرهم ، فكانت الآية دالة على أنهم في تلك الحالة كانوا ملعونين أيضاً ، ويكون المعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة ورابعها : أن تكون على بمعنى عند ، كما قيل في قوله :

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ ﴾ [الشعراء : 14] أي عندي .

(76/810)

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ فاعلم أن قوله : ﴿ شُهُودٌ ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه حضور ، ويحتمل أن يكون المراد منه الشهود الذين تثبت الدعوى بشهادتهم ، أما على الوجه الأول ، فالمعنى إن أولئك الجبابرة القاتلين كانوا حاضرين عند ذلك العمل يشاهدون ذلك فيكون الغرض من ذكر ذلك أحد أمور ثلاثة : إما وصفهم بقسوة القلب إذ كانوا عند التعذيب بالنار حاضرين مشاهدين له ، وأما وصفهم بالجد في

تقرير كفرهم وباطلهم حيث حضروا في تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة ، وأما وصف أولئك المؤمنين المقتولين بالجد دينهم والإصرار على حقهم ، فإن الكفار إنما حضروا في ذلك الموضع طمعاً في أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم ، ثم إن أولئك المؤمنين لم يلتفتوا إليهم وبقوا مصرين على دينهم الحق ، فإن قلت المراد من الشهود إن كان هذا المعنى ، فكان يجب أن يقال : وهم لما يفعلون شهود ولا يقال : وهم على ما يفعلون شهود ؟ قلنا : إنما ذكر لفظة على بمعنى أنهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين ، وهو إحراقهم بالنار كانوا حاضرين مشاهدين لتلك الأفعال القبيحة .

أما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون المراد من الشهود الشهادة التي تثبت الدعوى بها ففيه وجوه أحدها : أنهم جعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به ، وفوض إليه من التعذيب وثانيها : أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون شهادتهم يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] ، وثالثها : أن هؤلاء الكفار مشاهدون لما يفعلون بالمؤمنين من الإحراق بالنار حتى لو كان ذلك من غيرهم لكانوا شهوداً عليه ، ثم مع هذا لم تأخذهم بهم رأفة ، ولا حصل في قلوبهم ميل ولا شفقة .

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)

المعنى وما عابوا منهم وما أنكروا الإيمان ، كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . بهن فلول من قراع الكتائب

ونظيره قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بالله ﴾ [المائدة : 59] وإنما قال : ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإيمان في المستقبل ، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى ، فكأنه قيل : إلا أن يدوموا على إيمانهم ، وقرأ أبو حيوة : ﴿ نَقَمُواْ ﴾ بالكسر ، والفصيح هو الفتح ، ثم إنه ذكر الأوصاف التي بها يستحق الإله أن يؤمن به ويعبد فأولها : العزيز وهو القادر الذي لا يغلب ، والقاهر الذي لا يدفع ، وبالجملة فهو إشارة إلى القدرة التامة وثانيها : الحميد وهو الذي يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين وإن كان بعض الأشياء لا يحمده بلسانه فنفسه شاهدة على أن المحمود في الحقيقة هو هو ، كما قال : ﴿ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] وذلك إشارة إلى العلم لأن من لا يكون عالماً بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة ، فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه وثالثها : الذي له ملك السموات والأرض وهو مالكها والقيم بهما ولو شاء لأفناهما ، وهو إشارة إلى الملك التام وإنما أخر هذه الصفة عن

الأولين لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة والعلم ، فثبت أن من كان موصوفاً بهذه الصفات كان هو المستحق للإيمان به وغيره لا يستحق ذلك ألبتة ، فكيف حكم أولئك الكفار الجهال يكون مثل هذا الإيمان ذنباً .

(78/810)

واعلم أنه تعالى أشار بقوله : ﴿ العزيز ﴾ إلى أنه لو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين ، ولأطفأ نيرانهم ولأماتهم وأشار بقوله : ﴿ الحميد ﴾ إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل ، فإنه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين إليهم ، وعقاب أولئك الكفرة إليهم ، ولكنه تعالى لم يعاجلهم بذلك لأنه لم يفعل إلا على حسب المشيئة أو المصلحة على سبيل التفضل ، فلهذا السبب قال : ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فهو وعد عظيم للمطيعين ووعيد شديد للمجرمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 104.110 ﴾

(79/810)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

اختلف الناس في ﴿ البروج ﴾ ، فقال الضحاك وقتادة : هي القصور ، ومنه قول الأخطل : [البسيط]

كأنها برج رومي يشيّده . . . لز بجص وآجر وأحجار

وقال ابن عباس : ﴿ البروج ﴾ : النجوم ، لأنها تتبرج بنورها ، والتبرج : التظاهر والتبدي ، وقال الجمهور وابن عباس أيضاً : ﴿ البروج ﴾ هي المنازل التي عرفتها العرب وهي اثنا عشر على ما قسمته العرب وهي التي تقطعها الشمس في سنة ، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً ، وقال قتادة معناه : ذات الرمل ، والسماء يريد أنها مبنية في السماء ، وهذا قول ضعيف ، ﴿ واليوم الموعود ﴾ هو يوم القيامة باتفاق ، قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعناه : الموعود به ، وقوله : ﴿ ومشهود ﴾ ، معناه : عليه أو له أو فيه ، وهذا يترتب بحسب الحساب في تعيين المراد ب " شاهد ومشاهد " ، فقد اختلف الناس في المشار إليه بهما فقال ابن عباس : الشاهد الله تعالى ، والمشهود يوم القيامة ، وقال ابن عباس والحسن بن علي وعكرمة : الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ [الأحزاب : 45 ، الفتح : 8] ، وقال في يوم القيامة ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : 103] ، وقال مجاهد وعكرمة أيضاً : الشاهد آدم

وجميع ذريته ، والمشهود يوم القيامة ، ف ﴿ شاهد ﴾ اسم جنس على هذا ، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة : ﴿ شاهد ﴾ أراد به رجل مفرد أو نسمة من النسم ، ففي هذا تذكير بحقارة المسكين ابن آدم ، والمشهود يوم القيامة ، وقال الحسن بن أبي الحسن وابن عباس أيضاً : الشاهد يوم عرفة ، ويوم الجمعة ، والمشهود يوم القيامة ، وقال ابن عباس وعلي وأبو هريرة والحسن وابن المسيب وقتادة : ﴿ شاهد ﴾ يوم الجمعة ، ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة ، وقال ابن عمر : ﴿ شاهد ﴾ يوم الجمعة ، ﴿ ومشهود ﴾ يوم النحر ، وقال جابر : ﴿ شاهد ﴾ يوم الجمعة ، ﴿ ومشهود ﴾ الناس ، وقال محمد بن كعب : الشاهد أنت يا ابن آدم ، والمشهود الله تعالى ، وقال ابن جبير بالعكس ، وتلا : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء : 79-166 ، الفتح : 28] ، وقال أبو مالك : الشاهد عيسى ،

(80/810)

والمشهود أمته ، قال الله تعالى : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ﴾ [المائدة : 117] قال ابن المسيب : ﴿ شاهداً ﴾ يوم التروية ، ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة ، وقال بعض الناس في كتاب النقاش : الشاهد يوم الأثنين والمشهود يوم الجمعة ، وذكره الثعلبي ، وقال علي بن أبي

طالب : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر ، وعنه أيضاً : ﴿ شاهد ﴾ يوم القيامة ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة . وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ شاهد ﴾ يوم الجمعة ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة . قاله علي وأبو هريرة والحسن ، وقال إبراهيم النخعي : الشاهد يوم الأضحى والمشهود يوم عرفة .

قال القاضي أبو محمد : ووصف هذه الأيام ب ﴿ شاهد ﴾ لأنها تشهد لحاضريها بالأعمال ، والمشهود فيما مضى من الأقوال بمعنى المشاهد بفتح الهاء ، وقال الترمذي : الشاهد الملائكة الحفظة ، والمشهود عليهم الناس ، وقال عبد العزيز بن يحيى عند الثعلبي : الشاهد محمد ، والمشهود عليهم أمته نحو قوله تعالى :

(81/810)

﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] أي شاهداً ، قال : الشاهد الأنبياء : والمشهود عليهم أممهم ، وقال الحسن بن الفضل : الشاهد أمة محمد ، والمشهود عليهم قوم نوح ، وسائر الأمم حسب الحديث المقصود في ذلك ، وقال ابن جبير أيضاً : الشاهد ، الجوارح التي تنطق يوم القيامة فتشهد على أصحابها ، والمشهود عليهم أصحابها ، وقال بعض العلماء : الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأمة ، والمشهود قرآن

الفجر ، وتفسيره قول الله تعالى : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء : 87]

وقال بعض العلماء : الشاهد ، النجم ، والمشهود عليه الليل والنهار ، أي يشهد النجم

بإقبال هذا وتمام هذا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " حتى يطلع الشاهد ،

والشاهد النجم " ، وقال بعض العلماء : الشاهد الله تعالى والملائكة وأولو العلم ،

والمشهود به الوحدانية وأن الدين عند الله الإسلام ، وقيل الشاهد : مخلوقات الله تعالى ،

والمشهود به وحدانيته ، وأنشد الثعلبي في هذا المعنى قول الشاعر [أبو العتاهية] : [

المتقارب]

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنه الواحد

(82/810)

وقيل المعنى : فعل الله بهم ذلك لأنهم أهل له ، فهو على جهة الدعاء بحسب البشر ، لا أن

الله يدعو على أحد ، وقيل عن ابن عباس معناه : لعن ، وهذا تفسير بالمعنى ، وقيل هو

إخبار بأن النار قتلتهم ، قاله الربيع بن أنس ، وسيأتي بيانه ، واختلف الناس في ﴿

أصحاب الأخدود ﴾ ، فقيل : هو قوم كانوا على دين كان لهم ملك فزنى بأخته ، ثم حمله

بعض نسائه على أن يسن في الناس نكاح البنات والأخوات ، فحمل الناس على ذلك

فأطاعه كثير وعصيته فرقة فخدّ لهم أخاديد ، وهي حفائر طويلة كالخنادق ، وأضرم لهم ناراً وطرحهم فيها ، ثم استمرت المجوسية في مطيعيه ، وقال علي بن أبي طالب : ﴿ الأخدود ﴾ ، وملك حمير ، كان بمزارع من اليمن ، اقتتل هو والكفار مع المؤمنين ، ثم غلب في آخر الأمر فحرقهم على دينهم إذا أبوا دينه ، وفيهم كانت المرأة ذات الطفل التي تلكأت ، فقال لها الطفل : امضي في النار فإنك على الحق ، وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه ، أن نبيّ ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ كان حبشياً ، وأن الحبشة بقية ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ وقيل : ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ ذو نواس في قصة عبد الله بن التامر التي وقعت في السير ، وقيل : كان ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ في بني إسرائيل .

(83/810)

قال القاضي أبو محمد : ورأيت في بعض الكتب أن ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ هو محرق وآله الذي حرق من بني تميم المائة ، ويعترض هذا القول بقوله تعالى : ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ ، فينفصل عن هذا الاعتراض بأن هذا الكلام من قصة ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ ، وأن المراد بقوله : ﴿ وهم ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات ، واختلف الناس في جواب القسم ، فقال بعض النحاة : هو محذوف لعلم السامع به ، وقال

آخرون : هو في قوله تعالى : ﴿ قتل ﴾ ، والتقدير لقتل ، وقال قتادة : هو في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(84/810)

وقال القرطبى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

قسم أقسم الله به جل وعز .

وفي "البروج" أقوال أربعة : أحدها ذات النجوم ؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك .

الثاني القُصُور ، قاله ابن عباس وعِكرمة ومجاهد أيضاً .

قال عِكرمة : هي قُصور في السماء .

مجاهد : البُروج فيها الحرس .

الثالث ذات الخَلْق الحسن ؛ قال المِنهال بن عمرو .

الرابع ذات المنازل ؛ قاله أبو عبيدة ويحيى بن سلام .

وهي اثنا عشر بُرْجاً ، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر .

يسير القمر في كل برج منها يومين وثلث يوم ؛ فذلك ثمانية وعشرون يوماً ، ثم يستسِرّ ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهراً .

وهي : الحَمَل ، والثَّورُ ، والجَوزاء ، والسَّرَطان ، والأسد ، والسُّنْبلة ، والمِيزان ، والعَقْرب ، والقَوسُ والجَدْي ، والدلو ، والحُوت .

والبروج في كلام العرب : القصور ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ أي الموعود به .

وهو قَسَم آخر ، وهو يوم القيامة ؛ من غير اختلاف بين أهل التأويل .

قال ابن عباس : وُعِد أهلُ السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه .

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ اختلف فيهما ؛ فقال عليّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهودُ يوم عرفة .

وهو قول الحسن .

ورواه أبو هُريرة مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة . . .

" خرّجه أبو عيسى الترمذيّ في جامعه ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا

من حديث موسى ابن عُبيدة ، وموسى بن عبيدة يُضَعَّف في الحديث ، ضَعَّفه يحيى بن سعيد وغيره .

وقد رَوَى شُعبة وسفيان الثوريّ وغير واحد من الأئمة عنه .

قال القشَيريّ فيومُ الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه .

(85/810)

قلت : وكذلك سائر الأيام والليالي ؛ فكل يوم شاهد ، وكذا كل ليلة ؛ ودليله ما رواه أبو نعِيم الحافظ عن معاوية بن قُرّة عن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس من يوم يأتي على العبد إلا يُنادَى فيه : يا بن آدم ، أنا خَلْق جديد ، وأنا فيما تعمل عليك شهيد ، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غد ، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً ، ويقول الليل مثلَ ذلك " حديث غريب من حديث معاوية ، تفرّد به عنه زيد العَمّي ، ولا أعلمه مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد .

وحكى القُشَيريّ عن ابن عمر وابن الزُّبير أن الشاهد يوم الأضحى .

وقال سعيد ابن المسيب : الشاهد : التَّروِية ، والمشهود : يوم عَرَفة .

وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليّ رضي الله عنه : الشاهد يوم عرفة ،

والمشهود يوم النحر .

وقاله النخعيّ .

وعن عليّ أيضاً : المشهود يوم عرفة .

وقال ابن عباس والحسين ابن عليّ رضي الله عنهما : المشهود يوم القيامة ؛ لقوله تعالى : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

قلت : وعلى هذا اختلفت أقوال العلماء في الشاهد ، فقيل : الله تعالى ؛ عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جُبير ؛ بيانه : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [النساء : 79] ، ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قلِ الله شهيد بيني وبينكم ﴾ [الأنعام : 19] وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس أيضاً والحسين بن عليّ ؛ وقرأ ابن عباس ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ، وقرأ الحسين ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : 45] .

قلت : وأقرأ أنا ﴿ ويكون الرسول عليكُمْ شهيداً ﴾ [البقرة : 143] .

وقيل: الأنبياء يَشْهَدون على أممهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾

[النساء: 41].

وقيل: آدم.

وقيل: عيسى بن مريم؛ لقوله: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة: 117].

والمشهود: أمته.

وعن ابن عباس أيضاً ومحمد بن كعب: الشاهد الإنسان؛ دليله: ﴿ كفى بنفسِك اليوم عليك حسِيباً ﴾ [الإسراء: 14] مقاتل: أعضاؤه؛ بيانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: 24].

الحسين بن الفضل: الشاهد هذه الأمّة، والمشهود سائر الأمم؛ بيانه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: 143].

وقيل: الشاهد: الحَفَظَة، والمشهود: بنو آدم.

وقيل: الليالي والأيام.

وقد بيناه.

قلت: وقد يشهد المالُ على صاحبه، والأرضُ بما عُمل عليها؛ ففي صحيح مسلم عن

النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن هذا المال خَضِر حُلْو ، ونِعم صاحبُ المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه من يأخذْه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يَشْبَع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة " وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة : 4] قال : "أتدرون ما أخبارُها" ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : "فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل يوم كذا كذا كذا وكذا .

قال : فهذه أخبارها" " قال حديث حسن غريب صحيح .

وقيل : الشاهد الخَلْق ، شهدوا لله عزّ وجلّ بالوحدانية .

والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى .

(87/810)

وقيل : المشهود يومُ الجمعة ؛ كما رَوَى أبو الدّرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثِروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة . . .

" وذكر الحديث .

خرّجه ابن ماجه وغيره .

قلت : فعلى هذا يوم عرفة مشهود ، لأن الملائكة تشهده ، وتنزل فيه بالرحمة .

وكذا يوم النحر إن شاء الله .

وقال أبو بكر العطار : الشاهد الحجر الأسود ؛ يشهد لمن لمسه بصدق وإخلاص ويقين .

والمشهود الحاجّ .

وقيل : الشاهد الأنبياء ، والمشهود محمد صلى الله عليه وسلم ؛ بيانه : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم مِن كِتابٍ وحِكمةٍ إلى قوله تعالى : وأَنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾

أي لعن .

قال ابن عباس : كل شيء في القرآن "قُتل" فهو لُعِن .

وهذا جواب القسم في قول الفرّاء واللام فيه مضمرة ، كقوله : ﴿ والشمس وضحاها – ثم قال – قد أفلح من زكاها ﴾ [الشمس : 1-9] أي لقد أفلح .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أي قتل أصحاب الأخدود والسماءِ ذات البُروج ؛ قاله أبو حاتم السجستانيّ .

ابن الأنباريّ : وهذا غَلَط ؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول : والله قام زيد ؛ على معنى قام زيد والله .

وقال قوم : جواب القسم ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال بينهما .

وقيل : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ [البروج : 10] .

وقيل : جواب القسم محذوف ، أي والسماء ذات البروج لَتُبْعَثُنَّ .

وهذا اختيار ابن الأنباريّ .

والأخدود : الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد .

ومنه الخدّ لمجاري الدموع ، والمخدّة ؛ لأن الخدّ يوضع عليها .

ويقال : تخدّد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من جراح ، قال طَرَفة :

ووجهٌ كأنّ الشمسَ حلتْ رداءها . . .

عليه نَقيُّ اللونِ لم يَتَخدّدِ

﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾ "النار" بدل من "الأخدود" بدل الاشتمال .

و "الوقود" بفتح الواو قراءة العامة ، وهو الحَطَب .

وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر ؛ أي ذات الاتقاد والالتهاب .

وقيل : ذات الوُقود بأبدان الناس .

وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو السَّمال العدويّ وابن السميقع "النار ذات" بالرفع فيهما ؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود .

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي الذين خدّدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين ، وكانوا بنجرانَ في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وقد اختلفت الرواة في حديثهم .

والمعنى متقارب .

ففي صحيح مسلم عن صُهَيب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ؛ فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر ؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه ؛ فكان في طريقه إذا سَلَك ، راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه ، فأعجبه ؛ فكان إذا أتي الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه ؛ فإذا أتى الساحر ضربه ؛ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحرَ فقل : حبسني أهلي .

وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر .

فبينما هو كذلك إذ أتي على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس ؛ فرماها فقتلها ومضى الناس .

فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني ؛ أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ؛ فإن ابتليت فلا تدلَّ عليّ .

وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء .

فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني .

فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفِي الله ؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ؛ فآمن بالله فشفاه الله .

(89/810)

فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ؛ فقال له الملك : مَنْ ردّ عليك بصرك ؟ قال ربيِّ .

قال : ولك رب غيري ؟ ! قال : ربي وربُّك الله .

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الغلام ؛ فجيء بالغلام فقال له الملك : أي بني ! أقد بلغ

من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ؟ ! قال : إنا لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله .

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب ؛ فجيء بالراهب ، فقيل له : ارجع عن دينك .

فأبى فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسِه فشقه حتى وقع شِقاه .

ثم جيء بِجلِيس المِلكِ فقيل له : ارجع عن دينك ؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه ، فشقه به حتى وقع شِقاه .

ثم جيء بالغلام فقبَل له : ارجع عن دينك ، فأبي فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذِروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ؛ فذهبوا به فصعِدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شِئت ، فرجف بهم الجبل ، فسقطوا .

وجاء يمشي إلى المِلك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانِيهم الله .

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قُرْقور ، فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ؛ فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ؛ فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا .

وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله .

فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به .

قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيدٍ واحدِ ، وتصلبني على جِذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني ؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

(90/810)

فجمع الناسَ في صعيد واحد ، وصلبه على جِذْع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام ؛ ثم رماه فوقع السهم في صدغه ، فوضع يده في صدغه ، في موضع السهم ، فمات ؛ فقال الناس : آمنا برب الغلام ! آمنا برب الغلام ! آمنا برب الغلام ! فأتى المِلك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد واللَّهِ نزل بك حَذرك ، قد آمن الناس ؛ فأمر بالأخدودِ في أفواه السِّكك ، فخدّت ، وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا ؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : "يا أمَّة اصبري فإنك على الحق" "

خرجه الترمذي بمعناه .

وفيه : " وكان على طريق الغلام راهب في صومعة " قال معمر : أحسب أن أصحاب

الصوامع كانوا يومئذ مسلمين .

وفيه : " أن الدابة التي حَبَستِ الناس كانت أَسداً ، وأن الغلام دُفن قال فيذكر أنه أُخرج في زمن عمر ابن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتِل " وقال : حديث حسن غريب .

ورواه الضحاك عن ابن عباس قال : كان مَلِك بنَجْران ، وفي رعِيته رجل له فتى ، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر ، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل ؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب ، فدخل في دين الراهب ؛ فأقبل يوماً فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم ، فأخذ حجراً فقال باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما ؛ فقتلها .

وذكر نحو ما تقدم .

وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك : لا إله إلا إله عبد الله بن ثامر ؛ وكان اسم الغلام ، فغضب الملك ، وأمر فخُدّت أخاديد ، وجُمع فيها حطب ونار ، وعَرَض أهل مملكته عليها ، فمن رجعِ عن التوحيد تركه ، ومن ثبت على دينه قذفه في النار .

(91/810)

وجيء بامرأة مُرْضعٍ فقيل لها ارجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدك قال فأشفقت وهمّت بالرجوع ، فقال لها الصبيّ المُرْضَع : يا أمي ، اثبتي على ما أنت عليه ، فإنما هي غميضة ؛ فألقَوها وابنها .

وروي أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذِراعاً فأحرقتهم .

وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تُبّع الحميري ، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً ، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه .

حكاه الماورديّ ، وحكى الثعلبيّ عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل ، أخذُوا رجالاً ونساء ، فخدّوا لهم الأخاديد ، ثم أوقدوا فيها النار ، ثم أقيم المؤمنون عليها . وقيل لهم : تكفرون أو تُقْذَفون في النار ؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه ؛ وقاله عَطِية العوفِيّ .

ورُوي نحو هذا عن ابن عباس .

وقال عليّ رضي الله عنه : إن مِلكاً سُكِر فوقع على أخته ، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رعِيته فلم يقبلوا ، فأشارت إليه أن يخطُب بأن الله عز وجل أحل نكاح الأخوات ، فلم يُسمع منه .

فأشارت إليه أن يخدّ لهم الأخدود ، ويلقي فيه كل من عصاه .

ففعل .

قال : وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوس ، وكانوا أهل كتاب .

ورُوي عن عليّ أيضاً أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبياً بعثه الله تعالى إلى الحبشة ، فاتبعه ناس ، فحذّ لهم قومهم أخدوداً ، فمن اتبع النبيّ رمي فيها ، فجيء بامرأة لها بُنَيّ رضيع فجزِعت ، فقال لها : يا أمّاه ، امضي ولا تجزعي .

وقال أيوب عن عِكرمة قال : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ قال : كانوا من قومك من السجِستان .

وقال الكلبيّ : هم نصارى نجران ، أخَذوا بها قوماً مؤمنين ، فخدّوا لهم سبعة أخاديد ، طول كل أخدود أربعون ذراعاً ، وعرضه اثنا عشر ذراعاً .

ثم طرح فيه النفط والحطب ، ثم عرضوهم عليها ؛ فمن أبى فذقوه فيها .

(92/810)

وقيل : قوم من النصارى كانوا بالقُسْطنطينية زمان قُسْطَنطين .

وقال مقاتل : أصحاب الأخدود ثلاثة ؛ واحد بنجران ، والآخر بالشام ، والآخر بفارس .

أمّا الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي ، وأما الذي بفارس فبختنصر ، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نُواس .

فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآناً ، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجران .

وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة ، والآخر بنجران ، آجر أحدهما نفسه ، فجعل يعمل ويقرأ الإِنجيل ؛ فرأت ابنة المستأجِر النورَ في قراءة الإنجيل ، فأخبرت أباها فأسلم .

وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وامرأة ، بعد ما رفع عيسى ، فخدّ لهم يوسف بن ذي نُواس بن تُبَّعٍ الحِميرِيّ أخدوداً ، وأوقد فيه النار ؛ وعرضهم على الكفر ، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار ، وقال : من رجع عن دين عيسى لم يقذف .

وإن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم ، فرجعت ، فقال لها ابنها : يا أمّاه ، إني أرى أمامك ناراً لا تُطْفَأ ، فقَذَفا جميعاً أنفسهما في النار ، فجعلها الله وابنها في الجنة .

فقُذِف في يوم واحد سبعة وسبعون إنساناً .

وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبه : كان رجل من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، يقال له قيميون ، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا مجاب الدعوة ، وكان سائحاً في القرى ، لا يُعْرَف بقرية إلا مضى عنها ، وكان بَنَّاء يعمل الطين .

قال محمد بن كعب القُرَظيّ : وكان أهل نَجْرانَ أهل شرك يعبدون الأصنام ، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ؛ فلما نزل بها قيميون ، بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ؛ فبعث إليه الثامرُ عبدَ الله ابن الثامر ، فكان مع غلمان أهل نجران ، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم ، فوحَّد الله وعبده ، وجعل يسأله عن اسم الله الأعظم ، وكان الراهب يعلمه ، فكتمه إياه وقال : يا بن أخي ، إنك لن تحمله ، أخشى ضعفك عنه ؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان .

فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخِل عليه بتعليم اسم الله الأعظم ، عمد إلى قِداح فجمعها ، ثم لم يُبق لله تعالى اسما يعلمه إلا كتبه في قِدْح ، لكل اسم قِدْح ؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً ، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحاً قِدْحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القِدْح حتى خرج منها لم يضرَّه شيء ؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه ، فأخبره أنه قد علم اسم الله الأعظم الذي كتمه إياه ؛ فقال : وما هو ؟ قال : كذا وكذا .

قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع .

فقال له : يا بن أخي ، قد أصبته ، فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله ابن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضُرٌّ إلا قال : يا عبد الله ، أتوحّدِ الله وتدخل في ديني ، فأدعوَ الله لك فيعافِيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم ؛ فيوحّدِ الله ويسلم ، فيدعو الله له فيُشْفَى ، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفي ؛ حتى رُفع شأنه إلى ملكهم ، فدعاه فقال له : أفسدت عليّ أهل قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، فلأمثلنّ بك .

(94/810)

قال : لا تقدر على ذلك ؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيطرح عن رأسه ، فيقع على الأرض ليس به بأس .

وجعل يبعث به إلى مياه نجرانَ ، بحار لا يلقَى فيها شي إلا هلك ، فيلقَى فيها فيجرج ليس به بأس ؛ فلما غلبه قال له عبد الله ابن الثامر : والله لا تقدر على قتلي حتى توحّدِ الله وتؤمن بما آمنت به ؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليّ وقتلتني .

فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته ، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانَه ، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكْمه .

ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران .

فسار إليهم ذو نُواس اليهوديّ بجنوده من حِمْير ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخدّ لهم الأخدود ؛ فحَّرق بالنار وقتل بالسيف ، ومَثَّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفاً .

وقال وهب بن منبه : اثني عشر ألفاً .

وقال الكلبيّ : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً .

قال وهب : ثم لما غَلَب أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هارباً ، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق .

قال ابن إسحاق : وذو نُواس هذا اسمه زُرْعة بن تُبّان أسعد الحميريّ ، وكان أيضاً يسمى يوسف ، وكان له غدائر من شعرٍ تَنُوسُ ، أي تضطرب ، فسمى ذا نُواس ؛ وكان فعل هذا بأهل نجران ، فأفلت منهم رجل اسمه دَوْسٌ ذو ثَعْلَبان ، فساق الحبشة لينتصر بهم ، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر ؛ ألقى نفسه فيه ؛ وفيه يقول عمرو بن معدي كرب :

أَتُوعِدني كأنك ذو رُعَيْنٍ . . .
بأَنعم عِيشةٍ أو ذو نُواسِ
وكائِنْ كان قبلَك من نَعِيم . . .
ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ

قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ . . .

عظيم قاهرِ الجبروت قاسِ

أزال الدهرُ مُلْكَهم فأضحى . . .

يُنَقَّل من أناس في أناس

وذو رُعين : ملك من ملوك حمير .

(95/810)

ورُعَين حصن له وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حمير بن سَبَأ .

مسألة : قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ، ما كان يلقاه من وَحَّد قبلهم من الشدائد ، يُؤنِّسهم بذلك .

وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام ، والمشقات التي كانوا عليها ، ليتأسّوا بمثل هذا الغلام ، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ، ودخول الناس في الدين مع صِغر سنه وعظم صبره .

وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشِر بالمنشار .

وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم ، صبروا على الطرح في

النار ولم يرجعوا في دينهم .

ابن العربي : وهذا منسوخ عندنا ، حَسْب ما تقدم بيانه في سورة "النحل" .

قلت : ليس بمنسوخ عندنا ، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى ، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان : ﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ : وروى أبو سعيد الخُدرِيّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر " خرجه الترمذيّ وقال : حديث حسن غريب ، ورَوَى ابن سنجر (محمد بن سنجر) " عن أميمة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كنت أوضىء النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتاه رجل ، قال : أوصني : فقال : "لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطّعت أو حُرِّقْت بالنار . . .

" " الحديث : قال علماؤنا : ولقد امتُحِن كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل والصَّلْب والتعذيب الشديد ، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك : ويكفيك قصة عاصم وخُبيب وأصحابهما وما لَقُوا من الحروب والمِحَن والقتل والأسر والحرق ، وغير ذلك ، وقد مضى في "النحل" أن هذا إجماع ممن قوي في ذلك ، فتأمله هناك .

(96/810)

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى : وقيل : معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين ، أي إنهم قُتلوا بالنار فصبروا : وقيل : هو إخبار عن أولئك الظالمين ، فإنه رُوِي أن الله قبض أرواح الذين ألقوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار ، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها قعود : وقيل : إن المؤمنين نَجَوا ، وأحرقت النار الذين قعدوا ، ذكره النحاس ، ومعنى "عليها" أي عندها وعلى بمعنى عند : وقيل : "عليها" على ما يدنو منها من حافات الأخدود ، كما قال :

وباتَ على النارِ النَّدى والمحلَّقُ . . .

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ ، ﴿ قُتِلَ ﴾ أي لعنوا في ذلك الوقت : ﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ أي حضور : يعني الكفار ، كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين ، فمن أبى ألقوه في النار وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد في ذلك : وقيل : "على" بمعنى مع ، أي وهم : مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾

وقرأ أبو حَيْوة "نِقموا" بالكسر ، والفصيح هو الفتح ، وقد مضى في "براءة" القول فيه : أي ما نَقَم المِلك وأصحابه من الذين حَرَّقهم : ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ أي إلا أن يصدّقوا : ﴿ بالله العزيز ﴾ أي الغالب المنيع : ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود في كل حال .

﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ لا شريك له فيهما ولا نديد ﴿ والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(97/810)

وقال الآلوسى :

﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾

أي القصور كما قال ابن عباس وغيره والمراد بها عند جمع البروج الإثنا عشر المعروفة وأصل البرج الأمر الظاهر ثم صار حقيقة للقصر العالي لأنه ظاهر للناظرين ويقال لما ارتفع من سور المدينة برج أيضاً وبروج والسماء بالمعنى المعروف وإن التحقت بالحقيقة فهي في الأصل استعارة فإنها شبهت بالقصور لعلوها ولأن النجوم نازلة فيها كسكانها فهناك استعارة مصرحة تتبعها مكنية وقيل شبه السماء بسور المدينة فأثبت لها البروج وقيل هي منازل القمر وهذا راجع إلى القول الأول لأن البروج منقسمة ثمانية وعشرين منزلاً وقد تقدم الكلام فيها وقال مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة هي النجوم وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه فيه حديثاً مرفوعاً بلفظ الكواكب بدل النجوم والله تعالى

أعلم بصحته وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن أبي صالح أنه قال هي النجوم العظام وعليه إنما سميت بروجاً لظهورها وكذا على ما قبله وإن اختلف الظهور ولم يظهر شموله جميع النجوم وقيل هي أبواب السماء وسميت بذلك لأن النوازل تخرج من الملائكة عليهم السلام منها فجعلت مشبهة بقصور العظماء النازلة أو أمرهم منها أو لأنها لكونها مبدأ للظهور وصفت به مجازاً في الطرف وقيل في النسبة والبروج الإثنا عشر في الحقيقة على ما ذكره محققو أهل الهيئة معتبرة في الفلك الأعلى المسمى بفلك الأفلاك والفلك الأطلس وزعموا أنه العرش بلسان الشرع لكنها لما لم تكن ظاهرة حساً دلوا عليها بما سامتها وقت تقسيم الفلك الأعلى من الصور المعروفة كالحمل والثور وغيرهما التي هي في الفلك الثامن المسمى عندهم بفلك الثوابت وبالكرسي في لسان الشرع على ما زعموا فبرج الحمل مثلاً ليس إلا جزءاً من اثني عشر جزءاً من الفلك الأعلى سامتته صورة الحمل من الثوابت وقت التقسيم وبرج الثور ليس إلا جزءاً من ذلك سامتته صورة الثور منها ذلك الوقت أيضاً وهكذا وإنما قيل وقت التقسيم لأن كل صورة قد خرجت لحركتها

(98/810)

وإن كانت بطيئة عما كانت مسامتة له من تلك البروج حتى كاد يسامت الحمل اليوم برج الثور والثور برج الجوزاء وهكذا فعلى هذا وكون المراد بالروج البروج اثني عشر أو المنازل قيل المراد بالسماء الفلك الأعلى وقيل الفلك الثامن لظهور الصور الدالة على البروج فيه ولذا يسمى فلك البروج وقيل السماء الدنيا لأنها ترى فيها بظاهر الحس نظير ما قيل في قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وقيل الجنس الشامل لكل سماء لأن السموات شفافة فيشارك العليا فيما فيها السفلى لأنه يرى فيها ظاهراً وإذا أريد بالبروج النجوم فقيل المراد بالسماء الفلك الثامن لأنها فيه حقيقة وقيل السماء الدنيا وقيل الجنس على نحو ما مر ولا يراد على ما قيل الفلك الأعلى لأنه كاسمه غير مكوكب وإذا أريد بها الأبواب فقيل المراد بالسماء ما عدا فلك الأفلاك المسمى بلسان الشرع بالعرش فإنه لم يرد أن له أبواباً هذا وأنت تعلم أن أكثر ما ذكر مبني على كلام أهل الهيئة المتقدمين وهو لا يصح له مستند شرعاً ولا يكاد تسمع فيه إطلاق السماء على العرش أو الكرسي لكن لما سمع بعض الإسلاميين من الفلاسفة أفلاكاً تسعة وأراد تطبيق ذلك على ما روى في الشرع زعم أن سبعة منها هي السموات السبع والإثنين الباقيين هما الكرسي والعرش ولم يدر أن في الأخبار ما يأبى ذلك وكون الدليل العقلي يقتضيه محل بحث كما لا يخفى ومن رجع إلى كلام أهل الهيئة المحدثين ونظر في أدلتهم على ما قالوه في أمر الأجرام العلوية وكيفية ترتيبها قوي عنده وهن ما ذهب إليه المتقدمون في ذلك فالذي ينبغي أن يقال البروج هي المنازل

للكواكب مطلقاً التي يشاهدها الخواص والعوام وما علينا في أي سماء كانت أو الكواكب أنفسها أينما كانت أو أبواب السماء الواردة في لسان الشرع والأحاديث الصحيحة وهي لكل سماء ولم يثبت للعرش ولا للكرسي منها شيء ويراد بالسماء جنسها أو السماء الدنيا في غير القول الأخير على ما سمعت فيما تقدم

(99/810)

فلا تغفل .

﴿ واليوم الموعود ﴾ أي الموعود به وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين وقيل لعله اليوم الذي يخرج الناس فيه من قبورهم فقد قال سبحانه ﴿ يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ [المعارج : 43 ، 44] أو يوم طيء السماء كطيء السجل للكتب وقيل يمكن أن يراد به يوم شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم على ما أشار إليه قوله تعالى ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الإسراء : 79] ولا يخفى أن جميع ذلك داخل في يوم القيامة .

(100/810)

﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ أي ومن يشهد بذلك اليوم ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه وما يحضر فيه من الأهوال والعجائب فيكون الله عز وجل قد أقسم سبحانه بيوم القيامة وما فيه تعظيماً لذلك اليوم وإرهاباً لمنكريه وتنكير الوصفين للتعظيم أي وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما أو للتكثير كما قيل في ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] وأخرج الترمذي وجماعة عن أبي هريرة مرفوعاً الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى ذلك عن أبي مالك الأشعري وجبير بن مطعم رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً أيضاً وأخرج جماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه وغيره من الصحابة والتابعين وأخرج الحاكم وصححه عنه مرفوعاً أيضاً الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة والمشهود يوم القيامة وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النجم وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما وكرم وجههما أن رجلاً سأل عن ذلك فقال هل سألت أحداً قبلي قال نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا يوم الذبح ويوم الجمعة قال لا ولكن الشاهد محمد وفي رواية جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] والمشهود يوم القيامة ثم قرأ ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ [هود : 103] وذلك يوم مشهود وروى النسائي وجماعة من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نحوه

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه الشاهد الله عز وجل والمشهود يوم القيامة وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار الشاهد آدم عليه السلام وذريته والمشهود يوم القيامة وعن ابن المسيب الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة وعن الترمذي الشاهد الحفظة والمشهود أي عليه الناس وعن عبد العزيز بن يحيى هما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته عليه الصلاة والسلام وعنه أيضاً هما الأنبياء عليهم السلام وأممهم وعن ابن جبير ومقاتل هما الجوارح

(101/810)

وأصحابها وقيل هما يوم الإثنين ويوم الجمعة وقيل هما الملائكة المتعاقبون عليهم السلام وقرآن الفجر وقيل هما النجم والليل والنهار وقيل الشاهد الله تعالى والملائكة وأولو العلم والمشهود به الوحدانية وإن الدين عند الله تعالى الإسلام وقيل الشاهد مخلوقاته تعالى والمشهود به الوحدانية وقيل هما الحجر الأسود والحجيج وقيل الليالي والأيام وبنو آدم فعن الحسن ما من يوم إلا ينادي أنى يوم جديد وأنى على ما يعمل في شهيد فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني إلى اليوم القيامة وقيل أمة النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأمم وجوز أن يراد بها المقربون والعليون لقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾

[المطففين : 20 ، 21] وأن يراد بالشاهد الطفل الذي قال يا أماه اصبري فإنك على الحق كما سيجيء إن شاء الله تعالى والمشهود له أمه والمؤمنون لأنه إذا كانت أمه على الحق فسائر المؤمنين كذلك وقيل وقيل وجميع الأقوال في ذلك ما وقفت عليه نحو من ثلاثين قولاً والوصف على بعضها من الشهادة بمعنى الحضور ضد المغيب وعلى بعضها الآخر من الشهادة على الخصم أو له شهادة الجوارح بأن ينطقها الله تعالى الذي أنطق كل شيء وكذا الحجر الأسود ولا سعد في حضوره يوم القيامة للشهادة للحجيج وأما شهادة اليوم فيمكن أن تكون بعد ظهوره في صورة كظهور القرآن على صورة الرجل الساحب إذ يتلقى صاحبه عند قيامه من قبره وظهور الموت في صورة كبش يوم القيامة حتى يذبح بين الجنة والنار إلى غير ذلك وقال الشهاب الله تعالى قادر على أن يحضر الموت ليشهد ولم يبين كيفية ذلك فإن كانت كما ذكرنا فذاك وإن كانت شيئاً آخر بإن يحضر نفس اليوم في ذلك اليوم فالظاهر أنه يلزم أن يكون للزمان زمان وهو وإن جوزه من جوزه من المتكلمين لكن في الشهادة بلسان القال عليه خفاء ومثلها نداء اليوم الذي سمعته آنفاً عن الحسن إن كان بلسان القال أيضاً دون لسان الحال كا هو الأرجح عندي واختار أبو حيان من الأقوال على تقدير أن يراد

بالشهادة الشهادة بالمعنى الثاني القول بأن الشاهد من يشهد في ذلك اليوم أعني اليوم الموعود يوم القيامة وأن المشهود من يشهد عليه فيه وعلى تقدير أن يراد بها الشهادة بالمعنى الأول القول بإن الشاهد الخلائق الحاضرون للحساب وإن المشهود اليوم ولعل تكرير القسم به وإن اختلف العنوان لزيادة تعظيمه فتأمل وجواب القسم قيل هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ [البروج : 10] وقال المبرد هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] وصرح به ابن جريج وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود ما يدل عليه وقال غير واحد هو قوله تعالى :

(103/810)

﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدود ﴾ على حذف اللام منه للطول والأصل لقتل كما في قوله

: حلفت لها بالله حلفة فاجر . . .

لناموا فما ان من حديث ولا صالي

(104/810)

وقيل على حذف اللام وقد والأصل لقد قتل وهو مبني على ما اشتهر من أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله تلزمه اللام وقد ولا يجوز الاقتصار على أحدهما إلا عند طول الكلام كما في قوله سبحانه قد أفلح من زكاها بعد قوله سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9] بعد قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] الخ والبيت المذكور ولا يجوز تقدير اللام بدون قد لأنها لا تدخل على الماضي المجرد منها وتمام الكلام في محله كشروح التسهيل وغيرها وأياً ما كان فالجملة خبرية وقال بعض المحققين إن الأظهر أنها دعائية دالة على الجواب كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش لملعونون أحقاء بأن يقال فيهم قتلوا كما هو شأن أصحاب الأخدود لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الايمان وتصبيرهم على أذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى ممن تقدمهم من التعذيب لأهل الايمان وصبرهم على ذلك حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أنهم مثل أولئك عند الله عز وجل في كونهم ملعونين مطرودين فالقتل هنا عبارة عن أشد اللعن والطرد لاستحالة الدعاء منه سبحانه حقيقة فاريد لازمه من السخط والطرد عن رحمته جل وعلا وقال بعضهم الأظهر أن يقدر أنهم لمقتولون كما قتل أصحاب الأخدود فيكون وعداً له صلى الله عليه وسلم بقتل الكفرة المتمردين لإعلاء دينه ويكون معجزة بقتل رؤسهم في غزوة بدر انتهى وظاهره إبقاء القتل على حقيقته واعتبار الجملة خبرية وهو كما ترى وحكى في البحر أن الجواب محذوف

وتقديره لتبعثن ونحوه وليس بشيء كما لا يخفى والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الخق والأخقوق ومنه ما جاء في خبر سراقة حين تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فساخت قوائمه أي قوائم فرسه في أخاقيق جرذان .

(105/810)

أخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث صهيب يرفعه كان ملك من الملوك وكان ذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن انظروا إلى غلاماً فهماً فأعلمه علمي هذا فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه فنظروا له غلاماً على ما وصف فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه فجعل الغلام يختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعه فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره فقال إنما أعبد الله تعالى فجعل الغلام يمكث عند الراهب ويبطىء على الكاهن فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني فأخبر الغلام الراهب بذلك فقال له الراهب إذا قال لك الكاهن أي كنت فقل عند أهلي وإذا قال لك أهلك أين كنت فأخبرهم إنك كنت عند الكاهن فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثيرة قد حبستهم دابة يقال كانت أسداً فأخذ الغلام حجراً فقال اللهم إن كان ما يقول

الراهب حقاً فاسألك أن أقتل هذه الدابة وإن كان ما يقوله الكاهن حقاً فأسألك أن لا أقتلها ثم رمى فقتل الدابة فقال الناس من قتلها فقالوا الغلام ففزع الناس وقالوا قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد فسمع أعمى فجاءه فقال له إن أنت رددت بصري فلك كذا وكذا فقال الغلام لا أريد منك هذا ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك قال نعم فرد عليه بصره فآمن الأعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى ثم أمر بالغلام فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه فانطلق به

(106/810)

إلى البحر ففرق الله تعالى الذين كانوا معه وأنجاه الله تعالى فقال الغلام للملك إنك لا تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول بسم الله رب الغلام فأمر به فصلب ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوضع الغلام يده على صدغه حين رمي ثم مات فقال الناس لقد علم هذا الغلام علماً

ما علمه أحد فإنا نؤمن برب هذا الغلام فقيل للملك أجزعت إن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك فخذ أخدوداً ثم ألقى فيها الحطب والنار ثم جمع الناس فقال من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار فجعل يلقيهم في تلك الأخدود فقال يقول الله تعالى قتل أصحاب الأخدود حتى بلغ

﴿ العزيز الحميد ﴾ [البروج : 8] وفيه فأما الغلام فإنه دفن ثم أخرج فيذكر أنه خرج في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل وفي بعض رواياته فجاءت امرأة بابن لها صغير فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي يا أمه اصبري فإنك على الحق وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن نجى قال شهدت علياً كرم الله تعالى وجهه وقد أتاه اسقف نجران فسأله عن أصحاب الأخدود فقص عليه القصة فقال علي كرم الله تعالى وجهه أنا أعلم بهم منك بعث نبي من الحبش إلى قومه ثم قرأ رضي الله تعالى عنه

(107/810)

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ﴾ [غافر : 78] ومنهم من لم نقصص عليك فدعاهم فتابعه الناس فقاتلهم فقتل أصحابه وأخذ فأوثق فانفلت فأنس

إليه رجال فقاتلهم وقتلوا وأخذ فأوثق فخددوا أخدوداً وجعلوا فيها النيران وجعلوا يعرضون الناس فمن تبع النبي رمى به فيها ومن تابعهم ترك وجاءت امرأة في آخر من جاء ومعها صبي لها فجزعت فقال الصبي يا أمه اصبري ولا تماري فوقعت واخرج عبد بن حميد عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال كان المجوس أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمرة قد أحلت لهم فتناول منها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله فتناول أخته أو ابنته فوقع عليها فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه قالت المخرج منه أن تخطب الناس فتقول أيها الناس إن الله أحل نكاح الأخوات أو البنات فقال الناس جمعتهم معاذ الله تعالى أن نؤمن بهذا أو نقر به أو جاءه به نبي أو نزل علينا في كتاب فرجع إلى صاحبته وقال ويحك إن الناس قد أبوا على ذلك قالت إن أبوا عليك فابسط فيهم السوط فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا قالت فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا قالت فخذ لهم الأخدود ثم أوقد فيها النيران فمن تابعك خل عنه فخذ لهم أخدوداً وأوقد فيها النيران وعرض أهل مملكته على ذلك فمن أبى قذفه في النار ومن لم يأب خلى عنه وقيل وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد وقيل سبعين ألفاً وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثني عشر ذراعاً ولاختلاف الأخبار في القصة اختلفوا في موضع الأخدود فقيل بنجران لهذا الخبر

الأخير وقيل بأرض الحبشة لخبر ابن نجي السابق وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه كان بمذراع اليمن أي قراه وهذا لا ينافي كونه

(108/810)

بنجران لأنه بلد باليمن وكذا اختلفوا في أصحاب الأخدود لذلك فحكى فيه ما يزيد على عشرة أقوال منها أنهم حبشة ومنها أنهم من النبط وروى عن عكرمة ومنها أنهم من بني إسرائيل وروى عن ابن عباس وأصح الروايات عندي في القصة ما قدمناه عن صهيب رضي الله تعالى عنه والجمع ممكن فقد قال عصام الدين لعل جميع ما روى واقع والقرآن شامل له فلا تغفل وقرأ الحسن وابن مقسم قتل بالتشديد وهو مبالغة في لعنهم لعظم ما أتوا به وقد كان صلى الله عليه وسلم على ما أرج ابن أبي شيبة عن عوف وعبد بن حميد عن الحسن إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ من جهد البلاء .

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5)

﴿ النار ﴾ بدل اشتمال من الأخدود والرابط مقدر أي فيه أو أقيم إلى مقام الضمير أو لأنه معلوم اتصاله به فلا يحتاج لرابط وكذا كل ما يظهر ارتباطه فيما قبل وجوز أبو حيان كونه بدل كل من كل على تقدير محذوف أي أخدود النار وليس بذاك وقرأ قوم النار بالرفع

فقيل على معنى قتلتهم النار كما في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والاصال ﴾ [النور : 36 ، 37] رجال على قراءة يسبح بالبناء للمفعول وقوله :

ليبك يزيد ضارع لخصومة . . .

(109/810)

ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين وليس المراد بالقتل اللعن وجوز أن يراد بهم الكفرة والقتل على حقيقته بناء على ما قال الربيع بن أنس والكلبي وأبو العالية وأبو إسحاق من الله تعالى بعث على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذي كانوا على حافتي الأخدود وأنت تعلم أن قول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دلت عليه القصص التي ذكروها فلا ينبغي أن يعول عليه وإن حمل القتل على حقيقته غير ملائم للمقام ولعل الأولى في توجيه هذه القراءة أن النار خبر مبتدأ محذوف أي هي أو هو النار ويكون الضمير راجعاً على الأخدود وكونه النار خارج مخرج المبالغة كأنه نفس النار ﴿ ذَاتِ الوقود ﴾ وصف لها بغاية العظمة وارتفاع اللهب وكثرة ما يوجبه ووجه إفادته ذلك أنه لم يقل موقدة بل جعلت ذات وقود أي مالكته وهو كناية عن زيادته زيادة مفرطة لكثرة ما يرتفع به لهبها وهو الحطب الموقد به لأن تعريفه استغراقي وهي إذا ملكت كل موقود به

عظم حريقها ولهبها وليس ذلك لأنه لا يقال ذو كذا إلا لمن كثر عنده كذا لأنه غير مسلم وذو النون يأباه وكذا ذو العرض وقرأ الحسن وأبو بحار وأبو حيوة وعيسى الوقود بضم الواو وهو مصدر بخلاف مفتوحه فإنه ما يوقد به .

وقد حكى سيبويه أنه مصدر كمضمونه وقوله تعالى :

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ ظرف لقتل أي لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها في مكان قريب منها مشرفين عليها من حافات الأخدود كما في قول الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها . . .

وبات على النار الندى والمحلق

وقيل الكلام بتقدير مضاف أي على حافاتها أو نحوه والجمهور على أن المراد ذلك من غير تقدير .

(110/810)

﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً لم يقصر فيما أمر به أو يشهدون عنده على ما حسن ما يفعلون واشتماله على الصلاح على ما قيل أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل الشنيع يوم القيامة أو يشهدون على أنفسهم

بذلك يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم وقيل علي بمعنى مع والمعنى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم ومن زعمم أن الله تعالى نجى المؤمنين وإنما أحرق سبحانه الكافرين يقول هنا المراد وهم على ما يريدون فعله بالمؤمنين شهود وأياً ما كان ففي المؤمنين تغليب والمراد بالمؤمنين والمؤمنات ومن الغريب الذي لا يلتفت إليه ما قيل إن أصحاب الأخدود عمرو بن هند المشهور بمحرق ومن معه حرق مائة من بني تميم وضميرهم على ما يفعلون لكفار قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات .

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي ما أنكروا منهم وما عابوا وفي مفردات الراغب يقال نقمت الشيء إذا أنكرته بلسانك أو بعقوبة وقرأ زيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وما نقموا بكسر القاف والجملة عطف على الجملة الاسمية وحسن ذلك على ما قيل كون تلك الاسمية لوقوعها في حيز إذ ماضوية فكان العطف عطف فعلية على فعلية وقيل إن هذه الفعلية بتقدير وهم ما نقموا منهم ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد ﴾ استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

(111/810)

وكون الكفرة يرون الايمان أمراً منكراً والشاعر لا يرى الفلول كذلك لا يضر على ما أرى في كون ذلك منه عز وجل جارياً على ذلك المنهاج من تأكيد المدح بما يشبه الذم ثم إن القوم إن كانوا مشركين فالمنكر عندهم ليس هم الايمان بالله تعالى بل نفى ما سواه من معبوداتهم الباطلة وإن كانوا معطلة فالمنكر عندهم ليس إلا إثبات معبود غير معهود لهم لكن لما كان مآل الأمرين إنكار المعبود بحق الموصوف بصفات الجلال والإكرام عبر بما ذكر مفصحاً عما سمعت فتأمل ولبعض الأعلام كلام في هذا المقام قد رده الشهاب فإن أردته فارجع إليه وفي المنتخب إنما قال سبحانه إلا أن يؤمنوا لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الايمان في المستقبل ولو كفروا فيه لم يعذبوا على ما مضى فكأنه قال عز وجل إلا أن يدوموا على ايمانهم انتهى وكأنه حمل النقم على الانكار بالعقوبة ووصفه عز وجل بكونه عزيزاً غالباً يخشى عقابه وحميداً منعماً يرجى ثوابه وتأكيد ذلك بقوله سبحانه :

﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ للإشعار بمناط إيمانهم وقوله تعالى : ﴿ والله على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وعد لهم ووعيد لمعذبيهم فإن علم الله جل شأنه الجامع لصفات الجلال والجمال بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما ولكونه تذييلاً لذلك واللائق به الاستقلال جيء فيه بالاسم الجليل دون الضمير .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

في افتتاح السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده وإشعار بأهمية المقسم عليه ، وهو مع ذلك يَلفت ألبابَ السّامعين إلى الأمور المقسم بها ، لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرد الله تعالى بالإلهية وإبطالَ الشريك ، وبعضها مذكِّر بيوم البعث الموعود ، ورمز إلى تحقيق وقوعه ، إذ القسم لا يكون إلا بشيء ثابت الوقوع وبعضها بما فيه من الإبهام يوجِّه أنفُس السامعين إلى تطلب بيانه .

ومناسبةُ القسم لما أقسم عليه أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود ولما كانت الأخاديد خُطوطاً مجعولة في الأرض مستَعِرَة بالنار أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجاً وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار .

والقسم بالسماء بوصف ذات البروج يتضمن قسماً بالأمرين معاً لتلتفت أفكارُ المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي إذ

خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصل .

كما قال تعالى في نحو هذا : ﴿ ذلك لتعلموا أن اللَّه يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن اللَّه بكل شيء عليم ﴾ [المائدة : 97] .

وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأن الله وعد بوقوعه قال تعالى : ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ [المعارج : 44] مع ما في القَسم به من إدماج الإِيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسَم على مضمونها ، ووعيد أمثالهم المعرَّض بهم .

ومناسبة القسم بـ ﴿ شاهد ومشهود ﴾ على اختلاف تأويلاته ، ستُذكر عند ذكر التأويلات وهي قريبة من مناسبة القَسم باليوم الموعود ، ويقابله في المقسم عليه قوله : ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ .

(113/810)

والبروج : تطلق على علامات من قبة الجَو يتراءى للناظر أن الشمس تكون في سمتها مدة شهر من أشهر السنة الشمسية ، فالبرج : اسم منقول من اسم البُرج بمعنى القصر لأن الشمس تنزله أو منقول من البرج بمعنى الحصن .

والبرج السماوي يتألف من مجمُوعة نجوم قريب بعضها من بعض لا تختلف أبعادها أبداً ، وإنما سُمّي بُرجاً لأن المصطلحين تخيلوا أن الشمس تحلّ فيه مُدّة فهو كالبرج ، أي القصر ، أو الحصن ، ولما وجدوا كل مجموعة منها يُخَال منها شكلٌ لو أحيط بإطار لخط مفروض لأشبَهَ محيطُها محيط صورة تخيلية لبعض الذوات من حيوان أو نبات أو آلات ، ميّزوا بعض تلك البروج من بعض بإضافته إلى اسم ما تشبهه تلك الصورة تقريباً فقالوا : برج الثَّور ، برج الدلو ، برج السنبلة مثلاً .

وهذه البروج هي في التّحقيق : سُموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهُر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهاراً في المكان الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلاً ، وقد تقدم عند قوله تعالى:

﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ في سورة الفرقان (61) .

وشاهد ومشهود ﴾ مراد بهما النوع .

فالشاهد : الرائي ، أو المخبر بحق لإِلزام منكره .

والمشهود : المَرئي أو المشهود عليه بحق .

وحذف متعلق الوصفين لدلالة الكلام عليه فيجوز أن يكون الشاهد حاضرَ ذلك اليوم الموعود من الملائكة قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] .

ويجوز أن يكون الشاهد الله تعالى ويؤيده قوله : ﴿ واللَّه على كل شيء شهيد ﴾ أو الرسل والملائكة .

والمشهود : الناس المحشورون للحساب وهم أصحاب الأعمال المعرَّضون للحساب لأن العرف في المجامع أن الشاهد فيها : هو السالم من مشقتها وهم النظارة الذين يطَّلعون على ما يجري في المجمع ، وأن المشهود : هو الذي يطَّلعُ الناسُ على ما يجري عليه .

ويجوز أن يكون الشاهد : الشاهدين من الملائكة ، وهم الحفظة الشاهدون على الأعمال .

(114/810)

والمشهود : أصحاب الأعمال .

وأن يكون الشاهد الرسل المبلغين للأمم حين يقول الكفار : ما جاءنا من بشير ولا نذير ومحمد صلى الله عليه وسلم يشهد على جميعهم وهو ما في قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] .

وعلى مختلف الوجوه فالمناسبة ظاهرة بين ﴿ شاهد ومشهود ﴾ وبين ما في المقسم عليه من قوله : ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ ، وقوله : ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾

أي حضور .

وروى الترمذي من طريق موسى بن عبيدة إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة " .

أي فالتقدير : ويومٍ شاهد ويومٍ مشهود .

قال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قِبَل حفظه أ هـ .

ووصف "يوم" بأنه "شاهد" مجاز عقلي ، ومحمل هذا الحديث على أن هذا مما يراد في الآية من وصف ﴿ شاهد ﴾ ووصف ﴿ مشهود ﴾ فهو من حَمْل الآية على ما يحتمله اللفظ في حقيقة ومجاز كما تقدم في المقدمة التاسعة .

وجواب القسم قيل محذوف لدلالة قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ عليه والتقدير أنهم ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود .

وقيل : تقديره : أن الأمر لحق في الجزاء على الأعمال : أو لتبعثن .

وقيل : الجواب مذكور فيما يلي فقال الزجاج : هو ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] (أي والكلام الذي بينهما اعتراض قصد به التوطئة للمقسم عليه وتوكيد التحقيق الذي أفاده القسم بتحقيق ذكر النظير) .

وقال الفراء : الجواب : ﴿ قُتل أصحاب الأخدود ﴾ (أي فيكون قُتِلَ خَبَراً لا دعاء ولا

شتماً ولا يلزم ذكر (قد) في الجواب مع كون الجواب ماضياً لأن (قد) تحذف بناء على أن حذفها ليس مشروطاً بالضرورة) .

(115/810)

ويتعين على قول الفراء أن يكون الخبر مستعملاً في لازم معناه من الإِنذار للذين يَفتنون المؤمنين بأن يحلّ بهم ما حلّ بفاتني أصحاب الأخدود ، وإلا فإن الخبر عن أصحاب الأخدود لا يحتاج إلى التوكيد بالقسم إذ لا ينكره أحد فهو قصة معلومة للعرب .

وانتساق ضمائر جمع الغائب المرفوعة من قوله : ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ إلى قوله : ﴿ وما نقموا ﴾ يقتضي أن يكون أصحاب الأخدود وَاضعيه لتعذيب المؤمنين .

وقيل : الجواب هو جملة : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] فيكون الكلام الذي بينهما اعتراضاً وتوطئة على نحو ما قررناه في كلام الزجاج .

وقوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ صيغته تشعر بأنه إنشاء شتم لهم شتم خزي وغضب وهؤلاء لم يُقتلوا ففعل قُتِل ليس بخبر بل شتم نحو قوله تعالى : ﴿ قُتل الخرّاصون ﴾ [الذاريات : 10] .

وقولهم قاتله الله ، وصدوره من الله يفيد معنى اللعن ويدل على الوعيد لأن الغضب واللعن

يستلزمان العقاب على الفعل الملعون لأجله .

وقيل : هو دعاء على أصحاب الأخدود بالقتل كقوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] والقَتل مستعار لأشد العذاب كما يقال : أهلكه الله ، أي أوقعه في أشد العناء ، وأيّاً مّا كان فجملة ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ على هذا معترضة بين القسم وما بعده .

ومَن جَعل ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ جواب القسم جعل الكلام خبراً وقدَّره لقد قتل أصحاب الأخدود ، فيكون المراد من أصحاب الأخدود الذين أُلقوا فيه وعُذبوا به ويكون لفظ أصحاب مستعملاً في معنى مجرد المقارنة والملازمة كقوله تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ [يوسف : 39] وقد علمتَ آنفاً تَعيُّن تأويل هذا القول بأن الخبر مستعمل في لازم معناه .

ولفظ ﴿ أصحاب ﴾ يُعمّ الآمرين بجعل الأخدود والمباشرين لحفره وتسعيره ، والقائمين على إلقاء المؤمنين فيه .

وهذه قصة اختلف الرواة في تعيينها وفي تعيين المراد منها في هذه الآية .

والروايات كلها تقتضي أن المفتونين بالأخدود قوم اتبَعوا النصرانية في بلاد اليمن على أكثر الروايات ، أو في بلاد الحبشة على بعض الروايات ، وذُكرتْ فيها روايات متقاربة تختلف بالإِجمال والتفصيل ، والترتيب ، والزيادة ، والتعيين وأصحّها ما رواه مسلم والترمذي عن صُهيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قصَّ هذه القصة على أصحابه .

وليس فيما رُوي تصريح بأن النبي صلى الله عليه وسلم ساقها تفسيراً لهذه الآية والترمذي ساق حديثها في تفسير سورة البروج .

وعن مقاتل كان الذين اتخذوا الأخاديد في ثلاث من البلاد بنجران ، وبالشام ، وبفارس ، أما الذي بالشام ف (انطانيوس) الرومي وأما الذي بفارس فهو (بختنصر) والذي بنجران فيوسف ذو نواس ولنذكر القصة التي أشار إليها القرآن تؤخذ من "سيرة ابن إسحاق" على أنها جرت في نجران من بلاد اليمن ، وأنه كان مَلِكٌ وهو ذو نواس له كاهن أو ساحر .

وكان للساحر تلميذ اسمه عبد الله بن الثامر وكان يَجِد في طريقه إذا مشى إلى الكاهن صومعة فيها راهب كان يعبد الله على دين عيسى عليه السّلام ويقرأ الإنجيل اسمه (فَيْمِيُون) بفاء ، فتحتية ، فميم ، فتحتية (وضبط في الطبعة الأوروبية من "سيرة ابن إسحاق" التي يلوح أن أصلها المطبوعة عليه أصل صحيح ، بفتح فسكون فكسر فضم) قال السهيلي : ووقع للطبري بقاف عوض الفاء .

وقد يحرف فيقال ميمون بميم في أوله وبتحتية واحدة ، أصله من غسان من الشام ثم سَاح

فاستقر بنجران ، وكان منعزلاً عن الناس مختفياً في صومعته وظهرت لعبد الله في قومه كرامات .

(117/810)

وكان كلما ظهرت له كرامة دعا من ظهرتْ لهم إلى أن يتبعوا النصرانية ، فكثر المتنصرون في نجران وبلغ ذلك المَلكَ ذا نُواس وكان يهودياً وكان أهل نجران مشركين يعبدون نخلة طويلة ، فقتل الملك الغلامَ وقَتَل الراهب وأمر بأخاديد وجُمع فيها حَطب وأُشعلت ، وعُرض أهل نجران عليها فمن رجع عن التوحيد تركه ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار .

فكان أصحاب الأخدود ممن عُذِّب من أهللِ دين المسيحية في بلاد العرب .

وقِصص الأخاديد كثيرة في التاريخ ، والتعذيب بالحرق طريقة قديمة ، ومنها : نار إبراهيم عليه السلام .

وأما تحريق عَمرو بن هند مائةً من بني تميم وتلقيبُه بالمحرق فلا أعرف أن ذلك كان باتخاذ أخدود .

وقال ابن عطية : رأيت في بعض الكتب أن أصحاب الأخدود هو مُحرق وآله الذي حَرق من بني تميم مائةً .

و﴿ الأخدود ﴾ : بوزن أُفعول وهو صيغة قليلة الدوران غيرُ مقيسة ، ومنها قولهم : أفحوص مشتق من فحصت القطاة والدجاجة إذا بحثت في التراب موضعاً تَبيض فيه ، وقولُهم أسلوب اسم لطريقة ، ولسطر النّخل ، وأقنوم اسم لأصل الشيء .

وقد يكون هذا الوزن مع هاء تأنيث مثل أكرومة ، وأعجوبة ، وأُطروحة وأضحوكة .

وقوله : ﴿ النار ﴾ بدل من الأخدود بدلَ اشتمال أو بعضٍ من كل لأن المراد بالأخدود الحفير بما فيه .

و﴿ الوقود ﴾ : بفتح الواو اسم ما تُوقد به النار من حطب ونفط ونحوه .

ومعنى ﴿ ذات الوقود ﴾ : أنها لا يخمد لهبها لأن لها وقوداً يُلقى فيها كلّما خبت .

ويتعلق : ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ بفعل قُتل ، أي لعنوا وغضب الله عليهم حين قعدوا على الأخدود .

وضمير ﴿ هم ﴾ عائد إلى أصحاب الأخدود فإن الملك يحضر تنفيذ أمره ومعه ملأه ، أو أريد بهم المأمورون من الملك .

فعلى احتمال أنهم أعوان الملك فالقُعود الجلوس كني به عن الملازمة للأخدود لئلا يتهاون الذين يحشون النار بتسعيرها ، و (على) للاستعلاء المجازي لأنهم لا يقعدون فوق النار ولكن حولها .

وإنما عبر عن القرب والمراقبة بالاستعلاء كقول الأعشى :

وبات على النار الندى والمحلق

ومثله قوله تعالى : ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ [القصص : 23] ، أي عنده .

وعلى احتمال أن يكون المراد بـ ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ المؤمنين المعذَّبين فيه ، فالقُعود حقيقة و (على) للاستعلاء الحقيقي ، أي قاعدون على النار بأن كانوا يحرقونهم مربوطين بهيئة القعود لأن ذلك أشد تعذيباً وتمثيلاً ، أي بعد أن يقعدوهم في الأخاديد يوقدون النار فيها وذلك أروع وأطول تعذيباً .

وأعيد ضمير ﴿ هم ﴾ في قوله : ﴿ وهم على ما يفعلون ﴾ ليتعيّن أن يكون عائداً إلى بعض أصحاب الأخدود .

وضمير ﴿ يفعلون ﴾ يجوز أن يعود إلى ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ ، فمعنى كونهم شهوداً على ما يفعلونه : أن بعضهم يشهد لبعض عند الملك بأن أحداً لم يفرط فيما وكّل به من تحريق المؤمنين ، فضمائر الجمع وصيغته موزعة .

ويجوز أن يعود الضمير إلى ما تقتضيه دلالة الاقتضاء من تقسيم أصحاب الأخدود إلى أمراء ومأمورين شأن الأعمال العظيمة ، فلمّا أخبر عن أصحاب الأخدود بأنهم قعود على النار عُلم أنهم الموكلون بمراقبة العمال .

فعُلم أن لهم أتباعاً من سَعَّارين ووزَعَة فهم معاد ضمير يفعلون .

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون شهود جمع شاهد بمعنى مخبر بحق ، وأن يكون بمعنى حاضر ومراقب لظهور أن أحداً لا يشهد على فعل نفسه .

وجملة ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ كأنه قيل : قعود شاهدين على فِعلهم بالمؤمنين على الوجهين المتقدّمين في معاد ضمير ﴿ يفعلون ﴾ ، وفائدة هذه الحال تفظيع ذلك القعود وتعظيمُ جُرمه إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين لا يرأفون في ذلك ولا يشمئزون ، وبذلك فارقَ مضمون هذه الجملة مضمون جملة : ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ باعتبار تعلق قوله : ﴿ بالمؤمنين شهود ﴾ .

(119/810)

وفي الإتيان بالموصول في قوله : ﴿ ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ من الإبهام ما يفيد أن لِمُوقِدِي النارِ من الوزَعَة والعملة ومن يباشرون إلقاء المؤمنين فيها غلظةً وقسوة في تعذيب المؤمنين وإهانتهم والتمثيل بهم ، وذلك زائد على الإحراق .

وجملة ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ﴾ في موضع الحال والواو واو الحال أو عاطفة

على الحال التي قبلها .

والمقصود التعجيب من ظلم أهل الأخدود أنهم يأتون بمثل هذه الفظاعة لا لجرم من شأنه أن يُنقَم من فاعله فإن كان الذين خددوا الأخدود يهوداً كما كان غالب أهل اليمن يومئذ فالكلام من تأكيد الشيء بما يشبه ضده أي ما نقموا منهم شيئاً ينقم بل لأنهم آمنوا بالله وحده كما آمن به الذين عذبوهم .

ومحل التعجيب أن المَلك ذا نواس وأهل اليمن كانوا متهودين فهم يؤمنون بالله وحده ولا يشركون به فكيف يعذِّبون قوماً آمنوا بالله وحده مثلهم وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴾ [المائدة : 59] وإن كان الذين خدّدوا الأخدود مشركين (فإن عرب اليمن بقي فيهم من يعبد الشمس) فليس الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده لأنّ شأن تأكيد الشيء بما يشبه ضده أن يكون ما يشبه ضد المقصود هو في الواقع من نوع المقصود فلذلك يؤكد به المقصود وما هنا ليس كذلك لأن الملك وجنده نقموا منهم الإِيمان بالله حقيقة إن كان الملك مشركاً .

وإجراء الصفات الثلاث على اسم الجلالة وهي : ﴿ العزيز .

الحميد .

الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم بل هو حقيق بأن يُمدحُوا به لأنهم آمنوا بربّ حقيق بأن يؤمن به لأجل صفاته التي تقتضي

عبادته ونبذَ ما عداه لأنه ينصُر مواليه ويثيبهم ولأنه يَمْلِكهم ، وما عداه ضعيف العزة لا يضر ولا ينفع ولا يَملك منهم شيئاً فيقوى التعجيب منهم بهذا .

(120/810)

وجملة : ﴿ واللَّه على كل شيء شهيد ﴾ تذييل بوعيد للذين اتخذوا الأخدود وبوعد الذين عُذبوا في جنب الله ، ووعيد لأمثال أولئك من كفار قريش وغيرهم من كل من تصدَّوْا لأذى المؤمنين ووعد المسلمين الذين عذبهم المشركون مثل بلالٍ وعمار وصُهيب وسُمَيَّةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(121/810)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولذلك قال مستأنفاً جواباً لمن يقول : فما فعل بهم ؟ مؤكداً لإنكار الكفار ذلك : ﴿ إن الذين فتنوا ﴾ أي خالطوا من الأذى بما لا تحتمله القوى فلا بد أن يميل أو يحيل في أي زمان كان ومن أي قوم كانوا ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي ذوي الرسوخ في وصف الإيمان .

ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان ، عبر بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي عن ذنوبهم وكفرهم .

ولما كان سبحانه لا يعذب أحداً إلا بسبب ، سبب عن ذنبهم وعدم توبتهم قوله :

﴿ فلهم ﴾ أي خاصة لأجل كفرهم ﴿ عذاب جهنم ﴾ أي الطبقة التي تلقى داخلها بغاية الكراهة والتجهم ، هذا في الآخرة ﴿ ولهم ﴾ أي مع ذلك في الدارين لأجل فتنتهم لأولياء الله ﴿ عذاب الحريق ﴾ أي العذاب الذي من شأنه المبالغة في الإحراق بما أحرقوا من قلوب الأولياء ، وقد صدق سبحانه قوله هذا فيمن كذب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإهلاكهم شر إهلاك مغلوبين مقهورين مع أنهم كانوا قاطعين بأنهم غالبون كما فعل بمن كان قبلهم ، فدل ذلك على أنه على كل شيء قدير ، فدل على أنه يبدىء ويعيد .

ولما ذكر عقاب المعاندين بادئاً به لأن المقام له ، أتبعه ثواب العابدين ، فقال مؤكداً لما لأعدائهم من إنكار ذلك : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي أقروا بالإيمان ولو على أدنى الوجوه من المقذوفين في النار وغيرهم من كل طائفة في كل زمان ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تصديقاً

لإيمانهم وتحقيقاً له .

ولما كان الله سبحانه من رحمته قد تغمد أولياءه بعنايته ولم يكلهم إلى أعمالهم لم يجعلها سبب سعادتهم فلم يقرن بالفاء قوله : ﴿ لهم ﴾ أي جزاء مقاساتهم لنيران الدنيا من نار الأخدود الحسية التي ذكرت ، ومن نيران الغموم والأحزان المعنوية التي يكون المباشر لأسبابها غيره سبحانه فيكون المقاسي لها مع حفظه للدين كالقابض على الجمر ﴿ جنّات ﴾ أي فضلاً منه ﴿ تجري ﴾ وقرب منالها بالجار فقال : ﴿ من تحتها ﴾ أي تحت غرفها وأسرتها وجميع أماكنها ﴿ الأنهار ﴾ يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا ويروقهم النظر إليها مع خضرة الجنان والوجوه الحسان الجالبة للسرور الجالية للأحزان .

(122/810)

ولما ذكر هذا الذي يسر النفوس ويذهب البؤس ، فذلكه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي الدرجة العظيم البركة ﴿ الفوز ﴾ أي الظفر بجميع المطالب لا غيره ﴿ الكبير ﴾ كبراً لا تفهمون منه أكثر من ذكره بهذا الوصف على سبيل الإجمال ، وذلك أن من كبره أن هذا

الوجود كله يصغر عن أصغر شيء منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 379 . 380 ﴾

(123/810)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود ، أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب فقال : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

يحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط ، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك وهذا أولى لأن اللفظ عام والحكم عام فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل .

المسألة الثانية :

أصل الفتنة الابتلاء والامتحان ، وذلك لأن أولئك الكفار امتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم على النار وأحرقوهم ، وقال بعض المفسرين الفتنة هي الإحراق بالنار وقال

ابن عباس ومقاتل : ﴿ فَتَنُواْ المؤمنين ﴾ حرقوهم بالنار ، قال الزجاج : يقال فتنت الشيء أحرقته والفتن أحجار سود كأنها محترقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة ، ويدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة خلاف ما يروى عن ابن عباس .

المسألة الرابعة :

في قوله : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ قولان :

الأول : أن كلا العذابين يحصلان في الآخرة ، إلا أن عذاب جهنم وهو العذاب الحاصل بسبب كفرهم ، وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين ، فيحتمل أن يكون العذاب الأول عذاب برد والثاني عذاب إحراق وأن يكون الأول عذاب إحراق والزائد على الإحراق أيضاً إحراق ، إلا أن العذاب الأول كأنه خرج عن أن يسمى إحراقاً بالنسبة إلى الثاني ، لأن الثاني قد اجتمع فيه نوعا الإحراق فتكامل جداً فكان الأول ضعيفاً ، فلا جرم لم يسم إحراقاً .

القول الثاني : أن قوله : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ إشارة إلى عذاب الآخرة : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن أولئك الكفار ارتفعت عليهم نار الأخدود فاحترقوا بها .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المجرمين ذكر وعد المؤمنين وهو ظاهر وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

إنما قال : ﴿ ذلك الفوز ﴾ ولم يقل تلك الدقيقة لطيفة وهي أن قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات ، وقوله : تلك إشارة إلى الجنات وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً والفوز الكبير هو رضا الله لا حصول الجنة .

المسألة الثانية :

قصة أصحاب الأخدود ولا سيما هذه الآية تدل على أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم الأولى له أن يصبر على ما خوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : تشهد أني رسول الله فقال : نعم فتركه ، وقال للآخر مثله فقال : لا بل أنت

كذاب فقتله فقال عليه السلام : " أما الذي ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذي قتل فأخذ بالفضل فهنيئاً له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 111 . 112 ﴾

(125/810)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾

أي حَرَّقوهم بالنار .

والعرب تقول : فَتَنَ فلانٌ الدرهمَ والدينارَ ، إذا أدخله الكور ، لينظر جودته .

ودينار مفتون .

ويسمى الصائغ الفتان ، وكذلك الشيطان ، وورِق فتين ، أي فضة محترقة .

ويقال للحَرّة فتين ، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار ، وذلك لسوادها .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ أي من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات والبينات على يد الغلام .

﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ لكفرهم .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار .

وقد تقدم عن ابن عباس .

وقيل : "ولهم عذاب الحريق" أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين .

وقيل : لهم عذاب ، وعذاب جهنم الحريق .

والحريق : اسم من أسماء جهنم ؛ كالسَّعير .

والنار دركات وأنواع ولها أسماء .

وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم ، ثم يعذّبون بعذاب الحريق .

فالأول عذاب ببردها ، والثاني عذاب بحرها ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ أي هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله ؛ أي صدقوا به وبرسله .

﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي ﴾ أي بساتين .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفًّى .

﴿ ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾ أي العظيم ، الذي لا فوز يشبهه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾

هيَ البروجُ الاثنَا عشرَ شبهتْ بالقصورِ لأَنَّها تنزلُها السياراتُ ويكونُ فيها الثوابتُ ، أو منازلُ القمرِ أو عظامُ الكواكبِ سميتْ بروجاً لظهورِها أو أبوابِ السماءِ فإنَّ النوازلَ تخرجُ منها ، وأصلُ التركيبِ للظهورِ ﴿ واليوم الموعود ﴾ أي يومُ القيامةِ ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ أيْ ومَنْ يشهدُ في ذلكَ اليومِ من الخلائقِ وما يحضرُ فيهِ من العجائبُ ، وتنكيرُهُمَا للإبهامِ في الوصفِ أي وشاهدٍ ومشهودٍ لا يُكتنهُ وصفُهُمَا أو للمبالغةِ في الكثرةِ وقيلَ : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم والمشهودُ يومُ القيامةِ ، وقيلَ : عيسَى عليهِ السلامُ وأمتهُ لقولِه تعالى : ﴿ وكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ الخ ، وقيلَ : أمةُ محمدٍ وسائرُ الأممِ ، وقيلَ : يومُ التروِيةِ ويومُ عرفةٍ ، وقيلَ : يومُ عرفةَ ويومُ الجمعةِ ، وقيلَ : الحجرُ الأسودُ والحجيجُ ، وقيلَ : الأيامُ والليالي وبنُو آدمَ . وعن الحسنِ مَا منْ يومٍ إلا ويُنادي إني يومٌ جديدٌ وإنّي عَلى ما يعملُ فيَّ شهيدٌ فاغتنمني فَلَوْ غَابَتْ شَمْسِي لَمْ تُدركِني إلى يومِ القيامةِ . وقيلَ : الحفظةُ وبنُو آدمَ ، وقيلَ : الأنبياءُ ومحمدُ عليهم الصلاةُ السلامُ ﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدود ﴾ قيلَ : هوَ جوابُ القسمِ عَلَى حذفِ اللامِ منهُ للطولِ ، والأصلُ لقتلَ كَمَا في قولِ مَنْ قالَ

حَلَفتُ لَها باللهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ . . . لَنَامُوا فَمَا إنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلاَ صَالِ

وقيلَ : تقديرُهُ لَقدْ قتلَ وأياً ما كانَ فالجملةُ خبريةٌ والأظهرُ أنَّها دعائيةٌ دالةٌ على الجوابِ كأنَّها قيلَ : أقسمُ بهذهِ الأشياءِ أنهمْ أيْ كفارَ مكةَ ملعونونَ كما لعنَ أصحابُ الأخدودِ لَمَّا أنَّ السورةَ وردتْ لتثبيتِ المؤمنينِ عَلى ما هُمْ عليه من الإيمانِ وتصبيرِهم على أذيةِ الكفرةِ وتذكيرهم بما جرى عَلى من تقدمهُم من التعذيبِ على الإيمانِ وصبرُهُم عَلى ذلكَ حَتَّى يأنسوا بِهمْ ويصبُروا على ما كانُوا يلقونَ من قومِهم ويعلُموا أنَّ هؤلاءِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمنزلةِ أولئكِ المُعذِّبينِ ملعونونَ مثلُهم أحقاءُ بأنْ يقالَ فيهمْ ما قَدْ قيلَ فيهمْ وقُرِىءَ قُتِّلَ بالتشديدِ والأخدودُ الخَدُّ في الأرضِ وهو الشقُّ ونحوِهما بناء ومعنى الحق والأحقوق . رُويَ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه كانَ لبعضِ الملوكِ ساحرٌ فلما كبرَ ضَمَّ إليهِ غلاماً ليعلِّمهُ السحرَ وكانَ في طريقِ الغلامِ راهبٌ فسمعَ منْهُ فرأى في طريقهِ ذاتَ يومٍ دابةً قدْ حبستِ النَّاسَ ، قيلَ : كانتِ الدابةُ أسداً فأخذَ حَجَراً فقالَ : اللهمّ إنْ كانَ الراهبُ أحبَّ إليكَ منَ الساحرِ فاقتلْهَا فكانَ الغلامُ بعدَ ذلكَ يبرىءُ الأكمه والأبرصَ ويَشفي من الأدواءِ وعمي جليسٌ للملكِ فأبرأَهُ فأبصرَهُ الملكُ فسألَهُ منْ ردَّ عليكَ بصركَ ؟ فقالَ : ربّي فغضبَ فعذَّبه فدلَّ عَلى الغلامِ فعذَّبه فدلَّ على الراهبِ فلم يرجعِ الراهبُ عن دينِه فقدَّ بالمنشارِ وأبى

الغلامُ فذهبَ بِهِ إلى جبلٍ ليطرحَ من ذروته فدعا فرجفَ بالقومِ فطاحُوا ونجَا فذهبَ به إلى قُرْقُورٍ فلججُوا به ليغرقُوه فدعا فانكفأتْ بهم السفينةُ فغرقُوا ونجَا فقالَ للملكِ : لستَ بقاتِلي حَتَّى تجمعَ النَّاسَ في صعيدٍ وتصلبني عَلى جذْعٍ وتأخذَ سَهْماً من كنانتي وتقولَ باسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ ثمَّ ترميني بِهِ فرماهُ فوقعَ في صُدغِه فوضعَ يَدَهُ عليهِ وماتَ فقالَ

(128/810)

النَّاسُ : آمنَّا بربِّ الغلامِ قيلَ للملكِ : نزلَ بكَ ما كنتَ تحذرُ فأمرَ بأخاديدَ في أفواهِ السككِ وأوقدتْ فيها النيرانُ فمنْ لَمْ يرجعْ منهمْ طرحَهُ فيها حتَّى جاءت امرأةٌ معها صبيٌّ فتقاعستْ فقالَ الصبيُّ : يا أماهُ اصبري فإنَّكِ على الحق فاقتحمتْ .

وقيلَ : قال لها : قعي ولا تنافقي ما هي إلا غميضةٌ فصبرتْ . قيلَ : أُخرجَ الغلامُ منْ قبرِهِ في خلافةِ عمر بْنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ وأصبعُهُ على صُدْغِه كَما وضعها حينَ قتلَ ، وعنْ عليَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ بعضَ ملوكِ المجوسِ وقعَ عَلىَ أختِهِ وهو سكرانُ فلما صحا ندمَ وطلبَ المخرجَ فقالتْ لَهُ : المخرجُ أن تخطبَ بالنَّاسِ فتقولَ : إنَّ اللهَ قدْ أحلَّ نكاحَ الأخواتِ ثمَّ تخطبُهم بعدَ ذلكَ أنَّ اللهَ قد حرمَهُ فخطبَ فلم يقبلُوا مِنْهُ ، فقالتْ لَهُ : ابسطْ فيهمْ السوطَ ففعلَ فلم يقبلُوا ، فقالتْ : ابسطْ فيهم السيفَ ففعلَ فلم يقبلُوا ، فأمرَ

بالأخاديدِ وإيقادِ النارِ وطرحَ منْ أَبَى فيها فهمْ الذينَ أرادهُم اللهُ تعالى بقولِه : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ . وقيلَ : وقعَ إلى نجرانَ رجلٌ ممنْ كانَ على دينِ عيسى عليه السلامُ فدعاهُم فأجابوُه فسارَ إليهم ذُو نواسٍ اليهوديُّ بجنودٍ من حِمْيرٍ فخيرهُمْ بينَ النارِ واليهوديةِ فأبوَا فأحرقَ منهمْ اثني عشرَ ألفاً في الأخاديدِ وقيلَ : سبعينَ ألفاً وذكرَ أنَّ طولَ الأخدودِ أربعونَ ذراعاً وعرضَهُ اثنا عشرَ ذِراعاً .

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6)

﴿ النار ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الأخدودِ ﴿ ذَاتِ الوقود ﴾ وصفٌ لها بغايةِ العظمِ وارتفاعِ اللهبِ وكثرةِ ما يوجبُهُ منَ الحطبِ وأبدانِ الناسِ وقُرِىءَ الوقودُ بالضمّ وقولُه تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ ظرفٌ لقتلَ أي لعنُوا حينَ أحدقُوا بالنَّارِ قاعدينَ حولَها في مكانٍ مشرفٍ عليها من حافاتِ الأخدودِ كما في قولِه

(129/810)

وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ . . .

﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ أيْ يشهدُ بعضُهم لبعضٍ عندَ الملكِ بأنَّ أحداً لمْ يقصرْ فيما أُمِرَ بِهِ أوْ أنهم شهودٌ يشهدونَ بما فعلُوا بالمؤمنينَ يومَ القيامةِ يومَ تشهدُ عليهم

ألسنتُهم وأيديهُمْ . وقيلَ : عَلَى بمعنَى معَ والمعْنَى وهُم معَ مَا يفعلونَ بالمؤمنينَ منَ العذابِ حضورٌ لاَ يرقُّونَ لهم لغايةِ قسوةِ قلُوبِهمْ هَذَا هُو الذي يستدعيه النظمُ الكريمُ وتنطقُ به الرواياتُ المشهورةُ وَقْد رُويَ أنَّ الجبابرةَ لما ألقوا المؤمنينَ في النَّارِ وهم قعودٌ حولَها علقت بهمْ النَّارُ فأحرقتْهمْ ونجَّى الله عزَّ وجلَّ المؤمنينَ منها سالمينَ وإلى هَذَا القولِ ذهَبَ الربيعُ بنُ أنسٍ والواحديُّ وعلى ذلكَ حَمَلا قولَهُ تعالى ولهم عذابُ الحريقِ ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ أيْ ما أنكرُوا منهم وما عابُوا ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد ﴾ استثناءٌ مفصحٌ عن براءِتهم عَمَّا يعاب وينكرُ بالكليةِ على منهاجِ قولِه :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ ضيوفَهُم . . . تُلامُ بنسيانِ الأحبَّةِ والوطن

ووَصفُهُ تعالَى بكونِه عزيزاً غالباً يُخشى عقابُه وحميداً منعماً يُرجَى ثوابُه وتأكيدُ ذلكَ بقولِه تعالى : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ للإشعارِ بمناطِ إيمانِهم وقولُه تعالى : ﴿ والله على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وعدٌ لهم ووعيدٌ شديدٌ لمعذبيهمْ فإنَّ علمَهُ تعالى بجميعِ الأشياءِ التي من جُمْلتِها أعمالُ الفريقينِ يستدعي توفيرَ جزاءِ كُلٍّ منهمَا حَتْماً ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي محنوهُم في دينهم ليرجعُوا عَنْهُ والمرادُ بهمْ إمَّا أصحابُ الأخدودِ خاصَّةً وبالمفتونينِ المطروحونَ في الأخدودِ وإما الذينَ بلوهم في ذلكَ بالأذيةِ والتعذيبِ على الإطلاقِ وهم داخلونَ في جملتِهم دخولاً أولياً .

﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ أي عن كفرِهم وفتنتهم فإن ما ذكرَ من الفتنةِ في الدينِ لا يتصورُ من غيرِ الكافرِ قطعاً وقولُه تعالَى ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ جملةٌ وقعتْ خبراً لأنَّ أوْ الخبر لَهُم وعذابٌ مرتفعٌ بِهِ على الفاعلية وهو الأحسنُ والفاءُ لتضمنَ المبتدأَ معنى الشرطِ ولا ضيرَ في نسخِه بأنَّ وإنْ خالفَ الأخفشُ والمَعنى لهُم في الآخرةِ وعذابُ جهنَم بسببِ كفرِهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ وهي نارٌ أُخرى عظيمةٌ بسببِ فتنتِهم للمؤمنينَ ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ على الإطلاقِ منَ المفتونينَ وغيرِهم ﴿ لَهُمْ ﴾ بسببِ ما ذكرَ من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ إنْ أريدَ بالجناتِ الأشجارَ فجريانُ الأنهارِ من تحتِها ظاهر وإن أريدَ بها الأرضَ المشتملةَ عليَها فالتحتيةِ باعتبارِ جزئِها الظاهرِ فإن أشجارَها ساترةٌ لساحتِها كما يعربُ عنْهُ اسمُ الجنةِ وقد مرَّ بيانُه مراراً ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إمَّا إلى الجناتِ الموصوفةِ والتذكيرُ لتأويلِها بما ذكرَ للإشعارِ بأنَّ مدارَ الحكمِ عنوانُهَا الذي يتنافس فيه المتنافسون فإنَّ اسمَ الإشارةِ متعرضٌ لذاتِ المشارِ إليهِ منْ حيثُ اتصافُهُ بأوصافِه المذكورةِ لا لذاتِه فقطْ كما هُوَ شأنُ الضميرِ فإذا أشيرَ إلى الجناتِ منْ حيثُ ذكرُهَا فقدِ اعتبرَ مَعَها عنوانُها المذكورُ حتماً وإما إلى ما يفيدُه قولُه تعالَى لهم جناتٌ الخ من حيازتِهم لَها فإنَّ حصولَها لهُم مستلزمٌ لحيازتِهم لها قَطْعاً وأياً ما كانَ فما فيهِ منْ مَعْنى البُعدِ للإيذانِ بعلوِّ درجتِه وبعدِ منزلتِه في الفضلِ والشرفِ ومحله الرفعُ علَى

الابتداءِ حبرُهُ ما بعدُه أي ذلكَ المذكورُ العظيمُ الشأنِ ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذي يصغرُ عندَهُ الدُّنيا وَمَا فِيْهَا منْ فنونِ الرغائبِ يحذافيرِها والفوزُ النجاةُ منَ الشرِّ والظفرُ بالخيرِ فعَلى

الأولِ هو مصدرٌ أطلقَ على المفعولِ مبالغةً وعَلى الثانِي مصدرٌ عَلَى حالِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(131/810)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾

أي محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه والمراد بالذين فتنوا وبالمؤمنين والمؤمنات المفتونين أما أصحاب الأخدود والمطرحون فيه خاصة وأما الأعم ويدخل المذكورون دخولاً أولياً وهو الأظهر وقيل المراد بالموصول كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة بأنواع من العذاب وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ قال ابن عطية يقوى أن الآية في قريش لأن هذا اللفظ فيهم أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم وأما قريش فكان فيهم وقت نزولها من ماب وآمن وأنت تعلم أن هذا على ما فيه لا يعكر على أظهرية العموم

والظاهر أن المراد ثم لم يتوبوا من فتنهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ أي بسبب فتنهم ذلك ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ وهو نار أخرى زائدة الإحراق كما تنبىء عنه صيغة فعيل لعدم توبتهم ومبالاتهم بما صدر منهم وقال بعض الأجلة أي فلهم عذاب جهنم بسبب كفرهم فإن فعلهم ذلك لا يتصور من غير الكافر ولهم عذاب الحريق بسبب فتنهم المؤمنين والمؤمنات وفي جعل ذلك جزاء الفتن من الحسن ما لا يخفى وتعقب بأن عنوان الكفر لم يصلح به في جانب الصلة وإنما المصرح به الفتن وعدم التوبة فالأظهر اعتبارهما سببين في جانب الخبر على الترتيب وقيل أي فلهم جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا بناء على ما روى عن الربيع ومن سمعت أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم وقد علمت حاتله وتعقبه أبو حيان بأن ثم لم يتوبوا بأبي عنه لأن أولئك المحرقين لم ينقل لنا أن أحداً منهم تاب بل الظاهر أنهم لم يلعنوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر وفيه نظر وعليه إنما أخر ولهم عذاب الحريق ورعاية للفواصل أو للتميم والترديف كأنه قيل ذلك وهو العقوبة العظمى كائن لا محالة وهذا أيضاً لا يتجاوزونه وفي الكشف الوجه أن عذاب جهنم وعذاب الحريق واحد ووصف بما يدل على أنه للمعبودين جداً عن رحمته عز وجل وعلى أنه عذاب هو محض الحريض وهو الحرق البالغ وكفى به عذاباً

والظاهر أنه اعتبر الحريق مصدراً والإضافة بيانية ولا بأس بذلك إلا أن الوحدة التي ادعاها خلاف ظاهر العطف وقال بعضهم لو جعل من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما كان أقرب ولعل ما ذكرناه أبعد عن القال والقيل وجملة فلهم عذاب الخ وقعت خبراً لأن أو الخبر الجار والمجرور وعذاب مرتفع به على الفاعلية وهو الأحسن والفاء لما في المبتدا من معنى الشرط ولا يضر نسخه بأن وإن زعمه الأخفش واستدل بالآية على بعض أجوهها على أن عذاب الكفار يضاعف بما قارنه من المعاصي .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيهرم ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ما ذكر من الايمان والعمل الصالح ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ إن أريد بالجنات الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحية باعتبار جزئها الظاهر فإن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وفصل الجملة قيل لأنها كالتأكيد لما أشعرت به الآية قبل من اختصاص العذاب بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى كون ما ذكر لهم وحيازتهم إياه وقيل للجنات الموصوفة والتذكير لتأويلها بما ذكر وما فيها من معنى البعد للإيذان بعلو الدرجة وبعد المنزلة في الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره ﴿ ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾

الذي يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من الرغائب والفوز النجاة من الشر والظفر بالخير فعلى الوجه الثاني في الإشارة هو مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الأول مصدر على حاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(133/810)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾

إن كان هذا جواباً للقسم على قول بعض المفسرين كما تقدم كان ما بين القسم وما بين هذا كلاماً معترضاً يقصد منه التوطئة لوعيدهم بالعذاب والهلاك بذكر ما توعّد به نظيرهم ، وإن كان الجواب في قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود [البروج : 4] كان قوله : ﴿ إ ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ بمنزلة الفذلكة لما أقسم عليه إذ المقصود بالقسم وما أقسمَ عليه هو تهديد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات من مشركي قريش .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ للرد على المشركين الذين ينكرون أن تكون عليهم تبعةً من فتن المؤمنين .

والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : هم مشركو قريش وليس المراد أصحاب الأخدود لأنه لا

يلاقي قوله : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ إذ هو تعريض بالترغيب في التوبة ، ولا يلاقي دخول الفاء في خبر ﴿ إنَّ ﴾ من قوله : ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ كما سيأتي .

وقد عُدّ من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأسُ الفتنة ومِسْعَرها ، وأميةُ بن خلف وصفوانُ بن أمية ، والأسودُ بن عبد يغوث ، والوليدُ بن المغيرة ، وأمُّ أنْمار ، ورجل من بني تَيْم .

والمفتونون : عد منهم بلالُ بن رباح كان عبداً لأمية بن خلف فكان يعذبه ، وأبو فُكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية ، وخَبَّابُ بن الأرتِّ كان عبداً لأمّ أنمار ، وعَمّار بن ياسر ، وأبوه ياسِر ، وأخوه عبد الله كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة فوكَل بهم أبا جهل ، وعامرُ بن فُهيرة كان عبداً لرجل من بني تَيْم .

والمؤمنات المفتونات منهنّ : حَمَامَةُ أمُّ بلال أمَةُ أُمية بن خلف .

وزِنّيرَة ، وأمُّ عنَيْس كانت أمة للأسود بن عبد يغوث والنهدية .

وابنتها كانتا للوليد بن المغيرة ، ولطيفةُ ، ولبينةُ بنت فهيرة كانت لعُمر بن الخطاب قبل أن يسلم كان عمر يَضربها ، وسُمية أمُّ عمار بن ياسر كانت لعمّ أبي جهل .

(134/810)

وفُتِن ورجَع إلى الشرك الحارثُ بن ربيعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليُّ بن أمية بن خلف ، والعاصي بن المنبه بن الحجاج .

وعَطفُ ﴿ المؤمنات ﴾ للتنويه بشأنهن لئلا يظنّ أن هذه المزية خاصة بالرجال ، ولزيادة تفظيع فعل الفاتنين بأنهم اعتدَوا على النساء والشأن أن لا يتعرض لهن بالغلظة .

وجملة : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ معترضة .

و ﴿ ثُمّ ﴾ فيها للتراخي الرتبي لأن الاستمرار على الكفر أعظم من فتنة المؤمنين .

وفيه تعريض للمشركين بأنهم إن تابوا وآمنوا سلِمُوا من عذاب جهنم .

والفَتْن : المعاملة بالشدة والإِيقاع في العناء الذي لا يجد منه مخلصاً إلا بعناء أو ضرّ أخف أو حيلة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ في سورة البقرة (191) .

ودخول الفاء في خبر (إنّ) من قوله : فلهم عذاب جهنم ﴾ لأنّ اسم (إن) وقعَ مَوصولاً والموصول يضمَّن معنى الشرط في الاستعمال كثيراً : فتقدير : إن الذين فتنوا المؤمنين ثم إنْ لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ، لأن عطف قوله : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ مقصود به معنى التقييد فهو كالشرط .

وجملة : ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ عطف في معنى التوكيد اللفظي لجملة : ﴿ لهم عذاب جهنم ﴾ .

واقترانُها بواو العطف للمبالغة في التأكيد بإيهام أن من يريد زيادة تهديدهم بوعيد آخر فلا يُوجد أعظم من الوعيد الأول .

مع ما بين عذاب جهنم وعذاب الحريق من اختلاف في المدلول وإن كان مآل المدلولين واحداً .

وهذا ضرب من المغايرة يحسن عطف التأكيد .

على أن الزج بهم في عذاب جهنم قبل أن يذوقوا حريقها لما فيه من الخزي والدفع بهم في طريقهم قال تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعّاً ﴾ [الطور : 13] فحصل بذلك اختلاف ما بين الجملتين .

ويجوز أن يراد بالثاني مضاعفة العذاب لهم كقوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللَّه زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ [النحل : 88] .

(135/810)

ويجوز أن يراد بعذاب الحريق حريق بغير جهنم وهو ما يضرم عليهم من نار تعذيب قبل يوم الحساب كما جاء في الحديث : " القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة " رواه البيهقي في "سننه" عن ابن عمر .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

يجوز أن يكون استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ المقتضي أنهم إن تابوا لم يكن لهم عذاب جهنم فيتشوف السامعُ إلى معرفة حالهم أمقصورة على السلامة من عذاب جهنم أو هي فوق ذلك ، فأخبر بأن لهم جنات فإن التوبة الإيمان ، فلذلك جيء بصلة ﴿ آمنوا ﴾ دون : تابوا : ليدل على أن الإيمان والعمل الصالح هو التوبة من الشرك الباعث على فتن المؤمنين ، وهذا الاستئناف وقع معترضاً .

ويجوز أن يكون اعتراضاً بين جملة ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ [البروج : 10] وجملة : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] اعتراضاً بالبشارة في خلال الإنذار لترغيب المنذرين في الإيمان ، ولتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين على عادة القرآن في إرداف الإرهاب بالترغيب .

والتأكيد بـ ﴿ إنَّ ﴾ للاهتمام بالخبر .

والإشارة في ﴿ ذلك ﴾ إلى المذكور من اختصاصهم بالجنات والأنهار .

و ﴿ الكبير ﴾ : مستعار للشديد في بابه ، والفوز : مصدر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(136/810)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان لا يثيب ويعذب على هذا الوجه إلا من كان في غاية العظمة ، قال معللاً لفعله ذلك دالاً بذلك التعلل على ما له من العظمة التي تتقاصر الأفكار دون عليائها ، مؤكداً لما للأعداء من الإنكار : ﴿ إن بطش ربك ﴾ أي أخذ المحسن إليك المدبر لأمرك أعداء الدين بالعنف والسطوة وغاية الشدة ﴿ لشديد ﴾ أي شدة يزيد عنفها على ما في البطش من العنف المشورط في تسميته ، فهو عنف مضاعف .

(137/810)

ولما كان هذا البطش لا يتأتى إلا لكامل القدرة ، دل على كمال قدرته واختصاصه بذلك بقوله مؤكداً لما لهم من الإنكار : ﴿ إنه ﴾ وزاد التأكيد بمبتدأ آخر ليدل على الاختصاص فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ يبدىء ﴾ أي يوجد ابتداء أي خلق أراد على أي هيئة أراد ﴿ ويعيد ﴾ أي ذلك المخلوق بعد إفنائه في أي وقت أراده ، وغيره لا يقدر على شيء من ذلك ، وليس هذا الضمير بفصل لأنه لا يكون إلا والخبر لا يكون إلا معرفة ، أو شبيه بها في أنه لا يلحقه " أل " المعرفة مثل خير منك ، وأجاز المازني وقوعه قبل المضارع لمشابهته الاسم وامتناع دخول " أل " عليه فأشبه المعرفة ، وقال : ولا يكون قبل الماضي لأن الماضي لا يشبه الاسم ، قال الرضي : وما قاله دعوى بلا حجة ومثل " ومكر أولئك هو يبور " ليس بنص في كونه فصلاً لجواز كونه مبتدأ بما بعده خبره ، ونقض قوله في الماضي بقوله تعالى : ﴿ وإنه هو أضحك وأبكى ﴾ [النجم : 43] .

(138/810)

ولما ذكر سبحانه بطشه ، وكان القادر على العنف قد لا يقدر على اللطف ، وإن قدر فربما لم يقدر على الإبلاغ في ذلك ، وكان لا يقدر على محو الذنوب أعيانها وآثارها على كل أحد بحيث لا يحصل لصاحبها عقاب ولا عتاب من أحد أصلاً إلا من كان قادراً على كل

شيء ، قال مبيناً لجميع ذلك دليلاً على أنه الفاعل المختار ، ومؤكداً لخروجه عن العوائد : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الغفور ﴾ أي المحاء لأعيان الذنوب وآثارها إذا أراد بحيث لا يحصل لمن محا ذنبه كدر من جهة ذلك الذنب أصلاً ﴿ الودود ﴾ أي الذي يفعل بمن أراد فعل المحب الكثير المحبة فيجيبه إلى ما شاء ويلقي على صاحب الذنب الذي محاه عنه وداً أي محبة كبيرة واسعة ويجعل له في قلوب الخلق رحمة ، ومادة " ود " تدور على الاتساع كما بينته في سورة الروم ، وزاد الأمر تأكيداً بذكر ما لا ينازع أصلاً في اختصاصه به تشريفاً له وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات : ﴿ ذو العرش ﴾ أي العز الأعظم أو السرير الدال على اختصاصه الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة ، الذي به قوام الأمور ﴿ المجيد ﴾ أي الشريف الكريم العظيم في ذاته وصفاته الحسن الجميل الرفيع العالي الكثير العطاء – هذا إذا رفع على أنه صفة ل " ذو " وكذا إن جر على أنه صفة للعرش في قراءة حمزة والكسائي .

ولما كان الاختصاص يدل قطعاً على كمال القدرة ، أنتج ذكر هذه الاختصاصات قوله : ﴿ فعّال ﴾ أي على سبيل التكرار والمبالغة ﴿ لما يريد ﴾ لا يؤده شيء من الأفعال سواء كانت منسوبة إليه من غير واسطة أو نسبت في الظاهر إلى غيره .

ولما تمت الدلالة على أن بطشه شديد ، قرره بما وجد من ذلك وذكره به تخويفاً وتسلية له لأن النظر في المحسوسات أمكن في النفوس فقال : ﴿ هل أتاك ﴾ أي يا أعظم خلقنا ﴿ حديث الجنود ﴾ أي اذكر ما أتاك مما حدث لهم من بطشنا وما وقع بهم من سطواتنا لتكذيبهم رسلنا عليهم أفضل الصلاة والسلام بحيث صار حديثاً يتلى ، وذكراً بين الخلق لعظمته لا يبلى ، والجنود جمع جند بالضم وهو العسكر المعد للقتال والأعوان والمدينة ، والكل ناظر إلى النجدة العظيمة والغلبة الزائدة .

(140/810)

ولما كان المعلوم من السياق أن المراد من حديثهم ما حصل لهم من البطش لتكذيب الرسل لا سيما في البعث الذي السياق له ، وكان الواقع من بيانه بآيات موسى وصالح عليهما الصلاة والسلام أبين مما وقع بآيات غيرهم ممن تقدم زمنه على هذه الأزمنة ، وكانت أمة كل نبي من النبيين وأتباع فرعون تحوي أصنافاً من الخلق كثيرة ، حكي أن طليعته يوم تبع بني إسرائيل وغرق كانت ستمائة ألف ، أبدل من " الجنود " إعلاماً بأنهم أعداء الله قوله : ﴿ فرعون ﴾ وكذا أتباعه الذين كانوا أشد أهل زمانهم وأعتاهم وأكثرهم رعونة في

دعوى الإلهية منه والتصديق منهم وكان هذا من عماوة قلوبهم مع ظهور علامات الربوبية السماوية والأرضية ، والرسوخ في التكذيب والسفه والخفة والطيش مع رؤية تلك الآيات العظيمة على كثرتها وطول زمنها حتى دخل البحر على أمان من الغرق مع أن خطر الغرق به في تلك الحالة لم يكن يخفى على من له أدنى مسكة من عقله فأغرقه الله ومن معه أجمعين ولم يبق منهم أحداً ، فلعنة الله عليه وعلى من كان معه من أتباعه وأتباعهم الطائفة الاتحادية العربية الفارضية الذين يكفي في ظهور كفرهم تصويبهم فرعون الذي أجمع على كفره جميع الفرق ﴿ وثمود ﴾ الذين حملتهم الخفة على أن عقروا الناقة بعد رؤيتهم إياها تتكون من الصخرة الصماء غير مجوزين أن الذي خرق العادة بإخراجها ذلك يهلكهم في شأنها ، وقد جمع سبحانه بهما بين العرب والعجم والإهلاك بالماء الذي هو حياة كل شيء والصيحة التي هي أمارة الساعة ، وإنما كانت آياتهما أبين لأن آية ثمود ناقة خرجت من صخرة صماء ، ومن آيات موسى عليه الصلاة والسلام إبداع القمل الذي لا يحصى كثرة من الكثبان ، وإبداع الضفادع كذلك والجراد وإحياء العصا مرة أخرى ، ولا شك عند عاقل أن من قدر على ذلك ابتداء من شيء لا أصل في الحياة فهو على إعادة ما كان قبل ذلك حياً أشد قدرة .

(141/810)

ولما كان التقدير : نعم قد أتاني ذلك وعلمت من خبرهما وغيره أنك قادر على ما تريد ، ولكن الكفار لا يصدقونني ، عطف عليه قوله : ﴿ بل الذين كفروا ﴾ أي جاهروا بالكفر من هؤلاء القوم وغيرهم وإن كانوا في أدنى رتبة ﴿ في تكذيب ﴾ أي لما رأوا من الآيات لا مستند لهم فيه وهو شديد محيط بهم لاتباعهم أهواءهم وتقليدهم آباءهم ، فهم لا يقدرون على الخروج من ذلك التكذيب الذي صار ظرفاً لهم بعد سماعهم لأخبار هؤلاء المهلكين ورؤية بعض آثارهم ، وبعد ما أقمت لهم من الأدلة على البعث في هذا القرآن المعجز ، ولم يعتبروا بشيء من ذلك لما عندهم من داء الحسد ، فحالهم أعجب من حالهم فحذرهم مثل ما آلهم .

ولما كان هذا ربما أوهم أن تكذيبهم على غير مراده سبحانه وتعالى ، قال دافعاً لذلك مؤكداً قدرته على أخذهم تحذيراً لهم وتسلية لمن كذبوه : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن الملك الذي اختص بالجلال والإكرام ﴿ من ورائهم ﴾ أي من كل جهة يوارونها أو تواريهم ، وذلك كل جهة ﴿ محيط ﴾ فهو محيط بهم من كل جهة بعلمه وقدرته ، فهو كناية عن أنهم في قبضته لا يفوتونه بوجه كما أنه لا يفوت من صار في القبضة بإحاطة العدو به من غير مانع ، فهو سبحانه قادر على أن يحل بهم ما أحل بأولئك ، ولعله خص الوراء لأن الإنسان يحمي ما وراءه ولأنه جهة الفرار من المصائب .

ولما كان من تكذيبهم ، وهو أعظم تكذيبهم ، طعنهم في أعظم آيات القرآن بأن يقولوا : هو كذب مختلق ، إنما هو أساطير الأولين ، أي أكذوباتهم لا حقائق لما يخبر به مع أنه قد أقام الدليل الأعظم لنفسه بنفسه بما له من الإعجاز على أنه حق ، قال معبراً بالضمير إيذاناً بأنه لعظمه في كل قلب لا غيبة له أصلاً ، ليس لأحد حديث إلا فيه ، بانياً على ما تقديره : ليس الأمر كما يزعم الكفار في القرآن : ﴿ بل هو ﴾ أي هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ قرآن ﴾ أي جامع لكل منقبة جليلة بالغ الذروة العليا في كل شرف ﴿ مجيد ﴾ أي شريف كريم ليس فيه شيء من شوائب الذم عزيز عظيم شريف عال جواد حسن الخلال وحيد في نظمه ومعانيه المغيبة والمشاهدة حاو لمجامع الحمد ليس بقول مخلوق ولا هو مخلوق بل هو صفة الخالق بل هو جواد بكل ما يراد منه من المحاسن لمن صدقت نيته وطهرت طويته ، وعلت همته وكرمت سجيته ، فهو يأبي له مجده أن يلم بساحته طعن بوجه من الوجوه ، ومجده تجريب أحكامه من بين عاجل ما شهد وآخل ما علم بعالم ما شهد ، فكان معلوماً بالتجربة المتيقنة بما تواتر من القصص الماضي

وما شهد له من الأثر الحاضر وما يتجدد مع الأوقات من أمثاله وأشباهه وأشكاله ، فكذب من قال إنه شعر أو كهانة أو سحر – أو غير ذلك من الأباطيل .

(143/810)

ولما وصفه في نفسه مما يأبي له لحاق شيء من شبهة ، وصف محله في الملأ الأعلى إعلاماً بأنه لا يطرأ عليه ما يغيره فقال : ﴿ في لوح ﴾ وهو كل صفيحة عريضة من خشب أو عظم أو غيرهما ﴿ محفوظ ﴾ أي له الحفظ دائماً على أتم الوجوه من كل خلل ومن أن يصل إليه إلا الملائكة الكرام ، قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى في كتاب الموت من الأحياء : يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين ، فجمع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه كتباً لا يشاهد بهذه العين ، وليس مما نعهده من الألواح ، فلوحه تعالى لا يشبه ألواح خلقه كما أن ذاته تعالى لا تشبه ذوات خلقه ، ومثاله مثال قلب الإنسان في حفظ القرآن مثلاً كلماته وحروفه ، ولو فتش قلبه لم يوجد فيه شيء ولا ينظر ذلك إلا نبي أو ولي يقرب من درجته – هذا معنى كلام الإمام رحمه الله تعالى ، وقرأ نافع بالرفع صفة للقرآن فحفظه من التغيير والتبديل والتحريف وكل شبهة وريب في نظمه أو معناه كما أن البروج محفوظة في لوح السماء المحفوظ ، بل القرآن بذلك أولى لأنه صفة الخالق في بيان وصفه لما

خلق على الوجه الأتم الأعدل لأنه ترجمة ما أوجده الله سبحانه في الوجود ، فصح قطعاً أنه لا بد أن يصدق في كل ما أخبر به ، ومن أعظمه أنه سبحانه يحشر الناس للدينونة بالثواب والعقاب كما دان من كذب أولياءه في الدنيا بمثل ذلك فأخذ أعداءه وأنجى أولياءه ، فرجع الختام منها على المبتدأ ، وتعانق الافتتاح بالمنتهى ، فاقتضى ذلك تنزيه المتكلم به عن أن يترك شيئاً فضلاً عن الأنفس بغير حفظ وعن كل ما لا يليق ، وإثبات الكمالات له والأكمليات بكل طريق – والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وإليه المهرب والمتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 380.384 ﴾

(144/810)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أولاً وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانياً أردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد فقال لتأكيد الوعيد : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ والبطش هو الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف

وتفاقم ونظيره ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] ثم إن هذا القادر لا يكون إمهاله لأجل الإهمال ، لكن لأجل أنه حكيم إما بحكم المشيئة أو بحكم المصلحة ، وتأخير هذا الأمر إلى يوم القيامة ، فلهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ أي إنه يخلق خلقه ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء ليجازيهم في القيامة ، فدل الإمهال لهذا السبب لا لأجل الإهمال ، قال ابن عباس : إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً جديداً ، فذاك هو المراد من قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ .

ثم قال لتأكيد الوعد : ﴿ وَهُوَ الغفور الودود ﴾ فذكر من صفات جلاله وكبريائه خمسة :

(145/810)

أولها : الغفور قالت المعتزلة : هو الغفور لمن تاب ، وقال أصحابنا : إنه غفور مطلقاً لمن تاب ولمن لم يتب لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] ولأن غفران التائب واجب وأداء الواجب لا يوجب التمدح والآية مذكورة في معرض التمدح وثانيها : الودود وفيه أقوال : أحدها : المحب هذا قول أكثر المفسرين ، وهو مطابق للدلائل العقلية ، فإن الخير مقتضى بالذات والشر بالعرض ، ولا بد أن يكون الشر أقل من الخير فالغالب لا بد وأن يكون خيراً فيكون محبوباً بالذات وثانيها : قال الكلبي

: الودود هو المتودد إلى أوليائه بالمغفرة والجزاء ، والقول هو الأول وثالثها : قال الأزهري : قال بعض أهل اللغة يجوز أن يكون ودود فعولاً بمعنى مفعول كركوب وحلوب ، ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لما عرفوا من كماله في ذاته وصفاته وأفعاله ، قال : وكلتا الصفتين مدح لأنه جل ذكره إذا أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

ورابعها : قال القفال : قيل الودود قد يكون بمعنى الحليم من قولهم : دابة ودود وهي المطيعة القياد التي كيف عطفتها انعطفت وأنشد قطرب :

وأعددت للحرب خيفانة . . ذلول القياد وقاحا ودودا

(146/810)

وثالثها : ذو العرش ، قال القفال : ذو العرش أي ذو الملك والسلطان كما يقال : فلان على سرير ملكه ، وإن لم يكن على السرير ، وكما يقال : ثل عرش فلان إذا ذهب سلطانه ، وهذا معنى متفق على صحته ، وقد يجوز أن يكون المراد بالعرش السرير ، ويكون جل جلاله خلق سريراً في سمائه في غاية العظمة والجلالة بحيث لا يعلم عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه ورابعها : المجيد ، وفيه قراءتان إحداهما : الرفع فيكون ذلك صفة لله سبحانه ، وهو

اختيار أكثر القراء والمفسرين لأن المجد من صفات التعالي والجلال ، وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه ، والفصل والاعتراض بين الصفة والموصوف في هذا النحو غير ممتنع والقراءة الثانية : بالخفض وهي قراءة حمزة والكسائي ، فيكون ذلك صفة العرش ، وهؤلاء قالوا : القرآن دل على أنه يجوز وصف غير الله بالمجيد حيث قال :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ [البروج : 21] ورأينا أن الله تعالى وصف العرش بأنه كريم فلا يبعد أيضاً أن يصفه بأنه مجيد ، ثم قالوا : إن مجد الله عظمته بحسب الوجوب الذاتي وكمال القدرة والحكمة والعلم ، وعظمة العرش علوه في الجهة وعظمة مقداره وحسن صورته وتركيبه ، فإنه قيل : العرش أحسن الأجسام تركيباً وصورة وخامسها : أنه فعال لما يريد وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

فعال خبر مبتدأ محذوف .

المسألة الثانية :

من النحويين من قال : ﴿ وَهُوَ الغفور الودود ﴾ خبران لمبتدأ واحد ، وهذا ضعيف لأن المقصود بالإسناد إلى المبتدأ إما أن يكون مجموعها أو كل واحد واحد منهما ، فإن كان الأول كان الخبر واحد الآخرين وإن كان الثاني كانت القضية لا واحد قبل قضيتين .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال فقالوا : لا شك أنه تعالى يريد الإيمان فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان بمقتضى هذه الآية وإذا كان فاعلاً للإيمان وجب أن يكون فاعلاً للكفر ضرورة أنه لا قائل بالفرق ، قال القاضي : ولا يمكن أن يستدل بذلك على أن ما يريده الله تعالى من طاعة الخلق لا بد من أن يقع لأن قوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ لا يتناول إلا ما إذا وقع كان فعله دون ما إذا وقع لم يكن فعلاً له هذه ألفاظ القاضي ولا يخفي ضعفها .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى لا يجب لأحد من المكلفين عليه شيء ألبتة ، وهو ضعيف لأن الآية دالة على أنه يفعل ما يريد ، فلم قلتم : إنه يريد أن لا يعطي الثواب .

المسألة الخامسة :

قال القفال : فعال لما يريد على ما يراه لا يعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب ، فهو يدخل أولياءه الجنة لا يمنعه منه مانع ، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم ويعاجل بعضهم العقوبة إذا شاء ويعذب من شاء منهم في

الدنيا وفي الآخرة يفعل من هذه الأشياء ومن غيرهما ما يريد .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)

(148/810)

اعلم أنه تعالى لما بين حال أصحاب الأخدود في تأذي المؤمنين بالكفار ، بين أن الذين كانوا قبلهم كانوا أيضاً كذلك ، واعلم أن فرعون وثمود بدل من الجنود ، وأراد بفرعون إياه وقومه كما في قوله ﴿ من فرعون وملئهم ﴾ [يونس : 83] وثمود ، كانوا في بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة فذكر تعالى من المتأخرين فرعون ، ومن المتقدمين ثمود ، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في جميع الأزمنة مستمرة على هذا النهج ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ ولما طيب قلب الرسول عليه السلام بحكاية أحوال الأولين في هذا الباب سلاه بعد ذلك من وجه آخر ، وهو قوله : ﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ وفيه وجوه أحدها : أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه ، فلا يجد مهرباً يقول تعالى : فهو كذا في قبضتي وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك فلا تجزع من تكذيبهم إياك ، فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم وثانيها : أن يكون المراد من هذه

الإحاطة قرب هلاكهم كقول تعالى : ﴿ وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ [الفتح : 21] وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بالناس ﴾ [الإسراء : 60] وقوله : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ [يونس : 22] فهذا كله عبارة عن مشارفة الهلاك ، يقول : فهؤلاء في تكذيبك قد شارفوا الهلاك وثالثها : أن يكون المراد والله محيط بأعمالهم ، أي عالم بها ، فهو مرصد بعقابهم عليها ، ثم إنه تعالى سلى رسوله بعد ذلك بوجه ثالث ، وهو قوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

تعلق هذا بما قبله ، هو أن هذا القرآن مجيد مصون عن التغير والتبدل ، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم ، وبتأذي قوم من قوم ، امتنع تغيره وتبدله ، فوجب الرضا به ، ولا شك أن هذا من أعظم موجبات التسلية .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ قرآنٌ مجيد ﴾ بالإضافة ، أي قرآن رب مجيد ، وقرأ يحيى بن يعمر في (لوح) واللوح الهواء يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح المحفوظ ، وقرىء (محفوظ)

بالرفع صفة للقرآن كما قلنا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى قال ههنا : ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ * فِي كتاب مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77 78] فيحتمل أن يكون الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحداً ثم كونه محفوظاً يحتمل أن يكون المراد كونه محفوظاً عن أن يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 79] ويحتمل أن يكون المراد كونه محفوظاً من اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة المقربين ويحتمل أن يكون المراد أن لا يجري عليه تغيير وتبديل .

المسألة الرابعة :

قال بعض المتكلمين إن اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرؤنه ولما كانت الأخبار والآثار واردة بذلك وجب التصديق ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 112.114 ﴾

(150/810)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ .

﴿ فتنوا ﴾ معناه : أحرقوا ، وفتنت الذهب والفضة في النار أحرقتهما ، والفتين حجارة الحرة السود لأن الشمس كأنها أحرقتها ، ومن قال إن هذه الآيات الأواخر في قريش جعل الفتنة الامتحان والتعذيب ، ويقوي هذا التأويل بعض التقوية قوله تعالى : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ لأن هذا اللفظ في قريش أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم ، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب بعد ذلك وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، و﴿ جهنم ﴾ و﴿ الحرق ﴾ طبقتان من النار ، ومن قال إن النار خرجت وأحرقت الكافرين القعود ، جعل ﴿ الحريق ﴾ في الدنيا ، و" البطش " : الأخذ بقوة وشرعة ، و﴿ يبدىء ويعيد ﴾ ، قال الضحاك وابن زيد معناه : ﴿ يبدىء ﴾ الخلق بالإنشاء ﴿ ويعيد ﴾ بالحشر ، وقال ابن عباس ما معناه : إن ذلك عام في جميع الأشياء ، فهي عبارة عن أنه يفعل كل شيء إنه ﴿ يبدىء ويعيد ﴾ كلما ينعاد ، وهذان قسمان مستوفيان جميع الأشياء ، وقال الطبري معناه : ﴿ يبدىء ﴾ العذاب ، ويعيده على الكفار ، و﴿ الغفور الودود ﴾ صفتا فعل ، الأولى ستر على عباده ، والثانية لطف بهم وإحسان إليهم ، وخصص ﴿ العرش ﴾ بإضافة نفسه إليه تشريفاً ، وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات ، وقرأ حمزة والكسائي والمفضل عن عاصم والحسن وابن وثاب والأعمش وعمرو بن عبيد

: " المجيد " بخفض الدال صفة للعرش ، وهذا على أن المجد والتمجيد قد يوسف به كثير من الجمادات ، وقد قالوا مجدت الدابة إذا سمنت ، وأمجدتها إذا أحسنت علفها ، وقالوا : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار : كثرت نارهما ، وقرأ الباقون والجمهور : " ذو العرش " ، وروى ابن عباس : " ذي العرش " نعتاً لقوله ﴿ إن بطش ربك ﴾ .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)

(151/810)

هذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير بمعنى : لجعل هؤلاء الكفرة الذين يخالفونك وراء ظهرك ولا تهتم بهم ، فقد انتقم الله من أولئك الأقوياء الشداد ، فيكف هؤلاء و ﴿ الجنود ﴾ الجموع المعدة للقتال ، والجري نحو غرض واحد ، وناب ﴿ فرعون ﴾ في الذكر مناب قومه وآله ، إذ كان رأسهم و ﴿ فرعون وثمود ﴾ في موضع حفض على البدل من ﴿ الجنود ﴾ ، ثم ترك القول بحالة ، وأضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاء الكفار بمحمد عليه السلام وشرعه لا حجة لهم عليه ولا برهان بل هو تكذيب مجرد سببه الحسد ، ثم توعدهم بقوله : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ ، أي وعذاب الله ونقمته ، وقوله : ﴿ من ورائهم ﴾ ، معناه : ما يأتي بعد كفرهم وعصيانهم ، ثم أعرض عن تكذيبهم مبطلاً له

ورداً عليه ، أنه ﴿ قرآن مجيد ﴾ أي مذمة فيه ، وهذا مما تقدم من وصف الله تعالى بالمجد والتمجد ، وقرأ ابن السميفع اليماني " قرآنُ مجيدٍ " على الإضافة ، وأن يكون الله تعالى ، هو المجيد ، و" اللوح " : هو اللوح المحفوظ الذي فيه جميع الأشياء ، وقرأ خفض القراء : " في لوحٍ محفوظٍ " بالخفض صفة ل ﴿ لوح ﴾ المشهور بهذه الصفة ، وقرأ نافع وحده بخلاف عنه وابن محيصن والأعرج : " محفوظٌ " بالرفع صفة القرآن على نحو قوله تعالى : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] ، أي هو محفوظ في القلوب ، لا يدركه الخطأ والتعديل ، وقال أنس : إن اللوح المحفوظ هو في جبهة إسرافيل ، وقيل : هو من درة بيضاء قاله ابن عباس ، وهذا كله مما قصرت به الأسانيد ، وقرأ ابن السميفع : " في لُوح " بضم اللام .

نجز تفسير ﴿ البروج ﴾ والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(152/810)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

أي أخذه الجبابرة والظلمة ، كقوله جلّ ثناؤه : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] وقد تقدم .

قال المبرد "إن بطش ربك" جواب القسم .

المعنى : والسماء ذات البروج إن بطش ربك ، وما بينهما معترِض مؤكِّد للقسم .

وكذلك قال التِّرمذي الحكيم في نوادر الأصول : إن القسم واقع عما ذكر صفته بالشدة : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ يعني الخَلْق عن أكثر العلماء يخلُقهم ابتداء ، ثم يعيدهم عند البعث .

وروى عكرمة قال : عَجِب الكفار من إحياء الله جلّ ثناؤه الأموات ، وقال ابن عباس : يبدىء لهم عذاب الحريق في الدنيا ، ثم يعيده عليهم في الآخرة .

وهذا اختيار الطبريّ : ﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ أي الستُور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ﴿ الودود ﴾ أي المحب لأوليائه .

ورَوَى الضحاك عن ابن عباس قال : كما يودّ أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة .

وعنه أيضاً "الودود" أي المتودد إلى أوليائه بالمغفرة ، وقال مجاهد الوادّ لأوليائه ، فعول بمعنى فاعل .

وقال ابن زيد : الرحيم ، وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحاق القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وأنشد قول الشاعر :

وأركبُ في الروع عُرْيانةً . . .

ذلولَ الجَناح لقاحاً ودُوداً

أي لا ولد لها تحِن إليه ، ويكون معنى الآية : إنه يغفر لعباده وليس له ولد يغفر لهم من أجله ، ليكون بالمغفرة متفضلاً من غير جزاء .

وقيل : الودود بمعنى المودود ، كركوب وحلُوب ، أي يوده عباده الصالحون ويحبونه ﴿ ذُو العرش المجيد ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصما "المجيد" بالخفض ، نعتاً للعرش .

وقيل : ل"ربك" ؛ أي إن بطش ربك المجيد لشديد ، ولم يمتنع الفصل ، لأنه جارٍ مجرى الصفة في التشديد .

الباقون بالرفع نعتا ل"ذو" وهو الله تعالى .

(153/810)

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه المنعوت بذلك ، وإن كان قد وُصف عرشه بالكريم في آخر "المؤمنون" .

تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخُ والعَفَار ؛ أي تناهيا فيه ، حتى يُقْتَبَس منهما .

ومعنى ذو العرش : أي ذو المُلك والسلطان ؛ كما يقال : فلان على سرير ملكه ؛ وإن لم يكن على سرير .

ويقال : ثُل عرشه : أي ذهب سلطانه .

وقد مضى بيان هذا في "الأعراف" وخاصة في "كتاب الأسنى ، في شرح أسماء الله الحسنى" .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي لا يمتنع عليه شيء يريده .

الزمخشريّ : "فَعَّال" خبر ابتداء محذوف .

وإنما قيل : "فَعَّال" لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة .

وقال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ؛ لأنه نكرة محضة .

وقال الطبريّ : رفع "فعال" وهي نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب "الغفور الودود" .

وعن أبي السّفر قال : دخل ناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم على أبي بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا : ألا نأتيك بطبيب ؟ قال : قد رآني ! قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال : إني فعال لما أريد .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾

أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ؛ يؤنّسه بذلك ويسليه .

ثم بينهم فقال .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ وهما في موضع جر على البدل من "الجنود" .

المعنى : إنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله .

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك .

﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ لك ؛ كدأب من قبلهم .

وإنما خص فرعون وثمود ؛ لأن ثمود في بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين .

وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين في الهلاك ؛ فدلّ بهما على أمثالهما في الهلاك .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ والله مِن وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾

أي يقدر على أن يُنْزل بهم ما أنزل بفرعون .

(154/810)

والمحاط به كالمحصور .

وقيل : أي والله عالم بهم فهو يجازيهم .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي متناهٍ في الشرف والكرم والبركة ، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا ، لا كما زعم المشركون .

وقيل "مجيد" : أي غير مخلوق .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي مكتوب في لوح .

وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه .

وقيل : هو أمّ الكتاب ؛ ومنه انتُسخ القرآن والكتب .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اللوح من ياقوته حمراء ، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَك يقال له ما طِرْيون ، كتابه نور ، وقلمه نور ، ينظر الله عزّ وجلّ فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة ؛ ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء ؛ يرفع وضيعا ، ويضع رفيعاً ، ويغنى فقيراً ، ويفقر غنياً ؛ يحيى ويميت ، ويفعل ما يشاء ؛ لا إله إلا هو .

وقال أنس بن مالك ومجاهد : إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل .

وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

وقيل : اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة ، وبيان أمورهم ، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، والأقضية النافذة فيهم ، ومآل عواقب أمورهم ؛ وهو أم الكتاب .

وقال ابن عباس : " أوّل شيء كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ "إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسولي ، مِن استسلم لقضائي ، وصبر على بلائي ، وشكر نعمائي ، كتبته صدّيقاً

وبعثته مع الصدّيقين ، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبرِ على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، فليتخذ إلهاً سواي" " وكتب الحجاج إلى محمد ابن الحنفية رضي الله عنه يتوعده ؛ فكتب إليه ابن الحنفية : "بلغني أن لله تعالى في كل يوم ثلثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ ، يُعِز ويذلّ ، ويبتلي ويُفْرح ، ويفعل ما يريد ؛ فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك ، فتشتغل بها ولا تتفرغ" .

وقال بعض المفسرين : اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرأونه .

(155/810)

وقرأ ابن السَّمَيْقع وأبو حَيْوة "قرآن مجيد" على الإضافة ؛ أي قرآن ربٍّ مجيد .

وقرأ نافع "في لوحٍ محفوظ" بالرفع نعتاً للقرآن ؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح .

الباقون (بالجر) نعتاً للوح .

والقرّاء متفقون على فتح اللام من "لوح" إلا ما روي عن يحيى بن يعمَر ؛ فإنه قرآن "لُوحٍ" بضم اللام ؛ أي إنه يلوح ، وهو ذو نور وعلو وشرف .

قال الزمخشريّ : واللُّوح الهواء ؛ يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح .

وفي الصحاح : لاح الشيء يلوح لَوْحاً أي لَمَحَ .

ولاحهُ السفر : غيره .

ولاح لوحاً ولواحاً : عطِش ، والتاح مثله .

واللَّوح : الكتِف ، وكل عظم عريض .

واللوح : الذي يكتب فيه .

واللُّوح (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض .

والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 19 صـ ﴾

(156/810)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

استئنافٌ خُوطبَ بِهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إيذاناً بأنَّ لكفارِ قومِهِ نصيباً موفُوراً منْ مضمونِه كما ينبىءُ عنْهُ التعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ معَ الإضافةِ إلى ضميرِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ والبطشُ الأخذُ بعُنْفٍ وحيثُ وصفَ بالشدةِ فقدْ تضاعفَ وتفاقمَ وهو بطشُه بالجبابرةِ والظلمةَ وَأخذهُ إيَّاهُم بالعذابِ والانتقامِ كقولِه تعالَى : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظالمة إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىء وَيُعِيدُ ﴾ أيْ هُو يُبدْىءُ

الخلقِ وَهُوَ يعيدُه مِنْ دَخْلٍ لأحدٍ في شيءٍ منْهُمَا ففيهِ مزيدُ تقريرٍ لشدةِ بطشِه أوُ هُو يبدىءُ البطشَ بالكفرةِ في الدُّنيا ويَعيدُه فِي الآخرةِ ﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ لمن تاب وآمنَ ﴿ الودود ﴾ المحبُّ لمَنْ أطاعَ.

﴿ ذُو العرش ﴾ خالقُه وقيلَ: المرادُ بالعرشِ الملكُ أيْ ذُو السلطنةِ القاهرةِ وقُرِىءَ ذِي العَرشِ عَلى أنَّهُ صفةُ ربّك ﴿ المجيد ﴾ العظيمُ في ذاتِه وصفاتِه فإنَّهُ واجبُ الوجودِ تامُّ القُدرةِ كاملُ الحكمةِ وقُرِىءَ بالجرِّ على أنه صفةٌ لرَبّكَ أَوْ للعرشِ ومجدُه علوّه وعظمتُه ﴿ فَعَّالٌ لّمَا يُرِيدُ ﴾ بحيثُ لا يتخلفُ عنْ إرادتِه مرادٌ من أفعالِه تعالَى وأفعالِ غيرِه وهو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ.

وقولُه تعالَى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود ﴾

(157/810)

استئنافٌ مقررٌ لشدةِ بطشِه تعالَى بالظلمةِ العُصاةِ والكفرةِ العتاةِ وكونُه فعالاً لما يريدُ متضمنٌ لتسليتِه عليه الصلاةُ والسلامُ بالإشعارِ بأنهُ سيصيبُ قومَهُ ما أصابَ الجنودَ ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدلٌ منَ الجنودِ لأنَّ المرادَ بفرعونَ هُوَ وقومُه والمرادُ بحديثِهم ما صدرَ عنهُم من التمادِي في الكفرِ والضلالِ وما حلَّ بهمْ منَ العذابِ والنكالِ وَالمَعْنى قدْ أتاكَ

حديثُهم وعرفتَ ما فعلُوا وما فُعِلَ بهمْ فذكّرِ قومكَ بشؤونِ الله تعالَى وأندّرْهُم أنْ يصيبَهُم مثل ما أصاب أمثالهم . وقوله تعالى : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ إضراب عن مماثلتِهم لهُم وبيانٌ لكونِهم أشدَّ منهُم في الكفرِ والطغيانِ كأنَّه قيلَ : ليسُوا مثلُهم فِي ذلكَ بلْ أشدُّ منهمُ في استحقاقِ العذابِ واستيجابِ العقابِ فإنَّهم مستقرونَ فِي تكذيبٍ شديدٍ للقرآنِ الكريمِ أو قيلَ ليستْ جنايتُهم مجردَ عدمِ التذكرِ والاتعاظِ مما سمعُوا منْ حديثِهم بلْ هُم معَ ذلكَ فِي تكذيبٍ شديدٍ للقُرآنِ الناطقِ بذلكَ لكنْ لا أنَّهم يكذبونَ بوقوعِ الحادثةِ بلْ بكونِ ما نطقَ بِهِ قرآناً منْ عندِ الله تعالى معَ وضوحِ أمرِه وظهورِ حالِه بالبيناتِ الباهرةِ ﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ تمثيلٌ لعدمِ نجاتِهم منْ بأسِ الله تعالَى بعدمِ فوتِ المحاطِ المحيطَ وقولُه تعالَى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ﴾ ردٌّ لكفرهم وإبطالٌ لتكذيبِهم وتحقيقٌ للحقِّ أيْ ليسَ الأمرُ كَما قالُوا بلْ هُو كتابٌ شريفٌ عالِي الطبقةِ فيما بينَ الكتبِ الإلهيةِ فِي النظمِ والمَعْنى وقُرِىءَ قرآنُ مجيدٍ بالإضافةِ أيْ قرآنُ ربَ مجيدٍ ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أيْ منَ التحريفِ ووصولِ الشيطاطينِ إليهِ وقُرِىءَ محفوظٌ بالرفعِ عَلى أنه صفةُ قرآنٍ . وقُرِىءَ فِي لوحٍ وَهُوَ الهَوَاءُ أي ما فوقَ السماءِ السابعةِ الذي فيهِ اللوحُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(158/810)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾

استئناف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والبطش الأخذ بصولة وعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه عز وجل بالجبابرة والظلمة وأخذه سبحانه إياهم بالعذاب والانتقام .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ أي أنه عز وجل هو يبدىء الخلق بالإنشاء وهو سبحانه يعيده بالحشر يوم القيامة كما قال ابن زيد والضحاك أو يبدىء كل ما يبدأ ويعيد كل ما يعاد كما قال ابن عباس من غير دخل لأحد في شيء منهما ومن كان كذلك كان بطشه في غاية الشدة أو يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا ثم يعيده في الآخرة وعلى الوجهين الجملة في موضع التعليل لما سبق ووجهه على الثاني ظاهر وعلى الأول قد أشرنا إليه وقيل وجهه عليه إن الإعادة للمجازاة فهي متضمنة للبطش وليس بذاك وعن ابن عباس يبدىء العذاب الكفار ويعيده عليهم فتأكلهم النار حتى يصيروا فحما ثم يعيدهم عز وجل خلقاً جديداً وفيه خفاء وإن كان أمر الجملة عليه في غاية الظهور واستعمال يبدىء مع يعيد

حسن وإن لم يسمع أبدأ كما بين في محله وحكى أبو زكيد أنه قرىء يبدأ من بدأ ثلاثياً وهو المسموع لكن القراءة بذلك شاذة .

(159/810)

﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ لمن يشاء من المؤمنين وقيل لمن تاب وآمن والتخصيص عند من يرى رأي أهل السنة إما لمناسبة مقام الإنذار أو لما في صيغة الغفور من المبالغة فأصل المغفرة لا يتوقف على التوبة وزيادتها بما لا يعلمه إلا الله تعالى للتائبين ﴿ الودود ﴾ المحب كثيراً لمن أطاع ففعول صيغة مبالغة في الواد اسم فاعل ومحبة الله تعالى ومودته عند الخلف بانعامه سبحانه وإكرامه جل شأنه ومن هنا فسر الودود بكثير الإحسان وعن ابن عباس أي المتودد إلى عباده تعالى شأنه بالمغفرة وقيل هو فعول بمعنى مفعول كركوب وحلوب أي يوده ويحبه سبحانه عباده الصالحون وهو خلاف الظاهر وحكى المبرد عن القاضي اسمعيل بن إسحاق أن الودود هو الذي لا ولد له وأنشد قوله

ي الروع عريانة . . .

ذلول الجماح لقاحاً ودوداً

أي لا ولد لها تحن إليه وحمله مع الغفور على هذا المعنى غير مناسب كما لا يخفى .

﴿ ذُو العرش ﴾ أي صاحبه والمراد مالكه أو خالقه وهو أعظم المخلوقات وعن علي كرم الله تعالى وجهه لو جمعت مياه الدنيا ومسح بها سطح العرش الذي يلينا لما استوعب منه إلا قليل وجاء في الأخبار من عظمه ما يبهر العقول وقال القفال ذو العرش ذو الملك والسلطان كأنه جعل العرش بمعنى الملك بطريق الكناية والتجوز وجوز أن يبقى العرش على حقيقته ويراد بذي العرش الملك لأن ذا العرش لا يكون إلا ملكاً وقرأ ابن عامر في رواية ذي العرش بالياء على أنه صفة ﴿ لربك ﴾ وحينئذ يكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ ﴾ [البروج : 13] الخ جملة معترضة لا يضر الفصل بها بين الصفة وا الموصوف وكذا لا يضر الفصل بينهما بخبر المبتدأ لأنه ليس بأجنبي فإن الموصوف هنا من تتمة المبتدأ وقد قال ابن مالك في التسهيل يجوز الفصل بين التابع والمتبوع بما لا يتمحض مباينته نعم قال ابن الحاجب الفصل بين الصفة والموصوفة بخبر المبتدأ شاذ كما في قوله

وكل أخ مفارقه أخوه . . .

لعمر أبيك إلا الفرقدان ﴾ ا

(160/810)

لْمَجِيدِ ﴾ العظيم في ذاته عز وجل وصفاته سبحانه فإنه تعالى شأنه واجب الوجود تام القدرة كامل الحكمة وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان المجيد بالجر صفة للعرش ومجده علوه وعظمته وحسن صورته وتركيبه فإنه قيل العرش أحسن الأجسام صورة وتركيباً وليس من مجده كون الحوادث الكونية بتوسط أوضاعه كما يزعمه المنجمون فإن ذلك باطل شرعاً وعقلاً على ما تقتضيه أصولهم وجاز على قراءة ذي العرش بالياء أن يكون صفة لذي وجوز كونه صفة ﴿ لربك ﴾ وليس بذاك لأن الأصل عدم الفصل بين التابع والمتبوع فلا يقال به ما لم يتعين .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ بحيث لا يتخلف عن إرادته تعالى من أفعاله سبحانه وأفعال غيره عز وجل فما للعموم وفي التنكير من التفخيم ما لا يخفى وفهي رد ظاهر على المعتزلة في قولهم أنه سبحانه وتعالى يريد ايمان الكافر وطاعة العاصي ويتخلفان عن إرادته سبحانه والمرفوعات كلها على ما استحسنه أبو حيان أخبار لهو في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الغفور ﴾ [البروج : 14] وجوز أن يكون الودود وذو العرش والمجيد صفات للغفور ومن لم يجوز تعدد الخبر لمبتدأ واحد يقول بذلك أو بتقدير مبتدآت للمذكورات وأطلق الزمخشري القول بأن فعال خبر لمبتدأ محذوف أي فعال فقال "صاحب الكشف" إنما لم يحمله على أنه خبر السابق أعني هو في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الغفور ﴾ لأن قوله سبحانه : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

تحقيق للصفتين البطش بالأعداء والغفر والود للأولياء ولو حمل عليه لفاتت هذه النكتة اه

وهو تدقيق لطيف وقوله تعالى :

(161/810)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود ﴾ استئناف فيه تقرير لكونه تعالى فعالاً لما يريد وكذا لشدة بطشه سبحانه بالظلمة العصاة والكفرة العتاة وتسلية له صلى الله عليه وسلم بالإشعار بأنه سيصيب كفرة قومه ما أصاب الجنود وهو جمع جند يقال للعسكر اعتباراً بالغلظة من الجند أي الأرض الغليظة وكذا للأعوان ويقال لصنف من الخلق على حدة وكذا لكل مجتمع والمراد بالجنود ههنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله تعالى عليهم السلام واجتمعوا على ذريتهم .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الجنود بدل كل من كل على حذف مضاف أي جنود فرعون أو على أن يراد بفرعون هو وقومه واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه وقيل البدل هو المجموع لا كل من المتعاطفين وهو خلاف الظاهر وقال السمين يجوز كونه منصوباً بأعني لأنه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه وتعقب بأنه تفسير للجنود حينئذٍ فيعود الإشكال وأجيب بأن المفسر حينئذٍ المجموع وليس اعتباره مع أعني كاعتباره مع الإبدال والمراد بحديثهم ما صدر

عنهم من التمادي في الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال والمعنى قد أتاك حديثهم وعرفت ما فعلوا وما فعل بهم فذكر قومك بأيام الله تعالى وشؤونه سبحانه وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم وقوله تعالى :

(162/810)

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي من قومك ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ إضراب انتقالي عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم في الكفر والطغيان كما ينبىء عنه العدول عن يكذبون إلى في تكذيب المفيد لإحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق فيه مع ما في تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله فكأنه قيل ليسوا مثلهم بل هم أشد منهم فإنهم غرقى مغمورون في تكذيب عظيم للقرآن الكريم فهم أولى منهم في استحقاق العذاب أو كأنه قيل ليست جنايتهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك في تكذيب عظيم للقرآن الناطق بذلك وكونه قرآناً من عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة وقوله تعالى :

﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ جوز أن يكون اعتراضاً تذييلياً وأن يكون حالاً من الضمير في الجار والمجرور السابق والكلام تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط

المحيط كما قال غير واحد وكان المعنى أنه عز وجل عالم بهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه ولا يفوتونه سبحانه وتعالى وذكر عصام الدين أن في ذلك تعريضاً وتوبيخاً للكفار بأنهم نبذوا الله سبحانه وراء ظهورهم وأقبلوا على الهوى والشهوات بكليتهم ولعل ذلك من العدول عن بهم إلى من ورائهم وقوله تعالى :

(163/810)

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ رد لكفرهم وإبطال لتكذيبهم وتحقيق للحق أي بل هو كتاب شريف عالي الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى لا يحق تكذيبه والكفر به وقيل إضراب وانتقال عن الأخبار بشدة تكذيبهم وعدم ارعوائهم عنه إلى وصف القرآن للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء والأول أولى وزعم بعضهم أن ازضراب الأول عن قصة فرعون وثمود إلى جميع الكفار والمعنى عليه أن جميع الكفار في تكذيب ولم يكن نبي فارغاً عن تكذيبهم والله تعالى لا يهمل أمرهم وفيه من تسليته صلى الله عليه وسلم ما فيه ويبعده إرداف ذلك بهذا الإضراب وقرأ ابن السميفع قرآن مجيد بالإضافة قال ابن خالويه سمعت ابن الأنباري يقول معناه بل هو قرآن رب مجيد كما قال الشاعر

.

ولكن الغني رب غفور . . .

أي غني رب غفور وقال ابن عطية قرأ اليماني بالإضافة على أن يكون المجيد هو الله تعالى وهو محتمل للتقدير وعدمه وجوز أن يكون من إضافة الموصوف لصفته قال أبو حيان وهذا أولى لتوافق القراءتين .

(164/810)

﴿ فِى لَوْحٍ ﴾ أي كائن في لوح ﴿ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي ذلك اللوح من وصول الشياطين إليه وهذا هو اللوح المحفوظ المشهور وهو على ما روي عن ابن عباس والعهدة على الراوي لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وحافتاه الدر والياقوت ودفتاه ياقوتة حمراء وقلمه نور وهو معقود بالعرش وأصله في حجر ملك يقال له ساطريون لله عز وجل فيه في كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء وأنه كتب في صدره لا إله إلا الله وحده لا شريك له دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة وقال مقاتل إن اللوح المحفوظ عن يمين العرش وجاء فيه أخبار غير ذلك ونحن نؤمن به ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته ونحو ذلك نعم نقول إن ما يزعمه بعض الناس من أنه جوهر مجرد

ليس في حيز وأنه كالمرأة للصور العلمية مخالف لظواهر الشريعة وليس له مستند من كتاب ولا سنة أصلاً وقرأ ابن يعمر وابن السميفع لوح بضم اللام وأصله في اللغة الهواء والمراد به هنا مجازاً ما فوق السماء السابعة وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه محفوظ بالرفع على أنه صفة لقرآن وفي لوح قيل متعلق به وقيل صفة أخرى لقرآن وتعقب بأن فيه تقديم الصفة المركبة على المفردة وهو خلاف الأصل والمعنى عليه قيل محفوظ بعد التنزيل من التغيير والتبديل والزيادة والنقص كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] وقيل محفوظ في ذلك اللوح عن وصول الشياطين إليه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(165/810)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾

قد تقدّم الكلام في البروج عند تفسير قوله : ﴿ جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ [الفرقان : 61] قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك : هي النجوم ، والمعنى : والسماء ذات النجوم .

وقال عكرمة ، ومجاهد أيضاً : هي قصور في السماء .

وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن .

وقال أبو عبيدة ، ويحيى بن سلام وغيرهما : هي المنازل للكواكب ، وهي اثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً ، وهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

والبروج في كلام العرب : القصور ، ومنه قوله : ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها وقيل هي أبواب السماء .

وقيل هي منازل القمر ، وأصل البرج الظهور ، سميت بذلك لظهورها ﴿ واليوم الموعود ﴾ أي : الموعود به ، وهو يوم القيامة .

قال الواحدي : في قول جميع المفسرين .

﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ المراد : بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي : يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب ، وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة ، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود يوم عرفة ؛ لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج ، وتحضره الملائكة .

قال الواحدي : وهذا قول الأكثر .

وحكى القشيري عن ابن عمر ، وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى .

وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية ، والمشهود يوم عرفة .

وقال النخعي : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر .

وقيل : الشاهد هو الله سبحانه .

وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، لقوله : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [الفتح : 166]

وقوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 19] .

(166/810)

وقيل : الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وقوله : ﴿ يا أَيُّهَا النبى إِنَّا أرسلناك شَاهِداً وَمُبَشّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : 45] .

وقوله : ﴿ وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] .

وقيل : الشاهد جميع الأنبياء لقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ وقيل : هو عيسى بن مريم لقوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دمت فِيهِمْ ﴾ [المائدة : 117]

والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة : إما أمة محمد ، أو أمم الأنبياء ، أو أمة عيسى .

وقيل : الشاهد آدم .

والمشهود ذريته .

وقال محمد بن كعب : الشاهد الإنسان لقوله : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : 14] وقال مقاتل : أعضاؤه لقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم لقوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : 143] .

وقيل : الشاهد : الحفظة والمشهود بنو آدم .

وقيل : الأيام والليالي .

وقيل : الشاهد الخلق يشهدون لله عزّ وجلّ بالوحدانية ، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه ، وسيأتي بيان ما ورد في تفسير الشاهد والمشهود ، وبيان ما هو الحقّ إن شاء الله .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ هذا جواب القسم ، واللام فيه مضمرة ، وهو الظاهر ، وبه قال الفراء ، وغيره .

وقيل تقديره : لقد قتل ، فحذفت اللام ، وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية ، والظاهر أنها دعائية ؛ لأن معنى ﴿ قتل ﴾ لعن .

قال الواحدي : في قول الجميع ، والدعائية لا تكون جواباً للقسم ، فقيل : الجواب قوله : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين ﴾ وقيل : قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ وبه قال المبرد : واعترض عليه بطول الفصل .

وقيل : هو مقدّر يدلّ عليه قوله : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأخدود ﴾ كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون ، كما لعن أصحاب الأخدود .

وقيل : تقدير الجواب : لتبعثنّ ، واختاره ابن الأنباري .

وقال أبو حاتم السجستاني ، وابن الأنباري أيضاً : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : قتل أصحاب الأخدود ، والسماء ذات البروج ، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال : والله قام زيد ، والأخدود : الشقّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، وجمعه أخاديد ، ومنه الخدّ لمجاري الدموع ، والمخدة لأن الخد يوضع عليها ، ويقال تخدد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من خراج ، ومنه قول طرفة :

ووجه كأن الشمس ألقتّ رداءها . . . عليه نقيّ اللون لم يتخدّد

وسيأتي بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله .

قرأ الجمهور : ﴿ النار ذات الوقود ﴾ بجر النار على أنها بدل اشتمال من الأخدود ؛ لأن الأخدود مشتمل عليها ، وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة ، والوقود : الحطب

الذي توقد به .

وقيل : هو بدل كل من كل ، لا بدل اشتمال .

وقيل : إن النار مخفوضة على الجوار ، كذا حكى مكي عن الكوفيين .

وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرأ قتادة ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم بضمها .

وقرأ أشهب العقيلي ، وأبو حيوة ، وأبو السماك العدوي ، وابن السميفع ، وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي النار ، أو على أنها فاعل فعل محذوف ، أي : أحرقتهم النار ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ العامل في الظرف قتل ، أي : لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ، ويقرب إليها .

قال مقاتل : يعني : عند النار قعود يعرضونهم على الكفر .

(168/810)

وقال مجاهد : كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود .

﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ أي : الذين خدّوا الأخدود ، وهم : الملك وأصحابه ، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ؛ ليرجعوا إلى دينهم شهود : أي حضور ، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به .

وقيل : يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .

وقيل : على بمعنى مع ، والتقدير : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قال الزجاج : أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم ، وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي : ما أنكروا عليهم ، ولا عابوا منهم ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد ﴾ أي : إلا أن صدّقوا بالله الغالب المحمود في كل حال .

قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، وهذا كقوله : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءامَنَّا بالله ﴾ [المائدة : 59] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كما في قوله :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم . . . يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها . . . كذاك عتاق الطير شكلاً عيونها

قرأ الجمهور : ﴿ نقموا ﴾ بفتح النون ، وقرأ أبو حيوة بكسرها ، والفصيح الفتح .

ثم وصف سبحانه نفسه بما يدلّ على العظم ، والفخامة فقال : ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ ومن كان هذا شأنه ، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد .

﴿ والله على كُلّ شَىْء شَهِيدٌ ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منه خافية ، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين .

ثم بيّن سبحانه ما أعدّ لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ : أي : حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فتنت الشيء ، أي : أحرقته ، وفتنت الدرهم والدينار : إذا أدخلته النار ؛ لتنظر جودته .

ويقال دينار مفتون ، ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] ، أي : يحرقون .

وقيل : معنى فتنوا المؤمنين : محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه ، ثم لم يتوبوا من قبيح صنعهم ، ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم فلهم عذاب جهنم أي : لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ، والجملة في محل رفع على أنها خبر إن ، أو الخبر لهم ، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، ولا يضرّ نسخه بأنّ خلافاً للأخفش ، ولهم عذاب الحريق أي : ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذي وقع منهم للمؤمنين .

وقيل : إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعير .

وقيل : إنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير ، ثم يعذبون بعذاب الحريق ، فالأوّل عذاب بردها ، والثاني عذاب بحرّها .

وقال الربيع بن أنس : إن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه ، فأحرقتهم ، وبه قال الكلبي .

ثم ذكر سبحانه ما أعدّ للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وظاهر الآية العموم ، فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أوّلياً ، والمعنى : أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي : لهم بسبب الإيمان ، والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة .

(170/810)

وقد تقدّم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار ، فجري الأنهار من تحتها واضح ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها ، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر ، وهو الشجر ؛ لأنها ساترة لساحتها ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه الله لهم أي : ذلك المذكور ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذي لا يعدله فوز ، ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز الظفر بالمطلوب ، وجملة : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ مستأنفة لخطاب النبيّ مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه أي : أخذه للجبابرة والظلمة شديد ، والبطش : الأخذ بعنف ، ووصفه

بالشدّة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم ، ومثل هذا قوله :

﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أي : يخلق الخلق أوّلاً في الدنيا ، ويعيدهم أحياء بعد الموت .

كذا قال الجمهور .

وقيل : يبدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا ، ثم يعيده لهم في الآخرة ، واختار هذا ابن جرير ، والأوّل أولى .

﴿ وَهُوَ الغفور الودود ﴾ أي : بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه .

قال مجاهد : الوادّ لأوليائه ، فهو فعول بمعنى فاعل .

وقال ابن زيد : معنى الودود الرحيم .

وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وأنشد :

وأركب في الروع عريانة . . . ذلول الجناح لقاحاً ودوداً

أي : لا ولد لها تحنّ إليه .

وقيل : الودود بمعنى المودود أي : يودّه عباده الصالحون ، ويحبونه ، كذا قال الأزهري .

قال : ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل ، أي : يكون محباً لهم .

قال : وكلتا الصفتين مدح ؛ لأنه جلّ ذكره إن أحبّ عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون ، فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه .

(171/810)

قرأ الجمهور : ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ الآية برفع المجيد على أنه نعت لذو ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم قالا : لأن المجد هو : النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك .

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بالجر على أنه نعت للعرش .

وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم ، كما في آخر سورة المؤمنون .

وقيل : هو نعت لربك ، ولا يضرّ الفصل بينهما ؛ لأنها صفات لله سبحانه .

وقال مكي : هو خبر بعد خبر ، والأوّل أولى .

ومعنى ﴿ ذو العرش ﴾ : ذو الملك والسلطان ، كما يقال : فلان على سرير ملكه ، ومنه قول الشاعر :

رأوا عرشي تثلم جانباه . . . فلما أن تثلم أفردوني

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم . . . بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل : المراد خالق العرش ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي : من الإبداء والإعادة .

قال عطاء : لا يعجز عن شيء يريده ، ولا يمتنع منه شيء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف .

قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ؛ لأنه نكرة محضة .

قال ابن جرير : رفع فعال ، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور الودود ، وإنما قال : فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة .

ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ والجملة مستأنفة مقرّرة لما تقدّم من شدّة بطشه سبحانه ، وكونه فعالاً لما يريده ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي : هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها .

ثم بيّنهم فقال : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ وهو بدل من الجنود ، والمراد بفرعون هو وقومه ، والمراد بثمود : القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد ، وما وقع عليهم من العذاب ، وقصتهم مشهورة قد تكرّر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب ، وعند مشركي العرب ، ودلّ بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه وسلم لمن تقدّم ذكره ، وبيّن أنهم أشدّ منهم في الكفر والتكذيب فقال : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ أي : بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب شديد لك ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار ﴿ واللهُ مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ أي : يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك ، والإحاطة بالشيء : الحصر له من جميع جوانبه ، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط .

ثم ردّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي : متناه في الشرف والكرم ، والبركة لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا ، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ أي : مكتوب في لوح ، وهو أمّ الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه .

قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح ، وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن ، أي : بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح .

واتفق القراء على فتح اللام من ﴿ لوح ﴾ إلا يحيى بن يعمر ، وابن السميفع ، فإنهما قرآ

بضمها .

قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قيل : والمراد باللوح بضم اللام : الهواء الذي فوق السماء السابعة .

قال أبو الفضل : اللوح بضم اللام : الهواء ، وكذا قال ابن خالويه .

قال في الصحاح : اللوح بالضم : الهواء بين السماء ، والأرض .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال ﴿ البروج ﴾ قصور في السماء .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن : ﴿ السماء ذَاتِ البروج ﴾ فقال : الكواكب ، وسئل عن قوله : ﴿ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ [الفرقان : 61] قال : " الكواكب " .

وعن قوله : ﴿ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : 78] قال : " القصور " .

(173/810)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ واليوم الموعود * وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمته ، وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام

عند الله ، وأحبّ الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه .

وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذه منه " وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي هريرة رفعه : ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : " الشاهد " يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود هو الموعود يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والمشهود يوم النحر ، والشاهد يوم الجمعة .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة " وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية : " الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة " وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ، وأبي هريرة مثله موقوفاً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سيد الأيام يوم الجمعة ، وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة " وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب .

وأخرج ابن ماجه ، والطبراني ، وابن جرير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة " وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب في الآية قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن الحسن بن علي أنّ رجلاً سأله عن قوله : ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : هل سألت أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت ابن عمر ، وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ، ويوم الجمعة .

قال : لا ، ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قرأ : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] والمشهود : يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

[هود : 103] .

أخرج عبد بن حميد ، والطبراني في الأوسط ، والصغير ، وابن مردويه عن الحسين بن عليّ في الآية قال : الشاهد جدّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا : ﴿ إِنَّا أرسلناك شَاهِداً ﴾ [الأحزاب : 45] ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن أبي الدنيا ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وذلك يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

وأخرج ابن جرير عنه قال : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الشاهد الله .

(175/810)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة .

قلت : وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى ، وكذلك

اختلفت تفاسير التابعين بعدهم ، واستدلّ من استدلّ منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلاً على أنه المراد بالشاهد ، والمشهود في هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد ، والمشهود المذكورين في هذا المقام هو : ذلك الشاهد ، والمشهود الذي ذكر في آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا : ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز ، أو السنة المطهرة أنه يشهد ، أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل بذلك .

(176/810)

فإن قلت : هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة ، وحديث أبي مالك ، وحديث جبير بن مطعم ، ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود ؟ قلت : أما اليوم الموعود ، فلم تختلف هذه الروايات التي ذكر فيها ، بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأوّل أنه يوم الجمعة ، وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وفي حديث أبي مالك أنه يوم الجمعة ، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة ، وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة ، فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضرّ

زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني ؛ وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأوّل أنه يوم عرفة ، وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة ، وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة ، وفي حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة ، وكذا في حديث سعيد ، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة ، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود ، فقد قدّمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

(177/810)

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والطبراني عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم ، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن : انظروا لي غلاماً فهماً أو قال فطناً لقناً ، فأعلمه علمي ، فإني أخاف أن أموت ، فينقطع منكم هذا العلم ، ولا يكون فيكم من يعلمه ، قال : فنظروا له على ما وصف ، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن ، وأن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه ، وكان على طريق الغلام راهب في

صومعة ، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره ، فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ، ويبطىء على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا قال لك أين كنت ؟ فقل عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك أين كنت ؟ فأخبرهم أني كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة ، يقال إنها كانت أسداً ، فأخذ الغلام حجراً فقال : اللّهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً ، فأسألك أن أقتل هذه الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقاً ، فأسألك أن لا أقتلها ، ثم رمى فقتل الدابة ، فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا الغلام ، ففزع الناس ، وقالوا : قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى ، فجاءه ، فقال له : إن أنت رددت عليّ بصري ، فلك كذا ، وكذا ، فقال الغلام : لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي ردّه عليك ؟ قال نعم ، فدعا الله ، فردّ عليه بصره ، فآمن الأعمى ، فبلغ الملك أمرهم ، فبعث إليهم ، فأتى بهم ، فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى ، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله ، وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام ، فقال

: انطلقوا به إلى جبل كذا ، وكذا ، فألقوه من رأسه ، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ، ويتردّون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام ، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر ، فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرّق الله الذين كانوا معه ، وأنجاه ، فقال الغلام للملك : إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني ، وتقول إذا رميتني : بسم الله ربّ الغلام ، فأمر به فصلب ، ثم رماه ، وقال : بسم الله ربّ الغلام ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ، ثم مات ، فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد ، فإنا نؤمن بربّ هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال : فخدّ أخدوداً ، ثم ألقي فيه الحطب والنار ، ثم جمع الناس ، فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود ، فقال : يقول الله : ﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدود * النار ذَاتِ الوقود ﴾ - حتى بلغ - ﴿ العزيز الحميد ﴾ .

فأما الغلام ، فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب ، وأصبعه على صدغه ، كما وضعها حين قتل "

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف .

وقد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن

عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب .

وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به .

وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به .

وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان ، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ قال : هم الحبشة .

(179/810)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم ناس من بني إسرائيل خدّوا أخدوداً في الأرض أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء ، فعرضوا عليها .

وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ إلى قوله : ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : هذا قسم على ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ إلى آخرها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ قال : يبديء العذاب

، ويعيده .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الأسماء ، والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ الودود ﴾ قال : الحبيب ، وفي قوله : ﴿ ذُو العرش المجيد ﴾ قال : الكريم .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قال : أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر ، وإن ذلك اللوح من نور ، وإنه مسيرة ثلثمائة سنة .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ في جبهة إسرافيل .

وأخرج أبو الشيخ ، قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق : اكتب علمي في خلقي ، فجرى ما هو كائن إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 410. 417 ﴾

(180/810)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) ﴾

جملة : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ علة لمضمون قوله : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ إلى

قوله : ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج : 10] ، أي لأن بطش الله شديد على الذين فتنوا الذين آمنوا به .

فموقع ﴿ إنَّ ﴾ في التعليل يغني عن فاء التسبب .

وبطش الله يشمل تعذيبه إياهم في جهنم ويشمل ما قبله مما يقع في الآخرة وما يقع في الدنيا قال تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] ووجه الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم لأن بطش الله بالذين فتنوا المؤمنين فيه نصر للنبيء صلى الله عليه وسلم وتثبيت له .

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13)

تصلح لأن تكون استئنافاً ابتدائياً انتُقل به من وعيدهم بعذاب الآخرة إلى توعدهم بعذاب في الدنيا يكون من بطش الله ، أردف به وعيد عذاب الآخرة لأنه أوقع في قلوب المشركين إذ هم يحسبون أنهم في أمن من العقاب إذ هم لا يصدقون بالبعث فحسبوا أنهم فازوا بطيب الحياة الدنيا .

والمعنى : أن الله يبطش بهم في البَدْء والعَوْد ، أي في الدنيا والآخرة .

وتَصلح لأن تكون تعليلاً لجملة : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] لأن الذي يُبدِىء ويعيد قادر على إيقاع البطش الشديد في الدنيا وهو الإِبداء ، وفي الآخرة وهو إعادة البطش .

وتصلح لأن تكون إدماجاً للاستدلال على إمكان البعث أي أن الله يُبدِىء الخلقَ ثم يعيده فيكون كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27].

والبطش : الأخذ بعنف وشدة ويستعار للعقاب المؤلم الشديد كما هنا .

و﴿ يبُدىء ﴾ : مرادف يَبْدَأ ، يقال : بَدَأ وأَبْدَأ .

فليست همزة أبدأ للتعدية .

(181/810)

وحُذف مفعولا الفعلين لقصد عموم تعلق الفعلين بكل ما يقع ابتداءً ، ويعادُ بعد ذلك فشمل بَدأ الخلق وإعادتَه وهو البعث ، وشمَل البطشَ الأول في الدنيا والبطش في الآخرة ، وشمل إيجاد الأجيال وأخلافها بعد هلاك أوائلها .

وفي هذه الاعتبارات من التهديد للمشركين محامل كثيرة .

وضمير الفصل في قوله : ﴿ هو يبدىء ﴾ للتقوِّي ، أي لتحقيق الخبر ولا موقع للقصر هنا .

إذ ليس في المقام ردّ على من يدّعي أن غير الله يبدىء ويعيد .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ في سورة البقرة (5) أن ضمير

الفصل يليه الفعل المضارع على قول المازني ، وهو التحقيق .

ودليلُه قوله : ﴿ ومكر أولئك هو يبور ﴾ وقد تقدم في سورة فاطر (10) .

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14)

جملة معطوفة على جملة : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] .

ومضمونها قسيم لمضمون ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ لأنه لما أفيد تعليل مضمون جملة : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ [البروج : 10] إلى آخره ، ناسب أن يقابَل بتعليل مضمون جملة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ﴾ [البروج : 11] إلى آخره ، فعلِّل بقوله : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ ، فهو يغفر للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ما فَرَط منهم وهو يحب التّوابين ويَوَدُّهم .

و ﴿ الودود ﴾ : فَعول بمعنى فاعل مشتق من الودّ وهو المحبة فمعنى الودود : المحبّ وهو من أسمائه تعالى ، أي إنه يحب مخلوقاته ما لم يحيدوا عن وصايته .

والمحبة التي يوصف الله بها مستعملة في لازم المحبة في اللغة تقريباً للمعنى المتعالي عن الكيف وهو من معنى الرحمة ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ في آخر سورة هود (90) .

ولما ذَكَر الله من صفاته ما تعلُّقه بمخلوقاته بحسب ما يستأهلونه من جزاءٍ أعْقب ذلك بصفاته الذاتية على وجه الاستطراد والتكملة بقوله : ذو العرش المجيد ﴾ تنبيهاً للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله كما يعبدونه لاتقاء عقابه ورجاء نواله .

و﴿ العرش ﴾ : اسم لعالَم يحيط بجميع السماوات ، سمي عرشاً لأنه دال على عظمة الله تعالى كما يدل العَرش على أن صاحبه من الملوك .

و﴿ المجيد ﴾ : العظيم القويُّ في نوعه ، ومن أمثالهم : "في كل شجر نارٌ ، واستَمْجَد المرْخُ والعَفَار" وهما شجران يكثر قدح النار من زندهما .

وقرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر رابع عن ضمير الجلالة .

وقرأه حمزة والكسائي وخَلف بالجر نعتاً للعرش فوصف العرش بالمجد كناية عن مجد صاحب العرش .

ثم ذَيل ذلك بصفة جامعة لعظمته الذاتية وعظمة نعمه بقوله : ﴿ فعال لما يريد ﴾ أي إذا تعلقت إرادته بفعل ، فَعَله على أكمل ما تعلقت به إرادته لا ينقصه شيءٌ ولا يُبطىء به ما أراد تعجيله .

فصيغة المبالغة في قوله : ﴿ فعال ﴾ للدلالة على الكثرة في الكمية والكيفية .

والإِرادة هنا هي المعرَّفة عندنا بأنها صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه وهي غير

الإرادة بمعنى المحبة مثل ﴿ يريد اللَّه بكم اليسر ﴾ [البقرة : 185] .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)

متصل بقوله : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] فالخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم للاستدلال على كون بطشه تعالى شديداً ببطشَيْنِ بَطَشَهُما بفرعون وثمود بعد أن علل ذلك بقوله : ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ [البروج : 13] فذلك تعليل ، وهذا تمثيل ودليل .

والاستفهام مستعمل في إرادة لتهويل حديث الجنود بأنه يسأل عن علمه ، وفيه تعريض للمشركين بأنهم قد يحلّ بهم ما حَلّ بأولئك : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودا فما أبقى ﴾ إلى قوله : ﴿ فبأي ءآلاء ربك تتمارى ﴾ [النجم : 50 55] .

(183/810)

والخطاب لغير معين ممن يراد موعظته من المشركين كناية عن التذكير بخبرهم لأن حال المتلبسين بمثل صنيعهم الراكبين رؤوسهم في العناد ، كحال من لا يعلم خبرهم فيُسْأل هل بلغه خبرهم أوْ لا ، أو خطاباً لغير معيّن تعجيباً من حال المشركين في إعراضهم عن الاتعاظ بذلك فيكون الاستفهام مستعملاً في التعجيب .

والإِتيان : مستعار لبلوغ الخبر ، والحديث : الخبرُ .

وتقدم في سورة النازعات .

و﴿ الجنود ﴾ : جمع جند وهو العسكر المتجمع للقتال .

وأطلق على الأمم التي تجمعت لمقاومة الرسل كقوله تعالى : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ [ص : 11] واستعير الجند للملأ لقوله : ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ [ص : 6] ثم رشحت الاستعارة باستعارة مهزوم وهو المغلوب في الحرب فاستعير للمهلك المستأصل من دون حرب .

وأُبدل فرعونَ وثمودَ من الجنود بدلاً مطابقاً لأنه أريد العبرة بهؤلاء .

و﴿ فرعون ﴾ : اسم لملك مصر من القِبط وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ﴾ في سورة الأعراف (103) .

والكلام على حذف مضاف لأن فرعون ليس بجند ولكنه مضاف إليه الجند الذين كذبوا موسى عليه السلام وآذوه .

فحذف المضاف لنكتة المزاوجة بين اسمين علمين مفردين في الإبدال من الجنود .

وضُرب المثل بفرعون لأبي جهل وقد كان يلقّب عند المسلمين بفرعون هذه الأمة ، وضرب المثل للمشركين بقوم فرعون لأنهم أكبر أمة تألبت على رسول من رسل الله بعثه الله لإعتاق بني إسرائيل من ذل العبودية لفرعون ، وناووه لأنه دعا إلى عبادة الرب الحق فغاظ

ذلك فرعون الزاعم أنه إله القبط وابن آلهتهم .

وتخصيص ثمودَ بالذكر من بقية الأمم التي كذَّبت الرسل من العرب مثل عاد وقوم تبّع ، ومن غيرهم مثل قوم نوح وقوم شعيب .

(184/810)

لما اقتضته الفاصلة السابعة الجارية على حرف الدال من قوله : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ [البروج : 12] فإن ذلك لما استقامت به الفاصلة ولم يكن في ذكره تكلف كان من محاسن نظم الكلام إيثارُه .

وتقدم ذكر ثمود عند قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ في سورة الأعراف (73) .

وهو اسم عربي ولكن يُطلق على القبيلة التي ينتهي نسبها إليه فيمنع من الصرف بتأويل القبيلة كما هنا .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)

إضراب انتقالي إلى إعراضهم عن الاعتبار بحال الأمم الذين كذبوا الرسل وهو أنهم مستمرون على التكذيب منغمسون فيه انغماسَ المظروف في الظرف فجعل تمكن

التكذيب من نفوسهم كتمكن الظرف بالمظروف .

وفيه إشارة إلى أن إحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بالمظروف لا يترك لتذكر ما حل بأمثالهم من الأمم مسلكاً لعقولهم ولهذا لم يقل بل الذين كفروا يكذبون كما قال في سورة الانشقاق .

وحُذف متعلّق التكذيب لظهوره من المقام إذ التقدير : أنهم في تكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالوحي المُنْزل إليه وبالبعث .

وجملة : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ عطف على جملة : ﴿ الذين كفروا في تكذيب ﴾ ، أي هم متمكنون من التكذيب والله يسلط عليهم عقاباً لا يفلتون منه .

فقوله : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ تمثيل لحال انتظار العذاب إياهم وهم في غفلة عنه بحال من أحاط به العدوّ من ورائه وهو لا يعلم حتى إذا رام الفرار والإفلات وجد العدوّ محيطاً به ، وليس المراد هنا إحاطة علمه تعالى بتكذيبهم إذ ليس له كبير جَدوى .

وقد قُوبل جزاء إحاطة التكذيب بهم بإحاطة العذاب بهم جزاء وفاقاً فقوله : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ خبر مستعمل في الوعيد والتهديد .

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21)

إضرابُ إبطالٍ لتكذيبهم لأن القرآن جاءهم بدلائل بيّنة فاستمرارهم على التكذيب ناشىء عن سوء اعتقادهم صدقَ القرآن إذ وصفوه بصفات النقص من قولهم : أساطير الأولين ، إفْك مفترىً ، قول كاهن ، قول شاعر ، فكان التنويه به جامعاً لإِبطال جميع ترهاتهم على طريقة الإِيجاز .

و﴿ قرآن ﴾ : مصدر قرأ على وزن فُعلان الدال على كثرة المعنى مثل الشكران والقربان .

وهو من القراءة وهي تلاوة كلام صدر في زمن سابق لوقت تلاوة تاليه بمثل ما تكلم به متكلمه سواء كان مكتوباً في صحيفة أم كان ملقَّناً لتاليه بحيث لا يخالف أصله ولو كان أصله كلام تاليه ولذلك لا يقال لنقل كلام أنه قراءة إلا إذا كان كلاماً مكتوباً أو محفوظاً .

وكلما جاء ﴿ قرآن ﴾ منكراً فهو مصدر وأما اسم كتاب الإِسلام فهو بالتعريف باللام لأنه عَلَم بالغلبة .

فالإِخبار عن الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم باسم قرآن إشارة عرفية إلى أنه موحى به تعريض بإبطال ما اختلقه المكذبون : أنه أساطير الأولين أو قول كاهن أو نحو ذلك .

ووُصف ﴿ قرآن ﴾ صفة أخرى بأنه مُودع في لوح .

واللوح : قطعة من خشب مستوية تتخذ ليُكتب فيها .

وسَوْق وصف ﴿ في لوح ﴾ مساق التنويه بالقرآن وباللوح ، يعيِّن أن اللوح كائن قُدُسي من كائنات العالم العلوي المغيَّبات ، وليس في الآية أكثر من أن اللوح أودع فيه القرآن ، فجعل الله القرآن مكتوباً في لوح علويّ كما جعَل التوراة مكتوبة في ألواح وأعطاها موسى عليه السلام فقال : ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء ﴾ [الأعراف : 145] وقال : ﴿ وألقى الألواح ﴾ [الأعراف : 150] وقال : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ﴾ [الأعراف : 154] ، وأما لوح القرآن فجعله محفوظاً في العالم العلوي .

(186/810)

وبعض علماء الكلام فسّروا اللَّوح بموجود سجلت فيه جميع المخلوقات مجتمعة ومجملة ، وسموا ذلك بالكتاب المبين ، وسموا تسجيل المخلوقات فيه بالقضاء ، وسموا ظهورها في الوجود بالقدَر ، وعلى ذلك درج الأصفهاني في "شرحه على الطوالع" حسبما نقله المنجور في "شرح نظم ابن زكري" مسوقاً في قسم العقائد السمعية وفيه نظر .

وورد في آثار مختلفةِ القوة أنه موكل به إسرافيل وأنه كائن عن يمين العرش .

واقتضت هذه الآية أن القرآن كله مسجل فيه .

وجاء في آية سورة الواقعة : ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ [الواقعة : 77 ، 78]

وهو ظاهر في أن اللوح المحفوظ ، والكتاب المكنون شيء واحد .

وأما المحفوظ والمكنون فبينهما تغاير في المفهوم وعموم وخصوص وجهيّ في الوقوع ،

فالمحفوظ : المصون عن كل ما يثلمه وينقصه ولا يليق به وذلك كمال له .

والمكنون : الذي لا يباح تناوله لكل أحد وذلك للخشية عليه لنفاسته ولم يثبت حديث صحيح في ذكر اللوح ولا في خصائصه وكل ما هنالك أقوال معزوّة لبعض السلف لا تعرف أسانيد عَزوها .

وورد أن القلم أول ما خلق الله فقال له : أكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد ، رواه الترمذي من حديث عبادة بن الصامت وقال الترمذي : حسن غريب ، وفيه عن ابن عباس أ هـ .

وخَلق القلم لا يدل على خلق اللوح لأن القلم يكتب في اللوح وفي غيره .

والمجيد : العظيم في نوعه كما تقدم في قوله : ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ [البروج : 15]

ومجد القرآن لأنه أعظم الكتب السماوية وأكثرها معاني وهدياً ووعظاً ، ويزيد عليها ببلاغته وفصاحته وإعجازه البشر عن معارضته .

ووقع في "التعريفات" للسيد الجرجاني : أن الألواح أربعة:

أولها : لَوح القضاء السابق على المحو والإثبات وهو لوح العقل الأول .

الثاني : لوح القدر أي النفس الناطقة الكلية وهو المسمى اللوح المحفوظ .

الثالث : لوح النفس الجزئية السماوية التي ينتقش فيها كل ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره وهو المسمى بالسماء الدنيا .

الرابع : لَوح الهيولى القابل للصورة في عالم الشهادة أ هـ .

وهذا اصطلاح مخلوط بين التصوف والفلسفة .

ولعله مما استقراه السيّد من كلام عدة علماء .

وقرأ الجمهور : ﴿ محفوظ ﴾ بالجر على أنه صفة ﴿ لوح ﴾ .

وحفظ اللوح الذي فيه القرآن كناية عن حفظ القرآن .

وقرأه نافع وحده برفع ﴿ محفوظ ﴾ على أنه صفة ثانية لقرآن ويتعلق قوله : ﴿ في لوح ﴾ بـ ﴿ محفوظ ﴾ .

وحفظ القرآن يستلزم أن اللوح المودع هو فيه محفوظ أيضاً ، فلا جرم حصل من القراءتين ثبوت الحفظ للقرآن وللوح .

فأما حفظ القرآن فهو حفظه من التغيير ومن تلقف الشياطين قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

وأما حفظ اللوح فهو حفظه عن تناول غير الملائكة إياه .

أو حفظه كناية عن تقديسه كقوله تعالى : ﴿ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ [الواقعة : 78 ، 79] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(188/810)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : البروج قصور في السماء .

وأخرج ابن المنذر عن الأعمش قال : كان أصحاب عبد الله يقولون في قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ ذات القصور .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح في قوله : ﴿ ذات البروج ﴾ قال : النجوم العظام .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ فقال : الكواكب ، وسئل عن ﴿ الذي جعل في السماء بروجاً

﴿ فقال : الكواكب . قيل : فبروج مشيدة فقال : قصور " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ قال : بروجها نجومها ﴿ واليوم الموعود ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : يومان عظيمان عظمهما الله من أيام الدنيا كنا نحدث أن الشاهد يوم القيامة والمشهود يوم عرفة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ قال : حبكت بالخلق الحسن ، ثم حبكت بالنجوم ﴿ واليوم الموعود ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ قال : ذات النجوم ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قول الله : ﴿ واليوم الموعود وشاهد ومشهود ﴾ قال : اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمته ، وفضّلهم بها على الخلق أجمعين ، وهو سيد الأيام عند الله ، وأحب الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد قائم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن أبي الدنيا في الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ، ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ بشيء إلا أعاذه الله منه " .

وأخرج الحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي هريرة رفعه ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود هو الموعود يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة دخره الله لنا ، والصلاة الوسطى صلاة العصر " .

وأخرج سعيد بن منصور عن شريح بن عبيد مرسلاً .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : " الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبي هريرة موقوفاً مثله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وعبد بن حميد وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سيد الأيام يوم الجمعة ، وهو الشاهد والمشهود يوم عرفة " .

وأخرج ابن جرير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة .

(190/810)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علي أن رجلاً سأله عن قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : هل سألت أحداً قبلي ؟ قال : نعم ، سألت ابن عمرو وابن الزبير فقالا : يوم الريح ويوم الجمعة ، فقال : لا ، ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قرأ ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ﴾ [الأحزاب : 45] ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ [النحل : 89] والمشهود يوم القيامة ثم قرأ ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ [هود : 103

] ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : 103] .

وأخرج الطبراني في الأوسط وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن ابن عباس ﴿ واليوم الموعود ﴾ يوم القيامة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد محمد والمشهود يوم القيامة ، وتلا ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ [هود : 103] ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : 103] .

وأخرج ابن جرير من طريق علي عن ابن عباس قال : الشاهد الله والمشهود يوم القيامة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : الشاهد الذي يشهد على الإِنسان بعمله والمشهود يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجي عن عليّ بن أبي طالب قال : كان نبي أصحاب الأخدود حبشياً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الحسن عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ قال : هم الحبشة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قال : كانوا من النبط .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قال : هم ناس من بني إسرائيل خددوا أخدوداً في الأرض ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود

رجالاً ونساء فعرضوا عليها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال : الأخدود شق بنجران كانوا يعذبون الناس فيه .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن نفير قال : كانت الأخدود زمان تبع .

(191/810)

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قال : هم قوم خددوا في الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ثم جاؤوا بأهل الإِسلام فقالوا : اكفروا بالله واتبعوا ديننا ، وإلا ألقيناكم في هذه النار ، فاختاروا النار على الكفر فألقوا فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قال : حدثنا أن علي بن أبي طالب كان يقول : هم أناس بمدارع اليمن اقتتل مؤمنوهم وكفارهم فظهر مؤمنوهم على كفارهم ، ثم أخذ بعضهم على بعض عهوداً ومواثيق لا يغدر بعضهم ببعض ، فغدرهم الكفار فأخذوهم ، ثم إن رجلاً من المؤمنين قال : هل لكم إلى خير ، توقدون ناراً ثم تعرضوننا عليه فمن بايعكم على دينكم ، فذلك الذي تشتهون ، ومن لا اقتحم فاسترحتم منه ، فأججوا لهم ناراً وعرضوهم عليها ، فجعلوا يقتحمونها حتى

بقيت عجوز فكأنها تلكأت ، فقال طفل في حجرها : امضي ولا تقاعسي ، فقص الله عليكم نبأهم وحديثهم فقال : ﴿ النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود ﴾ قال : يعني بذلك المؤمنين ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ يعني بذلك الكفار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ قال : حرقوا .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ قال : عذبوا .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : كان بعض الجبابرة خد أخدوداً في الأرض ، وجعل فيها النيران ، وعرض المؤمنين على ذلك فمن تابعه على كفره خلى عنه ، ومن أبى ألقاه في النار ، فجعل يلقي حتى أتى على امرأة ومعها بني لها صغير ، فكأنها أنفت النار فكلمها الصبيّ فقال : يا أمه قعي في النار ولا تقاعسي ، فألقيت في النار ، والله ما كانت إلا نقطة من نار حتى أفضوا إلى رحمة الله تعالى . قال : الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فما ذكرت أصحاب الأخدود إلا تعوذت بالله من جهد البلاء " .

(192/810)

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن نجي قال : شهدت علياً وأتاه أسقف نجران فسأله عن أصحاب الأخدود ، فقص عليه القصة ، فقال عليّ : أنا أعلم بهم منك بعث نبي من الحبشة إلى قومه ثم قرأ علي ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ [غافر : 78] فدعاهم فتابعه الناس فقاتلهم فقتل أصحابه ، وأخذ فأوثق ، فانفلت فأنس إليه رجال ، يقول : اجتمع إليه رجال فقاتلهم فقتلوا وأخذ فأوثق فخدوا أخدوداً في الأرض وجعلوا فيه النيران ، فجعلوا يعرضون الناس فمن تبع النبي رمي به فيها ، ومن تابعهم ترك ، وجاءت امرأة في آخر من جاء معها صبي لها ، فجزعت ، فقال الصبي : يا أمه اطمري ولا تماري فوقعت .

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة بن كهيل قال : ذكروا أصحاب الأخدود عند عليّ فقال : أما إن فيكم مثلهم فلا تكونن أعجز من قوم .

(193/810)

وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب قال : كان المجوس أهل كتاب ، وكانوا مستمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم ، فتناول منها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله ، فتناول أخته أو ابنته فوقع عليها ، فلما ذهب عنه السكر ندم ، وقال لها :

ويحك ما هذا الذي أتيت ؟ وما المخرج منه ؟ قالت : المخرج منه أن تخطب الناس فتقول أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات والبنات ، فإذا ذهب ذا في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمته ، فقام خطيباً فقال : يا أيها الناس إن الله أحل لكم نكاح الأخوات أو البنات ، فقال الناس جماعتهم : معاذ الله أن نؤمن بهذا أو نقر به ، أو جاءنا به نبي ، أو نزل علينا في كتاب ، فرجع إلى صاحبته فقال : ويحك إن الناس قد أبوا عليّ ذلك . قالت : إذا أبوا عليك ذلك فابسط فيهم السوط ، فبسط فيهم السوط ، فأبوا أن يقروا ، فرجع إليها فقال : قد بسطت فيهم السوط فأبوا أن يقروا . قالت : فجرد فيهم السيف ، فجرد فيهم السيف ، فأبوا أن يقروا . قالت : خدّ لهم الأخدود ، ثم أوقد فيه النيران فمن تابعك فخلّ عنه . فخدَّ لهم أخدوداً وأوقد فيه النيران ، وعرض أهل مملكته على ذلك ، فمن أبى قذفه في النار ، ومن لم يأب خلّى عنه ، فأنزل الله فيهم ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ إلى قوله : ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة عن عوف قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء .

(194/810)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم والنسائي والترمذي عن صهيب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى العصر همس ، فقيل له : إنك يا رسول الله إذا صليت العصر همست ، فقال : " إن نبياً من الأنبياء كان أعجب بأمته ، فقال : من يقوم لهؤلاء فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن ينتقم منهم ، وبين أن يسلط عليهم عدوهم ، فاختاروا النقمة ، فسلط عليهم الموت فمات منهم في يوم سبعون ألفاً قال : وكان إذا حدث بهذا الحديث الآخر قال : كان ملك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له ، فقال له ذلك الكاهن : انظروا إلى غلاماً فهماً أو قال : فطناً لقناً فأعلمه علمي هذا ، فإني أخاف أن أموت فينقطع هذا العلم منكم ، ولا يكون فيكم من يعلمه قال : فنظروا له على ما وصف ، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن ، وإن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه ، وكان على طريق الغلام راهب في صومعته ، فجعل الغلام يسأل الراهب كلما مر به ، فلم يزل به حتى أخبره ، فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند الراهب ويبطيء على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا قال لك : أين كنت ؟ فقل : عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك : أين كنت ؟ فقل : عند الكاهن . فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثيرة قد حبستهم دابة يقال كانت أسداً ، فأخذ الغلام حجراً فقال : اللهم إن كان ما يقول الراهب حقاً فأسألك أن أقتل هذه الدابة ، وإن كان ما يقوله الكاهن حقاً فأسألك أن لا أقتلها ، ثم

رمى فقتل الدابة فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا : الغلام . ففزع الناس وقالوا : قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه ، فقال له : إن أنت رددت بصري فلك كذا وكذا ، فقال الغلام : لا أريد منك هذا ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك ؟ قال : نعم ، فدعا الله فرد عليه بصره فآمن

(195/810)

الأعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم ، فأتى بهم فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه . فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلق به إلى البحر ، فغرق الله الذين كانوا معه ، وأنجاه الله . فقال الغلام للملك : إنك لا تقتلني إلا أن تصلبني وترميني وتقول : بسم الله رب الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ، فوضع الغلام يده على صدغه حين رمي ثم مات . فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد فإنا نؤمن برب

هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك ؟ قال : فخدّ أخدوداً ثم ألقى فيها الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار . فجعل يلقيهم في تلك الأخدود فقال : يقول الله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ﴾ حتى بلغ ﴿ العزيز الحميد ﴾ فأما الغلام فإنه دفن ثم أخرج"

، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب واصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل .

(196/810)

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كان ملك ممن كان قبلكم ، وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبرت سني وحضر أجلي فادفع إليّ غلاماً أعلمه السحر . فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر . وكان بين الساحر وبين الملك راهب فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، فكان إذا أتى على الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ فإذا أتى أهله جلس عند الراهب فيبطىء فإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل :

حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى ذات يوم على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال الغلام : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر . فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى لك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، حتى يجوز الناس . فرماها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أي بني أنت أفضل مني وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ . وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس الملك قد عمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال له : اشفني ولك ما ههنا أجمع ، فقال : ما أشفي أنا أحداً إنما يشفي الله ، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا له فشفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من رد عليك بصرك ؟ قال : ربي ، قال : أنا . قال : لا . قال : أو لك رب غيري ؟ قال : نعم . فلم يزل به يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه الملك فقال : أي بني قد بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفي أنا أحداً ما يشفي غير الله . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : وإن لك رباً غيري ؟ قال : نعم ربي وربك الله . فأخذه أيضاً بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على

الراهب . فقال له : ارجع عن دينك ، فأبى فوضع المنشار في مفرقه حتى وقع شقاه على الأرض ، وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه من فوقه ، فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فتدهدهوا أجمعين . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . فبعث به في قرقور مع نفر فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه . فلجوا به البحر فقال الغلام : اللهم أكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعين . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك . فقال : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني وإلا فإنك لن تستطيع قتلي . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد ، ثم تصلبني على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، ثم قل بسم الله رب الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثم رماه ، وقال : بسم الله رب الغلام . فوقع السهم في صدغه . فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات . فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر فقد والله نزل بك هذا من الناس كلهم فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخدود ، وأضرمت فيها النيران وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فاقحموه فيها . فكانوا يتقارعون فيها ويتدافعون ، فجاءت

امرأة بابن لها صغير فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي : يا أمه اصبري فإنك على الحق " .

(198/810)

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) ﴾

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : قسم ﴿ والسماء ذت البروج ﴾ إلى قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : هذا قسم على أن بطش ربك لشديد إلى آخرها .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ قال : ههنا القسم ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ قال : يبدىء الخلق ثم يعيده ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ قال : يود على طاعته من أطاعه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ قال : يبدىء العذاب ويعيده .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسين بن واقد في قوله : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ قال : الغفور للمؤمنين الودود لأوليائه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ الودود ﴾ قال : الحبيب ، وفي قوله : ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ قال : الكريم .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في القرآن في قوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ في جبهة اسرافيل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ في لوح محفوظ ﴾ قال : في أم الكتاب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ في لوح محفوظ ﴾ قال : أخبرت أن لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر ، وإن ذلك اللوح من نور ، وإنه مسيرة ثلاثمائة سنة .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ محفوظ ﴾ قال : محفوظ عند الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ في لوح محفوظ ﴾ قال : في صدور المؤمنين .

(199/810)

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن بريدة ﴿ في لوح محفوظ ﴾ قال : لوح عند الله وهو أم الكتاب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة بسند جيد عن ابن عباس قال : خلق الله اللوح المحفوظ

كمسيرة مائة عام ، فقال للقلم : قبل أن يخلق اكتب علمي في خلقي ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه من طريق حلال القسلي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله لوحاً من زبرجدة خضراء جعله تحت العرش ، وكتب فيه : إني أنا الله لا إله إلا أنا خلقت ثلاثمائة وبضعة عشر خلقاً ، من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة " .

وأخرج عبد بن حميد في مسنده وأبو يعلى بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن بين يدي الرحمن تبارك وتعالى لوحاً فيه ثلاثمائة وخمس عشرة شريعة ، يقول الرحمن : وعزتي وجلالي لا يجيئني عبد من عبادي لا يشرك بي شيئاً فيه واحدة منكن إلا أدخلته الجنة " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله لوحاً أحد وجهيه ياقوتة والوجه الثاني زبرجدة خضراء ، قلمه النور ، فيه يخلق وفيه يرزق ، وفيه يحيي وفيه يميت ، وفيه يعز ، وفيه يفعل ما يشاء في كل يوم وليلة " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله لوحاً من درة بيضاء ، دفتاه من زبرجدة خضراء ، كتابه من نور ، يلحظ إليه في

كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة يحيي ويميت ويخلق ويعز ويذل ويفعل ما يشاء " . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الدر المنثور حـ 8 صـ 461.472﴾

(200/810)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾

يعني : ذات النجوم والكواكب .

ويقال : ذات القصور .

وقال عطية العوفي : كان القصور في السماء على أبوابه .

قال قتادة : البروج النجوم ، وكذلك قال مجاهد : أقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج ، وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] ثم قال : ﴿ واليوم الموعود ﴾ يعني : يوم القيامة .

قال مقاتل ﴿ اليوم الموعود ﴾ الذي وعدهم أن يصيرهم إليه ، وقال الكلبي : وعد أهل السماء وأهل الأرض ، أن يصيروا إلى ذلك اليوم .

﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ ذكر مقاتل ، عن علي رضي الله عنه قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم النحر يوم الحج الأكبر .

وروي عن ابن عباس ، أنه قال : الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] والمشهود يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

وروى جويبر ، عن الضحاك مثله .

وروى أبو صالح ، عن ابن عباس قال : " الشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةِ " .

وروى سعيد بن المسيب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سَيِّدُ الأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، وَهُوَ شَاهِدٌ وَمَشْهُودٌ يَوْمَ عَرَفَةِ " .

وروى جابر بن عبد الله قال : " الشَّاهِدُ يَوْمَ الْجُمْعَةِ ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمَ عَرَفَةِ " .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس قال : الشاهد ابن آدم ، والمشهود يوم القيامة ، وقال عكرمة مثله .

وقال بعضهم : الشاهد آدم ، والمشهود ذريته .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُتِلَ أصحاب الاخدود ﴾ يعني : لعن أصحاب الأخدود ﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾ يعني : يصيرون إلى النار ، ذات الوقود في الآخرة : وقال الكلبي : النار ارتفعت فوقهم أربعين ذراعاً ، فوقعت عليهم وأحرقتهم وقتلتهم ، وذلك قوله : ﴿ قُتِلَ أصحاب الاخدود النار ذَاتِ الوقود ﴾ قال : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا علي بن أحمد قال حدثنا محمد بن الفضل ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الأخدود ، فقال : كان ملكاً من الملوك ، كان له ساحر فكبر الساحر ، فقال للملك : إني قد كبرت ، فلو نظرت غلاماً في أهلك فطناً كيساً ، فعلمته على هذا فنظر إلى غلام من أهله كيس فطن ، فأمره أن يأتيه ويلزمه ، وكان بين منزل الغلام ومنزل الساحر راهب ، فقال الغلام : لو دخلت على هذا الراهب ، وسمعت من كلامه فدخل عليه فأعجبه قوله ، وكان أهله إذا بعثوه إلى الساحر ، دخل الغلام على الراهب ، واحتبس عنده .

فإذا أتى الساحر ، ضربه وقال : ما حبسك ؟ فإذا رجع من عند الساحر إلى أهله ، دخل على الراهب فاحتبس عنده .

فإذا أتى أهله ضربوه ، وقالوا ما حبسك ؟ فشكى ذلك إلى الراهب ، فقال له الراهب :

إذا قالوا لك ما حبسك فقل : حبسني الساحر ، وإذا قال لك الساحر : ما حبسك فقل : حبسني أهلي ، فبينما هو ذات يوم يريد الساحر ، إذا هو بدابة هائلة ، يعني : كبيرة قد قطعت الطريق على الناس .

فقال : اليوم يتبين لي أمر الراهب ، فأخذ حجراً ودنا من الدابة ، فقال : اللهم إن كان أمر الراهب حقاً ، فاقتل هذه الدابة ، ورماها بالحجر ، فأصاب مقتلها ، فقتلها .

فقال الناس : إن هذا الغلام قتل هذه الدابة ، واشتهر أمره .

(202/810)

فأتى الراهب ، فأخبره ، فقال : يا بني ، أنت خير مني ، فلعلك أن تبتلى لا تدلن عليَّ ، فبلغ أمر الغلام أنه كان يبرىء الأكمه ، والأبرص ، ويداوي من الأرض ، فعمي جليس الملك ، فذكر له الغلام فأتاه فقال : يا بني ، قد بلغ من سحرك أنك تبرىء الأكمه والأبرص ، فقال الغلام : ما أنا بساحر ، ولا أشفي أحداً ، ولا يشفي إلا ربي .

فقال له الرجل : "هذا الملك ربك ، قال : لا ولكن ربي ورب الملك الله تعالى ، فإن آمنت بالله تعالى به ، دعوت الله تعالى فشفاك .

فأسلم فدعا الله تعالى ، فبرىء فأتى الملك فقال له الملك : أليس يا فلان قد ذهب بصرك ،

فقال : بلى ، ولكن رده علي ربي ، فقال : أنا ، قال : لا ، ولكن ربي وربك الله ، قال : أولئك رب غيري ، قال : نعم .

وربك وربي الله تعالى ، فلم يزل به ، حتى أخبره بأمر الغلام ، فأرسل إلى الغلام ، فجاءه فقال : يا بني قد بلغ من سحرك ، أنك تشفي من كذا وكذا ، فقال : ما أنا بساحر ، ولا أشفي أحداً ، وما يشفي إلا ربي فقال : أنا ، قال : لا ولكن ربي وربك الله تعالى ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فدعي الراهب فأتي به ، فأراد أن يرجع من دينه ، فأبى وأمر بمنشار ، فوضع في مفرق رأسه ، فشق به حتى سقط شقاه .

ثم دعا بجليسه ، وأراد أن يرجع عن دينه فأبى ، فأمر بمنشار ، فشق حتى سقط شقاه ، فأمر الغلام أن يفعل ذلك بمكانه ، فقال : احملوه في سفينة .

فانطلقوا به ، حتى إذا لججتم به فغرقوه ، فانطلقوا به حتى لجوا به ، فلما أرادوا به ذلك فقال : اللهم اكفينهم بما شئت ، فانكبت بهم السفينة ، فغرقوا فجاء الغلام ، حتى قام بين يدي الملك .

فأخبره بالذي كان ، فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا ، فإذا كنتم في ذروة الجبل ، دهدهه عنه فانطلقوا به ، حتى إذا كانوا بذلك المكان .

فقال اللهم اكفينهم بما شئت ، فتدهدهوا عن الجبل يميناً وشمالاً ، فجاء حتى قام بين يدي الملك ، فأخبره بالذي كان .

وقال : إن تجمع الملك إنك لا تقدر على قتلي ، حتى تفعل بي ما آمرك به .

فقال : وما هو ؟ قال : تجمع أهل مملكتك في صعيد واحد ، ثم تصلبني ، وتأخذ سهماً من كنانتي ، فترميني به وتقول : بسم الله رب هذا الغلام ، فأصاب صدغه ، فوضع يده على صدغه فمات .

فقال الناس : آمنا برب هذا الغلام .

فقيل للملك وقعت فيما كنت تحاوز ، وقد أسلم الناس .

فقال : خذوا يا قوم الطريق ، وخذوا فيها أخدوداً ، وألقوا فيها النار .

(فمن رجع) عن دينه وإلا فألقوه فيها ، ففعلوا .

فجعل الناس يجيئون ، ويلقون أنفسهم في الأخدود ، حتى كان آخرهم امرأة ، ومعها صبي لها رضيع تحمله ، فلما دنت من النار ، وجدت حرها ، فولت فقال لها الصبي : يا أماه امضي ، فإنك على الحق ، فرجعت وألقت نفسها في النار .

فذلك قوله عز وجل ﴿ قُتِلَ أَصحاب الاخدود النار ذَاتِ الوقود ﴾ وروي في خبر آخر ، أن الملك كان على دين اليهودية ، يقال له ذو نواس ، واسمه زرعة ملك حمير ، وما حولها

فكان هناك قوم ، دخلوا في دين عيسى عليه السلام فحفر لهم أخدوداً ، فأوقد فيها النار ، وألقاهم في الأخدود ، فحرقهم وحرق كتبهم .

ويقال : كان الذين على دين عيسى عليه السلام بأرض نجران ، فسار إليهم من أرض حمير ، حتى أحرقهم وأحرق كتبهم ، فأقبل منهم رجل ، فوجد مصحفاً فيها وإنجيلاً محترقاً بعضه ، فخرج به ، حتى أتى به ملك الحبشة فقال له : إن أهل دينك قد أوقدت لهم النار ، فحرقوا بها وحرق كتبهم ، فأراه الذي جاء به ، ففزع الملك لذلك ، وبعث إلى صاحب الروم ، وكتب إليه يستمده بنجارين يعملون له السفن .

فبعث إليه صاحب الروم ، من يعمل له السفن ، فحمل فيها الناس ، فخرج به .

فخرجوا ما بين ساحل عدن إلى ساحل جازان ، وخرج إليهم أهل اليمن ، فلقوهم بتهامة ، واقتتلوا فلم ير ملك حمير له بهم طاقة ، وتخوف أن يأخذوه ، فضرب فرسه حتى وقع في البحر ، فمات فيه .

(204/810)

فاستولى أهل الحبشة على ملك حمير وما حوله ، وبقي الملك لهم ، إلى وقت الإسلام .

وروي في الخبر ، أن الغلام الذي قتله الملك دفن ، فوجد ذلك الغلام في زمان عمر بن

الخطاب رضي الله عنه واضعاً يده على صدغه ، كما كان وضعها حين قتل ، وكلما أخذ يده سال منه الدم ، وإذا أرسل يده ، انقطع الدم ، فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليهم ، أن ذلك الغلام صاحب الأخدود ، فاتركوه على حاله حتى يبعثه الله تعالى يوم القيامة على حاله .

وذلك قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصحاب الاخدود ﴾ يعني : لعن أصحاب الأخدود ، وهم الذين خدوا أخدود النار ذات الوقود ، يعني : الأخدود ذات النار الوقود .

ويقال : ﴿ قُتِلَ أَصحاب الاخدود ﴾ يعني : أهل الحبشة قتلوا أصحاب الأخدود ، أصحاب النار ذات الوقود .

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا ﴾ يعني : القوم عند النار حضور .

قال سفيان : إذ هم عليها على السرر ﴿ قُعُودٌ ﴾ عند النار ﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ يعني : أن خدامهم وأعوانهم ، يفعلون بالمؤمنين ذلك ، وهم هناك شهود .

يعني : حضوراً .

ويقال : يفعلون بالمؤمنين ذلك ، وهم شهود .

يعني : يشهدون بأن المؤمنين في ضلال ، تركوا عبادة آلهتهم .

ويقال : على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، يشهدون على أنفسهم يوم القيامة .

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ يعني : وما طعنوا فيهم .

﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ ﴾ يعني : سوى أنهم صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الحميد ﴾ في فعاله .

ويقال وما نقموا منهم يعني : وما أنكروا عليهم ، إلا أن يؤمنوا بالله يعني : إلا إيمانهم بالله ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والأرض والله على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ثم بيّن ما أعد الله لأولئك الكفار .

(205/810)

فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ يعني : عذبوا وأحرقوا ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ يعني : في الدنيا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ يعني : لم يرجعوا عن دينهم ، ولم يتوبوا إلى الله تعالى ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ يعني : العذاب الشديد .

وقال الزجاج : المعنى والله أعلم ، لهم عذاب بكفرهم ، ولهم عذاب بما حرقوا المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾ جزاءً لهم .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ يعني : عذاب ربك لشديد ، وهذا قول مقاتل ، وقال الكلبي

: إن أخذ ربك لشديد ، ومعناهما واحد .

ويقال : العقوبة الشديدة ، وهذا موضع هذا القسم .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ يعني : يبدأ الخلق في الدنيا ، ويعيد في الآخرة من التراب .

يعني : يبعثهم بعد الموت ﴿ وَهُوَ الغفور الودود ﴾ يعني : الغفور لذنوب المؤمنين ، ويقال : الغفور للذنوب الودود ، يعني : المحب للتائبين .

ويقال : المحب لأوليائه ، ويقال : الودود يعني : الكريم .

ثم قال : ﴿ ذُو العرش المجيد ﴾ يعني : رب السرير الشريف .

قرأ حمزة والكسائي بكسر الدال ، وقرأ الباقون بالضم ، فمن قرأ بالخفض ، جعله نعتاً للعرش ، ومن قرأ بالضم ، جعله صفة ذو يعني : ﴿ ذُو العرش ﴾ وهو ﴿ المجيد ﴾ الشريف والمجيد الكريم ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ يعني : يحيي ويميت ، ويعز ويذل .

ثم قال عز وجل : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود ﴾ يعني : قد أتاك حديثهم .

ثم فسر الجنود فقال : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ يعني : قوم موسى ، وقوم صالح أهلكهم الله تعالى في الدنيا .

وهذا وعيد لكفار هذه الأمة ، ليعتبروا بهم ويوحدوه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ يعني : إن الذين لا يعتبرون ، ويكذبون الرسل والقرآن ﴿ واللهُ مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ يعني : اصبر يا محمد على تكذيبهم ، فإن الله عالم بهم .

وقال الزجاج ، في قوله والله من ورائهم محيط ، يعني : لا يعجزه منهم أحد ، قدرته مشتملة عليهم ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ﴾ يعني : إنهم وإن كذبوا ، لا يعرفون حقه لا يقرون به ، وهو قرآن شريف ، أشرف من كل كتاب .

أو يقال : شريف لأنه كلام رب العزة ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ يعني : مكتوباً في اللوح ، الذي هو محفوظ عند الله من الشياطين ، وهو عن يمين العرش من درة بيضاء .

ويقال : من ياقوتة حمراء .

قرأ نافع ﴿ مَّحْفُوظٍ ﴾ بالضم ، والباقون بالكسر ، فمن قرأ بالضم ، جعله نعتاً للقرآن ، ومعناه قرآن مجيد ، محفوظ من الشياطين في اللوح .

ومن قرأ بالكسر ، فهو نعت اللوح .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال : إن الله تعالى جعل لوحاً من درة بيضاء دفتاه ، من ياقوتة حمراء ، ينظر الله تعالى فيه في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ، ويحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء .

وروي عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه قال : حدثني فرقد في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قال : هو صدر المؤمنين ، وقال قتادة : في اللوح المحفوظ عند الله تعالى ، والله الموفق بمنه وكرمه ، وصلى الله على سيدنا محمد ؛ وآله وصحبه وسلم تسليماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 541.545 ﴾

(207/810)

وقال الثعلبى :

سورة البروج

﴿ والسمآء ذَاتِ البروج * واليوم الموعود * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ :

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن الطيّب قال : أخبرنا أبو سعيد عمرو بن منصور قال : أخبرنا أبو بكر محمّد بن سليمان بن الحسن قال : حدّثنا عبد الله بن موسى .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن بهلويه قال : حدّثنا محمّد بن الصباح قال : أخبرنا مروان بن معاوية قال : أخبرنا موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اليوم الموعود يوم القيامة ، والمشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت

الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها بخير إلاّ استجاب له ولا يستعيذه من سوء إلا أعاذه منه " .

وأخبرنا أبو العباس سهل بن محمد بن سعيد قال : حدّثنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حليم قال : أخبرنا أبو الموحة قال : أخبرنا عيدان قال : حدّثنا عبد الوارث عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ثم قال : ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا محمد بن الحسن القطيني قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي قال : حدّثنا صفوان بن صالح قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : حدّثني سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " شاهد يوم الجمعة ومشهود يوم عرفة " .

(208/810)

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا الكندي قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن النعمان قال : حدثنا أبو طاهر سهل بن عبد الله قال : حدّثنا عمرو بن سواد بن الأسود قال : حدّثنا ابن وهب عن عمرو بن الحرث عن سعيد بن أبي الهلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسيء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة فأنَّه يوم مشهود تشهده الملائكة ، وإنَّ أحداً لا يصلّي عليَّ إلاّ عرضت عليّ صلاته حتى يفرغ منها " .

قال : قلت : وبعد الموت قال : " إنَّ الله سبحانه حرّم على الأرض أن يأكل أجساد الأنبياء فنبيَّ الله حيّ يرزق " .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا أبراهيم بن سهلويه قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم النورقي قال : حدّثنا أبو غسان مالك بن ضيغم الراسبي قال : حدّثنا أبو سهل المنذراني عن خبّاب عن رجل قال : دخلت مسجد المدينة فأذا أنا برجل يحّدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس حوله فقلت : أخبرني عن شاهد ومشهود قال : نعم أمّا الشاهد فيوم الجمعة وأما المشهود فيوم عرفة ، فجزته الى آخر يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أخبرني عن شاهد ومشهود .

قال : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر ، فجزتهما الى غلام كأنّ وجهه الدنيار وهو يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أخبرني عن شاهد ومشهود قال : نعم

أما الشاهد فمحمد صلى الله عليه وسلم وأمّا المشهود فيوم القيامة أما سمعته يقول : ﴿ يا أيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : 45] وقال عز وجل : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] فسألت عن الأول فقالوا : ابن عباس ، وسألت عن الثاني فقالوا : ابن عمر ، وسألت الثالث فقالوا : الحسن بن علي .

(209/810)

وأخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن علي الدورقي بقراءتي عليه فأقرّ به قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن الحسن الشرقي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشر العبّدي قال : حدّثنا يزيد ابن هارون قال : أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن أبي نجح عن مجاهد في قوله سبحانه ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد آدم والمشهود يوم القيامة . ليث عنه : الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة .

وقال الوالي عن ابن عباس : الشاهد الله والمشهود يوم القيامة ، عكرمة : الشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة وعنه أيضاً : الشاهد الملك يشهد على آدم والمشهود يوم القيامة وتلا

هاتين الآيتين ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] ، جابر بن عبد الله : الشاهد يوم القيامة والمشهود الناس .

(210/810)

محمد بن كعب : الشاهد أنت والمشهود هو الله ، عطاء بن يسار : الشاهد آدم وذريته والمشهود يوم القيامة ، الحسن : الشاهد الجمعة والمشهود يوم القيامة يشهده الأولون والآخرون ، أبو ملك : الشاهد عيسى والمشهود أمّته ، بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة : 117] عبد العزيز بن يحيى : الشاهد محمّد والمشهود أمّته ، بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] . الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم ، بيانه قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] . سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، وقال سالم بن عبد الله : سألت سعيد بن حسن عن قوله سبحانه ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ ، فقال : الشاهد هو الله والمشهود محمد بيانه قوله سبحانه : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [النساء : 79] ، وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 19] ، وقيل :

الشاهد أعضاء ابن آدم والمشهود ابن آدم بيانه قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ الآية [النور : 24] ، وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن نحيد القطان البلخي يقول : الشاهد الحجر الأسود والمشهود الحجاج ، وقيل : الشاهد الليالي والأيام والمشهود بنو آدم ، دليله الخبر المروي : " ما من يوم إلاّ وينادي إني يوم جديد وإنّي على ما تفعل منّي شهيد فأغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة " .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الصديق يقول : سمعت أبا وائلة عبد الرحمن الحسيني المزني يقول : سمعت مطرفاً يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : خبّرت عن الحسن بن علي إنّه قال :

(211/810)

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلا . . . وأصبحت في يوم عليك شهيد

فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة . . . فثنِّ بأحسان وأنت حميد

ولا تُرجِ فعل الخير يوماً إلى غد . . . لعل غداً يأتي وأنت فقيدُ

فيومك إن أعتبته عاد نفعه . . . عليك وماضي الأمس ليس يعود

محمد بن علي الترمذي : الشاهد الحفظة والمشهود بني آدم ، أنشدنا أبو القاسم الحبيبي قال

: أنشدني أبي ، قال : أنشدنا أبو بكر بن الأنباري ببغداد في كتاب الزاهر :

إنّ من يركب الفواحش سراً . . . حين يخلو بذنبه غير خالي

كيف يخلوا وعنده كاتباه . . . حافظاه وربه ذو المحال

وقيل : الشاهد الأنبياء والمشهود محمد صلى الله عليه وسلم بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبيين ﴾ [آل عمران : 81] إلى قوله : ﴿ فاشهدوا وَأَنَاْ مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين ﴾ [آل عمران : 81] ، وقيل : الشاهد الله عزّ وجل والملائكة وأولوا العلم والمشهود ﴿ لاَ إِله إِلاَّ الله ﴾ [الصافات : 35] بيان قوله سبحانه ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران : 18] ، وقيل : الشاهد الخلق والمشهود الحق وفيه يقول الشاعر :

أيا عجباً كيف يعصى الاله . . . أم كيف يجحده الجاحدُ

ولله في كل تحريكة . . . وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنّه واحدُ

وقيل : الشاهد يوم الأثنين والمشهود يوم الجمعة ، وقيل : الشاهد الحق والمشهود الخلق ، وقيل : الشاهد أفعال العبد والمشهود العبد .

﴿ قُتِلَ ﴾ لعن ، قال ابن عباس : كل شيء في القرآن قتل فهو لعن .

﴿ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ : الشق واختلفوا فيهم فأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن بن جعفر قال : حدّثنا الحاكم أبو محمد يحيى بن منصور وأبو القاسم منصور بن العباس بنو شنج وأبو الحسن محمد بن محمود بن عبيد الله بمرو وأبو بكر أحمد بن محمد بن عبيد الله الطاهري [. . . . .] واللفظ له قالوا : حدّثنا الحسن بن شيبان بن عامر الشيباني أن هدية بن خالد القيسي حدثهم قال : حدّثنا حماد بن سلمة ، وحدثتُ عن محمد بن جرير قال : حدّثني محمد بن معمر قال : حدّثني حرمي بن عمارة قال : حدّثنا حماد بن سلمة قال : حدّثنا ثابت بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه فكان في طريقه راهب فقعد إليه الغلام وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتي الساحر ضربه وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب فسمع كلامه فإذا أتى أهله ضربوه ، فشكى ذلك إلى الراهب فقال : إذا احتبست على الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا احتبست على أهلك فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر خير أم الراهب ، فأخذ حجراً ثم قال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذا الدابة حتى يمضي الناس ، فرمى بها فقتلها

ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما قد أرى وإنك ستبتلى فإذا ابتليت فلا تدل علي ، وكان الغلام يبري الأكمه والابرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك قد كان عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال : لك هذا إن أنت شفيتني فقال : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل ، فإن آمنت بالله دعوت الله عز وجل فشفاك ، فآمن بالله تعالى فشفاه الله فأتى الملك يمشي فجلس إليه كما كان

(213/810)

يجلس ، فقال له الملك : وسأله بما شفيت قال : بدعاء الغلام ، فأرسل إلى الغلام فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما يبرئ الأكمه والابرص وتفعل وتفعل ، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبي فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به فاذا بلغ ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم كيف شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك فقال له : ما فعل

أصحابك ؟ فقال : أكفانيهم الله عز وجل فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال احملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فلجوا به فإن رجع عن دينه وإلاّ فاقذفوه فيه .

فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت فأنكفأت بهم السفينة فغرقوا به ، فجاء يمشي الى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : أكفانيهم الله عز وجل ، فقال للملك : إنّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال : ما هو ؟ قل : تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم تضع السهم في كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في صدغه فوضع الغلام يده في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ثلاثاً ثلاثاً ، فأُتي الملك فقيل له : أريت ما كنت تحذره قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس كلهم . فأمر [بحفر] الأُخدود بأفواه السكك وأضرم النيران وقال : من لم يرجع عن دينه فاقذفوه فيها ، أو قيل له اقتحم ، ففعلوا ذلك حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام : يا أُمّه اصبري فإنك على حق " .

(214/810)

محمد بن يحيى قال : حدّثنا مسلم بن قتيبة قال : حدّثنا جرير بن حازم عن أيوب عن عكرمة في قول الله سبحانه : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ قال : كانوا من قومك من النبط ، وقال الكلبي : هم نصارى أهل نجران وذلك ان ملك نجران أخذ بها قوماً مؤمنين فخدّ لهم في الأرض سبعة أخاديد طول كل واحد أربعون ذراعاً وعرضه اثنتا عشرة ذراعاً ثم طرح فيها [النفط] والحطب ثم عرضهم عليها فمن أبى قذفوه في النار ، فبدأ برجل يقال له عمرو بن زيد فسأله ملكهم ، فقال : من علمك هذا يعني التوحيد فأبى أن يخبره فأتى الملك الذي علمه التوحيد فقال : أيها الملك أنا علمته ، واسمه عبد الله بن شمر فقذفه في النار ، ثم عرض على النار واحداً واحداً حتى إذا أراد أن يتبع بقيّة المؤمنين فصنع ملكهم صنماً من ذهب ثم أمر على كل عشرة من المؤمنين رجلا يقول لهم إذا سمعتم صوت المزامير فأسجدوا للصنم فمن لم يسجد ألقوه في النار ، فلما سمعت النصارى بذلك سجدوا للصنم ، وأما المؤمنون فأبوا فخدّ لهم وألقاهم فيها [فارتفعت] النار فوقهم اثني عشرة ذراعاً .

(215/810)

قال مقاتل : كانت [الأخاديد] ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، والاخرى بالشام ، والاخرى بفارس ، حرّقوا بالنار أمّا التي بالشام فهو انطيّا خوس بن ميسر الرومي ، أمّا التي بفارس فهو بخت نصر ، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف بن ذي نواس ، فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله سبحانه فيهما قرآناً وأنزل في التي كانت بنجران ، وذلك أن رجلين مسلمين ممّن يقرؤون الإنجيل أحدهما بأرض تهامة والآخر بنجران اليمن فأجّر أحدهما نفسه في عمل يعمله وجعل يقرأ الإنجيل ، فرأت بنت المستأجر النور يضيء في قراءة الإنجيل فذكرت ذلك لأبيها فرمقه حتى رآه ، فسأله فلم يخبره فلم يزل به حتى أخبره بالدين والإسلام فتابعه هو وسبعة وثمانون إنساناً بين رجل وامرأة وهذا بعد ما رفع عيسى إلى السماء ، فسمع ذلك يوسف بن ذي نواس بن شراحيل بن تبع بن اليسوح الحميري فخدّلهم في الأرض فأوقد فيها فعرضهم على الكفر فمن أبى منهم أن يكفر قذفه في النار ومن رجع عن دين عيسى لم يقذف في النار ، وإن امرأة جاءت ومعها ولد لها صغير لا يتكلم فلما قامت على شفير الخندق نظرت إلى ابنها فرجعت عن النار فضربت حتى تقدمت فلم تزل كذلك ثلاث مرات فلما كانت في الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها : يا أماه إني أرى أمامك ناراً لا تطفأ فلما سمعت ابنها يقول ذلك قذفا جميعاً أنفسهما في النار فجعلها الله وابنها في الجنة فقذف في النار في يوم واحد سبع وسبعون إنساناً .

قال ابن عباس : من أبى أن يقع في النار ضرب بالسياط ، فادخلت أرواحهم في الجنة قبل

أن تصل أجسامهم إلى النار ، وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ، عن وهب بن منبّه : إنّ رجلا كان بقي على دين عيسى فوقع إلى نجران فدعاهم فأجابوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنود من حمير خيّرهم بين النار واليهودية فأبوا عليه فخدّ الأخاديد وأحرق اثني عشر ألفاً ، وقال الكلبي :

(216/810)

كان أصحاب الاخدود سبعين ألفاً ، قال وهب : لما علت أرباط على اليمن خرج ذو نواس هارباً فاقتحم البحر بفرسه فغرق وفيه يقول عمرو بن معدي كرب :

اتوعدني كأنك ذو رعين . . . بأنعم عيشه أو ذو نواس

وكائن كان قبلك من نعيم . . . وملك ثابت في الناس راسِ

قديم عهده من عهد عاد . . . عظيم قاهر الجبروت قاسِ

أزال الدّهر ملكهم فأضحى . . . ينقّل في أناس من أناسِ

قال الكلبي : وذو نواس هو الذي قتل عبد الله بن التامر وقد مضت القصّة في الحديث المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما يزيده وضوحاً ما روى عطاء عن ابن

عباس إنّه قال : كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شراحبيل بن شراحيل في الفترة قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بتسعين سنة .

(217/810)

عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا عمر بن محمد بن بجير قال : حدّثنا عبد الحميد بن حميد الكشي ، عن الحسن بن موسى قال : حدّثنا يعقوب بن عبد الله القمي قال : حدّثنا جعفر بن أبي المغيرة عن ابن [ابري] قال : لما هزم المسلمون أهل أسفندهان انصرفوا فجاءهم يعني عمر فاجتمعوا ، فقالوا : أي شيء تجري على المجوس من الأحكام فأنهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركي العرب ، فقال : علي بن أبي طالب : بل هم أهل الكتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلّت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله فتناول اخته فوقع عليها فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها : ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه ؟ . قالت : المخرج منه أن تخطب الناس ، فتقول : يا أيها الناس إنّ الله أحل نكاح الأخوات فإذا ذهب [هذا] في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمته ، فقام خطيباً ، فقال : يا أيها الناس إنّ الله أحلّ نكاح الأخوات فقال الناس جماعتهم : معاذ الله أن نؤمن بهذا أو نقرّ به ما جاءنا به نبي ولا أُنزل علينا في كتاب فرجع إلى صاحبته فقال : ويحك إنّ

الناس قد أبوا عليّ قالت : إذا أُبّوا عليك فأبسط فيهم السوط قال : فبسط فيهم السوط ، فأبى الناس أن يقرّوا فرجع إليها فقال : قد بسطت فيهم السوط فأبوا أن يقرّوا قالت : فجرّد فيهم السيف ، قال : فجرّد فيهم السيف فأبوّا أن يقرّوا ، وقال لها : ويحك إنّ الناس قد أبوا أن يقرّوا ، قالت : خُدّ لهم أخدوداً ثم أوقد فيها النيران ثم اعرض عليها أهل مملكتك فمن تابعك فخلّ عنه ومن أبى فأقذفه في النار ، فخدّ لهم أخدوداً فأوقد فيها النيران وعرض أهل مملكته على ذلك فمن أبى قذف في النار ومن أجاب خلّى سبيله ، فأنزل سبحانه فيهم : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود * النار ذَاتِ الوقود ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابُ الحريق ﴾ .

(218/810)

وقال الضحاك : أصحاب الأخدود من بني إسرائيل أُخِذوا رجالا ونساءاً فخدّ لهم أخدوداً ثم أوقد فيها النيران فأقاموا المؤمنين عليها ، فقال تكفرون أو نقذفكم في النار ، ويزعمون أنه دانيال وأصحابه ، وهذه رواية العوفي عن ابن عباس .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن يوسف ، قال : حدّثنا عمر بن محمد بن بجير ، قال : حدّثنا عبد بن حميد ، عن يونس ، عن شيبان عن قتادة في قوله

سبحانه : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ قال : حُدّثنا أنّ علي بن أبي طالب كان يقول : هم أناس كانوا بمدراع اليمن اقتتل مؤمنوهم وكفارهم فظهر مؤمنوهم على كفارهم ثم اقتتلوا الثانية فظهر مؤمنوهم على كفارهم ثم أخذ بعضهم على بعض عهوداً ومواثيق لا يغدر بعضهم ببعض ، فغدر بهم كفارهم فأخذوهم ثمّ أنّ رجلا من المؤمنين قال لهم : هل لكم إلى [خير] توقدون ناراً ثم تعرضوننا عليه ، فمن تابعكم على دينكم فذلك الذي تشتهون ومن لا اقتحم النار فاسترحتم منه قال : فأججوا ناراً وعرضوهم عليها فجعلوا يقتحمونها حتى بقيت عجوز فكأنها تلكأت ، فقال لها طفلٌ في حجرها : أمضي ولا تنافقي فقص الله عليهم نبأهم وحديثهم .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أبو محمد المزني قال : حدّثنا مطين قال : حدّثنا عثمان قال : حدّثنا معاوية بن هشام ، عن شريك عن جابر عن أبي طفيل ، عن علي قال : كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي ، قال علي : بُعث نبي من الحبشة إلى قومه ، ثم قرأ عليّ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] ، فدعاهم النبي فتابعه أُناس فقاتلهم فقتل أصحابه وأُخذ فأوثق فأفلت منهم ، فخدّ أخدوداً فملأها ناراً فمن تبع النبي رُمي فيها ومن تابعهم تركوه فجاءوا بامرأة معها صبي رضيع فجزعت فقال : يا أماه مرّي ولا تنافقي . "

وبه عن مطين قال : حدّثنا أبو موسى وقال : وكان في بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر وكان أبوه سلّمه إلى معلم يعلّمه السحر فكره الغلام ذلك ولم يجد بُدّاً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلم ، وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت فأعجبه ذلك وكان يأتي المعلم آخر الغلمان ويضربه المعلم ويقول : من الذي حبسك وإذا انقلب إلى أبيه دخل على الراهب فضربه أبوه ويقول : لما أبطأت ، فشكى الغلام ذلك إلى الراهب فقال له الراهب : إذا أتيت المعلم فقل حبسني أبي وإذا أتيت أباك فقل : حبسني المعلم ، وكان في تلك البلاد حيّة عظيمة قطعت الطريق على الناس فمر بها الغلام فرماها فقتلها فأحس الراهب بذلك فازداد به عجباً وقال أنت قتلتها قال : نعم قال : إنّ لك لشأناً ، وكان للملك ابنٌ مكفوف البصر ، فسمع بالغلام وقتله الحيّة فجاءه مع قائد فقال : أنت قتلت الحيّة ؟ قال : لا ، قال : ومن قتلها ؟ قال : الله ، قال : من الله ؟ قال : ربُّ السماوات والأرض وما بينهما وربُّ الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة ، قال : فان كنت صادقاً فادع ربّك حتى يرد عليّ بصري ، قال : الغلام أرأيت إن ردّ الله سبحانه عليك بصرك أتؤمن به ؟ قال : نعم ، قال : اللهم إن كان صادقاً فاردد عليه بصره ، فردّ الله تعالى عليه بصره فرجع إلى منزله بلا قائد ، ثم دخل على الملك فلما رآه تعجب منه فقال : من صنع هذا ، قال : الله ، قال : ومن الله ؟

قال : ربُّ السماوات والأرض وما بينهما وربُّ المشرق والمغرب وربّ الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة ، فقال له الملك : أخبرني من علّمك هذا ، ودلّه على الغلام فدعاه فكلّمهُ فاذا غلامٌ عاقل ، فسألهُ عن دينه فأخبره بالإسلام ومن آمن معه ، فهمّ الملك بقتلهم مخافة أن يبدل دينه فأرسل بهم إلى ذروة جبل وقال : ألقوهم من رأس الجبل ، فذهبوا بالغلام إلى أطول جبل فدعا الغلام ربّه فأهلكهم الله سبحانه ، فغاظ الملك ذلك ، ثم أرسل معهم رجالا إلى البحر فقال : غرّقوهم فدعا الغلام ربّه فأغرقهم ونجا هو وأصحابه ، فدخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك الذين أرسلتهم معك ؟

فقال : أهلكهم الله ونجّاني فقال : اقتلوه بالسيف فنبا السيف عنه ، وفشا خبره بأرض اليمن وعرفه الناس فعظّموه وعلموا إنه وأصحابه على الحق فقال الغلام للملك : إنّك لا تقدر على قتلي إلاّ أن تفعل ما أقول ، قال : فكيف أقتلك ، قال : تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترميني بسهم باسم إلهي ، ففعل الملك ذلك ثم رماه باسم إله الغلام فأصابه فقتله ، فقال الناس : لا إله إلاّ إله عبد الله بن ثامر ولا دين إلاّ دينه ، فغضب الملك وأغلق الباب وأخذ أفواه السكك وخدّ أخدوداً وملأه ناراً ثم عرضهم رجلا رجلا فمن رجع عن

الإسلام تركه ومن قال ديني دين عبد الله ألقاه في الأخدود فأحرقه ، وكان في مملكته امرأة أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع ، فقال لها الملك : إرجعي عن دينك وإلاّ ألقيك في النار وأولادك معك ، فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقاه في النار ثم قال لها : إرجعي إلى دينك فأبت فألقى الثاني في النار ثم قال لها : إرجعي عن دينك فأبت فأخذوا الصبي منها ليلقوه في النار فهمّت المرأة بالرجوع فقال الصبي : يا أماه لا ترجعي عن الإسلام فأنك على الحق ولا بأس عليك فأُلقي الصبي في النار وأُلقيت أمه على أثره فذلك قوله سبحانه ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ .

(221/810)

وقال الضحاك : أحرق بخت نصر قوماً من المسلمين .

والأخدود : الحفرة والشق المستطيل في الأرض كالنهر وجمعه أخاديد وهو أفعول من الخد يقال خددتُ في الأرض خدّاً أي شققت وحفرت .

﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾ قراءة العامة بفتح الواو وهو الحطب ، وقرأ أبو رجاء العطاردي بضم الواو على المصدر وقراءة العامة النار ذات بالكسر فهما على نعت الأخدود ، وقرأ أشهب العقيلي بالرفع فيهما على معنى أحرقتهم ﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾ .

قال الربيع بن أنس : كان أصحاب الاخدود قوماً مؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة ، وأن جبّاراً من عبدة الأوثان أرسل إليهم فعرض عليهم الدخول في دينه فأبوا فخدّ أخدوداً وأوقد فيه ناراً ثم خيّرهم بين الدخول في دينه وبين إلقائهم في النار فأختاروا إلقاءهم في النار على الرجوع عن دينهم فألقوا في النار ، فنجّى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار بأن قبض أرواحهم قبل أن تمسّهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم .

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ : حضور ، وقال مقاتل : يعني يشهدون إنّ المؤمنين حين تركوا عبادة الصنم ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ : أي وما علموا فيهم عيباً ولا وجدوا لهم جرماً ولا رأوا منهم سوءاً .

﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ : يعني إلاّ لأن ومن أجل أن آمنوا ﴿ بالله العزيز الحميد * الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ : عَذّبوا وأحرقوا ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ نظيره قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] ، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ في الدنيا وذلك إنّ الله سبحانه أحرقهم بتلك النار التي أحرقوا بها المؤمنين ، هذا قول ربيع وأصحابه ، وقال الآخرون : هما واحد .

أخبرني بن فنجويه قال : حدّثنا علي بن محمد بن لؤلؤ الوراق قال : حدّثنا أبو عبيد محمد ابن أحمد بن المؤمل الصيرفي قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن جعفر الأحول المعروف باللقوق قال : حدّثنا منصور بن عمّار قال : حدّثنا سعيد بن أبي توبة عن عبد الرحمن بن الجهم يبلغ به حذيفة بن اليمان قال : " أسرَّ إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً في النار فقال : " يا حذيفة إن في جهنم لسباعاً من نار وكلاباً من نار وكلاليب من نار وسيوفاً من نار وأنه يبعث ملائكة يعلّقون أهل النار بتلك الكلاليب بأحناكهم ويقطعونهم بتلك السيوف عضواً عضواً ويلقونها إلى تلك الكلاب والسباع كلما قطعوا عضواً عاد مكانه عضواً جديد " .

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾ واختلف العلماء في جواب القسم فقال بعضهم : جوابه ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ وفيه إضمار يعني لقد قُتل ، وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ .

وقال قتادة : جوابه قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أي أخذهُ بالعذاب والإنتقام .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ : يعني الخلق عن أكثر العلماء ، وروى عطية العوفي عن ابن

عباس : يبديء العذاب في الدنيا للكفار ثم يعيد عليهم العذاب في الآخرة .

﴿ وَهُوَ الغفور الودود ﴾ : قال ابن عباس : التودد إلى أوليائه بالمغفرة . علي عنه : الحبيب ، مجاهد : الواد ، ابن زيد : الرحيم ، وقيل : بمعنى المودود كالحلوب والركوب ، وقيل : معناه يغفر ويودُّ أن يغفر .

﴿ ذُو العرش المجيد ﴾ : السرير العظيم وقال : ابن عباس وقتادة : الكريم ، واختلف القرّاء فيه فقرأ يحيى وحمزة والكسائي وخلف بجر الدال على نعت العرش . غيرهم بالرفع على صفة الغفور .

(223/810)

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود ﴾ ، خبر الجموع الهالكة ثم بين من هم فقال : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ ، من قومك يا محمد . ﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ : [واستجاب للتعذيب] كدأب من قبلهم ، ﴿ والله مِن وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ عالم بهم لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ كريم شريف كثير الخير وليس كما زعم المشركون ، وقال عبد العزيز بن يحيى : مجيد يعني غير مخلوق ، وقرأ ابن السميفع : بل هو قرآن مجيد بالاضافة ، أي قرآن ربّ مجيد .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

قرأ يحيى بن يعمر : في لوح بضم اللام ، أي إنّه بلوح وهو ذو نور وعلو وشرف .

وقرأ الآخرون : بفتح اللام لوح محفوظ . قرأ نافع وابن مخيضر : بضم الظاء على نعت القرآن ، وقرأ الباقون : بالكسر على نعت اللوح .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا مخلد قال : حدّثنا ابن خلويه قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا إسحاق بن بشر ، قال : أخبرني مقاتل وابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن في صدر اللوح لا إله إلاّ الله وحده ، ودينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عزّوجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة . قال : فاللوح لوح من درة بيضاء طويلة طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق إلى المغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه بر معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك يقال له ما طريون محفوظ من الشياطين ، فذلك قوله ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ لله عزّوجل فيه في كلّ يوم ثلاث مائة وستون لحظة يحيي ويميت ويعزّ ويذلُ ويفعل ما يشاء .

(224/810)

أخبرني عقيل إنّ المعافي أخبرهم عن محمد بن جرير قال : حدّثنا عمرو بن علي قال : سمعت قرّة بن سليمان قال : حدّثنا حرب بن سريج قال : حدّثنا عبد العزيز بن صهّيب عن أنس بن مالك : في قوله ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ . قال : إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في جبهة إسرافيل . وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 164.176 ﴾

(225/810)

وقال الزمخشرى :

سورة البروج

مكية ، وآياتها 22 [نزلت بعد الشمس] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البروج (85) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3)

هي البروج الاثنا عشر ، وهي قصور السماء على التشبيه . وقيل : الْبُرُوجِ النجوم التي هي منازل القمر . وقيل : عظام الكواكب . سميت بروجا لظهورها . وقيل : أبواب السماء

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ يوم القيامة وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ يعنى وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه .

والمراد بالشاهد : من يشهد فيه من الخلائق كلهم ، وبالمشهود : ما في ذلك اليوم من عجائبه .

وطريق تنكيرهما : إما ما ذكرته في قوله عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ كأنه قيل : وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود . وإما الإبهام في الوصف ، كأنه قيل : وشاهد مشهود لا يكتنه وصفهما . وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما ، فقيل : الشاهد والمشهود : محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ويوم القيامة . وقيل : عيسى . وأمّته . لقوله وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ وقيل :

أمّة محمد ، وسائر الأمم : وقيل : يوم التروية ، ويوم عرفة . وقيل : يوم عرفة ، ويوم الجمعة . وقيل . الحجر الأسود ، والحجيج . وقيل : الأيام والليالي ، وبنو آدم . وعن الحسن : ما من يوم إلا وينادى : إنى يوم جديد وإنى على ما يعمل فىّ شهيد ، فاغتمنى ، فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة : وقيل : الحفظة وبنو آدم . وقيل : الأنبياء ومحمد عليه السلام .

[سورة البروج (85) : الآيات 4 إلى 9]

قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)

فإن قلت : أين جواب القسم ؟ قلت : محذوف يدل عليه قوله قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون ، يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك

(226/810)

أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدّمهم : من التعذيب على الإيمان . وإلحاق أنواع الأذى ، وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند اللّه بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم : قتلت قريش ، كما قيل : قتل أصحاب الأخدود وقتل : دعاء عليهم ، كقوله قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ وقرئ : قتل ، بالتشديد . والأخدود :

الخدّ في الأرض وهو الشق ، ونحوهما بناء ومعنى : الخق والأخقوق . ومنه فساخت قوائمه في أخاقيق جرذان «1» . روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : كان لبعض الملوك ساحر ، فلما كبر ضمّ إليه غلاما ليعلمه السحر ، وكان في طريق الغلام راهب : فسمع منه ، فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس . فأخذ حجرا فقال : اللهم إن

كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها ، فقتلها ، فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص ، ويشفى من الأدواء ، وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله فقال : من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربى ، فغضب فعذبه . فدل على الغلام فعذبه ، فدل على الراهب ، فلم يرجع الراهب عن دينه ، فقدّ بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته ، فدعا فرجب بالقوم ، فطاحوا ونجا ، فذهب به إلى قرقور «2» فلججوا به ليغرقوه ، فدعا فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا ونجا ، فقال للملك :

لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهما من كنانتي وتقول :

بسم اللّه رب الغلام ، ثم ترميني به . فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فقيل للملك . نزل بك ما كنت تحذر ، فأمر بأخاديد في أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست «3» أن تقع فيها ، فقال الصبى :

يا أماه ، اصبري فإنك على الحق ، فاقتحمت . وقيل : قال لها قعى ولا تنافقى . وقيل : قال لها ما هي إلا غميضة فصبرت «4» . وعن على رضى اللّه عنه : أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال : هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم ، فتناولها بعض ملوكهم فسكر ، فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج ،

فقالت له : المخرج أن تخطب الناس فتقول : يا أيها الناس ، إنّ اللّه أحل نكاح الأخوات ، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول : إن اللّه حرّمه ، فخطب فلم يقبلوا منه

---

(1) . قوله «جرذان» في الصحاح «الجرذ» : ضرب من الفأر والجمع : الجرذان . (ع)

(2) . قوله «قرقور» في الصحاح «القرقور» : السفينة الطويلة . (ع)

(3) . قوله «فتقاعست» في الصحاح «تقاعس» : إذا تأخر عن الأمر ولم يتقدم . (ع)

[. . . . .]

(4) . أخرجه مسلم . والترمذي والنسائي وابن حبان والطبري والطبراني وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار كلهم من رواية ابن أبى ليلى من طرق وأقربها إلى لفظ الكتاب سياق الطبري . تفرد به ثابت البناني عن عبد الرحمن .

(227/810)

فقالت له : ابسط فيهم السوط ، فلم يقبلوا ، فقالت له : ابسط فيهم السيف ، فلم يقبلوا ، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها ، فهم الذين أرادهم اللّه بقوله قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ «1» وقيل : وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام ، فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار

واليهودية فأبوا ، فأحرق منهم اثنى عشر ألفا في الأخاديد . وقيل : سبعين ألفا «2» ، وذكر أنّ طول الأخدود : أربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا «3» . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوّذ من جهد البلاء «4» النَّارِ بدل اشتمال من الأخدود ذاتِ الْوَقُودِ وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ، وقرئ : الوقود ، بالضم إِذْ ظرف لقتل ، أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها . ومعنى عَلَيْها على ما يدنو منها من حافات الأخدود ، كقوله :

وبات على النّار النّدى والمحلّق «5»

وكما تقول : مرت عليه ، تريد : مستعليا لمكان يدنو منه ، ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين :

أنهم وكلوا بذلك وجعلوا شهودا يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنّ أحدا منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب . ويجوز أن يراد : أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين ، يؤدّون شهادتهم يوم القيامة يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ . وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم «6»

قال ابن الرقيات :

ما نقموا من بنى أميّة إلّا أنّهم يحلمون إن غضبوا «7»

---

(1) . أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى . والطبري والطبراني . وأحمد وإسحاق والبزار كلهم من رواية عبد الرحمن بن حميد والطبري من رواية جعفر بن أبى المغيرة عن عبد الرحمن بن أيزى قال «لما هزم المسلمون أهل الاسفيذيان انصرفوا فجاءهم يعنى عمر رضى اللّه عنه . فاجتمعوا فقالوا . أى شيء يجرى على المجوس من الأحكام ؟ نهم ليسوا أهل كتاب . وليسوا من مشركي العرب . فقال : هم أهل الكتاب . فذكره . وسياق الطبري أتم منه

(2) . أخرجه ابن إسحاق في السيرة ، حدثني يزيد بن أبى زياد عن محمد بن كعب . فذره مطولا .

(3) . نقله الثعلبي عن الكلبي .

(4) . أخرجه ابن أبى شيبة عن أبى أسامة عن عوف عن الحسن بهذا .

(5) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 53 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(6) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 142 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(7) . لقيس الرقيات . ونقموا كرهوا : وحلم - كظرف - : صفح . يقول : إنهم جعلوا

أحسن الأشياء وهو الحلم عند الغضب قبيحا . ويجوز أن فاعل الفعلين ضمير بنى أمية . ويجوز أن الأول لهم ، والثاني : الناقمين . وفيه استتباع المدح بما يشبه الذم للمبالغة في المدح ، حيث جعل الحلم عند الغضب ذما ، مع أنه غاية في المدح . ويروى ما نقم الناس ، وعليها فالصواب إسقاط «بين» لأجل الوزن .

(228/810)

وقرأ أبو حيوة : نقموا ، بالكسر ، والفصيح : هو الفتح . وذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد ، وهو كونه عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه حميدا منعما . يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقديرا ، لأن ما نَقَمُوا مِنْهُمْ هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغىّ ، وإن الناقمين أهل لانتقام اللّه منهم بعذاب لا يعدله عذاب وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ وعيد لهم ، يعنى أنه علم ما فعلوا ، وهو مجازيهم عليه .

[سورة البروج (85) : الآيات 10 إلى 11]

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ

الْكَبِيرُ (11)

ويجوز أن يريد بالذين فتنوا : أصحاب الأخدود خاصة ، وبالذين آمنوا : المطروحين في الأخدود . ومعنى فتنوهم : عذبوهم بالنار وأحرقوهم فَلَهُمْ فِي الآخرة عَذابُ جَهَنَّمَ بكفرهم وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين . أو لهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا ، لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم . ويجوز أن يريد : الذين فتنوا المؤمنين ، أى : بلوهم بالأذى على العموم ، والمؤمنين : المفتونين ، وأن للفاتنين عذابين في الآخرة : لكفرهم ، ولفتنتهم .

[سورة البروج (85) : الآيات 12 إلى 16]

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (16)

البطش : الأخذ بالعنف ، فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم : وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذهم بالعذاب والانتقام إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ أى يبدئ البطش ويعيده ، يعنى : يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة . أو دل باقتداره على الإبداء والاعادة على شدة بطشه .

وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالاعادة .

وقرئ: يبدأ الْوَدُودُ الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود: من إعطائهم ما أرادوا.

وقرئ: ذى العرش، صفة لربك. وقرئ: المجيد، بالجر صفة للعرش. ومجد اللّه: عظمته.

ومجد العرش: علوه وعظمته فَعَّالٌ خبر مبتدأ محذوف. وإنما قيل: فعال، لأنّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة «1».

[سورة البروج (85): الآيات 17 إلى 22]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)
وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21)
فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بدل من الجنود. وأراد بفرعون إياه وآله، كما في قوله مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود الرسل وما نزل بهم لتكذيبهم بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا من قومك فِي تَكْذِيبٍ أىّ: تكذيب واستيجاب للعذاب، واللّه عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه. والاحاطة بهم من ورائهم: مثل لأنهم لا يفوتونه، كما لا يفوت فائت

الشيء المحيط به . ومعنى الاضراب : أن أمرهم أعجب من أمر أولئك ، لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم ، ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا ، وكذبوا أشد من تكذيبهم بَلْ هُوَ أى بل هذا الذي كذبوا به قُرْآنٌ مَجِيدٌ شريف عالى الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه . وقرئ : قرآن مجيد ، بالاضافة ، أى : قرآن رب مجيد . وقرأ يحيى بن يعمر : في لوح . واللوح : الهواء «2» ، يعنى : اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح مَحْفُوظٍ من وصول الشياطين إليه . وقرئ : محفوظ ، بالرفع صفة القرآن .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة البروج أعطاه اللّه بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات «3»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 729. 733﴾

---

(1) . قال محمود : «إنما يقال فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة» قال أحمد : ما قدر اللّه حق قدره ، هلا قال : إنه لا فاعل إلا هو ، وهل المخالف لذلك إلا مشرك ، وكم أراد اللّه تعالى على معتقد القدرية من فعل فلم يفعله ، وهب أنا طرحنا النظر في مقتضى مبالغة الصيغة ، أليس قد دل بقوله لِما يُرِيدُ على عموم فعله في جميع مراده ، فما رده إلى الخصوص إلا نكوص عن النصوص .

(2) . قوله «و اللوح الهواء» في الصحاح «اللوح» بالضم : الهواء بين السماء والأرض .

(ع)

(3) . أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه باسنادهم إلى بن كعب .

(230/810)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ والسماءِ ذاتِ البُروجِ ﴾

هذا قَسَمٌ ، وفي البروج أربعة أقاويل :

أحدها : ذات النجوم ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك .

الثاني : ذات القصور ، قاله ابن عباس .

الثالث : ذات الخَلْق الحسن ، قاله المنهال بن عمرو .

الرابع : ذات المنازل ، قاله يحيى بن سلام وهي اثنا عشر برجاً رصدتها العرب والعجم ، وهي منازل الشمس والقمر .

﴿ واليومِ الموْعُودِ ﴾ روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يوم القيامة ، وسمي بذلك لأنهم وعدوا فيه بالجزاء بعد البعث .

﴿ وشاهدٍ ومَشْهودٍ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، روى ذلك أبو عرفة ، روى ذلك أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أن الشاهد يوم النحر ، والمشهود يوم عرفة ، قاله إبراهيم .

الثالث : أن الشاهد الملائكة ، والمشهود الإنسان ، قاله سهل بن عبد الله .

الرابع : أن الشاهد الجوارح ، والمشهود النفس ، وهو محتمل .

الخامس : أن المشهود يوم القيامة .

وفي الشاهد على هذا التأويل خمسة أقاويل :

أحدها : هو الله تعالى ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : هو آدم عليه السلام ، قاله مجاهد .

الثالث : هو عيسى ابن مريم ، رواه ابن أبي نجيح .

الرابع : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن بن علي وابن عمر وابن الزبير ، لقوله تعالى : ﴿ فكيفَ إذا جِئْنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيد وجئْنَا بِك على هؤلاءِ شَهيداً ﴾ .

الخامس : هو الإنسان ، قاله ابن عباس .

﴿ قُتِل أصحابُ الأُخْدُودِ ﴾ قال الفراء : هذا جواب القسم ، وقال غيره : الجواب ﴿ إنّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشديدٌ ﴾ والأخدود : الشق العظيم في الأرض ، وجمعه أخاديد ، ومنه

الخد لمجاري الدموع فيه ، والمخدّة لأن الخد يوضع عليها ، وهي حفائر شقت في الأرض وأوقدت ناراً وألقي فيها مؤمنون امتنعوا من الكفر .

(231/810)

واختلف فيهم ، فقال عليّ : إنهم من الحبشة ، وقال مجاهد : كانوا من أهل نجران ، وقال عكرمة كانوا نبطاً ، وقال ابن عباس : كانوا من بني إسرائيل ، وقال عطية العوفي : هم دانيال وأصحابه ، وقال الحسن : هم قوم من أهل اليمن ، وقال عبد الرحمن بن الزبير : هم قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين ، وقال الضحاك : هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، أخذهم يوسف بن شراحيل بن تُبَّع الحميري وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً ، وحفر لهم أخدوداً أحرقهم فيه ، وقال السدي : الأخدود ثلاثة : واحد بالشام وواحد بالعراق ، وواحد باليمن .

وفي قوله : ﴿ قُتِلَ أَصحابُ الأُخْدُودِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أُهلك المؤمنون .

الثاني : لُعن الكافرون الفاعلون ، وقيل إن النار صعدت إليهم وهم شهود عليها فأحرقتهم ، فلذلك قوله تعالى : ﴿ فلهُم عذابُ جهنَّمَ ولهُم عذابُ الحريق ﴾ يعني في الدنيا .

﴿ وهُمْ على ما يَفْعلونَ بالمؤمنينَ شُهودٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن أصحاب الأخدود هم على عذاب المؤمنين فيها شهود ، وهو ظاهر من قول قتادة .

الثاني : أنهم شهود على المؤمنين بالضلال ، قاله مقاتل .

﴿ إنه هو يُبْدِئُ ويُعيدُ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يحيى ويميت ، قاله ابن زيد .

الثاني : يميت ثم يحيى ، قاله السدي .

الثالث : يخلق ثم يبعث ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : يبدىء العذاب ويعيده ، قاله ابن عباس .

ويحتمل خامساً : يبدىء ما كلف من أوامره ونواهيه ، ويعيد ما جزى عليه من ثواب وعقاب .

﴿ وهو الغَفورُ الوَدُودُ ﴾ في الغفور وجهان :

أحدهما : الساتر للعيوب .

الثاني : العافي عن الذنوب .

وفي الودود وجهان :

أحدهما : المحب .

الثاني : الرحيم .

وفيه ثالث : حكاه المبرد عن اسماعيل بن إسحاق القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وأنشد قول الشاعر :

وأرْكبُ في الرّوْع عُريانةً . . . ذلول الجناح لقاحاً وَدُوداً

(232/810)

أي لا ولد لها تحن إليه ، ويكون معنى الآية أنه يغفر لعباده ، وليس ولد يغفر لهم من أجله ، ليكون بالمغفرة متفضلاً من غير جزاء .

﴿ ذو العَرْشِ المجيدُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الكريم ، قاله ابن عباس .

الثاني : العالي ، ومنه المجد لعلوه وشرفه .

ثم فيه وجهان :

أحدهما : أنه من صفات الله تعالى ، وهو قول من قرأ بالرفع .

الثاني : أنه من صفة العرش ، وهو قول من قرأ بالكسر .

ويحتمل إن كان صفة للعرش وجهاً ثالثاً : أنه المحكم .

﴿ بل هو قُرآنٌ مَجِيْدٌ في لَوْحٍ مَّحفوظٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن اللوح هو المحفوظ عند الله تعالى ، وهو تأويل من قرأ بالخفض .

الثاني : أن القرآن هو المحفوظ ، وهو تأويل من قرأ بالرفع وفيما هو محفوظ منه وجهان :

أحدهما : من الشياطين .

الثاني : من التغيير والتبديل .

وقال بعض المفسرين : إن اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 240 . 244 ﴾

(233/810)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾

قد ذكرنا البروج في [الحجر : 16] ﴿ واليوم الموعود ﴾ هو يوم القيامة بإجماعهم ﴿ وشاهدٍ ومشهود ﴾ فيه أربعة وعشرون قولاً .

أحدها : أن الشاهد ، يوم الجمعة ، والمشهود .

يوم عرفة ، رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه قال علي ، وابن عباس في

رواية ، وابن زيد .

فعلى هذا سمي يومُ الجمعة شاهداً ، لأنه يشهد على كل عامل بما فيه ، وسمي يومُ عرفة مشهوداً ، لأن الناس يشهدون فيه موسم الحج ، وتشهده الملائكة .

والثاني : أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم النحر ، قاله ابن عمر .

والثالث : أن الشاهد : الله عز وجل ، والمشهود : يوم القيامة ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

والرابع : أن الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والخامس : أن الشاهد : محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود : يوم القيامة ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس ، وبه قال الحسن بن علي .

والسادس : أن الشاهد : يوم القيامة ، والمشهود : الناس ، قاله جابر بن عبد الله .

والسابع : أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم القيامة ، قاله الضحاك .

والثامن : أن الشاهد : يوم التروية ، والمشهود : يوم عرفة ، قاله سعيد بن المسيب .

والتاسع : أن الشاهد : هو الله ، والمشهود : بنو آدم ، قاله سعيد بن جبير .

والعاشر : أن الشاهد : محمد ، والمشهود : يوم عرفة ، قاله الضحاك .

والحادي عشر : أن الشاهد : آدم عليه السلام ، والمشهود : يوم القيامة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثاني عشر : أن الشاهد ، ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة ، رواه ليث عن مجاهد ، وبه

قال عكرمة .

الثالث عشر : أن الشاهد : آدم عليه السلام ، وذريته ، والمشهود يوم القيامة ، قاله عطاء بن يسار .

والرابع عشر : أن الشاهد : الإنسان ، والمشهود : الله عز وجل ، قاله محمد بن كعب .

(234/810)

والخامس عشر : أن الشاهد : يوم النحر ، والمشهود : يوم عرفة ، قاله إبراهيم .

والسادس عشر : أن الشاهد : عيسى عليه السلام ، والمشهود ، أمته ، قاله أبو مالك .

ودليله قوله تعالى : ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ﴾ [المائدة : 117] .

والسابع عشر : أن الشاهد : محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود : أمته ، قاله عبد العزيز بن يحيى ، وبيانه ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : 41] .

والثامن عشر : أن الشاهد : هذه الأمة ، والمشهود : سائر الناس ، قاله الحسين بن الفضل ، ودليله ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] .

والتاسع عشر : أن الشاهد : الحفظة ، والمشهود : بنو آدم ، قاله محمد بن علي الترمذي ، وحكي عن عكرمة نحوه .

والعشرون : أن الشاهد : الحق ، والمشهود : الكون ، قاله الجنيد .

والحادي والعشرون : أن الشاهد ، الحجر الأسود ، والمشهود : الحاج.

والثاني والعشرون : أن الشاهد : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والمشهود : محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيانه ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين . . .

.

﴾ الآية [آل عمران : 81] .

والثالث والعشرون : أن الشاهد : الله عز وجل ، والملائكة ، وأولو العلم ، والمشهود : لا إله إلا الله ، وبيانه

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ [آل عمران : 18] ، حكى هذه الأقوال الثلاثة الثعلبي .

والرابع والعشرون : أن الشاهد : الأنبياء عليهم السلام ، والمشهود : الأمم ، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله .

وفي جواب القسم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قوله تعالى : ﴿ إنَّ بطش ربك لشديد ﴾ قاله قتادة ، والزجاج.

والثاني : أنه قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أصحاب الأُخدود ﴾ ، كما أن القسم في قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ قد أفلح ﴾ ، حكاه الفراء .

والثالث : أنه متروك ، وهذا اختيار ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصحابُ الأُخدود ﴾ أي : لُعِنُوا .

والأخدود : شق يشق في الأرض ، والجمع : أخاديد .

(235/810)

وهؤلاء قوم حفروا حفائر في الأرض وأوقدوا فيها النار ، وألقَوا فيها من لم يكفر .

واختلف العلماء فيهم على ستة أقوال .

أحدها : أنه مَلِكٌ كان له ساحر فبعث إليه غلاماً يعلِّمه السحر ، وكان الغلام يمرُّ على راهب ، فأعجبه أمره ، فتبعه ، فعلم به المَلِك ، فأمره أن يرجع عن دينه ، فقال : لا أفعل ، فاجتهد الملك في إهلاكه ، فلم يقدر ، فقال الغلام : لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . اجمع الناس في صعيد واحد ، واصلبني على جذع ، وارمني بسهم من كنانتي ، وقل : بسم الله ربِّ الغلام ، ففعل ، فمات الغلام ، فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فخدَّ الأخاديد ، وأضرم فيها النار ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها ، ففعلوا ، وهذا مختصر الحديث ، وفيه طول ، وقد ذكرته في "المغني" و "الحدائق" بطوله من حديث صهيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أن ملكاً من الملوك سكر ، فوقع على أخته ، فلما أفاق قال لها :

ويحك : كيف المخرج ؟ فقالت له : اجمع أهل مملكتك فأخبرهم أن الله عز وجل قد أَحَلَّ نكاح الأخوات ، فإذا ذهب هذا في الناس وتناسَوه ، خطبتَهم فحرِّمته .

ففعل ذلك ، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، فبسط فيهم السوط ، ثم جرَّد السيف ، فأَبَوْا فخدَّ لهم أخدودا ، وأوقد فيه النار ، وقذف من أبى قبول ذلك ، قاله علي بن طالب .

والثالث : أنهم ناس اقتتل مؤمنوهم وكفارهم ، فظهر المؤمنون ، ثم تعاهدوا أن لا يَغدِر بعضهم ببعض ، فغَدَر كفارهم ، فأخذوهم ، فقال له رجل من المؤمنين : أوقدوا ناراً ، واعرضوا عليها ، فمن تابعكم على دينكم ، فذاك الذي تحبون ، ومن لم يتبعكم أُقحم النار فاسترحتم منه ، ففعلوا ، فجعل المسلمون يقتحمونها ، ذكره قتادة .

والرابع : أن قوماً من المؤمنين اعتزلوا الناس في الفترة ، فأرسل إليهم جبَّار من عبدة الأوثان ، فعرض عليهم الدخول في دينه فأَبَوْا ، فخدَّ لهم أخدودا ، وألقاهم فيه ، قاله الربيع بن أنس .

(236/810)

والخامس : أن جماعة آمنوا من قوم يوسف بن ذي نواس بعد ما رفع عيسى ، فخدَّ لهم أُخدوداً ، وأوقد فيه النار ، فأحرقهم كلهم ، فأنزل الله تعالى : "قُتل أصحاب الأخدود"

وهم : يوسف بن ذي نواس وأصحابه ، قاله مقاتل .

والسادس : أنهم قوم كانوا يعبدون صنماً ، ومعهم قوم يكتمون إيمانهم ، فعلموا بهم ، فخدُّوا لهم أُخدوداً ، وقذفوهم فيه ، حكاه الزجاج .

واختلفوا في الذين أُحرقوا على خمسة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا من الحبشة ، قاله علي كرم الله وجهه .

والثاني : من بني إسرائيل ، قاله ابن عباس .

والثالث : من أهل اليمن ، قاله الحسن .

وقال الضحاك : كانوا من نصارى اليمن ، وذلك قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة .

والرابع : من أهل نجران ، قاله مجاهد .

والخامس : من النبط ، قاله عكرمة .

وفي عددهم ثلاثة أقوال .

أحدها : اثنا عشر ألفاً ، قاله وهب .

والثاني : سبعون ألفاً ، قاله ابن السائب .

والثالث : ثمانون رجلاً ، وتسعة نسوة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ النَّارِ ذاتِ الوقُود ﴾ هذا بدل من "الأخدود" كأنه قال : قتل أصحاب

النار ، و "الوقود" مفسر في [البقرة : 24] .

وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة "الوُقُود" بضم الواو ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ أي : عند النار .

وكان الملك وأصحابه جلوساً على الكراسي عند الأخدود يعرضون المؤمنين على الكفر ، فمن أبى أُلْقَوْه ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي : حضور ، فأخبر الله عز وجل في هذه الآيات بقصة قوم بلغ من إيمانهم ويقينهم أن صبروا على التحريق بالنار ، ولم يرجعوا عن دينهم .

قوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم ﴾ قرأ ابن أبي عبلة "نِقموا" بكسر القاف .

قال الزجاج : ﴿ أي ﴾ ما أنكروا عليهم إيمانهم .

وقد شرحنا معنى "نقموا" في [المائدة : 59] و [براءة : 74] وشرحنا معنى "العزيز الحميد" في [البقرة : 129 ، 267] .

(237/810)

قوله تعالى : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي : لم يَخْفَ عليه ما صنعوا ، فهو شهيد عليهم بما فعلوا .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي : أحرقوهم ، وعذَّبوهم .

كقوله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ [الذاريات : 13] ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ من شركهم وفعلهم ذلك بالمؤمنين ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ بكفرهم ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ بما أحرقوا المؤمنين ، وكلا العذابَيْن في جهنم عند الأكثرين .

وذهب الربيع بن أنس في جماعة إلى أن النار ارتفعت إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، فذلك عذاب الحريق في الدنيا .

قال الربيع : وقبض الله أرواح المؤمنين قبل أن تمسَّهم النار .

وحكى الفراء أن المؤمنين نَجوْا من النار ، وأنها ارتفعت فأحرقت الكفرة .

قوله تعالى : ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ لأنهم فازوا بالجنة .

وقال بعض المفسرين : فازوا من عذاب الكفار ، وعذاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إن بطش ربك ﴾ قال ابن عباس : إن أخذه بالعذاب إذا أَخَذَ الظَّلَمَة والجبابرة لشديد .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو يُبْدِئُ ويعيدُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يبدئ الخلق ويعيدهم ، قاله الجمهور .

والثاني : يبدئ العذاب في الدنيا على الكفار ثم يعيده عليهم في الآخرة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وقد شرحنا في [هود : 90] معنى "الودود" .

قوله تعالى : ﴿ ذو العرش المجيدُ ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم "المجيدِ" بالخفض ، وقرأ غيرهم بالرفع ، فمن رفع "المجيدُ" جعله من صفات الله عز وجل ، ومن كسر جعله من صفة العرش .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ﴾ أي : قد أتاك حديث ﴿ الجنودِ ﴾ وهم الذين تجنَّدوا على أولياء الله .

(238/810)

ثم بَيَّن من هم ، فقال تعالى : ﴿ فرعونَ وثمودَ بل الذين كفروا ﴾ يعني : مشركي مكة ﴿ في تكذيبٍ ﴾ لك والقرآن ، أي : لم يعتبروا بمن كان قبلهم ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ﴿ بل هو قرآنٌ مجيدٌ ﴾ أي : كريم ، لأنه كلام الله ، وليس كما يقولون بشعر ، ولا كهانة ، ولا سِحر .

وقرأ أبو العالية ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وابن السميفع "بل هو قرآن مجيد" بغير تنوين وبخفض "مجيد" ﴿ في لوحٍ محفوظٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، منه نسخ القرآن وسائر الكتب ، فهو محفوظ عند الله ، محروس به من الشياطين ، ومن الزيادة فيه والنقصان منه .

وقرأ نافع "محفوظ" رفعاً على نعت القرآن .

فالمعنى : إنه محفوظ من التحريف والتبديل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 79.70 ﴾

(239/810)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والسّماء ذات البروج ﴾

يعني البروج الاثني عشر وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب حكمة الباري جلّ جلاله ، وهو سير الشّمس والقمر الكواكب فيها على قدر معلوم لا يختلف وقيل البروج والكواكب العظام سميت بروجاً لظهورها ﴿ واليوم الموعود ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اليوم الموعود يوم القيامة ، والمشهود يوم عرفة ، والشّاهد يوم الجمعة ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه الله منه " أخرجه الترمذي وضعف أحد رواته من قبل حفظه وهذا قول ابن عباس والأكثرين أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم

عرفة وقيل الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر وقيل الشاهد يوم التّروية ، والمشهود يوم عرفة وإنما حسن القسم بهذه الأيام لعظمها وشرفها ، واجتماع المسلمين فيها ، وقيل الشاهد هو الله تعالى والمشهود يوم القيامة ، وقيل الشّاهد هم الأنبياء والمشهود أي عليهم هم الأمم وقيل الشاهد هو الملك والمشهود أي عليه هو آدم وذريته ، وقيل الشّاهد هذه الأمة ونبيها (صلى الله عليه وسلم) والمشهود عليهم هم الأمم المتقدمة ، وقيل الشّاهد الأنبياء والمشهود له هو محمد (صلى الله عليه وسلم) لأن الأنبياء قبله شهدوا له بالنبوة وقوله ، ﴿ والسّماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود ﴾ أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها ، وعظمها .

وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أي لعن وقتل وقيل جوابه ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ والأخدود الشق المستطيل في الأرض .

(240/810)

واختلفوا فيهم فروي عن صهيب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال "كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه ، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب فقعد

إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى السّاحر مر بالراهب ، وقعد إليه فإذا أتى السّاحر ضربه ، إذا رجع من الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه ، فإذا أتى أهله ضربوه فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر ، فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال اليوم أعلم الرّاهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً ثم قال اللّهم إن كان أمر الرّاهب أحب إليك من أمر السّاحر ، فاقتل هذه الدّابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها فمضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني أنت أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك مبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوي النّاس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما ها هنالك أجمع إن أنت شفيتني قال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فإن آمنت بالله دعوت فشفاك فآمن به فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك فقال ربي : فقال أو لك رب غيري قال ربي ، وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام فجيء بالغلام ، فقال له الملك أي بني إنه قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الرّاهب فجيء له بالرّاهب ، فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالميشار فوضع الميشار

في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك ، فقيل له ارجع عن دينك فدعا بالميشار فوضع الميشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام

(241/810)

فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللّهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل ، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله تعالى فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به فقال : وما هو قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع نخل ثم خذ سهماً من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل بسم الله رب الغلام ثم ارمني به فإنك إن فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع

السهم في صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ثلاثاً ، فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد ، والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالأخدود في أفواه السّكك فخدت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ففعلوا ذلك حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أماه اصبري ولا تقاعسي فإنك على الحق "

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم .

(242/810)

وفي هذا الحديث إثبات كرامات الأولياء ، وفيه جواز الكذب في مصلحة ترجع إلى الدين ، وفيه إنقاذ النفس من الهلاك والأكمه هو الذي خلق أعمى ، والميشار بالياء وتخفيف الهمزة وروي بالنون وذروة الجبل بالضم والكسر أعلاه ، ورجف تحرك واضطرب والقرقور بضم القاف الأولى السفينة الصغيرة وانكفأت انقلبت ، والصّعيد هنا الأرض البارزة والسّكك الطّرق والأخدود الشّق العظيم في الأرض ، وأقحموه أي ارموه وتقاعست أي تأخرت وكرهت الدخول في النار .

وقال ابن عباس : " كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل

بن شراحيل في الفترة قبل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) بسبعين سنة ، وكان في بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر ، وكان أبوه يسلمه إلى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بداً من طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلم وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت فأعجبه ذلك " .

وذكر نحو حديث صهيب وقال وهب بن منبه : إن رجلاً كان قد بقي على دين عيسى ، فوقع إلى نجران فأحبوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير وخيرهم بين النّار واليهودية ، فأبوا عليه فخدّ الأخدود وحرق اثني عشر ألفاً ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً ، فاقتحم البحر بفرسه فغرق .

وقال : محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر إن خربة احتفرت في زمن عمر بن الخطاب ، فوجدوا عبد الله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه ، إذا أميطت يده عنها انبعثت دماً ، وإذا تركت ارتدت مكانها وفي يده خاتم حديد فيه مكتوب ربي الله فبلغ ذلك عمر ، فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه .

(243/810)

وقال سعيد بن جبير وابن أبزى لما انهزم أهل اسفندهار ، قال : عمر بن الخطاب أيُّ شيء يجري على المجوس من الأحكام ، فإنهم ليسوا بأهل كتاب ، فقال علي بن أبي طالب بلى قد كان لهم كتاب ، وكانت الخمر قد أحلّت لهم فتناولها ملك من ملوكهم ، فغلبت على عقله فوقع على أخته فلما ذهب عنه السكر ندم ، وقال لها ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه قالت : المخرج منه أنّك تخطب الناس وتقول إنّ الله قد أحل نكاح الأخوات فإذا ذهب في الناس وتناسوه خطبتهم فحرمته .

فقام خطيباً بذلك فقال إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات فقال الناس بأجمعهم معاذ الله أن نؤمن بهذا أو نقر به ، ما جاءنا به من نبي ، ولا أنزل علينا في كتاب ، فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا ، فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا به فجرد لهم الأخدود ، وأوقدوا فيها النيران وعرضهم عليها فمن أبى قذفه في النار ومن أجاب أطلقه .

وقوله تعالى : ﴿ النار ذات الوقود ﴾ ، هو تعظيم لأمر تلك النار قال الربيع بن أنس نجى الله المؤمنين الذين ألقوا في النار يقبض أرواحهم ، قبل أن تمسهم النار وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفار فأحرقتهم ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ ، أي جلوس عند الأخدود ﴿ وهم ﴾ يعني الملك الذي خد الأخدود وأصحابه ﴿ على ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ أي من عرضهم على النار وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم ﴿ شهود ﴾ أي حضور وقيل يشهدون أن المؤمنين ضلال حين تركوا عبادة الصنم ، ﴿ وما نقموا منهم ﴾

قال ابن عباس ما كرهوا منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله ﴾ ، وقيل ما عابوا ولا علموا فيهم عيباً إلا إيمانهم بالله ﴿ العزيز ﴾ ، يعني إن الذي يستحق العبادة هو الله العزيز الغالب القاهر الذي لا يغالب ولا يدافع ، ﴿ الحميد ﴾ يعني الذي يستحق أن يحمد ويثنى عليه ، وهو أهل لذلك وهو الله جل جلاله ، ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ أي فهو المستحق للعبادة ﴿ والله على كل شيء ﴾ أي من أفعالهم بالمؤمنين .

(244/810)

﴿ شهيد ﴾ وفيه وعد عظيم للمؤمنين ووعيد عظيم للكافرين .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إن الذين فتنوا ﴾ أي عُذِّبوا وأحرِقُوا ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي بالنار ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي لم يرجعوا عما هم عليه من الكفر وفيه دليل على أنهم إذا تابوا وآمنوا يقبل منهم ، ويخرجون من هذا الوعيد ، وأن الله تعالى يقبل منهم التوبة ، وأن توبة القاتل مقبولة ، وأنهم إن لم يتوبوا ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ يعني لهم عذاب جهنم بكفرهم ، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين ، وقيل لهم عذاب الحريق في الدنيا وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت إليهم من الأخدود فأحرقتهم ، ولهم عذاب جهنم في الآخرة ثم ذكر ما أعد للمؤمنين .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ قال ابن عباس إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد .

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أي يخلقهم أولاً في الدنيا ، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت ليجازيهم بأعمالهم في القيامة ﴿ وهو الغفور ﴾ يعني لذنوب جميع المؤمنين .

﴿ الودود ﴾ أي المحب لهم ، وقيل المحبوب أي يوده أولياؤه ويحبونه ، وقيل يغفر ويود أن يغفر ، وقيل هو المتودد إلى أوليائه بالمغفرة .

﴿ ذو العرش ﴾ أي خالقه ومالكه .

﴿ المجيد ﴾ قرىء بالرفع على أنه صفة لله تعالى لأن المجد من صفات التعالي والجلال ، وذلك لا يليق إلا بالله تعالى .

وقرىء المجيد بالكسر على أنه صفة للعرش أي للسرير العظيم إذ لا يعلم صفة العرش وعظمته إلا الله تعالى وقيل أراد حسنه فوصفه بالمجيد فقد قيل إن العرش أحسن الأجسام ، ثم قال تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ يعني أنه لا يعجزه شيء ولا يمنع منه شيء طلبه ، وقيل فعال لما يريد لا يعترض عليه معترض ، ولا يغلبه غالب ، فهو يدخل أولياءه الجنة برحمته ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر .

﴿ هل أتاك ﴾ أي قد أتاك ﴿ حديث الجنود ﴾ أي خبر الجموع الكافرة الذين تجندوا على الأنبياء ثم بين من هم فقال تعالى : ﴿ فرعون ﴾ يعني وقومه ﴿ وثمود ﴾ وكانت قصتهم عند أهل مكة مشهورة ﴿ بل الذين كفروا ﴾ أي من قومك يا محمد .

﴿ في تكذيب ﴾ يعني لك وللقرآن كما كذب من كان قبلهم من الأمم ، ولم يعتبروا بمن أهلكنا منهم ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ ، أي عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم .

﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي كريم شريف كثير النفع والخير ليس هو كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة .

﴿ في لوح محفوظ ﴾ قرىء بالرفع على أنه نعت للقرآن ، محفوظ يعني أن القرآن من التبديل والتغيير والتحريف ، وقرىء محفوظ بالكسر على أنه نعت للوح لأنه يعرف باللوح المحفوظ وهو أم الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب وسمي محفوظاً لأنه حفظ من الشياطين من الزيادة والنقص ، وهو عن يمين العرش ، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال " إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عزّ

وجلّ وصدق بوعده واتبع رسله ، أدخله الجنة " وقال : واللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه من نور ، وكلامه سر معقود بالعرش وأصله في حجر ملك والله تعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 226 . 232 ﴾

(246/810)

وقال النسفى :

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ هي البروج الاثنا عشر .

وقيل : النجوم أو عظام الكواكب ﴿ واليوم الموعود ﴾ يوم القيامة ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ أي وشاهد في ذلك اليوم ومشهود فيه ، والمراد بالشاهد من يشهد فيه من الخلائق كلهم ، وبالمشهود فيه ما في ذلك اليوم من عجائبه .

وطريق تنكيرهما إما ما ذكرته في قوله ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14]

كأنه قيل : ما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود ، وإما للإبهام في الوصف كأنه قيل : وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما .

وقد كثرت أقاويل المفسرين فيهما فقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ويوم القيامة أو عيسى وأمته لقوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة : 117] .

أو أمة محمد وسائر الأمم ، أو الحجر الأسود والحجيج ، أو الأيام والليالي وبنو آدم للحديث : " ما من يوم إلا وينادي أنا يوم جديد وعلى ما يفعل فيّ شهيد فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة " أو الحفظة وبنو آدم ، أو الله تعالى والخلق لقوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [الفتح : 28] [النساء : 79] أو الأنبياء ومحمد عليهم السلام .

وجواب القسم محذوف يدل عليه ﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدود ﴾ أي لعن كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء إنهم ملعونون يعني كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود ، وهو خد أي شق عظيم في الأرض .

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضموا إليه غلاماً ليعلمه السحر .

وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس فأخذ حجراً فقال : " اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها " فقتلها فكان

الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص .

وعمي جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربي .

(247/810)

فغضب فعذبه فدل على الغلام ، فعذبه فدل على الراهب ، فلم يرجع الراهب عن دينه فقدّ بالمنشار ، وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا ، فذهب به إلى قرقور فلجّجوا به ليغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا فقال للملك : لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول : باسم الله رب الغلام ثم ترميني به ، فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه فمات فقال الناس : آمنا برب الغلام .

فقيل للملك : نزل بك ما كنت تحذر .

فخدّ أخدوداً وملأها ناراً فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبي : يا أماه اصبري فإنك على الحق فألقي الصبي وأمه فيها ﴿ النار ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ ذَاتِ الوقود ﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لقتل أي لعنوا حين

أحرقوا بالنار قاعدين حولها ﴿ هُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي الكفار على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿ قُعُودٌ ﴾ جلوس على الكراسي ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الكفار ﴿ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين ﴾ من الإحراق ﴿ شُهُودٌ ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب ، وفيه حث للمؤمنين على الصبر وتحمل أذى أهل مكة ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

وقوله :

ما نقموا من بني أمية إل . . .

لاّ أنهم يحلمون إن غضبوا

(248/810)

وقرىء ﴿ نَقَمُواْ ﴾ بالكسر والفصيح هو الفتح ﴿ بالله العزيز الحميد ﴾ ذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به وهو كونه عزيزاً غالباً قادرا يخشى عقابه حميداً منعماً يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه ﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقريراً لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل ، وأن

الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب عظيم ﴿ والله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وعيد لهم يعني أنه علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه .

﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصة وبالذين آمنوا المطروحين في الأخدود ، ومعنى فتنوهم عذبوهم بالنار وأحرقوهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ لم يرجعوا عن كفرهم ﴿ فَلَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ بكفرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ في الدنيا لما رُوي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم ، ويجوز أن يريد الذين فتنوا المؤمنين أي بلوهم بالأذى على العموم والمؤمنين المفتونين ، وأن للفاتنين عذابين في الآخرة لكفرهم ولفتنتهم .

﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾ أي الذين صبروا على تعذيب الأخدود أو هو عام ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ البطش : الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ، والمراد أخذه الظلمة والجبابرة بالعذاب والانتقام ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ أي يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد أن صيرهم تراباً ، دل باقتداره على الابداء والإعادة على شدة بطشه ، أو أوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الابداء وكذبوا بالإعادة ﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ الساتر للعيوب العافي عن الذنوب ﴿ الودود ﴾ المحب لأوليائه .

وقيل : الفاعل لأهل الطاعة ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا ﴿ ذُو العرش ﴾ خالقه ومالكه ﴿ المجيد ﴾ وبالجر : حمزة وعلي على أنه صفة للعرش ومجد الله عظمته ومجد العرش علوه وعظمه ﴿ فَعَّالٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ تكوينه فيكون فيه دلالة خلق أفعال العباد .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود ﴾ أي قد أتاك خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من ﴿ الجنود ﴾ وأراد بفرعون إياه وآله والمعنى قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ من قومك ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ واستيجاب للعذاب ولا يعتبرون بالجنود لا لخفاء حال الجنود عليهم لكن يكذبونك عناداً ﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ أي عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه ، والإحاطة بهم من ورائهم مثل لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت الشيء المحيط به ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ بل هذا الذي كذبوا به ﴿ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾ شريف عالي الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه ليس كما يزعمون أنه مفترى وأنه أساطير الأولين ﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ من وصول الشياطين إليه ﴿ مَّحْفُوظٍ ﴾ : نافع صفة للقرآن أي من التغيير والتبديل .

واللوح عند الحسن شيء يلوح للملائكة فيقرؤونه ، وعند ابن عباس رضي الله عنهما وهو من درة بيضاء طولها ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، قلمه نور

وكل شيء فيه مسطور .

مقاتل : هو على يمين العرش .

وقيل : أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر ملك كريم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 344 . 347 ﴾

(250/810)

وقال ابن جزى :

﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾

البروج هي المنازل المعروفة وهي اثنا عشر ، تقطعها الشمس في السنة ، وقيل : هي النجوم العظام ، لأنها تتبرج أي تظهر ﴿ واليوم الموعود ﴾ هو يوم القيامة ، باتفاق ، وقد ذكر عن رسول الله صل الله عليه وسلم .

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ يحتمل الشاهد والمشهود أن يكون من الشهادة على الأمر ، أو يكون من معنى الحضور ، وحذف المعمول وتقديره : مشهود عليه أو مشهود به أو مشهود فيه .

(251/810)

وقد اضطرب الناس في تفسير الشاهد والمشهود اضطراباً عظيماً ، ويتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولاً : يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولاً ، الأول : أن الشاهد هو الله تعالى لقوله ﴿ وكفى بالله شَهِيداً ﴾ [النساء : 79 ، 166 ، الفتح : 28] ؛ والمشهود على هذا يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون الخلق بمعنى أنه يشهد عليهم ، والآخر أن تكون الأعمال بمعنى أنه يشهد بها ، والثالث أن يكون يوم القيامة ، بمعنى أنه يشهد فيه أي يحضر للحساب والجزاء ، أو تقع فيه الشهادة على الناس ، القول الثاني : أن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ [الحج : 87] والمشهود على هذا يحتمل أن يكوم أمته ؛ لأنه يشهد عليهم أو أعمالهم ، لأنه يشهد بها أو يوم القايمة لأنه يشهد فيه ، أي يحضر أو تقع فيه الشهادة على الأمة ، القول الثالث : أن الشاهد أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] والمشهود على هذا سائر الأمم ؛ لأنهم يشهدون عليهم لقوله : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة : 117] أو أعمالهم ، أو يوم القيامة . الخامس : أن الشاهد جميع الأنبياء ، والمشهود أممهم لأن كل نبيّ يشهد على أمته ، أو يشهد القول بأعمالهم أو يوم القيامة ؛ لأنه يشهد فيه ، القول السادس : أن الشاهد الملائكة الحفظة والمشهود على هذا الناس ؛ لأن الملائكة يشهدون عليهم أو الأعمال لأن الملائكة يشهدون

بها أو يوم القيامة ، أو صلاة الصبح لقوله : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء : 78] القول السابع : أن الشاهد جميع الناس ، لأنهم يشهدون يوم القيامة أي يحضرونها ، والمشهود يوم القيامة لقوله : ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] والقول الثامن : أن الشاهد الجوارح والمشهود عليه أصحابها ، لقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ

(252/810)

عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ [النور : 24] أو الأعمال ؛ لأن الجوارح تشهد بها يوم القيامة ؛ لأن الشهادة تقع فيه ، القول التاسع : أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم لقوله : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [آل عمران : 18] والمشهود به الوحدانية ، القول العاشر : الشاهد جميع المخلوقات والمشهود به وجود خالقها وإثبات صفاته من الحياة والقدرة وغير ذلك ، القول الحادي عشر : أن الشاهد النجم لما ورد في الحديث : " لا صلاة بعد العصر حتى يطلع الشاهد وهو النجم "

والمشهود على هذا الليل والنهار ؛ لأن النجم يشهد بإنقضاء النهار ودخول الليل ، القول الثاني عشر : أن الشاهد الحجر الأسود والمشهود الناس الذي يحجون . القول الثالث عشر : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة

وذلك أن يوم الجمعة يشهد بالأعمال ويوم عرفة يشهده جمع عظيم من الناس ، القول الرابع عشر : أن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر قاله علي بن أبي طالب . القول الخامس عشر : أن الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة . القول السادس عشر أن الشاهد يوم الاثنين والمشهود يوم الجمعة .

(253/810)

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ الكلام هنا في ثلاثة فصول : الأول : في جواب القسم وفيه أربعة أقوال ؛ أحدها : أنه قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] والثاني أنه : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] وهذان القولان ضعيفان لبعد القسم من الجواب ، وثالثها أنه " قتل أصحاب الأخدود " تقديره : لقد قتل ورابعها أنه محذوف يدل عليه " قتل أصحاب الأخدود " تقديره : لقد قتل هؤلاء الكفار كما قتل أصحاب الأخدود ، وذلك أن الكفار من قريش كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام ، فذكر الله قصة أصحاب الأخدود وعيداً للكفار وتأنيساً للمسلمين المعذبين ، الفصل الثاني في تفسير لفظها ، فأما " قتل " فاختلف هل هو دعاء أو خبر ؟ واختلف هل هو بمعنى القتل حقيقة أو بمعنى اللعن ؟ وأما الأخدود فهو الشق في الأرض كالخندق

وشبهه ، وأما أصحاب الأخدود فيحتمل أن يريد بهم الكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود ، أو يريد المؤمنين في الأخدود ، أو يريد المؤمنين الذين حرقوا فيه ، فيكون القتل حقيقة خبر ، أو الأول أظهر . الفصل الثالث في قصة أصحاب الأخدود وفيها أربعة أقوال : الأول ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل معناه : " أن ملكاً كافراً أسلم أهل بلده ، فأمر بالأخدود فخدّ في أفواه السكك وأضرم فيها النيران فقال : من لم يرجع عن دينه فألقوه فيها ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : يا أماه اصبري فإنك على الحق " الثاني أن ملكاً زنى بأخته ثم أراد أن يحلل للناس نكاح الأخوات فأطاعه قوم ومنهم أخذ المجوس ذلك ، عصاه قوم فحفر لهم الأخدود فأحرقهم فيه بالنار ، القول الثالث أن نبي أصحاب الأخدود كان حبشياً ، وأن الحبشة بقية أصحاب الأخدود . القول الرابع أن أصحاب الأخدود ذو نواس المذكور في قصة عبد الله بن التامر التي وقعت السير .

(254/810)

ويحتمل أن يكون ذو نواس الملك الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيتفق هذا القول مع الأول فإن ذا نواس حفر أخدوداً فأوقد فيه نيراناً وألقى فيها كل من وحد الله تعالى واتبع

العبد الصالح عبد الله بن التامر .

﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾ النار بدل من الأخدود ، وهو بدل اشتمال ، والوقود ما توقد به النار ، والقصد وصف النار بالشدة والعظم ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ الضمير للكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود ، وهم أصحاب الأخدود على الأظهر . والعامل في " إذ " قوله : " قتل " فروي أن النار أحرقت من المؤمنين عشرين ألفاً ، وقيل : سبعين ألفاً ، فقتل على هذا بمعنى لعن أي لعنوا حين قعدوا على النار لتحريق المؤمنين ، وروي أن الله بعث على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم وخرجت النار فأحرقت الكفار الذين كانوا عليها ، فقتل على هذا بمعنى القتل الحقيقي أي قتلتهم النار ؛ وقيل : الضمير في إذ هم للمؤمنين ، والأول أشهر وأظهر لقوله : ﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الشهادة أي : يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه فعل ما أمره الملك من التحريق ، أو يشهدون بذلك على أنفسهم يوم القيامة ، أو يكون بمعنى الحضور أي كانوا حاضرين على ذلك الفعل ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله ﴾ أي ما أنكر الكفار على المؤمنين إلا أنهم آمنوا بالله ، وهذا لا ينبغي أن ينكر . فإن قيل : لم قال أن يؤمنوا بلفظ المضارع ولم يقل آمنوا بلفظ الماضي لأن القصة قد وقعت ؟ فالجواب : أن التعذيب إنما كان على دوامهم على الإيمان ، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوهم ، فلذلك ذكره بلفظ المستقبل فكأنه قال : إلا أن يدوموا على الإيمان .

﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق ، وإن كانت في كفار قريش فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب ، وهذا أظهر لقوله : ثم لم يتوبوا ، لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا بل ماتوا على كفرهم . وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب ، وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حال كفره لقوله صلى الله عليه وسلم : " الإسلام يجبُّ ما قبله " ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ يحتمل أن يكون في الآخرة ، فيكون تأكيداً لعذاب جهنم ، أو نوعاً من العذاب زيادة إلى عذاب جهنم . ويحتمل أن يريد في الدنيا ، وذلك على رواية أن الكفار أصحاب الأخدود أحرقتهم النار .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ البطش الأخذ بقوة وسرعة ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ أي يبدئ الخلق بالنشأة الأولى ، ويعيدهم بالنشأة الآخرة للبعث ، وقيل : يبدئ البطش ويعيده أي يبطش بهم في الدنيا والآخرة ، والأول أظهر وأرجح لقوله : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 4] وقد ذكرنا الودود في اللغات ﴿ ذُو العرش المجيد ﴾ أضاف العرش إلى الله وخصة بالذكر لأن العرش أعظم المخلوقات ، والمجيد من المجد وهو الشرف ورفعة

القدر ، وقرئ المجيد بالرفع صفة لذو العرش وقرأ حمزة والكسائي بالخفض صفة للعرش .

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ توقيف يراد به التنبيه وتعظيم الأمر ، والمراد بذكر الجنود تهديد الكفار وتأنيس النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ واللهِ مِن وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ تهديد لهم معناه لا يفوتونه بل يصيبهم عذابه إذا شاء .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ يعني اللوح المحفوظ الذي في السماء وقرئ محفوظ بالخفض صفة للوح وقرأ نافع محفوظ بالرفع صفة للقرآن ، أي حفظه الله من التبديل والتغيير ، أو حفظه المؤمنون في صدورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 188 . 191 ﴾

(256/810)

وقال البيضاوى :

سورة البروج

مكية وآيها ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾

يعني البروج الاثني عشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات وتكون فيها الثوابت ، أو

منازل القمر أو عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها ، أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها وأصل التركيب للظهور .

﴿ واليوم الموعود ﴾ يوم القيامة .

﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق وما أحضر فيه من العجائب ، وتنكيرهما للإبهام في الوصف أي ﴿ وشاهد وَمَشْهُودٍ ﴾ لا يكتنه وصفهما ، أو المبالغة في الكثرة كأنه قيل : ما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود ، أو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته ، أو أمته وسائر الأمم ، أو كل نبي وأمته ، أو الخالق والخلق ، أو عكسه فإن الخالق مطلع على خلقه وهو شاهد على وجوده ، أو الملك الحفيظ والمكلف أو يوم النحر ، أو عرفة والحجيج ، أو يوم الجمعة والجمع فإنه يشهد له أو كل يوم وأهله .

(257/810)

﴿ قُتِلَ أَصحاب الأخدود ﴾ قيل إنه جواب القسم على تقدير لقد ﴿ قَتْلَ ﴾ ، والأظهر أنه دليل جواب محذوف كأنه قيل إنهم ملعونون يعني كفار مكة لعن أصحاب الأخدود ، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم ، والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق . روي

مرفوعاً : " أن ملكاً كان له ساحراً فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه ، وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه ، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً وقال : اللَّهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فقتلها ، وكان الغلام بَعْدُ يبرىء الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء ، وعمي جليس الملك فأبرأه ، فسأله الملك عمن أبرأه فقال ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه ، فدل على الراهب فقده بالمنشار ، وأرسل الغلام إلى جبل ليطرح من ذروته ، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجا ، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا ، فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول : بسم الله رب هذا الغلام ، ثم ترميني به فرماه فوقع في صدغه فمات ، فآمن الناس برب الغلام ، فأمر بأخاديد وأوقدت فيها النيران ، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي : يا أماه اصبري فإنك على الحق فاقتحمت " وعن علي رضي الله تعالى عنه . كان بعض ملوك المجوس خطب الناس وقال : إن الله أحل نكاح الأخوات فلم يقبلوه ، فأمر بأخاديد النار فطرح فيها من أبى ، وقيل لما تنصر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير فأحرق في الأخاديد من لم يرتد .

﴿ النار ﴾ بدل من ﴿ الأخدود ﴾ بدل الاشتمال . ﴿ ذَاتِ الوقود ﴾ صفة لها

بالعظمة وكثرة ما يرتفع بها لهبها ، واللام في ﴿ الوقود ﴾ للجنس .

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا ﴾ على حافة النار . ﴿ قُعُودٌ ﴾ قاعدون .

(258/810)

﴿ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به ، أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم .

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ وما أنكروا . ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد ﴾ استثناء على طريقة قوله :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم . . . بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ووصفه بكونه عزيزاً غالباً يخشى عقابه حميداً منعماً يرجى ثوابه وقرر ذلك بقوله :

﴿ الذى لَهُ مُلْكُ السموات والارض وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٍ ﴾ للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويعبد .

﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ بلوهم بالأذى . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ بكفرهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ العذاب الزائد في الاحراق بفتنتهم . بل المراد ب ﴿ الذين فَتَنُواْ ﴾ ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ وب ﴿ عَذَابَ الحريق ﴾ ما روي أن النار

انقلبت عليهم فأحرقتهم .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ مضاعف عنفه فإن البطش أخذ بعنف .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ ﴿ يُبْدِىءُ ﴾ الخلق ويعيده ، أو ﴿ يُبْدِىءُ ﴾ البطش بالكفرة في الدنيا ويعيده في الآخرة .

﴿ وَهُوَ الغفور ﴾ لمن تاب . ﴿ الودود ﴾ المحب لمن أطاع .

﴿ ذُو العرش ﴾ خالقه ، وقيل المراد ب ﴿ العرش ﴾ الملك ، وقرىء "ذي العرش" صفة ل ﴿ رَبَّكَ ﴾ . ﴿ المجيد ﴾ العظيم في ذاته وصفاته ، فإنه واجب الوجود تام القدرة والحكمة ، وجره حمزة والكسائي صفة ل ﴿ رَبَّكَ ﴾ ، أول ﴿ العرش ﴾ ومجده علوه وعظمته .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ لا يمتنع عليه مراد من أفعاله وأفعال غيره .

(259/810)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أبدلهما من الجنود لأن المراد ب ﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ هو وقومه ، والمعنى قد عرفت تكذيبهم للرسل وما حاق بهم فتسل واصبر على تكذيب قومك وحذرهم مثل ما أصابهم .

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ لا يرعوون عنه ، ومعنى الإِضراب أن حالهم أعجب من حال هؤلاء فإنهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشد من تكذيبهم .

﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ ﴾ بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف وحيد في النظم والمعنى ، وقرىء ﴿ قرآن مجيد ﴾ بالإِضافة أي قرآن رب مجيد .

﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ من التحريف ، وقرأ نافع "مَّحْفُوظٍ" بالرفع صفة ل ﴿ القرءان ﴾ ، وقرىء ﴿ فِى لَوْحٍ ﴾ وهو الهواء يعني ما فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل جمعة وعرفة تكون في الدنيا عشر حسنات " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 475.472 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة البروج

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

﴿ ذات البروج ﴾ ، قال ابن عباس والجمهور : هي المنازل التي عرفتها العرب ، وهي اثنا عشر على ما قسمته ، وهي التي تقطعها الشمس في سنة ، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً .

وقال عكرمة والحسن ومجاهد : هي القصور .

وقال الحسن ومجاهد أيضاً : هي النجوم .

وقيل : عظام الكواكب ، سميت بروجاً لظهورها .

وقيل : هي أبواب السماء ؛ وقد تقدم ذكر البروج في سورة الحجر .

﴿ واليوم الموعود ﴾ : هو يوم القيامة ، أي الموعود به .

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ : هذان منكران ، وينبغي حملهما على العموم لقوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ وإن كان اللفظ لا يقتضيه ، لكن المعنى يقتضيه ، إذ لا يقسم بنكرة ولا يدري من هي .

فإذا لوحظ فيها معنى العموم ، اندرج فيها المعرفة فحسن القسم .

وكذا ينبغي أن يحمل ما جاء من هذا النوع نكرة ، كقوله : ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾

ولأنه إذا حمل ﴿ وكتاب مسطور ﴾ على العموم دخل فيه معنيان : الكتب الإلهية ، كالتوراة والإنجيل والقرآن ، فيحسن إذ ذاك القسم به .

ولما ذكر واليوم الموعود ، وهو يوم القيامة باتفاق ، وروي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ناسب أن يكون المقسم به من يشهد في ذلك اليوم ومن يشهد عليه .

إن كان ذلك من الشهادة ، وإن كان من الحضور ، فالشاهد : الخلائق الحاضرون للحساب ، والمشهود : اليوم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ كان موعوداً به فصار مشهوداً ، وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيينهما .

(261/810)

وعن ابن عباس : الشاهد : الله تعالى ؛ وعنه وعن الحسن بن علي وعكرمة : الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؛ وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار : آدم عليه السلام وذريته ؛ وعن ابن عباس أيضاً والحسن : الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي كل قوم منها المشهود يوم القيامة ؛ وعن علي وابن عباس وأبي هريرة والحسن وابن المسيب وقتادة : وشاهد يوم الجمعة ؛ وعن ابن المسيب : يوم التروية ؛ وعن علي أيضاً : يوم القيامة ؛ وعن النخعي : يوم الأضحى .

ومشهود في هذه الأقوال يوم عرفة ؛ وعن ابن عمر : يوم الجمعة ، ومشهود يوم النحر ؛ وعن جابر : يوم الجمعة ، ومشهود الناس ؛ وعن محمد بن كعب : ابن آدم ، ومشهود الله تعالى ؛ وعن ابن جبير : عكس هذا ؛ وعن أبي مالك : عيسى ، ومشهود أمته ، وعن علي : يوم عرفة ، ومشهود يوم النحر ؛ وعن الترمذي : الحكيم الحفظة ، ومشهود عليهم : الناس ؛ وعن عبد العزيز بن يحيى : محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومشهود عليه أمته ؛ وعنه : الأنبياء ، ومشهود أممهم ؛ وعن ابن جبير ومقاتل الجوارح يوم القيامة ، ومشهود أصحابها .

وقيل : هما يوم الاثنين ويوم الجمعة .

وقيل : الملائكة المتعاقبون وقرآن الفجر .

وقيل : النجم والليل والنهار .

وقيل : الله والملائكة وأولو العلم ، ومشهود به الوحدانية ، و ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وقيل : مخلوقاته تعالى ، ومشهود به وحدانيته .

وقيل : هما الحجر الأسود والحجج .

وقيل : الليالي والأيام وبنو آدم .

وقيل : الأنبياء ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وهذه أقوال سبعة وعشرون لكل منها متمسك ، وللصوفية أقوال غير هذه .

والظاهر ما قلناه أولاً ، وجواب القسم قيل محذوف ، فقيل : لتبعثن ونحوه .

وقال الزمخشري : يدل عليه ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ .

وقيل : الجواب مذكور فقيل : ﴿ إن الذين فتنوا ﴾ .

وقال المبرد : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ .

(262/810)

وقيل : قتل وهذا نختاره وحذفت اللام أي لقتل ، وحسن حذفها كما حسن في قوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ثم قال : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أي لقد أفلح من زكاها ، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل ذلك وطرده من رحمة الله ، وتنبيهاً لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، على أنهم ملعونون بجامع ما اشتركا فيه من تعذيب المؤمنين .

وإذا كان ﴿ قتل ﴾ جواباً للقسم ، فهي جملة خبرية ، وقيل : دعاء ، فكون الجواب غيرها .

وقرأ الحسن وابن مقسم بالتشديد ، والجمهور بالتخفيف .

وذكر المفسرون في أصحاب الأخدود أقوالاً فوق العشرة ، ولكل قول منها قصة طويلة كسلنا عن كتابتها في كتابنا هذا ؛ ومضنها أن ناساً من الكفار خدوا أخدوداً في الأرض

وسجروه ناراً وعرضوا المؤمنين عليها ، فمن رجع عن دينه تركوه ، ومن أصرّ على الإيمان أحرقوه ؛ وأصحاب الأخدود هم المحرقون للمؤمنين .

وقال الربيع وأبو العالية وابن إسحاق : بعث الله على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم أو نحو هذا ، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود ، فعلى هذا يكون القتل حقيقة لا بمعنى اللعن ، ويكون خبراً عن ما فعله الله بالكفار والذين أرادوا أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم .

وقول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دل عليه القصص الذي ذكروه .

وقرأ الجمهور : ﴿ النار ﴾ بالجر ، وهو بدل اشتمال ، أو بدل كل من كل على تقدير محذوف ، أي أخدود النار .

وقرأ قوم النار بالرفع .

قيل : وعلى معنى قتلهم ، ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين ، وقتل على حقيقته .

وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى : الوقود بضم الواو وهو مصدر ، والجمهور : بفتحها ، وهو ما يوقد به .

وقد حكى سيبويه أنه بالفتح أيضاً مصدر كالضم .

والظاهر أن الضمير في ﴿ إذ هم ﴾ عائد على الذين يحرقون المؤمنين ، وكذلك في ﴿ وهم ﴾ على قول الربيع يعود على الكافرين ، ويكون هم أيضاً عائداً عليهم ، ويكون معنى ﴿ على ما يفعلون ﴾ : ما يريدون من فعلهم بالمؤمنين .

وقيل : أصحاب الأخدود محرق ، وتم الكلام عند قوله : ﴿ ذات الوقود ﴾ ، ويكون المراد بقوله : ﴿ وهم ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات ، وإذا العامل فيه قتل ، أي لعنوا وقعدوا على النار ، أو على ما يدنو منها من حافات الأخدود ، كما قال الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها . . .

وبات على النار الندى والمحلق

﴿ شهود ﴾ : يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، أي لم يفرط فيما أمر به ، أو شهود يوم القيامة على ما فعلوا بالمؤمنين ، يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ نقموا ﴾ بفتح القاف ؛ وزيد بن عليّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة : بكسرها ، أي ما عابوا ولا أنكروا الإيمان ، كقوله : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ وكقول قيس الرقيات :

ما نقموا من بني أمية إلا . . .

أنهم يحلمون أن غضبوا

جعلوا ما هو في غاية الحسن قبيحاً حتى نقموا عليه ، كما قال الشاعر :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها . . .

كذاك عتاق الطير شكلاً عيونها

وفي المنتخب : إنما قال ﴿ إلا أن يؤمنوا ﴾ ، لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإيمان في المستقبل ، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى ، فكأنه قال : إلا أن يدعوا على إيمانهم . انتهى .

وذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به ، وهو كونه تعالى عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه ، حميداً منعماً يجب له الحمد على نعمته ، له ملك السموات والأرض وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له تقريراً لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي .

﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ : وعيد لهم ، أي إنه علم ما فعلوا فهو يجازيهم .

(264/810)

والظاهر أن ﴿ الذين فتنوا ﴾ عام في كل من ابتلى المؤمنين والمؤمنات بتعذيب أو أذى ، وأن لهم عذابين : عذاباً لكفرهم ، وعذاباً لفتنتهم .

وقال الزمخشري : يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصة ، وبالذين آمنوا المطروحين في الأخدود ، ومعنى فتنوهم : عذبوهم بالنار وأحرقوهم ، ﴿ فلهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب جهنم ﴾ بكفرهم ، ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ : وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق ، أو لهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم ، انتهى .

وينبغي أن لا يجوز هذا الذي جوّزه ، لأن في الآية ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ ، وأولئك المحرقون لم ينقل لنا أن أحداً منهم تاب ، بل الظاهر أنهم لم يلعنوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر .

وقال ابن عطية : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ يقوي أن الآيات في قريش ، لأن هذا اللفظ في قريش أحكم منه في أولئك الذين قد علموا أنهم ماتوا على كفرهم .

وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب وآمن ، انتهى .

وكذلك قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ، المراد به العموم لا المطروحون في النار ، والبطش : الأخذ بقوة .

﴿ يبدىء ويعيد ﴾ ، قال ابن زيد والضحاك : يبدىء الخلق بالإنشاء ، ويعيده بالحشر .

وقال ابن عباس : عام في جميع الأشياء ، أي كلّ ما يبدأ وكل ما يعاد .

وقال الطبري : يبدىء العذاب ويعيده على الكفار ؛ ونحوه عن ابن عباس قال : تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ، ثم يعيدهم خلقاً جديداً .

وقرىء : يبدأ من بدأ ثلاثياً ، حكاه أبو زيد .

ولما ذكر شدّة بطشه ، ذكر كونه ، غفوراً ساتراً لذنوب عباده ، ودوداً لطيفاً بهم محسناً إليهم ، وهاتان صفتا فعل .

والظاهر أن الودود مبالغة في الوادّ ؛ وعن ابن عباس : المتودد إلى عباده بالمغفرة .

وحكى المبرد عن القاضي إسماعيل بن إسحاق أن الودود هو الذي لا ولد له ، وأنشد :

وأركب في الروع عريانة . . .

ذلول الجماع لقاحاً ودودا

أي : لا ولد لها تحن إليه .

(265/810)

وقيل : الودود فعول بمعنى مفعول ، كركوب وحلوب ، أي يوده عباده الصالحون .

﴿ ذو العرش ﴾ : خص العرش بإضافة نفسه تشريفاً للعرش وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات .

وقرأ الجمهور : ﴿ ذو ﴾ بالواو ؛ وابن عامر في رواية : ذي بالياء ، صفة لربك .

وقال القفال : ﴿ ذو العرش ﴾ : ذو الملك والسلطان .

ويجوز أن يراد بالعرش : السرير العالي ، ويكون خلق سريراً في سمائه في غاية العظمة ، بحيث لا يعرف عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه ، انتهى .

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان : ﴿ المجيد ﴾ بخفض الدال ، صفة للعرش ، ومجادته : عظمه وعلوّه ومقداره وحسن صورته وتركيبه ، فإنه قيل : العرش أحسن الأجسام صورة وتركيباً .

ومن قرأ : ذي العرش بالياء ، جاز أن يكون المجيد بالخفض صفة لذي ، والأحسن جعل هذه المرفوعات أخباراً عن هو ، فيكون ﴿ فعال ﴾ خبراً .

ويجوز أن يكون ﴿ الودود ذو العرش ﴾ صفتين للغفور ، و ﴿ فعال ﴾ خبر مبتدأ وأتى بصيغة فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، والمعنى : أن كل ما تعلقت به إرادته فعله لا معترض عليه .

﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ : تقرير لحال الكفرة ، أي قد أتاك حديثهم ، وما جرى لهم مع أنبيائهم ، وما حل بهم من العقوبات بسبب تكذيبهم ، فكذلك يحل بقريش من العذاب مثل ما حل بهم .

والجنود : الجموع المعدّة للقتال .

﴿ فرعون وثمود ﴾ : بدل من ﴿ الجنود ﴾ ، وكأنه على حذف مضاف ، أي جنود فرعون ، واختصر ما جرى لهم إذ هم مذكورون في غير ما سورة من القرآن .

وذكر ثمود لشهرة قصتهم في بلاد العرب وهي متقدّمة ، وذكر فرعون لشهرة قصته عند أهل الكتاب وعند العرب الجاهلية أيضاً .

ألا ترى إلى زهير بن أبي سلمى وقوله :

ألم تر أن الله أهلك تبعاً . . .

وأهلك لقمان بن عاد وعاديا

وأهلك ذا القرنين من قبل ما نوى . . .

وفرعون جباراً طغى والنجاشيا

(266/810)

وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك ، فدل بقصته وقصة ثمود على أمثالهما من قصص الأمم المكذبين وهلاكهم .

﴿ بل الذين كفروا ﴾ : أي من قومك ، ﴿ في تكذيب ﴾ : حسداً لك ، لم يعتبروا بما جرى لمن قبلهم حين كذبوا أنبياءهم .

﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ : أي هو قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون وثمود ومن كان محاطاً به ، فهو محصور في غاية لا يستطيع دفعاً ، والمعنى : دنو هلاكهم .

ولما ذكر أنهم في تكذيب ، وأن التكذيب عمهم حتى صار كالوعاء لهم ، وكان (صلى الله عليه وسلم) قد كذبوه وكذبوا ما جاء به وهو القرآن ، أخبر تعالى عن الذي جاء به وكذبوا فقال : ﴿ بل هو قرآن ﴾ : أي بل الذي كذبوا به قرآن مجيد ، ومجادته : شرفه على سائر الكتب بإعجازه في نظمه وصحة معانيه ، وإخباره بالمغيبات وغير ذلك في محاسنه .

وقرأ الجمهور : ﴿ قرآن مجيد ﴾ : موصوف وصفة .

وقرأ ابن السميفع : ﴿ قرآن مجيد ﴾ بالإضافة ، قال ابن خالويه : سمعت ابن الأنباري يقول معناه : بل هو قرآن رب مجيد ، كما قال الشاعر :

ولكن الغني رب غفور . . .

معناه : ولكن الغنى غنى رب غفور ، انتهى .

وعلى هذا أخرجه الزمخشري .

وقال ابن عطية : وقرأ اليماني : قرآن مجيد على الإضافة ، وأن يكون الله تعالى هو المجيد ، انتهى .

ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته ؛ فيكون مدلوله ومدلول التنوين ورفع

مجيد واحداً ، وهذا أولى لتوافق القراءتين .

وقرأ الجمهور : ﴿ في لوح ﴾ بفتح اللام ، ﴿ محفوظ ﴾ بالخفض صفة للوح ، واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء .

وقرأ ابن يعمر وابن السميفع : بضم اللام .

قال ابن خالويه : اللوح : الهواء .

وقال الزمخشري : يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح المحفوظ من وصول الشياطين إليه ، انتهى .

(267/810)

وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه : محفوظ بالرفع صفة لقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي هو محفوظ في القلوب ، لا يلحقه خطأ ولا تبديل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(268/810)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

التفسير : لما أخبر في خاتمة السورة المتقدمة أن في الأمة مكذبين سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك كأصحاب الأخدود وكفرعون وثمود . أما البروج فأشهر الأقوال أنها الأقسام الاثنا عشر من الفلك الحمل والثور إلى آخرها . وإنما أقسم بها لشرفها حيث نيط تغيرات العالم السفلي بحلول الكواكب فيها . وقيل : هي منازل القمر الثمانية والعشرون . وقيل : وقت انشقاق السماء وانفطارها وبطلان بروجها . أما الشاهد والمشهود فأقوال المفسرين فيهما كثيرة ، وقد ضبطها القفال بأن اشتقاقهما إما من الشهود الحضور ، وإما من الشهادة والصلة محذوفة أي مشهود عليه أو به . والاحتمال الأول فيه وجوه الأول : وهو مروي عن ابن عباس والضحاك ومجاهد والحسن بن عليّ وابن المسيب والنخعي والثوري ، أن المشهود يوم القيامة والشاهد الجمع الذي يحضرون فيه من الملائكة والثقلين الأولين والآخرين لقوله ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ [مريم : 37] ﴿ ذلك ﴾ ﴿ يوم مجموع له الناس ﴾ [هود : 103] قال جار الله : وطريق تنكيرهما ما مرّ في قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] كأنه قيل : وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود . ويجوز أن يكون للتعظيم أي شاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما . وإنما حسن القسم بيوم القيامة لأنه يوم الفصل والجزاء وتفرد الله بالحكم

والقضاء . الثاني وهو قول ابن عمر وابن الزبير أن المشهود يوم الجمعة وأن الشاهد الملائكة . روى أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة " . الثالث أنّه يوم عرفة والشاهد من يحضرة من الحجاج فقال الله تعالى ﴿ يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ﴾

(269/810)

[الحج : 27] وحسن القسم به تعظيماً لأمر الحج . يروى أنه تعالى يقول للملائكة يوم عرفة " انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً أتوني من كل فج عميق أشهدكم أني قد غفرت لهم وأن إبليس يصرخ ويضع التراب على رأسه لما يرى يف ذلك اليوم من نزول الرحمة " الرابع أنه يوم النحر لأن أهل الدنيا يحضرون في ذلك اليوم بمنى والمزدلفة . الخامس أنهما كل يوم فيه اجتماع عظيم للناس فيتناول الأقوال المذكورة كلها ، والدليل عليه تنكيرهما لأن القصد لم يكن فيه إلى يوم بعينه . والاحتمال الثاني فيه أيضاً وجوه أحدها : أن الشاهد هو الله تعالى والمشهود به هو التوحيد لقوله ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ [آل عمران : 18] وثانيها الشاهد هو الأنبياء والمشهود عليه النبي صلى الله عليه وسلم لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] وثالثها العكس لقوله ﴿ وجئنا بك على هؤلاء

شهيداً ﴾ [النساء : 41] ورابعها الشاهد الحفظة والمشهود عليه المكلفون لقوله ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : 11] وخامسها وهو قول عطاء الخراساني : الشاهد الجوارح والمشهود عليه الإنسان ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾ [النور : 24] وسادسها الشاهد والمشهود عيسى وأمته كقوله ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ [المائدة : 117] وسابعها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأمم ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] وثامنها قال الإمام في تفسيره : الشاهد جميع الممكنات والمشهود له واجب الوجود أخذاً من قول الأصوليين إنه استدلال بالشاهد على الغائب . وتاسعها الحجر الأسود والحجيج للحديث " الحجر الأسود يمين الله في أرضه يؤتى به يوم القيامة له عينان يبصر بهما يشهد على من زاره " أو لفظ هذا معناه . وعاشرها الأيام والليالي وأعمال بني آدم كما روي عن الحسن : ما من يوم إلا وينادي إني

يوم جديد وإني على ما تعمل فيّ شهيد .

أما جواب القسم فعن الأخفش أنه ﴿ قتل ﴾ واللام مقدّر والكلام على التقديم والتأخير أي قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج . وعن ابن مسعود وقتادة واختاره الزجاج أن الجواب هو قوله ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ وقيل : إن الذين فتنوا وما بينهما اعتراض . واختار الزمخشري وطائفة من المتقدمين أنه محذوف . ثم اختلفوا فقال المتقدمون : المحذوف هو إن الأمر حق في الجزاء على الأعمال . وقال في الكشاف : هو ما دل عليه قتل فكأنه أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم ويعلموا أن كفارهم أحقاء بأن يقال فيهم قتلت قريش ، أي لعنوا كما قتل أصحاب الأخدود وهو الخد أي الشق في الأرض يحفر مستطيلاً ونحوهما بناء .

(271/810)

ومعنى الخق والأخقوف بالخاء الفوقانية منه الحديث " فساخت قوائمه في أخاقيق جرذان " عني به فرس سراقة حين تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من الغار .

والمعتمد من قصص أصحاب الأخدود ما جاء في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لبعض الملوك ساحر ، فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر . وكان في طريق الغلام راهب يتكلم بالمواعظ لأجل الناس ، فمال قلب الغلام إلى حديثه . فرأى في طريقه ذات يوم دابة أوحية قد حبست الناس فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها بهذا الحجر فقتلها . وكان الغلام بعد ذلك يتعلم من الراهب إلى أن صار بحيث يبرىء الأكمه والأبرص ويشفي من الداء ، وعمي جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله : من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي . فغضب فعذبه فدل على الغلام ، فعذب الغلام حتى دل على الراهب ، فلم يرجع الراهب عن دينه فقدّ بالمنشار ، وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا ، فذهبوا به إلى قرقور وهي سفينة صغيرة فلججوا به ليغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا . قوال للملك : لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول : بسم الله رب الغلام . ثم ترميني به فرماه فوقع في صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : نزل بك ما كنت تحذر فأمر بأخاديد في أفواه السكك ، وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبي : يا أماه اصبري فإنك على الحق ، وما هي إلا غميضة فصبرت واقتحمت . وعن علي رضي الله عنه أنهم حين اختلفوا في أحكام

المجوس ، وكان بعض ملوكهم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها فسكر فوقع على أخته ، فلما صحا ندم وطلب المخرج فقال : إن المخرج أن تخطب الناس فتقول : إن الله عز وجل

(272/810)

أحل لكم نكاح الأخوات ثم تخطبهم إن الله حرمه . فخطب فلم يقبلوا منه قالت له : ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا . فقالت : ابسط فيهم السيف فلم يقبلوا . فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها . وقيل : وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد . وقيل : سبعين ألفاً . وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر وقد أشار سبحانه إلى عظم النار إشارة مجملة بقوله ﴿ ذات الوقود ﴾ أي لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس .

وهذه الروايات لا تعارض بينها ولا منافاة فيحتمل أن يكون الكل واقعاً والمجموع مراد الله أو بعضه هو أعلم به .

(273/810)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا وصل إلى ذكر أصحاب الأخدود قال : نعوذ بالله من جهد البلاء . و ﴿ إذ ﴾ ظرف لقتل و ﴿ هم ﴾ عائد إلى الأصحاب و ﴿ قعود ﴾ جمع قاعد فإن كانوا مقتولين فمعنى قعودهم على النار إما أن يكون هو أن طرحوا عليها وقعدوا حواليها للإحراق وذلك أنهم كانوا يعرضون المؤمنين على النار فكل من ترك دينه تركوه ومن صبر على دينه ألقوه في النار ، وإما أن يكون " على " بمعنى " عند " كقوله ﴿ ولهم عليّ ذنب ﴾ أي عندي فالمراد بالقتل على هذا التفسير اللعن ويعضده قوله ﴿ وهم ﴾ أي الظالمون ﴿ على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي حضور ، وفيه وصفهم بقسوة القلب ، ووصف المؤمنين بالصلابة في دينهم حيث لم يلتفتوا إليهم وبقوا مصرين عل الحق ، أو هو من الشهادة والمعنى أنهم وكلوا بذلك وجعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به من التعذيب ، ويجوز أن يراد شهادة جوارحهم على ذلك يوم القيامة . ثم ذم أولئك الجبابرة بما في ضمنه مدح المؤمنين قائلاً ﴿ وما نقموا منه ﴾ أي وما عابوا وما أنكروا عليهم ﴿ إلا أن يؤمنوا ﴾ وإنما اختير بناء الاستقبال رمزاً إلى أنهم كانوا يطلبون منهم ترك الإيمان في المستقبل ولم يعذبوهم على الإيمان في الماضي أي عذبوهم على ثباتهم وصبرهم على إيمانهم بمن يستحق أن يؤمنوا به لكونه إلهاً قادراً لا يغالب بليغاً في الكمال بحيث استأهل الحمد كله مالكاً لجميع المخلوقات . وفيه إشارة إلى

أنه لو شاء لمنعهم عن ذلك التعذيب لكنه أخرهم إلى يوم الجزاء ودل عليه بقوله ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ ثم عم الوعيد في آيتين أخريين والفتنة البلاء والإيذاء والإحراق. وفي قوله ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ دلالة على أن توبة القاتل عمداً مقبولة خلاف ما يروى عن ابن عباس. وعذاب جهنم وعذاب الحريق أما متلازمان كقوله:

إلى الملك القرم. . . وابن الهمام

(274/810)

والغرض التأكيد وإما مختلفان في الدركة: الأول لكفرهم، والثاني لأنهم فتنوا أهل الإيمان. وجوز أن يكون الحريق في الدنيا لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم. ثم رغب ورهب بوجه آخر في آيات والبطش الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدّة كان نهاية. ثم أكده بقوله ﴿ إنه هو يبدىء ﴾ البطش ﴿ ويعيد ﴾ أي يبطش بالجبابرة في الدنيا والآخرة. ويجوز أن يدل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدّة بطشه وقوته. وفيه وعيد للكفرة بأنه يعيدهم كما بدأهم ليبطش بهم إذ كفروا بنعمة الإبداء وكذبوا بالإعادة. قال ابن عباس: إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً

جديداً فذلك قوله ﴿ هو يبدىء ويعيد ﴾ والودود بليغ الودادة والمراد به إيصال الثواب لأهل طاعته إلى الوجه الأتم فيكون كقوله

(275/810)

﴿ ويحبهم ﴾ [المائدة : 54] وإن شئت قلت : هو بمعنى مفعول فيكون كقوله ﴿ ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] وقال القفال : ويكون بمعنى الحليم من قولهم " فرس ودود " وهو المطيع القياد . قال في الكشاف ﴿ فعال ﴾ خبر مبتدأ محذوف . قلت : الأصل عدم الإضمار فالأولى أن يكون خبراً آخر بعد الأخبار السابقة ، ولعله حمله على ذلك كونه نكرة وما قبله معارف والعذر عنه من وجهين : أحدهما قطع النسق بقوله ﴿ ذو العرش ﴾ ولا سيما عند من يجوّز ﴿ المجيد ﴾ صفة العرش . والثاني تخصيص ﴿ فعال لما يريد ﴾ فإنه صيره مضارعاً للمضاف . قال : وإنما قيل ﴿ فعال ﴾ لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة . قلت : ويجوز أن يكون المعنى أن ما يريده فإنه يفعله ألبتة لا يصرفه عنه صارف . ثم ذكرهم وسلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقصة ﴿ فرعون وثمود ﴾ من متأخري الكفار ومتقدميهم ، والمراد بفرعون هو وجنوده . ثم أضرب عن التذكير إلى التصريح بتكذيب كفار قريش والتنبيه على أنه محيط أي عالم بهم فيجازيهم ، ويجوز أن

يكون مثلاً لغاية اقتداره عليهم وأنهم في قبضة حكمه كالمحاط إذا أحيط به من روائه فسدّ عليه مسلكه بحيث لا يجد مهرباً . ويجوز أن تكون الإحاطة بمعنى الإهلاك ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ [يونس : 22] ثم سلى رسول صلى الله عليه وسلم بوجه آخر وهو أن هذا القرآن الذي كذبوا به شريف الرتبة في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حد الإعجاز وهو مصون عن التغيير والتحريف بقوله ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] قال بعض المتكلمين : اللوح شيء يلوح للملائكة فيقرأونه وأمثال هذه الحقائق مما يجب به التصديق سمعا الله حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 474.478 ﴾

(276/810)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة البروج

مكية وهي اثنتان وعشرون آية ومائة وتسع كلما توأربعمائة وثمانية وخمسون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاط علمه بالكائنات ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ جوده سائر المخلوقات ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل السعادة بالجنات .

وقوله تعالى : ﴿ والسماء ﴾ أي : العالية غاية العلوّ ، المحكمة غاية الإحكام ﴿ ذات

البروج ﴾ قسم أقسم الله تعالى به ، وتقدّم الكلام على ذلك مراراً ، وفي البروج أقوال : فقال مجاهد : هي البروج الاثنا عشر ، شبهت بالقصور ؛ لأنها تنزلها السيارات . وقال الحسن : هي النجوم ، وقيل : هي منازل القمر . وقال عكرمة : هي قصور في السماء . وقيل : عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها . وقيل : أبواب السماء . وقوله تعالى:

﴿ واليوم الموعود ﴾ قسم آخر وهو يوم القيامة . قال ابن عباس : وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه .

واختلفوا في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ فقال أبو هريرة وابن عباس : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . وروى مرفوعاً : "اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة . والشاهد يوم الجمعة" خرّجه الترمذي في جامعه . قال القشيري : فيوم الجمعة يشهد على عامله بما عمل فيه . قال القرطبي : وكذا سائر الأيام والليالي لما روى أبو نعيم الحافظ عن معاوية أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتي على العبد إلا ينادى فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وأنا فيما تعمل عليك شاهد ، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غداً فإني إذا مضيت لم ترني أبداً ، ويقول الليل مثل ذلك" حديث غريب . وحكى القشيري عن عمر أنّ الشاهد يوم الأضحى . وقال ابن المسيب : الشاهد يوم التروية ، والمشهود يوم عرفة . وروي عن

علي : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر . وقال مقاتل : أعضاء الإنسان هي الشاهد لقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم ﴾ (النور :)

(277/810)

الآية . وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم لقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ (البقرة :)

الآية . وقيل : الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ (الأحزاب :)

وقيل : آدم . وقيل : الحفظة الشاهد والمشهود أولاد آدم ، وقيل : غير ذلك وكل ذلك صحيح .

(278/810)

واختلف في جواب القسم فقال الجلال المحلي : جواب القسم محذوف صدره أي : لقد ﴿ قتل ﴾ أي : لعن ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ وقال الزمخشري : محذوف ويدل عليه قوله

: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ وكأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون يعني : كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود ، فإنّ السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم . واستظهر هذا البيضاوي . والأخدود : هو الشق المستطيل في الأرض كالنهر ، وجمعه أخاديد ، واختلف فيهم فعن صهيب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً ، وكان في طريقه إذا سلك إليه راهب فقعد إليه ، وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب فقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه وإذا رجع قعد إلى الراهب وسمع كلامه ، فإذا أتى أهله ضربوه فشكا إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر ، . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الراهب أفضل أم الساحر فأخذ حجراً ثم قال : اللهمّ إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى تمضي الناس فرماها فقتلها فمضى الناس فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أي : بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس الملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال : هذا لك أجمع إن أنت شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فإن آمنت

به دعوت الله تعالى فشفاك فآمن بالله فشفاه الله تعالى ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك : من ردّ عليك بصرك ؟ قال : ربي .

(279/810)

قال : ربك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجيء بالغلام فقال له الملك : أي : بنيّ قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ، قال : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقال : ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل : له : ارجع عن دينك فأبى ففعل به كالراهب ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال : اذهبوا إلى جبل كذا فاصعدوا به ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهمّ اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهمّ اكفنيهم بما شئت فانكفأت السفينة

بهم فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى . فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس وقل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ووضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده على صدغه موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ثلاثاً ، فأتى الملك فقيل : له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فحدت وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها . أو قيل له : اقتحم ، قال :

(280/810)

ففعلوا حتى جاءت امرأة معها

صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال الصبي : يا أمّاه اصبري فإنك على الحق

فاقتحمت" . قال البغوي : هذا حديث صحيح . وقيل : إنّ الصبي قال لها : قعي ولا

تقاعسي . وقيل : ما هي إلا غميضة فصبرت . وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أنّ رجلاً كان قد بقي على دين عيسى ، فوقع على نجران فأجابوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنود من حمير ، وخيرهم بين النار واليهودية ، فأبوا عليه فخدّ الأخاديد وأحرق اثني عشر ألفاً في الأخاديد . وقيل : سبعين ألفاً . ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً واقتحم البحر بفرسه فغرق . قال الكلبي : وذو نواس قتل عبد الله بن التامر رضي الله عنه .

وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن خربة احترقت في زمن عمر فوجدوا عبد الله بن التامر واضعاً يده على ضربة في رأسه ، إذا أميطت يده عنها أنبعت دماً وإذا تركت ارتدّت مكانها ، وفي يده خاتم من حديد فيه : ربي الله . فبلغ ذلك عمر فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه .

(281/810)

وعن ابن عباس قال : كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل في الفترة قبل أن يولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة ، وكان في بلاده غلام يقال له عبد الله بن تامر ، وكان أبوه سلمه إلى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ، ولم يجد بدّاً من

طاعة أبيه فجعل يختلف إلى المعلم ، وكان في طريقه راهب حسن الصوت فأعجبه ذلك ، وذكر قريباً من معنى حديث صهيب إلى أن قال الغلام للملك : إنك لا تقدر على قتلي إلا أن تفعل ما أقول . قال : فكيف أقتلك ؟ قال : تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فترميني بسهم على اسم إلهي ، ففعل الملك فقتله فقال الناس : لا إله إلا إله ، عبد الله بن التامر لا دين إلا دينه ، فغضب الملك وأغلق باب المدينة ، وأخذ أفواه السكك وأخدّ أخدوداً وملأه ناراً ثم عرضهم رجلاً رجلاً ، فمن رجع عن الإسلام تركه ، ومن قال : ديني دين عبد الله بن تامر ألقاه في الأخدود وأحرقه ، وكان في مملكته امرأة فأسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة : أحدهم رضيع فقال لها الملك : ارجعي عن دينك وإلا ألقيتك وأولادك في النار فأبت ، فأخذ ابنها الأكبر فألقاه في النار ، ثم قال لها : ارجعي فأبت فأخذوا الصبي منها ليلقوه في النار فهمت المرأة بالرجوع فقال لها الصبي : يا أمّاه لا ترجعي عن الإسلام فإنك على الحق ولا بأس عليك فألقى الصبي في النار ، وألقيت أمّه على أثره .

(282/810)

وعن علي أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال : هم أهل كتاب ، وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم ، فتناولها بعض ملوكهم فسكر فوقع على أخته فلما

صحا ندم وطلب المخرج ، فقالت له : المخرج أن تخطب الناس فتقول : يا أيها الناس إنّ الله تعالى أحل لكم نكاح الأخوات ، ثم تخطبهم بعد ذلك : أنّ الله تعالى حرّمه . فخطب فلم يقبلوا منه فقالت : ابسط فيهم السوط فلم يقبلوا ، فأمرت بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها ، فهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله : ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ وعن مقاتل : كانت الأخاديد ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، وأخرى بالشام ، وأخرى بفارس حرقوا بالنار ، أما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي ، وأما التي بفارس فبختنصر ، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس . فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآناً ، وأنزل في التي كانت بنجران . وذلك أنّ رجلاً مسلماً ممن يقرأ الإنجيل أجر نفسه في عمل وجعل يقرأ الانجيل فرأت بنت المستأجر النور يضيء من قراءة الإنجيل فذكرت ذلك لأبيها فرمقه فرآه فسأله فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره بالدين وبالإسلام فتابعه هو وسبعة وثمانون إنساناً ما بين رجل وامرأة ، وهذا بعد ما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، فسمع ذلك يوسف ذو نواس فخدّ لهم في الأرض ، وأوقد فيها فعرضهم على الكفر ، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار ، ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه ، وأنّ امرأة جاءت ومعها صغير لا يتكلم فلما قامت على شفير الخندق نظرت إلى ابنها فرجعت عن النار ، فضُربت حتى تقدّمت فلم تزل كذلك ثلاث مرّات ، فلما كانت في الثالثة ذهبت ترجع فقال لها ابنها يا أمّاه إني أرى أمامك ناراً لا تُطفأ ، فلما سمعت ذلك قذفا جميعاً أنفسهما في النار فجعلها الله وابنها في

الجنة . فقذف في النار في يوم واحد سبعة وسبعون إنساناً فذلك قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ .

(283/810)

وقوله تعالى : ﴿ النار ﴾ بدل اشتمال من الأخدود . وقوله تعالى : ﴿ ذات الوقود ﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة لها ، ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ، واللام في الوقود للجنس .

وقوله تعالى : ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ ظرف لقتل أي : لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها ، ومعنى عليها على ما يدنوا منها من حافات الأخدود كقوله:

وبات على النار الندى والمحلق

وكما تقول : مررت عليه تريد مستعلياً المكان الذي يدنو منه ، فكانوا يقعدون حولها على الكراسي . وقال القرطبي : عليها . قوله وقال القرطبي عليها كذا في جميع النسخ وفيه سقط فراجعه .

﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ بالله من تعذيبهم بالإلقاء في النار إن لم يرجعوا عن إيمانهم ﴿ شهود ﴾ أي : يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به أو شهود

بمعنى حضور ، إذ روي أنّ الله تعالى أنجى المؤمنين الملقين في النار بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار إلى القاعدين فأحرقتهم . قال الرازي : يمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود القاتلين ، ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين . والمشهور أن المقتولين هم المؤمنون . وروي أن المقتولين هم الجبابرة . روي أنهم لما ألقوا المؤمنين في النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ، ونجّى الله المؤمنين منها سالمين وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدي . وتأوّلوا قوله تعالى : ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ أي : في الآخرة ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ أي : في الدنيا .

فإن فسر أصحاب الأخدود بالقاتلين فيكون قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ (عبس :)

(284/810)

وإن فسر بالمقتولين كان المعنى : أنّ المؤمنين قتلوا بالنار فيكون ذلك خبراً لا دعاءً .

والمقصود من هذه الآية : تثبيت قلوب المؤمنين وإخبارهم بما كان يلقاه من قبلهم من الشدائد . وذكر لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من أذى الكفار ليتأسوا بهذا الغلام في صبره على الأذى والصلب ، وبذل نفسه في إظهار دعوته

ودخول الناس في الدين مع صغر سنه ، وكذلك صبر الراهب على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار ، وكذلك أكثر الناس لما آمنوا بالله تعالى .

﴿ وما نقموا ﴾ أي : وما أنكروا وكرهوا ﴿ منهم ﴾ من الخلات وكان ذنباً ونقصاً ﴿ إلا أن يؤمنوا ﴾ أي : يجدّدوا الإيمان مستمرّين عليه ﴿ بالله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ العزيز ﴾ في ملكه الذي يغلب من أراد ولا يغلبه شيء . ﴿ الحميد ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال ، فهو يثيب من أطاعه أعظم ثواب وينتقم ممن عصاه بأشدّ العذاب .

وهذا استثناء على طريقة قول القائل:

*ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم

** بهن فلول من قراع الكتائب*

أي : من ضرابها ، والكتائب بالتاء المثناة : جمع كتيبة وهي الجيش ، وقال ابن الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

ونظيره قوله تعالى : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ (المائدة :)

ولما ذكر تعالى الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد ، وهو كونه عزيزاً غالباً قادراً يخشى عقابه ، حميداً منعماً يجب الحمد على نعمه ، ويرجى ثوابه قرر ذلك بقوله تعالى: ﴿ الذي له ﴾ أي : خاصة ﴿ ملك السموات والأرض ﴾ أي : على جهة العموم مطلقاً ، فكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له تقديراً ، لأنّ ما نقموا منهم هو الحق الذي لا

ينقمه إلا مبطل منهمك في الغيّ ، وإنّ الناقمين أهلٌ لانتقام الله تعالى منهم بعذاب لا يعدله عذاب . ﴿ والله ﴾ الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ على كل شيء شهيد ﴾ فلا يغيب عنه شيء ، وهذا لأنّ الله علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه .

(285/810)

ولما ذكر قصة أصحاب الأخدود أتبعها ما يتفرّع من أحكام الثواب والعقاب فقال تعالى: ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي : أحرقوهم بالنار ، يقال : فتنت الشيء إذا أحرقته ، والعرب تقول : فتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته . ونظيره ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ (الذاريات :)

. قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد : كلُّ مَنْ فَعَلَ ذلك . قال : وهذا أولى لأنّ اللفظ عامّ والحكم عامٌّ ، والتخصيص ترك للظاهر من غير دليل .

ولما كانت التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولو طال الزمان عبر سبحانه بأداة التراخي فقال تعالى : ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي : عن كفرهم وعما فعلوا .

﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ أي : بكفرهم ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ أي : عذاب إحراقهم المؤمنين في الآخرة ، وقيل : في الدنيا فأحرقتهم كما تقدّم ، ومفهوم الآية أنهم لو تابوا لخرجوا

من هذا الوعيد ، وذلك يدل على أنّ الله تعالى يقبل التوبة من القاتل المتعمد خلاف ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما . ولما ذكر سبحانه وعيد المجرمين ذكر ما أعدّ للمؤمنين بقوله تعالى:

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان من المقذوفين في النار وغيرهم من كل طائفة في كل زمان ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تحقيقاً لإيمانهم ﴿ لهم جنات ﴾ أي : بساتين تفضلاً منه تعالى ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : تحت غرفها وأسرّتها وجميع أماكنها ﴿ الأنهار ﴾ يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحرّ الذي صبروا عليه في الدنيا ، ويزول عنهم برؤية ذلك مع خضرة الجنان جميع المضارّ والأحزان .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العالي الدرجة العظيم البركة ﴿ الفوز ﴾ أي : الظفر بجميع المطالب ﴿ الكبير ﴾ وهو رضا الله تعالى لا دخول الجنة .

وقال تعالى : ﴿ ذلك الفوز ﴾ ولم يقل تلك ، لأنّ ذلك إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول الجنان وتلك إشارة إلى الجنة الواحدة ، وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً .

(286/810)

﴿ إنّ بطش ربك ﴾ أي : أخذ المحسن إليك المربي لك المدبر لأمرك الجبابرة والظلمة ﴿ لشديد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد ﴾ (هود :)

قال المبردّ : ﴿ إنّ بطش ربك ﴾ جواب القسم ، والبطش هو الأخذ بعنف فإذا وصف بالشدّة فقد تضاعف . ولما كان هذا البطش لا يتأتى إلا لكامل القدرة دل على كمال قدرته واختصاصه بذلك بقوله تعالى مؤكداً لما له من الإنكار :

﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ يبدئ ﴾ أي : يوجد ابتداء أيّ خلق أراد إلى أيّ هيئة أراد ﴿ ويعيد ﴾ أي : ذلك المخلوق عند البعث . وروى عكرمة قال : عجب الكفار من إحياء الله تعالى الأموات أي : فنزلت .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يبدئ لهم عذاب الحريق في الدنيا ثم يعيده عليهم في الآخرة ، وهذا اختيار الطبري . وقيل : يبدئ البطش ويعيده فيبطش بهم في الدنيا والآخرة ، أو دل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدّة بطشه ، أو أوعد الكفرة بأن يعيدهم كما بدأهم ليبطش لهم ؛ إذ لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالإعادة .

﴿ وهو ﴾ أي : وحده ﴿ الغفور ﴾ أي : الستور لعباده المؤمنين . وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها .

وقوله تعالى : ﴿ الودود ﴾ مبالغة في الود . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو المتودّد

لعباده بالمغفرة ، وعن المبرد : هو الذي لا ولد له . وأنشد :

*وأركب في الودّ عريانة

** ذلول الجماع لقاحاً ودودا*

أي : لا ولد لها تحنّ إليه . وقيل : هو فعول بمعنى مفعول كالركوب والحلوب بمعنى المركوب والمحلوب . وقيل : يغفر ويودّ أن يغفر .

(287/810)

﴿ ذو العرش ﴾ ومالكه ، أي : ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه ، وإن لم يكن على سرير ، ويقال : ثلّ عرشه ، أي : ذهب سلطانه ، أو السرير الدال على اختصاص الملك بالملك ، وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة الذي به قوام الأمور ، وقرأ ﴿ المجيد ﴾ حمزة والكسائي بجرّ الدال على أنه نعت للعرش أو لربك في قوله تعالى : ﴿ إن بطش ربك ﴾ قال مكي : وقيل : لا يجوز أن يكون نعتاً للعرش لأنه من صفات الله تعالى اه . وهذا ممنوع لأنّ مجد العرش علوّه وعظمه كما قاله الزمخشري . وقد وصف العرش بالكريم في آخر المؤمنين . وقرأ الباقون برفع الدال على أنه خبر بعد خبر . وقيل : هو نعت لذو ، واستدل بعضهم على تعدّد الخبر بهذه الآية ، ومن منع قال لأنها في معنى خبر واحد ، أي :

جامع بين هذه الأوصاف الشريفة ، أو كل منها خبر لمبتدأ مضمر ، والمجد : هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه موصوف بذلك وتقدّم وصف عرشه بذلك .

﴿ فعالٌ ﴾ أي : على سبيل التكرار والمبالغة ﴿ لما يريد ﴾ قال القفال : أي : يفعل ما يريد على ما يراه لا يعترض عليه أحد ، ولا يغلبه غالب فيدخل أولياءه الجنة لا يمنعه مانع ، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر ، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم ، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء ، فهو يفعل ما يريد .

وعن أبي اليسر : دخل ناس من الصحابة على أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه يعودونه فقالوا : ألا نأتيك بطبيب ؟ قال : قد رآني . قالوا : فماذا قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد . وقال الزمخشري : فعال خبر مبتدأ محذوف ، وإنما قال فعال لأنّ ما يريد ويفعل في غاية الكثرة . وقال الطبري : رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب الغفور الودود .

تنبيه : دلت هذه الآية أنّ جميع أفعال العباد مخلوقة لله تعالى . قال بعضهم : ودلت على أنّ الله تعالى لا يجب عليه شيء لأنها دالة على أنه يفعل ما يريد .

(288/810)

﴿ هل ﴾ أي : قد ﴿ أتاك ﴾ أي : يا أشرف الرسل ﴿ حديث ﴾ أي : خبر ﴿ الجنود ﴾ أي : الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم وقوله تعالى : ﴿ فرعون وثمود ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من الجنود ، واستشكل كونه بدلاً ؛ لأنه لم يكن مطابقاً للمبدل منه في الجمعية . وأجيب : بأنه على حذف مضاف ، أي : جنود فرعون وأنّ المراد فرعون وقومه ، واستغنى بذكره عن ذكرهم لأنهم أتباعه ، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني لأنه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه .

والمعنى : إنك قد عرفت ما فعل الله تعالى بهم حين كذبوا رسلهم كيف هلكوا بكفرهم فقومك إن لم يؤمنوا بك فعل بهم كما فعل بهؤلاء ، فاصبر كما صبر الأنبياء قبلك على أممهم .

﴿ بل الذين كفروا ﴾ أي : من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك ﴿ في تكذيب ﴾ لك لا يرعوون عنه ، ومعنى الإضراب : أنّ حالهم أعجب من حال هؤلاء فإنهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشدّ من تكذيبهم ، وإنما خص فرعون وثمود لأنّ ثمود في بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة ، وإن كانوا من المتقدّمين ، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين في الهلاك فدل بهما على أمثالهما .

وقوله تعالى : ﴿ والله ﴾ أي : والحال أن الملك الذي له الكمال كله ﴿ من ورائهم محيط ﴾ وفيه وجوه:

أحدها : أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحصره ، كالمحاط إذا أحيط به

من ورائه ينسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهرباً ، يقول الله تعالى : فهم كذا في قبضتي وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك فلا تجزع من تكذيبهم ، إياك فليسوا يفوتونني إذا أردت الانتقام منهم .

ثانيها : أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم كقوله تعالى : ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ (يونس :)

فهو عبارة عن مشارفة الهلاك .

ثالثها : أنه تعالى محيط بأعمالهم ، أي : عالم بها فيجازيهم عليها .

(289/810)

﴿ بل هو ﴾ أي : هذا القرآن الذي كذبوا به ، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ قرآن ﴾ أي : جامع لكل منفعة جليلة بالغ الذروة العليا في كل شرف ﴿ مجيد ﴾ أي : شريف وحيد في اللفظ والمعنى ، وليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة .

﴿ في لوح ﴾ هو في الهواء فوق السماء السابعة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن في صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله عز وجل وصدّق بوعيده واتبع رسله أدخله الجنة ، قال : واللوح لوح من درّة بيضاء

طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدرّ والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور وكلامه نور ، معقود بالعرش وأصله في حجر ملك .

وقرأ ﴿ محفوظ ﴾ بالرفع نافع على أنه نعت لقرآن ، والباقون بالجرّ على أنه نعت للوح .

وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش وقال البغوي : هو أمّ الكتاب ، ومنه تنسخ الكتب محفوظ من الشياطين ومن الزيادة فيه والنقصان . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون في الدنيا عشر حسنات" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 298 . 307 ﴾

(290/810)

وقال القاسمي :

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾

أي : الكواكب والنجوم ، شبهت بالبروج – وهي القصور – لعلوّها . أو البروج منازل

عالية في السماء .

قال ابن جرير : وهو اثنا عشر برجاً ، فمسير القمر في كل برج منها يومان وثلث ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ثم يستتر ليلتين . ومسير الشمس في كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج – كما قاله الشهاب – الأمر الظاهر من التبرج ، ثم صار حقيقة في العرف للقصور العالية ؛ لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لِما ارتفع من سور المدينة : برج أيضاً . فشبه – على هذا – الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ أي : الذي وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة .

﴿ وَشَاهِدٍ ﴾ وهو كل ماله حس يشهد به ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ وهو كل مُحسّ يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها . وتخصيص بعض المفسرين بعضاً مما يتناوله لفظهما ، لعله لأنه الأهم ، أو الأولى أو الأعرف والأظهر ، لقرينةٍ عندهُ ، وإلا فاللفظُ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي : قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هي جواب القسم . أو دليل جوابه أن كانت دعائية ، والتقدير : لتبلون كما ابتلي من قبلكم ، ولينتقمن ممن فتنكم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين في الأخدود .

قال الزمخشري : وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى

وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يَلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم : قُتلت قريش ، كما قيل :

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ والأخدود : الحفرة في الأرض مستطيلة .

(291/810)

وقوله تعالى : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ بدل من ﴿ الْأُخْدُودِ ﴾ ، و ﴿ الْوَقُودِ ﴾ بالفتح الحطب الجزل الموقد به ، وأما الوُقود بالضم فهو الإيقاد .

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي : على حافات أخدودها ﴿ قُعُودٌ ﴾ أي : قاعدون يتشفون من المؤمنين .

﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أي : حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . ولا يرقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ أي : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نقمت من الشيء ونقمته إذا أنكرته ، إما باللسان وإما بالعقوبة . ومنه

الانتقام ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ أي : الغالب أعدائه بالقهر والانتقام ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ أي : المحمود على إنعامه وإحسانه .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : على كل شيء من أفاعيل هؤلاء الفجَرة أصحابِ الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفي توصيفه تعالى بما ذكر من النعوت الحسنى إشعارٌ بمناط إيمانهم ؛ فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر وهو عليم بأفعال عبيده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المصائر . وفي الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو معروف في كتب المعاني .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس في أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بني إسرائيل خَدّوا أخدوداً في الأرض ، ثم أوقدوا فيها ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساءً ، فعرضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بني إسرائيل أخذوا رجالاً ونساءً فخدّوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم في النار ؟ .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنَجران ، كانوا يعذبون فيها الناس – وتفصيل النبأ – على ما في كتاب " الكنز الثمين " – أن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العَرِيَّة عن شوائب الإلحاد ، لمَّا دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان في مقدمة تلك البلاد بلدة نجران ، وكان أقام عليها مِلك الحبشة أميراً من قِبَله نصرانياً مثله ، وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع ، ثم إن اليهود الذين كانوا في تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تنصر ؛ بغضاً في المسيحية وكراهة لسلطان مسيحي يملكهم ، فأقاموا رجلاً يهودياً منهم عند موت ذلك السلطان أو قتله ، فأشهر ذلك اليهودي نفسَه ملكاً على بلاد سبأ ، وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة والخيانة ، ولما دخلها قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالاً ونساءً . كانت عدتهم – فيما يقال – ثلاثمائة وأربعين شهيداً ، وأتى بذاك الراهب محمولاً يحف به الجنود ، وكان هرماً لا يقوى على المشي ، فسئل عن عقيدته فأقرَّ بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام ؛ فأمر بسفك دمه فقتل ، وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جُبن ولا تهيُّب ، بل بشجاعة وصبر على ما يشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران ، ثم ألقت امرأة بنفسها في النار وتبعها طفل لها في الخامسة من عمره . وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى والفرح بالشهادة ، ما أضحوا مثالاً وعبرة لكل

مفتون من أجل إيمانه ومدافعته عن يقينه ، سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لا جرم أن من تلا ما ورد في الوعد الصادق لكل مفتون في الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أراثا ورفقته . ويؤرخونها بعام : 524 من التاريخ المسيحي ، وقد علمت أن في كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله

(293/810)

أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾

أي : بلوهم بالأذى ليرجعوا عن إيمانهم . قال أبو السعود : والمراد بهم إما أصحاب الأخدود خاصة ، وبالمفتونين المطروحون في الأخدود ، وإما الذين بلوهم في ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق وهم داخلون في جملتهم دخولاً أولياً ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أي : عن كفرهم وفتنتهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ أي : عذابان منوّعان على الكفر وعلى الفتنة ، أوهما واحد ، أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه ؛ لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما . والأظهر أنهما واحد وأنه من عطف التفسير والتوضيح .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

أي : من هؤلاء المفتونين وغيرهم ﴿ لِهُمْ ﴾ أي : في نشأتهم الأخرى ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ أي : التام الذي لا فوز مثله .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ قال أبو السعود : استئناف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم ، إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و البطش : الأخذ بعنف ، وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم . وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام ، كقوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أي : يبدئ الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو في كل يوم يبدئ خلقاً من نبات وحيوان وغيرهما ، ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى ، ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذي يعلمه .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ أي : لمن يرجع إليه بالتوبة ﴿ الْوَدُودُ ﴾ أي : المحب لمن أطاعه وأخلص له .

﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي : المُلكِ والسلطان أو السماء ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ أي : العظيم في ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجدُه : علوُّه وعظمته

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أي : لا يريد شيئاً إلا فعله ، فلا يحول بينه وبين مراده شيء ، فمتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين فعل ؛ لأن له ملك السماوات والأرض ؛ ولذا تأثره بقوله سبحانه :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي : الذين تجنَّدوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير : أي : قد أتاك ذلك وعلمتَهُ ، فاصبر لأذى قومك وإياكِ لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسلي ، ولا يثنّينك عن تبليغهم رسالتي كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء ؛ فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم إلى عَطب وهلاك ، كالذي كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة – كما قال أبو السعود – استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة وكونه فعالاً لما يريد متضمن لتسليته صلى الله عليه وسلم بالإشعار بأنه سيصيب قومَه ما أصاب الجنود .

وقوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من ﴿ الْجُنُودِ ﴾ لأن المراد بفرعون هو وقومه ، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادي في الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أي : للحق والوحي ، مع وضوح آياته وظهور بيناته ؛ عناداً وبغياً . والإضراب انتقالي للأشد ، كأنه قيل : ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك ، فإنهم مع علمهم بما حل بهم ، لم ينزجروا ، وفي جعلهم ﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ إشارة إلى تمكنه من أنفسهم ، وأنه لشدته أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق فيه ، مع ما في تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

(295/810)

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ أي : محصٍ عليهم أعمالهم لا يخفى عليه منها شيء ، وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهرباً . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخي لهم بأنهم نبذوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه انهماكهم ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي : سامٍ شريف لا يماثل في أسلوبه وهدايته .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرئ بالرفع صفة لـ ﴿ قُرْآنٌ ﴾ ، والجر صفة اللوح . قال ابن جرير

: والمعنى على الأولى محفوظ من التغيير والتبديل في لوح ، وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبته الله فيه . و ﴿ بَلْ ﴾ إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء ؛ فإنه تعالى تولَّى حفظه وظهوره أبد الآبدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 366. 371 ﴾

(296/810)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة البروج

الدرس الأول: 1 – 3 القسم بمخلوقات عظيمة (والسماء ذات البروج , واليوم الموعود , وشاهد ومشهود) . .

تبدأ السورة – قبل الإشارة إلى حادث الأخدود – بهذا القسم: بالسماء ذات البروج , وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أي قصورها المبنية , كما قال: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) . . وكما قال (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) . . وإما أن تكون هي المنازل التي تتنقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها , وهي

مجالاتها التي لا تتعداها في جريانها في السماء . والإشارة إليها يوحي بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه في هذا الجو .

(واليوم الموعود) . . وهو يوم الفصل في أحداث الدنيا , وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذي وعد الله بمجيئه , ووعد بالحساب والجزاء فيه ; وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذي تتطلع إليه الخلائق , وتترقبه لترى كيف تصير الأمور .

(وشاهد ومشهود) . . في ذلك اليوم الذي تعرض فيه الأعمال , وتعرض فيه الخلائق , فتصبح كلها مشهودة , ويصبح الجميع شاهدين . . ويعلم كل شيء . ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون . .

وتلتقي السماء ذات البروج , واليوم الموعود , وشاهد ومشهود . . تلتقي جميعا في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود . . كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه . . وهو أكبر من مجال الأرض , وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود . .

الدرس الثاني: 4 – 9 جريمة أصحاب الأخدود في حرق المؤمنين بالنار

وبعد رسم هذا الجو , وفتح هذا المجال , تجيء الإشارة إلى الحادث في لمسات قلائل:

(قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والأرض , والله على كل شيء شهيد) . .

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود : (قتل أصحاب الأخدود) . . وهي كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم , ونقمته , ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجيء تفسير الأخدود : (النار ذات الوقود) والأخدود : الشق في الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا , فصارت النار بدلا في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها .

قتل أصحاب الأخدود , واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب , في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم , ويزاولون تلك الجريمة : (إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) . . وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم , وهم يوقدون النار , ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار , قريبون من عملية التعذيب البشعة ,

يشاهدون أطوار التعذيب , وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار , كأنما يثبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع !

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر : (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والأرض . والله على كل شيء شهيد) . . فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله , العزيز : القادر على ما يريد , الحميد : المستحق للحمد في كل حال , والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له . وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور .

(298/810)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود . . وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين , وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيدا . وكفى بالله شهيدا .

وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار , التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة

الفعلة وفاعليها , كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد , ووراءه في حساب الله ما وراءه . كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة , والعقيدة المنتصرة على الحياة , والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة , وبشاعتها بلا حرية , وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم , وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب , ولأعدائهم الطاغين حساب . . يعقب به السياق . .

الدرس الثالث: 10 - 11 حرق الكفار في جهنم ونجاة المؤمنين وفوزهم بالجنة

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير) .

.

إن الذي حدث في الأرض وفي الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذي يضع الأمر في نصابه , ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد , وواقع كما يقول عنه الله:

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) . . ومضوا في ضلالتهم سادرين , لم يندموا على ما فعلوا (ثم لم يتوبوا) . . (فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) . . وينص على (الحريق) . وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق في الأخدود . وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ? في شدته أو في مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي , وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله , والارتكاس الهابط الذميم !

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) . . وهذه هي النجاة الحقيقية:

(ذلك الفوز الكبير) . . والفوز: النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز .

فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار ؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر في نصابه . وهي الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ما وقع منه في الأرض إلا طرفا من أطرافه , لا يتم به تمامه . . وهذه هي الحقيقة التي يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر في قلوب القلة المؤمنة في مكة , وفي قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

(300/810)

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

الدرس الرابع 12 - 18 تعقيبات على قصة أصحاب الأخدود , من صفات الله وهلاك الكفار ثم تتوالى التعقيبات . .

(إن بطش ربك لشديد) . . وإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضع هو الذي يناسب ما مر في الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذي يحسبه أصحابه ويحسبه

الناس في الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذي له ملك السماوات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة , في رقعة من الزمان محدودة . .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب – وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) والقائل وهو الله عز وجل . وهو يقول له: (إن بطش ربك . .) ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته , وسندك الذي تركن إلى معونته . . ولهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين !

(إنه هو يبدئ ويعيد) . . والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلي إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة . . إلا أنهما حدثان دائبان في كل لحظة من ليل أو نهار . ففي كل لحظة بدء وإنشاء , وفي كل لحظة إعادة لما بلي ومات . والكون كله في تجدد مستمر . . وفي بلى مستمر . . وفي ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة في واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء . في هذه الحركة الدائبة الدائرة . .

(301/810)

(وهو الغفور الودود) . . والمغفرة تتصل بقوله من قبل: (ثم لم يتوبوا) . . فهي من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهي الباب المفتوح الذي لا يغلق في وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية . . أما الود . . فيتصل بموقف المؤمنين, الذين اختاروا ربهم على كل شيء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة, يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها . . مرتبة الصداقة . . الصداقة بين الرب والعبد . . ودرجة الود من الله لأوداءه وأحبائه المقربين . . فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر, ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه, أو لمحة رضاء تبدو في وجهه . . وهو عبد وهم عبيد . . فكيف بعباد الله . الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل, الله (ذو العرش المجيد) العالي المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز, في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد . .

(فعال لما يريد) . . هذه صفته الكثيرة التحقق, الدائبة العمل . . فعال لما يريد . . فهو مطلق الإرادة, يختار ما يشاء ; ويفعل ما يريده ويختاره, دائما أبدا, فتلك صفته سبحانه

.

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها . . يريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود . . لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك , في قدره المرسوم . .

(302/810)

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ما سيأتي من حديث فرعون وثمود . وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود . فعال لما يريد . . وهاك نموذجا من فعله لما يريد :

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)

(هل أتاك حديث الجنود :فرعون وثمود ؟) . وهي إشارة إلى قصتين طويلتين , ارتكانا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين , بعدما ورد ذكرهما كثيرا في القرآن الكريم . ويسميهم الجنود . إشارة إلى قوتهم واستعدادهم . . هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما وفي نتائجهما . . فأما حديث فرعون , فقد أهلكه الله وجنده ونجى بني إسرائيل , ومكن لهم في الأرض فترة , ليحقق بهم قدرا من قدره , وإرادة من إرادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين .

وهما نموذجان لفعل الإرادة , وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة , إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في حادث الأخدود . . وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة في مكة , ولكل جيل من أجيال المؤمنين . .

الدرس الخامس: 19 – 22 هزيمة الكفار وحفظ القرآن

وفي الختام يجيء إيقاعان قويان جازمان . في كل منهما تقرير , وكلمة فصل وحكم أخير:

(بل الذين كفروا في تكذيب , والله من ورائهم محيط) . .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم في تكذيب يمسون به ويصبحون . (والله من ورائهم محيط) . . وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة في الطوفان العميم !

(بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) . .

والمجيد الرفيع الكريم العريق . . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو في لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته , لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذي يلقيه التعبير , والإيحاء الذي يتركه في القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت , قوله هو المرجع الأخير , في كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول , وقوله هو المرعي المحفوظ . .

ولقد قال القرآن قوله في حادث الأخدود , وفي الحقيقة التي وراءه . . وهو القول الأخير . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3873.3876 ﴾

(304/810)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) ﴾

البروج : جمع برج ، واختلف فى المعنى المراد به هنا هل هى المنازل أو الكواكب أو قصور في السماء عليها حراسها ؟

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك في سورة الحجر ، عند الكلام على قوله

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً ﴾ [الحجر : 16] ، وفي سورة الفرقان عند قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [الفرقان : 61] .

وقيل : إن اصل هذه المادة من الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، وساق بيان المعنى المقصود من بروج السماء وعدد المنازل المذكورة .

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض ، فإن بعض المفسرين يقول : لما ذكر مآل الفريقين وتطاير الصحف فى السورة الأولى ، ذكر هنا عملا من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين في قصة الأخدود .

والذي يظهر أقوى من هذا ، هو والله تعالى أعلم : أنه لما ذكر سابقاً انفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء ، وإذنها لربها حق لها ذلك ، جاء هنا بيان كنه هذه السماء أنها عظيمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة ، فهي مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر ، فأولى بك أيها الإنسان ، والله تعالى أعلم .

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2)

هو يوم القيامة باجماع المفسرين ، وقد كانوا يوعدون به فى الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين ، كما قال تعالى فى حق المؤمنين ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الانبياء : 103] ، وفى حق الكفار ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف : 83] وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون : ﴿ قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس : 52] .

فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازات كلا الفريقين على عملهم .

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3)

لم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود ، وقد ذكر الشاهد فى القرآن بمعنى الحاضر ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : 185] ، وقوله : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ [الأنعام : 73] .

وذكر المشهود بمعنى الشاهد باسم المفعول ، كقوله تعالى : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

فالشاهد والمشهود قد يكونان من المشاهدة ، وذكر الشاهد من الشهادة ، والمشهود من المشهود ه أو عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

فشهيد الاولى : أي شهيد على الامة التي بعثت فيها ، وشهيد الثانية : أي شاهد على الرسل في أممهم .

ومن هنا اختلفت أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولاً .

(306/810)

قال ابن جرير : ما ملخصه : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرف أو النحر ، وعزاه لعلي وأبي هريرة ، والشاهد محمد صلى الله عليه وسلم . ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لابن عباس والحسن بن علي هو يوم القيامة ، وعزاه لابن عباس . ثم قال : والصواب عندي أنه صالح لكل ما يقال له مشاهد ، ويقال له مشهود فلم يفصل ما إذا كان بمعنى الحضور ، أو الشهادة ، ومثله القرطبي وابن كثير .

وقد فصل أبو حيان على ما قدمنا ، فقال : إن كان بمعنى الحضور ، فالشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة ، ولما ذكر اليوم الموعود ناسب ان يذكر كل من يشهد فى ذلك اليوم ، ومن يشهد عليه ، وذكرنا نحواً من عشرين قولا . وقال : كل له متمسك ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أنه من باب الشهادة لأن ذكر اليوم الموعود وهو يكفي عن اليوم المشهود ، بل إنه يحتاج إلى من يشهد فيه وتقام الشهادة على ما سيعرض فيه لإقامة الحجة على الخلق لا

لإثبات الحق .

وقد جاء في القرآن تعداد الشهود في ذلك اليوم ، مما يتناسب مع العرض والحساب .

(307/810)

ومجمل ذلك أنها تكون خاصة وعامة وأعم من العامة ، فمن الخاصة شهادة الجوارح على الإنسان كما في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 20] وقوله : ﴿ اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : 65] ، وهذه شهادة فعل ومقال لا شهادة حال ، كما بينها قوله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 21-22] ، ورد الله زعمهم ذلك بقوله : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين ﴾ [فصلت : 23] .

وتقدم للشيخ بيان شهادة الأعضاء في سورة يس وفي سورة النساء عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] ، وشهادة الملائكة وهم الحفظة كما في قوله تعالى

:

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 23] ، وقوله : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] ، ثم شهادة الرسل كل رسول على امته ، كما في قوله عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة : 117] ، فهذا وإن كان في الحياة فسيؤديها يوم القيامة .

وكقوله في عموم الأمم ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

(308/810)

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل كما في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

ومنها : شهادة هذه الأمة على سائر الأمم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] .

ومنها : شهادة الله تعالى على الجميع .

وهذا ما يتناسب مع ذكر اليوم الموعود وما يكون فيه من الجزاء والحساب على الأعمال

ومجازاة الخلائق عليها : وسيأتي في نفس السياق قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : 9] ، وهو كما ترى لا يتقيد بشاهد واحد ، وأيضا لا يعارض بعضها بعضا .

فاختلاف الشهود وتعددهم باختلاف المشهود عليه ، وتعدده من فرد إلى أمة إلى رسل ، إلى غير ذلك . وكلها داخلة في المعنى وواقعة بالفعل .

وقد ذكرت أقوال أخرى ، ولكن لا تختص بوم القيامة .

ومنها : أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم ، والمشهود به وحدانية الله تعالى .

ومنها : الشاهد المخلوقات ، والمشهود به قدرة الله تعالى ، فتكون الشهادة بمعنى العلامة .

وأكثر المفسرين إيراداً في ذلك الفخر الرازي حيث ساقها كلها بادلتها إلا ما ذكرناه من السنة فلم يورده .

وقد جاء في السنة تعيين الشهادات لغير ما ذكر .

منها الشهادة للمؤذن : ما يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر ، إلا شهد له يوم القيامة .

ومنها : شهادة الارض على الإنسان بما عليها المشار في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة : 4] .

ومنها : شهادة المال على صاحبه فيم أنفقه .

ومنها : شهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما . ونحو ذلك والله تعالى أعلم .

تنبيه

في هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة ، وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو على كل شيء شهيد ، وبكل شيء عليم ، وموكل حفظه يكتبون أعمال العباد ، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته ويستنطق أعضاءهم ، ويستشهد الرسل على الأمم والرسول صلى الله عليه وسلم على الرسل ، أي بأنهم بلغوا أممهم رسالات الله إليهم ، فلأن لا يقضي القاضي بعلمه من باب أولى . والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله : " إنكم تَحتكمون إليَّ وإنما أنا بشر أقضي لَكم على نحو ما أسمع ، فمن اقتطعت له شَيئاً من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من نَار " الحديث . أي كان من الممكن أن ينزل عليه الوحي ، ولا سيما في تلك القضية بعينها ، إذ قالوا في مواريث درست معالمها ولا بينة بينهما ، ولكن إذا نزل الوحي عيله صلى الله عليه وسلم فيها ، فمن بالوحي لمن يأتي بعده في القضاء ؟

ولذا قال صلى الله عليه وسلم " البينة على المدعي ، واليمين على من أنكر " .

ومعلوم أن البينة فعلية من البيان ، فتشمل كل ما يبين الحق من شهادة وقرينة كما في قصة

يوسف من القرائن مع إخوته ومع امرأة العزيز . إلخ .

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5)

قال أبو حيان ، وجواب القسم في قوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ [البروج : 1]

قيل : محذوف ، فقيل : اتبعثن ومحوه ، ويل : مذكور ، فقيل : إن الذين فتنوا المؤمنين

والمؤمنات ونحوه ، وقيل : قتل ، وهذا نختاره ، وحذفت اللام أي لقتل وحسن حذفها كما

حسن في قوله : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] ، ثم قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن

زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] أي لقد أفلح ، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل

ذلك ، وتنبيها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

(310/810)

وإذا كان قتل هي الجواب فهي جملة خبرية ، وإذا كان الجواب غيرها في جملة إنشائية ،

دعاء عليهم .

وقرئ : قتل بالتشديد ، قرأها الحسن وابن مقسم ، وقرأها الجمهور بالتخفيف 1ه .

والأخدود : جمع خد ، وهو الشق في الأرض طويلاً . وقوله : ﴿ النار ذَاتِ الوقود ﴾

الوقود بالضم وبالفتح ، والقراءة بالفتح كالسحور ، والوضوء . فبالفتح ما توقد كصبور

والماء المتوضأ به والطعام المتسحر به ، وبالضم المصدر ، والفعل والوقود بالضم ما توقد به .

ذكر صاحب القاموس ، والنار ذات الوقود : بدل من الأخدود .

وقيل في معناها : عدة أقوال ، حتى قال أبو حيان : كسلت عن نقلها .

ونقل الفخر الرازي ثلاثة منها .

(311/810)

والمشهور عند ابن كثير ما رواه أحمد ومسلم : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان فيمن كان قبلكم ملك ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إني قد كبر سني وحضر أجلي ، فادفع لي غلاماً لأعلِّمه السحر ، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر والملك راهب ، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه ، وقال ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر ضربك فقل : حبسني أهلي ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل : حبسني الساحر : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم الساحر ؟ قال : فأخذ حجراً فقال

: اللهم إن كان أمر الراهب أحبُّ إليَّ وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة ، حتى يجوز الناس ورماها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أي بني أنت أفضل مني ، إنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس أعمى فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفني . فقال : ما أنا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله عزَّ وجلَّ ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان من ردَّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي ، فقال : أنا . قال : لا ، ربي وربك الله ، قال : ولك رب غيري ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام ، فبعث إليه فقال : أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص ، وهذه الأدواء ، فقال : أما أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل ، قال : أنا . قالا : لا ، قال : أولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله فأخذه أيضاً بالعذاب حتى دل على الراهب فأوتي بالراهب فقيل : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع

(312/810)

شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار في مفرقه أيضاً ، وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغتم ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلاَّ فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علموا به الجبل ، فال : اللَّهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون ، وجاء الغلام يلتمس حتى دخل الملك ، فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله تعالى ، فبعث به نفراً إلى البحر في فرفور ، فقال : إذا لججتم به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه ، فقال الغلام : اللَّهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا هم ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال : ما هو ؟ قال : تجمع النسا في صعيد واحد ، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك ان فعلت ذلك قتلتني ففعل ، ووضع السهم في قوسه ورماه به في صدغه ، فوضع الغلام يده في موضع السهم ومات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله وقع بك : قد آمن الناس كلهم فأمر بأفواه السكك ، فخدت فيها الأخاديد وأُضرِمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلاَّ فأقحموه فيها قال : فكانوا يتعادون ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابنٍ لها رضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي ، اصبري يا أماه فإنك لى الحق . وقد قيل : إن الغلام دفن فوجد زمن عمر بن الخطاب ويده على صدغه ، كلما رُفعت خرج الدم من جرحه ، وإذا تُركت أعيدت على الجرح " .

وقد سقنا هذه القصة ، وهي من أمثل ما جاء في هذا المعنى لها فيها من العبر ، والتي يمكن أن يستفاد منها بعض الأحكام ، حيث إن ابن كثير ، عزاها للإمام أحمد بن حنبل ومسلم ، أي لصحة سندها مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الآتي :

(313/810)

الأول : ان السحر بالتعلم كما جاء قصة الملكين ببابل ، هاروت وماروت يعلمان الناس السحر .

الثاني : إمكان اجتماع الخير مع الشر : إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر ، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر .

ثالثا : إجراء خوارق العادات على أيدي دعاة الخير ، لبيان الحق والتثبت في الأمر ، كما قال الغلام : اليوم أعلم أمر الراهب أحبَّ إلى الله أم أمر الساحر ؟

الرابع : أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب ، إذ قال : اللَّهم أمر الراهب أحب إليك ، فسأل عن أمر الراهب ولم يسل عن أمر الساحر ؟

الخامس : اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه ، كاعتراف الراهب للغلام .

السادس : ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك ، وتفاوت درجات اناس في

ذلك .

السابع : إسناد الفعل كله لله ، إنما يشفي الله .

الثامن : رفض الداعي إلى الله الأجر على عمله وهدايته ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : 57] .

التاسع : بيان ركن أصيل في قضية التوسل ، وهو ان مبناه على الإميان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى .

العاشر : غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك ، حيث ظن في نفسه أنه الذي شفى جليسه . وهو لم يفعل له شيئاً ، وكيف يكون وهو لا يعلم ؟

الحادي عشر : اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام ، أسلوب الجهلة والجبابرة .

الثاني عشر : منتهى القسوة والغلظة في نشر الإنسان ، بدون هوادة .

الثالث عشر : منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين ، وهكذا كان في الأمم الأولى ، وبيان فضل الله على هذه الأمة ، إذ جاز لها التلفظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان .

(314/810)

وقد جاء عن الفخر الرازي قوله : الآية تدل على أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ما خوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة في ذلك ، وقال .

وروى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : تشهد أني رسول رسول الله ؟ فقال : نعم ، فتركه ، وقال للآخر مثله ، فقال : لا بل أنت كذاب . فقتله ، فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " أما الذي ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذي قتل فأخذ بالأفضل فهنيئاً له " .

وتقدم بحث هذه المسألة للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه .

الرابع عشر : إجابة دعوة الغلام ونصره الله لعباده المؤمنين : اللَّهم اكفنيهم بما شئت .

الخامس عشر : التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة ، حيث دل الغلام الملك على الطريقة التي يتمكن الغلام من اقناع الناس بالإيمان بالله ، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو .

السادس عشر : إبقاء جسمه حتى زمن عمر رضي الله عنه إكراماً لأولياء الله ، والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم .

السابع عشر : إثبات دلالة القدرة على البعث .

الثامن عشر : حياة الشهداء لوجود الدم وعودة اليد مكانها ، بحركة مقصودة .

التاسع عشر : معرفة تلك القصة عند اهل مكة حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب

أفعالهم بضعفة المؤمنين ، كما هو موضح في تمام القصة .

العشرون : نطق الصبي الرضيع بالحق .

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6)

الضمير في قوله : ﴿ هُمْ ﴾ ، والضمير في قوله ، ﴿ قُعُودٌ ﴾ ، ذكر فيهما خلاف .

فقيل : راجعان إلى من أحرقوا وأقعدوا عليها .

وقيل : راجعان إلى الكفار .

وعليه ففي قوله : ﴿ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ ، إشكال وهو كيف يتمكن لهم القعود على النار .

فقيل : إنها رجعت عليهم فأحرقتهم ، فقعودهم عليها حقيقة .

وقيل : قعود على حافتها ، كما تقول : قعود على النهر أو على البئر أو على حافته وحوله ، كما يقال : نزل فلان على ماء كذا ، أي عنده .

(315/810)

وأنشد أبو حيان بيت الآعشى :

تشب لمقرورين يطليلانها . . . وبَات على النار الندى والمحلق

وقد استدل صاحب القول الأول بقوله تعالى الآتي : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ

الحريق ﴾ [البروج : 10] ، فقال : الحريق في الدنيا وجهنم في الآخرة .

ولكن في الآية قرينة ، على أن الضمائر راجعة إلى الكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم ، وهي قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ﴾ [البروج : 10] ، حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة ، وجاء بثم التي هي للتراخي ، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاماً منهم حالاً ، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة ، وإلاَّ فلهم العذاب المذكور في الآخرة . والله تعالى أعلم .

وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)

بمعنى حضور يتفق قوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [البروج : 6] ، أي حضور يشاهدون إحراق المؤمنين ، وهذا زيادة في التكبيت بهم ، إذ يرون هذا المظهر بأعينهم ولم يشفقوا بهم ولم يعتبروا بثباتهم .

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)

هذا ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم ونظيره في العربية أقوال الشاعر :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكَتائب

وذكر أبو حيان قول الشاعر : وهو قيس الرقيات :

ما نقموا من بني أمية إلا . . . أنهم يحلمون إن غضبُوا

وقول الآخر :

ولا عَيب فيها غَير شكله عينها . . . كذاك عناق الطَّير شكلا عيونها

يقال عين شكلاء : إذا كان في بياضها حمرة قليلة يسيرة :

(316/810)

وقدمنا أن نقمتهم عليهم للمستقبل ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللّهِ ﴾ [البروج : 8] ، لا على الماضي إلا أن آمنوا ، لأنهم كانوا يقولون لهم : إما أن ترجعوا عن دينكم ، وإما أن تلقوا في النار ، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق ، بل على اصرارهم على الإيمان للمستقبل .

والإتيان هنا بصفتي الله تعالى العزيز الحميد إشعار بأنه سبحانه قادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين ، إذ العزيز هو الغالب ، كما يقولون : من عزّ بز ، ولكن جاء وصفه بالحميد ، ليشعر بأمرين .

الأول : أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة ، رغبة في الحميد على ما يأتي الغفور الودود ، ورهبة من العزيز كما سيأتي في قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] ، وهذا كمال الإيمان رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمن .

والأمر الثاني : حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته ، كما قال : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ

﴿ [البروج: 10] ، إذ اعطاهم المهلة من آثار صفته الحميد سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ .

تأكيد وبيان العزيز الحميد ، إذ لا يخرج عن سلطانه أحد ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو المدبر أمر ملكه ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ربط بأول السورة وشاهد ومشهود ، فهو سبحانه على كل شيء شهيد ، ومن ذلك فعل أولئك ، وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم على شاكلتهم ، بأن الله تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية .

وقد جاء بصيغة المبالغة في شهيد ، لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل ، كما كانوا قعوداً على النار وشهوداً على إحراق أولياء الله تعالى ، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل ، إذ يحرقهم هو عليهم شهيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ .

(317/810)

يحتمل أن يكون مراداً به أصحاب الأخدود ، وفتنوا بمعنى أحرقوا ، ويحتمل أن يكون عاماً في كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأي أنواع الفتنة والتعذيب .

وقد رجح الأخير أبو حيان وحمله على العموم أولى ، ليشمل كفار قريش بالوعيد والتهديد ، وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضعة المؤمنين ، كعمار وبلال وصهيب وغيرهم .

ويرجح هذا العموم ، العموم الآخر الذي يقابله في قوله : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ذَلِكَ الفوز الكبير ﴾ [البروج : 11] ، فهذا عام بلا خلاف في كل من اتصف بهذه الصفات .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)

في مقام المنطوق بالمفهوم من العزيز الحميد ، كما تقدم .

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13)

قيل : يبدئ الخلق ويعيده ، كالزرع والنبات والإنسان بالمولد والموت ، ثم بالبعث .

قيل : يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم ، واستدل لهذا بقوله ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] .

وفي الحديث : " ما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلاَّ إذا كان يوم القيامة ، طح لها بقاع قرقر ، ثم يأتي بها أوفر ما تكون سمناً فتطؤه بخفافها فتستن عليه كما مر عليه أخراها أعيد عليه أولها ، حتى يقضي بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى جنة ، وإما إلى نار " إلى آخر

الحديث في صاحب البقر والغنم والذهب .

ولكن الذي يظهر والله تعالى أعلم هو الأول ، لأنه يكثر في القرآن كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] . وقوله ﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] .

(318/810)

وجعله آية على قدرته ودليلاً على عجز ونقص الشركاء ، في قوله في أول هذه الآية : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] ، ورد عليهم بقوله : ﴿ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [يونس : 34] ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴿ الأنبياء : 104] .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17)

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسلية للمؤمنين وتثبيتاً لهم ، وزجراً للمشركين وردعاً لهم ، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم وفرعون وثمود بدل من الجنود ، وهم جمع جند ، وهم الكثرة ، وأصحاب القوة ، وحديثه ما قص الله من خبره مع موسى وبني إسرائيل .

وفي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة ، إذ

فرعون طغى وادَّعى الربوبية ، كملك أصحاب الأخدود الذي قال لجليسه : ألك رب غيري ؟ ولتعذيبه بني إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء الناس ، وفي ذلكم بلاء منر بكم عظيم ، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية ، إذ موسى عليه السلام قدَّم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذَّب وعصى ، والغلام قدم لهذا الملك الآيات الكبرى : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وعجز فرعون عن موسى وإدراكه ، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل ، فكان لهذا أن يرعوى عن ذلك ويتفطن للحقيقة ، لكن ساطانه أعماه كما أعمى فرعون .

وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجداً .

وهكذا آمن الناس برب الغلام ، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون . إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته ، فانقلب الموقف عليه ، وكان أول الناس إيمانا هم أعوان فرعون على موسى ، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذي جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام .

(319/810)

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة ، إن كان في الكل عظة وعبرة ، ولكن هذا منتهى الإعجاز في قصص القرآن وأسلوبه ، والله تعالى أعلم .

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان ، وقد جمعهما الله أيضاً معاً في سورة الفجر في قوله : ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ [الفجر : 9- 10] ، وهكذا جمعهما هنا فرعون وثمود .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)

أي مستمر في كل الأمم ، وتقدم في سورة الانشقاق قبلها ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق : 22] .

فقال الكرماني ، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء في كتابه أسرار التكرار في القرآن : إن المغايرة لمراعاة رؤوس الآي والفواصل ، ولكن الظاهر من السياق في الموضعين مراعاة السياق لا فواصل الآي ، لأن في سورة الانشقاق الحديث مع المشركين ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَ يَسْجُدُونَ بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق : 19- 22] .

وفي سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب الأخدود والمشركين في مكة ، ثم قال : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ [البروج : 19] ، فناسب هذا هنا ، وناسب ذاك هناك . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْبُرُوجِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الشَّاهِدُ فَاعِلٌ مِنْ شَهِدَ ، وَالْمَشْهُودُ مَفْعُولٌ مِنْهُ ، وَلَمْ يَأْتِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِعَيْنِهِ ، فَيَجِبُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى كُلِّ شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ .

وَقَدْ رَوَى عَبَّادُ بْنُ مَطَرٍ الرَّهَاوِيُّ عَنْ مَالِكٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيَّادٍ ، عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قَالَ : الشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : الشَّاهِدُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْحَجَرَ الْأَسْوَدَ .

وَقَدْ يَكُونُ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانَ ، وَالْمَشْهُودُ فِيهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَيَوْمَ عَرَفَةَ ، وَيَوْمَ النَّحْرِ ،

وَأَيَّامَ الْمَنَاسِكِ كُلِّهَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ إلَى التَّخْصِيصِ سَبِيلٌ بِغَيْرِ أَثَرٍ صَحِيحٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ إذَا كَانَ الشَّاهِدُ اللَّهَ فَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَاهُ وَمُتَعَلَّقَهُ فِي الْأَمَدِ الْأَقْصَى ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وَهَذَا إذَا تَتَبَّعْته بِالْأَخْبَارِ وَجَدْته كَثِيرًا فِي جَمَاعَةٍ .

(321/810)

وَأَمَّا الْمَشْهُودُ فَعَلَّقَهُ بِكُلِّ مَشْهُودٍ فِيهِ ، وَمَشْهُودٍ عَلَيْهِ ، وَمَشْهُودٍ بِهِ ، حَسْبَ مُتَعَلِّقَاتِ الْفِعْلِ بِأَقْسَامِ الْمَفْعُولِ فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ صَحِيحٌ سَائِغٌ لُغَةً وَمَعْنًى ، فَاحْمِلْهُ عَلَيْهِ وَعَمِّمْهُ فِيهِ .

(322/810)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ثَبَتَ عَنْ صُهَيْبٍ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ : قَدْ كَبِرْت ، فَابْعَثْ لِي غُلَامًا

أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ؛ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ قَعَدَ إِلَيْهِ ، وَسَمِعَ كَلَامَهُ ، وَأَعْجَبَهُ ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرُ مَرَّ بِالرَّاهِبِ ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ ، وَإِذَا أَتَى السَّاحِرُ ضَرَبَهُ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ ، فَقَالَ : إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ : حَبَسَنِي أَهْلِي ، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ ، فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ، فَأَخَذَ حَجَرًا وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا ، وَمَضَى النَّاسُ ؛ فَأَتَى إِلَى الرَّاهِبِ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بُنَيَّ ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ؛ فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ ، فَسَمِعَ بِهِ جَلِيسُ الْمَلِكِ وَكَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فَقَالَ : لَكَ مَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ

(323/810)

إِنْ شَفَيْتَنِي قَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ لَكَ فَشَفَاكَ .

فَآمَنَ بِاللَّهِ ؛ فَشَفَاهُ اللَّهُ .

فَأَتَى الْمَلِكُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيْك بَصَرَك ؟ قَالَ : رَبِّي .

قَالَ : وَلَك رَبٌّ غَيْرِي ، قَالَ : رَبِّي وَرَبُّك اللَّهُ .

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ

حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ .

فَجِيءَ بِالْغُلَامِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَيْ بُنَيَّ ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِك مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ، فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ .

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِك ، فَأَبَى ، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ ، حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ ، فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِك ، فَأَبَى ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ؛ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينِك فَأَبَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ ، مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا كَذَا ، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ ، فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْت ، فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ ، فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُك ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمْ اللَّهُ .

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ .

فَذَهَبُوا بِهِ .

فَقَالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْت ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ ، فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ ؛

فَقَالَ لَهُ : مَا فَعَلَ أَصْحَابُك ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمْ اللَّهُ .

فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إنَّك لَسْت بِقَاتِلِي ، حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُك بِهِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ : بِسْمِ اللَّهِ ، رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ ارْمِنِي ؛ فَإِنَّك إذَا فَعَلْت ذَلِكَ قَتَلْتنِي .

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ،

ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ .

(325/810)

فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ بِرَبِّ الْغُلَامِ ؛ فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ ؛ فَخُدَّتْ ، وَأَضْرَمَ النَّارَ ، وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا ، أَوْ قِيلَ لَهُ : اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا ، حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا ، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا ، فَقَالَ الْغُلَامُ : يَا أُمَّهُ ، اصْبِرِي ، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ ، فَاقْتَحَمَتْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ هُمْ الَّذِينَ حَفَرُوهُ مِنْ الْكُفَّارِ ، وَهُمْ الَّذِينَ رَمَوْا فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَانَ لَفْظُ الصُّحْبَةِ مُحْتَمَلًا ، إلَّا أَنَّهُ بَيَّنَهُ وَخَصَّصَهُ آخِرَ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ لَهَا وَالرَّابِعَةِ مِنْهَا ، وَهُمَا قَوْلُهُ : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ هَذَا الْحَدِيثُ سَتَرَوْنَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَفْسِيرَهُ فِي مُخْتَصَرِ النَّيِّرَيْنِ ، وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ الْأَحْكَامِ هَهُنَا أَنَّ الْمَرْأَةَ وَالْغُلَامَ صَبَرَا عَلَى الْعَذَابِ مِنْ الْقَتْلِ ، وَالصَّلْبِ ، وَإِلْقَاءِ النَّفْسِ فِي النَّارِ ، دُونَ الْإِيمَانِ .

وَهَذَا مَنْسُوخٌ عِنْدَنَا حَسْبَمَا تَقَرَّرَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة البروج

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4)

قوله : ﴿ قُتِلَ ﴾ : هذا جوابُ القسمِ على المختارِ ، وإنما حُذِفَتِ اللامُ ، والأصلُ : لَقُتِلَ ، كقولِ الشاعر :

4533 حَلَفْتُ لها باللَّهِ حَلْفَةَ فاجرٍ . . . لَناموا فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صالِ

وإنما حَسُن حَذْفُها للطُّولِ ، كما سيأتي إن شاء اللَّهُ تعالى في قولِه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] . وقيل : تقديرُه : لقد قُتِلَ ، فحَذَفَ اللامَ وقد ، وعلى هذا فقولُه : " قُتِلَ " خبرٌ لا دُعاءٌ . وقيل بل هي دعاءٌ فلا يكونُ جواباً . وفي الجواب حينئذٍ أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه قولُه : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ ﴾ . الثاني : قولُه : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ ﴾ قاله المبرد . الثالث : أنه مقدرٌ . فقال الزمخشري : ولم يَذْكُرْ غيرَه " هو محذوفٌ يَدُلُّ عليه ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ﴾ ، كأنه قيل : أُقْسِمُ بهذه الأشياءِ إنَّ كفَّار قريشٍ مَلْعونون كما لُعِنَ أصحابُ الأُخدودِ " ثم قال : " وقُتِل دعاءٌ عليهم ، كقوله : ﴿ قُتِلَ الإنسان ﴾ [عبس : 17] ، وقيل : التقدير : لَتُبْعَثُنَّ .

وقرأ الحسن وابن مقسم " قُتِّلَ " بتشديدِ التاءِ مبالغةً أو تكثيراً . وقوله : " الموعودِ " ، أي : الموعود به . قال مكي : " الموعود نعتٌ لليوم . وثَم ضميرٌ محذوفٌ يتمُّ الموعودُ به . ولولا ذلك لَما صَحَّتِ الصفةُ ؛ إذ لا ضميرَ يعودُ على الموصوفِ مِنْ صفتِه " انتهى . وكأَنَّه يعني أن اليومَ موعودٌ به غيرُه من الناس ، فلا بُدَّ مِنْ ضميرٍ يَرْجِعُ إليه ، لأنه موعودٌ به لا موعودٌ . وهذا لا يُحتاج إليه ؛ إذ يجوز أَنْ يكون قد تَجَوَّزَ بأنَّ اليومَ وَعَدَ بكذا فيصِحُّ ذلك ، ويكونُ فيه ضميرٌ عائدٌ عليه ، كأَنَّه قيل : واليومِ الذي وَعَدَ أَنْ يُقْضَى فيه بين الخلائِقِ .

(327/810)

والأُخْدودُ : الشِّقُّ في الأرضِ . قال الزمخشري : " والأخْدودُ : الخَدُّ في الأرضِ ، وهو الشِّقُّ . ونحوُهما بناءً ومعنىً : الخَقُّ والأُخْقُوق ، ومنه : " فساخَتْ قوائمُه في أخاقيقِ جِرْذان " . انتهى . فالخَدُّ في الأصلِ مصدرٌ ، وقد يقعُ على المفعولِ وهو الشِّقُّ نفسُه ، وأمَّا الأخدودُ فاسمٌ له فقط . وقال الراغب : " الخَدُّ والأُخْدُوْدُ شِقٌّ في أرضٍ ، مستطيلٌ غائِصٌ .

وجمع الأخدود : أخاديدُ . وأصلُ ذلك مِن خَدَّيْ الإنسان ، وهما ما اكتنفا الأَنْفَ عن اليمينِ والشمالِ ، والخَدُّ يُستعار للأرضِ ولغيرها كاستعارةِ الوجهِ ، وتخدُّدُ اللحمِ زوالُه عن

وجهِ الجسم " ثم يُعَبَّرُ بالمُتَخَدِّدِ عن المهزول ، والخِدادُ مِيْسَمٌ في الخَدِّ . وقال غيره : سُمِّيَ الخَدُّ خَدّاً لأنَّ الدموعَ تَخُدُّ فيه أخاديدَ ، أي : مجاريَ .

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5)

(328/810)

قوله : ﴿ النار ﴾ : العامَّةُ على جَرِّها ، وفيه أوجهٌ ، أحدها : أنه بدلٌ من " الأخدود " بدلُ اشتمالٍ ؛ لأنَّ الأخدودَ مشتملٌ عليها ، وحينئذٍ فلا بُدَّ فيه من الضميرِ ، فقال البصريون : هو مقدَّرٌ ، تقديرُه : النارِ فيه . وقال الكوفيون : أل قائمةٌ مَقامَ الضميرِ ، تقديرُه : نارِه ثم حُذِفَ الضميرُ ، وعُوِّضَ عنه أل . وتقدَّم البحثُ معهم في ذلك . الثاني : أنه بدلُ كلٍّ مِنْ كل ، ولا بدَّ حينئذٍ مِنْ حَذْفِ مضافٍ تقديرُه : أُخدودِ النار . الثالث : أنَّ التقديرَ : ذي النار ؛ لأنَّ الأخدودَ هو الشَّقُّ في الأرض ، حكاه أبو البقاء ، وهذا يُفْهِمُ أنَّ النارَ خفضٌ بالإضافةِ لتلك الصفةِ المحذوفة ، فلمَّا حُذِفَ المضافُ قام المضافُ إليه مَقامَه في الإعراب ، واتَّفَقَ أنَّ المحذوفَ كان مجروراً ، وقولُه : " لأنَّ الأُخْدودَ هو الشَّقُّ " تعليلٌ لصحةِ كونِه صاحبَ نارٍ ، وهذا ضعيفٌ جداً ، الرابع : أنَّ " النار " خفضٌ على الجوارِ ، نقله مكيٌّ عن الكوفيين ، وهذا يقتضي أنَّ " النار " كانت مستحقةً لغيرِ الجرِّ فعدلَ عنه إلى الجرِّ

للجوارِ . والذي يقتضي الحالَ أنَّه عَدَلَ عن الرفع ، ويَدُلُّ على ذلك أنه قد قُرِىء في الشاذّ " النارُ " رفعاً ، والرَفعُ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ تقديرُه : قِتْلَتُهم النارُ . وقيل : بل هي مرفوعةً على الفاعليةِ تقديرُه : قَتَلَتْهم النارُ ، أي : أَحْرَقَتْهم ، والمرادُ حينئذٍ بأصحابِ الأخدودِ المؤمنون .

وقرأ العامَّةُ " الوَقود " بفتح الواو ، والحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى بضمِّها ، وتقدَّمت القراءتان وقولُ الناسِ فيهما في أولِ البقرة .

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6)

(329/810)

قوله : ﴿ إِذْ هُمْ ﴾ : العامل في " إذ " إمَّا " قُتِلَ أصحابُ " ، أي : قُتِلوا في هذا الوقتِ . وقيل : " اذكُر " مقدَّراً ، فيكونُ مفعولاً به . ومعنى قُعودِهم عليها : / أي : على ما يَقْرُبُ منها كحافَّتها ، ومنه قولُ الأعشى :

4534 . . . . . وباتَ على النارِ النَّدى والمُحَلَّقُ

والضميرُ في " هم " يجوزُ أَنْ يكونَ للمؤمنين ، وأَنْ يكونَ للكافرين .

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)

قوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ ﴾ : العامَّةُ على فتح القافِ ، وزيد بن علي وأبو حيوةَ وابنُ أبي عبلة بكسرِها . وقد تقدَّم معنى ذلك في المائدة .

وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ كقولِه في المعنى :

4535 ولا عَيْبَ فيها غيرَ شُكْلَةِ عَيْنِها . . . كذاك عِتاقُ الطيرِ شُكْلٌ عُيونُها

وكقولِ قيس الرقيات :

4536 ما نَقِموا من بني أُمَيَّةَ إلاَّ . . . أنَّهم يَحْلُمُون إنْ غَضِبوا

يعني : أنهم جعلوا أحسنَ الأشياء قبيحاً . وتقدَّم الكلامُ على محلِّ " أَنْ " أيضاً في سورة المائدة .

وقوله : ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ ﴾ أتى بالفعلِ المستقبلِ تنبيهاً على أنَّ التعذيبَ إنما كان لأَجْلِ إيمانِهم في المستقبلِ ، ولو كفروا في المستقبلِ لم يُعَذَّبُوا على ما مضى من الإيمان .

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10)

قوله : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ ﴾ : هو خبرُ " إنَّ الذين " ودخلت الفاءُ لِما تضمَّنه المبتدأُ مِنْ معنى الشرطِ ، ولا يَضُرُّ نَسْخُه ب " إنَّ " خلافاً للأخفش . وارتفاع " عذابُ " يجوزُ على

الفاعليَّةِ بالجارّ قبله لوقوعِه خبراً ، وهو الأحسنُ ، وأَنْ يرتفعَ بالابتداء .

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14)

(330/810)

قوله : ﴿ الودود ﴾ : مبالغةٌ في الوُدِّ . قال ابن عباس : " هو المتودِّدُ لعبادِه بالمغفرة " ، وعن المبرد : " هو الذي لا وَلَدَ له " ، وأنشد :

4573 وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفانَةً . . . ذَلولَ الجِماحِ لقاحاً وَدُوْدا

أي : لا ولدَ لها تَحِنُّ إليه . وقيل : هو فَعُول بمعنى مَفْعول كالرَّكوب والحَلُوْب ، أي : يَوَدُّه عبادُه الصالحون .

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15)

قوله : ﴿ المجيد ﴾ : قرأ الأخَوان بالجرِّ فقيل : نعتاً للعرش . وقيل : نعتاً ل " ربّك " في قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] . قال مكي : " وقيل : لا يجوز أَنْ يكونَ نعتاً للعرش ؛ لأنه مِنْ صفاتِ اللَّهِ تعالى " . والباقون بالرفع على أنه خبرٌ بعد خبرٍ . وقيل : هو نعتٌ ل " ذو " . واستدلَّ بعضُهم على تعدُّدِ الخبرِ بهذه الآيةِ . ومَنْ مَنَعَ قال : لأنهما في معنى خبرٍ واحدٍ ، أي : جامعٌ بين هذه الأوصافِ الشريفةِ ، أو كلٌّ منها خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ

.

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

قوله : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ بدلاً من " الجنود " ، وحينئذٍ فكان ينبغي أَنْ يأتيَ البدلُ مطابقاً للمبدلِ منه في الجمعية فقيل : هو على حَذْفِ مضافٍ ، أي : جنودِ فرعون . وقيل : المرادُ فرعونُ وقومُه ، واسْتَغْنى بذِكْرِه عن ذِكْرِهم ؛ لأنهم أتباعُه . ويجوزُ أن يكونَ منصوباً بإضمار أعني ؛ لأَنَّه لَمَّا لم يُطابق ما قبلَه وجب قَطْعُه .

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21)

قوله : ﴿ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ : العامَّةُ على تبعيَّةِ " مَجيد " ل " قرآن " . وقرأ ابن السميفع بإضافةِ " قرآن " ل " مَجيد " فقيل : على حَذْفِ مضافٍ ، أي : قرآنُ ربٍّ مَجيدٍ كقوله :

4538 . . . . . ولكنَّ الغِنى رَبٌّ غفورُ

(331/810)

أي : غنى رَبٍّ غفورٍ . وقيل : بل هو من إضافةِ الموصوف لصفتِه فتتحدُ القراءتان ، ولكنْ البصريون لا يُجيزون هذه لئلا يلزَمَ إضافةُ الشيءِ إلى نفسِه ، ويتأوّلون ما وَرَدَ .

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

قوله : ﴿ مَّحْفُوظٍ ﴾ : قرأ نافع بالرفع نعتاً ل " قرآن " ، والباقون بالجرّ نعتاً ل " لوحٍ " . والعامَّةُ على فتح اللام ، وقرأ ابن السَّمَيْفع وابن يعمر بضمّها . قال الزمخشري : " يعني اللوحَ فوق السماء السابعة الذي فيه اللوحُ محفوظٌ مِنْ وصولِ الشياطين إليه " . وقال أبو الفضل : " اللُّوح : الهواء " وتفسيرُ الزمخشري أمسُّ بالمعنى ، وهو الذي أراده ابن خالويه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 743.750 ﴾

(332/810)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة البروج

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم من لا عقل يكتنهه ، اسم من لا مثل يشبهه ، اسم من لا فهم ، يرتقي إليه بالتصوير ، اسم من لا علم ينتهي إليه بالتقدير ، اسم من لم يره بصر إلا واحد – وهو أيضا مختلف فيه ، اسم لا يجسر أحد أن يتكلم بغير ما أذن فيه ، اسم من لا قطر يحويه ، ولا سر يخفيه ولا أحد يصل إلى معرفته إلا من يرتضيه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ .

أراد البروج الاثني عشر .

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .

يوم القيامة .

وجوابُ القَسَم قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ .

يقال : الشاهدُ اللَّهُ ، والمشهودُ الخَلْقُ .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والمشهودُ اللَّهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والمشهودُ القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ، وقال في القيامة : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : 103] .

وقيل : الشاهد يومُ الجمعة ، والمشهود يومُ عَرَفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتب العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهد على نفسه ، وأعضاؤه تشهد عليه ؛ فهو شاهد وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامة ، والمشهودُ الناس .

ويقال : المشهودُ هم الأمة لأنه صلى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمة ، والمشهودُ سائر الامم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسود لأنَّ فيه كتابَ العهد .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخَلْق ؛ يشهدون لله بالوحدانية ، والمشهود الله .

ويقال : الشاهدُ الله ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، والمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5)

(333/810)

أي لُعِنوا . والأخدودُ : الحُفْرةُ في الأرض إذا كانت مستطيلةً ، وقصتهم في التفسير معلومة و "الوقود" الحطب .

وهم أقوامٌ كتموا إيمانَهم فلمَّا عَلِمَ مَلِكُهم بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة ، وألقاهم فيها .

وآخِرُ مَنْ دَخَلَها امرأةٌ كان معها رضيعٌ ، وهَمَّت أن ترجع ، فقال لها الولد : قِفي واصبري . . . فأنت على الحقِّ .

وألقوها في النار ، واقتحمتها ، وبينا كان أصحابُ الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النارُ من الأخدود وأحرقتهم جميعاً ، ونجا من كان في النار من المؤمنين وسَلِموا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ما غَضبوا منهم إلاَّ لإيمانهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .

أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ : نوعٌ من العذاب ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ : نوع آخر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ : النجاة العظيمة .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

البطشُ الأخذ بالشدة .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .

يُبدئُ الخَلْق ثم يُعيدُهم بعد البعث .

ويقال : يبدئ بالعذاب ثم يُعيد ، وبالثواب ثم يُعيد .

ويقال : يبدئ على حُكْم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه ، ويبدئ على الضعف ويعيدهم

إلى الضعف .

ويقال : يبدي الأحوال السَّنيَّة فإذا وقعت حجبة يعيد ثانية .

(334/810)

ويقال : يبدي بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا نَقَضَ توبتَه فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله .

ويقال : يبدي لطائفَ تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً ، فلا يزال يبدي ويعيد إلى آخر العمر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .

" الغفور " كثيرُ المغفرة ، " الودود " مبالغة من الوَادِّ ، ويكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر له كثيراً لأنه يَوَدُّهم ، ويغفرُ لهم كثيراً لأنهم يودُّنه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .

ذو المُلْكِ الرفيع ، والمَجْد الشريف .

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ .

لأنه مالِكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجْر عليه ولا حَظْرَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ .

الجموع من الكفار .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .

وقد تقدم ذكر شأنهما .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ يعني مُشْرِكي مكة ؛ ﴿ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ للبعث والنشر .

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾ .

عالمٌ بهم .

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

﴿ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ مكتوبٍ فيه . وجاء في التفسير : أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء ، دِفَّتَاه من ياقوته حمراء عَرْضُها بين السماء والأَرض ، وأعلاه متعلّقٌ بالعرش ، وأسفله في حِجْرِ مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : 49] فهو في اللوح مكتوبٌ ، وفي القلوبِ محفوظٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 709 . 713 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (4)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)

الإعراب :

(الواو) واو القسم (السماء) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (النار) بدل اشتمال من الأخدود " 1 " ، (إذ) ظرف في محلّ

---

(1) والضمير العائد على المبدل منه محذوف أي : النار فيه . [. . . . .]

نصب متعلّق بـ(قتل) ، (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (بالمؤمنين) متعلّق بـ(يفعلون) .

والمصدر المؤوّل (ما يفعلون . .) في محلّ جرّ بـ(على) متعلّق بـ(شهود) .

جملة : " (أقسم) بالسماء . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة . . وجواب القسم محذوف تقديره :

إنّ الجزاء لحقّ أو لواقع على الكافرين . . .

وجملة : " قتل أصحاب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " هم عليها قعود " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم . . . شهود " في محلّ جرّ معطوفة على جملة " هم عليها قعود " .

وجملة : " يفعلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(2) الموعود : اسم مفعول من الثلاثيّ وعد ، وزنه مفعول وهو يوم القيامة .

(4) الأخدود : اسم للشقّ في الأرض ، وزنه أفعول بضمّ الهمزة وسكون الفاء والجمع أفاعيل .

الفوائد :

- أصحاب الأخدود :

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف .

(2) إذا كانت الجملة خبريّة – لا إنشائيّة دعائيّة – كانت هي جواب القسم بتقدير اللام وقد .

(337/810)

روي عن صهيب ، أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال : كان ملك فيمن كان قبلكم ، كان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : ابعث لي غلاما أعلمه السحر . وكان في طريق الغلام راهب ، فقعد إليه فأعجبه كلامه . وكان يتأخر في الذهاب عن الساحر وفي الإياب عن أهله ، فشكا ذلك للراهب ، فقال له : قل للساحر : حبسني أهلي ، وقل لأهلك : حبسني الساحر ، فبينما الغلام كذلك ، إذ عرضت دابة قطعت الطريق ، فأخذ الغلام حجرا وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك فاقتل هذه الدابة ، فماتت الدابة . فقص ذلك على الراهب ، فبشره بخير ، وقال له : لقد أصبحت أفضل مني ، وإنك ستبتلى ، فلا تدلّ علي وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص بإذن اللّه ، ويداوي أمراض الناس ، وكان جليس للملك أعمى ، فجاءه بهدايا وقال له : هذه جميعها لك إن شفيتني فقال الغلام إنما يشفيك اللّه ، فآمن به ، فآمن جليس الملك ، فدعا له فبرئ ، فسأله الملك كيف شفي من مرضه ، فقص عليه وقال له : شفاني اللّه . قال الملك : وهل لك رب غيري ، قال الجليس :

ربي وربك اللّه ، فلم يزل يعذبه الملك حتى دله على الغلام ، ولم يزل يعذب الملك الغلام حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب ، فطلب منه الرجوع عن دينه فأبى ، فنشره من مفرقه حتى وقع شقّاه ، ثم فعل بالجليس كذلك .

ثم دفع الملك الغلام إلى نفر ، ووكلهم بطرحه من شاهق جبل فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت وكيف شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشي إلى الملك .

(338/810)

فقال له : ما فعل أصحابك ، فقال : كفانيهم اللّه فدفعه إلى نفر فقال : اجعلوه في قرقور فتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه ، وإلا فألقوه في اليم . فقال : اللهم اكفينهم بما شئت وكيف شئت ، فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا . وجاء الغلام يمشي ، فسأله الملك عن أصحابه ، فقال : كفانيهم اللّه عز وجل . فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . فقال : ما هو ؟ قال : تجعل الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع نخل ، ثم خذ سهما من كنانتي وقل باسم اللّه رب الغلام ، ثم ارمني به ، فعند ذلك تقتلني ، ففعل الملك ذلك وضربه بالسهم قائلا : باسم اللّه رب الغلام ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده مكان وقوع السهم ، ثم مات . فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أ

رأيت ما كنت تحذره قد والله نزل بك ، فأمر الملك بشق أخدود أضرمت فيه النيران ، فمن لم يرجع عن دينه ألقي في النار ، فأتي بامرأة معها صبي لها ، فتقاعست ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبري فإنك على الحق . هذا الحديث صحيح أخرجه مسلم .

قال ابن عباس : كان بنجران ملك من ملوك حمير ، يقال له يوسف ذو نواس ابن شرحبيل بن شراحيل ، في الفترة قبل مولد النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) بسبعين سنة ، وكان في بلاده غلام يقال له : عبد اللّه بن تامر ، وكان أبوه يسلمه إلى معلم يعلمه السحر ، وساق نفس الحديث السابق الذي رواه صهيب .

- حذف قد :

(339/810)

ذكر البصريون أن الفعل الماضي الواقع حالا لا بد معه من (قد) ظاهرة ، كقوله تعالى (وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ) أو مضمرة كقوله تعالى (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) أي (وقد اتبعك) (أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ) أي قد حصرت . وقال الجميع : حقّ الماضي المثبت المجاب به القسم أن يقرن باللام وقد ، كقوله تعالى (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا) . وقيل في قوله تعالى : (قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ) في الآية التي نحن

بصددها ، إنه جواب القسم على إضمار اللام وقد جميعا أي (لقد قتل) .

[سورة البروج(85) : الآيات 8 إلى 9]

وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) نافية (منهم) متعلّق بـ (نقموا) بتضمينه معنى عابوا (إلّا) للحصر (أن) حرف مصدريّ ونصب (بالله) متعلّق بـ (يؤمنوا) ، (الحميد) نعت ثان للفظ الجلالة .

جملة : " ما نقموا " في محلّ جرّ معطوفة على جملة هم . . شهود " 1 " .

وجملة : " يؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) في الآية السابقة (7) .

والمصدر المؤوّل (أن يؤمنوا) في محلّ نصب مفعول به لفعل نقموا " 1 " .

9 - (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت ثالث للفظ الجلالة " 2 " ، (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ملك) ، (الواو) استئنافيّة (على كلّ) متعلّق بـ (شهيد) . .

وجملة : " له ملك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " اللّه . . . شهيد " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

---

(1) يجوز أن يكون بدلا من المفعول المقدّر و(إلّا) للاستثناء أي ما نقموا شيئا إلّا إيمانهم ، أو هو منصوب على الاستثناء .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة استئناف بيانيّ .

(341/810)

فن تأكيد المدح بما يشبه الذم : في قوله تعالى " وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " .

استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية ، على منهاج قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فقد استثنى من صفة ذم منفية صفة مدح ، وهذا ما يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم .

[سورة البروج (85) : آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ

(10)

الإعراب :

(الفاء) زائدة لمشابهة الموصول للشرط (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عذاب) في الموضعين .

جملة : " إنّ الذين فتنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فتنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لم يتوبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فتنوا .

وجملة : " لهم عذاب " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لهم عذاب (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر .

الصرف :

(الحريق) ، اسم لحالة شبوب النار واشتعالها ، واستعمل في الآية بمعنى الإحراق – أي إحراق الكافرين للمؤمنين " 1 " – فهو اسم مصدر وزنه فعيل .

[سورة البروج (85) : آية 11]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

الإعراب :

(لهم) خبر المبتدأ (جنّات) ، (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) بحذف مضاف أي من تحت أشجارها ، والإشارة في (ذلك) إلى حيازة المؤمنين للجنّات (الفوز) خبر المبتدأ مرفوع.

---

(1) أي لهم العذاب بسبب الحريق.

(342/810)

جملة: "إنّ الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا.

وجملة: "لهم جنّات . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "تجري . . . الأنهار " في محلّ رفع نعت لجنّات.

وجملة: "ذلك الفوز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة البروج (85) : الآيات 12 إلى 16]

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16)

الإعراب:

(اللام) المزحلقة للتوكيد (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة يبدئ " 1 " ، (الواو) عاطفة (اللام) زائدة للتقوية " 2 " ، (ما) موصول محلّه البعيد مفعول به للمبالغة فعّال . .

جملة : " إنّ بطش ربّك لشديد " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " إنّه هو يبدئ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " هو يبدئ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يبدئ . . . " في محلّ رفع خبر (هو) .

وجملة : " يعيد . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبدئ .

وجملة : " هو الغفور . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة هو يبدئ " 4 " .

وجملة : " يريد " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة البروج (85) : الآيات 17 إلى 18]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

---

(1) أو ضمير مستعار لمحلّ النصب توكيدا للضمير اسم إنّ . . وجملة هو الغفور معطوفة حينئذ على جملة إنّه هو .

(2) أو غير زائدة متعلّقة بفعّال .

(3) جعلها بعضهم جواب القسم الوارد في أول السورة : والسماء ذات . . .

(4) يجوز أن تكون معطوفة على جملة الاستئناف فلا محلّ لها .

(343/810)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام للتقرير " 1 " ، (فرعون) بدل من الجنود مجرور ، وفيه حذف مضاف أي جنود فرعون .

جملة : " هل أتاك حديث . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة البروج (85) : الآيات 19 إلى 20]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (في تكذيب) متعلّق بخبر المبتدأ (الذين) ، (الواو) عاطفة (من ورائهم) متعلّق بـ (محيط) " 2 " .

جملة : " الذين كفروا في تكذيب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اللّه . . . محيط " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(تكذيب) ، مصدر قياسيّ للرباعيّ كذّب ، وزنه تفعيل .

البلاغة

التمثيل : في قوله تعالى " مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ " .

تمثيل لعدم نجاتهم من بأس اللّه تعالى بعدم فوت المحاط المحيط والمعنى أنه عز وجل عالم بهم ، وقادر عليهم ، وهم لا يعجزونه ولا يفوتونه سبحانه وتعالى .

المجاز المرسل : في قوله تعالى " بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ " .

علاقة هذا المجاز الحالية ، لأن التكذيب معنى من المعاني ، ولا يحلّ الإنسان فيه ،

---

(1) أو الاستفهام للتعجّب . . . ويجوز أن تكون بمعنى قد .

(2) أو هو خبر أوّل و(محيط) خبر ثان .

وإنما يحلّ في مكانه ، فاستعمال التكذيب في مكانه مجاز ، أطلق فيه الحال وأريد المحل ، فعلاقته الحالية .

]

سورة البروج (85) : الآيات 21 إلى 22]

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

الإعراب :

(في لوح) متعلّق بنعت ثان لقرآن .

جملة : " هو قرآن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 297.289 ﴾

(345/810)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(85) سورة البروج

مكيّة وآياتها ثنتان وعشرون

[سورة البروج (85) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحابُ

الْأُخْدُودِ (4)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7)

وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ

عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)

اللغة :

(الْبُرُوجِ) جمع برج وهو في الأصل الركن والحصن والقصر وكل بناء مرتفع على شكل مستدير أو مربع يكون منفردا أو قسما من بناية عظيمة والبرج أيضا أحد بروج السماء وهي حسب تعبير اللغويين اثنا عشر : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، وأصل التركيب للظهور

يعني أن أصل معنى البرج الأمر الظاهر من التبرّج ثم صار حقيقة في العرف للقصر العالي لظهوره ويقال لما ارتفع من سور المدينة برج أيضا .

)

الْأُخْدُودِ) مفرد وجمعه أخاديد والخد بفتح الخاء بمعنى الأخدود وجمعه خدود وهو الشق في الأرض أو حفرة مستطيلة فيها ويجمع على أخاديد ، والأخاديد أيضا : آثار الضرب بالسوط ومنه أخاديد الأرشية في البئر وهي تأثير جرّها فيه . ويقال للشيخ : قد

تخدّد ويراد قد تشنج جلده .

الإعراب :

(346/810)

(وَالسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) الواو حرف قسم وجر والسماء مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وذات البروج نعت للسماء واليوم الموعود عطف على السماء أو قسم برأسه والمراد به يوم القيامة وقيل غير ذلك وارجع إلى المطولات ، وشاهد ومشهود عطف أيضا والمراد به محمد صلّى اللّه عليه وسلم وقيل غير ذلك أيضا وجواب القسم محذوف واختلف فيه فقيل دلّ عليه قوله قتل أصحاب الأخدود كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود وقيل محذوف صدره والتقدير لقد قتل وإنما احتيج لهذا الحذف لأن المشهور عند النحاة أن الماضي المثبت المتصرّف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جوابا للقسم تلزمه اللام وقد لا يجوز الاقتصار على أحدهما إلا عند طول الكلام والتقدير لقد قتل فالجملة على ذلك خبرية لا دعائية (قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ) قتل فعل ماض مبني للمجهول

وأصحاب الأخدود نائب فاعل والنار بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل على النار

(347/810)

ولا بدّ من تقدير ضمير بدل الاشتمال والتقدير النار فيه وذات الوقود نعت للنار وقد اختلف في الرابط لأنهم اشترطوا في بدل الاشتمال أن يتصل بضمير يرجع إلى المبدل منه كما اشترطوا ذلك في بدل البعض من الكل ليربط البعض بكله فقيل الرابط محذوف متصل بغير البدل أي النار فيه وهو قول البصريين وقيل لا تقدير والأصل ناره ثم نابت أل عن الضمير وهو قول الكوفيين (إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بقتل أي لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين عليها في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود ، وهم مبتدأ وعليها متعلق بقعود وقعود جمع قاعد خبر هم والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها وهم مبتدأ وعلى ما يفعلون متعلقان بشهود وشهود خبرهم أي يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة وقيل على بمعنى مع وشهود بمعنى حضور والمعنى وهم على ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقون لهم لقسوة قلوبهم وهذا التقدير أكثر ملاءمة لنظم القرآن وقد جرى عليه أبو نواس فقال :

أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد

وعندئذ تكون في محل نصب على الحال أي حال فعلهم بالمؤمنين (وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) الواو عاطفة أو حالية وما نافية ونقموا فعل ماض وفاعل ومنهم متعلقان بنقموا وإلا أداة حصر وأن يؤمنوا مصدر مؤول في محل نصب مفعول نقموا أي ما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، وسيأتي مزيد بسط لهذا المعنى في باب البلاغة ، وعبروا بالمستقبل بقوله يؤمنوا مع أن الإيمان وجد منهم في الماضي لأن تعذيبهم إياهم وإنكارهم عليهم ليس للإيمان الماضي وإنما لديمومته متمكنا فيهم مركوزا في صدورهم فكأنه قيل إلا استمرارهم على إيمانهم . وبالله متعلقان بيؤمنون والعزيز الحميد صفتان

(348/810)

لله ذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يعبد وأن يؤمن به كل مخلوق ومنها العزّة والأنعام الذي يستحق عليه الحمد (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) الذي نعت ثالث وله خبر مقدّم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة والله مبتدأ وشهيد خبره وعلى كل شيء متعلقان بشهيد .

البلاغة :

في قوله : " وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " فن توكيد المدح بما يشبه الذم ، وقد تقدمت الإشارة إليه في المائدة وهو أن يستثني من صفة ذم منفية صفة مدح أو أن يثبت لشيء صفة مدح ويؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى ، ومن الأول بيت النابغة في مديح الغسانيين :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قرع الكتائب

وقول ابن الرقيات وقد اقتبس لفظ القرآن ورمق سماء بلاغته :

ما نقموا من أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا

ومنه قول ابن نباتة المصري :

ولا عيب فيه غير أني قصدته فأنستني الأيام أهلا وموطنا

وقول المعرّي :

تعدّ ذنوبي عند قوم كثيرة ولا ذنب لي إلا العلا والفضائل

وأما الثاني فقليل في الشعر ومنه قول بعضهم :

ما فيك من الجمال سوى أنك من أقبح القبيحات

[سورة البروج (85) : الآيات 10 إلى 22]

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ

الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14)

(349/810)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19)

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

اللغة :

(فَتَنُوا) عذبوا والمراد هنا حرقوهم بالنار ، يقال فتنت الشيء إذا حرقته بالنار والعرب تقول : فتن فلان الدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته وفي المختار : " الفتنة الاختبار والامتحان تقول : فتن الذهب يفتنه بالكسر فتنة ومفتونا أيضا إذا أدخله النار لينظر جودته ودينار مفتون ، قال اللّه تعالى : إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أي حرقوهم ويسمّى الصائغ الفتّان وكذا الشيطان وقال الخليل : الفتن الإحراق قال اللّه تعالى : يوم هم على النار يفتنون " وعبارة القاموس : " الفتن بالفتح الفن والحال ومنه العيش فتنان أي لونان حلو ومر ، والإحراق ومنه " على النار

يفتنون " والفتنة بالكسر الخبرة كالمفتون ومنه بأيكم المفتون وإعجابك بالشيء ، وفتنه يفتنه فتنا وفتونا وأفتنه ، والضلال والإثم والكفر والفضيحة والعذاب وإذابة الذهب والفضة والإضلال والجنون والمحنة والمال والأولاد واختلاف الناس في الآراء ، وفتنه يفتنه أوقعه في الفتنة كفتّنه وأفتنه فهو مفتن ومفتون ووقع فيها لازم ومتعدّ كافتتن فيهما وإلى النساء فتونا وفتن إليهنّ بالضم أراد الفجور بهنّ وكأمير الأرض الحرّة السوداء والجمع ككتب والفتان اللص والشيطان كالفاتن والصائغ والفتانان الدرهم والدينار ومنكر ونكير والفتين النجار وفاتون خباز فرعون قتيل موسى والفتنان الغدوة والعشيّ والفتان ككتاب غشاء للرحل من أدم وكصاحب وزبير اسمان والمفتون المجنون " قال شارحه : " والمفتون المجنون وبه فسّر قوله تعالى : بأيكم المفتون " وقال الجوهري : " الباء زائدة والمفتون الفتنة وهو مصدر كالمعقود والمجلود والمخلوف " . قال ابن برّي : " إذا كانت الباء زائدة فالمفتون الإنسان وليس بمصدر فإن جعلت غير زائدة فالمفتون مصدر " وإنما نقلنا المادة كلها لننفي وهما تورط به الشيخ الجمل في حاشيته على الجلالين إذا قال : " وفي القاموس : إن فتن بهذا المعنى من باب كتب فعلى هذا يكون له بابان " ومن مطالعة ما كتبناه ونقلناه عن القاموس

يتضح هذا الوهم .

الإعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ) كلام مستأنف مسوق لذكر وعيد المجرمين أولا ثم يردفه بذكر ما أعد للمؤمنين . وإن حرف مشبّه بالفعل والذين اسمها وجملة فتنوا صلة الذين لا محل لها والمؤمنين مفعول به والمؤمنات عطف على المؤمنين وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي

(351/810)

و لم حرف نفي وقلب وجزم ويتوبوا فعل مضارع مجزوم بلم والجملة عطف على فتنوا وإنما استعمل ثم لأن التوبة مقبولة مهما يتراخ بها الزمن ويمتد ، فلهم : الفاء رابطة لشرط مقدّر مفهوم من المبتدأ ولهم خبر مقدّم وعذاب جهنم مبتدأ مؤخر ولهم خبر مقدّم وعذاب الحريق مبتدأ مؤخر وجملة فلهم عذاب جهنم خبر إن الذين فتنوا (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) كلام مستأنف كما تقدم مسوق لذكر ما أعدّ للمؤمنين ، وإن واسمها وجملة آمنوا صلة الذين وجملة وعملوا الصالحات عطف على الصلة داخلة في حيّزها ولهم خبر مقدّم وجنات مبتدأ مؤخر

والجملة الاسمية خبر إن الذين آمنوا وجملة تجري نعت لجنات ومن تحتها متعلقان بتجري والأنهار فاعل وذلك مبتدأ والفوز خبر والكبير نعت ، وتذكير الإشارة للتنبيه للمذكور من حيازتهم للجنة واستحقاقهم إيّاها ولام البعد جيء بها للإيذان بعلو درجته في الفضل (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) كلام مستأنف أيضا مسوق لتسلية النبي عمّا يكابده من كفّار قومه وإن أمرهم مغلول ، ومكرهم سيزول .

(352/810)

وإن واسمها واللام المزحلقة وشديد خبرها (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) إن واسمها وهو مبتدأ وجملة يبدىء خبر هو والجملة خبر إن ويجوز أن يكون هو ضمير فصل وجملة يبدىء خبر إنه ويعيد عطف على يبدىء أي من كان قادرا على الإبداء والإيجاد قادر بحكم الطبع والبداهة على الإعادة (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) الواو عاطفة وهو مبتدأ والغفور وما بعده أخبار ، وبهذه الآية يستدل النحاة على تعدّد الخبر ، وسلك الزمخشري طريقا آخر فقال : " فعال خبر مبتدأ محذوف وإنما قيل فعال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة " وقال الفرّاء : هو رفع على التكرير والاستئناف لأنه نكرة محضة (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ؟ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ؟ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) كلام مستأنف مسوق

لتقرير بطشه تعالى وفيه تسلية لرسول اللّه

صلّى اللّه عليه وسلم أي هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم وهل قيل هي بمعنى قد وقيل هي استفهام تقريري تعجبي وأتاك فعل ماض ومفعول به وحديث الجنود فاعل وفرعون وثمود بدل من الجنود على حذف مضاف لأنه أراد بفرعون إياه وآله وبل إضراب انتقالي للأشد والذين مبتدأ وفي تكذيب خبره وسيأتي مزيد من معناه في باب البلاغة (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ) الواو عاطفة واللّه مبتدأ ومن ورائهم متعلقان بمحيط ومحيط خبر اللّه (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) بل إضراب انتقالي عن شدة كفرهم إلى وصف القرآن وهو مبتدأ وقرآن خبر ومجيد صفة أي يسبح وحده في البلاغة والبيان وفي لوح صفة ثانية ومحفوظ صفة للوح.

البلاغة:

1- في قوله "إن بطش ربك لشديد" أورد الخبر الإنكاري وهو تأكيد الكلام وجوبا للمنكر، وقد أكد الكلام بأن واللام.

2- وفي قوله " بل الذين كفروا في تكذيب " مجاز مرسل علاقته الحالية لأن التكذيب معنى من المعاني ولا يحلّ الإنسان فيه وإنما يحلّ في مكانه فاستعمال التكذيب في مكانه مجاز أطلق فيه الحال وأريد المحل فعلاقته الحالية وعدل عن يكذبون إلى جعلهم في التكذيب وأنه لشدته أحاط بهم إحاطة البحر بالغريق والسوار بالمعصم وفي الوقت نفسه جاء بالتكذيب نكرة للدلالة على تعظيمه وتهويل أمره .

الفوائد :

قد يتعدد خبر المبتدأ الواحد فيكون أكثر من واحد لأن الخبر كالنعت فيجوز تعدده ، وإلى ذلك أشار ابن مالك في الخلاصة قال :

وأخبروا باثنين أو بأكثرا عن واحد كهم سراة شعرا

ويطّرد ذلك في وجهين : أحدهما أن يتعدد لفظا لا معنى نحو الرمان حلو حامض لأن معنى الخبرين راجع إلى شيء واحد إذ معناهما مزفهما بمنزلة اسم واحد ، والثاني أن يتعدد لفظا ومعنى نحو زيد كاتب شاعر ، وضابط الأول أنه لا يجوز عطف أحد الخبرين على الآخر لأنهما بمثابة اسم واحد ، وضابط الثاني أنه يجوز أن يعطف الثاني على الأول وأن لا يعطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 429. 437 ﴾

(354/810)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الطارق)

(4/811)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الطارق)

(5/811)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الطارق

مقصودها بيان مجد القرآن فيب ضصدقه فيب الإخبار بتنعيم أهل الإيمان ، وتعذيب أهل الكفران ، في يوم القيامة حين تبلى السرائر وتكشف المخبات الضمائر عن مثقال الذر وما

دون المثقال ، مما دونته الحفظة الكرام في صحائف الأ" مال ، بعد استيفاء الآجال ، كما قدر في أزل الآزال ، من غير استعجال ، ولا تأخير عن الوقت المضروب ولا إهمال ، واسمها الطارق أدل ما فيها على هذا الموعود الصادق بتأمل القسم والمقسم عليه حسب ما اتسق الكلام إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 385 ﴾

(6/811)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والسماء والطارق)

السّورة مكّيّة .

وآياتها سبعَ عشرة فى عدّ الجميع ، غير أَبى جعفر ؛ فإِنَّها عند ستَّ عشرة .

أَسقط ﴿ يَكِيْدُوْنَ كَيْدًا ﴾ ، وعدّها الباقون .

وكلماتها إِحدى وستُّون .

وحروفها مائتان وتسع وثلاثون .

فواصل آياتها (ظلّ بق عار) .

سمّيت بأَوّلها الطارق .

مقصود السّورة : القسم على حفظ أَحوال الإِنسان ، والخبر عن حاله فى الابتداءِ والانتهاءِ ، وكشف الأَسرار فى يوم الجزاءِ ، والقَسَم على أَنّ كلمات القرآن جَزْل ، غير هَزْل ، من غير امتراءِ ، وشفاعة حضرة الكبرياءِ إِلى سيّد اللأَنبياءِ بإِمهال الكافرين ، فى العذاب والبلاءِ ، فى قوله : ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ .

المنسوخ فيها آية واحدة : م ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ ن آية السّيف .

ومن المتشابه ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ وهذا تكرار ، وتقديره : مهِّل مهِّل مهِّل ؛ لكنّه عدل فى الثّانى إِلى (أَمهل) ؛ لأَنّه من أَصله ، وبمعناه : كراهة التكرار ، وعدل فى الثالث إِلى قوله : ﴿ رُوَيْداً ﴾ ؛ لأَنّه بمعناه ، أَى أَرْودهم إِرواداً .

ثم صُغِّر (إِرواداً) تصغير التَّرخيم ، فصار : رويداً .

وقيل : (رويدًا) صفة مصدر محذوف ، أَى إِمهالاً رُوَيْدًا ، فيكون التكرار مرّتين .

وهذه أُعجوبة .

فضل السّورة

فيه حديثان ضعيفان : عن أُبىّ : مَنْ قرأَها أَعطاه الله من الأَجر بعدد كلّ نجم فى السّماءِ عشرَ حسنات .

وقال : يا عليّ من قرأَها فكأَنَّما قرأَ ثلثي القرآن ، وله بكلّ آية قرأَها ثوابُ مَن يأْمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوي التمييز حـ 1 صـ 512.513 ﴾

(7/811)

فصل في التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الطارق

روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة : (أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق) اه . فسماها أبو هريرة : (السماء والطارق) لأن الأظهر أن الواو من قوله : (والسماء والطارق (واو العطف ، ولذلك لم يذكر لفظ الآية الأولى منها بل أخذ لها اسماً من لفظ الآية كما قال في) السماء ذات البروج ((البروج : 1) .

وسميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف (سورة الطارق) لوقوع هذا اللفظ في أولها . وفي (تفسير الطبري) (وأحكام ابن العربي) ترجمت (سورة والسماء والطارق) .

وهي سبعَ عشرة آية .

وهي مكية بالاتفاق نزلت قبل سنة عشر من البعثة . أخرج أحمد بن حنبل عن خالد بن أبي جَبَل العَدْواني : (أنه أبصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مشرق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصاً حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول : (والسماء والطارق ((الطارق : 1) حتى ختمَها قال : (فوعيتُها في الجاهلية ثم قرأتُها في الإِسلام) الحديث .

وعددها في ترتيب نزول السور السادسة والثلاثين . نزلت بعد سورة (لا أقسم بهذا البلد) وقبل سورة : (اقتربت الساعة) .

أغراضها

إثبات إحصاء الأعمال والجزاءِ على الأعمال .

(8/811)

وإثبات إمكان البعث بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكان إعادة الأجسام .

وأدمج في ذلك التذكير بدقيق صنع الله وحكمته في خلق الإِنسان .

والتنويه بشأن القرآن .

وصدق ما ذكر فيه من البعث لأن إخبار القرآن به لمّا استبعدوه وموّهوا على الناس بأن ما فيه غير صدق . وتهديدُ المشركين الذين ناوؤا المسلمين .

وتثبيت النبي (صلى الله عليه وسلم) ووعده بأن الله منتصر له غير بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 257.258 ﴾

(9/811)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الطارق

جاء في مقدمة هذا الجزء أن سوره تمثل طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية , وصيحات بنوم غارقين في النوم . . . تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد , ونذير واحد . "اصحوا . تيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . وإن هنالك عذابا شديدا ونعيما كبيرا . . "

وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص . ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع

المشاهد , ونوع الإيقاع الموسيقي , وجرس الألفاظ , وإيحاء المعاني .

ومن مشاهدها :الطارق . والثاقب . والدافق . والرجع . والصدع .

ومن معانيها :الرقابة على كل نفس:(إن كل نفس لما عليها حافظ) . . ونفي القوة والناصر:(يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر) . . والجد الصارم:(إنه لقول فصل وما هو بالهزل) . .

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته:(إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا !) !

وتكاد تتضمن تلك الموضوعات التي أشير إليها في مقدمة الجزء:"إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . . . الخ" .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3877.3878﴾

(10/811)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الطارق

مكية وآياتها سبع عشرة آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ومحور السورة يدور حول الإيمان بالبعث والنشور ، وقد أقامت البرهان الساطع ، والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث ، فإن الذي خلق الإنسان من العدم ، قادر على إعادته بعد موته .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة ، التي تطلع ليلا لتضيء للناس سبلهم ، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، أقسم تعالى على أن كل إنسان ، قد وكل به من يحرسه ، ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار [والسماء والطارق ، ومما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، إن كل نفس لما عليها حافظ] الآيات

* ثم ساقت الأدلة والبراهين ، على قدرة رب العالمين ، على إعادة الإنسان بعد فنائه [فلينظر الإنسان مما خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر الآيات .

* ثم أخبرت عن كشف الأسرار ، وهتك الأستار في الآخرة عن البشر ، حيث لا معين

للإنسان ولا نصير [يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر

* وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ، معجزة محمد في الخالدة ، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين ، وبينت صدق هذا القرآن ، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم لتكذبهم بالقرآن الساطع المنير [والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ، إنهم يكيدون كيدا ، وأكيد كيدا ، فمهل الكافرين أمهلهم رويدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 544 ﴾

(11/811)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الطارق

السماء : كل ما علاك فأظلك ، الطارق : هو الذي يجنيئك ليلا ، النجم الثاقب : هو الذي يثقب ضوؤه الظلام كأن الظلام جلد أسود والنجم يثقبه ، حافظ : أي رقيب يراقبها فى أطوار وجودها ، وهو اللّه تعالى .

دافق : أي منصبّ بدفع وسيلان وسرعة ، والصلب : الظهر ، والترائب :

عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وقال الحسن وروى عن قتادة : يخرج من صلب كل وأحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما وهو الموافق لما أثبته العلم حديثا كما سيأتى ، ورجعه : أي إعادته ، تبلى : أي تختبر وتمتحن والمراد تظهر ، والسرائر : ما يسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وما خفى من الأعمال ، واحدها سريرة ، قال الأحوص :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا سريرة ودّ يوم تبلى السرائر

الرجع : إعادة الشيء إلى حال أو مكان كان فيه أوّلا ، والمراد به المطر ، وسمى بذلك لكونه يعاد إلى الأرض من السماء ، والصدع : الشق الناشئ من تفرق بعض أجزاء الأرض وانفصال بعضها من بعض بالنبات ، فصل : أي يفصل بين الحق والباطل ، ويقطع الجدل والمراء ، يكيدون كيدا : أي يعملون المكايد فى إبطال أمره ، وإطفاء نوره ، وأكيد كيدا : أي أقابلهم بكيدى فى إعلاء أمره ، وانتشار نوره ، رويدا : أي قريبا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 109. 116 ﴾ . باختصار .

(12/811)

وقال الفراء :

سورة (الطارق)

﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ . . . ﴾ .

الطارق: النجم ؛ لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلا فهو طارق ، ثم فسره فقال:

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ . . . ﴾ والثاقب: المضىء ، والعرب تقول: أثقب نارك ـ للموقِد ، ويقال: إن الثاقب: هو النجم الذى يقال له: زحل ، والثاقب: الذى قد ارتفع على النجوم . والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعا : قد ثقّب . كل ذلك جاء فى التفسير .

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لَّمَّا عَلَيْهَا . . . ﴾ .

قرأها العوام "لمّا" ، وخففها بعضهم . الكسائى كان يخففها ، ولا نعرف جهة التثقيل ، ونرى أنها لغة فى هذيل ، يجعلون إلاّ مع إنِ المخففة (لمّا) . ولا يجاوزون ذلك . كأنه قالك ما كل نفس إلا عليها [/ب] حافظ .

ومن خفف قال: إنما هى لام جواب لإن ، (وما) التى بعدها صلة كقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ ميثاقهم ﴾ يقول: فلا يكون فى (ما) وهى صلة تشديد .

وقوله عز وجل: ﴿ عَلَيْهَا حَافِظٌ . . . ﴾ .

الحافظ من الله عز وجل يحفظها ، حتى يُسلمها إلى المقادير .

﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ . . . ﴾ .

أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم ، أن يجعلوا المفعول فاعلا إذا كان فى مذهب نعت ، كقول العرب: هذا سرٌّ كاتم ، وهمٌّ ناصبٌ ، وليلٌ نائمٌ ، وعيشةٌ راضيةٌ . وأعان على ذلك أنها توافق رءوس الآيات التى هنّ معهن .

﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ . . . ﴾ .

يريد : من الصلب والترائب وهو جائز أن تقول للشيئين: ليخرجن من بين هذين خير كثير ومن هذين . والصلب: صلب الرجل ، والترائب: ما اكتنف لَبّاتِ المراة مما يقع عليه القلائد .

﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾

(13/811)

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . . . ﴾ .

إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال:] حدثنا الفراء قال: وحدثنى مندل عن ليث

عن مجاهد قال: إنه على رد الماءِ إلى الإحليل لقادر .

﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . . . ﴾ .

نبتدىء بالمطر ، ثم ترجع به فى كل عام .

﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . . . ﴾ .

تتصدع بالنبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 254 . 255 ﴾

(14/811)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الطارق «1»

1 - الطَّارِقِ وَ: النجم ، سمي بذلك : لأنه يطرق - أي يطلع - ليلا وكلّ من أتاك ليلا : فقد

طرقك.

3 - والثَّاقِبُ: المضيء.

7 - التَّرائِبِ: معلّق الحليّ من الصدر. واحدتها «تربية».

9 - يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ أي تختبر سرائر القلوب.

11 - وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ أي المطر «2». قال الهذليّ يذكر سيفا:

أبيض كالرّجع رسوب، إذا ما ثاخ في محتفل يختلي

أي أبيض كالماء.

12 - وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ أي تصدّع بالنبات.

15 - يَكِيدُونَ كَيْداً: يحتالون حيلة.

16 - وَأَكِيدُ كَيْداً: أجازيهم جزاء كيدهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 449 ﴾

---

(1) هي مكية.

(2) قال مجاهد: ذات الرجع سحاب يرجع بالمطر.

وقال الغزنوى :

[سورة الطارق]

«الطّارق» : النّجم وهو هنا زحل «1» لأنّه يثقب السّماء السّبع نوره .

9 تُبْلَى السَّرائِرُ : تظهر الخفايا «2» .

16 وَأَكِيدُ كَيْداً : انقض كيدهم وأبطله وأجازيهم عليه .

17 فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ : كرر للتوكيد بتغيير المثال أولا وتبديل اللّفظ ثانيا «3» .

قيل «4» : وتقديرها : مهّل ثم أمهل ثم رويدا ، أي : أرودهم رويدا ، و«أرود» و«أمهل» بمعنى لتحسين اللّفظ .

رُوَيْداً : انظرهم قليلا ، ولا يتكلم بها إلّا مصغّرة ، وهو من رادت

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 432 عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 81 ، إلى علي بن أبي طالب ، وابن عباس . ونقله الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 128 عن الفراء .

(2) ينظر تفسير الطبري : 30/ 146 ، وتفسير البغوي : 4/ 473 .

(3) البحر المحيط : 8/ 456 .

(4) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 134 عن أبي علي الفارسي ، وانظر تفسير

القرطبي :

12/20 ، والبحر المحيط : 8/ 453 .

(16/811)

الريح ترود رودا : تحركت حركة ضعيفة «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 872.873﴾

---

(1) اللسان : 3/ 188 (رود) .

(17/811)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الطارق

عدد 36 - 86

نزلت بمكة بعد سورة البلد ، وهي سبع عشرة آية ، وإحدى وستون كلمة ، ومائتان وتسعة وثلاثون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

"وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ 1 " أقسم جل قسمه بسمائه لأنها مسكن لملائكته الكرام ومعدن أرزاق الناس وغيرهم من خلقه .

قال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) الآية 22 من الذاريات في ج 2 والطارق هو النجم الذي يظهر ليلا ، وتنفصل منه الشهب للشياطين الذين يسترقون السمع فتستوحي منه الشياطين ما تقدمه للمنجمين فيعتمدونه في علومهم ، مما يخرجون الناس به من نور الإيمان إلى ظلمة الكفر ، والرجم هو التكلم بالظن ومنه الرجم بالغيب .

راجع الآية 5 من سورة تبارك ، والآية 18 من سورة الحجر في ج 2 ، وكل من أتاك ليلا فهو طارق ، ويطلق على العلو والرفعة قالت هند : نحن بنات طارق نمشي على النمارق .

تريد ان أباها نجم في علوه وشرفه .

وليعلم ان القسم بهذه الأشياء هو قسم بربها ، وعليه يكون المعنى ، ورب السماء ورب الطارق ، ورب الشمس ، ورب القمر ، ورب التين ، وهكذا .

(18/811)

ثم نوه جلّ شأنه بعظم هذا النجم على سبيل الاستفهام الدال على التفخيم فقال "وَما أَدْراكَ" أيها الإنسان الكامل "مَا الطَّارِقُ 2" الذي أقسمنا به ، هو "النَّجْمُ الثَّاقِبُ 3" في إضاءته وإنارته المتوهج المتوقد الذي يتقد سناه في الظلام ، وسبب نزول هذه السورة هو ان أبا طالب جاء إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم ذات ليلة ، فأتحفه بخبز ولبن ، فبينما هو يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ماء ثم نارا ففزع أبو طالب وقال أي شيء هذا ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم هذا نجم رمى به وهو آية من آيات اللّه فعجب أبو طالب ونزلت ، وجواب القسم "إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ 4" من ربها موكل بحفظها من الآفات ويحفظ عليها عملها ويحصيه ويهيء لها رزقها إلى بلوغ أجلها ، وإن في صدر الآية نافية بمعنى إلا أي ما كل نفس الا عليها حافظ وقرئت لما بالتخفيف وعليه تكون ان مخففة من الثقيلة ، واللام في لما اللام الفارقة بين ان النافية وان المخففة من الثقيلة ، وما للتأكيد وعليه يكون المعنى أن كل نفس لعليها حافظ ، وكلاهما جائز ، والأول أحسن وأبلغ وعليها المصاحف .

(19/811)

قال تعالى "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ" الذي يرى نفسه كبيرا ويتعظم بقوته على غيره ، وفي هذه الآية إشارة إلى أبي الأشد المار ذكره في السورة السابقة ، وهذا من جملة المناسبات التي قد تأتي

بين السور ، وهكذا قد يكون بين كل سورة والتي تليها مناسبة على ترتيب النزول ، وقد يكون أيضا على ترتيب المصاحف ، أي فليتفكر ذلك الإنسان المعجب بقوته "مِمَّ خُلِقَ 5" أخفى مادة خلقه لكونها لا شيء ، ثم صرح بها بقوله "خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ 6" الدفق صب مع دفع أي مصبوب بشدة في الرحم لعظم ما ينتج عنه من هذا الإنسان المنطوي على كمالات لا تعد ولا تحصى ثم بيّن منبع ذلك الماء بقوله "يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ" من الرجل و"التَّرائِبِ 7" من المرأة وإنما خصّ هذين الموضعين وهو في الأصل يخرج من جميع الأعضاء لأن أكثره من الدماغ فينصب في عروق الظهر من الرجل ، وينزل من عروق كثيرة من مقدم المرأة ، فيما بين الثديين .

ولهذا قال من بين الصلب وهو عظام الظهر : (وليراجع في

هذا الموضوع بحث طبي في مجلة التمدن الإسلامي الدمشقية ص 655 من المجلد 21

عام 1374) والترائب وهي عظام الصدر والنحر ومركز الثديين ، ومفرده تريب ، قال

المثقب العبيدي :

ومن ذهب يبين على تريب كلون العاج ليس بذي غصون

وقال امرؤ القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسّجنجل

أي فمن كان أصله من هكذا شيء مهين ، لا يليق به أن يتفاخر ويتباهى ويتطاول ، وليعلم أن الذي خلقه مما علم وأماته بانقضاء أجله في الدنيا "إِنَّهُ" ولا شك "عَلى رَجْعِهِ" إحيائه مرة أخرى وإعادته بعد موته كما كان في الدنيا "لَقادِرٌ 8" حقا حقا واعلموا أيها الناس أن هذا الإحياء له أجل عند اللّه الحاكم العدل "يَوْمَ تُبْلَى" تختبر "السَّرائِرُ 9" مكامن القلوب ومخابيها من العقائد والنيات السيئة وهو يوم القيامة يوم تظهر فيه خبايا الناس وتتكشف ضمائرها على ملأ الأشهاد ليعرف من أدى حقوق اللّه ممن ضيعها ، ويتميز الأمين منها عليها من الخائن المقصر فيها ، وفي ذلك اليوم العصيب يستسلم العبد لربه "فَما لَهُ" فيه "مِنْ قُوَّةٍ" يمتنع بها من عذاب اللّه كأبي الأشد وأضرابه المذكورين في الآية 4 من سورة البلد المارة "وَلا ناصِرٍ 10" ينصره من قريب أو حميم ويتباعد عنه أقاربه (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ) الآية 35 من سورة عبس المارة ،

ثم أقسم جل قسمه فقال "وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ 11" أي التي ترجع في كل دورة إلى الوضع التي تتحرك منه ، أو المطر لأنه من أسمائه حيث يجيء ويرجع قالت الخنساء :

يوم الوداع دموعها جارية كالرجع في المدجنة السارية

أو أنها ترجع إلى ما كانت عليه قبل الفتق قال تعالى (أَ وَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما) الآية 30 من سورة الأنبياء في ج 20 "وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ

12 " المتصدعة بالأشجار والأنهار المنشققة بالنّبات والمعادن التي كانت كتلة واحدة مع السماء فانشقت عنها بأمر اللّه القادر فرفع

(21/811)

السماء وأهبط الأرض وهو على كل شيء قدير وجواب القسم "إِنَّهُ" أي هذا القرآن المنزل عليك يا سيد الرسل "لَقَوْلٌ فَصْلٌ 13" جزم قاطع بين الحق والباطل وصل بين الهدى والضلال "وَما هُوَ" كما يقول كذبة قومك وغيرهم "بِالْهَزْلِ 14" بل حق جد وحق جزم يترفّع قارئه عليكم ان يلم بهزل أو يتفكه بمزاح أو يتهم بتعليم أو نقل .

وقد بلغ الغاية القصوى في الصدق والأمانة فمن شأنه أن يهتدي به الغواة وتخضع لهيبته رقاب العتاة ليس بلعب ولا باطل ولا سحر ولا كهانة ولا خرافة وإذا كان قومك لم يزالوا يتمارون بتقولاتهم وترهاتهم تلك ، فدعهم يا حبيبي ولا تبال بهم ولا يهمك أمرهم وما يريدونه بك "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ" ويحيكون لك "كَيْداً 15" حقدا ويدبرون لك حيلة تافهة يسيرة ليمكروا بك "وَأَكِيدُ" أنا الملك الجبار قاهر الأكاسرة ومبيد الأمم "كَيْداً 16" عظيما لا يقدر قدره البشر جزاء كيدهم بك فأستدرجهم لهوة هلاكهم منحيث لا يعلمون ، فأنتقم منهم في الدنيا بالقتل والأسر والذلة والحقار والجلاء وبالآخرة بعذاب لا تطيقه

أجسامهم ، وإذا كان كذلك وهو واقع لا محالة "فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ" أنظرهم وافسح لهم المجال ولا تستعجل بالدعاء عليهم ودعهم يطيلون أملهم ليزدادوا غرورا وتطاولا في البغي والغي والطغيان .

ولّما كان الإمهال يكون كبيرا بعيدا أو قليلا قريبا نبه عليه بقوله "أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً 17" شيئًا يسيرا ومدة جزئية ، فالعذاب آتيهم لا محالة وفيها تهديد عظيم ووعيد بالغ وقد أخذهم اللّه بعد نزول آية السيف وأمره بقتالهم ، ثم فتح اللّه عليه بلدهم عنوة ومكنه منهم حتى صاروا كلهم من طلقائه وهذه الآية من الإخبار بالغيب المنوه به مما تأخر حكمه عن نزوله ، راجع سورة الكوثر المارة وما نرشدك اليه ، لأن فيها الماعا لاجتماعهم في دار الندوة وتشاورهم في أمر إهلاكه أهلكهم اللّه ، كما سيأتي تفصيله في بحث الهجرة في سورة العنكبوت في ج 2 .

(22/811)

هذا ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة في اللفظ ولم تكرر في القرآن أيضا ، هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا

ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 274.278 ﴾

(23/811)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الطارق مكية

لما عليها حافظ تام وهو جواب القسم مم خلق تام وكذا الترائب لقادر كاف إن أريد برجعه رجعه إلى إلا حليل أو إلى الصلب وليس بوقف إن أريد به بعثه ونشره يوم القيامة لان تبللا السرائر حينئذ ظرف السرائر كاف ولا ناصر تام وكذا بالهزل وآخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(24/811)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الطارق

مكية ست عشرة آية في المدني وسبع عشرة في عدِّ الباقين اختلافهم في أنهم يكيدون كيداً لم يعدها المدني ، كلمها إحدى وستون كلمة وحروفها مائتان وتسع وثلاثون حرفاً ولا وقف من أولها إلى حافظ فلا يوقف على الطارق في الموضعين ومثله في عدم الوقف النجم الثاقب لأنَّ جواب القسم لم يأت وهو أنّ كل نفس وقيل مم خلق سمى النجم وهو الجدي طارقاً لأنه يطرق أي يطلع ليلاً ومنه قول هند بنت عتبة

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

تعني أنَّ أبا نجم في شرفه وعلوه وقيل جواب القسم أنه على رجعه لقادر وما بينهما اعتراض والوقف على خلق الأول (تام) إن جعل خلق الثاني مستأنفاً وليس وقفاً إن جعل تفسيراً للأوّل إذ لا يفصل بين المفسر والمفسر بالوقف

لما عليها حافظ (تام) ومثله مم خلق وكذا والترائب إن لم يجعل إنه على رجعه جواب القسم

لقادر (كاف) إن نصب يوم بقوله ولا ناصر وليس بوقف ان نصب بقادر والضمير في رجعه راجع للإنسان أي على بعثه بعد موته أو راجع للمنى أي رجعه إلى الإحليل أو إلى الصلب لكن رجوعه للإنسان أولى وجعل يوم معمولاً لقوله يظهر من ذلك تخصيص القدرة بذلك اليوم

وحده قاله أبو البقاء قال ابن عطية بعد أن حكى أوجها عن النحاة وكل هذه الفرق فرَّت من أن يكون العامل في يوم لقادر ثم قال وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل في يوم لقادر لأنه إذا قدر على ذلك في هذا اليوم كان في غيره أقدر بطريق الأولى ولا يصح أن يكون العامل في يوم رجعه لأنه قد فصل بين المصدر ومعموله بأجنبي وهو لقادر وبعضهم يغتفره في الظرف

السرائر (كاف)

ولا ناصر (تام)

ولا يوقف على الرجع ولا على الصدع

فصل (حسن)

بالهزل (أحسن) مما قبله

كيداً الثاني (جائز) للابتداء بالأمر مع الفاء

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(25/811)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الطارق

مكية وآيها ست عشرة مدني أول وسبع عشرة في الباقي خلافها آية يكيدون كيدا تركها مدني أول القراآت أمال أدريك ابو عمرو وابن ذكوان وأبو بكر بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق

وقرألما) الآية 4 بتشديد الميم ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وذكر بهود وهي بمعنى إلا لغة مشهورة في هذيل تقول العرب أقسمت عليك لما فعلت كذا أي إلا فعلت فإن نافية أي ما كل نفس إلا عليها حافظ وأمال الكافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ورويس وقلله الأزرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(26/811)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الطارق "

" لما " قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بتشديد الميم وغيرهم بتخفيفها .

" مم " وقف يعقوب والبزي بخلف عنه بهاء السكت وغيرهما بغير هاء .

" لقادر " السرائر . جلي .

" رويدا " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

يصلى وبلى وأتاك وتبلى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه الكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش ، النار مثله ما عدا رويسا فيفتح ، أدراك ، سبق في سورة الانفطار .

المدغم

" الكبير " إنك كادح ، ربك كدحا ؛ أقسم بالشفق ، أعلم بما ، والمؤمنات ثم ، إنه هو الودود ذو العرش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 349 ﴾

(27/811)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الطارق

قوله تعالى ﴿ لما عليها حافظ ﴾ يقرأ بتشديد الميم وتخفيفها فالحجة لمن شدد انه جعل ان بمعنى ما الجاحدة وجعل لما بمعنى الا للتحقيق والتقدير ما كل نفس الا عليها حافظ من الله تعالى والحجة لمن خفف انه جعل ان خفيفة من الثقيلة وجعل ما صلة مؤكدة والتقدير ان كل نفس لعليها حافظ

ولان المكسورة الخفيفة اقسام تكون خفيفة من الشديدة وبمعنى ما وحرف شرط وزائدة وبمعنى اذ وبمعنى قد وبمعنى لم

ولان المخففة المفتوحة اقسام ايضا تكون خفيفة من الشديدة وحرفا ناصبا للفعل المضارع وتكون زائدة وتكون بمعنى أي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 368 ﴾

(28/811)

وقال ابن زنجلة :

86 - سورة الطارق

إن كل نفس لما عليها حافظ

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ان كل نفس لما بالتشديد أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ف

إن بمعنى ما و لما بمعنى إلا والعرب تقول نشدتك الله لما فعلت المعنى إلا فعلت

وقرا الباقون لما بالتخفيف ما تكون زائدة على هذه القراءة العنى إن كل نفس لعليها

حافظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 758 ﴾

(29/811)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الطارق 86

مكية وذكر نظيرتها في المدني الأولى (﴿ والشمس وضحاها ﴾) ولا نظير لها في غيره

وكلمها إحدى وستون كلمة

وحروفها مئتان وتسعة وثلاثون حرفا

وهي ست عشرة آية في المدني الأول وسبع عشرة في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ إنهم يكيدون كيدا ﴾) لم يعدها المدني الأول وعدها الباقون ورؤوس

الآي

والطارق

1 الطارق

2 الثاقب

3 حافظ

4 خلق

5 دافق

6 والترائب

7 لقادر

8 السرائر

9 ولا ناصر

10 الرجع

11 الصدع

12 فصل

13 بالهزل

14 كيدا

15 كيدا

16 رويدا

17 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 270﴾

(30/811)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

جواب القسم (إن كل نفس) وإن بمعنى " ما " و (لما) بالتشديد بمعنى إلا ، وبالتخفيف ما فيه زائدة ، وإن هي المخففة من الثقيلة: أي إن كل نفس لعليها حافظ وحافظ مبتدأ ، وعليها الخبر ، ويجوز أن يرتفع حافظ بالظرف ، و (دافق) على النسب: أي ذو اندفاق ، وقيل هو بمعنى مدفوق ، وقيل هو على المعنى ، لأن اندفق الماء بمعنى نزل ، والهاء في (رجعه) تعود على الإنسان ، فالمصدر مضاف إلى المفعول: أي الله قادر على بعثه ، فعلى هذا في قوله تعالى (يوم تبلى السرائر) أوجه: أحدها هو معمول قادر .

والثانى على التبيين: أي يرجع يوم تبلى .

والثالث تقديره اذكر ، ولا يجوز أن يعمل فيه رجعه للفصل بينهما بالخبر ، وقيل الهاء في رجعه للماء : أي قادر على رد الماء في الإحليل أو في الصلب ، فعلى هذا يكون منقطعا عن قوله تعالى " يوم تبلى السرائر " فيعمل فيه اذكر ، و (رويدا) نعت لمصدر محذوف: أي إمهالا رويدا ، ورويدا تصغير رود ، وقيل هو مصدر محذوف الزيادة ، والأصل إروادا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(31/811)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الطارق

[سورة الطارق (86) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (1)

"وَالسَّماءِ" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "وَالطَّارِقِ" معطوف على السماء .

[سورة الطارق (86) : آية 2]

وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2)

"وَما" الواو حرف عطف "ما" اسم استفهام مبتدأ "أَدْراكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ وجملة ما أدراك . . معطوفة على ما قبلها "مَا الطَّارِقُ" مبتدأ وخبره والجملة سدت مسد مفعول أدراك الثاني .

[سورة الطارق (86) : آية 3]

النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3)

"النَّجْمُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو "الثَّاقِبُ" صفة والجملة الاسمية حال .

[سورة الطارق (86) : آية 4]

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4)

"إِنْ" حرف نفي "كُلُّ نَفْسٍ" مبتدأ مضاف إلى نفس "لَمَّا" حرف حصر "عَلَيْها حافِظٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر كل وجملة إن . . جواب القسم لا محل لها .

[سورة الطارق (86) : آية 5]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5)

"فَلْيَنْظُرِ" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلام الأمر "الْإِنْسانُ" فاعل والجملة مستأنفة "مِمَّ" متعلقان بما بعدهما "خُلِقَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة مفعول به .

[سورة الطارق (86) : آية 6]

خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6)

"خُلِقَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "مِنْ ماءٍ" متعلقان بالفعل "دافِقٍ" صفة ماء والجملة مستأنفة.

[سورة الطارق (86) : آية 7]

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ (7)

"يَخْرُجُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة ثانية لماء "مِنْ بَيْنِ" متعلقان بالفعل "الصُّلْبِ" مضاف إليه "وَالتَّرائِبِ" معطوف عليه.

[سورة الطارق (86) : آية 8]

إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8)

(32/811)

"إِنَّهُ" إن واسمها "عَلى رَجْعِهِ" متعلقان بما بعدهما "لَقادِرٌ" اللام المزحلقة وقادر خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها.

[سورة الطارق (86) : آية 9]

يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (9)

"يَوْمَ" ظرف زمان "تُبْلَى" مضارع مبني للمجهول "السَّرائِرُ" نائب فاعل ، والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الطارق (86) : آية 10]

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ (10)

"فَما" الفاء حرف عطف "ما" نافية "لَهُ" خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "قُوَّةٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها ، "وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "ناصِرٍ" معطوف على ما قبله .

[سورة الطارق (86) : آية 11]

وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11)

"وَالسَّماءِ" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "ذاتِ" صفة السماء "الرَّجْعِ" مضاف إليه .

[سورة الطارق (86) : آية 12]

وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12)

الجملة معطوفة على ما قبلها والإعراب واحد .

[سورة الطارق (86) : آية 13]

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13)

"إِنَّهُ" إن واسمها "لَقَوْلٌ" اللام المزحلقة "قول" خبرها "فَصْلٌ" صفة والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة الطارق (86) : آية 14]

وَما هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

"وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية حجازية تعمل عمل ليس "هُوَ" اسمها "بِالْهَزْلِ" الباء حرف جر زائد "الهزل" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الطارق (86) : آية 15]

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15)

"إِنَّهُمْ" إن واسمها "يَكِيدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر إن "كَيْداً" مفعول مطلق والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة الطارق (86) : آية 16]

وَأَكِيدُ كَيْداً (16)

"وَأَكِيدُ" مضارع فاعله مستتر "كَيْداً" مفعول مطلق والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الطارق (86) : آية 17]

فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

"فَمَهِّلِ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "الْكافِرِينَ" مفعول به والجملة جواب شرط لا محل لها "أَمْهِلْهُمْ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر "رُوَيْداً" صفة مفعول مطلق محذوف والجملة توكيد لما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 437.

438 ﴾

(34/811)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الطارق

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1479 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن أَبَا طَالب كَانَ عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَانْحَطَّ نجم فَامْتَلَأَ مَاء ثمَّ نورا فَفَزِعَ أَبُو طَالب وَقَالَ أَي شَيْء هَذَا فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام هَذَا نجم رمي بِهِ وَهُوَ آيَة من آيَات الله

تَعَالَى فَعجب أَبُو طَالب فَنزلت

قلت هَكَذَا هُوَ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ وَأَسْبَاب النُّزُول للْوَاحِدِيّ

1480 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انه قَالَ وكل بِالْمُؤمن مائَة وَسِتُّونَ ملكا يَذُبُّونَ عَنهُ كَمَا يذب عَن قَصْعَة الْعَسَل الذُّبَاب وَلَو وكل الْعَبْد إِلَى نَفسه طرفَة عين لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِين

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث عفير بن معدان عَن سليم بن عَامر عَن أبي أُمَامَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وكل بِالْمُؤمن مائَة وَسِتُّونَ ملكا يَذُبُّونَ عَنهُ مَا لم يقدر عَلَيْهِ من ذَلِك الْبَصَر عَلَيْهِ سَبْعَة أَمْلَاك يَذُبُّونَ عَنهُ كَمَا يذب عَن قَصْعَة الْعَسَل الذُّبَاب فِي الْيَوْم الصَّائِف وَلَو وكل الْعَبْد . . . إِلَى آخِره

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره وَهُوَ مَعْلُول بعفير

1481 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة الطارق أعطَاهُ الله تَعَالَى بِكُل نجم فِي السَّمَاء عشر حَسَنَات

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 189.190 ﴾

(36/811)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة والسّماء والطّارق» (86)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«النَّجْمُ الثَّاقِبُ» (3) المضيء ، أثقب نارك أضئها «1» . .

«إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها «2» حافِظٌ» (4) أي إن كل نفس لعليها حافظ . .

«التَّرائِبِ» (7) معلّق الحلي على الصدر «3» قال المثقّب العبدىّ :

ومن ذهب يشنّ على تريب

«4» [937] .

«ذاتِ الرَّجْعِ» (11) الماء قال المتنخّل يصف السيف :

أبيض كالرّجع رسوب إذا ما ثاخ فى محتفل يختلى

«5» [938] .

«وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ» (12) يصدع بالنبات . .

«وَما هُوَ بِالْهَزْلِ» (14) باللّعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 294 ﴾

---

(1) . - 3 «المضي . . . أضئها» : فى الطبري 30/ 78 . [. . . . .]

(2) . - 4 «لما عليها» : قال الطبري : اختلفت القراء فى قراءة ذلك فقرأه من قراء المدينة أبو جعفر ومن قراء الكوفة حمزة (لما عليها) بتشديد الميم وذكر عن الحسن أنه قرأ ذلك كذلك . .

وقرأ ذلك من أهل المدينة نافع ومن أهل البصرة أبو عمرو (لما) بالتخفيف بمعنى إن كل نفس لعليها حافظ على أن اللام جواب «إن» و«ما» التي بعدها صلة وإذا كان ذلك كذلك لم يكن فيه تشديد والقراءة التي لا اختار غيرها فى ذلك التخفيف لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب أن يكون معروفا من كلام العرب غير أن الفراء كان يقول لا نعرف جهة التثقيل .

(3) . - 5 «معلق . . . الصدر» : كما فى القرطين 2/ 208 .

(4) . - 937 : هذا صدر بيت عجزه :

كلون العاج ليس بذي غضون

وهو فى الطبري 90/ 80 واللسان والتاج (ترب) والقرطبي 20/ 6 .

(5) . - 938 : فى ديوان الهذليين 2/ 12 والطبري 30/ 81 والقرطبي 2/ 208 .

(37/811)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الطارق»

[سورة الطارق (86) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (1) وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2)

وقوله سبحانه : وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ ، وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ [1 ، 2] وهذه استعارة . لأن الطارق ها هنا كناية عن النجم . فحقيقة الطارق هو الإنسان الذي يطرق ليلا . فلما كان النجم لا يظهر إلا فى حال الليل حسن أن يسمّى طارقا .

وأصل الطّرق : الدقّ . ومنه المطرقة . قالوا : وإنما سمّى الآتي بالليل طارقا ، لأنه يأتى فى وقت يحتاج فيه إلى الدق أو ما يقوم مقامه للتنبيه على طروقه ، والإيذان بوروده .

[سورة الطارق (86) : الآيات 6 الى 7]

خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ (7)

وقوله سبحانه : خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ [6 ، 7] وهذه استعارة . وحقيقة هذا الماء أنه مدفوق لا دافق . ولكنه خرج على مثل قولهم : سرّ كاتم ، وليل نائم . وقد مضت لهذه الآية نظائر كثيرة .

وعندى فى ذلك وجه آخر ، وهو أن هذا الماء لما كان فى العاقبة يؤول إلى أن يخرج منه الإنسان المتصرف ، والقادر المميز ، جاز أن يقوى أمره فيوصف بصفة الفاعل لا صفة

المفعول ، تمييزا له عن غيره من المياه المهراقة ، والمائعات المدفوقة . وهذا واضح لمن تأمّله .

[سورة الطارق (86) : الآيات 11 الى 12]

وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12)

وقوله سبحانه : وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ ، وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ [11 ، 12] وهذه

استعارة. والمراد بها صفة السماء بأنها ترجع بدرور «1» الأمطار، وتعاقب الأنواء، مرة بعد مرة، وتعطى الخير حالة بعد حالة.

وقد قيل: إن الرّجع الماء نفسه. وأنشدوا للمتنخل «2» الهذلي يصف السيف:

أبيض كالرّجع رسوب إذا ما ثاخ فى محتفل يختلى

والمراد بالأرض ذات الصّدع: انصداعها عن النبات، وتشققها عن الأعشاب. وأنشد صاحب «العين «3»» لبعض العرب:

وجاءت سلتم لا رجع فيها ولا صدع فتحتلب الرّعاء

فالرجع: المطر، والصّدع: العشب، والسّلتم: السنة المجدبة. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تلخيص البيان صـ 363.364 ﴾

---

(1) درت الأمطار درورا: هطلت.

(2) هو مالك بن عويمر الهذلي، من أشهر شعراء بنى هذيل. والبيت فى «ديوان الهذليين» ج2 ص 12. والرجع: الغدير فيه ماء المطر. وثاخ مثل ساخ: أي غاب. والمحتفل: معظم الشيء.

ويختلى: يقطع. والرسوب: الذي إذا وقع غمض مكانه لسرعة قطعه.

(3) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى إمام اللغة والأدب وواضع علم العروض، وكان أستاذا لسيبويه النحوي المشهور، ولد فى البصرة ومات بها سنة 170 ه وعاش حياته فقيرا

صابرا . قال فيه النضر بن شميل :

ما رأى الراءون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسه . واشتهر بكتاب «العين» فى اللغة ، وهو لا يزال مخطوطا .

(39/811)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الطارق

" والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب " . فى السماء كواكب تشبه أرضنا فى أنها معتمة لا وهج لها ولا نور . وفيها نجوم متألقة الكيان كالشمس أو دونها . وقد يكون الطارق أحد هذه النجوم ، ويسميه العرب الشاهد وهو يظهر مع الغروب . وربما قصد به جملة النجوم المضيئة الهادية . والمقسم عليه قوله تعالى بعد " إن كل نفس لما عليها حافظ " . إن الخالق الكبير لا يعييه أن يجعل حفظة على كل إنسان تحصى عليه ما يفعل وما يذر ! ! ومضى السياق فى الاستدلال " فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب " . تفاصيل الخلق الإنسانى

مشروحة فى علم الأحياء ، وقد عرفت أن بعض علماء الغرب الخبراء فى "علم الأجنة" أعلنوا إسلامهم للدقة التى تحدث بها القرآن عن أطوار الخلق ومراحله ، ولا يعرف هذا فى كتاب سابق ! إن العامة والخاصة يدركون أن بداية الخلق من ماء يمر بمجارى البول تشرف عليه غدد معقدة متصلة بالجهاز العصبى ! من هنا البداية ! لكن مم يخلق الإنسان بعد ما بدأ وجوده ؟ من أطعمة تقدمها له القارات كلها ، فما يأكله أو يشربه تشترك فى إنباته سحب الشرق والغرب وأتربة الأقطار من شتى البلاد . لو قيل لكل ذرة من لحم الإنسان وعظمه وشعره . . إلخ عودى من حيث جئت لتوزعه سطح الأرض كلها . . . لكن الإنسان كفور ! وأيا ما كان الأمر ، فهو عائد لحساب مر " يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر" . ويمضى السياق فى الحديث عن القدرة العليا . إن الأرض تشق ، والسماء تمطر ، والحبوب والفواكه تجنى وتصدر هنا وهناك .

(40/811)

وابن آدم الذى كان وزنه حين ولد رطلا أو رطلين أصبح قنطارا من العضلات والأعضاء ! من حول الفجل والذرة إلى تلافيف مخ يفكر ؟ ! ومن حول النبات والحيوان إلى جسم تتوزع على جلده أعصاب الإحساس والوعى ؟ من إلا الله ؟ ولكن عيالا تصيح فى

صحف شتى: أحموا المبدعين من الأزهر! حسنا نحميكم. ماذا تقولون؟ نقول: الصفر مصدر هذا الوجود! أهذا إبداعكم؟ شاهت الوجوه! كيف يتكون الوجود من عدم؟! إننى لا أعرف فى الأولين والآخرين أحقر من كفار العرب! "إنه لقول فصل * وما هو بالهزل * إنهم يكيدون كيدا * وأكيد كيدا * فمهل الكافرين أمهلهم رويدا". انتهى انتهى. اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 512.511﴾

(41/811)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(42/811)

قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الكمال كله (الرحمن) الذي وسع الخلائق فضله وعدله (الرحيم) الذي خص أولياءه بتوفيقه فظهر عليهم جوده وإحسانه وكرمهم وفضله .

لما تقدم في آخر البروج أن القرآن في لوح محفوظ لأن منزله محيط بالجنود من المعاندين وبكل شيء ، أخبر أن من إحاطته حفظ كل فرد من جميع الخلائق المخالفين والموافقين والمؤالفين ، ليجازى على أعماله يوم إحقاق الحقائق وقطع العلائق ، فقال مقسماً على ذلك لإنكارهم له : ﴿ والسماء ﴾ أي ذات الأنجم الموضوعة لحفظها من المردة لأجل حفظ القرآن المجيد الحافظ لطريق الحق ، قال الملوي : والمراد بها هنا ذات الأفلاك الدائرة لا السماوات العلى بما جعل فيها من ليل ونهار ودورتهما ثلاثمائة وستين درجة لا تتغير أبداً في هذه الدار بنقص ولا زيادة بنصف درجة ولا دقيقة ولا ثانية ولا ما دون ذلك ، بل كلما زاد أحدهما شيئاً نقص من الآخر بحسابه عرف ذلك من العقل والنقل والتجربة فعرف أنه يحفظ حفيظ حي لا يموت ، قيوم لا يغفل ولا ينام – انتهى .

ولما أقسم بالسماء لما لها من الشرف والمجد تنبيهاً على ما فيها من بدائع الصنع الدالة على القدرة الباهرة .

أقسم بأعجب ما فيها وهو جنس النجوم ثم بأعربه وهو المعد للحراسة تنبيهاً على ما في ذلك من غرائب القدرة فقال : ﴿ والطارق ﴾ أي جنس الكواكب الذي يبدو ليلاً ويخفى نهاراً ، ويطرق مسترقي السمع فيبدد شملهم ويهلك من أراد الله منهم لأجل هداية الناس بالقرآن في الطرق المعنوية وظهوره وإشراقه في السماء لهدايتهم في الطرق الحسية وهو في الأصل لسالك الطريق ، واختص عرفاً بالآتي ليلاً لأنه يجد الأبواب مغلقة فيحتاج إلى طرقها ، ثم استعمل للبادي فيه كالنجم .

ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أولاً ثم عظم المقسم به بقوله : ﴿ وما أدراك ﴾ أي عرفك يا أشرف خلقنا عليه الصلاة والسلام وإن حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه ﴿ ما الطارق ﴾ ثم زاده تهويلاً بتفسيره بعد إبهامه مرة أخرى بقوله تعالى : ﴿ النجم الثاقب ﴾ أي المتوهج العالي المضيء كأنه يثقب الظلام بنوره فينفذ فيه ، يقال : أثقب نارك للموقد ، أو يثقب بضوئه الأفلاك فتشف عنه ، أو يثقب الشيطان بناره إذا استرق السمع ، والمراد الجنس أو معهود بالثقب وهو زحل ، عبر عنه أولاً بوصف عام ثم فسره بما يخصه تفخيماً لشأنه لعلو مكانه .

ولما ذكر الذي دل به على حفظ القرآن عن التلبيس وعلى حفظ الإنسان ، ذكر جوابه في حفظ النفوس التي جعل فيها قابلية لحفظ القرآن في الصدور ، ودل على حفظ ما خلق لأجلها من هذه الأشياء المقسم بها على حفظ الإنسان لأنها إذا كانت محفوظة عن أدنى زيغ وهي مخلوقة لتدبير مصالحه فما الظن به ؟ فقال مؤكداً غاية التأكيد لما للكفرة من إنكار ذلك والطعن فيه ﴿ إن ﴾ بالتخفيف من الثقيلة في قراءة الجمهور أي أن الشأن ﴿ كل نفس ﴾ أي من الأنفس مطلقاً لا سيما نفوس الناس ﴿ لما عليها ﴾ أي بخصوصها لا مشارك لها في ذاتها ﴿ حافظ ﴾ أي رقيب عتيد لا يفارقها ، والمراد به الجنس من الملائكة ، فبعضهم لحفظها من الآفات ، وبعضهم لحفظها من الوساوس ، وبعضهم لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابة ، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق وأجل وشقاوة أو سعادة ومشي ؟ ونكاح وسفر وإقامة ، فلا يتعدى شيئاً من ذلك نحن قسمنا نحن قدرنا ، فإن قلت : إن الحافظ الملائكة ، صدقت ، وإن قلت : إنه الله ، صدقت ، لأنه الآمر لهم والمقدر على الحفظ ، والحافظ لهم من الوهن والزيغ ، فهو الحافظ الحقيقي ، واللام في هذه القراءة هي الفارقة بين المخففة والنافية " وما " مؤكدة بنفي صدر ما أثبتته الجملة ، " وحافظ " خبر " إن " ويجوز أن يكون الظرف الخبر ، و " حافظ " مرتفع به ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد " لما " على أنها بمعنى " إلا " و " إن " نافية بمعنى " ما " ،

والمستثنى منه "كل نفس" وخبر النافية محذوف تقديره: كائنة أو موجودة أو نحوهما ، والمستثنى "نفس" موصوفة ب "عليها حافظ" ويحتمل أن يكون حالاً فمحله يحتمل الرفع بأنه خبر النافي في هذا الاستثناء المفرغ عند بني تميم ، والنصب بأنه خبر عند غيرهم ، أو حال من "نفس" ، لأنها عامة ، والتقدير: ما كل نفس موجودة إلا نفس كائناً أو كائن عليها حافظ ، والنسبة بين مفهومي القراءتين أن المشدد أخص لأنها دائمة مطلقة ، والمخففة مطلقة عامة ،

(45/811)

ولا يظن أن المشددة غير مساوية للمخففة ، فضلاً عن أن تكون أخص لأن حرف النفي دخل على "كل" وهو من أسوار السلب الجزئي كما تقرر في موضعه فينحل إلى أن بعض النفوس ليس إلا عليها حافظ وإنما كان لا يظن ذلك لأنها تنحل لما فيها من الحصر المتضمن للنفي والإثبات إلى جملتين ، إحداهما إثبات الحفظ للنفس الموصوفة والأخرى سلب نقيضه عنها ، لأنه من قصر الموصوف على الصفة .

ونقيض الكلية الموجبة الجزئية السالبة أي ليس كل نفس عليها حافظ والسالبة الجزئية أعم من السالبة الكلية ، فإذا نفيتها قلت: ليس ليس كل نفس عليها حافظ فهو سلب السلب

الجزئي ، وإذا سلب السلب الجزئي سلب الكلي لما تبين أنه أخف .

وإذا انتفى الأعم انتفى الأخص فلا شيء من الأنفس ليس عليها حافظ ، فانحل الكلام إلى : لا نفس كائنة إلا نفس عليها حافظ ، وإن كان لفظ " ليس كل " من أسوار الجزئية لما مضى ، فصارت الآية على قراءة التشديد مركبة من مطلقة عامة هي " كل نفس عليها حافظ " بالفعل .

(46/811)

ومن سلب نقيضها وهو الدائمة المطلقة الذي هو " دائماً ليس كل نفس عليها حافظ " ورفعه بأن يقال : ليس دائماً ليس كل نفس ليس عليها حافظ ، أي ليس دائماً كل نفس ليس عليها حافظ ، وذلك على سبيل الحصر وقصر الموصوف على الصفة ، معناه أن الموصوف لا يتعدى صفته التي قصر عليها ، فأقل الأمور أن لا يتجاوزها إلى عدم الحفظ ، وذلك معنى الدائمة المطلقة وهو الحكم بثبوت المحمول للموضوع ما دام ذات الموضوع موجودة ، وهي على قراءة التخفيف مطلقة عامة أي حكم فيها بثبوت المحمول للموضوع بالفعل وهو الجزء الأول مما انحلت إليه قراءة التشديد ، فمفهوم الآية في قراءة التشديد أخص منه في قراءة التخفيف ، لأن كل دائم كائن بالفعل ، ولا ينعكس – هذا إذا نظرنا إلى نفس

المفهوم من اللفظ مع قطع النظر عن الدلالة الخارجية ، وأما بالنظر إلى نفس الأمر فالجهة الدوام فلا فرق ، غير أنه دل عليها باللفظ في قراءة التشديد دون قراءة التخفيف والله تعالى أعلم .

(47/811)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى : لما قال الله سبحانه وتعالى في سورة البروج ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ [البروج : 9] ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ [البروج : 20] وكان في ذلك تعريف العباد بأنه سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ولا يفوته شيء ولا ينجو منه هارب ، أردف ذلك بتفصيل يزيد إيضاح ذلك التعريف الجملي من شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء وإحاطته به فقال تعالى ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : 4] فأعلم الله سبحانه وتعالى بخصوص كل نفس ممن يحفظ أنفاسها " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " ليعلم العبد أنه ليس بمهمل ولا مضيع ، وهو سبحانه وتعالى الغني عن كتب الحفظة وإحصائهم وشهادة الشهود من الأعضاء وغيرهم ، وإنما كان ذلك لإظهار عدله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء : 40] ولا أقل من

المثقال ، ولكن هي سنته حتى لا يبقى لأحد حجة ولا تعلق ، وأقسم سبحانه وتعالى على ذلك تحقيقاً وتأكيداً يناسب القصد المذكور - انتهى .

(48/811)

ولما كان التقدير : لأنه لا بد له من العرض على الخالق سبحانه وتعالى لأن التوكيل بالإنسان لا يكون إلا لعرضه على الملك الديان صاحب الأمر والبرهان ومحاسبته له على ما كان ، كان التقدير : يحفظ أعمالها ويكتبها ليحاسبها الملك على ذلك ، فتسبب عنه قوله تعالى : ﴿ فلينظر ﴾ أي بالبصيرة ﴿ الإنسان ﴾ أي الآنس بنفسه الناظر في عطفه إن كان يسلك في ذلك ﴿ مم ﴾ أي من أي شيء ، وبنى للمفعول العامل في من أمر بالنظر وهو قوله : ﴿ خلق ﴾ إعلاماً بأن الدال هو مطلق الخلق ، وتنبيهاً على تعظيم الفاعل بأن العلم به غير محتاج إلى ذكره باللفظ لأنه لا يقدر على صنعة من صنائعه غيره ، وأمر الإنسان بهذا النظر ليعلم بأمر مبدئه أمر معاده ، فإن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة قطعاً ، فإذا صح عنده ذلك اجتهد في أن لا يملي على حافظيه إلا ما يرضي الله تعالى يوم عرضه على الملك الديان ليسره وقت حسابه .

ولما نبه بالاستفهام على أن هذا أمر جداً ينبغي لكل أحد أن يترك جميع مهماته ويتفرغ للنظر

فيه فإنه يكسبه السعادة الأبدية الدائمة ، وكان الإنسان – مع كونه ضعيفاً عاجزاً – لا ينفك عن شاغل ومفتر ، فلا يكاد يصح له نظر ، تولى سبحانه وتعالى شرح ذلك عنه فأجاب الاستفهام بقوله : ﴿ خلق ﴾ أي الإنسان على أيسر وجه وأسهله بعد خلق أبيه آدم عليه الصلاة والسلام من تراب ، وأمه حواء عليها السلام من ضلعه ﴿ من ماء دافق ﴾ أي هو – لقوة دفق الطبيعة له – كأنه يدفق بنفسه فهو إسناد مجازي ، والدفق لصاحبه ، أو هو مثل " لابن " أي ذي دفق ، والدفق صب فيه دفع ، ولم يقل : ماءين – إشارة إلى أنهما يجتمعان في الرحم ويمتزجان أشد امتزاج بحيث يصيران ماءً واحداً .

(49/811)

ولما كان المراد به ماء الرجل وماء المرأة قال : ﴿ يخرج ﴾ وبعض بإثبات الجار فأفهم الخروج عن مقره بقوله : ﴿ من بين الصلب ﴾ أي صلب الرجل وهو عظم مجتمع من عظام مفلكة أحكم ربطها غاية الإحكام من لدن الكاهل إلى عجب الذنب ﴿ والترائب ﴾ أي ترائب المرأة وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة ، وصوبه ابن جرير ، أو ما ولي الترقوتين منه ، أو ما بين الثديين والترقوتين أو أربعة أضلاع من يمنة الصدر ، وأربعة من يسرته ، أو اليدان والرجلان والعينان ، وعلى كل تقدير شهوتها من أمامها وشهوة الرجل

فيما غاب عنه من ورائه ، ولو نزع الخافض لأفهم أن الماء يملأ البين المذكور ولم يفهم أنه يخرج عن صاحبي البين ، قال البيضاوي : ولو صح أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ، ومقرها عروق ملتف بعضها بالبعض عند الأنثيين ، فلا شك أن الدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها ، ولذلك تشبهه ويسرع الإفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصلب ، وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب وهما أقرب إلى أوعية المني فلذلك خصا بالذكر .

وقال الملوي : فالذي أخرجه من ظروف عظام الصلب والترائب إلى أن صيره في محله من الأنثيين إلى أن دفق واعتنى بعد ذلك بنقله من خلق إلى خلق بعد كل أربعين يوماً إلى أن صيره إنساناً يعقل ويتكلم ويبني القصور ، ويهدم الصخور ، قادر على بعثه .

(50/811)

ولما علم بالحفظ والخلق في الأطوار المشار إليها أنه خلق لأمر عظيم وهو الحساب ، وثبت بالقدرة على ابتدائه من هذا الماء وبتطويره في الحالات المشار إليها بذكر الماء ، المعلومة لكل أحد القدرة على الإعادة بلا فرق إلا كون الإعادة على ما نعرف أسهل ، وكان العرب

ينكرونها ، قال مؤكداً استئنافاً لمن يقول : قد نظرت في ذلك فمه : ﴿ إنه ﴾ أي خالقه القادر على ما ذكر من شؤونه المدلول على عظمه ببناء " خلق " للمفعول ﴿ على رجعه ﴾ أي رجع الإنسان بالعبث ورده إلى حالته الأولى وخلقه الأول كما كان قبل الموت وعلى رد هذا الماء الدافق إلى مجاريه التي خرج منها وحله إلى المائية بعد انعقاده عظماً ولحماً ودماً ﴿ لقادر ﴾ أي لثابتة قدرته على ذلك أتم ثبات ، فمن أيسر ما يكون عنده سبحانه وتعالى رده بعد شيخوخته على عقبه بأن يجعله كهلاً ثم شاباً ثم طفلاً ثم مضغة ثم علقة ثم نطفة ثم يدفعه إلى ذكر الرجل ورحم المرأة ثم إلى صلبه وترائبها وهو أهون عليه ، وذلك كقدرته على رده بالبعث ، وعبر ب " أنه " ولم يقل : إن الله – مثلاً لأنه أقعد لأنه يقال لكل إنسان : من أخرجك على هذه الهيئة فصيرك على هذه الصفة ؟ فإذا قال : القادر على كل شيء بقدرته الكاملة ، قيل له : وبتلك القدرة بعينها يعيدك ، ولو سمى له اسم غير الضمير لكان ربما قال : ليس هو خالقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 385 ﴿ 389.

(51/811)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لما ﴾ بالتشديد : ابن عامر وعاصم وحمزة ويزيد .

الوقوف ﴿ الطارق ﴾ ه لا ﴿ الطارق ﴾ ه ك ﴿ الثاقب ﴾ ه ك ﴿ حافظ ﴾ ه ط ﴿ مم خلق ﴾ ه ط للفصل بين الاستخبار والإخبار ﴿ دافق ﴾ ه لا ﴿ والترائب ﴾ ه ط ﴿ لقادر ﴾ ه ك بناء على أن الظرف مفعول " اذكر " ومن جعل ﴿ يوم ﴾ ظرفاً للرجع وهو أولى لم يقف . ﴿ السرائر ﴾ ه لا ﴿ ولا ناصر ﴾ ه ط ﴿ الرجع ﴾ ه ﴿ الصدع ﴾ ه ك ﴿ فصل ﴾ ه ك ﴿ بالهزل ﴾ ه ط ﴿ كيداً ﴾ ه لا ﴿ كيداً ﴾ ج ه ﴿ رويداً ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 479 ﴾

(52/811)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) ﴾

اعلم أنه تعالى أكثر في كتابه ذكر السماء والشمس والقمر لأن أحوالها في أشكالها وسيرها

ومطالعها ومغاربها عجيبة ، وأما الطارق فهو كل ما أتاك ليلاً سواء كان كوكباً أو غيره فلا يكون الطارق نهاراً ، والدليل عليه قول المسلمين في دعائهم : نعوذ بالله من طوارق الليل وروي أنه عليه السلام : " نهى عن أن يأتي الرجل أهله طروقاً " والعرب تستعمل الطروق في صفة الخيال لأن تلك الحالة إنما تحصل في الأكثر في الليل ، ثم إنه تعالى لما قال : ﴿ والطارق ﴾ كان هذا مما لا يستغنى سامعه عن معرفة المراد منه ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق ﴾ قال سفيان بن عيينة : كل شيء في القرآن ما أدراك فقد أخبر الرسول به وكل شيء فيه ما يدريك لم يخبر به كقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] ثم قال : ﴿ النجم الثاقب ﴾ أي هو طارق عظيم الشأن ، رفيع القدر وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر ويوقف به على أوقات الأمطار ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

إنما وصف النجم بكونه ثاقباً لوجوه أحدها : أنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل : درىء لأنه يدرؤه أي يدفعه وثانيها : أنه يطلع من المشرق نافذاً في الهواء كالشيء الذي يثقب الشيء وثالثها : أنه الذي يرى به الشيطان فيثقبه أي ينفذ فيه ويحرقه ورابعها : قال الفراء : ﴿ النجم الثاقب ﴾ هو النجم المرتفع على النجوم ، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً : قد ثقب .

المسألة الثانية :

إنما وصف النجم بكونه طارقاً ، لأنه يبدو بالليل ، وقد عرفت أن ذلك يسمى طارقاً ، أو لأنه يطرق الجني ، أي صكه .

المسألة الثالثة :

(53/811)

اختلفوا في قوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال بعضهم : أشير به إلى جماعة النحو فقيل الطارق ، كما قيل : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : 2] وقال آخرون : إنه نجم بعينه ، ثم قال ابن زيد : إنه الثريا ، وقال الفراء : إنه زحل ، لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات ، وقال آخرون : إنه الشهب التي يرجم بها الشياطين ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] .

المسألة الرابعة :

روي أن أبا طالب أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتحفه بخبز ولبن ، فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ماء ثم ناراً ، ففزع أبو طالب ، وقال : أي شيء هذا ؟ فقال : هذا نجم رمي به ، وهو آية من آيات الله ، فعجب أبو طالب ، ونزلت السورة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به أتبعه بذكر المقسم عليه : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا

حَافِظٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ لَّمَّا ﴾ قراءتان إحداهما : قراءة ابن كثير وأبي عمرو ونافع والكسائي ، وهي بتخفيف الميم والثانية : قراءة عاصم وحمزة والنخعي بتشديد الميم .

قال أبو علي الفاسي : من خفف كانت ﴿ إن ﴾ عنده المخففة من الثقيلة ، واللام في ﴿ لَّمَّا ﴾ هي التي تدخل مع هذه المخففة لتخلصها من إن النافية ، وما صلة كالتي في قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 159] ﴿ وعما قليل ﴾ [المؤمنون : 40] وتكون ﴿ إن ﴾ متلقية للقسم ، كما تتلقاه مثقلة .

وأما من ثقل فتكون ﴿ إن ﴾ عنده النافية ، كالتي في قوله : ﴿ فيما إن مكناكم ﴾ [الأحقاف : 26] و ﴿ لَّمَّا ﴾ في معنى ألا ، قال : وتستعمل ﴿ لَّمَّا ﴾ بمعنى ألا في موضعين أحدهما : هذا والآخر : في باب القسم ، تقول : سألتك بالله لما فعلت ، بمعنى ألا فعلت .

وروى عن الأخفش والكسائي وأبي عبيدة أنهم قالوا : لم توجد لما بمعنى ألا في كلام العرب .

قال ابن عون : قرأت عند ابن سيرين لما بالتشديد ، فأنكره وقال : سبحان الله ، سبحان الله ، وزعم العتبي أن ﴿ لَّمّاً ﴾ بمعنى ألا ، مع أن الخفيفة التي تكون بمعنى ما موجودة في لغة هذيل .

المسألة الثانية :

ليس في الآية بيان أن هذا الحافظ من هو ، وليس فيها أيضاً بيان أن الحافظ يحفظ النفس عماذا .

أما الأول : ففيه قولان : الأول : قول بعض المفسرين : أن ذلك الحافظ هو الله تعالى .

أما في التحقيق فلأن كل وجود سوى الله ممكن ، وكل ممكن فإنه لا يترجح وجوده على عدمه إلا لمرجح وينتهي ذلك إلى الواجب لذاته ، فهو سبحانه القيوم الذي بحفظه وإبقائه تبقى الموجودات ، ثم إنه تعالى بين هذا المعنى في السموات والأرض على العموم في قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السموات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [فاطر : 41] وبينه في هذه الآية في حق الإنسان على الخصوص وحقيقة الكلام ترجع إلى أنه تعالى أقسم أن كل ما سواه ، فإنه ممكن الوجود محدث محتاج مخلوق مربوب هذا إذا حملنا النفس على مطلق الذات ، أما إذا حملناها على النفس المتنفسة وهي النفس الحيوانية أمكن أن يكون المراد من كونه تعالى حافظاً لها كونه تعالى عالماً بأحوالها وموصلاً إليها جميع منافعها ودافعاً عنها جميع

مضارها .

والقول الثاني : أن ذلك الحافظ هم الملائكة كما قال : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : 61] وقال : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 17 18] وقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين ﴾ [الإنفطار : 10 11] وقال : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد : 11] .

(55/811)

وأما البحث الثاني : وهو أنه ما الذي يحفظه هذا الحافظ ؟ ففيه وجوه أحدها : أن هؤلاء الحفظة يكتبون عليه أعماله دقيقها وجليلها حتى تخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً وثانيها : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ يحفظ عملها ورزقها وأجلها ، فإذا استوفى الإنسان أجله ورزقه قبضه إلى ربه ، وحاصله يرجع إلى وعيد الكفار وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم كقوله :

﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نعد لهم عداً ﴾ [مريم : 84] ثم ينصرفون عن قريب إلى الآخرة فيجازون بما يستحقونه وثالثها : إن كل نفس لما عليها حافظ ، يحفظها من المعاطب

والمهالك فلا يصيبها إلا ما قدر الله عليها ورابعها : قال الفراء : إن كل نفس لما عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إلى المقابر ، وهذا قول الكلبي .

واعلم أنه تعالى لما أقسم على أن لكل نفس حافظاً يراقبها ويعد عليها أعمالها ، فحينئذ يحق لكل أحد أن يجتهد ويسعى في تحصيل أهم المهمات ، وقد تطابقت الشرائع والعقول على أن أهم المهمات معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، واتفقوا على أن معرفة المبدأ مقدمة على معرفة المعاد ، فلهذا السبب بدأ الله تعالى بعد ذلك بما يدل على المبدأ .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الدفق صب الماء ، يقال : دفقت الماء ، أي صببته وهو مدفوق ، أي مصبوب ، ومندفق أي منصب ، ولما كان هذا الماء مدفوقاً اختلفوا في أنه لم وصف بأنه دافق على وجوه الأول : قال الزجاج : معناه ذو اندفاق ، كما يقال : دراع وفارس ونابل ولابن وتامر ، أي درع وفرس ونبل ولبن وتمر ، وذكر الزجاج أن هذا مذهب سيبويه الثاني : أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل .

قال الفراء : وأهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم ، يجعلون المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب النعت ، كقوله سر كاتم ، وهم ناصب ، وليل نائم ، وكقوله تعالى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : 7] أي مرضية الثالث : ذكر الخليل في الكتاب المنسوب إليه دفق الماء دفقاً ودفوقاً إذا انصب بمرة ، واندفق الكوز إذا انصب بمرة ، ويقال في الطيرة عند انصباب الكوز ونحوه : دافق خير ، وفي كتاب قطرب : دفق الماء يدفق إذا انصب الرابع : صاحب الماء لما كان دافقاً أطلق ذلك على الماء على سبيل المجاز .

المسألة الثانية :

قرىء الصلب بفتحتين ، والصلب بضمتين ، وفيه أربع لغات : صلب وصلب وصلب وصالب :

المسألة الثالثة :

ترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة ، وكل عظم من ذلك تريبة ، وهذا قول جميع أهل اللغة .

قال امرؤ القيس :

ترائبها مصقولة كالسجنجل . . المسألة الرابعة :

في هذه الآية قولان : أحدهما : أن الولد مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة .

(57/811)

وقال آخرون : إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه ، واحتج صاحب القول الثاني على مذهبه بوجهين الأول : أن ماء الرجل خارج من الصلب فقط ، وماء المرأة خارج من الترائب فقط ، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب ، وذلك على خلاف الآية الثاني : أنه تعالى بين أن الإنسان مخلوق ﴿ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل ، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج ، يعني هذا الدافق من بين الصلب والترائب ، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط أجاب : القائلون بالقول الأول عن الحجة الأولى : أنه يجوز أن يقال للشيئين المتباينين : أنه يخرج من بين هذين خير كثير ، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد ، فحسن هذا اللفظ هناك ، وأجابوا عن الحجة الثانية : بأن هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، فلما كان أحد قسمي المني دافقاً أطلق هذا الاسم على المجموع ، ثم قالوا : والذي يدل على أن الولد مخلوق من مجموع الماءين أن مني الرجل وحده صغير فلا

يكفي ، ولأنه روي أنه عليه السلام قال : " إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبه إليه وإلى أقاربه ، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلى أقاربها يعود الشبه "

وذلك يقتضي صحة القول الأول .

(58/811)

واعلم أن الملحدين طعنوا في هذه الآية ، فقالوا : إن كان المراد من قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ أن المني إنما ينفصل من تلك المواضع فليس الأمر كذلك ، لأنه إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع ، وينفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته ، فيصير مستعداً لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء ، ولذلك فإن المفرط في الجماع يستولي الضعف على جميع أعضائه ، وإن كان المراد أن معظم أجزاء المني يتولد هناك فهو ضعيف ، بل معظم أجزائه إنما يتربى في الدماغ ، والدليل عليه أن صورته يشبه الدماغ ، ولأن المكثر منه يظهر الضعف أولاً في عينيه ، وإن كان المراد أن مستقر المني هناك فهو ضعيف ، لأن مستقر المني هو أوعية المني ، وهي عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين ، وإن كان المراد أن مخرج المني هناك فهو ضعيف ، لأن الحس يدل على أنه ليس كذلك الجواب : لا شك أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المني هو الدماغ ، والدماغ خليفة

وهي النخاع وهو في الصلب ، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن وهو التريبة ، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بالذكر ، على أن كلامكم في كيفية تولد المني ، وكيفية تولد الأعضاء من المني محض الوهم والظن الضعيف ، وكلام الله تعالى أولى بالقبول .

المسألة الخامسة :

(59/811)

قد بينا في مواضع من هذا الكتاب أن دلالة تولد الإنسان عن النطفة على وجود الصانع المختار من أظهر الدلائل ، لوجوه أحدها : أن التركيبات العجيبة في بدن الإنسان أكثر ، فيكون تولده عن المادة البسيطة أدل على القادر المختار وثانيها : أن اطلاع الإنسان على أحوال نفسه أكثر من اطلاعه على أحوال غيره ، فلا جرم كانت هذه الدلالة أتم وثالثها : أن مشاهدة الإنسان لهذه الأحوال في أولاده وأولاد سائر الحيوانات دائمة ، فكان الاستدلال به على الصانع المختار أقوى ورابعها : وهو أن الاستدلال بهذا الباب ، كما أنه يدل قطعاً على وجود الصانع المختار الحكيم ، فكذلك يدل قطعاً على صحة البعث والحشر والنشر ، وذلك لأن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة في بدن الوالدين ، بل في جميع العالم ، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنساناً

سوياً ، وجب أن يقال : إنه بعد موته وتفرق أجزائه لا بد وأن يقدر الصانع على جمع تلك الأجزاء وجعلها خلقاً سوياً ، كما كان أولاً ولهذا السر لما بين تعالى دلالته على المبدأ ، فرع عليه أيضاً دلالته على صحة المعاد فقال :

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الضمير في أنه للخالق مع أنه لم يتقدم ذكره ، والسبب فيه وجهان الأول : دلالة خلق عليه ، والمعنى أن ذلك الذي خلق قادر على رجعه الثاني : أنه وإن لم يتقدم ذكره لفظاً ، ولكن تقدم ذكر ما يدل عليه سبحانه ، وقد تقرر في بدائة العقول أن القادر على هذه التصرفات ، هو الله سبحانه وتعالى ، فلما كان ذلك في غاية الظهور كان كالمذكور .

المسألة الثانية :

الرجع مصدر رجعت الشيء إذا رددته ، والكناية في قوله على رجعه إلى أي شيء ترجع ؟ فيه وجهان أولهما : وهو الأقرب أنه راجع إلى الإنسان ، والمعنى أن الذي قدر على

خلق الإنسان ابتداء وجب أن يقدر بعد موته على رده حياً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] وقوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] وثانيهما : أن الضمير غير عائد إلى الإنسان ، ثم قال مجاهد : قادر على أن يرد الماء في الإحليل ، وقال عكرمة والضحاك : على أن يرد الماء في الصلب .

وروي أيضاً عن الضحاك أنه قادر على رد الإنسان ماء كما كان قبل ، وقال مقاتل بن حيان : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة ، واعلم أن القول الأول أصح ، ويشهد له قوله : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ أي أنه قادر على بعثه يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 115.119 ﴾

(61/811)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) ﴾

أقسم الله تعالى ب ﴿ السماء ﴾ المعروفة في قول جمهور المتأولين ، وقال قوم : ﴿ السماء ﴾ هنا ، المطر ، والعرب تسمية سماء ، لما كان من السماء ، وتسمي السحاب سماء ، ومن ذلك قول الشاعر [جرير] : [الوافر]

إذا نزل السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول النابغة : [الكامل]

كالأقحوان غداة غب سمائه . . . ﴿ والطارق ﴾ الذي يأتي ليلاً ، وهو اسم جنس لكل ما يظهر ويأتي ليلاً ، ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس من أسفارهم أن يأتي الرجل أهله طروقاً ، ومنه طروق الخيال ، وقال الشاعر : [البسيط]

يا نائم الليل مغتراً بأوله . . . إن الحوادث قد تطرقن أسحاراً

(62/811)

ثم بين الله تعالى الجنس المذكور بأنه ﴿ النجم الثاقب ﴾ ، وقيل بل معنى الآية : ﴿ والسماء ﴾ وجميع ما يطرق فيها من الأمور والمخلوقات ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك على جهة التنبيه أجل الطارقات قدراً وهو ﴿ النجم الثاقب ﴾ ، فكأنه قال : ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ ، وحق الطارق ، واختلف المتأولون في ﴿ النجم الثاقب ﴾ ، فقال الحسن بن أبي الحسن ما معناه : إنه اسم للجنس ، لأنها كلها ثاقبة ، أي ظاهرة الضوء ، يقال ثقب النجم إذا أضاء ، وثقبت النار ، كذلك ، وثقبت الرائحة إذا سطعت ، ويقال للموقد اثقب نارك ، أي اضئها ، وقال ابن زيد : أراد نجماً مخصوصاً : وهو زحل ، ووصفه بالثقوب ،

لأنه مبرز على الكواكب في ذلك ، وقال ابن عباس : أراد الجدي ، وقال بعض هؤلاء يقال : ثقب النجم ، إذا ارتفع وصف زحلاً بالثقوب لأنه أرفع الكواكب مكاناً . وقال ابن زيد وغيره : ﴿ النجم الثاقب ﴾ : الثريا ، وهو الذي يطلق عليه اسم النجم معرفاً ، وجواب القسم في قوله : ﴿ إن كل نفس ﴾ الآية ، وقرأ جمهور الناس : " لما " مخففة الميم ، قال الحذاق من النحويين وهم البصريون : مخففة من الثقيلة ، واللام : لام التأكيد الداخلة على الخبر ، وقال الكوفيون : ﴿ إن ﴾ ، بمعنى : ما النافية ، واللام بمعنى : إلا ، فالتقدير ما كان نفس إلا ﴿ عليها حافظ ﴾ ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي والحسن والأعرج وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما وقتادة : " لمّا " بتشديد الميم ، وقال أبو الحسن الأخفش : " لمّا " بمعنى : إلا ، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم ، يقال : أقسمت عليك لمّا فعلت كذا ، أي إلا فعلت كذا ، ومعنى هذه الآية فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما : إن كل نفس مكلفة فعليها حافظ يحصي أعمالها ويعدها للجزاء عليها ، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر ، وقال الفراء ، المعنى : ﴿ عليها حافظ ﴾ يحفظها حتى يسلمها إلى القدر ، وهذا قول فاسد المعنى لأن مدة الحفظ إنما هي بقدر ،

وقال أبو إمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية " إن لكل نفس حفظة من الله تعالى يذبون عنها كما يذب عن العسل ، ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الطير والشياطين ، " .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ ، توقيف لمنكري البعث على أصل الخلقة ، أي أن البعث جائز ممكن ، ثم بادر اللفظ إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحجة ، إذ لا جواب لأحد إلا هذا ، و﴿ دافق ﴾ ، قال كثير : هو بمعنى : مدفوق ، وقال الخليل وسيبويه : هو على النسب أي ذي دفق ، والدفق : دفق الماء بعضه إلى بعض ، تدفق الوادي والسيل ، إذا جاء يركب بعضه بعضاً ، ويصح أن يكون الماء دافقاً ، لأن بعضه يدفع بعضاً ، فمنه ﴿ دافق ﴾ ومنه مدفوق . وقوله تعالى : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ، قال قتادة والحسن وغيره : معناه من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائبه ، وقال سفيان وقتادة أيضاً وجماعة : من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، والضمير في ﴿ يخرج ﴾ يحتمل أن يكون للإنسان ، ويحتمل أن يكون للماء ، وقرأ الجمهور : " الصلب " ، وقرأ أهل مكة وعيسى : " الصلُب " بضم اللام على الجميع ، والتريبة من الإنسان : ما بين الترقوة إلى الثدي ، وقال أبو عبيدة ، معلق الحلي على الصدر ، وجمع ذلك : ترائب ومنه قول الشاعر [المثقب العبدي] : [الوافر]

ومن ذهب يسن على تريب . . . كلوان العاج ليس بذي غضون

وقال امرؤ القيس : [الطويل]

ترائبها مصقولة كالسجنجل . . . فجمع التريبة وما حولها فجعل ذلك ترائب ، وقال مكي عن ابن عباس : إن الترب أطراف المرء ورجلاه ويداه وعيناه ، وقال معمر : ﴿ الترائب ﴾ ، جمع تربية ، وهي عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، وفي هذه الأقوال تحكم على اللغة ، وقال ابن عباس : ﴿ الترائب ﴾ موضع القلادة ، وقال أيضاً : هي ما بين ثدي المرأة ، وقال ابن جبير : هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب ، وقال مجاهد : هي الصدر ، وقال هي التراقي ، وقيل هي ما بين المنكبين والصدر .

وقوله تعالى : ﴿ إنه على رجعة لقادر ﴾ الضمير في ﴿ إنه ﴾ لله تعالى ، واختلف المفسرون في الضمير في ﴿ رجعه ﴾ : فقال قتادة وابن عباس : هو على ﴿ الإنسان ﴾ على أي على رده حياً بعد موته ، وقال الضحاك : هو عائد على ﴿ الإنسان ﴾ لكن المعنى يرجعه ماء كما كان أولاً ، وقال الضحاك أيضاً : يرد من الكبر إلى الشباب ، وقال عكرمة ومجاهد : هو عائد على الماء ، أي يرده في الإحليل ، وقيل في الصلب ، والعامل في ﴿ يوم ﴾ على هذين القولين الأخيرين فعل مضمر تقديره اذكر ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ ، وعلى القول الأول ، وهو أظهر الأقوال وأبينها ، اختلفوا في العامل في ﴿ يوم ﴾ ، فقيل : العامل ﴿ ناصر ﴾ ، من قوله تعالى : ﴿ ولا ناصر ﴾ ، وقيل العامل الرجع في قوله تعالى : ﴿ على رجعه ﴾ ، قالوا وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خبر ان بينه وبين

معموله ، وقال الحذاق العامل فعل مضمر تقديره : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ ، فرجعه ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ ، وكل هذه الفرق فسرت من أن يكون العامل " قادر " ، لأن ذلك يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده ، وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب ، جاز أن يكون العامل " قادر " ، وذلك أنه قال : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ ، أي على الإطلاق أولاً وآخراً وفي كل وقت ، ثم ذكر تعالى وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار لأنه وقت الجزاء والوصل إلى العذاب ليجتمع الناس إلى حذره والخوف منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(64/811)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والسمآء والطارق ﴾

قَسَمان : "السماء" قَسَم ، و"الطارق" قَسَم .

والطارق : النجم .

وقد بينه الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطارق * النجم الثاقب ﴾ .

واختلف فيه ؛ فقيل : هو زُحَل : الكوكب الذي في السماء السابعة ؛ ذكره محمد بن الحسن

في تفسيره ، وذكر له أخباراً ، الله أعلم بصحتها .

وقال ابن زيد : إنه الثُّريا .

وعنه أيضاً أنه زُحَل ؛ وقاله الفراء .

ابن عباس : هو الجَدْي .

وعنه أيضاً وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما والفراء : "النجم الثاقِب" : نجم في السماء السابعة ، لا يسكنها غيره من النجوم ؛ فإذا أخَذَت النجوم أمكنتها من السماء ، هبط فكان معها ، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة ، وهو زُحَل ؛ فهو طارق حين ينزل ، وطارق حين يصعد .

وحكى الفراء : ثَقُبَ الطائر : إذا ارتفع وعلا .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً مع أبي طالب ، فانحط نجم ، فامتلأت الأرض نوراً ، ففزِع أبو طالب ، وقال : أي شيء هذا ؟ فقال : "هذا نجم رُميَ به ، وهو آية من آيات الله" فعجِب أبو طالب ، ونزل : ﴿ والسمآء والطارق ﴾ " وروي عن ابن عباس أيضاً "والسماءِ والطارِقِ" قال : السماء وما يطْرُق فيها .

وعن ابن عباس وعطاء : "الثاقب" : الذي تُرْمَى به الشياطين .

قتادة : هو عام في سائر النجوم ؛ لأن طلوعها بليلٍ ، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق .

قال :

ومِثلك حبلى قد طرقت ومرضِعاً . . .

فألهيتها عن ذِي تمائم مُغْيِل

وقال :

ألم ترياني كلما جئت طارقاً . . .

وجدت بها طيباً وإن لم تَطَيَّبِ

فالطارق : النجم ، اسم جنس ، سمي بذلك لأنه يطرق ليلاً ، ومنه الحديث : " نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرُق المسافر أهلَه ليلاً ، كي تستحِدّ المُغِيبة ، وتمتشط الشعِثة " والعرب تسمي كل قاصدٍ في الليل طارقاً .

يقال : طرق فلان إذا جاء بليل .

وقد طرُق يطرق طروقاً ، فهو طارق .

(65/811)

ولابن الرومِي :

يا راقدَ الليل مسروراً بأوّلِه . . .

إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا

لاتفرحَنَّ بليل طاب أوّله . . .

فرب آخرِ ليلٍ أجج النارا

وفي الصحاح : والطارق : النجم الذي يقال له كوكب الصبح .

ومنه قول هند :

نحنُ بناتِ طارِقٍ . . .

نمشي على النمارقِ

أي إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء .

الماورديّ : وأصل الطَّرْق : الدّق ، ومنه سميت المِطرقة ، فسمي قاصدُ الليلِ طارقاً ،

لاحتياجه في الوصول إلى الدق .

وقال قوم : إنه قد يكون نهاراً .

والعرب تقول ؛ أتيتك اليوم طَرْقَتين : أي مرتين .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بك من شر طوارِقِ الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق

بخير يا رحمن " وقال جرير في الطروق :

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا . . .

حينَ الزيارة فارجِعِي بسلامِ

ثم بين فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق * النجم الثاقب ﴾ والثاقب : المضيء .

ومنه ﴿ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 10] .

يقال : ثَقُب يثْقُب ثُقُوباً وثقابة : إذا أضاء .

وثُقوبُه : ضوءه .

والعرب تقول : أثقِب نارك ؛ أي أضئها .

قال :

أذاعَ به في الناسِ حتّى كأَنه . . .

بعلياءَ نارٌ أوقدتْ بثَقُوبِ

الثَّقوب : ما تشعل به النار من دُقاق العِيدان .

وقال مجاهد : الثاقب : المتوهّج .

القشيري : والمعظَم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العُموم ، كما ذكرنا عن مجاهد .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق ﴾ تفخيماً لشأن هذا المقسَمِ به .

وقال سفيان : كل ما في القرآن "وما أدراك ؟" فقد أخبره به .

وكل شيء قال فيه "وما يدريك" : لم يخبره به .

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)

قال قتادة : حَفَظة يحفظون عليك رِزقك وعملك وأجلك .

وعنه أيضاً قال : قرِينه يحفظ عليه عمله : من خير أو شر .

وهذا هو جواب القسم .

وقيل : الجواب "إِنه على رجعِهِ لقادِر" في قول الترمذيّ : محمد ابن علي .

(66/811)

و"إن" : مخففة من الثقيلة ، و"ما" : مؤكدة ، أي إن كل نفس لعليها حافظ .

وقيل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ : يحفظها من الآفات ، حتى يُسلمها إلى القدر .

قال الفراء : الحافظ من الله ، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير ، وقاله الكلبيّ .

وقال أبو أُمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " وكِّل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذُبُّون عنه ما لم يقدر عليه .

من ذلك البصر ، سبعة أملاك يذبون عنه ، كما يذب عن قصعة العسل الذباب .

ولو وكِل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة "لَمَّا" بتشديد الميم ، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وهي لغة هذيل .

يقول قائلهم : نَشَدتك لمَّا قمت .

الباقون بالتخفيف ، على أنها زائدة مؤكدة ، كما ذكرنا .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : 11] على ما تقدم .

وقيل : الحافظ هو الله سبحانه ؛ فلولا حفظه لها لم تبق .

وقيل : الحافظ عليه عقله ، يرشده إلى مصالحه ، ويكفه عن مضارّه .

قلت : العقل وغيره وسائط ، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز ؛ قال الله عز وجل : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ [يوسف : 64] ، وقال : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [الأنبياء : 42] .

وما كان مثله .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ ﴾ أي ابن آدم ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ؟ وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره وسنته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يُمْلِي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره .

و ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ؟ استفهام ؛ أي من أي شيء خلق ؟ ثم قال : ﴿ خُلِقَ ﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ أي من المنيّ .

والدّفْق : صب الماء ، دفقت الماء أدفُقُه دفقاً : صببته ، فهو ماء دافق ، أي مدفوق ؛ كما قالوا : سِرّ كاتِم : أي مكتوم ؛ لأنه من قولك : دُفِق الماء ، على ما لم يُسَمَّ فاعله .

ولا يقال : دَفَق الماءُ .

ويقال : دفَقَ الله رُوحَه ؛ إذا دُعِي عليه بالموت .

قال الفراء والأخفش : "من ماءٍ دافِقٍ" أي مصبوب في الرّحِم .

الزجاج : من ماء ذي اندفاق .

يقال : دارع وفارس ونابل ؛ أي ذو فرس ، ودِرع ، ونبل .

وهذا مذهب سيبويه .

فالدافق هو المندفق بشدّة قوّته .

وأراد ماءين : ماء الرجل وماء المرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما ، لَكِنْ جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما .

وعن عكرمة عن ابن عباس : "دافِقٍ" لَزِج .

﴿ يَخْرُجُ ﴾ أي هذا الماء ﴿ مِن بَيْنِ الصلب ﴾ أي الظهر .

وفيه لغات أربع : صُلْب ، وصُلُب وقرىء بهما وصَلَب (بفتح اللام) ، وصالب (على وزن قالَب) ؛ ومنه قول العباس :

تُنْقَلُ من صالَبٍ إلى رَحِمٍ . . .

﴿ والترآئب ﴾ : أي الصدر ، الواحدة : تَرِيبة ؛ وهي موضع القِلادة من الصدر .

قال :

مهْفهفة بيضاء غيرُ مُفاضةٍ . . .

ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

والصُّلْب من الرجل ، والترائب من المرأة .

قال ابن عباس : الترائب : موضع القلادة .

وعنه : ما بين ثدييها ؛ وقال عكرمة .

ورُوي عنه : يعني ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين ؛ وبه قال الضحاك .

وقال سعيد بن جبير : هو الجِيد .

مجاهد : هو ما بين المنكِبين والصدر .

وعنه : الصّدَر .

وعنه : التراقي .

وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب : أربع أضلاع من هذا الجانب .

وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر ، وأربع أضلاع من يسرة الصدر .

وقال معمر بن أبي حبيبة المَدَنيّ : الترائب عُصارة القلب ؛ ومنها يكون الولد .

والمشهور من كلام العرب : أنها عظام الصدر والنحر .

وقال دُريد بن الصمة :

فإن تدبِروا نأخذكُمُ في ظهورِكُمْ . . .

وإن تقبلوا نأخذكم في الترائب

وقال آخر :

(68/811)

وبدت كأن ترائبا من نحرها . . .

جمرُ الغَضَى في ساعدٍ تتوقد

وقال آخر :

والزعفرانُ على ترائِبها . . .

شِرق به اللبات والنحرُ

وعن عكرمة : الترائب : الصدر ؛ ثم أنشد :

نِظامُ دُرٍّ على ترائبها . . .

وقال ذو الرمّة :

ضَرَجْن البرود عن ترائب حرة . . .

أي شققن .

ويروى "ضرحن" بالحاء ؛ أي ألقين .

وفي الصحاح : والتريبة : واحدة الترائب ، وهي عظام الصدر ؛ ما بين الترقوة والثَّندُوة .

قال الشاعر :

أشرفَ ثَدياها على التَّرِيبِ . . .

وقال المثقّب العَبْدِيّ :

ومِن ذَهَبٍ يُسَنّ على تَرِيبٍ . . .

كلون العاج ليسَ بذي غُضونِ

عن غير الجوهريّ : الثندوة للرجل : بمنزلة الثدي للمرأة .

وقال الأصمعيّ : مَغْرِز الثدي .

وقال ابن السكيت : هي اللحم حول الثدي ؛ إذا ضممت أوّلها همزت ، وإذا فتحت لم تهمز) .

وفي التفسير : يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب .

ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدّم ؛ وقاله الأعمش .

وقد تقدّم مرفوعاً في أوّل سورة (آلِ عمران) .

والحمد لله وفي (الحجرات) ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى ﴾ [الحجرات: 13] وقد تقدّم.

وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الأنثيين.

وهذا لا يعارض قوله: "من بين الصلب"؛ لأنه إن نزل من الدماغ، فإنما يمرّ بين الصلب والترائب.

وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة.

وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب.

وقال الحسن: المعنى؛ يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة.

ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبه الرجل والديه كثيراً.

وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني.

وأيضاً المكثر من الجماع يجد وجعاً في ظهره وصلبه؛ وليس ذلك إلا لخلوّ صلبه عما كان محتبساً من الماء.

وروى إسماعيل عن أهل مكة "يخرج من بين الصُّلُب" بضم اللام .

ورُوِيت عن عيسى الثقفي .

حكاه المهدويّ وقال : من جعل المنِيّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه ، فالضمير في "يخرج" للماء .

ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، فالضمير للإنسان .

وقرىء "الصَّلَب" ، بفتح الصاد واللام .

وفيه أربعُ لغات : صُلْب وصُلُب وصَلَب وصَالَب .

قال العَجَّاج :

في صَلَبٍ مثلِ العِنان المؤدَمِ . . .

وفي مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

تُنْقَل من صَالَبٍ إلى رَحِمٍ . . .

الأبيات مشهورة معروفة .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن الله جل ثناؤه ﴿ على رَجْعِهِ ﴾ أي على ردّ الماء في الإحليل ، ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ كذا قال مجاهد والضحاك .

وعنهما أيضاً أن المعنى : إنه على رد الماء في الصلب ؛ وقاله عكرمة .

وعن الضحاك أيضاً أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان ماء كما كان لقادر .

وعنه أيضاً أن المعنى : إنه على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الكبر ، لقادر .

وكذا في المهدوِيّ .

وفي الماوردِيّ والثعلبيّ : إلى الصِّبا ، ومن الصبا إلى النطفة .

وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج ، لقادر .

وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضاً : إنه على ردّ الإنسان بعد الموت لقادر .

وهو اختيار الطبريّ .

الثعلبيّ ؛ وهو الأقوى ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ .

قال الماورديّ : ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرَّجْعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(70/811)

وقال الآلوسى :

﴿ والسماء ﴾

هي المعروفة على ما عليه الجمهور وقيل المطر هنا وهو أحد استعمالاتها ومنه قوله

: إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضاباً

ولا يخفى حاله ﴿ والطارق ﴾ وهو في الأصل اسم فاعل من الطرق بمعنى الضرب بوقع وشدة يسمع لها صوت ومنه المطرقة والطريق لأن السابلة تطرقها ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق لتصور أنه يطرقها بقدمه واشتهر فيه حتى صار حقيقة ثم اختص بالآتي ليلاً لأنه في الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها ثم اتسع في كل ما يظهر بالليل كائناً ما كان حتى الصور الخيالية البادية فيه والعرب تصفها بالطروق كما في قوله

: طرق الخيال ولا كليلة مدلج . . .

سدكا بأرحلنا ولم يتعرج

والمراد به ههنا عند الجمهور الكوكب البادي بالليل إما على أنه اسم جنس أو كوكب معهود كما ستعلمه إن شاء الله تعالى وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام وتنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك الخلق فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم فما الأولى مبتدأ وإدراك خبره وما الثانية خبر والطارق مبتدأ على ما اختاره بعض المحققين أي أي شيء أعلمك ما الطارق وقوله سبحانه :

﴿ النجم الثاقب ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جواباً عن استفهام نشأ عما قبل كان قيل ما هو فقيل هو النجم الخ والثاقب في الأصل الخارق ثم صار بمعنى المضيء لتصور أنه يثقب الظلام وقد يخص بالنجوم والشهب لذلك وتصور أنها ينفذ ضوءها في الأفلاك ونحوها وقال الفراء : الثاقب المرتفع يقال ثقب الطائر أي ارتفع وعلا والمراد بالنجم الثاقب الجنس عند الحسن فإن لكل كوكب ضوءاً ثاقباً لا محالة وكذا كل كوكب مرتفع ولا يضر التفاوت في ذلك وذهب غير واحد إلى أن المراد به معهود فعن ابن عباس أنه الجدي وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه الثريا وهو الذي تطلق العرب عليه اسم النجم وروي عنه أيضاً أنه زحل وهو أبعد السيارات وأرفعها وما يثقبه ضوؤه من الأفلاك أكثر فيما يزعم المنجمون المتقدمون وإنما قلنا أبعد السيارات لأن الجدي والثريا عندهم أبعد منه بكثير وكذا عند المحدثين وعن الفراء أنه القمر لأنه آية الليل وأشد الكواكب ضوءاً فيه وهو زمان سلطانه وأنت تعلم أن إطلاق النجم عليه ولو موصوفاً غير شائع وقيل هو النجم الذي يقال له كوكب الصبح وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى

مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد ولا يخفى أن المعروف أن الذي يسكن السماء السابعة أعني الفلك السابع وحده هو زحل فيكون ذلك قولاً بأن النجم الثاقب هو لكن لا يعرف له نزول ولا صعود بالمعنى المتبادر وأيضاً لا يعقل له نزول إلى حيث تكون النجوم أعني الثوابت لأن المعروف عندهم أنها في الفلك الثامن ويجوز عقلاً أن يكون بعضها في أفلاك فوق ذلك بل نص المحدثون لما قام عندهم على تفاوتها في الارتفاع ولم يشكوا في أن كثيراً منها أبعد من زحل بعداً عظيماً وإذا اعتبرت الظواهر وقلنا بأنها في السماء الدنيا وإن تفاوتت في الارتفاع فلذلك أيضاً مما يأباه أن

(72/811)

النجوم قد تأخذ أمكنتها من السماء وليس معها زحل وبالجملة ما يعكر على هذا الخبر كثير وكونه كرم الله تعالى وجهه أراد كوكباً آخر هذا شأنه لا يخفى حاله والذي يقتضيه الإنصاف وترك التعصب أن الخبر مكذوب على الأمير رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه وجوز على إرادة الجنس أن يراد به جنس الشهب التي يرجم بها وليس بذاك وما روي أن أبا طالب كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحط نجم فامتلأ ماء ثم نوراً ففزع أبو طالب فقال : أي شيء هذا فقال عليه الصلاة والسلام

" هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله تعالى " فعجب أبو طالب فنزلت لا يقتضي ذلك على ما لا يخفى وزعم ابن عطية أن المراد بالطارق جميع ما يطرق من الأمور والمخلوقات فيعم النجم الثاقب وغيره ويكون معنى وما أدراك ما الطارق حق الطارق بأن تكون أل في ما الطارق مثلها في أنت الرجل وما أدري ما الطارق على هذا الرجل حتى ركب هذا الطريق الوعر في التفسير وفي إيراد ذلك عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره ثم الإشارة إلى أن ذلك الوصف غير كاشف عن كنه أمره وأن ذلك مما لا يبغله أفكار الخلائق ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله ما لا يخفى على ذي نظر ثاقب ولإرادة ذلك لم يقل ابتداء والنجم الثاقب مع أنه أخصر وأظهر ولله عز وجل أن يفخم شأن ما شاء من خلقه لما شاء ولا دلالة فيه ههنا على شيء مما يزعمه المنجمون في أمر النجوم زحل وغيره من التأثير في سعادة أو شقاوة أو نحوهما وجواب القسم قوله تعالى :

(73/811)

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ وما بينهما اعتراض جيء به لما ذكر من تأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها وقيل جوابه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق : 8] وما في البين اعتراض وهو كما ترى وإن نافية ولما

بمعنى إلا ومجيئها كذلك لغة مشهورة كما نقل أبو حيان عن الأخفش في هذيل وغيرهم يقولون أقسمت عليك أو سألتك لما فعلتك كذا يريدون إلا فعلت وبهذا رد على الجوهري المنكر لذلك وقال الرضي : لا تجيء إلا بعد نفي ظاهر أو مقدر ولا تكون إلا في المفرغ أي بخلاف الا وكل لتأكيد العموم لتحقق أصله من وقوع النكرة في سياق النفي وهو مبتدأ والخبر على المشهور حافظ وعليها متعلق به وعلى ما سمعت عن الرضي محذوف أي ما كل نفس كائنة في حال من الأحوال إلا في حال أن يكون عليها حافظ أي مهيمن ورقيب وهو الله عز وجل كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾ [الأحزاب : 52] ﴾ .

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل . . .

خلوت ولكن قل على رقيب

(74/811)

وقيل هو من يحفظ عملها من الملائكة عليهم السلام ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين كِرَاماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 10 ، 11] الآية وروي ذلك عن ابن سيرين وقتادة وغيرهما وخصصوا النفس بالمكلفة وقيل هو من

وكل على حفظها والذب عنها من الملائكة كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ [الرعد : 11] يحفظونه من أمر الله وعن أبي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " وقيل هو العقل يرشد المرء إلى مصالحه ويكفه عن مضاره وقرأ الأكثر لما بالتخفيف فعند الكوفيين إن نافية كما سبق واللام بمعنى إلا وما زائدة وصرحوا هنا بأن كل وحافظ مبتدأ وخبر فلا تغفل وعند البصريين إن مخففة من الثقيلة وكل مبتدأ وما زائدة واللام هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن المخففة وحافظ خبر المبتدأ وعليها متعلق به وقدر لأن ضمير الشأن وتعقب بأنه لا حاجة إليه لأنه في غير المفتوحة ضعيف لعدم العمل مع أنه مخل بإدخال اللام الفارقة لأنه إذا كان الخبر جملة فالأولى إدخال اللام على الجزء الأول كما صرح به في التسهيل وإدخالها على الجزء الثاني كما صرح به بعض الأفاضل في حواشيه عليه ولعل من قال أي إن الشأن كل نفس لعليها حافظ لم يرد تقدير الضمير وإنما أراد بيان حاصل المعنى وحكى هارون أنه قرىء إن بالتشديد وكل بالنصب ولما بالتخفيف فاللام هي الداخلة في خبر إن وما زائدة وعلى جميع القراآت أمر الجوابية ظاهر لوجود ما يتلقى به القسم وتلقيه بالمشددة مشهور وبالمخففة تالله إن كدت لتردين وبالنافية ﴿ ولئن زالتا أن أمسكهما ﴾ [فاطر : 41]

وقوله تعالى :

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ متفرع على ما قبله وليست الفاء بفصيحة خلافاً للطيبي إذ لا يحتاج إلى حذف في استقامة الكلام أما على تقدير أن يكون الحافظ هو الله عز وجل أو الملك الذي وكله تعالى شأنه للحفظ على الوجه الذي سمعت فلانه لما أثبت سبحانه أن عليه رقيباً منه تعالى حثه على النظر المعرف لذلك مع أوصافه كأنه قيل فليعرف المهيمن عليه بنصبه الرقيب أو بنفسه وليعلم رجوعه إليه تعالى وليفعل ما يسر به حال الرجوع وعبر عن الأول بقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ﴾ ليبين طريق المعرفة فهو بسط فيه إيجاز وأدمج فيه الأخيران وأما على تقدير أن يكون المراد به العقل فلأنه لما أثبت سبحانه أن له عقلاً يرشد إلى المصالح ويكف عن المضار حثه على استعماله فيما ينفعه وعدم تعطيله وإلغائه كأنه قيل فلينظر بعقله وليتفكر به في مبدأ خلقه حتى يتضح له قدرة واهبة وأنه إذا قدر على إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط فهو سبحانه على إعادته أقدر وأقدر فيعمل بما يسر به حين الإعادة وقد يقرر التفريع على جميع الأوجه بنحو واحد فتأمل ومم خلق استفهام ومن متعلقة بخلق والجملة في موضع نصب بينظر وهي معلقة بالاستفهام وقوله تعالى :

﴿ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ استئناف وقع جواباً عن استفهام مقدر كأنه قيل مم خلق فقيل : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاء ﴾ الخ وظاهر كلام بعض الأجلة أنه جواب الاستفهام المذكور مع تعلق الجار بينظر وفيه مسامحة وكأن المراد أنه على صورة الجواب وجعله جواباً له حقيقة على أنه مقطوع عن ينظر ليس بشيء عند من له نظر والدفق صب فيه دفع وسيلان بسرعة وأريد بالماء الدافق المني ودافق قيل بمعنى مدفوق على تأويل اسم الفاعل بالمفعول وقد قرأ بذلك زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وقال الخليل وسيبويه هو على النسب كلابن وتامر أي ذي دفق وهو صادق على الفاعل والمفعول وقيل هو اسم فاعل وإسناده إلى الماء مجاز وأسند إليه ما لصاحبه مبالغة أو هو استعارة مكنية وتخييلية كما ذهب إليه السكاكي أو مصرحة بجعله دافقاً لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق أي يدفع بعضه بعضاً وقد فسر ابن عطية الدفق بالدفع فقال الدفق دفع الماء بعضه ببعض يقال تدفق الوادي والسيل إذا جاء يركب بعضه بعضاً ويصح أن يكون الماء دافقاً لأن بعضه يدفع بعضاً فمنه دافق ومنه مدفوق وتعقبه أبو حيان بأن الدفق بمعنى الدفع غير محفوظ في اللغة بل المحفوظ أنه الصب ونقل عن الليث أن دفق بمعنى انصب بمرة فدافق بمعنى منصب فلا حاجة إلى

التأويل وتعقب بأنه مما تفرد به الليث كما في "القاموس" وغيره وقيل من ماء مع أن الإنسان لا يخلق إلا من ماءين ماء الرجل وماء المرأة ولذا كان خلق عيسى عليه السلام خارقاً للعادة لأن المراد به الممتزج من الماءين في الرحم وبالامتزاج صارا ماءً واحداً ووصفه بالدفق قيل باعتبار أحد جزئيه وهو مني الرجل وقيل باعتبار كليهما ومني المرأة دافق أيضاً إلى الرحم ويشير إلى إرادة الممتزج على ما قيل قوله تعالى :

(77/811)

﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب ﴾ أي من بين أجزاء صلب كل رجل أي ظهره ﴿ والترائب ﴾ أي ومن بين ترائب كل امرأة أي عظام صدرها جمع تريبة وفسرت أيضاً بموضع القلادة من الصدور وروي عن ابن عباس وهو لكل امرأة واحد إلا أنه يجمع كما في قول امرىء القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة . . .

ترائبها مصقولة كالسجنجل

باعتبار ما حوله على ما في "البحر" وجاء في المفرد تريب كما في قول المثقب العبدي :

ومن ذهب يبين على تريب . . .

كلون العاج ليس بذي غضون

وحمل الآية على ما ذكر مروى عن سفيان وقتادة إلا أنهما قالا أي يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة وظاهره كالآية أن أحد الطرفين للبينية الصلب والآخر الترائب وهو غير ما قلناه وعليه قيل هو كقولك يخرج من بين زيد وعمرو خير كثير على معنى أنهما سببان فيه وقيل إن ذلك باعتبار أن الرجل والمرأة يصيران كالشيء الواحد فكان الصلب والترائب لشخص واحد فلا تغفل ثم إن ما تقدم مبني إما على أن الترائب مخصوصة بالمرأة كما هو ظاهر كلام غير واحد وإما على حمل تعريفها على العهد وقال الحسن وروي عن قتادة أيضاً أن المعنى يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائب كل منهما ولم يفسر الترائب فقيل عظام الصدر وقيل ما بين الثديين وقيل ما بين المنكبين والصدر وقيل التراقي وقيل أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسرته وعن ابن جبير الأضلاع التي هي أسفل الصلب وحكى مكي عن ابن عباس أنها أطراف المرء رجلاه ويداه وعيناه والأشهر أنها عظام الصدر وموضع القلادة منه وطعن في ذلك على ما قال الإمام بعض الملاحدة خذلهم الله تعالى بأن المني إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع وينفصل من جميع أجزاء البدن فيأخذ من كل عضو طبيعة وخاصية مستعداً لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء وإن كان

المراد أن معظم أجزاء المني تتولد في ذينك الموضعين فهو ضعيف لأن معظمه إنما يتولد في الدماغ ألا ترى أنه في صورته يشبه الدماغ والمكثر منه يظهر الضعف أولاً في دماغه وعينيه وإن كان المراد أن مستقره هناك فهو ضعيف أيضاً لأن مستقره عروق يلتف بعضها بالبعض عند البيضتين وتسمى أوعية المني وإن كان المراد أن مخرجه هناك فهو أيضاً كذلك لأن الحس يدل على خلافه وأجاب رحمه الله تعالى بأنه لا شك أن أعظم الأعضاء معونة في توليد المني الدماغ وخليفته النخاع في الصلب وشعب نازلة إلى مقدم البدن وهي التريبة فلذا خصا بالذكر على أن كلامهم في أمر المني وتولده محض الوهم والظن الضعيف وكلام

(79/811)

الله تعالى المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو المقبول والمعول عليه اه وفي "الكشف" أقول النخاع بين الصلب والترائب ولا يحتاج إلى تخصيص التريبة بالنساء فقد يمنع الشعب النازلة على أن تلك الشعب إن كانت فهي أعصاب لا ذات تجاويف والوجه والله تعالى أعلم أن النخاع والقوى الدماغية والقلبية والكبدية كلها تتعاون في إبراز ذلك الفضل على ما هو عليه قابلاً لأن يصير مبدأ الشخص على ما بين في موضعه وقوله سبحانه : ﴿ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ عبارة مختصرة جامعة لتأثير الأعضاء الثلاثة فالترائب

يشمل القلب والكبد وشمولها للقلب أظهر والصلب النخاع ويتوسطه الدماغ ولعله لا يحتاج إلى التنبيه على مكان الكبد لظهور ذلك لأنه دم نضيج وإنما احتيج إلى ما خفي وهو أمر الدماغ والقلب في تكون ذلك الماء فنبه على مكانهما وقيل ابتداء الخروج منه كما أن انتهاءه بالإحليل انتهى وقيل لو جعل ما بين الصلب والترائب كناية عن البدن كله لم يبعد وكان تخصيصهما بالذكر لما أنهما كالوعاء للقلب الذي هو المضغة العظمى فيه وأمر هذه الكناية على ما حكى مكي عن ابن عباس في الترائب أظهر وزعم بعضهم جواز كون الصلب والترائب للرجل أي يخرج من بين صلب كل رجل وترائبه فالمراد بالماء الدافق ماء الرجل فقط وجعل الكلام إما على التغليب أو على أنه لا ماء للمرأة أصلاً فضلاً عن الماء الدافق كما قيل به ولا يخفى ما فيه والقول بأن المرأة لا ماء لها تكذبه الشريعة وغيرها وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم يخرج مبنياً للمفعول وهما وأهل مكة وعيسى الصلب بضم الصاد واللام واليماني بفتحهما وروي على اللغتين قول العجاج:

ريا العظام فخمة المخدم . . .

في صلب مثل العنان المؤدم

وفيه لغة رابعة وهي صالب كما في قوله العباس

تنقل من صالب إلى رحم . . .

وهي قليلة الاستعمال واستشهد بعض الأجلة بقوله تعالى : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ [الطارق : 6] على أن الإنسان هو الهيكل المخصوص كما ذهب إليه جمهور المتكلمين النافين للنفس الناطقة الإنسانية المجردة التي ليست داخل البدن ولا خارجه وقال : إنه شاهد قوي على ذلك وتأويله بأنه على حذف المضاف أي خلق بدن الإنسان لا يسمع ما لم يقم برهان على امتناع ظاهره انتهى وأنت تعلم أن القائلين بالنفس الناطقة المجردة قد أقاموا فيما عندهم براهين على إثباتها نعم إن فيها أبحاثاً للنافين وتحقيق ذلك بما لا مزيد عليه في كتاب الروح للعلامة ابن القيم عليه الرحمة .

﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ الضمير الأول للخالق تعالى شأنه وكما فخم أولاً بترك الفاعل في قوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خَلَقَ خلق ﴾ [الطارق : 5 ، 6] إذ لا يذهب إلى خالق سواه عز وجل فخم بازضمار ثانياً والضمير الثاني للإنسان أي إن ذلك الذي خلقه ابتداء مما ذكر على إعادته بعد موته لبين القدرة وهذا كما في قوله

: لئن كان تهدي برد أنيابها العلي . . .

لأفقر مني أنني لفقير

فإنه أراد لبين الفقر والألم يصح إيراده في مقابلة لأفقر مني والتأكيد البالغ لفظاً لما قام عليه البرهان الواضح معنى ولذا فسر قادر هنا ببين القدرة كما في "الكشاف" واعتبر فيه أيضاً الاختصاص فقال أي على إعادته خصوصاً وكأن ذلك لأن الغرض المسوق له الكلام ذلك فكأن ما سواه مطرح بالنسبة إليه وحينئذٍ يراد ما ذكر جعل الجار من صلة لقادر أو مدلولاً على موصوله به على المذهبين وفصل الجملة عما سبق لكونه جواب الاستفهام دونها وقال مجاهد وعكرمة الضمير الثاني للماء أي أنه تعالى على رد الماء في الإحليل أو في الصلب لقادر وليس بشيء ومثله كون المعنى على تقدير كونه للإنسان أنه عز وجل على رده من الكبر إلى الشباب لقادر وليس بشيء ومثله كون المعنى على تقدير كونه للإنسان أنه عز وجل على رده من الكبر إلى الشباب لقادر كما روي عن الضحاك وما ذكرناه أولاً مروى عن ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(82/811)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) ﴾

افتتاح السورة بالقسم تحقيق لما يقسم عليه وتشويق إليه كما تقدم في سوابقها .

ووقع القسم بمخلوقَين عظيمين فيهما دلالة على عظيم قدرة خالقهما هما : السماء ، والنجوم ، أو نجم منها عظيم منها معروف ، أو ما يبدو انقضاضه من الشهب كما سيأتي .

و﴿ الطارق ﴾ : وصف مشتق من الطروق ، وهو المجيء ليلاً لأن عادة العرب أن النازل بالحي ليلاً يطرق شيئاً من حجر أو وتد إشعاراً لرب البيت أن نزيلاً نزل به لأن نزوله يقضي بأن يضيفوه ، فأطلق الطروق على النزول ليلاً مجازاً مرسلاً فغلب الطروق على القدوم ليلاً .

وأبهم الموصوف بالطارق ابتداء ، ثم زيد إبهاماً مشوباً بتعظيم أمره بقوله : ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ ثم بُين بأنه : ﴿ النجم الثاقب ﴾ ليحصل من ذلك مزيد تقرر للمراد بالمقسم به وهو أنه من جنس النجوم ، شُبه طلوع النجم ليلاً بطروق المسافر الطارق بيتاً بجامع كونه ظهوراً في الليل .

و﴿ ما أدراك ﴾ استفهام مستعمل في تعظيم الأمر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ في سورة الشورى (17) ، وعند قوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 3] وتقدم الفرق بين : ما يدريك ، وما أدراك .

وقوله : ﴿ النجم ﴾ خبر عن ضمير محذوف تقديره : هو ، أي الطارق النجم الثاقب .

والثقب : خرق شيء ملتئم ، وهو هنا مستعار لظهور النور في خلال ظلمة الليل .

شبه النجم بمسمار أو نحوه ، وظهورُ ضوئه بظهور ما يبدو من المسمار من خلال الجسم الذي يثقبه مثل لَوح أو ثَوب .

وأحسب أن استعارة الثقب لبروز شعاع النجم في ظلمة الليل من مبتكرات القرآن ولم يرد في كلام العرب قبل القرآن .

وقد سبق قوله تعالى : ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ في سورة الصافات (10) ، ووقع في تفسير القرطبي ﴾ : والعرب تقول اثقُب نارك ، أي أضئها ، وساق بيتاً شاهداً على ذلك ولم يعزه إلى قائل .

(83/811)

والتعريف في ﴿ النجم ﴾ يجوز أن يكون تعريف الجنس كقول النابغة :

أقول والنجمُ قد مَالت أواخِره . . .

البيت

فيستغرق جميع النجوم استغراقاً حقيقياً وكلها ثاقب فكأنه قِيلَ ، والنجوم ، إلا أن صيغة الإفراد في قوله : ﴿ الثاقب ﴾ ظاهر في إرادة فرد معيّن من النجوم ، ويجوز أن يكون التعريف للعهد إشارة إلى نجم معروف يطلق عليه اسم النجم غالباً ، أي والنجم الذي هو

طارق .

ويناسب أن يكون نجماً يَطلع في أوائل ظلمة الليل وهي الوقت المعهود لِطروق الطارقين من السائرين .

ولعل الطارق هو النجم الذي يسمى الشاهد ، وهو نجم يظهر عقب غروب الشمس ، وبه سميت صلاة المغرب "صلاةَ الشاهد" .

روى النسائي : " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن هذه الصلاة (أي العصر) فرضت على من كان قبلكم فضيعوها " إلى قوله : " ولا صلاة بعدَها حتى يطلع الشاهد " .

وقيل : أريد بـ ﴿ الطارق ﴾ نوع الشهب ، روي عن جابر بن زيد : أن النجم الطارق هو كوكب زُحل (لأنه مبرز على الكواكب بقوة شعاعه) .

وعنه : أنه الثريا (لأن العرب تطلق عليها النجم علماً بالغَلبة) ، وعن ابن عباس : أنه نجوم برج الجَدي ، ولعل ذلك النجم كان معهوداً عند العرب واشتهر في ذلك في نجم الثريا .

وقيل : أريد بالطارق نوع الشهب (أي لأن الشهاب ينقضّ فيلوح كأنه يَجري في السماء كما يسير السائر إذا أدركه الليل) .

فالتعريف في لفظ ﴿ النجم ﴾ للاستغراق ، وخص عمومه بوقوعه خبراً عن ضمير ﴿ الطارق ﴾ أي أن الشهاب عند انقضاضه يرى سائراً بسرعة ثم يغيب عن النظر فيلوح

كأنه استقر فأشبه إسراع السائر ليلاً ليبلغ إلى الأحياء المعمورة فإذا بلغها وقف سيره .

وجواب القسم هو قوله : ﴿ إنْ كل نفس لمَا عليها حافظ ﴾ جُعل كناية تلويحية رمزية عن المقصود .

(84/811)

وهو إثبات البعث فهو كالدليل على إثباته ، فإن إقامة الحافظ تستلزم شيئاً يحفظه وهو الأعمال خيرُها وشرُّها ، وذلك يستلزم إرادة المحاسبة عليها والجزاء بما تقتضيه جزاء مُؤخراً بعد الحياة الدنيا لئلا تذهب أعمال العاملين سدى وذلك يستلزم أن الجزاء مؤخر إلى ما بعد هذه الحياة إذ المُشَاهَدُ تخلُّف الجزاء في هذه الحياة بكثرة ، فلو أهمل الجزاء لكان إهماله منافياً لحكمة الإله الحكيم مبدع هذا الكون كما قال : ﴿ أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً ﴾ [المؤمنون : 115] وهذا الجزاء المؤخر يستلزم إعادة حياة للذوات الصادرة منها الأعمالُ .

فهذه لوازم أربعة بها كانت الكناية تلويحية رمزية .

وقد حصل مع هذا الاستدلال إفادةُ أن على الأنفس حفظةً فهو إدماج .

والحافظ : هو الذي يحفظ أمراً ولا يهمله ليترتب عليه غرض مقصود .

وقرأ الجمهور : ﴿ لَمَا ﴾ بتخفيف الميم ، وقرأه ابن عامر وحمزة وأبو جعفر وخلَف بتشديد الميم .

فعلى قراءة تخفيف الميم تكون (إنْ) مخففة من الثقيلة و ﴿ لَمَا ﴾ مركبة من اللام الفارقة بين (إنْ) النافية و (إنْ) المخففةِ من الثقيلة ومعها (مَا) الزائدة بعد اللام للتأكيد وأصل الكلام : إن كل نفس لَعَلَيْها حافظ .

وعلى قراءة تشديد الميم تكون (إنْ) نافية و ﴿ لَمَّا ﴾ حرف بمعنى (إلاّ) فإن (لَمَّا) ترد بمعنى (إلاّ) في النفي وفي القَسم ، تقول : سألتُك لَمَّا فعلت كذا أي إلاّ فعلت ، على تقدير : ما أسألك إلاّ فعل كذا فآلت إلى النفي وكلٌّ من (إنْ) المخففة و (إنْ) النافية يُتلقَّى بها القسم .

وقد تضمن هذا الجواب زيادةً على إفادته تحقيق الجزاء إنذاراً للمشركين بأن الله يعلم اعتقادهم وأفعالهم وأنه سيجازيهم على ذلك .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)

(85/811)

الفاء لتفريع الأمر بالنظر في الخلقة الأولى ، على ما أريد من قوله : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : 4] من لوازم معناه ، وهو إثبات البعث الذي أنكروه على طريقة الكناية التلويحية الرمزية كما تقدم آنفاً ، فالتقدير : فإن رأيتم البعثَ محالاً فلينظر الإِنسان مِمّ خُلق ليعلَمَ أن الخلق الثاني ليس بأبعد من الخلق الأول .

فهذه الفاء مفيدة مفاد فاء الفصيحة .

والنظر : نظر العقل ، وهو التفكر المؤدي إلى علم شيء بالاستدلال فالمأمور به نظر المُنكر للبعث في أدلة إثباته كما يقتضيه التفريع على : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : 4] .

و(مِنْ) من قوله : ﴿ مم خلق ﴾ ابتدائية متعلقة بـ ﴿ خلق ﴾ .

والمعنى : فليتفكر الإِنسان في جواب : مَا شيء خلق منه ؟ فقدّم المتعلِّق على عامله تبعاً لتقديم ما اتصلت به من (من) اسم الاستفهام .

و(ما) استفهامية عَلّقت فعل النَّظر العقلي عن العمل .

والاستفهام مستعمل في الإِيقاظ والتنبيه إلى ما يجب علمه كقوله تعالى : ﴿ من أي شيء خلقه ﴾ [عبس : 18] فالاستفهام هنا مجاز مرسل مركب .

وحذف ألف (ما) الاستفهامية على طريقة وقوعها مجرورة .

ولكون الاستفهام غير حقيقي أجاب عنه المتكلم بالاستفهام على طريقة قوله : ﴿ عم

يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] .

و﴿ الإِنسان ﴾ مراد به خصوص منكر البعث كما علمت آنفاً من مقتضى التفريع في قوله : ﴿ فلينظر ﴾ إلخ .

ومعنى ﴿ دافق ﴾ خارج بقوة وسرعة والأشهر أنه يقال على نطفة الرجل .

وصيغة ﴿ دافق ﴾ اسم فاعل من دفق القاصر ، وهو قول فريق من اللغويين .

وقال الجمهور : لا يستعمل دفَق قاصراً .

وجعلوا دافقاً بمعنى اسم المفعول وجعلوا ذلك من النادر .

وعن الفراء : أهل الحجاز يجعلون المفعول فاعلاً ، إذا كان في طريقة النعت .

وسيبويه جعله من صيغ النسب كقولهم : لاَبن وتَامِر ، ففسر دافق : بذي دَفْق .

(86/811)

والأحسن أن يكون اسم فاعل ويَكون دفق مطاوع دفقه كما جعل العجاج جَبَر بمعنى انْجبر في قوله :

قد جبر الدينَ الإله فجبر

وأنه سماعي .

وأُطنب في وصف هذا الماء الدافق لإدماج التعليم والعبرة بدقائق التكوين ليستيقظ الجاهل الكافر ويزداد المؤمن علماً ويقيناً .

ووُصف أنه يخرج من ﴿ بين الصلب والترائب ﴾ لأن الناس لا يتفطنون لذلك .

والخروج مستعمل في ابتداء التنقل من مكان إلى مكان ولو بدون بروز فإن بروز هذا الماء لا يكون من بين الصلب والترائب .

و ﴿ الصلب ﴾ : العمود العظمي الكائن في وسط الظهر ، وهو ذو الفقرات .

و ﴿ الترائب ﴾ : جمع تريبة ، ويقال : تَريب .

ومحرّر أقوال اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي بين الترقُوَتَيْن والثَّديين ووسموه بأنه موضع القلادة من المرأة .

والترائب تضاف إلى الرجل وإلى المرأة ، ولكن أكثر وقوعها في كلامهم في أوصاف النساء لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال .

وقوله : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ الضمير عائد إلى ﴿ ماء دافق ﴾ وهو المتبادر فتكون جملة ﴿ يخرج ﴾ حالاً من ﴿ ماء دافق ﴾ أي يمر ذلك الماء بعد أن يفرز من بين صلب الرجل وترائبه .

وبهذا قال سفيان والحسن ، أي أن أصل تكَوُّن ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب ، وليس المعنى أنه يمر بين الصلب والترائب إذ لا يتصور ممر بين الصلب والترائب لأن الذي

بينهما هو ما يحويه باطن الصدر والضلوع من قلب ورِئَتَيْن .

فجعل الإِنسان مخلوقاً من ماء الرجل لأنه لا يتكوّن جسم الإنسان في رحم المرأة إلا بعد أن يخالطها ماء الرجل فإذا اختلط ماء الرجل بما يُسمى ماء المرأة وهو شيء رطب كالماء يحتوي على بُوَيضات دقيقة يثبت منها ما يتكوّن منه الجنين ويُطرح ما عداه .

وهذا مخاطبة للناس بما يعرفون يومئذ بكلام مجمل مع التنبيه على أن خلق الإِنسان من ماء الرجل وماءِ المرأة بذكر الترائب لأن الأشهر أنها لا تطلق إلا على ما بين ثديي المرأة .

(87/811)

ولا شك أن النسل يتكون من الرجل والمرأة فيتكون من ماء الرجل وهو سائل فيه أجسام صغيرة تسمى في الطب الحيوانات المنوية ، وهي خيوط مستطيلة مؤلفة من طرف مسطح بيضوي الشكل وذَنَب دقيق كخيط ، وهذه الخيوط يكون منها تلقيح النسل في رحم المرأة ، ومقرها الأنثيان وهما الخصيتان فيندفع إلى رحم المرأة .

ومن ماء هو للمرأة كالمني للرجل ويسمى ماء المرأة ، وهو بويضات دقيقة كروية الشكل تكون في سائل مقره حُويصلة من حويصلات يشتمل عليها مَبيضان للمرأة وهما بمنزلة الأنثيين للرجل فهما غدتان تكونان في جانبي رحم المرأة ، وكل مَبيض يشتمل على عدد من

الحُويصلات يتراوح من عشر إلى عشرين .

وخروج البيضة من الحُويصلة يكون عند انتهاء نمو الحويصلة فإذا انتهى نموها انفجرتْ فخرجت البَيضة في قناة تبلغ بها إلى تجويف الرحم ، وإنما يتم بلوغ البيضة النموَّ وخروجُها من الحويصلة في وقت حيض المرأة فلذلك يكثر العلوق إذا باشر الرجل المرأة بقرب انتهاء حيضها .

وأصل مادة كِلا الماءين مادة دموية تنفصل عن الدماغ وتنزل في عرقين خلف الأذنين ، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع ، وهو الصلب ثم ينتهي إلى عرق يسمى الحَبْل المَنَوي مؤلف من شرايين وأوْرِدَةٍ وأعصابٍ وينتهي إلى الأنثيين وهما الغدتان اللتان تُفرزانِ المني فيتكون هنالك بكيفية دُهنية وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأُنْثيان مادةً دهنية شحمية وذلك عند دغدغة ولَذع القضيب المتصل بالأنثيين فيندفق في رحم المرأة .

وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة وهو الترائب لأن فيه موضع الثديين وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحاملُ للبويضات التي منها النسل ، والحيض يسيل من فَوهات عروق في الرحم ، وهي عروق تنفتح عند حلول إبان المحيض وتنقبض عقب الطُّهر .

والرحم يأتيها عصب من الدماغ .

وهذا من الإِعجاز العلمي في القرآن الذي لم يكن علمٌ به للذين نزل بينهم ، وهو إشارة مجملة وقد بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن احتلام المرأة ، فقال : تغتسل إذا أبصرت الماء فقيل له : أترى المرأة ذلك فقال : وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك إذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أشبه الولد أخواله وإذا علا ماء الرجل ماءَها أشبه أعمامه " .

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)

استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ [الطارق : 5] لأن السامع يتساءل عن المقصد من هذا الأمر بالنظر في أصل الخلقة ، وإذ قد كان ذلك النظر نظر استدلال فهذا الاستئناف البياني له يتنزل منزلة نتيجة الدليل ، فصار المعنى : أن الذي خلق الإنسان من ماء دافق قادر على إعادة خلقه بأسباب أخرى وبذلك يتقرر إمكان إعادة الخلق ويزول ما زعمه المشركون من استحالة تلك الإِعادة .

وضمير ﴿ إنه ﴾ عائد إلى الله تعالى وإن لم يسبق ذكر لمعاد ولكنّ بناءَ الفعل للمجهول في قوله : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ [الطارق : 6] يؤذن بأن الخالق معروف لا يُحتاج إلى ذكر اسمه ، وأسند الرَّجع إلى ضميره دون سلوك طريقة البناء للمجهول كما في قوله : ﴿ خلق ﴾ لأن المقام مقام إيضاح وتصريح بأن الله هو فاعل ذلك .

وضمير ﴿ رجعه ﴾ عائد إلى ﴿ الإنسان ﴾ [الطارق : 5] .

والرجع : مصدر رَجَعَه المتعدّي .

ولا يقال في مصدر رجَع القاصر إلا الرجوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(89/811)

فائدة

قال ابن القيم :

قال تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾

قال الزجاج قال أهل اللغة التربية موضع القلادة من الصدر والجمع ترائب وقال أبو عبيدة الترائب معلق الحلي من الصدر وهو قول جميع أهل اللغة وقال عطاء عن ابن عباس يريد صلب الرجل وترائب المرأة وهو موضع قلادتها وهذا قول الكلبي ومقاتل وسفيان وجمهور أهل التفسير وهو المطابق لهذه الأحاديث وبذلك أجرى الله العادة في أيجاد ما يوجده من بين أصلين كالحيوان والنبات وغيرهما من المخلوقات فالحيوان ينعقد من ماء الذكر وماء

الأنثى كما ينعقد النبات من الماء والتراب والهواء ولهذا قال الله تعالى بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة الأنعام 1 : 1 فإن الولد لا يتكون إلا من بين الذكر وصاحبته ولا ينتقض هذا بآدم وحواء أبوينا ولا بالمسيح فإن الله سبحانه مزج تراب آدم بالماء حتى صار طينا ثم أرسل عليه الهواء والشمس حتى صار كالفخار ثم نفخ فيه الروح وكانت حواء مستلة منه وجزءا من أجزائه والمسيح خلق من ماء مريم ونفخة الملك وكانت النفخة له كالأب لغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تحفة المودود صـ 194.195 ﴾

(90/811)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا يحرك السامع غاية التحريك لأن يقول : معتى تكون رجعه له ؟ قال مجيباً له :

﴿ يوم تبلى ﴾ وبناه للمفعول إشارة مع التنبيه على السهولة إلى أن من الأمر البين غاية البيان

أن الذي يبلوها هو الذي يرجعها ، وهو الله سبحانه وتعالى من غير احتياج إلى ذكره ﴿ السرائر ﴾ أي كل ما انطوت عليه الصدور من العقائد والنيات ، وأخفته الجوارح من الإخلال بالوضوء والغسل ونحو ذلك من جميع الجنايات ، بأن تخالط السرائر في ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة ، من الأمور الهائلة ما يميلها فيحيلها عما هي عليه فتعود جهراً بعد أن كانت سراً ، فيميز طيبها من خبيثها ويجازى عليه صاحبه .

ولما كان المانع من جزائه عند إظهار سرائره إما هو نفسه أو أحد ينصره ، قال مسبباً عن إظهار ما يجتهد في إخفائه : ﴿ فما له ﴾ أي الإنسان الذي أخرجت سرائره ، وأعرق في التعميم والنفي فقال : ﴿ من قوة ﴾ أي يمنع بها نفسه من الجزاء ﴿ ولا ناصر ﴾ أي ينصره فيمنعه من نفوذ الحكم فيه .

وليس الدفع إلا بهذين الأمرين : قوة قائمة به أو قوة خارجة عنه .

(91/811)

ولما اشتملت هذه الجمل على وجازتها على الذروة العليا من البلاغة في إثبات البعث والجزاء والوحدانية له سبحانه وتعالى إلى غير ذلك من بحور العلوم ، فثبت أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، فثبت أن كل ما فيه حق مع منازعتهم في ذلك كله ، اقتضى الحال

الإقسام على حقيته فقال : ﴿ والسماء ﴾ أي التي كان المطلع الإقسام بها ووصفها بما يؤكد العلم بالعبث الذي الذي هو منبع العلوم والتقوى فعليه مدار السعادة فقال : ﴿ ذات الرجع ﴾ التي ترجع بالدوران إلى الموضع الذي ابتدأت الدوران منه فترجع الأحوال التي كانت وتصرمت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول من الشتاء وما فيه من برد ومطر ، والصيف وما فيه من حر وصفاء وسكون وغير ذلك والنبات بعد تهشمه وصيرورته تراباً مختلطاً بتراب الأرض وترجع الماء على قول من يقول : إن السحاب يأخذه من البحر ويعلو به فيعصره في الهواء ثم يرده إلى الأرض – وغير ذلك من الأمور الدال كل منها قطعاً على أن فاعل ذلك قادر على إعادة كل ما فني كما كان من غير فرق أصلاً .

ولما ذكر الأمر العلوي بادئاً به لشرفه ، أتبعه السفلي فقال تعالى : ﴿ والأرض ﴾ أي مسكنكم الذي أنتم ملابسوه ومعانوه كل وقت وملامسوه ﴿ ذات الصدع ﴾ أي التي تتصدع وتنشق فيخرج منها النبات والعيون بدءاً وإعادة دلالة ظاهرة على البعث ، فجمع بالقسم العالم العلوي الذي هو كالرجل والسفلي الذي هو كالمرأة ، فكما أن الرجل يسقيها من مائه فتصدع عن الولد ، فكذلك السماء تسقي الأرض فتتصدع عن النبات وكما أنها تتصدع عن النبات بعد فنائه وصيرورته رفاتاً فيعود كما كان فكذلك تتصدع عن الناس بعد فنائهم فيعودون كما كانوا بإذن ربها من غير فرق أصلاً .

ولما كانت هذه كلها براهين قاطعة ودلائل باهرة ساطعة على حقية القرآن وإتيانه بأعلى البيان ، فكان من المستبعد جداً طعنهم في القرآن بعد هذا البيان ، قال تعالى منبهاً على ذلك بالتأكيد معبراً بالضمير إشارة لما مضى إلى أنه المحدث عنه الآن ، فهو الثابت في جميع الأذهان لا غيبة له عن شيء منها أصلاً ﴿ إنه ﴾ أي القرآن الذي أخبر بهذه الإخبارات التي هي في غاية الوضوح وتقدم أنه مجيد وفي لوح محفوظ ، وأن الكفرة في تكذيب به ولا سيما ما تضمن منه الإخبار بالبعث : ﴿ لقول فصل ﴾ أي جداً يراد به فصل الأمور ، وله من العراقة في الفرق بين الحق والباطل ما صار به يطلق عليه نفس الفصل ، ثم أكد الأمر لشدة إنكارهم وجحدهم وتغطيتهم الحق بالباطل فقال : ﴿ وما هو ﴾ أي القرآن في باطنه ولا ظاهره ﴿ بالهزل ﴾ أي بالضعيف المرذول الذي لا طائل تحته ، فمن حقه ما هو عليه الآن من كونه مهيباً في القلوب معظماً في الصدور يرتفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل ويعلم به في أعين العامة والخاصة .

ولما كان ثبات هذا على هذا الوجه مقتضياً ولا بد رجوعهم عن العناد ، فكان ذلك محركاً للسامع إلى تعرف ما كان من أمرهم ، استأنف قوله دلالة على بقائهم على الإنكار وأكده تنبيهاً على أن بقاءهم على العناد – مع هذا مستبعد جداً ﴿ إنهم ﴾ أي الكفار ﴿ يكيدون ﴾ أي بما يعملون في أمره من الحيل ﴿ كيداً ﴾ في إبطاله وإطفاء نوره بإثباتك

أو إخراجك أو قتلك أو تنفير الناس عنك والحال أنه لا قوة لهم أصلاً على ذلك ولا ناصر لهم بوجه من الوجوه وسمي جزاؤه لهم سبحانه كيداً مشاكلة ، ولأنه خفي عنهم ومكروه إليهم فهو على صورة الكيد فقال : ﴿ وأكيد ﴾ أي أنا بإتمام اقتداري ﴿ كيداً ﴾ باستدراجي لهم إلى توغلهم فيما يغضبني ليكمل ما يوجب أخذي لهم من حيث لا يشعرون .

ولما كان هذا معلماً بأنهم عدم لا اعتبار بهم ، قال مسبباً عنه تهديداً لهم يا له من تهديد ما أصعبه : ﴿ فمهل ﴾ أي تمهيلاً عظيماً بالتدريج .

(93/811)

ولما كان في المكذبين في علم الله من يؤمن فليس مستحقاً لإيقاع مثل هذا التهديد ، عبر بالوصف المقتضي للرسوخ فقال : ﴿ الكافرين ﴾ أي فلا تدع عليهم ولا تستعجل لهم بالإهلاك ، فإنا لا نعجل لأنه لا يعجل بالعقوبة إلا من يخاف الفوت ، حكي أن الحجاج كان سجنه من رخام وأرضه من رصاص ، فكان يتلون بتلون الأوقات ، فوقت الحر جهنم ، ووقت البرد زمهرير ، فمر به يوماً فاستغاثوا فطأطأ رأسه لهم وقال : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ، فأخذت الأرض قوائم جواده فرفع طرفه إلى السماء وقال : سبحانك لا يعجل

بالعقوبة إلا من يخاف الفوت ، وانطلق من وقته ، فإن العجلة – وهي – إيقاع الشيء في غير وقته الأليق به – نقص فإنه لا يعجل إلا من يكون ما يفعل المستعجل عليه خارجاً عن قبضته .

(94/811)

ولما كانت صيغة التفعيل ربما أفهمت التطويل ، أكد ذلك مجرداً للفعل دلالة على أن المراد بالأول إيقاع الإمهال مع أن زمنه قصير بالتدريج ليطمئن الممهل بذلك وتصير له به قوة عظيمة ودرته ؟ وعزيمة صادقة لأن ما يقولونه مما تشتد كراهة النفوس له ، فلا يقدر أحد على الإعراض عنه إلا بمعونة عظيمة : ﴿ أمهلهم ﴾ أي بالإعراض عنهم مرة واحدة بعد التدريج لما صار لك على حمله من القوة بالتدريج – الذي أمرت به سابقاً ﴿ رويداً ﴾ أي إمهالاً يسيراً فستكون عن قريب لهم أمور ، وأي أمور تشفي الصدور ، وهو تصغير " ارواداً " تصغير ترخيم ، قال ابن برجان : وهي كلمة تعطي الرفق ، وهذا الآخر هو المراد بما في أولها من أن كلاًّ منهم ومن غيرهم محفوظ بحفظه مضبوطة أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وأحواله ، فإن ذلك مستلزم لأنه في القبضة ، فقد التقى الطرفان على أعظم شأن بأبين برهان ، ووقع أول هذا الوعيد يوم بدر ثم تولى نكالهم وتحقيرهم وإسفالهم إلى أن

ذهب كثير منهم بالسيف وكثير منهم بالموت حتف الأنف إلى النار ، وبقي الباقون في الصغار إلى أن أعزهم الله بعز الإسلام ، وصاروا من الأكابر الأعلام ، تشريفاً وتكريماً وتعظيماً لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام ، والله تعالى هو أعلم بالصواب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 390 . 392 ﴾

(95/811)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه سبحانه لما أقام الدليل على صحة القول بالبعث والقيامة ، وصف حاله في ذلك اليوم فقال :

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب برجعه ومن جعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو إلى الحالة الأولى نصب الظرف بقوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ﴾ أي ماله من

قوة ذلك اليوم .

المسألة الثانية :

﴿ تبلى ﴾ أي تختبر ، والسرائر ما أسر في القلوب من العقائد والنيات ، وما أخفى من الأعمال ، وفي كيفية الابتلاء والاختبار ههنا أقوال :

الأول : ما ذكره القفال معنى الاختبار ههنا أن أعمال الإنسان يوم القيامة تعرض عليه وينظر أيضاً في الصحيفة التي كتبت الملائكة فيها تفاصيل أعمالهم ليعلم أن المذكور هل هو مطابق للمكتوب ، ولما كانت المحاسبة يوم القيامة واقعة على هذا الوجه جاز أن يسمى هذا المعنى ابتلاء ، وهذه التسمية غير بعيدة لعباده لأنها ابتلاء وامتحان ، وإن كان عالماً بتفاصيل ما عملوه وما لم يعملوه .

والوجه الثاني : أن الأفعال إنما يستحق عليها الثواب والعقاب لوجوهها ، فرب فعل يكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً ، وربما كان بالعكس .

فاختبارها ما يعتبر بين تلك الوجوه المتعارضة من المعارضة والترجيح ، حتى يظهر أن الوجه الراجح ما هو ، والمرجوح ما هو .

الثالث : قال أبو مسلم : بلوت يقع على إظهار الشيء ويقع على امتحانه كقوله : ﴿ وَنَبْلُوَ أخباركم ﴾ [محمد : 31] وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ [البقرة : 155] ثم قال المفسرون : ﴿ السرائر ﴾ التي تكون بين الله وبين العبد تختبر يوم القيامة حتى يظهر خبرها من سرها

ومؤديها من مضيعها ، وهذا معنى قول ابن عمر رضي الله عنهما : يبدي الله يوم القيامة كل سر منها ، فيكون ذيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه ، يعني من أداها كان وجهه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه أغبر .

(96/811)

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أنه لا قوة للعبد ذلك اليوم ، لأن قوة الإنسان إما أن تكون له لذاته أو مستفادة من غيره ، فالأول منفي بقوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ ﴾ والثاني منفي بقوله : ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ والمعنى ماله من قوة يدفع بها عن نفسه ما حل من العذاب ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ ينصره في دفعه ولا شك أنه زجر وتحذير ، ومعنى دخول من في قوله : ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ على وجه النفي لقليل ذلك وكثيره ، كأنه قيل : ماله من شيء من القوة ولا أحد من الأنصار .

المسألة الرابعة :

يمكن أن يتمسك بهذه الآية في نفي الشفاعة ، كقوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : 48] ، الجواب : ما تقدم .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما فرغ من دليل التوحيد ، والمعاد أقسم قسماً آخر ، أما قوله : ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ فنقول : قال الزجاج الرجع المطر لأنه يجيء ويتكرر .

(97/811)

واعلم أن كلام الزجاج وسائر أئمة اللغة صريح في أن الرجع ليس اسماً موضوعاً للمطر بل سمي رجعاً على سبيل المجاز ، ولحسن هذا المجاز وجوه أحدها : قال القفال : كأنه من ترجيع الصوت وهو إعادته ووصل الحروف به ، فكذا المطر لكونه عائداً مرة بعد أخرى سمي رجعاً وثانيها : أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض وثالثها : أنهم أرادوا التفاؤل فسموه رجعاً ليرجع ورابعها : أن المطر يرجع في كل عام ، إذا عرفت هذا فنقول للمفسرين أقوال : أحدها : قال ابن عباس : ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ أي ذات المطر يرجع لمطر بعد مطر وثانيها : رجع السماء إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعاً ، أي تعطيه مرة بعد مرة وثالثها : قال ابن زيد : هو أنها ترد وترجع شمسها وقمرها بعد مغيبهما ، والقول هو الأول ، أما قوله تعالى : ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ فاعلم أن الصدع هو الشق ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] أي يتفرقون وللمفسرين أقوال قال

ابن عباس : تنشق عن النبات والأشجار ، وقال مجاهد : هو الجبلان بينهما شق وطريق نافذ .

كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً ﴾ [الأنبياء : 31] وقال الليث : الصدع نبات الأرض ، لأنه يصدع الأرض فتنصدع به ، وعلى هذا سمي النبات صدعاً لأنه صادع للأرض ، واعلم أنه سبحانه كما جعل ، كيفية خلقة الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد ، ذكر في هذا القسم كيفية خلقة النبات ، فالسماء ذات الرجع كالأب ، والأرض ذات الصدع كالأم وكلاهما من النعم العظام لأن نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء من المطر متكرراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك ، ثم إنه تعالى أردف هذا القسم بالمقسم عليه فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في هذا الضمير قولان :

الأول : ما قال القفال وهو : أن المعنى أن ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم في اليوم الذي تبلى فيه سرائركم قول فصل وحق .

والثاني : أنه عائد إلى القرآن أي القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل : له فرقان ، والأول أولى لأن عود الضمير إلى المذكور السالف أولى .

المسألة الثانية :

﴿ قَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أي حكم ينفصل به الحق عن الباطل ، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم ، ويقال : هذا فصل أي قاطع للمراء والنزاع ، وقال بعض المفسرين : معناه أنه جد حق لقوله : ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ أي باللعب ، والمعنى أن القرآن أنزل بالجد ، ولم ينزل باللعب ، ثم قال : ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ والمعنى أن البيان الفصل قد يذكر على سبيل الجد والاهتمام بشأنه وقد يكون على غير سبيل الجد وهذا الموضع من ذلك ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ وذلك الكيد على وجوه .

منها بإلقاء الشبهات كقولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [الأنعام : 29] ﴿ مَن يُحيِ العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [ياس : 78] ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5] ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ﴿ فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : 5] ومنها بالطعن فيه بكونه ساحراً وشاعراً ومجنوناً ، ومنها بقصد قتله على ما قاله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ [الأنفال : 30] ثم قال : ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ .

واعلم أن الكيد في حق الله تعالى محمول على وجوه : أحدها : دفعه تعالى كيد الكفرة عن

محمد عليه الصلاة والسلام ويقابل ذلك الكيد بنصرته وإعلاء دينه تسمية لأحد المتقابلين باسم كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] وقال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا . . فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(99/811)

وكقوله تعالى : ﴿ نَسُواْ اللهَ فأنساهم أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : 19] ﴿ يخادعون اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] وثانيها : أن كيده تعالى بهم هو إمهاله إياهم على كفرهم حتى يأخذهم على غرة ، ثم قال : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ أي لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل ، ثم إنه تعالى لما أمره بإمهالهم بين أن ذلك الإمهال المأمور به قليل ، فقال : ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين من الرسول عليه الصلاة والسلام والتصبر وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو عبيدة : إن تكبير رويد رود ، وأنشد :

يمشي ولا تكلم البطحاء مشيته . . كأنه ثمل يمشي على ورد

أي على مهلة ورفق وتؤدة ، وذكر أبو علي في باب أسماء الأفعال رويداً زيداً يريد أرود زيداً

، ومعناه أمهله وارفق به ، قال النحويون : رويد في كلام العرب على ثلاثة أوجه أحدها : أن يكون اسماً للأمر كقولك : رويد زيداً تريد أرود زيد أي خله ودعه وأرفق به ولا تنصرف رويد في هذا الوجه لأنها غير متمكنة والثاني : أن يكون بمنزلة سائر المصادر فيضاف إلى ما بعده كما تضاف المصادر تقول : رويد زيد ، كما تقول : ضرب زيد قال تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] ، والثالث : أن يكون نعتاً منصوباً كقولك : ساروا سيراً رويداً ، ويقولون أيضاً : ساروا رويداً ، يحذفون المنعوت ويقيمون رويداً مقامه كما يفعلون بسائر النعوت المتمكنة ، ومن ذلك قول العرب : ضعه رويداً أي وضعاً رويداً ، وتقول للرجل : يعالج الشيء الشيء رويداً ، أي علاجاً رويداً ، ويجوز في هذا الوجه أمران أحدهما : أن يكون رويداً حالاً والثاني : أن يكون نعتاً فإن أظهرت المنعوت لم يجز أن يكون للحال ، والذي في الآية هو ما ذكرنا في الوجه الثالث ، لأنه يجوز أن يكون نعتاً للمصدر كأنه قيل : إمهالاً رويداً ، ويجوز أن يكون للحال أي أمهلهم غير مستعجل .

المسألة الثانية :

منهم من قال : أمهلهم رويداً إلى يوم القيامة وإنما صغر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب ، ومنهم من قال : أمهلهم رويداً إلى يوم بدر والأول أولى ، لأن الذي جرى يوم بدر وفي سائر الغزوات لا يعم الكل ، وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل ، ولا يمتنع مع ذلك أن يدخل في جملته أمر الدنيا ، مما نالهم يوم بدر وغيره ، وكل ذلك زجر وتحذير للقوم ، وكما أنه تحذير لهم فهو ترغيب في خلاف طريقهم في الطاعات ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 122 ﴾

(101/811)

وقال ابن عطية :

﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾

و﴿ تبلى السرائر ﴾ معناه : تختبر وتكشف بواطنها ، وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن ﴿ السرائر ﴾ التي يبتليها الله تعالى من العباد : التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)

﴿ السماء ﴾ في هذا القسم يحتمل أن تكون المعرفة ، ويحتمل أن تكون السحاب ، و ﴿ الرجع ﴾ المطر وماؤه ، ومنه قول الهذلي : [السريع]

أبيض كالرجع وسوب إذا . . . ما شاخ من محتفل يختلي

(102/811)

وقال ابن عباس : ﴿ الرجع ﴾ ، السحاب فيه المطر ، قال الحسن : لأنه يرجع بالرزق كل عام ، قال غيره لأنه يرجع إلى الإرض ، وقال ابن زيد : ﴿ الرجع ﴾ مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ، ومنه منزلة تذهب وترجع ، و ﴿ الصدع ﴾ : النبات ، لأن الأرض تتصدع عنه ، وهذا قول من قال : إن ﴿ الرجع ﴾ المطر ، وقال مجاهد : ﴿ الصدع ﴾ : ما في الأرض من شعاب ولصاب وخندق وتشقق بحرث وغيره ، وهي أمور فيها معتبر ، وهذا قول يناسب القول الثاني في ﴿ الرجع ﴾ ، والضمير في ﴿ إنه ﴾ للقرآن ولم يتقدم له ذكر ، من حيث القول في جزء منه والحال تقتضيه ، و ﴿ فصل ﴾ : معناه جزم فصل الحائق من الأباطيل ، و " الهزل " : اللعب الباطل ، ثم أخبر تعالى عن قريش ﴿ إنهم يكيدون ﴾ في أفعالهم وأقوالهم وتمرسهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وتدبرهم رد أمره ، ثم قوى ذلك بالمصدر وأكده وأخبر عن أنه يفعل بهم عقاباً سماه ﴿

كيداً ﴾ على العرف في تسمية العقوبة باسم الذنب ، ثم ظهر من قوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أن عقابه لهم الذي سماه : ﴿ كيداً ﴾ ، متأخر حتى ظهر ببدر وغيره ، وقرأ جمهور الناس : " أمهلهم " ، وقرأ ابن عباس : " مهلهم " ، وفي هذه الآية موادعة نسختها آية السيف ، وقوله تعالى : ﴿ رويداً ﴾ معناه : قليلاً ، قاله قتادة ، وهذه حال هذه اللفظة إذا تقدمها شيء تصفه كقولك سر رويداً وتقدمها فعل يعمل فيها كهذه الآية ، وأما إذا ابتدأت بها فقلت : رويداً يا فلان ، فهي بمعنى الأمر بالتماهل يجري مجرى قولهم : صبراً يا زيد ، وقليلاً عمرو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(103/811)

وقال القرطبى :

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : العامل في "يومَ" في قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان قوله : "لقادر" ، ولا يعمل فيه "رَجْعِه" لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر "إنّ" .

وعلى الأقوال الأُخر التي في "إنه على رجْعِه لقادِر" ، يكون العامل في "يومَ" فعل مضمر ، ولا

يعمل فيه "لقادر" ؛ لأن المراد في الدنيا .

و﴿ تبلى ﴾ أي تمتحن وتختبر ؛ وقال أبو الغُول الطُّهَوِيّ :

ولا تَبْلَى بَسالَتُهُمْ وإنْ هُمْ . . .

صَلُوا بالحَرْب حِيناً بعدَ حِينِ

ويروى "تبلى بَسالتُهم" .

فمن رواه "تُبلى" بضم التاء جعله من الاختبار ؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة ؛ كأنه قال : لا يُعرف لهم فيها كراهة .

و"تَبْلى" تُعْرَف .

قال الراجز :

قد كنتَ قبلَ اليوم تَزْدَرِيني . . .

فاليومَ أَبلُوكَ وتَبْتَلِيني

أي أعرفك وتعرفني .

ومن رواه "تَبْلَى" بفتح التاء فالمعنى : أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زماناً بعد زمان .

وذلك أن الأمور الشِّداد إذا تكررت على الإنسان هَدّته وأضعفته .

وقيل : "تُبْلَى السرائر" : أي تخرج مخبآتها وتظهر ، وهو كل ما كان استسره الإنسان من

خير أو شر ، وأضمره من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأحوص :

سيبقى لها في مُضْمَر القلب والحَشَا . . .

سريرةُ ودّ يوم تُبْلَى السَّرائرُ

الثانية : رُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اِئتمن الله تعالى خلقه على أربع : على الصلاة ، والصوم ، والزكاة والغُسل ، وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة " ذكره المهدويّ .

وقال ابن عُمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حقاً ، ومن اختانهنّ فهو عدوّ الله حقاً : الصلاة ، والصوم ، والغُسل من الجنابة " ذكره الثعلبيّ .

(104/811)

وذكر الماوَرْدِيّ عن زيد بن أسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأمانة ثلاث : الصلاة ، والصوم ، والجنابة .

استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة ، فإن شاء قال صليت ولم يصل .

استأمن الله عز وجل ابن آدم على الصوم ، فإن شاء قال صمت ولم يصم .

استأمن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة ، فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل ، اقرؤوا إن

شئتم ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ " وذكره الثعلبي عن عطاء .

وقال مالك في رواية أشهب عنه ، وسألته عن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ : أبْلغك أن الوضوء من السرائر ؟ قال : قد بلغني ذلك فيما يقول الناس ، فأما حديث أُحدّث به فلا .

والصلاة من السرائر ، والصيام من السرائر ، إن شاء قال صليت ولم يصل .

ومن السرائر ما في القلوب ؛ يجزي الله به العباد .

قال ابن العربيّ : "قال ابن مسعود : يُغفر للشهيد إلا الأمانة ، والوضوء من الأمانة ، والصلاة والزكاة من الأمانة ، والوديعة من الأمانة ؛ وأشدّ ذلك الوديعة ؛ تُمَثّل له على هيئتها يوم أخذها ، فيرمى بها في قعر جهنم ، فيقال له : أخرجها ، فيتبعها فيجعلها في عنقه ، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه ، فيتبعها ؛ فهو كذلك دَهْرَ الداهرين .

وقال أبيّ بن كعب : من الأمانة أن ائتُمنتِ المرأة على فرجها .

قال أشهب : قال لي سفيان : في الحَيضة والحمل ، إن قالت لم أحِض وأنا حامل صُدّقت ، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة .

وفي الحديث : " غُسل الجنابة من الأمانة " وقال ابن عُمر : يُبدِي الله يوم القيامة كل سر خفيّ ، فيكون زيناً في الوجوه ، وشيناً في الوجوه .

والله عالم بكل شيء ، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين .

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أي للإنسان ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ أي مَنْعة تمنعه .

﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ينصره مما نزل به .

(105/811)

وعن عِكرمة ﴿ فما له مِن قوّةٍ ولا ناصِرٍ ﴾ قال : هؤلاء الملوك ، ما لهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر .

وقال سفيان : القوّة : العَشِيرة .

والناصر : الحِليف .

وقيل : "فما له من قوّةٍ" في بدنه .

"ولا ناصِرٍ" من غيره يمتنع به من الله .

وهو معنى قول قتادة .

قوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع ﴾

أي ذات المطر .

ترجِع كل سنة بمطر بعد مطر .

كذا قال عامة المفسرين .

وقال أهل اللغة : الرجْع : المطر ، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصف سيفاً شبهه بالماء :

أبيضُ كالرجْعِ رَسُوبٌ إذا . . .

ما ثاخ في مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي

ثاخت قدمه في الوحل تثوخ وتثيخ : خاضت وغابت فيه ؛ قاله الجوهري .

قال الخليل : الرجع : المطر نفسه ، والرجع أيضاً : نبات الربيع .

وقيل : ﴿ ذَاتِ الرجع ﴾ : أي ذات النفع .

وقد يُسمى المطر أيضاً أَوْباً ، كما يسمى رَجْعاً ، قال :

رَبَّاء شَمَّاءُ لا يأوِي لقُلَتِها . . .

إلا السحابُ وإلا الأَوبُ والسَّبَلُ

وقال عبد الرحمن بن زيد : الشمس والقمر والنجوم يَرْجعن في السماء ؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى .

وقيل : ذات الملائكة ؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد .

وهذا قَسَم .

﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ قَسَم آخر ؛ أي تتصدّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار ؛ نظيره ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ﴾ [عبس : 26] . . .

الآية .

والصدع : بمعنى الشَّق ؛ لأنه يصدع الأرض ، فتنصدع به .

وكأنه قال : والأرض ذات النبات ؛ لأن النبات صادع للأرض .

وقال مجاهد : والأرض ذات الطُّرُق التي تَصْدَعها المشاة .

وقيل : ذاتِ الحَرْث ، لأنه يصدعها .

وقيل : ذاتِ الأموات : لانصداعها عنهم للنشور .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ على هذا وقع القَسَم .

أي إن القرآن يَفْصل بين الحق والباطل .

(106/811)

وقد تقدّم في مقدمة الكتاب ما رواه الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كتاب فيه خَبَر ما قبلكم وحُكْم ما بعدكم ، هو الفَصْل ، ليس بالهزل ، من تركه من جَبَّار قَصَمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله" وقيل : المراد بالقول الفصل : ما تقدم من الوعيد في هذه السورة ، من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ .

﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ أي ليس القرآن بالباطل واللعب .

والهزل : ضدّ الجِدّ ، وقد هَزَلَ يَهْزِل .

قال الكميت :

يُجَدّ بنا في كلِّ يومٍ ونَهْزِل . . .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي إن أعداء الله ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مَكراً .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم .

وقيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدرٍ من القتل والأَسر .

وقيل : كَيْد الله : استدراجُهم من حيث لا يعلمون .

وقد مضى هذا المعنى في أوّل "البقرة" ، عند قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] .

مستوفىً .

قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾

أي أخرهم ، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم ، وارضَ بما يدبره في أمورهم .

ثم نسخت بآية السيف ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] .

﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ تأكيد .

ومَهْل وأمهِل : بمعنى ؛ مثل نَزّل وأَنْزل .

وأمهله : أنظره ، ومهله تمهيلاً ، والاسم : المُهْلَة .

والاستمهال : الاستنظار .

وتَمهَّل في أمره أي اتّأد .

واتْمَهَلْ اتمِهْلالا : أي اعتدل وانتصب .

والاتْمِهلال أيضاً : سكون وفتور .

ويقال : مهلاً يا فلان ؛ أي رِفقاً وسكوناً .

﴿ رُوَيْداً ﴾ أي قريباً ؛ عن ابن عباس .

قتادة : قليلاً .

والتقدير : أمهلهم إمهالاً قليلاً .

والرُّوَيْد في كلام العرب : تصغير رُوْد .

وكذا قاله أبو عبيد .

وأنشد :

كأَنَّهَا ثَمِلٌ يمشِي على رُودِ . . .

أي على مَهَل .

وتفسير "رُوَيداً" : مَهْلاً ، وتفسير (رُوَيْدَكَ) : أمهِل ؛ لأن الكاف إنما تَدْخله إذا كان بمعنى أفعِل دون غيره ، وإنما حرّكت الدال لالتقاء الساكنين ، فنُصِب نصب المصادر ، وهو مصغر مأمور به ؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد ؛ وهو مصدر أَرْوَدَ يُرْوِد .

وله أربعة أوجه : اسمٌ للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر ؛ فالاسم نحو قولك : رُوَيْدَ عَمْراً ؛ أي أرودِ عمرا ، بمعنى أمهِله .

والصفة نحو قولك : ساروا سيراً رُوَيْدًا .

والحال نحو قولك : سار القوم رُوَيْداً ؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها .

والمصدر نحو قولك : رُوَيْدَ عَمرٍو بالإضافة ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] .

قال جميعه الجوهريّ : والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر ؛ أي إمهالاً رُوَيداً .

ويجوز أن يكون للحال ؛ أي أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب .

ختمت السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(108/811)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والسماء والطارق ﴾

الطارقُ في الأصلِ اسمُ فاعلٍ منْ طرقَ طَرْقاً وطروقاً إذَا جاءَ ليلاً قالَ المَاوِرْدِيُّ : " وأصلُ الطرقِ الدقُّ ومنه سميتِ المطرقةُ وإنما سميَ قاصدُ الليلِ طارقاً لاحتياجه إلى طرقِ البابِ غالباً " ثم اتُّسعَ في كلِّ ما ظهرَ بالليلِ كائناً ما كانَ ثم أشبعَ في التوسعِ حتى أطلقَ على الصورِ الخياليةِ البادية بالليلِ قال :

طرقَ الخيالُ ولا كليلةِ مدلجٍ . . . سدكاً بأرجلنَا ولم يتبرجِ

(109/811)

والمرادُ ههنا الكوكبُ البادِي بالليلِ أما عَلى أنَّه اسمُ جنسٍ أو كوكبٌ معهودٌ وقيلَ : الطارقُ النجمُ الذي يقالُ له كوكبُ الصبحِ وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق ﴾ تنويهٌ بشأنِه إثرَ تفخيمِه بالإقسامِ به وتنبيهٌ على أنَّ رفعةَ قدرِه بحيثُ لا ينالُها إدراكُ الخلقِ فلابُدَّ من تلقِّيها من الخلاَّقِ العليمِ فما الأُولى مبتدأٌ وأدراكَ خبرٌ ، والثانيةُ خبرٌ والطارقُ مبتدأٌ حسبما بينَ في نظائرِه أيْ وأيُّ شيءٍ أعلمكَ ما الطارقُ وقولُه تعالى : ﴿ النجم الثاقب ﴾

خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ والجملةُ استئنافٌ وقعَ جواباً عن استفهامٍ نشأَ مما قبلَه كأنَّه قيلَ : ما هو فقيلَ النجمُ المضيءُ في الغايةِ كأنه يثقبُ الظلامُ أو الأفلاكُ بضوئِه وينفذُ فيها والمرادُ بهِ إما الجنسُ فإنَّ لكلِّ كوكبٍ ضوءاً ثاقباً لا محالةَ وإما كوكبٌ معهودٌ قيلَ هو زُحَلُ وقيلَ : هو الثُّرَيَّا وقيلَ : هو الجَديُ وقيل : النجمُ الثاقبُ نجمٌ في السماءِ السابعةِ لا يسكنُها غيرُه فإذا أخذتِ النجومُ أمكنتَها من السماءِ هبط فكانَ معها ثم يرجعُ إلى مكانِه من السماءِ السابعةِ وهو زُحل فهو طارقٌ حينَ ينزلُ وحينَ يصعدُ وفي إيرادِه عندَ الإقسامِ به بوصفٍ مشتركٍ بينه وبين غيرِه ثم الإشارةِ إلى أنَّ ذلكَ الوصفَ غيرُ كاشفٍ عن كنهِ أمرِه وأن ذلكَ مما لا تبلغُه أفكارُ الخلائقِ ثم تفسيرِه بالنجمِ الثاقبِ من تفخيمِ شأنِه وإجلالِ محلِّه بما لا يَخْفى .

(110/811)

وقولُه تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ جوابٌ للقسمِ وما بينهما اعتراضٌ جيءَ بهِ لما ذكرَ من تأكيدِ فخامةِ المقسمِ بهِ المستتبعِ لتأكيدِ مضمونِ الجملةِ المقسمِ عليها ، وإنْ نافيةٌ ، ولَمَّا بمَعْنى إلاَّ ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظٌ مهيمنٌ رقيبٌ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾ وقيلَ : هو من يحفظُ عملَها ويُحصي عليها ما تكسبُ من خيرٍ وشرٍ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِراماً ﴾

الآيةَ وقولُه تعالى : ﴿ ويُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ﴾ وقُرِىءَ لَمَا مخففةٌ على أنَّ إنْ مخففةٌ من الثقيلةِ واسمُها الذي هُو ضميرُ الشأنِ محذوفٌ واللامُ هي الفارقةُ وما مزيدةٌ أي أنَّ الشأنَ كلُّ نفسٍ لعليها حافظٌ والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ للتنبيهِ على أنَّ مَا بُينَ مِنْ أن كلَّ نفسٍ عليها حافظٌ يُحصي عليها كلَّ ما يصدرُ عنها من قولٍ وفعلٍ مستوجبٌ على الإنسانِ أنْ يتفكرَ في مبدأِ فطرتِه حقَّ التفكيرِ حتى يتضح له أن من قدر على إنشائه من موادّ لم تشمّ رائحة الحياة قط فهو قادرٌ على إعادتِه بل أقدرُ على قياسِ العقلِ فيعملَ ليومِ الإعادةِ والجزاءِ ما ينفعُه يومئذٍ ويجديهِ ولا يملى على حافظِه ما يرديهِ .

(111/811)

وقولُه تعالى ﴿ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عن استفهامٍ مقدرٍ كأنه قيلَ ممَّ خلقَ فقيلَ : خلقَ من ماءٍ ذِي دفقٍ وهو صبٌّ فيه دفعٌ وسيلانٌ بسرعةٍ والمرادُ بهِ الممتزجُ من الماءينِ في الرحمِ كما ينبىءُ عنه قولُه تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ أي صلبِ الرجلِ وترائبِ المرأةِ وهي عظامُ صدرِها قالوا إن النطفةَ تتولدُ من فضلِ الهضمِ الرابعِ وتنفصلُ عن جميعِ الأعضاءِ حتى تستعدَّ لأنْ يتولدَ منها مثلُ تلك الأعضاءِ ومقرُّها

عروقٌ ملتفٌ بعضُها بالبعضِ عند البيضتينِ فالدماغُ أعظمُ الأعضاءِ معونةً في توليدِها ولذلك تشبهُه ويورثُ الإفراطُ في الجماعِ الضعفَ فيهِ وله خليفه هو النخاعُ وهو في الصلبِ وشعبٌ كثيرةٌ نازلة إلى الترائبِ وهما أقربُ إلى أوعيةِ المنيّ فلذلك خُصَّا بالذكرِ وقُرِئَ الصَّلَبِ بفتحتينِ والصُّلُبِ بضمتينِ وفيه لغةٌ رابعةٌ هي صالبُ .

﴿ أَنَّهُ ﴾ الضميرُ للخالقِ تعالى فإنَّ قولَه خُلِقَ يدلُّ عليهِ أيْ أنَّ ذلكَ الذي خلقَهُ إبتداءً مما ذكرَ ﴿ على رَجْعِهِ ﴾ أي على إعادتِه بعد موتِه ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ لبينُ القدرة ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ أي يُتعرفُ ويُتصفحُ ما أُسرَّ في القلوبِ من العقائدِ والنياتِ وغيرها وما أُخفي من الأعمالِ ويُميزُ بين ما طابَ منها وما خبُثَ وهو ظرفٌ لرجعِه .

﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أي للإنسانِ ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ في نفسِه يمتنعُ بها ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ ينتصرُ به ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ أي المطرِ سميَ رَجْعاً لما أن العربَ كانوا يزعمونَ أن السحابَ يحملُ الماءَ من بحارِ الأرضِ ثم يرجعُه إلى الأرضِ أو أرادُوا بذلكَ التفاؤلَ ليرجعَ ولذلك سمَّوه أوباً أو لأنَّ الله تعالى يرجعُه حيناً فحيناً .

(112/811)

﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ هو ما تتصدعُ عنه الأرضُ من النباتِ أو مصدرٌ من المبنيِّ للمفعولِ وهو تشققُها بالنباتِ لا بالعيونِ كما قيلَ ، فإن وصفَ السماءِ والأرض عند الإقسامِ بهما على حقية القرآنِ الناطقِ بالبعثِ بما ذكرَ من الوصفينِ للإيماءِ إلى أنَّهما في أنفسِهما من شواهدِه وهو السرُّ في التعبيرِ بالصدعِ عنه وعن المطرِ بالرجعِ وذلك في تشقق الأرضِ بالنباتِ المحاكِي للنشورِ حسبما ذكرَ في مواقعِ من التنزيلِ لا في تشققِها بالعيونِ ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي القرآنَ الذي من جُملته ما تُلي من الآياتِ الناطقةِ بمبدأِ الإنسانِ ومعادِه ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أي فاصلٌ بين الحقِّ والباطلِ مبالغٌ في ذلك كأنه نفسُ الفصلِ ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ ليس في شيءٍ منه شائبةُ هزلٍ بل كله جدٌّ محضٌ لا هوادةَ فيه فمن حقِّه أن يهتديَ به الغواةُ وتخضعَ له رقابُ العتاةِ ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي أهلَ مكةَ ﴿ يَكِيدُونَ ﴾ في إبطالِ أمرِه وإطفاءِ نورِه ﴿ كَيْداً ﴾ حسبما نفى به قدرتَهم ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ أي أقابلهُم بكيدٍ متينٍ لا يمكنُ ردُّه حيثُ أستدرجُهم من حيثُ لا يعلمونَ ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ أي لا تشتغلْ بالانتقامِ منهم ولا تدعُ عليهم بالهلاكِ أو لا تستعجلْ بهِ والفاءُ لترتيبِ ما بعدها عَلى ما قبلها فإنَّ الإخبارَ بتوليهِ تعالى لكيدهم بالذاتِ مما يوجبُ إمهالَهم وتركَ التصدّي لمكايدِتهم قطعاً وقولُه تعالى ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ بدلٌ من مَهِّل وقولُه تعالى : ﴿ رُوَيْداً ﴾ إما مصدرٌ مؤيدٌ لمعنى العاملِ أو نعتٌ لمصدرِه المحذوفِ أي مهلهم إمهالاً رُويداً أي قريباً كما قالَه ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنْهُما أو قليلاً كما قاله قَتادةُ قال أبو عبيدةَ هُو في الأصلِ تصغيرُ رُود بالضمِّ وأنشدَ :

(113/811)

كأَنَّها ثَمِلٌ تَمشي عَلى رُودِ . . . أي على مهلٍ وقيل : تصغيرُ ارْوَادٍ مصدرٌ أَرْوَدَ بالترخيمِ وله في الاستعمالِ وجهانِ آخرانِ كونُه اسمَ فعلٍ نحوُ رويدَ زيداً وكونُه حالاً نحو سارَ القومُ رويداً أَي متمهلينَ وفي إيرادِ البدلِ بصيغةٍ لا تحتملُ التكثيرَ وتقييدُه برويداً على أحدِ الوجهينِ المذكورينِ من تسليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتسكينِ قلبِه ما لا يَخْفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(114/811)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾

أي يتعرف ويتصفح ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ومما أخفي من الأعمال ويميز بين ما طاب منها وما خبث وأصل الابتلاء الاختبار وإطلاقه على ما ذكر إطلاق على اللازم وحمل السرائر على العموم هو الظاهر وأخرج ابن المنذر عن عطاء ويحيى بن

أبي كثير أنها الصوم والصلاة والغسل من الجنابة وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ضمن الله تعالى خلقه أربعاً : الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغسل من الجنابة وهن السرائر " التي قال الله تعالى يوم تبلى السرائر وفي "البحر" ضم التوحيد إليها ولعل المراد بيان عظيمها على سبيل المبالغة لا حقيقة الحصر وسمع الحسن من ينشد قول الأخوص :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا . . .

سريرة وديوم تبلى السرائر

(115/811)

فقال ما أغفله عما في ﴿ والسماء والطارق ﴾ [الطارق : 1] وكأنه حمل البقاء فيه على عدم التعرف أصلاً فليفهم ويوم عند جمع من الحذاق ظرف لمحذوف يدل عليه ﴿ رجعه ﴾ أي يرجعه يوم الخ وقال الزمخشرية وجماعة : ظرف لرجعه واعترض بأن فيه فصلاً بين المصدر ومعموله بأجنبي وأجب تارة بأنه جائز لتوسعهم في الظروف وأخرى بأن الفاصل هنا غير أجنبي لأنه إما تفسير أو عامل على المذهبين وقال عصام الدين : إن الفصل بهذا الأجنبي كلا فصل لأن المعمول في نية التقديم عليه وإنما أخر لرعاية الفاصلة وفيه ما لا يخفى

وقيل ظرف لناصر بعد وتعقبه أبو حيان بأنه فاسد لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها وكذلك ما النافية على المشهور المنصور وقيل معمول لأذكر محذوفاً وهو كما ترى ويتعين هو أو ما قبله على رأي مجاهد وعكرمة ورأى الضحاك السابقين آنفاً وجوز الطبرسي تعلقه بقادر ولم يعلقه جمهور المعربين به لأنه يوهم اختصاص قدرته عز وجل بيوم دون يوم كما قال غير واحد وقال ابن عطية فروا من أن يكون العامل لقادر للزوم تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل وذلك أنه تعالى قال : ﴿ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ على الإطلاق أولاً وآخراً وفي كل وقت ثم ذكر سبحانه من الأوقات الوقت الأعظم على الكفار لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب ليجتمع الناس على حذره والخوف منه انتهى وهو على ما فيه لا يدفع الإيهام .

﴿ فمالَهُ ﴾ أي الإنسان ﴿ لَهُ مِن قُوَّةٍ ﴾ في نفسه يمتنع بها ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ ينتصر به .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)

﴿ والسماء ﴾ وهي المظلة في قول الجمهور ﴿ ذَاتِ الرجع ﴾ أي المطر في قولهم أيضاً كما في قول الخنساء

: يوم الوداع ترى دموعاً جارية . . .

كالرجع في المدجنة السارية

وأصله مصدر رجع المتعدي واللازم أيضاً في قول ومصدره الخاص به الرجوع سموا به المطر كما سموه بالأوب مصدر آب ومنه قوله

(116/811)

: رياء شماء لا يأوي لقلتها . . .

إلا السحاب وإلا الأوب والسبل

فيرجع أو لأن السحاب يحمله من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض وبنى هذا غير واحد على الزعم وفيه بحث وعن أو المراد به فيه النحل لأن الله تعالى يرجعه حيناً فحيناً وقال الحسن : لأنه يرجع بالرزق كل عام أو أرادوا بذلك التفاؤل ابن عباس ومجاهد تفسير السماء بالسحاب والرجع بالمطر وقال ابن زيد السماء هي المعروفة والرجع رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ومن منزلة إلى منزلة فيها وقيل رجوعها نفسها فإنها ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك منه وهذا مبني على أن السماء والفلك واحد فهي تتحرك ويصير أوجها حضيضاً وحضيضها أوجاً وقد سمعت فيما تقدم أن ظاهر كلام السلف أن السماء غير الفلك وأنها لا تدور ولا تتحرك والذي ذكر رأي الفلاسفة ومن تابعهم وقيل الرجع الملائكة عليهم السلام سموا بذلك لرجوعهم بأعمال

العباد .

﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات وأصله الشق سمي به النبات مجازاً أو هو مصدر من المبني للمفعول فالمراد تشققها بالنبات وروي ذلك عن عطية وابن زيد وقيل تشققها بالعيون وتعقب بأن وصف السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقيقة القرآن الناطق بالبعث بما ذكر من الوصفين للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهده وهو السر في التعبير عن المطر بالرجع وذلك في تشقق الأرض بالنبات المحاكي للنشور حسبما ذكر في مواضع من التنزيل لا في تشققها بالعيون ويعلم منه ما في تفسير الرجع بغير المطر وكذا ما في قول مجاهد الصدع ما في الأرض من شقاق وأودية وخنادق وتشقق بحرث وغيره وما روي عنه أيضاً الصدع الطرق تصدعها المشاة وقيل ذات الأموات لانصداعها عنهم للنشور .

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13)

(117/811)

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي القرآن الذي من جملته هذه الآيات الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعاده وهو أولى من جعل الضمير راجعاً لما تقدم أي ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم لأن

القرآن يتناول ذلك تناولاً أولياً وقوله تعالى : ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أنسب به والمراد لقول فاصل بين الحق والباطل قد بلغ الغاية في ذلك حتى كأنه نفس الفصل وقيل مقابلة الفصل بالهزل بعد يستدعي أن يفسر بالقطع أي قول مقطوع به والأول أحسن .

وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ أي ليس في شيء منه شائبة هزل بل كله جد محض فمن حقه أن يهتدي به الغواة وتخضع له رقاب العتاة وفي حديث أخرجه الترمذي والدارمي وابن الأنباري عن الحرث الأعور عن علي كرم الله تعالى وجهه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إنها ستكون فتنة قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء ولا نشبع منه العلماء ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن لما سمعته عن أن قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن هدي به هدي إلى صراط مستقيم " وفي هذا من الرد على الذين نبذوه وراء ظهورهم ما فيه .

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15)

(118/811)

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي كفار مكة ﴿ يَكِيدُونَ ﴾ يعملون المكايد في إبطال أمره وإطفاء نوره أو في إبطال أمر الله تعالى وإطفاء نور الحق والأول أتم انتظاماً وهذا قيل أملأ فائدة ﴿ كَيْداً ﴾ أي عظيماً حسبما تفي به قدرتهم والجملة تحتمل أن تكون استئنافاً بيانياً كأنه قيل إذا كان حال القرآن ما ذكر فما حال هؤلاء الذين يقولون فيه ما يقولون فقيل إنهم يكيدون كيداً .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ أي أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث استدرجهم من حيث لا يعلمون أو أقابلهم بكيدي في إعلاء أمره وإكثار نوره من حيث لا يحتسبون والفصل لهذا وقيل لئلا يتوهم عطفها على جواب القسم مع أنها غير مقسم عليها .

(119/811)

﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم ولا تدع عليهم بالهلاك أو تأن وانتظر الانتقام منهم ولا تستعجل والفاء لترتيب مما بعدها على ما قبلها فإن الأخبار بتوليه تعالى لكيدهم بالذات وعدم اهمالهم مما يوجب إمهالهم وترك التصدي لمكايدتهم قطعاً ووضع

الظاهر موض الضمير لذمهم بأبي الخبائث وأمها وقيل للاشعار بعلة ما تضمنه الكلام من الوعيد وقوله تعالى : ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ بدل من مهل على ما ضرح به في الإرشاد وقوله سبحانه : ﴿ رُوَيْداً ﴾ اما مصدر مؤكد لمعنى العَامل أو نعت لمصدره المحذوف أي أمهلهم إمهالاً رويداً أي قريباً كما أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس أو قليلاً كما روي عن قتادة وأخرج ابن المنذر عن السدى أنه قال أي أمهلهم حتى آمر بالقتال ولعله المراد بالإمهال القريب أو القليل واختار بعضهم أن يكون المراد إلى يوم القيامة لأن ما وقع بعد الأمر بالقتال كالذي وقع يوم بدر وفي سائر الغزوات لم يعم الكل وما يكون يوم القيامة يعمهم والتقريب باعتبار أن كل آت قريب وعلى هذا النحو التقليل على أن من ماتب فقد قامت قيامته والظاهر ما قال السدى وقد عراهم بعد الأمر بالقتال ما عراهم وعدم العموم الحقيقي لا يضر وهو في الأصل على ما قال أبو عبيدة تصغير رود بالضم وأنشد :

كانها ثمل تمشي على رود . . .

(120/811)

أي على مهل وقال أبو حيان وجماعة تصغير ارواد مصدر رواد يرود بالترخيم وهو تصغير تحقير وتقليل وله في الاستعمال وجهان آخران كونه اسم فعل نحو رويداً زيد أي أمهله وكونه

حالاً نحو سار القوم رويداً أي متمهلين غير مستعجلين ولم يذكر أحد احتمال كونه اسم فعل هنا وصرح ابن الشيخ بعدم جريانه وعلل ذلك بأن الأوامر كلها بمعنى فكانه قيل أمهل الكافرين أمهلهم أمهلهم وفائدة التأكيد تحصل بالثاني فيلغو الثالث وفي التعليل نظر فقد يسلك في التأكيد بألفاظ متحدة لفظاً ومعنى نحو ذلك ففي الحديث " أيما امرأة أنكحت نفسها بدون ولي فنكاحها باطل باطل " ولا فرق بين الجمل والمفردات نعم هو خلاف الظاهر جداً وجوز رحمه الله كونه حالاً أي أمهلهم غير مستعجل والظاهر أنه حال مؤكدة كما في قوله تعالى ﴿ لا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ [البقرة : 60] فلا تغفل وهو أيضاً بعيد وظاهر كلام أبي حيان وغيره أن الأمر الثاني توكيد للأول قالوا والمخالفة بين اللفظين في البنية لزيادة تسكينه صلى الله عليه وسلم وتصبيره عليه الصلاة والسلام وإنما دلت الزيادة من حيث الاشعار بالتغاير كأن كلا كلام مستقل بالأمر بالتأني فهو أوكد من مجرد التكرار وقرأ ابن عباس مهلهم بفتح الميم وشد الهاء موافقة للفظ الأمر الأول . انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(121/811)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) ﴾

أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، وهو : النجم الثاقب ، كما صرّح به التنزيل .

قال الواحدي : قال المفسرون : أقسم الله بالسماء والطارق ، يعني : الكواكب تطرق بالليل ، وتخفى بالنهار .

قال الفرّاء : الطارق النجم ؛ لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلاً فهو طارق .

وكذا قال الزجاج ، والمبرد : ومنه قول امرىء القيس :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع . . . فألهيتها عن ذي تمائم محول

وقوله أيضاً :

ألم ترياني كلما جئت طارقا . . . وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين ، أو جنس النجم ؟ فقيل : هو زحل .

وقيل : الثريا .

وقيل : هو الذي ترمى به الشياطين .

وقيل : هو جنس النجم .

قال في الصحاح : ﴿ والطارق ﴾ : النجم الذي يقال له كوكب الصبح ، ومنه قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق . . . نمشي على النمارق

أي : إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء ، وأصل الطروق : الدقّ ، فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق .

وقال قوم : إن الطروق قد يكون نهاراً ، والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين أي : مرتين ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنهار إلاَّ طارقاً يطرق بخير " ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق ، تفخيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق * النجم الثاقب ﴾ الثاقب : المضيء ، ومنه يقال : ثقب النجم ثقوباً ، وثقابة : إذا أضاء ، وثقوبه ضوؤه ، ومنه قول الشاعر :

أذاع به في الناس حتى كأنه . . . بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدي : الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً ، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم يدري ما المراد به لو لم يبينه بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال مجاهد : الثاقب المتوهج .

(122/811)

قال سفيان : كل ما في القرآن ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ ، فقد أخبره ، وكل شيء قال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ لم يخبره به ، وارتفاع قوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ،

والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله ، كأنه قيل : ما هو ؟ فقيل : هو النجم الثاقب .

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض ، وقد تقدّم في سورة هود اختلاف القرّاء في : " لما " ، فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر ، وهو اسمها ، واللام هي الفارقة ، وما مزيدة ، أي : إن الشأن كل نفس لعليها حافظ ، ومن قرأ بالتشديد ، فإن نافية ، ولما بمعنى إلا ، أي : ما كل نفس إلاّ عليها حافظ ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة .

وقرأ الباقون بالتخفيف .

قيل : والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها ، وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشرّ وقيل : الحافظ هو الله عزّ وجلّ .

وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح ، ويكفهم عن المفاسد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين ﴾ [الانفطار : 10] وقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : 61] وقوله : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ﴾ [الرعد : 11]

والحافظ على الحقيقة هو الله عزّ وجلّ ، كما في قوله : ﴿ فالله خَيْرٌ حافظا ﴾ [يوسف : 64] وحفظ الملائكة من حفظه ؛ لأنهم بأمره .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب

على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه ؛ ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث .

قال مقاتل : يعني : المكذب بالبعث ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ من أي شيء خلقه الله ، والمعنى : فلينظر نظر التفكر ، والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته .

(123/811)

ثم بيّن سبحانه ذلك فقال : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والماء : هو المنيّ ، والدفق : الصب ، يقال دفقت الماء ، أي : صببته ، يقال ماء دافق أي : مدفوق ، مثل : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : 7] أي : مرضية .

قال الفرّاء ، والأخفش : ﴿ ماء دافق ﴾ ، أي : مصبوب في الرحم .

قال الفرّاء : وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم : سرّ كاتم أي : مكتوم ، وهمّ ناصب : أي منصوب ، وليل نائم ، ونحو ذلك .

قال الزجاج : من ماء ذي اندفاق ، يقال دارع ، وقايس ، ونابل : أي ذو درع ، وقوس ، ونبل ، وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما .

ثم وصف هذا الماء ، فقال : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ أي : صلب الرجل ،

وترائب المرأة ، والترائب جمع تريبة ، وهي : موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من الماءين .

قرأ الجمهور : ﴿ يخرج ﴾ مبنياً للفاعل .

وقرأ ابن أبي عبلة ، وابن مقسم مبنياً للمفعول ، وفي الصلب وهو الظهر لغات .

قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضم الصاد واللام .

وقرأ اليماني بفتحهما .

ويقال صالب على وزن قالب ، ومنه قول العباس بن عبد المطلب :

تنقل من صلب إلى رحم . . . في أبياته المشهورة في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدّم كلام في هذا عند تفسير قوله : ﴿ الذين مِنْ أصلابكم ﴾ [النساء : 23]

وقيل : الترائب ما بين الثديين .

وقال الضحاك : ترائب المرأة : اليدين ، والرجلين ، والعينين .

وقال سعيد بن جبير : هي الجيد .

وقال مجاهد : هي ما بين المنكبين والصدر .

وروي عنه أيضاً أنه قال : هي الصدر .

وروي عنه أيضاً أنه قال : هي التراقي .

وحكى الزجاج : أن الترائب عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر ، والنحر ، ومنه قول دريد بن الصمة :

(124/811)

فإن تدبروا نأخذكم في ظهوركم . . . وإن تقبلوا نأخذكم في الترائب

قال عكرمة : الترائب الصدر ، وأنشد :

نظام درّ على ترائبها . . .

قال في الصحاح : التريبة واحدة الترائب .

وهي : عظام الصدر .

قال أبو عبيدة : جمع التريبة تريب ، ومنه قول المثقب العبدي :

ومن ذهب يبين على تريب . . . كلون العاج ليس بذي غضون

وقول امرىء القيس :

ترائبها مصقولة كالسجنجل . . . وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر ، وأربع أضلاع من يسرة الصدر .

قال قتادة ، والحسن : المعنى ، ويخرج من صلب الرجل ، وترائب المرأة .

وحكى الفرّاء أن مثل هذا يأتي عن العرب يكون معنى ﴿ من بين الصلب ﴾ .

من الصلب .

وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ولا يخالف هذا ما في الآية ؛ لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب .

وقيل : إن المعنى : يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما في الآية ؛ لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والترائب ، باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي : الصلب والترائب ، وما يجاورها ، وما فوقها مما يكون تنزله منها ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ الضمير في ﴿ إنه ﴾ يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله : ﴿ خُلِقَ ﴾ عليه ، فإن الذي خلقه هو الله سبحانه ، والضمير في ﴿ رجعه ﴾ عائد إلى الإنسان .

والمعنى : أن الله سبحانه على رجع الإنسان ، أي : إعادته بالبعث بعد الموت : ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ هكذا قال جماعة من المفسرين : وقال مجاهد : على أن يردّ الماء في الإحليل .

وقال عكرمة ، والضحاك : على أن يردّ الماء في الصلب .

وقال مقاتل بن حيان يقول : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة .

وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر .

والأوّل أظهر ، ورجحه ابن جرير ، والثعلبي ، والقرطبي .

﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ العامل في الظرف على التفسير الأوّل ، هو ﴿ رجعه ﴾ .

وقيل : ﴿ لقادر ﴾ .

(125/811)

واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم ، وقيل : العامل فيه مقدّر أي : يرجعه يوم تبلى السرائر ، وقيل : العامل فيه مقدّر ، وهو اذكر ، فيكون مفعولاً به ، وأما على قول من قال : إن المراد رجع الماء ، فالعامل في الظرف مقدّر ، وهو اذكر ، ومعنى ﴿ تبلى السرائر ﴾ : تختبر ، وتعرف ، ومنه قول الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدريني . . . فاليوم أبلوك وتبتليني

أي : أختبرك وتختبرني ، وأمتحنك وتمتحنني ، والسرائر : ما يسرّ في القلوب من العقائد والنيات ، وغيرها ، والمراد هنا عرض الأعمال ، ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغثّ من السمين ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أي : فما للإنسان من قوّة في نفسه يمتنع بها عن عذاب الله ، ولا ناصر ينصره مما نزل به ، وقال عكرمة : هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر .

قال سفيان : القوة العشيرة ، والناصر الحليف ، والأوّل أولى .

﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ الرجع : المطر .

قال الزجاج : الرجع : المطر ؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر .

قال الخليل : الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع .

قال أهل اللغة : الرجع المطر .

قال المتنخل يصف سيفاً له :

أبيض كالرجع رسوب إذا . . . ما باح في محتفل يختلي

قال الواحدي : الرجع المطر في قول جميع المفسرين ، وفي هذا الذي حكاه عن جميع المفسرين نظر ، فإن ابن زيد قال : الرجع الشمس ، والقمر ، والنجوم يرجعن في السماء تطلع من ناحية ، وتغيب في أخرى .

وقال بعض المفسرين : ﴿ ذات الرجع ﴾ : ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد .

وقال بعضهم : معنى ذات الرجع : ذات النفع ، ووجه تسمية المطر رجعاً ما قاله القفال إنه مأخوذ من ترجيع الصوت ، وهو إعادته ، وكذا المطر لكونه يعود مرّة بعد أخرى سمي رجعاً .

وقيل : إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض .

وقيل : سمته العرب رجعاً لأجل التفاؤل ليرجع عليهم .

وقيل : لأن الله يرجعه وقتاً بعد وقت .

﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات ، والثمار والشجر .

والصدع : الشقّ ؛ لأنه يصدع الأرض ، فتنصدع له .

قال أبو عبيدة ، والفرّاء : تتصدّع بالنبات .

قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه .

وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها .

وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث .

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكأنه قال : والأرض ذات النبات ؛ وإن كان المراد به الشق ، فكأنه قال : والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه ، وجواب القسم قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أي : إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ أي : لم ينزل باللعب ، فهو جدّ ليس بالهزل ، والهزل ضدّ الجدّ .

قال الكميت :

تجدّ بنا في كل يوم وتهزل . . . ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي : يمكرون في إبطال ما جاء به

رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين الحق .

قال الزجاج : يخاتلون النبيّ ، ويظهرون ما هم على خلافه .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ أي : أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم .

قيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ أي : أخرهم ، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم ، وارض بما يدبره لك في أمورهم ، وقوله : ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ بدل من مهل ، ومهل وأمهل بمعنى : مثل نزل وأنزل ، والإمهال : الإنظار ، وتمهل في الأمر ، اتأد ، وانتصاب ﴿ رُوَيْداً ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور ، أو نعت لمصدر محذوف ، أي : أمهلهم إمهالاً رويداً أي : قريباً أو قليلاً .

قال أبو عبيدة : والرويد في كلام العرب تصغيراً الرود ، وأنشد :

كأنها تمشي على رود . . . أي : على مهل .

(127/811)

وقيل : تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم ، ويأتي اسم فعل نحو رويد زيداً ، أي : أمهله ، ويأتي حالاً نحو سار القوم رويداً ، أي : متمهلين ، ذكر معنى هذا الجوهريّ ، والبحث مستوفى في علم النحو .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والسماء والطارق ﴾ قال : أقسم ربك بالطارق : وكل شيء طرقك بالليل فهو طارق .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال : النجم المضيء ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ قال : إلاّ عليها حافظ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ قال : ما بين الجيد والنحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : تريبة المرأة ، وهي موضع القلادة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : الترائب بين ثديي المرأة .

وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً قال : الترائب أربعة أضلاع من كلّ جانب من أسفل الأضلاع .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ قال : على أن يجعل الشيخ شاباً ، والشابّ شيخاً .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وابن جرير ،

وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ قال : المطر بعد المطر ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ قال : صدعها عن النبات .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ تصدّع الأودية .

وأخرج ابن منده ، والديلمي عن معاذ بن أنس مرفوعاً ﴿ والارض ذَاتِ الصدع ﴾ قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات .

(128/811)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ قال : حقّ ، ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ قال : بالباطل ، وفي قوله : ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ قال : قريباً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 417.422 ﴾

(129/811)

وقال ابن عاشور :

و﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ متعلق بـ ﴿ رجعه ﴾ أي يَرْجعه يومَ القيامة .

و﴿ السرائر ﴾ : جمع سريرة وهي ما يُسِره الإِنسان ويُخفيه من نواياه وعقائده .

وبَلْو السرائر ، اختبارها وتمييز الصالح منها عن الفاسد ، وهو كناية عن الحساب عليها والجزاء ، وبلوُ الأعمال الظاهرة والأقوال مستفاد بدلالة الفحوى من بلو السرائر .

ولما كان بلو السرائر مؤذناً بأن الله عليم بما يستره الناس من الجرائم وكان قوله : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ مشعراً بالمؤاخذة على العقائد الباطلة والأعمال الشنيعة فرع عليه قوله : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ ، فالضمير عائد إلى ﴿ الإنسان ﴾ [الطارق : 5] .

والمقصود ، المشركون من الناس لأنهم المسوق لأجلهم هذا التهديد ، أي فما للإِنسان المشرك من قوة يدفع بها عن نفسه وما له من ناصر يدافع عنه .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)

بعد أن تبين الدليل على إمكان البعث أعقب بتحقيق أن القرآن حق وأن ما فيه قول فصل إبطالاً لما مُوِّه عليهم من أن أخباره غير صادقة إذ قد أخبرهم بإحياء الرمم البالية .

فالجملة استئناف ابتدائي لغرض من أغراض السورة .

وافتتح الكلام بالقَسم تحقيقاً لصدق القرآن في الإِخبار بالبعث وفي غير ذلك مما اشتمل عليه من الهدى .

ولذلك أعيد القَسَم بـ ﴿ السماء ﴾ كما أقسم بها في أول السورة ، وذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه ، وهو الغيث الذي به صلاح الناس ، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر .

وفي الحديث : " مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغَيث الكثير أصاب أرضاً " . الحديث .

وفي اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ [الطارق : 8] وفيه محسن الجناس التام وفي مسمى الرجع وهو المطر المعاقب لمطر آخر مناسبة لمعنى الرجع البعث فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة .

(130/811)

وعطف ﴿ الأرض ﴾ في القسم لأن بذكر الأرض إتمام المناسبة بين المقسم والمقسم عليه كما علمت من المثل الذي في الحديث .

و ﴿ الصدع ﴾ : الشق ، وهو مصدر بمعنى المفعول ، أي المصدوع عنه ، وهو النبات الذي يخرج من شقوق الأرض قال تعالى : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً ﴾ [عبس : 25 29] .

ولأن في هذين الحالين إيماء إلى دليل آخر من دلائل إحياء الناس للبعث فكان في هذا القسم دليلان .

والضمير الواقع اسماً ل (إنّ) عائد إلى القرآن وهو معلوم من المقام .

والفصل مصدر بمعنى التفرقة ، والمراد أنه يفصل بين الحق والباطل ، أي يبين الحق ويبطل الباطل ، والإخبار بالمصدر للمبالغة ، أي إنه لقول فاصل .

وعطف ﴿ وما هو بالهزل ﴾ بعد الثناء على القرآن بأنه "قول فصل" يتعين على المفسر أن يتبين وجه هذا العطف ومناسبته ، والذي أراه في ذلك أنه أعقب به الثناء على القرآن رداً على المشركين إذ كانوا يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء يهزل إذ يخبر بأن الموتى سيحْيَوْن ، يريدون تضليل عامتهم حين يسمعون قوارع القرآن وإرشاده وجزالة معانيه يختلقون لهم تلك المعاذير ليصرفوهم عن أن يتدبروا القرآن وهو ما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فصلت : 26] فالهزل على هذا الوجه هو ضدّ الجدّ أعني المزح واللعب ، ومثل هذه الصفة إذا وردت في الكلام البليغ لا محمل لها إلا إرادة التعريض وإلا كانت تقصيراً في المدح لا سيما إذا سبقتها محمدة من المحامد العظيمة .

ويجوز أن يطلق الهزل على الهذيان قال تعالى : ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي بالهذيان .

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16)

استئناف بياني ينبىء عن سؤال سائل يَعْجَب من إعراضهم عن القرآن مع أنه قول فصل ويعْجَب من معاذيرهم الباطلة مثل قولهم : هو هزل أو هذيان أو سحر ، فبُين للسامع أن عملهم ذلك كيد مقصود .

فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلا ما تحققوه من عدم صدقه ، وهم إنما يصرفهم عن الإِيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعلات الملفقة .

والتأكيد بـ (إنَّ) لتحقيق هذا الخبر لغرابته ، وعليه فقوله : ﴿ وأكيد كيداً ﴾ تتميم وإدماج وإنذار لهم حين يسمعونه .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾ موجهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له على أقوالهم في القرآن الراجعة إلى تكذيب من جاء بالقرآن .

أي إنما يدَّعون أنه هزل لقصد الكيد وليس لأنهم يحسبونك كاذباً على نحو قوله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات اللَّه يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

والضمير الواقع اسماً لـ (إنّ) عائد إلى ما فهم من قوله تعالى : ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ [الطارق : 13 ، 14] من الرد على الذين يزعمون القرآن بعكس ذلك ، أي أن

المشركين المكذبين يكيدون .

وجملة : ﴿ وأكيد كيداً ﴾ تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بالنصر .

و ﴿ كيداً ﴾ في الموضعين مفعول مطلق مؤكد لعامله وقصد منه مع التوكيد تنوين تنكيره الدال على التعظيم .

والكيد : إخفاء قَصد الضر وإظهار خلافه ، فكيدهم مستعمل في حقيقته ، وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإِمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية ، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريده وحسَّنها محسن المشاكلة .

فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)

(132/811)

الفاء لتفريع الأمر بالإِمهال على مجموع الكلام السابق من قوله : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ [الطارق : 13] بما فيه من تصريح وتعريض وتبْيين ووعدٍ بالنصر ، أي فلا تستعجل لهم بطلب إنزال العقاب فإنه واقع بهم لا محالة .

والتمهيل : مصدر مَهَّل بمعنى أمهل ، وهو الإِنظار إلى وقت معيّن أو غير معين ، فالجمع بين

"مَهِّل" و ﴿ أمهلهم ﴾ تكرير للتأكيد لقصد زيادة التسكين ، وخولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف وأخرى بالهمز لتحسين التكرير .

والمراد بـ ﴿ الكافرين ﴾ ما عاد عليه ضمير ﴿ إنهم يكيدون ﴾ [الطارق : 15] فهو إظهار في مقام الإِضمار للنداء عليهم بمذمة الكفر ، فليس المراد جميع الكافرين بل أريد الكافرون المعهودون .

و ﴿ رويداً ﴾ تصغير رُود بضم الراء بعدها واو ، ولعله اسم مصدر ، وأما قياس مصدره فهو رَود بفتح الراء وسكون الواو ، وهو المَهْل وعدم العجلة وهو مصدر مؤكد لفعل ﴿ أمهلهم ﴾ فقد أكد قوله : ﴿ فمهل الكافرين ﴾ مرتين .

والمعنى : انتظر ما سيحلّ بهم ولا تستعجل لهم انتظار تربص واتّياد فيكون ﴿ رويداً ﴾ كناية عن تحقق ما يحلّ بهم من العقاب لأن المطمئن لحصول شيء لا يستعجل به .

وتصغيره للدلالة على التقليل ، أي مُهلة غير طويلة .

ويجوز أن يكون ﴿ رويداً ﴾ هنا اسم فعل للأمر ، كما في قولهم : رُويدك ، لأن اقترانه بكاف الخطاب إذا أريد به اسم الفعل ليس شَرطاً ، ويكون الوقف على قوله : ﴿ الكافرين ﴾ و ﴿ رويداً ﴾ كلاماً مستقلاً ، فليس وجود فعل من معناه قبله بدليل على أنه مراد به المصدر ، أي تصبر ولَا تستعجل نزول العذاب بهم فيكون كناية عن الوعد بأنه واقع لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(133/811)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ .

هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ الآية .

والجواب أن الإمهال منسوخ بآيات السيف والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 313 ﴾

(134/811)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والسماء والطارق

﴿ بمكة .

وأخرج أحمد والبخاري في التاريخ وابن مردويه والطبراني عن خالد العدواني أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ثقيف ، وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي النصر عندهم ، فسمعه يقرأ ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها . قال : فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإِسلام .

وأخرج النسائي عن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أفتان أنت يا معاذ ، أما يكفيك أن تقرأ ﴿ والسماء والطارق ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] ونحو هذا ؟ " .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والسماء والطارق ﴾ قال : أقسم ربك بالطارق وكل شيء طرقك بالليل فهو طارق .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ﴿ والسماء والطارق ﴾ فقال : ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ فقلت : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ [التكوير : 15] فقال : ﴿ الجواري الكنس ﴾ [التكوير : 15] فقلت : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ [النساء : 24] فقال : ﴿ إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : 24] فقلت : ما هذا ؟ فقال : ما أعلم منها إلا ما تسمع .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ والسماء والطارق ﴾ قال

: وما يطرق فيها ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال : النجم المضيء ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ قال : إلا عليها حافظ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ والسماء والطارق ﴾ قال : النجم يخفى بالنهار ويبدو بالليل ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ قال : حفظ كل نفس عمله وأجله ورزقه .

(135/811)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ والسماء والطارق ﴾ قال : هو ظهور النجم بالليل ، يقول : يطرقك بالليل ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال : المضيء ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ قال : ما كل نفس إلا عليها حافظ . قال : وهم حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك ، فإذا توفيته يا ابن آدم قبضت إلى ربك .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال : الذي يتوهج .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : ﴿ النجم الثاقب ﴾ الثريا .

وأخرج ابن المنذر عن خصيف ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال : مم يثقب من يسترق السمع .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ مثقلة منصوبه اللام .

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ فلينظر الإِنسان مم خلق ﴾ قال : هو أبو الأشدين كان يقوم على الأديم فيقول : يا معشر قريش من أزالني عنه فله كذا وكذا ، ويقول : إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر ، فأنا أكفيكم وحدي عشرة واكفوني أنتم تسعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال : صلب الرجل ، وترائب المرأة لا يكون الولد إلا منهما .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبزى قال : الصلب من الرجل والترائب من المرأة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال : ما بين الجيد والنحر .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : الترائب أسفل من التراقي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والترائب ﴾ قال : تريبة المرأة ، وهو موضع القلادة .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال : الترائب موضع القلادة من المرأة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت قول الشاعر :

والزعفران على ترائبها . . . شرفا به اللبات والنحر

(136/811)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أنه سئل عن قوله : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال : صلب الرجل وترائب المرأة أما سمعت قول الشاعر :

نظام اللؤلؤ على ترائبها . . . شرفاً به اللبات والنحر

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الترائب الصدر .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وعطية وأبي عياض مثله .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : الترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال : يخلق العظام والعصب من ماء الرجل ، ويخلق اللحم والدم من ماء المرأة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال : يخرج من بين صلبه ونحره ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ قال : إن الله على بعثه وإعادته لقادر ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ قال : إن هذه السرائر مختبرة فأسروا خيراً وأعلنوه ﴿ فما له من قوة ﴾ يمتنع بها ﴿ ولا ناصر ﴾ ينصره من الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ قال : على أن يجعل الشيخ شاباً والشاب شيخاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ قال : على رجع النطفة في الإِحليل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ قال : على أن يرجعه في صلبه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن أبزى قال : على أن يرده نطفة في صلب أبيه .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ قال : على إحيائه .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن خيثم ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ قال : السرائر التي تخفين من الناس ، وهن لله بواد داووهن بدوائهن ، قيل : وما بدوائهن ؟ قال : أن تتوب ثم لا تعود .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء في قوله : ﴿ تبلى السرائر ﴾ قال : الصوم والصلاة وغسل

الجنابة .

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير مثله .

(137/811)

وأخرج ابن البيهقي في شعب الإِيمان عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ضمن الله خلقه أربعة : الصلاة والزكاة وصوم رمضان والغسل من الجنابة ، وهن السرائر التي قال الله ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ " .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)

أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ قال : المطر بعد المطر ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : صدعها عن النبات .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة وأبي مالك وابن أبزى والربيع بن أنس مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ قال : السحاب تمطر ثم ترجع بالمطر ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : المازم غير الأودية والجروف .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ قال : ترجع بالمطر كل عام ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : تصدع بالنبات كل عام .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : صدع الأودية .

وأخرج ابن مندة والديلمي عن معاذ بن أنس مرفوعاً ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ قال : ترجع إلى العباد برزقهم كل عام لولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : تصدع عن النبات والثمار كما رأيتم ﴿ إنه لقول فصل ﴾ قال : قول حكم ﴿ وما هو بالهزل ﴾ قال : ما هو باللعب ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ قال : الرويد القليل .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : عز وجل ﴿ وما هو بالهزل ﴾ قال : القرآن ليس بالباطل واللعب . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قيس بن رفاعة وهو يقول :

وما أدري وسوف أخال أدري . . . أهزل ذا كم أم قول جد

(138/811)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد بن جبير ﴿ وما هو بالهزل ﴾ قال : وما هو باللعب .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أتاني جبريل فقال يا محمد : إن أمتك مختلفة بعدك . قلت فأين المخرج يا جبريل ؟ فقال : كتاب الله به يقصم كل جبار ، من اعتصم به نجا ، ومن تركه هلك ، قول فصل ليس بالهزل " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أنه لقول فصل ﴾ قال : حق ﴿ وما هو بالهزل ﴾ قال : بالباطل ، وفي قوله : ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ قال : قريباً .

وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ قال : أمهلهم حتى آمر بالقتال .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف عن الحارث الأعور قال : " دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث ، فأتيت عليّاً فأخبرته ، فقال : أوقد فعلوها ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنها ستكون فتنة ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا تلتبس منه الألسن ، ولا يخلق من الرد ، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا :

﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد ﴾ [الجن : 1] ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم " " .

(139/811)

وأخرج محمد بن نصر والطبراني عن معاذ بن جبل قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الفتن فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب : يا رسول الله فما المخرج منها ؟ قال : "كتاب الله فيه المخرج ، فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم ، من تركه من جبار يقصمه الله ، ومن يبتغي الهدى في غيره يضله الله ، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم . هو الذي لما سمعته الجن لم تنته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد ﴾ [الجن : 1] هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثرة الرد " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 473 . 478 ﴾

(140/811)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾

قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس رضي الله عنهم عن قوله : ﴿ والسماء والطارق ﴾ فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق النجم الثاقب ﴾ وسكت فقلت له : مالك ؟ فقال : والله ما أعلم منها ، إلا ما أعلم ربي .

يعني : تفسير الآية ما ذكر في هذه الآية ، وهو قوله : والنجم الثاقب .

يعني : هو الطارق .

وروي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما في رواية أخرى .

﴿ والسماء والطارق ﴾ قال الطارق الكواكب التي تطرق في الليل ، وتخفى في النهار ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق ﴾ على وجه التعجب والتعظيم .

ثم بيّن فقال ﴿ النجم الثاقب ﴾ يعني : هو النجم المضيء .

وقال مجاهد : ﴿ الثاقب ﴾ الذي يتوهج .

وقال الحسن البصري ﴿ الثاقب ﴾ هو النجم ، حين يرسل على الشياطين ، فيثقبه ، يعني : فيحرقه .

وقال قتادة : ﴿ النجم الثاقب ﴾ يعني : يطرق بالليل ، ويخنس بالنهار فأقسم الله تعالى

بالسماء ونجومها .

ويقال : بخالق السماء ونجومها ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ وهذا جواب القسم ، يعني : ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ قولها وفعلها .

قرأ عاصم وحمزة ، وابن عامر ، ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا ﴾ بتشديد الميم ، والباقون ﴿ لَّمَّا عَلَيْهَا ﴾ بالتخفيف ، فمن قرأ بالتشديد ، فمعناه ما من نفس إلا وعليها حافظ ، فيكون لما بمعنى إلا ، ومن قرأ بالتخفيف جعل ما مؤكدة ، ومعناه كل نفس عليها حافظ .

ثم قال : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ يعني : فليعتبر الإنسان من ماذا خلق .

قال بعضهم : نزلت في شأن أبي طالب ، ويقال نزلت في جميع من أنكر البعث .

ثم بين أول خلقهم ليعتبروا فقال : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾ يعني : من ماء مهراق في رحم الأم ، ويقال : دافق بمعنى مدفوق .

(141/811)

كقوله ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : 7] أي : مرضية ثم قال : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ يعني : خلق من مائين ، من ماء الأب يخرج من بين الصلب ، ومن ماء الأم يخرج من الترائب .

والترائب : موضع القردة كما قال امرؤ القيس

مهفهفة بيضاء غير مفاضة .

. . ترائبها مصقولة كالسجنجل

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ يعني : على بعثه وإعادته بعد الموت لقادر ، ويقال على رجعه إلى صلب الآباء ، وترائب الأمهات لقادر ، والتفسير الأول أصح لأنه قال : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ يعني : تظهر الضماير .

ويقال : يختبر السرائر ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ يعني : ليس له قوة يدفع العذاب عن نفسه ، ولا مانع يمنع العذاب عنه .

وقوله : ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ فهو قسم ، أقسم الله تعالى بخالق السماء ذات الرجع ، يعني : يرجع السحاب بالمطر ، بعد المطر والسحابة بعد السحابة ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ يعني : يتصدع فيخرج ما بالنبات والثمار ، فيجعلها قوتاً لبني آدم عليه السلام ويقال : ذات الصدع يعني : ذات الأودية ، وهو قول مجاهد وقال قتادة : يعني : ذات النبات ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ يعني : القرآن قول حق وجد ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ يعني : باللعب ويقال لم ينزل بالباطل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ يعني : يمكرون مكراً وهم أهل مكة في دار الندوة ويقال يكيدون كيداً يعني يصنعون أمراً وهو الشرك والمعصية ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ يعني : أصنع لهم أمراً ، وهو القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة قوله تعالى : ﴿

فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ يعني : أجل الكافرين ويقال : خل عنهم ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ يعني : أجلهم قليلاً أي إلى وقت الموت ويقال إنهم يكيدون كيداً بمعنى : الخراصون الذين يحبسون في كل طريق يعني : يصدون الناس عن دينه يعني يحبسون الناس في كل طريق يصدون الناس عن دينه .

(142/811)

وروى عبد الرزاق عن أبي وائل عن همام مولى عثمان قال لما كتبوا المصحف شكوا في ثلاث آيات فكتبوها في كتف شاة وأرسلوها إلى أبي بن كعب وزيد بن ثابت فدخلت عليهما فناولتهما أبياً فقرأها فكان فيها لا تبديل لخلق الله وكان فيها لم يتسن فكتب لم يتسنه وكان فيها فأمهل الكافرين فمحى الألف وكتب فمهل الكافرين ونظر فيها زيد بن ثابت فانطلقت بها إليهم فناولتها زيد بن ثابت إليهم فأثبتوها في المصحف ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ يعني : أجلهم قليلاً فإن أجل الدنيا كلها قليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 547.546 ﴾

(143/811)

وقال الثعلبى :

سورة الطارق

﴿ والسمآء والطارق ﴾ .

نزلت في أبي طالب وذلك " لأنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذا بخط نجم فامتلأ ماءً ثمّ ناراً ففزع أبو طالب وقال : أي شيء هذا ، فقال رسول الله (عليه السلام) : " هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله تعالى " . فعجب أبو طالب ، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ والسمآء والطارق ﴾ " ، والمعنى : يعني النجم يظهر ليلا ويخفى نهاراً ، أو كل ماجاء ليلا فقد طرق .

ومنه حديث نهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله وقال : " تستعد المغيبة وتمتشط الشعثة " ، وقالت هند بنت عتبة يوم أحد :

نحن بنات طارق . . . نمشي على النمارق

تريد أن أبانا نجم في شرفه وعلوه .

وأنشدنا أبو القاسم المفسّر قال : أنشدني أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن قال :

أنشدني أبو عبد الله محمد بن الرومي قال :

يا راقد الليل مسروراً بأوّله . . . إنّ الحوادث قد يطرقن أسحاراً

لا تفرحن بليل طاب أوّله . . . فرب آخر ليل أجج النارا

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطارق ﴾ ثم فسره فقال عزّ من قائل : ﴿ النجم الثاقب ﴾ أي المضيء المنير ، يقول العرب : أثقب نارك أي أضئها . مجاهد : المتوهج ، عطا : الثاقب الذي يرمي به الشياطين فيثقبهم : قال ابن زيد : كانت العرب تسمّي الثريا النجم ، وقيل : هو زحل سُمي بذلك لإرتفاعه ، وتقول العرب للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعاً : قد ثقب .

وروى أبو الحوراء عن ابن عباس قال : الطارق : نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم ، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة ، وهو زحل فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد .

(144/811)

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جواب القسم ﴿ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿ لَّمَّا ﴾ بتشديد الميم ، يعنون ما كل نفس إلاّ عليها حافظ ، وهي لغة هذيل يقولون : يسديك الله لما قمت ، يعنون : إلاّ قمت ، وقرأ الآخرون : بالتخفيف جعلوا (ما) صلة مجازه : إنّ كل نفس لعليها حافظ .

أخبرنا محمد بن نعيم قال : أخبرنا الحسن بن أيوب قال : أخبرنا علي بن عبد العزيز قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا معاذ عن ابن عون قال : قرأت عند ابن سيرين : (إنّ كلّ نفس لما) فانكره وقال : سبحان الله سبحان الله فتأويل الآية كلُّ نفس عليها حافظ من ربِّها يحفظ عملها ويُحصي عليها ما يكتسب من خير وشر .

قال ابن عباس : هم الحفظة من الملائكة ، وقال قتادة : هم حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك إذا توفيته يا ابن آدم قبضت إلى ربّك ، وقال الكلبي [وحصين] : حافظ من الله يحفظ قولها وفعلها ويحفظ حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير ثم تخلى عنها .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الحطاب قال : حدّثنا عبد الله بن الفضل قال : حدّثنا سلمة بن شبيب قال : حدّثنا يحيى بن صالح قال : حدّثنا عمر بن معدان عن سلم بن عامر عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وكّل بالمؤمن ستون ومائة ملك يذبّون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبّون عنه كما يذّب عن قصعة العسل الذباب [في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتمونه على جبل وسهل كلهم باسط يديه فاغرفاه وما] لو وكّل العبد إلى نفسه طرقه عين لاختطفته الشياطين " .

(145/811)

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ أي من أي شيء خلقه ربُّه ، ثم بيّن جل ثناؤه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ أي مدفوق مصبوب في الرحم وهو المني ، فاعل بمعنى مفعول كقولهم سرٌّ كاتم ، وليلٌ نائم ، وهمّ ناصب ، وعيشةٌ راضية ، قال الفراء : أعان على ذلك أنها رؤوس الآيات التي معّهن .

والدفق : الصب ، تقول العرب للموج إذا علا وانحط : تدفق واندفق وأراد من مائين : ماء الرجل وماء المرأة ؛ لأن الولد مخلوق منهما ، ولكنه جعله ماء واحداً لامتزاجهما .

﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ يعني صلب الرجل وترائب المرأة ، واختلفوا في الترائب ، فقال ابن عباس : موضع القلادة ، الوالي عنه : بين ثدي المرأة ، وعن العوفي عنه : يعني بالترائب اليدين والرجلين والعينين ، وبه الضحاك ، وعن ابن عليّة عن أبي رجاء قال : سئل عكرمة عن الترائب فقال : هذه ووضع يده على صدره بين ثدييه . سعيد بن جبير : الجيد . ابن زيد : الصدر . مجاهد : ما بين المنكبين والصدر . سفيان : فوق الثديين . يمان : أسفل من التراقي . قتادة : النحر . جعفر بن سعيد : الأضلاع التي أسفل الصلب . ليث عن معمر بن أبي حبيبة المدني قال : عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور من كلام العرب أنهما عظام النحر والصدر ، وواحدتها تربية . قال الشاعر :

وبدت كان ترائبا نحرها . . . جمر الغضا في ساعة يتوقّد

وقال آخر :

والزعفران على ترائبها . . . شرق به اللَّبات والصدر

وقال المثقب العبدي :

ومن ذهب يسن على تريب . . . كلون العاج ليس بذي غضون

(146/811)

﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ قال قتادة : إنّ الله سبحانه على بعث الإنسان واعادته بعد الموت قادر ، وقال عكرمة : إن الله سبحانه على ردِّ الماء إلى الصلب الذي خرج منه لقادر ، وعن مجاهد : على ردِّ النطفة في الإحليل ، وعن الضحاك : إنه على ردِّ الإنسان ماء كما كان قبل لقادر ، مقاتل بن حيان عنه : يقول : إنّ شئت ردرته من الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الصبى ، ومن الصبى إلى النطفة ، وعن ابن زيد : أنه على حبس ذلك الماء لقادر حتى لا يخرج.

وأولى الأقاويل : بالصواب تأويل قتادة لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ أي تظهر الخفايا ، وقال قتادة ومقاتل وسعيد بن جبير عن عطاء بن أبي رباح : السرائر : فرائض الأعمال كالصّوم والصلاة والوضوء وغسل الجنابة ، ولو شاء العبد أن يقول قد صمت وليس بصائم وقد صلّيت ولم يصلّ وقد أغتسلت ولم يغتسل لفعل .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة وابن البواب قال : حدّثنا أبو بكر بن مجاهد قال : حدّثنا إسماعيل عن عبد الله بن إسماعيل عن ابن زيد ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ قال : السرائر : الصلاة والصيام وغسل الجنابة ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا الحسين قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال : أخبرني عروبة قال : حدّثنا هاشم بن القاسم الحراني قال : حدّثنا عبد الله بن وهب عن يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حقاً ، ومن اختانهن فهو عدو الله حقاً ، الصلاة والصوم والغسل من الجنابة " .

﴿ فَمَا لَهُ ﴾ : يعني الإنسان الكافر ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ تمنعه ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ : ينصره ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع ﴾ أي ترجع بالغيث وأرزاق العباد كلّ عام ، لولا ذلك لهلكوا وهلكت معايشهم ، وقال ابن عباس : هو السحاب فيه المطر .

(147/811)

وأخبرنا ابن عبدوس قال : أخبرنا ابن محفوظ قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع

﴿ قال : ذات المطر . ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ قال : النبات ، وقال أبو عبيدة : الرجع الماء ، وأنشد المنحل الهذلي في صفة السيف :

أبيض كالرجع رسوب إذا . . . ما ثاج في محتفل يختلي

وقال ابن زيد : يعني بالرجع ان شمسها وقمرها يغيب ويطلع ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ ، أي ينصدع عن النبات والأشجار والثمار والأنهار ، نظيره قوله سبحانه ﴿ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [عبس : 26-28] إلى آخرها ، وقال مجاهد : هما السدّان بينهما طريق نافذ مثل [ماري] عرفة .

﴿ إِنَّهُ ﴾ : يعني القرآن ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ : حق وجد وجزل يفصل بين الحق والباطل . ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ : باللعب والباطل . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ : يعني مشركي مكّة . ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ : وأريد بهم أمراً . ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ : قليلا فأخذوا يوم بدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 177 . 181 ﴾

(148/811)

وقال الزمخشرى :

سورة الطارق

مكية ، وآياتها 17 [نزلت بعد البلد] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطارق (86) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (1) وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3)

النَّجْمُ الثَّاقِبُ المضيء ، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، كما قيل : درّىء ، لأنه يدرؤه ، أى : يدفعه . ووصف بالطارق ، لأنه يبدو بالليل ، كما يقال للآتى ليلا : طارق : أو لأنه يطرق الجنى ، أى يصكه . والمراد : جنس النجوم ، أو جنس الشهب التي يرجم بها . فإن قلت : ما يشبه قوله وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ : النَّجْمُ الثَّاقِبُ إلا ترجمة كلمة بأخرى ، فبين لي أى فائدة تحته ؟

قلت : أراد اللّه عز من قائل : أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيما له ، لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة ، وأن ينبه على ذلك فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره ، وهو الطارق ، ثم قال : وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ ؟ ثم فسره بقوله النَّجْمُ الثَّاقِبُ كل هذا إظهار لفخامة شأنه ، كما قال فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ روى أنّ أبا طالب كان عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فانحط نجم ، فامتلأ ما ثم نورا . فجزع

أبو طالب وقال: أى شيء هذا؟ فقال عليه السلام: هذا نجم رمى به، وهو آية من آيات اللّه، فعجب أبو طالب «1»، فنزلت.

[سورة الطارق (86): آية 4]

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4)

فإن قلت: ما جواب القسم؟ قلت إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ لأنّ «إن» لا تخلو فيمن قرأ لما مشددة، بمعنى: إلا أن تكون نافية. وفيمن قرأها مخففة على أن «ما» صلة تكون مخففة من الثقيلة، وأيتهما كانت فهي مما يتلقى به القسم، حافظ مهيمن عليها رقيب، وهو اللّه عز وجل وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً وقيل: ملك يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير وشر. وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب. ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين «2»».

---

(1). هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير إسناد.

(2). أخرجه الطبراني من رواية عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبى أمامة به وأتم منه. وعفير ضعيف.

[سورة الطارق (86) : الآيات 5 إلى 7]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ (7)

فإن قلت : ما وجه اتصال قوله فَلْيَنْظُرِ بما قبله ؟ قلت : وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا ، أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره ونشأته الأولى ، حتى يعلم أنّ من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا ما يسره في عاقبته ، ومِمَّ خُلِقَ استفهام جوابه خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ والدفق : صبّ فيه دفع . ومعنى دافق : النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق ، كاللابن والتامر . أو الاسناد المجازى . والدفق في الحقيقة لصاحبه ، ولم يقل ماءين لامتزاجهما في الرحم ، واتحادهما حين ابتدئ في خلقه مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ من بين صلب الرجل وترائب المرأة : وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة . وقرئ : الصلب - بفتحتين ، والصلب بضمتين . وفيه أربع لغات : صلب ، وصلب ،

وصلب وصالب . قال العجاج : في صلب مثل العنان المؤدم «1»

وقيل : العظم والعصب من الرجل ، واللحم والدم من المرأة .

[سورة الطارق (86) : الآيات 8 إلى 10]

إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (9) فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ (10)

إِنَّهُ الضمير للخالق ، لدلالة خلق عليه . ومعناه : إنّ ذلك الذي خلق الإنسان ابتداء من نطفة عَلى رَجْعِهِ على إعادته خصوصا لَقادِرٌ لبين القدرة لا يلتاث «2» عليه ولا يعجز عنه . كقوله : إننى لفقير «3» يَوْمَ تُبْلَى منصوب برجعه ، ومن جعل الضمير في رَجْعِهِ للماء

---

(1) ريا العظام فخمة المخدم في صلب مثل العنان المؤدم

العجاج . والريا : تأنيث الريان ، أى : لينة العظام ، سمينة محل الخدام وهو الخلخال . والمخدم – بالتشديد – على اسم المفعول . والصلب – بضمتين ، وبفتحتين ، وبضم فسكون – : عظام الظهر ، والمراد هنا : الخصر . وفي بمعنى مع ، أى : وصفت بهذه الصفات ، مع أن لها خصرا رقيقا لينا ، مثل العنان المؤدم ، على اسم المفعول ، أى : المؤلف بالفتل ، يقال : أدم بينهما – بقصر الهمزة وبمدها – : بمعنى ألف وأصلح . أو المجعول له أدمة . أو لين الأدمة – بفتحتين ، وهي الجلدة المدبوغة المصلحة ، من أدمه بالمد : جعل له أدمة . والفخمة بالضم : الضخامة واسترخاء الرجلين . والفخمة – بالفتح – : وصف منه . [. . . . .]

(2) . قوله «لا يلتاث عليه» في الصحاح «التاث في عمله» : أى أبطأ . (ع)

(3) . قوله «كقوله إننى لفقير» أى الشاعر ، حيث قال :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلى لأفقر منى إننى لفقير (ع)

وقد تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 23 فراجعه إن شئت اه مصححه .

وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل . أو إلى الحالة الاولى نصب الظرف بمضمر السَّرائِرُ ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفى من الأعمال .

وبلاؤها . تعرّفها وتصفحها ، والتمييز بين ما طاب منها وما خبث . وعن الحسن أنه سمع رجلا ينشد :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة ودّ يوم تبلى السّرائر «1»

فقال : ما أغفله عما في وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ ؟ فَما لَهُ فما للإنسان مِنْ قُوَّةٍ من منعة في نفسه يمتنع بها وَلا ناصِرٍ ولا مانع يمنعه .

[سورة الطارق (86) : الآيات 11 إلى 14]

وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَما هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

سمى المطر رجعا ، كما سمى أوبا . قال :

ربّاء شمّاء لا يأوى لقلتها إلّا السّحاب وإلّا الأوب والسّبل «2»

تسمية بمصدرى : رجع ، وآب ، وذلك أنّ العرب كانوا يزعمون أنّ السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض . أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعا . وأوبا ، ليرجع ويؤب . وقيل : لأنّ اللّه يرجعه وقتا فوقتا . قالت الخنساء : كالرجع في المدجنة السارية .

والصدع : ما يتصدّع عنه الأرض من النبات إِنَّهُ الضمير للقرآن فَصْلٌ فاصل بين

---

(1) إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحب ميعاد السلو المقابر

سيقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

لمجنون بنى عامر صاحب ليلى العامرية . وسلا عنه سلوة وسلوا : صد عنه وأعرض ، وشبه بعث الحب إياه وحمله على دوام المودة بقول القائل على طريق التصريحية ، وتسمية الحب شافعا : ترشيح . ومن بيانية . ويحتمل أنها تجريدية دلالة على أن الحب بلغ نهاية اللذة حتى حمل على دوام المودة فانتزع منه غيره وأسند له الفعل . ويجوز أنها تبعيضية دالة على أن بعضه يكفى في الشفاعة . وقوله «المقابر» أى دخولها ، كناية عن الموت . والمراد : التأبيد ، بدليل ما بعده . ومضمر القلب : المضمر في القلب . أو مضمر هو القلب . وتبلى : مبنى للفاعل ، أى : تفنى .

ويحتمل بناءه للمفعول ، أى : تختبر . والحشا - بالفتح - : عطف على القلب أعم منه ، دلالة على أن الحب في غير قلبه أيضا .

(2) . للمنتخل الهذلي يرثى ابنه . وقيل : يصف رجلا بأنه رباء ، أى طلاع من ربأ وارتبأ :

إذا طلع لينظر إلى أمر . ومنه الربيئة ، وإضافته إلى شماء من إضافة الوصف لمفعوله : وهي القلعة المرتفعة من الشمم وهو الارتفاع .

وقلة الجبل وقنته : رأسه وأعلاه . والأوب : النحل ، لأنه يذهب ويؤوب إلى بيته . أو المطر ، لأن أصله من بحار الأرض على زعم العرب ، ثم يؤوب إليها . والسبيل - بالتحريك - : المطر من أسبلت الستر إذا أرسلته وأرخيته ، وعلى أن الأوب بمعنى النحل لا مناسبة بينه قرينية ، وعلى أنه بمعنى المطر ، فالسبل مرادف له .

(151/811)

الحق والباطل ، كما قيل له فرقان وَما هُوَ بِالْهَزْلِ يعنى أنه جدّ كله لا هوادة فيه . ومن حقه - وقد وصفه اللّه بذلك - أن يكون مهيبا في الصدور ، معظما في القلوب ، يترفع به قارئه وسامعه وأن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، وأن يلقى ذهنه إلى أنّ جبار السماوات يخاطبه فيأمره وينهاه ، ويعده ويوعده ، حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية ، فأدنى أمره أن يكون جادّا غير هازل ، فقد نعى اللّه ذلك على المشركين في قوله وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سامِدُونَ ، وَالْغَوْا فِيهِ .

[سورة الطارق (86) : الآيات 15 إلى 17]

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

إِنَّهُمْ يعنى أهل مكة يعملون المكايد في إبطال أمر اللّه وإطفاء نور الحق ، وأنا أقابلهم بكيدى : من استدراجى لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ يعنى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً أى إمهالا يسيرا ، وكرّر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الطارق أعطاه اللّه بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 734 .

737﴾

---

(1) . أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(152/811)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ والسماءِ والطارقِ ﴾

هما قسمَان : " والسماءِ " قَسَمٌ ، " والطارقِ " قَسَمٌ .

" الطارق " نجم ، وقد بيّنه الله تعالى بقوله : ﴿ وما أدْراكَ ما الطارقُ * النجْمُ الثّاقبُ ﴾

ومنه قول هند بنت عتبة :

نَحْنُ بنات طارِق . . . نَمْشي على النمارق

تقول : نحن بنات النجم افتخاراً بشرفها ، وإنما سمي النجم طارقاً لاختصاصه بالليل ، والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقاً ، قال الشاعر :

ألا طَرَقَتْ بالليلِ ما هجَعوا هندُ . . . وهندٌ أَتى مِن ، دُونها النأيُ والصَّدّ

وأصل الطرق الدق ، ومنه سميت المطرقة ، فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق .

وفي قوله " النجم الثاقب " ستة أوجه :

أحدها : المضيء ، قاله ابن عباس .

الثاني : المتوهج ، قاله مجاهد .

الثالث : المنقضّ ، قاله عكرمة .

الرابع : أن الثاقب الذي قد ارتفع على النجوم كلها ، قاله الفراء .

الخامس : الثاقب : الشياطين حين ترمى ، قاله السدي .

السادس : الثاقب في مسيره ومجراه ، قاله الضحاك .

وفي هذا النجم الثاقب قولان :

أحدهما : أنه زُحل ، قاله عليّ .

الثاني : الثريّا ، قاله ابن زيد .

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : " لّما " بمعنى إلاّ ، وتقديره : إنْ كل نفس إلاَّ عليها حافظ ، قاله قتادة .

الثاني : أن " ما " التي بعد اللام صله زائدة ، وتقديره : إن كل نفس لعليها حافظ ، قاله الأخفش .

وفي الحافظ قولان :

أحدهما : حافظ من الله يحفظ عليه أجله ورزقه ، قاله ابن جبير .

الثاني : من الملائكة يحفظون عليه عمله من خير أو شر ، قاله قتادة .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون الحافظ الذي عليه عقله ، لأنه يرشده إلى مصالحه ، ويكفّه عن مضاره .

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من بين صلب الرجل وترائبه ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : بمعنى أصلاب الرجال وترائب النساء .

وفي الترائب ستة أقاويل :

أحدها : أنه الصدر ، قاله ابن عياض ، ومنه قول دريد بن الصمة .

فإنَّ تُدْبروا نأخذكُم في ظهوركم . . . وإنْ تُقْبِلُوا نأخذكُم في الترائب

الثاني : ما بين المنكبين إلى الصدر ، قاله مجاهد .

الثالث : موضع القلادة ، قاله ابن عباس ، قال الشاعر :

والزعفران على ترائبها . . . شرق به اللّباتُ والنحْرُ

الرابع : أنها أربعة أضلاع من الجانب الأسفل ، قاله ابن جبير ، وحكى الزجاج أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر .

الخامس : أنها بين اليدين والرجلين والعينين ، قاله الضحاك .

السادس : هي عصارة القلب ، قاله معمر بن أبي حبيبة .

﴿ إنّه على رَجْعِهِ لقادرٌ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : على أن يرد المني في الإحليل ، قاله مجاهد .

الثاني : على أن يرد الماء في الصلب ، قاله عكرمة .

الثالث : على أن يرد الإنسان من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة ، قاله الضحاك .

الرابع : على أن يعيده حيّاً بعد موته ، قاله الحسن وعكرمة وقتادة .

الخامس : على أن يحبس الماء فلا يخرج .

ويحتمل سادساً : على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة لأن الكفار يسألون الله فيها الرجعة .

﴿ يومَ تُبْلَى السّرائرُ ﴾ أي تَظْهَر .

ويحتمل ثانياً : أن تبتلى بظهور السرائر في الآخرة بعد استتارها في الدنيا .

وفيها قولان :

أحدهما : كل ما استتر به الإنسان من خير وشر ، وأضمره من إيمان أو كفر ، كما قال الأحوص :

ستُبلَى لكم في مُضْمَرِ السِّرِّ والحشَا . . . سَريرةُ ودٍّ يومَ تُبلَى السرائرُ .

(154/811)

الثاني : هو ما رواه خالد عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأمانات ثلاث : الصلاة والصوم والجنابة ، استأمن الله ابن آدم على الصلاة ، فإن شاء قال : قد صليت ولم يُصلّ ، استأمن الله ابن آدم على الصوم ، فإن شاء قال : قد صمت ولم يصم ، استأمن الله ابن آدم على الجنابة ، فإن شاء قال : قد اغتسلت ولم يغتسل ، اقرؤوا إن

شئتم : " يوم تُبْلى السّرائرُ " .

﴿ فما لَهُ مِن قُوّةٍ ولا ناصرٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن القوة العشيرة ، والناصر : الحليف ، قاله سفيان .

الثاني : فما له من قوة في بدنه ، ولا ناصر من غيره يمتنع به من الله ، أو ينتصر به على الله ، وهو معنى قول قتادة .

ويحتمل ثالثاً : فما له من قوة في الامتناع ، ولا ناصر في الاحتجاج .

﴿ والسماءِ ذاتِ الرّجْعِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : ذات المطر ، لأنه يرجع في كل عام ، قاله ابن عباس .

الثاني ذات السحاب ، لأنه يرجع بالمطر .

الثالث : ذات الرجوع إلى ما كانت ، قاله عكرمة .

الرابع : ذات النجوم الراجعة ، قاله ابن زيد .

ويحتمل خامساً : ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وهذا قَسَمٌ .

﴿ والأرضِ ذاتِ الصّدْعِ ﴾ فيها أربعة أقاويل :

أحدها : ذات النبات لانصداع الأرض عنه ، قاله ابن عباس .

الثاني : ذات الأودية ، لأن الأرض قد انصدعت بها ، قاله ابن جريج .

الثالث : ذات الطرق التي تصدعها المشاة ، قاله مجاهد .

الرابع : ذات الحرث لأنه يصدعها .

ويحتمل خامساً : ذات الأموات ، لانصداعها عنهم للنشور وهذان قسمان :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ على هذا وقع القَسَمُ ، وفي المراد بأنه قول فصل قولان :

أحدهما : ما قدّمه عن الوعيد من قوله تعالى : " إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر " الآية . تحقيقاً لوعيده ، فعلى هذا في تأويل قوله " فَصْل " وجهان :

أحدها : حد ، قاله ابن جبير .

الثاني : عدل ، قاله الضحاك .

(155/811)

القول : ان المراد بالفصل القرآن تصديقاً لكتابه ، فعلى هذا في تاويل قوله " فصل " وجهان :

أحدهما : حق ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما رواه الحارث عن عليّ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كتابِ الله فيه خير ما قبلكم ، وحكم ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، مَنْ تركه مِن جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله " .

﴿ وما هو بالهزْلِ ﴾ وهذا تمام ما وقع عليه القسم ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : باللعب ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : بالباطل ، قاله وكيع والضحاك .

الثالث : بالكذب ، قاله السدي .

﴿ إنّهم يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ يعني أهل مكة حين اجتمعوا في دار الندوة على المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ يَمْكُرُ بك الذين كَفَروا لِيُثْبِتوكَ أو يَقْتلوكَ أو يُخْرِجوكَ ﴾ فقال ها هنا : " إنهم يكيدون كيداً " أي يمكرون مكراً .

﴿ وأكيدُ كَيْداً ﴾ يعني بالانتقام في الآخرة بالنار ، وفي الدنيا بالسيف .

﴿ فمهّلِ الكافرين أَمْهِلْهم رُوَيْداً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : قريباً ، قاله ابن عباس .

الثاني : انتظاراً ، ومنه قول الشاعر :

رُوَيْدك حتى تنطوي ثم تنجلي . . . عمايةُ هذا العارضِ المتأَلِّقِ

الثالث : قليلاً ، قاله قتادة .

قال الضحاك : فقتلوا يوم بدر .

وفي " مهّل " " وأمْهل " وجهان :

أحدهما : أنهما لغتان معناهما واحد .

الثاني : معناهما مختلف ، فمهّل الكف عنهم ، وأمْهِل انتظار العذاب لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 244 . 250 ﴾

(156/811)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾

قال ابن قتيبة : الطارق : النجم ، سمي بذلك ، لأنه يطرق ، أي : يطلع ليلاً ، وكل من أتاك ليلاً ، فقد طرقك .

ومنه قول هند ابنة عتبة :

نحن بنات طارق . . .

نمشي على النمارق

تريد : إن أبانا نجم في شَرَفه وعلوّه .

قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ قال المفسرون : ذلك أن هذا الاسم يقع على كل ما طرق ليلاً ، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدري ما المراد به حتى تبينه بقوله تعالى : ﴿ النجم الثاقب ﴾ يعني : المضيء ، كما بيَّنا في [الصافات : 10] .

وفي المراد بهذا النجم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه زُحَل ، قاله علي رضي الله عنه .

وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال : هو زحل ، ومسكنه في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم ، فإذا أخذت النجومُ أمكنتَها من السماء ، هبط ، فكان معها ، ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة ، فهو طارق حين ينزل ، وطارق حين يصعد .

والثاني : أنه الثريا ، قاله ابن زيد .

والثالث : أنه اسم جنس ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : ﴿ إن كلُّ نفسٍ ﴾ قرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو المتوكل [إنَّ] بالتشديد "كلَّ" بالنصب ﴿ لما عليها حافظ ﴾ وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، وعاصم الجحدري ، وحمزة ، وأبو حاتم عن يعقوب "لمَّا" بالتشديد .

وقرأ الباقون بالتخفيف .

قال الزجاج : هذه الآية جواب القسم ، ومن خفف فالمعنى : لَعَلَيْها حافظ و "ما" لغو .

ومن شدد ، فالمعنى : إلا ، قال : فاستعملت "لما" في موضع "إلا" في موضعين .

أحدهما : هذا .

والآخر : في باب القسم .

تقول : سألتك لما فعلت ، بمعنى : إلا فعلت .

قال المفسرون : المعنى : ما من نفس إلا عليها حافظ .

وفيه قولان .

أحدهما : أنهم الحفظة من الملائكة ، قاله ابن عباس .

قال قتادة : يحفظون على الإنسان عمله من خير أو شر .

والثاني : حافظ يحفظ الإنسان حتى حين يسلِّمه إلى المقادير ، قاله الفراء .

(157/811)

ثم نبه على البعث بقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ ﴾ أي : من أي شيء خلقه الله ؟ والمعنى : فلينظر نظر التفكُّر والاستدلال ليعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادرٌ على إعادته .

قوله تعالى : ﴿ من ماءٍ دافقٍ ﴾ قال الفراء : معناه : مدفوق ، كقول العرب .

سرٌّ كاتم ، وهمٌّ ناصب ، وليلٌ نائم ، وعيشة راضية ، وأهل الحجاز يجعلون المفعول فاعلاً ، قال الزجاج : ومذهب سيبويه ، وأصحابه أن معناه النسب إلى الاندفاق ، والمعنى : من ماءٍ ذي اندفاق .

قوله تعالى : ﴿ يخرج من بين الصلب ﴾ قرأ ابن مسعود ، وابن سيرين ، وابن السميفع ، وابن أبي عبلة "الصلب" بضم الصاد ، واللام جميعاً .

يعني : يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة .

قال الفراء : يريد يخرج من الصلب والترائب .

يقال : يخرج من بين هذين الشيئين خير كثير .

بمعنى : يخرج منهما .

وفي "الترائب" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه موضع القلادة ، قاله ابن عباس .

قال الزجاج : قال أهل اللغة أجمعون : الترائب : موضع القلادة من الصدر ، وأنشدوا لامرىء القيس :

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ . . .

تَرائِبُها مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : السجنجل : المرآة بالرومية .

وقيل : هي سبيكة الفضة ، وقيل : السجنجل : الزعفران ، وقيل : ماء الذهب .

ويروى : البيت "بالسجنجل" .

والثاني : أن الترائب : اليدان والرجلان والعينان ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال

الضحاك .

والثالث : أنها أربعة أضلاع من يمنة الصدر ، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ الهاء كناية عن الله عز وجل ﴿ على رجعه ﴾ الرجع : رد الشيء إلى أول حاله .

وفي هذه الهاء قولان .

أحدهما : أنها تعود على الإنسان .

ثم فيه قولان .

أحدهما : أنه على إعادة الإنسان حياً بعد موته قادر ، قاله الحسن ، وقتادة .

قال الزجاج : ويدل على هذا القول قوله تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ .

(158/811)

والثاني : أنه على رجعه من حال الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة قادر ، قاله الضحاك .

والقول الثاني : أنها تعود إلى الماء .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : رد الماء في الإحليل ، قاله مجاهد .

والثاني : على رده في الصلب ، قاله عكرمة ، والضحاك .

والثالث : على حبس الماء فلا يخرج ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ التي بين العبد وبين ربه حتى يظهر خيرها من شرها ، ومؤدِّيها من مضيِّعها ، فإن الإنسان مستور في الدنيا ، لا يُدري أصلى ، أم لا ؟ أتوضأ ، أم لا ؟ فإذا كان يوم القيامة أبدى الله كل سِرٍّ ، فكان زَيْناً في الوجه ، أو شَيْناً .

وقال ابن قتيبة : تُخْتَبَرُ سرائر القلوب .

قوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ﴾ أي : فما لهذا الإنسان المنكر للبعث من قوة يمتنع بها من عذاب الله ﴿ ولا ناصر ﴾ ينصره .

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات الرَّجع ﴾ أي : ذات المطر ، وسمي المطر رجعاً لأنه يجيء ويرجع ويتكرَّر ﴿ والأرض ذات الصَّدْع ﴾ أي : ذات الشقّ .

وقيل لها هذا ، لأنها تتصدَّع وتتشقَّق بالنبات ، هذا قول المفسرين وأهل اللغة في الحرفين .

قوله تعالى : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ يعني به القرآن ، وهذا جواب القسم .

والفصل : الذي يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿ وما هو بالهَزْل ﴾ أي : باللَّعِب .

والمعنى : إنه جِدٌّ ، ولم ينزل باللَّعِب .

وبعضهم يقول : الهاء ، في "إنه" كناية عن الوعيد المتقدم ذكره .

قوله تعالى : ﴿ إنهم ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ يكيدون كيداً ﴾ [أي : يحتالون] وهذا الاحتيال المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم حين اجتمعوا في دار الندوة ، ﴿ وأكيد كيداً ﴾ أي : أُجازيهم [على كيدهم] بأن أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، فأنتقم منهم في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالنار .

﴿ فمهِّل الكافرين ﴾ هذا وعيد من الله لهم .

ومَهِّل وأَمْهِل لغتان جمعتا هاهنا .

(159/811)

ومعنى الآية : مهِّلهم قليلاً حتى أهلكهم ، ففعل الله ذلك بِبَدْر ، ونسخ الإمهال بآية السيف .

قال ابن قتيبة : ومعنى "رويداً" مهلاً ، ورويدَك بمعنى أمهل .

قال تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ أي : أمهلهم قليلاً ، فإذا لم يتقدمها "أمهلهم" كانت بمعنى "مهلاً" .

ولا يتكلم بها إلا مصغرة ومأموراً بها ، وجاءت في الشعر بغير تصغير في غير معنى الأمر .

قال الشاعر :

كأنها مِثْلُ مَنْ يمشي على رُودِ . . .

أي : على مهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 80.85 ﴾

(160/811)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والسماء والطارق ﴾

قيل نزلت في أبي طالب وذلك أنه أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأتحفه بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأ ماء ثم ناراً ففزع أبو طالب ، وقال : أي شيء هذا فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " هذا نجم رمي به ، وهو آية من آيات الله " ، فعجب أبو طالب فأنزل الله والسماء والطارق يعني النجم يظهر بالليل ، وكل ما أتاك بالليل فهو طارق ، ولا يسمى ذلك بالنهار ، وسمي النجم طارقاً لأنه يطرق بالليل قالت هند :

نحن بنات طارق . . .

نمشي على النمارق

تريد أن أباها نجم في علوه وشرفه .

﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ قيل لم يكن (صلى الله عليه وسلم) يعرفه ، حتى بينه الله له بقوله ﴿ النجم الثاقب ﴾ ، أي المضيء المنير ، وقيل المتوهج ، وقيل المرتفع العالي ، وقيل هو الذي يرمى به الشيطان فيثقبه أي ينفذه ، وقيل النجم الثاقب هو الثريا لأن العرب تسميها النجم ، وقيل هو زحل سمي بذلك لارتفاعه ، وقيل هو كل نجم يرمى به الشيطان لأنه يثقبه فينفذه ، وهذه أقسام أقسم الله بها ، وقيل تقديره ورب هذه الأشياء وجواب القسم

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ ، يعني أن كل نفس عليها حافظ من ربها يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر ، قال ابن عباس : هم الحفظة من الملائكة ، وقيل حافظ من الله تعالى يحفظها ، ويحفظ قولها ، وفعلها ، حتى يدفعها ويسلمها إلى المقادير ، ثم يحل عنها ، وقيل يحفظها من المهالك والمعاطب إلا ما قدر لها .

(161/811)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ يعني نظر تفكر واعتبار ﴿ مم خلق ﴾ أي من أيّ شيءٍ خلقه ربه ، ثم بيّن ذلك فقال تعالى : ﴿ خلق من ماء ﴾ يعني من مني ﴿ دافق ﴾

، أي مدفوق مصبوب في الرحم ، وأراد به ماء الرجل ، وماء المرأة ، لأن الولد مخلوق منهما وإنما جعله واحداً لامتزاجهما ﴿ يخرج ﴾ يعني ذلك الماء وهو المني ، ﴿ من بين الصلب والترائب ﴾ يعني صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهي عظام الصدر والنحر .

قال ابن عباس : هي موضع القلادة من الصدر ، وعنه أنها بين ثديي المرأة ، قيل إن المني ، يخرج من جميع أعضاء الإنسان ، وأكثر ما يخرج من الدماغ ، فينصب في عرق في ظهر الرجل ، وينزل في عروق كثيرة من مقدم بدن المرأة ، وهي الترائب ، فلهذا السبب خصَّ الله تعالى ، هذين العضوين بالذكر ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ يعني إن الله تعالى قادر على أن يرد النطفة في الإحليل ، وقيل قادر على رد الماء في الصلب الذي خرج منه ، وقيل قادر على رد الإنسان ماء كما كان من قبل ، وقيل معناه إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ومن الصبا ، إلى النطفة وقيل إنَّه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر ، وقيل معناه إن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء قادر على إعادته حياً بعد موته ، وهو أهون عليه ، وهذا القول هو الأصح ، والأولى بمعنى الآية لقوله تعالى بعده ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وذلك يوم القيامة .

قيل معناه تظهر الخبايا .

وقيل معنى تبلى تختبر ، وقيل السرائر هي فرائض الأعمال كالصوم ، والصلاة ، والوضوء ، والغسل من الجنابة ، فكل هذه سرائر بين العبد وبين ربّه عزّ وجلّ وذلك لأن العبد قد يقول

صليت ولم يصلِّ ، وصمت ولم يصم ، واغتسلت ولم يغتسل ، فإذا كان يوم القيامة يختبر حتى يظهر من أداها ومن ضيعها .

(162/811)

قال عبد الله بن عمر : يبدي الله تعالى يوم القيامة كل سر ، فيكون زيناً في وجوه وشيناً في وجوه ، يعني من أدى الفرائض كما أمر كان وجهه مشرقاً ، مستنيراً يوم القيامة ، ومن ضيعها أو انتقص منها كان وجهه أغبر .

﴿ فما له ﴾ أي لهذا الإنسان المنكر البعث .

﴿ من قوة ﴾ أي يمتنع بها من عذاب الله ﴿ ولا ناصر ﴾ أي ينصره من الله ، ثم ذكر قسماً آخر فقال تعالى ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ أي ذات المطر ، سمي به لأنه يجيء ويرجع ويتكرر ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ أي تتصدع وتنبثق عن النبات ، والشجر ، والأنهار ، وجواب القسم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّه ﴾ يعني القرآن ﴿ لقول فصل ﴾ أي إنه لحق وجد يفصل بين الحق والباطل .

﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي باللعب والباطل .

﴿ إنهم ﴾ يعني مشركي مكة ، ﴿ يكيدون كيداً ﴾ يعني يحتالون بالمكر بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيه .

﴿ وأكيد كيداً ﴾ يعني أجازيهم على كيدهم بأن استدرجهم من حيث لا يعلمون فأنتقم منهم في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالنار ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي لا تستعجل ولا تدع بهلاكهم .

قال ابن عباس : هذا وعيد لهم من الله ، ثم لَمَّا أمره بإمهالهم بيّن أن ذلك الإمهال قليل .

فقال تعالى : ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ يعني قليلاً ، فأخذهم الله يوم بدر ونسخ الإمهال بآية السيف ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 234.232 ﴾

(163/811)

وقال النسفى :

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والسماء والطارق * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق * النجم الثاقب ﴾

عظم قدر السماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم ومسكن ملائكته ، وفيها خلق الجنة فأقسم بها وبالطارق والمراد جنس النجوم ، أو جنس الشهب التي يرجم بها لعظم منفعتها ، ثم فسره بالنجم الثاقب أي المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، ووصف بالطارق لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتي ليلاً طارق ، أو لأنه يطرق الجني أي يصكه .

وجواب القسم ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ لأن ﴿ لَّمَّا ﴾ إن كانت مشددة بمعنى "إلا" كقراءة عاصم وحمزة وابن عامر فتكون "إن" نافية أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وإن كانت مخففة كقراءة غيرهم فتكون "إن" مخففة من الثقيلة أي إن كل نفس لعليها حافظ يحفظها من الآفات ، أو يحفظ عملها ورزقها وأجلها ، فإذا استوفى ذلك مات .

وقيل : هو كاتب الأعمال ف "ما" زائدة واللام فارقة بين الثقيلة والخفيفة ، و ﴿ حَافِظٌ ﴾ مبتدأ و ﴿ عَلَيْهَا ﴾ الخبر ، والجملة خبر ﴿ كُلُّ ﴾ وأيتهما كانت فهي مما يتلقى به القسم .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أمره بالنظر في أول أمره ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه فيعمل ليوم الجزاء ولا يملي على حافظه إلا ما يسرّه في عاقبته .

و﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ استفهام أي من أي شيء خلق جوابه ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ والدفق : صب فيه دفع .

والدفق في الحقيقة لصاحبه والإسناد إلى الماء مجاز .

وعن بعض أهل اللغة : دفقت الماء دفقاً : صببته ودفق الماء بنفسه أي انصب .

ولم يقل من ماءين لامتزاجهما في الرحم واتحادهما حين ابتدىء في خلقه ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ من صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة .

(164/811)

وقيل : العظم والعصب من الرجل واللحم والدم من المرأة ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن الخالق لدلالة خلق عليه ومعناه إن الذي خلق الإنسان ابتداء من نطفة ﴿ على رَجْعِهِ ﴾ على إعادته خصوصاً ﴿ لَقَادِرٌ ﴾ لبيّن القدرة لا يعجز عنه كقوله : إنني لفقير أي لبيّن الفقر .

ونصب ﴿ يَوْمَ تبلى ﴾ أي تكشف برجعه أو بمضمر دل عليه قوله ﴿ رَجْعِهِ ﴾ أي يبعثه يوم تبلى ﴿ السرائر ﴾ ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وما أخفى من الأعمال ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ فما للإنسان ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ في نفسه على دفع ما حل به ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ يعينه

ويدفع عنه .

﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ أي المطر وسمي به لعوده كل حين ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات ﴿ إِنَّهُ ﴾ إن القرآن ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان ﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ باللعب والباطل يعني أنه جد كله ومن حقه ، وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور معظماً في القلوب ، يرتفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ يعملون المكايد في إبطال أمر الله وأطفاء نور الحق ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ وأجازيهم جزاء كيدهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون فسمي جزاء الكيد كيداً كما سمي جزاء الاعتداء والسيئة اعتداء وسيئة وإن لم يكن اعتداء وسيئة ، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلا على وجه الجزاء كقوله :

﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] ﴿ يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : 142] ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 15] ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ أي لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ أنظرهم فكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ﴿ رُوَيْداً ﴾ مهلاً يسيراً ولا يتكلم بها إلا مصغّرة وهي من رادت الريح ترود روداً تحركت حركة ضعيفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 347 .

﴿ 348 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة الطارق

﴿ والسمآء والطارق ﴾

هذه السماء التي أقسم الله بها هي المعروفة . وقيل : أراد المطر لأن العرب قد تسميه سماء ، وهذا بعيد والطارق في اللغة ما يطرق أي يجيء ليلاً ، وقد فسره الله هنا بأنه النجم الثاقب وهو يطلع ليلاً ، ومعنى الثاقب : المضيء أو المرتفع ، فقيل : أراد جنس النجوم وقيل : الثريا لأنه الذي تطلق عليه العرب النجم ، وقيل : زحل ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ هذا جواب القسم ومعناه عند الجمهور : أن كل نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها ، يعني : الملائكة الحفظة وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية : أن لكل نفس حفظة من الله يذبون عنها كما يذب عن العسل ، ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الآفات والشياطين " وإن صح هذا الحديث فهو المعوّل عليه . وقرئ لما عليها بتخفيف الميم ، وعلى هذا تكون إن مخففة من الثقيلة واللام للتأكيد وما زائدة وقرئ لما بالتشديد وعلى هذا تكون إن نافية ولما بمعنى الايجاب بعد النفي .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ حذف ألف ما لأنها استفهامية وجوابها خلق من ماء دافق ، وسمي المني ماء دافقاً من الدفق ، بمعنى الدفع ، فقيل : معناه مدفوق وصاحبه هو الدافق في الحقيقة قال سيبويه : هو على النسب أي ذو دفق ، وقال ابن عطية : يصح أن يكون الماء دافقاً لأن بعضه يدفع بعضاً ، ومقصود الآية إثبات الحشر ، فأمر الإنسان أن ينظر أصل خلقته ليعلم أن الذي خلقه من ماء دافق قادر على أن يعيده ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أنه لما أخبر أن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها بالتنبيه على الحشر حيث تجازى كل نفس بأعمالها ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ الضمير في يخرج للماء وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون للإنسان ، وهذا بعيد جداً والترائب : عظام الصدر واحدها : تربية وقيل : هي الأطراف كاليدين والرجلين ، وقيل : هي عصارة القلب ، ومنها يكون الولد ، وقيل : هي الأضلاع التي أسفل الصلب ، والأول هو الصحيح المعروف في اللغة ، ولذلك قال ابن عباس : هي موضع القلادة ما بين ثديي المرأة ، ويعني صلب الرجل وترائبه وصلب المرأة وترائبها ، وقيل : أراد صلب الرجل وترائب المرأة ﴾

إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ الضمير في إنه لله تعالى وفي رجعه للإنسان ، والمعنى : أن الله قادر على رجع الإنسان حياً بعد موته ، والمراد إثبات البعث .

(167/811)

﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ يعني : القيامة ، والسرائر جمع سريرة وهي ما أسرّ العبد في قلبه من العقائد والنيات ، وما أخفى من الأعمال وبلاؤها هو تعرّفها والاطلاع عليها ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن السرائر الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة وهذه معظمها . فلذلك خصّها بالذكر ، والعامل في يوم قوله : رجعه أي يرجعه يوم تبلى السرائر ، واعترض بالفصل بينهما . وأجيب بقوة المصدر في العمل ، وقيل : العامل قادر واعترض بتخصيص القدرة بذلك اليوم ، وهذا لا يلزم لأن القدرة وإن كانت مطلقة فقد أخبر الله أن البعث إنما يقع في ذلك اليوم . وقال من احترز من الاعتراضين في القولين المتقدمين : العامل فعل مضمر من المعنى تقديره : يرجعه يوم تبلى السرائر ، وهذا كله على المعنى الصحيح في رجعه ، وأما على الأقوال الأخر فالعامل في يوم مضمر تقديره : اذكر ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ الضمير للإنسان ، ولما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان أو بنصرة غيره له أخبره الله أنه يعدمها يوم القيامة ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع ﴾ المراد بالرجع عند الجمهور

المطر وسماه رجعاً بالمصدر ، لأنه يرجع كل عام أو لأنه يرجع إلى الأرض ، وقيل : الرجع السحاب الذي فيه المطر ، وقيل : هو مصدر رجوع الشمس والكواكب من منزلة إلى منزلة ﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ يعني ما تصدع عنه الأرض من النبات ، وقيل : يعني ما في الأرض من الشقاق والخنادق وشبهها ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ الضمير للقرآن ، لأن سياق الكلام يقتضيه ، والفصل معناه الذي فصل بين الحق والباطل كما قيل له : فرقان . والهزل : اللهو يعني أن جِدَّ كله .

(168/811)

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ الضمير لكفار قريش ، وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإضرار به وإبطال أمره ﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ هذا تسيمة للعقوبة باسم الذنب ، للمشاكلة بين الفعلين ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ أي لا تستعجل عليهم بالعقوبة لهم أو بالدعاء عليهم ، وهذا منسوخ بالسيف ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ أي إمهالاً يسيراً قليلاً يعني إلى قتلهم يوم بدر ، أو إلى الدار الآخرة ، وجعله يسيراً ، لأن كل آتٍ قريب ، ولفظ رويداً هذا صفة لمصدر محذوف ، وقد تقع بمعنى الأمر بالتساهل كقولك : رويداً يا فلان ،

وكرّر الأمر في قوله : أمهلهم وخالف بينه وبين لفظ مهل لزيادة التسكين والتصبير ، قاله الزمخشري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 191.192 ﴾

(169/811)

وقال البيضاوى :

سورة الطارق

مكية وآيها سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والسماء والطارق ﴾

والكوكب البادي بالليل وهو في الأصل لسالك الطريق ، واختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي فيه .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطارق الطارق النجم الثاقب ﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، أو الأفلاك والمراد الجنس أو معهود بالثقب وهو زحل ، عبر عنه أولاً بوصف عام ثم فسره بما يخصه تفخيماً لشأنه .

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا ﴾ أي إن الشان كل نفس لعليها . ﴿ حَافِظٌ ﴾ رقيب فإن هي

المخففة واللام الفاصلة وما مزيدة . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما على أنها بمعنى الأوان نافية ، والجملة على الوجهين جواب القسم .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ لما ذكر أن كل نفس عليها حافظ اتبعه توصية الإنسان بالنظر في مبدئه ليعلم صحة إعادته فلا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته .

﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ جواب الاستفهام و﴿ مَاء ﴾ بمعنى ذي دفق ، وهو صعب فيه دفع والمراد الممتزج من الماءين في الرحم لقوله :

﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام صدرها ، ولو صح أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء ، ومقرها عروق ملتف بعضها بالبعض عند البيضتين ، فلا شك أن الدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها ، ولذلك تشبهه ، ويسرع الإفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع ! وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب ، وهما أقرب إلى أوعية المني فلذلك خصّا بالذكر . وقرىء "الصلب" بفتحتين و" الصلب" بضمتين وفيه لغة رابعة وهي "صالب" .

﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ والضمير للخالق ويدل عليه ﴿ خُلِقَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ تتعرف ويميز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال وما خبث منها ، وهو ظرف ل ﴿ رَجْعِهِ ﴾ .

﴿ فَمَا لَهُ ﴾ فما للإنسان . ﴿ مِن قُوَّةٍ ﴾ من منعة في نفسه يمتنع بها . ﴿ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ يمنعه .

﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك عنه ، وقيل الرجع المطر سمي به كما سمي أوباً لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً ، أو لما قيل من أن السحاب يحمل الماء من البحار ثم يرجعه إلى الأرض ، وعلى هذا يجوز أن يراد ب ﴿ السماء ﴾ السحاب .

﴿ والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ ما تتصدع عنه الأرض من النبات أو الشق بالنبات والعيون .

﴿ إِنَّهُ ﴾ إن القرآن . ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ فاصل بين الحق والباطل .

﴿ وَمَا هوَ بالهزل ﴾ فإنه جد كله .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني أهل مكة . ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ في إبطاله وإطفاء نوره .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ وأقابلهم بكيد في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون .

﴿ فَمَهِّلِ الكافرين ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم ، أو لا تستعجل بإهلاكهم . ﴿ أَمْهِلْهُمْ

رُوَيْداً ﴾ أمهالاً يسيراً والتكرير وتغيير البنية لزيادة التسكين .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بكل نجم في السماء عشر حسنات " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 476.478 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(171/811)

وقال أبو حيان :

سورة الطارق

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) ﴾

﴿ والسماء ﴾ : هي المعروفة ، قاله الجمهور .

وقيل : السماء هنا المطر ، ﴿ والطارق ﴾ : هو الآتي ليلاً ، أي يظهر بالليل .

وقيل : لأنه يطرق الجني ، أي يصكه ، من طرقت الباب إذا ضربته ليفتح لك .

أتى بالطارق مقسماً به ، وهي صفة مشتركة بين النجم الثاقب وغيره .

ثم فسره بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ ، إظهاراً لفخامة ما أقسم به لما علم فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة ، وتنبيهاً على ذلك .

كما قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ وقال ابن عطية : معنى الآية : والسماء وجميع ما يطرق فيه من الأمور والمخلوقات .

ثم ذكر بعد ذلك ، على جهة التنبيه ، أجل الطارقات قدراً وهو النجم الثاقب ، وكأنه قال : وما أدراك ما الطارق حتى الطارق ، انتهى .

فعلى هذا يكون ﴿ النجم الثاقب ﴾ بعضاً مما دل عليه ﴿ والطارق ﴾ ، إذ هو اسم جنس يراد به جميع الطوارق .

وعلى قول غيره : يراد به واحد مفسر بالنجم الثاقب .

والنجم الثاقب عند ابن عباس : الجدي ، وعند ابن زيد : زحل .

وقال هو أيضاً وغيره : الثريا ، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم النجم .

وقال علي : نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم ، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ، ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة ، فهو طارق حين ينزل ، وطارق حين يصعد .

وقال الحسن : هو اسم جنس لأنها كلها ثواقب ، أي ظاهرة الضوء .

وقيل : المراد جنس النجوم التي يرمى بها ويرجم .

والثاقب ، قيل : المضيء ؛ يقال : ثقب يثقب ثقوباً وثقابة : أضاء ، أي يثقب الظلام بضوئه .

وقيل : المرتفع العالي ، ولذلك قيل هو زحل لأنه أرقها مكاناً .

وقال الفراء : ثقب الطائر ارتفع وعلا .

(172/811)

وقرأ الجمهور : إن خفيفة ، كل رفعاً لما خفيفة ، فهي عند البصريين مخففة من الثقيلة ، كل مبتدأ واللام هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن المخففة ، وما زائدة ، وحافظ خبر المبتدأ ، وعليها متعلق به .

وعند الكوفيين : إن نافية ، واللام بمعنى إلا ، وما زائدة ، وكل حافظ مبتدأ وخبر ؛ والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو .

وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وعاصم وابن عامر وحمزة وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما : لما مشددة وهي بمعنى إلا ، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم .

تقول العرب : أقسمت عليك لما فعلت كذا : أي إلا فعلت ، قاله الأخفش .

فعلى هذه القراءة يتعين أن تكون نافية ، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ .

وحكى هارون أنه قرئ : إن بالتشديد ، كل بالنصب ، فاللام هي الداخلة في خبر إن ، وما زائدة ، وحافظ خبر إن ، وجواب القسم هو ما دخلت عليه إن ، سواء كانت

المخففة أو المشددة أو النافية ، لأن كلاً منها يتلقى به القسم ؛ فتلقيه بالمشددة مشهور ، وبالمخففة

﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ وبالنافية ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما ﴾ وقيل : جواب القسم ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ ، وما بينهما اعتراض ، والظاهر عموم كل نفس .

وقال ابن سيرين وقتادة وغيرهما : ﴿ إن كل نفس ﴾ مكلفة ، ﴿ عليها حافظ ﴾ : يحصي أعمالها ويعدها للجزاء عليها ، فيكون في الآية وعيد وزاجر وما بعد ذلك يدل عليه .

وقيل : حفظة من الله يذبون عنها ، ولو وكل المرء إلى نفسه لاختطفته الغير والشياطين .

وقال الكلبي والفراء : حافظ من الله يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير .

وقيل : الحافظ : العقل يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره .

وقيل : حافظ مهيمن ورقيب عليه ، وهو الله تعالى .

ولما ذكر أن كل نفس عليها حافظ ، أتبع ذلك بوصية الإنسان بالنظر في أول نشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل لذلك ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته .

(173/811)

و ﴿ مم خلق ﴾ : استفهام ، ومن متعلقة بخلق ، والجملة في موضع نصب ب فلينظر ، وهي معلقة .

وجواب الاستفهام ما بعده وهو : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ ، وهو مني الرجل والمرأة لما امتزجا في الرحم واتحدا عبر عنهما بماء ، وهو مفرد ، ودافق قيل : هو بمعنى مدفوق ، وهي قراءة زيد بن عليّ .

وعند الخليل وسيبويه : هو على النسب ، كلابن وتامر ، أي ذي دفق .

وعن ابن عباس : بمعنى دافق لزج ، وكأنه أطلق عليه وصفه لا أنه موضوع في اللغة لذلك ، والدفق : الصب ، فعله متعد .

وقال ابن عطية : والدفق : دفع الماء بعضه ببعض ، تدفق الوادي والسيل إذا جاء يركب بعضه بعضاً .

ويصح أن يكون الماء دافقاً ، لأن بعضه يدفع بعضاً ، فمنه دافق ومنه مدفوق ، انتهى .

وركب قوله هذا على تدفق ، وتدفق لازم دفقته فتدفق ، نحو : كسرته فتكسر ، ودفق ليس في اللغة معناه ما فسر من قوله : والدفق دفع الماء بعضه ببعض ، بل المحفوظ أنه الصب .

وقرأ الجمهور : ﴿ يخرج ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ من بين الصلب ﴾ : بضم الصاد وسكون

اللام ؛ وابن أبي عبلة وابن مقسم : مبنياً للمفعول ، وهما وأهل مكة وعيسى : بضم الصاد واللام ؛ واليماني : بفتحهما .

قال العجاج :

في صلب مثل العنان المؤدم . . .

وتقدمت اللغات في الصلب في سورة النساء ، وإعرابها صالب كما قال العباس :

تنقل من صالب إلى رحم . . .

قال قتادة والحسن : معناه من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترائبه .

وقال سفيان وقتادة أيضاً : من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وتقدم شرح الترائب في المفردات .

وقال ابن عباس : موضع القلادة ؛ وعن ابن جبير : هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب .

وقيل : ما بين المنكبين والصدر .

وقيل : هي التراقي ؛ وعن معمر : هي عصارة القلب ومنه يكون الولد .

ونقل مكي عن ابن عباس أن الترائب أطراف المرء ، رجلاه ويداه وعيناه .

قال ابن عطية : وفي هذه الأحوال تحكم على اللغة ، انتهى .

﴿ إنه ﴾ : الضمير يعود على الخالق الدال عليه خلق .

﴿ على رجعه ﴾ ، قال ابن عباس وقتادة : الضمير في رجعه عائد على الإنسان ، أي على رده حياً بعد موته ، أي من أنشأه أولاً قادر على بعثه يوم القيامة لا يعجزه شيء .

وقال الضحاك : على رده من الكبر إلى الشباب .

وقال عكرمة ومجاهد : الضمير عائد على الماء ، أي على رد الماء في الإحليل أو في الصلب .

وعلى هذا القول وقول الضحاك يكون العامل في ﴿ يوم تبلى ﴾ مضمر تقديره اذكر .

وعلى قول ابن عباس ، وهو الأظهر ، فقال بعض النحاة : العامل ناصر من قوله : ﴿ ولا ناصر ﴾ ، وهذا فاسد لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وكذلك ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها على المشهور المنصور .

وقال آخرون ، ومنهم الزمخشري : العامل رجعه ورد بأن فيه فصلاً بين الموصول ومتعلقه ، وهو من تمام الصلة ، ولا يجوز .

وقال الحذاق من النحاة : العامل فيه مضمر يدل عليه المصدر تقديره : يرجعه يوم تبلى السرائر .

قال ابن عطية : وكل هذه الفرق فرت من أن يكون العامل لقادر ، لأنه يظهر من ذلك تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده .

وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون المعنى لقادر ، وذلك أنه قال : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ على الإطلاق أولاً وآخراً وفي كل وقت .

ثم ذكر تعالى وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب ليجتمع الناس إلى حذره والخوف منه ، انتهى .

﴿ تبلى ﴾ قيل : تختبر ، وقيل : تعرف وتتصفح وتميز صالحها من فاسدها ، و ﴿ السرائر ﴾ : ما أكنته القلوب من العقائد والنيات ، وما أخفته الجوارح من الأعمال ، والظاهر عموم السرائر .

وفي الحديث : إنها التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة ، وكان المذكور في الحديث هو أعظم السرائر ، وسمع الحسن من ينشد :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا . . .

سريرة ودّ يوم تبلى السرائر

فقال : ما أغفله عما في السماء والطارق ، والبيت للأحوص .

(175/811)

ولما كان الامتناع في الدنيا إما بقوة في الإنسان ، وإما بناصر خارج عن نفسه ، نفى عنه تعالى ما يمتنع به وأتى بمن الدالة على العموم في نفي القوة والناصر .

﴿ والسماء ﴾ : أقسم ثانياً بالسماء وهي المظلة .

قيل : ويحتمل أن يكون السحاب .

﴿ ذات الرجع ﴾ ، قال ابن عباس : الرجع : السحاب فيه المطر .

وقال الحسن : ترجع بالرزق كل عام .

وقال ابن زيد : الرجع مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ومن منزلة إلى منزلة ، تذهب وترجع ، وقيل : الرجع : المطر ، ومنه قول الهذلي :

أبيض كالرجع رسوب إذا . . .

ما ناح في محتفل يختلي

يصف سيفاً شبهه بماء المطر في بياضه وصفائه ، وسمي رجعاً كما سمي إرباً ، قال الشاعر :

ربا شمالاً يأوي لقلتها . . .

إلا السحاب وإلا الإرب والسبل

تسمية بمصدر آب ورجع .

تزعم العرب أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض إذا أرادوا

التفاؤل ، وسموه رجعاً وإرباً ليرجع ويؤب .

وقيل : لأن الله تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً ، قالت الخنساء :

كالرجع في الموجنة السارية . . .

وقيل : الرجع : الملائكة ، سموا بذلك لرجوعهم بأعمال العباد .

وقيل : السحاب ، والمشهور عند أهل اللغة وقول الجمهور : أن الرجع هو المطر ، والصدع :

ما تتصدع عنه الأرض من النبات ، ويناسب قول من قال : الرجع : المطر .

وقال ابن زيد : ذات الانشقاق : النبات .

وقال أيضاً : ذات الحرث .

وقال مجاهد : الصدع : ما في الأرض من شقاق ولصاب وخندق وتشقق بحرث وغيره ،

وهي أمور فيها معتبر ، وعنه أيضاً : ذات الطرق تصدعها المشاة .

وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم يوم النشور .

والضمير في ﴿ إنه ﴾ ، قالوا عائد على القرآن .

﴿ فصل ﴾ أي فاصل بين الحق والباطل ، كما قيل له فرقان .

(176/811)

وأقول : ويجوز أن يعود الضمير في ﴿ إنه ﴾ على الكلام الذي أخبر فيه ببعث الإنسان يوم القيامة ، وابتلاء سرائره : أي إن ذلك القول قول جزم مطابق للواقع لا هزل فيه ، ويكون الضمير قد عاد على مذكور ، وهو الكلام الذي تضمن الأخبار عن البعث ، وليس من الأخبار التي فيها هزل بل هو جد كله .

﴿ إنهم ﴾ : أي الكافرون ، ﴿ يكيدون ﴾ : أي في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق ، ﴿ وأكيد ﴾ : أي أجازيهم على كيدهم ، فسمى الجزاء كيداً على سبيل المقابلة ، نحو قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ ﴿ إنما نحن مستهزءون ﴾ ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ ثم أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ : أي انتظر عقوبتهم ولا تستعجل ذلك ثم أكد أمره فقال : ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ : أي إمهالاً لما كرر الأمر توكيداً خالف بين اللفظين ، على أن الأول مطلق ، وهذا الثاني مقيد بقوله : ﴿ رويداً ﴾ .

وقرأ ابن عباس : مهلهم ، بفتح الميم وشدّ الهاء موافقة للفظ الأمر الأول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(177/811)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) ﴾

(178/811)

التفسير : إنه سبحانه أكثر في كتابه الكريم الأقسام بالسمويات لأن أحوالها في مطالعها ومغاربها ومسيراتها عجيبة . أما الطارق فهو كل ما ينزل بالليل ولهذا جاء في الحديث التعوّذ من طوارق الليل . وذكر طروق الخيال في أشعار العرب كثير لأن تلك الحالة تحصل في الأغلب ليلاً ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي الرجل أهله طروقاً . ثم إنه تعالى بين أنه أراد بالطارق في الآية ﴿ النجم الثاقب ﴾ أي هو طارق عظيم الشأن رفيع القدر وهو جنس النجم الذي يهتدى به في ظلمات البحر والبر . قال علماء اللغة : سمي ثاقباً لأنه يثقب الظلام بضوئه كما سمي دريا ًلأن يدرأوه أي يدفعه ، أو لأنه يطلع من المشرق نافذاً في الهواء كالشيء الذي يثقب الشيء ، أو لأنه إذا رمي به الشيطان ثقبه أي نفذ فيه وأحرقه . وقد خصه بعضهم بزحل لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات . وقال ابن زيد : هو الثريا . وروى أن أبا طالب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأتحفه بخبز ولبن ، فبينما هو جالس يأكل إذا انحط نجم فامتلأ ما ثم نوراً ًففزع أبو طالب وقال : أيّ شيء هذا ؟ فقال

صلى الله عليه وسلم : هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله فعجب أبو طالب ونزلت السورة . من قرأ ﴿ لما ﴾ مشدّدة بمعنى " إلا " ف " إن " نافية . ومن قرأها مخففة على أن " ما " صلة كالتي في قوله ﴿ فبما رحمة ﴾ [آل عمران : 159] ف " إن " مخففة من المثقلة . والآية على التقديرين جواب القسم . والحافظ هو الله أو الملك الذي يحصي أعمال العباد كقوله ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : 10] أو الذي يحفظ الإنسان من المكاره حتى يسلمه إلى القبر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين " أو الذي يحفظ عليه رزقه وأجله حتى يستوفيهما . وحين ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوصيته للإنسان بالنظر في مبدئه ومعاده .

(179/811)

والدفق صب فيه دفع ، ولا شك أن الصب فعل الشخص فهو من الإسناد المجازي أو على النسبة أي ماء ذي دفق كما مر في ﴿ عيشة راضية ﴾ [الحاقة : 21] ومعنى خروجه من بين الصلب والترائب أن أكثره ينفصل من هذين الموضعين لإحاطتهما بسور البدن ، والذي ينفصل من اليدين ومن الدماغ يمر عليهما أيضاً . وطالما أعطى للأكثر حكم الكل

وهذا المعنى يشمل ماء الرجل وماء المرأة ، ويحتمل أن يقال : أريد به ماء الرجل فقط إما بناء على حكم التغليب وإما بناء على مذهب من لا يرى للمرأة ماء ولا سيما دافقاً .

وذهب جم غفير إلى أن الذي يخرج من بين الصلب ومادّته من النخاع الآتي من الدماغ هو ماء الرجل ، والذي يخرج من الترائب وهي عظام الصدر الواحدة تربية هو ماء المرأة . وإنما لم يقل من ماءين لاختلاطهما في الرحم واتحادهما عند ابتداء خلق الجنين . وقد يقال : العظم والعصب من ماء الزجل ، واللحم والدم من ماء المرأة ، وقد ورد في الخبر أن أيّ الماءين علا وغلب فإن الشبه يكون منه . ثم بين قدرته على الإعادة بقوله ﴿ إنه على رجعه ﴾ أي على إعادة الإنسان ﴿ لقادر ﴾ يعني بعد ثبوت قدرته على تكوين الإنسان ابتداء من نطفة حقيرة وجب الحكم بأنه قادر على رجعه . وعن مجاهد أن الضمير في ﴿ رجعه ﴾ يعود إلى الماء والمراد إنه قادر على ردّ الماء إلى الإحليل . وقيل : إلى الصلب والترائب وهذا قول عكرمة والضحاك . وقال مقاتل بن حيان : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة . والقول هو الأول بدليل قوله ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي يمتحن ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وما أخفى من الأعمال الحسنة أو القبيحة ، وحقيقة البلاء في حقه تعالى ترجع إلى الكشف والإظهار كقوله ﴿ ونبلو أخباركم ﴾ [محمد : 31] ويحتمل أن يعود البلاء إلى المكلف كقوله ﴿

هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ [يونس : 30] ومثله قول ابن عمر : يبدي الله يوم القيامة كل سرّ منها

(180/811)

فيكون زيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه . يعني من أدّاها كان وجهه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه مغبراً . ثم نفى القوة الذاتية والقوة العرضية الخارجية عن الإنسان يومئذ بقوله ﴿ فما له من قوّة ولا ناصر ﴾ ثم أكد حقية القرآن الذي فيه هذه البيانات الشافية والمواعظ الوافية فقال ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ أي المطر لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً على سبيل التفاؤل أو زعماً منهم أن السحاب يحمل الماء من البحار ثم يرجعها إليها . والصدع ما تتصدع عنه الأرض من النبات . وقيل : الرجع الشمس والقمر يرجعان بعد مغيبهما ، والصدع الجبلان بينهما شق وطريق . والضمير في ﴿ إنه ﴾ للقرآن والفصل الفاصل بين الحق والباطل كما قيل له " فرقان " .

(181/811)

وقال القفال : أراد إن هذا الذي أخبرتكم به من قدرتي على الرجع كقدرتي على الإبداء قول حق . ثم أكد حقيته بقوله ﴿ وما هو بالهزل ﴾ لأن البيان الفصل لا يذكر إلا على سبيل الجد والاهتمام بشأنه وأعلاها أن يكون خاشعاً باكياً كقوله ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ [مريم : 58] ثم سلى نبيه وحثه على الصبر الجميل فقال ﴿ إنهم ﴾ يعنى أشراف مكة ﴿ يكيدون كيداً ﴾ في إطفاء نور الحق وذلك بإلقاء الشبهات والطعن في النبوّة والتشاور في قتل النبي صلى الله عليه وسلم كقوله ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ [الأنفال : 30] ﴿ وأكيد كيداً ﴾ سمي جزاء الكيد بالاستدراج والإمهال المؤدي إلى زيادة الإثم الموجبة لشدّة العذاب كيداً . ثم أنتج من ذلك قوله ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به . ثم كرر ذلك المعنى للمبالغة ووصف الإمهال بقوله ﴿ رويداً ﴾ أي سهلاً يسيراً . والتركيب يدل على الرفق والتأني ومنه قولهم في باب أسماء الأفعال " رويد زيداً " أي أروده إرواداً وأرفق به فكأنه سبحانه قال : مهل مهل مهل ثلاث مرات بثلاث عبارات وهذه نهاية الإعجاز . وأجل الإمهال يوم بدر أو يوم القيامة وهذا أولى ليعم التحذير عن مثل سيرتهم ويتم الترغيب في خلاف طريقهم والله المستعان على ما تصفون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 479 .

481 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الطارق

مكية وهي سبع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وإحدى وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ مالك الخلق أجمعين ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ جوده المؤمنين والكافرين

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص رحمته بعباده المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾ قسم أقسم الله تعالى به ، وقد أكثر الله تعالى في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر ؛ لأنّ أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة . ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أبهمه أوّلاً ، ثم عظم القسم به بقوله تعالى:

﴿ وما أدراك ﴾ أي : أعلمك يا أشرف خلقنا ، وإن حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه ﴿ ما الطارق ﴾ وهذا مبتدأ وخبر في محل المفعول الثاني لأدري ، وما بعد ما الأولى خبرها ، وفيه تعظيم لشأن الطارق . وأصله كل آت ليلاً ومنه النجوم لطلوعها ليلاً . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة وابن ذكوان بخلافٍ عنه بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح .

ثم فسر الطارق بقوله تعالى:

﴿ النجم الثاقب ﴾ أي : المضيء لثقبه الظلام بضوئه فينفذ فيه كما قيل : دُرِّيّ لأنه يدرؤه ، أي : يدفعه ، والمراد جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها . وقال محمد بن الحسين : هو زحل . وقال ابن زيد : هو الثريا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الجدي . وقال عليّ : هو نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وحين يرجع .

(183/811)

وفي الصحاح : الطارق النجم الذي يقال له : كوكب الصبح . قال الماوردي : وأصل الطرق الدق ، ومنه سميت المطرقة ، وسمي النجم طارقاً لأنه يطرق الجني أي : يقتله . روي أنّ أبا طالب أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بخبز ولبن فبينما هو جالس يأكل إذا انحط نجم فامتلأت الأرض نوراً ففزع أبو طالب ، وقال : أيّ شيء هذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هذا نجم رمي به وإنه آية من آيات الله تعالى" فعجب أبو طالب فنزلت السورة . وقال مجاهد : الثاقب المتوهج ، وجواب القسم .

﴿ إن كل نفس ﴾ أي : من الأنفس مطلقاً لا سيما نفوس الناس ﴿ لما عليها ﴾ أي :

بخصوصها ﴿ حافظ ﴾ وقرأ ابن عامر وعاصم بتشديد الميم والباقون بتخفيفها تكون مزيدة ، وإن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ، أي : أنه واللام فارقة وعلى تشديدها فإن نافية ، ولما بمعنى إلا . والحافظ : هو المهيمن الرقيب وهو الله تعالى ، ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ (الأحزاب :) ، ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (النساء :) ، أو ملك يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب من خير وشرّ . وروى الزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه كما يذب أحدكم عن قصعة العسل الذباب ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين اختطفته الشياطين . ولما ذكر تعالى أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوصية الإنسان بالنظر في حاله فقال تعالى:

﴿ فلينظر الإنسان ﴾ أي : الآنس بنفسه الناظر في عطفه نظر اعتبار في أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملي على حافظه إلا ما يسرّه في عاقبته . وقوله تعالى : ﴿ مم خلق ﴾ استفهام ، أي : من أيّ شيء ، وجوابه .

﴿ خلق ﴾ أي : الإنسان على أيسر وجه وأسهله بعد خلق أبيه آدم عليه السلام من تراب وأمّه حوّاء رضي الله تعالى عنها من ضلعه . ﴿ من ماء دافق ﴾ أي : مدفوق ، فاعل بمعنى مفعول كقوله تعالى : ﴿ عيشة راضية ﴾ (الحاقة :)

أو دافق على النسب ، أي : ذي دفق أو اندفاق . وقال ابن عطية : يصح أن يكون الماء دافقاً ؛ لأنّ بعضه يدفق بعضاً أي : يدفعه فمنه دافق ومنه مدفوق ، والدفق الصب أي : مصبوب في الرحم ، ولم يقل تعالى من ماءين فإنه من ماء الرجل وماء المرأة ، لأنّ الولد مخلوق منهما لامتزاجهما في الرحم فصارا كالماء الواحد ، واتحادهما حين ابتدئ في خلقه .

﴿ يخرج من بين الصلب ﴾ أي : للرجل وهو عظام الظهر ﴿ والترائب ﴾ أي : للمرأة جمع تريبة وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة ، وعن عكرمة : الترائب ما بين ثدييها ، وقيل : الترائب التراقي ، وقيل : أضلاع الرجل التي أسفل الصدر . وحكى الزجاج : أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر . وقال ابن عادل جاء في الحديث : "أنّ الولد يخلق من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ، ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم . وحكى القرطبي : إنّ ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع في الانثيين ، وهذا لا يعارضه قوله تعالى : ﴿ من بين الصلب والترائب ﴾ لأنه ينزل من الدماغ ثم يجتمع في الانثين قال المهدودي : ومن جعل يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة لضمير للإنسان .

والضمير في قوله تعالى:

﴿ إنه ﴾ للخالق المدلول عليه بخلق لأنه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه وتعالى وفي الضمير

في قوله تعالى : ﴿ على رجعه ﴾ وجهان أحدهما : أنه ضمير الإنسان أي : بعثه بعد موته ﴿ لقادر ﴾ وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، والثاني : أنه ضمير الماء ، أي : رجع المنيّ في الإحليل أو الصلب وهذا قول مجاهد . وعن الضحاك أنّ المعنى : إنه على ردَّ الإنسان في الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الكبر . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج ؛ لقادر . وقال الماوردي : يحتمل أنه قادر على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه إلى الآخرة ؛ لأنّ الكفار يسئلون فيها الرجعة .

(185/811)

وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ منصوب برجعه ومن يجعل الضمير في رجعه للماء وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب ، أو الإحليل وحاله الأولى نصب الظرف بمضمر ، أي : واذكر يوم . ﴿ تبلى ﴾ تختبر وتكشف ، ﴿ السرائر ﴾ أي : ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرهما وما أخفى الأعمال وذلك يوم القيامة وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث . وعن الحسن أنه سمع رجلاً ينشد :

*سيبقى لها في مضمر القلب والحشا

**سريرة ودّ يوم تبلى السرائر*

فقال : ما أغفله عما في والسماء والطارق . وقال عطاء بن رباح : إن السرائر فرائض الأعمال كالصوم والصلاة والوضوء والغسل من الجنابة ، فإنها سرائر بين الله تعالى وبين العبد ، ولو شاء العبد لقال : صمت ولم يصم ، وصليت ، ولم يصل واغتسلت ولم يغتسل فيختبر حتى يظهر من أداها ممن ضيعها . وقال ابن عمر : يبدي الله تعال كل سرّ فيكون زيناً في وجوه ، وشيناً في وجوه . يعني : فمن أدّاها كان وجهه مشرقاً ، ومن لم يؤدها كان وجهه أغبر .

﴿ فما له ﴾ أي : لهذا الإنسان المنكر للبعث الذي أخرجت سرائره . وأعرق في النفي والتعميم فقال تعالى: ﴿ من قوة ﴾ أي : منعة في نفسه يمتنع بها ﴿ ولا ناصر ﴾ أي : ينصره من عذاب الله تعالى فيدفعه عنه . ثم ذكر تعالى قسماً آخر فقال تعالى:

﴿ والسماء ﴾ أي : التي تقدّم الإقسام بها ، وَصَفَها بما يؤكد العلم بالبعث فقال تعالى :

﴿ ذات الرجع ﴾ أي : التي ترجع بالدوران إلى الموضع الذي تتحرك عنه فترجع الأحوال التي كانت ، وتصرّمت من الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب ، والفصول من الشتاء وما فيه من برد ومطر ، والصيف وما فيه من حرّ وصفاء وسكون ، وغير ذلك . وقيل : ذات النفع . وقيل : ذات الملائكة لرجوعهم فيهم بأعمال العبادة . وقيل : ذات المطر لعوده كل حين ، أو لما قيل : من أن السحاب تحمل الماء من البحار ، ثم ترجعه إلى الأرض ، وعلى هذا يجوز أن يراد بالسماء السحاب .

﴿ والأرض ﴾ أي : مسكنكم الذي أنتم ملابسوه ومعاينوه كل وقت . ﴿ ذات الصدع ﴾ أي : تنصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار والعيون ، نظيره : قوله تعالى : ﴿ ثم شققنا شقاً ﴾ (عبس :)

الآية والصدع بمعنى الشق لأنه يصدع الأرض فتنصدع ، به فكأنما قال تعالى : والأرض ذات النبات . وقال مجاهد : ذات الطرق التي تصدعها المشاة ، وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها ، وقيل : ذات الأموات لإصداعهم عنها للنشور . قال الرازي : واعلم أنه تعالى كما جعل كيفية خلقة الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد ، ذكر في هذا القسم كيفية خلقة النبات فقوله تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ كالأب ، وقوله تعالى : ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ كالأمّ وكلاهما من النعم العظام ، لأنّ نعم الدنيا موقوفةٌ على ما ينزل من السماء مكرّراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك .

ثم أردف هذا القسم بالمقسم عليه وهو قوله تعالى:

﴿ إنه لقول فصل ﴾ وفي هذا الضمير قولان أحدهما : ما قاله القفال : وهو أن المعنى : أنّ ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم يوم تبلى السرائر قول فصل وحق . والثاني : أنه

عائد على القرآن ، أي : القرآن فاصل بين الحق والباطل كما قيل له : فرقان . قال الرازي : والأوّل أولى ؛ لأنّ عود الضمير إلى المذكور السالف أولى انتهى . وأكثر المفسرين على الثاني .

والفصل : الحكم الذي ينفصل به الحق من الباطل ، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجزم . ويقال : هذا قول فصل قاطع للشرّ والنزاع معناه جدّ ؛ لقوله تعالى:

(187/811)

﴿ وما هو ﴾ أي : في باطنه ولا ظاهره ﴿ بالهزل ﴾ أي : باللعب والباطل بل هو جدّ كله لا هوادة فيه : ومن حقه وقد وصفه الله تعالى بذلك أن يكون مهيباً في الصدور ، معظماً في القلوب ، يترفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، وأن يلقي ذهنه إلى أنّ جبار السموات والأرض يخاطبه فيأمره وينهاه ، ويعده ويوعده حتى إن لم يستفزه الخوف ، ولم تتبالغ فيه الخشية ، فأدنى أمره أن يكون جاداً غير هازل ، فقد نفى الله تعالى عن المشركين ذلك في قوله تعالى : ﴿ وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ (النجم :)

﴿ والغوا فيه ﴾ (فصلت :)

هذا على عود الضمير للقرآن ، وعلى جعله للأوّل فيكون الشخص خائفاً وجلاً من ذلك

الذي تبلى فيه السرائر .

﴿ إنهم ﴾ أي : الكفار أعداء الله تعالى ﴿ يكيدون كيداً ﴾ أي : يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . واختلف في ذلك الكيد ، فقيل : إلقاء الشبهات كقولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ (الأنعام :)

﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ (يس :)

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ (ص :)

وما أشبه ذلك وقيل : قصدهم قتله لقوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ (الأنفال :)

الآية . وأما قوله تعالى:

﴿ وأكيد ﴾ أي : أنا بإتمام اقتداري ﴿ كيداً ﴾ فاختلف فيه أيضاً ، فقيل : معناه أجازيهم جزاء كيدهم ، وقيل : هو ما أوقع الله تعالى بهم يوم بدر من القتل والأسر ، وقيل : استدراجهم من حيث لا يعلمون ، وقيل : كيد الله تعالى لهم بنصره وإعلاء درجته تسمية لأحد المتقابلين باسم الآخر لقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى :)

. وقول الشاعر:

*ألا لا يجهلن أحد علينا ** فنجهل فوق جهل الجاهلينا *

وكقوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ (التوبة :)

﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (النساء :)

(188/811)

ولما كان هذا معلماً بأنهم عدم لا اعتبار بهم ، قال تعالى مسبباً عنه تهديداً لهم ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي : فمهل يا أشرف الخلق هؤلاء البعداء ، ولا تستعجل بالانتقام ولا بالدعاء عليهم بإهلاكهم فإنا لا نعجل لأنّ العجلة وهي إيقاع الشيء في غير وقته الأليق به نقص .

وقوله تعالى : ﴿ أمهلهم ﴾ تأكيد حسنه مخالفة اللفظ ، أي : أنظرهم ﴿ رويداً ﴾ أي : قليلاً ، وهو مصدر مؤكد لمعنى العامل مصغر ، روداً وأرواداً على الترخيم ، وقد أخذهم الله تعالى ببدر ونسخ الإمهال بالأمر بالجهاد والقتال .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 308.313 ﴾

(189/811)

وقال القاسمي :

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾

أي : المضيء كأنه يثقب ظلمة الليل وينفذ فيه ، فيبصر بنوره ويهتدي به . وسمي طارقاً لأنه يطرق ليلاً أي : يبدو فيه .

قال الشهاب : الطارق من الطرق ، وأصل معناه الضرب بوقع وشدةٍ يسمع لها صوت ، ومنه المطرقة والطريق ؛ لأن السابلة تطرقها ، ثم صار في عرف اللغة اسماً لسالك الطريق ، لتصور أنه يطرقها بقدمه ، واشتهر فيه حتى صار حقيقة . وتسمية الآتي ليلاً طارقاً ؛ لأنه في الأكثر يجد الأبواب مغلقة فيطرقها .

والتعريف في ﴿ النَّجْمُ ﴾ للجنس . وأصل معنى الثقب الخرق ؛ فالثاقب الخارق ، ثم صار بمعنى المضيء ، لتصور أنه ثقب الظلام أو الفلك . وفي إبهامه ثم تفسيره تفخيم لشأنه وتنبيه على الاعتبار والاستدلال به .

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ أي : مهيمن عليها رقيب ، وهو الله تعالى ، كما في آية : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ﴾ [الأحزاب : 52] ، فيحصي عليها ما تكسب من

خير أو شر ، وقد قرئ : لمّا بالتخفيف ، فـ : إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ مبتدأ و ﴿ عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ خبره . و ما صلة واللام هي الفارقة .

وقرئ : لَمَّا بالتشديد على أنها بمعنى إلا الاستثنائية ، و ﴿ إِن كُلُّ ﴾ نافية والخبر محذوف ، أي : ما كل نفس كائنة في حال من الأحوال ، إلا في حال أن يكون عليها حافظ ورقيب و ﴿ كُلُّ ﴾ على هذا مؤكدة ؛ لأن ﴿ نَّفْسَ ﴾ حينئذ نكرة في سياق النفي ، فتعم .

(190/811)

قال ابن جرير : والقراءة التي لا أختار غيرها في ذلك التخفيف ؛ لأن ذلك هو الكلام المعروف من كلام العرب ، وقد أنكر التشديد جماعة من أهل المعرفة بكلام العرب ، غير أن الفَرَّاء كان يرى أنها لغة في هُذَيل ، يجعلون إلا مع إن المخففة لمّا ، فإن كان صحيحاً ما ذكر الفراء فالقراءة بها جائزة صحيحة ، وإن كان الاختيار مع ذلك قراءة التخفيف ؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، ولا ينبغي أن يترك الأعرف إلى الأنكر . انتهى .

وقد صحح غير واحد ثبوتها ، وبها قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ، واستشهد ابن هشام لها في " المغني " فراجعه .

[انظر تفسير الآيات السابقة]

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ﴾

جواب لمقدر . والفاء فصيحة أي : إن ارتاب مرتاب في كل نفس من الأنفس عليها رقيب ، فلينظر إلخ .

(191/811)

قال الإمام : قوله : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنْسَانُ ﴾ بمنزلة الدليل على الدعوى المقسم عليها ، زيادة في التأكيد ، ووجه ذلك أن الماء الدافق من المائع الذي لا تصوير فيه ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء ونحوها ، ثم إن هذا السائل ينشأ خلقاً كاملاً كالْإِنْسَانُ مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك ، قادراً على القيام بخلافته في الأرض ؛ فهذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية ، وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله في البدن ، ثم منح قوة الإدراك والعقل ، كل هذا لا يمكن أن يكون بدون حافظ يراقب ذلك كله ويدبره ، وهو الله جل شأنه . ويجوز أن يكون قوله ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ من قبيل التفريع على ما ثبت في القضية الأولى ، كأنه يقول : فإذا عرفت أن كل نفس عليها رقيب ، فمن الواجب على الْإِنْسَانُ أن لا يهمل نفسه ، وأن يتفكر في خلقه ، وكيف كان ابتداء نشئه ليصل بذلك إلى أن الذي أنشأه أول مرة قادر على أن يعيده ؛ فيأخذ نفسه

بصالح الأعمال والأخلاق ، ويعدل بها عن سبل الشر ؛ فإن عين الرقيب لا تغفل عنها في حال من الأحوال . انتهى .

و﴿ دَافِقٍ ﴾ من الدفق ، وهو صبٌّ فيه دفع . وقد قيل : إنه بمعنى مدفوق ، وإن اسم الفاعل بمعنى المفعول . كما أن المفعول يكون بمعنى الفاعل ك : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] .

والصحيح أنه بمعنى النسبة ك : لابن وتامِر ، أي : ذي دفق ، وهو صادق على الفاعل والمفعول . أو هو مجاز في الإسناد ، فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة . أو هو استعارة مكنية أو مصرحة بجعله دافقاً ؛ لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً ، أي : يدفعه . أو دافق بمعنى منصب من غير تأويل ، كما نقل عن الليث ، أقوال .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ أي : من بين صلب الرجل ونحر المرأة .

(192/811)

قال الإمام : الصلب هو كل عظم من الظهر فيه فَقار ، ويعبر عنهُ في كلام العامة بسلسلة الظهر . وقد يطلق بمعنى الظهر نفسه إطلاقاً لاسم الجزء على الكل . و ﴿ التَّرَائِبِ ﴾

موضع القلادة من الصدر ، وكنى بالصلب عن الرجل وبالترائب عن المرأة ، أي : أن ذلك الماء الدافق إنما يكون مادة لخلق الْإِنْسَانْ إذا خرج من بين الرجل والمرأة ووقع في المحل الذي جرت عادة الله أن يخلقه فيه ، وهو رحم المرأة ؛ فقوله : ﴿ يَخْرُجُ ﴾ إلخ وصف لابد من ذكره لبيان أن الْإِنْسَانْ إنما خلق من الماء الدافق المستوفي شرائط صحة الخلق منهُ .

وقال بعض علماء الطب : الترائب جمع تربية وهي عظام الصدر في الذكر والأنثى ، ويغلب استعمالها في موضع القلادة من الأنثى ، ومنها قول امرئ القيس :

~ترائبُها مَصْقولة كالسَّجَنْجَل

قال : ومعنى الآية أن المني باعتبار أصله وهو الدم ، يخرج من شيء ممتد بين الصلب – أي : فقرات الظهر في الرجل – والترائب أي : عظام صدره ، وذلك الشيء الممتد بينهما هو الأبهر الأورطي ، وهو أكبر شريان في الجسم يخرج من القلب خلف الترائب ويمتد إلى آخر الصلب تقريباً ، ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة ، ومنها شريانان طويلان يخرجان منه بعد شرياني الكليتين ، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين ، أو الشريانين المنويين فلذا قال تعالى عن المني ﴿ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ لأنه يخرج من مكان بينهما وهو الأورطي أو الأبهر . وهذه الآية على هذا التفسير تعتبر من معجزات القرآن العلمية وهذا القول أوجه وأدق من التفسير الأول . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي : الحافظ سبحانه ، المتقدم في قوله : ﴿ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾

أو الخالق المفهوم من خلق ﴿ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ أي : رجع الْإِنْسَانْ وإعادته في النشأة الثانية لقادر كما قدر على إبدائه في النشأة الأولى .

(193/811)

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أي : تظهر وتعرف خفيات الضمائر .

قال الزمخشري : السرائر ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها تعرّفها وتصفّحها ، والتمييز بين ما طاب منها وما خبث .

﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أي : من قوة يمتنع من عذاب الله وأليم نكاله . ولا ناصر ينصرهُ فيستنقذه ممن ناله بمكروه ، يعني أنه فقد ما كان يعهدهُ في الدنيا إذ يرجع إلى قوة بنفسه أو بعشيرته ، يمتنع منهم ممن أرادهُ بسوء . وناصر حليف ينصره على من ظلمه واضطهده . ولم يبق له إلا انتظار الجزاء على ما قدم .

(194/811)

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾

أي : المطر ؛ يسمى رجعاً لأنه تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً إلى العباد ، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم .

﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ أي : النبات ؛ لأنه يصدع الأرض ، أي : يشقها ، أي : الانشقاق بالنبات ، فهو علم أو مصدر .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي : القرآن الكريم ﴿ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أي : حق فرق بين الحق والباطل ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أي : بالكلام الذي ليس له أصل في الفطرة ولا معنى في القلب ، بل هو جدّ الجدّ .

﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي : المكذبين به ، الجاحدين لحقه ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي : يمكرون مكراً لإبطال أمر الله وإطفاء نوره .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ قال ابن جرير : أي : وأمكر مكراً . ومكرُه جل ثناؤه بهم إملاؤهُ إياهم على معصيتهم وكفرهم به . يعني أن الكيد هنا استعارة تبعية أو تمثيلية ، بتشبيه إمهال الله لهم ليستدرجهم بالكيد ، وبهذا يظهر تفريع أمره بإمهالهم في قوله : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : لا تستعجل عقابهم .

وقوله : ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ بمعنى : مهلهم ، فهو بدل منه للتأكيد . أو تكرير بلفظ آخر للتأكيد .

وقوله :

﴿ رُوَيْداً ﴾ أي : قليلاً .

قال الإمام : وفي ذلك وعيد شديد لهم بأن ما يصيبهم قريب ، سواء كان في الحياة الدنيا أو فيما بعد الموت . ثم فيه الوعد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بل لكل داعٍ إلى الحق الذي جاء به ، أنه سيبلغ من النجاح ما يستحقه عمله ، وأن المناوئين له هم الخاسرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 372.376 ﴾

(195/811)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الطارق

الدرس الأول: 1 – 4 القسم بالطارق على الحافظ على النفس

(والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ) . .

هذا القسم يتضمن مشهدا كونيا وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني: (وما أدراك ما الطارق ؟) . . وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته: (النجم الثاقب) الذي يثقب الظلام بشعاعه

النافذ . وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص , ولا ضرورة لهذا التحديد . بل إن الإطلاق أولى . ليكون المعنى: والسماء ونجومها الثاقبة للظلام , النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء . ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى . . كما سيأتي . .

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب: أن كل نفس عليها من أمر الله رقيب: (إن كل نفس لما عليها حافظ) . . وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد . . ما من نفس إلا عليها حافظ . يراقبها , ويحصي عليها , ويحفظ عنها , وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار . وهي التي يناط بها العمل والجزاء .

ليست هنالك فوضى إذن ولا هيصة ! والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس . ولا مهملين في شعابها بلا حافظ , ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب . إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر , والحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر .

ويلقي النص إيحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبدا في خلوة – وإن خلت – فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب , وتتخفي عن كل عين , وتأمن من كل طارق . هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور . كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر . . وصنعة الله واحدة متناسقة في الأنفس وفي الآفاق .

الدرس الثاني: 5 – 7 خلق الإنسان من الماء الدافق

ويخلص من هذه اللمسة التي تصل النفس بالكون , إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير , التي أقسم عليها بالسماء والطارق . فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ; وتوحي بأن الإنسان ليس متروكا سدى , ولا مهملا ضياعا :

(فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق , يخرج من بين الصلب والترائب) . . فلينظر الإنسان من أي شيء خلق وإلى أي شيء صار . . إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب , خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية . . ولقد كان هذا سرا مكنونا في علم الله لا يعلمه البشر . حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ; وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل , وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة . حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان !

والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير . . بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي

. . هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحي بأن هنالك يدا خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة , في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة , حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة . وتشي بأن هنالك حافظا من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل , ومن الإرادة والقدرة , في رحلتها الطويلة العجيبة . وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته !

(197/811)

هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر , إذ أن هنالك ملايين منها في الدفقة الواحدة . . هذه الخليقة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة , تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء . حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكالة تحول بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة . عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا . . وتعرف هذه الخليقة الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة . . تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد . . حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة

والإرادة التي تعرف بها الطريق ! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة . . عمارة الجسم الإنساني . . فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللمفاوي . . إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية ! . . ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . . إن هنالك تخصصا أدق . فكل عظم من العظام . وكل عضلة من العضلات . وكل عصب من الأعصاب . . لا يشبه الآخر . لأن العمارة دقيقة الصنع , عجيبة التكوين , متنوعة الوظائف . . . ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة , أن تتفرق طوائف متخصصه , تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة ! . . إن كل خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها . تعرف إلى أين هي ذاهبة , وماذا هو مطلوب منها ! ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة . فالخلايا المكلفة أن تصنع العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه , ولا يجوز أبدا أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع . مع أن كل

موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين . ولو أخذت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين وزرعت في أي من هذه المواضع لصنعت عينا هنالك ! ولكنها هي بذاتها حين تنطلق لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنساني المعقد . . فمن ترى قال لها :إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ؟ إنه الله . إنه الحافظ الأعلى الذي يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادي فيها إلا الله !

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها . هي وحدات الوراثة , الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين وهي تنقسم وتتكاثر لكي تكون العين , تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين وخصائص محددة تجعلها عين إنسان لا عين أي حيوان آخر . وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . . وأقل انحراف في تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ؟ وعلمها ذلك التعليم ؟ وهي الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا إدراك , ولا إرادة لها ولا قوة ؟ إنه الله . علمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه لو وكل إليه تصميم عين أو جزء من عين . بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة , تقوم بهذا العمل العظيم !

ووراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق , حشود لا تحصى من العجائب والغرائب , في خصائص الأجهزة والأعضاء , لا

نملك تقصيها في هذه الظلال . . تشهد كلها بالتقدير والتدبير . وتشي باليد الحافظة الهادية المعينة . وتؤكد الحقيقة الأولى التي أقسم عليها بالسماء والطارق . كما تمهد للحقيقة التالية . حقيقة النشأة الآخرة التي لا يصدقها المشركون , المخاطبون أول مرة بهذه السورة . .

الدرس الثالث: 8 – 10 الله يبعث الإنسان يوم القيامة

(199/811)

(إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر) . .

إنه – الله الذي أنشأه ورعاه – إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت , وإلى التجدد بعد البلى , تشهد النشأة الأولى بقدرته , كما تشهد بتقديره وتدبيره . فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل: (يوم تبلى السرائر) . . السرائر المكنونة , المطوية على الأسرار المحجوبة . . يوم تبلى وتختبر , وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر ; وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر: (فما له من قوة ولا ناصر) . . ما له من قوة في ذاته , وما له من ناصر خارج ذاته

. . والتكشف من كل ستر , مع التجرد من كل قوة , يضاعف شدة الموقف ; ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير . وهو ينتقل من الكون والنفس , إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة , إلى نهاية المطاف هناك , حيث يتكشف ستره ويكشف سره , ويتجرد من القوة والنصير . .

الدرس الرابع: 11 - 14 القسم بالأرض والسماء على جدية حقيقة البعث

ولعل طائفا من شك , أو بقية من ريب , تكون باقية في النفس , في أن هذا لا بد كائن . . فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول هو القول الفصل , ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون , كما صنع في مطلع السورة:

(والسماء ذات الرجع , والأرض ذات الصدع , إنه لقول فصل , وما هو بالهزل) . .

(200/811)

والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة , والصدع النبت يشق الأرض وينبثق . . وهما يمثلان مشهدا للحياة في صورة من صورها . حياة النبات ونشأته الأولى: ماء يتدفق من السماء , ونبت ينبثق من الأرض . . أشبه شيء بالماء الدافق من الصلب والترائب ; والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هي الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركة هي

الحركة . . نظام ثابت , وصنعة معلمة , تدل على الصانع . الذي لا يشبهه أحد لا في حقيقة الصنعة ولا في شكلها الظاهر !

وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب . وهو يشق الحجب والستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر . . صنعة واحدة تشير إلى الصانع !

يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحدثين: السماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . . حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما , كما يوحي جرس التعبير ذاته , بالشدة والنفاذ والجزم .

. يقسم بأن هذا القول الذي يقرر الرجعة والابتلاء – أو بأن هذا القرآن عامة – هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل . القول الفصل الذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب . القول الذي ليس بعده قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع , والأرض ذات الصدع !

الدرس الخامس: 15 – 17 تهديد الكفار بالعذاب القادم

وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو ومن

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

معه من القلة المؤمنة في مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها – وقد كانوا في هم مقعد مقيم للكيد لها والتدبير ضدها وأخذ الطرق عليها وابتكار الوسائل في حربها – يتجه الخطاب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالتثبيت والتطمين , وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين . وأنه إلى حين . وأن المعركة بيده هو – سبحانه – وقيادته . فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون:

(إنهم يكيدون كيدا , وأكيد كيدا , فمهل الكافرين , أمهلهم رويدا) . .

إنهم – هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب – بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة , ولا معرفة ولا هداية . والذين تولتهم يد القدرة في رحلتهم الطويلة . والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر , حيث لا قوة لهم ولا ناصر . . إنهم هؤلاء يكيدون كيدا . .

وأنا – أنا المنشئ . . الهادي . الحافظ . الموجه . المعيد . المبتلي . القادر . القاهر . خالق السماء والطارق . وخالق الماء الدافق , والإنسان الناطق , وخالق السماء ذات الرجع , والأرض ذات الصدع . . أنا الله . . أكيد كيدا . .

فهذا كيد . وهذا كيد . وهذه هي المعركة . . . ذات طرف واحد في الحقيقة . . وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء !

(فمهل الكافرين) . . (أمهلهم رويدا) . . لا تعجل . ولا تستبطئ نهاية المعركة . وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها . . فإنما هي الحكمة وراء الإمهال . الإمهال قليلا . . وهو قليل حتى لو استغرق عمر الحياة الدنيا . فما هو عمر الحياة الدنيا إلى جانب تلك الآباد المجهولة المدى ؟

ونلحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول: (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) . . كأنه هو (صلى الله عليه وسلم) صاحب الأمر , وصاحب الإذن , وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم . أو يوافق على إمهالهم . وليس من هذا كله شيء للرسول (صلى الله عليه وسلم) إنما هو الإيناس والود في هذا الموضع الذي تنسم نسائم الرحمة على قلبه (صلى الله عليه وسلم) الإيناس الذي يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه . ويشركه في الأمر كأن له فيه شيئا . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهية التي يقضى فيها الأمر ويبرم . . وكأنما يقول له ربه: إنك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم . أمهلهم رويدا . . فهو الود العطوف والإيناس اللطيف . يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد , فتنمحي كلها وتذوب . . ويبقى العطف الودود . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3878 . 3881 ﴾

(202/811)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الطَّارِقِ

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)

قيل : حافظ لأعماله يحصيها عليه ، كما في قوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] .

وقيل : حافظ ، أي حارس ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : 11] ، والسياق يشهد للمعنيين معاً ، لأن قوله تعالى بعده ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [الطارق : 5-7] يدل على أنه في تلك المراحل في حفظ ، فهو أولاً في قرار مكين .

وفي الحديث : " أن الله وكل بالرحم ملكاً " الحديث .

وبعد بلوغه سن التكليف يجري عليه القلم فيحفظ عليه عمله فلا مانه من ارادة المعنيين معاً ، وليس هذا من حمل المشترك على معنييه ، لأن كلاً من المعنيين له متعلق ، يختص بزمن خلاف الآخر .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)

الإنسان هنا خاص ببني آدم وذريته عامة ، ولم يدخل فيه آدم ولا حواء ولا عيسى عليه السلام لآنه بين ما خلق منه ، وهو في قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ

الصلب والترآئب ﴾ الطارق [6-8] .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعالى علينا وعليه بيان هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل : 4] ، وفي سورة الواقعة عند قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 58-59] ، وتقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : 2] ، في سورة الدهر .

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)

(203/811)

" إنه " هنا أي إن الله على رجعه ، الضمير فيه ، قيل : راجع للماء الدافق ، أي أنه سبحانه قادر على رجع هذا الماء من حيث خرج ، كرد اللبن إلى الضرع مثلاً ، ورد الطفل إلى الرحم ، وهذا مروي عن عكرمة ومجاهد .

وقيل : على رجع الإنسان بعد الموت ، وهذا وإن كان في الأول دلالة على القدرة ، ولا يقدر عليه إلاَّ الله ، إلاَ أن في السياق ما يدل على أن المراد ، هو الثاني لعدة أمور :

الأول : أن رد الماء لم يتعلق به حكم ولا أمر آخر سوى إثبات القدرة بخلاف رجع الإنسان

بعد الموت ، فهو قضية الإيمان بالبعث . ويتعلق به أحكام يوم القيامة .

الثاني : مجيء القرآن بالخلق الأول ، دليل على الإعادة بعد الموت ، كقوله تعالى في يس : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [يس : 78] -أي من ماء دافق- ﴿ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78-79] ، أي من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

الثالث : أن الأول يحتاج معه إلى تقدير عامل ليوم تبلى السرائر ، نحو اذكر مثلاً بخلاف الثاني ، فإن العامل فيه : هو لقادر ، على رجعه يوم تبلى السرائر .

ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله : وكل من خالف ذلك إنما فر من أن يكون " لقادر " هو العامل في الظرف ، لأنه يوهم أن قدرته على رجعه مقيدة بذلك . ولكن بتأمل أسلوب العرب يعلم جوازه ، لأنه قال : ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق : 8] على الإطلاق أولاً وآخراً ، وفي كل وقت ثم ذكر تعالى : وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب للتحذير منه . 1ه .

فظهر بذلك أن الضمير في رجعه عائد للإنسان أي بعد موته بالبعث ، وأن العامل هو " لقادر " .

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9)

تقدم للشيخ رحمة الله علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 30] ، وساق عندها هذه الاية ، وسيأتي التصريح به في سورة العاديات عند قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ [العاديات : 9-10] . وقد أجمل ابتلاء السرائر .

وكذلك أجمل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بإيراد الآيات .

وذكر المفسرون : أن المراد بها أمانة التكليف فيما لا يعلمه إلاَّ الله ، ومثلوا لذلك بالحفاظ على الطهارة للصلاة ، وغسل الجنابة ، وحفظ الصوم ، ونحو ذلك . ومنه العقائد وصدق الإيمان أو النفاق ، عياذاً بالله .

والسرائر : هي كل ما يخفيه الإنسان حتى في المعاملات مع الناس ، كما في الأثر " الكيس من كانت له عند الله خبيئة سر " ، وقوله : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ ﴾ [الملك : 13] ، فالسر ضد الجهر ، وقال الأحوص :

سَيبقى لها في مُضمَر القَلب والحَشا . . . سريرة ود يوم تُبلَى السرائرُ

قال أبو حيان : سمعه الحسن ، فقال : ما أغفله عما في السماء والطارق .

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)

قالوا : ليس من قوة في نفسه لضعفه ، ويدل على قوله : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ

جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً ﴾ [الكهف : 48] .

وقوله : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم : 43] أي من الضعف وشدة الخوف ، ولا ناصر له من غيره ، كما في قوله : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف : 43] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار : 19] .

(205/811)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12)

قيل : رجع السماء : إعادة ضوء النجوم والشمس والقمر .

وقيل : الرجع : الملائكة ترجع بأعمال العباد .

وقيل الرجع : المطر وأرزاق العباد . والأرض ذات الصدع ، قيل : تنشق عن الخلائق يوم البعث .

وقيل : تنشق بالنبات .

والذي يشهد له القرآن : أن الرجع والصدع متقابلان من السماء والأرض بالمطر والنبات ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ

شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [عبس : 24-28] ، والله تعالى أعلم .

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13)

قال ابن كثير : قال ابن عباس حق . وكذا قال قتادة ، وقال آخرون : حكم عدل . وقال القرطبي : إنه أي القرآن ، يفصل بين الحق والباطل .

وقيل : هو ما تقدم من الوعيد في هذه السورة ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ [الطارق : 8-9] .

وقال أبو حيان بما قال به القرطبي أولاً ، ثم جوّز أن يكون مراداً به الثاني ، أي أن الإخبار عن رجع الإنسان يوم تبلى السرائر ، قول فصل ، وهذا ما يفيده كلام ابن جرير ، وعزاه النيسابوري إلى القفال .

وسياق السورة يشهد لهذا القول الثاني ، لأن السورة كلها في معرض إثبات القدرة على البعث ، وإعادة الإنسان بعد الفناء ، حيث تضمنت ثلاثة أدلة من أدلة البعث .

الأول : السماء ذات الطارق . لعظم خلقتها ، وعظم دلالتها على القدرة .

الثاني : خلق الإنسان أولاً من ماء دافق ، كما في قوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] .

الثالث : مجموع قوله : ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع والأرض ذَاتِ الصدع ﴾ [الطارق :

11-12] ، أي إنزال المطر ، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها . فناسب أن يكون الإقسام على تحقق البحث .

(206/811)

وأكد هذا ما جاء بعده من الوعيد بالإمهال رويداً ، وقد سمي بيوم الفصل ، كما في قوله : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الفصل وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 12-15] .

وذكر الويل في هذه الآية للمكذبين يعادل الإمهال في هذه السورة للكافرين ، وغذا ربطنا بين القسم والمقسم عليه ، لكان أظهر وأوضح ، لن رجع الماء بعد فنائه بتلقيح السحاب من جديد يعادل رجع الإنسان بعد فنائه في الأرض ، وتشقق الأرض عن النبات يناسب تشققها يوم البعث عن الخلائق ، والله تعالى أعلم .

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16)

نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه : من باب المقابلة كقوله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله ﴾ [آل عمران : 54] ، وقوله ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : 14-15] ، وهو في اللغة ، كقول القائل ، لما سئل عن أي الطعام يريد ، وهو عارٍ يريد كسوة .

قالوا اختر طعاماً نجد لك طبخة . . . قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

وقد اتفق السلف ، أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق ، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد ، لأنه في غير المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعالجة للشيء بقوة .

وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : والعرب قد تطلق الكيد على المكر ، والعرب قد يسمون المكر كيداً ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ [الطور : 42] ، وعليه فالكيد هنا لم يبين ، فإذا كان بمعنى المكر ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شيء منه عند قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ واللهُ خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] ، بأن مكرهم محاولتهم قتل عيسى ، ومكر الله إلقاء الشبه ، أي شبه عيسى على غير عيسى .

(207/811)

وتقدم قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : 26] ، وهذا في قصد النمرود ، فكان مكرهم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء ، فكان مكر الله بهم أن

تركهم حتى تصاعدوا بالنباء ، فاتى بنيانهم من القواعد ، فهدمه عليهم .

وهكذا الكيد هنا ، إنهم يكيدون للإسلام والمسلمين يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم ، والله يكيد لهم بالاستدراج حتى ياتي موعد إهلاكهم ، وقد وقع تحقيقه في بدر ، إذ خرجوا محادة الله ورسوله ، وفي خيلائهم ومفاخرتهم وكيد الله لهم أن قلل المؤمنين في أعينهم ، حتى طمعوا في القتال ، وأمطر ارض المعركة ، وهم في أرض السبخة ، والمسلمون في أرض وملية فكان زلقاً عليهم وثباتاً للمؤمنين ، ثم انزل ملائكته لقتالهم . والله تعالى أعلم .

فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، ما نصه : هذا الإمهال المذكور هنا ينافي قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] الاية .

والجواب : أن الأمهال منسوخ بآيات السيف 1ه .

وهذا ما لا يفيده كلام الطبري ، وإن لم يصرح به وهو منصوص القرطبي . ولعل في نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله : ﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ ، أمهلهم رويداً بمعنى قليلاً ، فقد قيل الإمهال بالقلة مما يشعر بمجيء النسخ وأنه ليس نهائياً . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الطَّارِقِ

فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى مَحَلَّ الْمَاءِ الَّذِي يُنْتَزَعُ مِنْهُ ، وَأَنَّهُ بَيْنَ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ، تُزْعِجُهُ الْقُدْرَةُ ، وَتُمَيِّزُهُ الْحِكْمَةُ ، وَقَدْ قَالَ الْأَطِبَّاءُ : إنَّهُ الدَّمُ الَّذِي تَطْبُخُهُ الطَّبِيعَةُ بِوَاسِطَةِ الشَّهْوَةِ ، وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ إلَى مَعْرِفَتِهِ أَبَدًا إلَّا بِخَبَرٍ صَادِقٍ .

وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَلَا مَدْخَلَ لَهُ فِيهِ ، وَالنَّظَرُ الْعَقْلِيُّ لَا يُنْتَهَى إلَيْهِ ، وَكُلُّ مَا يَصِفُونَ فِيهِ دَعْوَى يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَقًّا ، بَيْدَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إلَى تَعْيِينِهَا كَمَا قَدَّمْنَا ؛ وَلَا دَلِيلَ عَلَى تَخْصِيصِهَا حَسْبَمَا أَوْضَحْنَا .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْخَبَرِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ وَهِيَ الدَّمُ ؛ فَأَخْبَرَ تَعَالَى

أَنَّ الدَّمَ هُوَ الطَّوْرُ الثَّالِثُ ، وَعِنْدَ الْأَطِبَّاءِ أَنَّهُ الطَّوْرُ الْأَوَّلُ ، وَهَذَا تَحَكُّمٌ مِمَّنْ يَجْهَلُ .

فَإِنْ قِيلَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فَلِمَ قُلْتُمْ : إِنَّهُ نَجِسٌ ؟ قُلْنَا : قَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مَقْنَعٌ ، وَأَخَذْنَا مَعَهُمْ فِيهِ كُلَّ طَرِيقٍ ، وَمَلَكْنَا عَلَيْهِمْ بِثَبْتِ الْأَدِلَّةِ كُلَّ ثَنِيَّةٍ لِلنَّظَرِ .

(209/811)

فَلَمْ يَجِدُوا لِلسُّلُوكِ إِلَى مَرَامِهِمْ مِنْ أَنَّهُ طَاهِرٌ سَبِيلًا ، وَأَقْرَبُهُ أَنَّهُ يَخْرُجُ عَلَى ثَقْبِ الْبَوْلِ عِنْدَ طَرَفِ الْكَمَرَةِ فَيَتَنَجَّسُ بِمُرُورِهِ عَلَى مَحَلٍّ نَجِسٍ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ يَعْنِي تُخْتَبَرُ الضَّمَائِرُ ، وَتَكْشِفُ مَا كَانَ فِيهَا .

وَالسَّرَائِرُ تَخْتَلِفُ بِحَسْبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ التَّكْلِيفِ وَالْأَفْعَالِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا السَّرَائِرُ فَقَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ أَشْهَبَ عَنْهُ وَسَأَلَهُ عَنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أَبَلَغَك أَنَّ الْوُضُوءَ مِنْ السَّرَائِرِ ؟ قَالَ : قَدْ بَلَغَنِي ذَلِكَ فِيمَا يَقُولُ النَّاسُ ، فَأَمَّا حَدِيثٌ أَخَذْته فَلَا .

وَالصَّلَاةُ مِنْ السَّرَائِرِ ، وَالصِّيَامُ مِنْ السَّرَائِرِ ، إنْ شَاءَ قَالَ : صَلَّيْت وَلَمْ يُصَلِّ .

وَمِنْ السَّرَائِرِ مَا فِي الْقُلُوبِ يَجْزِي اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ .

قَالَ الْقَاضِي : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ إلَّا الْأَمَانَةَ ، وَالْوُضُوءُ مِنْ الْأَمَانَةِ ، وَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ مِنْ الْأَمَانَةِ ، الْوَدِيعَةُ مِنْ الْأَمَانَةِ ، وَأَشَدُّ ذَلِكَ الْوَدِيعَةُ ، تُمَثَّلُ لَهُ عَلَى هَيْئَتِهَا يَوْمَ أَخَذَهَا ، فَيُرْمَى بِهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ، فَيُقَالُ لَهُ : أَخْرِجْهَا فَيَتْبَعُهَا فَيَجْعَلُهَا فِي عُنُقِهِ ، فَإِذَا رَجَا أَنْ يَخْرُجَ بِهَا زَلَّتْ مِنْهُ وَهُوَ يَتْبَعُهَا ، فَهُوَ كَذَلِكَ دَهْرَ الدَّاهِرِينَ .

وَقَالَ أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ .

مِنْ الْأَمَانَةِ أَنْ ائْتُمِنَتْ الْمَرْأَةُ عَلَى فَرْجِهَا .

(210/811)

قَالَ أَشْهَبُ : قَالَ لِي سُفْيَانُ : فِي الْحَيْضَةِ وَالْحَمْلِ إذَا قَالَتْ : لَمْ أَحِضْ ، وَأَنَا حَامِلٌ ، صَدَقَتْ مَا لَمْ تَأْتِ بِمَا يُعْرَفُ فِيهِ أَنَّهَا كَاذِبَةٌ .

وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ غُسْلُ الْجَنَابَةِ مِنْ الْأَمَانَةِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ كُلُّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ هَزْلٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ جِدٌّ كُلُّهَا ؛ فَلَا يَهْزِلُ أَحَدٌ بِعَقْدٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ إلَّا وَيُنَفَّذُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ فِي قَوْلِهِ هَزْلًا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْهَزْلَ مَحَلٌّ لِلْكَذِبِ ، وَلِلْبَاطِلِ يُفْعَلُ ، وَلِلَّعِبِ يُمْتَثَلُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الْغَرَضَ فِي الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِيهِ وَفِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(211/811)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الطارق

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1)

قوله : ﴿ والطارق ﴾ : الطارقُ في الأصل اسمُ فاعل مِنْ طَرَقَ يَطْرُقُ طُروقاً ، أي : جاء ليلاً قال :

4539 فمِثْلَكِ حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعاً . . . فألْهَيْتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

وأصلُه من الضَّرْبِ . والطارقُ بالحصى الضاربُ به . قال :

4540 لعَمْرُكَ ما تَدْري الضواربُ بالحصى . . . ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللَّهُ صانعُ

ثم اتُّسِع فقيل لكلِ جاء ليلاً : طارِقٌ .

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)

قوله : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا ﴾ : قد تقدَّم في سورةِ هود التخفيفُ والتشديدُ في " لَمَّا " . فمَنْ خَفَّفها هنا كانت " إنْ " هنا مخففةً من الثقيلة ، و " كلٌّ " مبتدأٌ ، واللامُ فارقةٌ ، و " عليها " خبرٌ مقدَّمٌ و " حافظٌ " مبتدأٌ مؤخرٌ ، والجملةُ خبرُ " كل " و " ما " مزيدةٌ بعد اللامِ الفارقةِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ " عليها " هو الخبرَ وحدَه ، و " حافِظٌ " فاعلٌ به ، وهو أحسنُ . ويجوزُ أَنْ يكونَ " كلٌّ " مبتدأً ، و " حافظٌ " خبرَه ، و " عليها " متعلقٌ به و " ما " مزيدة أيضاً ، هذا كلُّه تفريعٌ على قولِ البصريين . وقال الكوفيون : " إنْ هنا نافيةٌ ، واللامُ بمعنى " إلاَّ " إيجاباً بعد النفي ، و " ما " مزيدةٌ . وتقدَّم الكلامُ في هذا مُسْتوفى .

وأمَّا قراءةُ التشديدِ فإنْ نافيةٌ ، و " لَمَّا " بمعنى " إلاَّ " ، وتقدَّمَتْ شواهدُ ذلك مستوفاةً في هود . وحكى هارونُ أنه قُرِىءَ هنا " إنَّ " بالتشديدِ ، " كلَّ " بالنصب على أنَّه اسمُها ، واللامُ هي الداخلةُ في الخبرِ ، و " ما " مزيدةٌ و " حافظٌ " خبرُها ، وعلى كلِّ تقديرٍ فإنْ وما في حَيِّزِها جوابُ القسمِ سواءً جَعَلها مخففةً أو نافيةً . وقيل : الجواب ﴿ إِنَّهُ على رَجْعِهِ ﴾ ، وما بينهما اعتراضٌ . وفيه بُعْدٌ .

خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6)

قوله : ﴿ دَافِقٍ ﴾ : قيل : فاعِل بمعنى مَفْعول كعكسِه في قولهم : " سيلٌ مُفْعَم " ، وقولِه تعالى : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] على وجهٍ . وقيل : دافق على النسبِ ، أي : ذي دَفْقٍ أو انْدِفاق . وقال ابن عطية : " يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الماءُ دافقاً ؛ لأنَّ بعضَه يَدْفُقُ بعضاً ، أي : يدفعه فمنه دافِق ، ومنه مَدْفوق " انتهى . والدَّفْقُ : الصَّبُّ/ ففِعْلُه متعدٍّ . وقرأ زيدُ ابنُ علي " مَدْفُوقٍ " وكأنه فَسَّر المعنى .

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)

قوله : ﴿ والترآئب ﴾ : جمع تَريبة . وهي مَوْضِعُ القِلادةِ من عظامِ الصدرِ ؛ لأنَّ الولدَ مخلوقٌ مِنْ مائهما ، فماءُ الرجل في صُلْبه ، والمرأةُ في ترائبِها ، وهو معنى قولِه : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ بالإنسان : 2] . وقال الشاعر :

4540 مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ . . . تَرائِبُها مَصْقُولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

وقال :

4541 والزَّعْفَرانُ على ترائبِها . . . شَرِقَتْ به اللَّبَّاتُ والنَّحْرُ

وقال أبو عبيدة : " جمع التَّريبة تريب " . قال :

4542 ومِنْ ذَهَبٍ يَذُوْبُ على تَرِيْبٍ . . . كلَوْنِ العاجِ ليس بذي غُضونِ

وقيل : الترائبُ : التَّراقي . وقيل : أضلاعُ الرجلِ التي أسفلَ الصُّلْب . وقيل : ما بين المَنْكِبَيْن والصَّدْرِ . وعن ابن عباس : هي أطرافُ المَرْءِ يداه ورِجْلاه وعيناه . وقيل : عُصارةُ القلبِ . قال ابن عطية : " وفي هذه الأقوالِ تَحَكُّمٌ في اللغة " .

وقرأ العامَّةُ "يَخْرُج" مبنياً للفاعل . وابنُ أبي عبلة وابن مقسم مبنياً للمفعول . وقرأ أيضاً وأهلُ مكة " الصُّلُب " بضم الصاد واللام ، واليمانيُّ بفتحهما ، وعليه قولُ العَجَّاج :

4543 في صَلَبٍ مِثْلِ العِنانِ المُؤْدَمِ . . . وتَقَدَّمَتْ لغاتُه في سورة النساء . وأَغْرَبُها " صالِب " كقوله :

(213/811)

4544 . . . . . مِنْ صالِبٍ إلى رَحِمٍ . . . . . .

. . . . . .

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8)

قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ : الضميرُ للخالقِ المدلولِ عليه بقوله : " خُلِقَ " لأنه معلومٌ أَنْ لا خالقَ سواه .

قوله : ﴿ على رَجْعِهِ ﴾ في الهاء وجهان ، أحدُهما : أنه ضميرُ الإنسانِ ، أي : على بَعْثِه

بعد موته . والثاني : أنه ضميرُ الماءِ ، أي : يُرْجِعُ المنيَّ في الإحليلِ أو الصُّلْبِ .

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9)

قوله : ﴿ يَوْمَ تبلى ﴾ : فيه أوجهٌ . وقد رتَّبها أبو البقاء على الخلافِ في الضمير فقال على القولِ بكونِ الضميرِ للإنسان : " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه معمولٌ لـ " قادر " . إلاَّ أنَّ ابنَ عطية قال بعد أن حكى أوجهاً عن النحاةِ قال : " وكل هذه الفِرَقِ فرَّتْ من أَنْ يكونَ العاملُ " لَقادِرٌ " لئلا يظهرَ من ذلك تخصيصُ القدرةِ بذلك اليومِ وحدَه " ثم قال : " وإذا تُؤُمِّل المعنى وما يَقْتَضِيه فصيحُ كلامِ العربِ جازَ أَنْ يكونَ العاملُ " لَقادر " لأَنَّه إذا قَدَرَ على ذلك في هذا الوقتِ كان في غيره أقدرَ بطريق الأَوْلى . الثاني : أن العاملَ مضمرٌ على التبيين ، أي : يَرْجِعه يومَ تُبْلى . الثالث : تقديره : اذكُرْ ، فيكونُ مفعولاً به . وعلى عَوْدِه على الماء يكونُ العاملُ فيه اذكُرْ " انتهى ملخصاً .

وجَوَّزَ بعضُهم أَنْ يكون العاملُ فيه " ناصرٍ " . وهو فاسدٌ لأنَّ ما بعد " ما " النافيةِ وما بعد الفاءِ لا يعملُ فيما قبلَهما . وقيل : العامل فيه " رَجْعِه " . وهو فاسدٌ لأنه قد فصل بين المصدرِ ومعمولِه بأجنبيّ وهو الخبرُ ، وبعضُهم يَغْتَفِرُه في الظرف .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11)

قوله : ﴿ ذَاتِ الرجع ﴾ : قيل : هو مصدرٌ بمعنى : رجوعِ الشمس والقمر إليها . وقيل : المطر كقولِه يصفُ سيفاً :

4545 أبيضُ كالرَّجْعِ رَسوبٌ إذا . . . . . .

. . .

كما سُمِّي أَوْبا كقولِه :

4546 رَبَّاءُ شَمَّاءُ لا يَأْوِي لِقُلَّتِها . . . إلاَّ السَّحابُ وإلاَّ الأَوْبُ والسَّبَلُ

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13)

قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ : جوابُ القسمِ في قوله : " والسَّماءِ " . والهَزْلُ : ضدُّ الجِدِّ والتشميرِ في الأمر . قال الكُميت :

4547 . . . . . يُجَدُّ بنا في كلِّ يومٍ ونَهْزِلُ

والضميرِ في " إنَّه " للقرآن . وقيل : للكلامِ المتقدِّمِ الدالِّ على البعث والنشور .

فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)

قوله : ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّة ، لَمَّا كرَّر الأمرَ توكيداً خالَفَ بين اللفظَيْن . وعن ابن عباس " مَهِّلْهُمْ " كالأولِ . والإمهالُ والتمهيلُ الانتظارُ . يقال : أَمْهَلْتُك كذا ، أي :

انتظرتُك لِتَفْعَلَه . والمَهْلُ : الرِّفْقُ والتُّؤَدَةُ .

قوله : ﴿ رُوَيْداً ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لمعنى العامل ، وهو تصغيرُ إرْواد على الترخيم . وقيل : بل هو تصغيرُ " رُوْدٍ " ، وأَنشد :

4548 تكادُ لا تَثْلِمُ البَطْحاءُ وَطْأَتَه . . . كأَنَّه ثَمِلٌ يَمْشي على رُوْدِ

واعلَمْ أنَّ رُوَيْداً يُستعمل مصدراً بدلاً من اللفظِ بفعلِه ، فيُضاف تارةً كقوله : ﴿ فَضَرْبَ الرقاب ﴾ [محمد : 4] ولا يُضافُ أخرى نحو : رويداً زيداً [ويُستعمل اسمَ فعلٍ فلا يُنَوَّن ، بل يبنى على الفتح نحو : رُوَيْداً زيداً] ويقع حالاً نحو : ساروا رُوَيْدا ، أي : متمهِّلين ، ونعتاً لمصدر محذوف نحو : " ساروا رُوَيْداً " ، أي : سَيْراً رويداً . وهذه الأحكامُ لها موضوعٌ هو أَلْيَقُ بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 751 . 757 ﴾

(215/811)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الرجع)

وهو الإِعادة ، والرَجْعةُ المرَّة منه .

والرَّجعة – بالفتح والكسر – فى الطَّلاق ، وفى العَود إلى الدُّنيا بعد الممات ، يقال : فلان يؤمن بالرَّجعة .

والرّجوعُ : العود إلى ما كان منه البدءُ ، اَو تقديرُ الْبَدْءِ ، مكانًا كان أَو فعلاً أَو قولاً ، وبذاته كان رجوعه ، أَو بجزءٍ من أَجزائه ، أَو بفعل من أَفعاله ، وقد رجع يرجع رُجوعًا ومَرْجِعًا ورُجْعَى : عاد .

ورَجَعَهُ رَجْعًا وأَرجعه : أَعاده .

قال :

*تذكَّرت أَيَّامًا لنا ولياليًا * مضت فجرت من ذكرهنَّ دموعُ*

*أَلا هل لها يومًا من الدَّهر أَوْبةٌ * وهل لى إلى أَرض الحبيب رُجوع*

*وهل بعد تفريق النِّدام تواصلٌ * وهل لنجوم قد أَفَلْن طُلوع*

ووردت هذه المادّة فى القرآن على عشرة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى المطر ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ أَى المطر .

الثَّانى : بمعنى الردّ ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ أَى رُدُّونى ، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ أَى رُدَّه .

الثالث : بمعنى العود ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ أَى أَعود ، ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أَى عُدْنَا .

ونظائرهما كثيرة .

الرَّابع : بمعنى رجعة الطَّلاق ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ .

الخامس : بمعنى الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ .

السَّادس : بمعنى الرّجوع إلى الدُّنيا بعد الموت ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أَى لا يُرَدُّون إلى الدُّنيا فإنا حرّمنا عليهم أَن يتوبوا ويرجعوا عن الذَّنب ، تنبيها أَنَّه لا توبة بعد الموت .

السَّابع : بمعنى الإقبال على الشيء ﴿ فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ أَى أَقبلوا عليها .

الثَّامن : بمعنى التوبة ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أَى يتوبون .

(216/811)

التَّاسع : بمعنى مصير الخَلْق إلى الله تعالى ، ومصير أُمور العالَم إلى كلمته تعالى ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ .

العاشر : رجوع إخْوة يوسف إليه ﴿ إِذَا انْقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ من الرّجوع أَو من رَجْع الجواب .

وقوله : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ من رَجْع الجواب لا غير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 39 . 40 ﴾

(217/811)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الطارق

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز إذا أراد إعزاز عبد وقفه لعرفانه ، ثم زينه بإحسانه ، ثم استخلصه بامتنانه ، فعصمه من عصيانه ، وقام بحسن التولي ن في جميع أحواله بشأنه ، ثم قبضه على إيمانه ، ن ثم بوأه في جنانه ، وأكرمه برضوانه ، ثم أكمل عليه نعمته برؤيته وعيانه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .

أقسم بالسماءِ ، وبالنجمِ الذي يَطْرُق ليلاً .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ .

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

المضيءُ العالي . وقيل : الذي ترمى به الشياطين .

ويقال : هي نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيءُ بنورها ويهتدي بها أولو البصائر .

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حافِظٌ من الملائكة ، يحفظ عملَه ورزقَه وأجلَه ، ويحمله على دوامِ التيقُّظ وجميلِ التحفُّظ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ ﴾ .

يخرج من صُلْبِ الأب ، وتربيةِ الأم .

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَرِ والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته – سبحانه .

﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .

إنه على بَعْثِه ، وخَلْقِه مرةً أخرى لقادِرٌ ؛ لأنه قادر على الكمال – والقدرةُ على الشيءِ تقتضي القدرةَ على مِثْلِه ، والإعادة في معنى الابتداء .

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ ﴾ .

يوم تُمْتَحنُ الضمائر .

﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ .

أي ما لهذا الإنسان – يومئذٍ – من مُعينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ .

أي المطر .

﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

" الصدع " : الانشقاقُ بالنباتِ للزرع والشجر .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .

(218/811)

أي : إن القرآن لقولٌ جَزْمٌ .

﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ .

الهزل ضد الجدّ ، فليس القرآنُ بباطلٍ ولا لَعِب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴾ .

أي يحتالون حيلةً .

﴿ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ .

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحْكِمُ فِعْلاً ونُبْرِمُ خَلْقاً ، ونجازيهم على كيدهم ، بما نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدَا ﴾ .

أي أَنظِرهم ، وأمهِلهم قليلاً ، وأرْوِدْهم رويداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 714.716 ﴾

(219/811)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (1) وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4)

الإعراب :

(والسماء) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (الواو) الثالثة اعتراضيّة (ما) اسم استفهام

في محلّ رفع مبتدأ في الموضعين (النجم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (إن) حرف نفي (لمّا) حرف للحصر بمعنى إلّا (عليها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (حافظ) . .

جملة : " (أقسم) بالسماء . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) الأول .

وجملة : " ما الطارق . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة : " (هو) النجم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّ كلّ نفس لمّا . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " عليها حافظ " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

الصرف :

(الطارق) ، في الأصل هو اسم فاعل من الثلاثيّ طرق أي سار في الليل وزنه فاعل ، ثمّ أطلق ليكون اسم جنس أو كوكب معهود .

الفوائد :

- (لمّا) الاستثنائيّة :

من أوجه (لمّا) أنها ترد حرف استثناء ، فتدخل على الجملة الاسمية ، كما في هذه الآية (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ) كما تدخل على الماضي لفظا لا معنى ، نحو :

" أنشدك اللّه لمّا فعلت) أي ما أسألك إلا فعلك .

[سورة الطارق (86) : الآيات 5 إلى 7]

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ (7)

الإعراب :

(220/811)

(الفاء) استئنافيّة (اللام) لام الأمر (ممّ) متعلّق بـ (خلق) ، و(ما) للاستفهام حذفت الألف لتقدّم حرف الجر (من ماء) متعلّق بـ (خلق) الثاني (من بين) متعلّق بـ (يخرج) . .

جملة : " لينظر الإنسان " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق (الأولى) " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام بتقدير حرف الجرّ .

وجملة : " خلق (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يخرج . . . " في محلّ جرّ نعت لماء " 1 " .

الصرف :

(6) دافق : اسم فاعل من الثلاثيّ دفق ، وزنه فاعل " 2 " .

(7) الصلب : اسم للظهر وزنه فعل بضمّ فسكون جمعه أصلاب زنة أفعال .

(الترائب) ، جمع تريبة اسم للصدر أو أضلاعه أو لحمه ودمه ، وزنه فعلية كصحيفة والجمع فعائل ، وفيه قلب الياء همزة لمجيئها بعد ألف ساكنة والأصل ترايب .

البلاغة

الطباق : في قوله تعالى " مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ " .

فقد طابق بين عظم الظهر وعظم الصدر ، وأفرد الأول ، وجمع الآخر ، لأن صدر المرأة هي تريبتها فيقال للمرأة : ترائب يعني بها التريبة وما حواليها وما أحاط بها .

أو يقال إنه تعالى أراد : يخرج من بين الأصلاب والترائب ، فاكتفى بالواحد عن الجماعة ، كما قال تعالى " أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما " ولم يقل والأرضين .

[سورة الطارق (86) : الآيات 8 إلى 10]

إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (9) فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ (10)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ماء لتخصّصه بالوصف .

(2) وهو في الآية مجاز عقليّ بمعنى مدفوق ، أو استعمل للنسبة أي ذا اندفاق .

[.....]

الإعراب :

(على رجعه) متعلّق بـ (قادر) ، والضمير فيه يعود على الماء الدافق أو على الإنسان (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (رجعه) " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (قوّة) ، وهو مجرور لفظا مرفوع محلّا (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (ناصر) معطوف على قوّة مجرور لفظا مثله .

جملة : " إنّه . . . لقادر " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تبلى السرائر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ما له من قوّة . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا بعث يوم القيامة فما له . . .

الصرف :

(9) السرائر : جمع سريرة زنة فعيلة ، أي ما يكتم في النفس ، والجمع فعائل فيه قلب الياء همزة لمجيئها بعد ألف ساكنة ، أصله السرائر .

[سورة الطارق (86) : الآيات 11 إلى 14]

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

الإعراب :

(والسماء) مثل السابق " 2 " ، (ذات) نعت للسماء مجرور (الأرض) معطوف على السماء بالواو مجرور ، (اللام) لام القسم عوض من المزحلقة (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (الهزل) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

---

(1) هذا إن أعيد الضمير في (رجعه) للإنسان . . وإن أعيد إلى الماء فالظرف متعلّق بمحذوف تقديره يرجعه (أي الإنسان) ، أو تقديره اذكر .

(2) في الآية (1) من السورة .

جملة : " (أقسم) بالسماء " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه لقول . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " ما هو بالهزل " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

الصرف :

(الصدع) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ صدع بمعنى شقّ ، أو اسم للشقّ في الأرض حيث يخرج النبات . . وزنه فعل بفتح فسكون .

(الهزل) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ هزل بمعنى لم يجدّ ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة الطارق (86) : الآيات 15 إلى 17]

(223/811)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

الإعراب :

(كيدا) مفعول مطلق منصوب " 1 " في الموضعين (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر

(رويدا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه .

جملة : " إنهم يكيدون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكيدون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أكيد . . . " في محلّ نصب حال " 2 " .

وجملة : " مهّل . . . " جواب شرط مقدّر أي إن كادوا لك فمهّلهم . .

وجملة : " أمهلهم رويدا " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة للجملة السابقة .

الصرف :

(رويدا) ، قيل هو تصغير ترخيم بحذف الزوائد ، وتكبيره

---

(1) وهذا بحسب الظاهر . . ويجوز أن يكون مفعولا به أي يعملون المكايد للنبيّ عليه السلام ، و(كيدا) الثاني بمعنى أردّ الكيد .

(2) أو لا محلّ لها استئنافيّة .

(224/811)

إرواد - بكسر الهمزة - وزنه فعيل بضمّ الفاء وفتح العين . . أو هو تصغير رود بضمّ الراء زنة عود أي مهل . وجاء في المختار : تقول : رويدك عمرا أي أمهله وهو تصغير ترخيم من إرواد مصدر أرود يرود - بكسر الواو - .

ورويدا يستعمل مصدرا بدلا من اللفظ بفعله فيقال رويد زيد أو رويدا زيدا أي أمهله ، ويقع حالا مثل ساروا رويدا أي متمهّلين ، كما يقع مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر بكونه نعتا له أي ساروا سيرا رويدا .

الفوائد :

- (بله) و(رويد) .

(225/811)

(بله) : مصدر أهمل فعله ، و(رويد) مصدر مرخم لفعل (أرود بمعنى مهل) ، فإذا وردتا دون تنوين فهما اسما فعل أمر ، مثل : (بله العاجز) اتركه (رويد لمفلس) أمهله أما إذا نوّنتا : (بلها أخاك) (رويدا المفلس) كانتا مصدرين منصوبين على أنهما مفعولان مطلقان لفعليهما المحذوفين لا اسمي فعل . وكذلك أن جررت ما بعدهما بإضافتهما إليه (بله أخيك) (رويد المفلس) فهما هنا مفعولان مطلقان أيضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 304.299﴾

(226/811)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(86) سورة الطارق

مكيّة وآياتها سبع عشرة

[سورة الطارق (86) : الآيات 1 إلى 17]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ (1) وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (4)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ (7) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (9)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ (10) وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَما هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (17)

اللغة :

(وَالطَّارِقِ) أصله كل آت ليلا ومنه النجوم لطلوعها ليلا ومنه قول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

وقد نقدته سكينة بنت الحسين إذ قالت لرواية جرير قبح اللّه صاحبك وقبح اللّه شعره

وأي وقت أشهى من الطروق وهو اسم فاعل من طرق طرقا وطروقا إذا جاء ليلا والمراد

به هنا النجم وإنما سمي طارقا لطلوعه ليلا وكل من آتاك ليلا فقد طرقك ولا يكون الطروق

إلا بالليل ، قالت هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

(227/811)

تريد أن أبانا كالنجم في علوّه وشرفه وأصل الطرق الدق ومنه سمّيت المطرقة وإنما سمي قاصد الليل طارقا لاحتياجه إلى طرق الباب أي دقّه غالبا ثم اتسع به في كل ما ظهر بالليل كائنا ما كان ثم اتسع كل التوسع حتى أطلق على الآتي نهارا وفي المصباح : " طرقت الباب طرقا من باب قتل وطرقت الحديدة مددتها وطرقتها بالتثقيل مبالغة وطرق النجم طروقا من باب قعد طلع وكل ما أتى ليلا فقد طرق وهو طارق والمطرقة بالكسر ما يطرق به الحديد " أما ابن جنّي فقد منع أن يأتي الطروق نهارا قال : " وأما قول العامة : نعوذ باللّه من طوارق الليل والنهار فغلط لأن الطروق لا يكون إلا بالليل والصواب أن يقال نعوذ باللّه من طوارق الليل وجوارح النهار لأن العرب تقول طرقه إذا أتاه ليلا وجرحه إذا أتاه نهارا " .

وفي الصحاح : " الطارق : النجم الذي يقال له كوكب الصبح " .

(الثَّاقِبُ) المضيء لثقبه الظلام ، قال أبو عبيدة : العرب تقول :

أثقب نارك أي أضئها وقيل الثاقب العالي يقال ثقب الطائر إذا علا في الهواء وأسف إذا دنا

من الأرض ودوّم إذا سكن جناحيه ليستقل وعبارة الأساس واللسان : ثقب الشيء بالمثقب وثقب القداح عينه ليخرج الماء

النازل وثقّب اللّآل الدرّ ودرّ مثقّب وعنده در عذارى لم يثقّبن وثقبن البراقع لعيونهنّ قال المثقّب العبدي :

أرين محاسنا وكننّ أخرى وثقبن الوصاوص للعيون

وبه سمي المثقب . ومن المجاز كوكب ثاقب ودرّيّ شديد الإضاءة والتلألؤ كأنه يثقب بالظلمة فينفذ فيها ويدرؤها ورجل ثاقب الرأي إذا كان جزلا نظارا وثقب الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكّاك وثقّب الشيب في اللحية : أخذ في نواصيها وباب الجميع دخل .

(228/811)

(الصُّلْبِ) الشديد يقال هو صلب في دينه وراع صلب العصا إذا كان يعنّف الإبل وعظم في الظهر ذو فقار يمتد من الكاهل إلى العجب أو أسفل الظهر ويجمع على أصلاب وأصلب وصلبة وهو المراد هنا ويقال هو من صلب فلان أي من نسله وولده وفيه أربع لغات بضم الصاد وسكون اللام والصلب بفتحتين والصلب بضمتين وقد قرىء بها جميعا وثمة لغة رابعة وهي الصالب .

(وَالتَّرائِبِ) الترائب عظام الصدر حيث تكون القلادة ، وعن عكرمة الترائب ما بين ثديي المرأة وحكى الزجّاج أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدرة ، وفي الحديث " إن الولد يخلق من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم " ، وفي المختار : " والترائب جمع تريبة كصحيفة وصحائف " قال امرؤ القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

يعني المرآة ويقال تريب بغير هاء ، وأنشد للمثقب العبدي :

ومن ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذي غضون

وسيأتي مزيد من معناه في باب البلاغة .

(السَّرائِرُ) ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيّات وما أخفي من الأعمال وبلاؤها تعرفها وتصفحها والتمييز بين ما طاب منها وما خبث ، وعن الحسن أنه سمع رجلا ينشد :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة ودّ يوم تبلى السرائر

فقال : ما أغفله عمّا في السماء والطارق ، وفي المختار " السر الذي يكتم وجمعه أسرار والسريرة مثله والجمع سرائر " .

(الرَّجْعِ) المطر لأنه يعود كل حين فالسحاب تحمل الماء من الأمطار ثم ترجعه إلى الأرض

ويسمى أوبا لأنه يئوب أي يرجع ، قال المتنخل الهذلي :

رباء شماء لا يأوي لقلتها إلا السحاب وإلا الأوب والسبل

(229/811)

يرثي ابنه أو يصف رجلا بأنه رباء أي طلاع من ربأ وارتبأ إذا طلع لينظر إلى أمر ومنه الربيئة وإضافته إلى شماء من إضافة الوصف لمفعوله وهي القلعة المرتفعة من الشمم وهو الارتفاع والقلة أعلى الجبل وقنته والأوب المطر سمي به بذلك لأن أصله من مياه البحار ثم يئوب إليها والسبل بالتحريك المطر من أسبلت الستر إذا أرسلته وأرخيته . وقال الواحدي : " الرجع المطر في قول جميع المفسرين " .

(الصَّدْعِ) الشق لأنه يصدع الأرض فتنصدع به وفي الأساس :

" وانصدعت الأرض بالنبات وصدعها اللّه تعالى : والأرض ذات الصدع " .

الإعراب :

(وَالسَّماءِ وَالطَّارِقِ وَما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ)

الواو حرف قسم وجر والسماء مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم

المحذوف والطارق قسم أيضا منسوق على ما قبله والواو حرف عطف وما اسم استفهام مبتدأ وجملة أدراك خبرها وما اسم استفهام والطارق خبرها والجملة المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني والنجم بدل من الطارق أو خبر لمبتدأ محذوف كأنه جواب للاستفهام الوارد قبله تفخيما له وجملة إن كل نفس لما عليها حافظ لا محل لها من الإعراب لأنها جواب القسم وما بين القسم وجوابه اعتراض وإن بالتخفيف نافية وكل نفس مبتدأ ولما بالتشديد بمعنى إلا وعليها خبر مقدّم وحافظ مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر كل ، وقرئت لما بالتخفيف فاللام الفارقة وإن مخففة من الثقيلة مهملة وما زائدة وإلى هذا أشار ابن مالك في الخلاصة فقال :

وخففت إن فقل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل

(230/811)

و قد تقدم نظيرها في يس (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ) الفاء الفصيحة واللام لام الأمر وينظر فعل مضارع مجزوم باللام والإنسان فاعل ، وممّ : من حرف جر وما اسم استفهام في محل جر بمن وقد تقدم أن ما الاستفهامية قد يحذف ألفها إن سبقها حرف جر والجار والمجرور متعلقان بخلق وجملة خلق في موضع

نصب بقوله فلينظر المعلّق عنها بالاستفهام وجواب الاستفهام خلق من ماء وجملة خلق من ماء دافق مستأنفة كأنها جواب سؤال مقدّر وخلق فعل ماض مبني للمجهول ومن ماء متعلق بخلق ودافق نعت لماء أي مدفوق أو هي من صيغ النسب كلابن وتامر أو هو مجاز بالإسناد فقد أسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة وجملة يخرج نعت ثان أو حالية ومن بين الصلب متعلقان بيخرج والترائب عطف على

الصلب (إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا ناصِرٍ) إن واسمها وعلى رجعه متعلقان بقادر والضمير في إنه يعود على اللّه واللام المزحلقة وقادر خبر إن ويوم بظرف متعلق برجعه ولا يصحّ تعليقه بقادر لأنه تعالى قادر على رجعه في كل وقت من الأوقات ولا تختص قدرته بوقت دون وقت ، وقيل هي معمول لمحذوف تقديره يرجعه يوم أو اذكر يوم ولعله أولى ، وقال بعضهم متعلق بناصر وهو فاسد لأن ما بعد ما النافية وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلهما .

(231/811)

و الفاء عاطفة وما نافية وله خبر مقدّم ومن حرف جر زائد وقوة مجرور بمن لفظا مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر والواو حرف عطف ولا نافية وناصر عطف على قوة وجملة تبلى

السرائر في محل جر بإضافة الظرف إليها والسرائر نائب فاعل تبلى (وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ) الواو حرف قسم وجر والسماء مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف وذات الرجع نعت للسماء والأرض ذات الصدع عطف على الجملة المتقدمة (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَما هُوَ بِالْهَزْلِ) الجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وإن واسمها واللام المزحلقة وهي للتوكيد وقول خبر إن فصل نعت لقول والواو حرف عطف وما حجازية تعمل عمل ليس وهو اسمها والباء حرف جر زائد والهزل مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً) كلام مستأنف مسوق للإجابة عن سؤال نشأ من فحوى الكلام كأنه قيل وماذا تتسمى مكابرتهم وعنادهم فقيل انهم ، وإن واسمها وجملة يكيدون خبرها وكيدا مفعول مطلق والفاء فصيحة أي إن شئت أن ترى مغبة أمرهم فلا تستعجل بالانتقام منهم ، ومهل فعل أمر والكافرين مفعول به وأمهلهم كرر فعل الأمر تأكيدا لرسوله وزاد في الصيغة لزيادة تسكين قلبه وتصبيره ورويدا نصب على المصدر والأصل إروادا فهو تصغير ترخيم بحذف الزوائد وفي المختار : " وفلان على رود بوزن عود أي

على مهل وتصغيره رويد ويقال أرود في السير إروادا ومرودا بضم الميم وفتحها أي رفق وتقول رويدك عمرا أي أمهله وهو مصغر تصغير ترخيم من إرواد مصدر أرود يرود "

وعبارة السمين : " اعلم أن رويدا يستعمل مصدرا بدلا من اللفظ بفعله فيضاف تارة كقوله فضرب الرقاب ولا يضاف أخرى نحو رويدا زيدا ويقع حالا نحو ساروا رويدا أي متمهلين ونعتا لمصدر محذوف نحو ساروا رويدا أي سيرا رويدا " هذا وتأتي رويد زيدا اسم فعل بمعنى أمهله وهو مشتق من مسمّاه الذي هو أرود وأصله المصدر الذي هو إرواد وصغّر بحذف الزوائد تصغير الترخيم ومثله تيد زيدا في معنى رويد زيدا ، والذي نراه أنه إن أضيف فهو اسم فعل أمر مبني على الفتح ولا محل له من الإعراب وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت فإن نوّنته نحو رويدا أخاك أو أضفتهما نحو رويد أخيك فهو حينئذ منصوب على المفعولية المطلقة .

البلاغة :

1 – في قوله " من بين الصلب والترائب " طباق ، فقد طابق بين عظم الظهر وعظم الصدر وأفرد الأول وجمع الآخر لأن صدر المرأة هو تريبتها فيقال للمرأة ترائب يعني بها التريبة وما حواليها وما أحاط بها وكذلك تقول العرب : رأيت خلاخيل المرأة وثديها وإنما لها ثديان وخلخالان أو يقال أنه تعالى أراد : يخرج من بين الأصلاب والترائب ، فاكتفى بالواحد عن الجماعة كما قال تعالى : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، ولم

يقل والأرضين هذا وقد رمق أبو الطيب سماء هذه الآية فنقلها نقلا خفيا ينمّ على قدرة وألمعية فقال متغزلا وأجاد :

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

المنهبات قلوبنا وعقولنا وجناتهنّ الناهبات الناهبا

الناعمات القاتلات المحييا ت المبديات من الدلال غرائبا

حاولن تفديتي وخفن مراقبا فوضعن أيديهنّ فوق ترائبا

وبسمن عن برد خشيت أذيبه من حر أنفاسي فكنت الذائبا

(233/811)

وإنما أوردنا القطعة لنفاستها ، والشاهد في البيت الرابع حيث اقتبس مكان شهوة المرأة فجعلها تضع أيديها عليها ولهذا لم يستطع أحد من شرّاح ديوان أبي الطيب فهم البيت على حقيقته وخلطوا خلطا عجيبا فقال ابن جنّي : " أشرن إليّ من بعيد ولم يجهرن بالسلام والتحية خوف الرقباء والوشاة " وهذا كلام غير مفهوم فإن الخوف من الوشاة والرقباء يستدعي وضع الأيدي على الوجوه لا على الترائب وقال الواحدي وخاض في بيداء من الوهم : " طلبن أن يقلن نفديك بأنفسنا وخفن الرقيب فنقلن التفدية من القول إلى الإشارة

أي أنفسنا تفديك " وهذا يحتمل للكلام ما لا يحتمله ، ولعل ابن فورجة كان أذكى من صاحبيه فقال : " وضع اليد على الصدر لا يكون إشارة بالسلام وإنما أراد وضعن أيديهنّ فوق ترائبهنّ تسكينا للقلوب من الوجيب " ، على أنه رغم نفاسته منقوض بصدر البيت .

2- وفي قوله " النجم الثاقب " الفصل ، وسياق الكلام يقتضي الوصل لأنه قصد إشراكهما في الحكم واتفقا فيه وإنما عدل عنه تفخيما لشأنه فأقسم أولا بما يشترك فيه هو وغيره وهو الطارق ثم سأل عنه بالاستفهام تفخيما لشأنه ثانيا ثم فسّره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام ، روي أن أبا طالب كان عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فانحطّ نجم فجزع أبو طالب وقال أيّ شيء هذا ؟ فقال عليه السلام : هذا نجم رمي به وهو آية من آيات اللّه .

3- وفي قوله " والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ " فن المماثلة وهو تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها في الزنة دون التقفية فالطارق والثاقب وحافظ متماثلة في الزنة دون التقفية ، وقد تأتي بعض ألفاظ المماثلة مقفّاة من غير قصد كقول امرئ القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر العطر

وأورد الشيخ عبد الغني النابلسي للقاضي يحيى بن أكثم بيتين في المماثلة :

إنما الدنيا طعام ومدام وغلام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

وأورد لابن الصائغ أيضا :

زار الحبيب بليلة ووشاته لم يشعروا

فضممته ولثمته وفعلت ما لا يذكر

ولهذا قال ابن حجة عن فن المماثلة : أنه نوع سافل بالنسبة إلى غيره .

الفوائد :

أجوبة القسم :

أجوبة القسم أربعة : إنّ وما واللام ولا ، فحرفان يوجبان وهما إن واللام ، وحرفان ينفيان وهما ما ولا كقولك واللّه ما قام زيد ولقد قام زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 438.446 ﴾

(235/811)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

.14 والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب *

بقلم: د . زغلول النجار

يستهل ربنا (تبارك وتعالي) سورة الطارق بقسم عظيم يقسم به (سبحانه) .وهو الغني عن القسم. بكل من السماء والطارق , ثم يثني باستفهام تفخيمي عن ماهية الطارق ويحدده بالنجم الثاقب , فيقول (عز من قائل) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) :

والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب *

(الطارق : 1 . 3)

وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود من الطارق , فمنهم من قال إن الوصف ينطبق علي كل نجم , ولا سبيل إلي تحديد نجم بذاته , ولا ضرورة لهذا التحديد , بل إن الإطلاق أولي ليكون المعني : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام , النافذة من هذا الحجاب الذي يستر

الأشياء . . . , كما قال صاحب الظلال (يرحمه الله رحمة واسعة) . .

ومنهم من قال إنه الثريا أو النجم الذي يقال له كوكب الصباح , أو نجم آخر محدد بذاته ,

ومنهم من قال إن الوصف ينطبق علي الشهب التي وصفها القرآن الكريم بأنها ثاقبة , كما

في قول الحق (تبارك وتعالي) :

إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب *

(الصافات :10)

وذلك علي الرغم من الفروق الضخمة بين كل من النجم والكوكب والشهاب .

ولكن , الواضح من الآيات أن القسم جاء هنا بنجم خاص بذاته سماه ربنا تبارك وتعالي بـ

الطارق , ووصفه بالنجم الثاقب , فما هو هذا النجم المحدد الذي استوجب هذا القسم

القرآني التفخيمي , وجاء مقرونا بالسماء علي عظم شأنها ؟ خاصة أن القسم في القرآن

الكريم يأتي من أجل تنبيهنا إلي أهمية الأمر المقسوم به , وإلي ضرورته لاستقامة الكون

ومكوناته , أو لاستقامة الحياة فيه , أو لكليهما معا , وذلك لأن الله (تعالي) غني عن

القسم لعباده , كما سبق وأن أشرنا وكررنا لمرات عديدة , وعندي أن معني الطارق النجم

الثاقب لا ينجلي إلا بمعرفة دقيقة لطبيعة النجوم وأنواعها ومراحل تكونها , لأن هذه قضية علمية صرفة , وكطبيعة كل الإشارات الكونية في القرآن الكريم , لابد من توظيف المعارف العلمية لفهم دلالاتها , حيث لا يمكن لتلك الدلالات أن تتضح في الإطار اللغوي وحده .

المدلول اللغوي للفظة الطارق

لفظة الطارق اسم فاعل من الطرق بمعني الضرب بشدة , وأصل الطرق الدق , ومنه سميت المطرقة التي يطرق بها , وهذا هو الأصل , ولكن استخدمت اللفظة مجازا لتدل علي الطريق أي السبيل , لأن السابلة تطرقها بأقدامها , ثم صارت اسما لسالك الطريق , باعتبار أنه يطرقها بقدميه , ولفظة الطريق تذكر وتؤنث , وجمعها أطرقة , وطرق .

كذلك استخدم لفظ الطريقة بمعني الوسيلة أو الحالة .

واستخدم الطرق والمطروق للإشارة إلي ماء السماء الذي تطرقه الإبل بعد سقوطه علي الأرض , واستخدم لفظ الطارق علي سبيل المجاز للتعبير عن كل ما جاء بليل , فسمي قاصد الليل طارقا لاحتياجه إلي طرق الأبواب المغلقة , ثم اتسع هذا الاستعمال المجازي ليشمل كل ما ظهر بليل , ثم زيد في توسيعه حتي أطلق علي الصور الخيالية البادية لبعض الناس بالليل .

وطريقة القوم وطرائقهم أماثلهم وخيارهم , والطرائق الفرق والطرق .

والطرق أيضا الضرب بالحصي , وهو من الكهانة والتكهن , والطراق هم المتكهنون ,

والطوارق هن المتكهنات .

آراء المفسرين في الطارق النجم الثاقب

ذكر ابن كثير قول قتادة وغيره من متقدمي المفسرين (يرحمهم الله جميعا) مانصه : إنما سمي النجم طارقا , لأنه إنما يري بالليل , ويختفي بالنهار , ويؤيده ما جاء بالحديث :(إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن) , وأضاف قول ابن عباس (رضي

(237/811)

الله تبارك وتعالي عنهما (في شرح الثاقب بالمضيء , وأشار إلي قول عكرمة (رضي الله عنه) : هو مضيء ومحرق للشيطان .

وذكر صاحب الظلال (يرحمه الله) : أن هذا الوصف ينطبق علي جنس النجم , ولا سبيل إلي تحديد نجم بذاته من هذا النص , ولا ضرورة لهذا التحديد , بل إن الإطلاق أولي ليكون المعني : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام , النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء . . .

وذكر مخلوف (يرحمه الله) : أن . . . المراد هنا النجم البادي بالليل , وأضاف :(النجم الثاقب) أي المضيء , كأنه يثقب الظلام بنوره فينفذ فيه , والمراد به الجنس , فإن لكل

كوكب ضوءا ثاقبا , أو هو معهود وهو الثريا , أو النجم الذي يقال له (كوكب الصباح) . . .

ووافق كل من الصابوني (أمد الله في عمره) , وأصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) , ما قال به ابن كثير (يرحمه الله) , علي الرغم من أن القسم واضح الدلالة علي نجم محدد بذاته , وفيه من التحديد والتخصيص ما لا يمكن تجاهله , فلو كان الوصف بالطارق ينطبق علي كل نجم , ما خصص في هذه الآية الكريمة بهذا التحديد الدقيق , ولما أعطي اسما محددا الطارق , ولا صفة محددة النجم الثاقب , ولما ورد به القسم مع السماء بهذه الصورة المفخمة , ولما وجه السؤال إلي خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) عقب القسم مباشرة :

والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق *

ولما أتي الجواب قاطعا , حاسما من الله (تعالي) بقوله (عز من قائل) : النجم الثاقب *

والنجوم قد ورد ذكرها في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة , أربع منها بالإفراد (النجم) , وتسع بالجمع (النجوم) , ولم يوصف أي منها بالطارق النجم الثاقب , إلا في هذه السورة المباركة التي نحن بصددها , والتي حملت اسم الطارق تأكيدا أن الطارق نجم محدد بذاته , ولكي نفهم

حقيقة هذا النجم الطارق الثاقب , لابد لنا من التعرف علي أنواع النجوم , لنجد ما يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف القرآني المحدد .

ماهية النجوم ؟ :

النجوم هي مصابيح السماء الدنيا , وهذه المصابيح السماوية عبارة عن أجرام غازية في غالبيتها , ضخمة الحجم , ولكنها تبدو لنا ضئيلة لتعاظم أبعادها عنا , فأقرب النجوم إلينا وهي الشمس تبعد عنا بنحو مائة وخمسين مليون كيلومتر (149,6 مليون كيلومتر) وأقرب نجوم مجرتنا إلينا بعد الشمس واسمه الأقرب القنطوري

(Proxima Centauri)

يقدر بعده عنا بأكثر من أربعة آلاف مليون مليون كيلومتر (4,3 من السنين الضوئية) , ومن النجوم ما يبعد عنا بأكثر من عشرة بلايين من السنين الضوئية .

والنجوم أجرام سماوية شديدة الحرارة , ملتهبة , مشتعلة , ومضيئة بذاتها , يغلب علي تركيبها غاز الإيدروجين , ويليه في الكثرة غاز الهيليوم , والقليل من العناصر الأخري الأثقل وزنا , وتحتوي مادة النجم الغازية (في أغلبها) بعملية التجاذب الداخلي إلي مركز النجم الناتجة عن دورانه حول محوره , وتؤدي هذه العملية إلي اتحاد نوي ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض بالاندماج أو الانصهار النووي

(Nuclear Fusion)

وينطلق عن ذلك كميات هائلة من الطاقة علي هيئة عدد من الإشعاعات الكهرومغناطيسية التي من أهمها الضوء والحرارة .

ويؤدي تسلسل عملية الاندماج النووي من عنصر إلي آخر , إلي تكوين عناصر أعلي في وزنها الذري باستمرار , مما يؤدي بدوره إلي تعقيد كل من التركيب الكيميائي والبناء الداخلي للنجم , الذي يتقلص حجمه بالتدريج وتزداد كثافته بطريقة مطردة , وترتفع درجة حرارته باستمرار , فيمر بذلك في عدد من الأطوار المتتالية حتي نهاية حياته , وتسمي هذه المراحل المتتالية بدورة حياة النجم .

دورة حياة النجوم :

خلقت النجوم ابتداء من الدخان الكوني , الذي نشأ عن انفجار الجرم الأولي للكون (فتق

الرتق) , ولاتزال النجوم تتخلق أمام أنظار الفلكيين من دخان كل من السدم والمسافات بين النجمية وبين المجرية , عبر مراحل متتالية , وذلك بواسطة عدد من الدوامات العاتية التي تعرف باسم دوامات تركيز المادة

(Material Accretion Whorlsor Vertigos)

التي تعمل علي تكثيف المادة في داخل سحابات الدخان بفعل عملية التجاذب التثاقلي

(Gravitational Attraction)

فتؤدي إلي إحداث تصادمات متكررة بين جسيمات المادة ينتج عنها الارتفاع التدريجي في درجة حرارتها حتي تصبح قادرة علي بث الأشعة تحت الحمراء فيولد ما يسمي بالنجم الابتدائي

Pro-(or) Proto-Star

وتستمر جزيئات المادة في هذا النجم الأولي في التجمع والانجذاب أكثر نحو المركز حتي تتجمع الكتلة اللازمة لبدء عملية الاندماج النووي , فتزداد الاصطدامات بينها , ويزداد الضغط إلي الدرجة التي تسمح ببدء التفاعلات النووية الاندماجية بين نوي ذرات الإيدروجين , فيتوهج النجم الأولي وتنطلق منه الطاقة , وينبثق الضوء المرئي , وعند ذلك يكون النجم الابتدائي قد وصل إلي طور النضج المسمي باسم نجوم النسق الرئيسي

(Main Sequence Stars)

ويستمر النجم في هذا الطور غالبية عمره (90

من عمره) , حيث يتوقف انكماش مادته نحو المركز بسبب الحرارة والضغط البالغين المتولدين في مركز النجم .

وينتج عن استمرار التفاعلات النووية في داخل نجم النسق الرئيسي استهلاك كميات كبيرة من غاز الإيدروجين الذي تحوله إلي الهيليوم , وبالتدريج تتخلق العناصر الأثقل من مثل الكربون , والنيتروجين , والأوكسجين , وفي مراحل لاحقة يتحول لب النجم إلي الحديد , فتتوقف عملية الاندماج النووي , ويدخل النجم في مرحلة الاحتضار علي هيئة النموذج الأول لانفجار المستعر الأعظم

(Typel Supernova Explosion)

ينتهي به إلي دخان السماء عبر مراحل من العمالقة الحمر

(Red Giants)

ثم مرحلة النجوم الزرقاء شديدة الحرارة

(240/811)

والمحاطة بهالة من الإيدروجين المتأين والمعروفة باسم السدم الكوكبية

(Planetary Nebulae)

ثم مرحلة الأقزام البيض

(White Dwarfs)

صورة بالاشعة السينية لسديم السرطان وبداخله نجم نيوترونى

إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم قليلة نسبيا (في حدود كتلة الشمس تقريبا), أما اذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم عدة مرات قدر كتلة الشمس , فإنه يمر بمراحل من العمالقة العظام

(Supergiants)

ثم النموذج الثاني لانفجار المستعر الأعظم

(TypeII Supernova Explosion)

الذي تتبقي عنه النجوم النيوترونية

(Neutron Stars)

أو الثقوب السود

(Black Holes)

والتي أسميها باسم النجوم الخانسة الكانسة

(The Concealedor Hidden Sweeping Stars)

كما يصفها القرآن الكريم , والتي تبتلع كل ما تمر به أو يصل إلي أفق حدثها

(Event Horizon)

من مختلف صور المادة والطاقة , ثم ينتهي بها المطاف إلي دخان السماء عن طريق تفككها

وتبخر مادتها عالية الكثافة , كما يعتقد غالبية الدارسين لموضوعات الفيزياء الفلكية , وإن كانوا لم يتمكنوا بعد من تحديد كيفية حدوث ذلك , ويري بعض الفلكيين أن أشباه النجوم

(Quasars)

مرشحة لتكون المرحلة الانتقالية من الثقوب السود إلي دخان السماء , وهي أجرام شاسعة البعد عنا , ضعيفة الإضاءة (ربما لبعدها الشاسع عنا) , منها ما يطلق أقوي الموجات الراديوية المعروفة في السماء الدنيا ويعرف باسم أشباه النجوم الراديوية

(Quasi-Stellar Radio Sourcesor Quasars)

ومنها ما لا يصدر مثل تلك الموجات الراديوية ويعرف باسم أشباه النجوم غير الراديوية

(Radio-Quiet Quasi-Stellar Objectsor QSOs)

وغالبية نجوم السماء من النوع العادي , أو ما يعرف باسم نجوم النسق الرئيسي

(Main Sequence Stars)

التي تمثل مرحلة نضج النجم وأوج شبابه , وهي أطول مرحلة في حياة النجوم , حيث يمضي النجم 90

من عمره في هذه المرحلة , التي تتميز

بتعادل دقيق بين قوي التجاذب إلي مركز النجم (والناتجة عن دوران النجم حول محوره) , وقوي دفع مادة النجم إلي الخارج (نتيجة لتمدده بالحرارة الشديدة الناتجة عن عملية الاندماج النووي في لبه) , ويبقي النجم في هذا الطور حتي ينفذ وقوده من غاز الإيدروجين , أو يكاد ينفد , فيبدأ بالتوهج الشديد حتي تصل شدة إضاءته إلي مليون مرة قدر شدة إضاءة الشمس , ثم يبدأ في الانكدار التدريجي حتي يطمس ضوؤه بالكامل , ويختفي كلية عن الأنظار علي هيئة النجم الخانس الكانس (أو الثقب الأسود) , عبر عدد من مراحل الانكدار .

ومن النجوم المنكدرة ما يعرف باسم السدم الكوكبية

(Planetary Nebulae)

والأقزام البيض

(White Dwarfs)

والنجوم النيوترونية

(Neutron Stars)

ومنها النابض وغير النابض

Pulsating Neutron Stars (or Pulsars)and Non-

pulsating Neutron Stars

وغيرها من صور انكدار النجوم , وسبحان الذي أنزل من فوق سبع سماوات , ومن قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت *

(التكوير :2) .

وقوله (عز من قائل) :

فإذا النجوم طمست *

(المرسلات :8)

والآيات الثلاث من مظاهر الآخرة , إلا أن من رحمة الله (تعالي) بنا , أن يبقي لنا في سماء الدنيا من ظواهر انكدار النجوم وطمسها , ما يؤكد إمكانية حدوث ذلك في الآخرة بكيفيات ومعدلات مغايرة لكيفيات ومعدلات الدنيا , لأن الآخرة لها من السنن ما يغاير سنن الدنيا .

أحجام النجوم

تتفاوت النجوم في أحجامها تفاوتا كبيرا , فمنها العماليق العظام

(Supergiants)

التي تزيد أقطارها عن أربعمائة ضعف قطر الشمس (أي نحو خمسمائة وستين مليون

كيلومتر) , ومنها الأقزام البيض

(White Dwarfs)

التي لا تتعدي أطوال أقطارها واحدا من مائة من طول قطر الشمس في المتوسط (أي لا

تتعدي 14000 كيلومتر) , ومنها النجوم النيوترونية

(Neutron Stars)

التي لا

(242/811)

يتعدي طول قطر الواحد منها ستة عشر كيلومترا , ومنها النجوم الخانسة الكانسة (أو ما

يعرف باسم الثقوب السود)

(Concealedor Hidden Sweeping Stars (or Black

Holes)

التي يتضاءل فيها قطر النجم إلي ما لا يستطيع العقل البشري أن يتصوره , وهي صورة

واقعية راهنة تعيد إلي الأذهان نقطة البداية الأولي التي انفجرت فخلق الله تعالي منها كل

السماوات والأرض (الرتق) مع الفارق الشاسع بين النقطتين في تناهي الحجم والكتلة ,

وكم الطاقة ودرجة الحرارة وغير ذلك من الصفات , ولكنها رحمة الله (تعالي) بنا , أن يبقي لنا في صفحة السماء ما يمكن أن يعين أصحاب البصائر علي تدبر الخلق الأول , وعلي تصور إمكانية إفنائه , وإعادة خلقه من جديد , وهي من القضايا التي طالما جادل فيها الكافرون والمتشككون والمنكرون بغير علم ولا هدي ولا سلطان منير .

كثافة وكتل النجوم

كما تتفاوت النجوم في أحجامها , فإنها تتفاوت في كل من كثافة مادتها وكتلتها , وبصورة عامة تقل كثافة النجم كلما زاد حجمه وبالعكس , تزداد كثافته كلما قل حجمه , وقد لوحظ أن كثافة مادة النجوم تتفاوت بين واحد من مائة من متوسط كثافة الشمس (المقدرة بنحو 1,41 جرام للسنتيمتر المكعب) في العماليق العظام

(Supergiants)

إلي طن واحد للسنتيمتر المكعب (610 جرام / سم 3) في الأقزام البيض

(White Dwarfs)

الي بليون طن للسنتيمتر المكعب (1510 جرام / سم 3) في النجوم النيوترونية إلي أضعاف مضاعفة لتلك الكثافة في النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) .

ويمكن تعيين كتل النجوم خاصة الثنائية والثلاثية منها , إما بصريا أو طيفيا بتطبيق قانون الجاذبية , أو بتطبيق قوانين الازاحة الطيفية

(Red Shift)

(انزياح أضواء النجوم إلي الطيف الأحمر) , وهناك علاقة بين كتلة النجم ودرجة اضاءته (في مرحلة نجوم النسق الرئيسي) , أي بين كتلة المادة التي يحتويها النجم ,

(243/811)

وبين كمية الطاقة المتولدة في جوفه , فإذا كان النجم في حالة اتزان بين قوي الجذب إلي مركزه وقوي الدفع إلي الخارج (أي لا يتمدد ولا ينكمش) فإن جميع خواصه الفيزيائية تعتمد علي كل من كتلته وتوزيع العناصر الكيميائية في مادته .

وتعتبر كثافة النجم دالة قوية علي مرحلة تطوره , فكلما زادت كثافة النجم , كان أكبر عمرا وأقرب إلي نهايته من النجوم الأقل كثافة .

درجات حرارة النجوم

تتفاوت النجوم في درجة حرارة سطحها بين 2300 درجة مطلقة في النجوم الحمراء , و وأكثر من خمسين ألف درجة مطلقة في النجوم الزرقاء , ويتم قياس درجة حرارة سطح النجم بعدد من التقنيات التي منها قياسات لون النجم , لإن إشعاعه يخضع لقوانين إشعاع الجسم الأسود

(Black Body Radiation)

فإذا كانت درجة حرارة النجم منخفضة نسبيا , مالت معظم الإشعاعات التي يصدرها إلي اللون الأحمر , وإذا كانت درجة حرارته عالية مالت إشعاعاته إلي الزرقة , وتسمي درجة الحرارة المقاسة باسم درجة حرارة اللون

(ColourTemperature)

ومنها قياس شدة خطوط الامتصاص الطيفية لأشعة النجم في مراحل مختلفة من التأين والإثارة وتسمي درجة الحرارة المقاسة باسم درجة الحرارة الطيفية

(Spectral Temperature) .

وتتفاوت النجوم أيضا في درجة حرارة جوفها بين عشرات الملايين في نجوم النسق الرئيسي , ومئات البلايين من الدرجات المطلقة في المستعرات وما فوقها .

أقدار النجوم

هي مقاييس عددية تعبر عن درجة لمعان النجم , وتقاس شدة الإضاءة الظاهرية للنجم بكمية الضوء الواصل منه إلي نقطة معينة في وحدة من وحدات الزمن , والقدر الظاهري للنجم قيمة عددية لوغاريتمية تعبر عن شدة إضاءته الظاهرية بالنسبة لغيره من النجوم , بمعني أن الأرقام الأقل تعبر عن درجة لمعان أعلي , ويعتمد القدر الظاهري للنجم علي كمية الطاقة المنطلقة منه في الثانية (القدر المطلق) , وعلي بعد النجم عنا , ويمكن

معرفة القدر المطلق للنجم بمعرفة بعده عن الأرض , ويبلغ مدي القدر النجمي المطلق نحو 27 درجة (تتراوح بين -9 في أشدها لمعانا , و +18 في أخفتها) .

وتبلغ درجة لمعان الشمس (قدرها المطلق) +5, بينما يقترب ذلك من أقصي قدر (-9) في كل من العماليق الحمر , والعماليق العظام والمستعرات وما فوقها , حيث تبلغ شدة إضاءة النجم أكثر من مليون ضعف إضاءة الشمس , وتتدني شدة الإضاءة الي واحد من ألف من شدة إضاءة الشمس في النجوم المنكدرة من مثل الأقزام البيض , والنجوم النيوترونية , إلي الطمس الكامل والإظلام التام في النجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) وأشباهها من الأجرام المستترة في ظلمة الكون .

التغير في أقدار النجوم أو (النجوم المتغيرة)

بالإضافة إلي التباين الشديد في درجة لمعان النجوم , فإن بعض النجوم العادية (Main Sequence Stars)

تتفاوت شدة إضاءة النجم الواحد منها من وقت إلي آخر , عبر فترات زمنية تطول أو تقصر , وبشكل مفاجيء أو بصورة هادئة متدرجة , لا تكاد أن تدرك , ولذلك عرفت

باسم النجوم المتغيرة أو المتغيرات .

احتضار النجوم :

يبدأ النجم العادي (مرحلة النسق الرئيسي) في الاحتضار , بالتوهج الشديد علي هيئة عملاق أحمر

(Red Giant)

إذا كانت كتلته الابتدائية في حدود كتلة الشمس (أو قريبة من ذلك) , أو علي هيئة عملاق أعظم

(Supergiant)

اذا فاقت كتلته الابتدائية كتلة الشمس بعدة مرات , وينشأ في الحالة الأولي نجم أزرق شديد الحرارة محاط بهالة من الإيدروجين المتأين (أي الحامل لشحنة كهربية) , ويعرف باسم السديم الكوكبي

(The Planetary Nebula)

الذي سرعان ما يتبرد وينكمش علي هيئة ما يعرف باسم القزم الأبيض , وقد تدب الروح في القزم الأبيض فيعاود الانفجار علي هيئة عملاق أحمر , ثم نخبو جذوته إلي قزم أبيض عدة مرات حتي ينتهي به العمر إلي الانفجار علي هيئة مستعر أعظم من

النمط الأول

(Typel Supernova)

(245/811)

فتنتهي مادته وطاقته إلي دخان السماء لتدخل في دورة ميلاد نجم جديد .

وفي حالة النجوم فائقة الكتلة , ينفجر نجم النسق الرئيسي علي هيئة عملاق أعظم , الذي يعاود الانفجار علي هيئة مستعر أعظم من النمط الثاني , عائدا إلي دخان السماء عودة جزئية , ومكدسا جزءا كبيرا من كتلته علي هيئة نجم نيوتروني أو ثقب أسود (نجم خانس كانس) , إما مباشرة أو عبر مرحلة النجم النيوتروني حسب الكتلة الابتدائية للنجم .

والمراحل المتأخرة من حياة النجوم مثل النجوم الزرقاء الحارة , والنجوم النيوترونية , والنجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) , وأشباه النجوم ترسل بوابل من الأشعة والجسيمات الكونية , أو بأحزمة متصلة من الأشعة السينية أو الأشعة الراديوية عبر السماء الدنيا , فتفقد من كتلتها باستمرار إلي دخان السماء .

ومن أهم هذه المراحل المتأخرة في حياة النجوم ما يعرف باسم النجوم النيوترونية النابضة أو

النوابض , وهي نجوم نيوترونية شديدة التضاغط ترسل بنبضات منتظمة من الأشعة الراديوية المتسارعة في كل جزء من الثانية , أو في كل عدد قليل من الثواني , وقد يصل عدد النبضات الي ثلاثين نبضة في الثانية , ويعتمد عدد النبضات علي سرعة دوران النجم حول محوره , حيث أنه من المعتقد أن كل دورة كاملة للنجم حول محوره تصاحبها نبضة من نبضات الموجات الراديوية التي تسجلها المقربات (التليسكوبات) الراديوية بوضوح تام .

كيفية تكون النجوم النيوترونية

يعتبر انفجار العماليق العظام علي هيئة مستعر أعظم من النمط الثاني , واحدا من أعظم الانفجارات الكونية المروعة , التي تؤدي إلي تدمير النجم وإلي تدمير كل ما يدور في فلكه أو يقع في طريق انفجاره من أجرام سماوية في زمن قياسي , وذلك بتكون تيارات حمل عنيفة في داخل النجم تدفع بواسطة وابل غزير من النيوترينوات

Neutrino-Driven Convection Currents

(246/811)

فتقوم بتكوين دوامات متفاوتة في أحجامها , وفي شدة دورانها , يؤدي تصادمها إلي مزيد من تفجير النجم , وتندفع ألسنة اللهب بعنف شديد من داخل النجم إلي خارجه علي

هيئة أصابع عملاقة ملتوية ومتكسرة , وتظل طاقة النيوترينو تضخ في داخل النجم المتفجر لمسافة آلاف الكيلومترات في العمق , مما يؤدي إلي تكرار عمليات الانفجار مرات عديدة حتي تخبو فتنطلق رياح عاتية مندفعة بتيار النيوترينو من نجم ذي كثافة فائقة قد تكون داخل حطام النجم المنفجر , ويعرف هذا النجم الوليد باسم النجم النيوتروني الابتدائي , والذي سرعان ما يتحول الي نجم نيوتروني عادي الحجم بجاذبية قليلة نسبيا , ثم الي نجم نيوتروني شديد التضاغط بجاذبية عالية جدا , وهو نجم ضئيل الحجم جدا , سريع الدوران حول محوره مطلقا كمية هائلة من الأشعة الراديوية , ولذا يعرف باسم النابض الراديوي (RadioPulsar)

وباقي نواتج الانفجار تقذف إلي صفحة السماء علي هيئة موجات لافحة من الكتل الغازية الملتهبة , تعرف باسم فضلات انفجار المستعرات العظمي , وهذه الفضلات الدخانية قد تدور في مدارات حول نجوم أخري لتتخلق منها أجرام تتبع تلك النجوم , أو قد تنتهي إلي المادة بين النجوم لتشارك في ميلاد نجوم جديدة .

ومن رحمة الله بنا أن مثل هذه الانفجارات النجمية المروعة والمدمرة والمعروفة باسم انفجار المستعر الأعظم

Supernova Explosion

قد أصبحت قليلة جدا بعد أن كانت نشطة في بدء الخلق كما تدل آثارها الباقية في

صفحة السماء , فلا يتعدي وقوعها اليوم مرة واحدة كل عدة قرون , فحتي سنة 1987 م لم يعرف الفلكيون سوي ثلاث حالات فقط مسجلة في التاريخ المدون , وقعت إحداها في سنة 1054 م , وخلفت من ورائها نجما نيوترونيا نابضا في سديم السرطان

(Crab Nebula)

الذي يبعد عنا بنحو ألف فرسخ فلكي (3,300 سنة ضوئية) ويدور هذا النابض حول محوره ثلاثين مرة في كل ثانية مطلقا

إشعاعا دوارا من الأشعة السينية .

(247/811)

وسجلت الثانية في سنة 1604 م في مجرتنا (درب اللبانة) , ولاتزال آثار هذا الانفجار باقية علي هيئة دوامات شديدة من الموجات الصدمية

(Shock Waves)

التي يمكن رصدها , ووقعت الثالثة في 24/2/1987 م في سحب ماجيلان الكبيرة

(The Large Magellanic Clouds)

وهي إحدي المجرات المجاورة لمجرتنا .

والانفجار الواحد من هذه الانفجارات العظمي , تفوق شدته الطاقة المنطلقة من جميع النجوم في مجرة كاملة , ويكون الضوء المصاحب له أشد لمعانا من ضوء المجرة بالكامل , ويتبقي عنه نفثات كونية من أشعة جاما

(Cosmological Gamma Ray Bursts)

يطلق عليها اسم المرددات الدقيقة لأشعة جاما

(Soft Gamma Ray Repeatersor SGRs).

التي تصدر انبثاقات هائلة من الأشعة السينية لتختفي ثم تظهر من جديد بعد عدة شهور , أو عدة سنوات حسب بعدها عنا , والنفثة الواحدة التي ينفثها واحد من تلك المرددات في ثانية واحدة تساوي كل ما تنفثه الشمس من الأشعة السينية في سنة كاملة من سنينا .

وفي سنة 1992 م تمكن الفلكيون من اثبات أن مرددات الأشعة السينية تلك , ما هي إلا نجوم نيوترونية شديدة المغنطة

(Super Magnetized Neutron Stars)

أطلقوا عليها اسم الممغنطات

(Magnetars)

وأثبتوا لها حقلا مغناطيسيا فائق الشدة , تفوق شدته شدة جاذبية الحقل المغناطيسي للأرض بأكثر من ألف وخمسمائة مليون مليون مرة (1667 مليون مليون مرة) , وللشمس

بنحو الألف مليون مليون مرة , وهذه الممغنطات هي نجوم نيوترونية نابضة

(Pulsating Neutron Starsor Pulsars)

تدور حول محورها بسرعات فائقة مطلقة الأشعة السينية بكميات غزيرة .

ماهو الطارق النجم الثاقب ؟

ينطبق الوصف القرآني ' بالطارق النجم الثاقب ' علي مصادر الإشعاع الراديوي المميز

بالسماء الدنيا ومن أهمها النجوم النيوترونية شديدة التضاغط

(Theultra-compact Neutronstars)

والمعروفة

باسم النجوم النابضة

(Pulsating Stars)

أو النابضات أو النوابض

(248/811)

(Pulsars)

وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير , ولذا فإنها تدور حول محورها

بسرعات فائقة مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية ولذا تعرف باسم النوابض الراديوية

(Radio Pulsars)

لأنها ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية في كل جزء من الثانية أو في كل عدد قليل من الثواني حسب حجمها , وسرعة دورانها حول محورها , وقد يصل عدد نبضات تلك النجوم إلي ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة , ويعتقد أن النابض الراديوي يطلق نبضة واحدة من الموجات الراديوية في كل دورة كاملة حول محوره , وتسجل المقربات (التليسكوبات) الراديوية تلك النبضات بدقة فائقة .

ومن رحمة الله بنا أن أقرب النوابض الراديوية إلينا يبعد عنا بمسافة خمسة آلاف من السنين الضوئية , وإلا لكان لنبضاتها المتسارعة أثر مدمر للحياة علي الأرض .

ومن مصادر الإشعاع الراديوي المتميز أيضا أشباه النحوم

(Quasars)

وهي أجرام سماوية شديدة البعد عنا , ضعيفة الإضاءة (ربما لبعدها البالغ عنا) , ومنها مايطلق أقوي الموجات الراديوية المعروفة في السماء الدنيا , ولذا تعرف باسم أشباه النجوم المصدرة للموجات الراديوية

(Radio Sources Quasars)

تمييزا لها عن غيرها من أشباه النجوم التي لاتصدر موجات راديوية

(Radio-Quiet Quasi-Stellarobjects (QSOs)

وعلي الرغم من بعدها الشاسع عنا فإن أشباه النجوم تتباعد عنا بسرعات فائقة , وتعتبر أبعد ما قد تم رصده من أجرام السماء بالنسبة لنا , وتبدو وكأنها علي أطراف السماء الدنيا تطرق أبوابها لتوصل إشاراتها الراديوية إلينا .

وأشباه النجوم في حالة من حالات المادة الخاصة غير المعروفة لنا , وتقدر كتلة شبيه النجم بنحو مائة مليون ضعف كتلة الشمس , وهو قليل الكثافة جدا إذ تقدر كثافته بحدود واحد من ألف مليون مليون من الجرام للسنتيمتر المكعب (1/1510

(249/811)

جم / سم 3) , وتقدر الطاقة الناتجة عنه بمائة مليون مليون مرة قدر طاقة الشمس , وقد تم الكشف عن حوالي ألف وخمسمائة من أشباه النجوم علي أطراف الجزء المدرك من الكون , ويتوقع الفلكيون وجود آلاف أخري منها لم تكتشف بعد .

وكلتا المرحلتين من مراحل حياة النجوم : النوابض الراديوية

(Radio Pulsars)

وأشباه النجوم الراديوية

(Radio Quasars)

يعتبر من أهم المصادر الراديوية

(Radio Sources)

في السماء الدنيا , وكلتاهما من مراحل احتضار النجوم وانكدارها التي تسبق الطمس والخنوس , كما في حالة النوابض , أو من مراحل التحول إلي دخان السماء اللاحقة علي مرحلة الخنوس كما في حالة أشباه النجوم .

ولعل هذه المراحل الراديوية المتميزة في ختام حياة النجوم هي المقصودة بالوصف القرآني الطارق النجم الثاقب لأنها تطرق صفحة السماء وتثقب صمتها بنبضاتها السريعة التردد , وموجاتها الراديوية الخاطفة , والله تعالي أعلم .

وإن في سبق القرآن الكريم بالإشارة إلي تلك المراحل من حياة النجوم والتي لم يعرفها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين لهو من الشهادات الناطقة بربانية القرآن الكريم , وبنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه أجمعين) , الذي تلقي هذا الوحي الخاتم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بهذه الدقة العلمية المبهرة في مجتمع لم يكن له من العلم أي نصيب .

وبعد هذا القسم بالسماء والطارق يأتي جواب القسم :

إن كل نفس لما عليها حافظ

(الطارق :4)

أي أن كل نفس عليها من الله (تعالي) حافظ موكل بها من الملائكة , يحفظها بأمر الله , ويحفظ عنها بأمر الله كذلك , في مراقبة دائمة , فكما يصلنا طرق النوابض وأشباه النجوم عبر بلايين السنين الضوئية تعرج أعمالنا لحظة بلحظة إلي الله (تعالي) علام الغيوب الذي لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء ! !

ثم أتبع تعالي

(250/811)

ذلك بدعوة الإنسان (في نفس السورة) إلي النظر في نشأته الأولي كي يعلم أن خالقه قادر علي إعادة بعثه , وعلي محاسبته وجزائه , فيجتهد في عمل الخير حتي يجد ما ينجيه في الآخرة , حيث إن الأمر ليس بالهزل , ولذلك يختتم السورة الكريمة بعدد من الآيات الكونية الأخري وبقوله تعالي : إنه لقول فصل * وما هو بالهزل *

ثم بإنذار ووعيد للكافرين بالله والمشركين به والمتمردين علي أوامره (تعالي) بهذا الجزم الآلهي القاطع :

(إنهم يكيدون كيدا * وأكيد كيدا * فمهل الكافرين أمهلهم رويدا *)

(الطارق: 17. 19) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية للدكتور زغلول النجار ﴾

(251/811)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/812)

الجزء الثانى عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأعلى)

(4/812)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الأعلى)

(5/812)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الأعلى

وتسمى سبح

قال الملوي : وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحبها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات . مقصودها . إيجاب التنزيه للأعلى سبحانه وتعالى عن أن يلحق ساحة عظمته شيء من شوائب النقص كاستعجال في أمر من إهلاك اللكافرين أو غيره أو العجز عن البعث أو إهمال الخلق سدى يبغي بعضهم على بعض بغير حساب ، أو أن يتكلم بما لا يطابق الواقع أو بما يقدر أحد أن يتكلم بمثله كما أذنت بذلك الطارق مجملا وشرحته هذه مفصلا ، وعلى ذلك دل كل من اسمها سبح والأعلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 393 ﴾

(6/812)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . سبح اسم ربك الأعلى)

السّورة مكِّيّة .

آياتها تسعَ عشرة بالإِجماع .

وكلماتها ثمان وسبعون .

وحروفها مائتان وإِحدى وسبعون .

فواصل آياتها على الأَلف .

سمّيت سورة الأَعلى ؛ لمفتتحها .

مقصود السّورة : بيان عُلُوّ الذات ، والصّفات ، وذكر الخِلْقة ، وتربية الحيوانات ، والإِشادة بالثمار ، والنبات ، والأَمنُ مِن نَسْخ الآيات ، وبيان سهولة الطاعات ، وذل الكفَّار فى قَعْر الدّركات ، والتحضيض على الصّلاة والزّكات ، وفى الدّنيا بقاءُ الخيرات ، وفى الآخرة بقاءُ الدّرجات ، فى قوله : ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

السّورة محكمة .

ومن المتشابه قوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، وفى العلق : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ زاد فى هذه السّورة : ﴿ الأَعْلَى ﴾ ؛ مراعاة للفواصل وفى هذه السّورة : ﴿ خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ، وفى العلق ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

فضل السّورة

فيه أَحاديث لا يصحّ منها سوى ما رواه عُقْبَة : لمّا نزل ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قال صلَّى الله عليه وسلَّم : اجعلوها فى ركوعكم ، ولمّا نزل ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ قال صلَّى الله عليه وسلَّم : اجعلوها فى سجودكم .

ومن الضَّعيف المتروك حديث أُبىّ : مَنْ قرأَها أَعطاه الله من الأَجر عشر حسنات بعدد كل حرف أَنزله على إِبراهيم ، وموسى ، ومحمّد صلَّى الله عليه وسلَّم .

(7/812)

وقال : مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب الشاكرين ، وله بكلّ آية قرأَها ثوابُ الصّابرين (وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يحبّ هذه السّورة) ويقرأ بها فى صلاة الوِتْر ، ويروى أَنَّ أَوّل من قال سبحانه ربِّى الأَعلى ميكائيل ، وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَخبرنى عن ثوابِ مَنْ قالها فى صلاته أَو غير صلاته ، فقال يا محمّد ما مِن مؤمن ، ولا مؤمنة يقولها فى سجوده ، أَو فى غير سجوده ، إِلاَّ كانت له فى ميزانه أَثقلَ من العرش ، والكرسىّ ، وجبال الدّنيا ، ويقول الله – تعالى – : صدق عبدى ، أَنا الأَعلى ، دونى كلُّ شىء ، أَشهدوا ملائكتى أَنِّى قد غفرت لعبدى ، وأُدخله فى جنتى ، وإِذا مات زاره ميكائيل يوماً ، يوماً ، فإِذا كان يوم القيامة حمله على جَناحه ، فيوقفه بين يدى الله عزَّ وجلّ فيقول : يا رب

شفِّعني فيه ، فيقول : قد شفَّعتك فيه ، اذهب به إلى الجنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوي التمييز حـ 1 صـ 514.515 ﴾

(8/812)

فصل في التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الأعلى

هذه السورة وردت تسميتها في السنة سورة : (سبح اسم ربك الأعلى (ففي (الصحيحين) عن جابر بن عبد الله قال : (قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوَّل فشكاه بعض من صلّى خلفه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) (أفتَّان أنتَ يا مُعاذ أين كنتَ عن سبح اسم ربك الأعلى والضّحى) اه .

وفي (صحيح البخاري) عن البراء بن عازب قال : (ما جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة حتى قرأتُ سبح اسم ربك الأعلى) في سورٍ مثلها .

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير : (أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقرأ في العيد ويومَ الجمعة سبّح اسم ربك الأعلى وهل أتاك حديث الغاشية) .

وسمتها عائشة (سَبِّح) . روى أبو داود والترمذي عنها : (كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في الوتر في الركعة الأولى سَبِّح) الحديث . فهذا ظاهر في أنها أرادت التسمية لأنها لم تأتي بالجملة القرآنية كاملة ، وكذلك سماها البيضاوي وابن كثير . لأنها اختصت بالافتتاح بكلمة (سبح) بصيغة الأمر .

وسماها أكثر المفسرين وكتَّاب المصاحف (سورة الأعلى) لوقوع صفة الأعلى فيها دون غيرها .

وهي مكية في قول الجمهور وحديث البراء بن عازب الذي ذكرناه آنفاً يدل عليه ، وعن ابن عمر وابن عباس أن قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) (الأعلى : 14 15) نزل في صلاة العيد وصدقةِ الفطر ، أي فهما مَدنيتان فتكون السورة بعضها مكي وبعضها مدني .

وعن الضحاك أن السورة كلها مدنية .

(9/812)

وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية وحسبك بقوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) (الأعلى : 6) .

وهي معدودة ثامنة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة التكوير وقبل سورة الليل . وروي عن ابن عباس وعكرمة والحسن أنها سابعة قالوا : أول ما نزل من القرآن : اقرأ باسم ربك ، ثم ن ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم تَبَّتْ ، ثم إذا الشمس كورت ، ثم سبح اسم ربك . وأما جابر بن زيد فعد الفاتحة بعد المدثر ثم عد البقية فهي عنده ثامنة ، فهي من أوائل السور وقوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى ينادي على ذلك .

وعدد آيها تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد .

أغراضها

اشتملت على تنزيه الله تعالى والإِشارة إلى وحدانيته لانفراده بخلق الإِنسان وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه .

وعلى تأييد النبي وتثبيته على تلقي الوحي .

وأن الله معطيه شريعة سمحة وكتاباً يتذكر به أهل النفوس الزكية الذين يخشون ربهم ، ويُعرض عنهم أهل الشقاوة الذين يُؤثرون الحياة الدنيا ولا يعبأون بالحياة الأبدية .

وأن ما أوحي إليه يُصدِّقُه ما في كتب الرسل من قبله وذلك كله تهوين لما يلقاه من إعراض المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 271.272 ﴾

(10/812)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الأعلى

في رواية للإمام أحمد عن الإمام علي – كرم الله وجهه – أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يحب هذه السورة: (سبح اسم ربك الأعلى) . . وفي صحيح مسلم أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى , و(هل أتاك حديث الغاشية) . وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما . .

وحق لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يحب هذه السورة وهي تحيل له الكون كله معبدا تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده , ومعرضا يحفل بموحيات التسبيح والتحميد : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) . . وإيقاع السورة الرخي المديد يلقي ظلال التسبيح ذي الصدى البعيد . .

وحق له (صلى الله عليه وسلم) أن يحبها , وهي تحمل له من البشريات أمرا عظيما . وربه يقول له , وهو يكلفه التبليغ والتذكير: (سنقرئك فلا تنسى – إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى – ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى) . . وفيها يتكفل له ربه بحفظ قلبه لهذا القرآن , ورفع هذه الكلفة عن عاتقه . ويعده أن ييسره لليسرى في كل

أموره وأمور هذه الدعوة . وهو أمر عظيم جدا .

وحق له (صلى الله عليه وسلم) أن يحبها , وهي تتضمن الثابت من قواعد التصور الإيماني: من توحيد الرب الخالق وإثبات الوحي الإلهي , وتقرير الجزاء في الآخرة . وهي مقومات العقيدة الأولى . ثم تصل هذه العقيدة بأصولها البعيدة , وجذورها الضاربة في شعاب الزمان: (إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) . . فوق ما تصوره من طبيعة هذه العقيدة , وطبيعة الرسول الذي يبلغها والأمة التي تحملها . . طبيعة اليسر والسماحة . .

وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ; ووراءها مجالات بعيدة المدى . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3882 . 3883 ﴾

(11/812)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الأعلى

مكية وآياتها تسع عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة الأعلى من السور المكية ، وهي تعالج بإختصار المواضيع الآتية :

1 – الذات العلية وبعض صفات الله جل وعلا ، والدلائل على القدرة والوحدانية

2 – الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل (صلى الله عليه وسلم) وتيسير حفظه عليه

3 – الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحية ، ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله جل وعلا ، الذي خلق فأبدع ، وصور فأحسن ، وأخرج العشب ، والنبات ، رحمة بالعباد [سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى الآيات

ثم تحدثت عن الوحي والقرآن ، وآنست الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد ، وتيسير حفظه عليه ، بحيث لا ينساه أبدا [سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى

* ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن ، الذي يستفيد من نوره المؤمنون ، ويتعظ بهديه المتقون ، [فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى] الآيات .

* وختمت السورة ببيان فوز من طهر نفسه من الذنوب والآثام ، وزكاها بصالح الأعمال [قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى] إلى نهاية السورة الكريمة .

فائدة :

روى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال : (أول من قدم علينا من أصحاب

النبيمصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن ، ثم جاء عمار ، وبلال ، وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين أي من المهاجرين ثم جاء النبى (صلى الله عليه وسلم) فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به (صلى الله عليه وسلم) ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله قد جاء ، فما جاء حتى قرأت [سبح اسم ربك الأعلى] في سور مثلها) البخاري كتاب التفسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 547.548 ﴾

(12/812)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الأعلى

التسبيح : التنزيه ، خلق : أي خلق الكائنات ، فسوى : أي فسواها ووضع خلقها على نظام كامل ، لا تفاوت فيه ولا اضطراب ، قدّر : أي قدّر لكل حى ما يصلحه مدة بقائه ، فهدى : أي هداه وعرّفه وجه الانتفاع بما خلق له ، والمرعى :

كل ما تخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة ، والغثاء : ما يقذف به السيل إلى

جانب الوادي من الحشيش والنبات ، والأجوى : الذي يضرب لونه إلى السواد . قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوّة لعس وفى اللّثات وفى أنيابها شنب

سنقرئك : أي نجعلك قارئا للقرآن ، فلا تنسى : أي فلا تنساه بل تحفظه ، واليسرى : أعمال الخير التي تؤدى إلى اليسر .

التذكر : أن يتنبه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه ، ومن يخشى اللّه صنفان : مذعن معترف باللّه وببعثه للعباد للثواب والعقاب ، ومتردد فى ذلك ، الأشقى : هو المعاند المصرّ على الجحد والإنكار ، المتمكن من نفسه الكفر ، يصلى النار : أي يذوق حرها . والنار الكبرى هى أسفل دركات الجحيم ، لا يموت : أي فيستريح ولا يحيا : أي حياة طيبة فيسعد كما أشار إلى ذلك شاعرهم فقال :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عناها ولا تحيا حياة لها طعم

أفلح : أي فاز ونجا من العقاب وتزكى : أي تطهر من دنس الرذائل ، ورأسها جحد الحق وقسوة القلب ، وذكر اسم ربه : أي ذكر فى قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال ، فصلى : أي فخشع وخضعت نفسه لأوامر بارئه ، تؤثرون :

أي تفضلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 120 . 127 ﴾ .

باختصار .

وقال الفراء :

سُورَةُ الْأَعْلَى

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾

قوله عز وجل: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ . . . ﴾ ، و ﴿ باسم ربك ﴾ .

كل ذلك قد جاء وهو من كلام العرب .

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . . . ﴾ .

قدّر خلْقه فهدى الذكر لمَأْتى الأنثى من البهائم .

ويقال: قدّر فهدى وأضل ، فاكتفى من ذكر الضلال بذكر الهدى لكثرة ما يكون معه .

والقراءُ مجتمعون على تشديد (قدّر) . وكان أبو عبد الرحمن السلمى يقرأ: قَدَر مخففة ، ويرون أنها من قراءة على بن أبى طالب (رحمه الله) [/ا] والتشديد أحب إلىّ لاجتماع القراء عليه .

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى

﴿

وقوله عز وجل: ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَى . . . ﴾ .

إذا صار النبت يبساً فهو غثاء . والأحوى: الذى قد اسودّ عن العتق ويكون أيضاً : أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاءً ، فيكون مؤخَّرا معناه التقديم .

وقوله عز وجل: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى . . . إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ . . . ﴾ .

لم يشأ أن ينسى شيئًا ، وهو كقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ولا يشاء . وأنت قائل فى الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلاَّ ما شئتُ ، وإلاَّ أَن أشاءَ أن أمنعَك ، والنية ألا تمنعه ، وعلى هذا مجارى الأيمان يستثنى فيها . ونية الحالف التمام .

سورة (الأعلى)

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . . . ﴾ .

يتجنب الذكرى فلا يذكر .

﴿ الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ النَّارَ الْكُبْرَى . . . ﴾ .

هى السفلى من أطباق النار .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . . . ﴾ .

عمِل بالخير وتصدق ، ويقال: قد أفلح من تزكى: تصدق قبل خروجه يوم العيد .

(14/812)

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . . . ﴾ .

شهد الصلاة مع الإمام .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . . . ﴾ .

اجتمع القراء على التاء ، وهى فى قراءة أبىّ: "بَلْ أَنْتُمْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ" تحقيقاً لم قرأ بالتاء .

وقد قرأ بعض القراء: "بَلْ يُؤْثِرُونَ" .

﴿ إِنَّ هَاذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَاذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . . . ﴾ .

يقول: مَن ذكر اسم ربه فصلى وعمل بالخير، فهو فى الصحف الأولى كما هو فى القرآن.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 256. 257 ﴾

(15/812)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الأعلى «1»

5 - فَجَعَلَهُ غُثاءً أي يبسا، أَحْوى: أسود من قدمه واحتراقه.

8 - إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى لم يرد ان معنى السورة في الصحف الأولى، ولا الألفاظ بعينها. وإنما أراد: «الفلاح لمن تزكّي، وذكر اسم ربه فصلي» في الصحف الأولى، كما هو في القرآن. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 450 ﴾

---

(1) هي مكية.

(16/812)

وقال الغزنوى :

[سورة الأعلى]

1 سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ : لا تسمّ أحدا باسمي «1» .

والغثاء «2» : ما يبس من النّبات فتحمله الرّيح والماء «3» .

و«الأحوى» : الأسود «4» ، والنّبات إذا يبس اسودّ ، ويجوز صفة ل الْمَرْعى أي :

أخرجه أحوى لشدّة الخضرة ثمّ جعله غثاء «5» .

6 فَلا تَنْسى : سأل ابنكيسان «6» النّحوي جنيدا «7» الصّوفي عنه ،

---

(1) أي : نزّه اسم ربك عن أن يسمى به أحد سواه .

ينظر تفسير الطبري : 30/ 152 ، وتفسير الماوردي : 4/ 437 .

(2) من الآية : 5 ، قوله تعالى : فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى .

(3) تفسير الطبري : 30/ 153 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 315 ، والمفردات للراغب : 358 ، واللسان : 15/ 116 (غثا) .

(4) معاني القرآن للفراء : 3/ 256 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 524 ، وتفسير الطبري :

30/ 153 ، والمفردات للراغب : 140 ، واللسان : 14/ 207 (حوا) .

(5) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 315 ، وإعراب القرآن للنحاس : 5/ 204 ،

وتفسير القرطبي : 20/ 17 .

(6) ابن كيسان : (؟ - 299 هـ -) .

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان النحوي .

أخذ النحو عن محمد بن يزيد المبرد ، وثعلب وغيرهما ، صنف كتاب المذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود ، والوقف والابتداء . . . وغير ذلك .

أخباره في طبقات النحويين للزبيدي : 153 ، وإنباه الرواة : 3/ 57 ، وبغية الوعاة : 1/ 18 .

(7) الجنيد : (؟ - 297 هـ -) .

هو الجنيد بن محمد الخزاز القواريري ، الإمام الزاهد المعروف . صحب الحارث المحاسبي والسري السقطي . . . وغيرهما ، وصفه السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : 2/ 260 بقوله : سيد الطائفة ، ومقدم الجماعة ، وإمام أهل الخرقة ، وشيخ طريقة التصوف ، وعلم الأولياء في زمانه ، وبهلوان العارفين .

ينظر ترجمته أيضا في طبقات الصوفية : 155 ، وتاريخ بغداد : 7/ 241 ، وطبقات الأولياء : 126 ، وسير أعلام النبلاء : 14/ 66 .

فقال: لا تنسى العمل به. فقال: لا فضّ اللّه فاك، مثلك يصدّر «1».

9 فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى التذكير: تكثير الإنذار وتكريره «2»، ولا يجب إلّا فيمن ينفعه.

14 قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى: أي: زكاة الفطر «3»، وتقدّم على صلاة العيد عملا بالآية.

انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 873. 874﴾

---

(1) ينظر هذا الخبر في تفسير القرطبي: 20/ 19.

(2) ينظر الكشاف: 4/ 244. [.....]

(3) ورد هذا القول في عدة آثار منها المرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم، ومنها الموقوف على أبي سعيد الخدري، وعبد اللّه بن عمر، ومنها المقطوع عن قتادة، وأبي العالية، وعطاء، ومحمد بن سيرين.

ينظر تفسير البغوي: 4/ 476، وسنن البيهقي: 4/ 159، كتاب الزكاة، «جماع أبواب زكاة الفطر»، وتفسير ابن كثير: (8/ 403، 404)، والدر المنثور: (8/ 485، 486).

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الأعلى

عدد 8 - 87

نزلت في مكة بعد التكبير ، وهي تسع عشرة آية ، واثنتان وسبعون كلمة ، ومائتان وواحد وتسعون حرفا ، وتسمى سبح ومثلها في عدد الآي سورتا العلق والانفطار ، ويوجد في القرآن سبع سور مبدوءة بلفظ التسبيح واحدة بلفظ الأمر وهي هذه ، وثلاث بلفظ الماضي وهي : الحديد والحشر والصف ، واثنتان بلفظ المضارع وهي : الجمعة والتغابن ، وواحدة بالمصدر وهي الاسراء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(19/812)

قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله : "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ" نزهه عما يقول الملحدون مما لا يليق بذاته وهو المستحق للتقديس "الْأَعْلَى 1" علوا يليق بذاته لا علو مكان تعالى اللّه عنه الموصوف بالعلو أي القهر والاقتدار "الَّذِي خَلَقَ" كل شيء وأوجده من لا شيء "فَسَوَّى

2" ما خلقه بما يناسبه إذ جعل كل خلقه مستويا معتدلا لا تفاوت فيه محكما منسقا سبحانه فقد أحسن كل شيء خلقه لأن ما يصدر عن الحكيم لا يكون الا كذلك "وَالَّذِي قَدَّرَ" أرزاق مخلوقاته تقديرا حكيما لكل بحسبه "فَهَدى 3" كلا منها لطريق اكتسابه ويسّر كلا لما خلق له وسهل له سلوكه فجعل كلا يتناول ما قسم له بوسائل مختلفة والهدف واحد "وَالَّذِي أَخْرَجَ" في الأرض انواع النبات وأظهر منها "الْمَرْعى 4" للحيوان وصيره أنواعا وأصنافا يناسب كلا منها فلم يترك صغيرا ولا كبيرا إلا وخلق له ما يرعاه وينفعه "فَجَعَلَهُ" أي ذلك المرعى بعد أن كان أخضر وأصفر وأحمر وما بينهما في الألوان العجيبة والأشكال الغريبة البديعة "غُثاءً" هو ما يرى فوق السيل وما يقذفه على جانبي الوادي من هشيم الحشيش وغيره "أَحْوى 5" مائلا إلى السواد يابسا وقد يتحجر بكر الأيام ولا يبعد ما يقوله الأثريون بأن الفحم الحجري أصله نبات والحوادث تدل عليه وهو في معجزات القرآن العظيم إذ لا يوجد في نزوله على وجه الأرض من يعرف هذا غير منزله جل وعلا الا فليعتبر المعتبرون "سَنُقْرِئُكَ" يا محمد من معلومات غيبنا ومكنونات علمنا مما لا يعلمه أحد "فَلا تَنْسى 6"

ما نقرئك أبدا ، ونظير هذه الآية الآية 16 فما بعدها من سورة القيمة الآتية كان صلى اللّه عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يكد يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم بها رسول اللّه

مخافة نسيانها فأنزل اللّه عليه هذه الآية فأمن نسيان شيء من بعدها .

وهي بشارة له من ربه منّ عليه بها بحفظ وحيه وأن لا يفلت منه شيء .

(20/812)

وقيل المراد فلا تنسى العمل به ، والأول أولى بالمقام لإنه ابعد ان يقع منه ذلك "إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ" وقوعه ولم يشأ جل شأنه أن ينسى حبيبه شيئا من كلامه ، جاء في الحواشي العصامية على أنوار التنزيل ان الاستثناء على هذا الوجه لتأكيد عموم النفي لا لنقض عمومه ، فهو استثناء من أعم الأوقات أي فلا تنسى في وقت من الأوقات شيئا من الوقت الا وقت مشيئة اللّه نسيانك ، لكنه سبحانه لا يشاء ذلك وهذا على حد قوله تعالى : "خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ" الآية 108 من سورة هود من ج 2 ، وإليه ذهب الفراء فقال أنه تعالى ما شاء أن ينسى رسوله إلا أن المقصود من الاستثناء بيان أن اللّه تعالى لو أراد أن يصيره ناسيا لقدره عليه كما في قوله : "وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" الآية 86 في سورة الاسراء الآتية ، ولا شك أنّا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك ولو شاء لفعل ولكن يأبى كرمه أن يسلب حبيبه شيئا منّ به عليه وشرّفه تفضلا منه ، كيف وقد تعهد له "بحفظه راجع الآية 9" في سورة الحجر من ج 2 .

مطلب عصمة النبي من النسيان :

هذا وقد قال له "لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ" الآية 65 من سورة الوتر من ج 2 مع القطع بأنه لم يشرك البتة ، وفائدة ذلك ان يعرفه كمال قدرته حتى يعلم أن عدم النسيان من فعله وإحسانه وليعرف الغير ذلك ، فعلى هذا يكون نفيا مجازيا من باب قوله من المعنى :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(21/812)

و ما قيل من أن المراد بالمستثنى هو ما نفى اللّه نسخه أو ارتفاع حكمه أو تلاوته فليس بسديد لأن النسخ لا يأتي بمقابلة القراءة حتى يستثنى منها ، وما استدل به على هذا في حديث عائشة الذي أخرجه الشيخان بأنه كان فيما أنزل عليه عشر معلومات فنسخن بخمس معلومات وأنه صلّى اللّه عليه وسلم نسي الجميع بعد تبليغه وبقي ما بقي عنده بعض من سمعه منه بعيد جدا عن الحقيقة ، لأنه لا يعقل أن المنزل عليه الذي بلغه ينساه ويبقى بفكر الغير ، ولأن رفع الحكم يؤدي إلى ترك التلاوة لعدم التعبّد بها ، ورفع التلاوة يؤدي لعدم اخطارها بالبال لعدم بقاء الحكم .

وما قيل ان المراد إلا ما شاء اللّه أن تنساه ثم تذكره بعد استدلالا بما جاء في صحيح

البخاري وغيره من حديث عائشة قالت : سمع رسول اللّه رجلا يقرأ في سورة والليل فقال رحمه اللّه لقد ذكرني كذا وكذا ، وفي رواية كنت أسقطهن من سورة كذا وفي رواية أسقط آية في قراءته في صلاة الصبح فحسب أبي أنها نسخت ، فسأله عليه السلام فقال نسيتها ، غير وجيه وحاشا رسول اللّه أن ينسى شيئا تعهد له به ربه وان هذا النسيان الوارد في هذه الأحاديث غير مقصود بهذه الآية ولا متعلق بها وان الذكر بعد النسيان وان كان واجبا إلا أن العلم به لا يستفاد منه في هذا المقام ولا يصلح أن يستدل به .

(22/812)

راجع بحث تهديد من نسي القرآن وبحث ترتيب آي القرآن في المقدمة تحظ بما يزيل عنك ما يحدس ببالك قال تعالى "إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ" في أقوال عباده وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم "وَمَا يَخْفَى 7" منها وما يحوك في صدر الإنسان قبل أن يخش به "وَنُيَسِّرُكَ" يا أكمل الرسل ونوفقك "لِلْيُسْرَى 8" الطريقة التي هي أهون وأكمل من كل ما تريد ونجعل شريعتك يسرة سمحة لا غرابة فيها ولا تعقيد ولا حرج ولا شدة قال عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنفية السمحاء أي بين الرخاء والقسوة "فَذَكِّرْ" يا حبيبي قومك أجمع بما نوحيه إليك وعظهم به "إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى 9" أي ما نفعت وجاءت إن هنا شرطية استبعادا للتأثير فيهم لما هم

عليه من عتو وعناد ، وقد يراد بمثلها التذكر

مطلقا غير مقيد بالنفع ، أي ذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع فتكون من معضل المفهوم ، قال تعالى : (فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ) الآية 21 من سورة الغاشية في ج 2 لأن الذكرى إذا لم ينتفع فيها الكافر ينتفع بها غيره ، قال تعالى :

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) الآية 58 من الذاريات في ج 2 أيضا يدل عليه قوله تعالى "سَيَذَّكَّرُ" بوعظك وإرشادك "مَنْ يَخْشى 10" اللّه فيخاف عاقبة أمره

"تَجَنَّبُهَا"

الكافر الذي ينكر المعاد والنبوة والتوحيد وهو "الْأَشْقَى 11"

(23/812)

من غيره كثير الإثم المنهمك في المعاصي "الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى 12" نزلت في الوليد بن المغيرة أو في عتبة بن ربيعة واضرابهما ممن ينكرون البعث المتوغلين في عداوة الرسول ، ولذلك وصف المراد منهم بها بالأعظم شقاوة بوصف النار التي يؤول أمره إليها بالأكبر عذابا وهي نار الآخرة لأن نار الدنيا جزء من سبعين جزءا منها ، فكل من تباعد عن الذكرى في الدنيا يقربه اللّه في الآخرة لنارها "ثُمَّ" يكون حاله فيها كما ذكره اللّه تعالى "لا

يَمُوتُ فِيها" فيستريح من عذابها لأن دار الآخرة خلود بلا موت "وَلا يَحْيى 13" حياة طيبة بل تعسة مشوبة بأنواع العذاب .

مطلب المراد بالصلاة والزكاة ومما تأخر حكمه عن نزوله :

"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى 14" تطهر من الشرك ونظف ثوبه وبدنه ومكانه "وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ" وحده ولم يشرك معه غيره "فَصَلَّى 15" له مطلق صلاة ولو دعاء لأن الصلاة في اللغة الدعاء قال أكثر المفسرين إن المراد بالزكاة هنا زكاة الفطر وبالصلاة صلاة العيد .

وعليه فيكون المعنى قد أفلح من زكى عمله وصيامه بزكاة الفطر وخرج يكبر إلى مصلّى العيد فصلّى صلاته أو الصلاة المفروضة عليه وقال هذا الزركشي في البرهان ورواه عن ابن عمر ، ولكنه لا يصح إلا أن يقال بأن هذه الآية مما تأخر حكمه عن نزوله أي مما تقدم القول فيها على الحكم لأنها مكية وليس بمكة صلاة عيد ولا زكاة فطر لوجوبها في المدينة ولأن الصلاة المفروضة وان كانت فرضت بمكة إلا أنها لم تفرض بعد ، وعليه فتكون من قبيل الإخبار

(24/812)

بالغيب أي بأنه سيكون ذلك لسابق علم الله به وأمثال هذا في القرآن كثير منها (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ) الآية الثانية من سورة البلد الآتية فهذه مكية ظهر أثرها يوم الفتح حتى قال عليه السلام: (أحلت لي ساعة من نهار) ومنها قوله: (جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ) الآية 11 من سورة ص الآتية فقد وعده الله وهو بمكة أنه سيهزم جندا من المشركين، وكذلك قوله جاء الحق (وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ) الآية 49 من سورة سبأ في ج 2 فإنه ظهر مفعولها يوم الفتح أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال: دخل النبي مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود كان في يده ويقول: (جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً) الآية 81 من الإسراء الآتيه ويقول (وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ) وكذلك قوله (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) الآية 46 من سورة القمر الآتية فقد بان مفعولها يوم بدر حتى أن عمر بن الخطاب قال كنت لا أعلم أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلّى الله عليه وسلم يثب في الدرع ويقول: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) وغير ذلك فيما يأتي، قال تعالى "بَلْ تُؤْثِرُونَ" على العموم والإطلاق وهو إضراب عن مقدر ينساق الكلام اليه كأنه قيل بعد بيان الفلاح وجهته وطريقه الموصل إليه: انكم لا تفعلون ذلك ولا تميلون إليه بل تفضلون أيها الناس "الْحَياةَ الدُّنْيا 16" الفانية "و" الحال "الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى 17" لكم منها لأن نعيمها دائم والباقي خير من الفاني، قال عرفجة: كنا عند ابن مسعود نقرأ هذه الآية فقال: أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا قال لأن

الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها وان الآخرة زويت وتغيبت عنا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل .

(25/812)

ومن المفسرين من خص هذه الآية بالمؤمنين وليس بشيء إذ لا قيد يقيدها ، كما أن من قال إنها خاصة بالكفار على معنى أنهم لا يؤمنون بها على حد قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها) الآية 7 من سورة يونس في ج 2 غير وجيه لأن المطلق يجب أن يبقى على إطلاقه حتى يقيد ، كما أن العام يجب أن يبقى على عمومه حتى

يخصص والآية المحتج بها مقيدة كما يفهم من ظاهرها لأن الذين لا يرجون الآخرة هم منكر والبعث ، والذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا إليها قد صرفوا النظر عن الآخرة فيجوز أن يكونوا الكفار أيضا ، أما هذه الآية فليس فيها ما يحصرها على المؤمن والكافر فأجريناها على إطلاقها .

مطلب ما في صحف ابراهيم وموسى والحكم الشرعي في العيد :

قال تعالى "إِنَّ هذا" أي قد أفلح إلى هنا "لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى 18" التي نزلت قبل القرآن

على الأنبياء والرسل ونظير هذه الآية الآيتان 36 و37 من سورة والنجم والآية 196 من الشعراء ثم أبدل من عموم الصحف الأولى "صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى 15" أي أن ذلك كله مذكور فيها وان جميع الشرائع متفقة على ما في صحفهما وما أنزل على غيرهما ممن تقدمهما داخل فيهما من حيث أصول الدين الثلاثة ، راجع بحثها في المطلب الحادي عشر من المقدمة .

عن أبي ذر قال : دخلت المسجد فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم للمسجد تحية ، فقلت وما تحيته يا رسول اللّه ؟ قال ركعتان "أراد صلّى اللّه عليه وسلم مسجده الشريف وهكذا حكم المسجد الأقصى وسائر المساجد ، أما المسجد الحرام فتحيته الطواف" قلت يا رسول اللّه هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف ابراهيم وموسى ؟ قال أباذر اقرأ قد أفلح إلخ أي من هذه السورة ، قلت يا رسول اللّه فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت كلها عبرا :

(26/812)

عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجبت لمن

أيقن بالحساب ثم لا يعمل .

أخرجه رزين في كتابه وذكره ابن الأثير في جامع الأصول .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللّه كم أنزل اللّه من كتاب ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

قلت يا رسول اللّه فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال أمثال كلها : أيها الملك المتسلط على المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عنّي دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر ، على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي بها ربه وساعة يحاسب بها نفسه ويتذكر ما صنع وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فإن في هذه الساعة عونا لتلك الساعات واستجماما للقلوب وتفريغا لها ، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه فإن من حسب كلامه من عمله أقلّ من الكلام إلا فيما يعنيه .

على العاقل أن يكون طالبا لثلاث مرمّة "هي شفة كل ذات ظلف ، والشفة للانسان فقط ، والبرطام وجمعه براطم يطلق على الشفة الغليظة فقط" والمراد منها هنا ما يحتاجه الإنسان من القوت بدليل قوله لمعاش أو تزود لمعاد أو تلذذ في غير محرم .

وقرىء إبرهم بلا الف وياء ويفتح الهاء وكسرها وقرىء ابراهام وابراهيم وهو اسم أعجمي وقيل عربي مشتق من البرهمة وهي شدة النظر .

مطلب في صلاة العيد والحكم الشرعي فيها :

(27/812)

صلاة العيد واجبة عند أبي حنيفة ويسن أن يقرأ فيها هذه السورة وسورة الغاشية وفي عيد النحر الضحى والكوثر للأحاديث لواردة فيها ، ويسن التكبير من طلوع الفجر من يوم عرفة في عيد الأضحى إلى عصر اليوم الرابع من أيام العيد الخامس من عرفة وفي عيد الفطر من طلوع هلال شوال إلى أن يصعد الإمام المنبر للخطبة أو إلى قيام الصلاة وسنة عند الشافعي وأحمد ومالك رضي اللّه عنهم .

وزكاة الفطر واجبة .

ولها تفصيل في كتب الفقه فراجعها .

هذا ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة في القرآن هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 137.131 ﴾

(28/812)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الأعلى

مكية

أحوى تام إلا ما شاء الله حسن وما يخفى وكذا لليسرى الذكرى حسن ولا يحيى تام فصلى كاف الدنيا صالح خير وأبقى أصلح من آخر سورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(29/812)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الأعلى عزَّ وجل

مكية تسع عشرة آية إجماعاً كلمها اثنتان وسبعون كلمة وحروفها مائتان واحد وسبعون حرفاً

الأعلى (كاف) ورسموا الأعلا هنا بلام ألف كما ترى ويجوز في الأعلى الجر صفة لربك والنصب صفة لاسم ولا وقف من قولها الذي خلق فسوى إلى أحوى لاتصال الكلام بعضه ببعض

أحوى (تام) ومعنى أحوى أسود وأحوى حال من المرعى ولا يوقف على فلا تنسى للاستثناء

إلا ما شاء الله (كاف) وإن جعل إلا ما شاء الله مستثنى من غثاء أحوى فلا يوقف على أحوى

وما يخفى (تام)

لليسرى (كاف) ويجوز فذكر ولا يجمع بينهما وإن بمعنى قد ثم يبتدئ إن نفعت الذكرى أي قد نفعت الذكرى ذكره ابن خالويه وهو غريب وليس بوقف إن جعلت شرطاً

الذكرى (كاف) ومثله من يخشى

الكبرى (جائز) لأنَّ ثمَّ لترتيب الأخبار

ولايحيى (تام)

من تزكى (جائز)

فصلى (تام)

الدنيا (كاف)

وأبقى (تام)

الأولى ليس بوقف لأنَّ قوله صحف إبراهيم وموسى بدل من الصحف الأولى

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(30/812)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الأعلى

مكية وقيل مدنية وآيها تسع عشرة القراآت أمال رؤوس آيها غير الرائي حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وأبو عمرو بخلفه ومنها فصلى وحيث قللها الأزرق وجها واحدا يرقق لامها كذلك لما مر أن التغليظ والإمالة ضدان وأما الرائي وهو ثلاثة لليسرى الذكرى و

الكبرى فأماله أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف والصوري عن ابن ذكوان وأهله في الأصل هنا وفي مواضع كثيرة مرت تركنا التنبيه عليها خوف الإطالة وقلله الأزرق واختلف في (قدر) الآية 3 فالكسائي وحده بتخفيف الدال من القدرة والباقون بتشديدها من القدر أو من التقدير والموازنة بين الأشياء قال الزمخشري قدر لكل حيوان ما يصلحه وعرفه وجه الانتفاع به

واختلف في ( ) بل تؤثرون ( ) الآية 16 فأبو عمرو بالياء من تحت وافقه اليزيدي والباقون بالخطاب وأدغم لام بل في التاء حمزة والكسائي وهشام فيما عليه الجمهور واتفقوا على الياء في إبراهيم هنا وما انفرد به ابن مهران من إجراء الخلاف فيه لابن عامر وهم منه كما نص عليه في النشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(31/812)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الأعلى "

" قدر " خفف الدال الكسائي وشددها غيره .

" سنقرئك " وقف عليه حمزة بتسهيل الهمزة بين بين وإبدالها ياء خالصة .

" ونيسرك " رقق راءه ورش .

" لليسرى " ضم السين أبو جعفر وأسكنها غيره .

" تؤثرون " قرأ أبو عمرو بياء الغيب وغيره بتاء الخطاب ولا يخفى من أبدله ومن حققه كما لا يخفى ترقيق رائه لورش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 349 ﴾

(32/812)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الأعلى

كل ما كان من اواخر آي هذه السورة فانه يقرأ بالامالة والتفخيم وبين ذلك وقد ذكرت علله فيما سلف

قوله تعالى ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد قوله تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ والحجة لمن خفف انه طابق بين اللفظين فجعل قدرك هدى وقيل معناه فهدى وأضل فحذف اضل للدلالة ولموافقة رؤوس الآي كما قال ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ يريد قعيدا وقيل قدر الذكر للانثى وهداه لاتيانها

قوله تعالى ﴿ ويؤثرون ﴾ يقرأ بالياء والتاء وبالاظهار والادغام وقد ذكر ذلك فيما مضى واوضحت الحجة فيه بما يغنى عن اعادته ها هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 368.369 ﴾

(33/812)

وقال ابن زنجلة :

87 - سورة الأعلى

والذي قدر فهدى

قرأ الكسائي والذي قدر فهدى بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد المعنى قدر خلقه فهدى كل مخلوق إلى مصلحته ويقال

هدى الذكر لمأتى الأنثى من سائر الحيوان وحجتهم قوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا

وقد أجمعوا على تشديد هذا فرد ما اختلفوا فيه إلى أما اجمعوا عليه أولى بل تؤثرون الحياة الدنيا 16

قرأ ابو عمرو بل يؤثرون بالياء وحجته قوله ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى 12

, 11 أي بل يؤثر

وقرأ الباقون بل تؤثرون بالتاء أي بل انتم تؤثرون وحجتهم أن في قراءة أبي بل أنتم تؤثرون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 758 . 759 ﴾

(34/812)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الأعلى عز وجل 87

مكية وقال جويبر عن الضحاك هي مدنية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها اثنتان وسبعون كلمة ككلم العلق

وحروفها مئتان وأحد وسبعون حرفا

وهي تسع عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

الأعلى

1 فسوى

2 فهدى

3 المرعى

4 أحوى

5 تنسى

6 يخفى

7 لليسرى

8 الذكرى

9 يخشى

10 الأشقى

11 الكبرى

12 ولا يحيى

13 تزكى

14 فصلى

15 الدنيا

16 وأبقى

17 الأولى

18 وموسى

19 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 271﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الأعلى جل وعلا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (سبح اسم ربك) قيل لفظة اسم زائدة ، وقيل في الكلام حذف مضاف: أي سبح مسمى ربك ذكرهما أبو على في كتاب الشعر ، وقيل هو على ظاهره: أي نزه اسمه عن الابتذال والكذب إذا أقسمت به .

قوله تعالى (أحوى) قيل هو نعت لغثاء ، وقيل هو حال من المرعى: أي أخرج المرعى أخضر ثم صيره غثاء ، فقدم بعض الصلة .

قوله تعالى (فلا تنسى) لا نافية أي فما تنسى ، وقيل هي للنهى ولم تجزم لتوافق رءوس الآى ، وقيل الألف ناشئة عن إشباع الفتحة ، و (يؤثرون) بالياء على الغيبة ، وبالتاء على الخطاب: أي قل لهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الأعلى

[سورة الأعلى (87) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)

"سَبِّحِ" أمر فاعله مستتر "اسْمَ رَبِّكَ" اسم مفعول به مضاف إلى ربك "الْأَعْلَى" صفة ربك والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الأعلى (87) : آية 2]

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2)

"الَّذِي" صفة ثانية لربك "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "فَسَوَّى" معطوف على خلق .

[سورة الأعلى (87) : آية 3]

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3)

الجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأعلى (87) : آية 4]

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى (4)

الجملة معطوفة على ما قبلها أيضا .

[سورة الأعلى (87) : آية 5]

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (5)

"فَجَعَلَهُ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "غُثاءً" مفعول به ثان "أَحْوى" حال من المرعى والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأعلى (87) : آية 6]

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (6)

"سَنُقْرِئُكَ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "فَلا تَنْسى" الفاء حرف تعليل ولا نافية ومضارع فاعله مستتر .

[سورة الأعلى (87) : آية 7]

إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى (7)

"إِلَّا" حرف استثناء "ما" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "إِنَّهُ" إن واسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "الْجَهْرَ"

مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها . "وَما" اسم موصول معطوف على الجهر "يَخْفى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة .

[سورة الأعلى (87) : آية 8]

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (8)

"وَنُيَسِّرُكَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "لِلْيُسْرى" متعلقان بالفعل ، والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الأعلى (87) : آية 9]

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (9)

(37/812)

"فَذَكِّرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنْ" حرف شرط جازم "نَفَعَتِ" ماض في محل جزم فعل الشرط "الذِّكْرى" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الأعلى (87) : آية 10]

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (10)

"سَيَذَّكَّرُ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع "مَنْ" اسم موصول فاعله والجملة مستأنفة

"يَخْشى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة الأعلى (87) : آية 11]

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11)

"يَتَجَنَّبُهَا"

مضارع ومفعوله "الْأَشْقَى"

فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الأعلى (87) : آية 12]

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (12)

"الَّذِي" اسم موصول صفة الأشقى "يَصْلَى" مضارع فاعله مستتر "النَّارَ" مفعول به

"الْكُبْرى" صفة النار والجملة صلة.

[سورة الأعلى (87) : آية 13]

ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (13)

"ثُمَّ" حرف عطف "لا" نافية "يَمُوتُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها

"فِيها" متعلقان بالفعل "وَلا" الواو حرف عطف "وَلا" نافية "يَحْيى" معطوف على يموت.

[سورة الأعلى (87) : آية 14]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14)

"قَدْ" حرف تحقيق "أَفْلَحَ" ماض "مَنْ" فاعله والجملة مستأنفة "تَزَكَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة الأعلى (87) : آية 15]

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

"وَذَكَرَ" ماض فاعله مستتر "اسْمَ رَبِّهِ" مفعول به مضاف إلى ربه والجملة معطوفة على ما قبلها "فَصَلَّى" الفاء حرف عطف وصلى معطوف على ذكر.

[سورة الأعلى (87) : آية 16]

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا (16)

"بَلْ" حرف عطف "تُؤْثِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْحَيَاةَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة.

[سورة الأعلى (87) : آية 17]

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى (17)

"وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة حال وأبقى معطوف على خبر.

[سورة الأعلى (87) : آية 18]

إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (18)

"إِنَّ هذا" إن واسمها "لَفِي الصُّحُفِ" اللام المزحلقة وفي الصحف خبر إن "الْأُولى" صفة والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة الأعلى (87) : آية 19]

صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى (19)

"صُحُفِ" بدل من الصحف "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه "وَمُوسى" معطوف على إبراهيم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 439. 440﴾

(39/812)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَةُ الْأَعْلَى

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1482 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه لما نزلت فسبح باسم رَبك الْعَظِيم قَالَ اجْعَلُوهَا فِي ركوعكم وَلما نزلت سبح اسْم رَبك الْأَعْلَى قَالَ اجْعَلُوهَا فِي سُجُودكُمْ

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَه فِي سُنَنهمَا فِي الصَّلَاة من حَدِيث ثَابت بن عَامر عَن عقبَة بن عَامر قَالَ لما نزلت فسبح باسم رَبك الْعَظِيم قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اجْعَلُوهَا فِي ركوعكم فَلَمَّا نزلت سبح اسْم رَبك الْأَعْلَى قَالَ اجْعَلُوهَا فِي سُجُودكُمْ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ احْمَد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَزَاد فِي رِوَايَة لأبي دَاوُد وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا ركع قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيم وَبِحَمْدِهِ ثَلَاثًا وَإِذا سجد قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ ثَلَاثًا ثمَّ قَالَ أَخَاف أَلا تكون هَذِه الزِّيَادَة مَحْفُوظَة

1483 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم اسقط آيَة فِي قِرَاءَته فِي الصَّلَاة فَحسب أبي بن كَعْب أَنَّهَا نسخت فَسَأَلَهُ فَقَالَ نسيتها

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه الْكُبْرَى فِي كتاب المناقب ثَنَا سُفْيَان عَن سَلمَة بن كهيل عَن ذَر عَن سعيد بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه قَالَ صَلَّى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفجْر فَترك آيَة فَقَالَ أَفِي الْقَوْم أبي بن كَعْب فَقَالَ أبي يَا رَسُول الله أُنْسَخْت آيَة كَذَا وَكَذَا أم نسيتهَا قَالَ لَا بل نسيتهَا انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه وَفِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَقَالا فِيهِ فَضَحِك ثمَّ قَالَ بل نسيتهَا انْتَهَى

وَكَذَلِكَ الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب فِي الْقِرَاءَة خلف الإِمَام بِسَنَدِهِ وَمتْن الطَّبَرَانِيّ وَإِسْنَاده عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَعبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى مُخْتَلف فِي صحبته قَالَ الْبُخَارِيّ لَهُ صُحْبَة وَقَالَ أَبُو حَاتِم أدْرك النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَلى خَلفه وَقَالَ ابْن أبي دَاوُد تَابِعِيّ وَكَذَا ذكره ابْن حبَان فِي ثِقَات التَّابِعين

(41/812)

قلت الصَّوَاب الأول فَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ فِي بَاب السّلم عَن مُحَمَّد ابْن أبي مجَالد قَالَ أَرْسلنِي أَبُو بردة وَعبد الله بن شَدَّاد إِلَى عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى وَعبد الله بن أبي أَوْفَى

فَسَأَلتهمَا عَن السّلف فَقَالَا كُنَّا نصيب الْمَغَانِم مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَتَأْتِينَا أَنْبَاط من أَنْبَاط الشَّام فَنُسلفهُمْ فِي الْحِنْطَة وَالشعِير وَالزَّبِيب إِلَى أجل مُسَمًّى وَفِي لفظ لَهُ قَالَ أَرْسلنِي أَبُو بردة وَعبد الله بن شَدَّاد إِلَى عبد الله ابْن أبي أَوْفَى سَأَلته عَن السّلف فَقَالَ كُنَّا نُسلف عَلَى عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأبي بكر وَعمر فِي الْحِنْطَة وَالشعِير وَالزَّبِيب قَالَ وَسَأَلت ابْن أَبْزَى فَقَالَ مثل ذَلِك انْتَهَى فَفِي هَذَا تَصْرِيح بِصُحْبَة عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى

وَفِي سنَن أبي دَاوُد أَنه صَلَّى مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَذكره فِي الصَّلَاة فِي بَاب تَمام التَّكْبِير ثَنَا مُحَمَّد بن بشار ثَنَا أَبُو دَاوُد ثَنَا شُعْبَة بِسَنَد النَّسَائِيّ وَمَتنه

قَالَ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي تَارِيخه الْكَبِير قَالَ وَحَكَى عَن أبي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ انه قَالَ هَذَا عندنَا بَاطِل قَالَ الْمُنْذِرِيّ وَالْأَحَادِيث الثَّابِتَة عَلَى خلاف هَذَا الْحَدِيث وَمَعْنَاهُ أَي كَانَ لَا يَأْتِي بِالتَّكْبِيرِ فِي الِانْتِقَالَات كلهَا

إِنَّمَا يَأْتِي بِهِ فِي بَعْضهَا انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات وَلَفظه فِيهِ فَكَانَ إِذا سجد لَا يكبر قَالَ وَهُوَ قَول مُحَمَّد بن سِيرِين وَالْقَاسِم وَغَيرهمَا وَقَالَ ابْن سعد وَكَانَ عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى من أَصْحَاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى

ثمَّ ذكره ابْن سعد فِي بَاب ذكر من نزل مَكَّة بعد الْهِجْرَة من الصَّحَابَة فعد جمَاعَة مِنْهُم عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه قَالَ شهدت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَنَازَة فَلَمَّا تقدم ليُصَلِّي عَلَيْهِ الْتفت فَإِذا هُوَ بامْرَأَة فطُردَتْ ثمَّ صَلَّى عَلَيْهَا انْتَهَى

وَرَوَى الطَّحَاوِيّ فِي شرح الْآثَار حَدِيث أبي دَاوُد بلَفْظِهِ ثمَّ قَالَ وَبِهَذَا اخذ بَنو أُمَيَّة فَكَانُوا لَا يكبرُونَ فِي حَال الْخَفْض ويُكَبِّرُونَ فِي حَال الرّفْع وَالْأَحَادِيث الثَّابِتَة عَلَى خلاف ذَلِك انه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام كَانَ يكبر فِي كل خفض وَرفع انْتَهَى

وَرَوَى الطَّحَاوِيّ أَيْضا عَن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزي انه صَلَّى مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْوتر فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَة الأولى سبح اسْم ربك الْأَعْلَى وَفِي الثَّانِيَة قل يأيها الْكَافِرُونَ وَفِي الثَّالِثَة قل هُوَ الله أَحَدٌ وَرِجَاله ثِقَات

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي الكنى أَيْضا عَن شُعْبَة عَن الْحسن بن عمرَان سَمِعت سعيد بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه انه صَلَّى مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَكَانَ لَا يتم التَّكْبِير انْتَهَى

وَقد أسْنده أَبُو بشر الدولابي من حَدِيث أبي بن كَعْب فِي كِتَابه الَّذِي جمعه من أَحَادِيث سُفْيَان فَقَالَ ثَنَا عَمْرو بن عَلّي وبُنْدَار قَالَا ثَنَا يَحْيَى بن سعيد ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثني سَلَمَة بن كهيل عَن ذر عَن سعيد بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه عَن أبي بن كَعْب قَالَ صَلَّى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صَلَاة الْفجْر . . . إِلَى آخِره ثمَّ قَالَ لم يقل غَيره وَفِيه عَن أبي بن

كَعْب انْتَهَى

1484 - الحَدِيث الثَّالِث

(43/812)

عَن أبي ذَر أَنه سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كم أنزل الله من كتاب فَقَالَ مائَة وَأَرْبَعَة كتب مِنْهَا عَلَى آدم عشر صحف وَعَلَى شِيث خَمْسُونَ وَعَلَى إِبْرَاهِيم عشر صحايف وَعَلَى أَخْنُوخ وَهُوَ إِدْرِيس ثَلَاثُونَ صحيفَة والتوراة وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَالْفرْقَان

قلت رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الأول من حَدِيث أبي إِدْرِيس الْخَولَانِيّ عَن أبي ذَر قَالَ دخلت الْمَسْجد يَوْمًا فَإِذا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالس وَحده قَالَ يَا أَبَا ذَر إِن للْمَسْجدِ تَحِيَّة وَإِن تحيته رَكْعَتَان فَقُمْ فَاركَعْهُمَا قَالَ فَقُمْت فَركَعْتهمَا . . . إِلَى أَن قَالَ يَا رَسُول الله كم عدد الْأَنْبِيَاء قَالَ مائَة ألف وَعِشْرُونَ ألفا قلت يَا رَسُول الله كم الرُّسُل مِنْهَا قَالَ ثَلَاثمِائَة وَثَلَاثَة عشر جما غفيرا قلت يَا رَسُول الله من كَانَ أَوَّلهمْ قَالَ آدم قلت يَا رَسُول الله أَنبِي مُرْسل قَالَ نعم قلت يَا رَسُول الله كَمَا كتابا انزله الله قَالَ مائَة وَأَرْبَعَة كتب عَلَى مُوسَى قبل التَّوْرَاة عشر صَحَائِف وَعَلَى إِبْرَاهِيم عشر صَحَائِف وَانْزِلْ عَلَى شِيث خمسين وَأنزل عَلَى أَخْنُوخ ثَلَاثِينَ صحيفَة وَأنزل التَّوْرَاة

وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَالْفرْقَان مُخْتَصر وَقد تقدم بِتَمَامِهِ فِي سُورَة الْحَج

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عبيد بن عُمَيْر عَن أبي ذر

فَذكره وَسكت عَنهُ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي أول شعب الْإِيمَان وَأَبُو

نعيم الْحَافِظ فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي ذر كلهم بِلَفْظ ابْن حبَان سَوَاء

وَكَأَن الْوَهم من الْمُصَنّف فِي قَوْله عَلَى آدم عشر صحف

(44/812)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِلَفْظ ابْن حبَان

1485 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْأَعْلَى أعطَاهُ الله عشر

حَسَنَات بِعَدَد كل حرف انزله الله عَلَى إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَمُحَمّد

وَكَانَ إِذا قَرَأَهَا قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى وَكَانَ عَلّي وَابْن عَبَّاس يَقُولَانِ ذَلِك

وَكَانَ يُحِبهَا

وَقَالَ أول من قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِيكَائِيل

قلت هَذِه أَرْبَعَة أَحَادِيث

فَالْأول رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره والواحدي فِي الْوَسِيط من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَأما الثَّانِي فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الصَّلَاة من حَدِيث سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا قَرَأَ سبح اسْم رَبك الْأَعْلَى قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى انْتَهَى وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ ذكره فِي الصَّلَاة

وَأما الثَّالِث وَالرَّابِع فَقَالَ الثَّعْلَبِيّ وَرَوَى عَلّي بن أبي طَالب قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يحب هَذِه السُّورَة سبح اسْم رَبك الْأَعْلَى وَأول من قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِيكَائِيل انْتَهَى

(45/812)

وَرَوَى الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا يُوسُف بن مُوسَى ثَنَا وَكِيع ثَنَا إِسْرَائِيل عَن ثُوَيْر بن أبي فَاخِتَة عَن أَبِيه عَن عَلّي ابْن أبي طَالب قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يحب سُورَة سبح اسْم رَبك الْأَعْلَى انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من طَرِيق احْمَد بن حَنْبَل ثَنَا وَكِيع بِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 193 . 198 ﴾

(46/812)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة الأعلى :

قوله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) ، الآية/ 14 و15 .

يدل على زكاة الفطر وزكاة المال .

وذكر اسم ربه ، يدل على ذكر يناسب الزكاة ، وذلك تكبيرات العيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 428 . 429 ﴾

(47/812)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة سبّح اسم ربّك الأعلى» (87)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى» (7) هيّجه حتى ليس فجعله أسود من احتراقه غثاء هشيما وهو فى موضع آخر من شدّة خضرته وكثرة مائه ، يقال له : أحوى ، قال ذو الرّمّة :

قرحاء حوّاء أشراطيّة وكفت فيها الذّهاب وحفّتها البراعيم

«1» [939] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 295 ﴾

---

(1) . - 939 : ديوانه ص 573 - والكامل ص 449 والطبري 30/ 84 والصحاح واللسان والتاج (ذهب ، برعم) .

(48/812)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الأعلى

" سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى" . علو المكانة أشرف من علو المكان . وعندما نصف ربنا - تبارك اسمه - بالعلو فإنما نعنى رفعة القدر وسمو الذات ، ولسنا نعنى حماقة فرعون عندما قال " فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى . . " ولا حماقة رائد الفضاء الروسى عندما قال إنه بحث فى الفضاء فلم يجد الله ! ! إن كل مسلم يسجد لله مرارا ، ويقول فى سجوده سبحان ربى الأعلى . . مؤكدا قوله " سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا" . ولاشك أن الرحمن على العرش استوى ، وأن العرش يسع العوالم كلها ، ولكن شئون الزمان والمكان وخواص المادة شأن آخر غير ما ينبغى لله العلى الكبير ! قد تقول لرجل هل عرفت فلانا ؟ فيقول لك التقيت به فراعنى كبر عقله وشرف نفسه ! ونحن البشر نعرف أن الله عالى القدر ، ولو أن ومضة برق كشفت لنا طرفا من علوه لطاشت الألباب . إننا نتيه فى أسرار الذرة ، فما عسانا نفعل فى عالم تغيب عنا أبعاده وآماده ؟ ! إن مبدعه من الصفر باهر العظمة " سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك . . . " . وقد خلق فسوى ، أحسن كل شئ خلقه ، ورسم له نظاما لا يعدوه . قالوا إن مقدار الماء فى الأرض لا يزيد ولا ينقص . الإنسان والحيوان والنبات وشتى الأحياء تستهلك منه الكثير ، ولكن هذا الكثير يعود مرة أخرى إلى البحار مطرا يهمى بعد ما خرج منه بخارا مثارا ! ! لا يزيد ولا ينقص ، " والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى " . حالت نضرته سوادا ، ثم يعود

مرة أخرى ما بقت الدنيا زرعا فهشيما ، حتى يقدر له الفناء الأخير . " سنقرئك فلا تنسى " . اطمئن يا محمد فإن الذى اختارك سيعينك حتى تؤدى

(49/812)

رسالتك . لقد أنزل عليك كتابا خالدا وبعثك بالحنيفية السمحة " ونيسرك لليسرى * فذكر إن نفعت الذكرى " . عليك البلاغ فمن رشد اتبعك ، ومن استحمق تركك " سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذي يصلى النار الكبرى" . إن الإنسان كائن يستطيع الإسفاف ويستطيع التسامى ، ونجاحه ليس فى المال أو الجاه . ما قيمة أن يكسب الدنيا وهو جاحد لربه متمرد على وحيه ؟ ! " قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى " المحزن أن الناس تستهويهم اللذات العاجلة ويعمون عن مطالب الغد القريب . وكما قال الحسن : " ما رأيت حقا أشبه بباطل من الموت " . إنه ما ترك بابا إلا طرقه ، ومع ذلك فكأنه ما خطف شابا ولا شيخا " بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 513.514 ﴾

(50/812)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الأعلى

أقول: في سورة الطارق ذكر خلق النبات والإنسان في قوله: (والأَرض ذات الصدع) وقوله: (فلينظُرُ الإِنسانُ مِمَّ خُلِق) إلى (إِنَّهُ عَلى رجعهِ لقادر) وذكره في هذه السورة في قوله: (خَلقَ فسوى) وقوله في النبات: (والَذي أَخرج المَرعى فجعَلَهُ غُثاءً أَحوى) وقصة النبات في هذه السورة أبسط ، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط نعم ، ما في هذه السورة أعم ، من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 149﴾

قوله تعالى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له العلي كله فلا نقص يلحقه (الرحمن) الذي عم جوده ، فكل موجود هو الذي أوجده وكل حيوان هو الذي يربيه ويرزقه (الرحيم) الذي من كان من حزبه فإنه يلزمه الطاعة وييسرها له ويوفقه .

لما تضمن أمره سبحانه في آخر الطارق بالإمهال النهي عن الاستعجال الذي هو منزه عنه لكونه نقصاً ، وأشار نفي الهزل عن القرآن – إلى أنهم وصموه بذلك وهو في غاية البعد عنه إلى غير ذلك مما أشير إليه فيها ونزه نفسه الأقدس سبحانه عنه ، أمر أكمل خلقة رسوله المنزل عليه هذا القرآن ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتنزيه اسمه لأنه وحده العالم بذلك حق علمه ، وإذا نزه اسمه عن أن يدعو به وثنا أو غيره أو يضعه في غير ما يليق به ، كان لذاته سبحانه أشد تنزيهاً ، فقال مرغباً في الذكر لا سيما بالتنزيه الذي هو نفي المستحيلات لأن التخلي قبل التحلي ، شارحاً لأصول الدين مقدماً للإلهيات التي هي النهايات من الذات ثم

الصفات لا سيما القيومية ثم الأفعال على النبوات ، ثم أتبع ذلك النبوة ليعرف العبد ربه على ما هو عليه من الجلال والجمال ، فيزول عنه داء الجهل الموقع في التقليد ، وداء الكبر الموقع في إنكار الحقوق ، فيعترف بالعبودية والربوبية ، لا مثنياً عليه سبحانه بالجلال ثم الجمال فيعبده على ما يليق به من امتثال أمره واجتناب نهيه تعظيماً لقدره : ﴿ سبح ﴾ أي نزه وبرىء تنزيهاً وتبرئة عظيمتين جداً قويتين شديدتين ﴿ اسم ربك ﴾ أي المحسن إليك بعد إيجادك على صفة الكمال بتربيتك على أحسن الخلال حتى كنت في غاية الجلال والجمال .

(53/812)

ولما كان الإنسان محتاجاً في أن تكون حياته طيبة ليتمكن مما يريد إلى ثلاثة أشياء : كبير ينتمي إليه ليكون له به رفعة ينفعه بها عند مهماته ، ويدفع عنه عند ضروراته ، ومقتدى يربط به نفسه عند ملماته ، وطريقة مثلى ترتكبها كما أشار إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " رضيت بالله رباً وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبياً ورسولاً وبالإسلام ديناً " أرشده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن الانقطاع إليه أعلى الجاه ، فقال واصفاً لمن أمره بتسبيحه بإثبات ما له من الواجبات بعد نفي المستحيلات كما أشار إليه " سبحانك

وبحمدك " : ﴿ الأعلى ﴾ أي الذي له وصف الأعلوية في المكانة لا المكان على الإطلاق عن كل شائبة نقص وكل سوء من الإلحاد في شيء من أسمائه بالتأويلات الزائغة وإطلاقه غلى غيره مع زعم أنهما فيه سواء ، وذكره خالياً عن التعظيم وغير ذلك ليكون راسخاً في التنزيه فيكون من أهل العرفان الذين يضيئون على الناس مع كونهم في الرسوخ كالأوتاد الشامخة التي هي مع علوها لا تتزحزح ، وقد ذكر سبحانه هذا المعنى معبراً عنه بجميع جهاته الأربع في ابتداء سور أربع استيعاباً لهذه الكلمة الحسنى الشريفة من جميع جهاتها . فابتدأ سورة الإسراء التي هي سورة الإحسان ب " سبحان " المصدر الصالح لجميع معانيه إعلاماً بأن هذا المعنى ثابت له مطلقاً غير مقيد بشيء من زمان أو غيره ، ثم ثنى بالماضي في أول الحديد والحشر والصف تصريحاً بوقوع ما أفهمه المصدر في الماضي الذي يشمل أزل الآزال إلى وقت الإنزال ، ثم ثلث في أول الجمعة والتغابن بالمضارع لأن يفهم مع ما أفهم المصدر والماضي دوام التجدد ، فلما تم ذلك من جميع وجوهه توجه الأمر فخصت به سورته ، وقد مضى في أول الحديد والجمعة ما يتمم هذا .

(54/812)

ولما كان الإبداع أدل ما يكون مع التنزه على الكمال لا سيما النور الذي هو سبب الانكشاف والظهور ، مع أنه تفصيل لقوله " مم خلق " وهو أدل شيء على البعث المذكور " في يوم تبلى السرائر " قال مبيناً للفاعل الذي أبهمه لوضوحه في " مم خلق " مرغباً في الفكر في أفعاله سبحانه وتعالى الذي هو السبب الأقرب للسعادة بالدلالة عليه بما له من الجائزات بعد الترغيب في الذكر الذي هو المهيىء للفكر : ﴿ الذي خلق ﴾ أي أوجد من العدم أي له صفة الإيجاد لكل ما أراده لا يعسر عليه شيء ﴿ فسوّى ﴾ أي أوقع مع الإيجاد وعقبه التسوية في كل خلق بأن جعل له ما يتأتى معه كماله ويتم معاشه ، وعدل بين الأمزجة الأربعة الماء والهواء والنار بعد أن قهرها على الجمع مع التضاد لئلا تتفاسد ، وذلك بالعلم التام والقدرة الكاملة دلالة على تمام حكمته وفعله بالاختيار .

وقال الاستاذ أبو جعفر بن الزبير : لما قال سبحانه وتعالى مخبراً عن عمه الكفار في ظلام حيرتهم ﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾ [الطارق : 15] وكان وقوع ذلك من العبيد المحاط بأعمالهم ودقائق أنفاسهم وأحوالهم من أقبح مرتكب وأبعده عن المعرفة بشيء من عظيم أمر الخالق جل جلاله وتعالى علاؤه وشأنه ، أتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتنزيه ربه الأعلى عن شنيع اعتدائهم وافك افترائهم ، فقال ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] أي نزهه عن قبيح مقالهم ، وقدم التنبيه على التنزيه في أمثال هذا ونظائره ووقوع ذلك أثناء السور فيما بين سورة وأخرى ، وأتبع سبحانه وتعالى من

التعريف بعظيم قدرته وعليّ حكمته بما يبين ضلالهم فقال ﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾ [الأعلى : 2 - 3] فتبارك الله أحسن الخالقين ، وتنزه عما يقوله المفترون - انتهى .

(55/812)

ولما كان جعل الأشياء على أقدار متفاوته مع الهداية إلى ما وقع الخلق له على أوجه متفاضلة مع التساوي في العناصر مما يلي التسوية ، وهو من خواص الملك الذي لا يكون إلا مع الكمال ، أتبعه به بالواو دلالة على تمكن الأوصاف فقال : ﴿ والذي قدر ﴾ أي أوقع تقديره في أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها ، وغير ذلك من أحوالها ، فجعل البطش لليد والمشي للرجل والسمع للأذن والبصر للعين ونحو ذلك ﴿ فهدى ﴾ أي أوقع بسبب تقديره وعقبه الهداية لذلك الذي وقع التقدير من أجله من الشكل والجواهر والأعراض التي هيأه بها لما يليق به طبعاً أو اختياراً بخلق الميول والإلهامات ، ونصب الدلائل والآيات لدفع الشرور وجلب الخيور ، فترى الطفل أول ما يقع من البطن يفتح فاه للرضاعة ، وغيره من سائر الحيوانات ، يهتدي إلى ما ينفعه من سائر الانتفاعات ، فالخلق لا بد له من التسوية ليحصل الاعتدال ، والتقدير لا بد له من الهداية

ليحصل الكمال .

ولما كانت دلائل التوحيد تارة بالنفس وتارة بالآفاق ، ونبه بآيات النفس ، فلم يبق إلا آيات الآفاق ، وكان النبات من آياتها أدل المخلوقات على البعث قال : ﴿ والذي أخرج ﴾ أي أوقع إخراج ﴿ المرعى ﴾ بما أنزل من المعصرات فأنبت ما ترعاه الدواب من النجم وغيره بدءاً وإعادة ، فدل ذلك على تمام قدرته لا سيما على البعث لأنه سبحانه وتعالى أقدر على جمع الأموات من الأرض بنفسه بعد أن تفتتوا من الماء على جمعه للنبات الذي كان تفتت في الأرض وصار تراباً وإخراجه كما كان في العام الماضي بإذنه سبحانه وتعالى وهو خلق من مخلوقاته .

(56/812)

ولما كان إيباسه وتسويده بعد اخضراره ونموه في غاية الدلالة على تمام القدرة وكمال الاختيار بمعاقبة الأضداد على الذات الواحدة قال تعالى : ﴿ فجعله ﴾ أي بعد أطوار من زمن إخراجه ﴿ غثاء ﴾ أي كثيراً ، ثم أنهاه فأيبسه وهشمه ومزقه فجمع السيل بعضه إلى بعض فجعله زبداً وهالكاً وبالياً وفتاتاً على وجه الأرض ﴿ أحوى ﴾ أي في غاية الري حتى صار أسود يضرب إلى خضرة ، أو أحمر يضرب إلى سواد ، أو اشتدت

خضرته فصارت تضرب إلى سواد ، وقال القزاز رحمه الله في ديوانه : الحوة شية من شيات الخيل ، وهي بين الدهمة والكمتة ، وكثر هذا حتى سموا كل أسود أحوى – انتهى .

فيجوز أن يريد حينئذ أنه أسود من شدة يبسه فحوته الرياح وجمعته من كل أوب حيت تفتت ، فكل من الكلمتين فيها حياة وموت ، وأخر الثانية لتحملهما لأن دلالتها على الخضرة أتم ، فلو قدمت لم تصرف إلى غيرها ، فدل جمعه بين الأضداد على الذات الواحدة على كمال الاختيار ، وأما الطبائع فليس لها من التأثير الذي أقامها سبحانه فيه إلا الإيجابي كالنار متى أصابت شيئاً أحرقته ، ولا تقدر بعد ذلك أن تنقله إلى صفة أخرى غير التي أثرتها فيه ، وأشار بالبداية والنهاية إلى تذكر ذلك ، وأنه على سبيل التكرار في كل عام الدال على بعث الخلائق ، وخص المرعى لأنه أدل على البعث لأنه مما ينبته الناس ، وإذا انتهى تهشم وتفتت وصار تراباً ، ثم يعيده سبحانه بالماء على ما كان عليه سواء كما يفعل بالأموات سواء – من غير فرق أصلاً .

(57/812)

ولما استوفى سبحانه وتعالى وصف من أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتسبيحه بما دل على أوصاف جماله ونعوت كبريائه وجلاله ، وشرح ما له سبحانه من القدرة التامة على الإبداع

والهداية والتصرف في الأرواح الحسية والمعنوية بالنشر والطي والقبض والبسط ، فدل على تمام أصول الدين بالدلالة على وجوده سبحانه على سبيل التنزل من ذاته إلى صفاته ثم إلى أفعاله فتم ما للخالق ، أتبعه ما للخلائق وبدأ بما لأشرف خلقه المنزل عليه هذا الذكر تقديراً للنبوة التي بها تتم السعادة بالحقائق الواصلة من الحق إلى عبده ، التي بها يتم أمره من القوتين العلمية ثم العملية بقبول الرسالة بعد التوحيد ، لأن حياة الإنسان لا يتم طيبها إلا بمقتدي يقتدى به من أقواله وأفعاله وسائر أحواله ، ولا مقتدي مثل المعصوم عن كل ميل الموجب ذلك الحب من كل ما يعرف حاله ، والحب في الله أعظم دعائم الدين ، فقال معللاً للأمر بالتسبيح للموصوف بالجلال والجمال دالاً على أنه يحيي ميت الأرواح بالعلم كما يحيي ميت الأشباح بالأرواح ﴿ سنقرئك ﴾ أي نجعلك بعظمتنا بوعد لا خلف فيه على سبيل التكرار بالتجديد والاستمرار قارئاً ، أي جامعاً لهذا الذكر الذي هو حياة الأرواح بمنزلة حياة الأشباح ، الذي تقدم أنه قول فصل ، عالماً به كل علم ، ناشراً له في كل حي ، فارقاً به بين كل ملتبس ، وإن كانت أميّاً لا تحسن الكتابة ولا القراءة ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فلا تنسى ﴾ أي شيئاً منه ولا من غيره ليكون في ذلك آيتان : كونك تقرأ وأنت أمي ، وكونك تخبر عن المستقبل فيكون كما قلت فلا تحرك به لسانك عند التنزيل لتعجل به ولا تتعب نفسك فإن علينا حفظه في صدرك وإنطاق لسانك به .

ولما كان سبحانه وتعالى ينسخ من الشريعة ما يشاء بحسب المصالح تخفيفاً لما له بهذه الأمة من الرفق ، قال لافتاً القول إلى سياق الغيبة إعلاماً بأن ذكر الجلالة أعظم من التصريح بأداة العظمة : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله ، أن تنساه لأنه نسخه ، أو لتظهر عظمته في أن أعظم الخلق يغلبه القرآن لأنه صفة الله فتنسى الآية أو الكلمة ثم تذكرها تارة بتذكير أحد من آحاد أمتك وتارة بغير ذلك .

ولما كان الفاعل لهذه الأمور كلها لا سيما الإقراء والحكم على ما يقرأ بأنه لا ينسى إلا ما شاء منه إلاّ يكون لا محيط العلم ، قال تعالى مصرحاً بذلك مؤكداً لأجل إنكار أهل القصور في النظر لمثله جارياً على أسلوب الغيبة معبراً بالضمير إشارة إلى تعاليه في العظمة إلى حيث تنقطع أماني الخلق عن إدراكه بما كثر من أفعاله : ﴿ إنه ﴾ أي الذي مهما شاء كان ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : 40] .

ولما كان المراد بيان إحاطة علمه سبحانه وتعالى ، وأن نسبة الجلي والخفي من جهره بالقرآن وترديده على قلبه سراً وغير ذلك إليه على حد سواء ، وكان السياق للجلي ، ذكرهما مصرحاً بكل منهما مقدماً الجلي لأن هذا مقامه ، وذكره بوصفه معبراً عنه بالاسم الدال على إحاطة علمه به فقال : ﴿ يعلم الجهر ﴾ أي ثابت له هذا الوصف على سبيل التجدد والاستمرار في الإقراء والقراءة وغيرهما .

ولما ذكره باسمه ليدل على أنه يعلمه مطلقاً لا بقيد كونه جهراً ، قال مصرحاً بذلك : ﴿ وما يخفى ﴾ أي يتجدد خفاؤه من القراءة وغيرها على أي حالة كان الإخفاء ، فيدل على علمه به إذا جهر به بطريق الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 393 . 397 ﴾

(59/812)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ فسوّى ﴾ وجميع آياتها مثل " طه " وكذلك في سورة و " الشمس " و " الليل " و " الضحى " و " اقرأ باسم ربك " من قوله ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ إلى آخر السورة . ﴿ قدر ﴾ بالتخفيف : علي ﴿ بل يؤثرون ﴾ على الغيبة : قتيبة وأبو عمرو ويعقوب .

الوقوف : ﴿ الأعلى ﴾ ه لا ﴿ فسوّى ﴾ ه ص ﴿ فهدى ﴾ ه ك ﴿ المرعى ﴾ ه ك ﴿ أحوى ﴾ ه ط ﴿ فلا تنسى ﴾ ه لا ﴿ الله ﴾ ط ﴿ يخفى ﴾ ج ه للعدول . وقيل : قوله ﴿ ونيسرك ﴾ معطوف على ﴿ سنقرئك ﴾ وقوله ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾

اعتراض فلا وقف ﴿ لليسرى ﴾ ه‍ك والوصل أليق ﴿ الذكرى ﴾ ه‍ج ﴿ يخشى ﴾ ه لا ﴿ الأشقى ﴾ ه‍لا ﴿ الكبرى ﴾ ج ه‍لأن " ثم " لترتيب الأخبار ﴿ ولا يحيا ﴾ ه‍ط لأن ما بعده مستأنف ﴿ تزكى ﴾ ه‍لا ﴿ فصلى ﴾ ه‍ط لأن " بل " للإضراب ﴿ الدنيا ﴾ ه بناء على أن الواو للاستئناف أو الحال أوجه ﴿ وأبقى ﴾ ه‍ط ﴿ الأولى ﴾ ه‍لا ﴿ وموسى ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 482 ﴾

(60/812)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ اسم ربّكَ ﴾ قولان : أحدهما : أن المراد الأمر بتنزيه اسم الله وتقديسه

والثاني : أن الاسم صلة والمراد الأمر بتنزيه الله تعالى .

(61/812)

أما على الوجه الأول ففي اللفظ احتمالات أحدها : أن المراد نزه اسم ربك عن أن تسمي به غيره ، فيكون ذلك نهياً على أن يدعى غيره باسمه ، كما كان المشركون يسمون الصنم باللات ، ومسيلمة برحمان اليمامة وثانيها : أن لا يفسر أسماءه بما لا يصح ثبوته في حقه سبحانه نحو أن يفسر الأعلى بالعلو في المكان والاستواء بالاستقرار بل يفسر العلو بالقهر والاقتداء والاستواء بالاستيلاء وثالثها : أن يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم ، ويدخل فيه أن يذكر تلك الأسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على معانيها وحقائقها ورابعها : أن يكون المراد بسبح باسم ربك ، أي مجده بأسمائه التي أنزلتها عليك وعرفتك أنها أسماؤه كقوله : ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء : 110] ونظير هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] ومقصود الكلام من هذا التأويل أمران : أحدهما : ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ ، أي صل باسم ربك ، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية والثاني : أن لا يذكر العبد ربه إلا بأسماء التي ورد التوقيف بها ، قال الفراء : لا فرق بين ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ ﴾ وبين ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ ﴾ قال الواحدي : وبينهما فرق لأن معنى ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ ﴾ نزه الله تعالى بذكر اسمه المنبىء عن تنزيهه وعلوه عما يقول المبطلون ، و ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ ﴾ أي نزه الاسم من السوء وخامسها : قال أبو مسلم : المراد من الاسم ههنا الصفة ،

وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] أما على الوجه الثاني وهو أن يكون الاسم صلة ويكون المعنى سبح ربك وهو اختيار جمع من المحققين ، قالوا : لأن الاسم في الحقيقة لفظة مؤلفة من حروف ولا يجب تنزيهها كما يجب في الله تعالى ، ولكن المذكور إذا كان في غاية العظمة لا يذكر هو بل يذكر اسمه فيقال : سبح اسمه ، ومجد ذكره ، كما يقال : سلام على

(62/812)

المجلس العالي ، وقال لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . أي السلام وهذه طريقة مشهورة في اللغة ، ونقول على هذا الوجه : تسبيح الله يحتمل وجهين الأول : أن لا يعامل الكفار معاملة يقدمون بسببها على ذكر الله بما لا ينبغي على ما قال : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 108] ، الثاني : أنه عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به ، في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وفي أسمائه وفي أحكامه ، أما في ذاته فأن يعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض ، وأما في صفاته ، فأن يعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهية ولا ناقصة ، وأما في أفعاله فأن يعتقد أنه مالك مطلق ، فلا اعتراض لأحد عليه في

أمر من الأمور ، وقالت المعتزلة هو أن يعتقد أن كل ما فعله فهو صواب حسن ، وأنه لا يفعل القبيح ولا يرضى به ، وأما في أسمائه فأن لا يذكر سبحانه إلا بالأسماء التي ورد التوقيف بها ، هذا عندنا وأما عند المعتزلة فهو أن لا يذكر إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه سواء ورد الإذن بها أو لم يرد ، وأما في أحكامه فهو أن يعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود إليه .

بل إما لمحض المالكية على ما هو قولنا ، أو لرعاية مصالح العباد على ما (هو) قول المعتزلة .

المسألة الثانية :

(63/812)

من الناس من تمسك بهذه الآية في أن الاسم نفس المسمى ، فأقول : إن الخوض في الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل النزاع ، فلا بد ههنا من بيان أن الاسم ما هو والمسمى ما هو حتى يمكننا أن نخوض في الاسم هل هو نفس المسمى أم لا ، فنقول : وإن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك الذات ، فالعاقل لا يمكنه أن يقول : الاسم هو المسمى ، وإن كان المراد ، من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات كان قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات نفس تلك الذات ، وهذا لا يمكن أن ينازع فيه

عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكة .

وإن كان كذلك كان الخوض في ذكر الاستدلال عليه أرك وأبعد بل ههنا دقيقة ، وهي أن قولنا : اسم لفظة جعلناها اسماً لكل ما دل على معنى غير مقترن بزمان ، والاسم كذلك فيلزم أن يكون الاسم إسماً لنفسه فههنا الاسم نفس المسمى فلعل العلماء الأولين ذكروا ذلك فاشتبه الأمر على المتأخرين ، وظنوا أن الاسم في جميع المواضع نفس المسمى ، هذا حاصل التحقيق في هذه المسألة ، ولنرجع إلى الكلام المألوف ، قالوا : الذي يدل على أن الاسم نفس المسمى أن أحداً لا يقول سبحان اسم الله وسبحان اسم ربنا فمعنى ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ ﴾ سبح ربك ، والرب أيضاً اسم فلو كان غير المسمى لم يجز أن يقع التسبيح عليه ، واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لما بينا في المسألة الأولى أنه يمكن أن يكون الأمر وارداً بتسبيح الاسم ، ويمكن أن يكون المراد تسبيح المسمى وذكر الاسم صلة فيه .

ويمكن أن يكون المراد سبح باسم ربك كما يقال : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه .

المسألة الثالثة :

روى عن عقبة بن عامر أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" اجعلوها في ركوعكم " ولما نزل قوله : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ قال : " اجعلوها في سجودكم " ثم روي في الأخبار أنه عليه السلام كان يقول : في ركوعه : " سبحان ربي العظيم " وفي سجوده : " سبحان ربي الأعلى " ثم من العلماء من قال : إن هذه الأحاديث تدل على أن المراد من قوله : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ ﴾ أي صل باسم ربك ، ويتأكد هذا الاحتمال بإطباق المفسرين على أن قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] ورد في بيان أوقات الصلاة .

المسألة الرابعة :

قرأ علي عليه السلام وابن عمر : (سبحان ربي الأعلى * الذي خلق فسوى) ولعل الوجه فيه أن قوله : ﴿ سَبِّحِ ﴾ أمر بالتسبيح فلا بد وأن يذكر ذلك التسبيح وما هو إلا قوله : سبحان ربي الأعلى .

المسألة الخامسة :

تمسكت المجسمة في إثبات العلو بالمكان بقوله : ﴿ رَبِّكَ الأعلى ﴾ والحق أن العلو بالجهة على الله تعالى محال ، لأنه تعالى إما أن يكون متناهياً أو غير متناه ، فإن كان متناهياً كان طرفه الفوقاني متناهياً ، فكان فوقه جهة فلا يكون هو سبحانه أعلى من جميع الأشياء وأما إن كان غير متناه فالقول : بوجود أبعاد غير متناهية محال وأيضاً فلأنه إن كان غير متناه

من جميع الجهات يلزم أن تكون ذاته تعالى مختلطة بالقاذورات تعالى الله عنه ، وإن كان غير متناه من بعض الجهات ومتناهياً من بعض الجهات كان الجانب المتناهي مغايراً للجانب غير المتناهي فيكون مركباً من جزأين ، وكل مركب ممكن ، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود ، هذا محال .

(65/812)

فثبت أن العلو ههنا ليس بمعنى العلو في الجهة ، مما يؤكد ذلك أن ما قبل هذه الآية وما بعدها ينافي أن يكون المراد هو العلو بالجهة ، أما قبل الآية فلأن العلو عبارة عن كونه في غاية البعد عن العالم ، وهذا لا يناسب استحقاق التسبيح والثناء والتعظيم ، أما العلو بمعنى كمال القدرة والتفرد بالتخليق والإبداع فيناسب ذلك ، والسورة ههنا مذكورة لبيان وصفه تعالى بما لأجله يستحق الحمد والثناء والتعظيم ، وأما ما بعد هذه الآية فلأنه أردف قوله : ﴿ الأعلى ﴾ بقوله : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى ﴾ والخالقية تناسب العلو بحسب القدرة لا العلو بحسب الجهة .

المسألة السادسة :

من الملحدين من قال : بأن القرآن مشعر بأن للعالم ربين أحدهما عظيم والآخر أعلى منه ،

أما العظيم فقوله : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ وأما الأعلى منه فقوله : ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ فهذا يقتضي وجود رب آخر يكون هذا أعلى بالنسبة إليه .

واعلم أنه لما دلت الدلائل على أن الصانع تعالى واحد سقط هذا السؤال ، ثم نقول ليس في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى أعلى من رب آخر ، بل ليس فيه إلا أنه أعلى ، ثم لنا فيه تأويلات .

الأول : أنه تعالى أعلى وأجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون ، ومن كل ذكر يذكره به الذاكرون ، فجلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا ، وأصناف آلائه ونعمائه أعلى من حمدنا وشكرنا ، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا .

الثاني : أن قوله : ﴿ الأعلى ﴾ تنبيه على استحقاق الله التنزيه من كل نقص فكأنه قال سبحانه فإنه : الأَعْلَى أي فإنه العالي على كل شيء بملكه وسلطانه وقدرته ، وهو كما تقول : اجتنبت الخمر المزيلة للعقل أي اجتنبتها بسبب كونها مزيلة للعقل .

والثالث : أن يكون المراد بالأعلى العالي كما أن المراد بالأكبر الكبير .

المسألة السابعة :

روي أنه عليه السلام كان يحب هذه السورة ويقول : " لو علم الناس علم سبح اسم ربك الأعلى لرددها أحدهم ست عشرة مرة " وروى : "أن عائشة مرت بأعرابي يصلي بأصحابه فقرأ : (سبح اسم ربك الأعلى ، الذي يسر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشاً ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، ألا بلى ألا بلى) فقالت عائشة : لا آب غائبكم ، ولا زالت نساؤكم في لزبة" والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما أمر بالتسبيح ، فكأن سائلاً قال : الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة ، فما الدليل على وجود الرب ؟ فقال : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ، أنه قال : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهرون عليهما السلام : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ [طه : 49] ؟ قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] وأما محمد عليه السلام فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 12] هذا إشارة إلى الخلق ، ثم قال : ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم * الذي عَلَّمَ بالقلم ﴾ [العلق : 34] وهذا إشارة إلى الهداية ، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة ، فقال :

﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيراً لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر ، ومشاهدة الإنسان لها ، واطلاعه عليها أتم ، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة ، ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(67/812)

قوله : ﴿ خَلَقَ فسوى ﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة ، ويحتمل أن يريد الحيوان ، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه ، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً أحدها : أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة ، على ما قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

[التين : 4] وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه ، فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ ، وثانيها : أن كل حيوان فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط ، وغير مستعد لسائر الأعمال ، أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا وثالثها : أنه هيأ للتكليف والقيام بأداء العبادات ، وأما من حمله على جميع الحيوانات .

قال : المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس ، وقد استقصينا القول في هذا الباب في مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، وأما من حمله على جميع المخلوقات ، قال : المراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات ، خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفاً بوصف الأحكام والإتقان ، مبرأ عن الفسخ والاضطراب .

المسألة الثانية :

قرأ الجمهور : ﴿ قدَّرَ ﴾ مشددة وقرأ الكسائي على التخفيف ، أما قراءة التشديد فالمعنى أنه قدر كل شيء بمقدار معلوم ، وأما التخفيف فقال القفال : معناه ملك فهدى وتأويله : أنه خلق فسوى ، وملك ما خلق ، أي تصرف فيه كيف شاء وأراد ، وهذا هو الملك فهداه لمنافعه ومصالحه ، ومنهم من قال : هما لغتان بمعنى واحد ، وعليه قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون ﴾ [المرسلات : 23] بالتشديد والتخفيف .

المسألة الثالثة :

أن قوله : ﴿ قدَّرَ ﴾ يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم ، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة والشقاوة والهداية والضلالة مقداراً معلوماً على ما قال : ﴿ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات ، بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، تفسير هذه الآية .

وتفصيل هذه الجملة .

أما قوله : ﴿ فهدى ﴾ فالمراد أن كل مزاج فإنه مستعد لقوة خاصة وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعل معين ، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى ، وقوله : ﴿ فهدى ﴾ عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدراً لفعل معين ، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة ، وللمفسرين فيه وجوه ، قال مقاتل : هدى الذكر للأنثى كيف يأتيها ، وقال آخرون : هداه للمعيشة ورعاه ، وقال آخرون : هدى الإنسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة ، وذلك لأنه جعله حساساً دراكاً متمكناً من الإقدام على ما يسره والإحجام عما يسوءه كما قال : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان :

3] وقال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 78]

وقال السدي : قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج وقال الفراء : قدر فهدى وأضل ، فاكتفى بذكر إحداهما : كقوله :

(69/812)

﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] وقال آخرون : الهداية بمعنى الدعاء إلى الإيمان كقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ [الشورى : 52] أي تدعو ، وقد دعى الكل إلى الإيمان ، وقال آخرون : هدى أي دلهم بأفعاله على توحيده وجلال كبريائه ، ونعوت صمديته ، وفردانيته ، وذلك لأن العاقل يرى في العالم أفعال محكمة متقنة منتسقة منتظمة ، فهي لا محالة تدل على الصانع القديم ، وقال قتادة في قوله : ﴿ فهدى ﴾ إن الله تعالى ما أكره عبداً على معصية ، ولا على ضلالة ، ولا رضيها له ولا أمره بها ، ولكن رضي لكم الطاعة ، وأمركم بها ، ونهاكم عن المعصية ، واعلم أن هذه الأقوال على كثرتها لا تخرج عن قسمين ، فمنهم من حمل قوله : ﴿ فهدى ﴾ على ما يتعلق بالدين كقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ومنهم من حمله على ما يرجع إلى مصالح الدنيا ، والأول أقوى ، لأن قوله : ﴿ خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ ﴾ يرجع إلى أحوال الدنيا ، ويدخل فيه إكمال العقل والقوى ، ثم أتبعه بقوله :

﴿ فهدى ﴾ أي كلفه ودله على الدين ، أما قوله تعالى : ﴿ والذي أَخْرَجَ المرعى ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بين ما يختص به الناس أتبعه بذكر ما يختص به غير الناس من النعم : فقال : ﴿ والذي أَخْرَجَ المرعى ﴾ أي هو القادر على إنبات العشب لا الأصنام التي عبدتها الكفرة ، والمرعى ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش ، قال ابن عباس : المرعى الكلأ الأخضر ، ثم قال : فجعله غثاء أحوى وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الغثاء ما يبس من النبت فحملته الأودية والمياه وألوت به الرياح ، وقال قطرب واحد الغثاء غثاءة .

المسألة الثانية :

(70/812)

الحوة السواد ، وقال بعضهم : الأحوى هو الذي يضرب إلى السواد إذا أصابته رطوبة ، وفي أحوى قولان : أحدهما : أنه نعت الغثاء أي صار بعد الخضرة يابساً فتغير إلى السواد ، وسبب ذلك السواد أمور أحدها : أن العشب إنما يجف عند استيلاء البرد على الهواء ، ومن شأن البرودة أنها تبيض الرطب وتسود اليابس وثانيها : أن يحملها السيل فيلصق بها

أجزاء كدرة فتسود وثالثها : أن يحملها الريح فتلصق بها الغبار الكثير فتسود القول الثاني : وهو اختيار الفراء وأبي عبيدة ، وهو أن يكون الأحوى هو الأسود لشدة خضرته ، كما قيل : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 64] أي سوداوان لشدة خضرتهما ، والتقدير الذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء ، كقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً ﴾ [الكهف : 1 ، 2] أي أنزل قيماً ولم يجعل له عوجاً .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7)

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً بالتسبيح فقال : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] وعلم محمداً عليه السلام أن ذلك التسبيح لا يتم ولا يكمل إلا بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن ، لما بينا أن التسبيح الذي يليق به هو الذي يرتضيه لنفسه ، فلا جرم كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه ، والمعنى نجعلك قارئاً للقرآن تقرؤه فلا تنساه ، قال مجاهد ومقاتل والكلبي : كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى ، وكان جبريل لا يفرغ من آخر الوحي حتى يتكلم هو بأوله مخافة النسيان ، فقال تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ أي سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه ، ونظيره قوله : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرءان مِن قَبْلِ أَن يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 114] وقوله : ﴿ لاَ تُحَرّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] ثم ذكروا في كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوهاً أحدها : أن جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرات حتى تحفظه حفظاً لا تنساه وثانيها : أنا نشرح صدرك ونقوي خاطرك حتى تحفظ بالمرة الواحدة حفظاً لا تنساه وثالثها : أنه تعالى لما أمره في أول السورة بالتسبيح فكأنه تعالى قال : واظب على ذلك ودم عليه فإنا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين ويكون فيه ذكرك وذكر قومك ونجمعه في قلبك ، وننسرك لليسرى وهو العمل به .

المسألة الثانية :

هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين الأول : أنه كان رجلاً أمياً فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة فيكون معجزاً الثاني : أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع في المستقبل وقد وقع فكان هذا إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً ، أما قوله : ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ فقال بعضهم : ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ معناه النهي ، والألف مزيدة للفاصلة ، كقوله : ﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] يعني فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه ، والقول المشهور أن هذا خبر والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان ، كقولك سأكسوك فلا تعرى أي فتأمن العرى ، واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات في هذه الآية منها أن النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يصح ورود الأمر والنهي به ، فلا بد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التي تنافي النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر .

وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ .

ومنها أن تجعل الألف مزيدة للفاصلة وهو أيضاً خلاف الأصل ومنها أنا إذا جعلناه خبراً كان معنى الآية بشارة الله إياه بأني أجعلك بحيث لا تنساه ، وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي الدراسة والقراءة ، وهذا ليس

في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول ، ولأنه على خلاف قوله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] .

(73/812)

أما قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ ففيه احتمالان أحدهما : أن يقال : هذا الاستثناء غير حاصل في الحقيقة وأنه عليه السلام لم ينس بعد ذلك شيئاً ، قال الكلبي : إنه عليه السلام لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئاً ، وعلى هذا التقدير يكون الغرض من قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ أحد أمور أحدها : التبرك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الكهف : 23 24] وكأنه تعالى يقول : أنا مع أني عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأمور على التفصيل لا أخبر عن وقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة فأنت وأمتك يا محمد أولى بها وثانيها : قال الفراء : إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه ، كما قال : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : 86] ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك وقال لمحمد عليه السلام : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] مع أنه عليه الصلاة والسلام ما

أشرك ألبتة ، وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته وثالثها : أنه تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوز رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما ينزل عليه من الوحي قليلاً كان أو كثيراً أن يكون ذلك هو المستثنى ، فلا جرم كان يبالغ في التثبت والتحفظ والتيقظ في جميع المواضع ، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه عليه السلام على التيقظ ، في جميع الأحوال ورابعها : أن يكون الغرض من قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ نفي النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء (الله) ، ولا يقصد استثناء شيء .

(74/812)

القول الثاني : أن قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ استثناء في الحقيقة ، وعلى هذا التقدير تحتمل الآية وجوهاً أحدها : قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى ، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك ، فإذاً قد ينسى ولكنه يتذكر فلا ينسى نسياناً كلياً دائماً ، روى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة ، فحسب أبي أنها نسخت ، فسأله فقال : نسيتها .

وثانيها : قال مقاتل : إلا ما شاء الله أن ينسيه ، ويكون المراد من الإنساء ههنا نَسْخُهُ ، كما

قال : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ [البقرة : 106] فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها ، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به ، فيصير ذلك سبباً لنسيانه ، وزواله عن الصدور .

وثالثها : أن يكون معنى قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ القلة والندرة ، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع ، بل من الآداب والسنن ، فإنه لو نسي شيئاً من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع ، وإنه غير جائز .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أن المعنى أنه سبحانه عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام ، وعالم بالسر الذي في قلبك وهو أنك تخاف النسيان ، فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه والثاني : أن يكون المعنى : فلا تنسى إلا ما شاء الله أن ينسخ ، فإنه أعلم بمصالح العبيد ، فينسخ حيث يعلم أن المصلحة في النسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 123 . 129 ﴾

(75/812)

وقال القرطبى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

يُستحب للقارىء إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ أن يقول عَقِبه : سبحانَ ربيَ الأعلى ؛ قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين ؛ على ما يأتي .

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال : إن لله تعالى مَلَكاً يقال له حِزْقيائيل ، له ثمانية عَشَر ألفَ جَناح ، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام ، فخطر له خاطر : هل تقدر أن تبصر العرش جميعه ؟ فزاده الله أجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام .

ثم أوحى الله إليه : أيها المَلَك ، أَنْ طِرْ ، فطار مقدار عشرين ألف سنة ؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش .

ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوّة ، وأمره أن يطير ، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى ، فلم يصل أيضاً ؛ فأوحى الله إليه : أيها المَلَك ، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ ساق عرشي .

فقال المَلَك : سبحان ربِّيَ الأعلى ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اجعلوها في سُجودكم " ذكره الثعلبيّ في (كتاب العرائس) له .

وقال ابن عباس والسُّديّ : معنى ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ أي عظم ربك الأعلى .

والاسم صِلة ، قصِد بها تعظيم المسمَّى ؛ كما قال لَبيد :

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما . . .

وقيل : نزه ربك عن السوء ، وعما يقول فيه الملحدون .

وذكر الطبريّ أن المعنى نزِّه اسم ربك عن أن تسمي به أحداً سواه .

وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه ، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم .

وجعلوا الاسم بمعنى التسمية ، والأولى أن يكون الاسم هو المسَمّى .

روى نافع عن ابن عمر قال : لا تقل على اسم الله ؛ فإن اسم الله هو الأعلى .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : صَلِّ بأمر ربك الأعلى .

قال : وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى .

(76/812)

وروِي عن عليّ رضي الله عنه ، وابنِ عباس وابنِ عمر وابنِ الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم : أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربِّيَ الأعلى ؛ امتثالاً لأمره في ابتدائها .

فيُختار الاقتداء بهم في قراءتهم ؛ لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن ؛ كما قاله بعض أهل

الزيغ .

وقيل : إنها في قراءة أُبيّ : "سبحان ربي الأعلى" .

وكان ابن عمر يقرؤها كذلك .

وفي الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : " سبحان ربِّيَ الأعلى " قال أبو بكر الأنباريّ : حدّثني محمد بن شَهْرِيار ، قال : حدّثنا حسين بن الأسود ، قال : حدّثنا عبد الرحمن ابن أبي حَمَّاد قال : حدّثنا عيسى بن عمر ، عن أبيه ، قال : قرأ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة "سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى" ثم قال : سبحان ربّي الأعلى ؛ فلما انقضت الصلاة قيل له : يا أمير المؤمنين ، أتزيد هذا في القرآن ؟ قال : ما هو ؟ قالوا : سبحان ربي الأعلى .

قال : لا ، إنما أُمِرنا بشيء فقلته ، وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال : " لما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اجعلوها في سجودكم" " وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى ؛ لأنهم لم يقولوا : سبحان اسم ربي الأعلى .

وقيل : إن أوّل من قال (سبحان ربي الأعلى) ميكائيل عليه السلام .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : " يا جبريل أخبرني بثواب من قال : سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته" .

فقال : "يا محمد ، ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولها في سجوده أو في غير سجوده ، إلا كانت له

في ميزانه أثقل من العرش والكرسيّ وجبال الدنيا ، ويقول الله تعالى : صدق عبدي ، أنا فوق كل شيء ، وليس فوقي شيء ، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له ، وأدخلته الجنة .

(77/812)

فإذا مات زاره مِيكائيل كل يوم ، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه ، فأوقفه بين يدي الله تعالى ، فيقول : يا رب شَفعني فيه ، فيقول قد شفعتك فيه ، فاذهب به إلى الجنة " وقال الحسن : ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ أي صل لربك الأعلى .

وقيل : أي صل بأسماء الله ، لا كما يصلي المشركون بالمُكَاءِ والتصدِية .

وقيل : ارفع صوتك بذكر ربك .

قال جرير :

قَبَحَ الإلهُ وجوهُ تغلِبَ كلَّما . . .

سَبَحَ الحجِيجُ وكبَّروا تكبيرا

قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى ﴾ قد تقدّم معنى التسوية في "الانفطار" وغيرها .

أي سوّى ما خلق ، فلم يكن في خلقه تَثْبِيج .

وقال الزجاج : أي عدّل قامته .

وعن ابن عباس ؛ حسن ما خلق .

وقال الضحاك : خلق آدم فسوّى خلقه .

وقيل : خلق في أصلاب الآباء ، وسوّى في أرحام الأمّهات .

وقيل : خلق الأجساد ، فسوّى الأفهام .

وقيل : أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف .

﴿ والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ قرأ عليّ رضي الله عنه والسُّلمِيُّ والكِسائيّ "قَدَرَ" مخففة الدال ، وشدّد الباقون .

وهما بمعنى واحد .

أي قدّر ووفق لكل شكل شكله .

﴿ فهدى ﴾ أي أرشد .

قال مجاهد : قدّر الشقاوة والسعادة ، وهدى للرشد والضلالة .

وعنه قال : هَدَى الإنسانَ للسعادة والشقاوة ، وهَدَى الأنعام لمراعيها .

وقيل : قدّر أقواتهم وأرزاقهم ، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وَحْشاً .

وروي عن ابن عباس والسُّدّيّ ومقاتل والكلبيّ في قوله "فَهَدَى" قالوا : عَرَّف خلقه كيف

يأتي الذكر الأنثى ؛ كما قال في (طه) : ﴿ أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] أي الذكر للأنثى .

وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها ، وهداها له .

وقيل : خلق المنافع في الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها .

وقيل : "قَدَّرَ فهدَى" : قدّر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به .

(78/812)

يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عمِيت ، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازِيانج الغضّ يرد إليها بصرها ؛ فربما كانت في بَرّية بينها وبين الريف مسيرة أيام ، فتطوِي تلك المسافة على طولها وعلى عماها ، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى .

وهدايات الإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه ، وما لا يحصر من حوائجه ، في أغذيته وأدويته ، وفي أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض باب واسع ، وشَوْط بطِين ، لا يحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربي الأعلى .

وقال السُّدّيّ : قدّر مدّة الجنين في الرّحِم تسعة أشهر ، وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من

الرّحِم.

وقال الفراء: أي قدّر، فهدى وأضل؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل: 81] ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتهدي إلى صِرَاطٍ ﴾ [الشورى: 52] أي لتدعو، وقد دعا الكل إلى الإيمان.

وقيل: "فهدى" أي دلهم بأفعاله على توحيده، وكونه عالماً قادراً.

ولا خلاف أن من شدّد الدال من "قَدَّر" أنه من التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ [الفرقان: 52].

ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى.

ويحتمل أن يكون من القُدْرة والمُلْك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى.

هو تفسير العلوّ الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿ والذي أَخْرَجَ المرعى ﴾ أي النبات والكلأَ الأخضَر.

قال الشاعر:

وقد ينْبُتُ المَرْعَى على دِمنِ الثَّرَى . . .

وتَبقَى حَزازات النفوسِ كما هِيَا

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَآءً أحوى ﴾ الغُثاء: ما يقذِف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش

والنبات والقُماش .

وكذلك الغُثَّاء (بالتشديد) .

(79/812)

والجمع : الأغثاء .

قتادة : الغثاء : الشيء اليابس .

ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس : غُثاءٌ وهَشِيم .

وكذلك للذي يكون حول الماء من القُماش غثاء ؛ كما قال :

كأنّ طَمِيّةَ المُجَيمِرِ غُدْوةً . . .

من السَّيْل والأَغثاءَ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

وحكى أهل اللغة : غثا الوادي وجَفأَ .

وكذلك الماء : إذا علاه من الزَّبَد والقُماش ما لا ينتفع به .

والأَحْوى : الأسود ؛ أي أن النبات يضرب إلى الحُوّة من شدّة الخضرة كالأسود .

والحوّة : السواد ؛ قال الأعشى :

لَمْيَاء في شَفَتيها حُوّةٌ لَعَسٌ . . .

وفي اللِّثاثِ وفي أَنيابها شَنَب

وفي الصحاح: والحوّة: سمرة الشفة.

يقال: رجل أحوى، وامرأة حوّاء، وقد حَوِيت.

وبعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة.

وتصغير أحوى أحيوٍ؛ في لغة من قال أسَيْود.

ثم قيل: يجوز أن يكون "أحوى" حالاً من "المَرعَى"، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء.

يقال: قد حَوِيَ النبت؛ حكاه الكسائي.

وقال:

وغَيثٍ من الوسْمِيِّ حُوٍّ تلاعُه . . .

تبطَّنته بشَيظَم صَلَتانِ

ويجوز أن يكون "أحوى" صفة ل"غثاء".

والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته.

وقال أبو عبيدة: فجعله أسودَ من احتراقه وقِدمه؛ والرَّطب إذا يبِس اسودّ.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبِس اسودَ من احتراقه، فصار غُثاء تذهب به الرياح والسيول.

وهو مَثَل ضربه الله تعالى للكفار ، لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ أي فتحفظ ؛ رواه ابن وهب عن مالك .

وهذه بُشْرَى من الله تعالى ؛ بشره بأن أعطاه آية بينة ، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .

وعن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد ، قال : كان يتذكر مخافة أن ينسى ، فقيل : كَفَيْتُكَه .

(80/812)

قال مجاهد والكلبي : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، لم يفرغ جبريل من آخر الآية ، حتى يتكلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بأوّلها ، مخافة أن يَنْساها ؛ فنزلت : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ بعد ذلك شيئاً ، فقد كَفَيْتُكَه .

ووجه الاستثناء على هذا ، ما قاله الفراء : إلا ما شاء الله ، وهو لم يشأ أَن تنسى شيئاً ؛ كقوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 107] ولا يشاء .

ويقال في الكلام : لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئتُ ، وإلا أن أشاء أن أمنعك ، والنية

على ألاَّ يمنعه شيئاً .

فعلى هذا مجارِي الأَيمان ؛ يُسْتَثنى فيها ونية الحالف التمام .

وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس : فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ، "إلا ما شاء الله" .

وعن سعيد عن قتادة ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسَى شيئاً ؛ "إلا ما شاء الله" .

وعلى هذه الأقوال قيل : إلا ما شاء الله أن يَنْسَى ، ولكنه لم ينسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية .

وقيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ، ثم يذكر بعد ذلك ؛ فإذاً قد نسي ، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كُلِّياً .

وقد رُوِي " أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة ، فحسِب أُبَيّ أنها نسِخت ، فسأله فقال : "إني نسيتها" " وقيل : هو من النسيان ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيك .

ثم قيل : هذا بمعنى النسخ ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه .

والاستثناء نوع من النسخ .

وقيل : النسيان بمعنى الترك ؛ أي يعصِمك من أن تترك العمل به ؛ إلا ما شاء الله أن تتركه

لنسخه إياه .

فهذا في نسخ العمل ، والأوّل في نسخ القراءة .

(81/812)

قال الفَرْغاني : كان يغشى مجلس الجنيد أهلُ البَسْط من العلوم ، وكان يغشاه ابن كَيْسانَ النحويّ ، وكان رجلاً جليلاً ؛ فقال يوماً : ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ ؟ فأجابه مسرعاً كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات : لا تَنْسَى العملَ به .

فقال ابن كيسان : لا يَفْضُضِ الله فاك ! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه .

وقوله : "فلا" : للنفي لا للنهي .

وقيل : للنهي ؛ وإنما أثبتت الياء لأن رؤوس الآي على ذلك .

والمعنى : لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه ؛ إلا ما شاء الله أن ينسِيكه برفع تلاوته للمصلحة .

والأوّل هو المختار ؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً .

وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف ، وعليها القراء .

وقيل : معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله .

وقيل : المعنى فجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم ، فإنه لا يصير كذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر ﴾ أي الإعلان من القول والعمل .

﴿ وَمَا يخفى ﴾ من السر .

وعن ابن عباس : ما في قلبك ونفسك .

وقال محمد بن حاتم : يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها .

وقيل : الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك .

"وما يخفى" هو ما نسخ من صدرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(82/812)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾

أي نزه أسماءه عز وجل عما لا يليق فلا تؤول مما ورد منها اسماً من غير مقتض ولا تبقه على ظاهره إذا كان ما وضع له مما لا يصح له تعالى ولا تطلقه على غيره سبحانه أصلاً إذا كان مختصاً كالاسم الجليل أو على وجه يشعر بأنه تعالى والغير فيه سواء إذ لم يكن مختصاً فلا تقل لمن أعطاك شيئاً مثلا هذا رازقي على وجه يشعر بذلك وصنه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به كالخلاء وحالة التغوط وذكره لا على وجه الخشوع والتعظيم وربما يعد مما لا يليق ذكره عند من يكره سماعه من غير ضرورة إليه وعن الإمام مالك رضي الله تعالى عنه إنه كان إذا لم يجد ما يعطي السائل يقول ما عندي ما أعطيك أو ائتني في وقت آخر أو نحو ذلك ولا يقول نحو ما يقول الناس يرزقك الله تعالى أو يبعث الله تعالى لك أو يعطيك الله تعالى أو نحوه فسئل عن ذلك فقال إن السائل أثقل شيء على سمعه وأبغضه إليه قول المسؤول ما يفيده رده وحرمانه فأنا أجل اسم الله سبحانه من أن أذكره لمن يكره سماعه ولو في ضمن جملة وهذا منه رضي الله تعالى عنه غاية في الورع وما ذكر من التفسير مبني على الظاهر من أن لفظ اسم غير مقحم وذهب كثير إلى أنه مقحم وهو قد يقحم لضرب من التعظيم على سبيل الكناية ومنه قول لبيد

: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . .

فالمعنى نزه ربك عما لا يليق به من الأوصاف واستدل لهذا بما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم ومن المعلوم أن المجهول فيهما سبحان ربي العظيم وسبحان ربي الأعلى وبما أخرج الإمام أحمد وأبو داود والطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ﴿ رُوَيْداً سَبِّحِ اسم ربِّكَ الاعلى ﴾ قال سبحان ربي الأعلى وروي عبد بن حميد وجماعة أن علياً كرم الله تعالى وجهه قرأ ذلك فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة فقيل له أتزيد في القرآن قال لا إنما أمرنا بشيء ففعلته وفي الكشاف تسبيح اسمه تعالى تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي الحاد في أسمائه سبحانه كالجبر والتشبيه مثلاً وان يصان عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم فجعل المعنيين على ما قيل راجعين إلى الاسم وان كان الأول بالحقيقة راجعاً إليه عز وجل لكن كما يصح أن يقال نزع الذات عما لا يصح له من الأوصاف أن يقال أيضاً نزه أسماءه تعالى الدالة على الكمال عما لا يصح فيه من خلافه وليس المعنى الأول مبنياً على أن لفظ اسم مقحم ولا على أن المراد به المسمى إطلاقاً لاسم الدال على المدلول نعم قال به بعضهم هنا وهو إن كان للأخبار السابقة كما في دعوى

الاقحام فلا بأس وإن كان لظن أن التسبيح لا يكون للإلفاظ الموضوعة له تعالى فليس بشيء لفساد هذا الظن بظهور أن التسبيح يكون لها كما سمعت وقد قال الإمام إنه كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته جل وعلا عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لذلك عن الرفث وسوء الأدب ومن هذا يعلم ما في التعبير عنه تعالى شأنه بنحو ليلى ونعم كما يدعي ذلك في قول ابن الفارض قدس سره

: أبرق بدا من جانب الغور لامع . . .

(84/812)

أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

وقوله

: إذا أنعمت نعم علي بنظرة . . .

فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل

إلى غير ذلك من أبياته وقد عاب ذلك بعض الأجبلة وعده من سوء الأدب ومخالفاً لقوله تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [الأعراف : 180] الآية وأجاب بعضهم بان ذلك ليس من الوضع في شيء وفهم الحضرة الإلهية من تلك الألفاظ إنما هو بطريق

الاشارة كما قالوا في فهم النفس الأمارة من البقرة مثلا في قوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ [البقرة : 67] والمنكر لا يقنع بهذا والاظهر أن يقال إن الكلام المورد فيه ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية ولا نظر فيها تشبيه المفردات بالمفردات فليس فيه التعبير عنه وجل بليلى ونحوها واستعمال الاستعارة التمثيلية في شأنه تعالى مما لا بأس به حتى إنهم قاوله في البسملة كما لا يخفى على من تتبع رسائلهم فيها هذا ولعل عندهم خيراً منه وقال جمع الاسم بمعنى التسمية والمعنى نزه تسمية ربك بأن تذكره وأنت له سبحانه معظم ولذكره جل شأنه محترم وأنت تعلم أن هذا يندرج في تسبيح الاسم كما تقدم وعن ابن عباس أن المعنى صل باسم ربك الأعلى كما تقول ابدأ باسم الله تعالى وحذف حرف الجر حكاه في البحر ولا أظن صحته وقال عصام الدين لا يبعد أن يراد الاسم الأثر أي سبح آثار ربك الأعلى عن النقصان فإن أثره تعالى دال عليه سبحانه كالاسم فيكون منعاً عن عيب المخلوقات أي من حيث أنها مخلوقة له تعالى وعلى وجه ينافي قوله تعالى ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾

(85/812)

[الملك : 3] ولا يخفى بعده وإن كان فيما بعد من الصفات ما يستأنس به له وأنا أقول إن كان سبح بمعنى نزع فكلا الأمرين من كون اسم مقحماً وكونه غير مقحم وتعلق التسبيح به على الوجه الذي سمعت محتمل غير بعيد وإذا كان معناه قل سبحان كما هو المعروف فيما بينهم فكونه مقحماً متعين إذ لم يسمع سلفاً وخلفاً من يقول سبحان اسم ربي الأعلى أو سبحان اسم الله والأخبار ظاهرة في ذلك وحمل ما فيها على اختيار الأخصر المستلزم لغيره كما ترى ويؤيد هذا قراءة أبي بن كعب كما في خبر سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن جبير سبحان ربي الأعلى واما ما قيل من أن الاسم عين المسمى واستدل عليه بهذه الآية ونحوها فهو مما لا يعول عليه أصلاً وقد تقدم الكلام أول الكتاب فارجع إليه ان أردته والأعلى صفة للرب وأريد بالعلو والعلو بالقهر والاقتدار لا بالمكان لاستحاله عليه سبحانه والسلف وان لم يؤولوه بذلك لكنهم أيضاً يقولون باستحالة العلو المكاني عليه عز وجل وجوز جعله صفة لاسم وعلوه ترفعه عن أن يشاركه اسم في حقيقة معناه واستشكل بأن قوله تعالى :

﴿ الذى خَلَقَ ﴾ الخ

(86/812)

إن كان صفة للرب كما هو الظاهر لزم الفصل بين الموصوف وصفته بصفة غيره وهو لا يجوز فلا يقال رأيت غلام هند العاقل الحسنة وان كان صفة لاسم أيضاً اختل المعنى إذ الاسم لا يتصف بالخلق وما بعده وأجيب باختيار الثاني ولا اختلال إما لأن الاسم بمعنى المسمى أو لأنه لما كان مقحماً كان ﴿ اسم ربك ﴾ [الأعلى : 1] بمنزلة ربك فصح وصفه بما يوصف به الرب عز وجل وفيه نظر والجواب المقبول إن الذي على ذلك التقدير اما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح ومفعول خلق محذوف ولذا قيل بالعموم أي الذي خلق كل شيء ﴿ فسوى ﴾ أي فجعله متساوياً وهو أصل معناه والمراد فجعل خلقه كما تقتضيه حكمته سبحانه في ذاته وصفاته وفي معناه ما قيل أي فجعل الأشياء سواء في باب الأحكام والاتقان لا انه سبحانه أتقن بعضاً دون بعض ورد بما دلت عليه الآية من العموم على المعتزلة في زعمهم إن العبد خالق لأفعاله والزمخشري مع أن مذهبه مذهبهم قال هنا بالعموم ولعله لم يرد العموم الحقيقي أو أراده لكن على معنى خلق كل شيء إما بالذات أو بالواسطة وجعل ذلك في أفعال العباد باقداره سبحانه وتمكينهم على خلقها باختيارهم وقدرهم الموهوبة لهم وعن الكلبي خلق كل ذي روح فسوى بين يديه وعينيه ورجليه وعن الزجاج خلق الإنسان فعدل قامته ولم يجعله منكوساً كالبهائم وفي كل تخصيص لا يقتضيه ظاهر الحذف .

﴿ والذى قَدَّرَ ﴾ أي جعل الأشاء على مقادير مخصوصة في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها وأفعالها وآجالها ﴿ فهدى ﴾ فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعاً أو اختياراً ويسره لما خلق له بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول وأما فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان على الخصوص ففوق ذلك بمراحل وابعد منه ثم ابعد وابعد بالوف من المنازل وهيهات أن يحيط بها فلك العبارة والتحرير ولا يكاد يعلمها إلا اللطيف الخبير

.

اتزعم إنك جرم صغير . . .

وفيك انطوى العالم الأكبر

وقيل أي والذي قدر الخلق على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات وأجرى لهم أسباب معاشهم من الارزاق والأقوات ثم هداهم إلى دينه ومعرفة توحيده باظهار الدلالات والبينات وقيل قدر أقواتهم وهداهم لطلبها وعن مقاتل والكلبي قدرهم ذكراناً وإناثاً وهدى الذكر كيف يأتي الأنثى وعن مجاهد قدر الإنسان والبهائم وهدى الإنسان للخير والشر والبهائم للمراتع وعن السدى قدر الولد في البطن تسعة أشهر أو أقل أو أكثر وهداه

للخروج منه للتمام وقيل قدر المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لاستخراجها والأولى ما ذكر أولاً ولعل ما في سائر الأقوال من باب التمثيل لا التخصيص وزعم الفراء أن في الآية اكتفاء والأصل فهدى وأضل وليس بشيء وقرأ الكسائي قدر بالتخفيف من القدرة أو التقدير .

﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى ﴾ أي أنبت ما ترعاه الدواب غضا رطبا يرف .

(88/812)

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاء ﴾ هو ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات وأصله على ما في المجمع الاخلاط من أجناس شتى والعرب تسمى القوم إذا اجتمعوا من قبائل شتى أخلاطاً وغثاء ويقال غثاء بالتشديد وجاء جمعه على أغثاء وهو غريب من حيث جمع فعال على أفعال والمراد به هنا اليابس من النبات أي فجعله بعد ذلك يابساً ﴿ أحوى ﴾ من الحوة وهي كما قيل السواد وقال الأعلم لون يضرب إلى السواد وفي الصحاح الحوة السمرة فالمراد باحوى أسود أو أسمر والنبات إذا يبس أسود أو اسمر فهو صفة مؤكدة للغثاء وتفسر الحوة بشدة الخضرة وعليه قول ذي الرمة

: لمياء في شفتيها حوة لعس . . .

وفي اللثات وفي أنيابها شنب

ولا ينافي ذلك تفسيرها بالسواد لأن شدة الخضرة ترى في بادىء النظر كالسواد وجوز كونه حالاً من المرعى أي أخرج المرعى حال كونه طريا غضا شديد الخضرة فجعله غثاء والفصل بالمعطوف بين الحال وصاحبها ليس فصلا بأجنبي لا سيما وهو حال يعاقب الأول من غير تراخ وسر التقديم المبالغة في استعقاب حالة الجفاف حالة الرفيف والغضارة كأنه قبل أن يتم رفيفه وغضارته يصير غثاه ومع هذا هو خلاف الظاهر وهذه الأوصاف على ما قيل يتضمن كل منها التدريج ففي الوصف بها تحقيق لمعنى التربية وهي تبليغ الشيء كما له شيئاً فشيئاً وقوله تعالى :

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6)

(89/812)

بيان لهدايته تعالى شأنه الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم أثر بيان هدايته عز وجل العامة لكافة مخلوقاته سبحانه وهي هدايته عليه الصلاة والسلام لتلقي الوحي وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين وتوفيقه صلى الله عليه وسلم لهداية الناس أجمعين والسين إما للتأكيد واما لأن المراد اقراء ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم حينئذ وما سيوحي

إليه عليه الصلاة والسلام بعد فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالاقراء وإسناد الإقراء إليه تعالى مجازي أي سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام فإنه عليه السلام الواسطة في الوحي على سائر كيفياته فلا تنسى أصلاً من قوة الحفظ والاتقان مع أنك أمي لم تكن تدري ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك لك آية مع ما في تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البينات من حيث الاعجاز ومن حيث الأخبار بالمغيبات وجوز أن يكون المعنى سنجعلك قارئاً بالهام القراءة أي في الكتاب من دون تعليم أحد كما هو العادة فقد روي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ الكتابة ولا يكتب ويكون المراد بقوله تعالى فلا تنسى نفي النسيان مطلقاً عنه عليه الصلاة والسلام امتناناً عليه صلى الله عليه وسلم بأنه أوتي قوة الحفظ وفيه أنه مع كونه خلاف المأثور عن السلف في الآية تأباه فاء التفريع وجوز أيضاً أن يكون المراد نفى نسيان المضمون أي سنقرئك القرآن فلا تغفل عنه فتخالفه في أعمالك ففيه وعد بتوفيقه عليه الصلاة والسلام لالتزام ما فيه من الأحكام وهو كما ترى وقيل فلا تنسى نهى والألف لمراعاة الفاصلة كما في قوله تعالى ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] وفيه أن النسيان ليس بالاختيار فلا ينهى عنه إلا أن يراد مجازاً ترك أسبابه الاختيارية أو ترك العمل بما تضمنه المقرأ وفيه ارتكاب تكلف من غير داع وأيضاً رسمه بالياء يقتضي أنها من البنية لا للاطلاق وكون رسم المصحف مخالفاً تكلف

(90/812)

أيضاً نعم قيل رسمت ألف الاطلاق ياء لموافقة غيرها من الفواصل وموافقة أصلها مع أن الإمام المرزوقي صرح بأنه عند الاطلاق ترد المحذوفة وقيل هو نهى لكن لم تحذف الألف فيه إذ قد لا يحذف الجازم حرف العلة وحسن ذلك هنا مراعاة الفاصلة وفيه أيضاً ما فيه والأهون للطالب معنى النهي أن

(91/812)

﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا تنسى أصلاً مما سنقرئكه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه قيل أي أبداً قال الحسن وقتادة وغيرهما وهذا مما قضى الله تعالى نسخة وأن يرتفع حكمه وتلاوته والظاهر أن النسيان على حقيقته وفي الكشاف أي إلا ما شاء الله فذهب به عن حفظك برفع حكمه وتلاوته وجعل النسيان عليه بمعنى رفع الحكم والتلاوة وكناية عنه لأن ما رفع حكمه وتلاوته يترك فينسى فكأنه قيل بناه على إرادة المعنيين في الكنايات سنقرئك القرآن فلا تنسى شيئاً منه ولا يرفع حكمه

وتلاوته إلا ما شاء الله فتنساه ويرفع حكمه وتلاوته أو نحو هذا وأنا لا أرى ضرورة إلى اعتبار ذلك والباء في برفع الخ للسببية والمراد إما بيان السبب العادي البعيد الذهاب الله تعالى به عن الحفظ فإن رفع الحكم والتلاوة يؤدي عادة في الغالب إلى ترك التلاوة لعدم التعبد بها وإلى عدم اخطاره في البال لعدم بقاء حكمه وهو يؤدي عادة في الغالب أيضاً إلى النسيان أو بيان السبب الدافع لاستبعاد الذهاب به عن حفظه عليه الصلاة والسلام وهو كالسبب المجوز لذلك وأياً ما كان فلا حاجة إلى جعل معنى فلا تنسى فلا تترك تلاوة شيء منه والعمل به فتأمل ثم انه لا يلزم من كون ما شاء الله تعالى نسيانه مما قضى سبحانه إن يرتفع حكمه وتلاوته أن يكون كل ما ارتفع حكمه وتلاوته قد شاء الله تعالى نسيان النبي صلى الله عليه وسلم فإن من ذلك ما يحفظه العلماء إلى اليوم فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات الحديث وكونه صلى الله عليه وسلم نسى الجميع بعد تبليغه وبقي ما بقي عند بعض من سمعه منه عليه الصلاة والسلام فنقل حتى وصل إلينا بعيد وإن أمكن عقلاً وقيل كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل عليه السلام فقيل لا تعجل فإن جبريل عليه السلام مأمور أن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه

ثم لا تنساه إلا ما شاء الله تعالى ثم تذكره بعد النسيان وأنت تعلم أن الذكر بعد النسيان وان كان واجباً إلا أن العلم به لا يستفاد من هذا المقام وقيل إن الاستثناء بمعنى القلة وهذا جار في العرف كأنه قيل إلا ما لا يعلم لأن المشيئة مجهولة وهو لا محالة أقل من الباقي بعد الاستثناء فكأنه قيل فلا تنسى شيئاً إلا شيئاً قليلاً وقد جاء في صحيح البخاري وغيره أنه صلى الله عليه وسلم أسقط آية في قراءته في الصلاة وكانت صلاة الفجر فحسب أبي أنها نسخت فسأله عليه الصلاة والسلام فقال نسيتها ثم أنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على نسيانه القليل أيضاً بل يذكره الله تعالى أو ييسر من يذكره ففي البحر أنه صلى الله عليه وسلم قال حين سمع قراءة عباد بن بشير

" لقد ذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا " وقيل الاستثناء بمعنى القلة وأريد بها النفي مجازاً كما في قولهم قل من يقول كذا قيل والكلام عليه من باب

: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

(93/812)

البيت والمعنى فلا تنسى إلا نسياناً معدوما وفي الحواشي العصامية على أنوار التنزيل أن الاستثناه على هذا الوجه لتأكيد عموم النفي لا لنقض عمومه وقد يقال الاستثناء من أعم الأوقات أي فلا تنسى في وقت من الأوقات إلا وثت مشيئة الله تعالى نسيانك لكنه سبحانه لا يشاء وهذا كما قيل في قوله تعالى في أهل الجنة ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : 107] وقد قدمنا ذلك وإلى هذا ذهب الفراء فقال إنه تعالى ما شاء الله ينسى النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً إلا أن المقصود من الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصيره عليه الصلاة والسلام ناسياً لذلك لقدر عليه كما قال سبحانه ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ [الإسراء : 86] ثم انا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك وقله له صلى الله عليه وسلم ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يشرك البتة وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء إن يعرفه الله تعالى قدرته حتى يعلم صلى الله عليه وسلم أن عدم النسيان من فضلة تعالى واحسانه لا من قوته أي حتى يتقوى ذلك جداً أو ليعرف غيره ذلك وأن نفي أن يشاء الله تعالى نسيانه عليه الصلاة والسلام معلوم من خارج ومنه آية ﴿ لا تحرك به لسانكلتعجل به ﴾ [القيامة : 16] الآية وقد أشار أبو حيان إلى ما قاله الفراء وإلى الوجه الذي قبله وإياهما غاية الآباء لعدم الوقوف على حقيقتهما وقال لا ينبغي أن يكون ذلك في كلام الله تعالى بل ولا في كلام فصيح وهو مجازفة منه عفا الله تعالى عنه ثم إن المراد من نفى نسيان

شيء من القرآن نفى النسيان التام المستمر مما لا يقر عليه صلى الله عليه وسلم كالذي تضمنه الخبر السابق ليس كذلك وقد ذكروا أنه عليه الصلاة والسلام لا يقر على النسيان فيما كان من أصول الشرائع والواجبات وقد يقر على ما ليس منها أو منها وهو من الآداب والسنن ونقل هذا عن الإمام الرازي عليه الرحمة

(94/812)

فليحفظ والالتفات إلى الاسم الجليل على سائر الأوجه لتربية المهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات وربط الآية بما قبلها على الوجه الذي ذكرناه هو الذي اختاره في الإرشاد وقال أبو حيان إنه سبحانه لما أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح وكان لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن وكان صلى الله عليه وسلم يتفكر في نفسه مخافة أن ينسى أزال سبحانه عنه ذلك بأنه عز وجل يقرئه وأنه لا ينسى إلا ما شاء أن ينسيه لمصلحة وفيه نظر لا يخفى ولو قيل إن ﴿ سنقرئك ﴾ استئناف واقع موقع التعليل للتسبيح أو للأمر به فيفيد جلالة الإقراء وأنه مما ينبغي أن يقابل بتنزيه الله تعالى وإجلاله كان أخون مما ذكر ونحوه كونه في موقع التعليل على معنى هيىء نفسك للإفاضة عليك بتسبيح الله تعالى لأنا سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ويتضمن ذلك الإشارة إلى

فضل التسبيح وقد وردت أخبار كثيرة في ذلك وذكر الثعلبي بعضاً منها ونقله ابن الشيخ في "حواشيه" على تفسير البيضاوي والله تعالى أعلم بصحته ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ تعليل لما قبله والجهر هنا ما ظهر قولاً أو فعلاً أو غيرهما وليس خاصاً بالأقوال بقرينة المقابلة أي أنه تعالى يعلم ما ظهر وما بطن من الأمور التي من جملتها حالك وحرصك على حفظ ما يوحي إليك بأسره فيقرئك ما يقرئك ويحفظك عن نسيان ما شاء منه وينسيك ما شاء منه مراعاة لما نيط بكل من المصالح والحكم التشريعية وقيل توكيد لجميع ما تقدمه وتوكيد لما بعده وقيل توكيد لقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ الخ على أن الجهر ما ظهر من الأقوال أي يعلم سبحانه جهرك بالقراءة مع جبريل عليه السلام وما دعاك إليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه الصلاح من إبقاء وانساء أو فلا تخف فإني أكفيك ما تخاف وقيل إنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الاعلى ﴾ [الأعلى : 1] وهذا ليس بشيء كما ترى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(95/812)

وقال ابن عاشور :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

الافتتاح بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسبح اسمَ ربه بالقول ، يؤذن بأنه سيُلقي إليه عقبه بشارة وخيراً له وذلك قوله : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] الآيات كما سيأتي ففيه براعة استهلال .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم

والتسبيح : التنزيه عن النقائص وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالى وكذلك الأفعال المشتقة منه لا ترفع ولا تنصب على المفعولية إلا ما هو اسم لله ، وكذلك أسماء المصدر منه نحو : سبحان الله ، وهو من المعاني الدينية ، فالأشبه أنه منقول إلى العربية من العبرانية وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ في سورة البقرة (30) .

وإذْ عُدِّي فعلُ الأمر بالتسبيح هنا إلى اسْم فقد تعين أن المأمور به قول دال على تنزيه الله بطريقة إجراء الأخبار الطيبة أو التوصيف بالأوصاف المقدسة لإثباتها إلى ما يدل على ذاته تعالى من الأسماء والمعاني ، ولما كان أقوالاً كانت متعلقة باسم الله باعتبار دلالته على الذات ، فالمأمور به إجراء الأخبار الشريفة والصفات الرفيعة على الأسماء الدالة على الله تعالى من أعلام وصفات ونحوها ، وذلك آيل إلى تنزيه المسمَّى بتلك الأسماء .

ولهذا يكثر في القرآن إناطة التسبيح بلفظ اسم الله نحو قوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : 74] وقد تقدم ذلك في مبحث الكلام على البسملة في أول هذا التفسير .

فتسبيح اسم الله النطقُ بتنزيهه في الخُوَيصَّة وبينَ الناس بذكر يليق بجلاله من العقائد

والأعمال كالسجود والحمد .

ويشمل ذلك استحضارَ الناطق بألفاظ التسبيح معانيَ تلك الألفاظ إذ المقصود من الكلام معناه .

وبتظاهُرِ النطق مع استحضار المعنى يتكرر المعنى على ذهن المتكلم ويتجدد ما في نفسه من تعظيم لله تعالى .

(96/812)

وأما تفكر العبد في عظمة الله تعالى وترديد تنزيهه في ذهنه فهو تسبيح لذات الله ومسمَّى اسمه ولا يسمى تسبيح اسمِ الله ، لأن ذلك لا يجري على لفظ من أسماء الله تعالى ، فهذا تسبيح ذات الله وليس تسبيحاً لاسمه .

وهذا ملاك التفرقة بين تعلق لفظ التسبيح بلفظ اسم الله نحو ﴿ سبح اسم ربك ﴾ ، وبين تعلقه بدون اسم نحو ﴿ ومن الليل فاسجُد له وسبحه ﴾ [الإنسان : 26] ونحو ﴿ ويسبحونه وله يسجدون ﴾ [الأعراف : 206] فإذا قلنا : ﴿ اللَّه أحد ﴾ [الإخلاص : 1] أو قلنا : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾ [الحشر : 23] إلى آخر السورة كان ذلك تسبيحاً لاسمه تعالى ، وإذا نفينا الإلاهية عن الأصنام

لأنها لا تخلق كما في قوله تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون اللَّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ [الحج : 73] كان ذلك تسبيحاً لذات الله لا لاسمه لأن اسمه لم يجر عليه في هذا الكلام إخبار ولا توصيف .

فهذا مناط الفرق بين استعمال ﴿ سبح اسم ربك ﴾ واستعمال ﴿ وسبحه ﴾ ومَآل الإطلاقين في المعنى واحد لأن كلا الإِطلاقين مراد به الإِرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائص .

واعلم أن مما يدل على إرادة التسبيح بالقول وجودَ قرينة في الكلام تقتضيه مثلِ التوقيت بالوقت في قوله تعالى : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ [الأحزاب : 42] فإن الذي يكلف بتوقيته هو الأقوال والأفعال دون العقائد ، ومثل تعدية الفعل بالباء مثل قوله تعالى : ﴿ وسبحوا بحمد ربهم ﴾ [السجدة : 15] فإن الحمد قول فلا يصاحب إلا قولاً مثله .

وتعريف : ﴿ اسم ﴾ بطريق الإضافة إلى ﴿ ربك ﴾ دون تعريفه بالإضافة إلى عَلَم الجلالة نحو : سبح اسمَ الله ، لما يُشعر به وصف رب من أنه الخالق المدبر .

وأما إضافة (رب) إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم فلتشريفه بهذه الإضافة وأن يكون له حظ زائد على التكليف بالتسبيح .

ثم أجري على لفظ ﴿ ربك ﴾ صفة ﴿ الأعلى ﴾ وما بعدها من الصلات الدالة على تصرفات قدرته ، فهو مستحق للتنزيه لصفات ذاته ولِصفات إنعامه على الناس بخلقهم في أحسن تقويم ، وهدايتهم ، ورزقهم ، ورزق أنعامهم ، للإِيماء إلى موجب الأمر بتسبيح اسمه بأنه حقيق بالتنزيه استحقاقاً لذاته ولوصفه بصفة أنه خالق المخلوقات خلقاً يدل على العلم والحكمة وإتقان الصنع ، وبأنه أنعم بالهدى والرزق الذين بهما استقامة حال البشر في النفس والجسد وأوثرت الصفات الثلاث الأول لما لها من المناسبة لغرض السورة كما سنبينه .

فلفظ ﴿ الأعلى ﴾ اسم يفيد الزيادة في صفة العلو ، أي الارتفاع .

والارتفاع معدود في عرف الناس من الكمال فلا ينْسب العلوّ بدون تقييد إلا إلى شيء غير مذموم في العرف ، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضل عليه أفاد التفضيل المطلق كما في وصفه تعالى هنا .

ولهذا حكَى عن فرعون أنه قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] .

والعلوّ المشتقُّ منه وصفه تعالى : ﴿ الأعلى ﴾ علوّ مجازي ، وهو الكمال التام الدائم .

ولم يعدَّ وصفه تعالى : ﴿ الأعلى ﴾ في عداد الأسماء الحسنى استغناء عن اسمه ﴿ العليُّ ﴾ لأن أسماء الله توقيفية فلا يعد من صفات الله تعالى بمنزلة الاسم إلا ما كثر إطلاقه

إطلاقَ الأسماء ، وهو أوغل من الصفات ، قال الغزالي : والعلوّ في الرتبة العقلية مثل العلوّ في التدريجات الحسية ، ومثال الدرجة العقلية ، كالتفاوت بين السبب والمسبب والعلة والمعلول والفاعل والقابل والكامل والناقص أ هـ .

وإيثار هذا الوصف في هذه السورة لأنها تضمنت التنويه بالقرآن والتثبيت على تلقيه وما تضمنه من التذكير وذلك لعلو شأنه فهو من متعلقات وصف العلوّ الإلهي إذ هو كلامه .

وهذا الوصف هو ملاك القانون في تفسير صفات الله تعالى ومحاملها على ما يليق بوصف الأعلى فلذلك وجب تأويل المتشابهات من الصفات .

(98/812)

وقد جُعل من قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ دعاء السجود في الصلاة إذ ورد أن يقول الساجد : سبحان ربي الأعلى ، ليقرن أثر التنزيه الفعلي بأثر التنزيه القولي .

وجملة : ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ اشتملت على وصفين : وصف الخلق ووصف تسويه الخلق ، وحذف مفعول ﴿ خلق ﴾ فيجوز أن يقدر عامّاً ، وهو ما قدره جمهور المفسرين ، وروي عن عطاء ، وهو شأن حذف المفعول إذا لم يدل عليه دليل ، أي خلق كل مخلوق فيكون كقوله تعالى حكاية عن قول موسى : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

﴾ [طه : 50] .

ويجوز أن يقدر خاصاً ، أي خلق الإنسان كما قدره الزجاج ، أو خلق آدم كما روي عن الضحاك ، أي بقرينة قرن فعل ﴿ خلق ﴾ بفعل "سوى" قال تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ [الحجر : 29] الآية .

وعطف جملة : ﴿ فسوى ﴾ بالفاء دون الواو للإِشارة إلى أن مضمونها هو المقصود من الصلة وأن ما قبله توطئة له كما في قول ابن زيابة :

يا لهفَ زَيَابةً للحارث الصّ

ابحِ فالغَانِم فالآيب . . .

لأن التلهف يحق إذا صبحهم فغنم أموالَهم وآب بها ولم يستطيعوا دفاعه ولا استرجاعه .

فالفاء من قوله : ﴿ فسوى ﴾ للتفريع في الذكر باعتبار أن الخلق مقدم في اعتبار المعتبر على التسويه ، وإن كان حصول التسويه مقارناً لحصول الخلق .

والتسويه : تسويةُ ما خلقَه فإن حمل على العموم فالتسوية أنْ جعل كل جنس ونوع من الموجودات معادِلاً ، أي مناسباً للأعمال التي في جبلته فاعوجاج زُبَانَى العقربِ من تسويه خلقها لتدفع عن نفسها بها بسهولة .

ولكونه مقارناً للخلقة عطف على فعل ﴿ خلق ﴾ بالفاء المفيدة للتسبب ، أي ترتَّبَ على الخَلق تسويتُه .

والتقديرُ : وضْعُ المقدارِ وإيجادُه في الأشياء في ذواتها وقواها ، يقال : قَدَّر بالتضعيف وقدَر بالتخفيف بمعنىً .

وقرأ الجمهور بالتشديد وقرأها الكسائي وحده بالتخفيف .

(99/812)

والمقدار : أصله كمية الشيء التي تُضبط بالذرع أو الكيل أو الوزن أو العَدّ ، وأطلق هنا على تكوين المخلوقات على كيفيات منظّمة مطردة من تركيب الأجزاء الجسدية الظاهرة مثل اليدين ، والباطنة مثل القلب ، ومن إيداع القُوى العقلية كالحس والاستطاعة وحِيلَ الصناعة .

وإعادة اسم الموصول في قوله : ﴿ والذي قدر ﴾ وقوله : ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ مع إغناء حرف العطف عن تكريره ، للاهتمام بكل صلة من هذه الصلات وإثباتها لمدلول الموصول وهذا من مقتضيات الإطناب .

وعطْفُ قوله : ﴿ فهدى ﴾ بالفاء مثل عطف ﴿ فسوى ﴾ ، فإن حمل ﴿ خلق ﴾ و ﴿ قدّر ﴾ على عموم المفعول كانت الهداية عامة .

والقول في وجه عطف ﴿ فهدى ﴾ بالفاء مثل القول في عطف ﴿ فسوى ﴾ .

وعطف ﴿ فهدى ﴾ على ﴿ قدر ﴾ عطفُ المسبَّب على السبب أي فهدى كلَّ مقدر إلى ما قدر له فهداية الإنسان وأنواع جنسه من الحيوان الذي له الإدراك والإرادة هي هداية الإلهام إلى كيفية استعمال ما قدَّر فيه من المقادير والقوى فيما يناسب استعماله فيه فكلما حصل شيء من آثار ذلك التقدير حصل بأثره الاهتداء إلى تنفيذه .

والمعنى : قَدّر الأشياءَ كلها فهداها إلى أداء وظائفها كما قدّرها لها ، فالله لما قدّر للإنسان أن يكون قابلاً للنطق والعِلم والصناعة بما وَهَبَه من العقل وآلات الجسد هداهُ لاستعمال فكره لما يُحصّل له ما خُلق له ، ولَمَّا قَدر البقرةَ للدَّر ألهمها الرَعْي ورِثْمَانَ ولدها لِتَدرَّ بذلك للحالب ، ولمّا قدر النحل لإنتاج العسَل ألهمها أن ترعى النَّور والثمار وألهمها بناء الجِبْح وخلاياه المسدسة التي تضع فيها العسل .

ومن أجلِّ مظاهر التقدير والهداية تقدير قوى التناسل للحيوان لبقاء النوع .

(100/812)

فمفعول "هدى" محذوف لإفادة العموم وهو عام مخصوص بما فيه قابلية الهَدْي فهو مخصوص بذوات الإدراك والإرادة وهي أنواع الحيوان فإن الأنواع التي خلقها الله وقدَّر نظامها ولم يقدِّر لها الإدراك مثل تقدير الإثمار للشجر ، وإنتاج الزريعة لتجدد الإنبات ،

فذلك غير مراد من قوله : ﴿ فهدى ﴾ لأنها مخلوقة ومقدّرة ولكنها غير مهدية لعدم صلاحها للاهتداء ، وإن جعل مفعول ﴿ خلق ﴾ خاصاً ، وهو الإنسان كان مفعول ﴿ قدر ﴾ على وزانه ، أي تقدير كمال قوى الإِنسان ، وكانت الهداية هداية خاصة وهي دلالة الإِدراك والعقل .

وأوثر وصفا التسوية والهداية من بين صفات الأفعال التي هي نِعم على الناس ودالة على استحقاق الله تعالى للتنزيه لأن هذين الوصفين مناسبة بما اشتملت عليه من السورة فإن الذي يسوي خَلق النبي صلى الله عليه وسلم تسوية تلائم ما خلَقه لأجله من تحمل أعباء الرسالة لا يفوته أن يهيئه لحفظ ما يوحيه إليه وتيسيره عليه وإعطائه شريعة مناسبة لذلك التيسير قال تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] وقال : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ [الأعلى : 8] .

وقوله : ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ تذكير لخلق جنس النبات من شجر وغيره .

واقتُصر على بعض أنواعه وهو الكلأ لأنه معاش السوائم التي ينتفع الناس بها .

والمرادُ : إخراجه من الأرض وهو إنباته .

والمرعى : النبت الذي ترعاه السوائم ، وأصله : إما مصدر ميمي أطلق على الشيء المَرْعِيّ من إطلاق المصدر على المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق وإما اسم مكان الرعي أطلق على ما ينبت فيه ويُرعَى إطلاقاً مجازياً بعلاقة الحلول كما أطلق اسم الوادي على

الماء الجاري فيه .

والقرينة جعله مفعولاً ل ﴿ أخرج ﴾ ، وإيثار كلمة ﴿ المرعى ﴾ دون لفظ النبات ، لما يشعر به مادة الرعي من نفع الأنعام به ونفعها للناس الذين يتخذونها مع رعاية الفاصلة . . .

(101/812)

والغُثاء : بضم الغين المعجمة وتخفيف المثلثة ، ويقال بتشديد المثلثة هو اليابس من النبت .

والأحوى : الموصوف بالحُوَّة بضم الحاء وتشديد الواو ، وهي من الألوان : سُمرة تقرب من السواد .

وهو صفة ﴿ غثاء ﴾ لأن الغثاء يابس فتصير خضرته حُوّة .

وهذا الوصف أحوى لاستحضار تغيُّر لونه بعد أن كان أخضر يانعاً وذلك دليل على تصرفه تعالى بالإنشاء وبالإنهاء .

وفي وصف إخراج الله تعالى المرعى وجعله غُثاء أحوى مع ما سبقه من الأوصاف في سياق المناسبة بينها وبين الغرض المسوق له الكلام إيماء إلى تمثيل حال القرآن وهدايته وما اشتمل عليه من الشريعة التي تنفع الناس بحال الغيث الذي يَنبت به المرعَى فتنتفع به الدواب والأنعام ، وإلى أن هذه الشريعة تكمل ويبلغ ما أراد الله فيها كما يكمل المرعَى ويبلغ

نُضجه حين يصير غثاء أحوى ، على طريقة تمثيلية مكنية رُمز إليها بذكر لازم الغيث وهو المرعى .

وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله بقول النبي صلى الله عليه وسلم " مثل ما بَعَثني الله به من الهُدى والعِلم كمثَل الغيث الكثير أصابَ أرضاً فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الماء فأنبتت الكلأ والعُشُبَ الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقَوا وزرعوا " الحديث .

(102/812)

ويجوز أن يكون المقصود من جملة : ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ إدماج العبرة بتصاريف ما أودع الله في المخلوقات من مختلف الأطوار من الشيء إلى ضده للتذكير بالفناء بعد الحياة كما قال تعالى : ﴿ اللَّه الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ [الروم : 54] للإشارة إلى أن مدة نضارة الحياة للأشياء تشبه المدة القصيرة ، فاستعير لعطف ﴿ جعله غثاء ﴾ الحرفُ الموضوع لعطف ما يحصل فيه حكم المعطوف بعدَ زمن قريب من زمن حصول المعطوف عليه ، ويكون ذلك من قبيل قوله تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من

السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام إلى قوله : ﴿ فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ [يونس : 24] .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7)

قد عرفت أن الأمر بالتسبيح في قوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] بشارة إجمالية للنبيء صلى الله عليه وسلم بخير يحصل له ، فهذا موقعُ البيان الصريح بوعده بأنه سيعصمه من نسيان ما يُقرئه فيبلّغُه كما أوحي إليه ويحفظه من التفلت عليه ، ولهذا تكون هذه الجملة استئنافاً بيانياً لأن البشارة تنشىء في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ترقباً لوعد بخير يأتيه فبشره بأنه سيزيده من الوحي ، مع ما فرّع على قوله : ﴿ سنقرئك ﴾ من قوله : ﴿ فلا تنسى ﴾ .

وإذ قد كانت هذه السورة من أوائل السور نزولاً .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن عباس : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعالج من التنزيل شِدة إذا نزل جبريل ، وكان ممَّا يحرك شفتيْه ولسانَه ، يريد أن يحفظه ويخشى أن يتفلت عليه فقيل له : ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ [القيامة : 16 ، 17] ، إنّ علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه أن تقرأه : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ [القيامة : 18] .

يقول : إذا أُنزل عليك فاستمع ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما قرأ جبريل كما وعده الله" وسورة القيامة التي منها ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ نزلت بعد سورة الأعلى فقد تعين أن قوله : سنقرئك فلا تنسى ﴾ وعد من الله بعَونه على حفظ جميع ما يُوحى إليه .

وإنما ابتدىء بقوله : ﴿ سنقرئك ﴾ تمهيداً للمقصود الذي هو : ﴿ فلا تنسى ﴾ وإدماجاً للإِعلام بأن القرآن في تزايد مستمر ، فإذا كان قد خاف من نسيان بعض ما أُوحي إليه على حين قِلَّته فإنه سيتتابع ويتكاثر فلا يخش نسيانه فقد تكفل له عدم نسيانه مع تزايده .

والسين علامة على استقبال مدخولها ، وهي تفيد تأكيد حصول الفعل وخاصةً إذا اقترنت بفعل حاصل في وقت التكلم فإنها تقتضي أنه يستمر ويتجدد وذلك تأكيد لحصوله وإذ قد كان قوله : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ إقراءً ، فالسين دالة على أن الإِقراء يستمر ويتجدد .

والالتفات بضمير المتكلم المعظَّم لأن التكلّم أنسب بالإِقبال على المبشَّر .

وإسناد الإقراء إلى الله مجاز عقلي لأنه جاعل الكلام المقروء وآمر بإقرائه .

فقوله : ﴿ فلا تنسى ﴾ خبر مراد به الوعد والتكفل له بذلك .

والنسيان : عدم خطور المعلوم السابق في حافظة الإنسان برهة أو زماناً طويلاً .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا ما شاء اللَّه ﴾ مفرّع من فعل ﴿ تنسى ﴾ ، و (ما) موصولة هي المستثنى .

والتقدير : إلا الذي شاء الله أن تنساه ، فحذف مفعول فعل المشيئة جرياً على غالب استعماله في كلام العرب ، وانظر ما تقدم في قوله : ﴿ ولو شاء اللَّه لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ في سورة البقرة (20) .

والمقصود بهذا أن بعض القرآن ينساه النبي إذا شاء الله أن ينساه .

وذلك نوعان:

أحدهما ﴾ : وهو أظهرهما أن الله إذا شاء نسخ تلاوة بعض ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم أمره بأن يترك قراءَته فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن لا يقرأوه حتى ينساه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون .

(104/812)

وهذا مثل ما روي عن عمر أنه قال : "كان فيما أنزل الشيخُ والشيخه إذا زنيا فارجموهما" قال عمر : لقد قرأناها ، وأنه كان فيما أنزل : "لا ترَغبوا عن ءابائكم فإنّ كفراً بكم أن

ترغبوا عن ءابائكم" .

وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ أو ننسها ﴾ في قراءة من قرأ : ﴿ نُنْسِها ﴾ في سورة البقرة (106) .

النوع الثاني ﴾ : ما يعرض نسيانه للنبيء صلى الله عليه وسلم نسياناً موقتاً كشأن عوارض الحافظة البشرية ثم يقيض الله له ما يذكره به .

ففي "صحيح البخاري" عن عائشة قالت : "سمع النبيءُ صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ من الليل بالمسجد فقال : يرحمه الله لقد أذكَرَني كذا وكذا آيةً أسقطتهن أو كنت أنسيتُها من سورة كذا وكذا ، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقط آية في قراءته في الصلاة فسأله أُبَيّ بن كعب أُنسِخَتْ ؟ فقال : "نسيتُها" .

وليس قوله : ﴿ فلا تنسى ﴾ من الخبر المستعمل في النهي عن النسيان لأن النسيان لا يدخل تحت التكليف ، أمَّا إنه ليست (لا) فيه ناهية فظاهر ومن زعمه تعسف لتعليل كتابة الألف في آخره .

وجملة : ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ معترضة وهي تعليل لجملة : ﴿ فلا تنسى ﴾ ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ فإن مضمون تلك الجملة ضمان الله لرسوله صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن من النقص العارض .

ومناسبة الجهر وما يخفى أن ما يقرؤه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن هو من قبيل

الجهر فالله يعلمه ، وما ينساه فيسقطه من القرآن هو من قبيل الخفيّ فيعلم الله أنه اختفى في حافظته حين القراءة فلم يبرز إلى النطق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(105/812)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأعلى)

وقد ورد فى القرآن على خمسة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى عُلوّ الحقّ فى العَظمة والكبرياءِ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .

الثَّانى بمعنى استيلاءِ موسى على سَحَرة فرعون بالعصا : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ .

الثالث : بمعنى غلبة المؤمنين على الكفَّار يوم الحرب ، والوغَى : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ .

الرابع : بمعنى دعوى فرعون ، وما به اعتدى : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .

الخامس : فى إِخلاص الصّدّيق فى الصّدقة ، والعَطَا طمعاً فى اللِّقاءِ والرّضَا .

﴿ إِلاَّ ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾ .

وأَصل العلوّ : الارتفاع .

وقد علا يَعْلُو عُلُوّاً ، وعَلِيَ يَعْلَى علاءً ، فهو عَلِيّ .

فعَلا – بالفتح – فى الأَمكنة والأَجسام أَكثر .

والعلِّيِ هو الرّفيع القَدْرِ مِنْ عَلِيَ .

وإِذا وُصِف به – تعالى – فمعناه : أَنَّه يعلو أَن يحيط به وصفُ الواصفين ، بل عِلْم العارفين .

وعلى ذلك يقال : ﴿ تَعَالَى عمّا يُشْرِكُون ﴾ .

وتخصيص لفظ التعالى لمبالغة ذلك منه ، لا على سبيل التكلُّف ، كما يكون من البشر .

والأَعلى : الأَشرف .

والاستعلاءُ قد يكون طلبَ العلوّ المذموم .

وقد يكون طلب العَلاَءِ أَى الرّفعة .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ يحتمل الأَمرين جميعاً .

وقوله : ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ جمع تأْنيث الأَعلى .

والمعنى : هو الأَشرف والأَفضل بالإِضافة إِلى هذا العالَم .

وتعالَ : أَصله أَن يُدعى الإِنسان إِلى مكان مرتفع ، ثمّ جُعِل للدّاعى إِلى كلّ مكان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 156 . 157 ﴾

(106/812)

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نسى)

النّسيان : تَرْكُ الإِنسان ضَبْطَ ما اسْتُودِعَ ، إِمّا لضَعْف قَلْبه ، وإِمّا عن غَفْلةٍ ، وإِمّا عن قَصْد حتى يرتفع عن القَلْب ذِكْرُه .

نَسِيتُه نِسْياناً وتَناسَيْتُه ، وأَنْسانِيهُ شَيْطانٌ ونَسّانِيه ، قال تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ إِخبارٌ وضَمان من الله تعالى أَنّه يجعله بحيث إِنّه لا يَنْسَى ما يسمعه من الحقّ .

وكلّ نِسْيان من الإِنسان ذَمّه الله تعالى به فهو ما كان أَصلُه عن تَعَمُّد منه لا يُعْذر فيه ، وما عُذِرَ فيه فإِنّه لا يُؤاخَذُ به نحو قوله صلّى الله عليه وسلّم "رُفِعَ عن أُمّتى الخَطَأُ والنّسيانُ" ،

فهو ما لم يكن سببه منه .

وقوله ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَآ ﴾ هو ما كان نسيه عن تعمّد منهم وتركُه على طريقِ الإهانة .

وإذا نُسِب ذلك إلى الله تعالى فهو تَرْكُه إيّاهم استهانةً بهم ومُجازاةً لما تركوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ تنبيه أَنَّ الإنسان بمعرفته لنفسه يعرف الله ، فنسيانه لله هو من نسيانه نفسه .

ويُقال : نسيتُ الشيءَ أَي تركْتُه ، ومنه/ قوله تعالى : ﴿ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قال ابنُ عبّاس رضى الله عنهما : إذا قلتَ شيئاً ولم تقل إن شاءَ الله فقُلْه إذا تَذَكَّرْتَه .

وبهذا أَجاز الاستثناءَ بعد مدّة .

وقال عِكْرِمَةُ : معنَى نَسِيتَ ارتكبتَ ذَنْباً ، ومعناه اذكُرِ الله إذا أَردتَ وقَصَدْتَ ارتكاب ذَنْبٍ يَكُنْ ذلك دافِعاً لك .

والنِسْيُ أَصله ما يُنْسَى كالنِقْضُ لما يُنْقَض ، وصار عُرْفاً اسماً لما يَقِلُّ الاعتدادُ به .

ومن هذا يقُول العرب : احْفَظُوا أَنْساءَكم .

أَي ما من شَأْنِه أَنْ يُنْسَى .

وقوله تعالى : ﴿ نَسْياً مَّنسِيّاً ﴾ أَى جارِياً مَجْرَى النِسْى القَلِيل الاعْتداد به ، ولهذا عقَّبه بقوله مَنْسِياً لأَنَّ النِسْىَ يُقال لما يَقِلُّ الاعتدادُ به وإِن لم يُنْسَ .

وقرئ نَسْياً بالفتح ، وهو مصدرٌ موضوعٌ موضِعَ المفعول ، نحو عَصَى عَصْياً وعِصْياناً .

وقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فإِنساؤها حَذْفُ ذِكْرها عن القلوب بقوّة إِلهيّة .

والنُّسْوَة بالضمّ ، والنِّسْوة والنِّساءُ والنِّسُون ، بكسرهنَّ ، جُموعُ المرأَةِ من غير لفظها .

والنَّسْوَة بالفتح : التَّرك للعمل ، والجُرْعَة من اللَّبْن .

والنَّسا : عِرقٌ ممتد من الوَرك إِلى الكَعْب .

ونَسِيَه نَسْياً : ضَرَب نَساهُ .

(بصيرة فى نشأ)

ناشِئَة اللَّيل : أَوّل ساعاتِه .

وقال ابنُ عرفة : كلّ ساعة قامها قائم من اللَّيل فهى ناشِئَة ، وقيل : كلّ ما حَدَث فى اللَّيل وبدأَ فهو ناشئ ، والجمع ناشِئَةٌ .

وقال الأَزهرىّ : ناشئة اللَّيل مصدرٌ جاءَ على فاعلة ، وهو بمعنى كالعافِية بمعنى العَفْو ، والعاقِبَة بمعنى العَقْب ، والخاتِمة بمعنى الخَتْم .

والنَّشأَةُ والنَّشاءَةُ بالفتح فيهما وبالمدّ فى الثانية عن أَبى عَمْرِو بن العَلاءِ اسمٌ من أَنشأَ اللهُ الخَلْق .

وأَنْشَأَ يفعل كذا ، أَى ابْتَدَأَ .

وفلانٌ يُنْشِىءُ الأَحادِيثَ أَى يَضَعُها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ ﴾ قال مجاهد : هى السُفُن التى رُفِعَتْ قُلوعُها ، وإِذا لم تُرفع قلوعها فليست بمُنشَآت ، وقيل : هى الَّتى اتبدئ بهنّ فى البحر لِتجرىَ فيه .

وقرأَ حمزة بن حبيب الزَّيّات وعلىّ بن حمزة الكسائى : المُنْشِئات بكسر الشين ، ومعناها المبتدئات في الجَرْى .

(108/812)

وقال أَبو القاسم الأَصفهانّى : الإِنشاءُ إِيجاد الشىءِ وتربيته ، وأَكثر ما يقال ذلك فى الحيوان ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم ﴾ ، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ هذه كلّها فى الإِيجاد المختصّ بالله تعالى .

وقوله تعالى ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ فلتَشْبيه إِيجادِ النار المُسْتخرَجَة بإِيجاد الإِنسان .

وقوله : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ﴾ أَى يُرَبَّى تربيةً كتربية النّساءِ ، [وقرئ يَنْشأُ] أَى يتَرَبّى .

والنَّاشئ الحَدَثُ الذى جاوز حَدَّ الصغَر ، والجارية ناشِئٌ أَيضاً .

والنَّشْءُ والنَشْأَةُ : إِحداثُ الشىءُ وتربيتُه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى ﴾ .

وجمع النَّاشىء نَشَأٌ كطالِب وطَلَب ، ويُجمع على نَشْءٍ أَيضاً كصاحب وصَحْب .

والنَشْءُ : أَوّلُ ما يَنْشأُ من السّحابِ .

ونَشَأْتُ فى بنى فلان نَشْأً

ونُشوءاً ، أَى نُشّئت فيهم .

ونَشَأَتِ السحابةُ ارتفعت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 49 .

51 ﴾

(109/812)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ينسى من القرآن ما شاء الله أن ينساه – وقد جاءت آيات كثيرة تدل على حفظ القرآن من الضياع كقوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

والجواب أن القرآن وإن كان محفوظا من الضياع فإن بعضه ينسخ بعضا وإنساء الله نبيه بعض القرآن في حكم النسخ فإذا أنساه آية فكأنه نسخها ولا بد أن يأتي بخير منها أو مثلها . كما صرح به تعالى في قوله: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ .

وأشار هنا لعلمه بحكمة النسخ بقوله: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 314 ﴾

(110/812)

قوله تعالى ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا

يَحْيَى (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر الإلهيات والنبوة وأشير إلى النسخ ، أشار إلى أن الدين المشروع له هو الحنيفية السمحة ، وأنه سبحانه وتعالى لا يقيمه في شيء بنسخ أو غيره إلا كان هو الأيسر له والأرفق ، لأن الرفق والعنف يتغيران بحسب الزمان ، فقال مبيناً للقوة العملية أثر بيانه للعلمية : ﴿ ونيسرك ﴾ أي نجعلك أنت مهيأ مسهلاً ملينا موفقاً ﴿ لليسرى ﴾ أي في حفظ الوحي وتدبره وغير ذلك من الطرائق والحالات كلها التي هي لينة سهلة خفيفة - كما أشار إليه قوله : "كل ميسر لما خلق له" ولهذا لم يقل : ونيسر لك ، لأنه هو مطبوع على حبها .

(111/812)

ولما كمله - صلى الله عليه وسلم - وهيأه سبحانه وتعالى للأيسر ويسره غاية التيسير ، سبب عنه وجوب التذكير لكل أحد في كل حالة تكميلاً لغيره شفقة على خلق الله بعد لما له في نفسه فإن لله ساعات له فيها نفحات تقضى فيها الحاجات ، وذلك لأنه قد صار

كالطبيب الحاذق في علاج المرضى فيقوم بنفع عباده لشكره بعد ذكره بإذن منه إشارة إلى أن التلميذ يحتاج إلى إذن المشايخ وتزكيتهم ، وإلى أن أعظم الأدواء أن يقتصر الإنسان على ما عنده ولا يطلب الازدياد مما ليس عنده من خير الزاد فقال تعالى : ﴿ فذكر ﴾ أي بهذا الذكر الحكيم ، وعبر بأداة الشك إفهاماً للإطلاق الكليّ فقال : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ أي إن جوزت نفعها وترجيته ولو كان على وجه ضعيف – بما أشار إليه تأنيث الفعل بعد ما أفادته أداة الشك ، ولا شك أن الإنسان لعدم علمه الغيب لا يقطع بعدم نفع أحد بل لا يزال على رجاء منه وإن استبعده ، ولهذا كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يزال يدعو إلى الله تعالى وإن اشتد الأمر ، ولا يحقر أحداً أن يدعوه ولا ييأس من أحد وإن اشتد عليه ، والأمر بالإعراض عمن تولى ونحو ذلك إنما هو بالإعراض عن الحزن عليه ومن تقطيع النفس لأجله حسرات ونحو ذلك .

(112/812)

ولما أمره بالتذكير لكل أحد ، قسم الناس له إلى قسمين : قسم يقبل العلاج ، وقسم لا يقبله ، إعلاماً بأنه سبحانه وتعالى عالم بكل من القسمين جملة وأفراداً على التعيين ولم يزل عالماً بذلك ، ولكنه لم يعين ابتلاء منه لعباده لتقوم له الحجة عليهم بما يتعارفونه بينهم وله الحجة

البالغة ، فقال حاثاً على شكر الجوائح من العقل ونحوه والجوارح من القلب واللسان وغيرهما : ﴿ سيذكر ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ولو على أخفى وجوه التذكير - بما أشار إليه الإدغام ﴿ من يخشى ﴾ أي في جبلته نوع خشية ، وهو السعيد لما قدر له في نفسه من السعادة العظمى لقبول الحنيفية السمحة فيذكر ما يعلم منها في نفسه فيتعظ ، فإن الخشية حاملة على كل خير فيتنعم بقلبه وقالبه في الجنة العليا ويحيى فيها حياة طيبة من غير سقم ولا توى ، دائماً بلا آخر وانتهاء .

ولما ذكر من يحب حبه في الله ذكر من يبغض في الله ، وعلامة الحب الاقتداء ، وعلامة البغض التجنب والانتهاء والابتداع والإباء ، فقال : ﴿ ويتجنبها ﴾ أي يكلف نفسه وفطرته الأولى المستقيمة تجنب الذكرى التي نشاء تذكيره بها من أشرف الخلائق وأعظمهم وصلة بالخالق .

ولما كان هذا الذي يعالج نفسه على العوج شديد العتو قال : ﴿ الأشقى ﴾ أي الذي له هذا الوصف على الإطلاق لأنه خالف أشرف الرسل فهو لا يخشى فكان أشقى الناس ، كما أن من آمن به أشرف ممن آمن بمن قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

(113/812)

ولما ذكر وصفه الذي أوجب له العمل السيىء ، ذكر جزاءه فقال : ﴿ الذي يصلى ﴾ أي يباشر مباشرة الغموس بقلبه وقالبه مقاسياً ﴿ النار الكبرى ﴾ أي التي هي أعظم الطبقات وهي السفلى لأنه ليس في طبعه أن يخشى ، بل هو كالجلمود الأقسى لأنه جاهل مقلد أو متكبر معاند ، أو المراد نار الأخرى فإنها أعظم من نار البرزخ وأعظم من نار الدنيا بسبعين جزءاً ، فلهذا استحقت أن تتصف بأفعل التفضيل على الإطلاق ، والآية من الاحتباك : ذكر الثمرة في الأول وهي الخشية دليلاً على حذف ضدها من الثاني ، وهي القسوة الناشئة على الحكم بالشقاوة ، وذكر الأصل والسبب في الثاني وهو الشقاوة دليلاً على حذف ضده في الأول وهو السعادة ، فالإسعاد سبب والخشية ثمرة ، والإشقاء سبب والقساوة ثمرة ومسبب ، وكذا ما نبعه من النار وما نشأ عنه ، وسر ذلك أنه ذكر مبدأ السعادة أولاً حثاً عليه ، ومآل الشقاوة ثانياً تحذيراً منه ، قال الملوي : ولا شك أن القرآن العظيم على أحسن ما يكون من البراعة في التركيب وبداعة الترتيب وكثرة العلوم مع الاختصار وعدم التكرار ، فيكتفي في موضع بالثمرة بلا سبب وفي آخر بالسبب بلا ثمرة لدلالة الأول على الثاني والثاني على الأول ، فيضم السبب إلى الثمرة والثمرة إلى السبب كما يطلق القضاء ويكتفى به عن القدر ، ويطلق القدر ويكتفى به عن القضاء ، وكذلك يذكر الحكم ويتركان فيدل عليهما فتذكر الثلاثة ، ويظهر بمثال وهو أن من أراد إقامة دولاب يهندس أولاً موضع البئر بسهمه وترسه ومداره وحوضه الذي يصب فيه الماء وجداوله

التي ينساق منها ، فهذا هندسة وتدبير وحكم وإرادة ، فإذا صنع ذلك وأتمه سمي قضاء وإيجاداً وتأثيراً ، فإذا ركب على الجبال قواديس تحمل مقداراً من الماء معيناً إذا نزلت إلى الماء أخذته ، وإذا صعدت فانتهت وأرادت الهبوط فرغته فتصرف الماء من جداوله إلى ما صنع له كان ذلك قدراً فهو النهاية ، فمتى ذكر واحد من الثلاثة : الحكم والقضاء والقدر

(114/812)

، دل على الآخر .

ولما كان ما هذا شأنه يهلك على ما جرت به العادة في أسرع وقت ، فإذا كان من شأنه مع هذا العظم أنه لا يهلك كان ذلك دليلاً واضحاً على أنه لا يعلم كنه عظمة مقدره إلا هو سبحانه وتعالى فأشار إلى ذلك بالتعبير بأداة التراخي إعلاماً بأن مراتب هذه الشدة في التردد بين الموت والحياة لا يعلم علوها عن شدة الصلى إلا الله تعالى فقال : ﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ أي لا يتجدد له في هذه النار موت وإن طال المدى .

ولما كان من يدخل النار فلا تؤثر في موته قد يكون ذلك إكراماً له من باب خرق العوائد ، احترز عنه بقوله : ﴿ ولا يحيى ﴾ أي حياة تنفعه لأنه ما تزكى فلا صدق ولا صلى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 397 . 400 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

اليسرى هي أعمال الخير التي تؤدي إلى اليسر ، إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه وجوه : أحدها : أن قوله : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ ﴾ معطوف على ﴿ سنقرؤك ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ اعتراض ، والتقدير : سنقرؤك فلا تنسى ، ونوفقك للطريقة التي هي أسهل وأيسر ، يعني في حفظ القرآن وثانيها : قال ابن مسعود : اليسرى الجنة ، والمعنى نيسرك للعمل المؤدي إليها وثالثها : نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به ورابعها : نوفقك للشريعة وهي الحنيفية السهلة السمحة ، والوجه الأول أقرب .

المسألة الثانية :

لسائل أن يسأل فيقول العبارة المعتادة أن يقال : جعل الفعل الفلاني ميسراً لفلان ، ولا يقال :

جعل فلان ميسراً للفعل الفلاني فما الفائدة فيه ؟ ههنا الجواب : أن هذه العبارة كما أنها اختيار القرآن في هذا الموضع ، وفي سورة الليل أيضاً ، فكذا هي اختيار الرسول في قوله عليه السلام : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " وفيه لطيفة علمية ، وذلك لأن ذلك الفعل في نفسه ماهية ممكنة قابلة للوجود والعدم على السوية ، فما دام القادر يبقى بالنسبة إلى فعلها وتركها على السوية امتنع صدور الفعل عنه ، فإذا نرجح جانب الفاعلية على جانب التاركية ، فحينئذ يحصل الفعل ، فثبت أن الفعل ما لم يجب لم يوجد ، وذلك الرجحان هو المسمى بالتيسير ، فثبت أن الأمر بالتحقيق هو أن الفاعل يصير ميسراً للفعل ، لا أن الفعل يصير ميسراً للفاعل ، فسبحان من له تحت كل كلمة حكمة خفية وسر عجيب يبهر العقول .

المسألة الثالثة :

(116/812)

إنما قال : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ بنون التعظيم لتكون عظمة المعطى دالة على عظمة العطاء ، نظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ [يوسف : 2] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] دلت هذه الآية على أنه سبحانه

فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتحه على أحد غيره ، وكيف لا وقد كان صبياً لا أب له ولا أم له نشأ في قوم جهال ، ثم إنه تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين ، وهدياً للخلق أجمعين .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9)

فاعلم أنه تعالى لما تكمل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة أمر بدعوة الخلق إلى الحق ، لأن كمال حال الإنسان في أن يتخلق بأخلاق الله سبحانه تاماً وفوق التمام ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام تاماً بمقتضى قوله : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ [الأعلى : 8] أمر بأن يجعل نفسه فوق التمام بمقتضى قوله : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ لأن التذكير يقتضي تكميل الناقصين وهداية الجاهلين ، ومن كان كذلك كان فياضاً للكمال ، فكان تاماً وفوق التمام ، وههنا سؤالات :

(117/812)

السؤال الأول : أنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل فيجب عليه أن يذكرهم سواء نفعتهم الذكرى أو لم تنفعهم ، فما المراد من تعليقه على الشرط في قوله : ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ ؟ الجواب : أن المعلق بأن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل

عليه آيات منها هذه الآية ومنها قوله : ﴿ وَلاَ تُكْرِهُواْ فتياتكم عَلَى البغاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ [النور : 33] ومنها قوله : ﴿ واشكروا للَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : 172] ومنها قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة إِنْ خِفْتُمْ ﴾ [النساء : 101] فإن القصر جائز وإن لم يوجد الخوف ، ومنها قوله : ﴿ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فرهان ﴾ [البقرة : 283] والرهن جائز مع الكتابة ، ومنها قوله : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ الله ﴾ [البقرة : 230] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن ، إذا عرفت هذا فنقول ذكروا لذكر هذا الشرط فوائد إحداها : أن من باشر فعلاً لغرض فلا شك أن الصورة التي علم فيها إفضاء تلك الوسيلة إلى ذلك الغرض ، كان إلى ذلك الفعل أوجب من الصورة التي علم فيها عدم ذلك الإفضاء ، فلذلك قال : ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ وثانيها : أنه تعالى ذكر أشرف الحالتين ، ونبه على الأخرى كقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] والتقدير : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ أو لم تنفع وثالثها : أن المراد منه البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق : قد أوضحت لك إن كنت تعقل فيكون مراده البعث على القبول والانتفاع به ورابعها : أن هذا يجري مجرى تنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا تنفعهم الذكرى كما يقال للرجل : ادع فلاناً إن أجابك ، والمعنى وما أراه يجيبك وخامسها : أنه عليه السلام دعاهم إلى الله كثيراً ، وكلما كانت دعوته أكثر كان

عتوهم أكثر ، وكان عليه السلام يحترق حسرة على ذلك فقيل له : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] إذ التذكير العام واجب في أول الأمر فأما التكرير فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود فلهذا المعنى قيده بهذا الشرط .

السؤال الثاني : التعليق بالشرط إنما يحسن في حق من يكون جاهلاً بالعواقب ، أما علام الغيوم فكيف يليق به ذلك ؟ الجواب : روي في الكتب أنه تعالى كان يقول لموسى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] وأنا أشهد أنه لا يتذكر ولا يخشى .

فأمر الدعوة والبعثة شيء وعلمه تعالى بالمغيبات وعواقب الأمور غير ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر .

السؤال الثالث : التذكير المأمور به هل مضبوط مثل أن يذكرهم عشرات مرات ، أو غير مضبوط ، وحينئذ كيف يكون الخروج عن عهدة التكليف ؟ والجواب : أن الضابط فيه هو العرف ، والله أعلم .

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(119/812)

اعلم أن الناس في أمر المعاد على ثلاثة أقسام منهم من قطع بصحته ، ومنهم من جوز وجوده ولكنه غير قاطع فيه لا بالنفي ولا بالإثبات ، ومنهم من أصر على إنكاره وقطع بأنه لا يكون فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما ، وأما القسم الثالث فلا خشية له ولا خوف إذا عرفت ذلك ظهر أن الآية تحتمل تفسيرين : أحدهما : أن يقال : الذي يخشى هو الذي يكون عارفاً بالله وعارفاً بكمال قدرته وعلمه وحكمته ، وذلك يقتضي كونه قاطعاً بصحة المعاد ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] فكأنه تعالى لما قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ بين في هذه الآية أن الذي تنفعه الذكرى من هو ، ولما كان الانتفاع بالذكرى مبنياً على حصول الخشية في القلب ، وصفات القلوب مما لا اطلاع لأحد عليها إلا الله سبحانه وجب على الرسول تعميم الدعوة تحصيلاً للمقصود ، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير ، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير .

الثاني : أن يقال : إن الخشية حاصلة للعاملين وللمتوقفين غير المعاندين وأكثر الخلق متوقفون

غير معاندين والمعاند فيهم قليل ، فإذا ضم إلى المتوقفين الذين لهم الغلبة العارفون كانت الغلبة العظيمة لغير المعاندين ، ثم إن كثيراً من المعاندين ، إنما يعاندون باللسان ، فأما المعاند في قلبه بينه وبين نفسه فذلك مما لا يكون أو إن كان فهو في غاية الندرة والقلة ، ثم إن الإنسان إذا سمع التخويف بأنه يصلى النار الكبرى وأنه لا يموت فيها ولا يحيى انكسر قلبه فلا بد وأن يستمع وينتفع أغلب الخلق في أغلب الأحوال ، وأما ذلك المعرض فنادر ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، فمن هذا الوجه كان قوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ يوجب تعميم التذكير .

المسألة الثالثة :

(120/812)

السين في قوله : ﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى سوف يذكر وسوف من الله واجب كقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ويحتمل أن يكون المعنى أن من خشي الله فإنه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر فهو بعد طول المدة يذكر ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

العلم إنما يسمى تذكراً إذا كان قد حصل العلم أولاً ثم نسيه وهذه الحالة غير حاصلة للكفار فكيف سمى الله تعالى ذلك بالتذكر ؟ وجوابه : أن لقوة الدلائل وظهورها كأن ذلك العلم كان حاصلاً ، ثم إنه زال بسبب التقليد والعناد .

فلهذا أسماه الله تعالى بالتذكر .

المسألة الخامسة :

قيل : نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ، وقيل : نزلت في ابن أم مكتوم .

أما قوله تعالى :

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12)

فاعلم أنا بينا أن أقسام الخلق ثلاثة العارفون والمتوقفون والمعاندون ، وبينا أن القسمين الأولين ، لا بد وأن يكون لهما خوف وخشية ، وصاحب الخشية لا بد وأن يستمع إلى الدعوة وينتفع بها ، فيكون الأشقى هو المعاند الذي لا يستمع إلى الدعوة ولا ينتفع بها ، فلهذا قال تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى الذي يَصْلَى النار الكبرى ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسير ﴿ النار الكبرى ﴾ وجوهاً أحدها : قال الحسن : الكبرى نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا وثانيها : أن في الآخرة نيراناً ودركات متفاضلة كما أن في الدنيا ذنوباً ومعاصي متفاضلة ، وكما أن الكافر أشقى العصاة كذلك يصلى أعظم النيران وثالثها : أن

النار الكبرى هي النار السفلى ، وهي تصيب الكفار على ما قال تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [النساء : 145] .

المسألة الثانية :

قالوا : نزلت هذه الآية في الوليد وعتبة وأبي ، وأنت تعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، لا سيما وقد بينا صحة هذا الترتيب بالبرهان العقلي .

(121/812)

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول : إن الله تعالى ذكر ههنا قسمين أحدهما : الذي يذكر ويخشى والثاني : الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ، لكن وجود الأشقى يستدعي وجود الشقي فكيف حال هذا القسم ؟ وجوابه : أن لفظة الأشقى لا تقتضي وجود الشقي إذ قد يجري مثل هذا اللفظ من غير مشاركة ، كقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] وقيل : المعنى ، ويتجنبها الشقي الذي يصلى كما في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] أي هين عليه ، ومثل قول القائل :

إن الذي سمك السماء بنى لنا . . بيتاً دعائمه أعز وأطول

هذا ما قيل لكن التحقيق ما ذكرنا أن الفرق الثلاثة ، العارف والمتوقف والمعاند فالسعيد هو العارف ، والمتوقف له بعض الشقاء والأشقى هو المعاند الذي بينا أنه هو الذي لا يلتفت إلى الدعوة ولا يصغى إليها ويتجنبها .

أما قوله تعالى :

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13)

ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

للمفسرين فيه وجهان : أحدهما : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، كما قال : ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : 36] وهذا على مذهب العرب تقول للمبتلى بالبلاء الشديد لا هو حي ولا هو ميت وثانيهما : معناه أن نفس أحدهم في النار تصير في حلقه فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا .

المسألة الثانية :

إنما قيل : ﴿ ثُمَّ ﴾ لأن هذه الحالة أفظع وأعظم من الصلى فهو متراخ عنه في مراتب الشدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 130 . 133 ﴾

(122/812)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

﴿ سبح ﴾ في هذه الآية ، بمعنى نزه وقدس وقل سبحانه عن النقائص والغير جمعاً وما يقول المشركون ، والاسم الذي هو : ألف ، سين ، ميم ، يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يراد به المسمى ، ويأتي في مواضع يراد به التسمية نحو قوله عليه السلام : " إن لله تسعة وتسعين اسماً " وغير ذلك ، ومعنى أريد به المسمى فإنما هو صلة كالزائد كأنه قال في هذه الآية : سبح ربك ، أي نزهه ، وإذا كان الاسم واحداً من الأسماء كزيد وعمرو ، فيجيء في الكلام على ما قلت ، تقول زيد قائد تريد المسمى ، وتقول : زيد ثلاثة أحرف تريد به التسمية ، وهذه الآية تحتمل هذا الوجه الأول ، وتحتمل أن يراد بالاسم التسمية نفسها على معنى نزاه اسم ربك عن أن يسمى به صنم أو وثن ، فيقال له إله ورب ونحو ذلك ، و ﴿ الأعلى ﴾ يصح أن يكون صفة للاسم ، ويحتمل أن يكون صفة للرب ، وذكر الطبري أن ابن عمر وعلياً قرآ هذه السورة : " سبحان ربي الأعلى " قال وهي في مصحف أبيّ بن كعب كذلك ، وهي قراءة أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومالك بن أبي دينار ، وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : " سبحان ربي الأعلى " ، وكان ابن مسعود وابن عامر وابن الزبير يفعلون ذلك ، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى

الله عليه وسلم : " اجعلوها في سجودكم " ، وقال قوم : معنى ﴿ سبح اسم ربك ﴾ نزه اسم ربك تعالى عن أن تذكره إلا وانت خاشع ، وقال ابن عباس معنى الآية : صلّ باسم ربك الأعلى كما تقول ابدأ باسم الله ، وحذف حرف الجر ، و" سوى " ، معناه عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية دالة على قدرته ووحدانيته ، وقرأ جمهور القراء " قدّر " بشد الدال فيحتمل أن يكون من القدر والقضاء ، ويحتمل أن يكون من التقدير والموازنة ، وقوله تعالى : ﴿ فهدى ﴾ عام لوجوه الهدايات فقال الفراء : معناه هدى وأضل ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى ، وقال مقاتل والكلبي : هدى الحيوان إلى وطء

(123/812)

الذكور الإناث ، وقيل هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي ، وقال مجاهد : هدى الناس للخير والشر ، والبهائم ، للمراتع . .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الأقوال مثالات ، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية ، و﴿ المرعى ﴾ : النبات ، وهو أصل في قيام المعاش إذ هو غذاء الأنعام ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم ، و" الغثاء " ما يبس وجف وتحطم من النبات ، وهو الذي يحمله السيل ، وبه يشبه الناس الذين لا قدر لهم ، و" الأحوى " : قيل هو الأخضر الذي عليه

سواد من شدة الخضرة والغضارة ، وقيل هو الأسود سواداً يضرب إلى الخضرة ومنه قول ذي الرمة : [البسيط]

لمياء في شفتيها حوّة لعس . . . وفي اللثاث وفي أنيابها شنب

(124/812)

قال قتادة : تقدير هذه الآية ﴿ أخرج المرعى ﴾ ، ﴿ أحوى ﴾ أسود من خضرته ونضارته ، ﴿ فجعله غثاء ﴾ عند يبسه ، ف ﴿ أحوى ﴾ حال ، وقال ابن عباس : المعنى ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ أي أسود ، لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسود وتعفن فصار ﴿ أحوى ﴾ بهذه الصفة . وقوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ ، قال الحسن وقتادة ومالك ابن أنس : هذه الآية في معنى قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ [القيامة : 16] الآية ، وعد الله أن يقرئه وأخبره أنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده ذكر ، فتذهب الآية ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرك شفتيه مبادرة خوفاً منه أن ينسى ، وفي هذا التأويل آية النبي صلى الله عليه وسلم في أنه أمي ، وحفظ الله تعالى عليه الوحي ، وأمنه من نسيانه ، وقال آخرون : ليست هذه الآية في معنى تلك ، وإنما هذه وعد بإقرار الشرع والسور ، وأمره أن لا ينسى على معنى التثبيت والتأكيد ، وقد علم أن ترك

النسيان ليس في قدرته ، فقد نهي عن إغفال التعاهد ، وأثبت الياء في " تنسى " لتعديل رؤوس الآي ، وقال الجنيد : معنى ﴿ فلا تنسى ﴾ ، لا تترك العمل بما تضمن من أمر ونهي ، وقوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ ، قال الحسن وقتادة وغيره مما قضى الله تعالى بنسخه ، وأن ترفع تلاوته وحكمه . وقال الفراء وجماعة من أهل المعاني : هو استثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى في الاستثناء ، وليس ثم شيء أبيح نسيانه ، وقال ابن عباس : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أن ينسيكه لتسن به على نحو قوله عليه السلام " إني لأنسى أَو أُنَسَّى لأسنَّ " وقال بعض المتأولين : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أن يغلبك النسيان عليه ثم يذكرك به بعد ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع قراءة عباد بن بشر يرحمه الله : " لقد أذكرني كذا في سورة كذا وكذا " .

(125/812)

قال القاضي أبو محمد : ونسيان النبي صلى الله عليه وسلم ممتنع فيما أمر بتبليغه ، إذ هو معصوم فإذا بلغه ووعي عنه ، فالنسيان جائز على أن يتذكر بعد ذلك وعلى أن يسنَّ ، أو على النسخ ، ثم أخبر تعالى ﴿ إنه يعلم الجهر ﴾ من الأشياء ﴿ وما يخفى ﴾ منها ، وذلك لإحاطته بكل شيء علماً ، وبهذا يصح الخبر بأنه لا ينسى شيئاً إلا ذكره الله تعالى به

، وقوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ معناه : نذهب بك نحو الأمور المستحسنة في دنياك وأخراك من النصر والظفر وعلو الرسالة والمنزلة يوم القيامة ، والرفعة في الجنة ، ثم أمره تعالى بالتذكير ، واختلف الناس في معنى قوله تعالى ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ فقال الفراء والزهراوي معناه : وإن لم تنفع ، فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني ، وقال بعض الحذاق : إنما قوله ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ ، اعتراض بين الكلامين على جهة التوبيخ لقريش ، أي ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ في هؤلاء الطغاء العتاة ، وهذا نحو قول الشاعر : [الوافر] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(126/812)

وقال القرطبى :

﴿ وَنُيَسِّرُكَ ﴾ :

معطوف على ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ اعتراض .

ومعنى ﴿ لليسرى ﴾ أي للطريقة اليسرى ؛ وهي عمل الخير .

قال ابن عباس : نيسرك لأن تعمل خيراً .

ابن مسعود : "لِلليسرى" أي للجنة .

وقيل : نوفقك للشريعة اليسرى ؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة ؛ قال معناه الضحاك .

وقيل : أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9)

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فعِظ قومك يا محمد بالقرآن .

﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ أي الموعظة .

وروى يونس عن الحسن قال : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

وكان ابن عباس يقول : تنفع أوليائي ، ولا تنفع أعدائي .

وقال الجُرجانِيّ : التذكير واجب وإن لم ينفع .

والمعنى : فذكر إن نفعت الذكرى ؛ أو لم تنفع ، فحذف ؛ كما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] .

وقيل : إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم .

وقيل : إنّ "إنْ" بمعنى ما ؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى ، فتكون "إنْ" بمعنى ما ، لا بمعنى الشرط ؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال ؛ قاله ابن شَجَرة .

وذكر بعض أهل العربية : أنّ "إنْ" بمعنى إذْ ؛ أي إذْ نفعت ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 139] أي إذ كنتم ؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم .

وقيل : بمعنى قد .

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10)

أي من يَتَّق الله ويخافه .

فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في ابن أم مكتوم .

الماوَرْدِيّ : وقد يذكر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي ؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء .

وقيل : أي عَمِّمْ أنت التذكير والوعظ ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى ، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء ؛ حكاه القُشيرِيّ .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها .

(127/812)

﴿ الأشقى ﴾ أي الشقيّ في علم الله .

وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة .

﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ أي العظمى ، وهي السفلى من أطباق النار ؛ قاله الفرّاء .

وعن الحسن : الكبرى نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا ؛ وقاله يحيى بن سلام .

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب ، ولا يحيا حياة تنفعه ؛ كما قال الشاعر :

ألا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي . . .

عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ

وقد مضى في "النساء" وغيرها حديث أبي سعيد الخُدْريّ ، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم وهي النار الصغرى على قول الفراء احترقوا فيها وماتوا ؛ إلى أن يُشْفَع فيهم .

خرّجه مسلم .

وقيل : أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم ، هذا الوعيد للأشقى ، وإن كانَ ثمَّ شقِيَ لا يبلغ هذه المرتبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(128/812)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾

عطف على ﴿ سنقرئك ﴾ كما ينبىء عنه الالتفات إلى الحكاية وما بينهما اعتراض

وارد لما سمعت وتعليق التيسير به صلى الله عليه وسلم مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ [طه : 26] للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليها أي نوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علماً وتعليماً واهتداء وهداية فيندرج فيه تيسير تلقي طريقي الوحي والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهية مما يتعلق بتكميل نفسه الكريمة صلى الله عليه وسلم وتكميل غيره كما يفصح عنه الفاء فيما بعد كذا في الإرشاد وقيل المراد باليسرى الطريقة التي هي أيسر وأسهل في حفظ الوحي وقيل هي الشريعة الحنيفية السهلة وقيل الأمور الحسنة في أمر الدنيا والآخرة من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة وضم إليها بعض أمر الدين وهو مع هذا الضم تعميم حسن وظاهر عليه أيضاً أمر الفاه في قوله تعالى :

(129/812)

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ أي فذكر الناس حسبما يسرناك بما يوحي إليك واهدهم إلى ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله وقيل أي فذكر بعد ما استتب أي

استقام وتهيأ لك الأمر فإن أراد فدم على التذكير بعد ما استقام لك الأمر من اقرائك الوحي وتعليمك القرآن بحيث لا تنسى منه إلا ما اقتضت المصلحة نسيانه وتيسيرك للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين فذاك وإلا فليس بشيء وتقييد التذكير بنفع الذكرى لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر وبالغ فيه فلم يدع في القوس منزعاً وسلك فيه كل طريق فلم يترك مضيفاً ولا مهيعاً حرصاً على الايمان وتوحيد الملك الديان وما كان يزيد ذلك بعض الناس إلا كفراً وعناداً وتمرداً وفساداً فأمر صلى الله عليه وسلم تخفيفاً عليه حيث كاد الحرص على ايمانهم يوجه سهام التلف إليه كما قال تعالى ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [الكهف : 6] بأن يخص التذكير بمواد النفع في الجملة بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجى منه التذكر ولا يتعب نفسه الكريمة في تذكير من لا يورثه التذكير إلا عتوا ونفوراً وفساداً وغروراً من المطبوع على قلوبهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] وقوله سبحانه : ﴿ فَأَعْرَضَ مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ [النجم : 29] وعلمه صلى الله عليه وسلم بمن طبع على قلبه بإعلام الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام به فهو صلى الله عليه وسلم بعد التبليغ وإلزام الحجة لا يجب عليه تكرير التذكير على من علم أنه مطبوع على قلبه فالشرط على هذا على حقيقته وقيل إنه ليس كذلك وإنما هو استبعاد النفع بالنسبة إلى هؤلاء المذكورين نعياً عليهم بالتصميم كأنه قيل افعل ما أمرت به لتؤجر وإن لم ينتفعوا به

وفيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ورجح الأول بأن فيه إبقاء الشرط على حقيقته مع كونه أنسب بقوله تعالى :

(130/812)

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ أي سيذكر بتذكيرك من من شأنه أن يخشى الله تعالى حق خشيته أو من يخشى الله تعالى في الجملة فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكر في أمر ما تذكره به فيقف على حقيته فيؤمن به وقيل إن ﴿ إن ﴾ بمعنى إذ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 139] أي إذ كنتم لأنه سبحانه لم يخبرهم بكونهم الأعلون إلا بعد إيمانهم وقوله صلى الله عليه وسلم في زيادة أهل القبور ﴿ وَإِنَّا إِن شَاء اللهُ تَعَالَى بِكُمْ ﴾ وأثبت هذا المعنى لها الكوفيون احتجاجاً بما ذكر ونظائره وأجاب النافون عن ذلك بما في "المغنى" وغيره وقيل هي بمعنى قد وقد قال بهذا المعنى قطرب وقال عصام الدين المراد أن التذكير ينبغي أن يكون بما يكون مهماً لمن له التذكير فينبغي تذكير الكافرين بالايمان لا بالفروع كالصلاة والصوم والحج إذ لا تنفعه بدون الايمان وتذكير المؤمن التارك للصلاة بها دون الايمان مثلاً وهكذا فكأنه قيل ذكر كل واحد بما ينفعه ويليق به وقال الفراء والنحاس والجرجاني والزهراوي الكلام على الاكتفاء والأصل فذكر إن

نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81]
والظاهر أن الذين لا يقولون بمفهوم المخالفة سواء كان مفهوم الشرط أو غيره لا يشكل عليهم أمر هذه الآية كما لا يخفى .

(131/812)

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويتحاماها ﴿ الاشقى ﴾ وهو الكافر المصر على إنكار المعاد ونحوه الجازم بنفي ذلك مما يقتضي الخشية بوجه وهو أشقى أنواع الكفرة وقيل المراد به الكافر المتوغل في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وقد روى أن الآية نزلت فيهما فإنه أشقى من غير المتوغل وقيل المراد به الكافر مطلقاً فإنه أشقى من الفاسق وقيل المفضل عليه كفرة سائر الأمم فإنه حيث كان المؤمن من هذه الأمة أسعد من مؤمنيهم كان الكافر منها أشقى من كافريهم والأوجه عندي في المراد بالأشقى ما تقدم .

﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ أي الطبقة السفلى من أطباق النار كما قال الفراء ولا بعد في تفاضل نار الآخرة وكون بعض منها أكبر من بعض وأشد حرارة وقال الحسن الكبرى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ففي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً ناركم هذه جزء من

سبعين جزءاً من نار جهنم وفي رواية للإمام أحمد عنه مرفوعاً أيضاً أن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم فلعل السبعين وارد مورد التكثير وهو كثير .

(132/812)

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ أي حياة تنفعه وقيل إن روح أحدهم تصير في حلقه فلا تخرج فيموت ولا ترجع إلى موضعها من الجسد فيحيا وهو غير غني عن التقييد بنحو حياة كاملة على أنه بعد لا يخلو عن بحث وثم للتراخي في الرتبة فإن هذه الحالة أفظع وأعظم من نفس الصلى وقال عصام الدين يحتمل أن يكون هذا الكلام كناية عن عدم النجاة لأن النجاة عن العذاب إنما يكون بالعمل في دار يموت فيها العامل ويحيا والنظم أقرب إلى هذا المعنى كيف واللائق بالمعنى السابق ثم لا يكون ميتاً فيها ولا حياً فتأمل انتهى وفي كون اللائق بالمعنى السابق ما ذكره دون ما في النظم الجليل منع ظاهر والظاهر أنه لائق به مع تضمنه رعاية الفواصل وكذا في توجيه كون ما ذكر كناية عن عدم النجاة خفاه وكأنه لذلك أمر بالتأمل وقد يقال إن مثل ذلك لكم يقال لمن وقع في شدة واستمر فيها فلا يبعد أن يكون فيه إشارة إلى خلودهم في العذاب وأمر التراخي الرتبى عليه ظاهر أيضاً لظهور أن الخلود في النار الكبرى أفظع من دخولها وصليها واعلم إن عدم الموت في النار على ما صرح

به غير واحد مخصوص بالكفرة وأما عصاة المؤمنين الذين يدخلونها فيموتون فيها واستدل لذلك بما أخرجه مسلم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم " (أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطايا هم فأماتهم الله تعالى إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء فينبتون نبات الحبة في حميل السيل " قال الحافظ ابن رجب أنه يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة وتفارق أرواحهم أجسادهم وأيد بتأكيد الفعل بالمصدر في قوله عليه الصلاة والسلام " (فأماتهم الله تعالى إماتة " وأظهر منه ما أخرجه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً أن أدنى أهل الجنة حظاً أو نصيباً قوم

(133/812)

يخرجهم الله تعالى من النار فيرتاح لهم الرب تبارك وتعالى وذلك أنهم كانوا لا يشركون بالله تعالى شيئاً فينبذون بالعراء فينبتون كما ينبت البقل حتى إذا دخلت الأرواح أجسادهم فيقولون ربنا كما أخرجتنا من النار وأرجعت الأرواح إلى أجسادنا فاصرف وجوهنا عن النار فيصرف وجوههم عن النار وهذه الإماتة على ما اختاره غير واحد بعد أن يذوقوا ما

يستحقونه من عذابها بحسب ذنوبهم كما يشعر به حديث مسلم وإبقاؤهم فيها ميتين إلى أن يؤذن بالشفاعة لا يجابه تأخير دخولهم الجنة تلك المدة كان تتمة لعقوبتهم بنوع آخر فتكون ذنوبهم قد اقتضت أن يعذبوا بالنار مدة ثم يحبسوا فيها من غير عذاب مدة فهم كمن أذنب في الدنيا ذنباً فضرب وحبس بعد الضرب جزاء لذنبه ولم يبقوا أحيا فيها من غير عذاب كخزنتها إما ليكون أبعد عن أن يهولهم رؤيتها أو لتكون الإماتة وإخراج الروح من تتمة العقوبة أيضاً وقال القرطبي يجوز أن تكون إماتتهم عند إدخالهم فيها ويكون ادخالهم وصرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم كالحبس في السجن بلا غل ولا قيد مثلاً ويجوز أن يكونوا متألمين حالة موتهم نحو تألم الكافر بعد موته وقبل قيام الساعة ويكون ذلك أخف من تألمهم لو بقوا أحياء كما أن تألم الكافر بعد موته في قبره أخف من تألمه إذا أدخل النار بعد البعث وهو كما ترى وفي مطامح الإفهام يجوز أن يراد بالاماتة المذكورة في الحديث الانامة وقد سمى الله تعالى النوم وفاة لأن فيه نوعاً من عدم الحس وفي الحديث المرفوع إذا أدخل الله تعالى الموحدين النار أماتهم فيها فإذا أراد سبحانه أن يخرجوا أمسهم العذاب تلك الساعة انتهى والمعول عليه ما ذكرناه أولاً والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(134/812)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) ﴾

عطف على ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : 6] .

وجملة ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ [الأعلى : 7] معترضة كما علمت .

وهذا العطف من عطف الأعم على الأخص في المآل وإن كان مفهوم الجملة السابقة مغايراً لمفهوم التيسير لأن مفهومها الحفظ والصيانة ومفهوم المعطوفة تيسير الخير له .

والتيسير : جعل العمل يسيراً على عامله .

ومفعول فعل التيسير هو الشيء الذي يُجعل يسيراً ، أي غير صعب ويذكر مع المفعول الشيءُ المجعول الفعل يسيراً لأجله مجروراً باللام كقوله تعالى : ﴿ ويسر لي أمري ﴾ [طه : 26] .

واليُسْرى : مؤنث الأيسر ، وصيغة فُعلى تدل على قوة الوصف لأنها مؤنث أفْعَل .

والموصوف محذوف ، وتأنيث الوصف مشعر بأن الموصوف المحذوف مما يجري في الكلام على اعتبار اسمِه مؤنثاً بأن يَكون مفرداً فيه علامَة تأنيث أو يكون جمعاً إذ المجموع تَعَامَل معاملة المؤنث .

فكان الوصف المؤنث منادياً على تقدير موصوف مناسب للتأنيث في لفظه ، وسياقُ

الكلام الذي قبله يهدي إلى أن يكون الموصوف المقدَّر معنَى الشريعة فإن خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن مراعًى فيه وصفه العُنواني وهوَ أنه رسول فلا جرم أن يكون أول شؤونه هو ما أرسل به وهو الشريعة .

وقوله : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ إن حمل على ظاهر نظم الكلام وهو ما جرى عليه المفسرون .

فالتيسير مستعار للتهيئة والتسخير ، أي قوة تمكينه صلى الله عليه وسلم من اليُسرى وتصرفه فيها بما يأمر الله به ، أي نُهيئك للأمور اليسرى في أمر الدّين وعواقبه من تيسير حفظ القرآن لك وتيسير الشريعة التي أرسلتَ بها وتيسير الخير لك في الدنيا والآخرة . وهذه الاستعارة تحسّنها المشاكلة .

(135/812)

ومعنى اللام في قوله : ﴿ لليسرى ﴾ العلةُ ، أي لأجل اليسرى ، أي لقبولها ، ونحوُه قول النبي صلى الله عليه وسلم "كلٌّ مُيَسرٌ لما خُلق له " وتكون هذه الآية على مهيع قوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وقوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ في سورة الليل (107) .

ويجوز أن يجعل الكلام جارياً على خلاف مقتضى الظاهر بسلوك أسلوب القلب وأن

الأصل : ونيسر لك اليسرى ، أي نجعلها سهلة لك فلا تشقّ عليك فيبقى فعل : "نيسرك" على حقيقته ، وإنما خولف عَمله في مفعوله والمجرورِ المتعلق به على عكس الشائع في مفعوله والمجرورِ المتعلق به .

وفي وصفها بـ ﴿ اليسرى ﴾ إيماء إلى استتباب تيسره لها بما أنها جُعلت يسرى ، فلم يبق إلا حفظه من الموانع التي يشق معها تلقي اليسرى .

فاشتمل الكلام على تيسيرين : تيسير ما كلف به النبي صلى الله عليه وسلم أي جعله يسيراً مع وفائه بالمقصود منه ، وتيسير النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بما كلف به .

ويوجَّه العدول عن مقتضى ظاهر النظم إلى ما جاء النظم عليه ، بأنَّ فيه تنزيلَ الشيء الميسّر منزلة الشيء الميسَّر له والعكسَ للمبالغة في ثبوت الفعل للمفعول على طريقة القلب المقبولِ كقول العرب : "عَرضْتُ الناقةَ على الحوض" ،

وقول العجاج :

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرّةٍ أرجاؤُه

كأن لونَ أرضِه سماؤُه . . .

وقد ورد القلب في آيات من القرآن ومنها قوله تعالى : ﴿ ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ [القصص : 76] ومنه القلب التشبيه المقلوب .

والمعنى : وعْد الله إياه بأنه يسره لتلقي أعباء الرسالة فلا تشق عليه ولا تحرجه تطميناً له

إذ كان في أول أمر إرساله مشفقاً أن لا يفي بواجباتها .

أي أن الله جعله قابلاً لتلقّي الكمالات وعظائم تدبير الأمة التي من شأنها أن تشق على القائمين بأمثالها .

(136/812)

ومن آثار هذا التيسير ما ورد في الحديث : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما " وقوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " إنما بعثتم مُيَسِّرين لا مُعسِّرين " .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9)

بعد أن ثبّت الله رسوله صلى الله عليه وسلم تكفل له ما أزال فَرَقه من أعباء الرسالة وما اطمأنت به نفسه من دفع ما خافه من ضُعف عن أدائه الرسالةَ على وجهها وتكفل له دفع نسيان ما يوحى إليه إلا ما كان إنساؤه مراداً لله تعالى .

ووعده بأنه وفقه وهيأه لذلك ويسره عليه ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في مبدأ عهده بالرسالة (إذ كانت هذه السورة ثامنة السور) لا يعلم ما سيتعهد الله به فيخشى أن يقصر عن مراد الله فيلحقه غضب منه أو ملام .

أعقب ذلك بأنْ أمَرَه بالتذكير ، أي التبليغ ، أي بالاستمرار عليه ، إرهافاً لعزمه ، وشحذاً لنشاطه ليكون إقباله على التذكير بشراشره فإن امتثال الأمر إذا عاضده إقبال النفس على فعل المأمور به كان فيه مسرة للمأمور ، فجَمع بين أداء الواجب وإرضاء الخاطر .

فالفاء للتفريع على ما تقدم تفريعَ النتيجة على المقدمات .

والأمر : مستعمل في طلب الدوام .

والتذكير : تبليغ الذكر وهو القرآن .

والذكرى : اسم مصدر التذكير وقد تقدم في سورة عبس .

ومفعول ﴿ فذكر ﴾ محذوف لقصد التعميم ، أي فذكر الناس ودلّ عليه قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ الآيتين .

وجملة : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ معترضة بين الجملتين المعلَّلة وعِلتها ، وهذا الاعتراض منظور فيه إلى العموم الذي اقتضاه حذف مفعول ﴿ فذكر ﴾ ، أي فدم على تذكير الناس كلهم إن نفعت الذكرى جميعهم ، أي وهي لا تنفع إلا البعض وهو الذي يؤخذ من قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ الآية .

(137/812)

فالشرط في قوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ جملة معترضة وليس متعلقاً بالجملة ولا تقييداً لمضمونها إذ ليس المعنى : فذكر إذا كان للذكرى نفع حتى يفهم منه بطريق مفهوم المخالفة أن لا تُذَكِّر إذا لم تنفع الذكرى ، إذ لا وجه لتقييد التذكير بما إذا كانت الذكرى نافعة إذ لا سبيل إلى تعرف مواقع نفع الذكرى ، ولذلك كان قوله تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : 45] مؤولاً بأن المعنى فذكر بالقرآن فيتذكر من يخاف وعيد ، بل المراد فذكّر الناس كافة إنْ كانت الذكرى تنفع جميعَهم ، فالشرط مستعمل في التشكيك لأن أصل الشرط بـ (إنْ) أن يكون غير مقطوع بوقوعه ، فالدعوة عامة وما يعلمه الله من أحوال الناس في قبول الهدى وعدمه أمر استأثر اللَّهُ بعلمه ، فأبو جهل مدعو للإِيمان والله يعلم أنه لا يؤمن لكن الله لم يخصّ بالدعوة من يرجى منهم الإِيمان دون غيرهم ، والواقعُ يكشف المقدور .

وهذا تعريض بأن في القوم من لا تنفعه الذكرى وذلك يفهم من اجْتلاب حرف (إنْ) المقتضي عدم احتمال وقوع الشرط أو ندرة وقوعه ، ولذلك جاء بعده بقوله : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ فهو استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ فذكر ﴾ وما لحقه من الاعتراض بقوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ المشعر بأن التذكير لا ينتفع به جميع المذكَّرين .

وهذا معنى قول ابن عباس : تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي ، وفي هذا ما يريك معنى الآية واضحاً لا غُبار عليه ويدفع حيرة كثير من المفسرين في تأويل معنى (إن) ، ولا حاجة إلى

تقدير الفراء والنحاس : إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع وأنه اقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني .

ويذّكَّر : مُطاوع ذَكَّره .

وأصله : يتذكر ، فقلبت التاء ذالاً لقرب مخرجيهما ليتأتى إدغامها في الذال الأخرى .

و﴿ من يخشى ﴾ : جنس لا فرد معين أي سيتذكر الذين يَخْشون .

والضمير المستتر في ﴿ يخشى ﴾ مراعى فيه لفظ (من) فإنه لفظ مُفرد .

(138/812)

وقد نُزِّل فعل ﴿ يخشى ﴾ منزلة اللازم فلم يقدّر له مفعول ، أي يتذكر من الخَشْيَة فكرته وجبلته ، أي من يتَوقع حصول الضر والنفع فينظر في مظان كلٍ ويتدبر في الدلائل لأنه يخشى أن يحق عليه ما أنذر به .

والخشية : الخوف ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ في سورة طه (44) .

والخشية ذات مراتب وفي درجاتها يتفاضل المؤمنون .

والتجنب : التباعد ، وأصله تفعل لتكلف الكيْنونة بجانبٍ من شيء .

والجانب : المكان الذي هو طَرَف لغيره ، وتكلفُ الكينونة به كناية عن طلب البعد أي بمكان بعيد منه ، أي يتباعد عن الذكرى الأشقَى .

والتعريف في ﴿ الأشقى ﴾ تعريف الجنس ، أي الأشقَونْ .

و ﴿ الأشقى ﴾ : هو الشديد الشقوة ، والشقوة والشقاء في لسان الشرع الحالة الناشئة في الآخرة عن الكفر من حالة الإهانة والتعذيب ، وعندنا أن من عِلمَ إلى موته مؤمناً فليس بشقي .

فالأشقى : هو الكافر لأنه أشدّ الناس شقاء في الآخرة لخلوده في النار .

وتعريف ﴿ الأشقى ﴾ تعريف الجنس ، فيشمل جميع المشركين .

ومن المفسرين من حمله على العهد فقال : أريد به الوليد بن المغيرة ، أو عتبة بن ربيعة .

ووصْفُ ﴿ الأشقى ﴾ بـ ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ لأن إطلاق ﴿ الأشقى ﴾ في هذه الآية في صدر مدة البعثة المحمدية فكان فيه من الإِبهام ما يحتاج إلى البيان فأتبع بوصف يبيّنه في الجملة ما نزل من القرآن من قبل هذه الآية .

ومقابلة ﴿ من يخشى ﴾ بـ ﴿ الأشقى ﴾ تؤذن بأن ﴿ الأشقى ﴾ من شأنه أن لا يخشى فهو سادر في غروره منغمس في لهوه فلا يتطلب لنفسه تخلصاً من شقائه .

ووصفُ النار بـ ﴿ الكبرى ﴾ للتهويل والإِنذار والمراد بها جهنم .

وجملة ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ عطف على جملة ﴿ يصلى النار الكبرى ﴾ فهي صِلة ثانية .

(139/812)

و (ثم) للتراخي الرتبي تدل على أن معطوفها متراخي الرتبة في الغرض المسوق له الكلام وهو شدة العذاب فإن تردد حالِه بين الحياة والموت وهو في عذاب الاحتراق عذاب أشدّ ممّا أفاده أنه في عذاب الاحتراق ، ضرورة أن الاحتراق واقع وقد زيد فيه درجة أنه لا راحة منه بموت ولا مخلص منه بحياة .

فمعنى ﴿ لا يموت ﴾ : لا يزول عنه الإِحساس ، فإن الموت فقدان الإِحساس مع ما في هذه الحالة من الأعجوبة وهي مما يؤكد اعتبار تراخي الرتبة في هذا التنكيل .

وتعقيبه بقوله : ﴿ ولا يحيى ﴾ احتراس لدفع توهم أن يراد بنفي الموت عنهم أنهم استراحوا من العذاب لما هو متعارف من أن الاحتراق يُهلك المحرَق ، فإذا قيل : ﴿ لا يموت ﴾ توهَّم المنذَرون أن ذلك الاحتراق لا يبلغ مبلغ الإِهلاك فيبقى المحرق حياً فيظن أنه إحراق هيّن فيكون مسلاة للمهددين فلدفع ذلك عطف عليه ﴿ ولا يحيى ﴾ ، أي حياة خالصة من الآلام والقرينة على الوصف المذكور مقابلة ولا يحيى بقوله : ﴿ يصلى النار

الكبرى ثم لا يموت فيها ﴾ .

وليس هذا من قبيل نفي وصفين لإثبات حالةٍ وسَطٍ بينَ حالتيهما مثل : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ [النور : 35] وقول إحدى نساء أم زرع : "لا حَرّ ولا قُرّ" لأن ذلك لا طائل تحته .

ويجوز أن نجعل نفي الحياة كناية عن نفي الخلاص بناء على أن لازم الإِحراق الهلاك ولازم الحياة عدم الهلاك .

وفي الآية مُحسِّن الطباق لأجل التضاد الظاهر بين ﴿ لا يموت ﴾ و ﴿ لا يحيى ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(140/812)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .

هذه الآية الكريمة يفهم منها أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه بدليل أَنْ الشرطية .

وقد جاء آيات كثيرة تدل على الأمر بالتذكير مطلقا كقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

وأجيب عن هذا بأجوبة كثيرة منها أن في الكلام حذفا أي إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع كقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ أي والبرد وهو قول الفراء والنحاس والجرجاني وغيرهم .

ومنها أنها بمعنى (إذ) وإتيان (إن) بمعنى (إذ) مذهب الكوفيين خلافا للبصريين .

وجعل منه الكوفيون قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم: "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" وقول الفرزدق:

أتغضب إن أذنا قتيبة حزتا

جهارا ولم تغضب لقتل بن حازم

وأجاب البصريون عن آيات إن كنتم مؤمنين بأن فيها معنى الشرط جيء به للتهييج وعن آية إن شاء الله والحديث بأنهما تعليم للعباد كيف يتكلمون إذا أخبروا عن المستقبل وعن البيت بجوابين:

أحدهما :

أنه من إقامة السبب مقام المسبب والأصل: أتغضب إن افتخر مفتخر بجز أذني قتيبة إذ

الافتخار بذلك يكون سببا للغضب ومسببا عن الحز .

الثاني:

أتغضب أن تبين في المستقبل أن أذني قتيبة حزتا .

ومنها أن معنى ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ الإرشاد إلى التذكير بالأهم أي ذكر بالمهم الذي فيه النفع دون ما لا نفع فيه .

(141/812)

فيكون المعنى ذكر الكفار مثلا بالأصول التي هي التوحيد ، لا بالفروع لأنها لا تنفع دون الأصول وذكر المؤمن التارك لفرض مثلا بذلك الفرض المتروك لا بالعقائد ونحو ذلك لأنه أنفع .

ومنها أن ﴿إِنْ﴾ بمعنى (قد) وهو قول قطرب .

ومنها أنها صيغة شرط أريد بها ذم الكفار واستبعاد تذكرهم كما قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

ومنها غير ذلك .

والذي يظهر لمقيد هذه الحروف عفا الله عنه بقاء الآية الكريمة على ظاهرها وأنه صلى الله عليه وسلم بعد أن يكرر الذكرى تكرايرا تقوم به حجة الله على خلقه مأمور بالتذكير عند ظن الفائدة أما إذا علم عدم الفائدة فلا يؤمر بشيء هو عالم أنه لا فائدة فيه لأن العاقل لا يسعى إلى ما لا فائدة فيه وقد قال الشاعر:

لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن

...لشيء بعيد نفعه الدهر ساعيا

وهذا ظاهر ولكن الخفاء في تحقيق المناط.

وإيضاحه أن يقال: بأي وجه يتيقن عدم إفادة الذكرى حتى يباح تركها .

وبيان ذلك أنه تارة يعلمه بإعلام الله له به كما وقع في أبي لهب حيث قال تعالى فيه:

﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ ﴾ الآية.

فأبو لهب هذا وامرأته لا تنفع فيهما الذكرى لأن القرآن نزل بأنهما من أهل النار بعد تكرار التذكير لهما تكرار تقوم عليهما به الحجة فلا يلزم النبي صلى الله عليه وسلم بعد علمه بذلك أن يذكرهما بشيء لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .

وتارة يعلم ذلك بقرينة الحال بحيث يبلغ على أكمل وجه ويأتي بالمعجزات الواضحة فيعلم أن بعض الأشخاص عالم بصحة ثبوته وأنه مُصرّ على الكفر عنادا ولجاجا فمثل هذا لا يجب تكرير الذكرى له دائما بعد أن تكرر عليه تكريرا تلزمه به الحجة.

وحاصل إيضاح هذا الجواب أن الذكرى تشتمل على ثلاث حكم:

الأولى:

خروج فاعلها من عهدة الأمر بها .

الثانية:

(142/812)

رجاء النفع لمن يوعظ بها وبين الله تعالى هاتين الحكمتين بقوله تعالى: ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وبيّن الأولى منها بقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ ﴾ ونحوها من الآيات .

وبين الثانية بقوله: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

الثالثة:

إقامة الحجة على الخلق وبينها الله تعالى بقوله: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

وبقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ الآية .

فالنبي صلى الله عليه وسلم إذا كرر الذكرى حصلت الأولى والثالثة فإن كان في الثانية طمع

استمر على التذكير وإلا لم يكلف بالدوام والعلم عند الله تعالى .

وإنما اخترنا بقاء الآية على ظاهرها مع أن أكثر المفسرين على صرفها عن ظاهرها المتبادر منها وأن معناها : فذكر مطلقا إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع لأننا نرى أنه لا يجوز صرف كتاب الله عن ظواهره المتبادر منه إلا لدليل يجب الرجوع له .

وإلى بقاء هذه الآية على ظاهرها جنح ابن كثير حيث قال في تفسيرها أي ذكر حيث تنفع التذكرة ومن هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه في غير أهله كما قال على رضي الله عنه: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم .

وقال حدث الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله .

(143/812)

(تنبيه) هذا الإشكال الذي في هذه الآية إنما هو على قول من يقول باعتبار دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة وأما على قول من لا يعتبر مفهوم المخالفة شرطا كان أو غيره كأبي حنيفة فلا إشكال في الآية وكذلك لا إشكال فيها على قول من لا يعتبر مفهوم الشرط كالباقلاني فتكون الآية نصت على الأمر بالتذكير عند مظنة النفع وسكت عن حكمه

عند عدم مظنة النفع فيطلب من دليل آخر فلا تعارض الآية الآيات الدالة على التذكير مطلقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 314. 319 ﴾

(144/812)

قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبت بهذا أن لهذا هذا الشقاء الأعظم ، فكان التقدير : لأنه لم يزك نفسه لأنه ما كان مطبوعاً على الخشية ، أنتج ولا بد قوله تعالى دالاً على الدين التكليفي وهو اجتناب واجتلاب ، فجمع الاجتناب والاجتلاب بالتزكية بالتبتل بالأبواب والملازمة للأعتاب بامتثال الأمر واجتناب النهي بالمجاهدات المقربات إليه سبحانه وتعالى ، المنجيات بعد ما حذر من المهلكات ، للمسارعة في محابه ومراضيه اجتماعاً على العبادة الموصلة للخالق بعد حصول الكمال والتكميل فإنه لا بد في الحياة الطيبة بعد الانتماء إلى ذي الجاه العريض

والاقتداء بمن لا يزيغ من الارتباط بطريقة مثلى يحصل بها الاغتباط ليصل بها إلى المقصود ويعمّر أوقاته بوظائفها لئلا يحصل له خلل ولا ضياع لنفائس الأوقات ولا غفلة يستهويه بها قطاع الطريق : ﴿ قد أفلح ﴾ أي فاز بكل مراد ﴿ من تزكّى ﴾ أي أعمل نفسه في تطهيرها من فاسد الاعتقادات والأخلاق والأقوال والأفعال والأموال وتنمية أعمالها القلبية والقالبية وصدقة أموالها ، وذلك هو التسبيح الذي أمر به أول السورة وما تأثر عنه ، من عمل هذا فهو الأسعد .

(145/812)

ولما كان أعظم الأعمال المزكية الذكر والصلاة قال تعالى : ﴿ وذكر ﴾ أي بالقلب واللسان ذكر وذكر – بالكسر والضم ﴿ اسم ربه ﴾ أي صفات المحسن إليه فإنه إذا ذكر الصفة سر بها فأفاض باطنه على ظاهره ذكر اللفظ الدال عليها ، وإذا ذكر اللفظ وهو الاسم الدال عليها انطبع في قلبه ذكر المسمى ﴿ فصلّى ﴾ أي الصلاة الشرعية لأنها أعظم الذكر ، فهي أعظم عبادات البدن كما أن الزكاة أعظم عبادات المال ، ومن فعل ذلك استراح من داء الإعجاب وما يتبعه من النقائص الموجبة لسوء الانقلاب ، وكان متخلقاً بما ذكر من أخلاق الله في أول السورة من التخلي عن النقائص بالتزكية ، والتحلي بالكمالات بالذكر والصلاة

لأنه لعظمته لا يتأهل لذكره إلا من واظب إلى ذكر اسمه فلا يشقى فلا يصلى النار الكبرى بوعد لا خلف فيه – فالآية من الاحتباك في الاحتباك : ذكر أولاً الصلى دليلاً على حذف ضده ثانياً ، وثانياً التزكية دليلاً على حذف ضدها أولاً ، وقد تكفل ذكر التزكية والذكر ، والصلاة من أسباب التداوي بالإنضاج ثم الأشربة ثم الأغذية ، والآية صالحة لإرادة زكاة الفطر وتكبيرات العيد وصلاته وإن كانت السورة مكية وفرض الصيام بالمدينة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لإحاطة علمه سبحانه وتعالى بالماضي والحال والاستقبال على حد سواء ؛ قال الرازي في اللوامع : وتقدم زكاة الفطر على صلاة العيد ، وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يقول : رحم الله امرأً تصدق ثم صلى – ثم يقرأ هذه الآية ، وإن كانت السورة مكية ، فإنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال تعالى :

﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ [البلد : 2] والسورة مكية ، وظهر أثر الحل يوم الفتح – انتهى ، وأخذه من البغوي ، وزاد البغوي أن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ كان يأمر نافعاً ـ رضى الله عنه ـ بنحو ما قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ، ويقول : إنما نزلت هذه الآية في هذا .

(146/812)

وروى البزار : " عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية " وفي السند كثير بن عبد الله – حسّن له الترمذي وضعفه غيره – والله أعلم .

(147/812)

ولما كان التقدير : وأنتم لا تفعلون ذلك ، أو وهم لا يفعلونه – على القراءتين ، عطف عليه قوله بالخطاب في قراءة الجماعة على الالتفات الدال على تناهي الغضب ، منبهاً على المعاملات بسبب التداوي الرابع وهو الاستفراغ بنفي الرذائل والخبائث بالذم على ما ينبغي البراءة منه والحث على ما يتعين تحصيله تحصيلاً لحسن الرعاية : ﴿ بل تؤثرون ﴾ أي تختارون وتخصون بذلك على وجه الاستبداد ، أيها الأشقياء ، وبالغيب على الأصل عند أبي عمرو ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي الدنية بالفناء الحاضرة ، مع أنها شر وفانية ، اشتغالاً بها لأجل حضورها كالحيوانات التي هي مقيدة بالمحسوسات ، فاستغرق اشتغالكم بها أوقاتكم ومنعكم عن ذكر اسم الله المنهي إلى ذكر الله والمهيىء له ، وعن تزكية نفوسكم ، فأوقعكم ذلك في داء القبقب وهو البطن ، والدبدب وهو الفرج ، وحب المال المؤدي إلى شر الأعمال ، وتتركون الآخرة ﴿ والآخرة ﴾ أي والحال أن الدار التي هي

غاية الخلق ومقصود الأمر ، العالية المبرئة عن العبث ، المنزهة عن الخروج عن الحكمة ﴿ خير ﴾ أي من الدنيا على تقدير التسليم لأن فيها خيراً لأن نعيمها خالص لا كدر فيه بوجه ﴿ وأبقى ﴾ أي منها على تقدير المحال في الدنيا من أن تماديها إلى وقت زوالها تسمى بقاء ، لأن نعيم الآخرة دائم لا انقطاع له أصلاً ، وما كان باقياً لا يعادل بما يفني بوجه من الوجوه ، فمن علم ذلك – وهو أمر لا يجهل – اشتغل بما يحصل الآخرة وينفي الدنيا بقسميها من الأعيان الحسية والشهوات المعنوية من الرعونات النفسانية والمستلذات الوهمية ، والآية من الاحتباك : ذكر الإيثار والدنو أولاً يدل على الترك والعلو ثانياً ، وذكر الخير والبقاء ثانياً يدل على ضدهما أولاً ، وسر ذلك أنه لا يؤثر الدنيء إلا دنيء فذكره أولاً لأنه أشد في التنفير ، وذكر الخير والبقاء ثانياً لأنه أشد في الترغيب .

(148/812)

ولما كانت هذه النتيجة – التي هي الفلاح بالتزكية وما تبعها – خالصة الكتب المنزلة التي بها تدبير البقاء الأول ، وصفها ترغيباً فيها بوصف جمع القدم المستلزم للصحة بتوارد الأفكار على تعاقب الأعصار ، لأن ما مضت عليه السنون ومرت على قبوله الدهور تكون النفس أقبل للإذعان له وأدعى إلى إلزامه ، وأفاد مع القدم أن المنزل عليه ـ صلى الله

عليه وسلم ـ ليس بدعاً من الرسل عليهم الصلاة والسلام بل هو على منهاجهم ، فرد رسالته من بينهم لا يقول به منصف لا سيما وقد زاد عليهم في المعجزات وسائر الكرامات بقوله مؤكداً لأجل من يكذب : ﴿ إن هذا ﴾ أي الوعظ العظيم بالتسبيح الذي ذكر في هذه السور وما تأثر عنه من التزكية بالذكر الموجب للصلاة والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، لأنه جامع لكل خير ، وهو ثابت في كل شريعة لأنه المقصود بالحكم فهو لا يقبل النسخ ﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ فمن تبع هذا القرآن الذي هو في هذه الصحف الربانية فقد تحلى من زينة اللسان بما ينقله من البيان الذي هو في غاية التحرير وعظم الشأن وما يعلمه من المغيبات مما يكون أو كان ، ونسيه أهل هذه الأزمان ، فاستراح من ضلال الشعراء والكهان ، الموقعين في الإثم والعدوان ، فإن القرآن جمع المديح الفائق والنسيب الرقيق في وصف الحور والرحيق والفخر الحماسي والهجاء البليغ لأعداء الله ، والترغيب الجاذب للقلوب والترهيب والملح الخبرية والحدود الشرعية – إلى غير ذلك من أمور لا تصل إليها الشعراء ، ولا ينتهي إلى أدنى جنابها بلاغات البلغاء .

(149/812)

ولما كان ذلك عاماً خص من بينه تعظيماً لقدر هذه الموعظة أعظم الأنبياء الأقدمين ، فقال مبدلاً مشيراً إلى الاستدلال بالتجربة : ﴿ صحف إبراهيم ﴾ قدمه لأن صحفه أقرب إلى الوعظ كما نطق به حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه ﴿ وموسى ﴾ ختم به لأن الغالب على كتابه الأحكام ، والمواعظ فيه قليلة ، ومنها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التي أعظمها البشارة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والإخبار بأنهم يخالفونها كما هو مذكور في أواخرها مع أن ذكر النبيين عليهما الصلاة والسلام على الأصل في ترتيب الوجود والأفضلية ، وقد حث آخرها على التزكي وهو التطهر من الأدناس الذي هو معنى التنزه والتخلق بأخلاق الله بحسب الطاقة ، وكان في إتيانه والتذكير به إعلام بأن الله تعالى لم يهمل الخلق من البيان بعد أن خلقهم لأنه لم يخلقهم سدى ، لأن ذلك من العبث الذي هو من أكبر النقائص وهو سبحانه منزه عن جميع شوائب النقص – فقد رجع آخرها على أولها ، وكان تنزيه الرب سبحانه وتعالى وتنزيه النفس أيضاً غاية معولها – والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 400 . 403 ﴾

(150/812)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) ﴾

ففيه وجهان : أحدهما : أنه تعالى لما ذكر وعيد من أعرض عن النظر والتأمل في دلائل الله تعالى ، أتبعه بالوعد لمن تزكى ويطهر من دنس الشرك وثانيهما : وهو قول الزجاج : تكثر من التقوى لأن معنى الزاكي النامي الكثير ، وهذا الوجه معتضد بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خاشعون ﴾ [المؤمنون : 1-2] أثبت الفلاح للمستجمعين لتلك الخصال وكذلك قوله تعالى في أول البقرة : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [البقرة : 5] وأما الوجه الأول فإنه معتضد بوجهين : الأول : أنه تعالى لما لم يذكر في الآية ما يجب التزكي عنه علمنا أن المراد هو التزكي عما مر ذكره قبل الآية ، وذلك هو الكفر ، فعلمنا أن المراد ههنا : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ عن الكفر الذي مر ذكره قبل هذه الآية والثاني : أن الاسم المطلق ينصرف إلى المسمى الكامل ، وأكمل أنواع التزكية هو تزكية القلب عن ظلمة الكفر فوجب صرف هذا المطلق إليه ، ويتأكد هذا التأويل بما روي عن ابن عباس أنه قال معنى : ﴿ تزكى ﴾ قول : لا إله إلا الله .

أما قوله تعالى :

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر المفسرون فيه وجوهاً .

أحدها : قال ابن عباس : ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له .

وأقول : هذا التفسير متعين وذلك لأن مراتب أعمال المكلف ثلاثة أولها : إزالة العقائد الفاسدة عن القلب وثانيها : استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه وثالثها : الاشتغال بخدمته .

فالمرتبة الأولى : هي المراد بالتزكية في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] .

وثانيها : هي المراد بقوله : ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ فإن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة .

(151/812)

وثالثها : الخدمة وهي المراد بقوله : ﴿ فصلى ﴾ فإن الصلاة عبارة عن التواضع والخشوع فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله تعالى وكبريائه ، لا بد وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخضوع والخشوع .

وثانيها : قال قوم من المفسرين قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ يعني من تصدق قبل مروره إلى

العيد : ﴿ وَذَكَرَ اسم ربّهِ فصلى ﴾ يعني ثم صلى صلاة العيد بعد ذلك مع الإمام .

وهذا قول عكرمة وأبي العالية وابن سيرين وابن عمر وروي ذلك مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا التفسير فيه إشكال من وجهين الأول : أن عادة الله تعالى في القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة لا تقديم الزكاة على الصلاة والثاني : قال الثعلبي : هذه السورة مكية بالإجماع ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر .

أجاب الواحدي عنه بأنه لا يمتنع أن يقال : لما كان في معلوم الله تعالى أن ذلك سيكون أثنى على من فعل ذلك وثالثها : قال مقاتل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] أي تصدق من ماله وذكر ربه بالتوحيد في الصلاة فصلى له ، والفرق بين هذا الوجه وما قبله أن هذا يتناول الزكاة والصلاة المفروضتين ، والوجه الأول ليس كذلك ورابعها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ ليس المراد منه زكاة المال بل زكاة الأعمال أي من تطهر في أعماله من الرياء والتقصير ، لأن اللفظ المعتاد أن يقال : في المال زكى ولا يقال تزكى قال تعالى : ﴿ وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ ﴾ [فاطر : 18] ، وخامسها : قال ابن عباس : ﴿ وَذَكَرَ اسم ربّهِ ﴾ أي كبر في خروجه إلى العيد وصلى صلاة العيد وسادسها : المعنى وذكر اسم ربه في صلاته ولا تكون صلاته كصلاة المنافقين حيث يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً .

المسألة الثانية :

الفقهاء احتجوا بهذه الآية على وجوب تكبيرة الافتتاح ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بها على أن تكبيرة الافتتاح ليست من الصلاة ، قال : لأن الصلاة معطوفة عليها والعطف يستدعي المغايرة ، واحتج أيضاً بهذه الآية على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه وأجاب أصحابنا بأن تقدير الآية ، وصلى فذكر اسم ربه ولا فرق بين أن تقول أكرمتني فزرتني وبين أن تقول زرتني فأكرمتني ، ولأبي حنيفة أن يقول : ترك العمل بفاء التعقيب لا يجوز من غير دليل والأولى في الجواب أن يقال : الآية تدل على مدح كل من ذكر اسم الله فصلى عقيبه وليس في الآية بيان أن ذلك الذكر هو تكبيرة الافتتاح .

فلعل المراد به أن من ذكر الله بقلبه وذكر ثوابه وعقابه دعاه ذلك إلى فعل الصلاة ، فحينئذ يأتي بالصلاة التي أحد أجزائها التكبير ، وحينئذ يندفع الاستدلال .

ثم قال تعالى :

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16)

وفيه قراءتان : قراءة العامة بالتاء ويؤكده حرف أبي ، أي بل أنتم تؤثرون عمل الدنيا على عمل الآخرة .

قال ابن مسعود : إن الدنيا أحضرت ، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وإن الآخرة لغيب لنا وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل .

وقرأ أبو عمرو : يؤثرون بالياء يعني الأشقى .

ثم قال تعالى :

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)

وتمامه أن كل ما كان خيراً وأبقى فهو آثر ، فيلزم أن تكون الآخرة آثر من الدنيا وهم كانوا يؤثرون الدنيا ، وإنما قلنا : إن الآخرة خير لوجوه أحدها : أن الآخرة مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، فالآخرة خير من الدنيا وثانيها : أن الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام ، والآخرة ليست كذلك وثالثها : أن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني .

ثم قال :

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18)

(153/812)

واختلفوا في المشار إليه بلفظ (هذا) منهم من قال : جميع السورة ، وذلك لأن السورة مشتملة على التوحيد والنبوة والوعيد على الكفر بالله ، والوعد على طاعة الله تعالى .

ومنهم من قال : بل المشار إليه بهذه الإشارة هو من قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى

: 14] إشارة إلى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغي .

أما القوة النظرية فعن جميع العقائد الفاسدة ، وأما في القوة العملية فعن جميع الأخلاق الذمية .

وأما قوله : ﴿ وَذَكَرَ اسم ربّهِ ﴾ [الأعلى : 15] فهو إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وأما قوله : ﴿ فصلى ﴾ [الأعلى : 15] فهو إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ [الأعلى : 16] فهو إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا .

وأما قوله : ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى : 17] فهو إشارة إلى الترغيب في الآخرة وفي ثواب الله تعالى ، وهذه أمور لا يجوز أن تختلف باختلاف الشرائع ، فلهذا السبب قال : ﴿ إِنَّ هذا لَفِى الصحف الأولى ﴾ وهذا الوجه كما تأكد بالعقل فالخبر يدل عليه ، روى عن أبي ذر أنه قال : قلت هل في الدنيا مما في صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال : اقرأ يا أبا ذر ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] وقال آخرون : إن قوله (هذا) إشارة إلى قوله : ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ وذلك لأن الإشارة راجعة إلى أقرب المذكورات وذلك هو هذه الآية ، وأما قوله : ﴿ لَفِى الصحف الأولى ﴾ فهو نظير لقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأولين ﴾ [الشعراء : 196] وقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ﴾ [

الشورى : 13] .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

(154/812)

فيه قولان : أحدهما : أنه بيان لقوله : ﴿ فِي الصحف الأولى ﴾ [الأعلى : 18] والثاني : أن المراد أنه مذكور في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى ، روي عن أبي ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : " مائة وأربعة كتب ، على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، " وقيل : إن في صحف إبراهيم : ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 133 . 136 ﴾

(155/812)

وقال ابن عطية :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) ﴾

﴿ أفلح ﴾ في هذه الآية معناه : فاز ببغيته ، ﴿ وتزكى ﴾ معناه : طهر نفسه ونماها إلى الخير . قال ابن عباس : قال لا إله إلا الله فتطهر من الشرك ، وقال الحسن : من كان عمله زاكياً ، وقال أبو الأحوص : من رضخ من ماله وزكاه ، وقوله ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ معناه : وحّده وصلى له الصلوات التي فرضت عليه ، وتنفل أيضاً بما أمكنه من صلاة وبرّ ، وقال أبو سعيد الخدري وابن عمر وابن المسيب : هذه الآية في صبيحة يوم الفطر فتزكى ، أدى زكاة الفطر ، ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ ، هو ذكر الله في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام ، والصلاة هي صلاة العيد ، وقد روي هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة وكثير من المتأولين : ﴿ تزكى ﴾ : أدى زكاة ماله ، و" صلى " معناه صلى الخمس ، ثم أخبر تعالى الناس أنهم يؤثرون ﴿ الحياة الدنيا ﴾ ، فالكفار يؤثرها إيثار كفر يرى أن لا آخرة ، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله ، وقرأ أبو عمرو وحده " يؤثرون " بالياء ، وقال : يعني الأشقين ، وهي قراءة ابن مسعود والحسن وأبي رجاء والجحدري ، وقرأ الباقون والناس : " تؤثرون " بالتاء على المخاطبة ، وفي حرف أبي بن كعب " بل أنتم تؤثرون " وسبب الإيثار حب العاجل والجهل ببقاء الآخرة ، وقال عمر : ما

في الدنيا في الآخرة إلا كنفخة أرنب ، وقوله تعالى : ﴿ إن هذا ﴾ قال الضحاك : أراد القرآن ، وروي أن القرآن انتسخ من ﴿ الصحف الأولى ﴾ وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : الإشارة إلى معاني السورة ، وقال ابن زيد : الإشارة إلى هذين الخبرين " إفلاح من تزكى " وإيثار الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها ، وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بهذا . وقوله تعالى : ﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ أي لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع فهو في الأولى وفي الأخيرات ، ونظير هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : " إذا لم تستحي فاصنع ما شئت " أي

(156/812)

أنه مما جاءت به الأولى واستمر في الغي ، وقرأ الجمهور " الصحُف " مضمونة الحاء ، وروى هارون عن أبي عمرو بسكون الحاء ، وهي قراءة الأعمش ، وقرأ أبو رجاء : ﴿ إبراهيم ﴾ بغير الياء ولا ألف ، وقرأ ابن الزبير " ابراهام " في كل القرآن ، وكذلك أبو موسى الأشعري ، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة " إبراهِم " بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن وروي أن ﴿ صحف إبراهيم ﴾ نزلت في أول ليلة من رمضان ، والتوراة في السادسة من رمضان والزبور في اثني عشرة منه والإنجيل في ثمان عشرة منه والقرآن في أربعة عشرة .

نجز تفسير سورة ﴿ الأعلى ﴾ والحمد لله كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(157/812)

وقال القرطبى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة ؛ أي من تَطَهَّر من الشرك بإيمان ؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة .

وقال الحسن والربيع : من كان عمله زاكياً نامِياً .

وقال مَعْمر عن قتادة : "تزَكَّى" قام بعمل صالح .

وعنه وعن عطاء وأبي العالية : نزلت في صدقة الفِطر .

وعن ابن سِيرينَ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ .

قال : خرج فصلَّى بعد ما أدّى .

وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدّم زكاتي بين يدي صلاتي .

فقال سفيان : قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ وابن عمر : أن ذلك في صدقة الفطر ، وصلاة العيد .

وكذلك قال أبو العالية ، وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ، ومن سِقاية الماء .

وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : "أخرج زكاة الفطر" ، ﴿ وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ قال : "صلاة العيد" " وقال ابن عباس والضحاك : ﴿ وَذَكَرَ اسم ربِّهِ ﴾ في طريق المصلَّى ﴿ فصلى ﴾ صلاة العيد .

وقيل : المراد بالآية زكاة الأموال كلها ؛ قاله أبو الأحوص وعطاء .

وروى ابن جُرَيج قال : قلت لعطاء : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ للفطر ؟ قال : هي للصدقات كلها .

وقيل : هي زكاة الأعمال ، لا زكاة الأموال ؛ أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير ؛ لأن الأكثر أن يقال في المال : زَكَّى ، لا تَزَكَّى .

وروى جابر بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ أي من شهد أَنْ لا إله إلاَّ الله ، وخَلع الأندادَ ، وشهد أني رسولُ الله " وعن ابن عباس ﴿

تزكى ﴾ قال : لا إله إلا الله .

وروى عنه عطاء قال : " نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(158/812)

قال : كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة ، مائلة في دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْرَ والرطبَ إلى دار الأنصاريّ ، فيأكل هو وعياله ، فخاصمه المنافق ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه ، فقال : "إن أخاك الأنصاريّ ذكر أن بُسْرك ورُطَبك يقع إلى منزله ، فيأكل هو وعياله ، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها ؟" فقال : أبيع عاجلاً بآجلا لا أفعل .

فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته ؛ ففيه نزلت "قد أفلح من تزكى" " ونزلت في المنافق ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ﴾ .

وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الثانية : قد ذكرنا القول في زكاة الفِطر في سورة "البقرة" مستوفى .

وقد تقدّم أن هذه السورة مكية ؛ في قول الجمهور ، ولم يكن بمكة عِيد ولا زكاة فطر .

القشيرِي : ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفِطر وصلاة العيد ، فيما

يأمر به في المستقبل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ أي ذكر ربه .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : يرد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه ، فعبده وصلَّى له .

وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة ، لأنها لا تنعقد إلا بذكره ؛ وهو قوله : الله أكبر : وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة ؛ لأن الصلاة معطوفة عليها .

وفيه حجة لمن قال : إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجلّ .

وهذه مسألة خلافية بين الفقهاء .

وقد مضى القول في هذا في أوّل سورة "البقرة" .

وقيل : هي تكبيرات العيد .

قال الضحاك : "وذكر اسم ربهِ" في طريق المصلَّى "فصلّى" ؛ أي صلاة العيد .

وقيل : ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته ، فيخاف عقابه ، ويرجو ثوابه ؛ ليكون استيفاؤه لها ، وخشوعه فيها ، بحسب خوفه ورجائه .

وقيل : هو أن يفتتح أوّل كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم .

"فصلَّى" أي فصلَّى وذكر .

ولا فرق بين أن تقول : أكرمتني فزرتني ، وبين أن تقول : زرتني فأكرمتني .

قال ابن عباس : هذا في الصلاة المفروضة ، وهي الصلوات الخمس .

وقيل : الدعاء ؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة .

وقيل : صلاة العيد ؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيّ وابن عمر وغيرهما .

وقد تقدّم .

وقيل : هو أن يتطوّع بصلاةٍ بعد زكاته ؛ قاله أبو الأحوص ، وهو مقتضى قول عطاء .

ورُوِيَ عن عبد الله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له .

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16)

قراءة العامة "بل تؤثِرون" بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبيّ "بل أنتم تؤثرون" .

وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم "بل يؤثِرون" بالياء على الغيبة ؛ تقديره : بل يؤثِرُون الأَشْقون الحياة الدنيا .

وعلى الأوّل فيكون تأويلها بل تؤثرون أيُّها المسلمون الاستكثار من الدنيا ، للاستكثار من الثواب .

وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حَضَرتْ وعجِلَت لنا طيباتها ، وطعامها وشرابها ، ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غُيبت عنا ، فأخذنا العاجل ، وتركنا الآجل .

وروى ثابت عن أنس قال : كُنَّا مع أبي موسى في مسِير ، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا . قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفْرِي الأديم بلسانه فرياً ، فتعال فلنذكر ربنا ساعة .

ثم قال : يا أنس ، ما ثَبَر الناس ! ما بَطَّأَ بهم ؟ قلت : الدُّنيا والشيطان والشهوات .

قال : لا ، ولكن عُجّلتِ الدنيا ، وغُيبت الآخرة ، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا .

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)

أي والدار الآخرة ؛ أي الجنة .

﴿ خَيْرٌ ﴾ أي أفضل .

﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم من الدنيا .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليمّ ، فلينظر بِم يرجع " صحيح .

(160/812)

وقد تقدّم .

وقال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان الواجب أن يُؤْثَر خزف يبقى ، على ذهب يفنى .

قال : فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى ﴾

قال قتادة وابن زيد : يريد قوله : ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ .

وقالا : تتابعت كتب الله جل ثناؤه كما تسمعون أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا .

وقال الحسن : "إِنّ هذا لفي الصحف الأُولى" قال : كُتُبِ الله جل ثناؤه كلها .

الكلبِيّ : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى ﴾ من قوله : "قد أفلح" إلى آخر السورة ؛ لحديث أبي ذرّ على ما يأتي .

وروى عِكرمة عن ابن عباس : "إِنّ هذا لفي الصحف الأولى" قال : هذه السورة .

وقال والضحاك : إن هذا القرآن لفي الصحف الأولى ؛ أي الكتب الأولى .

﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ يعني الكتب المنزلة عليهما .

ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف .

وروى الآجُرّي " من حديث أبي ذرّ قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : "كانت أمثالاً كلُّها : أيها الملك المتسلِّط المُبتَلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر .

وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث : تزوّد لمعاد ، ومَرمَّة لمعاشٍ ، ولذة في غير محرم .

وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شانه ، حافظاً للسانه .

ومن عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلاَّ فيما يعينه" .

(161/812)

قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : "كانت عِبراً كلُّها : عجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ! وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينْصَب .

وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ! وعجبت لمن أيقن بالحساب

غدا ثم هو لا يعمل" قال : قلت يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى ، مما أنزل الله عليك ؟ قال : "نعم اقرأ يا أبا ذرّ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى * إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ " وذكر الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(162/812)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾

أي نزه اسَمُه عزَّ وجلَّ عن الإلحادِ فيه بالتأويلاتِ الزائغةِ وعن إطلاقِه على غيرِه بوجهٍ يُشعرُ بتشاركِهما فيهِ وعن ذكرِه لاَ عَلى وجهِ الإعظامِ والإجلالِ . والأعلى : إمَّا صفةٌ للربِّ وهو الأظهرُ أو للاسمِ . وقُرِىءَ سُبحانَ رَبِّيَ الأَعْلَى . وفي الحديثِ لما نزلتْ فسبح باسمِ ربِّكَ العظيمِ ، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اجعلُوها في ركوعِكم ، فلمَّا نزلَ سبحِ اسمَ ربِّك الأَعْلَى ، قالَ اجعلُوها في سُجودِكم . وكانُوا يقولونَ في الركوعِ اللهمَّ لكَ ركعتُ ، وفي السجودِ اللَّهم لكَ سجدتُ . ﴿ الذى خَلَقَ فسوى ﴾ صفةٌ أُخرى للربِّ على الوجهِ الأولِ ، ومنصوبٌ

على المدحِ، على الثَّانِي لئلا يلزمَ الفصلُ بين الموصوفِ والصفةِ بصفةِ غيرِه، أيْ خلقَ كلَّ شيءٍ فسوَّى خلقَهُ، بأنْ جعلَ له ما به يتأتَّى كمالُه ويتسنَّى معاشُه، وقولُه تعالَى: ﴿ والذى قَدَّرَ ﴾ إمَّا صفةٌ أُخْرى للربِّ كالموصول الأولِ، أو معطوفٌ عليهِ وكذا حالُ ما بعدَهُ. قدَّرَ أجناسَ الأشياءِ وأنواعِها وأفرادَها ومقاديرَها وصفاتِها وأفعالَها وآجالَها ﴿ فهدى ﴾ أيْ فوجَّه كلَّ واحدٍ منَها إلى ما يصدرُ عنْهُ وينبغِي لهُ طبعاً أو اختياراً، ويسرهُ لما خُلقَ له بخلقِ الميولِ والإلهاماتِ ونصبُ الدلائلِ وإنزالِ الآياتِ ولو تتبعتَ أحوالَ النباتاتِ والحيواناتِ لرأيتَ في كلٍ منَها ما تحارُ فيه العقولُ. يُروى أنَّ الأفعَى إذَا بلغتْ ألفَ سنةٍ عميتْ وقدْ ألهمَها اللهُ تعالَى أنْ تمسحَ عينَها بورقِ الرازيانجِ الغضِّ، يُردُّ إليها بصرُها، فربَّما كانتْ عندَ عُروضِ العَمَى لها في بريةٍ بينَها وبين الريفِ مسافةٌ طويلةٌ فتطويها حتى تهجمَ في بعضِ البساتينِ على شجرةِ الرازيانجِ لا تُخطئُها فتحكَّ عينَها بورقِها، وترجعَ باصرةً بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ويُروى أنَّ التمساحَ لا يكونُ له دُبرٌ وإنَّما يخرجُ فضلاتِ ما يأكلُه من فمِه حيثُ

(163/812)

قيَّضَ اللهُ له طائراً قُدِّر غذاؤُه من ذلكَ ، فإذا رآهُ التمساحُ يفتحُ فمَهَ فيدخُلُه الطائرُ فيأكلُ ما فيهِ ، وقد خلقَ اللهُ تعالى له من فوقِ منقارِه ومن تحتِه قرنينِ لئلا يطبقَ عليه التمساحُ فمَهُ . هَذا وأمَّا فنونُ هداياتِه سبحانَهُ وتعالَى للإنسانِ من حيثُ الجسميةُ ومن حيثُ الحيوانيةُ لا سيّما من حيثُ الإنسانيةُ فممَّا لا يحيطُ به فلكُ العبارةِ والتحريرُ ولا يعلمُه إلا العليمُ الخبيرُ .

﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى ﴾ أيْ أنبتَ ما يرعاهُ الدوابُّ غضّاً طرياً يرفُ ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ بعدَ ذلكَ ﴿ غُثَاء أحوى ﴾ أي دَرِيناً أسودَ وقيلَ : أحْوَى حالٌ من المَرْعى ، أي أخرجَهُ أَحْوَى من شدةِ الخضرةِ والريِّ فجعلَه غُثاءً بعدَ ذلكَ . وقولُه تعالى :

(164/812)

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ بيانٌ لهدايةِ اللهِ تعالَى الخاصَّةِ برسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم إثرَ بيانِ هدايتِه تعالى العامَّةِ لكافَّةِ مخلوقاتِه وهي هدايتُه عليه الصلاةُ والسلامُ لتلقِّي الوَحْي وحفظِ القرآنِ الذي هو هُدى للعالمينَ وتوفيقُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لهدايةِ الناسِ أجمعينَ . والسين إمَّا للتأكيدِ وإمَّا لأنَّ المرادَ إقراءُ ما أَوْحى اللهُ إليهِ حينئذٍ وما سيُوحى إليهِ بعدَ ذلكَ فهو وعدٌ كريمٌ باستمرارِ الوَحْي في ضمنِ الوعدِ بالإقراءِ أي سنُقرئكَ ما نُوحِي إليكَ

الآنَ وفيما بعدُ على لسانِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ أو سنجعلكَ قارئاً بإلهامِ القراءةِ فلا تنْسى أصلاً من قوةِ الحفظِ والإتقانِ مع أنَّكَ أميٌّ لا تدري ما الكتابُ وما القراءةُ ليكونَ ذاكَ آيةً أُخْرى لكَ معَ ما في تضاعيفِ ما تقرؤه من الآياتِ البيناتِ من حيثُ الإعجازُ ومن حيثُ الإخبارُ بالمغيباتِ ، وقيلَ فلا تنْسى نهيٌ والألفُ لمراعاة الفاصلةِ كما في قولِه تعالى : ﴿ فأضلُّونَا السبيلاَ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ إلاَّ مَا شَاءَ الله ﴾ استثناءٌ مفرغٌ منْ أعمِّ المفاعيلِ ، أيْ لا تَنْسى ممَّا تقرؤُه شيئاً من الأشياءِ إلا ما شاءَ اللهُ أنْ تنساهُ أبداً بأنْ نُسخَ تلاوتُه ، والالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابةِ والإيذانِ بدورانِ المشيئةِ على عُنوانِ الأُلوهيةِ المستتبعةِ لسائرِ الصفاتِ ، وقيل : المرادُ به النسيانُ في الجملةِ على القلةِ والندرةِ كما رُويَ أنه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أسقطَ آيةً في قراءتِه في الصلاةِ حسبَ أبيٍّ أنها نُسختْ فسألَه فقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نسيتُها ، وقيلَ : نَفيُ النسيانِ رأساً فإنَّ القلَّةَ قد تُستعملُ في النَّفي فالمرادُ بالنسيانِ حينئذٍ النيسانُ بالكليةِ إذْ هو المنفيُّ رأساً لا ما قَدْ يُنسى ثم يُذكرُ .

﴿ إنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ تعليلٌ لمَا قبلَهُ

(165/812)

أيْ ما ظهرَ وما بطنَ من الأمورِ التي من جُملتِها ما أُوحيَ إليكَ فيُنْسِي ما يشاءُ إنساءَهُ ويُبقي محفوظاً ما يشاءُ إبقاءَهُ لما نيطَ بكلٍ منهُما من مصالحِ دينِكم.

(166/812)

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ عطفٌ على نُقرئكَ كما ينبىءُ عنه الالتفاتُ إلى الحكايةِ وما بينهما اعتراضٌ واردٌ لما ذُكرَ من التعليلِ وتعليقُ التيسيرِ به عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مع أنَّ الشائعَ تعليقُه بالأمورِ المسخرةِ للفاعلِ كما في قولِه تعالى: ﴿ وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾ للإيذانِ بقوةِ تمكينِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من اليُسرى والتصرفِ فيها بحيثُ صارَ ذلكَ ملكةً راسخةً له كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُبلَ عليها كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: " اعملُوا فكُلٌّ ميسرٌ لِمَا خُلقَ له ". أي نوفقكَ توفيقاً مستمراً للطريقةِ اليُسرى في كُلِّ بابٍ من أبوابِ الدينِ علماً وتعليماً واهتداءً وهدايةً فيندرجُ فيه تيسيرُ طريقِ تلقِّي الوَحْي والإحاطةِ بما فيه منْ أحكامِ الشريعةِ السمحةِ والنواميسِ الإلهيةِ مما يتعلقُ بتكميلِ نفسِه عليه الصلاةُ والسَّلامُ وتكميلِ غيرِه، كما تفصحُ عنه الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ أي فذكرِ الناسَ حسبما يَسَّرناكَ لهُ بما يُوحى إليكَ واهدِهِم إلى ما في تضاعيفِه من الأحكامِ الشرعيةِ كما كنتَ تفعلُه لا بعدَ ما استتبَ لك الأمرُ كما قيلَ.

وتقييدُ التذكيرِ بنفعِ الذكرَى لما أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم طالَما كانَ يذكرهُم ويستفرغُ فيه غايةَ المجهودِ ويتجاوزُ في الجدِّ كلَّ حدٍّ معهودٍ حرصاً على إيمانِهم وما كانَ يزيدُ ذلكَ بعضُهم إلا كُفراً وعناداً فأُمرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يخصَّ التذكيرَ بموادِّ النفعِ في الجملةِ بأنْ يكونَ مَنْ يذكرُهُ كلاًّ أو بعضاً مِمَّنْ يُرجى منه التذكرُ ولا يتعبُ نفسَه في تذكيرِ مَن لا يورثُهُ التذكيرُ إلا عتواً ونفوراً من المطبوعِ على قلوبهم كما في قولِه تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ وقيلَ : هُو ذمٌّ

(167/812)

للمذكرينَ وإخبارٌ عن حالِهم واستبعادٌ لتأثيرِ التذكيرِ فيهم وتسجيلٌ عليهمْ بالطبعِ على قلوبِهم كقولكَ لواعظِ عظِ المكَّاسينَ إنْ سمعُوا منك قصداً إلى أنَّه مما لا يكونُ والأولُ أنسبُ لقوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ أي سيتذكرُ بتذكيرِكَ مَنْ مِنْ شأنِه أنْ يخشَى الله تعالى حقَّ خشيتِه أو مَنْ يخشَى الله تعالَى في الجملةِ فيزدادُ ذلكَ بالتذكيرِ فيتفكرُ في أمرِ مَا تذكرَ به فيقفُ على حقيتِه فيؤمنُ بِه ، وقيلَ : إنْ بمَعْنى إذْ كمَا في قولِه تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إذْ كنتُم وقيلَ هي بمَعْنى مَا أيُ فذكْر ما نفعتِ الذكرَى فإنَّها

لا تخلُو عن نفعٍ بكلِّ حالٍ ، وقيلَ : هناكَ محذوفٌ ، والتقديرُ إنْ نفعتِ الذكرَى وإنْ لم تنفعْ كقولِه تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ قالَهُ الفَّراءُ والنَّحاسُ والجُرجُانيُّ والزهراويُّ .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أي الذكرَى ﴿ الأشقى ﴾ من الكفرة لتوغله في عداوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقيلَ : نزلتْ في الوليدِ بنِ المغيرةِ وعتبةَ بنِ أبي ربيعةَ . ﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ أي الطبقةَ السُّفلَى من طبقاتِ النارِ ، وقيلَ : الكُبرى نارُ جهنمَ والصُّغْرى نارُ الدُّنيا لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " نارُكُم هذهِ جزءٌ من سبعينَ جُزْءاً من نارِ جهنَم " ﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ حتى يستريحَ ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ حياةً تنفعُه وثمَّ للتراخِي في مراتبِ الشدةِ لأن الترددَ بين الموتَ والحياةِ أفظعُ من الصَّلْي .

(168/812)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي نجَا من المكروهِ وظفرَ بما يرجُوه ﴿ مَن تزكى ﴾ أيْ تطهرَ من الكفرِ والمعاصِي بتذكرِه واتعاظِه بالذكرَى أو تكثر من التَّقوى والخشيةِ مْنَ الزكاءِ وهو النماءُ وقيلَ تزكَّى تفعَّل من الزكاةِ . وكلمةُ قَدْ لما أنَّ عندَ الإخبارِ بسوءِ حالِ المتجنب عنِ الذكرَى في الآخرةِ يتوقعُ السامعُ الأخبارَ بحسنِ حالِ المتذكرِ فيها وينتظرُه ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ بقلبِه ولسانِه ﴿ فصلى ﴾ أقامَ الصلواتِ كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّنِى أَنَا الله ﴾ أو كبرَ

تكبيرةَ الافتتاحِ فصلَّى ، وقيلَ تزكَّى أي تصدقَ صدقةَ الفطرِ وذكر اسمَ ربِّه أي كبَّرهُ يومَ العيدِ فصلَّى أيْ صلاتَهُ .

(169/812)

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ إضرابٌ عن مقدرٍ ينساقُ إليهِ الكلامُ كأنَّه قيلَ إثرَ بيانِ ما يؤدّي إلى الفلاحِ : لا تفعلونَ ذلكَ بلْ تؤثرونَ اللذاتِ العاجلةَ الفانيةَ فتسعَونَ لتحصيلِها ، والخطابُ إمَّا للكفرةِ فالمرادُ بإيثارِ الحياةِ الدُّنيا هُو الرِّضا والاطمئنانُ بهَا والإعراضُ عن الآخرةِ بالكليةِ كما في قولِه تعالى : ﴿ إنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بالحياة الدنيا واطمأنوا بِهَا ﴾ الآيةَ ، أو للكُلِّ فالمرادُ بإيثارها ما هُو أعمُّ ممَّا ذُكرَ وما لا يخلُو عنْهُ الإنسانُ غالباً من ترجيحِ جانبِ الدُّنيا على الآخرةِ في السَّعي ، وترتيبِ المبادِي . والالتفاتُ على الأولِ لتشديدِ التوبيخِ وعلى الثَّانِي كذلكَ في حقِّ الكفرةِ وتشديدِ العتابِ في حقِّ المسلمينَ . وقُرِئَ يُؤثرونَ بالياءِ . وقولُه تعالى : ﴿ والأخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ حالٌ من فاعلِ تؤثرونَ مؤكدةٌ للتوبيخِ والعتابِ أي تُؤثرونَها على الآخرةِ والحالُ أنَّ الآخرةَ خيرٌ في نفسِها لمَا أنَّ نعيمَها مع كونِه في غايةِ ما يكونُ من اللذةِ خالصٌ عن شائبةِ الغائلةِ أبديٌّ لا انصرامَ له . وعدمُ التعرضِ لبيانِ تكدرِ نعيمِ الدُّنيا بالمنغصاتِ وانقطاعِه عمَّا قليلٍ لغايةِ ظهورِه .

(170/812)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من قولِه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ وقيلَ : إلى ما في السورةِ جميعاً ﴿ لَفِى الصحف الأولى ﴾ أي ثابتٌ فيها معناهُ ﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ بدلٌ من الصحفِ الأُولى وفي إيهامِها ووصفِها بالقدمِ ثم بيانِها وتفسيرِها من تفخيمِ شأنِها ما لا يَخْفى . رُوِيَ أن جميعَ ما أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ من كتابٍ مائةٌ وأربعةُ كُتبٍ ، أنزلَ على آدمَ عليهِ السَّلامُ عشرَ صحفٍ وعلى شيثٍ خمسينَ صحيفةً وعلى إدريسَ ثلاثينَ صحيفةً وعلى إبراهيمَ عشرَ صحائفَ عليهم السَّلامُ والتوراةَ والإنجيلُ والزبورُ والفرقانَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(171/812)

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾

أي نجا من المكروه وظفر بما يرجوه ﴿ مَن تزكى ﴾ أي تطهر من الشرك بتذكره واتعاظه

بالذكرى وحمله على ذلك مروي عن ابن عباس وغيره وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك " من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الانداد وشهد أني رسول الله " واعتبر بعضهم أمرين فقال أي تطهر من الكفر والمعصية وعليه يجوز أن يكون ما تقدم من باب الاقتصار على الأهم وقيل تزكى أي تكثر من التقوى والخشية من الزكاء وهو النما وقيل تطهر للصلاة وقيل آتي الزكاة وروى هذا عن أبي الأحوص وقتادة وجماعة .

﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ بلسانه وقلبه لا بلسانه مع غفلة القلب إذ مثل ذلك لا ثواب فيه فلا ينبغي أن يدخل فيما يترتب عليه الفلاح والذكر القلبي باستحضار اسمه تعالى في القلب وإن كان ممدوحاً بلا شبهة إلا إن أردته بخصوصه مما ذكر خلاف الظاهر وحكاه في "مجمع البيان" عن بعض وما روى عن ابن عباس من قوله أي ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه عز وجل ظاهر فيه وفي اقحام لفظ اسم وذهب بعض الحنفية إلى أن المراد بهذا الذكر تكبيرة الافتتاح كأنه قيل وكبر للافتتاح .

(172/812)

﴿ فصلى ﴾ أي الصلوات الخمس كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن ابن عباس وروى ذلك في حديث مرفوع وقيل الصلاة المفروضة وما أمكن من النوافل واحتج بذلك على وجوب التكبيرة حيث نيط به الفلاح ووقع بين واجبين بل فرضين التزكي من الشرك والصلاة مع أن الاحتياط في العبادات واجب فلا يضر الاحتمال وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل وهو ظاهر وعلى أن التكبيرة شرط لا ركن للعطف بالفاء وعطف الكل على الجزء كعطف العام على الخاص وإن جاز لا يكون بها مع أنه لو سلم صحته بتكلف فلا بد من نكتة ليدعى وقوعه في الكلام المعجز فحيث لم تظهر لم يصح ادعاؤه وبناء الركنية عليه والانصاف أنه مع ما سمعت احتجاج ليس بالقوي وقيل هو خصوص بسم الله الرحمن الرحيم قبل الصلاة وليس بشيء وعن علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ تزكى ﴾ أي تصدق صدقة الفطر وذكر اسم ربه كبر يوم العيد فصلى صلاة العيد وعن جماعة من السلف ما يقتضي ظاهره ذلك وتعقب بأن الصلاة مقدمة على الزكاة في القرآن وأن السورة مكية ولم يكن حينئذ عيد ولا فطر ورد بأن ذلك إذا ذكرت باسمها أما إذا ذكرت بفعل فتقديمها غير مطرد ومنه ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : 31] على أنه يجوز أن تكون مخالفة العادة ههنا للإرشاد إلى أن هذه الزكاة المقدمة قولاً ينبغي تقديمها فعلاً على الصلاة ولهذا كانوا يخرجونها قبل أن يصلوا العيد كما جاء في الآثار وكون السورة مكية غير مجمع عليه وعلى القول بمكيتها الذي هو الأصح يكون ذلك مما تأخر حكمه عن نزوله وأقول

يجوز أن يقال تزكى أي تطهر من الشرك بأن آمن من بقلبه وذكر اسم ربه أي قال لا إله إلا الله فصلي أي الصلاة المفروضة وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ما يؤيده فيكون تزكى إشارة إلى التصديق بالجنان وذكر اسم ربه إلى النطق باللسان وصل إلى العمل بالأركان لما أن الصلاة عماد الدين وأفضل الأعمال البدنية وناهية عن الفحشاء والمنكر فلا بدع أن تذكر

(173/812)

فيراد جمع الأعمال البدنية والعبادات القالبية وقد يقال اقتصر على ذكر الصلاة لأن الفرائض والواجبات البدنية لم تكن تامة يوم نزول السورة وكانت الصلاة أهم ما نزل إن كان نزل غيرها وقد روى عطاء عن ابن عباس ويزيد النحوي عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن إن أول ما نزل من القرآن بمكة

﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ [العلق : 1] ثم ﴿ ن ﴾ ثم ﴿ المزمل ﴾ ثم ﴿ المدثر ﴾ ثم ﴿ تُبْتُ ﴾ ثم ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] ثم ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ ﴾ ثم إن من رادف لا إله إلا الله محمد رسول الله وكان ذكر الله تعالى المطلوب هو مجموع الجملتين فلا بعد في أن يراد من ذكره تعالى في الآية وإذا اعتبر الإتيان باسمه عز وجل في الجملة الثانية

على الوجه الذي أتى به ذكراً له تعالى كان أمر الإرادة أقرب وهذا الوجه لا يخلو عن حسن وكلمة ﴿ قد ﴾ لما أنه عند الاخبار بسوء حال المتجنب عن الذكر في الآخرة يتوقع السامع الاخبار بحسن حال المتذكر فيها ولا يبعد أن تكون الجملة مستأنفة استئنافاً جواباً لسؤال نشأ عن بيان حال المتجنب والسكوت عن حال المتذكر الذي يخشى فكأنه قيل ما حال من تذكر فقيل قد أفلح إلى آخره وكان الظاهر قد أفلح من تذكر إلا أنه وضع من تزكى إلى آخره موضع من تذكر إشارة إلى بيان المتذكر بسماته وقوله تعالى :

(174/812)

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح ﴿ لاَ تَفْعَلُونَ ذلك بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ الخ ولعله مراد من قال إنه إضراب عن ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ [الأعلى : 14] الخ وقيل إضراب عن بيان حال المتذكر والمتجنب إلى بيان أنه لا ينفع هذا البيان وأضعافه المتمردين على وجه يتضمن بيان سبب عدم النفع وهو ايثار الحياة الدنيا والخطاب على هذا للكفرة الأشقين من أهل مكة وعلى الأول يحتمل أن يكون لهم فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضاء والاطمئنان بها والإعراض عن الآخرة بالكلية كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بالحياة الدنيا واطمأنوا بِهَا ﴾ [

يونس : 7] الآية ويحتمل أن يكون لجميع الناس على سبيل التغليب فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الناس غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادىء وعن ابن مسعود ما يقتضيه والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ وعلى الثاني كذلك في حق الكفرة ولتشديد العتاب في حق لمسلمين وقيل لا التفات لأنه بتقدير قل وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم يؤثرون بياء الغيبة وقوله تعالى :

﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ حال من فاعل ﴿ تؤثرون ﴾ مؤكد للتوبيخ والعتاب أي تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها لما أن نعيمها مع كونها في غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة أبدى لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية الظهور .

(175/812)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد إلى قوله تعالى : ﴿ والاخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : 17] وروى ذلك عن قتادة وقال غير واحد إشارة إلى ما ذكر من قوله سبحانه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ [الأعلى : 14] الخ وسيأتي

إن شاء الله تعالى في الحديث ما يشهد له وقال الضحاك إشارة إلى القرآن فالآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الاولين ﴾ وعن ابن عباس وعكرمة والسدي إشارة إلى ما تضمنته السور جميعاً وفيه بعد .

﴿ لَفِي الصحف الاولى ﴾ أي ثابت فيها معناه وقرأ الأعمش وهرون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكون الحاء وكذا فيما بعد وهي لغة تميم على ما في اللوامح .

(176/812)

﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ بدل من ﴿ الصحف الأولى ﴾ [الأعلى : 18] وفي إيهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وكانت صحف ابراهيم عشرة وكذا صحف موسى عليه السلام والمراد بها ما عدا التوراة أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله كم أنزل الله تعالى من كتاب قال مائة كتابة وأربعة كتب أنزل على شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان قلت يا رسول الله فما كانت صحف ابراهيم قال أمثال كلها أيها الملك المتسلط على المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن

بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ويتذكر فيما صنع وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فإن في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات واجتماعاً للقلوب وتفريغاً لها وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلا فيما يعنيه وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمة لمعاش أو تزود لمعاد أو تلذذ في غير محرم قلت يا رسول الله فما كانت صحف موسى قال كانت عبرا كلها عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح ولمن أيقن بالنار ثم يضحك ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ولمن أيقن بالقدر ثم يضغب ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل قلت يا رسول الله هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى قال يا أبا ذر نعم ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : 14-17] الله والله تعالى أعلم بصحة الحديث وقرأ أبو رجاء ابرهم بحذف الألف والياء وبالهاء مفتوحة ومكسورة وعبد الرحمن بن أبي بكرة بكسرها

(177/812)

لا غير وقرأ أبو موسى الأشعري وابن الزبير ابراهام بالغين في كل القرآن وقرأ مالك بن دينار ابراهم بألف وفتح الهاء وبغير ياء وجاء كما قال ابن خالويه ابرهم بضم الهاء بلا ألف ولا ياء وهذا من تصرفات العرب في الأسماء الأعجمية فإن براهيم على الصحيح منها وحكى الكرماني في عجائبه أنه اسم عربي مشتق من البرهمة وهي شدة النظر ونسبه قد تقدم وكذا نسب موسى صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(178/812)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾

أي : نزّهه عن كل ما لا يليق به .

قال السديّ : ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾ : أي : عظمه .

قيل : والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، كما في قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

والمعنى : سبّح ربك الأعلى .

قال ابن جرير : المعنى نزّه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون على هذا مقحمة .

وقيل المعنى : نزّه تسمية ربك ، وذكرك إياه أن تذكره إلاّ وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم .

وقال الحسن : معنى سبّح اسم ربك الأعلى : صلّ له .

وقيل المعنى : صلّ بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية .

وقيل المعنى : ارفع صوتك بذكر ربك ، ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما . . . سبّح الحجيج وكبّروا تكبيرا

والأعلى صفة للربّ .

وقيل للاسم ، والأوّل أولى .

وقوله : ﴿ الذى خَلَقَ فسوى ﴾ صفة أخرى للربّ .

قال الزجاج : خلق الإنسان مستوياً ، ومعنى سوّى : عدّل قامته .

قال الضحاك : خلقه فسوّى خلقه .

وقيل : خلق الأجساد ، فسوّى الأفهام .

وقيل : خلق الإنسان وهيأه للتكليف .

﴿ والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ صفة أخرى للربّ ، أو معطوف على الموصول الذي قبله .

قرأ عليّ بن أبي طالب ، والكسائي ، والسلمي : (قدر) مخففاً ، وقرأ الباقون بالتشديد ،

قال الواحدي : قال المفسرون : قدّر خلق الذكر والأنثى من الدّواب ، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها .

وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشرّ ، والسعادة والشقاوة ، وروي عنه أيضاً أنه قال في معنى الآية : قدّر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيها .

وقيل : قدّر أرزاقهم وأقواتهم ، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً .

وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له .

وقيل : خلق المنافع في الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها .

(179/812)

وقال السديّ : قدّر مدّة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقلّ وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم .

قال الفراء : أي قدّر ، فهدى ، وأضلّ فاكتفى بأحدهما ، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا .

والأولى عدم تعيين فرد ، أو أفراد مما يصدق عليه قدّر ، وهدى إلا بدليل يدلّ عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين ، إما على البدل ، أو على الشمول ، والمعنى : قدّر أجناس الأشياء وأنواعها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وأقوالها ، وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ، ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه .

﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى ﴾ صفة أخرى للربّ ، أي : أنبت العشب ، وما ترعاه النعم من النبات الأخضر ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاء أحوى ﴾ أي : فجعله بعد أن كان أخضر غثاء ، أي : هشيماً جافاً كالغثاء الذي يكون فوق السيل أحوى أي : أسود بعد اخضراره ، وذلك أن الكلأ إذا يبس اسودّ .

قال قتادة : الغثاء الشيء اليابس ، ويقال : للبقل والحشيش إذا انحطم ، ويبس غثاء وهشيم .

قال امرؤ القيس :

كأنّ ذرى رأس المجمر غدوة . . . من السيل والأغثاء فلكة مغزل

وانتصاب ﴿ غثاء ﴾ على أنه المفعول الثاني ، أو على الحال ، و ﴿ أحوى ﴾ صفة له .

وقال الكسائي : هو حال من المرعى ، أي : أخرجه أحوى من شدّة الخضرة والريّ ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاء ﴾ بعد ذلك ، والأحوى مأخوذ من الحوة ، وهي : سواد يضرب إلى الخضرة .

قال في الصحاح : والحوة سمرة الشفة ، ومنه قول ذي الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس . . . وفي اللثات وفي أنيابها شنب

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ أي : سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة ، فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته الخاصة به بعد بيان الهداية العامة ، وهي هدايته صلى الله عليه وسلم لحفظ القرآن .

(180/812)

قال مجاهد ، والكلبي : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بأوّلها مخافة أن ينساها ، فنزلت : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعمّ المفاعيل .

أي : لا تنسى مما تقرؤه شيئًا من الأشياء إلاَّ ما شاء الله أن تنساه .

قال الفرّاء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسي محمد صلى الله عليه وسلم شيئًا كقوله : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ﴾ [هود : 107] .

وقيل : إلا ما شاء الله أن تنسى ، ثم تذكر بعد ذلك ، فإذن قد نسي ، ولكنه يتذكر ولا

ينسى شيئًا نسياناً كلياً .

وقيل : بمعنى النسخ أي : إلاَّ ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته .

وقيل : معنى ﴿ فلا تنسى ﴾ : فلا تترك العمل إلاَّ ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه .

وقيل المعنى : إلاَّ ما شاء الله أن يؤخر إنزاله .

وقيل : "لا" في قوله : ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ للنهي .

والألف مزيدة لرعاية الفاصلة ، كما في قوله : ﴿ فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67]

يعني : فلا تغفل قراءته وتذكره .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ الجملة تعليل لما قبلها ، أي : يعلم ما ظهر وما بطن ، والإعلان والإسرار ، وظاهره العموم ، فيندرج تحته ما قيل : إن الجهر ما حفظه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة ، وما يخفى هو إخفاؤها ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل : إن الجهر جهره صلى الله عليه وسلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ معطوف على سنقرئك ، وما بينهما اعتراض .

قال مقاتل : أي نهوّن عليك عمل الجنة .

وقيل : نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل .

(181/812)

وقيل : للشريعة اليسرى ، وهي الحنيفية السهلة .

وقيل : نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به ، والأولى حمل الآية على العموم ، أي : نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كلّ أمر من أمورهما التي تتوجه إليك .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ أي : عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك ، وأرشدهم إلى سبل الخير ، واهدهم إلى شرائع الدين .

قال الحسن : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

قال الواحدي : إن نفعت أو لم تنفع ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث مبلغاً للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير في كل حال نفع ، أو لم ينفع ولم يذكر الحالة الثانية كقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] الآية .

قال الجرجاني : التذكير واجب ، وإن لم ينفع ، فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع .

وقيل : إنه مخصوص في قوم بأعيانهم .

وقيل : إن بمعنى ما ، أي : فذكر ما نفعت الذكرى ؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال .

وقيل : إنها بمعنى قد ، وقيل : إنها بمعنى إذ .

وما قاله الواحدي ، والجرجاني أولى ، وقد سبقهما إلى القول به الفراء ، والنحاس .

قال الرازي : إنّ قوله : ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ للتنبيه على أشرف الحالين ، وهو : وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى ، والمعلق بإن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل عليه آيات : منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى : ﴿ واشكروا للَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : 172] .

(182/812)

ومنها قوله : ﴿ فليس جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة إِنْ خِفْتُمْ ﴾ [النساء : 101] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه ، ومنها قوله : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ الله ﴾ [البقرة : 230] والمراجعة جائزة بدون هذا الظنّ ، فهذا الشرط فيه فوائد : منها ما تقدّم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول الرجل لمن يرشده : قد أوضحت لك إن كنت تعقل ، وهو تنبيه للنبيّ صلى الله عليه وسلم على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا في تكرير الدعوة ، فأما الدعاء الأوّل فعامّ انتهى .

ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ، ومن لا تنفعه ، فقال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ أي : سيتعظ بوعظك من يخشى الله ، فيزداد بالتذكير خشية وصلاحاً .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ﴾ أي : ويتجنب الذكرى ، ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله ، وانهماكه في معاصيه .

ثم وصف الأشقى فقال : ﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ أي : العظيمة الفظيعة ؛ لأنها أشدّ حراً من غيرها .

قال الحسن : النار الكبرى نار جهنم ، والنار الصغرى نار الدنيا .

وقال الزجاج : هي السفلى من أطباق النار ﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ أي : لا يموت فيها ، فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي . . . عناها ولا تحيا حياة لها طعم

و " ثم " للتراخي في مراتب الشدّة ؛ لأن التردّد بين الموت ، والحياة أفظع من صلي النار الكبرى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ أي : من تطهر من الشرك ، فآمن بالله ووحده ، وعمل بشرائعه .

قال عطاء ، والربيع : من كان عمله زاكياً نامياً .

وقال قتادة : تزكى بعمل صالح .

قال قتادة ، وعطاء ، وأبو العالية : نزلت في صدقة الفطر .

قال عكرمة : كان الرجل يقول : أقدّم زكاتي بين يدي صلاتي .

وأصل الزكاة في اللغة النماء .

(183/812)

وقيل : المراد بالآية زكاة الأموال كلها .

وقيل : المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ؛ لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكي لا تزكي .

﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ قيل المعنى : ذكر اسم ربه بالخوف ، فعبده وصلى له ، وقيل : ذكر اسم ربه بلسانه فصلى أي : فأقام الصلوات الخمس .

وقيل : ذكر موقفه ومعاده فعبده ، وهو كالقول الأوّل .

وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة ، لأنها لا تنعقد إلا بذكره ، وهو : قوله "الله أكبر" وقيل : ذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى .

وقيل : هو أن يتطوّع بصلاة بعد زكاة .

وقيل : المراد بالصلاة هنا صلاة العيد ، كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول ؛ لأن السورة مكية ، ولم تفرض زكاة الفطر ، وصلاة العيد إلا بالمدينة .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدّر يدلّ عليه السياق ، أي : لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا .

قرأ الجمهور : ﴿ تؤثرون ﴾ بالفوقية على الخطاب ، ويؤيدها قراءة أبيّ : (بل أنتم تؤثرون) وقرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة .

قيل : والمراد بالآية الكفرة ، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها ، والاطمئنان إليها ، والإعراض عن الآخرة بالكلية .

وقيل : المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر ، والمراد بإيثارها ما هو أعمّ من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها ، والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات .

وجملة : ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تؤثرون ، أي : والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل ، وأدوم من الدنيا .

قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى ؟

والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إلى ما تقدّم من فلاح من تزكى وما بعده ، وقيل : إنه إشارة إلى جميع السورة ، ومعنى ﴿ لَفِي الصحف الأولى ﴾ أي : ثابت فيها .

وقوله : ﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ بدل من الصحف الأولى .

قال قتادة ، وابن زيد : يريد بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ والآخرة خير وأبقى .

وقالا : تتابعت كتب الله عزّ وجلّ أنّ الآخرة خير وأبقى من الدنيا .

وقال الحسن : تتابعت كتب الله جلّ ثناؤه إن هذا لفي الصحف الأولى ، وهو قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ إلى آخر السورة .

قرأ الجمهور : ﴿ لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم ﴾ بضم الحاء في الموضعين ، وقرأ الأعمش ، وهارون ، وأبو عمرو في رواية عنه بسكونها فيهما ، وقرأ الجمهور : ﴿ إبراهيم ﴾ بالألف بعد الراء ، وبالياء بعد الهاء .

وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء .

وقرأ أبو موسى ، وابن الزبير : " إبراهام " بألفين .

وقد أخرج أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوها في ركوعكم " فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الأعلى

﴿ [أي : سورة الأعلى] قال : " اجعلوها في سجودكم " ولا مطعن في إسناده .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] قال : " سبحان ربي الأعلى " قال أبو داود : خولف فيه وكيع ، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً .

وأخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ قال : "سبحان ربي الأعلى" ، وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال : "إذا قرأت ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ .

(185/812)

فقل : سبحان ربي الأعلى" .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ بن أبي طالب أنه قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ فقال : "سبحان ربي الأعلى" وهو في الصلاة ، فقيل له أتزيد في القرآن ؟ قال : لا ، إنما أمرنا بشيء ، فقلته .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن

أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة : ب ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ فقال : "سبحان ربي الأعلى" .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ ﴾ الأعلى فقال : "سبحان ربي الأعلى" ، وكذلك هي في قراءة أبيّ بن كعب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر أنه قال : إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ قال : "سبحان ربي الأعلى" .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ فقال : "سبحان ربي الأعلى" وهو في الصلاة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاء ﴾ قال : هشيماً ﴿ أحوى ﴾ قال متغيراً .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى ، فقيل له قد كفيناك ذلك ، ونزلت : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ .

وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ يقول : إلا ما شئت أنا ، فأنسيك .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ قال : للخير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ قال : الجنة .

(186/812)

وأخرج البزار ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : " من شهد أن لا إله إلاّ الله ، وقطع الأنداد ، وشهد أني رسول الله " ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ قال : هي الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها ، والاهتمام بمواقيتها " .

قال البزار : لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : من الشرك ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ قال : وحد الله ﴿ فصلى ﴾ قال : الصلوات الخمس .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : من قال لا إله إلا الله .

وأخرج البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه والبيهقي في

سننه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ " .

(187/812)

وفي لفظ قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن زكاة الفطر ، فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : " هي زكاة الفطر " وكثير بن عبد الله ضعيف جدّاً ، قال فيه أبو داود : هو ركن من أركان الكذب ، وقد صحح الترمذي حديثاً من طريقه ، وخطىء في ذلك ، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر " وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول ، بل فيهما أنه تلا الآية ، وقوله : هي زكاة الفطر ، يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي ، وقد قدّمنا أن السورة مكية ، ولم تكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد .

﴿ وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ قال : خرج إلى العيد وصلى .

وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عمر قال : إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم ربِّهِ فصلى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : قلت لابن عباس : أرأيت قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ للفطر قال : لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها .

ثم عاودته فقال لي : والصدقات كلها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والبيهقي في شعب الإيمان عن عرفجة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه ، فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ، فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ، ونساءها ، وطعامها ، وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وقال : (بل يؤثرون الحياة الدنيا) بالياء .

(188/812)

وأخرج البزار ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " هي كلها في صحف إبراهيم ، وموسى " وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في الآية قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى ، وفي لفظ : هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن أبي ذرّ قال : قلت يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : " مائة كتاب ، وأربعة كتب " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 422. 427 ﴾

(189/812)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) ﴾

استئناف بياني لأن ذكر ﴿ من يخشى ﴾ [الأعلى : 10] وذكر ﴿ الأشقى ﴾ [الأعلى : 11] يثير استشراف السامع لمعرفة أثر ذلك فابتدىء بوصف أثر الشقاوة فوصف ﴿ الأشقى ﴾ بأنه ﴿ يصلى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 12] وأخر ذكر ثواب الأتقى تقديماً للأهمّ في الغرض وهو بيان جزاء الأشقى الذي يتجنب الذكرى وبقي

السامع ينتظر أن يعلم جزاء من يخشى ويتذكر .

فلما وفي حق الموعظة والترهيبة استؤنف الكلام لبيان المثوبة والترغيب .

فالمراد بـ ﴿ من تزكى ﴾ هنا عين المراد بـ "من يخشى ويذكر" فقد عرف هنا بأنه الذي ذكر اسم ربه ، فلا جرم أن ذكر اسم ربه هو التذكر بالذكرى ، فالتذكر هو غاية الذكرى المأمور بها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ فذكر ﴾ [الأعلى : 9] .

وقد جُمعت أنواع الخير في قوله : ﴿ قد أفلح ﴾ فإن الفلاح نجاح المرء فيما يطمح إليه فهو يجمع معنيي الفوز والنفع وذلك هو الظفر بالمبتغى من الخير ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في البقرة (5) .

والإِتيان بفعل المضي في قوله أفلح ﴾ للتنبيه على المحقق وقوعه من الآخرة ، واقترانه بحرف ﴿ قد ﴾ لتحقيقه وتثنيته كما في قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] وقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ [الشمس : 9] لأن الكلام موجه إلى الأشقَيْنَ الذين تجنبوا الذكرى إثارة لهمتهم في الإلتحاق بالذين خشوا فأفلحوا .

ومعنى ﴿ تزكَّى ﴾ : عالج أن يكون زكياً ، أي بذل استطاعته في تطهير نفسه وتزكيتها كما قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : 109] .

فمادة التفعل للتكلف وبذل الجهد ، وأصل ذلك هو التوحيدُ والاستعداد للأعمال الصالحة التي جاء بها الإسلام ويجيء بها ، فيشمل زكاة الأموال .

أخرج البزار عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أني رسول الله ، ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها ، وهو قول ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة .

وقدم التزكّي على ذكر الله والصلاةِ لأنه أصل العمل بذلك كله فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية فعُلمت منافعها وأكثرت من الإِقبال عليها فالتزكية : الارتياض على قبول الخير والمراد تزكّى بالإِيمان .

وفعل ﴿ ذكر اسم ربه ﴾ يجوز أن يكون من الذّكر اللساني الذي هو بكسر الذال فيكون كلمة ﴿ اسم ربه ﴾ مراداً بها ذكر أسماء الله بالتعظم مثل قول لا إله إلا الله ، وقول الله أكبر ، وسبحان الله ، ونحو ذلك على ما تقدم في قوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] .

ويجوز أن يكون من الذُّكر بضم الذال وهو حضور الشيء في النفس الذاكرة والمفكرة فتكون كلمة ﴿ اسم ﴾ مقحمة لتدل على شأن الله وصفات عظمته فإن أسماء الله أوصاف

كمال .

وتفريع ﴿ فصلى ﴾ على ﴿ ذكر اسم ربه ﴾ على كلا الوجهين لأن الذكر بمعنييه يبعث الذاكر على تعظيم الله تعالى والتقرب إليه بالصلاة التي هي خضوع وثناء .

وقد رتبت هذه الخصال الثلاث على الآية على ترتيب تولدها .

فأصلها : إزالة الخباثة النفسية من عقائد باطلة وحديث النفس بالمضمرات الفاسدة وهو المشار إليه بقوله : ﴿ تزكى ﴾ ، ثم استحضارُ معرفة الله بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار بقوله : ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ ثم الإِقبالُ على طاعته وعبادته وهو المشار إليه بقوله : ﴿ فصلى ﴾ والصلاةُ تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر اللَّه أكبر ﴾ [العنكبوت : 45] .

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16)

(191/812)

قرأ الجمهور ﴿ تؤثرون ﴾ بمثناة فوقية بصيغة الخطاب ، والخطاب موجه للمشركين بقرينة السياق وهو التفات ، وقرأه أبو عمرو وحدَه بالمثناة التحتية على طريقة الغيبة عائداً إلى

﴿ الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 11 ، 12] .

وحرف ﴿ بَل ﴾ معناه الجامع هو الإضراب ، أي انصراف القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد ﴿ بل ﴾ ؛ فهو إذا عَطَف المفردات كان الإضراب إبطالاً للمعطوف عليه : لغلط في ذكر المعطوف أو للاحتراز عنه فذلك انصراف عن الحكم .

وإذا عطفَ الجمل فعطفه عطف كلام على كلام وهو عطف لفظي مجرد عن التشريك في الحكم ويقع على وجهين ، فتارة يقصد إبطال معنى الكلام نحو قوله تعالى : ﴿ أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق ﴾ [المؤمنون : 70] فهو انصراف في الحُكم ، وتارة يقصد مجرد التنقل من خبر إلى آخر مع عدم إبطال الأول نحو قوله تعالى : ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ [المؤمنون : 62 ، 63] .

فتكون ﴿ بل ﴾ بمنزلة قولهم "دع هذا" فهذا انصراف قولي .

ويعرف أحد الإضرابين بالقرائن والسياق .

و﴿ بل ﴾ هنا عاطفة جملة عطفاً صُورياً فيجوز أن تكون لمجرد الانتقال من ذكر المنتفعين بالذكرى والمتجنبين لها ، إلى ذكر سبب إعراض المتجنبين وهم الأَشْقَون بأنَّ السبب إيثارهم الحياة الدنيا ، وذلك على قراءة أبي عمرو ظاهر ، وأما على قراءة الجمهور فهو إضراب عن حكاية أحوال الفريقين بالانتقال إلى توبيخ أحد الفريقين وهو الفريق الأشقى فالخطاب موجه إليهم على طريقة الالتفات لتجديد نشاط السامع لكي لا تنقضي السورة

كلها في الإخبار عنهم بطريق الغيبة .

ويجوز أن يكون الإضراب إبطالاً لما تضمنه قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ [الأعلى : 14] من التعريض للذين شَقُوا بتحريضهم على طلب الفلاح لأنفسهم ليلتحقوا بالذين يخشون ويتزكّون ليبطل أن يكونوا مظنة تحصيل الفلاح .

(192/812)

والمعنى : أنهم بُعداء عن أن يظنّ بهم التنافس في طلب الفلاح لأنهم يؤثرون الحياة الدنيا ، فالمعنى : بل أنتم تؤثرون منافع الدنيا على حظوظ الآخرة ، وهذا كما يقول الناصح شخصاً يظن أنه لا ينتصح "لقد نصحتك وما أظنك تفعل" .

ويجيء فيه الوجهان المتقدمان من الخطاب والغيبة على القراءتين .

والإِيثار : اختيار شيء من بين متعدد .

والمعنى : تؤثرون الحياة الدنيا بعنايتكم واهتمامكم .

ولم يُذكر المؤثَر عليه لأن الحياة الدنيا تدل عليه ، أي لا تتأملون فيما عدَا حياتكم هذه ولا تتأمّلون في حياة ثانية ، فالمشركون لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِّروا بالحياة الآخرة وأخبروا بها لم يُعيروا سمعهم ذلك وجعلوا ذلك من الكلام الباطل وهذا مورد التوبيخ .

واعلم أنّ للمؤمنين حظاً من هذه الموعظة على طول الدهر ، وذلك حظ مناسب لمقدار ما يفرِّط فيه أحدهم مما ينجيه في الآخرة إيثاراً لما يجتنيه من منافع الدنيا التي تجر إليه تَبِعةً في الآخرة على حسب ما جاءت به الشريعة ، فأما الاستكثار من منافع الدنيا مع عدم إهمال أسباب النجاة في الآخرة فذلك مَيدانٌ للهمم وليس ذلك بمحل ذم قال تعالى:

﴿ وابتغ فيما آتاك اللَّه الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : 77] .

وجملة : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ عطف على جملة التوبيخ عطفَ الخبر على الإنشاء لأن هذا الخبر يزيد إنشاءَ التوبيخ توجيهاً وتأييداً بأنهم في إعراضهم عن النظر في دلائل حياة آخرة قد أعرضوا عما هو خير وأبقَى .

و﴿ أبقى ﴾ : اسم تفضيل ، أي أطول بقاءً ، وفي حديث النهي عن جَرِّ الإزار " وليكن إلى الكعبين فإنه أتقَى وأبْقَى " .

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18)

(193/812)

تذييل للكلام وتنويه به بأنه من الكلام النافع الثابت في كتب إبراهيم وموسى عليهما السلام ، قصد به الإِبلاغ للمشركين الذين كانوا يعرفون رسالة إبراهيم ورسالة موسى ، ولذلك أكّد

هذا الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ ولام الابتداء لأنه مسوق إلى المنكرين .

6

والإِشارة بكلمة ﴿ هذا ﴾ إلى مجموع قوله ﴿ قد أفلح من تزكى إلى قوله وأبقى ﴾ [الأعلى : 14 17] فإن ما قَبْل ذلك من أول السورة إلى قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ [الأعلى : 14] ، ليس مما ثَبت معناه في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

روى ابن مردويه والآجُري عن أبي ذر قال : "قلت يا رسول الله هل أُنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : نعم ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والأخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : 14 17] .

ولم أقف على مرتبة هذا الحديث .

ومعنى الظرفية من قوله : ﴿ لفي الصحف ﴾ أن مماثله في المعنى مكتوب في الصحف الأولى ، فأطلقت الصحف على ما هو مكتوب فيها على وجه المجاز المرسل كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ [ص : 16] ، أي ما في قِطّنا وهو صك الأعمال .

و ﴿ الصحف ﴾ : جمع صحيفة على غير قياس لأن قياس جمعه صحائف ، ولكنه مع كونه غير مقيس هو الأفصح كما قالوا : سُفُن في جمع سفينة ، ووجه جمع الصحف أن إبراهيم كانت له صحف وأن موسى كانت له صحف كثيرة وهي مجموع صحف أسفار

التوراة .

وجاء نظم الكلام على أسلوب الإِجمال والتفصيل ليكون لهذا الخبر مزيد تقرير في أذهان الناس فقوله : ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ بدل من ﴿ الصحف الأولى ﴾ .

و ﴿ الأولى ﴾ : وصف لصُحف الذي هو جمع تكسير فله حكم التأنيث .

و ﴿ الأولى ﴾ صيغة تفضيل .

واختلف في الحروف الأصلية للفظ أوّل فقيل : حروفه الأصول همزة فواو (مكررة) فلام ذكره في "اللسان" فيكون وزن أول : أَأْوَل ، فقلبت الهمزة الثانية واواً وأدغمت في الواو .

(194/812)

وقيل : أُصوله : وَاوَان ولام وأن الهمزة التي في أوله مزيدة فوزن أول : أفعل وإدغام إحدى الواوين ظاهر .

وقيل : حروفه الأصلية واو وهمزة ولام فأصل أول أوْأَلْ بوزن أفعل قلبت الهمزة التي بعد الواو واواً وأدغما .

و ﴿ الأولى ﴾ : مؤنث أفعل من هذه المادة فإما أن نقول : أصلها أُوْلى سكنت الواو سكوناً ميتاً لوقوعها إثر ضمة ، أو أصلها : وُوْلَى بواو مضمومة في أوله وسكنت الواو

الثانية أيضاً ، أو أصلها : وُأَلَى بواو مضمومة ثم همزة ساكنة فوقع فيه قلب ، فقيل : أولى فوزنها على هذا عُفْلَى .

والمراد بالأولية في وصف الصحف سبق الزمان بالنسبة إلى القرآن لا التي لم يسبقها غيرها لأنه قد روي أن بعض الرسل قبل إبراهيم أنزلت عليه صحف فهو كوصف ﴿ عاد بالأولى ﴾ في قوله : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] وقوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ [النجم : 56] وفي حديث البخاري : " إنَّما أدرك الناسُ من كلام النبوءة الأولى إذَا لم تستح فاصنع ما شئت " .

وأخرج عبدُ بن حميد وابن مردويه وابن عساكر وأبو بكر الآجُري عن أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن صحف إبراهيم كانت عشر صحائف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(195/812)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ سبح ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزلت سورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ﴿ سبح اسم ربك ﴾ بمكة .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاري عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرئاننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ في سور مثلها .

وأخرج أحمد والبزار وابن مردويه عن علي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب هذه السورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

وأخرج أبو عبيد عن تميم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني نسيت أفضل المسبحات فقال أبيّ بن كعب فلعلها ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : نعم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن النعمان

بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ [الغاشية : 1] وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن أبي عتبة الخولاني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الجمعة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

وأخرج ابن ماجة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيد ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

(196/812)

وأخرج أحمد وابن ماجة والطبراني عن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

وأخرج البزار عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الظهر ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والبيهقي في سننه عن عمران بن حصين " أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر فلما سلم قال : " هل قرأ أحد منكم ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال رجل : أنا . قال : قد علمت أن بعضكم خالجنيها " " .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبيّ بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] .

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي عن عاشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الأولى ب ﴿ سبح ﴾ وفي الثانية ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الاخلاص : 1] والمعوذتين .

وأخرج البزار عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الوتر ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج محمد بن نصر عن أنس مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال : " أَمَّ معاذ قوماً في صلاة المغرب فمر به غلام من الأنصار ، وهو يعمل على بعير له ، فأطال بهم معاذ ، فلما رأى ذلك الغلام ترك الصلاة وانطلق في طلب بعيره ، فرفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أفتان أنت

يا معاذ ، ألا يقرأ أحدكم في المغرب ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ " " .

(197/812)

وأخرج ابن ماجة عن جابر أن معاذ بن جبل صلى بأصحابه العشاء فطول عليهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اقرأ (بالشمس وضحاها) و ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] و ﴿ اقرأ باسم ربك الأعلى ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " قلنا يا رسول الله كيف نقول في سجودنا ؟ فأنزل الله ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول في سجودنا سبحان ربي الأعلى " .

وأخرج ابن سعد عن الكلبي قال : " وفد حضرمي بن عامر على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ (سبح اسم ربك لأعلى ، الذي خلق فسوّى ، والذي قدر فهدى ، والذي أمتن على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى بين شغاف وحشا) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزيدنّ فيها فإنها شافية كافية " " .

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهني قال : " لما أنزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : 74] قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوها في ركوعكم " فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : " اجعلوها في سجودكم " " .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : سبحان ربي الأعلى " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : سبحان ربي الأعلى .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : إذا قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقل : سبحان ربي الأعلى .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب أنه قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى ، وهو في الصلاة فقيل له : أتزيد في القرآن قال : لا إنما أمرنا بشيء فقلته .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ ﴿ سبحان اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى . قال : كذلك هي قراءة أبيّ بن كعب .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير أنه قرأ ﴿ سبح ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربي الأعلى ، وهو في الصلاة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه كان يقرؤها كذلك ويقول : من قرأها فليقل سبحان ربي الأعلى .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال : سبحان ربي الأعلى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر أنه كان إذا قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : سبحان ربي الأعلى

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله :

﴿ والذي قدر فهدى ﴾ قال : هدى الإِنسان للشقوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن إبراهيم ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ قال : النبات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فجعله غثاء ﴾ قال : هشيماً ﴿ أحوى ﴾ قال : متغيراً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ قال : الغثاء الشيء البالي ﴿ وأحوى ﴾ قال : أصفر وأخضر وأبيض ثم ييبس حتى يكون يابساً بعد خضرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ قال : غثاء السيل ، و ﴿ أحوى ﴾ قال : أسود .

قوله : تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ الآيات .

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ قال : كان يتذكر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال :

"كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يزمل من ثقل الوحي حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بأوله مخافة أن يغشى قلبه فينسى ، فقال له جبريل : لم تفعل ذلك ؟ قال مخافة أن أنسى . فأنزل الله ﴿ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ﴾ فإن النبي صلى الله عليه وسلم نسي آيات من القرآن ليس بحلال ولا حرام ، ثم قال له جبريل : إنه لم ينزل على نبي قبلك إلا نسي وإلا رفع بعضه ، وذلك أن موسى أهبط الله عليه ثلاثة عشر سفراً ، فلما ألقى الألواح انكسرت وكانت من زمرد فذهب أربعة أسفار وبقي تسعة " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينساه فقيل له : كفيناك ذلك ونزلت ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ .

وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص نحوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ﴾ يقول إلا ما شئت أنا فأنسيك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ﴾ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ قال : الوسوسة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ قال : ما أخفيت في نفسك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ قال : للخير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ﴾ قال : والله ما خشي الله عبد قط إلا ذكره ، ولا يتنكب عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً له ولأهله إلا شقي بين الأشقياء .

قوله : تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ الآية .

(200/812)

أخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : " في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من الشرك ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ قال : وحد الله ﴿ فصلى

﴿ قال : " الصلوات الخمس " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من قال لا إله إلا الله .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من قال لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه قال : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من آمن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه قال : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من أكثر الاستغفار .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : بعمل صالح .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى وابن مردويه والبيهقي في سننه بسند ضعيف عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ وفي لفظ قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زكاة الفطر قال : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ فقال : " هي زكاة الفطر " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر " .

(201/812)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : خرج إلى العيد فصلى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : زكاة الفطر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه أن عبد الله بن عمر كان يقدم صدقة الفطر حين يغدو ثم يغدو وهو يتلو ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال : إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وأخرج الطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾

الآية قال : إلقاء القمح قبل الصلاة يوم الفطر في المصلى .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : نزلت في صدقة الفطر ، تزكي ثم تصلي .

وأخرج ابن جرير عن أبي خلدة رضي الله عنه قال : دخلت على أبي العالية فقال لي إذا غدوت غداً إلى العيد فمر بي .

قال : فمررت به ، فقال : هل طعمت شيئاً . قلت : نعم . قال : فأخبرني ما فعلت زكاتك ؟ قلت : قد وجهتها . قال : إنما أردتك لهذا . ثم قرأ ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : أدى زكاة الفطر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين رضي الله عنه في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : أدى صدقة الفطر ثم خرج فصلى بعد ما أدى .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه قال : قدم الزكاة ما استطعت يوم الفطر ثم قرأ ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما : أرأيت قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ للفطر ! قال : لم أسمع بذلك ، ولكن الزكاة كلها ، ثم عاودته فيها فقال لي : والصدقات كلها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ يعني من ماله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من أرضى خالقه من ماله .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : تزكى رجل من ماله ، وتزكى رجل من خلقه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن أبي الأحوص رضي الله عنه قال : رحم الله امرأ تصدق ثم صلى ثم قرأ ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ الآية ولفظ ابن أبي شيبة من استطاع أن يقدم بين يدي صلاته صدقة فليفعل . فإن الله يقول ، وذكر الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي الأحوص رضي الله عنه قال : لو أن الذي تصدق بالصدقة صلى ركعتين ثم قرأ ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ الآية .

وأخرج زيد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إذا خرج أحدكم يريد الصلاة فلا عليه أن يتصدق بشيء لأن الله يقول : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص رضي الله عنه ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من رضخ .

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والبيهقي في شعب الإِيمان عن عرفجة الثقفي قال : استقرأت ابن مسعود ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فلما بلغ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه ، فقال : آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم .

(203/812)

فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل وقال : " بل يؤثرون " بالياء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾

قال : اختار الناس العاجلة إلا من عصم الله ﴿ والآخرة خير ﴾ في الخير ﴿ وأبقى ﴾ في البقاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ قال : يعني هذه الأمة ، وإنكم ستؤثرون الحياة الدنيا .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا آثروا صفقة دنياهم ، ثم قالوا : لا إله إلا الله ردت عليها وقال الله كذبتم " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يلقى الله أحد بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا دخل الجنة ما لم يخلط معها غيرها ، رددها ثلاثاً قال قائل من قاصية الناس : بأبي أنت وأمي يا رسول الله : وما يخلط معها غيرها ؟ قال : حب الدنيا وأثرة لها وجمعا لها ورضا بها وعمل الجبارين " .

وأخرج أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى " .

وأخرج أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن موسى بن يسار رضي الله عنه أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا ، وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها " .

(204/812)

وأخرج البيهقي عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " .

أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هي كلها في صحف إبراهيم وموسى " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى ، ولفظ سعيد : هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى ، ولفظ ابن مردويه : وهذه السورة وقوله :

﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [النجم : 37] إلى آخر السورة من صحف إبراهيم

وموسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى مثل ما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ يقول : قصة هذه السورة في الصحف الأولى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ قال : تتابعت كتب الله كما تسمعون إن الآخرة خير وأبقى .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ الآية قال : في الصحف الأولى إن الآخرة خير من الدنيا .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ قال : هو الآيات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ قال : في كتب الله كلها .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال : " قلت يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل على شيث خمسين صحيفة ، وعلى ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قلت يا رسول الله : فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : أمثال كلها أيها الملك المتسلط المبتلي المغرور لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتفكر فيما صنع ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال ، فإن في هذه الساعة عوناً لتلك الساعات واستجماعاً للقلوب وتفريغاً لها ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه ، فإن من حسب كلامه من عمله أقل الكلام إلا فيما يعنيه ، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث مرمة لمعاش ، أو تزوّد لمعاد ، أو تلذذ في غير محرم . قلت يا رسول الله : فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبراً كلها عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، ولمن أيقن بالموت ثم يضحك ، ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها ، ولمن أيقن بالقدر ثم ينصب ، ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل . قلت يا رسول الله : هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم

وموسى ؟ قال : يا أبا ذر نعم ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ " .

(206/812)

وأخرج البغوي في معجمه " عن عبد الرحمن بن أبي شبرة رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيه فسأله عن أشياء فقال : يا رسول الله كم توتر ؟ قال : بثلاث ركعات تقرأ فيها ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الاخلاص : 1] " .

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب قال : صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا المغرب فقرأ في الركعة الأولى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وفي الثانية : ب ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 479 ﴾ 489.

(207/812)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الأعلى ﴾

قال الكلبي : يعني صلِّ بأمر ربك ، ويقال سبح هو من التنزيه والبراءة يعني نَزِّه ربك ، والاسم صلة ، ويقال : ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الاعلى ﴾ يعني : قل سبحان ربي الأعلى كما روي في الخبر أنه قيل : يا رسول الله ما نقول في ركوعنا فنزل ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الاعلى ﴾ بمعنى العالي كقوله أكبر بمعنى الكبير والعلو هو القهر والغلبة يعني أمره نافذ على خلقه فلما نزل ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربّكَ العظيم ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجْعَلُوها فِي رِكُوعِكُم " فقالوا : فما نقول في سجودنا ؟ فنزل ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الاعلى ﴾ قال عليه السلام : " اجْعَلُوها فِي سِجُودِكُم " ويقال : " سبح اسم ربك " يعني : اذكر توحيد ربك الأعلى ، ويقال كان بدء قوله : " سبحان ربي الأعلى " أي ميكائيل خطر على باله عظمة الرب جلا وعلا سلطانه فقال : يا رب أعطني قوة حتى أنظر إلى عظمتك ، وسلطانك ، فأعطاه قوة أهل السموات فطار خمسة آلاف سنة فنظر فإذا الحجاب على حاله واحترق جناحه من نور العرش ثم سأل القوة فأعطاه القوة ضعف ذلك فجعل يطير ويرتفع عشرة آلاف سنة حتى احترق جناحه وصار في آخره كالفرخ ورأى الحجاب والعرش على حاله فخر ساجداً وقال : " سبحان ربي الأعلى " يعني : تعالى من أن يكون محسوساً معقولاً ثم

سأل ربه أن يعيده إلى مكانه إلى حاله الأولى ثم قال عز وجل : ﴿ الذى خَلَقَ فسوى ﴾ يعني : الذي خلق كل ذي روح ، وجميع خلقه ، ويقال : سبح الله تعالى الذي خلقك فسوى خلقك يعني : اليدين والرجلين والعينين ولم يخلقك زمناً ولا مكفوفاً ، كما قال وصوّركم فأحسن صوركم قوله تعالى : ﴿ والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ يعني : قدر لكل شيء شكله ، يعني لكل ذكر وأنثى من شكله وهداه للأكل والشرب والجماع ، ويقال الذي قدر فهدى يعني فهداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ويقال الذي قدر فهدى سبح لله الذي خلقك وقدر آجالك وأرزاقك وأعمالك وهداك إلى المعرفة والإسلام والأكل

(208/812)

والشرب فصلّ يا بن آدم وسبح لهذا المنعم المكرم السيد الذي هو الأحد الصمد ، ﴿ هُوَ الاول والاخر والظاهر والباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : 3] ثم قال عز وجل : ﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى ﴾ يعني : أنبت الكلأ ويقال هو العشب والحشيش وألقت وما أشبه ، قرأ الكسائي : ﴿ والذى قَدَّرَ ﴾ بالتخفيف ، والباقون بالتشديد ومعناها واحد يقال : قدره الأمر وقدرته قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاء أحوى ﴾ يعني : جعل المرعى يابساً بعد خضرته ، وقال القتبي : غثاء يعني يابساً ، أحوى يعني أسود من قدمه

واحتراقه .

ثم قال عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ يعني : سنعلمك القرآن وينزل عليك فلا تنسى إلا ما شاء الله ، يعني : قد شاء الله أن لا تنسى القرآن فلم ينس القرآن بعد نزول هذه الآية .

(209/812)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ في قراءته قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام مخافة أن ينساه ويقال : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ يعني : سنحفظ عليك حتى لا تنسى شيئاً ، ويقال إن جبريل عليه السلام كان ينزل عليه في كل زمان ويقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبين له ما نسخ فذلك قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ يعني : إلا ما شاء الله أن يرفعه وينسخه ويذهب من قلبك ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ يعني : يعلم العلانية والسر ، ويقال : ما يجهر به الإمام في الفجر والمغرب والعشاء والجمعة وما يخفى يعني : في الظهر والعصر والسنن ، ويقال : ﴿ يَعْلَمْ ﴾ ما يظهر من أفعال العباد وأقوالهم ﴿ وَمَا يخفى ﴾ من أقوالهم وأفعالهم ، ويقال : ﴿ يَعْلَمْ ﴾ ما عمل العباد ﴿ وَمَا يخفى ﴾ يعني ما لم يعملوه وهم عاملوه ثم قال عز وجل : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ يعني : سنهوّن

عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة ، ويقال : يعني نعينك على الطاعة ، قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يعني : فعِظْ بالقرآن الناس ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ يعني : إن نفعتهم العظة ومعناه ما نفعت العظة بالقرآن إلا لمن يخشى ويقال إن نفعت الذكرى يعني إن قولك ودعوتك تنفع لكل قلب عاقل ويقال : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ يعني : نهون عليك عمل أهل الجنة ثم قال : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ يعني : يتعظ بالقرآن من يخشى الله تعالى ويسلم ويقال : معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحاً من يخشى قلبه من عذاب الله تعالى ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ يعني : يتباعد عنها يعني : عن عظتك ﴿ الاشقى ﴾ يعني : الشقي الذي وجب في علم الله تعالى أنه يدخل النار مثل الوليد وأبي جهل ومن كان مثل حالهما ﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ يعني : يدخل يوم القيامة النار الكبرى يعني : النار العظمى لأن نار الدنيا هي النار الصغرى ونار الآخرة هي النار الكبرى ، وروى يونس عن الحسن عن النبي صلى الله عليه

(210/812)

وسلم قال : " إِنَّ نَارَكُم هذه جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَقَدْ غُمِسْتُ فِي النَّار مَرَّتَينِ لِيُدْنَى مِنْهَا وَيُنْتَفَعَ بِهَا وَلَولاَ ذَلِكَ مَا دَنَوتُم مِنْها " ويقال : إنها تستجير أن ترد إلى جهنم

يعني : تتعوذ منها وقال بعض الحكماء : علامة الشقاوة تسع أشياء كثرة الأكل ، والشرب ، والنوم ، والإصرار على الذنب ، والغيبة ، وقساوة القلب ، وكثرة الذنوب ، ونسيان الموت ، والوقوف بين يدي الملك عز وجل ، وهذا هو الشقي الذي يدخل النار الكبرى ﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ يعني : لا يموت في النار حتى يستريح من عذابها ولا يحيا حياة تنفعه ، وقال القتبي معناه : هو العذاب بحال من يموت ولا يموت .

ثم قال عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ يعني فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنة من تزكى يعني وحّد الله تعالى وزكى نفسه بالتوحيد ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ يعني : توحيد ربه ﴿ فصلى ﴾ مع الإمام الصلوات الخمس ، ويقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ يعني : أدى زكاة الفطر ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ مع الإمام صلاة العيد .

(211/812)

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ يعني : أدى زكاة المال ، يعني نجا من خصومة الفقراء يوم القيامة ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ يعني : كبّر وصلى لله تعالى ، ويقال : ﴿ مَن تزكى ﴾ يعني : تاب من الذنوب (وذكر اسم ربه) يعني : إذا سمع الآذان خرج إلى الصلاة ثم ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ يعني : تختارون عمل

الدنيا على عمل الآخرة ، قرأ أبو عمرو : ﴿ بَلِ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة ثم قال عز وجل : ﴿ الدنيا والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ يعني : عمل الآخرة خير وأبقى من اشتغال الدنيا وزينتها ، ويقال معناه يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية وإن عيش الآخرة خير وأبقى لأن في عيش الدنيا عيوباً كثيرة خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب ، لأجل هذا قيل خير من الدنيا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَفِى الصحف الاولى ﴾ يعني : الذي ذكر في هذه السورة كان في الصحف الأولى يعني : في الكتب الأولى ثم فسره فقال : ﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ ويقال : الذي ذكر في آخر السورة أربع آيات لفي كتب الأولين وكل كتاب مكتوب يسمى الصحف يعني في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ الخ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 550.548 ﴾

(212/812)

وقال الثعلبى :

سورة الأعلى

﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾

يعني قل : سبحان ربّي الأعلى ، وإلى هذا التأويل ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ، وقال قوم معناه : نزّه ربّك الأعلى عما يقول فيه الملحدون ويصفه به المبطلون ، وجعلوا الاسم صلة ، ويجوز أن يكون معناه ، نزّه ذات ربّك عما لا يليق به ، لأن الاسم والذات والنفس عبارة عن الوجود والإثبات .

وقال آخرون : نزّه تسمية ربّك وذكرك إياه إن تذكره إلاّ وأنت خاشع معظّم ولذكره محترم ، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية ، وقال الفراء : سواء قلت سبح اسم ربّك أو سبح باسم ربّك إذا أردت ذكره وتسبحيه ، وقال ابن عباس : صلِّ بأمر ربّك الأعلى .

﴿ الذي خَلَقَ فسوى ﴾ فعدل الخلق ﴿ والذي قَدَّرَ ﴾ خفّف عليّ والسلمي والكسائي داله ، وشدَّدها الآخرون .

﴿ فهدى ﴾ : قال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر والسعادة والشقاوة وهدى الأنعام لمراتعها ، وقال مقاتل والكلبي : عرّف خلقه كيف يأتي الذكر الانثى ، وعن عطاء قال : جعل لكل دابة ما يصلحها وهذا حاله ، وقيل : هدى لإكتساب الأرزاق والمعاش ، وقيل : خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لوجه إستخراجها منه ، وقيل : هدى لدينه مَنْ يشاء من خلقه . قال السدي : قدر الولد في الرحم تسعة أشهر ، أقل ، أو أكثر ، وهدى للخروج من الرحم .

وقال الواسطي : قدّر السعادة والشقاوة عليهم ثم يسّر لكل واحد من الطالعين سلوك ما قدّر عليه ، وقيل : قدّر الأرزاق فهداهم لطلبها ، وقيل : قدّر الذنوب على عباده ثم هداهم الى التوبة .

﴿ والذي أَخْرَجَ المرعى ﴾ النبات من بين أخضر وأصفر وأحمر وأبيض .

(213/812)

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَآءً ﴾ هشيماً بالياً ، ﴿ أحوى ﴾ أسود إذا هاج وعتق . ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ : سنعلمك ويقرأ عليك جبريل ، ﴿ فَلاَ تنسى * إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ أن تنساه وهو ما نسخه من القرآن ، وهذا معنى قول قتادة ، وقال مجاهد والكلبي : كان النبي (عليه السلام) إذا نزل جبريل بالقرآن لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوله مخافة أن ينساها فأنزل الله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ فلم ينس بعد ذلك شيئاً ، ووجه الاستثناء على هذا التأويل ما قاله الفراء : لم يشأ أن ينسى شيئاً ، وهو كقوله سبحانه : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : 107] ، وأنت تقول في الكلام لأعطينّك كل ما سألت إلاّ ما شاء أن أمنعك والنية أن لا تمنعه ، وعلى هذا مجاري الأيمان يستثنى فيها ونية الحالف النمّام .

وسمعت محمد بن الحسن السلمي يقول : سمعت محمد بن الحسن البغدادي يقول : سمعت محمد بن عبد الله الفرغاني يقول : كان يغشي الجنيد في مجلسه أهل النسك من أهل العلوم وكان أحد مَنْ يغشاه ابن كيسان النحوي ، وكان في وقته رجلا جليلا فقال له يوماً : يا أبا القاسم ما تقول في قوله سبحانه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ فأجابه مسرعاً كأنه تقدم له السؤال قبل ذلك بأوقات : لا تنسى العمل به ، فأعجب ابن كيسان به إعجاباً شديداً وقال : لا يفضض الله فاك مثلك من يصدر عن رأيه .

(214/812)

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر ﴾ من القول والفعل ﴿ وَمَا يخفى ﴾ : قال محمد بن حامد : يعلم إعلان الصدقة واخفاءها . ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ لعمل الجنّة ، وقيل : هو متصل بالكلام الأول معناه : نعلم الجهر مما تقرأه يا محمد على جبريل إذا فرغ من التلاوة عليك ، وما يخفى ما تقرأه في نفسك مخافة ان تنساه . ثم وعده فقال : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ أي يهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به ، وقيل : ويوفقك للشريعة اليسرى ، وهي الحنفية السمحة .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ عظ بالقرآن ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ التذكر ﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ سيتّعظ ﴿

مَن يخشى ﴾ الله سبحانه ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ﴾ يعني ويتجنب التذكرة ويتباعد عنها . ﴿ الأشقى ﴾ الشقي في علم الله سبحانه . ﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح ﴿ وَلاَ يَحْيَا ﴾ أي حياة تنفعه .

وسمعت السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القاسم البزاز يقول : قال ابن عطا : لا يحيى فيستريح عن القطيعة ولا يحيا فيصل إلى روح الوصلة .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ : أي تطهّر من الشرك وقال : لا إله إلاّ الله ، هذا قول عطاء وعكرمة ورواية الوالي عن ابن عباس وسعيد بن جبير عنه أيضاً ، وقال الحسن : من كان عمله زاكياً ، وعن قتادة : عمل صالحاً وورعاً ، وعن أبو الأحوص : رضح من ماله وادّى زكاة ماله ، وكان ابن مسعود يقول : رحم الله إمرءاً تصدّق ثم صلّى ثم يقرأ هذه الآية ، وقال آخرون : هو صدقة الفطر ، وروى أبو هارون عن أبي سعيد الخدري ، في قوله سبحان : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : أعطى صدقة الفطر .

﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ قال : خرج إلى العيد فصلى .

(215/812)

وروى عبيد الله بن عمر عن نافع قال : كان ابن عمر إذا صلّى الغداة يعني من يوم العيد قال : يا نافع أخرجت الصدقة فإن قلت نعم مضى إلى المصلّى وإن قلت لا قال : فالآن فأخرج ، فإنما نزلت هذه الآية في هذا ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ :

وروى مروان بن معاوية عن أبي خالد قال : دخلت على أبي العالية فقال لي : إذا غدوت غداً إلى العيد فمرّ بي ، قال : فمررت به فقال : هل طمعت شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : أفضت على نفسك من الماء ، قلت : نعم ، قال : فأخبرني ما فعلت زكاتك ؟ قلت : قد وجهتها قال : إنما أردتك لهذا ثم قرأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى * وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ وقال : إنّ أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء ، ودليل هذا التأويل ما أخبرني الحسين قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن علي الهمداني قال : حدّثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن إسحاق الأصبهاني قال : حدّثنا حاتم بن يونس الجرجاني قال : حدّثنا دحيم قال : حدّثنا عبد الله بن نافع عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : " أخرج زكاة الفطر ، وخرج إلى المصلى فصلّى " .

قلت : ولا أدري ما وجه هذا التأويل ، لأن هذه السورة مكيّة بالإجماع ولم يكن بمكّة عيد ، ولا زكاة فطر والله أعلم .

﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ : أي وذكر ربّه ، وقيل : وذكر تسمية ربّه ، وقيل : هو تكبير العيد ، فصلّى صلاة العيد ، وقيل : الصلوات الخمس . يدل عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد ابن عبد الله قال : حدّثنا محمد بن عبد الله قال : حدّثنا عباد بن أحمد العمري قال : حدّثنا عمّي محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عطاء بن السائب عن ابن سابط عن جابر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ قال : " من شهد أن لا إله إلاّ الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله " ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ قال : " هي الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها حين ينادى بها ، والإهتمام بمواقيتها ، وقيل : الصلاة ههنا الدعاء " .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ ، قراءة العامة : بالتاء وتصديقهم قراءة أُبيّ بن كعب ، بل وأنتم تؤثرون ، وقرأ أبو عمرو بالياء ، يعني الاشقين . قال عرفجة الأشجعي : كنا عند ابن مسعود ، فقرأ هذه الآية ، فقال لنا : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة . قلنا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت لنا ، وعُجّل لنا طعامها وشرابها نساؤها [ولذتها وبهجتها ، وإن الآخرة غيبت لنا وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل وتركنا الآجل] .

﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى * إِنَّ هذا ﴾ الذي ذكرت في هذه السورة ، وقال الكلبي : يعني

من قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ إلى آخر السورة ، وقال ابن زيد يعني قوله : ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ قال قتادة : تتابعت كتب الله كما تسمعون إنّ الآخرة خيرٌ وأبقى .

(217/812)

الضحّاك : إنّ هذا القرآن ، ﴿ لَفِي الصحف ﴾ الكتب ﴿ الأولى ﴾ واحدتها صحيفة ، ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ يقال : إنّ في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه ، وقال أبو ذر : " قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً " قال : قلت : يا رسول الله كم المرسلون منهم ؟

قال : " ثلاثمائة وثلاثة عشر وبقيّتهم أنبياء " قلت : أكان آدم نبياً ؟ قال : نعم كلمه الله سبحانه وخلقه بيده ، يا أبا ذر أربعة من الأنبياء عرب : هود وصالح وشعيب ونبيك .

قلت : يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟

قال : " مائة وأربع كتب ، منها على آدم عشر صحف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى أخنوح ، وهو إدريس ثلاثين صحيفة ، وهو أوّل من خطّ بالقلم ، وعلى إبراهيم

عشر صحائف ، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 182.186 ﴾

(218/812)

وقال الزمخشري :

سورة الأعلى

مكية ، وآياتها 19 [نزلت بعد التكوير] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأعلى (87) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى (4)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (5)

تسبيح اسمه عز وعلا : تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه ، كالجبر

(219/812)

والتشبيه ونحو ذلك ، مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاقتدار ، لا بمعنى العلوّ في المكان والاستواء على العرش حقيقة ، وأن يصان عن الابتذال والذكر ، لا على وجه الخشوع والتعظيم . ويجوز أن يكون الْأَعْلَى صفة للرب ، والاسم ، وقرأ علي رضي اللّه عنه : سبحان ربي الأعلى . وفي الحديث لما نزلت : فسبح باسم ربك العظيم ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال : «اجعلوها في سجودكم» «1» وكانوا يقولون في الركوع : اللهم لك ركعت ، وفي السجود :

اللهم لك سجدت خَلَقَ فَسَوَّى أي خلق كل شيء فسوّى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وأنه صنعة حكيم قَدَّرَ فَهَدى قدّر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به . يحكى أنّ الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت ، وقد ألهمها اللّه أنّ مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها ، فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن اللّه . وهدايات اللّه للإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه وما لا يحصر من حوائجه في أغذيته وأدويته ، وفي أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات

البهائم والطيور وهوام الأرض :

باب واسع ، وشوط بطين «2» ، لا يحيط به وصف واصف ، فسبحان ربى الأعلى .

وقرئ :

قدر ، بالتخفيف أَحْوى صفة لغثاء ، أى أَخْرَجَ الْمَرْعى أنبته فَجَعَلَهُ بعد خضرته ورفيفه غُثاءً أَحْوى دربنا «3» أسود . ويجوز أن يكون أَحْوى حالا من المرعى ، أى :

أخرجه أحوى أسود من شدّة الخضرة والري ، فجعله غثاء بعد حوّيه .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 6 إلى 7]

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (6) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى (7)

بشره اللّه بإعطاء آية بينة ، وهي : أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته ، كقوله أَوْ نُنْسِها وقيل : كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل ، فقيل : لا تعجل ، فإنّ جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ، ثم لا تنساه إلا ما شاء اللّه ، ثم تذكره بعد النسيان . أو قال : إلا ما شاء اللّه ، يعنى : القلة والندرة ، كما روى أنه أسقط آية في

---

(1) . أخرجه أبو داود وابن ماجة وابن حبان وأحمد من رواية إياس بن عامر عن عقبة بن عامر به .

(2) . قوله «و شوط بطين» أى بعيد أفاده الصحاح. (ع)

(3) . الدرين: حطام المرعى إذا قدم، كذا في الصحاح. (ع)

(220/812)

قراءته في الصلاة، فحسب أبى أنها نسخت، فسأله فقال: نسيتها «1». أو قال: إلا ما شاء اللّه، الغرض نفى النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء اللّه ولا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وقيل: قوله فَلا تَنْسى على النهى، والألف مزيدة للفاصلة، كقوله السَّبِيلَا يعنى: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه، إلا ما شاء اللّه أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ يعنى أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت، واللّه يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر، فلا تفعل، فأنا أكفيك ما تخافه. أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وبطن من أحوالكم، وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه، فينسى من الوحى ما يشاء، ويترك محفوظا ما يشاء.

[سورة الأعلى (87): الآيات 8 إلى 13]

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا

الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12)

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13)

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى معطوف على سَنُقْرِئُكَ وقوله إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى اعتراض ومعناه : ونوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، يعنى : حفظ الوحى «2» . وقيل للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذا . وقيل : نوفقك لعمل الجنة . فإن قلت : كان الرسول صلى اللّه عليه وسلم مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع ، فما معنى اشتراط النفع ؟

قلت : هو على وجهين ، أحدهما : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم ، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوّا وطغيانا ، وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ، ويزداد جدا في تذكيرهم وحرصا عليه ، فقيل له وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ، أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ، فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير . والثاني : أن يكون ظاهره شرطا ، ومعناه ذمّا للمذكرين ، وإخبارا عن حالهم ، واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم ، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم ، كما تقول للواعظ : عظ المكاسين إن سمعوا منك . قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك ، وأنه لن يكون سَيَذَّكَّرُ فيقبل التذكرة

---

(1) . أخرجه ابن أبى شيبة والنسائي والبخاري في جزء القراءة . والطبري من رواية زر

عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه قال : صلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الفجر فقرأ آية فذكر الحديث» وأخرجه أبو بشر الدولابي من هذا الوجه فقال : عن سعيد عن أبيه عن أبى بن كعب . . . فذكره .

(2) . قوله «يعنى حفظ الوحي» لعله : يعنى في حفظ الوحي . (ع)

(221/812)

وينتفع بها مَنْ يَخْشى اللّه وسوء العاقبة ، فينظر ويفكر حتى يقوده النظر إلى اتباع الحق : فأمّا هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين ، فلا تأمل أن يقبلوا منك يَتَجَنَّبُهَا

ويتجنب الذكرى ويتحاماها الْأَشْقَى

الكافر ، لأنه أشقى من الفاسق . أو الذي هو أشقى الكفرة لتوغله في عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة النَّارَ الْكُبْرى السفلى من أطباق النار «1» وقيل الْكُبْرى نار جهنم . والصغرى : نار الدنيا . وقيل ثُمَّ لأنّ الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلى ، فهو متراخ عنه في مراتب الشدّة : والمعنى : لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 14 إلى 17]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)

تَزَكَّى تطهر من الشرك والمعاصي . أو تطهر للصلاة . أو تكثر من التقوى ، من الزكاء وهو النماء . أو تفعل من الزكاة ، كتصدق من الصدقة فَصَلَّى أى الصلوات الخمس ، نحو قوله وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وعن ابن مسعود : رحم اللّه امرأ تصدق وصلى . وعن على رضى اللّه عنه أنه التصدق بصدقة الفطر وقال : لا أبالى أن لا أجد في كتابي غيرها «2» ، لقوله قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى أى أعطى زكاة الفطر ، فتوجه إلى المصلى ، فصلى صلاة العيد ، وذكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح . وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة عليها ، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له . وعن الضحاك : وذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى صلاة العيد بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فلا تفعلون ما تفلحون به . وقرئ :

---

(1) . قال محمود : «الأشقى : الكافر ، لأنه أشقى من الفاسق . والبار الكبرى : السفلى من أطباق النار» قال أحمد : يشير إلى خلود الفاسق مع الكافر في أسافل النار ، والفاسق أعلى منه ، كما تقدم له التصريح بذلك كثيرا .

(2) . قال محمود : «وعن على أنه قال هو التصدق بصدقة الفطر وقال لا أبالى أن لا أجد

في كتابي غيرها . . . الخ» قال أحمد : في تلقى هذين الحكمين الأخيرين من الآية تكلف : أما الأول ، فلأن العطف وإن اقتضى المغايرة فيقال بموجبها : فنحن إن قلنا إن تكبيرة الإحرام جزء من الصلاة ، فالجزء مغاير للكل ، فلا غرو أن يعطف عليه ، والمغايرة مع الجزئية ثابتة والحالة هذه . وأما الثاني ، فلأن الاسم معرف بالاضافة ، وتعريف الاضافة عهدى عند محققي الفن ، حتى إن القائل إذا قال : جاءني غلام زيد ، ولزيد غلامان ، فإنما تفهم من قوله معينا منهم بسابق عهد بينك وبينه ، هذا مهيع تعريف الاضافة ، والمعهود في افتتاح الصلاة : ما استمر النبي صلى اللّه عليه وسلم على العمل به قولا وفعلا : وهو التكبير المعروف ، ولو تنزلنا على أنه في الآية مطلق ، فالحصر في قوله : تحريمها التكبير قيد إطلاقه .

(222/812)

يؤثرون ، على الغيبة . ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود : بل أنتم تؤثرون خَيْرٌ وَأَبْقى أفضل في نفسها وأنعم وأدوم . وعن عمر رضى اللّه عنه : ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب «1» .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 18 إلى 19]

إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (18) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى (19)

هذا إشارة إلى قوله قَدْ أَفْلَحَ إلى أَبْقى يعنى أنّ معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وقيل: إلى ما في السورة كلها. وروى عن أبى ذر رضى اللّه عنه أنه سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: كم أنزل اللّه من كتاب؟ فقال: مائة وأربعة كتب، منها على آدم: عشر صحف، وعلى شيث: خمسون صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس: ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم: عشر صحائف والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان «2». وقيل إنّ في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شأنه. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الأعلى أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله اللّه على إبراهيم وموسى ومحمد «3» وكان إذا قرأها قال: سبحان ربى الأعلى «4» وكان على وابن عباس يقولان ذلك، وكان يحبها «5» وقال: أول من قال «سبحان ربى الأعلى» ميكائيل «6». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 741.737﴾

---

(1). قوله «إلا كنفجة أرنب» في الصحاح «نفجت الأرنب» إذا ثارت. (ع)

(2). هو مختصر من حديث طويل أخرجه ابن حبان والحاكم. وقد تقدمت الاشارة اليه في الحج «تنبيه» وقع فيه «على آدم عشر صحائف» والذي عند المذكورين على موسى قبل التوراة عشر صحائف. [.....]

(3) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(4) . أخرجه أبو داود والحاكم من طريق سعد بن جبير عن ابن عباس بهذا .

(5) . أخرجه البزار عن يوسف بن موسى : ووكيع عن إسرائيل عن ثور بن ابى فاختة عن أبيه عن على بهذا ورواه الواحدي من طريق أحمد بن حنبل ووكيع .

(6) . ذكره الثعلبي عن على بغير إسناد .

(223/812)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾

فيه أربعة أقاويل :

أحدها : عظّم ربك الأعلى ، قاله ابن عباس والسدي ، والاسم صلة قصد بها تعظيم المسّمى ، كما قال لبيد :

إلى الحْولِ ثم اسم السلام عليكما . . . ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذر

الثاني : نزّه اسم ربك عن أن يسمى به أحد سواه ، ذكره الطبري .

الثالث : معناه ارفع صوتك بذكر ربك ، قال جرير :

قَبَحَ الإلهُ وَجوه تَغْلبَ كلّما . . . سَبَحَ الحجيجُ وكبّروا تكبيرا

الرابع : صلّ لربك ، فعلى هذا في قوله " اسم ربك " ثلاثة أوجه :

أحدها : بأمر ربك .

الثاني : بذكر ربك أن تفتتح به الصلاة .

الثالث : أن تكون ذاكراً لربك بقلبك في نيتك للصلاة .

وروي أن عليّاً وابن عباس وابن عمر كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : " سبحان ربي الأعلى " امتثالاً لأمره تعالى في ابتدائها ، فصار الاقتداء بهم في قراءتها ، وقيل إنها في قراءة أُبيّ : " سبحان ربي الأعلى " وكان ابن عمر يقرؤها كذلك .

﴿ الذي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني أنشأ خلقهم ثم سوّاهم فأكملهم .

الثاني : خلقهم خلقاً كاملاً وسوّى لكل جارحة مثلاً .

الثالث : خلقهم بإنعامه وسوّى بينهم في أحكامه ، قال الضحاك :

خلق آدم فَسوّى خلقه .

ويحتمل رابعاً : خلق في أصلاب الرجال ، وسوّى في أرحام الأمهات .

ويحتمل خامساً : خلق الأجساد فسّوى الأفهام .

﴿ والذي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : قدّر الشقاوة والسعادة ، وهداه للرشد والضلالة ، قاله مجاهد .

الثاني : قدر أرزاقهم وأقواتهم ، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً .

الثالث : قدرهم ذكوراً وإناثاً ، وهدى الذكر كيف يأتى الأنثى ، قاله السدي .

ويحتمل رابعاً : قدر خلقهم في الأرحام ، وهداهم الخروج للتمام .

ويحتمل خامساً : خلقهم للجزاء ، وهداهم للعمل .

(224/812)

﴿ والذي أَخْرَجَ الْمرعى ﴾ يعني النبات ، لأن البهائم ترعاه ، قال الشاعر :

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَنِ الثّرَى . . . وتَبْقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيا

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الغثاء ما يبس من النبات حتى صار هشيماً تذروه الرياح .

الأحوى : الأسود ، قال ذي الرمة :

لمياءُ في شَفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ . . . وفي اللّثاتِ وفي أَنْيابها شَنَبُ

وهذا معنى قول مجاهد .

الثاني : أن الغثاء ما احتمل السيل من النبات ، والأحوى : المتغير ، وهذا معنى قول السدي .

الثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، ومعناه أحوى فصار غثاء ، والأحوى : ألوان النبات الحي من أخضر وأحمر وأصفر وأبيض ، ويعبر عن جميعه بالسواد كما سمي به سواد العراق ، وقال امرؤ القيس :

وغيثٍ دائمِ التهْتا . . . نِ حاوي النبتِ أدْهم

والغثاء : الميت اليابس ، قال قتادة : وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

﴿ سنُقْرئك فلا تَنسَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى قوله : فلا تنسى ، أي فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن يترخص لك فيه ، فعلى هذا التأويل يكون هذا نهياً عن الشرك .

والوجه الثاني : أنه إخبار من الله تعالى أنه لا ينسى ما يقرئه من القرآن ، حكى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه جبريل بالوحي يقرؤه خيفة أن ينساه ، فأنزل الله تعالى :

" سنقرئك فلا تنسى " يعني القرآن .

﴿ إلا ما شاءَ اللهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلا ما شاء الله أن ينسخه فتنساه ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله عليك فلا تقرؤه ، حكاه ابن عيسى .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك ، وما يخفى هو ما نسخ من حفظك .

الثاني : أن الجهر ما علمه ، وما يخفى ما سيتعلمه من بعد ، قاله ابن عباس .

(225/812)

الثالث : أن الجهر ما قد أظهره ، وما يخفى ما تركه من الطاعات .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : نيسرك لأن تعمل خيراً ، قاله ابن عباس .

الثاني : للجنة ، قاله ابن مسعود .

الثالث : للدين واليسر وليس بالعسر ، قاله الضحاك .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ وفيما يذكر به وجهان :

أحدهما : بالقرآن ، قاله مجاهد .

الثاني : بالله رغبة ورهبة ، قاله ابن شجرة .

وفي قوله : ﴿ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ وجهان :

أحدهما : يعني إن قبلت الذكرى وهو معنى قول يحيى بن سلام .

الثاني : يعني ما نفعت الذكرى ، فتكون " إنْ " بمعنى ما الشرط ، لأن الذكرى نافعة بكل حال ، قاله ابن شجرة .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ يعني يخشى الله ، وقد يتذكر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ يعني يتجنب التذكرة الكافر الذي قد صار بكفره شقياً . ﴿ الذي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هي نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : الكبرى نار الكفار في الطبقة السفلى من جهنم ، والصغرى نار المذنبين في الطبقة العليا من جهنم ، وهو معنى قول الفراء .

﴿ ثم لا يَمُوتُ فيها ولا يَحْيَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا يموت ولا يجد روح الحياة ، ذكره ابن عيسى .

الثاني : أنه يعذب لا يستريح ولا ينتفع بالحياة ، كما قال الشاعر :

ألا ما لنفسٍ لا تموتُ فَيَنْقَضِي . . . عَناها ولا تحْيا حياةً لها طَعمْ .

﴿ قد أَفْلَحَ من تَزَكّى ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : من تطهّر من الشرك بالإيمان ، قاله ابن عباس .

الثاني : من كان صالح عمله زكياً نامياً ، قاله الحسن والربيع .

لم يذكر الثالث راجع التعليق ص . 44 .

الرابع : أنه عنى زكاة الأموال كلها ، قاله ابو الأحوص .

ويحتمل خامساً : أنه من ازداد خيراً وصلاحاً .

﴿ وذكَرَ اسمَ رَبِّه فَصَلّى ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : أن يوحد الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن يدعوه ويرغب إليه .

الثالث : أن يستغفروه ويتوب إليه .

الرابع : أن يذكره بقلبه عند صلاته فيخاف عقابه ويرجو ثوابه ، ليكون استيفاؤه لها وخشوعه فيها بحسب خوفه ورجائه .

الخامس : أن يذكر اسم ربه بلسانه عند إحرامه بصلاته ، لأنها لا تنعقد إلا بذكره .

السادس : أن يفتتح كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم .

وفي قوله " فصلّى " ثلاثة أقاويل :

أحدها : الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس .

الثاني : صلاة العيد ، قاله أبو سعيد الخدري .

الثالث : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة ، قاله أبو الأحوص .

وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

﴿ بل تُؤْثرون الحياةَ الدُّنْيا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المراد بها الكفار ، فيكون تأويلها : بل تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة .

الثاني : أن المراد بها المسلمون ، فيكون تأويلها : يؤثرون الاستكثار من الدنيا للاستكثار من الثواب .

﴿ والآخِرةُ خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خير للمؤمن من الدنيا ، وأبقى للجزاء .

الثاني : ما قاله قتادة خير في الخير وأبقى في البقاء .

ويحتمل به وجهاً ثالثاً : يتحرر به الوجهان : والآخرة خير لأهل الطاعة وأبقى على أهل الجنة .

﴿ إنّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني أن الآخرة خير وأبقى في الصحف الأولى ، قاله قتادة .

الثاني : أن ما قصَّهُ الله في هذه السورة هو من الصحف الأولى .

(227/812)

الثالث : هي كتب الله كلها ، وحكى وهب بن منبه في المبتدإ أن جميع الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه مائة صحيفة وخمس صحف وأربعة كتب ، منها خمسة وثلاثون صحيفة أنزلها على شيث بن آدم وخمسون صحيفة أنزلها على إدريس ، وعشرون صحيفة أنزلها على إبراهيم ، وأنزل التوراة على موسى ، والزبور على داود ، والإنجيل على عيسى ، والفرقان على محمد عليهم السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 251 256. ﴾

(228/812)

وقال ابن الجوزى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

وفي معنى ﴿ سبح ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : قل سبحان ربي الأعلى ، قاله الجمهور .

والثاني : عَظِّم .

والثالث : صَلِّ بأمر ربك ، روي القولان عن ابن عباس .

والرابع : نَزِّه ربك عن السوء ، قاله الزجاج .

والخامس : نَزِّه اسم ربك وذكرك إياه أن تذكره وأنت معظم له ، خاشع له ، ذكره الثعلبي .

وفي قوله تعالى : ﴿ اسم ربك ﴾ قولان .

أحدهما : أن ذكر الاسم صلة ، كقول لبَيد بن ربيعة :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُما . . .

وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فَقَد اعْتَذَرْ

والثاني : أنه أصلي .

وقال الفراء : [سبح ربك ، و] سبح اسم ربك سواء في كلام العرب .

قوله تعالى : ﴿ الذي خلق فسوَّى ﴾ أي : فعدَّل الخلق .

وقد أشرنا إلى هذا المعنى في [الإنفطار : 7] ﴿ والذي قَدّر ﴾ قرأ الكسائي وحده "قَدَر" بالتخفيف ﴿ فهدى ﴾ فيه سبعة أقوال .

أحدها : قدَّر الشقاوة والسعادة ، وهدى للرشد والضلالة ، قاله مجاهد .

والثاني : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها إليه ، قاله عطاء .

والثالث : قَدَّر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج ، قاله السدي .

والرابع : قَدَّرهم ذكوراً وإناثاً ، وهدى الذكر لإتيان الأنثى ، قاله مقاتل .

والخامس : أن المعنى : قدَّر فهدى وأضل ، فحذف "وأضل" ، لأن في الكلام دليلاً على ذلك ، حكاه الزجاج .

والسادس : قَدَّر الأرزاق ، وهدى إلى طلبها .

والسابع : قَدَّر الذنوب ، وهدى إلى التوبة ، حكاهما الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي : أنبت العشب ، وما ترعاه البهائم ﴿ فجعله ﴾ بعد الخضرة ﴿ غُثَاءً ﴾ قال الزجاج ، أي : جففَّه حتى جعله هشيماً جافاً كالغثاء الذي تراه فوق ماء السيل .

(229/812)

وقد بينا هذا في سورة [المؤمنين : 41] فأما قوله تعالى : ﴿ أحوى ﴾ فقال الفراء : الأحوى : الذي قد اسود عن القِدَم ، والعتق ، ويكون أيضاً : أخرج المرعى أحوى : أسود من الخضرة ، فجعله غثاءً كما قال تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ [الرحمن : 64] .

قوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ قال مقاتل : سنعلِّمك القرآن ، ونجمعه في قلبك فلا تنساه أبداً .

قوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : إلا ما شاء الله أن ينسخه فتنساه ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : إلا ما شاء الله أن تنسى شيئاً ، فإنما هو كقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : 107] فلا يشاء .

قوله تعالى : ﴿ إنه يعلم الجهر ﴾ من القول والفعل ﴿ وما يخفى ﴾ منهما ﴿ ونيسّرك لليسرى ﴾ أي : نُسهِّل عليك عمل الخير ﴿ فذكِّر ﴾ أي : عظ أهل مكة ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ وفي "إن" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الشرطية ، وفي معنى الكلام قولان ،

أحدهما : إن قُبِلَتْ الذكرى ، قاله يحيى ابن سلام .

والثاني : إن نفعت وإن لم تنفع ، قاله علي بن أحمد النيسابوري .

والثاني : أنها بمعنى "قد" فتقديره : قد نفعت الذكرى ، قاله مقاتل .

والثالث : أنها بمعنى "ما" فتقديره : فذكر ما نفعت الذكرى ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ سيذكَّر ﴾ سيتعظ بالقرآن ﴿ من يخشى ويتجنبها ﴾ ويتجنب الذكرى ﴿ الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي : العظيمة الفظيعة لأنها أشد من نار الدنيا ﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ فيستريح ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة تنفعه .

وقال ابن جرير : تصير نفس أحدهم في حلقه ، فلا تخرج فتفارقه فيموت ، ولا ترجع إلى

موضعها من الجسم فيحيا .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح ﴾ قال الزجاج : أي : صادف البقاء الدائم ، والفوز ﴿ مَنْ تزكى ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : من تطهَّر [من] الشرك بالإيمان ، قاله ابن عباس .

والثاني : من أعطى صدقة الفطر ، قاله أبو سعيد الخدري ، وعطاء ، وقتادة .

(230/812)

والثالث : من كان عمله زاكياً ، قاله الحسن ، والربيع .

والرابع : أنها زكوات الأموال كلّها ، قاله أبو الأحوص .

والخامس : تكثَّر بتقوى الله .

ومعنى الزاكي : النامي الكثير ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ قد سبق بيانه [الأحزاب : 31] .

وفي قوله تعالى : ﴿ فصلَّى ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : صلاة العيدين ، قاله أبو سعيد الخدري .

والثالث : صلاة التطوع ، قاله أبو الأحوص .

والقول قول ابن عباس في الآيتين ، فإن هذه السورة مكية بلا خلاف ، ولم يكن بمكة زكاة ، ولا عيد .

قوله تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ قرأ أبو عمرو ، وابن قتيبة ، وزيد عن يعقوب "بل يؤثرون" بالياء ، والباقون بالتاء ، واختار الفراء والزجاج التاء ، لأنها رويت عن أُبَيِّ بن كعب : "بل أنتم تؤثرون" .

فإن أريد بذلك الكفار ، فالمعنى : أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة ، لأنهم لا يؤمنون بها .

وإن أريد به المسلمون ، فالمعنى : يؤثرون الاستكثار من الدنيا على الاستحسان من الثواب .

قال ابن مسعود : إن الدنيا عجِّلت لنا ، وإن الآخرة نُعِتَتْ لنا ، وزويت عنا ، فأخذنا بالعاجل [وتركنا الآجل] .

قوله تعالى : ﴿ والآخرة خير لك ﴾ يعني الجنة أفضل ﴿ وأبقى ﴾ أي : أدوم من الدنيا .

﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ في المشار إليه أربعة أقوال .

أحدها : أنه قوله تعالى ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ قاله قتادة .

والثاني : هذه السورة ، قاله عكرمة ، والسدي .

والثالث : أنه لم يرد [أن معنى] السورة [في الصحف الأولى] ، ولا الألفاظ بعينها ، وإنما

أراد أن الفلاح لمن تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، في الصحف الأولى ، كما هو في القرآن ، قاله ابن قتيبة .

والرابع : أنه من قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وأبقى ﴾ قاله ابن جرير .

(231/812)

ثم بين الصحف الأولى ما هي ، فقال : ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ وقد فسرناها في [النجم : 36] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 86.93 ﴾

(232/812)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾

أي قل سبحان ربي الأعلى ، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين يدل عليه ما روي عن ابن عباس " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾ ، فقال

سبحان ربي الأعلى " ، ذكره البغوي بإسناد الثعلبي ، وقيل معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه الملحدون ، فعلى هذا يكون الاسم صلة ، وقيل معناه نزه تسمية ربك الأعلى بأن تذكره وأنت له معظم ، ولذكره محترم .

وقال ابن عباس : سبّح أي صل بأمر ربك الأعلى .

عن عقبة بن عامر ، قال : " لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال النبي (صلى الله عليه وسلم) اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت ﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : اجعلوها في سجودكم " أخرجه أبو داود ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ أي خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين ، وقيل خلق الإنسان مستوياً معتدل القامة .

﴿ والذي قدر فهدى ﴾ قيل قدر الأرزاق وهدى لاكتسابها ، وقيل قدر لكل شيء شكله فهدى ، أي فعرف كيف يأتي الذكر الأنثى وقيل قدر مدة الجنين في الرحم وهداه إلى الخروج منه ، وقيل قدر السعادة لأقوام ، والشقاوة لأقوام ، ثم هدى كل فريق من الطائفتين لسلوك سبيل ما قدر له ، وعليه ، وقيل قدر الخير والشر ، وهدى إليهما ، وقيل قدر أي أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه ، وهدى الأنعام وسائر الحيوانات لمراعيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي أنبت العشب وما ترعاه الأنعام من أخضر وأصفر وأحمر وأبيض وغير ذلك .

﴿ فجعله ﴾ يعني المرعى بعد الخضرة ﴿ غثاء ﴾ أي هشيماً يابساً بالياً كالغثاء الذي

تراه فوق السيل .

﴿ أحوى ﴾ أي أسود بعد الخضرة ، وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس سود .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ سنقرئك ﴾ أي نعلمك القرآن بقراءة جبريل عليك .

(233/812)

﴿ فلا تنسى ﴾ يعني ما يقرأ عليك ، وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا نزل جبريل بالوحي ، لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأولها ، مخافة أن ينساها ، فأنزل الله تعالى ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ فلم ينس شيئاً بعد ذلك ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ يعني أن تنساه وهو ما نسخ الله تعالى تلاوته من القرآن ورفعه من الصدور ، وقيل معناه إلا ما شاء الله أن تنساه ، ثم تذكره بعد ذلك ، كما صح من حديث عائشة ا .

قال : " سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجلاً يقرأ في سورة بالليل فقال يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا ، آية كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا " وفي رواية " كنت أسقطتهن من سورة كذا " أخرجاه في الصحيحين ، وقيل هذا الاستثناء لم يقع ، ولم يشأ الله أن ينسيه شيئاً .

﴿ إنه يعلم الجهر ﴾ يعني من القول والفعل .

﴿ وما يخفى ﴾ يعني منهما والمعنى ، أنه تعالى يعلم السر والعلانية .

﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أي نهون عليك أن تعمل خيراً ونسهله عليك حتى تعمله ، وقيل نوفقك للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السمحة ، وقيل هو متصل بالكلام الأول ، والمعنى إنه يعلم الجهر مما تقرؤوه على جبريل إذا فرغ من التلاوة ، وما يخفى مما تقرؤه في نفسك مخافة النسيان ، ثم وعده فقال : ونيسرك لليسرى أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه ، ولا تنساه .

﴿ فذكر ﴾ أي فعظ بالقرآن .

﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ أي مدة نفع الموعظة ، والتذكير ، والمعنى عظ أنت ، وذكر أن نفعت الذكرى ، أو لم تنفع ، إنما عليك البلاغ .

﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أي سيتعظ من يخشى الله تعالى .

﴿ ويتجنبها ﴾ أي الذكرى ويتباعد عنها .

﴿ الأشقى ﴾ أي في علم الله تعالى ، ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي النار العظيمة الفظيعة ، وقيل النار الكبرى هي نار الآخرة ، والنار الصغرى هي نار الدنيا ﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ أي في النار فيستريح ﴿ ولا يحيى ﴾ أي حياة طيبة تنفعه .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي تطهّر من الشرك وقال لا إله إلا الله قاله ابن عباس : وقيل قد أفلح من كان عمله زاكياً ، وقيل هو صدقة الفطر ، روي عن أبي سعيد الخدري في قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : أعطى صدقة الفطر .

﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : خرج إلى العيد فصلى وكان ابن مسعود يقول : رحم الله امرأ تصدق ثم صلى .

ثم يقرأ هذه الآية وقال نافع : كان ابن عمر إذا صلى الغداة يعني يوم العيد قال : يا نافع أخرجت الصدقة ، فإن قلت نعم مضى إلى المصلى ، وإن قلت لا قال : فالآن فأخرج ، فإنما هذه الآية في هذا قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى .

فإن قلت فما وجه هذا التأويل ، وهذه السورة مكية ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر .

قلت يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم ، كما قال : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ وهذه السورة مكية ، وظهر أثر الحل يوم الفتح ، وكذا نزل بمكة ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، وكان ذلك يوم بدر .

قال عمر بن الخطاب : كنت لا أدري أي جمع سيهزم ، فلما كان يوم بدر رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) يثب في الدرع ، ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر .

ووجه آخر وهو أنه كان في علم الله تعالى أنه سيكون ذلك فأخبر عنه ، وقيل وذكر اسم

ربه فصلى يعني الصلوات الخمس ، وقيل أراد بالذكر تكبيرات العيد ، وبالصلاة صلاة العيد .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ يعني أن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني ، وأنتم تؤثرون الفاني على الباقي قال عرفجة الأشج : كنا عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة .

(235/812)

قلنا لا قال : لأن الدنيا حضرت ، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وإن الآخرة تغيبت وزويت عنا فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل ، وقيل إن أريد بذلك الكفار ، فالمعنى أنهم يؤثرون الدنيا على الآخرة ، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، وإن أريد بذلك المسلمون بالمعنى يؤثرون الاستكثار من الدنيا على الثواب الذي يحصل في الآخرة ، وهو خير وأبقى .

﴿ إن هذا ﴾ أي الذي ذكر من قوله قد أفلح من تزكى إلى هنا ، وهو أربع آيات .

﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ أي الكتب المتقدمة التي نزلت قبل القرآن ، ذكر في تلك

الصحف فلاح من تزكى والمصلي وإيثار الدنيا وإن الآخرة خير وأبقى ثم بيّن ذلك فقال تعالى : ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ يعني أن هذا القدر المذكور في صحف إبراهيم وموسى ، وقيل إنّه مذكور في جميع صحف الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى لأن هذا القدر المذكور في هذه الآيات لا تختلف فيه شريعة ، بل جميع الشرائع متفقة عليه .

عن أبي ذرّ قال " دخلت المسجد فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن للمسجد تحية فقلت وما تحيته يا رسول الله ، قال : ركعتان تركعهما ، قلت يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئاً مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : يا أبا ذر اقرأ ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ قلت يا رسول الله ، فما صحف موسى ، قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت ، كيف يفرح ؟ ! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ؟ ! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن ؟ عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب ! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 234 . 237 ﴾

(236/812)

وقال النسفى :

سورة الْأَعْلَى

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ نزه ذاته عما لا يليق به ، والاسم صلة وذلك بأن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاقتدار لا بمعنى العلو في المكان .

وقيل : قل سبحان ربي الأعلى .

وفي الحديث لما نزلت قال عليه السلام : " اجعلوها في سجودكم " ﴿ الذى خَلَقَ فسوى ﴾ أي خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ، دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم ، أو سوَّاه على ما فيه منفعة ومصلحة ﴿ والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ أي قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به ، أو فهدى وأضل ولكن حذف وأضل اكتفاء كقوله : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآء وَيَهْدِى مَن يَشَآء ﴾ [النحل : 93] [فاطر : 8] .

﴿ قُدِرَ ﴾ عليّ ﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى ﴾ أنبت ما ترعاه الدواب ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً ﴾ يابساً هشيماً ﴿ أحوى ﴾ أسود ﴿ فأحوى ﴾ صفة الغثاء ﴿ أحوى سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ سنعلمك القرآن حتى تنساه ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ أن ينسخه وهذا بشارة

من الله لنبيه أن يحفظ عليه الوحي حتى لا ينفلت منه شيء إلا ما شاء الله أن ينسخه فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته .

وسأل ابن كيسان النحوي جنيداً عنه فقال : فلا ننسى العمل به فقال : مثلك يصدر .

وقيل : قوله ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ على النهي والألف مزيدة للفاصلة كقوله : ﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] أي فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ أي إنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل مخافة التفلت والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر ، أو ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان ، أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم وما ظهر وما بطن من أحوالكم .

(237/812)

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ معطوف على ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ اعتراض ومعناه ونوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل يعني حفظ الوحي .

وقيل : للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع أو نوفقك لعمل الجنة ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ عظ بالقرآن ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ جواب "إن" مدلول قوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ قيل : ظاهره شرط ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم .

وقيل : هو أمر بالتذكير على الإطلاق كقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : 21] .

غير مشروط بالنفع ﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ سيتعظ ويقبل التذكرة ﴿ مَن يخشى ﴾ الله وسوء العاقبة ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ الأشقى ﴾ الكافر أو الذي هو أشقى الكفرة لتوغله في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ يدخل نار جهنم والصغرى نار الدنيا ﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح من العذاب ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ حياة يتلذذ بها .

وقيل : "ثم" لأن الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلي فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدة .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ نال الفوز ﴿ مَن تزكى ﴾ تطهر من الشرك أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة تفعل من الزكاة كتصدق من الصدقة ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ وكبر للافتتاح ﴿ فصلى ﴾ الخمس وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة ، لأن الصلاة عطفت عليها وهو يقتضي المغايرة ، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه وصلى له .

وعن الضحاك : وذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى صلاة العيد ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ على الآخرة فلا تفعلون ما به تفلحون .

(238/812)

والمخاطب به الكافرون دليله قراءة أبي عمرو ﴿ يؤثرون ﴾ بالياء ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ أفضل من نفسها وأدوم ﴿ إِنَّ هذا لَفِى الصحف الأولى ﴾ هذا إشارة إلى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ إلى ﴿ أبقى ﴾ أي أن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف أو إلى ما في السورة كلها ، وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة ﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ بدل من ﴿ الصحف الأولى ﴾ وفي الأثر وفي صحف إبراهيم : ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 350.349 ﴾

(239/812)

وقال ابن جزى :

سورة الْأَعْلَى

﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾

التسبيح في اللغة التنزيه وذكر الاسم هنا يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد المسمى ويكون الاسم صلة كالزائد ، ومعنى الكلام سبح اسم ربك أي نزهه عما لا يليق به ، وقد يتخرج ذلك على قول من قال : إن الاسم هو المسمى ، والآخر أن يكون الاسم مقصوداً بالذكر ، ويحتمل المعنى على هذا أربعة أوجه ، الاول : تنزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة كالتشبيه والتعطيل ، الثاني : تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها صنم أو وثن . الثالث : تنزيه أسماء الله عن أن تدرك في حال الغفلة دون خشوع . الرابع أن المراد قول سبحان الله ، ولما كان التسبيح باللسان لا بدّ فيه من ذكر الاسم أوقع التسبيح على الاسم ، وهذا القول هو الصحيح ، ويؤيده ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال : " " سبحان ربي الأعلى " وأنها لما نزلت قال : اجعلوها في سجودكم " فدل ذلك على أن المراد هو التسبيح باللسان مع موافقة القلب ، ولا بدّ في التسبيح باللسان من ذكر اسم الله تعالى ؛ فلذلك قال : سبح اسم ربك الأعلى ، مع أن التسبيح في الحقيقة إنما هو لله تعالى لا لاسمه ، وإنما ذكر الاسم لأنه هو الذي يوصل به إلى التسبيح باللسان . وعلى هذا يكون موفقاً في المعنى لقوله : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ ﴾ [الواقعة : 74] لأن

معناه نزّه الله بذكر اسمه ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس أن معنى سبح : صل باسم ربك أي صل واذكر في الصلاة اسم ربك ، والأعلى يحتمل أن يكون صفة للرب أو للاسم والأول أظهر .

(240/812)

﴿ الذي خَلَقَ فسوى ﴾ حذف مفعول خلق وسوّى لقصد الإجمال الذي يفيد العموم والمراد خلق كل شيء فسوّاه ، أي اتقن خلقته وانظر ما ذكرنا في قوله : ﴿ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : 7] ﴿ والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ قدّر بالتشديد يحتمل أن يكون من القدر والقضاء ، أو من التقدير ، والموازنة بين الأشياء ، وقرأ الكسائي بالتخفيف فيحتمل أن يكون من القدرة أو للتقدير ، وحذف المفعول ليفيد العموم . فإن كان من التقدير فالمعنى : قدّر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به ، وقيل : هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع ، وهذه الأقوال أمثلة والأول أعم وأرجح ، فإن هداية الإنسان وسائر الحيوانات إلى مصالحها باب واسع فيه عجائب وغرائب ، وقال الفراء : المعنى هدى وأضلّ ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى وهذا بعيد ﴿ والذي أَخْرَجَ المرعى * فَجَعَلَهُ غُثَآءً أحوى ﴾ المرعى هو النبات الذي ترعاه البهائم ، والغثاء هو

النبات اليابس المحتطم ، وأحوى معناه أسود وهو صفة لغثاء ، والمعنى أن الله أخرج المرعى أخضر فجعله بعد خضرته غثاء أسود ، لأن الغثاء إذا قدم تعفن واسودّ ، وقيل : إن أحوى حال من المرعى ، ومعناه : الأخضر الذي يضرب إلى السواد ، وتقديره : الذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء ، وفي هذا القول تكلف .

(241/812)

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وعده الله أن يقرئه القرآن فلا ينساه ، وفي ذلك معجزة له عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه كان أمياً لا يكتب ، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام من القرآن ، وقيل : معنى الآية كقوله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ [القيامة : 16] الآية : فإن عليه الصلاة والسلام كان يحرك به لسانه إذا أقرأه جبريل ، خوفاً أن ينساه فضمن الله له أن لا ينساه ، وقيل : فلا تنسى نهي عن النسيان ، وقد علم الله أن ترك النسيان ليس في قدرة البشر ، فالمراد الأمر بتعاهده حتى لا ينساه . وهذا بعيد لإثبات الألف في تنسى ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ فيه وجهان : أحدهما أن معناه لا تنسى ؛ إلا ما شاء الله أن تنساه كقوله : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة : 106] والآخر : أنه لا ينسى شيئاً ولكن قال : إلا ما شاء الله تعظيماً لله بإسناد الأمر إليه كقوله في

[الأنعام : 128] ﴿ خالدين فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ على بعض الأقوال وعبر الزمخشري عن هذا بأنه من استعمال التقليل في معنى النفي ، والأول أظهر فإن النسيان جائز على النبي صلى الله عليه وسلم فيما أراد الله أن يرفعه من القرآن ، أو فيما قضى الله أن ينساه ثم يذكره ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم " حين سمع قراءة عباد بن بشير رحمه الله : لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت قد نسّيتها " ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ عطف على سنقرؤك ومعناه نوفقك للأمور المرضية التي توجب لك السعادة ، وقيل : معناه للشريعة اليسرى من قوله عليه الصلاة والسلام : " دين الله يسر " أي سهل لا حرج فيه .

(242/812)

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ المراد بهذا الشرط توبيخ الكفار الذين لا تنفعهم الذكرى ، واستبعاد تأثير الذكرى في قلوبهم كقولك : قد أوصيتك لو سمعت ، وقيل : المعنى : ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع . واقتصر على أحد القسمين لدلالة الآخر عليه ، وهذا بعيد وليس عليه الرونق الذي على الأول .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ أي من يخاف الله ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ﴾ يعني الكافر وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ، والضمير للذكرى ﴿ النار الكبرى ﴾ هي نار

جهنم وسماها كبرى بالنظر إلى نار الدنيا ، وقيل : سماها كبرى بالنظر إلى غيرها من نار جهنم ، فإنها تتفاضل ، وبعضها أكبر من بعض وكلا القولين صحيح . إلا أن الأول أظهر . ويؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ناركم هذه التي توقدون جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنم " ﴿ لاَيَمُوتُ فِيهَا وَلاَيَحْيَا ﴾ أي لا يموت فيستريح ، ولا يحيا حياة هنيئة ، وعطف هذه الجملة بثم لأن هذه الحالة أشد من صلي النار فكأنها بعده في الشدة .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الطهارة من الشرك والمعاصي ، أو بمعنى الطهارة للصلاة أو بمعنى أداء الزكاة وعلى هذا قال جماعة : إنها يوم الفطر والمعنى أدّى زكاة الفطر ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ﴾ في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام وصلى صلاة العيد ، وقد روي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل المراد أدى زكاة ماله وصلى الصلوات الخمس .

﴿ إِنَّ هذا ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ، أو إلى ما تضمنته السورة أو إلى القرآن بجملته ، والمعنى أنه ثابت في كتب الأنبياء المتقدمين كما ثبت في هذا الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ193.194 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الْأَعْلَى

مكية وآيها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾

نزه اسمه عن إلحاد فيه بالتأويلات الزائغة وإطلاقه على غيره زاعماً أنهما فيه سواء وذكره الأعلى على وجه التعظيم ، وقرىء "سبحان ربي الأعلى" . وفي الحديث " لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في سجودكم " وكانوا يقولون في الركوع اللهم لك ركعت وفي السجود اللهم لك سجدت .

﴿ الذى خَلَقَ فسوى ﴾ خلق كل شيء فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأتى كماله ويتم معاشه .

﴿ والذى قَدَّرَ ﴾ أي قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها . ﴿ فهدى ﴾ فوجهه إلى أفعاله طبعاً واختياراً بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات .

﴿ والذى أَخْرَجَ المرعى ﴾ أنبت ما ترعاه الدواب .

﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ بعد خضرته . ﴿ غُثَاء أحوى ﴾ يابساً أسود . وقيل ﴿ أحوى ﴾ حال من المرعى أي أخرجه ﴿ أحوى ﴾ أي أسود من شدة خضرته .

(244/812)

﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ على لسان جبريل عليه الصلاة والسلام ، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة . ﴿ فَلاَ تنسى ﴾ أصلاً من قوة الحفظ مع أنك أمي ليكون ذلك آية أخرى لك مع أن الإِخبار به عما يستقبل ووقوعه كذلك أيضاً من الآيات ، وقيل نهي والألف للفاصلة كقوله تعالى ﴿ السبيلا ﴾ ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ الله ﴾ نسيانه بأن نسخ تلاوته ، وقيل أراد به القلة والندرة . لما روي أنه عليه الصلاة والسلام " أسقط آية في قراءته في الصلاة فحسب أُبيّ أنها نسخت فسأله فقال : نسيتها " أو نفى النسيان رأساً فإن القلة تستعمل للنفي .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ ما ظهر من أحوالكم وما بطن ، أو جهرك بالقراءة مع جبريل عليه الصلاة والسلام وما دعاك إليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه صلاحكم من ابقاء وإنساء .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ﴾ ونعدك لطريقة اليسرى في حفظ الوحي ، أو التدين وتوفقك لها

ولهذه النكتة قال ﴿ نيسرك ﴾ لا نيسر لك عطف على ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ ، وأنه يعلم اعتراض .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ بعد ما استتب لك الأمر . ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ لعل هذه الشرطية إنما جاءت بعد تكرير التذكير وحصول اليأس من البعض لئلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ الآية ، أو لذم المذكورين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم ، أو للإشعار بأن التذكير إنما يجب إذا ظن نفعه ولذلك أمر بالإعراض عمن تولى .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ سيتعظ وينتفع بها من يخشى الله تعالى بأن يتأمل فيها فيعلم حقيقتها . وهو يتناول العارف والمتردد .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ ويتجنب ﴿ الذكرى ﴾ . ﴿ الأشقى ﴾ الكافر فإنه أشقى من الفاسق ، أو ﴿ الأشقى ﴾ من الكفرة لتوغله في الكفر .

﴿ الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ نار جهنم فإنه عليه الصلاة والسلام قال " ناركم هذه جزء من سبعين جزأ من نار جهنم " أو ما في الدرك الأسفل منها .

(245/812)

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ﴾ فيستريح. ﴿ وَلاَ يحيى ﴾ حياة تنفعه.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ تطهر من الكفر والمعصية، أو تكثر من التقوى من الزكاة، أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة.

﴿ وَذَكَرَ اسم ربِّهِ ﴾ بقلبه ولسانه ﴿ فصلى ﴾ كقوله: ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِي ﴾ ويجوز أن يراد بالذكر تكبيرة التحريم، وقيل ﴿ تزكى ﴾ تصدق للفطر ﴿ وَذَكَرَ اسم ربِّهِ ﴾ كبره يوم العيد ﴿ فصلى ﴾ صلاته.

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ﴾ فلا تفعلون ما يسعدكم في الآخرة، والخطاب للأشقين على الالتفات أو على إضمار قل، أو للكل فإن السعي للدنيا أكثر في الجملة، وقرأ أبو عمرو بالياء.

﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ فإن نعيمها ملذ بالذات خالص عن الغوائل لا انقطاع له.

﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى ﴾ الإشارة إلى ما سبق من ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ فإنه جامع أمر الديانة وخلاصة الكتب المنزلة.

﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ بدل من الصحف الأولى.

قال صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ". (1) انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 479.482 ﴾

(1) حديث موضوع.

(246/812)

وقال أبو حيان :

سورة الْأَعْلَى

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

﴿ سبح ﴾ : نزّه عن النقائص ، ﴿ اسم ربك ﴾ : الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم ، أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن فيقال له رب أو إله ، وإذا كان قد أمر بتنزيهه اللفظ أن يطلق على غيره فهو أبلغ ، وتنزيه الذات أحرى .

وقيل : الاسم هنا بمعنى المسمى .

وقيل : معناه نزّه اسم الله عن أن تذكره إلا وأنت خاشع .

وقال ابن عباس : المعنى صلّ باسم ربك الأعلى ، كما تقول : ابدأ باسم ربك ، وحذف حرف الجر .

وقيل : لما نزل ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اجعلوها في ركوعكم " فلما نزل : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، قال : " اجعلوها في

سجودكم " وكانوا يقولون في الركوع : اللهم لك ركعت ، وفي السجود : اللهم لك سجدت .

قالوا : ﴿ الأعلى ﴾ يصح أن يكون صفة لربك ، وأن يكون صفة لاسم فيكون منصوباً ، وهذا الوجه لا يصح أن يعرب ﴿ الذي خلق ﴾ صفة لربك ، فيكون في موضع جر لأنه قد حالت بينه وبين الموصوف صفة لغيره .

لو قلت : رأيت غلام هند العاقل الحسنة ، لم يجز ؛ بل لا بد أن تأتي بصفة هند ، ثم تأتي بصفة الغلام فتقول : رأيت غلام هند الحسنة العاقل .

فإن لم يجعل الذي صفة لربك ، بل ترفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أو تنصبه على المدح ، جاز أن يكون الأعلى صفة لاسم .

﴿ الذي خلق ﴾ : أي كل شيء ، ﴿ فسوى ﴾ : أي لم يأت متفاوتاً بل متناسباً على إحكام وإتقان ، دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم .

وقرأ الجمهور : ﴿ قدر ﴾ بشد الدال ، فاحتمل أن يكون من القدر والقضاء ، واحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء .

وقال الزمخشري : قدّر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به ، انتهى .

وقرأ الكسائي : قدر مخفف الدال من القدرة أو من التقدير والموازنة ، وهدى عام لجميع الهدايات .

وقال الفرّاء : فهدى وأضل ، اكتفى بالواحدة عن الأخرى .

وقال الكلبي ومقاتل : هدى الحيوان إلى وطء الذكور للإناث .

وقال مجاهد : هدى الإنسان للخير والشر ، والبهائم للمراتع .

وقيل : هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي ، وهذه الأقوال محمولة على التمثيل لا على التخصيص .

والظاهر أن أحوى صفة لغثاء .

قال ابن عباس : المعنى ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ : أي أسود ، لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسود وتعفن فصار أحوى .

وقيل : أحوى حال من المرعى ، أي أحرى المرعى أحوى ، أي للسواد من شدّة خضرته ونضارته لكثرة ريه ، وحسن تأخير أحوى لأجل الفواصل ، وقال :

وغيث من الوسمي حوتلاعه . . .

تبظنته بشيظم صلتان

﴿ سنقرِئك فلا تنسى ﴾ ، قال الحسن وقتادة ومالك : هذا في معنى ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ وعده الله أن يقرئه ، وأخبره أنه لا ينسى ، وهذه آية للرسول (صلى الله عليه

وسلم) في أنه أمّيّ ، وحفظ الله عليه الوحي ، وأمنه من نسائه .

وقيل : هذا وعد بإقراء السور ، وأمر أن لا ينسى على معنى التثبيت والتأكيد ، وقد علم أن النسيان ليس في قدرته ، فهو نهي عن إغفال التعاهد ، وأثبتت الألف في ﴿ فلا تنسى ﴾ ، وإن كان مجزوماً بلا التي للنهي لتعديل رءوس الآي .

﴿ إلا ما شاء الله ﴾ ، الظاهر أنه استثناء مقصود .

قال الحسن وقتادة وغيرهما : مما قضى الله نسخه ، وأن ترتفع تلاوته وحكمه .

وقال ابن عباس : إلا ما شاء الله أن ينسيك لتسن به ، على نحو قوله عليه الصلاة والسلام : " أني لأنسى وأنسى لأسن " وقيل : إلا ما شاء الله أن يغلبك النسيان عليه ، ثم يذكرك به بعد ، كما قال عليه الصلاة والسلام ، حين سمع قراءة عباد بن بشير : " لقد ذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا " وقيل : ﴿ فلا تنسى ﴾ : أي فلا تترك العمل به إلا ما شاء الله أن تتركه بنسخه إياه ، فهذا في نسخ العمل .

وقال الفراء وجماعة : هذا استثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى في الاستثناء ، وليس ثم شيء أبيح استثناؤه .

(248/812)

وأخذ الزمخشري هذا القول فقال : وقال : إلا ما شاء الله ، والغرض نفي النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله ، ولا يقصد استثناء شيء ، وهو من استعمال القلة في معنى النفي ، انتهى .

وقول الفراء والزمخشري يجعل الاستثناء كلا استثناء ، وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى ، بل ولا في كلام فصيح .

وكذلك القول بأن لا في ﴿ فلا تنسى ﴾ للنهي ، والألف ثابتة لأجل الفاصلة ، وهذا قول ضعيف .

ومفهوم الآية في غاية الظهور ، وقد تعسفوا في فهمها .

والمعنى أنه تعالى أخبر أنه سيقرئه ، وأنه لا ينسى إلا ما شاء الله ، فإنه ينساه إما النسخ ، وإما أن يسن ، وإما على أن يتذكر .

وهو (صلى الله عليه وسلم) معصوم من النسيان فيما أمر بتبليغه ، فإن وقع نسيان ، فيكون على وجه من الوجوه الثلاثة .

ومناسبة ﴿ سنقرئك ﴾ لما قبله : أنه لما أمره تعالى بالتسبيح ، وكان التسبيح لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، وكان يتذكر في نفسه مخافة أن ينسى ، فأزال عنه ذلك وبشره بأنه تعالى يقرئه وأنه لا ينسى ، استثنى ما شاء الله أن ينسيه لمصلحة من تلك الوجوه .

﴿ إنه يعلم الجهر ﴾ : أي جهرك بالقرآن ، ﴿ وما يخفى ﴾ : أي في نفسك من خوف التفلت ، وقد كفاك ذلك بكونه تكفل بإقرائك إياه وإخباره أنك لا تنسى إلا ما استثناه ، وتضمن ذلك إحاطة علمه بالأشياء .

﴿ ونيسرك ﴾ معطوف على ﴿ سنقرئك ﴾ ، وما بينهما من الجملة المؤكدة اعتراض ، أي يوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، يعني في حفظ الوحي .

وقيل : للشريعة الحنيفية السهلة .

وقيل : يذهب بك إلى الأمور الحسنة في أمر دنياك وآخرتك من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة .

ولما أخبر أنه يقرئه وييسره ، أمره بالتذكير ، إذ ثمرة الإقراء هي انتفاعه في ذاته وانتفاع من أرسل إليهم .

(249/812)

والظاهر أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرى ، وهذا الشرط إنما جيء به توبيخاً لقريش ، أي ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ في هؤلاء الطغاة العتاه ، ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى ، فهو كما قال الشاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حياً . . .

ولكن لا حياة لمن تنادي

كما تقول : قل لفلان وأعد له إن سمعك ؛ فقوله : إن سمعك إنما هو توبيخ وإعلام أنه لن يسمع .

وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني معناه : وإن لم ينفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني .

وقيل : إن بمعنى إذ ، كقوله : ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إذ كنتم ؛ لأنه لم يخبر بكونهم الأعلون إلا بعد إيمانهم .

﴿ سيذكر من يخشى ﴾ : أي لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف ، فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينجيه مما يخافه ، فإذا نظر فأداه النظر والتذكر إلى الحق ، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون كل على قدر ما وفق له .

﴿ ويتجنبها ﴾ : أي الذي ، ﴿ الأشقى ﴾ : أي المبالغ في الشقاوة ، لأن الكافر بالرسول (صلى الله عليه وسلم) هو أشقى الكفار ، كما أن المؤمن به وبما جاء به هو أفضل ممن آمن برسول قبله .

ثم وصفه بما يؤول إليه حاله في الآخرة ، وهو صلي النار ووصفها بالكبرى .

قال الحسن : النار الكبرى : نار الآخرة ، والصغرى : نار الدنيا .

وقال الفراء : الكبرى : السفلى من أطباق النار .

وقيل : نار الآخرة تتفاضل ، ففيها شيء أكبر من شيء .

﴿ ثم لا يموت ﴾ : فيستريح ، ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة هنيئة ؛ وجيء بثم المقتضية للتراخي إيذاناً بتفاوت مراتب الشدة ، لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلي بالنار .

﴿ قد أفلح ﴾ : أي فاز وظفر بالبغية ، ﴿ من تزكى ﴾ : تطهر .

قال ابن عباس : من الشرك ، وقال : لا إله إلا الله .

وقال الحسن : من كان عمله زاكياً .

وقال أبو الأحوص وقتادة وجماعة : من رضخ من ماله وزكاه .

(250/812)

﴿ وذكر اسم ربه ﴾ : أي وحده ، لم يقرنه بشيء من الأنداد ، ﴿ فصلى ﴾ : أي أتى الصلاة المفروضة وما أمكنه من النوافل ، والمعنى : أنه لما تذكر آمن بالله ، ثم أخبر عنه تعالى أنه أفلح من أتى بهاتين العبادتين الصلاة والزكاة ، واحتج بقوله : ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنه جائز بكل اسم من أسمائه تعالى ، وأنها ليست من

الصلاة ، لأن الصلاة معطوفة على الذكر الذي هو تكبيرة الافتتاح ، وهو احتجاج ضعيف .

وقال ابن عباس : ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ : أي معاده وموقفه بين يدي ربه ، ﴿ فصلى له ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ بل تؤثرون ﴾ بتاء الخطاب للكفار .

(251/812)

وقيل : خطاب للبر والفاجر ؛ يؤثرها البر لاقتناء الثواب ، والفاجر لرغبته فيها .

وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم : بياء الغيبة .

﴿ إن هذا ﴾ : أي الإخبار بإفلاح من تزكى وإيثار الناس للدنيا ، قاله ابن زيد وابن جرير ، ويرجح بقرب المشار إليه بهذا .

وقال ابن عباس وعكرمة والسدي : إلى معاني السورة .

وقال الضحاك : إلى القرآن .

وقال قتادة : إلى قوله : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ .

﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ ، لم ينسخ إفلاح من تزكى ، والآخرة خير وأبقى في شرع من الشرائع .

فهو في الأولى وفي آخر الشرائع .

وقرأ الجمهور : الصحف بضم الحاء كالحرف الثاني ؛ والأعمش وهرون وعصمة ، كلاهما عن أبي عمرو : بسكونها ؛ وفي كتاب اللوامح العبقلي عن أبي عمرو : الصحف صحف بإسكان الحاء فيهما ، لغة تميم .

وقرأ الجمهور : إبراهيم بألف وبياء والهاء مكسورة ؛ وأبو رجاء : بحذفهما والهاء مفتوحة مكسورة معاً ؛ وأبو موسى الأشعري وابن الزبير : أبراهام بألف في كل القرآن ؛ ومالك بن دينار : إبراهيم بألف وفتح الهاء وبغير ياء ؛ وعبد الرحمن بن أبي بكرة : إبراهيم بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن .

قال ابن خالويه : وقد جاء إبراهيم ، يعني بألف وضم الهاء .

وتقدم في والنجم الكلام على صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(252/812)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) ﴾

التفسير : روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب هذه السورة . وأكثر السلف كانوا يواظبون على قراءتها في التهجد ويتعرفون بركتها . وعن عقبة بن عامر أنه قال : " لما نزل قوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : 74] قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم . ولما نزل قوله ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : اجعلوها في سجودكم " ومن الناس من تمسك بالآية في أن الاسم نفس المسمى لأن التسبيح أي التنزيه إنما يكون للمسمى لا للاسم . وأجاب المحققون عنه بأن الاسم صلة كقوله : " ثم اسم السلام عليكما " . سلمنا أنه غير صلة ولكن تسبيح اسمه تنزيهه عما لا يليق معناه بذاته تعالى أو صفاته أو بأفعاله أو بأحكامه ، فإن العقائد الباطلة والمذاهب الفاسدة لم تنشأ إلا من هذه ، ومن جملة ذلك أن يصان اسمه عن الابتذال والذكر لا على وجه الخشوع والتعظيم وأن لا يسمى غيره بأسمائه الحسنى ، وأن لا يطلق عليه من الأسامي إلا ما ورد به الإذن الشرعي . قال بعض العلماء : لعل الذين نقل عنهم أن الاسم نفس المسمى أرادوا به أن الاسم الذي حدّوه بأنه ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمان هو نفس مدلول هذا الحد . قال الفراء لا فرق بين ﴿ سبح اسم ربك ﴾ وبين " سبح باسم ربك " . واعترض

عليه بأن الفرق هو أن الأول معناه نزه الاسم من السوء ، والثاني معناه سبح الله أي نزهه بسبب ذكر أسمائه العظام ، أو متلبساً بذكره إلا أن تجعل الباء صلة في الثاني نحو

(253/812)

﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ [البقرة : 195] أو مضمرة في الأول مثل ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : 155] أي من قومه . نعم لو زعم الفراء أن المعنيين متلازمان جاز . ومن الملاحدة من طعن في القرآن بأن يقتضي أن يكون للعالم ربان أحدهما عظيم وهو في قوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : 96] والآخر أعلى منه وهو ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ والجواب أنه عظيم في نفسه وأعلى وأجل من جميع الممكنات ، والصفة كاشفة لا مميزة ونظيره وصفه بالكبير تارة وبالأكبر أخرى . والمراد بالعظم والعلو عظم الشرف وعلو القدر فلا استدلال فيه للمشبهة . ثم شرع في بعض أوصافه الكمالية فقال ﴿ الذي خلق فسوّى ﴾ وقد مر نظيره في " الانفطار " أي خلق الإنسان فجعله منتصب القامة في أحسن تقويم ، أو خلق كل حيوان بل كل ممكن فجعله مستعدّاً للكمال اللائق بحاله . ﴿ والذي قدر ﴾ لكل مخلوق ما يصلح له فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به كما يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت وقد ألهمها الله أن تمسح العين بورق

الرازيانج الرطب فتطلبه إلى أن تجده فيعود بصرها ، وإلهامات البهائم والطيور مشروحة مكتوبة في كتب العجائب . وقال الحكيم : كل مزاج فإنه مستعدّ لقوة خاصة ، وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعل معين فالتقدير عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمية ، وتركيبها على وجه خاص لأجله يستعدّ لقبول تلك القوى ، والهداية عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوّة مصدراً لفعل معين ، ويحصل من مجموعها إتمام المصلحة . وقد خصه بعض المفسرين فقال مقاتل : هدى الذكر للأنثى كيف يأتيها . وقال غيره : هداه لمعيشته ومرعاه . وقيل : هداه لسبيل الخير والشر . وقال السدّي : قدر مدة مكث الجنين في الرحم ثم هداه للخروج . وقال الفراء : قدّر فهدى وأضل فاكتفى بذكر أحدهما كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] وقيل : الهداية بمعنى الدعاء إلى الإيمان أي قدّر دعاء الكل إلى

(254/812)

الإيمان فدعاهم إليه كقوله ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : 52] وقيل : دلهم بأفعاله على توحيده وكبريائه " ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد " ومن جملة ذلك إخراج المرعى وهو الكلأ الأخضر ، ثم جعله غثاء وهو مات يبس من النبات

فحملته الأهوية وطيرته الرياح . والظاهر أن أحوى صفة للغثاء . والحوّة السواد ، فالعشب إذا يبس واستولى البرد عليه جعل يضرب إلى السواد ، وقد يحتمله السيل فيلصق به أجزاء كدرة . وقال الفراء وأبو عبيدة : الأحوى هو الأسود لشدّة خضرته وعلى هذا يكون حالاً من ضمير ﴿ المرعى ﴾ أي صيره في حال حوّته غثاء . وقال جار الله : هو حال من ﴿ المرعى ﴾ أي أخرجه أسود من الخضرة والري فجعله غثاء وحين أمره بالتسبيح بشره وشرفه بإيتاء آية باهرة وهي أن يقرأ عليه جبرائيل ما يقرأ من الوحي الذي هو أشرف أنواع الذكر فيحفظه لا ينساه إلا ما شاء الله أن ينساه وهو أحد طريقي النسخ .

(255/812)

فقال مجاهد ومقاتل والكلبي : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن كثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى فقيل له : لا تعجل بالقراءة فإن جبرائيل مأمور بأن يكرر عليك إلى أن تحفظه نظيره ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه ﴾ [طه : 114] وعلى هذا يجوز أن يراد بالتعليم والإقراء شرح الصدر وتقوية الحفظ بحيث يبقى القرآن محفوظاً له من غير دراسة ، ومع أنه أمي فيكون إعجازاً . وعن بعضهم أن قوله ﴿ فلا تنسى ﴾ نهي لا خبر ، والألف مزيدة للفاصلة نحو ﴿ الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] و

﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] وضعف بأن الزيادة خلاف الأصل فلا يصار إليها إلا لدليل ظاهر . وأما إذا جعلناه خبراً كان معنى الآية البشارة بأنا جعلناك بحيث لا تنسى ، وإن جعلناه نهياً كان أمراً بالمواظبة على الأسباب المانعة من النسيان وهي الدراسة والقراءة والبحث فلا يكون من البشارة في شيء . وأيضاً النسيان لا يتعلق بقدرة العبد فيلزم أن يحمل النهي عنه على الأمر بالأسباب المانعة منه وهو خلاف الظاهر ، أما الاستثناء ففيه قولان : الأول أنه ليس على حقيقته ، فقد روي عن الكلبي أنه صلى الله عليه وسلم لم ينس بعد نزول هذه الآية شيئاً . وعلى هذا فالمقصود من الاستثناء إما نفي النسيان رأساً كما تستعمل القلة في معنى العدم ، وإما التبرك بذكر هذه الكلمة وتعليم العباد أن لا يتركوها في كل ما يخبرون عنه ، وفيه أنه تعالى قادر على إنسائه إلا أنه لا ينسيه بفضله وإحسانه ، وفيه لطف للنبي صلى الله عليه وسلم أن يكون متيقظاً مبالغاً دراسة ما ينزل عليه من الوحي قليلاً كان أو كثيراً ، فإن كل جزء من أجزائه يحتمل أن يكون هو المستثنى . الثاني أنه حقيقة . ثم حمله مقاتل على النسخ كما مر . وقال الزجاج : أراد إلا أن يشاء الله فتنساه ثم تذكره بعد النسيان كما روي أنه أسقط في قراءته آية في الصلاة فحسب أبيّ أنها نسخت فسأله فقال : نسيتها . وقيل : أريد القلة

والندرة لا في الواجبات فإنه يورث الخلل في الشرع ولكن في غيرها . ثم علل حسن النسخ بقوله ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ وإذا كان كذلك كان وضع الحكم ورفعه واقعاً بحسب مصالح المكلفين . وقيل : أراد أنك تجهر بقراءتك مع قراءة جبرائيل مخافة النسيان والله يعلم ما في نفسك من الحرص على تحفظ الوحي ، فلا تفعل فأنا أكفيك ما تخافه . ثم بشره ببشارة أخرى وهو تيسيره أي توفيقه للطريقة التي هي أيسر وهي حفظ القرآن والشريعة السهلة السمحة . وعن ابن مسعود : هي الجنة يعني العمل المؤدي إليها . والعبارة المشهورة أن يقال : جعل الفعل الفلاني ميسراً لفلان وإنما عكس الترتيب في الآية لدقيقة هي أن الفاعل ما لم يوجد فيه قابلية لصدور الفعل عنه امتنع حصوله منه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم

(257/812)

"كل ميسر لما خلق له " وفي الآية دلالة على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب قبول الفيض ما لم يفتحه على غيره حتى صار يتيم أبي طالب قدوة للعالمين وهادياً للخلائق أجمعين كما قال ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ وإن لم تنفع فحذفت إحدى القرينتين للعلم بها كقوله ﴾

سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] وهو بناء على الإغلب فإن التذكير إنما يكون غالباً إذا كان رجاء التذكر حاصلاً كقوله ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ [النور : 33] وفيه حث على الانتفاع بالذكرى كما يقول المرء لغيره إذا بين له الحق : قد أوضحت لك إن كنت تسمع وتقبل ، ويكون مراده البعث على السماع والقبول . أو تنبيه للنبي صلى الله عليه وسلم على أن الذكرى لا تنفعهم كما يقال للرجل : أدع فلاناً إن أجابك . والمعنى ما أراه يجيبك . ووجه آخر وهو أن تذكير العالم واجب في أوّل الأمر . وأما التكرير فالضابط فيه هو العرف فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود فلهذا أردفه بالشرط . قيل : التعليق بالشرط إنما يحسن في حق من يكون جاهلاً بعواقب الأمور . والجواب أن أمر الدعوة والبعثة مبنيّ على الظواهر لا على الخفيات . وروي في الكتب أنه تعالى كان يقول لموسى ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : 44] وأنا أشهد أنه لا يتذكر أو يخشى . وإنما سمى الوعظ بالتذكير لأن حسن هذا الدين مركوز في العقول ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : 30] فكأن هذا العلم كان حاصلاً في نفسه بالقوّة ثم زال عنها بالعوائق والغواشي ، وعند بعض العقلاء أن النفوس قبل تعلقها بالأبدان عالمة بما لها أن تعلم إلا أنها نسيتها لاشتغالها بتدبير البدن ، ومن هنا قال أفلاطون : لست أعلمكم ما كنتم تجهلون ولكن أذكركم ما كنتم تعلمون . ثم إنه تعالى

بين أن المنتفع بالتذكير من هو فقال ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ قال في التفسير الكبير : إن الناس في أمر المعاد ثلاثة أقسام : القاطع بصحته ،

(258/812)

والمتردد فيه ، والجاحد له . والفريقان الأوّلان ينتفعان بالتذكير والتخويف ، وكثير من المعاندين إنما يجحدون باللسان فقط ، فتبين أن أكثر الخلق ينتفعون بالوعظ والمعرض نادر وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير فلهذا وجب تعميم التذكير . قلت : هذا خلاف القرآن حيث قال ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [يوسف : 103] وقال ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ [الأعراف : 17] وخلاف الحديث حيث قال صلى الله عليه وسلم في بعث النار " من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون " وخلاف المعقول فإنه لو سلم أن قسمين من الأقسام الثلاثة ينتفعان بالتذكير وينضم إليه من القسم الثالث بعض آخر فقد لا يلزم أن يكون الثاني أقل من المجموع المفروض لجواز اختلاف الأقسام ، بل السبب في تعميم التذكير انتفاع المنتفعين به وهم أهل الخشية أعني العلماء بالله وإلزام الحجة لغيرهم .

(259/812)

والسين في ﴿ سيذكر ﴾ إما لمجرّد الإطماع فإن " سوف " من الله واجب ، وإما لأن التذكير متراخ عن التذكير غالباً لتخلل زمان النظر والتأمل بينهما غالباً . قيل : نزلت الآية في عثمان بن عفان . وقيل : في أبن أم مكتوم . ونزل في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة قوله ﴿ ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي السفلى من أطباق النار . وعن الحسن : النار الكبرى نار جهنم والصغرى نار الدنيا . فالأشقى هو الكافر على الإطلاق ، وذلك أن الكافر أشقى من الفاسق . ولا يلزم من تخصيص ذكر الكافر بدخول النار أن لا يدخلها الفاسق ، وسبب تخصيص الكافر بالذكر أن الفاسق لم يتجنب التذكير بالكلية فيكون القرآن مسكوتاً عن الشقي الذي هو أهل الفسق ، ويحتمل أن يكون الأشقى بمعنى الشقي كقوله ﴿ وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] أي هين فيدخل فيه الفاسق لأنه يجتنب بوجه من الوجوه . وقوله ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ قد مر تفسيره في " طه " . ومعنى " ثم " تراخي الرتبة لأن هذا النوع من الحياة أفظع من نفس الدخول في النار . ثم ذكر وعد السعداء بعد وعيد الأشقياء . ومعنى ﴿ تزكى ﴾ تطهر من أدناس الشرك والمعاصي والعقائد الفاسدة ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ بالتوحيد والإخلاص ﴿ فصلى ﴾ أي اشتغل بالخدمة والطاعة حتى يكون كاملاً بحسب قوّته النظرية والعملية بعد تخليته لوح الضمير عن النقوش الفاسدة . وقال الزجاج : تزكى أي تكثر من التقوى وأصله من الزكاء النماء

فيكون تفصيله قوله ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] إلى آخر الآيات . وفي أوّل البقرة إلى قوله ﴿ هم المفلحون ﴾ [الآيات : 1 ، 5] وقال مقاتل : تزكى من الزكاة كتصدّق من الصدقة والمعنى : قد أفلح من تصدّق من ماله وذكر ربه بالتوحيد والصلاة فصلى له . وخصه قوم بصلاة العيد وصدقة الفطرة أي أفلح من تصدّق قبل خروجه إلى المصلى ، وذكر اسم ربه في طريق المصلى أو عند تكبيرة الافتتاح فصلى العيد وهذا قول عكرمة وأبي العالية

(260/812)

وابن سيرين وابن عمرو وعلي . وقد روي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وضعف بأنه خلاف ما ورد في مواضع أخر من القرآن من تقديم الصلاة على الزكاة . والجواب إنما ورد هكذا لأن زكاة الفطر مقدّمة على صلاته . واعترض الثعلبي بأن السورة مكية بالإجماع ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . وأجاب الواحدي بأنه لا يمتنع أن يقال لما كان في معلوم الله تعالى أن يكون ذلك أثنى على من فعل ذلك . استدل على بعض الفقهاء بالآية على وجوب تكبيرة الافتتاح ، واحتج بعض أصحاب أبي حنيفة بها على أن التكبيرة

الأولى ليست من صلب الصلاة العطف الصلاة عليها ، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه .

(261/812)

وأجيب بما روي عن ابن عباس أن المراد ذكر معاده وموقفه بين يدي ربه فصلى له وبأنه قد يقال " أكرمتني فزرتني " وبالعكس من غير فرق . وقد يزيف هذا الجواب الثاني بأنه خلاف الظاهر وبأن خصوصية المادة ملغاة فلا يلزم من عدم الفرق في المثال المضروب عدم الفرق فيما يتعلق به حكم شرعي . ثم وبخهم بقوله ﴿ بل تؤثرون ﴾ إلى آخره . ثم بين أن ما في السورة من التوحيد والنبوّة والوعيد والوعد كانت ثابتة في صحف الأنبياء الأقدمين لأنها قواعد كلية لا تتغير بتغير الأزمان فهو كقوله ﴿ وإنه لفي زبر الأوّلين ﴾ [الشعراء : 196] وقيل : المشار إليه بهذا هو قوله ﴿ بل تؤثرون ﴾ الآية لأنه أقرب المذكورات ، ولأن حاصل جميع الكتب السماوية الزجر عن الدنيا والإقبال على الآخرة . قال في الكشاف : روي عن أبي ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم أنزل الله من كتاب ؟ قال " مائة وأربعة كتب منها على آدم عشر صحف ، وعلى شيث خمسون صحيفة ، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثون صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، والتوراة والإنجيل

والزبور والفرقان " فتقدير الآية إن هذا لفي الصحف الأولى التي منها صحف إبراهيم وموسى . قالوا : في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه الله تعالى حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 482 . 487 ﴾

(262/812)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الأعلى

مكية في قول الجمهور وقال الضحاك مدنية ، قال النووي : وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحيها لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخبرات ، وهي تسع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وأربعة وثمانون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ عالم الغيب فلا تخفى عليه خافية ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ جوده كل أنس وجنّ وملك ودابة ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بمعرفتهم إحسانه .

واختلف في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سبح اسم ربك ﴾ فالأكثرون على أن المعنى : نزه

ربك المحسن إليك بعد إيجادك على صفة الكمال عما لا يليق به ، فاسم زائد ، كقول لبيد :

* * * إلى الحول ثم اسم السلام عليكما *

(263/812)

وقيل : عَظِّمْ ربك ﴿ الأعلى ﴾ والاسم زائد كما مرّ ، قصد به تعظيم المسمى ، وذكر الطبري أن المعنى : نزه اسم ربك الأعلى عن أن تسمي به أحداً سواه . وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم لذكره وقال الرازي : معنى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ أي : نزِّهْهُ عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه . أما في ذاته فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض ، وأما في صفاته فأن تعتقد أنها ليست محدثة ولا متناهيةٌ ولا ناقصة ، وأما في أفعاله فأن تعتقد أنه سبحانه مالك مطلق لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور ، وأما في أسمائه فأن لا تذكره سبحانه إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجهٍ من الوجوه ، سواءٌ ورد الإذن فيها أم لم يرد ، وأما في أحكامه سبحانه فأن تعلم أنه ما كلفنا لنفع يعود إليه بل لمحض المالكية . قال البغوي : ويحتج بهذا من يجعل الاسم والمسمى واحد ، لأنّ أحداً لا يقول سبحان الله . و سبحان اسم ربنا إنما يقول : سبحان الله وسبحان ربنا . فكان معنى : ﴿ سبح اسم ربك ﴾ اه .

وكون الاسم عين المسمى أو غيره قد ذكرتها في مقدّمتي على البسملة والحمدلة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : سبح أي : صل بأمر ربك . وذهب جماعة من الصحابة والتابعين على أنّ المراد قل : سبحان ربي الأعلى ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : "سبحان ربي الأعلى" . وعن عقبة بن عامر "أنه لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (الواقعة :) قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "اجعلوها في ركوعكم" . ولما نزل ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : اجعلوها في سجودكم" . وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك . وروي "أنّ أوّل من قال سبحان ربي الأعلى ميكائيل" .

ولما أمر تعالى بالتسبيح فكان سائلاً قال : الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة فما الدليل على وجود الرب تعالى ؟

(264/812)

فقال تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ أي : أوجد من العدم فله صفة الإيجاد لكل ما أراده لا يعسر عليه شيء ﴿ فسوّى ﴾ أي : مخلوقه . وقال الرازي : يحتمل أن يريد الناس خاصة ، ويحتمل أن يريد الحيوان ، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه تعالى ، فمن حمله على الإنسان

ذكر للتسوية وجوهاً : أحدها : اعتدال قامته وحسن خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (التين :)

وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه بقوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون :)

. ثانيها : كل حيوان مستعدّ لنوع واحد من الأعمال فقط ، أمّا الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع الأعمال بواسطة الآلات . ثالثها : أنه تعالى هيأه للتكليف والقيام بأداء العبادات . وقال بعضهم : خلق في أصلاب الآباء وسوّى في أرحام الأمّهات .

ومن حمله على جميع الحيوانات فمعناه : أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من الآلات والأعضاء ، ومن حمله على جميع المخلوقات كان المراد من التسوية : هو أنه تعالى قادرٌ على كل الممكنات ، عالمٌ بجميع المعلومات ، يخلق ما أراد على وفق إرادته موصوفاً بالأحكام والإتقان ، مبرّأٌ عن النقص والاضطراب .

وقرأ ﴿ والذي قدر ﴾ الكسائي بتخفيف الدال والباقون بالتشديد قال البغوي : وهما بمعنى واحد ، أي : أوقع تقديره في أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها وغير ذلك من أحوالها ، فجعل البطش لليد ، والمشي للرجل ، والسمع للأذن ، والبصر للعين ونحو ذلك ﴿ فهدى ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشرّ والسعادة والشقاوة وهدى الأنعام لمراعيها . وقال مقاتل والكلبي : في قوله

تعالى : ﴿ فهدى ﴾ عرّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى ، كما قال تعالى في سورة طه : ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (طه :)

(265/812)

أي : الذكر للأنثى . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : قدّر أقواتهم وأرزاقهم وهداهم لمعاشهم إن كانوا أناساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحوشاً . وقال السدّي : قدّر مدّة الجنين في الرحم ثم هداه إلى الخروج من الرحم ، ومن ذلك هدايات الإنسان إلى مصالحه من أغذيته وأدويته وأمور دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض إلى معايشها ومصالحها .

يقال : إن الأفعى إذا أتى عليها ألف سنة عميت ، وقد ألهمها الله تعالى أن تمسح عينيها بورق الرازيانج الغض فيردّ إليها بصرها ، فربما كانت في برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوي تلك المسافة على طولها وعماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها فترجع باصرة بإذن الله تعالى .

وقيل : ﴿ فهدى ﴾ أي : دلهم بأفعاله على توحيده ، وكونه عالماً قادراً ، والاستدلال بالخلق والهداية معتمد الأنبياء ، قال إبراهيم عليه السلام ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾

(الشعراء :)

وقال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (طه :)

ولما ذكر سبحانه ما يختص بالناس اتبعه ما يختص بالحيوان فقال تعالى:

﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي : أنبت ما ترعاه الدواب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المرعى الكلأ الأخضر .

﴿ فجعله ﴾ أي : بعد أطوار من زمن إخراجه بعد خضرته ﴿ غثاء ﴾ أي : جافاً هشيماً ﴿ أحوى ﴾ أي : أسود يابساً . قال الزمخشري : ويجوز أن يكون أحوى حالاً من المرعى أي : أخرجه أحوى أي : أسود من شدّة الخضرة والري فجعله غثاء بعد حويه .

وقال ابن زيد : هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ولذهاب الدنيا بعد نضارتها .

(266/812)

وقوله تعالى : ﴿ سنقرؤك فلا تنسى ﴾ بشارة من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بإعطاء آية بينة ، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أمّي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه ، فهو نفيٌ أخبر الله تعالى أنّ نبيه صلى الله عليه وسلم لا

ينسى . وقيل : نهيٌ ، والألف مزيدة للفاصلة كقوله تعالى : ﴿ السبيلا ﴾ (الأحزاب :)

أي : فلا تفعله كرامةً ، وتكريره لئلا ينساه ، ومنعه مكي لأنه لا ينهى عما ليس باختياره .

وأجيب : بأنّ هذا غير لازم ؛ إذ المعنى : النهي عن تعاطي أسباب النسيان وهو شائع .

قال الرزاي : وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين .

الأوّل : أنه كان رجلاً أمّياً فحفظه لهذا الكتاب المطوّل من غير دراسة ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزاً .

الثاني : أنّ هذه السورة من أول ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع فكان هذا إخباراً ، فيكون معجزاً .

وفي المشيئة في قوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي : المَلِك الذي له الأمر كله وجوه :

أحدها : التبرّك بهذه الكلمة كقوله تعالى:

﴿ ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف : .)

فكأنه تعالى يقول : إني عالم بجميع المعلومات ، وعالم بعواقب الأمور على التفصيل ، ومع ذلك لا أخبر بوقوع شيء في المستقبل إلا مع هذه الكلمة ، فأنت وأمّتك يا أشرف الخلق أولى بها . ثانيها : قال الفرّاء : إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمداً صلى الله عليه وسلم شيئاً ؛ إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى يصيره ناسياً لذلك لقدر عليه كقوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك ﴾ (الإسراء :)

ثم إنا نقطع أنه تعالى ما شاء ذلك . ونظيره قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ (الزمر :)

(267/812)

مع أنه صلى الله عليه وسلم ما أشرك البتة ففائدة هذا الاستثناء أنّ الله تعالى يعرفه قدرته حتى يعلم أنّ عدم النسيان من فضل الله تعالى وإحسانه لا من قوّته .

ثالثها : أنّ الله تعالى لما ذكر هذا الاستثناء جوّز صلى الله عليه وسلم في كل ما ينزل عليه من الوحي أن يكون ذلك هو المستثنى ، فلا جرمٌ بالغ في التثبت والتحفظ في جميع المواضع ، فكان المقصود من ذكر الاستثناء بقاؤه صلى الله عليه وسلم على التيقظ في جميع الأحوال .

رابعها : أن ينساه بنسخ تلاوته وحكمه ، وكان صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام خوف النسيان فكأنه قيل له : لا تعجل بها إنك لا تنسى ولا تتعب نفسك بالجهر بها .

﴿ إنه ﴾ أي : الذي مهما شاء كان ﴿ يعلم الجهر ﴾ أي : القول والفعل ﴿ وما يخفى ﴾ أي : منهما ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما في قلبك ونفسك . وقال محمد بن حاتم

يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها . وقيل : الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك ، وما يخفى ما نسخ من صدرك .

وقوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ عطف على سنقرؤك ، فهو داخل في حيز التنفيس ، وما بينهما من الجملة اعتراض . قال الضحاك : واليسرى هي الشريعة اليسرى وهي الحنيفية السهلة . ٧

وقال ابن مسعود : اليسرى الجنة ، أي : نيسرك إلى العمل المؤدّي إلى الجنة ، وقيل : اليسرى الطريقة اليسرى ، وهي أعمال الخير والأمر في قوله تعالى:

﴿ فذكر ﴾ للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي : فذكر بالقرآن ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ أي : الموعظة ، وإن شرطية ، وفيه استبعاد لتذكرهم . ومنه قول القائل:

*لقد أسمعت لو ناديت حياً ** ولكن لا حياة لمن تنادي*

(268/812)

ولأنه صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم ، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوّاً وطغياناً ، وكان صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفاً ويزداد جهداً في تذكيرهم ، وحرصاً عليه فقيل : إن نفعت الذكرى وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير

التذكير . وقيل : إن بمعنى إذ كقوله تعالى : ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران :)

وقيل : بعده شيء محذوف تقديره إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع . كقوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ (النحل :)

أي : البرد وقاله الفراء والنحاس . وقيل : إن بمعنى ما لا بمعنى الشرط لأنّ الذكرى باقية بكل حال .

ثم بين تعالى من تنفعه الذكرى بقوله سبحانه .

﴿ سيذكر ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ من يخشى ﴾ أي : يخاف الله تعالى فهي كآية ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ (ق :)

وإن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يجب عليه تذكيرهم نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم . وقال ابن عباس : نزلت في ابن أمّ مكتوم . وقيل : في عثمان بن عفان . قال الماوردي : وقد تذكر من يرجوه إلا أن تذكر الخاشع أبلغ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء . وقال القشيري : المعنى : عمم أنت بالتذكير والوعظ وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى ، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء . فإن قيل : التذكير إنما يكون بشيء قد علم ، وهؤلاء لم يزالوا كفاراً معاندين أجيب : بأنّ ذلك لظهوره وقوّة دليله ، كأنه معلوم لكنه يزول بسبب التقليد والفساد .

تنبيه : السين في قوله تعالى : ﴿ سيذكر ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى سوف ، وسوف من الله

تعالى واجب كقوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى : أنّ من خشي فإنه يتذكر وإن كان بعد حين بما يستعمله من التدبر والنظر .

ولما بين تعالى من ينتفع بالذكرى بين من لا ينتفع بها بقوله تعالى:

﴿ ويتجنبها ﴾ أي : الذكرى أن يتركها جانباً لا يلتفت إليها ﴿ الأشقى ﴾ .

﴿ الذي يصلى النار ﴾ وهو الكافر . فإن قيل : الأشقى يستدعي وجود شقي فكيف قال هذا القسم ؟

(269/812)

أجيب : بأنّ لفظ الأشقى من غير مشاركة كقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً ﴾ (الفرقان :) ، وقوله تعالى : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ (الروم :) . قال الرازي : الفرق ثلاثة العارف والمتوقف والمعاند ، فالسعيد هو العارف ، والمتوقف له بعض الشقاوة ، والأشقى هو المعاند . وقال الزمخشري : الأشقى هو الكافر ؛ لأنه أشقى من الفاسق ، أو الذي هو أشقى الكفرة ؛ لتوغله في معاداة النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة وعقبة بن ربيعة .

واختلف في قوله تعالى : ﴿ الكبرى ﴾ أي : العظمى على وجوه : أحدها : قال الحسن :

هي نار جهنم ، والصغرى نار الدنيا . ثانيها : أنّ في الآخرة نيراناً ودركات متفاضلة ، فكما أنّ الكافر أشقى العصاة فكذلك يصلى أعظم النيران . ثالثها : أنّ النار الكبرى هي النار السفلى فهي نصيب الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ (النساء :)

. فإن قيل : قوله تعالى:

﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ يقتضي أن ثم حالة غير الحياة والموت ، وذلك غير معقول .

أجيب : عن ذلك بوجهين : أحدهما : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه كما قال تعالى : ﴿ لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ (فاطر :)

وهذا جاء على مذهب العرب يقولون للمبتلى بالبلاء الشديد لا هو حيّ ولا هو ميت .

ثانيهما : أنّ نفس أحدهم في النار في حلقة لا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها فيحيا .

تنبيه : قوله تعالى : ثم للتراخي بين الرتب في الشدّة .

ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر في دلائل الله تعالى أتبعه بالوعد لضدّه فقال تعالى:

﴿ قد أفلح ﴾ أي : فاز بكل مراد ﴿ من تزكى ﴾ أي : تطهر من الكفر بالإيمان ؛ لما روي عن ابن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قد أفلح من تزكى وشهد أي لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله" . وقيل : تطهر للصلاة وأدّى الزكاة .

﴿ وذكر اسم ربه ﴾ أي : بقلبه ولسانه مكبراً ﴿ فصلى ﴾ أي : الصلوات الخمس . قال الزمخشري : وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة ؛ لأنّ الصلاة معطوفة عليها . وقال قتادة : تزكى : عَمِلَ صالحاً . وعن عطاء نزلت في صدقة الفطر . قال ابن سيرين : قد أفلح من تزكى ، قال : خرج فصلى بعد ما أدّى زكاة الفطر وصلى صلاة العيد . قال بعضهم : لا أدري ما وجه هذا التأويل فإنّ هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . وأجاب البغوي : بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كقوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ (البلد :)

والسورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح قال صلى الله عليه وسلم "أحلت لي ساعة من نهار" . وقيل : المراد زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ، أي : زكى أعماله من الرياء والتقصير . وروي عن عطاء أنه قال : إنّ هذه الآية نزلت في عثمان ، وذلك أنه كان بالمدينة منافق له نخلة مائلة إلى دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الريح تساقط منها بسر ورطب في دار الأنصاري فيأكل هو وعياله من ذلك ، فخاصمه المنافق ، فذكر الأنصاري ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل خلف المنافق وهو لا يعلم نفاقه فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم

"إنّ أخاك الأنصاري ذكر أنّ بسرك ورطبك يقع في منزله فيأكل هو وعياله منه فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها ؟ قال : أبيع عاجلاً بآجل لا أفعل" فذكروا أنّ عثمان قد أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته . ويقول فيه : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ وفي المنافق ﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ وقال الضحاك : نزلت في أبي بكر

وقرأ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ أبو عمرو بياء الغيبة ، والباقون بتاء الخطاب ، ومعناه على القراءة الأولى : بل تؤثرون الأشقون ، وعلى القراءة الثانية : بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا بالعز الحاضر مع أنها شرٌّ وفانية اشتغالاً بها لأجل حضورها كالحيوانات التي هي مقيدة بالمحسوسات على الاستكثار من الثواب .

(271/812)

﴿ والآخرة ﴾ ، أي : والحال أنّ الدار التي هي غاية القصد المبرأة عن العيب المنزهة عن الخروج عن الحكمة ﴿ خير ﴾ ، أي : من الدنيا ﴿ وأبقى ﴾ لأنها تشتمل على السعادة الجسمانية ، والروحانية ، ليست كذلك فالآخرة خير من الدنيا ولأنّ الدنيا لذاتها مخلوطة بالآلام والآخرة ليست كذلك ، ولأنّ الدنيا فانية والأخرة باقية ، والباقي خير من الفاني . وعن عمر : ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب . وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال :

أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ قلنا : لا . قال : لأنّ الدنيا أحضرت ، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذاتها وبهجتها ، وأنّ الآخرة نعتت لنا وزويت عنا فأحببنا العاجل وتركنا الآجل .

والإشارة في قوله تعالى : ﴿ إنّ هذا لفي الصحف الأولى ﴾ إلى قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ إلى قوله ﴿ خير وأبقى ﴾ ، أي : هذا الكلام وارد في تلك الصحف . وقيل : إلى ما في السورة كلها ، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس . وقال الضحاك : إنّ هذا القرآن لفي الصحف الأولى ولم يرد أنّ هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف ، وإنما معناه أنّ معنى هذا الكلام في تلك الصحف .

ثم بين تلك الصحف وهي المنزلة قبل القرآن بقوله تعالى:

(272/812)

﴿ صحف إبراهيم ﴾ وقدمه لأنّ صحفه أقرب إلى الوعظ كما نطق به حديث أبي ذر ﴿ وموسى ﴾ وختم به لأنّ الغالب على كتابة الأحكام والمواعظ فيه قليلة ، ومنها الزواجر البليغة كاللعن لمن خالف أوامر التوراة التي أعظمها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وروي عن أبيّ بن كعب "أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كم أنزل الله تعال

من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب ، منها على آدم عشر صحف وعلى شيث خمسون صحيفة ، وعلى اخنوخ وهو إدريس ثلاثون صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان" . وقيل : في صحف إبراهيم ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه . عارفاً بزمانه ، مقبلاً على شأنه . وعن عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعتين اللتين يوتر بعدهما ب ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الوتر ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ " .

وقرأ الأعلى ، فسوى ، المرعى ، أحوى ، فلا تنسى ، وما يخفى ، من يخشى ، الأشقى ، ولا يحيى ، من تزكى ، فصلى ، الدنيا ، وأبقى ، الأولى ، وموسى حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش وأبو عمرو بين بين ، والفتح عن ورش قليل ، أمّا الأعلى الذي ، والأشقى الذي إذا وقف عليهما فالإمالة ، وإن وصلا فلا إمالة والباقون بالفتح . وقرأ : الذكرى ، الكبرى ، أبو عمرو والكسائي بالإمالة محضة . وقرأ ورش بين اللفظين والباقون بالفتح ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام" . حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 322.314 ﴾

وقال القاسمي :

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾

أي : نزِّه ربك عما يصفه به المشركون من الولد والشريك ونحوهما ، كقوله :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] ، فالاسم صلة . وسِرُّ إيراده أن المنوَّه به إذا كان في غاية العظمة ، كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره ، كما يقال : سلام على المجلس العالي . هذا ما ذكروه . وثمة وجه آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى ، لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيهاً على ذلك . ومما يؤيده ما ذكر من الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة أنهم < كانوا إذا قرؤوا ذلك قالوا : سبحان ربي الأعلى > ، كما رواه ابن جرير وغيره .

وذهب بعضهم إلى أن المراد تنزيه اسم الله وتقديسه أن يسمى به شيء سواه ، كما كان يفعل المشركون من تسميتهم آلهتهم ، بعضها اللات وبعضها العزى ، حكاه ابن جرير ؛ فالإسناد على ظاهره ، وهذا ما اعتمده الإمام ابن حزم في " الفِصَل " حيث رد على من استدل بهذه الآية في أن الاسم عين المسمى ، ذهاباً إلى أن من الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يسبح غيره . فقال ابن حزم رحمه الله : وأما قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فهو على ظاهره دون تأويل ؛ لأن التسبيح في اللغة التي بها نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل ، هو تنزيه الشيء عن السوء ، وبلا شك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه الذي هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء ، عن كل سوء حيث كان من كتاب أو منطوقاً به .

ووجه آخر وهو أن معنى قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : 95 - 96] ، معنى واحد ، وهو أن يسبح الله تعالى باسمه . ولا سبيل إلى تسبيحه تعالى ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه ؛ فكلا الوجهين صحيح . وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص . ولا فرق بين قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ وبين قوله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور : 48 - 49]

.

والحمد بلا شك هو غير الله ، وهو تعالى يسبح بحمده كما يسبح باسمه ، ولا فرق ؛ فبطل تعلقهم بهذه الآية . انتهى كلامه .

وقد يقال : فرق بين الآيتين ، فإن الباء في ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ للملابسة ، ولا كذلك هي في ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ومع اتساع اللفظ الكريم للأوجه كلها ، فالأظهر هو الأول لما أيده من الأخبار ولآية ﴿ فَسَبِّحْهُ ﴾ وآية ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ والله أعلم .

(275/812)

و ﴿ الْأَعْلَى ﴾ هو الأرفع من كل شيء ، قدرةً وملكاً وسلطاناً . واستدل السلف بظاهره في إثبات العلوّ بلا تكييف . والمسألة معروفة .

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ قال الزمخشري : أي : خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وأنه صنعة حكيم .

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ أي : قدر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أي : أخرج من الأرض مرعى الأنعام من صنوف النبات .

﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أي : بعد خضرته ونضرته ﴿ غُثَاء ﴾ أي : جافاً يابساً تطير به الريح ﴿ أَحْوَى ﴾ أي : أسود ، صفة مؤكدة لـ : ﴿ غُثَاء ﴾ لغثاء ؛ لأن النبات إذا يبس تغير إلى الحوّة ، وهي السواد .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام لغة العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذي أخرج المرعى أحوى ، أي : أخضر إلى السواد فجعله غثاءً بعد ذلك . وهذا القول وإن كان غير مدفوع ، أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات ، قد تسميه العرب أسود ، غير صواب عندي بخلاف تأويل أهل التأويل في أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير إذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره ، فأما وله في موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير . انتهى . والقول المذكور هو للفراء وأبي عبيدة .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴾

أي : سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه ، والمعنى : نجعلك قارئاً للقرآن فلا تنساهُ .

قال الزمخشري : بشّره الله بإعطاء آية بيّنة ، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي ، وهو أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه .

تنبيهات :

الأول : قال الرازي : هذه آية تدل على المعجزة من وجهين :

(276/812)

أحدهما : إنه كان رجلاً أميّاً ، فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة ، خارق للعادة ، فيكون معجزاً .

وثانيهما : أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة . فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع ، فكان هذا إخبار عن الغيب ، فيكون معجزاً .

الثاني : قيل : لا تنسى نهي ، والألف للإطلاق في الفاصلة وهو جائز مثل ﴿ السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب : 67] ، والمعنى لا تغفل قراءته وتكريره فتنساه . فالنهي عنه مجاز عن ترك أسبابه الاختيارية .

قال الرازي : والقول المشهور أن هذا خبر ، والمعنى : سنقرئك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن النسيان ، كقولك : سأكسوك فلا تعرى ، أي : فتأمن العري ، قال : واحتج أصحاب هذا القول على ضعف القول الأول بأن ذلك القول لا يتم إلا عند التزام مجازات في هذه الآية

:

منها : أن النسيان لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يصح ورود الأمر والنهي به ، فلا بد وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء التي تنافي النسيان مثل الدراسة وكثرة التذكر ، وكل ذلك عدول عن ظاهر اللفظ .

ومنها : أن نجعل الألف مزيدة للفاصلة ، وهو أيضاً خلاف الأصل .

ومنها : أنا إذا جعلناه خبراً كان معنى الآية بشارة الله إياه بأني أجعلك بحيث لا تنساه . وإذا جعلناه نهياً كان معناه أن الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النسيان وهي الدراسة والقراءة . وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأول . ولأنه على خلاف قوله :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : 16] انتهى .

(277/812)

الثالث : قال البرهان الشافعي في كتاب " تفضيل السلف على الخلف " : إن بعضهم ذكر أن هذه الآية ناسخة لآية : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ وتحقيق معنى النسخ هنا في غاية الإشكال ، لأن قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ ﴾ نهي عن العجلة ، وقوله :

﴿ سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ ليس بأمر بها ليكون ناسخاً للنهي عنها ، بل هو خبر عن بقاء الحفظ بعد إقرائه .

وفحواه مؤكد لمعنى الخطاب الآخر ؛ لأن تأويله : إنا نحفّظك تحفيظاً لا تخاف معه النسيان ؛ فلا حاجة لك إلى أن تعجل بالقرآن وتحرك به لسانك . ولكنهم سموه نسخاً ، لغة لا حقيقةً ، على معنى تبدل الحال عنهُ ، فإنه ظهر له الأمن عن النسيان بعد خوفه أن ينساه لما كان يحرك به لسانه . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم المفاعيل ، أي : لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، مما تقتضيه الجبلة البشرية أحياناً .

قال الزجاج : إلا ما شاء الله أن ينسى فإنه ينسى ، ثم يتذكر بعد ذلك ولا ينسى نسياناً كلياً دائماً ؛ وذلك لأن ما بالجبلة لا يتغير ، وإلا لكان الْإِنْسَانُ عالماً آخر .

وقد روى البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < رحم الله فلاناً ، لقد أذكرني كذا وكذا آية ، كنت أسقطتهن > . ويروى : < أُنسيتهن > .

وقال صلى الله عليه وسلم : < إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني > . رواه الشيخان عن ابن مسعود .

وقيل : الاستثناء مجازي بمعنى القلة المراد بها النفي ، وذلك أن المخرج في الاستثناء أقل من الباقي ؛ ولأن : ماشاء الله ، في العرف يستعمل للمجهول ، فكأنه قيل : إلا أمراً نادراً لا يعلم ؛ فإذا دل مثله على القلة عرفاً ، والقلة قد يراد بها النفي في نحو : قلّ من يقول كذا مجازاً ، أريد بالاستثناء هنا ذلك . وهذا ما أشار إليه الزمخشري بقوله : أو قال : إلا ما شاء الله ، والغرض نفي النسيان رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهمي فيما أملك إلا فيما شاء الله ، ولا يقصد استثناء شيء ، وهو من استعمال القلة في معنى النفي .

وقال الفراء – فيما نقله الرازي – إنه تعالى ما شاء أن يُنسي محمداً صلى الله عليه وسلم شيئاً ، إلا المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لقدر عليه ، كما قال :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : 86] ، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك . وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرّفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه ، لا من قوته . انتهى .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ أي : ما يجهر به عباده وما يخفونه من الأقوال والأفعال . وهو تعليل لقوله : ﴿ سَنُقْرِؤُكَ ﴾ مبين لحكمته ، وهو سبق علمه تعالى بحاجة البشر إلى إقرائه الوحي وإخراجهم به من الظلمات إلى النور .

ثم أشار إلى أن هذا المُقْرأ الموحى به للعمل ، ليس فيه حرج وعسر ، بقوله تعالى : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ أي : نوفقك للطريقة اليسرى ، أي : الشريعة السَّمحة السهلة ، التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي : عباد الله عظمته ، وعظهم وحذرهم عقوبته ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أي : الموعظة ، وإن إما بمعنى إذ ، كقوله تعالى :

(279/812)

﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 139] ، أو بمعنى قد ، على ما قاله ابن خالويه ، ويؤيده قوله تعالى :

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : 55] ، وقيل : إن شرطية ، والمعنى ذم المذكَّرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم ، تسجيلاً بالطبع على قلوبهم ، كما تقول للواعظ : عظ المكّاسينَ إن سمعوا منك ، قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك ، وأنه لن يكون .

﴿ سَيَذَّكَّرُ ﴾ أي : يقبل التذكرة وينتفع بها ﴿ مَن يَخْشَى ﴾ أي : يخاف العقاب على الجحود والعناد ، بعد ظهور الدليل .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ أي : العظمى ألماً وعذاباً .

﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ أي : لا يهلك فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه . قيل : إن العرب كانت إذا وصفت الرجل بوقوع في شدة شديدة قالوا : لا هو حي ولا ميت ، فجاء على مألوفهم في كلامهم . و ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا للتفاوت الرتبيّ ، إشارة إلى أن خلوده أفظع من دخوله النار وصليّه .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾

أي : فاز وظفر من تطهر من دنس الشرك والمعاصي ، وعمل بما أمره الله به .

(280/812)

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أي : تذكر جلال ربّه وعظمته ، فخشع وأشفق وقام بما له وعليه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : 2] ، وجوز أن يحمل ﴿ تَزَكَّى ﴾ على إيتاء الزكاة ، وصلى على إقامة الصلاة كآية : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : 14] ، لما عهد في كلامه تعالى من الجمع بينهما في عدة آيات ، لأنهما مبدأ كل خير وعنوان السعادة . لكن قيل عليه ، بأن المعهود في التنزيل الكريم تقديم الصلاة . وأجيب بفعل مأخوذ منها ، فلا كقوله : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴾ [القيامة : 31] . والأول أظهر ، لأنه أشمل وأعمّ . وهو أكثر فائدة .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ قال أبو السعود : إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح : لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها . والخطاب إما للكفرة ، فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها ، والإعراض عن الآخرة بالكلية ، كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ [يونس : 7] الآية ، أو للكل ، فالمراد بإيثارها ما هو أهم مما ذكر ، وما لا يخلو عنه الإِنْسَانُ غالباً من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادئ . والالتفات على الأول لشديد التوبيخ ، وعلى الثاني كذلك في حق الكفرة ، وتشديد العتاب في حق المسلمين . وقرئ : ﴿ يؤثرون ﴾ بالياء .

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي : أفضل ، لخلوصها عما يكدر . وأدوم لعدم انصرام نعيمها . والجملة حال من فاعل ﴿ تُؤْثِرُونَ ﴾ مؤكدة للتوبيخ والعتاب ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : ما ذكر في قوله :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ أو ما في السورة كلها ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ أي : ثابت فيها معناه .

﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ بدل من ﴿ الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ، وفي إبهامها ووصفها بالقدم ، ثم بيانها وتفسيرها ، من تفخيم شأنها ، ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 377.384 ﴾

(282/812)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الأعلى

الدرس الأول: 1 – 5 تسبيح الله والإرشاد إلى بعض أفعاله

(سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) . .

إن هذا الإفتتاح , بهذا المطلع الرخي المديد , ليطلق في الجو ابتداء أصداء التسبيح , إلى جانب معنى التسبيح . وإن هذه الصفات التي تلي الأمر بالتسبيح: (الأعلى الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) . . لتحيل

الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ; ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع: (الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) . .

والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معاني الصفات الحسنى لله , والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور . وليست هي مجرد ترديد لفظ: سبحان الله ! . . و(سبح اسم ربك الأعلى) . . تطلق في الوجدان معنى وحالة يصعب تحديدها باللفظ , ولكنها تتذوق بالوجدان . وتوحي بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معاني الصفات .

والصفة الأولى القريبة في هذا النص هي صفة الرب . وصفة الأعلى . . والرب: المربي والراعي , وظلال هذه الصفة الحانية مما يتناسق مع جو السورة وبشرياتها وإيقاعاتها الرخية . . وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى الآفاق التي لا تتناهى ; وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى . . وتتناسق مع التمجيد والتنزيه , وهو في صميمه الشعور بصفة الأعلى . .

والخطاب هنا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ابتداء . وهذا الأمر صادر إليه من ربه . بهذه الصيغة:(سبح اسم ربك الأعلى) . . وفيه من التلطف والإيناس ما يجل عن التعبير . وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذا الأمر , ثم يعقب عليه بالاستجابة المباشرة , قبل أن يمضي في آيات السورة , يقول: " سبحان ربي الأعلى " . . فهو خطاب ورده . وأمر وطاعته . وإيناس ومجاوبته . . إنه في حضرة ربه , يتلقى مباشرة ويستجيب . في أنس وفي اتصال قريب . . وحينما نزلت هذه الآية قال: " اجعلوها في سجودكم " . وحينما نزلت قبلها :(فسبح باسم ربك العظيم) . . قال: " اجعلوها في ركوعكم " . . فهذا التسبيح في الركوع والسجود كلمة حية ألحقت بالصلاة وهي دافئة بالحياة . لتكون استجابة مباشرة لأمر مباشر . أو بتعبير أدق . . لإذن مباشر . . فإذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه إحدى نعمه عليهم وأفضاله . إنه إذن بالاتصال به – سبحانه – في صورة مقربة إلى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته . في صفاته . في الحدود التي يملكون أن يتطلعوا إليها . وكل إذن للعباد بالاتصال بالله في أية صورة من صور الاتصال , هو مكرمة له وفضل على العباد .

(سبح اسم ربك الأعلى) . . (الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى) . .

الذي خلق كل شيء فسواه , فأكمل صنعته , وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه . . والذي

قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله , وألهمه غاية وجوده ; وقدر له ما يصلحه مدة بقائه , وهداه إليه أيضا . .

(284/812)

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود ; يشهد بها كل شيء في رحاب الوجود . من الكبير إلى الصغير . ومن الجليل إلى الحقير . . كل شيء مسوى في صنعته , كامل في خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده , وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق . . وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق , ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها الجماعي ; مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي .

الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها , شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها . . وهي تعرف طريقها وتؤدي مثلها وظيفتها . .

والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والإستعداد لأداء وظائفها كلها , شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة .

وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية ; كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية ,

درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا الكمال الخلقي , وفي مثل هذا التناسق الجماعي , وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها . . والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . .

هذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة حين يتلقى إيقاعات هذا الوجود ; وحين يتدبر الأشياء في رحابه بحس مفتوح . وهذا الإدراك الإلهامي لا يستعصي على أي إنسان في أية بيئة , وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبي , متى تفتحت منافذ القلب , وتيقظت أوتاره لتلقي إيقاعات الوجود .

والملاحظة بعد ذلك والعلم الكسبي يوضحان بالأمثلة الفردية ما يدركه الإلهام بالنظرة الأولى . . وهناك من رصيد الملاحظة والدراسة ما يشير إلى طرف من تلك الحقيقة الشاملة لكل ما في الوجود .

يقول العالم [ا . كريسي موريسون] رئيس أكاديمية العلوم بنيورك في كتابه: "الإنسان لا يقوم وحده "

"إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن . فعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبا في الخريف . ولكنه يعود إلى عشه في الربيع التالي . وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب . وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار . ولكنها لا تضل طريقها . وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص , يحوم برهة ثم يقصد قدما إلى موطنه دون أن يضل . . والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح , في هبوبها على الأعشاب والأشجار , كل دليل يرى . وحاسة العودة إلى الوطن هذه هي ضعيفة في الإنسان , ولكنه يكمل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة . ونحن في حاجة إلى هذه الغريزة , وعقولنا تسد هذه الحاجة . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيونا ميكروسكوبية [مكبرة] لا ندري مبلغها من الإحكام ; وأن للصقور بصرا تلسكوبيا [مكبرا مقربا] . وهنا أيضا يتفوق الإنسان بأدواته الميكانيكية فهو بتلسكوبه يبصر سديما بلغ من الضعف أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليوني مرة ليراه . وهو بمكروسكوبه الكهربائي يستطيع أن يرى بكتريا كانت غير مرئية [بل كذلك الحشرات الصغيرة التي تعضها !] .

"وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده , فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل . وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح . ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه , بعينين تأثرتا قليلا بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق . والبومة تستطيع أن تبصر

الفأر الدافئ اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهما تكن ظلمة الليل . ونحن نقلب الليل نهارا بإحداث إشعاع في تلك المجموعة التي نسميها الضوء " . .

(286/812)

. . . "إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام في المشط الذي يستخدم في التربية . وتعد الحجرات الصغيرات للعمال , والأكبر منها لليعاسيب [ذكور النحل] وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل . والنحلة الملكية تضع بيضا غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور , وبيضا مخصبا في الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات . والعاملات اللائي هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلا مجيء الجيل الجديد , تهيأن أيضا لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه . ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث , ولا يغذين سوى العسل واللقح . والإناث اللاتي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات" . .

"أما الإناث اللاتي في حجرات الملكة , فإن التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهن . وهؤلاء اللاتي يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملكات نحل , وهن

وحدهن اللائي ينتجن بيضا مخصبا . وعملية تكرار الإنتاج هذه تتضمن حجرات خاصة , وبيضا خاصا , كما تتضمن الأثر العجيب الذي لتغيير الغذاء , وهذا يتطلب الانتظار والتمييز وتطبيق اكتشاف أثر الغذاء ! وهذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة , وتبدو ضرورية لوجودها . ولا بد أن المعرفة والمهارة اللازمتين لذلك قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية , وليستا بالضرورة ملازمتين لتكوين النحل ولا لبقائه على الحياة . وعلى ذلك فيبدو أن النحل قد فاق الإنسان في معرفة تأثير الغذاء تحت ظروف معينة !

"والكلب بما أوتي من أنف فضولي يستطيع أن يحس الحيوان الذي مر . وليس ثمة من أداة من اختراع الإنسان لتقوي حاسة الشم الضعيفة لديه . ومع هذا فإن حاسة الشم الخاصة بنا – على ضعفها – قد بلغت من الدقة أنها يمكنها أن تتبين الذرات المكروسكوبية البالغة الدقة . .

(287/812)

"وكل الحيوانات تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا , وذلك بدقة تفوق كثيرا حاسة السمع المحدودة عندنا . وقد أصبح الإنسان يستطيع بفضل

وسائله أن يسمع صوت ذبابة تطير على بعد أميال , كما لو كانت فوق طبلة أذنه .

ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يسجل وقع شعاع شمسي !

"إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد [بالون] من خيوط العنكبوت . وتعلقه بشيء ما تحت الماء . ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر جسمها , وتحملها إلى الماء , ثم تطلقها تحت العش . ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش . وعندئذ تلد صغارها وتربيها , آمنة عليها من هبوب الهواء . فها هنا نجد طريقة النسج , بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية !

وسمك "السلمون" الصغير يمضي سنوات في البحر , ثم يعود إلى نهره الخاص به . والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه . . فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ? إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعدا إذا نقلت إلى نهير آخر أدركت توا أنه ليس جدولها . فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر , ثم تحيد ضد التيار , قاصدة إلى مصيرها !

(288/812)

"وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل , وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك , فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها , هاجرت من مختلف البرك والأنهار . وإذا كانت في أوربا قطعت آلاف الأميال في المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا . وهناك تبيض وتموت . أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة – فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة . ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين البحار . لقد قاومت التيارات القوية , وثبتت للأمداد والعواصف , وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ . وهي الآن يتاح لها النمو . حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها . فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك ؟ لم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية , أو صيد ثعبان ماء أوربي في المياه الأمريكية . والطبيعة تبطئ في إنماء ثعبان الماء الأوربي مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها [إذ أن مسافته أطول من مسافة زميله الأمريكي] ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معا في ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ ؟ !

. . . "وإذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علية بيتك , فإنها لا تلبث حتى ترسل إشارة خفية . وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة . ولكنه يتلقى هذه الإشارة

ويجاوبها , مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما . ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة ؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي , فضلا عن السلك اللاقط للصوت [إيريال] ؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ؟ !

(289/812)

. . . "إن التليفون والراديو هما من العجائب الآلية . وهما يتيحان لنا الاتصال السريع . ولكنا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان . وعلى ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة " .

"والنبات يتحايل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده دون رغبة من جانبهم !

كالحشرات التي تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى , والرياح , وكل شيء يطير أو يمشي , ليوزع بذوره . وأخيرا أوقع النبات الإنسان ذا السيادة في الفخ ! فقد حسن الطبيعة وجازته بسخاء . غير أنه شديد التكاثر ; حتى أصبح مقيدا بالمحراث , وعليه أن يبذر ويحصد ويخزن , وعليه أن يربي ويهجن , وأن يشذب ويطعم . وإذا هو أغفل هذه الأعمال كانت المجاعة نصيبه , وتدهورت المدنية , وعادت الأرض إلى حالتها الفطرية ! " . .

"وكثير من الحيوانات هي مثل "سرطان البحر" الذي إذا فقد مخلبا عرف أن جزءا من

جسمه قد ضاع , وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ; ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل , لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد حان !

"وكثير الأرجل المائي إذا انقسم إلى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين . وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم تسارع إلى صنع رأس بدلا منه . ونحن نستطيع أن ننشط التئام الجروح , ولكن متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعا جديدة , أو لحما أو عظاما أو أظافر أو أعصابا ? - إذا كان ذلك في حيز الإمكان ? !

(290/812)

"وهناك حقيقة مدهشة تلقي بعض الضوء على لغز هذا الخلق من جديد : فإن الخلايا في المراحل الأولى من تطورها , إذا تفرقت , صار لكل منها القدرة على خلق حيوان كامل . ومن ثم فإنه إذا انقسمت الخلية الأولى إلى قسمين , وتفرق هذان , تطور منهما فردان . وقد يكون في ذلك تفسير لتشابه التوأمين . ولكنه يدل على أكثر من ذلك . وهو أن كل خلية في البداية يمكن أن تكون فردا كاملا بالتفصيل . فليس هناك شك إذن , في أنك أنت , في كل خلية ونسيج ! " . .

ويقول في فصل آخر:

"إن جوزة البلوط تسقط على الأرض , فتحفظها قشرتها السمراء الجامدة , وتتدحرج في حفرة ما من الأرض ,وفي الربيع تستيقظ الجرثومة , فتنفجر القشرة , وتزدرد الطعام من اللب الشبيه بالبيضة الذي اختفت فيه "الجينات" [وحدات الوراثة] وهي تمد الجذور في الأرض , وإذا بك ترى فرخا أو شتلة [شجيرة] وبعد سنوات شجرة ! وإن الجرثومة بما فيها من جينات قد تضاعفت ملايين الملايين , فصنعت الجذع والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة ,مماثلة لتلك التي لشجرة البلوط التي تولدت عنها . وفي خلال مئات السنين قد بقي من ثمار البلوط التي لا تحصى نفس ترتيب الذرات تماما الذي أنتج أول شجرة بلوط منذ ملايين السنين " .

وفي فصل ثالث يقول:

"وكل خلية تنتج في أي مخلوق حي يجب أن تكيف نفسها لتكون جزءا من اللحم . أو أن تضحي بنفسها كجزء من الجلد الذي لا يلبث حتى يبلى . وعليها أن تصنع ميناء الأسنان , وأن تنتج السائل الشفاف في العين , أو أن تدخل في تكوين الأنف أو الأذن . ثم على كل خلية أن تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها . ومن العسير أن نتصور أن خلية ما هي ذات يد يمنى أو يسرى . ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءا من الأذن اليمنى , بينما الأخرى تصبح جزءا من الأذن اليسرى .

. . . "وإن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب . وفي المكان الصواب" !

(291/812)

وفي فصل رابع . .

. . . "في خليط الخلق قد أتيح لكثير من المخلوقات أن تبدي درجة عالية من أشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو ما لا ندري . فالدبور مثلا يصيد الجندب النطاط , ويحفر حفرة في الأرض , ويخز الجندب في المكان المناسب تماما حتى يفقد وعيه , ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ . . وأنثى الدبور تضع بيضا في المكان المناسب بالضبط , ولعلها لا تدري أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى , دون أن تقتل الحشرة التي هي غذاؤها , فيكون ذلك خطرا على وجودها . ولا بد أن الدبور قد فعل ذلك من البداية وكرره دائما , وإلا ما بقيت زنابير على وجه الأرض . . والعلم لا يجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخفية , ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تنسب إلى المصادفة !

"وإن أنثى الدبور تغطي حفرة في الأرض , وترحل فرحا , ثم تموت . فلا هي ولا أسلافها قد فكرت في هذه العملية , وهي لا تعلم ماذا يحدث لصغارها , أو أن هناك شيئا يسمى

صغارا . . بل إنها لا تدري أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها !

. . . "وفي بعض أنواع النمل يأتي العملة منه بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل في خلال فصل الشتاء . وينشئ النمل ما هو معروف "بمخزن الطحن" وفيه يقوم النمل الذي أوتي أفكاكا كبيرة معدة للطحن , بإعداد الطعام للمستعمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتي الخريف , وتكون الحبوب كلها قد طحنت فإن "أعظم خير لأكبر عدد" يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام . وما دام الجيل الجديد سينتظم كثيرا من النمل الطحان , فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود . ولعلها ترضي ضميرها الحشري بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافي , إذ كانت له الفرصة الأولى في الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

(292/812)

"وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير [واختر منهما ما يحلو لك] إلى زرع أعشاش للطعام فيما يمكن تسميته "بحدائق الأعشاش" . وتصيد أنواعا معينة من الدود والأرق أو اليرق [وهي حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة العسلية] فهذه المخلوقات هي بقر النمل وعنزاتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاما له .

"والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه , يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب . وبينما يضع بعض عملة النمل الأطراف في مكانها , تستخدم صغارها – التي وهي في الدور اليرقي تقدر أن تغزل الحرير – لحياكتها معا ! وربما حرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه , ولكنه قد خدم الجماعة !

"فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة , أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟

"لا شك أن هناك خالقا أرشدها إلى كل ذلك" . . انتهى . .

أجل . لا شك أن هناك خالقا أرشدها , وأرشد غيرها من الخلائق . كبيرها وصغيرها . إلى كل ذلك . . إنه (الأعلى الذي خلق فسوى , والذي قدر فهدى) . .

وهذه النماذج التي اقتطفناها من كلام ذلك العالم ليست سوى طرف صغير من الملاحظات التي سجلها البشر في عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان . ووراءها حشود من مثلها كثيرة . . وهذه الحشود لا تزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى: (الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى) . . في هذا الوجود المشهود الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . ووراءه عالم الغيب الذي ترد لنا عنه لمحات فيما يحدثنا الله عنه ; بالقدر الذي يطيقه تكويننا البشري الضعيف !

وبعد عرض هذا المدى المتطاول , من صفحة الوجود الكبيرة , وإطلاق التسبيح في جنباته , تتجاوب به أرجاؤه البعيدة , يكمل التسبيحة الكبرى بلمسة في حياة النبات لها

إيحاؤها ولها مغزاها :

(والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى) .

(293/812)

والمرعى كل نبات . وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله . فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا . فالله خلق هذه الأرض وقدر فيها أقواتها لكل حي يدب فوق ظهرها أو يختبئ في جوفها , أو يطير في جوها .

والمرعى يخرج في أول أمره خضرا , ثم يذوي فإذا هو غثاء , أميل إلى السواد فهو أحوى , وقد يصلح أن يكون طعاما وهو أخضر , ويصلح أن يكون طعاما وهو غثاء أحوى . وما بينهما فهو في كل حالة صالح لأمر من أمور هذه الحياة , بتقدير الذي خلق فسوى وقدر فهدى .

والإشارة إلى حياة النبات هنا توحي من طرف خفي , بأن كل نبت إلى حصاد وأن كل حي إلى نهاية . وهي اللمسة التي تتفق مع الحديث عن الحياة الدنيا والحياة الأخرى . . . (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) . . والحياة الدنيا كهذا المرعى , الذي ينتهي فيكون غثاء أحوى . . والآخرة هي التي تبقى .

وبهذا المطلع الذي يكشف عن هذا المدى المتطاول من صفحة الوجود الكبيرة . . تتصل حقائق السورة الآتية في سياقها , بهذا الوجود ; ويتصل الوجود بها , في هذا الإطار العريض الجميل . والملحوظ أن معظم السور

سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

في هذا الجزء تتضمن مثل هذا الإطار . الإطار الذي يتناسق مع جوها وظلها وإيقاعها تناسقا كاملا .

الدرس الثاني: 6 – 7 بشرى للرسول بتكفل ربه حفظ القرآن في قلبه

بعدئذ يجيء بتلك البشرى العظيمة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وامته من ورائه:

(سنقرئك فلا تنسى – إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى – ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى) . .

وتبدأ البشرى برفع عناء الحفظ لهذا القرآن والكد في إمساكه عن عاتق الرسول (صلى الله عليه وسلم): (سنقرئك فلا تنسى) . . فعليه القراءة يتلقاها عن ربه, وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه, فلا ينسى ما يقرئه ربه .

وهي بشرى للنبي (صلى الله عليه وسلم) تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه . الذي كان يندفع بعاطفة الحب له, وبشعور الحرص عليه, وبإحساس التبعة العظمى فيه . . إلى ترديده آية آية وجبريل يحمله إليه, وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفا منه . حتى جاءته هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه .

وهي بشرى لأمته من ورائه, تطمئن بها إلى أصل هذه العقيدة . فهي من الله . والله كافلها وحافظها في قلب نبيها . وهذا من رعايته سبحانه, ومن كرامة هذا الدين عنده, وعظمة هذا الأمر في ميزانه .

وفي هذا الموضع كما في كل موضع يرد فيه وعد جازم, أو ناموس دائم, يرد ما يفيد طلاقة المشيئة الإلهية من وراء ذلك, وعدم تقيدها بقيد ما ولو كان هذا القيد نابعا من وعدها وناموسها . فهي طليقة وراء الوعد والناموس . ويحرص القرآن على تقرير هذه الحقيقة في كل موضع – كما سبق أن مثلنا لهذا في الظلال – ومن ذلك ما جاء هنا:

(إلا ما شاء الله) . . فهو الاحتراس الذي يقرر طلاقة المشيئة الإلهية, بعد الوعد الصادق

بأنه لا ينسى . ليظل الأمر في إطار المشيئة الكبرى ; ويظل التطلع دائما إلى هذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها . ويظل القلب معلقا بمشيئة الله حيا بهذا التعلق أبدا . .

(295/812)

(إنه يعلم الجهر وما يخفى) . . وكأن هذا تعليل لما مر في هذا المقطع من الإقرار والحفظ والاستثناء . . فكلها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ; ويطلع على الأمر من جوانبه جميعا , فيقرر فيه ما تقتضيه حكمته المستندة إلى علمه بأطراف الأمر جميعا .

الدرس الثالث: 8 – 15 الله ييسر الرسول لليسرى ومطالبته بالتذكير ومن يتذكر ومن لا يتذكر

والبشرى الثانية الشاملة:

(ونيسرك لليسرى) . .

بشرى لشخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين , وحقيقة هذه الدعوة , ودورها في حياة البشر , وموضعها في نظام الوجود . .

وإن هاتين الكلمتين: (ونيسرك لليسرى) , لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هذه العقيدة , وحقائق هذا الوجود أيضا . فهي تصل طبيعة هذا الرسول بطبيعة هذه العقيدة

بطبيعة هذا الوجود . الوجود الخارج من يد القدرة في يسر . السائر في طريقه بيسر . المتجه إلى غايته بيسر . فهي انطلاقة من نور ; تشير إلى أبعاد وآماد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود . .

إن الذي ييسره الله لليسرى ليمضي في حياته كلها ميسرا . يمضي مع هذا الوجود المتناسق التركيب والحركة والاتجاه . . إلى الله . . فلا يصطدم إلا مع المنحرفين عن خط هذا الوجود الكبير – وهم لا وزن لهم ولا حساب حين يقاسون إلى هذا الوجود الكبير – يمضي في حركة يسيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ومع الأحداث والأشياء والأشخاص , ومع القدر الذي يصرف الأحداث والأشياء والأشخاص . اليسر في يده . واليسر في لسانه . واليسر في خطوه . واليسر في عمله . واليسر في تصوره . واليسر في تفكيره . واليسر في أخذه للأمور . واليسر في علاجه للأمور . اليسر مع نفسه واليسر مع غيره .

(296/812)

وهكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كل أمره . . ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت عنه عائشة – رضي الله عنها – وكما قالت عنه: "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا خلا في بيته ألين الناس , بساما ضحاكا " وفي صحيح

البخاري: "كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتنطلق به حيث شاءت" !

وفي هديه (صلى الله عليه وسلم) في اللباس والطعام والفراش وغيرها ما يعبر عن اختيار اليسر وقلة التكلف البتة . جاء في زاد المعاد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية, عن هديه (صلى الله عليه وسلم) في "ملابسه": "كانت له عمامة تسمى السحاب كساها عليا , وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة . وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة, ويلبس العمامة بغير قلنسوة . وكان إذا أعتم أرخى عمامته بين كتفيه – كما رواه مسلم في صحيحه . عن عمر بن حريث قال: رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه . وفي مسلم أيضا عن جابر ذؤابة, فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه . وقد يقال: إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس في كل موطن ما يناسبه" .

وفي فصل آخر قال: "والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي سنها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها . وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس . من الصوف تارة, والقطن تارة, والكتان تارة, ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر . ولبس الجبة والقباء والقميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل, وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة . . الخ" . .

وقال في هديه في الطعام: "وكذلك كان هديه (صلى الله عليه وسلم) وسيرته في الطعام, لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا . فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله – إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم – وما عاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله, وإلا تركه, كما ترك أكل الضب لما لم يعتده, ولم يحرمه على الأمة, بل أكل على مائدته وهو ينظر . وأكل الحلوى والعسل – وكان يحبهما – وأكل الرطب والتمر, وشرب اللبن خالصا ومشوبا والسويق والعسل بالماء, وشرب نقيع التمر, وأكل الخزبرة – وهي حساء يتخذ من اللبن والدقيق – وأكل القثاء بالرطب, وأكل الأقط, وأكل التمر بالخبز, وأكل الخبز بالخل, وأكل القديد, وأكل الدباء المطبوخة – وكان يحبها – وأكل المسلوقة, وأكل الثريد بالسمن, وأكل الجبن, وأكل الخبز بالزيت, وأكل البطيخ بالرطب . وأكل التمر بالزبد – وكان يحبه – ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه, بل كان هديه أكل ما تيسر, فإن أعوزه صبر . . . الخ" .

وقال عن هديه في نومه وانتباهه: "كان ينام على فراشه تارة وعلى النطع تارة, وعلى الحصير تارة, وعلى الأرض تارة, وعلى السرير تارة بين رماله, وتارة على كساء أسود" .

.

وأحاديثه التي تحض على اليسر والسماحة والرفق في تناول الأمور – وفي أولها أمر العقيدة وتكاليفها – كثيرة جدا يصعب تقصيها . من هذا قوله (صلى الله عليه وسلم): "إن هذا الدين يسر , ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه" [أخرجه البخاري] . . "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم . . . " [أخرجه أبو داود] . . "إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" [أخرجه البخاري] . . " يسروا ولا تعسروا " [أخرجه الشيخان] .

(298/812)

وفي التعامل: " رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى " [أخرجه البخاري] " المؤمن هين لين " [أخرجه البيهقي] " المؤمن يألف ويؤلف " [أخرجه الدارقطني] . " إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم " [أخرجه الشيخان] .

ومن اللمحات العميقة الدلالة كراهيته (صلى الله عليه وسلم) للعسر والصعوبة حتى في الأسماء وسمات الوجوه , مما يوحي بحقيقة فطرته وصنع ربه بها وتيسيره لليسرى انطباعا وتكوينا . . عن سعيد بن المسيب عن أبيه – رضي الله عنه – أنه جاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: " ما اسمك ؟ " قال: حزن [أي صعب وعر] قال: " بل أنت سهل " .

قال:لا أغير اسما سمانيه أبي ! قال ابن المسيب رحمه الله:"فما زالت فينا حزونة بعد" ! [أخرجه البخاري] . . "وعن ابن عمر رضي الله عنهما - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غير اسم عاصية وسماها جميلة" [أخرجه مسلم] . ومن قوله:"إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق" [أخرجه الترمذي] . .

فهو الحس المرهف الذي يلمح الوعورة والشدة حتى في الأسماء والملامح فينفر منها , ويميل بها إلى اليسر والهوادة !

وسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلها صفحات من السماحة واليسر والهوادة واللين والتوفيق إلى اليسر في تناول الأمور جميعا .

وهذا مثل من علاجه للنفوس , يكشف عن طريقته (صلى الله عليه وسلم) وطبيعته:

(299/812)

"جاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه . قال له:أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي:لا . ولا أجملت ! فغضب المسلمون , وقاموا إليه ; فأشار إليهم أن كفوا . ثم دخل منزله , وأرسل إلى الأعرابي , وزاده شيئا . ثم قال:أحسنت إليك ؟ قال:نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرا . فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم):إنك قلت ما قلت وفي نفس

أصحابي شيء من ذلك , فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي , حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال:نعم . فلما كان الغداة جاء , فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) :إن هذا الأعرابي قال ما قال , فزدناه , فزعم أنه رضي . أكذلك ? قال الأعرابي:نعم , فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال (صلى الله عليه وسلم) إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه , فتبعها الناس , فلم يزيدوها إلا نفورا , فناداهم صاحب الناقة:خلوا بيني وبين ناقتي , فإني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها , فأخذ لها من قمام الأرض , فردها هونا هونا , حتى جاءت واستناخت , وشد عليها رحلها , واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار " . .

فهكذا كان أخذه (صلى الله عليه وسلم) للنفوس الشاردة . بهذه البساطة , وبهذا اليسر , وبهذا الرفق وبهذا التوفيق . . والنماذج شتى في سيرته كلها . وهي من التيسير لليسرى كما بشره ربه ووفقه في حياته وفي دعوته وفي أموره جميعا . .

هذه الشخصية الكريمة الحبيبة الميسرة لليسرى كانت كذلك لكي تحمل إلى البشرية هذه الدعوة . فتكون طبيعتها من طبيعتها , وحقيقتها من حقيقتها , وتكون كفاء للأمانة الضخمة التي حملتها – بتيسير الله وتوفيقه – على ضخامتها . . . حيث تتحول الرسالة بهذا التيسير من عبء مثقل , إلى عمل محبب , ورياضة جميلة , وفرح وانشراح . .

وفي صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) , وصفة وظيفته التي جاء ليؤديها ورد في القرآن الكريم: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . . (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف , وينهاهم عن المنكر , ويحل لهم الطيبات , ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) فقد جاء (صلى الله عليه وسلم) رحمة للبشرية . جاء ميسرا يضع عن كواهل الناس الأثقال والأغلال التي كتبت عليهم , حينما شددوا فشدد عليهم .

وفي صفة الرسالة التي حملها ورد: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . . (وما جعل عليكم في الدين من حرج) . . (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) . . (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) فقد جاءت هذه الرسالة ميسرة في حدود الطاقة لا تكلف الناس حرجا ولا مشقة . وسرى هذا اليسر في روحها كما سرى في تكاليفها (فطرة الله التي فطر الناس عليها) .

وحيثما سار الإنسان مع هذه العقيدة وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية , والحالات المختلفة للإنسان , والظروف التي يصادفها في جميع البيئات والأحوال . . العقيدة ذاتها

سهلة التصور . إله واحد ليس كمثله شيء . أبدع كل شيء , وهداه إلى غاية وجوده . وأرسل رسلا تذكر الناس بغاية وجودهم , وتردهم إلى الله الذي خلقهم . والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة في تناسق مطلق لا عوج فيه ولا انحراف . وعلى الناس أن يأتوا منها بما في طوقهم بلا حرج ولا مشقة: " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم , وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " . . والمنهي عنه لا حرج فيه في حالة الضرورة: إلا ما اضطررتم إليه . . وبين هذه الحدود الواسعة تنحصر جميع التكاليف . . .

(301/812)

ومن ثم التقت طبيعة الرسول بطبيعة الرسالة , والتقت حقيقة الداعي بحقيقة الدعوة . في هذه السمة الأصيلة البارزة . وكذلك كانت الأمة التي جاءها الرسول الميسر بالرسالة الميسرة . فهي الأمة الوسط , وهي الأمة المرحومة الحاملة للرحمة . الميسرة الحاملة لليسر . . تتفق فطرتها هذه مع فطرة هذا الوجود الكبير . .

وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والانسياب الذي لا تصادم فيه ولا احتكاك . . ملايين الملايين من الأجرام تسبح في فضاء الله وتنساب في مداراتها متناسقة متجاذبة . لا تصطدم ولا تضطرب ولا تميد . . وملايين الملايين من

الخلائق الحية تجري بها الحياة إلى غاياتها القريبة والبعيدة في انتظام وفي احكام . وكل منها ميسر لما خلق له , سائر في طريقه إلى غاية . وملايين الملايين من الحركات والأحداث والأحوال تتجمع وتتفرق وهي ماضية في طريقها كنغمات الفرقة العازفة بشتى الآلات , لتجتمع كلها في لحن واحد طويل مديد !

إنه التوافق المطلق بين طبيعة الوجود , وطبيعة الرسالة , وطبيعة الرسول , وطبيعة الأمة المسلمة . . صنعة الله الواحد , وفطرة المبدع الحكيم .

(فذكر إن نفعت الذكرى) . .

لقد أقرأه فلا ينسى (إلا ما شاء الله) ويسره لليسرى . لينهض بالأمانة الكبرى . . ليذكر . فلهذا أعد , ولهذا بشر . . فذكر حيثما وجدت فرصة للتذكير , ومنفذا للقلوب , ووسيلة للبلاغ . ذكر (إن نفعت الذكرى) . . والذكرى تنفع دائما , ولن تعدم من ينتفع بها كثيرا كان أو قليلا . ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع , مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب . .

وحين نتأمل هذا الترتيب في الآيات , ندرك عظمة الرسالة , وضخامة الأمانة , التي اقتضت للنهوض بها هذا التيسير لليسرى , وذلك الإقراء والحفظ وتكفل الله بهما ; كي ينهض الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعبء التذكير , وهو مزود بهذا الزاد الكبير .

فإذا نهض (صلى الله عليه وسلم) بهذا العبء فقد أدى ما عليه, والناس بعد ذلك وشأنهم; تختلف مسالكهم وتختلف مصائرهم, ويفعل الله بهم ما يشاء وفق ما يستجيبون لهذه الذكرى:

سيذكر من يخشى, ويتجنبها الأشقى, الذي يصلى النار الكبرى, ثم لا يموت فيها ولا يحيا . قد أفلح من تزكى, وذكر اسم ربه فصلى . .

فذكر . . . وسينتفع بالذكرى (من يخشى) . . ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى, فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى, مذ يعلم أن للوجود إلها خلق فسوى, وقدر فهدى, فلن يترك الناس سدى, ولن يدعهم هملا; وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر, ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى . فإذا ذكر ذكر, وإذا بصر أبصر, وإذا وعظ اعتبر .

(ويتجنبها الأشقى) . . يتجنب الذكرى, فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو إذن (الأشقى) الأشقى إطلاقا وإجمالا . الأشقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة, التي لا تحس حقائق الوجود, ولا تسمع شهادتها الصادقة, ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذي يعيش قلقا متكالبا على ما في الأرض كادحا لهذا الشأن الصغير! والأشقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له

مدى: الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى . .

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها , والكبرى بمدتها , والكبرى بضخامتها .

. حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ; ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد , الذي يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى الأمنية الكبرى !

وفي الصفحة المقابلة نجد النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر:

(قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) . .

والتزكي: التطهر من كل رجس ودنس , والله – سبحانه – يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه ,

(303/812)

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

فاستحضر في قلبه جلاله: (فصلى) . . إما بمعنى خشع وقنت . وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي , فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب ,

والشعور بمهابته في الضمير . . هذا الذي تطهر وذكر وصلى (قد أفلح) يقينا . أفلح في دنياه , فعاش موصولا , حي القلب , شاعرا بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح في أخراه , فنجا من النار الكبرى , وفاز بالنعيم والرضى . .

فأين عاقبة من عاقبة ؟ وأين مصير من مصير ؟

الدرس الرابع: 16 – 17 ذم طالبي الدنيا مع أن الآخرة خير وأبقى

وفي ظل هذا المشهد . مشهد النار الكبرى للأشقى . والنجاة والفلاح لمن تزكى , يعود بالمخاطبين إلى علة شقائهم , ومنشأ غفلتهم , وما يصرفهم عن التذكر والتطهر والنجاة والفلاح , ويذهب بهم إلى النار الكبرى والشقوة العظمى:

(بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) . .

إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ; لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها . وهم يريدون الدنيا , ويؤثرونها . . وتسميتها (الدنيا) لا تجيء مصادفة . فهي الواطية الهابطة – إلى جانب أنها الدانية: العاجلة: (والآخرة خير وأبقى) . . خير في نوعها , وأبقى في أمدها .

وفي ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير . لا يقدم عليهما عاقل بصير .

الدرس الخامس: 18 – 19 عراقة الدعوة ووحدة الرسالة

وفي الختام تجيء الإشارة إلى قدم هذه الدعوة , وعراقة منبتها , وامتداد جذورها في شعاب الزمن , وتوحد أصولها من وراء الزمان والمكان:

(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) . .

(304/812)

هذا الذي ورد في هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذي في الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى .

ووحدة الحق , ووحدة العقيدة , هي الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها , ووحدة المشيئة التي اقتضت بعثة الرسل إلى البشر . . إنه حق واحد , يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة , والأطوار المتعاقبة . ولكنها تلتقي عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد . . من ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى . . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3883 . 3894﴾

(305/812)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الْأَعْلَى

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)

تقدم معنى التسبيح وهو التنزيه عن كل ما لا يليق ، والأمر بالتسبيح هنا منصب على ﴿ اسم ربِّكَ ﴾ ، وفي آيات أخر ، جاء الأمر بتسبيح الله تعالى كقوله : ﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان : 26] . ومثل : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] .

وتسبيح الرب سبحانه كقوله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 180] ، فاختلف في هذه الآية ، هل المراد تسبيح الله أو المراد تسبيح اسمه تعالى ، كما هو هنا ؟

ثم اختلف في المراد بتسبيح اسم الله تعالى ، وجاءت مسألة الاسم والمسمى .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الواقعة ، عند قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] ، قوله : إن الباء هناك داخلة على المفعول كدخولها عليه في قوله : ﴿ وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ [مريم : 25] ، وأحال على متقدم في ذلك ، وحكى كلام القرطبي أن الاسم بمعنى المسمى

، واستشهد له من كلام العرب بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقال : لا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا ، لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله ألحد فيها قوم ونزَّهها آخرون ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، لاشتمالها على صفاته الكريمة ، كما في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] . وقوله تعالى : ﴿ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] . ثم قال : ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى هل الاسم هو المسمى أو لا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية . 1ه .

(306/812)

فتضمن كلامه لاحمة الله تعالى علينا وعليه ، احتمال كون المراد : تنزيه اسم الله عما ألحد فيه الملحدون ، كاحتمال تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، كما تضمن عدم لزوم كون الاسم هنا بمعنى المسمى ، ولعلنا نورد محمل بيان تلك النقاط إن شاء الله .

أما تنزيه أسماء الله فهو على عدة معانٍ .

منها : تنزيها عن إطلاقها على الأصنام كاللات والعزى واسم الآلهة .

ومنها : تنزيهها عن اللهو بها واللعب ، كالتلفظ بها في حالة تنافي الخشوع والإجلال كمن يعبث بها ويلهو ، ونظيره من يلهو ويسهو عن صلاته ، ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الذين هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : 4-5] ، أو وضعها في غير مواضعها ، كنقش الثوب أو الفراش الممتهن .

ومنها : تنزيهها عن المواطن غير الطاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لما في من نقش محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه : صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صوناً لاسم الله .

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية الواقعة ، وأن ﴿ اسم رَبِّكَ ﴾ واقع موقع المفعول به ، وهو المراد بالتسبيح ، وعلى أن المراد تسبيح الله تعالى ، فقالوا : إن الاسم هو المسمى ، كما قال القرطبي وغيره ، وقالوا : الاسم صلة ، كما في بيت لبيد المتقدم .

أما مسألة الاسم هل هو عين المسمى أم لا ، فقد أشار إليها الفخر الرازي ، وقال : إنه وصف ركيك .

أما قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا يلزم في نظري كون الاسم بمعنى المسمى هنا ، فإنه بلازم إلى بسط قليل ، ليظهر صحة ما قاله .

وقد ناقشها الرازي بعد مقدمة ، قال فيها : من الناس من تمسك بهذه الآية ، في أَن الاسم نفس المسمى .

فأقول : إن الخوض في الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل النزاع ، فلا بد ها هنا من بيان أن الاسم ما هو والمسمى ما هو .

(307/812)

فنقول : إن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك الذات ، فالعاقل لا يمكن أن يقول : الاسم هو المسمى ، وإن كان المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات . كان قولنا الاسم نفس المسمى ، وأن تلك الذات هي تلك الذات . وهذا لا يمكن أن ينازع فيه عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكى ، وذكر الاشتباه على المتأخرين بسبب لفظ الاسم الذي هو قسيم الفعل والحرف ، إذ هو مراد المتقدمين في إطلاقه وإرادة مسماه .

ومن هنا تعلم : لماذا أعرض الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن بيانها ؟ وقد أوردنا هذا البيان المجمل ، لنطلع القارئ إليه ، وعلى كل تقدير عند المتقدمين أو المتأخرين فإنه إن وقع الاحتمال في الذوات الأخرى فلا يقع في ذات الله وأسمائه ، لأن لأسماء الله أحكاماً لا لأسماء الآخرين ، ولأسمائه سبحانه حق التسبيح والتنزيه والدعاء بها كما تقدم .

وهنا وجهة نظر لم أر من صرح بها ، ولكن قد تفهم من كلام بعض المفسرين وتشير إليها

السنة . وهي : أن يكون التسبيح هنا بمعنى الذكر والتعبد ، كالتحميد والتهليل والتكبير .

وقد جاء في كلام الرازي قوله : ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه ، ونحوه في بعض نُقول الطبري .

أما إشارة السنة إلى ذلك ، فقد روى الطبري وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت ، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأها : " سبحان ربي الأعلى " .

وكذلك ما روي أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] ، قال : " اجعلوها في ركوعكم " ولما نزلت هذه قال : " اجعلوها في سجودكم " .

وساق القرطبي أثراً طويلاً في فضلها في الصلاة وخارج الصلاة ، لكنه ليس بصحيح .

وجاء الحديث الصحيح " تسبحون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وتكبرون ثلاثاً وثلاثين ، وتختمون المائة بلا إله إلا الله " .

(308/812)

وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " ما رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أن نزلت عليه ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ [النصر : 1] ، إلا يقول : "

سُبحانك ربنا وبحمدِك اللَّهم اغفر لي " ، وقالت : يتأول القرآن .

وقالت أم سلمة : " إنه كان يقولها في قيامه وقعوده ، ومجيئه وذهابه ، صلى الله عليه وسلم " فيكون سبح اسم ربك : أي اذكر ربك .

وهذا ما دلت عليه الآية الأخرى في هذه السورة نفسها في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 14-15] فصرّح بذكر اسم ربك ، كما جاء ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ ﴾ ، فوضع الذكر موضع التسبيح ، وهو ما أشرنا إليه . وبالله تعالى التوفيق .

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2)

أطلق الخلق ليعم على كل مخلوق كما تقدم في السجدة ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، والتسوية التقويم والتعديل ، وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن ما يتناسب لخلقته وما خلق له ، فخلق السماوات فسواها في أقوى بناء ، وأعلى سمك ، وأشد تماسك ، لا ترى فيها من تشقق ولا فطور ، وزيَّنها بالنجوم ، وخلق الأرض ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها وجعلها فراشاً ومهاداً ، وخلق الأشجار فسوَّاها على ما تصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك .

وهذه الحيوانات في خلقتها وتسويتها آية ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية

: 17-20] .

أما الإنسان فهو أحسن تقويم ، كل ذلك مما يستوجب حقاً له سبحانه أن يسبح اسمه في ذاته ، وجميع صفاته ، حيث جمع بين الخلق والتسوية ، فلكمال القدرة والتنزيه عن كل نقص .

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3)

(309/812)

أطلق هنا التقدير ليعم كل مقدور ، وهو عائد على كل مخلوق ، لأن من لوازم الخلق التقدير ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ، وقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [الطلاق : 3] ، وهذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القدرة ، وقد جمعها تعالى عند التعريف التام لله تعالى ، لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 49-50] .

وقد تقدم بيان عموم قوله تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى ﴾ [الأعلى : 2] وهنا قدر كل ما خلق ، وهدى كل مخلوق إلى الله ما قدره له ، ففي العالم العلوي قدَّر مقادير الأمور ، وهدَى الملائكة لتنفيذها ، وقدَّر الأفلاك ، وهداها إلى ما قدر لها ، كل في فلك يسبحون .

وفي الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة في إيتائها وهدايتها إلى ما قدر لها ، فالجذر ينزل إلى أسفل والنبتة تنمو إلى أعلى ، وهكذا الحيوانات في تلقيحها ونتاجها وإرضاعها ، كل قد هداه إلى ما قدر له ، وهكذا الإنسان .

وقد قال الفخر الرازي : إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية .

أما معناه بالتفصيل ، فتقدم للشيخ رحمة الله تعالى وعليه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى ﴿ نقرئك ﴾ في سورة طه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ إَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] ، وبينه بآية القيامة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 16-17] .

(310/812)

وقوله : فلا تنسى : بحثه رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب مع ما ينسخ من الآيات فينساه ، وسيطبع إن شاء الله تعالى مع هذه التتمة ، تتمة للفائدة .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9)

هل ، ﴿ إِن ﴾ هنا بمعنى إذ أو أنها شرطية ؟ وهل للشر مفهوم مخالفة أم لا ؟ كل ذلك بحثه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسّع في دفع إيهام الاضطراب ، ورجع أنها شرطية ، وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام مقطوع بنفعه ، ومقطوع بعدم نفعه ، ومحتمل وقال : محل التذكير ما لم يكن مقطوعاً بعدم نفعه ، كمن بين له مراراً فأعرض ، كأبي لهب ، وقد أخبر الله عنه بمآله فلا نفع في تذكيره .

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من الذكرى .

ومنها تذكير المؤمنين ، وذلك في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] في سورة الذاريات .

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12)

أي بسبب شقائهم السابق أزلاً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : 106] .

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13)

نفى عنه الضدين ، لأن الإنسان بالذات إما حي وإما ميت ، ولا واسطة بينهما ، ولكن في يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير ، وهذا أبلغ في التعذيب ، إذ لو مات لاستراح ، ومع أنه

يتلقى من العذاب ما لا حياة معه ، كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : 36] .

وقوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : 17] .

(311/812)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

أسند الفلاح هنا إلى من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، وفي غير هذه الآية أسند التزكية لمشيئة الله في قوله : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [النور : 21] ، وفي آية أخرى ، نهى عن تزكية النفس .

وقد تقدم للشيخ بيان ذلك في سورة النور عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [النور : 21] على أن زكى بمعنى تطهر من الشرك والمعاصي ، لا على أنه أَخرج الزكاة ، والذي يظهر أن آية النجم إنما نهى فيها عن

تزكية النفس لما فيه من امتداحها ، وقد لا يكون صحيحاً كما في سورة الحجرات ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] والله تعالى أعلم .

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

قرئ : تؤثرون بالتاء وبالياء راجعاً إلى ﴿ الأشقى الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 11-12] ، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم ، وحيث إن هذا الأمر عام في الأمم الماضية ، ويذكر في الصحف الأولى كلها عامة ، وفي صحف إبراهيم وموسى ، مما يدل على خطورته ، وأنه أمر غالب على الناس .

(312/812)

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] ، أي الحياة الدائمة .

وقد روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من

خزف يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى ؟

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما في قوله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران : 14] .

ثم قال : ﴿ ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب ﴾ [آل عمران : 14] .

وبين تعالى هذا المآب الحسن وهو في وصفه يقابل ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ ، فقال : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذلكم لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله والله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ [آل عمران : 15] .

تأمل هذا البديل ، ففي الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث ، وقد قابل ذلك لكه بالجنة فعمت وشملت ، ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة ، كما تقدم في ﴿ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد : 15] ، ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 19] ، وغير ذلك مما ينص على الخيرية في الآخرة .

ولا شك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيا ، وظاهر عليه ، كما صرَّح تعالى بذلك في قوله : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الحياة الدنيا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين آمَنُواْ والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة والله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة : 212] .

فمن هذا يظهر أن أسباب إيثار الناس للحياة الدنيا هو تزيينها وزخرفتها في أعينهم بالمال والبنين والخيل والأنعام ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46] .

وقد سيق هذا ، لا على سبيل الإخبار بالواقع فحسب ، بل إن من ورائه ما يسمى لازم الفائدة ، وهو ذم من كان هذا حاله ، فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة .

وإذا ذهبنا نتطلب العلاج فإننا في الواقع نواجه أخطر موضوع الإنسان ، لأنه يشمل حياته الدنيا ومآله في الآخرة ، ويتحكم في سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه ، وإن قرب مأخذ لنا لهو هذا الموطن بالذات من هذه السورة ، وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى الذى يَصْلَى النار الكبرى ﴾ [الأعلى : 10-12] ، وبعدها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 14-15] ، فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين .

أما التذكير والإنذار ، إذ قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى ﴾ ﴿ الأعلى : 9] فهذا موقف النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآيتين : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ﴾ [الأعلى : 10] فينتفع بالذكرى وتنفعه ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ﴾ [الأعلى : 11] فلا تنفعه ولا ينتفع بها ، ثم جاء الحكم بالفلاح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] أي من يخشى ﴿ وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 15] ولم يغفل عن ذكر الله تعالى ، وهذا الموقف بنفسه هو المفصل في سورة الحديد ، وفي معرض التوجيه لنا والتوبيخ وللأمم الماضية أيضاً ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : 16] .

فقسوة القلب وطول الأمد والتسويف : هي العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا .

والخشية والذكر : هي العوامل الأساسية لإيثار الآخرة ثم عرض الدنيا في حقيقتها بقوله : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ [الحديد : 20] -إلى قوله- ﴿ والله ذُو الفضل العظيم ﴾ [الحديد :

.[21

فوصف الداء والدواء معاً في هذا السياق. فالداء: هو الغرور، والدواء: هو المسابقة إلى مغفرة من الله ورضوانه.

وقوله: ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى ﴾، قيل: اسم الإشارة راجع إلى السورة، كلها لتضمنها معنى التوحيد والمعاد والذكر والعبادات، والصحف الأولى: هي صحف إبراهيم وموسى، على أنها بدل من الأولى.

وجاء عند القرطبي: أن صحف إبراهيم كانت أمثالاً، وصحف موسى كانت مواعظ، وذكر نماذج لها.

(315/812)

وعند الفخر الرازي من رواية أبي ذر رضي الله عنه، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم "كم أنزل الله من كتاب؟ فقال: مائة وأربعة كتب على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة: وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان".

وفي هذا نص على أن في القرآن مما في الصحف الأولى، وقد جاء ما يدل أن معان أخرى

كذلك في صحف إبراهيم وموسى كما في سورة النجم في قوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ [النجم : 36-40] .

وهذا يؤيد أنها أكثرها أمثالاً ومواعظ ، كما يؤكد ترابط الكتب السماوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(316/812)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةُ الْأَعْلَى

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ؛

رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَبِي الْعَالِيَةِ قَالَا : " أَدَّى زَكَاةَ الْفِطْرِ ثُمَّ خَرَجَ إلَى الصَّلَاةِ " .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ صَدَقَةِ الْفِطْرِ قَبْلَ الْخُرُوجِ إلَى الْمُصَلَّى ﴾ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " ﴿ السُّنَّةُ أَنْ تُخْرِجَ صَدَقَةَ الْفِطْرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَيُسْتَدَلُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ عَلَى جَوَازِ افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ

بِسَائِرِ الْأَذْكَارِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ عَقِيبَ ذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ الصَّلَاةَ مُتَّصِلًا بِهِ ؛ إذْ كَانَتْ الْفَاءُ لِلتَّعْقِيبِ بِلَا تَرَاخٍ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ افْتِتَاحُ الصَّلَاةِ .

آخِرُ سُورَةِ سَبِّحْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(317/812)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْأَعْلَى

[فِيهَا أَرْبَعُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَنُقْرِئُك فَلَا تَنْسَى ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ سَنُقْرِئُك ﴾ أَيْ سَنَجْعَلُك قَارِئًا ، فَلَا تَنْسَى مَا نُقْرِئُك .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : سَأَلْت مَالِكًا عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ سَنُقْرِئُك فَلَا تَنْسَى ﴾ قَالَ : فَتَحْفَظُ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : يُرِيدُ مَالِكٌ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْهُ بِتَرْكِ النِّسْيَانِ ؛ إذْ كَانَ لَيْسَ مِنْ اسْتِطَاعَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ

قَدَّمَ لَهُ تَرْكَهُ ، وَحَكَمَ لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَنْسَى مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ .

قَالَ الْقَاضِي : وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ تَكْلِيفَ النَّاسِي فِي حَالِ نِسْيَانِهِ أَنْ يَصْرِفَ نِسْيَانَهُ لَا يُعْقَلُ قَوْلًا ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُكَلَّفًا بِهِ فِعْلًا .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾ .

قُلْنَا .

مَعْنَاهُ لَا تَتْرُكْ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ النِّسْيَانَ هُوَ التَّرْكُ لُغَةً .

وَالتَّرْكُ عَلَى قِسْمَيْنِ : تَرْكٌ بِقَصْدٍ ، وَتَرْكٌ بِغَيْرِ قَصْدٍ .

وَالتَّكْلِيفُ إنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِمَا يَرْتَبِطُ بِالْقَصْدِ مِنْ التَّرْكِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ثَبَتَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ ب ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ وَ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ﴾ مِنْ طَرِيقِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ، وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ .

خَرَّجَهُ النَّسَائِيّ ، وَغَيْرُهُ زَادَ النُّعْمَانُ : فِي الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلَّذِي طَوَّلَ صَلَاتَهُ بِالنَّاسِ : اقْرَأْ ب ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : نَزَلَتْ فِي صَدَقَةِ الْفِطْرِ يُزَكِّي ثُمَّ يُصَلِّي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي سَرْدِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ : قَالَ عِكْرِمَةُ : كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ أُقَدِّمُ زَكَاتِي بَيْنَ يَدَيْ صَلَاتِي .

فَقَالَ سُفْيَانُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ ، قَالَ : كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : إِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاقِبُ اللَّهُ بِهِ الْعِبَادَ ، وَقَدْ كَتَبْت إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَنْ يَخْرُجُوا فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَصَدَّقَ فَلْيَفْعَلْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : قَدِّمُوا صَدَقَةَ الْفِطْرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِهَا وَيُخْرِجُهَا .

وَقَوْلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : إِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاقِبُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْنِي الزَّلَازِلَ .

(319/812)

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الذِّكْرَ حَقِيقَتُهُ إنَّمَا هُوَ فِي الْقَلْبِ ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ النِّسْيَانِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهُ ، وَالضِّدَّانِ إنَّمَا يَتَضَادَّانِ فِي الْمَحَلِّ الْوَاحِدِ ؛ فَأَوْجَبَ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ النِّيَّةَ فِي الصَّلَاةِ خُصُوصًا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ اقْتَضَاهَا عُمُومًا قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ﴾ .

وَالصَّلَاةُ أُمُّ الْأَعْمَالِ ، وَرَأْسُ الْعِبَادَاتِ ، وَمَحَلُّ النِّيَّةِ فِي الصَّلَاةِ مَعَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ ؛ فَإِنَّ الْأَفْضَلَ فِي كُلِّ نِيَّةٍ بِفِعْلٍ أَنْ تَكُونَ مَعَ الْفِعْلِ لَا قَبْلَهُ ؛ وَإِنَّمَا رُخِّصَ فِي تَقْدِيمِ نِيَّةِ الصَّوْمِ لِأَجْلِ تَعَذُّرِ اقْتِرَانِ النِّيَّةِ فِيهِ بِأَوَّلِ الْفِعْلِ عِنْدَ الْفَجْرِ ، لِوُجُودِهِ وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ ، وَبَقِيَتْ سَائِرُ الْعِبَادَاتِ عَلَى الْأَصْلِ وَتَوَهَّمَ بَعْضُ الْقَاصِرِينَ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ أَنَّ تَقْدِيمَ النِّيَّةِ عَلَى الصَّلَاةِ جَائِزٌ بِنَاءً عَلَى مَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا مِنْ تَجْوِيزِ تَقْدِيمِ النِّيَّةِ عَلَى الْوُضُوءِ فِي الَّذِي يَمْشِي إلَى النَّهْرِ فِي الْغُسْلِ ؛ فَإِذَا وَصَلَ وَاغْتَسَلَ نَسِيَ أَنْ يُجْزِئَهُ قَالَ : فَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ .

(320/812)

وَهَذَا الْقَائِلُ مِمَّنْ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ ﴾ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ يُعْتَرَى فِيهِ ، وَحَقَّقْنَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي وُجُوبِ النِّيَّةِ ، وَالْوُضُوءَ فَرْعٌ مُخْتَلَفٌ فِيهِ ، فَكَيْفَ يُقَاسُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عَلَى الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ، وَيُحْمَلُ الْأَصْلُ عَلَى الْفَرْعِ ؟

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

[إذَا قُلْنَا : إنَّهُ] الذِّكْرُ الثَّانِي بِاللِّسَانِ الْمُخْبِرُ عَنْ ذِكْرِ الْقَلْبِ الْمُعَبِّرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ مَشْرُوعٌ فِي الصَّلَاةِ مُفْتَتَحٌ بِهِ فِي أَوَّلِهَا بِاتِّفَاقٍ مِنْ الْأَئِمَّةِ ؛ لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُ كُلُّ ذِكْرٍ حَتَّى لَوْ قَالَ : " سُبْحَانَ اللَّهِ " بَدَلَ التَّكْبِيرِ أَجْزَأَهُ ، بَلْ لَوْ قَالَ بَدَلَ (اللَّهُ أَكْبَرُ) : بزرك خداي لَأَجْزَأَهُ ، مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : يُجْزِئُهُ " اللَّهُ الْكَبِيرُ " وَاَللَّهُ أَكْبَرُ ، وَاَللَّهُ الْأَكْبَرُ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يُجْزِئُهُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَاَللَّهُ الْأَكْبَرُ .

[وَقَالَ مَالِكٌ : لَا يُجْزِئُهُ إلَّا قَوْلُهُ :] اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَأَمَّا تَعَلُّقُ أَبِي حَنِيفَةَ فِي الذِّكْرِ بِالْعَجَمِيَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ فَيَأْتِي ذِكْرُ وَجْهِ التَّقَصِّي عَنْهُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّهُ الذِّكْرُ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِ الْعَامِّ : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ فَهَذَا الْعَامُّ قَدْ عَيَّنَهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِعْلُهُ ؛ أَمَّا قَوْلُهُ فَهُوَ فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ : ﴿ تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ ﴾ .

وَأَمَّا الْفِعْلُ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ كُلِّهَا : اللَّهُ أَكْبَرُ .

وَأَمَّا التَّعَلُّقُ لِلشَّافِعِيِّ بِقَوْلِهِ : إِنَّ زِيَادَةَ الْأَلِفِ وَاللَّامِ فِيهِ لَا تُغَيِّرُ بِنَاءَهُ وَلَا مَعْنَاهُ .

فَالْجَوَابُ أَنَّ التَّعَبُّدَ إِذَا وَقَعَ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعَبَّرَ عَمَّا شُرِعَ فِيهِ بِمَا لَا يُغَيِّرُ ؛ لِأَنَّهَا شِرْعَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ ، وَاعْتِبَارٌ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ ؛ وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ .

وَجَوَابٌ ثَانٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ تَدْخُلُ لِلْجِنْسِ وَلِلْعَهْدِ ، وَكِلَاهُمَا مَمْنُوعٌ هَاهُنَا ، أَمَّا الْجِنْسُ فَإِنَّ

الْبَارِئَ تَعَالَى لَا جِنْسَ لَهُ .

وَأَمَّا الْعَهْدُ فَلِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْكُبْرِيَّةِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَصْفٌ ، فَلَا مَعْنَى لِلزِّيَادَةِ فِيهِ حَيْثُ لَا تُتَصَوَّرُ الزِّيَادَةُ .

وَإِذَا بَطَلَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ فَمَذْهَبُ أَبِي يُوسُفَ أَبْطَلُ .

فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ عُمُومٌ فِي كُلِّ ذِكْرٍ ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اللَّهُ أَكْبَرُ فِي الصَّلَاةِ تَخْصِيصٌ لِبَعْضِ ذَلِكَ الْعُمُومِ ، فَيُحْمَلُ عَلَى الِاسْتِحْبَابِ ، وَإِنَّمَا كَانَ يُحْمَلُ عَلَى الْوُجُوبِ لَوْ كَانَ بَيَانًا لِمُجْمَلٍ وَاحِدٍ .

(322/812)

وَهَذَا سُؤَالٌ قَوِيٌّ لِأَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَقَدْ تَقَصَّيْنَا عَنْهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَنُعَوِّلُ الْآنَ هُنَا عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي ﴾ .

وَهُوَ إنَّمَا كَانَ يُكَبِّرُ وَلَا يَتَعَرَّضُ لِكُلِّ ذِكْرٍ ، فَتَعَيَّنَ التَّكْبِيرُ بِأَمْرِهِ بِاتِّبَاعِهِ فِي صَلَاتِهِ ، فَهُوَ الْمُبَيِّنُ لِذَلِكَ كُلِّهِ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي مَعْنَاهُ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ الْقُرْآنُ .

الثَّانِي أَنَّهُ مَا قَصَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ هَذَا يَعْنِي أَحْكَامَ الْقُرْآنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ تَحْقِيقُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ مُطْلَقًا قَوْلٌ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ بَاطِلٌ قَطْعًا .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ فِيهِ أَحْكَامُهُ فَإِنْ أَرَادَ مُعْظَمَ الْأَحْكَامِ فَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْك ﴾ .

وَأَمَّا إنْ أَرَادَ بِهِ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَهُوَ الْأَوْلَى مِنْ الْأَقْوَالِ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْهَا .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ تَعَلَّقَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ فِي جَوَازِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ بِالْعَجَمِيَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

(323/812)

قَالُوا : فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ كِتَابَهُ وَقُرْآنَهُ فِي صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى بِالْعِبْرَانِيَّةِ ؛ فَدَلَّ عَلَى جَوَازِ الْإِخْبَارِ بِهَا عَنْهُ وَبِأَمْثَالِهَا مِنْ سَائِرِ الْأَلْسُنِ الَّتِي تُخَالِفُهُ .

وَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : الْأَوَّلُ : أَنَّا نَقُولُ : إنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ الْكُتُبَ ، وَمَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ رَسُولٍ إلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ ، وَمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابٍ إلَّا بِلُغَتِهِمْ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ؛ كُلُّ ذَلِكَ تَيْسِيرٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَقْرِيبٌ لِلتَّفْهِيمِ إلَيْهِمْ ، وَكُلٌّ مُفْهِمٌ بِلُغَتِهِ ، مُتَعَبِّدٌ بِشَرِيعَتِهِ ، وَلِكُلِّ كِتَابٍ بِلُغَتِهِمْ اسْمٌ ؛ فَاسْمُهُ بِلُغَةِ مُوسَى التَّوْرَاةُ ، وَاسْمُهُ بِلُغَةِ عِيسَى الْإِنْجِيلُ ، وَاسْمُهُ بِلُغَةِ مُحَمَّدٍ الْقُرْآنُ ، فَقِيلَ لَنَا : اقْرَءُوا الْقُرْآنَ ، فَيَلْزَمُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ بِمَا يُسَمَّى قُرْآنًا .

الثَّانِي : هَبْكُمْ سَلَّمْنَا لَكُمْ أَنْ يَكُونَ فِي صُحُفِ مُوسَى بِالْعِبْرَانِيَّةِ فَمَا الَّذِي يَقْتَضِي أَنَّهُ تَجُوزُ قِرَاءَتُهُ بِالْفَارِسِيَّةِ ؟ فَإِنْ قِيلَ : بِالْقِيَاسِ .

قُلْت : لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ لَا سِيَّمَا عِنْدَكُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ عَلَى التَّمَامِ ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(324/812)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الأعلى

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)

قوله : ﴿ الأعلى ﴾ : يجوزُ جَرُّه صفةً ل " ربِّك " ، ونصبُه صفةً لاسم . إلاَّ أنَّ هذا يمنعُ أَنْ يكونَ " الذي " صفةً ل " ربِّك " ، بل يتعيَّنُ جَعْلُه نعتاً ل " اسم " ، أو مقطوعاً ، لئلا يلزمَ الفصلُ بين الصفة والموصوفِ بصفةِ غيرِه ؛ إذ يصيرُ التركيبُ مثلَ قولِك : " جاءني غلامُ هندٍ العاقلُ الحسنةِ " فيُفْصَلُ بالعاقل بين " هند " وبين صفتِها . وتقدَّم الكلامُ في إضافةِ

الاسمِ إلى المُسَمَّى .

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3)

قوله : ﴿ قَدَّرَ ﴾ : قرأ الكسائيُّ بتخفيفِ الدالِ ، والباقون بالتشديد . وقد تقدَّمَتْ القراءتان في المرسلات .

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5)

قوله : ﴿ غُثَآءً ﴾ : إمَّا مفعولٌ ثانٍ ، وإمَّا حالٌ . والغُثاء بتشديد الثاء وتخفيفِها وهو الفصيحُ / ما يُقَدِّمُه السَّيْلُ على جوانبِ الوادي من النباتِ ونحوه . قال امرؤ القيس :

4549 كأنَّ ذُرا رأسِ المُجَيْمِرِ غُدوةً . . . من السَّيْلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

ورواه الفراءُ " والأَغْثاء " على الجمعِ . وفيه غرابةٌ من حيث جَمَعَ فُعالاً على أَفْعال .

قوله : ﴿ أحوى ﴾ فيه وجهان ، أظهرُهما : أنَّه نعتٌ لـ " غُثاء " . والثاني : أنه حالٌ من " المَرْعَى " . قال أبو البقاء : " قَدَّم بعضَ الصلةِ " . قلت : يعني أنَّ الأصل أخرجَ المرعى أَحْوى فجعله غثاءً ، ولا يُسَمَّى هذا تقديماً لبعضِ الصلةِ . والأَحْوى : أَفْعَلُ مِنْ الحُوَّة وهي سَوادٌ يَضْرِبُ إلى الخُضْرة . قال ذو الرَّمة :

4550 لَمْياءُ في شَفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ . . . وفي اللِّثاتِ وفي أَنْيابِها شَنَبُ

وقد تقدَّم لك أنَّ بعضَ النحاةِ استَدَلَّ على وجودِ بدلِ الغَلَطِ بهذا البيت . وقيل : خُضرةٌ عليها سوادٌ . والأَحْوى : الظَّبْيُ ؛ لأنَّ في ظهره خُطَّتَيْن . قال :

4551 وفي الحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شادِنٌ . . . مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ

ويقال : رجلٌ أَحْوَى وامرأةٌ حَوَّاء . وجَمْعُهما حُوٌّ ، نحو : أحمر وحمراءُ وحُمْر .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6)

﴿ فَلاَ تنسى ﴾ : قيل : هو نَفْيٌ ، أخبر تعالى أنَّ نبيَّه عليه السلام لا يَنْسَى . وقيل : نهيٌ ، والألفُ إشباعٌ ، وقد تَقَدَّم نحوٌ مِنْ هذا في يوسف وطه . ومنع مكي أَنْ يكونَ نهياً لأنه لا يُنْهَى عمَّا ليس باختيارِه . وهذا غيرُ لازمٍ ؛ إذ المعنى : النهيُ عن تعاطي أسبابِ النسيانِ ، وهو شائعٌ .

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7)

(326/812)

قوله : ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه مفرغٌ ، أي : إلاَّ ما شاءَ اللهُ أن يُنْسِيَكَهُ فإنك تَنْساه . والمرادُ رَفْعُ تلاوتِه . وفي الحديث : " أنه كان يُصبح فينسَى الآياتِ

لقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة : 106] . وقيل : إنَّ المعنى بذلك القِلَّةُ والنُّدْرَةُ ، كما رُوِيَ " أنه عليه السلام أسقط آيةً في صلاتِه ، فحسِب أُبَيٌّ أنها نُسِخَتْ ، فسأله فقال : " نَسِيْتُها " " وقال الزمخشري : " الغَرَضُ نَفْيُ النِّسْيان رَأْساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سَهِيْمي فيما أَمْلِكُ إلاَّ ما شاء اللَّهُ ، ولم يَقْصِدْ استثناءَ شيءٍ ، وهو مِنْ استعمالِ القِلَّة في معنى النفي " انتهى . وهذا القولُ سبقَه إليه الفراء ومكي . وقال الفراء وجماعة معه : " هذا الاستثناءُ صلةٌ في الكلام على سنةِ الله تعالى في الاستثناء . وليس [ثم] شيءٌ أُبيح استثناؤُه " . قال الشيخ : " هذا لا يَنْبغي أَنْ يكونَ في كلامِ اللَّهِ تعالى ولا في كلامٍ فصيحٍ ، وكذلك القولُ بأنَّ " لا " للنهي ، والألفَ فاصلةٌ " انتهى . وهذا الذي قاله الشيخُ لم يَقْصِدْه القائلُ بكونِه صلةً ، أي : زائداً مَحْضاً بل المعنى الذي ذكره ، وهو المبالغةُ في نَفْيِ النسيانِ أو النهي عنه .

وقال مكي : " وقيل : معنى ذلك ، إلاَّ ما شاء الله ، وليس يشاءُ اللَّهُ أَنْ يَنْسَى منه شيئاً ، فهو بمنزلةِ قولِه في هود في الموضعَيْنِ : خالِدِيْنَ فيها ما دامَتِ السماواتُ والأرضُ إلاَّ ما شاء ربُّك " وليس جَلَّ ذِكْرُه تَرَكَ شيئاً من الخلودِ لتقدُّمِ مَشيئَتِه بخُلودِهم " . وقيل : هو استثناءٌ مِنْ قولِه ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ . نقله مكي . وهذا يَنْبغي أَنْ لا يجوزَ البتة .

قوله : ﴿ وَمَا يخفى ﴾ "ما" اسميةٌ . ولا يجوزُ أَنْ تكونَ مصدريةً لئلا يَلْزَمَ خُلُوُّ الفعلِ مِنْ فاعل . ولولا ذلك لكان المصدريةُ أحسنَ لِيُعْطَفَ مصدرٌ مؤولٌ على مثلِه صريح .

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8)

قوله : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ ﴾ : عَطْفٌ على "سَنُقْرِئُك" فهو داخلٌ في حَيِّزِ التنفيسِ ، وما بينهما مِنْ الجملةِ اعتراض .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9)

قوله : ﴿ إِن نَّفَعَتِ ﴾ : "إنْ" شرطيةٌ . وفيه استبعادٌ لتذكُّرِهم . ومنه :

4552 لقد أَسْمَعْتَ لو ناديْتَ حَيّاً . . . ولكنْ لا حياةَ لِمَنْ تُنادي

وقيل : "إنْ" بمعنى إذْ كقولِه : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ [آل عمران : 139] . وقيل : هي بمعنى "قد" ذكَرَه ابنُ خالويه ، وهو بعيدٌ جداً . وقيل : بعده شيءٌ محذوفٌ تقديرُه : إنْ نَفَعَتِ الذكرى وإن لم تنفَعْ ، قاله الفراء . والنحاس والجرجاني والزهراوي .

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11)

قوله : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ : أي : الذكرى .

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13)

قوله : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ ﴾ : "ثم" للتراخي بين الرُّتَبِ في الشدة .

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16)

قوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ : قرأ أبو عمرو بالغيبة ، والباقون بالخطاب ، وهما واضحتان .

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)

قوله : ﴿ وأبقى ﴾ : أي : مِنْ الدنيا .

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18)

قوله : ﴿ لَفِي الصحف ﴾ : قرأ أبو عمرو في روايةِ الأعمش وهارون بسكون الحاء في الحرفين ، وهو واضحٌ أيضاً .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

(328/812)

قوله : ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ : قرأ العامَّة بألفٍ بعد الراء وياءٍ بعد الهاء ، وأبو رجاء بحَذْفهما ، والهاءُ مفتوحةٌ أو مكسورةٌ فعنه قراءتان . وأبو موسى وابن الزبير بألفَيْن وكذا في كلِّ القرآنِ ، ومالك ابن دينار بألفٍ بعد الراء فقط ، والهاءُ مفتوحةٌ ، وعبد الرحمن بن أبي بكر " وإبْرَاهيم " بحذف الألفِ وكسرِ الهاءِ . وقال ابنُ خالويه : " وقد جاء " إبْراهُم " يعني

بألفٍ وضمِّ الهاءِ . وقد تقدَّم الكلامُ على هذا الاسمِ الكريمِ ولغاتِه مستوفى في البقرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 759.764 ﴾

(329/812)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الأعلى

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز من قصده وجده ، ومن استسعفه حمده ، من طلبه عرفه ، ومن عرفه لاطفه ، فإذا وجد لطفه ألفه ، وإذا ألفه أنف أن يخالفه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .

أي سَبِّحْ ربَّك بمعرفة أسمائه ، واسبح بسِرِّك في بحار علائه ، واستخرِجْ من جواهر عُلوِّه وسنائه ما ترصِّعُ به عِقْدَ مَدْحِه وثنائه .

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

خَلق كلَّ ذي روح فسوَّى أجزاءَه ، وركَّبَ أعضاءَه على ما خَصّه به من النظم العجيب

والتركيب البديع .

﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

أي قدَّر ما خَلَقَه ، فجَعَلَه على مقدار ما أراده ، وهدى كلَّ حيوانٍ إلى ما فيه رشده من المنافع ، فيأخذ ما يُصْلِحه ويترك ما يضره – بحُكم الإلهام .

ويقال : هَدَى قلوبَ الغافلين إلى طلب الدنيا فعمروها ، وهدى قلوبَ العابدين إلى طلب العقبى فآثروها ، وهدى قلوبَ الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها ، وهدى قلوبَ العلماءِ إلى النظر في آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها .

وهدى قلوبَ المريدين إلى عِزِّ وَصْفِه فآثروه ، واستفرغوا جُهْدَهم فطلبوه ، وهدى العارفين إلى قُدْس نعتِه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى الموحِّدين إلى علاء سلطانه في تحد كبريائه فتركوا ما سواه وهجروه ، وخرجوا عن كلِّ مألوفٍ لهم ومعهود حتى قصدوه . فلمّا ارتقوا عن حدِّ البرهان ثم عن حدِّ البيان ثم عمَّا كالعيان عَلِموا أنَّه عزيزٌ ، وأنَّه وراءَ كلِّ فَصْلٍ ووَصْلٍ ، فرجعوا إلى مواطنِ العَجْزِ فتوسَّدوه .

﴿ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ .

أي النبات .

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَى ﴾ .

جعله هشيماً كالغثاء ، وهو الذي يقذفه السيل . و " أحوى " أسود .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾ .

(330/812)

سنجمع القرآن في قلبك – يا محمد – حِفْظاً حتى لا تنسى لأنا نحفظه عليك .

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ .

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أداؤه .

وهو – سبحانه – يعلم السِّرَّ والعَلَن .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .

والذِّكرى تنفع لا محالة ، ولكنْ لِمَنْ وَفَّقَه اللَّهُ للإتعاظِ بها ، أمَّا مَنْ كان المعلومُ من حاله الكفرَ والإعراضَ فهو كما قيل :

وما انتافعُ أخي الدنيا بِمُقْلَتِهِ . . . إذا استوَتْ عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ .

الذي يخشى الله ويخشى عقوبته .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾ .

أي يتجنَّبُ الذِّكْرَ الأشقى الذي يَصْلَى النارَ الكبرى ، ثم لا يموت فيها موتاً يريحه ، ولا يحيا حياةً تَلَذُّ له .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .

مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوب والعيوب ، ومشاهدة الخَلْقِ وأدَّى الزكاة – وَجَدَ النجاة ، والظَّفَرَ بالْبُغْيَة ، والفَوزَ بالطِّلبة .

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .

ذَكَرَ اسمَ ربّه في صلاته . ويقال : ذَكَره بالوحدانية وصَلَّى له .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

تميلون إليها ؛ فتُقَدِّمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى .

﴿ وَالأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

والآخرة للمؤمنين خيرٌ وأبقَى – من الدنيا – لطُلاّبها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

إن هذا الوعظَ لفي الصحف المتقدمة ، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما ؛ لأنَّ التوحيدَ ، والوعدَ والوعيدَ . . . لا تختلف باختلاف الشرائع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 717.719 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى (4)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (5)

الإعراب :

(اسم) مفعول به منصوب " 1 " ، (الأعلى) نعت لربّك مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت ثان لربّك ، والموصولان الآتيان معطوفان على الأول في محلّ جرّ (غثاء) مفعول به ثان منصوب (أحوى) نعت لغثاء منصوب " 2 " . .

---

(1) جعل بعض المفسّرين لفظ (اسم) زائدا ولا ضرورة لذلك ، فتنزيه الاسم هو تنزيه لصاحب الاسم .

(2) يجوز أن يكون اللفظ حالا من المرعى – على رأي أبي البقاء – أي : أخرج العشب أسود فجعله هشيما .

جملة : " سبّح . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " سوّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : " قدّر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " هدى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قدّر .

وجملة : " أخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثالث .

وجملة : " جعله . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرج .

الصرف :

(5) أحوى : صفة مشبّهة من حوي يحوى باب فرح بمعنى اسودّ مع اخضرار . . وفي القاموس : الحوّة بالضم سواد إلى خضرة أو حمرة إلى سواد ، وحوي حوى كرضي ، ووزن أحوى أفعل مؤنّثه حوّاء والجمع حوّ بضمّ الحاء وتشديد الواو .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 6 إلى 7]

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (6) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى (7)

الإعراب :

(333/812)

(السين) للاستقبال (الفاء) عاطفة (لا) نافية " 1 " ، ومفعول (تنسى) محذوف أي لا تنسى ما تقرؤه (إلّا) للاستثناء (ما) موصول في محلّ نصب على الاستثناء و(ما) الثاني في محلّ نصب معطوف على الجهر . .

جملة : " سنقرئك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تنسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سنقرئك .

---

(1) أو هي ناهية عند بعضهم ، والألف زائدة هي إشباع حركة السين لمناسبة الفاصلة .

(334/812)

وجملة : " شاء اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " إنّه يعلم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يخفى " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

الصرف :

(تنسى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تنسي بياء متحرّكة في آخره . تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(يخفى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله يخفي بياء متحرّكة في آخره ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 8 إلى 13]

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (12)

ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (13)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لليسرى) متعلّق بـ (نيسرك) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (نفعت) ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، وحرّكت التاء بالكسر لالتقاء الساكنين (السين) للاستقبال (من) موصول في محلّ رفع فاعل (الذي) في محلّ رفع نعت للأشقى (ثمّ) للعطف (لا) نافية في الموضعين . .

جملة : " نيسرك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نقرئك " 1 " .

وجملة : " ذكّر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن نفعت الذكرى من يتذكّر فذكّر . . .

وجملة : " نفعت الذكرى . . . " لا محلّ لها تفسير للشرط المقدّر . .

---

(1) في الآية (6) من السورة .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله . .

وجملة : " سيذّكر من يخشى . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يخشى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يتجنّبها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيذّكر . .

وجملة : " يصلى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لا يموت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصلى .

وجملة : " لا يحيا " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يموت .

الصرف :

(8) اليسرى : مؤنّث الأيسر بمعنى الأسهل ، وهو اسم تفضيل من اليسر ، وزن اليسرى فعلى بالضمّ .

(10) الأشقى : اسم تفضيل من الشقاء ، وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله الأشقي ، تحرّكت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا .

(13) يحيا : الألف رسمت طويلة لأنها ليست علما وسبقت بياء ، وقد رسمت في المصحف بياء غير منقوطة .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 14 إلى 15]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (من) موصول في محلّ رفع فاعل (الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) .

جملة : " أفلح من تزكّى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تزكّى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " ذكر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " صلّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذكر .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 16 إلى 17]

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ عن مقدّر أي أنتم لا تفعلون ذلك بل تؤثرون . . (الواو) حاليّة . .

جملة : " تؤثرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الآخرة خير . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

[سورة الأعلى (87) : الآيات 18 إلى 19]

إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (18) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى (19)

الإعراب :

(336/812)

(اللام) المزحلقة للتوكيد (في الصحف) متعلّق بخبر إنّ (صحف) بدل من الصحف

مجرور .

جملة : " إنّ هذا لفي الصحف " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد :

- بعض ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام :

عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : دخلت المسجد ، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه

وسلّم) : إن للمسجد تحية ، فقلت : وما تحيته يا رسول الله ؟ قال : ركعتان تركعهما ، قلت : يا رسول اللّه ، هل أنزل اللّه عليك شيئا مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال : يا أبا ذر ، اقرأ : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافية فلا محل لها .

(337/812)

إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى . صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى) قلت : يا رسول اللّه ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبرا كلها : (عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها في أهلها كيف يطمئن ! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب ! عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل !) . أخرج هذا الحديث رزين في كتابه ، وذكره ابن الأثير في كتابه جامع الأصول .

وأورد النسفي قوله : وفي صحف إبراهيم : (ينبغي للعاقل أن يكون حافظا للسانه ، عارفا بزمانه ، مقبلا على شانه) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 305.310 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(87) سورة الأعلى

مكيّة وآياتها تسع عشرة

[سورة الأعلى (87) : الآيات 1 إلى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى (4)

فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (6) إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (9)

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (12) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14)

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى (17) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (18) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى (19)

اللغة :

(غُثاءً) في القاموس : " الغثاء كغراب وكزنار : القمش والزبد والهالك البالي من ورق الشجر " وفيه أيضا : " القمش جمع قماش وهو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء حتى يقال لرذالة الناس قماش وما أعطاني إلا قماشا أي أرداً ما وجده " وفي المصباح : " غثاء السيل حميله وغثا الوادي غثوّا من باب قعد امتلأ من الغثاء وغثت نفسه تغثى غثيا من باب رمى وغثيانا وهو اضطرابها حتى تكاد تتقيأ من خلط ينصب إلى فم المعدة " .

(أَحْوى) الأحوى أفعل من الحوة وهي سواد يضرب إلى خضرة وقيل الأحوى خضرة عليها سواد والأحوى الظبي لأن في ظهره خطين ويقال رجل أحوى وامرأة حواء وجمعها حو نحو أحمر وحمر ، وفي القاموس " الحوة بالضم سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد وحوي كرضي حوى " وقال ابن جني : والحوة حمرة تضرب إلى السواد وتكون في الشفة والعرب تستحب ذلك ، قال ذو الرمة :

لمياء في شفتيها حوّة لعس وفي اللّثات وفي أنيابها شنب

صفراء في نعج بيضاء في دعج كأنها فضة قد مسّها ذهب

وأنشد أبو عبيدة لذي الرمّة أيضا في المرعى الأحوى :

حوّاء قرحاء أشراطيّة وكفت فيها الذهاب وحفتها البراعيم

والقرحاء : البيضاء يقال للغرة القرحة وأشراطية مطرت بنوء الشّرطين والذهاب بكسر الذال المطر الخفيف والبراعيم جمع برعومة وهي الوردة قبل أن تتفتح ويقال لها الكم والجمع أكمام .

الإعراب :

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) سبّح فعل أمر أي نزّه وقد تقدم وفاعله مستتر تقديره أنت واسم ربك مفعوله ، وجعله الجلال مقحما على حدّ قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(340/812)

و لا داعي لهذا التكلف فإن التنزيه يقع على الاسم أي نزّه اسم ربك عن أن يسمي به صنم أو وثن فيقال له رب أو إله . والأعلى صفة لربك ، وأجاز ابن هشام أن يكون صفة لاسم

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) الذي صفة ثانية للرب وجملة خلق صلة ومفعول خلق محذوف أي كل شيء والفاء عاطفة وسوّى عطف على خلق والمراد بالتسوية أنه خلق ما أراد على أتم وجه وأكمله ووفق نظام موصوف بالإحكام والإتقان مبرأ من الشوائب والاختلال (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى) عطف أيضا منسوق على ما تقدم (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى) عطف على ما قبله أيضا وجملة أخرج صلة الذي والمرعى مفعول به ، فجعله عطف على أخرج والهاء مفعول به أول وغثاء مفعول به ثان وأحوى صفة لغثاء لكن يشكل أن الغثاء هو اليابس والحوة خضرة دائمة فيتناقضان فالأولى أن يعرب أحوى حالا من المرعى أي أخرجه أحوى أسود من شدّة الخضرة فجعله غثاء بعد حوّته . وقال الزمخشري : " ويجوز أن يكون أحوى حالا من المرعى أي أخرجه من المرعى أسود من شدة الخضرة والريّ فجعله غثاء بعد حوّته " . وقال أبو البقاء : " قوله تعالى أحوى قيل هو نعت لغثاء وقيل هو حال من المرعى أي أخرج المرعى أخضر ثم صيّره غثاء فقدم بعض الصلة " . وقال أبو حيان : " والظاهر أن أحوى صفة لغثاء ، قال ابن عباس المعنى فجعله غثاء أحوى أي أسود لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسودّ وتعفّن فصار أحوى ، وقيل أحوى حال من المرعى أي أخرج المرعى أحوى أي للسواد من شدّة خضرته ونضارته لكثرة ريّه ، وحسن تأخير أحوى لأجل الفواصل قال :

وغيث من الوسمي حوّ تلاعه تبطنته بشيظم صلّتان "

وقال ابن خالويه في كتابه : " إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم " : " فجعله غثاء أحوى أي جعل اللّه المرعى أحوى والأحوى شديد الخضرة يضرب إلى السواد لريّه ثم صيّره غثاء بعد ما يبس فمعناه تقديم وتأخير " . وقال ابن هشام في كتابه المغني في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها : " الرابع عشر قول بعضهم في أحوى إنه صفة لغثاء وهذا ليس بصحيح على الإطلاق بل إذا فسّر الأحوى بالأسود من الجفاف واليبس وأما إذا فسّر بالأسود من شدّة الخضرة لكثرة الريّ كما فسّر " مدهامتان " فجعله صفة لغثاء كجعل قيما صفة لعوجا وإنما الواجب أن تكون حالا من المرعى وآخر لتناسب الفواصل " ولعمري لقد حسم الخلاف فيما قرره (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى) السين حرف استقبال ونقرئك فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به والفاء حرف عطف ولا نافية وتنسى فعل مضارع مرفوع ، وعبارة أبي السعود : " سنقرئك فلا تنسى : بيان لهداية اللّه تعالى الخاصة برسوله صلّى اللّه عليه وسلم إثر بيان هداية اللّه العامة لكافة مخلوقاته وهي هدايته عليه السلام لتلقي الوحي وحفظ القرآن وهدايته للناس أجمعين ، والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد إقراء ما أوحى اللّه إليه حينئذ وما سيوحي

إليه بعد ذلك فهو وعد باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء أي سنقرئك ما نوحي إليك وفيما بعده على لسان جبريل أو سنجعلك قارئا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلا من قسوة الحفظ والإتقان مع أنك أمي لا تدري ما الكتابة وما القراءة فيكون ذلك آية أخرى لك مع ما في تضاعيف ما تقرؤه من الآيات البيّنات من حيث الإعجاز ومن حيث الإخبار بالمغيّبات " والفاء عاطفة ولا نافية ، أخبر اللّه تعالى نبيّه أنه لا ينسى ، وتنسى فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة

(342/812)

المقدرة على الألف وقيل لا ناهية وتنسى فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف حرف العلة ثم أتي بالألف دعامة لفتح السين ليوافق رؤوس الآي كقوله : السبيلا ، وقد أحسن أبو حيان عند ما شجب هذا الوجه قال " وهذا قول ضعيف ومفهوم الآية في غاية الظهور وقد تعسفوا في فهمها " ، (إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخْفى) إلا أداة حصر وما مفعول تنسى والاستثناء مفرّغ من أعمّ المفاعيل وجملة شاء اللّه صلة ما وجملة إن وما في حيّزها تعليل لما قبله وإن واسمها وجملة يعلم خبرها والجهر مفعول به والواو حرف عطف وما موصولة منسوقة على الجهر وجملة يخفى صلة ، قال السمين : " ولا يجوز أن

تكون مصدرية لئلا يلزم خلو الفعل من فاعل ولولا ذلك لكان كونها مصدرية أحسن ليعطف مصدر مؤول على مثله صريح " (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى) الواو حرف عطف ونيسرك عطف على سنقرئك وهو فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به ولليسرى متعلقان بنيسرك أي للشريعة الإسلامية السمحاء والفاء الفصيحة أي إن علمت أنك من أرباب الفيوضات الكمالية بهدايتنا وتوفيقنا فذكر ، وإن شرطية ونفعت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والذكرى فاعل وفي إن معنى الاستبعاد كأنما هو واثق من عدم جنوحهم إلى الهدى وإصرارهم على ركوب متن الشطط وجواب إن محذوف دلّ عليه ما قبله وللزمخشري سؤال لطيف وإجابة ألطف قال : " فإن قلت : كان الرسول صلّى اللّه عليه وسلم مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع فما معنى اشتراط النفع ؟ قلت : هو على وجهين : أحدهما أن رسول اللّه قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوّا وطغيانا وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ويزداد وجدا في تذكيرهم وحرصا عليه فقيل له : وما أنت عليهم بجبّار فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد ، وأعرض عنهم وقل سلام ، وذكّر إن نفعت

الذكرى ، وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير ، والثاني أن يكون ظاهره شرطا ومعناه ذمّا للمذكرين وإخبارا عن حالهم واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم كما تقول للواعظ غظّ المكّاسين إن سمعوا منك قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك وأنه لن يكون " أما ابن خالويه فبعد أن أورد الوجه الذي أوردناه قال : " ويقول آخرون : إن بمعنى قد أي فذكر قد نفعت الذكرى وهو بعيد جدا ولا يليق بأسلوب القرآن الافتراض والمجازفة " أما أبو حيان فقد قال :

" والظاهر أن أمره بالتذكير مشروط بنفع الذكرى وهذا الشرط إنما جيء به توبيخا لقريش أي إن نفعت الذكرى في هؤلاء الطغاة العتاة ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى فهو كما قال الشاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي

وقال الفراء والنحّاس والزهراوي والجرجاني : معناه وإن لم تنفع فاقتصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى ، ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى) السين حرف استقبال ويذكر فعل مضارع مرفوع ومن موصول فاعل وجملة يخشى صلة لا محل لها ويتجنبها منسوق على سيذكّر والهاء مفعول به والضمير يعود على الذكرى والأشقى فاعل ، قال ابن خالويه : " يقال زيد الأشقى والمرأة الشقيا مثل الأعلى والعليا ويقال : كلّم الأشقى الشقيا وكلم الأشقيان الشقيين وكلم

الأشقون الأشقين وكلمت الشقييات الشقييات " والذي نعت للأشقى وجملة يصلّى لا محل لها لأنها صلة الذي وفاعل يصلّى مستتر يعود على الأشقى والنار مفعول به والكبرى نعت للنار وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ولا نافية ويموت فعل مضارع مرفوع وفيها متعلقان بيموت ، ولا يحيا عطف على لا يموت ومعنى التراخي أن الترجح بين الحياة والموت أشدّ هولا من

(344/812)

الصلي فهو متراخ عنه في مراتب الشدة ومن يمت يسترح أما هؤلاء فلا هم أموات فيستريحوا ولا هم أحياء فيجدوا متنفسا من العذاب (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) قد حرف تحقيق وأفلح فعل ماض ومن فاعل وجملة تزكى أي تطهر لا محل لها لأنها صلة من وذكر عطف على تزكى واسم ربه مفعول به ، فصلّى عطف على ذكّر (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) إضراب عن مقدّر ينساق إليه الكلام والتقدير أنتم لا تفعلون ما فيه صلاح أمركم بل تؤثرون ، وتؤثرون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والحياة مفعول به والدنيا نعت للحياة والمراد بإيثار الحياة الدنيا الركون إليها والاغترار بزخارفها واستجلاء أفاويقها ، والواو حالية والآخرة مبتدأ وخير خبر وأبقى عطف على خير ففيها لذات

الدنيا وما لا يتصور العقل من زيادة عليها ولها بعد ذلك صفة الديمومة والخلود (إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى) إن حرف مشبه بالفعل وهذا اسمها والإشارة إلى إفلاح من تزكى وما تلاه من كلام ، واللام المزحلقة وفي الصحف خبر إن والأولى نعت للصحف وصحف إبراهيم وموسى بدل من الصحف .

الفوائد :

لمحة عن صحف إبراهيم وموسى :

جاء في الخازن ما يلي : عن أبي ذر قال : دخلت المسجد فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن للمسجد تحية فقلت وما تحيته يا رسول اللّه قال : ركعتان تركعهما قلت : يا رسول اللّه هل أنزل اللّه عليك شيئا مما كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال يا أبا ذر اقرأ : قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربه فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ، قلت يا رسول اللّه

(345/812)

فما كانت صحف موسى ؟ قال كانت عبرا كلها : " عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ؟ عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن

إليها ؟ عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يغضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل " .

وجاء في القرطبي ما يلي : " وروى الآجري عن أبي ذر قال قلت يا رسول اللّه فما كانت صحف إبراهيم قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لتردّ عنّي دعوة المظلوم فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر ، وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ساعة يناجي فيها ربه وساعة يفكّر فيها في صنع اللّه عزّ وجلّ وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب وعلى العاقل أن لا يكون طامعا إلا في ثلاث : تزود لمعاد ومرحة لمعاش ولذة في غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 454.447﴾

(346/812)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْأَعْلَى

قَالَ الشَّيْخُ – رَحِمَهُ اللَّهُ – :

فَصْلٌ :

قَالَ ابْنُ فورك فِي كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ إلَى أَبِي إسْحَاقَ الإسفراييني يَحْكِي مَا جَرَى لَهُ قَالَ : وَجَرَى فِي كَلَامِ السُّلْطَانِ : أَلَيْسَ تَقُولُ : إنَّهُ يُرَى لَا فِي جِهَةٍ ؟ فَقُلْت : " نَعَمْ يُرَى لَا فِي جِهَةٍ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَرَى نَفْسَهُ لَا فِي جِهَةٍ وَلَا مِنْ جِهَةٍ وَيَرَاهُ غَيْرُهُ عَلَى مَا يَرَى وَرَأَى نَفْسَهُ وَالْجِهَةُ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ فِي الرُّؤْيَةِ . وَقُلْت أَيْضًا : " الْمَرْئِيَّاتُ الْمَعْقُولَةُ فِيمَا بَيْنَنَا هَكَذَا نَرَاهَا فِي جِهَةٍ وَمَحَلٍّ . وَالْقَضَاءُ بِمُجَرَّدِ الْمَعْهُودِ لَا يُمْكِنُ دُونَ السَّيْرِ وَالْبَحْثِ لِأَنَّا كَمَا لَا نَرَى إلَّا فِي جِهَةٍ وَمَحَلٍّ كَذَلِكَ لَمْ نَرَ إلَّا مُتَلَوِّنًا ذَا قَدْرٍ وَحَجْمٍ يَحْتَمِلُ الْمِسَاحَةَ وَالثِّقَلَ وَلَا يَخْلُو مِنْ

(347/812)

حَرَارَةٍ وَرُطُوبَةٍ أَوْ يُبُوسَةٍ إذَا لَمْ يَكُنْ عَرَضًا لَا يَقْبَلُ التَّثْنِيَةَ وَالتَّأْلِيفَ وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَمَعَ هَذَا فَلَا عِبْرَةَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا " . قَالَ : ثُمَّ بَلَغَنِي أَنَّ السُّلْطَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَاللَّيْلَةَ وَثَانِي يَوْمٍ يُكَرِّرُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَجْلِسِهِ : "كَيْفَ يُعْقَلُ شَيْءٌ لَا فِي جِهَةٍ ؟ " . وَمَا شَغَلَ الْقَلْبَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ وَتَرَبَّى عَلَيْهِ فَإِنَّ قَلْعَهُ صَعْبٌ وَاَللَّهُ الْمُعِينُ . غَيْرَ أَنَّهُ فَرِحَتْ الكَرَّامِيَة بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا رَجَعْت إلَى الْبَيْتِ فَإِذَا أَنَا بِرُقْعَةٍ فِيهَا مَكْتُوبٌ : " الْأُسْتَاذُ أَدَامَ اللَّهُ سَلَامَتَهُ عَلَى مَذْهَبِهِ إنَّ الْبَارِيَ لَيْسَ فِي جِهَةٍ فَكَيْفَ يُرَى لَا فِي جِهَةٍ ؟ " فَكَتَبْت : " خَبَرُ الرُّؤْيَةِ

صَحِيحٌ وَهِيَ وَاجِبَةٌ كَمَا بَشَّرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُرَى لَا فِي جِهَةٍ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ لَا تضامون فِي رُؤْيَتِهِ ﴾ وَمَعْنَاهُ : لَا تضمكم جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنَّهُ لَا فِي جِهَةٍ " وَكَلَامًا طَوِيلًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مَلَأْت ظَهْرَ الرُّقْعَةِ وَبَطْنَهَا مِنْهُ . فَلَمَّا رُدَّتْ إلَيْهِ أَنْفَذَهَا إلَى حَاكِمِ الْبَلَدِ وَهُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الناصحي وَاسْتَفْتَاهُ فِيمَا قُلْته . فَجَمَعَ قَوْمًا مِنْ الْحَنَفِيَّةِ وَالكَرَّامِيَة فَكَتَبَ هُوَ أَعَزَّك اللَّهُ بِأَنَّ مَنْ قَالَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي جِهَةٍ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ وَكَتَبَ أَبُو حَامِدٍ الْمُعْتَزِلِيُّ مِثْلَهُ وَكَتَبَ إنْسَانٌ بسطامي مُؤَدِّبٌ فِي دَارِ

(348/812)

صَاحِبِ الْجَيْشِ مِثْلَهُ فَرَدُّوا عَلَيْهِ . فَأَنْفِذْ إلَيَّ مَا فِي ذَلِكَ الْمَحْضَرِ الَّذِي فِيهِ خُطُوطُهُمْ وَكَتَبَ إلَيَّ رُقْعَةً وَقَالَ فِيهَا : " إنَّهُمْ كَتَبُوا هَكَذَا فَمَا تَقُولُ فِي هَذِهِ الْفَتَاوَى ؟ " فَقُلْت : إنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يَجِبُ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا بِتَقْلِيدِ الْعَامِّيِّ لِلْعَالِمِ . فَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْأُصُولِ وَالْفَتَاوَى فِيهَا فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : إنَّا لَا نُحْسِنُ ذَلِكَ . قُلْت : قَوْلُ هَؤُلَاءِ : " إنَّ اللَّهَ يُرَى مِنْ غَيْرِ مُعَايَنَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ " قَوْلٌ انْفَرَدُوا بِهِ دُونَ سَائِرِ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ وَجُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ عَلَى أَنَّ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ . وَالْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ كَقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ : ﴿ إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا

تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ ﴾ ﴿ وَقَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ النَّاسُ : هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : هَلْ تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ . قَالُوا : نَعَمْ . وَهَلْ تَرَوْنَ الْقَمَرَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهُ سَحَاب ؟ قَالُوا نَعَمْ . قَالَ : فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ . فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَلَمْ يُشَبِّهْ الْمَرْئِيَّ بِالْمَرْئِيِّ ؛ فَإِنَّ الْكَافَ - حَرْفَ

(349/812)

التَّشْبِيهِ - دَخَلَ عَلَى الرُّؤْيَةِ . وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ ﴿ يَرَوْنَهُ عِيَانًا ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّا نَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عِيَانًا مُوَاجَهَةً فَيَجِبُ أَنْ نَرَاهُ كَذَلِكَ . وَأَمَّا رُؤْيَةُ مَا لَا نُعَايِنُ وَلَا نُوَاجِهُهُ فَهَذِهِ غَيْرُ مُتَصَوَّرَةٍ فِي الْعَقْلِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ كَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . وَلِهَذَا صَارَ حُذَّاقُهُمْ إلَى إنْكَارِ الرُّؤْيَةِ وَقَالُوا : قَوْلُنَا هُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ فِي الْبَاطِنِ ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الرُّؤْيَةَ بِزِيَادَةِ انْكِشَافٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نُنَازِعُ فِيهِ الْمُعْتَزِلَةَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : إنَّ الْخَبَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَا فِي جِهَةٍ وَقَوْلُهُ : " لَا تضامون " مَعْنَاهُ لَا تضمكم جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فِي رُؤْيَتِهِ فَإِنَّهُ لَا فِي جِهَةٍ فَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلْحَدِيثِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا قَالَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ ؛ بَلْ هُوَ تَفْسِيرٌ مُنْكَرٌ عَقْلًا وَشَرْعًا وَلُغَةً . فَإِنَّ قَوْلَهُ " لَا تُضَامُونَ " يُرْوَى بِالتَّخْفِيفِ . أَيْ : لَا يَلْحَقُكُمْ ضَيْمٌ فِي رُؤْيَتِهِ كَمَا يَلْحَقُ النَّاسَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ الْحَسَنِ كَالْهِلَالِ فَإِنَّهُ قَدْ يَلْحَقُهُمْ ضَيْمٌ فِي طَلَبِ رُؤْيَتِهِ حِينَ يُرَى ؛

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَجَلَّى تَجَلِّيًا ظَاهِرًا فَيَرَوْنَهُ كَمَا تُرَى الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِلَا ضَيْمٍ يَلْحَقُكُمْ فِي رُؤْيَتِهِ . وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ . وَقِيلَ " لَا تضامون " بِالتَّشْدِيدِ أَيْ : لَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إلَى بَعْضٍ

(350/812)

كَمَا يتضام النَّاسُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ الْخَفِيِّ كَالْهِلَالِ . وَكَذَلِكَ " تُضَارُّونَ " و " تُضَارُونَ " . فَإِمَّا أَنْ يُرْوَى بِالتَّشْدِيدِ وَيُقَالَ : " لَا تضامون " أَيْ لَا تَضُمُّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فَهَذَا بَاطِلٌ لِأَنَّ التَّضَامَّ انْضِمَامُ بَعْضِهِمْ إلَى بَعْضٍ . فَهُوَ " تَفَاعُلٌ " كَالتَّمَاسِّ وَالتَّرَادِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَدْ يُرْوَى " لَا تضامون " بِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيدِ أَيْ لَا يُضَامُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . وَبِكُلِّ حَالٍ فَهُوَ مِنْ " التَّضَامِّ " الَّذِي هُوَ مُضَامَّةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا لَيْسَ هُوَ أَنَّ شَيْئًا آخَرَ لَا يَضُمُّكُمْ فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُقَالُ فِيهِ " لَا تضامون " فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ " لَا يَضُمُّكُمْ شَيْءٌ " ثُمَّ يُقَالُ : الرَّاءُونَ كُلُّهُمْ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْأَرْضِ . وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ الْمَرْئِيَّ لَيْسَ فِي جِهَةٍ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : " لَا تَضُمُّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ " وَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى الْأَرْضِ أَرْضِ الْقِيَامَةِ أَوْ فِي الْجَنَّةِ وَكُلُّ ذَلِكَ جِهَةٌ وَوُجُودُهُمْ نَفْسُهُمْ لَا فِي جِهَةٍ وَمَكَانٍ مُمْتَنِعٌ حِسًّا وَعَقْلًا . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " هُوَ يُرَى لَا فِي جِهَةٍ فَكَذَلِكَ

يَرَاهُ غَيْرُهُ فَهَذَا تَمْثِيلٌ بَاطِلٌ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَرَى بَدَنَهُ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَرَى غَيْرَهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ بِجِهَةٍ مِنْهُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَمَامَهُ سَوَاءٌ كَانَ عَالِيًا أَوْ سَافِلًا .

(351/812)

وَقَدْ تُخْرَقُ لَهُ الْعَادَةُ فَيَرَى مَنْ خَلْفَهُ . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِي ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي ﴾ وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ ﴿ إنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَائِي ﴾ وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ إنِّي وَاَللَّهِ لَأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ﴾ . لَكِنْ هُمْ بِجِهَةٍ مِنْهُ وَهُمْ خَلْفَهُ . فَكَيْفَ تُقَاسُ رُؤْيَةُ الرَّائِي لِغَيْرِهِ عَلَى رُؤْيَتِهِ لِنَفْسِهِ ؟ ثُمَّ تَشْبِيهُ رُؤْيَتِهِ هُوَ بِرُؤْيَتِنَا نَحْنُ تَشْبِيهٌ بَاطِلٌ . فَإِنَّ بَصَرَهُ يُحِيطُ بِمَا رَآهُ بِخِلَافِ أَبْصَارِنَا . وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ أَثْبَتُوا مَا لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَأَحَبُّوا نَصْرَ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْحَدِيثِ فَجَمَعُوا بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ . فَإِنَّ مَا لَا يَكُونُ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا يُشَارُ إلَيْهِ يَمْتَنِعُ أَنْ يُرَى بِالْعَيْنِ لَوْ كَانَ وُجُودُهُ فِي الْخَارِجِ مُمْكِنًا فَكَيْفَ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ ؟ وَإِنَّمَا يُقَدَّرُ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وُجُودٌ فِي الْأَعْيَانِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ الْبَاطِلِ . وَلِهَذَا فَسَّرُوا " الْإِدْرَاكَ " بِالرُّؤْيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ كَمَا فَسَّرَتْهَا الْمُعْتَزِلَةُ . لَكِنْ

عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْمَدْحِ فَلَا يُرَى بِحَالٍ وَهَؤُلَاءِ قَالُوا : لَا يُرَى فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ . وَالْآيَةُ تَنْفِي الْإِدْرَاكَ مُطْلَقًا دُونَ الرُّؤْيَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ كِلَابٍ

(352/812)

وَهَذَا أَصَحُّ . وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى إثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ وَهُوَ أَنَّهُ يُرَى وَلَا يُدْرَكُ فَيُرَى مِنْ غَيْرِ إحَاطَةٍ وَلَا حَصْرٍ . وَبِهَذَا يَحْصُلُ الْمَدْحُ فَإِنَّهُ وَصْفٌ لِعَظَمَتِهِ أَنَّهُ لَا تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ الْعِبَادِ وَإِنْ رَأَتْهُ وَهُوَ يُدْرِكُ أَبْصَارَهُمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ بِحَضْرَتِهِ لِمَنْ عَارَضَ بِهَذِهِ الْآيَةِ : " أَلَسْت تَرَى السَّمَاءَ ؟ " . قَالَ : " بَلَى " قَالَ : " أَفَكُلَّهَا تَرَى ؟ " وَكَذَلِكَ قَالَ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : عِلْمُهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَاطَ بِشَيْءٍ مِنْهُ دُونَ شَيْءٍ فَقَالُوا : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ مَعْلُومِهِ . وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ نَفْسُ الْعِلْمِ جِنْسٌ يُحِيطُونَ مِنْهُ بِمَا شَاءَ وَسَائِرُهُ لَا يُحِيطُونَ بِهِ . وَقَالَ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ وَالرَّاجِحُ مِنْ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إلَى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وَإِذَا لَمْ يُحِيطُوا بِهَذَا عِلْمًا وَهُوَ بَعْضُ مَخْلُوقَاتِ الرَّبِّ فَأَنْ لَا يُحِيطُوا عِلْمًا بِالْخَالِقِ أَوْلَى وَأَحْرَى . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّك إلَّا هُوَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إلَّا اللَّهُ

جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ - الْآيَةَ فَإِذَا قِيلَ ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ . أَيْ لَا تُحِيطُ بِهِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ

(353/812)

يُوصَفُ بِنَفْيِ الْإِحَاطَةِ بِهِ مَعَ إثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ . وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَكُونُ بِزَعْمِهِمْ فِيمَا يَنْقَسِمُ فَيُرَى بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ . فَتَكُونُ هُنَاكَ رُؤْيَةٌ بِلَا إدْرَاكٍ وَإِحَاطَةٍ وَعِنْدَهُمْ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُرَى إلَّا رُؤْيَةً وَاحِدَةً مُتَمَاثِلَةً كَمَا يَقُولُونَهُ فِي كَلَامِهِ : إنَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَتَبَعَّضُ وَلَا يَتَعَدَّدُ . وَفِي الْإِيمَانِ بِهِ . إنَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ . وَأَمَّا الْإِدْرَاكُ وَالْإِحَاطَةُ الزَّائِدُ عَلَى مُطْلَقِ الرُّؤْيَةِ فَلَيْسَ انْتِفَاؤُهُ لِعَظَمَةِ الرَّبِّ عِنْدَهُمْ بَلْ لِأَنَّ ذَاتَهُ لَا تَقْبَلُ ذَاكَ كَمَا قَالَتْ الْمُعْتَزِلَةُ : إنَّهَا لَا تَقْبَلُ الرُّؤْيَةَ . وَأَيْضًا فَهُمْ وَالْمُعْتَزِلَةُ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا لِلْأَبْصَارِ إدْرَاكًا غَيْرَ الرُّؤْيَةِ . سَوَاءٌ أُثْبِتَتْ الرُّؤْيَةُ أَوْ نُفِيَتْ . فَإِنَّ هَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ بِنَفْيِ الرُّؤْيَةِ وَيُبْطِلُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ بِإِثْبَاتِ رُؤْيَةٍ بِلَا مُعَايَنَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ .

فَصْلٌ :

هَذَا مَعَ أَنَّ ابْنَ فورك هُوَ مِمَّنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ كَالْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَكَذَلِكَ الْمَجِيءُ وَالْإِتْيَانُ . مُوَافَقَةً لِأَبِي الْحَسَنِ فَإِنَّ هَذَا قَوْلُهُ وَقَوْلُ مُتَقَدِّمِي أَصْحَابِهِ .

فَقَالَ ابْنُ فورك فِيمَا صَنَّفَ فِي أُصُولِ الدِّينِ : فَإِنْ سَأَلَتْ الْجَهْمِيَّةُ عَنْ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْقَدِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ قِيلَ لَهُمْ : قَدْ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ تَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْآفَاتُ وَالْحَيُّ إذَا لَمْ يَكُنْ مأووفا بِآفَاتٍ تَمْنَعُهُ مِنْ إدْرَاكِ الْمَسْمُوعَاتِ وَالْمُبْصِرَاتِ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . وَإِنْ سَأَلْت فَقُلْت : " أَيْنَ هُوَ ؟ " فَجَوَابُنَا " إنَّهُ فِي السَّمَاءِ " كَمَا أَخْبَرَ فِي التَّنْزِيلِ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ فَقَالَ عَزَّ مَنْ قَائِلٍ ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ وَإِشَارَةُ الْمُسْلِمِينَ بِأَيْدِيهِمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي رَفْعِهَا إلَيْهِ . وَأَنَّك لَوْ سَأَلْت صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ فَقُلْت : " أَيْنَ اللَّهُ ؟ " لَقَالُوا : " إنَّهُ فِي السَّمَاءِ " وَلَمْ يُنْكِرُوا لَفْظَ السُّؤَالِ بِـ " أَيْنَ " . ﴿ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ الْجَارِيَةَ الَّتِي عُرِضَتْ لِلْعِتْقِ فَقَالَ أَيْنَ اللَّهُ ؟ فَقَالَتْ فِي السَّمَاءِ مُشِيرَةً بِهَا . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ ﴾ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ قَوْلًا مُنْكَرًا لَمْ يَحْكُمْ بِإِيمَانِهَا وَلَأَنْكَرَهُ عَلَيْهَا . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ لِأَنَّ " فِي " بِمَعْنَى فَوْقُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيْ فَوْقَهَا . قَالَ : وَإِنْ سَأَلْت " كَيْفَ هُوَ ؟ " قُلْنَا لَهُ : " كَيْفَ " سُؤَالٌ عَنْ صِفَتِهِ . وَهُوَ ذُو الصِّفَاتِ الْعُلَى هُوَ الْعَالِمُ الَّذِي لَهُ الْعِلْمُ وَالْقَادِرُ

الَّذِي لَهُ الْقُدْرَةُ وَالْحَيُّ الَّذِي لَهُ الْحَيَاةُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ مُنْفَرِدًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ . (قُلْت : فَهَذَا الْكَلَامُ هُوَ مُوَافِقٌ لِمَا ذَكَرَهُ الْأَشْعَرِيُّ فِي كِتَابِ " الْإِبَانَةِ " وَلِمَا ذَكَرَهُ ابْنُ كِلَابٍ كَمَا حَكَاهُ عَنْهُ ابْنُ فورك . لَكِنَّ ابْنَ كِلَابٍ يَقُولُ : إنَّ الْعُلُوَّ وَالْمُبَايَنَةَ مِنْ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةِ . وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَقُولُونَ : كَوْنُهُ فِي السَّمَاءِ صِفَةٌ خَبَرِيَّةٌ كَالْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ وَيُطْلِقُونَ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ بِذَاتِهِ فَوْقَ الْعَرْشِ وَذَلِكَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ عِنْدَهُمْ . وَالْأَشْعَرِيُّ يُبْطِلُ تَأْوِيلَ مَنْ تَأَوَّلَ الِاسْتِوَاءَ بِمَعْنَى الِاسْتِيلَاءِ وَالْقَهْرِ بِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُسْتَوْلِيًا عَلَى الْعَرْشِ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالِاسْتِوَاءُ مُخْتَصٌّ بِالْعَرْشِ . فَلَوْ كَانَ بِمَعْنَى الِاسْتِيلَاءِ لَجَازَ أَنْ يُقَالَ : " هُوَ مُسْتَوٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَعَلَى الْأَرْضِ وَغَيْرِهَا " كَمَا يُقَالُ " إنَّهُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْهَا " وَلِمَا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مُخْتَصٌّ بِالْعَرْشِ . فَهَذَا الِاسْتِوَاءُ الْخَاصُّ لَيْسَ بِمَعْنَى الِاسْتِيلَاءِ الْعَامِّ . وَأَيْنَ لِلسُّلْطَانِ جَعْلُ الِاسْتِوَاءِ بِمَعْنَى الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ وَهُوَ الِاسْتِيلَاءُ ؟ . فَيُشْبِهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ اجْتِهَادُهُ مُخْتَلِفًا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ كَمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُ غَيْرِهِ . فَأَبُو الْمَعَالِي كَانَ يَقُولُ بِالتَّأْوِيلِ ثُمَّ حَرَّمَهُ وَحَكَى إجْمَاعَ السَّلَفِ عَلَى تَحْرِيمِهِ . وَابْنُ عَقِيلٍ لَهُ أَقْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ وَكَذَلِكَ

لِأَبِي حَامِدٍ وَالرَّازِي وَغَيْرِهِمْ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ اخْتِلَافَ كَلَامِ ابْنِ فورك أَنَّهُ فِي مُصَنَّفٍ آخَرَ قَالَ ؛ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : " أَيْنَ هُوَ ؟ " قِيلَ : لَيْسَ بِذِي كَيْفِيَّةٍ فَنُخْبِرُ عَنْهَا إلَّا أَنْ يَقُولَ " كَيْفَ صَنَعَهُ ؟ " فَمَنْ صَنَعَهُ أَنَّهُ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الصَّانِعُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا . فَهُنَا أَبْطَلَ السُّؤَالَ عَنْ الْكَيْفِيَّةِ وَهُنَاكَ جَوَّزَهُ وَقَالَ ؛ الْكَيْفِيَّةُ هِيَ الصِّفَةُ وَهُوَ ذُو الصِّفَاتِ وَكَذَلِكَ السُّؤَالُ عَنْ الْمَاهِيَّةِ قَالَ فِي ذَلِكَ الْمُصَنَّفِ : وَإِنْ سَأَلَتْ الْجَهْمِيَّةُ فَقَالَتْ " مَا هُوَ ؟ " يُقَالُ لَهُمْ : " مَا " يَكُونُ اسْتِفْهَامًا عَنْ جِنْسٍ أَوْ صِفَةٍ فِي ذَاتِ الْمُسْتَفْهِمِ . فَإِنْ أَرَدْت بِذَلِكَ سُؤَالًا عَنْ صِفَتِهِ فَهُوَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْكَلَامُ وَالْعِزَّةُ وَالْعَظَمَةُ . وَقَالَ فِي الْآخَرِ : فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ " حَدِّثُونَا عَنْ الْوَاحِدِ الَّذِي تَعْبُدُونَهُ مَا هُوَ ؟ " قِيلَ : إنْ أَرَدْت بِقَوْلِك " مَا جِنْسُهُ ؟ " . فَلَيْسَ بِذِي جِنْسٍ . وَإِنْ أَرَدْت بِقَوْلِك " مَا هُوَ ؟ " أَيْ : أَشِيرُوا إلَيْهِ حَتَّى أُدْرِكَهُ بِحَوَاسِّي فَلَيْسَ بِحَاضِرٍ لِلْحَوَاسِّ . وَإِنْ أَرَدْت بِقَوْلِك : " مَا هُوَ ؟ " أَيْ دُلُّونِي عَلَيْهِ بِعَجَائِبِ صَنْعَتِهِ وَآثَارِ حِكْمَتِهِ فَالدَّالَّةُ عَلَيْهِ قَائِمَةٌ . وَإِنْ أَرَدْت بِقَوْلِك " مَا اسْمُهُ ؟ " فَنَقُولُ : هُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْقَادِرُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وَهُوَ فِي هَذَا الْمُصَنَّفِ أَثْبَتَ أَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ بِخِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ الْعَرْشِ . فَقَالَ : فَإِنْ قَالَ " فَحَدِّثُونَا عَنْهُ أَيْنَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ ؟ " قِيلَ " أَيْنَ ؟ " تَقْتَضِي مَكَانًا وَالْأَمْكِنَةُ مَخْلُوقَاتٌ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ قَبْلَ الْخَلْقِ وَالْأَمَاكِنُ لَا فِي مَكَانٍ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ . فَإِنْ قَالَ : " فَعَلَى مَا هُوَ الْيَوْمَ ؟ " قِيلَ لَهُ : مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ . وَقَالَ : فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : " لَمْ يَزَلْ الْبَارِي قَادِرًا عَالِمًا حَيًّا سَمِيعًا بَصِيرًا ؟ " قِيلَ : نَعَمْ . فَإِنْ قَالَ فَلِمَ أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَزَلْ خَالِقًا ؟ " قِيلَ لَهُ : إنْ أَرَدْت بِقَوْلِك " لَمْ يَزَلْ خَالِقًا أَيْ لَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ مَعَهُ فِي قِدَمِهِ فَهَذَا خَطَأٌ لِأَنَّ مَعْنَى الْخَلْقِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ . فَكَيْفَ يَكُونُ مَا لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا وَإِنْ أَرَدْت بِقَوْلِك أَنَّ الْخَالِقَ لَمْ يَزَلْ وَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ فَكَذَلِكَ نَقُولُ لِأَنَّ الْخَالِقَ لَمْ يَزَلْ وَالْخَلْقَ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ وَقَدْ كَانَ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ فَهَذَا الْجَوَابُ . قَالَ : فَإِنْ قِيلَ " إذَا قُلْتُمْ إنَّهُ الْآنَ خَالِقٌ فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَزَلْ خَالِقًا " ؟ قِيلَ لَهُ : لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ الْآنَ مُسْتَوٍ عَلَى

عَرْشِهِ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَزَلْ مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشِهِ . فَكَذَلِكَ مَا قُلْنَاهُ يُنَاسِبُهُ . فَإِنْ قِيلَ " الِاسْتِوَاءُ مِنْهُ فِعْلٌ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ لَمْ يَزَلْ " قَالَ قِيلَ : وَالْخَلْقُ مِنْهُ فِعْلٌ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ لَمْ يَزَلْ . فَهَذَا الْكَلَامُ لَيْسَ إلَّا بِبَيَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَيَقُولُونَ بِقِدَمِ صِفَةِ التَّكْوِينِ وَالْخَلْقِ وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ خَالِقًا . فَأَلْزَمَهُمْ : " أَنَّا نَقُولُ فِي الْخَلْقِ مَا نَقُولُهُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي الِاسْتِوَاءِ " . وَهَذَا جَوَابٌ ضَعِيفٌ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ عِنْدَهُ أَنَّهُ اسْتَوَى بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ كَمَا قَدْ بَحَثَهُ مَعَ السُّلْطَانِ بَلْ هُوَ الْآنَ كَمَا كَانَ . فَلَا يَصِحُّ الْقِيَاسُ عَلَيْهِ . الثَّانِي : أَنَّهُ قَدْ سَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَهَذَا يَقْتَضِي إمْكَانَ وُجُودِ الْمَقْدُورِ فِي الْأَزَلِ . فَإِنَّهُ إذَا كَانَ الْمَقْدُورُ مُمْتَنِعًا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ قُدْرَةٌ فَكَيْفَ يَجْعَلُهُ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا مَعَ امْتِنَاعِ أَنْ يَكُونَ الْمَقْدُورُ لَمْ يَزَلْ مُمْكِنًا ؟ بَلْ الْمَقْدُورُ عِنْدَهُ كَانَ مُمْتَنِعًا ثُمَّ صَارَ مُمْكِنًا بِلَا سَبَبٍ حَادِثٍ اقْتَضَى ذَلِكَ .

(359/812)

الثَّالِثُ : أَنَّ قَوْلَهُ : " لِأَنَّ مَعْنَى الْخَلْقِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ فَكَيْفَ يَكُونُ مَا لَمْ يَكُنْ ثُمَّ كَانَ لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا ؟ " فَيُقَالُ : بَلْ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُحْدَثٌ مَسْبُوقٌ بِعَدَمِ نَفْسِهِ وَمَا ثَمَّ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ . وَإِذَا قِيلَ : " لَمْ يَزَلْ خَالِقًا " فَإِنَّمَا يَقْتَضِي قِدَمَ نَوْعِ الْخَلْقِ و " دَوَامُ خالقيته " لَا

يَقْتَضِي قِدَمَ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ . فَيَجِبُ الْفَرْقُ بَيْنَ أَعْيَانِ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَادِثَةِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ فَإِنَّ هَذِهِ لَا يَقُولُ عَاقِلٌ إنَّ مِنْهَا شَيْئًا أَزَلِيًّا . وَمَنْ قَالَ بِقِدَمِ شَيْءٍ مِنْ الْعَالَمِ - كَالْفَلَكِ أَوْ مَادَّتِهِ - فَإِنَّهُ يَجْعَلُهُ مَخْلُوقًا بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ؛ وَلَكِنْ إذْ أَوْجَدَهُ الْقَدِيمُ . وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ فَعَّالًا خَالِقًا وَدَوَامُ خالقيته مِنْ لَوَازِمِ وُجُودِهِ . فَهَذَا لَيْسَ قَوْلًا بِقِدَمِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ بَلْ هَذَا مُتَضَمِّنٌ لِحُدُوثِ كُلِّ مَا سِوَاهُ . وَهَذَا مُقْتَضَى سُؤَالِ السَّائِلِ لَهُ . الْوَجْهُ الرَّابِعُ أَنْ يُقَالَ : الْعَرْشُ حَادِثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَزَلْ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ بَعْدَ وُجُودِهِ . وَأَمَّا الْخَلْقُ فَالْكَلَامُ فِي نَوْعِهِ وَدَلِيلِهِ عَلَى امْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا قَدْ عُرِفَ ضَعْفُهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَكَانَ ابْنُ فورك فِي مُخَاطَبَةِ السُّلْطَانِ قَصَدَ إظْهَارَ مُخَالَفَةِ الكَرَّامِيَة كَمَا قَصَدَ بِنَيْسَابُورَ الْقِيَامَ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي اسْتِتَابَتِهِمْ وَكَمَا كَفَّرَهُمْ عِنْدَ

(360/812)

السُّلْطَانِ . وَمَنْ لَمْ يَعْدِلْ فِي خُصُومِهِ وَمُنَازِعِيهِ وَيَعْذُرْهُمْ بِالْخَطَأِ فِي الِاجْتِهَادِ بَلْ ابْتَدَعَ بِدْعَةً وَعَادَى مَنْ خَالَفَهُ فِيهَا أَوْ كَفَّرَهُ فَإِنَّهُ هُوَ ظَلَمَ نَفْسَهُ . وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَرْحَمُونَ الْخَلْقَ ؛ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ فَلَا يَبْتَدِعُونَ . وَمَنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ خَطَأً يَعْذُرُهُ فِيهِ الرَّسُولُ عَذَرُوهُ . وَأَهْلُ الْبِدَعِ مِثْلُ الْخَوَارِجِ يَبْتَدِعُونَ بِدْعَةً وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ

وَيَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ . وَهَؤُلَاءِ كُلٌّ مِنْهُمْ يَرُدُّ بِدْعَةَ الْآخَرِينَ وَلَكِنْ هُوَ أَيْضًا مُبْتَدِعٌ فَيَرُدُّ بِدْعَةً بِبِدْعَةٍ وَبَاطِلًا بِبَاطِلٍ . وَكَذَلِكَ مَا حَكَاهُ مِنْ مُنَاظَرَاتِهِمْ لَهُ عِنْدَ الْوَزِيرِ مَجْلِسًا بَعْدَ مَجْلِسٍ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ . فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَالكَرَّامِيَةَ يَقُولُونَ حَقًّا وَبَاطِلًا وَسُنَّةً وَبِدْعَةً كَمَا أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ يَقُولُ حَقًّا وَبَاطِلًا مُوَافَقَةً لِأَبِي الْحَسَنِ . وَأَبُو الْحَسَنِ سَلَكَ فِي مَسْأَلَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ وَالْقَدَرِ مَسْلَكَ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ - مَسْلَكَ الْمُجْبِرَةِ وَمَسْلَكَ غُلَاةِ الْمُرْجِئَةِ . فَهَؤُلَاءِ قَدَرِيَّةٌ مُجْبِرَةٌ وَالْمُعْتَزِلَةُ قَدَرِيَّةٌ نَافِيَةٌ . فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ غَايَةُ التَّضَادِّ فِي مَسَائِلِ التَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيرِ وَنَحْوِهَا . وَاللَّهُ يُحِبُّ الْكَلَامَ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ وَيَكْرَهُ الْكَلَامَ بِجَهْلٍ وَظُلْمٍ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ

(361/812)

فِي الْجَنَّةِ - رَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ﴾ . وَقَدْ حَرَّمَ سُبْحَانَهُ الْكَلَامَ بِلَا عِلْمٍ مُطْلَقًا وَخَصَّ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ بِالنَّهْيِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَأَمَرَ بِالْعَدْلِ عَلَى أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

فَصْلٌ :

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعُلُوِّ . وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ لَهُ بِذَلِكَ وَالتَّعْظِيمِ لِأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ كَمَا مَدَحَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْعَظِيمُ وَالْعَلِيمُ وَالْقَدِيرُ وَالْعَزِيزُ وَالْحَلِيمُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَأَنَّهُ الْحَيُّ

(362/812)

الْقَيُّومُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى . فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَضْدَادِ هَذِهِ . فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِضِدِّ الْحَيَاةِ وَالْقَيُّومِيَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ مِثْلِ الْمَوْتِ وَالنَّوْمِ وَالْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَاللُّغُوبِ . وَلَا بِضِدِّ الْعِزَّةِ وَهُوَ الذُّلُّ وَلَا بِضِدِّ الْحِكْمَةِ وَهُوَ السَّفَهُ . فَكَذَلِكَ لَا يُوصَفُ بِضِدِّ الْعُلُوِّ وَهُوَ السُّفُولُ وَلَا بِضِدِّ الْعَظِيمِ وَهُوَ الْحَقِيرُ . بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذِهِ النَّقَائِصِ الْمُنَافِيَةِ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهُ . فَثُبُوتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ يَنْفِي اتِّصَافَهُ بِأَضْدَادِهَا وَهِيَ النَّقَائِصُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِيمَا يُوصَفُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ

الْكَمَالِ . فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ النَّقْصِ الْمُضَادِّ لِكَمَالِهِ وَمُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ . وَمَعَانِي التَّنْزِيهِ تَرْجِعُ إلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ . وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِمَا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ . فَاسْمُهُ " الصَّمَدُ " يَجْمَعُ مَعَانِي صِفَاتِ الْكَمَالِ كَمَا قَدْ بُسِطَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَهُوَ كَمَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِصِفَاتِ السُّؤْدُدِ الْعَلِيمُ

(363/812)

الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ الْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ بُيِّنَ . وَقَوْلُهُ " الْأَحَدُ " يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ مِنْ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ مَعْنًى ثُبُوتِيًّا . فَالْكَمَالُ هُوَ فِي الْوُجُودِ وَالثُّبُوتِ وَالنَّفْيُ مَقْصُودُهُ نَفْيُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ . فَإِذَا نُفِيَ النَّقِيضُ الَّذِي هُوَ الْعَدَمُ وَالسَّلْبُ لَزِمَ ثُبُوتُ النَّقِيضِ الْآخَرِ الَّذِي هُوَ الْوُجُودُ وَالثُّبُوتُ . وَبَيَّنَّا هَذَا فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَغَيْرِهَا مِمَّا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ والقيومية . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمُلْكِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ يَقْتَضِي اخْتِصَاصَهُ بِالتَّعْلِيمِ

دُونَ مَا سِوَاهُ . والوحدانية تَقْتَضِي الْكَمَالَ وَالشَّرِكَةُ تَقْتَضِي النَّقْصَ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ . وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(364/812)

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ عُلُوَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ اللَّازِمَةِ لَهُ . فَلَا يَجُوزُ اتِّصَافُهُ بِضِدِّ الْعُلُوِّ أَلْبَتَّةَ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " تَحْتَكَ " . وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْمُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ لَا يَجْعَلُونَهُ مُتَّصِفًا بِالْعُلُوِّ دُونَ السُّفُولِ . بَلْ إِمَّا أَنْ يَصِفُوهُ بِالْعُلُوِّ وَالسُّفُولِ أَوْ بِمَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ وَإِمَّا أَنْ يَنْفُوا عَنْهُ الْعُلُوَّ وَالسُّفُولَ . وَهُمْ نَوْعَانِ . فَالْجَهْمِيَّةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَوْ بِأَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ لَا يَصِفُونَهُ بِالْعُلُوِّ دُونَ السُّفُولِ . فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَالْأَمْكِنَةُ مِنْهَا عَالٍ وَسَافِلٌ . فَهُوَ فِي الْعَالِي عَالٍ وَفِي السَّافِلِ سَافِلٌ . بَلْ إِذَا قَالُوا إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَجَعَلُوا الْأَمْكِنَةَ كُلَّهَا مَحَالَّ لَهُ - ظُرُوفًا وَأَوْعِيَةً جَعَلُوهَا فِي الْحَقِيقَةِ أَعْلَى مِنْهُ . فَإِنَّ

الْمَحَلَّ يَحْوِي الْحَالَّ وَالظَّرْفَ وَالْوِعَاءَ يَحْوِي الْمَظْرُوفَ الَّذِي فِيهِ وَالْحَاوِيَ فَوْقَ الْمحوى .
وَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَسَائِرُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ إذَا قَالُوا " إنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ

(365/812)

وَإِنَّهُ فِي السَّمَاءِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ " لَا يَقُولُونَ إنَّ هُنَاكَ شَيْئًا يَحْوِيهِ أَوْ يَحْصُرُهُ أَوْ يَكُونُ مَحَلًّا لَهُ أَوْ ظَرْفًا وَوِعَاءً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بَلْ هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ شَيْءٍ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ . وَهُوَ عَالٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْحَامِلُ لِلْعَرْشِ وَلِحَمَلَةِ الْعَرْشِ بِقُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَكُلُّ مَخْلُوقٍ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَرْشِ وَعَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ . وَمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ قَدْ يَفْهَمُ مِنْهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ " السَّمَاءِ " هِيَ نَفْسُ الْمَخْلُوقِ الْعَالِي الْعَرْشُ فَمَا دُونَهُ . فَيَقُولُونَ : قَوْلُهُ ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ بِمَعْنَى " عَلَى السَّمَاءِ " كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أَيْ " عَلَى جُذُوعِ النَّخْلِ " وَكَمَا قَالَ : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيْ " عَلَى الْأَرْضِ " . وَلَا حَاجَةَ إلَى هَذَا بَلْ " السَّمَاءِ " اسْمُ جِنْسٍ لِلْعَالِي لَا يَخُصُّ شَيْئًا . فَقَوْلُهُ ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ أَيْ " فِي الْعُلُوِّ دُونَ السُّفْلِ " . وَهُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى فَلَهُ أَعْلَى الْعُلُوِّ وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ هُوَ عِنْدَهُمْ فِي الْمَخْلُوقَاتِ السُّفْلِيَّةِ

الْقَذِرَةِ الْخَبِيثَةِ كَمَا هُوَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ الْعَالِيَةِ . وَغُلَاةُ هَؤُلَاءِ الِاتِّحَادِيَّةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ " الْوُجُودُ وَاحِدٌ " كَابْنِ عَرَبِيٍّ الطَّائِيِّ صَاحِبِ " فُصُوصِ

(366/812)

الْحِكَمِ " و " الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ " يَقُولُونَ " الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ هُوَ الْمَوْجُودُ الْمُحْدَثُ الْمُمْكِنُ " . وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ فِي " فُصُوصِ الْحِكَمِ " : " وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى " الْعَلِيُّ " . عَلَى مَنْ وَمَا ثَمَّ إلَّا هُوَ ؟ وَعَنْ مَاذَا وَمَا هُوَ إلَّا هُوَ ؟ . فَعُلُوُّهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْوُجُودُ عَيْنُ الْمَوْجُودَاتِ فَالْمُسَمَّى " مُحْدَثَاتٌ " هِيَ الْعَلِيَّةُ لِذَاتِهَا وَلَيْسَتْ إلَّا هُوَ . إلَى أَنْ قَالَ : " فَالْعَلِيُّ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ جَمِيعُ الْأَوْصَافِ الْوُجُودِيَّةِ وَالنِّسَبِ الْعَدَمِيَّةِ سَوَاءٌ كَانَتْ مَحْمُودَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا أَوْ مَذْمُومَةً عُرْفًا وَعَقْلًا وَشَرْعًا . وَلَيْسَ ذَلِكَ إلَّا الْمُسَمَّى اللَّهُ " . فَهُوَ عِنْدَهُ الْمَوْصُوفُ بِكُلِّ ذَمٍّ كَمَا هُوَ الْمَوْصُوفُ بِكُلِّ مَدْحٍ . وَهَؤُلَاءِ يُفَضِّلُونَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ دُونَ السُّفُولِ كَالسَّمَوَاتِ . وَمَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالْعُلُوِّ دُونَ السُّفُولِ كَانَ أَفْضَلَ مِمَّا لَا يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ أَوْ يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ وَالسُّفُولِ . وَقَدْ قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ . قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ :

(367/812)

" وَلَمَّا كَانَ فِرْعَوْنُ فِي مَنْصِبِ التَّحَكُّمِ وَالْخَلِيفَةِ بِالسَّيْفِ جَازَ فِي الْعُرْفِ النَّاموسي أَنْ قَالَ ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ . أَيْ وَإِنْ كَانَ أَنَّ الْكُلَّ أَرْبَابًا بِنِسْبَةِ مَا فَأَنَا الْأَعْلَى مِنْهُمْ بِمَا أُعْطِيته مِنْ الْحُكْمِ فِيكُمْ . وَلَمَّا عَلِمَتْ السَّحَرَةُ صِدْقَهُ فِيمَا قَالَ لَمْ يُنْكِرُوهُ بَلْ أَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ وَقَالُوا لَهُ : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فَالدَّوْلَةُ لَك . فَصَحَّ قَوْلُ فِرْعَوْنَ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ . فَبِهَذَا وَأَمْثَالِهِ يُصَحِّحُونَ قَوْلَ فِرْعَوْنَ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ وَيُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَالِيًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَعْلَى وَيَقُولُونَ : " عَلَى مَنْ يَكُونُ أَعْلَى أَوْ عَمَّا ذَا يَكُونُ أَعْلَى ؟ " . وَهَكَذَا سَائِرُ الْجَهْمِيَّةِ يَصِفُونَ بِالْعُلُوِّ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ مَا هُوَ عَالٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ كَالسَّمَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالْكَوَاكِبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْعَالِيَ أَفْضَلُ مِنْ السَّافِلِ وَهُمْ لَا يَصِفُونَ رَبَّهُمْ بِأَنَّهُ الْأَعْلَى وَلَا الْعَلِيُّ بَلْ يَجْعَلُونَهُ فِي السَّافِلَاتِ كَمَا هُوَ فِي الْعَالِيَاتِ . وَالْجَهْمِيَّةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ " لَيْسَ هُوَ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا يُشَارُ إلَيْهِ أَلْبَتَّةَ هُمْ أَقْرَبُ إلَى التَّعْطِيلِ وَالْعَدَمِ كَمَا أَنَّ أُولَئِكَ أَقْرَبُ إلَى الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ بِالْمَخْلُوقَاتِ . فَهَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ مَوْجُودًا لَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ الْمَخْلُوقُ لَا الْخَالِقُ ؛ وَأُولَئِكَ يَنْفُونَ فَلَا يُثْبِتُونَ وُجُودًا أَلْبَتَّةَ لَكِنَّهُمْ

يُثْبِتُونَ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ وَيَقُولُونَ إنَّهُمْ يُثْبِتُونَ وُجُودَ الْخَالِقِ . وَإِذَا قَالُوا : نَحْنُ نَقُولُ : " هُوَ عَالٍ بِالْقُدْرَةِ أَوْ بِالْقَدْرِ " قِيلَ : هَذَا فَرْعُ ثُبُوتِ ذَاتِهِ وَأَنْتُمْ لَمْ تُثْبِتُوا مَوْجُودًا يُعْرَفُ وُجُودُهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا أَوْ عَظِيمَ الْقَدْرِ . وَإِذَا قَالُوا : كَانَ اللَّهُ قَبْلَ خَلْقِ الْأَمْكِنَةِ وَالْمَخْلُوقَاتِ مَوْجُودًا وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فَوْقَ شَيْءٍ وَلَا عَالِيًا عَلَى شَيْءٍ فَكَذَلِكَ هُوَ الْآنَ قِيلَ : هَذَا غَلَطٌ وَيَظْهَرُ فَسَادُهُ بِالْمُعَارَضَةِ ثُمَّ بِالْحَلِّ وَبَيَانِ فَسَادِهِ . أَمَّا " الْأَوَّلُ " فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ لَا يَكُونَ الْآنَ عَالِيًا بِالْقُدْرَةِ وَلَا بِالْقَدْرِ كَمَا كَانَ فِي الْأَزَلِ . فَإِنَّهُ إذَا قُدِّرَ وُجُودُهُ وَحْدَهُ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَوْجُودٌ يَكُونُ قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَا قَاهِرًا لَهُ وَلَا مُسْتَوْلِيًا عَلَيْهِ وَلَا مَوْجُودًا يَكُونُ هُوَ أَعْظَمَ قَدْرًا مِنْهُ . فَإِنْ كَانَ مَعَ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَتَجَدَّدْ لَهُ عُلُوٌّ عَلَيْهَا كَمَا زَعَمُوا فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا لَيْسَ قَادِرًا لِشَيْءِ وَلَا مُسْتَوْلِيًا عَلَيْهِ وَلَا قَاهِرًا لِعِبَادِهِ وَلَا قَدْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ قَدْرِهَا . وَإِذَا كَانُوا يَقُولُونَ هُمْ وَجَمِيعُ الْعُقَلَاءِ إنَّهُ مَعَ وُجُودِ الْمَخْلُوقِ يُوصَفُ بِأُمُورٍ إضَافِيَّةٍ لَا يُوصَفُ

بِهَا إذَا قَدَّرَ مَوْجُودًا وَحْدَهُ عَلِمَ أَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ خَطَأٌ مِنْهُمْ . وقد اتَّفَقَ الْعُقَلَاءُ عَلَى جَوَازِ تُجَدِّدُ النِّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ مِثْلِ الْمَعِيَّةِ وإنما النِّزَاعُ فِي تَجَدُّدِ مَا يَقُومُ بِذَاتِهِ مِنْ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ . وَقَدْ بُيِّنَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ النِّسَبَ وَالْإِضَافَاتِ مُسْتَلْزِمَةٌ لِأُمُورٍ ثُبُوتِيَّةٍ وَأَنَّ وُجُودَهَا بِدُونِ الْأُمُورِ الثُّبُوتِيَّةِ مُمْتَنِعٌ . وَالْإِنْسَانُ إذَا كَانَ جَالِسًا فَتَحَوَّلَ الْمُتَحَوِّلُ عَنْ يَمِينِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَنْ شِمَالِهِ قِيلَ " إنَّهُ عَنْ شِمَالِهِ " . فَقَدْ تَجَدَّدَ مِنْ هَذَا فِعْلٌ بِهِ تَغَيَّرَتْ النِّسْبَةُ وَالْإِضَافَةُ . وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ تَحْتَ السَّطْحِ فَصَارَ فَوْقَهُ فَإِنَّ النِّسْبَةَ بِالتَّحْتِيَّةِ وَالْفَوْقِيَّةِ تَجَدَّدَ لَمَّا تَجَدَّدَ فِعْلُ هَذَا . وَإِذَا قِيلَ " نَفْسُ السَّقْفِ لَمْ يَتَغَيَّرْ " قِيلَ قَدْ يُمْنَعُ هَذَا وَيُقَالُ : لَيْسَ حُكْمُهُ إذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ كَحُكْمِهِ إذَا كَانَ فَوْقَهُ شَيْءٌ . وَإِذَا قِيلَ عَنْ الْجَالِسِ " إنَّهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ " قِيلَ : قَدْ يُمْنَعُ هَذَا وَيُقَالُ : لَيْسَ حُكْمُهُ إذَا كَانَ الشَّخْصُ عَنْ يَسَارِهِ كَحُكْمِهِ إذَا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّهُ يَحْجُبُ هَذَا الْجَانِبَ وَيُوجِبُ مِنْ الْتِفَاتِ الشَّخْصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ مَنْ تَجَدَّدَ لَهُ أَخٌ أَوْ ابْنُ أَخٍ بِإِيلَادِ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ قَدْ وُجِدَ هُنَا أُمُورٌ ثُبُوتِيَّةٌ . وَهَذَا الشَّخْصُ يَصِيرُ فِيهِ مِنْ الْعَطْفِ وَالْحُنُوِّ عَلَى هَذَا الْوَلَدِ الْمُتَجَدِّدِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهِيَ

(370/812)

الرَّحِمُ وَالْقَرَابَةُ .

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْجَوَابُ الثَّانِي وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : الْعُلُوُّ وَالسُّفُولُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِلْإِضَافَةِ وَكَذَلِكَ الِاسْتِوَاءُ وَالرُّبُوبِيَّةُ وَالْخَالِقِيَّةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَإِذَا كَانَ غَيْرُهُ مَوْجُودًا فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِيًا عَلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَمَا يَقُولُونَ هُمْ : إمَّا أَنْ يَكُونَ عَالِيًا عَلَيْهِ بِالْقَهْرِ أَوْ بِالْقَدْرِ أَوْ لَا يَكُونَ خِلَافُ مَا إذَا قَدَّرَ وَحْدَهُ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ إنَّهُ حِينَئِذٍ قَاهِرٌ أَوْ قَادِرٌ أَوْ مُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ فَلَا يُقَالُ إنَّهُ عَالٍ عَلَيْهِ . وَإِنْ قَالُوا : " إنَّهُ قَادِرٌ وَقَاهِرٌ " كَانَ ذَلِكَ مَشْرُوطًا بِالْغَيْرِ وَكَذَلِكَ عُلُوُّ الْقَدْرِ قِيلَ : وَكَذَلِكَ عُلُوُّ ذَاتِهِ مَا زَالَ عَالِيًا بِذَاتِهِ لَكِنَّ ظُهُورَ ذَلِكَ مَشْرُوطٌ بِوُجُودِ الْغَيْرِ . وَالْإِلْزَامَاتُ مُفْحِمَةٌ لَهُمْ . وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا فِي الْأَزَلِ ثُمَّ صَارَ قَادِرًا . يَقُولُونَ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا مَعَ امْتِنَاعِ الْمَقْدُورِ وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْفِعْلُ مُمْكِنًا فَصَارَ مُمْكِنًا . فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِالْعُلُوِّ وَالسُّفُولِ فَالَّذِينَ يَقُولُونَ : هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ أَيْضًا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : إذَا نَزَلَ كُلَّ لَيْلَةٍ فَإِنَّهُ

يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ أَكْبَرُ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ أَصْغَرَ مِنْ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَقُولُ شُيُوخُهُمْ : إنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ أَسْفَلَ مِنْ الْمَخْلُوقِ فَهَؤُلَاءِ لَا يَصِفُونَهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَلْ وَلَا هُوَ عَلَى قَوْلِهِمْ الْكَبِيرُ الْمتعال وَلَا هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

وَقَدْ بَسَطَ الرَّدَّ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي " مَسْأَلَةِ النُّزُولِ " لَمَّا ذَكَرَ قَوْلَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ مِثْلِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ وَغَيْرِهِمَا : " إنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " ذَكَرَ قَوْلَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ وَبَيَّنَ فَسَادَ قَوْلِهِمْ شَرْعًا وَعَقْلًا . وَهَؤُلَاءِ فِي مُقَابَلَةِ الَّذِينَ يَنْفُونَ النُّزُولَ . وَإِذَا قِيلَ : حَدِيثُ النُّزُولِ وَنَحْوِهِ ظَاهِرُهُ لَيْسَ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فَهَذَا صَحِيحٌ إذَا أُرِيدَ بِالظَّاهِرِ مَا يَظْهَرُ لِهَؤُلَاءِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى أَسْفَلَ فَيَصِيرُ تَحْتَ الْعَرْشِ كَمَا يَنْزِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ سَطْحِ دَارِهِ إلَى أَسْفَلَ . وَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ وَلَا يَبْقَى حِينَئِذٍ الْعَلِيُّ وَلَا الْأَعْلَى بَلْ يَكُونُ تَارَةً أَعْلَى وَتَارَةً أَسْفَلَ - تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . وَكَذَلِكَ مَا وَرَدَ مِنْ نُزُولِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَمِنْ نُزُولِهِ

(372/812)

إلَى الْأَرْضِ لَمَّا خَلَقَهَا وَمِنْ نُزُولِهِ لِتَكْلِيمِ مُوسَى وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ

صَفًّا صَفًّا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وَالنُّفَاةِ الْمُعَطِّلَةُ يَنْفُونَ الْمَجِيءَ وَالْإِتْيَانَ بِالْكُلِّيَّةِ وَيَقُولُونَ : مَا ثَمَّ إلَّا مَا يَحْدُثُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَالْحُلُولِيَّةُ يَقُولُونَ : إنَّهُ يَأْتِي وَيَجِيءُ بِحَيْثُ يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ وَيُشْغَلُ آخَرُ فَيَخْلُو مِنْهُ مَا فَوْقَ الْعَرْشِ وَيَصِيرُ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ فَوْقَهُ . فَإِذَا أَتَى وَجَاءَ لَمْ يَصِرْ عَلَى قَوْلِهِمْ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى وَلَا كَانَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . لَا سِيَّمَا إذَا قَالُوا : إنَّهُ يَحْوِيهِ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ فَتَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عُلُوًّا عَظِيمًا .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ إنْ كَانَ قَدْ قَالَ أَحَدٌ : إنَّهُ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ فَهُوَ شَرٌّ قَوْلًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَكِنَّ هَذَا مَا عَلِمْت بِهِ قَائِلًا مُعَيَّنًا مَنْسُوبًا إلَى عِلْمٍ حَتَّى أَحْكِيَهُ قَوْلًا . وَمَنْ قَالَ : " إنَّهُ فِي السَّمَاءِ " فَمُرَادُهُ أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ لَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّهُ فِي جَوْفِ الْأَفْلَاكِ إلَّا أَنَّ بَعْضَ الْجُهَّالِ يَتَوَهَّمُ ذَلِكَ . وَقَدْ ظَنَّ طَائِفَةٌ أَنَّ هَذَا ظَاهِرُ اللَّفْظِ .

(373/812)

الظَّاهِرُ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى خِلَافِ هَذَا بِالِاتِّفَاقِ ؛ لَكِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُطْلِقُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَيَسْمَعُونَهُ أَوْ هُوَ مَدْلُولُ اللَّفْظِ فِي اللُّغَةِ هُوَ مِمَّا لَا يَسْلَمُ لَهُمْ كَمَا قَدْ يُبْسَطُ فِي مَوَاضِعَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِمَنْ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فَاسْتَثْنَى نَفْسَهُ وَالْعَالِمُ " مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ " وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ لِأَنَّ الْمُسْتَثْنَى مَرْفُوعٌ وَلَوْ كَانَ مُنْقَطِعًا لَكَانَ مَنْصُوبًا . وَالْمَرْفُوعُ عَلَى الْبَدَلِ وَالْعَامِلُ فِيهِ هُوَ الْعَامِلُ فِي الْمُبْدَلِ مِنْهُ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُفَرَّغِ كَأَنَّهُ قَالَ " لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ " . فَيَلْزَمُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي " مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ " . وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ لَفْظَ " السَّمَاءِ " يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا سَمَا وَيَدْخُلُ فِيهِ السَّمَوَاتُ وَالْكُرْسِيُّ وَالْعَرْشُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ . لِأَنَّ هَذَا فِي جَانِبِ النَّفْيِ وَهُوَ لَمْ يَقُلْ هُنَا : " السَّمَوَاتِ السَّبْعَ " بَلْ عَمَّ بِلَفْظِ " السَّمَوَاتِ " . وَإِذَا كَانَ لَفْظُ " السَّمَاءِ " قَدْ يُرَادُ بِهِ السَّحَابُ وَيُرَادُ بِهِ الْفَلَكُ وَيُرَادُ بِهِ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ وَيُرَادُ بِهِ الْعُلُوُّ مُطْلَقًا فَـ " السَّمَوَاتُ " جَمْعُ " سَمَاءٍ " وَكُلُّ مَنْ فِيمَا يُسَمَّى " سَمَاءً " وَكُلُّ مَنْ فِيمَا يُسَمَّى أَرْضًا " لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .

(374/812)

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَالَ ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " مَا " فَإِنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ مَا يَعْقِلُ وَمَا لَا يَعْقِلُ غَلَبَ مَا يَعْقِلُ وَعَبَّرَ عَنْهُ بِـ " مَنْ " لِتَكُونَ أَبْلَغَ فَإِنَّهُمْ مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهَ . وَهَذَا هُوَ الْغَيْبُ الْمُطْلَقُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ الَّذِي قَالَ فِيهِ ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ .

وَالْغَيْبُ الْمُقَيَّدُ مَا عَلِمَهُ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْجِنِّ أَوْ الْإِنْسِ وَشَهِدُوهُ فَإِنَّمَا هُوَ غَيْبٌ عَمَّنْ غَابَ عَنْهُ لَيْسَ هُوَ غَيْبًا عَمَّنْ شَهِدَهُ . وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ قَدْ يَغِيبُ عَنْ هَذَا مَا يَشْهَدُهُ هَذَا فَيَكُونُ غَيْبًا مُقَيَّدًا أَيْ غَيْبًا عَمَّنْ غَابَ عَنْهُ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ لَا عَمَّنْ شَهِدَهُ لَيْسَ غَيْبًا مُطْلَقًا غَابَ عَنْ الْمَخْلُوقِينَ قَاطِبَةً . وَقَوْلُهُ : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أَيْ عَالِمُ مَا غَابَ عَنْ الْعِبَادِ مُطْلَقًا وَمُعَيَّنًا وَمَا شَهِدُوهُ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ .

(375/812)

وَالنُّفَاةِ لِلْعُلُوِّ وَنَحْوِهِ مِنْ الصِّفَاتِ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْتَنَدُهُمْ خَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا الْكِتَابَ وَلَا السُّنَّةَ وَلَا أَقْوَالَ السَّلَفِ وَلَا مُسْتَنَدُهُمْ فِطْرَةَ الْعَقْلِ وَضَرُورَتَهُ وَلَكِنْ يَقُولُونَ : مَعَنَا النَّظَرُ الْعَقْلِيُّ . وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ الْمُثْبِتُونَ لِلْعُلُوِّ فَيَقُولُونَ : إنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ مَعَ فِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَيْهَا وَضَرُورَةُ الْعَقْلِ وَمَعَ نَظَرِ الْعَقْلِ وَاسْتِدْلَالِهِ .

لَكِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّهُ يَنْزِلُ وَلَا يَبْقَى فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ يَكُونُ فِي جَوْفِ الْمَخْلُوقَاتِ وَنَحْوُ هَؤُلَاءِ قَدْ يَقُولُونَ إنَّ مُسْتَنَدَهُمْ فِي ذَلِكَ السَّمْعُ وَهُوَ مَا فَهِمُوهُ مِنْ الْقُرْآنِ أَوْ مِنْ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَوْ غَيْرِ الصَّحِيحَةِ أَوْ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ وَهُمْ أَخْطَئُوا مِنْ حَيْثُ نَظَرُوا اقْتَصَرُوا

عَلَى فَهْمِهِ مِنْ نَصٍّ وَاحِدٍ كَفَهْمِهِمْ مِنْ حَدِيثِ النُّزُولِ وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا يَصِفُهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ أَعْلَى مِنْهُ أَوْ أَكْبَرَ مِنْهُ .

(376/812)

وَيَتَدَبَّرُوا أَيْضًا دَلَالَةَ النَّصِّ مِثْلُ نُزُولِهِ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ بِأَنَّ اللَّيْلَ يَخْتَلِفُ فَيَكُونُ لَيْلُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَنِصْفُهُ وَثُلُثُهُ الْآخِرُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ بِقَرِيبٍ مِنْ يَوْمٍ . فَيَلْزَمُ عَلَى قَوْلِهِمْ أَنَّهُ لَا يَزَالُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَمَا ذَكَرُوهُ يُنَافِي اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ .

فَصْلٌ :

" الْأَعْلَى " عَلَى وَزْنِ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ مِثْلُ الْأَكْرَمِ وَالْأَكْبَرِ وَالْأَجَلِّ . وَلِهَذَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ

(377/812)

اُعْلُ هُبَلُ اُعْلُ هُبَلُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَا تُجِيبُونَهُ ؟ قَالُوا : وَمَا نَقُولُ ؟ قَالَ : قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ ﴾ . . وَهُوَ مَذْكُورٌ بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ " الْأَعْلَى " مِثْلُ ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ " اللَّهُ أَكْبَرُ " فَإِنَّهُ مُنَكَّرٌ . وَلِهَذَا مَعْنًى يَخُصُّهُ يَتَمَيَّزُ بِهِ وَلِهَذَا مَعْنًى يَخُصُّهُ يَتَمَيَّزُ بِهِ كَمَا بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ . فَإِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَقَارِبَةً بَلْ مُتَلَازِمَةً فَبَيْنَهَا فُرُوقٌ لَطِيفَةٌ ؛ وَلِهَذَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى : الْعَظَمَةُ إزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْته ﴾ . فَجَعَلَ الْكِبْرِيَاءَ بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ وَهُوَ أَعْلَى مِنْ الْإِزَارِ .

(378/812)

وَلِهَذَا كَانَ شَعَائِرُ الصَّلَاةِ وَالْأَذَانُ وَالْأَعْيَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْعَالِيَةِ هُوَ التَّكْبِيرَ . وَهُوَ أَحَدُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَمْ يَجِئْ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَثَرِ بَدَلَ قَوْلِ " اللَّهُ أَكْبَرُ " " اللَّهُ أَعْظَمُ " وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَنْعَقِدُ إلَّا بِلَفْظِ التَّكْبِيرِ . فَلَوْ قَالَ : " اللَّهُ أَعْظَمُ " لَمْ تَنْعَقِدْ بِهِ الصَّلَاةُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ ﴾ . وَهَذَا

قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَأَبِي يُوسُفَ وَدَاوُد وَغَيْرِهِمْ . وَلَوْ أَتَى بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَذْكَارِ مِثْلَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَمْ تَنْعَقِدْ بِهِ الصَّلَاةُ .

(379/812)

وَلِأَنَّ التَّكْبِيرَ مُخْتَصٌّ بِالذِّكْرِ فِي حَالِ الِارْتِفَاعِ كَمَا أَنَّ التَّسْبِيحَ مُخْتَصٌّ بِحَالِ الِانْخِفَاضِ كَمَا فِي السُّنَنِ ﴿ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا وَإِذَا هَبَطْنَا سَبَّحْنَا فَوُضِعَتْ الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ ﴾ . ﴿ وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ قَالَ : اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ ﴾ ﴿ وَلَمَّا نَزَلَ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قَالَ : اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ ﴾ . ﴿ وَثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ وَفِي سُجُودِهِ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ﴾ وَلَمْ يَكُنْ يُكَبِّرْ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ . لَكِنْ قَدْ كَانَ يَقْرِنُ بِالتَّسْبِيحِ التَّحْمِيدَ وَالتَّهْلِيلَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ ﴾ أَيْ يَتَأَوَّلُ قَوْلَهُ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . فَكَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ .

(380/812)

وَكَذَلِكَ قَدْ كَانَ يَقْرِنُ بِالتَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ التَّهْلِيلَ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : افْتَقَدْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَظَنَنْت أَنَّهُ ذَهَبَ إلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَتَحَسَّسْت ثُمَّ رَجَعْت فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ سُبْحَانَك وَبِحَمْدِك لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ . فَقُلْت : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي إنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّك لَفِي شَأْنٍ ﴾ . فَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ كُلِّهَا أَنَّهُ كَانَ يُسَبِّحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَكِنْ قَدْ يَقْرِنُ بِالتَّسْبِيحِ التَّحْمِيدَ وَالتَّهْلِيلَ وَقَدْ يَقْرِنُ بِهِ الدُّعَاءَ . وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ كَبَّرَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ . وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ فِيهِمَا فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنِّي نُهِيت أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا وَسَاجِدًا ﴾ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ فَلَا يُتْلَى إلَّا فِي حَالِ الِارْتِفَاعِ وَالتَّكْبِيرِ أَيْضًا مَحَلُّهُ حَالَ الِارْتِفَاعِ . وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ يُشْرَعُ التَّسْبِيحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ كَرِهَ الْمُدَاوَمَةَ عَلَى ذَلِكَ لِئَلَّا يُظَنَّ وُجُوبُهُ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي وُجُوبِهِ . فَالْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ وَدَاوُد وَغَيْرِهِمْ وُجُوبُهُ . وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ اسْتِحْبَابُهُ . وَالْقَائِلُونَ بِالْوُجُوبِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : يَتَعَيَّنُ " سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ "

(381/812)

و " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى " لِلْأَمْرِ بِهِمَا وَهُوَ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَذْكُرُ بَعْضَ الْأَذْكَارِ الْمَأْثُورَةِ . وَالْأَقْوَى أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ التَّسْبِيحُ إمَّا بِلَفْظِ " سُبْحَانَ " وَإِمَّا بِلَفْظِ " سُبْحَانَك " وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ سَمَّاهَا " تَسْبِيحًا " فَدَلَّ عَلَى وُجُوبِ التَّسْبِيحِ فِيهَا وَقَدْ بَيَّنَتْ السُّنَّةُ أَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ كَمَا سَمَّاهَا اللَّهُ " قُرْآنًا " وَقَدْ بَيَّنَتْ السُّنَّةُ أَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ الْقِيَامُ . وَسَمَّاهَا " قِيَامًا " و " سُجُودًا " و " رُكُوعًا " وَبَيَّنَتْ السُّنَّةُ عِلَّةَ ذَلِكَ وَمَحَلَّهُ . وَكَذَلِكَ التَّسْبِيحُ يُسَبِّحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ . وَقَدْ نُقِلَ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ و سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ؛ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ؛ و سُبْحَانَك وَبِحَمْدِك لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ ﴾ .

وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ أَبِي دَاوُد ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ ﴾ وَفِي اسْتِحْبَابِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ عَنْ أَحْمَد رِوَايَتَانِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ﴾ وَفِي السُّنَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ﴿ سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ ﴾ . فَهَذِهِ كُلُّهَا تَسْبِيحَاتٌ .

(382/812)

وَالْمَنْقُولُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الْمُدَاوَمَةَ عَلَى ذَلِكَ . فَإِنْ كَانَ كَرَاهَةُ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَالْعَظِيمِ " فَلَهُ وَجْهٌ وَإِنْ كَانَ كَرَاهَةُ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى جِنْسِ التَّسْبِيحِ فَلَا وَجْهَ لَهُ وَأَظُنُّهُ الْأَوَّلَ . وَكَذَلِكَ الْمَنْقُولُ عَنْهُ إنَّمَا هُوَ كَرَاهَةُ الْمُدَاوَمَةِ عَلَى " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ " لِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّهَا فَرْضٌ ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ مَالِكًا أَنْكَرَ أَنْ تَكُونَ فَرْضًا وَاجِبًا . وَهَذَا قَوِيٌّ ظَاهِرٌ بِخِلَافِ جِنْسِ التَّسْبِيحِ فَإِنَّ أَدِلَّةَ وُجُوبِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا . وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُدَاوِمُ عَلَى التَّسْبِيحِ بِأَلْفَاظٍ مُتَنَوِّعَةٍ . وَقَوْلُهُ " اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ وَفِي سُجُودِكُمْ " يَقْتَضِي أَنَّ هَذَا مَحَلٌّ لِامْتِثَالِ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُقَالُ إلَّا هِيَ مَعَ مَا قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ غَيْرَهَا . وَالْجَمْعُ بَيْنَ صِيغَتَيْ تَسْبِيحٍ بَعِيدٍ بِخِلَافِ الْجَمْعِ بَيْنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ وَالدُّعَاءِ . فَإِنَّ هَذِهِ أَنْوَاعٌ وَالتَّسْبِيحَ نَوْعٌ وَاحِدٌ فَلَا يُجْمَعُ فِيهِ بَيْنَ صِيغَتَيْنِ . وَأَيْضًا قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ

(383/812)

أَرْبَعٌ وَهُنَّ مِنْ الْقُرْآنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ ﴾ . فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا . فَإِنْ جُعِلَ التَّسْبِيحُ نَوْعًا وَاحِدًا فَـ " سُبْحَانَ اللَّهِ " وَ " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى " سَوَاءٌ وَإِنْ جُعِلَ مُتَفَاضِلًا فَـ " سُبْحَانَ اللَّهِ " أَفْضَلُ بِهَذَا الْحَدِيثِ

. وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أَمْرٌ بِتَسْبِيحِ رَبِّهِ لَيْسَ أَمْرًا بِصِيغَةٍ مُعَيَّنَةٍ . فَإِذَا قَالَ " سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ " " سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك " فَقَدْ سَبَّحَ رَبَّهُ الْأَعْلَى وَالْعَظِيمَ . فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَظِيمُ وَاسْمُهُ " اللَّهُ " يَتَنَاوَلُ مَعَانِيَ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ بِطَرِيقِ التَّضَمُّنِ وَإِنْ كَانَ التَّصْرِيحُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ لَيْسَ هُوَ فِيهِ . فَفِي اسْمِهِ " اللَّهُ " التَّصْرِيحُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَاسْمُهُ " اللَّهُ " أَعْظَمُ مِنْ اسْمِهِ " الرَّبُّ " . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ : أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ﴾ . فَالْقِيَامُ فِيهِ التَّحْمِيدُ وَفِي الِاعْتِدَالِ مِنْ الرُّكُوعِ وَفِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ التَّسْبِيحُ وَفِي الِانْتِقَالِ التَّكْبِيرُ وَفِي الْقُعُودِ التَّشَهُّدُ وَفِيهِ التَّوْحِيدُ . فَصَارَتْ الْأَنْوَاعُ الْأَرْبَعَةُ فِي الصَّلَاةِ .

(384/812)

وَالْفَاتِحَةِ أَيْضًا فِيهَا التَّحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ . فَالتَّحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ رُكْنٌ يَجِبُ فِي الْقِرَاءَةِ ؛ وَالتَّكْبِيرُ رُكْنٌ فِي الِافْتِتَاحِ ؛ وَالتَّشَهُّدُ الْآخِرُ رُكْنٌ فِي الْقُعُودِ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَد وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَفِيهِ التَّشَهُّدُ الْمُتَضَمِّنُ لِلتَّوْحِيدِ . يَبْقَى التَّسْبِيحُ وَأَحْمَد يُوجِبُهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ رُكْنٌ وَهُوَ قَوِيٌّ لِثُبُوتِ الْأَمْرِ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ . فَكَيْفَ

يُوجِبُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَجِئْ أَمْرٌ بِهَا فِي الصَّلَاةِ خُصُوصًا وَلَا يُوجِبُ التَّسْبِيحَ مَعَ الْأَمْرِ بِهِ فِي الصَّلَاةِ وَمَعَ كَوْنِ الصَّلَاةِ تُسَمَّى " تَسْبِيحًا " ؟ وَكُلُّ مَا سُمِّيَتْ بِهِ الصَّلَاةُ مِنْ أَبْعَاضِهَا فَهُوَ رُكْنٌ فِيهَا كَمَا سُمِّيَتْ " قِيَامًا " و " رُكُوعًا " و " سُجُودًا " " وَقِرَاءَةً " وَسُمِّيَتْ أَيْضًا " تَسْبِيحًا " . وَلَمْ يَأْتِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَنْفِي وُجُوبَهُ فِي حَالِ السَّهْوِ كَمَا وَرَدَ فِي التَّشَهُّدِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ لَمَّا تَرَكَهُ سَجَدَ لِلسَّهْوِ ؛ لَكِنْ قَدْ يُقَالُ : لَمَّا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ الْمُسِيءَ فِي صَلَاتِهِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ وَاجِبٌ لَيْسَ بِرُكْنٍ . وَبَسْطُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ التَّسْبِيحَ قَدْ خُصَّ بِهِ حَالُ الِانْخِفَاضِ كَمَا خُصَّ حَالُ الِارْتِفَاعِ بِالتَّكْبِيرِ . فَذَكَّرَ الْعَبْدَ فِي حَالِ انْخِفَاضِهِ وَذُلِّهِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ

(385/812)

الرَّبُّ مُقَابِلَ ذَلِكَ . فَيَقُولُ فِي السُّجُودِ " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى " وَفِي الرُّكُوعِ " سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ " .

و " الْأَعْلَى " يَجْمَعُ مَعَانِيَ الْعُلُوِّ جَمِيعَهَا وَأَنَّهُ الْأَعْلَى بِجَمِيعِ مَعَانِي الْعُلُوِّ . وَقَدْ اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ عَلَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَاهِرٌ لَهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ كَمَا قَالَ : ﴿ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وَعَلَا أَنَّهُ عَالٍ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ فَهُوَ

عَالٍ عَنْ ذَلِكَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ فَقَرَنَ تَعَالِيَهُ عَنْ ذَلِكَ بِالتَّسْبِيحِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَقَالَتْ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ .

(386/812)

وَفِي دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ : " سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك وَتَبَارَكَ اسْمُك وَتَعَالَى جَدُّك " . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ اسْتِفْتَاحِهِ : ﴿ تَبَارَكْت وَتَعَالَيْت أَسْتَغْفِرُك وَأَتُوبُ إلَيْك ﴾ فَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ . فَهُوَ مُتَعَالٍ عَنْ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ كَمَا أَنَّهُ مُسَبَّحٌ عَنْ ذَلِكَ . وَتَعَالِيهِ سُبْحَانَهُ عَنْ الشَّرِيكِ هُوَ تَعَالِيهِ عَنْ السَّمِيِّ وَالنِّدِّ وَالْمِثْلِ فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ مِثْلَهُ . وَقَدْ ذَكَرُوا مِنْ مَعَانِي الْعُلُوِّ الْفَضِيلَةَ كَمَا يُقَالُ : الذَّهَبُ أَعْلَى

مِنْ الْفِضَّةِ . وَنَفْيُ الْمِثْلِ عَنْهُ يَقْتَضِي أَنَّهُ أَعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ . وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ أَفْضَلُ وَخَيْرٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَفِي الْقُرْآنِ : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ﴾ . وَيَقُولُ : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وَيَقُولُ : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إلَّا أَنْ يُهْدَى ﴾ وَقَالَتْ السَّحَرَةُ : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَعْبُودِينَ دُونَهُ لَيْسُوا مِثْلَهُ فِي مَوَاضِعَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ

(387/812)

وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلَّا ظَنًّا إنَّ الظَّنَّ لَا

يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ

(388/812)

كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُبَيِّنُ أَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ

(389/812)

وَأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ . وَيُبَيِّنُ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَانْتِفَائِهَا عَمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ . وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ يَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَعَمَّا يَقُولُونَ مِنْ إثْبَاتِ الْأَوْلَادِ وَالشُّرَكَاءِ لَهُ . وَقَالَ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذًا لَابْتَغَوْا إلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ وَهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ إنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ وَيَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ . لَكِنْ كَانُوا يُثْبِتُونَ الشَّفَاعَةَ بِدُونِ إذْنِهِ فَيَجْعَلُونَ الْمَخْلُوقَ يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ . فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ فَالشَّفَاعَةُ لَا يَمْلِكُهَا أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ . كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ السدي فِي قَوْلِهِ : ﴿ إذًا لَابْتَغَوْا إلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ يَقُولُ : لَابْتَغَتْ الْحَوَائِجُ مِنْ اللَّهِ . وَعَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ : ﴿ لَابْتَغَوْا إلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ لَابْتَغَوْا التَّقَرُّبَ إلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ . وَعَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ : ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ يَقُولُ : لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ إذًا لَعَرَفُوا لَهُ فَضْلَهُ وَمَزِيَّتَهُ عَلَيْهِمْ وَلَابْتَغَوْا إلَيْهِ مَا يُقَرِّبُهُمْ إلَيْهِ . وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ : لَتَعَاطَوْا سُلْطَانَهُ . وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الهذلي عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : سَبِيلًا إلَى أَنْ يُزِيلُوا مُلْكَهُ والهذلي ضَعِيفٌ .

فَقَدْ تَضَمَّنَ الْعُلُوَّ الَّذِي يَنْعَتُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ مُتَعَالٍ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . وَهَذَا يَقْتَضِي ثُبُوتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ . وَأَنَّهُ لَا يُمَاثِلُهُ غَيْرُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ بَلْ هُوَ مُتَعَالٍ عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ شَيْءٌ . وَتَضَمَّنَ أَنَّهُ عَالٍ عَلَى كُلِّ مَا سِوَاهُ قَاهِرٌ لَهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ نَافِذَةٌ مَشِيئَتُهُ فِيهِ وَأَنَّهُ عَالٍ عَلَى الْجَمِيعِ فَوْقَ عَرْشِهِ . فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ فِي اسْمِهِ " الْعَلِيِّ " . وَإِثْبَاتُ عُلُوِّهِ عُلُوُّهُ عَلَى مَا سِوَاهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَيْهِ وَقَهْرُهُ يَقْتَضِي رُبُوبِيَّتَهُ لَهُ وَخَلْقَهُ لَهُ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْكَمَالِ . وَعُلُوُّهُ عَنْ الْأَمْثَالِ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ . وَهَذَا وَهَذَا يَقْتَضِي جَمِيعَ مَا يُوصَفُ بِهِ فِي الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ . فَفِي الْإِثْبَاتِ يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَفِي النَّفْيِ يُنَزَّهُ عَنْ النَّقْصِ الْمُنَاقِضِ لِلْكَمَالِ وَيُنَزَّهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ . كَمَا قَدْ دَلَّتْ عَلَى هَذَا وَهَذَا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ . وَتَعَالِيهِ عَنْ الشُّرَكَاءِ يَقْتَضِي اخْتِصَاصَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ

(391/812)

الْعِبَادَةَ إلَّا هُوَ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذًا لَابْتَغَوْا إلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ أَيْ وَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُونَ يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِ وَيُقَرِّبُونَكُمْ إلَيْهِ بِغَيْرِ إذْنِهِ فَهُوَ

الرَّبُّ وَالْإِلَهُ دُونَهُمْ وَكَانُوا يَبْتَغُونَ إِلَيْهِ سَبِيلًا بِالْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ . هَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ .

كَمَا قَالَ : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ فَتَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ أَوْ أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ أَوْ يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ . فَهَذَا هُوَ الَّذِي كَانُوا يَقُولُونَ . وَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَقْدِرُ أَنْ تُمَانِعَهُ أَوْ تُغَالِبَهُ . بَلْ هَذَا يَلْزَمُ مِنْ فَرْضِ إِلَهٍ آخَرَ يَخْلُقُ كَمَا يَخْلُقُ وَإِنْ كَانُوا هُمْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ كَمَا قَالَ : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ اسْمَهُ " الْأَعْلَى " يَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَتَنْزِيهَهُ عَمَّا يُنَافِيهَا مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَعَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فَصْلٌ :

(392/812)

وَالْأَمْرُ بِتَسْبِيحِهِ يَقْتَضِي أَيْضًا تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ وَإِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ . فَإِنَّ التَّسْبِيحَ يَقْتَضِي التَّنْزِيهَ وَالتَّعْظِيمَ وَالتَّعْظِيمَ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ الْمَحَامِدِ الَّتِي يُحْمَدُ عَلَيْهَا .

فَيَقْتَضِي ذَلِكَ تَنْزِيهَهُ وَتَحْمِيدَهُ وَتَكْبِيرَهُ وَتَوْحِيدَهُ . قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ثَنَا ابْنُ نفيل الْحَرَّانِي ثَنَا النَّضْرُ ابْنُ عَرَبِيٍّ قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ مَيْمُونَ بْنَ مهران عَنْ " سُبْحَانَ اللَّهِ " . فَقَالَ : " اسْمٌ يُعَظَّمُ اللَّهُ بِهِ وَيُحَاشَى بِهِ مِنْ السُّوءِ " . وَقَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ ثَنَا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ عَنْ حَجَّاجٍ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ " سُبْحَانَ " قَالَ : تَنْزِيهُ اللَّهِ نَفْسِهِ مِنْ السُّوءِ . وَعَنْ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ قَالَ عَجَبٌ . وَعَنْ أَبِي الْأَشْهَبِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : " سُبْحَانَ " اسْمٌ لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ أَنْ يَنْتَحِلُوهُ . وَقَدْ جَاءَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ مِثْلُ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ : إنَّهُ

(393/812)

تَنْزِيهُ نَفْسِهِ مِنْ السُّوءِ " وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مُرْسَلٌ وَهُوَ يَقْتَضِي تَنْزِيهَ نَفْسِهِ مِنْ فِعْلِ السَّيِّئَاتِ كَمَا يَقْتَضِي تَنْزِيهَهُ عَنْ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ . وَنَفْيُ النَّقَائِصِ يَقْتَضِي ثُبُوتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَفِيهَا التَّعْظِيمُ كَمَا قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مهران " اسْمٌ يُعَظَّمُ اللَّهُ بِهِ وَيُحَاشَى بِهِ مِنْ السُّوءِ " . وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حميد : حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ ثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ موهب عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ قَالَ : ﴿ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ التَّسْبِيحِ فَقَالَ : إنزاهه عَنْ السُّوءِ ﴾ . وَقَالَ حَدَّثَنَا الضَّحَّاكُ بْنُ مخلد عَنْ شَبِيبٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : "

سُبْحَانَ اللَّهِ " قَالَ : تَنْزِيهُهُ . حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ ثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانٍ ثَنَا يَزِيدُ بْنُ الْأَصَمِّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ : " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " نَعْرِفُهَا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ و " الْحَمْدُ لِلَّهِ " نَعْرِفُهَا أَنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا مِنْهُ وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا و " اللَّهُ أَكْبَرُ " نَعْرِفُهَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَكْبَرَ مِنْهُ فَمَا " سُبْحَانَ اللَّهِ " ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَمَا يُنْكَرُ مِنْهَا ؟ هِيَ كَلِمَةٌ رَضِيَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَأَمَرَ بِهَا مَلَائِكَتَهُ وَفَزِعَ إِلَيْهَا الْأَخْيَارُ مِنْ خَلْقِهِ .

فَصْلٌ :

(394/812)

قَوْلُهُ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ الْعَطْفُ يَقْتَضِي اشْتِرَاكَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِيمَا ذَكَرَ وَأَنَّ بَيْنَهُمَا مُغَايِرَةٌ إِمَّا فِي الذَّاتِ وَإِمَّا فِي الصِّفَاتِ . وَهُوَ فِي الذَّاتِ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ . وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ فَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ . فَإِنَّ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى هُوَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ؛ لَكِنَّ هَذَا الِاسْمَ وَالصِّفَةَ لَيْسَ هُوَ ذَاكَ الِاسْمُ وَالصِّفَةُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ

فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾

(395/812)

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الْآيَاتِ فَإِنَّهُ مَنْ صَدَقَ وَصَبَرَ وَلَمْ يُسْلِمْ وَلَمْ يُؤْمِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . وَكَثِيرًا مَا تَأْتِي الصِّفَاتُ بِلَا عَطْفٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ . وَقَدْ تَجِيءُ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ . وَلَوْ كَانَ " فَعَّالٌ " صِفَةً لَكَانَ مُعَرَّفًا بَلْ هُوَ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ لَكِنْ بِالْعَطْفِ بِكُلِّ مِنْ الصِّفَاتِ . وَأَخْبَارُ الْمُبْتَدَأِ قَدْ تَجِيءُ بِعَطْفٍ وَبِغَيْرِ عَطْفٍ . وَإِذَا ذُكِرَ بِالْعَطْفِ كَانَ كُلُّ اسْمٍ مُسْتَقِلًّا بِالذِّكْرِ وَبِلَا عَطْفٍ يَكُونُ الثَّانِي مِنْ تَمَامِ الْأَوَّلِ بِمَعْنًى . وَمَعَ الْعَطْفِ لَا

تَكُونُ الصِّفَاتُ إلَّا لِلْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ أَوْ لِلْمَدْحِ وَأَمَّا بِلَا عَطْفٍ فَهُوَ فِي النَّكِرَاتِ لِلتَّمْيِيزِ وَفِي الْمَعَارِفِ قَدْ يَكُونُ لِلتَّوْضِيحِ .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ وُصِفَ بِكُلِّ صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَمُدِحَ بِهَا وَأُثْنِيَ عَلَيْهِ بِهَا . وَكَانَتْ كُلُّ صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مُسْتَوْجِبَةً لِذَلِكَ .

فَصْلٌ :

(396/812)

قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ . فَأَطْلَقَ الْخَلْقَ وَالتَّسْوِيَةَ وَلَمْ يَخُصَّ بِذَلِكَ الْإِنْسَانَ كَمَا أَطْلَقَ قَوْلَهُ بَعْدَ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ لَمْ يُقَيِّدْهُ . فَكَانَ هَذَا الْمُطْلَقُ لَا يَمْنَعُ شُمُولَهُ لِشَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ . وَقَدْ بَيَّنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ شُمُولَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُقَيَّدَ بِالْإِنْسَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُطْلَقَ وَالْمُقَيَّدَ فِي أَوَّلِ مَا نَزَّلَ مِنْ الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وَفِي جَمِيعِ هَذِهِ الْآيَاتِ مُطْلَقُهَا وَمُقَيَّدُهَا وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْمُطْلَقِ وَالْمُقَيَّدِ قَدْ

ذَكَرَ خَلْقَهُ وَذَكَرَ هِدَايَتَهُ وَتَعْلِيمَهُ بَعْدَ الْخَلْقِ كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

(397/812)

لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ خُلِقَتْ لِغَايَةٍ مَقْصُودَةٍ بِهَا فَلَا بُدَّ أَنْ تُهْدَى إلَى تِلْكَ الْغَايَةِ الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا . فَلَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهَا وَمَا أُرِيدَتْ لَهُ إلَّا بِهِدَايَتِهَا لِغَايَاتِهَا . وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ لِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ تَصِلُ إلَيْهَا كَمَا قَالَ ذَلِكَ السَّلَفُ وَجُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ كَجَهْمٍ وَأَتْبَاعِهِ إنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا لِشَيْءٍ وَوَافَقَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ الْفُقَهَاءِ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ . وَهُمْ يُثْبِتُونَ أَنَّهُ مُرِيدٌ وَيُنْكِرُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُ حِكْمَةٌ يُرِيدُهَا . وَطَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ يُثْبِتُونَ عِنَايَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَيُنْكِرُونَ إرَادَتَهُ . وَكِلَاهُمَا تَنَاقُضٌ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى فَسَادِ قَوْلِ هَؤُلَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَنَّ مُنْتَهَاهُمْ جَحْدُ الْحَقَائِقِ . فَإِنَّ هَذَا يَقُولُ : "لَوْ كَانَ لَهُ حِكْمَةٌ يَفْعَلُ لِأَجْلِهَا لَكَانَ يَجِبُ أَنْ يُرِيدَ الْحِكْمَةَ وَيَنْتَفِعَ بِهَا وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ" . وَذَاكَ يَقُولُ : "لَوْ كَانَ لَهُ إرَادَةٌ لَكَانَ يَفْعَلُ لِجَرِّ مَنْفَعَةٍ ؛ فَإِنَّ الْإِرَادَةَ لَا تُعْقَلُ إلَّا كَذَلِكَ" . وَأَرِسْطُو وَأَتْبَاعُهُ يَقُولُونَ : "لَوْ فَعَلَ شَيْئًا لَكَانَ الْفِعْلُ لِغَرَضٍ وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ" .

فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ : هَذِهِ الْحَوَادِثُ الْمَشْهُودَةُ أَلَهَا مُحْدِثٌ أَمْ لَا ؟ فَإِنْ قَالُوا " لَا " فَهُوَ غَايَةُ الْمُكَابَرَةِ . وَإِذَا جَوَّزُوا حُدُوثَ الْحَوَادِثِ بِلَا مُحْدِثٍ فَتَجْوِيزُهَا بِمُحْدِثٍ لَا إرَادَةَ لَهُ أَوْلَى . وَإِنْ قَالُوا " لَهَا مُحْدِثٌ " ثَبَتَ الْفَاعِلُ . وَإِذَا ثَبَتَ الْخَالِقُ الْمُحْدِثُ فَإِمَّا أَنْ يَفْعَلَ بِإِرَادَةٍ أَوْ بِغَيْرِ إرَادَةٍ . فَإِنْ قَالُوا " يَفْعَلُ بِغَيْرِ إرَادَةٍ " كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مُكَابَرَةً . فَإِنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ إنَّمَا صَدَرَتْ عَنْ إرَادَةٍ . فَإِنَّ الْحَرَكَاتِ إمَّا طَبْعِيَّةٌ وَإِمَّا قَسْرِيَّةٌ وَإِمَّا إرَادِيَّةٌ . لِأَنَّ مَبْدَأَ الْحَرَكَةِ إمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُتَحَرِّكِ أَوْ مِنْ سَبَبٍ خَارِجٍ . وَمَا كَانَ مِنْهَا فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ الشُّعُورِ أَوْ بِدُونِ الشُّعُورِ . فَمَا كَانَ سَبَبُهُ مِنْ خَارِجٍ فَهُوَ الْقَسْرِيُّ وَمَا كَانَ سَبَبُهُ مِنْهَا بِلَا شُعُورٍ فَهُوَ الطَّبْعِيُّ وَمَا كَانَ مَعَ الشُّعُورِ فَهُوَ الْإِرَادِيُّ . فَالْقَسْرِيُّ تَابِعٌ لِلْقَاسِرِ وَالَّذِي يَتَحَرَّكُ بِطَبْعِهِ كَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالْأَرْضِ هُوَ سَاكِنٌ فِي مَرْكَزِهِ ؛ لَكِنْ إذَا خَرَجَ عَنْ مَرْكَزِهِ قَسْرًا طَلَبَ الْعَوْدَ إلَى مَرْكَزِهِ فَأَصْلُ حَرَكَتِهِ الْقَسْرُ . وَلَمْ تَبْقَ حَرَكَةٌ أَصْلِيَّةٌ إلَّا الْإِرَادِيَّةُ . فَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ فَهِيَ عَنْ إرَادَةٍ . فَكَيْفَ تَكُونُ جَمِيعُ الْحَوَادِثِ وَالْحَرَكَاتِ بِلَا إرَادَةٍ ؟ . وَأَيْضًا فَإِذَا جَوَّزُوا أَنْ تَحْدُثَ الْحَوَادِثُ الْعَظِيمَةُ عَنْ فَاعِلٍ غَيْرِ مُرِيدٍ فَجَوَازُ ذَلِكَ عَنْ فَاعِلٍ مُرِيدٍ أَوْلَى .

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ مُرِيدٌ قِيلَ : إمَّا أَنْ يَكُونَ أَرَادَهَا لِحِكْمَةٍ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَرَادَهَا لِغَيْرِ حِكْمَةٍ . فَإِنْ قَالُوا " لِغَيْرِ حِكْمَةٍ " كَانَ مُكَابَرَةً . فَإِنَّ الْإِرَادَةَ لَا تُعْقَلُ إلَّا إذَا كَانَ الْمُرِيدُ قَدْ فَعَلَ لِحِكْمَةٍ يَقْصِدُهَا بِالْفِعْلِ . وَأَيْضًا فَإِذَا جَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ فَاعِلًا مُرِيدًا بِلَا حِكْمَةٍ فَكَوْنُهُ فَاعِلًا مُرِيدًا لِحِكْمَةٍ أَوْلَى بِالْجَوَازِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : " هَذَا لَا يُعْقَلُ إلَّا فِي حَقِّ مَنْ يَنْتَفِعُ وَذَلِكَ يُوجِبُ الْحَاجَةَ وَاَللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ " . فَإِنْ أَرَادُوا أَنَّهُ يُوجِبُ احْتِيَاجَهُ إلَى غَيْرِهِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَهُوَ مَمْنُوعٌ وَبَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . وَهُوَ الصَّمَدُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مُحْتَاجٌ إلَيْهِ وَهُوَ الْقَيُّومُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الْمُقِيمُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ . فَكَيْفَ يَكُونُ مُحْتَاجًا إلَى غَيْرِهِ ؟ وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّهُ تَحْصُلُ لَهُ بِالْخَلْقِ حِكْمَةٌ هِيَ أَيْضًا حَاصِلَةٌ بِمَشِيئَتِهِ فَهَذَا لَا مَحْذُورَ فِيهِ بَلْ هُوَ الْحَقُّ . وَإِذَا قَالُوا " الْحِكْمَةُ هِيَ اللَّذَّةُ " قِيلَ : لَفْظُ " اللَّذَّةِ " لَمْ يَرِدْ بِهِ الشَّرْعُ وَهُوَ مُوهِمٌ وَمُجْمَلٌ . لَكِنْ جَاءَ الشَّرْعُ بِأَنَّهُ " يُحِبُّ " و " يَرْضَى "

و "يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ" وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَإِذَا أُرِيدَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ فَهُوَ حَقٌّ . وَإِنْ قَالُوا : "الْحِكْمَةَ إمَّا أَنْ تُرَادَ لِنَفْسِهَا أَوْ لِحِكْمَةٍ" قِيلَ : الْمُرَادَاتُ نَوْعَانِ مَا يُرَادُ لِنَفْسِهِ وَمَا يُرَادُ لِغَيْرِهِ . وَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ غَايَةً وَحِكْمَةً بِالنِّسْبَةِ إلَى مَخْلُوقٍ وَهُوَ مَخْلُوقٌ لِحِكْمَةٍ أُخْرَى . فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ إلَى حِكْمَةٍ يُرِيدُهَا الْفَاعِلُ لِذَاتِهَا . وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ كَابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ تُثْبِتُ حِكْمَةً لَا تَعُودُ إلَى ذَاتِهِ . وَأَمَّا السَّلَفُ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ حِكْمَةً تَعُودُ إلَيْهِ كَمَا قَدْ بُيِّنَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا ذِكْرُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ . وَالتَّسْوِيَةُ : جَعْلُ الشَّيْئَيْنِ سَوَاءً كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ و ﴿ سَوَاءٌ ﴾ وَسَطٌ لِأَنَّهُ مُعْتَدِلٌ بَيْنَ الْجَوَانِبِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ مِنْ الْعَدْلِ . فَلَا بُدَّ مِنْ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ فَإِذَا فُضِّلَ أَحَدُهُمَا فَسَدَ الْمَصْنُوعُ كَمَا فِي مَصْنُوعَاتِ الْعِبَادِ إذَا بَنَوْا بُنْيَانًا فَلَا بُدَّ مِنْ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْحِيطَانِ إذْ لَوْ رُفِعَ

(401/812)

حَائِطٌ عَلَى حَائِطٍ رَفْعًا كَثِيرًا فَسَدَ . وَلَا بُدَّ مِنْ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ جُذُوعِ السَّقْفِ فَلَوْ كَانَ بَعْضُ الْجُذُوعِ قَصِيرًا عَنْ الْغَايَةِ وَبَعْضُهَا فَوْقَ الْغَايَةِ فَسَدَ . وَكَذَلِكَ إذَا بُنِيَ صَفٌّ فَوْقَ صَفٍّ لَا

بُدَّ مِنْ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الصُّفُوفِ وَكَذَلِكَ الدَّرَجُ الْمَبْنِيَّةُ . وَكَذَلِكَ إذَا صُنِعَ لِسَقْيِ الْمَاءِ جَدَاوِلُ وَمَسَاكِبُ فَلَا بُدَّ مِنْ الْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ فِيهَا . وَكَذَلِكَ إذَا صُنِعَتْ مَلَابِسُ لِلْآدَمِيِّينَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُقَدَّرَةً عَلَى أَبْدَانِهِمْ لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ . وَكَذَلِكَ مَا يُصْنَعُ مِنْ الطَّعَامِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ أَخْلَاطُهُ عَلَى وَجْهِ الِاعْتِدَالِ وَالنَّارُ الَّتِي تَطْبُخُهُ كَذَلِكَ . وَكَذَلِكَ السُّفُنُ الْمَصْنُوعَةُ . وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ لِدَاوُد : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ أَيْ لَا تَدُقَّ الْمِسْمَارَ فَيُقْلِقُ وَلَا تُغْلِظْهُ فَيُفْصَمُ وَاجْعَلْهُ بِقَدْرِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي مَصْنُوعَاتِ الْعِبَادِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِ الرَّبِّ فَكَيْفَ بِمَخْلُوقَاتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا صُنْعَ فِيهَا لِلْعِبَادِ كَخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَسَائِرِ الْبَهَائِمِ وَخَلْقِ النَّبَاتِ وَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمَلَائِكَةِ . فَالْفُلْكُ الَّذِي خَلَقَهُ وَجَعَلَهُ مُسْتَدِيرًا مَا لَهُ مِنْ فُرُوجٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ وَقَالَ :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ سَوَّاهَا كَمَا سَوَّى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَعَدَلَ بَيْنَ أَجْزَائِهَا . وَلَوْ كَانَ

أَحَدُ جَانِبَيْ السَّمَاءِ دَاخِلًا أَوْ خَارِجًا لَكَانَ فِيهَا فُرُوجٌ وَهِيَ الْفُتُوقُ وَالشُّقُوقُ وَلَمْ يَكُنْ سَوَّاهَا كَمَنْ بَنَى قُبَّةً وَلَمْ يُسَوِّهَا . وَكَذَلِكَ لَوْ جَعَلَ أَحَدَ جَانِبَيْهَا أَطْوَلَ أَوْ أَنْقَصَ وَنَحْوَ ذَلِكَ . فَالْعَدْلُ وَالتَّسْوِيَةُ لَازِمٌ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمَصْنُوعَاتِ . فَمَتَى لَمْ تُصْنَعْ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَقَعَ فِيهَا الْفَسَادُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ . قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ قَالَ : سَوَّى خَلْقَهُنَّ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ .

فَصْلٌ :

ثُمَّ إذَا خَلَقَ الْمَخْلُوقَ فَسَوَّى فَإِنْ لَمْ يَهْدِهِ إلَى تَمَامِ الْحِكْمَةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا فَسَدَ . فَلَا بُدَّ أَنْ يُهْدَى بَعْدَ ذَلِكَ إلَى مَا خُلِقَ لَهُ .

(403/812)

وَتِلْكَ الْغَايَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً لِلْخَالِقِ . فَإِنَّ الْعِلَّةَ الغائية هِيَ أَوَّلٌ فِي الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَهِيَ آخِرٌ فِي الْوُجُودِ وَالْحُصُولِ . وَلِهَذَا كَانَ الْخَالِقُ لَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا خَلَقَ . فَإِنَّهُ قَدْ أَرَادَهُ وَأَرَادَ الْغَايَةَ الَّتِي خَلَقَهُ لَهَا وَالْإِرَادَةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ . فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُرِيدَ الْحَيُّ مَا لَا شُعُورَ لَهُ بِهِ . وَالصَّانِعُ إذَا أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا فَقَدْ عَلِمَهُ وَأَرَادَهُ وَقَدَّرَ فِي نَفْسِهِ مَا يَصْنَعُهُ وَالْغَايَةَ الَّتِي

يَنْتَهِي إِلَيْهَا وَمَا الَّذِي يُوَصِّلُهُ إِلَى تِلْكَ الْغَايَةِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ وَكَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ . وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عُمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَفِي رِوَايَةٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .

(404/812)

فَقَدْ قَدَّرَ سُبْحَانَهُ مَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ حِينَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا فِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ : اُكْتُبْ . فَقَالَ مَا أَكْتُبُ ؟ فَقَالَ : اُكْتُبْ مَا يَكُونُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . وَأَحَادِيثُ تَقْدِيرِهِ سُبْحَانَهُ وَكِتَابَتِهِ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فَقَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ الْمَقَادِيرَ بِقُدْرَتِهِ وَدَبَّرَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ وَعَلِمَ مَا الْعِبَادُ صَائِرُونَ إلَيْهِ وَمَا هُوَ خَالِقٌ وَكَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ فَخَلَقَ اللَّهُ لِذَلِكَ جَنَّةً وَنَارًا فَجَعَلَ الْجَنَّةَ لِأَوْلِيَائِهِ وَعَرَّفَهُمْ وَأَحَبَّهُمْ وَتَوَلَّاهُمْ وَوَفَّقَهُمْ

وَعَصَمَهُمْ وَتَرَكَ أَهْلَ النَّارِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَأَضَلَّهُمْ وَأَزَلَّهُمْ . فَخَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا يُشَاكِلُهُ فِي خَلْقِهِ مَا يُصْلِحُهُ مِنْ رِزْقِهِ فِي بَرٍّ أَوْ فِي بَحْرٍ . فَجَعَلَ لِلْبَعِيرِ خَلْقًا لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الدَّوَابِّ . وَكَذَلِكَ كُلُّ دَابَّةٍ خَلَقَ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا مَا يُشَاكِلُهَا فِي خَلْقِهَا فَخَلْقُهُ مُؤْتَلِفٌ لِمَا خَلَقَهُ لَهُ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ . قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : ثَنَا أَبِي ثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ مهران الْقَزَّازُ

(405/812)

نا حِبَّانُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ : سَأَلْت الضَّحَّاكَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَذَكَرَهُ . وَقَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ ثَنَا طَلْحَةُ بْنُ سِنَانٍ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : مَنْ كَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَقَدْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ . خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا وَأَجَّلَ أَجَلًا وَقَدَّرَ رِزْقًا وَقَدَّرَ مُصِيبَةً وَقَدَّرَ بَلَاءً وَقَدَّرَ عَافِيَةً . فَمَنْ كَفَرَ بِالْقَدَرِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ . وَقَالَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَرَفَةَ ثَنَا مَرْوَانُ بْنُ شُجَاعٍ الجزري عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جريج عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ : أَتَيْت ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَنْزِعُ مِنْ زَمْزَمَ وَقَدْ ابْتَلَّتْ أَسَافِلُ ثِيَابِهِ فَقُلْت لَهُ : قَدْ تُكُلِّمَ فِي الْقَدَرِ . فَقَالَ : أَوَقَدْ فَعَلُوهَا ؟ قُلْت : نَعَمْ . قَالَ : فَوَاَللَّهِ مَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إلَّا فِيهِمْ : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ﴿ إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أُولَئِكَ

شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا تَعُودُوا مَرْضَاهُمْ وَلَا تُصَلُّوا عَلَى مَوْتَاهُمْ . إِنْ رَأَيْت أَحَدًا مِنْهُمْ فَقَأْت عَيْنَيْهِ بِأُصْبُعَيَّ هَاتَيْنِ . وَقَالَ أَيْضًا : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْجُنَيْد حَدَّثَنَا سَهْلٌ الْخَيَّاطُ ثَنَا أَبُو صَالِحٍ الحداني نا حِبَّانُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ قَالَ : سَأَلْت

(406/812)

الضَّحَّاكَ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ . قَالَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَرْشَ فَاسْتَوَى عَلَيْهِ ثُمَّ خَلَقَ الْقَلَمَ فَأَمَرَهُ لِيَجْرِيَ بِإِذْنِهِ وَعِظَمُ الْقَلَمِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَقَالَ الْقَلَمُ : بِمَا يَا رَبِّ أُجْرِي ؟ فَقَالَ . " بِمَا أَنَا خَالِقٌ وَكَائِنٌ فِي خَلْقِي مِنْ قُطْرٍ أَوْ نَبَاتٍ أَوْ نَفْسٍ أَوْ أَثَرٍ يَعْنِي بِهِ الْعَمَلَ أَوْ رِزْقٍ أَوْ أَجَلٍ " . فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَأَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ عِنْدَهُ تَحْتَ الْعَرْشِ .

فَصْلٌ :

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ قَدَّرَ مَا سَيَكُونُ لِلْمَخْلُوقَاتِ وَهَدَاهَا إلَيْهِ . عَلِمَ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ النَّاسُ وَالدَّوَابُّ مِنْ الرِّزْقِ فَخَلَقَ ذَلِكَ الرِّزْقَ وَسَوَّاهُ وَخَلَقَ الْحَيَوَانَ وَسَوَّاهُ وَهَدَاهُ إلَى ذَلِكَ الرِّزْقِ . وَهَدَى غَيْرَهُ مِنْ الْأَحْيَاءِ أَنْ يَسُوقَ إلَيْهِ

ذَلِكَ الرِّزْقَ . وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَقَدَّرَ حَاجَتَهَا إلَى الْمَطَرِ وَقَدَّرَ السَّحَابَ وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ الْمَطَرِ . وَخَلَقَ مَلَائِكَةً هَدَاهُمْ لِيَسُوقُوا ذَلِكَ السَّحَابَ إلَى تِلْكَ الْأَرْضِ

(407/812)

فَيُمْطِرَ الْمَطَرَ الَّذِي قَدَّرَهُ . وَقَدَّرَ مَا نَبَتَ بِهَا مِنْ الرِّزْقِ وَقَدَّرَ حَاجَةَ الْعِبَادِ إلَى ذَلِكَ الرِّزْقِ . وَهَدَاهُمْ إلَى ذَلِكَ الرِّزْقِ وَهَدَى مَنْ يَسُوقُ ذَلِكَ الرِّزْقَ إلَيْهِمْ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنْوَاعًا مِنْ تَقْدِيرِهِ وَهِدَايَتِهِ : فَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُمَا بِالْإِسْنَادِ الثَّابِتِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ قَالَ : الْإِنْسَانَ لِلشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا . وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ : هَدَى الْإِنْسَانَ لِلسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ وَهَدَى الْأَنْعَامَ لِمَرَاتِعِهَا . وَقَالَ حَدَّثَنَا يُونُسُ عَنْ شَيْبَانَ عَنْ قَتَادَةَ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ قَالَ : " لَا وَاَللَّهِ مَا أَكْرَهَ اللَّهُ عَبْدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ قَطُّ وَلَا عَلَى ضَلَالَةٍ وَلَا رَضِيَهَا لَهُ وَلَا أَمَرَهُ وَلَكِنْ رَضِيَ لَكُمْ الطَّاعَةَ فَأَمَرَكُمْ بِهَا وَنَهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ " . قُلْت : قَتَادَةُ ذَكَرَ هَذَا عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُتَنَازِعِينَ . فَمَا سَبَقَ مِنْ سَبْقِ تَقْدِيرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا كَانَ نِزَاعُ بَعْضِهِمْ فِي الْإِرَادَةِ وَخَلْقِ الْأَفْعَالِ .

(408/812)

وَإِنَّمَا نَازَعَ فِي التَّقْدِيرِ السَّابِقِ وَالْكِتَابِ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ الصَّحَابَةُ كَابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا . وَذَكَرَ قَتَادَةُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُكْرِهْ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ . وَهَذَا صَحِيحٌ فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْرِهُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ كَمَا يُكْرِهُ الْوَالِي وَالْقَاضِي وَغَيْرُهُمَا لِلْمَخْلُوقِ عَلَى خِلَافِ مُرَادِهِ يُكْرِهُونَهُ بِالْعُقُوبَةِ وَالْوَعِيدِ . بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَخْلُقُ إرَادَةَ الْعَبْدِ لِلْعَمَلِ وَقُدْرَتَهُ وَعَمَلَهُ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ قَتَادَةُ قَدْ يُظَنُّ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ وَأَنَّهُ لِسَبَبِ مِثْلِ هَذَا اتُّهِمَ قَتَادَةُ بِالْقَدَرِ حَتَّى قِيلَ : إنَّ مَالِكًا كَرِهَ لِمَعْمَرٍ أَنْ يَرْوِيَ عَنْهُ التَّفْسِيرَ لِكَوْنِهِ اتُّهِمَ بِالْقَدَرِ . وَهَذَا الْقَوْلُ حَقٌّ وَلَمْ يُعْرَفْ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ قَالَ " إنَّ اللَّهَ أَكْرَهَ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ " . بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ " الْجَبْرِ " مَنَعُوا مِنْ إطْلَاقِهِ كَالْأَوْزَاعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَالزُّبَيْدِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ . نَهَوْا عَنْ أَنْ يُقَالَ " إنَّ اللَّهَ جَبَرَ الْعِبَادَ " وَقَالُوا : إنَّ هَذَا بِدْعَةٌ فِي الشَّرْعِ وَهُوَ مُفْهِمٌ لِلْمَعْنَى الْفَاسِدِ .

(409/812)

قَالَ الأوزاعي وَغَيْرُهُ : إنَّ السَّنَةَ جاءَتْ بـ " جَبَلَ " وَلَمْ تَأْتِ بـ " جَبَرَ " ﴿ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ : إنَّ فِيك لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ . فَقَالَ : أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْت بِهِمَا أَمْ خُلُقَيْنِ جُبِلْت عَلَيْهِمَا ؟ فَقَالَ : بَلْ خُلُقَيْنِ جُبِلْت عَلَيْهِمَا . قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ ﴾ . وَقَالَ الزُّبَيْدِيُّ وَغَيْرُهُ : إنَّمَا يُجْبَرُ الْعَاجِزُ يَعْنِي الْجَبْرَ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْإِكْرَاهِ كَمَا تُجْبَرُ الْمَرْأَةُ عَلَى النِّكَاحِ . وَاَللَّهُ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُجْبِرَ أَحَدًا يَعْنِي أَنَّهُ يَخْلُقُ إرَادَةَ الْعَبْدِ فَلَا يَحْتَاجُ إلَى إجْبَارِهِ . فَالزُّبَيْدِيُّ وَطَائِفَةٌ نَفَوْا " الْجَبْرَ " وَكَانَ مَفْهُومُهُ عِنْدَهُمْ هَذَا . وَأَمَّا الأوزاعي وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا فَكَرِهُوا أَنْ يُقَالَ " جَبَرَ " وَأَنْ يُقَالَ " لَمْ يُجْبِرْ " لِأَنَّ " الْجَبْرَ " قَدْ يُرَادُ بِهِ الْإِكْرَاهُ وَاَللَّهُ لَا يُكْرِهُ أَحَدًا . وَقَدْ يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ خَالِقُ الْإِرَادَةِ كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : " الْجَبَّارُ هُوَ الَّذِي جَبَرَ الْعِبَادَ عَلَى مَا أَرَادَ " . و " الْجَبْرُ " بِهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ . وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ " هَدَى الْإِنْسَانَ لِلسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ " يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا عِنْدَهُ مِمَّا دَخَلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾

أَيْ هَدَى السُّعَدَاءِ إِلَى السَّعَادَةِ الَّتِي قَدَّرَهَا وَهَدَى الْأَشْقِيَاءَ إِلَى الشَّقَاءِ الَّذِي قَدَّرَهُ .

وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ قَالَ : السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةَ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : سَبِيلَ الْهُدَى . رَوَاهُمَا عَبْدُ بْنُ حميد . وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ قَالَ : الشَّقَاوَةَ وَالسَّعَادَةَ . وَقَدْ قَالَ هُوَ وَجَمَاهِيرُ السَّلَفِ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : أَيْ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ . ثُمَّ قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي إِحْدَى . . . (1) وَشَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ وَأَبِي صَالِحٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَعِكْرِمَةَ وَشُرَحْبِيلَ بْنِ سَعِيدٍ وَابْنِ سِنَانٍ الرَّازِي وَالضَّحَّاكِ وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَعَمْرِو بْنِ قَيْسٍ الملائي نَحْوِ ذَلِكَ . وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القرظي قَالَ : الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .

(411/812)

وَهَذَا كَلَامٌ مُجْمَلٌ فِيهِ مَا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا أَرْسَلَهُ مِنْ الرُّسُلِ وَنَصَبَهُ مِنْ الدَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ وَأَعْطَاهُمْ مِنْ الْعُقُولِ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ . وَأَمَّا إدْخَالُ الْهُدَى الَّذِي هُوَ الْإِلْهَامُ فِي ذَلِكَ بِمَعْنَى أَنَّهُ هَدَى الْمُؤْمِنَ إلَى أَنْ يُؤْمِنَ وَيَعْمَلَ صَالِحًا إلَى أَنْ يَسْعَدَ بِذَلِكَ وَهَدَى الْكَافِرَ إلَى مَا يَعْمَلُهُ إلَى أَنْ يَشْقَى بِذَلِكَ

فَهَذَا مِنْهُمْ مَنْ يُدْخِلُهُ فِي الْآيَةِ كَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ وَيُدْخِلُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ . وَعِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ يُخْرِجُونَ ذَلِكَ عَنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالْقَدَرِ . وَمَنْ قَالَ : " هَدَى " بِمَعْنَى بَيَّنَ فَقَطْ فَقَدْ هَدَى كُلَّ عَبْدٍ إلَى نَجْدِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ جَمِيعًا أَيْ بَيَّنَ لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَمَنْ أَدْخَلَ فِي ذَلِكَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ يَقُولُ : فِي هَذَا تَقْسِيمٌ أَيْ هَذِهِ الْهِدَايَةُ عَامَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ وَخَصَّ الْمُؤْمِنَ بِهِدَايَةٍ إلَى نَجْدِ الْخَيْرِ وَخَصَّ الْكَافِرَ بِهِدَايَةٍ إلَى نَجْدِ الشَّرِّ . وَمَنْ لَمْ يُدْخِلْ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ قَدْ يَحْتَجُّونَ بِحَدِيثٍ مِنْ مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ قَالَ : ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إنَّمَا هُمَا النَّجْدَانِ نَجْدُ الْخَيْرِ وَنَجْدُ الشَّرِّ . فَمَا يُجْعَلُ نَجْدُ الشَّرِّ أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ ؟ ﴾ .

(412/812)

وَيَحْتَجُّونَ بِأَنَّ إلْهَامَ الْفَاجِرِ طَرِيقَ الْفُجُورِ لَمْ يُسَمِّهِ هُدًى بَلْ سَمَّاهُ ضَلَالًا وَاَللَّهُ امْتَنَّ بِأَنَّهُ هَدَى . وَقَدْ يُجِيبُ الْآخَرُ بِأَنْ يَقُولَ : هُوَ لَا يَدْخُلُ فِي الْهُدَى الْمُطْلَقِ لَكِنْ يَدْخُلُ فِي الْهُدَى الْمُقَيَّدِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ وَكَمَا فِي لَفْظِ الْبِشَارَةِ قَالَ : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وَلَفْظُ الْإِيمَانِ فَقَالَ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ .

وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قِيلَ : هُوَ الْبَيَانُ الْعَامُّ وَقِيلَ : بَلْ

أَلْهَمَ الْفَاجِرَ الْفُجُورَ وَالتَّقِيَّ التَّقْوَى . وَهَذَا فِي تِلْكَ الْآيَةِ أَظْهَرُ لِأَنَّ الْإِلْهَامَ اسْتِعْمَالُهُ مَشْهُورٌ فِي إلْهَامِ الْقُلُوبِ لَا فِي التَّبْيِينِ الظَّاهِرِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ . وَقَدْ ﴿ عَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُصَيْنًا الْخُزَاعِيَّ لَمَّا أَسْلَمَ أَنْ يَقُولَ : اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي ﴾ . وَلَوْ كَانَ الْإِلْهَامُ بِمَعْنَى الْبَيَانِ الظَّاهِرِ لَكَانَ هَذَا حَاصِلًا لِلْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : و ﴿ سُوَّى ﴾ مَعْنَاهُ عَدَّلَ وَأَتْقَنَ حَتَّى صَارَتْ الْأُمُورُ مُسْتَوِيَةً دَالَّةً عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ . وَقَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ ﴿ قَدَرَ ﴾ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ

(413/812)

مِنْ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ التَّقْدِيرِ وَالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ . قُلْت : هُمَا مُتَلَازِمَانِ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ الْأَوَّلَ يُسَمَّى تَقْدِيرًا ؛ لِأَنَّ مَا يَجْرِي بَعْدَ ذَلِكَ يَجْرِي عَلَى قَدَرِهِ فَهُوَ مُوَازِنٌ لَهُ وَمُعَادِلٌ لَهُ . قَالَ : وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ وَحْدَهُ بِتَخْفِيفِ الدَّالِ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ التَّقْدِيرِ وَالْمُوَازَنَةِ " . قُلْت : وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ أَنَّهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : وَقَوْلُهُ ﴿ فَهَدَى ﴾ عَامٌّ لِوُجُوهِ الْهِدَايَاتِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ . وَقَدْ خَصَّصَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَشْيَاءَ مِنْ الْهِدَايَاتِ فَقَالَ الْفَرَّاءُ : مَعْنَاهُ هَدَى وَأَضَلَّ وَاكْتَفَى بِالْوَاحِدِ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْأُخْرَى . قَالَ وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ : هَدَى إلَى وَطْءِ الذُّكُورِ لِلْإِنَاثِ

. وَقِيلَ هَدَى الْمَوْلُودَ عِنْدَ وَضْعِهِ إلَى مَصِّ الثَّدْيِ . وَقَالَ مُجَاهِد : هَدَى النَّاسَ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْبَهَائِمَ لِلْمَرَاتِعِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : " وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مثالات وَالْعُمُومُ فِي الْآيَةِ أَصْوَبُ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ وَفِي كُلِّ هِدَايَةٍ " . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَغَيْرَهَا فَذَكَرَ

(414/812)

سَبْعَةَ أَقْوَالٍ : قَدَّرَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَهَدَى لِلرُّشْدِ وَالضَّلَالَةِ قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَقِيلَ : جَعَلَ لِكُلِّ دَابَّةٍ مَا يُصْلِحُهَا وَهَدَاهَا إلَيْهِ قَالَهُ عَطَاءٌ . وَقِيلَ : قَدَّرَ مُدَّةَ الْجَنِينِ فِي الرَّحِمِ ثُمَّ هَدَاهُ لِلْخُرُوجِ قَالَهُ السدي . وَقِيلَ : قَدَّرَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَهَدَى الذُّكُورَ لِإِتْيَانِ الْإِنَاثِ قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَقِيلَ : قَدَّرَ فَهَدَى وَأَضَلَّ فَحَذَفَ " وَأَضَلَّ " لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ حَكَاهُ الزَّجَّاجُ . وَقِيلَ : قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ وَهَدَى إلَى طَلَبِهَا ؛ وَقِيلَ قَدَّرَ الذُّنُوبَ فَهَدَى إلَى التَّوْبَةِ حَكَاهُمَا الثَّعْلَبِيُّ . قُلْت : الْقَوْلُ الَّذِي حَكَاهُ الزَّجَّاجُ هُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ وَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ : " إنْ نَفَعَتْ وَإِنْ لَمْ تَنْفَعْ " وَمِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ " سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ " . وَقَدْ تَقَدَّمَ ضَعْفُ مِثْلِ هَذَا وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ . وَالْأَقْوَالُ الصَّحِيحَةُ هِيَ مِنْ بَابِ المثالات كَمَا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ . وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنْ تَفْسِيرِ السَّلَفِ يَذْكُرُونَ مِنْ النَّوْعِ مِثَالًا لِيُنَبِّهُوا بِهِ عَلَى غَيْرِهِ أَوْ لِحَاجَةِ الْمُسْتَمِعِ إلَى مَعْرِفَتِهِ أَوْ لِكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ كَمَا يَذْكُرُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ

كَثِيرَةٍ . كَقَوْلِهِ : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾

(415/812)

وَكَذَلِكَ تَفْسِيرُ : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ و ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ تَفْسِيرِهِمْ هُوَ مِنْ بَابِ الْمِثَالِ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : إنَّ " هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي فُلَانٍ وَفُلَانٍ " فَبِهَذَا يُمَثِّلُ بِمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ نَزَلَتْ فِيهِ أَوَّلًا وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا لَا يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهَا آيَةٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ كَآيَةِ اللِّعَانِ وَآيَةِ الْقَذْفِ وَآيَةِ الْمُحَارَبَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . لَا يَقُولُ مُسْلِمٌ إنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بِمَنْ كَانَ نُزُولُهَا بِسَبَبِهِ . وَاللَّفْظُ الْعَامُّ وَإِنْ قَالَ طَائِفَةٌ إنَّهُ يُقْصَرُ عَلَى سَبَبِهِ فَمُرَادُهُمْ عَلَى النَّوْعِ الَّذِي هُوَ سَبَبُهُ لَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ أَنَّهُ يَقْتَصِرُ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ . فَلَا يَقُولُ مُسْلِمٌ إنَّ آيَةَ الظِّهَارِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهَا إلَّا أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ وَآيَةَ اللِّعَانِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهَا إلَّا عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ أَوْ هِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ : وَأَنَّ ذَمَّ الْكُفَّارِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ إلَّا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ . فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَرَفَ بِالاضْطِرَارِ مِنْ دِينِهِ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَاَللَّهُ تَعَالَى خَاطَبَ بِالْقُرْآنِ جَمِيعَ

(416/812)

الثَّقَلَيْنِ كَمَا قَالَ : ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ . فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنْ إنْسِيٍّ وَجِنِّيٍّ فَقَدْ أَنْذَرَهُ الرَّسُولُ بِهِ . وَالْإِنْذَارُ هُوَ الْإِعْلَامُ بِالْمَخُوفِ وَالْمَخُوفُ هُوَ الْعَذَابُ يُنْزِلُ بِمَنْ عَصَى أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ . فَقَدْ أَعْلَمَ كُلَّ مَنْ وَصَلَ إلَيْهِ الْقُرْآنَ أَنَّهُ إنْ لَمْ يُطِعْهُ وَإِلَّا عَذَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَنَّهُ إنْ أَطَاعَهُ أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَهُوَ قَدْ مَاتَ فَإِنَّمَا طَاعَتُهُ بِاتِّبَاعِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَحَرَّمَهُ وَكَذَلِكَ مَا أَوْجَبَهُ الرَّسُولُ وَحَرَّمَهُ بِسُنَّتِهِ . فَإِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَيَّنَ وُجُوبَ طَاعَتِهِ وَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَقَالَ لِأَزْوَاجِ نَبِيِّهِ ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

فَصْلٌ :

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ هُوَ سُبْحَانَهُ لَمَّا ذَكَرَ قَوْلَهُ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ دَخَلَ فِي ذَلِكَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَالْبَهَائِمِ وَهَدَاهُمْ إلَيْهَا فَهَدَى مَنْ يَأْتِي بِهَا إلَيْهِمْ . وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إنْعَامِهِ عَلَى عِبَادِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَقُولُ :

إِنِّي وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ لَفِي نَبَأٍ عَظِيمٍ أَخْلُقُ وَيَعْبُدُونَ غَيْرِي وَأَرْزُقُ وَيَشْكُرُونَ سِوَايَ ﴾ وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ رُوِيَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ تَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ وَشُكْرَ رَبِّكُمْ التَّكْذِيبَ بِإِنْعَامِ اللَّهِ وَإِضَافَةِ الرِّزْقِ إلَى غَيْرِهِ كَالْأَنْوَاءِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْبَحَ مِنْ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ قَالُوا : هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ بَرَكَةٍ إلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْ النَّاسِ بِهَا كَافِرِينَ يُنَزِّلُ اللَّهُ الْغَيْثَ فَيَقُولُونَ : الْكَوْكَبُ كَذَا وَكَذَا وَفِي رِوَايَةٍ بِكَوْكَبِ كَذَا وَكَذَا ﴾ . وَرَوَى ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي تَفْسِيرِهِ : ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ يَعْنِي الصَّائِغَ ثَنَا سَعِيدٌ هُوَ ابْنُ مَنْصُورٍ ثَنَا هشيم عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ " وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ " ،

يَعْنِي الْأَنْوَاءَ . وَمَا مُطِرَ قَوْمٌ إلَّا أَصْبَحَ بَعْضُهُمْ كَافِرًا وَكَانُوا يَقُولُونَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قَالَ : تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ تَكْذِيبًا وَشُكْرًا لِغَيْرِهِ .

لَكِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ خَصَّ بِهِ إخْرَاجَ الْمَرْعَى وَهُوَ مَا تَرْعَاهُ الدَّوَابُّ وَذَكَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى . وَهَذَا فِيهِ ذِكْرُ أَقْوَاتِ الْبَهَائِمِ لَكِنَّ أَقْوَاتَ الْآدَمِيِّينَ أَجَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَدْ دَخَلَتْ هِيَ وَأَقْوَاتُ الْبَهَائِمِ فِي قَوْلِهِ ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ . وَأَيْضًا فَالَّذِي يَصِيرُ غُثَاءً أَحْوَى لَمْ تَقْتَتْ بِهِ الْبَهَائِمُ وَإِنَّمَا تَقْتَاتُ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ . فَهُوَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ خَصَّ هَذَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . إذْ كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تَضَمَّنَتْ أُصُولَ الْإِيمَانِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْإِيمَانَ بِالرُّسُلِ وَالْكُتُبِ الَّتِي جَاءُوا بِهَا وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْمَلَائِكَةِ . وَفِيهَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ وَالْفَاسِدُ الَّذِي يَضُرُّ فِيهَا .

فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْمَرْعَى عَقِبَ مَا ذِكْرِهِ مِنْ الْخَلْقِ وَالْهُدَى لِيُبَيِّنَ مَآلَ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَنَّ الدُّنْيَا هَذَا مَثَلُهَا . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي الْكَهْفِ وَيُونُسَ وَالْحَدِيدِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ وَقَدْ جَعَلَ إِهْلَاكَ الْمُهْلَكِينَ حَصَادًا لَهُمْ فَقَالَ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ فَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ هُوَ مَثَلٌ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَاقِبَةُ الْكُفَّارِ وَمَنْ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي نَعِيمٍ وَزِينَةٍ وَسَعَادَةٍ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى شَقَاءٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . كَالْمَرْعَى الَّذِي جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى .

فَصْلٌ :

قَوْلُهُ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى . سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ فَقَوْلُهُ : إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى كَقَوْلِهِ : إِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَوْلُهُ : إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى وَ " إِنْ " هِيَ الشَّرْطِيَّةُ .

وَحَكَى الماوردي أَنَّهَا بِمَعْنَى " مَا " .

وَهَذِهِ تَكُونُ " مَا " الْمَصْدَرِيَّةُ . وَهِيَ بِمَعْنَى الظَّرْفِ ، أَيْ : ذَكِّرْ مَا نَفَعَتْ ، مَا دَامَتْ تَنْفَعُ . وَمَعْنَاهَا قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِيَّةِ . وَأَمَّا إِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّهَا نَافِيَةٌ فَهَذَا غَلَطٌ بَيِّنٌ . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْفِي نَفْعَ الذِّكْرَى مُطْلَقًا وَهُوَ الْقَائِلُ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . . . (1) .

وَعَنْ . . . (2) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى : إِنْ قَبِلَتْ الذِّكْرَى . وَعَنْ مُقَاتِلٍ : فَذَكِّرْ وَقَدْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى . وَقِيلَ : ذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى وَإِنْ لَمْ تَنْفَعْ . قَالَهُ طَائِفَةٌ ، أَوَّلُهُمْ الْفَرَّاءُ ، وَاتَّبَعَهُ جَمَاعَةٌ ، مِنْهُمْ النَّحَّاسُ ، وَالزَّهْرَاوِيُّ . وَالْوَاحِدِيُّ . والبغوي وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ . قَالُوا : وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ الْحَالَ الثَّانِيَةَ كَقَوْلِهِ : سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَأَرَادَ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ . وَإِنَّمَا قَالُوا هَذَا لِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغُ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَتَذْكِيرُهُمْ سَوَاءٌ آمَنُوا أَوْ كَفَرُوا . فَلَمْ يَكُنْ وُجُوبُ التَّذْكِيرِ مُخْتَصًّا بِمَنْ

(422/812)

تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ . وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ وَأَمْثَالِهِ لَكِنْ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ . وَلِهَذَا كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يُنْكِرُ عَلَى الْفَرَّاءِ وَأَمْثَالِهِ مَا يُنْكِرُهُ وَيَقُولُ : كُنْتُ أَحْسَبُ الْفَرَّاءَ رَجُلًا صَالِحًا حَتَّى رَأَيْتُ كِتَابَهُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ . وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالُوهُ مَدْلُولٌ عَلَيْهِ

بِآيَاتٍ أُخَرَ . وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالاضْطِرَارِ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ مُبَلِّغًا وَمُذَكِّرًا لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ . لَكِنْ لَيْسَ هُوَ مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ . بَلْ مَعْنَى هَذِهِ يُشْبِهُ قَوْلَهُ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ وَقَوْلَهُ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وَقَوْلَهُ : ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ وَقَوْلَهُ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ فَالْقُرْآنُ جَاءَ بِالْعَامِّ وَالْخَاصِّ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

(423/812)

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ التَّعْلِيمَ وَالتَّذْكِيرَ وَالإِنْذَارَ وَالْهُدَى وَنَحْوَ ذَلِكَ لَهُ فَاعِلٌ وَلَهُ قَابِلٌ . فَالْمُعَلِّمُ الْمُذَكِّرُ يُعَلِّمُ غَيْرَهُ ثُمَّ ذَلِكَ الْغَيْرُ قَدْ يَتَعَلَّمُ وَيَتَذَكَّرُ وَقَدْ لَا يَتَعَلَّمُ وَلَا يَتَذَكَّرُ . فَإِنْ تَعَلَّمَ وَتَذَكَّرَ فَقَدْ تَمَّ التَّعْلِيمُ وَالتَّذْكِيرُ وَإِنْ لَمْ يَتَعَلَّمْ وَلَمْ يَتَذَكَّرْ فَقَدْ وُجِدَ أَحَدُ طَرَفَيْهِ وَهُوَ الْفَاعِلُ دُونَ الْمَحَلِّ الْقَابِلِ . فَيُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا : عَلَّمْته فَمَا تَعَلَّمَ وَذَكَّرْته فَمَا تَذَكَّرَ وَأَمَرْته فَمَا أَطَاعَ . وَقَدْ يُقَالُ " مَا عَلَّمْته وَمَا ذَكَّرْته " لِأَنَّهُ لَمْ يُحَصِّلْ تَامًّا وَلَمْ يُحَصِّلْ مَقْصُودَهُ فَيُنْفَى لِانْتِفَاءِ كَمَالِهِ وَتَمَامِهِ . وَانْتِفَاءِ فَائِدَتِهِ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْمُخَاطَبِ السَّامِعِ وَإِنْ كَانَتْ الْفَائِدَةُ حَاصِلَةً لِلْمُتَكَلِّمِ الْقَائِلِ الْمُخَاطِبِ . فَحَيْثُ خُصَّ بِالتَّذْكِيرِ وَالإِنْذَارِ وَنَحْوِهِ الْمُؤْمِنُونَ فَهُمْ

مَخْصُوصُونَ بِالتَّامِّ النَّافِعِ الَّذِي سَعِدُوا بِهِ . وَحَيْثُ عُمِّمَ فَالْجَمِيعُ مُشْتَرِكُونَ فِي الْإِنْذَارِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ سَوَاءٌ قَبِلُوا أَوْ لَمْ يَقْبَلُوا .

(424/812)

وَهَذَا هُوَ الْهُدَى الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ فَالْهُدَى هُنَا هُوَ الْبَيَانُ وَالدَّلَالَةُ وَالْإِرْشَادُ الْعَامُّ الْمُشْتَرَكُ . وَهُوَ كَالْإِنْذَارِ الْعَامِّ وَالتَّذْكِيرِ الْعَامِّ . وَهُنَا قَدْ هَدَى الْمُتَّقِينَ وَغَيْرَهُمْ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فَالْمَطْلُوبُ الْهُدَى الْخَاصُّ

(425/812)

التَّامُّ الَّذِي يَحْصُلُ مَعَهُ الِاهْتِدَاءُ كَقَوْلِهِ : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ . وَكَذَلِكَ الْإِنْذَارُ قَدْ قَالَ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ

عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَقَالَ فِي الْخَاصِّ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ فَهَذَا الْإِنْذَارُ الْخَاصُّ وَهُوَ التَّامُّ النَّافِعُ الَّذِي انْتَفَعَ بِهِ الْمُنْذَرُ . وَالْإِنْذَارُ هُوَ الْإِعْلَامُ بِالْمَخُوفِ فَعَلِمَ الْمَخُوفُ فَخَافَ فَآمَنَ وَأَطَاعَ . وَكَذَلِكَ التَّذْكِيرُ عَامٌّ وَخَاصٌّ . فَالْعَامُّ هُوَ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ وَهَذَا يَحْصُلُ بِإِبْلَاغِهِمْ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ فَذَكَرَ الْعَامَّ وَالْخَاصَّ .

(426/812)

وَالتَّذَكُّرُ هُوَ الذِّكْرُ التَّامُّ الَّذِي يَذْكُرُهُ الْمُذَكَّرُ بِهِ وَيَنْتَفِعُ بِهِ . وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ فَقَدْ أَتَاهُمْ وَقَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ وَلَكِنْ لَمْ يَصْغَوْا إِلَيْهِ بِقُلُوبِهِمْ فَلَمْ يَفْهَمُوهُ أَوْ فَهِمُوهُ فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ وَالْخَاصُّ هُوَ التَّامُّ

النَّافِعُ وَهُوَ الَّذِي حَصَلَ مَعَهُ تَذَكُّرٌ لِمُذَكَّرٍ فَإِنَّ هَذَا ذِكْرَى كَمَا قَالَ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ أَيْ يُجَنَّبُ الذِّكْرَى وَهُوَ إنَّمَا جُنِّبَ الذِّكْرَى الْخَاصَّةَ . وَأَمَّا الْمُشْتَرَكُ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ فَقَدْ ذُكِّرَ هُوَ وَغَيْرُهُ بِذَلِكَ وَقَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وَقَالَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ . وَأَمَّا تَمْثِيلُهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ أَيْ وَتَقِيكُمْ الْبَرْدَ فَعَنْهُ جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ حَرْفُ شَرْطٍ عُلِّقَ بِهِ الْحُكْمُ بِخِلَافِ هَذَا الْمَوْضِعِ . فَإِنَّهُ إذَا عُلِّقَ الْأَمْرُ بِشَرْطٍ وَكَانَ مَأْمُورًا بِهِ فِي حَالِ وُجُودِ الشَّرْطِ كَمَا هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ فِي حَالِ عَدَمِهِ كَانَ ذِكْرُ الشَّرْطِ تَطْوِيلًا لِلْكَلَامِ تَقْلِيلًا لِلْفَائِدَةِ وَإِضْلَالًا لِلسَّامِعِ . وَجُمْهُورُ النَّاسِ عَلَى أَنَّ مَفْهُومَ الشَّرْطِ حُجَّةٌ وَمَنْ نَازَعَ فِيهِ يَقُولُ : سَكَتَ عَنْ غَيْرِ الْمُعَلَّقِ لَا يَقُولُ : إنَّ اللَّفْظَ دَلَّ عَلَى الْمَسْكُوتِ

كَمَا دَلَّ عَلَى الْمَنْطُوقِ . فَهَذَا لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ . الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ عَلَى بَابِهِ وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ ذِكْرُ الْبَرْدِ . وَإِنَّمَا يَقُولُ " إنَّ الْمَعْطُوفَ مَحْذُوفٌ " هُوَ الْفَرَّاءُ وَأَمْثَالُهُ مِمَّنْ أُنْكِرَ عَلَيْهِمْ الْأَئِمَّةُ حَيْثُ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِمُجَرَّدِ ظَنِّهِمْ وَفَهْمِهِمْ لِنَوْعٍ مِنْ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَهُمْ . وَكَثِيرًا لَا يَكُونُ مَا فَسَّرُوا بِهِ مُطَابِقًا . وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذِكْرِ الْبَرْدِ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي

(428/812)

هَذِهِ السُّورَةِ إنْعَامَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَتُسَمَّى " سُورَةُ النِّعَمِ " فَذَكَرَ فِي أَوَّلِهَا أُصُولَ النِّعَمِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا وَلَا تَقُومُ الْحَيَاةُ إلَّا بِهَا وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا تَمَامَ النِّعَمِ . وَكَانَ مَا يَقِي الْبَرْدَ مِنْ أُصُولِ النِّعَمِ فَذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾ . فَالدِّفْءُ مَا يُدْفِئُ وَيَدْفَعُ الْبَرْدَ . وَالْبَرْدُ الشَّدِيدُ يُوجِبُ الْمَوْتَ بِخِلَافِ الْحَرِّ . فَقَدْ مَاتَ خَلْقٌ مِنْ الْبَرْدِ بِخِلَافِ الْحَرِّ فَإِنَّ الْمَوْتَ مِنْهُ غَيْرُ مُعْتَادٍ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ الْبَرْدُ بُؤْسٌ وَالْحَرُّ أَذًى . فَلَمَّا ذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا تَمَامَ النِّعَمِ ذَكَرَ الظِّلَالَ وَمَا يَقِي الْحَرَّ وَذَكَرَ الْأَسْلِحَةَ وَمَا يَقِي الْقَتْلَ فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ . فَذَكَرَ أَنَّهُ يُتِمُّ

نِعْمَتَهُ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ فَقَالَ : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ .

وَفَرْقٌ بَيْنَ الظِّلَالِ وَالْأَكْنَانِ ؛ فَإِنَّ الظِّلَالَ يَكُونُ بِالشَّجَرِ

(429/812)

وَنَحْوِهِ مِمَّا يُظِلُّ وَلَا يُكِنُّ بِخِلَافِ مَا فِي الْجِبَالِ مِنْ الْغِيرَانِ فَإِنَّهُ يُظِلُّ وَيُكِنُّ . فَهَذَا فِي الْأَمْكِنَةِ ثُمَّ قَالَ فِي اللِّبَاسِ : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ فَهَذَا فِي اللِّبَاسِ . وَاللِّبَاسُ وَالْمَسَاكِنُ كِلَاهُمَا تَقِي النَّاسَ مَا يُؤْذِيهِمْ مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ وَعَدُوٍّ وَكِلَاهُمَا تَسْتُرُهُمْ عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ . وَفِي الْبُيُوتِ خَاصَّةً يَسْكُنُونَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ ﴾ . فَلَمَّا ذَكَرَ الْبُيُوتَ الْمَسْكُونَةَ امْتَنَّ بِكَوْنِهِ جَعَلَهَا سَكَنًا يَسْكُنُونَ فِيهَا مِنْ تَعَبِ الْحَرَكَاتِ . وَذَكَرَ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ بُيُوتًا أُخْرَى يَحْمِلُونَهَا مَعَهُمْ وَيَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِهِمْ وَيَوْمَ إقَامَتِهِمْ . فَذَكَرَ الْبُيُوتَ الثَّقِيلَةَ الَّتِي لَا تُحْمَلُ وَالْخَفِيَّةَ الَّتِي تُحْمَلُ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا مَثَّلُوا بِهِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ . فَقَوْلُهُ : ﴿ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ - كَمَا قَالَ مُفَسِّرُو السَّلَفِ وَالْجُمْهُورِ - عَلَى بَابِهَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : تَذْكِرَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَحُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِ .

(430/812)

وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ لَا يَمْنَعُ كَوْنَ الْكَافِرِ يُبَلِّغُ الْقُرْآنَ لِوُجُوهٍ . أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَمْ يَخُصَّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ لَكِنْ قَالَ : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ وَهَذَا مُطْلَقٌ بِتَذْكِيرِ كُلِّ أَحَدٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ لَمْ يَقُلْ " إنْ نَفَعَتْ كُلَّ أَحَدٍ " . بَلْ أَطْلَقَ النَّفْعَ . فَقَدْ أَمَرَ بِالتَّذْكِيرِ إنْ كَانَ يَنْفَعُ . وَالتَّذْكِيرُ الْمُطْلَقُ الْعَامُّ يَنْفَعُ . فَإِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَذَكَّرُ فَيَنْتَفِعُ بِهِ وَالْآخَرُ تَقُومُ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَيَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ عَلَى ذَلِكَ فَيَكُونُ عِبْرَةً لِغَيْرِهِ فَيَحْصُلُ بِتَذْكِيرِهِ نَفْعٌ أَيْضًا . وَلِأَنَّهُ بِتَذْكِيرِهِ تَقُومُ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ فَتَجُوزُ عُقُوبَتُهُ بَعْدَ هَذَا بِالْجِهَادِ وَغَيْرِهِ فَتَحْصُلُ بِالذِّكْرَى مَنْفَعَةٌ . فَكُلُّ تَذْكِيرٍ ذَكَّرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُشْرِكِينَ حَصَلَ بِهِ نَفْعٌ فِي الْجُمْلَةِ وَإِنْ كَانَ النَّفْعُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَبِلُوهُ وَاعْتَبَرُوا بِهِ وَجَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ . فَإِنْ قِيلَ : فَعَلَى هَذَا كُلُّ تَذْكِيرٍ قَدْ حَصَلَ بِهِ نَفْعٌ فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي التَّقْيِيدِ ؟

(431/812)

قِيلَ : بَلْ مِنْهُ مَا لَمْ يَنْفَعْ أَصْلًا وَهُوَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ . وَذَلِكَ كَمَنْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ كَأَبِي لَهَبٍ فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ فَإِنَّهُ لَا يُخَصُّ بِتَذْكِيرٍ بَلْ يُعْرَضُ عَنْهُ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ لَمْ يَصْغَ إلَيْهِ وَلَمْ يَسْتَمِعْ لِقَوْلِهِ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَنْهُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا

أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَهُوَ إِذَا بَلَّغَ قَوْمًا الرِّسَالَةَ فَقَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ امْتَنَعُوا مِنْ سَمَاعِ كَلَامِهِ أَعْرَضَ عَنْهُمْ . فَإِنَّ الذِّكْرَى حِينَئِذٍ لَا تَنْفَعُ أَحَدًا . وَكَذَلِكَ مَنْ أَظْهَرَ أَنَّ الْحُجَّةَ قَامَتْ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يَهْتَدِي فَإِنَّهُ لَا يُكَرِّرُ التَّبْلِيغَ عَلَيْهِ . الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْأَمْرَ بِالتَّذْكِيرِ أَمْرٌ بِالتَّذْكِيرِ التَّامِّ النَّافِعِ كَمَا هُوَ أَمْرٌ بِالتَّذْكِيرِ الْمُشْتَرَكِ . وَهَذَا التَّامُّ النَّافِعُ يَخُصُّ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْتَفِعِينَ . فَهُمْ إِذَا آمَنُوا ذَكَّرَهُمْ بِمَا أُنْزِلَ وَكُلَّمَا أُنْزِلَ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ ذَكَّرَهُمْ بِهِ وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَعَانِيهِ وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَا نَزَلَ قَبْلَ ذَلِكَ . بِخِلَافِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُمْ

(432/812)

حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُذَكِّرُهُمْ كَمَا يُذَكِّرُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا كَانَتْ الْحُجَّةُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْ التَّذْكِرَةِ لَا يَسْمَعُونَ . وَلِهَذَا قَالَ . ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴿ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ ﴿ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ فَأَمَرَهُ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى مَنْ جَاءَهُ يَطْلُبُ أَنْ يَتَزَكَّى وَأَنْ يَتَذَكَّرَ . وَقَالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ إِلَى

قَوْلِهِ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ فَذَكَرَ التَّذَكُّرَ وَالتَّزَكِّي كَمَا ذَكَرَهُمَا هُنَاكَ . وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْبِلَ عَلَى مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ دُونَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّ هَذَا يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرَى دُونَ ذَاكَ . فَيَكُونُ مَأْمُورًا أَنْ يُذَكِّرَ الْمُنْتَفِعِينَ بِالذِّكْرَى تَذْكِيرًا يَخُصُّهُمْ بِهِ غَيْرَ التَّبْلِيغِ الْعَامِّ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ فَسَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ : وَلَا تَجْهَرْ بِهِ فَيَسْمَعَهُ الْمُشْرِكُونَ وَلَا تُخَافِتْ

(433/812)

بِهِ عَنْ أَصْحَابِك ﴾ . فَنَهَى عَنْ أَنْ يُسْمِعَهُمْ إسْمَاعًا يَكُونُ ضَرَرُهُ أَعْظَمَ مِنْ نَفْعِهِ . وَهَكَذَا كُلُّ مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَصْلَحَتُهُ رَاجِحَةً عَلَى مَفْسَدَتِهِ وَالْمَصْلَحَةُ هِيَ الْمَنْفَعَةُ وَالْمَفْسَدَةُ هِيَ الْمَضَرَّةُ . فَهُوَ إنَّمَا يُؤْمَرُ بِالتَّذْكِيرِ إذَا كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ رَاجِحَةً وَهُوَ أَنْ تَحْصُلَ بِهِ مَنْفَعَةٌ رَاجِحَةٌ عَلَى الْمَضَرَّةِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي . فَحَيْثُ كَانَ الضَّرَرُ رَاجِحًا فَهُوَ مَنْهِيٌّ عَمَّا يَجْلِبُ ضَرَرًا رَاجِحًا . وَالنَّفْعُ أَعَمُّ فِي قَبُولِ جَمِيعِهِمْ فَقَبُولُ بَعْضِهِمْ نَفْعٌ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ لَمْ يَقْبَلْ نَفْعٌ وَظُهُورُ كَلَامِهِ حَتَّى يُبَلِّغَ الْبَعِيدَ نَفْعٌ وَبَقَاؤُهُ

عِنْدَ مَنْ سَمِعَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ إلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ نَفْعٌ . فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا ذَكَّرَ قَطُّ إلَّا ذِكْرَى نَافِعَةً لَمْ يُذَكِّرْ ذِكْرَى قَطُّ يَكُونُ ضَرَرُهَا رَاجِحًا . وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَصْلَحَتُهُ رَاجِحَةً وَمَنْفَعَتُهُ رَاجِحَةً . وَأَمَّا مَا كَانَتْ مُضَرَّتُهُ رَاجِحَةً فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِهِ . وَأَمَّا جَهْمٌ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ الْجَبْرِيَّةِ فَيَقُولُونَ : إنَّ اللَّهَ قَدْ يَأْمُرُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ أَلْبَتَّةَ بَلْ يَكُونُ ضَرَرًا مَحْضًا إذَا فَعَلَهُ

(434/812)

الْمَأْمُورُ بِهِ وَقَدْ وَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ مِمَّنْ سَلَكَ مَسْلَكَ الْمُتَكَلِّمِينَ - أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ فَنَصَرَ مَذْهَبَ جَهْمٍ وَالْجَبْرِيَّةِ .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ الذِّكْرَى ﴾ يَتَنَاوَلُ التَّذَكُّرَ وَالتَّذْكِيرَ . فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَنَاوَلَ ذَلِكَ تَذْكِيرَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ . وَالَّذِي يَتَجَنَّبُهُ الْأَشْقَى هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ مَنْ يَخْشَى وَهُوَ التَّذَكُّرُ . فَضَمِيرُ الذِّكْرَى هُنَا يَتَنَاوَلُ التَّذَكُّرَ وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ التَّذْكِيرِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ لَمْ يَتَجَنَّبْهُ أَحَدٌ . لَكِنْ قَدْ يُرَادُ بِتَجَنُّبِهَا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَمِعْ إلَيْهَا وَلَمْ يُصْغِ كَمَا قَالَ : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ . وَالْحُجَّةُ قَامَتْ بِوُجُودِ الرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ

وَتَمَكُّنِهِمْ مِنْ الِاسْتِمَاعِ وَالتَّدَبُّرِ لَا بِنَفْسِ الِاسْتِمَاعِ . فَفِي الْكُفَّارِ مَنْ تَجَنَّبَ سَمَاعَ الْقُرْآنِ وَاخْتَارَ غَيْرَهُ كَمَا يَتَجَنَّبُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ سَمَاعَ أَقْوَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُونَ إذَا ذُكِّرُوا فَتَذَكَّرُوا كَمَا قَالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ . فَلَمَّا قَالَ : ﴿ فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ فَقَدْ يُرَادُ بِالذِّكْرَى نَفْسُ

(435/812)

تَذْكِيرِهِ تَذَكَّرَ أَوْ لَمْ يَتَذَكَّرْ . وَتَذْكِيرُهُ نَافِعٌ لَا مَحَالَةَ كَمَا تَقَدَّمَ وَهَذَا يُنَاسِبُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ .

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا يُرَادُ بِهِ تَوْبِيخُ مَنْ لَمْ يَتَذَكَّرْ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ فَقَالَ الْفَرَّاءُ وَالنَّحَّاسُ وَالزَّهْرَاوِيُّ : مَعْنَاهُ " وَإِنْ لَمْ تَنْفَعْ " فَاقْتَصَرَ عَلَى الِاسْمِ الْوَاحِدِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الثَّانِي . قَالَ وَقَالَ بَعْضُ الْحُذَّاقِ : قَوْلُهُ : ﴿ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ لِقُرَيْشٍ . أَيْ إنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى فِي هَؤُلَاءِ الطُّغَاةِ الْعُتَاةِ . وَهَذَا كَنَحْوِ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

لَقَدْ أَسْمَعْت لَوْ نَادَيْت حَيًّا * * * وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَهَذَا كُلُّهُ كَمَا تَقُولُ لِرَجُلٍ : " قُلْ لِفُلَانٍ وَاعْذُلْهُ إنْ سَمِعَك " إنَّمَا هُوَ تَوْبِيخٌ لِلْمُشَارِ إلَيْهِ .

قُلْت : هَذَا الْقَائِلُ هُوَ الزمخشري وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ بَعْضُ الْحَقِّ . لَكِنَّهُ أَضْعَفُ مِنْ ذَاكَ الْقَوْلِ

مِنْ وَجْهٍ آخَرَ . فَإِنَّ مَضْمُونَ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِتَذْكِيرِ مَنْ لَا يَقْبَلُ وَلَا يَنْفَعُ بِالذِّكْرَى دُونَ مَنْ يَقْبَلُ كَمَا قَالَ : " إنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى فِي هَؤُلَاءِ الطُّغَاةِ الْعُتَاةِ " وَكَمَا أَنْشَدَهُ فِي الْبَيْتِ .

(436/812)

ثُمَّ الْبَيْتُ الَّذِي أَنْشَدَهُ خَبَرٌ عَنْ شَخْصٍ خَاطَبَ آخَرَ . فَيَقُولُ : لَقَدْ أَسْمَعْت لَوْ كَانَ مَنْ تُنَادِيهِ حَيًّا . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّك لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴾ . فَهَذَا يُنَاسِبُ مَعْنَى الْبَيْتِ وَهُوَ خَبَرٌ خَاصٌّ . وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالْإِنْذَارِ فَهُوَ مُطْلَقٌ عَامٌّ . وَإِنْ كَانَ مَخْصُوصًا فَالْمُؤْمِنُونَ أَحَقُّ بِالتَّخْصِيصِ كَمَا قَالَ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . لَيْسَ الْأَمْرُ مُخْتَصًّا بِمَنْ لَا يَسْمَعُ . كَيْفَ وَقَدْ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ فَهَذَا الَّذِي يَخْشَى هُوَ مِمَّنْ أَمَرَهُ بِتَذْكِيرِهِ وَهُوَ يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرَى . فَكَيْفَ لَا يَكُونُ لِهَذَا الشَّرْطِ فَائِدَةٌ إلَّا ذَمَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ ؟ وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ " قُلْ لِفُلَانٍ وَاعْذِلْهُ إنْ سَمِعَك " فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ يَقُولُهُ النَّاسُ لِمَنْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا

يَقْبَلُ وَلَكِنْ يَرْجُونَ قَبُولَهُ . فَهُمْ يَقْصِدُونَ تَوْبِيخَهُ عَلَى تَقْدِيرِ الرَّدِّ لَا عَلَى تَقْدِيرِ الْقَبُولِ .
فَيَقُولُونَ : " قُلْ لَهُ إنْ كَانَ يَسْمَعُ مِنْك " و " قُلْ لَهُ إنْ كَانَ يَقْبَلُ " و " انْصَحْهُ إنْ

(437/812)

كَانَ يَقْبَلُ النَّصِيحَةَ " وَهُوَ كُلُّهُ مِنْ هَذَا الْبَابِ . فَهُوَ أَمْرٌ بِالنَّصِيحَةِ التَّامَّةِ الْمَقْبُولَةِ إنْ كَانَ يَقْبَلُهَا وَأَمْرٌ بِأَصْلِ النُّصْحِ وَإِنْ رَدَّهُ وَذَمَّ لَهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَذَكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أَمَرَ بِتَذْكِيرِ كُلِّ أَحَدٍ فَإِنْ انْتَفَعَ كَانَ تَذَكُّرُهُ تَامًّا نَافِعًا . وَإِلَّا حَصَلَ أَصْلُ التَّذْكِيرِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ الْحُجَّةُ وَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى ذَمِّهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ التَّوْبِيخَ . مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إنَّمَا قَالَ : ﴿ إنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " ذَكِّرْ مَنْ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَى فَقَطْ " . كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فَهُنَاكَ الْأَمْرُ بِالتَّذْكِيرِ خَاصٌّ . وَقَدْ جَاءَ عَامًّا وَخَاصًّا كَخِطَابِ الْقُرْآنِ بِـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وَهُوَ عَامٌّ وَبِـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خَاصٌّ لِمَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ . فَهُنَاكَ قَالَ : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَهُنَا قَالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ . وَلَمْ يَقُلْ " سَيَنْتَفِعُ مَنْ يَخْشَى " . فَإِنَّ النَّفْعَ الْحَاصِلَ بِالتَّذْكِيرِ أَعَمُّ مِنْ تَذَكُّرِ مَنْ يَخْشَى . فَإِنَّهُ إذَا ذَكَّرَ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَى الْجَمِيعِ

. وَالْأَشْقَى الَّذِي تَجَنَّبَهَا حَصَلَ بِتَذْكِيرِهِ قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَاسْتِحْقَاقُهُ لِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(438/812)

وَفِي ذَلِكَ لِلَّهِ حِكَمٌ وَمَنَافِعُ هِيَ نِعَمٌ عَلَى عِبَادِهِ . فَكُلُّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ : وَلِهَذَا يَقُولُ عَقِبَ تَعْدِيدِ مَا يَذْكُرُهُ : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ مَا ذَكَرَهُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ وَذَكَرَ إهْلَاكَ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ قَالَ : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ فَإِهْلَاكُهُمْ مِنْ آلَاءِ رَبِّنَا . وَآلَاؤُهُ نِعَمُهُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى رَحْمَتِهِ وَعَلَى حِكْمَتِهِ وَعَلَى مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَمِنْ نَفْعِ تَذْكِيرِ الَّذِي يَتَجَنَّبُهَا أَنَّهُ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَاسْتَحَقَّ الْعَذَابَ خَفَّ بِذَلِكَ شَرٌّ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ يُهْلِكُهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِيهِمْ . وَبِهَلَاكِهِ يَنْتَصِرُ الْإِيمَانُ وَيَنْتَشِرُ وَيَعْتَبِرُ بِهِ غَيْرُهُ وَذَلِكَ نَفْعٌ عَظِيمٌ . وَهُوَ أَيْضًا يَتَعَجَّلُ مَوْتَهُ فَيَكُونُ أَقَلَّ لِكُفْرِهِ . فَإِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَبِهِ تَصِلُ الرَّحْمَةُ إلَى كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي يَتَجَنَّبُهَا بِتَجَنُّبِهِ اسْتَحَقَّ هَذَا الْوَعِيدَ الْمَذْكُورَ فَصَارَ ذَلِكَ تَحْذِيرًا لِغَيْرِهِ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ

سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

فَصْلٌ :

(439/812)

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ مَنْ يَخْشَى يَتَذَكَّرُ . وَالْخَشْيَةُ قَدْ تَحْصُلُ عَقِبَ الذِّكْرِ وَقَدْ تَحْصُلُ قَبْلَ الذِّكْرِ وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ يَخْشَى ﴾ مُطْلَقٌ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَشِيَ أَوَّلًا حَتَّى يَذَّكَّرَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . بَلْ هَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ وَهُوَ إنَّمَا خَافَ الْوَعِيدَ بَعْدَ أَنْ سَمِعَهُ لَمْ يَكُنْ وَعِيدٌ قَبْلَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ وَهُوَ إنَّمَا اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُ الرَّسُولُ . وَقَدْ لَا يَكُونُونَ خَافُوهَا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَلَا كَانُوا مُتَّقِينَ قَبْلَ سَمَاعِ

(440/812)

الْقُرْآنِ بَلْ بِهِ صَارُوا مُتَّقِينَ . وَهَذَا كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : مَا يَسْمَعُ هَذَا إلَّا سَعِيدٌ وَإِلَّا مُفْلِحٌ وَإِلَّا مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَمَا يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ إلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَسَنَاتُ وَالنِّعَمُ تَحْصُلُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ . وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وَقَدْ قَالَ فِي نَظِيرِهِ ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ وَإِنَّمَا يَشْقَى بِتَجَنُّبِهَا . وَهَذَا كَمَا يُقَالُ : إنَّمَا يُحَذِّرُ مَنْ يَقْبَلُ وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِالْعِلْمِ مَنْ عَمِلَ بِهِ . فَمَنْ اسْتَمَعَ الْقُرْآنَ فَآمَنَ بِهِ وَعَمِلَ بِهِ صَارَ مِنْ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ هُوَ هُدًى لَهُمْ . وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُتَّقِينَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ اهْتَدَى بِهِ . بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ . فَلَمَّا سَمِعُوهُ صَارَ هُدًى وَشِفَاءٌ ؛ بَلْ إذَا سَمِعَهُ الْكَافِرُ فَآمَنَ بِهِ صَارَ فِي حَقِّهِ هُدًى وَشِفَاءٌ وَكَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ بَعْدَ سَمَاعِهِ .

(441/812)

وَهَذَا كَقَوْلِهِ فِي النَّوْعِ الْمَذْمُومِ : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ وَلَا

يَجِبَ أَنْ يَكُونُوا فَاسِقِينَ قَبْلَ ضَلَالِهِمْ ؛ بَلْ مَنْ سَمِعَهُ فَكَذَّبَ بِهِ صَارَ فَاسِقًا وَضَلَّ . وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَغَيْرُهُ أَدْخَلُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ كَالْخَوَارِجِ . وَكَانَ سَعْدٌ يَقُولُ : هُمْ مِنْ ﴿ الْفَاسِقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ عَلِيٌّ وَسَعْدٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ الصَّحَابَةِ يُكَفِّرُونَهُمْ . وَسَعْدٌ أَدْخَلَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ وَهُمْ ضَلُّوا بِهِ بِسَبَبِ تَحْرِيفِهِمْ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَ اللَّهُ . فَتَمَسَّكُوا بِمُتَشَابِهِهِ وَأَعْرَضُوا عَنْ مُحْكَمِهِ وَعَنْ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تُبَيِّنُ مُرَادَ اللَّهِ بِكِتَابِهِ . فَخَالَفُوا السُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ مَعَ مَا خَالَفُوهُ مِنْ مُحْكَمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلِهَذَا أَدْخَلَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ فِي الَّذِينَ ﴿ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ الْآيَةُ وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ يَخْشَى فَلَا بُدَّ أَنْ

(442/812)

يَتَذَكَّرَ . فَقَدْ يَتَذَكَّرُ فَتَحْصُلُ لَهُ بِالتَّذَكُّرِ خَشْيَةٌ وَقَدْ يَخْشَى فَتَدْعُوهُ الْخَشْيَةُ إلَى التَّذَكُّرِ . وَهَذَا الْمَعْنَى ذَكَرَهُ قَتَادَةُ : فَقَالَ : وَاَللَّهِ مَا خَشِيَ اللَّهَ عَبْدٌ قَطُّ إلَّا ذَكَرَهُ . ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : فَلَا وَاَللَّهِ لَا يَتَنَكَّبُ عَبْدٌ هَذَا الذِّكْرَ زُهْدًا فِيهِ وَبُغْضًا لَهُ وَلِأَهْلِهِ إلَّا

شَقِيًّا بَيْنَ الشَّقَاءِ . وَالْخَشْيَةُ فِي الْقُرْآنِ مُطْلَقَةٌ تَتَنَاوَلُ خَشْيَةَ اللَّهِ وَخَشْيَةَ عَذَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾

فَصْلٌ :

(443/812)

الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ وَقَالَ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ فَعَطَفَ الْخَشْيَةَ عَلَى التَّذَكُّرِ . وَقَالَ : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ وَفِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الْمُؤْمِنِ الْأَعْمَى قَالَ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ وَقَالَ فِي ﴿ حم ﴾ الْمُؤْمِنِ : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ

كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ فَقَالَ ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾

(444/812)

وَالْإِنَابَةُ جَعَلَهَا مَعَ الْخَشْيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ لَا بُدَّ أَنْ يَرْجُوَهُ وَيَطْمَعَ فِي رَحْمَتِهِ فَيُنِيبَ إِلَيْهِ وَيُحِبَّهُ وَيُحِبَّ عِبَادَتَهُ وَطَاعَتَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُنَجِّيهِ مِمَّا يَخْشَاهُ وَيَحْصُلُ بِهِ مَا يُحِبُّهُ . وَالْخَشْيَةُ لَا تَكُونُ مِمَّنْ قَطَعَ بِأَنَّهُ مُعَذَّبٌ ؛ فَإِنَّ هَذَا قَطْعٌ بِالْعَذَابِ يَكُونُ مَعَهُ الْقُنُوطُ وَالْيَأْسُ وَالْإِبْلَاسُ . لَيْسَ هَذَا خَشْيَةً وَخَوْفًا . وَإِنَّمَا يَكُونُ الْخَشْيَةُ وَالْخَوْفُ مَعَ رَجَاءِ السَّلَامَةِ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ فَصَاحِبُ الْخَشْيَةِ لِلَّهِ يُنِيبُ إلَى اللَّهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ وَهَذَا يَكُونُ مَعَ تَمَامِ الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ . فَأَمَّا فِي مُبَادِيهَا فَقَدْ يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ خَوْفٌ مِنْ الْعَذَابِ وَالذَّنْبِ

الَّذِي يَقْتَضِيهِ فَيَشْتَغِلُ بِطَلَبِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامِ وَيُعْرِضُ عَنْ طَلَبِ الرَّحْمَةِ وَالْجَنَّةِ . وَقَدْ يَفْعَلُ مَعَ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ تُوَازِيهَا وَتُقَابِلُهَا فَيَنْجُو بِذَلِكَ مِنْ النَّارِ وَلَا يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ بَلْ يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ . وَإِنْ كَانَ مَآلُهُمْ إلَى الْجَنَّةِ فَلَيْسُوا مِمَّنْ أُزْلِفَتْ لَهُمْ الْجَنَّةُ أَيْ قُرِّبَتْ لَهُمْ إذْ كَانُوا لَمْ يَأْتُوا بِخَشْيَةِ اللَّهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ . وَاسْتَجْمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ فَلَا يُنَاقِضُ هَذِهِ الْآيَةَ . لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ " سَيَخْشَى مَنْ يَذَّكَّرُ " بَلْ ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَشِيَ فَإِنَّهُ يَتَذَكَّرُ إمَّا أَنْ يَتَذَكَّرَ فَيَخْشَى وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ يَتَذَكَّرُ فَلَا يَخْشَى ؛ وَإِمَّا أَنْ تَدْعُوَهُ الْخَشْيَةُ إلَى التَّذَكُّرِ . فَالْخَشْيَةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلتَّذَكُّرِ . فَكُلُّ خَاشٍ مُتَذَكِّرٌ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فَلَا يَخْشَاهُ إلَّا

عَالِمٌ فَكُلُّ خَاشٍ لِلَّهِ فَهُوَ عَالِمٌ . هَذَا مَنْطُوقُ الْآيَةِ . وَقَالَ السَّلَفُ وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ إنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ عَالِمٍ فَإِنَّهُ يَخْشَى اللَّهَ كَمَا دَلَّ غَيْرُهَا عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ . كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : سَأَلْت أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ إنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ فَقَالُوا لِي : "كُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ" . وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْعُلَمَاءِ التَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ الْحَصْرَ فِي مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْ النَّفْيِ إثْبَاتٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ . فَنَفَى الْخَشْيَةَ عَمَّنْ لَيْسَ مِنْ الْعُلَمَاءِ ؛ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ بِهِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ يُخَافُونَهُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَأَثْبَتَهَا لِلْعُلَمَاءِ . فَكُلُّ عَالِمٍ يَخْشَاهُ . فَمَنْ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ فَلَيْسَ مِنْ الْعُلَمَاءِ بَلْ مِنْ الْجُهَّالِ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : "كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا وَكَفَى

(447/812)

بِالِاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا" . وَقَالَ رَجُلٌ لِلشَّعْبِيِّ "أَيُّهَا الْعَالِمُ" فَقَالَ : "إنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ" فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ مَنْ يَخْشَاهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ تَذَكَّرَ . وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَشْقَى يَتَجَنَّبُ الذِّكْرَى فَصَارَ الَّذِي يَخْشَى ضِدَّ الْأَشْقَى .

فَلِذَلِكَ يُقَالُ "كُلُّ مَنْ تَذَكَّرَ خَشِيَ" . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ التَّذَكُّرَ سَبَبُ الْخَشْيَةِ فَإِنْ كَانَ تَامًّا أَوْجَبَ الْخَشْيَةَ ؛ كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ سَبَبُ الْخَشْيَةِ فَإِنْ كَانَ تَامًّا أَوْجَبَ الْخَشْيَةَ .

وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ جَعَلَ ذَلِكَ نَوْعَيْنِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْفَوَائِدِ . أَحَدُهَا : أَنَّهُ إذَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ وَلَيْسَ هُوَ إلَهًا وَرَبًّا كَمَا ذُكِّرَ وَذَكَرَ إحْسَانَ اللَّهِ إلَيْهِ . فَهَذَا التَّذَكُّرُ يَدْعُوهُ إلَى اعْتِرَافِهِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ . فَيَقْتَضِي الْإِيمَانَ وَالشُّكْرَ وَإِنْ قَدَّرَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُهُ . فَإِنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِ الشَّيْءِ حَقًّا وَنَافِعًا يَقْتَضِي طَلَبَهُ وَإِنْ لَمْ يَخَفْ ضَرَرًا

(448/812)

بِعَدَمِهِ . كَمَا يُسَارِعُ الْمُؤْمِنُونَ إلَى فِعْلِ التَّطَوُّعَاتِ وَالنَّوَافِلِ لِمَا فِيهَا مِنْ النَّفْعِ وَإِنْ كَانَ لَا عُقُوبَةَ فِي تَرْكِهَا . كَمَا يُحِبُّ الْإِنْسَانُ عُلُومًا نَافِعَةً وَإِنْ لَمْ يَتَضَرَّرْ بِتَرْكِهَا . وَكَمَا قَدْ يُحِبُّ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيَ الْأُمُورِ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَنْفَعَةِ وَاللَّذَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَإِنْ لَمْ يَخَفْ ضَرَرًا بِتَرْكِهَا . فَهُوَ إذَا تَذَكَّرَ آلَاءَ اللَّهِ وَتَذَكَّرَ إحْسَانَهُ إلَيْهِ فَهَذَا قَدْ يُوجِبُ اعْتِرَافَهُ بِحَقِّ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَإِحْسَانِهِ إلَيْهِ وَيَقْتَضِي شُكْرَهُ لِلَّهِ وَتَسْلِيمَ قَوْمِ مُوسَى إلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَخَفْ عَذَابًا . فَهَذَا قَدْ حَصَلَ بِمُجَرَّدِ التَّذَكُّرِ . قَالَ ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ . وَنَفْسُ الْخَشْيَةِ إذَا ذُكِّرَ لَهُ

مُوسَى مَا تَوَعَّدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّ هَذَا الْخَوْفَ قَدْ يَحْمِلُهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ وَلَوْ لَمْ يَتَذَكَّرْ . وَقَدْ يَحْصُلُ تَذَكُّرٌ بِلَا خَشْيَةٍ وَقَدْ يَحْصُلُ خَشْيَةٌ بِلَا تَذَكُّرٍ وَقَدْ يَحْصُلَانِ جَمِيعًا وَهُوَ الْأَغْلَبُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ . وَأَيْضًا فَذِكْرُ الْإِنْسَانِ يَحْصُلُ بِمَا عَرَفَهُ مِنْ الْعُلُومِ قَبْلَ هَذَا فَيَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ عَقْلِهِ وَخَشْيَتُهُ تَكُونُ بِمَا سَمِعَهُ مِنْ الْوَعِيدِ . فَبِالْأَوَّلِ يَكُونُ مِمَّنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَالثَّانِي يَكُونُ مِمَّنْ لَهُ أُذُنٌ يَسْمَعُ بِهَا

.

(449/812)

وَقَدْ تَحْصُلُ الذِّكْرَى الْمُوجِبَةُ لِلْخَيْرِ بِهَذَا وَبِهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ . الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّ التَّذَكُّرَ سَبَبُ الْخَشْيَةِ وَالْخَشْيَةُ حَاصِلَةٌ عَنْ التَّذَكُّرِ . فَذَكَرَ التَّذَكُّرَ الَّذِي هُوَ السَّبَبُ وَذَكَرَ الْخَشْيَةَ الَّتِي هِيَ النَّتِيجَةُ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا مُسْتَلْزِمًا لِلْآخَرِ كَمَا قَالَ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وَكَمَا قَالَ أَهْلُ النَّارِ : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فَكُلٌّ مِنْ النَّوْعَيْنِ يَحْصُلُ بِهِ النَّجَاةُ لِأَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْآخَرِ . فَالَّذِي يَسْمَعُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ سَمْعًا يَعْقِلُ بِهِ مَا قَالُوهُ يَنْجُو . وَإِلَّا فَالسَّمْعُ بِلَا عَقْلٍ لَا يَنْفَعُهُ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

(450/812)

وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ بِلَا سَمْعٍ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ لَا يَنْفَعُ . وَقَدْ اعْتَرَفَ أَهْلُ النَّارِ بِمَجِيءِ الرُّسُلِ فَقَالُوا : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . وَكَذَلِكَ الْمُعْتَبِرِينَ بِآثَارِ الْمُعَذَّبِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ . إنَّمَا يَنْتَفِعُونَ إذَا سَمِعُوا أَخْبَارَ الْمُعَذَّبِينَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ وَالنَّاجِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوهُمْ فَسَمِعُوا قَوْلَ الرُّسُلِ وَصَدَّقُوهُمْ . الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّ الْخَشْيَةَ أَيْضًا سَبَبٌ لِلتَّذَكُّرِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِلْآخَرِ . فَقَدْ يَخَافُ الْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ وَقَدْ يَتَذَكَّرُ الْأُمُورَ الْمَخُوفَةَ فَيَطْلُبُ النَّجَاةَ مِنْهَا وَيَتَذَكَّرُ مَا يَرْجُو بِهِ النَّجَاةَ مِنْهَا فَيَفْعَلُهُ . فَإِنْ قِيلَ

: مُجَرَّدُ ظَنِّ الْخَوْفِ قَدْ يُوجِبُ الْخَوْفَ فَكَيْفَ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ؟ . قِيلَ : النَّفْسُ لَهَا هَوًى غَالِبٌ قَاهِرٌ لَا يَصْرِفُهُ مُجَرَّدُ الظَّنِّ وَإِنَّمَا يَصْرِفُهُ الْعِلْمُ بِأَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ . وَأَمَّا مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ الْعَذَابَ يَقَعُ وَلَا يُوقِنُ بِذَلِكَ فَلَا يَتْرُكُ هَوَاهُ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ .

(451/812)

وَقَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْكُفَّارِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ وَوَصَفَ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّهُمْ بِالْآخِرَةِ يُوقِنُونَ . وَلِهَذَا أَقْسَمَ الرَّبُّ عَلَى وُقُوعِ الْعَذَابِ وَالسَّاعَةِ . وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُقْسِمَ عَلَى وُقُوعِ السَّاعَةِ وَعَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ فَقَالَ : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ فَهُوَ حَقٌّ كَمَا قَالَ . فَإِنَّ الْمُتَذَكِّرَ إِمَّا أَنْ يَتَذَكَّرَ مَا يَدْعُوا إِلَى الرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالثَّوَابِ كَمَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا يَدْعُوهُ إِلَى السُّؤَالِ فَيُنِيبُ وَإِمَّا

أَنْ يَتَذَكَّرَ مَا يَقْتَضِي الْخَوْفَ وَالْخَشْيَةَ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ الْإِنَابَةِ حِينَئِذٍ لِيَنْجُوَ مِمَّا يَخَافُ . وَلِهَذَا قِيلَ فِي فِرْعَوْنَ ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ فَيُنِيبُ ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾

(452/812)

وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴿ هَلْ لَكَ إلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ فَجَمَعَ مُوسَى : بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ لِتَلَازُمِهِمَا . وَقَالَ فِي حَقِّ الْأَعْمَى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ . فَذَكَرَ الِانْتِفَاعَ بِالذِّكْرَى كَمَا قَالَ ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَالنَّفْعُ نَوْعَانِ : حُصُولُ النِّعْمَةِ وَانْدِفَاعُ النِّقْمَةِ . وَنَفْسُ انْدِفَاعِ النِّقْمَةِ نَفْعٌ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مَعَهُ نَفْعٌ آخَرُ وَنَفْسُ الْمَنَافِعِ الَّتِي يُخَافُ مَعَهَا عَذَابٌ نَفْعٌ وَكِلَاهُمَا نَفْعٌ . فَالنَّفْعُ تَدْخُلُ فِيهِ الثَّلَاثَةُ وَالثَّلَاثَةُ تَحْصُلُ بِالذِّكْرَى كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ . وَأَمَّا ذِكْرُ التَّزَكِّي مَعَ التَّذَكُّرِ فَهُوَ كَمَا ذَكَرَ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ الْخَشْيَةَ مَعَ التَّذَكُّرِ . وَذَلِكَ أَنَّ التَّزَكِّيَ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي تَصِيرُ بِهِ نَفْسُ الْإِنْسَانِ زَكِيَّةً كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ وَقَالَ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾

وَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ : ﴿ هَلْ لَكَ إلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَأَهْدِيَكَ إلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ . وَعَطَفَ عَلَيْهِ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ لِوُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ التَّزَكِّي يَحْصُلُ بِامْتِثَالِ أَمْرِ الرَّسُولِ وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ لَا يَتَذَكَّرُ عُلُومًا عَنْهُ كَمَا قَالَ : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . فَالتِّلَاوَةُ عَلَيْهِمْ وَالتَّزْكِيَةُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعْلِيمُ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ خَاصٌّ بِبَعْضِهِمْ . وَكَذَلِكَ التَّزَكِّي عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ وَأَمَّا التَّذَكُّرُ فَهُوَ مُخْتَصٌّ لِمَنْ لَهُ عُلُومٌ يَذَّكَّرُهَا فَعَرَفَ بِتَذَكُّرِهِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ غَيْرُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ . الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ النَّفْعُ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ وَالتَّزَكِّي أَخَصُّ مِنْ ذَلِكَ . الثَّالِثُ : أَنَّ التَّذَكُّرَ سَبَبُ التَّزَكِّي . فَإِنَّهُ إذَا تَذَكَّرَ خَافَ وَرَجَا فَتَزَكَّى . فَذَكَرَ الْحُكْمَ وَذَكَرَ سَبَبَهُ . ذَكَرَ الْعَمَلَ وَذَكَرَ الْعِلْمَ وَكُلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَلْزِمٌ لِلْآخَرِ .

فَإِنَّهُ لَا يَتَزَكَّى حَتَّى يَتَذَكَّرَ مَا يَسْمَعُهُ مِنْ الرَّسُولِ كَمَا قَالَ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ . فَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ خَشْيَةٍ وَتَذَكُّرٍ . وَهُوَ إذَا تَذَكَّرَ فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ وَقَدْ تَتِمُّ الْمَنْفَعَةُ فَيَتَزَكَّى . وَقَوْلُهُ : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ فِيهِ أَيْضًا نَحْوُ هَذِهِ الْوُجُوهِ . فَإِنَّ الشَّاكِرَ قَدْ يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ وَإِنْ لَمْ يَخَفْ وَالتَّذَكُّرُ قَدْ يَقْتَضِي الْخَشْيَةَ . وَأَيْضًا فَإِنَّ التَّذَكُّرَ يَقْتَضِي الْخَوْفَ مِنْ الْعِقَابِ وَطَلَبَ الثَّوَابِ فَيَعْمَلُ لِلْمُسْتَقْبَلِ وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعَمِ الْمَاضِيَةِ . وَأَيْضًا فَالتَّذَكُّرُ تَذَكُّرُ عُلُومٍ سَابِقَةٍ وَمِنْهَا تَذَكُّرُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فَهُوَ سَبَبٌ لِلشُّكْرِ . تَذَكُّرُ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الشُّكْرَ يَقْتَضِي الْمَزِيدَ مِنْ النِّعَمِ وَالتَّذَكُّرَ قَدْ يَكُونُ لِهَذَا وَقَدْ يَكُونُ خَوْفًا مِنْ الْعَذَابِ . وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ فَالشَّاكِرُ قَدْ يَشْكُرُ الشُّكْرَ الْوَاجِبَ لِئَلَّا يَكُونَ كَفُورًا فَيُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ الشُّكْرِ بِسَلْبِ النِّعْمَةِ وَعُقُوبَاتٍ أُخَرٍ

(455/812)

وَالْمُتَذَكِّرُ قَدْ يَتَذَكَّرُ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَيُطِيعُهُ طَلَبًا لِرَحْمَتِهِ . وَأَيْضًا فَالتَّذَكُّرُ قَدْ يَكُونُ لِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي يَدْفَعُ بِهَا الْعُقَابَ وَالشَّكُورُ يَكُونُ لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ . فَقِيلَ لَهُ : أَتَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَك مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِك وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ ﴾

. ﴿ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَمَنَّيَن أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ : إمَّا مُحْسِنٌ فَيَزْدَادُ إحْسَانًا وَإِمَّا مُسِيءٌ فَلَعَلَّهُ أَنْ يُسْتَعْتَبَ ﴾ . فَالْمُؤْمِنُ دَائِمًا فِي نِعْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ تَقْتَضِي شُكْرًا وَفِي ذَنْبٍ يَحْتَاجُ إلَى اسْتِغْفَارٍ . وَهُوَ فِي سَيِّدِ الِاسْتِغْفَارِ يَقُولُ ﴿ أَبُوءُ لَك بِنِعْمَتِك عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ ﴾ . وَقَدْ عَلِمَ تَحْقِيقَ قَوْلِهِ : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ فَمَا أَصَابَهُ مِنْ الْحَسَنَاتِ هِيَ نِعَمُ اللَّهِ فَتَقْتَضِي شُكْرًا وَمَا أَصَابَهُ مِنْ الْمَصَائِبِ فَبِذُنُوبِهِ تَقْتَضِي تَذَكُّرًا لِذُنُوبِهِ يُوجِبُ تَوْبَةً وَاسْتِغْفَارًا . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ فَيَتُوبَ

(456/812)

وَيَسْتَغْفِرَ مِنْ ذُنُوبِهِ ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ لِرَبِّهِ عَلَى نِعَمِهِ . وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ بِالْعَبْدِ مِنْ نِعْمَةٍ وَكُلُّ مَا يُخْلِفُهُ اللَّهُ فَهُوَ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ . فَكُلَّمَا نَظَرَ إلَى مَا فَعَلَهُ رَبُّهُ شَكَرَ وَإِذَا نَظَرَ إلَى نَفْسِهِ اسْتَغْفَرَ . وَالتَّذَكُّرُ قَدْ يَكُونُ تَذَكُّرَ ذُنُوبِهِ وَعِقَابِ رَبِّهِ . وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ تَذَكُّرُ آلَائِهِ وَنِعَمِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو إلَى الشُّكْرِ . قَالَ تَعَالَى ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَقَدْ أَمَرَ بِذِكْرِ نِعَمِهِ . فَالْمُتَذَكِّرُ يَتَذَكَّرُ نِعَمَ رَبِّهِ وَيَتَذَكَّرُ ذُنُوبَهُ . وَأَيْضًا فَهُوَ ذَكَرَ الشَّكُورِ لِأَنَّهُ مَقْصُودٌ لِنَفْسِهِ فَإِنَّ الشُّكْرَ ثَابِتٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَذَكَرَ التَّذَكُّرَ لِأَنَّهُ أَصْلٌ

لِلاسْتِغْفَارِ وَالشُّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَذَكَرَ الْمَبْدَأَ وَذَكَرَ النِّهَايَةَ . وَهَذَا الْمَعْنَى يَجْمَعُ مَا قِيلَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

وَالتَّذَكُّرُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِتَذَكُّرِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ أَيْ قَامَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ بِالنَّذِيرِ الَّذِي جَاءَكُمْ وَبِتَعْمِيرِكُمْ عُمْرًا يَتَّسِعُ لِلتَّذَكُّرِ .

(457/812)

وَقَدْ أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِذِكْرِ نِعَمِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ . وَالْمَطْلُوبُ بِذِكْرِهَا شُكْرُهَا كَمَا قَالَ : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ خُوطِبَ بِالْقُرْآنِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . فَالرَّسُولُ مِنْ أَنْفَسِ مَنْ خُوطِبَ بِهَذَا الْكَلَامِ إذْ هِيَ كَافُ الْخِطَابِ . وَلَمَّا خُوطِبَ بِهِ أَوَّلًا قُرَيْشٌ ثُمَّ الْعَرَبُ ثُمَّ سَائِرُ الْأُمَمِ صَارَ يَخُصُّ وَيَعُمُّ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَفِيهِ مَا يَخُصُّ قُرَيْشًا كَقَوْلِهِ : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ

(458/812)

وَالصَّيْفِ ﴾ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ . وَفِيهِ مَا يَعُمُّ الْعَرَبَ وَيَخُصُّهُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ وَالْأُمِّيُّونَ يَتَنَاوَلُ الْعَرَبَ قَاطِبَةً دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ . فَهَذَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ دُخُولِ الْعَرَبِ فِيهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ ذَلِكَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا . فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ فِي الدِّينِ دُونَ النَّسَبِ إذْ لَوْ كَانُوا مِنْهُمْ فِي النَّسَبِ لَكَانُوا مِنْ الْأُمِّيِّينَ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ

هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ مُعَلَّقًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارِسَ ﴾ . فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى دُخُولِ هَؤُلَاءِ لَا يَمْنَعُ دُخُولَ غَيْرِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ . وَإِذَا كَانُوا هُمْ مِنْهُمْ فَقَدْ دَخَلُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

(459/812)

الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . فَالْمِنَّةُ عَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ سَابِقِهِمْ وَلَاحِقِهِمْ . وَالرَّسُولُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ إنْسِيٌّ مُؤْمِنٌ . وَهُوَ مِنْ الْعَرَبِ أَخَصُّ لِكَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَاءَ بِلِسَانِهِمْ وَهُوَ مِنْ قُرَيْشٍ أَخَصَّ . وَالْخُصُوصُ يُوجِبُ قِيَامَ الْحُجَّةِ لَا يُوجِبُ الْفَضْلَ إلَّا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى لِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . وَلِهَذَا كَانَ الْأَنْصَارُ أَفْضَلَ مِنْ الطُّلَقَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ رَبِيعَةَ وَلَا مُضَرَ بَلْ مِنْ قَحْطَانَ . وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ هُودٍ لَيْسُوا مِنْ وَلَدِ إبْرَاهِيمَ . وَقِيلَ إنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ لِحَدِيثِ أَسْلَمَ لَمَّا قَالَ ﴿ ارْمُوا فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ﴾ وَأَسْلَمَ مِنْ خُزَاعَةَ وَخُزَاعَةُ مِنْ وَلَدِ إبْرَاهِيمَ . وَفِي هَذَا كَلَامٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ إذْ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْأَنْصَارَ أَبْعَدُ نَسَبًا مِنْ كُلِّ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ مَعَ كَثْرَةِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ . وَمَعَ هَذَا هُمْ أَفْضَلُ مِنْ جُمْهُورِ قُرَيْشٍ إلَّا مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَفِيهِمْ قُرَشِيٌّ وَغَيْرُ قُرَشِيٍّ . وَمَجْمُوعُ السَّابِقِينَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ غَيْرُ مُهَاجِرِي الْحَبَشَةِ .

فَقَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ ﴾ يَخُصُّ قُرَيْشًا وَالْعَرَبَ ثُمَّ يَعُمُّ سَائِرَ الْبَشَرِ لِأَنَّ الْقُرْآنَ خِطَابٌ لَهُمْ . وَالرَّسُولُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالْمَعْنَى لَيْسَ بِمَلَكٍ لَا يُطِيقُونَ الْأَخْذَ مِنْهُ وَلَا جِنِّيٍّ . ثُمَّ يَعُمُّ الْجِنَّ لِأَنَّ الرَّسُولَ أُرْسِلَ إلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْقُرْآنَ خِطَابٌ لِلثَّقَلَيْنِ وَالرَّسُولُ مِنْهُمْ جَمِيعًا كَمَا قَالَ : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ فَجَعَلَ الرُّسُلَ الَّتِي أَرْسَلَهَا مِنْ النَّوْعَيْنِ مَعَ أَنَّهُمْ مِنْ الْإِنْسِ . فَإِنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ مُشْتَرِكُونَ مَعَ كَوْنِهِمْ أَحْيَاءً نَاطِقِينَ مَأْمُورِينَ مَنْهِيِّينَ . فَإِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَنْكِحُونَ وَيَنْسِلُونَ وَيَغْتَذُونَ وَيَنْمُونَ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُمْ . وَهُمْ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عَنْ الْمَلَائِكَةِ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ وَلَا تَنْكِحُ وَلَا تَنْسِلُ . فَصَارَ الرَّسُولُ مِنْ أَنْفُسِ الثَّقَلَيْنِ بِاعْتِبَارِ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمْ الَّذِي تَمَيَّزُوا بِهِ عَنْ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى كَانَ الرَّسُولُ مَبْعُوثًا إلَى الثَّقَلَيْنِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ

أَنْفُسِهِمْ ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ أَمَرَ بِذِكْرِ النِّعَمِ وَشُكْرِهَا . وَقَالَ : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ فَذِكْرُ النِّعَمِ مِنْ الذِّكْرِ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ . وَمِمَّا أُمِرُوا بِهِ تَذْكِرَةُ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ﴾ . وَمِمَّا أُمِرُوا بِهِ تَذْكِرَةُ مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ .

(462/812)

وَمِمَّا أُمِرُوا بِتَذَكُّرِهِ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَلَى الْمَعَادِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ

شَيْئًا ﴾ . وَقَدْ قَالَ لِمُوسَى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ وَهِيَ تَتَنَاوَلُ أَيَّامَ نِعَمِهِ وَأَيَّامَ نِقَمِهِ لِيَشْكُرُوا وَيَعْتَبِرُوا . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ . فَإِنَّ ذِكْرَ النِّعَمِ يَدْعُو إلَى الشُّكْرِ ؛ وَذِكْرَ النِّقَمِ يَقْتَضِي الصَّبْرَ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَإِنْ كَرِهَتْهُ النَّفْسُ . وَعَنْ الْمَحْظُورِ وَإِنْ أَحَبَّتْهُ النَّفْسُ لِئَلَّا يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ غَيْرَهُ مِنْ النِّقْمَةِ .

فَصْلٌ :

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ قَوْلَهُ : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ ﴿ لَا يَصْلَاهَا إلَّا الْأَشْقَى ﴾ ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ . وَهَذَا الصَّلْيُ قَدْ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

(463/812)

الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ قَالَ : بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إمَاتَةً حَتَّى إذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ . فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ . فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ

الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ ﴾ . وَفِي رِوَايَةٍ ذَكَرَهَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فَقَالَ : ذُكِرَ عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ ثَنَا أَبِي ثَنَا سُلَيْمَانَ التيمي عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ فَأَتَى عَلَى هَذِهِ ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا أَهْلُهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ . وَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّ النَّارَ تُمِيتُهُمْ ثُمَّ يَقُومُ الشُّفَعَاءُ فَيُشَفَّعُونَ فِيهِمْ فَيَشْفَعُونَ فَيُؤْتَى بِهِمْ إلَى نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ الْحَيَاةُ أَوْ الْحَيَوَانُ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْغُثَاءُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ﴾ . فَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذَا الصَّلْيَ لِأَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا وَأَنَّ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فَإِنَّهَا

(464/812)

تُصِيبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ يُمِيتُهُمْ فِيهَا حَتَّى يَصِيرُوا فَحْمًا ثُمَّ يُشَفَّعُ فِيهِمْ فَيَخْرُجُونَ وَيُؤْتَى بِهِمْ إلَى نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ . وَهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَفِيضٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ مُتَوَاتِرٌ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا . وَفِيهَا الرَّدُّ عَلَى طَائِفَتَيْنِ . عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ " إنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ يُخَلَّدُونَ فِيهَا " وَهَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ

حُكِيَ عَنْهُ مِنْ غُلَاةِ الْمُرْجِئَةِ " أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَحَدٌ " . فَإِنَّ إخْبَارَهُ بِأَنَّ أَهْلَ التَّوْحِيدِ يَخْرُجُونَ مِنْهَا بَعْدَ دُخُولِهَا تَكْذِيبٌ لِهَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ . وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ " يَجُوزُ أَنْ لَا يُدْخِلَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَحَدًا النَّارَ " كَمَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُرْجِئَةِ الشِّيعَةِ وَمُرْجِئَةِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَهُمْ الْوَاقِفَةُ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي الْحَسَنِ وَغَيْرِهِمْ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَغَيْرِهِ . فَإِنَّ النُّصُوصَ الْمُتَوَاتِرَةَ تَقْتَضِي دُخُولَ بَعْضِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَخُرُوجِهِمْ . وَالْقَوْلُ بِـ " أَنَّ أَحَدًا لَا يَدْخُلُهَا مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ " مَا أَعْلَمُهُ ثَابِتًا عَنْ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ فَأَحْكِيَهُ عَنْهُ . لَكِنْ حُكِيَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ

(465/812)

وَقَالَ : احْتَجَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَقَدْ أُجِيبُوا بِجَوَابَيْنِ . أَحَدِهِمَا : جَوَابُ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ الزَّجَّاجُ قَالُوا . هَذِهِ نَارٌ مَخْصُوصَةٌ . لَكِنَّ قَوْلَهُ بَعْدَهَا ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴾ لَا يَبْقَى فِيهِ كَبِيرُ وَعْدٍ فَإِنَّهُ إذَا جُنِّبَ تِلْكَ النَّارَ جَازَ أَنْ يُدْخَلَ غَيْرَهَا . وَجَوَابُ آخَرِينَ قَالُوا : لَا يَصْلَوْنَهَا صَلْيَ خُلُودٍ . وَهَذَا أَقْرَبُ . وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ الصَّلْيَ هُنَا هُوَ الصَّلْيُ الْمُطْلَقُ وَهُوَ الْمُكْثُ فِيهَا وَالْخُلُودُ عَلَى وَجْهٍ يَصِلُ الْعَذَابُ إلَيْهِمْ دَائِمًا . فَأَمَّا مَنْ دَخَلَ وَخَرَجَ فَإِنَّهُ نَوْعٌ مِنْ الصَّلْيِ لَيْسَ هُوَ الصَّلْيُ الْمُطْلَقُ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ قَدْ مَاتَ فِيهَا وَالنَّارُ لَمْ تَأْكُلْهُ كُلَّهُ فَإِنَّهُ قَدْ

ثَبَتَ أَنَّهَا لَا تَأْكُلُ مَوَاضِعَ السُّجُودِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ فِي أُمُورٍ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

(466/812)

وَفِي حَدِيثِ ﴿ أَبِي ذَرٍّ الطَّوِيلِ قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَ اللَّهُ ؟ قَالَ : مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ : ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً عَلَى شيث وَخَمْسِينَ عَلَى إدْرِيسَ وَعَشْرٍ عَلَى إبْرَاهِيمَ . وَعَشْرٍ عَلَى مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ . وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ . وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ : فَهَلْ عِنْدَنَا شَيْءٌ مِمَّا فِي صُحُفِ إبْرَاهِيمَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ وَقَرَأَ قَوْلَهُ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ﴾ . فَإِنَّ التَّزَكِّي هُوَ التَّطَهُّرُ وَالتَّبَرُّكُ بِتَرْكِ السَّيِّئَاتِ الْمُوجِبِ زَكَاةَ النَّفْسِ كَمَا قَالَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وَلِهَذَا تُفَسَّرُ الزَّكَاةُ تَارَةً بِالنَّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ وَتَارَةً بِالنَّظَافَةِ وَالْإِمَاطَةِ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الزَّكَاةَ تَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ إزَالَةِ الشَّرِّ وَزِيَادَةِ الْخَيْرِ . وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ

وَهُوَ الْإِحْسَانُ . وَذَلِكَ لَا يَنْفَعُ إلَّا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ . وَهُوَ قَوْلُ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ . فَهَذِهِ الثَّلَاثُ قَدْ يُقَالُ تُشْبِهُ الثَّلَاثَ الَّتِي يَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَهَا فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ مِثْلَ قَوْلِهِ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ . وَمِثْلُ قَوْلِهِ :

(467/812)

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ . وَقَدْ يُقَالُ : تُشْبِهُ الثِّنْتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الْآيَةَ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . لَكِنَّ هُنَا التَّزَكِّيَ فِي الْآيَةِ أَعَمُّ مِنْ الْإِنْفَاقِ . فَإِنَّهُ تَرْكُ السَّيِّئَاتِ الَّذِي أَصْلُهُ بِتَرْكِ الشِّرْكِ . فَأَوَّلُ التَّزَكِّي التَّزَكِّي مِنْ الشِّرْكِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ . وَالتَّزَكِّي مِنْ الْكَبَائِرِ الَّذِي هُوَ تَمَامُ التَّقْوَى كَمَا قَالَ ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ . فَعُلِمَ أَنَّ التَّزْكِيَةَ هُوَ الْإِخْبَارُ بِالتَّقْوَى . وَمِنْهُ التَّزَكِّي بِالطَّهَارَةِ وَبِالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ كَمَا قَالَ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ . و ﴿ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ قَدْ يَعْنِي بِهِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ و " الصَّلَاةَ " :

(468/812)

الْعَمَلَ . فَقَدْ يَذْكُرُ اسْمَ رَبِّهِ مَنْ لَا يُصَلِّي . وَمِنْ الْفُقَهَاءِ مَنْ يَقُولُ : هُوَ ذِكْرُ اسْمِهِ فِي أَوَّلِ الصَّلَاةِ . وَلِهَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ قَدَّمَ التَّزَكِّي فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَكَانَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ إذَا أَدَّوْا صَدَقَةَ الْفِطْرِ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِيدِ يَتَأَوَّلُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ أَظُنُّهُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي حَبِيبٍ يَسْتَحِبُّ أَنْ يَتَصَدَّقَ أَمَامَ كُلِّ صَلَاةٍ لِهَذَا الْمَعْنَى . وَلَمَّا قَدَّمَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّحْرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ وَقَدَّمَ التَّزَكِّي عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ كَانَتْ السُّنَّةُ أَنَّ الصَّدَقَةَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ وَأَنَّ الذَّبْحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فِي عِيدِ النَّحْرِ . وَيُشْبِهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ الصَّوْمُ مِنْ التَّزَكِّي الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ . فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . فَمَقْصُودُ الصَّوْمِ التَّقْوَى وَهُوَ مِنْ مَعْنَى التَّزَكِّي . وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنْ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ ﴾ .

فَالصَّدَقَةُ مِنْ تَمَامِ طهرة الصَّوْمِ . وَكِلَاهُمَا تَزَكٍّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى صَلَاةِ الْعِيدِ . فَجَمَعَتْ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ التَّرْغِيبَ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَهَذِهِ الْأُصُولُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ . وَقَالَ : أَيْضًا ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلَّا مَا سَعَى ﴾ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ وَأَيْضًا فَإِنَّ إبْرَاهِيمَ صَاحِبَ الْمِلَّةِ وَإِمَامُ الْأُمَّةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ وَقَالَ ﴿ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا ﴾ . وَمُوسَى صَاحِبُ الْكِتَابِ وَالْكَلَامِ وَالشَّرِيعَةِ الَّذِي لَمْ يَنْزِلْ مِنْ السَّمَاءِ كِتَابٌ أَهْدَى مِنْهُ وَمِنْ الْقُرْآنِ . وَلِهَذَا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي مَوَاضِعَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ قَالُوا سِحْرَانِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ وَقَوْلِ الْجِنِّ : ﴿ إنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ وَقَوْلِ النَّجَاشِيِّ " إنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ " . وَقِيلَ فِي مُوسَى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وَفِي إبْرَاهِيمَ ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وَأَصْلُ الْخُلَّةِ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالْعِبَادَةُ غَايَةُ الْحُبِّ وَالذُّلِّ . وَمُوسَى صَاحِبُ الْكِتَابِ وَالْكَلَامِ . وَلِهَذَا كَانَ الْكُفَّارُ بِالرُّسُلِ يُنْكِرُونَ حَقِيقَةَ خُلَّةِ إبْرَاهِيمَ وَتَكْلِيمِ مُوسَى . وَلَمَّا نَبَغَتْ الْبِدَعُ الشِّرْكِيَّةُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْكَرَ ذَلِكَ الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ

فَقَتَلَهُ الْمُسْلِمُونَ لَمَّا ضَحَّى بِهِ أَمِيرُ الْعِرَاقِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ : " ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ إنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا " . ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ . وَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . وَهُمْ فِي الْأَصْلِ صِنْفَانِ - أُمِّيُّونَ وَكِتَابِيُّونَ . وَالْأُمِّيُّونَ كَانُوا يَنْتَسِبُونَ إلَى إبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُمْ ذُرِّيَّتُهُ وَخُزَّانُ بَيْتِهِ وَعَلَى بَقَايَا مِنْ شَعَائِرِهِ . وَالْكِتَابِيُّونَ أَصْلُهُمْ كِتَابُ مُوسَى . وَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ قَدْ بَدَّلَتْ وَغَيَّرَتْ . فَأَقَامَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ بَعْدَ اعْوِجَاجِهَا وَجَاءَ بِالْكِتَابِ الْمُهَيْمِنِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ الْمُبَيِّنِ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ وَمَا حُرِّفَ وَكُتِمَ مِنْ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ .

فَصْلٌ :

وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى قَامَا بِأَصْلِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَمُخَاصِمَةُ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ . فَأَمَّا إبْرَاهِيمُ فَقَالَ اللَّهُ فِيهِ ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِي حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ

أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وَذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُ إِرَادَةَ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِأَخْذِ أَرْبَعَةٍ مِنْ الطَّيْرِ . فَقَرَّرَ أَمْرُ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَهُمَا اللَّذَانِ يَكْفُرُ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا كُفَّارُ الصَّابِئَةِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ بُعِثَ الْخَلِيلُ إلَى نَوْعِهِمْ . فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ وُجُودَ الصَّانِعِ ؛ وَفِيهِمْ مَنْ يُنْكِرُ صِفَاتِهِ ؛ وَفِيهِمْ مَنْ يُنْكِرُ خَلْقَهُ وَيَقُولُ : إنَّهُ عِلَّةٌ ؛ وَأَكْثَرُهُمْ يُنْكِرُونَ إحْيَاءَ الْمَوْتَى . وَهُمْ مُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ الْعُلْوِيَّةَ وَالْأَصْنَامَ السُّفْلِيَّةَ . وَالْخَلِيلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَدَّ هَذَا جَمِيعَهُ . فَقَرَّرَ رُبُوبِيَّةَ رَبِّهِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَقَرَّرَ الْإِخْلَاصَ لَهُ وَنَفَى الشِّرْكَ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا . وَقَرَّرَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَاسْتَقَرَّ فِي مِلَّتِهِ مَحَبَّتُهُ لِلَّهِ وَمَحَبَّةُ اللَّهِ لَهُ بِاتِّخَاذِ اللَّهِ لَهُ خَلِيلًا .

(473/812)

ثُمَّ إنَّهُ نَاظَرَ الْمُشْرِكِينَ بِعِبَادَةِ مَنْ لَا يُوصَفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ . فَقَالَ لِأَبِيهِ : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ . وَقَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ﴿ أَوْ

يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ إلى قَوْلِهِ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ إلى آخِرِ الْكَلَامِ . وَقَالَ : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فَإِبْرَاهِيمُ دَعَا إِلَى الْفِطْرَةِ . وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْعَامُّ وَالْإِقْرَارُ بِصِفَاتِ الْكَلِمَاتِ لِلَّهِ وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ عَبَدَ مَنْ سَلَبَهَا . فَلَمَّا عَابَهُمْ بِعِبَادَةِ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

(474/812)

وَلَمَّا عَابَهُمْ بِعِبَادَةِ مَنْ لَا يُغْنِي شَيْئًا فَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ قَالَ : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَحْتَاجُ إِلَى جَلْبِ

الْمَنْفَعَةِ لِقَلْبِهِ وَجِسْمِهِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ عَنْ ذَلِكَ . وَهُوَ أَمْرُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا . فَمَنْفَعَةُ الدِّينِ الْهُدَى ؛ وَمَضَرَّتُهُ الذُّنُوبُ وَدَفْعُ الْمَضَرَّةِ الْمَغْفِرَةُ . وَلِهَذَا جَمَعَ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ . وَمَنْفَعَةُ الْجَسَدِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ ؛ وَمَضَرَّتُهُ الْمَرَضُ وَدَفْعُ الْمَضَرَّةِ الشِّفَاءُ . وَأَخْبَرَ أَنَّ رَبَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَأَنَّهُ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . وَإِحْيَاؤُهُ فَوْقَ كَمَالِهِ بِأَنَّهُ حَيٌّ . وَأَنَّهُ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْتَضِي إمْسَاكَهَا وَقِيَامَهَا الَّذِي هُوَ فَوْقَ كَمَالِهِ بِأَنَّهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ عَنْ النُّجُومِ ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ فَإِنَّ الْآفِلَ هُوَ الَّذِي يَغِيبُ تَارَةً وَيَظْهَرُ تَارَةً فَلَيْسَ هُوَ قَائِمًا عَلَى

(475/812)

عَبْدِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ . وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا سِوَى اللَّهِ مِنْ الْكَوَاكِبِ وَنَحْوِهَا وَيَتَّخِذُونَهَا أَوْثَانًا يَكُونُونَ فِي وَقْتِ الْبُزُوغِ طَالِبِينَ سَائِلِينَ وَفِي وَقْتِ الْأُفُولِ لَا يَحْصُلُ مَقْصُودُهُمْ وَلَا مُرَادُهُمْ . فَلَا يَجْتَلِبُونَ مَنْفَعَةً وَلَا يَدْفَعُونَ مَضَرَّةً وَلَا يَنْتَفِعُونَ إذْ ذَاكَ بِعِبَادَةِ . فَبَيَّنَ مَا فِي الْآلِهَةِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ النَّقْصِ وَبَيَّنَ مَا لِرَبِّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ الْكَمَالِ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الْفَاطِرُ الْعَلِيمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْهَادِي الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ . وَسَمَّى رَبَّهُ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى الدَّالَّةِ عَلَى نُعُوتِ كَمَالِهِ فَقَالَ : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ فَوَصَفَ رَبَّهُ بِالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ الْمُنَاسِبِ لِمَعْنَى الْخُلَّةِ كَمَا قَالَ ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاصَمَ فِرْعَوْنَ الَّذِي جَحَدَ الرُّبُوبِيَّةَ وَالرِّسَالَةَ وَقَالَ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ . وَقِصَّتُهُ فِي الْقُرْآنِ مُثَنَّاةٌ مَبْسُوطَةٌ لَا يَحْتَاجُ هَذَا الْمَوْضِعُ إلَى بَسْطِهَا . وَقَرَّرَ أَيْضًا أَمْرَ الرُّبُوبِيَّةِ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ لِلَّهِ وَنَفَى الشِّرْكَ .

(476/812)

وَلَمَّا اتَّخَذَ قَوْمُهُ الْعِجْلَ بَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ صِفَاتِ النَّقْصِ الَّتِي تُنَافِي الْأُلُوهِيَّةَ فَقَالَ : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ﴾ فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ صَوَّتَ صَوْتًا هُوَ خُوَارٌ فَإِنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَأَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ فِي الشِّرْكِ عُمُومًا وَخُصُوصًا فَقَالَ : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا

يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾

(477/812)

وَاسْتَفْهَمَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارٍ وَجُحُودٍ لِطُرُقِ الْإِدْرَاكِ التَّامِّ وَهُوَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ . وَالْعَمَلُ التَّامُّ وَهُوَ الْيَدُ وَالرِّجْلُ كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَخْبَرَ فِيمَا رَوَى عَنْهُ رَسُولُهُ عَنْ أَحْبَابِهِ الْمُتَقَرِّبِينَ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ فَقَالَ : ﴿ وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ . فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ﴾

.

فَصْلٌ :

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُتَّبِعُونَ لِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ يُثْبِتُونَ مَا أَثْبَتُوهُ مِنْ تَكْلِيمِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَسَائِرَ مَا لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى

وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى . وَيُنَزِّهُونَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْأَجْسَادِ الَّتِي لَا حَيَاةَ فِيهَا . فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ فَوَصَفَ الْجَسَدَ بِعَدَمِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ الْمَوْتَانِ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَنْطِقُ وَلَا يُغْنِي شَيْئًا . وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَةِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ فَإِنَّهُمْ سَلَكُوا

(478/812)

سَبِيلَ أَعْدَاءِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٍ الَّذِينَ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا وَاتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا . وَقَدْ كَلَّمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَاتَّخَذَهُ خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَرَفَعَهُ فَوْقَ ذَلِكَ دَرَجَاتٍ : وَتَابَعُوا فِرْعَوْنَ الَّذِي قَالَ : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إلَى إلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ وَتَابَعُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ وَاتَّبَعُوا الَّذِينَ أَلْحَدُوا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ . فَهُمْ يَجْحَدُونَ حَقِيقَةَ كَوْنِهِ الرَّحْمَنَ أَوْ أَنَّهُ يَرْحَمُ أَوْ يُكَلِّمُ أَوْ يَوَدُّ عِبَادَهُ أَوْ يَوَدُّونَهُ أَوْ أَنَّهُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ أَثْبَتَ لَهُ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَقَدْ شَبَّهَهُ بِالْأَجْسَامِ الْحِسِّيَّةِ وَهِيَ الْحَيَوَانُ كَالْإِنْسَانِ وَأَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ . فَهُمْ قَدْ

شَبَّهُوهُ بِالْأَجْسَادِ الْمَيِّتَةِ فِيمَا هُوَ نَقْصٌ وَعَيْبٌ وَتَشْبِيهٌ دَلَّتْ الْكُتُبُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْفِطْرَةُ الْعَقْلِيَّةُ أَنَّهُ عَيْبٌ وَنَقْصٌ بَلْ يَقْتَضِي عَدَمُهُ . وَأَمَّا أَهْلُ الْإِثْبَاتِ فَلَوْ فُرِضَ أَنَّ فِيمَا قَالُوهُ تَشْبِيهًا مَا فَلَيْسَ هُوَ تَشْبِيهًا بِمَنْقُوصٍ مَعِيبٍ وَلَا هُوَ فِي صِفَةِ نَقْصٍ أَوْ عَيْبٍ بَلْ فِي غَايَةِ مَا يُعْلَمُ أَنَّهُ الْكَمَالُ وَأَنَّ لِصَاحِبِهِ الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ .

(479/812)

فَصَارَ أَهْلُ السُّنَّةِ يَصِفُونَهُ بِالْوُجُودِ وَكَمَالِ الْوُجُودِ وَأُولَئِكَ يَصِفُونَهُ بِعَدَمِ كَمَالِ الْوُجُودِ أَوْ بِعَدَمِ الْوُجُودِ بِالْكُلِّيَّةِ . فَهُمْ مُمَثِّلَةٌ مُعَطِّلَةٌ مُمَثِّلَةٌ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ مُعَطِّلَةٌ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ . أَمَّا فِي الْعَقْلِ فَلِأَنَّهُمْ مَثَّلُوهُ بِالْعَدَمِ وَالْأَجْسَادِ الْمَوْتَانِ . وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَإِنَّهُمْ مَثَّلُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ صِفَاتِهِ بِنَفْسِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَإِنْ كَانَ هَذَا التَّمْثِيلُ الَّذِي ادَّعَوْا أَنَّهُ مَعْنَى النُّصُوصِ أَقَلَّ تَمْثِيلًا مِنْ تَمْثِيلِهِمْ الَّذِي ادَّعَوْهُ . وَأَمَّا تَعْطِيلُهُمْ فِي الْعَقْلِ فَإِنَّهُ تَعْطِيلٌ لِلصِّفَاتِ تَعْطِيلٌ مُسْتَلْزِمٌ لِعَدَمِ الذَّاتِ . وَلِهَذَا أَلْجَأَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إلَى نَفْيِ الذَّاتِ بِالْكُلِّيَّةِ وَصَارُوا عَلَى طَرِيقَةِ فِرْعَوْنَ لَا يُقِرُّونَ إلَّا بِوُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يُنَافِقُونَ فَيُقِرُّونَ بِأَلْفَاظٍ لَا مَعْنَى لَهَا أَوْ بِعِبَادَاتٍ لَا مَعْبُودَ لَهَا . وَأَمَّا تَعْطِيلُهُمْ لِلشَّرْعِ فَإِنَّهُمْ جَحَدُوا مَا فِي

كُتُبِ اللَّهِ مِنْ الْمَعَانِي وَحَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ أَوْ قَالُوا : نَحْنُ كَالْأُمِّيِّينَ لَا نَعْلَمُ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ أَوْ : قُلُوبُنَا غُلْفٌ . وَقَالُوا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ نَظِيرَ مَا قَالَتْهُ الْكُفَّارُ

(480/812)

﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِك حِجَابٌ ﴾ و (﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ . وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : لَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا يَقُولُ الرَّسُولُ وَقَالُوا كَمَا قَالَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِلرَّسُولِ فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ . وَصَارُوا كَالَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَك وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّك فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ . فَتَدَبَّرْ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ مِنْ نَفْيِ فِقْهِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ تَجِدْ بَعْضَ ذَلِكَ فِيمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِهِ وَاتَّبَعَ مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ وَمَا تُوحِيهِ إلَى أَوْلِيَائِهَا وَاَللَّهُ يَهْدِينَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْجَهْمِيَّةُ الْمُعَطِّلَةُ الْمُشَابِهُونَ لِلْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ الصَّابِئَةِ وَغَيْرِهِمْ الْجَاحِدَةِ لِوُجُودِ الصَّانِعِ أَوْ صِفَاتِهِ تَرْمِي أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَارَةً بِأَنَّهُمْ يُشْبِهُونَ الْيَهُودَ لِمَا فِي التَّوْرَاةِ

وَكُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ الصِّفَاتِ وَلِمَا ابْتَدَعَهُ بَعْضُ الْيَهُودِ مِنْ التَّشْبِيهِ الْمَنْفِيِّ عَنْ اللَّهِ ؛ وَتَارَةً بِأَنَّهُمْ يُشْبِهُونَ النَّصَارَى لِمَا أَثْبَتَتْهُ النَّصَارَى مِنْ صِفَةِ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَلِمَا ابْتَدَعَتْهُ مِنْ أَنَّ الْأَقَانِيمَ جَوَاهِرُ وَأَنَّ أُقْنُومَ الْكَلِمَةِ اتَّحَدَ بِالنَّاسُوتِ . وَهَذَا الرَّمْيُ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِهِمْ قَبْلَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَفِي زَمَنِهِ وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِهِ وَكَلَامِ أَصْحَابِهِ حِكَايَةُ ذَلِكَ . ذَكَرَهُ فِي كِتَابِ " الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالزَّنَادِقَةِ " وَأَنَّهُمْ قَالُوا " إذَا أَثْبَتُّمْ الصِّفَاتِ فَقَدْ قُلْتُمْ بِقَوْلِ النَّصَارَى " وَرَدَّ ذَلِكَ . وَفِي " مَسَائِلِهِ " : أَنَّ طَائِفَةً قَالُوا لَهُ : مَنْ قَالَ " الْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ أَوْ هُوَ فِي الصُّدُورِ " فَقَدْ قَالَ بِقَوْلِ النَّصَارَى . وَهَكَذَا الْجَهْمِيَّةُ تَرْمِي الصفاتية بِأَنَّهُمْ يَهُودُ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ مُتَقَدِّمِي الْجَهْمِيَّةِ وَمُتَأَخِّرِيهِمْ مِثْلُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِي الجهمي الْجَبْرِيُّ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَخْرُجُ إلَى حَقِيقَةِ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَوْثَانِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ . وَصَنَّفَ فِي ذَلِكَ كِتَابَهُ الْمَعْرُوفَ فِي السِّحْرِ وَعِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَوْثَانِ . مَعَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يُحَرِّمُ ذَلِكَ وَيَنْهَى عَنْهُ مُتَّبِعًا لِلْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكُتُبِ وَالرِّسَالَةِ . وَيَنْصُرُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَمَا يُشَكِّكُ أَهْلَهُ وَيُشَكِّكُ غَيْرَ

أَهْلِهِ فِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ . وَقَدْ يَنْصُرُ غَيْرَ أَهْلِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ . فَإِنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّشْكِيكُ وَالْحَيْرَةُ أَكْثَرُ مِنْ الْجَزْمِ وَالْبَيَانِ . وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ أَجْوِبَةٌ . أَحَدُهَا : أَنَّ مُشَابَهَةَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَيْسَتْ مَحْذُورًا إلَّا فِيمَا خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَنُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةَ وَالْإِجْمَاعَ . وَإِلَّا فَمَعْلُومٌ أَنَّ دِينَ الْمُرْسَلِينَ وَاحِدٌ وَأَنَّ التَّوْرَاةَ وَالْقُرْآنَ خَرَجَا مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ . وَقَدْ اسْتَشْهَدَ اللَّهُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ حَتَّى قَالَ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ . فَإِذَا أَشْهَدَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَلَى مِثْلِ قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ هَذَا حُجَّةً وَدَلِيلًا وَهُوَ مِنْ حِكْمَةِ إقْرَارِهِمْ بِالْجِزْيَةِ . فَيَفْرَحُ بِمُوَافَقَةِ الْمَقَالَةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَا يَأْثُرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ عَنْ الْمُرْسَلِينَ قَبْلَهُمْ . وَيَكُونُ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ حُجَجِ الرِّسَالَةِ وَمِنْ الدَّلِيلِ عَلَى اتِّفَاقِ الرُّسُلِ . الثَّانِي : أَنَّ الْمُشَابَهَةَ الَّتِي يَدْعُونَهَا لَيْسَتْ صَحِيحَةً . فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ

لَا يُوَافِقُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِيمَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الدِّينِ وَالِاعْتِقَادِ . وَلِهَذَا قُلْت فِي بَيَانِ فَسَادِ قَوْلِ ابْنِ الْخَطِيبِ : إنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَقَالَةَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ مِنْ الْحَنْبَلِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمْ يَفْهَمْ

مَقَالَةَ النَّصَارَى . وَأَوْضَحْت ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ كَمَا بَيَّنَ الْإِمَامُ أَحْمَد الْفَرْقَ بَيْنَ مَقَالَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَيْنَ مَقَالَةِ النَّصَارَى الْمُبْتَدِعَةِ وَكَمَا يُبَيِّنُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَقَالَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَمَقَالَةِ الْيَهُودِ الْمُبْتَدِعَةِ . الثَّالِثُ : أَنَّهُ إذَا فُرِضَ مُشَابَهَةُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ لِلْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى فَأَهْلُ النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ مُشَابِهُونَ لِلْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ النَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ . وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ مُشَابَهَةَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ خَيْرٌ مِنْ مُشَابَهَةِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ الْكُفَّارِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالنُّبُوَّاتِ وَنَحْوِهِمْ . وَلِهَذَا قِيلَ : الْمُشَبِّهُ أَعْشَى وَالْمُعَطِّلُ أَعْمَى . وَلِهَذَا فَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِانْتِصَارِ النَّصَارَى عَلَى الْمَجُوسِ كَمَا فَرِحَ الْمُشْرِكُونَ بِانْتِصَارِ الْمَجُوسِ عَلَى النَّصَارَى . فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ نَافِعٌ فِي مَوَاضِعَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَلِهَذَا كَانَ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَهُمْ يَجْعَلُونَ الصفاتية نَصَارَى الْأُمَّةِ وَيَمِيلُونَ إلَى الْيَهُودِ لِمُوَافَقَتِهِمْ

(484/812)

لَهُمْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ أَكْثَرَ مِنْ النَّصَارَى كَمَا يَمِيلُ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ إلَى النَّصَارَى أَكْثَرَ مِنْ الْيَهُودِ . فَإِذَا كَانَ الصفاتية إلَى النَّصَارَى أَقْرَبَ وَضِدُّهُمْ إلَى الْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ أَقْرَبَ تَبَيَّنَ أَنَّ الصفاتية أَتْبَاعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ فَرِحُوا بِانْتِصَارِ

الرُّومِ النَّصَارَى عَلَى فَارِسَ الْمَجُوسِ وَأَنَّ الْمُعَطِّلَةَ هُمْ إلَى الْمُشْرِكِينَ أَقْرَبُ الَّذِينَ فَرِحُوا بِانْتِصَارِ الْمَجُوسِ عَلَى النَّصَارَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 82 . 216 ﴾

(485/812)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/813)

الجزء الثالث عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الغاشية)

(4/813)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الغاشية)

(5/813)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الغاشية

مقصودها شرح ما في آخر " سبح " من تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث بإثبات الدار الآخرة التي الغاشية مبدؤها ، وذكر ما فيها للأتقى والأشقى ، والدلالة على القدرة عليها ، وأدل ما فيها على هذا المقصود الغاشية – نعوذ بالله من القلب الغاشي والبصيرة الغاشية ، بئلا تكون الغاشية علينا بسوء الأعمال ناشية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 404 ﴾

(6/813)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . هل أتاك حديث الغاشية)

السّورة مكّيّة .

وآياتها ستّ وعشرون .

وكلماتها اثنتان وتسعون .

وحروفها ثلاثمائة وأَحد وثمانون .

فواصل آياتها (عمرته) .

سمّيت سورة الغاشية ؛ لذكرها .

معظم مقصود السّورة : التخويف بظهور القيامة ، وبيانُ حال المستوجبين للعقوبة ، وذكر حال المستحِقّين للمُثُوبة (وإقامة الحُجة على وجود الحقّ) ووعظ الرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – للأُمّة ، على سبيل الشَّفَقَة ، وأَن المرجع إلى الله تعالى فى العاقبة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .

المتشابه :

قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ وبعده : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل هم الكفَّار ، والثَّانى المؤمنون .

وكان القياس أَن يكون الثانى بالواو للعطف ؛ لكنَّه جاءَ على وفاق الجُمل قبلها ، وبعدها ، وليس معهنَّ واو العطف البتَّة .

قوله : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ ﴾ كلّها قد سبق .

﴿ وَإِلَى السَّمَآءِ ﴾ و ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ ﴾ ليس من الجُمل ، بل هى إتباع لما قبلها .

المنسوخ : فيها آية واحدة م ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ن آية السّيف .

فضل السّورة

فيه أَحاديث ضعيفة .

منها مَنْ قرأَها حاسبه الله حساباً يسيراً ، وحديث عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَها كَتَب الله له بعدد آيات القرآن حسنات ، وله بكل آية قرأَها بيتٌ من الزعفران فى وسط الجنَّة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 516.517 ﴾

(7/813)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الغاشية

سميت في المصاحف والتفاسير (سورة الغاشية) . وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من (جامعه) لوقوع لفظ (الغاشية) في أولها .

وثبتت في السنة تسميتها (هل أتاك حديث الغاشية) ، ففي (الموطأ) أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير (بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : (هل أتاك حديث الغاشية ((الغاشية : 1) . وهذا ظاهر في التسمية لأن السائل سأل

عما يقرأ مع سورة الجمعة فالمسؤول عنه السورة الثانية ، وبذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) .

وربما سميت (سورة هل أتاك) بدون كلمة) حديث الغاشية (، وبذلك عنونها ابن عطية في (تفسيره) وهو اختصار .

وهي مكية بالاتفاق .

وهي معدودة السابعة والستين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف .

وآياتها ست وعشرون .

أغراضها

اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهةٍ حالتُهم ، ومن ثواب قوم ناعمةٍ حالتهم وعلى وجه الإِجمال المرهِّب أو المرغب .

والإِيماء إلى ما يبين ذلك الإِجمال كله بالإِنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة

مخلوقاتٍ من خلق الله وهي نصب أعينهم ، على تفرده بالإِلاهية فيعلم السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون .

وعلى إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقاً جديداً بعد الموت يوم البعث .

وتثبيتِ النبي (صلى الله عليه وسلم) على الدعوة إلى الإِسلام وأن لا يعبأ بإعراضهم .

وأن وراءهم البعث فهم راجعون إلى الله فهو مجازيهم على كفرهم وإعراضهم .

الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة .

وكونُ الاستفهام ب) هل (المفيدة معنى (قد) ، فيه مزيد تشويق فهو استفهام صوري يكنى به عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلَغ السامع ، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : (وهل أتاك نبؤا الخصم (في سورة ص . وقوله : (هل أتاك حديث موسى في سورة النازعات

.

وتقدم هنالك إطلاق فعل الإِتيان على فشو الحديث .

وتعريف ما أضيف إليه حديث (بوصفه) الغاشية (الذي يقتضي موصوفاً لم يذكر هو إيهام لزيادة التشويق إلى بيانه الآتي ليتمكن الخبر في الذهن كمال تمكُّن .

والحديث : الخبر المتحدَّث به وهو فعيل بمعنى مفعول ، أو الخبر الحاصل بحدثان أي ما

حدث من أحوال . وتقدم في سورة النازعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 293.294﴾

(9/813)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الغاشية

هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة . الباعثة إلى التأمل والتدبر , وإلى الرجاء والتطلع , وإلى المخافة والتوجس , وإلى عمل الحساب ليوم الحساب !

وهي تطوف بالقلب البشري في مجالين هائلين: مجال الآخرة وعالمها الواسع , ومشاهدها المؤثرة . ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر , وآيات الله المبثوثة في خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخرة , وسيطرة الله , وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف . . كل ذلك في أسلوب عميق الإيقاع , هادئ , ولكنه نافذ . رصين ولكنه رهيب !

(هل أتاك حديث الغاشية ؟) . .

بهذا المقطع تبدأ السورة التي تريد لترد القلوب إلى الله , ولتذكرهم بآياته في الوجود ,

وحسابه في الآخرة وجزائه الأكيد . وبهذا الإستفهام الموحي بالعظمة الدال على التقدير ; الذي يشير في الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الإسم الجديد :(الغاشية) . . أي الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها . وهو من الأسماء الجديدة الموحية التي وردت في هذا الجزء . . الطامة . . الصاخة . . الغاشية . . القارعة . . مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة .

وهذا الخطاب: هل أتاك . . ? كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحس وقع توجيهه إلى شخصه , حيثما سمع هذه السورة , وكأنما يتلقاه أول أمر مباشرة من ربه , لشدة حساسية قلبه بخطاب الله – سبحانه – واستحضاره لحقيقة الخطاب , وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه . . قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن محمد الطنافسي , حدثنا أبو بكر بن عباس , عن أبي إسحاق , عن عمر بن ميمون , قال: مر النبي (صلى الله عليه وسلم) على امرأة تقرأ: (هل أتاك حديث الغاشية ?) فقام يستمع ويقول: " نعم قد جاءني " . .

(10/813)

والخطاب – مع ذلك – عام لكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويبشر ; ويستجيش به في الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ; كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3895 . 3896 ﴾

(11/813)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الغاشية

مكية وآياتها ست وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة الغاشية مكية ، وقد تناولت موضوعين أساسيين وهما :

1 – القيامة وأحوالها وأهوالها ، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء ، وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء [هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية الآيات

2 – الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وقدرته الباهرة ، في خلق الإبل العجيبة

والسماء البديعة ، والجبال المرتفعة ، والأرض الممتدة الواسعة ، وكلها شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه [أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالتذكير برجوع الناس جميعا إلى الله سبحانه للحساب والجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 551 ﴾

(12/813)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الغاشية

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها ، خاشعة : أي ذليلة : عاملة : أي وقع منها عمل فى الدنيا ، ناصبة : أي تعبة من قولهم نصب فلان بالكسر : أي تعب ، تصلى من قولهم صلى النار (بالكسر) أي قاسى حرها ، حامية : أي متناهية فى الحرّ من قولهم حميت النار إذا اشتد حرها ، والعين : ينبوع الماء ، والآنية الشديدة الحر ، والضريع : شجر ذو شوك لائط بالأرض ، فإذا كان رطبا سمى بالشّبرق ،

قال أبو ذؤيب الهذلي :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وصار ضريعا بان عنه النحائص

ناعمة : أي ذات بهجة وحسن ، عالية : أي فى المكان لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، واللاغية : اللغو والكذب والبهتان ، عين جارية :

أي ينبوع ماء جار ، والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعا عن الأرض ، والأكواب : واحدها كوب وهو ما لا عروة له من الكيزان ، موضوعة : أي معدة ومهيأة للشراب ، والنمارق : واحدها نمرقة (بضم النون وكسرها) وهى الوسادة قال :

كهول وشبّان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

والزرابيّ : واحدها زربىّ (بكسر الزاى) وزربية وهو البساط ، وأصل الزرابي أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة ، ويقال أزرب النبات إذا صار كذلك سموا بهذا البسط لشبهها به ، ومبثوثة : أي مفرقة فى المجالس بحيث يرى فى كل مجلس شىء منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء

الإبل : واحدها بعير ولا واحد لها من لفظها كنساء وقوم ، ورفع السماء .

إمساك ما فوقنا من شموس وأقمار ونجوم ، ونصب الجبال : إقامتها أعلاما للسائرين ، وملجأ للحائرين ، وسطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها والمشي فى مناكبها .

(13/813)

فذكر : أي عظ قومك وابعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، بمسيطر : أي بمسلط تجبرهم على ما تريد ، إيابهم : أي رجوعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 130.138 ﴾ . باختصار .

(14/813)

وقال الفراء :

سورة (الغاشية)

﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾

[تَصْلَى ، وتُصْلَى] قرءَاتان .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . . . ﴾ .

وهو نبت يقال له: الشِّبْرِق ، وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس ، وهو سم .

﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لاَّ يُسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً . . . ﴾ :

حالفة على كذب ، وقرأ عاصم والأعمش وبعض القراءِ: "لا تُسْمَعُ" بالتاء ، وقرأ بعض أهل المدينة: "لا يُسمع فيها لاغيةٌ": ولو قرئت: "لا تُسمع فيها لاغيةٌ" وكأنه للقراءة موافق ؛ لأن رءوس الآيات أكثرها بالرفع .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ . . . ﴾ .

يقال: مرفوعة مرتفعة: رفعت لهم ، أشرفت ، ويقال مخبوءة رفعت لهم .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . . . ﴾ .

بعضها إلى جنب بعض ، وهى الوسائد واحدها : نُمْرُقة . قال: وسمعت بعض كلب يقول: نِمْرِقة بكسر النون والراء .

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . . . ﴾ .

هى: الطنافس التى لها خَمْل رقيق (مَبْثُوثَةٌ) : كثيرة .

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . . . ﴾ .

عجّبهم من حمل الإبل أنها تحمل وِقرها باركة ثم تنهض به ، وليس شيء من الدواب يطيق ذلك إلاّ البعير .

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . . . ﴾ .

بمسلِّط ، والكتاب (بمصيطر) ، و (المصيطرون) : بالصاد والقراءة بالسين ، ولو قرئت بالصاد كان مع الكتاب وكان صوابا .

﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ . . . ﴾ .

(15/813)

تكون مستثنيا من الكلام الذى كان التذكير يقع عليه وإن لم يُذكَر ، كما تقول فى الكلام: اذهب فعِظ وذكِّر ، وعُمّ إلاّ من لا تطمع فيه ، ويكون أن تجعل: ﴿ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ منقطعا عما قبله . كما تقول فى الكلام: قعدنا نتحدث ونتذاكر الخير إلاّ أن كثيرا من الناس لا يرغب ، فهذا المنقطع .

وتعرف المنقطع من الاستثناءِ بِحُسْن إن فى المستثنى ؛ فإذا كان الاستثناء محضا متصلا لم يحسن فيه إن . ألا ترى أنك تقول: عندى مائةٌ إلاّ درهما ، فلا تدخل إن ها هنا فهذا كاف من ذكر غيره .

وقد يقول بعض القراء وأهل العلم: إن (إلا) بمنزلة لكن ، وذلك منهم تفسير للمعنى ، فأما أن تصلح (إلاّ) مكان لكن فلا ؛ ألا ترى أنك تقول: ما قام عبد الله ولكن زيد فَتُظْهِرُ الواوَ ، وتحذفها . ولا تقول: ما قام عبد الله إلا زيد ، إلاّ أن تنوىَ: ما قام إلا زيد لتكرير أَوّل الكلام .

سئل الفراء [/ا] عن ﴿ إِيَابَهُمْ ﴾ فقال: لا يجوز على جهة من الجهات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 257. 259 ﴾

(16/813)

وقال الأخفش :

سورة (الغاشية)

﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾

وقال ﴿ لاَغِيَةً ﴾ أي: لا تسمع كلمة لغو [184 ب] وجعلها ﴿ لاَغِيَةً ﴾ . والحجة في هذا انك تقول: "فارِس" لصاحب الفَرَس و"دارِع" لصاحب الدَرْع و"شاعر" لصاحب

الشِعْر . وقال الشاعر: [من مجزوء الكامل وهو الشاهد الثامن والسبعون بعد المئتين]:

* أَغررتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لابِنٌ بالصَّيْفِ تامِرْ *

أي: صاحبُ لَبَنٍ وصاحبُ تَمْرٍ .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾

واحد "النَمَارِق": النُمْرُقَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 577 ﴾

(17/813)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الغاشية «1»

1 - الْغاشِيَةِ : القيامة ، لأنها تغشاهم .

6 - (الضريع) : نبت [يكون] بالحجاز ، يقال لرطبة : الشّبرق .

11 - لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً أي قائلة لغوا ، ويكون اللغو بعينه .

15 - و(النمارق) : الوسائد واحدتها : «نمرقة» و«نمرقة» .

16 - (والزرابي) : الطّنافس . ويقال : هي البسط . واحدتها :

«زربية» .

مَبْثُوثَةٌ : كثيرة متفرقة [في المجالس] .

20 - سُطِحَتْ أي بسطت .

22 - لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ أي بمسلّط .

25 - إِيابَهُمْ : رجوعهم «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 451 ﴾

---

(1) هي مكية .

(2) قال ابن عباس : إيابهم : مرجعهم .

(18/813)

وقال الغزنوى :

[سورة الغاشية]

1 الْغاشِيَةِ : تغشى النّاس بأهوالها «1» .

3 ناصِبَةٌ : ذات نصب .

4 ناراً حامِيَةً : الحمى لازم . أو تحمي نفسها فلا يطفئها شيء .

و«الضّريع» «2» : شجرة شائكة «3» إذا أكلته الإبل هزلت ، أو هو

(1) وهي القيامة كما في تفسير غريب القرآن : 525 ، وتفسير الطبري : 30/ 159 ، وتفسير الماوردي : 4/ 442 .

(2) في قوله تعالى : لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ [آية : 6] .

(3) هي الشّبرق كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 296 ، وتفسير غريب القرآن : 525 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 317 .

وانظر تفسير القرطبي : 20/ 30 ، واللسان : 8/ 223 (ضرع) .

(19/813)

وصف من «الضّراعة» لا اسم ، أي : ليس فيها طعام إلّا ما أعدّ للهوان ، أو إذا طعموه تضرّعوا عنده .

11 لاغِيَةً : مصدر ك «اللّغو» ، أو وصف مصدر محذوف ، أي : كلمة لاغية ذات لغو» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 874. 875 ﴾

(20/813)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الغاشية

عدد 18 - 68 - 88

نزلت بمكة بعد الذاريات ، وهي ست وعشرون آية ، واثنتان وتسعون كلمة ، وثلاثمائة وواحد وثمانون حرفا ، ويوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به وهي سورة الإنسان ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "هَلْ أَتاكَ" يا سيد الرسل "حَدِيثُ الْغاشِيَةِ" 1 التي تغشى الناس بأهوالها وتغطيهم بفظائع أحوالها ، وفي التقدير بالاستفهام إعلام الناس بأن حضرة الرسول لا يعلم شيئا عنها عند نزول هذه السورة ، وأن ما يعلمه بطريق الوحي الإلهي ، وإيذان بأنه يتلى عليه ما لم يسمعه من أحد ، وإشارة إلى زيادة الاعتناء بما يتنزل عليه لما له من الشأن العظيم

(21/813)

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ" أي يوم تقوم القيامة المعبر عنها بالغاشية ، ان وجوه أصحابها "خاشِعَةٌ" 2 ذليلة خاضعة ، وهذا من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وهذه الوجوه التي تشاهد على غاية

من الهوان فرءوس أهلها "عامِلَةٌ ناصِبَةٌ" 3 دائبة على العمل في نار جهنم تعبة من مشقة الأعمال وشدة العذاب التي تلاقيه ذلك اليوم جزاء عملها في الدنيا وتوغلها في الترف والرّفاه ، فكما كانت تعمل في الدنيا لغير اللّه فإنها تعمل في الآخرة لقاءه في نار جهنم عملا تكل منه الجبال ، فطورا تجر بالسلاسل والأغلال وتارة تخوض بالنار كما تخوض الإبل في الوحل ، ومرة ترقى صعودا بأعالي جهنم وتهبط منه ، وبذلك كله فإنها "تَصْلى ناراً حامِيَةً" 4 لأنها في سوائها وإذا عطشت فإنها "تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ" 5 متناهية في الحرارة ، قال تعالى (وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ) الآية 16 من سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم في ج 3 ، وإذا سألت عن طعامهم فيها أيها الإنسان فإنهم "لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ" فيها "إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ" 6 هو يابس الشبرق شوك ترعاه الإبل ما دام رطبا ، فإذا يبس تحاشته لأنه سم قاتل ، قال أبو ذؤيب :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وصار ضريعا بان عنه النمائص

وقال ابن غرازة الهذلي يذم سوء مرعى إبله :

وحبسن في هزم الضريع فكلها حدباء دامية اليدين حرود

أي أن طعامهم فيها يشبه هذا النبات الخبيث ، وشرابهم ما علمت ، وليس سواء ، فبينهما كما بين نارنا ونار جهنم .

قال المشركون لما سمعوا هذه الآية إن إبلنا لتسمن على الضريع استهزاء وسخرية ، لأن الإبل لا تأكله أبدا ولا يسمى ضريعا إلا بعد يبسه لأنه مادام أخضر يسمى شبرقا ، فكذبهم اللّه بقوله "لا يُسْمِنُ" الضريع الدابة أبدا "وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ" 7 البتة لأنه لا يؤكل حتى يشبع ، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى (إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) الآية 27 من الحاقة الآتية ، لأن للنار دركات لكل دركة نوع من العذاب ويكون على قدر الذنب العقاب ، فمنهم طعامهم الزقوم ، ومنهم ذو الغصة ، ومنهم الضريع ، ومنهم الغسلين ، كما سيأتي أجارنا اللّه من ذلك كله ، وهذا ما وصف اللّه به أهل النار ، وهاك

وصف أهل الجنة جعلنا اللّه من أهلها ، قال تعالى "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ" 8 أهلها ، وهذا أيضا من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، منعمة برضاء اللّه وجنته "لِسَعْيِها" الذي فعلته بالدنيا "راضِيَةٌ" 9 به لما رأت حسن جزائه فى الآخرة لأنه "فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ" 10 لا يدرك الطرف مداها

"لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً" 11 في لهو وباطل بل كل ألسنتها التسبيح والتهليل والتحميد والتسليم "فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ" 12 إلى حيث أراد طلبها بمجرد إشارة منه دون تكلف ما لا تحتاج لجر أنابيب ووضع رافعات وصبابات ، وهذا للشرب والنظارة و"فِيها" للجلوس والنوم "سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ" 13 أنشأها اللّه لعباده ، وناهيك بشيء ينشئه اللّه ، فصف من

حسنها وماهيتها وعلوها وزخرفها ما شئت فلن تدرك حقيقتها ولن تقدر أن تحيط علما بها لأنها من مصنوعات اللّه ، وسبب ارتفاعها ليشرف من عليها على ما خوّله ربه من الملك الواسع والنعيم الشاسع "وَأَكْوابٌ" طوس مستديرة وأكواز بلا عرى من فضة وذهب كما يشعر بعظمها التنوين "مَوْضُوعَةٌ" 14 بعضها جنب بعض على حواف الأعين الجارية مملوءة مهيئة للشرب بقدر ما يشرب الشارب "وَنَمارِقُ" وسائد ، قال زهير :

(23/813)

كهولا وشبانا حسابا وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

يؤيد هذا التفسير قوله تعالى "مَصْفُوفَةٌ" 15 بعضها لبعض للاتكاء عليها ، وهذا أحسن من تأويلها بمطارح ، لأن الصف عادة أكثر استعمالا في الوسائد ، وما جاء في قولهن :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

لم يرد بها الوسائد لأنها لا يمشى عليها بل يراد منها ما بينه اللّه بقوله "وَزَرابِيُّ" وهي ما نسميها الآن سجّادا وأحسن أنواعه شغل العجم ، أما هذا فهو من إبداع المبدع ، وهو فوق ما تتصوره ، فاسع أن تكون أهلا بأن تمشي وتجلس عليه "مَبْثُوثَةٌ" 16 مبسوطة متفرقة في الغرف والباحات والأبهاء والساحات ومحال النزه وغيرها بحيث أينما أردتها وجدتها

بالغرف والجنان والصحارى .

مطلب في الإبل وما ينبغي أن يعتبر به ، والتحاشي عن نقل ما يكذبه العامة :

وبعد أن وصف اللّه النار والجنة وأهلهما التفت إلى عباده حدثا لهم على الاعتبار في بعض مخلوقاته التي هي بين أيديهم ومسخرة لهم ، فقال جل قوله "أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" 7 والإبل جمع لا واحد له من لفظه ومفردها جمل وبعير وناقة وقعود ، ويجمع الجمل على جمال ، والبعير على أباعر وأبعر وبعران ، والقعود على قعدان ، والناقة على نياق ونوق ، وإنما خص الإبل لأنها من أنفس أموال العرب إذ ذاك وحتى الآن عند أهل البادية ، وأعزّها عليهم ، ولها مكانة عندهم حتى انهم يتفاخرون فيها ، ولم يروا قبل أعظم منها للركوب والحمل والأكل ، ولهم فيها منافع كثيرة ، وذلك أنهم أنكروا ما وصفه اللّه من الجنة والنار وأهلهما فذكرهم اللّه بهذا النوع من مخلوقاته العجيبة الصنع المذللة لهم ، مع أنها أقوى منهم ليعلموا أن الذي خلقها قادر على خلق ما وصف في الجنة والنار ليسترشدوا بذلك .

(24/813)

هذا وان الفيل مما يعرفونه أيضا وهو أقوى من الإبل ، إلا أنه لا منافع فيه مثل ما في الإبل ولم يطلعوا عليه كلهم ، ولأنه لا يؤكل ، ولا لبن له ولا صوف ، وليس بلين الجانب كالإبل تقودها الأولاد وتعقلها المرأة ، وتقنى للزينة والتجارة والركوب والدر ، وتحمل الأثقال وفيها خواص لا توجد بغيرها ، كاحتمالها العطش والمشاق في السفر ، وتحمّل وهي باركة ، وترعى من النبات ما لا يرعاه غيرها ، والفيل خلو من هذه الصفات ، وقد اخترع القبان منها بالنظر لسرتها وطول عنقها ، ولها ميزة في خلقها وتركيب أعضائها وتأثرها بالصوت الحسن حتى انها قد تودي بحياتها من شدة طيّها المسافة البعيدة عند سماعها الحداء ، ولها من الشفقة على أولادها ما لم يوجد عند غيرها ، كما أن عندها من الحقد ما يقابل ذلك على من يعتدي عليها عند هيجانها اى الذكور منها ، وقد ذكرنا ما يتعلق في بحثها في الآيتين 138/ 143 من سورة الأنعام المارة فراجعهما .

وإنما ذكّرهم اللّه تعالى ببعض نعمه عليهم ، لأن المراد منه التذكر في دلائل توحيده وبراهين قدرته وإمارات صنعه مما يرون ويعلمون ، أما مخلوقاته الأخرى الموجودة في ذلك الزمن والتي وجدت الآن وما ستوجد بعد فهي وإن كانت أعظم في الاستدلال إلا أن ضرب المثل بما هو موجود

أكثر تأثيرا مما لم يوجد ، فإذا قلت لهم توحيد سفينة عظيمة تمشي بالبخار على البحار وسيارات تقطع مسافة اليوم في ساعة ، وطيارات تطوي الشهرين بيوم ، وهاتف وراد

ينقلان الصوت من المغرب إلى المشرق بلحظات لم يصدقوا ، فلهذا اقتصر اللّه تعالى على ما هو معلوم عندهم كلهم .

ومن هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم كلموا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب اللّه ورسوله .

(25/813)

أي إذا ذكرتم لهم أشياء كهذه يخشى أن يكذبوه ، ولو قلتم إن اللّه أخبر بها رسوله يوشك أن يكذبوا وإذا كذبوكم فقد كذبوا الذين نقلتم عنهم فيؤدي إلى الكفر الذي جاء الأنبياء لإزالته .

ومن هذا الحديث المروي عن الدجال بأنه يبلغ خبر خروجه المشرق والمغرب بيوم واحد ، فقد أنكره كثير من العلماء لاستحالة وصول الخبر المذكور بيوم واحد إذ لم يكن عندهم لا سلكي أو راد أو هاتف ، أما الآن فلا تجد من ينكره من هذه الحيثية ، وكذلك حديث : تطبخ المرقة في مكة وتؤكل في المدينة وهي حارة ، وحديث تقارب البلدان وغيرها من المغيبات التي أخبر عنها الرسول المكرم ووقع الشك في صحتها ، ومن هذا قوله تعالى (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) الآية 188 من البقرة في ج 3 ، عند سؤالهم عن الأهلّة ، فلو قال لهم ما يذكره الفلكيون والطبيعيون في هذا لم يصدقوه .

قال تعالى "وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ" 18 بلا عمد أو بعمد غير مرئية على كلا التفسيرين في الآية الثانية من سورة الرعد في ج 3 ، والآية 9 من سورة لقمان المارة ، إذ لا يدرك أطرافها أحد ولم يقف على كنهها أحد ولم يطلع على بنائها أحد كما لا ينالها أحد "وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ" 19 على الأرض بصورة ثابتة راسخة لا تزول ولا تزال إلا بقدرة الملك المتعال ، إذ جعلها رواسي للأرض لئلا تميد بأهلها ، راجع الآية 9 من سورة لقمان المارة ، "وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" 20 بسطت ومهدت ليستقر عليها كل شيء ، فانظروا أيها الناس إلى هذه الأشياء ، واعلموا أن من يقدر عليها يقدر على خلق ما وصف في الجنة والنار وما أعده لأهلها ، وأنكم لا تقدرون على خلق ذبابة ولا تخليص ما تسلبه منكم فضلا عن خلق الإبل والسماء والجبال والأرض وما فيها من البدائع والعجائب ، ألا له الخلق والأمر ، راجع الآية 72 من الحج ج 3 .

(26/813)

ولما لم ينجع بهم هذا ولم يعتبروا ويتعظوا التفت إلى رسوله صلّى اللّه عليه وسلم وخاطبه بقوله "فَذَكِّرْ" قومك يا سيد الرسل واحرص على إيمانهم ودم على ما أنت عليه "إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ" 21 فقط فلا يمنعك عدم قبولهم لنصحك وإصغائهم لرشدك من إدامة التذكير ،

لأنك يا حبيبي "لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ" 22 لتجبرهم على الإيمان ولا بمسلط لتكرههم عليه ، وإنما عليك البلاغ فقط وقد قمت به ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف لا وجه له ، لأن غاية ما فيها التهديد والتخويف تمهيدا للذارة والبشرة وترغيبا للتصديق بما جاءهم به ، وإن اللّه تعالى ما أنزل آية السيف وأمر رسوله بالقتال حتى غربل الناس وأوضح لرسوله المؤمن من الكافر وأظهر له من يؤمن طائعا مختارا راغبا ، ومن يؤمن كرها وخوفا .

هذا ، وإن الاستثناء في قوله تعالى (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى) عنك وأعرض إعراضا كليا "وَكَفَرَ" 23 وأصر على كفره ، متصل في ضمير عليهم ومحله الجر تبعا له ، أي فإنك متسلط على هذا الصنف من الكفرة المدبرين عن الإيمان إدبارا كليا مثل الوليد وأبو جهل وأضرابهما ، ولهذا أمر اللّه الرسول بالجهاد وأباح له قتل أمثال هؤلاء وسبيهم وإجلاءهم وأسرهم ، وقد عاتبه على أخذ الفداء من أمثالهم ، راجع الآية 67 من سورة الأنفال ج 3 ، وقد جعل جزاءهم الدنيوي هذا ، أما العقاب الأخروي "فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ" 24 في دركات جهنم ولا أكبر من عذابها ، فيكون في هذه لآية إيعاد لهم في المدارين ، وإشارة بأنه سيسلط عليهم وتظهر كلمته ، وهذا لا ينافي حصر الولاية بذاته تعالى ، لأنه الولي لا غيره وليّ ، وان ذلك يكون بإذنه وأمره وإرادته ، وعليه فيكون المعنى لست يا سيد الرسل على هؤلاء

الكفرة الممتنعين من التصديق بك والإيمان بربك بمجبر ولا مكره إلا على من تولى وكفر بأن دام على كفر ، فإنك مسلط عليه .

(27/813)

وما قاله الزمخشري وغيره تبعا له أو من بنات فكره وأولاد ذهنه من أن الاستثناء هنا منقطع وإن المعنى لست بمسئول عنهم لكن من تولّى وكفر منهم فإن اللّه تعالى له الولاية عليه ، فهو بعيد عن المعنى المراد واللّه أعلم ، حتى ان عصام الدين قال فيه إشكال لأن المستثنى المنقطع هو المذكور بعد إلا غير مخرج من متعدد قبله لعدم دخوله فيه مخالف في الحكم وليس من تولى وكفر خارجا عن قوله عليهم ، وليس حكمهم مخالفا له ، تدبر .

"إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ" 25 رجوعهم بعد الموت لنا لا لغيرنا "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ" 26 في الموقف ومجازاتهم وناهيك بنا إذا حاسبنا أو عفونا ، وقيل :

حاسبونا فدققوا ثم منّوا فأعتقوا

هكذا عادة المترك بالمماليك يرفقوا

وفي رواية يشفقوا .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، وعلى من تبعهم بإحسان ورضوان من اللّه ومغفرة ورحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 156.162 ﴾

(28/813)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الغاشية

مكية

حديث الغاشية تام عين آنية جائز وكذا من ضريع من جوع تام عالية جائز وكذا لاغية مبثوثة تام وكذا سطحت وقال أبو عمرو فيه كاف وقيل تام بمسيطر كاف وإلا بمعنى لكن العذاب الأكبر تام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(29/813)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الغاشية

مكية

ست وعشرون آية إجماعاً كلمها اثنتان وتسعون كلمة وحروفها ثلثمائة واحد وتسعون حرفاً

الغاشية (تام)

ناصبة (جائز) ومثله حامية

آنية (كاف)

من ضريع (جائز)

من جوع (تام) وما بعده على حذف العاطف أي ووجوه لأنَّ الذي تقدم وجوه يومئذ خاشعة وهذا الثاني معطوف عليه وحذف لدلالة الكلام عليه ولا يوقف على ناعمة لتعلق اللام ومثله في عدم الوقف راضية لأنه

لا يبتدأ بحرف الجر

عالية (جائز)

لاغية (كاف) على القراءتين قرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا يسمع بالياء التحتية المضمومة

مبنياً للمفعول لاغية بالرفع نائب الفاعل وقرأ نافع كذلك إلا أنه بالتاء الفوقية والباقون بفتح التاء الفوقية ونصب لاغية

جارية (كاف) ولا يوقف على مرفوعة لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله وهكذا إلى

مبثوثة

مبثوثة (تام) لتناهي صفة الأواني والفرش والوقف على خلقت ورفعت ونصبت وسطحت كلها وقوف كافية للتفصيل بين أسباب الاعتبار وقرأ العامة الأربعة مبنيات للمفعول والتاء ساكنة للتأنيث وقرىء خلقت وما بعده بتاء المتكلم مبنيات للفاعل ويجوز

فذكر لمكان الفاء والوصل أولى

مذكر (حسن) بمسيطر تجاوزه أولى وعلى قراءة ابن عباس ألاَّ من تولى بفتح الهمزة وتخفيف اللام يوقف على بمسيطر

إلاَّ من تولى وكفر ليس بوقف لمكان الفاء

العذاب الأكبر (تام)

إيابهم ليس بوقف لأنَّ ثمَّ لترتيب الفعل

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الغاشية :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

روى عبيد عن شبل عن ابن كثير : "عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصْلَى 1" .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون النصب على الشتم ، أي : أذكرها عاملة2 ناصبة في الدنيا على حالها هناك ، فهذا كقوله تعالى : ﴿ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ3 ﴾ ، وذلك أنهم لم يخلصوها لوجهه ، بل أشركوا به معبودات غيره ، وله نظائر في القرآن وما أثور الأخبار .

ومن ذلك قرأ : "إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ4" ، بفتح أوائل هذه الحروف كلها ، وضم التاء – علي بن أبي طالب ، عليه السلام .

قال أبو الفتح : المفعول هنا محذوف لدلالة المعنى عليه ، أي : كيف خالقتها ، ورفعتها ، ونصبتها ، وسطحتها ؟ وتقدم القول على حسن حذف المفعول به ، وأن ذلك أقوى دليل على قوة عربية الناطق به .

عبد الوارث قال : سمعت هارون الخليفة يقرأ : "وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت" ، مشددة الطاء .

قال أبو الفتح : إنما جاز هنا 5 التضعيف للتكرير ، من قبل أن الأرض بسيطة وفسيحة ،

---

1 سورة الغاشية : 3 .

2 هي على هذا التقدير حالن لا مفعول كما لا يخفى .

3 سورة البقرة : 167 .

4 سورة الغاشية : 17 ، 18 ، 19 ، 20 .

5 ساقطة في ك .

(31/813)

فالعمل فيها مكرر على قدر سمعتها ، فهو كقولك : قطعت الشاة ؛ لأنه 1 أعضاء يخص كل عضو منها عمل ، وكذلك نظائر هذا .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة وزيد بن علي : "إِلَّا مَنْ تَوَلَّى 2" ، بالتخفيف .

قال أبو الفتح : "ألا" افتتاح كلام ، "وَمَن" هنا شرط ، وجوابه "فَيُعَذِّبُهُ اللَّه" ، كقولك : من

قام فيضربه زيد ، أي : فهو يضربه زيد . كذلك الآية ، أي : من يتول ويكفر فهو يعذبه الله ، لا بد من تقدير المبتدأ هنا ؛ وذلك أن الفاء إنما يؤتي بها في جواب الجزاء بدلا من الفعل الذي يجاب به ، فإذا رأيت الفاء مع الفعل الذي يصلح أن يكون جوابا للجزاء فلا بد من تقدير مبتدأ محذوف هناك ؛ لأنه لو أريد الجواب على الظاهر لكان هناك فعل يصلح له ، فكان يقال : ألا من تولى وكفر يعذبه الله ، كقولك : من يقم أعطه درهما . ولو دخلت الفاء هنا لقلت من يقم فأعطيه درهما ، أي : فأنا أو فهو أعطيه درهما ، فهو كقول الله "سبحانه" : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْه3 ﴾ ، أي : فهو ينتقم الله منه .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر يزيد : "إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ4" ، بالتشديد .

قال أبو الفتح : أنكر أبو حاتم هذه القراءة ، وقال : حملها على نحو "كذبوا كذبا5" ، قال : وهذا لا يجوز ؛ لأنه كان يجب إوابا ؛ لأنه فعال ، قال : ولو أراد ذلك لقال : أبوابا ، فقلب الواو ياء للكسرة قبلها ، كديوان ، وقيراط ، [166و] ، ودينار ؛ لقولهم : دواوين ، وقراريط ، ودنانير .

---

1 تطلق الشاة على الذكر والأنثى من الغنم .

2 سورة الغاشية : 23 .

3 سورة المائدة : 95 .

4 سورة الغاشية : 25 .

5 سورة النبأ : 28 .

(32/813)

وهذا لو كان لا بد أن يكون إيابا ، فعالا ، مصدر أوبت التي مطاوعها تأوب ، أي : تفعل ، كما قال :

تأوبه خيال من سليمي كما يعتاد ذا الدين الغريم1

لكان الذهاب إليه فاسدا ؛ لأنه كان يجب فيه التصحيح لاحتماء العين بالإدغام ، كقولهم : اجلوذ2 اجلواذا . فأما اجليوذا وديوان3 فشاذان . وعلى أنه يجوز أن يكون فعالا ، إوابا ، إلا أنه قلب الواو ياء - وإن كانت متحصنة4 بالإدغام - استحسانا للاستخفاف ، لا وجوبا ألا تراهم قالوا : ما أحيله من الحيلة ؟ وهو من الواو لقولهم : يتحاولان ، وقالوا في دومت5 السماء : ديمت . قال :

هو الجواد ابن الجواد بن سبل إن ديموا جاد وإن جادوا وبل6

يريد : دوموا ؛ لأنه من دام يدوم ، لكن من روى هذا مما هو أشد قياسا منه7 ، وذلك أن يكون بني من آب فيعلت ، وأصله أيوبت ، فقلبت الواو ياء ؛ لوقوع الياء ساكنة قبلها ،

فصارت أيبت ، ثم جاء المصدر على هذا إيابا ، فوزنه فيعال إيواب – فقلب بالواجب .

وإن شئت أيضا جعلت أوبت فوعلت بمنزلة حوقلت ، وجاء المصدر على الفيعال ، كالحيقال . أنشد الأصمعي :

يا قوم قد حوقلت أو دنوت وبعد حيقال الرجال الموت8

---

1 لسلمة بن الخرشب الأنماري . تأوبه : راجعه . ذو الدين : المدين . والغريم : الدائن . يريد أن خيال صاحبته يكثر معاودته ، كما يلح الدائن على المدين ، بكثرة ترداده عليه . "المفضليات : 39" .

2 اجلوذ : مضى وأسرع .

3 نصب "اجليوذا" ، وخفض "ديوان" حكاية لحركة كل في موضعه الذي جيء به منه .

4 في ك : مختصة ، وهو تحريف .

5 دومت السماء : دام مطرها .

6 يقال : أنه في وصف فرس . وسبل فرس نجيبة ، ويقال : إن سبلا والد الراجز جهم ابن سبل ، وأن الرواية :

أنا الجواد ابن الجواد ابن سبل

وانظر الخصائص 1 : 355 ، واللسان ، والتاج "سبل" . وفي ك : دوموا ، وهي رواية أخرى .

7 خبر "من" "فقلب بالواجب" الآتي .

8 حوقل : الشيخ : اعتمد بيديه على خصريه . ورواية الأصل "بعض" مكان "بعد" ، وما أثبتناه أظهر . وانظر اللسان "حقل" .

(33/813)

فصارت إيوابا ، كالحيقال ، ثم قلبت الواو للياء قبلها ، فصارت إيابا .

فإن قلت : فهلا حماها الإدغام من القلب .

قيل : هيهات ، إنما ذلك إذا كانتا عينين ؛ لأنهما لا يكونان إلا من لفظ واحد ، وكذلك واو افعول ؛ لأنه لا يكون فيها زائد بعدها إلا من لفظها . فأما فوعلت فالواو زائدة ، والعلل إليها مسرعة ؛ لأنها ليست عينا فتتحامل بها أختها . ألا تراك لو بنيت فعل من فوعلت من القول لقلت : قوول ؟ فمددت 1 ، ولم تدغم ، وأجريتها مجرى فعل من فاعلت من القول ، إذا قلت : قوول . ولو بنيت فعل من فعلت من القول لقلت : قول فأجريتها في الصحة مجرى قطع وكسر .

نعم ، ويجوز أن يكون أوبت فعولت كجهور ، فتقول في مصدره على حد جهوار : إياب ، فتقلب الواو ياء ؛ لسكونها ، وانكسار ما قبلها . ولم يحمها من القلب إدغامها ؛ لأنها لم

تدغم في عين فتحميها وتنهض بها ، إنما أدغمت في واو فعولت الزائدة الجارية مجرى ألف فاعلت ، فقد علمت بذلك أن أبا حاتم - عفا الله عنه - أغفل هذين الوجهين2 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 355.358﴾

---

1 في ك : رددت ، وهو تحريف .

2 في ك : الموضعين .

(34/813)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الغاشية

مكية وآيها ست وعشرون مشبه غير الفاصلة ضريع جوع القراآت أمال أتاك و تصلى و تسقى و تولى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وأمال هاء التأنيث وما قبلها في الغاشية و عاملة و ناصبة و حامية و آنية و ناعمة و راضيه و عالية و لاغية و جارية و مصفوفة و مبثوثة في الوقف الكسائي وحمزة بخلفه وأما خاشعة و مرفوعة وموضوعة الآية 1413 فالمختار فيها الفتح لهما وذهب بعضهم إلى الإمالة فيها عنهما ولم يستثن سوى الألف نحو الصلاة وهما في الطيبة لهما كالشاطبية للكسائي وعن ابن محيصن واليزيدي

عاملة ناصبة بنصبهما على الحال

واختلف في ( ) تصلى نارا (الآية 4 فأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب بضم التاء مبنيا للمفعول من أصلاه الله تعالى وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بفتحها مبنيا للفاعل والضمير عليها للوجوه وأمال همز آنية هشام من طريق الحلواني وفتحها عنها الداجوني كالباقين

واختلف في ( ) لا تسمع فيها لاغية (الآية 11 فنافع بالتاء من فوق مضمومة بالبناء للمفعول (لاغية) بالرفع على النيابة أي كلمة لاغية أو لغو فيكون مصدرا كالعاقبة وافقه ابن محيصن بخلفه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بياء من تحت مضمومة بالبناء للمفعول أيضا (لاغية) بالرفع على ما تقدم وافقهم ابن محيصن في ثانية والحسن واليزيدي والتذكير تابع لإسناده إلى مجازى التأنيث والباقون بفتح التاء من فوق ونصب (لاغيه) على المفعولية وقرأ (بمصيطر) الآية 22 بالسين على الأصل هشام واختلف عن قنبل وابن ذكوان وحفص وتقدم في الطور طريق الخلاف مفصلة مبينة وقرأ بالإشمام حمزة بخلفه عن خلاد كما بين ثمة والباقون بالصاد

(35/813)

واختلف في (إيابهم) الآية 25 فأبو جعفر بتشديد الياء قيل مصدر أيب على وزن فيعل كبيطر بيطر فاجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء المزيدة فيها وإياب على وزن فيعال وقيل غير ذلك والباقون بالتخفيف مصدر آب يؤوب إيابا رجع كقام يقوم قياما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(36/813)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الغاشية "

" تصلى " ضم التاء شعبة والبصريان وفتحها غيرهم .

" لا تسمع فيها لاغية " قرأ نافع تسمع بالتاء المثناة الفوقية المضمومة ولا غية برفع التاء ، وابن كثير وأبو عمرو ورويس بالياء التحتية المضمومة في تسمع من رفع التاء في لاغية والباقون بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة في تسمع ونصب التاء في لاغية .

" عليهم " جلي .

" بمصيطر " قرأ هشام بالسين وحمزة بخلف عن خلاد بإشمام الصاد الزاي ، والباقون

بالصاد الخالصة وهو الوجه الثاني لخلاد ، وإذا ركبت بمصيطر مع الأكبر كان لخلف وجه واحد وصلا وهو الإشمام في بمصيطر مع السكت في الأكبر ووجهان وقفا وهما السكت والنقل مع الإشمام ، ولخلاد وصلا ثلاثة أوجه الإشمام مع السكت وعدمه والصاد الخالصة مع عدم السكت ووقفا ثلاثة كذلك الإشمام مع السكت والنقل والصاد الخالصة مع النقل فقط .

" إيابهم " شدد الياء أبو جعفر وخففها غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 350.349 ﴾

(37/813)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الغاشية

قوله تعالى ﴿ تصلى نارا حامية ﴾ يقرأ بضم التاء وفتحها فالحجة لمن قرأه بالضم انه طابق بذلك بين لفظه ولفظ قوله ﴿ يسقى ﴾ والحجة لمن فتح انه اتى بالفعل على اصله وبناه لفاعله

قوله تعالى ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ يقرأ بالتاء والياء وضمها والرفع ويقرأ بالتاء مفتوحة والنصب والحجة لمن قرأه بضم الياء والتاء انه جعله مبنيا لما لم يسم فاعله ورفع الاسم بعده والحجة لمن قرأه بفتح التاء انه قصد النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب ونصب لاغية بتعدي الفعل اليها

قوله تعالى ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ يقرأ بالصاد والسين وإشمام الزاي وقد ذكرت علل ذلك في الطور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 369 ﴾

(38/813)

وقال ابن زنجلة :

88 - سورة الغاشية

تصلى نارا حامية

قرأ أبو عمرو وأبو بكر تصلى نارا حامية بضم التاء وحجتهما ذكرها اليزيدي فقال كقوله بعدها تسقى من عين آنية فجعل اليزيدي تصلى بلفظ ما بعده إذ أتى في سياقه ليأتلف الكلام على نظام

وقرأ الباقون تصلى بفتح التاء وحجتهم أن الصلى مسند إليهم في كثير من القرآن مثل

يصلونها يوم الدين وقوله يصلى النار الكبرى وسيلصلى نارا فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

لا تسمع فيها لاغية 11

قرأ ابن كثير وابو عمرو لا يسمع بضم الياء لاغية رفع على ما لم يسم فاعله قالوا لأن الخطاب ليس بمصروف إلى واحد وإنما ذكروا واللاغية مؤنثة لأن تأنيث اللاغية غير حقيقي أي لغو قال اليزيدي المعنى لا يسمع فيها من أحد لاغية قال أبو عبيدة لاغية أي لغوا ويجوز أن يكون صفة كأنه قال لا تسمع كلمة لاغية

وحجتهما أنها موافقة لإعراب رؤوس الآيات قبلها وبعدها من قوله خاشعة عاملة ناصبة وبعدها عين جارية 12 مرفوعة 13 مصفوفة 15 فجرى على ذلك

وقرأ نافع لا تسمع بضم التاء فيها لاغية رفع على ما لم يسم فاعله وأتت لا تسمع على لفظ اللاغية دون المعنى

وقرأ أهل الشام والكوفة لا تسمع بفتح التاء لاغية نصب وحجتهم أنها تنصرف إلى وجهين يجوز أن تسند السماع إلى الوجوه المذكورة لأن ذلك أتى عقيب الخبر على الوجوه الناعمة إذ لم يعترض بين ذلك وبين الوجوه شيء يصرف إليه عنها والمعنى لأصحاب الوجوه والوجه الآخر أن يكون على مخاطبة النبي صلى الله عليه فكأنه قال لا تسمع يا محمد في الجنة لاغية

بدلالة قوله وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 760.759 ﴾

(39/813)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الغاشية 88

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها اثنتان وتسعون كلمة

وحروفها ثلاث مئة وأحد وتسعون حرفا

وهي ست وعشرون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

الغاشية

1 خاشعة

2 ناصبة

3 حامية

4 آنية

5 ضريع

6 جوع

7 ناعمة

8 راضية

9 عالية

10 لاغية

11 جارية

12 مرفوعة

13 موضوعة

14 مصفوفة

15 مبثوثة

16 خلقت

17 رفعت

18 نصبت

19 سطحت

20 مذكر

21 بمصيطر

22 وكفر

23 الأكبر

24 إيابهم

25 حسابهم

26 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 272﴾

(40/813)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (وجوه) هو مبتدأ ، و (خاشعة) خبره ، ويومئذ ظرف للخبر ، و (عاملة)

وصف لها بما كانت عليه في الدنيا (إلا من ضريع) يجوز أن يكون في موضع نصب على

أصل الباب ، وأن يكون رفعا على البدل .

قوله تعالى (إلا من تولى) هو استثناء منقطع ، والاياب مصدر آب يؤوب مثل القيام والصيام ، أبدلت الواو ياء لانكسار ما قبلها واعتلالها في الفعل ، ويقرأ بتشديد الياء وأصله إيواب على فيعال فاجتمعت الواو والياء وسبقت الأولى بالسكون فأبدلت الواو ياء وأدغم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(41/813)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الغاشية

[سورة الغاشية (88) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1)

"هَلْ" حرف استفهام "أَتاكَ" ماض ومفعوله "حَدِيثُ الْغاشِيَةِ" فاعل مؤخر مضاف إلى الغاشية والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الغاشية (88) : آية 2]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2)

"وُجُوهٌ" مبتدأ "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله "خاشِعَةٌ" خبر المبتدأ والجملة مستأنفة.

[سورة الغاشية (88) : آية 3]

عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3)

"عامِلَةٌ ناصِبَةٌ" خبران آخران لوجوه.

[سورة الغاشية (88) : آية 4]

تَصْلى ناراً حامِيَةً (4)

"تَصْلى" مضارع فاعله مستتر "ناراً" مفعول به "حامِيَةً" صفة والجملة خبر آخر لوجوه.

[سورة الغاشية (88) : آية 5]

تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5)

"تُسْقى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "مِنْ عَيْنٍ" متعلقان بالفعل "آنِيَةٍ" صفة والجملة صفة ثانية لنار.

[سورة الغاشية (88) : آية 6]

لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (6)

"لَيْسَ" ماض ناقص "لَهُمْ" خبر ليس المقدم "طَعامٌ" اسمها المؤخر "إِلَّا" حرف حصر "مِنْ

ضَرِيعٍ" متعلقان بمحذوف صفة طعام والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الغاشية (88) : آية 7]

لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

"لا" نافية "يُسْمِنُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة ضريع "وَلا يُغْنِي" معطوف على ما قبله "مِنْ جُوعٍ" متعلقان بالفعل .

[سورة الغاشية (88) : آية 8]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8)

سبق إعراب مثيلها .

[سورة الغاشية (88) : آية 9]

لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9)

"لِسَعْيِها" جار ومجرور متعلقان بما بعدهما "راضِيَةٌ" خبر ثان لوجوه .

[سورة الغاشية (88) : آية 10]

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (10)

"فِي جَنَّةٍ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر آخر لوجوه "عالِيَةٍ" صفة جنة .

[سورة الغاشية (88) : آية 11]

لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11)

"لا" نافية "تَسْمَعُ" مضارع فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بالفعل "لاغِيَةً" مفعول به والجملة صفة لجنة.

[سورة الغاشية (88) : آية 12]

فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12)

"فِيها" خبر مقدم "عَيْنٌ" مبتدأ مؤخر. "جارِيَةٌ" صفة عين والجملة صفة ثالثة لجنة.

[سورة الغاشية (88) : آية 13]

فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13)

إعرابها كسابقتها.

[سورة الغاشية (88) : آية 14]

وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)

"وَأَكْوابٌ" معطوف على سرر "مَوْضُوعَةٌ" صفة أكواب.

[سورة الغاشية (88) : آية 15]

وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الغاشية (88) : آية 16]

وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

معطوفة على ما قبلها أيضا .

[سورة الغاشية (88) : آية 17]

أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)

"أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف ولا نافية "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة على جملة محذوفة "إِلَى الْإِبِلِ" متعلقان بالفعل "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب حال "خُلِقَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة بدل اشتمال من الإبل .

[سورة الغاشية (88) : آية 18]

وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الغاشية (88) : آية 19]

وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الغاشية (88) : آية 20]

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)

معطوفة أيضا .

[سورة الغاشية (88) : الآيات 21 الى 22]

فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22)

"فَذَكِّرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنْتَ مُذَكِّرٌ" مبتدأ وخبره والجملة تعليل .

(43/813)

"لَسْتَ" ماض ناقص واسمه "عَلَيْهِمْ" متعلقان بما بعدهما "بِمُصَيْطِرٍ" الباء حرف جر زائد "مصيطر" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس والجملة تعليل .

[سورة الغاشية (88) : آية 23]

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23)

"إِلَّا" حرف استثناء "مَنْ" اسم موصول مستثنى "تَوَلَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من "وَكَفَرَ" معطوف على تولى .

[سورة الغاشية (88) : آية 24]

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24)

"فَيُعَذِّبُهُ" الفاء واقعة في جواب الشرط لما في الموصول من معنى الشرط ومضارع ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "الْعَذابَ" مفعول مطلق "الْأَكْبَرَ" صفة والجملة الفعلية خبر لمبتدأ محذوف.

[سورة الغاشية (88) : آية 25]

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (25)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "إِلَيْنا" خبر إن المقدم "إِيابَهُمْ" اسمها المؤخر والجملة تعليل لا محل لها.

[سورة الغاشية (88) : آية 26]

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 441. 443﴾

(44/813)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الغاشية

حَدِيث وَاحِد

1486 - عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الغاشية حَاسبه الله حسابا يَسِيرا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا مُحَمَّد بن الْقَاسِم ثَنَا إِسْمَاعِيل بن نجيد ثَنَا مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن سعيد ثَنَا سعيد بن حَفْص قَالَ قَرَأت عَلَى معقل بن عبيد الله عَن عِكْرِمَة بن خَالِد عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 201 ﴾

(45/813)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الغاشية» (88)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ» (5) مثل حميم . .

«إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ» (6) الضريع عند العرب الشّبرق شجر . .

«لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً» (11) لا تسمع فيها لغوا . .

«نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ» (15) واحدها نمرقة وهى الوسائد . .

«وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ» (16) الزرابي البسط واحدتها زربية وزربى ، والزرابي فى لغة أخرى

: الشّوىّ ذكيت «1» . .

«كَيْفَ نُصِبَتْ» (19) رفعت . .

«كَيْفَ سُطِحَتْ» (20) بسطت ، يقال : جبل مسطّح ، إذا كان فى أعلاه استواء . .

«بِمُصَيْطِرٍ» (23) بمتسلّط «2»

، يقال : تسيطرت علينا ، ولم نجد على تقديرها إلّا مبيطر قال النّابغة :

[طعن] المبيطر إذ يشفى من العضد

«3» [940] ولم نجد لها ثالثا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 296 ﴾

(1) . - 7 - 8 «والزرابي . . . ذكيت» لم أعثر على هذا لا فى المعاجم ولا فى كتب التفاسير.

(2) . - 11 «بمتسلط . . . ثالثا» الذي ورد فى الفروق: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة وقال:

وقد قدمت فى تفسير سورة المائدة زيادات عليهما (فتح الباري 8/ 538) وقد عد قبل هذا أربع كلمات مثل هذه ولا أدرى كيف هو قائل هذين القولين المتضادين.

(3) . - 940: هذا عجز بيت فى ديوانه من الستة ص 6.

(46/813)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «الغاشية»

[سورة الغاشية (88): الآيات 2 الى 3]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3)

وقوله سبحانه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ ، عامِلَةٌ ناصِبَةٌ [2 ، 3] وهذه استعارة .

والمراد بالوجوه ها هنا أرباب الوجوه . ومثل ذلك قوله تعالى : فى السورة التي يذكر فيها

(47/813)

القيامة : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ، إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «1» والدليل على ما قلنا إضافته سبحانه النظر إليها ، والنّظر إنما يصح من أربابها لا منها . لأنه تعالى قال عقب ذلك : وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ ، تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ «2»

[سورة الغاشية (88) : الآيات 8 الى 11]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11)

وكذلك قوله تعالى ها هنا : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ ، لِسَعْيِها راضِيَةٌ [8 ، 9] والرّضا والسخط إنما يوصف به أصحاب الوجوه .

فانكشف الكلام على الغرض المقصود .

وقوله تعالى : فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ ، لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً [10 ، 11] وهذه استعارة . وقد مضت لها نظائر كثيرة جدا فيما تقدم من كلامنا . أي لا تسمع فيها كلمة ذات لغو . فلما

كان صاحب تلك الكلمة يسمّى لاغيا بقولها ، سمّيت هى لاغية ، على المبالغة فى وصف اللغو الذي فيها .

وقال بعضهم : معنى ذلك : لا يسمع فيها نفس حالفة على كذب ، ولا ناطقة برفث . لأن الجنة لا لغو فيها ولا رفث ، ولا فحش ولا كذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 365.364 ﴾

(48/813)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الغاشية

" هل أتاك حديث الغاشية" . من أسماء يوم القيامة لأنها تغطى الأفكار وتدوخ الناس . وقد بدأت السورة بوعيد ووعد ، إثارة للرهبة ، والرغبة ثم دفعت العقل إلى التفكير فى عناصر البيئة العربية عندما لفتته إلى الإبل والجبال والآفاق العريضة ، ليخلص من ذلك إلى إفراد الله بالعبادة ، وهجر الأصنام الموروثة . وانتهت السورة بتحديد رسالة الأمة الإسلامية بين الناس ، وهى التوعية والتذكير . فإذا فقد الأنام إدراكهم للحكمة من

وجودهم ، نهض المسلمون بهذا العبء فحاربوا الإلحاد والمنكر والغفلة عن الله ! !

وعونهم فى هذه السبيل الكتاب الخالد الذى شرفوا به . . . ثم اتخذوه مهجورا فى هذه السنين العجاف . . والوعيد الذى تصدر السورة وصف الأشرار بما يبعث على الكآبة " وجوه يومئذ خاشعة " . ذابلة يائسة " عاملة ناصبة " . مرهقة شرابها ماء حار ، وطعامها لا جدوى منه . أما الأتقياء فلهم مكانة أخرى " وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية " ومن صفات الجنة أن اللغو لا مكان له فيها ، لأنه سفه غير لائق بأولى الألباب . الذى يليق بأولى الألباب إعمال العقول وراء المجهول حتى تستبينه ! " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت " . والاستفهام بكيف دعوة ممتدة للعقل الإنسانى أن يبحث ويحاول استكشاف الكون بما فيه من نبات وجماد . . . وقد عاتبت أسلافنا على هجرهم للفلسفة القرآنية الدارسة للمادة ، وانشغالهم بالفلسفة اليونانية الباحثة فى التصورات والأوهام . وإن كان من آبائنا من سد هذه الخلة ، لكنهم للأسف قلة . . .

(49/813)

ونقف قليلا عند قوله تعالى " فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر " . المسلمون ليسوا مكلفين بإقامة دولة استعمارية تذل الأعناق وتسرق الخيرات . لقد كلفوا بإقامة دولة كبرى تحرر العقول وتحدو البشر إلى الكمال . وقيام هذه الدولة ليس امتيازا لجنس ولا تفوقا لنسب . إنه لون شريف من الجهاد فى سبيل الله ! فهل نعى ؟ لقد أصيبت الفضائل فى مقاتلها ، لقدرة السلطات الكفور على حماية الأهواء ونشر المظالم ويجب أن تقوم سلطة مؤمنة بحماية الطهارة وإقرار العدالة والدعوة الدءوب للإيمان والصلاح . وعلى كل حال ، فمهما طالت الأعمار أو قصرت ، فالمصير إلى الله العدل . " إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 516.515 ﴾

(50/813)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(51/813)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الغاشية

أقول: لما أشار سبحانه في سورة الأعلى بقوله: (سَيَذكَّرُ مَن يَخشى ويَتَجنَبُها الأَشقى الذي يَصلى النارَ الكُبرى) إلى قوله: (والآخرةُ خيرٌ وأَبقى) إلى المؤمن والكافر ، والنار والجنة إجمالا ، فصل ذلك في هذه السورة فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما ، على نمط ما هنالك ، ولذا قال هنا : (عامِلةٌ ناصِبة) في مقابل: (الأَشقى) هناك وقال هنا (تَصلى ناراً حامية) إلى: (لا يُسمِنُ ولا يُغني مِن جوع) في مقابلة: (يَصلى النارَ الكُبرى) هناك ولما قال هناك في الآخرة: (خيرٌ وأَبقى) بسط هنا صفة الجنة أكثر من صفة النار ، تحقيقاً لمعنى الخيرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 149 . 150﴾

(52/813)

قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ

وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له العظمة البالغة والحكمة الباهرة) الرحمنْ (الذي له الفيض الأعلى والنعم الظاهرة (الرحيم) الذي اصطفى أولياء فأصلح بواطن نعمهم حتى عادت ظاهرة طاهرة .

لما ختمت " سبح " بالحث على تطهير النفوس عن وضر الدنيا ، ورغب في ذلك بخيرية الآخرة تارة والاقتداء بأولي العزم من الأنبياء أخرى ، رهب أول هذه من الإعراض عن ذلك مرة ، ومن التزكي بغير منهاج الرسل أخرى ، فقال تعالى مذكراً بالآخرة التي حث عليها آخر تلك مقرراً لأشرف خلقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن ذلك أعظم في تقدير اتباعه وأقعد في تحريك النفوس إلى تلقي الخبر بالقبول : ﴿ هل أتاك ﴾ أي جاءك وكان لك وواجهك على وجه الوضوح يا أعظم خلقنا ﴿ حديث الغاشية ﴾ أي القيامة التي تغشي الناس بدواهيها وشدائدها العظمى وزواجرها ونواهيها ، فإن الغشي لا يكون إلا فيما يكره .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم تنزيهه سبحانه عما توهم الظالمون ، واستمرت آي السورة على ما يوضح تقدس الخالق جل جلاله عن عظيم مقالهم ، أتبع ذلك بذكر الغاشية بعد افتتاح السورة بصورة الاستفهام تعظيماً لأمرها ، فقال لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " هل أتاك " يا محمد " حديث الغاشية " وهي القيامة ، فكأنه سبحانه وتعالى يقول : في ذلك اليوم يشاهدون جزاءهم ويشتد تحسرهم حين لا يغني عنهم ، ثم عرف بعظيم امتحانهم في قوله : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ مع ما بعد ذلك وما قبله ، ثم عرف بذكر حال من كان في نقيض حالهم إذ ذلك أزيد في الفرح وأدهى ، ثم أردف بذكر ما نصب من الدلائل وكيف لم يغن فقال : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ – الآيات ، أي أفلا يعتبرون بكل ذلك ويستدلون بالصنعة على الصانع ثم أمره بالتذكار – انتهى .

(54/813)

ولما هول أمرها بانبهامها وعمومها ، زاد في التهويل بما ذكر من أحوالها في تفصيل الناس إلى شقي وسعيد ، وبدأ بالشقي لأن المقام لإنذار المؤثرين للحياة الدنيا ، وسوّغ الابتداء بالنكرة التفصيل فقال : ﴿ وجوه ﴾ أي كثيرة جداً كائنة ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ تغشى الناس

﴿ خاشعة ﴾ أي ذليلة مخبتة من الخجل والفضيحة والخوف والحسرة التي لا تنفع في مثل هذا الوقت ﴿ عاملة ﴾ أي مجتهدة في الأعمال التي تبتغي بها النجاة حيث لا نجاة بفوات دار العمل فتراها جاهدة فيما كلفتها به الزبانية من جر السلاسل والأغلال وخوض الغمرات من النيران ونحو ذلك كأن يقال له : أدّ الأمانة ثم تمثل له أمانته في قعر جهنم ، فتكلف النزول إليها ثم يحملها على عنقه ويصعد في جبال النيران حتى إذا كاد أن يصل إلى أعلاها سقطت منه فيتكلف النزول إليها وهكذا ، وهذا بما كان يهمل العمل في الدنيا ﴿ ناصبة ﴾ أي هي في ذلك في غاية التعب والدؤوب في العمل والاجتهاد - هذه رواية العوفي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، وذلك لأنهم لم يخشوا الله في الدنيا فلم يعملوا له فلم ينصبوا في طاعته أجسادهم فاضطرهم في ذلك اليوم إلى أعظم مما أبوه في الدنيا مع المضرة دون المنفعة ، ويجوز أن يراد بها الذين تعبوا ونصبوا في الدنيا أجسامهم وهم على غير دين الإسلام كالرهبان من النصارى بعد النسخ وزنادقة المتصوفة من الفلاسفة وأتباعهم ، بأن يكون (وجوه) مبتدأ و (يومئذ) خبره أي كائنة يومئذ ، ثم يقدر ما بعده في جواب سؤال سائل يقول : ما شأنها ؟ فأجيب بقوله خاشعة ، أي في الدنيا - إلى آخره ، وهذا قول ابن عباس - رضى الله عنهما - في رواية عطاء عنه .

ولما كان العذاب لا يكون إلا على ما يكرهه المعذب ، دل على ذلك وعلى أنه على أنهى ما يكون ببناء الفعل للمفعول في قراءة أبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم فقال :

﴿ تصلى ﴾ أي يصليها مصل على أيسر وجه وأسهله بأمر من له الأمر بأن يغمسها قهراً على وجه الإحاطة بها ، والمعنى على قراءة الجماعة بالبناء للفاعل : تدخل وتباشر بأن يدسها فيها أصحابها فيحيط بها من كل جانب وهو يدل على غاية الذل لأن من فعل بنفسه هذا لا يكون إلا كذلك ﴿ ناراً حامية ﴾ متناهية في الحر لأنها عملت بالجهل على خلاف ما حده لها نبيها فأخلت بركن للعمل أو شرط لما استولى عليها من الغفلة التي أحاطت بها ، فلم تدع لها موضعاً يصلح لدخول الرحمة منه .

ولما كان من في الحر أحوج شيء إلى ما يبرد باطنه ، قال بانياً عند الكل للمفعول جرياً على قراءة أبي عمرو في الذي قبله : ﴿ تسقى ﴾ أي يسقى كل من أذن له الملك في ذلك على أهون وجه وأيسره ﴿ من عين آنية ﴾ أي بلغت غايتها في الحر فنضجت غاية النضج فصارت إذا قربوها منهم سقط لحم وجوههم ، وإذا شربوا قطعت أمعاءهم مما شربوا في الدنيا من كاسات الهوى التي قطعوا باستلذاذهم لها قلوب الأولياء .

ولما ذكر ما يسقونه على وجه علم منه أنه لا يلذذ ولا يروي من عطش ، أتبعه ما يطعمونه فقال حاصراً له : ﴿ ليس لهم ﴾ أي هؤلاء الذين أذابوا أنفسهم في عبادة لم يأذن الله فيها ﴿ طعام ﴾ أصلاً ﴿ إلا من ضريع ﴾ أي يبيس الشبرق ، وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً ، فإذا يبس تحامته ، وهو سم ، وقال في القاموس : والضريع كأمير : الشبرق أو يبيسه أو نبات رطبه يسمى شبرقاً ، ويابسه يسمى ضريعاً ، لا تقربه دابة لخبثه ، أو شيء في جهنم أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأحرّ من النار ، ونبات منتن يرمى به البحر ، وقال الهروي في الغريبين وعبد الحق في الواعي : الضريع : الشبرق ، وهو نبات معروف بالحجاز ذو شوك ، ويقال شبرق ما دام رطباً ، فإذا جف فهو ضريع ، وقال القزاز في ديوانه : الضريع : يبيس من يبيس الشجر ، وقيل : هو يبيس الشبرق خاصة ، وقيل : هو نبات أخضر يرمى به البحر وهو منتن .

أبو حنيفة رحمه الله تعالى : وهو مرعى لا تعقد عليه السائمة شحماً ولا لحماً وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها .

وقال ابن الأثير في النهاية : الضريع هو نبت بالحجاز له شوك كبار ، وقال : الشبرق نبات حجازي يؤكل وله شوك ، وإذا يبس سمي الضريع .

وهذا ثوب مشبرق وهو الذي أفسد ، وفي نسجه سخافة ، وشبرقت الثوب أيضاً : حرقته

، وقال في القاموس : الشبرق كزبرج : رطب الضريع واحده بهاء ، قال البغوي رحمه الله تعالى : قال مجاهد وقتادة وعكرمة : هو نبت ذو شوك لاطىء بالأرض ، تسميه قريش الشبرق ، فإذا هاج سموه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ما .

(57/813)

ولا يمتنع في قدرة الله سبحانه وتعالى أن يكون الغسلين إذا انفصل عن أبدان أهل النار صار على هيئة الشبرق المسمى ضريعاً ، فيكون طعامهم الغسلين الذي هو الضريع ، ويمكن أن يكون ذلك كناية عن أقبح العيش ولا يراد به شيء بعينه – والله تعالى أعلم ، قال الملوي : وسمي ضريعاً لأن الإنسان يتضرع عند أكله من خشونته ومرارته ونتنه .

ولما حصر أكلهم في هذا ، وكان الضريع المعروف عند العرب قد يتصور متصور أنه لو أكره شيء على أكله أسمنه أو سد جوعته ، وكان الضريع المأكول لهم في القيامة شوكاً من نار كما ورد تفسيره عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مرفوعاً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفى عند فائدة الطعام ، فقال واصفاً الضريع أو الطعام المقدر بعد " إلا " بما يفهمه تحامي الإبل التي ترعى كل نابت وهي أعظم الحيوانات إقبالاً على أنواع الشوك له من أنه ضر بلا نفع

﴿ لا يسمن ﴾ أي فلا يشبع ولا يقوي لأنه يلزم ما يسمن ، فعدمه يلازم عدمه .

ولما نفى عنه ما هو مقصود أهل الرفاهية وبدأ به لأن المقام له نفي ما يقصد للكفاف فقال تعالى : ﴿ ولا يغني ﴾ أي يكفي كفاية مبتدئة ﴿ من جوع ﴾ فلا يحفظ الصحة ولا يمنع الهزال ، والمقصود من الطعام أحد الأمرين ، وذلك لأنهم كانوا يأكلون الحرام الذي تنبت عليه لحومهم فيفسدها بفساده وتنمو به نفوسهم فيخبثها بخبثه ويتغذون بالشبه أيضاً ويباشرونها في جميع أوقاتهم ويباشرون العلوم التي تظلم القلوب كالفلسفة والشعر والسحر ونحو ذلك مما يجر إلى البدع .

والآية من الاحتباك : نفي السمن أولاً يدل على إثبات الهزال ثانياً ، ونفي الإغناء من الجزع ثانياً يدل على نفي الشبع أولاً ، ومن جعل ذلك صفة الطعام أفسد المعنى لأنه يؤول إلى : ليس لهم طعام منفي عنه الإسمان والإغناء ، بل لهم طعام لا ينفي عنه ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 404 . 407 ﴾

(58/813)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ تصلى ﴾ بضم التاء من الإصلاء : أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر وحماد . الباقون : بالفتح ﴿ لا يسمع ﴾ بضم الياء التحتانية ﴿ لاغية ﴾ بالرفع : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب . وقرأ نافع بتاء التأنيث والرفع . الآخرون : بفتح تاء التأنيث أو الخطاب لكل سامع ﴿ لاغية ﴾ بانصب . ﴿ بمصيطر ﴾ بالصاد : أبو جعفر ونافع وعاصم وعلي وخلف . وقرأ حمزة في رواية بإشمام الزاي . الباقون : بالسين . ﴿ إيابهم ﴾ بالتشديد : يزيد .

الوقوف : ﴿ الغاشية ﴾ ه ط ﴿ خاشعة ﴾ ه ﴿ ناصبة ﴾ ه ك ﴿ حامية ﴾ ه ك ﴿ آنية ﴾ ه ط لتمام الأوصاف ﴿ ضريع ﴾ ه ط ﴿ جوع ﴾ ه ج للابتداء بعده ﴿ ناعمة ﴾ ه لا ﴿ راضية ﴾ ه لا ﴿ عالية ﴾ ه ج ﴿ لاغية ﴾ ه ط ﴿ جارية ﴾ ه م لئلا يتوهم أن ما بعدها صفة لعين فيكون في الحارية سرور ليس كذلك ﴿ مرفوعة ﴾ ه لا ﴿ موضوعة ﴾ ه لا ﴿ مصفوفة ﴾ ه لا ﴿ مبثوثة ﴾ ه ط ﴿ خلقت ﴾ ه ﴿ رفعت ﴾ ه ك ﴿ نصبت ﴾ ه ط ﴿ سطحت ﴾ ه وقد يوقف على الآيات الأربع لأجل مهلة النظر وإلا فلكل متسقة ﴿ مذكر ﴾ ه ط ﴿ بمصيطر ﴾ ه لا ﴿ وكفر ﴾ ه ك ﴿ الأكبر ﴾ ه ط ﴿ إيابهم ﴾ ه لا ﴿ حسابهم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 488 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن في قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

مسألتين :

المسألة الأولى :

ذكروا في الغاشية وجوهاً أحدها : أنها القيامة من قوله : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب ﴾ [العنكبوت : 55] إنما سميت القيامة بهذا الاسم ، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه الأول : أنها ترد على الخلق بغتة وهو كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ الله ﴾ [يوسف : 107] ، والثاني : أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين .

والثالث : أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد القول الثاني : الغاشية هي النار أي تغشى وجوه الكفرة وأهل النار قال تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم : 50] ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف : 41] وهو قول سعيد بن جبير ومقاتل القول الثالث : الغاشية أهل النار يغشونها ويقعون فيها والأول أقرب ، لأن على هذا التقدير يصير المعنى أن يوم القيامة يكون بعض الناس في الشقاوة ، وبعضهم في السعادة .

المسألة الثانية :

إنما قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ وذلك لأنه تعالى عرف رسول الله من حالها ، وحال الناس فيها ما لم يكن هو ولا قومه عارفاً به على التفصيل ، لأن العقل إن دل فإنه لا يدل إلا على أن حال العصاة مخالفة لحال المطيعين .

فأما كيفية تلك التفاصيل فلا سبيل للعقل إليها ، فلما عرفه الله تفصيل تلك الأحوال ، لا جرم قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ فاعلم أنه وصف لأهل الشقاوة ، وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المراد بالوجوه أصحاب الوجوه وهم الكفار ، بدليل أنه تعالى وصف الوجوه بأنها خاشعة عاملة ناصبة ، وذلك من صفات المكلف ، لكن الخشوع يظهر في الوجه فعلقه بالوجه لذلك ، وهو كقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22] وقوله : ﴿ خاشعة ﴾ أي ذليلة قد عراهم الخزي والهوان ، كما قال : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ [

السجدة : 12] وقال : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خاشعين مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيّ ﴾ [الشورى : 45] وإنما يظهر الذل في الوجه ، لأنه ضد الكبر الذي محله الرأس والدماغ .

وأما العاملة فهي التي تعمل الأعمال ، ومعنى النصب الدؤوب في العمل مع التعب .

المسألة الثانية :

(61/813)

الوجوه الممكنة في هذه الصفات الثلاثة لا تزيد على ثلاثة ، لأنه إما أن يقال : هذه الصفات بأسرها حاصلة في الآخرة ، أو هي بأسرها حاصلة في الدنيا ، أو بعضها في الآخرة وبعضها في الدنيا أما الوجه الأول : وهو أنها بأسرها حاصلة في الآخرة فهو أن الكفار يكونون يوم القيامة خاشعين أي ذليلين ، وذلك لأنها في الدنيا تكبرت عن عبادة الله ، وعاملين لأنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال الثقيلة ، على ما قال : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ [الحاقة : 32] وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل بحيث ترتقي عنه تارة وتغوص فيه أخرى والتقحم في حر جهنم والوقوف عراة حفاة جياعاً عطاشاً في العرصات قبل دخول النار في يوم كان مقداره ألف

سنة ، وناصبين لأنهم دائماً يكونون في ذلك العمل قال الحسن : هذه الصفات كان يجب أن تكون حاصلة في الدنيا لأجل الله تعالى ، فلما لم تكن كذلك سلطها الله عليهم يوم القيامة على سبيل العقاب وأما الوجه الثاني : وهو أنها بأسرها حاصلة في الدنيا ، فقيل : هم أصحاب الصوامع من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والمجوس ، والمعنى أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب ، وذلك لأنهم لما اعتقدوا في الله ما لا يليق به ، فكأنهم أطاعوا ذاتاً موصوفة بالصفات التي تخيلوها فهم في الحقيقة ما عبدوا الله وإنما عبدوا ذلك المتخيل الذي لا وجود له ، فلا جرم لا تنفعهم تلك العبادة أصلاً وأما الوجه الثالث : وهو أن بعض تلك الصفات حاصل في الآخرة وبعضها في الدنيا ففيه وجوه أحدها : أنها خاشعة في الآخرة ، مع أنها كانت في الدنيا عاملة ناصبة ، والمعنى أنها لم تنتفع بعملها ونصبها في الدنيا ، ولا يمتنع وصفهم ببعض أوصاف الآخرة ، ثم يذكر بعض أوصاف الدنيا ثم يعاد ذكر الآخرة ، إذا كان المعنى في ذلك مفهوماً فكأنه تعالى قال : وجوه يوم القيامة خاشعة ، لأنها

كانت في الدنيا عاملة ناصبة في غير طاعة الله ، فهي إذن تصلى ناراً حامية في الآخرة ثانيها : أنها خاشعة عاملة في الدنيا ، ولكنها ناصبة في الآخرة ، فخشوعها في الدنيا خوفها الداعي لها إلى الإعراض عن لذائذ الدنيا وطيباتها ، وعملها هو صلاتها وصومها ونصبها في الآخرة هو مقاساة العذاب على ما قال تعالى :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : 47] وقرىء عاملة ناصبة على الشتم ، واعلم أنه تعالى بعد أن وصفهم بهذه الصفات الثلاثة شرح بعد ذلك كيفية مكانهم ومشربهم ومطعمهم نعوذ بالله منها .

أما مكانهم فقوله تعالى :

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4)

يقال : صلى بالنار يصلى أي لزمها واحترق بها وقرىء بنصب التاء وحجته قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 163] وقرأ أبو عمرو وعاصم برفع التاء من أصليته النار لقوله : ﴿ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة : 31] وقوله : ﴿ ونصلوه جَهَنَّمَ ﴾ وصلوه مثل أصلوه ، وقرأ قوم تصلى بالتشديد ، وقيل : المصلى عند العرب ، أن يحفروا حفيراً فيجمعوا فيه جمراً كثيراً ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه ، فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلاة أو في التنور ، فلا يسمى مصلى .

وقوله : ﴿ حَامِيَةً ﴾ أي قد أوقدت ، وأحميت المدة الطويلة ، فلا حر يعدل حرها ، قال

ابن عباس : قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله .

وأما مشروبهم قوله تعالى :

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5)

الآني الذي قد انتهى حره من الإيناء بمعنى التأخير .

وفي الحديث : "أن رجلاً أخر حضور الجمعة ثم تخطى رقاب الناس ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " آنيت وآذيت " ونظير هذه الآية قوله : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ [الرحمن : 44] قال المفسرون : إن حرها بلغ إلى حيث لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت .

وأما مطعومهم فقوله تعالى :

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6)

(63/813)

واختلفوا في أن الضريع .

ما هو على وجوه أحدها : قال الحسن : لا أدري ما الضريع ولم أسمع فيه من الصحابة شيئاً

وثانيها : روى عن الحسن أيضاً أنه قال : الضريع بمعنى المضرع كالأليم والسميع والبديع

بمعنى المؤلم والمسمع والمبدع ، ومعناه إلا من طعام يحملهم على أن يضرعوا ويذلوا عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرار وثالثها : أن الضريع ما يبس من الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً ، فإذا يبس تحامته وهو سم قاتل ، قال أبو ذويب :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى . . وعاد ضريعاً عاد عنه النحائص

جمع نحوص وهي الحائل من الإبل ، وهذا قول أكثر المفسرين وأكثر أهل اللغة ورابعها : قال الخليل في كتابه : ويقال للجلدة التي على العظم تحت اللحم هي الضريع ، فكأنه تعالى وصفه بالقلة ، فلا جرم لا يسمن ولا يغني من جوع وخامسها : قال أبو الجوزاء : الضريع السلا ، ويقرب منه ما روي عن سعيد بن جبير أنه شجرة ذات شوك ، ثم قال أبو الجوزاء : وكيف يسمن من كان يأكل الشوك ! وفي الخبر الضريع شيء يكون في النار شبيه الشوك أمر من الصبر ، وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار ، قال القفال : والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام ، بيان نهاية ذلهم وذلك لأن القوم لما أقاموا في تلك السلاسل والأغلال تلك المدة الطويلة عطاشاً جياعاً ، ثم ألقوا في النار فرأوا فيها ماء وشيئاً من النبات ، فأحب أولئك القوم تسكين ما بهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميماً لا يروي بل يشوي ، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغني من جوع ، فأيسوا وانقطعت أطماعهم في إزالة ما بهم

من الجوع والعطش ، كما قال : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاء كَالْمُهْلِ ﴾ [الكهف : 29]
وبين أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع ، نعوذ بالله منها وههنا سؤالات :

(64/813)

السؤال الأول : قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36-35] وقال ههنا : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ والضريع غير الغسلين والجواب : من وجهين الأول : أن النار دركات فمن أهل النار من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصديد ، لكل باب منهم جزء مقسوم الثاني : يحتمل أن يكون الغسلين من الضريع ويكون ذلك كقوله : مالي طعام إلا من الشاه ، ثم يقول : مالي طعام إلا من اللبن ، ولا تناقض لأن اللبن من الشاة .

السؤال الثاني : كيف يوجد النبت في النار ؟ الجواب : من وجهين : الأول : ليس المراد أن الضريع نبت في النار يأكلونه ، ولكنه ضرب مثله ، أي إنهم يقتاتون بما لا يشبعهم أو يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع الثاني : لم لا يجوز أن يقال : إن النبت يوجد في النار ؟ فإنه لما لم يستبعد بقاء بدن الإنسان مع كونه لحماً ودماً في النار أبد الآباد ، فكذا ههنا وكذا

القول في سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها .

أما قوله تعالى :

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

(65/813)

فهو مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع ، وأما المعنى ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن طعامهم ليس من جنس مطاعم الإنس ، وذلك لأن هذا نوع من أنواع الشوك والشوك مما يرعاه الإبل ، وهذا النوع مما ينفر عنه الإبل ، فإذن منفعتا الغذاء منتفيتان عنه ، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن وثانيها : أن يكون المعنى لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس لأن الطعام ما أشبع وأسمن وهو منهما بمعزل ، كما تقول : ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد وثالثها : روي أن كفار قريش قالت : إن الضريع لتسمن عليه إبلنا ، فنزلت : ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ فلا يخلو إما أن يتعنتوا بذلك الكلام كذباً فيرد قولهم بنفي السمن والشبع ، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم ، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع ، قال القاضي : يجب في كل طعامهم أن لا يغني من جوع لأن ذلك

نفع ورأفة ، وذلك غير جائز في العقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 140.137 ﴾

(66/813)

وقال القرطبى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) ﴾

"هل" بمعنى قد ؛ كقوله : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ [الإنسان : 1] ؛ قال قُطْرب .

أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ؛ قاله أكثر المفسرين .

وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب : "الغاشية" : النار تَغْشَى وجوه الكفار ؛ ورواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ ودليله قوله تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم : 50] .

وقيل : تَغشَى الخلق .

وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث ؛ لأنها تَغشَى الخلائق .

وقيل : "الغاشية" أهل النار يَغْشَونها ، ويقتحمون فيها .

وقيل : معنى "هل أتاك" أي هذا لم يكن من علمك ، ولا من علم قومك .

قال ابن عباس : لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا .

وقيل : إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله ؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك ؛ وهو معنى قول الكلبيّ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2)

قال ابن عباس : لم يكن أتاه حديثهم ، فأخبره عنهم ، فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ قال سفيان : أي ذليلة بالعذاب .

وكل متضائلٍ ساكن خاشع .

يقال : خَشَعَ في صلاته : إذا تذلل ونَكَّس رأسه .

وخَشَعَ الصوتُ : خفِي ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن ﴾ [طه : 108] .

والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه .

وقال قتادة وابن زيد : "خاشعة" أي في النار .

والمراد وجوه الكفار كلهم ؛ قاله يحيى بن سلام .

وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى ؛ قاله ابن عباس .

ثم قال : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ فهذا في الدنيا ؛ لأن الآخرة ليست دار عمل .

فالمعنى : وجوه عاملة ناصبة في الدنيا "خاشعة" في الآخرة .

قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب في سيره : قد عمل يعمل عملاً .

ويقال للسحاب إذا دام برقه : قد عَمل يعمل عملاً .

وذا سحاب عَمِل .

قال الهذليّ :

حتى شآها كَلِيلٌ مَوْهِناً عمِلٌ . . .

(67/813)

باتت طِرابا وباتَ الليلَ لم يَنَمِ

﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي تعِبة .

يقال : نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً : إذا تعب ، ونَصْباً أيضاً ، وأنصبه غيره .

فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل ، وعلى الكفر ؛ مثل عَبَدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له .

وقال سعيد عن قتادة : "عاملة ناصبة" قال : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل ، فأعملها الله وأنصبها في النار ، بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حُفاة عراة في العَرَصات ، في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة .

قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا ، ولم تنصب له ، فأعملها وأنصبها في جهنم .

وقال الكلبيّ : يُجَرّون على وجوههم في النار .

وعنه وعن غيره : يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم ، فَينصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب ، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار ؛ كما تخوض الإبل في الوَحَل ، وارتقائها في صَعُود من نار ، وهبوطها في حَدُور منها ؛ إلى غير ذلك من عذابها .

وقاله ابن عباس .

وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد ، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير "ناصبةً" بالنصب على الحال .

وقيل : على الذمّ .

الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ ، فيوقف على "خاشعة" .

ومن جعل المعنى في الآخرة ، جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن "وجوه" ، فلا يوقف على "خاشعة" .

وقيل : "عاملة ناصبة" أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة .

وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذٍ عاملة في الدنيا ، ناصبة في الآخرة ، خاشعة .

قال عكرمة والسدّيّ : عملت في الدنيا بالمعاصي .

وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم : هم الرُّهبان أصحاب الصوامع ؛ وقاله ابن عباس .

وقد تقدّم في رواية الضحاك عنه .

(68/813)

وروي عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل ، عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى .

فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما يبكيك ؟ قال : هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه ، ورجا رجاء فأخطأه ، وقرأ قول الله عز وجل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ .

قال الكسائيّ : التقهل : رثاثة الهيئة ، ورجل مُتَقَهِّل : يابس الجلد سَيِّيءُ الحال ، مثل المتقحل .

وقال أبو عمرو : التقهل : شكوى الحاجة .

وأنشد :

لَعْواً إذا لاقيته تقهْلاَ . . .

والقَهْل : كفران الإحسان .

وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً : إذا أثنى ثناء قبيحاً .

وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه .

وانقهل ضعف وسقط ؛ قاله الجوهري .

وعن عليّ رضي الله عنه أنهم أهل حَرُوراَءَ ؛ يعني " الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "تَحقِرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهمُ من الرَّمِيَّة . . . " " الحديث .

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4)

أي يصيبها صِلاؤها وحرّها .

﴿ حَامِيَةً ﴾ شديدة الحرّ ؛ أي قد أُوقدت وأُحْميت المدة الطويلة .

ومنه حَمِي النهار (بالكسر) ، وحمِي التنور حَمْياً فيهما ؛ أي اشتدّ حرّه .

وحكى الكِسائيّ : اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوِها : بمعنى .

وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب "تُصْلَى" بضم التاء .

الباقون بفتحها .

وقرىء "تُصَلَّى" بالتشديد .

وقد تقدم القول فيها في ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] .

الماورديّ : فإن قيل فما معنى وصفها بالحَمْى ، وهي لا تكون إلا حامية ، وهو أقل أحوالها ، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة ؟ قيل : قد اختلف في المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه : أحدها : أن المراد بذلك أنها دائمة الحَمْى ، ليست كنار الدنيا التي ينقطع حَمْيها بانطفائها .

(69/813)

الثاني : أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات ، وانتهاك المحارم ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن لكل مِلك حِمًى ، وإن حِمى الله محارمه .

ومن يرتع حول الحِمَى يُوشِك أن يقع فيه " الثالث : أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها ، أو ترام مُماسَتها ؛ كما يحمِي الأسد عَرِينه ؛ ومثله قول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له . . .

وتتقِي صَولَة المستأسِدِ الحامِي

الرابع : أنها حامية حِمَى غيظ وغضب ؛ مبالغة في شدّة الانتقام .

ولم يرد حِمَى جرْم وذات ؛ كما يقال : قد حِميَ فلان : إذا اغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام .

وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ [الملك : 8] .

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5)

الآني : الذي قد انتهى حَرّه ؛ من الإيناء ، بمعنى التأخير .

ومنه : "آنيتَ وآذيت" .

وآناه يؤنيه إيناء ، أي أحره وحبسه وأبطأه .

ومنه ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن : 44] .

وفي التفاسير ﴿ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي تناهَى حرها ؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت .

وقال الحسن : "آنِيَةٍ" أي حرها أدرك ؛ أوقِدت عليها جهنم منذ خلقت ، فدُفِعوا إليها وِرداً عِطاشا .

وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : بلغت أناها ، وحان شربها .

قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ ﴾ أي لأهل النار .

﴿ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم .

قال عكرمة ومجاهد : الضَّرِيع : نبت ذو شوك لاصق بالأرض ، تسميه قريش الشِّبْرِق إذا

كان رطباً ، فإذا يبِس فهو الضريع ، لا تَقْرُبه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه ؛ وهو سُمٌّ قاتل ، وهو أخبث الطعام وأشنعه ؛ على هذا عامّة المفسرين .

إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال : هو شيء يَرْمِي به البحر ، يسمَّى الضَّريعَ ، من أقوات الأنعام لا الناس ، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع ، وهلكت هُزْلاً .

(70/813)

والصحيح ما قاله الجمهور : أنه نبت .

قال أبو ذُؤيب :

رَعَى الشّبرِقَ الرَّيّانَ حتى إذا ذَوَى . . .

وعاد ضَّريعاً بانَ منه النَّحائصُ

وقال الهُذليّ وذكر إبلاً وسوء مرعاها :

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضريعِ فكلُّها . . .

حَدْباءُ دامِيةُ اليدين حَرُودُ

وقال الخليل : الضريع : نبات أخضر مُنتن الريح ، يرمي به البحر .

وقال الواليّ عن ابن عباس : هو شجر من نار ، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما

عليها .

وقال سعيد بن جُبير : هو الحجارة ، وقاله عكرمة .

والأظهر أنه شجر ذو شوك حَسْب ما هو في الدنيا .

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الضريع : شيء يكون في النار ، يشبه الشوك ، أشدّ مرارة من الصبرِ ، وأنتن من الجيفة ، وأحر من النار ، سماه الله ضريعاً "

وقال خالد بن زياد : سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال : بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم ، حَمْلها القيح والدم ، أشدّ مرارة من الصَّبِرِ ، فذلك طعامهم .

وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب .

وقال ابن كيسان : هو طعام يَضْرعون عنده ويذِلون ، ويتضرعون منه إلى الله تعالى ، طلباً للخلاص منه ؛ فسمي بذلك ، لأن آكله يضرع في أن يُعْفَى منه ، لكراهته وخشونته .

قال أبو جعفر النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع ، وهو الذليل ؛ أي ذو ضراعة ، أي من شربِه ذليل تلحقه ضراعة .

وعن الحسن أيضاً : هو الزُّقوم .

وقيل : هو وادٍ في جهنم .

فالله أعلم .

وقد قال الله تعالى في موضع آخر : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ * وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 35 36] .

وقال هنا : "إِلا مِن ضرِيعٍ" وهو غير الغِسلِين .

ووجه الجمع أن النار دَرَكات ؛ فمنهم مَنْ طعامه الزَّقُوم ، ومنهم من طعامه الغِسلين ، ومنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصّديد .

(71/813)

قال الكلبيّ : الضريع في درجة ليس فيها غيره ، والزقوم في درجة أخرى .

ويجوز أن تُحْمل الآيتان على حالتين كما قال : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن : 44] .

القُتَبيّ : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نَبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار .

وكذلك سلاسل النار وأغلالُها وعقاربها وحَياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار .

قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده ، بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة .

وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها .

القُشَيريّ : وأمثل من قول القُتَبيّ أن نقول : إن الذي يُبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبقي النبات وشجرة الزقوم في النار ، ليعذب بها الكفار .

وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا يَنْبت في النار ، ولا أنهم يأكلونه .

فالضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس .

وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع ، وهلكت هزلاً ، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريع له مثلاً ، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع .

قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء ، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبته في حريق النار ، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً ، فلا النار تُحْرِق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطْفىء النار ؛ فقال تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ [يس : 80] .

وكما قيل حين نزلت : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ﴾ [الإسراء : 97] : قالوا " يا رسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : "الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمْشِيهم على وجوههم" " فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب .

أو ليس قد أخْبرَنا أنه ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [النساء : 56] ، وقال : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ [إبراهيم : 50] ، وقال : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً ﴾ [المزمل : 12] أي قُيوداً .

﴿ وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ [المزمل : 12 13] قيل : ذا شوك .

فإنما يتَلوّن عليهم العذاب بهذه الأشياء .

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

يعني الضريع لا يسمن آكله .

وكيف يَسْمن من يأكل الشوك ! قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتسمن بالضَّريع ، فنزلت : ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ .

وكَذَبوا ، فإن الإبل إنما ترعاه رَطْباً ، فإذا يبس لم تأكْله .

وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع ، لأن المضارعة المشابهة .

فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(73/813)

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

قيل هل بمعنى قد وقد ظاهر كلام قطرب حيث قال أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية والمختار أنه للاستفهام وهو استفهام أريد به التعجيب مما في حيزه والتشويق إلى استماع والاشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن تتناقلها الرواة ويتنافس في تلقنها الوعاة وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ فقام عليه الصلاة والسلام يستمع ويقول نعم قد جاءني والغاشية القيامة كما قال سفيان والجمهور وأطلق عليها ذلك لأنها تغنشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وقال محمد بن كعب وابن جبير هي النار من قوله تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [إبراهيم : 50] [الأعراف : 41] وليس بذاك فان ما سيرى من حديثها ليس مختصاً بالنار وأهلها بل ناطق بأحوال أهل الجنة أيضاً .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ المرفوع مبتدأ وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لوقوعه في موضع التنويع وقيل لأن تقدير الكلام أصحاب وجوه والخبر ما بعد والظرف متعلق به والتنوين عوض عن جملة اشعرت بها الغاشية أي يوم إذ غشيت والجملة إلى قوله تعالى : ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من الاستفهام التشويقي كأنه قيل من جهته عليه الصلاة

والسلام ما أتاني حديثها ما هو فقيل ﴿ وُجُوهٌ ﴾ الخ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يكن أتاه صلى الله عليه وسلم حديثها فأخبره سبحانه عنها فقال جل وعلا وجوه يومئذ : ﴿ خاشعة ﴾ والمراد بخاشعة ذليلة ولم توصف بالذل ابتداء لما في وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التهكم وإنها لم تخشع في وقت ينفع فيه الخشوع وكذا حال وصفها بالعمل في قوله سبحانه :

(74/813)

﴿ عَامِلَةٌ ﴾ على ما قيل وهو وقوله تعالى : ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ خبر إن آخران لوجوه إذ المراد بها أصحابها وفي ذلك الاحتمالات أخر ستأتي إن شاء الله تعالى أي عاملة في ذلك اليوم تعبة فيه وذلك في النار على ما روى عن ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة وعملها فيها على ما قيل جر السلاسل والأغلال والخوض فيها خوض الإبل في الوحل والصعود والهبوط في تلالها ووهادها وذلك جزاء التكبر عن العمل وطاعة الله تعالى في الدنيا وعن زيد بن أسلم أنه قال أي عاملة في الدنيا ناصبة فيها لأنها على غير هدى فلا ثمرة لها إلا النصب وخاتمته النار وجاء ذلك في رواية أخرى عن ابن عباس وابن جبير أيضاً والظاهر أن الخشوع عند هؤلاء باق على كونه في الآخرة وعليه فيومئذ لا تعلق له بالوصفين معنى بل

متعلقهما في الدنيا ولايخفى ما في هذا الوجه من البعد وظهور أن العمل لا يكون في الآخرة بعد تسليمه لا يجدي نفعاً في دفع بعده وقال عكرمة عاملة في الدنيا ناصبة يوم القيامة والظاهر أن الخشوع على ما مر ولا يخفى ما في جعل المحاط باستقباليين ماضوياً من البعد وقيل الأوصاف الثلاثة في الدنيا والكلام على منوال

.

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة . . .

أي ظهر لهم يومئذ أنها كانت خاشعة عاملة ناصبة في الدنيا من غير نفع وأما قبل ذلك اليوم فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وهؤلاء النساك من اليهود والنصارى كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ويشمل غيرهم مما شاكلهم من نساك أهل الضلال وهذا الوجه أبعد من أخويه وقوله تعالى :

(75/813)

﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ متناهية في الحر من حميت النار إذا اشتد حرها خبر آخر لوجوه وقيل ﴿ خاشعة ﴾ صفة لها وما بعد أخبار وقيل الأولان صفتان والأخيران خبران وقيل الثلاثة الأول صفات وهذه الجملة هي الخبر والكل كما ترى وجوز أن يكون هذا وما

بعده من الجملتين استئنافاً مبيناً لتفاصيل أحوالها وقرأ ابن كثير في رواية شبل وحميد وابن محيصن ﴿ عاملة ناصبة ﴾ [الغاشية : 3] بالنصب على الذم وقرأ أبو رجاء وابن محيصن ويعقوب وأبو عمرو وأبو بكر تصلى بضم التاء وقرأ خارجة تصلى بضم التاء وفتح الصاد مشدد اللام للمبالغة .

﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ بلغت أناها أي غايتها في الحر فهي متناهية فيه كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن ﴾ [الرحمن : 44] وهو التفسير المشهور وقد روى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقال ابن زيد أي حاضرة لهم من قولهم أنى الشيء حضر وليس بذاك .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ بيان لطعامهم أثر بيان شرابهم والضريع كما أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس الشبرق اليابس وهي على ما قال عكرمة شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض وقال غير واحد هو جنس من الشوك ترعاه الإبل رطباً فإذا يبس تحامته وهو سم قاتل قال أبو ذؤيب

: رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى . . .

وصار ضريعاً بان عنه النحائص

وقال ابن غرارة الهذلي يذكر إبلاً وسوء مرعى

: وحبسن في هزم الضريع فكلها . . .

حدباء دامية اليدين حرود

(76/813)

وقال بعض اللغويين الضريع يبيس العرفج إذا انحطم وقال الزجاج نبت كالعوسج وقال الخليل نبت أخضر منتن الريح يرمى به البحر والظاهر أن المراد ما هو ضريع حقيقة وقيل هو شجرة نارية تشبه الضريع وأنت تعلم أنه لا يعجز الله تعالى الذي أخرج من الشجر الأخضر ناراً أن ينبت في النار شجر الضريع نعم يؤيد ما قيل ما حكاه في البحور الزاخرة عن البغوي عن ابن عباس يرفعه الضريع شيء في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حراً من النار فإن صح فذاك وقال ابن كيسان هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله تعالى طلباً للخلاص منه فسمي بذلك وعليه يحتمل أن يكون شجراً وغيره وعن الحسن وجماعة أنه الزقوم وعن ابن جبير أنه حجارة في النار وقيل هو واد في جهنم أي ليس لهم طعام إلا من ذلك الموضع ولعله هو الموضع الذي يسيل إليه صديد أهل النار وهو الغسلين وعليه يكون التوفيق بين هذا الحصر والحصر في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36] ظاهراً بأن يكون طعامهم من ذلك الوادي هو الغسلين الذي

يسيل إليه وكذا إذا أريد به ما قاله ابن كيسان واتحد به وقد يتحد بهما عليه أيضاً الزقوم واتحاده بالضريع على القول بأنه شجرة قريب وقيل في التوفيق أن الضريع مجاز أو كناية أريد به طعام مكروه حتى للإبل وغيرها من الحيوانات التي تلتذ رعي الشوك فلا ينافي كونه زقوماً أو غسلينا وقيل إنه أريد أن لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الناس كما يقال ليس لفلان ظل إلا الشمس أي لا ظل له وعليه يحمل قوله تعالى : و ﴿ لا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الاثيم ﴾ [الدخان : 43 ، 44] فلا مخالفة أصلاً وقيل إن الغسلين وهو الصديد في القدرة الإلهية أن تجعله على هشية الضريع والزقوم فطعامهم الغسلين والزقوم اللذان هما الضريع ولا يخفى تعسفه على

(77/813)

الرضيع وقد يقال في التوفيق على القول بأن الثلاثة متغايرة بالذات أن العذاب ألوان والمعذبون طبقات فمنهم أكلة لزقوم ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾

﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾

إما في محل جر صفة لضريع والمعنى أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك والشوك مما تراعاه الإبل وتتولع به وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه ومنفعتنا الغذاء منتفيتان عنه وهما إماطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن وإن شئت فقل إنه من شيء مكروه يضرع عنده ويتضرع إلى الله تعالى ويطلب منه سبحانه الخلاص عنه وليس فيه منفعتنا الغذاء أصلاً وأما في محل رفع صفة لطعام المقدر إذ التقدير ليس لهم طعام إلا طعام من ضريع والمعنى قريب مما ذكر ولا يجوز كونه صفة للمذكور إذ لا يدل حينئذ على أن طعامهم منحصر في الضريع بل يدل على أن ما لا يسمن ولا يغني من طعامهم منحصر فيه ويفسد المعنى وأما لا محل له من الإعراب على أنه مستأنف والأول أظهر ويروى أن كفار قريش قالوا لما سمعوا صدر الآية إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت ﴿ لَّا يُسْمِنُ ﴾ الخ قيل فلا يخلوا أما أن يتذكبوا ويتعنتوا بذلك وهو الظاهر فيرد قولهم بنفي السمن والشبع وأما أن يصدقوا فيكون المعنى أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم إنما هو غير مسمن ولا مغن من جوع وعلى الأول هو صفة مؤكدة رداً لما زعموه لا كاشفة إذ لا خفاء وعلى الثاني هو صفة مخصصة وأياً ما كان فتنكير الجوع للتحقير أي لا يغنى من جوع ما

وتأخير نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسل به إلى التصريح بنفي كلا الأمرين إذ لو قدم لما احتيج إلى ذكر نفي الاسمان ضرورة استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه ولذلك كرر لا لتأكيد النفي وفي "الإرشاد" أن نفي الأمرين عنه ليس على أن لهم استعداداً للشبع والسمن إلا أنه لا يفيد شيئاً منهما بل على أن لا استعداد من جهتهم ولا إفادة من جهتهم وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استعداء الطبيعة لبدل ما يتحلل من البدن مشوقة له إلى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب ويستغنى بهما عن

غيرهما عند استقرارهما في المعدة ويستفيد منهما قوة وسمناً عند انهضامهما بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى ادخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب وأما أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما والتذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير واستفادة قوة فهيهات وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيء مائع بارد ليطفؤه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة به في الجملة وهو المعنى بما روى أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث

يضطرون إلى أكل الضريع فإذا أكلوه سلط عليهم العطش فاضطروا إلى شرب الحميم فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم أعاذنا الله تعالى وسائر المسلمين من ذلك انتهى وهو خلاف الظاهر ومثله لا يقال عن الرأي وليس له فيما وقفنا عليه مستند يؤول لأجله الظواهر فالحق أن لهم جوعاً وعطشاً وشهوة إلى الطعام والشراب كما أن للجائع والعطشان في الدنيا شهوة إليهما لكنهما لهم هناك قد بلغا الغاية بتسليط الله تعالى عز وجل بدون سبب عادي على نحو ما في الدنيا فيضطرون لذلك إلى الضريع والحميم كما يضطر من أفرط فيه الجوع والعطش في الدنيا إلى تناول الكريه البشع من المطعوم والمشروب لكنهم لا ينتفعون بما يتناولونه بل يزدادون به عذاباً فوق العذاب نسأل الله تعالى العفو والعافية بمنه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(80/813)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) ﴾

الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة .

وكونُ الاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ المفيدة معنى (قد) ، فيه مزيد تشويق فهو استفهام صوري يكنى به عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلَغ السامع ، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبؤا الخصم ﴾ في سورة ص (21) .

وقوله : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ في سورة النازعات (15) .

وتقدم هنالك إطلاق فعل الإِتيان على فشو الحديث .

وتعريف ما أضيف إليه حديث ﴾ بوصفه ﴿ الغاشية ﴾ الذي يقتضي موصوفاً لم يذكر هو إيهام لزيادة التشويق إلى بيانه الآتي ليتمكن الخبر في الذهن كمال تمكُّن .

والحديث : الخبر المتحدَّث به وهو فعيل بمعنى مفعول ، أو الخبر الحاصل بحدثان أي ما حدث من أحوال .

وتقدم في سورة النازعات .

و ﴿ الغاشية ﴾ : مشتقة من الغشيان وهو تغطية متمكنة وهي صفة أريد بها حادثة القيامة سميت غاشية على وجه الاستعارة لأنها إذا حصلت لم يجد الناس مَفراً من أهوالها فكأنها غاششٍ يغشى على عقولهم .

ويطلق الغشيان على غيبوبة العقل فيجوز أن يَكون وصف الغاشية مشتقاً منه .

ففهم من هذا أن الغاشية صفة لمحذوف يدل عليه السياق وتأنيث الغاشية لتأويلها بالحادثة ولم يستعملوها إلا مؤنثة اللفظ والتأنيث كثير في نقل الأوصاف إلى الإسمية مثل الداهية

والطامة والصاخة والقارعة والآزفة .

و ﴿ الغاشية ﴾ هنا : علم بالغلبة على ساعة القيامة كما يؤذن بذلك قوله عقبه ﴿ وجوه يومئذ ﴾ [الغاشية : 2] أي يوم الغاشية .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2)

﴿ وجوه ﴾ مبتدأ و ﴿ خاشعة ﴾ خبر والجملة بيان لحديث الغاشية كما يفيده الظرف من قوله : ﴿ يومئذ ﴾ فإن مَا صدَقَه هو يومُ الغاشية .

ويكون تنكير ﴿ وجوه ﴾ وهو مبتدأ قُصد منه النوع .

(81/813)

و ﴿ خاشعة ، عاملة ، ناصبة ﴾ أخبار ثلاثة عن ﴿ وجوه ﴾ ، والمعنى : أناس خاشعون الخ .

فالوجوه كناية عن أصحابها ، إذ يكنى بالوجه عن الذات كقوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] .

وقرينة ذلك هنا قوله بعده : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ إذ جعل ضمير الوجوه جماعة العقلاء .

وأوثرت الوجوه بالكناية عن أصحابها هنا وفي مثل هذا المقام لأن حالة الوجوه تنبىء عن حالة أصحابها إذ الوجه عنوان عما يجده صاحبه من نعيم أو شقوة كما يقال : خرج بوجه غير الوجه الذي دخل به .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ الآية في سورة عبس (38) .

ويجوز أن يجعل إسناد الخشوع والعمل والنصَب إلى وجوه ﴾ من قبيل المجاز العقلي ، أي أصحاب وجوه .

ويتعلق ﴿ يومئذ ﴾ بـ ﴿ خاشعة ﴾ قدم على متعلقه للاهتمام بذلك اليوم ولما كانت (إذ) من الأسماء التي تلزم الإضافة إلى جملة فالجملة المضاف إليها (إذْ) محذوفة عُوّض عنها التنوين ، ويدل عليها ما في اسم ﴿ الغاشية ﴾ من لمح أصل الوصفية لأنها بمعنى التي تغشى الناس فتقدير الجملة المحذوفة يوم إذ تغشى الغاشية .

أو يدل على الجملة سياق الكلام فتقدر الجملة : يوم إذ تحدث أو تقع .

و ﴿ خاشعة ﴾ : ذليلة يطلق الخشوع على المذلة قال تعالى : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ﴾ [الشورى : 45] وقال : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ [المعارج : 44] .

والعاملة : المكلفة العَمَل من المشاق يومئذ .

و ﴿ ناصبة ﴾ : من النصب وهو التعب .

وأوثر وصف ﴿ خاشعة ﴾ و ﴿ عاملة ﴾ و ﴿ ناصبة ﴾ تعريضاً بأهل الشقاء بتذكيرهم بأنهم تركوا الخشوع لله والعمل بما أمر به والنصبَ في القيام بطاعته ، فجزاؤهم خشوع مذلّة ، وعمل مشقة ، ونصَب إرهاق .

وجملة : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ خبر رابع عن ﴿ وجوه ﴾ .

(82/813)

ويجوز أن تكون حالاً ، يقال : صَلِيَ يصلَى ، إذا أصابه حرُّ النار ، وعليه فذكر : ﴿ ناراً ﴾ بعد ﴿ تصلى ﴾ لزيادة التهويل والإرهاب وليُجرَى على ﴿ ناراً ﴾ وصف ﴿ حامية ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ تصلى ﴾ بفتح التاء أي يُصيبُها صِلْيُ النار .

وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب "تُصْلَى" بضم التاء من أصلاه النار بهمزة التعدية إذا أناله حرَّها .

ووصف النار بـ ﴿ حامية ﴾ لإفادة تجاوز حرها المقدار المعروف لأن الحمي من لوازم ماهية النار فلما وصفت بـ ﴿ حامية ﴾ كان دالاً على شدة الحمى قال تعالى : ﴿ نار اللَّه الموقدة ﴾ [الهمزة : 6] .

وأخبر عن ﴿ وجوه ﴾ خبراً خامساً بجملة ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أو هو حال من ضمير ﴿ تصلى ﴾ لأن ذكر الاحتراق بالنار يُحضر في الذهن تطلب إطفاء حرارتها بالشراب فجُعل شرابهم من عين آنية .

يقال : أَنَى إذا بلغ شدة الحرارة ، ومنه قوله تعالى:

﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ في سورة الرحمن (44) .

وذكر السقي يُخطر في الذهن تطلب معرفة ما يَطْعمونه فجيء به خبراً سادساً أو حالاً من ضمير تسقى ﴾ بجملة ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ ، أي يطعمون طعام إيلام وتعذيب لا نفع فيه لهم ولا يدفع عنهم ألماً .

وجملة : ﴿ ليس لهم طعام ﴾ الخ خبر سادس عن ﴿ وجوه ﴾ .

وضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى ﴿ وجوه ﴾ باعتبار تأويله بأصحاب الوجوه ولذلك جيء به ضمير جماعة المذكر .

والتذكير تغليب للذكور على الإِناث .

والضريع : يابس الشِّبْرِق (بكسر الشين المعجمة وسكون الموحدة وكسر الراء) وهو نبت ذو شَوك إذا كان رطباً فإذا يبس سمي ضَريعاً وحينئذ يصير مسموماً وهو مرعى للإِبل ولحُمُر الوحش إذا كان رطباً ، فما يعذب بأهل النار بأكله شبه بالضريع في سوء طعمه وسوء مَغبته .

وقيل : الضريع اسم سَمّى القرآن به شجراً في جهنم وأن هذا الشجر هو الذي يسيل منه الغِسلين الوارد في قوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين ﴾ [الحاقة : 35 ، 36] وعليه فحرف ﴿ مِن للابتداء ، أي ليس لهم طعام إلا ما يخرج من الضريع والخارج هو الغسلين وقد حصل الجمع بين الآيتين .

ووصفُ ضريع بأنه لا يُسمن ولا يغني من جوع لتشويهه وأنه تمحض للضر فلا يعود على آكليه بسمن يصلح بعض ما التفح من أجسادهم ، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع ، ولعل الجوع من ضروب تعذيبهم فيسألون الطعام فيُطعمون الضريع فلا يدفع عنهم ألم الجوع .

والسِمن ، بكسر السين وفتح الميم : وفرة اللحم والشحم للحيوان يقال : أسمنه الطعامُ ، إذا عاد عليه بالسمن .

والإِغناء : الإِكفاء ودفع الحاجة .

ومن جوع ﴾ متعلق بـ ﴿ يغني ﴾ وحرف ﴿ من ﴾ لمعنى البدلية ، أي غناء بدلاً عن الجوع .

والقصر المستفاد من قوله : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ ولا

طعام إلا من غسلين ﴾ [الحاقة : 36] يؤيد أن الضريع اسم شجر جهنم يسيل منه الغسلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(84/813)

قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر الأعداء وقدمهم لما تقدم ، أتبعه الأولياء فقال مستأنفاً ذكر ما لهم من ضد ما ذكر للأعداء : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ أي إذ كان ما ذكر ﴿ ناعمة ﴾ أي ذات بهجة وسرور تظهر عليها النعمة والنضرة والراحة والرفاهية بضد تلك الناصبة ، لأن هؤلاء أتبعوا أنفسهم في دار العمل الدنيا وصبروا على التقشف وشظف العيش ﴿ لسعيها ﴾ أي عملها للآخرة الذي كأنه لا سعي غيره خاصة لعلمها أنه منج ﴿ راضية ﴾ لما رأت من ثوابه تود أن جميع سعيها في الدنيا كان لذلك بعد أن كان ذلك السعي الذي هو للآخرة كريهاً إليها في الدنيا لا

تباشره إلا بشق الأنفس .

ولما ذكر السعي أتبعه ثوابه فقال : ﴿ في جنة عالية ﴾ أي في المكان العالي والمكانة العالية والأشجار والغرف وغير ذلك بما صرفوا أنفسهم عن الدنايا ورفعوا هممهم إلى النفائس .

ولما كان ما كان من هذا لا يصفو ، وفيه ما يكره من الكلام قال منزهاً لها عن كل سوء : ﴿ لا تسمع ﴾ أي أيها الداخل إليها - على قراءة الجماعة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بالبناء للمفعول وهو أبلغ في النفي ﴿ فيها لاغية ﴾ أي لغو ما أو نفس تلغو أو كلمة ذات لغو على الإسناد المجازي ، بل المسموع فيها الذكر من التحميد والتمجيد والتنزيه لحمل ما يرى فيها من البدائع على ذلك مع نزع الحظوظ الحاملة على غيره من القلوب بما كانوا يكرهون من لغو أهل الدنيا المنافي للحكمة .

(85/813)

ولما وصف الجنة بأول ما يعتبر فيها وهو عدم المنغص ، أتبعه ما يطلب بعده وهو تناول الملتذات ، وكان الأكل قد فهم من ذكر لفظ الجنة ، ذكر المشروب لذلك ولدلالته إذا كان جارياً على زيادة حسن الجنة وكثرة ما فيها من النباتات المقيتة والمفكهة من النجم والأشجار والري والأطيار ، فقال لأنه ليس كل جنة مما نعرفه فيه ماء جارٍ بنفسه :

﴿ فيها ﴾ أي الجنة .

ولما كان الماء الجاري صالحاً لأن يقسم إلى أماكن كثيرة ، وحد قوله المراد به الجنس الشامل للكثير مقابلة لعين أهل النار في دار البوار : ﴿ عين جارية ﴾ أي عظيمة الجري جداً ، فهي بحيث لا تنقطع أصلاً لما لأرضها من الزكاء والكرم وما لمائها من الغزارة وطيب العنصر ، فهو صالح لأن يعم جميع نواحيها أقاصيها وأدانيها وإن عظم اتساعها وتناءت أقطارها وبقاعها ، كما نراه يجري من ساق الشجرة الكبيرة جداً فيسقي جميع أغصانها وأوراقها وثمارها ، ويزيد على ذلك بأن جريه من أسفل إلى فوق ، يجد به جادب الشوق ويسوقه أي سوق يقدره الخلاق العليم ، والذي قدر على هذا كما هو مشاهد لنا لا نشك فيه قادر على أن يجعل هذه العين – الصالحة للجنس ولو كانت واحدة بالشخص – عامة لجميع مرافق الجنة تجري إلى خيامها ورياضها وبساتينها ومصانعها ومجالسها ويصعدها إلى أعالي غرفها وإن علت ، مقسمة بحسب المصالح ، موزعة على قدر المنافع ، بغاية الإحكام بما كان لداخلها من الخضوع الذي يجري منهم الدموع ويقل الهجوع ويكثر الظمأ والجوع .

(86/813)

ولما لم يبق بعد الأكل والشرب إلا الاتكاء ، قال مفهماً أنهم ملوك : ﴿ فيها ﴾ معيداً الخبر قطعاً للكلام عن الأول تنبيهاً على شرف العين لأن الماء مما لا حياة بدونه ﴿ سرر ﴾ أي زائدة الحد في العكثرة ، جمع سرير وهو مقعد عال يجلس عليه الملك ينقل إلى الموضع الذي يشتهيه ، سمي بذلك لأنه يسر النفس ، والمادة كلها للسرور والطيب والكرم ، ولذلك يطلق على الملك والنعمة وخفض العيش ﴿ مرفوعة ﴾ أي رفعها رافع عظيم في السمك وهو جهة العلو ليرى الجالس عليها جميع ملكه وما نعم به وما شاء الله من غيره وفي القدر ، لا كما تعهدونه في الدنيا ، بل ارتفاعها نمط جليل من مقدار عظمة رافعها الذي رفع السماء ، فالتنكير للتعظيم ، وبنى الاسم للمفعول للدلالة على أنه ليس له من ذاتها إلا الانخفاض ، وأما ارتفاعها فبقسر القادر على كل شيء ، وهذا يدل على أنها كسماء لا عمد لها ، قال البغوي : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة ما لم يجيء أهلها ، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها – ثم ترتفع إلى مواضعها – انتهى .

وذلك بما كانوا يتواضعون ويباشرون من مشاق العبادات على التراب ورث الأثواب .

ولما كان المستريح يحتاج إلى تكرار الشرب وما يشرب فيه قال : ﴿ وأكواب ﴾ جمع كوب وهو إناء لا عروة له ، فهو صالح للمناولة والشرب من كل جهة ﴿ موضوعة ﴾ أي ملآى وهي بحيث يسهل عليهم تناولها .

(87/813)

ولما كان من هو بهذه المثابة يحتاج إلى المساند والفرش الزائدة قال تعالى : ﴿ ونمارق ﴾ أي مساند يستندون إليها ، جمع نمرقة بالفتح والضم وهي الوسادة ﴿ مصفوفة ﴾ أي بعضها إلى بعض فهي في غاية الكثرة كأنها الروابي المنضدة على بساط الأرض ﴿ وزرابيّ ﴾ أي بسط عريضة كثيرة الوبر كأنها الرياض فاخرة ناضرة زائدة عن مواضع استراحاتهم ، وهي جمع زربية ﴿ مبثوثة ﴾ أي مبسوطة على وجه التفرق في المواضع التي لا يراد التنزه بها من مواضع الرياحين النابتة والأشجار المتشابكة كما بسط سبحانه وتعالى أديم الأرض ورصعه بأنواع النبات الفاخرة بما بسطوا أنفسهم في الدنيا للحق وألانوها له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 407 . 409 ﴾

(88/813)

فصل

قال الفخر :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر وعيد الكفار ، أتبعه بشرح أحوال المؤمنين ، فذكر وصف أهل الثواب أولاً ، ثم وصف دار الثواب ثانياً أما وصف أهل الثواب فبأمرين أحدهما : في ظاهرهم ، وهو قوله : ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي ذات بهجة وحسن ، كقوله : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] أو متنعمة .

والثاني : في باطنهم وهو قوله تعالى :

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9)

وفيه تأويلان أحدهما : أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله .

لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل ، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول ، ما أحسن ما عملت ، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت فيثنى على عمل نفسه ويرضاه والثاني : المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب ، وهذا أولى إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه ، وأما وصف دار الثواب ، فاعلم أن الله تعالى وصفها بأمور سبعة :

أحدها قوله :

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10)

ويحتمل أن يكون المراد هو العلو في المكان ، ويحتمل أن يكون المراد هو العلو في الدرجة

والشرف والمنقبة ، أما العلو في المكان فذاك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض ، قال عطاء : الدرجة مثل ما بين السماء والأرض .

وثانيها : قوله :

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(89/813)

في قوله : ﴿ لا تسمع ﴾ ثلاث قراآت أحدها : قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لاغية بالنصب والمخاطب بهذا الخطاب ، يحتمل أن يكون هو النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون لا تسمع يا مخاطب فيها لاغية ، وهذا يفيد السماع في الخطاب كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ ﴾ [الإنسان : 20] وقوله : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ ﴾ [الإنسان : 19] ويحتمل أن تكون هذه التاء عائدة إلى ﴿ وجوه ﴾ [الغاشية : 8] ، والمعنى لا تسمع الوجوه فيها لاغية وثانيها : قرأ نافع بالتاء المنقوطة من فوق مرفوعة على التأنيث لاغية بالرفع وثالثها : قرأ ابن كثير وأبو عمرو لا يسمع بالياء المنقوطة من تحت

مضمومة على التذكير لاغية بالرفع ، وذلك جائز لوجهين الأول : أن هذا الضرب من المؤنث إذا تقدم فعله .

وكان بين الفعل والاسم حائل حسن التذكير ، قال الشاعر :

إن امرءاً غره منكن واحدة . . بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

والثاني : أن المراد باللاغية اللغو فالتأنيث على اللفظ والتذكير على المعنى .

المسألة الثانية :

(90/813)

لأهل اللغة في قوله : ﴿ لاغية ﴾ ثلاثة أوجه أحدها : أنه يقال : لغا يلغو لغواً ولاغية ، فاللاغية واللغو شيء واحد ، ويتأكد هذا الوجه بقوله سبحانه : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ [مريم : 62] ، وثانيها : أن يكون صفة والمعنى لا يسمع كلمة لاغية وثالثها : قال الأخفش : لاغية أي كلمة ذات لغو كما تقول : فارس ودارس لصاحب الفرس والدرع ، وأما أهل التفسير فلهم وجوه أحدها : أن الجنة منزهة عن اللغو لأنها منزل جيران الله تعالى وإنما نالوها بالجد والحق لا باللغو والباطل ، وهكذا كل مجلس في الدنيا شريف مكرم فإنه يكون مبرأ عن اللغو وكل ما كان أبلغ في هذا كان أكثر جلالة ، هذا ما قرره القفال والثاني :

قال الزجاج لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة والثناء على الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم والثالث : عن ابن عباس يريد لا تسمع فيها كذباً ولا بهتاناً ولا كفراً بالله ولا شتماً والرابع : قال مقاتل : لا يسمع بعضهم من بعض الحلف عند شراب كما يحلف أهل الدنيا إذا شربوا الخمر وأحسن الوجوه ما قرره القفال الخامس : قال القاضي : اللغو ما لا فائدة فيه ، فالله تعالى نفى عنهم ذلك ويندرج فيه ما يؤذي سامعه على طريق الأولى .

الصفة الثالثة للجنة : قوله تعالى :

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12)

قال صاحب الكشاف : يريد عيوناً في غاية الكثرة كقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ [التكوير : 14] قال القفال : فيها عين شراب جارية على وجه الأرض في غير أخدود وتجري لهم كما أرادوا ، قال الكلبي : لا أدري بماء أو غيره .

الصفة الرابعة : قوله تعالى :

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13)

أي عالية في الهواء وذلك لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم والملك ، وقال خارجة بن مصعب : بلغنا أنها بعضها فوق بعض فيرتفع ما شاء الله فإذا جاء ولي الله ليجلس عليها تطامنت له فإذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث شاء الله ، والأول أولى ، وإن كان الثاني أيضاً غير ممتنع لأن ذلك بما كان أعظم في سرور المكلف ، قال ابن عباس : هي سرر ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة في السماء .

الصفة الخامسة : قوله تعالى :

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)

الأكواب الكيزان التي لا عرى لها قال قتادة : فهي دون الأباريق .

وفي قوله : ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ وجوه أحدها : أنها معدة لأهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئاً فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معد وثانيها : موضوعة على حافاة العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشرب وثالثها : موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جوهر ، وتلذذهم بالشراب منها ورابعها : أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الصغر والكبر كقوله : ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ [الإنسان : 16] .

الصفة السادسة : قوله تعالى :

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15)

النمارق هي الوسائد في قول الجميع واحدها نمرقة بضم النون ، وزاد الفراء سماعاً عن العرب نمرقة بكسر النون ، قال الكلبي : وسائد مصفوفة بعضها إلى جانب بعض أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى .

الصفة السابعة : قوله تعالى :

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

يعني البسط والطنافس واحدها زربية وزربي بكسر الزاي في قول جميع أهل اللغة ، وتفسير مبثوثة مبسوطة منشورة أو مفرقة في المجالس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 140.142 ﴾

(92/813)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾

أي ذات نَعْمة .

وهي وجوه المؤمنين ؛ نَعِمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح .

﴿ لِّسَعْيِهَا ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا .

﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ في الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها .

ومجازه : لثواب سعيها راضية .

وفيها واو مضمرة .

المعنى : ووجوه يومئذٍ ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة .

والوجوه عبارة عن الأنفس .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي مرتفعة ، لأنها فوق السموات حَسْب ما تقدم .

وقيل : عالية القدر ، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين .

وهم فيها خالدون .

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11)

أي كلاماً ساقطاً غير مَرْضيّ .

وقال : ﴿ لَاغِيَةً ﴾ ، واللَّغْو واللَّغَا واللاَّغية : بمعنى واحد .

قال :

عنِ اللَّغَا ورَفَثِ التَّكلمِ . . .

وقال الفرّاء والأخفش : أي لا تَسمع فيها كلمة لغو .

وفي المراد بها ستة أوجه : أحدها : يعني كذباً وبُهتاناً وكفراً بالله عز وجل ؛ قاله ابن

عباس .

الثاني : لا باطل ولا إثم ؛ قاله قتادة .

الثالث : أنه الشتم ؛ قاله مجاهد .

الرابع : المعصية ؛ قاله الحسن .

الخامس : لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب ؛ قاله الفرّاء .

وقال الكلبيّ : لا يُسمع في الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة .

السادس : لا يسمع في كلامهم كلمة بلغو ؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمدِ الله على ما رزقهم من النعيم الدائم ؛ قاله الفرّاء أيضاً .

وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذُكر .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير "لا يُسْمَع" بياء غير مسمّى الفاعل .

وكذلك نافع ، إلا أنه بالتاء المضمومة ؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه .

ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور .

وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿ لاَغِيَةً ﴾ نصاً على إسناد ذلك للوجوه ، أي لا تسمع الوجوه فيها لاغية .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾

أي بماء مندفق ، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أُخدود .

وقد تقدم في سورة "الإنسان" أن فيها عيوناً .

ف"عين" : بمعنى عيون .

والله أعلم .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أي عالية ورُوي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين السماء والأرض ، ليرى ولي الله ملكه حوله .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ أي أباريق وأوانٍ .

والإبريق : هو ما له عُروة وخُرطوم .

والكوب : إناء ليس له عروة ولا خرطوم .

وقد تقدم هذا في سورة "الزخرف" وغيرها .

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أي وسائد ، الواحدة نُمْرُقة .

﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرى .

قال الشاعر :

وإنا لَنُجْرِي الكاس بين شُروبنا . . .

وبينَ أبي قابوسَ فوقَ النَّمارقِ

وقال آخر :

كُهولٌ وشبانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ . . .

على سُرُرٍ مَصفوفة ونمارقِ

وفي الصحاح : النُّمرق والنُّمرقة : وسادة صغيرة .

وكذلك النِّمرِقة بالكسر لغة حكاه يعقوب .

وربما سموا الطِّنْفِسة التي فوق الرحْل نُمرقة ؛ عن أبي عُبيد .

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : قال أبو عُبيدة : الزرابيّ : البُسُط .

وقال ابن عباس : الزَّرابيّ : الطَّنافس التي لها خَمْل رقيق ، واحدتها : زُرْبِيّة ؛ وقال الكلبيّ والفرّاء .

والمبثوثة : المبسوطة ؛ قال قتادة .

وقيل : بعضها فوق بعض ؛ قاله عكرمة .

وقيل : كثيرة ؛ قاله الفراء .

وقيل : متفرقة في المجالس ؛ قاله القُتَبيّ .

قلت : هذا أصوب ، فهي كثيرة متفرقة .

ومنه ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [البقرة : 164] .

وقال أبو بكر الأنباريّ : وحدّثنا أحمد بن الحسين ، قال حدّثنا حسين بن عرفة ، قال

حدّثنا عمار بن محمد ، قال : صليت خلف منصور بن المعتمر ، فقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ ، وقرأ فيها : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : متكئين فيها ناعمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(94/813)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

قيلَ : هِلْ بمَعْنى قَدْ كمَا في قولِه تعالَى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ الآيةَ ، قالَ قُطْربٌ : أيْ قد جاءكَ يا محمدُ حديثُ الغاشيةِ . وليسَ بذاكَ بلْ هو استفهامٌ أُريدَ به التعجيبُ مِمَّا في حيزِه والتشويقُ إلى استماعِه والإشعارُ بأنَّه من الأحاديثِ البديعةِ التي حقُّها أنْ يتناقلَها الرواةُ ويتنافسُ عليها الوعاةُ مِنْ كلِّ حاضرٍ وبادٍ . والغاشيةُ الداهيةُ الشديدةُ التي تغشَى الناسَ بشدائدِها وتكتنفُهم بأهوالِها وهيَ القيامةُ من قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب ﴾ الخ ، وقيلَ : هيَ النارُ من قولِه تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ وقولِه تعالى : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ والأولُ هو الحقُّ فإنَّ ما سيُروى من حديثِها ليسَ مختصاً بالنَّارِ وأهلِها بلْ ناطقٌ بأحوالِ أهلِ الجنةِ أيضاً . وقولُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة ﴾ إلى

قولِه تعالى : ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عن سؤالٍ من الاستفهام التشويقيّ كأنَّه قيلَ من جهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " ما أتانِي حديثُها ، فما هو ؟ " فقيلَ : وجوهٌ يومئذٍ ، أيْ يومَ إذْ غشيتْ ذليلةٌ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا : لم يكنْ أتاهُ عليه الصَّلاة والسَّلامُ حديثُها فأخبرَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عنهَا فقالَ : وجوهٌ الخ ، فوجوهٌ مبتدأٌ ولا بأسَ بتنكيرِها لأنَّها في موقعِ التنويعِ ، وخاشعةٌ خبرُهُ . وقولُه تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ خبرانِ آخرانِ لوجوهٌ إذِ المرادُ بهَا أصحابُها أي تعملُ أعمالاً شاقةً تتعبُ فيها وهيَ جرُّ السلاسلِ والأغلالِ والخوضُ في النَّارِ خوضَ الإبلِ في الوحلِ والصعودُ والهبوطُ في تلالِ النارِ ووهادِها ، وقيلَ : عملتْ في الدُّنيا أعمالَ السوءِ والتذتْ بها فهيَ يومئذٍ في نصبٍ منها ، وقيلَ : عملتْ ونصبتْ في أعمالٍ لا تُجدي عليهَا في الآخرةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ تصلى ﴾ أي تدخلُ ﴾

(95/813)

نَاراً حَامِيَةً ﴾ أي متناهيةً في الحرّ ، خبرٌ آخرُ لوجوهٌ ، وقيلَ : هو الخبرُ وما قبلَهُ صفاتٌ لوجوهٌ ، وقد مرَّ غيرَ مرةٍ أن الصفةَ حقَّها أن تكونَ معلومةَ الانتسابِ إلى الموصوفِ عندَ السامعِ قبلَ جعلِها صفةً له ولا ريبَ في أنَّ صليَ النارِ وما قبلَهُ من الخشوعِ والعملِ والنَّصَبِ

أمورٌ متساويةٌ في الانتسابِ إلى الوجوهِ معرفةً وجهالةً فجعلُ بعضِها عُنواناً للموضوعِ قيداً مفروغاً عنه غيرَ مقصودِ الإفادةِ وبعضِها مناطاً للإفادةِ تحكُّمٌ بحتٌ ويجوزُ أنْ يكونَ هذا وما بعدَهُ من الجملتينِ استئنافاً مبيناً لتفاصيلِ أحوالِها .

(96/813)

﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ أي متناهيةٍ في الحرِّ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ أن ﴾ ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ بيانٌ لطعامِهم إثرَ بيانِ شرابِهم ، والضريعُ يبيسُ الشبرقِ وهو شوكٌ ترعاهُ الإبلُ ما دامَ رطباً وإذا يبسَ تحامتْهُ وهو سمٌّ قاتلٌ ، وقيلَ : هي شجرةٌ ناريةٌ تشبهُ الضريعَ وقال ابنُ كيسانٍ : هو طعامٌ يُصرعونَ عندَهُ ويذلُّونَ ويتضرعونَ إلى الله تعالى طلباً للخلاصِ منه فسمّيَ بذلكَ وهذا طعامٌ لبعضِ أهلِ النارِ ، والزقومُ والغسلينُ لآخرينِ ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ أي ليسَ من شأنِه الإسمانُ والإشباعُ كما هو شأنُ طعامِ الدُّنيا وإنما هُو شيءٌ يضطرونَ إلى أكلِه من غيرِ أنْ يكونَ له دفعٌ لضرورتِهم لكنْ لا على أنَّ لهم استعداداً للشبعِ والسمنِ إلا أنَّه لا يفيدُهم شيئاً منهمَا بلْ على أنَّه لا استعدادَ من جهتِهم ولا إفادةَ من جهةِ طعامِهم ، وتحقيقُ ذلكَ أنَّ جوعَهُم وعطشَهُم ليسا من قبيلِ ما هُو المعهودُ منهما في هذه النشأةِ من حالةٍ عارضةٍ للإنسانِ عندَ استدعاءِ

الطبيعةِ لبدلِ ما يتحللُ من البدنِ مشوقةً له إلى المطعومِ والمشروبِ بحيثُ يلتذُّ بهَا عندَ الأكلِ والشربِ ويستغنِي بهمَا عن غيرِهما عندَ استقرارِهما في المعدةِ ويستفيدُ منهما قوةً وسمناً عند انهضامِهما بلْ جوعُهم عبارةٌ عن اضطرارِهم عند اضطرامِ النارِ في أحشائِهم إلى إدخالِ شيءٍ كثيفٍ يملؤُها ويُخرجُ ما فيها من اللهبِ وأما أن يكونَ لهم شوقٌ إلى مطعومٍ ما أو التذاذٌ به عندَ الأكلِ واستغناءٌ به عن الغيرِ أو استفادةُ قوةٍ فهيهاتَ وكذا عطشُهم عبارةٌ عن اضطرارِهم عند أكلِ الضريعِ والتهابِه في بطونِهم إلى شيءٍ مائعٍ باردٍ يطفئُه من غيرِ أنْ يكونَ لهم التذاذٌ بشربِه أو استفادةُ قوةٍ به في الجملةِ وهو المعنيُّ بما رُويَ أنه تعالَى يسلطُ عليهم الجوعَ بحيثُ يَضطرهُم إلى أكلِ

(97/813)

الضريعِ فإذا أكلُوه يسلطُ عليهم العطشَ فيضطرهُم إلى شربِ الحميمِ فيشوِي وجوهَهُم ويقطعُ أمعاءَهُم . وتنكيرُ الجوعَ للتحقيرِ أيْ لا يُغني من جوعٍ ما ، وتأخيرُ نَفي الإغناءِ منْهُ لمراعاةِ الفواصلِ والتوسلِ به إلى التصريحِ بنفي كلا الأمرينِ إذ لو قُدمَ لما احتيجَ إلى ذكرِ نفي الإسمانِ ضرورةَ استلزامِ نفي الإغناءِ عن الجوعِ إيَّاه بخلافِ العكسِ ولذلك كررَ لاَ لتأكيدِ النَّفي . وقولُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ شروعٌ في روايةِ حديثِ أهلِ الجنةِ ،

وتقديمُ حكايةِ حالِ أهلِ النارِ لأنَّه أدخلُ في تهويلِ الغاشيةِ وتفخيمِ حديثِها ، ولأنَّ حكايةَ حسنِ حالِ أهلِ الجنةِ بعدَ حكايةِ سُوءِ حالِ أهلِ النارِ مما يزيدُ المحكيَّ حُسناً وبهجةً والكلامُ في إعرابِ الجملةِ كالذي مرَّ في نظيرِتها ، وإنما لم تُعطفْ عليها إيذاناً بكمالِ تباينِ مضمونَيهما . ومعنى ناعمةٌ ذاتُ بهجةٍ وحسنٍ ، كقولِه تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ أو متنعمةٌ .

﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي لعملها الذي عملتْهُ في الدُّنيا حيثُ شاهدتْ ثمرتَهُ ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعةِ المحلِّ أو عليةِ المقدارِ .

(98/813)

﴿ لاَ تَسْمَعُ ﴾ أي أنتَ أو الوجوهُ ﴿ فِيهَا لاغية ﴾ لغواً أو كلمةً ذاتَ لغوٍ أو نفساً تلغُو فإنَّ كلامَ أهلِ الجنةِ كلَّه أذكارٌ وحكمٌ . وقُرِىءَ لا تُسمعُ على البناءِ للمفعول بالياءِ والتاءِ ورفعِ لاغيةً ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أيْ عيونٌ كثيرةٌ تجري مياهُها ، كقولِه تعالَى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ رفيعةُ السمكِ أو المقدارِ ﴿ وَأَكْوابٍ ﴾ جمعُ كوبٍ وهو إناءٌ لا عُروةَ لهُ ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ أي بينَ أيديهم ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وسائدُ جمعُ نمرقة

بالفتحِ والضمّ ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضُها إلى بعضٍ ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ أي بسطٌ فاخرةٌ جمعُ زُرْبِيَّةٌ ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أيْ مبسوطةٌ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(99/813)

وقال الآلوسى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾

شروع في رواية حديث أهل الجنة وتقديم حكاية أهل النار لأنه أدخل في تويل الغاشية وتفخيم حديثها ولأن حكاية حال أهل الجنة بعد حكاية سوء أهل النار مما يزيد المحي حسناً وبهجة والكلام في إعرابه نظير ما تقدم وإنما لم تعطف هذه الجملة على تلك الجملة إيذاناً بكمال تباين مضونيهما والناعمة إما من النعومة وكنى بها عن البهجة وحسن المنظر أي وجوه يومئذ ذات بهج وحسن كقوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم ﴾ [المطففين : 24] أي وجوه يومئذ متنعمة .

﴿ لِّسَعْيِهَا ﴾ أي لعملها الذي عملته في دار الدنيا وهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ والتقديم للاعتناء مع رعاية الفاصلة واللام ليست للتعليل بل مثلها في رضيت بكذا فكأنه قيل ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ بسعيها وذكر بعض المحققين أنها مقوية لتعدي الوصف بنفسه ولذا قال

سفيان في ذلك كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم رضيت عملها ورضاها به كناية أو مجاز عن أنه محمود العاقبة مجازي عليه أعظم الجزاء وأحسنه وقيل في الكلام مضاف مقدر أي لثواب سعيها راضية وجوز كون اللام للتعليل أي لأجل سعيها في طاعة الله تعالى راضية حيث أوتيت ما أوتيت من الخير وليس بذاك .

﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعة المحل أو علية القدر فالعلو إما حسي أو معنوي وجمع أبو حيان بينهما .

(100/813)

﴿ لاَ تُسْمِعُ ﴾ خطاب لكل من يصلح للخطاب أو هو مسند إلى ضمير الغائبة المؤنثة وهو راجع للوجوه على أن المراد بها أصحابها أو الإسناد المجازي وكذا يقال فيما قبل وأشار بعض إلى أن في الآية صنعة الاستخدام اختياراً لأن المراد بالوجوه أولاً حقيقتها وعند إرجاع الضمير إليها ثانياً أصحابها فهم الذين لا يسمعون ﴿ فِيهَا لاغية ﴾ أي لغواً فهي مصدر بمعناه ويجوز كونها صفة كلمة محذوفة على أنها للنسب أي كلمة ذات لغو وجوز على تقدير كونها صفة كون الإسناد مجازياً لأن الكلمة ملغو بها لا لاغية ويجوز أن تكون صفة نفس محذوفة أي لا تسمع فيها نفساً لاغية وجعلها مسموعة لوصفها بما يسمع كما

تقول سمعت زيداً يقول كذا وجوز أن يكون ذلك على المجاز في الإسناد أيضاً وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم لا تسمع بتاء التأنيث مبنياً للمفعول لاغية بالرفع وابن محيصن وعيسى ابن كثير وأبو عمرو كذلك إلا أنهم قرؤا بالياء التحتية لأن التأنيث مجازي مع وجود الفاصل والجحدري كذلك إلا أنه نصب لاغية على معنى لا يسمع فيها أي أحد لاغية من قولك أسمعت زيداً .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ قيل يجري ماؤها ولا ينقطع وعدم الانقطاع إما من وصف العين لأنها الماء الجاري فوصفها بالجريان يدل على المبالغة كما في ﴿ نار حامية ﴾ [القارعة : 11] وإما من اسم الفاعل فإنه للاستمرار بقرينة المقام والتنكير للتعظيم واختار الزمخشري كونه للتكثير كما في ﴿ علمت نفس ﴾ [التكوير : 14] أي عيون كثيرة تجري مياهها .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ رفيعة السمك أو المقدار وقيل مخبوءة من رفعت لك كذا أي خبأته .

﴿ وَأَكْوابٍ ﴾ وقداح لا عرا لها ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ أي بين أيديهم وقيل على حافات العيون وجوز أن يراد موضوعة عن حد الكبار أوساط بين الصغر والكبر كقوله تعالى : ﴿ قَدَّرُوهَا تقديراً ﴾ [الإنسان : 16] ولا يخفى بعده .

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ ووسائد قال زهير

: كهولاً وشباناً حساناً وجوههم . . .

على سرر مصفوفة ونمارق

جمع نمرقة بضم النون والراء وبكسرهما وفتحهما وبغير هاء ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ صف بعضها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها وقال الكلبي وسائد موضوعة بعضها إلى جنب بعض كالشيء الذي جعل صفاً أينما أراد أن يجلس المؤمن جلس على واحدة واستند إلى أخرى وعلى رأسه وصائف كأنهن الياقوت والمرجان .

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ وبسط فاخرة كما قال غير واحد وقال الفراء هي الطنافس التي لها خمل رقيق وقال الراغب : إنها في الأصل ثياب محبرة منسوبة إلى موضع ثم استعيرت للبسط واحدها زربية مثلثة الزاي ولم يفرق في الصحاح بين الزرابي والنمارق والظاهر الفرق نعم قيل قد جاء نمارق بمعنى الزرابي ومنه

: نحن بنات طارق . . .

نمشي على النمارق

لظهور أن الوسائد لا يمشي عليها عادة ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة أو مفرقة في المجالس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) ﴾

يتبادر في بادىء الرأي أن حق هذه الجملة أن تعطف على جملة ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة ﴾ [الغاشية : 2] بالواو لأنها مشاركة لها في حكم البيان لحديث الغاشية كما عطفت جملة : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ [عبس : 40] على جملة : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ في سورة عبس (38) .

فيتجهُ أن يُسأل عن وجه فصلها عن التي قبلها ، ووجه الفصل التنبيه على أن المقصود من الاستفهام في ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ [الغاشية : 1] الإِعلام بحال المعرَّض بتهديدهم وهم أصحاب الوجوه الخاشعة فلما حصل ذلك الإِعلام بجملة : ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة ﴾ [الغاشية : 2] إلى آخرها تم المقصود ، فجاءت الجملة بعدها مفصولة لأنها جعلت استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال مقدر تثيره الجملة السابقة فيتساءل السامع : هل من حديث الغاشية ما هو مغاير لهذا الهول ؟ أي ما هو أنس ونعيم لقوم آخرين .

ولهذا النظم صارت هذه الجملة بمنزلة الاستطراد والتتميم ، لإظهار الفرق بين حالي

الفريقين ولتعقيب النذارة بالبشارة فموقع هذه الجملة المستأنفة موقع الاعتراض ولا تنافي بين الاستئناف والاعتراض وذلك موجب لفصلها عما قبلها .

وفيه جري القرآن على سننه من تعقيب الترهيب والترغيب .

فأما الجملتان اللتان في سورة عبس فلم يتقدمهما إبهام لأنهما متصلتان معاً بالظرف وهو ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ [عبس : 33] .

وقد علم من سياق توجيه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن الوجوه الأولى وجوه المكذبين بالرسول ، والوجوه المذكورة بعدها وجوه المؤمنين المصدقين بما جاء به .

والقول في تنكير ﴿ وجوه ﴾ ، والمراد بها ، والإِخبار عنها بما بعدها ، كالقول في الآيات التي سبقتها .

و﴿ ناعمة ﴾ : خبر عن ﴿ وجوه ﴾ .

يجوز أن يكون مشتقاً من نُعم بضم العين ينعُمُ بضمها الذي مصدره نعومة وهي اللين وبهجة المرأى وحسن المنظر .

(103/813)

ويجوز أن يكون مشتقاً من نَعِم بكسر العين ينعَم مثل حَذِرَ ، إذا كان ذا نعمة ، أي حسن العيش والترف .

ويتعلق ﴿ لسعيها ﴾ بقوله : ﴿ راضية ﴾ ، و ﴿ راضية ﴾ خبر ثانٍ عن ﴿ وجوه ﴾ .

والمراد بالسعي : العمل الذي يسعاه المرء ليستفيد منه .

وعبّر به هنا مقابل قوله في ضده ﴿ عاملة ﴾ [الغاشية : 3] .

والرضى : ضد السخط ، أي هي حامدة ما سعته في الدنيا من العمل الذي هو امتثال ما أمر الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم

والمجرور في قوله : ﴿ في جنة عالية ﴾ خبر ثالث عن ﴿ وجوه ﴾ .

والجنة أريد به مجموع دار الثواب الصادق بجنات كثيرة أو أريد به الجنس مثل ﴿ علمت نفس ﴾ [التكوير : 14] .

ووصف ﴿ جنة ﴾ بـ ﴿ عالية ﴾ لزيادة الحسن لأن أحسن الجنات ما كان في المرتفعات ، قال تعالى : ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ [البقرة : 265] فذلك يزيد حسن باطنها بحسن ما يشاهده الكائنُ فيها من مناظر ، وهذا وصف شامل لحسن موقع الجنة .

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11)

اللاغية : مصدر بمعنى اللّغو مثل الكاذبة للكذب .

والخائنة والعافية ، أي لا يسمع فيها لغو ، أو هو وصف لموصوف مقدر التأنيث ، أي كلمة لاغية لما دل عليه ﴿ لاغيةٌ ﴾ من أنها كلمات ، ووصف الكلمة بذلك مجاز عقلي لأن اللاغي صاحبها .

ونفي سماع ﴿ لاغيةٌ ﴾ مكنى به عن انتفاء اللغو في الجنة من باب :

ولا ترى الضب بها ينْجَحِر

أي لا ضَبّ بها إذ الضب لا يخلو من الإِنجِحَار .

واللغو : الكلام الذي لا فائدة له ، وهذا تنبيه على أن الجنة دار جد وحقيقة فلا كلام فيها إلا لفائدة لأن النفوس فيها تخلصت من النقائص كلها فلا يلذّ لها إلا الحقائق والسمو العقلي والخُلُقي ، ولا ينطقون إلا ما يزيد النفوس تزكية .

(104/813)

وجملة : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ صفة ثانية ل ﴿ جنة ﴾ [الغاشية : 10] تُرك عطفها على الصفة التي قبلها لأن النعوت المتعددة يجوز أن تعطف ويجوز أن تفصل دون عطف قال في "التسهيل" : "ويجوز عطف بعض النعوت على بعض وقال المرادي في "شرحه" نحو قوله تعالى : ﴿ الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى

﴾ [الأعلى : 42] .

وقال : ولا يعطف إلا بالواو ما لم يكن ترتيب : فبالفاء كقوله :

يا لهفَ زَيَّابَةَ للحارب ال

صابِحِ فالغانمِ فالآيب . . .

قال السهيلي : والعطف بـ (ثم) جوازه بعيد .

اه .

قال الدماميني : وكذا في الجمل نحو مررت برجل يحفظ القرآن ويعرف الفقه ويتقي إلى الله ، قال : ونص الواحدي في قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم ﴾ [آل عمران : 118] .

أن لا يألونكم وما بعده من الجمل (أي الثلاث) لا يكون صفات ، لعدم العاطف لكن ظاهر سكوت الجمهور عن وجوب العطف يشعر بجوازه فيها (أي الجمل) كالمفردات أ هـ .

ابتدىء في تعداد صفات الجنة بصفتها الذاتية وهو كونها عالية ، وثُني بصفة تنزيهها عمّا يعدّ من نقائص مجامع الناس ومساكن الجماعات وهو الغوغاء واللغو ، وقد جردت هذه الجملة من أن تعطف على ﴿ عالية ﴾ [الغاشية : 10] مراعاة لعدم التناسب بين المفردات والجمل وذلك حقيق بعدم العطف لأنه أشد من كمال الانقطاع في عطف الجمل .

وهذا وصف للجنة بحسن سكانها .

وقرأ نافع ﴿ لا تسُمع ﴾ بمثناة فوقية مضمومة و ﴿ لاغيةُ ﴾ نائب فاعل ، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بمثناة تحتية مضمومة وبرفع ﴿ لاغيةٌ ﴾ أيضاً فأُجري الفعل على التذكير لأن ﴿ لاغيةٌ ﴾ ليس حقيقي التأنيث وحسَّنه وقوع الفصل بين الفعل وبين المسند إليه ، وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروْح عن يعقوب بفتح المثناة الفوقية وبنصب ﴿ لاغيةٌ ﴾ ، والتاء لخطاب غير المعين .

(105/813)

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12)

صفة ثالثة ل ﴿ جنة ﴾ [الغاشية : 10] .

فالمراد جنس العيون كقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] ، أي علمت النفوس ، وهذا وصف للجنة باستكمالها محاسن الجنات قال تعالى : ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ [الإسراء : 91] .

وإنما لم تعطف على الجملة التي قبلهما لاختلافهما بالفعلية في الأولى والإسمية في الثانية ، وذلك الاختلاف من محسنات الفصل ولأن جملة : ﴿ لا تسمع فيها لاغيةٌ ﴾ مقصود منها التنزه عن النقائص وجملة : ﴿ فيها عين جارية ﴾ مقصود منها إثبات بعض محاسنها .

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

صفة رابعة لجنة .

وأعيد قوله : ﴿ فيها ﴾ دون أن يعطف ﴿ سرر ﴾ على ﴿ عين ﴾ [الغاشية : 12] عطفَ المفردات لأن عطف السرر على ﴿ عَيْنٌ ﴾ يبدو نابياً عن الذوق لعدم الجامع بين عين الماء والسرر في الذهن لولا أن جمعها الكون في الجنة فلذلك كرر ظرف ﴿ فيها ﴾ تصريحاً بأن تلك الظرفية هي الجامع ، ولأن بين ظرفية العين الجارية في الجنة وبين ظرفية السرر وما عطف عليه من متاع القصور والأثاث تفاوتاً ولذلك عطف ﴿ وأكواب ﴾ ، ﴿ ونمارق ﴾ ، ﴿ وزرابي ﴾ ، لأنها متماثلة في أنها من متاع المساكن الفائقة .

وهذا وصف لمحاسن الجنة بمحاسن أثاث قصورها فضمير فيها عائد للجنة باعتبار أن ما في قصورها هو مظروف فيها بواسطة .

و﴿ سُرر ﴾ : جمع سرير ، وهو ما يُجلس عليه ويضطجع عليه فيسع الإنسان المضطجع ، يتخذ من خشب أو حديد له قوائم ليكون مرتفعاً عن الأرض .

ولما كان الارتفاع عن الأرض مأخوذاً في مفهوم السرر كان وصفها بـ ﴿ مرفوعة ﴾ لتصوير حُسنها .

و﴿ الأكواب ﴾ : جمع كُوب بضم الكاف ، وهو إناء للخَمر له ساق ولا عروة له .

و ﴿ موضوعةٌ ﴾ : أي لا ترفع من بين أيديهم كما تُرفع آنية الشراب في الدنيا إذا بلغ الشاربون حد الاستطاعة من تناول الخمر ، وكني بـ ﴿ موضوعة ﴾ عن عدم انقطاع لذة الشراب طَعماً ونشوة ، أي موضوعة بما فيها من أشربة .

وبَينَ ﴿ مرفوعة ﴾ و ﴿ موضوعة ﴾ ، إيهَام الطِّباق لأن حقيقة معنى الرفع ضد حقيقة معنى الوضع ، ولا تضادَّ بين مجاز الأول وحقيقة الثاني ولكنه إيهام التضاد .

والنَّمارق : جمع نُمرقة بضم النون وسكون ميم بعدها راء مضمومة وهي الوسادة التي يَتكىء عليها الجالس والمضطجعُ .

و ﴿ مصفوفة ﴾ : أي جُعل بعضها قريباً من بعض صفاً ، أي أينما أراد الجالس أن يجلس وجدها .

و ﴿ زرابيّ ﴾ : جمع زَرْبيَّة بفتح الزاي وسكون الراء وكسر الموحدة وتشديد الياء ، وهي البساط أو الطُنفسة (بضم الطاء) المنسوج من الصوف الملون الناعم يفرش في الأرض للزينة والجلوس عليه لأهل الترف واليسار .

٧

والزربية نسبة إلى (أذربيجان) بلدٍ من بلاد فارس وبخَارى ، فأصل زربية أذربية ،

حذفت همزتها للتخفيف لثقل الاسم لعجمته واتصال ياء النسب به ، وذالها مبدَلة عن الزاي في كلام العرب لأن اسم البلد في لسان الفرس أزربيجان بالزاي المعجمة بعدها راء مهملة وليس في الكلام الفارسي حرف الذال ، وبلد (أذرْبيجان) مشهور بنعومة صوف أغنامه .

واشتهر أيضاً بدقة صنع البُسُط والطنافس ورقّة خَمَلها .

والمبثوثة : المنتشرة على الأرض بكثرة وذلك يفيد كناية عن الكثرة .

وقد قوبلت صفات وجوه أهل النار بصفات وجوه أهل الجنة فقوبلت صفات ﴿ خاشعة ﴾ [الغاشية : 2] ، ﴿ عاملة ﴾ ﴿ ناصبة ﴾ [الغاشية : 3] بصفات ﴿ ناعمة لسعيها راضية ﴾ [الغاشية : 8 ، 9] ، وقوبل قوله : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ [الغاشية : 4] بقوله : في ﴿ جنة عالية ﴾ [الغاشية : 10] .

(107/813)

وقوبل : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ [الغاشية : 5] بقوله : ﴿ فيها عين جارية ﴾ [الغاشية : 12] ، وقوبل شقاء عيش أهل النار الذي أفاده قوله:

﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ [الغاشية : 6 ، 7] ،

بمقاعد أهل الجنة المشعرة بترف العيش من شراب ومتاع .

وهذا وعد للمؤمنين بأن لهم في الجنة ما يعرفون من النعيم في الدنيا وقد علموا أن ترف الجنة لا يبلغه الوصف بالكلام وجمع ذلك بوجه الإجمال في قوله تعالى : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] ، ولكن الأرواح ترتاح بمألوفاتها فتعطاها فيكون نعيم أرواح الناس في كل عصر ومن كل مصر في الدرجة القصوى مما ألفوه ولا سيما ما هو مألوف لجميع أهل الحضارة والترف وكانوا يتمنونه في الدنيا ثم يُزادون من النعيم "ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(108/813)

قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أنهى سبحانه ما أراد من تصوير تلك الدار على ما يليق بهذه السور القصار ، وكانوا ينكرون غاية الإنكار فوبخهم بما يعصمهم من الزيغ عن العقائد الحقة في استفهام إنكاري مذكراً لهم بأمورهم في غاية الوضوح في نفسها ، لأن نزول هذه السور كان في أول الأمر قبل أن يتمرنوا على المعارف تدل على قدرته على البعث وعلى قدرته على ما ذكر ما هذه الأمور التي أودعها الجنان للذة الإنسان ، وذلك لما في هذه الأمور التي ذكر بها سبحانه من عجائب الصنع مع تفاوته في جعل بعضها ذا اختيار في الخفض والرفع ، وبعضها على كيفية واحدة لا قدرة له على الانفكاك عنها من علو أو سفول مع التمهد أو التوعر ، فقال مسبباً عما مضى من الإخبار عن أحوال الفريقين في الآخرة وعن قدرته على ما ذكر : ﴿أفلا ينظرون﴾ أي المنكرون من هذه الأمة لقدرته سبحانه وتعالى على الجنة وما ذكر فيها والنار وما ذكر فيها – نظر اعتبار .

(109/813)

ولما كان لهم من ملابسة الإبل ما ليس لهم من ملابسة غيرها ، وكانت فردة في المخلوقات لا شبيه لها مع ما لها من كثرة المنافع كما قال الحسن رحمه الله تعالى – مع أكلها لكل مرعى

واجتزائها بأيسر شيء لا سيما في الماء وطول صبرها عنه مع عظم خلقها وكبر جرمها وشدة قوتها ، فكانت أدل على تمام القدرة والفعل بالاختيار ، قال منبهاً بذكرها على التدبر في الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً بعد ما أشار إلى دلالتها على البعث في البروج بذكر ثمود بعد أن صرح به في سورة سبحانه كما مضى بيانه في الموضعين ويأتي إن شاء الله تعالى في الفجر والشمس ، وأوضح التعبير عنها هنا بما يدل على الخلطة المميلة المحيلة المناسبة لمعنى الغاشية بخلاف التعبير في سورة النحل بالأنعام لأنها سورة النعم ﴿ إلى الإبل ﴾ ونبه على أن عجيب خلقها مما ينبغي أن تتوفر الدواعي على الاستفهام والسؤال عنه بأداة الاستفهام ، فقال بانياً للمفعول إشارة إلى أن الدال هو التأمل في مجرد خلقها الدال على إحاطة علم الله وعظيم إحسانه وقدرته تعالى وفعله بالاختيار وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضة به من غير معين ، منقادة لمن اقتادها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار الثقال ترعى كل نبات وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً ليتأتى بها قطع المفاوز ، فهي سفن البر مع ما لها من منافع أخر ، قال البيضاوي : ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً ولأنها أعجب ما عند العرب – انتهى ، وتنفعل للبسط وتجد في سيرها فتتأثر بالصوت الحسن جداً ، ومن عجائبها أنها لا تكذب أصلاً فإنها لا تبرك عجزاً عن الحمل – إلا وليس فيها من القوى شيء ، وليس

فيها ما تعم كراهته إلا كثرة رغائها فلعله سبحانه نفى عن الجنة اللغو لذلك ، ولعله مثل العين الجارية وقربها بدرها ، والسرر المرفوعة

(110/813)

التي حكى أنها تنخفض حتى يتمكن المنتفع بها من ظهورها ثم ترتفع به بالسماء في علوها مع ما يعهدون من بروك الإبل للحمل والركوب ثم ارتفاعها لتمام الانتفاع ، وقرب نصب الأكواب بسنامها والنمارق ببقيتها حال بروكها ، ثم فصل ما دلت عليه الإبل من الأكواب بالجبال التي لا ترتقى مثل جبل السد ، والنمارق بالتي ترتقى ، وبسط الزرابي بمهد الأرض ، قال أبو حيان رحمه الله تعالى : و ﴿كيف﴾ سؤال عن حال والعامل فيه ﴿خلقت﴾ وإذا علق الفعل عما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته .

ولما ذكر سبحانه وتعالى هذا المخلوق المفرد الذي هو أدل ما يكون على هذا القول بالطبيعة ، أتبعه ذكر السماء ليتذكر السامع ذلك فيباعد من يقول به فقال : ﴿وإلى السماء﴾ أي التي هي من جملة مخلوقاتنا ﴿كيف رفعت﴾ أي حصل بأيسر أمر رفعها من الذي خلقها بلا عمد على ما لها من السعة والكبر والثقل والإحكام وما فيها من جبال الكواكب والغرائب والعجائب ، فذلك دال على القدرة التامة التي لا يشارك تعالى فيها

أحد قل ولا جل على إيجاد الجنة العالية وعلى رفع السرر فيها لأنه دل على الفعل بالاختيار ونفي حكم الطبيعة حكماً وحتماً ، وذلك دال على كمال قدرته تعالى على كل شيء .

(111/813)

ولما ذكر العالي من الحيوان الملابس للانسان والعالي من الأكوان ، أتبعه أعلى الأرض فقال تعالى : ﴿ وإلى الجبال ﴾ أي الشامخة وهي أشد الأرض ﴿ كيف نصبت ﴾ أي كان نصبها من ناصبها عالية جداً على بقية الأرض بلا موجب فيها لذلك من طبيعة ولا غيرها بل بفعل الفاعل المختار فهي راسخة لا تميل ، فوضعها كذلك على ما فيها من المنافع من المياه الجارية والأشجار المختلفة أعجب من وضع الأكواب والنمارق المزينة ، وبها مع ذلك ثبتت الأرض وحفظت من الميد ، واعتدل أمر الكواكب في تقدير الليل والنهار باعتدال البلاد بالطلق بإعلاء بعضها قبل بعض حتى كانت المطالع والمغارب على ترتيب مطرد ونظام محكم غير منخرم تقدر به الأزمان والفصول والسنون والأيام والشهور – إلى غير ذلك من الأمور ، ولا يكون ذلك لها إلا بقاهر قادر مختار لا شريك له .

ولما كان الخفض لا يكون إلا بخافض قاهر كما أن الرفع كذلك قال تعالى : ﴿ وإلى الأرض ﴾ أي مع سعتها ﴿ كيف سطحت ﴾ أي اتفق بسطها من باسطها حتى صارت

مهاداً موضوعاً يمشي عليه بغاية السهولة ، والقدرة على جعلها كذلك على ما هي فيه من الزينة بناضر النبات وغير ذلك من الاختلافات دالة على الفعل بالاختيار ، وليست بدون القدرة على بث الزرابي في الجنة على اختلاف أشكالها وصورها وألوانها .

(112/813)

ولما دل ما ذكر من عجائب صنعه في أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات العلويات والسفليات على كمال قدرته على كل شيء ، فدل على كمال قدرته – على البعث وعلى كل ما ذكر أنه يفعله في الجنة والنار ، وكان الحث على النظر في هذه الأشياء باستفهام إنكاري ، وكان ذلك مفيداً لانتفاء النظر ، قال سبحانه مسبباً عنه : ﴿ فذكر ﴾ كل من يرجى تذكره وانتفاعه بالتذكير يا أشرف خلقنا بما في غرائزهم وفطرهم من العلم الأولى بما في هذه الأشياء وأمثالها مما يدل على صحة ما نزلنا عليك ليدلهم على كمال قدرة الذي بعثك فينقادوا لك أتم انقياد لا سيما في اعتقاد حقية البعث ، ولا يهمنك كونهم لا ينظرون ولا يتطرفون ، ولعل التذكير يوصل المتذكر إذا أقبل عليه بحسن رغبة إلى أن يعرف أن الإبل تشبه الأنفس المطمئنة الذلولة المطيعة المناقدة ، والسماء تشبه الأرواح القدسية النورانية ، والجبال تشبه العقول والمعارف الثابتة الراسخة ، والأرض تشبه البدن المشتمل على

الأعضاء والأركان.

ولما كانت هذه السورة مكية من أوائل ما أنزل، وكان مأموراً إذ ذاك بالصفح قال: ﴿إنما أنت مذكر﴾ أي لا مقاتل قاهر قاسر لهم على التذكر والرجوع، فلا عليك إن لم ينظروا ولم يتذكروا لأنه ما عليك إلا البلاغ، ولذلك قال ﴿لست﴾ وأشار إلى القهر بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عليهم﴾ أي خاصة ﴿بمصيطر﴾ أي بمتسلط، وأما غيرهم فسنسلطك عليهم عن قريب، وقرأها الكسائي بالسين على الأصل.

(113/813)

ولما نفى عنهم تسلط الدنيا، وكان التقدير: فمن أقبل وآمن فإن الله ينعمه النعيم الأكبر، قال مستدركاً قسيمهم في صورة الاستثناء: ﴿إلا﴾ أي لكن ﴿من تولى﴾ أي كلف نفسه المطمئنة وفطرته الأولى المستقيمة للإعراض ﴿وكفر﴾ أي وأصر على كفره، وأجاب الشرط بقوله مسبباً عنه: ﴿فيعذبه﴾ أشد العذاب الذي لا يطيقه أصلب الحديد ولا أشد الجبال ﴿الله﴾ أي الملك الأعظم بسبب تكبره على الحق ومخالفته لأمرك المطاع ومرادك الذي كله الحسن الجميل، ولعله صوره وهو منقطع بصورة المتصل بالتعبير بأداته إشارة إلى أن العذاب من الله عذاب منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، لأن سببه

تكذيبهم له ، وقرأ ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ " ألا " بالفتح والتخفيف على أنها استفتاحية ﴿ العذاب الأكبر ﴾ يعني عذاب الآخرة ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً فيكون المعنى : أن من أصر على الكفر يسلطه الله عليه فيقتله فيعذبه الله في الدار الآخرة ، ثم علل إخباره عنه عذابه في الآخرة بقوله مؤكداً لما لهم من التكذيب : ﴿ إن إلينا ﴾ أي خاصة بما لنا من العظمة والكبرياء ﴿ إيابهم ﴾ أي رجوعهم وإن أبوا بالموت ثم بالبعث ثم بالحشر .

ولما كان الحساب متأخراً عن ذلك كله ، وعظيماً كماً وكيفاً ، عظمه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم إن ﴾ أكده لإنكارهم ، وأتى بأداة دالة على أنه كالواجب في أنه لا بد منه فقال : ﴿ علينا ﴾ أي خاصة بما لنا من القدرة والتنزه عن نقص العبث والجور وكل نقص ، لا على غيرنا ، لأن غيرنا لا قدرة له فقد تقدمنا فيه بالوعود الصادقة ، وأكدناها غاية التأكيد ﴿ حسابهم ﴾ أي يوم القيامة على النقير والقطمير ، وغير ذلك من كل صغير وكبير ، وذلك يكون في الغاشية يوم ينقسم الناس قسمين : في دار هوان ، ودار أمان ، فقد التف آخرها بأولها ، وتعانق مفصلها بموصلها – والله الهادي للصواب وإليه المآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 409 . 412 ﴾

(114/813)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة وقسم أهل القيامة إلى قسمين الأشقياء والسعداء ووصف أحوال الفريقين وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة إثبات الصانع الحكيم ، لا جرم أتبع ذلك بذكر هذه الدلالة فقال : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإبل ﴾ وجه الاستدلال بذلك على صحة المعاد أنها تدل على وجود الصانع الحكيم ، ومتى ثبت ذلك فقد ثبت القول بصحة المعاد .

(115/813)

أما الأول : فلأن الأجسام متساوية في الجسمية فاختصاص كل واحد منها بالوصف الذي لأجله امتاز على الآخر ، لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص وإيجاد قادر ، ولما رأينا هذه الأجسام مخلوقة على وجه الإتقان والإحكام علمنا أن ذلك الصانع عالم ، ولما علمنا أن ذلك الصانع لا بد وأن يكون مخالفاً لخلقه في نعت الحاجة والحدوث والإمكان علمنا أنه غني

، فهذا يدل على أن للعالم صانعاً قادراً عالماً غنياً فوجب أن يكون في غاية الحكمة ، ثم إنا نرى الناس بعضهم محتاجاً إلى البعض ، فإن الإنسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه ، بل لا بد من بلدة يكون كل واحد من أهلها مشغولاً بمهم آخر (1) حتى يتنظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم ، وذلك الانتظام لا يحسن إلا مع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد ، ذلك لا يحصل إلا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنار فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة ، فإن قيل : فأي مجانسة بين الإبل والسماء والجبال والأرض ، ثم لم بدأ بذكر الإبل ؟ قلنا فيه وجهان : الأول : أن جميع المخلوقات متساوية في هذه الدلالة وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها وأي واحد منها ذكر دون غيره كان هذا السؤال عائداً ، فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير ، وأيضاً فلعل الحكمة في ذكر هذه الأشياء التي هي غير متناسبة التنبيه على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع بل هو عام في الكل على ما قال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : 44] ولو ذكر غيرها لم يكن الأمر كذلك لا جرم ذكر الله تعالى أموراً غير متناسبة بل متباعدة جداً ، تنبيهاً على أن جميع الأجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم ، فهذا وجه حسن معقول وعليه الاعتماد الوجه الثاني : وهو أن نبين ما في كل واحد

(1) هكذا في الأصل ، ولعله سقط شيء وصوابه : بل لا بد في كل بلدة أن يكون كل واحد من أهلها مشغولا بمهم وغيره مشغولا بمهم آخر .

(116/813)

من هذه الأشياء من المنافع والخواص الدالة على الحاجة إلى الصانع المدبر ، ثم نبين إنه كيف يجانس بعضها بعضاً .

أما المقام الأول : فنقول الإبل له خواص منها أنه تعالى جعل الحيوان الذي يقتنى أصنافاً شتى فتارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه وتارة ليحمل الإنسان في الأسفار وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلد إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل ، وقد أبان الله عز وجل عن ذلك بقوله :

(117/813)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما فَهُمْ لَهَا مالكون * وذللناها لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 72-71] ، قال : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

ومنافع وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ [النحل : 7-5] وإن شيئاً من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب وثانيها : أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير ، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير ، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر ، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزىء حيوان آخر ، وإن جعلت حملة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها ، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعاً في قلب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلاً ، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير ، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : 6] ومنها أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملاً وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة

الواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف حتى أن الذين عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه فإن

(118/813)

ذلك الحيوان اهتدى إليه ، ومنها أنها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرها في الانقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي الصغير ، ومبانية لغيرها أيضاً في أنها يحمل عليها وهي باركة ثم تقوم ، فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه ، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها .

ثم قال تعالى :

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18)

أي رفعاً بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد .

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19)

نصباً ثابتاً فهي راسخة لا تميل ولا تزول .

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)

سطحاً بتمهيد وتوطئة ، فهي مهاد للمتقلب عليها ، ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة وهو ضعيف ، لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح ، وقرأ علي عليه السلام كيف خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير ، والتقدير فعلتها ، فحذف المفعول .

المقام الثاني : في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب .

قال صاحب "الكشاف" : ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب ، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك ، وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل في كثير من أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز ، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة .

(119/813)

أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور ، فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين الأول : أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيراً ، لأن

بلدتهم بلدة خالية من الزرع ، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل ، فكانوا كثيراً ما يسيرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين منفردين عن الناس ، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء ، لأنه ليس معه من يحادثه ، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره ، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة ، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه ، فيرى منظراً عجيباً ، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء ، وإذا نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال ، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض ، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئاً سوى هذه الأشياء ، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية الوجه الثاني : أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين : منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معاً ، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب ، وليس للشهوة فيها نصيب .

والقسم الأول : كالإنسان الحسن الوجه ، والبساتين النزهة ، والذهب والفضة وغيرها ، فهذه الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم ، إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس ، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها ، لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعاً عن إتمام النظر والفكر وسبباً لاستغراق النفس في محبته .

أما القسم الثاني : فهو كالحيوانات التي لا يكون في صورتها حسن ، ولكن يكون داعية تركيبها حكم باللغة وهي مثل الإبل وغيرها ، إلا أن ذكر الإبل ههنا أولى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض ، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة ، وليس فيها ما يكون نصيباً للشهوة ، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة لا جرم أمر الله بالتدبر فيها فهذا ما يحضرنا في هذا الموضع وبالله التوفيق .

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21)

اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل على صحة التوحيد والمعاد ، قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك ، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه ، وبيان أنه إنما بعث لذلك دون غيره ، فلهذا قال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .

لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22)

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ بمصيطر ﴾ بمسلط ، كقوله : ﴿ يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ

بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] وقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : 99] وقيل : هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم ، والمعنى أنك ما أمرت إلا بالتذكير ، فأما أن تكون مسلطاً عليهم حتى تقتلهم ، أو تكرههم على الإيمان فلا ، قالوا : ثم نسختها آية القتال ، هذا قول جميع المفسرين ، والكلام في تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله : ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور : 37] .

أما قوله تعالى :

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24)

ففيه مسائل .

المسألة الأولى :

(121/813)

في الآية قولان : أحدهما : أنه استثناء حقيقي ، وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء ، استثناء عماذا ؟ فيه احتمالان الأول : أن يقال التقدير : فذكر إلا من تولى وكفر والثاني : أنه استثناء عن الضمير في ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ [الغاشية : 22] والتقدير : لست عليهم بمسيطر إلا من تولى .

واعترض عليه بأنه عليه السلام ما كان حينئذ مأموراً بالقتال وجوابه : لعل المراد أنك لا تصبر مسلطاً إلا على من تولى القول الثاني : أنه استثناء منقطع عما قبله ، كما تقول في الكلام : قعدنا نتذكر العلم ، إلا أن كثيراً من الناس لا يرغب ، فكذا ههنا التقدير لست بمسئول عليهم ، لكن من تولى منهم فإن الله يعذبه العذاب الأكبر الذي هو عذاب جهنم ، قالوا وعلامة كون الاستثناء منقطعاً حسن دخول أن في المستثني ، وإذا كان الاستثناء متصلاً لم يحسن ذلك ، ألا ترى أنك تقول : عندي مائتان إلا درهماً ، فلا تدخل عليه أن ، وههنا يحسن أن ، فإنك تقول : إلا أن من تولى وكفر فيعذبه الله .

المسألة الثانية :

قرىء : (ألا من تولى) على التنبيه ، وفي قراءة ابن مسعود : (فإنه يعذبه) .

المسألة الثالثة :

إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه أحدها : أنه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الأكبر ، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى دُونَ العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] ، وثانيها : هو العذاب في الدرك الأسفل في النار وثالثها : أنه قد يكون العذاب الأكبر حاصلاً في الدنيا ، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال ، والقول الأول أولى وأقرب .

ثم قال تعالى :

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

(122/813)

وهذا كأنه من صلة قوله : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ [الغاشية : 24] وإنما ذكر تعالى ذلك ليزيل به عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم حزنه على كفرهم ، فقال : طب نفساً عليهم ، وإن عاندوا وكذبوا وجحدوا فإن مرجعهم إلى الموعد الذي وعدنا ، فإن علينا حسابهم وفيه سؤال : وهو أن محاسبة الكفار إنما تكون لإيصال العقاب إليهم وذلك حق الله تعالى ، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه والجواب : أن ذلك واجب عليه إما بحكم الوعد الذي يمتنع وقوع الخلف فيه ، وإما في الحكمة ، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم وتعالى الله عنه ، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة وههنا مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ أبو جعفر المدني : ﴿ إِيَّابَهُمْ ﴾ بالتشديد .

قال صاحب "الكشاف" : وجهه أن يكون فيعالا مصدره أيب فيعل من الإياب ، أو يكون

أصله أواباً فعالاً من أوب ، ثم قيل : إيواباً كديوان في دون ، ثم فعل به ما فعل بأصل سيد .

المسألة الثانية :

فائدة تقديم الظرف التشديد بالوعيد ، فإن ﴿ إِيَابَهُمْ ﴾ ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 142.146 ﴾

(123/813)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) ﴾

قال بعض المفسرين : ﴿ هل ﴾ بمعنى قد ، وقال الحذاق : هي على بابها توقيف ، فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر ، وقيل المعنى هل كان هذا من علمك لولا ما علمناك ، ففي هذا التأويل تعديد النعمة . و ﴿ الغاشية ﴾ القيامة لأنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها لبنيته ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين ، وقال ابن جبير ومحمد بن كعب : ﴿

الغاشية ﴾ النار ، وقد قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ [إبراهيم : 50] ، وقال : ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف : 41] فهي تغشى سكانها والقول الأول يؤيده قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ ، والوجوه الخاشعة ، وجوه الكفار وخشوعها ذلها وتغيرها بالعذاب ، واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ فيها والنصب ، التعب ، لأنها تكبرت عن العمل لله في الدنيا فأعملها في الآخرة في ناره ، وقال عكرمة والسدي : المعنى : ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا ﴿ ناصبة ﴾ يوم القيامة ، فالعمل على هذا هو مساعي الدنيا ، وقال ابن عباس وزيد بن أسلم وابن جبير : المعنى : هي ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا ﴿ ناصبة ﴾ فيها لأنها على غير هدى ، فلا ثمرة لعملها إلا النصب وخاتمته النار . قالوا : والآية في القسيسين وعبدة الأوثان وكل مجتهد في كفر ، وقد ذهب هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية ، وبكى رحمة لراهب نصراني رآه مجتهداً ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر القدرية فبكى ، وقال إن فيهم المجتهد ، وقرأ ابن كثير في رواية شبل وابن محيصن : " عاملةً ناصبةً " بالنصب على الذم ، والناصب فعل مضمر تقديره أذم أو أغني ونحو هذا ، وقرأ الستة وحفص عن عاصم والأعرج وطلحة وأبو جعفر والحسن : " تَصْلى " بفتح التاء وسكون الصاد على بناء الفعل للفاعل ، أي الوجوه ، وقرأ أبو بكر عن عاصم وأبو عمرو بخلاف عنه وأبو رجاء وأبو عبد

الرحمن وابن محيصن ، واختلف عن نافع وعن الأعرج " تُصْلى " تضم التاء وسكون الصاد ، وذلك يحتمل أن يكون

(124/813)

من صليته النار على معنى أصليته ، فيكون كتضرب ، ويحتمل أن يكون من أصليت ، فتكون كتكرم ، وقرأ بعض الناس : " تُصَلّى " بضم التاء وفتح الصاد وشد اللام على التعدية بالتضعيف ، حكاها أبو عمرو بن العلاء ، و" الحامية " ، المتوقدة المتوهجة ، و" الآنية " : التي قد انتهى حرها كما قال تعالى ﴿ وبين حميم آن ﴾ [الرحمن : 44] ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد ، وقال ابن زيد : معنى ﴿ آنية ﴾ : حاضرة لهم من قولك آن الشيء إذا حضر ، واختلف الناس في " الضريع " ، فقال الحسن وجماعة من المفسرين : هو الزقوم ، لأن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية أن الكفار لا طعام لهم ﴿ إلا من ضريع ﴾ ، وقد أخبر أن الزقوم طعام الأثيم ، فذلك يقتضي أن الضريع الزقوم ، وقاله سعيد بن جبير " الضريع " : الحجارة ، وقال مجاهد وابن عباس وقتادة وعكرمة : " الضريع " شبرق النار ، وقال أبو حنيفة : " الضريع " الشبرق وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً ، ومنه قول أبي عيزارة الهذلي : [الطويل]

وحبسْنَ في هزم الضريع فكلها . . . جرباء دامية اليدين حرود

وقال أبو ذؤيب :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى . . . وعاد ضريعاً بان منه الخائض

(125/813)

وقيل " الضريع " : العشرق ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الضريع " : شوك في النار ، وقال بعض اللغويين : " الضريع " يبيس العرفج إذا تحطم ، وقال آخرون : هو رطب العرفج ، وقال الزجاج : هو نبت كالعوسج ، وقال بعض المفسرين : " الضريع " نبت في البحر أخضر منتن مجوف مستطيل له بورقية كثيرة ، وقال ابن عباس : " الضريع " : شجر من نار ، وكل من ذكر شيئاً مما ذكرناه فإنما يعني أن ذلك من نار ولا بد ، وكل ما في النار فهو نار . وقال قوم : ﴿ ضريع ﴾ واد في جهنم ، وقال جماعة من المتأولين : " الضريع " طعام أهل النار ولم يرد أن يخصص شيئاً مما ذكرنا ، وقال بعض اللغويين : وهذا لا تعرفه العرب ، وقيل : " الضريع " : الجلدة التي على العظم تحت اللحم ، ولا أعرف من تأول الآية بهذا ، وأهل هذه الأقاويل يقولون الزقوم لطائفة ، والضريع لطائفة والغسلين لطائفة ، واختلف في المعنى الذي سمي ضريعاً فقيل هو ضريع بمعنى مضرع أي مضعف للبدن مهزل ، ومنه قول النبي صلى الله

عليه وسلم في ولد جعفر بن أبي طالب : " ما لي أراهما ضارعين " ؟ يريد هزيلين ، ومن فعيل بمعنى مفعل قول عمرو بن معد يكرب : [الوافر] _@_

أمن ريحانة الداعي السميع . . . يؤرقني وأصحابي هجوم

(126/813)

يريد السمع ، وقيل ﴿ ضريع ﴾ فعيل من المضارعة ، أي الاشتباه لأنه يشبه المرعى الجيد ويضارعه في الظاهر وليس به . ولما ذكر تعالى وجوه أهل النار ، عقب ذلك بذكره وجوه أهل الجنة ليبين الفرق ، وقوله تعالى : ﴿ لسعيها ﴾ يريد لعملها في الدنيا وطاعتها ، والمعنى لثواب سعيها والتنعيم عليه ، ووصف الجنة بالعلو وذلك يصح من جهة المسافة والمكان ومن جهة المكانة والمنزلة أيضاً ، وقرأ نافع وحده وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهما والأعرج وأهل مكة والمدينة " لا تسمع فيها لاغية " أي ذات لغو ، فهي على النسب ، وفسره بعضهم على معنى لا تسمع فيها فئة أو جماعة لاغية ناطقة بسوء . قال أبو عبيدة : ﴿ لاغية ﴾ ؛ مصدر كالعاقبة والخائنة ، وقرأ الجحدري " لا تُسمع " بضم التاء ، " لاغيةً " بالنصب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " لا يُسمع " بالياء من تحت مضمومة " لاغيةٌ " بالرفع ، وهي قراءة ابن محيصن وعيسى والجحدري أيضاً .

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12)

﴿ عين ﴾ في هذه الآية اسم جنس ، ويحتمل أن تكون عيناً مخصوصة ذكرت على جهة التشريف لها . و" رفع السرر " أشرف لها ، و" الأكواب " أوان كالأباريق لا عرى لها ولا آذان ولا خراطيم ، وشكلها عند العرب معروف . و﴿ موضوعة ﴾ معناه بأشربتها معدة و" النمرقة " الوسادة ، ويقال نمرقة بكسر النون والراء وقال زهير : [الطويل]

كهولاً وشباناً حساناً وجوههم . . . على سُرُرٍ مصفوفةٍ ونمارق

(127/813)

و " الزرابي " واحدتها زربية ، ويقال بفتح الزاي وهي كالطنافس لها خمل ، قاله الفراء وهي ملونات ، و﴿ مبثوثة ﴾ معناه كثيرة متفرقة ، ثم أقام تعالى الحجة على منكري قدرته على بعث الأجساد بأن وقفهم على موضع العبرة في مخلوقاته ، و﴿ الإبل ﴾ في هذه الآية هي الجمال المعروفة ، هذا قول جمهور المتأولين ، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل ليس في الحيوان ما يقوم من البروك بحمله سواه وهو على قوته غاية في الانقياد . قال الثعلبي في بعض التفاسير : إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الحجر فبركت الناقة وأذنت رأسها من فم الحجر ، وكان سريح القاضي يقول لأصحابة : اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى

ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وقال أبو العباس المبرد ﴿ الإبل ﴾ هنا السحاب ، لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتيها أرسالاً كالإبل وتزجى كما تزجى الإبل في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام ، ومنه قول الشاعر : المتقارب]

كأن السحاب دوين السما . . . نعام تعلق بالأرجلِ

(128/813)

وقرأ أبو عمر بخلاف وعيسى " الإبلّ " بشد اللام وهي السحاب فيما ذكر قوم من اللغويين والنقاش وقرأ الجمهور " خُلقَت " بفتح القاف وضم الخاء ، وقرأ علي بن أبي طالب " خَلقْت " بفتح الخاء وسكون القاف على فعل التكلم ، وكذلك رفعت ونصبت " وسطحت " وقرأ أبو حيوة " رفّعت " و " نصّبت " و " سطّحت " بالتشديد فيها ، و ﴿ نصبت ﴾ معناه : أثبتت قائمة في الهواء لا تنتطح ، وقرأ الجمهور " سطِحت " وقرأ هارون الرشيد " سطّحت " بشد الطاء على المبالغة ، وهي قراءة الحسن ، وظاهر هذه الآية أن الأرض سطح لها كرة ، وهو الذي عليه أهل العلم ، والقول بكريتها وإن كان لا ينقص ركناً من أركان الشرع ، فهو قول لا يثبته علماء الشرع ، ثم أمر تعالى نبيه بالتذكير بهذه الآية ونحوها ، ثم نفى أن يكون مصطيراً على الناس ، أي قاهراً جاهداً مع تكبر تسلطاً عليهم ،

يقال تسيطر علينا فلان ، وقرأ بعض الناس " بمسيطر " بالسين وبعضهم بالصاد ، وقد تقدم وقرأ هارون " بمصيطَر " بفتح الطاء وهي لغة تميم وليس في كلام العرب على هذا البناء غير مسيطر ومبيطر ومبيقر ومهيمن ، وقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ قال بعض المتأولين الاستثناء متصل والمعنى ﴿ إلا من تولى ﴾ فإنك مصيطر عليه فالآية على هذا لا نسخ فيها وقال آخرون منهم ، الاستثناء منفصل ، والمعنى ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ وتم الكلام ، وهي آية موادعة منسوخة بالسيف ثم قال ﴿ إلا من تولى وكفر فيعذبه الله ﴾ ، وهذا هو القول الصحيح لأن السورة مكية ، والقتال إنما نزل بالمدينة ، و﴿ من ﴾ بمعنى الذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(129/813)

وقال القرطبى :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) ﴾

قال المفسرون : لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين ، تعجّب الكفار من ذلك فكذّبوا وأنكروا ؛ فذكَّرهُمُ الله صنعته وقدرته ؛ وأَنه قادر على كل شيء ، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض .

ثم ذكر الإبل أولاً ، لأنها كثيرة في العرب ، ولم يَرَوُا الفِيلة ، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خَلْقه ؛ قد ذلله للصغير ، يقوده ويُنيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحِمل وهو بارك ، فينهض بثقيل حمله ، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره .

فأراهم عظيماً من خَلقه ، مسخراً لصغير من خلقه ؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته .

وعن بعض الحكماء : أنه حدّث عن البعير وبديع خَلْقه ، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها ؛ ففكر ثم قال : يوشِك أن تكون طوال الأعناق .

وحين أراد بها أن تكون سفائن البر ، صبَّرها على احتمال العطش ؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعداً ، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراريّ والمفاوز ، مما لا يرعاه سائر البهائم .

وقيل : لمّا ذكر السُّرُر المرفوعة قالوا : كيف نصعدها ؟ فأنزل الله هذه الآية ، وبين أن الإبل تَبْرُك حتى يحمل عليها ثم تقوم ؛ فكذلك تلك السُّرُر تتطامن ثم ترتفع .

قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما .

وقيل : الإبل هنا القِطع العظيمة من السحاب ؛ قاله المبرِّد .

قال الثعلبيّ : وقيل في الإبل هنا : السحاب ، ولم أجد لذلك ذلك أصلاً في كتب الأئمة .

قلت : قد ذكر الأصمعيّ أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيب ، قال أبو عمرو : من قرأها "أفلا

ينظُرون إلى الإبِل كيف خُلِقت" بالتخفيف : عنى به البعير ، لأنه من ذوات الأربع ، يَبرُك فتحمل عليه الحَمولة ، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم .

ومن قرأها بالتثقيل فقال : "الإبِلِ" ، عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر .

(130/813)

وقال الماورديّ : وفي الإبل وجهان : أحدهما : وهو أظهرهما وأشهرهما : أنها الإبل من النَّعَم .

الثاني : أنها السحاب .

فإن كان المراد بها السحاب ، فلِما فيها من الآيات الدالة على قدرته ، والمنافع العامة لجميع خلقه .

وإن كان المراد بها الإبل من النَّعَم ، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان ؛ لأن ضروبه أربعة : حَلُوبة ، ورَكُوبة ، وأَكُولة ، وحَمُولة .

والإبل تجمع هذه الخِلال الأربع ؛ فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم .

وقال الحسن : إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ ، وتخرج اللبن .

وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا : الفيل أعظم في الأعجوبة : فقال : العرب بعيدة العهد

بالفيل ، ثم هو خنزير لا يُؤكل لحمه ، ولا يُركب ظهره ، ولا يحلب درّه .

وكان شُرَيْح يقول : اخرجوا بنا إلى الكُناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلِقت .

والإبل : لا واحد لها من لفظها ، وهي مؤنثة ؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها ، إذا كانت لغير الآدميين ، فالتأنيث لها لازم ، وإذا صغرتها دخلتها الهاء ، فقلت : أُبيلة وغنيمة ، ونحو ذلك .

وربما قالوا للإبل : إِبْل ، بسكون الباء للتخفيف ، والجمع : آبال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أي رُفعت عن الأرض بلا عَمَد .

وقيل : رفعت ، فلا ينالها شيء .

﴿ وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي كيف نُصبت على الأرض ، بحيث لا تزول ؛ وذلك أن الأرض لما دُحِيت مادت ، فأرساهَا بالجبال .

كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء : 31] .

﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي بُسطت ومدّت .

وقال أنس : صليت خلف عليّ رضي الله عنه ، فقرأ "كَيفَ خَلَقْتُ" و "رَفَعْتُ" و "نَصَبْتُ" و "سَطَحْتُ" ، بضم التاءات ؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى .

وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية ؛ والمفعول محذوف ، والمعنى خلقتها .

وكذلك سائرها .

وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء : "سُطِّحَتْ" بتشديد الطاء وإسكان التاء .

وكذلك قرأ الجماعة ، إلا أنهم خففوا الطاء .

وقدّم الإبل في الذكر ، ولو قدّم غيرها لجاز .

قال القشيريّ : وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة .

وقد قيل : هو أقرب إلى الناس في حق العرب ، لكثرتها عندهم ، وهم من أعرف الناس بها .

وأيضاً : مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر ؛ فهي مأكولة ، ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة عليها ، والصبر على العطش ، وقلة العَلَف ، وكثرة الحَمْل ، وهي مُعْظم أموال العرب .

وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس ، ومَنْ هذا حاله تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر في مركوبه ، ثم يمد بصره إلى السماء ، ثم إلى الأرض .

فأُمِروا بالنظر في هذه الأشياء ، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فعِظهم يا محمد وخوّفهم .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أي واعظ .

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم .

ثم نسختها آية السيف .

وقرأ هارون الأعور "بِمُسَيْطَرٍ" (بفتح الطاء) ، و"الْمُسيْطَرُون" .

وهي لغة تميم .

وفي الصحاح : "المسيطِر والمصيطِر : المسلّط على الشيء ، ليشرِف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله ، وأصله من السطر ، لأن من معنى السطر ألا يتجاوز ، فالكتاب مسطر ، والذي يفعله مسطر ومسيطِر ؛ يقال : سيطرت علينا ، وقال تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .

وسَطَرَه أي صرَعَه" .

﴿ إِلَّا مَن تولى وكَفَرَ ﴾ استثناء منقطع ، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ وهي جهنم الدائم عذابها .

وإنما قال "الأكبر" لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل .

ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود : "إلا مَنْ تَوَلَّى وكَفَر .

فإنه يعذبه الله" .

وقيل : هو استثناء متصل .

والمعنى : لست بمسلّط إلا على من تولى وكفر ، فأنت مُسَلَّط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر ، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير .

ورُوِي أن علياً أُتِي برجل ارتد ، فاستتابه ثلاثة أيام ، فلم يعاود الإسلام ، فضرب عنقه ، وقرأ ﴿ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ ﴾ .

وقرأ ابن عباس وقتادة "أَلاَ" على الاستفتاح والتنبيه ، كقول امرىء القيس :

أَلاَ رُبَّ يومٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ . . .

و"مَنْ" على هذا : للشرط .

والجواب ﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله ﴾ والمبتدأ بعد الفاء مضمر ، والتقدير : فهو يعذبه الله ، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان : إلا من تولى وكفر يعذبه الله .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي رُجوعهم بعد الموت .

يقال : آب يؤوب ؛ أي رجع .

قال عَبيد :

وكُلّ ذي غَيْبَةٍ يؤوب . . .

وغائب الموتِ لا يؤوب

وقرأ أبو جعفر "إِيَّابَهُمْ" بالتشديد .

قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام .

وقيل : هما لغتان بمعنى .

الزمخشري : وقرأ أبو جعفر المدنيّ "إِيابهم" بالتشديد ؛ ووجهه أن يكون فِيْعالا : مصدر أيب ، قيل من الإِياب .

أو أن يكون أصله إوّاباً فِعّالا من أوّب ، ثم قيل : إيواباً كدِيوان في دِوّان .

ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(133/813)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

استئنافٌ مسوقٌ لتقريرِ ما فصلَ من حديثِ الغاشيةِ وما هو مبنيٌّ عليهِ من البعثِ الذي هم فيه مختلفونَ بالاستشهادِ عليهِ بما لا يستطيعونَ إنكارَهُ . والهمزةُ للإنكارِ والتوبيخِ ، والفاءُ للعطفِ على مقدرٍ يقتضيهِ المقامُ وكلمةُ كيفَ منصوبةٌ بما بعدَها كما في قولِه تعالى : ﴿

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله ﴾ معلقةٌ لفعلِ النظرِ ، والجملةُ في حيزِ الجرّ على أنَّها بدلُ اشتمالٍ من الإبلِ أي أينكرونَ ما ذُكِرَ من البعثِ وأحكامِه ويستبعدونَ وقوعَهُ من قدرةِ الله عزَّ وجلَّ فلا ينظرونَ إلى الإبلِ التي هي نصبُ أعينِهم يستعملونَها كلَّ حينٍ إلى أنَّها كيفَ خُلقتْ خلقاً بديعاً معدولاً بِهِ عن سُننِ خلقةِ سائرِ أنواعِ الحيواناتِ في عظمِ جثتِها وشدةِ قوتِها وعجيبِ هيأتِها اللائقةِ بتأتّي ما يصدرُ عنها من الأفاعيلِ الشاقةِ كالنوءِ بأوقارِها الثقيلةِ وجرِّ الأثقالِ الفادحةِ إلى الأقطارِ النازحةِ وفي صبرِها على الجوعِ والعطشِ حتى إن أظماءَها لتبلغُ العشرَ فصاعداً واكتفائِها باليسيرِ ورعيِها لكلِّ ما يتيسرَ من شوكٍ وشجرٍ وغيرِ ذلكَ مما لا يكادُ يرعاهُ سائرُ البهائمِ وفي انقيادِها مع ذلكَ للإنسانِ في الحركةِ والسكونِ والبروكِ والنهوضِ حيثُ يستعملُها في ذلكَ كيفما يشاءُ ويقتادُها بقطارِها كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ .

(134/813)

﴿ وَإِلَى السماء ﴾ التي يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ رفعاً سحيق المدى بلا عمادٍ ولا مساكٍ بحيث لا يناله الفهم والادراك . ﴿ وَإِلَى الجبال ﴾ التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ نصباً رصيناً فهيَ راسخةٌ لا تميلُ ولا تميدُ ﴿ وَإِلَى الأرض ﴾ التي يضربونَ فيها ويتقلبونَ عليها ﴿ كَيْفَ

سُطِحَتْ ﴾ سطحاً بتوطئةٍ وتمهيدٍ وتسويةٍ وتوطيدٍ حسبما يقتضيهِ صلاحُ أمورِ ما عليها من الخلائقِ . وقُرِىءَ سُطّحتْ مُشدداً وقُرِئتْ الأفعالُ الأربعةُ على بناءِ الفاعلِ للمتكلمِ ، وحذفِ الراجعِ المنصوبِ . والمعنى أفلا ينظرونَ نظرَ التدبرِ والاعتبارِ إلى كيفيةِ خلقِ هذه المخلوقاتِ الشاهدةِ بحقيةِ البعثِ والنشورِ ليرجعُوا عمَّا هُم عليهِ من الإنكارِ والنفورِ ويسمعُوا إنذارَكَ ويستعدُّوا للقائِه بالإيمانِ والطاعةِ . والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ لترتيبِ الأمرِ بالتذكيرِ على ما ينبىءُ عنه الإنكارُ السابقُ من عدمِ النظرِ أي فاقتصرْ على التذكيرِ ولا تلحَّ عليهم ولا يُهمنَّكَ أنَّهم لا ينظرونَ ولا يتذكرونَ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ تعليلٌ للأمرِ . وقولُه تعالَى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم ﴾ تقريرٌ لهُ وتحقيقٌ لمَعْنى الإنذارِ أي لستَ بمتسلطٍ عليهم تجبرُهم على ما تريدُ كقولِه تعالى : ﴿ يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ وقُرِىءَ بالسينِ على الأصلِ بالإشمامِ ، وقُرِىءَ بفتحِ الطاءِ قيلَ : هي لغةُ بني تميمٍ فإنَّ سيطرَ عندهم متعدَ ومنه قولُهم : تسيطرُ . وقولُه تعالَى : ﴿ إِلاَّ مَن تولى وكَفَرَ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي لكِنْ من تولَّى منهم فإنَّ للهِ تعالَى الولايةَ والقهرَ .

(135/813)

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العذاب الأكبر ﴾ الذي هُو عذابُ جهنمَ وقيلَ : استثناءٌ مُتَّصلٌ من قولِه تعالَى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فذكرْ إلاَّ من انقطعَ طمعُكَ من إيمانِه وتولَّى فاستحقَّ العذابَ الأكبرَ وما بينهما اعتراضٌ ويعضدُ الأولَ أنه قُرِىءَ أَلاَ على التنبيهِ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ تعليلٌ لتعذيبِه تعالَى بالعذابِ الأكبرِ أيْ إنَّ إلينا رجوعَهُم بالموتِ والبعثِ لا إلى أحدٍ سوانا لا استقلالاً ولا اشتراكاً . وجمعُ الضميرِ فيه وفيما بعدَهُ باعتبارِ مَعْنى مَنْ كما أنَّ إفرادَهُ فيما سبقَ باعتبارِ لفظِها . وقُرِىءَ إِيَّابَهُم على أنَّه فِيْعَالٌ مصدرُ فَيْعَلٍ من الإيابِ ، أو فِعَّالٌ من أَوَبَ كفِسَّارٍ من فَسَرَ ثمَّ قيلَ : إِيْوَاباً كدِيوَانٍ في دِوَّانٍ ثُمَّ قُلبتْ الواوُ ياءً فأدغمتِ الياءُ الأُولى في الثانيةِ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ في المحشرِ لا على غيرِنا وثُمَّ للتراخِي في الرتبةِ لا في الزمانِ فإن الترتبَ الزمانيَّ بين إيابِهم وحسابِهم لا بينَ كونِ إيابِهم إليهِ تعالَى وحسابِهم عليهِ تعالى فإنَّهما أمرانِ مستمرانِ . وفي تصديرِ الجملتينِ بأنَّ وتقديمُ خبرِها وعطفُ الثانيةِ على الأُولى بكلمةِ ثُمَّ المفيدةِ لبعدِ منزلةِ الحسابِ في الشدةِ من الإنباءِ عن غايةِ السخطِ الموجبِ لتشديدِ العذابِ ما لا يَخْفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(136/813)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

استئناف مسوق لتقرير ما فصل من حديث الغاشبة وما هو مبني عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال لما نعت الله تعالى ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ ﴾ الخ ويرجع هذا في الآخرة إلى إنكار البعث كما لا يخفى والهمزة للإنكار والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكملة كيف منصوبة بما بعدها على أنها حال من مرفوع خلقت كما في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة : 28] معلقة لفعل النظر والجملة بدل اشتمال من الإبل .

(137/813)

وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها كقولهم : عرفت زيداً أبو من هو على أصح الأقوال على أن العرب قد أدخلت إلى علي كيف بلا واسطة إبدال كما أدخلت عليها على فحكى عنهم أنهم قالوا : انظر إلى كيف يصنع كما حكي عنهم أنهم قالوا على كيف تبيع الأحمرين وذكر أبو حيان في "البحر" والتذكرة وغيرهما أنه إذا علق الفعل عما فيه

الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته وقيل كيف بدل من الإبل وتعقبه في "المغني" بما في بعضه نظر وجوز في "مجمع البيان" كونها في موضع نصب على المصدر وهو كما ترى والإبل يقع على البعران الكثيرة ولا واحد له من لفظه وهو مؤنث ولذا إذا صغر دخلته التاء فقالوا أبيلة وقالوا في الجمع آبال وقد اشتقوا من لفظه فقالوا أبل وتابل الرجل وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا ما آبل زيداً ولم يحفظ سيبويه فيما قيل اسماً جاء على فعل بكسر الفاء والعين غير ابل أي أينكرون ما أشير إليه من البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلق أكثر أنواع الحيوانات في عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيآتها اللائقة بتأتي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة كالنوء بالأوقار الثقيلة وهي باركة وإيصالها الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة وفي صبرها على الجوع والعطش حتى إن ظمأها ليبلغ العشر بكسر فسكون وهو ثمانية أيام بين الوردين وربما يجوز ذلك وتسمى حينئذٍ الحوازي بالحاء المهملة والزاي واكتفائها بالسير ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيف يشاء ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير وفي تأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها إلى غير ذلك وخصت بالذكر لأنها أعجب ما عند العرب من الحيوانات التي هي

أشرف المركبات وأكثرها صنعاً ولهم على أحوالها أتم وقوف وعن الحسن أنها خصت بالذكر لأنها تأكل النوى وألقت وتخرج اللبن وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة فقال العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره أي على نحو ما يركب ظهر البعير من غير مشقة في ترييضه ولا يحلب دره وقال أبو العباس المبرد الإبل هنا السحاب لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي إرسالاً كالإبل وتزجى كما تزجى الإبل وهي في هيآتها أحياناً تشبه الإبل يعني أن إرادته منها هنا على طريق التشبيه والمجاز وكأنه كما قال الزمخشري لم يدع القائل بذلك إلا طلب المناسبة بين المتعاطفات على ما يقتضيه قانون البلاغة وهي حاصلة مع بقاء الإبل في عطنها قال الإمام التناسب فيها أن الكلام مع العرب وهم أهل أسفار على الإبل في البراري فربما انفردوا فيها والمنفرد يتفكر لعدم رفيق يحادثه وشاغل يشغله فيتفكر فيما يقع عليه طرفه فإذا نظر لما معه رأى الإبل وإذا نظر لما فوقه رأى السماء وإذا نظر يميناً وشمالاً رأى الجبال وإذا نظر لأسفل رأى الأرض فأمر بالنظر في خلوته لما يتعلق به النظر من هذه الأمور فبينها مناسبة بهذا الاعتبار وقال عصام الدين : إن خيال العرب جامع بين الأربعة لأن مالهم النفيس الإبل ومدار السقي لهم على السماء

ورعيهم في الأرض وحفظ مالهم بالجبال وما ألطف ذكر الإبل بعد ذكر الضريع فإن خطورها بعده على طرف الثمام وإذا صح ما روي من كلام قريش عند نزول تلك الآية كان ذكرها ألطف وألطف وقرأ الأصمعي عن أبي عمرو إلى الإبل بسكون الباء وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إبل بتشديد اللام ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي وقالوا : إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة .

﴿ وَإِلَى السماء ﴾ التي يشاهدونها ليلاً ونهاراً ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ رفعاً سحيق المدى بلا عماد ولا مساك بحيث لا يناله الفهم والإدراك .

(139/813)

﴿ وَإِلَى الجبال ﴾ التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمائها وأشجارها ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ وضعت وضعاً ثابتاً يتأتى معه ارتقاؤها فلا تميل ولا تميد ويمكن الرقي إلى دارها .

﴿ وَإِلَى الأرض ﴾ التي يضربون فيها ويتقلبون عليها ﴿ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ سطحاً بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور أهلها ولا ينافي ذلك القول بأنها قريبة من الكرة الحقيقية لمكان عظمها وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة وابن أبي عبلة خلقت رفعت نصبت سطحت بتاء المتكلم مبنياً للفاعل والمفعول ضمير محذوف

وهو العائد إلى المبدل منه بدل اشتمال أي خلقتها رفعتها نصبتها سطحتها وقرأ الحسن وهارون الرشيد سطحت بتشديد الطاء والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور ليرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور ويسمعوا إنذارك ويستعدوا للقائه بالإيمان والطاعة وجوز أن يحمل النظر على الإبصار ويكون فيه دعوى ظهور المطلوب بحيث يظهر بمجرد أبصار هذه المخلوقات وهو خلاف الظاهر والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما ينبىء عنه الإنكار السابق من عدم النظر أي فاقتصر على التذكير ولا تلح عليهم ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ تعليل للأمر وقوله سبحانه :

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم ﴾ تقرير له وتحقيق لمعنى الإنذار أي لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد كقوله تعالى : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق : 45] وقرأ الجمهور بمصيطر بالصاد وكسر الطاء والأصل السين والصاد بدل منه فإنه من السطر بمعنى التسلط يقال سطر عليه إذا تسلط وقرأ حمزة في رواية بإشمام الصاد زاياً وهارون بفتح الطاء وهي لغة تميم وسيطر متعد عندهم ويدل عليه قولهم تسيطر لمكان المطاوعة وقوله تعالى :

}إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ ﴾ قيل استثناء منقطع وإلا فيه بمعنى لكن ومن موصولة مبتدأ وما بعدها صلة والعائد الضمير المستتر فيه وقوله تعالى :

(141/813)

﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ خبر المبتدأ والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط نحو الذي يأتيني فله درهم وجعل من شرطية يبعده وجود الفاء فيما يصلح لجوابيتها بدونها وتقدير فهو يعذبه تكلف مستغنى عنه وأياً ما كان فمن المنقطع ما يقع بعد إلا فيه جملة أي لكن من أعرض وأقام على الكفر منهم يعذبه الله تعالى العذاب الأكبر وهذا عذاب الآخرة في النار فإنه الأكبر وعذاب الدنيا بالنسبة إليه أصغر وجعل الزمخشري الانقطاع على معنى لست بمستول عليهم لكن من تولى وكفر منهم فإن لله تعالى الولاية عليه والقهر فيعذبه في نار جهنم ولم يجعل على ما قيل متصلاً لأنه يلزم عليه كونه صلى الله عليه وسلم مستولياً على من تولى وقد حصرت الولاية به تعالى وجوز اتصاله بأن يكون من ضمير عليهم فيكون من في محل جر تابعاً له وتسلطه صلى الله عليه وسلم على المتولي باعتبار جهاده وقتله الذي وعد به عليه الصلاة والسلام ولا ينافي حصر الولاية به تعالى لأنه بأمره عز وجل فكأنه قيل لست

عليهم بمسيطر إلا على من تولى وأقام على الكفر فإنك متسلط عليه بما يؤذن لك من جهاده وقتله وسبيه وأسره وبعد ذلك يعذبه الله تعالى في جهنم فيكون في الآية إيعاد لهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وجوز أن يكون إيعاداً بالجهاد فقط على أن المراد بالعذاب الأكبر القتل وسبي النساء والأولاد وسائر ما يترتب على الجهاد من البلايا فيكون فيه إشارة إلى أن هذه الأمة أكبر عذابهم في الدنيا ذلك لا ما كان في الأمم السابقة من الخسف والمسخ ونحوهما وأقيم فيعذبه الخ مقام فتكون عليه متسلطاً إيذاناً بأن ذلك من قبله عز وجل حتى كأنه صلى الله عليه وسلم لا دخل له فيه وقال عصام الدين في كون الاستثناء منقطعاً اشكال لأن المستثنى المنقطع هو المذكور بعداً لا غير مخرج عن متعدد قبله لعدم دخوله فيه مخالف له في الحكم وليس من تولى وكفر خارجاً عن قوله تعالى عليهم وليس حكمهم مخالفاً له ثم

(142/813)

أجاب بأن الاستثناء المنقطع قد يكون لدفع توهم ناشىء مما سبق من غير أن يخالف المستثنى منه في الحكم فالواجب ذكر حكم له ليعلم أنه ليس حكمه مخالفاً لحكم المستثنى منه فكأنه ههنا لدفع توهم التعذيب فتأمل وجوز كون الاستثناء متصلاً من قوله تعالى ﴿

فذكر ﴾ ومن موصولة لا غير والمراد بالعذاب استحقاق العذاب أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ ﴾ الخ على هذا اعتراض ورجح الانقطاع بأن ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم قرؤا ألا حرف تنبيه واستفتاح وقوله تعالى :

(143/813)

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ تعليل لتعذيبه تعالى إياهم بالعذاب الأكبر وإياب مصدر آب أي رجع أي إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالاً ولا اشتراكاً وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى من كما أن أفراده فيما سبق باعتبار لفظها وقرأ أبو جعفر وشيبة إيابهم بتشديد الياء قال البطليوسي في كتاب "المثلثات" هذه القراءة تحتمل تأويلين أحدهما أن يكون إياب بالتشديد فعالاً من أوب على زنة فعل ككذب كذاباً وأصله أواب فلم يعتد بالواو الأولى حاجزاً لضعفها بالسكون فأبدل من الواو الثانية ياء لانكسار الهمزة فصار في التقدير أوياباً ثم قلبت الأولى ياء أيضاً لاجتماع ياء وواو وسكون إحداهما ولأن الواو الأولى إذا لم تمنع من انقلاب الثانية فهي أجدر بالانقلاب والثاني أن يكون فيعالاً وأصله أيواباً فاعل اعلال سيد وفعله على هذا أيب على وزن فيعل كحوقل حيقالاً من

الإياب وأصله أيوب فأعل كما ذكرنا والوجه الأول أقيس لأنهم قالوا في مصدره التأويب والتفعيل مصدر فعل لا فيعل ومع ذلك فقد قالوا هو سريع الأوبة والأيبة فكأنهم آثروا الياء لخفتها انتهى وقد ذكر هذين الوجهين الزمخشري إلا أنه في الأول منهما يجوز أن يكون أصله أواباً فعالاً من أوب ثم قيل إيواباً كديوان في دوان ثم فعل به ما فعل بأصل سيد وظاهره أن الواو الأولى هي التي قلبت أولاً ياء واعترض بأن المقرر أن الواو الأولى إذا كانت موضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً لا تقلب ياء لأجل الكسر كما في اخرواط مصدر اخروط وأن ديواناً إذا كان مذكوراً للقياس عليه لا للتنظير لا يصلح لذلك لنصهم على شذوذه وكأن البطليوسي عدل إلى ما عدل لذلك وفي "الكشف" لو جعل مصدر فاعل من الأوب فقد جاء فيه فيعال حتى قال بعضهم : إن فعالاً مخفف عنه لكان أظهر لأن فيعل لا يثبت إلا بثبت والأول كالمنقاس ومعنى المفاعلة حينئذٍ إما المبالغة وإما مسابقة بعضهم بعضاً في الأوب وأما

(144/813)

جعله فعالاً على ما قرر الزمخشري فأبعد إلى آخر كلامه وكونه من فاعل جوزه ابن عطية أيضاً لكنه قال ويصح أن يكون من آوب فيجيء إيواباً سهلت همزته وكان اللازم في الإدغام

يردها أواباً لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس فاعترضه أبو حيان بأن قوله وكان اللازم الخ ليس بصحيح بل اللازم إذا اعتبر الإدغام أن يكون إياباً لأنه قد اجتمعت ياء وهي المبدلة من الهمزة بالتسهيل وواو وهي عين الكلمة وإحداهما ساكنة فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير إياباً فلا تغفل .

(145/813)

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ في المحشر لا على غيرنا وثم للتراخي الرتبي لا الزماني فإن الترتيب الزماني بين إيابهم وحسابهم لا بين كون إيابهم إليه تعالى وحسابهم عليه سبحانه فإنهما أمران مستمران وفي تصدير الجملتين بأن وتقديم خبرها والإتيان بضمير العظمة وعطف الثانية على الأولى بثم المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العذاب ما لا يخفى وفي الآية رد على كثير من الشيعة حيث زعموا أن حساب الخلائق على الأمير كرم الله تعالى وجهه واستدلوا على ذلك بما افتروه عليه وعلى أهل بيته رضي الله تعالى عنهم أجمعين من الأخبار ومعنى قوله كرم الله تعالى وجهه أنا قسيم الجنة والنار إن صح أن الناس من هذه الأمة فريقان فريق معي فهم على هدى وفريق على فهم على ضلال فقسم معي في الجنة وقسم في النار ولعلهم عنوا أن علياً

كرم الله تعالى وجهه يحاسب الخلائق بأمره عز وجل كما يقول غيرهم بأن الملائكة عليهم السلام يحاسبونهم بأمره جل وعلا وهو معنى لا ينافي الحصر الذي تقتضيه الآية لكنه لم يثبت وأي خصوصية في الأمير كرم الله تعالى وجهه من بين جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين عليهم الصلاة والسلام أجمعين تقتضيه ولا نقص له كرم الله تعالى وجهه في نفي ذلك عنه ويكفيه رضي الله تعالى عنه من ظهور شرفه يوم القيامة أنه يزف إلى الجنة بين النبي وإبراهيم عليهما وعليه الصلاة والسلام كما جاء في الحديث إلى غير ذلك مما يظهر في ذلك اليوم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(146/813)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

قال جماعة من المفسرين : هل هنا بمعنى قد ، وبه قال قطرب ، أي : قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، وهي القيامة ؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها .

وقيل : إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجيب بما في خبره ، والتشويق إلى استماعه أولى .

وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين .

وقال سعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب : الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم : 50] وقيل : الغاشية أهل النار ؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها .

والأوّل أولى .

قال الكلبي : المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية ، فقد أتاك .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر كأنه قيل ما هو ؟ أو مستأنفة استئنافاً نحوّياً لبيان ما تضمنته من كون ، ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة .

ووجوه مرتفع على الابتداء ، وإن كانت نكرة لوقوعه في مقام التفصيل .

وقد تقدّم مثل هذا في سورة القيامة ، وفي سورة النازعات .

والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف إليه ، أي : يوم غشيان الغاشية .

والخاشعة : الذليلة الخاضعة .

وكل متضائل ساكن يقال له خاشع ، يقال خشع الصوت : إذا خفي ، وخشع في صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه .

والمراد بالوجوه هنا أصحابها .

قال مقاتل : يعني الكفار ؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله .

قال قتادة ، وابن زيد : خاشعة في النار .

وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص ، والأوّل أولى .

قوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ معنى ﴿ عاملة ﴾ أنها تعمل عملاً شاقاً .

قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب في سيره : عمل يعمل عملاً ، ويقال للسحاب إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملاً .

قيل : وهذا العمل هو جرّ السلاسل والأغلال ، والخوض في النار .

﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي : تعبة .

(147/813)

يقال نصب بالكسر ينصب نصباً : إذا تعب ، والمعنى : أنها في الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله .

وقيل : إن قوله : ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة ، أي : تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي ، وتنصب في ذلك .

وقيل : إنها عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة ، والأوّل أولى .

قال قتادة ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله ، فأعملها الله ، وأنصبها في النار بجرّ السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : 4] قال الحسن ، وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا ، ولم تنصب فأعملها ، وأنصبها في جهنم .

قال الكلبي : يجرّون على وجوههم في النار .

وقال أيضاً : يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم ، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل ، والأغلال ، والخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل .

قرأ الجمهور : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ ، أو على تقدير مبتدأ ، وهما خبران له ، وقرأ ابن محيصن ، وعيسى ، وحميد ، وابن كثير في رواية عنه بنصبهما على الحال ، أو على الذم .

وقوله : ﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ خبر آخر للمبتدأ ، أي : تدخل ناراً متناهية في الحرّ ، يقال : حمي النهار ، وحمي التنور ، أي : اشتدّ حرّهما .

قال الكسائي : يقال : اشتدّ حمى النهار ، وحموه بمعنى .

قرأ الجمهور : " تصلى " بفتح التاء مبنياً للفاعل .

وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب ، وأبو بكر بضمها مبنياً للمفعول .

وقرأ أبو رجاء بضم التاء ، وفتح الصاد ، وتشديد اللام ، والضمير راجع إلى الوجوه على

جميع هذه القراءات .

والمراد أصحابها ، كما تقدّم .

وهكذا الضمير ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ والمراد بالعين الآنية : المتناهية في الحرّ .

(148/813)

والآني : الذي قد انتهى حره ، من الإيناء بمعنى التأخر ، يقال آناه يؤنيه إيناء ، أي : أخرّه وحبسه ، كما في قوله : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ [الرحمن : 44] قال الواحدي : قال المفسرون : لو وقعت منها نطفة على جبال الدنيا لذابت .

ولما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ ، هو : نوع من الشوك يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً ، فإذا يبس فهو الضريع .

كذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما من المفسرين .

قيل : وهو سمّ قاتل ، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه .

وقيل : هو شيء يرمي به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس ، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع ، وهلكت هزالاً .

قال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمي به البحر .

وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأوّل ، ومنه قول أبي ذؤيب :

رعى الشبرق الرّيان حتى إذا ذوى . . . وعاد ضريعاً بان عنه التحايص

وقال الهذلي يذكر إبلاً ، وسوء مرعاها :

وحبسن في هرم الضريع وكلها . . . قرناء دامية اليدين جرود

وقال سعيد بن جبير : الضريع الحجارة .

وقيل : هو شجرة في نار جهنم .

وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب .

وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ، ويتضرّعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمي بذلك ؛ لأن آكله يتضرّع إلى الله في أن يغض عنه لكراهته وخشونته .

قال النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الذليل ، أي : من شربه يلحقه ضراعة وذلة .

وقال الحسن أيضاً : هو الزقوم .

وقيل : هو واد في جهنم ، وقد تقدّم في سورة الحاقة : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم ها هنا حَمِيمٌ * وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 35 ، 36] : والغسلين غير الضريع ، كما تقدّم .

وجمع بين الآيتين بأن النار دركات ، فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين .

ثم وصف سبحانه الضريع فقال : ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ أي : لا يسمن الضريع آكله ، ولا يدفع عنه ما به من الجوع .

قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية .

قال المشركون : إن إبلنا تسمن من الضريع ، فنزلت : ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ وكذبوا في قولهم هذا ، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه .

وقيل : اشتبه عليهم أمره ، فظنوه كغيره من النبات النافع .

ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي : ذات نعمة وبهجة ، وهي وجوه المؤمنين صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم ، وما أعدّه الله لهم من الخير الذي يفوق الوصف ، ومثله قوله : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ﴾ [المطففين : 24] ثم قال : ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي : لعملها الذي عملته في الدنيا راضية ، لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها ، وقرّت به عيونها ، والمراد بالوجوه هنا أصحابها ، كما تقدّم .

﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي : عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، أو عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين .

﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لا تسمع ﴾ بفتح الفوقية ، ونصب لاغية أي

: لا تسمع أنت أيها المخاطب ، أو لا تسمع تلك الوجوه .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بالتحتية مضمومة مبنياً للمفعول ، ورفع ﴿ لاغية ﴾ .

وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنياً للمفعول ، ورفع ﴿ لاغية ﴾ .

وقرأ الفضل ، والجحدري بفتح التحتية مبنياً للفاعل ونصب ﴿ لاغية ﴾ ، واللغو الكلام الساقط .

قال الفرّاء ، والأخفش ، أي : لا تسمع فيها كلمة لغو .

قيل : المراد بذلك الكذب والبهتان ، والكفر قاله قتادة ، وقال مجاهد : أي : الشتم .

وقال الفرّاء : لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب .

وقال الكلبي : لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برّة ولا فاجرة .

(150/813)

وقال الفرّاء أيضاً : لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى ؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم ، وهذا أرجح الأقوال ؛ لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم ، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص .

و﴿ لاغية ﴾ إما صفة موصوف محذوف ، أي : كلمة لاغية ، أو نفس لاغية ، أو مصدر ، أي : لا تسمع فيها لغواً .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ قد تقدّم في سورة الإنسان أن فيها عيوناً ، والعين هنا بمعنى العيون ، كما في قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ [التكوير : 14] ومعنى ﴿ جارية ﴾ أنها تجري مياهها ، وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة .

قال الكلبي : لا أدري بماء أو بغيره .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أي : عالية مرتفعة السمك ، أو عالية القدر .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ قد تقدّم أن الأكواب جمع كوب ، وأنه القدح الذي لا عروة له .

ومعنى ﴿ موضوعة ﴾ : أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ النمارق : الوسائد .

قال الواحدي : في قول الجميع ، واحدتها نُمرقة بضم النون .

وزاد الفرّاء سماعاً عن العرب : نِمرقة بكسرها .

قال الكلبي : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض ، ومنه قول الشاعر :

وإنا لنجري الكأس بين شروبنا . . . وبين أبي قابوس فوق النمارق

وقال الآخر :

كهول وشبان حسان وجوههم . . . على سرر مصفوفة ونمارق

قال في الصحاح: النمرق، والنمرقة وسادة صغيرة، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب.

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ يعني: البسط، واحدها زربي وزربية.

قال أبو عبيدة، والفرّاء: الزرابيّ الطنافس التي لها خمل رقيق، واحدها زربية، والمبثوثة المبسوطة قاله قتادة.

وقال عكرمة: بعضها فوق بعض.

قال الواحدي: ويجوز أن يكون المعنى: أنها مفرّقة في المجالس.

وبه قال القتيبي.

(151/813)

وقال الفرّاء: معنى مبثوثة كثيرة، والظاهر أن معنى البث: التفرّق مع كثرة، ومنه: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ [البقرة: 164].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدّر، كما في نظائره مما مرّ غير مرّة، والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه، وكذا ما بعدها، وكيف منصوبة بما بعدها، والجملة في محل جر على أنها بدل

اشتمال من الإبل ، والمعنى : أينكرون أمر البعث ، ويستبعدون وقوعه ، أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم ، وأكبر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ، ومزيد قوّتها ، وبديع أوصافها .

قال أبو عمرو بن العلاء : إنما خصّ الإبل ؛ لأنها من ذوات الأربع ، تبرك فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلاَّ وهو قائم ، قال الزجاج : نبههم على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده ، وينيخه ، وينهضه ، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك في شيء من الحوامل غيره ، فأراهم عظيماً من خلقه ليدلّ بذلك على توحيده .

وسئل الحسن عن هذه الآية ، وقيل له : الفيل أعظم في الأعجوبة ، فقال : أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به ، ثم هو خنزير لا يركب ظهره ، ولا يؤكل لحمه ، ولا يحلب درّه .

والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه ، تأكل النوى والقت ، وتخرج اللبن .

ويأخذ الصبيّ بزمامها ، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها .

وقال المبرد : الإبل هنا هي القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة .

وروي عن الأصمعي أنه قال : من قرأ ﴿ خلقت ﴾ بالتخفيف عنى به البعير ، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب .

﴿ وَإِلَى السماء كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أي : رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل .

وقيل : رفعت فلا ينالها شيء .

(152/813)

﴿ وَإِلَى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ على الأرض مرساة راسخة لا تميد ولا تميل ، ولا تزول .

﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي : بسطت .

والسطح : بسط الشيء ، يقال لظهر البيت إذا كان مستوياً : سطح .

قرأ الجمهور : ﴿ سطحت ﴾ مبنياً للمفعول مخففاً .

وقرأ الحسن : بالتشديد .

وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وابن السميفع ، وأبو العالية : " خلقت " ، " ورفعت " ، " ونصبت " ، وسطحت على البناء للفاعل ، وضم التاء فيها كلها .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالتذكير فقال : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : فعظهم يا محمد ، وخوّفهم ثم علل الأمر بالتذكير فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أي : ليس عليك إلا ذلك .

و﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بمسيطر ﴾ المصيطر والمسيطر بالسين والصاد : المسلط على الشيء ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله كذا في الصحاح ، أي : لست عليهم بمصيطر حتى تكرههم على الإيمان ، وهذا منسوخ بآية السيف .

قرأ الجمهور : ﴿ بمصيطر ﴾ بالصاد ، وقرأ هشام ، وقنبل في رواية بالسين .

وقرأ خلف بإشمام الصاد زاياً .

وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول ﴿ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ ﴾ هذا استثناء منقطع ، أي : لكن من تولى عن الوعظ والتذكير .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب جهنم الدائم .

وقيل : هو استثناء متصل من قوله : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي : فذكر كلّ أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه ، وتولى فاستحقّ العذاب الأكبر ، والأوّل أولى .

وإنما قال : ﴿ الأكبر ﴾ لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط ، والقتل والأسر .

وقرأ ابن مسعود : " فإنه يعذبه الله " .

وقرأ ابن عباس ، وقتادة (إلا من تولى وكفر) على أنها " إلا " التي للتنبيه والاستفتاح ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي : رجوعهم بعد الموت .

يقال : آب يئوب : إذا رجع ، ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وكلّ ذي غيبة يئوب . . . وغائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور : ﴿ إيابهم ﴾ بالتخفيف .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة بالتشديد .

قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام .

وقيل : هما لغتان بمعنى .

قال الواحدي : وأما " إيابهم " بتشديد الياء ، فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ يعني : جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث .

و " ثم " للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في الشدّة عن منزلة الإياب .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الغاشية من أسماء القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ قال : الساعة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ قال : تعمل ، وتنصب في النار ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ قال : هي التي قد طال أنيها .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال : الشبرق .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ قال : يعني اليهود والنصارى تخشع ، ولا ينفعها عملها .

﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ قال : قد أني غليانها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ قال : حارّة .

﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ قال : انتهى حرّها ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ يقول : من شجر من نار .

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً ﴿ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال : الشبرق اليابس .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ يقول : لا تسمع أذى ولا باطل ، وفي قوله : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ قال : بعضها فوق بعض .

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ قال : مجالس .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ قال : المرافق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بمصيطر ﴾ قال : جبار .

﴿ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ ﴾ قال حسابه على الله .

وأخرج أبو داود في ناسخه عنه أيضاً : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ثم نسخ ذلك فقال : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ قال : مرجعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 427 . 431 ﴾

(155/813)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) ﴾

لما تقدم التذكير بيوم القيامة ووصف حال أهل الشقاء بما وصفوا به ، وكان قد تقرر فيما نزل من القرآن أن أهل الشقاء هم أهل الإشراك بالله ، فُرِع على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهم عن النظر في دلائل الوحدانية ، فالفاء في قوله : ﴿ أفلا ينظرون ﴾ تفريع التعليل على المعلل لأن فظاعة ذلك الوعيد تجعل المقام مقام استدلال على أنهم محقوقون بوجوب النظر في دلائل الوحدانية التي هي أصل الاهتداء إلى تصديق ما أخبرهم به القرآن من البعث

والجزاء ، وإلى الاهتداء إلى أن منشىء النشأة الأولى عن عدم بما فيها من عظيم الموجودات كالجبال والسماء ، لا يُستبعد في جانب قدرته إعادة إنشاء الإنسان بعد فنائه عن عدم ، وهو دون تلك الموجودات العظيمة الأحجام ، فكانَ إعراضهم عن النظر مجلبة لما يجشمهم من الشقاوة وما وقع بين هذا التفريع ، وبين المفرع عنه من جملة : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ [الغاشية : 8] كانَ في موقع الاعتراض كما علمت .

فضمير ﴿ ينظرون ﴾ عائد إلى معلوم من سياق الكلام .

والهمزة للاستفهام الإنكاري إنكاراً عليهم إهمال النظر في الحال إلى دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته .

والنظر : نظر العين المفيد الاعتبار بدقائق المنظور ، وتعديته بحرف (إلى) تنبيه على إمعان النظر ليشعر الناظر مما في المنظور من الدقائق ، فإن قولهم نظر إلى كذا أشد في توجيه النظر من نظر كذا ، لما في (إلى) من معنى الانتهاء حتى كأنَّ النظر انتهى عند المجرور بـ (إلى) انتهاءَ تمكن واستقرارٍ كما قال تعالى : ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ﴾ [الأحزاب : 19] وقوله : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : 23] .

(156/813)

ولزيادة التنبيه على إنكار هذا الإهمال قُيِّد فعل ﴿ ينظرون ﴾ بالكيفيات المعدودة في قوله : ﴿ كيف خلقت ﴾ ، ﴿ كيف رفعت ﴾ ، ﴿ كيف نصبت ﴾ ، ﴿ كيف سطحت ﴾ أي لم ينظروا إلى دقائق هيئات خَلقها .

وجملة : ﴿ كيف خلقت ﴾ بدل اشتمال من الإبِل والعامل فيه هو العامل في المبدل منه وهو فعل ﴿ ينظرون ﴾ لاَ حرف الجر ، فإن حرف الجر آلة لتعدية الفعل إلى مفعوله فالفعل إن احتاج إلى حرف الجر في التعدية إلى المفعول لا يحتاج إليه في العمل في البدل ، وشتان بين ما يقتضيه إعمال المتبوع وما يقتضيه إعمال التابع فكلٌّ على ما يقتضيه معناه وموقعه ، فكيف منصوب على الحال بالفعل الذي يليه .

والمعنى والتقديرُ : أفلا ينظرون إلى الإبلِ هيئةِ خَلْقِها .

وقد عُدّت أشياءُ أربعة هي من النَّاظرين عن كَثب لا تغيب عن أنظارهم ، وعُطف بعضها على بعض ، فكان اشتراكها في مرْآهم جهةً جامعة بينها بالنسبة إليهم ، فإنهم المقصودون بهذا الإنكار والتوبيخ ، فالذي حسَّن اقتران الإبِل مع السماء والجبال والأرض في الذكر هنا ، هو أنها تنتظم في نظر جمهور العرب من أهل تهامة والحجاز ونجد وأمثالها من بلاد أهل الوبر والانتجاع .

فالإبل أموالهم ورواحلهم ، ومنها عيشهم ولباسهم ونسج بيوتهم وهي حمّالة أثقالهم ، وقد خلقها الله خلقاً عجيباً بقوة قوائمها ويُسْر بُروكها لتيسير حمل الأمتعة عليها ، وجَعَل

أعناقها طويلة قوية ليمكنها النهوض بما عليها من الأثقال بعد تحميلها أو بعد استراحتها في المنازل والمبارك ، وجعل في بطونها أمعاء تختزن الطعام والماء بحيث تصبر على العطش إلى عشرة أيام في السير في المفاوز مما يَهلك فيما دونه غيرها من الحيوان .

وكم قد جرى ذكر الرواحل وصفاتها وحمدها في شعر العرب ولا تكاد تخلو قصيدة من طِوالهم عن وصف الرواحل ومزاياها .

وناهيك بما في المعلقات وما في قصيدة كعب بن زهير .

(157/813)

و ﴿ الإِبل ﴾ : اسم جمع للبُعران لا واحد له من لفظه ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ في سورة الأنعام (146) .

وعن المبرد أنه فسر الإِبل في هذه الآية بالأسحبة وتأوّله الزمخشري بأنه لم يرد أن الإِبل من أسماء السحاب ولكنه أراد أنه من قبيل التشبيه ، أي هو على نحو قول عنترة :

جادت عليه كل بِكر حرّة

فتركن كل قرارة كالدرهم . . .

ونُقل بهم إلى التدبر في عظيم خلق السماء إذ هم ينظرونها نهارهم وليلهم في إقامتهم

وظعنهم ، يرقبون أنواء المطر ويشيمون لمع البروق ، فقد عرف العرب بأنهم بنو ماء السماء ، قال زيادة الحارثي (على تردد لشراح الحماسة في تأويل قوله ، بنو ماء السماء) :

ونَحن بنو ماء السماء فلا نَرى

لأنفسنا من دون مملكة قَصر . . .

وفي كلام أبي هريرة وقد ذكر قصة هَاجَر فقال أبو هريرة في آخرها : إنها لأمّكم يا بني ماء السماء ويتعرفون من النجوم ومنازل الشمس أوقات الليل والنهار ووجهة السير .

وأتبع ذكر السماء بذكر الجبال وكانت الجبال منازل لكثير منهم مثل جَبَلَي أجإ وسلمى لطَي .

وينزلون سفوحها ليكونوا أقرب إلى الاعتصام بها عند الخوف ويتخذون فيها مراقب للحراسة .

والنصْب : الرفع أي كيف رُفعت وهي مع ارتفاعها ثابتة راسخة لا تميل .

وثم نُزِل بأنظارهم إلى الأرض وهي تحت أقدامهم وهي مرعاهم ومفترشهم ، وقد سَطَحها الله ، أي خلقها ممهدة للمشي والجلوس والاضطجاع .

ومعنى سُطحت ﴾ : سُويت يقال : سَطَح الشيء إذا سوّاه ومنه سَطْح الدار .

والمراد بالأرض أرض كل قوم لا مجموع الكرة الأرضية .

وبُنيت الأفعال الأربعة إلى المجهول للعلم بفاعل ذلك .

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21)

(158/813)

الفاء فصيحةُ تفريع على محصَّل ما سبق من أول السورة الذي هو التذكير بالغاشية وما اتصل به من ذكر إعراضهم وإنذارهم ، رتب على ذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدوام على تذكيرهم وأنه لا يؤيسه إصرارهم على الإعراض وعدم ادكارهم بما ألقى إليهم من المواعظ ، وتثبيته بأنه لا تبعة عليه من عدم إصغائهم إذ لم يُبعث مُلجئاً لهم على الإيمان .

فالأمر مستعمل في طلب الاستمرارِ والدوام .

ومفعول "ذَكِّرْ" محذوف هو ضمير يدل عليه قوله بعده ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ .

وجملة ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ تعليل للأمر بالدوام على التذكير مع عدم إصغائهم لأن ﴿ إنما ﴾ مركبة من (أنَّ) و (ما) وشأنُ (إنَّ) إذا وردت بعد جملة أن تفيد التعليل وتغني غَناء فاء التسبب ، واتصال (ما) الكافة بها لا يخرجها عن مهيعها .

والقصر المستفاد بـ ﴿ إنما ﴾ قصر إضافي ، أي أنت مذكر لست وكيلاً على تحصيل

تذكرهم فلا تتحرج من عدم تذكرهم فأنت غير مقصر في تذكيرهم وهذا تطمين لنفسه الزكية .

وجملة ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ بدل اشتمال من جملة القصر باعتبار جانب النفي الذي يفيده القصر .

والمصيطر : المُجْبِر المُكْرِه .

يقال : صيطر بصاد في أوله ، ويقال : سيطر بسين في أوله والأشهر بالصاد .

وتقدم في سورة الطور (37) : ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ وقرأ بها الجمهور وقرأ هشام عن ابن عامر بالسين وقرأه حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي .

ونفي كونه مصيطراً عليهم خبر مستعمل في غير الإِخبار لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه لم يكلف بإكراههم على الإِيمان ، فالخبر بهذا النفي مستعمل كناية عن التطمين برفع التبعة عنه من جراء استمرار أكثرهم على الكفر ، فلا نسخ لحكم هذه الآية بآيات الأمر بقتالهم .

ثم جاء وجوب القتال بتسلسل حوادث كان المشركون هم البادئين فيها بالعدوان على المسلمين إذ أخرجوهم من ديارهم ، فشرع قتال المشركين لخضد شوكتهم وتأمين المسلمين من طغيانهم .

ومن الجهلة من يضع قوله : ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ في غير موضعه ويحيد به عن مهيعه فيريد أن يتخذه حجة على حرية التدين بين جماعات المسلمين .

وشتان بين أحوال أهل الشرك وأحوال جامعة المسلمين .

فمن يلحد في الإسلام بعد الدخول فيه يستتاب ثلاثاً فإن لم يتب قتل ، وإن لم يُقدَر عليه فَعَلَى المسلمين أن ينبذوه من جامعتهم ويعاملوه معاملة المحارب .

وكذلك من جاء بقول أو عمل يقتضي نبذ الإسلام أو إنكار ما هو من أصول الدين بالضرورة بعد أن يوقف على مآل قوله أو عمله فيلتزمه ولا يتأوله بتأويل مقبول ويأبى الانكفاف .

وتقديم ﴿ عليهم ﴾ على متعلقه وهو "مسيطر" للرعاية على الفاصلة .

وقوله : ﴿ إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ معترض بين جملة ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ وجملة : ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ [الغاشية : 25] والمقصود من هذا الاعتراض الاحتراس من توهمهم أنهم أصبحوا آمنين من المؤاخذة على عدم التذكر .

فحرف ﴿ إلا ﴾ للاستثناء المنقطع وهو بمعنى الاستدراك .

والمعنى : لكن من تولى عن التذكر ودام على كفره يعذبه الله العذاب الشديد .

ودخلت الفاء في الخبر وهو ﴿ فيعذبه اللَّه ﴾ إذ كان الكلام استدراكاً وكان المبتدأ

موصولاً فأشبه بموقعه وبعمومه الشروط فأدخلت الفاء في جوابه ومثله كثير كقوله تعالى :

﴿ والذين قاتلوا في سبيل اللَّه فلن يضل أعمالهم ﴾ [محمد : 4] .

و﴿ الأكبر ﴾ : مستعار للقوى المتجاوز حدّ أنواعه .

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

تعليل لجملة : ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ [الغاشية : 22] ، أي لست مكلفاً بجبرهم على التذكر والإيمان لأنا نحاسبهم حين رجوعهم إلينا في دار البقاء .

وقد جاء حرف ﴿ إنَّ ﴾ على استعماله المشهور ، إذا جيء به لمجرد الاهتمام دونَ ردّ إنكار ، فإنه يفيد مع ذلك تعليلاً وتسبباً كما تقدم غير مرة ، وتقدم عند قوله : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ في سورة البقرة (32) .

(160/813)

والإِياب : بتخفيف الياء الأوب ، أي الرجوع إلى المكان الذي صدر عنه .

أطلق على الحضور في حضرة القُدس يوم الحشر تشبيهاً له بالرجوع إلى المكان الذي خرج منه بملاحظة أن الله خالقُ الناس خلْقَهم الأول ، فشبهت إعادة خلقهم وإحضارهم لديه برجوع المسافر إلى مقره كما قال تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك ﴾ [

الفجر : 27 ، 28] .

وتقديم خبر ﴿ إنَّ ﴾ على اسمها يظهر أنه لمجرد الاهتمام تحقيقاً لهذا الرجوع لأنهم ينكرونه ، وتنبيهاً على إمكانه بأنه رجوع إلى الذي أنشأهم أول مرة .

ونُقل الكلام من أسلوب الغيبة في قوله : ﴿ فيعذبه اللَّه ﴾ [الغاشية : 24] إلى أسلوب التكلم بقوله : ﴿ إلينا ﴾ على طريقة الالتفات .

وقرأ أبو جعفر ﴿ إيَّابهم ﴾ بتشديد الياء .

فعن ابن جني هو مصدر على وزن فِيعَال مصدر : أيَب بوزن فَيْعَل من الأوب مثل حَوْقَل . فلما اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء فقيل : إيَّاب .

وعطفت جملة : ﴿ إن علينا حسابهم ﴾ بحرف ﴿ ثم ﴾ لإفادة التراخي الرتبي فإن حسابهم هو الغرض من إيَابهم وهو أوقع في تهديدهم على التولي .

ومعنى (على) من قوله : ﴿ علينا حسابهم ﴾ أن حسابهم لتأكده في حكمة الله يشبه الحق الذي فرضه الله على نفسه .

وهذه الجملة هي المقصود من التعليل التي قبلها بمعنى التمهيد لها والإدماج لإثبات البعث . وفي ذلك إيذان بأن تأخير عقابهم إمهال فلا يحسبُوه انفلاتاً من العقاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) ﴾

وأخرج مالك ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن النعمان بن بشير أنه سئل بم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الغاشية القيامة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ قال : الساعة ﴿ وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ﴾ قال : تعمل وتنصب في النار ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ قال : هي التي قد طال أنيها ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ قال : حديث الساعة ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ قال : ذليلة

في النار ﴿ عاملة ناصبة ﴾ قال : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها وأنصبها في النار ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ قال : إناء طبخها منذ خلق الله السموات الأرض ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ وجوه يومئذ ﴾ قال : يعني في الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ﴾ قال : يعني اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ قال : تدانى غليانه .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم عن أبي عمران الجوني قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه براهب ، فوقف ، ونودي الراهب فقيل له : هذا أمير المؤمنين فاطلع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترك الدنيا فلما رآه عمر بكى ، فقيل له : إنه نصراني ، فقال : قد علمت ، ولكني رحمته ، ذكرت قول الله ﴿ عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ﴾ فرحمت نصبه واجتهاده وهو في النار .

(162/813)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ قال : عاملة في الدنيا بالمعاصي تنصب في النار يوم القيامة ﴿ إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ قال : حارة ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ قال : انتهى حرها ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ يقول : من شجر من نار .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ من عين آنية ﴾ قال : قد أنى طبخها منذ خلق الله السموات والأرض .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ من عين آنية ﴾ قال : قد بلغت إناها وحان شربها ، وفي قوله : ﴿ إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق اليابس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ من عين آنية ﴾ قال : انتهى حرها فليس فوقه حر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ آنية ﴾ قال : حاضرة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق اليابس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : الضريع بلغة قريش في الربيع الشبرق وفي الصيف الضريع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : الضريع الشبرق شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض .

وأخرج ابن شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الجوزاء قال : الضريع السلم ، وهو الشوك وكيف يسمن من كان طعامه الشوك ؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ إلا من ضريع ﴾ قال : من حجارة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ إلا من ضريع ﴾ قال : الزقوم .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بطعام ﴿ من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ " .

(163/813)

وأخرج ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " شيء يكون في النار شبه الشوك أمر من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حراً من النار ، سماه الله الضريع إذا طعمه صاحبه لا يدخل البطن ولا يرتفع إلى الفم فيبقى بين ذلك ولا يغني من جوع " .

أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير أنه قرأ في سورة الغاشية ﴿ متكئين فيها ﴾ ناعمين فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله : ﴿ لسعيها راضية ﴾ قال : رضيت عملها .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ لا تسمع فيها ﴾ بالتاء ونصب التاء لاغية منصوبة منونة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يسمع فيها لاغية ﴾ يقول : لا تسمع أذى ولا باطلاً وفي قوله : ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ قال : بعضها فوق بعض ﴿ ونمارق ﴾ قال : مجالس .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قال : شتماً .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قال : مؤذية .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قال : لا تسمع فيها باطلاً ولا مأثماً وفي قوله : ﴿ ونمارق ﴾ قال : الوسائد وفي قوله : ﴿ مبثوثة ﴾ قال : مبسوطة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ قال : مرتفعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ ونمارق ﴾ قال : الوسائد

﴿ وزرابي ﴾ قال : البسط .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ ونمارق ﴾ قال : المرافق .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وزرابي ﴾ قال : البسط .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وزرابيّ مبثوثة ﴾ قال : بعضها على بعض .

(164/813)

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن عمار بن محمد قال : صليت خلف منصور بن المعتمر فقرأ ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ فقرأ فيها ﴿ وزرابيّ مبثوثة ﴾ متكئين فيها ناعمين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن أبي الهذيل أن موسى أو غيره من الأنبياء قال : يا رب كيف يكون هذا منك ؟ أولياؤك في الأرض خائفون يقتلون ، ويطلبون فلا يعطون ، وأعداؤك يأكلون ما شاؤوا ، ويشربون ما شاؤوا ونحو هذا . فقال : انطلقوا بعبدي إلى الجنة فينظر ما لم ير مثله قط ، إلى أكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة ، وإلى

الحور العين ، وإلى الثمار ، وإلى الخدم كأنهم لؤلؤ مكنون . فقال : ما ضر أوليائي ما أصابهم في الدنيا إذا كان مصيرهم إلى هذا ؟ ثم قال : انطلقوا بعبدي هذا فانطلق به إلى النار ، فخرج منها عنق فصعق العبد ثم أفاق فقال : ما نفع أعدائي ما أعطيتهم في الدنيا إذا كان مصيرهم إلى هذا ؟ قال : لا شيء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال نبي من الأنبياء : اللهم العبد من عبيدك يعبدك ويطيعك ويجتنب سخطك تزوي عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء . والعبد يعبد غيرك ، ويعمل بمعاصيك ، فتعرض له الدنيا وتزوي عنه البلاء . قال : فأوحى الله إليه أن العباد والبلاد لي ، كل يسبح بحمدي فأما عبدي المؤمن فتكون له سيئات فإنما أعرض له البلاء وأزوي عنه الدنيا فتكون كفارة لسيئاته ، وأجزيه إذا لقيني وأما عبدي الكافر فتكون له الحسنات فأزوي عنه البلاء ، وأعرض له الدنيا فيكون جزاء لحسناته وأجزيه بسيئاته حين يلقاني . والله أعلم .

(165/813)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة ، فأنزل الله ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبِل كيف خلقت ﴾

وكانت الإِبل عيشاً من عيش العرب وخولاً من خولهم ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ قال : تصعد إلى الجبل الصخور عامة يومك ، فإذا أفضت إلى أعلاه أفضت إلى عيون منفجرة وأثمار متهدلة لم تغرسه الأيدي ولم تعمله الناس نعمة من الله إلى أجل ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي بسطت يقول : إن الذي خلق هذا قادر على أن يخلق في الجنة ما أراد .

وأخرج عبد بن حميد عن شريح أنه كان يقول لأصحابه : أخرجوا بنا إلى السوق فننظر ﴿ إلى الإِبل كيف خلقت ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، ثم قرأ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ " .

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " لست عليهم بمصيطر " بالصاد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ يقول : بجبار فاعف عنهم وأصفح .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ قال : بقاهر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ قال : كل عبادي إليّ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ بمسيطر ﴾ قال : بمسلط .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ قال : جبار ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ قال : حسابه على الله .

(166/813)

وأخرج أبو داود في ناسخه عن ابن عباس ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ نسخ ذلك فقال : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : 5] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ قال : مرجعهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء مثله .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : عز وجل ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ قال : الإِياب المرجع . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص يقول :

وكل ذي غيبة يؤوب . . . وغائب الموت لا يؤوب

وقال الآخر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى . . . كما قر عيناً بالإِياب المسافر

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ قال : منقلبهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ قال : إلى الله الإِياب ، وعلى الله الحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 490 . 496 ﴾

(167/813)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

هل استفهام ، واستفهم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أتاه بعد ، فكأنه قال : لا يأتيك خبره ، ثم أخبره .

ويقال : معناه : قد أتاك حديث الغاشية ، والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة ، وإنما

سميت غاشية ، لأنها تغشى الخلق كلهم .

كما يقال : يوماً كان شره مستطيراً ، ويقال : الغاشية النار ، وإنما سميت غاشية ، لأنها تغشي وجوه الكفار .

كما قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : 5] أو كقوله : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 55] ويقال : الغاشية دخان النار ، يخرج من النار يوم القيامة ، عنق من النار ، فيحيط بالكفار مثل السرادق ، ويجيء دخانها ، فيغشى الخلائق ، حتى لا يرى بعضهم بعضاً ، إلا من جعل الله تعالى له نوراً ، بصالح عمله في الدنيا كقوله : ﴿ كَأَنَّهُ جمالة صُفْرٌ ﴾ [المرسلات : 33] وكقوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 43] ويقال : تغشى الغاشية الصراط المنافقين .

كقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وظاهره مِن قِبَلِهِ العذاب ﴾ [الحديد : 13] الآية .

ثم وصف ذلك اليوم وقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة ﴾ يعني : من الوجوه ، وجوه يومئذ خائفة ، ذليلة في العذاب .

وهي وجوه الكفار .

ثم قال : ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ يعني : تُجَرُّ على وجوهها في النار ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ يعني : من تعب وعذاب في النار .

(168/813)

ويقال : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ يعني : تكلف الصعود على عتبة ملساء من النار ، فيرتقيها في عناء ومشقة ، فإذا ارتقى إلى ذروتها ، هبط منها إلى أسفلها .

ويقال : نزلت في رهبان النصارى ، عاملة في الدنيا ، ناصبة في العبادة ، أشقياء في الدنيا والآخرة .

ويقال : عاملة في الدنيا بالمعاصي والذنوب ، ناصبة في الآخرة بالعذاب ﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ يعني : تدخل ناراً حارة ، قد أوقدت ثلاثة آلاف سنة ، حتى اسودّت .

فهي سوداء مظلمة .

قوله تعالى : ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ أي : من عين حارة ، قد انتهى حرُّها ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ ﴾ وهذا في بضع دركها ﴿ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ قرأ أبو عمرو ، وعاصم في رواية أبي بكر ، بضم التاء ﴿ تصلى نَاراً ﴾ وقرأ الباقون ، بالنصب .

فمن قرأ بالضم لمعنى المفعول الذي لم يسم فاعله ، ونصب ناراً على أنه مفعول ثان ، ومن قرأ بالنصب ، جعل الفعل الذي يدخل النار ، وهو كناية عن الوجوه .

ولهذا ذكره بلفظ التأنيث .

ثم قال : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ والضريع نبات بين طريق مكة واليمن فإذا أكل الكفار منه بقي في حلقهم ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ يعني : غير الضريع ﴿ لاَّ يُسْمِنُ ﴾ يعني : لا يشبع الضريع ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ يعني : ولا ينفع من جوع ، وهذا الجزاء ، للذي يتعب نفسه للعمل في الدنيا والمعاصي ، وما لا يحتاج إليه .

ثم وصف مكان الذي يعمل لله تعالى ، ويترك عمل المعصية ، ويؤدي ما أمر الله تعالى ، ويترك ما نهي عنه فقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ يعني : من الوجوه ما تكون ناعمة ، يعني : في نعمة وكرامة ، وهي وجوه المؤمنين والتائبين ، والصالحين .

ويقال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ يعني : مشرقة مضيئة ، مثل القمر ليلة البدر ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ يعني : لثواب عملها راضية .

ويقال : لثواب سعيه ، الذي عمل في الدنيا من الخير .

(169/813)

يعني : رأى ثوابه في الجنة ، ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ مرضية ، رضي الله عنه بعمله في الدنيا ، ورضي العبد من الله تعالى في الآخرة .

من الثواب ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ يعني : ذلك الثواب في جنة عالية ، مرتفعة في الدرجات العلى .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " إِنَّ المُتَحَابِّينَ لله تَعَالَى فِي غُرْفَةٍ ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الجَنَّةِ ، كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الأَرْضِ إِلَى كَوَاكِبِ السَّمَاءِ " .

ثم قال عز وجل : ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ يعني : لا يكون في الجنة لغو ولا باطل ، وليس فيها غل ولا غش .

قرأ نافع لا تُسمع بضم تاء التأنيث ، لأن اللاغية مؤنثة .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، لا يسمع بضم الياء على معنى : فعل ، ما لم يسم فاعله ، وإنما ذكر بلفظ التذكير ، لأنه انصرف إلى المعنى .

يعني : إلى اللغو .

وروي عن ابن كثير ، ونافع في إحدى الروايتين ، بنصب التاء ، يعني : لا تسمع في الجنة أيها الداخل ، كلمة لغو ، لأن أهل الجنة ، لا يتكلمون إلا بالحكمة ، وحمد الله تعالى .

ثم قال : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يعني : في الجنة ، عين جارية ماؤها أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، فمن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ، ويذهب من قلبه الغل ،

والغش والحسد ، والعداوة والبغضاء .

ثم قال : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ يعني : مرتفعة ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ يعني : الكيزان التي لا عرى لها ، مدورة الرأس ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ يعني : فيها وسائد ، قد صف بعضها إلى بعض على الطنافس .

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ قال القتبي : الزرابي الطنافس .

ويقال : البُسُط واحدها زربي .

(170/813)

ثم قال عز وجل : ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي : كثيرة متفرقة أو مبسوطة ، والنمارق الوسايد واحدها نمرقة ، والمؤمن جالس فوق هذا كله ، وعلى رأسه نور وضاء ، كأنهن الياقوت والمرجان ، جزاءً بما كانوا يعملون ، فإن شك شاك فيها فتعجب ، وقال : كيف هذا وهو غائب عنا ، فقل انظر إلى صنعة الرب تبارك وتعالى في الدنيا .

وهو قوله : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ يعني : خلق من قطرة ماء خلقاً عظيماً ، يُحْمَل عليها ، وإنما خص ذكر الإبل ، لأن الإبل كانت أقرب الأشياء إلى العرب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِلَى السماء ﴾ يعني : أفلا ينظرون إلى السماء ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ

﴿ بلا عمد تحتها ، وحبست في الهواء بقدرة الرب سبحانه وتعالى .

ثم قال : ﴿ وَإِلَى الجبال ﴾ يعني : أفلا ينظرون إلى الجبال ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ على ظهر الأرض أوتاداً لها ، وليس جبل من الجبال ، إلا وله عرق من قاف ، وملك موكل بجبل .

فإذا أراد الله تعالى بأهل أرض شيئاً ، أوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بذلك الجبل ، فيحرك تلك العروق ، فيتزلزل .

ثم قال : ﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ يعني : بسطت على ظهر الماء .

ثم قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ يعني : فذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم وخوفهم بالعذاب في الآخرة ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ يعني : مخوفاً بالقرآن ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ يعني : بمسلط تجبرهم على الإسلام ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

وقال مقاتل : في الآية تقديم يعني : فذكر ﴿ إِلاَّ مَن تولى ﴾ يعني : أعرض عن الإيمان ﴿ وَكَفَرَ ﴾ بالله تعالى ﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ فيدخله النار ، وهو العذاب الأكبر الدائم ، وهو عذاب النار ، حرها شديد ، ومقرها بعيد ، ومقامها حديد .

(171/813)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ يعني : إن إلينا مرجعهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ يعني : إن مرجعهم إلينا بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ يعني : يحاسبون بكل صغيرة وكبيرة ، وقليل وكثير كما قال : لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها .

ويقال : إن علينا حسابهم يعني : جزاءهم بأعمالهم ، يعني : ثوابهم بما عملوا ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 551.553 ﴾

(172/813)

وقال الثعلبى :

سورة الغاشية

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

يعني القيامة يغشي كلّ شيء إلاّ هو ، هذا قول أكثر المفسّرين .

وقال سعيد بن جبير ومحمّد بن كعب : الغاشية النار . دليله قوله سبحانه : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار ﴾ [إبراهيم : 50] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني يوم القيامة ، وقيل : في النار ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ ذليلة ﴿ عَامِلَةٌ

نَّاصِبَةٌ ﴾ قال بعضهم : يعني عاملة في النار ناصبة فيها ، قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله سبحانه وتعالى في الدنيا ، فأعملها وأنصبها في النار لمعالجة السلاسل والأغلال ، وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس قال قتادة : نكرت في الدنيا من طاعة فأعملها وأنصبها في النار .

وقال الكلبي : يُجرّون على وجوههم في النار . الضحّاك : يكلّفون ارتقاء جبل من حديد في النار ، والنصّب الدؤوب في العمل .

وقال عكرمة والسدّي : عاملة في الدنيا بالمعاصي ، ناصبة في النار يوم القيامة ، وقال سعيد ابن جبير وزيد بن أسلم : هم الرهبان وأصحاب الصوامع ، وهي رواية أبي الضحى عن ابن عبّاس .

﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ قال ابن مسعود : تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل .

قراءة العامّة بفتح التاء ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمّها اعتباراً بقوله : ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ حارّة . قال قتادة : قد أتى طبخها منذ خلق الله السماوات والأرض .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ قال محمد وعكرمة وقتادة : وهو نبت ذو شوك لاطي بالأرض تسمّيه فرش الشرق ، فإذا هاج سمّوه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه ، وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس ، الوالي عنه : هو شجر من نار ، وقال ابن زيد : أمّا في الدنيا فإنّ

الضريع الشوك اليابس الذي ليس له ورق ، تدعوه العرب الضريع ، وهو في الآخرة شوك من نار .

(173/813)

وقال الكلبي : لا تقربه دابّة إذا يبس ، ولا يرعاه شيء ، وقال سعيد بن جبير هو الحجارة ، عطاء عن ابن عبّاس : هو شيء يطرحه البحر المالح ، يسمّيه أهل اليمن الضريع ، وقد روي عن ابن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " الضريع شيء يكون في النار شبه الشوك ، أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأشدّ حرّاً من النار " سمّاه النبيّ ضريعاً ، وقال عمرو بن عبيد : لم يقل الحسن في الضريع شيئاً ، إلاّ أنّه قال : هو بعض ما أخفى الله من العذاب ، وقال ابن كيسان : هو طعام يضّرعون منه ويذلّون ويتضرّعون إلى الله سبحانه ، وعلى هذا التأويل يكون المعنى المضرّع .

وقال أبو الدرداء والحسن : يُقبّح الله سبحانه وجوه أهل النار يوم القيامة يشبهها بعملهم القبيح في الدنيا ، ويُحسن وجوه أهل الجنّة يشبّهها بأعمالهم الحسنة في الدنيا ، وأنّ الله سبحانه يرسل على أهل النار الجوع حتّى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيُغاثون بالضريع ويستغيثون فيُغاثون بطعام ذي غصّة ، فيذكرون أنّهم كانوا

يخبزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون بعطشهم ألف سنة ، ثمّ يُسقون من عين آنية لا هنيّة ولا مريّة ، فكلّما أدنوه من وجوههم سلخ جلودَ وجوههم وشواها ، فإذا وصل إلى بطونهم قطّعها ، فذلك قوله سبحانه :

﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] .

قال المفسّرون : فلمّا نزلت هذه الآية قال المشركون : إنّ إبلنا لتسمن على الضريع ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ ويقول : فإنّ الإبل ترعاهُ ما دام رطباً ، فإذا يبسَ فلا يأكلهُ شيء ورطبه يسمّى شبرقاً لا ضريعاً .

(174/813)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا ﴾ في الدنيا ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ في الآخرة حين أُعطيت الجنّة بعملها ومجازات لثواب سعيها في الآخرة راضية ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ لغو وباطل ، وقيل : حلف كاذب . ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ ﴾ ووسائد ومرافق ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها بجنب بعض ، واحدتها نمرقة . قال الشاعر :

كهول وشبّان حسان وجوههم . . . على سرر مصفوفة ونمارق

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ يعني البسط العريضة . قال ابن عبّاس : هي الطنافس التي لها خمل رقيق ، واحدتها زربية . ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة وقيل : متفرّقة في المجالس . ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ ﴾ الآية ، قال المفسّرون لمّا نعت الله ما في الجنّة في هذه السورة عجب من ذلك أهل الكفر والضلالة وكذبوا بها ، فذكرهم الله سبحانه صنعهُ فقال عزَّ من قائل : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .

وكانت الإبل من عيش العرب ومن حولهم ، وتكلّمت الحكماء في وجه تخصيص الله سبحانه الإبل من بين سائر الحيوانات ، فقال مقاتل : لأنّهم لم يروا قط بهيمةً أعظم منها ، ولم يشاهدوا الفيل إلاّ الشاذّ منهم ، وقال الكلبي : لأنّها تنهض بحملها وهي باركة ؛ لأنّه وليس شيء من الحيوانات سابقها ولا سائقها غيرها ، وقال قتادة : ذكر الله سبحانه ارتفاع سرر الجنّة وفرشها فقالوا : كيف نصعد ؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

وسُئل الحسن عن هذه الآية وقيل له : الفيل أعظم في الاعجوبة ؟ فقال : أمّا الفيل فالعرب بعيد والعهد بها ، ثمّ هو خنزير لا يركب ظهرها ولا يأكل لحمها ولا يُحلب درها ، والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه .

وقال الحسن : إنّما يأكلون النوى والقت ويخرج اللبن ، وقيل : لأنّها في عظمة تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف حتّى أنّ الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث يشاء .

وحكى الأُستاذ أبو القاسم بن حبيب أنّه رأى في بعض التفاسير أنّ فأرة أخذت بزمام ناقة ، فجعلت تجرّ بها والناقة تتبعها ، حتّى دخلت الجحر فجرّت الزمام فتحرّكت فجرّته فقربت فمها من جحر الفأر . فسبحان الذي قدّرها وسخّرها .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله قال : حدّثنا محمد بن العلاء قال : حدّثنا وكيع عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن شريح أنّه كان يقول : اخرجوا بنا إلى الكناسة حتّى ننظر إلى الإبل كيف خُلقت .

وقيل : الإبل هاهنا السحاب ، ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمّة ﴿ وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ * وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ بسطت ، وقال أنس بن مالك : صلّيت خلف علي بن أبي طالب فقرأ " أَفَلاَ تَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ " وكذلك رُفعت ونُصبت وسطّحت برفع التاء ، وقرأ الحسن سطّحت بالتشديد .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ بمسلّط جبّار يكرههم على الإيمان ، ثمّ نسخ ذلك بآية القتال وقرأها هارون بمسيطَر (بفتح الطاء) وهي لغة تميم .

﴿ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ ﴾ اختلفوا في وجه هذا الاستثناء ، فقال بعضهم : هو راجع إلى قوله : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ ومجاز الآية : فذكّر قومك إلاّ من تولّى وكفر منهم ، فإنّه لا ينفعه التذكير ، وقيل معناه لست عليهم بمسيطر إلاّ على من تولّى وكفر ، فانّك تقاتله حتّى يسلم ، وقيل : هو راجع إلى ما بعده ، وتقديره : لكن من تولّى وكفر .

(176/813)

﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ وهو النار ، وانّما قال : ﴿ الأكبر ﴾ لأنّهم عذّبوا في الدنيا بالجوع ، والقحط ، والقتل ، والأسر ، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود (إلاّ من تولّى وكفر فإنّه يعذّبه الله العذاب الأكبر) . ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا آيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم ومعادهم ، وقرأ أبو جعفر بتشديد الياء ، قال أبو حاتم : لا يجوز ذلك ولو جاز فيه لجاز في الصيام والقيام . ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 190.187 ﴾

(177/813)

وقال الزمخشرى :

سورة الغاشية

مكية ، وآياتها 26 [نزلت بعد الذاريات] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الغاشية (88) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1)

الْغاشِيَةِ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها . يعنى القيامة ، من قوله

(178/813)

يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ وقيل : النار ، من قوله وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ

يَوْمَئِذٍ يوم إذ غشيت خاشِعَةٌ ذليلة عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تعمل في النار عملا تتعب فيه ، وهو

جرها السلاسل والأغلال «1» ، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل ،

وارتقاؤها دائبة في صعود من نار ، وهبوطها في حدور منها . وقيل : عملت في الدنيا

أعمال السوء والتذت بها وتنعمت ، فهي في نصب منها في الآخرة . وقيل : عملت

ونصبت في أعمال لا تجدى عليها في الآخرة . من قوله وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، وَهُمْ

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وقيل : هم أصحاب الصوامع . ومعناه : أنها خشعت للّه وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب ، «2» والتهجد الواصب . وقرئ : عاملة ناصبة على الشتم . قرئ : تصلى بفتح التاء . وتصلى بضمها . وتصلى بالتشديد . وقيل : المصلى عند العرب : أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جمرا كثيرا ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه ، فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو في التنور ، فلا يسمى مصليا آنِيَةٍ متناهية في الحرّ ، كقوله وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ . الضريع .

يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبا «3» ، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل . قال أبو ذؤيب :

رعى الشيرق الرّيان حتّى إذا ذوى وعاد ضريعا بان عنه النّحائص «4»

وقال :

وحبسن في هزم الضّريع فكلّها حدباء دامية اليدين حرود «5»

---

(1) . قال محمود : «ذليلة تعمل في النار عملا تنصب منه وهو جرها السلاسل . . . الخ» قال أحمد : الوجه الأول متعين لأن الظرف المذكور وهو قوله يَوْمَئِذٍ مقطوع عن الجملة المضاف إليها ، تقديرها : يوم إذ عشيت ، وذلك في الآخرة بلا إشكال ، وهو ظرف لجميع الصفات المخبر بها ، أعنى : خاشعة عاملة ناصبة ، فكيف يتناول أعمال الدنيا .

(2) . قوله «من الصوم الدائب ، الدائب والواصب كلاهما بمعنى الدائم . (ع)

(3) . قال محمود : «الضريع : يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبا . . . الخ» قال أحمد : فعلى الوجه الأول يكون صفة مخصصة لازمة . ذكرت شارحة لحقيقة الضريع . وعلى الثاني : تكون صفة مخصصة .

(4) . أي : رعى البعير الشبرق الريان ، أي : الشوك الرطب . وذوى يذوى ذويا : ذبل ذبولا . وذوى كرضى أنكرها الجوهري ، وأثبتها أبو عبيدة ، أي : حتى إذا جف وصار ضريعا يابسا يتفتت بان عنه ، أي : بعد عنه النحائص : جمع نحوص وهي الناقة الحائل ، لعلها أنه لا يسمن ولا يغنى من جوع .

(5) . لقيس بن عيزارة ، وهزمه – بالزاي – : صدعه «و منه : الهزم ، أي : المنكسر . وناقة هزماء : بدا عظم وركيها من الهزال . وأما الهرم بالراء فهو الحمض ، وبعير عارم : يرعى الحمض . والضريع : نبت سيئ ذو شوك . والحدب : الانحناء . والحدباء : المنحنية . وحرد حردا : يبس وشح ، يقول : حبست النوق في مرعى غث متفتت ، فكلها منحنية الظهور أو الأرجل من الهزال ، دامية اليدين من الشوك ، قليلة اللبن .

(179/813)

فإن قلت : كيف قيل لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ وفي الحاقة وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ؟

قلت : العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم . أكلة الزقوم . ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع : لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ . لا يُسْمِنُ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام . أو ضريع ، يعنى : أنّ طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس ، وإنما هو شوك والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به . وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه . ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه : وهما إماطة الجوع ، وإفادة القوّة والسمن في البدن . أو أريد : أن لا طعام لهم أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبع أو أسمن ، وهو منهما بمعزل . كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس ، تريد : نفى الظل على التوكيد . وقيل : قالت كفار قريش : إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت لا يُسْمِنُ فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنتوا بذلك وهو الظاهر ، فيردّ قولهم بنفي السمن والشبع ، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى : أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم ، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع .

[سورة الغاشية (88) : الآيات 2 إلى 16]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3) تَصْلى ناراً حامِيَةً (4) تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (6)

لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ

عالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11)

فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

ناعِمَةٌ ذات بهجة وحسن ، كقوله تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ أو متنعمة لِسَعْيِها راضِيَةٌ رضيت بعملها لما رأت ما أدّاهم إليه من الكرامة والثواب عالِيَةٍ من علو المكان أو المقدار لا تَسْمَعُ يا مخاطب . أو الوجوه لاغِيَةً أى لغوا ، أو كلمة ذات لغو . أو نفسا تلغو ، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد اللّه على ما رزقهم من النعيم الدائم . وقرئ : لا تسمع : على البناء للمفعول بالتاء والياء «1» فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ يريد عيونا في غاية الكثرة ،

---

(1) . قوله «على البناء للمفعول بالتاء والياء» أى : ولاغية : بالرفع فيهما . (ع)

كقوله عَلِمَتْ نَفْسٌ . مَرْفُوعَةٌ من رفعة المقدار أو السمك ، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربه من الملك والنعيم . وقيل : مخبوءة لهم ، من رفع الشيء إذا خبأه مَوْضُوعَةٌ كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم عتيدة حاضرة ، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها . أو

موضوعة على حافات العيون معدّة للشرب. ويجوز أن يراد: موضوعة عن حد الكبار، أوساط بين الصغر والكبر، كقوله قَدَّرُوها تَقْدِيراً. مَصْفُوفَةٌ بعضها إلى جنب بعض. مساند ومطارح، «1» أينما أراد أن يجلس على مسورة واستند إلى أخرى وَزَرابِيُّ وبسط عراض فاخرة. وقيل: هي الطنافس التي لها خمل رقيق. جمع زربية مَبْثُوثَةٌ مبسوطة.

أو مفرقة في المجالس.

[سورة الغاشية (88): الآيات 17 إلى 26]

أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26)

أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ نظر اعتبار كَيْفَ خُلِقَتْ خلقا عجيبا، دالا على تقدير مقدر، شاهدا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة «2» فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمّتها: لا تعاز ضعيفا ولا تمانع صغيرا، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار. وعن بعض الحكماء. أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها، ففكر

ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق ، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش ، حتى إن أظماءها «3» لترتفع إلى العشر فصاعدا ، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم . وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحا القاضي فقلت : أين تريد ؟ قال :

---

(1) . قوله «مسائد ومطارح» عبارة النسفي . وسائدة وقوله . على مسوره عبارة النسفي . على موسدة . (ع)

(2) . «قوله إلى البلاد الشاحطة» أى البعيدة . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «حتى إن أظماءها» في الصحاح . «الظمء» ما بين الوردين : وهو حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد ، والجمع : الأظماء . (ع)

أريد الكناسة : قلت : وما تصنع بها ؟ قال : أنظر إلى الإبل كيف خلقت . فإن قلت : كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة ؟ قلت : قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم ، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم ، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله ، إلا طلب المناسبة ، ولعله لم يرد أن الإبل من

أسماء السحاب ، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين ، وغير ذلك ، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز كَيْفَ رُفِعَتْ رفعا بعيد المدى بالإمساك وبغير عمد . وكَيْفَ نُصِبَتْ نصبا ثابتا ، فهي راسخة لا تميل ولا تزول . وكَيْفَ سُطِحَتْ سطحا بتمهيد وتوطئة ، فهي مهاد للمتقلب عليها . وقرأ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : خلقت ، ورفعت ، ونصبت ، وسطحت : على البناء للفاعل وتاء الضمير ، والتقدير :

فعلتها . فحذف المفعول . وعن هرون الرشيد أنه قرأ : سطحت بالتشديد ، والمعنى : أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول صلى اللّه عليه وسلم ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه . أى : لا ينظرون ، فذكرهم ولا تلح عليهم ، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ كقوله إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ بمتسلط ، كقوله وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ وقيل : هو في لغة تميم مفتوح الطاء ، على أن «سيطر» متعد عندهم . وقولهم : تسيطر ، يدل عليه إِلَّا مَنْ تَوَلَّى استثناء منقطع ، أى : لست بمستول عليهم ، ولكن من تولى وَكَفَرَ منهم ، فإن للّه الولاية والقهر . فهو يعذبه الْعَذابَ الْأَكْبَرَ الذي هو عذاب جهنم . وقيل . هو استثناء من قوله فَذَكِّرْ أى : فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى ، فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض . وقرئ : إلا من تولى ، على التنبيه . وفي قراءة ابن مسعود : فإنه

يعذبه :

وقرأ أبو جعفر المدني : إيابهم ، بالتشديد . ووجهه أن يكون «فيعالا» مصدر «أيب» فيعل من الإياب . أو أن يكون أصله أوابا : فعالا من أوّب ، ثم قيل : إيوابا كديوان في دوّان ، ثم فعل به ما فعل بأصل : سيد وميت . فإن قلت . ما معنى تقديم الظرف ؟ قلت : معناه التشديد في الوعيد ، «1» وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير . ومعنى الوجوب : الوجوب في الحكمة . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الغاشية حاسبه اللّه حسابا يسيرا» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 745.641﴾

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : ما معنى تقديم الظرف ؟ وأجاب بأن معناه التشديد في الوعيد . . . الخ» قال أحمد : ومعنى ثُمَّ الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب ، لأنه موجب العذاب وبادرته . [. . . . .]

(2) . أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه بالإسناد إلى أبى بن كعب .

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ هلْ أتاكَ حديثُ الغاشِيةِ ﴾

فيها قولان :

أحدهما أنها القيامة تغشى الناس بالأهوال ، قاله ابن عباس والضحاك .

الثاني : أنها النار تغشى وجوه الكفار ، قاله ابن جبير .

ويحتمل ثالثاً : أنها في هذا الموضع النفخة الثانية للبعث لأنها تغشى جميع الخلق .

و" هل " فيها وجهان :

أحدهما : أنها في موضع قد ، وتقدير الكلام قد أتاك حديث الغاشية ، قاله قطرب .

الثاني : أنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله ، ومعناه ألم يكن قد أتاك حديث الغاشية ، فقد أتاك ، وهو معنى قول الكلبي .

﴿ وُجوهٌ يومئذٍ خاشِعَةٌ ﴾ في الوجوه ها هنا قولان :

أحدهما : عنى وجوه الكفار كلهم ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنها وجوه اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس .

وفي قوله " يومئذٍ " وجهان :

أحدهما : يعني يوم القيامة ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : في النار ، قاله قتادة .

" خاشعة " فيه وجهان :

أحدهما : يعني ذليلة بمعاصيها ، قاله قتادة .

الثاني : أنها تخشع بعد ذل من عذاب الله فلا تتنعم ، قاله سعيد بن جبير .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن تكون خاشعة لتظاهرها بطاعته بعد اعترافها بمعصيته . ﴿ عامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ في " عاملة " وجهان :

أحدهما : في الدنيا عاملة بالمعاصي ، قاله عكرمة .

الثاني : أنها تكبرت في الدنيا عن طاعة الله تعالى ، فأعملها في النار بالانتقال من عذاب إلى عذاب ، قاله قتادة .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أي باذلة للعمل بطاعته إن ردّت .

وفي قوله " ناصبة " وجهان :

أحدهما : ناصبة في أعمال المعاصي .

الثاني : ناصبة في النار ، قاله قتادة .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أي ناصبة بين يديه تعالى مستجيرة بعفوه .

﴿ تَصْلَى نارًا حامِيَةً ﴾ فإن قيل فما معنى صفتها بالحماء وهي لا تكون إلا حامية وهو أقل أحوالها ، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة ؟ قيل قد اختلف في المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه :

أحدها : أن المراد بذلك أنها دائمة الحمى وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها .

الثاني : أن المراد بالحامية أنها حمى يمنع من ارتكاب المحظورات وانتهاك المحارم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " وإن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه ، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه " .

الثالث : معناه أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها أو ترام مماستها كما يحي الأسد عرينه ، ومثله قول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له . . . وتتقي صولة المستأسد الحامي .

الرابع : أنها حامية مما غيظ وغضب ، مبالغة في شدة الانتقام ، وقد بيّن الله ذلك بقوله ﴿ تكاد تميّز من الغيظ ﴾ .

﴿ تُسْقَى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : قاله ابن زيد .

الثاني : حاضرة .

الثالث : قد بلغت إناها وحان شربها ، قاله مجاهد .

الرابع : يعني قد أنى حرها فانتهى واشتد ، قاله ابن عباس .

﴿ ليس لَهُمْ طعامٌ إلاّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : أنها شجرة تسميها قريش الشبرق ، كثيرة الشوك ، قاله ابن عباس ، قال قتادة وإذا يبس في الصيف فهو ضريع ، قال الشاعر :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى . . . وعاد ضريعاً نازعته النحائص

الثاني : السّلم ، قال أبو الجوزاء : كيف يسمن من يأكل الشوك .

الثالث : أنها الحجارة ، قاله ابن جبير .

الرابع : أنه النوى المحرق ، حكاه يوسف بن يعقوب عن بعض الأعراب .

الخامس : أنه شجر من نار ، قاله ابن زيد .

السادس : أن الضريع بمعنى المضروع ، أي الذي يضرعون عنده طلباً للخلاص منه ، قاله ابن بحر .

﴿ في جَنّةٍ عاليةٍ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أن الجنة أعلى من النار فسميت لذلك عالية ، قاله الضحاك .

الثاني : أعالي الجنة وغرفها ، لأنها منازل العلو والارتفاع .

فعلى هذا في ارتفاعهم فيها وجهان :

أحدهما : ليلتذوا بالعو والارتفاع.

الثاني : ليشاهدوا ما أعد الله لهم فيها من نعيم.

(184/813)

﴿ لا تسْمَعُ فيها لاغيةً ﴾ قال الفراء والأخفش : أي لا تسمع فيها كلمة لغو وفي المراد بها سبعة أقاويل :

أحدها : يعني كذباً ، قاله ابن عباس.

الثاني : الإثم ، قاله قتادة.

الثالث : أنه الشتم ، قاله مجاهد .

الرابع : الباطل ، قاله يحيى بن سلام.

الخامس : المعصية ، قاله الحسن.

السادس : الحلف فلا تسمع في الجنة حالف يمين برة ولا فاجرة ، قاله الكلبي.

السابع : لا يسمع في كلامهم كلمة تلغى ، لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم ، قاله الفراء .

﴿ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ ﴾ والسرر جمع سرير ، وهو مشتق من السرور وفي وصفها بأنها

مرفوعة ثلاثة أوجه :

أحدها : لأن بعضها مرفوع فوق بعض .

الثاني : مرفوعة في أنفسهم لجلالتها وحبهم لها ، قاله الفراء .

الثالث : أنها مرفوعة المكان لارتفاعها وعلوها .

فعلى هذا في وصفها بالعلو والارتفاع وجهان :

أحدهما : ليلتذ أهلها بارتفاعها ، قاله ابن شجرة .

الثاني : ليشاهدوا بارتفاعهم ما أُعطوه من مُلك وأُوتوه من نعيم ، قاله ابن عيسى .

فأما قوله ﴿ وأكوابٌ موضوعةٌ ﴾ فالأكواب : الأواني ، وقد مضى القول في تفسيرها .

وفي قوله " موضوعة " وجهان :

أحدهما : في أيديهم للاستمتاع بالنظر إليها لأنها من ذهب وفضة .

الثاني : يعني أنها مستعملة على الدوام ، لاستدامة شربهم منها ، قاله المفضل .

﴿ ونمارقُ مَصْفوفَةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الوسائد ، واحدها نمرقة ، قاله قتادة .

الثاني : المرافق ، قاله ابن أبي طلحة ، قال الشاعر :

وريم أحمّ المقلتين محبّب . . . زرابيُّه مبثوثةٌ ونمارِقُه

﴿ وزرابيُّ مَبْثوثةٌ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : هي البسط الفاخرة ، قاله ابن عيسى .

الثاني : هي الطنافس المخملة ، قاله الكلبي والفراء .

وفي " المبثوثة " أربعة أوجه :

أحدها : مبسوطة ، قاله قتادة .

الثاني : بعضها فوق بعض ، قاله عكرمة .

الثالث : الكثيرة ، قاله الفراء .

الرابع : المتفرقة ، قاله ابن قتيبة .

(185/813)

﴿ أفلا يَنظُرونَ إلى الإبلِ كيف خُلِقت ﴾ الآيات ، وفي ذكره لهذه ثلاثة أوجه :

أحدها : ليستدلوا بما فيها من العبر على قدرة الله تعالى ووحدانيته .

الثاني : ليعلموا بقدرته على هذه الأمور أنه قادر على بعثهم يوم القيامة ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أن الله تعالى لما نعت لهم ما في الجنة عجب منه أهل الضلالة ، فذكر لهم ذلك مع ما فيه من العجاب ليزول تعجبهم ، قاله قتادة .

وفي " الإبل " ها هنا وجهان :

أحدهما : وهو أظهرهما وأشهرهما : أنها الإبل من النَعَم .

الثاني : أنها السحاب ، فإن كان المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات الدالة على قدرة الله والمنافع العامة لجميع خلقه .

وإن كان المراد بها من النَعَم فإن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات ، لأن ضروبه أربعة : حلوبة ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة والإبل تجمع هذه الخلال الأربع ، فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم .

ثم قال تعالى بعد ذلك " ﴿ فَذَكِّرْ إنّما أنت مُذكِّر ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إنما أنت واعظ .

الثاني : ذكّرهم النعم ليخافوا النقم .

﴿ لَسْتَ عليهم بِمُسَيْطِر ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لست عليهم بمسلط ، قاله الضحاك .

الثاني : بجبار ، قاله ابن عباس .

الثالث : برب ، قاله الحسن ، ومعنى الكلام لست عليهم بمسيطر أن تكرههم على الإيمان .

ثم قال : ﴿ إلاّ مَن تَولّى وكَفَر ﴾ فلست له بمذكر ، لأنه لا يقبل تذكيرك ، قاله السدي .

الثاني : إلا من تولى وكفر فكِلْه غلى الله تعالى ، وهذا قبل القتال ، ثم أمر بقتالهم ، قاله

الحسن .

وفي " تولَّى وكفر " وجهان :

أحدهما : تولى عن الحق وكفر بالنعمة .

الثاني : تولى عن الرسول وكفر بالله تعالى ، قاله الضحاك .

﴿ فيُعذِّبه الله العذَابَ الأَكْبَر ﴾ يعني جهنم .

ويحتمل أن يريد الخلود فيها ، لأنه يصير بالاستدامة أكبر من المنقطع . ﴿ إنّ إلَيْنا إيابَهُمْ ﴾ أي مرجعهم .

(186/813)

﴿ ثم إنّ علينا حِسابَهم ﴾ يعني جزاءَهم على أعمالهم ، فيكون ذلك جامعاً بين الوعد والوعيد ثواباً على الطاعات وعقاباً على المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 257 . 263 ﴾

(187/813)

وقال ابن الجوزى :

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك ﴾ أي : قد أتاك ، قاله قطرب .

وقال الزجاج : والمعنى : هذا لم يكن من علمك ولا من علم قومك .

وفي "الغاشية" قولان .

أحدهما : أنها القيامة تغشى الناس بالأهوال ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وابن قتيبة .

والثاني : أنها النار تغشى وجوه الكفار ، قاله سعيد بن جبير ، والقرظي ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ أي : ذليلة وفيها قولان .

أحدهما : أنها وجوه اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه جميع الكفار ، قاله يحيى بن سلام .

قوله تعالى : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنهم الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام ، كعبدة الأوثان ، وكفَّار أهل الكتاب ، مثل الرهبان وغيرهم ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الرهبان ، وأصحاب الصوامع ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم .

والثالث : عاملة ناصبة في النار بمعالجة السلاسل والأغلال ، لأنها [لم] تعمل لله في الدنيا ،

فأعملها وأنصبها في النار ، وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

وقال قتادة : تكبَّرت في الدنيا عن طاعة الله ، فأعملها وأنصبها في النار بالانتقال من عذاب إلى عذاب .

قال الضحاك : يُكلّفون ارتقاء جبل في النار .

وقال ابن السائب : يَخِرُّون على وجوههم في النار .

وقال مقاتل : عاملة في النار تأكل من النار ، ناصبة للعذاب .

والرابع : عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة ، قاله عكرمة ، والسدي .

والكلام ها هنا على الوجوه ، والمراد أصحابها .

وقد بينا معنى "النصب" في قوله تعالى : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ [الحجر : 48] .

قوله تعالى : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ قرأ أهل البصرة وعاصم إلا حفصاً "تُصْلَى" بضم التاء .

والباقون بفتحها .

(188/813)

قال ابن عباس : قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله ، ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ ، أي : متناهية في الحرارة .

قال الحسن : وقد [أوقدت] عليها جهنم منذ خلقت ، فدفعوا إليها [وِرْداً] عطاشاً .

قوله تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : أنه نبت ذو شوك لا طيء بالأرض ، وتسميه قريش "الشِّبْرِق" فإذا هاج سموه : ضريعاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة .

والثاني : أنه شجر من نار ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

والثالث : أنها الحجارة ، قاله ابن جبير .

والرابع : أنه السَّلَم ، قاله أبو الجوزاء .

والخامس : أنه في الدنيا : الشوك اليابس الذي ليس له ورق ، وهو في الآخرة شوك من نار ، قاله ابن زيد .

والسادس : أنه طعام يضرعون إلى الله تعالى منه ، قاله ابن كيسان .

قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتسمن على الضريع ، فأنزل الله تعالى ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ وكُذِّبوا ، فإن الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً ، وحينئذ يسمَّى شِبْرِقاً ، لا ضريعاً ، فإذا يبس يسمى : ضريعاً لم يأكله شيء .

فإن قيل : إنه قد أخبر في هذه الآية : "ليس لهم طعام إلا من ضريع" وفي مكان آخر ﴿ ولا

طعامٌ إلا من غسلين ﴾ [الحاقة : 36] فكيف الجمع بينهما ؟ .

فالجواب : أن النار دركات ، وعلى قدر الذنوب تقع العقوبات ، فمنهم من طَعامُهُ الزَّقُّوم ، [ومنهم] مَنْ طعامه غِسْلين ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم مَنْ شَرَابُهُ الصَّديد .

قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أي : في نعمة وكرامة ﴿ لسعيها ﴾ في الدنيا ﴿ راضية ﴾ والمعنى : رضيت بثواب عملها ﴿ في جنة عالية ﴾ قد فسرناه في "الحاقة" [آية : 22] ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ورويس "لا يُسمع" بياء مضمومة .

"لاغيةُ" بالرفع .

(189/813)

وقرأ نافع كذلك إلا أنه بتاءٍ مضمومة ، والباقون بتاءٍ مفتوحة ، ونصب "لاغيةً" والمعنى : لا تسمع فيها كلمة [لغو] ﴿ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ ﴾ قال ابن عباس : ألواحها من ذهب مكلَّلة بالزبرجد ، والدر ، والياقوت ، مرتفعة ما لم يجئ أهلها ، فإذا أراد أن يجلس عليها صاحبها ، تواضعت له حتى يجلس عليها ، ثم ترتفع إلى موضعها ﴿ وأكوابٌ موضوعة ﴾ عندهم

وقد ذكرنا "الأكواب" في [الزخرف: 71] ﴿ ونمارق ﴾ وهي الوسائد، واحدها: نمرقة بضم النون.

قال الفراء: وسمعت بعض كلب تقول: نِمرِقة، بكسر النون والراء ﴿ مصفوفة ﴾ بعضها إلى جنب بعض، والزرابي: الطنافس [التي] لها خَمْل رقيق ﴿ مبثوثة ﴾ كثيرة.

قال ابن قتيبة: كثيرة مفرّقة.

قال المفسرون: لما نعت الله سبحانه ما في الجنة، عجب من ذلك أهل الكفرة، فذكَّرهم صنعه، فقال تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل ﴾ وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع [سُرُرِ] الجنة، وفرشها، فقالوا: كيف نصعدها، فنزلت هذه الآية.

قال العلماء: وإنما خص الإبل من غيرها لأن العرب لم يَرَوْا بهيمة قَطُّ أعظمَ منها، ولم يشاهدوا الفيل إلا الشاذ منهم، ولأنها كانت أَنْفَسَ أموالهم وأكثرها، لا تفارقهم ولا يفارقونها، فيلاحظون فيها العِبَر الدّالةَ على قدرة الخالق، من إخراج لبنها من بين فَرْثٍ ودَمٍ [و] من عجيب خَلْقِها، وهي على عِظَمها مُذلَّلة للحمل الثقيل، وتنقاد للصبي الصغير، وليس في ذوات الأربع ما يحمل عليه وقره وهو بارك فيطيق النهوض به سواها، وقرأ ابن عباس، وأبو عمران الجوني، والأصمعي عن أبي عمرو "الإبْل" بإسكان الباء، وتخفيف اللام.

وقرأ أُبَيُّ بن كعب، وعائشة، وأبو المتوكل، والجحدري، وابن السميفع، ويونس بن

حبيب وهارون كلاهما عن أبي عمرو "الإِبِلِّ" بكسر الباء ، وتشديد اللام .

قال هارون : قال أبو عمرو "الإِبِلُّ" بتشديد اللام : السحاب الذي يحمل الماء .

(190/813)

قوله تعالى : ﴿ كيف خُلقَتْ ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وأبو العالية ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة "خَلَقْتُ" بفتح الخاء ، وضم التاء .

وكذلك قرؤوا : "رَفَعْتُ" و"نَصَبْتُ" و "سَطَحْتُ" .

قوله تعالى : ﴿ وإلى السماء كيف رُفِعَتْ ﴾ من الأرض حتى لا ينالها شيء بغير عَمَدٍ ﴿ وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ ﴾ على الأرض لا تزول ولا تتغير ﴿ وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ ﴾ أي : بُسِطَتْ .

والسطح : بسط الشيء ، وكل ذلك يدل على [قدرة] خَالقه ﴿ فَذكِّرْ ﴾ أي : عظ ﴿ إنما أنت مذكِّر ﴾ أي : واعظ ، ولم يكن حينئذ أمر بغير التذكير ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَسْتَ عليهم بمسيطر ﴾ أي : بمسلِّط ، فتقتلهم وتكرههم على الإيمان .

ثم نسختها آية السيف .

وقرأ أبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والحلواني عن ابن عامر

"بمسيطر" بالسين.

وقد سبق بيان "المسيطر" في قوله تعالى ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ [الطور: 37].

قوله تعالى: ﴿ إلا من تولَّى ﴾ وهذا استثناء منقطع معناه: لكن من تولى ﴿ وكفر ﴾ بعد التذكر.

وقرأ ابن عباس، وعمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وأبو مجلز، وقتادة، وسعيد بن جبير "ألا من تولّى" بفتح الهمزة وتخفيف اللام.

﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو أن يدخله جهنم، وذلك أنهم قد عُذِّبوا في الدنيا بالجوع، والقتل، والأسر، فكان عذاب جهنم هو الأكبر ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ قرأ أُبَيُّ بن كعب، وعائشة، وعبد الرحمن، وأبو جعفر "إيَّابهم" بتشديد الياء، أي: رجوعهم ومصيرهم بعد الموت ﴿ ثم إِن علينا حسابهم ﴾ قال مقاتل: أي: جزاءهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 94. 101 ﴾

(191/813)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ هل أتاك ﴾

أي قد أتاك ﴿ حديث الغاشية ﴾ يعني القيامة ، سمّيت غاشية لأنها تغشى كل شيء بأهوالها ، وقيل الغاشية النار ، سُمّيت بذلك لأنها تغشى وجوه الكفار ﴿ وجوه يومئذ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ خاشعة ﴾ يعني ذليلة ، والمراد بالوجوه أصحابها فعبر بالجزء عن الكل ، ولأن الوجه أشرف أعضاء الإنسان ، فعبر به عنه .

﴿ عاملة ناصبة ﴾ قال ابن عباس : يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب ، مثل الرهبان وأصحاب الصوامع ، لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلال بل يدخلون النار يوم القيامة .

ومعنى النصب الدؤوب في العمل بالتعب .

(ق) عن عائشة ا قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " ، وفي رواية " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ، أما الرواية فإنها تختص بمن أحدث في دين الإسلام شيئاً ابتدعه من عنده فهو مردود عليه لا يقبل منه .

وأما الرواية الثانية فإنها تشتمل على كل عامل في دين الإسلام ، أو غير دين الإسلام فإنه

مردود عليه إذا لم يكن تابعاً لنبينا (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل في معنى الآية عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في الآخرة في النار .

(192/813)

وقيل عاملة ناصبة في النار ، لأنها لم تعمل لله في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال ، وهي رواية عن ابن عباس قال ابن مسعود : تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل ، وقيل يجرون على وجوههم في النار ، وقيل يكلفون ارتقاء جبل من حديد في النار وهو قوله تعالى : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ قال ابن عباس : قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله عزّ وجلّ : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم مذ خلقت لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت فيدفعون إليها وروداً عطاشاً ، فهذا شرابهم ، ثم ذكر طعامهم فقال تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قيل هو نبت ذو شوك لاطئ بالأرض تسميه قريش الشبرق فإذا هاج سموه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه ، وهي رواية عن ابن عباس ، فإذا يبس لا تقربه دابة ، وقيل الضريع في الدنيا هو الشوك اليابس الذي له ورق ، وهو في الآخرة شوك من نار ، وجاء في الحديث عن ابن عباس يرفعه الضريع شيء في النار يشبه الشوك ، أمر من الصبر ، وأنتن

من الجيفة ، وأشد حراً من النار ، قال أبو الدرداء : إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة ، ولا مريئة ، فإذا أدنوه من وجوههم سلخ جلدة وجوههم ، وشواها ، فإذا وصل إلى بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ قال المفسرون فلما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا لتسمن على الضريع وكذبوا في ذلك ، فإن الإبل إنما ترعاه رطباً فإذا يبس لا تأكله .

﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ يعني إن هذا الطعام لا تقدر البهائم على أكله فكيف يقدر الإنسان على أكله ، فهو إذاً لا يسمن ولا يغني من جوع .

(193/813)

فإن قلت قد ذكر الله تعالى في هذه الآية أنّه لا طعام لهم إلا من ضريع ، وذكر في موضع آخر أنه لا طعام لهم إلا من غسلين ، فكيف الجمع بينهما ؟ ! .

قلت إن النار دركات فعلى قدر الذنوب تقع العقوبات ، فمنهم من طعامه الزقوم لا غير ، ومنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين .

ثم وصف أهل الجنة فقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أي متنعّمة ذات بهجة وحسن ، ونعمة ، وكرامة ﴿ لسعيها راضية ﴾ أي لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة حيث أعطيت الجنة بعملها .

﴿ في جنة عالية ﴾ قيل هو من العلو الذي هو الشرف ، وقيل من العلو في المكان ، وذلك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض ، كل درجة كما بين السماء والأرض .

﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي ليس فيها لغو ولا باطل .

﴿ فيها عين جارية ﴾ على وجه الأرض في غير أخدود ، وقيل تجري حيث أرادوا من منازلهم ، وقصورهم .

﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ قال ابن عباس : ألواحها من ذهب ، مكللة بالزبرجد ، والياقوت ، مرتفعة ما لم يجيء أهلها ، فإذا أراد أهلها الجلوس عليها تواضعت لهم حتى يجلسوا عليها ، ثم ترتفع إلى مواضعها ﴿ وأكواب ﴾ يعني الكيزان التي لا عرى لها .

﴿ موضوعة ﴾ يعني عندهم بين أيديهم ، وقيل موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب منها وجدوها مملوءة .

﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ يعني وسائد ومرافق مصفوفة ، بعضها جنب بعض أينما أراد أن يجلس وليُّ الله جلس على واحدة ، واستند إلى الأخرى .

﴿ وزرابي ﴾ يعني البسط العريضة قال ابن عباس : هي الطنافس التي لها خمل ، واحدتها زربية ﴿ مبثوثة ﴾ أي مبسوطة ، وقيل متفرقة في المجالس .

(194/813)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ قال أهل التفسير لما نعت الله عزّ وجلّ ما في هذه السورة مما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه ، فذكرهم الله صنعه ، فقال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإنما بدأ بالإبل لأنها من أنفس أموال العرب ، ولهم فيها منافع كثيرة والمعنى إن الذي صنع لهم هذا في الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع ؛ وتكلمت علماء التفسير في وجه تخصيص الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات ، فقال : مقاتل لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها ، ولم يشاهد الفيل إلا النادر منهم ، وقال الكلبي لأنها تنهض بحملها وقد كانت باركة ، وقال قتادة : لما ذكر الله تعالى ارتفاع سرر الجنة وفرشها قالوا كيف نصعدها فأنزل الله تعالى هذه الآية .

﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ يعني فوق الأرض بغير عمد ، ولا ينالها شيء .

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أي على الأرض نصباً ثابتاً راسخاً لا يزول .

﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي بسطت ، ومهدت بحيث يستقر على ظهرها كل

شيء .

قال ابن عباس : المعنى هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل ، أو يرفع مثل السماء أو ينصب مثل الجبال ، أو يسطح مثل الأرض غير الله القادر على كل شيء .

ولما ذكر الله تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه (صلى الله عليه وسلم) فقال تعالى ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ أي فعظ إنما أنت واعظ ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ أي بمسلط فتكرههم على الإيمان ، وهذه الآية منسوخة نسختها آية القتال .

﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع عما قبله معناه لكن من تولى وكفر بعد التذكير ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو أن يدخله النار ، وإنما قال : الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب مثل الجوع ، والقحط والقتل ، والأسر ، فكانت النار أكبر من هذا كله .

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي رجوعهم بعد الموت .

﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ يعني جزاءهم بعد الرجوع إلينا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 237 . 240 ﴾

(195/813)

وقال النسفى :

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ ﴾ بمعنى "قد" ﴿ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها يعني القيامة .

وقيل : النار من قوله : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم : 50] ﴿ وُجُوهٌ ﴾ أي وجوه الكفار ، وإنما خص الوجه لأن الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثراً في وجهه ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم إذ غشيت ﴿ خاشعة ﴾ ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل ، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار وهبوطها في حدور منها .

وقيل : عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت فهي في نصب منها في الآخرة .

وقيل : هم أصحاب الصوامع ومعناه أنها خشعت الله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب ﴿ تصلى نَاراً حَامِيَةً ﴾ تدخل ناراً قد أحميت مدداً طويلة فلا حر يعدل حرها ﴿ تصلى ﴾ أبو عمرو وأبو بكر ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾

من عين ماء قد انتهى حرها ، والتأنيث في هذه الصفات والأفعال راجعة إلى الوجوه والمراد أصحابها بدليل قوله ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ وهو نبت يقال له الشِّبرِق فإذا يبس فهو ضريع وهو سم قاتل ، والعذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، فلا تناقض بين هذه الآية وبين قوله ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36] ﴿ لاَّ يُسْمِنُ ﴾ مجرور المحل لأنه وصف ﴿ ضَرِيعٍ ﴾ ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ أي منفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إماطة الجوع وإفادة السمن في البدن .

(196/813)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ ثم وصف وجوه المؤمنين ولم يقل ووجوه لأن الكلام الأول قد طال وانقطع ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ متنعمة في لين العيش ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ من علو المكان أو المقدار ﴿ لاَ تَسْمَعُ ﴾ يا مخاطب أو الوجوه ﴿ فِيهَا لاغية ﴾ أي لغواً أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو ، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

﴿ لاَ يَسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ : مكي وأبو عمرو : ﴿ لاَّ تُسْمَعُ فِيهَا لاغية ﴾ نافع ﴿ فِيهَا

عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي عيون كثيرة كقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ [الانفطار : 5] ﴿ فِيهَا سُرُرٌ ﴾ جمع سرير ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ من رفعة المقدار أو السمك ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم .

﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ جمع كوب وهو القدح .

وقيل : آنية لا عروة لها ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ بين أيديهم ليتلذذوا بها بالنظر إليها أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وسائد ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى جنب بعض مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مسودة واستند إلى الأخرى ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ وبسط عراض فاخرة جمع زربية ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة أو مفرقة في المجالس .

(197/813)

ولما أنزل الله تعالى هذه الآيات في صفة الجنة ، وفسر النبي عليه السلام بأن ارتفاع السرير يكون مائة فرسخ ، والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها ، وطول النمارق كذا وعرض الزرابي كذا ، أنكر الكفار وقالوا : كيف يصعد على هذا السرير ، وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة ، وتطول النمارق هذا الطول ، وبسط الزرابي هذا

الانبساط ولم نشاهد ذلك في الدنيا ؟ فقال الله تعالى ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ طويلة ثم تبرك حتى تركب أو يحمل عليها ثم تقوم فكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما يطأطىء الإبل ﴿ وَإِلَى السماء كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ رفعاً بعيد المدى بلا إمساك وعمد ، ثم نجومها تكثر هذه الكثرة فلا تدخل في حساب الخلق فكذا الأكواب ﴿ وَإِلَى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ نصباً ثابتاً فهي راسخة لا تميل مع طولها فكذا النمارق ﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ سطحاً بتمهيد وتوطئة فهي كلها بساط واحد تنبسط من الأفق إلى الأفق فكذا الزرابي ؛ ويجوز أن يكون المعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه ، وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أن هذا خطاب للعرب وحث لهم على الاستدلال ، والمرء إنما يستدل بما تكثر مشاهدته له ، والعرب تكون في البوادي ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل فهي أعز أموالهم وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر الحيوانات ، ولأنها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان وهي النسل والدر والحمل والركوب والأكل بخلاف غيرها ، ولأن خلقها أعجب من غيرها فإنه سخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعاز ضعيفاً ولا تمانع صغيراً ، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار ، وجعلها بحيث تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت وتجرها إلى البلاد الشاحطة ، وصبرها على احتمال العطش حتى إن ظمأها لترتفع إلى العشر

فصاعداً ، وجعلها ترعى كل نابت في البراري مما لا يرعاه سائر البهائم .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فذكرهم بالأدلة ليتفكروا فيها ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ليس عليك إلا التبليغ ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ بمسلط كقوله ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] ، ﴿ بمصيطر ﴾ : مدني وبصري وعلي وعاصم ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العذاب الأكبر ﴾ الاستثناء منقطع أي لست بمسؤول عليهم ولكن من تولى منهم وكفر بالله فإن لله الولاية عليه والقهر فهو يعذبه العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم .

وقيل : هو استثناء من قوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم ، وفائدة تقديم الظرف التشديد في الوعيد وإن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ فنحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها جزاء أمثالهم و "على" لتأكيد الوعيد لا للوجوب إذ لا يجب على الله شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 353.351 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة الغاشية

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾

توقيف يراد به التنبيه والتفخيم للأمر ، قيل : هل بمعنى قد وهذا ضعيف ﴿ الغاشية ﴾ هي القيامة لأنها تغشى جميع الخلق ، وقيل : هي النار من قوله : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار ﴾ [إبراهيم : 50] وهذا ضعيف لأنه ذكر بعد ذلك قسمين : أهل الشقاوة وأهل السعادة ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ أي ذليلة ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ هو من النصب بمعنى التعب ، وفي المراد بهم ثلاثة أقوال : أحدهما أنهم الكفار ويحتمل على هذا يكون عملهم ونصبهم في الدنيا لأنهم كانوا يعملون أعمال السوء ويتعبون فيها ، أو يكون في الآخرة فيعملون فيها عملاً يتعبون فيه من جر السلاسل والأغلال وشبه ذلك ويكون زيادة في عذابهم . الثاني : أنها في الرهبان الذين يجتهدون في العبادة ولا تقبل منهم ، لأنهم على غير الإسلام وبهذا تأولها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبكى رحمة لراهب نصراني رآه مجتهداً . فعاملة ناصبة على هذا في الدنيا ، وناصبة إشارة إلى أجتهادهم في العمل ، أو إلى أنه لا ينفعهم فليس لهم منه إلا النصب . الثالث أنها في القدرية . وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر القدرية فبكى وقال : إن فيهم المجتهد .

﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي شديدة الحر ، ومنه ﴿ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ ، [الرحمن : 44] ووزن آنية هنا فاعلة بخلاف " آنية من فضة " فإن وزنه أفعله ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ في الضريع أربعة أقوال : أحدهما أنه شوك يقال له الشبوق وهو سم قاتل وهذا أرجح لأقوال ؛ لأن أرباب اللغة ذكروه ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الضريع شوك في النار . الثاني : أنه الزقوم لقوله : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم * طَعَامُ الأثيم ﴾ [الدخان : 43-44] الثالث : إنه نبات أخضر منتن ينبت في البحر وهذا ضعيف ، لأن ما يجري في الوادي ليس بطعام إنما هو شراب ، ولله در من قال : الضريع طعام أهل النار فإنه أعم وأسلم من عهده التعيين . واشتقاقه عند بعضهم من المضارعة ، بمعنى المشابهة لأنه يشبه الطعام الطيب وليس به ، وقيل : بمعنى مضرع للبدن أي مضعف وقيل : إن العرب لا تعرف هذا اللفظ ، فإن قيل : كيف قال هنا : " ليس لهم طعام إلا من ضريع " وقال في الحاقة : " ولا طعام إلا من غسلين ؟ " فالجواب : أن الضريع لقوم والغسلين لقوم ، أو يكون أحدهما في حال والآخر في حال ﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ هذه الجملة صفة لضريع ، ولطعام نفي عنه منفعة الطعام وهي التسمين وإزالة الجوع .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي متنعمة في الجنة أو يظهر عليها نضرة النعيم ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي راضية في الآخرة لأجل سعيها وهو عملها في الدنيا ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ يحتمل أن يكون من علو المكان أو من علو المقدار أو الوجهين ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ هو من لغو الكلام ومعناه الفحش وما يكره ، فيحتمل أن يريد كلمة لاغية أو جماعة لاغية ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يحتمل أن يريد جنس العيون أو واحدة شرّفها بالتعيين ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ قد ذكرنا أكواب ، ومعنى موضوعة : حاضرة معدة بشرابها وفي قوله : مرفوعة وموضوعة ؛ مطابقة ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ جمع نمرقة وهي الوسادة ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ هي بسط فاخرة وقيل : هي الطنافس واحدها زربية ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي متفرقة ، وذلك عبارة عن كثرتها وقيل : مبسوطة ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ حض على النظر في خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها ، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف ، وصبرها على العطش ، وكثرة المنافع التي فيها من الركوب والحمل عليها ، وأكل لحومها وشرب ألبانها ، وأبوالها وغير ذلك . وقيل : أراد بالإبل السحاب وهذا بعيد وإنما حمل قائلة عليه مناسبتها للسماء والأرض والجبال ، والصحيح أن المراد الحيوان المعروف ،

وإنما ذكره لما فيه من العجائب ، ولإعتناء العرب به إذ كانت معايشتهم في الغالب منه ، وهو أكثر المواشي في بلادهم .

(202/813)

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي قاهر متسلط وهذا من المنسوخ بالسيف ﴿ إِلاَّ مَن تولى ﴾ استثناء منقطع معناه لكن من تولى ﴿ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ الله ﴾ وقيل هو استثناء من مفعول فذكر ، والمعنى ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل ، وقيل : هو استثناء من قوله : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي لا تسلط إلا على من تولى وكفر ، وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادعة فيه وهذا بعيد ، لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا آيَابَهُمْ ﴾ أي رجوعهم والآية تهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 195.196 ﴾

(203/813)

وقال البيضاوى :

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ﴾

الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يعني يوم القيامة ، أو النار من قوله تعالى ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشعة ﴾ ذليلة .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ تعمل ما تتعب فيه كجر السلاسل وخوضها في النار خوض الإبل في الوحل ، والصعود والهبوط في تلالها ووهادها ما عملت ، ونصبت في أعمال لا تنفعها يومئذ .

﴿ تصلى نَاراً ﴾ تدخلها وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر "تصلى" من أصلاه الله ، وقرىء "تُصَلِّ" بالتشديد للمبالغة . ﴿ حَامِيَةً ﴾ متناهية في الحر .

﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ ءانِيَةٍ ﴾ بلغت أناها في الحر .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ يبيس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً ، وقيل شجرة نارية تشبه الضريع ، ولعله طعام هؤلاء والزقوم والغسلين طعام غيرهم ، أو المراد طعامهم ما تتحاماه الإبل وتعافه لضره وعدم نفعه كما قال تعالى :

﴿ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ والمقصود من الطعام أحد الأمرين .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ ذات بهجة أو متنعمة .

﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ رضيت بعملها لما رأت ثوابه .

﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ علية المحل أو القدر .

﴿ لاَ تَسْمَعُ ﴾ يا مخاطب أو الوجوه ، وقرأ على بناء المفعول بالياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس وبالتاء نافع . ﴿ فِيهَا لاغية ﴾ لغواً أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو ، فإن كلام أهل الجنة الذكر والحِكَم . ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يجري ماؤها ولا ينقطع والتنكير للتعظيم .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ رفيعة السمك أو القدر .

﴿ وَأَكْوابٌ ﴾ جمع كوب وهي آنية لا عروة لها . ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ بين أيديهم .

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ وسائد جمع نمرقة بالفتح والضم . ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ بعضها إلى بعض .

(204/813)

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ بسط فاخرة جمع زربية . ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ مبسوطة .

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ ﴾ نظر اعتبار . ﴿ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية ، فجعلها عظيمة باركة

للمحل ناهضة بالحمل منقادة لمن اقتادها طوال الأعناق لينوء بالأوقار ، ترعى كل نابت وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً ليتأتى لها قطع البوادي والمفاوز ، مع مالها من منافع أخرى ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً ، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع . وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة .

﴿ وَإِلَى السماء كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ بلا عمد .

﴿ وَإِلَى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ فهي راسخة لا تميل .

﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً ، وقرىء الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب ، والمعنى ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ ﴾ إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات ليتحققوا كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، فلا ينكروا اقتداره على البعث ولذلك عقب به أمر المعاد ورتب عليه الأمر بالتذكير فقال :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا إذ ما عليك إلا البلاغ .

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ بمتسلط ، وعن الكسائي بالسين على الأصل وحمزة بالإشمام .

﴿ إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ ﴾ لكن من تولى وكفر .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ﴾ يعني عذاب الآخرة . وقيل متصل فإن جهاد الكفار

وقتلهم تسلط ، وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وقيل هو استثناء من قوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فذكر إلا من تولى وأصر فاستحق العذاب الأكبر ، وما بينهما اعتراض ويؤيد الأول أنه قرىء ﴿ إِلاَّ مَن تولى ﴾ على التنبيه .

(205/813)

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ رجوعهم ، وقرىء بالتشديد على أنه فيعلل مصدر فيعل من الإياب ، أو فعال من الأوب قلبت واوه الأولى قلبها في ديوان ثم الثانية للإدغام .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ في المحشر ، وتقديم الخبر للتخصيص والمبالغة في الوعيد .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً " . (1)

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 483.485 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(206/813)

وقال أبو حيان :

سورة الغاشية

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾

والغاشية : الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة ، قاله سفيان والجمهور .

وقال ابن جبير ومحمد بن كعب : النار ، قال تعالى : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ وقال : ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ فهي تغشى سكانها .

وهذا الاستفهام توقيف ، وفائدته تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر .

وقيل : المعنى هل كان هذا من عملك لولا ما علمناك ؟ وفي هذا تعديد النعمة .

وقيل : هل بمعنى قد .

﴿ وجوه يومئذ ﴾ : أي يوم إذ غشيت ، والتنوين عوض من الجملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً منها ، لكن لما تقدّم لفظ الغاشية ، وأل موصولة باسم الفاعل ، فتنحل للتي غشيت ، أي للداهية التي غشيت .

فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها ، وإلى الموصول الذي هو التي .

﴿ خاشعة ﴾ : ذليلة .

﴿ عاملة ناصبة ﴾ ، قال ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة : ﴿ عاملة ﴾ في النار ، ﴿ ناصبة ﴾ تعبة فيها لأنها تكبرت عن العمل في الدنيا .

قيل .

وعملها في النار جر السلاسل والأغلال ، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل ، وارتقاؤها دائبة في صعود نار وهبوطها في حدور منها .

وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم وابن جبير : عاملة في الدنيا ناصبة فيها لأنها على غير هدى ، فلا ثمرة لها إلا النصب وخاتمته النار ؛ والآية في القسيسين وعباد الأوثان وكل مجتهد في كفره .

وقال عكرمة والسدي : عاملة ناصبة بالنصب على الذم ، والجمهور برفعهما .

وقرأ : ﴿ تصلى ﴾ بفتح التاء ؛ وأبو رجاء وابن محيصن والأبوان : بضمها ؛ وخارجة : بضم التاء وفتح الصاد مشدّد اللام ، وقد حكاها أبو عمرو بن العلاء ﴿ حامية ﴾ : مسعرة آنية قد انتهى حرها ، كقوله : ﴿ وبين حميم آن ﴾ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد .

وقال ابن زيد : حاضرة لهم من قولهم : آنى الشيء حضر .

والضريع ، قال ابن عباس : شجر من نار .

وقال الحسين : وجماعة الزقوم .

وقال ابن جبير : حجارة من نار .

وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وعكرمة ومجاهد : شبرق النار .

وقيل : العبشرق .

وقيل : رطب العرفج ، وتقدم ما قيل فيه في المفردات .

وقيل : واد في جهنم .

والضريع ، إن كان الغسلين والزقوم ، فظاهر ولا يتنافى الحصر في ﴿ إلا من غسلين ﴾ و ﴿ إلا من ﴾ ضريع .

وإن كانت أغياراً مختلفة ، والجمع بأن الزقوم لطائفة ، والغسلين لطائفة ، والضريع لطائفة .

وقال الزمخشري : ﴿ لا يسمن ﴾ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع ، يعني أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هو شوك ، والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به ، وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه ، ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه ، وهما إماطة الجوع وإفادة القوة ، والسمن في البدن ، انتهى .

فقوله : مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع .

أما جره على وصفه لضريع فيصح ، لأنه مثبت منفي عنه السمن والإغناء من الجوع .

وأما رفعه على وصفه لطعام فلا يصح ، لأن الطعام منفي ولا يسمن ، منفي فلا يصح تركيبه ، إذ يصير التقدير : ليس لهم طعام لا يسمن ولا يغني من جوع إلا من ضريع ، فيصير

المعنى : أن لهم طعاماً يسمن ويغني من جوع من غير ضريع ، كما تقول : ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو ، فمعناه أن له مالاً ينتفع به من غير مال عمرو .

ولو قيل : الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدر في ﴿ إلا من ضريع ﴾ كان صحيحاً ، لأنه في موضع رفع على أنه بدل من اسم ليس ، أي ليس لهم طعام إلا كائن من ضريع ، إذ الإطعام من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع ، وهذا تركيب صحيح ومعنى واضح ، وقال الزمخشري : أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبع وأسمن ، وهو منهما بمعزل .

كما تقول : ليس لفلان ظل إلا الشمس ، تريد نفي الظل على التوكيد . انتهى .

فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً ، إذ لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظة طعام ، إذ ليس بطعام .

والظاهر الاتصال فيه .

(208/813)

وفي قوله : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ لأن الطعام هو ما يتطعمه الإنسان ، وهذا قدر مشترك بين المستلذ والمكروه وما لا يستلذ ولا يستكره .

﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ : صح الابتداء في هذا وفي قوله : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ بالنكرة لوجود مسوغ ذلك وهو التفصيل ، ناعمة لحسنها ونضارتها أو متنعمة .

﴿ لسعيها راضية ﴾ : أي لعملها في الدنيا بالطاعة ، راضية إذا كان ذلك العمل جزاؤه الجنة .

﴿ في جنة عالية ﴾ : أي مكاناً ومكانة .

وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم .

﴿ لا تسمع ﴾ مبنياً للمفعول ، ﴿ لاغية ﴾ : رفع ، أي كلمة لاغية ، أو جماعة لاغية ، أو لغو ، فيكون مصدراً كالعاقبة ، ثلاثة أقوال ، الثالث لأبي عبيدة وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك ، إلا أنهم قرأوا بالياء لمجاز التأنيث ، والفضل والجحدري كذلك ، إلا أنه نصب لاغية على معنى لا يسمع فيها ، أي أحد من قولك : أسمعت زيداً ؛ والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة وابن سيرين ونافع في رواية خارجة وأبو عمرو بخلاف عنه ؛ وباقي السبعة : لا تسمع بتاء الخطاب عموماً ، أو للرسول عليه الصلاة والسلام ، أو الفاعل الوجود .

لاغية : بالنصب ، ﴿ فيها عين جارية ﴾ : عين اسم جنس ، أي عيون ، أو مخصوصة ذكرت تشريفاً لها .

﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ : من رفعة المنزلة أو رفعة المكان ليرى ما خوله ربه من الملك

والنعيم ، أو مخبوءة من رفعت لك هذا ، أي خبأته .

﴿ وأكواب موضوعة ﴾ : أي بأشربتها معدة لا تحتاج إلى مالىء ، أو موضوعة بين أيديهم ، أو موضوعة على حافات العيون .

﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ : أي وسائد صف بعضها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها .

﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ : متفرقة هنا وهنا في المجالس .

(209/813)

ولما ذكر تعالى أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم ، أتبع ذلك بذكره هذه الدلائل ، وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً فقال : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ ، وهي الجمال ، فإنه اجتمع فيها ما تفرق من المنافع في غيرها ، من أكل لحمها ، وشرب لبنها ، والحمل عليها ، والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة ، وعيشها بأي نبات أكلته ، وصبرها على العطش حتى أن فيها ما يرد الماء لعشر ، وطواعيتها لمن يقودها ، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال ، وكثرة جنينها ، وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها ، وهي لا شيء من الحيوان

جميع هذه الخصال غيرها .

وقد أبان تعالى امتنانه عليهم بقوله : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ الآيات .

ولكونها أفضل ما عند الغرب ، جعلوها دية القتل ، ووهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه ، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها ، كما قال :

أعطوا هنيدة تحدوها ثمانية . . .

وقال آخر :

الواهب المائة الهجان برمتها . . .

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ، ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم ، وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع ، وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع ، بل هو عام في كل موجوداته ، كما قيل :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

وقال أبو العباس : المبرد : الإبل هنا السحاب ، لأن العرب قد تسميها بذلك ، إذ تأتي إرسالاً كالإبل ، وتزجى كما تزجى الإبل ، وهي في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام ، ومنه

قوله :

كأن السحاب ذوين السما . . .

ء نعام تعلق بالأجل

(210/813)

وقال الزمخشري : ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة ، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب ، كالغمام والمزن والرباب والغيم وغير ذلك ، وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم ، فجوّز أن يراد بها السحاب على طريقة التشبيه والمجاز ، انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ الإبل ﴾ بكسر الباء وتخفيف اللام ؛ والأصمعي عن أبي عمرو : بإسكان الباء ؛ وعليّ وابن عباس : بشد اللام .

ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي وقالوا : إنها السحاب ، عن قوم من أهل اللغة .

وقال الحسن : خص الإبل بالذكر لأنها تأكل النوى والقت وتخرج اللبن ، فقيل له : الفيل أعظم في الأعجوبة ، وقال العرب : بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب

ظهره ولا يحلب دره .

والإبل لا واحد له من لفظه وهو مؤنث ، ولذلك إذا صغر دخلته التاء فقالوا : أبيلة ، وقالوا في الجمع : آبال .

وقد اشتقوا من لفظه فقالوا : تأبل الرجل ، وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا : ما آبل زيداً .

وإبل اسم جاء على فعل ، ولم يحفظ سيبويه مما جاء على هذا الوزن غيره .

وكيف خلقت : جملة استفهامية في موضع البدل من الإبل ، وينظرون : تعدى إلى الإبل بواسطة إلى ، وإلى كيف خلقت على سبيل التعليق ، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها كقولهم : عرفت زيداً أبو من هو على أصح الأقوال ، على أن العرب قد أدخلت إلى على كيف ، فحكى أنهم قالوا : انظر إلى كيف يصنع .

وكيف سؤال عن حال والعامل فيها خلقت ، وإذا علق الفعل عن ما فيه الاستفهام ، لم يبق الاستفهام على حقيقته ، وقد بينا ذلك في كتابنا المسمى بالتذكرة وفي غيره .

(211/813)

وقرأ الجمهور : ﴿ خلقت ﴾ : رفعت ، ﴿ نصبت ﴾ سطحت بتاء التأنيث مبنياً للمفعول ؛ وعليّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة : بتاء المتكلم مبنياً للفاعل ، والمفعول محذوف ، أي خلقتها ، رفعتها ، نصبتها ؛ رفعت رفعاً بعيد المدى بلا عمد ، نصبت نصباً ثابتاً لا تميل ولا تزول ؛ سطحت سطحاً حتى صارت كالمهاد للمتقلب عليها .

وقرأ الجمهور : ﴿ سطحت ﴾ خفيفة الطاء ؛ والحسن وهارون : بشدّها .

ولما حضهم على النظر ، أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بتذكيرهم فقال : ﴿ فذكر ﴾ ولا يهمنك كونهم لا ينظرون .

﴿ إنما أنت مذكر ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ : أي بمسلط ، كقوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ وقرأ الجمهور : بالصاد وكسر الطاء ، وابن عامر في رواية ، ونطيق عن قنبل ، وزرعان عن حفص : بالسين ؛ وحمزة في رواية : بإشمام الزاي ؛ وهارون : بفتح الطاء ، وهي لغة تميم .

وسيطر متعد عندهم ويدل عليه فعل المطاوعة وهو تسطر ، وليس في الكلام على هذا الوزن إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر ومبيقر ، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر . وجاء مجيمر اسم واد ومديبر ، ويمكن أن يكون أصلهما مدبر ومجمر فصغراً .

وقرأ الجمهور : إلا حرف استثناء فقيل متصل ، أي فأنت مسيطر عليه .

وقيل : متصل من فذكر ، أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب

الأكبر ، وما بينهما اعتراض .

وقيل : منقطع ، وهي آية موادعة نسخت بآية السيف .

وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ وقتادة وزيد بن أسلم : ألا حرف تنبيه واستفتاح ، والعذاب الأكبر هو عذاب جهنم .

(212/813)

وقرأ الجمهور : ﴿ إيابهم ﴾ بتخفيف الياء مصدر آب ؛ وأبو جعفر وشيبة : بشدّها مصدراً لفعيل من آب على وزن فيعال ، أو مصدراً كفوعل كحوقل على وزن فيعال أيضاً كحيقال ، أو مصدر الفعول كجهور على وزن فعوال كجهوار فأصله أوواب فقلبت الواو الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ؛ واجتمع في هذا البناء والبناءين قبله واو وياء ، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، وأدغم ولم يمنع الإدغام من القلب لأن الواو والياء ليستا عينين من الفعل ، بل الياء في فيعل والواو في فعول زائدتان .

وقال صاحب اللوامح ، وتبعه الزمخشري : يكون أصله إواباً مصدر أوّب ، نحو كذّب كذاباً ، ثم قيل إواباً فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها .

قال الزمخشري : كديوان في دوان ، ثم فعل به ما فعل بسيد ، يعني أنه اجتمع ياء وواو

وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الواو ، فأما كونه مصدر أوب فإنه لا يجوز ، لأنهم نصوا على أن الواو الأولى إذا كانت موضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة ، ومثلوا بأخرواط مصدر أخروّط ، ومثلوا أيضاً بمصدر أوب نحو أوّب إواباً ، فهذه وضعت على الإدغام ، فحصنها من الإبدال ولم تتأثر للكسر .

وأما تشبيه الزمخشري بديوان فليس بجيد لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة ، فلم يقولوا دوّان ، ولولا الجمع على دواوين لم يعلم أن أصل هذه الياء واو ، وأيضاً فنصوا على شذوذ ديوان فلا يقاس عليه غيره .

وقال ابن عطية : ويصح أن يكون من أأوب ، فيجيء إيواباً ، سهلت الهمزة ، وكان اللازم في الإدغام يردها إواباً ، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس ، انتهى .

فقوله : وكان اللازم في الإدغام بردها إواباً ليس بصحيح ، بل اللازم إذا اعتبر الإدغام أن يكون إياباً ، لأنه قد اجتمعت ياء وهي المبدلة من الهمزة بالتسهيل .

(213/813)

وواو وهي عين الكلمة وإحداهما ساكنة ، فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير إياباً .

ولما كان من مذهب الزمخشري أن تقديم المعمول يفيد الحصر ، قال معناه : أن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه تعالى ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير ، ومعنى الوجوب : الوجوب في الحكمة ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(214/813)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) ﴾

التفسير : لما انجر الكلام في السورة المتقدّمة إلى ذكر الآخرة ، شرح في هذه السورة بعض أحوال المكلفين فيها . والغاشية القيامة لأنها تغشى الناس بشدائدها ، وكل ما أحاط بالشيء من جميع الجهات فهو غاشٍ له قال الله تعالى ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [العنكبوت : 55] وقال ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ [إبراهيم : 50] أي لم يأتك حديث هذه الداهية وقد أتاك الآن فاستمع . وقدّم وصف الأشقياء لأن مبنى السورة على التخويف كما ينبىء عنه لفظ الغاشية . والمراد بالوجه الذات ووجه

حسن هذا المجاز أن الخشوع والانكسار والذل وأضدادها يتبين أكثرها في الوجه كقوله ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفيّ ﴾ [الشورى : 45] والعمل والنصب أي التعب . قيل : كلاهما في الآخرة وهو والأظهر لقوله ﴿ يومئذ ﴾ أي تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال وخوضعها في النار خوض الدابة في الوحل وتردّدها في صعود من نار وحدور منها . قال الحسن : كان يجب عليها أن تعمل لله في الدنيا خاشعة ناصبة فلام قصر في ذلك وقع في مثله بعد المفارقة إلى أن يشاء الله ليكون معارضاً بنقيض مقصوده . وقيل : كلاهما في الدنيا وهم أصحاب الصوامع خشعت وجوههم لله وعملت ونصبت في أعمالها من غير نفع لهم في الآخرة ، لأن أعمالهم مبنية على غير أساس من الدين الحنيفي . وقيل : عملت في الدنيا أعمال السوء فهي في نصب منها في الآخرة . ثم شرح مكانهم وهو النار الشديدة الحر ، ومشروبهم وهو من عين آنية أي متناهية في الحرارة ، ومطعومهم وهو الضريع .

(215/813)

وإنما قدّم المشروب على الضريع المطعوم لأن الماء يناسب النار مناسبة الضدين أو الشبيهين من حيث بساطتهما ، أو لأنهم إذا أثر فيهم حر النار غلب عليهم العطش وكان الماء

عندهم أهم ، ثم إذا أثرت فيهم الحرارتان أرادوا أن يدفعوا ألم الإحساس بها بما يزيد العذاب على البدن ، هذا مع أن الواو ليست للترتيب . قال الحسن : لا أدري ما الضريع ولم أسمع فيه من الصحابة شيئًا وقد يروى عنه أيضاً أنه " فعيل " بمعنى " مفعل " كالأليم بمعنى المؤلم . والبديع بمعنى المبدع ومعناه إلا من طعام يحملهم على الضراعة والذل عند تناوله لما فيه من الخشونة والمرارة والحرارة . وعن سعيد بن جبير أنه شجرة ذات شوك . قال أبو الجوزاء : كيف يسمن من يأكل الشوك . وفي الخبر " الضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأشدّ حراً من النار " قال العلماء : إن للنار دركات وأهلها على طبقات : فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه غسلين ، ومنهم من طعامه ضريع ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصديد ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [الحجر : 44] ووجود النبت في النار ليس ببدع من قدرة الله كوجود بدن الإنسان والعقارب والحيات فيها . قوله ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ صف للطعام أو للضريع ، وفيه أن طعامهم ليس من جنس طعام الإنس لكن من جنس الشوك الذي ترعاه الإبل ما دام رطباً فإذا يبس نفرت عنه لأنه سم قاتل . ويحتمل أن يراد لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع يبيس هذا الشوك والإبل تنفر عنه كما قلنا فهو كقوله " ليس لفلان ظل إلا الشمس " يريد نفي الظل على التوكيد . وروي أن كفار قريش قالوا على سبيل التعنت حين سمعوا الآية : إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ أي ليس فيه منفعة

الغذاء ولا الاسمان ودفع الجوع كذبهم الله في قولهم يسمن الضريع ، أو نبههم الله بعد تسليم أن ضريعهم مسمن على أن ضريع النار ليس كذلك أي كل ما في

(216/813)

النار يجب أن يكون خالياً عن النفع . ثم أخذ في وصف السعداء فقال ﴿ وجوه ﴾ وإنما فقد العاطف خلاف ما في سورة القيامة لأنه أراد ههنا تفصيل ما أجمل في قوله ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ ومعنى ناعمة ذات نعومة أو تنعم . وقوله ﴿ لسعيها راضية ﴾ أي رضيت بما عملت في الدنيا وأثنت عليه نحو قولها " ما أحسن ما عملت " وذلك إذا رأت محلها ومنزلتها في الكرامة والثواب أو رضيت لجزاء سعيها حين رأت ما لا مزيد عليه . واللاغية اللغو مصدر كالعافية والباقية ، ويجوز أن تكون صفة لمحذوف أي كلمة ذات لغو .

(217/813)

قوله ﴿ عين جارية ﴾ قال جار الله : يريد عيوناً في غاية الكثرة كقوله ﴿ علمت نفس ﴾ [الانفطار : 5] قال الكلبي : لا أدري جرت بماء أو غيره . قال القفال : عين شراب جارية

على وجه الأرض في غير أخدود وتجري لهم كما أرادوا . ﴿ مرفوعة ﴾ في الرتبة أو مرتفعة عن الأرض ليرى المؤمن بجلوسه عليها جميع ما آتاه الله من الخدم والملك ، فإذا جاء وليّ الله ليجلس عليها تطأطأت له ، فإذا استوى عليها ارتفعت إلى حيث أراد الله . وقد وصفها ابن عباس بأن ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت . وقيل : مرفوعة أي مخبوءة لهم من رفع الشيء إذا خبأه . والأكواب الكيزان التي لا عرى لها كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم حاضرة أو موضوعة على حافات العيون ليشرب بها . وجوّز في الكشاف أن يراد موضوعة من حدّ الكبر إلى التوسط والاعتدال . والنمارق الوسائد واحدها نمرقة بضم النون . وروى الفراء بكسرها أيضاً ﴿ مصفوفة ﴾ بعضها بجنب بعض أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة وأسند إلى أخرى . والزرابيّ البسط العراض الفاخرة واحدها زربية بكسر الزاي ، وقيل : هي الطنافس التي لها خمل رقيق . و ﴿ مبثوثة ﴾ أي مبسوطة أو مفرقة في المجلس . وحين ذكر أحوال المعاد عاد إلى الاستدلال على المبدأ فإن من عادة كتاب الله الكريم أنه يرجع إلى تذكير الأصول عوداً إلى بداية . وللمحققين في نسق الآية وفي تناسب هذه الأمور وجوه منها : قول أكثر أهل المعاني إن القرآن إنما نزل بلغة العرب فيجب أن يخاطبوا بحسب ما هو مركوز في خزانة خيالهم ، ولا ريب أن جل هممهم مصروفة بشأن الإبل فمنها يأكلون ويشربون ، ومن أصوافها وأوبارها ينتفعون ، وعليها في متاجرهم ومسافراتهم يحملون ، فحيث أراد الله

سحانه أن ينصب لهم دليلاً من مصنوعاته يمكنهم أن يستدلوا به على كمال حكمة الصانع ونهاية قدرته لم يكن شيء أحضر صورة في متخيلهم من الإبل فنصبها لهم . ولا ريب أنها من أعاجيب مصنوعات الله تعالى صورة

(218/813)

وسيرة لما ركب فيها من التحمل على دوام السير مع كثرة الأثقال ، ومن البروك حتى تحمل ، ثم النهوض بما حملت ، ومن الصبر على العطش ، وعلى العلف القليل أياماً ، ثم شرب الماء الكثير إذا وجدت ، ومن تذللها لصبي أو ضعيف . قال الإمام فخر الدين الرازي : كنت مع جماعة في مفازةٍ فضللنا الطريق فقدّموا جملاً وتبعوه وكان ذلك الجمل يمشي ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب حتى وصل الطريق فتعجبنا من قوّة تخيله . وعن بعض أهل الفراسة أنه حدّث عن البعير وبديع خلقه في بروكه ثم نهوضه مثقلاً وقد نشأ في بلاد لا ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق ، وذلك أن طول العنق يسهل عليه النهوض . ثم إن أصحاب المواشي لاحتياجهم الشديد إلى الماء المستعقب للكلأ صار جل نظرهم إلى السماء التي منها ينزل المطر ، ثم إلى الجبال التي هي أقرب إلى السماء وأسرع لوقوع المطر عليها وحفظ الثلج الذي منه مادة العيون والآبار عند إقلاع الأمطار على أنها مأمنهم

ومسكنهم في الأغلب .

لنا جبل يحتله من نجيره . . . منيع يرد الطرف وهو كليل

(219/813)

ثم إلى الأرض التي فيها ينبت العشب وعليها متقلبهم ومرعاهم ، فثبت أن الآية كيف وردت منظمة حسب ما انتظم في خزانة خيال العرب بحسب الأغلب . ومنها أن جميع المخلوقات متساوية في دلالة التوحيد وذكر جميعها غير ممكن فكل طائفة منها تخص بالذكر . ورد هذا السؤال فوجب الحكم بسقوطه ، ولعل في ذكر هذه الأشياء التي لا تناسب في الظاهر تنبيهاً على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع بل هو عام في الكل . ومنها أن المراد بالإبل السحاب على طريق التشبيه والمجاز فان العرب كثيراً تشبه السحاب بالإبل في أشعارهم . ومنها أن تخصيص الإنسان بالاستدلال منه على التوحيد يستتبع القوع في الشهوة والفتنة ، وكذا الفكر في البساتين النزهة والصور الحسنة فخص الإبل بالذكر لأن التفكير فيها متمحض لداعية الحكمة وليس للشهوة فيها نصيب ، على أن إلف العرب بها أكثر كما مر ، وكذا السماء والأرض والجبال دلائل الحدوث فيها ظاهرة وليس فيها نصيب للشهوة . والمراد بالنظر إلى هذه الأشياء هو النظر المؤدّي إلى

الاستدلال بدليل قوله ﴿ كيف خلقت ﴾ ﴿ كيف رفعت ﴾ ﴿ كيف نصبت ﴾ ﴿ كيف سطحت ﴾ وليس في السطح دلالة على عدم كرية الأرض لأنها في النظر مسطحة وقد تكون في الحقيقة كرة إلا أنها لعظمها لا تدرك كريتها . ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتذكير الأمة بهذه الأدلة وأمثالها لأن أمره مقصور على كونه مذكراً لا منحطاً إلى كونه مسيطراً أي مسلطاً عليهم فإن أراد بالتسليط القهر أو بالإكراه بمعنى خلق الهداية فيهم فالآية ثابتة لأن ذلك لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً . وإن أراد القتال معهم إن لم يؤمنوا فالآية منسوخة وهذا قول كثير من المفسرين ، وعلى هذا فالأظهر أن يكون الاستثناء في قوله ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ متصلاً لا باعتبار الحال فإن السورة مكية ولكن بالنظر إلى الاستقبال أي إلا المصرين على الإعراض والكفر فإنك تصير مأموراً

(220/813)

بقتالهم مستولياً عليهم بالغلبة والقهر . وقيل : هو استثناء منقطع أي لست بمستول عليهم ولكن من تولى وكفر فإن لله لولاية والقهر فهو يعذبه العذاب الأكبر الذي هو القتل والسبي أو عذاب الدرك الأسفل . وقيل : هو استثناء من قوله ﴿ فذكر ﴾ أي فذكر إلا من انقطع

طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض . ويرد أنه صلى الله عليه وسلم لا ينقطع طمعه من إيمان الكفرة ما داموا أحياء إلا أن يعلمه الله بذلك ، وعلى تقدير الإعلام أيضاً لا يجوز أن يقطع التذكير لأن الدعوة عامة في الأصل ولو جعلت خاصة لم تبق مضبوطة كرخصة المسافر مثلاً .

ثم ختم السورة بما يصلح للوعد والوعيد والترغيب والترهيب . ومن قرأ ﴿ إيابهم ﴾ بالتشديد فإما أن يكون " فيعالاً " مصدر " فيعل " من الإياب ، وأما أن يكون أصله " أوّاباً " فعالاً من " أوّب " ثم قلبت إحدى الواوين ياء كما في " ديوان " ثم الأخرى كما في " سيد " . قال جار الله : فائدة تقديم الظرف في الموضعين الحصر أي ليس ينبغي أن يكون مرجعهم إلا إلى الجبار المقتدر على توفية جزاء كل طائفة ولا أن يكون حسابهم واجباً إلا على حكمة من هو أحكم الحاكمين ورب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 492.489 ﴾

(221/813)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الغاشية

مكية بالإجماع

وهي ست وعشرون آية واثنان وتسعون كلمة وثلاثمائة وإحدى وثمانون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ علام الغيوب ﴿ الرحمن ﴾ كاشف الكروب ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بالعفو عن الذنوب .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنّ هل بمعنى قد ، أي : قد جاءك يا أشرف الخلق حديث الغاشية ، كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ (الإنسان :)

. قال قطرب : والثاني : أنه استفهام على حاله ، وتسميه أهل البيان التشويق ، والمعنى : إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك وهو معنى قول الكلبي ، والغاشية : الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها وهي القيامة من قوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب ﴾ (العنكبوت :)

وقيل : هي النار من قوله تعالى : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ (إبراهيم :)

﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ (الأعراف :)

. وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث لأنها تغشى الخلق . وقيل : الغاشية أهل النار يغشونها ويقتحمون فيها .

﴿ وجوه ﴾ ، أي : كثيرة جدّاً كائنة ﴿ يومئذ ﴾ ، أي : يوم إذ غشيت ﴿ خاشعة ﴾ ،

أي : ذليلة من الخجل والفضيحة والخوف من العذاب ، والمراد بالوجوه في الموضعين : أصحابها .

(222/813)

﴿ عاملة ناصبة ﴾ ، أي : ذات نصب وتعب . قال سعيد بن جبير عن قتادة : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله تعالى فأعملها الله تعالى وأنصبها في النار بجرّ السلاسل الثقال وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة في العَرَصَات في يوم كان مقداره ألف سنة . وقال ابن مسعود : تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوحل . وقال الحسن : لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب له فأعملها وأنصبها في جهنم . وقال ابن عباس : هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله تعالى على الكفر ، مثل عبدة الأوثان والرهبان وغيرهم لا يقبل الله تعالى منهم إلا ما كان خالصاً له . وعن علي أنهم الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" الحديث .

وقرأ ﴿ تصلى ﴾ أبو عمرو وشعبة بضم التاء الفوقية على ما لم يسم فاعله ، والباقون بفتحها على تسمية الفاعل ، والضمير على كلتا القراءتين للوجوه . والمعنى : تدخل ﴿ ناراً

حامية﴾ ، أي : شديدة الحرّ قد أحميت وأوقدت مدّة طويلة ، ومنه حمى النار بالكسر ، أي : اشتدّ حرّه . وحكى الكسائي اشتدّ حمى الشمس وحموها بمعنى . قال صلى الله عليه وسلم "أوقد عليها ألف سنة حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسوّدت فهي سوداء مظلمة" . وقيل : المصلى عند العرب أن يحفروا حفيراً فيجمعون فيه جمراً كثيراً ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه ، فأمّا ما شوي فوق الجمر أو على المقلى أو في التنور فلا يسمى مصلياً .

ولما بين تعالى مكانهم ذكر شرابهم فقال تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ ، أي : شديدة الحرارة كقوله تعالى : ﴿ بين حميم آن ﴾ (الرحمن :)

متناه في الحرارة . روي أنه لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لأذابتها .

(223/813)

ولما ذكر تعالى شرابهم أتبعه بذكر طعامهم فقال تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال مجاهد : هو نبت ذو شوك لاطىء بالأرض تسميه قريش الشبرق ، فإذا هاج سموه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه . قال الكلبي : لا تقربه دابة إذا يبس . وقال ابن زيد : أمّا في الدنيا فإنّ الضريع الشوك اليابس الذي ليس له ورق ، وهو في الآخرة شوك من نار .

وجاء في الحديث عن ابن عباس يرفعه : "الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة ، وأشد حرّاً من النار" قال أبو الدرداء والحسن : "إنّ الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بالضريع ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة ، ثم يسقون من عين آنية لا هنيئة ولا مريئة ، فلما أدنوه من وجوههم سلخ جلود وجوههم وشواها فإذا وصل بطونهم قطعها فذلك قوله تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ (محمد :)

. قال بعض المفسرين : فلما نزلت هذه الآية قال المشركون : إنّ إبلنا لتسمن على الضريع ، وكذبوا في ذلك فإنّ الإبل إنما ترعاه ما دام رطباً ويسمى شبرقاً فإذا يبس لا يأكله شيء .

قال أبو ذؤيب يصف حماراً :

*رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى ** وصار ضريعاً بان عنه النحائص*

والنحوص : من الأتن التي لا لبن لها .

ولما قالوا ذلك أنزل الله تعالى تكذيباً لهم : ﴿ لا يسمن ولا يغني ﴾ ، أي : يكفي كفاية مبتدأة ﴿ من جوع ﴾ فلا يحفظ الصحة ولا يمنع الهزال فنفى السمن والشبع عنه ، وعلى تقدير أن يصدقوا فيكون المعنى : أنّ طعامكم من ضريع ليس من جنس ضريعكم إنما هو ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع . فإن قيل : كيف قيل : ﴿ ليس لهم طعام إلا من

ضريع ﴾ وفي الحاقة : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ (الحاقة :)

؟

أجيب : بأنّ العذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع لكل باب منهم جزء مقسوم .

(224/813)

ولما ذكر تعالى وعيد الكفار أتبعه بشرح أحوال المؤمنين فقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذٍ ﴾ ، أي : يوم تغشى الناس ووصفها بصفات الأولى قوله تعالى : ﴿ ناعمة ﴾ ، أي : ذات بهجة وحسن كقوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ (المطففين :)

أو متنعمة . قال مقاتل : في نعمة وكرامة . الصفة الثانية : قوله تعالى:

﴿ لسعيها ﴾ ، أي : في الدنيا بالأعمال الصالحة ﴿ راضيةٌ ﴾ ، أي : في الآخرة بثواب سعيها حين رأت ما أدّاهم إليه من الكرامة الصفة الثالثة قوله تعالى:

﴿ في جنة ﴾ ثم توصف الجنة بصفات الأولى قوله تعالى : ﴿ عالية ﴾ ، أي : علية المحل والقدر ، والصفة الثانية : قوله تعالى:

﴿ لا يسمع فيها لاغية ﴾ قرأ بالتاء الفوقية نافع مضمومة لاغية بالرفع ، وقرأ ابن كثير وأبو

عمرو بالياء التحتية مضمومة لاغية بالرفع لقيامها مقام الفاعل ، والباقون بالتاء الفوقية مفتوحة لاغية بالنصب فيجوز أن تكون التاء للخطاب ، أي : لا تسمع أنت وأن تكون للتأنيث ، أي : لا تسمع الوجوه واللغو . وقال ابن عباس : الكذب والبهتان والكفر بالله تعالى . وقال قتادة : لا بالله طل ولا إثم . وقال الحسن : هو الشتم . وقال الفراء : الحلف الكاذب ، والأولى كما قيل : لا يسمع في كلامهم كلمة ذات لغو ، وإنما يتكلمون بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم وهذا أحسن الأقوال قاله القفال . وقال الكلبي : لا يسمع في الجنة حالف بيمين لا برّة ولا فاجرة .

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ ، أي : الجنة ﴿ عين جارية ﴾ قال الزمخشري : يريد عيوناً في غاية الكثرة كقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ﴾ (التكوير :)

وقال القفال : فيها عين شراب جارية على وجه الأرض في غير أخدود ، وتجري لهم كما أرادوا .

(225/813)

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ ، أي : عالية في الهواء . قال ابن عباس : ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة في السماء ما لم يجيء

أهلها ، فإذا أرادوا أن يجلسوا عليها تواضعت ثم ترتفع على مواضعها .

الصفة الخامسة قوله تعالى : ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ جمع كوب ، وهي الكيزان التي لا عرى لها . قال قتادة : فهي دون الإبريق .

وفي قوله تعالى : ﴿ موضوعة ﴾ وجوه أحدها : أنها معدّة لأهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئاً فيقول هو ههنا موضوع بمعنى معدّ . ثانيها : موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشراب . ثالثها : موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جواهر وتلذذهم بالشرب فيها رابعها : أن يكون المراد موضوعة عن حدّ الكبر ، أي : هي أوساط بين الكبر والصغر كقوله ﴿ قدّروها تقديراً ﴾ (الإنسان :)

الصفة السادسة : قوله تعالى:

﴿ ونمارق ﴾ وهي الوسائد ، واحدها : نمرقة بضم النون والراء وكسرهما لغتان أشهرهما الأولى وهي وسادة صغيرة قالت:

*نحن بنات طارق

**نمشي على النمارق*

﴿ مصفوفة ﴾ أي : واحدة على جنب واحدة أخرى قال الشاعر:

*كهولاً وشباناً حساناً وجوههم **لهم سرر مصفوفة ونمارق*

الصفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ وزرابيّ ﴾ وهي جمع زربية بفتح الزاي وكسرها لغتان مشهورتان وهي بسط عراض فاخرة . وقال ابن عباس : الطنافس التي لها خمل ، أي : وبر رقيق . واختلف في قوله تعالى : ﴿ مبثوثة ﴾ فقال قتادة : مبسوطة . وقال عكرمة : بعضها فوق بعض . وقال الفراء : كثيرة . وقال القتيبي : مفرّقة في المجالس . قال القرطبي : وهذا أصح فهي كثيرة متفرّقة ومنه قوله تعالى : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ (البقرة :) ولما ذكر تعالى أمر الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوه وأنكروه فذكرهم الله تعالى صنعه وقدرته بقوله تعالى:

(226/813)

﴿ أفلا ينظرون ﴾ ، أي : المنكرون لقدرته سبحانه وتعالى على الجنة ، وما ذكر فيها ، والنار وما ذكر فيها ، أي : نظر اعتبار . ﴿ إلى الإبل ﴾ ونبه على أنه عجيب خلقها مما ينبغي أن تتوفر الدعاوي على الاستفهام والسؤال عنه بأداة الاستفهام ، فقال تعالى: ﴿ كيف خلقت ﴾ ، أي : خلقاً عجيباً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره ، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرّها إلى البلاد النائية فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعارض ضعيفاً ولا تنازع

صغيراً وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار . وعن بعض الحكماء أنه حدّث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد لا إبل بها فتفكر ، ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق وحين أراد بها أن تكون سفائن البرّ صبرها على احتمال العطش ، حتى إنّ ظماءها لتصبر على عشر فصاعداً ليتأتى لها قطع البراري والمفاوز مع ما لها من منافع أخر ، ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المثبتة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً ، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع لأنها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا ترعاه سائر البهائم .

وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحاً القاضي فقلت له : أين تريد ؟ قال : أريد الكناسة ، قلت : وما تصنع بها ؟ قال : أنظر إلى الإبل كيف خلقت .

تنبيه : الإبل اسم جمع واحده بعير وناقة وجمل ولا واحد لها من لفظها . وقال المبرد : الإبل هنا القطع العظيمة من السحاب . قال الثعلبي : ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة . m

(227/813)

وقال الماوردي : وفي الإبل وجهان : أظهرهما : أنها الإبل ، والثاني : أنها السحاب فإن كان المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات والدلالات الدالة على قدرته والمنافع العامّة لجميع

خلقه ، وإن كان المراد بها الإبل فلأنّ الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات لأنّ ضروب الحيوان أربعة حلوبة وركوبة وأكولة وحمولة والإبل تجمع هذه الخلال الأربع ، فكانت النعمة بها أعم وظهور القدرة فيها أتم وقيل للحسن : الفيل أعظم من الأعجوبة فقال العرب : بعيدة العهد بالفيل ثم هو لا يؤكل لحمه ولا يركب ولا يحلب درّه .

﴿ وإلى السماء ﴾ التي هي من جملة مخلوقاتنا ﴿ كيف رفعت ﴾ ، أي : رفعاً بعيداً بلا إمساك وبغير عمد على ما لها من السعة والكبر والثقل والإحكام ، وما فيها من الكواكب والغرائب والعجائب .

﴿ وإلى الجبال ﴾ ، أي : الشامخة وهي أشد الأرض ﴿ كيف نصبت ﴾ نصباً ثابتاً فهي راسية لا تميل ولا تزول كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ (الأنبياء :)

﴿ وإلى الأرض ﴾ ، أي : على سعتها ﴿ كيف سطحت ﴾ سطحاً بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للتقلب عليها . واستدلّ بعضهم بذلك على أنّ الأرض ليست بكرة . قال الرزاي : وهو ضعيف لأنّ الكرة إذا كانت في غاية العظمة تكون كل قطعة منها كالسطح . فإن قيل : كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة ؟

أجيب : بأنّ من فسرها بالسحاب فالمناسبة ظاهرة ، وذلك على طريق التشبيه والمجاز ، ومن فسرها بالإبل فالمناسبة بينها وبين السماء والأرض والجبال من وجهين:

أحدهما : أنّ القرآن نزل على العرب وكانوا يسافرون كثيراً ويسيرون عليها في أوديتهم وبواديهم مستوحشين ومنفردين عن الناس ، والإنسان إذا انفرد أقبل على التفكر في الأشياء لأنه ليس معه من يحادثه وليس هناك ما يشغل به سمعه وبصره ، فلا بدّ من أن يجعل دأبه التفكر فإذا تفكر في تلك الحال فأوّل ما يقع بصره على البعير الذي هو راكبه فيرى منظراً عجيباً ، وإن نظر إلى فوق لم ير غير السماء وإن نظر يميناً وشمالاً لم ير غير الجبال ، وإن نظر إلى تحت لم ير غير الأرض فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر .

ثانيهما : أنّ جميع المخلوقات دالة على الصانع جلت قدرته إلا أنها قسمان منها ما للشهوة فيه حظ كالوجه الحسن والبساتين النزهة والذهب والفضة ، فهذه مع دلالتها على الصانع قد يمنع استسحانها عن كمال النظر فيها ومنها ما لا حظ فيه للشهوة كهذه الأشياء فأمر بالنظر فيها ؛ إذ لا مانع من إكمال النظر فيها . وقال عطاء عن ابن عباس : كأن الله تعالى يقول هل يقدر أحد أن يخلق مثل الإبل ، أو يرفع مثل السماء ، أو ينصب مثل الجبال ، أو يسطح مثل الأرض غيري .

ولما بين تعالى الدلائل على صحة التوحيد والمعاد قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ فذكر ﴾ ، أي : بنعم الله تعالى ودلائل توحيده وعظهم بذلك وخوّفهم يا أشرف الخلق ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ فلا عليك أن لا ينظروا ولم يذكروا أو ما عليك إلا البلاغ كما قال تعالى : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ (الشورى :)

﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ ، أي : بمسلط فتقتلهم وتكرههم على الإيمان كقوله تعالى : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ (ق :)

وهذا قبل الأمر بالجهاد . وقرأ هشام بالسين وقرأ حمزة بخلاف عن خلف بإشمام الصاد كالزاي ، والباقون بالصاد الخالصة .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى ﴾ استثناء منقطع ، أي : لكن من تولى عن الإيمان ﴿ وكفر ﴾ ، أي : بالقرآن .

(229/813)

﴿ فيعذبه الله ﴾ ، أي : الذي له الكمال كله بسبب تكبره عن الحق ومخالفته لأمرك ﴿ العذاب الأكبر ﴾ ، أي : عذاب الآخرة لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل

والأسر . وقيل : استثناء متصل فإنّ جهاد الكفار وقتلهم تسليط فكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وقيل : هو استثناء من قوله تعالى : ﴿ فذكر ﴾ إلا من انقطع طمعك من إيمانه ، وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض .

﴿ إن إلينا ﴾ ، أي : خاصة بما لنا من العظمة ﴿ إيابهم ﴾ ، أي : رجوعهم بعد البعث .

﴿ ثم إنّ علينا ﴾ ، أي : خاصة بما لنا من القدرة والتنزه عن نقص العيب والجور وكل نقص لا على غيرنا ﴿ حسابهم ﴾ ، أي : جزاءهم فلا نتركه أبداً ، وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه كان يشق عليه تكذيبهم .

فإن قيل : ما معنى تقديم الظرف ؟

أجيب : بأنّ معناه التشديد في الوعيد ، وإنّ إيابهم إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وإنّ حسابهم ليس إلا عليه وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 323 . 329 ﴾

(230/813)

وقال القاسمي :

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾

أي : خبرها وقصتها ، وهي القيامة .

وأصل الغاشية الداهية التي تغشى الناس بشدائدها . والاستفهام للتعظيم والتعجب مما في حيزه ، مع تقريره .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ أي : ذليلة . وهي وجوه أهل الكفر بالحق والجحود له .

والمراد بالوجوه الذوات .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ قال القاشاني : أي : تعمل دائباً أعمالاً صعبة تتعب فيها ، كالهوي في دركات النار ، والارتقاء في عقباتها ، وحمل مشاق الصور والهيئات المتعبة المثقلة من آثار أعمالها . أو عاملة من استعمال الزبانية إياها في أعمال شاقة فادحة من جنس أعمالها التي ضربت بها في الدنيا ، وأتعابها فيها من غير منفعة لهم منها إلا التعب والعذاب . وجوز أن يكون ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ إشارة إلى عملهم في الدنيا ، أي : عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة . فيكون بمنزلة حابطة أعمالها . أو جعلت أعمالها هباءً منثوراً كما يدل عليه آيات أخر ، ويؤيده مقابلة هذه الآية ، لقوله في أهل الجنة ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ

﴿ وذلك السعي هو الذي كان في الدنيا . والله أعلم

﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾ أي : تدخل ناراً متناهية في الحرارة . قال القاشاني : أي : مؤذية مؤلمة بحسب ما تزاولها في الدنيا من الأعمال .

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي : بلغت غايتها في شدة الحر .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ وهو من جنس الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطباً ، فإذا يبس تحامته ، وهو سم قاتل . قال ابن جرير : الضريع عند العرب نبت يقال له : الشبرَق ، وتسميه أهل الحجاز الضريع ، إذا يبس . ولا منافاة بين هذه الآية وآية :

(231/813)

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36] ؛ لأن العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، وقيل : الضريع مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه حتى للإبل التي تلتذ برعي الشوك ، فلا ينافي كونه زقوماً أو غسلينا .

﴿ لَا يُسْمِنُ ﴾ أي : لا يخصب البدن ﴿ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ أي : لا يسكن داعية النفس ولا نهمها من أجله .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ أي : ذات حسن ، على أنه من النعومة ، كناية عن حسن المنظر

. أو ناعمة بمعنى متنعمة ، على أنه من النعيم .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي : لعملها الذي عملته في الدنيا وجدّها في طريق البر واكتساب الفضائل ، شاكرة لا تندم ولا تتحسر .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أي : مرتفعة المحل . أو رفيعة القدر ، من علوّ المكانة .

﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أي : لغواً ، أو كلمةً ذات لغو ، أو نفساً تلغو ؛ لأن كلامهم الحكمة والعلوم والتسبيح والتحميد .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أي : لا انقطاع لها .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ أي : مرتفعة ليروا إذا جلسوا عليها جميع ما خولوه من النعيم والملك .

﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ جمع كوب ، وهو إناء لا أذن له ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ أي : بين أيديهم لا يعوزهم تفقدها .

﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ أي : وسائد ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أي : فوق الأسِرّة أو في جوانب المساكن للاستناد إليها .

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ أي : بسط ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي : مفروشة . وقوله تعالى :

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ قال أبو السعود : استئناف مسوق لتقدير ما فصل من حديث الغاشية وما هو مبني عليه من البعث الذي هم فيه مختلفون ، بالاستشهاد عليه بما لا يستطيعون إنكاره . والهمزة للإنكار والتوبيخ . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ منصوبة بما بعدها ، معلقة لفعل النظر . والجملة في حيز الجر على أنها بدل اشتمال من ﴿ الْإِبِلِ ﴾ أي : أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه ، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله عز وجل ، فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين ، إلى أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات ، في عظم جثتها وشدة قوتها وعجيب هيئتها اللائقة بتأتي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة ، كالنوء بالأوقار الثقيلة وجرِّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة ، وفي صبرها على الجوع والعطش ، حتى إن إظماءها لتبلغ العشر فصاعداً واكتفائها باليسير ، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك ، مما لا يكاد يرعاهُ سائر البهائم ، وفي انقيادها مع ذلك الْإِنْسَانْ في الحركة والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء ، ويقتادها كلّ صغير وكبير .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ ﴾ التي يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ أي : رفعت كواكبها رفعاً سحيق المدى ، وأمسك كل منها في مداره إمساكاً لا يختل سيره ولا

يفسد نظامه .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ ﴾ أي : التي ينزلون في أقطارها ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ أي : أقيمت منتصبة لا تبرح مكانها ، حفظاً للأرض من الميدان .

﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي : التي يضربون فيها ويتقلبون عليها ﴿ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي : بسطت ومهدت ، حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها من الخلائق .

(233/813)

قال الزمخشري : والمعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق ، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث ، فيسمعوا إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه .

لطيفة :

ذكر السكاكي في " المفتاح " في بحث الجامع الخيالي ، أن جمعهُ على مجرى الإلف والعادة بحسب ما تنعقد الأسباب في استيداع الصور خزانة الخيال ، وأنه إذا لم يوفه حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلى كلام ربِّ العزة مع أهل الوبر ، حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

الآيات ؛ لبعد البعير عن خياله في مقام النظر ، ثم لبعده في خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها ، وكذا البواقي . لكن إذا وفاهُ حقهُ بتيقظه لما عليه تقلبهم في حاجاتهم ، جاء الاستحلاء ؛ وذلك إذا نظر أن أهل الوبر ، إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي ، كانت عنايتهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعاً وهي الإبل ، ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب ، كان جلّ مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ، ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال .

~لنا جبلٌ يحتلُّه من نجيرهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

(234/813)

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم في منزل – ومن لأصحاب مواش بذاك – كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور ، فعند نظره هذا ، أيرى البدوي إذا أخذ يفتش عما في خزانة الصور له ، لا يجد صورة الإبل حاضرة هناك أو لا يجد صورة السماء لها مقارنة ، أو تعوزه صورة الجبال بعدهما ، أو لا تنصّ إليه صورة الأرض تليها بعدهن ؟ لا ، وإنما الحضري ، حيث لم تتآخذ عنده تلك

الأمور ، وما جمع خيالهُ تلك الصور على ذلك الوجه وإذا تلا الآية قبل أن يقف على ما ذكرت ، ظن النسق بجهله معيباً للعيب فيه . انتهى .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي : من أرسلت إليه بآياته تعالى التي تسوق إلى الإيمان بخالقها الفطرة ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أي : مبلغ ما نسي من أمره تعالى :

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ أي : بمتسلط تقهرهم على الإيمان . وقرئ بالصاد على إبدالها من السين .

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ وهو عذاب جهنم . والاستثناء منقطع ، أي : لكن من تولى وكفر ، فإن لله الولاية والقهر ، فهو يعذبه العذاب الأكبر على جحده الحق .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي : رجوعهم ومعادهم بالموت والبعث . والجملة تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر . وجمع الضمير فيه وفيما بعده ، باعتبار معنى ﴿ مَن ﴾ كما أن إفراده قبل باعتبار لفظها .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أي : فنجازيهم بالعذاب الأكبر ؛ فإن القهر والغلبة له تعالى وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 385.389 ﴾

(235/813)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الغاشية

الدرس الأول: 1 – 16 بعض مشاهد يوم القيامة الوجوه الخاشعة المعذبة والناعمة المنعمة

(هل أتاك حديث الغاشية ؟) . . ثم يعرض شيئًا من حديث الغاشية:

(وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع) . .

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم ; فهو أقرب إلى جو (الغاشية) وظلها . .

فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ; عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة , ولم تجد إلا الوبال والخسارة , فزادت مضضا وإرهاقا وتعبا , فهي: (عاملة ناصبة) . . عملت لغير الله , ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها وأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته في الآخرة سوادا يؤدي إلى العذاب . وهي تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء !

ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم: (تصلى نارا حامية) وتذوقها وتعانيها .

(تسقى من عين آنية) . . حارة بالغة الحرارة . . (ليس لها طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا

يغني من جوع) . . والضريع قيل: شجر من نار في جهنم . استنادا إلى ما ورد عن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم . وقيل: نوع من الشوك اللاطئ بالأرض , ترعاه الإبل وهو أخضر , ويسمى "الشبرق" فإذا جني صار اسمه "الضريع" ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام ! فهذا أو ذاك هو لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان التي لا تسمن ولا تغني من جوع !

(236/813)

وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة . إنما تجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصوره من الألم , الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية , ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه , وهو شوك لا نقع فيه ولا غناء . . من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

بعد ذلك أشد . وطبيعة لا يتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله !

وعلى الجانب الآخر: (وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية: في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرابي مبثوثة) . .

فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد , وتحمد ما عملت . فوجدت عقباه خيرا , وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته , ثم يراها ممثلة في رضى الله الكريم . وفي النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنة من رخاء ومتاع , ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء: (في جنة عالية) . . عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو في الحس إيقاع خاص .

(237/813)

(لا تسمع فيها لاغية) . . ويطلق هذا التعبير جوا من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء , والتنزه والارتفاع عن

كل كلمة لاغية , لا خير فيها ولا عافية . . وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدها سعادة . سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا , وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة . وضجة وصخب , وهرج ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضي والظل الندي في العبارة الموحية: (لا تسمع فيها لاغية) وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندى وتنزلق في نعومة ويسر , وفي إيقاع موسيقي ندي رخي ! وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو , هي طرف من حياة الجنة , يتهيأون بها لذلك النعيم الكريم . وهكذا يقدم الله من صفة الجنة هذا المعنى الرفيع الكريم الوضيء . ثم تجيء المناعم التي تشبع الحس والحواس . تجيء في الصورة التي يملك البشر تصورها . وهي في الجنة مكيفة وفق ما ترتقي إليه نفوس أهل الجنة . مما لا يعرفه إلا من يذوقه !

(فيها عين جارية) . . والعين الجارية: الينبوع المتدفق . وهو يجمع إلى الري الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجاري يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التي تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي , الذي يتسرب إلى أعماق الحس .

(فيها سرر مرفوعة) . . والارتفاع يوحي بالنظافة كما يوحي بالطهارة . . (وأكواب موضوعة) . . مصفوفة مهيأة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد ! (ونمارق

مصفوفة) . . والنمارق الوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح !(وزرابي مبثوثة) . .

والزرابي البسط ذات الخمل "السجاجيد" مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء !

(238/813)

وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباها في الأرض . وتذكر هذه الأشياء لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهي موكولة إلى المذاق هناك . للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق !

ومن اللغو الدخول في موازنات أو تحقيقات حول طبيعة النعيم - أو طبيعة العذاب - في الآخرة . فإدراك طبيعة شيء ما متوقف على نوع هذا الإدراك . وأهل الأرض يدركون بحس مقيد بظروف هذه الأرض وطبيعة الحياة فيها . فإذا كانوا هناك رفعت الحجب وأزيلت الحواجز وانطلقت الأرواح والمدارك , وتغيرت مدلولات الألفاظ ذاتها بحكم تغير مذاقها , وكان ما سيكون , مما لا نملك أن ندرك الآن كيف يكون !

إنما نفيد من هذه الأوصاف أن يستحضر تصورنا أقصى ما يطيقه من صور اللذاذة والحلاوة والمتاع . وهو

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18)

ما نملك تذوقه ما دمنا هنا . حتى نعرف حقيقته هناك . حين يكرمنا الله بفضله ورضاه

.

الدرس الثاني: 17 دعوة للتأمل في آيات الله في الكون

وتنتهي هذه الجولة في العالم الآخر , فيؤوب منها إلى هذا الوجود الظاهر . الحاضر . الموحي بقدرة القادر وتدبير المدبر , وتميز الصنعة , وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمرا بعد هذه الحياة , وشأنا غير شأن الأرض . وخاتمة غير خاتمة الموت: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت , وإلى السماء كيف رفعت , وإلى الجبال كيف نصبت , وإلى الأرض كيف سطحت ؟) . .

وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار , أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال [ممثلة لسائر الحيوان] على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان . . السماء والأرض والجبال والحيوان . . وأيا كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة في عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

والمعجزة كامنة في كل منها . وصنعة الخالق فيها معلمة لا نظير لها . وهي وحدها كافية لأن توحي بحقيقة العقيدة الأولى . ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها :

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟) . . والإبل حيوان العربي الأول . عليها يسافر ويحمل . ومنها يشرب ويأكل . ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل . فهي مورده الأول للحياة . ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان . فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد , وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف . مرعاها ميسر , وكلفتها ضئيلة , وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال . . ثم إن لهيئتها مزية في تناسق المشهد الطبيعي المعروض كما سيجيء . .

لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل ; وهي بين أيديهم , لا تحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد . . (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟) . . أفلا ينظرون إلى خلقتها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون: كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها , المحقق لغاية خلقها , المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ! إنهم لم يخلقوها . وهي لم تخلق نفسها ,

فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته , التي تدل عليه , وتقطع بوجوده ; كما تشي بتدبيره وتقديره .

(وإلى السماء كيف رفعت ؟) . . وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن . وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء . حيث للسماء طعم ومذاق , وإيقاع وإيحاء , كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء !

(240/813)

السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر . والسماء بغروبها البديع الفريد الموحي . والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر . والسماء بشروقها الجميل الحي السافر .

هذه السماء . في الصحراء . . أفلا ينظرون إليها ؟ أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ؟ من ذا رفعها بلا عمد ؟ ونثر فيها النجوم بلا عدد ؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ؟ إنهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها . فلا بد لها من رافع ولا بد لها من مبدع . لا يحتاج الأمر إلى علم ولا إلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفي . . .

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ

مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22)

(وإلى الجبال كيف نصبت ؟) . . والجبال عند العربي – بصفة خاصة – ملجأ وملاذ , وأنيس وصاحب , ومشهدها يوحي إلى النفس الإنسانية – بصفة عامة – جلالا واستهوالا . حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين , ويخشع للجلال السامق الرزين . والنفس في أحضان الجبل تتجه بطبيعتها إلى الله ; وتشعر أنها إليه أقرب , وتبعد عن واغش الأرض وضجيجها وحقاراتها الصغيرة . ولم يكن عبثا ولا مصادفة أن يتحنث محمد (صلى الله عليه وسلم) في غار حراء في جبل ثور . وأن يتجه إلى الجبل من يريدون النجوة بأرواحهم فترات من الزمان !

والجبال هنا (كيف نصبت) لأن هذه اللمحة تتفق من الناحية التصويرية مع طبيعة المشهد كما سيجيء .

(وإلى الأرض كيف سطحت ؟) . . والأرض مسطوحة أمام النظر , ممهدة للحياة والسير والعمل , والناس لم يسطحوها كذلك . فقد سطحت قبل أن يكونوا هم . . أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ما وراءها , ويسألون: من سطحها ومهدها هكذا للحياة تمهيدا ?

(241/813)

إن هذه المشاهد لتوحي إلى القلب شيئًا . بمجرد النظر الواعي والتأمل الصاحي . وهذا القدر يكفي لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب . وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق .

ونقف وقفة قصيرة أمام جمال التناسق التصويري لمجموعة المشهد الكوني لنرى كيف يخاطب القرآن الوجدان الديني بلغة الجمال الفني , وكيف يعتنقان في حس المؤمن الشاعر بجمال الوجود . .

إن المشهد الكلي يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . وفي هذا المدى المتطاول تبرز الجبال "منصوبة" السنان لا راسية ولا ملقاة , وتبرز الجمال منصوبة السنام . . خطان أفقيان وخطان رأسيان في المشهد الهائل في المساحة الشاسعة . ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات ! على طريقة القرآن في عرض المشاهد , وفي التعبير بالتصوير على وجه الإجمال .

الدرس الثالث: 21 – 26 واجب الرسول التذكير وتهديد الكفار بالعذاب

والآن بعد الجولة الأولى في عالم الآخرة , والجولة الثانية في مشاهد الكون المعروضة , يلتفت إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته , ويلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة:

فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب

الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم . .

فذكر بها وذاك . ذكرهم بالآخرة وما فيها . وذكرهم بالكون وما فيه . إنما أنت مذكر . هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك في هذه الدعوة , ليس لك ولا عليك شيء وراءه . عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكلف إياه .

(لست عليهم بمسيطر) . . فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئا . حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمن , لا يقدر عليها إنسان .

(242/813)

فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس . فلا يمنعوا من سماعها . ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها . كان إزالة العقبات من طريق التذكير . الدور الوحيد الذي يملكه الرسول .

وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هذه الدعوة شيء إلا التذكير والبلاغ يتكرر في القرآن لأسباب شتى .

إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

في أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هم الدعوة بعد البلاغ , وتركها لقدر الله يفعل بها ما يشاء . فإلحاح الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير , إلحاح عنيف جدا يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية لنفسه ولرغائبه هذه من مجال الدعوة , كي ينطلق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة , وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعني نفسه بهم من آمن وهم من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة , وتقل الاستجابة , ويكثر المعرضون والمخاصمون .

ومما يدل على إلحاح الرغبة البشرية في انتصار دعوة الله وتذوق الناس لما فيها من خير ورحمة , هذه التوجيهات المتكررة للرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو من هو تأدبا بأدب الله ومعرفة لحدوده ولقدر الله . . ومن ثم اقتضى إلحاح هذه الرغبة هذا العلاج الطويل المتكرر في شتى الأحيان . .

ولكن إذا كان هذا هو حد الرسول , فإن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد . ولا يذهب المكذبون ناجين , ولا يتولون سالمين . إن هنالك الله وإليه تصير الأمور :

(إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر) . .

وهم راجعون إلى الله وحده قطعا , وهو مجازيهم وحده حتما . وهذا هو الإيقاع الختامي في السورة في صيغة الجزم والتوكيد .

(إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم) . .

(243/813)

بهذا يتحدد دور الرسول في هذه الدعوة . ودور كل داعية إليها بعده . . إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله . ولا مفر لهم من العودة إليه , ولا محيد لهم من حسابه وجزائه . غير أنه ينبغي أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء , بلا تقصير فيها ولا اعتداء . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3896 . 3900 ﴾

(244/813)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1)

الكلام في ﴿ هَلْ ﴾ هنا ، كالكلام في ﴿ هَلْ ﴾ التي في أول سورة الإنسان ، أنها استفهامية أو أنها بمعنى قد ؟

ورجّح أبو السعود وغيره أنها استفهامية للفت النظر وشدة التعجب والتنويه ، بشأن هذا الحدث ، وهو مروي عن ابن عباس قال : رضي الله عنه : " لم يكن أتاه فأخبره به "

وحديث الغاشية هو خبرها الذي يتحدث عنها .

والغاشية قال أبو حيان : أصلها في اللغة : الداهية تغشى الناس ، واختلف في المراد بها هنا ، فقيل : يوم القيامة .

وقيل : النار . واستدل كل قائل بنصوص . فمن الأول قوله : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب ﴾ [العنكبوت : 55] .

قال الفخر الرازي . وإنما سميت القيامة بها الاسم ، لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه . الأول ، أنها ترد على الخلق بغتة ، وهو كقوله : ﴿ أفأمنوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ الله أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف : 107] .

والثاني : أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين .

والثالث : أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد .

ومن استدلالهم على أنها النار ، قوله تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [إبراهيم : 50] .

وقيل الغاشية : أهل النار يغشونها أي يدخلونها ، فالغاشية كالدافة في حث الأضاحي .

وقال الطبري : والراجح عندي أن الله تعالى أطلق ليعم ، فيجب أن تطلق ليعم أيضاً .

والذي يظهر رجحانه والله تعالى أعلم : أنها في عموم القيامة وليس في خصوص النار ، فالنار من أهوال ودواهي القيامة ، وهو ما يشهد له القرآن في هذا السياق من عدة وجوه ، ومنها : أنه جاء بعدها قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ [الغاشية : 2] ، ويوم للقيامة منه للنار .

(245/813)

ومنها : التصريح بعد ذلك ، بأن من كانت تلك صفاتهم تصلى ناراً حامية ، مما يدل على أن الغاشية شيء آخر سوى النار الحامية .

ومنها : أن التعميم ليوم يشمل جميع الخلائق ، وهو الأنسب بالموقف ، ثم ينجي الله الذين اتقوا .

وقد بين الله تعالى قسيم هذا الصنف ، منا يدل على أن الحديث المراد إلغاؤه ، إنما هو عن حالة عموم الموقف .

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾ الآيات .

اتفقوا على أن يومئذٍ ، يعني يوم القيامة .

وقال ابن حيان : والتنوين فيه تنوين فيه تنوين عوض . وهو تنوين عوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التوين عوضاً عنها ، ولكن لما تقدم لفظ الغاشية .

وأل موصولة باسم الفاعل ، فتنحل للتي غشيت أي الداهية التي غشيت ، فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها ، وإلى الموصول الذي هو التي ، وهذا مما يرجح ويؤيد ما قد قدمناه ، من أن الغاشية هي القيامة . وجوه يومئذٍ خاشعة ، بمعنى ذليلة .

قال أبو السعود : وهذا وما بعده وقع جواباً عن سؤال ، نشا من الاستفهام التشويقي المتقدم ، كأنه قيل من جانبه صلى الله عليه وسلم

" ما أتاني حديثها ، فأخبره الله تعالى . فقال : وجوه " إلخ .

قال : ولا بأس بتنكيرها لأنها في موقع التنويع ، اي سوغ الابتداء بالنكرة كونها في موقع التنويع : وجوه كذا ، ووجوه كذا .

وخاشعة : خبر المبتدأ ، أي وما بعده من صفاتهم .

وقوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ العمل معروف ، والنصب : التعب ، وقد اختلف في زمن العمل والنصب هذين ، هل هو كان منها في الدنيا ، منهم من قال : عمل ونصب في العبادات الفاسدة كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين ، فلم ينفعهم يوم القيامة ، أي كما في قوله : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] .

ومنهم من قال : عمل ونصب والتذ ، فيما لا يرضى الله ، فعامله الله بنقيض قصده في الآخرة ، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر ، لأن من هذه حالهم لا يعدون في عمل ونصب بل في متعة ولذة .

والذين قالوا : سيقع منهم بالفعل يوم القيامة ، اتفقوا على أنه عمل ونصب في النار من جر السلاسل ، عياذا بالله . وصعودهم وهبوطهم الوهاد والوديان ، أي كما في قوله : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [المدثر : 17] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [الجن : 17] .

وقد ذكر الفخر الرازي تقسيماً ثلاثياً ، فقال : إما أن يكون ذلك كله في الدنيا أو كله في الآخرة ، أو بعضه في الدنيا وبعضه في الآخرة ، ولم يرجح قسماً منها إلا وجه القول بأنها في الدنيا وهي في القسيسين ، ونحوهم . فقال : لما نصبوا في عبادة إله وصفوه بما ليس متصفاً به ، وإنما تخيلوه تخيلاً أي بقولهم ﴿ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ [المائدة : 73] وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] ، فكانت عبادتهم لتلك الذات المتخيلة لا لحقيقة الإله سبحانه .

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه : إن من كان ممن لا ينطق بالشهادتين ويعمل على جهالة فيما لا يعذر بجهله أن يخشى عليه من هذه الآية ، كما يخشى على من يعمل على علم ، ولكن في بدعة وضلالة .

ومما لا يشهد للأول حديث المسيء صلاته . ولأثر حذيفة " رأى رجلاً يصلي فطفق فقال له : منذ كم تصلي هذه الصلاة ؟ قال منذ أربعين سنة . قال له : ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت على ذلك ، مت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم " .

والأحاديث الواردة في ذلك على سبيل العمومات مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملاً ليس عليه أمري فهو رد " أي مردود .

وحديث الحوض " فيذاد أقوام عن حوضي ، فأقول : أمتي ، أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك إنهم غيَّروا وبدَّلوا " .

(247/813)

ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل وموافقته لما جاء به النَّبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القسم الثاني كما في قوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾

[الكهف : 103-104] الآية .

أما الراجح من القولين في زمن ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ أهو في الدنيا أم في الآخرة ؟ فإنه القول

بيوم القيامة ، وهو مروي عن ابن عباس وجماعة ، والأدلة على ذلك من نفس السياق .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد جداً في هذا الترجيح ، ولم أقف على قول لغيره أقوى منه ، نسوق مجمله للفائدة :

قال في المجموع في تفسير هذه السورة بعد حكاية القولين : الحق هو الثاني لوجوه ، وساق سبعة وجوه :

الأول : أنه على القول الثاني يتعلق الظرف بما يليه ، أي وجوه يوم الغاشية ، خاشعة عاملة ناصبة صالية .

أما على القول الأول فلا يتعلق إلاَّ بقوله : تصلى . ويكون قوله : خاشعة صفة للوجوه ، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى . والتقدير : وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذٍ تصلى ناراً حامية ، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، والتقديم والتأخير ، إنما يكون مع قرينة .

(248/813)

والثاني : أن الله ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة بعد ذلك ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية : 8-10] ، أي في ذلك اليوم ، وهو

يوم الآخرة : فالواجب تناظر القسمين أي في الظرف . الثالث : أن نظير هذين القسمين ما ذكر في موضع آخر في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22-25] ، وفي موضع آخر في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس : 38-42] ، وهذا كله وصف للوجوه في الآخرة .

الرابع : أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب في القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ [الفتح : 29] ، وقوله ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [محمد : 30] ، وهذا الوجه لم تتضح دلالته على المقصود .

الخامس : أن قوله : خاشعة عاملة ناصبة ، لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم ، فإن هذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقيل : خاشعة للأوثان مثلاً ، عاملة لغير الله ، ناصبة في طاعة الشيطان ، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن ، وهذا الوجه من أقواها في المعنى وأوضحها دلالة .

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام المغرورون بغيرهم ، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا اللذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

السادس : وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم في الدنيا لكان خاصاً ببعض الكفار دون بعض ، وكان مختصاً بالعباد منهم ، مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملاً ويستوجبون أشد عقوبة .

السابع : أن هذا الخطاب لو جعل لهم في الدنيا لكان مثله ينفر من أصل العبادة والتنسك ابتداء ، أي وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع والمتنسكين دون التعرض لهم بقتل ولا قتال ، كما أنها أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم ، مما يشعر باحترامه أصل التعبد لعموم الجنس ، كما أشار رحمة الله تعالى عليه .

وقد أوردنا مجمل كلامه رحمه الله ، لئلا تتخذ الآية على غير ما هو الراجح فيها ، أو يحمل السياق على غير ما سيق له ، وقد ختم كلامه بتوجيه لطيف بقوله : ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة ، وليس في الخطاب تقييد ، كان هذا سعياً في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه 1ه .

ومن الذي يعطي نفسه حق إصلاح الخطاب في كلام رب العالمين ، إنها لفتة إلى ضرورة ومدى أهمية تفسير القرآن بالقرآن ، الذي نهجه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن .

(250/813)

وقد بدا لي وجه آخر ، وهذا لو جعل هذا العمل الكفار والمبتدعة ، لكان منطوقه أن العذاب وقع عليهم مجازاة على عملهم ونصبهم في عبادتهم تلك ، والحال أن عذاب الكفار عموماً إنما هو على ترك العمل لله وحده ، وعقاب المبتدعة فيما ابتدعوه من ضلال ، فإذا كان ما ابتدعوه لا علاقة له بأركان الإسلام ولا بالعقيدة ، وإنما هو في فروع من العبادات ابتدعوها لم تكن في السنة ، فإنهم وإن عملوا ونصبوا فلا أجر لهم فيها ، ولا يقال : إنهم يعذبون عليها بطل ذلك المذكور مع سلامة العقيدة في التوحيد ، والقيام بالواجب في أركان الإسلام ، إذ العذاب المذكور ليس مقابلاً بالعمل والنصب المذكور ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ تسقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ .

قيل : حاضرة ، ويل : شديدة الحر ، وهذا الأخير هو ما يشهد له القرآن في قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن : 44] ، ومعلوم أن الحميم شديد الحرارة ، كما

أن حملها على معنى حاضرة لم يكن فيه بيان معنى ما في تلك العين من أنواع الشراب المعد والمحضر لهم ، وفي المعجم حميم آن : قد انتهى حره ، والفعل : أنى الماء المسخن يأني بكسر النون . قال عباس :

علانية والخيل يغشى متونها . . . حميم وآن من دم الجوف ناقع

قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴾ ؟

تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الجمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 35-36] ، وبين الصحيح من معنى الضريع ما هو ، وأنه نبت معروف للعرب ، وهو على الحقيقة لا المجاز .

وقد أورد الفخر الرازي سؤالاً والجواب عليه ، وهو كيف ينبت الضريع في النار ؟ فأجاب بالإحالة على تصور كيف يبقى جسم الكفار حياً في النار ، وكذلك الحيات والعقارب في النار .

(251/813)

وهذا وإن كان وجيهاً من حيث منطق القدرة ، ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوم ، وأنها فتنة للظالمين في قوله : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ [الصافات : 62-66] ، فأثبت شجرة تخرج في أصل الجحيم ، وأثبت لها لازمها وهو طلعها في تلك الصورة البشعة ، وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون .

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثار المبطلون ، ولكن غاية ما في الأمر سلب خاصية الإحراق في النار عن النبات ، وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية .

وقد وجد نظيره في الدنيا فتلك نار النمروذ ، كانت تحرق الطير في الجو إذا اقترب منها ، وعجزوا عن الدنو إليها ليلقوا فيها إبراهيم ووضعوه في المنجنيق ورموه من بعيد ، ومع ذلك حفظه الله منها بقوله تعالى لها : ﴿ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَا على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : 69] ، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8)

وهذا هو قسيم القسم الأول في بيان حال أهل الجنة ، ولم يعطف بالواو إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما . ويومئذٍ هو يوم الغاشية المتقدم ، وهذا يقتضي أن الغاشية عامة في الفريقين .

وإن اختلف أحوالها مع مختلف الناس ، وعليه فمنهم من تغشاه بهولها ، ومنهم من تغشاه بنعيمها . وهي بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاهم به ، وهي صادقة على الفريقين .

(252/813)

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر ، بمعنى الشمول والإحاطة التامة . ومن إطلاقها على الخير ما جاء في الحديث : " ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى فيه إلاَّ حفَّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده " أخرجه مسلم .

وبيان ذلك وتحقيقه في حق كلا القسمين كالآتي :

أما الأول منهما : وهو الغاشية في حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حساً ومعنى ظاهراً وباطناً أو لا خشوع في ذلة ، وهي ناحية نفسية ، وهي أثقل أحياناً من الناحية المادية ، فقد يختار بعض الناس الموت عنها ، ثم مع الذلة العمل والنصب حساً وبدناً ، ومع النصب الشديد تصلى ناراً حامية ، وكان يكفي تصلى ناراً . ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة في إبراز عذابهم وزيادة في غشيان العذاب لهم ، ثم يسقون من عين آنية متناهية في الحرارة فيكونون بين نار حامية من الخارج وحميم من الداخل تصهر منه البطون ، فهو أتم في

الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه ، وفي حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالآتي ، وجوه ناعمة مكتملة النعمة ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم .

(253/813)

وهذا في شموله من الناحية المعنوية كمقابله في القسم الأول بدلاً من خاشعة في ذلة ناعمة في نضرة لسعيها راضية الذي سعته في الدنيا ، والذي تسعى لتحصيله أو ثوابه في جنة عالية بدلاً من عمل ونصب ، لا تسمع فيها لاغية ، منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها ، فهو إكرام لهم حتى في الكلمة التي يسمونها ، كما في قوله : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ [الواقعة : 25-26] . ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ . ومعلوم أنها عيون وأنهار تجري ، كقوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر : 45 والدخان : 52] ، ومن لوازم العيون والأنهار ، هو كمال النعيم ، فأشجار ورياحين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الحميم للقسم الأول ، فيها سرر مرفوعة وهم عليها متكئون بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء . وأكواب موضوعة لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية . حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره .

فيكون بذلك قد غشيهم النعمة ، كما غشيت أولئك النقمة وتكون الغاشية بمعنى الشاملة ، وعلى عمومها للفريقين ، وهي صالحة لغة وشرعاً للمعذبين بالعذاب ، وللمنعمين بالنعيم . وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

مجيء ﴿ فِيهَا ﴾ مرتين : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ . للدلالة على قسمي نعيم الجنة . الأول : عيون ونزهة . والثاني : سرر وسكن .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)

(254/813)

توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة ، لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث وثم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية ، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه .

أما الإبل فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم في مطعمهم من لحمها ومشربهم من ألبانها ، وملبسهم من أوبارها وجلودها ، وفي حلهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد في

غيرها في العالم كله لا في الخيل ولا في الفيلة ، ولا في أي حيوان آخر ، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها في معرض امتنانه تعالى عليهم في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : 71-73] .

وكذلك في خصوصها في قوله : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 5-7] .

(255/813)

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد في سواها ألبتة ، وكل منها دليل على القدرة بذاته .

أما الجبال فهي مما يملأ عيونهم في كل وقت ويشغل تفكيرهم في كل حين ، لقربها من حياتهم في الأمطار والمرعى في سهولها ، والمقيل في كهوفها وظلها ، والرهبة والعظمة في تطاولها وثباتها في مكانها . وقد وجه الأنظار إليها أيضاً في موطن آخر في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ 6-7] ، ثوابت ، كما بين تعالى أنها ، رواسي للأرض أن تميد بكم ﴿ والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 32-

33] . فهي مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا .

أما السماء ورفعها أي رفعتها في خلقها وبدون عمد ترونها وبدون فطور أو تشقق على تطاول زمنها ، فهي أيضاً محط أنظارهم ، وملتقى طلباتهم في سقيا أنعامهم .

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث ، كما تقدم مراراً .

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 164 وآل عمران : 190] الآية . بيان كونها آية . أما الأرض وكيف سطحت ، فإن الآية فيها مع عمومها كما في قوله : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] .

وقوله : ﴿ وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ آية ثابتة ، لأن جرمها مع إجماع المفسرين علة تكويرها ، فإنها ترى مسطحة أي من النقطة التي هي امتداد البصر ، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها ، لأن الجرم المتكور إذا بلغ من الكبر والضخامة حداً بعيداً يكاد سطحه يرى مسطحاً من نقطة النظر إليه ، وفي كل ذلك آيات متعددات للدلالة على قدرته تعالى على بعث الخلائق ، وعلى إيقاع ما يغشاهم على مختلف أحوالهم .

وتقد للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على هذا المعنى ، عند الكلام على قوله تعالى :

﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض ﴾ [يونس : 101] الآية . من سورة يونس .

تنبيه

التوجيه هنا بالنظر إلى الكيفية في خلق الإبل ونصب الجبال ، ورفع السماء ، وتسطيح الأرض ، مع أن الكيفية للحالة ، والله تعالى لم يشهد أحداً على شيء من ذلك كله ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض ﴾ [الكهف : 51] . فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى الكيفية وهي شيء لم يشهدوه .

والجواب والله تعالى أعلم : هو أنه بالتأمل في نتائج خلق الإبل ، ونصب الجبال إلخ . وإن لم يعلموا الكيف ، بل ويعجزون عن كنهه وتحقيقه ، فهو أبلغ في إقامة الدليل عليهم ، كمن يقف أمام صنعة بديعة يجهل سر صنعتها ، فيتساءل كيف تم صنعها ؟ وقد وقع مثل ذلك وهو الإحالة على الأثر بدلاً من كشف الكنه والكيف ، وذلك في سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيي الموتى . فكان الجواب : أن أراه الطيور تطير ، بعد أن ذبحها بيده وقطعها ، وجعل على كل جبل منها جزءاً . فلم يشاهد كيفية وكنه ، وحقيقة الإحياء ، وهو دبيب الروح فيها وعودة الحياة . لأن ذلك ليس في استطاعته ، ولكن شاهد الثر المترتبة على ذلك ، وهي تحركها وطيرانها وعودتها إلى ما كانت عليه قبل ذبحها . مع أنه كان للعزيز موقف مماثل وإن كان أوضح في البيان حيث شاهد العظام

وهو سبحانه ينشزها ، ثم يكسوها لحماً . والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى بعد ذلك ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فإن مجيء هذا الأمر بالفاء في هذا الموطن ، فإنه يشعر بأن النظر الدقيق والفكر الدارس ، مما قد يؤدي بصاحبه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى قدرته ، كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة في خطبته المشهورة : ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة . فقد ذكر السماء والجبال والأرض .

وكقول زيد بن عمرو بن نفيل : مؤمن الجاهلية المعروف

(257/813)

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له الأرض تحمل صخراً ثقالاً

دحاها فلما استوت شدها . . . سواء وأرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له المزن تحمل عذباً زلالا

إذا هي سيقت إلى بلدة . . . أطاعت فصبت عليها سجالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . . له الريح تصرف حالاً فحالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل ، فيما يحيط بهم عامة . وفي تلك الآيات

الكبار خاصة ، فيجدون فيها ما يكفيهم .

كما قيل :

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدهم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم . فذكرهم إنما أنت مذكر . وهذا عام ، أي سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات أو بالتلاوة من آيات الوحي . والعلم عند الله تعالى .

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع .

قال عبيد :

وكل ذي غيبة يؤوب . . . وغائب الموت لا يؤوب

كما في قوله : ﴿ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : 48] ، وهو على الحقيقة كما في صريح منطوق قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران : 55] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام : 164] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ الإتيان بثم للإشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم ، ﴿

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: 47].

(258/813)

وقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا ﴾، بتقدم حرف التأكيد، وإسناد ذلك لله تعالى، وبحرف على مما يؤكد ذلك لا محالة، وأنه بأدق ما يكون، وعلى الصغيرة والكبيرة كما في قوله: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ ﴾ [البقرة: 284].

ومن الواضح مجيء ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ العذاب الأكبر ﴾ [الغاشية: 21-24] تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا، ثم إن الحساب في اليوم الآخر ليس خاصاً بهؤلاء، بل هو عام بجميع الخلائق.

ولكن إسناده لله تعالى مما يدل على المعاني المتقدمة.

نسال الله العفو والسلامة. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(259/813)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

وَهِيَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ :

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْمُسَيْطِرُ هُوَ الْمُسَلَّطُ الَّذِي يَقْهَرُ وَيَغْلِبُ عَلَى مَا يَقُولُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مُعَرِّفًا بِرِسَالَتِهِ ، مُذَكِّرًا بِنُبُوَّتِهِ ، يَدْعُو الْخَلْقَ إلَى اللَّهِ ، وَيُذَكِّرُهُمْ عَهْدَهُ ، وَيُبَشِّرُهُمْ وَعْدَهُ ، وَيُحَذِّرُهُمْ وَعِيدَهُ ، وَيُعَرِّفُهُمْ دِينَهُ ، حَتَّى وَضَحَتْ الْمَحَجَّةُ ، وَقَامَتْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ الْحُجَّةُ ؛ فَلَمَّا اسْتَمَرَّ الْخَلْقُ عَلَى فَسَادِ رَأْيِهِمْ ، وَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ وَغُلُوائِهِمْ ، أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ ، وَسَوْقِ الْخَلْقِ إلَى الْإِيمَانِ قَسْرًا ، وَنَسَخَ هَذِهِ الْآيَةَ وَأَمْثَالَهَا حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا .

وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ ﴾ :

بِمُسَلَّطٍ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، مُفَسِّرًا مَعْنَى الْآيَةِ ، وَكَاشِفًا خَفِيَّ الْخَفَاءِ عَنْهَا .

(260/813)

الْمَعْنَى إذَا قَالَ النَّاسُ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَلَسْت بِمُسَلَّطٍ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، وَإِنَّمَا عَلَيْك بِالظَّاهِرِ ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يُطَالَبُ لَا بِالظَّاهِرِ وَلَا بِالْبَاطِنِ ، فَلَمَّا اسْتَوْلَى اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَتَكْلِيفِهِ الْقِتَالَ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلَيْهِ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ [صَحِيحُ السَّنَدِ] ، صَحِيحُ الْمَعْنَى .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(261/813)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الغاشية

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1)

قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ : هو استفهامٌ على بابِه ، ويُسَمِّيه أهلُ البيانِ " التشويق " . وقيل :

/ بمعنى قد ، وقد تقدَّم شَرْحُ هذا في ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان ﴾ [الإنسان : 1] .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4)

قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ : قد تقدَّم نظيرُه في القيامة وفي النازعات . والتنوينُ في " يومئذٍ " عوضٌ مِنْ جملةٍ مدلولٍ عليها باسمِ الفاعلِ من الغاشية تقديره : يومَ إذ غَشِيَتْ الناسَ ؛ إذ لا تتقدَّمُ جملةٌ مُصَرَّحٌ بها . و " خاشعة " وما بعدَه صفةٌ ، و " تَصْلى " هو الخبرُ . وقرأ أبو عمروٍ وأبو بكر بضمِّ التاء مِنْ " تَصْلَى " على ما لم يُسَمَّ فاعلُه . والباقون بالفتح على تسميةِ الفاعل . والضمير على كلتا القراءتين للوجوه . وقرأ أبو رجاءٍ بضمِّ التاءِ وفتح الصادِ وتشديدِ اللام . وقد تقدَّم معنى ذلك كله في الانشاق والنساءَ .

وقرأ ابنُ كثيرٍ في روايةٍ وابنُ محيصن " عاملةً ناصبةً " بالنصب : إمَّا على الحالِ ، وإمَّا على الذمِّ .

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5)

قوله : ﴿ آنِيَةٍ ﴾ : صفةٌ لـ " عَيْنٍ " أي : حارَّة ، أي : التي حَرُّها مُتناهٍ في الحرِّ كقوله : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن : 44] . وأما لها هشامٌ ؛ لأنَّ الألفَ غيرُ منقلبةٍ عن غيرِها ، بل هي أصلٌ بنفسِها ، وهذا بخلافِ " آنِيَة " في سورة الإنسان ، فإنَّ الألفَ هناك بدلٌ مِنْ همزة ، إذ هو جمعُ إناء ، فوزنُها هنا فاعِلة ، وهناك أَفْعِلَة ، فاتَّحد اللفظُ واختلفَ

التصريفُ ، وهذا مِنْ محاسنِ علمِ التصريف .

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6)

(262/813)

قوله : ﴿ ضَرِيعٍ ﴾ : هو شجرٌ في النار . وقيل : حجارةٌ . وقيل : هو الزَّقُّوم . وقال أبو حنيفة : " هو الشِّبْرِقُ ، وهو مَرْعى سَوْءٍ ، لا تَعْقِدُ عليه السائمةُ شَحْماً ولا لَحْماً . قال الهذليُّ :

4553 وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّرِيعِ فكلُّها . . . حَدْباءُ دامِيَةُ الضُّلوعِ حَرُوْدُ

وقال أبو ذؤيب :

4554 رَعَى الشِّبْرِقَ الرَّيَّانَ حتى إذا ذَوَى . . . وعادَ ضَرِيعاً نازَعَتْه التَّحائِصُ

وقيل : هو يَبِيس العَرْفَجِ إذا تَحَطَّم . وقال الخليل : " نبتٌ أخضرُ مُنْتِنُ الريحِ يَرْمي به البحرُ . وقيل : نبتٌ يُشبه العَوْسَج . والضَّراعةُ : الذِّلَّةُ والاستكانةُ مِنْ ذلك .

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

(263/813)

قوله : ﴿ لاَّ يُسْمِنُ ﴾ : قال الزمخشري : " مرفوعُ المحلِّ أو مجرورهُ على وصفِ طعامٍ أو ضَريع " . قال الشيخ : " إمَّا وَصْفُه ل ضريعٍ ، فيصِحُّ ؛ لأنه مثبتٌ نفى عنه السِّمَنَ والإغناءَ من الجوع . وأمَّا رفعُه على وصفِه لطعام فلا يَصِحُّ ؛ لأنَّ الطعامَ منفيٌّ و "يُسْمِنُ" منفيٌّ فلا يَصِحُّ تركيبُه ؛ لأنه يَصيرُ التقدير : ليس لهم طعامٌ لا يُسْمِنُ ولا يُغني مِنْ جمعٍ إلاَّ مِنْ ضريع ، فيصير المعنى : أنَّ لهم طعاماً يُسْمِنُ ويُغْني من جوعٍ إلاَّ مِنْ غيرِ الضَّريع ، كما تقول : " ليس لزيدٍ مالٌ لا يُنتفع به إلاَّ مِنْ مال عمروٍ " فمعناه : أنَّ له مالاً يُنتفع به مِنْ غيرِ مال عمروٍ " . قلت : وهذا لا يَرِدُ لأنه على تقدير تَسْليم القول بالمفهوم مَنَعَ منه مانعٌ وهو السياقُ ، وليس كلُّ مفهوم معمولاً به . وأمَّا المثالُ الذي نظَّر به فصحيحٌ ، لكنه لا يمنع منه مانعٌ كالسِّياق في الآيةِ الكريمة . ثم قال الشيخ : " ولو قيل : الجملةُ في موضعِ رفع صفةً للمحذوفِ المقدَّرِ في " إلاَّ مِنْ ضريعٍ " كان صحيحاً ؛ لأنه في موضعِ رفعٍ ، على أنَّه بدلٌ من اسم ليس ، أي : ليس لهم طعامٌ إلاَّ كائنٌ مِن ضَريعٍ ، أو إلاَّ طعامٌ مِنْ ضريعٍ غيرِ مُسَمِّنٍ ولا مُغْنٍ مِنْ جوعٍ ، وهذا تركيبٌ صحيحٌ ومعنى واضحٌ " .

(264/813)

وقال الزمخشري أيضاً : " أو أُريد أَنْ لا طعامَ لهم أصلاً ؛ لأنَّ الضَّريعَ ليس بطعامٍ للبهائمِ فضلاً عن الإنس ؛ لأنَّ الطعامَ ما أَشْبَع أو أَسْمَنَ ، وهو عنهما بمَعْزِلٍ كما تقول : " ليس لفلانٍ ظلٌّ إلاَّ الشمسُ " تريد نَفْيَ الظلِّ على التوكيد " . قال الشيخ : " فعلى هذا يكونُ استثناءً منقطعاً ، إذ لم يندرِجْ الكائنُ مِن الضَّريع تحت لفظِ " طعام " إذ ليس بطعامٍ ، والظاهرُ الاتصالُ فيه وفي قولِه ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 36] قلت : وعلى قولِ الزمخشري المتقدمِ لا يَلْزَمُ أَنْ يكونَ منقطعاً ؛ إذ المرادُ نفيُ الشيءِ بدليلِه ، أي : إن كان لهم طعامٌ فليس إلاَّ هذا الذي لا يَعُدُّه أحدٌ طعاماً ومثلُه " ليس له ظلٌّ إلاَّ الشمسُ " وقد مضى تحقيقُ هذا عند قولِه : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56]

وقوله :

4555 ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ . . . . . .

. . . . . .

ومثله كثيرٌ .

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11)

قوله : ﴿ لاَّ تَسْمَعُ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء / من تحتُ مضمومةً على ما لم يُسَمَّ فاعلُه ، " لاغِيةٌ " رفعاً لقيامِه مقامَ الفاعلِ . وقرأ نافع كذلك ، إلاَّ أنَّه بالتاء مِنْ فوقُ ، والتذكيرُ والتأنيثُ واضحان ؛ لأنَّ التأنيثَ مجازيٌّ . وقرأ الباقون بفتح التاءِ مِنْ فوقُ

ونصبِ "لاغيةً" ، فيجوزُ أَنْ تكونَ التاءُ للخطابِ ، أي : لا تَسْمع أنت ، وأنْ تكونَ للتأنيثِ ، أي : لا تسمعُ الوجوهُ . وقرأ المفضل والجحدريُّ "لا يَسْمَعُ" بياء الغَيْبة مفتوحةً ، "لاغيةً" نصباً ، أي : لا يَسْمَعُ فيها أحدٌ .

(265/813)

ولاغِيَة يجوزُ أَنْ تكونَ صفةً لكلمةٍ على معنى النسبِ ، أي : ذات لغوٍ أو على إسنادِ اللَّغْوِ إليها مجازاً ، وأَنْ تكونَ صفةً لجماعة ، أي : جماعة لاغية ، وأَنْ تكونَ مصدراً كالعافِية والعاقِبة كقولِه : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ [الواقعة : 25] .

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15)

قوله : ﴿ وَنَمَارِقُ ﴾ : جمع نُمْرُقة ، وهي الوِسادةُ . قالت :

4556 نحن بَناتِ طارِقْ . . . نَمْشي على النَّمَارِقْ

وقال زهير :

4557 كُهولاً وشُبَّاناً حِسانٌ وجوهُهُمْ . . . لهم سُرُرٌ مَصْفوفةٌ ونَمارِقْ

والنُّمْرُقَة بضمِّ النونِ والراءِ وكسرِهما ، لغتان أشهرُهما الأولى .

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

قوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ : جمع زَرِيْبة بفتح الزاي وكسرِها لغتان مشهورتان وهي البُسُطُ العِراضُ . وقيل : ما له منها خَمْلَة . ومَبْثوثة : مفرَّقة .

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)

قوله : ﴿ الإبل ﴾ : اسمُ جمعٍ واحدُه : بعير وناقة وجمل . وهو مؤنثٌ ، ولذلك تَدْخُلُ عليه تاءُ التأنيثِ حالَ تصغيرِه ، فيقال : أُبَيْلَة ويُجْمع آبال ، واشتقوا مِنْ لفظِه . فقالوا : " تأبَّلَ زيدٌ " ، أي : كَثُرَتْ إبلُه ، وتَعَجَّبوا مِنْ هذا فقالوا : " ما آبَلَه " ، أي : ما أكثرَ إبلَه . وتقدَّم في الأنعام .

قوله : ﴿ كَيْفَ ﴾ منصوبٌ ب " خُلِقَتْ " على حَدِّ نَصْبِها في قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : 28] والجملةُ بدلٌ من " الإبل " بدلُ اشتمالٍ ، فتكونُ في محلِّ جرّ ، وهي في الحقيقة مُعَلِّقةٌ للنظر ، وقد دخلَتْ " إلى " على " كيف " في قولهم " انظُرْ إلى كيف يصنعُ " ، وقد تُبْدَلُ الجملةُ المشتملةُ على استفهامٍ من اسمٍ ليس فيه استفهامٌ كقولِهم : عَرَفْتُ زيداً أبو مَنْ هو ؟ على خلافٍ في هذا مقررٍ في علمِ النحو .

(266/813)

وقرأ العامَّةُ : خُلِقَتْ ورفِعَتْ ونُصِبَتْ وسُطِحَتْ مبنياً للمفعولِ ، والتاءُ ساكنةٌ للتأنيث .

وقرأ أمير المؤمنين وابن أبي عبلة وأبو حيوة " خَلَقْتُ " وما بعدَه بتاءِ المتكلم مبنياً للفاعل .

والعامَّةُ على " سُطِحَتْ " مخففاً ، والحسن بتشديدها .

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22)

قوله : ﴿ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ : العامَّةُ على الصاد ، وقنبل في بعضِ طُرُقه ، وهشام بالسين وخلف بإشمامِ الصادِ زاياً بلا خلافٍ ، وعن خلاَّد وجهان . وقرأ هارونُ " بِمُسَيْطَرٍ " بفتح الطاء اسمَ مفعولٍ ؛ لأنَّ " سَيْطَرَ " عندهم متعدّ ، يَدُلُّ على ذلك فعلُ مطاوعِه وهو تَسَيْطر ، ولم يَجِيءْ اسمُ فاعلٍ على مُفَيْعِل إلاَّ : مُسَيْطِر ومُبَيْقِر ومُهَيْمِن ومُبَيْطِر مِنْ سَيْطَرَ وبَيْقَرَ وهَيْمَنَ وبَيْطَرَ . وقد جاء مُجَيْمِر اسمَ واد ، ومُدَيْبِر . قيل : ويمكنُ أَنْ يكونَ أصلُهما " مُجْمِر " و " مُدْبِر " فصُغِّرا . قلت : وقد تقدَّم لك أنَّ بعضَهم جَوَّز " مُهَيْمِناً " مُصَغَّراً ، وتَقَدَّم أنه خطأٌ عظيمٌ ، وذلك في سورة المائدةِ وغيرها .

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23)

قوله : ﴿ إِلاَّ مَن تولى ﴾ : العامَّةُ على " إلاَّ " حرفَ استثناء ، وفيه قولان ، أحدهما : أنه منقطعٌ لأنه مستثنى مِنْ ضمير " عليهم " . والثاني : أنه متصلٌ لأنه مستثنى مِنْ مفعول " فَذَكِّرْ " ، أي : فَذَكِّرْ عبادي إلاَّ مَنْ تولَّى . وقيل : " مَنْ " في محلِّ خفض بدلاً من ضمير " عليهم " ، قاله مكي . ولا يتأَّتى هذا عند الحجازيين ، إلاَّ أَنْ يَكونَ متصلاً ، فإنْ كان منقطعاً جاز عند تميمٍ ؛ لأنهم يُجْرُوْنه مُجْرى المتصل ، والمتصل يُختار فيه الإتباعُ لأنه غيرُ موجَب . هذا كلُّه إذا لم يُجْعَل " مَنْ تولَّى " شرطاً وما بعده جزاؤُه ، فإنْ جَعَلْتَه كذلك كان منقطعاً ، وقد تقدَّم تحقيقُه ، وعلى القولِ بكونِه مستثنى مِنْ مفعول " فَذَكِّرْ " المقدرِ تكون جملةُ النفي اعتراضاً .

وقرأ زيد بن علي وزيد بن أسلم وقتادة " ألا " حرفَ استفتاحٍ ، وبعده جملةٌ شرطية أو موصولٌ مضمَّنٌ معناه .

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25)

(268/813)

قول : ﴿ إِيَابَهُمْ ﴾ : العامَّةُ على تخفيفِ الياءِ ، مصدرِ آبَ يَؤُوبُ إياباً [والأصلُ : أوَب يَأْوُبُ إواباً] ، أي : رَجَعَ كقام يقوم قياماً . وقرأ شيبة وأبو جعفر بتشديدها . وقد

اضطربَتْ فيها أقوالُ التصريفيين ، فقيل : هو مصدرٌ ل أَيَّبَ على وزن فَيْعَل كبَيْطَرَ ، يُقالُ منه : أَيَّبَ يُؤَيِّبُ إِيَّاباً ، والأصلُ / أَيْوَبَ يِؤَيْوِبُ إِيْواباً كبَيْطَرَ يُبَيْطِرُ ، فاجتَمَعَتْ الياءُ والواوُ في جميع ذلك ، وسَبَقَتْ إحداهما بالسكونِ ، فقُلِبَتْ الواوُ ياءً ، وأُدغِمت الياءُ المزيدةُ فيها ، فإيَّاب على هذا فِيْعال . وقيل : بل هو مصدرٌ ل أَوَّبَ بزنةِ فَوْعَل كحَوْقَل ، والأصل : إِوْوَاب بواوَيْن ، الأولى زائدةٌ ، والثانيةُ عينُ الكلمةِ ، فسَكَنَتِ الأولى بعد كسرةٍ ، فقُلِبت ياءً ، فصار إِيْواباً ، فاجتمعَتْ ياءٌ وواوٌ ، وسَبَقَتْ إحداهما بالسكون ، فقُلِبَتْ الواوُ ياءً ، وأُدْغِمَتْ في الياءِ بعدها ، فوزنُه فِيعال كحِيْقال ، والأصلُ : حِوْقال . وقيل : بل هو مصدرٌ ل أَوَّبَ على وزن فَعْوَل كجَهْور ، والأصلُ : إِوْوَاب على وزن فِعْوال ، ك " جِهْوار " الأولى عينُ الكلمةِ ، والثانيةُ زائدةٌ ، وفُعِل به ما فُعِل بما قبلَه مِنْ القلبِ والإدغام للعللِ المتقدمةِ ، وهي مفهومةٌ مِمَّا مَرَّ ، فإن قيل : الإدغامُ مانعٌ مِنْ قَلْبِ الواوِ ياءً . قيل إنما يمنعُ إذا كانت الواوُ والياءُ عيناً وقد عَرَفْتَ أَنَّ الياءَ في فَيْعَل والواوَ في فَوْعَل وفَعْوَل زائدتان . وقيل : بل هو مصدرٌ ل أَوَّب بزنةِ فَعَّل نحو : كِذَّاباً والأصلُ إِوَّاب ، ثم قُلِبَتِ الواوُ الأولى ياءً لانكسارِ ما قبلَها فقيلَ : إِيْواباً . قال الزمخشري : "كدِيْوان في دِوَّان ، ثم فُعِلَ به ما فُعِلَ بسَيِّد " يعني أَنَّ أصلَه سَيْوِد ، فقُلِبت وأُدْغِمت ، وإلى هذا نحا أو بالفضل أيضاً .

إلاَّ أن الشيخ قد رَدَّ ما قالاه : بأنهم نَصُّوا : على أنَّ الواوَ الموضوعةَ على الإدغامِ لا تَقْلِبُ الأولى ياءً ، وإن انكسرَ ما قبلها قال : " وَمَثَّلوا بنفس " إوَّاب " مصدرَ أوَّب مشدداً ، وباخْرِوَّاط مصدرَ اخْرَوَّط . قال : " وأمَّا تشبيهُ الزمخشريِّ بديوان فليس بجيدٍ ؛ لأنَّهم لم يَنْطِقوا بها في الوَضْعِ مُدْغمةً ، ولم يقولوا : دِوَّان ، ولولا الجَمْعُ على " دَواوين " لم يُعْلَمْ أنَّ أصلَ هذه الياءِ واوٌ ، وقد نَصُّوا على شذوذِ " دِيْوان " فلا يُقاسُ عليه غيرُه " .

قلت : أمَّا كونُهم لم يَنْطِقوا بدِوَّان فلا يَلْزَمُ منه رَدُّ ما قاله الزمخشريُّ ، ونَصَّ النحاةُ على أنَّ أصلَ " دِيْوان " دِوَّان ، و " قيراط " : قِرَّاط ، بدليلِ الجَمْعِ على دَواوين وقَراريط ، وكونُه شاذاً لا يَقْدَحُ ؛ لأنه لم يَذْكُرْه مَقيساً عليه بل مَنَظِّراً به .

وقد ذهب مكي إلى نحوٍ مِنْ هذا فقال : " وأصل الياءِ واوٌ ، ولكنْ انقلبَتْ ياءً لانكسارِ ما قبلها ، وكان يَلْزَمُ مَنْ شَدَّدَ أَنْ يقولَ : إوَّابهم لأنَّه مِنْ الواو ، أو يقول : إيوابهم ، فيُبْدِلُ مِنْ أول المشدد ياءً كما قالوا : " دِيْوان " والأصلُ : دِوَّان " انتهى .

وقيل : هو مصدرٌ لأَأْوَبَ بزنة أَكْرَمَ مِنْ الأَوْب ، والأصلُ : إأْواب كإكْرام ، فأُبْدِلَتِ الهمزةُ الثانية ل إأْواب ياءً لسكونِها بعد همزةٍ مكسورةٍ فصار اللفظُ إيواباً فاجتمعت الياءُ والواوُ على ما تقدَّم ، فقُلِبَ وأُدْغِمَ ، ووزنُه إفْعال ، وهذا واضحٌ .

(270/813)

وقال ابن عطية في هذا الوجه : " سُهِّلَتِ الهمزةُ وكان الواجبُ في الإدغامِ بردّها إوّاباً ، لكن اسْتُحْسِنَتْ فيه الياءُ على غير قياس " انتهى . وهذا ليس بجيدٍ لما عَرَفْتَ أنَّه لمَّا قُلِبَتِ الهمزةُ ياءً فالقياسُ أن يُفْعَلَ ما تقدَّمَ مِنْ قَلْبِ الواوِ إلى الياءِ مِنْ دونِ عكسٍ ، وإنما ذَكَرْتُ هذه الأوجهَ مشروحةً لصعوبتها مع عَدَمِ مَنْ يُمْعِنُ النظرَ مِنْ المُعْرِبين في مثل هذه المواضعِ القَلِقَةِ القليلةِ الاستعمال . وقَدَّمَ الخبرَ في قولِه " إلينا " و " علينا " مبالغةً في التشديد والوعيدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 765.775 ﴾

(271/813)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الغاشية

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من سمعها وف يقلبه عرفانه تلألأت أنوار قلبه ، وتفرقت أنواع كربه ، وتضاعفت في جماله طوارق حبه ، وتحيرت يفي جلاله شوارق لبه .

كلمة من عرفها وفي قلبه إيمانه أحبها من داخل الفؤاد ، وهجر في طلبها الرقاد ، وترك لأجلها كل هم ومراد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾ .

" الغاشية " المُجَلَّلَةُ ، يريد بها القيامة تَغْشَى الخَلْقَ ، تَغْشَى وجوهَ الكفَّار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾ .

وجوهٌ – إذا جاءت القيامة – خاشعة أي ذليلة . عاملة ناصبة : النَّصَب التعب .

جاء في التفسير : أنهم يُجَرُّون على وجوههم .

﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾ تلزم ناراً شديدة الحرِّ .

ويقال : " عاملة " في الدنيا بالمعاصي ، " ناصبة " في الآخرة بالعذاب .

ويقال : " ناصبة " في الدنيا " عاملة " لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان ، وفي معناه عملُ أهل النفاق .

﴿ تُسْقَى مِنْ عِيْنٍ ءَانِيَةً ﴾ .

تناهى حَرُّها .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ .

نَبْتٌ ينمو بالحجاز له شَوْكٌ ، وهو سمٌّ لا تأكله الدواب ، فإذا أكلوا ذلك في النار يُغَصُّون ، فَيُسْقَوْنَ الزقُّوم .

وإن اتصافَ الأبدانِ – اليومَ – بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواح وجدانَ المكاشفات (وفقدِ) الأسرارِ أنوارَ المشاهدات ، (وفقدِ) القلبِ الإخلاصَ والصدق في الاعتقادات لا يجدي خيراً ، ولا ينفع شيئاً – وإنما هي كما قال : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ .

أي : مُتَنَعِّمة ، ذات نعمةٍ ونضارةٍ .

﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ .

حين وَجَدَتْ الثوابَ على سعيها ، والقبول لها .

﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ .

(272/813)

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبدانهم في درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله في عزيز مناجاتهم .

﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلمةُ لغوٍ .

قومٌ يسمعون بالله ، وقومٌ يسمعون لله ، وقومٌ يسمعون من الله ، وفي الخبر : "كنت له سمعاً وبصراً فبي يَسْمَعُ وبي يُبْصِرُ"

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .

ويقال : تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له – اليومَ – عيونٌ جارية بالبكاء ، وغداً لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

النمارق المصفوفة في التفسير : الطنافس المبسوطة .

الزرابي المبثوثة في التفسير : البُسُط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فُهومهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .

لَمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُورِ المرفوعة المشيَّدة قالوا : كيف يصعدها المؤمن ؟ فقال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها تنزل ؟ فكذلك تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الوليُّ .

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه ، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته –

سبحانه .

فالقومُ كانوا أصحابَ البوادي لا يرون شيئاً إلا السماءَ والأرضَ والجبالَ والجِمالَ . . .

فأَمَرهم بالنظر في هذه الأشياء .

(273/813)

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه ؛ منها : ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحَمْلِ والركوب ، ثم بنَسْلِها ، ثم بلحمها ولبنها ووَبَرِها . . . ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى ليستطيع الصبيُّ أنْ يأخذَ بزِمامها ، فتنجرّ وراءه . والإبل تصبر على مقاساة العَطَش في الأسفار الطويلة ، وهي تَقْوَى على أن تحمِلَ فوق ظهورها الكثيرَ من الحَمولات . . . ثم حِرَانُها إذا حقدت ، واسترواحُها إلى صوتِ مَنْ يحدوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يُعَلِّل المرءُ بما يناط بها من برِّها .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

لستَ عليهم بمُسَلَّطٍ ؛ فذَكِّر – يا محمد – بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك .

﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ .

إلا مَنْ تولَّى عن الإيمان وكفر فيعذبه اللَّهُ بالخلودِ في النار .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا آيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ .

إن إلينا رجوعَهم ، ثم نجازيهم على الخير والشرِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 720. 723 ﴾

(274/813)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام للتشويق " 1 " ، والجملة لا محلّ لها ابتدائيّة .

[سورة الغاشية (88) : الآيات 2 إلى 7]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3) تَصْلى ناراً حامِيَةً (4) تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (6) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

الإعراب :

(وجوه) مبتدأ مرفوع خبره جملة تصلى " 2 " ، (يومئذ) ظرف

---

(1) أو بمعنى قد للإخبار .

(2) جاز الابتداء بالنكرة لأنها وصفت .

(275/813)

مضاف إلى اسم ظرفيّ ، منصوب - أو مبنيّ - متعلّق بـ (خاشعة) ، (خاشعة ، عاملة ، ناصبة) نعوت لوجوه مرفوعة (من عين) متعلّق بـ (تسقى) . .

جملة : " وجوه . . . تصلى " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تصلى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (وجوه) .

وجملة : " تسقى . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (وجوه) .

6 - 7 (لهم) متعلّق بخبر ليس (إلّا) للحصر " 1 " ، (من ضريع) متعلّق بنعت لـ (طعام) ، (لا) نافية في الموضعين (جوع) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به بتضمين الفعل معنى يدفع .

جملة : " ليس لهم طعام . . . " في محلّ رفع خبر ثالث . . ، والضمير في (لهم) لأصحاب

الوجوه .

وجملة : " لا يسمن . . . " في محلّ جرّ نعت لضريع .

وجملة : " لا يغني . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا يسمن .

الصرف :

(3) ناصبة : جمع ناصب . . اسم فاعل من الثلاثيّ نصب بمعنى تعب ، وزنه فاعل .

(4) حامية : مؤنّث الحامي ، اسم فاعل من الثلاثيّ حمي ، وزنه فاعل .

(6) ضريع : اسم لنوع من الشوك يقال هو الشبرق حال اخضراره فإذا يبس كان ضريعا لا تأكله دابّة . .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ " .

---

(1) أو للاستثناء ، و(من ضريع) نعت للمستثنى المقدّر أو للبدل المقدّر أي إلّا طعاما – أو طعام بالرفع – من ضريع .

ففي الكلام مجاز أو كناية ، أريد به طعام مكروه للإبل وغيرها من الحيوانات التي تلتذ رعي الشوك ، فلا ينافي كونه زقوما أو غسلينا . وقيل : إنه أريد أن لا طعام لهم أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم ، فضلا عن الناس ، كما يقال : ليس لفلان ظل إلا الشمس ، أي لا ظل له . وعليه يحمل قوله تعالى " وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ " .

فن التتميم : في قوله تعالى " لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ " .

فقوله " وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ " جملة لا يمكن طرحها من الكلام لأنه لما قال " لا يُسْمِنُ " ساغ لمتوهم أن يتوهم أن هذا طعام ، الذي ليس من جنس طعام البشر ، انتفت عنه صفة الاسمان ، ولكن بقيت له صفة الإغناء فجاءت جملة " وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ " تتميما للمعنى المراد ، وهو أن هذا الطعام انتفت عنه صفة إفادة السمن والقوة ، كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع وإزالته .

[سورة الغاشية (88) : الآيات 8 إلى 16]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12)

فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

الإعراب :

(وجوه يومئذ ناعمة) مثل وجوه يومئذ خاشعة " 1 " ، (لسعيها) متعلّق بـ (راضية) خبر المبتدأ (وجوه) ، (في جنة) متعلّق بمحذوف خبر ثان لوجوه " 2 " ، (لا) نافية (فيها) متعلّق بـ (تسمع) " 3 " ، (فيها) الثاني متعلّق بخبر

---

(1) في الآية (2) من هذه السورة .

(2) أو هو الخبر و(راضية) نعت ثان . [. . . . .]

(3) أو متعلّق بحال من لاغية أي جماعة لاغية فيها .

مقدّم للمبتدأ (عين) ، و(فيها) الثالث خبر للمبتدأ (سرر) عطف عليه (أكواب ، نمارق ، زرابيّ) مرفوعة مثله .

جملة : " وجوه . . . راضية " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " لا تسمع . . . " في محلّ جرّ نعت ثان لجنّة .

وجملة : " فيها عين جارية . . . " في محلّ جرّ نعت ثالث لجنّة .

وجملة : " فيها سرر . . . " في محلّ جرّ نعت رابع .

الصرف :

(8) ناعمة : مؤنّث ناعم ، اسم فاعل من الثلاثيّ نعم ، وزنه فاعل .

(11) لاغية : مؤنّث لاغ ، اسم فاعل من (لغا يلغو) ، ولاغية فيه إعلال بالقلب أصله لاغوة ، قلبت الواو ياء لتحرّكها بعد كسر ، وزنه فاعلة ، ووزن لاغ فاع . . وقيل إنّ (لاغية) مصدر مثل العافية .

(14) موضوعة : مؤنّث موضوع ، اسم مفعول من الثلاثيّ وضع ، وزنه مفعول .

(15) نمارق : جمع نمرقة ، اسم بمعنى وسادة ، وزنه فعللة بضمّ الفاء واللام الأولى ، وقد يكسران لغة ، ووزن نمارق فعالل بفتح الفاء وكسر اللام الأولى .

(16) زرابيّ : جمع زربيّة ، اسم جامد لنوع من البسط والطنافس ، وقيل جمع زربيّ بضمّ الزاي وكسرها – كما في القاموس – وتشديد الياء ، وقيل بتثليث الزاي فيهما . . وزنه فعليل أو فعليلة ، وزن زرابيّ فعاليل بفتح الفاء .

(مبثوثة) ، مؤنّث مبثوث ، اسم مفعول من الثلاثيّ بثّ ، وزنه مفعول .

[سورة الغاشية (88) : الآيات 17 إلى 20]

أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية (إلى الإبل) متعلّق بـ (ينظرون) ،

(كيف) اسم استفهام في محلّ نصب حال عامله الفعل الذي يتلوه (إلى السماء) متعلّق بـ (ينظرون) ، وكذلك (إلى الجبال ، إلى الأرض) ، (كيف) مثل الأول في الموضعين .

(278/813)

جملة : " ينظرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أينكرون فلا ينظرون . .

وجملة : " خلقت . . . " في محلّ جرّ بدل اشتمال من الإبل أي ينظرون إلى خلق الإبل " 1 " أو إلى كيفية خلقها .

وجملة : " رفعت . . . " في محلّ جرّ بدل اشتمال من السماء .

وجملة : " نصبت . . . " في محلّ جرّ بدل اشتمال من الجبال .

وجملة : " سطحت . . . " في محلّ جرّ بدل اشتمال الأرض .

---

(1) وفي حاشية الجمل : " ينظرون تعدّى إلى الإبل بـ (إلى) وتعدّى إلى (كيف خلقت . .) على سبيل التعليق ، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم قبلها وإن لم يكن فيه استفهام . . وإذا علق العامل عمّا فيه استفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته . . . " اه .

الفوائد :

- وقوع الجملة بدلا من مفرد :

ورد في هذه الآية (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) وقوع جملة (كَيْفَ خُلِقَتْ) بدلا من الإبل ، وبناء على ذلك قرر النحاة قاعدة مفادها (الجملة تقع بدلا من المفرد) . وإليك ما أورده ابن هشام في المغني بهذا الصدد : قوله تعالى (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) لا يصح أن تكون (كيف) بدلا من الإبل ، لأن دخول الجار على كيف شاذ ، على أنه لم يسمع في إلى ، بل في على ولأن إلى متعلقة بما قبلها ، فيلزم أن يعمل في الاستفهام فعل متقدم عليه ولأن الجملة التي بعدها تصير حينئذ غير مرتبطة ، وإنما هي منصوبة بما بعدها على الحال ، وفعل النظر معلق ، وهي وما بعدها بدل من الإبل بدل اشتمال ، والمعنى إلى الإبل كيفية خلقها ومثله قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) ومثلهما من إبدال جملة فيها كيف من اسم مفرد قول الفرزدق :

إلى اللّه أشكو بالمدينة حاجة وبالشام أخرى كيف يلتقيان

أي أشكو هاتين الحاجتين تعذر التقائهما .

[سورة الغاشية (88) : الآيات 21 إلى 26]

(280/813)

فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (25)

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إنّما) كافّة ومكفوفة (عليهم) متعلّق بمسيطر (مسيطر) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس (إلّا)

للاستثناء " 1 " ، (من) موصول في محلّ نصب على الاستثناء " 2 " ، (الفاء) عاطفة (العذاب) مفعول مطلق منصوب (إلينا) متعلّق بخبر إنّ وكذلك (علينا) خبر إنّ الثاني .

جملة : " ذكّر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن لم يتّعظ الكفّار بدلائل قدرة اللّه فذكّرهم بها .

وجملة : " إنّما أنت مذكّر . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لست عليهم بمسيطر " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تولّى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "كفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّى .

وجملة : " يعذّبه اللّه " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : يحبسه فيعذّبه .

وجملة : " إنّ إلينا إيابهم . . . " لا محلّ لها تعليل للمحاسبة .

وجملة : " إنّ علينا حسابهم " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

الصرف :

(21) مذكّر : اسم فاعل من الرباعيّ ذكّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة .

(25) إيابهم : مصدر سماعيّ للثلاثيّ آب يئوب باب نصر ، وله مصدر آخر هو أوبة زنة فعلة بفتح فسكون ، ووزن إياب فعال بكسر الفاء . . وفيه إبدال بالقلب أصله إواب ، كسر ما قبل الواو قلبت ياء . . .

---

(1) المنقطع من الضمير في (عليهم) ، أو المتّصل من مفعول ذكّر المقدّر أي ذكر عبادي .

(2) أو بمعنى لكن ، فـ (من) مبتدأ خبره جملة يعذّبه على زيادة الفاء ، والجملة مستأنفة أو في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع على رأي ابن خروف .

البلاغة

السرّ في تقديم الظرف : في قوله تعالى " إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ " .

معناه التشديد في الوعيد ، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير .

الفوائد

الجملة المستثناة :

يقول ابن هشام في المغني : إن النحاة قد ذكروا بأن الجمل التي لها محلّ من الإعراب سبع . والحق أنها تسع . والذي أهملوه الجملة المستثناة ، والجملة المسند إليها .

أما المستثناة : كقوله تعالى (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ) قال ابن خروف : من مبتدأ ، و(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ) الخبر ، والجملة في موضع نصب على الاستثناء المنقطع وقال الفراء في قراءة بعضهم (فشربوا منه إلا قليل منهم) إن (قليل) مبتدأ حذف خبره أي لم يشربوا ، وقال جماعة في (إلا امرأتك) بالرفع إنه مبتدأ والجملة بعده خبر . وليس من الجمل المستثناة قولنا :

(ما مررت بأحد إلا زيد خير منه) لأن الجملة هنا حال من أحد باتفاق ، أو صفة له عند

الأخفش وفي نحو (ما علمت زيدا إلا يفعل الخير) فإنها مفعول به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 30 صـ 311.318 ﴾

(282/813)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(88) سورة الغاشية

مكيّة وآياتها ستّ وعشرون

[سورة الغاشية (88) : الآيات 1 إلى 26]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (2) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (3) تَصْلى ناراً حامِيَةً (4)

تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (6) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (8) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (9)

فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (10) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (11) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (12) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)

وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16) أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)

وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19)

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ

(22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (24)

إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26)

اللغة :

(الْغاشِيَةِ) القيامة لأنها تغشى الخلائق ، وفي المختار : " الغشاء :

الغطاء وجعل على بصره غشاوة بضم الغين وفتحها وكسرها " وفي المصباح : " ويقال إن الغشي تعطل القوى المحرّكة والأوردة الحسّاسة لضعف القلب بسبب وجع شديد أو برد أو جوع مفرط وقيل الغشي هو الإغماء ، وقيل الإغماء امتلاء بطون الدماغ من بلغم بارد غليظ وقيل الإغماء سهو يلحق الإنسان مع فتور الأعضاء لعلة ، وغشيته أغشاه من باب تعب أتيته والاسم الغشيان بالكسر " .

(283/813)

(آنِيَةٍ) بلغت إناها في الحرارة وفي القاموس : " وأنى الحميم انتهى حرّه فهو آن وبلغ هذا أناه ويكسر أي غايته " .

(ضَرِيعٍ) في القاموس " والضريع كأمير الشّبرق أو يبيسه أو نبات رطبه يسمّى الشبرق ويابسه الضريع لا تقربه دابة لخبثه ، والسّلّاء والعوسج الرطب أو نبات في الماء الآجن له عروق لا تصل إلى الأرض ، أو شيء من جهنم أمرّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأحرّ من النار ، ونبات منتن يرمي به البحر ، ويبيس كلّ شجر ، والخمر أو رقيقها ، والجلدة على العظم تحت اللحم " وفي الكشاف : " الضريع يبيس الشبرق وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبا فإذا يبس تحامته الإبل وهو سمّ قاتل قال أبو ذؤيب :

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعا بان عنه النحائص

وقال :

وحبسن في هزم الضريع فكلها حدباء دامية اليدين حرود "

(نَمارِقُ) جمع نمرقة بضم النون وكسرها لغتان أشهرهما الأولى

وهي وسادة صغيرة ، وفي القاموس " والنمرقة مثلثة الوسادة الصغيرة أو المثيرة أو الطنفسة فوق الرحل " .

(زَرابِيُّ) في القاموس : " الزرابي النمارق والبسط أو كل ما يبسط ويتكأ عليها الواحدة زربي بالكسر ويضم " والطنافس أيضا جمع طنفسة بتثليث الطاء والفاء ففيه تسع لغات ،

وهي المسمّاة الآن بالسجادة .

(مَبْثُوثَةٌ) مفرقة في المجلس .

(بِمُصَيْطِرٍ) بمسلط عليهم ومسيطر اسم جاء مصغرا ولا مكبّر له كقولهم : رويدا والثريا وكميت ومبيقر ومبيطر ومهيمن ، وفي قراءة بمسيطر بفتح الطاء وغريبة هذه القراءة فقد جاء في تاج العروس : سيطر جاء على فيعل فهو مسيطر ولم يستعمل مجهولا فعله ، وننتهي في كلام العرب إلى ما انتهوا إليه ، وسيأتي مزيد بحث عن التصغير في باب الفوائد .

الإعراب :

(284/813)

(هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ) هل حرف استفهام ومعناه التعجب والتشويق إلى استماع حديث الغاشية وجعلها بعضهم بمعنى قد وجعلها ابن خالويه مطّردة في كل ما في القرآن من هل أتاك قال " فهو بمعنى قد أتاك " وأتاك فعل ماض ومفعول به وحديث الغاشية فاعل

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى ناراً حامِيَةً تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) وجوه مبتدأ وساغ الابتداء به لوجود التنويع والوصف كما سيأتي ويومئذ ظرف متعلق بخاشعة والتنوين في إذ عوض عن جملة لم يتقدم ما يدلّ عليها إلا قوله الغاشية فيمكن استنتاج الجملة

منها أي يوم إذ غشيت الغاشية وخاشعة خبر وعاملة ناصبة خبران آخران وقيل خاشعة وعاملة وناصبة صفات

للمبتدأ والخبر هو جملة تصلى وعلى الأول جملة تصلى خبر رابع وكلا الوجهين مستقيم وحسن ، ونارا مفعول به وقرىء بضم التاء فتكون نارا مفعولا ثانيا ونائب الفاعل مستتر وحامية نعت للنار وتسقى فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هي أي وجوه والمراد أصحابها ، ومن عين متعلقان بتسقى وآنية صفة لعين (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ) كلام مستأنف مسوق للإجابة عن سؤال مترتب على ما سبق كأنه قيل وما هو طعامهم بعد ما ذكر شرابهم فقيل ليس لهم . . . ،

(285/813)

وليس فعل ماض ناقص ولهم خبرها المقدّم وطعام اسمها المؤخر وإلا أداة حصر ومن ضريع صفة لطعام أو بدل منه على القاعدة ويجوز أن يكون في محل نصب على الاستثناء (لا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) الجملتان صفتان لضريع لا لطعام لأن الضريع هو المثبت وقد نفى عنه الاسمان والإغناء من الجوع ، ولا نافية ويسمن فعل مضارع وفاعله هو ولا يغني عطف على لا يسمن ومن جوع متعلقان بيغني ، وجعل الشهاب في حاشيته على البيضاوي من

زائدة وجوع على هذا يكون في موضع نصب مفعول يغني (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ ، لِسَعْيِها راضِيَةٌ) وجوه مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة للتنويع ، وسيأتي سر عدم اقترانها بالواو كما يقتضي ظاهر السياق في باب البلاغة ، ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بناعمة وناعمة خبر وجوه ولسعيها متعلقان براضية وراضية خبر ثان لوجوه (فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ ، لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً) في جنة خبر ثان لوجوه وعالية نعت لوجوه وجملة لا تسمع إلخ صفة ثانية لجنة ولا نافية وتسمع فعل مضارع مرفوع وفاعله أنت وقرىء بالتاء وفيها متعلقان بتسمع ولاغية مفعول به وهي على معنى النسب أي كلمة ذات لغو أو على إسناد اللغو إليها مجازا (فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ) الجملة نعت ثالث لجنة وفيها خبر مقدّم وعين مبتدأ مؤخر وجارية نعت لعين (فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) الجملة صفة رابعة لجنة وفيها خبر مقدّم

(286/813)

وعين مبتدأ مؤخر وجارية نعت لعين وما بعده عطف عليه (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما مضى من حديث الغاشية والهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للعطف على مقدّر يستحقه المقام والتقدير أينكرون البعث فلا ينظرون ،

ولا نافية وينظرون فعل مضارع مرفوع وإلى الإبل متعلقان به وكيف اسم استفهام في محل نصب حال وخلقت فعل ماض مبني للمجهول وفاعله مستتر تقديره هي والجملة بدل اشتمال من الإبل . وينظرون تعدّى إلى الإبل بواسطة إلى وتعدى إلى كيف على سبيل التعليق وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها وإن لم يكن فيه استفهام على خلاف في ذلك كقولهم عرفت زيدا أبو من هو والعرب يدخلون إلى على كيف فيقولون إلى كيف يصنع . وكيف سؤال عن حال والعامل فيها خلقت وإذا علق العامل عمّا فيه من الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته ، وللزمخشري كلام جميل نورده فيما يلي : " أفلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار كيف خلقت خلقا عجيبا دالّا على تقدير مقدّر شاهدا بتدبير مدبر حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرّها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ثم تنهض بما حملت وسخّرها منقادة لكل من اقتادها بأزمّتها لا تعاز ضعيفا ولا تمانع صغيرا وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار ، وعن بعض الحكماء أنه حدّث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد

لا إبل بها ففكر ثم قال يوشك أن تكون طوال الأعناق وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبّرها على احتمال العطش حتى أن أظماءها لترتفع إلى العشر فصاعدا وجعلها ترعها كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم " هذا والإبل اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده بعير وناقة وجمل ، وعبارة القاموس :

" الإبل بكسرتين وتسكين الباء مؤنث واحد يقع على الجمع ليس بجمع ولا اسم جمع وجمعه آبال وتصغيرها إبيلة والسحاب الذي يحمل ماء

(287/813)

المطر " وعلى هذا يصحّ أن يراد بها السحاب لينتظمها الذكر على حسب النظم على أن هذا لا يتفق مع سهولة بيان القرآن ونظمه وإنما أوردها منتظمة مع السماء والأرض والجبال لأن العرب في بواديهم وأوديتهم يألفون رؤيتها جميعا فانتظمها الذكر مع هذه الأشياء (وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) كلام منسوق على ما تقدم مماثل له في إعرابه ، قال ابن خالويه نقلا عن الزمخشري : " وروي عن هارون الرشيد أنه قرأ : كيف سطحت بالتشديد والقراءة بتخفيفها لاجتماع الكافّة عليها " (فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) الفاء الفصيحة أي إن كانوا لا ينظرون إلى هذه الأشياء نظر اعتبار وتدبر وتأمل فذكرهم .

(288/813)

و ذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ومفعوله محذوف أي فذكّرهم ولا تلحّ عليهم إذ ليس عليك هداهم ، وإنما كافّة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومذكّر خبر وجملة أنما أنت تعليلية للأمر بالتذكير ولست ليس واسمها وعليهم متعلقان بمسيطر والباء حرف جر زائد ومسيطر مجرور بالباء لفظا منصوب محلا لأنه خبر ليس (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ) إلا أداة استثناء ومن مستثنى على الاستثناء متصل من مفعول فذكر أو من الهاء في عليهم وقيل الاستثناء منقطع وإلا بمعنى لكن ألغي عملها ومن مبتدأ خبره جملة فيعذبه وكلاهما جيد محتمل ، وجملة تولى صلة من وكفر عطف على الصلة وجملة إلا من تولى وكفر في محل نصب على الاستثناء المنقطع وهذه جملة تضاف إلى الجمل التي لها محل من الإعراب والفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط ويعذبه فعل مضارع مرفوع والهاء مفعول به والله فاعل والعذاب مفعول مطلق ، ومن الغريب أن ابن خالويه أعربها مفعولا به ثانيا ، وصدق ابن هشام عند ما قرر أن ابن خالويه من ضعفاء النحويين ، والأكبر نعت للعذاب (إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ) الجملة لا محل لها لأنها تعليل للعذاب الأكبر وإن حرف

مشبّه بالفعل وإلينا خبر مقدّم لإن وإيابهم اسمها المؤخر وثم حرف عطف للتراخي ، وسيأتي سره في باب البلاغة ، وما بعده عطف على ما قبله مماثل له في إعرابه .

البلاغة :

1- في قوله " لا يسمن ولا يغني من جوع " فن التتميم ، وقد تقدم مرارا فقوله ولا يغني من جوع جملة لا يمكن طرحها من الكلام لأنه لما قال لا يسمن ساغ لمتوهم أن يتوهم أن هذا الطعام الذي ليس من جنس طعام البشر انتفت عنه صفة الاسمان ولكن بقيت له صفة الإغناء فجاءت جملة ولا يغني من جوع تتميما للمعنى المراد وهو أن هذا الطعام انتفت عنه صفة إفادة السمن والقوة كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع وإزالته ، وجعله بعضهم من باب نفي الشيء بإيجابه على حدّ قول امرئ القيس " على لاحب لا يهتدى بمناره " أي أنه لا منار له أصلا وكما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد وليس ببعيد والأول أرصن وأبعد عن التكلّف .

2- الحذف : تكلمنا في هذا الكتاب كثيرا عن الحذف وسنخصّص هنا لمعة عن حذف المفعول به خاصة لزيادة الفائدة وذلك بمناسبة قوله تعالى " فذكّر إنما أنت مذكّر " فنقول : يجوز حذف المفعول به لغرض إما لفظي كتناسب الفواصل أي رؤوس الآي وذلك في نحو قوله تعالى : " ما ودعك ربك وما قلى " والأصل وما قلاك فحذف المفعول ليناسب قوله : " والضحى والليل إذا سجى " وكالإيجاز في نحو قوله تعالى : " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا "

والأصل فإن لم تفعلوه ولن تفعلوه أي الإتيان بسورة من مثله وإما معنوي كاحتقاره نحو " كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلي " أي لأغلبنّ الكافرين فحذف المفعول زيادة في امتهانه واحتقاره أو لاستهجانه واستقباح التصريح به كقول عائشة رضي اللّه عنها : ما رأى منّي ولا رأيت منه ، أي العورة .

(290/813)

3- وفي قوله " إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم " تقديم الجار والمجرور ، والسر فيه التشديد بالوعيد وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام وأن حسابهم ليس إلا عليه ، وفي العطف بثم للدلالة على التراخي في الرتبة لا في الزمان أي أنه قد يكون مباشرة بعد الإياب ولكن التفاوت بين الموقفين أمر لا تكتنه أهواله ولا يدري أحد مداه ولا يتصوره العقل على الإطلاق ولا يخفى أن الخبر جاء مؤكدا بإن فأتى طلبيا كأنهم ، وقد ترددوا ، بحاجة إلى تأكيد هذا الأمر الذي أشاحوا عنه ولم يتدبروه .

الفوائد :

1- التصغير ومراميه : أول من تكلم على التصغير الخليل بن أحمد رحمه اللّه ، ويكون للتحقير والتعظيم والترحم والتحبّب ولتقليل العدد ولتقريب الزمان وقد جمعها بعضهم

بقوله :

فعظم وحقر وقرب زماني ترحم تحبب رزقت الأماني

وأقلل بتصغيرهم يا فتى فما زلت في محفل من معاني

قال ابن خالويه : " العرب تصغّر الاسم على المدح لا تريد به التحقير كقولهم فلان صديّقي إذا كان من أصدق أصدقائه ومن ذلك قول عمر في ابن مسعود "كنيّف مليء علما " مدحه بذلك ، وقال الأنصاري :

" أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب وحجيرها المؤام " ومن ذلك أن رجلا قال : رأيت الأصيلع عمر بن الخطاب يقبّل الحجر يريد مدحه بذلك " .

واختلف في قول عمر بن أبي ربيعة في رائيته المشهورة :

وغاب قمير كنت أهوى غروبه وروّح رعيان ونوّم سمّر

(291/813)

فقال سعيد بن المسيب لما سمع هذا البيت : ما له قاتله اللّه صغّر ما كبر اللّه قال اللّه تعالى " والقمر قدّرناه منازل " قال ابن خالويه : " فيجوز أن يكون ابن أبي ربيعة صغّر قميرا على المدح لما ذكرت ، ومع ذلك فإن ابن أبي ربيعة قد أنشد هذه القصيدة لابن عباس فما أنكر

عليه شيئًا ، ومن ذلك قول الرجل لابنه : يا بنيّ لا يريد تحقيره فاعرف ذلك ولابن أبي ربيعة حجة أخرى وذلك أن العرب تقول للقمر في آخر الشهر وأوله شفا قمير فيصغّرونه " وهذا الذي ذكرناه من معاني التصغير يردّه البصريون وجميع ما ذكرناه عندهم راجع إلى معنى التحقير .

هذا ونضرب على سبيل المثال مثلا بيت لبيد بن ربيعة وهو :

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفرّ منها الأنامل

فالكوفيون ذهبوا إلى أن التصغير في قوله دويهية للتعظيم وبيان هذا أن الشاعر أراد بها الموت ولا داهية أعظم منها ، فأما كونه أراد بها الموت فيدل لذلك وصفها بقوله " تصفر منها الأنامل " والأنامل هنا الأظفار وهي إنما تصفر بالموت ، قال الطوسي في شرح ديوان لبيد : إذا مات الرجل أو قتل اصفرّت أنامله واسودّت أظافره " وقد ردّ البصريون أن التصغير يأتي للتعظيم وجرى على مذهبهم الرضي المحقق فقال : " قيل مجيء التصغير للتعظيم يكون من باب الكناية يكنى بالصغر عن بلوغ الغاية لأن الشيء إذا جاوز حدّه جانس ضده ورد بأن تصغيرها على حسب احتقار الناس لها وتهاونهم بها إذ المراد بها الموت أي يجيئهم ما يحتقرونه مع أنه عظيم في نفسه تصفر منه الأنامل " وقال البصريون عن بيت لبيد : " فأما قوله دويهية فالمراد أن أصغر الأشياء قد يفسد الأصول

العظام فحتف النفوس قد يكون الأمر الذي لا يؤبه له " ولا يخفى ما في هذا القول من الرصانة والقوة فتنبّه لهذا الفصل الذي وإن طال بعض الطول فهو كالحسن ليس بمملول .

(292/813)

2- الخيال : تختلف الخياليات باختلاف الأسباب والعادات والعرف العام فتتفاوت بالأمم فلا يستنكر قوله تعالى في هدايتهم إلى الاستدلال على الصانع الحكيم " أفلا ينظرون إلى الأمم كيف خلقت " إلخ إلا من يجهل أن الخطاب مع العرب وما في خيالهم إلا الإبل لأن معظم انتفاعهم في مطاعمهم وملابسهم ومتاجرهم منه وإلا أرض ترعاها الإبل وإلا سماء تسقيهم وإياها وإلا جبال هي معاقلهم عند شنّ الغارات ، فظهر أن من وقف على أحوال العربي البدوي يعرف وجه تقارن الصور المذكورة في أذهانهم ووجه وقوعها في القرآن العظيم على المنهج المذكور ، ومن أنكره من أهل الحضر فذلك لجهله بمقتضى الحال ، ولقد أحسن المتنبي إذ قال :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 455.464 ﴾

(293/813)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

قَوْلُهُ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ ﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمَعْنَى وُجُوهٌ فِي الدُّنْيَا خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا حَامِيَةً وَيَعْنِي بِهَا عِبَادَ الْكُفَّارِ كَالرُّهْبَانِ وَعِبَادَ البدود وَرُبَّمَا تُؤُوِّلَتْ فِي أَهْلِ الْبِدَعِ كَالْخَوَارِجِ . و " الْقَوْلُ الثَّانِي " أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَخْشَعُ أَيْ تَذِلُّ وَتَعْمَلُ وَتَنْصَبُ قُلْت هَذَا هُوَ الْحَقُّ لِوُجُوهٍ : " أَحَدُهَا " أَنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَتَعَلَّقُ الظَّرْفُ بِمَا يَلِيهِ أَيْ : وُجُوهٌ يَوْمَ الْغَاشِيَةِ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ صَالِيَةٌ . وَعَلَى الْأَوَّلِ لَا يَتَعَلَّقُ إلَّا

(294/813)

بِقَوْلِهِ (تَصْلَى) وَيَكُونُ قَوْلُهُ (خَاشِعَةٌ) صِفَةً لِلْوُجُوهِ قَدْ فَصَلَ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ بِأَجْنَبِيٍّ مُتَعَلِّقٍ بِصِفَةٍ أُخْرَى مُتَأَخِّرَةٍ وَالتَّقْدِيرُ : وُجُوهٌ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ يَوْمَئِذٍ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً . وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ ؛ فَالْأَصْلُ إقْرَارُ الْكَلَامِ عَلَى نَظْمِهِ

وَتَرْتِيبِهِ تَغْيِيرُ تَرْتِيبِهِ . ثُمَّ إنَّمَا يَجُوزُ فِيهِ التَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مَعَ الْقَرِينَةِ أَمَّا مَعَ اللَّبْسِ فَلَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّهُ يَلْتَبِسُ عَلَى الْمُخَاطَبِ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَا قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ؛ بَلْ الْقَرِينَةُ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَإِرَادَةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ بِمِثْلِ هَذَا الْخِطَابِ خِلَافُ الْبَيَانِ وَأَمْرُ الْمُخَاطَبِ بِفَهْمِهِ تَكْلِيفٌ لِمَا لَا يُطَاقُ . " الْوَجْهُ الثَّانِي " أَنَّ اللَّهَ قَدْ ذَكَرَ وُجُوهَ الْأَشْقِيَاءِ وَوُجُوهَ السُّعَدَاءِ فِي السُّورَةِ فَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إنَّمَا وَصَفَهَا بِالنِّعْمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا فِي الدُّنْيَا ؛ إذْ هَذَا لَيْسَ بِمَدْحٍ فَالْوَاجِبُ تَشَابُهُ الْكَلَامِ وَتَنَاظُرُ الْقِسْمَيْنِ لَا اخْتِلَافُهُمَا وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ الْأَشْقِيَاءُ وُصِفَتْ وُجُوهُهُمْ بِحَالِهَا فِي الْآخِرَةِ . " الثَّالِثُ " أَنَّ نَظِيرَ هَذَا التَّقْسِيمِ قَوْلُهُ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾

(295/813)

﴿ إلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ وَهَذَا كُلُّهُ وَصْفٌ لِلْوُجُوهِ لِحَالِهَا فِي الْآخِرَةِ لَا فِي الدُّنْيَا . " الرَّابِعُ " أَنَّ وَصْفَ الْوُجُوهِ بِالْأَعْمَالِ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَإِنَّمَا فِي الْقُرْآنِ

ذِكْرُ الْعَلَامَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَمَلَ وَالنَّصْبَ لَيْسَ قَائِمًا بِالْوُجُوهِ فَقَطْ ؛ بِخِلَافِ السِّيمَا وَالْعَلَامَةِ . " الْخَامِسُ " أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ خَاشِعَةً ﴾ ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ لَوْ جُعِلَ صِفَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللَّفْظِ ذَمٌّ فَإِنَّ هَذَا إلَى الْمَدْحِ أَقْرَبُ وَغَايَتُهُ أَنَّهُ وَصْفٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ عِبَادِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِبَادِ الْكُفَّارِ وَالذَّمُّ لَا يَكُونُ بِالْوَصْفِ الْمُشْتَرَكِ وَلَوْ أُرِيدَ الْمُخْتَصُّ لَقِيلَ خَاشِعَةٌ لِلْأَوْثَانِ مَثَلًا عَامِلَةٌ لِغَيْرِ اللَّهِ نَاصِبَةٌ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَقْتَضِي كَوْنَ هَذَا الْوَصْفِ مُخْتَصًّا بِالْكُفَّارِ وَلَا كَوْنَهُ مَذْمُومًا . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ذَمٌّ لِهَذَا الْوَصْفِ مُطْلَقًا وَلَا وَعِيدَ عَلَيْهِ فَحَمْلُهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى خُرُوجٌ عَنْ الْخِطَابِ الْمَعْرُوفِ فِي

(296/813)

الْقُرْآنِ .

" السَّادِسُ " أَنَّ هَذَا الْوَصْفَ مُخْتَصٌّ بِبَعْضِ الْكُفَّارِ وَلَا مُوجِبَ لِلتَّخْصِيصِ فَإِنَّ الَّذِينَ لَا يَتَعَبَّدُونَ مِنْ الْكُفَّارِ أَكْثَرُ وَعُقُوبَةُ فُسَّاقِهِمْ فِي دِينِهِمْ أَشَدُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّ مَنْ كَفَّ مِنْهُمْ عَنْ الْمُحَرَّمَاتِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا وَأَدَّى الْوَاجِبَاتِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ عُقُوبَتُهُ كَعُقُوبَةِ

الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَيَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَيَزْنُونَ . فَإِذَا كَانَ الْكُفْرُ وَالْعَذَابُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فِي الْقِسْمِ الْمَتْرُوكِ أَكْثَرَ وَأَكْبَرَ كَانَ هَذَا التَّخْصِيصُ عَكْسَ الْوَاجِبِ . " السَّابِعُ " أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ فِيهِ تَنْفِيرٌ عَنْ الْعِبَادَةِ وَالنُّسُكِ ابْتِدَاءً ثُمَّ إذَا قُيِّدَ ذَلِكَ بِعِبَادَةِ الْكُفَّارِ وَالْمُبْتَدِعَةِ وَلَيْسَ فِي الْخِطَابِ تَقْيِيدٌ كَانَ هَذَا سَعْيًا فِي إصْلَاحِ الْخِطَابِ بِمَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 217 . 220 ﴾

(297/813)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/814)

الجزء الرابع عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفجر)

(4/814)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفجر)

(5/814)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الفجر

مقصودها الاستدلال على آخر الغاشية الإياب والحساب ، وأدل ما فيها على هذا المقصود الفجر بانفجار الصبح عن النهار الماضي بالأمس من غير فرق في شيء من الذات وانبعاث النيام من الموت الأصغر وهو النوم بالانتشار في ضياء النهار لطلب المعايش للمجازاة في الحساب بالثواب والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 413 ﴾

(6/814)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والفجر)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها ثلاثون فى عدّ الشام ، والكوفة ، وتسع وعشرون (فى البصرة ، واثنتان وثلاثون فى الحجاز ، وكلماتها مائة وسبع وعشرون) وحروفها خمسمائة وتسع وتسعون .

المختلف فيها أَربع : نعّمه ، رزقه بجهنَّم ، ﴿ فِي عِبَادِي ﴾ فواصل آياتها (هاروت ندم) .

سمّيت سورة الفجر ، لمفتتحها .

السورة محكمة .

معظم مقصود السّورة : تشريف العِيد ، وعرفة ، وعشْرِ المحرّم ، والإِشارةُ إِلى هلاك عاد ، وثمود ، وأَضرابهم ، وتفاوتُ حال الإِنسان فى النعمة ، وحرصه على جَمْع الدّنيا ، والمال الكثير ، وبيان حال الأَرض فى القيامة ، ومجىء الملائكة ، وتأَسّف الإِنان يومئذ على التقصير ، والعصيان ، وأَنَّ مرجع المؤمن عند لاموت إِلى الرّحمة ، والرضوان ، ونعيم الجنان ، فى قوله : ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

متشابه سورة والفجر

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ ﴾ وبعده : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ ﴾ لأَن التقدير فى الثانى أَيضا : وأَما الإِنسان ، فاكتفى بذكره فى الأَول ؛ والفاءُ لازم بعده ؛ لأَن المعنى : مهما يكن من شىء فالإِنسان بهذه الصفة ، لكن الفاء أُخِّر ليكون على لفظ الشرط والجزاءِ .

فضل السّورة

فيه حديث أُبيّ المنكَر : مَنْ قرأَها فى الليالى العشر غفر الله له ، ومَنْ قرأَها فى سائر الأَيام كانت له نوراً يوم القيامة ، وحديث علىّ : مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب المصلِّين ، وله بكلّ آية قرأَها ثوابُ الحامدين له على كلّ حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 519.518 ﴾

(7/814)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الفجر

لم يختلف في تسمية هذه السورة (سورةَ الفجر) بدون الواو في المصاحف والتفاسير وكتب السنة .

وهي مكية باتفاق سوى ما حكى ابن عطية عن أبي عَمْرو الداني أنه حكى عن بعض العلماء أنها مدنية .

وقد عُدّت العاشرة في عداد نزول السور . نزلت بعد سورة الليل وقبل سورة الضحى .

وعدد آيها اثنتان وثلاثون عند أهل العدد بالمدينة ومكة عدُّوا قوله : (ونَعَّمَه ((الفجر :

15) منتهى آية ، وقوله : (رزقَه ((الفجر : 16) منتهى آية . ولم يعدها غيرهم منتهى آية ، وهي ثلاثون عند أهل العدد بالكوفة والشام وعند أهل البصرة تسع وعشرون .

فأهل الشام عدُّوا) بجهنم ((الفجر : 23) منتهى آية . وأهل الكوفة عدَّوا) في عبادي ((الفجر : 29) منتهى آية .

أغراضها

حوت من الأغراض ضربَ المثل لمشركي أهل مكة في إعْراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثَل عاد وثمود وقوم فرعون .

وإنذارَهم بعذاب الآخرة .

وتثبيتَ النبي (صلى الله عليه وسلم) مع وعده باضمحلال أعدائه .

وإبطالَ غرور المشركين من أهل مكة إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم

(8/814)

علامة على أن الله أكرمهم وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أن الله أهانهم .

وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلما يواسوا ببعضها الضعفاء وما زادتهم إلا حرصاً على التكثر منها .

وأنهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدّموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفساً مالُها ولا ينفعها إلا إيمانُها وتصديقها بوعد ربها . وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 311.312﴾

(9/814)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الفجر

هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر . . ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال . ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الإيقاع ! في بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق ندي السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد . . " والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر " . . .

(10/814)

وفي بعض مشاهدها شد وقصف . سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف : "كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد " . .

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام : " يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي " . .

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصرع القوي : " ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد " .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية . وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرا وإيقاعا : " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن " . . .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات . وهي

تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : "كلا . بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما " . .

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم . فقد جاء بعده : "كلا إذا دكت الأرض دكا دكا " . . الخ . . فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير !

(11/814)

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة . وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها . . كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي . بحسب تنوع المعاني والمشاهد . فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني . فوق ما فيها عموما من جمال ملحوظ مأنوس !

فأما أغراض السورة الموضوعية التي يحملها هذا التعبير المتناسق الجميل . فنعرضها فيما يلي بالتفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3901 . 3902 ﴾

(12/814)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الفجر

مكية وآياتها ثلاثون آية

بين يدي السورة

* سورة الفجر مكية ، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية هي :

1 - ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله ، كقوم عاد ، وثمود ، وقوم فرعون ، وبيان ما حل بهم من العذاب والدمار ، بسبب فجورهم وطغيانهم [ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ إرم ذات العماد ؟ التي لم يخلق مثلها في البلاد] ؟ الأيآت

2 - بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة ، بالخير والشر ، والغنى والفقر ، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال [فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه . فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . .] الآيات

3 - ذكر الدار الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وانقسام الناس يوم القيامة ، إلى سعداء وأشقياء وبيان مآل النفس الشريرة ، والنفس الكريمة الخيرة [كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا ، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى] إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 555 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الفجر

(وَالْفَجْرِ) الفجر هو الوقت الذي ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع كانتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق ، وهو كقوله :

" وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ " وقوله : " وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ " .

(وَلَيالٍ عَشْرٍ) هى عشر ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، فيكون ضوء القمر فيها مطارد الظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتى يسطع النهار ، ولا يزال الضوء منتشرا إلى الليل الذي بعده .

وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ، ثم لا يزال الليل يغالبه إلى أن يغلبه ، فيسدل على الكون حجبه ، وهذه الليالى العشر غير متعينة فى كل شهر فإن ضوء الهلال قد يظهر حتى تغلبه الظلمة فى أول ليلة من الشهر .

وقد يكون ضئيلا يغيب ضوؤه فى الشفق فلا يعدّ شيئا .

والخلاصة - إن الليالى العشر تارة تبتدئ من أول ليلة ، وأخرى من الليلة الثانية .

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) أي والزوج والفرد من هذه الليالى فهو سبحانه أقسم بالليالي جملة ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد .

وبعد أن أقسم بضروب من الضياء أقسم بالليل مرادا منه الظلمة فقال :

(وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ) أي والليل إذا يمضى ويذهب ، وهو كقوله : " وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ " وقوله : " وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ " .

(هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) العقل ، ويقولون : فلان ذو حجر : إذا كان قاهرا لنفسه ، ضابطا لها ، مضيّقا عليها .

والمراد أن من كان ذا لبّ وعقل يفطن إلى أن فى القسم بهذه المخلوقات المشتملة على باهر الحكمة ، وعجيب الصنعة ، الدالة على وحدانية صانعها - مقنعا أيما مقنع ، وكفاية أعظم كفاية .

(14/814)

وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه وتقريره ، كما تقول لمن يحاجّك فى أمر ثم تقيم له الحجة الناصعة التي تثبت ما تدّعى : هل فيما ذكرت لك كفاية ، ومرادك أنى قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها ، فلست تستطيع جحد ما قلت بعد هذا .

عاد : جيل من العرب البائدة يقولون إنه من ولد عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، ويلقب أيضا بإرم ، وذات العماد : أي سكان الخيام ، وكانت منازلهم بالرمال والأحقاف إلى حضر موت .

وثمود : قبيلة من العرب البائدة كذلك وهى من ولد كاثر بن إرم بن سام ، ومنازلهم بالحجر بين الشام والحجاز ، جابوا الصخر : أي قطعوه ونحتوه ، بالواد : أي الوادي الذي كانوا يسكنون فيه ، وفرعون : هو حاكم مصر الذي كان فى عهد موسى عليه السلام ، والأوتاد : المبانى العظيمة الثابتة ، والطغيان : تجاوز القدر فى الظلم والعتوّ ، وصب : أي أفرغ وألقى ، وسوط عذاب : أي أنواعا من العقوبات التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم ، والمرصاد : هو المكان الذي يقوم فيه الرصد ، والرصد من يرصد الأمور : أي يترقبها ليقف على ما فيها من الخير والشر ، ويطلق أيضا على الحارس الذي يحرس ما يخشى عليه .

ابتلاه : أي اختبره ببسط الرزق وإقتاره ، فأكرمه : أي صيره مكرما يرفل فى بحبوحة النعيم ، قدر عليه رزقه : أي صيره فقيرا مقترا عليه فى الرزق ، تقول قدرت عليه الشيء : أي

ضيقته عليه ، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه كما قال : " وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ " .

ولا تحاضون : أي لا يأمر بعضكم بعضا ، والتراث : الميراث ، لمّا : أي شديدا ، جمّا : أي كثيرا قال :

إن تغفر اللهمّ تغفر جمّا وأيّ عبد لك لا ألمّا

(15/814)

الدكّ : حط المرتفع بالبسط والتسوية ومنه اندكّ سنام البعير إذا انغرس فى ظهره ، دكا دكا : أي دكا بعد دك : أي كرّر عليها الدك وتتابع حتى صارت كالصخرة الملساء ، صفا صفا : أي صفا بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم فى الفضل ، وجىء يومئذ بجهنم : أي كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، وأنى له الذكرى ؟ أي ومن أين له فائدة التذكر وقد فات الأوان ، والوثاق : الشدّ والربط السلاسل والأغلال .

المطمئنة . من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، إلى ربك : أي إلى ثوابه وموقف كرامته ، فى عبادى : أي فى زمرة عبادى المكرمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 140.153 ﴾ . باختصار .

وقال الفراء :

سورة (الفجر)

﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَالْفَجْرِ . . . ﴾ ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال]: حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس بن الربيع عن أبى إسحق عن الأسود بن يزيد فى قوله: ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ قال: هو فجركم هذا . ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ قال: عشر الأضحى . ﴿ وَالشَّفْعِ . . . ﴾ يوم الأضحى ، و ﴿ وَالْوَتْرِ . . . ﴾ يوم عرفة .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال]: حدثنا الفراء قال: وحدثنى شيخ عن عبد الملك ابن أبى سليمان عن عطاء قال الله تبارك وتعالى: الوتر والشفع: خلقُه .

قال حدثنا الفراء قال: وحدثنى شيخ عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال: الوتر آدم ، شُفِع بزوجته . وقد اختلف القراءُ فى الوتر: فقرأ الأعمش والحسن البصرى: الوِتر مكسورة الواو ، وكذلك قرأ ابن عباس ، وقرأ السلمى وعاصم وأهل المدينة "الوَتر" بفتح

الواو ، وهى لغة حجازية .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . . . ﴾ .

ذكروا أنها ليلة المزدلفة ، وقد قرأ القراءُ: "يَسرى" بإثبات الياء ، و "يسر" بحذفها ، وحذفها أحب إلىّ لمشاكلتها رءوس الآيات ، ولأن العرب قد تحذف الياء ، وتكتفى بكسر ما قبلها منها ، أنشدنى بعضهم .

كفّاكَ كفٌّ ما تُلِيقُ دِرْهَماً * جوداً ، وأخرى تُعطِ بالسيف الدّما

وأنشدنى آخر:

ليس تَخفَى يسارتى قدر يوم * ولقد تَخفِ شيمتى إعسارى

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ . . . ﴾ .

لذى عقلٍ: لذى سِتْر ، وكله يرجع إلى أمر واحد من العقل ، والعرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطا لها ، كأنه أخذ من قولك: حجرت على الرجل .

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾

وقوله جل وعز [/ب] ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . . . ﴾ .

لم يجر القراء (إرم) لأنها فيما ذكروا اسم بلدة ، وذكر الكلبى بإسناده أن (إرم) سام بن نوح ، فإن كان هكذا اسما فإنما ترِك إجراؤه لأنه كالعجمى . و (إِرم) تابعةٌ لعادٍ ، و (العِماد) : أنهم كانوا أهل عَمَد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم:

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ جَابُواْ الصَّخْرَ . . . ﴾ خرقوا الصخر ، فاتخذوه بيوتاً .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ . . . ﴾ .

كان إذا غضب الرجل مدّه بين أربعة أوتاد حتى يموت معذبا ، وكذلك فعل بامرأته آسية ابنة مزاحم ، فسمى بهذا لذلك .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . . . ﴾ .

هذه كلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب ، تُدخل فيه السوط . جرى به الكلام والمثل . ونرى ذلك: أن السوط من عذابهم الذى يعذبون به ، فجرى لكل عذابٍ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . . . ﴾ . يقول: إليه المصير.

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ . . . ﴾ .

خفف عاصم والأعمش وعامة القراء، وقرأ نافع [أ] وأبو جعفر: (فقدّر) مشددة، يريد (فقتّر) وكلٌّ صواب.

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَلاَّ . . . ﴾ .

لم يكن ينبغي له أن يكون هكذا، ولكن يحمده على الأمرين: على الغنى والفقر.

﴿ وَلاَ تَحَآضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . . . ﴾ .

(18/814)

قرأ الأعمش وعاصم بالألف وفتح التاء، وقرأ أهل المدينة: "ولا تَحُضُون"، وقرأ الحسن البصري: "ويحُضون، ويأكلون"، وقد قرأ بعضهم: "تُحاضون" برفع التاء، وكل صواب. كأن "تُحاضون" تحافظون، وكأن، "تُحضون" تأمرون بإطعامه، وكأنَّ تَحاضُّون: يحض

بعضكم [/١] بعضا .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَكْلاً لَّمًّا . . . ﴾ أكلا شديدا ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً . . . ﴾ كثيرا .

﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . . . ﴾ .

لآخرتى التى فيها الحياة والخلود .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . . . ﴾ .

قرأ عاصم والأعمش وأهل المدينة: "لا يعذِّب عذابَه أَحَدٌ ، ولا يُوثِقُ" بالكسر جميعا .

وقرأ بذلك حمزة [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] قال حدثنا الفراء قال: وحدثنى عبد الله بن المبارك عن خالد الحذاء عن أبى قِلابة عمن سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ: "فَيَوْمَئِذٍ لا يُعذَّب عذابَه أَحَدٌ ، ولا يُوثَق وَثاقَه أَحَد" بالفتح . وقال [أبو عبد الله] محمد بن الجهم: سمعت عبد الوهاب الخفاف بهذا الإسناد مثله [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] . قال: حدثنا الفراء قال: حدثنى عبد الله بن المبارك عن سليمان أبى الربيع عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قرأ: "لا يُعذِّبُ عَذَابَه أَحَدٌ ، ولا يُوثِقُ" بالكسر ، فمن كسر

أراد: فيومئذ لا يعذِّب عذاب الله أحد ، ومن قال: "يعذَّب" بالفتح فهو أيضا على ذلك الوجه: لا يعذَّبُ أحدٌ في الدنيا كَعذاب الله يومئذ . وكذلك الوجه الأول ، لا ترى أَحدا يعذب في الدنيا كعذاب الله يومئذ . وقد وجّهه بعضهم على أنه رجلٌ مسمّى لا يعذَّب كعذابه أحد .

(19/814)

﴿ يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . . . ﴾ .

بالإيمان والمصدّقة بالثواب والبعث ﴿ ارْجِعِي . . . ﴾ تقول لهم الملائكة إذا أُعطوا كتبهم بأيمانهم ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ إلى ما أعد الله لك من الثواب . وقد يكون أن يقولوا لهم هذا القول ينوون: ارجعوا من الدنيا إلى هذا المرجع . وأنت تقول للرجل: ممن أنت ؟ فيقول: مضرى . فتقول: كن تميميا ، أو قيسيا . أى: أنت من أحد هذين . فيكون "كن" صلةً كذلك الرجوع [/ب] يكون صلة لأنه قد صار إلى القيامة ، فكأن الأمر بمعنى الخبر ، كأنه قال: أيتها النفس أنت راضية مرضية .

وقرأ ابن عباس وحده: "فادخلي في عبدي، وادخلي جنتي" والعوام (في عبادي) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للفراء حـ 3 صـ 259 . 263 ﴾

(20/814)

وقال الأخفش :

سورة (الفجر)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾

قال ﴿ بِعَادٍ ﴾ ﴿ إِرَمَ ﴾ فجعل ﴿ إِرَمَ ﴾ اسمه وبعضهم يقول ﴿ بعادِ إِرَمَ ﴾ فاضافه الى ﴿ إِرَمَ ﴾ فاما ان يكون اسم ابيهم اضافه اليهم ، واما بلدة والله أعلم .

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾

وقال ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ وقال بعضهم ﴿ قَدَّرَ ﴾ مثل ﴿ قَتَّرَ ﴾ واما ﴿ قَدَرَ ﴾ فيقول: يعطيه بالقَدْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 578 ﴾

(21/814)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الفجر «1»

2 - وَلَيالٍ عَشْرٍ يعني : عشر الأضحى .

3 - وَالشَّفْعِ : يوم الأضحى . وَالْوَتْرِ : يوم عرفة .

و«الشّفع» في اللغة : اثنان ، و«الوتر» : واحد .

قال قتادة : «الخلق كله شفع ووتر ، فأقسم بالخلق» .

وقال عمران بن حصين «2» : «الصلاة المكتوبة منها شفع ووتر» .

[و] قال ابن عباس : «الوتر آدم ، [والشفع] . شفع بزوجه حواء عليهما السلام» .

وقال ابو عبيدة : «الشّفع : الزّكا ، وهو : الزّوج. والوتر : الخسا ، وهو : الفرد» .

---

(1) هي مكية ، ومدنية عند علي بن أبي طلحة .

(2) هو عمران بن حصين الخزاعي كثير المناقب ومن أهل السوابق ، بعثه عمر يفقه أهل البصرة وتولى قضاءها ، وكان الحسن يحلف بالله ما قدمها خير لهم من عمران بن حصين ، وهو الراوي لحديث وصف المتوكلين الذين لا يرتون ولا يسترتون ولا يتطيرون وكان يسمع تسليم الملائكة عليه حتى اكتوى بالنار فلم يسمعهم عاما ثم أكرمه الله برد ذلك ، أسلم هو وأبو هريرة عام خيبر واستقضاه عبد الله بن عامر على البصرة ثم استعفاه فاعفاه . توفي سنة إثنين وخمسين . (انظر شذرات الذهب ص 58) .

(22/814)

---

4 - وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ أي يسرى فيه . كما يقال : ليل نائم ، أي ينام فيه .

5 - لِذِي حِجْرٍ أي لذي عقل .

9 - جابُوا الصَّخْرَ : نقبوه واتّخذوا منه بيوتا .

16 - فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ أي ضيّق عليه . يقال : قدرت عليه رزقه ، قثرته .

19 - والتُّراثَ : الميراث . والتاء فيه منقلبة عن واو . كما قالوا :

تجاه ، والأصل : وجاه وقالوا : تخمة ، والأضل : وخمة .

أَكْلًا لَمًّا أي شديدا . وهو من قولك : لممت الشيء ، إذا جمعته .

20 - حُبًّا جَمًّا أي كثيرا .

21 - دُكَّتِ الْأَرْضُ : دقّت جبالها وأنشازها ، حتى استوت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 452. 453 ﴾

(23/814)

وقال الغزنوى :

[سورة الفجر]

1 ، 2 وَالْفَجْرِ : صلاة الفجر «1» ، وَلَيالٍ عَشْرٍ : / عشر ذي الحجة «2» . [106/ ب]

3 وَالشَّفْعِ : الخلق ، وَالْوَتْرِ : الخالق «3» .

4 وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ : سأل المؤرّج «4» الأخفش عن سقوط الياء فقال :

---

(1) أخرج الطبريّ هذا القول في تفسيره : 30/ 168 عن ابن عباس ، وعكرمة .

(2) أخرج عبد الرزاق هذا القول في تفسيره : 2/ 369 عن مسروق ، ومجاهد ، وقتادة .

وأخرجه الطبري في تفسيره : (30/ 168 ، 169) عن ابن عباس ، وعبد اللّه بن الزبير ، ومسروق ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 552 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة والفجر» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي ، واختار الطبري هذا القول ، وصححه ابن كثير في تفسيره : 8/ 413 .

(3) أخرج الفراء هذا القول في معانيه : 3/ 259 عن عطاء ، وأخرجه الطبري في تفسيره :

30/ 171 عن مجاهد ، والحسن .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 503 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد .

(4) المؤرج : (؟ - 195 هـ -) .

هو مؤرج بن عمرو بن الحارث السدوسي الإمام اللغوي ، النحوي ، الشاعر ، قيل : إن اسمه «مرثد» و«مؤرج» لقب له .

صنف كتاب جماهير القبائل ، وغريب القرآن ، والأنواء ، والأمثال . . . وغير ذلك .

وقد طبع الكتاب الأخير بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب .

أخباره في تاريخ بغداد : 13/ 258 ، وإنباه الرواة : 3/ 327 ، ووفيات الأعيان : 5/ 304 ، وبغية الوعاة : 2/ 305 .

(24/814)

لا ، حتى تخدمني سنة . فسأله بعد سنة . فقال : أمّا الآن فالليل لا يسري وإنّما يسرى فيه ، فقد عدل به عن معناه فوجب أن يعدل عن لفظه ، كقوله «1» :

وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ولم يقل «بغية» لأنّه معدول عن «الباغية» «2» .

5 لِذِي حِجْرٍ : عقل «3» .

9 جابُوا الصَّخْرَ : قطعوها ونحتوها بيوتا .

14 إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ : لا يفوته شيء من أمور العباد .

19 أَكْلًا لَمًّا : قال الحسن «4» : أن يأكل نصيبه ونصيب صاحبه أو خادمه .

22 وَجاءَ رَبُّكَ : أمره وقضاؤه .

25 فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ : لا ينقل عذابه عنه إلى غيره فدية له .

27 يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ : أي : إلى الدّنيا «5» ، وقيل «6» :

المخبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 875.876 ﴾

---

(1) سورة مريم : آية : 28 .

(2) ينظر خبر المؤرج والأخفش في تفسير القرطبي : 20/ 43 ، وببعض الاختلاف في تفسير البغوي : 4/ 482 .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 260 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 297 ، وتفسير الطبري :

30/ 173 ، والمفردات للراغب : 109 .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 183 ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 509 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(5) جاء بعده في تفسير الماوردي : 4/ 454 : «ارجعي إلى ربك في تركها» ، ذكره عن بعض أصحاب الخواطر .

وأورده البغوي في تفسيره : 4/ 487 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 124 .

[. . . . .]

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 190 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور :

8/ 515 ، وعزا إخراجه إلى الفريابي ، وعبد بن حميد عن مجاهد رحمه اللّه .

(25/814)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الفجر

عدد 10 و89

نزلت في مكة بعد سورة والليل ، وهي ثلاثون آية ، ومثلها من عدد الآي تبارك ، والملك والسجدة .

ومائة وتسع وثلاثون كلمة ، وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفا ، لا يوجد سورة في القرآن

مبدوءة بما بدئت به ولا مختومة بما ختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "وَالْفَجْرِ 1" أقسم تعالى بانبلاج الصبح لما فيه من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الخلائق في طلب أرزاقها ، قال ابن عباس أراد به صلاة الصبح لأنها مفتتح النهار وتشهدها الملائكة مستدلا بقوله تعالى : (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً) الآية 18 من سورة الإسراء الآتية والأرجح أن المراد والله أعلم هلال ذي الحجة بدليل اقترانه بقوله "وَلَيالٍ عَشْرٍ 2" ولا عشر إلا عشر ذي الحجة لما فيها من الفضل العظيم ، لأنها أيام الاشتغال بالحج أخرج الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر .

قيل يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟

قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء .

(26/814)

وهناك أقوال أخرى بأنها عشر المحرم ، أو عشر رمضان الأواخر ، أو مطلق فجر ، وليست بشيء تجاه هذه لا تصالها بفجر العيد ولتأييدها بالحديث المار ذكره "وَالشَّفْعِ" الذكر والأنثى ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاوة ، والليل والنهار ، والأرض والسماء ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، والنور والظلمة ، والجن والإنس ، والعزة والذلة ، والقدرة والعجز والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والغنى والفقر ، والعمى والبصر ، والموت والحياة ، وغيرها من كل ما خلق اللّه "وَالْوَتْرِ 3" من ذلك كله أو هو يوم عرفة أو يوم النحر وقد جاء في الحديث المروي عن جابر المرفوع الذي أخرجه الإمام أحمد والنسائي أنه يوم النحر ويوم عرفه وجاء في حديث عمران بن حصين حين الذي أخرجه أحمد والترمذي بلفظ حديث غريب أنهما الصلاة شفعها ووترها وإذا صح هذان الحديثان على علة تضاربهما فإنهما لا يخصصان المدلول بل يكونان على طريق التمثيل فيما رؤي بتخصيصه بالذكر فائدة معتمدا بها وعليه فيجوز للمفسر أن يحمل اللفظ على معنى آخر من مشتملاته ومحتملاته لفائدة أخرى "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ 4" أي سرى فيه من عرفات إلى مزدلفة وهي ليلة النحر وقيل ليلة القدر لأن الناس تقومها ، والأول أولى لمناسبة السياق والسباق ، وقد حذفت الياء في يسر

بلا حاذف وأكتفي بالكسرة عنها للدرج.

وقد سأل رجل الأخفش عن سقوط هذه الياء ، فقال : لا أجيبك حتى تخدمني سنة ،

ففعل ثم سأله فقال الليل لا يسري وإنما يسرى فيه فلما عدل في معناه عدل عن لفظه موافقة .

(27/814)

ويقال ليل نائم أي ينام فيه وصلّى المقام أي صلّى فيه أنظر رحمك اللّه فضل العلم من أجل كلمة خدم سنة ألا لمثل هذا فليعمل العاملون ، وبه فليتنافس المتنافسون هذا ، وإذا أريد مطلق ليل فيصح أيضا على أن يلاحظ نعمة السير فيه للحفظ والوقاية من حر الشمس ومن قطاع الطريق وقطع المسافات ولهذا قيل (عند الصباح يحمد القوم السرى) وجواب القسم محذوف تقديره ليعذبن الكافر ولينعمنّ المؤمن ، ثم التفت في الاخبار إلى الخطاب فقال "هَلْ فِي ذَلِكَ" المقسم به أيها الناس "قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ 5" عقل أم لا وسمي العقل حجرا لأنه يحجر صاحبه عن النقائص وعقلا لأنه يعقله عن القبائح ونهى لأنه ينهاه عن ما لا يليق وحجى لأنه يحاج به وهذا الاستفهام تقديري أتى به للتأكيد ولا يجاب إلا ببلى أي نعم إن هذه الأقسام فيها مقتنع ومكتفى لمن له لب ويسمى العقل لبا لأنه قلب الشيء وخلاصته وإنما أقسم بتلك الأشياء لما فيها من عجائب ودلائل على كمال قدرته ووحدانيته ثم خاطب حبيبه بقوله "أَلَمْ تَرَ" يا أكمل الرسل وهذا استفهام تقديري أيضا أي ألم تعلم يقينا

علما يوازي المعاينة "كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ 6" حيث أهلكهم فلم يبق لهم أثرا ولما كانت عادا أولى وأخيرة وإن الأولى تسمى عاد إرم ليدل منها قوله "إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ 7" يدل عليه قوله في الآية 50 من سورة النجم الآتية (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى) فإذا أطلقت عادا دون إرم فالمراد بها الأخيرة والعماد هي السواري والأساطين المرتفعة أي ذات البناء الرفيع المرتكز على على العمد العالية "الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ 8" أي لم يقدر أحد أن يبني أو يعمل

قبلهم ولا بعدهم حتى الآن مثلها وهذه المدن التي نوه اللّه بعظمتها واقعة بين عمان وحضر موت بأرض رمال قال تعالى (وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ) الآية 21 من سورة الأحقاف ج 2 والأحقاف هي الرمال

(28/814)

وما قيل إنها بالإسكندرية أو الشام ينافيه سياق الآيات إلا أن يقال ما هنا يراد به عادا الأولى وما في الأحقاف الأخيرة ويلزم أيضا عدم اتحاد منازلهما لأن بينهما مسافات عظيمة بعيدة عن التوفيق .

وفي هذه الآية تخويف للكافرين وهو أنه تعالى الذي أهلك هؤلاء الذين كانوا أشد منكم يا

أهل مكة قوة وأكثر أموالا وأولادا قادر على إهلاككم ، راجع تفسير الآية 15 من قسم السجدة في ج 2 أي سورة فصلت ، وكانوا مع ذلك جسيمين طوالا ، قالوا

وسميت ذات العماد لأن عادا كان له ابنان شداد ، وشديد ، فلما مات شديد خلص الملك إلى شداد ودانت له ملوك الأرض وكان يقرأ الكتب القديمة فلما جاء على ذكر الجنة قال سأبني مثلها فبنى بناية عظيمة في مجارى عدن استغرقت ثلاثمائة سنة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وشجرها من جميع أصناف الأشجار ونسّق فيها الأنهار .

(29/814)

وعند ما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته وكانت على مسيرة يوم وليلة فبعث اللّه عليهم صيحة من السماء فهلكوا جميعا ، روى وهب بن منبه عن عبد اللّه ابن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت فبينما هو يسير في مجارى عدن إذ وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن ، وحول الحصن قصور كثيرة ، فلما دنا منها ظن أن فيها أحدا ليسأله عن إبله ، فلم ير داخلا فيها ولا خارجا منها ، فنزل عن دابته وعقلها وسل سيفه خوفا من أن يصادفه فيها أحد فيقاتله ، ودخل من باب المدينة فإذا هو ببابين خطيرين مرصعين

بالياقوت الأحمر ، فدهش وفتح الباب ودخل فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها وإذا فيها قصور في كل قصر منها غرف فوقها غرف مبنية بالذهب والفضة ، ومرصعة بأحجار اللؤلؤ والياقوت ، وإذا أبواب تلك القصور مثل مصاريع باب المدينة يقابل بعضها بعضا ، وكلها مفروشة باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فلما عاين ذلك ولم ير أحدا هاله ما رأى ثم نظر إلى الأزقة فاذا فيها أشجار مثمرة وتحت الأشجار انهار مطرّدة يجري ماؤها في قنوات من فضة ، فقال في نفسه هذه الجنة وحمل معه من لؤلؤها وترابها وبنادق مسكها وزعفرانها ورجع إلى اليمن وأظهر ما كان معه ، وحدث بما رأى ، فبلغ ت (10) ذلك معاوية فأرسل اليه فقدم ، فسأله عن ذلك فقص عليه ما رأى فبعث إلى كعب الأحبار فسأله فقال هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أسقر على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب أبل له ، ثم التفت فأبصر من قلابة على الوصف الذي ذكره كعب ، وهذه كالسد إذ رآه جماعة زمن الواثق بالله .

راجع تفسير الآية 92 من الكهف في ج 2 .

هذا وكلما جاء لفظ كعب بلا نسبة فالمراد به هذا ، واني لم أنقل عنه ما يتعلق بأمر الدين البته خشية التهمة لأنه متوغل بالكتب القديمة وهو تابعي والتابعيون غيره كثير أكتفى بالنقل عنهم عند الحاجة .

قالوا ولما أراد عملها ، اخرج جماعة يطوفون في الأرض ليجدوا أرضا موافقة ، فوقفوا على صحراء نقية من التلال فيها عيون ماء وحروج فاختاروها وكان عمر الملك عند بنائها تسعمائه سنة ، ولما فرغوا منها قال لهم اجعلوا حولها حصنا وابنوا حوله الف قصر واجعلوا على كل قصر علما ليقيم بها الوزراء ففعلوا ، ولما أمر بالنقلة استغرقت نقلتهم عشر سنين ولما قربوا منها عن يوم وليلة اخذتهم الصيحة كما تقدم قال تعالى "وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا" قطعوا "الصَّخْرَ بِالْوادِ 9" فعل بهم أيضا كما فعل بعاد وهم أول من قطعوا الصخور في الوديان ونحتوه واتخذوا منه مساكن وبيوتا وقالوا انهم بنوا ألفا وتسعمائة مدينة من الحجارة المنحوتة وسنأتي قصتهم مفصلة في تفسير الآية 79 من الأعراف الآتية "وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ 10" أي الملك الراسخ ذي الجنود الكثيرة الشديد البطش قال الأسود بن يعقر بن عنينة .

ولقد غنوا فيها [بأنواع] النعم في ظل ملك راسخ الأوتاد

وكان إذا عذب أحدا (عذبه اللّه) ربطه بين أوتاد اربعة ثم أوقع عليه عذابه .

قاتله اللّه فلذلك سمى من الأوتاد وكانت مضارب (بيوت شعر) يضربونها إذا نزلوا في البادية وخباء كثيرة لكثرة جنده وما يدل على أنه كان يعذب بالأوتاد .

مطلب قصة ما شطة بنت فرعون :

ما رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس أن ماشطة بنت فرعون زوجة حزقيل الذي كان يكتم إيمانه كما سيأتي في الآية 20 من سورة القصص الآتية والآية 78 من سورة المؤمن في ج 2 وكانت هي تكتم إيمانها أيضا بينما كانت تمشط ابنة فرعون إذ سقط من يدها ، فقالت تعس من كفر بالله .

فقالت بنت فرعون :

وهل إله غير أبي ؟ قالت إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له .

فأخبرت أباها بذلك فسألها قالت صدقت فحملها على الكفر فأبت فمدها بين أربعة أوتاد وأرسل عليها الحيات والعقارب ، وقال إن لم تكفري عذبتك هكذا شهرا .

(31/814)

قالت لو عذبتني سبعين شهرا ما كفرت .

فلما رأى إصرارها هددها بذبح أولادها ، ولم تفعل ، فذبح ابنها الكبير على صدرها وقال إن لم تكفري ذبحت الاخر على فيك ، قالت لو ذبحت أهل الأرض ما كفرت .

فبادر بذبحه فجزعت فأنطقه الله وقال يا أماه اصبري ولا تجزعي فقد بنى الله لك بيتا في الجنة .

فصبرت ولم تلبث ان ماتت رحمها اللّه ، فأسكنها اللّه الجنة .

وهكذا فعل بآسية بنت مزاحم زوجته كما سيأتي في الآية 11 من سورة التحريم في ج 3 ، وصبرت هذه وعذابها أشد من عذاب بلال المار ذكره في الآية 10 من سورة والليل المارة ، قالوا وبعث رجلين في طلب زوجها فوجدوه يصلي والوحوش وراءه صفوفا ، فتركوه وانصرفوا فقال حزقيل اللهم انك تعلم اني كتمت إيماني مائة سنة فأيما هذين الرجلين كتم علي فاهده إلى دينك وأيما منهما أظهر علي فعجل عقوبته .

فأخبر أحدهما فرعون وكتم الآخر فقتل الذي أخبره وأنعم على الآخر اجابة لدعوته قال تعالى "الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ 11" وتجبروا على أهلها وارتكبوا انواع المعاصي "فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ 12" قتلا ونهبا وسبيا وغصبا وأخذوا ظلما وعدوانا وتعذيبا وتوغلوا في سائر البشر بانواع التعدي وهم يتنعمون بنعم اللّه ، فلما أظهر اللّه عتوهم وعنادهم للملأ وعلم إصرارهم أزلا وانه أمهلهم ليطلع خلقه على أفعالهم المستحقة لتعذيبهم ولم ينجع بهم ذلك الإمهال حتى قضي أمرهم وحان وقت أخذهم المقدر عنده ، جنح إلى هلاكهم "فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ" يا محمد "سَوْطَ عَذابٍ 13" لونا من ألوانه ونوعا من أنواعه ، والسوط يشعر بزيادة الألم أي عذبهم عذابا شديدا ، كان الحسن إذا قرأ هذه الآية يقول ان عند اللّه أسواطا كثيرة فأخذهم بسوط منها "إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ 14"

يرقب أعمال عباده كلها فيرى ويسمع ما يقع منهم لا يفوته شيء لأن المرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد ومن كان عالما بأحوال خلقه لا يفوته شيء من أمرهم ، وهذا جواب القسم ، والجمل ما بين القسم وجوابه اعتراضية ، وقيل جواب القسم محذوف وتقديره ليعذبن الكافر وربّ هذه الأشياء ويجزي كلا بفعله إن خيرا فخير وإن شرا فشر قال . ابن عطية المرصاد صيغة مبالغة كالمطعام والمطعان ، ورده أبو حيان بأنه لو كان كما زعم لما دخلت الباء لإنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة ، ثم شرع يفصل أحوال خلقه فقال "فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ" أختبره وامتحنه "رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ" بالمال والولد والعافية والجاه "وَنَعَّمَهُ" بما وسع عليه من النساء والقصور والبساتين وغيرها من خدم وحشم "فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ 15" بما أعطاني وفضلني بما اولاني "وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ" ما هذه هنا وفي الآية الأولى وما شابهها في غير القرآن يعدونها زائدة اما في القرآن فتسمى صلة يؤتى بها لتأكيد القول وتحسينه لأن كلام اللّه مبرأ عن الزيادة كما هو منزه عن النقص وسيأتي لهذا بحث في الآية 135 من سورة التوبة في ج 3 "فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ" ضيقه وقلله عن مقدار بلغته وكفايته "فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ 16" بما افقرني واذلني بما أعوزني .

وهذه الآية عامة لتصدرها بلفظ الإنسان فتشمل كل فرد وما قيل انها نزلت في امية بن خلف الحمجي خاصة فعلى فرض صحته لا ينفي عمومها لان العبرة دائما لعموم اللفظ لا لخصوص المعنى أو السبب ، لذلك ردّ اللّه تعالى على من ظن ان سعة الرزق إكرام وضيقه اهانة بقوله "كلّا" اي ليس الأمر كذلك فلا يظن به إذ ليس كل من اعنيته لكرامته ولا كل من أفقرته لاهانته لان الغنى والفقر بحكمتي وتقديري وإنما أكرم المؤمن بطاعته لي وأهين الكافر بمعصيته واني أنعم على عبدي لاختبره أيشكر نعمتي أم يكفر وأضيق عليه لأمتحنه أيصبر أم يفجر .

وليعلم الناس ذلك راجع تفسير الآية 26 من سورة الأنبياء في ج 2 ، ولئلا يقولوا كما قال قارون (إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي) الآية 76 من سورة القصص الآتية مع أنه أوتيه من غير استحقاق

ابتلاء "بل" هناك ما هو أشر وهو أنكم "لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ 17" فلا تبرّونه ولا تراعون حقه مما أنعم اللّه عليكم به "وَلا تَحَاضُّونَ" بحث بعضكم بعضا "عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ 18" من فضلكم بل تهملونه ولا تنظرون في أمره "وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ" الميراث "أَكْلًا لَمًّا 19" لا تعطون

منه أحدا ، واللّهم الجمع بين الحلال والحرام وعليه قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أي الرجال المهذب

وذلك انهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون نصيبهم فذمهم اللّه لشدة حرصهم على جمعه جمعا شديدا من غير نظر إلى حل وحرمة "وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا 20" كثيرا جدا قال امية :

ان تغفر اللهم فاغفر جمّا وأي عبد لك لا ألما

لأنهم كانوا ولعين به مع الحرص عليه والبخل به ومنع الحقوق منه

(34/814)

"كلّا" ردع وزجر لمن هذه حاله اي لا ينبغي ان يتكالبوا على ذلك ، ولا ان يشغفوا به ، بل كان عليهم ان يعملوا بما أمر اللّه قبل ان يأتيهم يوم يتلهفون على ما أسلفوا ويتندّمون على ما فرطوا من حيث لا ينفعهم الندم "إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ" زلزلت بما فيها من بناء وجبال وبحار وغيرها "دَكًّا دَكًّا 21" مرة بعد اخرى حتى لا يبقى فيها ولاء عليها شيء "وَجاءَ رَبُّكَ" جلت عظمته وهذا تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين لآثار قهره وسلطانه لأن الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من امارات الهيبة وعلامات العزة وإشارات العظمة ما لا يحضر

بحضور غيره من خواصه .

مطلب آيات الصفات والقول فيها :

وهذة من آيات الصفات التي سكت عن تفسيرها السلف الصالح وبعض الخلف وأجروها على حالها كما جاءت من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف ، والتزموا فيها الإيمان بظاهرها ، وتأولها المتكلمون وبعض المتأخرين فقالوا جاء أمره او قضاؤه او دلائل آياته وجعلوا مجيئها مجيئا له تفخيما وإجلالا لأن الحركة والسكون محال عليه جل شأنه ولكل وجهة ، واجراؤها على ما هي عليه أولى "وَالْمَلَكُ" أل فيه للجنس فيشمل جميع ملائكة السماء أما ملائكة الأرض فأنهم يقفون في ذلك الموقف لاداء التحية والتكريم قياما بأبهات الكبرياء والتعظيم "صَفًّا صَفًّا 22" أي تقف ملائكة كل سماء صفا على حده فيحدقون بالجن والإنس ويحيطون بهم "وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ" في ذلك اليوم المهيب الذي تأتي فيه ملائكة اللّه وهو يوم القيامة "بِجَهَنَّمَ" نفسها وينادى من قبل اللّه هذه التي أعدت للكافرين ، كما تبرز الجنة وينادى هذه المعدة للمتقين .

اخرج مسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال رسول اللّه : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك يجرونها .

وفي رواية : تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير .

وجاء في بعض الآثار عن علي كرم اللّه وجهه انه سأل حضرة الرسول فقال كيف يجاء بها يا رسول اللّه ؟ فقال تقاد بسبعين الف زمام يقوده الف ملك .

هذا وفي أول المجيء بالبروز ، وقال هو على حد قوله تعالى (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى) الآية 31 من النازعات في ج 2 وجمل الآية على المجاز لزعمه ان الحقيقة متعذرة في ذلك قال باستحالة الانتقال الذي يقتضيه المجيء الحقيقي على جهنم وهو لعمري جائز إذ لا يستحيل على مالك أمر ذلك اليوم بل يجوز أن تخرج وتنتقل من محلها إلى المحشر والى الموقف ليطلع عليها أهله ثم تعود إلى مكانها بمجرد أمره لها بين الكاف والنون ، وان في ذلك اليوم وراء ما تتخيله الأذهان ، وليس ذلك بأعظم من أنزال العرش .

راجع تفسير الآية 17 من سورة الحاقّة في ج 2 فإنكار مجيء جهنم يستدعي إنكار نزول عرش الرحمن لأن العلة فيهما واحدة وهي دعوى الاستحالة وذلك كفر والعياذ باللّه ، لذلك يجب الاعتقاد بظاهر آيات الصفات كما هي طريقة السلف الصالح إذ لا يجوز أن يخطر بالبال أن اللّه تعالى يعجزه شيء قبله العقل أم لا .

راجع

تفسير الاية 67 من سورة الزّمر ج 2 ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 15 من سورة فاطر الآتية فراجعه .

قال تعالى "يَوْمَئِذٍ" أي يوم يجاء بجهنم ويراها أهلها وسائر من بالموقف على ما وصفها اللّه لهم على لسان أنبيائهم "يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ" ما فرط في دنياه من انكار البعث وتكذيب الأنبياء ويندم على ما وقع منه من المخالفات "و" لكن "أَنَّى لَهُ الذِّكْرى 23" أي لا تنفعه إذ ذاك حيث لا مجال للرجوع للدنيا لقبول التوبة ولا للاتعاظ ولكنه "يقول" متحسرا متأسفا "يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ" عملا صالحا "لِحَياتِي 24" هذه في هذا اليوم الذي لا موت بعده يوم الحياة الأبدية التي كنت أنكرها في الدنيا "فَيَوْمَئِذٍ" يوم يكون ما ذكر "لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ 25" من مخلوقاته "وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ" بالسلاسل والأغلال "أَحَدٌ 26" أيضا أي أن اللّه تعالى هو ذاته المقدسة تتولى العذاب للإنسان العاتي المذكور في الآية السابقة بما يعم أمية بن خلف وغيره وهذا على حد قولهم "قاتل السلطان" والمراد جنده لأنه لا يقاتل عادة.

وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وعليه يكون المعنى، إن الإنسان أشد عذابا من غيره لأن اللّه ميّزه بالعقل على سائر الحيوانات ليميّز بين الخير والشر أما وأنه لم يفعل وصرف ذلك العقل إلى شهواته ولذاته فقد جعل اللّه عذابه أعظم من غيره لتناهيه بالكفر.

وجرى على هذه القراءة ابن سيرين وابن أبي اسحق وأبو حيوه وابن أبي عبلة وأبو بحرية

والكسائي وسلام ويعقوب وسهل وخارجة تلقيا عن ابن عمر رضي اللّه عنهما .

قال ابن الحاجب إن في عود الضمير على اللّه على قراءة عاصم ورواية حفص الجارية في المصاحف على بناء الفعلين للفاعل فوات للتعظيم الذي يقتضيه السياق وفوات المعنى ، إذ عليها ان اللّه تعالى هو الّذي يتولى عذاب الكافر ووثاقه ليس بسديد لأن اللّه ذكر ملائكة للعذاب ووصفهم بالغلظة والشدة وانهم هم الذين يتولون ذلك قال تعالى "يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ 27" الآمنة المتأنسة

(37/814)

، وأل فيها للجنس أيضا فتشمل كل فرد من أفرادها ، وقد خاطبها جلّ خطابه مخاطبة إكرام تكريما

لها ، وما قيل إن هذه الآية نزلت في حمزة أو خبيب الأنصاري الذي صلبه كفار قريش في مكة أو في عثمان لأنه اشترى بئر رومة ، بعيد عن الصحة ، لأن عثمان اشتراها بالمدينة وحمزة قتل في بدر وكذلك حادثة صلب خبيب وقعت والرسول بالمدينة .

وهذه السورة نزلت بمكة قولا واحدا لذلك فإنها عامة في كل نفس طاهرة موقنة بالحساب ، وكذلك لا دليل على القول بأنها نزلت في أبي بكر أيضا لتجهيزه جيش العسرة لذلك

السبب .

على ان كل هؤلاء داخلون في عمومها دخولا أوليا لانهم ممن أكرمهم اللّه القائل "ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ" لتري ما وعدك به من الثواب حالة كونك "راضِيَةً" بلقائه وبما منّ عليك من النعيم المقيم الذي وعدك به رسوله في الدنيا "مَرْضِيَّةً 28" عنده محظية بسبب عملك الصالح ، ويقول لك ربك بلسان ملائكته الكرام "فَادْخُلِي فِي" زمرة "عِبادِي 29" الصالحين المرضى عنهم وعليهم "وَادْخُلِي جَنَّتِي 30" معهم .

هذا ومن قال ان المراد بالنفس هنا الروح فيكون المعنى ادخلي في أجساد عبادي ، وليس بوجيه إذ ينافيه "وَادْخُلِي جَنَّتِي" فتكون الروح هي الداخلة لا الجسد .

تأمل .

قال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط ، فدخل نعشه ثم لم ير خارجا منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ، قال بعض أهل الإشارات "يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إلى الدنيا ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ بتركها والرجوع اليه هو سبيل الآخرة ، وفقنا اللّه اليه .

وقال الشيخ محي الدين العربي :

ادخلي في زمرة عبادي المخلصين في أهل التوحيد الذاتي وادخلي في جنتي المخصوصة بي أو جنة الذات .

(38/814)

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 142 . 152 ﴾

(39/814)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الفجر

مكية أو مدنية

لذي حجر تام قاله أبو حاتم وغيره إن ربك لبالمرصاد تام وهو جواب القسم فمن وقف على أن يقال وقف صالح أو نحوه لا تام وقد تقف العوام على بعاد ارم وليس بحسن لان بعده نعت

له أكر من مفهوم أهانن حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف وقيل تام كلا حسن وهو احسن من الوقف على أهانن وقال أبو عمرو كلا في الموضعين تام لأنها بمعنى لا وخالف الأصل في الثانية فقال لا يوقف عليها هنا جما تام قدمت لحياتي كاف وثاقه أحد تام آخر السورة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(40/814)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الفجر

مكيّة أو مدنيَّة

إذا يسر (كاف) عند نافع على أنَّ جواب القسم محذوف تقديره لتبعثنَّ أو لتعذبنَّ يدل على ذلك قوله فصب عليهم ربك سوط عذاب وقال أبو حاتم لذي حجر وقال الأخفش جواب القسم إنَّ ربَّك لبالمرصاد وهو التام

بعاد إرم وقف عند نافع قال الكسائي جيد يقال عاد الذين هم بإرم وقال السدي إرم قبيلة من عاد كانت تدعى إرم ذات العماد يعني أصحاب خيام لا يقيمون

بعاد إرم ليس بوقف لأنَّ ما بعده نعت له قرأ العامة بعاد مصروفاً إرم بكسر الهمزة وفتح

الراء والميم اسم قبيلة وقرأ الحسن يعاد غير مصروف مضافاً إلى إرم جعله اسم بلدة على حذف مضاف أي أهل إرم وقال الصاغاني في العباب في اللغة من لم يضف جعل إرم ولم يصرفه لأنه جعل عاد اسم ابيهم وإرم اسم القبيلة وجعله بدلاً منه ومن أضاف ولم يصرف جعله اسم أمهم أو اسم بلدة اهـ في البلاد ليس بوقف لأنَّ وثمود عطف على عاد وهكذا إلى قوله سوط عذاب والوقف الذي لاخلاف فيه لبالمرصاد ولا يوقف على عاد ولا على فرعون ذي الأوتاد ولا على طغوا في البلاد ولا على فأكثروا فيها الفساد لأنَّ العطف يصير الأشياء كالشيء الواحد

إنَّ ربَّك لبالمرصاد (تام)

أكرمن (كاف) وهو بغير ياء وكان ابن كثير يقف عليه بالياء ومثله أهانن

وقال أبو عمرو كلا في الموضعين تام لأنهما بمعنى لا وقال غيره لا يوقف عليها في الموضعين لأنه لامقتضى للوقف عليها

اليتيم (جائز) ومثله المسكين وكذا أكلا لما وقرئ تكرمون بالتاء الفوقية والياء التحتية وكذا المعاطيف عليه قرأ أبو عمرو يكرمون والثلاثة بعده بالياء التحتية والباقون بالتاء الفوقية في الجميع خطاباً للإنسان المراد به الجنس وهو تكرمون ولا تخاصمون وتأكلون وتحبون

جماً (تام)

دكًّا الثاني (حسن) ومثله صفاً الثاني ولا وقف من قوله وجيء يومئذ إلى الذكرى فلا يوقف على بجهنم لأنَّ يومئذ بعده بدل من إذ قبله

الذكرى (حسن)

(41/814)

لحياتي (كاف)

أحد الثاني (تام) على القراءتين قرأ الكسائي لايعذب ولا يوثق مبنيين للمفعول والباقون ببنائهما للفاعل أي لايعذب أحدٌ تعذيباً مثل تعذيب الله الكافر ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال

مرضية (حسن) ومثله في عبادي

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(42/814)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الفجر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ ابن عباس – وروى ذلك أيضا عن الضحاك – : "بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" .

وروى أيضا عن الضحاك : "بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" ، الألف مفتوحة ، والراء ساكنة .

وروى عن ابن الزبير : "بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" .

وروى عن ابن الزبير أيضا : "بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" ، بكسر الميم .

قال أبو الفتح : أما "أَرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ"

فجعلها رميما ، رمت هي واسترمت ، وأرمها غيرها ، ورم العظم يرم رما ورميما : إذا

بلى ، ونخر . قال :

والنيب إن تعرمني رمة خلقا بعد الممات فإني كنت أثئر 1 [166ظ]

وأما "أرم" فتخفيف أرم المروية عن ابن الزبير .

وأما "بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" فأضاف "عاد" إلى "إرم" ، المدينة التي يقال لها : ذات العماد

، أي : أصحاب الأعلام هذه المدينة ، والأرم : العلم ، وجمعه آرام . قال لبيد :

مثلا آرامها 2

أي : أعلامها .

وقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ تفسير لقوله : فعل بعاد ، فكأن قائلا قال : ما صنع بها ؟ فقال : "إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ

" ، أي : مدينتهم ، وهذا يدل على هلاكهم .

وأما "بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" فعلى أنه أراد : أهل أرم ، هذه المدينة ، فحذف المضاف وهو يريده ، كما مضى من قوله : ﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِب3 ﴾ ، أي : زينة الكواكب .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وعكرمة والضحاك وأبي شيخ الهنائي والكلبي وابن السميفع : "فَادْخُلِي فِي عِبْدِي4" ، على واحد .

---

1 البيت للبيد ، والنيب : الإبل المسنة . وتعرمني : من عرم العظم ، كنصر وضرب : عرق ما عليه من اللحم . والرمة : العظام البالية ، تأكلها الإبل ، تملح بها بعد الخلة . وأثئر : افتعل من النار ، والمراد أني كنت اعقرها . انظر الديوان : 63 ، وفي "تعرمني" روايتان أخريتان ، ذكرهما اللسان "عرا" .

2 من قوله في المعلقة :

زجلا كأن نعاج توضح فوقها وظباء وجرة مثلا آرامها

والزجل الجماعات ، جمع زجلة ، ونصبها على الحال من فاعل "تحملوا" في بيت سابق .

والنعاج : أناث بقر الوحش ، شبه بهن النساء ، وتوضح ووجرة : موضعان . والآرام : جمع

رئم ، وهو الظبي الخالص البياض . ويروى "عطفا" مكان "مثلا" . وانظر الديوان : 300 ، وشرح المعلقات السبع للزوزني : 95 .

3 سورة الصافات : 6 .

4 سورة الفجر : 29 .

(43/814)

قال أبو الفتح : هذا لفظ الواحد ، ومعنى الجماعة ، أي : عبادي ، كالقراءة العامة . وقد تقدم القول على نظيره1 ، وأنه إنما خرج بلفظ الواحد ليس اتساعا واختصارا عاريا من المعنى ، وذلك أنه جعل عباده كالواحد ، أي : لا خلاف بينهم في عبوديته ، كما لا يخالف الإنسان نفسه ، فيصير كقول النبي "صلى الله عليه وسلم" : وهم يد على من سواهم ، أي : متضافرون متعانون ، لا يقعد بعضهم عن بعض ، كما لا يخون بعض البلد بعضا . وضد هذا قوله "تعالى" : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ .2 انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 359. 360 ﴾

---

1 انظر الصفحة 84 من هذا الجزء .

2 سورة الحشر : 14 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الفجر

مكية وقيل مدنية وآيها عشرون وتسع بصري وثلاثون شامي وكوفي وآيتان حجازي خلافها خمس ونعمه حجازي وحمصي ومثلها رزقه حجازي أكرمن غير حمصي بجهنم حجازي وشامي في عبادي كوفي مشبه الفاصلة موضع عذاب القراآت أثبت الياء بعد الراء وصلا في يسر نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وإثباتها هو الأصل لأنها لام فعل مضارع مرفوع وحذفها الباقون موافقة لخط المصحف الكريم ورؤوس الآي ومن فرق بين حالتي الوقف والوصل فلأن الوقف محل استراحة وتقدم آخر باب القراآت عن النشر أن الوقف على يسر بالترقيق أولى عند من حذف الياء وأن الوقف على والفجر بالتفخيم أولى وتقدم توجيه ذلك ثمة وأن الصحيح تفخيم نحو الفجر للكل ومقابلة الواهي يعتبر عروض الوقف

واختلف فيوالوتر) الآية 3 فحمزة والكسائي وخلف بكسر الواو وافقهم الحسن والأعمش والباقون بفتحها لغتان الفتح لقريش والكسر لتميم وعن الحسن وبعاد بفتح الدال

غير مصروف بمعنى القبيلة وأثبت الياء في بالواد وصلا ورش وفي الحالين ابن كثير ويعقوب لكن اختلف عن قنبل في الوقف والإثبات له فيه طريق التيسير إذ هو من قراءة الداني على فارس وعنه أسند رواية قنبل فيه وفي النشر كلا الوجهين صحيح عن قنبل في الوقف نصا وأداء والباقون بالحذف فيهما

وأمال ابتليه معا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وفتح ياء الإضافة من ربي معا نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأثبت الياء في أكرمن وصلا نافع وأبو جعفر وفي الحالين فيهما البزي ويعقوب واختلف فيهما عن أبي عمرو وصلا والذي عليه الجمهور التخيير والآخرون بالحذف وعليه عول الداني والشاطبي قال في النشر والوجهان صحيحان مشهوران عن أبي عمرو والتخيير أكثر والحذف أشهر

واختلف في (فقدر) الآية 16 فابن عامر وأبو جعفر بتشديد الدال والباقون بتخفيفها لغتان بمعنى التضييق

(45/814)

واختلف في (تكرمون وتحضون وتأكلون وتحبون) الآية 17 فأبو عمرو ويعقوب سوى الزيبري عن روح بالياء من تحت في الأربعة حملا على معنى الإنسان المتقدم وافقهما

اليزيدي والباقون بالخطاب للإنسان المراد به الجنس التفاتا ومعهم الزبيري عن روح وافقهم الحسن وابن محيصن بخلفه وأثبت الألف بعد الحاء في ( ) تحاضون ( ) مع فتحها والمد للساكنين عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف والأصل تتحاضون بتائين حذفت إحداهما تخفيفا وافقهم الأعمش وابن محيصن في وجه له وعنه ضم التاء مع الألف والحث الحض والإغراء وأشم الجيم من جيء هشام والكسائي ورويس وأمال وأني حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما

واختلف في (يعذب) و (يوثق) الآية 25 26 فالكسائي ويعقوب بفتح الذال والمثلثة مبنيين للمفعول والنائب أحد وافقهما الحسن والباقون بكسرهما مبنيين للفاعل والهاء لله تعالى أي لا يتولى عذابه ووثاقه سواه إذ الأمر كله له أو للإنسان أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه

المرسوم وجيء يومئذ بزيادة ألف بين الجيم والياء كما في مصحف الأندلسيين معولين على المدني العام في عبدي بحذف الألف فيما رواه نافع وكتبوه بالياء وعن ابن عباس وسعد بن أبي وقاص عبدي بالتوحيد ياءات الإضافة ثنتان ( ) ربي أكرمن ( ) ربي أهانن ( ) الآية 15 16 والزوائد أربع (يسر بالواد أكرمن أهانن) الآية 4 9 15 16 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والفجر "

" والوتر " كسر الواو الأخوان وخلف وفتحها غيرهم .

" يسر " أثبت ياءه وصلا المدنيان والبصري وفي الحالين المكي ويعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" إرم " فخم ورش راءه قولا واحدا من طريق التيسير والشاطبية لكونه اسما أعجميا أو مشابها للأسماء الأعجمية .

" بالواد " أثبات الياء وصلا ورش وفي الحالين البزي ويعقوب ، وأما قنبل فأثبتها وصلا واختلف عنه وقفا فروي عنه إثباتها وروى عنه حذفها والوجهان صحيحان مقروء بهما من طريق الحرز والباقون بحذفها مطلقا .

" عليهم ابتلاه " جلي .

" لبالمرصاد " ورش كغيره في تفخيم الراء لوجود حرف الاستعلاء .

" ربي أكرمن " ربي أهانن ، فتح الياء فيهما المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم وأثبت الياء في أكرمن وأهانن وصلا المدنيان وفي الحالين البزي ويعقوب ، وأما أبو عمرو فحذفها في الوقف قولا واحدا وأما في الوصل فروي عنه إثباتها وروي عنه حذفها وهو

الأشهر وإن كان الوجهان عنه صحيحين . والباقون بحذفها مطلقا .

" فقدر " شدد الدال الشامي وأبو جعفر وخففها غيرهما .

" تكرمون " ولا تحاضون ، وتأكلون ، وتحبون ، قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة مع ضم الحاء ، في " تحضون " وأبو عمرو ويعقوب بياء الغيبة في الأربعة مع ضم الحاء كذلك في تحضون ، والكوفيون وأبو جعفر بتاء الخطاب في الأربعة مع فتح الحاء وألف بعدها مع المد المشبع في تحضون .

" وجيء " قرأ هشام ورويس والكسائي بإشمام كسرة الجيم الضم وغيرهم بالكسرة الخالصة .

" لا يعذب " ولا يوثق ، قرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال والثاء والباقون بكسرهما

" المطمئنة " لحمزة فيه وقفا تسهيل الهمزة بين بين فقط .

" جنتي " آخر السورة وآخر الربع .

(47/814)

الممال

سورة الأعلى من السور الإحدى عشرة .

" رءوس الآي الممالة ":

الأعلى ، فسوى ، فهدى ، المرعى ، أحوى ، تنسى ، يخفى ، لليسرى ، الذكرى ، يخشى ، الأشقى ، الكبرى ، يحيى ، تزكى ، فصلى ، الدنيا ، وأبقى ، الأولى ، وموسى ، وهي معدودة إجماعا . وقد أمالها كلها الأخوان وخلف ، وأمال ذوات الراء منها أبو عمرو وقلل غيرها وقللها كلها ورش قولا واحدا لا فرق في ذلك بين ذوات الراء وغيرها .

" ما ليس برأس آية ":

" شاء وجاء " لابن ذكوان وخلف وحمزة ، يصلى لدى الوقف وأتاك وتصلى وتسقى وتولى وابتلاه معا بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . وظاهر أن ورشا في يصلى وتصلى يفخم اللام إن فتح ويرققها إن قلل إلا فصلى فليس له فيه إلا التقليل مع الترقيق لكونه رأس آية . آنية بإمالة الهمزة والألف بعدها لهشام ، وبإمالة الياء التي قبل هاء التأنيث وحدها أو بإمالتها مع هاء التأنيث للكسائي ، وأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه ، الذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " بل تؤثرون لهشام والأخوين .

" الكبير " ذلك قسم ، كيف فعل ، فعل ربك ، فيقول رب معا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 350 . 352 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الفجر

قوله تعالى ﴿ والشفع والوتر ﴾ يقرأ بفتح الواو وكسرها فالحجة لمن كسر أنه جعل الشفع الزوج وهما آدم وحواء والوتر الفرد وهو الله عز وجل وقيل بل الشفع ما ازدوج من الصلوات كالغداة والظهر والعصر والوتر ما انفرد منها كصلاة المغرب وركعة الوتر والحجة لمن فتح انه طابق بين لفظ الشفع ولفظ الوتر وقيل الفتح والكسر فيه اذا كان بمعنى الفرد لغتان فصيحتان فالفتح لاهل الحجاز والكسر لتميم فأما من الترة والذحل فبالكسر لا غير وهو المطالبة بالدم ولا يستعمل في غيره

قوله تعالى ﴿ إذا يسر ﴾ يقرأ بإثبات الياء وصلا ووقفا وبحذفها كذلك وبإثباتها وصلا وحذفها وقفا وقد تقدم الاحتجاج لذلك بما يغني عن اعادته ها هنا ومثله قوله ﴿ بالواد ﴾

قوله تعالى ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ يقرا بتشديد الدال وتخفيفها وقد تقدمت الحجة في

ذلك مستقصاة في غير موضع

قوله تعالى ﴿ أكرمن ﴾ و ﴿ أهانن ﴾ يقرأ بإثبات الياء فيهما وصلا وحذفها وقفا واسكان النون من غير كسر واحتج قاريء ذلك بقول الاعشي

ومن شأنيء ظاهر غمره

اذا ما انتسبت له أنكرن

قوله تعالى ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ﴾ ﴿ ولا تحاضون ﴾ و ﴿ يأكلون ﴾ ﴿ وتحبون ﴾ يقرأن كلهن بالياء والتاء الا ما قرأه اهل الكوفة ﴿ ولا تحاضون ﴾ بزيادة الف بين الحاء والضاد فالحجة لمن قرأه بالياء انه رده على ما قبله والحجة لمن قرأه بالتاء انه دل بذلك على ان النبي صلى الله عليه وسلم خاطبهم به والحجة للكوفيين في زيادة الالف قرب معنى فاعلته من فعلته

(49/814)

قوله تعال ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ ﴿ ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ يقرآن بكسر الذال والثاء وفتحهما فالحجة لمن كسرهما انه جعلهما فعلين لفاعل هو الله عز وجل ومعناه لا يعذب عذاب الله احد ولا يوثق وثاق الله احد كما كانوا يعهدون في الدنيا فالهاء كناية

عن الله عز وجل في موضع خفض والحجة لمن فتح انه جعلهما فعلين لم يسم فاعلهما ورفع احدا لانه اقامه مقام الفاعل والهاء في موضع خفض لانها للمعذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 369 . 371 ﴾

(50/814)

وقال ابن زنجلة :

89 – سورة الفجر

والشفع والوتر والليل إذا يسر 4 , 3

قرأ حمزة والكسائي والشفع والوتر بكسر الواو وقرأ الباقون بالفتحح وهما لغتان مثل الجسر والجسر

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والليل إذا يسري بالياء في الوصل وأثبتها ابن كثير في الوقف لأن الياء لام الفعل من سرى يسري مثل قضى يقضي فوقف على الأصل ومن أثبت الياء في الوصل وحذف في الوقف تبع المصحف في الوقف والأصل في الوصل وحذفها أهل الشام والكوفة والكسرة تنوب عن الياء وأما إذا ما ابتله فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن 16

قرأ ابن عامر فقدر عليه بالتشديد أي ضيق وقرأ الباقون بالتخفيف وهو الاختيار

وحجتهم قوله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وهما لغتان والمعنى ضيق عليه رزقه ولم يوسعه له

كلا بل لا تكرمون ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال 17 - 20

قرأ أبو عمرو كلا بل بلا يكرمون ولا يحضون ويأكلون ويحبون بالياء وحجته أنه أتى عقيب الخبر عن الناس فأخرج الخبر عنهم إذ أتى في سياق الخبر عنهم ليأتلف الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون بالتاء على المخاطبة أي قل لهم وقالوا إن المخاطبة بالتوبيخ أبلغ من الخبر فجعل الكلام بلفظ الخطاب

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ولا تحاضون بالألف أي لا يحض بعضهم على ذلك بعضا وحجتهم قوله وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أي أوصى بعضهم بعضا والأصل تتحاضون فحذفت التاء الثانية للتاء الأولى

وقرأ الباقون تحضون أي لا تأمرون بإطعام المسكين وحجتهم قوله إنه لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين قال محمد بن يزيد قوله لا يحضون أي لا يحض الرجل غيره فها هنا مفعول محذوف مستغنى عن ذكره كقوله تأمرون بالمعروف أي تأمرون غيركم وحذف

المفعول ها هنا كالمجيء به إذ فهم معناه فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد 25 , 26

(51/814)

قرأ الكسائي فيومئذ لا يعذب عذابه أحد بفتح الذال ولا يوثق بفتح الثاء المعنى لا يعذب أحد يوم القيامة كما يعذب الكافر

وقرأ الباقون لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق بكسر الذال والثاء المعنى لا يعذب عذاب الله أحد ولا يوثق وثاق الله أحد أي لا يعذب أحد في الدنيا مثل عذاب الله في الآخرة قال الحسن قد علم الله أن في الدنيا عذابا ووثاقا فقال فيومئذ لا يعذب عذابه أحد في الدنيا ولا يوثق وثاقه أحد في الدنيا

قال الزجاج من قرأ يعذب فالمعنى لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد الملك يومئذ له وحده

الياءات

قرأ ابن كثير وورش بالوادي بالياء في الوصل وابن كثير في الوقف بالياء أيضا وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف

قرأ نافع والبزي عن ابن كثير أكرمني 15 وأهانني 16 بالياء فيهما في الوصل واثبت البزي

في الوقف ايضا وقد ذكرت الحجة في غير موضع من القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 764 ﴾

(52/814)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة والفجر 89

مكية وقال علي بن أبي طلحة هي مدنية وقد ذكر نظيرتها في غير المدنيين والمكي ولا نظير لها فيهما

وكلمها مئة وسبع وثلاثون كلمة

وحروفها خمس مئة وسبعة وتسعون حرفا

وهي تسع وعشرون آية في البصري وثلاثون في الكوفي والشامي واثنتان وثلاثون في المدنيين والمكي

اختلافها أربع آيات (﴿ فأكرمه ونعمه ﴾) و (﴿ فقدر عليه رزقه ﴾) عدهما المدنيان والمكي ولم يعدهما الباقون (﴿ يومئذ بجهنم ﴾) لم يعدها الكوفي والبصري

وعدها الباقون (﴿ في عبادي ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

والفجر

1 عشر

2 والوتر

3 يسر

4 حجر

5 بعاد

6 العماد

7 البلاد

8 بالواد

9 ذي الأوتاد

10 البلاد

11 الفساد

12 عذاب

13 المرصاد

14 ونعمه

الذكرى

23 لحياتي

24 أحد

25 أحد

26 المطمئنة

27 مرضية

28 جنتي

30 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 273﴾

(53/814)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

جواب القسم: إن ربك لبالمرصاد (والوتر) بالفتح والكسر لغتان ، و (إذا) ظرف ، والعامل

فيه محذوف: أي أقسم به إذا يسر ، والجيد إثبات الياء ، ومن حذفها فلتوافق رءوس الآى ، و (إرم) لا ينصرف للتعريف والتأنيث ، قيل هو اسم قبيلة فعلى هذا يكون التقدير: إرم صاحب ذات العماد ، لأن ذات العماد مدينة ، وقيل ذات العماد وصف ، كما تقول القبيلة ذات الملك ، وقيل " إرم " مدينة ، فعلى هذا يكون التقدير: بعاد صاحب إرم ، ويقرأ " بعاد إرم " بالإضافة فلا يحتاج إلى تقدير ، ويقرأ " إرم ذات العماد " بالجر على الإضافة (وثمود) معطوف على عاد وكذلك (فرعون) .

قوله تعالى (الذين طغوا) في الجمع وجهان: أحدهما أنه صفة للجمع .

والثانى هو صفة لفرعون وأتباعه ، واكتفى بذكره عن ذكرهم .

قوله تعالى (فأكرمه) هو معطوف على ابتلاه ، وأما (فيقول) فجواب إذا وإذا وجوابها خبر عن الإنسان .

قوله تعالى (ولا يحضون) المفعول محذوف: أي لا يحضون أحدا أي لا يحضون أنفسهم ، ويقرأ " ولا تحاضون " وهو فعل لازم بمعنى تتحاضون .

قوله تعالى (يومئذ) هو بدل من إذا في قوله تعالى " إذا دكت " والعامل فيه (يتذكر) و (يقول) تفسير ليتذكر ، ويجوز أن يكون العامل في إذا يقول ، وفى يومئذ يتذكر ، و (صفا) حال .

قوله تعالى (لا يعذب) و (لا يوثق) يقرآن بكسر الذال والثاء ، والفاعل (أحد) والهاء تعود على الله عزوجل ، ويقرآن بالفتح على ما لم يسم فاعله ، والهاء للمفعول ، والتقدير: مثل

عذابه ، ومثل وثاقه ، والعذاب والوثاق اسمان للتعذيب والإيثاق (راضية) حال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(54/814)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الفجر

[سورة الفجر (89) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

"وَالْفَجْرِ" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "وَلَيالٍ" معطوف على الفجر . "عَشْرٍ" صفة ليال "وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ" معطوفان على الفجر أيضا "وَاللَّيْلِ" معطوف أيضا "إِذا" ظرف زمان "يَسْرِ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الفجر (89) : آية 5]

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)

"هَلْ" حرف تقرير "فِي ذلِكَ" خبر مقدم "قَسَمٌ" مبتدأ مؤخر "لِذِي" صفة قسم "حِجْرٍ"

مضاف إليه والجملة الاسمية جواب القسم .

[سورة الفجر (89) : آية 6]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6)

"أَلَمْ تَرَ" الهمزة حرف استفهام تقريري ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "كَيْفَ" اسم استفهام حال "فَعَلَ رَبُّكَ" ماض وفاعله "بِعادٍ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية سدت مسد مفعولي تر .

[سورة الفجر (89) : آية 7]

إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (7)

"إِرَمَ" بدل من عاد "ذاتِ" صفة مضافة إلى "الْعِمادِ" .

[سورة الفجر (89) : آية 8]

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8)

"الَّتِي" صفة ثانية لإرم "لَمْ يُخْلَقْ" لم حرف جزم ومضارع مبني للمجهول مجزوم بلم "مِثْلُها" نائب فاعل "فِي الْبِلادِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة .

[سورة الفجر (89) : آية 9]

وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9)

"وَثَمُودَ" معطوف على عاد "الَّذِينَ" صفة ثمود "جابُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذي

"الصَّخْرَ" مفعول به "بِالْوادِ" متعلقان بالفعل .

[سورة الفجر (89) : آية 10]

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10)

"وَفِرْعَوْنَ" معطوف على ما قبله "ذِي الْأَوْتادِ" صفة فرعون المضافة إلى الأوتاد .

(55/814)

[سورة الفجر (89) : آية 11]

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11)

"الَّذِينَ" بدل من عاد وثمود وفرعون "طَغَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي الْبِلادِ" متعلقان بالفعل .

[سورة الفجر (89) : آية 12]

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (12)

"فَأَكْثَرُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِيهَا" متعلقان بالفعل "الْفَسادَ" مفعول به .

[سورة الفجر (89) : آية 13]

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13)

"فَصَبَّ" ماض مبني على الفتح "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "رَبُّكَ" لفظ الجلالة فاعل "سَوْطَ عَذابٍ" مفعول به مضاف إلى عذاب والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفجر (89) : آية 14]

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)

"إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ" إن واسمها واللام المزحلقة "بالمرصاد" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة تعليل .

[سورة الفجر (89) : آية 15]

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف وأما حرف شرط وتفصيل "الْإِنْسانُ" مبتدأ "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "مَا" زائدة "ابْتَلاهُ" ماض ومفعول به "رَبُّهُ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ" معطوف على ما قبله . "فَيَقُولُ" الفاء رابطة ومضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ "رَبِّي" مبتدأ "أَكْرَمَنِ" ماض مبني على الفتح والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الفجر (89) : آية 16]

وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (16)

"وَأَمَّا" الواو حرف عطف وأما حرف شرط وتفصيل "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "مَا" زائدة "ابْتَلاهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "فَقَدَرَ عَلَيْهِ" معطوف على ما قبله "رِزْقَهُ" مفعول به "فَيَقُولُ" الفاء رابطة ويقول مضارع فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "رَبِّي" مبتدأ "أَهانَنِ" ماض والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الفجر (89) : آية 17]

كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "بَلْ" حرف إضراب "لا" نافية "تُكْرِمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْيَتِيمَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الفجر (89) : آية 18]

وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (18)

الآية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفجر (89) : آية 19]

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19)

"وَتَأْكُلُونَ" مضارع وفاعله "التُّرَاثَ" مفعول به "أَكْلًا" مفعول مطلق "لَمًّا" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفجر (89) : آية 20]

وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)

معطوفة على ما قبلها وإعرابها واضح .

[سورة الفجر (89) : آية 21]

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِذَا" ظرفية شرطية غير جازمة "دُكَّتِ" ماض مبني للمجهول "الْأَرْضُ" نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "دَكًّا" مفعول مطلق "دَكًّا" مفعول مطلق توكيد لما قبله .

[سورة الفجر (89) : آية 22]

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22)

"وَجَاءَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على قبلها "وَالْمَلَكُ" معطوف على ربك "صَفًّا صَفًّا" حالان .

[سورة الفجر (89) : آية 23]

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (23)

"وَجِيءَ" ماض مبني للمجهول "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله "بِجَهَنَّمَ" متعلقان بالفعل وهما في موضع نائب الفاعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله "يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها ، "وَ" الواو حرف استئناف "أَنَّى" اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم "لَهُ" متعلقان بالخبر المحذوف "الذِّكْرى" مبتدأ مؤخر ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة الفجر (89) : آية 24]

يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (24)

"يَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "يا" حرف تنبيه "لَيْتَنِي" حرف مشبه بالفعل والنون للوقاية والياء اسمها "قَدَّمْتُ" ماض وفاعله والجملة الفعلية خبر ليت والجملة الاسمية مقول القول "لِحَياتِي" متعلقان بالفعل .

[سورة الفجر (89) : آية 25]

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (25)

"فَيَوْمَئِذٍ" الفاء حرف استئناف ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله "لا" نافية "يُعَذِّبُ" مضارع "عَذابَهُ" مفعول به "أَحَدٌ" فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الفجر (89) : آية 26]

وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (26)

الجملة معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح .

[سورة الفجر (89) : آية 27]

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27)

"يا أَيَّتُهَا" يا حرف نداء ومنادى نكرة مقصودة وها للتنبيه "النَّفْسُ" بدل "الْمُطْمَئِنَّةُ" صفة وجملة النداء مقول قول محذوف .

[سورة الفجر (89) : آية 28]

ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (28)

"ارْجِعِي" أمر مبني على حذف النون والياء فاعل "إِلى رَبِّكِ" متعلقان بالفعل "راضِيَةً مَرْضِيَّةً" حالان والجملة مقول قول محذوف أيضا .

(58/814)

[سورة الفجر (89) : آية 29]

فَادْخُلِي فِي عِبادِي (29)

"فَادْخُلِي" أمر مبني على حذف النون والياء فاعل "فِي عِبادِي" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفجر (89) : آية 30]

وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)

"وَادْخُلِي" أمر وفاعله "جَنَّتِي" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 444. 447 ﴾

(59/814)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الْفجْر

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1487 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه فسر الشفع بِيَوْم النَّحْر وَالْوتر بِيَوْم عَرَفَة لِأَنَّهُ تَاسِع هَذِه الْأَيَّام وَذَاك عَاشرهَا

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه فِي الْحَج وَفِي التَّفْسِير أَيْضا من حَدِيث زيد ابْن الْحباب اخبرني عَيَّاش بن عقبَة اخبرني خير بن نعيم عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عشر الْأَضْحَى وَالْوتر وَيَوْم عَرَفَة وَالشَّفْع يَوْم النَّحْر انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي أول الْأَضَاحِي وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ احْمَد وَالْبَزَّار فِي مسنديهما وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث عشر قَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ يرْوَى عَن جَابر إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد انْتَهَى وَهَذَا سَنَد لَا بَأْس برجَاله

1488 - قَوْله

رُوِيَ عَن عبد الله بن قلَابَة أَنه خرج فِي طلب إبل لَهُ فَوَقع عَلَيْهَا يَعْنِي إرم ذَات الْعِمَاد فَحمل مِنْهَا مَا قدر عَلَيْهِ وَبلغ خَبره مُعَاوِيَة

فَاسْتَحْضرهُ وقص عَلَيْهِ فَبعث إِلَى كَعْب يسْأَله فَقَالَ هِيَ إرم ذَات الْعِمَاد وَسَيَدْخُلهَا رجل من الْمُسلمين فِي زَمَانك أَحْمَر أشقر قصير عَلَى حَاجبه خَال وَعَلَى عقبه خَال يخرج فِي طلب إبل لَهُ ثمَّ الْتفت فأبصر ابْن قلَابَة فَقَالَ هَذَا وَالله ذَلِك الرجل

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق عُثْمَان بن سعيد الدَّارِمِيّ أَنا عبد الله بن صَالح ثَنَا ابْن لَهِيعَة

عَن خَالِد بن أبي عمرَان عَن وهب بن مُنَبّه عَن عبد الله بن قلَابَة أَنه خرج فِي طلب إبل لَهُ شَردت . . . إِلَى آخِره

(60/814)

وَفِيه زِيَادَة

1489 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ انه لما نزل قَوْله تَعَالَى وَجِيء يَوْمئِذٍ بجهنم تغير وَجه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعرف فِي وَجهه حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى أَصْحَابه فَأَخْبرُوا عليا فجَاء فَاحْتَضَنَهُ من خَلفه وَقبل بَين عَاتقيهِ وَقَالَ يَا نَبِي الله بأبي وَأمي مَا الَّذِي حدث الْيَوْم وَمَا الَّذِي غَيْرك فَتلا عَلَيْهِ الْآيَة فَقَالَ عَلّي كَيفَ يجاء بهَا قَالَ يَجِيء بهَا سَبْعُونَ أَلف ملك يَقُودُونَهَا بسبعين أَلف زِمَام فَتَشْرُد شَرْدَةً لَو تركت لأحرقت أهل الْجمع

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا احْمَد بن الْحُسَيْن بن مَاجَه ثَنَا يَعْقُوب بن يُوسُف الْقزْوِينِي ثَنَا الْقَاسِم بن الحكم ثَنَا عبيد الله بن الْوَلِيد ثَنَا عَطِيَّة عَن أبي سعيد قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة وَجِيء يَوْمئِذٍ بجهنم تغير لون رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعرف فِي وَجهه . . . إِلَى آخِره وَفِيه زِيَادَة

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مَالك ثَنَا يَعْقُوب بن يُوسُف الْقزْوِينِي ثَنَا الْقَاسِم بن الحكم العرني ثَنَا عبيد الله بن الْوَلِيد الْوَصَّافِي عَن عَطِيَّة عَن أبي سعيد قَالَ لما نزلت . . . فَذكره

وَعَن الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي بِسَنَدِهِ وَمَتنه

1490 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْفجْر فِي اللَّيَالِي الْعشْر غفر الله لَهُ وَمن قَرَأَهَا فِي سَائِر الْأَيَّام كَانَت لَهُ نورا يَوْم الْقِيَامَة

(61/814)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ اخبرني بَاقِل بن رَاقِم بن احْمَد الْبَاقِي ثَنَا مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابْن شَادَّة ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْحسن ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثَنَا سلم بن قُتَيْبَة عَن سعيد عَن عَاصِم بن بَهْدَلَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 205. 207 ﴾

(62/814)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة والفجر» (89)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» (3) الشفع الزّكاة وهو الزوج والوتر الخسا «1» وهو الفرد قال الكميت :

إذا نحن فى تعداد خصلك لم نقل خسا أو زكا أعيين منا المعدّدا

«2» [941] ترك التنوين فى خسا وزكا أحسن ، وقد ينوّن أيضا . ويقولون :

أوترت ووتّرت . .

«وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ» (4) العرب تحذف هذه الياء فى هذه فى موضع الرفع ومثل ذلك «لا أدر» . .

«قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ» (5) لذى حجر وعقل «3» . .

«بِعادٍ» (6) يقال : هما عادان عاد الأخيرة وعاد الأولى وهى .

«إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ» (7) ذات الطول ويقال : رجل معمد «4» . .

«جابُوا الصَّخْرَ» (9) نقبوا ، ويجوب الفلاة أيضا يدخل فيها ويقطعها «5» .

---

(1) . - 3 «والشفع . . . الخسا» : رواه ابن قتيبة عن أبى عبيدة (القرطين 2/ 209) .

(2) . - 941 : فى اللسان بخلاف الرواية (خسا)

(3) . - 10 «لذى حجر وعقل» : كما فى الطبري 30/ 94 .

(4) . - 12 «ذات الطول . . . معمد» : كما فى الطبري 30/ 96 والقرطبي 20/ 45 .

(5) . - 13 «جابوا . . . ويقطعها» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 540) .

«أَكْلًا لَمًّا» (19) تقول: لممته «1» أجمع أي أتيت على آخره . .

«حُبًّا جَمًّا» (20) كثيرا شديدا : .

«فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ» (25) ويومئذ لا يعذّب عذاب اللّه أحد فى الدنيا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 297. 298 ﴾

---

(1) . - 1 «لممته . . . آخره» : كما فى البخاري وقد أشار إليه ابن حجر بقوله . وهو

قول أبى عبيدة بلفظه (فتح الباري 8/ 540) . [. . . . .]

(64/814)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الفجر»

[سورة الفجر (89) : آية 4]

وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

وقوله سبحانه : وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ [4] وهذه استعارة . والمراد بسرى الليل دوران فلكه ،

وسيران نجومه حتى يبلغ غايته ، ويسبق فى قاصيته ، ويستخلف النهار موضعه .

[سورة الفجر (89) : آية 10]

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10)

وقوله سبحانه : وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ [10] وهذه استعارة . والمراد وفرعون ذى الملك المتقرم «1» والأمر المتوطد ، والأسباب المتمهدة التي استقر بها بنيانه ، وتمكن سلطانه ، كما تنبت البيوت بالأوتاد المضروبة ، والدعائم المنصوبة . وقد مضى نظير ذلك .

---

(1) المتقرم : المتأصل فى السيادة والمجد .

[سورة الفجر (89) : آية 13]

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13)

وقوله سبحانه : فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ [13] وهذه من مكشوفات الاستعارة . والمراد بها العذاب المؤلم ، والنكال المرمض . لأن السّوط فى عرف عادة العرب يكون على الأغلب سببا للعقوبات الواقعة ، والآلام الموجعة .

وقال بعضهم : يجوز أن يكون معنى سَوْطَ عَذابٍ أي أوقع عذاب يخالط اللحوم والدماء ،

فيسوطها سوطا ، إذا حرّك ما فيها وخلطه . فالسّوط على هذا القول ها هنا مصدر وليس باسم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 365 . 366 ﴾

(66/814)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الفجر

" والفجر " قسم بإدبار الظلام وميلاد الضياء . وقد عطفت عليه أقسام أخرى " وليال عشر " وهى على ما يراه جمهور المفسرين عشر ذى الحجة المنتهية بوقفة عرفة ويوم النحر ، ففى هذه المدة ينطلق القادرون لأداء فريضة الحج ويسمع لقوافلهم دوى بالتلبية وهم مولون شطر البيت العتيق ، قادمين من المشارق والمغارب ! " والشفع والوتر * والليل إذا يسر " . قسم بالزمان معطوف على ما قبله . والزمان من أسرار الكون التى تعرف بآثارها ولا تدرك حقائقها . وعلام القسم ؟ الظاهر أن المقسم عليه محذوف ، يدل عليه ما بعده . والمقصود لينصرن الله دينك وليرفعن رايتك وليخذلن الكفر وأهله مهما بلغ بطشهم واشتد بأسهم . وليس كفارنا خيرا ممن سبقونا . " ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد *

التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد " إن الأولين ربما لم يغزوا الفضاء ويتوغلوا فى علوم المادة ، ولكنهم كانوا مهندسين مهرة ، وآثارهم تدل عليهم . ولقد قال الله للعرب الذين كذبوا محمدا " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها . . " . لكن طغيانهم أوردهم المهالك ، فلما غالبوا القدر وكابروا الحق " فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد " . ووسط سورة الفجر يتحدث عن طبيعة سيئة فى البشر ، إنهم يغترون باليوم الحاضر وينسون ما قبله وما بعده ! ولا يعرفون أن الله يداول الأيام بين الناس . . . فيوم علينا ويوم لنا . . ويوم نساء ويوم نسر ! ! وقد وصف النابغة الغساسنة بأنهم أبرياء من هذا المرض ، وأنهم يعرفون الدهر على حقيقته فقال:

(67/814)

ولا يحسبون الخير لا شر بعده ولا يحسبون الشر ضربة لازب ! وجماهير الناس تخدع بيومها الحاضر ، ولا يدرون أنهم ممتحنون بما حوى من ضر ونفع " فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن *

كلا" . إن هذا كله تقسيم معايش يعرف القدر وحده سرها ، ولا دلالة فيها على إيثار أو طرد . والله يبتلى بالغنى والفقر والهزيمة والنصر ، وليس يسره رضا ولا عسره سخطا . إنه تقسيم معايش يمحص به الناس أجمعون ، وتحدد على ضوئه منازلهم يوم القيامة ، والعاقبة للتقوى . . إن الله لا يعطى غنيا المال كى يقول لغيره: " أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا" . إنما يعطيه ليشرك غيره فيه ، ويسارع إلى مواساة المحتاجين وتفريج كربهم . ولم يحرم أحدا المال ليبكى على دنيا فاتته أو يحسد من أوتى شيئا منه ، بل ليصبر ويكافح ويتربى على العفاف . ومن بدء الخليقة فاوت الله بين أرزاق الناس لحكم منشودة وامتحان مقصود . ولذلك قال - بعد وقوع هذا التفاوت "كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلا لما * وتحبون المال حبا جما " . وقد نشبت معركة الخبز من قديم ، واجتذبت إليها أنشطة البشر جميعا ، وضربت الحرب بين الأثرة والإيثار والبخل والعطاء . وأقول - وأنا محزون - إن وصايا الدين انهزمت وغرائز الوحوش غلبت . ثم ظهرت فلسفة الشيوعية التى تولت عن الله تقسيم الأرزاق - لأنها اتهمته بالجور ! - فماذا حدث ؟ قال الإنسان فى ظلها بعدما اكتوى بذلها وبؤسها : ربما يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه وسألت نفسى ماذا قدم المسلمون للجماهير التائهة على ظهر هذه الأرض ؟ لا شىء . فقد غطوا وجه الإسلام وشوهوا جوهره . بل لقد رأيت فى دار الإسلام أحرارا يلتمسون الكرامة فى أرض أخرى ، ويبحثون عن العدالة

التى عرت مصادرها فى أرضهم ! لم يبق إلا انتظار البعث الآخر " كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك

(68/814)

صفا صفا * وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدمت لحياتي " هذا صياح الندم يوم لا ينفع ندم ! أما الصالحون من عباد الله ، فهذا يوم البشرى وتهلل الوجوه بالفوز . روى الطبرى عن سعيد بن

جبير قرأ رجل عند رسول الله قوله تعالى " يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية " فقال أبو بكر : ما أحسن هذا ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ! : " أما إن الملك سيقولها لك عند الموت " . وأبو بكر أول العدول الراشدين ، ومن أولى الناس بها . ولكن السياق عام فى القرآن الكريم يتناول كل مؤمن أسلم لله وجهه وأصلح له عمله ، فالكلمة الجميلة تنتظره ليدخل الجنة ، ويشارك فى أحفال التسبيح والتحميد التى تملأ رحابها ، جعلنا الله بمنه وفضله من أهلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 519.517 ﴾

(69/814)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(70/814)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الفجر

أقول: لم يظهر لي من وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها ، من قوله جل جلاله: (إِنَّ إِلينا إِيابَهُم ثُمَ إِنَّ عَلينا حِسابَهُم) وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق ما في (عم) هذا مع أن جملة (أَلَم تَرى كيفَ فَعَلَ رَبُّكَ) هنا ، مشابهة لجملة (أَفَلا ينظرون) هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 150 ﴾

(71/814)

قوله تعالى ﴿ وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) جامع العباد بعد تمزيقهم بما له من العظمة (الرحمن) الذي عمهم بعد العموم بالإيجاد بالبيان المهيئ من شاء للإيمان (الرحيم) الذي خص أولياءه بالرضوان المبيح الجنان .

لما ختمت تلك بأنه لا بد من الإياب والحساب ، وكان تغيير الليل والنهار وتجديد كل منهما بعد إعدامه دالاًّ على القدرة على البعث ، وكان الحج قد جعله الله في شرعه له على وجه التجرد عن المخيط ولزوم التلبية والسير إلى الأماكن المخصوصة آية مذكرة بذلك قال : ﴿ والفجر ﴾ أي الكامل في هذا الوصف لما له من العظمة حتى كأنه لا فجر غيره ، وهو فجر يوم النحر الذي هو أول الأيام الآخذة في الإياب إلى بيت الله الحرام بدخول حرمه والتحلل من محارمه وأكل ضيافته .

ولما ذكر هذا اليوم بما العبارة به عنه أدل على البعث لأنه ينفجر عن صبح قد أضاء ، ونهار قد انبرم ، وانقضى ، لا فرق بينه وبين ما مضى ، عم فقال معبراً بالمقابل : ﴿ وليال عشر ﴾ هي أعظم ليالي العام .

(72/814)

وهي آية الله على البعث بالقيام إلى إجابة داعي الله تعالى على هيئة الأموات

﴿ والشفع ﴾ أي لمن تعجل في يومين ﴿ والوتر ﴾ أي لمن أتم – قاله ابن الزبير ، وروى أحمد والبزار برجال الصحيح عن عياش بن عقبة وهو ثقة عن جابر ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " العشر الأضحى ، والشفع يوم الأضحى ، والوتر يوم عرفة ".

(73/814)

ولما كان تعاقب الليل والنهار أدل على القدرة وأظهر في النعمة ، قال رادّاً لآخر القسم على أوله ، ومذكراً بالنعمة وكمال القدرة ، لأن الليل أخفاهما سُرى وسراً ، فهو أعظمهما في ذلك أمراً ، لأن سير النهار ظاهر لسرايته بخلاف الليل فإنه محوى صرفه فكان أدل على القدرة ﴿ والليل ﴾ أي من ليلة النفر ﴿ إذا يسر ﴾ أي ينقضي كما ينقضي ليل الدنيا وظلام ظلمها فيخلفه الفجر ويسرى فيه الذين آبوا إلى الله راجعين إلى ديارهم بعد حط

أوزارهم ، وقد رجع آخر القسم على أوله – وأثبت الياء في يسري ابن كثير ويعقوب وحذفها الباقون ، وعلة حذفها قد سأل عنها المؤرج الأخفش فقال : اخدمني سنة ، فسأله بعد سنة فقال : الليل يسرى فيه ولا يسري ، فعدل به عن معناه فوجب أن يعدل عن لفظه كقوله تعالى : ﴿ وما كانت أمك بغيّاً ﴾ [مريم : 28] لما عدل عن " باغية " عدل لفظه فلم يقل : بغية – انتهى ، وهو يرجع إلى اللفظ مع أنه يلزم منه رد روايات الإثبات ، والحكمة المعنوية فيه – والله أعلم – من جهة الساري وما يقع السرى فيه ، فأما من جهة الساري فانقسامهم ليلة النفر إلى مجاور وراجع إلى بلاده ، فأشير إلى المجاورين بالحذف حثاً على ذلك لما فيه من جلالة المسالك ، فكان ليل وصالهم ما انقضى كله ، فهم يغتنمون حلوله ويلتذون طوله من تلك المشاهد والمشاعر والمعاهد ، وإلى الراجعين بالإثبات لما سرى الليل بحذافيره عنهم آبوا راجعين إلى ديارهم فيما انكشف من نهارهم ، وأما من جهة ما وقع فيه السرى فللاشارة إلى طوله تارة وقصره أخرى ، فالحذف إشارة إلى القصير والإثبات إشارة إلى الطويل بما وقع من تمام سراه وما وقع للسارين فيه من قيام وصف الأقدم بين يدي الملك العلام كما قال الإمام تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى حيث قال مشيراً لذلك :

كم ليلة فيك وصلنا السرى . . .

لا نعرف الغمض ولا نستريح

الأبيات المذكورة عنه في المزمل ، فقد انقسم الليل إلى ذي طول وقصر ، والساري فيه إلى ذي حضر وسفر ، فدلت المفاوتة في ذلك وفي جميع أفراد القسم على أن فاعلها قادر مختار واحد قهار ، ولذلك أتبعه الدلالة بقهر القهارين وإبارة الجبارين ، وأما " بغي " فذكرت حكمته في مريم .

ولما كان هذا قسماً عظيماً في ذكر تلك الليالي المتضمن لذكر المشاعر وما فيها من الجموع والبكاء كما قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

وليلة جمع والمنازل من منى . . .

وهل فوقها من حرمة ومنازل

وفي تذكيره بالبعث ودلالته عليه دلالة عقلية واضحة بالإيجاد بعد الإعدام مع ما لهذه الأشياء في أنفسها وفي نفوس المخاطبين بها من الجلالة ، نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ هل في ذلك ﴾ أي المذكور مع ما له من عليّ الأمر وواضح القدر ﴿ قسم ﴾ أي كاف مقنع ﴿ لذي ﴾ أي صاحب ﴿ حجر ﴾ أي عقل فيحجره ويمنعه عن الهوى في درك الهوى ، فيعليه إلى أوج الهدى ، في درج العلا ، حتى يعلم أن الذي فعل ما تضمنه هذا

القسم لا يتركه سدى ، وأنه قادر على أن يحيي الموتى ، قال ابن جرير : يقال للرجل إذا كان مالكاً نفسه قاهراً لها ضابطاً : إنه لذو حجر - انتهى ، فمن بلغ أن يحجره عقله عن المآثم ويحمله على المكارم فهو ذو حجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 413 . 415 ﴾

(75/814)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : روى ابن مهران وابن الاسكندراني عن أبي عمرو أنه كان يقف على ﴿ والفجر ﴾ وأشباهها من ذوات الراء بنقل حركة اراء إلى ما قبله و ﴿ الوتر ﴾ بكسر الواو : حمزة وعلي وخلف والمفضل . الباقون : بالفتح ﴿ يسري ﴾ و ﴿ بالوادي ﴾ ﴿ أكرمني ﴾ و ﴿ أهانني ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب والهاشمي عن البزي والقواس وأبو ربيعة عن أصحابه . وقرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وسهل ﴿ أكرمني ﴾ و ﴿ أهانني ﴾ بالياء في الوصل وبغير ياء في الوقف ﴿ بالوادي ﴾ بالياء في الوصل : ورش وسهل وعباس . الباقون : كلها بغير ياء ﴿ فقدّر ﴾ بالتشديد : ابن عباس ويزيد ﴿ ربي ﴾

بالفتح : أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ يكرمون ﴾ ﴿ ولا يحضون ﴾ ﴿ ويأكلون ﴾ ﴿ ويحبون ﴾ كلها على الغيبة : أبو عمرو وسهل ويعقوب . الآخرون : بتاء الخطاب ﴿ تحاضون ﴾ بفتح التاء الفوقانية والألف من التفاعل : عاصم وحمزة وعلي ويزيد ﴿ لا يعذب ﴾ ﴿ ولا يوثق ﴾ بتح الذال والثاء : عليّ والمفضل وسهل ويعقوب . الآخرون : بكسرهما .

(76/814)

الوقوف : ﴿ والفجر ﴾ ه لا ﴿ عشر ﴾ ه ك ﴿ والوتر ﴾ ه ك ﴿ يسر ﴾ ه ك لجواز أن يكون جواب القسم المحذوف وهو ليبعثن أو ليعذبن مقدراً قبل " هل " أو بعده ﴿ حجر ﴾ ه ط ثم الوقف المطلق على ﴿ لبالمرصاد ﴾ وما قبله وقف ضرورة ﴿ بعاد ﴾ ه لا ﴿ العماد ﴾ ه لا ﴿ البلاد ﴾ ه ص ﴿ بالواد ﴾ ك ﴿ الأوتاد ﴾ ه ك ﴿ البلاد ﴾ ه ك ﴿ الفساد ﴾ ه ك ﴿ عذاب ﴾ ه ج لاحتمال التعليل ولما قيل : إن جواب القسم قوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ وما بينهما اعتراض . ﴿ لبالمرصاد ﴾ ه ج ﴿ أكرمن ﴾ ه ج لابتداء شرط ﴿ أهانن ﴾ ه ج لأن " كلا " يحتمل معنى " إلا " وحقاً ومعنى الردع . ﴿ اليتيم ﴾ ه لا ﴿ المسكين ﴾ ه ط ﴿ لما ﴾ ه ط ﴿ جماً ﴾ ه ك ﴿ دكاً ﴾ ه لا ﴿ دكاً

﴿ ه‌ك ﴿ صفاً ﴾ ه‌لا ﴿ صفاً ﴾ ه‌ك ﴿ بجهنم ﴾ ه ﴿ الذكرى ﴾ ه‌ج لأن ما بعده مستأنف كأنه قيل : كيف يتذكر ﴿ لحياتي ﴾ ه‌ج ﴿ أحد ﴾ ه‌لا ﴿ أحد ﴾ ه‌ط ﴿ المطمئنة ﴾ ه‌ط ﴿ مرضية ﴾ ه ﴿ عبادي ﴾ ه ﴿ جنتي ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 493 . 494 ﴾

(77/814)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) ﴾

اعلم أن هذه الأشياء التي أقسم الله تعالى بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد ، أو فائدة دنيوية توجب بعثاً على الشكر ، أو مجموعهما ، ولأجل ما ذكرناه اختلفوا في تفسير هذه الأشياء اختلافاً شديداً ، فكل أحد فسره بما رآه أعظم درجة في الدين ، وأكثر منفعة في الدنيا .

(78/814)

أما قوله : ﴿ والفجر ﴾ فذكروا فيه وجوهاً أحدها : ما روي عن ابن عباس أن الفجر هو الصبح المعروف ، فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب ، أقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء ، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب الأرزاق ، وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم ، وفيه عبرة لمن تأمل ، وهذا كقوله : ﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ [المدثر : 34] وقال في موضع آخر ، ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير : 18] وتمدح في آية أخرى بكونه خالقاً له ، فقال : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ [الإنعام : 96] ومنهم من قال المراد به جميع النهار إلا أنه دل بالابتداء على الجميع ، نظيره : ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] وقوله : ﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ [الليل : 2] وثانيها : أن المراد نفسه صلاة الفجر وإنما أقسم بصلاة الفجر لأنها صلاة في مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة النهار وملائكة الليل كما قال تعالى : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء : 78] أي تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار القراءة في صلاة الصبح وثالثها : أنه فجر يوم معين ، وعلى هذا القول ذكروا وجوهاً الأول : أنه فجر يوم النحر ، وذلك لأن أمر المناسك من خصائص ملة إبراهيم ، وكانت العرب لا تدع الحج وهو يوم عظيم يأتي الإنسان فيه بالقربان كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه ، فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان ، كما قال تعالى : ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : 107] الثاني : أراد

فجر ذي الحجة لأنه قرن به قوله : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ ولأنه أول شهر هذه العبادة المعظمة

الثالث : المراد فجر المحرم ، أقسم به لأنه أول يوم من كل سنة وعند ذلك يحدث أموراً كثيرة مما يتكرر بالسنين كالحج والصوم والزكاة واستئناف الحساب بشهور الأهلة ، وفي الخبر " إن أعظم الشهور عند الله المحرم " وعن ابن عباس أنه قال : فجر السنة هو المحرم فجعل جملة المحرم فجراً ورابعها : أنه

(79/814)

عنى بالفجر العيون التي تنفجر منها المياه ، وفيها حياة الخلق ، أما قوله : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

إنما جاءت منكرة من بين ما أقسم الله به لأنها ليال مخصوصة بفضائل لا تحصل في غيرها والتنكير دال على الفضيلة العظيمة .

المسألة الثانية :

ذكروا فيه وجوهاً أحدها : أنها عشر ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بهذا النسك في الجملة ، وفي الخبر ما من أيام العمل الصالح فيه أفضل من أيام العشر وثانيها : أنها عشر المحرم من

أوله إلى آخره ، وهو تنبيه على شرف تلك الأيام ، وفيها يوم عاشوراء ولصومه من الفضل ما ورد به الأخبار وثالثها : أنها العشر الأواخر من شهر رمضان ، أقسم الله تعالى بها لشرفها وفيها ليلة القدر ، إذ في الخبر

" اطلبوها في العشر الأخير من رمضان " وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد المئزر ، وأيقظ أهله أي كف عن الجماع وأمر أهله بالتهجد ، وأما قوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الشفع والوتر ، هو الذي تسميه العرب الخسا والزكا والعامة الزوج والفرد ، قال يونس : أهل العالية يقولون الوتر بالفتح في العدد والوتر بالكسر في الذحل وتميم تقول وتر بالكسر فيهما معاً ، وتقول أوترته أوتره إيتاراً أي جعلته وتراً ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " من استجمر فليوتر " والكسر قراءة الحسن والأعمش وابن عباس ، والفتح قراءة أهل المدينة وهي لغة حجازية .

المسألة الثانية :

اضطرب المفسرون في تفسير الشفع والوتر ، وأكثروا فيه ، ونحن نرى ما هو الأقرب أحدها : أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة ، وإنما أقسم الله بهما لشرفهما أما يوم عرفة فهو الذي عليه يدور أمر الحج كما في الحديث " الحج عرفة " وأما يوم النحر فيقع فيه القربان وأكثر أمور الحج من الطواف المفروض ، والحلق والرمي ، ويروى " يوم النحر هو يوم الحج الأكبر " فلما اختص هذان اليومان بهذه الفضائل لا جرم أقسم الله بهما وثانيها : أن أيام التشريق أيام بقية أعمال الحج فهي أيام شريفة ، قال الله تعالى : ﴿ واذكروا اللهَ فِى أَيَّامٍ معدودات فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] والشفع هو يومان بعد يوم النحر ، الوتر هو اليوم الثالث ، ومن ذهب إلى هذا القول قال : حمل الشفع والوتر على هذا أولى من حملهما على العيد وعرفة من وجهين الأول : أن العيد وعرفة دخلا في العشر ، فوجب أن يكون المراد بالشفع والوتر غيرهما الثاني : أن بعض أعمال الحج إنما يحصل في هذه الأيام ، فحمل اللفظ على هذا يفيد القسم بجميع أيام أعمال المناسك وثالثها : الوتر آدم شفع بزوجته ، وفي رواية أخرى الشفع آدم وحواء والوتر هو الله تعالى ورابعها : الوتر ما كان وتراً من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعاً منها ، روى عمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هي الصلوات منها شفع ومنها وتر " وإنما أقسم الله بها لأن الصلاة تالية للإيمان ، ولا يخفى قدرها ومحلها من العبادات وخامسها : الشفع هو الخلق كله لقوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] وقوله : ﴿ وخلقناكم

أزواجا ﴾ [النبأ : 8] والوتر هو الله تعالى ، وقال بعض المتكلمين : لا يصح أن يقال الوتر هو الله لوجوه الأول : أنا بينا أن قوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ تقديره ورب الشفع والوتر ، فيجب أن يراد بالوتر المربوب فبطل ما قالوه الثاني : أن

(81/814)

الله تعالى لا يذكر مع غيره على هذا الوجه بل يعظم ذكره حتى يتميز من غيره ، وروي أن عليه الصلاة والسلام سمع من يقول الله ورسوله فنهاه ، وقال :

" قل الله ثم رسوله " قالوا : وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " إن الله وتر يحب الوتر " ليس بمقطوع به وسادسها : أن شيئاً من المخلوقات لا ينفك عن كونه شفعاً ووتراً فكأنه يقال : أقسم برب الفرد والزوج من خلق فدخل كل الخلق تحته ، ونظيره قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38-39] وسابعها : الشفع درجات الجنة وهي ثمانية ، والوتر دركات النار وهي سبعة وثامنها : الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والإرادة والكراهية والحياة والموت ، أما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم ، حياة بلا موت ، علم بلا جهل ، قدرة بلا عجز ، عز بلا ذل وتاسعها : المراد بالشفع والوتر ، نفس العدد فكأنه أقسم بالحساب الذي لا بد للخلق منه وهو بمنزلة الكتاب والبيان

الذي من الله به على العباد إذ قال : ﴿ عَلَّمَ بالقلم * عَلَّمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 4-5] ، وقال : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 4] .

(82/814)

وكذلك بالحساب ، يعرف مواقيت العبادات والأيام والشهور ، قال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] وقال : ﴿ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ [يونس : 5] وعاشرها : قال مقاتل الشفع هو الأيام والليالي والوتر هو اليوم الذي لا ليل بعده وهو يوم القيامة الحادي عشر : الشفع كل نبي له اسمان مثل محمد وأحمد والمسيح وعيسى ويونس وذي النون والوتر كل نبي له اسم واحد مثل آدم ونوح وإبراهيم الثاني عشر : الشفع آدم وحواء والوتر مريم الثالث عشر : الشفع العيون الإثنتا عشرة ، التي فجرها الله تعالى لموسى عليه السلام والوتر الآيات التسع التي أوتى موسى في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] ، الرابع عشر : الشفع أيام عاد والوتر لياليهم لقوله تعالى : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] الخامس عشر : الشفع البروج الإثنا عشر لقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ فِي السماء بُرُوجاً ﴾ [الفرقان : 61] والوتر الكواكب السبعة السادس عشر : الشفع الشهر الذي يتم ثلاثين يوماً

، والوتر الشهر الذي يتم تسعة وعشرين يوماً السابع عشر : الشفع الأعضاء والوتر القلب ، قال تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : 4] ، الثامن عشر : الشفع الشفتان والوتر اللسان قال تعالى : ﴿ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : 9] التاسع عشر : الشفع السجدتان والوتر الركوع العشرون : الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة ، واعلم أن الذي يدل عليه الظاهر ، أن الشفع والوتر أمران شريفان ، أقسم الله تعالى بهما ، وكل هذه الوجوه التي ذكرناها محتمل ، والظاهر لا إشعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين ، فإن ثبت في شيء منها خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماع من أهل التأويل حكم بأنه هو المراد ، وإن

(83/814)

لم يثبت ، فيجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على وجه القطع ، ولقائل أن يقول أيضاً : إني أحمل الكلام على الكل لأن الألف واللام في الشفع والوتر تفيد العموم ، أما قوله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ إذا يمضي كما قال : ﴿ والليل إِذَا أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] وقوله :

﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] وسراها ومضيها وانقضاؤها أو يقال : سراها هو السير فيها ، وقال قتادة : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي إذا جاء وأقبل .

المسألة الثانية :

أكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة بل العموم بدليل قوله : ﴿ والليلِ إذَا أَدْبَرَ ﴾ ﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ ولأن نعمة الله بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما على الخلق عظيمة ، فصح أن يقسم به لأن فيه تنبيهاً على أن تعاقبهما بتدبيره مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات ، وقال مقاتل : هي ليلة المزدلفة فقوله : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي إذا يسار فيه كما يقال : ليل نائم لوقوع النوم فيه ، وليل ساهر لوقوع السهر فيه ، وهي ليلة يقع السري في أولها عند الدفع من عرفات إلى المزدلفة ، وفي آخرها كما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم ضعفة أهله في هذه الليل ، وإنما يجوز ذلك عند الشافعي رحمه الله بعد نصف الليل .

المسألة الثالثة :

قال الزجاج : قرىء ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ بإثبات الياء ، ثم قال : وحذفها أحب إلي لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياءات ، ويدل عليها الكسرات ، قال الفراء : والعرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسرة ما قبلها ، وأنشد :

كفاك كف ما يبقى درهما . . جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

فإذا جاز هذا في غير الفاضلة فهو في الفاصلة أولى ، فإن قيل : لم كان الاختيار أن تحذف الياء إذا كان في فاصلة أو قافية ، والحرف من نفس الكلمة ، فوجب أن يثبت كما أثبت سائر الحروف ولم يحذف ؟ أجاب أبو علي فقال : القول في ذلك أن الفواصل والقوافي موضع وقف والوقف موضع تغيير فلما كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان وروم الحركة فيها غيرت هذه الحروف المشابهة للزيادة بالحذف ، وأما من أثبت الياء في يسري في الوصل والوقف فإنه يقول : الفعل لا يحذف منه في الوقف كما يحذف في الأسماء نحو قاض وغاز ، تقول : هو يقضي وأنا أقضي فتثبت الياء ولا تحذف .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الحجر العقل سمي به لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهية لأنه يعقل ويمنع وحصاة من الإحصاء وهو الضبط ، قال الفراء : والعرب تقول إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها كأنه أخذ من قولهم حجرت على الرجل ، وعلى هذا سمي العقل حجراً

لأنه يمنع من القبيح من الحجر وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ ﴾

استفهام والمراد منه التأكيد كمن ذكر حجة باهرة ، ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟

والمعنى أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب

ودلائل على التوحيد والربوبية ، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه .

قال القاضي : وهذه الآية تدل على ما قلنا : أن القسم واقع برب هذه الأمور لأن هذه الآية

دالة على أن هذا مبالغة في القسم .

ومعلوم أن المبالغة في القسم لا تحصل إلا في القسم بالله ، ولأن النهي قد ورد بأن يحلف

العاقل بهذه الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 147 . 150 ﴾

(85/814)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) ﴾

(86/814)

قال جمهور من المتأولين : ﴿ الفجر ﴾ هنا المشهور الطالع كل يوم ، قال ابن عباس : ﴿ الفجر ﴾ النهار كله ، وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم : ﴿ الفجر ﴾ الذي أقسم الله به ، صلاة الصبح ، وقراءتها هو قرآن الفجر ، وقال مجاهد : إنما أراد فجر يوم النحر ، وقال الضحاك : المراد فجر ذي الحجة ، وقال مقاتل المراد فجر ليلة جمع ، وقال ابن عباس : أيضاً : المراد فجر أول يوم من المحرم ، لأنه فجر السنة ، وقيل المراد فجر العيون من الصخور وغيرها ، وقال عكرمة : المراد فجر يوم الجمعة ، واختلف الناس في " الليالي العشر " فقال بعض الرواة : هي العشر الأولى من رمضان ، وقال الضحاك وابن عباس : هي العشر الأواخر من رمضان ، وقال بنان وجماعة من المتأولين : هي العشر الأولى من المحرم ، وفيه يوم عاشوراء ، وقال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي وعطية العوفي وابن الزبير رضي الله عنه : هي عشر ذي الحجة ، وقال مجاهد : هي عشر موسى التي أتمها الله له ، وقرأ الجمهور " وليالٍ " ، وقرأ بعض القراء " وليالي عشر " بالإضافة وكأن هذا على أن العشر مشار إليه معين بالعلم به ، ثم وقع القسم بلياليه فكأن العشر اسم لزمه حتى عومل معاملة الفرد ، ثم وصف ومن راعى فيه الليالي قال العشر الوسط ، واختلف الناس في ﴿ الشفع والوتر ﴾ فقال جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ الشفع ﴾ يوم النحر ﴿ والوتر ﴾ يوم عرفة وروى أيوب عنه صلى الله عليه وسلم قال : " الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى

، والوتر ليلة النحر " وروى عمران بن حصين عنه عليه السلام أنه قال : " هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر " وقال ابن الزبير وغيره : ﴿ الشفع ﴾ اليومان من أيام التشريق ﴿ والوتر ﴾ ، اليوم الثالث ، وقال آخرون : ﴿ الشفع ﴾ ، العالم ﴿ والوتر ﴾ ، الله إذا هو الواحد محضاً وسواه ليس كذلك ، وقال بعض المتأولين : ﴿ الشفع ﴾ آدم وحواء ، و ﴿ الوتر ﴾ الله ، وقال ابن سيرين ومسروق وأبو صالح : ﴿ الشفع

(87/814)

والوتر ﴾ شائعان الخلق كله ، الإيمان والكفر والإنس والجن وما اطرد على نحو هذا فهي أضداد أو كالأضداد ، وترها الله تعالى فرد أحد . وقيل ﴿ الشفع ﴾ : الصفا والمروة ، ﴿ والوتر ﴾ البيت ، وقال الحسن بن الفضل : ﴿ الشفع ﴾ أبواب الجنة لأنها ثمانية أبواب ، ﴿ والوتر ﴾ أبواب النار لأنها سبعة أبواب ، وقال مقاتل : ﴿ الشفع ﴾ الأيام والليالي ، ﴿ والوتر ﴾ يوم القيامة لأنه لا ليل بعده ، ﴿ والوتر ﴾ اتحاد صفات الله تعالى ، عز محض وكرم محض ونحوه ، وقيل ﴿ الشفع ﴾ ، قرآن الحج والعمرة ، ﴿ والوتر ﴾ الإفراد في الحج ، وقال الحسن : أقسم الله تعالى بالعدد لأنه إما شفع وإما وتر ، وقال بعض المفسرين : ﴿ الشفع ﴾ حواء ﴿ والوتر ﴾ آدم عليه السلام ، وقال ابن عباس ومجاهد :

﴿ الوتر ﴾ صلاة المغرب ، و﴿ الشفع ﴾ صلاة الصبح ، وقال أبو العالية : ﴿ الشفع ﴾ الركعتان من المغرب ﴿ والوتر ﴾ الركعة الأخيرة ، وقال بعض العلماء : ﴿ الشفع ﴾ تنفل الليل مثنى مثنى ﴿ والوتر ﴾ الركعة الأخيرة معروفة ، وقرأ جمهور القراء والناس " والوَتر " بفتح الواو ، وهي لغة قريش وأهل الحجاز ، وقرأ حمزة والكسائي والحسن بخلاف وأبو رجاء وابن وثاب وطلحة والأعمش وقتادة : " والوِتر " بكسر الواو ، وهي لغة تميم وبكر بن وائل ، وذكر الزهراوي أن الأغر رواها عن ابن عباس وهما لغتان في الفرد ، وأما الدخل فإنما هو وتر بالكسر لا غير ، وقد ذكر الزهراوي أن الأصمعي حكى فيه اللغتين الفتح والكسر ، وسرى الليل ذهابه وانقراضه ، هذا قول الجمهور ، وقال ابن قتيبة والأخفش وغيره ، المعنى ﴿ إذا يسري ﴾ فيه فيخرج هذا الكلام مخرج ليل نائم ونهار بطال .

(88/814)

وقال مجاهد وعكرمة والكلبي : أراد بهذا ليلة جمع لأنه يسرى فيها ، وقرأ الجمهور : " يسر " دون ياء في وصل ووقف ، وقرأ ابن كثير : " يسري " بالياء في وصل ووقف ، وقرأ نافع وأبو عمرو بخلاف عنه " يسري " بياء في الوصل ودونها في الوقف وحذفها تخفيف

لاعتدال رؤوس الآي إذ هي فواصل كالقوافي ، قال اليزيدي : الوصل في هذا وما أشبهه بالياء ، والوقف بغير ياء على خط المصحف . ووقف تعالى على هذه الأقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لذي عقل . و ﴿ الحجر ﴾ العقل والنهية ، والمعنى فيزدجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(89/814)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾

أقسم بالفجر .

﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ أقسام خمسة .

واختُلِف في "الفجر" ، فقال قوم : الفجر هنا : انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ؛ قاله عليّ وابن الزُّبير وابن عباس رضي الله عنهم .

وعن ابن عباس أيضاً أنه النهار كله ، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوّله .

وقال ابن مُحَيْصِن عن عطية عن ابن عباس : يعني فجر يوم المحرم .

ومثله قال قتادة .

قال : هو فجر أوّل يوم من المحرم ، منه تنفجر السنة .

وعنه أيضاً : صلاة الصبح .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : "والفجر" : يريد صبيحة يوم النحر ؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله ، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده ؛ لأن يوم عرفة له ليلتان : ليلة قبله وليلة بعده ، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة ، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر ، فجر يوم النحر .

وهذا قول مجاهد .

وقال عكرمة : "والفجر" قال : انشقاق الفجر من يوم جَمْع .

وعن محمد بن كعب القُرَظيّ : "والفجرِ" آخر آيام العشر ، إذا دفَعْتَ من جَمْع .

وقال الضحاك : فجر ذي الحجة ، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال : ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ أي ليال عشر من ذي الحجة .

وكذا قال مجاهد والسدّيّ والكلبيّ في قوله : "وليالٍ عشْرٍ" هو عشر ذي الحِجة ، وقال ابن عباس .

وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف : 142] ، وهي أفضل أيام السنة .

وروى أبو الزبير عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ والفجر *

وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : عشر الأضحى " فهي ليال عشر على هذا القول ؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه ، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفاً لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة .

(90/814)

وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها ، فلو عُرِّفت لم تستقبل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، فنكرت من بين ما أقسم به ، للفضيلة التي ليست لغيرها .

والله أعلم .

وعن ابن عباس أيضاً : هي العشر الأواخر من رمضان ؛ وقاله الضحاك .

وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريّ : هي العشر الأَوَّل من المحرّم ، التي عاشِرها يوم عاشوراء .

وعن ابن عباس "وَلَيَالِ عَشْرٍ" (بالإضافة) يريد : وليالي أيام عشر .

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3)

الشفع : الاثنان ، والوتر : الفرد .

واختلف في ذلك ؛ فرُوِي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الشفع والوتر : الصلاة ، منها شَفْع ، ومنها وَتْر " وقال جابر بن عبد الله : قال النبي

صلى الله عليه وسلم : " "والفجرِ وليالٍ عشرٍ" قال : هو الصبح ، وعشر النحر ، والوتر يوم عرفة ، والشفع : يوم النحر " وهو قول ابن عباس وعكرمة .

واختاره النحاس ، وقال : حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو أصح إسناداً من حديث عِمران بن حُصين .

فيوم عرفة وتر ، لأنه تاسعها ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها .

وعن أبي أيوب قال : سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ والشفع والوتر ﴾ فقال : " الشفع : يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر " وقال مجاهد وابن عباس أيضاً : الشفع خَلْقه ، قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [النبأ : 8] والوَتْر هو الله عز وجل .

فقيل لمجاهد : أترويه عن أحد ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(91/814)

ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة ، قالوا : الشفع : الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] : الكفر والإيمان ،

والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والنور والظلمة ، والليل والنهار ، والحر والبرد ، والشمس والقمر ، والصيف والشتاء ، والسماء والأرض ، والجنّ والإنس .

والوتر : هو الله عز وجل ، قال جل ثناؤه : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصمد ﴾ [الإخلاص : 21] .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن لله تسعةً وتسعين اسما ، والله وِتر يحب الوِتر " وعن ابن عباس أيضاً : الشفع : صلاة الصبح" والوتر : صلاة المغرب .

وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب ، الشفع فيها ركعتان ، والوتر الثالثة .

وقال ابن الزُّبير : الشفع : يوما مِنًى : الحادي عشر ، والثاني عشر .

والثالث عشر الوتر ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] .

وقال الضحاك : الشفع : عشر ذي الحجة ، والوتر : أيام مِنًى الثلاثة .

وهو قول عطاء .

وقيل : إن الشفع والوتر : آدم وحوّاء ؛ لأن آدم كان فرداً فشُفِع بزوجته حوّاء ، فصار شفعاً بعد وتر .

رواه ابن أبي نَجِيح ، وحكاه القشيريّ عن ابن عباس .

وفي رواية : الشفع : آدم وحوّاء ، والوتر هو الله تعالى .

وقيل : الشفع والوتر : الخلق ؛ لأنهم شفع ووتر ، فكأنه أقسم بالخلق .

وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 3] .

ويقسم بمفعولاته ، لعجائب صنعه ؛ كما قال : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] ، ﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5] ، ﴿ والسمآء والطارق ﴾ [الطارق : 1] .

وقيل : الشفع : دَرَجات الجنة ، وهي ثمان .

والوتر ، دَرَكات النار ؛ لأنها سبعة .

(92/814)

وهذا قول الحسين بن الفضل ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار .

وقيل : الشفع : الصفا والمروة ، والوتر : الكَعْبة .

وقال مقاتل ابن حَيّان : الشفع : الأيام والليالي ، والوتر : اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وقال سفيان بن عُيينة : الوتر : هو الله ، وهو الشفع أيضاً ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن

نجوى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] .

وقال أبو بكر الورّاق : الشفع : تضادّ أوصاف المخلوقين : العز والذل ، والقدرة والعجز ، والقوّة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعَمَى ، والسمع والصَّمَم ، والكلام والخَرَس .

والوتر : انفراد صفات الله تعالى : عِز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوّة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عَمًى ، وكلام بلا خَرَس ، وسمع بلا صَمَم ، وما وازاها .

وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر : العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما ، وهو إقسام بالحساب .

وقيل : الشفع : مسجد مكة والمدينة ، وهما الحرمان .

والوتر : مسجد بيت المقدس .

وقيل : الشفع : القِرن بين الحج والعمرة ، أو التمتع بالعمرة إلى الحج .

والوتر : الإفراد فيه .

وقيل : الشفع : الحيوان ؛ لأنه ذكر وأنثى .

والوتر : الجماد .

وقيل : الشفع : ما يَنْمِي ، والوتر : ما لا يَنْمِي .

وقيل غير هذا .

وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائيّ وحمزة وخلف "والوِترِ" بكسر الواو .

والباقون (بفتح الواو) ، وهما لغتان بمعنى واحد .

وفي الصحاح : الوِتر (بالكسر) : الفرد ، والوَتْر (بفتح الواو) : الذحل .

هذه لغة أهل العالية .

فأمّا لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم .

فأما تميم فبالكسر فيهما .

قوله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ وهذا قسم خامس .

وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص ، أقسم بالليل على العموم .

ومعنى "يسرِي" أي يُسْرَى فيه ؛ كما يقال : ليل نائم ، ونهار صائم .

قال :

(93/814)

لَقَدْ لُمْتِنا يا أُمَّ غَيلان في السُّرَى . . .

ونِمتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائِم

ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] .

وهذا قول أكثر أهل المعاني ، وهو قول القُتَبِيّ والأخفش .

وقال أكثر المفسرين : معنى "يَسْرِي" : سار فذهب .

وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبل .

ورُوِي عن إبراهيم : "والليلِ إذا يَسْرِ" قال : إذا استوى .

وقال عكرمة والكلبيّ ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله : ﴿ والليل ﴾ : هي ليلة المزدلِفة خاصة ؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله .

وقيل : ليلة القَدْر ؛ لِسراية الرحمة فيها ، واختصاصها بزيادة الثواب فيها .

وقيل : إنه أراد عموم الليل كله .

قلت : وهو الأظهر ، كما تقدّم .

والله أعلم .

وقرأ ابن كثِير وابن مُحيصِن ويعقوب "يسرِي" بإثبات الياء في الحالين ، على الأصل ؛ لأنها ليست بمجزومة ، فثبتت فيها الياء .

وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل ، وبحذفها في الوقف ، وروي عن الكسائي .

قال أبو عبيد : كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل ، وبحذفها في الوقف ، اتباعاً للمصحف .

ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً ؛ لأنه رأس آية ، وهي قراءة أهل الشام والكوفة

واختيار أبي عُبيد ، اتباعاً للخط ؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء .

قال الخليل : تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي .

قال الفرّاء : قد تحذف العرب الياء ، وتكتفي بكسر ما قبلها .

وأنشد بعضهم :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَماً . . .

جُودا وأخرى تعطِ بالسَّيف الدّما

يقال : فلان ما يُلِيق درهماً من جوده ؛ أي ما يمسكه ، ولا يلصق به .

(94/814)

وقال المؤرِّج : سألت الأخفش عن العِلة في إسقاط الياء من "يَسْرِ" فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة ، فبت على باب داره سنة ؛ فقال : الليل لا يَسْرِي وإنما يَسْرَى ، فيه ؛ فهو مصروف ، وكل ما صرفته عن جهته بَخَسْته من إعرابه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] ، ولم يقل بِغية ، لأنه صرفها عن باغية .

الزمخشريّ : وياء "يسرِي" تحذف في الدَّرْج ، اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة .

وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم ، والجواب محذوف ، وهو لَيُعَذَّبُنّ ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : 13] .

وقال ابن الأنباريّ هو ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : 14] .

وقال مقاتل : "هل" هنا في موضع إنّ ؛ تقديره : إن في ذلك قسماً لذي حِجْر .

ف"هل" على هذا في موضع جواب القسم .

وقيل : هي على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير ؛ كقولك : ألم أُنعِم عليك ؛ إذا كنت قد أنعمت .

وقيل : المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه .

والمعنى : بل في ذلك مَقْنَع لذي حِجر .

والجواب على هذا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

أو مضمر محذوف .

ومعنى ﴿ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أي لذي لُبّ وعقل .

قال الشاعر :

وكيفَ يرجَّى أَنْ تَتوبَ وإنَّما . . .

يُرَجَّى من الفِتيانِ مَنْ كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين ؛ إلا أن أبا مالك قال : "لِذِي حِجر" : لذي سِتر من الناس .

وقال الحسن : لذي حلم .

قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد : لذي حجْر ، ولذي عقل ، ولذي حلم ، ولذي سِتر ؛ الكل بمعنى العقل .

وأصل الحِجر : المنع .

(95/814)

يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حِجْر ؛ ومنه سمي الحَجَر ، لامتناعه بصلابته : ومنه حَجر الحاكم على فلان ، أي منعه وضبطه عن التصرّف ؛ ولذلك سميتِ الحُجْرة حجرة ، لامتناع ما فيها بها .

وقال الفرّاء : العرب تقول : إنه لذو حِجْر : إذا كان قاهراً لنفسه ، ضابطاً لها ؛ كأنه أخذ من حَجَرت على الرجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(96/814)

وقال أبو السعود :

﴿ والفجر ﴾

أقسمَ سبحانَهُ بالفجرِ كما أقسمَ بالصبحِ حيثُ قال : ﴿ والصبحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ وقيلَ : المرادُ به صلاتُه ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ هن عشرُ ذِي الحجةِ ولذلكَ فُسِّرَ الفجرُ بفجرِ عرفةَ أو النحرِ ، أو العشرُ الأواخرُ من رمضانَ وتنكيرُها للتفخيمِ وقُرِئَ وَلَيالٍ عشرٍ بالإضافةِ على أنَّ المرادَ بالعشرِ الأيامُ ﴿ والشفعِ والوترِ ﴾ أي الأشياءِ كلِّها شفعِها ووترِها أو شفعِ هذه الليالِي ووترِها وقد رُوِيَ أن النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ فسرهُمَا بيومِ النحرِ ويومِ عرفةٍ ولقد كثُرتْ فيهما الأقوالُ والله تعالَى أعلمُ بحقيقةِ الحالِ وقُرِئَ بكسرِ الواوِ وهما لغتانِ كالحَبْرِ والحِبْرِ وقيلَ : الوَترُ بالفتحِ في العددِ وبالكسرِ في الذَحل وقُرِئَ والوترِ وقُرِئَ والوَتِرِ بفتحِ الواوِ وكسرِ التاءِ .

(97/814)

﴿ والليلِ إذَا يَسْرِ ﴾ أيْ يَمْضِي كقولِه تعالى : ﴿ واليلِ إذْ أَدْبَرَ ﴾ ﴿ واليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ والتقييدُ لما فيهِ من وضوحِ الدلالةِ على كمالِ القدرةِ ووفورِ النعمةِ أو يُسرِيَ فيهِ من قولِهم : صَلَّى المقامُ أي صُلِّيَ فيهِ وحَذْفُ الياءِ اكتفاءً بالكسرِ . وقُرِئَ بإثباتِها على

الإطلاقِ وبحذفِها في الوقفِ خاصَّة وقُرِىءَ يسرٍ بالتنوينِ كما قُرِىءَ والفجرٍ ، والوترٍ وهو التنوينُ الذي يقعُ بدلاً من حرفِ الإطلاقِ ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ ﴾ الخ تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامةِ شأنِ المُقْسَمِ بهَا وكونِها أموراً جليلةً حقيقةً بالإعظامِ والإجلالِ عندَ أربابِ العقولِ وتنبيهٌ على أنَّ الإقسامَ بها أمرٌ معتدٌّ به خليقٌ بأنْ يُؤكدَ بهِ الأخبارُ على طريقةِ قولِه تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وذلكَ إشارةٌ إمَّا إلى الأمورِ المقسمِ بهَا والتذكيرُ بتأويلِ ما ذُكِرَ كما مَرَّ تحقيقُه أو إلى الإقسامِ بهَا وأياً ما كانَ فمَا فيه من مَعْنى البُعْدِ للإيذانِ بعلوِّ رتبةِ المُشَارِ إليهِ وبُعْدِ منزلتِه في الشرفِ والفضلِ أيْ هِلْ فيما ذُكِرَ من الأشياءِ قسمٌ أيْ مقسمٌ بهِ ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ يراهُ حقيقاً بأنْ يقسمَ بهِ إجلالاً وتعظيماً والمرادُ تحقيقُ أنَّ الكلَّ كذلكَ وإنما أُوثرتْ هذه الطريقةُ هَضْماً للخلقِ وإيذاناً بظهورِ الأمرِ أو هَلْ في إقسامِي بتلكَ الأشياءِ إقسامٌ لذي حجرٍ مقبولٌ عندَهُ يعتدُّ بهِ ويفعلُ مثلَهُ ويؤكدُ بهِ المقسمَ عليهِ والحِجْرُ العقلُ لأنه يحجُرُ صاحبَهُ أي يمنعُهُ من التهافتِ فيمَا لا ينبغِي كما سُمِيَ عقلاً ونُهيةً لأنَّه يعقلُ ويَنْهَى ، وحصاةً أيضاً من الإحصاءِ وهو الضبطُ . قال الفراءُ : يقالُ : إنَّه لذو حجرٍ إذَا كانَ قاهِراً لنفسِه ضابطاً لهَا والمقسمُ عليهِ محذوفٌ وهُو لَيُعذَّبَنَّ كما ينبىءُ عنه قولُه تعالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ الخ ، فإنَّه استشهادٌ بعلمِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بمَا يدلُّ عليهِ من تعذيبِ عَادٍ وأضرابِهم المشاركينَ لقومِه عليه الصلاةُ والسلامُ في الطغيانِ والفسادِ على طريقةِ قولِه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذى حَاجَّ إبراهيم فِى رَبِّهِ ﴾ الآيةَ . وقولُه تعالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ كأنَّه قيلَ : ألم تعلم علماً يقينياً كيفَ عذبَ ربُّكَ عاداً ونظائرَهُم فيعذبُ هؤلاءِ أيضاً لاشتراكِهم فيما يوجبُه من الكفرِ والمعاصِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(99/814)

وقال الآلوسى :

﴿ والفجر ﴾

أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم عز وجل بالصبح في قوله تعالى ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ [التكوير : 18] فالمراد به الفجر المعروف كما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن الزبير وغيرهم رضي الله تعالى عنهم وقيل المراد عموده وضوءه الممتد واصله شق الشيء شقاً واسعاً وسمى الصبح فجراً لكونه فاجر الليل وهو كاذب لا يتعلق به حكم

الصوم والصلاة وصادق به يتعلق حكمهما وقد تكلموا في سبب كل بما يطول وتقدم بعض منه ولعل المراد به هنا الصادق فهو أحرى بالقسم به والمراد عند كثير جنس الفجر لا فجر يوم مخصوص وعن ابن عباس ومجاهد فجر يوم النحر وعن عكرمة فجر يوم الجمعة وعن الضحاك فجر ذي الحجة وعن مقاتل فجر ليلة جمع وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في "الشعب" عن ابن عباس أنه قال هو فجر المحرم فجر السنة وروي نحوه عن قتادة وعن الحبر أيضاً أنه النهار كله وأخرج ابن جرير عنه أيضاً أنه قال يعني صلاة الفجر وروي نحوه عن زيد بن أسلم فهو إما على تقدير مضاف أو على إطلاقه على الصلاة مجازاً وهو شائع وقيل المراد فجر العيون من الصخور وغيرها .

(100/814)

﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ هن العشر الأول من الأضحى كما أخرجه الحاكم وصححه وجماعة على ابن عباس وروي عن ابن الزبير ومسروق ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم وأخرج ذلك أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبزار وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في "الشعب" عن جابر يرفعه ولها من الفضل ما لها وقد أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس مرفوعاً ما من أيام فيهن العمل أحب إلى الله عز وجل وأفضل من أيام العشر قيل يا رسول

الله ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهن العشر الأواخر من رمضان وروي أيضاً عن الضحاك بل زعم التبريزي الاتفاق على أنهن هذه العشر وأنه لم يخالف فيه أحد واستدل له بعضهم بالحديث المتفق على صحته قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر تعني العشر الأواخر من رمضان شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله وتعقبه بعضهم بأن ذلك محتمل لأن يحظى عليه الصلاة والسلام بليلة القدر لأنها فيها لا لكونها العشر المرادة هنا وعن ابن جريج أنهن العشر الأول من رمضان وعن يمان وجماعة أنهن العشر الأول من المحرم وفيها يوم عاشوراء وقد ورد في فضله ما ورد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال عليه الصلاة والسلام ما هذا اليوم الذي تصومونه قالوا هذا يوم عظيم أنجى الله تعالى فيه موسى وأغرق آل فرعون فيه فصامه موسى عليه السلام شكراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق بموسى منكم فصامه صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه وصح في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام أرسل غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة من كان أصبح صائماً فليتم يومه ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه فكان الصحابة بعد ذلك يصومونه ويصومونه صبيانهم

الصغار ويذهبون بهم إلى المسجد ويجعلون لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً " وجاء في الأمر بالتوسعة فيه على العيال عدة أحاديث ضعيفة لكن قال البيهقي : هي وإن كانت ضعيفة إذا ضم بعضها إلى بعض أحدث قوة وأياماً كان فتنكيرها للتفخيم وقيل للتبعيض لأنها بعض ليالي السنة أو الشهر والتفخيم أولى قيل ولولا قصد ما ذكر كان الظاهر تعريفها كأخواتها لأنها ليال معهودة معينة وقدر بعضهم على إرادة صلاة الفجر فيما مر مضافاً هنا أي وعبادة ليال ويقال نحوه فيما بعد على بعض الأقوال فيه وليس بلازم ولا أثر فيه وقرأ ابن عباس بالإضافة فضبطه بعضهم وليال عشر بلام دون ياء وبعضهم وليالي عشر بالياء وهو القياس والمراد وليالي أيام عشر فحذف الموصوف وهو المعدود وفي مثل ذلك يجوز التاء وتركها في العدد ومنه واتبعه بست من شوال وما حكاه الكسائي صمنا من الشهر خمساً والمرجح للترك ههنا وقوعه فاصلة وجوز أن تكون الإضافة بيانية وهو خلاف الظاهر .

﴿ والشفع والوتر ﴾ هما على ما في حديث جابر المرفوع الذي أشرنا إليه فيما تقدم يوم النحر ويوم عرفة وقال الطيبي روينا عن الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر فقال الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر ثم قال هذا هو التفسير الذي لا محيد عنه انتهى وقد رواه عن عمران أيضاً عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وصححه لكن في "البحر" أن حديث جابر أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين ووراء ذلك أقوال كثيرة فأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قال : اقسم ربنا بالعدد كله منه الشفع ومنه الوتر وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد أنه قال : الخلق كله شفع ووتر فأقسم سبحانه بخلقه وأخرج ابن المنذر وجماعة عنه أنه قال الله تعالى الوتر وخلقه سبحانه الشفع الذكر والأنثى وروي نحوه عن أبي صالح ومسروق وقرآ ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ [الذاريات : 49] وقيل المراد شفع تلك الليالي ووترها وقيل الشفع أيام عاد والوتر لياليها وقيل الشفع أبواب الجنة والوتر أبواب النار وقيل غير ذلك وقد ذكر في كتاب التحرير والتحبير مما قيل فيهما ستاً وثلاثين قولاً وفي "الكشاف" قد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما

يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه وقال بعض الأفاضل لا اشعار للفظ الشفع والوتر بتخصيص شيء مما ذكروه وتعيينه بل هو إنما يدل على معنى كلي متناول لذلك ولعل من فسرهما بما فسرهما لم يدع الانحصار فيما فسر به بل أفرد بالذكر من أنواع مدلولهما ما رآه أظهر دلالة على التوحيد أو مدخلاً في الدين أو مناسبة لما قبل أو لما بعد أو أكثر منفعة موجبة للشكر أو نحو ذلك من النكات وإذا ثبت من الشارع عليه الصلاة والسلام تفسيرهما ببعض الوجوه فالظاهر أنه ليس مبنياً على تخصيص المدلول بل وارد على طريق التمثيل بما رأى في تخصيصه بالذكر فائدة معتداً بها فحينئذٍ يجوز للمفسر أن يحمل

(103/814)

اللفظ على بعض آخر من محتملاته لفائدة أخرى انتهى وهو ميل إلى أن أل فيهما للجنس لا للعهد والظاهر أن ما تقدم من الحديثين من باب القطع بالتعيين دون التمثيل لكن يشكل أمر التوفيق بينهما حينئذٍ وإذا صح ما قال في "البحر" كان المعول عليه حديث جابر رضي الله تعالى عنه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، وقرأ حمزة والكسائي والأغر عن ابن عباس وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلاف عنه والوتر بكسر الواو وهي لغة تميم والجمهور على فتحها وهي لغة قريش وهما لغتان كالحبر والحبر بمعنى العالم على ما

قال صاحب المطلع في الوتر المقابل للشفع وأما في الوتر بمعنى الترة أي الحقد فالكسر هو المسموع وحده والأصمعي حكى فيه أيضاً اللغتين وقرأ يونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء وهو إما لغة أو نقل حركة الواو في الوقف لما قبلها .

(104/814)

﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ أي يمضي كقوله تعالى : ﴿ والليل إِذَا أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] ﴿ والليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] والظاهر أنه مجاز مرسل أو استعارة ووجه الشبه كالنهار وإذا على ما صرح به العلامة التفتازاني في التلويح بدل من الليل وخروجها عن الظرفية مما لا بأس به أو ظرف متعلق بمضاف مقدر وهو العظمة على ما اختاره بعضهم والإقسام بذلك الوقت أو تقييد العظمة به لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة أو يسري فيه على ما نقل أبو حيان عن الأخفش وابن قتيبة كقولهم صلى المقام أي صلى فيه على أنه تجوز في الإسناد بإسناد ما للشيء للزمان كما يسند للمكان وأياً ما كان فالمراد بالليل جنسه وقال مجاهد وعكرمة والكلبي المراد به ليلة النحر وهي يسري الحاج فيها إلى المزدلفة بعد الإفاضة من عرفات وليس بذاك والإقسام والتقييد على الوجه الأخير لما في السير في الليل من نعمة الحفظ من حر الشمس وشر قطاع الطريق غالباً

وحذفت الياء عند الجمهور وصلاً ووقفاً من آخر يسر مع أنها لام مضارع غير مجزوم اكتفاء عنها بالكسر للتخفيف ولتتوافق رؤوس الآي ولذا رسمت كذلك في المصاحف ولا ينبغي أن يقال إنها حذفت لسقوطها في خطها فإنه يقتضي أن القراءة باتباع الرسم دون رواية اسبقة عليه وهو غير صحيح وخص نافع وأبو عمرو في رواية هذا الحذف بالوقف لمراعاة الفواصل ولم يحذف مطلقاً ابن كثير ويعقوب وفي تفسير البغوي سئل الأخفش عن علة سقوط ياء يسر فقال الليل لا يسري ولكن يسري فيه وهو تعليل كثيراً ما يسئل عنه لخفائه والجواب أنه أراد أنه لما عدل عن الظاهر في المعنى وغير عما كان حقه معنى غير لفظه لأن الشيء يجر جنسه لا لفه به .

إن الطيور على أمثالها تقع . . .

(105/814)

وهذا كما قيل في قوله تعالى ﴿ مَا كَانَت أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] أنه لما عدل عن باغية أسقطت منه التاء ولم يقل بغية ومثله من بدائع اللغة العربية ويمكن التعليل بنحوه على تفسير يسر بيمضي لما فيه من العدول عن الظاهر في المعنى أيضاً علمت من أنه مجاز في ذلك وقرأ أبو الدينار الأعرابي والفجر والوتر ويسر بالتنوين في الثلاثة قال ابن خالويه هذا

كما روي عن بعض العرب أنه وقف على أواخر القوافي بالتنوين وإن كانت أفعالاً أو فيها أل نحو قوله :

أقلي اللوم عاذل والعتابن . . .

وقولي إن أصبت لقد أصابن

انتهى وهذا كما قال أبو حيان ذكره النحويون في القوافي المطلقة يعني المحركة إذا لم يترنم الشاعر وهو أحد وجهين للعرب إذا لم يترنموا والوجه الآخر الوقف فيقولون العتاب وأصاب كحالهم إذا وقفوا على الكلمة في النثر وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى الوقف وعاملها معاملة القوافي المطلقة ويسمى هذا التنوين تنوين الترنم ولا اختصاص له بالاسم ويغلب على ظني أنه قيل يكتب نوناً بخلاف أقسام التنوين المختصة بالاسم وقوله تعالى :

﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الخ

(106/814)

تحقيق وتقرير لفخامة الأشياء المذكورة المقسم بها وكونها مستحقة لأن تعظم بالإقسام بها فيدل على تعظيم المقسم عليه وتأكيده من طريق الكناية فذلك إشارة إلى المقسم به وما فيه من معنى البعد لزيادة تعظيمه أي هل فيما ذكر من الأشياء ﴿ قَسَمٌ ﴾ أي مقسم به

﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أي هل يحق عنده أن يقسم به إجلالاً وتعظيماً والمراد تحقيق أن الكل كذلك وإنما أوثرت هذه الطريقة هضماً للحق وإيذاناً بظهور الأمر وهذا كما يقول المتكلم بعد ذكر دليل واضح الدلالة على مدعاه هل دل هذا على ما قلناه وجوز أن يكون التحقيق أن ذوي الحجر يؤكدون بمثل ذلك المقسم عليه فيدل أيضاً على تعظيمه وتأكيده فذلك إشارة إلى المصدر أعني الإقسام هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسام لذي حجر مقبول عنده يعتد به ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه وحاصل الوجهين فيماي رجع إلى تأكيد المقسم عليه واحد إلا أن الوجه مختلف كما لا يخفى ولعل الأول أظهر والحجر العقل لأنه يحجر صاحبه أي يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهيه لأنه يعقل وينهى وحصاة من الإحصاء وهو الضبط وقال الفراء يقال : إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن كما ينبىء عنه قوله تعالى شأنه :

(107/814)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ الخ فإنه استشهاد بعلمه صلى الله عليه وسلم بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام في الطغيان والفساد على طريقة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذى حَاجَّ إِبراهيم فِى رِبِّهِ ﴾ [البقرة : 258] الآية وقوله

سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء : 225] وقال أبو حيان الذي يظهر أنه محذوف يدل عليه ما قبله من آخر صورة الغاشية وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : 25 ، 26] وتقديره لإيابهم إلينا وحسابهم علينا وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ والفجر إلى قوله سبحانه : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 1-4] فقال هذا قسم على أن ربك لبالمرصاد وإلى أنه هو المقسم عليه ذهب ابن الأنباري وعن مقاتل أنه ﴿ هل في ذلك ﴾ [الفجر : 5] الخ وهل بمعنى أن وهو باطل رواية ودراية إذ يبقى عليه قسم بلا مقسم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(108/814)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(89) سورة الفجر

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة الليل عدد آياتها : ثلاثون آية . .

عدد كلماتها : مائة وسبع وعشرون كلمة . .

عدد حروفها : خمسمائة وتسعة وتسعون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

هذه السورة ، هى امتداد لعرض آيات من قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، وما أخذ به المكذبين بالحياة الآخرة ، الذين لم يؤمنوا باللّه ، ولم يصدقوا بما جاءهم على يد رسل اللّه من آيات مبصرة . .

(109/814)

التفسير :

[الليالى العشر . . ما تأويلها] قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ » ؟

هذه خمسة أقسام ، أقسم اللّه سبحانه وتعالى بها ، مفتتحا بها هذه السورة الكريمة . .

وهى : الفجر ، والليالى العشر ، والشفع ، والوتر ، والليل . .

والفجر ، معروف فى اللغة ، ودلالته محددة لا اختلاف عليها . . وهو أول مطلع النهار ، فى جلد الليل الأسود . .

أما الشفع ، فهو الزوج من كل شىء . . فالاثنان فى العدد شفع ، والاثنان من الناس ، أو الأنعام ، أو الشجر ، شفع . . وذلك على خلاف الوتر ، الذي يدل على واحد فرد ، لم

يشفع بواحد آخر من جنسه . .

ولكن ما دلالة : « ليال عشر » .

. إنها إذا أخذت على إطلاقها ، صحّ أن يقال إنها أي ليال عشر مقتطعة من ليالى الزمن على امتداده ، فهى إذن ليست ليال على صفة خاصة ، ولهذا جاءت منكّرة ، ومع هذا فقد كثرت فيها أقوال المفسرين ، فقيل هى الليالى العشر الأولى من ذى الحجة ، وقيل هى العشر الأواخر من رمضان ، التي بدىء بنزول القرآن فيها ، والتي فيها ليلة القدر ، وقيل هى عشر ليالى موسى التي كانت من الليالى الأربعين التي واعده اللّه سبحانه

(110/814)

وتعالى فيها ، كما يقول تبارك اسمه : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ » (142 : الأعراف) . .

وقيل ، وقيل كثير غير هذا . .

وكذلك كانت المقولات فى الشفع ، والوتر . . فقيل إن الشفع صلاة الصبح ، والوتر صلاة المغرب ، وقيل إن الشفع هو الخلق ، وما فيه من تزاوج بين المخلوقات ، كالذكر والأنثى ، والليل والنهار ، والأرض ، والسماء ، والخير والشر . . ونحوها . . والوتر ، هو الخالق

سبحانه وتعالى ، لأنه جل شأنه الواحد ، المتفرد بالوحدانية . .

ولم يخل من هذا الاختلاف إلا « الليل » فهو الذي أجراه المفسرون على إطلاقه . . حتى « الفجر » الذي قلنا إن دلالته محدودة فى اللغة ، لم يسلم من هذا الخلاف ، فالذين قالوا إن الليالى العشر ، هى العشر الأواخر من ذى الحجة . قالوا إن الفجر هو فجر الليلة العاشرة التي تمّ فيها مناسك الحج ، وتنحر مع فجرها الأضحيات .

وتقطيع الوحدة الزمنية مع هذه الأوقات التي أقسم اللّه سبحانه وتعالى بها ، يجعل الجمع بينها خلوا من المناسبة التي تجمع بينها ، وتؤلف منها كيانا متسقا متلاحما ، الأمر الذي لا يفوت النظم القرآنى ، فى أىّ موضع يجتمع فيه شىء إلى شىء ، سواء أكان هذا الجمع على سبيل التوافق أو التضاد .

ولعل خير موقف نأخذه عند النظر فى هذه الأقسام ، للخروج من هذا التضارب فى دلالاتها ، هو أن نقف بها عند مدلولها اللفظي ، مطلقا من كل قيد .

فالفجر ، هو الفجر . . أي فجر يكون !

(111/814)

والليالي العشر : هى ليال عشر ، من أي ليالى الزمن كله على امتداده .

والشفع والوتر ، هو العدد الزوجى ، أو الفردى ، من الليالى .

والليل ، هو أي ليل يقابل النهار ، من أي يوم من أيام الزمن .

وفى هذا نجد أن المقسم به هنا هو الزمن ، فى وحدات زمنية منه ، هى :

الفجر ، والليل ، وعشر ليال من هذا الليل .

أما الشفع والوتر ، وإن لم يكن من المتعيّن أن المعدود بهما قطع من الزمن ، فإن السياق الذي جاءا فيه ، يقضى بأن يكون المعدود - زوجا أو فردا - قطعا من الزمن ، وأقرب هذه القطع أن تكون من الليالى ، شفعا أو وترا . .

إذ سبقهما قوله تعالى : « وليال عشر » وهى عدد شفع ، وتلاهما قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ » وهو عدد وتر ! ويكون القسم بالليالي العشر جملة ، ثم القسم بها ليلتين ليلتين ، وليلة ليلة .

فإذا ذهبنا - وهذا من التكلف الذي لا بأس به - إذا ذهبنا نلتمس الحكمة فى القسم بهذه القطع من الزمن ، دون غيرها : فإنا نقول - والله أعلم - إن القسم بالفجر إشارة إلى تفجر النور من أحشاء هذا الظلام الموحش ، الذي يطبق على الوجود ويلفه فى رداء ثقيل ، أشبه بالأكفان التي يلف فيها الموتى . .

إنه إشارة إلى بعث جديد للحياة ، ودعوة مجددة للأحياء أن يكتحلوا بهذا النور ، وأن

يأخذوا مواقفهم فيه على طريق العمل .

والليالى العشر ، هى الليالى العشر الأولى من أول كل شهر قمرى ، وهى الليالى العشر فى وسطه ، ثم هى الليالى الأخيرة منه ، فهى عشر فى أول الشهر القمري ، وعشر فى وسطه ، وعشر فى آخره .

ويكاد يكون سلطان القمر فى العشر الليالى الأولى من الشهر ، وفى العشر

(112/814)

الأواخر منه ـ يكاد يكون سلطانه على حدّ سواء فيهما ، من حيث غلبة الظلام عليه . .

أما عشر الليالى المتوسطة بين العشر الأولى والأخيرة ، فهى التي يكون سلطان القمر فيها غالبا على ظلام الليل .

وعلى هذا يكون الشفع ، هو العشر الليالى الأولى ، والعشر الأخيرة من كل شهر قمرى . باعتبارهما وحدتين زمنيتين متماثلتين .

وأما الوتر ، فهو العشر الليالى المتوسطة من الشهر ، باعتبارها وحدة زمنية واحدة ! ومن هذا يكون القسم بالليالي العشر ، واقعا على الليالى كلها ، فى امتداد الزمن ، ولكن مع دعوة إلى مراقبة الزمن ، وملاحظة التغيرات التي تجرى على الليل . . ليلة ليلة . . فالليل

يلبس فى كل ليلة ثوبا جديدا مع القمر على مدى ثلاثين ليلة . . ثم يعود فيبدأ دورته من جديد معه ، من هلال إلى بدر ، إلى محاق . .

وقوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ » . هو إطلاق لليل من هذا القيد الذي شدّه إلى القمر ودورته معه . . فهو ليل مطلق ، يسرى فى غلالته السوداء ، مع القمر فى كل منزل من منازله منه . . فهو فى كل حال ، ليل يسرى ، ويبسط سلطانه على الكائنات ، وأنه لا يوقف مسيرة الليل إلا الفجر . .

وفى التعبير عن حركة الليل بالسّرى : « إذا يسر » إشارة إلى أنه يتحرك فى مسيرته والأحياء نيام لا يشعرون به ، كما يتحرك الذين يسيرون فيه دون أن يشعر بهم أحد . .

فالأقسام - كما ترى - هى أقسام بوحدات من الزمن ، وفى هذه الوحدات ، يبدو الزمن كائنا حيّا ، يعايش الناس ، ويشاركهم تقلبهم فى الحياة ، وفى هذا ما يبعث على النظر ، والتدبر ، والتفكر ، مما يكشف عن قدرة الخالق وعظمته ، وحكمته .

(113/814)

وبهذه المراقبة للزمن ، والالتفات الواعي إلى حركته ، يعرف الإنسان قيمة الزمن - ويحرص على الانتفاع بكل لحظة تمر منه .

وقوله تعالى : «هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ » الحجر : العقل ، وسمى العقل حجرا ، لأنه يحجر صاحبه ويحميه من الضلال والضياع ، ومنه الحجر على السفيه ، صيانة لما له ، من تصرفاته الحمقاء . . ومنه سميت الحجرة ، لأنها تحجر من يداخلها ، وتحميه من الحر ، والبرد ، ومن أيدى اللصوص ، ونظرات المتلصصين . . والاستفهام هنا دعوة إلى أصحاب العقول أن ينظروا فى هذه الأقسام التي تمجد من شأن الزمن ، وتجعل من كل قطعة منه آية من آيات القدرة الإلهية ، لا يراها إلا أصحاب العقول ، ولا يدرك سر القسم بها إلا أولو البصائر والأبصار وفى دعوة العقول إلى النظر والملاحظة لسير الزمن وحركاته بالليل ، إشارة إلى أن الليل هو الوقت الذي تهدأ فيه النفس ، وتسكن الجوارح ، فيجد العقل فيه فرصته للانطلاق ، والقدرة على التأمل ، والتفكير . . كما أن أكثر الناس يغفلون عن الليل ، ولا يرونه إلا قبرا يحتوى أجسامهم ، فلا يكون لهم وجود فيه ، ولا يكون لعقولهم تعامل معه ، فى حين أنه يمثل جزءا كبيرا من حياتهم يعادل نصف هذه الحياة . . وإنه لخسران عظيم للإنسان أن يدع هذا النصف من عمره يذهب هباء ، فكيف بمن يخسر عمره كلّه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1545 . 1550 ﴾

(114/814)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) ﴾

القَسَم بهذه الأزمان من حيث إن بعضها دلائل بديع صنع الله وسعةِ قدرته فيما أوجد من نظام يُظاهر بعضه بعضاً من ذلك وقتَ الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل وابتداء نور النهار ، ووقت الليل الذي تمحضت فيه الظلمة .

وهي مع ذلك أوقات لأفعال من البر وعبادةِ الله وحده ، مثل الليالي العشر ، والليالي الشفع ، والليالي الوتر .

والمقصود من هذا القَسَم تحقيق المقسم عليه لأن القسم في الكلام من طرق تأكيد الخبر إذ القسم إشهاد المُقسِم ربه على ما تضمنه كلامه .

وقسم الله تعالى متمحض لقصد التأكيد .

والكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما دل عليه قوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ [الفجر : 6] وقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] .

ولذلك فالقسم تعريض بتحقيق حصول المقسم عليه بالنسبة للمنكرين .

والمقصد من تطويل القسم بأشياء ، التشويقُ إلى المقسم عليه .

و﴿ الفجر ﴾ : اسم لوقتِ ابتداء الضياء في أقصى المشرق من أوائل شعاع الشمس حين يتزحزح الإظلام عن أول خط يلوح للناظرِ مِنَ الخطوط الفرضية المعروفةِ في تخطيط

الكرة الأرضية في الجغرافيا ثم يمتد فيضيء الأفق ثم تظهر الشمس عند الشروق وهو مظهر عظيم من مظاهر القدرة الإلهية وبديع الصنع .

فالفجر ابتداء ظهور النور بعد ما تأخذ ظلمة الليل في الإِنصرام وهو وقت مبارك للناس إذ عنده تنتَهي الحالة الداعية إلى النوم الذي هو شبيه الموت ؛ ويأخذ الناس في ارتجاع شعورهم وإقبالهم على ما يألفونه من أعمالهم النافعة لهم .

فالتعريف في ﴿ الفجر ﴾ تعريف الجنس وهو الأظهر لمناسبة عطف ﴿ والليل إذا يسر ﴾ .

ويجوز أن يراد فجر معين : فقيل أريد وقت صلاة الصبح من كل يوم وهو عن قتادة .

وقيل : فجر يوم النحر وهو الفجر الذي يكون فيه الحجيج بالمزدلفة وهذا عن ابن عباس وعطاء وعكرمة ، فيكون تعريف ﴿ الفجر ﴾ تعريف العهد .

(115/814)

وقوله : ﴿ وليال عشر ﴾ : هي ليال معلومة للسامعين موصوفة بأنها عشر واستُغني عن تعريفها بتوصيفها بعشر وإذ قد وصفت بها العدد تعين أنها عشر متتابعة وعدل عن تعريفها مع أنها معروفة ليتوصل بتركْ التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم وليس في ليالي السَّنة

عشرُ ليال متتابعة عظيمة مثل عشر ذي الحجّة التي هي وقتُ مناسك الحج ، ففيها يكون الإِحرام ودخول مكة وأعمال الطواف ، وفي ثامنتها ليلة التروية ، وتاسعتها ليلة عرفة وعاشرتها ليلة النحر .

فتعين أنها الليالي المرادة بليال عشر .

وهو قول ابن عباس وابن الزبير ، وروى أحمد والنسائي عن أبي الزبير (المكي) عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن العشر عشر الأضحى " قال ابن العربي : ولم يصح وقال ابن عساكر : رجاله لا بأس بهم وعندي أن المتن في رفعه نكارة أ هـ .

ومناسبة عطف ﴿ ليال عشر ﴾ على ﴿ الفجر ﴾ أن الفجر وقت انتهاء الليل ، فبينه وبين الليل جامع المضادة ، والليل مظهر من مظاهر القدرة الإلهية فلما أريد عطفه على الفجر بقوله : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ خصت قبل ذكره بالذكرِ ليال مباركة إذ هي من أفراد الليل .

وكانت الليالي العشر معينة من الله تعالى في شرع إبراهيم عليه السلام ثم غيرت مواقيتها بما أدخله أهل الجاهلية على السَّنة القمرية من النسيء فاضطربت السنين المقدسة التي أمر الله بها إبراهيم عليه السلام .

ولا يُعرف متى بدأ ذلك الاضطراب ، ولا مقاديرُ ما أدخل عليها من النسيء ، ولا ما يضبط أيام النسيء في كل عام لاختلاف اصطلاحهم في ذلك وعدم ضبطه فبذلك يتعذر تعيين الليالي العشر المأمور بها من جانب الله تعالى ، ولكننا نوقن بوجودها في خلال السنة إلى أن أوحى الله إلى نبيئه محمد صلى الله عليه وسلم في سنة عشر من الهجرة عام حجة الوداع ، بأن أشهر الحج في تلك السنة وافقت ما كانت عليه السنةُ في عهد إبراهيم عليه السلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع : " إن الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السماوات والأرض " .

وهذا التغيير لا يرفع بركة الأيام الجارية فيها المناسك قبل حجة الوداع لأن الله عظمها لأجل ما يقع فيها من مناسك الحج إذ هو عبادة لله خاصة .

فأوقات العبادات تعيين لإِيقاع العبادة فلا شك أن للوقت المعين لإيقاعها حكمة علمها الله تعالى ولذلك غلب في عبارات الفقهاء وأهل الأصول إطلاقُ اسم السبب على الوقت لأنهم يريدون بالسبب المعرّف بالحكم ولا يريدون به نفسَ الحِكمة .

وتعيين الأوقات للعبادات مما انفرد الله به ، فلأوقات العبادات حرمات بالجعل الرباني ، ولكن إذا اختلت أو اختلطت لم يكن اختلالها أو اختلاطها بقاض بسقوط العبادات المعينة لها .

فقسمُ اللَّه تعالى بالليالي العشر في هذه مما نزل بمكة قسم بما في علمه من تعيينها في علمه .

و﴿ الشفع ﴾ : ما يكون ثانياً لغيره ، و ﴿ الوَتْر ﴾ : الشيء المفرد ، وهما صفتان لمحذوف ، فعن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفع يوم النحر ذلك لأنه عاشر ذي الحجة ومناسبة الابتداء بالشفع أنه اليوم العاشر فناسب قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ ، وأن الوتر يوم عرفة رواه أحمد بن حنبل والنسائي وقد تقدم آنفاً ، وعلى هذا التفسير فذكر الشفع والوتر تخصيص لهذين اليومين بالذكر للاهتمام ، بعد شمول الليالي العشر لهما .

(117/814)

وفي "جامع الترمذي" عن عِمران بن حُصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الشفع والوتر والصلاةُ منها شفع ومنها وتر " .

قال الترمذي : وهو حديث غريب وفي "العارضة أن في سنده مجهولاً ، قال ابن كثير : "وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه" .

وينبغي حمل الآية على كلا التفسيرين .

وقيل : الشفع يومان بعد يوم منَى ، والوتر اليوم الثالث وهي الأيام المعدودات فتكون غيرَ

الليالي العشر .

وتنكير ﴿ ليال ﴾ وتعريف ﴿ الشفع والوتر ﴾ مشير إلى أن الليالي العشر ليال معينة وهي عشر ليال في كل عام ، وتعريف ﴿ الشفع والوتر ﴾ يؤذن بأنهما معروفان وبأنهما الشفع والوتر من الليالي العشر .

وفي تفسير ﴿ الشفع والوتر ﴾ أقوال ثمانيةَ عشر وبعضها متداخل استقصاها القرطبي ، وأكثرها لا يَحسن حمل الآية عليه إذ ليست فيها مناسبة للعطف على ليال عشر .

وقرأ الجمهور : ﴿ والوتر ﴾ بفتح الواو وهي لغة قريش وأهل الحجاز .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو وهي لغة تميم وبَكر بن سَعْد بن بكر وهم بنو سعد أظآر النبي صلى الله عليه وسلم وهم أهل العالية ، فهما لغتان في الوتر .

بمعنى الفرد .

و ﴿ الليل ﴾ عطف على ﴿ ليالي عشر ﴾ عطف الأعم على الأخص أو عطف على ﴿ الفجر ﴾ بجامع التضاد .

وأقسم به لما أنه مظهر من مظاهر قدرة الله وبديع حكمته .

ومعنى يسري : يمضي سائراً في الظلام ، أي إذا انقضى منه جزء كثير ، شُبه تقضي الليل في ظلامه بسير السائر في الظلام وهو السُّرى كما شبه في قوله : ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ [المدثر : 33] وقال : ﴿ والليل إذا سجى ﴾ [الضحى : 2] ، أي تمكن ظلامه

واشتد .

وتقييد ﴿ الليل ﴾ بظرف ﴿ إذا يسر ﴾ لأنه وقت تمكن ظلمة الليل فحينئذ يكون الناس أخذوا حظهم من النوم فاستطاعوا التهجد قال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ [المزمل : 6] وقال : ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ﴾ [الإنسان : 26] .

(118/814)

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب : ﴿ إذا يسري ﴾ بياء بعد الراء في الوصل على الأصل وبحذفها في الوقف لرعي بقية الفواصل : "الفجر ، عشر ، والوتر ، حجر" ففواصل القرآن كالأسجاع في النثر والأسجاعُ تعامل معاملة القوافي ، قال أبو علي : وليس إثباتُ الياء في الوقف بأحسن من الحذف ، وجميع ما لا يحذف وما يُختار فيه أن لا يحذف (نحو القاض بالألف واللام) يُحذف إذا كان في قافيةٍ أو فاصلة فإن لم تكن فاصلة فالأحسن إثبات الياء .

وقرأ ابن كثير ويعقوب بثبوت الياء بعد الراء في الوصل وفي الوقف على الأصل .

وقرأ الباقون بدون ياء وصْلاً ووقفاً ، وهذه الرواية يوافقها رسم المصحف إياها بدون ياء

، والذين أثبتوا الياء في الوصل والوقف اعتمدوا الرواية واعتبروا رسم المصحف سُنَّة أو اعتداداً بأن الرسم يكون باعتبار حالة الوقف .

وأما نافع وأبو عمرو وأبو جعفر فلا يُوهن رسمُ المصحف روايتهم لأن رسم المصحف جاء على مراعاة حال الوقف ومُراعاةُ الوقف تكثر في كيفيات الرسم .

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)

جملة معترضة بين القَسم وما بعده من جوابه أو دليل جوابه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة : 76] .

والاستفهام تقريري ، وكونه بحرف ﴿ هل ﴾ لأن أصل ﴿ هل ﴾ أن تدل على التحقيق إذ هي بمعنى (قد) .

واسم الإشارة عائد إلى المذكور مما أقسم به ، أي هل في القسم بذلك قَسم .

وتنكير ﴿ قسمَ ﴾ للتعظيم أي قسم كافٍ ومُقنع للمُقْسم له .

إذا كان عاقلاً أن يتدبر بعقله .

فالمعنى : هل في ذلك تحقيق لما أُقسم عليه للسامع الموصوف بأنه صاحب حِجر .

والحِجْر : العقل لأنه يَحجرُ صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي ، كما سمي عقلاً لأنه يعْقِل صاحبه عن التهافت كما يعقِل العِقال البعيرَ عن الضَّلال .

واللام في قوله : ﴿ لذي حجر ﴾ لام التعليل ، أي قَسَم لأجل ذي عقل يمنعه من المكابرة فيعلم أن المقسم بهذا القَسَم صادق فيما أقسم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(120/814)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : ابتدأ سبحانه لمن تقدم ذكره وجهاً آخر من الاعتبار ، وهو أن يتذكروا حال من تقدمهم من الأمم وما أعقبهم تكذيبهم واجترامهم فقال : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إلى قوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ إلى قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أي

لا يخفى عليه شيء من مرتكبات الخلائق ولا يغيب عنه ما أكنوه ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ [الرعد : 10] فهلا اعتبر هؤلاء بما يعاينونه ويشاهدونه من خلق الإبل ورفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض ، وكل ذلك لمصالحهم ومنافعهم ، فالإبل لأثقالهم وانتقالهم ، والسماء لسقيهم وإظلالهم ، والجبال لاختزان مياههم وأقلالهم ، والأرض لحلهم وترحالهم ، فلا بهذه الأمور كلها استبصروا ، ولا بمن خلا من القرون اعتبروا ، ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ على عظيم طغيانها وصميم بهتانها ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ فيتذكرون حين لا ينفع التذكر ﴿ إذا دكت الأرض دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ - انتهى .

ولما كان التقدير كما هدى إليه السياق : ليبعثن كلهم صاغرين ثم ليحشرن ثم ليحاسبن فيجازى كل أحد بما عمل ، فإن آمنوا بذلك نجوا وإلا عذبهم الذي ثبتت قدرته على العذاب الأكبر بعد العذاب الأدنى بسبب قدرته على البعث بسبب قدرته على ما رأيتم من خلق الإبل والسماء والجبال والأرض على ما في كل من العجائب بسبب قدرته على كل شيء ، وهذا هو المقصود بالذات ، حذف زيادة في تعظيمه واعتماداً على معرفته بما هدى إليه من السياق في جميع السورة وما قبلها .

(121/814)

ولما طوى جواب القسم لإرشاد السياق إليه وتعويل المعنى عليه ، وتهويلاً له مع العلم بأنه لا يكون قسم بغير مقسم عليه ، وكان قد علمت القدرة عليه مما أشير إليه بالمقسم به ، أوضح تلك القدرة بأمر العذاب الأدنى – للأمم الماضية ، فقال مخاطباً لمن قال له في آخر تلك ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ [الغاشية : 21] تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإشعاراً بأنه لا يتدبره حق تدبره غيره ، وتهديداً لمن كذب من قومه : ﴿ ألم تر ﴾ أي تنظر بعين الفكر يا أشرف رسلنا فتعلم علماً هو في التيقن به كالمحسوس بالبصر ، وعبر بالاستفهام إشارة إلى أن ما ندبه إلى رؤيته مما يستحق أن يسأل عنه : ﴿ كيف فعل ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك ختاماً لجميع الأنبياء بالأمم الماضية بما شاركوا به هؤلاء من تكذيب الرسل وجعل محط نظرهم الدنيا ، وعملوا أعمال من يظن الخلود ، وبدأ بأشدهم في ذلك وأعتاهم الذين قالوا : من أشد منا قوة ؟ فقال : ﴿ بعاد ﴾ أي الذين بلغوا في الشدة أن قالوا : من أشد منا قوة ؟ وقال لهم نبيهم هود ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ [الشعراء : 129] ودل على ذلك بناؤهم جنة في هذه الدنيا الفانية التي هي دار الزوال ، والقلعة والارتحال ، والنكد والبلاء والكدر ، والمرض والبؤس والضرر ، فقال مبيناً لهم على حذف مضاف : ﴿ إرم ﴾ أي أهلها وعمدتها ، وأطلقها عليهم لشدة الملابسة لما لها من البناء العجيب والشأن الغريب ، ثم بينها بقوله :

﴿ ذات ﴾ أي صاحبة ﴿ العماد ﴾ أي البناء العالي الثابت بالأعمدة التي لم يكن في هذه الدار مثلها ، ولذا قال : ﴿ التي لم يخلق ﴾ أي يقدر ويصنع - بناه للمفعول إرادة للتعميم ﴿ مثلها ﴾ يصح أن يعود الضمير على " عاد " باعتبار القبيلة ، على " إرم " باعتبار البلدة ، وأوضح هذا بقوله معمماً للأرض كلها : ﴿ في البلاد ﴾ أي في بنائها ومرافقها وثمارها ، وتقسيم مياهها وأنهارها ، وطيب أرضها وحسن أطيارها ، وما اجتمع بها مما يفوت

(122/814)

الحصر ويعجز القوى ، ولا مثل أهلها الذين بنوها في قوة أبدانهم وعظيم شأنهم وغير ذلك من أمورهم ، وكان صاحبها شداد قد ملك المعمورة كلها فتحيزها فبناها في برية عدن في ثلاثمائة سنة يضاهي بها الجنة على ما زعم - قلوب ضلت وأضلت وأضلها باريها - قال أبو حيان : على أوصاف بعيد أو مستحيل عادة أن يكون في الأرض مثلها ، فلما تمت على ما أراد قصدها للسكن وعمره إذ ذاك تسعمائة سنة ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فأهلكهم فكانوا كأمس الذاهب ، وأخفى مدينتهم فلم يرها أحد إلا عبد الله بن قلابة ، خرج في طلب إبل ضلت له على زمن معاوية - رضى الله عنه - فوقع عليها ، ولما خرج منها وانفصل عنها خفيت عنه ، وكان قد حمل معه بعض ما

رأى فيها من اللؤلؤ والمسك والزعفران فباعه ، وسمع به معاوية ـ رضى الله عنه ـ فأرسل إليه فحدثه ، فأرسل ، معاوية ـ رضى الله عنه ـ إلى كعب الأحبار فسأله عن ذلك فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أشقر أحمر قصير ، على حاجبيه خال ، وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذاك الرجل – ذكره شيخنا في تخريج أحاديث الكشاف وقال : وآثار الوضع عليه لائحة ، وقال جماعة منهم ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الأوصاف كلها للقبيلة وهم عاد الأولى ، واسمها إرم باسم جدهم ، وكانوا عرباً سيارة يبنون بيوتهم على الأعمدة على عادة العرب ، ولم يخلق مثلهم أمة من الأمم في جميع البلاد .

(123/814)

ولما بدأ بهؤلاء لأن أمرهم كان أعجب ، وقصتهم أنزه وأغرب ، ثنى بأقرب الأمم إليهم زماناً وأشبههم بهم شأناً لأنهم أترفوا بما حبوا به من جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، فجعلوا موضع ما لزمهم من الشكر الكفر ، واستحبوا العمى على الهدى ، مع ما في آيتهم ، وهي الناقة ، من عظيم الدلالة على القدرة فقال : ﴿ وثمود الذين جابوا ﴾ أي نقبوا وقطعوا قطعاً حقيقاً كأنه عندهم كالواجب ﴿ الصخر بالواد ﴾ أي وادي الحجر أو وادي

القرى ، فجعلوا بيوتاً منقورة في الجبال فعل من يغتال الدهر ويفني الزمان ، قال أبو حيان : قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود ، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة .

ولما ذكر القبيلتين من العرب ، ذكر بعض من جاورهم من طغاة العجم لما في قصتهم من العتو والجبروت مع ما حوته من الغرائب وخوارق العجائب لا سيما في القدرة على البعث بقلب العصا حية وإعادتها جماداً مع التكرر ، وبإيجاد الضفادع والقمل من كثبان الأرض وغير ذلك فقال : ﴿ وفرعون ﴾ أي وفعل بفرعون ﴿ ذي الأوتاد ﴾ أي الذي ثبّت ملكه تثبيت من يظن أنه لا يزول بالعساكر والجنود وغيرهم من كل ما يظن أنه يشد أمره من الجنات والعيون والزروع والمقامات الكريمة ، فصارت له اليد المبسوطة في الملك .

ولما كان المراد بفرعون هو وجنوده لأن الرأس يكنى به عن البدن ، لأنه جماعة وبه قوامه ، وصفه بوصف يجمع قومه وجميع من ذكر هنا فقال : ﴿ الذين ﴾ أي فرعون وجنوده وكل من ذكر هنا من الكفرة من عاد وثمود وأتباعهم ﴿ طغوا ﴾ أي تجاوزوا الحدود ﴿ في البلاد ﴾ أي التي ملكوها بالفعل وغيرها بالقوة ﴿ فأكثروا ﴾ عقب طغيانهم وبسببه ﴿ فيها الفساد ﴾ بما فعلوا من الكفر والظلم مما صار سنة لمن سمع به .

ولما كان ذلك موجباً للعذاب ، سبب عنه قوله : ﴿ فصب ﴾ أي أنزل إنزالاً هو في غاية القوة ﴿ عليهم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك المدبر لأمرك الذي جعل ما مضى من أخبار الأمم وآثار الفرق موطئاً لهم ﴿ سوط عذاب ﴾ أي جعل عذابهم من الإغراق والرجف وغيرهما في وقته وتمكنه وعلوه وإحاطته كالمصبوب في شدة ضربه ولصوقه بالمضروب وإسراعه إليه والتفافه به كالسوط وفي كونه منوّعاً إلى أنواع متشابكة ، وأصله الخلط ، وإنما سمي هذا الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض ، ولأنه يخلط اللحم والدم ، وقيل : شبه بالسوط ما أحل بهم في الدنيا إشعاراً بالترديد والتكرير إلى أن يهلك المعذب به وإيذاناً بأنه بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى السيف ، هذا سوط الدنيا وسيف الآخرة أشد وأحد وأمضى ، ثم علل أخذه لكل ظالم وانتقامه من كل مفسد بأنه رقيب ، فقال ممثلاً أن العصاة لا يفوتونه مؤكداً تنبيهاً على أن أعمال من ينكر ذلك أو لا يخطر بباله : ﴿ إن ربك ﴾ أي مولاك المدبر لأمر نبوتك ﴿ لبالمرصاد ﴾ أي لا يفوته شيء ، بل هو قادر ومطلع على كل شيء اطلاع من يريده بالإقامة في مكان الرصد وزمانه مع غاية الحفظ والرعي وهو قادر على ما يريد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 415.418 ﴾

(125/814)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة إرم ذات العماد :

ومن الإسرائيليات ما يذكره بعض المفسرين : كالطبري ، والثعلبي ، والزمخشري ، وغيرهم في تفسير قول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ

(126/814)

الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ 1 .

فقد زعموا أن إرم مدينة ، وذكروا في بنائها ، وزخارفها ما هو من قبيل الخيال ، ورووا في ذلك : أنه كان لعادٍ ابنان : شداد ، شديد ، فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ، فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وهي مدينة عظيمة ، وسورها من

الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهب2 مملكته ، فلما كان منها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء ، فهلكوا .

وروى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة : أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها يعني مدينة إرم ، فحمل منها ما قدر عليه ، وبلغ خبره معاوية ، فاستحضره ، وقص عليه فبعث إلى كعب الأحبار ، فسأله عنها فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانه أحمر ، أشقر ، قصير ، على حاجبه خال ، ثم التفت ، فأبصر ابن قلابة ، فقال : هذا والله ذاك الرجل3 .

وهذه القصة موضوعة ، كما نبه إلى ذلك الحفاظ ، وآثار الوضع لائحة عليه ، وكذلك ما روي أن إرم : مدينة دمشق ، وقيل : مدينة الإسكندرية ، قال السيوطي في "الدر المنثور" : وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن عكرمة ، قال : إرم هي دمشق ، وأخرج ابن جرير ، وعبد بن حميد ، وابن عساكر عن سعيد المقبري مثله ، وأخرج ابن عساكر ، عن سعيد بن المسيب ، مثله ، قال : واخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : إرم هي الإسكندرية4 .

وكل ذلك من خرافات بني إسرائيل ، ومن وضع زنادقتهم ، ثم رواها مسلمة أهل الكتاب فيما رووا ، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين ، وألصقت بتفسير القرآن .

---

1 الفجر : 6-8 .

2 جمع أهبة ، والأهبة بضم الهمزة العدة كما في القاموس .

3 انظر الكشاف للزمخشري عند تفسير هذه الآية ، وتفسير البغوي ، والنسفي ، والخازن عند تفسير هذه الآية .

4 الدر المنثور ج6 ص 347 .

(127/814)

الكريم ، قال ابن كثير في تفسيره : ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : مدينة إما دمشق ، أو اسكندرية ، أو غيرها ، ففيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ إن جعل بدلا أو عطف بيان 1 ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لا المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم ، وإنما نبهت على ذلك ؛ لئلا يُغتَرَّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عن هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : إرم ذات العماد ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، وأن حصباءها لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك . . . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ؛ ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك ، وقال فيما روي عن ابن قلابة :

فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك ، أو أصابه نوع من الهوس ، والخيال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وهذا ما يقطع بعدم صحته2 ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة ، والطامعين ، والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة . . . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة ، والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل ، في صرفها في بخاخير ، وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويطنزون بهم .

الصحيح في تفسير الآية :

والصحيح في تفسير الآية : أن المراد بعاد ، إرم ذات العماد ، قبيلة عادة المشهورة ، التي كانت تسكن الأحقاف ، شمالي حضرموت ، وهي عاد الأولى ، التي ذكرها الله سبحانه في سورة النجم ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ ، ويقال لمن بعدهم : عاد الآخرة وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، قال ابن إسحاق وغيره : وهم الذين بعث فيهم رسول الله هودًا عليه السلام فكذبوه ، وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ، ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ

---

1 أي لفظ ، إرم . . . بدل من عاد أو عطف بيان .

2 تفسير ابن كثير ج 8 ص 196 .

نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، هَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ؟

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما وضع ؛ ليعتَبِر بمصرعهم المؤمنون ، فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : بدل من عاد أو عطف بيان زيادة تعريف بهم ، وقوله تعالى : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لأنهم كانوا في زمانهم أشد الناس خلقة ، وأعظمهم أجساما ، وأقواهم بطشا ، وقيل : ذات الأبنية التي بنوها ، والدور ، والمصانع التي شادوها ، وقيل : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الغلاظ الشداد ، والأول أصح وأولى ، فقد ذكرهم نبيهم هود بهذه النعمة ، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة الله تبارك وتعالى الذي خلقهم ومنحهم هذه القوة فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ 1 . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ 2 . وقوله هنا : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ أي القبيلة المعروفة المشهورة التي لم يخلق مثلها في بلادهم ، وفي زمانهم ؛ لقوتهم ، وشدتهم وعظم تركيبهم .

ومهما يكن من تفسير ذات العماد : فالمراد القبيلة ، وليس المراد مدينة ، فالحديث في

السورة إنما هو عمن مضى الأقوام الذين مكن الله لهم في الأرض ، ولما لم يشكروا نعم الله عليهم ، ويؤمنوا به وبرسله ، بطش بهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ففيه تخويف لكفار مكة ، الذين هم دون هؤلاء في كل شيء وتحذيرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء .

ما روي في عظم طولهم لا يصح :

وليس معنى قوتهم ، وعظم خلقهم ، وشدة بطشهم ، أنهم خارجون عن المألوف في الفطرة ، فمن ثم لا نكاد نصدق ما روي في عظم أجسامهم ، وخروج طولهم عن المألوف المعروف حتى في هذه الأزمنة ، فقد روى ابن جرير في تفسيره ، وابن أبي حاتم وغيرهما عن قتادة قال : كنا نحدث أن إرم قبيلة من عاد ، كان يقال لهم : ذات

---

1 الأعراف : 69 .

2 فصلت : 15 .

العماد ، كانوا أهل ، ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاد ﴾ ، قال : ذكرنا لنا أنهم كانوا اثنى عشر ذراعا 1 طولا في السماء ، وهذا من جنس ما روي في العماليق ، وأغلب الظن عندي أن من ذكر لهم ذلك هم أهل الكتاب الذين أسلموا ، وأنه من الإسرائيليات

المختلقة .

وأيضا لا نكاد نصدق ما روي عن المعصوم صلى الله عليه وسلم في هذا ، فقد روى ابن أبي حاتم ، قال : حدثنا أبي ، قال حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، قال : حدثني معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : "كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة ، فيحملها على كاهله ، فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم"2 ولعل البلاء ، والاختلاق فيه من المجهول ، وروى مثله ابن مردويه3 .

ولعن الله من نسب مثل هذا الباطل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نشك أن هذا من عمل زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم ، الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الإسلام ، فسلكوا في محاربته مسلك الدس ، والاختلاق ، بنسبة أمثال هذه الخرافات إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وأنا أعجب لمسلم يقبل أمثال هذه المرويات التي تزري بالإسلام ، وتنفر منه ، ولا سيما في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم ، والمعارف ، وأصبح ذكر مثل هذا يثير السخرية ، والاستنكار والاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 286.282 ﴾

---

1 حوالي ستة أمتار أو تزيد .

2 تفسير ابن كثير ج 8 .

3 الدر المنثور ج 6 ص 347 .

(130/814)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) ﴾

واعلم أن في جواب القسم وجهين الأول : أن جواب القسم هو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ وما بين الموضعين معترض بينهما الثاني : قال صاحب "الكشاف" : المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إلى قوله ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ وهذا أولى من الوجه الأول لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب ، فكان أدخل في التخويف ، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ألم تر ، ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم ، وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر ! أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ، وبلاد فرعون أيضاً متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضروري ، والعلم الضروري جار مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة ، فلذلك قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بمعنى ألم تعلم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وإن كان في الظاهر خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم لكنه عام لكل من علم ذلك .

والمقصود من ذكر الله تعالى حكايتهم أن يكون زجراً للكفار عن الإقامة على مثل ما أدى إلى هلاك عاد وثمود وفرعون وقومه ، وليكون بعثاً للمؤمنين على الثبات على الإيمان .

أما قوله تعالى : ﴿ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى ذكر ههنا قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين وهي عاد وثمود وقوم فرعون على سبيل الإجمال حيث قال : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ولم يبين كيفية ذلك العذاب ، وذكر في سورة الحاقة بيان ما أبهم في هذه السورة فقال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ [الحاقة : 5 – 6] إلى قوله ﴿ وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ والمؤتفكات بِالْخَاطِئَةِ ﴾ [الحاقة : 9 – 9] الآية .

المسألة الثانية :

عاد هو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح ، ثم إنهم جعلوا لفظة عاد اسماً للقبيلة كما يقال لبني هاشم هاشم ولبني تميم تميم ، ثم قالوا للمتقدمين من هذه القبيلة عاد الأولى قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] وللمتأخرين عاد الأخيرة ، وأما إرم فهو اسم لجد عاد ، وفي المراد منه في هذه الآية أقوال : أحدها : أن المتقدمين من قبيلة عاد كانوا يسمون بعاد الأولى فلذلك يسمون بإرم تسمية لهم باسم جدهم والثاني : أن إرم اسم لبلدتهم التي كانوا فيها ثم قيل تلك المدينة هي الإسكندرية وقيل دمشق والثالث : أن إرم أعلام قوم عاد كانوا يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور ، قال أبو الدقيش : الأروم قبور عاد ، وأنشد :

بها أروم كهوادي البخث . . ومن الناس من طعن في قول من قال : إن إرم هي الإسكندرية أو دمشق ، قال : لأن منازل عاد كانت بين عمان إلى حضرموت وهي بلاد الرمال

والأحقاف، كما قال: ﴿ واذكر أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بالأحقاف ﴾ [الأحقاق: 21]

وأما الإسكندرية ودمشق فليستا من بلاد الرمال.

المسألة الثالثة:

إرم لا تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث.

المسألة الرابعة:

(132/814)

في قوله: ﴿ إِرَمَ ﴾ وجهان وذلك لأنا إن جعلناه اسم القبيلة كان قوله: ﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان لعاد وإيذاناً بأنهم عاد الأولى القديمة وإن جعلناه اسم البلدة أو الأعلام كان التقدير بعاد أهل إرم ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما في قوله: ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف: 82] ويدل عليه قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة.

المسألة الخامسة:

قرأ الحسن: ﴿ بعَادٍ * إِرَمَ ﴾ مفتوحين وقرىء: ﴿ بعَادٍ * إِرَمَ ﴾ بسكون الراء على التخفيف كما قرىء: ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ [الكهف: 19] وقرىء: ﴿ بعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ بإضافة ﴿ إِرَمَ ﴾ إلى ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ وقرىء: ﴿ بعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ

العماد ﴾ بدلاً من ﴿ فعل ربك ﴾ ، والتقدير : ألم تر كيف فعل ربك بعاد جعل ذات العماد رميماً ، أما قوله : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في إعرابه وجهان وذلك لأنا إن جعلنا : ﴿ إِرَمَ ﴾ اسم القبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين يسكنون الأخبية والخيام والخبار لا بد فيها من العماد ، والعماد بمعنى العمود .

وقد يكون جمع العمد أو يكون المراد بذات العماد أنهم طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة وقيل : ذات البناء الرفيع ، وإن جعلناه اسم البلد فالمعنى أنها ذات أساطين أي ذات أبنية مرفوعة على العمد وكانوا يعالجون الأعمدة فينصبونها ويبنون فوقها القصور ، قال تعالى في وصفهم : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء : 128] أي علامة وبناء رفيعاً .

المسألة الثانية :

روي أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها .

(133/814)

فسمع بذكر الجنة فقال : ابني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار ، فلما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ، وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوصل إلى جنة شداد فحمل ما قدر عليه مما كان هناك وبلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله ، فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن (أبي) قلابة فقال : هذا والله هو ذلك الرجل .

أما قوله : ﴿ التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ فالضمير في (مثلها) إلى ماذا يعود ؟ فيه وجوه : الأول : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا ﴾ أي مثل عاد في البلاد في عظم الجثة وشدة القوة ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الجمع فيهلكوا الثاني : لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا ، وقرأ ابن الزبير ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا ﴾ أي لم يخلق الله مثلها الثالث : أن الكناية عائدة إلى العماد أي لم يخلق مثل تلك الأساطين في البلاد ، وعلى هذا فالعماد جمع عمد ، والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فإنه تعالى بين أنه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل ، مع الذي اختصوا به من هذه الوجوه ، فلأن تكونوا

خائفين من مثل ذلك أيها الكفار إذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم كان أولى .

أما قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ فقال الليث : الجواب قطعك الشيء كما يجاب الجيب يقال جاب يجوب جوباً .

(134/814)

وزاد الفراء يجيب جيباً ويقال : جبت البلاد جوباً أي جلت فيها وقطعتها ، قال ابن عباس : كانوا يجوبون البلاد فيجعلون منها بيوتاً وأحواضاً وما أرادوا من الأبنية ، كما قال : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً ﴾ [الأعراف : 74] قيل : أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود ، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، وقوله : ﴿ بالواد ﴾ قال مقاتل : بوادي القرى .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأوتاد ﴾ فالاستقصاء فيه مذكور في سورة ص ، ونقول : الآن فيه وجوه أحدها : أنه سمي ذا الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا وثانيها : أنه كان يعذب الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا ، روى عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء وقالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ففرج الله عن بيتها في

الجنة فرأته وثالثها : ذي الأوتاد ، أي ذي الملك والرجال ، كما قال الشاعر :

في ظل ملك راسخ الأوتاد . . ورابعها : روى قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن تلك الأوتاد كانت ملاعب يلعبون تحتها لأجله ، واعلم أن الكلام محتمل لكل ذلك ، فبين الله تعالى لرسوله أن كل ذلك مما تعظم به الشدة والقول والكثرة لم يمنع من ورود هلاك عظيم بهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ الذين طَغَوْاْ فِي البلاد ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

يحتمل أنه يرجع الضمير إلى فرعون خاصة لأنه يليه ، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم ، وهذا هو الأقرب .

المسألة الثانية :

أحسن الوجوه في إعرابه أن يكون في محل النصب على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على (الإخبار ، أي) هم الذين طغوا أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون .

المسألة الثالثة :

﴿ طَغَوْاْ فِي البلاد ﴾ أي عملوا المعاصي وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى : ﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ ضد الصلاح فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر ، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم ، فمن عمل بغير أمر الله وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد ثم قال تعالى : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ واعلم أنه يقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه ، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

قال القاضي : وشبهه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه ، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال : إن عند الله أسواطاً كثيرة فأخذهم بسوط منها ، فإن قيل : أليس أن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بما كسبوا مَّا تَرَكَ عَلى ظهرها من دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] يقتضي تأخير العذاب إلى الآخرة فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ قلنا : هذه الآية تقتضي تأخير تمام الجزاء إلى الآخرة والواقع في الدنيا شيء من ذلك ومقدمة من مقدماته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ تقدم عند قوله : ﴿ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ [النبأ : 21] ونقول : المرصاد المكان الذي يترقب فيه الراصد مفعال من رصده كالميقات من وقته ، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه ، وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد ، وللمفسرين فيه وجوه أحدها : قال الحسن : يرصد أعمال

بني آدم وثانيها : قال الفراء : إليه المصير ، وهذان الوجهان عامان للمؤمنين والكافرين ، ومن المفسرين من يخص هذه الآية إما بوعيد الكفار ، أو بوعيد العصاة ، أما الأول فقال الزجاج : يرصد من كفر به وعدل عن طاعته بالعذاب ، وأما الثاني فقال الضحاك : يرصد لأهل الظلم والمعصية ، وهذه الوجوه متقاربة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 150.154 ﴾

(136/814)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) ﴾

ثم وقف تعالى على مصانع الأمم الخالية الكافرة وما فعل ربك من التعذيب والإهلاك والمراد بذلك توعد قريش ونصب المثل لها . و﴿ عاد ﴾ قبيلة لا خلاف في ذلك ، واختلف الناس في ﴿ إرم ﴾ فقال مجاهد وقتادة : هي القبيلة بعينها ، وهذا على قول ابن الرقيات : [المنسرح]

مجداً تليداً بناه أوله . . . أدرك عاداً وقبله إرما

وقال زهير : [البسيط]

وآخرين ترى الماذي عدتهم . . . من نسج داود أو ما أورثت إرم

(137/814)

قال ابن إسحاق : ﴿ إرم ﴾ هو أبو عاد كلها ، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقال : هو أحد أجدادها ، وقال جمهور المفسيرين : ﴿ إرم ﴾ مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن ، وقال محمد بن كعب : هي " الإسكندرية " ، وقال سعيد بن المسيب والمقري : هي دمشق ، وهذان القولان ضعيفان ، وقال مجاهد ﴿ إرم ﴾ معناه القديمة ، وقرأ الجمهور " بعادٍ وإرمٍ " فصرفوا " عاداً " على إرادة الحي ونعت ب ﴿ إرم ﴾ بكسر الهمزة على أنها القبيلة بعينها ، ويؤيد هذا قول اليهود للعرب : سيخرج فينا نبي نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فهذا يقتضي أنها قبيلة ، وعلى هذه القراءة يتجه أن يكون ﴿ إرم ﴾ أباً لعاد أو جداً غلب اسمه على القبيل ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " بعادَ إرمٍ " بترك الصرف في " عاد " وإضافتها إلى ﴿ إرم ﴾ ، وهذا يتجه على أن يكون ﴿ إرم ﴾ أباً أو جداً وعلى أن تكون مدينة ، وقرأ الضحاك " بعادَ أرَمَ " بفتح الدال والهمزة من " أرَمَ " وفتح الراء والميم على ترك الصرف في " عاد " والإضافة ، وقرأ ابن عباس والضحاك "

بعاد إرمّ " بشد الميم على الفعل الماضي بمعنى بلى وصار رميماً ، يقال ارمّ العظم وأرم وأرمه الله تعدية رم بالهمزة ، وقرأ ابن عباس أيضاً : " ارم ذاتَ " بالنصب في التاء على إيقاع الإرمام عليها ، أي أبلاها ربك وجعلها رميماً ، وقرأ ابن الزبير : " أرِم ذات العماد " بفتح الهمزة وكسر الراء ، وهي لغة في المدينة ، وقرأ الضحاك بن مزاحم " أرْم " بسكون الراء وفتح الهمزة وهو تخفيف في " ارم " كفخذة وفخذ ، واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ ذات العماد ﴾ فمن قال ﴿ إرم ﴾ مدينة ، قال العماد أعمدة الحجارة التي بنيت بها ، وقيل القصور العالية والأبراج يقال لها عماد ، ومن قال ﴿ إرم ﴾ قبيلة قال ﴿ العماد ﴾ إما أعمدة بنيانهم وإما أعمدة بيوتهم التي يرحلون بها لأنهم كانوا أهل عمود ينتجعون البلاد ، قاله مقاتل وجماعة .

(138/814)

وقال ابن عباس : هي كناية عن طول أبدانهم ، وقرأ الجمهور : "يُخلَق " بضم الياء وفتح اللام " مثلُها " رفعاً ، وقرأ ابن الزبير "يَخلُق " بفتح الياء وضم اللام " ومثلَها " نصباً ، وذكر أبو عمرو الداني عنه أنه قرأ " نخلق " بالنون وضم اللام " مثلَها " نصباً ، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة ، والضمير في ﴿ مثلها ﴾ يعود إما على المدينة وإما على القبيلة ، وقرأ يحيى

بن وثاب " وثموداً " بتنوين الدال ، و﴿ جابوا الصخر ﴾ معناه خرقوه ونحتوه ، وكانوا في أوديتهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة ، و" الوادي " ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماء ، هذا قول كثير من المفسرين في معنى ﴿ جابوا الصخر بالواد ﴾ وقال الثعلبي : يريد بوادي القرى ، وقال قوم : المعنى جابوا واديهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوه ، وهذا فعل ذوي القوة والآمال ، وقرأ ابن كثير بالوادي " بياء ، وقرأ أكثر السبعة " بالواد " ياء واختلف في ذلك نافع ، وقد تقدم هذا ، ﴿ وفرعون ﴾ هو فرعون موسى ، واختلف الناس في أوتاده فقيل أبنيته العالية العظيمة ، قاله محمد بن كعب ، وقيل جنوده الذين بهم يثبت ملكه وقيل المراد أوتاد أخبية عساكره وذكرت لكثرتها ودلالتها على غزواته وطوفه في البلاد ، قاله ابن عباس ومنه قول الأسود بن يعفر :

في ظل ملك ثابت الأوتاد . . . وقال قتادة : كان له أوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم ، وقال مجاهد : كان يوتد الناس بأوتاد الحديد يقتلهم بذلك يضربها في أبدانهم حتى تنفذ إلى الأرض ، وقيل إنما فعل ذلك بزوجته آسية ، وقيل إنما فعل بماشطة ابنته لأنها كانت آمنت بموسى ، والطغيان تجاوز الحدود ، والصب يستعمل في السوط لأنه يقتضي سرعة في النزول ، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإفك :

(فصبت عليهم محصرات كأنها

شآبيب ليست من سحاب ولا قطر)

ومن ذلك قول المتأخر في صفة الخيل

(صببنا عليها ظالمين سياطنا

فطارت بها أيد سراع وأرجل) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(139/814)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾

أي مالكك وخالقك .

﴿ بِعَادٍ * إِرَمَ ﴾ قراءة العامة "بعادٍ" منوّناً .

وقرأ الحسن وأبو العالية "بعادِ إِرَمَ" مضافاً .

فمن لم يضف جعل "إِرَمَ" اسمه ، ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عاداً اسم أبيهم ، وإِرَمَ اسم القَبِيلة ؛

وجعله بدلاً منه ، أو عطف بيان .

ومن قرأه بالإضافة ولم يصرِفه جعله اسم أمّهم ، أو اسم بلدتهم .

وتقديره : بعاد أهل إرم .

كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف

والتأنيث .

وقراءة العامة "إِرَمَ" بكسر الهمزة .

وعن الحسن أيضاً "بعادَ إرَمَ" مفتوحتين ، وقرِىء "بعادَ إِرْمَ" بسكون الراء ، على التخفيف ؛ كما قرىء "بِوَرْقِكُمْ" .

وقرىء "بِعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ" بإضافة "إرَمَ" إلى "ذاتِ العِمادِ" .

والإرم : العلم .

أي بعاد أهل ذات العَلَم .

وقرىء "بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ العِمادِ" أي جعل الله ذاتَ العماد رميماً .

وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة "أَرَمَ" بفتح الهمزة .

قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام ، التي هي الأعلام ، واحدها : أَرَم .

وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ أي والفجر وكذا وكذا إنّ ربك لبالمِرصاد ألم تر .

أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد .

وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمراد عامّ .

وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً ؛ إذ كانوا في بلاد العرب ، وحِجر ثمود موجود اليوم .

وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب ، واستفاضت به الأخبار ، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب .

وقد تقدّم هذا المعنى في سورة "البروج" وغيرها ﴿ بِعَادٍ ﴾ أي بقوم عاد .

فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْراع من حجارة ، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه ، وإن كان أحدهم ليُدخِل قدمه في الأرض فتدخل فيها .

و"إِرَم" : قيل هو سام بن نوح ؛ قاله ابن إسحاق .

وروى عطاء عن ابن عباس وحكى عن ابن إسحاق أيضاً قال : عاد بن إرَم .

فإرَم على هذا أبو عاد ، وعاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح .

وعلى القول الأوّل : هو اسم جدّ عاد .

قال ابن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد ، منهم إرم بن سام ، وأَرْفَخْشَذ بن سام .

فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة .

وقال مجاهد : "إرَم" أمّة من الأمم .

وعنه أيضاً : أن معنى إرَم : القديمة ، ورواه ابن أبي نَجِيح .

وعن مجاهد أيضاً أن معناها القوية .

وقال قتادة : هي قبيلة من عاد .

وقيل : هما عادان .

فالأولى هي إرَم ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] .

فقيل لعقِب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح : عاد ؛ كما يقال لبني هاشم : هاشم .

ثم قيل للأولين منهم : عاد الأولى .

وإرَم : تسمية لهم باسم جَدّهم .

ولمن بعدهم : عادٌ الأخيرة .

قال ابن الرُّقَيّات :

مَجْداً تِليدا بناهُ أوّلهُم . . .

أدرك عاداً وقبلَهُ إرَمَا

وقال مَعْمر : "إرم" : إليه مجمع عاد وثمود .

وكان يقال : عادُ إرَمَ ، وعادُ ثَمُودَ .

وكانت القبائل تنتسب إلى إرم .

﴿ ذَاتِ العماد التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء : كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه .

ورُوي عن ابن عباس أيضاً أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعاً .

ابن العَربيّ : وهو باطل ؛ لأن في الصحيح : " إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في الهواء ، فلم يزل الخلق ينقُص إلى الآن " وزعم قتادة : أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعاً .

قال أبو عبيدة : "ذاتِ العِمادِ" ذات الطُّول .

يقال : رجل مُعَمَّد إذا كان طويلاً .

ونحوه عن ابن عباس ومجاهد .

وعن قتادة أيضاً : كانوا عِماداً لقومهم ؛ يقال : فلان عَمِيد القوم وعَمُودهم : أي سيدهم .

وعنه أيضاً : قيل لهم ذلك ، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع ، وكانوا أهل خيام وأعمدة ، ينتجعون الغيوث ، ويطلبون الكلأ ، ثم يرجعون إلى منازلهم .

وقيل : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ أي ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد .

وكانوا ينصبون الأعمدة ، فيبنون عليها القصور .

قال ابن زيد : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني إحكام البُنيان بالعَمَد وفي الصحاح : والعماد : الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث .

قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عِمادُ الحيّ خَرَّتْ . . .

على الأَحْفاضِ نَمْنع مَنْ يَلينا

والواحدة عمادة.

وفلان طويل العِماد : إذا كان منزله مَعْلَماً لزائره.

والأحفاض : جمع حَفَض (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُيِّىءَ ليُحمل ؛ أي خَرّتْ على المتاع.

ويروى ؛ "عن الأحفاض" أي خرّت عن الإبل التي تحمل خُرْثيَّ البيت.

وقال الضحاك : "ذاتِ العِمادِ" ذات القوّة والشدّة ، مأخوذ من قوّة الأعمدة ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15].

وروى عوف عن خالد الرّبعِيّ "إرم ذاتِ العِمادِ" قال : هي دمشق.

وهو قول عكرمة وسعيد المَقْبُرِيّ.

رواه ابن وهب وأشهب عن مالك.

وقال محمد بن كعب القُرظِيّ : هي الإسكندرية.

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)

الضمير في "مِثلها" يرجع إلى القبيلة.

أي لم يخلق مثل القبيلة في البلاد : قوّة وشدّة ، وعظم أجساد ، وطول قامة ؛ عن الحسن وغيره .

(142/814)

وفي حرف عبد الله "الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهُمْ في البلاد" .

وقيل : يرجع للمدينة .

والأوّل أظهر ، وعليه الأكثر ، حسْب ما ذكرناه .

ومن جعل "إِرم" مدينة قدّر حذفاً ؛ المعنى : كيف فعل ربك بمدينة عاد إِرم ، أو بعد صاحبه إرم .

وإرم على هذا : مؤنثة معرّفة .

واختار ابن العربيّ أنها دِمشق ، لأنه ليس في البلاد مثلها .

ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها .

ثم قال : وإن في الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنارة ، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد ، ولكن لها أمثال ، فأمّا دِمشق فلا مِثل لها .

وقد روى مَعْن عن مالك أن كتاباً وُجِد بالإسكندرية ، فلم يُدْرَ ما هو ؟ فإذا فيه "أنا

شدّاد بن عاد ، الذي رفع العماد ، بنيتها حين لا شيبَ ولا مَوْت" .

قال مالك : إن كان لتمرّ بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة .

وذكر عن ثور بن زيد أنه قال : أنا شدّاد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذي شَدَدْت بذراعي بطن الواد ، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمّة محمد صلى الله عليه وسلم .

ورُوِي أنه كان لعاد ابنان : شدّاد وشديد ؛ فملكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشدّاد فملك الدنيا ، ودانت له ملوكها ؛ فسمع بذكر الجنة ، فقال : ابني مثلها .

فبنى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن ، في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة .

وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزَّبَرْجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المُطَّرِدة .

ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا .

(143/814)

وعن عبد الله بن قِلابة : أنه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه مما ثَمَّ ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله ، فقال : هي إرَمُ ذاتُ العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ، أحمر أشقر قصير ، على حاجبه خال ، وعلى عَقِبه خال ، يخرج في طلب إبل له ؛ ثم التفت فأبصر ابن قِلابة ، وقال : هذا والله ذلك الرجل .

وقيل : أي لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد .

فالكناية للعماد .

والعماد على هذا : جمع عَمَد .

وقيل : الإرَم : الهلاك ؛ يقال : أَرِم بنو فلان : أي هلكوا ؛ وقاله ابن عباس .

وقرأ الضحاك : "أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ" ؛ أي أهلكهم ، فجعلهم رَمِيماً .

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)

ثمود : هم قوم صالح .

و﴿ جَابُواْ ﴾ : قطعوا .

ومنه : فلان يجوب البلاد ، أي يقطعها .

وإنما سمي جيب القميص لأنه جِيبَ ؛ أي قطع .

قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وَسْقاً يأخذها بالكوفة .

فقال :

راحت رَوَاحاً قَلُوصِي وهي حامدة . . .

آلَ الزُّبَير ولم تَعْدِل بهم أَحدَا

راحتْ بستينَ وَسْقاً في حَقِيبتها . . .

ما حَمَلَتْ حَمْلَها الأدنَى ولا السَّدَدا

ما إنْ رأيتُ قَلُوصا قبلها حملت . . .

سِتين وَسْقاً ولا جابت به بلدا

أي قطعت .

قال المفسرون : أوّل من نحت الجبال والصور والرخام : ثمود .

فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة .

ومن الدور والمنازل ألفَيْ ألف وسبعمائة ألف ، كلها من الحجارة .

وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ ﴾ [الحجر : 82] .

وكانوا لقوّتهم يُخرجون الصخور ، وينقبون الجبال ، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم .

﴿ بالواد ﴾ أي بوادي القُرَى ؛ قاله محمد بن إسحاق .

وروى أبو الأشهب عن أبي نضْرة قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غَزاة تَبوك على وادي ثمود ، وهو على فَرَس أشقر ، فقال : "أسرعوا السير ، فإنكم في وادٍ ملعون" "

وقيل : الوادي بين جبال ، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً .

وكل مُنْفَرَج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ .

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10)

أي الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : كان يعذب الناس بالأوتاد ، ويشدهم بها إلى أن يموتوا ؛ تجبراً منه وعُتُوّاً .

وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته ؛ حَسْب ما تقدم في آخر سورة "التحريم" .

وقال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة تُرفع بالبكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد ، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه .

وقد مضى في سورة "ص" من ذكر أوتاده ما فيه كفاية .

والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ الذين طَغَوْاْ فِي البلاد ﴾

يعني عاداً وثموداً وفرعون "طَغَوْا" أي تمرّدوا وعَتَوْا وتجاوزوا القدر في الظلم والعُدوان .

﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ أي الجَوْر والأذى و ﴿ الذين طَغَوْاْ ﴾ أحسن الوجوه فيه أن

يكون في محل النصب على الذمّ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً على : هم الذين طغوا ، أو مجروراً على وصف المذكورين : عادٍ ، وثمودٍ ، وفرعونَ .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي أفرغ عليهم وألقَى ؛ يقال : صبّ على فلان خِلعة ، أي ألقاها عليه .

وقال النابغة :

فَصبّ عليه الله أحْسَنَ صَنْعِه . . .

وكان له بين البرِية ناصرا

﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي نصِيب عذاب .

ويقال : شِدّته ؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يُعَذَّب به .

قال الشاعر :

ألم تر أن الله أظهرَ دِينه . . .

وصبَّ على الكفار سَوْطَ عَذابِ

وقال الفرّاء : وهي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب .

وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يُعذِّبون به ، فجرى لكل عذاب ؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب .

وقيل : معناه عذاب يخالط اللحم والدم ؛ من قولهم : ساطه يَسوطه سَوْطاً أي خلطه ، فهو سائط .

فالسوط : خلط الشيء بعضِه ببعض ؛ ومنه سمي المِسْواط .

وسَاطَهُ أي خَلَطه ، فهو سائط ، وأكثر ذلك يقال : سَوَّط فلان أموره .

قال :

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأْيِ غَير مُوَفَّقٍ . . .

فلست على تَسوِيطها بمُعانِ

قال أبو زيد : يقال أموالهم سَوِيطة بينهم ؛ أي مختلطة .

حكاه عنه يعقوب .

وقال الزجاج : أي جعل سوطَهم الذي ضربهم به العذاب .

يقال : ساط دابته يَسُوطها ؛ أي ضربها بسوطه .

وعن عمرو بن عُبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطاً كثيرة ، فأخذهم بسوط منها .

وقال قتادة : كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب .

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

أي يَرْصُد عمل كل إنسان حتى يجازِيه به ؛ قاله الحسن وعكرمة .

وقيل : أي على طريق العباد لا يفوته أحد .

والمَرْصَد والمِرصاد : الطريق .

وقد مضى في سورة "براءة" والحمد لله .

فروى الضحاك عن ابن عباس قال : إن على جهنم سبع قناطر ، يُسأل الإنسان عند أوّل قنطرة عن الإيمان ، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية ، ثم يُسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة ، ثم يُسأل عن الزكاة ، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة .

ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان ، فإن جاء به جاز إلى الخامسة .

ثم يُسأل عن الحجّ والعُمْرة ، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة .

ثم يسأل عن صلة الرحم ، فإن جاء بها جاز إلى السابعة .

ثم يُسأل عن المظالم ، وينادِي منادٍ : ألا من كانت له مَظْلِمة فليأت ؛ فيقتص للناس منه ، ويقتص له من الناس ؛ فذلك قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ .

وقال الثوريّ : ﴿ لبالمرصاد ﴾ يعني جهنم عليها ثلاث قناطر : قنطرة فيها الرَّحِم ، وقنطرة فيها الأمانة ، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى .

قلت : أي حكمته وإرادته وأمره .

والله أعلم .

وعن ابن عباس أيضاً "لبالِمرصادِ" أي يسمع ويرى .

قلت : هذا قول حسن ؛ "يَسْمع" أقوالهم ونجواهم ، و"يَرَى" أي يعلم أعمالهم وأسرارهم ، فيجازِي كلا بعمله .

وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد .

وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ يا أبا جعفر ! قال الزمخشرِي : عَرَّض له في هذا النداء ، بأنه بعض من تُوُعِّد بذلك من الجبابرة ؛ فِلِلَّه درّه .

أيُّ أَسدٍ فَرَّاس كان بين يديه ؟ يَدُقّ الظَّلمة بإنكاره ، ويقمَع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) ﴾

والمرادُ بعادٍ أولادُ عادٍ بنِ عوصَ بنِ إرمِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السلامُ قومُ هودٍ عليه السلامُ سُمُّوا باسمِ أبيهم كما سُمّيَ بنُو هاشمٍ هاشماً وقد قيلَ لأوائلِهم : عادٌ الأُولى ولأواخرِهم : عادٌ الآخرةُ قال عمادُ الدينِ بنُ كثيرٍ : "كلُّ ما وردَ في القرآنِ خبرُ عادٍ الأُولى إلا مَا في سورةِ الأحقافِ " وقولُه تعالى : ﴿ إِرَمَ ﴾ عطفُ بيانٍ لعادٍ للإيذانِ بأنَّهم عادٌ الأُولى بتقديرِ مضافٍ أيْ سبطُ إرمٍ أو أهلُ إرمٍ على ما قيلَ من أنَّ إرمَ اسمُ بلدِتهم أو أرضِهم التي كانُوا فيهَا ويؤيدُه القراءةُ بالإضافةِ وأياً ما كانَ فامتناعُ صرفِها للتعريفِ والتأنيثِ وقُرِىءَ إِرْمَ بإسكانِ الراءِ تخفيفاً كما قُرِىءَ بِوَرْقِكُم ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ صفةٌ لإرمَ أيْ ذاتُ القدودِ الطوالِ على تشبيهِ قاماتِهم بالأعمدةِ ومنه قولُهم : رجلٌ عمدٌ وعمدان إذا كان طويلاً أو ذاتُ الخيامِ والأعمدةِ حيثُ كانُوا بدويينَ أهلَ عُمُدٍ أو ذاتُ البناءِ الرفيعِ أو ذاتُ الأساطينِ على أنَّ إرمَ اسمُ بلدِتهم وقُرِىءَ إرمَ ذاتِ العمادِ بإضافةِ إرمٍ إلى ذاتِ العمادِ .

(148/814)

والإرم العلمُ أي بعادٍ أهلِ إعلامِ ذاتِ العمادِ على أنها اسمُ بلدِتهم وقُرِىءَ إِرْمِ ذاتَ العمادِ أي جعلَها الله تعالَى رَميماً بدلٌ من فعلَ ربُّك وقيل : هي جملةٌ دعائيةٌ اعترضتْ بين الموصوفِ والصفةِ ورُويَ أنه كانَ لعادٍ ابنانِ شديدٌ وشدادٌ فملكا وقَهَرا ثم ماتَ شديدٌ وخلصَ الأمرُ لشدادٍ فملَك الدنيا ودانتْ له ملوكُها فسمعَ بذكرِ الجنةِ فقال : أبنِي مثلَها فبنَى إرمَ في بعضِ صَحارِي عدنٍ في ثلاثمائةِ سنةٍ وهيَ مدينةٌ عظيمةٌ قصورُها من الذهب والفضةِ وأساطينُها من الزبرجدِ والياقوتِ وفيها أصنافُ الأشجارِ والأنهارِ المطردةِ ولمَّا تمَّ بناؤُها سارَ إليها بأهلِ مملكتِه فلما كانَ منها على مسيرة يومٍ وليلةٍ بعثَ الله تعالى عليهم صيحةً من السماءِ فهلكُوا . وعن عبدِ اللَّهِ بنِ قلابةَ أنه خرجَ في طلبِ إبلٍ له فوقعَ عليهَا فحملَ ما قدرَ عليهِ ممَّا ثمةَ وبلغَ خبرُه معاويةَ فاستحضرَهُ فقصَّ عليهِ فبعثَ إلى كعبٍ فسألَه فقالَ : هيَ إرمُ ذاتُ العمادِ وسيدخُلُها رجلٌ من المسلمينَ في زمانِك أحمرُ أشقرُ قصيرٌ على حاجبِه خالٌ وعلى عقبِه خالٌ يخرجُ في طلبِ إبلٍ لَهُ ثم التفتَ إلى ابن قلابةٍ فقالَ : هذا ذلكَ الرجلُ .

﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ صفةٌ أُخرى لإرمَ أيْ لمْ يُخلقْ مثلُهم في عظمِ الأجرامِ والقوةِ حيثُ كانَ طولُ الرجلِ منهم أربعمائةِ ذراعٍ وكانَ يأتِي الصخرةَ العظيمةَ فيحملُها ويُلقيها على الحي فيهلكُهم أو لمْ يُخلقْ مثلُ مدينةِ شدادٍ في جميعِ بلادِ الدُّنيا وقُرِىءَ لَم يخلُقْ على إسنادِه إلى الله تعالَى .

﴿ وَثَمُودُ ﴾ عطفٌ على عادٍ وهي قبيلةٌ مشهورةٌ سُمّيتْ باسمِ جدّهم ثمودَ أَخِي جَديسٍ وهما ابنَا عامرِ بنِ إرمَ بن سامِ بن نوحٍ عليه السلامُ وكانُوا عرباً من العاربةِ يسكنونَ الحجرَ بين الحجازِ وتبوكَ وكانُوا يعبدونَ الأصنامَ كعادٍ ﴿ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ أي قطعُوا صخرَ الجبالِ فاتخذُوا فيها بُيوتاً نحتوهَا من الصخرِ ، كقولِه تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً ﴾ قيلَ : هُم أول من نحتَ الجبالَ والصخورَ والرخامَ وقد بَنَوا ألفاً وسبعمائةِ مدينةٍ كلها من الحجارةِ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ وصفَ بذلكَ لكثرة جنودِه وخيامِهم التي يضربُونَها في منازِلهم ، أو لتعذيبه بالأوتادِ ﴿ الذين طَغَوْاْ فِى البلاد ﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ للمذكورينَ أو منصوبٌ أو مرفوعٌ على الذمِّ أي طَغَى كلُّ طائفةٍ منهُم في بلادِهم وكذا الكلامُ في قولِه تعالى : ﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ أي بالكفرِ وسائرِ المعاصِي ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ﴾ أي أنزلَ إنزالاً شديداً على كلِّ طائفةٍ من أولئكَ الطوائفِ عقيبَ ما فعلتْهُ من الطغيانِ والفسادِ ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي عذابٌ شديدٌ لا يُدركُ غايتُهُ وهو عبارةٌ عمَّا حلَّ بكُلٍّ منهُم من فنونِ العذابِ التي شُرِحتْ في سائرِ السورِ الكريمةِ وتسميتُه سوطاً للإشارةِ إلى أنَّ ذلكَ بالنسبةِ إلى ما أُعدَّ لَهُم في الآخرةِ بمنزلةِ السوطِ عندَ السيفِ

والتعبيرُ عن إنزالِه بالصبِّ للإيذانِ بكثرتِه واستمرارِه وتتابعِه فإنه عبارةٌ عن إراقةِ شيءٍ مائعٍ أو جارٍ مجراهُ في السيلانِ كالرملِ والحبوبِ ، وإفراغِه بشدةٍ وكثرةٍ واستمرارٍ ونسبتِه إلى السوطِ مع أنه ليسَ من ذلكَ القبيلِ باعتبارِ تشبيهِه في نزولِه المتتابعِ المتداركِ على المضروبِ بقطراتِ الشيءِ المصبوبِ ، وقيلَ : السوطُ خلطُ الشيءِ بعضَه ببعضٍ فالمَعْنى ما خُلِطَ لهم من أنواعِ العذابِ وقد فُسِّرَ

(150/814)

بالتصببِ وبالشدةِ أيضاً لأن السوطَ يطلقُ على كلٍ منهُما لغةً فلا حاجةَ حينئذٍ في تشبيهِه بالمصبوبِ إلى اعتبارِ تكررِ تعلقِه بالمعذبِ كما في المَعْنى الأولِ فإن كلَّ واحدٍ من هذه المعاني مما يقبلُ الاستمرارَ في نفسه

وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

تعليلٌ لما قبلَهُ وإيذانٌ بأن كفارَ قومِه عليه الصلاةُ والسلامُ سيصيبُهم مثلُ ما أصابَ المذكورينَ من العذابِ كما ينبئُ عنْهُ التعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِه عليه الصلاةُ والسلامُ وقيلَ : هو جوابُ القسمِ وما بينهما اعتراضٌ والمرصادُ المكانُ الذي يَترقبُ

فيه الرصدُ مِفْعَالٌ منْ رصدَهُ كالميقاتِ من وقتَهُ وهذا تمثيلٌ لإرصادِه تعالى بالعُصاةِ وأنَّهم لا يفوتونَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(151/814)

وقال الآلوسى :

والمراد بعاد أولاً عاد بن عاص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم هاشماً وإطلاق الأب على نسله مجاز شائع حتى ألحق بعضه بالحقيقة وقد قيل لأوائلهم عاد الأولى ولأواخرهم عاد الآخرة قال عماد الدين بن كثير كلما ورد في القرآن خبر عاد فالمراد بعاد فيه عاد الأولى إلا ما في سورة الأحقاف ويقال لهم أيضاً إرم تسمية لهم باسم جدهم والتسمية بالجد شائعة أيضاً وهو اسم خاص بالأولى وعليه قول ابن الرقيات :

مجداً تليداً بناه أوله . . .

أدرك عاداً وقبلها إرماً

ونحوه قول زهير :

وآخرين ترى الماذي عدتهم . . .

من نسج داود أو ما أورثت إرما

(152/814)

﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان لعاد للإيذان بانهم عاد الأولى وجوز أن يكون بدلاً ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة وصرف عاد باعتبار الحي وقد يمنع من الصرف باعتبار القبيلة أيضاً وقرأ الضحاك بذلك في إحدى الروايتين عنه ورجح اعتبار الصرف فيه بخفته لسكون وسطه وقدر بعضهم مضافاً في الكلام أي سبط ارم وجعل ارم عليه اسم أمهم وهو قول فيه حكاه في القاموس ووجه منع الصرف فيه ظاهر وأبى بعضهم إلا جعله اسم جدهم ومعنى كونهم سبطه أنهم ولد ولده ولا يظهر على هذا علة منع صرفه ولعل ذلك هو الذي دعا إلى جعله اسم أمهم لكن رأيت في تعليقات بعض الأفاضل على الحواشي العصامية على تفسير البيضاوي إن ارم إنما منع من الصرف سواء كان اسماً للقبيلة أم لجدها للعلمية والعجمة وقال إنهما موجودتان في عاد أيضاً إلا أنه لكونه ثلاثياً ساكن الوسط يجوز فيه الأمران الصرف وعدمه وزعم أن هذا هو الحق وبكونه اسم القبيلة قال مجاهد وقتادة زابن اسحق ولا حاجة معه إلى تقدير مضاف فقوله تعالى : ﴿ ذَاتِ

العماد ﴾ صفة لارم نفسها والمراد ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ومنه قولهم رجل معمد وعمدان إذا كان طويلاً وروي هذا عن ابن عباس ومجاهد واشتهر انه كان قد احدهم اثنى عشر ذراعاً وأكثر وفي تفسير الكواشي قالوا كان طول الطويل منهم أربعمائة ذراع وكان أحدهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحي فيهلكهم وعن قتادة وابن عباس في رواية عطاء المراد ذات الخيام والأعمدة وكانوا سيارة في الربيع فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم وقال غير واحد كانوا بدويين أهل عمد وخيام يسكنونها حلا وارتحالاً وقيل المراد ذات الوقار أو ذات الثبات وطول العمر والكل على الاستعارة وقوله تعالى :

(153/814)

﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ صفة أخرى لها أي لم يخلق مثلهم في عظم الاجرام والقوة في بلاد الدنيا وقد سمعت ما نقل عن الكواشي آنفاً وما ذكر فيه من انه كان أحدهم الخ جاء في حديث مرفوع أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معد يكرب وقيل ارم اسم مدينة لهم قال محمد بن كعب هي الاسكندرية وقال ابن المسيب والقبري هي دمشق وقيل اسم أرضهم وهي بين عمان وحضرموت وهي أرض رمال وأحقاف فقد

قال سبحانه وتعالى ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ [الأحقاف : 21]

وبهذا اعترض القول بأن مدينتهم الاسكندرية والقول بأنها دمشق حيث أنهمنا ليستا من بلاد الأحقاف والرمال إلا أن يقال ما هنا عاد الأولى وما في آية الأحقاف عاد الآخرة ويلتزم عدم اتحاد منازلهما وعلى القول بكونه اسم مدينتهم أو اسم أرضهم فهو بتقدير مضاف لتصحيح التبعية أي أهل ارم وقيل يقدر مضاف في جانب المتبوع أي بمدينة أو بأرض عاد ارم وهو كما ترى ومنع الصرف على الوجهين لما سمعت والأكثرون على أنها اسم مدينة عظيمة في أرض اليمن والوصفان لها والمراد ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين التي لم يخلق مثلها سعة وحسن بيوت وبساتين في بلاد الدنيا ويروى أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال إبني مثلها فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ولما تم ناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب ابل له فوقع عليها فحمل قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هي ارم ذالت العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر

أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له ثم التفت فابصر من قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل وخبر شداد المذكور أخوه في الضعف بل لم تصح روايته كما ذكره الحافظ ابن حجر فهو موضوع كخبر ابن قلابة وروي عن مجدهد أن ارم مصدر أرم يأرم إذا هلك فارم بمعنى هلاك منصوب على نحو نصب المصدر التشبيعي مضاف إلى ذات والتي صفة لذات العماد مراداً بها المدينة ﴿ وكيف فعل ﴾ [الفجر : 6] في قوة كيف أهلك فكانه قيل ألم تر كيف أهلك ربك عادا كهلاك ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وهو قول غريب غير قريب وقرأ الحسن بعاد ارم بإضافة عاد إلى ارم فجاز أن يكون ارم جداً والوصفان لعاد وأن يكون مدينة والوصفان لازم وجوز أن يكونا لعاد وقرأ ابن الزبير بعاد أرم بالإضافة أيضاً إلا أن أرم بفتح الهمزة وكسرة الراء قيل وهي لغة في المدينة لا غير وعن الضحاك أنه قرأ بعاد مصرروفاً وغير مصروف أرم بفتح الهمزة وسكون الراء للتخفيف وأصله أرم كفخذ وقرىء إرم ذات باضافة إرم إلى ذات فقيل الارم عليه العلم والمعنى بعاد أعلام العماد وهي مدينتهم والتي صفة لذات العماد على الأظهر وعن ابن عباس أنه قرأ أرم بالتشديد فعلاً ماضياً ذات بالنصب على المفعول به أي جعل الله تعالى

ذات العماد رميماً ويكون أرم على ما في البحر بدلاً من فعل أو تبييناً له والمراد بذات العماد عليه اما عاد نفسها ويكون فيه وضع المظهر موضع المضمر والنكتة فيه ظاهرة وإما مدينتهم ويكون جعلها رميماً أي اهلاكها كناية عن جعلهم كذلك وقرأ ابن الزبير لم يخلق مبنياً للفاعل وهو ضميره عز وجل مثلها بالنصب على المفعولية وعنه أيضاً لم نخلق بنون العظمة .

(155/814)

﴿ وَثَمُودُ ﴾ عطف على ﴿ عاد ﴾ وهي قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام كانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك وكانوا يعبدون الأصنام ومنع الصرف للعلمية والتأنيث وقرأ ابن وثاب بالتنوين صرفه باعتبار الحي كذا قالوا وظاهره أنه عربي وقد صرح بذلك فقيل هو فعول من الثمد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ومنه قيل فلان مثمود ثمدته النساء أي قطعن مادة مائة لكثرة غشيانه لهن ومثمود إذا كثر عليه السؤال حتى نفدت مادة ما له وحكى الراغب أنه عجمي فمنع الصرف للعلمية والعجمية ﴿ الذين جَابُواْ الصخر ﴾ أي قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر كقوله تعالى ﴿ وتنحتون من

الجبال بيوتاً ﴾ [الشعراء : 149] قيل أول من نحت الحجارة والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة ولا أظن صحة هذا البناء ﴿ بالواد ﴾ هو وادي القرى وقرىء بالياء آخر الحروف والباء للظرفية والجار والمجرور متعلق بجابوا أو بمحذوف هو حال من الفاعل أو المفعول وقيل الباء للآلة أو السببية متعلقة بجابوا أي جابوا الصخر بواديهم أو بسببه أي قطعوا الصخر وشقوة جهلوه واديا ومحلا لمائهم فعل ذوى القوة والآمال وهو خلاف الظاهر وأياً ما كان فالجواب القطع والظاهر أنه حقيقة فيه تقول جبت البلاد أجوبها إذا قطعتها قال الشاعر

: ولا رأيت قلوصاً قبلها حملت . . .

ستين وسقاً ولا جابت بها بلدا

ومنه الجواب لأنه يقطع السؤال وقال الراغب الجوب قطع الجوبة وهي الغائط من الأرض ثم يستعمل في قطع كل أرض وجواب الكلام وهو ما يقطع الجوب فيصل من فم القائد إلى سمع المستمع لكنه خص بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب انتهى فاختلا لنفسك ما يحلو .

(156/814)

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربون أوتادها في منازلهم أو لأنه كان يدق للمعذب أربعة أوتاد ويشده بها مبطوحاً على الأرض فيعذبه بما يريد من ضرب أو إحراق أو غيره وقد تقدم الكلام في ذلك .

﴿ الذين طَغَوْاْ فِى البلاد ﴾ اما مجرور على أنه صفة للمذكورين عاد ومن بعده أو منصوب أو مرفوع على الذم أي طغى كل طاغية منهم في بلاده وكذا الكلام في قوله تعالى :

﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ أي بالكفر وسائر المعاصي .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ﴾ أي أنزل سبحانه إنزالاً شديداً على كل طائعة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلت من الطغيان والفَساد ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي سوطاً من عذاب على أن الإضافة بمعنى من والعذاب بمعنى المعذب به والمراد بذلك ما حل بكل منهم من فنون العذاب التي شرحت في سائر السور الكريمة والسوط في الأصل مصدر من ساط يسوط إذا خلط قال الشاعر

: أحارث أنا لو تساذ دماؤنا . . .

تزايلن حتى لا يمس دم دما

(157/814)

وشاع في الجلد المضفور الذي يضرب به وسمي به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض أو لأنه يخلط اللحم بالدم والتعبير عن إنزاله بالصب للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جار مجراه في السيلان كالحبوب والرمل وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار ونسبته إلى السوط مع أنه على ما سمعت ليس من هذا القبيل باعتبار تشبيهه في سرعة نزوله بالشيء المصبوب وتسمية ما أنزل سوطاً قيل للإيذان بأنه على عظمة بالنسبة إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط بالنسبة إلى سائر ما يعذب به وفي الكشف إن إضافة السوط إلى العذاب تقليل لما أصابهم منه ولا يأبى ذلك التعبير بالصب المؤذن بالكثرة لأن القلة والكثرة من الأمور النسبية وجوز أن يراد بالعذاب التعذيب والإضافة حينئذ على معنى اللام وأمر التعبير بالصب والتسيمة بالسوط على ما تقدم والآية من قبيل قوله تعالى ﴿ فأذاقهم الله لباس الجوع ﴾ [النحل : 112] وجوز أن تكون الإضافة كالإضافة في لجين الماء أي فصل عليهم ربك عذاباً كالسوط على معنى أنواعاً من العذاب مخلوطاً بعضها ببعض اختلاط طاقات السوط بعضها ببعض وأن يكون السوط مصدراً بمعنى المفعول والإضافة كالإضافة في جرد قطيفة أي فصب عليهم ربك عذاباً مسوطاً أي مخلوطاً ومآله فصب أنواعاً من العذاب خلط بعضها ببعض وفي الصحاح سوط عذاب أي نصيب عذاب ويقال شدته لأن العذاب قد يكون بالسوط وأراد أن الغرض التصوير والأليق بجزالة

التنزيل ما تقدم.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

(158/814)

تعليل لما قبله وإيذان بأن كفار قومه صلى الله عليه وسلم شيصيبهم مثل ما أصاب أضرابهم المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والمرصاد المكان الذي يقوم به الرصد ويترقبون فيه مفعال من رصده كالميقات من وقته وفي الكلام استعارة تمثيلية شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العصاة على ما روي عن الضحاك مترقباً لها ومجازياً على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منه سبحانه أحد منهم بحال من قعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ليأخذه فيوقه به ما يريد ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر والآية على هذا وعيد للعصاة مطلقاً وقيل هي وعيد للكفرة وقيل وعيد للعصاة ووعد لغيرهم وهو ظاهر قول الحسن أن يرصد سبحانه أعمال بني آدم وجوز ابن عطية وكون المرصاد صيغة مبالغة كالمطعام والمطعان وتعقبه أبو حيان بأنه لو كان كما زعم لم تدخل الباء لأنها ليس في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة

وأجيب بأنها على ذلك تجريدية نعم يلزمه إطلاق المرصاد على الله عز وجل وفيه شيء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(159/814)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) ﴾

أقسم سبحانه بهذه الأشياء ، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته .

واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا فقيل : هو الوقت المعروف .

وسمي فجراً ؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم .

وقال قتادة : إنه فجر أوّل يوم من شهر محرّم ، لأن منه تتفجر السنة .

وقال مجاهد : يريد يوم النحر .

وقال الضحاك : فجر ذي الحجة ؛ لأن الله قرن الأيام به فقال : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ أي ليالي عشر من ذي الحجة .

وبه قال السديّ ، والكلبي .

وقيل المعنى : وصلاة الفجر ، أو ربّ الفجر .

والأوّل أولى ، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ كذا قال ابن الأنباري .

وقيل : محذوف لدلالة السياق عليه ، أي : ليجازينّ كل أحد بما عمل ، أو ليعذبن ، وقدّره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التي قبله ، أي : ﴿ والفجر .

. .

﴾ إلخ لإيابهم إلينا ، وحسابهم علينا ، وهذا ضعيف جدّاً ، وأضعف منه قول من قال : إن الجواب قوله : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ .

وأن هل بمعنى قد ؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ هي عشر ذي الحجة في قول جمهور المفسرين .

وقال الضحاك : إنها الأواخر من رمضان .

وقيل : العشر الأوّل من المحرّم إلى عاشرها يوم عاشوراء .

قرأ الجمهور : (ليال) بالتنوين ، وعشر صفة لها .

وقرأ ابن عباس : (وليالي عشر) بالإضافة .

قيل : والمراد ليالي أيام عشر ، وكان حقه على هذا أن يقال عشرة لأن المعدود مذكر .

وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان .

﴿ والشفع والوتر ﴾ الشفع والوتر يعمان كل الأشياء شفعها ووترها ، وقيل : شفع الليالي

ووترها .

وقال قتادة : الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها .

منها شفع ، ومنها وتر .

وقيل : الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر .

(160/814)

وقال مجاهد ، وعطية العوفي : الشفع الخلق ، والوتر الله الواحد الصمد ، وبه قال محمد بن سيرين ، ومسروق ، وأبو صالح ، وقتادة .

وقال الربيع بن أنس ، وأبو العالية : هي صلاة المغرب فيها ركعتان ، والوتر الركعة .

وقال الضحاك : الشفع عشر ذي الحجة ، والوتر أيام منى الثلاثة ، وبه قال عطاء .

وقيل : هما آدم وحواء ؛ لأن آدم كان وتراً فشفع بحوّاء .

وقيل : الشفع درجات الجنة وهي ثمان ، والوتر دركات النار وهي سبع ، وبه قال الحسين بن الفضل .

وقيل : الشفع الصفا والمروة ، والوتر الكعبة .

وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة وقال

سفيان بن عيينة : الوتر : هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضاً لقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ .

. .

﴾ [المجادلة : 7] الآية .

وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما .

وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس .

وقيل : الشفع حجج القرآن ، والوتر الإفراد .

وقيل : الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى ، والوتر الجماد .

وقيل : الشفع ما سمي ، والوتر ما لا يسمى .

ولا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين ، والضعف الظاهر ، والاتكال في التعيين على مجرّد الرأي الزائف ، والخاطر الخاطىء .

والذي ينبغي التعويل عليه ، ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب ، وهما معروفان واضحان ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد .

فالمراد بالآية إما نفس العدد ، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر .

وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية ، فإن كان الدليل يدلّ على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك ، وإن كان الدليل يدلّ على أنه مما تناولته هذه الآية لم

يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره .

قرأ الجمهور : ﴿ والوتر ﴾ بفتح الواو .

(161/814)

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف بكسرها ، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وهما لغتان ، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز ، والكسر لغة تميم .

قال الأصمعي : كلّ فرد وتر ، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد .

وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو ، وكسر التاء ، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة ، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يسر ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو بحذفها في الوقف ، وإثباتها في الوصل .

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف .

قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي .

قال الزجاج : والحذف أحب إليّ لأنها فاصلة ، والفواصل تحذف منها الياآت .

قال الفرّاء : قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها ، وأنشد بعضهم :

كفاك كفّ ما تليق درهما . . . جودا وأخرى تعط بالسيف دما

ما تليق ، أي : ما تمسك .

قال المؤرج : سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من يسر فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة ، فبتّ على باب داره سنة ، فقال : الليل لا يسري ، وإنما يسرى فيه ، فهو مصروف عن جهته ، وكلّ ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] ولم يقل بغية ؛ لأنه صرفها من باغية .

وفي كلام الأخفش هذا نظر ، فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه ، ولو صحّ ذلك للزم في كلّ المجازات العقلية واللفظية ، واللازم باطل ، فالملزوم مثله ، والأصل ههنا إثبات الياء ؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف ، وموافقة رءوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي .

ومعنى ﴿ والليل إذا يَسْرِ ﴾ : إذا يمضي ، كقوله :

﴿ واليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] ﴿ واليل إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] وقيل :

معنى يسر : يسار فيه ، كما يقال ليل نائم ، ونهار صائم ، كما في قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان في السرى . . . ونمت وما ليل المطيّ بنائم

وبهذا قال الأخفش ، والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني ، وبالأوّل قال جمهور المفسرين .

وقال قتادة ، وأبو العالية : ﴿ واليل إِذَا يَسْرِ ﴾ أي : جاء وأقبل .

وقال النخعي ، أي : استوى .

قال عكرمة ، وقتادة ، والكلبي ، ومحمد بن كعب : هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه .

وقيل : ليلة القدر لسراية الرحمة فيها .

والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى .

﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به ، وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى تلك الأمور ، والتذكير بتأويل المذكور ، أي : هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم ، أي : مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار .

﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أي : عقل ولبّ .

فمن كان ذا عقل ولبّ علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به ، ومثل

هذا قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 76] قال الحسن : ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أي : لذي حلم .

وقال أبو مالك : لذي ستر من الناس .

وقال الجمهور : الحجر العقل .

قال الفرّاء : الكلّ يرجع إلى معنى واحد ، لذي عقل ، ولذي حلم ، ولذي ستر ، الكلّ بمعنى العقل .

وأصل الحجر المنع ، يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حجر ، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته ، ومنه حجر الحاكم على فلان ، أي : منعه .

قال ، والعرب تقول : إنه لذو حجر : إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها .

(163/814)

ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم ، وعنادهم وتكذيبهم للرسل تحذيراً للكفار في عصر نبينا صلى الله عليه وسلم وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ عاد ﴾ على أن يكون ﴿ إرم ﴾ عطف بيان لعاد ،

والمراد بعاد : اسم أبيهم .

وإرم اسم القبيلة ، أو بدلاً منه .

وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث .

وقيل : المراد بعاد أولاد عاد ، وهم عاد الأولى ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى ، فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل ، للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى ، ولا بدّ من تقدير مضاف على كلا القولين ، أي : أهل إرم ، أو سبط إرم ؟ فإن إرم هو : جدّ عاد ؛ لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح .

وقرأ الحسن ، وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم .

وقرأ الجمهور : ﴿ إرم ﴾ بكسر الهمزة .

وفتح الراء ، والميم .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك : ﴿ أرم ﴾ بفتح الهمزة ، والراء .

وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً ، وقرىء بإضافة إرم إلى ذات العماد .

قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام .

واحدها أرم ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، أي : والفجر وكذا ، وكذا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ .

﴿ ألم تر ﴾ أي : ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد ، وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب

للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو لكلّ من يصلح له ، وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون .

وقال مجاهد أيضاً : إرم أمة من الأمم ، وقال قتادة : هي قبيلة من عاد .

وقيل : هما عادان ، فالأولى هي إرم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

مجداً تليداً بناه أوّلهم . . . أدرك عاداً وقبله إرم

(164/814)

قال معمر : إرم إليه مجتمع عاد وثمود ، وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود ، وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم ، قال أبو عبيدة : هما عادان ، فالأولى إرم .

ومعنى ﴿ ذات العماد ﴾ : ذات القوّة والشدّة ، مأخوذ من قوة الأعمدة ، كذا قال الضحاك .

وقال قتادة ، ومجاهد : إنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم .

وقال مقاتل : ذات العماد يعني طولهم ، كان طول الرجل منهم اثني عشرة ذراعاً .

ويقال : رجل طويل العماد ، أي : القامة .

قال أبو عبيدة : ذات العماد ذات الطول ، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً .

وقال مجاهد ، وقتادة : أيضاً كان عماداً لقومهم ، يقال : فلان عميد القوم وعمودهم ، أي : سيدهم .

وقال ابن زيد : ذات العماد يعني إحكام البنيان بالعمد .

قال في الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث ، قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عماد الحيّ خرّت . . . على الإخفاض نمنع من يلينا

وقال عكرمة ، وسعيد المقبري هي دمشق ، ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك .

وقال محمد بن كعب : هي الإسكندرية .

﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ هذه صفة لعاد : أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدّة والقوّة ، وهم الذين قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15] أو صفة للقرية على قول من قال : إن إرم اسم لقريتهم ، أو للأرض التي كانوا فيها .

والأوّل أولى ، ويدل عليه قراءة أبيّ : (التي لم يخلق مثلهم في البلاد) وقيل : الإرم الهلاك .

قال الضحاك : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ أي : أهلكهم فجعلهم رميماً ، وبه قال شهر بن حوشب .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها ، وبساتينها ، وإن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ، ولا فيها ساكن من بني آدم ، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع ، فتارة تكون باليمن ، وتارة تكون بالشام ، وتارة تكون بالعراق ، وتارة تكون بسائر البلاد ، وهذا كذب بحت لا ينفق على من له أدنى تميز .

وزاد الثعلبي في تفسيره فقال : إن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة ، وهذا كذب على كذب ، وافتراء على افتراء ، وقد أصيب الإسلام ، وأهله بداهية دهياء ، وفاقرة عظمى ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب ، تارة على بني إسرائيل ، وتارة على الأنبياء ، وتارة على الصالحين ، وتارة على ربّ العالمين ، وتضاعف هذا الشرّ ، وزاد كثرة بتصدّر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها من موضوعها للتصنيف ، والتفسير للكتاب العزيز ، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاصيص المنحولة ، والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرّفوا ، وغيروا ، وبدّلوا .

ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا ، فلينظر في كتابي الذي سميته (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) .

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة ، وهي : ثمود على قبيلة عاد فقال : ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ وهم : قوم صالح سموا باسم جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح.

ومعنى ﴿ جابوا الصخر ﴾ : قطعوه.

والجوب القطع ، ومنه جاب البلاد : إذا قطعها ، ومنه سمي جيب القميص ؛ لأنه جيب ، أي : قطع.

قال المفسرون : أوّل من نحت الجبال والصخور ثمود ، فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ [الشعراء : 149] وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها .

(166/814)

وقوله : ﴿ بالواد ﴾ متعلق ب ﴿ جابوا ﴾ ، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادي القرى.

قرأ الجمهور : ﴿ ثمود ﴾ بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ، ففيه التأنيث والتعريف.

وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيها .

وقرأ الجمهور أيضاً بالواد بحذف الياء وصلاً ، ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف .

وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما .

وقرأ قنبل في رواية عنه بإثباتها في الوصل دون الوقف .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ أي : ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدّونها بالأوتاد ، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً لأنهم يشدّون الملك ، كما تشد الأوتاد الخيام .

وقيل : كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدّهم إليها .

وقد تقدّم بيان هذا في سورة ص .

﴿ الذين طَغَوْاْ فِى البلاد ﴾ الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون ، أي : طغت كل طائفة منهم في بلادهم ، وتمرّدت ، وعتت ، والطغيان مجاوزة الحدّ .

﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ بالكفر ، ومعاصي الله ، والجور على عباده ، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين طغوا ، أو في محل نصب على الذم .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي : أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب ، وهو ما عذبهم به .

قال الزجاج : جعل صوته الذي ضربهم به العذاب ، يقال : صبّ على فلان خلعة ، أي : ألقاها عليه ، ومنه قول النابغة :

فصبّ الله عليه أحسن صبغة . . . وكان له بين البرية ناصر

ومنه قول الآخر :

ألم تر أن الله أظهر دينه . . . وصبّ على الكفار سوط عذاب

ومعنى ﴿ سوط عذاب ﴾ نصيب عذاب ، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم في الآخرة كالسوط ، إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وقيل : ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم ، وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به .

(167/814)

قال الفرّاء : هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب ، وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب .

وقيل معناه : عذاب يخالط اللحم والدم ، من قولهم ساطه يسوطه سوطاً ، أي : خلطه ، فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض ، ومنه قول كعب بن زهير :

لكن خلة قد سيط من دمها . . . فجع وولع وإخلاف وتبديل

وقال الآخر :

أحارث إنا لو تساط دماؤنا . . . تزايلن حتى لا يمسّ دم دما

وقال آخر :

فسطها ذميم الرأي غير موفق . . . فلست على تسويطها بمعان

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ قد قدّمنا قول من قال إن هذا جواب القسم ، والأولى أن الجواب محذوف ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه صلى الله عليه وسلم سيصيبهم ما أصاب أولئك الكفار ، ومعنى بالمرصاد : أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً ، وبالشرّ شرّاً .

قال الحسن ، وعكرمة ، أي : عليه طريق العباد لا يفوته أحد ، والرصد والمرصاد : الطريق .

وقد تقدّم بيانه في سورة براءة ، وتقدّم أيضاً عند قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ [النبأ : 21] .

وقد أخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : فجر النهار .

وأخرج ابن جرير عنه قال : يعني : صلاة الفجر .

وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقي في الشعب ، وابن عساكر عنه أيضاً في قوله : ﴿

والفجر ﴾ قال : هو : المحرّم فجر السنة ، وقد ورد في فضل صوم شهر محرّم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدلّ على أنه المراد بالآية لا مطابقة ، ولا تضمناً ، ولا التزاماً .

(168/814)

وأخرج أحمد ، والنسائي ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن جابر : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر ﴾ قال : " إن العشر عشر الأضحى ، والوتر : يوم عرفة ، والشفع : يوم النحر " وفي لفظ : " هي ليالي من ذي الحجة " وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن ؛ فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالي العشر التي ذكرها الله في القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك ، قال : بلى ، فاشكك .

وقد ورد في فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها ما يدلّ على أنها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : هي العشر الأواخر من رمضان .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وصححه ، وابن مردويه عن عمران بن حصين ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر ، فقال : " هي الصلاة بعضها شفع ، وبعضها وتر " وفي إسناده رجل مجهول ، وهو الراوي له عن عمران بن حصين .

وقد روي عن عمران بن عصام على عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول .

وقال الترمذي بعد إخراجه بالإسناد الذي فيه الرجل المجهول هو حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث قتادة .

قال ابن كثير : وعندي أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ، والله أعلم .

قال : ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر .

وقد أخرج هذا الحديث موقوفاً على عمران بن حصين عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، فهذا يقوّي ما قاله ابن كثير .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ فقال : كل شيء شفع ، فهو اثنان ، والوتر واحد .

(169/814)

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند ضعيف عن أبي أيوب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : " يومان وليلة ، يوم عرفة ، ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع " وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الشفع يومان ، والوتر اليوم الثالث " وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع قول الله : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 203] والوتر : اليوم الثالث .

وفي لفظ : الوتر أوسط أيام التشريق .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس قال : الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : إذا ذهب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿ والفجر ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، قال : هذا قسم على إن ربك بالمرصاد .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ قال : لذي حجى وعقل ونهي .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ بِعَادٍ * إِرَمَ ﴾ قال : يعني : بالإرم الهالك ، ألا ترى أنك تقول أرم بنو فلان ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : طولهم مثل العماد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن المقدام بن معدي كرب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ فقال : "كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة ، فيحملها على كاهله ، فيلقيها على أيّ حيّ أراد فيهلكهم " ، وفي إسناده رجل مجهول ؛ لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدّثه عن المقدام .

(170/814)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ قال : خرقوها .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ قال : الأوتاد : الجنود الذين يشدّون له أمره .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ذِى الأوتاد ﴾ قال : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ

رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ قال : يسمع ويرى .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ قال : من وراء الصراط جسور : جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرحم ، وجسر عليه الربّ عزّ وجلّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 432 . 437 ﴾

(171/814)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ »

الاستفهام هنا تقريرى ، تهديدى . . أي انظر كيف فعل ربك بعباد . .

وكذلك يفعل ربك بالطاغين والمتجبرين .

وعاد ، قبيلة قديمة من العرب البائدة ، وكانت ديارهم بالأحقاف ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ » (21 . الأحقاف) وإرم ، هى موطن عاد ، وهى بدل من كلمة « عاد » أي ألم تر كيف فعل ربك بأرم ذات العماد ، التي عمرتها قبيلة عاد ، وأعملت فيها قوتها الجسدية ، وجلبت لها كل ما قدرت عليه من مل ، ومتاع

. . فكانت كما وصفها اللّه سبحانه : « لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ » أي لم يكن لها مثيل فيما جاورها من بلاد . .

وكان النبي الذي أرسله اللّه إليهم ، هو « هود » عليه السلام ، وقد دعاهم إلى اللّه ، وترفق بهم ، وذكّرهم بآلاء اللّه عليهم ، وإحسانه إليهم ، فلم يزدهم ذلك إلا عنادا ، وضلالا . .

وفيما كان يقول « هود » لهم ، ما جاء فى قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (69 : الأعراف)

وقد أهلكهم اللّه بريح صرصر عاتية ، كما يقول سبحانه : « وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ، سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ » (6 ـ 8 : الحاقة) وسمى بناء المدينة وإقامتها على هذه الصورة العجيبة من القوة ، والضخامة ، والإحكام ـ سمى هذا خلقا ، لأنها من عمل مخلوقات للّه ، وكل ما يعمل فيه الناس ، هو من خلق اللّه ، كما يقول سبحانه : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ » (96 : الصافات) ومناسبة قصة عاد وثمود وفرعون ، لما قبلها ، هى أنها تعرض قضية من

القضايا التي تستحق من العقل أن يناقشها ، وان يستحضر وجوده كله لها ، وذلك بعد أن استدعى هذا الاستدعاء القوى الذي شدّ إليه بالقسم ، لينظر فى الزمن ، وما تلد آناته ولحظاته من عجائب .

والقضية التي يدعى إليها العقل هنا ، هى سنة من سنة اللّه سبحانه وتعالى ، فيما يأخذ به أهل الزيغ والضلال ، من بأساء وضراء فى الدنيا ، وما أعد لهم فى الآخرة من عذاب السعير . .

وفى عاد وثمود وفرعون ، يتمثل وجه كريه من وجوه الكفر والضلال ، والعتوّ . . وقد أخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر ، فاقتلعهم من جذورهم ، وقطع نسلهم ، وأتى على ما بنوا ، وشيدوا .

وقوله تعالى : « وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ » معطوف على قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ » وكيف فعل ربك بثمود ؟ وثمود ، هم قوم صالح عليه السلام ، وهم من العرب البائدة ، وديارهم بالحجر بين الشام والعراق ، وقد مر بها النبي ، صلى اللّه عليه وسلم - فى غزوة تبوك فسجّى ثوبه على وجهه ، وأمر أصحابه أن يمروا بها مسرعين ، وقال :

« لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ، خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم » وقوله تعالى : « جابوا الصخر » أي قطعوه ، وشقوه كما يشق الجيب ، وهو فتحة الثوب التي

يلبس منها . . ومعنى ذلك أنهم نحتوا الصخر فى الوادي الذي يسكنون فيه ، وجعلوا بيوتهم منحوتة فى كيان الصخر ، فكانت

(173/814)

أشبه بحصون . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ » (149 : الشعراء) قوله تعالى : « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ » معطوف على « وثمود » . . والأوتاد جمع وتد ، وهى تلك الأهرامات العظيمة التي أقامها فراعين مصر ، فكانت أشبه بالجبال ، التي هى أوتاد الأرض ، كما يقول سبحانه : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً . وَالْجِبالَ أَوْتاداً » (6 ، 7 : النبأ) وقوله تعالى : «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ » « الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ » هو وصف لعاد ، وثمود ، وفرعون . . فهم جميعا من الطغاة الباغين ، الذين استبدوا بالبلاد ، وبالعباد ، فأشاعوا الفساد حيث كانوا ، ولهذا أخذهم اللّه جميعا بالعذاب فصّبه صبّا عليهم .

والسوط : أصله من ساط الشيء يسوطه ، أي خلطه بغيره ، لأن السوط يختلط بالجلد ، حين يضرب به . .

وسوط العذب ، هو خليط من ألوان العذاب ، وقد أخذ اللّه سبحانه كلّ جماعة من أهل

الضلال بلون من ألوان الهلاك كما يقول سبحانه : « فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا » (40 : العنكبوت)

(174/814)

وإذ قد جمع اللّه سبحانه وتعالى بين عاد ، وثمود ، وفرعون ، فى سياق قصة واحدة. فكان من إعجاز النظم القرآنى أن يجمع عذابهم ، وما أخذ به كل فريق منهم ، فى إناء واحد ، وأن يصبّه عليهم جميعا ، فإذا وقع بهم ، أخذ كل فريق لون العذاب المسلّط عليه ! وقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ » المرصاد : المكان العالي ، الذي يقوم فيه الراصد ، ليرقب ما يجرى هنا وهناك .

وفى هذا إشارة إلى أن اللّه سبحانه وتعالى رقيب على أعمال الناس ، يرى كل ما يعملون ، وسيحاسبهم على ما عملوا ، دون أن يفلت أحد منهم ، لأن اللّه سبحانه متمكن منهم ، بهذا العلو الذي لا يدانى . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1554.1551 ﴾

(175/814)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) ﴾

لا يصلح هذا أن يكون جواباً للقسم ولكنه : إمَّا دليلُ الجواب إذ يدل على أن المقسَم عليه من جنس ما فُعِل بهذه الأمم الثلاث وهو الاستئصال الدال عليه قوله : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ ، فتقدير الجواب ليصبن ربك على مكذبيك سوط عذاب كما صب على عاد وثمود وفرعون .

وإمّا تمهيد للجواب ومقدمة له إن جعلت الجواب قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ وما بينه وبين الآيات السابقة اعتراض جعل كمقدمة لجواب القسم .

والمعنى : إن ربك لبالمرصاد للمكذبين لا يخفى عليه أمرهم ، فيكون تثبيتاً للنبيء صلى الله عليه وسلم كقوله : ﴿ ولا تحسبن اللَّه غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ [إبراهيم : 42] .

فالاستفهام في قوله : ﴿ ألم تر ﴾ تقريري ، والمخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم تثبيتاً له ووعداً بالنصر ، وتعريضاً للمعاندين بالإنذار بمثله فإن ما فُعل بهذه الأمم الثلاث موعظة وإنذار للقوم الذين فَعَلوا مثل فعلهم من تكذيب رسل الله قُصد منه تقريب وقوع ذلك وتوقع حلوله .

لأن التذكير بالنظائر واستحضَار الأمثال يقرِّب إلى الأذهانِ الأمر الغريب الوقوع ، لأن بُعد

العهد بحدوث أمثاله ينسيه الناسَ ، وإذا نُسي استبعَد الناسُ وقوعه ، فالتذكير يزيل الاستبعاد .

فهذه العِبَر جزئيات من مضمون جواب القسم ، فإن كان محذوفاً فذِكْرُها دليلُه ، وإن كان الجواب قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ كان تقديمها على الجواب زيادة في التشويق إلى تلقيه ، وإيذاناً بجنس الجواب من قَبْل ذكره ليحصل بعد ذكره مزيد تقرُّره في الأذهان .

والرؤيَةُ في ﴿ ألم تر ﴾ يجوز أن تكون رؤية عِلْمية تشبيهاً للعلم اليقيني بالرؤية في الوضوح والانكشاف لأن أخبار هذه الأمم شائعة مضروبة بها المُثُل فكأنها مشاهدة .

فتكون ﴿ كيف ﴾ استفهاماً معلِّقاً فعل الرؤية عن العمل في مفعولين .

(176/814)

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية والمعنى : ألم تر آثار ما فعل ربك بعاد ، وتكون ﴿ كيف ﴾ إسْماً مجرّداً عن الاستفهام في محل نصب على المفعولية لفعل الرؤية البصرية .

وعُدل عن اسم الجلالة إلى التعريف بإضافة رب إلى ضمير المخاطب في قوله : ﴿ فعل ربك ﴾ لِما في وصف رب من الإِشعار بالولاية والتأييد ولما تؤذن به إضافته إلى ضمير المخاطب من إعزازه وتشريفه .

وقد ابتُدئت الموعظة بذكر عاد وثمود لشهرتهما بين المخاطبين وذُكِرَ بعدهما قوم فرعون لشهرة رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون بين أهل الكتاب ببلاد العرب وهم يحدّثون العرب عنها .

وأريد ب"عاد" الأمة لا محالة قال تعالى : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ [هود : 59] فوَجْه صرفه أنه اسم ثلاثي ساكن الوسط مثلِ هِند ونُوح وإرَم بكسر الهمزة وفتح الراء اسم إرَم بن سَامٍ بن نُوح وهو جد عاد لأن عاداً هو ابن عُوص بن إرَم ، وهو ممنوع من الصرف للعجمة لأن العرب البائدة يُعتبرون خارجين عن أسماء اللغة العربية المستعملة ، فهو عطف بيان ل"عاد" للإِشارة إلى أن المراد ب"عاد" القبيلة التي جدها الأدنى هو عاد بن عوص بن إرم ، وهم عاد الموصوفة بـ ﴿ الأولى ﴾ في قوله تعالى:

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] لئلا يتوهم أن المتحدَّثَ عنهم قبيلة أخرى تسمى عاداً أيضاً .

كانت تنزل مكة مع العَمَاليق يقال : إنهم بقية من عاد الأولى فعاد وإرم اسمان لقبيلة عاد الأولى .

ووُصِفَتْ عادٌ بـ ﴿ ذات العماد ﴾ ، و ﴿ ذاتُ ﴾ وصْف مؤنث لأن المراد بعاد القبيلة .

والعمادُ : عُود غليظ طويلٌ يُقام عليه البيت يركز في الأرض تقام عليه أثواب الخيمة أو القبة

ويسمى دَعامةً ، وهو هنا مستعار للقوة تشبيهاً للقبيلة القوية بالبيت ذات العماد .

وإطلاق العِماد على القوة جاء في قول عمرو بن كلثوم :

ونَحن إذا عِمَادُ الحَيِّ خَرَّت

على الأحْفاض نَمنع من يَلينا . . .

(177/814)

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ العماد ﴾ الأعلام التي بنوْها في طرُقهم ليهتدي بها المسافرون المذكورةَ في قوله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ [الشعراء : 128] .

ووُصفت عاد بـ ﴿ ذات العماد ﴾ لقوتها وشدتها ، أي قد أهلك الله قوماً هم أشد من القوم الذين كذبوك قال تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ [محمد : 13] وقال : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ [غافر : 21] .

و ﴿ التي ﴾ : صادق على "عاد" بتأويل القبيلة كما وصفت بـ ﴿ ذات العماد ﴾ والعرب يقولون : تَغلِبُ ابنةُ وائل ، بتأويل تغلب بالقبيلة .

و ﴿ البلاد ﴾ : جمعَ بَلَد وبلْدة وهي مساحة واسعة من الأرض معيَّنة بحدود أو سكان .

والتعريف في ﴿ البلاد ﴾ للجنس والمعنى : التي لم يخلق مثل تلك الأمة في الأرض .

وأريد بالخلق خلق أجسادهم فقد رُوي أنهم كانوا طِوالاً شداداً أقوياء ، وكانوا أهل عقل وتدبير ، والعرب تضرب المثل بأحلام عاد ، ثم فسدت طباعهم بالترف فبطروا النعمة .

والظاهر أن لام التعريف هنا للاستغراق العُرفي ، أي في بلدان العرب وقبائلهم .

وقد وضع القصاصون حول قوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ قصةً مكذوبة فزعموا أن ﴿ إرم ذات العماد ﴾ مركب جعل اسماً لمدينة باليَمن أو بالشام أو بمصر ، ووصفوا قصورها وبساتينها بأوصاف غير معتادة ، وتقوّلوا أن أعرابياً يقال له : عبدُ الله بن قلابة كان في زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان تاهَ في ابتغاء إبلٍ له فاطَّلع على هذه المدينة وأنه لما رجع أخبر الناس فذهبوا إلى المكان الذي زعم أنه وجَد فيه المدينة فلم يجدوا شيئاً .

(178/814)

وهذه أكاذيب مخلوطة بجهالة إذ كيف يصح أن يكون اسمَها أرم ويتبع بذاتِ العماد بفتح ﴿ إرَمَ ﴾ وكسر ﴿ ذاتِ ﴾ فلو كان الاسم مركباً مَزْجياً لكان بناء جزأيه على الفتح ، وإن كان الاسم مفرداً و ﴿ ذات ﴾ صفة له فلا وجه لكسر ﴿ ذات ﴾ ، على أن موقع هذا الاسم عقب قوله تعالى : ﴿ بعاد ﴾ يناكد ذلك كله .

ومُنع ﴿ ثمود ﴾ من الصرف لأن المراد به الأمة المعروفة ، ووصف باسم الموصول لجمع المذكّر في قوله : ﴿ الذين جابوا ﴾ دون أن يقول التي جابت الصخر بتأويل القوم فلما وُصف عدل عن تأنيثه تفنناً في الأسلوب .

ومعنى ﴿ جابوا ﴾ : قطعوا ، أي نَحتوا الصخر واتخذوا فيه بيوتاً كما قال تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ [الشعراء : 149] وقد قيل : إن ثمود أول أمم البشر نحتوا الصخر والرخام .

و﴿ الصخر ﴾ : الحجارة العظيمة .

والواد : اسم لأرض كائنةٍ بين جبلين منخفضة ، ومنه سمي مجرى الماء الكثير واداً وفيه لغتان : أن يكون آخره دَالاً ، وأن يكون آخره ياء ساكنةً بعد الدال .

وقرأ الجمهور بدون ياء .

وقرأه ابن كثير ويعقوب بياء في آخره وصلا ووقفاً ، وقرأه ورش عن نافع بياء في الوصل وبدونها في الوقف وهي قراءة مبنية على مراعاة الفواصل مثل ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ [الفجر : 4] وهو مرسوم في المصحف بدون ياء والقراءات تعتمد الرواية بالسمع لا رسم المصحف إذ المقصود من كتابة المصاحف أن يتذكر بها الحفاظ ما عسى أن ينسَوْه .

والواد : علَم بالغلبة على منازل ثمود ، ويقال له : وادي القُرى ، بإضافته إلى "القرى" التي

بنتها ثمود فيه ويسمى أيضاً "الحِجر" بكسر الحاء وسكون الجيم ، ويقال لها : "حِجر ثمود" وهو واد بين خيبر وتَيْماء في طريق الماشي من المدينة إلى الشام ، ونزله اليهود بعد ثمود لما نزلوا بلادَ العرب ، ونزله من قبائل العرب قُضاعة وجهينة ، وعُذرة وبَليٌّ .

(179/814)

وكان غزاه النبي صلى الله عليه وسلم وفتحه سنة سبع فأسلم من فيه من العرب وصُولحت اليهود على جِزْيَةٍ .

والباء في قوله : ﴿ بالواد ﴾ للظرفية .

والمراد بـ ﴿ فرعون ﴾ هو وقومه .

ووصف ﴿ ذي الأوتاد ﴾ لأن مملكته كانت تحتوي على الأهرام التي بناها أسلافه لأن صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق ، ويجوز أن يكون الأوتاد مستعاراً للتمكن والثبات ، أي ذي القوة على نحو قوله : ﴿ ذات العماد ﴾ ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذُو الأوتاد ﴾ في ص (12) .

وقوله : الذين طغوا في البلاد ﴾ يجوز أن يكون شاملاً لجميع المذكورين عاد وثمود وفرعون .

ويجوز أن يكون نعتاً لفرعون لأن المراد هو وقومه .

والطغيان شدّة العصيان والظلم ومعنى طغيانهم في البلاد أن كل أمة من هؤلاء طَغوا في بلدهم ؛ ولما كان بلدهم من جملة البلاد أي أرضي الأقوام كان طغيانهم في بلدهم قد أوقع الطغيان في البلاد لأن فساد البعض آئل إلى فساد الجميع بسَنِّ سنن السوء ، ولذلك تسبب عليه ما فرع عنه من قوله : ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ لأن الطغيان يجرِّىء صاحبه على دحض حقوق الناس فهو من جهة يكون قدوة سُوءٍ لأمثاله ومَلَئِهِ ، فكل واحد منهم يطغى على من هو دونه ، وذلك فساد عظيم ، لأن به اختلال الشرائع الإلاهيّة والقوانين الوضعية الصالحة وهو من جهة أخرى يثير الحفائظ والضغائن في المطْغيّ عليه من الرعية فيُضمرون السوء للطاغين وتنطوي نفوسهم على كراهية ولاة الأمور وتربص الدوائر بها فيكونُون لها أعداء غير مخلصي الضمائر ويكون رجال الدولة متوجّسين منهم خيفة فيظنون بهم السوء في كل حال ويحْذَرُونهم فتتوزع قوة الأمة على أفرادها عوض أن تتّحد على أعدائها فتصبح للأمة أعداء في الخارج وأعداء في الداخل وذلك يفضي إلى فساد عظيم ، فلا جرم كان الطغيان سبباً لكثرة الفساد .

(180/814)

ويجوز أن يكون التعريف في ﴿ البلاد ﴾ تعريف العهد ، أي في بلادهم والجمع على اعتبار التوزيع ، أي طغت كل أمة في بلادها .

و﴿ الفساد ﴾ : سوء حال الشيء ولحاق الضر به قال تعالى : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ [البقرة : 205] .

وضد الفساد الصلاح قال تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ [الأعراف : 56] وكان ما أكثروه من الفساد سبباً في غضب الله عليهم ، والله لا يحب الفساد فصب عليهم العذاب .

والصب حقيقته : إفراغ ما في الظرف ، وهو هنا مستعار لحلول العذاب دَفعة وإحاطته بهم كما يصب الماء على المغتَسِل أو يصب المطر على الأرض ، فوجه الشبه مركب من السرعة والكثرة ونظيره استعارةُ الإفراغ في قوله تعالى : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ [البقرة : 250] ونظير الصب قولهم : شن عليهم الغارةَ .

وكان العذاب الذي أصاب هؤلاء عذاباً مفاجئاً قاضياً .

فأما عاد فرأوا عارض الريح فحسبوه عارض مطر فما لبثوا حتى أطارتهم الريح كل مطير .

وأما ثمود فقد أخذتهم الصيحة .

وأما فرعون فحسبوا البحر منحسراً فما راعهم إلا وقد أحاط بهم .

والسوط : آلة ضرب تتخذ من جلود مضفورة تضرب بها الخيل للتأديب ولتحمِلَها على

المزيد في الجري .

وعن الفراء أن كلمة ﴿ سوط عذاب ﴾ يقولها العرب لكل عذاب يدخل فيه السوط (أي يقع بالسوط) ، يُريد أن حقيقتها كذلك ولا يريد أنها في هذه الآية كذلك .

وإضافة ﴿ سوط ﴾ إلى ﴿ عذاب ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي صب عليهم عذاباً سوطاً ، أي كالسوط في سرعة الإِصابة فهو تشبيه بليغ .

وجملة : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تذييل وتعليل لإِصابتهم بسوط عذاب إذا قُدِّر جواب القسم محذوفاً .

ويجوز أن تكون جواب القَسَم كما تقدم آنفاً .

(181/814)

فعلى كون الجملة تذييلاً تكون تعليلاً لجملة ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ تثبيتاً للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله ينصر رسله وتصريحاً للمعاندين بما عَرَّض لهم به من توقع معاملته إياهم بمثل ما عامل به المكذبين الأولين .

أي أن الله بالمرصاد لكل طاغ مفسد .

وعلى كونها جواب القسم تكون كناية عن تسليط العذاب على المشركين إذ لا يراد من

الرصد إلا دفع المعتدي من عدوّ ونحوه ، وهو المقسم عليه وما قبله اعتراضاً تفنناً في نظم الكلام إذْ قُدم على المقصود بالقسم ما هو استدلال عليه وتنظير بما سبق من عقاب أمثالهم من الأمم من قوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ الخ ، وهو أسلوب من أساليب الخطابة إذْ يُجعل البيان والتنظير بمنزلة المقدمة ويجعل الغرض المقصود بمنزلة النتيجة والعلةِ إذا كان الكلام صالحاً للاعتبارين مع قصد الاهتمام بالمقدَّم والمبادرة به .

والعدول عن ضمير المتكلم أو اسم الجلالة إلى ﴿ ربك ﴾ في قوله : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ وقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ إيماء إلى أن فاعل ذلك رَبه الذي شأنه أن ينتصر له ، فهو مُؤمّل بأن يعذب الذين كذبوه انتصاراً له انتصارَ المولى لوليّه .

والمرصاد : المكان الذي يَترقب فيه الرَّصد ، أي الجماعة المراقبون شيئاً ، وصيغةُ مفعال تأتي للمكان وللزمان كما تأتي للآلة ، فمعنى الآلة هنا غير محتمل ، فهو هنا إما للزمان أو المكان إذ الرصد الترقب .

وتعريف "المرصاد" تعريف الجنس وهو يفيد عموم المتعلِّق ، أي بالمرصاد لكل فاعل ، فهو تمثيل لعمومِ علم الله تعالى بما يكون من أعمال العباد وحركاتهم ، بحال اطلاع الرصَد على تحركات العدُوّ والمغيرين ، وهذا المثل كُناية عن مجازاة كل عامل بما عمِله وما يعمله إذ لا يقصد الرصد إلا للجزاءِ على العدوان ، وفي ما يفيده من التعليل إيماء إلى أن الله لم يظلمهم فيما أصابهم به .

والباء في قوله ﴿ بالمرصاد ﴾ للظرفية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ

﴾

(182/814)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(68) إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد

بقلم: د . زغلول النجار

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في اخر الربع الأول من سورة الفجر , وهي سورة مكية , يدور محورها الرئيسي حول قضية البعث بعد الموت , وهي من القضايا الأساسية في العقيدة الإسلامية .

وتبدأ السورة الكريمة بقسم من الله (تعالي) بالفجر , وهو يمثل الفترة الزمنية التي يبزغ فيها

أول خيط من الشفق الصباحي علي جزء من سطح الأرض فيعمل ذلك علي محو ظلمة الليل بالتدريج حتي شروق الشمس , ويبدأ ذلك بوضع الجزء من الأرض الذي يبزغ عليه الفجر في وضع تبدو الشمس منه وكأنها علي بعد 18,5 درجة تحت الأفق , وتظل ترتفع في حركتها الظاهرية حول الأرض , والتي تتم بدوران الأرض حول محورها امام الشمس حتي ظهور حافة الشمس العليا عند الأفق فتشرق الشمس . والفجر الصادق يمثل أول النهار من الناحية الشرعية .

وظاهرة الفجر تدور مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها أمام الشمس , فتنتقل من منطقة الي أخري بانتظام حتي تمسح سطح الأرض كله بالتدريج , وهي ظاهرة تصاحب بقدر من الصفاء البيئي والنقاء لا تساويها فترة أخري من فترات اليوم في ذلك فتتميز بالنداوة , والرقة والهدوء , وبانعكاس ذلك كله علي مختلف أنواع الخلائق , وربما كان ذلك وغيره من مبررات هذا القسم الإلهي بالفجر , والله (تعالي) غني عن القسم لعباده , والمقصود من ورود الآية القرآنية بصيغة القسم هو تنبيهنا الي أهمية الأمر الذي جاء به القسم .

ويلي القسم بالفجر قسم ثان بـ (ليال عشر) وقد قيل فيها أنها الليالي العشر الأواخر من شهر رمضان , ومن ضمنها ليلة القدر التي وصفها الحق (تبارك وتعالي) بأنها

خير من ألف شهر , ويأتي في مقابلتها الأيام العشر الأوائل من شهر ذي الحجة , وفيها يوم عرفة الذي وصفه المصطفي (صلي الله عليه وسلم) بأنه أفضل يوم عند الله , ووصف العشر من ذي الحجة بأنه ما من أيام بأفضل منها عند الله .

ثم يأتي قسم ثالث بالشفع والوتر وفيه قيل أن المقصود بذلك الصلاة , ومنها الشفع كالصلاة الثنائية والرباعية , ومنها الوتر كالمغرب وختام الصلاة في آخر الليل .

ويلي ذلك قسم رابع بالليل إذا يسر وأصل السري هو السير بالليل , وإسناد ذلك إلي الليل قيل فيه أنه مجاز بمعني يسري فيه (وحذفت ياؤه في الآية الكريمة وصلا ووقفا) , وقيل أنه ليس بمجاز , وذلك لتعاقب كل من الليل والنهار علي سطح الأرض بفعل دوران الأرض حول محورها امام الشمس حتي يخرج نصفها المظلم من انطباق ظلمة السماء علي ظلمة الأرض وذلك بدخول طبقة نور النهار بينهما , وانتقال ظلمة ليل الأرض الي جزء آخر منها كان يعمه نور النهار , ولا يخفي علي عاقل فوائد تعاقب كل من الليل والنهار علي سطح الأرض , وعلي الحياة الأرضية .

وبعد القسم بهذه الآيات الخمس , وبما لها من قيمة في انتظام حركة الحياة تتساءل سورة الفجر : هل في ذلك قسم لذي حجر ؟

أي لذي لب وعقل وبصيرة ؟

وجواب القسم محذوف وتقديره : ليعذبن الله (تعالي) كل كافر ومشرك ومنكر للبعث , وكل مفسد في الأرض , وكل متجبر علي الخلق . . ودلالة ذلك هو سرعة الاستشهاد بمصارع عدد من الأمم البائدة من مثل أقوام عاد وثمود وفرعون , وقد أشارت الآيات إلي صفة لازمت كل أمة منهم , وألمحت إلي شيء من تجبرهم وطغيانهم وإفسادهم , وذكرت كيف صب الله (تعالي) علي كل منهم عذابه صبا , جزاء ما اقترفوه من آثام . . وأكدت أن الله (تعالي) قائم دوما بالمرصاد لكل متجبر علي الخلق وكل مفسد في الأرض وأن سنة الله واحدة في أخذ الطغاة المفسدين في كل زمان ومكان بأقسي أنواع العقاب , وأشد ألوان العذاب . . ! !

(184/814)

وبعد أن جمعت الآيات في سورة الفجر مصارع عدد من عتاة المفسدين في الأرض , وأكدت أن الله (تعالي) لهم ولأمثالهم دوما بالمرصاد , انتقلت بالحديث إلي شيء من طبائع النفس الإنسانية أمام قضية بسط الرزق وقبضه , وما فيها من ابتلاء للعباد , فالصالح يشكر النعمة , ويصبر علي المحنة , وغير ذلك تبطره النعمة التي يراها تكريما لشخصه , وتضجره المحنة التي يراها إهانة لكرامته , وترد الأيات بأن إنسانا هذا شأنه مخلوق أناني لا

يفكر إلا في ذاته , قد جبلت نفسه علي عدم الاكتراث بإكرام اليتيم , ولا بالتحاض علي اطعام المسكين , وبالنهم الشديد في اقتسام الميراث , وبالحب الجم للمال , ثم تذكر الآيات فورا بالآخرة وما فيها من أهوال حين تدك الأرض دكا دكا , كناية عن تدمير الكون كله , ثم بعثه وبعث كافة الخلائق فيعرضون امام ربهم (لا تخفي منهم خافية) والملائكة وقوف صفا صفا بين يدي الله (تعالي) ثم يؤتي بجهنم في هذا الموقف العصيب الذي يتقرر فيه مصير كل واحد من الخلق , وحينئذ يتذكر الانسان مافرط فيه من حياته الدنيا حين لايفيد التذكر بشيء , ويتمني لو أنه كان قد قدم شيئا لهذا الموقف الرهيب . . ! !

وتصف الآيات جانبا من عذاب الكفار والمشركين في ذلك اليوم العصيب الذي يقول فيه الحق (تبارك وتعالي) :

فيومئذ لايعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد

بينما يسمع نداء الحق (سبحانه وتعالي) علي كل نفس طيبة بقوله (عز من قائل) :

يا أيتها النفس المطمئنة * إرجعي إلي ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي وادخلي جنتي (الفجر : 27 . 30)

والإعجاز في سورة الفجر يشمل فيما يشمل القسم بخمس من آيات الله لم تكن أهميتها معروفة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده , بالإضافة إلي وصف شيء من دخائل النفس الإنسانية , ووصف عدد من المظاهر والأحداث المصاحبة للآخرة , وهي من

الغيوب المطلقة التي لا

سبيل أمام الإنسان لمعرفة شيء عنها إلا من خلال وحي السماء .

(185/814)

أما الأعجاز التاريخي في هذه السورة المباركة فهو أبلغ جوانب الإعجاز فيها لاشتماله علي ذكر ثلاثة من طواغيت التاريخ القديم هم قوم عاد , ومدينتهم إرم ذات العماد , وقوم ثمود الذين وصفتهم الآيات الكريمة بأنهم هم . . الذين جابوا الصخر بالواد , وفرعون ذي الأوتاد وهذه الأمم كانت قد بادت قبل بعثة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بمئات السنين , ولم تكن الامة العربية أمة تدوين وتوثيق , هذا فضلا عن بعد أراضي تلك الأمم البائدة عن مكة المكرمة بمئات بل بعشرات المئات من الكيلومترات في زمن لم تكن وسائل المواصلات ميسرة :

وذكر قوم عاد في القرآن الكريم يعتبر أكثر إنبائه بأخبار الأمم البائدة إعجازا , وذلك لأن هذه الأمة قد أبيدت إبادة كاملة بعاصفة رملية غير عادية . . طمرتهم وردمت اثارهم حتي أخفت كل أثر لهم من علي وجه الأرض , وبسبب ذلك أنكرت الغالبية العظمي من الأثريين والمؤرخين وجود قوم عاد , واعتبروا ذكرهم في القرآن الكريم من قبيل القصص

الرمزي لاستخلاص العبر والدروس , بل تطاول بعض الكتاب فاعتبروهم من الأساطير التي لا أصل لها في التاريخ , ثم جاءت الكشوف الأثرية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين بالكشف عن مدينة إرم وإثبات صدق القرآن الكريم في كل ما جاء به عن قوم عاد , وانطلاقا من ذلك فسوف أقصر حديثي هنا علي هذا الكشف الأثري المثير الذي سبق وأن سجلته سورة الفجر في الآيات (6 ـ 8) من قبل ألف وأربعمائة من السنين , وإن دل ذلك علي شيء فإنما يدل علي حقيقة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله , وحفظه لنا بنفس لغة وحيه التي أوحي بها (اللغة العربية) فظل محتفظا بصياغته الربانية , وإشراقاته النورانية , وبصدق كل حرف وكلمة وإشارة فيه .

وقبل البدء في الحديث عن إرم ذات

العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * لابد من استعراض سريع لقوم عاد في القرآن الكريم , ولشرح عدد من كبار المفسرين القدامي والمعاصرين لهذه الآيات القرآنية الثلاث .

قوم عاد في القرآن الكريم

جاء ذكر قوم عاد في سورتين من سور القرآن الكريم سميت إحداهما باسم نبيهم هود (عليه السلام) وسميت الأخري باسم موطنهم الأحقاف , وفي عشرات الآيات القرآنية الأخري التي تضمها ثماني عشرة سورة من سور القرآن الكريم جاء ذكرهم أيضا ونختار منها ما يلي :

(1) وإلي عاد أخاهم هودا قال يا قوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علي رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم مانزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بأياتنا وما كانوا مؤمنين *

(الأعراف :65-72) .

(2) كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا علي رب العالمين * أتبنون

بكل ريع أية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق

(187/814)

الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم *

(الشعراء :123-140) .

(3) فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود * إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون * فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزي وهم لا ينصرون *

(فصلت :13-16)

(4) واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون * فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغني عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون *

(الأحقاف :21-26) .

(5) كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر *

(القمر :18-22) .

(6) وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فتري القوم فيها صرعي كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل تري لهم من باقية *

(الحاقة :6-8)

(7) ألم

(188/814)

تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد *

(الفجر :6-8) .

وفي غير هذه الأيات جاء ذكر قوم عاد في كل من سورة التوبة (70),(هود :50-60),

إبراهيم (9), الحج (42), ص (12), غافر (31), ق (13), الذاريات (41),

الفرقان (38), العنكبوت (38), والنجم (50) .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * ت

(الفجر :6-8)

* ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه :(ألم تر كيف فعل ربك بعاد) ؟ وهؤلاء كانوا

متمردين عتاة جبارين , خارجين عن طاعته مكذبين لرسله , فذكر تعالي كيف أهلكهم

ودمرهم , وجعلهم أحاديث وعبرا فقال :(ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد)

؟ وهؤلاء (عادا الأولى) وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا عليه السلام فكذبوه

وخالفوه , فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم (بريح صرصر عاتية) ,

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن , ليعتبر بمصرعهم المؤمنون , فقوله تعالى :(إرم ذات العماد)

عطف بيان زيادة تعريف بهم , وقوله تعالى :(ذات العماد) لأنهم كانوا يسكنون بيوت

الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد , وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ,

ولهذا ذكرهم (هود) بتلك النعمة , وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي

خلقهم فقال :(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا

آلاء الله لعلكم تفلحون)

وقال تعالى :(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا

أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) وقال ههنا :(التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي القبيلة

التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم , وقال مجاهد : إرم أمة قديمة

يعني عادا الأولى , قال قتادة والسدي : إن

إرم بيت مملكة عاد , وكانوا أهل عمد لا يقيمون , وقال ابن عباس : إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم , واختار الأول ابن جرير , وقوله تعالي :(التي لم يخلق مثلها في البلاد) الضمير يعود علي القبيلة , أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم , ... , وسواء كانت العماد أبنية بنوها , أو أعمدة بيوتهم للبدو , أو سلاحهم يقاتلون به , أو طول الواحد منهم , فهم قبيلة وأمة من الأمم , وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع , المقرونون بثمود كما ههنا , والله أعلم . . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه :(ألم تر) ألم تعلم يا محمد (كيف فعل ربك بعاد) قوم هود عليه السلام . (إرم) هي : عاد الأولي , فإرم عطف بيان أو : بدل , ومنع الصرف للعلمية والتأنيث (ذات العماد) أي : ذات الأبنية المرفوعة علي العمد , أو البناء المرتفع , ففي الصحاح والعماد : الأبنية المرتفعة , وقيل : ذات الطول . . . (التي لم يخلق مثلها في البلاد) في بطشهم وقوتهم . .

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه : . . . . . (عاد إرم) وهي عاد الأولي , وقيل : انها من العرب العاربة أو البائدة , وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال في جنوب الجزيرة بين حضرموت واليمن , وكانوا بدوا ذوي خيام تقوم علي عماد , وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش , فقد كانت قبيلة عاد هي أقوي قبيلة في وقتها وأميزها (التي لم يخلق مثلها في البلاد) في ذلك الأوان . .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) مانصه : . . . . . وعاد هو : عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام , سمي أولاده باسمه . . . . وقيل لأوائلهم - وهم الذين أرسل اليهم هود عليه السلام - عاد الأولي تسمية لهم باسم أبيهم , وإرم تسمية لهم باسم جدهم . . . وقيل لمن بعدهم عاد

(190/814)

الآخرة , و (إرم) بدل أو عطف بيان لـ (عاد) . . . . وقيل : إن (إرم) قبيلة من (عاد) وهي بيت ملكهم , فهي بدل من (عاد) , بدل بعض من كل . (ذات العماد) صفة لقبيلة (إرم) أي ذات الأعمدة التي ترفع عليها بيوت الشعر , إذ كانوا أهل خيام وعمد ينتجعون الغيوث ويطلبون الكلأ حيث كان , ثم يعودون الي منازلهم , وقيل : ذات الرفعة والعزة , (لم يخلق مثلها . .) صفة اخري لها , أي لم يخلق في بلادهم مثلها في الأيد والشدة وعظم الأجسام . . . .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم جزي الله كاتبيه خيرا مانصه : ألم تعلم كيف انزل ربك عقابه بعاد قوم هود , أهل إرم ذات البناء الرفيع , التي لم يخلق مثلها في البلاد متانة وضخامة بناء . . .

* وذكر صاحب صفوة التفاسير (جزاه الله خيرا) مانصه : . . . . أي ألم يبلغك يا محمد ويصل الي علمك ماذا فعل الله بعاد قوم هود ؟ (إرم ذات العماد) أي عادا الأولي أهل إرم ذات البناء الرفيع , الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضرموت (التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم , وشدتهم , وضخامة اجسامهم . . . .

ارم ذات العماد في التراث الاسلامي

في تفسير ماجاء عن (قوم عاد) في القرآن الكريم نشطت أعداد من المفسرين والجغرافيين والمؤرخين وعلماء الأنساب المسلمين , من أمثال الطبري , والسيوطي , والقزويني والهمداني وياقوت الحموي , والمسعودي في الكشف عن حقيقة هؤلاء القوم فذكروا أنهم كانوا من (العرب البائدة) وهو تعبير يضم كثيرا من الأمم التي اندثرت قبل بعثة المصطفي (صلي الله عليه وسلم بمئات السنين , ومنهم قوم عاد , وثمود , والوبر وغيرهم كثير , وعلموا من آيات القرآن الكريم ان مساكن قوم عاد كانت بالأحقاف (جمع حقف أي : الرمل المائل) , وهي جزء من جنوب شرقي الربع الخالي بين حضرموت جنوبا ,

ومعظم الربع الخالي شمالا , وعمان شرقا , كما علموا من القرآن الكريم ان نبيهم كان سيدنا هود (عليه السلام) , وأنه بعد هلاك الكافرين من قومه سكن نبي الله هود أرض حضرموت حتي مات ودفن فيها قرب (وادي برهوت) الي الشرق من مدينة تريم .

أما عن (إرم ذات العماد) فقد ذكر كل من الهمداني (المتوفي سنة 334 هـ /946م) وياقوت الحموي (المتوفي سنة 627 هـ /1229 م) أنها كانت من بناء شداد بن عاد واندرست (أي : طمرت بالرمال) فهي لاتعرف الآن , وإن ثارت من حولها الأساطير .

الكشف الحديث عن إرم ذات العماد

* في سنة 1984 م زود احد مكوكات الفضاء بجهاز رادار له القدرة علي اختراق التربة الجافة الي عمق عدة أمتار يعرف باسم جهاز رادار اختراق سطح الأرض

GroundPenetratingRadarOrGPR

فكشف عن العديد من المجاري المائية الجافة مدفونة تحت رمال الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غربا الي أواسط آسيا شرقا .

وبمجرد نشر نتائج تحليل الصور المأخوذة بواسطة هذا الجهاز تقدم احد هواة دراسة الآثار الأمريكان واسمه نيكولاس كلاب

NicholssClapp

إلي مؤسسة بحوث الفضاء الأمريكية المعروفة باسم ناسا

(NASA)

بطلب للصور التي أخذت بتلك الواسطة لجنوب الجزيرة العربية , وبدراستها اتضح وجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية الي عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التي تملأ حوض الربع الخالي , وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة التي يزيد قطر بعضها عن عدة كيلو مترات .

وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار , فلجأوا الي الكتابات القديمة الموجودة في إحدي المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا وتعرف باسم مكتبة هنتنجتون HuntingtonLibrary,

وإلي عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم وفي مقدمتهم الأمريكي

جوريس زارينز

JurisZarins

والبريطاني رانولف فينيس

RanulphFiennes

وبعد

دراسة مستفيضة أجمعوا علي أنها هي آثار عاصمة ملك عاد التي ذكر القرآن الكريم ان اسمها (ارم) كما جاء في سورة الفجر , والتي قدر عمرها بالفترة من 3000 ق . م . الي ان نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية . وعلي الفور قام معمل الدفع النفاث بكاليفورنيا (معهد كاليفورنيا للتقنية)

(TheJetPropulsionLaboratories,

CaliforniaInstituteofTechnology,J.P.L)

باعداد تقرير مطول يضم نتائج الدراسة , ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية الي التبرع بسخاء للكشف عن تلك الآثار التي تملأ فراغا في تاريخ البشرية , وكان عنوان التقرير هو : البعثة عبر الجزيرة

TheTrans-ArabiaExpedition

وتحت العنوان مباشرة جاءت الآيتان الكريمتان رقما 8,7 من سورة الفجر , وقد أرسل الي التقرير لدراسته , وقد قمت بذلك فعلا وقدمت رأيي فيه كتابة الي المسئولين بالمملكة العربية السعودية ,

وقد ذكر التقرير ان اثنين من العلماء القدامي قد سبق لهما زيارة مملكة عاد في أواخر حكمها , وكانت المنطقة لاتزال عامرة بحضارة زاهرة , والأنهار فيها متدفقة بالماء , والبحيرات زاخرة بالحياة , والأرض مكسوة بالخضرة , وقوم عاد مستكبرون في الأرض ,

ويشكلون الحضارة السائدة فيها , وذلك قبل ان يهلكهم الله (تعالي) مباشرة , وكان احد هؤلاء هو بليني الكبير من علماء الحضارة الرومانية (والذي عاش في الفترة من 23 م الي 79 م) , والآخر كان هو الفلكي والجغرافي بطليموس الاسكندري الذي كان أمينا لمكتبة الاسكندرية . وعاش في الفترة من 100 م الي 170 م تقريبا) , وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة , وطرقاتها المتشعبة والتي تلتقي حول منطقة واسعة سماها باسم (سوق عمان) .

ووصف بليني الكبير حضارة عاد الأولي بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخري علي وجه الأرض , وذلك في ثرائها , ووفرة خيراتها , وقوتها , حيث كانت علي

مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة وبلاد الشام وأوروبا من جهة أخري , والتي كانت تصدر اليها البخور والعطور والأخشاب , والفواكه المجففة , والذهب , والحرير وغيرها .

وقد علق كثير من المتأخرين علي كتابات كل من بليني الكبير وبطليموس الاسكندري بأنها ضرب من الخرافات والأساطير , كما يتشكك فيها بعض مدعي العلم في زماننا ممن لم

يستطيعوا تصور الربع الخالي , وهو من أكثر أجزاء الأرض قحولة وجفافا اليوم , مليئا في يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران , ولكن صور المكوك الفضائي جاءت مطابقة لخريطة بطليموس الاسكندري , ومؤكدة ماقد كتبه من قبل كل منه ومن بليني الكبير كما جاء في تقرير معهد الدفع النفاث .

إرهاصات قبل الكشف عن إرم

* في سنة 1975 م تم اكتشاف آثار لمدينة قديمة في شمال غربي سوريا باسم مدينة (إبلا)

(Ebla)

تم تحديد تاريخها بحوالي 4500 سنة مضت , وفي بقايا مكتبة قصر الحكم في هذه المدينة القديمة وجدت مجموعة كبيرة من الألواح الصلصالية (حوالي 15,000 لوح) تحمل كتابات بإحدي اللغات القديمة التي تم معرفة مفاتيحها وتمت قراءتها .

* في عددها الصادر بتاريخ ديسمبر 1978 م نشرت المجلة الجغرافية الأهلية

(NationalGeographicMagazine)

مقالا بعنوان

Ebla:Splendorofanunknown'

Empire'(vol.154,no6,pp731.-759)

لكاتب باسم

(HowardlaFay)

جاءت فيه الإشارة إلي أن من الأسماء التي وجدت علي ألواح مدينة إبلا الإسم إرم علي أنه اسم لمدينة غير معروفة جاء ذكره في السورة رقم 89 من القرآن الكريم .

* بعد ذلك بعام واحد (أي في سنة 1979 م) نشر اثنان من غلاة الصهاينة هما : حاييم برمانت وميخائيل ويتزمان

(ChaimBermantandMichaelWetzman)

كتابا بعنوان :

(Ebla–ARevelationInArchaeology)

ذكرا فيه أسماء ثلاثة وجدت مكتوبة علي ألواح الصلصال المكتشفة في (إبلا) هي :

(194/814)

شاموتو (أو ثمود) , و (عاد) , و (إرم) وذكرا أن هذه الأسماء الثلاثة ذكرت في السورة رقم 89 من القرآن الكريم .

وأضاف هذان الصهيونيان أن (ثمود) اسم قبيلة ذكرها سارجون الثاني

(SargonII)

في القرن الثامن قبل الميلاد , بينما الإسم (إرم) قد اختلف فيه فمن المؤرخين من اعتبره اسما لإحدي القبائل , ومنهم من اعتبره اسما لمكان , أما عن الاسم الثالث (عاد) فقد اعتبراه اسما اسطوريا , وهذا من قبيل تزييف التاريخ الذي برع فيه الصهاينة منذ القدم , وقد سبقهم في ذلك جيش من مزيفي تاريخ الجزيرة العربية علي رأسهم

ThomasBertram

الذي نشر في الثلاثينيات من القرن العشرين كلاما مشابها .

* في يوليو سنة 1990 م تشكل فريق من البحاث في وكالة الفضاء الأمريكية

(NASA)

برئاسة

(CharlesElachi)

ومن معهد الدفع النفاث

(J.P.L)

برئاسة

(RonaldBlom)

للبحث عن (إرم ذات العماد) تحت رعاية وتشجيع عدد من الأسماء البارزة منها :

)

ArmandHammar,SirRanulphFiennes,GeorgeHedge

s)

ولكن البحث تأجل بسبب حرب الخليج .

بعد الكشف عن إرم

* في يناير سنة 1991 م بدأت عمليات الكشف عن الاثار في المنطقة التي حددتها الصور الفضائية واسمها الحالي الشيصار واستمر إلي مطلع سنة 1998 م وأعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سميكة الجدران بأبراج في زواياها مقامة علي أعمدة ضخمة يصل إرتفاعها إلي 9 أمتار وقطرها إلي 3 أمتار ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم .

* في 17/2/1992 م نشر في مجلة تايم

(Time)

الأمريكية مقال بعنوان

(Arabia ص sLostSandCastleByRichardOstling)

ذكر فيه الكشف عن إرم .

* بتاريخ 10/4/1992 م كتبت مقالا بعنوان اكتشاف مدينة إرم ذات العماد نشر

بجريدة الأهرام القاهرية لخصت فيه ما وصلني من أخبار ذلك الكشف حتي تاريخه .

* في سنة 1993 م نشر بيل هاريس كتابه

المعنون

(BillHarris:LostCivilizations)

* بتاريخ 23/4/1998 م نشر

(NicholasClapp)

(195/814)

كتابه المعنون

:TheRoadtoUbar

* بتاريخ 14/6/1999 م نشر بيكوإير

(Picolyer)

كتابه المعنون

(FallingoffTheMap:SomeLonelyPlacesinTheWorld)

وتوالت الكتب والنشرات والمواقع علي شبكة المعلومات الدولية منذ ذلك التاريخ , ولكن

تكتم القائمون علي الكشف نشر مزيد من أخباره حتي يتمكنوا من تزييفه وإلحاقه بأساطير اليهود كما فعلوا من قبل في لفائف البحر الميت وآثار (إبلا) وغيرها من المواقع , ولكن كل مانشر - علي قلته - يؤكد صدق ماجاء بالقرآن الكريم عن قوم عاد بأنهم :

(1) كانوا في نعمة من الله عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها ووصف بليني الكبير لتلك الحضارة بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخري كأنه ترجمة لمنطوق الآية الكريمة (التي لم يخلق مثلها في البلاد) .

(2) أن هذه الحضارة قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية وهو ماسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه .

(3) أن هناك محاولات مستميتة من اليهود لتزييف تاريخ تلك المنطقة ونسبة كل حضارة تكتشف فيها إلي تاريخهم المزيف , ولذلك كان هذا التكتم الشديد علي نتائج الكشف حتي يفاجئوا العالم بما قد زيفوه , ومن ذلك محاولة تغيير اسم (إرم) إلي اسم عبري هو أوبار (Ubar) .

هذه قصة (إرم ذات العماد) مدينة قوم عاد , التي جاءت الكشوف الأثرية الحديثة بإثبات ماذكر عنها في القرآن الكريم . وإن كان نفر من الأقدمين قد حاول إنكار ذلك تطاولا علي الله وكتابه , فإن نفرا من المحدثين قد حاول إنكاره تطاولا علي العلم وأهله في زمن يتكلم فيه الرويبضة كما أخبرنا رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويبقي ماجاء في القرآن الكريم من ذكر لقوم عاد ولمدينتهم (إرم ذات العماد) , ولما أصابها وأصابهم من دمار بعاصفة رملية غير عادية صورة من صور

(196/814)

الإعجاز التاريخي في كتاب الله تشهد له بصفائه الرباني , وإشراقاته النورانية , وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , فالحمد لله علي نعمة القرآن , والحمد لله علي نعمة الإسلام , والصلاة والسلام علي الرسول الخاتم الذي تلقاه وجاهد في سبيله حتي أتاه اليقين , وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(197/814)

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا

تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه أن عادة هؤلاء الفرق كانت الطغيان ، وذكر أن عادة الرب سبحانه فيمن تولى وكفر أنه يعذبه كما هدد به آخر تلك ، ودل على ذلك بما شوهد في الأمم ، وعلل ذلك بأنه لا يغفل ، ذكر عادة الإنسان من حيث هو من غير تقييد بهؤلاء الفرق عن الابتلاء في حالي السراء والضراء ، فقال مشيراً إلى جواب ما كانت الكفار تقوله من أنهم آثر عند الله من المسلمين لا يساعد عليهم في الدنيا وتقلل الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م من الدنيا مسبباً عما مضى عطفاً على ما تقديره : هذه كانت عادة هؤلاء الأمم وعادة الله فيهم : ﴿ فأما الإنسان ﴾ أي الذي أودع الحجر ليعقل هذه الأقسام وما يراد منه من اعتقاد المقسم عليه بها وجبل على النسيان والأنس بنفسه والمحبة لها والرضى عنها .

ولما كان المقصود التعريف بحاله عند الابتداء ، قدم الظرف الدال على ذلك على الخبر فقال : ﴿ إذا ﴾ وأكد الأمر بالنافي فقال ﴿ ما ابتلاه ﴾ أي عامله معاملة المختبر بأن خالطه بما أراد مخالطة تميله وتحيله ﴿ ربه ﴾ أي الذي أبدعه وأحسن إليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره أو كفره ﴿ فأكرمه ﴾ أي بأن جعله عزيزاً بين الناس وأعطاه ما

يكرمونه به من الجاه والمال ﴿ ونعمه ﴾ أي بأن جعله متلذذاً مترفاً بما أعطاه غير تعبان - بسببه ﴿ فيقول ﴾ سروراً بذلك وافتخاراً : ﴿ ربي ﴾ أي الموجد لي والمدبر لأمري ﴿ أكرمن ﴾ أي فيظن أن ذلك عن استحقاق فيرتفع به ﴿ وأما ﴾ هو ﴿ إذا ﴾ وأكد على نمط الأول فقال : ﴿ ما ابتلاه ﴾ أي ربه ليظهر صبره أو جزعه .

(198/814)

ولما كان قوله في الأول " فأكرمه ونعمه " كناية عن " فوسع عليه " قابله هنا بقوله : ﴿ فقدر ﴾ أي ضيق تضييق من يعمل الأمر بحساب وتقدير ﴿ عليه رزقه ﴾ فهو كناية عن الضيق كما أن العطاء بغير حساب كناية عن السعة ، فجعله بمقدار ضرورته الذي لا يعيش عادة بدونه ، ولم يجعله فيه فضلاً عن ذلك ولم يقل " فأهانه " موضع " قدر عليه " تعليماً للأدب معه سبحانه وتعالى وصوناً لأهل الله عن هذه العبارة لأن أكثرهم مضيق عليه في دنياه ، ولأن ترك الإكرام لا ينحصر في كونه إهانة ﴿ فيقول ﴾ أي الإنسان بسبب الضيق : ﴿ ربي ﴾ أي المربي لي ﴿ أهانن ﴾ فيهتم لذلك ويضيق به ذرعاً ، ويكون ذلك أكبر همه .

ولما كان نسبة هذا إليه توبيخاً وتقريعاً لقصور نظره فإن الإقتار قد يؤدي إلى سعادة الدارين

، والتوسعة قد تؤدي إلى شقاوتهما ، وهذا أكثر ما يوجد ، قال ردعاً عن مثل هذا القول بأعظم أدوات الزجر معللاً للتوسعة والإقتار : ﴿كلا﴾ أي إني لا أكرم بتكثير الدنيا ولا أهين بتقليلها ، لا التوسعة منحصرة في الإكرام ولا التضييق منحصر في الإهانة والصغار ، وإنما أتتهم الإهانة من حيث إنهم لا يطيعون الله ، وربما كان بالتوسعة ، وربما كانت بالإقتار ، فربما عصى فوسع عليه إهانة له ، وهذا لمن يريد سبحانه به الشقاء فيعجل له طيباته في الدنيا استدراجاً ، وربما عصى فضيق عليه إكراماً له لأن ذلك يكفر عنه ، وفي الصحيح في حديث أقرع وأبرص وأعمى في بني إسرائيل شاهد عظيم لذلك .

(199/814)

ولما زجر عن اعتقاد أن التوسعة للاكرام والتضييق للاهانة ، ذكر أن معيار من جبل على حب الطاعة ومن جبل على حب المعصية بغض الدنيا وحبها ، فقال معرباً عن كلام الإنسان في الشقين وأفرد أولاً لأنه أنص على التعميم وجمع ثانياً إعلاماً بأن المراد الجنس ﴿بل﴾ أي يستهينون بأمر الله بما عندهم من العصيان ، فيوسع على بعض من جبل على الشقاء إهانة له بالاستدراج ويضيق على بعض من لم يجبل على ذلك إكراماً له وردعاً عن اتباع الهوى ورداً إلى الإحسان إلى الضعفاء ، وترجم هذا العصيان الذي هو سبب

الخذلان بقوله : ﴿ لا يكرمون ﴾ أي أكثر الناس ﴿ اليتيم ﴾ بالإعطاء ونحوه شفقة عليه ورحمة له لأنه ضعيف لا يرجى من قبله نفع بثناء ولا غيره .

ولما كان الإنسان لا يمنعه من حث غره على الخير إلا حب الدنيا إن كان المحثوث أعظم منه فيدخره لحوائجه وإن كان مثله فإنه يخشى أن يقارضه بذلك فيحثه على مسكين آخر ، وكان الإحسان بالحث على الإعطاء أعظم من الإعطاء لأنه يلزم منه الإعطاء بخلاف العكس ، قال : ﴿ ولا يحضون ﴾ أي يحثون حثاً عظيماً لأهلهم ولا لغيرهم ﴿ على طعام المسكين ﴾ أي بذله له سخاء وجوداً ، فكانت إضافته إليه إشارة إلى أنه شريك للغني في ماله بقدر الزكاة .

ولما دل على حب الدنيا بأمر خارجي ، دل عليه بأمر في الإنسان فقال تعالى :

﴿ ويأكلون ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار ﴿ التراث ﴾ أي الميراث ، أصله وراث أبدلت الواو تاء ، وكأنه عبر عنه به دلالة على أخذ الظاهر الذي تشير إليه الواو ، والتفتيش عن الباطن المشار إليه بمخرج التاء تفتيشاً ربما أدى إلى أخذ بعض مال الغير : ﴿ أكلاً لمّاً ﴾ أي ذا لمٍّ أي جمع وخلط بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يؤرثون النساء ولا الصبيان ويأكلون ما جمعه المؤرث وإن كانوا يعلمون أنه حرام ويقولون : لا يستحق المال إلا من يقاتل ويحمي الحوزة .

ولما كان ذلك قد يفعل عن ضرورة مع الكراهة قال ما هو صريح في المقصود :

﴿ ويحبون ﴾ أي على سبيل الاستمرار ﴿ المال ﴾ أي هذا النوع من أي شيء كان ، وأكده بالمصدر والوصف فقال : ﴿ حباً جماً ﴾ أي كثيراً مع حرص وشره ، فصار قصارى أمرهم النظر الدنيوي ، ولم يصرفوا أنفسهم عن حبه إلى ما دعا إليه العقل الذي يعقل النفس عن الهوى ، والحجر الذي يحجرها عن الحظوظ ، والنهية التي تنهاها عن الشهوات إلى الإقبال على الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 418 .

420 ﴾

(201/814)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) ﴾

(202/814)

اعلم أن قوله : ﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾ متعلق بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] كأنه قيل : إنه تعالى لبالمرصاد في الآخرة ، فلا يريد إلا السعي للآخرة فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها ، فإن وجد الراحة في الدنيا يقول : ربي أكرمني ، وإن لم يجد هذه الراحة يقول : ربي أهانني ، ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ [الروم : 7] وقال : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ ﴾ [الحج : 11] وهذا خطأ من وجوه أحدها : أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر ، فالمتنعم في الدنيا لو كان شقياً في الآخرة فذاك التنعم ليس بسعادة ، والمتألم المحتاج في الدنيا لو كان سعيداً في الآخرة فذاك ليس بإهانة ولا شقاوة ، إذ المتنعم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالسعادة والكرامة ، والمتألم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالشقاوة والهوان وثانيها : أن حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لا يدل على الاستحقاق فإنه تعالى كثيراً ما يوسع على العصاة والكفرة ، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإما يحكم المصلحة ، وإما على سبيل الاستدراج والمكر ، وقد يضيق على الصديقين لأضداد ما ذكرنا ، فلا ينبغي للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة وثالثها : أن المتنعم لا ينبغي أن يغفل عن العاقبة ، فالأمور بخواتيمها ،

والفقير والمحتاج لا ينبغي أن يغفل عما لله عليه من النعم التي لا حد لها من سلامة البدن والعقل والدين ودفع الآفات والآلام التي لا حد لها ولا حصر ، فلا ينبغي أن يقضي على نفسه بالإهانة مطلقاً ورابعها : أن النفس قد ألفت هذه المحسوسات ، فمتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها

(203/814)

الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها ، أما إذا لم يحصل للإنسان شيء من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم أبت إلى الله ، واشتغلت بعبودية الله فكان وجدان الدنيا سبباً للحرمان من الله ، فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والإهانة عند عدم الدنيا ، مع أن ذلك أعظم الوسائل إلى أعظم السعادات وخامسها : أن كثرة الممارسة سبب لتأكد المحبة ، وتأكد المحبة سبب لتأكد الألم عند الفراق ، فكل من كان وجدانه للدنيا أكثر وأدوم كانت محبته لها أشد ، فكان تألمه بمفارقتها عند الموت أشد ، والذي بالضد فبالضد ، فإذن حصول لذات الدنيا سبب للألم الشديد بعد الموت ، وعدم حصولها سبب للسعادة الشديدة بعد الموت ، فكيف يقال : إن وجدان الدنيا سعادة وفقدانها شقاوة ؟ .

واعلم أن هذه الوجوه إنما تصح مع القول بإثبات البعث روحانياً كان أو جسمانياً ، فأما من

ينكر البعث من جميع الوجوه فلا يستقيم على قوله شيء من هذه الوجوه ، بل يلزمه القطع بأن وجدان الدنيا هو السعادة وفقدانها هو الشقاوة ، ولكن فيه دقيقة أخرى وهي أنه ربما كان وجدان الدنيا الكثيرة سبباً للقتل والنهب والوقوع في أنواع العذاب ، فربما كان الحرمان سبباً لبقاء السلامة ، فعلى هذا التقدير لا يجوز أيضاً لمنكر البعث من جميع الوجوه أن يقضي على صاحب الدنيا بالسعادة ، وعلى فاقدها بالهوان ، فربما ينكشف له أن الحال بعد ذلك بالضد ، وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : قوله : ﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾ المراد منه شخصين معين أو الجنس ؟ الجواب : فيه قولان : الأول : أن المراد منه شخصين معين ، فروي عن ابن عباس أنه عتبة بن ربيعة ، وأبو حذيفة بن المغيرة ، وقال الكلبي : هو أبي بن خلف ، وقال مقاتل : نزلت في أمية بن خلف والقول الثاني : أن المراد من كان موصوفاً بهذا الوصف وهو الكافر الجاحد ليوم الجزاء .

(204/814)

السؤال الثاني : كيف سمي بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؟ الجواب : لأن كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ، وإذا قدر عليه فقد اختبر

حاله أيصبر أم يجزع ، فالحكمة فيهما واحدة ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] .

السؤال الثالث : لما قال : ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ فقد صحح أنه أكرمه .

وأثبت ذلك ثم إنه لما حكى عنه أنه قال : ﴿ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ ذمه عليه فكيف الجمع بينهما ؟ والجواب : لأن كلمة الإنكار هي قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ فلم لا يجوز أن يقال : إنها مختصة بقوله : ﴿ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ سلمنا أن الإنكار عائد إليهما معاً ولكن فيه وجوه ثلاثة أحدها : أنه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الإكرام الثاني : أن نعم الله تعالى كانت حاصلة قبل وجدان المال ، وهي نعمة سلامة البدن والعقل والدين ، فلما لم يعترف بالنعمة إلا عند وجدان المال ، علمنا أنه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله ، بل التصلف بالدنيا والتكثر بالأموال والأولاد الثالث : أن تصلفه بنعمة الدنيا وإعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكراً للبعث ، فلا جرم استحق الذم على ما حكى الله تعالى ذلك ، فقال :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ أَكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ [الكهف : 35 - 37] .

السؤال الرابع لم قال في القسم الأول : ﴿ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ﴾ وفي القسم الثاني : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ فذكر الأول بالفاء والثاني بالواو ؟ والجواب : لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام ، فالفاء تدل

على كثرة ذلك القسم وقبله الثاني على ما قال :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : 18] .

(205/814)

السؤال الخامس : لما قال في القسم الأول : ﴿ فَأَكْرَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ يجب أن يقول في القسم الثاني : فأهانه فيقول : ﴿ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ لكنه لم يقل ذلك والجواب : لأنه في قوله : ﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ صادق وفي قوله : ﴿ أَهَانَنِ ﴾ غير صادق فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة ، وهذا جهل واعتقاد فاسد ، فكيف يحكي الله سبحانه ذلك عنه .

السؤال السادس : ما معنى قوله : فقدر عليه رزقه ؟ الجواب : ضيق عليه بأن جعله على مقدار البلغة ، وقرىء فقدر على التخفيف وبالتشديد أي قتر ، وأكرمن وأهانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الياء في الدرج مكتفياً منها بالكسرة .

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17)

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الشبهة قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع للإنسان عن تلك المقالة ، قال ابن عباس : المعنى لم ابتله بالغنى لكرامته علي ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي ، بل ذلك إما على مذهب أهل السنة ، فمن محض القضاء أو القدر والمشيئة ، والحكم الذي

تنزه عن التعليل بالعلل ، وإما على مذهب المعتزلة فبسبب مصالح خفية لا يطلع عليها إلا هو ، فقد يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويقتر على المؤمن لا لهوانه ، ثم إنه تعالى لما حكى من أقوالهم تلك الشبهة فكأنه قال : بل لهم فعل هو شر من هذا القول ، وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم ، فقال : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو : ﴿ يكرمون ﴾ وما بعده بالياء المنقوطة من تحت ، وذلك أنه لما تقدم ذكر الإنسان ، وكان يراد به الجنس والكثرة ، وهو على لفظة الغيبة حمل يكرمون ويحبون عليه ، ومن قرأ بالتاء فالتقدير قل لهم يا محمد ذلك .

المسألة الثانية :

قال مقاتل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف ، فكان يدفعه عن حقه .

(206/814)

واعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه أحدها : ترك بره ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ والثاني : دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله ،

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً ﴾ والثالث : أخذ ماله منه وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ أي تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم ، أما قوله : ﴿ ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ قال مقاتل : ولا تطعمون مسكيناً ، والمعنى لا تأمرون بإطعامه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم * وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ [الحاقة : 34 33] ومن قرأ ولا تحاضون أراد تتحاضون فحذف تاء تتفاعلون ، والمعنى : لا يحض بعضكم بعضاً وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ ﴾ بضم التاء من المحاضة .

أما قوله : ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قالوا : أصل التراث وراث ، والتاء تبدل من الواو المضمومة نحو تجاه ووجاه من واجهت .

المسألة الثانية :

قال الليث : اللم الجمع الشديد ، ومنه كتيبة ملمومة وحجر ملموم ، والآكل يلم الثريد فيجعله لقماً ثم يأكله ويقال لممت ما على الخوان ألمه أي أكلته أجمع ، فمعنى اللم في اللغة

الجمع ، وأما التفسير ففيه وجوه أحدها : قال الواحدي والمفسرون : يقولون في قوله : ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أي شديداً وهو حل معنى وليس بتفسير ، وتفسيره أن اللم مصدر جعل نعتاً للأكل ، والمراد به الفاعل أي آكلاً لامّاً أي جائعاً كأنهم يستوعبونه بالأكل ، قال الزجاج : كانوا يأكلون أموال اليتامى إسرافاً وبداراً ، فقال الله : ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أي تراث اليتامى لماً أي تلمون جميعه ، وقال الحسن : أي يأكلون نصيبهم ونصيب صاحبهم ، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم وثانيها : أن المال الذي يبقى من الميت بعضه حلال ، وبعضه شبهة وبعضه حرام ، فالوارث يلم الكل أي يضم البعض إلى البعض ويأخذ الكل ويأكله وثالثها : قال صاحب "الكشاف" : ويجوز أن يكون الذم متوجهاً إلى الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً لماً واسعاً ، جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ، كما يفعله الوراث البطالون .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ فاعلم أن الجم هو الكثرة يقال : جم الشيء يجم جموماً يقال ذلك في المال وغيره فهو شيء جم وجام وقال أبو عمرو جم يجم أي يكثر ، والمعنى : ويحبون المال حباً كثيراً شديداً ، فبين أن حرصهم على الدنيا فقط وأنهم عادلون عن أمر الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 154 . 157 ﴾

(208/814)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾

يعني الكافر .

قال ابن عباس : يريد عُتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة .

وقيل : أُمية بن خلف .

وقيل : أبيّ بن خلف .

﴿ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ ﴾ أي امتحنه واختبره بالنعمة .

و"ما" : زائدة صلة .

﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالمال .

﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ بما أوسع عليه .

﴿ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده .

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه ﴾ أي امتحنه بالفقر واختبره .

﴿ فَقَدَرَ ﴾ أي ضيق ﴿ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ على مقدار البُلْغة .

﴿ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ ﴾ أي أولاني هوانا .

وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث : وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا

وقِلته .

فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه ، المؤدّي إلى حظ الآخرة ، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمِده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر .

وكثير من المسلمين يظنّ أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحقَّ هذا لم يعطنيه الله .

وكذا إن قتَّر عليه يظنّ أن ذلك لهوانه على الله .

وقراءة العامة "فقَدَر" مخففة الدال .

وقرأ ابن عامر مشدّداً ، وهما لغتان .

والاختيار التخفيف ؛ لقوله : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] .

قال أبو عمرو : و"قُدِر" أي قُتِّر .

و"قُدّر" مشدّداً : هو أن يعطيه ما يكفيه ، ولو فعل به ذلك ما قال "ربّي أهانن" .

وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو "ربّيَ" بفتح الياء في الموضعين .

وأسكن الباقون .

وأثبت البَزّي وابن مُحَيصِن ويعقوب الياء من "أكرمنِ" ، و"أهانن" في الحالين ؛ لأنها اسم فلا تحذف .

وأثبتها المدِنيون في الوصل دون الوقف ، اتباعاً للمصحف .

وخير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها ؛ لأنها رأس آية ، وحذفها في الوقف لخط المصحف .

الباقون بحذفها ، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء ، والسنة ألا يخالف خط المصحف ؛ لأنه إجماع الصحابة .

(209/814)

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردّ ؛ أي ليس الأمر كما يُظَنّ ، فليس الغِنى لفضله ، ولا الفقر لهوانه ، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي .

وقال الفراء : "كَلاّ" في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمدُ الله عز وجل على الغنى والفقر .

وفي الحديث : " يقول الله عز وجل : كلا إني لا أُكرِم من أكرمت بكثرة الدنيا ، ولا أُهِين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي ، وأهين من أهنت بمعصيتي " قوله تعالى : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث ، وأكل ماله إسْرافاً وبِدَاراً أَنْ يَكْبُروا .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب "يُكْرِمون" ، و"يَحُضُّون" و"يأكلون" ، و"يُحِبُّونَ" بالياء ؛ لأنه تقدّم ذكر الإنسان ، والمراد به الجنس ، فعبر عنه بلفظ الجمع .

الباقون بالتاء في الأربعة ، على الخطاب والمواجهة ؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه ، وأكل ماله كما ذكرنا .

قال مقاتل : نزلت في قُدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أُمية بن خَلَف .

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم .

وقرأ الكوفيون "ولا تَحَاضُّونَ" بفتح التاء والحاء والألف .

أي يَحُضُّ بعضهم بعضاً .

وأصله تتحاضُّون ، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها .

وهو اختيار أبي عُبيد .

ورُوِي عن إبراهيمَ والشَّيْزَرِيّ عن الكسائي والسُّلَمِيّ "تُحَاضُّون" بضم التاء ، وهو تُفاعِلون من الحضّ ، وهو الحث .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ أي ميراث اليتامى .

وأصله الوُراث من ورِثت ، فأبدلوا الواو تاء ؛ كما قالوا في تُجاه وتُخمَة وتُكأَة وتُؤَدة ونحو ذلك .

وقد تقدّم .

﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أي شديداً ؛ قاله السُّدّيّ .

قيل : "لَمّا" : جمعا ؛ من قولهم : لممت الطعام لما إذا أكلته جمعاً ؛ قاله الحسن وأبو عُبيدة .

(210/814)

وأصل اللَّمّ في كلام العرب : الجمع ؛ يقال : لَمَمْت الشيء أَلُمُّه لَمًّا : إذا جمعته ، ومنه يقال : لمّ الله شعثه ، أَي جمع ما تفرّق من أموره .

قال النابغة :

ولَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أَخاً لا تَلُمُّه . . .

على شَعَثٍ أَيُّ الرجال المُهَذَّبُ

ومنه قولهم : إن دارك لَمُومَة ؛ أي تَلُمّ الناس وتَرُبُّهم وتجمعهم .

وقال المِرناق الطائيُّ يمدح علقمة بن سيف :

لأَحبَّني حُبّ الصبيّ ولَمَّني . . .

لَمَّ الهُدِيّ إلى الكريم الماجِد

وقال الليث : اللمّ الجمع الشديد ؛ ومنه حجر ملموم ، وكِتيبة ملمومة .

فالآكل يَلُم الثريد ، فيجمعه لُقَماً ثم يأكله .

وقال مجاهد .

يَسفُّه سَفّاً : وقال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب غيره .

قال الحُطيئة :

إذا كانَ لَمّاً يُتْبع الذمَّ ربَّه . . .

فلا قدّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعني أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم .

وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله ألَمّ بمال غيره فأكله ، ولا يفكر : أكل من خبيث أو طيب .

قال : وكان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان ، بل يأكلون ميراثهم مع مِيراثِهم ، وتراثهم مع تُراثِهم .

وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك ، فَيلُمّ في الأكل بين حرامه وحلاله .

ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفِر بالمال سَهْلاً مَهْلاً ، من غير أن يَعرَق فيه جبينه ، فيسرِف في إنفاقه ، ويأكله أكلاً واسعاً ، جامعاً بين المشتهيات ، من الأطعمة والأشربة والفواكه ، كما يفعل الوُرّاث البطالون .

﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ أي كثيراً ، حلاله وحرامه .

والجمّ الكثير .

يقال : جمّ الشيء يَجُمّ جُموماً ، فهو جَمٌّ وجامٌّ .

ومنه جمّ الماء في الحوض : إذا اجتمع وكثر .

وقال الشاعر :

إن تغفِرِ اللَّهُمَّ تغفِرْ جَمَّا . . .

وأَيُّ عبدٍ لك لا أَلَمَّا

والجَمَّة : المكان الذي يجتمع فيه ماؤه .

والجَموم : البئر الكثيرة الماء .

(211/814)

والجُمومُ (بالضم) : المصدر ؛ يقال : جمّ الماء يجِم جموماً : إذا كثر في البئر واجتمع ، بعد ما استقي ما فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(212/814)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾ الخ

متصل بما عنده كأنه قيل إنه سبحانه لبالمرصاد من أجل الآخرة فلا يطلب عز وجل إلا السعي لها فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها فإن نال منها شيئاً رضي وإلا سخط وكان اللائق أن لا يهمه إلا ما يطلبه الله عز وجل ولا يكون حاله ذلك وقيل هو متصل به متفرع عليه على معنى فالإنسان يؤاخذ لا محالة لأنه بين غني مهلك موجب للتكبر والافتخار بلالدنيا وبين فقر لا يصبر عليه ويكفر لأجله بالجزع والقول بما لا ينبغي وهو كما ترى ﴿ إِذَا مَا خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار ليرى هل يشكر أم لا والفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ تفسيرية فإن الإكرام والتنعيم عين المراد بالابتلاء ولما كان الإكرام والتنعيم في حكم شيء واحد اقتصر على قوله أكرمن في قوله سبحانه : ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ ولم يضم إليه ونعمني وهذه لجملة خبر للمبتدأ الذي هو الإنسان والفاء لما في أما من معنى الشرط والظرف أعني إذا متعلق بيقول وهو على نية التأخير ولا تمنع الفاء من ذلك كما صرح به الزمخشري وغيره من متقدمي النحاة وتبعهم من بعدهم كأبي حيان والسمين والسفاقسي مع جمع غفير من المفسرين وهو كما قال الشهاب الحق الذي لا محيد عنه وخالفهم في ذلك الرضى ومن تبعه كالبدر الدماميني في شرح المغنى فقالوا إنما يجوز تقديم ما بعد الفاء إذا كان المقدم هو الفاصل بين أما والفاء لما يتعلق

بتقديمه من الاغراض فإن كان ثمت فاصل آخر امتنع تقديم غيره فيمتنع أما زيد طعامك فآكل وان جاز أما طعامك فزيد آكل وقالوا في ذلك إنهم لما التزموا حذف الشرط لزم دخول أداته على فاء الجواب وهو مستكره فدعت الضرورة للفصل بينهما بشيء مما بعد الفاء والفاصل الواحد كاف فيه فيجب الاقتصار عليه وزعم الجلبي محشي المطول ان هذا متفق عليه فرد به على المفسرين أعرابهم السابق وقال إنه خطأ والصواب أن يجعل الظرف متعلقاً بمقدر وهو المبتدأ في الحقيقة

(213/814)

والتقدير فأما شأن الإنسان إذا الخ فالظرف من تتمة الجزء المفصول وبه ليس فاصلاً ثانياً كقولك أما أحسان زيد إلى الفقير فحسن ويرد على تقديره أنه لا يصح وقوع جملة يقول خبراً عن الشأن إلا بتعسف كأن يكون الفعل بتأويل المصدر وإن لم تكن معه في اللفظ أن المصدرية كما قيل في

بالمعيدي خير من أن تراه . . .

من السحاب إلى الميزاب وذهب أبو البقاء إلى أن إذا شرطية وقوله تعالى فيقول جوابها

والجملة الشرطية خبر الإنسان ويلزمه حذف الفاء بدون القول وقد قيل إنه ضرورة وقوله عز وجل .

(214/814)

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه ﴾ عامله معاملة من يبتليه ويختبره بالحاجة والتفقير ليرى هل يصبر أم لا ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ بتقدير وأما هو أي الإنسان إذا ما ابتلاه الخ ليصح التفصيل ويتم التوازن وبقية الكلام فيه كما في سابقه والظاهر أن كلتا الجملتين متضمنة لإنكار قول الإنسان الذي تضمنته وإنكار قوله إذا ضيق عليه رزقه ربي أهانن لدلالته على قصور نظره وسوء فكره حيث حسب أن تضييق الرزق إهانة مع أنه قد يؤدي إلى كرامة الدارين ولعدم كونه إهانة أصلاً لم يقل سبحانه في تفسير الابتلاء فإهانه وقدر عليه رزقه نظير ما قال سبحانه أولا ﴿ فاكرمه ونعمه ﴾ [الفجر : 15] وإنكار قوله إذا أكرم ربي أكرمني مع قوله تعالى فاكرمه أولاً من حيث أنه أثبت إكرام الله تعالى له على خلاف ما أثبت الله تعالى وهو قصد أن الله تعالى أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقاً ومستوجباً قصداً جارياً على ما كانوا عليه من افتخارهم وزعمهم جلالة أقدارهم والحاصل أن المنكر كونه عن استحقاق لحسب أو نسب وفي المفصل ما يدل على أن أصل الإكرام منكر

لا كونه عن استحقاق وإنكار أصل الإهانة يعضده ووجهه ما أثبته تعالى من الإكرام إن الله عز وجل أثبت الإكرام بإيتاء المال والتوسعة وهو جعله إكراماً كلياً مثبتاً للزلفى عنده تعالى فإنكار أنه ليس من ذلك الإكرام في شيء وجوز أن يكون الإنكار إنكاراً للإهانة فقط يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله تعالى وإكرامه وإذا لم يتفضل عليه سمي ترك التفضل هواناً وليس به قيل ويعضده ذكر الإكرام في قوله تعالى فأكرمه وفي الآية مع ما بعد شمة من أسلوب قوله تعالى ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ [المعارج: 19-21] ولا يخفى أن الوجه هو الأول وقرأ ابن كثير أكرمني وأهانني بإثبات الياء فيهما ونافع بإثباتها وصلا وحذفها وقفا وخير في الوجهين أبو

عمرو وحذفها باقي السبعة فيهما وصلا ووقفا ومن حذفها وقفا سكن النون فيه وقرأ أبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلاف عنه وابن عامر فقدر بتشديد الدال للمبالغة .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان عن قوليه المحكيين وتكذيب له فيهما لا عن الأخير فقط كما في الوجه الأخير وقد نص الحسن على ما قلنا وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته علي ولم أبتله بالفقر لهوانه علي بل ذلك لمحض القضاء والقدر وقوله

سبحانه : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ الخ انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل والالتفات إلى الخطاب لتشديد التقريع وتأكيد التشنيع وقيل هو بتقدير قل فلا التفات نعم فيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه والجمع باعتبار معنى الإنسان إذا المراد هو الجنس أي بل لكن أفعال وأحوال أشد شراً مما ذكر وأدل على تهالككم على المال حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة به والإحسان إليه وفي الحديث " أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم " وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمرو لا يكرمون بياء الغيبة .

(216/814)

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ ﴾ بحذف احدى التاءين من تتحاضون أي ولا يحض ويحث بعضكم بعضاً ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي على اطعامه فالطعام مصدر بمعنى الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء وزعم أبو حيان أن الأولى أن يراد به الشيء المطعوم ويكون الكلام على حذف مضاف أي على بذلك طعام المسكين والمراد بالمسكين ما يعم الفقير وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وعبد الله بن المبارك والشيرزي عن الكسائي كقراءة الجماعة إلا أنهم ضموا تاء تحاضون من المحاضة وقرأ أبو عمرو ومن سمعت الحسن ومن معه ولا

يحضون بياء الغيبة ولا ألف بعد الحاء وباقي السبعة بتاء الخطاب كذلك وكذا الفعلان بعد والفعل على القراءتين جوز أن يكون متعدياً ومفعوله محذوف فقيل أنفسهم أو أنفسكم وقيل أهليهم أو أهليكم وقيل أحداً وجوز وهو الأولى أن يكون منزلاً منزلة اللازم للتعميم .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ أي المراث وأصله وراث فابدلت الواو تاء كما في نخمنة وتكأة ونحوهما .

﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أي ذا لم أو هو نفس اللم على المبالغة واللم الجمع ومنه قول النابغة

: ولست بمستبق أخالا تلمه . . .

على شعث أي الرجال المهذب

والمراد به هنا الجمع بين الحلال والحرام وما يحمد وما لا يحمد ومنه قول الخطيئة

.

إذا كان لما يتبع الذم ربه . . .

فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

يعني إنكم تجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم ويروى أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد فيأكلون نصيبهم ويقولون لا يأخذ الميراث إلا من يقاتل ويحمى الحوزة هذا وهم يعلمون من شريعة اسماعيل عليه السلام أنه يرثون فاندفع ما قيل إن السورة مكية وآية المواريث مدنية ولا يعلم الحل والحرمة إلا من الشرع فإن الحسن والقبح

العقليين ليسا مذهبا لنا وقيل يعني تأكلون ما جمعه الميت المورث من حلال وحرام عالمين بذلك فتلمون في الأكل بين حلاله وحرامه .

(217/814)

وفي الكشاف يجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ونحوها كما يفعله الوارث البطالون وتعقب بأنه غير مناسب للسياق .

﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ أي كثيراً كما قال ابن عباس وأنشد قول أمية

: إن تغفر اللهم تغفر جما . . .

وأي عبد لك لا ألما

والمراد إنكم تحبونه مع حرص وشره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(218/814)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) ﴾

دلت الفاء على أن الكلام الواقع بعدها متصل بما قبلها ومتفرع عليه لا محالة .

ودلت (أمّا) على معنى : مهما يكن من شيء ، وذلك أصل معناها ومقتضى استعمالِها ، فقوي بها ارتباط جوابها بما قبلها وقبْلَ الفاء المتصلة بها ، فَلاح ذلك برقاً وامضاً ، وانجلى بلمعة ما كان غامضاً ، إذ كان تفريع ما بعد هذه الفاء على ما قبلها خفياً ، فلنبينه بياناً جليّاً ، ذلك أن الكلام السابق اشتمل على وصف ما كانت تتمتع به الأمم الممثَّل بها مما أنعم الله عليها به من النعم ، وهم لاهون عن دعوة رُسُل الله ، ومعرضون عن طلب مرضاة ربهم ، مقتحمون المناكر التي نُهوا عنها ، بطرون بالنعمة ، معجَبون بعظمتهم فعقب ذكر ما كانوا عليه وما جازاهم الله به عليه من عذاب في الدنيا ، باستخلاص العِبرة وهو تذكير المشركين بأن حالهم مماثل لحال أولئك تَرفاً وطغياناً وبطراً ، وتنبيهُهم على خطاهم إذْ كانت لهم من حال الترف والنعمة شبهةٌ توهَّموا بها أن الله جعلهم محل كرامة ، فحسبوا أن إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم بالعذاب ليس بصدق لأنه يخالف ما هو واقع لهم من النعمة ، فتوهموا أنّ فعل الله بهم أدلّ على كرامتهم عنده مما يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أمرهم بخلاف ما هم عليه ، ونفوا أن يَكون بعد هذا العالم عالم آخر يضاده ، وقصروا عطاء الله على ما عليه عباده في هذه الحياة الدنيا ، فكان هذا الوهَم مُسوِّلاً لهم

التذكيب بما أنذروا به من وعيد ، وبما يسر المؤمنون من ثواب في الآخرة ، فحصروا جزاء الخير في الثروة والنعمة وقصروا جزاء السوء على الخصاصة وقَتْر الرزق .

(219/814)

وقد تكرر في القرآن التعرض لإِبطال ذلك كقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ [المؤمنون : 55 ، 56] .

وقد تضمن هذا الوهَم أصولاً انبنى عليها ، وهي : إنكار الجزاء في الآخرة ، وإنكار الحياة الثانية ، وتوهم دوام الأحوال .

ففاء التفريع مرتبطة بجملة : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] بما فيها من العموم الذي اقتضاه كونها تذييلاً .

والمعنى : هذا شأن ربك الجاري على وفق علمه وحكمته .

فأما الإنسان الكافر فيتوهم خلاف ذلك إذ يحسب أن ما يناله من نعمة وسَعَة في الدنيا تكريماً من الله له ، وما يناله من ضيق عيش إهانَةً أهانه الله بها .

وهذا التوهم يستلزم ظنهم أفعال الله تعالى جارية على غير حكمة قال تعالى : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت

إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ [فصلت : 50] .

فأعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالحقيقة الحق ونبههم لتجنب تخليط الدلائل الدقيقة السامية ، وتجنب تحكيم الواهمة والشاهية ، وذكرهم بأن الأحوال الدنيوية أعراض زائلة ومتفاوتة الطول والقصر ، وفي ذلك كله إبطال لمعتقد أهل الشرك وضلالهم الذي كان غالباً على أهل الجاهلية ولذلك قال النابغة في آل غسان الذين لم يكونوا مشركين وكانوا متدينين بالنصرانية:

مَجَلَّتُهم ذَاتُ الإله ودينُهم . . .

قَويم فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ العَوَاقِب

وَلا يَحْسَبُون الخَيْرَ لا شَرَّ بعدَه . . .

ولا يحسبُون الشرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ

وقد أعقب الله ذلك بالردع والإبطال بقوله : ﴿ كلا ﴾ .

فمناط الردع والإبطال كِلا القولين لأنهما صادران عن تأويل باطل وشبهة ضالّة كما ستعرفه عند قوله تعالى : ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ .

واقتصار الآية على تقتير الرزق في مقابلة النعمة دون غير ذلك من العلَلِ والآفات لأن غالب أحوال المشركين المتحدث عنهم صحة المزاج وقوة الأبدان فلا يهلكون إلا بقتل أو هَرم فيهم وفي ذويهم ، قال النابغة:

تَغْشَى مَتَالِفَ لاَ يُنْظِرْنَكَ الهَرَمَا . . .

ولم يعرج أكثر المفسرين على بيان نَظْم الآية واتصالها بما قبلها عدا الزمخشري وابنَ عطية .

وقد عرف هذا الاعتقاد الضال من كلام أهل الجاهلية ، قال طرفة:

فلو شاءَ ربّي كنتُ قيسَ بنَ عاصم . . .

ولو شَاء رَبي كنتُ عَمْرَو بنَ مَرْثَدِ

فأصبحتُ ذا مال كثيرٍ وطاف بي . . .

بَنُون كرامٌ سَادَةَ لمُسَوَّدَ

وجعلوا هذا الغرور مقياساً لمراتب الناس فجعلوا أصحاب الكمال أهل المظاهر الفاخرة ، ووصموا بالنقص أهل الخصاصة وضعفاء الناس ، لذلك لما أتى الملأ من قريش ومن بني تميم وفزارة للنبيء صلى الله عليه وسلم وعنده عَمَّار ، وبلالٌ ، وخبابٌ ، وسالمٌ ، مولَى أبي حذيفة ، وصُبَيح مولى أُسَيْد ، وصُهَيْبٌ ، في أناس آخرين من ضعفاء المؤمنين قالوا للنبيء أطْرُدهم عنك فَلَعلّك إن طردتهم أن تتبعك .

وقالوا لأبي طالب : لو أن ابن أخيك طَرد هؤلاء الأعْبُدَ والحُلَفَاءَ كان أعظمَ له في صدُورنا وأدلى لاتِّباعنا إياه .

وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ الآية كما تقدم في سورة الأنعام (52) .

فنبه الله على خطأ اعتقادهم بمناسبة ذكر مُماثِلِهِ مِمَّا اعتقده الأمم قبلهم الذي كان موجباً صَب العذاب عليهم ، وأعْلَمهم أن أحوال الدنيا لا تُتخذ أصلاً في اعتبار الجزاء على العمل ، وأن الجزاء المطرد هو جزاء يوم القيامة .

(221/814)

والمراد بالإنسان الجنس وتعريفه تعريف الجنس فيستغرق أفراد الجنس ولكنه استغراق عُرفي مراد به الناسُ المشركون لأنهم الغالب على الناس المتحدث عنهم وذلك الغالب في إطلاق لفظ الإنسان في القرآن النازل بمكة كقوله : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] ﴿ أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 4 ، 5] ونحو ذلك ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ [الفجر : 23]

الآية .

وقيل : إريد إنسان معين ، فقيل عتبة بن ربيعة أو أبو حذيفة بن الغيرة عن ابن عباس ، وقيل : أمية بن خَلَف عن مقاتل والكلبي ، وقيل : أبيّ بن خلف عن الكلبي أيضاً ، وإنما هؤلاء المسمَّوْن أعلام التضليل .

قال ابن عطية : ومن حيث كان هذا غالباً على الكفّار جاء التوبيخ في هذه الآية باسم الجنس إذ يقع (كذا) بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع أ هـ .

واعلم أن من ضلال أهل الشرك ومن فتنة الشيطان لبعض جهلة المؤمنين أن يخيل إليهم ما يحصل لأحد بجعل الله من ارتباط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها فيضعوا ما يصادف نفع أحدهم من الحوادث موضع كرامة من الله للذي صادفْته منافع ذلك ، تحكيماً للشاهية ومحبةِ النفس ورجْماً بالغيب وافتيَاتاً على الله ، وإذا صادف أحدَهم من الحوادث ما جلبَ له ضرّاً تخيّله بأوهامه انتقاماً من الله قصدَه به ، تشاؤماً منهم .

فهؤلاء الذين زعموا ما نالهم من نعمة الله إكراماً من الله لهم ليسوا أهلاً لكرامة الله .

وهؤلاء الذين توهموا ما صادفهم من فتور الزرق إهانة من الله لهم ليسوا بأحط عند الله من الذين زعموا أن الله أكرمهم بما هم فيه من نعمة .

فذلك الاعتقاد أوجب تغلغل أهل الشرك في إشراكهم وصرَفَ أنظارهم عن التدبر فيما يخالف ذلك ، وربما جرت الوساوس الشيطانية فتنةً من ذلك لبعض ضعفاء الإيمان وقصار الأنظار والجهال بالعقيدة الحق كما أفصح أحمد بن الرّاوندي .

عن تزلزل فهمهم وقلة علمهم بقوله:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعْيَتْ مذاهبُه . . .

وجَاهِلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقاً

هذا الذي تَرك الأَفْهام حائرةً . . .

وصيَّر العالِم النحرير زنديقاً

وذلك ما صرف الضالين عن تطلب الحقائق من دلائلها ، وصرفهم عن التدبر فيما يُنيل صاحبه رضى الله وما يوقع في غضبه ، وعِلْم الله واسع وتصرفاتُه شتّى وكلها صادرة عن حكمة ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ [البقرة : 255] .

فقد يأتي الضر للعبد من عدة أسباب وقد يأتي النفع من أخرى .

وبعض ذلك جار في الظاهر على المعتاد ، ومنه ما فيه سمة خرق العادة .

فربما أتت الرزايا من وجوه الفوائد ، والموفق يتيقظ لِلأمَاراتِ قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم

مبلسون ﴾ [الأنعام: 44] وقال: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبيء إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ [الأعراف: 94، 95] وقال: ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ [التوبة: 126].

وتصرفات الله متشابهة بعضها يدل على مراده من الناس وبعضها جار على ما قدَّره من نظام العالم وكلٌّ قد قضاه وقدَّره وسبق علمه به وربَط مسبباتِه بأسبابه مباشرةً أو بواسطة أو وسائط والمتبصر يأخذ بالحيطة لنفسه وقومِه ولا يقول على الله ما يمليه عليه وهَمه ولم تنهَضْ دلائله، ويُفوِّض ما أشكل عليه إلى علم الله.

(223/814)

وليس مثلُ هذا المحكيّ عنهم من شأن المسلمين المهتدين بهدي النبي صلى الله عليه وسلم والمتبصرين في مجاري التصرفات الربانية.

وقد نجد في بعض العوامّ ومن يشبههم من الغافلين بقايا مت اعتقاد أهل الجاهلية لإيجاد التخيلات التي تمليها على عقولهم فالواجب عليهم أن يتعظوا بموعظة الله في هذه الآية.

لا جرم أن الله قد يعجل جزاء الخير لبعض الصالحين من عباده كما قال : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِينَّه حياة طيبة ﴾ [النحل : 97] .

وقد يعجّل العقاب لمن يغضب عليه من عباده .

وقد حكَى عن نوح قولَه لقومه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ﴾ [نوح : 10 12] وقال تعالى : ﴿ وأَلَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ [الجن : 16] .

ولهذه المعاملة علامات أظهرها أن تجري على خلاف المألوف كما نرى في نصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاءِ على الأمم العظيمة القاهرة .

وتلك مواعيد من الله يحققها أو وعيد منه يحيق بمستحقيه .

وحرف (أمَا) يفيد تفصيلاً في الغالب ، أي يدل على تقابل بين شيئين من ذواتٍ وأحوال . ولذلك قد تكرر في الكلام ، فليس التفصيلُ المستفاد منها بمعنى تبيينِ مجملٍ قبلَها ، بل هو تفصيل وتقابُل وتوازن ، وهو ضرب من ضروب التفصيل الذي تأتي له (أمَّا) ، فارتباط التفصيل بالكلام السابق مستفاد من الفاء الداخلة على (أما) ، وإنما تعلقه بما قبله تعلُّقُ المفرع بمنشئه لا تفصيل بيان على مجمل .

فالمفصل هنا أحوال الإنسان الجاهِل فُصّلت إلى حاله في الخفض والدعة وحاله في الضنك والشدة فالتوازن بين الحالين المعبَّر عنهما بالظرفين في قوله : ﴿ إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ﴾

الخ وفي قوله : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ الخ .

وهذا التفصيل ليس من قبيل تبيين المُجمل ولكنه تمييز وفصْل بين شيئين أو أشياء تشتبه أو تختلط .

(224/814)

وقد تقدم ذكر (أمّا) عند قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ الآية في سورة البقرة (26) .

والابتلاء : الاختبار ويكون بالخير وبالضرّ لأن في كليهما اختباراً لثبات النفس وخُلق الأناة والصبر قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : 35] وبذكر الابتلاء ظهر أن إكرام الله إياه إكرام ابتلاء فيقع على حالين ، حال مرضية وحال غير مرضية وكذلك تقتير الرزق تقتير ابتلاء يقتضي حالين أيضاً .

قال تعالى : ﴿ ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾ [النمل : 40] وقال : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : 35] والأشهر أنه الإِختبار بالضر وقد استعمل في هذه الآية في المعنيين .

والمعنى : إذا جَعَلَ ربُّه ما يناله من النعمة أو من التقتير مظهراً لحاله في الشكر والكفر ، وفي

الصبر والجزع ، توهَّم أن الله أكرمه بذلك أو أهانه بهذا .

والإِكرام : قال الراغب : أن يُوصَل إلى الإِنسان كرامة ، وهي نفع لا تلحق فيه غضاضة ولا مذلة ، وأن يُجعل ما يوصل إليه شيئاً كريماً ، أي شريفاً قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] ، أي جعلهم كراماً انتهى انتهى . ا هـ يريد أن الإِكرام يطلق على إعطاء المكرمة ويطلق على جعل الشيء كريماً في صنفه فيصدق قوله تعالى : ﴿ فأكرمه ﴾ بأن يصيب الإِنسان ما هو نفع لا غضاضة فيه ، أو بأن جُعل كريماً سيداً شريفاً .

وقوله : ﴿ فأكرمه ﴾ من المعنى الأول للإِكرام وقوله : ﴿ فيقول ربي أكرمني ﴾ من المعنى الثاني له في كلام الراغب واعلم أن قوله : ﴿ ونعمه ﴾ صريح في أن الله ينعم على الكافرين إيقاظاً لهم ومعاملة بالرحمة ، والذي عليه المحققون من المتكلمين أن الكافر مُنعَم عليه في الدنيا ، وهو قول الماتريدي والباقِلاني .

وهذا مما اختلف فيه الأشعري والماتريدي والخُلف لفظي .

ومعنى ﴿ نعّمه ﴾ جعله في نعمة ، أي في طيب عيش .

(225/814)

ومعنى : ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ أعطاه بقَدْر محدود ، ومنه التقتير بالتاء الفوقية عوضاً عن الدال ، وكلّ ذلك كناية عن القلة ويقابله بسط الرزق قال تعالى : ﴿ ولو بسط اللَّه الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ [الشورى : 27] .

والهاء في ﴿ رزقه ﴾ يجوز أن تعود إلى ﴿ الإنسان ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، ويجوز أن تعود إلى ﴿ ربه ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله .

والإِهانة : المعاملة بالهون وهو الذل .

وإسناد ﴿ فأكرمه ونعمه . . .

فقدر عليه رزقه ﴾ إلى الرب تعالى لأن الكرامة والنعمة انساقت للإِنسان أو انساق له قَدَر الرزق بأسباب من جعل الله وسننه في هذه الحياة الدنيا بما يصادف بعضُ الحوادث بعضاً ، وأسباب المقارنة بين حصول هذه المعاني وبين من تقع به من الناس في فُرصها ومناسباتها .

والقول مستعمل في حقيقته وهو التكلم ، وإنما يتكلم الانسان عن اعتقاد .

فالمعنى : فيقول ربي أكرمني ، معتقداً ذلك ، ويقول : ربيَ أهانني ، معتقداً ذلك لأنهم لا يخلون عن أن يفتخروا بالنعمة ، أو يتذمروا من الضيق والحاجة ، ونظير استعمال القول هذا الاستعمال ما وقع في قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ [آل عمران : 75] ، أي اعتقدوا ذلك فقالوه واعتذروا به لأنفسهم بين أهل ملتهم .

وتقديم ﴿ ربي ﴾ على فعل ﴿ أكرمني ﴾ وفعلِ ﴿ أهانني ﴾ ، دون أن يقول : أكرمني

ربي أو أهانني ربي ، لقصد تقوّي الحكم ، أي يقول ذلك جازماً به غير متردد .

وجملتا : ﴿ فيقول ﴾ في الموضعين جوابان ل (إمَّا) الأولى والثانية ، أي يطرد قول الإنسان هذه المقالة كلَّما حصلتْ له نعمة وكلما حصل له تقتير رزق .

وأوثِر الفعل المضارع في الجوابين لإفادة تكرر ذلك القول وتجدده كلما حصل مضمون الشرطين .

وحرف ﴿ كَلاّ ﴾ زجر عن قول الإنسان ﴿ ربي أكرمن ﴾ عند حصول النعمة .

(226/814)

وقوله : ﴿ ربيَ أهانني ﴾ عندما يناله تقتير ، فهو ردع عن اعتقاد ذلك فمناط الردع كِلاَ القولين لأن كل قول منهما صادر عن تأول باطل ، أي ليست حالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا دليلاً على منزلته عند الله تعالى .

وإنما يُعرَف مراد الله بالطرق التي أرشد الله إليها بواسطة رسله وشرائعه ، قال تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ في سورة الكهف (103 105) .

فرب رجل في نعمة في الدنيا هو مسخوط عليه ورب أشعَث أغبر مطرود بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرَّهُ .

فمناط الردع جعل الإِنعام علامة على إرادة الله إكرام المنعم عليه وجعل التقتير علامة على إرادة الإِهانة ، وليس مناطه وقوع الكرامة ووقوع الإِهانة لأن الله أهان الكافرَ بعذاب الآخرة ولو شاء إهانته في الدنيا لأجل الكفر لأهان جميع الكفرة بتقتير الرزق .

وبهذا ظهر أن لا تنافي بين إثبات إكرام الله تعالى الإِنسان بقوله : ﴿ فأكرمه ﴾ وبين إبطال ذلك بقوله : ﴿ كلا ﴾ لأن الإِبطال وارد على ما قصده الإِنسان بقوله : ﴿ ربي أكرمن ﴾ أن ما ناله من النعمة علامةٌ على رضى الله عنه .

فالمعنى : أن لشأن الله في معاملته الناس في هذا العالم أسراراً وعِللاً لا يُحاط بها ، وأن أهل الجهالة بمعزل عن إدراك سرها بأقْيسة وهمية ، والاستناد لمألوفات عادية ، وأن الأولى لهم أن يتطلبوا الحقائق من دلائلها العقلية ، وأن يعرفوا مراد الله من وحيه إلى رسله .

وأن يحذروا من أن يحيدوا بالأدلة عن مدلولها .

وأن يستنتجوا الفروع من غير أصولها .

وأما أهل العلم فهم يضعون الأشياء مواضعها ، ويتوسمون التوسم المستند إلى الهدي ولا يخلطون ولا يخبطون .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ ربي ﴾ في الموضعين بفتح الياء .

وقرأ الباقون بسكونها .

وقرأ الجمهور ﴿ فقدر عليه ﴾ بتخفيف الدال .

(227/814)

وقرأه ابن عامر وأبو جعفر بتشديد الدال .

وقرأ نافع : ﴿ أكرمن ، وأهانن ﴾ بياء بعد النون في الوصل وبحذفها في الوقف .

وقرأهما ابن كثير بالياء في الوصل والوقف ، وقرأهما ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب بدون ياء في الوصل والوقف .

وهو مرسوم في المصحف بدون نون بعد الياءين ولا منافاة بين الرواية واسم المصحف .

و ﴿ كلاّ ﴾ ردع عن هذا القول أي ليس ابتلاء الله الإِنسان بالنعيم وبتقتير الرزق مسبباً على إرادة الله تكريم الإِنسان ولا على إرادته إهانته .

وهذا ردع مجمل لم يتعرض القرآن لتبيينه اكتفاء بتذييل أحوال الأمم الثلاث في نعمتهم بقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] بعد قوله : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ [الفجر : 13] .

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ﴾ ﴿ للهاليتيم * وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ

التراث أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ .

﴿ بل ﴾ إضراب انتقالي .

والمناسبة بين الغرضين المنتقل منه والمنتقلِ إليه مناسبةُ المقابَلةِ لمضمون ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ من جهة ما توهموه أن نعمة مالِهم وسعة عيشهم تكريم من الله لهم ، فنبههم الله على أنهم إن أكرمهم الله فإنهم لم يُكرموا عبيده شُحّاً بالنعمة إذ حَرموا أهل الحاجة من فضول أموالهم وإذ يستزيدون من المال ما لا يحْتاجُون إليه وذلك دحض لتفخرهم بالكرم والبذل .

فجملة : ﴿ لا تكرمون اليتيم ﴾ استئناف كما يقتضيه الإضراب ، فهو إمّا استئناف ابتداء كلام ، وإما اعتراض بين ﴿ كلاّ ﴾ وأختها كما سيأتي وإكرام اليتيم : سَد خَلته ، وحسن معاملته ، لأنه مظنة الحاجة لفقدِ عائِله ، ولاستيلائهم على الأموال التي يتركها الآباءُ لأبنائهم الصغار .

وقد كانت الأموال في الجاهلية يتداولها رؤساء العائلات .

والبِرّ ، لأنه مظنة انكسار الخاطر لشعوره بفقد من يُدِلّ هو عليه .

(228/814)

و ﴿ اليتيم ﴾ : الصبي الذي مات أبوه وتقدم في سورة النساء ، وتعريفه للجنس ، أي لا تكرمون اليتامى .

وكذلك تعريف ﴿ المسكين ﴾ .

ونفي الحَض على طعام المسكين نفي لإطعامه بطريق الأولى ، وهي دلالة فحوى الخطاب ، أي لقلّة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفْعَ وساطة ، بَلْهَ أن ينفعوهم بالبذل من أموالهم .

و ﴿ طعام ﴾ يجوز أن يكون اسماً بمعنى المطعوم ، فالتقدير : ولا تحضون على إعطاء طعام المسكين فإضافته إلى المسكين على معنى لام الاستحقاق ويجوز أن يكون اسم مصدر أطعم .

والمعنى : ولا تحضون على إطعام الأغنياء المساكينَ فإضافته إلى المسكين من إضافة المصدر إلى مفعوله .

و ﴿ المسكين ﴾ : الفقير وتقدم في سورة براءة .

وقد حصل في الآية احتباك لأنهم لما نُفِي إكرامهم اليتيم وقوبل بنفي أن يحضُّوا على طعام المسكين ، عُلم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم ، أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك ، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم .

ويجوز أن يكون الحض على الطعام كناية عن الإِطعام لأن من يحض على فعل شيء يكون راغباً في التلبس به فإذا تمكن أن يفعله فعله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر ﴾ [العصر : 3] أي عملوا بالحق وصبروا وتواصوا بهما .

وقرأ الجمهور : "لا تُكرمون ، ولا تَحضون ، وتأكلون ، وتُحبون" بالمثناة الفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات من الغيبة في قوله : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ الآيات لقصد مواجهتهم بالتوبيخ ، وهو بالمواجهة أوقع منه بالغيبة .

وقرأها أبو عمرو ويعقوب بالمثناة التحتية على الغيبة لتعريف النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بذلك فضحاً لدخائلهم على نحو قوله تعالى : ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً أيحسب أن لم يره أحد ﴾ [البلد : 6 ، 7] .

(229/814)

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تحضُّون ﴾ بضم الحاء مضارع حضّ ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ تَحَاضُّون ﴾ بفتح الحاء وألف بعدها مضارع حاضّ بعضهم بعضاً ، وأصله تتحاضّون فحذفت إحدى التاءين اختصاراً للتخفيف أي تتمالؤون على ترك الحض على الإطعام .

و ﴿ التراث ﴾ : المال الموروث ، أي الذي يُخلفه الرجل بعد موته لوارثه وأصله : وُرَاث بواو في أوله بوزن فُعال من مادة وَرث بمعنى مفعول مثل الدُّقاق ، والحُطام ، أبدلت واوه تاء

على غير قياس كما فعلوا في تُجاه ، وتُخَمة ، وتُهْمة ، وتُقَاةٍ وأشباهها .

والأكل : مستعار للانتفاع بالشيء انتفاعاً لا يُبقي منه شيئاً .

وأحسب أن هذه الاستعارة من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثلها في كلام العرب .

وتعريف التراث عوض عن المضاف إليه ، أي تراث اليتامى وكذلك كان أهل الجاهلية يمنعون النساء والصبيان من أموال مورثيهم .

وأشعر قوله : ﴿ تأكلون ﴾ بأن المراد التراث الذي لا حق لهم فيه ، ومنه يظهر وجه إيثار لفظ التُراث دون أن يقال : وتأكلون المال لأن التراث مال ماتَ صاحبه وأَكْلُه يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذب عن ماله لصغرٍ أو أنوثة .

واللَّمُّ : الجمع ، ووصْفُ الأكل به وصف بالمصدر للمبالغة ، أي أكلاً جامعاً مال الوارثين إلى مال الآكِلِ كقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : 2] .

والجم : الكثير ، يقال : جَمَّ الماءُ في الحوض ، إذا كثر ، وبِئر جموم بفتح الجيم : كثيرةُ الماء ، أي حباً كثيراً ، ووصْف الحُبّ بالكثرة مراد به الشدة لأن الحب معنى من المعاني النفسية لا يوصف بالكثرة التي هي وفرة عدد أفراد الجنس .

فالجمّ مستعار لمعنى القوي الشديد ، أي حبّاً مفرطاً ، وذلك محل ذم حب المال ، لأن إفراد حبه يوقع في الحِرص على اكتسابه بالوسائل غير الحَق كالغصب والاختلاس والسرقة وأكل الأمانات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

لطيفة فى حرف التاء

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(الباب الرابع – فى وجوه الكلمات المفتتحة بحرف التاء)

(بصيرة فى التاء)

هو حرف هجاءٍ ، لِثوىّ ، من جِوار مخرج الطَّاءِ .

ويمدّ ويقصر .

والنسبة إِلى الممدود : تائىّ ، وإِلى المقصور : تاوىّ .

وجمعه أَتْوَاءٌ ؛ كداءٍ وأَدْواءٍ .

وقصيدة تائيّة ، وتَيَوّية .

وتيّيت تاءً حسنة .

والتَّاءُ المفردة محرّكة فى أَوائل الأَسماءِ وفى أَواخرها ، وفى أَواخر الأَفعال ، [ومسكنة فى أَواخرها] .

والمحرّكة فى أَوائل الأَسماءِ حرف جرّ للقسم .

وتختصّ بالتعجب ، وباسم الله تعالى .

وربّما قالوا : تربِى ، وتربِّ الكعبة ، وتالرحمن ، والمحرّكة فى أَواخرها حرف خطاب ؛ كأَنت .

والمحرّكة فى أَواخر الأَفعال ضمير ؛ كقمت .

والسّاكنة فى أَواخرها علامة للتَّأْنيث : كقامت .

وربّما وُصلت بثُم ورُبّ ، والأَكثر تحريكها معهما بالفتح .

و"تا" اسم يشار به إِلى المؤنث [مثل] "ذا" ، و "ته" مثل ذِه ، وتان للتثنية ، وأُولاءِ للجمع .

وتصغير "تا" : تيَّا ، وتيّاك ، وتيّالِك ، وتدخل عليها ها ، فيقال ها تا .

فإِن خوطب بها جاءَ الكاف ، فقيل : تيك ، وتاك ، وتِلْك ، وتَلك بالكسر والفتح ، وهى رديئة .

وللتثنية تانِك ، وتانّك [تخفف] وتشدّد ، والجمع أَولئك وأُلاكَ وأَولالك ، وتدخل الهاءُ على تيك ، وتاك ، فيقال : ها تيك ، وها تاك .

والتاءُ فى حساب الجُمّل أَربعمائة .

والتاءُ المبدلة من الواو كالتراث والوُراث ، والتجاه والوجاه ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً ﴾ .

وأَصله الوراث ومنها التَّاءُ المبدلة من السّين فى الطَّسْت والطسّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 283 . 284 ﴾

لطيفة أخرى

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لم ولم ولما)

لَمَّ الشىء يَلُمّه : جمعه .

ولمّ الله شَعَثه : قارب بين شتيت أَمره .

ورجل مِلَمّ : يجمع القوم ، أَو يجمع بين عشيرته .

قال الله تعالى : ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ الأَكل يلمّ الثريد .

وأَلَمّ به : نزل .

ويزورنى لِمَاماً ، أَى غِبًّا .

واللَمَم : مقاربة المعصية .

ويعبر به عن الصغيرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ من قولك : أَلممت بكذا ، أَى نزلت به وقاربته من غير مواقعة .

وغلام مُلِمّ : مراهق .

والمُلِمَّة : النازلة .

وأَلَمّ بالأَمر : لم يتعمّق فيه .

وأَلَمّ : باشر صغار الذنوب .

وأَلَمّ النخلُ : قارب الإِرطاب .

لَمْ : حرف جازم / ينفى المضارع ويقلبه ماضياً ، قال تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

وقد يرتفع الفعل بعدها ؛ كقول الشاعر :

*لولا فوارِسُ من نُعْمٍ وإِخوتهم * يوم الصُّلَيفاء لم يُوفُون بالجار*

وقيل : ضرورة .

وقيل : بل لغة صحيحة لبعض العرب .

وقال اللِّحيانىّ : وقد ينصب الفعل بعدها .

وهى لغة لبعض العرب :

*فى أَىّ يَوْمَىَّ من الموتِ أَفِرّْ * أَيَوْمَ لَمْ يُقْدَرْ أَمْ يومَ قُدِرْ*

ومنه قراءَة بعضهم : ﴿ أَلَّمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، وقيل : كان الأَصل : نشرحَنْ فحذفت النون ؛ وليس بجيّد .

وقد تفُصل (لَمْ) من مجزومها بالظرف لضرورة الشعر ؛ كقوله :

*فذاك ولم إذا نحن امْتَرَيْنا * تكنْ فى الناس يُدركُك المِراءُ*

وقول الآخر :

*فأَضحت مغانيها قِفارا رُسومُها * كأنْ لم سِوَى أَهلٍ من الوحش تؤهِلِ*

وقد يليها الاسم معمولا لفعل محذوف يفسّره ما بعده ؛ كقوله ،

*ظننت فقيرا ذا غِنًى ثم نلته * فلمْ ذا رجاء أَلقَه غير ذاهب*

وَأَمَّا لَمَّا فعلى ثلاثة أَوجه :

أَحدها : أَن تختص بالمضارع فتجزمه ، وتنفيه ، وتقلبه ماضياً ، كلَمْ إِلاَّ أَنها تفارقها فى خمسة أَمور :

1 - أَنها لا تقترن بأَداة شرط ، لا يقال : إِنْ لَمَّا يقم .

(232/814)

وفى التنزيل : ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ ، و ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ﴾ ، ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ ﴾ .

2 - أَن منفيّها مستمرّ

النفى إِلى الحال ؛ كقول عثمان :

*فإِنْ كنتُ مأْكولا فكن خير آكل * وإِلاَّ فأَدركنى ولمّا أَمزّق*

ومنفىّ لم يحتملَ الاتّصال ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ ، والانقطاعَ نحو قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ ، ولهذا جاز لم يكن ثمّ كان ، ولم يجز لمّا يكن [ثمّ كان .

بل يقال : لمَّا يكن] وقد يكون .

3- منفىّ لَمَّا لا يكون إلاَّ قريباً من الحال ، ولا يشترط ذلك فى منفىّ لم ، تقول : لم يكن زيد فى العام الماضى مقيما ، ولا يجوز لمّا يكن .

4- أَن منفىّ لَمَّا متوقَّع ثبوته ، بخلاف منفىّ لم ؛ ألا ترى أَن معنى ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أَنهم لم يذوقوه إلى الآن ، وأَنَّ ذوقهم له متوقَّع .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ، وقد آمنوا فيما بعد .

5- أَن منفىّ لَمَّا جائز الحذف لدليل ؛ كقوله :

*فجئت قبورهم بَدْءًا ولَمَّا * وناديت القبور فلم يُجِبْنَهْ*

أَى ولما أكن بَدءًا قبل ذلك ، أَى سيدًا .

ولا يجوز وصلت إلى بغداد ولم ، تريد : ولم أَدخلها .

الثانى من أَوجه لَمَّا : أَن تختص بالماضى ؛ ويقال : لَمَّا حرف وجود لوجود ، وقيل : حرف وجوب لوجوب .

وقيل : ظرف بمعنى حين ، وقيل : بمعنى إِذْ ، ويكون جوابها فعلا ماضياً اتّفاقا ، وجملة اسميّة مقرونة بإِذا الفجائية ، أَو بالفاء عند بعضهم ، وفعلاً مضارعاً عند بعضهم .

(233/814)

دليل الأَوّل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ودليل الثانى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ودليل الثالث : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ ، ودليل الرابع : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا ﴾ ، وهو مؤوّل بجادَلنا .

وقيل فى آية الفاء : إِن الجواب محذوف ، أَى انقسموا قسمين .

فمنهم مقتصد ، وفى آية المضارع : إِن الجواب (جَآءَتْهُ الْبُشْرَى) على زيادة الواو ، أَو الجواب محذوف ، أَى أَقبل يجادلنا .

الثالث : يكون حرف استثناء ، فيدخل على الجملة الاسميّة ، نحو : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ فيمن شدّد الميم ؛ وعلى الماضى لفظاً لا معنًى ، نحو / أَنْشُدُكَ اللهَ لَمَّا فعلتَ ، أَى ما أَسأَلك إِلاَّ فِعْلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ قال الفرّاءُ : لَمَّا وُضعت فى معنى إِلاَّ ، فكأَنها لَمْ ضمّت إِليها ما وصارا

جميعا حرفا واحدا ، وخرجا من حدّ الجحد .

قال الأَزهرى : ومما يدلّ على أَنَّ لَمَّا يكون بمعنى إِلاَّ مع إِنْ التى تكون جحدا قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِن كُلُّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ وهى قراءَة قرّاء الأَنصار ، وقال الفرَّاءُ : وهى فى قراءَة عبد الله (إِنْ كُلّهم لَمَّا كَذَّب الرسل) ، والمعنى واحد .

وتكون لمّا مركَّبة من كلمات ومن كلمتين .

فأَمَّا المركَّبة من كلمات فكما فى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ فى قراءَة ابن عامر وحمزة وحفص بتشديد نون (إِن) وميم (لَمَّا) فيمن قال : الأَصل : لَمِنْ مَا ، فأَبدلت النون ميماً ، وأُدغمت ، فلمَّا كثرت الميمات حُذفت الأُولى .

وهذا القول ضعيف ؛ لأَن حذف هذه الميم استثقالا لم يثبت .

(234/814)

وأَضعف منه قول آخر : إِن الأَصل : لَمًّا بالتنوين بمعنى جمعاً ، ثم حذف التنوين إجراء للوصل مُجرى الوقف ؛ لأَن استعمال لَمًّا فى هذا المعنى بعيد ، وحَذف التنوين من المنصرف أَبعد .

وأَضعف من هذا قول من قال : إِنه فَعْلَى من اللمّ وهو بمعناه ، ولكنه مُنع الصرف لأَلف

التأْنيث .

ولم يثبت استعمال هذه اللفظة .

واختار ابن الحاجب أَنها لَمَّا الجازمة حذف فعلها ، والتقدير : لمّا يُهمَلوا ، أَو لَمَّا يُتركوا لدلالة ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ، ثم ذكر الأَشقياءَ والسعداء .

وقيل : الأَحسن أَن يقدّر : لَمَّا يُوَفَّوْا أَعمالهم ، أَى إنهم إلى الآن لم يوَفَّوها وسيوفَّونها .

وأَمَّا قراءَة أَبى بكر بتخفيف (إِن) وتشديد (لَمَّا) فيحتمل وجهين : أَحدهما : أَن تكون مخففة من الثقيلة .

والثانى : أَن تكون (إِنْ) نافية و (كُلاّ) مفعولا بإضمار أَرى ، ولَمَّا بمعنى إِلاّ .

وأَمَّا قراءَة النحوِيّين بتشديد النون وتخفيف الميم فواضحة .

وأَمَّا قراءَة الحرمِيَّيْن بتخفيفهما فإِنَّ الأُولى على أَصلها من التشديد ووجوب الإعمال ، وفى الثانية مخففة من الثقيلة ، وأُعملت على أَحد الوجهين .

واللام مِن (لما) فيهما لام الابتداء .

وأَمَّا المركَّبة من كلمتين فكقوله :

*لَمَّا رأَيت أَبا يزيدَ مقاتلاً * أَدع القتال وأَشهد الهيجاءَ*

الأَصل فيه : لن ثم أدغمت النون فى الميم للتقارب ، ووُصِلا خطأً للإلغاز ، وإِنما حقها أَن

يكتبا منفصلين .

والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 442.446 ﴾

(235/814)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/815)

الجزء الخامس عشر بعد الثمانمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من (سورة الفجر)

وحتى الآية ﴿ 29 ﴾ من السورة

(4/815)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق هادياً إلى أن التقدير : يحسبون أن ذلك يوفر أموالهم ويحسن أحوالهم ويصلح بالهم ، زجر عنه بمجامع الزجر فقال : ﴿كلا﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر ، ثم استأنف ذكر ما يوجب ندمهم وينبههم من رقدتهم ويعرفهم أن حب المال لا يقتضي نموه ، ولو اقتضى نموه ما اقتضى إيجابه للسعادة فقال : ﴿إذ دكت الأرض﴾ أي حصل دكها ورجها وزلزلتها لتسويتها فتكون كالأديم الممدود بشدة المط لا عوج فيها بوجه ، وأشار بالبناء للمفعول إلى سهولة ذلك لأن الأمر عظيم لعظمة الفاعل الحق ، ولذلك قال : ﴿دكاً دكاً﴾ أي مكرراً بالتوزيع على كل موضع ناتٍ فيها ، فيكون لكل جبل وأكمة وثنية وعقبة دك يخصه على حدته ليفيد ذلك أنه دك مبالغ فيه فتصير جبالها وأكمامها هباءً منثوراً ثم تستوي حتى لا يكون فيها شيء من عوج ، وهو كناية عن زلازل عظيمة لا تحملها الجبال الرواسي فيكف بغيرها .

(5/815)

ولما دلت التسسوية على مجيء أمر عظيم ، فإن العادة في الدنيا أن الطرق لا تعم بالكنس أو الرش أو التسوية إلا لحضور عظيم كالسلطان ، قال متلطفاً بالمخاطب من أواخر سورة البروج إلى هنا بذكر صفة الإحسان على وجه يفتت أكباد أضداده ، ﴿وجاء ربك﴾

أي أمر المحسن إليك بإظهار رفعتك العظمى في ذلك اليوم الأعظم لفصل القضاء بين العباد بشفاعتك ﴿ والملك ﴾ أي هذا النوع حال كون الملائكة مصطفين ﴿ صفاً صفاً ﴾ أي موزعاً اصطفافهم على أصنافهم كل ، صنف صف على حدة ، ويحيط أهل السماء الدنيا بالجن والإنس ، وأهل كل سماء كذلك ، وهم على الضعف ممن أحاطوا به حتى يحيطوا أهل السماء السابعة بالكل وهم على الضعف من جميع من أحاطوا به من الخلائق ، ومعنى مجيئه سبحانه وتعالى بعد أن ننفي عنه أن يشبه مجيء شيء من الخلق لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإذا صححنا العقد في ذلك في كل ما كان من المتشابه قلنا في هذا إنه مثل أمره سبحانه وتعالى في ظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قدرته وقهره وسلطانه بحال الملك إذا حضر بنفسه فظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بظهور عساكره كلها خالية عنه ، فمجيئه عبارة عن حكمه وإظهار عظمته وبطشه وكل ما يظهره الملوك إذا جاؤوا إلى مكان ، وهو سبحانه وتعالى شأنه حاضر مع المحكوم بينهم بعلمه وقدرته ، لم يوصف بغيبة أصلاً أزلاً ولا أبداً ، فحضوره في ذلك الحال وبعده كما كان قبل ذلك من غير فرق أصلاً ولم يتجدد شيء غير تعليق قدرته على حسب إرادته بالفصل بين الخلق ، ولو غاب في وقت أو أمكنت غيبته بحيث يحتاج إلى المجيء لكان محتاجاً ، ولو كان محتاجاً لكان عاجزاً ، ولو عجز أو أمكن عجزه في حال

من الأحوال لم يصلح للالهية – تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً ، وفي تكرير " صفاً " تنبيه على صرف المجيء عن حقيقته وإرشاد إلى ما ذكرت من التمثيل .

(6/815)

ولما كانت جهنم لا تأتي بنفسها لأنها لو أتت بنفسها لربما ظن أنها خارجة عن القدرة بل تقودها الملائكة ، فكلما عالجوها ذهاباً وإياباً حصل للناس من ذلك من الهول ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان المهول نفس المجيء بها لا تعيين الفاعلين ، لذلك بني للمفعول قوله : ﴿ وجاء ﴾ أي بأسهل أمر ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ وقع ما ذكر ﴿ بجهنم ﴾ أي النار التي تتجهم من يصلاها ، روي أنه يؤتى بها لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : 36] وأبدل من " إذا " توضيحاً لطول الفصل وتهويلاً قوله : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ وقعت هذه الأمور فرأى الإنسان ما أعد للشاكرين وما أعد للكافرين .

ولما قدم هذه الأمور الجليلة والقوارع المهولة اهتماماً بها وتنبيهاً على أنها ، لما لها من عظيم الموعظة ، جديرة بأن يتعظ بها كل سامع ، ذكر العامل في ظرفها وبدله فقال : ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار فيذكر كل ما كان ينفعه في الدنيا وما يضره

فيعلم أن حبه للدنيا لم يفده إلا خساراً ، لا زاد بحبها شيئاً لم يكتب له ولا كان ينقصه بذلها شيئاً كما كتب له أو بذلها ، وإذا تذكر ذلك هان عليه البذل ، وليست تلك الدار دار العمل ، فلذلك قال : ﴿ وأنى ﴾ أي كيف ومن أي وجه ﴿ له الذكرى ﴾ أي نفع التذكر العظيم فإنه في غير موضعه ، فلا ينفعه أصلاً بوجه من الوجوه لفوات دار العمل ، ولا يقع بذلك على شيء سوى الندم وتضاعف الغم والهم والآلام .

(7/815)

ولما كان الندم يقتضي أن يعمل الإنسان ما ينافيه ، بين أنه ليس هناك عمل إلا إظهار الندم فاستأنف قوله : ﴿ يقول ﴾ أي متمنياً المحال على سبيل التجديد والاستمرار : ﴿ يا ليتني ﴾ وهل ينفع شيئاً "ليت" ﴿ قدمت ﴾ أي أوقعت التقديم لما ينفعني من الجد والعمل به ﴿ لحياتي ﴾ أي أيام حياتي في الدنيا أو لأجل حياتي هذه الباقية التي لا موت بعدها ، ويمكن أن يكون سبب تمنيه هذا علمه بأنه كان في الدنيا مختاراً ، وأن الطاعات في نفسها كانت ممكنة لا مانع له منها في الظاهر إلا صرف نفسه عنها وعدم تعليق ما أتاه الله من القوى بها .

ولما كان هذا غير نافع له ، سبب عنه قوله : ﴿ فيومئذ ﴾ أي إذ وقعت هذه الأمور كلها

﴿ لا يعذب ﴾ أي يوقع ﴿ عذابه ﴾ أي عذاب الله ، أي مثل عذابه المطلق المجرد فكيف بتعذيبه .

ولما اشتد التشوف إلى الفاعل ، أتى به على وجه لا أعم منه أصلاً فقال : ﴿ أحد ﴾ .

(8/815)

ولما جرت العادة بأن المعذب يستوثق منه بسجن أو غيره ، ويمنع من كل شيء يمكن أن يقتل به نفسه ، خوفاً من أن يهرب أو يهلك نفسه قال : ﴿ ولا يوثق ﴾ أي يوجد ﴿ وثاقه ﴾ أي مثل وثاقه فكيف بإيثاقه ﴿ أحد ﴾ والمعنى أنه لا يقع في خيال أحد لأجل انقطاع الأنساب والأسباب أن أحداً يقدر على مثل ما يقدر عليه سبحانه وتعالى من الضر ليخشى كما يقع في هذه الدنيا ، بل يقع في الدنيا في أوهام كثيرة أن عذاب من يخشونه أعظم من عذاب الله – وأن عذاب الدنيا بأسره لو اجتمع على إنسان وحده لا يساوي رؤية جهنم بذلك المقام في ذلك المحفل المهول دون دخولها – ولذلك تقدم خوفه على الخوف من الله ، وبنى الكسائي ويعقوب الفعلين للمفعول ، والمعنى على قراءة الجماعة ببنائها للفاعل : لا يعذب أحد عذاباً مثل عذاب الله أي لا يعذب أحد غير الله أحداً من الخلق مثل عذاب الله له ، والحاصل أنه لا يخاف في القيامة من أحد غير الله ، فإنه ثبت بهذا الكلام أن عذابه

لا مثل له ، ولم يذكر المعذب من هو فيرجع الأمر إلى أن المعنى : فيومئذ يخاف الإنسان من الله خوفاً لا مثل له ، أي لا يخاف من أحد مثل خوفه منه سبحانه وتعالى ، ويجوز أن يكون الضمير في " عذابه " للإنسان ، أي لا يعذب أحد من الزبانية أحداً غير الإنسان مثل عذابه ، وفي المبني للمفعول : لا يعذب عذاب الإنسان أحد لكن يبعده أنه يلزم عليه أن يكون عذاب الإنسان أعظم من عذاب إبليس – ويجوز أن يكون المعنى : إنه لا يحمل أحد ما يستحقه من العذاب كقوله تعالى :

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : 164] .

(9/815)

ولما علم أن هذا الجزاء المذكور لا يكون إلا للهلوع الجزوع المضطرب النفس الطائش في حال السراء والضراء ، الذي لا يكرم اليتيم ولا المسكين ويحب الدنيا ، وكان من المعلوم أن من الناس من ليس هو كذلك ، تشوفت النفس إلى جزائه فشفى عيّ هذا التشوف بقوله ، إعلاماً بأنه يقال لنفوسهم عند النفخ في الصور وبعثرة ما في القبور للبعث والنشور : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ أي التي هي في غاية السكون لا خوف عليها ولا حزن ولا نقص ولا غبون ، لأنها كانت في الدنيا في غاية الثبات على كل ما أخبر به عن الدار الآخرة وغيرها

من وعد ووعيد وتحذير وتهديد ، فهم راجون لوعده خائفون من وعيده ، وإذا كانت هذه حال النفس التي شأنها الميل إلى الدنيا فما ظنك بالروح التي هي خير صرف

﴿ ارجعي ﴾ أي بالبعث ﴿ إلى ربك ﴾ أي موعد الذي أوجدك ورباك تربية الموفقين ، أو إلى بدنك حال كونك ﴿ راضية ﴾ أي بما تعطينه .

(10/815)

فلا كدر يلحقك بوجه من الوجوه أصلاً كما كنت في دار القلق والاضطراب مطمئنة ساكنة تحت القضاء والقدر سالكة سبيل الرضا إن حصل ابتلاء بالتكريم والتنعيم أو التضييق والتغريم وثوقاً بما عند الله ﴿ مرضية ﴾ عند الله وسائر خلقه ، فلا شيء يكرهك بسبب ما كنت مطمئنة تعملين الأعمال الصالحة تحت القضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، ثم بيّن ما أجمل من الرجوع فقال سبحانه : ﴿ فادخلي ﴾ أي بسبب هذا الأمر ﴿ في عبادي ﴾ أي في زمرة الصالحين الوافدين عليَّ ، الذين هم أهل للإضافة إليَّ ، أو في أجساد عبادي التي خرجت في الدنيا منها ، وقراءة " عبدي " بالتوحيد للجنس الشامل للقليل والكثير تدل على ذلك ﴿ وادخلي جنتي ﴾ أي وهي جنة عدن وهي أعلى الجنان ، قال البغوي : قال سعيد بن جبير : مات ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ بالطائف فشهدت

جنازته فجاء طائر لم نر على صورة خلقه ، فدخل نعشه فلم نر خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر فلم ندر من تلاها ، وهذا الآخر هو أولها على ما هو ظاهر المقسم عليه بالفجر من البعث المحتوم ، الذي لولا هو لكان خلق الخلق من العبث المذموم ، المنزه عنه الحي القيوم ، فسبحان الملك الأعظم الذي هذا كلامه ، علت معانيه عن طعن وشرفت أعلامه ، وغر في ذروة الإعجاز تركيبه ونظامه ، " وأين الثريا من يد المتناول " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 420 . 424 ﴾

(11/815)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تتهيأ من حل أو حرام ، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء .

فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب

بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى الله تعالى ، ثم بين أنه إذا جاء يوم موصوف بصفات ثلاثة فإنه يحصل ذلك التمني وتلك الندامة .

الصفة الأولى : من صفات ذلك اليوم قوله : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ قال الخليل : الدك كسر الحائط والجبل والدكداك رمل متلبد ، ورجل مدك شديد الوطء على الأرض ، وقال المبرد : الدك حط المرتفع بالبسط واندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره ، وناقة دكاء إذا كانت كذلك ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش ، فمعنى الدك على قول الخليل : كسر كل شيء على وجه الأرض من جبل أو شجر حين زلزلت فلم يبق على ظهرها شيء ، وعلى قول المبرد : معناه أنها استوت في الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصحرة الملساء ، وهذا معنى قول ابن عباس : تمد الأرض يوم القيامة .

واعلم أن التكرار في قوله : ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ معناه دكاً بعد دك كقولك حسبته باباً باباً وعلمته حرفاً حرفاً أي كرر عليها الدك حتى صارت هباءً منثوراً .

(12/815)

واعلم أن هذا التدكدك لا بد وأن يكون متأخراً عن الزلزلة ، فإذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة وحركت تحريكاً بعد تحريك انكسرت الجبال التي عليها وانهدمت التلال وامتلأت

الأغوار وصارت ملساء ، وذلك عند انقضاض الدنيا وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ [النازعات : 67] وقال : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ [الحاقة : 14] وقال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ، وبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 4 ، 5] .

الصفة الثانية : من صفات ذلك اليوم قوله : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ .

واعلم أنه ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله تعالى محال ، لأن كل ما كان كذلك كان جسماً والجسم يستحيل أن يكون أزلياً فلا بد فيه من التأويل ، وهو أن هذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، ثم ذلك المضاف ما هو ؟ فيه وجوه أحدها : وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة وثانيها : وجاء قهر ربك كما يقال جاءتنا بنو أمية أي قهرهم وثالثها : وجاء جلائل آيات ربك لأن هذا يكون يوم القيامة ، وفي ذلك اليوم تظهر العظائم وجلائل الآيات ، فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لشأن تلك الآيات ورابعها : وجاء ظهور ربك ، وذلك لأن معرفة الله تصير في ذلك اليوم ضرورية فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق ، فقيل : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ أي زالت الشبهة وارتفعت الشكوك خامسها : أن هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة مالا يظهر بحضور عساكره كلها وسادسها : أن الرب هو المربى ، ولعل ملكاً هو أعظم الملائكة هو مربي للنبي صلى الله

عليه وسلم جاء فكان هو المراد من قوله : ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ .

أما قوله : ﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ فالمعنى أنه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس .

(13/815)

الصفة الثالثة : من صفات ذلك اليوم قوله تعالى : ﴿ وَجِيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء : 91] قال جماعة من المفسرين : جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ، قال الأصوليون : ومعلوم أنها لا تنفك عن مكانها ، فالمراد ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ أي ظهرت حتى رآها الخلق ، وعلم الكافر أن مصيره إليها ، ثم قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ واعلم أن تقدير الكلام : إذا دكت الأرض ، وحصل كذا وكذا فيومئذ يتذكر الإنسان ، وفي تذكره وجوه الأول : أنه يتذكر ما فرط فيه لأنه حين كان في الدنيا كانت همته تحصيل الدنيا ، ثم إنه في الآخرة يتذكر أن ذلك كان ضلالاً ، وكان الواجب عليه أن تكون همته تحصيل الآخرة الثاني : يتذكر أي يتعظ ، والمعنى أنه ما كان يتعظ في الدنيا فيصير في الآخرة متعظاً فيقول : ﴿ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ

نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : 27] ، الثالث : يتذكر يتوب وهو مروي عن الحسن ، ثم قال تعالى : ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ وقد جاءهم رسول مبين

واعلم أن بين قوله : ﴿ يَتَذَكَّرُ ﴾ وبين قوله : ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ تناقضاً فلا بد من إضمار المضاف والمعنى ومن أين له منفعة الذكرى .

(14/815)

ويتفرع على هذه الآية مسألة أصوليه ، وهي أن قبول التوبة عندنا غير واجب على الله عقلاً ، وقالت المعتزلة : هو واجب فنقول : الدليل على قولنا أن الآية دلت ههنا على أن الإنسان يعلم في الآخرة أن الذي يعمله في الدنيا لم يكن أصلح له وإن الذي تركه كان أصلح له ، ومهما عرف ذلك لا بد وأن يندم عليه ، وإذا حصل الندم فقد حصلت التوبة ، ثم إنه تعالى نفى كون تلك التوبة نافعة بقوله : ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ فعلمنا أن التوبة لا يجب عقلاً قبولها ، فإن قيل القوم : إنما ندموا على أفعالهم لا لوجه قبحها بل لترتب العقاب عليها ، فلا جرم ما كانت التوبة صحيحة ؟ قلنا : القوم لما علموا أن الندم على القبيح لا بد وأن يكون لوجه قبحه حتى يكون نافعاً وجب أن يكون ندمهم واقعاً على هذا الوجه ، فحينئذ يكونون آتين بالتوبة الصحيحة مع عدم القبول فصح قولنا .

ثم شرح تعالى ما يقوله هذا الإنسان فقال تعالى :

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

للآية تأويلات :

أحدهما : ياليتني قدمت في الدنيا التي كانت حياتي فيها منقطعة ، لحياتي هذه التي هي دائمة غير منقطعة ، وإنما قال : ﴿ لِحَيَاتِى ﴾ ولم يقل : لهذه الحياة على معنى أن الحياة كأنها ليست إلا الحياة في الدار الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدار الاخرة لَهِىَ الحيوان ﴾ [العنكبوت : 64] أي لهي الحياة .

وثانيها : أنه تعالى قال في حق الكافر : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : 17] وقال : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] وقال : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى * الذى يَصْلَى النار الكبرى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [الأعلى : 11 - 13] فهذه الآية دلت على أن أهل النار في الآخرة كأنه لا حياة لهم ، والمعنى فياليتني قدمت عملاً يوجب نجاتي من النار حتى أكون من الأحياء .

وثالثها : أن يكون المعنى : فياليتني قدمت وقت حياتي في الدنيا ، كقولك جئته لعشر ليال خلون من رجب .

المسألة الثانية :

استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم وأنهم ما كانوا محجوبين عن الطاعات مجترئين على المعاصي وجوابه : أن فعلهم كان معلقاً بقصدهم ، فقصدهم إن كان معلقاً بقصد آخر لزم التسلسل ، وإن كان معلقاً بقصد الله فقد بطل الاعتزال .

ثم قال تعالى :

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قراءة العامة يعذب ويوثق بكسر العين فيهما (1)

قال مقاتل معناه : فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق ، والمعنى لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب والوثاق ، قال أبو عبيدة : هذا التفسير ضعيف لأنه ليس يوم القيامة معذب سوى الله فكيف يقال : لا يعذب أحد في مثل عذابه ، وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه الأول : أن التقدير لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله الكافر يومئذ ، ولا يوثق أحد في الدنيا وثاق الله الكافر يومئذ ، والمعنى مثل عذابه ووثاقه في الشدة والمبالغة الثاني : أن المعنى لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد ، أي الأمر يومئذ أمره ولا أمر لغيره الثالث : وهو قول أبي علي الفارسي : أن يكون التقدير لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه ، فالضمير في عذابه عائد إلى الإنسان ، وقرأ الكسائي لا يعذب ولا يوثق بفتح العين فيها واختاره أبو عبيدة ، وعن أبي عمرو أنه رجع إليها في آخر عمره ، لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأهما بالفتح والضمير للإنسان الموصوف ، وقيل : هو أبي بن خلف ولهذه القراءة تفسيران أحدهما : لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، لتناهيه في كفره وفساده والثاني : أنه لا يعذب أحد من الناس عذاب الكافر ، كقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [فاطر : 18] قال الواحدي وهذه أولى الأقوال .

المسألة الثانية :

العذاب في القراءتين بمعنى التعذيب والوثاق بمعنى الإيثاق ، كالعطاء بمعنى الإعطاء في قوله :

[أكفراً بعد رد الموت عن] . . وبعد عطائك المائة الرتاعا

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28)

اعلم أنه تعالى لما وصف حال من اطمأن إلى الدنيا ، ووصف حال من أطمأن إلى معرفته وعبوديته ، فقال : ﴿ يا أيتها النفس ﴾ وفيه مسائل :

---

(1) يريد بالعين هنا الذال والثاء فهما عين الفعل ، يريد يعذب ويوثق بالبناء للفاعل لا للمفعول (الصاوي) .

(17/815)

المسألة الأولى :

تقدير هذا الكلام .

يقول الله للمؤمن : ﴿ يا أيتها النفس ﴾ فإما أن يكلمه إكراماً له كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان ملك ، وقال القفال : هذا وإن كان أمراً في الظاهر لكنه خبر في المعنى ، والتقدير أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت إلى الله ، وقال الله لها : ﴿ فادخلي فِي

عِبَادِى * وادخلى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : 30 29] قال : ومجيء الأمر بمعنى الخبر كثير في كلامهم ، كقولهم : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

المسألة الثانية :

الاطمئنان هو الاستقرار والثبات ، وفي كيفية هذا الاستقرار وجوه أحدها : أن تكون متيقنة بالحق ، فلا يخالجها شك ، وهو المراد من قوله : ﴿ ولكن لّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : 260] وثانيها : النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ، ويشهد لهذا التفسير قراءة أبي بن كعب يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة ، وهذه الخاصة قد تحصل عند الموت عند سماع قوله : ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة ﴾ [فصلت : 30] وتحصل عند البعث ، وعند دخول الجنة لا محالة وثالثها : وهو تأويل مطابق للحقائق العقلية ، فنقول : القرآن والبرهان تطابقا على أن هذا الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر الله ، أما القرآن فقوله : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] وأما البرهان فمن وجهين الأول : أن القوة العاقلة إذا أخذت تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات ، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكناً لذاته طلب العقل له سبباً آخر ، فلم يقف العقل عنده ، بل لا يزال ينتقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه ، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات .

ومنتهى الضرورات ، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه ، ولم ينتقل عنه إلى غيره ، فإذاً كلما كانت القوة العاقلة ناظرة إلى شيء من الممكنات ملتفة إليه استحال أن تستقر عنده ، وإذا نظرت إلى جلال واجب الوجود ، وعرفت أن الكل منه استحال أن تنتقل عنه ، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر واجب الوجود الثاني : أن حاجات العبد غير متناهية وكل ما سوى الله تعالى فهو متناهي البقاء والقوة إلا بامداد الله ، وغير المتناهي لا يصير مجبوراً بالمتناهي ، فلا بد في مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها من كمال الله الذي لا نهاية له ، حتى يحصل الاستقرار ، فثبت أن كل من آثر معرفة الله لا لشيء غير الله فهو غير مطمئن ، وليست نفسه نفساً مطمئنة ، أما من آثر معرفة الله لشيء سواه فنفسه هي النفس المطمئنة ، وكل من كان كذلك كان أنسه بالله وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله ، فلا جرم يخاطب عند مفارقته الدنيا بقوله : ﴿ ارجعى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ وهذا كلام لا ينتفع الإنسان به إلا إذا كان كاملاً في القوة الفكرية الإلهية أو في التجريد والتفريد .

المسألة الثالثة :

اعلم أن الله تعالى ذكر مطلق النفس في القرآن فقال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] وقال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : 116] وقال :

﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُوَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] وتارة وصفها بكونها أمارة بالسوء ، فقال : ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ [يوسف : 53] وتارة بكونها لوامة ، فقال : ﴿ بالنفس اللوامة ﴾ [القيامة : 2] وتارة بكونها مطمئنة كما في هذه الآية .

(19/815)

واعلم أن نفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك : (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت ، إلا أن المشار إليه بهذه الإشارة ليس هو هذه البنية لوجهين الأول : أن المشار إليه بقولك : (أنا) قد يكون معلوماً حال ما تكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة ، والمعلوم غير ما هو غير معلوم والثاني : أن هذه البنية متبدلة الأجزاء والمشار إليه بقولك : (أنا) غير متبدل ، فإني أعلم بالضرورة أني أنا الذي كنت موجوداً قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، والمتبدل غير ما هو غير متبدل ، فإذاً ليست النفس عبارة عن هذه البنية ، وتقول : قال قوم إن النفس ليست بجسم لأنا قد نعقل المشار إليه بقوله : (أنا) حال ما أكون غافلاً عن الجسم الذي حقيقته المختص بالحيز الذاهب في الطول والعرض والعمق .

والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، وجواب المعارضة بالنفس مذكور في كتابنا المسمى بلباب

الإشارات ، وقال آخرون : بل هو جوهر جسماني لطيف صاف بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية نوراني سماوي مخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية ، فإذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حياً وإن فارقته صار البدن ميتاً ، وعلى التقدير الأول يكون وصفها بالمجيء والرجوع بمعنى التدبير وتركه ، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك الوصف حقيقاً .

المسألة الرابعة :

من القدماء من زعم أن النفوس أزلية ، واحتجوا بهذه الآية وهي قوله : ﴿ ارجعي إلى ربّكِ ﴾ فإن هذا إنما يقال : لما كان موجوداً قبل هذا البدن .

واعلم أن هذا الكلام يتفرع على أن هذا الخطاب متى يوجد ؟ وفيه وجهان الأول : أنه إنما يوجد عند الموت ، وههنا تقوى حجة القائلين بتقدم الأرواح على الأجساد ، إلا أنه لا يلزم من تقدمها عليها قدمها الثاني : أنه إنما يوجد عند البعث والقيامة ، والمعنى : ارجعي إلى ثواب ربك ، فادخلي في عبادي ، أي ادخلي في الجسد الذي خرجت منه .

المسألة الخامسة :

المجسمة تمسكوا بقوله : ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ وكلمة إلى لانتهاء الغاية وجوابه : إلى حكم ربك ، أو إلى ثواب ربك أو إلى إحسان ربك والجواب : الحقيقي المفرع على القاعدة العقلية التي قررناها ، أن القوة العقلية بسيرها العقلي تترقى من موجود إلى موجود آخر ، ومن سبب إلى سبب حتى تنتهي إلى حضرة واجب الوجود ، فهناك انتهاء الغايات وانقطاع الحركات ، أما قوله تعالى : ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ فالمعنى راضية بالثواب مرضية عنك في الأعمال التي عملتها في الدنيا ، ويدل على صحة هذا التفسير ، ما روى أن رجلاً قرأ عند النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات ، فقال أبو بكر : ما أحسن هذا ! فقال عليه الصلاة والسلام : " أما إن الملك سيقولها لك " ثم قوله تعالى :

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قيل : نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وقيل : في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو بلدتك ، فحول الله وجهه نحوها ، فلم يستطع أحد أن يحوله ، وأنت قد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ ادخلى فِى عِبَادِى ﴾ أي انضمي إلى عبادي المقربين ، وهذه حالة شريفة ، وذلك لأن الأرواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا المصقولة ، فإذا انضم بعضها إلى البعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض ، فيظهر في كل واحد منها كل ما ظهر في كلها ، وبالجملة فيكون ذلك الانضمام سبباً لتكامل تلك السعادات ، وتعاظم تلك الدرجات الروحانية ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين * فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 90 91 ﴾ وذلك هو السعادة الروحاني] ، ثم قال : ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ وهذا إشارة إلى السعادة الجسمانية ، ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عن الموت في حق السعداء ، لا جرم قال : ﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ فذكر بفاء التعقيب ، ولما كانت الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها إلا بعد قيام القيامة الكبرى ، لا جرم قال : ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ فذكره بالواو لا بالفاء ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 157.162 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) ﴾

ذكر الله تعالى في هذه الآية : ما كانت قريش تقوله تستدل به على إكرام الله تعالى وإهانته لعبده ، وذلك أنهم كانوا يرون أن من عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المكرم ، وبضده المهان ، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثيرين من الكفار ، جاء التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس ، إذ يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع ، ومن ذلك حديث الأعراب الذين كانوا يقدمون المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن نال خيراً قال هذا دين حسن ، ومن ناله شر قال هذا دين سوء ، و﴿ ابتلاه ﴾ معناه : اختبره ، و﴿ نعمه ﴾ معناه : جعله ذا نعمة ، وقرأ ابن كثير " أكرمني " بالياء في وصل ووقف وحذفها عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي في الوجهين : وقرأ نافع بالياء في الوصل وحذفها في الوقف ، وكذلك " أهانني " ، وخير في الوجهين أبو عمرو ، وقرأ جمهور الناس : " فقدَر " بتخفيف الدال ، بمعنى ضيق ، وقرأ الحسن بخلاف وأبو جعفر وعيسى " قدّر " بمعنى : جعله على قدر ، وهما بمعنى واحد في معنى التضييق لأنه ضعف قدر مبالغة جعفر وعيسى " قدّر " بمعنى

: جعله على قدر ، وهم بمعنى واحد في معنى التضييق لأنه ضعف قدر مبالغة لا تعدية ، ويقتضي ذلك قول الإنسان ﴿ أهانني ﴾ ، لأن " قدر " معدي إنما معناه أعطاه ما يكفيه ولا إهانة مع ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردّاً على قولهم ومعتقدهم ، أي ليس إكرام الله تعالى وإهانته ، في ذلك ، وإنما ذلك ابتلاء فحق من ابتلي بالغنى أن يشكر ويطيع ، ومن ابتلي بالفقر أن يشكر ويصبر ، وأما إكرام الله تعالى فهو بالتقوى ، وإهانته فبالمعصية ، ثم أخبرهم بأعمالهم من أنهم لا يكرمون اليتيم وهو من بني آدم الذي فقد أباه وكان غير بالغ . ومن البهائم ما فقد أمه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أحَبُّ البيوت إلى الله ، بيت فيه يتيم مكرم " ، وقرأ ابن كثير وابن عامر " يحضون " بمعنى : يحض بعضهم بعضاً أو تحضون أنفسكم ، وقرأ عاصم وحمزة

(23/815)

والكسائي " تحاضون " بفتح التاء بعنى تتحاضون ، أي يحض قوم قوماً ، وقرأ أبو عمرو و" يحضون " بياء من تحت مفتوحة وبغير ألف ، وقرأ عبد الله بن المبار : " تُحاضون " بضم التاء على وزن تقاتلون ، أي أنفسكم أي بعضكم بعضاً ورواها الشيرزي عن الكسائي ، وقد يجيء فاعلت بمعنى فعلت وهذا منه ، وإلى هذا ذهب أبو علي وأنشد :

تحاسنت به الوشى . . . قرات الرياح وخوزها

أي حسنت وأنشد أيضاً : [الرجز]

إذا تخازرت وما بي من خزر . . . ويحتمل أن تكون مفاعلة ، ويتحه ذلك على زحف ما فتأمله ، وقرأ الأعمش " تتحاضون " بتاءين ، و﴿ طعام ﴾ في هذه الآية بمعنى إطعام ، وقال قوم أراد نفس طعامه الذي يأكل ، ففي الكلام حذف تقديره على بدل ﴿ طعام المسكين ﴾ ، وقد تقدم القول في (سورة براءة) في المسكين والفقير بمعنى يغني عن إعادته ، وعدد عليهم جدهم في أكل التراث لأنهم لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد إنما كان يأخذ المال من يقاتل ويحمي الحوزة ، و" اللّم " : الجمع واللف .

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23)

(24/815)

روي في قوله تعالى : ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ أنها تساق إلى الحشر بسبعين ألف زمام ، يمسك كل زمام سبعون ألف ملك فيخرج منها عنق فينتقي الجبابرة من الكفار في حديث طويل مختلف الألفاظ ، و" جهنم " هنا ، هي النار بجملتها ، وروي أنه لما نزلت ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ تغير لون النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ يتذكر الإنسان ﴾

معناه : يتذكر عصيانه وطغيانه ، وينظر ما فاته من العمل الصالح ، ثم قال تعالى : ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ ثم ذكر عنه أنه يقول : ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ ، واختلف في معنى قوله : ﴿ لحياتي ﴾ فقال جمهور المتأولين معناه : ﴿ لحياتي ﴾ الباقية يريد في الآخرة ، وقال قوم من المتأولين : المعنى ﴿ لحياتي ﴾ في قبري عند بعثي الذي كنت أكذب به وأعتقد أني لن أعود حياً ، وقال آخرون : ﴿ لحياتي ﴾ هنا مجاز ، أي ﴿ ليتني قدمت ﴾ عملاً صالحاً لأنعم به اليوم وأحيا حياة طيبة ، فهذا كما يقول الإنسان أحييني في هذا الأمر ، وقال بعض المتأولين لوقت أو لمدة حياتي الماضية في الدنيا ، وهذا كما تقول جئت لطلوع الشمس ولتاريخ كذا ونحوه ، وقرأ جمهور القراء وعلي بن أبي طالب وابن عباس وأبو عبد الرحمن " يعذِّب " و" يوثِق " بكسر الذال الثاء ، وعلى هذه القراءة ، فالضمير عائد في عذابه ووثاقه لله تعالى ، والمصدر مضاف إلى الفاعل ولذلك معنيان : أحدهما أن الله تعالى لا يكل عذاب الكفار يومئذ إلى أحد ، والآخر أن عذابه من الشدة في حيز لم يعذب قط أحد بمثله ، ويحتمل أن يكون الضمير للكافر والمصدر مضاف إلى المفعول ، وقرأ الكسائي وابن سيرين وابن أبي إسحاق وسوار القاضي " يعذَّب " و" يوثَق " بفتح الذال والثاء ، ورويت كثيراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فالضميران على هذا للكافر الذي هو بمنزلة جنسه كله والمصدر مضاف إلى المفعول ووضع عذاب موضع تعذيب كما قال : [القرطبي] : [الوافر]

وبعض عطائك المائة الرتاعا . . . ويحتمل أن يكون الضميران في هذه القراءة لله تعالى ، كأنه قال : لا يعذب أحد قط في الدنيا عذاب الله للكفار ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل ، وفي هذا التأويل تحامل ، وقرأ الخليل بن أحمد " وِثاقه " بكسر الواو ، ولما فرغ ذكر هؤلاء المعذبين عقب تعالى بذكر نفوس المؤمنين وحالهم فقال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ الآية ، و ﴿ المطمئنة ﴾ معناه : الموقنة غاية اليقين ، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [البقرة : 260] ، فهي درجة زائدة على الإيمان ، وهي أن لا يبقى على النفس في يقينها مطلب يحركها إلى تحصيله ، واختلف الناس في هذا النداء متى يقع فقال ابن زيد وغيره : هو عند خروج نفس المؤمن من جسده في الدنيا ، وروي أن أبا بكر الصديق سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : (إن الملك سيقولها لك يا أبا بكر عند موتك) ومعنى " ارجعي الى ربك " على هذا التأويل " ارجعي " بالموت الفجر : (29 - 30) فادخلي في عبادي وقال وقوله " في عبادي " أي في اعداد عبادي الصالحين وهذه قراءة الجمهور .

بجمع (عبادي) وقال قوم النداء عند قيام الأجساد من القبور فقوله " ارجعي الى ربك " معناه بالبعث من موتك ارجعي الى الله

وقيل الرب هنا الإنسان ذو النفس أي " ادخلي " في الأجساد و " النفس " اسم جنس وقال بعض العلماء هذا النداء هو الان للمؤمنين لما ذكر حال الكفار قال يا مؤمنون دوموا وجدوا حتى ترجعوا راضين مرضيين ف " النفس " على هذا اسم الجنس وقرا ابن عباس وعكرمة وأبو شيخ والضحاك واليماني ومجاهد وأبو جعفر (فادخلى في عبدي) و " النفس " على هذا ليست باسم الجنس وانما خاطب مفردة

قال أبو شيخ الروح يدخل في البدن وفي مصحف أبي بن كعب (يا أيتها النفس الامنة المطمئنة إيتي ربك راضية مرضية فارجعي في عبدي) وقرا سالم بن عبد الله (فادخلي في عبادي ولجي جنتي) وتحتمل قراءة (عبدي) ان يكون العبد اسم جنس جعل عباده كالشيء الواحد دلالة على الالتحام كما قال عليه السلام وهم يد على من سواهم وقال آخرون إنما هو الموقف عندما ينطلق بأهل النار الى النار فنداء النفوس على هذا إنما هو نداء أرباب النفوس ومعنى " ارجعي الى ربك " على هذا الى رحمة ربك والعباد هنا الصالحون المنعمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر .

فهو ردّ لانكبابهم على الدنيا ، وجمعهم لها ، فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكّ الأرض ، ولا ينفع الندم .

والدّك : الكسر والدقّ ؛ وقد تقدّم .

أي زلزلت الأرض ، وحُرِّكت تحريكاً بعد تحريك .

وقال الزجاج : أي زلزلت فدَك بعضها بعضاً .

وقال المبرد : أي أُلصِقت وذهب ارتفاعها .

يقال : ناقة دَكَّاء ، أي لا سنام لها ، والجمع دُكٌّ .

وقد مضى في سورة "الأعراف" و"الحاقة" القول في هذا .

ويقولون : دُكّ الشيء أي هُدِم .

قال :

هل غير غار دَكَّ غاراً فانهدمْ . . .

﴿ دَكّاً دَكّاً ﴾ أي مرة بعد مرة ؛ زلزلت فكسَّر بعضها بعضاً ؛ فتكسر كل شيء على ظهرها .

وقيل : دُكّت جبالها وأنشازها حتى استوت .

وقيل : دُكت أي استوت في الانفراش ؛ فذهب دُورها وقُصورها وجبالها وسائر أبنيتها .

ومنه سمي الدّكان ، لاستوائه في الانفراش .

والدك : حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط ؛ وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمدّ الأرض مدّ الأديم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي أمره وقضاؤه ؛ قاله الحسن .

وهو من باب حذف المضاف .

وقيل : أي جاءهم الربّ بالآيات العظيمة ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام ﴾ [البقرة : 210] ، أي بظلل .

وقيل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له ، تفخيماً لشأن تلك الآيات .

ومنه قوله تعالى في الحديث : " يا ابن آدم ، مرِضت فلم تَعُدِني ، واستسقيتُك فلم تَسْقِني ، واستطعمتك فلم تُطْعِمْني " وقيل : "وجاءَ رَبُّك" أي زالت الشُّبَهُ ذلك اليوم ، وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشُّبَه والشك عند مجيء الشيء الذي كان يُشَك فيه .

قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته واستولت ، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحوّل من مكان إلى مكان ، وأَنَّى له التحوّل والانتقال ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجري عليه وقت ولا زمان ؛ لأن في جَرَيان الوقت على الشيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز .

قوله تعالى : ﴿ والملك ﴾ أي الملائكة .

﴿ صَفّاً صَفّاً ﴾ أي صفوفاً .

﴿ وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : قال ابن مسعود ومقاتل : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير ، حتى تنصب عن يسار العرش .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُؤْتَى بجهنم يومئذٍ ، لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، يجرّونها " وقال أبو سعيد الخُدريّ : " لما نزلت ﴿ وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ تغير لون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعُرف في وجهه ، حتى اشتدّ على أصحابه ، ثم قال : "أقرأني جبريل ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرض دَكّاً دَكّاً ﴾ الآية ﴿ وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ " .

قال عليّ رضي الله عنه : قلت يا رسول الله ، كيف يجاء بها ؟ قال : "يؤتى بها تقاد

بسبعين ألفَ زمام ، يقود بكل زمام سبعون ألفَ مَلَك ، فَتَشْرُد شَرْدَةَ لو تركت لأحرقت أهل الجمع ثم تَعْرِض لي جهنم فتقول : ما لي ولك يا محمد ، إن الله قد حرّم لحمك عليّ" فلا يبقى أحد إلا قال نفسي نفسي ! إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : رب أمتي ! ربِّ أمتي ! " .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ أي يتعِظ ويتوب .

وهو الكافر ، أو من هِمته معظم الدنيا .

﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ أي ومِن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرّط فيها في الدنيا .

ويقال : أي ومِن أين له منفعة الذكرى .

فلا بدّ من تقدير حذف المضاف ، وإلا فبين "يَوْمَئِذٍ يتذكر" وبين "وأَنَّى له الذكرى" تنافٍ ؛ قاله الزمخشريّ .

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24)

(29/815)

أي في حياتي .

فاللام بمعنى في .

وقيل : أي قدمت عملاً صالحاً لحياتي ، أي لحياة لا موت فيها .

وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة ، فكأنهم لا حياة لهم ؛ فالمعنى : يا ليتني قدّمت من الخير لنجاتي من النار ، فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾

أي لا يعذِّب كعذاب الله أَحَد ، ولا يُوثِق كوثاقه أحد .

والكناية ترجع إلى الله تعالى .

وهو قول ابن عباس والحسن .

وقرأ الكسائي "لا يُعَذَّب" "ولا يُوثَق" بفتح الذال والثاء ؛ أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يَوْمَئذ ، ولا يوثَق كما يوثَق الكافر .

والمراد إبليس ؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذاباً ، لأجل إجرامه ؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير .

وقيل : إنه أمية بن خلف ؛ حكاه الفرّاء .

يعني أنه لا يعذَّب كعذاب هذا الكافر المعيَّن أحد ، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كوَثاقه أحد ؛ لتناهيه في كفره وعناده .

وقيل : أي لا يعذَّب مكانه أحد ، فلا يؤخذ منه فداء .

والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى الإيثاق .

ومنه قول الشاعر :

وبَعْدَ عَطائِكَ المِائَةَ الرِّتاعا . . .

وقيل : لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء .

وتكون الهاء ضمير الكافر ؛ لأن ذلك معروف : أنه لا يعذب أحد كعذاب الله .

وقد روى أبو قِلابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بفتح الذال والثاء .

وروى أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبي صلّى الله عليه وسلم .

وقال أبو عليّ : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ؛ أي لا يعذِّب أحدٌ أحداً مثل تعذيب هذا الكافر ؛ فتكون الهاء للكافر .

والمراد ب"أحد" الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار .

قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾

(30/815)

لما ذكر حال من كانت هِمته الدنيا فاتهم الله في إغنائه وإفقاره ، ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى ، فسلم لأمره ، واتكل عليه .

وقيل : هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل .

والنفس المطمئنة : الساكنة المُوقنة ؛ أيقنت أن الله ربها ، فأخبتت لذلك ؛ قاله مجاهد وغيره .

وقال ابن عباس : أي المطمئنة بثواب الله .

وعنه المؤمنة .

وقال الحسن : المؤمنة الموقنة .

وعن مجاهد أيضاً : الراضية بقضاء الله ، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها .

وقال مقاتل : الآمنة من عذاب الله .

وفي حرف أُبيّ بن كعب "يأيتها النفس الآمنة المطمئنة" .

وقيل : التي عمِلت على يقين بما وعد الله في كتابه .

وقال ابن كَيسان : المطمئنة هنا : المخلصة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين .

وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى ؛ بيانه ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ [الرعد : 28] .

وقيل : المطمئنة بالإيمان ، المُصدِّقة بالمبعث والثواب .

وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت ، وعند البعث ، ويوم الجمع .

وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال : يعني نفس حمزة .

والصحيح أنها عامة في كل نفسِ مؤمنٍ مخلصٍ طائع .

قال الحسن البصريّ : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض رُوح عبده المؤمن ، اطمأنت النفس إلى الله تعالى ، واطمأن الله إليها .

وقال عمرو بن العاص : إذا تُوُفّيَ المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين ، وأرسل معهما تُحْفة من الجنة ، فيقولان لها : اخرُجي أيتُّها النفسُ المطمئنةُ راضية مَرْضِية ، ومَرْضِياً عنك ، اخرجي إلى رَوْحٍ وريَحْان ، ورَبٍّ راضٍ غيرِ غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك وَجَد أحد من أنفه على ظهر الأرض .

وذكر الحديث .

(31/815)

وقال سعيد بن زايد : " قرأ رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم " يا أَيَّتُهَا النفسُ المُطْمَئِنَّة" ، فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يا رسول الله ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن المَلَكَ سيقولها لك يا أبا بكر" " وقال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف ،

فجاء طائر لم يُرَ على خِلقته طائر قط ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شَفِير القبر لا يُدْرَى من تلاها : ﴿ يا أَيَّتُهَا النفس المطمئنة * ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

وروى الضحاك : أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رُومَة .

وقيل : نزلت في خُبَيب بن عدِيّ الذي صَلَبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فحوّل الله وجهه نحو القِبلة .

والله أعلم .

معنى ﴿ إلى رَبِّكِ ﴾ أي إلى صاحبك وجسدِك ؛ قاله ابن عباس وعِكرمة وعطاء .

واختاره الطَّبَريّ ؛ ودليله قراءة ابن عباس "فادْخُلِي فِي عَبْدِي" على التوحيد ، فيأمر الله تعالى الأرواح غداً أن ترجع إلى الأجساد .

وقرأ ابن مسعود "في جسدِ عبدي" .

وقال الحسن : ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته .

وقال أبو صالح : المعنى : ارجعي إلى الله .

وهذا عند الموت .

﴿ فادخلي فِي عِبَادِي ﴾ أي في أجساد عبادي ؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود .

قال ابن عباس : هذا يوم القيامة ؛ وقاله الضحاك .

والجمهور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مَسْكَن الأبرار ، ودار الصالحين والأخيار .

ومعنى "فِي عِبادِي" أي في الصالحين من عبادي ؛ كما قال : ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصالحين ﴾ [العنكبوت : 9] .

وقال الأخفش : ﴿ فِي عِبَادِي ﴾ أي في حِزبي ؛ والمعنى واحد .

أي انتظمي في سِلْكهم .

﴿ وادخلي جَنَّتِي ﴾ معهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(32/815)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ معناه جَاءَ أَمرُهُ وقضاؤه ، وقال منذرُ بنُ سعيد : معناه ظهورُه للخَلْقِ ، هنالك ؛ ليس مجيءَ نَقَلَةٍ وكذلك مجيءُ الصاخَّةِ ، ومجيء الطامةِ ، والمَلَكُ اسم جنس يريد به جميعَ الملائِكة ، و ﴿ صَفّاً ﴾ أي صُفُوفاً حولَ الأَرْضِ يوم القيامة على ما تقدم في غير هذا الموضع ، و ﴿ وَجِاْىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ رُوِيَ في قوله تعالى : ﴿ وَجِاْىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ بأنها تساقُ إلى المحشر بسبعينَ ألفِ زمَامٍ يُمْسِكُ كلَّ زِمَامٍ سَبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ ، فيخرجُ منها عُنُقٌ فينتقي الجبابرةَ من الكفارِ ، في حديثٍ طويلٍ باختلاف

ألفاظ.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ معناه: يتذكر عصيانَه وما فاتَه من العمل الصالحِ، وقال الثعلبي: «يومئذ يتذكر الإنسان» أي يتَّعِظُ ويتوبُ، «وأنى له الذكرى»، انتهى.

(33/815)

وقوله: ﴿ يا ليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ قال الجمهور: معناه لحياتي الباقيةِ يريدُ في الآخِرَةِ. ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أي لا يعذِّبُ كَعَذَابِ اللَّه أحَدٌ في الدنيا، ولا يُوثِقُ كَوَثَاقِه أحَد، ويحتمل المعنى أنَّ اللَّهَ تعالى لا يَكِلُ عذابَ الكافرِ يومئذ إلى أحد، وقرأ الكسائيُّ بفتح الذالِ والثاءِ أي: لا يعذَّبُ كعذَابِ الكافر أحَدٌ مِنَ الناسِ، ثم عقَّبَ تعالى بذكر نفوس المؤمنينَ وحالهم فقال: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ الآية، والمطمئنةُ معناه: الموقِنَةُ غايةَ اليَقِينِ، ألا ترى قَوْلَ إبراهيمَ عليه السلام ﴿ ولكن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: 260] فهي درجةٌ زائدةٌ على الإيمانِ، واخْتُلِفَ في هذا النداءِ: متى يقع؟ فقال جماعة: عند خروجِ رُوحِ المؤمِن، ورُوِي في ذلك حديثٌ، و ﴿ فِى عِبَادِى ﴾ أي: في عِدَاد عِبَادي الصالحينَ، وقال قوم: النداءُ عند قيام الأَجْسَادِ من القبور، فقولُه: ﴿ ارجعى إلى رَبِّكِ ﴾ معناه بالبعثِ، و«ادْخُلِي في عِبَادي» أي في الأَجْسَادِ، وقيل: النداءُ هو

الآنَ للمؤمنينَ ، وقال آخرونَ : هذا النداء إنما هو في المَوْقِفِ عندما يُنْطَلَقُ بأهل النار إلى النار . * ت * : ولا مانِع أن يكونَ النداءُ في جميعِ هذه المواطِنِ ، ولما تكلَّمَ ابن عطاء اللَّه في مراعاة أحوال النفس قال : رُبَّ صاحبِ وِرْدٍ عَطَّلَه عن وِرْدِهِ والحضورِ فيه مع ربه هَمُّ التدبيرِ في المعيشةِ وغيرِها من مصالحِ النفسِ ، وأنواعُ وَسَاوِسِ الشيطان في التدبيرِ لا تَنْحَصِرُ ، ومتى أعطاكَ اللَّه سُبحانه الفَهْمَ عنه عرَّفَكَ كَيْفَ تَصْنَع ، فَأَيُّ عبدٍ توفَّر عقلُه واتَّسعَ نورُه نزلت عليه السكينةُ من ربّه فسكنَتْ نفسُهُ عن الاضْطِرَاب ، وَوَثِقَتْ بِوَلِيِّ الأسبابِ ، فكانت مطمئنةً ، أي : خامِدةً ساكنةً مستسلمةً لأحكامِ اللَّهِ ثابتةً لأقدارِهِ وممدودةً بتأييدِهِ وأنوارِه ، فاطمأَنَّتْ لمولاَها ؛ لعلمِها بأنه يَرَاهَا : ﴿

(34/815)

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : 53] فاستحَقَّتْ أنْ يقالُ لها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ وفي الآية خصائصُ عظيمةٌ لها مِنْها ترفيعُ شأنِها بتَكْنِيَتِها ومَدْحِها بالطَّمْأنينَةِ ثَنَاءً منه سبحانه عليها بالاستسلام إليه والتوكلِ عليه ، والمطمئنُّ المنخفضُ من الأرضِ ، فلما انخفضتْ بتَواضُعِهَا وانكسارِها ؛ أثْنَى عليها مولاَها ، ومنها قوله : ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أي : عن اللَّهِ في الدنيا

بأحكامِه ، و ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ في الآخرةِ بجُودِهِ وإنعامِه ، وفي ذلك إشارةٌ للعَبْدِ أنَّه لا يَحْصُل له أنْ يكونَ مَرْضِيًّا عند اللَّه في الآخرةِ حتى يكونَ راضِياً عن اللَّهِ في الدنيا ، انتهى من «التنوير» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(35/815)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وقولُه تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾ الخ

متصلٌ بما قبلَهُ كأنَّه قيلَ : إنه تعالَى بصددِ مراقبةِ أحوالِ عبادِه ومجازاتِهم بأعمالِهم خيراً وشراً فأما الإنسانُ فلاَ يهمُّهُ ذلكَ وإنما مطمحُ أنظارِه ومرصدُ أفكارِه الدُّنيا ولذائذِها ﴿ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ ﴾ أي عاملَهُ معاملةَ من يبتليهِ بالغِنَى واليسارِ والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ تفسيريةٌ فإنَّ الإكرامَ والتنعيمَ من الابتلاءِ ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ أي فضلنِي بما أعطانِي من المالِ والجاهِ حسَبما كنتُ أستحقهُ ولا يخطُر بباله أنه فضلٌ تفضلَ به عليهِ ليبلوَهُ أيشكرُ أم يكفرُ ، وهوُ خبرٌ للمبتدأ الذي هُوَ الإنسانُ والفاءُ لما في أمَّا منْ مَعْنى الشرطِ ، والظرفُ المتوسطُ على نيةِ التأخيرِ كأنَّه قيلَ فأمَّا الإنسانُ فيقولُ ربي أكرمنِ وقتَ ابتلائِه بالإنعامِ وإنما تقديمُه للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّ الإكرامَ والتنعيمَ بطريقِ الابتلاءِ ليتضحَ

اختلالُ قولِه المحكيِّ ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه ﴾ أيْ وأما هُو إذا ما ابتلاهُ ربُّه ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ حسبما تقتضيهِ مشيئتُه المبنيةُ على الحكمِ البالغةِ ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ ولا يخطر ببالِه أنَّ ذلكَ ليبلوهُ أيصبرُ أم يجزعُ مع أنه ليسَ من الإهانةِ في شيءٍ بل التقتيرُ قد يُؤدّي إلى كرامةِ الدارينِ والتوسعةُ قد تُفْضِي إلى خسرانِهما وقُرِىءَ فقدَّرَ بالتشديدِ وقرىء أكرمني وأهانني بإثبات الياء ، وأكرمنْ وأهانَنْ بسكون النون في الوقف . ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ للإنسانِ عن مقالتِه المحكيةِ وتكذيبٌ له فيهَا في كلتَا الحالتينِ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا المَعْنى لم أبتله بالغِنَى لكرامتِه عليَّ ولم أبتِله بالفقرِ لهوانِه عليَّ بلْ ذلكَ لمحضِ القضاءِ والقدرِ ، وحملُ الردعِ والتكذيبِ إلى قولِه الأخيرِ بعيدٌ . وقولُه تعالَى : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ انتقالٌ من بيانِ سوءِ

(36/815)

أقوالِه إلى بيانِ سوءِ أفعالِه والالتفاتُ إلى الخطابِ للإيذانِ باقتضاءِ ملاحظةِ جنايتِه السابقةِ لمشافهتِه بالتوبيخِ تشديداً للتقريعِ وتأكيداً للتشنيعِ والجمعُ باعتبارِ مَعْنى الإنسانِ إذِ المرادُ هو الجنسُ أي بَلْ لكم أحوالٌ أشدُّ شرّاً مما ذُكِرَ وأدلُّ عَلى تهالُكِكم على المالِ حيثُ يُكْرِمكم الله تعالَى بكثرةِ المالِ فلاَ تؤدونَ ما يلزمكُم فيهِ من إكرامِ اليتيمِ بالمبرةِ به وقُرِىءَ لا

يكرمونَ .

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ ﴾ بحذفِ إحْدَى التاءينِ من تَتَحاضُّون أيْ لاَ يحضُّ بعضُكم بعضاً ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي على إطعامِه . وقُرِىءَ تحاضونَ من المحاضةِ ، وقُرِىءَ يَحُضُّونَ بالياءِ والتاءِ ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ أي الميراثَ وأصلُه وِراثٌ ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أيْ ذا لمٍ أي جمعٍ بينَ الحلالِ والحرامِ فإنهم كانُوا لاَ يُورثونَ النساءَ والصبيانَ ويأكلونَ أنصباءَهم أو ويأكلونَ ما جمعَهُ المورثُ من حلالٍ وحرامٍ عالمينَ بذلكَ ﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ كثيراً معَ حِرص وشرَه . وقُرِىءَ ويُحبونَ بالياءِ .

﴿ كَلاَّ ﴾ رَدْعٌ لهمُ عن ذلكَ وقولُه تعالَى : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ الخ استئنافٌ جيءَ به بطريقِ الوعيدِ تعليلاً للردعِ أيْ إذا دكتِ الأرضُ دكاً متتابعاً حتى انكسرَ وذهبَ كلُّ ما عَلى وجهِها من جبالٍ وأبنيةٍ وقصورٍ حينَ زُلزلتْ وصَارتْ هباءً مُنبثاً وقيلَ : الدكُّ حطُّ المرتفعِ بالبسطِ والتسويةِ فالمَعْنى إذا سُويتْ تسويةً بعدَ تسويةٍ ولم يبقَ عَلى وجهِا شيءٌ حَتَّى صارتْ كالصخرةِ الملساءِ ، وأياً مَا كانَ فهو عبارةٌ عما عرضَ لها عند النفخةِ الثانيةِ ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ أي ظهرتْ آياتُ قُدرتِه وآثارُ قهرِه مثلَ ذلكَ بما يظهرُ عندَ حضورِ السلطانِ من أحكامِ هيبتِه وسياستِه ، وقيلَ جاءَ أمرُهُ تعالَى وقضاؤُه على حذفِ المضافِ للتهويلِ .

﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ أي مُصطفينَ أو ذَوِي صفوفٍ فإنه ينزلُ يومئذٍ ملائكةُ كلِّ سماءٍ فيصطفونَ صفاً بعدَ صفٍ بحسب منازِلهم ومراتبهم مُحدقينَ بالجنِّ والإنسِ .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ كقولِه تعالَى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ قال ابنُ مسعودٍ ومقاتلٌ تُقادُ جهنمُ بسبعينَ ألفَ زمامٍ كلُّ زمامٍ معه سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يَجرونَها حتى تُنصبَ عن يسارِ العرشِ لها تغيظٌ وزفيرٌ وقد رَواهُ مسلمٌ في صحيحِه عن ابنِ مسعودٍ مَرْفُوعاً . ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدلٌ مِنْ إذَا دكتْ والعاملُ فيهمَا قولُه تعالى : ﴿ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ أي يتذكرُ ما فرَّطَ فيهِ بتفاصيلِه بمشاهدةِ آثارِه وأحكامِه أو بمعاينةِ عينِه على أنَّ الأعمالَ تتجسمُ في النشأةِ الآخرةِ فيبرزُ كلٌّ من الحسناتِ والسيئاتِ بما يناسبُها من الصورِ الحسنةِ والقبيحةِ أَوْ يتعظُ وقولُه تعالى : ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ اعتراضٌ جِيءَ بِهِ لتحقيقِ أنه ليسَ يتذكرُ حقيقةً لعرائِه عن الجَدوى بعدمِ وقوعِه فى أوانه وأَنَّى خبرٌ مقدمٌ والذكْرَى مبتدأٌ وله متعلقٌ بما تعلقَ بِهِ الخبرُ أيْ ومنْ أينَ يكونُ له الذكْرَى وقد فاتَ أوانُها وقيلَ هناكَ مضافٌ محذوفٌ أيْ وأَنَّى له منفعةُ الذكْرَى ، والاستدلالُ به عَلى عدمِ وجوبِ قبولِ التوبةِ في دارِ التكليفِ مما لا وجه لَهُ ، على أن تذكّره ليسَ من التوبةِ في شيءٍ فإنَّه عالمٌ بأنَّها إنما تكونُ في الدُّنيا كما يُعربُ عنْهُ قولُه تعالَى :

(38/815)

﴿ يَقُولُ يالَيتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ وهو بدلٌ اشتمالٍ من يتذكرُ أو استئنافٌ وقعَ جَواباً عن سؤالٍ نشأَ منْهُ كأَنَّه قيلَ : ماذَا يقولُ عندَ تذكرِه ، فقيلَ يقولُ يا ليتني عملتْ لأجل حياتِي هذِه أو وقتَ حياتِي في الدُّنيا أعمالاً صالحةً أنتفعُ بَها اليومَ وليس في هذا التمنِي شائبةُ دلالةٍ على استقلالِ العبدِ بفعلٍ وإنما الذي يدلُّ عليهِ ذلكَ اعتقادُ كونِه متمكناً من تقديمِ الأعمالِ الصالحةِ وأما أنَّ ذلكَ بمحضِ قدرتِه أو بخلقِ اللهِ تعالَى عندَ صرفِ قدرتِه الكاسبةِ إليهِ فكَلاَّ ، وأما ما قيلَ من أن المحجورَ قد يتمنَّى إن كانَ ممكناً منْهُ فربما يوهُم أنَّ منْ صرفَ قدرتَهُ إلى أحدِ طَرفي الفعلِ يعتقدُ أنه محجورٌ من الطرفِ الآخرِ وليس كذلكَ بل كلُّ أحدٍ جازمٌ بأَنَّه لو صرف قدرتَهُ إلى أي طرفٍ كانَ من أفعالِه الاختياريةِ لحصلَ وعلى هذا يدورُ فلكُ التكليفِ وإلزامُ الحجةِ .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذْ يكونُ ما ذُكِرَ منَ الأحوالِ والأقوالِ .

(39/815)

﴿ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ الهاءُ لله تعالَى أيْ لا يتولَّى عذابَ الله تعالَى ووثاقَهُ أحدٌ سواهُ إذِ الأمرُ كلُّه لهُ أو للإنسانِ أي لا يعذبُ أحدٌ من الزبانيةِ مثلَ ما يعذبونَهُ وقُرِيءَ الفعلانِ على البناءِ للمفعولِ والضميرُ للإنسانِ أيضاً وقيل المراد به أُبيّ بن خلف أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يُوثقُ بالسلاسلِ والأغلالِ مثلَ وثاقِه لتناهيهِ في الكفرِ والعنادِ وقيلَ : لا يحملُ عذابَ الإنسانِ كقولِه تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ حكايةٌ لأحوالِ مَنِ اطمأنَّ بذكرِ الله عزَّ وجلَّ وطاعتِه إثرَ حكايةِ أحوالِ مَنِ اطمأنَّ بالدُّنيَا ، وصفتْ بالاطمئنانِ لأنَّها تترقَى في معارجِ الأسبابِ والمسبباتِ إلى المبدأِ المؤثرِ بالذاتِ فتستقرُ دونَ معرفتِه وتَستَغْني بهِ في وجودِها وسائرِ شؤونِها عن غيرِه بالكليةِ ، وقيلَ ؛ هي النفسُ المؤمنةُ المطمئنةُ إلى الحقِّ الواصلةُ إلى ثَلَجِ اليقينِ بحيثُ لا يُخالجها شكٌّ مَا وقيلَ : هي الآمنةُ التي لا يستفزُهَا خوفٌ ولا حزنٌ ويؤيدُه أنَّه قُرِيءَ يا أيتها النفسُ الآمنةُ المطمئنةُ أي يقولُ الله تعالَى ذلكَ بالذاتِ كما كلَّم مُوسى عليه السلامُ أو على لسانِ المَلَكِ عندَ تمامِ حسابِ الناسِ وهو الأظهرُ وقيلَ : عندَ البعثِ وقيلَ عند الموتِ .

(40/815)

﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ أي إلى موعدِه أو إلى أمرِه ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ بما أوتيتِ من النعيم المقيمِ ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عندَ الله عزَّ وجَلَّ ﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ في زمرةِ عبادِي الصالحينَ المختصينَ بي ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ معهُم أو انتظِمي في سلكِ المقربينَ واستضِئي بأنوارهم فإنَّ الجواهرَ القدسيةَ كالمَرَايا المتقابلة وقيل : المرادُ بالنفسِ الروحُ والمَعنْى فادخُلى أجسادَ عبادِي التي افترقتِ عنْهَا وادخُلِي دارَ ثوابِي ، وهَذا يؤيدُ كونَ الخطابِ عندَ البعثِ وقُرِىءَ فادخلي في عَبْدِي وقُرِىءَ في جسدِ عَبْدي وقيلَ : نزلتْ في حمزةَ بنِ عبد المطلبِ وقيل : في حُبيبِ بنِ عديَ رضيَ الله عنهُمَا والظاهرُ العمومُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(41/815)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرض دَكّاً دَكّاً ﴾ إلى آخره استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلاً للردع والدك قال الخليل كسر الحائط والجبل ونحوهما وتكريره للدلالة على الاستيعاب فليس الثاني تأكيداً للأول بل ذلك نظير الحال في نحو قولك جاؤوا رجلاً رجلاً وعلمته الحساب بابا بابا أي إذا دكت الأرض دكاً متتابعاً

حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور وغيرها حين زلزلت المرة بعد المرة وصارت هباء منثوراً وقال المبرد الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية واندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره وناقة دكاء إذا كانت كذلك والمعنى عليه إذا سويت تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شيء حتى ثارت كالصخرة الملساء وأيا ما كان فهو على ما قيل عبارة عما عرض للأرض عند النفخة الثانية .

(42/815)

﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ قال منذر بن سعيد معناه ظهر سبحانه للخلق هنا لك وليس ذلك بمجيء نقلة وكذلك مجيء الطامة والصاخة وقيل الكلام على حذف المضاف للتهويل أي وجاء أمر ربك وقضاؤه سبحانه واختار جمع أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره تعالى وتبين آثار قدرته عز وجل وسلطانه عز سلطانه مثلت حاله سبحانه في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظخر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم وأنت تعلم ما للسلف في المتشابه من الكلام ﴿ والملك ﴾ أي جنس الملك فيشمل جمع ملائكة السموات عليهم السلام ﴿ صَفّاً صَفّاً ﴾ أي مصطفين أو ذوي صفوف فإنه قيل ينزل يوم القيامة ملائكة كل سماى فيصطفون صفاً بعد صف

بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس وقيل يصطفون بحسب أمكنة أمور تتعلق بهم وهو قريب مما ذكر وروي أن ملائكة كل سماء تكون صفاً حول الأرض فالصفوف سبعة على ما هو الظاهر وقال بعض الأفاضل الظاهر إن الملك أعم من ملائكة السموات وغيرها وتعريفه للاستغراق وادعى أن اصطفافهم بحسب مراتبهم اصطفاف أهل الدنيا في الصلاة وظاهره أنه اصطفاف من غير تحديق ورأيت غير أثر في أنهم يصطفون محدقين .

(43/815)

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ قيل هو كقوله تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : 36] على أن يكون مجيؤها متجوزاً به عن إظهارها واختيرانه على حقيقته فقد أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يؤتي بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كا زمام سبعون ألف ملك يجرونها " وفي رواية بزيادة " حتى تنصب عن يسار العرس لها تغيظ وزفير " وجاء في بعض الآثار أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناجاه ثم قام النبي عليه الصلاة والسلام منكسر الطرف فسأله علي كرم الله تعالى وجهه فقال صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿ كلا إذا دكت

الأرض ﴾ [الفجر : 21] الآية فقال له علي كرم الله تعالى وجهه كيف يجاء بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده سبعون ألف ملك فبينما هم كذلك إذ شردت عليهم شردة انفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها فأخذوها لا حرقت من في الجمع وفي رواية لولا أن الله تعالى حبسها لا حرقت السموات والأرض وتأويل كل ما كذر ونحوه مما ورد وحمله على المجاز لا يدعو إليه إلا استحالة الانتقال الذي يقتضيه المجيء الحقيقي على جهنم وهو لعمري غير مستحيل فيجوز أن تخرج وتنتقل من محلها في المحشر ثم تعود إليه والحال في ذلك اليوم وراء ما تتخيله الأذهان ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من إذا دكت وظاهر كلام الزمخشري إن العامل فيه هو العامل نفسه في المبدل منه أعني قوله تعالى : ﴿ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ وهو قول قد نسب إلى سيبويه وفي البحر المشهور خلافه وهو أن البدل على نية تكرار العامل والظاهر عندي الأول ويتذكر من الذكر ضد النسيان أي يتذكر الإنسان ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بإحضار الله تعالى إياه في ذهنه وإخطاره له وإن لم يشاهد بعد أثراً أو بمعاينة عينه بناء

(44/815)

على أن الأعمال تتجسم في النشأة الآخرة فتبرز بما يناسبها من الصور حسناً وقبحاً أو من التذكر بمعنى الاتعاظ أي يتعظ بما يرى من آثار قدرة الله عز وجل وعظيم عظمته تعالى شأنه وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذكرى ﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنه ليس بتذكر حقيقة لعرائه عن الجدوى لعدم وقوعه في أوانه واني خبر مقدم والذكرى مبتدأ وله تمعلق بما تعلق به الخبر أي ومن أين تكون له الذكرى وقد فات أوانها وقيل هناك مضاف محذوف أي وأني له منفعة الذكرى ولا بد من تقديره لئلا يكون تناقض وقد علمت إن هذا يتحقق بما قرر أولاً على أنه إذا جعل اختصاص اللام مقصوراً على النافع استقام من غير تقدير ويكون إنكار أن تكون الذكرى له لا عليه وأما كونه حكاية لما كان عليه في الدنيا من عدم الاعتبار والاتعاظ فليس بشيء .

واستدل بالآية على أن التوبة من حيث هي توبة غير واجبة القبول عقلاً كما زعم المعتزلة بناء على وجوب الاصلح عندهم وقيل في توجيهه أنه لو وجب قبولها لوجب قبول هذا التذكر فإنه توبة إذ هي كما بين في محله الندم على المعصية من حيث هي معصية والعزم على أن لا يعود لها إذا قدر عليها ولم يعتبر أحد في تعريفها كونها في الدنيا وإن كانت النافعة منها لا تكون إلا فيها وهذا التذكر هو عين الندم المذكور وقد صرح الضحاك كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم بأنه توبة ولم تقبل لعدم ترتب المنفعة عليه التي هي من لوازم القبول واعترض بأن المعتزلة إنما يقولون بوجوب قبولها بشرط عدم رفع التكاليف وقيل إن تذكره

لبس من التوبة في شيء فإنه عالم بأنها إنما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى :

﴿ يَقُولُ يا ليتنى لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾

ويعلم ما فيه مما تقدم من توجيه الاستدلال فلا تغفل وهذه .

(45/815)

الجملة بدل اشتمال من ﴿ يتذكر ﴾ أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول يا ليتني الخ واللام للتعليل والمراد بحياته حياته في الآخرة ومفعول قدمت محذوف فكأنه قال يا ليتني قدمت لأجل حياتي هذه أعمالاً صالحة انتفع بها فيها وقيل اللام للتعليل إلا أن المعنى يبا ليتني قدمت أعمالاً صالحة لأجل أن أحيا حياة نافعة وقال ذلك لأنه لا يموت ولا يحيا حينئذ وهو كما ترى ويجوز أن تكون اللام توقيتية مثلها في نحو كتبته لخمس عشرة ليلة مضين من المحرم وجئت لطلوع الشمس ويكون المراد بحياته حياته في الدنيا أي يا ليتني قدمت وعملت أعمالاً صالحة وقت حياتي في الدنيا لا تنفع بها اليوم وليس في هذا التمني شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وإنما يدل على اعتقاد كونه متمكناً من تقديم الأعمال الصالحة وإما أن ذلك بمحض قدرته تعالى أو بخلق الله عز وجل عند صرف قدرته الكاسبة إليه فكلا وزعمه الزمخشري دليلاً على الاستقلال ورد به

على المجبرة وهو عنده غير المعتزلة زعماً منه المنافاة بين التمني والحجر وقد علمت أنه لا دلالة على ذلك وفي الكشف إن التمني قد يقع على المتحسيل على أنه حالتئذ كالغريق هذا وأهل الحق لا يقولون بسلب الاختيار بالكلية .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال .

﴿ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ .

﴿ وَلاَ يُوثِقُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ الهاء اما لله عز وجل أي لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه أحد سواه عز وجل وكأنه قيل لا يفعل عذاب الله تعالى ووثاقه ولا يباشرهما أحد وذلك لأن الفعل في ضمن كل فعل خاص واستعمل ذلك استعمالاً شائعاً في مثل .

وقد حيل بين العير والنزوان . . .

(46/815)

وان ﴿ نظن إلا ظناً ﴾ [الجاثية : 32] فالعذاب مفعول به وكذا الوثاق وفيه تعظيم عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه لهذا الإنسان الذي شرح من أحواله ما شرح على طريق الكناية فما ادعاه ابن الحاجب من عدم قوة المعنى على تقدير عود الضمير إليه تعالى بناء على فوات التعظيم الذي يقتضيه السياق فللغفول عن نكتة الكناية وإما للإنسان الموصوف

والإضافة إلى المفعول أي لا يعذب ولا يوثق أحد من الزبانية أحداً من أهل النار مثل ما يعذبونه ويوثقونه كأنه أشدهم عذاباً ووثاقاً لأنه أشدهم سيئات أفعال وقبائح أحوال وهو وجه حسن بل هو أرجح من الأول على ما سنشير إليه إن شاء الله تعالى وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمر ولا يعذب ولا يوثق بالبناء للمفعول فالهاء في عذابه ووثاقه للإنسان الموصوف أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والإغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وشقاقه ونصب العذاب على المصدرية واقع موقع التعذيب إما لأنه بمعناه في الأصل كالسلام بمعنى التسليم ثم نقل إلى ما يعذب به أو لأنه وضع موضعه كما يوضع العطاء موضع الإعطاء وكذلك الوثاق وجوز أن يكون المعنى لا يحمل عذاب الإنسان أحد ولا يوثق وثاقه أحد كقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : 164] والعذاب عليه جار على المتعارف والنصب على تضمين التعذيب معنى التحميل والأول أنسب بمقام التغليظ على هذا الإنسان المفرط أوان التمكن والوجه الثاني للقراءة الأولى مطابق لهذا كما لا يخفى والمراد من أنه لا يعذب أحد مثل عذابه أنه لا يعذب أحد من جنسه كالعصاة كذلك فلا يلزم كونه أشد عذاباً من إبليس ومن في طبقته ثم إن الظاهر أن المراد جنس المتصف بما ذكر وقيل المراد به أمية بن خلف وقيل أبي بن خلف وهو خلاف الظاهر وإن قيل إن الآية نزلت فيمن ذكر وأما القول بأن هذا المعذب الموثق إبليس عليه اللعنة

فليس بشيء إذ لا يقال له إنسان وكون الضمير له وإن لم يسبق له ذكر للإنسان المذكور في قوله تعالى ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ [الفجر : 23] الخ مما لا ينبغي أن يلتفت إليه وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه وثاقه بكسر الواو وقوله تعالى :

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) الخ

حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله تعالى وطاعته عز وجل أثر حكاية من اطمأن بالدنيا وسكن إليها وذكر انه على إرادة القول أي يقول الله تعالى يا أيتها النفس الخ اما بالذات كما كلم سبحانه موسى عليه السلام أو على لسان الملك واستظهر أن ذلك القول عند تمام الحساب وليظهر التفاوت ما بين ذلك الإنسان وهذه النفس ذاك يقول يا ليتني قدمت لحياتي وهذه يقول الله تعالى لها يا أيتها النفس المطمئنة الخ وكأنه للإيذان بغاية التباين لم يذكر القول وتعطف الجملة على الجملة السابقة .

والنفس قيل بمعنى الذات ووصفت بالإطمئنان بذلك لأنها لترقي بقوتها العاقلة في معارج الأسباب والمسببات إلى المبدأ المؤثر بالذات جلت صفاته وأسماؤه فتضطرب وتقلق قبل الوصول إلى معرفته تعالى فإذا وصلت إليه عز وجل اطمأنت واستغنت به سبحانه عن وجودها وسائر شؤونها ولم تلتفت إلى ما سواه جل وعلا بالكلية وقيل هي النفس المؤمنة المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين وبرودته بحيث لا يخالطها شك ما ولا بمازجها سخونة اضطراب القلب في الحق أصلاً وهو وجه حسن والارتباط عليه إن هذه النفس هي المتعظة الذاكرة على خلاف الإنسان الموصوف فيما قبل فإن التذكر على قدر قوة اليقين ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [الرعد : 19] وقيل هي الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن يوم القيامة أعني النفس المؤمنة اليوم المتوفاة على الإيمان وأيد بقراءة أبي يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة وكأنه لأن الوصفين يعتبر تناسبهما في الأكثر وهي على هذا أيضاً تقابل السابق وهو المتحسر المتحزن وقرأ زيد بن علي يا أيها بغير تاء وذكر صاحب البديع أن ايا قد تذكر مع المنادي المؤنث قيل ولذلك وجه من القياس وذلك إنها كما لن تثن ولم تجمع في نداء المثنى والمجموع فكذلك لم تؤنث في نداء المؤنث واعتبار النفس ههنا مذكرة ثم مؤنثة مما لا تلتفت إليه النفس المطمئنة .

(49/815)

﴿ ارجعى ﴾ أي من حيث حوسبت ﴿ إلى ربّكَ ﴾ أي إلى محل عنايته تعالى وموقف كرامته عز وجل لك أولاً وهذا لأن للسعداء قبل الحساب كما يفهم من الأخبار موقفاً في المحشر مخصوصاً يكرهم الله تعالى به لا يجدون فيه ما يجده غيرهم في مواقفهم من النصب ومنه ينادي الواحد بعد الواحد للحساب فمتى كان هذا القول عند تمام الحساب اقتضى أن يكون المعنى ما ذكر ويجوز أن يكون المعنى ارجعي بتخلية القلب عن الأعمال والالتفات إليها والاهتمام بأمرها أتقبل أم لا أي إلى ملاحظة ربك والانقطاع إليه وترك الالتفات إلى ما سواه عز وجل كما كنت أولاً كان النفس المطمئنة لما دعيت للحساب شغل فكرها وإن كانت مطمئنة بمقتضى الطبيعة وحال اليوم بأمر الحساب وما ينتهى إليه وأنه ماذا يكون حال أعمالها أتقبل أم لا فلما تم حسابها وقبلت أعمالها قيل لها ذلك تطييباً لقلبها بأن الأمر قد انتهى وفرغ منه وليس بعد الأكل خير ونداؤها بعنوان الاطمئنان لتذكيرها بما يقتضي الرجوع نظير قولك لشجاع مشهور بالشجاعة أحجم في بعض المواقف يا أيها الشجاع أقدم ولا تحجم والظاهر أنه على الأول لا يناسبها ولا يخفى ما في قوله سبحانه إلى ربك على الوجهين من مزيد اللطف بها ولذا لم يقل نحو ارجعي إلى الله تعالى أو إلى ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي بما تؤتينه من النعم التي لا تتناهى وقد يقال راضية بما نلتيه من خفة الحساب وقبول الأعمال وليس بذاك ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أي عند الله عز وجل وقيل المراد راضية عن ربك مرضية

عنده وزعم أنه الأظهر واعترض بأنه غير مناسب للسياق وفيه نظر والوصفان منصوبان على الحال والظاهر أن الحال الأولى مقدرة وقيل مقارنة وذكر الحال الثانية من باب الترقي فقد قال سبحانه وتعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾

(50/815)

﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ في زمرة عبادي الصالحين المخلصين لي وانتظمي في سلكهم وكوني في جملتهم ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ عطف على الجملة قبلها داخلة معها في حيز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيب ما قبلها من غير تراخ وكان الأمر بالدخول في جملة عباد الله تعالى الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية ولفضل الأولى على الثانية قدم الأمر الأول وجيء بالثاني على وجه التتميم ونكتة الالتفات فيهما ظاهرة بأدنى التفات وتعدي الدخول أولاً بفي وثانياً بودنها قال أبو حيان لأن المدخول فيه إن كان غير ظرف حقيقي تعدى إليه في الاستعمال بفي تقول دخلت في الأمر ودخلت في غمار الناس وإذا كان ظرفاً حقيقياً تعدى إليه في الغالب بغير وساطتها فلا تغفل وقيل المراد ارجعي إلى موعد ربك واستظهر أن المراد بموعده تعالى على تقدير كون القول المذكور بعد تمام الحساب ما وعده

سبحانه من الجنة والكون مع عباده تعالى الصالحين والفاء تفسيرية واستشكل عليه الأمر بالرجوع إذ يقتضي أن تكون الجنة مقراً للنفس قبل ذلك وأجيب بتحقق هذا المقتضى بناء على وجودا بالقوة في ظهر آدم عليه السلام حين كان في الجنة وقد قيل نحو هذا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان لرادك إلى معاد ﴾ [القصص : 85] على ما روى عن أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن المراد بالمعاد الجنة دون مكة وأنت تعلم أن هذا على ما فيه لا يتم إلا على القول بأن جنة آدم عليه السلام هي الجنة التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة لا جنة أخرى كانت في الأرض والخلاف في ذلك قوي كما لا يخفى على من راجع كتاب "مفتاح السعادة" للعلامة ابن القيم واطلع على أدلة الطرفين وقيل المراد ارجعي إلى أمر ربك واستظهر أن المراد بالأمر على ذلك التقدير واحد الأمور ويفسر بمعاملة الله

(51/815)

تعالى إياها بما ليس فيه ما يشغل بالها أو بتمييزها بموقف كريم أو بنحو ذلك مما يتحقق معه ما يقتضيه ظاهر الجروع وقيل المراد ارجعي إلى كرامة ربك ويراد جنس كرامته سبحانه والرجوع إليه باعتبار أنها كانت بعد الموت في البرزخ أو بعد البعث وقبل الحساب في نوع منه

والفاء عليه قيل تفسيرية أيضاً وعن عكرمة والضحاك أن ذلك القول عند البعث فقيل النفس بمعنى الذات أيضاً والمراد بالرب هو الله عز وجل والكلام على حذف مضاف ولا يقدر محل كرامته تعالى مراداً به الموقف الخاص على ما سمعت لأنه إنما يكون لها بعد وقيل النفس بمعنى الروح والمراد بالرب الصاحب وفسر بالجسد وباقي الآية على حاله أي ارجعي إلى جسدك كما كنت في الدنيا فادخلي بعد الرجوع إليه في جملة عبادي وادخلي دار ثوابي وقيل المراد بالنفس والرب ما ذكر وقوله تعالى :

(52/815)

﴿ فِى عِبَادِى ﴾ [الفجر : 29] على حذف مضاف أي داخلي في أجساد عبادي وجاء هذا في رواية عن ابن عباس وابن جبير ولا يضر الأفراد أولاً والجمع ثانياً لأن المعنى على الجنس وقال ابن زيد وجماعة إن ذلك القول عند الموت وأيد بما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن جبير قال قرئت عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] الآية فاقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه إن هذا الحسن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أن الملك سيقولها لك عند الموت وجاء نحو هذا من رواية الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" من

طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن عامر عن الصديق رضي الله تعالى عنه والنفس عليه بمعنى الروح والمعنى على ما قيل ارجعي بالموت إلى عالم قدس ربك راضية بما توّتين من النعيم أو راضية عن ربك مرضية عنده تعالى فادخلي في زمرة عبادي المقربين سكنة حظائر القدس وادخلي جنتي التي أعددتها لذوي النفوس المطمئنة وهذا الدخولان يعقبان الرجوع إلا أن الدخول الأول يعقبه بلا تراخ قبل يوم القيامة والثاني يعقبه بتراخ لأنه يوم القيامة إن أريد بدخول الجنة دخولها على وجه الخلود إلا أن الأمر لتحققه يجوز تعقيبه بالفاء وجوز أن يكون تعقيب الأمرين على هذا النمط إن أريد بالدخول في عباده تعالى انتظامها في سلك العباد الصالحين المخلصين من جنسها ويجوز على إرادة هذا التعقيب أن يراد فادخلي في أجساد عبادي وجوز أن يكون تعقيب الأمرين بلا تراخ إن أريد بالدخول في العباد الدخول في زمرة المقربين من سكنة حظائر القدس وبالدخول في الجنة الدخول لا على وجه الخلود بل لنوع من التنعم إلى أن تقوم الساعة ففي الحديث أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور في الجنة وفي بعض الآثار إذا مات المؤمن أعطى نصف الجنة أي نصف جنته التي وعد دخولها يوم القيامة وذكر في وجه ادخالها مع الأرواح القدسية

(53/815)

كالمرايا المصقولة فإذا انظم بعضها إلى بعض تعاكست أشعة أنوار المعارف فيظهر لكل منه ما يكملها فيكون سبباً أنها لتكامل السعادات وتعاظم الدرجات وهو عندي كلام خطابي وعن بعض السلف ما يؤيد بعض هذه الأوجه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح أنه قال في الآية ﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ [الفجر : 28] هذا عند الموت ورجوعها إلى ربها خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل لها ادخلي في عبادي وادخلي جنتي وقيل إن هذا القول بعد الموت وقبل القيامة والمراد برجوعها إلى ربها رجوعها إلى جسدها لسؤال الملكين أخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية إن المؤمن إذا مات أرى منزله من الجنة فيقول تبارك وتعالى : "يا أيها النفس المطمئنة عندي ارجعي إلى جسدك الذي خرجت منه راضية بما رأيت من ثوابي مرضياً عنك حتى يسألك منكر ونكير" وقيل إنه في مواطن ثلاثة أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال في الآية "بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث يوم الجمع" وتفسر عليه بما ينطبق على الجمع وقيل يجوز أن يكون ذلك في سائر أوقات النفس في حياتها الدنيا والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرب الأمر بالرجوع إليه تعالى في كل أمر من الأمور والمراد بالأمر بالدخول في العباد الأمر بالدخول في زمرة العباد الخلص الذين ليس للشيطان عليهم سلطان بالاكثار من العمل الصالح وبالأمر بالدخول في الجنة الأمر بالدخول فيها بالقوة القريبة فكأنه سبحانه بعد أن بالغ جل وعلا في سوء حال الامارة ووعيدها خاطب المطمئنة بذاك وأرشدها

سبحانه إلى ما فيه صلاحها ونجاتها ولا يخفى ما فيه فلا ينبغي أن يعد وجهاً وأياً ما كان من الأوجه فالظاهر العموم فيها وإن أخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عبا سأنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس وقيل إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وقيل

(54/815)

نزلت في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك فحول لله تعالى وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله بعد فتفسير النفس المذكور بأحد هؤلاء المذكورين كما نقل عن بعض من باب التمثيل وأن صورة السبب قطعية الدخول وينبغي أن يحمل قول ابن عباس في تلك النفس كما أخرجه عنه ابن مردويه هو النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ذلك واشعرت الآية على بعض أوجهها بأن على بعض أوجهها بأن الأرواح مخلوقة قبل الأبدان ومقرها إذ ذاك في عالم الملكوت والخلاف في المسألة شهير وجمهور المتكلمين على أنها مخلوقة عند استعداد الأبدان لها وكذا أفلاطون وأصحابه وقرأ ابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح وأبو شيخ واليماني في عبدي على الأفراد واستظهر أن المراد الجنس كما

في النفس .

وللسادة الصوفية قدست نفوسهم كلام طويل في تقسيم مراتب النفس وقالوا إن الآية متضمنة لمراتب ثلاث منها المطمئنة والراضية والمرضية وفسروا كلا بما فسروه فمن أراده فليرجع إليه في كتبهم وأنا أقول كما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة على ما أخرج للطبراني وابن عساكر عن أبي إمامة رضي الله تعالى عنه اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(55/815)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) ﴾

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ذكر ما يدلّ على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير ، وعند إصابة الشرّ ، وأن مطمح أنظارهم ، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ ﴾ أي : امتحنه ، واختبره بالنعم ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ أي : أكرمه بالمال ، ووسع عليه رزقه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ فرحاً بما نال ، وسروراً بما أعطي

، غير شاكر لله على ذلك ، ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه ، واختبار لحاله وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع ، والشكر للنعمة وكفرانها ، و "ما" في قوله : ﴿ إِذَا مَا ﴾ زائدة .

وقوله : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ تفسير للابتلاء .

ومعنى : ﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ أي : فضلني بما أعطاني من المال ، وأسبغه عليّ من النعم لمزيد استحقاقي لذلك ، وكوني موضعاً له ، والإنسان مبتدأ وخبره : ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ ودخلت الفاء فيه لتضمن أما معنى الشرط ، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر ، وإن تقدّم لفظاً فهو مؤخر في المعنى ، أي : فأما الإنسان فيقول ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام .

قال الكلبي : الإنسان هو الكافر أبيّ بن خلف .

وقال مقاتل : نزلت في أمية بن خلف .

وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة ، وأبي حذيفة بن المغيرة .

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه ﴾ أي : اختبره ، وعامله معاملة من يختبره ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي : ضيقه ، ولم يوسعه له ، ولا بسط له فيه .

(56/815)

﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ أي : أولاني هواناً ، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث ؛ لأنه لا كرامة عنده إلاّ الدنيا والتوسع في متاعها ، ولا إهانة عنده إلاّ فوتها ، وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن ، فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ، ويوفقه لعمل الآخرة ، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير ، وما أصيب به من الشرّ في الدنيا ليس إلاّ للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء .

قرأ نافع بإثبات الياء في ﴿ أكرمن ﴾ و ﴿ أهانن ﴾ وصلاً وحذفهما وقفاً ، وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه ، وابن محيصن ، ويعقوب بإثباتهما وصلاً ، ووقفاً ، وقرأ الباقون بحذفهما في الوصل ، والوقف اتباعاً لرسم المصحف ، ولموافقة رؤوس الآي ، والأصل إثباتها ؛ لأنها اسم ، ومن الحذف قول الشاعر :

ومن كاشح ظاهر غمره . . . إذا ما انتصبت له أنكرن

أي : أنكرني .

وقرأ الجمهور : ﴿ فقدر ﴾ بالتخفيف ، وقرأ ابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو : " ربي " بفتح الياء في الموضعين ، وأسكنها الباقون .

وقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ، ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته ، ويضيقه عليه لا لإهانته ، بل للاختبار

والامتحان ، كما تقدّم .

قال الفراء : كلا في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ ، والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية .

وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب بالتحتية على الخبر .

(57/815)

وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور ﴿ تحضون ﴾ و ﴿ تأكلون ﴾ و ﴿ تحبون ﴾ بالفوقية على الخطاب فيها .

وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب بالتحتية فيها ، والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان ؛ لأن المراد به الجنس ، أي : بل لكم أفعال هي أقبح مما ذكر ، وهي أنكم تتركون إكرام اليتيم ، فتأكلون ماله ، وتمنعونه من فضل أموالكم .

قال مقاتل : نزلت في قدامة بن مظعون ، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف .

﴿ وَلاَ تحاضون على طَعَامِ المسكين ﴾ قرأ الجمهور : " تحضون " من حضه على كذا ،

أي : أغراه به ، ومفعوله محذوف ، أي : لا تحضون أنفسكم ، أو لا يحضّ بعضكم بعضاً على ذلك ، ولا يأمر به ، ولا يرشد إليه .

وقرأ الكوفيون ﴿ تحاضون ﴾ بفتح التاء والحاء بعدها ألف ، وأصله تتحاضون ، فحذف إحدى التاءين .

أي : لا يحضّ بعضكم بعضاً .

وقرأ الكسائي في رواية عنه والسلمي : " تحاضون " بضم التاء من الحضّ ، وهو الحث ، وقوله : ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ متعلق ب ﴿ تحضون ﴾ ، وهو إما اسم مصدر ، أي : على إطعام المسكين ، أو اسم للمطعوم ، ويكون على حذف مضاف ، أي : على بذل طعام المسكين ، أو على إعطاء طعام المسكين ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ أصله الوارث ، فأبدلت التاء من الواو المضمومة ، كما في تجاه ، ووجاه ، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم ، وكذلك أموال النساء ، وذلك أنهم كانوا لا يورّثون النساء والصبيان ، ويأكلون أموالهم ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أي : أكلاً شديداً .

وقيل : معنى ﴿ لماً ﴾ جمعاً ، من قولهم : لممت الطعام : إذا أكلته جميعاً .

قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليتيم ، وكذا قال أبو عبيدة .

وأصل اللمّ في كلام العرب : الجمع ، يقال لممت الشيء ألمه لماً : جمعته ، ومنه قولهم : لمّ الله

شعثه ، أي : جمع ما تفرّق من أموره ، ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه . . . على شعث أيّ الرجال المهذب

(58/815)

قال الليث : اللمّ : الجمع الشديد ، ومنه حجر ملموم ، وكتيبة ملمومة .

وللآكل يلمّ الثريد ، فيجمعه ، ثم يأكله .

وقال مجاهد : يسفه سفاً .

وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ألمّ بمال غيره ، فأكله ، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب .

﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ أي : حباً كثيراً ؛ والجمّ الكثير ، يقال جمّ الماء في الحوض : إذا كثر واجتمع .

والجمة : المكان الذي يجتمع فيه الماء .

ثم كرّر سبحانه الردع لهم والزجر فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي : ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم ، ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر ، والدكّ : الكسر والدق .

والمعنى هنا : أنها زلزلت ، وحركت تحريكاً بعد تحريك .

قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت .

قال الزجاج أي : تزلزلت ، فدكّ بعضها بعضاً .

قال المبرّد : أي : بسطت ، وذهب ارتفاعها .

قال والدك : حط المرتفع بالبسط ، وقد تقدّم الكلام على الدك في سورة الأعراف ، وفي سورة الحاقة ، والمعنى : أنها دكت مرة بعد أخرى .

وانتصاب ﴿ دكاً ﴾ الأوّل على أنه مصدر مؤكد للفعل .

و ﴿ دكاً ﴾ الثاني تأكيد للأوّل .

كذا قال ابن عصفور .

ويجوز أن يكون النصب على الحال ، أي : حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة ، كما يقال : علمته الحساب باباً باباً ، وعلمته الخط حرفاً حرفاً .

والمعنى : أنه كرّر الدك عليها حتى صارت هباء منبثاً .

﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ أي : جاء أمره وقضاؤه ، وظهرت آياته ، وقيل المعنى : أنها زالت الشبه في ذلك اليوم ، وظهرت المعارف ، وصارت ضرورية ، كما يزول الشكّ عند مجيء الشيء الذي كان يشكّ فيه .

وقيل : جاء قهر ربك وسلطانه ، وانفراده بالأمر ، والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من

عباده شيئًا من ذلك .

﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ انتصاب ﴿ صفاً صفاً ﴾ على الحال ، أي : مصطفين ، أو ذوي صفوف .

قال عطاء : يريد صفوف الملائكة ، وأهل كلّ سماه صفّ على حدة .

(59/815)

قال الضحاك : أهل كلّ سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيها ، فيكونون سبعة صفوف .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ ﴿ يومئذ ﴾ منصوب ب ﴿ جيء ﴾ ، والقائم مقام الفاعل ب ﴿ جهنم ﴾ ، وجوّز مكيّ أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل ، وليس بذاك .

قال الواحدي : قال جماعة من المفسرين : جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل إلاّ جثا لركبتيه يقول : يا ربّ نفسي نفسي .

وسيأتي الذي هذا نقله عن جماعة المفسرين مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شاء الله .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ ﴿ يومئذ ﴾ هذا بدل من ﴿ يومئذ ﴾ الذي قبله ، أي : يوم جيء بجهنم يتذكر الإنسان ، أي : يتعظ ، ويذكر ما فرط منه ، ويندم على ما قدّمه في الدنيا من الكفر والمعاصي .

وقيل : إن قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ الثاني بدل من قوله : ﴿ إِذَا دُكَّتِ ﴾ والعامل فيهما هو قوله : ﴿ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ و ﴿ أنى لَهُ الذكرى ﴾ أي : ومن أين له التذكر والاتعاظ .

وقيل : هو على حذف مضاف ، أي : ومن أين له منفعة الذكرى .

قال الزجاج : يظهر التوبة ، ومن أين له التوبة ؟ ﴿ يَقُولُ يالَيتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا يقول الإنسان ؟ ، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله : ﴿ يتذكر ﴾ .

والمعنى : يتمنى أنه قدّم الخير ، والعمل الصالح .

واللام في ﴿ لحياتي ﴾ بمعنى لأجل حياتي ، والمراد حياة الآخرة ، فإنها الحياة بالحقيقة ؛ لأنها دائمة غير منقطعة .

وقيل : إن اللام بمعنى " في " ، والمراد حياة الدنيا : أي : يا ليتني قدّمت الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا أنتفع بها هذا اليوم ، والأوّل أولى .

قال الحسن : علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أي : يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ، ﴿ وَلَا يُوثِقُ ﴾ ك ﴿ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له .

والضميران على التقديرين في عذابه ووثاقه لله عزّ وجلّ ، وهذا على قراءة الجمهور ﴿ يعذب ﴾ ، و ﴿ يوثق ﴾ مبنيين للفاعل .

وقرأ الكسائي على البناء للمفعول فيهما ، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان ، أي : لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد ، والمراد بالإنسان الكافر ، أي : لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر .

وقيل : إبليس .

وقيل : المراد به أبيّ بن خلف .

قال الفرّاء : المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد لتناهيه في الكفر والعناد .

وقيل المعنى : أنه لا يعذب مكانه أحد ، ولا يوثق مكانه أحد ، فلا تؤخذ منه فدية ، وهو كقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164] ، والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى التوثيق .

واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم قراءة الكسائي ، قال : وتكون الهاء في الموضعين ضمير الكافر ؛ لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله .

قال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة أي ، لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ المطمئنة : هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله ، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شكّ ، ولا يعتريها ريب .

قال الحسن : هي المؤمنة الموقنة .

وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها .

وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة .

وقال ابن كيسان : المطمئنة بذكر الله .

وقيل : المخلصة .

(61/815)

قال ابن زيد : المطمئنة ؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث .

﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ أي : ارجعي إلى الله ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ بالثواب الذي أعطاك .

﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عنده .

وقيل : ارجعي إلى موعده .

وقيل : إلى أمره .

وقال عكرمة ، وعطاء : معنى ﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ إلى جسدك الذي كنت فيه ، واختاره ابن جرير ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس : (فادخلي في عبدي) بالإفراد ، والأوّل أولى ﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ أي : في زمرة عبادي الصالحين ، وكوني من جملتهم ، وانتظمي في سلكهم ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ معهم قيل : إنه يقال لها ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا .

ويقال لها : ادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي يوم القيامة ، والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم ، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَكْلاًّ لَّمّاً ﴾ قال : سفاً .

وفي قوله : ﴿ حُبّاً جَمّاً ﴾ قال : شديداً .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ قال : شديداً .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ قال : تحريكها .

وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ يقول : وكيف له ؟ وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذّبُ ﴾ الآية قال : لا يعذب بعذاب الله أحد ، ولا يوثق بوثاق الله أحد .

(62/815)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه أيضاً في قوله : ﴿ أَحَدٌ يأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ قال : المؤمنة ﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ يقول : إلى جسدك .

قال : "نزلت هذه الآية ، وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا ، فقال : أما إنه سيقال لك هذا" .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول نحوه عن أبي بكر الصديق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ قال : هو النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه قال : ﴿ النفس المطمئنة ﴾ المصدّقة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : تردّ الأرواح يوم القيامة في الأجساد .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ ارجعى إلى ربّكِ رَاضِيَةً ﴾ قال : بما أعطيت من الثواب ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عنها بعملها .

﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ المؤمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقته ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه .

فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندري من تلاها : ﴿ يأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ارجعى إلى ربّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فادخلى فِى عِبَادِى * وادخلى جَنَّتِى ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن عكرمة مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 441.437 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) ﴾

زجر وردع عن الأعمال المعدودة قبله ، وهي عدم إكرامهم اليتيم وعدم حضهم على طعام المسكين ، وأكلهم التراث الذي هو مال غير آكله ، وعن حب المال حبّاً جمّاً .

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً * وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً * وجىء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى * يَقُولُ ياليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ ﴾ .

استئناف ابتدائي انتُقل به من تهديدهم بعذاب الدنيا الذي في قوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ [الفجر : 6] الآيات إلى الوعيد بعذاب الآخرة .

فإن استخفوا بما حلّ بالأمم قبلهم أو أمهلوا فأخر عنهم العذاب في الدنيا فإن عذاباً لا محيص لهم عنه ينتظرهم يوم القيامة حين يتذكّرون قَسْراً فلا ينفعهم التذكر ، ويندمون ولات ساعةَ مندم .

فحاصل الكلام السابق أن الإنسان الكافر مغرور يَنُوط الحوادث بغير أسبابها ، ويتوهمها

على غير ما بها ولا يُصغي إلى دعوة الرسل فيستمر طولَ حياته في عَماية ، وقد زجروا عن ذلك زجراً مؤكداً .

وأَتبع زجرهم إنذاراً بأنهم يحين لهم يوم يُفيقون فيه من غفلتهم حين لا تنفع الإِفاقة .

والمقصود من هذا الكلام هو قوله : ﴿ فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد ﴾ ، وقوله ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] ، وأما ما سبق من قوله ﴿ إذا دكت الأرض ﴾ إلى قوله ﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم ﴾ فهو توطئة وتشويق لسماع ما يجيء بعده وتهويل لشأن ذلك اليوم وهو الوقت الذي عُرِّف بإضافة جملة ﴿ دكت الأرض ﴾ وما بعدها من الجمل وقد عرف بأشراط حلوله وبما يقع فيه من هول العقاب .

والدّك : الحَطْم والكسر .

(64/815)

والمراد بالأرض الكُرَة التي عليها الناس ، ودكّها حطمها وتفرق أجزائها الناشىءُ عن فساد الكون الكائنة عليه الآن ، وذلك بما يحدثه الله فيها من زلازل كما في قوله : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ [الزلزلة : 1] الآية .

و ﴿ دكاً دكاً ﴾ يجوز أن يكون أولهما منصوباً على المفعول المطلق المؤكِّد لفعله .

ولعل تأكيده هنا لأن هذه الآية أول آية ذكر فيها دَكُّ الجبال ، وإذ قد كان أمراً خارقاً للعادة كان المقام مقتضياً تحقيق وقوعه حقيقةً دون مجاز ولا مبالغة ، فأكد مرتين هنا ولم يؤكد نظيره في قوله : ﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ في سورة الحاقة (14) ف ﴿ دكّا ﴾ الأول مقصود به رفع احتمال المجاز عن "دُكّتا" الدك أي هو دَكّ حقيقي ، و ﴿ دكا ﴾ الثاني منصوباً على التوكيد اللفظي لدكا الأول لزيادة تحقيق إرادة مدلول الدك الحقيقي لأن دك الأرض العظيمة أمر عجيب فلغرابته اقتضى إثباتُه زيادة تحقيق لمعناه الحقيقي .

وعلى هذا درج الرضي قال : ويستثنى من منع تأكيد النكرات (أي تأكيداً لفظياً) شيء واحد وهو جواز تأكيدها إذا كانت النكرة حكماً لا محكوماً عليه كقوله صلى الله عليه وسلم

" فنكاحها باطل باطل باطل " .

ومثله قوله تعالى : ﴿ دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ فهو مثل : ضَرَبَ ضَرَبَ زيدٌ ا ه .

وهذا يلائم ما في وصف دكّ الأرض في سورة الحاقة بقوله تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : 14] ودفع المنافاة بين هذا وبين ما في سورة الحاقة .

ويجوز أن يكون مجموع المصدرين في تأويل مفرد منصوب على المفعول المطلق المبيِّن للنوع . وتأويله .

أنه دكّ يعقُب بعضه بعضاً كما تقول : قرأت الكتاب باباً باباً وبهذا المعنى فسّر صاحب "الكشاف" وجمهور المفسرين من بعده .

(65/815)

وبعض المفسرين سكت عن بيانه قال الطيبي : "قال ابن الحاجب : لعلّه قالَه في "أماليه على المقدمة الكافية" وفي نسختي منها نقص ولا أعرف غيرها بتونس ولا يوجد هذا الكلام في "إيضاح المفصل" بينت له حسابه باباً باباً ، أي مفصلاً .

والعرب تكرر الشيء مرتين" فتستوعب تفصيل جنسه باعتبار المعنى الذي دلّ عليه لفظُ المكرّر ، فإذا قلت : بَيَّنْت له الكتاب باباً باباً فمعناه بينته له مفصلاً باعتبار أبوابه أ هـ .

قلت : هذا الوجه أوفى بحق البلاغة فإنه معنى زائد على التوكيد والتوكيد حاصل بالمصدر الأول .

وفي "تفسير الفخر" : وقيل : فبُسِطَتَا بسطةً واحدة فصارتا أرضاً لا ترى فيها أمتاً وتبعه البيضاوي يعني : أن الدك كناية عن التسوية لأن التسوية من لوازم الدك ، أي صارت الجبال مع الأرض مستويات لم يبق فيها نتوء .

ولك أن تجعل صفة واحدة مجازاً في تفرد الدكة بالشدة التي لا ثاني مثلها ، أي دكة لا نظير

لها بين الدكات في الشدة من باب قولهم : هو وحيد قومه ، ووحيد دهره ، فلا يعارض قوله : ﴿ دكاً دكاً ﴾ بهذا التفسير .

وفيه تكلف إذ لم يسمع بصيغةِ فَاعل فلم يسمع : هو واحد قومه .

وأما قوله تعالى : ﴿ والملك صفّاً صفّاً ﴾ ف ﴿ صفّاً ﴾ الأول حال من ﴿ الملك ﴾ .

و ﴿ صَفّاً ﴾ الثاني لم يختلف المفسرون في أنه من التكرير المراد به الترتيب والتصنيف ، أي صفّاً بعد صفٍّ ، أو خَلْفَ صفّ ، أو صنفاً من الملائكة دون صنف ، قيل : ملائكة كل سَماء يكونون صفّاً حول الأرض على حدة .

قال الرضي وأما تكرير المنكَّر في قولك ، قرأت الكتاب سورةً سورةً ، وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ فليس في الحقيقة تأكيداً إذ ليس الثاني لتقرير ما سبق بل هو لتكرير المعنى لأن الثاني غير الأول معنى .

والمعنى : جميع السور وصفوفاً مختلفة ا ه .

وشذّ من المفسرين من سكت عنه .

ولا يحتمل حمله على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله إذ لا معنى للتأكيد .

(66/815)

وإسناد المجيء إلى الله إما مجاز عقلي ، أي جاء قضاؤه ، وإما استعارة بتشبيه ابتداء حسابه بالمجيء .

وأما إسناده إلى الملَك فإما حقيقةٌ ، أو على معنى الحضور وأيًّا مَّا كان فاستعمال (جاء) من استعمال اللفظ في مجازه وحقيقته ، أو في مَجَازَيْه .

و﴿ الملَك ﴾ : اسم جنس وتعريفه تعريف الجنس فيرادفه الاستغراق ، أي والملائكة .

والصف : مصدر صَفَّ الأشْياءَ إذا جعل الواحد حذو الآخر ، ويطلق على الأشياء المصفوفة ومنه قوله تعالى : ﴿ إن اللَّه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ [الصف : 4] وقوله : ﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً ﴾ في سورة طه (64) .

واستعمال ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ كاستعمال مَجيء الملك ، أي أحضرت جهنم وفتحت أبوابها فكأنها (جاءَ) بها جاء والمعنى : أظهرت لهم جهنم قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 71] وقال : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات : 36] وورد في حديث مسلم عن ابن مسعود يرفعه : " أن لجهنم سبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " وهو تفسير لمعنى ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ .

وأمور الآخرة من خوارق العادات .

وإنما اقتصر على ذكر جهنم لأن المقصود في هذه السورة وعيد الذين لم يتذكروا وإلا فإن

الجنة أيضاً مُحضرة يومئذ قال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ [الشعراء : 90 91] .

و ﴿ يومئذ ﴾ الأول متعلق بفعل ﴿ جيء ﴾ .

والتقدير : وجيء يوم تُدَكّ الأرض دكّاً دكّاً إلى آخره .

و ﴿ يومئذ ﴾ الثاني بدل من ﴿ إذا دكت الأرض ﴾ والمعنى : يوم تدكّ الأرض دكاً إلى آخره يتذكر الإِنسان .

والعامل في البدل والمبدل منه معاً فعل ﴿ يتذكر ﴾ .

وتقديمه للاهتمام مع ما في الإطناب من التشويق ليحصل الإِجمال ثم التفصيل مع حسن إعادة ما هو بمعنى ﴿ إذا ﴾ لزيادة الربط لطول الفصل بالجمل التي أضيف إليها ﴿ إذا ﴾ .

(67/815)

و ﴿ الإِنسان ﴾ : هو الإِنسان الكافر ، وهو الذي تقدم ذكره في قوله تعالى : ﴿ فأما الإِنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ [الفجر : 15] الآية فهو إظهار في مقام الإِضمار لبعد مَعاد الضمير .

وجملة : ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ معترضة بين جملة ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ وجملة : ﴿ يقول ﴾ الخ.

و ﴿ أنّى ﴾ اسم استفهام بمعنى : أين له الذكرى ، وهو استفهام مستعمل في الإِنكار والنفي ، والكلامُ على حذف مضاف ، والتقدير : وأين له نَفْع الذكرى .

وجملة : ﴿ يقول يا ليتني ﴾ الخ يجوز أن يكون قولاً باللسان تحسراً وتندماً فتكون الجملة حالاً من ﴿ الإنسان ﴾ أو بدل اشتمال من جملة ﴿ يتذكر ﴾ فإن تذكره مشتمل على تحسر وندامة .

ويجوز أن يكون قوله في نفسه فتكون الجملة بياناً لجملة ﴿ يتذكر ﴾ .

ومفعول ﴿ قدمت ﴾ محذوف للإِيجاز .

واللام في قوله : ﴿ لحياتي ﴾ تحتمل معنى التوقيت ، أي قدمت عند أزمان حياتي فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت .

وتحتمل أن يكون اللام للعلة ، أي قدمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحيا في هذه الدار .

والمراد : الحياة الكاملة السالمة من العذاب لأن حياتهم في العذاب حياةُ غشاوة وغياب قال تعالى : ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ [الأعلى : 13] .

وحرف النداء في قوله : ﴿ يا ليتني ﴾ للتنبيه اهتماماً بهذا التمني في يوم وقوع .

والفاء في قوله : ﴿ فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد ﴾ رابطة لجملة ﴿ لا يعذب ﴾ الخ

بجملة ﴿ دكت الأرض ﴾ لما في ﴿ إذا ﴾ من معنى الشرط.

والعذاب: اسم مصدر عذّب.

والوثاق: اسم مصدر أوثق.

وقرأ الجمهور ﴿ يعذِّب ﴾ بكسر الذال ﴿ ويوثق ﴾ بكسر الثاء على أن ﴿ أحدٌ ﴾ في الموضعين فاعل ﴿ يعذِب، ويوثِق ﴾.

(68/815)

وأن عذابه من إضافة المصدر إلى مفعوله فضمير ﴿ عذابه ﴾ عائد إلى الإنسان في قوله: ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ وهو مفعول مطلق مبيّن للنوع على معنى التشبيه البليغ، أي عذاباً مثل عذابه، وانتفاء المماثلة في الشدة، أي يعذب عذاباً هو أشد عذاب يعذبه العصاة، أي عذاباً لا نظير له في أصناف عذاب المعذّبين على معنى قوله تعالى: ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ [المائدة: 115] والمراد في شدته.

وهذا بالنسبة لبني الإنسان، وأما عذاب الشياطين فهو أشدُّ لأنهم أشد كفراً و ﴿ أحد ﴾ يستعمل في النفي لاستغراق جنس الإنسان فأَحَدٌ في سياق النفي يعمّ كل أحد قال تعالى: ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ للَّه ﴾ [الانفطار: 19] فانحصر

الأحد المعذِّب (بكسر الذال) في فرد وهو الله تعالى .

وقرأه الكسائي ويعقوب بفتح ذال ﴿ يعذَّب ﴾ وفتح ثاء ﴿ يوثق ﴾ مبنيين للنائب .

وعن أبي قلابة قال : "حدثني من أقرأه النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ ﴿ يعذَّب ﴾ و ﴿ يوثَق ﴾ بفتح الذال وفتح الثاء" .

قال الطبري : وإسناده واهٍ وأقول أغنى عن تصحيح إسناده تواترُ القراءة به في بعض الروايات العشر وكلها متواتر .

والمعنى : لا يعذَّب أحدٌ مثلَ عذاب مَا يعذَّب به ذلك الإنسان المتحسر يومئذ ، ولا يوثَق أحدٌ مثلَ وَثاقه ، ف ﴿ أحد ﴾ هنا بمنزلة "أحداً" في قوله تعالى : ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : 115] .

والوَثاق بفتح الواو اسم مصدر أوثق وهو الربْط ويجعل للأسير والمقُود إلى القتل .

فيجعل لأهل النار وثاق يساقون به إلى النار قال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ﴾ [غافر : 71 ، 72] الآية .

وانتصاب ﴿ وثاقه ﴾ كانتصاب ﴿ عذابه ﴾ على المفعولية المطلقة لمعنى التشبيه .

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27)

لما استوعب ما اقتضاه المقام من الوعيد والتهديد والإِنذار ختم الكلام بالبشارة للمؤمنين الذين تذكروا بالقرآن واتَّبعوا هديه على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس فإن ذلك مما يزيد رغبة الناس في فعل الخير ورهبتهم من أفعال الشر .

واتصالُ هذه الآية بالآيات التي قبلها في التلاوة وكتابة المصحف الأصل فيه أن تكون نزلت مع الآيات التي قبلها في نسق واحد .

وذلك يقتضي أن هذا الكلام يقال في الآخرة .

فيجوز أن يُقَال يومَ الجزاء فهو مقول قولٍ محذوف هو جواب (إذا) ﴿ إذا دكت الأرض ﴾ [الفجر : 21] الآية وما بينهما مستطرد واعتراض .

فهذا قول يصدر يوم القيامة من جانب القُدُس من كلام الله تعالى أو من كلام الملائكة : فإن كان من كلام الله تعالى كان قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ إظهاراً في مقام الإِضمار بقرينة تفريع ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ عليه .

ونكتةُ هذا الإِظهار ما في وصف ﴿ رب ﴾ من الولاء والاختصاص .

وما في إضافته إلى ضمير النفس المخاطَبة من التشريف لها .

وإن كان من قول الملائكة فلفظ ﴿ ربك ﴾ جرى على مقتضى الظاهر وعطفُ ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ عطف تلقين يصدر من كلام الله تعالى تحقيقاً لقول الملائكة ﴿

ارجعي إلى ربك ﴾ .

والرجوع إلى الله مستعار للكون في نعيم الجنة التي هي دار الكرامة عند الله بمنزلة دار المضيف قال تعالى : ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ [القمر : 55] بحيث شُبهت الجنة بمنزل للنفس المخاطبة لأنها استحقته بوعد الله على أعمالها الصالحة فكأنها كانت مغتربة عنه في الدنيا فقيل لها : ارجعي إليه ، وهذا الرجوع خاصٌّ غير مطلق الحلول في الآخرة .

ويجوز أن تكون الآية استئنافاً ابتدائياً جرى على مناسبة ذكر عذاب الإِنسان المشرك فتكون خطاباً من الله تعالى لنفوس المؤمنين المطمئنة .

(70/815)

والأمر في ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ مراد منه تقييده بالحالين بعده وهما ﴿ راضية مرضية ﴾ وهو من استعمال الأمر في الوعد والرجوع مجاز أيضاً ، والإِضمار في قوله : ﴿ في عبادي ﴾ وقوله : ﴿ جنتي ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم .

وقال بعض أهل التأويل : نزلت في معيَّن .

فعن الضحاك : أنها نزلت في عثمان بن عفان لما تصدق ببئرِ رومة .

وعن بريدة : أنها نزلت في حمزة حين قُتل .

وقيل : نزلت في خُبَيب بن عديّ لما صلبه أهل مكة .

وهذه الأقوال تقتضي أن هذه الآية مدنية ، والاتفاقُ على أن السورة مكية إلا ما رواه الدَّاني عن بعض العلماء أنها مدنية ، وهي على هذا منفصلة عما قبلها كتبت هنا بتوقيف خاص أو نزلت عقب ما قبلها للمناسبة .

وعن ابن عباس وزيدِ بن حارثة وأبيّ بن كعب وابنِ مسعود : أن هذا يقال عند البعث لترجع الأرواح في الأجساد ، وعلى هذا فهي متصلة بقوله:

﴿ إذا دكت الأرض ﴾ [الفجر : 21] الخ كالوجه الذي قبل هذا ، والرجوع على هذا حقيقة والرب مراد به صاحب النفس وهو الجسد .

وعن زيد بن حارثة وأبي صالح : يقال هذا للنفس عند الموت .

وقد روى الطبري عن سعيد بن جبير قال : قرأ رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ فقال أبو بكر : ما أحسنَ هذا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أمَا إنَّ الملَك سيقولها لك عند الموت " .

وعن زيد بن حارثة أن هذا يقال لنفس المؤمن عند الموت تبشر بالجنة .

والنفس : تطلق على الذات كلها كما في قوله تعالى : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب اللَّه ﴾ [الزمر : 56] وقوله : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه إلا

بالحق ﴾ [الأنعام : 151] وتطلق على الروح التي بها حياة الجسد كما في قوله : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : 53] .

وعلى الإطلاقين توزع المعاني المتقدمة كما لا يخفى .

(71/815)

و ﴿ المطمئنة ﴾ : اسم فاعل من اطمأن إذا كان هادئاً غير مضْطَرِب ولا منزعج ، فيجوز أن يكون من سكون النفس بالتصديق لما جاء به القرآن دون تردد ولا اضطراب بالٍ فيكون ثناء على هذه النفس ويجوز أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة في الآخرة .

وفعله من الرباعي المزيد وهو بوزن أفْعَلَلَّ .

والأصح أنه مهموز اللام الأولى وأن الميم عين الكلمة كما يُنطَق به وهذا قول أبي عَمرو .

وقال سيبويه : أصل الفعل : طَأْمَنَ فوقع فيه قلب مكاني فقدمت الميم على الهمزة فيكون أصل مطمئنة عنده مُطْأَمِنَّة ومصدره اطئمنان وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ في سورة البقرة (260) وقوله : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ في سورة النساء (103) .

ووصف النفس ﴿ بـ ﴿ المطمئنة ﴾ ليس وصفاً للتعريف ولا للتخصيص ، أي لتمييز المخاطَبين بالوصف الذي يميزهم عمن عداهم فيعرفون أنهم المخاطبون المأذونون بدخول الجنة لأنهم لا يَعْرفون أنهم مطمئنون إلا بعد الإِذن لهم بدخول الجنة ، فالوصف مراد به الثناء والإِيماء إلى وجه بناء الخبر .

وتبشير من وُجه الخطاب إليهم بأنهم مطمئنون آمنون .

ويجوز أن يكون للتعريف أو التخصيص بأن يجعل الله إلهاماً في قلوبهم يعرفون به أنهم مطمئنون .

والاطمئنان : مجاز في طيب النفس وعدم ترددها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح فيهم حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا ومن أثره اطمئنانهم يوم القيامة حين يرون مخائل الرضى والسعادة نحوهم ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء .

وقد فُسر الاطمئنان : بيقين وجود الله ووحدانيته ، وفسر باليقين بوعد الله ، وبالإخلاص في العمل ، ولا جرم أن ذلك كله من مقومات الاطمئنان المقصود فمجموعه مراد وأجزاؤه مقصودة ، وفسر بتبشيرهم بالجنة ، أي قبل ندائهم ثم نُودُوا بأن يدخلوا الجنة .

والرجوع يحتمل الحقيقة والمجاز كما علمت من الوجوه المتقدمة في معنى الآية .

والراضية : التي رضت بما أُعطيته من كرامة وهو كناية عن إعطائها كل ما تطمح إليه .

والمرضية : اسم مفعول وأصله : مَرضياً عنها ، فوقع فيه الحذف والإِيصال فصار نائب فاعل بدون حرف الجر ، والمقصود من هذا الوصف زيادة الثناء مع الكناية عن الزيادة في إفاضة الإِنعام لأن المرضي عنه يزيده الراضي عنه من الهبات والعطايا فوق ما رضي به هو .

وفرع على هذه البشرى الإِجمالية تفصيل ذلك بقوله : ﴿ فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ فهو تفصيل بعد الإِجمال لتكرير إدخال السرور على أهلها .

والمعنى : ادخلي في زمرة عبادي .

والمراد العباد الصالحون بقرينة مقام الإِضافة مع قرنه بقوله : ﴿ جنتي ﴾ .

ومعنى هذا كقوله تعالى : ﴿ لندخلنهم في الصالحين ﴾ [العنكبوت : 9] .

فالظرفية حقيقية وتؤول إلى معنى المعية كقوله تعالى : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء : 69] .

وإضافة (جنة) إلى ضمير الجلالة إضافة تشريف كقوله : ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ [القمر : 55] .

وهذه الإِضافة هي مما يزيد الالتفات إلى ضمير التكلُّم حسناً بعد طريقة الغيبة بقوله : ﴿

ارجعي إلى ربك ﴾ .

وتكرير فعل ﴿ وادخلي ﴾ فلم يقل : فادخلي جنتي في عبادي للاهتمام بالدخول بخصوصه تحقيقاً للمسرة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(73/815)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾

يوهم أنه ملك واحد وقوله: ﴿ صَفّاً صَفّاً ﴾ يقتضي أنه غير ملك واحد بل صفوف من جماعات الملائكة .

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿ والملك ﴾ معناه والملائكة ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ .

وتقدم بيانه بشواهده العربية في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنّ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 320 ﴾

(74/815)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والفجر ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزلت ﴿ والفجر ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردوية عن عائشة قالت : أنزلت ﴿ والفجر ﴾ بمكة .

وأخرج النسائي عن جابر قال : أفتان يا معاذ أين أنت من ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] ﴿ والفجر ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : قسم أقسم الله به .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران قال : إن الله تعالى يقسم بما يشاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن

ابن عباس في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : فجر النهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : هو الصبح .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : طلوع الفجر غداة جمع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : فجر يوم النحر ، وليس كل فجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ والفجر ﴾ قال : يعني صلاة الفجر .

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : هو المحرم أوّل فجر السنة .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل " .

(75/815)

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن النعمان قال : " أتى عليّاً رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني بشهر أصومه بعد رمضان . قال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً يسأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " إن كنت صائماً شهراً بعد رمضان فصم المحرم ، فإنه شهر الله وفيه يوم تاب فيه قوم وتاب فيه على آخرين " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والبيهقي عن ابن عباس قال : " قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ قالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى ، وأغرق فيه آل فرعون ، فصامه موسى شكراً لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن أحق بموسى منكم ، فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه " .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن الربيع بنت معوّذ بن عفراء قالت :

" أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة من كان أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه " قالت فكنا بعد ذلك نصومه ونصوّم صبياننا الصغار ، ونذهب بهم إلى المسجد ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه إياها حتى يكون عند الافطار .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والبيهقي عن ابن عباس قال : ما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحرى صيام يوم يبتغي فضله على غيره إلا هذا اليوم ، يوم

عاشوراء ، أو شهر رمضان .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس ليوم على يوم فضل في الصيام إلا شهر رمضان ويوم عاشوراء " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن الأسود بن يزيد قال : ما رأيت أحداً ممن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بصوم يوم عاشوراء من عليّ وأبي موسى .

(76/815)

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والبيهقي عن ابن عباس قال : " حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا : يا رسول الله إنه تعظمه اليهود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا يوم التاسع فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن عدي والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا فيه اليهود . صوموا قبله يوماً وبعده يوماً " .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لئن بقيت لآمرن بصيام يوم قبله أو بعده يوم عاشوراء " .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : خالفوا اليهود وصوموا التاسع والعاشر .

وأخرج البيهقي عن أبي جبلة قال : كنت مع ابن شهاب في سفر فصام يوم عاشوراء ، فقيل له : تصوم يوم عاشوراء في السفر وأنت تفطر في رمضان ؟ قال : إن رمضان له عدة من أيام أخر ، وإن عاشوراء يفوت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال : يوم عاشوراء يوم تعظمه اليهود وتتخذه عيدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صوموه أنتم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوم عاشوراء يوم كانت تصومه الأنبياء فصوموه أنتم " .

وأخرج البيهقي عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه طول سنته " .

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه في سائر سنته " .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وسع على أهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته " .

(77/815)

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وسع على عياله وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته " قال البيهقي : أسانيدها ، وإن كانت ضعيفة ، فهي إذا ضم بعضها إلى بعض أحدثت قوّة .

وأخرج البيهقي عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر قال : كان يقال : من وسع على عياله يوم عاشوراء لم يزالوا في سعة من رزقهم سائر سنتهم .

وأخرج البيهقي وضعفه عن عروة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اكتحل بالإِثمد يوم عاشوراء لم يرمد أبداً " .

أخرج أحمد والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ والفجر وليال عشر والشفع والوتر ﴾ قال : إن العشر عشر الأضحى والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال : عشرة الأضحى ، وفي لفظ قال : هي ليال العشر الأول من ذي الحجة .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير في قوله : ﴿

وليال عشر ﴾ قال : أول ذي الحجة إلى يوم النحر .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن مسروق في قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال : هي عشر الأضحى ، هي أفضل أيام السنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ وليال عشر ﴾ قال : عشر ذي الحجة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة مثله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال : عشر الأضحى أقسم بهن لفضلهن على سائر الأيام .

(78/815)

وأخرج عبد بن حميد عن مسروق ﴿ وليال عشر ﴾ قال : عشر الأضحى وهي التي وعد الله موسى قوله : ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ [الأعراف : 142] .

وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبيد الله أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد

الرحمن ، فدعاهم ابن عمر إلى الغداء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالي العشر التي ذكر الله في القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك .

قال : بلى فاشكك .

وأخرج ابن مردويه عن عطية في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : هذا الذي تعرفون ﴿ وليال عشر ﴾ قال : عشر الأضحى ﴿ والشفع ﴾ قال : يقول الله : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ [النبأ : 8] ﴿ والوتر ﴾ قال الله قيل هل تروي هذا عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج البخاري والبيهقي في الشعب عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أيام فيهن العمل أحب إلى الله عز وجل أفضل من أيام العشر ، قيل يا رسول الله : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بماله ونفسه فلم يرجع من ذلك بشيء " .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أيام أفضل عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من أيام العشر ، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد " .

وأخرج البيهقي عن الأوزاعي قال : بلغني أن العمل في اليوم من أيام العشر كقدر غزوة في

سبيل الله يصام نهارها ويحرس ليلها إلا أن يختص امرؤ بشهادة . قال : الأوزاعي : حدثني بهذا الحديث رجل من بني مخزوم عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج البيهقي من طريق هنيدة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم تسع ذي الحجة ويوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر ، أول اثنين من الشهر وخميسين .

(79/815)

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أيام من أيام الدنيا العمل فيها أحب إلى الله من أن يتعبد له فيها من أيام العشر ، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة ، وقيام كل ليلة بقيام ليلة القدر " .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أيام أفضل عند الله ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير ، فإنها أيام التهليل والتكبير وذكر الله ، وإن صيام يوم منها يعدل بصيام سنة ، والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة ضعف " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال : هي

العشر الأواخر من رمضان .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أبي عثمان قال : كانوا يعظمون ثلاث عشرات العشر الأول من المحرم والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأخير من رمضان .

أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن عمران بن حصين

" أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر فقال : هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن عمران بن حصين ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : الصلاة المكتوبة منها شفع ومنها وتر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : إن من الصلاة شفعاً وإن منها وتراً . قال : قال الحسن : هو العدد منه شفع ومنه وتر .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : ذلك صلاة المغرب الشفع الركعتان والوتر الركعة الثالثة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : أقسم ربنا بالعدد كله الشفع منه والوتر .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي قال : الشفع الزوج ، والوتر الفرد .

(80/815)

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : كل شيء شفع فهو اثنان والوتر واحد .

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : الخلق كله شفع ووتر فأقسم بالخلق .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : الله الوتر وأنتم الشفع .

وأخرج الفريابي وسعيد بن جبير وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : كل خلق الله شفع السماء والأرض والبر والبحر والإِنس والجن والشمس والقمر ونحو هذا شفع ، والوتر الله وحده .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : الشفع آدم وحواء والوتر الله .

وأخرج عبد بن حميد من طريق اسماعيل عن أبي صالح ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : خلق الله من كل زوجين اثنين ، والله وتر واحد صمد . قال اسماعيل : فذكرت ذلك للشعبي ، فقال : كان مسروق يقول ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : من قال في دبر كل صلاة وإذا أخذ مضجعه الله أكبر الله أكبر عدد الشفع والوتر وعدد كلمات الله التامات الطيبات المباركات ثلاثاً ولا إله إلا الله مثل ذلك كن له في قبره نوراً وعلى الجسر نوراً وعلى الصراط نوراً حتى يدخل الجنة .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : " يومان وليلة يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : هي أيام نسك عرفة والأضحى هما للشفع ، وليلة الأضحى هي الوتر .

وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" الشفع اليومان والوتر اليوم الثالث " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع قول الله : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ [البقرة : 203] والوتر اليوم الثالث : ، وفي لفظ الشفع أوسط أيام التشريق والوتر آخر أيام التشريق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان من طرق عن ابن عباس ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : عرفة وتر ويوم النحر شفع عرفة يوم التاسع والنحر يوم العاشر .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه قال : الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة . أقسم الله بهما لفضلهما على العشر .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قال : إذا ذهب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قال : إذا سار .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والليل إذا يسر

﴿ قال : إذا سار .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قال : ليلة جمع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قيل له : ما ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قال : هذه الإفاضة اسريا ساري ولا تبيتن إلا بجمع .

أخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ والفجر ﴾ إلى قوله : ﴿ إذا يسر ﴾ قال : هذا قسم على أن ربك لبالمرصاد .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ قسم لذي حجر ﴾ قال : لذي حجا وعقل ونهى .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عكرمة والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ لذي حجر ﴾ قال : لذي حلم .

(82/815)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي مالك ﴿ لذي حجر ﴾ قال : ستر من النار .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن السدي في قوله : ﴿ لذي حجر ﴾ قال : لذي لب . قال الحارث بن ثعلبة :

وكيف رجائي أن أتوب وإنما . . . يرجى من الفتيان من كان ذا حجر

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ﴾ قال : يعني بالإِرم الهالك ألا ترى أنك تقول : إرم بنو فلان ﴿ ذات العماد ﴾ يعني طولهم مثل العماد .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ بعاد إرم ﴾ قال : القديمة ﴿ ذات العماد ﴾ قال : أهل عمود لا يقيمون .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ إرم ﴾ قال : أمة ﴿ ذات العماد ﴾ قال : كان لها جسم في السماء .

وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله : ﴿ بعاد إرم ﴾ قال : عاد بن إرم نسبهم إلى أبيهم الأكبر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كنا نحدث أن إرم قبيلة من عاد كان يقال لهم ذات العماد ، كانوا أهل عمود ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً في السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فقال : "كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم" .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ارم هي دمشق .

وأخرج ابن جرير وعبد بن حميد وابن عساكر عن سعيد المقبري مثله .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن خالد الربعي مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي قال : إرم هي الاسكندرية .

(83/815)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : الإِرم هي الهلاك ، إلا ترى أنه يقال : "أرَمَّ بنو فلان أي هلكوا . قال ابن حجر : هذا التفسير على قراءة شاذة أرَمَّ بفتحتين وتشديد الراء على أنه فعل ماض و ﴿ ذات ﴾ بفتح التاء مفعوله أي أهلك الله ذات العماد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب ﴿ إرم ﴾ قال رمهم رماً فجعلهم رمماً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ ذات العماد ﴾ ذات الشدة والقوّة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ جابوا الصخر بالواد ﴾ قال : كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ قال : الأوتاد الجنود الذين يشيدون له أمره .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ جابوا الصخر ﴾ قال نقبوا الحجارة في الجبال فاتخذوها بيوتاً . قال : وهل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم أما سمعت قول أمية :

وشق أبصارنا كيما نعيش بها . . . وجاب للسمع أصماخاً وآذاناً

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ جابوا الصخر ﴾ قال : حرقوا الجبال فجعلوها بيوتاً ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ قال : كان يتد الناس بالأوتاد ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ قال : ما عذبوا به .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ ذي الأوتاد ﴾ قال : وتد فرعون لأمرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ قال : كان يجعل رجلاً هنا ورجلاً هنا ويداً هنا ويداً هنا بالأوتاد .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير

قال : إنما سمي فرعون ذا الأوتاد لأنه كان يبني له المنابر يذبح عليها الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كان يعذب بالأوتاد .

(84/815)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان فرعون إذا أراد أن يقتل أحداً ربطه بأربعة أوتاد على صخرة ثم أرسل عليه صخرة من فوقه فشدخه وهو ينظر إليها قد ربط بكل يد منها قائمة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ قال : ذي البناء قال : وحدثنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كانت له مظال يلعب تحتها وأوتاد كانت تضرب له .

وأخرج ابن المنذر عن السدي في قوله : ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ قال : بالمعاصي ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ قال : رجع عذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كل شيء به فهو سوط عذاب .

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس

في قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال : يسمع ويرى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال : بمرصاد أعمال بني آدم .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود في قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : قسم ، وفي قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ من وراء الصراط جسور : جسر عليه الأمانة وجسر عليه الرحم وجسر عليه الرب عزّ وجلّ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو نصر السجزي في الإِبانة عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة يأمر الرب بكرسيه فيوضع على النار فيستوي عليه ثم يقول : أنا الملك الديان وعزتي وجلالي لا يتجاوز اليوم ذو مظلمة بظلامته ولو ضربة بيد فذلك قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن سالم بن أبي الجعد في قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال : إن لجهنم ثلاث قناطر : قنطرة فيها الأمانة وقنطرة فيها الرحم ، وقنطرة فيها لرب تبارك وتعالى ، وهي المرصاد لا ينجو منها إلا ناجٍ ، فمن نجا من ذلك لم ينج من هذه .

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن قيس قال : بلغني أن على جهنم ثلاث قناطر : قنطرة عليها الأمانة إذا مروا بها تقول يا رب هذا أمين ، هذا خائن . وقنطرة عليها الرحم إذا مروا بها تقول يا رب هذا واصل يا رب ، هذا قاطع . وقنطرة عليها الرب ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي قال : إن لجهنم سبع قناطر ، والصراط عليهن ، فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى فيقول : قفوهم إنهم مسؤلون ، فيحاسبون على الصلاة ، ويسألون عنها ، فيهلك فيها من هلك وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها وكيف خانوها ، فيهلك من هلك وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها ، فيهلك من هلك وينجو من نجا . والرحم يومئذ متدلية إلى الهوى في جهنم تقول : اللهم من وصلني فصله ، ومن قطعني فاقطعه . وهي التي يقول الله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة رفعه : " إن في جهنم جسراً له سبع قناطر على أوسطه القضاء ، فيجاء بالعبد حتى إذا انتهى إلى القنطرة الوسطى قيل له : ماذا عليك من الديون ؟ وتلا هذه الآية ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ [النساء : 42] فيقول : رب علي كذا وكذا فيقال له : اقض دينك . فيقول : ما لي شيء . فيقال : خذوا من حسناته ، فلا

يزال يؤخذ من حسناته حتى ما يبقى له حسنة . فيقال : خذوا من سيئات من يطلبه فركبوا عليه " .

(86/815)

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل بن سليمان قال : أقسم الله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يعني الصراط ، وذلك أن جسر جهنم عليه سبع قناطر على كل قنطرة ملائكة قيام وجوههم مثل الجمر ، وأعينهم مثل البرق ، يسألون الناس في أول قنطرة عن الإِيمان ، وفي الثانية يسألونهم عن الصلوات الخمس ، وفي الثالثة يسألونهم عن الزكاة ، وفي الرابعة يسألونهم عن شهر رمضان ، وفي الخامسة يسألونهم على الحج ، وفي السادسة يسألونهم عن العمرة ، وفي السابعة يسألونهم عن المظالم فمن أتى بما سئل عنه كما أمر جاز على الصراط ، والا حبس ، فذلك قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ فأما الإِنسان ﴾ الآية ، قال : كلا اكذبتهما جميعاً ما بالغنى أكرمك ، ولا بالفقر أهانك ثم أخبرك بما يهين ﴿ بل لا يكرمون اليتيم ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في الآية قال : ظن كرامة الله في المال وهو أنه في قلته وكذب

إنما يكرم بطاعته ، ويهين بمعصيته ، من أهان .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ حباً جمّاً ﴾ قال : كثيراً . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول أمية بن خلف :

أن تغفر اللهم تغفر جمّاً . . . وأي عبد لك إلا ألّما

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ قال : ضيقه عليه .

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ بل لا يكرمون اليتيم ولا يحضون ﴾ بالياء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ﴿ ويأكلون التراث ﴾ قال : الميراث ﴿ أكلاً لماً ﴾ قال : نصيبه ونصيب صاحبه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أكلاً لمّاً ﴾ قال : سفاً وفي قوله : ﴿ حبّاً جمّاً ﴾ قال : شديداً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أكلاً لمّاً ﴾ قال : أكلاً شديداً .

(87/815)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة بن عبد الله المزني في قوله : ﴿ ويأكلون التراث أكلاً لّماً ﴾ قال : اللم الاعتداء في الميراث يأكل ميراثه وميراث غيره .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ ويأكلون التراث ﴾ قال : الميراث ﴿ أكلاً لّماً ﴾ قال : شديداً ﴿ ويحبون المال حبّاً جمّاً ﴾ قال : شديداً .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ أكلاً لّماً ﴾ قال : اللم اللف ، وفي قوله : ﴿ حباً جمّاً ﴾ قال : الجم الكثير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ أكلاً لّماً ﴾ قال : من طيب أو خبيث وفي قوله : ﴿ حباً جمّاً ﴾ قال : فاحشاً .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويأكلون التراث ﴾ الآية ، قال : يأكل نصيبي ونصيبك .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله : ﴿ ويأكلون التراث ﴾ الآية ، قال : كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال : الأكل اللمّ الذي يلم كل شيء يجده لا يسأل عنه يأكل الذي له والذي لصاحبه ، لا يدري أحلالاً أم حراماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان رضي الله عنه أنه قال في قوله : ﴿ ويحبون المال حبّاً جمّاً ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا ومال وارثه أحب إليه من

ماله . قالوا يا رسول الله : ما منا أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه . قال : ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت " .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ﴾ بالتاء ورفع التاء ﴿ ولا تحاضون ﴾ ممدودة منصوبة التاء بالألف غير مهموزة ﴿ وتأكلون التراث ﴾ بالتاء ﴿ أكلاً لمّاً ﴾ مثقلة .

(88/815)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ كلا بل لا يكرمون اليتيم ، ولا يحضون على طعام المسكين ، ويأكلون التراث أكلاً لمّاً ويحبون المال حبّاً جمّاً ﴾ الأربعة بالياء .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ " كلا بل لا يكرمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين " إلى قوله : " ويحبون المال " بالياء كلها .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ قال : تحريكها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : تحمل الأرض والجبال فيدك بعضها على بعض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ قال : صفوف الملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ قال : جاء أهل السموات كل سماء صفاً .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : " لما نزلت هذه الآية تغير رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف في وجهه حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله ، فسأله عليّ ، فقال : جاء جبريل فأقرأني هذه الآية ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم ﴾ فقيل : وكيف يجاء بها ؟ قال : يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع " .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" هل تدرون ما تفسير هذه الآية ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، بيد سبعين ألف ملك ، فتشرد شردة لولا أن الله حبسها لأحرقت السموات والأرض " .

وأخرج ابن وهب في كتاب الأهوال عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : " جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناجاه ، ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم منكس الطرف ، فسأله عليّ فقال : " أتاني جبريل فقال لي : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم ﴾ وجيء بها تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام ، يقوده سبعون ألف ملك ، فبينما هم كذلك إذ شردت عليهم شردة انفلتت من أيديهم ، فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من في الجمع فأخذوها " .

وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتي بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ قال : " جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ يتذكر الإِنسان ﴾ قال :

يريد التوبة ، وفي قوله : ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ يقول : عملت في الدنيا لحياتي في الآخرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ إلى قوله : ﴿ لحياتي ﴾ قال : علم والله أنه صادق هناك حياة طويلة لا موت فيها أحسن مما عليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ قال : الآخرة .

وأخرج أحمد والبخاري في التاريخ والطبراني عن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه ، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : لو أن عبداً جرّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرماً في طاعة الله إلى يوم القيامة لود أنه رد إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب .

(90/815)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ قال : لا يعذب بعذاب الله أحد ، ولا يوثق وثاق الله أحد .

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه رضي الله عنه أن النبي

صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن مردويه وابن جرير والبغوي والحاكم وصححه وأبو نعيم عن أبي قلابة عمن أقرأه النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية مالك بن الحويرث أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه ، وفي لفظ ، أقرأ إياه ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ منصوبة الذال والثاء .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : المؤمنة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ يقول : إلى جسدك . قال : نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس فقال : يا رسول الله : ما أحسن هذا ؟ فقال : أما إنه سيقال لك هذا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير قال : " قرئت عند النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ فقال أبو بكر : إن هذا لحسن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما إن الملك سيقولها : لك عند الموت " " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن أبي عامر رضي الله عنه قال : سمعت أبا بكر الصديق يقول : " قرأت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾

فقلت : ما أحسن هذا يا رسول الله ، فقال : " يا أبا بكر أما إن الملك سيقولها : لك عند الموت " " .

(91/815)

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من يشتري بئر رومة نستعذب بها غفر الله له ، فاشتراها عثمان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل لك أن تجعلها سقاية للناس ؟ قال : نعم . فأنزل الله في عثمان ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بريدة رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : يعني نفس حمزة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة

﴾ قال : المصدقة .

وأخرج سعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : التي أيقنت بأن الله ربها .

وأخرج ابن جرير عن أبي الشيخ الهنائي رضي الله عنه قال : في قراءة أبيّ " يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة فادخلي في عبدي " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأها " فادخلي في عبدي على التوحيد " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ قال : ترد الأرواح يوم القيامة في الأجساد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : يسيل واد من أصل العرش ، فتنبت فيه كل دابة على وجه الأرض ، ثم تطير الأرواح فتؤمر أن تدخل الأجساد ، فهو قوله : ﴿ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ارجعي إلى ربك راضية ﴾ قال : بما أعطيت من الثواب ﴿ مرضية ﴾ عنها بعملها ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ المؤمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ الآية ، قال : إن الله إذا أراد قبض عبده المؤمن اطمأنت النفس إليه ، واطمأن إليها ، ورضيت عن الله ، ورضي الله عنها أمر بقبضها فأدخلها الجنة وجعلها من عباده الصالحين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله : ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ قال : هذا عند الموت رجوعها إلى ربها خروجها من الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لها : ﴿ فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ .

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : " قل اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : المخبتة إلى الله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة والحسن ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ إلى ما قال

الله المصدقة بما قال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : هذا المؤمن اطمأن إلى ما وعد الله ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ قال : ادخلي في الصالحين وادخلي جنتي .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ قال : إلى جسدك .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي في الآية قال : إن المؤمن إذا مات رأى منزله من الجنة فيقول تبارك وتعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي ﴾ إلى جسدك الذي خرجت منه ﴿ راضية ﴾ ما رأيت من ثوابي مرضياً عنك حتى يسألك منكر ونكير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ قال : مع عبادي .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ الآية قال : بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع .

(93/815)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف ، فجاء طير لم تر عين خلقته ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدري من تلاها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 497.515 ﴾

(94/815)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾

هو قسم ، وجوابه : إن ربك لبالمرصاد أقسم الله تعالى بالفجر يعني : الصبح ، والفجر فجران المستطيل ، وهو من الليل والفجر ، المعترض وهو من النهار .

ويقال : أراد به أول يوم من المحرم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ يعني : عشر ذي الحجة ، ويقال : إنها الأيام العشر ، التي صام فيها موسى عليه السلام ، وهي قوله : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا

بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : 142] .

ويقال : هي أيام عاشوراء .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال قتادة : الخلق كله شفع ووتر ، فأقسم الله تعالى بالخلق .

وروى الحارث ، عن علي رضي الله عنه ، أنه قال : الشفع آدم وحواء ، والوتر الله سبحانه وتعالى .

قال ابن عباس : الوتر آدم فتشفع بزوجته حواء ، وقال عطاء : الشفع الناس ، والوتر الله سبحانه وتعالى .

وقال الحسن : الشفع هو الخلق ، والذكر والأنثى ، والوتر الله تعالى .

ويقال : أقسم بالصلوات ، والصلوات منها ما هو شفع ، وهو الفجر ، والظهر والعصر ، والعشاء ومنها ما هو وتر وهو الوتر في المغرب .

ويقال : إنما هو الأعداد كلها ، شفع ووتر .

وعن ابن عباس : الشفع أيام الذبح ، والوتر يوم عرفة .

قال عز وجل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال الكلبي : يعني : ليلة المزدلفة ، يسير الخلق إلى المزدلفة .

وقال القتبي : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ يعني : يسرى فيه ، كقوله : ليل نائم ، أي : يُنام فيه .

وقال الزجاج : أصله تسري يسري ، إلا أن الياء قد حذفت منه ، وهي القراءة المشهورة بغير ياء ، يقرأ بالياء .

قرأ حمزة ، والكسائي ، والشفع والوتر بكسر الواو .

والباقون بالنصب ، ، وهما لغتان .

يقال : للفرد وَتْرٌ ووِتْر .

(95/815)

وقرأ ابن كثير يسر بالياء ، في حالة الوصل والقطع .

وقرأ نافع بالياء ، إذا وصل ، وقرأ الباقون بغير ياء في الوصل والقطع ، لأن الكسرة تدل عليه .

ثم قال عز وجل : ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ يعني : أن هذا الذي ذكرناه ، قسماً لذي لب من الناس .

ويقال : إن في ذلك قسم صدق ، لذي عقل ولب ورشد ، والحجر اللب .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ يعني : ألم تعلم ، ويقال : ألم تخبر ،

واللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التقدير ، يعني : فذلك خبر عاد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : عاقبة قوم عاد ، وقال بعضهم : هما عادان ، أحدهما عاد وإرم ، والآخر هم قوم هود .

وقال بعضهم : كلاهما واحد ، ويقال : إرم اسم للجنة التي بناها ، فمات قبل أن يدخلها ، وذكر فيها حكاية طويلة عن وهب بن منبه .

ثم قال : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : الفساطيط ، والعمود عمود الفسطاط .

﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ يعني : في القوة والطول ، ويقال : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : ذات القوة ، ويقال : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : دائم الملك ، طويل العمر .

ويقال : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ أي : ذات البناء الرفيع .

وروى أسباط ، عن السدي قال : عاد بن إرم ، فنسبهم إلى أبيهم الأكبر .

كقولك : بكر بن وائل .

ويقال : لا ينصرف إرم ، لأنه اسم قبيلة .

وقال مقاتل : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : طولها اثنا عشر ذراعاً ﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ في الطول والقوة ، وإرم اسم أب قبيلة ينسب إليهم ، وهو إرم بن سمك ، بن نسمك ، بن سام ، بن نوح عليه السلام .

وقال الكلبي : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ يعني : كانوا أهل ذات عمود وماشية ، فإذا هاج العمود ،

يعني : يبس العشب ، رجعوا إلى منازلهم .

ويقال : عاد وإرم شيء واحد .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ وهم قوم صالح ، نقبوا الجبل ، وقعلوا أحجاراً لا يطيق مائتا رجل بالوادي .

(96/815)

وقال الكلبي : هو واد القرى .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الاوتاد ﴾ يعني : قواد الكفرة الفجرة ، الذين خلقهم الله تعالى أوتاداً في مملكته ، ليكفوا عنه عدوه .

ويقال : إن له بيتاً أوتد فيه أوتاداً ، فإذا عذب أحد ، طرحه فيها .

ويقال : سمي بذي الأوتاد ، لأنه كان إذا غضب على أحد ، وثقه بأربعة أوتاد .

ويقال : الأوتاد وهي الصلب ، إذا غضب على أحد ، صلبه كقوله لأصلبنكم ويقال ذو الأوتاد يعني ذا الملك الثابت ﴿ الذين طَغَوْاْ فِى البلاد ﴾ يعني : عاداً وثمود وفرعون عصوا في البلاد ﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ يعني : أكثروا في الأرض المعاصي ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ ﴾ يعني : أرسل عليهم ربك ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ يعني : شديد العذاب حتى

أهلكهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ يعني : مرّ الخلق عليه .

ويقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ يعني : ملائكة ربك على الصراط ، يعني : يرصدون العباد على جسر جهنم في سبع مواضع .

وقال ابن عباس ، رضي الله عنهما : يحاسب العبد في أولها بالإيمان ، فإن سلم إيمانه من النفاق والرياء ، نجا وإلا تردّى في النار ، وفي الثاني : يحاسب على الصلاة ، فإن أتم ركوعها وسجودها في مواقيتها نجا ، وإلا تردّى في النار ، والثالث : يحاسب على الزكاة ، في النار . وفي الخامس في الحج والعمرة ، وفي السادس بالوضوء والغسل من الجنابة ، وفي السابع بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، ومظالم العباد فإن أداها نجا وإلا تردى في النار .

(97/815)

ثم قال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ ﴾ قال الكلبي : نزلت في أمية بن خلف ويقال : في أبي بن خلف ، إذا ما ابتلاه ، يعني : اختبره ربه ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ يعني : ورزقه ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ يعني : أعطاه النعمة ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ يعني : اجتباني وفضلني ، وأنا أهل لذلك ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ ﴾ بالفقر ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ، وابن عامر في إحدى الروايتين ، فقدّر بالتشديد ، والباقون بالتخفيف ، ومعناهما واحد أي : فقتر عليه

رزقه ، وأصابه الجوع والأمراض ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ يعني : طردني وعاقبني ، شكاية لربه .

قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ أي : حقاً يعني : ليس إهانتي وإكرامي ، في نزع الماء والولد ، والفقر ، والمرض ، ولكن إهانتي في نزع المعرفة ، وإكرامي بتوفيق المعرفة ، والطاعة .

وقال قتادة : لم يكن الغنى من كرامة ، ولم يكن الفقر من الذل .

ولكن الكرامة مني ، بتوفيق الإسلام ، والهوان مني بالخذلان عنه .

إنما المكرم من أكرم بطاعتي ، والمهان من أهين بمعصيتي .

ثم قال : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ يعني : لا تعطون حق اليتيم ، وكان في حجر أمية بن خلف ، يتيم لا يؤدي حقه .

فنزلت الآية بسببه ، فصار فيها عظة لجميع الناس .

قرأ أبو عمرو ، وابن عامر في إحدى الروايتين ، فقدر بالتشديد ، والباقون بالتخفيف ، ومعناهما واحد .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ يعني : لا يحثون أنفسهم ، ولا غيرهم على طعام المسكين .

ويقال : لا تحاضون على إطعام المسكين .

ويقال : لا يحض بعضهم بعضاً .

قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم ﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ ﴾ بالألف، يعني: لا يحث بعضهم بعضاً.

وقرأ أبو عمرو، ولا ﴿ يحضون ﴾ بالياء يعني: لا يحثون، والباقون لا تحضون بالتاء على المخاطبة.

(98/815)

ثم قال: ﴿ المسكين وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ يعني: الميراث ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ يعني: شديداً.

كقولك: لممت الشيء إذا جمعته ومعناه يأكلون مال اليتيم، أكلاً شديداً سريعاً.

﴿ وَتُحِبُّونَ المال ﴾ يعني: كثرة المال وجمع المال ﴿ حُبّاً جَمّاً ﴾ يعني: شديداً.

ويقال: كثيراً.

قرأ أبو عمرو ويكرمون، ويأكلون، ويحبون كلها بالياء على معنى الخبر عنهم.

والباقون بالتاء، على معنى الخطاب لهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني: حقاً ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ يعني: زلزلت الأرض زلزالها، والتكرار للتأكيد.

ثم قال: ﴿ وَجَاء رَبُّكَ والملك ﴾ قال بعضهم: هذا من المكتوم الذي لا يفسر وقال أهل

السنة وجاء ربك بلا كيف وقال بعضهم معناه وجاء أمر ربك بالحساب والملك ﴿ صَفّاً صَفّاً ﴾ يعني : صفوفاً ، كصفوف الملائكة ، وأهل الدنيا في الصلاة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ تحضر وتدنو من الكفار ، وروي عن عبد الرحمن بن حاطب قال : كنا جلوساً عند كعب يذكّرنا ، فجاء عمر رضي الله عنه ، فجلس ناحيته وقال : ويحك يا كعب خوّفنا ، فقال كعب : إن جهنم لتقرب يوم القيامة ، لها زفير وشهيق ، حتى إذا قربت ودنت ، زفرت زفرة ، لا يبقى نبي ولا صديق ، إلا وهو يخر ساقطاً على ركْبتيه .

فيقول : اللهم لا أسألك اليوم إلا نفسي ، ولو كان لك يا ابن الخطاب عمل سبعين نبياً ، لظننت أن لا تنجو .

فقال عمر رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد .

ثم قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسان ﴾ يعني : يتعظ الكافر ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ يعني : من تنفعه العظة ، ويقال : يومئذ يتذكر الإنسان ، يعني : يظهر الإنسان التوبة ، يعني : أين له التوبة ، يعني : كيف تنفعه التوبة يومئذ .

﴿ يَقُولُ يالَيتنى لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ يعني : يا ليتني عملت في حياتي الفانية لحياتي الباقية .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ قرأ الكسائي لا يعذب ، بنصب الذال ، ولا يوثق بنصب التاء .

والباقون كلاهما بالكسر ، فمن قرأ بالنصب فمعناه : ولا يعذب عذاب هذا الصنف من الكفار أحد ، وكذلك لا يوثق وثاقه أحد .

ومن قرأ بالكسر ، معناه لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد ، الملك يومئذ لله وحده ، والأمر بيده .

ويقال : معناه لا يقدر أحد .

من الخلق ، أن يعذب كعذاب الله تعالى ، ولا يوثق في الغل والصفد كوثاق الله .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَحَدٌ يَأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ التي اطمأنت بلقاء الله عز وجل ، ويقال : ﴿ المطمئنة ﴾ يعني : الراضية بثواب الله تعالى ، القانعة بعطاء الله ، الشاكرة لنعمائه تعالى .

يقال لها ، عند الفراق من الدنيا ﴿ ارجعى إلى رَبِّكِ ﴾ يعني : ارجعي إلى ثواب ربك ، إلى ما أعد الله لك في الجنة .

ويقال له يوم القيامة ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ يعني : مع عبادي الصالحين في الجنة ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ يعني : ادخلي الجنة بلا حساب ، ويقال : هذا الخطاب

لأهل الدنيا ، يعني : ﴿ أَيَّتُهَا النفس ﴾ في الدنيا ، التي أمنت من عذاب الله ، ﴿ المطمئنة ارجعى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ يعني : ﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ يعني : ادخلي في عبادي ، وفي طاعتي ، وادخلي في جنتي ويقال : معناه تقول الملائكة : يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ما أعد الله لك راضية ، فادخلي في عبادي على محض التقديم ، يعني : يا أيتها النفس المطمئنة ، الراضية بما أعطيت من الثواب ، مرضية بما عملت ، وادخلي جنتي مع عبادي والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 559.554 ﴾

(100/815)

وقال الثعلبى :

سورة الفجر

﴿ والفجر ﴾

قال ابن عبّاس : يعني النهار كلّه ، عطية عنه ، صلاة الفجر ، عثمان بن محصن عنه : فجر المحرّم ومثله قال قتادة : هو أوّل يوم من المحرّم تتفجر منه السنة . ضحاك : فجر ذي الحجّة ؛ لأنّ الله سبحانه قرن الأيام بها . عكرمة وزيد بن أسلم : الصبح . مقاتل : عداهُ جميع كلّ

سنة . القرظي : انفجار الصبح من كلّ يوم إلى انقضاء الدُّنيا . في بعض التفاسير : أنّ الفجر الصخور والعيون تتفجّر بالمياه .

﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ قال مجاهد وقتادة والضحّاك والكلبي والحلبي : هي عشر ذي الحجّة ، عكرمة : ليالي الحجّ ، وقال مسروق : هي أفضل أيّام السنة . أبو روق عن الضحّاك : هي العشر الأُول من شهر رمضان ، أبو ظبيان عن ابن عبّاس قال : هي العشر الأواخر من شهر رمضان ، يمان بن رباب : العشر الأُولى من المحرّم التي عاشرها يوم عاشوراء .

أخبرني الحسن قال : حدّثنا بن حمدان قال : حدّثنا موسى بن إسحاق الأنصاري قال : حدّثنا منجاب بن الحرث قال : أخبرنا بشر بن عمارة قال : حدّثنا عمر بن حسّان عن عطية العوفي في قوله سبحانه : ﴿ والفجر ﴾ قال : هو الفجر الذي تعرفون ، قلت : ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : عشر الأضحى ، قلت : ﴿ والشفع ﴾ قال : خَلْقه ، يقول الله سبحانه : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [النبأ : 8] ، قلت : ﴿ والوتر ﴾ قال : الله وتر ، قلت له : هل تروي هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : نعم ، قلت : عمّن ؟ قال : عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(101/815)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن نصرويه قال : حدّثنا ابن وهب قال : حدّثنا أحمد بن يحيى بن سعيد القطان وعبدة بن عبد الله بن النعمان قالا : حدّثنا أبو الحسين زيد بن الحبّاب العكلي قال : حدّثنا عبّاس بن عقبة قال : حدّثني حسين بن نعيم الحضرمي عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله سبحانه : ﴿ والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : " عشر النحر ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر " .

وبه عن ابن وهب قال : حدّثنا يوسف بن عبد الرحمن قال : حدّثنا سعيد بن مسلمة الأُموي قال : حدّثنا واصل بن السائب الرقاشي قال : حدّثني أبو سودة قال : حدّثني أبو أيوب الأنصاري قال : " سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال : " الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى ، والوتر ليلة النحر " .

وأخبرنا أبو الحسن بن أبي الفضل الفهندري قال : حدّثنا أبو الطاهر المحمد آبادي قال : حدّثنا عثمان بن سعيد قال : حدّثنا مسلم بن إبراهيم قال : حدّثنا خالد بن قيس وهمام بن يحيى قالا : حدّثنا قتادة عن عمران بن عاصم عن عمران بن حصين

" أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سُئل عن الشفع والوتر فقال : " هي الصلاة منها الشفع ومنها الوتر " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن لؤلؤ قال : حدّثنا الهيثم قال : حدّثنا الدوّرقي قال :

حدّثنا حجّاج عن ابن جريج قال : أخبرني محمد بن المرتفع أنّه سمع ابن الزبير يقول : والشفع النفر الأوّل والوتر [يوم] النفر الآخر .

(102/815)

وأخبرني الحسن قال : حدّثنا محمّد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدّثنا أحمد بن كثير القيسي قال : حدّثنا محمد بن عبد الله المقرئ قال : حدّثنا مروان بن معاوية الفزاري عن أبي سعيد بن عوف قال : سمعت عبد الله بن الزبير يقول على المنبر : يا معشر الحاجّ إنّكم جئتم من القريب والبعيد على الضعيف والشديد ، فأسهرتم الأعين وأنصبتم الأنفس وأتعبتم الأبدان ، فلا يبطلنّ أحدكم حجّه وهو لا يشعر ، ينظر نظرة بعينه أو يبطش بطشة بيده ، أو يمشي مشية برجله .

يا أهل مكّة وسّعوا عليهم ما وسّع الله عليكم وأعينوهم ما استعانوكم عليه ، فإنّهم وفد الله وحاجّ بيت الله ولهم عليكم حقّ ، فاسألوني فعلينا كان التنزيل ، ونحن حصرنا التأويل ، فقام إليه رجل من ناحية زمزم فقال : دخلت فأرة جرابي وأنا محرم ؟ فقال : اقتلوا الفويسقة ، فقام آخر فقال : أخبرنا بالشفع والوتر والليالي العشر فقال : أمّا الشفع والوتر فقول الله سبحانه : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة :

203] فهما الشفع والوتر ، وأمّا الليالي العشرة فالثمان وعرفة والنحر ، فقام آخر فقال : أخبرنا عن يوم الحجّ الأكبر ؟ فقال : هو يوم النحر ثلاث تتلوها .

وقال مجاهد ومسروق وأبو صالح : الشفع الخلق كلّه ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] الكفر والإيمان والشقاوة والسعادة والهدى والضلالة والليل والنهار والسماء والأرض والبرّ والبحر والشمس والقمر والجنّ والإنس ، والوتر الله سبحانه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] .

الحسن وابن زيد : أراد بالشفع والوتر الخلق كلّه ، منه شفع ووتر .

(103/815)

عطية عن ابن عبّاس : الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب . قتادة عن الحسن : هو العدد منه شفع ومنه وتر . مقاتل : الشفع هو آدم وحواء ، والوتر هو الربّ تبارك وتعالى ، وقيل : الوتر آدم شفّعه الله بزوجته حواء .

إبراهيم والقرظي : الزوج والفرد . الربيع عن أبي العالية : الشفع ركعتان من صلاة المغرب والوتر الركعة الثالثة ، وقيل : الشفع الصفا والمروة والوتر البيت ، الحسين بن الفضل : الشفع درجات الجنان ؛ لأنّها ثمان والوتر دركات النار ؛ لأنّها سبع ، كأنّه الله – سبحانه وتعالى –

أقسم بالجنّة والنار .

مقاتل بن حيان : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة .

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن نافع الشجري يقول : سمعت أبا زيد حاتم بن محبوب السامي يقول : سمعت عبد الجبّار بن العلاء العطّار يقول : سمعت سفيان بن عيينة يقول : الوتر هو الله عزّوجلّ وهو الشفع أيضاً ؛ لقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] وسمعت أبا القاسم يقول : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن محمد ابن يزيد يقول : سمعت أبا عبد الله بن أبي بكر الورّاق يقول : سُئل أبو بكر عن الشفع والوتر فقال : الشفع تضاد أوصاف المخلوقين العزّ والذلّ والقدرة والعجز والقوّة والضعف والعلم والجهل والبصر والعمى ، والوتر انفراد صفات الله سبحانه عزٌّ بلا ذلّ ، وقدرة بلا ضعف ، وعِلم بلا جهل ، وبصر بلا عمى وحياة بلا موت وما إزاءها .

وقيل : الشفع مسجد مكّة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس ، وقيل : الشفع القرآن في الحجّ والتمتّع فيه ، والوتر الإفراد فيه ، وقال ابن عطاء ﴿ والفجر ﴾ محمّد صلّى الله عليه ؛ لأنّ به تفجّرت أنوار الإيمان وغابت ظُلَم الكفر .

(104/815)

﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ ليالي موسى التي أكمل بها ميعاده بقوله تعالى : ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف : 142] ، والشفع : الخلق والوتر : الحقّ ، وقيل : الشفع الفرائض والوتر السنن ، وقيل : الشفع الأفعال والوتر النيّة ، وهو الإخلاص ، وقيل : الشفع العبادة التي تتكرّر ، كالصلاة والصوم والزكاة ، والوتر : العبادة التي لا تتكرّر كالحجّ ، وقيل : الشفع النفس والروح إذا كانتا معاً ، والوتر الروح بلا نفس والنفس بلا روح ، فكأنّ الله سبحانه أقسم بها في حالتي الاجتماع والافتراق .

واختلف القرّاء في الوتر ، فقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : بكسر الواو ، وهو اختيار أبي عبيد ، قال : لأنّها أكثر في العامّة وأفشى ، ومع هذا إنّا تدبّرنا الآثار التي جاء فيها ذكر وتر الصلاة فوجدنا كلّها بهذه اللغة ولم نسمع في شيء منه الوتر بالفتح ، ووجدنا المعنى في الوتر جميعاً الذي في الصلاة والذي في السورة ، وإن تفرّقا في الفرع فإنّهما في الأصل واحد إنّما تأويله الفرد الذي هو ضدّ الشفع ، وقرأ الباقون بفتح الواو ، وهي لغة أهل الحجاز واختيار أبي حاتم وهما لغتان مستفيضتان .

﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ قال أكثر المفسّرين : يعني إذا سار فذهب ، وقال قتادة : إذا جاء وأقبل . قال مجاهد وعكرمة والكلبي : هي ليلة المزدلفة .

واختلف القرّاء في قوله : ﴿ يَسْرِ ﴾ فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعيسى بالياء في الوصل

، وهي اختيار أبي حاتم ورواية قتيبة ونصير والشرياني عن الكسائي قال أبو عبيد : كان الكسائي فترة يقول : أثبت الياء بالوصل واحذفها في الوقف لمكان الكتاب ، ثمّ رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً ؛ لأنّها رأس آية ، وهي قراءة ابن عامر وعاصم واختيار أبي عبيد اتباعاً للخط ، وقرأ ابن كثير ويعقوب الياء في الحالين على الأصل ، قال الخليل بن أحمد : أسقط الياء منه وفاقاً لرؤوس الآي .

(105/815)

وقال أكثر أهل المعاني : يعني يسري فيه كقولهم : ليلٌ نائم ونهارٌ صائم وسر كاتم .

قال الفراء : يحذف العرب الياء ويكتفي بكسر ما قبلها . أنشدني بعضهم :

كفّاك كفّ ما تلقي درهما . . . جوداً وأُخرى تعط بالسيف الدما

وقال آخر :

ليس يخفى سادتي قدر قوم . . . ولعل يخف سئمتي إعساري

وقال المؤرّخ : سألت الأخفش عن العلّة في سقوط الياء من يسر ، فقال : لا أُجيبك ما لم تبت على باب داري سنة . فبتُّ سنة على باب داره ثمّ سألته فقال : الليل لا يسري ، وانّما يُسرى فيه وهو مصروف فلمّا صرفه بخسه حظّه من الإعراب ، ألا ترى إلى قوله : ﴿

وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم : 28] ؟ ولم يقل بغية ؛ لأنّه صرّفه من باغية .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ قَسَمٌ ﴾ أي مقنع ومكتف في القسم ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ عقل سمّي بذلك ؛ لأنّه يحجر صاحبه ممّا لا يحلّ ولا يجمل كما سمّي عقلاً ؛ لأنّه يعقله عن القبائح والفضائح ، ونهيٌ لأنّه نهى عمّا لا ينبغي ، وأصل الحجر المنع ، يقال للرجل إذا كان مالكاً قاهراً ضابطاً له : إنّه لذو حجر ، ومنه قولهم : حجر الحاكم على فلان .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ﴾ قرأته العامّة بالتنوين وقرأ الحسن (بعاد إرم) على الإضافة وقرأت العامّة : (اِرم) بكسر الألف ، وقرأ مجاهد بفتحه ، قال المؤرّخ : من قرأ بفتح الألف شبههم بالآرام ، وهي الأعلام واحدها اِرم .

واختلف العلماء في معنى قوله ﴿ إِرَمَ ﴾ فأخبرني بن فنجويه قال : حدّثنا موسى الباقرحي قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا إسحاق بن بشير عن محمد بن إسحاق عمّن يخبره أنّ سعيد بن المسيّب كان يقول : اِرم ذات العماد دمشق .

(106/815)

وأخبرني بن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن مروان ، قال : حدّثنا علي بن حرب الطائي قال : حدّثنا أبو الأشهب هود عن عوف الإعرابي عن خالد الربعي ﴿

إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ قال : دمشق ، وبه قال عكرمة وأبو سعيد المقبري .

وقال القرظي : هي الإسكندرية ، وقال مجاهد : هي إرمة ومعناها القديمة . قتادة : هم قبيلة من عاد ، وقال أبو إسحاق : هو جدّ عاد ، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح .

وقال مقاتل : إرم قبيلة من قوم عاد كان فيهم الملك وكانوا موضع مهرة ، وكان عاد أباهم فنسبهم إليه ، وهو إرم بن عاد بن شمر بن سام بن نوح .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثنا أبو الطيّب المروزي قال : حدّثنا محمّد بن علي قال : أخبرنا فضل بن خالد قال : حدّثنا عبيد بن سليمان عن الضحّاك بن مزاحم أنّه كان يقرأ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ بفتح الألف والراء ، والإرم الهلاك فقال : إرم بنو فلان أي هلكوا ، وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس .

وروي عن الضحّاك أنّه قرأ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ أي أهلكهم وجعلهم رميماً ، والصواب أنّها اسم قبيلة أو بلدة فلذلك لم يجرّ .

قوله : ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ قال قوم : يعني ذات الطول والقوّة والشدّة .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال : حدّثنا أبو حاتم قال : حدّثنا أبو صالح كاتب الليث قال : حدّثني معاوية بن صالح عمّن حدّثه عن

المقدام عن النبيّ صلّى الله عليه " أنّه ذكر " اِرم ذات العماد " فقال : " كان الرجل منهم يأتي بالصخرة فيحملها على [كاهله فيلقيها على أي حي أراد] فيهلكهم " .

(107/815)

وقال الكلبي : كان طول الرجل منهم أربع مائة ذراع ، وقال ابن عبّاس : يعني طولهم مثل العماد ، ويقول العرب للرجل الطويل : معمّدا ، وقال مقاتل : كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً ، وقال آخرون : إنّما قيل لهم : ذات العماد ؛ لأنّهم كانوا أهل عمد سيارة ينتجعون الغيث وينتقلون إلى الكلأ ، حيث كان ثمّ يرجعون إلى منازلهم ولا يقيمون في موضع .

قال الكلبي : اِرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة ، كان يقال : عاد اِرم وثمود اِرم ، فأهلك الله سبحانه عاداً ، ثمّ ثمود وبقي أهل السواد وأهل الجزيرة ، وكان أهل عمد وخيام وماشية في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم فكانوا أهل جنان وزروع ومنازلهم كانت بوادي القرى ، وهي التي يقول الله سبحانه : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ .

وقيل : سمّوا ذات العماد لبناء بناه بعضهم ، فشيّد عمده ورفع بناءه ، والعماد والعُمد والعَمد جمع عمود ، وهو :

ما أخبرنا أبو القاسم المفسّر قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الصفّار الأصبهاني قال : أخبرنا أبو جعفر أحمد بن مهدي بن رستم الأصبهاني قال : حدّثنا عبد الله بن صالح المصري قال : حدّثني ابن لهيعة وأخبرنا أبو القاسم قال : أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطرايفي قال : أخبرنا عثمان بن سعيد الدارجي قال : أخبرنا عبد الله بن صالح قال : حدّثني ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنّه خرج في طلب إبل له شردت ، فبينما هو في صحاري عدن إذا هو قد وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن ، وحول الحصن قصور كبيرة وأعلام طوال ، فلمّا دنى منها ظنّ أنّ فيها أحداً يسأله عن إبله فلم ير خارجاً ولا داخلاً فنزل عن دابته وعقلها وسلّ سيفه ودخل من باب الحصن ، فلمّا دخل في الحصن إذا هو ببابين عظيمين لم ير أعظم منهما ، والبابان مرصّعان بالياقوت الأبيض والأحمر فلمّا رأى ذلك دُهش وأعجبه ففتح أحد البابين ، فإذا هو بمدينة لم ير أحدٌ مثلها ، وإذا قصور كل قصر معلّق تحته أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كلّ قصر منها غرف :

[اعتبر يا أيها المغرور بالعمر المديد . . . أنا شداد بن عاد صاحب الحصن المشيد]

وأخو القوّة والبأساء والملك الحشيد . . . دار أهل الأرض لي من خوف وعيدي ووعيد

وملكت الشرق والغرب بسلطان شديد . . . وبفضل الملك والعدّة فيه والعديد

فأتى هود وكنّا في ضلال قبل هود . . . فدعانا لو قبلناه إلى الأمر الرشيد

وعصيناه ونادى هل من محيد . . . فأتتنا صيحة تهوي من الأُفق البعيد

فتوافينا كزرع وسط بيداء حصيد . . . ﴿ وَثَمُودَ ﴾ أي وثمود ﴿ الذين جَابُواْ ﴾ قطّعوا وخرقوا ﴿ الصخر ﴾ الحجر واحدتها صخرة ﴿ بالواد ﴾ يعني بوادي القرى، فنحتوا منها بيوتاً كما قال الله سبحانه: ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ ﴾ [الحجر: 82].

(109/815)

قال أهل السير: أوّل من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود، فبنوا من الدور والمنازل ألفي ألف وسبع مائة ألف كلّها من الحجارة، وأثبت أبو جعفر وأبو حاتم وورش الياء في الوادي وصلاً، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثير برواية البزي والعواش ويعقوب على الأصل، وحذفها الآخرون في الحالتين؛ لأنّها رأس آية.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ اختلفوا فيه فقال بعضهم: أراد ذا الجنود والجموع الذين يقوّون

أمره ويسدّدون مملكته ، وسمّي الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتّدونها في أسفارهم ، وهي رواية عطية عن ابن عبّاس .

وقال قتادة : سمّي ذا الأوتاد ؛ لأنّه كانت له مظال وملاعب وأوتاد يُضرب له فتلعب له تحتها ، وقال محمد بن كعب : يعني ذا البناء المحكم ، وقال سعيد بن جبير : كان له منارات يعذّب الناس عليها ، وقال مجاهد وغيره : كان يعذّب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مدّهُ على الأرض وأوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض .

(110/815)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا مخلد قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا إسحاق بن بشير عن ابن سمعان عن عطاء عن ابن عبّاس أنّ فرعون لمّا قيل له : ذو الأوتاد أنّه كان امرأة وهي امرأة خازنه خربيل بن نوحا بيل وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة ، وكان لقي من لقى من أصحاب يوسف ، وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشّط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت بنت فرعون : وهل لكِ من إله غير أبي ؟ فقالت : إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحدٌ لا شريك له . فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي قال : ما يبكيك ؟

قالت : الماشطة امرأة خازنك تزعم أنّ إلهك وإلهها وإله السماوات والأرض واحدٌ لا شريك له . فأرسل إليها فسألها عن ذلك ، فقالت : صدقت . فقال لها ويحك : اكفري بإلهك وأقري أني إلهك ، قالت : لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب فقال لها : اكفري بالله وإلاّ عذبتك بهذا العذاب شهرين ، قالت : والله لو عذّبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله تعالى .

قال : وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على فيها ، وقال لها : اكفري بالله وإلاّ ذبحت ابنتك الصغرى على فيك ، وكانت طفلة رضيعة تجد بها وجداً شديداً فقالت : لو ذبحت من على الأرض على فيّ ما كفرتُ بالله تعالى .

قال : فأتى بابنتها فلمّا أن قُدّمت منها واضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة ، فأطلق الله لسان ابنتها فتكلّمت وهي من الأربعة الذين تكلّموا أطفالاً ، فقالت : يا أُمّاه لا تجزعي فإنّ الله سبحانه قد بنى لكِ بيتاً في الجنّة ، اصبري فإنّك تمضين إلى رحمة الله سبحانه وكرامته ، قال : فذبحت فلم تلبث أن ماتت وأسكنها الله سبحانه الجنّة .

(111/815)

قال : وبعث في طلب زوجها خربيل فلم يقدروا عليه ، فقيل لفرعون : إنّه قد رُئي في موضع كذا وكذا في جبال كذا وكذا ، فبعث رجلين في طلبه فانتهيا إليه وهو يصلّي وثلاثة صفوف من الوحش خلفه يصلّون ، فلمّا رأيا ذلك انصرفا ، وقال خربيل : اللّهم إنّك تعلم أنّي كتمتُ إيماني مائة سنة ، ولم يظهر عليّ أحدٌ فأيّما هذين الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤله ، وأيّما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجّل عقوبته في الدُّنيا ، واجعل مصيره في العاقبة إلى النار ، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأمّا أحدهما فاعتبر وآمن ، وأمّا الآخر فأخبر فرعون بالقصّة على رؤوس الملأ ، فقال له فرعون : وهل كان معكَ غيرك ؟ قال : نعم .

قال : ومَنْ كان معك ؟ قال : فلان . فدعى به . فقال : حقٌّ ما يقول هذا ؟ قال : لا ، ما رأيت ممّا قال شيئاً . فأعطاه فرعون وأجزل ، وأمّا الآخر فقتله ثمّ صلبه .

قال : وكان فرعون قد تزوّج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها آسيا بنت مزاحم ، فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت : وكيف يسعني أن أصبر على ما أتى فرعون وأنا مسلمة وهو كافر ، فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها فقالت : يا فرعون أنت شرّ الخلق وأخبثه عمدت إلى الماشطة فقتلتها ، فقال : فلعلّ بك الجنون الذي كان بها .

قالت : ما بي من جنون ، وإن إلهي وإلهها وإلهكَ وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له فمزّق عليها وضربها وأرسل إلى أبويها فدعاهما فقال لهما الأمر ، بأنّ الجنون الذي كان بالماشطة أصابها فقالت : أعوذ بالله من ذلك ، إنّي أشهد أنّ ربّي وربّك وربّ السماوات والأرض واحد لا شريك له ، فقال أبوها : يا آسية ألست خير نساء العماليق وزوجك إله العماليق ؟ قالت : أعوذ بالله من ذلك إن كان ما تقول حقّاً ، فقولا له : يتّوجني تاجاً يكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله ، فقال لهم فرعون : أخرجا عنّي فمدّها بين أربعة أوتاد يعذّبها ، وفتح الله سبحانه لها باباً إلى الجنّة ليهوّن عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ [التحريم : 11] يعني من جماع فرعون ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 11] يعني من فرعون وشيعته ، فقبض الله سبحانه روحها وأسكنها الجنّة .

وقيل : الأوتاد عبارة عن ثبات مملكته وطول مدّته وشدّة هيبته ، كثبوت الأوتاد في الأرض كقول الأسود :

في ظل ملك ثابت الأوتاد . . . ﴿ الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ قال قتادة : يعني لوناً من العذاب صبّه عليهم ، وقال السّدي : كلّ يوم لون آخر من العذاب ، وقيل : وجع العذاب ، وقال أهل المعاني : هذا على

الاستعارة ؛ لأنّ السوط عندهم غاية العذاب ، فجرى ذلك لكلّ عذاب . قال الشاعر :

ألم ترَ أنّ الله أظهر دينه . . . وصبّ على الكفّار سوط عذاب

(113/815)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ قال ابن عبّاس : سبحانه يرى ويسمع ، وقال مقاتل : ترصد الناس على الصراط ، فجعل رصداً من الملائكة معهم الكلاليب والمحاجن والحسك ، وقال الضحّاك : بمرصد لأهل الظلم والمعصية ، وقيل : معناه مرجع الخلق ومصيرهم إلى حكمه وأمره ، وقال الحسن وعكرمة : ترصد أعمال بني آدم ، وعن مقاتل أيضاً : ممرّ الناس عليه .

عطاء ابن أبي رباح : لا يفوته أحد . يمان : لا محيص عنه . السدي : أرصد النار على طرقهم حتّى تهلكهم ، والمرصاد والمرصد الطريق وجمع المرصاد مراصيد وجمع المرصد مراصد .

وروى مقسم عن ابن عبّاس قال : إنّ على جهنّم سبع مجاسر يسأل العبيد عند أوّلهنّ عن شهادة أن لا إله إلاّ الله ، فإن جاء بها تامّة جاز بها إلى الثاني ، فيسأل عن الصلاة ، فإن جاء بها تامّه جاز إلى الثالث ، فيُسئل عن الزكاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الرابع ، فيسأل

عن الصوم ، فإن جاء به تامّاً جاز إلى الخامس ، فيسأل عن الحجّ فإن جاء به تامّاً جاز إلى السادس ، فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامّة جاز إلى السابع ، فيسأل عن المظالم فإن خرج منها وإلاّ يقال انظروا ، فإن كان له تطوّع أكمل به أعماله ، فإذا فرغ به انطلق به إلى الجنّة .

﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه ﴾ امتحنه ﴿ رَبُّهُ ﴾ بالنعمة والوسعة . ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ بالمال ﴿ وَنَعَّمَهُ ﴾ بما وسّع عليه من الأفضال ﴿ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ ﴾ فيفرح بذلك ويُسر ويحمد عليه ويشكر ، و ﴿ إِذَا مَا ابتلاه ﴾ بالفقر ﴿ فَقَدَرَ ﴾ وضيّق وقتّر ﴿ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ ﴿ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ ﴾ أذلّني بالفقر ، ولم يشكر الله على ما أعطاه من سلامة الجوارح ورزقه من العافية والصحّة . قال قتادة : ما أسرع كفر ابن آدم .

(114/815)

وقراءة العامّة ﴿ فَقَدَرَ ﴾ بتخفيف الدال ، وقرأ أبو جعفر وابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان وكان أبو عمرو يقول : قدرَ بمعنى قتّر وقدر هو أن يعطيه ما يكفيه ولو فعل ذاك ما قال : ﴿ ربي أَهَانَنِ ﴾ ، ثمّ ردّ عليه فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ لم أبتلِه بالغنى لكرامته عليّ ولم ابتلِه بالفقر ؛ لهوانه عليّ وأنّ الفقر والغنى من تقديري وقضائي . فلا أُكرم من أكرمته بالغنى

وكثرة الدنيا ، ولا أُهين من أهنته بالفقر وقلّة الدنيا ، ولكني إنّما أكرم من أكرمته بطاعتي ، وأُهين من أهنته بمعصيتي ، وقال الفراء : معنى كلا لم ينبغِ له أن يكون هذا ولكن ينبغي أن يحمده على الأمرين على الغنى والفقر .

ثم قال : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ يعني أهنت من أهنت من أجل أنّه لا يُكرم اليتيم .

(115/815)

واختلف القرّاء في هذه الآية فقرأ أهل البصرة يكرمون وما بعده كلّه بالياء ، وقرأها الآخرون بالتاء ﴿ وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ قرأ أبو جعفر وأهل الكوفة ﴿ تَحَآضُّونَ ﴾ بالألف وفتح التاء ، وروى الشذري عن الكسائي (تُحاضون) بضم التاء ، غيرهم (تحضّون) بغير الألف . ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ الميراث ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ شديداً ، قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب غيره . بكر بن عبد الله : اللّمّ الاعتداء في الميراث يأكل ميراثه وميراث غيره . ابن زيد : الأكل اللمّ الذي يأكل كلّ شيء يجده ولا يسأل عنه أحلال أم حرام ، ويأكل الذي له والذي لغيره ، وذلك أنّهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ، وقرأ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النسآء قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ [النساء : 127] الآية قال أبو عبيدة يقال : لممّتُ ما على الخوان إذا أتيت على ما عليه وأكلته كلّه أجمع . ﴿ وَتُحِبُّونَ المال

حُبّاً جَمّاً ﴾ كثيراً يقال جمّ الماء في الحوض إذا كثر واجتمع . ﴿ كَلاَّ ﴾ ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر ثمّ أخبر ممن تلهّفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم فقال عزّ من قائل : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ مرّة بعد مرّة فيكسر كلّ شيء على ظهرها .

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ قال الحسن : أمره وقضاؤه ، وقال أهل الإشارة : ظهر قدرة ربّك وقد استوت الأُمور وأنّ الحقّ لا يوصف يتحوّل من مكان إلى مكان وأنّى له التجوّل والتنقّل ولا مكان له ولا أوان ولا تجري عليه وقت وزمان ؛ لأنّ في حرمان الوقت على الشيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ، والحقّ ينزّه أن تحوي صفاته الطبائع أو تحيط به الصدور .

(116/815)

﴿ والملك صَفّاً صَفّاً * وجيآء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجه قال : حدّثنا يعقوب بن يوسف القروي قال : حدّثنا القاسم بن الحكم قال : حدّثنا عبيد الله بن الوليد قال : حدّثنا عطية عن أبي سعيد قال : " لمّا نزلت هذه الآية ﴿ وجيآء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ تغيّر لون رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرق في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من حاله فانطلق بعضهم إلى عليّ رضي الله عنه فقالوا : يا

علي لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي الله صلى الله عليه وسلم فجاء عليّ فاحتضنه من خلفه ثمّ قبّل بين عاتقيه ثمّ قال : يا نبي الله بأبي أنت وأُمّي ما الذي حدث اليوم وما الذي غيّرك ؟ قال : " جاء جبريل (عليه السلام) فأقرأني هذه الآية : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً * وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً * وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ قلت : فكيف يجاء بها ؟

قال : " يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ، ثمّ تعرض لي جهنّم فتقول : ما لي وما لك يا محمّد فقد حرّم الله لحمك ودمك عليّ ، فلا يبقى أحد إلاّ قال : نفسي نفسي وأنّ محمّداً يقول : أُمّتي أُمّتي ، فيقول الله سبحانه إلى الملائكة : ألا ترون الناس يقولون : ربِّ نفسي نفسي وأنّ محمّد يقول : أُمّتي أُمّتي ؟ " .

وقال عبد الله بن مسعود ومقاتل في هذه الآية : تقاد جهنّم بسبعين ألف زمان كلّ زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيّظ وزفير حتّى تنصب على يسار العرش .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى * يَقُولُ ياليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ في حياتي ﴿ لِحَيَاتِي ﴾ في الآخرة ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ قرأ العامّة بكسر الذال والثاء على معنى لا يعذّب أحد في الدنيا كعذاب الله يومئذ .

قال الفراء وقيل : إنّه رجل مسمّى بعينه وهو أُميّة بن خلف الجمحي : يعني لا يعذّب كعذاب هذا الكافر أحد ولا يوثق كوثاقه أحد ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة لما أخبرنا محمد بن نعيم قال : أخبرنا الحسين بن أيوب قال : أخبرنا علي بن عبد العزيز قال : أخبرنا القاسم بن سلام قال : حدّثنا هيثم وعناد بن عباد عن خالد الحذّاء عن أبي قلابة عمّن أقرأه النبيّ صلّى الله عليه ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ يعني بنصب الذال والثاء .

ويروى أنّ أبا عمرو رجع في آخر عمره إلى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم معنى الآية لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب والوثاق ، وهو الإشارة في السلاسل والأغلال .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا محمد بن جعفر قال : حدّثنا شعبة عن خالد الحذّاء عن أبي قلابة عمّن سمع النبيّ صلّى الله عليه يقرأ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ يعني يفعل به . ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ إلى ما وعد الله المصدّقة بما قال .

مجاهد : المنيبة المخبتة التي قد أيقّنت أنّ الله سبحانه ربّنا ، وضربت لأمره جأشاً .

المسيّيب : سمعت الكلبي وأبا روق يقولان : هي التي يبيّض الله وجهها ويعطيها كتابها بيمينها فعند ذلك تطمئن . الحسن : المؤمنة الموقنة . عطية : الراضية بقضاء الله . حيّان

عن الكلبي : الآمنة من عذاب الله تعالى .

أخبرني عقيل أنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثنا خلاّد بن أسلم قال : أخبرنا النضر عن هارون القارئ قال : حدّثني هلال عن أبي شيخ الهنائي قال : في قراءة أبي يا أيّتها النفس الآمنة المطمئنة .

(118/815)

وأخبرني أبو محمّد الحسين بن أحمد الشعبي قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا محمد بن إسحاق السراج قال : حدّثنا سوار بن عبد الله قال : حدّثنا المعمر بن سليمان عن إبراهيم بن إسماعيل عن ابن أبي نجاح عن مجاهد ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : الراضية بقضاء الله التي قد علمت أنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها وأنّ ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وقال ابن كيسان : المخلصة . ابن عطاء : هي العارفة بالله سبحانه التي لا تصبر عنه طرفة عين ، وقيل : المطمئنة بذكر الله . بيانه : ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : 28] ، وقيل : هي المتوكّلة على الله تعالى الواثقة بما ضمن لها من الرزق .

﴿ ارجعي إلى رَبِّكِ ﴾ اختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، ووقت هذه المقالة فقال قوم : يقال ذلك لها عند الموت : ارجعي إلى ربّك وهو الله عزّوجلّ .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا عبيد الله بن عبد الله بن أبي سمرة البغوي قال : حدّثنا محمّد ابن سهل العسكري قال : حدّثنا العطاردي قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا قيس بن الربيع عن إسماعيل عن أبي صالح في قوله سبحانه : ﴿ ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ قال : هذا عند خروجها من الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل : ﴿ فادخلي فِي عِبَادِي * وادخلي جَنَّتِي ﴾ .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفراتي قال : حدّثنا أحمد بن خالد قال : حدّثنا روح بن عبادة قال : حدّثنا زهير بن محمد قال : حدّثنا زيد ابن أسلم عن عبد الرحمن بن السيلماني عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إذا توفّي العبد المؤمن أرسل الله سبحانه ملكين وأرسل إليه تحفة من الجنّة فيقال لها : اخرجي أيّتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى روح وريحان وربّ عنك راض ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في نفسه قط ، والملائكة على أرجاء السماء .

(119/815)

فيقولون : قد جاء من الأرض روح طيّبة ونسمة طيّبة ، فلا يمرّ بباب إلاّ فتح له ولا ملك إلاّ صلّى عليه ، حتّى يؤتي به الرحمن ، ثمّ تسجد الملائكة ثمّ يقولون : ربّنا هذا عبدك فلان

توفيته كان يعبدك لا يشرك بك شيئاً فيقول : مروه فليسجد ، وتسجد النسمة ، ثمّ يدعى ميكائيل فيقول : اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتّى أسألك عنها يوم القيامة ، ثمّ يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه وسبعون ذراعاً طوله وينبت له فيه الريحان . إن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره ، وإن لم يكن معه جعل له مثل الشمس في قبره ، ويكون مثله كمثل العروس ، ينام فلا يوقظه إلاّ أحبّ أهله إليه ، فيقوم من نومته كأنّه لم يشبع منها ، وإذا توفّي الكافر أرسل الله سبحانه وتعالى ملكين وأرسل قطعة من سجّاد أنتن وأخشن من كلّ خشن ، فيقال : أيّها النفس الخبيثة اخرجي إلى حميم وعذاب أليم وربّ عليك غضبان .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا المسوحي قال : حدّثنا عمرو بن العلاء الحنفي قال : حدّثنا ابن يمان عن أشعث عن جعفر عن سعيد قال : " قرأ رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال أبو بكر : ما أحسن هذا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أمّا أنّ الملك سيقولها لك [عند الموت] " .

(120/815)

حدّثنا أحمد بن محمد بن يعقوب القصري بها قال : أخبرنا إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ببغداد قال : حدّثنا الحسن بن عرفة قال : أخبرني مروان بن شجاع الجزري ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا محمد بن علي بن سالم قال : حدّثنا أحمد بن منبع قال : حدّثنا مروان عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عبّاس بالطائف فجاء طائر لم ير على خلقه ، فدخل نعشه ثمّ لم يُر خارجاً منه فلمّا دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر لا يرى من تلاها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فادخلي فِي عِبَادِي * وادخلي جَنَّتِي ﴾ وقال آخرون : انّما يقال ذلك لها عند البعث : ارجعي إلى ربّك ، أي صاحبك وجسدك فيأمر الله سبحانه الأرواح أن ترجع إلى الأجساد ، وإلى هذا القول ذهب عكرمة وعطاء والضحّاك وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس .

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا محمد بن نعيم قال : أخبرنا الحسين بن أيّوب قال : أخبرنا علي بن عبد العزيز قال : حدّثنا القاسم بن سلام قال : حدّثنا حجّاج عن هارون عن أبان بن أبي عيّاش عن سليمان بن قته عن ابن عبّاس أنّه قراها فأدخلي في عبدي على التوحيد .

وقال الحسن : معناه ارجعي إلى ثواب ربّك وكرامته .

ابن كيسان : ارجعي إلى ربّك أي أمثالك من عباد ربّك الصالحين .

وقال بعض أهل الإشارة ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ إلى الدنيا ارجعي إلى الله بتركها

والرجوع إلى الله هو سلوك سبيل الآخرة . ﴿ رَاضِيَةً ﴾ عن الله بما أعدّ لها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ رضي عنها ربّها . ﴿ فادخلي فِي عِبَادِي ﴾ قال بعضهم : يعني مع عبادي جنّتي في معنى الآية تقديم وتأخير ، وإليه ذهب مقاتل والقرظي وأبو عبيدة . ﴿ وادخلي ﴾ برحمتك في عبادك الصالحين يعني مع أنبيائنا في الجنّة ، وقال الأخفش : أي في حزبي ، وقال أمر الأرواح بعودها إلى أجسادها والله أعلم .

(121/815)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا ابن علوية قال : حدّثنا إسماعيل قال : حدّثنا المسيّب قال : حدّثنا إبراهيم عن صالح بن حيان عن ابن بريدة في هذه الآية ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال : نفس حمزة بن عبد المطّلب نزلت فيه يوم استشهد يوم أحُد ، بل نزلت نفسه عند ربّ العالمين ، مكرمة مشرفة على من عنده حتّى يردها الله سبحانه إلى حمزة في دعة ، وسكون وكرامة .

وقد نزلت في حبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكّة وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللّهمّ إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك . فحوّل الله سبحانه وجهه نحو القبلة من

غير أن يحوّله أحد ، فلم يستطيع أحد أن يحوّله وحكمها عام لجميع المؤمنين المطمئنين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 191. 205 ﴾

(122/815)

وقال الزمخشرى :

سورة الفجر

مكية ، وآياتها 30 وقيل 29 [نزلت بعد الليل] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفجر (89) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله وَالصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ ، وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ . وقيل : بصلاة الفجر . أراد بالليالي العشر : عشر ذى الحجة . فإن قلت : فما بالها منكرة من بين ما أقسم به ؟ قلت : لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي : العشر بعض منها . أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها . فإن قلت : فهلا عرفت بلام العهد ، لأنها ليال معلومة

معهودة؟ قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية. وبالشفع والوتر: إما الأشياء كلها شفعها ووترها، وإما شفع هذه الليالي ووترها. ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة، لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها، وقد روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه فسرهما بذلك «1».

وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه، وذلك قليل الطائل، جدير بالتلهى عنه، وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم إِذا يَسْرِ إذا يمضى، كقوله وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ. وقرئ: والوتر بفتح الواو، وهما لغتان كالحبر والحبر في العدد، وفي الترة: الكسر وحده «2». وقرئ: الوتر بفتح الواو وكسر التاء: رواها يونس عن أبى عمرو، وقرئ: والفجر، والوتر، ويسر: بالتنوين، وهو التنوين الذي يقع بدلا من حرف الإطلاق. وعن ابن عباس: وليال عشر، بالإضافة. يريد: وليال أيام عشر. وياء يَسْرِ تحذف في الدرج، اكتفاء عنها بالكسرة. وأما في الوقف فتحذف مع

---

(1). قلت: التعليل من كلام الزمخشري. وأصله عند النسائي وأحمد والبزار والحاكم والبيهقي في الشعب الثالث والعشرين من رواية خير بن نعيم عن أبى الزبير عن جابر. قال: لا نعلمه إلا بهذا الاسناد.

(2) . قوله «وفي الترة الكسر وحده» في الصحاح «الموتور» الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ، تقول :

وتره وترا وترة ، وكذلك : وتره حقه ، أى : نقصه . (ع)

(123/815)

الكسرة . وقيل : معنى «يسرى» يسرى فيه هَلْ فِي ذِلكَ أى فيما أقسمت به من هذه الأشياء قَسَمٌ أى مقسم به لِذِي حِجْرٍ يريد : هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها . أو : هل في إقسامى بها لذي حجر ، أى : هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه . والحجر : العقل ، لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي ، كما سمى عقلا ونهية ، لأنه يعقل وينهى . وحصاة : من الإحصاء وهو الضبط . وقال الفراء : يقال : إنه لذو حجر ، إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها ، والمقسم عليه محذوف وهو «ليعذبن» يدل عليه قوله أَلَمْ تَرَ إلى قوله فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ

[سورة الفجر (89) : الآيات 6 إلى 14]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10)

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)

قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عاد ، كما يقال لبنى هاشم : هاشم . ثم قيل للأوّلين منهم عاد الأولى وإرم ، تسمية لهم باسم جدّهم ، ولمن بعدهم : عاد الأخيرة . قال ابن الرقيات :

مجدا تليدا بناه أوّله أدرك عادا وقبلها إرما «1»

فإرم في قوله بِعادٍ إِرَمَ عطف بيان لعاد ، وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة . وقيل إِرَمَ بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير : بعاد إرم ، على الإضافة . وتقديره : بعاد أهل إرم ، كقوله وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضا للتعريف والتأنيث . وقرأ الحسن : بعاد أرم ، مفتوحتين . وقرئ : بعاد إرم ، بسكون الراء على التخفيف ، كما قرئ :

بورقكم . وقرى : بعاد إرم ذات العماد ، بإضافة إرم إلى ذات العماد ، والإرم : العلم ، يعنى : بعاد أهل أعلام ذات العماد . وذاتِ الْعِمادِ اسم المدينة . وقرئ : بعاد إرمّ ذات العماد ، أى جعل اللّه ذات العماد رميما بدلا من فعل ربك ، وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة ، فالمعنى : أنهم كانوا بدويين أهل عمد ، أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة . ومنه قولهم : رجل معمد وعمدان : إذا كان طويلا . وقيل : ذات البناء الرفيع ، وإن كانت

صفة

---

(1) . لابن الرقيات ، يصف رجلا بأنه حاز مجدا تليدا . أى : قديما . وشبهه بالحصن المبنى على طريق المكنية وبناه تخييل ، أى شرعه وجدده أوله ، أى : آباؤه الأولون : أدرك هذا المجد من جدود الممدوح عادا وإرما قبله أى : قبل عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، فعقب عاد هذا : هم عاد الأولى ، ومن بعدهم :

عاد الثانية .

(124/815)

للبلدة فالمعنى : أنها ذات أساطين . وروى أنه كان لعاد ابنان : شداد وشديد فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد ، فملك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فقال :

أبنى مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة : وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث اللّه عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد اللّه بن

قلابة : أنه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه مما ثم ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال : هي إرم ذات العماد «1» ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا واللّه ذلك الرجل لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها مثل عاد فِي الْبِلادِ عظم أجرام وقوّة ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحي فيهلكهم ، أو لم يخلق مثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا . وقرأ ابن الزبير : لم يخلق مثلها ، أى : لم يخلق اللّه مثلها جابُوا الصَّخْرَ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتا ، كقوله وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً قيل : أول من نحت الجبال والصخور والرخام : ثمود ، وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . قيل له : ذو الأوتاد ، لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا ، أو لتعذيبه بالأوتاد ، كما فعل بماشطة بنته وبآسية الَّذِينَ طَغَوْا أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم . ويجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طغوا . أو مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون . يقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه ، وذكر السوط : إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّلهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وعن عمر بن عبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند اللّه أسواطا كثيرة ،

فأخذهم بسوط منها . المرصاد : المكان الذي يترتب فيه الرصد «مفعال» من رصده ، كالميقات من وقته . وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبيد رحمه اللّه أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال : إنّ ربك لبالمرصاد يا فلان ، عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة ، فللّه درّه أيّ أسد

---

(1) . أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي عن عبد اللّه بن أبى صالح عن أبى لهيعة عن خالد بن أبى عمران عن وهب بن منبه عن عبد اللّه بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت فذكره مطولا . قلت : آثار الوضع عليه لائحه .

(125/815)

فرّاس كان بين ثوبيه ، يدق الظلمة بإنكاره ، ويقصع أهل الأهواء «1» والبدع باحتجاجه .

[سورة الفجر (89) : الآيات 15 إلى 16]

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (16)

فإن قلت : بم اتصل قوله «2» فَأَمَّا الْإِنْسانُ ؟ قلت : بقوله إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ كأنه قيل :

إن اللّه لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعى للعاقبة ، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي ، فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها . فإن قلت : فكيف توازن قوله ، فأما الإنسان ، إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ وقوله وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ «3» وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما وأما ، تقول : أما الإنسان فكفور ، وأما الملك فشكور .

أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك ، وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك ؟ قلت : هما متوازنان من حيث إنّ التقدير : وأما هو إذا ما ابتلاه ربه ، وذلك أن قوله فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان ، ودخول الفاء لما في «أما» من معنى الشرط ، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير ، كأنه قيل : فأما الإنسان فقائل ربى أكرمن وقت الابتلاء ، فوجب أن يكون فَيَقُولُ الثاني خبرا لمبتدإ واجب تقديره . فإن قلت : كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؟ قلت : لأنّ كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ؟ وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ؟ فالحكمة فيهما واحدة . ونحوه قوله تعالى وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . فإن قلت :

هلا قال : فأهانه وقدر عليه رزقه ، كما قال فأكرمه ونعمه ؟ قلت : لأن البسط إكرام من اللّه لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة «4» ، وأما التقدير فليس بإهانة له ، لأنّ الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ، ولكن تركا للكرامة ، وقد يكون المولى مكرما لعبده

ومهينا له ، وغير مكرم ولا مهين ، وإذا أهدى لك زيد هدية قلت : أكرمني بالهدية ، ولا تقول : أهانني

---

(1) . قوله «ويقصع أهل الأهواء» في الصحاح «قصعت الرجل» صغرته وحقرته . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت : كيف اتصل قوله فَأَمَّا الْإِنْسانُ بما قبله . . . الخ» قال أحمد : قوله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة ولا يأمره إلا بها : فاسد الصدر ، مبنى على أصله الفاسد ، سليم العجز .

(3) . قال محمود : «فان قلت كيف توازن قوله فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ وقوله وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ قال أحمد : يريد أنه صدر ما بعد أما الأولى بالاسم ، وما بعد أما الثانية بالفعل . ومقصود السائل أن يكونا مصدرين : إما باسمين أو بفعلين .

(4) . قال محمود : «فان قلت هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه ، كما قال فأكرمه ونعمه ؟ وأجاب بأن البسط إكرام من اللّه تعالى العبد من غير سابقة» قال أحمد : «قيد زائد تفريعا على أصله الفاسد ، والحق أن كل نعمة من اللّه كذلك .

(126/815)

ولا أكرمنى إذا لم يهد لك . فإن قلت : فقد قال فَأَكْرَمَهُ فصحح إكرامه وأثبته ، ثم أنكر قوله رَبِّي أَكْرَمَنِ وذمّه عليه ، كما أنكر قوله أَهانَنِ وذمّه عليه . قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أنه إنما أنكر قوله ربى أكرمن وذمّه عليه ، لأنه قال على قصد خلاف ما صححه اللّه عليه وأثبته ، وهو قصده إلى أنّ اللّه أعطاه ما أعطاه إكراما له مستحقا مستوجبا على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم ، كقوله إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي «1» وإنما أعطاه اللّه على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتدّ اللّه إلا به ، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها .

والثاني : أن ينساق الإنكار والذمّ إلى قوله رَبِّي أَهانَنِ يعنى أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل اللّه وإكرامه ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان ، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله فَأَكْرَمَهُ «2» وقرئ : فقدر بالتخفيف والتشديد . وأكرمن ، وأهانن : بسكون النون في الوقف ، فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيا منها بالكسرة .

[سورة الفجر (89) : الآيات 17 إلى 20]

كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20)

كَلَّا ردع للإنسان عن قوله . ثم قال : بل هناك شرّ من القول «3» . وهو : أنّ اللّه يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة ، وحض أهله

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : فقد قال فأكرمه فصحح إكرامه وأثبته ، ثم أنكر قوله ربى أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله ربى أهانن وذمه عليه ، وأجاب بأمرين ، أحدهما أن المنكر عليه اعتقاده أن إكرام اللّه تعالى له عن استحقاق لمكان نسبه وحسبه وجلالة قدره ، كما كانوا يعتقدون الاستحقاق بذلك على اللّه ، كما قال : إنما أوتيته على علم» قال أحمد : والقدري لا يبعد عن ذلك ، لأنه يرى أن النعيم الأعظم في الآخرة حق العبد على اللّه واجب له عليه ليس بتفضل ولا ممنون .

(2) . قال محمود : «الثاني أن سياق الإنكار والذم إلى قوله رَبِّي أَهانَنِ بمعنى أنه إذا تفضل عليه بالخير اعترف بتفضل اللّه تعالى ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان ، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله فأكرمه» قال أحمد : كأنه يجعل قوله فَأَكْرَمَهُ توطئة لذمه على قوله أَهانَنِ لا أنه مذموم معه .

(3) . قال محمود : «إنما أضرب عن الأول للاشعار بأن هنا ما هو أشر من القول الأول . . . الخ» قال أحمد :

وفي هذه الآية إشعار بابطال الجواب الثاني من جوابي الزمخشري ، فانه جعل قوله أَكْرَمَنِ غير مذموم ، ودلت هذه الآية على أن المعنى أن للمكرم بالبسط بالرزق حالتين ، إحداهما

: اعتقاده أن إكرام اللّه له عن استحقاق ، الثانية أشد من الأولى : وهي أن لا يعترف بالإكرام أصلا ، لأنه يفعل أفعال جاحدى النعمة ، فلا يؤدى حق اللّه الواجب عليه في المال من إطعام اليتيم والمسكين .

(127/815)

على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ، ويحبونه فيشحون به وقرئ : يكرمون ، وما بعده بالياء والتاء . وقرئ : تحاضون ، أى : يحض بعضكم بعضا : وفي قراءة ابن مسعود : ولا تحاضون بضم التاء ، من المحاضة أَكْلًا لَمًّا ذا لمّ وهو الجمع بين الحلال والحرام . قال الحطيئة :

إذا كان لمّا يتبع الذمّ ربّه فلا قدّس الرّحمن تلك الطّواحنا «1»

يعنى : أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم . وقيل : كانوا لا يورّثون النساء ولا الصبيان ، ويأكلون تراثهم مع تراثهم . وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة ، وهو عالم بذلك فيلم في الأكل بين حلاله وحرامه . ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلا مهلا ، من غير أن يعرق فيه جبينه ، فيسرف في إنفاقه ، ويأكله أكلا واسعا جامعا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ، كما يفعل الورّاث البطالون حُبًّا جَمًّا كثيرا شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق .

[سورة الفجر (89) : الآيات 21 إلى 26]

كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (23) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (25) وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (26)

كَلَّا ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم. ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة، ويومئذ بدل من إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ وعامل النصب فيهما يتذكر دَكًّا دَكًّا دكا بعد دك. كقوله: حسبته بابا بابا، أى: كرّر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا. فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى اللّه، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه: مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم صَفًّا صَفًّا ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والإنس وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ كقوله وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ وروى أنها لما

---

(1). للحطيئة. واللم: الجمع بين الحلال والحرام من غير فرق. وروى «ربه» بدل «أهله» والطواحن:

الأضراس . وتسمى : الأرحاء جمع وحى ، يقول : إذا كان الأكل جمعا ، أى : ذا جمع بين الخبيث والطيب يتبع صاحبه الذم ، فلا طهر اللّه تلك الأضراس التي تطحن ذلك المأكول ، والدعاء عليها : دعاء على صاحبها .

(128/815)

نزلت تغير وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعرف في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ، فأخبروا عليا رضى اللّه عنه ، فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه ، ثم قال : يا نبىّ اللّه ، بأبى أنت وأمى ما الذي حدث اليوم ، وما الذي غيّرك ؟ فتلا عليه الآية . فقال على : كيف يجاء بها ؟ قال : يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام ، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع «1» . أى يتذكر ما فرّط فيه ، أو يتعظ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى ومن أين له منفعة الذكرى ، لا بد من تقدير حذف المضاف ، وإلا فبين : يوم يتذكر ، وبين وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى تناف وتناقض قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي هذه ، وهي حياة الآخرة ، أو وقت حياتي في الدنيا ، كقولك : جئته لعشر ليال خلون من رجب ، وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقا بقصدهم وإرادتهم ، وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي ، كمذهب أهل الأهواء «2» والبدع ، وإلا فما معنى التحسر ؟

قرئ : بالفتح ، يعذب ويوثق . وهي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وعن أبى عمرو أنه رجع إليها في آخر عمره . والضمير للإنسان الموصوف . وقيل هو أبىّ بن خلف أى لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، لتناهيه في كفره وعناده ، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد ، كقوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وقرئ بالكسر ، والضمير للّه تعالى ، أى : لا يتولى عذاب اللّه أحد ، لأنّ الأمر للّه وحده في ذلك اليوم . أو للإنسان ، أى : لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه .

[سورة الفجر (89) : الآيات 27 إلى 30]

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ على إرادة القول ، أى : يقول اللّه للمؤمن يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ إمّا أن يكلمه إكراما له كما كلم موسى صلوات اللّه عليه ، أو على لسان ملك . والْمُطْمَئِنَّةُ الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ، وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك ، ويشهد للتفسير الأوّل : قراءة أبىّ بن كعب : يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة .

فإن قلت :

متى يقال لها ذلك ؟ قلت : إمّا عند الموت . وإمّا عند البعث ، وإمّا عند دخول الجنة .

على معنى :

ارجعي إلى موعد ربك راضِيَةً بما أوتيت مَرْضِيَّةً عند اللّه فَادْخُلِي فِي عِبادِي في جملة عبادي الصالحين ، وانتظمى في سلكهم وَادْخُلِي جَنَّتِي معهم ، وقيل : النفس الروح .

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طريق عطية عن أبى سعيد به وأتم منه .

[. . . . .]

(2) . قوله «كمذهب أهل الأهواء» إن كان المراد بهم أهل السنة لقولهم بأن اللّه هو الخالقى لفعل العبد فهم يثبتون له الاختيار فيه لأنهم يثبتون له الكسب فيه وإن كان المراد بهم من قال بالجبر المحض وهم القائلون بأن العبد لا دخل له في فعله أصلا ، بل هو كالريشة المعلقة في الهواء ، فكلامه مسلم لظهور بطلان مذهبهم . (ع)

(129/815)

ومعناه : فادخلي في أجساد عبادي . وقرأ ابن عباس : فادخلي في عبدى . وقرأ ابن مسعود : في جسد عبدى . وقرأ أبى : ائتى ربك راضية مرضية . ادخلى في عبدى ، وقيل : نزلت في حمزة ابن عبد المطلب . وقيل : في خبيب بن عدى الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهى نحو قبلتك ، فحوّل اللّه وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوّله . والظاهر العموم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نورا يوم القيامة» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 753.746 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى رضى اللّه عنه .

(130/815)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ والفَجْر ﴾

قسم أقسم الله تعالى به ، وهو انفجار الصبح من أفق المشرق ، وهما فجران : فالأول منهما مستطيل كذنب السرحان يبدو كعمود نور لا عرض له ، ثم يغيب لظلام يتخلله ، ويسمى هذا الفجر المبشر للصبح ، وبعضهم يسميه الكاذب لأنه كذب بالصبح .

وهو من جملة الليل لا تأثير له في صلاة ولا صوم .

وأما الثاني فهو مستطيل النور منتشر في الأفق ويسمى الفجر الصادق لأنه صدقك عن الصبح ، قال الشاعر :

شعب الكلاب الضاريات فزاده . . . ناراً بذي الصبح المصدق يخفق

وبه يتعلق حكم الصلاة والصوم ، وقد ذكرنا ذلك من قبل .

وفي قسم الله بالفجر أربعة أقاويل :

أحدها : أنه عنى به النهار وعبر عنه بالفجر لأنه أوله ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الفجر الصبح الذي يبدأ به النهار من كل يوم ، قاله علّي رضي الله عنه .

الثالث : أنه عنى به صلاة الصبح ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

الرابع : أنه أراد به فجر يوم النحر خاصة ، قاله مجاهد .

وفي ﴿ وليالٍ عشْرٍ ﴾ – وهي قسم ثان – أربعة أقاويل :

أحدها : هي عشر ذي الحجة ، قاله ابن عباس ، وقد روى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " والفجر وليال عشر " ، قال : عشر الأضحى " .

الثاني : هي عشر من أول المحرم ، حكاه الطبري .

الثالث : هي العشر الأواخر من شهر رمضان ، وهذا مروي عن ابن عباس .

الرابع : هي عشر موسى عليه السلام التي أتمها الله سبحانه له ، قاله مجاهد .

﴿ والشّفْعِ والوَتْرِ ﴾ وهذا قسم ثالث ، وفيهما تسعة أقاويل :

أحدها : أنها الصلاة ، فياه شفع وفيها وتر ، رواه عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : هي صلاة المغرب ، الشفع منها ركعتان ، والوتر الثالثة ، قاله الربيع بن أنس وأبو

العالية .

الثالث : أن الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة ، رواه ابن الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(131/815)

الرابع : أن الشفع يوما منى الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة ، والوتر الثالث بعدهما ، قاله ابن الزبير .

الخامس : أن الشفع عشر ذي الحجة ، والوتر أيام منى الثلاثة ، قاله الضحاك .

السادس : أن الشفع الخلق من كل شيء ، والوتر هو آدم وحواء ، لأن آدم كان فرداً فشفع بزوجته حواء فصار شفعاً بعد وتر ، رواه ابن نجيح .

التاسع : أنه العدد لأن جميعه شفع ووتر ، قاله الحسن .

ويحتمل حادي عشر : أن الشفع ما يَنْمى ، والوتر ما لا يَنْمى .

﴿ واللّيْلِ إذا يَسْرِ ﴾ وهذا قسم رابع ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هي ليلة القدر لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب فيها .

الثاني : هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله ، وسئل

محمد بن كعب عن قوله تعالى ﴿ والليل إذا يَسْرِ ﴾ فقال أسْرِ يا ساري ، ولا تبيتنّ إلا بجمع ، يعني بمزدلفة .

الثالث : أنه أراد عموم الليل كله .

وفي قوله ﴿ إذا يسرِ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : إذا أظلم ، قاله ابن عباس .

الثاني : إذا سار ، لأن الليل يسير بمسير الشمس والفلك فينتقل من أفق إلى أفق ، ومنه قولهم جاء الليل وذهب النهار .

الثالث : إذا سار فيه أهله ، لأن السرى سير الليل .

﴿ هل في ذلك قَسَمٌ لذي حجْرٍ ﴾ وفي ذي الحجر لأهل التأويل خمسة أقاويل :

أحدها : لذي عقل ، قاله ابن عباس .

الثاني : لذي حلم ، قاله الحسن .

الثالث : لذي دين ، قاله محمد بن كعب .

الرابع : لذي ستر ، قاله أبو مالك .

الخامس : لذي علم ، قاله أبو رجاء .

والحجر : المنع ، ومنه اشتق اسم الحجر لامتناعه بصلابته ، ولذلك سميت الحجرة لامتناع ما فيها بها ، ومنه سمي حجر المَوَلَّى عليه لما فيه من منعه عن التصرف ، فجاز أن يحمل

معناه على كل واحد من هذه التأويلات لما يضمنه من المنع .

وقال مقاتل " هل " ها هنا في موضع إنّ ، وتقدير الكلام : إن في ذلك قسماً لِذي حِجْر .

﴿ ألم تَرَ كيف فَعَل ربُّك بعادٍ * إرَمَ ﴾ فيه سبعة أقاويل :

(132/815)

أحدها : أن إرم هي الأرض ، قاله قتادة .

الثاني : دمشق ، قاله عكرمة .

الثالث : الإسكندرية ، قاله محمد بن كعب .

الرابع : أن إرم أُمة من الأمم ، قاله مجاهد ، قال الشاعر :

كما سخرت به إرم فأضحوا . . . مثل أحلام النيام .

الخامس : أنه اسم قبيلة من عاد ، قاله قتادة .

السادس : أن إرم اسم جد عاد ، قاله محمد بن إسحاق ، وحكى عنه أنه أبوه ، وأنه عاد بن إرم بن عوض بن سام بن نوح .

السابع : أن معنى إرم القديمة ، رواه ابن أبي نجيح .

الثامن : أنه الهلاك ، يقال : أرم بنو فلان ، أي هلكوا ، قاله الضحاك .

التاسع : أن الله تعالى رمّهم رّماً فجعلهم رميماً ، فلذلك سماهم ، قاله السدي .

﴿ ذاتِ العمادِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : ذات الطُّول ، قال ابن عباس مأخوذ من قولهم رجل معمّد ، إذا كان طويلاً ، وزعم قتادة . أنه كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعاً .

الثاني : ذات العماد لأنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، ينتجعون الغيوث ، قاله مجاهد .

الثالث : ذات القوة والشدة ، مأخوذ من قوة الأعمدة ، قاله الضحاك ، وحكى ثور بن يزيد أنه قال : أنا شداد بن عاد ، وأنا الذي رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي بطن السواد ، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع لا تخرجه إلا أمة محمد .

الرابع : ذات العماد المحكم بالعماد ، قاله ابن زيد .

﴿ التي لم يُخْلَقْ مِثْلُها في البلادِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد في البلاد ، قاله عكرمة .

الثاني : لم يخلق مثل قوم عاد في البلاد ، لطولهم وشدتهم ، قاله الحسن .

﴿ وثمودَ الذين جابُوا الصّخْرَ بالوادِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني قطعوا الصخر ونقبوه ونحتوه حتى جعلوه بيوتاً ، كما قال تعالى :

﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ قال الشاعر :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلٌ . . . وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ

وقال آخر :

وهم ضربوا في كل صماءَ صعدة . . . بأيدٍ شديد من شداد السواعد .

(133/815)

الثاني : معناه طافوا لأخذ الصخر بالوادي ، كما قال الشاعر :

ولا رأَيت قلوصاً قبْلها حَمَلَتْ . . . ستين وسقاً ولا جابَتْ به بَلَدا

وأما " الواد " فقد زعم محمد بن إسحاق أنه وادي القرى ، وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك على وادي ثمود ، وهو على فرس أشقر ، فقال : أسرعوا السير فإنكم في واد ملعون .

﴿ وفرعونَ ذِي الأَوْتادِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن الأوتاد الجنود ، فلذلك سمي بذي الأوتاد لكثرة جنوده ، قاله ابن عباس .

الثاني : لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد يشدها في أيديهم ، قاله الحسن ، ومجاهد ، قال الكلبي : بمثل ذلك عذب فرعون زوجته آسية بنت مزاحم عندما آمنت حتى ماتت .

الثالث : أن الأوتاد البنيان فسمي بذي الأوتاد لكثرة بنائه ، قاله الضحاك .

الرابع : لأنه كانت له فطال وملاعب على أوتاد وحبال يلعب له تحتها ، قاله قتادة .

ويحتمل خامساً : أنه ذو الأوتاد لكثرة نخلة وشجرة ، لأنها كالأوتاد في الأرض .

﴿ فَصَبَّ عليهم ربُّك سَوْطَ عذابٍ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : قسط عذاب كالعذاب بالسوط ، قاله ابن عيسى .

الثاني : خلط عذاب ، لأنه أنواع ومنه قول الشاعر :

أحارثُ إنّا لو تُساطُ دماؤنا . . . تَزَيّلْنَ حتى لا يَمسَّ دَمٌ دَمَا

الثالث : أنه وجع من العذاب ، قاله السدي .

الرابع : أنه كل شيء عذب الله به فهو سوط عذاب ، قاله قتادة .

وقال قتادة : كان سوط عذاب هو الغرق .

﴿ إنّ ربك لبالمرصاد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالطريق .

الثاني : بالانتظار ، كما قال طرفة :

أعاذلُ إنّ الجهْلَ من لَذِةِ الفتى . . . وإنّ المنايا للرجال بمرصَد .

﴿ وتأكُلون التُّراثَ أكْلاً لمّاً ﴾ والتراث : الميراث ، وفي قوله " لمّاً " أربعة تأويلات :

أحدها : يعني شديداً ، قاله السدي .

الثاني : يعني جمعاً ، من قولهم لممت الطعام لَمّاً ، إذا أكلته جمعاً ، قاله الحسن .

الثالث : معناه سفه سفاً ، قاله مجاهد .

الرابع : هو أنه إذا أكل مال نفسه ألّم بمال غيره فأكله ، ولا يتفكر فيما أكل من خبيث وطيب ، قاله ابن زيد .

ويحتمل خامساً : أنه ألّم بما حرم عليه ومنع منه .

﴿ وتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني كثيراً ، قاله ابن عباس ، والجمّ الكثير ، قال الشاعر :

إنْ تَغْفِر اللهم تغفِرْ جَمّا . . . وأيُّ عبدٍ لك لا أَلَمّاً

الثاني : فاحشاً تجمعون حلاله إلى حرامه ، قاله الحسن :

ويحتمل ثالثاً : أنه يحب المال حب إجمام له واستبقاء فلا ينتفع به في دين ولا دنيا وهو أسوأ أحوال ذي المال .

﴿ يومئذٍ يَتذكّرُ الإنسانُ وأَنّى له الذِّكْرَى ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يتوب وكيف له بالتوبة ، لأن التوبة بالقيامة لا تنفع ، قاله الضحاك .

الثاني : يتذكر ما عمل في دنياه وما قدم لآخرته ، وأنى له الذكرى في الآخرة ، وإنما ينتفع في الدنيا ، قاله ابن شجرة .

﴿ يقولُ يا ليتني قَدَّمْتُ لحياتي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قدمت من دنياي لحياتي في الآخرة ، قاله الضحاك .

الثاني : قدمت من حياتي لمعادي في الآخرة ذكره ابن عباس .

﴿ فيومئذٍ لا يُعَذِّب عذابَه أَحَدٌ * ولا يُوثِقُ وثاقهَ أَحَدٌ ﴾ قرأ الكسائي لا يعذَّب ولا يوثق بفتح الذال والثاء وتأويلها على قراءته لا يعذَّب عذاب الكافر الذي يقول " يا ليتني قدمت لحياتي " أحدٌ ، وقرأ الباقون بكسر الذال والثاء وتأويلها أنه لا يعَذِّب عذابَ الله أحدٌ غَفَرَ الله له ، قاله ابن عباس والحسن ، فيكون تأويله على القراءة الأولى محمولاً على الآخرة ، وعلى القراءة الثانية محمولاً على الدنيا .

﴿ يا أَيَّتُها النّفْسُ المطْمئِنّةُ ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : يعني المؤمنة ، قاله ابن عباس .

الثاني : المجيبة ، قاله مجاهد .

الثالث : المؤمنة بما وعد الله ، قاله قتادة .

الرابع : الآمنة ، وهو في حرف أُبيّ بن كعب يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة . الخامس : الراضية ، قاله مقاتل .

السادس : ما قاله بعض أصحاب الخواطر : المطمئنة إلى الدنيا ، ارجعي إلى ربك في تركها .

السابع : ما قاله الحسن أن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن اطمأنت النفس إلى الله عز وجل ، واطمأن الله إليها .

﴿ ارْجِعي إلى ربِّكِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إلى جسدك عند البعث في القيامة ، قاله ابن عباس .

الثاني : إلى ربك عند الموت في الدنيا ، قاله أبو صالح .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : إلى ثواب ربك في الآخرة .

﴿ راضيةً مَرْضِيّةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : رضيت عن الله ورضي عنها ، قاله الحسن .

الثاني : رضيت بثواب الله ورضي بعملها ، قاله ابن عباس .

﴿ فادْخُلي في عِبادي ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في عبدي ، وهو في حرف أُبيّ بن كعب : فادخلي في عبدي .

الثاني : في طاعتي ، قاله الضحاك .

الثالث : معناه فادخلي مع عبادي ، قاله السدي .

﴿ وادْخُلي جَنَتي ﴾ فيه قولان :

أحدهما : في رحمتي ، قاله الضحاك .

الثاني : الجنة التي هي دار الخلود ومسكن الأبرار ، وهو قول الجمهور .

وقال أسامة بن زيد : بشرت النفس المطمئنة بالجنة عند الموت ، وعند البعث وفي الجنة .

واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها نزلت في أبي بكر ، فروى ابن عباس أنها نزلت وأبو بكر جالس فقال : يا رسول الله ما أَحسن هذا ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أما أنه سيقال لك هذا " .

الثاني : أنها نزلت في عثمان حين وقف بئر رومة ، قاله الضحاك .

الثالث : أنها نزلت في حمزة ، قاله بريدة الأسلمي .

الرابع : أنها عامة في كل المؤمنين ، رواه عكرمة والفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 264. 273 ﴾

(136/815)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) ﴾

قوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾ قال ابن عباس : الفجر : انفجار الظُّلمة عن الصبح ، وانفجر الماء : انبجس .

قال شيخنا علي بن عبيد الله : الفجر : ضوء النهار إذا انشق عنه الليل ، وهو مأخوذ من الانفجار ، يقال : انفجر النهر ينفجر انفجاراً : إذا انشق فيه موضع لخروج الماء ، ومن هذا سمي الفاجر فاجراً ، لأنه خرج عن طاعة الله .

وللمفسرين في المراد بهذا الفجر ستة أقوال .

أحدها : أنه الفجر المعروف الذي هو بدء النهار ، قاله عليٌّ رضي الله عنه .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو انفجار الصبح كل يوم ، وبهذا قال عكرمة ، وزيد بن أسلم ، والقرظي .

والثاني : صلاة الفجر ، رواه عطية عن ابن عباس .

والثالث : النهار كلُّه ، فعبَّر عنه بالفجر ، لأنه أوله ، وروى هذا المعنى أبو نصر عن ابن عباس .

والرابع : أنه فجر يوم النحر خاصة قاله مجاهد .

والخامس : أنه فجر أول يوم من ذي الحجة ، قاله الضحاك .

والسادس : أنه أول يوم من المحرم تنفجر منه السنة قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وليالٍ عشر ﴾ فيها أربعة أقوال .

أحدها : أنه عشر ذي الحجة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ومقاتل .

والثاني : أنها العشر الأواخر من رمضان ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

والثالث : العشر الأول من رمضان ، قاله الضحاك .

والرابع : العشر الأول من المحرم ، قاله يمان بن رئاب .

قوله تعالى : ﴿ والشَّفْعِ والوَتْرِ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف "والوِتْر" بكسر الواو ، وفتحها الباقون ، وهما لغتان .

قال الفراء : الكسر لقريش وتميم وأسد ، والفتح لأهل الحجاز .

وللمفسرين في "الشفع والوتر" عشرون قولاً .

أحدهما : أن الشفع : يوم عرفة ويوم الأضحى ، والوتر : ليلة النحر ، رواه أبو أيوب الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(137/815)

والثاني : يوم النحر ، والوتر : يوم عرفة ، [رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك] .

والثالث : أن الشفع والوتر : الصلاة ، منها الشفع ، ومنها الوتر ، رواه عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه قال قتادة .

والرابع : [أن الشفع : الخلق كله ، والوتر : الله تعالى] ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية مسروق ، وأبو صالح .

والخامس : أن الوتر : آدم شفع بزوجته ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والسادس : أن الشفع يومان بعد يوم النحر ، وهو النفر الأول ، والوتر : اليوم الثالث ، وهو النفر الأخير ، قاله عبد الله ابن الزبير ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ فمن تعجَّل في يومين فلا إثم عليه ﴾ [البقرة : 203] .

والسابع : أن الشفع : صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب ، حكاه عطية .

والثامن : أن الشفع : الركعتان من صلاة المغرب ، والوتر : الركعة الثالثة ، قاله أبو العالية ، والربيع بن أنس .

والتاسع : أن الشفع والوتر : الخلق كله ، منه شفع ، ومنه وتر ، قاله ابن زيد ومجاهد في رواية .

والعاشر : أنه العدد ، منه شفع ، ومنه وتر ، وهذا والذي قبله مرويان عن الحسن .

والحادي عشر : أن الشفع : عشر ذي الحجة ، والوتر : أيام [منى] الثلاثة ، قاله الضحاك .

والثاني عشر : أن الشفع : هو الله ، لقوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ [المجادلة : 7] والوتر : هو الله ، لقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، قاله سفيان بن عيينة .

والثالث عشر : أن الشفع : هو آدم وحواء .

والوتر : الله تعالى ، قاله مقاتل بن سليمان .

والرابع عشر : أن الشفع : الأيام والليالي ، والوتر : اليوم الذي لا ليلة [بعده] ، وهو يوم القيامة ، قاله مقاتل بن حيان .

(138/815)

والخامس عشر : الشفع : درجات الجنان ، لأنها ثمان ، والوتر : دَرَكات النار لأنها سبع ، فكأن الله أقسم بالجنة والنار ، قاله الحسين بن الفضل .

والسادس عشر : الشفع : تضاد أوصاف المخلوقين بين عِزٍ وذُلٍّ ، وقدرة وعجز ، وقوة وضعف ، وعلم وجهل ، وموت وحياة .

والوتر : انفراد صفات الله عز وجل : عِزٌّ بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، قاله أبو بكر الورّاق .

والسابع عشر : أن الشفع : الصفا والمروة ، والوتر : البيت .

والثامن عشر : أن الشفع : مسجد مكة والمدينة ، والوتر : بيت المقدس .

والتاسع عشر : أن الشفع : القِرَان بين الحج والتمتع ، والوتر : الإفراد .

والعشرون : الشفع : العبادات المتكررة ، كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والوتر : العبادة التي لا تتكرر ، وهو الحج ، حكى هذه الأقوال الأربعة الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وقرأ ابن كثير ، ويعقوب "يسري" بياءٍ في الوصل والوقف ، وافقهما في الوصل نافع وأبو عمرو .

وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي "يسر" بغير ياءٍ في الوصل والوقف .

قال الفراء ، والزجاج : الاختيار حذفها لمشاكلتها لرؤوس الآيات ، ولاتِّباع المصحف .

وفي قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قولان .

أحدهما : أن الفعل له ، ثم فيه قولان .

أحدهما : إذا يسري ذاهباً ، قاله الجمهور ، وهو اختيار الزجاج .

والثاني : إذا يسري مقبلا ، قاله قتادة .

والقول الثاني : أن الفعل لغيره ، والمعنى : إذا يسري فيه ، كما يقال : ليل نائم ، أي : ينام فيه ، قاله الأخفش ، وابن قتيبة .

وفي المراد بهذا الليل ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه عام في كل ليلة ، وهذا الظاهر .

والثاني : أنه ليلة المزدلفة ، وهي ليلة جَمْعٍ : قاله مجاهد وعكرمة .

والثالث : ليلة القدر ، حكاه الماوردي .

(139/815)

قوله تعالى : ﴿ هل في ذلك ﴾ أي : [هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها] ﴿ قسم لذي حجر ﴾ أي : لذي عقل ، وسمي العقل حجْراً ، لأنه يحجر صاحبه عن القبيح ، وسمي عقلاً ، لأنه يعقل عما لا يحسن ، وسمي العقل النُّهى ، لأنه ينهى عما لا يحل .

ومعنى الكلام : أن من كان ذا لبٍّ عَلِم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء ، فيه دلائل على توحيد الله وقدرته ، فهو حقيق أن يقسم به لدلالته .

وجواب القسم قوله تعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ فاعترض بين القسم وجوابه بقوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ فخوّف أهل مكة بإهلاك من كان أشدَّ منهم .

وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر "بعادِ إرمَ" بكسر الدال من غير تنوين على الإضافة .

وفي "إرم" أربعة أقوال .

أحدها : أنه اسم بلدة ، قال الفراء .

ولمْ يُجْرَ "إرم" لأنها اسم بلدة ثم فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها دمشق ، قاله سعيد بن المسيب ، وعكرمة ، وخالد الرَّبَعِي .

والثاني : الإسكندرية ، قاله محمد بن كعب .

والثالث : أنها مدينة صنعها شداد بن عاد ، وهذا قول كعب .

وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

والقول الثاني : أنه اسم أمة من الأمم ، ومعناه : القديمة ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه قبيلة من قوم عاد ، قاله قتادة ومقاتل .

قال الزجاج : وإنما لم تنصرف "إرم" لأنها جعلت اسماً للقبيلة ففتحت ، وهي في موضع خفض .

والرابع : أنه اسم لجَدِّ عادٍ ، لأنه عاد بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح ، قاله ابن اسحاق .

قال الفراء : فإن كان اسماً لرجل على هذا القول ، فإنما ترك إجراؤه ، لأنه كالعجمي ، قال أبو عبيدة : هما عادان ، فالأولى : هي إرم ، وهي التي قال الله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] .

وهل قوم هود عاد الأولى ، أم لا ؟ فيه قولان قد ذكرناهما في (النجم) .

وفي قوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : لأنهم كانوا أهل عمد وخيام يطلبون الكلأ حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، فلا يقيمون في موضع ، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، والفراء .

والثاني : أن معنى ذات العماد : ذات الطول ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مقاتل ، وأبو عبيدة ، قال الزجاج يقال رجل مُعْمَدٌ : إذا كان طويلاً .

والثالث : ذات القوة والشدة ، مأخوذ من قوة الأعمدة ، قاله الضحاك .

والرابع : ذات البناء المحكم بالعماد ، قاله ابن زيد .

وقيل : إنما سميت ذات العماد لبناءٍ بناه بعضهم .

قوله تعالى : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران : "لم تَخْلُق" بتاءٍ مفتوحة ورفع اللام "مثلَها" بنصب اللام .

وقرأ معاذ القارئ ، وعمرو بن دينار : "لم نَخْلُق" بنون مفتوحة ورفع اللام "مثلَها" بنصب اللام .

وفي المشار إليها قولان .

أحدهما : لم يَخْلُق مثل تلك القبيلة في الطول والقوّة ، وهذا معنى قول الحسن .

والثاني : المدينة لم يخلق مثل مدينتهم ذات العماد ، قاله عكرمة .

وقد جاء في التفسير صفات تلك المدينة .

وهذه الإشارة إلى ذلك .

روى وهب بن منبه عن عبد الله بن قِلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت ، فبينما هو في صحارى عدن وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن ، وحول الحصن قصور كثيرة . فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله ، فلم ير خارجاً ولا داخلاً ، فنزل عن دابته ، وعقلها ، وسلَّ سيفه ، ودخل من باب الحصن ، فلما دخل الحصن إذا هو ببابين عظيمين [لم ير أعظم منهما] ، والبابان مُرصَّعان بالياقوت [الأبيض و] الأحمر ، فلما رأى ذلك دهش ، ففتح أحد البابين ، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها ، وإذا قصور ، كلُّ قصر فوقه غرف وفوق الغرف غرف مبنيَّة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت ، ومصاريع تلك الغرف مثل مصاريع المدينة ، يقابل بعضها بعضاً ، مفروشة كلها باللؤلؤ ، وبنادق من مسك وزعفران .

(141/815)

فلما عاين ذلك ، ولم ير أحداً ، هَالَه ذلك ، ثم نظر إلى الأزقة فإذا هو في كل زقاق منها شجر قد أثمر ، وتحت الشجر أنهار مطردة يجري ماؤها من قنوات من فضة .

فقال الرجل : إن هذه هي الجنة ، فحمل معه من لؤلؤها ، ومن بنادق المسك والزعفران ورجع إلى اليمن ، فأظهر ما كان معه .

وبلغ الأمر إلى معاوية ، فأرسل إليه ، فقص عليه ما رأى ، فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار ، فلما أتاه قال له : يا أبا إسحاق : هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة ؟ قال : نعم .

أخبرك بها وبمن بناها ؟ إنما بناها شداد بن عاد ، والمدينة :

"إرم ذات العماد" ، قال : فحدثني حديثها ، فقال إن عاداً المنسوب إليهم عاد الأولى ، كان له ولدان : شديد ، وشداد .

فلما مات [عاد] ، ثم مات شديد وبقي شداد ، ملك الأرض ، ودانت له الملوك ، وكان مولعاً بقراءة الكتب ، فكان إذا مر بذكر الجنة دعته نفسه إلى بناء مثلها عُتُوّاً على الله تعالى .

فأمر بصنع "إرم ذات العماد" فأمَّر على عملها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان ، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدُّوه بما في بلادهم من الجواهر ، فخرج القهارمة يسيرون في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة ، فوقفوا على صحراء عظيمة نقية من التلال ، وإذا فيها عيون ماء ومروج فقالوا : هذه صفة الأرض التي أمر الملك أن يبنى بها ، فوضعوا أساسها من الجزع اليماني ، وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة ، وكان عمر شداد تسعمائة سنة ، فلما أتوه وقد فرغوا منها قال : انطلقوا ، واجعلوا عليها حصناً ، واجعلوا حول الحصن ألف

قصر ، عند كل قصر ألف عَلَم ليكون في كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائي ، ففعلوا ذلك ، فأمر الملك الوزراء وهم ألف وزير أن يتهيئوا للنقلة إلى "إرم ذات العماد" ، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين ، ثم ساروا إليها ، فلما كانوا منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه ، وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً ، ولم يَبْقَ منهم أحد .

(142/815)

وروى الشعبي عن دَغْفَل الشيباني عن علماء حِمْيَر قالوا : لما هلك شداد ابن عاد ومن معه من الصيحة ، ملَكَ بعده ابنه مَرْثَد بن شَدَّاد ، وقد كان أبوه خلَّفه بحضرموت على ملكه وسلطانه ، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة إلى حضرموت ، وأمر [بدفنه] فَحُفِرَتْ له حفيرة في مفازة ، فاستودعه فيها على سرير من ذهب ، وألقى عليه سبعين حُلَّةً منسوجة بقضبان الذهب ، ووضع عند رأسه لوحاً عظيماً من ذهب وكتب عليه :

إعتبر يا أيُّها المغ . . .

رورُ بالعمرِ المديدِ

أنا شَدَّادُ بنُ عادٍ . . .

صاحبُ الحصن المشيدِ

وأخو القوّةَ والبأْ . . .

ساءِ والملك الحشيدِ

دان أهل الأرض طُرّاً . . .

ليَ من خوف وعيدي

وملكت الشرق والغر . . .

ب بسلطان شديدِ

وبفضل الملك والع . . .

دة فيه والعديدِ

فأتى هود وكنّا . . .

في ضلال قبل هودِ

فدعانا لو قبلنا . . .

ه إلى الأمر الرشيدِ

فعصيناه ونادى . . .

ما لكم هل من محيدِ ؟

فأتتنا صيحة ته . . .

وي من الأفق البعيدِ

فتوافينا كزرعٍ . . .

وسط بيداء حصيدِ

قوله تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر ﴾ قطعوه ونقبوه .

قال إسحاق : والوادي : وادي القرى .

وقرأ الحسن : "بالوادي" بإثبات الياء في الحالين ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ مفسر في سورة [ص : 12] ﴿ الذين طَغَوْا في البلاد ﴾ يعني : عاداً ، وثمود ، وفرعون ، عملوا بالمعاصي ، وتجبَّروا على أنبياء الله ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ القتل والمعاصي ﴿ فصبَّ عليهم ربك سَوْطَ عذاب ﴾ .

قال ابن قتيبة : وإنما قال : سوط عذاب ، لأن التعذيب قد يكون بالسوط .

وقال الزجاج : [أي جعل سوطَهم الذي ضربهم به العذابَ] ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أي : يرصد مَنْ كفر به بالعذاب ، والمرصد : الطريق ، وقد شرحناه في قوله تعالى ﴿ كانت مرصاداً ﴾ [النبأ : 21] .

قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان ﴾ فيمن عنى به أربعة أقوال .

أحدها : عتبة بن ربيعة ، وأبو حذيفة بن المغيرة ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أُبَيّ بن خلف ، قاله ابن السائب .

والثالث : أُمية بن خلف ، قاله مقاتل .

والرابع : أنه الكافر الذي لا يؤمن بالبعث ، قال الزجاج : وابتلاه بمعنى اختبره بالغنى واليسر ﴿ فأكرمه ﴾ بالمال ﴿ ونَعَّمه ﴾ بما وسَّع عليه من الإفضال ﴿ فيقول ربي أكرمني ﴾ فتح ياء "ربيَ" "أكرمنيَ" "ربيَ" "أهانَنيَ" أهل الحجاز ، وأبو عمرو ، أي : فضلني بما أعطاني ، ويظن أن ما أعطاه من الدنيا لكرامته عليه ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ بالفقر ﴿ فقَدَر عليه رِزْقَه ﴾ وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر "فقدَّر" بتشديد الدال ، والمعنى : ضيَّق عليه بأن جعله على مقدار البُلْغَة ﴿ فيقول ربي أهانني ﴾ أي : هذا الهوان منه لي حين أذلَّني بالفقر .

واعلم أن من لا يؤمن بالبعث ، فالكرامة عنده زيادة الدنيا ، والهوان قِلَّتُها .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : ليس الأمر كما يظن .

قال مقاتل : ما أعطيت [من أغنيت] هذا الغنى لكرامته عليَّ ، ولا أفقرت [مَنْ] أفقرت لهوانه عليَّ ، وقال الفراء : المعنى : لم يكن ينبغي له أن يكون هكذا ، إنما ينبغي أن يحمد الله على الأمرين : الفقر ، والغنى .

ثم أخبر عن الكفار فقال تعالى : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ قرأ أهل البصرة "يُكرِمون" و

"يَحُضُّون" و "يَأْكُلون" و "يُحِبُّون" بالياء فيهن ، والباقون بالتاء .

ومعنى الآية : إني أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم .

والآية تحتمل معنيين .

أحدهما : أنهم كانوا لا يَبَرُّونه .

والثاني : لا يعطونه حَقَّه من الميراثِ ، وكذلك كانت عادة الجاهلية لا يورِّثون النساء ولا الصبيان .

ويدل على المعنى الأول قوله تعالى : ﴿ ولا تَحاضُّون على طعام المسكين ﴾ قرأ أبو جعفر ، وأهل الكوفة "تحاضون" بألف مع فتح التاء .

وروى الشيرزي عن الكسائي كذلك إلا أنه ضم التاء .

والمعنى : لا يأمرون بإطعامه لأنهم لا يرجون ثواب الآخرة .

(144/815)

ويدل على المعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وتأكلون التُّراثَ أكلاً لَمّا ﴾ قال ابن قتيبة : التراث : الميراث ، والتاء فيه منقلبة عن واوٍ ، كما قالوا : تُجاه ، والأصل : وُجاه ، وقالوا : تُخمَة ، والأصل : وُخَمَة .

و﴿ لَمًّا ﴾ أي : شديداً ، وهو من قولك : لممْتُ بالشيء : إذا جمعتَه ، وقال الزجاج : هو ميراث اليتامى .

قوله تعالى : ﴿ وتحبون المال ﴾ أي : تحبون جمعه ﴿ حُبّاً جماً ﴾ أي : كثيراً فلا تنفقونه في خير ﴿ كلا ﴾ أي : ما هكذا ينبغي أن يكون [الأمر] .

ثم أخبر عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم ، فقال تعالى : ﴿ إذا دُكَّت الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ أي : مرَّة بعد مرَّة ، فتكسَّر كل شيء عليها ، ﴿ وجاء ربك ﴾ قد ذكرنا هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ﴾ [البقرة : 210] .

قوله تعالى : ﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ أي : تأتي [ملائكة] كل سماءٍ صفاً [صفا] على حدة .

قال الضحاك : يكونون سبعة صفوف ، ﴿ وجيء يومئذٍ بجهنَّم ﴾ روى مسلم في أفراده من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام ، مع [كل زمام] سبعون ألف ملك يجرّونها " قال مقاتل : يجاء بها فتقام عن يسار العرش .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم يجاء بجهنم ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أي : يتَّعظ الكافر ويتوب .

قال مقاتل : هو أمية بن خلف ﴿ وأَنَّى له الذكرى ﴾ أي : كيف له بالتوبة وهي في القيامة

لا تنفع ﴿ يقول يا ليتني قدَّمتُ ﴾ العمل الصالح في الدنيا ﴿ لحياتي ﴾ في الآخرة التي لا موت فيها ﴿ فيومئذ لا يعذَّب عذابه أحدٌ ﴾ قرأ الكسائي ، ويعقوب ، والمفضل "لا يعذَّب" بفتح الذال ، والباقون بكسرها ، فمن فتح ، أراد : لا يعذب عذاب الكافر أحد ، ومن كسر أراد : لا يعذَّب عذاب الله أحد ، أي كعذابه ، وهذه القراءة تختص بالدنيا ، والأولى تختص بالآخرة .

(145/815)

قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال .

أحدها : في حمزة بن عبد المطلب لما استشهد يوم أُحد ، قاله أبو هريرة ، وبريدة الأسلمي .

والثاني : في عثمان بن عفان حين أوقف بئر رومة ، قاله الضحاك .

والثالث : في خبيب بن عدي لما صلبه أهل مكة ، قاله مقاتل .

والرابع : في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حكاه الماوردي .

والخامس : [في] جميع المؤمنين ، قاله عكرمة .

وفي معنى "المطمئنة" ثلاثة أقوال .

أحدها : المؤمنة ، قاله ابن عباس .

وقال الزجاج: المطمئنة بالإيمان.

والثاني: الراضية بقضاء الله، قاله مجاهد.

والثالث: الموقنة بما وعد الله، قاله قتادة.

واختلفوا في أي حين يقال لها ذلك على قولين.

أحدهما: عند خروجها من الدنيا، قاله الأكثرون.

والثاني: عند البعث يقال لها: ارجعي إلى صاحبك، وإلى جسدك، فيأمر الله الأرواح أن تعود إلى الأجساد، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء، وعكرمة والضحاك.

وفي قوله تعالى ﴿ ارجعي إلى ربك راضية ﴾ أربعة أقوال.

أحدها: ارجعي إلى صاحبك الذي كنتِ في جسده، وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال عكرمة والضحاك.

والثاني: ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ بعد الموت في الدنيا، قاله أبو صالح.

والثالث: ارجعي إلى ثواب ربك، قاله الحسن.

والرابع: يا أيتها النفس المطمئنة [إلى الدنيا] ارجعي إلى الله تعالى بتركها، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي: في جملة عبادي المصطَفَيْن.

قال أبو صالح: يقال لها عند الموت: ارجعي إلى ربك، فإذا كان يوم القيامة قيل لها: ﴿

فادخلي في عبادي ﴾ وقال الفراء : ادخلي مع عبادي .

وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وأُبَي بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وأبو العالية ، وأبو عمران : "في عبدي" على التوحيد .

(146/815)

قال الزجاج : فعلى هذه القراءة والله أعلم يكون المعنى : ارجعي إلي ربك ، أي : إلى صاحبك الذي خرجتِ منه ، فادخلي فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 125.102 ﴾

(147/815)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ والفجر ﴾

أقسم الله عزّ وجلّ بالفجر وما بعده لشرفها وما فيها من الفوائد الدينية وهي أنها دلائل باهرة ، وبراهين قاطعة ، على التوحيد ، وفيها من الفوائد الدنيوية أنها تبعث على

الشكر .

واختلفوا في معاني هذه الألفاظ ، فروي عن ابن عباس ، أنه قال : الفجر هو انفجار الصبح في كل يوم ، أقسم الله تعالى به لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وانتشار الناس ، وسائر الحيوانات في طلب الأرزاق ، وذلك يشبه نشر الموتى من قبورهم للبعث .

وعن ابن عباس أيضاً أنه صلاة الفجر ، والمعنى أنه أقسم بصلاة الفجر لأنها مفتتح النهار ، ولأنها مشهودة يشهدها ملائكة الليل ، وملائكة النهار ، وقيل إنه فجر معين .

واختلفوا فيه ، فقيل هو فجر أول يوم من المحرم ، لأن منه تنفجر السنة وقيل هو فجر ذي الحجة ، لأنه قرن به الليالي العشر ، وقيل هو فجر يوم النحر ، لأن فيه أكثر مناسك الحج ، وفيه القربات .

﴿ وليال عشر ﴾ قيل إنما نكرها لما فيها من الفضل ، والشرف الذي لا يحصل في غيرها .

روي عن ابن عباس أنها العشر الأول من ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بأعمال الحج ، وأخرج الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله قال : " ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر " ، وذكر الحديث ، وروي عن ابن عباس قال : هي العشر الأواخر من رمضان ، لأن فيها ليلة القدر ، ولأن رسول الله كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان أحيا ليله ، وشد مئزره ، وأيقظ أهله ، يعني للعبادة ؛ وقيل هي العشر الأول من المحرم ، وهو تنبيه على شرفه ، ولأن فيه يوم عاشوراء .

﴿ والشفع والوتر ﴾ قيل الشفع هو الخلق ، والوتر هو الله تعالى يروى ذلك عن أبي سعيد الخدري ، وقيل الشفع هو الخلق كالإيمان والكفر ، والهدى ، والضلالة ، والسعادة ، والشقاوة ، والليل ، والنهار ، والأرض ، والسماء ، والشمس ، والقمر ، والبر ، والبحر ، والنور ، والظلمة ، والجن ، والإنس .

والوتر هو الله تعالى ، وقيل الخلق كله فيه شفع وفيه وتر .

وقيل هما الصلوات منها شفع ومنها وتر عن عمران بن حصين " أن رسول الله سئل عن الشفع والوتر قال : هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر " أخرجه الترمذي .

وقال : حديث غريب وعن ابن عباس قال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر صلاة المغرب ، وعن عبد الله بن الزبير قال : الشفع النفر الأول ، والوتر النفر الأخير ، وروي أن رجلاً سأله عن الشفع ، والوتر ، والليالي العشر فقال : أما الشفع والوتر فقول الله عزّ وجلّ : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾ فهما الشفع والوتر ، وأما الليالي العشر فالثمان ، وعرفة والنحر ، وقيل الشفع الأيام ، والليالي ؛ والوتر اليوم الذي لا ليلة معه ، وهو يوم القيامة ، وقيل الشفع درجات الجنة لأنها ثمان ، والوتر دركات النار لأنها سبع ،

فكأنه أقسم بالجنة ، والنار .

وقيل الشفع أوصاف المخلوقين المتضادة ، مثل العز ، والذل ، والقدرة ، والعجز ، والقوة ، والضعف ، والغنى ، والفقر ، والعلم ، والجهل ، والبصر ، والعمى ، والموت ، والحياة ، والوتر ، صفات الله تعالى التي تفرد بها عزّ بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وغنى بلا فقر ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ أي إذا سار وذهب ، وقيل إذا جاء ، وأقبل ، وأراد به كل ليلة ، وقيل هي ليلة المزدلفة ، وهي ليلة النحر التي يسار فيها من عرفات إلى مزدلفة فعلى هذا يكون المعنى واليل الذي يسار فيه .

﴿ هل في ذلك ﴾ أي فيما ذكرت ﴿ قسم ﴾ مقنع ومكتفي في القسم فهو استفهام بمعنى التأكيد .

(149/815)

﴿ لذي حجر ﴾ أي لذي عقل سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل له ، ولا ينبغي كما سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح ، وسمي نهيه لأنه ينهى عما لا يحل ، ولا ينبغي وأصل الحجر المنع ، ولا يقال ذو حجر إلا لمن هو قاهر لنفسه ضابط لها عما لا يليق ، كأنه

حجر على نفسه ومنعها ما تريد ، والمعنى إن من كان ذا لب ، وعقل علم أن ما أقسم الله عزّ وجلّ به من هذه الأشياء فيه عجائب ، ودلائل تدل على توحيده ، وربوبيته .

فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه .

قيل جواب القسم قوله تعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ واعترض بين القسم وجوابه قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ، وقيل جواب القسم محذوف وتقديره ورب هذه الأشياء ليعذبن الكافر يدل عليه قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ؟ إلى قوله ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ ؟ أي ألم تعلم وإنما أطلق لفظ الرؤية على العلم لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت معلومة عندهم .

وقوله : ﴿ ألم تر ﴾ خطاب للنبي ولكنه عام لكل أحد .

﴿ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ﴾ المقصود من ذلك تخويف أهل مكة وكيف أهلكهم وهم كانوا أطول أعماراً ، وأشد قوة ، من هؤلاء فأما عاد فهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، ومنهم من يجعل عاداً اسماً للقبيلة لقوله تعالى : ﴿ وإنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وإرم هو جد عاد على ما ذكر في نسبه عاد .

وقيل إن المتقدمين من قوم عاد كانوا يسمون بإرم اسم جدهم .

وقيل إرم هم قبيلة من عاد ، وكان فيهم الملك ، وكانوا بمهرة اسم موضع باليمن وكان عاد أباهم فنسبوا إليه وهو إرم بن عاد بن شيم بن سام بن نوح ؛ وقال الكلبي : إرم هو الذي يجتمع إليه نسب عاد وثمود أهل السواد ، وأهل الجزيرة ، وكان يقال عاد إرم وثمود إرم فأهلك عاد وثمود ، وأبقى أهل السواد ، وأهل الجزيرة ؛ وقال سعيد بن المسيب : إرم ذات العماد دمشق وقيل الإسكندرية ، وفيه ضعف لأن منازل عاد كانت من عمان إلى حضرموت ، وهي بلاد الرمال والأحقاف .

وقيل إن عاداً كانوا أهل عمد وخيام وماشية سيارة في الربيع فإذا هاج العود ويبس رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا أهل جنان وزروع ومنازلهم بوادي القرى ، وهي التي قال الله تعالى : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وسموا ذات العماد لأنهم كانوا أهل عمد سيارة ، وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي ، ورواية ابن عباس .

(151/815)

وقيل سموا ذات العماد لطول قامتهم يعني طولهم ، مثل العماد في الشبه ، قال مقاتل : كان طول أحدهم اثني عشر ذراعاً ، وقوله ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ يعني لم يخلق مثل

تلك القبيلة في الطول ، والقوة ، وهم الذين قالوا ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وقيل سموا ذات العماد لبناء بناه بعضهم ، فشيد عمده ورفع بناءه ، وقيل كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا بعده ، وقهرا البلاد والعباد فمات شديد وخلص الملك لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها وكان يحب قراءة الكتب القديمة فسمع بذكر الجنة وصفتها فدعته نفسه إلى بناء مثلها عتواً على الله وتجبراً ؛ روى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت فبينما هو يسير في صحارى عدن إذ وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن وحول الحصن قصور كثيرة فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله فلم ير خارجاً ولا داخلاً فنزل عن دابته وعقلها ، وسل سيفه ودخل من باب المدينة فإذا هو ببابين عظيمين وهما مرصعان بالياقوت الأحمر فلما رأى ذلك دهش ، ففتح الباب ودخل ، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها ، وإذا فيها قصور في كل قصر منها غرف ، وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب ، والفضة ، وأحجار اللؤلؤ والياقوت ؛ وإذا أبواب تلك القصور مثل مصاريع باب المدينة يقابل بعضها بعضاً وهي مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فلما عاين ذلك ولم ير أحداً هاله ذلك ثم نظر إلى الأزقة فإذا في تلك الأزقة أشجار مثمرة ، وتحت تلك الأشجار أنهار مطردة يجري ماؤها في قنوات من فضة فقال الرجل في نفسه هذه الجنة وحمل معه من لؤلؤ ترابها ومن بنادق مسكها وزعفرانها ، ورجع إلى اليمن وأظهر ما كان معه وحدّث بما رأى فبلغ ذلك معاوية ، فأرسل إليه فقدم عليه

فسأله عن ذلك فقص عليه ما رأى فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما أتاه قال له : يا أبا إسحاق هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة قال نعم هي إرم ذات العماد بناها شداد بن

(152/815)

عاد قال : فحدثني حديثها فقال لما أراد شداد بن عاد عملها أمر عليها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان ، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدوه بما في بلادهم من الجواهر فخرجت القهارمة يسيرون في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة فوقفوا على صحراء نقية من التلال وإذا فيها عيون ماء ومروج فقالوا هذه الأرض التي أمر الملك أن نبني فيها فوضعوا أساسها من الجزع اليماني ، وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة ، وكان عمر شداد تسعمائة سنة فلما أتوه وقد فرغوا منها قال : انطلقوا فاجعلوا حصناً يعني سوراً واجعلوا حوله ألف قصر وعند كل قصر ألف علم ليكون في كل قصر وزير من وزرائي ففعلوا وأمر الملك وزراءه وهم ألف وزير أن يتهيؤا للنقلة إلى إرم ذات العماد ، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين ثم ساروا إليها فلما كانوا من المدينة على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً ، ولم يبق منهم أحد ثم قال كعب : وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال ، وعلى عنقه خال يخرج في

طلب إبل له ثم التفت فأبصر عبد الله بن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ وثمود ﴾ أي وفعل بثمود مثل ما فعل بعاد ﴿ الذين جابوا ﴾ أي قطعوا ﴿ الصخر ﴾ أي الحجر ﴿ بالواد ﴾ يعني بوادي القرى وكانت ثمود أول من قطّع الصخر ونحته واتخذوا مساكن في الجبال وبيوتاً .

﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ سمي بذلك لكثرة جنوده وكثرة مضاربهم وخيامهم التي كانوا يضربونها ، إذا نزلوا ، وقيل معناه ذي الملك كما قيل في ظل ملك راسخ الأوتاد .

(153/815)

وقيل سمي بذلك لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس أن فرعون إنما سمي ذا الأوتاد لأنه كانت عنده امرأة مؤمنة وهي امرأة خازنة حزقيل وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت تعس من كفر بالله فقالت بنت فرعون وهل لك من إله غير أبي فقالت إلهي وإله أبيك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال لها ما يبكيك قالت الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهك وإلهنا وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فأرسل إليها

فسألها عن ذلك فقالت صدقت فقال لها : ويحك اكفري بإلهك وقري أني إلهك قالت لا أفعل فمدها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب وقال لها : اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت لو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله وكان لها ابنتان فجاء فابنتها الكبرى فذبحها على قلبها ثم قال اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعاً فقالت لو ذبحت من في الأرض على فيّ ما كفرت بالله عزّ وجلّ فأتى بابنتها فلما اضطجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت وهي من الأربعة الذين تكلموا في المهد صغاراً أطفالاً وقالت يا أماه لا تجزعي فإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة فاصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله وكرامته فذبحت فلم تلبث الأم أن ماتت فأسكنها الله الجنة قال : وبعث في طلب زوجها حزقيل فلم يقدروا عليه فقيل لفرعون إنه قد رؤي في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فانتهى إليه الرجلان ، وهو يصلي وثلاثة صفوف من الوحش خلفه يصلون فلما رأوا ذلك انصرفوا فقال ، حزقيل : اللّهم إنك تعلم أني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر عليّ أحد فأيما هذين الرجلين كتم عليّ فاهده إلى دينك وأعطه من الدنيا سؤاله وأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل عقوبته في

الدنيا واجعل مصيره في الآخرة إلى النار فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال له فرعون وهل معك غيرك قال نعم فلان فدعا به فقال أحق ما يقول هذا قال ما رأيت مما يقول شيئاً فأعطاه فرعون وأجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه قال : وكان فرعون قد تزوج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم ، فرأت ما صنع فرعون بالماشطة ، فقالت وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي فرعون وأنا مسلمة وفرعون كافر ؟ فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها ، فقالت يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثهم ، عمدت إلى الماشطة فقتلتها قال فلعل بك الجنون الذي كان بها ، قالت : ما بي جنون وإن إلهها وإلهك وإلهي وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فبصق عليها وضربها ، وأرسل إلى أبيها وأمها فدعاهما وقال لهما : إن الجنون الذي كان بالماشطة أصابها ، قالت : أعوذ بالله من ذلك ، إني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والأرض واحد لا شريك له ، فقال لها أبوها : يا آسية ألست من خير نساء العماليق ، وزوجك إله العماليق قالت : أعوذ بالله من ذلك إن كان ما يقول حقاً فقولا له أي يتوجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ يعني عاداً وثموداً وفرعون عملوا بالمعاصي ،

وتجبروا ، ثم فسر ذلك الطغيان بقوله ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ يعني القتل والفساد ضد الصلاح ، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر فكذلك الفساد يتناول جميع أقسام الإثم .

﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ يعني لوناً من العذاب صبّه عليهم ، وقيل هو تشبيه بما يكون في الدنيا من العذاب بالسوط ، وقيل هو إشارة إلى ما خلط لهم من العذاب ، لأن أصل السوط خلط الشيء بعضه ببعض ؛ وقيل هذا على الاستعارة ، لأن السوط غاية العذاب فجرى ذلك لكل نوع منه .

(155/815)

وقيل جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب ، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية يقول إن عند الله أسواطاً كثيرة ، فأخذهم بسوط منها .

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال ابن عباس يعني بحيث يرى ويسمع ، وقيل عليه طريق العباد ، لا يفوته أحد وقيل عليه ممر الناس لأن الرصد والمرصاد الطريق .

وقيل ترجع الخلق إلى حكمه وأمره وإليه مصيرهم ، وقيل إنه يرصد أعمال بني آدم .

والمعنى أنه لا يفوته شيء من أعمال العباد ، كما لا يفوت من المرصاد ، وقد قيل أرصد

النار على طريقهم حتى تهلكهم .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ﴾ أي امتحنه ﴿ ربه ﴾ أي بالنعمة ﴿ فأكرمه ﴾ أي بالمال ﴿ ونعمه ﴾ أي بما يوسع عليه ﴿ فيقول ربي أكرمن ﴾ أي بما أعطاني من المال والنعمة .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ يعني بالفقر ﴿ فقدر عليه ﴾ أي فضيق عليه ، وقيل قتر .

﴿ رزقه ﴾ أي وقد أعطاه ما يكفيه .

﴿ فيقول ربي أهانن ﴾ أي أذلني بالفقر ، قيل نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر ، وقيل ليس المراد به واحداً بعينه ، بل المراد جنس الكافر ، وهو الذي تكون الكرامة والهوان عنده بكثرة المال والحظ في الدنيا وقلته فرد الله تعالى على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة فقال تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، أي لم أبتله بالغنى لكرامته ، ولم أبتله بالفقر لهوانه ، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال ، وسعة الرزق وقلته ، ولكن الغنى والفقر بتقدير الله جلّ جلاله وحكمته فقد يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويضيق على المؤمن لا لهوانه ، لكن لأمر اقتضته حكمة الله تعالى ، وإنما يكرم المرء بطاعته ، ويهينه بمعصيته ، وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال ليختبره ، أيشكر أم يكفر ، ويضيق عليه ليختبره ، أيصبر أم يضجر ، ويقلق .

﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ أي لا يعطونه حقه الثابت له في الميراث قال مقاتل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف ، فكان يدفعه عن حقه .

(156/815)

﴿ ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ أي لا يطعمون مسكيناً ، ولا يأمرون بإطعامه ، وقرىء ولا يحاضون ومعناه ، ولا يحض بعضهم بعضاً على ذلك .

﴿ وتأكلون التراث ﴾ أي الميراث ﴿ أكلاً لّمّاً ﴾ أي شديداً ، والمعنى أنه يأكل نصيبه ونصيب غيره ، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ، ولا الصبيان ، ويأكلون نصيبهم ، وقيل الآكل اللم الذي يأكل كل شيء يجده لا يسأل أحلال أم حرام ، فيأكل الذي له ولغيره .

﴿ وتحبون المال حباً جمّاً ﴾ أي كثيراً والمعنى يحبون جمع المال ، ويولعون به ، ويحبه .

﴿ كلا ﴾ أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا ، من الحرص على جمع المال وحبه .

وقيل معناه لا يفعلون ما أمروا به من إكرام اليتيم وغيره من المسلمين ، ثم أخبر عن تلهّفهم على ما سلف منهم ، وذلك حين لا ينفعهم الندم .

فقال تعالى : ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ أي دقت وكسرت مرة بعد مرة ، وكسر كل

شيء عليها من جبل وبناء وغيره ، حتى لا يبقى على ظهرها شيء .

﴿ وجاء ربك ﴾ اعلم أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة السلف وبعض الخلف ، فلم يتكلموا فيها وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وأجراؤها على ظاهرها ، وتأولها بعض المتأخرين ، وغالب المتكلمين فقالوا ثبت بالدليل العقلي ، أن الحركة على الله محال ، فلا بد من تأويل الآية .

فقيل في تأويلها وجاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء .

وقيل جاء أمر ربك وقضاؤه .

وقيل وجاء دلائل آيات ربك فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لتلك الآيات .

﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ أي تنزل ملائكة كل سماء صفاً صفاً على حدة ، فيصطفون صفاً بعد صف ، محدقين بالجن والإنس ، فيكونون سبع صفوف .

(157/815)

﴿ وجيء يومئذ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ بجهنم ﴾ قال ابن مسعود : في هذه الآية تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها تغيظ وزفير حتى تنصب

عن يسار العرش ﴿ يومئذ ﴾ يعني يوم يجاء بجهنم ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أي يتعظ الكافر ويتوب .

﴿ وأنى له الذكرى ﴾ يعني أنه يظهر التوبة ، ومن أين له التوبة .

﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ أي قدمت الخير ، والعمل الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها .

﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ .

﴿ ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ يعني لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب ، والوثاق هو الأسر في السلاسل ، والأغلال ، وقرىء لا يعذب ، ولا يوثق بفتح الذال والثاء ، ومعناه لا يعذب عذاب هذا الكافر أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، وهو أمية بن خلف ، وذلك لشدة كفره وعتوه .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ أي الثابتة على الإيمان ، والإيقان ، المصدقة بما قال الله تعالى ، الموقنة التي قد أيقنت بالله تعالى ، وبأن الله ربها ، وخضعت لأمره ، وطاعته ، وقيل المطمئنة المؤمنة ، الموقنة ، وقيل هي الراضية بقضاء الله ، وقيل هي الآمنة من عذاب الله ، وقيل هي المطمئنة بذكر الله ؛ قيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب حين استشهد بأُحُد ، وقيل في حبيب بن عدي الأنصاري ، وقيل في عثمان حين اشترى بئر رومة وسبلها وقيل في أبي بكر الصديق ؛ والأصح أن الآية عامة في كل نفس مؤمنة مطمئنة

، لأن هذه السورة مكية ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ أي إلى ما وعد ربك من الجزاء والثواب ، قيل يقال لها ذلك عند خروجها من الدنيا .

(158/815)

قال عبد الله بن عمر : إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عزّ وجلّ إليه ملكين ، وأرسل إليه بتحفة من الجنة ، فيقال اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى روح وريحان ، وربك عنك راض ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه ، والملائكة على أرجاء السماء يقولون قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة فلا تمر بباب إلا فتح لها ، ولا بملك ، إلا صلى عليها حتى يؤتى بها الرحمن جل جلاله ، فتسجد له ثم يقال لميكائيل اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين ، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه ، وسبعون ذراعاً ، طوله وينبذ له فيه الروح والريحان ، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره ، وإن لم يكن جعل له نور مثل الشمس في قبره ، ويكن مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، وإذا توفي الكافر أرسل الله إليه ملكين ، وأرسل قطعة من بجاد أي من كساء أنتن من كل نتن ، وأخشن من كل خشن ، فيقال أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى جهنم وعذاب أليم ، وربك عليك غضبان وقيل في معنى قوله ﴿ ارجعي إلى

ربك ﴾ أي إلى صاحبك وهو الجسد ، وإنما يقال لا ذلك عند البعث فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى أجسادها ، وهو قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية عن ابن عباس .

فإذا كان يوم القيامة قيل لها .

﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في جملة عبادي ، الصالحين المصطفين ﴿ وادخلي جنتي ﴾ قال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف فشهدت جنازته ، فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط ، فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ ، وقال : بعض أهل الإشارة في تفسير هذه الآية يا أيتها النفس المطمئنة إلى الدنيا ، ارجعي إلى ربك بتركها ، والرجوع إليه هو سلوك سبيل الآخرة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 240 . 247 ﴾

(159/815)

وقال النسفى :

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والفجر ﴾ أقسم بالفجر وهو الصبح كقوله ﴿ والصبح إِذَا أَسْفَرَ ﴾ [المدثر : 34] ، أو بصلاة الفجر ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ عشر ذي الحجة أو العشر الأول من المحرم ، أو الآخر من رمضان .

وإنما نكرت لزيادة فضيلتها ﴿ والشفع والوتر ﴾ شفع كل الأشياء ووترها أو شفع هذه الليالي ووترها ، أو شفع الصلاة ووترها ، أو يوم النحر لأنه اليوم العاشر ويوم عرفة لأنه اليوم التاسع ، أو الخلق والخالق .

﴿ والوتر ﴾ حمزة وعلي ، وبفتح الواو غيرهما ، وهما لغتان : فالفتح حجازي والكسر تميمي .

وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم فقال ﴿ والليل ﴾ وقيل : أريد به ليلة القدر ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ إذا يمضي وياء ﴿ يَسْرِ ﴾ تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة .

وسأل واحد الأخفش عن سقوط الياء فقال : لا ، حتى تخدمني سنة فسأله بعد سنة فقال : الليل لا يسري وإنما يسرى فيه ، فلما عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقة .

وقيل : معنى يسري : يسرى فيه كما يقال : ليل نائم أي ينام فيه .

﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿ قَسَمٌ ﴾ أي مقسم به ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ عقل سمي به لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهية لأنه

يعقل وينهى ، يريد هل تحقق عنده أن تعظم هذه الأشياء بالإقسام بها ، أو هل في إقسامي بها إقسام لذي حجر أي هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه ؟ أو هل في القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذي عقل ولب ؟ والمقسم عليه محذوف وهو قوله "ليعذبن" يدل عليه قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ .

(160/815)

ثم ذكر تعذيب الأمم التي كذبت الرسل فقال ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الإيقان ؟ وهو استفهام تقرير قيل : لعقب عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عاد ما يقال لبني هاشم هاشم ، ثم قيل للأولين منهم : عاد الأولى ، والإرم تسمية لهم باسم جدهم ومن بعدهم عاد الأخيرة ، ف ﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان ل ﴿ عَادٍ ﴾ وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة .

وقيل : إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير ﴿ بِعَادٍ * إِرَمَ ﴾ على الإضافة وتقديره بعاد أهل إرم كقوله ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة ، فالمعنى أنهم كانوا بدويين أهل عمد أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة وإن

كانت صفة للبلدة أنها ذات أساطين .

ورُوي أنه كان لعاد ابنان : شداد وشديد فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا .

(161/815)

وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثمة ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال : هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل ﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ أي مثل عاد في قوتهم وطول قامتهم ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، أو لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ

الصخر ﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً .

قيل : أول من نحت الجبال والصخور ثمود ، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ﴿ بالواد ﴾ بوادي القرى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ أي ذي الجنود الكثيرة وكانت لهم مضارب كثيرة يضربونها إذا نزلوا .

وقيل : كان له أوتاد يعذب الناس بها كما فعل بآسية ﴿ الذين ﴾ في محل النصب على الذم ، أو الرفع على "هم الذين" ، أو الجر على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون ﴿ طَغَوْاْ فِى البلاد ﴾ تجاوزوا الحد ﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ بالكفر والقتل والظلم ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه إذا الصب يشعر بالدوام والسوط بزيادة الإيلام أي عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ وهو المكان الذي يترقب فيه الرصد مفعال من رصده ، وهذا مثل لإرصاده العباد وأنهم لا يفوتونه ، وأنه عالم بما يصدر منهم وحافظه فيجازيهم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(162/815)

﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي ضيق عليه وجعله بمقدار بلغته ، ﴿ فَقَدَرَ ﴾ شامي ويزيد ﴿ فَيَقُولُ

رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ أي الواجب لمن ربه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا تهمه العاجلة ، وهو قد عكس فإنه إذا امتحنه ربه بالنعمة والسعة ليشكر ، قال : ربي أكرمني أي فضلني بما أعطاني فيرى الإكرام في كثرة الحظ من الدنيا ، وإذا امتحنه بالفقر فقدر عليه رزقه ليصبر ، قال : ربي أهانني فيرى الهوان في قلة الحظ من الدنيا لأنه لا تهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها ، فرد عليه زعمه بقوله ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته بل الإكرام في توفيق الطاعة والإهانة في الخذلان ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُ ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الإنسان ، ودخول الفاء لما في "أما" من معنى الشرط ، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير كأنه قيل : فأما الإنسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتلاء ، وكذا ﴿ فَيَقُولُ ﴾ الثاني خبر لمبتدأ تقديره : وأما هو إذا ما ابتلاه ربه .

وسمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء لأن كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] .

وإنما أنكر قوله ﴿ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ مع أنه أثبته بقوله ﴿ فَأَكْرَمَهُ ﴾ لأنه قاله على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته وهو قصده إن الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له لاستحقاقه كقوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ [القصص : 78] وإنما أعطاه الله تعالى ابتلاء من غير استحقاق منه .

﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم * وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي بل هناك شر من هذا القول وهو أن الله يكرمهم بالغنى فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة وحض أهله على طعام المسكين ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ أي الميراث ﴿ أَكْلاًَّ لَّمّاً ﴾ ذا لم وهو الجمع بين الحلال والحرام ، وكانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ويأكلون تراثهم مع تراثهم ﴿ وَتُحِبُّونَ المال ﴾ يقال حبه وأحبه بمعنى ﴿ حُبّاً جَمّاً ﴾ كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق ، ﴿ رَبِّى ﴾ حجازي وأبو عمرو ﴿ يكرمون ﴾ ﴿ وَلاَ يحضون ﴾ ﴿ وَيَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَّيُحِبُّونَ ﴾ بصري ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم .

ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض ﴾ إذا زلزلت ﴿ دَكّاً دَكّاً ﴾ دكاً بعد دك أي كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثاً .

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قهره وسلطانه ، فإن واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصه ، وعن ابن عباس : أمره وقضاؤه ﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ أي ينزل ملائكة كل سماء

فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس ﴿ وَجِاْىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ قيل : إنها برزت لأهلها كقوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء : 91] .

وقيل : هو مجرى على حقيقته ففي الحديث " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ أي يتعظ ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ ومن أين له منفعة الذكرى ؟ ﴿ يَقُولُ ياليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ هذه وهي حياة الآخرة أي يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية .

(164/815)

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أي لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم ﴿ وَلاَ يُوثِقُ ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ قال صاحب الكشاف : لا يعذب أحد أحداً كعذاب الله ولا يوثق أحد أحداً كوثاق الله .

﴿ لاَّ يُعَذِّبُ ﴾ ﴿ وَلاَ يُوثِقُ ﴾ علي وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره ، والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف وهو الكافر .

وقيل : هو أبي بن خلف أي لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده .

ثم يقول الله تعالى للمؤمن ﴿ يا أَيَّتُهَا النفس ﴾ إكراماً له كما كلم موسى عليه السلام أو يكون على لسان ملك ﴿ المطمئنة ﴾ الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة ، أو المطمئنة إلى الحق التي سكّنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك .

ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي ﴿ يأَيَّتُهَا النفس الآمنة المطمئنة ﴾ وإنما يقال لها عند الموت أو عند البعث أو عند دخول الجنة ﴿ ارجعى إلى ﴾ موعد ﴿ رَبِّكِ ﴾ أو ثواب ربك ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ من الله بما أوتيت ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عند الله بما عملت ﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ في جملة عبادي الصالحين فانتظمي في سلكهم ﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ معهم .

وقال أبو عبيدة : أي مع عبادي أو بين عبادي أي خواصي كما قال : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19]

وقيل : النفس الروح ومعناه فادخلي في أجساد عبادي كقراءة عبد الله بن مسعود ﴿ فِي جسد عبدي ﴾ ولما مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم ير على خلقته فدخل في نعشه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولم يدر من تلاها .

قيل : نزلت في حمزة بن عبد المطلب .

وقيل : في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال : اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك ، فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله .

وقيل : هي عامة في المؤمنين إذ العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 353 . 357 ﴾

(165/815)

وقال ابن جزى :

سورة الفجر

﴿ والفجر ﴾

أقسم الله تعالى بالفجر وهو الطالع كل يوم كما أقسم بالصبح ، وقيل : أراد صلاة الفجر : وقيل : أراد النهار كله ، وقيل : فجر يوم الجمعة ولا دليل على هذه التخصيصات وقيل : أراد انفجار العيون من الحجارة وهذا بعيد والاول أظهر وأشهر ﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ هي عشر ذي الحجة عند الجمهور ، وقيل : العشر الأول من المحرم وفيها عاشوراء وقيل : العشر الأواخر من رمضان ، وقيل : العشر الأول منه ﴿ والشفع والوتر ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنها الصلوات منها شفع ووتر وقيل : الشفع التنفل بالصلاة مثنى مثنى والوتر الركعة الواحدة المعروفة ، وقيل : الشفع العالم والوتر الله لأنه واحد ، وقيل : الشفع آدم وحواء والوتر الله

تعالى ، وقيل : الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام ، وقيل : الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة ، وقيل : الشفع قران الحج والوتر إفراده ، وقيل : المراد الأعداد منها شفع ووتر . فهذه عشرة أقوال ، وقرئ الوتر بفتح الواو وكسرها وهما لغتان ﴿ واليل إِذَا يَسْرِ ﴾ أي إذا يذهب فهو كقوله : ﴿ والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] وقيل أراد يسري فيه فهو على هذا كقولهم : ليلُه قائم ، والمراد على هذا ليلة جمع لأنها التي يسري فيها والأول أشهر وأظهر ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ هذا توقيف يراد به تعظيم الأشياء التي أقسم بها . والحجر هنا هو : العقل . كأنه يقول : إن هذا لقسم عظيم عند ذوي العقول . وجواب القسم محذوف وهو " ليأخذنّ الله الكفار " ويدل على ذلك ما ذكره بعده من أخذ عاد وثمود وفرعون .

(166/815)

﴿ إِرَمَ ﴾ هي قبيلة عاد سميت باسم أحد أجدادها ، كما يقال : هاشم لبني هاشم ، وإعرابه بدل من عاد أو عطف بيان وفائدته أن المراد عادا الأولى ، فإن عاداً الثانية لا يسمون بهذا الاسم . وقيل : إرم اسم مدينتهم فهو على حذف مضاف تقديره : بعاد عاد إرم ، ويدل على هذا قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة من تنوين عاد وامتنع إرم من

الصرف على القولين للتعريف والتأنيث ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ من قال إرم قبيلة قال : العماد أعمدة بنيانهم أو أعمدة بيوتهم من الشعر لأنهم كانوا أهل عموج ، وقال ابن عباس : ذلك كناية عن طول أبدانهم . ومن قال إرم مدينة فالعماد الحجارة التي بنيت بها ، وقيل القصور والأبراج ﴿ التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ صفة للقبيلة لأنهم كانوا أعظم الناس أجساماً يقال : كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع . أو صفة للمدينة وهذا أظهر لقوله في البلاد ولأنها كانت أحسن مدائن الدنيا ، وروي أنها بناها شداد بن عاد في ثلاثمائة عام ، وكان عمره تسعمائة عام وجعل قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أنواع الشجر والأنهار الجارية ، وروي أنه سمع ذكر الجنة فأراد أن يعمل مثلها فلما أتمها وسار إليها بأهل مملكته أهلكهم الله بصيحة ، وكانت هذه المدينة باليمن .

وروي أن بعض المسلمين مر بها في خلافة معاوية ، وقيل : هي دمشق وقيل : الاسكندرية ، وهذا ضعيف ﴿ جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ أي نقبوه ونحتوا فيه بيوتاً والوادي ما بين الجبلين ، ون لم يكن فيها ماء ، وقيل : أراد وادي القرى ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ ذكر في سورة داود [ص] ﴿ الذين طَغَوْاْ فِي البلاد ﴾ صفة لعاد وثمود وفرعون ويجوز أن يكون منصوباً على الذم أو خبر ابتداء مضمر ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ استعارة السوط للعذاب ؛ لأنه يقتضي من التكرار ما لا يقتضيه السيف وغيره . قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : ذكر السوط

إشارة إلى عذاب الدنيا ، إذ هو أهوب من عذاب الآخرة ، كما أن السوط أهون من القتل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ عبارة عن أنه تعالى حاضر بعلمه في كل مكان ، وكل زمان ورقيب على كل إنسان ، وأنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار ، وفي ذلك تهديد لكفار قريش وغيرهم ، والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ ﴾ الابتلاء هو الاختبار واختبار الله لعبده لتقوم الحجة على العبد بما يبدو منه ، وقد كان الله عالماً بذلك قبل كونه ، والإنسان هنا جنس ، وقيل : نزلت في عتبة بن ربيعة وهي مع ذلك على العموم ، فيمن كان على هذه الصفة . وذكر الله في هذه الآية ابتلاءه للإنسان بالخير ، ثم ذكر بعد ابتلاءه بالشر كما قال في [الأنبياء : 35] ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ ﴾ وأنكر عليه قوله حين الخير : ربي أكرمني وقوله حين الشر : ربي أهانني ويتعلق بالآية سؤلان :

السؤال الأول : لم أنكر الله على الإنسان قوله ربي أكرمني وربي أهانني والجواب من وجهين : أحدهما : أن الإنسان يقول : ربي أكرمني على وجه الفخر بذلك والكبر ، لا على وجه الشكر ويقول : ربي أهانني على وجه التشكي من الله وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله ،

فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك ، فإن الواجب عليه أن يشكر على الخير ويصبر على الشر . والآخر : أن الإنسان اعتبر الدنيا فجعل بسط الرزق فيها كرامة ، وتضييقه إهانة وليس الأمر كذلك ؛ فإن الله قد يبسط الرزق لأعدائه ، ويضيقه على أوليائه فأنكر الله عليه اعتبار الدنيا والغفلة عن الآخرة ، وهذا الإنكار من هذا الوجه على المؤمن . وأما الكافر فإنما اعتبر الدنيا لأنه لا يصدق بالآخرة ، ويرى أن الدنيا هي الغاية فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك .

(168/815)

السؤال الثاني : إن قيل : قد قال الله " فأكرمه " فأثبت إكرامه ، فكيف أنكر عليه قوله ربي أكرمني ؟ فالجواب : من ثلاثة أوجه : الأول أنه لم ينكر عليه ذكره للإكرام ، وإنما أنكر عليه ما يدل عليه كلامه من الفخر وقلة الشرك ، أو من اعتبار الدنيا دون الآخرة حسبما ذكرنا في معنى الإنكار . الثاني : أنه أنكر عليه قوله : " ربي أكرمني " إذ اعتقد إن إكرام الله له باستحقاقه الإكرام ، على وجه التفضيل والإنعام كقوله قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78] الثالث : أن الإنكار إنما هو قوله : " ربي أهانني " لا لقوله " ربي أكرمني " فإن قوله ربي أكرمني اعتراف بنعمة الله ، وقوله ربي أهانني شكاية من فعل

الله ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي ضيقه وقرئ بتشديد الدال وتخفيفها بمعنى واحد وفي التشديد مبالغة وقيل : معنى التشديد جعله على قدر معلوم .

(169/815)

﴿ كَلاَّ ﴾ زجر عما أنكر من قول الإنسان ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ﴾ هذا ذمّ لما ذكر من الأعمال القبيحة ومعنى هذا الإضراب بل ، كأنه أنكر على الإنسان ما تقدم ثم قال بل تفعلون ما هو شر من ذلك وهو ألا تكرموا اليتيم وما ذكر بعده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرمَ " ﴿ وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ الحض على الأمر هو الترغيب فيه ، ومن لا يحض غيره على أمر فلا يفعله هو ، كأنه ذم لترك طعام المسكين ، والطعام هنا بمعنى الإطعام ، وقيل : هو على حذف مضاف تقديره : لا تحضون على بذل طعام المسكين ، وقرئ تحاضون بفتح الحاء وألف بعدها بمعنى لا يحض بعضكم بعضاً ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً ﴾ التراث هو ما يورث عن الميت من المال ، والتاء فيه بدل من الواو ، واللم : الجمع واللف ، والتقدير : أكلاً ذا لمّ وهو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره ، لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيراً بل

ينفرد به الرجال ﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ أي شديداً كثيراً وهذا دم للحرص على المال وشدة الرغبة فيه .

(170/815)

﴿ دُكَّتِ الأرض ﴾ أي سوّيت جبالها ﴿ دَكّاً دَكّاً ﴾ أي دكاً بعد دكّ كما تقول : تعلمت العلم باباً باباً ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ تأويله عند المتأولين : جاء أمره وسلطانه وقال المنذر بن سعيد : معناه ظهوره للخلق هنالك . وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل ﴿ والملك ﴾ هو اسم فإنه رُوِي أن الملائكة كلهم يكونون صفوفاً حول الأرض ﴿ صَفّاً صَفّاً ﴾ أي صفاً بعد صف قد أحدقوا بالجن والإنس ﴿ وجيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتي يومئذ بجهنم معها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ﴾ يومئذ بدل من إذا دكت ويتذكر هو العامل وهو جواب إذا دكت ، والمعنى : أن الإنسان يتذكر يوم القيامة أعماله في الدنيا ، ويندم على تفريطه وعصيانه ، والإنسان هنا جنس ، وقيل : يعني عتبة بن ربيعة ، وقيل : أمية بن خلف ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ هذا على حذف تقديره أنى له الانتفاع بالذكرى كما تقول ندم حين لم تنفعه الندامة ﴿ يَقُولُ يا ليتني

قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ فيه وجهان : أحدهما أنه يريد الحياة في الآخرة فالمعنى : يا ليتني قدّمت عملاً صالحاً للآخرة ، والآخر أنه يريد الحياة الدنيا فالمعنى : يا ليتني قدّمت عملاً صالحاً وقت حياتي ، فاللام على هذا كقوله كتبت لعشر من الشهر ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ من قرأ بكسر الذال من يعذب والثاء من يوثق فالضمير في عذابه ووثاقه لله تعالى والمعنى : أنه الله يتولى عذاب الكفار ولا يكله إلى أحد ، ومن قرأ بالفتح فالضمير للإنسان أي لا يعذّب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق أحد مثل وثاقه ، وهذه قراءة الكسائي ورُوِيَ أن أبا عمرو رجع إليها وهي قراءة حسنة ، وقد رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(171/815)

﴿ يا أَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ أي الموقنة يقيناً قد اطمئنت به بحيث لا يتطرق إليها شك في الإيمان ، وقيل : المطمئنة التي لا تخاف حينئذ . ويؤيد هذا قراءة أبيّ بن كعب ﴿ يا أَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ ﴿ ارجعي إلى رَبِّكِ ﴾ هذا خطاب والنداء يكون عند الموت ، وقيل : عند البعث وقيل : عند انصراف الناس إلى الجنة أو النار ، والأول أرجح ، لما روي " أن أبا بكر سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك عند موتك " ﴿ رَاضِيَةً ﴾ معناه راضية بما أعطاها ، أو راضية عن الله ،

ومعنى المرضية عند الله ، أو أرضاها الله بما أعطاها ﴿ فادخلي فِي عِبَادِي ﴾ أي أدخلي في جملة عبادي الصالحين . وقرئ فادخلني في عبدي بالتوحيد معناه ادخلي في جسده وهو خطاب للنفس ، ونزلت هذه الآية في حمزة . وقيل : في خُبَيْبِ بن عدي الذي صلبه الكفار بمكة ، ولفظها يعم كل نفس مطمئنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 199.196 ﴾

(172/815)

وقال البيضاوى :

سورة الفجر

مكية وآيها ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والفجر ﴾

أقسم بالصبح أو فلقه كقوله : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أو بصلاته .

﴿ وَلَيالٍ عَشْرٍ ﴾ عشر ذي الحجة ولذلك فسر ﴿ الفجر ﴾ بفجر عرفة ، أو النحر أو عشر رمضان الأخير وتنكيرها للتعظيم ، وقرىء "وَلَيالٍ عَشْرٍ" بالإِضافة على أن المراد

بالعشر الأيام.

﴿ والشفع والوتر ﴾ والأشياء كلها شفعها ووترها ، أو الخلق لقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ والخالق لأنه فرد ، ومن فسرهما بالعناصر والأفلاك أو البروج والسيارات أو شفع الصلوات ووترها ، أو بيومي النحر وعرفة ، وقد روي مرفوعاً ، أو بغيرها فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ما رآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلاً في الدين أو مناسبة لما قبلهما أو أكثر منفعة موجبة للشكر ، وقرىء ﴿ والوتر ﴾ بكسر الواو وهما لغتان كالحبر والحبر.

﴿ والليل إذا يَسْرِ ﴾ إذا يمضي كقوله : ﴿ والليل إذْ أَدْبَرَ ﴾ والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة ، أو يرى فيه من قولهم صلى المقام وحذف الياء للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً ، وقد خصه نافع وأبو عمرو بالوقف لمراعاة الفواصل ولم يحذفها ابن كثير ويعقوب أصلاً ، وقرىء ﴿ يَسْرٍ ﴾ بالتنوين المبدل من حرف الاطلاق.

﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ ﴾ القسم أو المقسم به ﴿ قَسَمٌ ﴾ حلف أو محلوف به. ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ يعتبره ويؤكد به ما يريد تحقيقه ، وال ﴿ حِجْرٍ ﴾ العقل سمي به لأنه يحجر عما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهية وحصاة من الإحصاء ، وهو الضبط والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن يدل عليه قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ يعني أولاد عاد بن عوصن بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، قوم هود سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه .

(173/815)

﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان ل ﴿ عَادٍ ﴾ على تقدير مضاف أي سَبْطُ ﴿ إِرَمَ ﴾ ، أو أَهْلُ ﴿ إِرَمَ ﴾ إن صح أنه إسم بلدتهم . وقيل سمي أوائلهم وهم ﴿ عَاداً الأولى ﴾ باسم جدهم ومنع صرفه للعلمية والتأنيث . ﴿ ذَاتِ العماد ﴾ ذات البناء الرفيع أو القدود الطوال ، أو الرفعة والثبات . وقيل كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ، ثم مات شديد فخلص الأمر لشداد وملك المعمورة ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فبنى على مثالها في بعض صحاري عدن جنة وسماها إرم ، فلما تمت سار إليها بأهله ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله ابن قلابة أنه خرج في طلب إبله فوقع عليها .

﴿ التى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البلاد ﴾ صفة أخرى ل ﴿ إِرَمَ ﴾ والضمير لها سواء جعلت ﴿ إِرَمَ ﴾ القبيلة أو البلدة .

﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر ﴾ قطعوه واتخذوه منازل لقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال

بُيُوتاً ﴾ ﴿ بالواد ﴾ وادي القرى .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا ، أو لتعذيبه بالأوتاد .

﴿ الذين طَغَوْاْ فِى البلاد ﴾ صفة للمذكورين "عاد" ﴿ وَثَمُودُ ﴾ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ﴾ ، أو ذم منصوب أو مرفوع .

﴿ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد ﴾ بالكفر والظلم .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ ما خلط لهم من أنواع العذاب ، وأصله الخلط وإنما سمي به الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض ، وقيل شبه بال ﴿ سَوْطَ ﴾ ما أحل بهم في الدنيا إشعاراً بأنه القياس إلى ما أعد لهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قيس إلى السيف .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ إلى المكان الذي يترقب فيه الرصد ، مفعال من رصده كالميقات من وقته ، وهو تمثيل لإرصاده العصاة بالعقاب .

﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾ متصل بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ كأنه قيل إنه ﴿ لبالمرصاد ﴾ من الآخرة فلا يريد إلا السعي لها فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها . ﴿ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ ﴾ اختبره بالغنى واليسر . ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ بالجاه والمال . ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ ﴾ فضلني بما أعطاني ، وهو خبر المبتدأ الذي هو ﴿ الإنسان ﴾ ، والفاء لما في "أما" من معنى الشرط ، والظرف المتوسط في تقدير التأخير كأنه قيل : فأما الإنسان فقائل ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام ، وكذا قوله :

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ إذ التقدير وأما الإنسان إذا ما ابتلاه أي بالفقر والتقتير ليوازن قسيمه . ﴿ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ لقصور نظره وسوء فقره ، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين ، والتوسعة قد تفضي إلى قصد الأعداء والانهماك في حب الدنيا ولذلك ذمه على قوليه سبحانه وتعالى وردعه عنه بقوله :

﴿ كَلاَّ ﴾ مع أن قوله الأول مطابق لأكرمه ولم يقل فأهانه وقدر عليه كما قال : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ لأن التوسعة تفضل والإخلال به لا يكون إهانة ، وقرأ ابن عامر والكوفيون "أكرمن" و"أهانن" بغير ياء في الوصل والوقف . وعن أبي عمرو مثله ووافقهم نافع في الوقف وقرأ ابن عامر "فَقَدَّرَ" بالتشديد .

﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي بل فعلهم أسوأ من قولهم وأدل على تهالكهم بالمال وهو أنهم لا يكرمون اليتيم بالنفقة والمبرة ، ولا يحثون أهلهم على

طعام المسكين فضلاً عن غيرهم ، وقرأ الكوفيون "ولا تحاضون" .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث ﴾ الميراث وأصله وراث . ﴿ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءهم ، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك .

(175/815)

﴿ وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ كثيراً مع حرص وشره ، وقرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب "لا يكرمون" إلى "ويحبون" بالياء والباقون بالتاء .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم وما بعده وعيد عليه . ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ﴾ أي دكا بعد دك حتى صارت منخفضة الجبال والتلال ، أو ﴿ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ ﴿ وَجَاء رَبُّكَ ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيبته وسياسته . ﴿ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ بحسب منازلهم ومراتبهم .

﴿ وَجِيء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ وفي الحديث "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من إذا دكت الأرض والعامل فيهما . ﴿ يَتَذَكَّرُ الإنسان ﴾ أي يتذكر معاصيه أو

يتعظ لأنه يعلم قبحها فيندم عليها . ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ أي منفعة الذكرى لئلا يناقض ما قبله ، واستدل به على عدم وجوب قبول التوبة ، فإن هذا التذكر توبة غير مقبولة .

﴿ يَقُولُ يالَيتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ أي لحياتي هذه ، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة ، وليس في هذا التمني دلالة على استقلال العبد بفعله فإن المحجور عن شيء قد يتمنى أن كان ممكناً منه .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ الهاء لله أي لا يتولى عذاب الله ووثاقه يوم القيامة سواه إذ الأمر كله له ، أو للإنسان أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه ، وقرأهما الكسائي ويعقوب على بناء المفعول .

﴿ يا أَيَّتُهَا النفس المطمئنة ﴾ على إرادة القول وهي التي اطمأنت بذكر الله ، فإن النفس تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات إلى الواجب لذاته فتستفز دون معرفته وتستغني به عن غيره ، أو إلى الحق بحيث لا يريبها شك أو الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ، وقد قرىء بهما .

(176/815)

﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ إلى أمره أو موعده بالموت ، ويشعر ذلك بقول من قال : كانت النفوس قبل الأبدان موجودة في عالم القدس أو البعث ، ﴿ رَّاضِيَةً ﴾ بما أوتيت . ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ عند الله تعالى .

﴿ فادخلى فِى عِبَادِى ﴾ في جملة عبادي الصالحين .

﴿ وادخلى جَنَّتِى ﴾ معهم أو في زمرة المقربين فتستضيء بنورهم ، فإن الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة ، أو ادخلي في أجساد عبادي التي فارقت عنها ، وادخلي دار ثوابي التي أعدت لك .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 486.491 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(177/815)

وقال أبو حيان :

سورة الفجر

﴿ وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) ﴾

قرأ أبو الدينار الأعرابي : والفجر ، والوتر ، ويسر بالتنوين في الثلاثة .

قال ابن خالويه : هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين ، وإن كان فعلاً ، وإن كان فيه ألف ولام .

قال الشاعر :

أقلّي اللوم عاذل والعتابا . . .

وقولي إن أصبت لقد أصابا

انتهى .

وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر ، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر ، وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي .

وقرأ الجمهور : ﴿ وليال عشر ﴾ بالتنوين ؛ وابن عباس : بالإضافة ، فضبطه بعضهم .

﴿ وليال عشر ﴾ بلام دون ياء ، وبعضهم وليالي عشر بالياء ، ويريد : وليالي أيام عشر .

ولما حذف الموصوف المعدود ، وهو مذكر ، جاء في عدده حذف التاء من عشر .

والجمهور : ﴿ والوتر ﴾ بفتح الواو وسكون التاء ، وهي لغة قريش .

والأغر عن ابن عباس ، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن : بخلاف عنه ؛ والأخوان : بكسر الواو ، وهي لغة تميم ، واللغتان في الفرد ، فأما في الرحل فالكسر

لا غير.

وحكى الأصمعي: فيه اللغتين؛ ويونس عن أبي عمرو: بفتح الواو وكسر التاء.

والجمهور: ﴿ يسر ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً؛ وابن كثير: بإثباتها فيهما؛ ونافع وابن عمرو: بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف؛ والظاهر وقول الجمهور، منهم علي وابن عباس وابن الزبير: أن الفجر هو المشهور، أقسم به كما أقسم بالصبح، ويراد به الجنس، لا فجر يوم مخصوص.

وقال ابن عباس ومجاهد؛ من يوم النحر؛ وعكرمة: من يوم الجمعة؛ والضحاك: من ذي الحجة؛ ومقاتل: من ليلة جمع؛ وابن عباس وقتادة: من أول يوم من المحرم.

وعن ابن عباس أيضاً: الفجر: النهار كله؛ وعنه أيضاً وعن زيد بن أسلم: الفجر هو صلاة الصبح، وقرآنها هو قرآن الفجر.

وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها.

(178/815)

وقال ابن الزبير والكلبي وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي وعطية العوفي: هي عشر ذي الحجة؛ وابن عباس والضحاك: العشر الأواخر من رمضان.

وقال ابن جريج : الأول منه ؛ ويمان وجماعة : الأول من المحرم ومنه يوم عاشوراء ؛

ومسروق ومجاهد : وعشر موسى عليه السلام التي أتمها الله تعالى .

قيل : والأظهر قول ابن عباس للحديث المتفق على صحته .

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله .

قال التبريزي : اتفقوا على أنه العشر الأواخر ، يعني من رمضان ، لم يخالف فيه أحد ، فتعظيمه مناسب لتعظيم القسم .

وقال الزمخشري : وأراد بالليالي العشر عشر ذي الحجة .

فإن قلت : فما بالها منكرة من بين ما أقسم به ؟ قلت : لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر ، بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها .

فإن قلت : فهل لا عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة ؟ قلت : لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية ، انتهى .

أما السؤالان فظاهران ، وأما الجواب عنهما فلفظ ملفق لا يعقل منه معنى فيقبل أو يرد .

﴿ والشفع والوتر ﴾ : ذكر في كتاب التحرير والتحبير فيها ستة وثلاثين قولاً ضجرنا من قراءتها فضلاً عن كتابتها في كتابنا هذا ، وعن عمران بن حصين ، عن النبي (صلى الله

عليه وسلم) أنه قال : " هي الصلوات ، منها الشفع ومنها الوتر " وروى أبو أيوب عنه (صلى الله عليه وسلم) : " الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى ، والوتر : ليلة النحر " وروى جابر عنه (صلى الله عليه وسلم) : " الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفة " وفي هذا الحديث تفسيره عليه الصلاة والسلام الفجر بالصبح والليالي العشر بعشر النحر ، وهو قول ابن عباس وعكرمة ، واختاره النحاس .

(179/815)

وقال حديث أبي الزبير عن جابر : هو الذي صح عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين : " صوم عرفة وتر لأنه تاسعها ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها " وذكر ابن عطية في الشفع والوتر أربعة عشر قولاً ، والزمخشري ثلاثة أقوال ، ثم قال : وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه ، وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه ، انتهى .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ : قسم بجنس الليل ، ويسري : يذهب وينقرض ، كقوله : ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ وقال الأخفش وابن قتيبة : يسري فيه ، فيكون من باب ليلك نائم .

وقال مجاهد وعكرمة والكلبي : المراد ليلة جمع لأنه يسري فيها ، وجواب القسم محذوف .

قال الزمخشري : وهو لنعذبن ، يدل عليه قوله : ﴿ ألم تر ﴾ إلى قوله : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ .

وقال ابن الأنباري : الجواب : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

والذي يظهر أن الجواب محذوف يدل عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية ، وهو قوله : ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ وتقديره : لإيابهم إلينا وحسابهم علينا .

وقول مقاتل : هل هنا في موضع تقديره : إن في ذلك قسماً لذي حجر .

فهل على هذا في موضع جواب القسم ، قول لم يصدر عن تأمل ، لأن المقسم عليه على تقدير أن يكون التركيب إن في ذلك قسماً لذي حجر لم يذكر ، فيبقى قسم بلا مقسم عليه ، لأن الذي قدره من إن في ذلك قسماً لذي حجر لا يصح أن يكون مقسماً عليه ، وهل في ذلك تقرير على عظم هذه الأقسام ، أي هل فيها مقنع في القسم لذي عقل فيزدجر ويفكر في آيات الله .

ثم وقف المخاطب على مصارع الأمم الكافرة الماضية مقصوداً بذلك توعد قريش ، ونصب المثل لها .

وعاد هو عاد بن عوص ، وأطلق ذلك على عقبه ، ثم قيل للأولين منهم عاداً الأولى وإرم ، نسبة لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الأخيرة .

وقال مجاهد وقتادة : هي قبيلة بعينها .

وقال ابن إسحاق : إرم هو أبو عاد كلها .

(180/815)

وقال الجمهور : إرم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن .

وقال محمد بن كعب : هي الإسكندرية .

وقال ابن المسيب والمقبري : هي دمشق .

وقال مجاهد أيضاً : إرم معناه القديمة .

وقرأ الجمهور : بعاد مصر ، وفا إرم بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية لأنه اسم للقبيلة ، وعاد ، وإن كان اسم القبيلة ، فقد يلحظ فيه معنى الحي فيصرف أو لا يلحظ ، فجاء على لغة من صرف هنداً ، وإرم عطف بيان أو بدل .

وقرأ الحسن : بعاد غير ممنوع الصرف مضافاً إلى إرم ، فجاز أن يكون إرم وجداً ومدينة ؛

والضحاك : إرم بفتح الراء وما بعدها ممنوعي الصرف .

وقرأ ابن الزبير : بعاد بالإضافة ، إرم بفتح الهمزة وكسر الراء ، وهي لغة في المدينة ،

والضحاك : بعاد مصروفاً ، وبعاد غير مصروف أيضاً ، أرم بفتح الهمزة وسكون الراء

تخفيف أرم بكسر الراء ؛ وعن ابن عباس والضحاك : أرم فعلاً ماضياً ، أي بلي ، يقال : رم العظم وأرم هو : أي بلي ، وأرمه غيره معدى بالهمزة من رم الثلاثي .

وذات على هذه القراءة مكسورة التاء ؛ وابن عباس أيضاً : فعلاً ماضياً ، ذات بنصب التاء على المفعول به ، وذات بالكسر صفة لإرم ؛ وسواء كانت اسم قبيلة أو مدينة ، وإن كان يترجح كونها مدينة بقوله : ﴿ لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ ، فإذا كانت قبيلة صح إضافة عاد إليها وفكها منها بدلاً أو عطف بيان ، وإن كانت مدينة فالإضافة إليها ظاهرة والفك فيها يكون على حذف مضاف ، أي بعاد أهل إرم ذات العماد .

وقرىء : ﴿ إرم ذات ﴾ ، بإضافة إرم إلى ذات ، والإرم : العلم ، يعني بعاد : أعلام ذات العماد .

ومن قرأ : أرم فعلاً ماضياً ، ذات بالنصب ، أي جعل الله ذات العماد رميماً ، ويكون ﴿ إرم ﴾ بدلاً من ﴿ فعل ربك ﴾ وتبييناً لفعل ، وإذا كانت ﴿ ذات العماد ﴾ صفة للقبيلة .

(181/815)

فقال ابن عباس : هي كناية عن طول أبدانهم ، ومنه قيل : رفيع العماد ، شبهت قدودهم بالأعمدة ، ومنه قولهم : رجل عمد وعمدان أي طويل .

وقال عكرمة ومقاتل : أعمدة بيوتهم التي كانوا يرحلون بها لأنهم كانوا أهل عمود .

وقال ابن زيد : أعمدة بنيانهم ، وإذا كانت صفة للمدينة ، فأعمدة الحجارة التي بنيت بها .

وقيل : القصور العالية والأبراج يقال لها عماد .

وحكي عن مجاهد : أرم مصدر ، أرم يأرم إذا هلك ، والمعنى : كهلاك ذات العماد ، وهذا قول غريب ، كأن معنى ﴿ كيف فعل ربك بعاد ﴾ : كيف أهلك عاداً كهلاك ذات العماد .

وذكر المفسرون أن ذات العماد مدينة ابتناها شداد بن عاد لما سمع بذكر الجنة على أوصاف بعيد ، أو مستحيل عادة أن يبنى في الأرض مثلها ، وأن الله تعالى بعث عليها وعلى أهله صيحة قبل أن يدخلها هلكوا جميعاً ، ويوقف على قصتهم في كتاب التحرير وشيء منها في الكشاف .

وقرأ الجمهور : ﴿ لم يخلق ﴾ مبنياً للمفعول ، ﴿ مثلها ﴾ رفع ؛ وابن الزبير : مبنياً للفاعل ، مثلها نصباً ، وعنه : نخلق بالنون والضمير في مثلها عائد على المدينة التي هي ذات العماد في البلاد ، أي في بلاد الدنيا ، أو عائد على القبيلة ، أي في عظم أجسام وقوة .

وقرأ ابن وثاب وثمود بالتنوين .

والجمهور : بمنع الصرف .

﴿ جابوا الصخر ﴾ : خرقوه ونحتوه ، فاتخذوا في الحجارة منها بيوتاً ، كما قال تعالى :

﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ قيل : أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود ، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة بالوادي ، وادي القرى .

وقيل : جابوا واديهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوه فعل ذي القوة والآمال .

﴿ ذي الأوتاد ﴾ : تقدم الكلام على ذلك في سورة ص .

﴿ الذين ﴾ صفة لعاد وثمود وفرعون ، أو منصوب على الذم ، أو مرفوع على إضمارهم .

(182/815)

﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ : أبهم هنا وأوضح في الحاقة وفي غيرها ، ويقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه ، واستعمل الصب لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب ، قال :

فصب عليهم محصرات كأنها . . .

شآبيب ليست من سحاب ولا قطر

يريد : المحدودين في قصة الإفك .

وقال بعض المتأخرين في صفة الحبل :

صببنا عليهم ظالمين شياطناً . . .

فطارت بها أيدي سراع وأرجل

وخص السوط فاستعير للعذاب ، لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره .

وقال الزمخشري : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

والمرصاد والمرصد : المكان الذي يترتب فيه الرصد ، مفعال من رصده ، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المرصاد في الآية اسم فاعل ، كأنه قال : لبالراصد ، فعبر ببناء المبالغة ، انتهى .

ولو كان كما زعم ، لم تدخل الباء لأنها ليست في مكان دخولها ، لا زائدة ولا غير زائدة .

﴿ فأما الإنسان ﴾ : ذكر تعالى ما كانت قريش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالى وإهانته لعبده ، فيرون المكرم من عنده الثروة والأولاد ، والمهان ضده .

ولما كان هذا غالباً عليهم وبخوا بذلك .

والإنسان اسم جنس ، ويوجد هذا في كثير من أهل الإسلام .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿ فأما الإنسان ﴾ ؟ قلت : بقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ ، كأنه قال : إن الله تعالى لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة ، وهو مرصد للعاصي ؛ فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها ، انتهى .

وفيه التصريح بمذهب الاعتزال في قوله : لا يريد من الإنسان إلا الطاعة .

(183/815)

وإذا العامل فيه فيقول : والنية فيه التأخير ، أي فيقول كذا وقت الابتداء ، وهذه الفاء لا تمنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وإن كانت فاء دخلت في خبر المبتدأ لأجل أما التي فيها معنى الشرط ، وبعد أما الثانية مضمر به وقع التوازن بين الجملتين تقديره : فأما إذا هو ما ابتلاه ، وفيقول خبر عن ذلك المبتدأ المضمر ، وابتلاه معناه : اختبره ، أيشكر أم يكفر إذا بسط له ؟ وأيصبر أم يجزع إذا ضيق عليه ؟ لقوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ وقابل ونعمه بقوله : ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ ، ولم يقابل ﴿ فأكرمه ﴾ بلفظ فأهانه ، لأنه

ليس من يضيق عليه الرزق ، كان ذلك إهانة له .

ألا ترى إلى ناس كثير من أهل الصلاح مضيقاً عليهم الرزق كحال الإمام أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني رضي الله تعالى عنه وغيره ، وذم الله تعالى العبد في حالتيه هاتين .

أما في قوله : ﴿ فيقول ربي أكرمن ﴾ ، فلأنه إخبار منه على أنه يستحق الكرامة ويستوجبها .

وأما قوله : ﴿ أهانن ﴾ ، فلأنه سمى ترك التفضيل من الله تعالى إهانة وليس بإهانة ، أو يكون إذا تفضل عليه أقر بإحسان الله إليه ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك تفضل الله إهانة ، لا إلى الاعتراف بقوله : ﴿ أكرمن ﴾ .

وقرأ ابن كثير : أكرمني وأهانني بالياء فيهما ؛ ونافع : بالياء وصلاً وحذفها وقفاً ، وخير في الوجهين أبو عمرو ، وحذفها باقي السبعة فيهما وصلاً ووقفاً ، ومن حذفها وقفاً سكن النون فيه .

وقرأ الجمهور : ﴿ فقدر ﴾ بخف الدال ؛ وأبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلاف عنه ؛ وابن عامر : بشدها .

قال الجمهور : هما بمعنى واحد بمعنى ضيق ، والتضعيف فيه للمبالغة لا للتعدي ، ولا يقتضي ذلك قول الإنسان ﴿ أهانن ﴾ ، لأن إعطاء ما يكفيه لا إهانة فيه .

﴿ كلا ﴾ : رد على قولهم ومعتقدهم ، أي ليس إكرام الله وتقدير الرزق سببه ما ذكرتم ، بل إكرامه العبد : تيسيره لتقواه ، وإهانته : تيسيره للمعصية ؛ ثم أخبرهم بما هم عليه من أعمالهم السيئة .

وقال الزمخشري : كلا ردع للإنسان عن قوله ، ثم قال : بل هنا شر من هذا القول ، وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدون فيها ما يلزمهم من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرة وحض أهله على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ويحبونه فيشحون به ، انتهى .

وفي الحديث : " أحب البيوت إلى الله تعالى بيت فيه يتيم مكرم " وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمر : يكرمون ولا يحضون ، ويأكلون ويحبون بياء الغيبة فيها ؛ وباقي السبعة ، بتاء الخطاب ، وأبو جعفر وشيبة والكوفيون وابن مقسم : تحاضون بفتح التاء والألف أصله تتحاضون ، وهي قراءة الأعمش ، أي يحض بعضكم بعضاً ؛ وعبد الله أو علقمة وزيد بن عليّ وعبد الله بن المبارك والشيرزي عن الكسائي : كذلك إلا أنهم ضموا التاء ، أي تحاضون أنفسكم ، أي بعضكم بعضاً ، وتفاعل وفاعل يأتي بمعنى فعل أيضاً .

﴿ على طعام ﴾ ، يجوز أن يكون بمعنى إطعام ، كالعطاء بمعنى الإعطاء ، والأولى أن يكون على حذف مضاف ، أي على بذل طعام .

﴿ وتأكلون التراث ﴾ ، كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد ، فيأكلون نصيبهم ويقولون : لا يأخذ الميراث إلا من يقاتل ويحمي الحوزة ، والتراث تاؤه بدل من واو ، كالتكلة والتخمة من توكلت ووخمت .

وقيل : كانوا يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهم عالمون بذلك يجمعون بين الحلال والحرام ويسرفون في إنفاق ما ورثوه لأنهم ما تعبوا في تحصيله ، كما شاهدنا الوراث البطالين .

﴿ كلا ﴾ : ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم .

ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه في دار الدنيا .

﴿ دكاً دكاً ﴾ : حال كقولهم : باباً باباً ، أي مكرراً عليهم الدّك .

(185/815)

﴿ وجاء ربك ﴾ ، قال القاضي منذر بن سعيد : معناه ظهوره للخلق هنالك ، وليس بمجيء نقلة ، وكذلك مجيء الطامّة والصاخة .

وقيل : وجاء قدرته وسلطانه .

وقال الزمخشري : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قدرته وسلطانه ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر

بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه ، انتهى .

والملك اسم جنس يشمل الملائكة .

وروي أنه ملائكة كل سماء تكون صفاً حول الأرض في يوم القيامة .

قال الزمخشري : ﴿ صفاً صفاً ﴾ تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس ، انتهى .

﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ ﴿ يومئذ ﴾ بدل من ﴿ إذا ﴾ .

قال الزمخشري : وعامل النصب فيهما يتذكر ، انتهى .

ظاهر كلامه أن العامل في البدل هو العامل نفسه في المبدل منه ، وهو قول قد نسب إلى سيبويه ، والمشهور خلافه ، وهو أن البدل على نية تكرار العامل ، أي يتذكر ما فرط فيه .

﴿ وأنى له الذكرى ﴾ : أي منفعة الذكرى ، لأنه وقت لا ينفع فيه التذكر ، لو اتعظ في الدنيا لنفعه ذلك في الأخرى ، قاله الجمهور .

قال الزمخشري وغيره : أو وقت حياتي في الدنيا ، كما تقول : جئت لطلوع الشمس ولتاريخ كذا وكذا .

وقال قوم : لحياتي في قبري ، يعني الذي كنت أكذب به .

قال الزمخشري : وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم

، وأنهم لم يكونوا محجورين عن الطاعات مجبرين على المعاصي ، كمذهب أهل الأهواء والبدع ، وإلا فما معنى التحسر ؟ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا يعذب . . .

ولا يوثق ﴾ : مبنيين للفاعل ، والضمير في ﴿ عذابه ﴾ ، و ﴿ وثاقه ﴾ عائد على الله تعالى ، أي لا يكل عذابه ولا وثاقه إلى أحد ، لأن الأمر لله وحده في ذلك ؛ أو هو من الشدّة في حيز لم يعذب قط أحد في الدنيا مثله ، والأول أوضح لقوله : ﴿ لا يعذب . . .

(186/815)

ولا يوثق ﴾ ، ولا يطلق على الماضي إلا بمجاز بعيد ، بل موضوع ، لا إذا دخلت على المضارع أن يكون مستقبلاً .

ويجوز أن يكون الضمير قبلها عائداً على الكافر ، أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه .

وقيل إلى الله ، أي لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله للكافر ، ويضعف هذا عمل لا يعذب في يومئذ ، وهو ظرف مستقبل .

وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وسوّار القاضي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية

وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو : بفتح الذال والثاء مبنيين للمفعول ، فيجوز أن يكون الضمير فيهما مضافاً للمفعول وهو الأظهر ، أي لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، أو لا يحمل أحد عذاب الإنسان لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وعذاب وضع موضع تعذيب .

وفي اقتباس مثل هذا خلاف ، وهو أن يعمل ما وضع لغير المصدر ، كالعطاء والثواب والعذاب والكلام .

فالبصريون لا يجيزونه ويقيسونه .

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنهم : وثاقه بكسر الواو ؛ والجمهور : بفتحها ، والمعذب هو الكافر على العموم .

وقيل : هو أمية بن خلف .

وقيل : أبيّ بن خلف .

وقيل : المراد به إبليس ؛ وقام الدليل على أنه أشد من الناس عذاباً ، ويدفع القول هذا قوله : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ ، والضمائر كلها مسوقة له .

ولما ذكر تعالى شيئاً من أحوال من يعذب ، ذكر شيئاً من أحوال المؤمن فقال : ﴿ يا أيتها النفس ﴾ ، وهذا النداء الظاهر إنه على لسان ملك .

وقرأ الجمهور : بتاء التأنيث .

وقرأ زيد بن علي : يا أيها بغير تاء ، ولا أعلم أحداً ذكر أنها تذكر ، وإن كان المنادى مؤنثاً ، إلا صاحب البديع .

وهذه القراءة شاهدة بذلك ، ولذلك وجه من القياس ، وذلك أنه لم يثن ولم يجمع في نداء المثنى والمجموع ؛ فكذلك لم يؤنث في نداء المؤنث .

﴿ المطمئنة ﴾ : الآمنة التي لا يلحقها خوف ولا حزن ، أو التي كانت مطمئنة إلى الحق لم يخالطها شك .

(187/815)

قال ابن زيد : يقال لها ذلك عند الموت وخروجها من جسد المؤمن في الدنيا .

وقيل : عند البعث .

وقيل : عند دخول الجنة .

﴿ إلى ربك ﴾ : أي إلى موعد ربك .

وقيل : الرب هنا الإنسان دون النفس ، أي ادخل في الأجساد ، والنفس اسم جنس .

وقيل : هذا النداء هو الآن للمؤمنين .

لما ذكر حال الكفار قال : يا مؤمنون دوموا وجدوا حتى ترجعوا راضين مرضيين ، ﴿

راضية ﴾ بما أوتيته ، ﴿ مرضية ﴾ عند الله .

﴿ فادخلي في عبادي ﴾ : أي في جملة عبادي الصالحين .

﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم .

وقيل : النفس والروح ، والمعنى : فادخلي في أجساد عبادي .

وقرأ الجمهور : ﴿ في عبادي ﴾ جمعاً ؛ وابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح والكلبي وأبو شيخ الهنائي واليماني : في عبدي على الإفراد ، والأظهر أنه أريد به اسم الجنس ، فمدلوله ومدلول الجمع واحد .

وقيل : هو على حذف خاطب النفس مفردة فقال : فادخلي في عبدي : أي في جسد عبدي .

وتعدى فادخلي أولاً بفي ، وثانياً بغير فاء ، وذلك أنه إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي تعددت إليه بفي ، دخلت في الأمر ودخلت في غمار الناس ، ومنه : ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ .

وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً ، تعدت إليه في الغالب بغير وساطة في .

قيل : في عثمان بن عفان .

وقيل : في حمزة .

وقيل : في خبيب بن عدي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(188/815)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) ﴾

التفسير : إقسام الله تعالى بهذه الأمور ينبىء عن شرفها وأن فيها فوائد دينية ودنيوية . أما الفجر فعن بعضهم أنه الغيران التي تتفجر منها المياه ، والأظهر ما روي عن ابن عباس أنه الصبح الصادق ويوافقه قوله في المدّثر ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ [الآية : 34] وفي " كورت " ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ [الآية : 18] وذلك أن فيه عبرة للمتأمل لما يحصل من انفجار الضوء فيما بين الظلام ، وانتشار الحيوان من أوكارها لطلب المعاش كما في نشور الموتى من قبورهم . وقيل : المضاف محذوف أي ورب الفجر أو أقسم بصلاة الفجر . وخصه بعضهم بفجر النحر لأنه يوم الضحايا والقرابين ، وبعضهم بفجر المحرّم لأنه أوّل يوم السنة ، وبعضهم بفجر ذي الحجة لقوله ﴿ وليال عشر ﴾ والتنكير لأنها ليال معدودة من ليالي السنة أو لأنها مخصوصة بفضائل كما جاء في الخبر

" ما من أيام العمل الصالح فيهن أفضل من عشر ذي الحجة " قال أهل المعاني : ولو عرّفت بناء على أنها ليال معلومة جاز إلا أن التعظيم المستفاد من التنكير يفوت التناسب بين اللامات إذ ذاك فعدم اللام خير من وجوده مخالفاً للباقية . وقيل : إنها عشر المحرم . وقيل : العشر الأخيرة من رمضان ولهذا سن فيها الاعتكاف وفيها ليلة القدر ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأخير شدّ المئزر وأيقظ أهله أي كف عن الجماع وأمر أهله بالتهجد . وأما الشفع والوتر فمعناهما الزوج والفرد . والوتر بالفتح لغة أهل العالية ، وبالكسر لغة تميم . واختلف المفسرون فيهما اختلافاً عظيماً فمنهم من حملهما على الأشياء كلها لأن الموجودات لا تخلو من هذين القسمين فتكون كقوله ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ [الحاقة : 38 ، 39] وقيل : الشفع صفات الخلق كالعلم والقدرة والحياة ، ونقائضها الجهل والعجز والموت . والوتر صفات الحق وجود بلا عدم وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وحياة بلا موت . وقيل الشفع والوتر : نفس العدد وكأنه تعالى أقسم بالحساب الذي لا بد للخلق منه فهو في معرض الامتنان بمنزلة العلم والبيان في قوله ﴿ علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : 4 ، 5] الرابع الشفع الممكنات ﴿

ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ [الذاريات : 49] والوتر الواجب تعالى وتقدّس .

الخامس الشفع الصلوات الثنائية والرباعية والوتر الثلاثية ، عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن الصلاة منها شفع ومنها وتر " السادس الشفع درجات الجنة وأبوابها وهي ثمانية ، والوتر دركات النار وأبوابها وهي سبعة . السابع الشفع البروج الاثنا عشر ، والوتر الكواكب السبعة . الثامن الشفع الشهر الذي يكون ثلاثين والوتر تسعة وعشرون . التاسع الشفع السجدتان والوتر الركوع . العاشر الشفع العيون الاثنا عشر لموسى ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ [البقرة : 60] والوتر معجزاته ﴿ ولقد

آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ [الإسراء : 101] وأظهر الأقوال ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة لأنه تاسع أيام الليالي المذكورة . وحين أقسم بالليالي المخصوصة أقسم على العموم بالليل إذا يسري أي إذا يمضي كقوله ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ [المدثر : 33] وعن مقاتل : هو ليلة المزدلفة . وعلى هذا جوّز أن يراد بالسري الإسناد المجازي لأن الساري فيه هو الحاج . يروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقدّم ضعفة أهله في هذه الليلة . والحجر بالكسر العقل سمي بذلك لأنه يمنع من الوقوع فيما

لا ينبغي كما سمي عقلاً ، ونهي لأنه يعقل وينهى ، وحصاة لأنه يحصى أي يضبط . قال الفراء : يقال إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها . والمراد بالاستفهام تقرير أن هذه المذكورات لشرفها وعظم شأنها يحق أن يؤكد بمثلها المقسم عليه كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة يريد أنه لا حجة فوق هذا ومن هنا قال بعضهم : فيه دليل على أنه تعالى أراد رب هذه الأشياء ليكون غاية في القسم .

(191/815)

ولقائل أن يقول : المقنع والكفاية غير الغاية والنهاية . ثم إنه تعالى ذكر للعبرة ولتسلية نبيه صلى الله عليه وسلم قصة ثلاث فرق على سبيل الإجمال لأنهم أعلام في القوة والشدّة والتجبر . والمعنى ألم ينته علمك إليهم علماً يقرب المشاهدة لتعاضده بالوحي أو التواتر ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل راءٍ . والمراد بعاد هو عاد الأولى القديمة ولهذا ابنه لزم لأنهم أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح فسموا باسم جدهم . وقيل : إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها . ولم ينصرف قبيلة أو أرضاً للعلمية والتأنيث . وقيل : الإرم العلم لأنهم كانوا يبنون أعلاماً كهيئة المنارة كقوله ﴿ أتبنون بكل ريع آية ﴾ [الشعراء : 128] وعلى هذين الوجهين يكون المضاف محذوفاً أي أهل البلدة أو الأعلام ، وعلى

الوجه الأخير لا يكون لمنع الصرف وجه ظاهر لكونه اسم جنس . والعماد بمعنى العمود لأنه ما يعمد أو جمع عمد . ثم إن كانت صفة للقبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين أهل عمد أو كانوا طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة ، أو كانت ذات البناء الرفيع . وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى أنها ذات أساطين . ثم قيل : هذه المدينة اسكندرية . وقيل : دمشق . واعترض بأن بلاد عاد كانت فيما بين عمان إلى حضرموت وهي بلاد الرمال المسماة بالأحقاف . وروي أنه كان لعاد ابنان : شدّاد وشديد ، فملكا وقهرا البلاد وأخذا عنوة وملكاً ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشدّاد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة ، وهي مدنية عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار . ولم تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . ويروى أنه وضع إحدى قدميه فيها فأمر ملك الموت بقبض روحه . ويروى أن النبي صلى

الله عليه وسلم رأى ملك الموت حين عرج به إلى السماء فسأله : هل رققت لأحد من الخلائق الذين قبضت أرواحهم ؟ فقال : نعم اثنان أحدهما طلف ولد بالمفازة ثم أمرت بقبض روح أمه ولم يكن هناك إنسان يتعهد الطفل ، والثاني ملك اجتهد في بناء مدينة لم يخلق مثلها ثم لم يرزق رؤيتها بعد أن وضع رجله فيها يعني شداداً ، فدعا الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يخبره بذلك فأوحى إليه أن ذلك الملك هو ذلك الطفل الذي ربيناه وآتيناه مملكة الدنيا .

(193/815)

وحين قابل النعمة والملك بالكفران وبنى الجنان التي هي من مقدورات الله الرحمن جزيناه بالخيبة والحرمان . هكذا وجدت الحكاية في بعض التفاسير . وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع على تلك المدينة فحمل ما قدر عليه مما هناك ، فبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه ، فبعث إلى كعب الأحبار فسأله فقال : هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل .

والضمير في ﴿ مثلها ﴾ لإرم لأنهم أطول الناس قدوداً وأشدّهم بناء ، أو للمدينة أو

للأعلام على اختلاف الأقوال . وجاب الصخرة أي الحجر العظيم قطعه كقوله ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ [الشعراء : 149] والوادي وادي القرى قاله مقاتل . وقد قيل : لفرعون ذي الأوتاد لكثرة جنوده أو لتعذيبه للناس بالأوتاد الأربعة وقد مرّ في " ص " . وصب السوط كناية عن التعذيب المتواتر ، وفيه إشارة إلى أن عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة كالسوط بالنسبة إلى القتل مثلاً وقد أشار إلى عذاب الآخرة أو إليه مع عذاب الدنيا بقوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أي يمهل ولكنه لا يهمل . والمرصاد المكان الذي يرقب فيه الرصد ، والباء بمعنى " في " وهو مثل لعدم الإهمال . وقيل لبعض العرب : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبيد أنه قرأ السورة عند المنصور حتى بلغ الآية فقال ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يا أبا جعفر عرض له في هذا بأنه من الجبابرة الذين وعدوا بها . وقال الفراء : معناه إليه المصير فيكون وعداً ووعيداً للمؤمن والكافر . قال أهل النظم : لما ذكر أنه تعالى بمرصد من أعمال بني آدم عقبه بتوبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الآخرة وفرط تماديه في إصلاح المعاش كأنه قيل : نحن مترقبون لمجازاة الإنسان على ما سعى ، فأما هو فإنه لا يهمه إلا الدنيا وطيباتها فإن وجد راحة فرح بها وإن مسه ضرّ

كند . والظاهر أن الإنسان للجنس . وعن ابن عباس أنه عتبة بن ربيعة . وعن الكلبي هو أمية بن خلف . ومعنى الابتلاء في البسط والضيق وهو أنه سبحانه يعامل المكلف معاملة المختبر ليظهر أنه هل يتلقى النعمة بالشكر والضيق بالصبر أم لا كقوله ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [الأنبياء : 35] وتقدير الكلام فأما الإنسان فيقول ربي أكرمن إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ﴿ وأما ﴾ هو فيقول ربي أهانن ﴿ إذا ما ابتلاه فقدر ﴾ أي ضيق ﴿ عليه رزقه ﴾ فقوله ﴿ فيقول ﴾ خبر المبتدأ في الموضعين ﴿ وإذا ما ابتلاه ﴾ ظرف ل ﴿ يقول ﴾ وإنما قال في جانب البسط ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ أي جعله ذا نعمة وثروة ولم يقل في طرف القبض " فأهانه وقدر عليه " لأن رحمته سبقت غضبه فلم يرد أن يصرح بإهانة عبده ، ولئلا يكون الكلام نصاً في أن القبض دليل الإهانة من الله ، فقد يكون سبباً لصلاح معاش العبد ومعاده .

(195/815)

وأما البسط فهو إكرام في الظاهر الغلب ، والبسط لأجل الاستدراج قليل وعلى قلته فهو خير من خسران الدنيا والآخرة جميعاً . وعلام توجه الإنكار والذّم ؟ فيه وجهان :

أحدهما على قوله ﴿ ربي أهانن ﴾ فقط لأنه سمي ترك التفضل إهانة وقد لا يكون كذلك . والثاني على مجموع الأمرين لا من حيث مجموعهما بل على كل منهما . أما على دعوى الإهانة فكما قلنا ، وأما على دعوى الإكرام فلأنه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الإكرام كقوله ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص : 78] وكان عليه أن يرى ذلك محض الفضل والعناية منه تعالى ، أو لأنه قال في ذلك كبراً وافتخاراً وتكاثراً ، أو لأن هذا القول يشبه قول من لا يرى السعادة إلا في اللذات العاجلة ، أو قول من غفل عن الاستدراج والمكر . ويحتمل أن يتوجه الذم على مجموع الأمرين من حيث المجموع حتى لو قال في البسط " أكرمني " تحدثاً بنعمة الله ، وفي القبض لم يقل " أهانني " بل قال " الحمد لله على كل حال " لم يكن مذموماً . ثم ردع الإنسان عن تلك المقالة بقوله ﴿ كلا ﴾ أي لم أبتله بالغنى لكرامته عليّ ولا بالفقر لهوانه لديّ ولكنهما من محض المشيئة ، أو على حسب المصالح . ثم نبه الإضراب في قوله ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ على أن هناك شراً من ذلك وهو أنه يكرمهم بكثرة المال ثم لا يؤدّون حق الله فيه . وعن مقاتل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف وكان يدفعه عن حقه فنزلت . والتراث أصله الوراث نحو تجاه ووجاه . واللم الجمع لشديد ومنه كتيبة ملمومة مصدر جعل نعتاً أي أكلاً جامعاً بجميع أجزائه كقوله ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً ﴾ [النساء : 6] وقال الحسن : أي يجمعون نصيب اليتامى إلى نصيبهم كقوله ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : 2] وقيل :

جامعاً بين حلال ما جمعه الميت وبين حرامه . وقيل : جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة اللذيذة والملابس الفاخرة كما يفعل أهل البطالة من الورّاث .

(196/815)

والجم الكثير جم الماء وغيره يجم جموماً إذا كثر جامّ ، وجمّ نهي عن التهالك . والشره على جمع المال . وفي وصف الحب بالجم دلالة على أن حب المال وتعلق القلب بتحصيل ما يسدّ الخلة منه غير مكروه بل مندوب إليه لبقاء نظام العالم على أن كل السلامة وجل الفراغ في الترك كما هو دأب المتوكلين .

إن السلامة من ليلى وجارتها . . . أن لا تمر على حال بواديها

ولا ينبئك مثل خبير . ثم ردعهم عن الفعل المذكور وذكر تحسر المقصر في طاعة الله يوم القيامة .

(197/815)

وجواب " إذا " محذوف بعد ﴿ صفاً ﴾ أبو بعد قوله ﴿ بجهنم ﴾ ليذهب الوهم كل مذهب أي كان ما كان من الأهوال . ثم استؤنف ﴿ وجيء يومئذ ﴾ أو عطف على ما قبله ويوقف على هذا التقدير على قوله ﴿ بجهنم ﴾ ويكون ﴿ يومئذ ﴾ الثانية متعلقاً بما بعده ، ويجوز أن يكون " إذا " منصوباً ب ﴿ يتذكر ﴾ و ﴿ يومئذ ﴾ الثانية بدل منه . ومعنى ﴿ دكاً دكاً ﴾ دكاً بعد دك كما قيل في " لبيك " أي كرر عليها الدك حتى صارت هباء منبثاً . وقال المبرد : استوت في الانفراش فذهب دورها وقصورها وجبالها وقلاعها حتى تصير قاعاً صفصفاً ، ولعل هذا الذي بعد الزلزلة . قوله ﴿ وجاء ربك ﴾ أي أمره بالجزاء والحساب أو قهره أو دلائل قدرته . ويجوز أن يكون تمثيلاً لهول ذلك اليوم كما إذا حضر الملك بنفسه وجنوده كان أهيب وتنزل ملائكة كل سماء ﴿ صفاصفاً ﴾ أي مصطفين صفوفاً مرتبة . يروى أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اشتد على أصحابه فجاء علي رضي الله عنه فاحتضنه وقبل عاتقة ثم قال : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ما الذي حدث اليوم حتى غيرك ؟ فتلا عليه الآية . فقال له عليّ : كيف يجاء بجهنم ؟ قال : يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شرارة لو تركت لأحرقت أهل الجمع . قال الأصوليون : معنى جيء بجهنم برزت وأظهرت فإن جهنم لا تنتقل من مكان إلى مكان . قوله ﴿ وأنى له ﴾ أي ومن أين له منفعة ﴿ الذكرى ﴾ ثم فسر التذكر وإنما قدرنا المضاف احترازاً من التنافي وإلا فلا وجه للاستفهام

الإنكاري بعد إثبات التذكر بأنه يقول ﴿ يا ليتني قدمت ﴾ خيراً أو عملاً صالحاً ﴿ لحياتي ﴾ هذه وهي الحياة الأخيرة ، أو اللام بمعنى الوقت أي وقت حياتي في الدنيا . وقد يرجع هذا الوجه لأن أهل النار لا حياة لهم في الحقيقة كما قال ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ [الأعلى : 13] ويمكن أن يجاب بأن الحياة المضاهية للموت أو التي هي أشدّ من الموت حياة أيضاً ، وبأن حياة الآخرة يراد

(198/815)

بها البقاء المستمر الدائم وهذا المعنى شامل لأهل النار ولأهل الجنة جميعاً . قالت المعتزلة : في هذا التمني دليل واضح على أن الاختيار كان زمامه بيده ، ويحتمل أن يجاب بأن استحالة متمناه قد تكون من جهة أن الأمر في الدنيا لم يكن إليه فيتحسر على ذلك . وقال في التفسير الكبير : فيه دليل على أن قبول التوبة لا يجب عقلاً . ويرد عليه أنه لا يلزم من عدم قبولها في الآخرة عدم قبولها في دار التكليف كإيمان اليأس . من قرأ ﴿ لا يعذب ﴾ ﴿ ولا يوثق ﴾ على البناء للفاعل فمعناه على ما قال مقاتل : لا يعذب عذاب الله أي عذابه أحد من الخلق . ضعف بأن يوم القيامة لا يعذب أحد سوى الله فلا يتصور لهذا النفي فائدة .

وأجيب بأن المراد لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد لأن الأمر يومئذ لله وحده ، أو لا يعذب أحد في الدنيا ولا يوثق مثل عذاب الله الكافر ومثل إيثاقه إياه في الشدّة والإيلام . وقال أبو علي الفارسي : تقديره لا يعذب أحد من الزبانية أحداً مثل عذاب هذا الإنسان وهو أمية بن خلف ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وفساده . ومن قرأ بناء الفعل للمفعول فيهما فظاهر . والضمير في ﴿ عذابه ﴾ و ﴿ وثاقه ﴾ للإنسان . ويمكن أن يراد لا يحمل عذاب الإنسان أحد كقوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : 164] قال الواحدي : وهذا أولى الأقوال . ثم ذكر بشارة الأبرار وهو أن يقول للمؤمن بذاته أو على لسان ملك ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ أي بذكر الله أو بتحصيل الأخلاق الفاضلة والعقائد الصحيحة التي تسكن النفس السليمة إليها ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ إلى حيث لا مالك سواه أو إلى ثوابه ﴿ راضية ﴾ بما حكم عليك وقدر لك ﴿ مرضية ﴾ عند الله نظيره ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ [البينة : 8] وهذه صفة أرباب النفوس الكاملة وإن كانوا بعد في دار التكليف ولهذا رتب على هذه الصفة قوله ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في جملة الصالحين ﴿ وادخلي جنتي ﴾ وهي

في الدنيا مقام الرضا والتسليم . وإذا كانت النفس متحلية بالكمالات الحقيقية والمعارف اليقينية في حياته العاجلة كانت أهلاً لهذه البشارة عند الموت وعند البعث وفي كل المواطن إلى دخول الجنة . وقيل : إنما يقال له هذا عند البعث والمعنى فادخلي في أجساد عبادي يؤيده قراءة ابن مسعود " في جسد عبدي " قالوا : أنزلت في حمزة بن عبد المطلب أو في خبيب بن عدي الذي صلبه أهله مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال : اللهم إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك ، فحوّل الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يغيرها . والظاهر العموم ولو سلم فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 494. 500 ﴾

(200/815)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الفجر

مكية وقيل : مدنية وهي تسع وعشرون آية وقيل : ثلاثون آية ومائة وتسع وثلاثون كلمة وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك المعبود ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ خلقه بالكرم والجود ﴿ الرحيم ﴾

الذي سدّد أهل عنايته بفضله فهو الحليم الودود .

وقوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾ ، أي : فجر كل يوم قسم كما أقسم بالصبح في قوله تعالى :

﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ (المدثر :)

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ (التكوير :)

وقال قتادة : هو فجر أوّل يوم من المحرّم تتفجر منه السنة . وقال الضحاك : فجر ذي الحجة ، وقيل : ذلك على مضاف محذوف ، أي : وصلاة الفجر . وقيل : ورب الفجر وتقدّم أنّ الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته ، واختلف في قوله تعالى:

﴿ وليال عشر ﴾ فقال مجاهد وقتادة : هو عشر ذي الحجة . وقال الضحاك : هو العشر الأوّل من رمضان . وعن ابن عباس : أنه العشر الأخير من رمضان . وعن يمان بن رباب هو العشر الأوّل من المحرّم التي عاشرها يوم عاشوراء ، ولصومه فضل عظيم . فإن قيل : لم ذكر الليالي من بين ما أقسم به ؟

أجيب : بأنّ ذلك للتعظيم .

﴿ والشفع ﴾ ، أي : الزوج ﴿ والوتر ﴾ ، أي : الفرد ، وقيل : الشفع الخلق كلهم قال الله تعالى : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ (النبأ :)

والوتر هو الله تعالى . قاله أبو سعيد الخدري . وقال مجاهد ومسروق : الشفع الخلق كله ، قال الله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ (الذاريات :)

الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاوة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والبر والبحر ، والشمس والقمر ، والجنّ والإنس ، والوتر هو الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (الإخلاص :)

(201/815)

. وقال قتادة : هما الصلوات منها شفع ومنها وتر . روى ذلك عن عمران بن حصين مرفوعاً وعن ابن عباس الشفع صلاة الغداة والوتر صلاة المغرب . وقال الحسين بن الفضل : الشفع درجات الجنة لأنها ثمان ، والوتر دركات النار لأنها سبع دركات . سئل أبو بكر الوراق عن الشفع والوتر فقال : الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل ، والقدرة والعجز ، والقوّة والضعف ، والعلم والجهل ، والبصر والعمى . والوتر انفراد صفات الله سبحانه وتعالى عز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوّة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت . وعن عكرمة الوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر ، واختاره النحاس وقال هو الذي صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيوم عرفة وتر لأنه تاسعها ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . وقال ابن الزبير : الشفع الحادي عشر والثاني عشر من أيام منى ، والوتر الثالث عشر . وقال الضحاك : الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة . وقيل : الشفع

والوتر آدم عليه السلام كان وتراً فشفع بزوجته حوّاء ، حكاه القشيريّ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . وقرأ حمزة والكسائيّ بكسر الواو والباقون بفتحها وهما لغتان الفتح لغة قريش ومن والاها والكسر لغة تميم .

وقوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قسم خامس بعدما أقسم بالليالي العشر على الخصوص أقسم به على العموم ، ومعنى يسر سار وذهب كما قال الله تعالى : ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ (المدثر :)

. وقال قتادة : إذا جاء وأقبل وقيل : معنى يسر ، أي : يسري فيه كما يقال : ليل نائم ونهار صائم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ (سبأ :)

(202/815)

وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء بعد الراء وصلاً لا وقفاً ، وأثبتها ابن كثير في الحالين ، وحذفها الباقون في الحالين لسقوطها في خط المصحف الكريم وإثباتها هو الأصل لأنها لام فعل مضارع مرفوع ، ومن فرق بين حالتي الوقف والوصل فلأنّ الوقف محل استراحة وسئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء فقال : الليل لا يسري ولكن يسري فيه فهو مصروف فلما صرفه تجنبه حظه من الإعراب كقوله تعالى : ﴿ وما كانت أمك بغياً ﴾ (مريم :)

ولم يقل بغية ، لأنه صرفه عن باغية وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم والجواب محذوف تقديره : لتعذبن يا كفار مكة بدليل قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فصبّ عليهم ربك سوط عذاب إنّ ربك لبالمرصاد ﴾ وما بينهما اعتراض . وقوله تعالى : ﴿ هل في ذلك ﴾ ، أي : القسم والمقسم به ﴿ قسم ﴾ ، أي : حلف أو محلوف ﴿ لذي حجر ﴾ استفهام معناه التقرير ، كقولك : ألم أنعم عليك إذا كنت قد أنعمت أو المراد منه التأكيد لما أقسم عليه كمن ذكر حجة بالغة ، ثم قال : هل فيما ذكرته حجة والمعنى : إنّ من كان ذا لب علم أنّ ما أقسم الله تعالى به هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه والحجر العقل لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي كما يسمى عقلاً ونهية لأنه يعقل وينهى وحصاه من الإحصاء وهو الضبط . وقال الفراء : يقال إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها .

(203/815)

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولكن المراد به العموم والمراد بالرؤية العلم ، أي : ألم تعلم يا أشرف رسلنا ﴿ كيف فعل ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك

بأنواع النعم ﴿ بعاد ﴾ ﴿ إرم ﴾ وهو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، ثم إنهم جعلوا لفظ عاد اسماً للقبيلة كما يقال لبني هاشم : هاشم ، ولبني تميم : تميم ، ثم قيل : للأوّلين منهم عاد الأولى ، وإرم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الأخيرة . فإرم في قوله تعالى : ﴿ عاد إرم ﴾ عطف بيان لعاد وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة وقيل : إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها . وقوله تعالى : ﴿ ذات ﴾ ، أي : صاحبة ﴿ العماد ﴾ فينظر فيه إن كانت صفة للقبيلة فالمعنى : أنهم كانوا بدويين أهل عمد وطوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة . وقيل : ذات البناء الرفيع وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى : أنها ذات أساطين وروي أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال : هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها جل من المسلمين في زمانك أحمر

أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل .

(204/815)

وقوله تعالى : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ صفة أخرى لإرم فإن كانت للقبيلة فلم تخلق مثل عاد في البلاد عظم أجرام وقوّة . قال الزمخشري : كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها فيقلبها على الحي فيهلكهم . وروي عن مالك أنه كانت تمرّ بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة . وإن كانت للبلدة فلم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا ، والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فإنّ الله تعالى بين أنه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل مع الذي اختصوا به من هذه الوجوه ، فلأن تكونوا مثل ذلك أيها الكفار إذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم أولى وقد ذكركم الله تعالى ثلاث قصص هذه القصة الأولى .

وأما الثانية : فهي في قوله تعالى : ﴿ وثمودا الذين جابوا ﴾ ، أي : قطعوا ﴿ الصخر ﴾ جمع صخرة وهي الحجر واتخذوها بيوتاً كقوله تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ (الشعراء :)

. ﴿ بالواد ﴾ ، أي : وادي القرى ، قيل : أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود ، وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . وقيل : سبعة آلاف مدينة كلها من الحجارة .

تنبيه : أثبت الياء ورش وابن كثير وصلاً ، وأثبتها وقفاً ابن كثير بخلاف عن قنبل .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى اوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

وأما القصة الثالثة : فهي في قوله تعالى : ﴿ وفرعون ﴾ ، أي : وفعل بفرعون ﴿ ذي الأوتاد ﴾ واختلف في تسميته بذلك على وجهين:

أحدهما : أنه سمي بذلك عل كثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا .

(205/815)

والثاني : أنه كان يتد أربعة أوتاد يشدّ إليها يدي ورجلي من يعذبه وعن عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إنّ فرعون إنما سمي ذا الأوتاد لأنه كانت امرأة وهي امرأة خازنه حزقيل ، وكان مؤمناً كتم إيمانه مائة سنة وكانت امرأته ماشطة بنت فرعون فبينما هي ذات يوم تمشط رأس بنت فرعون إذا سقط المشط من يدها فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت بنت فرعون : وهل لك إله غير أبي ؟ فقال : إلهي وإله أبيك وإله السموات

والأرض واحد لا شريك له فقامت فدخلت على أبيها وهي تبكي ، قال : ما يبكيك ؟ فقالت : الماشطة امرأة خازنك تزعم أنّ إلهك وإلهها وإله السموات والأرض واحد لا شريك له ، فأرسل إليها فسألها عن ذلك ، فقالت : صدقت . فقال لها : ويحك اكفري بإلهك وأقرّي بأني إلهك ، قالت : لا أفعل فمدّها بين أربعة أوتاد ثم أرسل عليها الحيات والعقارب ، وقال لها : اكفري بالله وإلا عذبتك بهذا العذاب شهرين فقالت له : لو عذبتني سبعين شهراً ما كفرت بالله ، وكان لها ابنتان فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على فيها ، وقال لها : اكفري بالله وإلا ذبحت الصغرى على فيك وكانت رضيعة فقالت : لو ذبحت من في الأرض على فيّ ما كفرت بالله عز وجل ، فأتى بابنتها فلما اضجعت على صدرها وأراد ذبحها جزعت المرأة فانطق الله تعالى لسان ابنتها فتكلمت ، وهي من الأربعة الذين تكلموا أطفالاً وقالت : يا أمّاه لا تجزعي فإن الله تعالى قد بنى لك بيتاً في الجنة فاصبري فإنك تفضين إلى رحمة الله تعالى وكرامته ، فذبحت فلم تلبث أن ماتت فاسكنها الله تعالى الجنة قال : وبعث في طلب زوجها حزقيل : فلم يقدروا عليه ، فقيل : لفرعون : إنه قد زوى في موضع كذا في جبل كذا فبعث رجلين في طلبه فانتهيا إليه وهو يصلي ويليه صفوف من الوحوش خلفه يصلون خلفه ، فلما رأيا ذلك انصرفا فقال حزقيل : اللهم أنت تعلم أني كتمت إيماني مائة سنة ولم يظهر عليّ أحد فأيما هذين الرجلين أظهر عليّ فعجل في عقوبته في الدنيا

واجعل مصيره في الآخرة

إلى النار ، فانصرف الرجلان إلى فرعون فأما أحدهما فاعتبر وآمن ، وأما الآخر فأخبر فرعون بالقصة على رؤوس الملأ فقال له فرعون : وهل معك غيرك ؟ قال : نعم فلان فدعى به ، فقال : حق ما يقول هذا ؟ قال : لا ما رأيت كما قال شيئاً فأعطاه فرعون فأجزل وأما الآخر فقتله ثم صلبه . قال : وكان فرعون قد تزوّج امرأة من أجمل نساء بني إسرائيل يقال لها آسية بنت مزاحم فرأت ما صنع فرعون بالماشطة فقالت : وكيف يسعني أن أصبر على ما يأتي من فرعون وأنا مسلمة وهو كافر ، فبينما هي كذلك تؤامر نفسها إذ دخل عليها فرعون فجلس قريباً منها ، فقالت : يا فرعون أنت أشر الخلق وأخبثه عمدت على الماشطة فقتلتها ، فقال : لعل بك الجنون الذي كان بها ؟ قالت : ما بي من جنون ، وإن إلهي وإلهها وإلهك وإله السموات والأرض واحد لا شريك له فمزق ما عليها وضربها وأرسل على أبويها فدعاهما فقال لهما : ألا تريان أنّ الجنون الذي كان بالماشطة أصابها . قالت : أعوذ بالله من ذلك إني أشهد أن ربي وربك ورب السموات والأرض واحد لا شريك له ، فقال أبوها : يا آسية ألست من خير نساء العماليق وزوجك إله العماليق ،

قالت : أعوذ بالله من ذلك إن كان ما يقول حقاً فقولا له أن يتوّجني تاجاً تكون الشمس أمامه والقمر خلفه والكواكب حوله ، فقال لهما فرعون : أخرجاها عني فمدّها بين أربعة أوتاد يعذبها ففتح الله لها باباً إلى الجنة ليهون عليها ما يصنع بها فرعون فعند ذلك قالت : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ﴾ (التحريم :)

فقبض الله تعالى روحها وأدخلها الجنة . وروي عن أبي هريرة أنّ فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحاً واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء ، وقالت : ﴿ رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ ففرج الله تعالى عن بيتها في الجنة فرأته .

(207/815)

وقوله تعالى : ﴿ الذين طغوا ﴾ ، أي : تجبروا ﴿ في البلاد ﴾ في محل نصب على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على هم الذين طغوا في البلاد ، أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون فالضمير يرجع لعاد وثمود وفرعون وقيل : يرجع إلى فرعون خاصة . ﴿ فأكثروا ﴾ ، أي : طغاتهم ﴿ فيها الفساد ﴾ ، أي : بالقتل والكفر والمعاصي قال القفال : وبالجملة فالفساد ضد الصلاح يتناول جميع أقسام البر ، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم فمن عمل بغير أمر الله تعالى وحكم في عباده بالظلم فهو مفسد .

﴿ فصب ﴾ ، أي : أنزل إنزالاً هو في غاية القوة ﴿ عليهم ﴾ ، أي : في الدنيا ﴿ ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك بكل جميل ﴿ سوط ﴾ ، أي : نوع ﴿ عذاب ﴾ وقال قتادة : يعني ألواناً من العذاب صبه عليهم ، وقال أهل المعاني هذا على الاستعارة لأن السوط عندهم غاية العذاب . وقال الفراء : هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب ، وأصل ذلك أنّ السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى إلى كلّ عذاب إذا كان فيه غاية العذاب . وقال الزجاج : جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب .

وعن الحسن أنه كان إذا أتى على هذه الآية قال : إنّ الله تعالى عنده أسواط كثيرة فأخذهم بسوط منها . وقال قتادة : كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط ، وشبه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه .

(208/815)

﴿ إنّ ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك بالرسالة ﴿ لبالمرصاد ﴾ ، أي : يرصد أعمال العباد لا يفوته منها شيء ليجازيهم عليها والمرصاد المكان الذي يترقب فيه الرصد ، مفعال من رصده كالميقات من وقته ، وهذا مثل لإرصاد العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه . وعن بعض العرب أنه قيل : له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبيد أنه قرأ هذه

السورة عند المنصور حتى بلغ هذه فقال : ﴿ إنّ ربك لبالمرصاد ﴾ يا أبا جعفر عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من توعده بذلك من الجبابرة . قال الزمخشري : فلله دره ، أي : أسد فراس كان بين ثوبيه يدق الظلمة بإنكاره ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه .

وقوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ إنّ ربك لبالمرصاد ﴾ فكأنه قيل : إنّ الله تعالى يريد من الإنسان الطاعة والسعي للعاقبة ، وهو لا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها ﴿ إذا ما ابتلاه ﴾ ، أي : اختبره بالنعمة ﴿ ربه ﴾ ، أي : الذي أبدعه وأحسن إليه بما يحفظ وجوده ليظهر شكره أو كفره ﴿ فأكرمه ﴾ ، أي : جعله عزيزاً بين الناس وأعطاه ما يكرمونه به من الجاه والمال ﴿ ونعمه ﴾ ، أي : جعله متلذذاً مترفهاً بما وسع الله تعالى عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فيقول ﴾ ، أي : سروراً بذلك افتخاراً ﴿ ربي أكرمن ﴾ ، أي : فضلني بما أعطاني خبر المبتدأ الذي هو الإنسان ، ودخول الفاء لما في أمّا من معنى الشرط ، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير ، كأنه قيل : فأما الإنسان فقائل ربي أكرمن وقت الابتداء بالأنعام فيظن أنّ ذلك عن استحقاق فيرتفع به .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر ﴾ ، أي : ضيق ﴿ عليه رزقه ﴾ التقدير وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ، أي : بالفقر ليوازي قسيمه ﴿ فيقول ﴾ ، أي : الإنسان

بسبب الضيق ﴿ ربي أهانن ﴾ فيهتم لذلك ويضيق به ذرعاً ويكون أكبر همه ، وهذا في حق الكافر لقصور نظره وسوء فكره فيرى الكرامة والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته . Y

(209/815)

وقال الكلبي ومقاتل : نزلت في أمية بن خلف الجمحي الكافر . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : في عتبة بن ربيعة . وقيل : أبي بن خلف . فإن قيل : كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقتيره ابتلاء ؟

أجيب : بأن كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع فالحكمة فيهما واحدة ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ (الأنبياء :)

. فإن قيل : هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه كما قال فأكرمه ونعمه ؟

أجيب : بأن البسط إكرام من الله تعالى لعبده بإنعامه عليه متفضلاً من غير سابقة ، وأما التقتير فليس بإهانة له لأنّ الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ولكن تركاً للكرامة ، وقد يكون المولى مكرماً ومهيناً وغير مكرم ولا مهين . وإذا أهدى لك زيد هدية قلت : أكرمني بالهدية ، ولا تقول أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد إليك . فإن قيل : قد قال تعالى فأكرمه فصحح إكرامه

وأثبته ثم أنكر قوله : ﴿ ربي أكرمن ﴾ وذمّه عليه كما أنكر قوله : ﴿ أهانن ﴾ وذمه عليه ؟

أجيب : بوجهين:

أحدهما : إنما أنكر قوله : ﴿ ربي أكرمن ﴾ وذمه عليه لأنه قاله على قصد خلاف ما صححه الله تعالى عليه وأثبته ، وهو قصده على أن الله تعالى أعطاه ما أعطاه إكراماً مستحقاً ومستوجباً على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم كقوله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ (القصص:)

وإنما أعطاه الله تعالى على وجه التفضل من غير استحباب منه له ، ولا سابقة مما لا يعتد الله تعالى إلا به ، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها .

(210/815)

ثانيهما : أن ينساق الإنكار والذم إلى قوله : ﴿ ربي أهانن ﴾ يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه ، وإذا لم يتفضل عليه يسمى ترك التفضل هواناً وليس بهوان . قال الزمخشري : ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله تعالى : ﴿ فأكرمه ﴾ وقرأ

﴿ ما ابتلاه ﴾ في الموضعين حمزة بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ، وقرأ ﴿ ربي أكرمن ﴾ ﴿ ربي أهانن ﴾ نافع بإثبات الياء فيهما وصلاً لا وقفاً ، وقرأ البزي بإثباتها فيهما وقفاً ووصلاً ، وعن أبي عمرو فيهما في الوصل الإثبات والحذف عنه في الوصل أعدل ، والباقون بالحذف وقفاً ووصلاً . وقرأ ابن عامر ﴿ فقدّر عليه رزقه ﴾ بتشديد الدال والباقون بتخفيفها ، وهما لغتان معناهما ضيق . وقيل : قدر بمعنى قتر وقدر أعطاه ما يكفيه .

ثم ردّ الله تعالى على من ظن أنّ سعة الرزق إكرام وأنّ الفقر إهانة بقوله تعالى:

﴿ كلا ﴾ ، أي : ليس الإكرام بالغنى والإهانة بالفقر إنما هما بالإطاعة والمعصية ، وكفار مكة لا ينتبهون لذلك ﴿ بل ﴾ لهم فعل أشر من هذا القول وهو أنهم ﴿ لا يكرمون اليتيم ﴾ ، أي : لا يحسنون إليه مع غناهم ، أو لا يعطونه حقه من الميراث . قال مقاتل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر أمية بن خلف فكان يدفعه فنزلت:

﴿ ولا يحضون ﴾ ، أي : يحثون حثاً عظيماً ﴿ على طعام ﴾ ، أي : إطعام ﴿ المسكين ﴾ فيكون اسم مصدر بمعنى الإطعام ، ويجوز أن يكون على حذف مضاف ، أي : على بذل أو على إعطاء ، وفي إضافته إليه إشارة إلى أنه شريك للغنيّ في ماله بقدر الزكاة .

﴿ ويأكلون ﴾ على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ التراث ﴾ ، أي : الميراث والتاء في

التراث بدل من واو لأنه من الوراثة .

﴿ أكلاً لماً ﴾ ، أي : ذا لم واللمّ الجمع الشديد . يقال : لممت الشيء لماً ، أي : جمعته جمعاً . قال الحطيئة:

*إذا كان لما يتبع الذم ربه ** فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا *

(211/815)

والجمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا يورثون النساء والصبيان ويأكلون انصباءهم ويأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك ، فيلمون في الأكل بين حلاله وحرامه ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال مهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل البطالون .

ولما دل على حب الدنيا بأمر خارجي دل عليه في الإنسان فقال تعالى:

﴿ ويحبون ﴾ ، أي : على سبيل الاستمرار ﴿ المال ﴾ ، أي : هذا النوع من ، أي : شيء كان وأكد بالمصدر والوصف فقال تعالى ﴿ حباً جماً ﴾ ، أي : كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق . وقوله تعالى:

﴿ كلا ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم . ثم أخبر تعالى عن تلهفهم على ما سلف منهم حين لا ينفعهم فقال عز من قائل : ﴿ إذا دكت الأرض ﴾ ، أي : حصل دكها ورجها وزلزلتها لتسويتها فتكون كالأديم الممدود بشدّة المط لا عوج فيها بوجه ﴿ دكاً دكاً ﴾ ، أي : مرّة بعد مرّة ، وكسر كل شيء على ظهرها من جبل وبناء وشجر فلم يبق على ظهرها شيء وينعدم .

﴿ وجاء ربك ﴾ قال الحسن : أمره وقضاؤه ﴿ والملك ﴾ ، أي : الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ صفاً صفاً ﴾ حال ، أي : مصطفين ، أي : ذوي صفوف كثيرة فتنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس .

﴿ وجيء ﴾ ، أي : بأسهل أمر ﴿ يومئذ ﴾ ، أي : إذ وقع ما ذكر ﴿ بجهنم ﴾ ، أي : النار التي تتجهم من يصلاها كقوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم ﴾ (النازعات :)

(212/815)

ويروى "أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه فأخبروا علياً فجاء فاحتضنه من خلفه وقبل ما بين عاتقيه ، ثم قال : يا نبيّ الله بأبي أنت وأمي ما الذي حدث اليوم وما الذي غيرك فتلا عليه الآية . فقال له علي

: كيف يجاء بها ؟ قال : يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ، ثم تعرض لي جهنم فتقول : ما لك ولي يا محمد إنّ الله تعالى قد حرم لحمك علي فلا يبقى أحد إلا قال : نفسي نفسي إلا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : رب أمّتي أمّتي" . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام بيد ألف ملك لها تغيظ وزفير حتى تنصب على يسار العرش .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ ﴾ ، أي : يوم يجاء بجهنم بدل من إذ وجوابها ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ ، أي : يتذكر الكافر ما فرط أو يتعظ لأنه يعلم قبح معاصيه فيندم عليها ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ ، أي : ومن أين له منفعة الذكرى . قال الزمخشري : لا بد من حذف مضاف وإلا فبين ﴿ يتذكر ﴾ وبين ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ تناف وتناقض .

تنبيه : أنى خبر مقدّم والذكرى مبتدأ مؤخر وله متعلق بما تعلق به الظرف . وقرأ ﴿ وأنى ﴾ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالإمالة بين بين والباقون بالفتح . وقرأ ﴿ الذكرى ﴾ أبو عمرو وحمزة والكسائيّ بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بين بين ، والباقون بالفتح .

﴿ يقول ﴾ ، أي : يقول مع تذكره ﴿ يا ﴾ للتنبيه ﴿ ليتني قدّمت لحياتي ﴾ ، أي : في حياتي فاللام بمعنى في ، أو قدّمت الإيمان والخير لحياة لا موت فيها ، أو وقت حياتي في الدنيا .

﴿ فيومئذ ﴾ ، أي : يوم يقول الإنسان ذلك وقرأ ﴿ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ الكسائي بفتح الذال والثاء على البناء للمفعول ، والباقون بكسرهما على البناء للفاعل فأمّا قراءة الكسائي فضمير عذابه ووثاقه للكافر ، والمعنى : لا يعذب أحد مثل تعذيبه ولا يوثق مثل إيثاقه ، وأما على قراءة الباقين فالضمير فيهما لله تعالى إلى غيره ، أو الزبانية المتولين العذاب بأمر الله تعالى .

ولما وصف الله تعالى حال من اطمأن إلى الدنيا وصف حال من اطمأن إلى معرفته وعبوديته وسلم أمره إليه فقال تعالى:

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال الحسن ، أي : المؤمنة الموقنة . وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله تعالى . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بثواب الله تعالى . وقال ابن كيسان : المخلصة . وقال ابن زيد : التي بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع ، ويقال لها : عند الموت .

﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ ، أي : إلى أمره وإرادته وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : على صاحبك وجسدك . وقال الحسن : إلى ثواب ربك . ﴿ راضية ﴾ ، أي : بما أوتيته

﴿ مرضية ﴾ ، أي : عند الله تعالى بعملك ، أي : جامعة بين الوصفين لأنه لا يلزم من أحدهما الآخر ، وهما حالان . قال القفال : هذا وإن كان أمراً في الظاهرة فهو خبر في المعنى ، والتقدير : أنّ النفس إذا كانت مطمئنة رجعت إلى الله تعالى في القيامة بسبب هذا الأمر .

﴿ فادخلي في ﴾ ، أي : في جملة ﴿ عبادي ﴾ ، أي : الصالحين والوافدين عليّ الذين هم أهل الإضافة إليّ ، أو في أجساد عبادي التي خرجت في الدنيا منها .

(214/815)

﴿ وادخلي جنتي ﴾ ، أي : معهم ، هي جنة عدن وهي أعلى الجنان ويجيء الأمر بمعنى الخبر كثيراً في كلامهم كقولهم إذا لم تستح فاصنع ما شئت . وقال سعيد بن زيد : "قرأ رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم هذه الاية فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يا رسول الله فقال له : إنّ الملك سيقوله لك يا أبا بكر" . وقال سعيد بن جبير : مات ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بالطائف فجاء طائر لم ير على خلقه طائر قط فدخل نعشه لم ير خارجاً منه فلما دفن تليت هذه الاية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿ يا أيتها النفس ﴾ الآية .

وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان حين وقف بئر رومة وقيل : في خبيب بن عدي الذي

صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللهمّ إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك ، فحوّل الله تعالى وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوّله . وقيل : نزلت في حمزة بن عبد المطلب . قال الزمخشري : والظاهر العموم . وقول البيضاوي تبعاً له أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 330.340 ﴾

(215/815)

وقال القاسمى :

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾

أي : الصبح كقوله تعالى : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير : 18] أقسم تعالى بآياته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، لطلب الأرزاق ؛ وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ هي – على قول ابن عباس ومجاهد – عشر ذي الحجة ؛ لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفي البخاري عن ابن عباس مرفوعاً : < ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام > يعني عشر ذي الحجة .

وحكى ابن جرير : أنه قيل : عني بها عشر المحرم . والرازي قولاً أنها العشر الأواخر من رمضان ، لما فيه من ليلى القدر ، ولما صح أنه صلوات الله عليه < كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان شدّ مئزره وأحيى ليله وأيقظ أهله > . وثمة وجه آخر في العشر . وهو أنها الليالي التي يُحلولك فيها الليل ويشتد ظلامه ويغشى الأفق سواده ، وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة ﴿ عَشْرٍ ﴾ بمثابة قوله في السور الآتية ﴿ إِذَا يَغْشَى ﴾ [الليل : 1] ﴿ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : 2] مما يبّين وجه العبرة ويجلّيها أتم الجلاء ، ولا بعد في هذا المعنى ، بل فيه توافق لبقية الآيات . وبالجملة فأوضح المخصصات ما عضدهُ دليل أو أيدته قرينة أو حاكى نظائره . والله أعلم .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ يعني الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيه كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : 49] ، قال مجاهد : كل خلق الله شفع : السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، والكفر والإيمان ، والسعادة والشقاوة ، والهدى والضلالة ، والليل والنهار .

﴿ وَالْوَتْرِ ﴾ هو الله تعالى لأنه من أسمائه وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقه . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعاني ؛ لأنها لا تخلو من شفع ووتر .

قال القاضي : ومن فسرهما بالبروج والسيارات أو شفع الصلوات ووترها أو بيومي النحر وعرفة ، فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ما رآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلاً في الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر ، ولم يخصص نوعاً من الشفع ولا من الوتر ، دون نوع ، بخبر ولا عقل ، وكل شفع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل في قسمه هذا ، لعموم قسمه بذلك .

وقد قرئ : ﴿ الوتر ﴾ بفتح الواو وكسرها ، وهما لغتان .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي : إذا يمضي ، كقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] ، والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة ؛ ففي الليل الراحة التي هي من أعظم النعم ، وفي النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف

ولتتوافق رؤوس الآي . ومن القراء من حذفها ، أصلاً ووقفاً . ومنهم من خصه بأحدهما ، كما فصل في كتب الأداء .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر ، وإنما عُني بذلك : أن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه في الإقسام .

(217/815)

وقال الرازي : المراد من الاستفهام التأكيد ، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذا لبّ علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه ، أي : على طريقة قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 76] ، وإنما أوثرت هذه الطريقة هضماً للخلق ، وإيذاناً بظهور الأمر . والحجر العقل ؛ لأنه يحجر صاحبه ، أي : يمنعه من ارتكاب ما لا ينبغي ، والمقسم عليه محذوف وهو : ليعذبن كما ينبئ عنه قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ أي : ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ،

فيعذب هؤلاء أيضاً ، لاشتراكهم فيما يوجبهُ من جحود الحق والمعاصي . وعاد : قبيلة من العرب البائدة ، وتلقب بإرم أيضاً ، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام ، فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ﴾ عطف بيان لعاد ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أي : ذات الخيام المعمّدة ، لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان ، ثم يرجعون إلى منازلهم في الأحقاف في حضرموت . وقيل : كنيَ بالعماد عن العلوّ والشرف والقوة ، إلا أنه الأشبه – كما قال ابن جرير – بظاهر التنزيل هو الأول ، وهو أنهم كانوا عمد سيارة ؛ لأن المعروف في كلام العرب من العماد ، ما عُمد به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجهُ إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وجد إلى ذلك سبيل ، دون الأنكر .

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي : في العِظم والبطش والأيدي .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً ؛ ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم . فقال :

﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : 69] . وقال تعالى :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15] .

تنبيه :

قال الإمام الدرّاكة ابن خلدون في " مقدمة تاريخه" في سياق الأخبار الواهية للمؤرخين ما مثاله : وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى :

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فيجعلون لفظه ﴿ إِرَمَ ﴾ اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد ، أي : أساطين ، وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان ، هما شديد وشداد ، ملكا من بعده ، وهلك شديد فخلص الملك لشداد ، ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنيّن مثلها ، فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، ولما تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبريّ والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبد الله بن قلابة – من

الصحابة – أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه ، وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه ، فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذاك الرجل .

(219/815)

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض ، وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زآل عمرانه متعاقباً والأدلاء تقص طرقهُ من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم ، ولو قالوا : إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبهُ ، إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة ، وبعضهم يقول : إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبهُ بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظه : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أنها صفة ﴿ إِرَمَ ﴾ وحملوا العماد على الأساطين ؛ فتعين أن

يكون بناء ، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير : عاد إرم على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات ، وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم ، بما اشتهر من قوتهم ، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما في قراءة ابن الزبير ، على إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال : ومن زعم أن المراد بقوله :

(220/815)

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ مدينة إما دمشق أو اسكندرية ، ففيه نظر ؛ فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا إن جعل ﴿ إِرَمَ ﴾ بدلاً أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يردّ ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

قال : وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ مبنية بلبن الذهب والفضة إلخ ؛ فإن هذا كله من خرافات الإسرائيلين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس إن صدقهم في جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وليس كذلك ، وهذا مما يقطع بعدم صحته ، وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين ، ومن وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويطنزون بهم ، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . انتهى .

﴿ وَثَمُودَ ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام ﴿ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ أي : قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما في قوله : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ﴾ [الحجر : 82] ، والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ ﴿ جَابُوا ﴾ أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرئ بالياء وبإسقاطها ، كما في ﴿ يَسْرِ ﴾ والوادي هو وادي القرى كانت منازلهم فيه ، كما قاله ابن إسحاق .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ أي : الجنود الذين يشدون له أمره . أو هي أوتاد يشد بها من يعذبه . أو القوى والعَدد والعُدد التي تم لهُ بها ملكهُ ، ورسخ بطشه وسلطانه ، ومنه قولهم لمن تمكن في أرضٍ ما : ضرب بها أوتاداً .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون ، أي : تجاوزوا ما وجب عليهم إلى ما حظر من الكفر بالحق والعتو والتمرّد والبغي في بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان .

﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أي : الضرر والإيذاء وهضم الحقوق .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي : أنزل بهم عذابه ، وأحلّ بهم نقمته ، بما طغوا في البلاد وأفسدوا فيها . وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً في غير ما سورة وآية . و السوط إما مصدر : ساطه ، أي : خلطه كما في قول كعب :

~لكنها خُلَّةٌ قد سِيطَ من دَمِها فَجْعٌ ووَلْعٌ وإِخْلافٌ وتَبْديلُ

أريد به المفعول هنا أي : أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبما ذكر سميت الآلة المعروفة ، وهو الجلد المضفور الذي يضرب به ، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض

. وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة ، استعيرت لعذاب أدون من غيره ، وهو ما اختارهُ الزمخشري حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وقيل : هو من قبيل : لجين الماء ، أي : عذاباً كالسوط في شدته ، وهو ما يقتضيه كلام الطبري ، حيث زعم أن السوط مَثل لشدة العذاب .

قال الشهاب : وأما استعارة الصبّ للعذاب فشائعة ، كالإذاقة . يقال : صبّ عليه السوط ، وقنّعهُ به وغشّاهُ . وهو تمثيل وتصوير لحلوله أو تتابعه عليه وتكرره .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ أي : لهؤلاء الذين قصّ نبأ هلاكهم ، ولضرباتهم من الكفرة بالحق والعاثين بالفساد .

(222/815)

والمرصاد اسم مكان للذي يترقب فيه الرصد - جمع راصد - أو صيغة مبالغة . كمطعام ومطعان . فالياء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية ، شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد ، مترقباً لها ومجازياً على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منه أحد بحال من قعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ، ليأخذ فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على

الآخر .

ثم أشار إلى غفلة الْإِنْسَانْ في حالي غناه وفقره ، ونعى عليه شأنه فيهما ، بما يقرر ما تقدم من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ أي : بالغنى واليسار ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ أي : فضّلني ، لما لي عندهُ من الكرامة . ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ أي ضيقه عليه وقتره ، فلم يكثر مالهُ ولم يوسع عليه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ أي : أذلني بالفقر ؛ وذلك لسوء فكره وقصور نظره في الحالين ، فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه ، وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بخلق الصبر على الكفاف . ففي كل ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب ، ونظير الآية ، آية :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] وآية : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 55 - 56] وآية : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : 19 - 22] .

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ [17 - 20]

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن قولية في حاليه ، أعني اعتقاد الإكرام في الإعطاء ، والإهانة في المنع ، بل لطلب الشكر ، وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال :

﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ وهو من فقد كافله ومربيه ، فإن من آكد الواجبات القيام على تأديبه وكفالته ، صوناً إذا أهمل من فساد طبيعته وعيثه بالضرر في أهل جبلته . ومثلهُ التحاضّ على مواساة البؤساء ، وهؤلاء المنعي عليهم ضلالهم في غفلة عنه ، كما قال :

﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي : لا يحض بعضكم بعضاً عليه ولا يتواصى به .

قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام فيقول : لم تطعموا المسكين ؛ ليصرح لك بالبيان الجلي أن أفراد الأمة متكافلون ، وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشاني : في دلالة قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ ﴾ أي : الْإِنْسَانُ يجب أن يكون في مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان ،

لحديث : < الإيمان نصفان نصف : صبر ، ونصف شكر > لأن الله تعالى إما يبتليه بالنعم والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغي من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مراضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : أن الله أكرمني لاستحقاقي وكرامتي عنده ، ويترفهُ في الأكل ويحتجب بمحبة المال ويمنع المستحقين ، أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول : إن الله أهانني ، فربما كان ذلك إكراماً له بأن لا يشغلهُ بالنعمة عن المنعم ، ويجعل ذلك وسيلة له في التوجه إلى الحق والسلوك في طريقه لعدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدراجاً منه . انتهى .

(224/815)

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً ﴾ قال ابن جرير : أي : تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم : لممت ما على الخوان أجمعُ فأنا ألمهُ لماً ، إذا : أكلت ما عليه فأتيت على جميعه .

قال ابن زيد : كانوا لا يورثّون النساء ولا يورّثون الصغار ، وقرأ : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ ﴾ [النساء : 127] ، أي : لا

تورثوهن أيضاً . وقال بكر بن عبد الله : اللمُّ : الاعتداء في الميراث ، يأكل ميراثه وغيره .

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ أي : جمعه وكنزه ، حباً كثيراً شديداً .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعلهم ، وما بعده وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا ينفعهم الندم ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ أي : دكاً بعد دك حتى عادت هباءً منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثاني تأكيداً ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب ، كقرأت النحو باباً باباً ، وجاء القوم رجلاً رجلاً . و الدك قريب من الدق ، لفظاً ومعنى .

﴿ وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ قال ابن كثير : أي : وجاء الرب ، تبارك وتعالى ، لفصل القضاء ، كما يشاء والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . . وسبقه ابن جرير على ذلك وعضدهُ بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة والضحاك < في نزوله تعالى من السماء يومئذ في ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها > . ومذهبُ الخلف في ذلك معروف ، من جعل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل ، أي : جاء أمرهُ وقضاءهُ . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه .

قال الزمخشري : مثلت حاله في ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم .

انتهى .

وكأنّ الخلاف بين المذهبين لفظي ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ما للخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق ، بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذي يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لا تشبه الذوات ، فكذلك صفاتُ لا تشبه الصفات ؛ لأنها لا تكيف ولا تعلم بوجه ما ، فهي حقيقة النسبة إليه سبحانه على ما يليق به ، كالعلم والقدرة ، لا تمثيل ولا تعطيل .

قال الإمام ابن تيمية رضي الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول : إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل ؛ فإن قولهُ ظاهرها غير مراد ، يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين ، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلّي ، أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه ، و : إن الله معنا ، ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال : إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب في المعنى ، لكن أخطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث ؛ فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا

الموضع ، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً في هذا الإطلاق ، فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في " الرسالة المدنية " وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يحتذي حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

(226/815)

وقال رحمه الله في بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذي قام دليله ، وبالتأويل الجاري على نهج السبيل ، ولم يوجد في شيء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل ، والله عند لسان كل قائل ، ولكن ننكر من ذلك ما خالف الحق والصواب ، وما فتح به الباب ، إلى هدم السنة والكتاب واللحاق بمحرّفة أهل الكتاب ، والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه ، أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص في هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كأبي بكر بن أبي داود ، وأبي الحسن الخرزيّ ، وأبي الفضل التميميّ ، وابن حامد ، فيما أظن ، وغيرهم ، إلى

إنكار أن يكون في القرآن مجاز ؛ وإنما دعاهم إلى ذلك ما رأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز ؛ فقابلوا الضلال والفساد ، بجسم الموادّ . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ أي : أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيرهُ إليها . فمجيئها متجوز به عن إظهارها ، كما صرح به آية ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ [النازعات : 39] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ ﴾ تفريطه في الدنيا في طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي : منفعتها ، فالمراد بتذكره ندامته على تفريطه في الصالحات من الأعمال التي تورثه نعيم الأبد ، كما فسره بقوله تعالى : ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ أي : أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتي هذه ، فاللام للتعليل ، أو : قدمت وقت حياتي ، فاللام بمعنى وقت ، والحياة هي التي في الدنيا .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أي : لا يعذب كعذاب الله ، أحد في الدنيا .

﴿ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أي : لا يوثق كوثاقه يومئذ أحد في الدنيا . وقرئ ﴿ يعذّب ﴾ و ﴿ يوثق ﴾ على بناء المجهول .

قال السمين : وعذاب ووثاق في الآية ، واقعان موقع تعذيب وإيثاق ، والمعنى : لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر ، ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال ؛ فالوثاق في الآية بمعنى الإيثاق ، كالعطاء بمعنى الإعطاء .

ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، في مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾

أي : الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن ، وهي التي كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشية من الاضطراب .

﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ أي : وعده وثوابه .

﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ أي : راضية بما أوتيت ، مرضيةً عند ربها .

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أي : في زمرتهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ أي : معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة

.

ومن غرائب المأثور هنا تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها ، أي : ارجعي إلى جسد صاحبك إيذاناً بأن الأرواح المطمئنة تردّ يوم القيامة في الأجساد ، وأن لها مقراً قبل تعلقها بالبدن في عالم الملكوت . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ،

يظهر بعدُ هذا التأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 390 .

401 ﴾

(228/815)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الفجر

سُورَةُ الفَجْرِ

مكية . . وآياتها ثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ 1 وَلَيَالٍ عَشْرٍ 2 وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ 3)

هذا القسم في مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلائق . ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيقة : " والفجر " . . ساعة تنفس الحياة في يسر ، وفرح ، وابتسام ، وإيناس ودود ندي ، والوجود الغافي يستيقظ رويدا رويدا ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهال ! " وليال عشر " أطلقها النص القرآني ووردت فيها روايات شتى . . قيل هي العشر من ذي الحجة ، وقيل هي العشر من المحرم . وقيل هي العشر من رمضان . . وإطلاقها

هكذا أوقع وأندى . فهي ليال عشر يعلمها الله . ولها عنده شأن . تلقي في السياق ظل الليلات ذات الشخصية الخاصة . وكأنها خلائق حية معينة ذوات أرواح ، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآني الرفاف !

" والشفع والوتر " . . يطلقان روح الصلاة والعبادة في ذلك الجو المأنوس الحبيب . جو الفجر والليالي العشر . . " ومن الصلاة الشفع والوتر " [كما جاء في حديث أخرجه الترمذي] وهذا المعنى هو أنسب المعاني في هذا الجو . حيث تلتقي روح العبادة الخاشعة ، بروح الوجود الساجية ! وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالي المختارة ، وروح الفجر الوضيئة .

" والليل إذا يسر " . . والليل هنا مخلوق حي ، يسري في الكون ، وكأنه ساهر يجول في الظلام ! أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ! يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالي العشر . والشفع والوتر !

إنها ليست ألفاظا وعبارات . إنما هي أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر ! أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟ والهمس اللطيف للروح ؟ واللمس الموحي للضمير ؟

إنه الجمال . . الجمال الحبيب الهامس اللطيف . الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة . لأنه الجمال الإبداعي ، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقة .

ومن ثم يعقب عليه في النهاية : – " هل في ذلك قسم لذي حجر ؟ " وهو سؤال للتقرير . إن في ذلك قسما لذي لب وعقل . إن في ذلك مقنعا لمن له إدراك وفكر . ولكن صيغة الاستفهام – مع إفادتها التقرير – أرق حاشية . فهي تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق !

***

الكفار أما المقسم عليه بذلك القسم ، فقد طواه السياق ، ليفسره ما بعده ، فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم في تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال :

" ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ؟ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟ وفرعون ذي الأوتاد ؟ . . الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك لبالمرصاد " . .

وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات . والخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – ابتداء . ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام ، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه ؛ ومما تشهد به الآثار

والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة ، وإضافة الفعل إلى " ربك " فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة . وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد .

(230/815)

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم . . مصرع : " عاد إرم " وهي عاد الأولى . وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية . وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كثبان الرمال . في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن . وكانوا بدوا ذوي خيام تقوم على عماد . وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها : " التي لم يخلق مثلها في البلاد " في ذلك الأوان . . " وثمود الذين جابوا الصخر بالواد " . . وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام . وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا ؛ كما نحتت في الجبال ملاجئ ومغارات . .

" وفرعون ذي الأوتاد " . . وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان . وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار .

هؤلاء هم " الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد " . . وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر الباني ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال . .

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون . . " أنا ربكم الأعلى " عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أي فساد .

(231/815)

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية . والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أي فساد . .

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان .

فلابد من تزييف للقيم ، وتزوير في الموازين ، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة . . وهو فساد أي فساد .

فلما أكثروا في الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

" فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد " . .

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان . ومن قوله تعالى : " إن ربك لبالمرصاد " تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصد لا يفوته شيء . مراقب لا يند عنه شيء . فليطمئن بال المؤمن ، ولينم ملء جفونه . فإن ربه هناك ! . . بالمرصاد . . للطغيان والشر والفساد

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة ، غير النموذج التي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن – ولا يزال – يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفق الحالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على

الحالين . وتتوقع الأمرين ، وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء .

***

(232/815)

" إن ربك لبالمرصاد " . . يرى ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء . . فأما الإنسان فتخطئ موازينه وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ، ما لم يتصل بميزان الله :

" فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن " . .

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال ، ومن بسط وقبض ، ومن توسعة وتقدير . . يبتليه بالنعمة والإكرام . بالمال أو المقام . فلا يدرك أنه الابتلاء ، تمهيدا للجزاء . إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلا على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره . فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ! ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة ! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق ، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله ، فلو لم يرد مهانته ما ضيق

عليه رزقه . .

وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور ومخطئ في التقدير . فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده . ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر . ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر . والجزاء على ما يظهر منه بعد . وليس ما أعطي من عرض الدنيا أو منع هو الجزاء . . وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا . ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض . فهو يعطي الصالح والطالح ، ويمنع الصالح والطالح . ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول . إنه يعطي ليبتلي ويمنع ليبتلي . والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء !

(233/815)

غير أن الإنسان – حين يخلو قلبه من الإيمان – لا يدرك حكمة المنع والعطاء . ولا حقيقة القيم في ميزان الله . . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك . وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة ، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء ، فعمل له في البسط والقبض سواء . واطمأن إلى قدر الله به في الحالين ؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء !

***

وقد كان القرآن يخاطب في مكة أناسا – يوجد أمثالهم في كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع – أناسا ذلك ظنهم بربهم في البسط والقبض . وذلك تقديرهم لقيم الناس في الأرض . ذلك أن المال والجاه عندهم كل شيء . وليس وراءهما مقياس ! ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيما ، وحبهم له حبا طاغيا ، مما يورثهم شراهة وطمعا . كما يورثهم حرصا وشحا . . ومن ثم يكشف لهم عن ذوات صدورهم في هذا المجال ، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم في إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض في الأرزاق .

"كلا . بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما " . .

كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان . ليس بسط الرزق دليلا على الكرامة عند الله . وليس تضييق الرزق دليلا على المهانة والإهمال . إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال . فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذي فقد حاميه وكافله حين فقد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينكم على إطعام المسكين . الساكن الذي لا يتعرض للسؤال وهو محتاج ! وقد اعتبر عدم التحاض والتواصي على إطعام المسكين قبيحا

مستنكرا . كما يوحي بضرورة التكافل في الجماعة في التوجيه إلى الواجب وإلى الخير العام . وهذه سمة الإسلام .

(234/815)

. . إنكم لا تدركون معنى الابتلاء . فلا تحاولون النجاح فيه ، بإكرام اليتيم والتواصي على إطعام المسكين ، بل أنتم – على العكس – تأكلون الميراث أكلا شرها جشعا ؛ وتحبون المال حبا كثيرا طاغيا ، لا يستبقي في نفوسكم أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام .

وقد كان الإسلام يواجه في مكة – كما ذكرنا من قبل – حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق ، تورث القلوب كزازة وقساوة . وكان ضعف اليتامى مغريا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم في صور شتى ؛ وبخاصة ما يتعلق في الميراث [كما سبق بيانه في مواضع متعددة في الظلال] كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة في المجتمع المكي قبل الإسلام . وهي سمة الجاهليات في كل زمان ومكان ! حتى الآن !

وفي هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع ، وردع عنه ، يتمثل في تكرار كلمة "كلا" كما يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه ، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب

وعنفه :

" وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما ! " . .

* * *

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء ، يجيء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، في إيقاع قوي شديد :

" كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ؟ يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد " . .

(235/815)

ودك الأرض ، وتحطيم معالمها وتسويتها ؛ وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة . فأما مجيء ربك والملائكة صفا صفا ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الآرض . ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول . كذلك المجيء بجهنم . نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى . فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله

المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم ، الشديدة الأسر ، مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار . والأرض تدك دكا دكا ! والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفا صفا . ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى !

" يومئذ يتذكر الإنسان " . . الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء . والذي أكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جما . والذي لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين . والذي طغى وأفسد وتولى . . يومئذ يتذكر . يتذكر الحق ويتعظ بما يرى . . ولكن لقد فات الأوان " وأنى له الذكرى ؟ " . . ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدا ! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا !

وحين تتجلى له هذه الحقيقة : " يقول : يا ليتني قدمت لحياتي " . . يا ليتني قدمت شيئا لحياتي هنا . فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة . وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها . يا ليتني . . أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة !

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة : " فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد " . . إنه الله القهار الجبار . الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد . والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنايا القرآن كله ، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم . أو من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم . وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد في الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال . فها هو ذا ربك – أيها النبي وأيها المؤمن – يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم . ولكن شتان بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق . . وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر . فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون . فسيعذبون هم ويوثقون ، عذابا ووثاقا وراء التصورات والظنون !

***

وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذي يتجاوز كل تصور تنادى " النفس " المؤمنة من الملأ الأعلى :

" يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي .

وادخلي جنتي " . .

هكذا في عطف وقرب : " يا أيتها " وفي روحانية وتكريم : " يا أيتها النفس " . . وفي ثناء وتطمين . . " يا أيتها النفس المطمئنة " . . وفي وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : " ارجعي إلى ربك " ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة . . " راضية مرضية " بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف والرضى . . " فادخلي في عبادي " . . المقربين المختارين لينالوا هذه القربى . . " وادخلي جنتي " . . في كنفي ورحمتي . .

(237/815)

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة . منذ النداء الأول : " يا أيتها النفس المطمئنة " . . المطمئنة إلى ربها . المطمئنة إلى طريقها . المطمئنة إلى قدر الله بها . المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء . المطمئنة فلا ترتاب والمطمئنة فلا تنحرف . والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق . والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب . . ثم تمضي الآيات تباعا تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة ، والموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود والقربى والسكينة .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلال هذه الآيات . وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3902 . 3907 ﴾

(238/815)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الْفَجْرِ

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)

اختلف في المراد بالفجر ، فقيل : انفجار النهار من ظلمة الليل .

وقيل : صلاة الفجر .

وكلا القولين له شاهد من القرآن . أما انفجار النهار ، فكما في قوله تعالى : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير] .

وأما صلاة الفجر فكما في قوله : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ الليل وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء : 78] ، ولكن في السياق ما يقرب القول الأول ، إذ هو في الأيام والليالي الفجر وليال عشر ، الليل إذا يسري ، وكلها آيات زمنية أنسب لها انفجار النهار .

بقي في ذلك اختلافهم في أي الفجر عنى هنا ، فقيل بالعموم في كل يوم ، وقيل : بالخصوص .

والأول قول ابن عباس وابن الزبير وعلي رضي الله عنهم .

وعلى اثلاني فقيل : خصوص الفجر يوم النحر . وقيل : أول يوم المحرم ، وليس هناك يعول عليه . إلا أن فجر يوم المحر أقرب إلى الليالي العشر ، إن قلنا : هي عشر ذي الحجة على ما يأتي إن شاء الله .

أما الليالي العشر فأقوال المفسرين محصورة في عشر ذي الحجة ، وعشر المحرم والعشر الأواخر من رمضان . والأول جاء عن مسروق أنها العشر التي ذكرها الله في قصة موشى عليه السلام وأتممناها بعشر ، وكلها الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس . وليس في القرآن نص بعينها .

وفي السنة بيان فضيلة عشر ذي الحجة وعشر رمضان كما هو معلوم ، فإن جعل الفجر خاصاً بيوم النحر ، كان ذي الحجة أقرب للسياق . والله تعالى أعلم .

والشفع والوتر : ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولاً ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلاً .

(239/815)

أما جملة فقالوا : إنما الوتر هو الله ، للحديث : " إن الله وتر يحب الوتر " ، وما سواه شفع ، كما في قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] ، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق ، كما في عموم ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38-39] .

أما التفصيل فقالوا : المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجاً ، والسماء . والأرض ، والجبل ، والبحر ، والنار ، والماء . وهكذا ذكروا لكل شيء مقابله ، ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة .

والواقع أن أقرب الأقوال عندي والله أعلم : أنه هو الأول لأنه ثبت علمياً أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة .

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواه ومحيط ، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر ، حتى في أدق عالم الصناعة كالكهرباء ، فإنها من سالب وموجب ، وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان ، حتى الماء الذي كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين ، أكسجين وهدروجين ، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة إلى الغليان ، ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء ، وهكذا .

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب ، فلم يبق في الكون شيء قط فرداً وتراً بذاته ، إلا ما نص عليه الحديث " إن الله وتر يحب الوتر " ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغنى بذاته عن غيره ، والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت . إلخ . بخلاف المخلوق ، وقلنا : المستغنى بذاته عن غيره ، لأن كل مخلوق شفعاً ، فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني ، ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك . ولهذا كان القول الأول ، وهو أن الوتر هو الله ، والشفع هو المخلوقات جميعها ، هو القول الراجح ، وهو الأعم في المعنى .

قوله ﴿ والليلِ إذَا يَسْرِ ﴾ اتفق المفسرون على المعنى وهو سريان الليل ، ولكن الخلاف في التعيين هل المراد به عموم الليالي في كل ليلة أم ليلة معينة ، وما هي ؟

فقيل : بالعموم كقوله : ﴿ والليلِ إذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] .

وقيل : بالخصوص في ليلة مزدلفة أو ليلة القدر .

وأيضاً يقال : إذا كان الفجر فجر النحر ، والعشر عشر ذي الحجة فيكون ﴿ والليلِ إذَا يَسْرِ ﴾ ليلة الجمع . والله تعالى أعلم .

وقد رجح القرطبي وغيره عموم الليل ، وقد جمع في هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلاً ، فشملت الخالق والمخلوق والشفع والوتر إجمالاً وتفصيلاً ، في انفجار الفجر

وانتشار الخلق وسريان الليل وسكون الكون ، والعبادات في الليالي العشر .

فكان من أعظم ما أقسم الله به قوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أي عقل ، والحجر كل مادته تدور على الإحكام والقوة ، فالحجر لقوته ، والحجرة لإحكام ما فيها .

والعقل سمي حِجراً بكسر الحاء . لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق ، والمحجور عله لمنعه من تصرفه وإحكام أمره ، وحجر المرأة لطفلها ، فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كاف لذي عقل ، والجواب : بلى ، وهذا ما يقوي هذا القسم بلا شك .

(241/815)

ثم اختلف في جواب هذا القسم حيث لم يصرح تعالى به ، كما صرح به في نظيره ، وهو قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 75-76] . ثم صرَّح بالمقسم عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : 77] الآية . وهنا لم يصرح به من عظم القسم فوقع الخلاف في تعيينه .

فقيل : هو مقدر تقديره ليعذبن يدل له قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر : 6] -إلى قوله : - ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : 13] .

وقيل : موجود وهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمرصاد ﴾ [الفجر : 14] ، قاله القرطبي . .

وهذا من حيث الصناعة في اللغة وأساليب التفسير وجيه ، ولكن يوجد في نظري والله تعالى أعلم : ارتباط بين القسم وجوابه وبينما يجيء في آخر السورة من قوله : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ [الفجر : 21] ، إلى آخر السورة . كما أنه يظهر ارتباط كبير بينه وبين آخر السورة التي قبلها ، إذ جاء فيها

(242/815)

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللّهُ العذاب الأكبر ﴾ [الغاشية : 21-24] ، ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر : 1-2] -إلى قوله- ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر : 5] لأن ما فيه من الوعيد بالعذاب الأكبر والقصر في إيابهم إلى الله وحده وحسابهم عليه فحسب يتناسب معه هذا القسم العظيم . أما ارتباطه بما في آخر السورة ، فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 1-4] ، والذي في آخر السورة أيضاً خمس مسميات : ﴿ دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر : 21-23] . صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول النفخ في الصور ، ودك الأرض إلى نهاية الحساب ،

وتذكر كل إنسان ماله وما عليه ، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6)

لم يبين هنا ماذا ولا كيف فعل ، بمن ذكروا ، وهم عاد وثمود وفرعون .

وقد تقدم ذكر ثلاثتهم في سورة الحاقة عند قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] ، ﴿ وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحاقة : 6-7] -إلى قوله- ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة : 10] .

والجديد هنا : هو وصف كل من عاد من أنها ذات العماد ، ولم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود أنهم جابوا الصخر بالواد ، وفرعون أنه ذو أوتاد .

وقد اختلف في المعنى بهذه الصفات كلها .

أما عاد ، فقيل : العماد عماد بيوت الشعر ، والمراد بها القبيلة . وطول عماد بيوتها : كناية عن طلو أجسامهم ، كما قيل في صخر :

رفيع العماد طويل النجاد . . . وطول الأجسام يدل على قوة أصحابها .

وقيل : إرم : كانت مدينة رفيعة البنيان ، وذكروا في أخبارها قصصاً تفوق الخيال ، وأنها

في الربع الخالي ، ولكن حيث لم تنبث أخبارها بسند يعول عليه ، ولم يصدقه الواقع ، فقال قوم : قد خسف بها ولم تعد موجودة .

أما ثمود : فقد جابوا ، أي نحتوا الصخر بالواد ، بواد القرى في مدائن صالح ، وهي بيوتهم موجودة حتى الآن .

وأما فرعون ذو الأوتاد ، فقيل : هي أوتاد الخيام ، كان يتدها لمن يعذبهم .

وقيل : هي كناية عن الجنود يثبت بها ملكه .

وقيل : هي أكمات وأسوار مرتفعات ، يلعب له في مرابعها .

قال ابن جرير ما نصه : حدثنا بشر قتال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة " وفرعون ذي الأوتاد ، ذُكِر لنا أنها كانت مطال ، وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وجبال " .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا القول هو الصحيح ، وأنها مرتفعة ، وأنها هي المعروفة الآن بالأهرام بمصر ، ويرجع ذلك إلى عدة أمور :

منها : أنها تشبه الأوتاد في منظرها طرفه إلى أعلا ، إذ القمة شبه الوتد ، مدببة بالنسبة لضخامتها ، فهي بشكل مثلث ، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا .

ومنها : ذكره مع ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، بجامع مظاهر القوة ، فأولئك نحتوا الصخر بيوتاً فارهين ، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لا جبال حوله ، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد . والحال أنها قطع كبار صخرات عظام ففي اقتطاعها وفي نقلها إلى محل بنائها ،

وفي نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت ، وتسخير العباد في ذلك .

ومنها : أن حملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة في كل زمان ولكل جيل ، أوقع في العظة والاعتبار ، بأن من أهلك تلك الأمم ، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم .

صدق الله العظيم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : 14] .

(244/815)

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15)

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ ﴾

بين تعالى أنه يعطي ويمسك ابتلاء للعبد .

وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ ، وهي كلمة زجر وردع ، وبيان أن المعنى لا كما قلتم فيه تعديل لمفاهيم الكفار ، بأن العطاء والمنع لا عن إكرام ولا لإهانة ، ولكنه ابتلاء ، كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] .

وقوله : ﴿ واعلموا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : 28] .

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ .

بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم في العطاء والمنع ، جاء في هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجاباً وسلباً جمعاً وبذلاً ، فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم ، مهيض الجناح ، مكسور الخاطر ، والتقاعس عن إطعام المسكين ، خالي اليد جائع البطن ، ساكن الحركة ، وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المال وهم يمسكون عنها ، وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة ، في قوله تعالى في سورة البلد ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 11-16] .

(245/815)

ومن الجانب الآخر ﴿ وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً ﴾ أي الميراث ، فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية ، أحوج إلى مال مورثهن ، وتحبون المال حباً حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه .

وهنا لفت نظر للفريقين ، فمن أُعطي منهم لا ينبغي له أن يغفل طرق البذل الهامة ، ومن مُنع

لا ينبغي له أن يستشرف إلى ما لا ينبغي له ، وبالله تعالى التوفيق .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22)

تقدم في سورة الحاقة أيضاً هذا السياق نفسه ، بعد ذكر ثمود وعاد وفرعون في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 13-14] -إلى قوله- ﴿ والملك على أَرْجَائِهَآ ﴾ [الحاقة : 17] الآية . مما يبين معنى صفاً صفاً ، أي على أرجائها صفاً بعد صف .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على ما يفسرها في سورة الرحمن على قوله تعالى : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض ﴾ [الرحمن : 33] . وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] ، وجاء ربك : من آيات الصفات .

مواضع البحث والنظر

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مراراً في الأضواء في عدة محلات ، وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة وَقُضِيَ الأمر وَإِلَى الله تُرْجَعُ الامور ﴾ [البقرة : 210] سواء .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث آيات الصفات كاملة في محاضرة أسماها "آيات الصفات" وطبعت مستقلة.

(246/815)

كما تقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ [الأعراف: 54]، وإن كان لم يتعرض لصفة المجيء بذاتها، إلاَّ أنه قال: إن جميع الصفات من باب واحد، أي أنها ثابتة لله تعالى على مبدأ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، على غير مثال للمخلوق، فثبت استواء يليق بجلاله على غير مثال للمخلوق.

وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت مجيء ثبت نزول.

والكل من باب ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11]، أي على ما قال الشافعي رحمة الله: نحن كُلفنا بالإيمان، فعلينا أن نؤمن بصفات الله على ما لا يليق بالله على مراد الله، وليس علينا أن نكيف، إذ الكيف ممنوع على الله سبحانه.

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23)

قد بين تعالى موضوع تذكر الإنسان، وهو قوله: ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [

الفجر : 24] .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان في ذلك سورة الفرقان عند قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 27]

الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(247/815)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْفَجْرِ

[فِيهَا خَمْسُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ :

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : .

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْفَجْرُ : هُوَ أَوَّلُ أَوْقَاتِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ قِسْمَيْ الزَّمَانِ ؛ وَهُوَ كَمَا قَدَّمْنَا فَجْرَانِ : أَحَدُهُمَا الْبَيَاضُ الَّذِي يَبْدُو أَوَّلًا ثُمَّ يَخْفَى ؛ وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبِ ذَنَبَ السِّرْحَانِ لِطُرْآنِهِ ثُمَّ إقْلَاعِهِ .

وَالثَّانِي : هُوَ الْبَادِي مُتَمَادِيًا ؛ وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ الْمُسْتَطِيلَ ؛ لِأَنَّهُ يَبْدُو كَالْحَبْلِ الْمُعَلَّقِ مِنْ الْأُفُقِ أَوْ الرُّمْحِ الْقَائِمِ فِيهِ ؛ وَيُسَمَّى الثَّانِي الْمُسْتَطِيرَ ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَشِرُ عَرْضًا فِي الْأُفُقِ ، وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ الْكَاذِبَ ؛ وَلَيْسَ يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ .

وَيُسَمَّى الثَّانِي الصَّادِقَ لِثُبُوتِهِ ؛ وَبِهِ تَتَعَلَّقُ الْأَحْكَامُ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَمِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ السُّحُورِ أَذَانُ بِلَالٍ ، وَلَا الصُّبْحُ الْمُسْتَطِيلُ ، وَلَكِنْ الْمُسْتَطِيرُ بِالْأُفُقِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِيمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامٍ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وَلِأَجْلِهِ قَالَ مَالِكٌ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ ، وَأَشْهَبَ عَنْهُ : الْفَجْرُ أَمْرُهُ بَيِّنٌ ، وَهُوَ الْبَيَاضُ الْمُعْتَرِضُ فِي الْأُفُقِ .

(248/815)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ : فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي تَعْيِينِهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ أَنَّهَا عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ؛ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَهُ جَابِرٌ ، وَرَوَاهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَصِحَّ .

الثَّانِي : عَشْرُ الْمُحَرَّمِ ؛ قَالَهُ الطَّبَرِيُّ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ .

الرَّابِعُ أَنَّهَا الْعَشْرُ الَّتِي أَتَمَّهَا اللَّهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِيقَاتِهِ مَعَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا كُلُّ مَكْرُمَةٍ فَدَاخِلَةٌ مَعَهُ فِي هَذَا اللَّفْظِ بِالْمَعْنَى لَا بِمُقْتَضَى اللَّفْظِ ؛ لِأَنَّهَا نَكِرَةٌ فِي إثْبَاتٍ ، وَالنَّكِرَةُ فِي الْإِثْبَاتِ لَا تَقْتَضِي الْعُمُومَ ، وَلَا تُوجِبُ الشُّمُولَ ؛ وَإِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْعُمُومِ مَعَ النَّفْيِ ؛ فَهَذَا الْقَوْلُ يُوجِبُ دُخُولَ لَيَالٍ عَشْرٍ فِيهِ ، وَلَا يَتَعَيَّنُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ ، فَرَبُّك أَعْلَمُ بِمَا هِيَ ؛ لَكِنْ تَبْقَى هَاهُنَا نُكْتَةٌ ؛ وَهِيَ أَنْ تَقُولَ : فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إلَى تَعْيِينِهَا وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قُلْنَا : نَحْنُ نُعَيِّنُهَا بِضَرْبٍ مِنْ النَّظَرِ ، وَهِيَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ ؛ لِأَنَّا لَمْ نَرَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْمُعْتَبَرَاتِ أَفْضَلَ مِنْهَا ، لَا سِيَّمَا وَفِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ؛ فَلَا يُعَادِلُهَا وَقْتٌ مِنْ الزَّمَانِ .

(249/815)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ ؛ قَالَ : الْأَيَّامُ مَعَ اللَّيَالِي ، وَاللَّيْلُ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَهُوَ حِسَابُ الْقَمَرِ الَّذِي وَقَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْعِبَادَاتِ كَمَا رَتَّبَ عَلَى حِسَابِ الشَّمْسِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ فِيهِ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ بِالْعَادَاتِ فِي الْمَعَاشِ وَالْأَوْقَاتِ .

وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ اللُّغَةِ وَحَبْرُهَا أَبُو عَمْرٍو الزَّاهِدُ أَنَّ مِنْ الْعَرَبِ مَنْ يَحْسِبُ النَّهَارَ قَبْلَ اللَّيْلِ ،

وَيَجْعَلُ اللَّيْلَةَ لِلْيَوْمِ الْمَاضِي ، وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ ﴿ قَوْلُ عَائِشَةَ فِي حَدِيثِ إيلَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نِسَائِهِ ، فَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَعُدُّهُنَّ عَدًّا دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَمْ تَكُنْ آلَيْت شَهْرًا فَقَالَ : إنَّ الشَّهْرَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ ﴾ ، وَلَوْ كَانَتْ اللَّيْلَةُ لِلْيَوْمِ الْآتِي لَكَانَ قَدْ غَابَ عَنْهُنَّ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ بَالِغٌ طَالَمَا سُقْتُهُ سُؤَالًا لِلْعُلَمَاءِ بِاللِّسَانِ وَتَقْلِيبًا لِلدَّفَاتِرِ بِالْبَيَانِ حَتَّى وَجَدْت أَبَا عَمْرٍو وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا ؛ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ لُغَةً نَقَلَهَا ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نُكْتَةً أَخَذَهَا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَاسْتَنْبَطَهَا .

وَالْغَالِبُ فِي أَلْسِنَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ غَلَبَةُ اللَّيَالِي لِلْأَيَّامِ ، حَتَّى إنَّ مِنْ كَلَامِهِمْ : " صُمْنَا خَمْسًا " يُعَبِّرُونَ بِهِ عَنْ اللَّيَالِي ، وَإِنْ كَانَ الصَّوْمُ فِي النَّهَارِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(250/815)

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى لِلْعُلَمَاءِ فِي تَعْيِينِهَا ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الصَّلَاةَ شَفْعٌ كُلُّهَا ، وَالْمَغْرِبَ وَتْرٌ ؛ قَالَهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ] .

الثَّانِي : أَنَّ الشَّفْعَ أَيَّامُ النَّحْرِ ، وَالْوَتْرَ يَوْمُ عَرَفَةَ ، رَوَاهُ جَابِرٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الشَّفْعَ يَوْمُ مِنًى ، وَالْوَتْرَ : الثَّالِثُ مِنْ أَيَّامِ مِنًى ، وَهُوَ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ .

الرَّابِعُ أَنَّ الشَّفْعَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ، وَالْوَتْرَ أَيَّامُ مِنًى لِأَنَّهَا ثَلَاثَةٌ .

الْخَامِسُ الشَّفْعُ : الْخَلْقُ ، وَالْوَتْرُ اللَّهُ تَعَالَى ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

السَّادِسُ أَنَّهُ الْخَلْقُ كُلُّهُ ؛ لِأَنَّ مِنْهُ شَفْعًا وَمِنْهُ وَتْرًا .

السَّابِعُ أَنَّهُ آدَمَ ؛ وَتْرٌ شَفَعَتْهُ زَوْجَتُهُ ، فَكَانَتْ شَفْعًا لَهُ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الثَّامِنُ أَنَّ الْعَدَدَ مِنْهُ شَفْعٌ ، وَمِنْهُ وَتْرٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ هَذِهِ الْآيَةُ خِلَافُ الَّتِي قَبْلَهَا ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الشَّفْعِ كَانَ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْعَهْدِ لِاسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِ ، مَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَهْدٌ ؛ وَلَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ كُلَّ شَفْعٍ وَوَتْرٍ مِمَّا ذُكِرَ وَمِمَّا لَمْ يُذْكَرْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذُكِرَ يَسْتَغْرِقُ مَا تُرِكَ فِي الظَّاهِرِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(251/815)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ لَكِنْ إنْ قُلْنَا : إنَّ اللَّيَالِيَ الْعَشْرَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ، فَيَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ يَوْمَ النَّحْرِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ فِي الْقِسْمِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ الْخَامِسُ فَوَجْهُ الْقَسَمِ فِيهِ وَحَقِّ الْخَلْقِ وَالْخَالِقِ لَهُمْ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ السَّادِسُ فَمَعْنَاهُ وَحَقِّ الْخَلْقِ .

وَوَجْهُ الْقَوْلِ السَّابِعِ

وَحَقِّ آدَمَ وَزَوْجَتِهِ .

وَوَجْهُ الْقَوْلِ الثَّامِنِ أَنَّهُ قَالَ : وَحَقِّ الْعَدَدِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ قِوَامَ الْخَلْقِ وَتَمَامًا لَهُمْ ، حَتَّى لَقَدْ غَلَا فِيهِ الْغَالُونَ حَتَّى جَعَلُوهُ أَصْلَ التَّوْحِيدِ وَالتَّكْلِيفِ ، وَسِرَّ الْعَالَمِ وَتَفَاصِيلَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ هَوَسٌ كُلُّهُ ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ .

(252/815)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ إذَا قُلْنَا إنَّ الْمُرَادَ بِهِ الصَّلَاةُ فَمِنْهَا شَفْعٌ ، وَهِيَ الصَّلَوَاتُ الْأَرْبَعُ ، وَمِنْهَا وَتْرٌ وَهِيَ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّهَا لَا تُعَادُ فِي جَمَاعَةٍ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ لِأَنَّهَا لَوْ طُلِبَ بِهَا فَضْلُ الْجَمَاعَةِ لَانْقَلَبَتْ شَفْعًا ، حَتَّى تَنَاهَى عُلَمَاؤُنَا فِي ذَلِكَ فَقَالُوا : لَوْ أَعَادَهَا

رَجُلٌ [فِي جَمَاعَةٍ] غَفْلَةً لِقِيلَ لَهُ: أَعِدْهَا ثَالِثَةً؛ حَتَّى تَكُونَ وَتْرًا تِسْعَ رَكَعَاتٍ، وَهَذَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ الْمَغْرِبَ لَوْ صَارَتْ بِالْإِعَادَةِ فِي الْجَمَاعَةِ شَفْعًا لَصَارَتْ الظُّهْرُ بِإِعَادَتِهَا ثَمَانِيًا، وَيَعُودُ ذَلِكَ فِي حَالِ التَّخْلِيطِ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فَيُقَالُ فِيهِ: فَوَاَللَّهِ مَا أَدْرِي إذَا مَا ذَكَرْتهَا أَثْنَتَيْنِ صَلَّيْت الضُّحَى أَمْ ثَمَانِيًا فَكَمَا لَا تَتَضَاعَفُ الظُّهْرُ بِالْإِعَادَةِ، فَكَذَلِكَ لَا تَتَضَاعَفُ الْمَغْرِبُ، وَأَشَدُّهُ الصَّلَاةُ الثَّالِثَةُ، فَإِنَّهُ مِنْ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ لَمَّا قَالَ عُلَمَاؤُنَا: إنَّ أَقَلَّ النَّفْلِ رَكْعَتَانِ.

قُلْنَا: إنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَالشَّفْعِ ﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَوَاتِ كُلَّهَا فَرْضَهَا وَنَفْلَهَا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَالْوَتْرِ ﴾ يَنْطَلِقُ عَلَى الْوَتْرِ وَحْدَهُ الَّذِي هُوَ فَرْدٌ.

وَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ: ﴿ الِاسْتِجْمَارُ وَتْرٌ، وَالطَّوَافُ وَتْرٌ، وَالْفَرْدُ كَثِيرٌ ﴾، وَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ يَكْفِي فِيهِ.

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَاللَّيْلِ إذَا يَسْرِ ﴾.

(253/815)

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى أَقْسَمَ اللَّهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، كَمَا أَقْسَمَ بِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ عُمُومًا وَخُصُوصًا ، وَجُمْلَةً وَتَفْصِيلًا ، وَخَصَّهُ هَاهُنَا بِالسُّرَى لِنُكْتَةٍ هِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ وَأَشَارَ هَاهُنَا إلَى أَنَّ اللَّيْلَ قَدْ يُتَصَرَّفُ فِيهِ لِلْمَعَاشِ ، كَمَا يَتَصَرَّفُ فِي النَّهَارِ ، وَيَتَقَلَّبُ فِي الْحَالِ فِيهِ لِلْحَاجَةِ إلَيْهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَيْلٍ ، فَقَالَ لَهُ : السُّرَى يَا جَابِرُ ﴾ .

وَخَاصَّةً الْمُسَافِرُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ كُنْت قَدْ قَيَّدْت فِي فَوَائِدِي بِالْمَنَارِ أَنَّ الْأَخْفَشَ قَالَ لِمُؤَرِّجٍ : مَا وَجْهُ مَنْ حَذَفَ مِنْ عَدَا ابْنَ كَثِيرٍ الْيَاءَ مِنْ قَوْلِهِ : يَسْرِي ؟ فَسَكَتَ عَنْهَا سَنَةً ، ثُمَّ قُلْنَا لَهُ : نَخْتَلِفُ إلَيْك نَسْأَلُك مُنْذُ عَامٍ عَنْ هَذِهِ .

الْمَسْأَلَةِ فَلَا تُجِيبُنَا ؟ فَقَالَ : إنَّمَا حَذَفَهَا لِأَنَّ اللَّيْلَ يُسْرَى فِيهِ وَلَا يَسْرِي .

فَعَجِبْت مِنْ هَذَا الْجَوَابِ الْمُقَصِّرِ مِنْ غَيْرِ مُبْصِرٍ ؛ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَشْيَاخِي : تَمَامُهُ فِي بَيَانِهِ أَنَّ ذَلِكَ لِفِقْهٍ ، هُوَ أَنَّ الْحَذْفَ يَدُلُّ عَلَى الْحَذْفِ ، وَهُوَ مِثْلُ الْأَوَّلِ .

وَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ .

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّك بِعَادٍ إرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى أَمَّا " عَادٌ " فَمَعْلُومَةٌ قَدْ جَرَى ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا ، وَعَظُمَ أَمْرُهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : إرَمَ فِيهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ اسْمُ جَدِّ عَادٍ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ .

الثَّانِي : إرَمُ : أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ اسْمُ قَبِيلَةٍ مِنْ عَادٍ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

وَقِيلَ وَهُوَ : الرَّابِعُ هُوَ إرَمُ بْنُ عَوْصِ بْنُ سَامِ بْنُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الْخَامِسُ أَنَّ إرَمَ الْهَلَاكُ : يُقَالُ : أَرَمَ بَنُو فُلَانٍ أَيْ هَلَكُوا .

السَّادِسُ أَنَّهُ اسْمُ الْقَرْيَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ الْقَاضِي : لَوْ أَنَّ قَوْلَهُ : إرَمَ يَكُونُ مُضَافًا إلَى عَادٍ لَكَانَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إلَى جَدِّهِ أَوْ إلَى إرَمَ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ عَادٌ مُنَوَّنٌ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ جَدِّهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا زَائِدًا لِعَادٍ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا أُمَّةٌ ، وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ قَبِيلَةً مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ اسْمَ الْقَرْيَةِ .

وَيُحْتَمَلُ إذَا كَانَ بِمَعْنَى الْهَلَاكِ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا ، لَوْلَا أَنَّ الْمَصْدَرَ فِيهَا إرْمٌ بِكَسْرِ الْفَاءِ .

فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَحْتَ ذَلِكَ مِنْ الْخَفَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ عَمُودٍ يَنْتَجِعُونَ الْقَطْرَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الطُّولُ ، كَانُوا أَطْوَلَ أَجْسَامًا وَأَشَدَّ قُوَّةً .

(255/815)

وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ طُولَ الرَّجُلِ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي الْهَوَاءِ ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ إلَى الْآنَ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْعِمَادَ الْقُوَّةُ ، وَيَشْهَدُ لَهُ الْقُرْآنُ .

الرَّابِعُ أَنَّهُ ذَاتُ الْبِنَاءِ

الْمُحْكَمِ ، يُقَالُ : إنَّ فِيهَا أَرْبَعَمِائَةِ أَلْفِ عَمُودٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فِي تَعْيِينِهَا : وَفِيهِ قَوْلَانِ : الْأَوَّلُ أَنَّ أَشْهَبَ قَالَ عَنْ مَالِكٍ : هِيَ دِمَشْقُ ؛ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيّ : هِيَ الْإِسْكَنْدَرِيَّة .

(256/815)

وَتَحْقِيقُهَا أَنَّهَا دِمَشْقُ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَ فِي الْبِلَادِ مِثْلُهَا وَقَدْ ذَكَرْت صِفَتَهَا وَخَبَرَهَا فِي كِتَابِ تَرْتِيبِ الرِّحْلَةِ لِلتَّرْغِيبِ فِي الْمِلَّةِ ، وَإِلَيْهَا أَوَتْ مَرْيَمُ ، وَبِهَا كَانَ آدَمُ ، وَعَلَى الْغُرَابِ جَبَلِهَا دَمُ هَابِيلَ فِي الْحَجَرِ جَارٍ لَمْ تُغَيِّرْهُ اللَّيَالِي ، وَلَا أَثَّرَتْ فِيهِ الْأَيَّامُ ، وَلَا ابْتَلَعَتْهُ الْأَرْضُ ، بَاطِنُهَا كَظَاهِرِهَا ، مَدِينَةٌ بِأَعْلَاهَا ، وَمَدِينَةٌ بِأَسْفَلِهَا ، تَشُقُّهَا تِسْعَةُ أَنْهَارٍ ؛ لِلْقَصَبَةِ نَهْرٌ ، وَلِلْجَامِعِ نَهْرٌ ، وَبَاقِيهَا لِلْبَلَدِ ، وَتَجْرِي الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِهَا كَمَا تَجْرِي مِنْ فَوْقِهَا ، لَيْسَ فِيهَا كِظَامَةٌ وَلَا كَنِيفٌ ، وَلَا فِيهَا دَارٌ ، وَلَا سُوقٌ ، وَلَا حَمَّامٌ ، إلَّا وَيَشُقُّهُ الْمَاءُ لَيْلًا وَنَهَارًا دَائِمًا أَبَدًا ، وَفِيهَا أَرْبَابُ دُورٍ قَدْ مَكَّنُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ سَعَةِ الْأَحْوَالِ بِالْمَاءِ ، حَتَّى إنَّ مُسْتَوْقَدَهُمْ عَلَيْهِ سَاقِيَةٌ ، فَإِذَا طُبِخَ الطَّعَامُ وُضِعَ فِي الْقَصْعَةِ ، وَأُرْسِلَ فِي السَّاقِيَةِ ؛ فَيُجْرَفُ إلَى الْمَجْلِسِ فَيُوضَعُ فِي الْمَائِدَةِ ، ثُمَّ تَرُدُّ الْقَصْعَةُ مِنْ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى إلَى الْمُسْتَوْقَدِ فَارِغَةً ، فَتُرْسَلُ أُخْرَى مَلْأَى ، وَهَكَذَا حَتَّى يَتِمَّ الطَّعَامُ .

(257/815)

وَإِذَا كَثُرَ الْغُبَارُ فِي الطُّرُقَاتِ أَمَرَ صَاحِبُ الْمَاءِ أَنْ يُطْلَقَ النَّهْرُ عَلَى الْأَسْوَاقِ وَالْأَرْبَاضِ فَيَجْرِي الْمَاءُ عَلَيْهَا ، حَتَّى يَلْجَأَ النَّاسُ فِي الْأَسْوَاقِ وَالطُّرُقَاتِ إلَى الدَّكَاكِينِ ، فَإِذَا كُسِحَ

غُبَارُهَا سَكَّرَ السَّاقِيَانِيُّ أَنْهَارَهَا ، فَمَشَيْت فِي الطُّرُقِ عَلَى بَرْدِ الْهَوَاءِ وَنَقَاءِ الْأَرْضِ ، وَلَهَا بَابُ جَيْرُونِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ؛ وَعِنْدَهُ الْقُبَّةُ الْعَظِيمَةُ وَالْمِيقَاتَاتُ لِمَعْرِفَةِ السَّاعَاتِ ، عَلَيْهَا بَابُ الْفَرَادِيسِ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مِثْلُهُ ، عِنْدَهُ كَانَ مَقَرِّي ، وَإِلَيْهِ مِنْ الْوَحْشَةِ كَانَ مَفَرِّي ، وَإِلَيْهِ كَانَ انْفِرَادِي لِلدَّرْسِ وَالتَّقَرِّي .

وَفِيهَا الْغُوطَةُ مَجْمَعُ الْفَاكِهَاتِ ، وَمَنَاطُ الشَّهَوَاتِ ، عَلَيْهَا تَجْرِي الْمِيَاهُ ، وَمِنْهَا تُجْنَى الثَّمَرَاتُ ؛ وَإِنَّ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ لَعَجَائِبَ لَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا الْمَنَارُ فَإِنَّهَا مَبْنِيَّةُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى الْعُمُدِ ، وَلَكِنْ لَهَا أَمْثَالٌ ، فَأَمَّا دِمَشْقُ فَلَا مِثَالَ لَهَا .

وَقَدْ رَوَى مَعْنٌ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ كِتَابًا وُجِدَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فَلَمْ يُدْرَ مَا هُوَ ، فَإِذَا فِيهِ : أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادٍ الَّذِي رَفَعَ الْعِمَادَ ، بَنَيْتُهَا حِينَ لَا شَيْبَ وَلَا مَوْتَ قَالَ مَالِكٌ : إنْ كَانَ لَتَمُرُّ بِهِمْ مِائَةُ سَنَةٍ لَا يَرَوْنَ بِهَا جِنَازَةً .

وَذُكِرَ عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ : أَنَا شَدَّادُ بْنُ عَادٍ ، أَنَا الَّذِي رَفَعْت الْعِمَادَ ، أَنَا الَّذِي كَنَزْت كَنْزًا عَلَى سَبْعَةِ أَذْرُعٍ ، لَا يُخْرِجُهُ إلَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(258/815)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ فِيهَا مِنْ طَرِيقِ الْأَحْكَامِ التَّحْذِيرُ مِنْ التَّطَاوُلِ فِي الْبُنْيَانِ ، وَالتَّعَاظُمِ بِتَشْيِيدِ الْحِجَارَةِ ، وَالنَّدْبُ إلَى تَحْصِيلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُوصِلُ إلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَمِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ التَّطَاوُلُ فِي الْبُنْيَانِ ، ﴿ وَقَدْ عُرِضَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنْيَانُ مَسْجِدِهِ ، فَقَالَ : عَرِيشٌ كَعَرِيشِ مُوسَى ﴾ .

وَالْبُنْيَانُ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ .

وَلَقَدْ تُوُفِّيَ وَمَا وَضَعَ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ ، ثُمَّ تَطَاوَلْنَا فِي بُنْيَانِنَا ، وَزَخْرَفْنَا مَسَاجِدَنَا ، وَعَطَّلْنَا قُلُوبَنَا وَأَبْدَانَنَا .

وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(259/815)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الفجر

وَالْفَجْرِ (1)

قوله : ﴿ والفجر ﴾ : جوابُ هذا القَسَم قيل : مذكورٌ وهو قولُه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد

﴿ [الفجر : 14] قاله ابن الأنباري . وقيل : محذوفٌ لدلالةِ المعنى عليه ، أي : لَنُجازِيَنَّ أحدٍ بما عَمل بدليلِ تعديدِه ما فعلَ بالقرونِ الخاليةِ . وقدَّر الزمخشري : " لَيُعَذِّبَنَّ " قال : " يَدُلُّ عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ [الآية : 6] إلى قولِه : / ﴿ فَصَبَّ ﴾ [الفجر : 13] . وقدَّره الشيخ بما دَلَّتْ عليه خاتمةُ السورةِ قبلَه ، لإِيابُهم إلينا وحِسابُهم علينا .

وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)

والعامَّةُ على " ليالٍ " بالتنوين ، " عَشْرٍ " صفةٍ لها . وقرأ ابنُ عباس " وليالِ عَشْرٍ " بالإِضافةِ . فبعضهم يكتبُ " ليالِ " في هذه القراءةِ دونَ ياءٍ ، وبعضُهم قال : " وليالي " بالياء ، وهو القياسُ . قيل : والمرادُ : وليالي أيام عشرٍ ، وكان مِنْ حَقِّه على هذا أن يُقال : عشرةٍ ؛ لأنَّ المعدودَ مذكرٌ . ويُجاب عنه : بأنَّه إذا حُذِف المعدودُ جاز الوجهان ، ومنه " وأتبعه بسِتٍّ من شوال " وسَمِعَ الكسائي : " صُمْنا من الشهر خمساً " .

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3)

قوله : ﴿ والوتر ﴾ : قرأ الأخَوان بكسرِ الواو ، والباقون بفتحها وهما لغتان كالحِبْر والحَبْر ، والفتحُ لغةُ قريشٍ ومَنْ والاها ، والكسرُ لغةُ تميم . وهاتان اللغتان في " الوتر " مقابلَ الشَّفْع . فأمَّا في الوِتْر بمعنى التِّرَة ، أي : الذَّحْلُ فبالكسرِ وحدَه ، قاله الزمخشري . ونقل الأصمعيُّ فيه اللغتين أيضاً . وقرأ أبو عمرو في روايةِ يونسَ عنه بفتح الواو وكسر التاء ، فيحتمل أَنْ يكونَ لغةً ثالثة ، وأن يكونَ نَقَل كسرةَ الراءِ إلى التاء إجراءً للوصل مُجْرى

الوقفِ/ .

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)

(260/815)

وقال مقاتل : " هل هنا في موضع " إنَّ " تقديرُه : إنَّ في ذلك قَسَماً لذي حِجْرٍ ، ف " هل " على هذا في موضع جواب القسم " انتهى . وهذا قولٌ باطلٌ ؛ لأنه لا يَصْلُح أَنْ يكونَ مُقْسَماً عليه ، على تقديرِ تسليمِ أنَّ التركيبَ هكذا ، وإنما ذكَرْتُه للتنبيهِ على سقوطِه . وقيل : ثَمَّ مضافٌ محذوفٌ ، أي : وصلاةِ الفجر أو وربِّ الفجر .

والعامَّةُ على عَدَمِ التنوينِ في " الفجر " و " الوَتْر " و " يَسْرِ " . وأبو الدينار الأعرابي بتنوين الثلاثةِ . قال ابن خالَوَيْه : " هذا ما رُوي عن بعضِ العرب أنه يقفُ على أواخرِ القوافي بالتنوينِ ، وإنْ كان فِعلاً ، وإنْ كان فيه الألفُ واللامُ . قال الشاعر :

4558 أَقِلّي اللَّوْمَ عاذِلَ والعتابَنْ . . . وقُولي إنْ أَصَبْتُ لقد أصابَنْ

يعني بهذا تنوينَ الترنُّم ، وهو أنَّ العربيَّ إذا أراد تَرْكَ الترنمِ وهو مَدُّ الصوتِ نَوَّن الكلمةَ ، وإنما يكونُ في الرويِّ المطلقِ . وقد عاب بعضُهم قولَ النَّحْويين " تنوين الترنم " وقال : بل ينبغي أَنْ

يُسَمُّوه بتنوين تَرْكِ الترنُّم ، ولهذا التنوينِ قسيمٌ آخرُ يُسَمَّى " التنوينَ الغالي " ، وهو ما يَلْحَقُ الرويَّ المقيَّدَ كقولِه :

(261/815)

4559 . . . . . خاوي المخترقْنْ . . . على أن بعض العروضيين أنكر وجودَه . ولهذين التنوينَيْن أحكامٌ مخالفةٌ لحكمِ التنوينِ حَقَّقْتُها في " شرح التسهيل " ولله الحمد . والحاصل أنَّ هذا القارىءَ أجْرى الفواصلَ مُجْرى القوافي ففَعَلَ فيها ما يَفْعل فيها . وله نظائرُ مَرَّ منها : ﴿ الرسولا ﴾ [الأحزاب : 66] ﴿ السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] ﴿ الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] في الأحزاب . و ﴿ المتعال ﴾ في الرعد [الآية : 9] " و " يَسْر " هنا ، كما سأبيِّنُه إن شاء الله تعالى . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : فما بالُها مُنَكَّرَةً مِنْ بين ما أَقْسَمَ به ؟ قلت : لأنها ليالٍ مخصوصةٌ مِنْ بينِ جنس الليالي العِشْرِ بعضٌ منها ، أو مخصوصةٌ بفضيلةٍ ليسَتْ في غيرها . فإنْ قلتَ : هلاَّ عُرِّفَتْ بلامِ العهدِ لأنها ليالٍ معلومةٌ . قلت : لو قيل ذلك لم تستقلَّ بمعنى الفضيلةِ التي في التنكير ، ولأنَّ الأحسنَ أَنْ تكون اللاماتُ متجانِسَةً ليكون الكلامُ أبعدَ من الإلغازِ والتَّعْمِية " . قلت :

يعني بتجانسِ اللاماتِ أن تكون كلُّها إمَّا للجنسِ ، وإمَّا للعهدِ ، والفَرَضُ أنَّ الظاهرَ أن اللاماتِ في الفجر وما معه للجنسِ ، فلو جيءَ بالليالي معرفةً بلامِ العهدِ لَفاتَ التجانسُ .

(262/815)

قوله : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ : منصوبٌ بمحذوفٍ هو فعلُ القسم ، أي : أُقْسِم به وقتَ سُراه . وحَذَفَ ياءَ "يَسْري" وَقْفاً ، وأثبتها وصلاً ، نافعٌ وأبو عمرو ، وأثبتها في الحالَيْنِ ابنُ كثير ، وحَذَفَها في الحالين الباقون لسقوطِها في خَطِّ المصحفِ الكريم ، وإثباتُها هو الأصلُ لأنها لامُ فعلٍ مضارعٍ مرفوعٍ ، وحَذْفُها لموافقةِ المصحفِ وموافقةِ رؤوسِ الآي ، وجَرْياً بالفواصلِ مَجْرى القوافي . ومَنْ فَرَّقَ بين حالَتَيْ الوقفِ والوصلِ فلأنَّ الوقفَ محلُّ استراحةٍ . ونَسَبُ السُّرى إلى الليل مجازٌ ؛ إذ المرادُ : يُسْرَى فيه ، قاله الأخفش . وقال غيره : المرادُ يَنْقُصُ كقوله : ﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] ، ﴿ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير : 17] .

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)

قوله : ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ : الحِجْرُ : العقل . وتقدَّم الكلامُ عليه .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7)

(263/815)

قوله : ﴿ بِعَادٍ إِرَمَ ﴾ : قرأ العامَّةُ " بعادٍ " مصروفاً " إرَمَ " بكسرِ الهمزة وفتح الراءِ والميم ، ف " عاد " اسمٌ لرجلٍ في الأصل ، ثم أُطْلِقَ على القبيلة أو الحيِّ ، وقد تقدَّم الكلامُ عليه . وأمَّا " إرَمُ " فقيل : هو اسمُ قبيلةٍ . وقيل : اسمُ مدينةٍ : واخْتُلف في التفسير في تعيينِها . فإن كانَتْ اسمَ قبيلةٍ كانت بدلاً أو عطفَ بيانٍ ، أو منصوبةً بإضمارِ " أعني " ، وإن كانَتْ اسمَ مدينةٍ فيقلَقُ الإعراب من عاد ، وتخريجُه على حَذْفِ مضافٍ ، كأنه قيل : بعادٍ أهلِ إرمَ ، قاله الزمخشري ، وهو حَسَنٌ ويَبْعُدُ أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " عاد " بدلَ اشتمال إذا لا ضميرَ ، وتقديرُه قَلِقٌ . وقد يقال : إنه لَمَّا كان المَعْنِيُّ بعادٍ مدينتَهم ؛ لأنَّ إرمَ قائمةٌ مَقامَ ذلك صَحَّ البدلُ . وإرمُ اسمُ جَدِّ عادٍ ، / وهو عادُ بنُ عَوَضِ بنِ إرمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ . قال زهير :

4560 وآخَرِين تَرَى الماذيَّ عِدَّتَهُمْ . . . مِنْ نَسْجِ داوُدَ أو ما أَوْرَثَتْ إرَمُ

وقال قيس الرقيات :

4561 مَجْداً تليداً بناه أوَّلُوه له . . . أَدْرَكَ عاداً وساماً قبلَه إرَما

وقرأ الحسن " بعادَ " غيرَ مصروفٍ . قال الشيخ : " مُضافاً إلى إرم . فجاز أَنْ يكون " إرَمُ " أباً أو جَدّاً أو مدينةً " . قلت : يتعيَّنُ أَنْ يكونَ في قراءةِ الحسن غيرَ مضافٍ ، بل يكون كما كان منوناً ، ويكونُ " إرمَ " بدلاً أو بياناً أو منصوباً بإضمارِ أَعْني [ولو كان مضافاً لوجَبَ صَرْفُه] . وإنَّما مُنع " عاد " اعتباراً بمعنى القبيلة أو جاء على أحدِ الجائزَيْنِ في " هند " وبابِه . وقرأ الضحاك في روايةٍ " بعادَ إرم " ممنوعَ الصرفِ وفَتْحِ الهمزةِ مِنْ " أَرَمَ " . وعنه أيضاً " أرْمَ " بفتحِ الهمزةِ وسكونِ الراءِ ، وهو تخفيفُ " أَرِمَ " بكسرِ الراء ، وهي لغةٌ في اسمَ المدينة ، وهي قراءةُ ابنِ الزُّبَيْرِ . وعنه في " عاد " مع هذه القراءة الصَّرْفُ وتَرْكُه . وعنه أيضاً وعن ابن عباس " أَرَمَّ " بفتح الهمزةِ والراءِ ، والميمُ مشددةٌ جعلاه فعلاً ماضياً . يقال : " أَرَمَّ العَظْمُ " ، أي : بَلِيَ . ورَمَّ أيضاً وأرَمَّه غيرُه ، فأَفْعَلَ يكون لازماً ومتعدياً في هذا . و " ذات " على هذه القراءةِ مجرورةٌ صفةً لـ " عاد " ، ويكونُ قد راعى لفظَها تارةً في قولِه : " أرَمَّ " ، فلم يُلْحِقْ علامةَ تأنيثٍ ، ويكونُ " أرَمَّ " معترضاً بين الصفةِ والموصوفِ ، أي : أَرَمَّتْ هي بمعنى : رَمَّتْ وبَلِيَتْ ، وهو داءٌ عليهم . ويجوز أَنْ يكونَ فاعلُ " أرَمَّ " ضميرَ الباري تعالى ، والمفعولُ محذوفٌ ، أي : أرَمَّها اللَّهُ . والجملةُ الدعائيةُ معترضةٌ أيضاً .

ومعناها أخرى في " ذات " فأَنَّثَ . ورُوي عن ابن عباس " ذاتَ " بالنصب على أنها

مفعولٌ ب "أرَمَّ" . وفاعلُ "أرَمَّ" ضميرٌ يعودُ على الله تعالى ، أي : أرَمَّها اللَّهُ تعالى ويكون "أرمَّ" بدلاً مِنْ "فَعَلَ ربُّكَ" أو تبييناً له .

(265/815)

وقرأ ابن الزبير "بعادِ أَرِمَ" بإضافةِ "عاد" إلى "أرِم" مفتوحَ الهمزةِ مكسورَ الراء ، وقد تقدَّم أنه اسمُ المدينة . وقُرِىء "أرِمِ ذاتِ" بإضافة "أرم" إلى "ذات" . ورُوي عن مجاهدٍ "أرَمَ" بفتحتين مصدرَ أَرِمَ يَأْرَمُ ، أي : هَلَكَ ، فعلى هذا يكونُ منصوباً ب "فعَلَ ربُّك" نَصْبَ المصدرِ التشبيهيِّ ، والتقدير : كيف أهلك ربُّك إهلاكَ ذاتِ العِمادِ ؟ وهذا أغربُ الأقوالِ .

و "ذاتِ العِمادِ" إنْ كان صفةً لقبيلةٍ فمعناه : أنهم أصحابُ خيامٍ لها أَعْمِدةٌ يَظْعَنون بها ، أو هو كنايةٌ عن طولِ أبدانهم كقولِه :

4562 رَفيعُ العِمادِ طويلُ النِّجا . . . دِ . . . . . .

. . . .

قاله ابن عباس ، وإنْ كان صفةً للمدينة فمعناه : أنها ذاتُ عُمُدٍ من الحجارة .

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8)

قوله : ﴿ التي لَمْ يُخْلَقْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ تابعاً ، وأَنْ يكونَ مَقْطوعاً رفعاً أو نصباً . والعامَّةُ على "يُخْلَقْ" مبنياً للمفعول ، "مِثْلُها" مرفوعٌ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه . وعن ابن الزبير "يَخْلُقْ" مبنياً للفاعل "مثلَها" منصوبٌ به . وعنه أيضاً "نَخْلُقْ" بنونِ العظمةِ .

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)

قوله : ﴿ وَثَمُودَ ﴾ : قرأ العامَّةُ بمَنْع الصرف ، وابنُ وثَّاب بصَرْفه . وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك مُشْبعاً . و "الذين" يجوز فيه ما تقدَّم في ﴿ التي لَمْ يُخْلَقْ ﴾ . وجابَ الشيءَ يجوبُه قَطَعَه وخَرَقه جَوْباً . وجُبْتُ البلادَ : قطعتُها سَيْراً . قال الشاعر :

4563 ولاَ رأَيْتُ قَلوصاً قبلَها حَمَلَتْ . . . سِتِّين وَسْقاً ولا جابَتْ بها بلداً

(266/815)

قوله : ﴿ بالواد ﴾ متعلقٌ : إمَّا ب "جابوا" ، أي : فيه ، وإمَّا بمحذوفٍ على أنه حالٌ من "الصخر" ، أو من الفاعِلين . وأثبت ياءَ "الوادي" في الحالَيْن ابنُ كثير وورشٌ ، بخلافٍ عن قنبل فرُوي عنه إثباتُها في الحالَيْن ، ورُوي عنه إثباتُها في الوصلِ خاصةً ، وحذفها الباقون في الحالَيْن ، موافقةً لخطِّ المصحفِ ومراعاةً للفواصل كما تقدَّم في ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] .

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)

قوله : ﴿ الذين طَغَوْا ﴾ : يجوزُ فيه ما جاز في " الذين " قبله من الإِتباعِ والقطع على الذمِّ .

قوله : ﴿ سَوْطَ ﴾ هو الآلةُ المعروفةُ . قيل : وسُمِّيَ سَوْطاً لأنه يُساط به اللحمُ عند الضَّرْبِ ، أي : يَخْتلط . قال كعب بن زهير :

4564 وَيْلُمِّها خُلَّةً قد سِيْطَ مِنْ دمِها . . . فَجْعٌ ووَلْعٌ وإخلافٌ وتبديلُ

وقال آخر :

4565 أحارِثُ إنَّا لو تُساطُ دماؤُنا . . . تَزَايَلْنَ حتى لا يَمَسَّ دَمٌ دَما

وقيل : هو في الأصلِ مصدرُ ساطه يَسُوْطه سَوْطاً ، ثم سُمِّيَتْ به الآلةُ . وقال أبو زيد : " أموالُهم بينهم سَوِيطة " ، أي : مختلطةٌ . واستعمالُ الصَّبِّ في السَّوْط استعارةٌ بليغة ، وهي شائعةٌ في كلامِهم / .

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

قوله: ﴿ لبالمرصاد ﴾: المِرْصاد كالمَرْصَد، وهو المكانُ يترتَّبُ [فيه] الرَّصَدَ جمعَ راصِد كحَرَس، فالمِرْصاد مِفْعال مِنْ رَصَده كمِيْقات مِنْ وَقَتَه، قاله الزمخشري. وجَوَّزَ ابنُ عطية في "المِرْصاد" أَنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ قال: "كأنه قيل: لَبالراصد، فعبَّر ببناء المبالغة". ورَدَّ عليه الشيخ: بأَنَّه لو كان كذلك لم تَدْخُلْ عليه الباءُ إذ ليس هو في موضعِ دخولِها لا زائدةً ولا غيرَ زائدةٍ. قلت: قد وَرَدَتْ زيادتُها في خبرِ "إنَّ" كهذه الآيةِ، في قولِ امرىء القيس:

4566 . . . . . فإنَّك مِمَّا أَحْدَثَتْ بالمُجَرِّبِ

إلاَّ أنَّ هذا ضرورةٌ لا يُقاسُ عليه الكلامُ فَضْلاً عن أفصحِه.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15)

قوله: ﴿ فَأَمَّا الإنسان ﴾: مبتدأٌ، وفي خبرِه وجهان، أحدهما: وهو الصحيحُ أَنَّه الجملةُ مِنْ قولِه "فيقولُ" كقولِه: ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 26] كما تقدَّم بيانُه، والظرفُ حينئذٍ منصوبٌ بالخبر؛ لأنه في نيةِ التأخيرِ، ولا تمنعُ الفاءُ من ذلك، قاله الزمخشريُّ وغيرُه. والثاني: أنَّ "إذا" شرطيةٌ وجوابُها "فيقول"، وقولُه "فأَكْرَمَه" معطوفٌ على "ابتلاه"، والجملةُ الشرطيةُ خبرُ "الإنسان"، قاله أبو البقاء. وفيه نظرٌ؛ لأنَّ "إمَّا" تَلْزَمُ الفاءَ في الجملةِ الواقعةِ خبراً عَمَّا بعدها، ولا تُحْذَفُ إلاَّ مع قولٍ مضمر،

كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت ﴾ [آل عمران : 106] كما تقدَّم بيانُه ، إلاَّ في ضرورةٍ .

(268/815)

قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ بمَ اتَّصلَ قولُه " فأمَّا الإنسانُ " ؟ قلت : بقوله : ﴿ إنَّ ربَّكَ لبالمرصاد ﴾ فكأنَّه قيل : إنَّ اللَّهَ لا يريدُ من الإنسانِ إلاَّ الطاعةَ ، فأمَّا الإنسانُ فلا يريد ذلك ولا يَهُمُّه إلاَّ العاجلةَ " . انتهى . يعني بالتعلُّقِ مِنْ حيثُ المعنى ، وكيف عُطِفَتْ هذه الجملةُ التفصيليةُ على ما قبلَها مترتبةً عليه ؟ وقوله : " لا يريد إلاَّ الطاعةَ " على مذهبه ، ومذهبُنا أنَّ اللَّهَ يريد الطاعةَ وغيرَها ، ولولا ذلك لم يقعْ . فسُبحان مَنْ لا يُدْخِلُ في مُلْكِه ما لا يُريد . وإصلاحُ العبارةِ أَنْ يقولَ : إنَّ اللَّهَ يريدُ من العبدِ أو الإنسانِ من غيرِ حَصْرٍ . ثم قال : " فإنْ قُلْتَ : فكيف توازنَ قولُه : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إذَا مَا ابتلاه ربُّهُ ﴾ وقولُه : ﴿ وَأَمَّآ إذَا مَا ابتلاه ﴾ ، وحقُّ التوازنِ أَنْ يتقابلَ الواقعان بعد " أمَّا " و " أمَّا " . تقول : " أمَّا الإنسانُ فكفورٌ ، وأمَّا المَلَكُ فشكورٌ " ، " أمَّا إذا أَحْسَنْتَ إلى زيدٍ فهو مُحْسِنٌ إليك ، وأمَّا إذا أَسَأْتَ إليه فهو مُسِيءٌ إليك " ؟ قلت : هما متوازنان من حيث إنَّ التقديرَ : وأمَّا هو إذا ما ابتلاه ربُّه وذلك أنَّ قولَه : ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ خبرُ المبتدأ الذي هو الإنسانُ .

ودخولُ الفاءِ لما في "أمَّا" مِنْ معنى الشرطِ، والظرفُ المتوسّطُ بين المبتدأ والخبرِ في نيةِ التأخيرِ، كأنه قال: فأمَّا الإنسانُ فقائلٌ ربي أكرمَنِ وقتَ الابتلاءِ فوَجَبَ أَنْ يكونَ" فيقولُ "الثاني خبرَ المبتدأ واجبٌ تقديرُه" .

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16)

(269/815)

قوله: ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ ﴾: قرأ ابنُ عامرٍ بتشديدِ الدال، والباقون بتخفيفِها، وهما لغتان بمعنىً واحد، ومعناهما التضييقُ. ومن التخفيفِ قولُه: ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: 26] ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق: 7].

قوله: ﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ "أهانَنِ" قرأ نافعٌ بإثباتِ ياءَيْهما وَصْلاً وحَذْفِهما وقفاً، مِنْ غيرِ خلافٍ عنه، والبزيُّ عن ابن كثيرٍ يُثْبِتُهما في الحالَيْن، وأبو عمرو اختُلِفَ عنه في الوصلِ فرُوي عنه الإثباتُ والحَذْفُ، والباقون يَحذفونهما في الحالَيْن، وعلى الحَذْفِ قولُ الشاعر:

4567 ومِن كاشحٍ طاهرٍ عُمْرُه . . . إذا ما انْتسَبْتُ له أَنْكَرَنْ

يريد: أنكرني. وقال الزمخشري: "فإنْ قلتَ: هَلاَّ قال: فأهانَه وقَدَرَ عليه رِزْقَه، كما

قال : فأكرَمَه ونَعَّمه . قلت : لأنَّ البَسْطَ إكرامٌ من الله تعالى لعبدِه بإنعامِه عليه مُتَفَضِّلاً مِن غيرِ سابقةٍ . وأمَّا التقديرُ فليس بإهانةٍ له ؛ لأنَّ الإخلالَ بالتفضُّل لا يكونُ إهانة ، كما إذا أهدى لك زيدٌ هديةً تقول : أكرمني ، فإذا لم يَهْدِ لك شيئاً لا يكو مُهيناً لك " .

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17)

(270/815)

قوله : ﴿ تُكْرِمُونَ ﴾ : قرأ أبو عمرو هذا والثلاثةَ بعدَه بياء الغَيْبة حَمْلاً على معنى الإنسانِ المتقدِّمِ/ إذ المرادُ به الجنسُ ، والجنسُ في معنى الجَمْعِ ، والباقون بالتاء في الجميع خطاباً للإنسانِ المرادِ به الجنسُ على طريقِ الالتفاتِ . وقرأ الكوفيون " تَحاضُّون " والأصلُ : تتحاضُّون ، فحذف إحدى التاءَيْن ، أي : لا يَحُضُّ بعضُكم بعضاً . ورُوي عن الكسائي " تُحاضُّون " بضم التاءِ ، وهي قراءةُ زيدِ ابن علي وعلقمةَ ، أي : تُحاضُّون أنفسَكم . والباقون " تَحُضُّون " مِنْ حَضَّه على كذا ، أي : أغْرَاه به . ومفعولُه محذوفٌ ، أي : لا تَحُضُّون أنفسَكم ولا غيرَها . ويجوز أَنْ لا يُقَدَّرَ ، أي : لا تُوْقِعون الحَضَّ .

وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18)

قوله : ﴿ على طَعَامِ ﴾ : متعلِّقٌ بتحاضُّون . و " طعام " يجوز أَنْ يكونَ على أصلِه مِنْ

كونِه اسماً للمطعومِ . ويكون على حَذْفِ مضافٍ ، أي : على بَذْلِ ، أو على إعطاءِ طعامٍ ، وأَنْ يكونَ اسمَ مصدرٍ بمعنى الإِطعام ، كالعطاء بمعنى الإِعطاء ، فلا حَذْفَ حينئذٍ .

والتاءُ في " التراث " بدلٌ من الواو ، لأنه من الوِراثة . ومثلُه : تَوْلَج وتَوْراة وتُخَمَة ، وقد تقدَّم ذلك . و " لَمّاً " بمعنى مجموع . يقال : لَممْتُ الشيءَ لَمّاً ، أي : جَمَعْتُه جَمْعاً . قال الحطيئة :

4568 إذا كان لَمّاً يَتْبَعُ الذمَّ ربَّه . . . فلا قَدَّس الرحمنُ تلك الطَّواحِنا

ولَمَمْتُ شَعَثَه من ذلك . قال النابغة :

4569 ولَسْتَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه . . . على شَعَثٍ ، أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

والجَمُّ : الكثير . ومنه " جُمَّةُ الماء " . قال زهير :

4570 فلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه . . . . . .

. . .

ومنه : الجُمَّة للشَّعْر ، وقولُهم " جاؤوا الجَمَّاءَ الغَفير " . من ذلك .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21)

قوله: ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾: فيه وجهان، أحدُهما: أنه مصدرٌ مؤكِّد، و"دكاً" الثاني تأكيدٌ للأول تأكيداً لفظياً، كذا قاله ابنُ عُصفور، وليس المعنى على ذلك. والثاني: أنه نصبٌ على الحالِ والمعنى: مكرَّراً عليه الدَّكُّ عَلَّمْتُه الحِساب باباً باباً، وهذا ظاهرُ قولِ الزمخشريِّ، وكذلك "صَفّاً صَفّاً" حالٌ أيضاً، أي: مُصْطَفِّين أو ذوي صفوفٍ كثيرة.

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23)

قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾: منصوبٌ ب"جيْء" والقائمُ مَقامَ الفاعلِ "بجهنَّمَ". وجَوَّزَ مكي أَنْ يكونَ "يومَئِذٍ" قائماً مَقامَ الفاعلِ. وإمَّا "يومَئذ" الثاني فقيل: بدلٌ من "إذا دُكَّت"، والعامل فيهما "يتذكَّر" قاله الزمخشري، وهذا هو مذهبُ سيبويهِ، وهو أنَّ العاملَ في المبدلِ منه عاملٌ في البدلِ، ومذهبُ غيرِه أنَّ البدلَ على نيةِ تَكْرارِ العاملِ. وقيل: إنَّ العاملَ في "إذا دُكَّتْ" "يقولُ"، والعاملُ في "يومئذ" "يتذكَّر" قاله أبو البقاء.

قوله: ﴿ وأنى لَهُ الذكرى ﴾ "أَنَّى" خبرٌ مقدمٌ، و"الذكرى" مبتدأٌ مؤخرٌ، و"له" متعلقٌ بما تَعَلَّق به الظرفُ.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26)

قوله: ﴿ لاَّ يُعَذِّبُ ﴾: قرأ الكسائي "لا يُعَذَّبُ" و "لا يُوْثَقُ" مبنيين للمفعول. والباقون قرؤُوهما مبنيَّيْن للفاعل. فأمَّا قراءةُ الكسائي فأُسْنِد الفعلُ فيها إلى "أحد" وحُذِفَ الفاعلُ للعِلْم به وهو اللَّهُ تعالى أو الزَّبانيةُ المُتَوَلُّون العذابَ بأمرِ اللَّهِ تعالى. وأمَّا عذابه ووَثاقه فيجوزُ أَنْ يكونَ المصدران مضافَيْن للفاعلِ والضميرِ للَّهِ تعالى، ومضافَيْنِ للمفعول، والضميرُ للإنسانِ، ويكون "عذاب" واقعاً موقع تَعْذيب. والمعنى: لا يُعَذَّبُ أحدٌ تعذيباً مثلَ تعذيبِ اللَّهِ تعالى هذا الكافرَ، ولا يُوْثَقُ أحدٌ توثيقاً مثلَ إيثاقِ اللَّهِ إياه بالسَّلاسِلِ والأغلالِ، أو لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلَ تعذيبِ الكافرِ، ولا يُوْثَقُ مثلَ إيثاقِه، لكفرِه وعنادِه، فالوَثاق بمعنى الإيثاق كالعَطاء بمعنى الإعطاء. إلاَّ أنَّ في إعمالِ اسمِ المصدرِ عملَ مُسَمَّاه خلافاً مضطرباً فنُقل عن البصريين المنعُ، وعن الكوفيين الجوازُ، ونُقل العكسُ عن الفريقَيْن. ومن الإعمال قولُه:

4571 أكُفْراً بعد ردِّ الموتِ عني . . . وبعد عَطائِكَ المِئَةَ الرِّتاعا

ومَنْ مَنَعَ نَصَبَ "المِئَة" بفعلٍ مضمر. وأَصْرَحُ من هذا قولُ الآخر:

4572 . . . . . فإنَّ كلامَها شفاءٌ لِما بيا

وقيل: المعنى ولا يَحْمِلُ عذابَ الإنسانِ أحدٌ كقوله: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام: 164] قاله الزمخشري. وأمَّا قراءةُ الباقين فإنه أَسْنَدَ الفعلَ لفاعِله. /

والضميرُ في " عذابَه " و " وَثاقَه " يُحتمل عَوْدُه على الباري تعالى ، بمعنى : أَنَّه لا يُعَذِّبُ في الدنيا مثلَ عذابِ اللَّهِ تعالى يومئذٍ أحدٌ ، أي : إنَّ عذابَ مَنْ يُعَذِّبُ في الدنيا ليس كعذابِ الله تعالى يومَ القيامةِ ، كذا قاله أبو عبد الله ، وفيه نظرٌ : من حيث إنه يَلْزَمُ أَنْ يكونَ " يومئذٍ " معمولاً للمصدرِ التشبيهيِّ ، وهو ممتنعٌ لتقدُّمِه عليه ، إلاَّ أن يُقالَ : يُتَوَسَّعُ فيه .

وقيل : المعنى لا يَكِلُ عذابه ولا وَثاقَه لأحدٍ ؛ لأنَّ الأمرَ لله وحدَه في ذلك . وقيل : المعنى أَنَّه في الشدة والفظاعةِ في حَيِّزٍ لم يُعَذِّبْ أحدٌ قط في الدنيا مثلَه . ورُدَّ هذا : بأنَّ " لا " إذا دَخَلَتْ على المضارعِ صَيَّرَتْه مستقبلاً ، وإذا كان مستقبلاً لم يطابقْ هذا المعنى ، ولا يُطْلَقُ على الماضي إلاَّ بمجازٍ بعيدٍ ، وبأنَّ " يومَئذٍ " المرادُ به يومَ القيامة لا دارُ الدنيا . وقيل : المعنى أَنَّه لا يُعَذِّبُ أحدٌ في الدنيا مثلَ عذابِ الله الكافرَ فيها ، إلاَّ أن هذا مردودٌ بما رُدَّ به ما قَبلَه . ويُحتمل عَوْدُه على الإنسان بمعنى : لا يُعَذِّبُ أحدٌ من زبانيةِ العذابِ مثلَ ما يُعَذِّبون هذا الكافرَ ، أو يكونُ المعنى : لا يَحْمِلُ أحدٌ عذابَ الإنسانِ كقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [فاطر : 18] . وهذه الأوجهُ صَعْبَةُ المَرامِ على طالِبها من غيرِ هذا الموضوعِ لتفرُّقها في غيرِه وعُسْرِ استخراجِها منه .

وقرأ نافعٌ في روايةٍ وأبو جعفر وشَيْبة بخلافٍ عنهما " وِثاقَه " بكسر الواو .

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27)

(274/815)

قوله : ﴿ يا أيتها ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ " يا أيتُها " بتاءِ التأنيث . وقرأ زيدُ بن علي " يا أيُّها " كنداءِ المذكرِ ، ولم يُجَوِّز ذلك أحدٌ ، إلاَّ صاحبَ " البديع " ، وهذه شاهدةٌ له . وله وجه : وهو أنها كما لم تطابِقْ صفتَها تثنيةً وجَمْعاً جاز أن لا تطابِقَها تأنيثاً . تقول : يا أيُّها الرجلان يا أيُّها الرجال . و " راضيةً " و " مَرْضيَّةً " حالان ، أي جامعةً بين الوصفَيْن ؛ لأنَّه لا يَلْزَمُ مِنْ أحدِهما الآخرُ .

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29)

قوله : ﴿ فِي عِبَادِي ﴾ يجوز أَنْ يكونَ : في جسد عبادي ويجوز أَنْ يكونَ المعنى : في زُمْرة عبادي . وقرأ ابن عباس وعكرمة وجماعةٌ " في عبدي " والمرادُ الجنسُ ، وتَعَدَّى الفعلُ الأولُ ب " في " لأنَّ الظرفَ ليس بحقيقي نحو : " دخلت في غِمار الناس " ، وتعدَّى الثاني بنفسِه لأنَّ الظرفيةَ متحققةٌ ، كذا قيل ، وهذا إنما يتأَّتى على أحدِ الوجهَيْنِ ، وهو أنَّ المرادَ بالنفس بعضُ المؤمنين ، وأنه أَمْرٌ بالدخولِ في زُمْرة عبادِه ، وأمَّا إذا كان المرادُ بالنفسِ

الروحَ، وأنها مأمورةٌ بدخولِها في الأجساد فالظرفيةُ فيه متحقّقةٌ أيضاً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 777.795 ﴾

(275/815)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى عبد)

العبد : خلاف الحُرّ .

والجمع عَبْدونٌ وعَبيدٌ ، مثال كَلْب وكَلِيب ، وهو جمعٌ عزيز – وأَعْبُدٌ ، وعِباد وعُبْدانٌ بالضمّ – كثمر وثُمْران ، وعِبْدانٌ – بالكسر – كجَحش وجِحشان / وعِبدّانٌ – بكسرتين وشدّ الدّال – ومَعْبَدة كشَيْخ ومَشْيخة ، ومعابدُ وعِبدّاءُ – بالمدّ – وعِبدّى – مقصور – وعُبُدٌ – بضمّتين كسَقْف وسُقُف – وعَبُد – بفتح العين وضمّ الباءِ – ومعبوداءُ .

وقرأ ابن عبّاس رضى الله عنهما وابنُ مسعود وإبراهيم النَخعىّ والأَعمش وأَبان بن ثعلب والضحّاك وابن وَثّاب وعلىّ بن صالح وشيبان : ﴿ وَعُبُد الطَّاغُوتِ ﴾ مضافاً إلى الطَّاغوت ، وقرأ حَمزة بن حبيب الزّيّات ﴿ وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ ﴾ وأَضافه ، والمعنى فيما

يقال : خَدَمَ الطَّاغوت .

قيل : وليس هذا بجمع لأَن فَعْلا لا يجمع على فَعُل ، وإِنما هو اسم بُنى على فَعُل كحذُر ونَدُس .

وأَمّا قول أَوس بن حَجَر :

*أَبَنى لُبَيْنَى إِنَّ أُمّكمُ * أَمَةٌ وإِن أَباكم عَبُدُ*

فإِنَّ الفراءَ قال : إِنَّما ضمّ الباءَ ضرورة لأَنَّ القصيدة من الكامل وهى حَذَّاءَ .

وعَبْد بيّن العَبْديّة والعُبُودِيَّة والعُبُودة .

وأَصل العبوديّة الخضوع والذلّ .

وقوله تعالى : ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أَى فى حزبى .

والتعبيد : التذليل ، طريق معبَّد : مذلَّل .

وأَعْبَدَهُ : اتَّخذه عبدا .

وأَعْبَدَنى فلان فلاناً : ملَّكنى إِيّاه .

والتعبيد : الاستعباد ، وهو أَن تتخذه عبداً ، وكذلك الاعتباد .

وتَعَبَّدَنى : اتَّخذنى عبدًا .

والعبادة : الطاعة ، وهى أَبلغ من العبوديّة ، لأَنَّها غاية التَّذلُّل لا يستحقّها إِلا من له غاية الإِفضال ، وهو الله تعالى .

والعبادة ضربان : ضرب بالتسخير كما ذكرناه في السجود ، وضرب بالاختيار وهو لذى النطق ، وهو المأمور به في قوله : ﴿ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ .

والعبد يقال على أَضرب :

(276/815)

الأَوّل – عبد بحكم الشرع يباع ويبتاع ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ .

والثاني – عبد بالإِيجاد ، وذلك ليس إلاَّ لله تعالى ، وإِيّاه قصد بقوله : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْداً ﴾ .

الثالث – عبد بالعِبادةِ والخِدمة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ ، ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ .

وعبد الدنيا وأَعراضها هو المعتكف على خدمتها ومراعاتها ، وإِيّاه قصد النبيّ صلىَّ الله عليه وسلَّم بقوله : "تَعِسَ عبد الدينار ، تَعِسَ عبد الدّرهم" .

وعلى هذا النوع يصحّ أَن يقال : ليس كلّ إِنسان عبدًا لله ، فإِنَّ العبد على هذا المعنى العابد ، لكنَّ العبد أَبلغ من العابد .

والناس كلّهم عباد الله بل الأَشياء كلها ، بعضُها بالتسخير وبعضها بالتسخير والاختيار .

قال :

*سيّدى إنّنى رجوتُك وعدًا * ما تجاوزتُ فى ولائك عهدا*

*لستُ آتيك كى أكون حبيباً * فاتّخذنى لِعَبْدِ عبدِك عبدا*

قيل : ورد العَبْد والعِبادة فى القرآن على ثلاثين وجهاً :

الأَول – عامّ للمُؤمن والكَافر : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ، ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ .

2– خاصّ بالمؤْمنين : ﴿ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ، ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .

3– خاصّ بالكفار : ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ .

4– بمعنى المماليك : ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ .

5– بمعنى المطيعين : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ ﴾ .

6– بمعنى العاصين المجرمين : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ ، ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ .

7– بمعنى الأبرار والأخيار : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ .

8- بمعنى المصطَفين والمجتَبين من النّاس كالأنبياءِ وغيرهم : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، / ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ .

9- أَهل القُرْبة والكرامة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ .

10- بمعنى أُمَّة النبيّ صلىَّ الله عليه وسلَّم : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

11- بمعنى أُمَّة موسَى عليهِ السّلام : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ .

12- بمعنى الأَتقياء : ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ .

13- بمعنى أَهل الجنَّة : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَانُ عِبَادَهُ ﴾ .

14- بمعنى قوم نوح عليه السّلام : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ .

15- بمعنى الأَنبياء : ﴿ وَلَاكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

16- بمعنى المنازعينَ للأَنبياءِ : ﴿ وَلَاكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ ﴾ .

17- بمعنى مَلائكة الملكُوت : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ ﴾ ، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

18- بمعنى المخلَصِينَ المعصومين : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ .

19- بمعنى المنصورين على الأَعداءِ : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

20- بمعنى العلماءِ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

21- بمعنى المستحِقّين للبشرى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾ .

22- بمعنى أَهل الخصوص عند الوفاة ويوم القيامة : ﴿ يا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ .

(278/815)

23- بمعنى نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ .

24- بمعنى إبراهيم الخليل وأَولاده : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

25- بمعنى لوط : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ .

26- بمعنى أَيُّوب عليه السّلام : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ .

27- بمعنى داوُدَ فى مقام الأَوْبةِ والإِنَابة : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

28- بمعنى سليمان فى مقام شكر النّعمة : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ .

29- بمعنى عيسى عليه السّلام فى صفة الطهارة والتزكية : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي ﴾ الآية .

30- بمعنى سيّد المرسلين فى ساعة القربة والكرامة : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 13.8 ﴾

(279/815)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الفجر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة ما استولت على قلبي فقير فأقلقته ، وما تمكنت من سر متيم فشتته ، وما استولت على روح محب فرحمته ، كلمة قهارة للقلوب ، ولكن لا لكل قلب ، كلمة لا سبيل لها لكل عقل ، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها ، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببذل أرواحهم فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ .

الفجرُ انفجارُ الصُّبح وهو اثنان : مستطيلٌ وقصير ؛ ففي التفسير : إنه فَجْرُ المحرَّم لأنه

ابتداء السنة كلها ، وقيل : فجر ذي الحجة .

ويقال : هو الصخور ينفجر منها الماء .

ويقال : أقسم به لأنَّه وقتُ عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ قيل : هي عَشْرُ ذي الحجة ، ويقال : عَشْرُ المحرم ؛ لأن آخرها عاشوراء . ويقال : العَشْرُ الأخيرة من رمضان .

ويقال : هي العَشْرُ التي ذكرها اللَّهُ في قصة موسى عليه السلام تمَّ به ميعاده بقوله : ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ .

ويقال : هو " فجرُ " قلوبِ العارفين إذا ارتقوا عن حدِّ العلم ، وأسفر صُبْحُ معارِفهم ، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان بما تجلَّى في قلوبهم من البيان .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .

جاء في التفاسير : الشفعُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفَة .

ويقال : آدم كان وتراً فشُفِعَ بزوجته حواء .

وفي خبرٍ : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبْح .

ويقال : الشفع الزوج من العَدَد ، والوتر الفَرْدُ من العدد .

ويقال : الشفع تضادُّ أوصاف الخَلْق : كالعلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والحياة والموت .

والوتر انفرادُ صفاتِ الله سبحانه عمَّا يضادُّها ؛ علم بلا جهلٍ ، وقدرة بلا عجزٍ ، وحياة بلا موتٍ .

(280/815)

ويقال : الشفعُ الإرداة والنية ، والوتر الهِمَّة ؛ لا تكتفي بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله – لتَقَدُّسِه عن الوَصْلِ والفَصْل . . فبقيت الهِمَّةُ غريبةً .

ويقال : الشفع الزاهد والعابد ، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً ، والوترُ المريدُ فهو كما قيل :

فريدٌ من الخِلاَّنِ في كل بلدةٍ . . . إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ

﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ .

" يسري " يمضي .

قوله جل ذكره : ﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حَجْرٍ ﴾ .

" حِجْرٍ " . لُبٍّ . وجوابُ القَسَمِ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ .

ذكر قصص هؤلاء المتقدمين . . . إلى قوله : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ . أي : شدة العذاب .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

لا يفوته شيءٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

﴿ فيقول ربي أكرمني ﴾ : أي : شكَرَه .

﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ . أي : ضيَّق ، ﴿ فيقول ربي أهانني ﴾ . أي : أذلَّني . كلا . . ليس الإذلالُ بالفقر إنما بالخذلان للعصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ .

أي : أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة ؛ فلا تُكْرِمون اليتيمَ .

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ .

لَمًّا . أي شديداً .

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ .

جَمًّا أي كثيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾ .

أي : قامت القيامة .

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ .

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ أي الملائكه بأمره .

ويقال : يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

(281/815)

﴿ وَجِاْىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .

يقال : تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام .

وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسانُ . . . ولا يَنْفَعه التذكَّر ، ولا يُقْبَلُ منه العُذْرُ .

﴿ يَقُولُ يَالَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ .

أي : أطَعْتُ ربّي ونظرت لنفسي .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ .

أي : لا يعذَّب في الدنيا أحدٌ مثلما يعذِّبه الله في ذلك اليوم . . إذا قرئت الذال بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح ﴿ لا يعذب ﴾ فالمعنى : لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال : المطمئنةُ بالمعرفة : ويقال : المطمئنة بذكر الله .

ويقال : بالبشارة بالجنة . ويقال : النفس المطمئنة : الروح الساكنة .

﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴾ .

راضيةً عن الله ، مَرْضيةً من قِبَل الله .

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

أي : في عبادي الصالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 724 .

728 ﴾

(282/815)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

الإعراب :

(والفجر) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إذا) ظرف في محلّ نصب ، مجرّد من الشرط ، متعلّق بفعل القسم المحذوف (يسر) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء

المحذوفة لمناسبة الفاصلة . .

جملة : " (أقسم) بالفجر . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " يسري . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب القسم محذوف تقديره لنجازينّ كلّ امرئ بما عمل " 1 " .

---

(1) جعل بعض المعربين جواب القسم قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ .

(283/815)

الصرف :

(3) الشفع : اسم بمعنى الزوج ، ويجوز أن يكون مستعارا بمعنى الخلق ، وزنه فعل " 1 " بفتح فسكون .

(الوتر) ، اسم بمعنى المفرد . . وزنه فعل بفتح فسكون .

(4) يسر : حذفت الياء تخفيفا لتناسب الفاصلة في الآيات ، ولتناسب القراءات المشهورة .

]

سورة الفجر (89) : آية 5]

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام للتحقيق والتقرير (في ذلك) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (قسم) ،

(لذي) متعلّق بنعت لـ (قسم) وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " في ذلك قسم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الفجر (89) : الآيات 6 إلى 14]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8)

وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10)

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ

(13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)

الإعراب :

---

(1) وللشفع معان منها الصلوات ، ودرجات الجنّة ، والتضاد في أوصاف المخلوقين ، ويوم النحر ، وعشر ذي الحجّة . . وقيل آدم لأنه شفع بزوجته حواء .

(الهمزة) للاستفهام (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب

حال عامله (فعل) " 1 " ، (بعاد) متعلّق بـ (فعل) (إرم) عطف بيان على عاد – أو بدل منه – مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث (ذات) نعت لإرم مجرور (التي) موصول في محلّ جرّ نعت لإرم " 2 " ، (في البلاد) متعلّق بـ (يخلق) . .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فعل ربّك . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي الرؤية القلبية وقد علّق الفعل بالاستفهام كيف .

وجملة : " لم يخلق مثلها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

9 (الواو) عاطفة (ثمود) معطوف على عاد مجرور ، ومنع من الصرف للعلميّة والتأنيث (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت لثمود – وقد جمع الموصول تبعا لمعنى ثمود – (بالواد) متعلّق بـ (جابوا) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة لمناسبة فواصل الآيات . .

وجملة : " جابوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

10 – 14 (الواو) عاطفة (فرعون) مثل ثمود (ذي) نعت لفرعون مجرور (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت لفرعون بحذف مضاف أي قوم فرعون " 3 " ، (طغوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (في البلاد) متعلّق بـ (طغوا) ، (الفاء)

عاطفة (فيها) متعلّق بـ (أكثروا) " 4 " ، (الفاء) عاطفة

---

(1) أو في محلّ نصب مفعول مطلق عامله فعل أي ألم تر أنّ ربّك فعل فعلا عظيما بعاد . .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي ، والجملة استئناف بيانيّ . . ويجوز أن يكون مفعولا به بفعل محذوف للمدح.

(3) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم مقطوع عن الوصف للذمّ . . ويجوز أن يكون نعتا لعاد وثمود وفرعون . . .

(4) أو متعلّق بحال من فاعل أكثروا .

(285/815)

(عليهم) متعلّق بـ (صبّ) وجملة : " طغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة : " أكثروا " لا محلّ لها معطوفة على جملة طغوا .

وجملة : " صبّ عليهم ربّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أكثروا .

وجملة : " إنّ ربّك لبالمرصاد " لا محلّ لها تعليل لما تقدّم.

الصرف :

(7) إرم : اسم قبيلة ، وكان قبلا اسما لجدّ عاد فهو علم ، وزنه فعل بكسر ففتح .

(العماد) ، اسم جمع بمعنى الأبنية الرفيعة يذكّر ويؤنّث واحدته عمادة ، وفلان طويل العماد إذا كان منزله معلوما لزائره كما جاء في الصحاح . . وفي المصباح : العماد ما يسند به – وهو مفرد – والجمع عمد بفتحتين ، والعماد الأبنية الرفيعة الواحدة عمادة . . ووزن العماد فعال بكسر الفاء .

(9) جابوا : فيه إعلال بالقلب أصله جوبوا نقلا عن جاب يجوب ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

(11) طغوا : فيه إعلال بالحذف قياسه كفعل (تطغوا) – انظر الآية (113) من سورة هود – .

(13) سوط : اسم جامد بمعنى سير الجلد المتّخذ للجلد ، واستعمل في الآية على سبيل المجاز المرسل بقرينة الغائيّة أو السببيّة .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ " .

حيث شبه العذاب ، في سرعة نزوله ، بالشيء المصبوب ، واستعمل الصب وهو خاص بالماء . وتسمية ما أنزل سوطا ، للإيذان بأنه ، على عظمه ، بالنسبة إلى ما أعد لهم من الآخرة ، كالسوط بالنسبة إلى سائر ما يعذب به .

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ " .

حيث شبه ، كونه تعالى حافظا لأعمال العصاة ، مترقبا لها ، ومجازيا على نقيرها وقطميرها ، بحيث لا ينجو منه سبحانه أحد – بحال من قعد على الطريق ، مترصدا لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد .

الفوائد

(286/815)

– (ثمود) الممنوع من الصرف ، هو : الاسم الذي لا ينوّن ، ويجر بالفتحة نيابة عن الكسرة إلا إذا أضيف أو دخلته (أل) فإنه يجر بالكسرة .

والأسماء التي تمنع من الصرف يمكن ترتيبها على النحو التالي :

أولا : ما منع الصرف لعلة واحدة وهو نوعان :

آ – ما ختم بألف التأنيث المقصورة أو الممدودة ، مثل : (ليلى – سلمى – صحراء) .

ب – ما جاء على صيغة منتهى الجموع أي ما جاء على وزن (مفاعل أو مفاعيل) وهي كل جمع ثالثة ألف زائدة بعدها حرفان أو ثلاثة وسطها ساكن ، مثل : (مررت بمساجد دمشق) .

ثانيا : ما منع الصرف لعلتين اثنتين وهو نوعان : علم وصفة :

آ – أما العلم فيمنع من الصرف في المواضع الستة الآتية :

1 – إذا كان علما مؤنثا .

2 – إذا كان علما أعجميّا زائدا على ثلاث أحرف ، مثل إدريس – إبراهيم – سقراط 3 – أن يكون علما على وزن الفعل ، مثل : (يثرب) 4 – أن يكون مركبا تركيبا مزجيا غير مختوما بـ (ويه) 5 – أن يكون علما على وزن فعل ، نحو : (عمر) 6 – أن يكون علما مزيدا في آخره ألف ونون ، مثل : (عثمان) بـ – وأما الصفة فتمنع من الصرف في المواضع الثلاثة الآتية :

1 – أن تأتي الصفة على وزن (أفعل) والمؤنث فعلاء ، نحو (أفضل) .

2 – أن تأتي الصفة على وزن (فعلان) والمؤنث (فعلى) ك (عطشان ، عطشى)

3 – أن تكون صفة من الألفاظ الآتية : مثل : لفظ (أخر) ك (فعدة من أيام أخر) ومثل لفظ (مثنى وثلاث)

[سورة الفجر (89) : الآيات 15 إلى 16]

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (16)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل لحالات الإنسان (الإنسان) مبتدأ مرفوع (ما) زائدة (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب أمّا ، و(النون) في (أكرمن) للوقاية جاءت قبل ياء المتكلّم التي حذفت لمناسبة الفاصلة .

جملة : " أمّا الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الشرط إذا وفعله وجوابه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة على نيّة التأخير .

وجملة : " ابتلاه ربّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب أمّا – وهو خبر المبتدأ – .

وجملة : " أكرمه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ابتلاه ربّه .

وجملة : " نعّمه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ابتلاه ربّه .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الإنسان) " 1 " .

وجملة : " ربّي أكرمن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أكرمن . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ربّي) .

---

(1) وأصل التركيب : مهما يكن فالإنسان يقول . . .

16 - (الواو) عاطفة (أمّا إذا . . . أهانن) تعرب كالأولى مفردات وجملا " 2 " ، (عليه) متعلّق بـ (قدر) .

[سورة الفجر (89) : الآيات 17 إلى 20]

كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر عن المفهوم السابق (بل) للإضراب الانتقاليّ (لا) نافية في الموضعين ، وحذفت إحدى التاءين من (تحاضّون) ، (على طعام) متعلّق بـ (تحاضّون) ، (أكلا) مفعول مطلق منصوب ، ومثله (حبّا) وهو نائب عن المصدر لأنه اسم مصدر . .

جملة : " لا تكرمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تحاضّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " تأكلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

---

(2) ويلاحظ أن جملة : يقول . . هي خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي الإنسان . . .

وجملة : " تحبّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(18) تحاضّون : فيه حذف إحدى التاءين ، أصله تتحاضّون .

(طعام) ، اسم مصدر بمعنى إطعام من الرباعيّ أطعم ، وإذا كان بمعنى ما يؤكل فهو جامد بحذف مضاف أي بذل طعام المسكين .

(19) التراث : اسم لما يتركه الميّت من الميراث . . وفيه إبدال الواو تاء ، أصله الوراث تخفيفا للفظ مثل تجاه وتخمة . . وزنه فعال بضمّ الفاء .

(أكلا) مصدر سماعيّ للثلاثيّ أكل ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(لمّا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ لمّ بمعنى جمع ، استعمل في الآية استعمال الصفة مبالغة أي الجمع الكثير .

(20) جمّا : صفة مشبّهة من الثلاثيّ جمّ الشيء – بالرفع – أي كثر باب ضرب ، وهو أيضا مصدر سماعيّ للفعل وصف به مبالغة . . وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة الفجر (89) : الآيات 21 إلى 24]

كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (23) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (24)

الإعراب :

(كلّا) لردع الكافرين عن جمع المال والبخل به (إذا) ظرف في محلّ نصب متعلّق بالجواب يتذكّر (دكّا) مفعول مطلق منصوب ، والثاني توكيد للأول منصوب ومثله (صفّا) ، (يومئذ) ظرف مضاف إلى اسم ظرفيّ ، منصوب – أو مبنيّ – بدل من إذا (بجهنّم) نائب الفاعل لفعل (جيء) ، (يومئذ) توكيد للأول (الواو) حاليّة – أو اعتراضيّة – (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الذكرى) ، (له) متعلّق بالخبر المقدّم (يا) للتنبيه (لحياتي) متعلّق بـ (قدّمت) . .

جملة : " دكّت الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(290/815)

وجملة : " جاء ربّك – أي أمره – " في محلّ جرّ معطوفة على جملة دكّت .

وجملة : " جيء . . . بجهنّم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة دكّت .

وجملة : " يتذكّر الإنسان " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أنّى له الذكرى . . . " في محلّ نصب حال – أو اعتراضيّة لا محلّ لها – .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " ليتني قدّمت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قدّمت . . . " في محلّ رفع خبر ليت .

البلاغة

فن الإفراط في الصفة : في قوله تعالى " وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا " وهذا الفن هو أن يذكر المتكلم حالا ، لو وقف عندها ، لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده .

وفي الآية الكريمة ، لو أنه قال : صفا ووقف لأجزأه ذلك ، ولكن لم يقف عنده ، بل تعداه ليكون الكلام أبلغ .

الفوائد :

– حذف الاسم المضاف :

وورد ذلك في الآية التي نحن بصددها (وَجاءَ رَبُّكَ) أي أمر ربك . وكذلك قوله تعالى (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ) أي (أتى أمر اللّه) . ومن حذف المضاف ما نسب فيه حكم شرعي إلى ذات ، لأن الطلب لا يتعلّق إلا بالأفعال ، كقوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ) أي استمتاعهن ، (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) أي أكلها ، (حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ) أي تناولها .

ومن ذلك ما علق فيه الطلب بما قد وقع ، كقوله تعالى : (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) أي بمضمونها ، (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) أي بمقتضاه ، ومنه (وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها) أي أهل القرية وأهل العير ، (وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً) أي أهل مدين ، (وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها) أي أهل قرية ومن ذلك نيابة المصدر عن الزمان ، كقولنا :

---

(1) أو هي بدل اشتمال من جملة يتذكّر .

(291/815)

جئتك طلوع الشمس ، أي وقت طلوعها وقولك : أفطرت غروب الشمس ، أي وقت غروبها ، أما لو قلت (جئتك مقدم الحاج) فهنا لم ينب المصدر عن الزمان لأن (مقدم) اسم لزمن القدوم .

[سورة الفجر (89) : الآيات 25 إلى 26]

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (25) وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (26)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (يومئذ) متعلّق بـ (يعذّب) المنفيّ ، (عذابه) مفعول مطلق نائب عن المصدر - هو اسم مصدر - والضمير يعود على اللّه المفهوم من سياق الآية (وثاقه) مثل

عذابه "

. .

جملة : "لا يعذّب . . . أحد "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يوثق . . . أحد "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(وثاقه) ، إمّا اسم مصدر من الرباعيّ أوثق بمعنى الإيثاق ، أو هو اسم جامد بمعنى القيد أو الحبل ، وزنه فعال بفتح الفاء . . وانظر الآية (4) من سورة القتال أي (محمّد) .

[سورة الفجر (89) : الآيات 27 إلى 30]

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)

الإعراب :

(أيتها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب ، و(ها) للتنبيه (النفس) بدل من أيتها - أو عطف بيان - تبعه في الرفع لفظا (إلى ربّك) متعلّق بـ (ارجعي) ، (راضية) حال منصوبة من فاعل ارجعي ،

---

(1) أو هو مفعول به إذا كان الوثاق بمعنى القيد أو الحبل ونحوه . [. . . . .]

وكذلك (مرضيّة) ، (الفاء) عاطفة (في عبادي) متعلّق بـ (ادخلي) بحذف مضاف أي في زمرة عبادي . .

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " ارجعي . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ادخلي (الأولى) " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " ادخلي (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

الصرف :

(28) مرضيّة : مؤنّث مرضيّ ، اسم مفعول من الثلاثيّ رضي ، وزنه مفعول ، وفيه إعلال بالقلب أصله مرضوي – بياء في آخره – اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو إلى ياء وأدغمت مع الياء الأخرى ، ثمّ كسر ما قبل الياء للمناسبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 30 صـ 319. 329 ﴾

---

(1) أو هي مقول القول لقول مقدّر أي يقول اللّه تبارك وتعالى للنفس المؤمنة : يا أيّتها النفس . . .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(89) سورة الفجر

مكيّة وآياتها ثلاثون

[سورة الفجر (89) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (4)

هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (6) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (7)

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (9)

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (12)

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (14)

اللغة :

(الشَّفْعِ) الزوج من العدد يقال : أشفع هو أم وتر أي أزوج أم فرد ويجمع على أشفاع وشفاع ، ومصدر شفع يشفع من باب فتح شفعا الشيء أي صيّره شفعا أي زوجا بأن يضيف إليه

مثله يقال : كان وترا فشفعه بآخر أي قرنه به ، وفي القاموس : " الشفع خلاف الوتر وهو الزوج وقد

شفعه كمنعه ويوم الأضحى وقيل في قوله تعالى : والشفع والوتر هو الخلق لقوله تعالى ومن كل شيء خلقنا زوجين أو هو اللّه عزّ وجلّ لقوله تعالى : ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم " .

(الْوَتْرِ) في القاموس " الوتر بالكسر ويفتح الفرد أو ما لم يتشفع من العدد ويوم عرفة " .

وقال أبو حيان : " والشفع والوتر ذكر في كتاب التحرير والتحبير فيها ستة وثلاثين قولا ضجرنا من قراءتها فضلا عن كتابتها في كتابنا هذا " .

وقال الزمخشري : " وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون معظم ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه " .

(294/815)

(حِجْرٍ) عقل ، وسمّي العقل بذلك لأنه يحجر صاحبه عمّا لا يحلّ ولا ينبغي كما سمي عقلا لأنه يعقل صاحبه عن القبائح وينهاه ولأنه ينهى عمّا لا يحلّ ولا ينبغي ، وأصل الحجر المنع وقد تقدم القول في هذه المادة ، وقال ابن خالويه : " هل في ذلك حجر أي لذي عقل ولذي

لب " والحجر ديار ثمود وحجر الكعبة والفرس الأنثى .

(جابُوا) قطعوا وفي المختار " وجاب خرق وقطع وبا به قال ومنه قوله تعالى وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وجبت البلاد بضم الجيم من باب قال وباع وأجبتها قطعتها " .

الإعراب :

(وَالْفَجْرِ وَلَيالٍ عَشْرٍ) الواو حرف قسم وجر والفجر مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بأقسم والواو حرف عطف وليال عطف على

الفجر مجرور وعلامة جرّه الفتحة نيابة عن الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين . وقد أشار ابن مالك إلى هذه القاعدة الهامة بقوله :

وكن لجمع مشبه مفاعلا أو المفاعيل بمنع كافلا

أي إن الجمع المشبه مفاعيل أو المفاعيل في كونه مفتوح الفاء وثالثه ألف بعدها حرفان كمفاعل أو ثلاثة أحرف أوسطها ساكن كمفاعيل يمتنع صرفه لقيام الجمع فيه مقام علتين وهي الجمع وعدم النظير في الواحد وشمل قوله مفاعل ما أوله الميم كمساجد أو ما أوله غيرها كدراهم وشمل قوله المفاعيل ما أوله ميم كمصابيح أو ما أوله غيرها كدنانير ثم أن من هذا الجمع ما يجيء معتل اللام وهو قسمان أحدهما ما قلبت فيه الكسرة التي بعد الألف فتحة فانقلبت الياء ألفا نحو عذارى ولا إشكال في منع التنوين والآخر ما استثقلت

في بابه الفتحة فحذفت ولحقها التنوين وإلى ذلك أشار بقوله :

وذا اعتلال منه كالجواري رفعا وجرّا أجره كساري

(295/815)

يعني أن ما كان من الجمع المعتل اللام مثل جوار في كونه على ما ذكر من حذف الحركة يجري مجرى سار في لحاق التنوين بآخره في حالة الرفع والجر فتقول هذه جوار ومررت بجوار ، وسكت عن حالة النصب ففهم أنه على الأصل كالصحيح فتقول رأيت جواري .

وعشر نعت لليال ، قالوا وأراد بالليالي العشر عشر ذي الحجة وجاءت منكرة لفضيلتها على غيرها من ليالي السنة وقيل هي العشر الأواخر من رمضان وقيل العشر الأول من المحرم (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ) منسوق على الفجر وليال وكذلك الوتر والليل وإذا ظرف متعلق بفعل القسم المحذوف أو بفعل قسم مقدر وعلى ذلك جرى أبو البقاء ، أي أقسم

(296/815)

بالليل وقت سراه ، ويسري فعل مضارع مأخوذ من السرى وهو خاص بسير الليل وقد تقدم وقال في المصباح : " سريت الليل وسريت به سرى والاسم السراية إذا قطعته بالسير وأسريت بالألف لغة حجازية ويستعملان متعديين بالباء إلى مفعول فيقال سريت بزيد وأسريت به والسرية بضم السين وفتحها أخصّ يقال سرينا سرية من الليل وسرية والجمع السّرى مثل مدية ومدى ، قال أبو زيد ويكون السرى أول الليل وأوسطه وآخره وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيها لها بالأجسام مجازا واتساعا قال اللّه تعالى : والليل إذا يسر والمعنى إذا يمضي ، وقال البغوي : إذا سار وذهب وقال الفارابي : سرى فيه السم والخمر ونحوهما وقال السرقسطي : سرى عرق السوء في الإنسان وزاد ابن القطاع على ذلك ، وسرى عليه الهمّ آتاه ليلا وسرى همّه : ذهب ، وإسناد الفعل إلى المعاني كثير في كلامهم نحو : طاف الخيال وذهب الهم وأخذه الكسل والنشاط وقول الفقهاء سرى الجرح إلى النفس معناه دام ألمه حتى حدث منه الموت وقطع كفّه فسرى إلى ساعده أي تعدّى أثر الجرح وسرى التحريم وسرى العتق بمعنى التعدية وهذه الألفاظ جارية على ألسنة الفقهاء وليس لها ذكر في الكتب المشهورة لكنها موافقة لما تقدم " هذا وقد حذف بعض القرّاء ياء يسر وقفا وأثبتوها وصلا وأثبتها بعضهم في الحالين وحذفها بعضهم في الحالين لسقوطها في خط المصحف الكريم وموافقة رؤوس الآي ، وعبارة ابن خالويه : " وكان الأصل يسري فحزلوا الياء لأن تشبه رؤوس الآي التي قبلها فمن القراء من

يثبت الياء على الأصل ومنهم من يحذفها اتباعا للمصحف " (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) معنى الاستفهام هنا التفخيم والتعظيم للأمور المقسم بها وفي ذلك خبر مقدم وقسم مبتدأ مؤخر ولذي حجر نعت وعلى ذلك تكون هل وما في حيّزها جواب القسم وقيل هي للتقرير كقولك ألم أنعم عليك إذا كنت قد أنعمت والجواب على هذا محذوف

(297/815)

مضمر وتقديره لنجازينّ كل أحد بما عمل وقدّره الزمخشري لتعذبنّ وقيل الجواب مذكور وهو إن ربك لبالمرصاد ، وعبارة السمين : " وقال مقاتل هل هنا في موضع إن تقديره إن في ذلك قسما لذي حجر فهل على هذا في موضع جواب القسم ، وهذا قول باطل لأنه لا يصلح أن يكون مقسما عليه على تقدير تسليم أن التركيب هكذا وإنما ذكرته للتنبيه على سقوطه " (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ ، إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ) الهمزة للاستفهام التقريري أي قد رأيت لأن المراد بالرؤية هنا رؤية القلب وهي العلم ، عبّر عنه بالرؤية لكونه علما ضروريا مساويا في الجلاء والبيان للمشاهدة والعيان ، ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وكيف اسم استفهام في موضع نصب بفعل على أنه مصدر واختاره الزمخشري وابن هشام في المغني والمعنى أي فعل فعل ربك وأعربه

ابن خالويه حالا قال "كيف استفهام عن الحال " ولكنه ممتنع لأنه إذا أعرب حالا يكون من الفاعل ووصفه تعالى بالكيفية مستحيل وغير جائز والجملة المعلقة بكيف الاستفهامية سدّت مسدّ مفعولي تر . وفعل ربك فعل ماض وفاعل وبعاد متعلقان بفعل وإرم بدل أو عطف بيان من عاد ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث وهذا الابدال إيذان بأنهم عاد الأولى القديمة وقيل إرم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا فيها ، وعبارة أبي البقاء : " إرم لا ينصرف للتعريف والتأنيث قيل هو اسم قبيلة فعلى هذا يكون التقدير إرم صاحب ذات العماد لأن ذات العماد مدينة وقيل ذات العماد وصف كما تقول القبيلة ذات الملك وقيل إرم مدينة فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب إرم ويقرأ بعاد إرم بالإضافة فلا يحتاج إلى تقدير ويقرأ إرم ذات العماد بالجر على

(298/815)

الإضافة " وذات العماد نعت لإرم أي الطول ، قال الزمخشري : " وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين أهل عمد أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة ومنه

قوله رجل معمد وعمّدان إذا كان طويلا وقيل ذات البناء الرفيع وإن كانت صفة للبلدة

فالمعنى أنها ذات أساطين " وسيأتي تلخيص لقصتها الرائعة في باب الفوائد والتي صفة ثانية لإرم وجملة لم يخلق صلة التي ومثلها نائب فاعل يخلق وفي البلاد متعلقان بيخلق وقرىء يخلق بالبناء للمعلوم فتكون مثلها مفعولا به (وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ) الواو عاطفة وثمود عطف على عاد والذين نعت لثمود وجملة جابوا صلة الذين والصخر مفعول به وبالوادي متعلقان بجابوا والباء للظرفية فهي بمعنى في وحذفت الياء لأنها من ياءات الزوائد (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ) عطف على عاد وذي الأوتاد نعت لفرعون كان يدق للمعذب أربعة أوتاد ويشدّه بها مسطوحا على الأرض ثم يعذبه بما يريد من ضرب وإحراق وغيرهما ، وفي المصباح : " الوتد بكسر التاء في لغة الحجاز وهي الفصحى وجمعه أوتاد وفتح التاء لغة وأهل نجد يسكنون التاء فيدغمون بعد القلب فيبقى ود ووتد الوتد أتده وتدا من باب وعد أثبته بحائط أو بالأرض وأوتدته بالألف لغة " (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ) الذين إما مجرور على أنه صفة للمذكورين أو منصوب على الذم ، قال الزمخشري : " أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذم ويجوز أن يكون مرفوعا على هم الذين طغوا أو مجرورا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون " وجملة طغوا صلة الذين وفي البلاد متعلقان بطغوا (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ) الفاء عاطفة وصبّ فعل ماض مبني على الفتح وعليهم متعلقان بصبّ وربك فاعل وسوط عذاب مفعول به ، وسيأتي معنى هذا التعبير في

باب البلاغة (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ) الجملة لا محل لها لأنها تعليل لما قبلها وإن واسمها واللام المزحلقة وبالمرصاد متعلقان بمحذوف خبر إن وسيأتي معناها أيضا في باب البلاغة.

البلاغة:

1- في قوله "فصبّ عليهم ربك سوط عذاب" استعارة مكنية، فقد استعمل الصب وهو خاص بالماء لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب قال:

فصبّ عليهم محصرات كأنها شآبيب ليست من سحاب ولا قطر

وقال آخر في وصف الخيل:

صببنا عليهم ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

واستعار السوط للعذاب لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، وعبارة الزمخشري جميلة في بابها قال: "يقال صبّ عليه السوط وغشاه وقنعه، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحلّه بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به" والسوط كما في القاموس هو الخلط أو أن تخلط شيئين في إنائك ثم تضربهما بيدك حتى يختلطا كالتسويط والمقرعة لأنها تخلط اللحم

بالدم والجمع سياط وأسواط وقال الفراء : " هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى لكل عذاب إذا كان في غاية العذاب " .

2- وفي قوله " إن ربك لبالمرصاد " استعارة تمثيلية ، شبّه كونه تعالى حافظا لأعمال العباد مراقبا عليها ومجازيا على ما دقّ وجلّ منها بحيث لا ينجو منه بحال من قعد على الطريق مترصدا لمن يسلكها ليأخذه فيوقع به ما يريد ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر .

الفوائد :

(300/815)

خضعت القصة القرآنية في موضوعها وطريقة عرضها وإرادة حوادثها وتسلسل مشاهدها لمقتضيات الأغراض الدينية ، وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات متعددة ، ولكن هذا الخضوع الكامل للأغراض الدينية ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء لم يمنعا بروز الخصائص الفنية في عرضها ولا سيما في التصوير وهو أبرز خصائص القرآن ، وقد كنّا نودّ لو نقلنا لك قصة ذات العماد كما نقلها الرواة والمفسرون ولكن الأمر يطول فحسبنا أن ننقل

لك خلاصتها لتلمح على ضوء تلك الخلاصة خصائصها الفنية ثم نحيلك على المطوّلات

فقد رووا أنه كان لعاد ابنان وهما شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد فخلص الأمر لشداد وملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال: سأبني مثلها فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة أضفى عليها الخيال تهاويل من الوصف الرائع فقصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطّردة، ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته فلما كان على مسيرة يوم وليلة بعث اللّه عليهم صيحة من السماء فهلكوا،

وعن عبد اللّه بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقصّ

عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر ابن أبي قلابة فقال: هذا واللّه ذلك الرجل. وعلى كل حال ليس لهذه أصل ديني تستند إليه، وقد أدخلت خرافات مختلفة ونسجت أقاصيص منحولة وأساطير مفتعلة في تفسير كتاب اللّه سبحانه.

[سورة الفجر (89): الآيات 15 إلى 30]

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (16) كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمًّا (19)

وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى (23) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (24)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (25) وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (26) يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (29)

وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)

اللغة :

(التُّراثَ) الميراث والتاء بدل من الواو لأنه من الوراثة كما قالوا في تجاه وتخمة وتكأة .

(لَمًّا) جمعا وفي المختار : " أكلا لما فعله من باب رد يقال : لم اللّه شعثه أي أصلح وجمع ما تفرق من أمره " وقال أبو عبيدة : لممت ما على الخوان إذا أكلت جميع ما عليه بأسره وقال الحطيئة :

إذا كان لما يتبع الذّم ربه فلا قدّس الرحمن تلك الطواحنا

ومنه لممت الشعث ، قال النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أيّ الرجال المهذب

(وَثَاقَهُ) في المصباح : " وثق الشيء بالضم وثاقه قوي وثبت فهو وثيق ثابت وأوثقته جعلته وثيقا والوثاق بفتح الواو وكسرها القيد والحبل ونحوه والجمع وثق مثل رباط وربط " .

الإعراب :

(302/815)

(فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) الفاء استئنافية ومفهوم كلام الزمخشري أنها عاطفة قال : " فإن قلت بم اتصل قوله فأما الإنسان ؟ قلت بقوله : إن ربك بالمرصاد كأنه قيل إن اللّه لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة وهو مرصد بالعقوبة للعاصي فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها " وفي كلامه نفحة اعتزالية واضحة . وأما حرف شرط وتفصيل والإنسان مبتدأ وإذا ظرف متعلق بيقول وما زائدة وجملة ابتلاه في محل

(303/815)

جر بإضافة الظرف إليها وربه فاعل ، فأكرمه عطف على ابتلاه ونعمه عطف أيضا والفاء رابطة لما في أما من معنى الشرط وجملة يقول خبر الإنسان ولا يمتنع تعلق الظرف بيقول الواقعة خبرا لأن الظرف في نيّة التأخير والتقدير فأما الإنسان فقائل ربي أكرمني وقت الابتلاء وربي مبتدأ وجملة أكرمني خبر وحذفوا الياء من أكرمن اختصارا (وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ) عطف على الجملة السابقة وإعرابها كإعرابها (كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ) كلا حرف ردع وزجر للإنسان عن قوله وبل حرف إضراب من قبيح إلى أقبح للترقي في ذمّهم ، ولا نافية وتكرمون اليتيم فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به ولا تحاضّون عطف على لا تكرمون وعلى طعام المسكين متعلقان بتحاضّون (وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا) عطف أيضا والتراث مفعول تأكلون وأكلا مفعول مطلق ولما صفة ، وتحبون المال حبّا جمّا عطف أيضا مماثل للجملة السابقة في الإعراب (كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) كلا حرف ردع وزجر لهم عن ذلك كله وإذا ظرف متعلق بيتذكر وجملة دكّت في محل جر بإضافة الظرف إليها والأرض نائب فاعل ودكّا دكّا مصدران في موضع الحال على رأي أبي حيان والزمخشري وليس الثاني تأكيدا بل التكرار للدلالة على الاستيعاب كقرأت النحو بابا بابا ، وأعرب ابن خالويه دكّا الأول مصدرا والثاني تأكيدا وليس بعيدا (وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ

صَفًّا صَفًّا) عطف على ما تقدم وجاء ربك فعل وفاعل والملك عطف على ربك وصفّا صفّا حال أي مصطفين أو ذوي صفوف وهو المسوغ لمجيء الحال جامدا هو الترتيب وضابطه أن يأتي التفصيل بعد ذكر المجموع بجزأيه مكررا ، قال الرضي : وفي نصب الجزء الثاني خلاف ذهب الزجّاج إلى أنه توكيد

(304/815)

و ذهب ابن جنّي إلى أنه صفة وذهب الفارسي إلى أنه منصوب بالأول لأنه لما وقع موقع الحال جاز أن يعمل قال المرادي والمختار أنه

وما قبله منصوبان بالعامل الأول لأن مجموعهما هو الحال ونظيره في الخبر هذا حلو حامض ولو ذهب ذاهب إلى أن نصبه بالعطف على تقدير حذف الفاء والمعنى بابا فبابا وصفّا فصفّا لكان مذهبا حسنا ، ونص أبو الحسن على أنه لا يجوز أن يدخل حرف العطف في شيء من المكررات إلا الفاء وخاصة (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى) الواو عاطفة وجيء فعل ماض مبني للمجهول ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله متعلق بجيء وبجهنم في موضع رفع نائب فاعل ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله وهو بدل من إذا وجملة يتذكر الإنسان لا محل لها لأنها جواب إذا والواو حالية وأنى اسم استفهام معناه

النفي في محل نصب ظرف مكان وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وله متعلقان بما تعلق به الظرف والذكرى مبتدأ مؤخر ولا بدّ من تقدير حذف المضاف أي ومن أين له منفعة الذكرى وإلا فبين يتذكر وأنى له الذكرى تناف وتناقض (يَقُولُ : يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) الجملة بدل اشتمال من جملة يتذكر أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول ، ويا حرف تنبيه أو المنادى محذوف وليتني ليت واسمها وجملة قدمت خبرها ولحياتي متعلقان بقدمت وجملة النداء مقول القول (فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) الفاء عاطفة ويومئذ ظرف متعلق بيعذب والتنوين عوض عن جملة تفيد ما تقدم من هول الموقف ولا نافية ويعذب فعل مضارع مبني للمعلوم وعذابه مفعول مطلق والضمير في عذابه يعود إلى الله ،

(305/815)

والعجب من ابن خالويه فقد أعربها مفعولا به ولا أدري ما هي وجهة نظره ، وأحد فاعل يعذب وقرىء يعذب بالبناء للمجهول فيكون أحد نائب فاعل والضمير في عذابه يعود على الكافر وعبارة القرطبي بهذا الصدد هي : " فيومئذ لا يعذب عذابه أحد " أي لا يعذب كعذاب اللّه أحد ولا يوثق لوثاقه أحد والكناية ترجع إلى اللّه تعالى وهو قول ابن عباس

والحسن وقرأ الكسائي

لا يعذب ولا يوثق بفتح الذال والتاء أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب اللّه الكافر يومئذ ولا يوثق كما يوثق الكافر . وقوله ولا يوثق إلخ عطف على الجملة السابقة ويقال في إعرابها ما قيل في الأولى وقد أورد ابن خالويه بحثا طريفا ننقله فيما يلي : " ولا يوثق نسق على يعذب والمصدر أوثق يوثق إيثاقا فهو موثق فإن قال قائل : هل يجوز همز يوثق كما همز يؤمن فقل ذلك غير جائز لأن أوثق فاء الفعل منه مثل أوفض يوفض وأسرع يسرع وأورى يوري وأوقد يوقد كل ذلك غير مهموز قال اللّه عزّ وجلّ : إلى نصب يوفضون والنار التي تورون وإنما يهمز من هذا ما كانت فاء الفعل منه همزة نحو آمن يؤمن لأن الأصل أأمن فاستثقلوا همزتين في أول كلمة فلينت الثانية فاعرف ذلك وإن كانت فاء الفعل ياء مثل أيسر وأيقن وأيفع الغلام انقلبت الياء واوا في المضارع لانضمام ما قبلها وسكونها ولم يجز أيضا همزها نحو يوقنون ويوفع الغلام ويوسر ، وحدّثني أبو الحسن المقرئ قال : روى أبو خليفة البصري عن المازني عن الأخفش قال سمعت أبا حية النميري يقول : يؤقنون مهموزة وأبو حيّة الذي يقول :

إذا مضغت بعد امتناع من الضحى أنابيب من عود الأراك المخلّق

سقت شعب المسواك ماء غمامة فضيضا بجادي العراق المروّق

غير أن من العرب من يهمز ما لا يهمز تشبيها بما يهمز كقولهم حلأت السويق ورثأت الميت ، وحدّثني أحمد عن علي عن أبي عبيدة قال : قرأ الحسن ولا أدرأكم به مهموزا وهو غلط عند أهل النحو لأنه من دريت " (يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً) الجملة في موضع نصب بقول محذوف أي يقول اللّه للمؤمن ، ويا حرف نداء وأية منادى نكرة مقصودة مبني على الضم وقد مرّت نظائره كثيرا والهاء للتنبيه والنفس بدل والمطمئنة نعت للنفس وارجعي فعل أمر مبني

على حذف النون والياء فاعل وإلى ربك متعلقان بارجعي وراضية مرضية حالان

(فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) نسق على ارجعي وفي عبادي متعلقان بادخلي وادخلي في جنتي عطف أيضا أي انتظمي في سلكهم وادخلي جنتي معهم .

البلاغة :

في قوله " وجاء ربك والملك صفّا صفّا " فن الإفراط في الصفة كما سمّاه ابن المعتز ، وسمّاه قدامة المبالغة ، وسمّاه غيرهما التبليغ ، والمشهورة تسمية قدامة وعرّفه بقوله : هو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده ، وهي على ضروب شتى ومنها إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة والإخبار عنه مجاز كقول من رأى موكبا عظيما أو جيشا خضما جاء الملك

نفسه وهو يعلم أن ما جاء جيشه فقد جعل في الآية مجيء جلائل آياته مجيئًا له سبحانه .

الفوائد :

(307/815)

1- أيها وأيتها : قرأ الجمهور " يا أيتها النفس " بتاء التأنيث وقرأ زيد بن علي يا أيها بغير تاء ولا نعلم أحدا ذكر أنها تذكّر وإن كان المنادى مؤنثا إلا صاحب البديع ، وهذه الآية شاهدة بذلك ، ولذلك وجه من القياس وذلك أنه لم يثن ولم يجمع في نداء المثنى والمجموع فكذلك لم يذكّر في نداء المؤنث ، وأي وأية مبنيان على الضم لكون كلّ منهما منادى مفردا وهاء التنبيه فيهما زائدة لازمة للفظ أي وأية عوضا عن المضاف إليه مفتوحة الهاء .

2- كيف يتعدى " دخل " : إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي تعدّت إليه " دخل " بفي نحو دخلت في الأمر ودخلت في غمار الناس ومنه فادخلي في عبادي أي في جملة عبادي الصالحين وإذا كان المدخول فيه ظرفا حقيقيا تعدّت إليه في الغالب بغير وساطة " في " ومنه : وادخلي جنتي ، وعلى كل حال تعرب جنتي مفعولا به على السعة لأنه في الأصل لا يتعدى بنفسه كما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 479.465﴾

(308/815)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/816)

الجزء السادس عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة البلد)

(4/816)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة البلد)

(5/816)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة البلد

مقصودها الدلالة على نفي القدرة عن الإنسان ، وإثباتها لخالقه الديان ن بذكر المخلص منها ، الموصل إلى السعادة في الآخرة ، وهو ما هدى إليه ربه سبحانه ، وذلك هو معنى

اسمها ، فإن من تأمل أمان أهل الحرم وما هم فيه من الرزق والخير على قلة الرزق ببلدهم – مع ما فيه غيرهم ممن هم أكثر منهم وأقوى – من الخوف والجوع علم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 425 ﴾

(6/816)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . لا أقسم بهذا البلد)

السّورة مكّيّة .

وآياتها عشرون .

وكلماتها اثنتان وثمانون .

وحروفها ثلاثمائة وإحدى وخمسون .

فواصل آياتها (هدنا) .

سمّيت سورة البلد ؛ لمفتتحها ، وسورة العقَبَة ، لقوله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : تشريف مكَّة بحكم القَسَم بها ، وشدّة حال الأَدنى ، والخبر من

سرّه وعلانيته ، والمِنَّة عليه بالنعم المختلفة ، وتهويل عَقَبَة الصِّراط وبيان النجاة منها ، ومدح المؤمنين وصبرهم على البلاءِ ، ورحمة بعضهم بعضاً ، وخلود الكفَّار فى النَّار فى قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .

السّورة محكمة .

ومن المتشابهات قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهذا الْبَلَدِ ﴾ ثم قال ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهذا الْبَلَدِ ﴾ كرّره وجعله [فاصلا] فى الآيتين .

وقد سبق القول فى مثل هذا ، وممَّا ذكر فى هذه السّورة على الخصوص أَنَّ التقدير : لا أُقسم بهذا البلد وهو حَرَام وأَنت حِلّ بهذا البلد وهو حلال ؛ لأَنَّه أُحِلَّت له مكَّة حتى قيل فيها : مَن شاءَ قاتل فلما اختلف معناه صار كأَنه غير الأَوّل ، ودخل فى القِسْم الذى يختلف معناه ويتَّفق لفظه .

فضل السّورة

فيه حديثان من نحو ما سبق : مَنْ قرأَها أَعطاه الله الأَمن من غُصّة يوم القيامة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها قام من قبره ، وعليه جناحات خضراوان ، فيطير إلأى الجنَّة ، وله بكلّ آية ثواب القانتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 520 .

﴿ 521

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة البلد

سميت هذه السورة في ترجمتها عن (صحيح البخاري) : (سُورَةَ لا أقسم) وسميت في المصاحف وكتب التفسير (سورة البلد) . وهو إما على حكاية اللفظ الواقع في أولها ، وإما لإِرادة البلد المعروف وهو مكة .

وهي مكية وحكى الزمخشري والقرطبي الاتفاق عليه واقتصر عليه معظم المُفسرين وحكَى ابن عطية عن قوم : أنها مدنية . ولعل هذا قول من فسر قوله : (وأنت حل بهذا البلد ((البلد : 2) أن الحل الإِذن له في القتال يوم الفتح وحَمل) وأنت حل (على معنى : وأنت الآن حلّ ، وهو يرجع إلى ما روى القرطبي عن السدّي وأبي صالح وعزي لابن عباس . وقد أشار في (الكشاف) إلى إبطاله بأن السورة نزلت بمكة بالاتفاق ، وفي رده بذلك مصادرة ، فالوجه أن يُرد بأن في قوله : (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد إلى قوله : فلا اقتحم العقبة ((البلد : 5 11) ضمائر غيبة يتعين عودها إلى الإِنسان في قوله : (لقد خلقنا الإنسان في كبد ((البلد : 4) وإلا لخلت الضمائر عن معاد . وحكى في (الإِتقان) قولاً أنها مدنية إلا الآيات الأربعَ من أولها .

وقد عُدت الخامسة والثلاثين في عدد نزول السور ، نزلت بعد سورة ق وقبل سورة الطارق

.

وعدد آيها عشرون آية .

أغراضها

حوت من الأغراض التنويه بمكة . وبمُقام النبي (صلى الله عليه وسلم) بها . وبركته فيها وعلى أهلها .

(8/816)

والتنويهَ بأسلاف النبي (صلى الله عليه وسلم) من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل أو من أتباع الحنيفية مثل عَدنان ومُضر كما سيأتي .

والتخلصَ إلى ذَم سيرة أهل الشرك . وإنكارهم البعث . وما كانوا عليه من التفاخر المبالغ فيه ، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس ، ونعمة النطق ، ونعمة الفكر ، ونعمة الإِرشاد فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير وما فرطوا فيه من خصال الإِيمان وأخلاقه

.

ووعيدَ الكافرين وبشارة الموقنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 346.345 ﴾

(9/816)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة البلد

مكية وآياتها عشرون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، من تثبيت العقيدة والإيمان ، والتركيز على الإيمان بيوم الحساب والجزاء ، والتمييز بين الأبرار والفجار ، وطريق النجاة من عذاب النار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام ، الذي هو سكن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، تعظيما لشأنه وتكريما لمقامه الرفيع عند ربه ، ولفتا لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين ، من أكبر الكبائر عند الله تعالى [لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد] الآيات .

* ثم تحدثت عن بعض كفار مكة ، الذين اغتروا بقوتهم ، فعاندوا الحق ، وكذبوا رسول الله وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة ، ظنا منهم أن إنفاق الأموال في حرب الإسلام يدفع عنهم عذاب الله ، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع . [أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول أهكلت مالا لبدا . .] الآيات

* ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها ، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة ، من مصاعب ومتاعب وعقبات ، لا يستطيع أن يقطعها ويجتازها إلا بالإيمان ، والعمل الصالح . [فلا اقتحم العقبة ؟ وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة . .] الآيات

* وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار ، في ذلك اليوم العصيب ، وبينت مآل السعداء ، ومال الأشقياء ، في دار الخلد والكرامة [ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 560 ﴾

(10/816)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة البلد

البلد : مكة ، حلّ : أي حالّ مقيم فيه ، ووالد وما ولد : أي وأىّ والد وأىّ مولود من الإنسان والحيوان والنبات ، والكبد : المشقة والتعب ، قال لبيد يرثى أخاه أربد :

يا عين هل رأيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم فى كبد

أيحسب : أي أيظن ، أهلكت : أي أنفقت ، لبدا : أي كثيرا ، والنجد : الطريق المرتفعة والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر .

اقتحم الشيء : دخل فيه بشدة ، والعقبة : الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها ، والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له فعل الشر من شياطين الإنس والجن ، وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه ، والمسبغة : الجوع ، يقال سغب الرجل يسغب إذا جاع ، والمقربة : القرابة فى النسب ، تقول فلان من ذوى قرابتى ومن أهل مقربتى إذا كان قريبك نسبا ، والمتربة : الفقر ، تقول ترب الرجل إذا افتقر ، وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب ، تواصوا بالصبر : أي نصح بعضهم بعضا به ، والميمنة : طريق النجاة والسعادة ، والمشأمة : طريق الشقاء ، مؤصدة : أي مطبقة عليهم من آصدت الباب ، أي أغلقته ، قال :

تحنّ إلى أجبال مكة ناقتى ومن دونها أبواب صنعاء موصده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 155 . 161 ﴾ . باختصار .

(11/816)

وقال الفراء :

سورة (البلد)

﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . . . ﴾ .

يقول: هو حلال لك أحله يوم فتح مكة لم يحل قبله ، ولن يحل بعده .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . . . ﴾ .

أقسم بآدم وولده ، وصلحت (ما) للناس ، ومثله: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ وهو الخالق الذكر والأُنثى ومثله ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ ، ولم يقل: من طاب . وكذلك: ﴿ وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ كل هذا جائز فى العربية . وقد تكون: (ما) وما بعدها فى معنى مصدر ، كقوله: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، ﴿ وَنَفْسٍ

وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ، كأنه قال: والسماء وبنائها ونفس وتسويتها . ووالد وولادته ، وخلقه الذكر والأنثى ، فأينما وجّهته فصواب .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ . . . ﴾ .

يقول: منتصبا معتدلا ، ويقال: خلق فى كبد ، إنه خلق يعالج ويكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة ، [/1] ونزلت فى رجل من بنى جمح كان يكنى: أبا الأشدين ، وكان يجعل تحت قدميه الأديم العكاظى ، ثم يأمر العشرة فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق الأديم . ولم تزل قدماه . فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ لشدته ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ والله قادر عليه . ثم قال: يقول: أنفقت مالاً كثيراً فى عداوة محمد صلى الله عليه وهو كاذب ، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ . فى إنفاقه .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً . . . ﴾ .

(12/816)

اللبد : الكثير . قال بعضهم واحدته: لُبدة ، ولُبَد جماع . وجعله بعضهم على جهة: قُثَم ، وحُطَم واحدا ، وهو فى الوجهين جميعا الكثير . وقرأ أبو جعفر المدنى . "مالاً لُبَّدا" مشددة مثل رُكّع ، فكأنه أراد: مالا لابِدٌ ، ومالان لابدان ، وأموالٌ لُبَّد . والأموال والمال قد يكونان معنى واحد .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ . . . ﴾ .

النجدان: سبيل الخير ، وسبيل الشر . قال: [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] حدثنا الفراء قال: [حدثنى الكسائى قال: حدثنى قيس] وحدثنى قيس عن زياد بن علاقة عن أبى عمارة عن على رحمه الله فى قوله جل وعز: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ ﴾ قال: الخير والشر .

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . . . ﴾ .

ولم يُضَم إلى قوله: [فلا اقتحم] كلام آخر فيه (لا) ؛ لأن العرب لا تكاد تفرد (لا) فى الكلام حتى يعيدوها عليه فى كلام آخر ، كما قال عز وجل: ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ﴾ و ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وهو مما كان فى آخره معناه ، فاكتفى بواحدة من أخرى . ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بشيئين ، فقال: ﴿ فَكّ رَقَبةً ، أو أطعم فى يومٍ ذى مسغبة ﴾

، ثم كان [من الذين آمنوا] ففسرها بثلاثة أشياء ، فكأنه كان فى أول الكلام ، فلا فعل ذا ولاذا ولاذا .

وقد قرأ العوام: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أو إِطعامٌ ﴾ ، وقرأ الحسن البصرى: "فَكَّ رقبةً" وكذلك على بن أبى طالب [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] قال: حدثنا الفراء قال: وحدثنى محمد بن الفضل المروزى عن عطاء عن أبى عبد الرحمن عن على أنه قرأها :

"فَكَّ رقبةً أو أطعمَ" وهو أشبه الوجهين بصحيح العربية ؛ لأن الإطعام: اسم ، وينبغى أن يرد على الاسم اسم مثله ، فلو قيل: ثم إن كان أشكل للإطعام ، والفك ، فاخترنا : فَكَّ رقبةً لقوله: " ثم كان" ، والوجه الآخر جائز تضمر فيه (أَنْ) ، وتلقى [/ب] فكيون مثل قول الشاعر:

(13/816)

ألا أيها ذا الزَّاجِرى أَحْضُرَ الْوغى * وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدِى

ألاى ترى أن ظهور (أن) فى آخر الكلام يدل: على أنها معطوفة على أخرى مثلها فى أول الكلام وقد حذفها .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . . . ﴾ .

ذى مجاعة ، ولو كانت "ذا مسغبة" تجعلها من صفة اليتيم ، كأنه قال: أو أطعم فى يوم يتيما ذا مسغبة أو مسكيناً [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] قال: حدثنا الفراء قال: وحدثنى حِبَّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: أنه مرّ بمسكين لاصق بالتراب حاجةً ، فقال: هذا الذى قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ﴾

﴿ والموصَدة ﴾ : تهمز ولا تهمز ، وهى: المطبقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 263.266 ﴾

(14/816)

وقال الأخفش :

سورة (البلد)

﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهذا الْبَلَدِ ﴾

قال ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ ﴾ فمن العرب من يقول "أنتَ حِلٌّ" و"أنتَ حَلال" و"أَنْتَ حِرْمٌ" و"أَنتَ حَرامٌ" و"هو المُحِلّ" و"المُحْرِم" [و] تقول: "أَحْلَلْنا" و"أحْرَمْنا" وتقول "حَلَلْنا" وهي الجَيّدة .

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾

وقال ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ يقول ﴿ فَلَمْ يَقْتَحِمْ ﴾ كما قال ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ أي: فلم يُصَدِّقْ.

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾

وقال ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي: "العقبةُ فكُّ رقبةٍ ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾" وقال بعضهم ﴿ فَكَّ رقبةً ﴾ وليس هذا بذاك و﴿ فكُّ رقبةٍ ﴾ هو الجيّد.

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾

وقال ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ﴿ يَتِيماً ﴾ نصبَ "اليتيمَ" على "الإِطعام". انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 579 ﴾

(15/816)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة البلد»

3 - وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ: آدم وولده.

4 - فِي كَبَدٍ أي في شدة غلبة، ومكابدة لأمور الدنيا والآخرة.

6 - مالًا لُبَداً أي كثيرا . وهو من «التلبّد» : كأن بعضه على بعض .

10 - وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ و«النّجد» : الطريق في ارتفاع . يريد :

طريق الخير والشر .

وقال ابن عباس : الثّديين .

11 - فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ أي فلا هو اقتحم العقبة .

13 - فَكُّ رَقَبَةٍ أي عتقها وفكّها من الرّق .

14 - ذِي مَسْغَبَةٍ أي ذي مجاعة . : [و«السّغب» : الجوع ، و«الساغب» : الجائع] .

يقال : سغب الرجل يسغب [سغبا و] سغوبا ، إذا جاع .

15 - يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أي ذا قرابة .

---

(1) هي مكية . وتسمى سورة لا أقسم .

(16/816)

---

16 - أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ أي ذا فقر ، كأنه لصق بالتراب [من الفقر] .

20 - نارٌ مُؤْصَدَةٌ أي مطبقة [مغلقة] . يقال : أوصدت الباب ، إذا أطبقته [وأغلقته] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 454. 455 ﴾

وقال الغزنوى :

[سورة البلد]

1 لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ : أي : وأنت مستحل الحرمة ، فيكون واو وَأَنْتَ واو الحال «1» ، وهذا قبل الهجرة ، ثم استأنف وأقسم بقوله :

وَوالِدٍ . أي : آدم ، وَما وَلَدَ : ذريته «2» .

وقيل «3» : إنه إثبات القسم ، والمعنى : وأنت حلال تصنع ما تشاء ، كما روي أنه أحلّ له يوم الفتح «4» .

وقيل «5» : حِلٌّ : حالّ ، أي : ساكن .

4 فِي كَبَدٍ : في شدائد «6» لو وكلناه إلى نفسه فيها لهلك .

---

(1) قال أبو حيان في البحر المحيط : 8/ 474 : «والإشارة لهذا البلد إلى مكة ، وَأَنْتَ حِلٌّ جملة حالية تفيد تعظيم المقسم به ، أي : فأنت مقيم به ، وهذا هو الظاهر» .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (30/ 195 ، 196) عن مجاهد ، وقتادة ، وأبي صالح ، والضحاك .

وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 425 ، وزاد نسبته إلى سفيان الثوري ، وسعيد بن جبير ، والسّدّي ، والحسن البصري ، وخصيف ، وشرحبيل بن سعد وغيرهم ثم قال : «وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوي لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن ، وهو آدم أبو البشر وولده» ، وتوقف الطبري في القول بتخصيص هذه الآية بآدم وذريته ، فقال : «والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا : إن اللّه أقسم بكل والد وولده ، لأن اللّه عم كل ذلك ، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه ، فهو على عمومه كما عمه» .

(3) وهو أصح الوجوه عند الماوردي في تفسيره : 4/ 456 .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 327 ، وزاد المسير : 9/ 126 ، وتفسير القرطبي : 20/ 59 .

(4) ينظر صحيح البخاري : 1/ 35 ، كتاب العلم ، باب «ليبلغ العلم الشاهد الغائب» ، وصحيح مسلم : 2/ 988 ، كتاب الحج ، باب «تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها» .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 456 ، والفخر الرازي في تفسيره : 31/ 180 .

(6) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 299 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 528 ، وتفسير الطبري : 30/ 196 ، والمفردات للراغب : 420 .

---

6 لُبَداً : كثيرا ، من «التلبّد» «1» .

10 وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ : طريقين في ارتفاع «2» ، وهما ثديا أمّه «3» .

وفي الحديث «4» : «إنّهما طريقا الخير والشّر» .

11 فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ : الاقتحام : الدخول السّريع ، والعقبة : طريق النّجاة «5» .

وقيل «6» : الصراط . وقيل «7» : الهوى والشّيطان واقتحامها فك رقبة ،

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 463 ، ومجاز القرآن : 2/ 299 ، وتفسير الطبري : 30/ 198 .

(2) مجاز القرآن : 2/ 299 ، والمفردات للراغب : 482 ، واللسان : 3/ 415 (نجد)

. (3) ذكر ابن قتيبة هذا القول في تفسير غريب القرآن : 528 ، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 201 عن ابن عباس .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 459 عن قتادة ، والربيع بن خثيم .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 522 ، وعزا إخراجه إلى الفريابي ، وعبد بن حميد عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه . كما عزا إخراجه إلى عبد بن حميد عن عكرمة ، والضحاك .

(4) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره : 2/ 374 عن ابن مسعود رضي اللّه عنه ، وكذا الطبري في تفسيره : 30/ 199 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 523 كتاب التفسير ، «تفسير سورة البلد» وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

وروي مرفوعا في رواية عبد الرزاق في تفسيره : 619 عن الحسن وأرسله وكذا أخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 200 عن الحسن مرفوعا .

ورجح الطبري هذا القول .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 459 عن ابن زيد ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 134 .

(6) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 459 عن الضحاك ، ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 489 عن الضحاك ، ومجاهد ، والكلبي .

وانظر زاد المسير : 9/ 134 ، وتفسير القرطبي : 20/ 67 .

(7) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 459 عن الحسن ، وكذا القرطبي في تفسيره : 20/

67 ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 134 وقال : «ذكره علي بن أحمد النيسابوري في آخرين» . [. . . . .]

(19/816)

ثم كان المقتحم من الذين آمنوا .

16 ذا مَتْرَبَةٍ : مطروحة على التراب «1» .

و«المسغبة» «2» : المجاعة «3» .

20 مُؤْصَدَةٌ : مطبقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 877 .

879 ﴾

---

(1) كناية عن شدة الفقر كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 299 ، وتفسير الطبري : 30/ 204 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 330 ، واللسان : 1/ 229 (ترب) .

(2) في قوله تعالى : أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ [آية : 14] .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 265 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 528 ، وتفسير الطبري : 30/ 203 ، والمفردات للراغب : 233 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة البلد

عدد 35 - 90

نزلت بعد سورة ق ، وهي عشرون آية كالمزمّل المارة ، واثنتان وثمانون كلمة ، وثلاثمائة وثمانون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "لا أُقْسِمُ" تقدم الكلام في هذا أول سورة القيامة المارة فراجعها ففيها بحث نفيس "بِهذَا الْبَلَدِ 1" مكة شرفها اللّه "وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ 2" كرره لشرفه تأكيدا ، وأقسم به تعظيما لقدره وتكريما لمن ولد فيه وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم وان وجوده فيه أكبر تعظيم وتقديس له فلا حاجة إلى القسم به وفي قوله "حِلٌّ" اشارة إلى أنه سيفتحها على يديه

بعد إخراجه منها ، وأنه سيحلها له وهذا من الإخبار بالغيب ، راجع الآية 10 من سورة الأعلى والآية 3 من سورة التكوير المارتين ، لأن اللّه أخبره بهذا وهو في مكة ، وقد أنجز اللّه له وعده يوم الفتح المبين كما سيأتي في سورة الفتح في ج 3 حيث أحلها له وقتا من الزمن ، وأباح له ان يصنع فيها ما يشاء ، حتى انه أمر بقتل ابن حنظل وهو معلق بأستار الكعبة وكذلك مقيس بن حباية وقد أحل دماء قوم وحرم دماء آخرين وأمّن من دخل البيت ودار أبي سفيان ومن أغلق بابه ومن ألقى سلاحه ، ثم قال إن اللّه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ولم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار فهي حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة قال تعالى : "وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ 3" آدم عليه السلام فمن بعده من الأنبياء والعالمين ، لأن الكفرة والعصاة لا حرمة لهم حتى يقسم بهم ، وقيل المراد بالوالد ابراهيم وبالولد إسماعيل ومحمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أن الآية عامة وما ذكرناه أليق بعمومها لأن آدم أول والد لنوع الإنسان ، وجواب القسم "لَقَدْ خَلَقْنَا" نحن خالق السموات والأرض "الْإِنْسانَ" جنسه وأهله وما تولد منه "فِي كَبَدٍ 4" شدة ومشقة وتعب وبلاء ومحنة ونصب ، لأنه كابد مصائب الدنيا وحمله وولادته ورضاعه وفطامه ، وفصاله ومعاشه في الدنيا ، وموته وقبره ، وحشره ونشره وحسابه يوم الجزاء على ما وقع كله كبد ، وفي هذه الآية تسلية لحضرة الرسول عما هو فيه من أذى قومه ، وان الإنسان لا يخلو من

مقامات الشدائد والمحن ، وما أنت يا محمد إلا إنسان ويجري عليك ما يجري عليه ، فلا تحزن ولا تجزع ، وعليك بالصبر والاحتساب إلى أن يأتيك بالنصر والفتح .

قال ابن عباس الكبد الاستقامة والاستواء أي خلقنا الإنسان منتصبا معتدلا لا كسائر الحيوان وليس بشيء في هذا المقام .

(22/816)

قال تعالى "أَيَحْسَبُ" الإنسان لإنسان مخصوص ويشمل غيره ممن هو على شاكلته "أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ 5" بما يزعم من قوته (كلّا) نزلت هذه الآية في أسيد ابن كلدة بن جمح المكنّى بأبي الأشد من صناديد قريش الذي كان يضع الأديم العكاظي وهو أقوى أنواعه تحت رجله ويقول من أزالني عنه فله كذا وكذا ، فلا

(23/816)

يطيق أحد أن يزيله عنه حتى يتقطع الأديم فلا يبقى إلا موضع قدمه ، وكان يكابد حضرة الرسول مفتخرا بقوته هذه ، وسياق الآية الأولى يدل على نزولها فيه لوجود لفظ كبد لأن

الرسول يكابد من هذا الخبيث زيادة على ما كان من أذى قومه وكان ينتهك حرمته وحرمة البيت ويزداد فى تعنته عليه ، والتهديد في الآية موجه إليه خاصة والى من يفعل فعله عامة ، ولأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وهذا الخبيث من جملة من تولى كيد عداوة الرسول كالوليد بن المغيرة وعمرو بن عبد ود وأبي جهل والحارث بن عامر وأمية بن خلف والأخنس وكان ذلك الملعون المتعاظم بقوته على أضرابه المتفاخر على حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم "يقول" غير مبال بما يترتب على قوله من طعنه بحضرة الرسول "أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً 6" كثيرا متراكبا على بعضه في عداوة محمد ، ويتباهى على المؤمنين بذلك ، ولم يقل أنفقت قاتله اللّه لعدم الاكتراث به ولأنه لم يرج نفعه بل قال أهلكت وأذهبت وأضعت مالا جسيما في عداوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم وكان يغري به السفهاء والعبيد ليتطاولوا على حضرة الرسول ويتجاوزوا عليه "أَيَحْسَبُ" هذا الملعون "أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ 7" حينما كان يهدر ماله في سبيل إيذاء الرسول ، ألم يعلم أن اللّه يراه ويقدر على الانتقام منه في الدنيا ، وأنه سيسأله عنه في الآخرة مم اكتسبه وفيم أنفقه ، ثم شرع يعدد نعمه عليه التي يجب أن يشكرها ويؤمن بمن أنعم بها عليه ويحترم رسوله من أجلها لا أن يكفر ويجحد ويتعدى فقال "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ 8" يبصر بهما "وَلِساناً" يتكلم به "وَشَفَتَيْنِ 9" يشد بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغيره فضلا عن أنهما زينة

له "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ 10" طريقي الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، بما منحناه من العقل الذي يميز به بين ذلك ويمتاز به

(24/816)

على غيره ، وقال ابن عباس هما الثديان لاهتداء الإنسان والحيوان لتناولهما دون تعليم حال خروجه من بطن أمه ، والأول أولى وهما داخلان في المعنى لأنهما من الخير الذي وهبه اللّه له في بداية خلقه ، والنجد المكان المرتفع ولذلك سميت نجد نجدا ، قال امرؤ القيس :

فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع بطن كبكب

قال تعالى "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ 11" الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة بأن يرمي نفسه بالأمر الذي يريده بلا روية ولا تؤدة ، والعقبة الطريق الذي فيه صعود ، أي الا فعل الخير ولم يقصر في شكر نعم ربه ، ولم يتبع نفسه هواها بالأذى والإضرار والمباهاة "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ 12" جاء السؤال هنا على طريق الاستفهام تعظيما لشأنها والجواب ، هي شيئان خفيفان على من وفق ، الأولى "فَكُّ رَقَبَةٍ 13" مملوكة بأن تعين في ثمنها ، أو تعتقها ابتغاء مرضاة اللّه ، والثانية "أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ 14" من أيام احتكار أو مجاعة شديدة

عامة والأولى بالإطعام فيها أولا أن يطعم "يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ 15" لأنه أولى من غيره ففيه يجمع بين الصدقة والصلة وفيهما من الأجر ما فيهما والقربة مطلق القرابة في النسب ، قال الزجاج لا يقال فلان قرابتي لأن القرابة مصدر بل يقال ذو قرابتي ، وفيه قيل :

يبكي الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحي مسرور

أي بنيل إرثه والاستيلاء عليه "أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ 16" أي لاصق جنبه بالأرض لشدة فقره ولعدم من ينظر إليه من ذويه وغيرهم ، ولا شيء يقيه من التراب لأنه ينام على الأرض .

مطلب الحكمة الشرعية من الصدقات :

(25/816)

وأفضل الصدقة التي تكون على مثل هؤلاء ، أما الذين لهم شيء يعلم به المتصدّق فينبغي ألا يعطيه من فضله بل يصرفه على الأحوج ، هذا في الصدقة ، أما الهدية فهو بالخيار والحكم الشرعي هو أنه ينبغي على الرجل أن يعطي صدقته إلى الأحوج من أقربائه ثم من جيرانه ، ثم من أصدقائه ومعارفه وأن يختار الأتقى وقليل المسألة .

قال صلّى اللّه عليه وسلم اختاروا لصدقاتكم كما تختارون لنطفكم .

أي كما أن الرجل إذ أراد أن يتزوج يختار الأحسن تقى ونسبا إذ قال (عليك بذات الدين)

لمن سأله ممن يتزوج ، لأن الفقير المتقي يستعين بما يأخذه على تقوى اللّه ، وأما الفاسق فقد يصرفها في المعصية .

"ثُمَّ كانَ" هذا الذي وفق لاقتحام العقبة وعمل الخير "مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات" يفعلهم ذلك وسيلقى ثوابه عند ت (18)

274

(26/816)

ربه لأن الكافر يعطى جزاء أعماله الحسنة في الدنيا حتى لا يبقى له عند اللّه شيء يكافئه عليه في الآخرة "وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ" على فعل الطاعة وترك المعصية مع إيمانهم وعملهم الصالح "وَتَواصَوْا" وصّى بعضهم بعضا عند ما يجتمعون ويتفارقون "بِالْمَرْحَمَةِ 17" على عباد اللّه وسائر خلقه "أُولئِكَ" المتواصون والمار وصفهم هم "أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ 18" المباركون المعنيّون في الآية 100 من الإسراء الآتية الذين يعطون كتبهم بأيمانهم أو من جهة اليمين وهم السعداء (وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 59 من سورة يس الآتية فهم الذين يكونون من جهة الشمال ويعطون كتبهم بشمالهم المعنيون بقوله عز قوله "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا" وماتوا على كفرهم "هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ 19" المتموتون المشئومون الذين

"عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ 20" قدمنا ما يتعلق في تفسير هذه الجملة في تفسير الآية 8 من الهمزة المارة فراجعها هذا والله أعلم ، واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 270.274 ﴾

(27/816)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة البلد

مكية

وما مر في لا أقسم بيوم القيامة يأتي هنا وجاب القسم لقد خلقنا الإنسان في كبد وهو تام قال في الأصل لا خلاف فيه وقال أبو عمرو كاف وقيل تام لبدا حسن وقال أبو عمرو كاف انه لم يره أحد تام فلا اقتحم العقبة كاف وكذا ما العقبة ذا متربة ليس بحسن لان الكفارة إنما تنفع مع الإيمان بالله تعالى لكن قال أبو عمرو وانه تام أصحاب الميمنة تام أصحاب المشأمة جائز آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة البلد

مكية لا وقف من أولها إلى لقد خلقنا الإنسان وهو جواب القسم *

في كبد (تام) للابتداء بالاستفهام ومثله في التمام عليه أحد لأنه لو وصل لصار يقول وصفاً للإنسان والمراد به آدم وجميع ولده

لبداً (كاف) للابتداء بالاستفهام قرأ العامة لُبَداً بضم اللام وفتح الباء وشدَّد أبو جعفر الباء ومجاهد وغيره بضمتين

أن لم يره أحد (تام)

النجدين (جائز) للابتداء بالنفي مع الفاء والمعنى لم يقتحم

والعقبة (كاف) ومثله ما العقبة ثم فسر اقتحام العقبة فقال فك رقبة أو اطعام ولا وقف من قوله فك رقبة إلى متربة وهو (جائز) ولا يرتقي إلى الحسن وقد وسمه أبو حاتم وأبو حاتم وغيرهما بالتمام وفيه نظر لأنه كله كلام واحد لأنَّ فك الرقبة وإطعام اليتامى والمساكين لا تنفع إلاَّ مع الإيمان بالله وفيه نظر لأَّنه كله كلام واحد لأن فك الرقبة وإطعام اليتامى

والمساكين لا تنفع إلاَّ مع الإيمان بالله ولوجود حرف العطف بعده وقيل إن ثم بمعنى الواو وجيء بثم لبعدما بين العتق والصدقة في الفضيلة وبين الإيمان بالله لأنهما لاينفعان إلاَّ بوجود الإيمان ولايوقف على مسغبة لأنَّ يتيماً نصب بإطعام وفيه دليل على إعما المصدر منوناً قال الشاعر

بضرب بالسيوف رؤوس قوم أزلنا هامهنَّ عن المقيل

ولا على مقربة للعطف بأو

بالمرحمة (كاف) لأن أولئك مبتدأ وأصحاب خبره

الميمنة (تام) لأنَّ والذين بعده مبتدأ خبره هم أصحاب المشأمة وهو جائز لأنَّ الجار بعده متعلق بما بعده ونار مبتدأ مؤخر وعليهم خبر مقدم ومؤصدة صفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(29/816)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة البلد :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الحسن : "لأُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَد" ، بغير ألف .

قال أبو الفتح : قد مضى مثل هذا 1 .

وقرأ أبو جعفر : "مَالًا لُبَدًا" .

قال أبو الفتح : يكون بلفظ الواحد زمل وجباء ، ويكون جمع لا بد ، كقائم وقوم ، وصائم وصوم ، وقد تقدم ذكره2 .

ومن ذلك قراءة الأعمش : "أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَد 5" ، ساكنة الهاء .

قال أبو الفتح : قد سبق القول على سكون هذه الهاء فيما مضى3 .

ومن ذلك قرأ : "فِي يَوْمٍ ذِا مَسْغَبَةٍ4" – الحسن وأبو رجاء .

قال أبو الفتح : هو منصوب ، ويحتمل نصبه أمرين :

أظهرهما أن يكون مفعول "إطعام" ، أي : وأن تطعموا ذا مسغبة ، "ويتيما" بدل منه ، كقولك : رأيت كريما رجلا . ويجوز أن يكون يتيما وصفا لذا مسغبة ، كقولك : رأيت كريما عاقلا ، وجاز وصف الصفة الذي هو كريم ؛ لأنه لما لم يجز على موصوف أشبه الاسم ، كقولك الأعشى :

وبيداء تحسب آرامها رجال إباد بأجيادها 5

فقوله : "تحسب" صفة لبيداء ، وإن كانت في الأصل صفة . وكذلك قول رؤبة :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق6

فقوله : خاوي المخترق صفة لقوله : قاتم الأعماق ، وهو صفة لموصوف محذوف ، أي : وبلد قاتم قاتم الأعماق ، كما أن قوله : "وبيداء ، ورب بيداء ، ورب بلدة بيداء . فاعرف ذلك ، فهذا أحد وجهي قوله : "ذِا مَسْغَبَةٍ" .

والآخر أن يكون أيضا صفة ، إلا أنه صفة لموضع الجار والمجرور جميعا ، وذلك أن قوله ﴿فِي يَوْمٍ﴾ ظرف ، وهو منصوب الموضع ، فيكون وصفا له على معناه دون لفظه ، كما جاز أن يعطف عليه في معناه دون لفظه في قوله :

ألا حي ندماني عمير بن عامر إذا ما تلاقينا من اليوم أوغدا 7و]

---

1 نظر الصفحة 341 من هذا الجزء .

2 انظر الصفحة 334 من هذا الجزء .

3 انظر الصفحة 244 ، والصفحة 323 من الجزء الأول .

4 سورة البلد : 14 .

5 من قصيدة في مدح سلامة ذي فائش بن يزيد الحميري . ويروى "بأجلادها" مكان "بأجيادها" . والآرام : حجارة تنصب في الصحراء ليهتدي بها المسافر . وأجلاد الإنسان : جسمه وبدنه ، وخص أيادا بالذكر لأنها توصف بضخامة الأجسام . وانظر ديوان الشاعر : 71 .

6 انظر الصفحة 86 من الجزء الأول .

7 البيت لكعب بن جعيل ، كما في الكتاب 1 : 34 .

(30/816)

حتى كأنه قال : اليوم ، أو غدا . وكذلك قول الآخر :

كشحا طوى من بلد مختارا من يأسه اليائس أو حذارا 1

ونظائره كثيرة ، فلذلك يكون قوله : "فِي يَوْمٍ ذِا مَسْغَبَةٍ" على أن "مسغبة" صفة ليوم على معناه ، دون لفظه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 361.362 ﴾

---

1 للعجاج ، ويروى "عن" مكان "من" . والكشح : الجنب ، أو الخصر . ويقال لكل من أضمر شيئًا : طوى كشحه عليه . قال الأعلم : يصف ثورا وحشيا أو حمارا خرج من مكان إلى مكان ، خوفا من صائد ، أو يأسا من مرعى كان فيه ، فيقول : طوى كشحه على ما نوى من النقلة مختارا لذلك يأسا منه أو حذرا . وانظر الكتاب 1 : 35 ، والديوان 21 ، وفي ك : "حذرا" وهو تحريف .

(31/816)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة البلد

مكية وقيل مدنية وآيها عشرون القراآت اختلف فيلبدا) الآية 6 فأبو جعفر بتشديد الباء مفتوحة وعن الحسن ضمها مخففة والباقون بفتحها مخففه وقرأ أيحسب معا بفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر

وقرأ ( ) أن لم يره ( ) الآية 7 بسكون الهاء هشام من طريق الداجوني وقرأ ابن وردان ويعقوب بخلفهما بقصر الهاء وبالإشباع الباقون وبه قرأ هشام من طريق الحلواني وابن وردان ويعقوب في الوجه الثاني وأمال أدراك أبو عمرو وابن ذكوان وأبو بكر بخلفهما وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق

واختلف في ( ) فك رقبة أو إطعام ( ) الآية 13 14 فابن كثير وأبو عمرو والكسائي (فك) بفتح الكاف فعلا ماضيا (رقبة) بالنصب مفعوله و ﴿ أطعم ﴾ بفتح الهمزة والميم فعلا ماضيا أيضا والفعل بدل من قوله اقتحم فهو تفسير وبيان له كأنه قيل فلا فك الخ وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون برفع الكاف اسما (رقبة) بالجر مضافا إليه أو (إطعام) بكسر الهمزة وألف بعد العين ورفع الميم منونة وفك خبر محذوف أي هو فك رقبة أو إطعام على معنى الإباحة وفي الكلام حذف مضاف أي وما أدراك ما اقتحام العقبة

العقبة عنق رقبة أو إطعام يتيم ذي قرابة ومسكين ذي فقر في يوم ذي مجاعة وعن الحسن ذا مسغبة بالألف مفعولا أي إنسانا ذا مسغبة ويتيما بدل منه والجمهور ذي بالياء نعت ليوم مجازا ويوقف لحمزة على المشئمة بالنقل فقط وبين بين ضعيف

وقرأ (مؤصدة) الآية 20 بالهمز أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف من آصدت الماء أغلقته فهو مؤصد وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش والباقون بالإبدال واوا كحمزة وقفا من أوصد يوصد ومر أنها لا تبدل لأبي عمرو على وجه إبدال الهمزة الساكن المرسوم اتفقوا على قطع أن لن يقدر وعلى قطع أن لم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(32/816)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة البلد "

لا أقسم ، ولا أقسم ، لا خلاف بين العشرة في إثبات الألف بعد اللام في الموضعين .

" أيحسب معا " فتح السين فيهما الشامي وعاصم وحمزة وأبو جعفر وكسرها غيرهم .

" يقدر " عليه ، عليهم ، جلي .

" لبدا " شدد الباء أبو جعفر وخففها الباقون .

" فك رقبة أو إطعام " قرأ المكي والبصري والكسائي بفتح الكاف من فك ونصب التاء المثناة الفوقية من رقبة . وفتح الهمزة والميم من غير تنوين وحذف الألف بعد العين من إطعام . والباقون برفع الكاف من فك ، وجر التاء من رقبة وكسر الهمزة . وإثبات الألف بعد العين ورفع الميم وتنوينها من إطعام .

" المشأمة " لحمزة فيه وقفا نقل حركة الهمزة إلى الشين وحذف الهمزة .

" مؤصدة " قرأ البصريان وحفص وحمزة وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم والباقون بإبدالها واوا ساكنة مدية ومعهم حمزة إن وقف ولا إبدال فيه للسوسي لأنه من المستثنيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 352 ﴾

(33/816)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة البلد

قوله تعالى ﴿ فك رقبة أو إطعام ﴾ يقرآن بالرفع لانهما مصدران فالاول مضاف فحذف

التنوين منه لمكان الاضافة والثاني مفرد فثبت التنوين فيه لمكان الافراد ويقرآن بالفتح لانهما فعلان ماضيان فالحجة لمن جعلهما مصدرين معناه عنده فاقتحام العقبة وهي الصراط فك رقبة او اطعام في يوم ذي مسغبة وهي المجاعة يتيما ثم علق ذلك بشرط الايمان وفي نصب اليتيم ها هنا خلف بين النحويين قال البصريون المصدر اذا دخله التنوين او الالف واللام عمل عمل الفعل بمعناه لانه اصل للفعل والفعل مشتق منه مبني للازمنه الثلاثة فهو يعمل بالمعنى عمل الفعل باللفظ

وقال الكوفيون المصدر اذا نون او دخلت عليه الالف واللام لم يعمل في الاسماء لانه قد دخل في جملة الاسماء وحصل في حيزها والاسم لا يعمل في الاسم نصبا فقيل لهم فبم تنصبون يتيما ها هنا فقالوا بمشتق من المصدر وهو الفعل ويكون قوله مسكينا معطوفا على قوله يتيما والحجة لمن فتحهما انه بناهما بناء الفعل الماضي وجعل فاعلهما الانسان المقدم ذكره والرقبة واليتيم منصوبان بتعدي

الفعل اليهما والمقربة ها هنا القرابة اتى بها بهذا اللفظ لمكان مسغبة ومتربة

قوله تعالى ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ ها هنا وفي الهمزة يقرآن بتحقيق الهمز وحذفه فالحجة لمن حقق الهمز انه اخذه من آصدت النار فهي مؤصدة والحجة لمن حذف الهمز انه اخذه من اوصدت النار فهي موصدة الا ان حمزة اذا وصل همز واذا وقف لم يهمز وهما

لغتان فصيحتان معناهما اغلقت عليهم فهي مغلقة والمشأمة الشمال ها هنا وفي الواقعة بلغة بني غطيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 371.372 ﴾

(34/816)

وقال ابن زنجلة :

90 - سورة البلد

فلا اقتحم العقبة وما أدرك ما العقبة فك رقبة أو إطعم 14 - 11

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي فك بفتح الكاف جعلوه فعلا ماضيا رقبة نصب مفعول بها أو أطعم نسق على فك تقول العرب فككت الأسير والرهن أفكه فكا فالمصدر على لفظ الماضي قال أبو عمرو وتصديقه قوله ثم كان من الذين آمنوا 17 يقول لما كان فك رقبة فعلا وجب أن يكون المعطوف عليه مثله تقول أفلا فعل ثم قال معناه فهلا فك رقبة أو أطعم فكان من الذين آمنوا

وقرأ الباقون فك رقبة مضافا أو إطعام بكسر الألف قال أبو عبيدة فلا اقتحم العقبة أي فلم يقتحم العقبة في الدنيا ثم فسر العقبة فقال وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة وحجتهم أنها تفسير لقوله وما أدراك ما العقبة ثم أخبر ما هي فقال فك رقبة أو

إطعام ومثله قوله وما أدراك ما هيه ث قال نار حامية وكذلك وما أدراك ما الحطمة

ثم قال نار الله الموقدة وكذلك قوله وا أدراك ما يوم الدين ثم قال يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا

قال بعض أهل النحو من قال فك رقبة مضافا أو إطام المعنى فيه ما أدراك ما اقتحام العقبة

لا بد من تقدير هذا المحذوف لأنه لا يخلو من أن تقدر حذف المضاف أو لا تقدره فإن لم

تقدره وتركت الكلام على ظاهره كان المعنى العقبة فك رقبة ولا تكون العقبة الفك لأنه

عين والفك حدث والخبر ينبغي أن يكون المتبدأ في المعنى فإذا لم يستقم كان المضاف مرادا

فيكون المعنى اقتحام العقبة فك رقبة أو إطعام أي اقتحامها أحد هذين ومن قال فك رقبة

أو أطعم فإنه يجوز أن يكون ما ذكر من الفعل تفسيرا لاقتحام العقبة

(35/816)

فإن قيل إن هذا الضرب لم يفسر بالفعل وإنما فسر بالابتداء والخبر نحو قوله نار الله الموقدة

وقوله نار حامية قيل إنه يمكن أن يكون قوله كذبت ثمود وعاد بالقارعة تفسيرا لقوله وما

أدراك ما الحاقة ويكون تفسيرا على المعنى وقد جاء إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم

وفسر المثل بقوله خلقه نم تراب فكذلك قوله

فك رقبة أو أطعم تفسير على المعنى عليهم نار مؤصدة

قرأ أبو عمرو وحمزة وحفص مؤصدة بالهمز

وقرأ لباون بغير همز

فمن همزه جعله مفعلة من آصدت الباب أي أطبقته مثل آمنت فاء الفعل همزة تقول آصد يؤصد إيصادا ومن ترك الهمز جعله من أوصد يوصد إيصادا فاء الفعل واو قال الكسائي أوصدت الباب وآصدته إذا رددته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 764 . 766﴾

(36/816)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة البلد 90

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المدني الأخير والبصري ونظيرتها في المدني الأخير اقرأ ولا نظير لها في البصري

وكلمها اثنتان وثمانون كلمة

وحروفها ثلاث مئة وأحد وثلاثون حرفا

وهي عشرون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

البلد

1 البلد

2 ولد

3 كبد

4 أحد

5 لبدا

6 أحد

7 عينين

8 وشفتين

9 النجدين

10 العقبة

11 العقبة

12 رقبة

13 مسغبة

14 مقربة

15 متربة

16 بالمرحمة

17 الميمنة

18 المشأمة

19 مؤصدة

20 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 274﴾

(37/816)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد) مثل " لا أقسم بيوم القيامة " وقيل لا أقسم به وأنت حل فيه ، بل أقسم بك (ووالد) معطوف على البلد ، و (ما) بمعنى من وجواب القسم (لقد خلقنا) و (في كبد) حال: أي مكابدا .

قوله تعالى (فلا اقتحم) لا بمعنى " ما " وأكثر ما يجئ مثل هذا مكررا مثل " فلا صدق ولا صلى " .

قوله تعالى (ما العقبة) أي ما اقتحام العقبة لأنه فسره بقوله تعالى (فك رقبة)

وهو فعل سواء كان بلفظ الفعل أو بلفظ المصدر ، والعقبة عين فلا تفسر بالفعل ، فمن قرأ فك وأطعم فسر المصدر بالجملة الفعلية لدلالتهما عليه ، ومن قرأ فك رقبة أو إطعام كان التقدير : هو فك رقبة ، والمصدر مضاف إلى المفعول ، وإطعام غير مضاف ، ولا ضمير فيهما لأن المصدر لا يتحمل الضمير .

وذهب بعض البصريين إلى أن المصدر إذا عمل في المفعول كان فيه ضمير كالضمير في اسم الفاعل ، و (يتيما) مفعول إطعام ، و (ثم) هنا لترتيب الأخبار لا لترتيب المخبر عنه ، ومن همز (مؤصدة) أخذه من آصد الباب ، ومن لم يهمز جاز أن يكون خفف الهمز ، وأن يكون من أوصده ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(38/816)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة البلد

[سورة البلد (90) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1)

"لا أُقْسِمُ" لا زائدة ومضارع فاعله مستتر "بِهذَا" متعلقان بالفعل "الْبَلَدِ" بدل والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة البلد (90) : آية 2]

وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (2)

"وَأَنْتَ حِلٌّ" الواو اعتراضية ومبتدأ وخبره والجملة معترضة لا محل لها "بِهذَا" متعلقان بما قبلهما "الْبَلَدِ" بدل من اسم الإشارة .

[سورة البلد (90) : آية 3]

وَوالِدٍ وَما وَلَدَ (3)

"وَوالِدٍ" معطوف على البلد "وَما" معطوف على البلد أيضا "وَلَدَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة .

[سورة البلد (90) : آية 4]

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (4)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "خَلَقْنَا" ماض وفاعله "الْإِنْسانَ"

مفعول به "فِي كَبَدٍ" متعلقان بمحذوف حال والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة البلد (90) : آية 5]

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5)

"أَيَحْسَبُ" الهمزة حرف استفهام توبيخي ومضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَنْ يَقْدِرَ" مضارع منصوب بلن "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "أَحَدٌ" فاعل والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يحسب .

[سورة البلد (90) : آية 6]

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (6)

"يَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال . "أَهْلَكْتُ" ماض وفاعله "مالاً" مفعول به "لُبَداً" صفة والجملة مقول القول .

[سورة البلد (90) : آية 7]

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)

"أَيَحْسَبُ" الهمزة حرف استفهام توبيخي ومضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنْ" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لَمْ يَرَهُ" مضارع مجزوم بلم والهاء مفعول به "أَحَدٌ" فاعل والجملة الفعلية خبر أن . والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يحسب .

[سورة البلد (90) : آية 8]

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8)

"أَلَمْ نَجْعَلْ" الهمزة حرف استفهام تقريري ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "لَهُ" متعلقان بالفعل "عَيْنَيْنِ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة البلد (90) : آية 9]

وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ (9)

"وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ" معطوف على ما قبله .

[سورة البلد (90) : آية 10]

وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (10)

"وَهَدَيْناهُ" ماض وفاعله والهاء مفعول به أول "النَّجْدَيْنِ" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة البلد (90) : آية 11]

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

"فَلَا" الفاء حرف استئناف ولا نافية "اقْتَحَمَ" ماض فاعله مستتر "الْعَقَبَةَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة البلد (90) : آية 12]

وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)

"وَما" الواو حرف استئناف وما اسم استفهام مبتدأ "أَدْراكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر ما والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "مَا الْعَقَبَةُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية سدت مسد مفعول أدراك الثاني .

[سورة البلد (90) : آية 13]

فَكُّ رَقَبَةٍ (13)

"فَكُّ" خبر لمبتدأ محذوف "رَقَبَةٍ" مضاف إليه . والجملة مفسرة .

[سورة البلد (90) : آية 14]

أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14)

"أَوْ" حرف عطف "إِطْعامٌ" معطوف على فك "فِي يَوْمٍ" متعلقان بما قبلهما "ذِي" صفة يوم "مَسْغَبَةٍ" مضاف إليه

[سورة البلد (90) : آية 15]

يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (15)

(40/816)

"يَتِيماً" مفعول به لإطعام "ذا مَقْرَبَةٍ" صفة يتيما مضافة إلى مقربة.

[سورة البلد (90) : آية 16]

أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (16)

معطوفة على الآية السابقة وإعرابها واضح.

[سورة البلد (90) : آية 17]

ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17)

"ثُمَّ" حرف عطف "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "مِنَ الَّذِينَ" متعلقان بمحذوف خبر كان، والجملة معطوفة على ما قبلها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَتَواصَوْا" معطوف على آمنوا "بِالصَّبْرِ" متعلقان بالفعل "وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" معطوفة على ما قبلها.

[سورة البلد (90) : آية 18]

أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (18)

"أُولَئِكَ أَصْحابُ" مبتدأ وخبره "الْمَيْمَنَةِ" مضاف إليه ، والجملة مستأنفة .

[سورة البلد (90) : آية 19]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (19)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف واسم الموصول مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "هُمْ أَصْحابُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر الذين "الْمَشْأَمَةِ" مضاف إليه وجملة الذين . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة البلد (90) : آية 20]

عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

"عَلَيْهِمْ" جار ومجرور خبر مقدم "نارٌ" مبتدأ مؤخر "مُؤْصَدَةٌ" صفة والجملة مستأنفة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 448. 449﴾

(41/816)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الْبَلَد

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

1491 - الحَدِيث الأول

قتل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ابْن خطل وَهُوَ مُتَعَلق بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة وَمقيس بن ضَبَابَة وَغَيرهم وَحرم دَار أبي سُفْيَان

قلت أما قتل ابْن خطل فَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم من حَدِيث الزُّهْرِيّ عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لما دخل عَام الْفَتْح قيل لَهُ إِن ابْن خطل مُتَعَلق بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة فَقَالَ اقْتُلُوهُ انْتَهَى

وَأما قتل مقيس بن ضَبَابَة وَغَيره فروى أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الْجِهَاد وَالنَّسَائِيّ فِي الْمُرْتَد من حَدِيث مُصعب بن سعد عَن أَبِيه سعد بن أبي وَقاص قَالَ لما كَانَ يَوْم فتح مَكَّة أَمن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم النَّاس إِلَّا أَرْبَعَة نفر وَامْرَأَتَيْنِ قَالَ اقْتُلُوهُمْ وَإِن وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلقين بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة عِكْرِمَة بن أبي جهل وَعبد الله بن خطل وَمقيس بن ضَبَابَة وَعبد الله بن أبي سرح

فَأَما ابْن خطل فَأدْرك وَهُوَ مُتَعَلق بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة فَاسْتَبق إِلَيْهِ سعيد بن حُرَيْث وعمار بن يَاسر فَسبق سعيد عمارا وَكَانَ أشب الرجلَيْن فَقتله

وَأما مقيس بن ضَبَابَة فأدركه النَّاس فِي السُّوق فَقَتَلُوهُ

وَأما عِكْرِمَة فَركب الْبَحْر فَأَصَابَتْهُمْ رِيح عَاصِفَة قَالَ أَصْحَاب السَّفِينَة أَخْلصُوا فَإِن

آلِهَتكُم لَا تغني عَنْكُم شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرِمَة وَالله إِن لم يُنجنِي من الْبَحْر إِلَّا الْإِخْلَاص لَا يُنجنِي فِي الْبر غَيره اللَّهُمَّ إِن لَك عَلَي عهدا إِن عَافَيْتنِي

مِمَّا أَنا فِيهِ أَن آتِي مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَع يَده فِي يَدي فلأجدنه عفوا كَرِيمًا فجَاء فَاسْلَمْ

(42/816)

وَأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْد عُثْمَان بن عَفَّان فَلَمَّا دَعَا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم النَّاس إِلَى الْبيعَة جَاءَ بِهِ وَأَوْقفهُ وَقَالَ يَا رَسُول الله بَايع عبد الله فَنظر إِلَيْهِ ثَلَاثًا كل ذَلِك يَأْبَى فَبَايعهُ بعد ثَلَاث ثمَّ أقبل عَلَى أَصْحَابه فَقَالَ مَا كَانَ فِيكُم رجل رشيد يقوم إِلَى هَذَا فيقتله حَيْثُ رَآنِي كَفَفْت يَدي عَن بيعَته قَالُوا وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُول الله هلا أَوْمَأت لنا بِعَيْنِك قَالَ إِنَّه لَا يَنْبَغِي لنَبِيّ أَن يكون لَهُ خَائِنَة أعين انْتَهَى

وَأما تَحْرِيم دَار سُفْيَان فغريب

1492 - الْحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن الله تبَارك وَتَعَالَى حرم مَكَّة يَوْم خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض فَهُوَ حرَام بِحرْمَة الله إِلَى يَوْم الْقِيَامَة لم تحل لأحد قبلي وَلَنْ تحل لأحد بعدِي وَلم تحل لي إِلَّا سَاعَة من نَهَار فَلَا يعضد شَجَرهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلاهَا وَلَا ينفر صيدها وَلَا تحل لقطتها

إِلَّا لِمُنْشِد فَقَالَ الْعَبَّاس يَا رَسُول الله إِلَّا الْإِذْخر فَإِنَّهُ لقيوننا وَقُبُورنَا وَبُيُوتنَا فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَّا الْإِذْخر

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا ابْن ماجة من حَدِيث أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم فتح مَكَّة إِن هَذَا الْبَلَد حرمه الله يَوْم خلق الله السَّمَوَات

(43/816)

وَالْأَرْض فَهُوَ حرَام بِحرْمَة الله إِلَى يَوْم الْقِيَامَة وَإِنَّهُ لم يحل الْقِتَال فِيهِ لأحد قبلي وَلم تحل لي إِلَّا سَاعَة من نَهَار فَهُوَ حرَام بِحرْمَة الله تَعَالَى إِلَى يَوْم الْقِيَامَة لَا يعضد شَوْكهَا وَلَا ينفر صيدها وَلَا تلْتَقط لقطتهَا إِلَّا من عرفهَا فَقَالَ الْعَبَّاس إِلَّا الْإِذْخر فَإِنَّهُ لقبُورنَا وَبُيُوتنَا فَقَالَ إِلَّا الْإِذْخر انْتَهَى

وَفِي رِوَايَة للشَّيْخَيْن وَلَا يُخْتَلَى خلاهَا وَفِي رِوَايَة وَأَنَّهَا لم تحل لأحد كَانَ قبلي وَإِنَّهَا أحلّت لي سَاعَة من نَهَار وَإِنَّهَا لن تحل لأحد بعدِي وَفِي رِوَايَة فَإِنَّهُ لقَيْنهم وَبُيُوتهمْ

وَإِذا تتبعت طرق الحَدِيث وجدت لفظ المُصَنّف

1493 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن رجلا قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دلني عَلَى عمل يدخلني الْجنَّة فَقَالَ

تعْتق النَّسمَة وَفَك الرَّقَبَة قَال أوليسا سَوَاء قَال لَا إعْتَاقهَا أَن ينْفَرد بعتْقِهَا وَفكهَا أَن تعين فِي تَخْلِيصهَا من قَود أَو غرم

قلت رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتَاب الْمكَاتب من حَدِيث عِيسَى بن عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ ثَنَا طَلْحَة بن مصرف عَن عبد الرَّحْمَن ابْن عَوْسَجَة عَن الْبَراء بن عَازِب قَال جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال لَهُ دلنِي عَلَى عمل يقربنِي من الْجنَّة ويُبَاعِدنِي من النَّار قَال اعْتِقْ النَّسمَة وَفك الرَّقَبَة قَال أوليسا وَاحِدًا قَال لَا عتق النَّسمَة أَن ينْفَرد بعتْقِهَا وَفك الرَّقَبَة أَن تعين فِي ثمنهَا انْتَهَى قَال الْحَاكِم صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

(44/816)

وَرَوَاهُ احْمَد وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسانيدهم وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْحَج وَلَيْس عِنْد احْدُ مِنْهُم ذكر الْقود وَالْغُرْم

وَكَذَلِك رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره والواحدي فِي الْوَسِيط

1494 - الْحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فك رَقَبَة فك الله بِكُل عُضْو مِنْهَا عضوا مِنْهُ من النَّار

قلت غَرِيب

وَرَوَى الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث عقبَة بن عَامر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعتق رَقَبَة فك الله بِكُل عُضْو من أَعْضَائِهِ عضوا من أَعْضَائِهِ من النَّار انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

1495 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى أَو مِسْكينا ذَا مَتْرَبَة قَالَ هُوَ الَّذِي مَأْوَاه الْمَزَابِل

قلت غَرِيب أَيْضا

وَفِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم مَوْقُوفا عَلَى ابْن عَبَّاس قَالَ هُوَ الْمَطْرُوح الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَيت وَفِي لفظ قَالَ هُوَ الَّذِي لَا يَقِيه من التُّرَاب شَيْء وَصحح الأول وَسكت عَن الثَّانِي

ثمَّ وجدته عِنْد ابْن مردويه فِي تَفْسِيره فَقَالَ حَدثنَا احْمَد بن عَلِي بن حُبَيْش الرَّازِيّ ثَنَا الْحسن بن عَلِي بن نصر ثَنَا أَبُو النَّضر إِسْمَاعِيل بن عبد الله الْعجلِيّ ثَنَا عَمْرو بن حكام ثَنَا شُعْبَة عَن حُصَيْن عَن مُجَاهِد عَن عبد الله بن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْله تَعَالَى أَو مِسْكينا ذَا مَتْرَبَة قَالَ الَّذِي مَأْوَاه الْمَزَابِل انْتَهَى

1496 - الْحَدِيث السَّادِس

(45/816)

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ لَا أقسم بِهَذَا الْبَلَد أعطَاهُ الله الْأمان من غَضَبه يَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث أبي عصمَة نوح بن أبي مَرْيَم عَن عَلّي بن زيد عَن زر عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ لَا أقسم بِهَذَا الْبَلَد . . . إِلَى آخِره وَقَالَ الْأَمْن

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي ال عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 211.215 ﴾

(46/816)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة البلد» (9)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ» (4) فى شدّة «1» قال لبيد :

يا عين هلّا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم فى كبد

«2» [942] .

«مالًا لُبَداً» (6) فعل من التلبّد وهو المال الكثير بعضه على بعض . .

«النَّجْدَيْنِ» (10) الطريقين فى ارتفاع ، نجد الخير ونجد الشر . .

«فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ» (11) فلم يقتحم العقبة فى الدنيا ثم فسّر العقبة فقال : .

«وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ» (12 - 14) أي مجاعة

«3» . .

«مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ» (16) قد لزق بالتراب . .

«نارٌ مُؤْصَدَةٌ» (20) مطبقة «4» ، آصدت وأوصدت وهو أطبقت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 299 ﴾

---

(1) . - 3 «شدة» : كما فى البخاري (انظر فتح الباري 8/ 541) والقرطبي 12/ 210 .

(2) . - 942 : ديوانه 1/ 19 والطبري 30/ 109 والقرطبي 20/ 62 .

(3) . - 7 - 9 «فلا اقتحم . . . مجاعة» : كما فى البخاري وقد أشار إليه ابن حجر (فتح الباري 8/ 541) بأنه قول أبى عبيدة .

(4) . - 11 «مؤصدة مطبقة» : كما فى البخاري : قال ابن حجر (8/ 541) هو قول أبى عبيدة .

(47/816)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «البلد»

[سورة البلد (90) : آية 6]

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (6)

وقوله سبحانه يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً [6] وهذه استعارة . وقد مضى نظير لها . والمراد باللّبد ها هنا المال الكثير الذي قد تراكب بعضه على بعض ، كما تلبّدت طرائق الشّعر ، وسبائخ «1» القطن .

وقد يجوز أن يكون ذلك مأخوذا من قولهم : رجل لبد . إذا كان لازما لبيته لا يبرحه . وبه

سمّى نسر لقمان لبدا ، لمماطلته للعمر ، وطول بقائه على الدهر . فكأنه قال : أهلكت مالا كان باقيا لى ، وثابتا عندى .

[سورة البلد (90) : الآيات 10 الى 11]

وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

وقوله سبحانه : وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ، فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ [10 ، 11] وهذه استعارة . والمراد بالنّجدين ها هنا الطريقان المفضيان إلى الخير والشر . والنّجد : المكان العالي ، وإنما سمّى تعالى هذين الطريقين بالنجدين ، لأنه بيّنهما للمكلّفين بيانا واضحا ليتّبعوا سبيل الخير ، ويجتنبوا سبيل الشر . فكأنه تعالى بفرط البيان لهما قد رفعهما للعيون ، ونصبهما للناظرين .

---

(1) سبائخ القطن : ما تناثر أو انتفش منه . يقال : طارت سبائخ القطن . انظر «المحيط» .

وقوله سبحانه : فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ [11] استعارة أخرى .

[سورة البلد (90) : الآيات 13 الى 14]

فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14)

وفسّر تعالى المراد بالعقبة فقال: فكّ رقبة أو أطعم فى يوم ذى مسغبة [13، 14] الآية.

وقرىء فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ «1» فشبه سبحانه هذا الفعل- لو فعله الإنسان- باقتحام العقبة، أي صعودها أو قطعها. لأن الإنسان ينجو بذلك كالناجى من الطريق الشاق، إذا اقتحم عقبته، وتجاوز مخافته. وحسن تمثيل هذا الفعل هاهنا بالعقبة لما شبّه سبحانه سبيلى الخير والشر بالنّجدين اللذين هما الطريقان الواضحان والعقاب «2» إنما تكون فى طريق السالكين، وسبيل المسافرين. وعليها يكون بهر الأنفاس، وشدة الضغاط والمراس. انتهى انتهى. اهـ ﴿تلخيص البيان صـ 366. 367﴾

---

(1) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «فك رقبة أو أطعم» على أنها أفعال ماضية وتكون «رقبة» منصوبة على أنها مفعول به للفعل «فك»، وقرأ الباقون «فك رقبة أو إطعام» على أنهما مصدران.

وتكون كلمة «رقبة» مجرورة على أنها مضاف إليه.

(2) العقاب أي العقبات.

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة البلد

" لا أقسم بهذا البلد " يعنى أقسم بمكة " وأنت حل بهذا البلد " ثاوٍ به تدعو إلى الله على بصيرة . ومع أن البلد حرم يصان فيه الحيوان والنبات ، فإن محمدا استبيح واستمرئ العدوان عليه . ولماذا القسم ببلد يقع فيه هذا التناقض ؟ لأن الدعوة إلى التوحيد هنا وبناء جيل جديد يرتبط بالله إجابة لدعاء وقع من وراء القرون ، يقول فيه إبراهيم وإسماعيل " ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " ولذلك نحن نفسر " ووالد وما ولد " بأن الوالد هو إبراهيم وأن محمدا من ذرية إسماعيل هو ولده الذى يختم الرسالات ويقيم دولة التوحيد فى الأرض . " لقد خلقنا الإنسان في كبد " إن الجنس الإنسانى يحمل أثقال التكاليف ، ولجام الشريعة يحجزه عن تحقيق شهواته . وقد يكفر الإنسان وينكر أنه سيحيا مرة أخرى . لماذا ؟ أيعجز الله عن إعادته بعد إماتته ؟ " أيحسب أن لن يقدر عليه أحد " ؟ وذلك كقوله فى سورة أخرى: " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه " ؟ ! ويغتر الإنسان بما أسدى وأنفق من ثروته " يقول أهلكت مالا لبدا " ، كثيرا وتلك طبيعة العرب فى الافتخار بالجاه والثراء والعطاء . يقول عنترة: وإذا سكرت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم . . ! وإذا صحوت فما

أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى . . ! وما قيمة هذا كله إذا لقى المرء ربه عريان لا يكسوه إيمان ولا صلاح ؟ ! " أيحسب أن لم يره أحد " ؟ إن الله سائل كل امرئ عن ماله " من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه " ؟

(50/816)

ثم يذكر المولى عبده بما أوح عنده من نعم تستدعى الشكر " ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين " . فهلا كسر قيود الكفر والتقليد الأعمى واقتحم طريقه إلى الله مؤمنا به مطيعا لأمره ! وماذا يصنع ليحقق ذلك ؟ " وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة" . والسورة هنا ذكرت الإيمان بآثاره الجليلة ، فليس الإيمان زعما مجردا إنما هو عطاء وفداء وذكاء وسناء . والمؤمنون نماذج الإنسانية الكاملة والشرف الرفيع " ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة" . أى جمهور أهل الجنة . والتواصى بالصبر والمرحمة شارة أهل الكمال والاجتهاد . والمؤمنون ليسوا كسالى ولا خزايا ، إنهم ناشطون فى طريق الخير ، حتى يدركهم الموت فينقلهم إلى منازلهم من جنة الرضوان ، كل على قدر نشاطه وسبقه وتوفيق الله له . أما مدمنو الآثام وعشاق الظلام ،

فلهم عاقبة أخرى " والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نار مؤصدة " .

سورة البلد هذه بينت أن الأنبياء العرب لم ينجحوا فى هداية أطراف الجزيرة شمالا وجنوبا . حتى جاء النبى الخاتم فكون من وسط الجزيرة من حملوا المشاعل إلى العالم أجمع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 520 . 521 ﴾

(51/816)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(52/816)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة البلد

أقول: وجه اتصالها بما قبلها أنه لما ذم فيها من أحب المال ، وأكثر التراث ، ولم يحض على

طعام المسكين ، ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال ، من فك الرقبة ، والإطعام في يوم ذي مسغبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 151 ﴾

(53/816)

قوله تعالى ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الملك الواحد القهار (الرحمن) الذي أسبغ نعمته على سائر بريته ، وفاوت بينهم في عطيته ، فكان كل ساخطا لحالته في كبد ما يهمه في خاصته وعامته لحكم تعجز الأفكار (الرحيم) الذي خص أهل ولايته بما يرضيه عنهم من أقضيته فيوصلهم إلى جنته وينجيهم .

(54/816)

لما ختم كلمات الفجر بالجنة التي هي أفضل الأماكن التي يسكنها الخلق ، لا سيما المضافة إلى اسمه الأخص المؤذن بأنها أفضل الجنان ، بعد ما ختم آياتها بالنفس المطمئنة بعد ذكر الأمارة التي وقعت في كبد الندم الذي يتمنى لأجله العدم ، بعد ما تقدم من أنها لا تزال في كبد ابتلاء المعيشة في السراء والضراء ، افتتح هذه بالأمارة مقسماً في أمرها بأعظم البلاد وأشرف أولي الانفس المطمئنة ، فقال مؤكداً بالنافي من حيث إنه ينفي ضد ما ثبت من مضمون الكلام مع القطع بأنه لم يقصد به غير ذلك : ﴿ لا أقسم ﴾ أي أقسم قسماً أثبت مضمونه وأنفي ضده ، ويمكن أن يكون النفي على ظاهره ، والمعنى أن الأمر في الظهور غني عن الإقسام حتى بهذا القسم الذي أنتم عارفون بأنه في غاية العظمة ، فيكون كقوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة : 86] ﴿ بهذا البلد ﴾ أي الحرام وهو مكة التي لا يصل إليها قاصدوها إلا بشق الأنفس ، ولا يزدادون لها مع ذلك إلا حباً ، الدال على أن الله تعالى جعلها خير البلاد ، وقذف حبها في قلوب من اختارهم من كل حاضر وباد ، لأنها تشرفت في أولها وآخرها وأثنائها بخير العباد ، ولم يصفه بالأمن لأنه لا يناسب سياق المشقة بخلاف ما في التين ، فإن المراد هناك الكمالات .

ولما عظم البلد بالإقسام به ، زاده عظماً بالحال به إشعاراً بأن شرف المكان بشرف السكان ، وذلك في جملة حالية فقال : ﴿ وأنت ﴾ يعني وأنت خير كل حاضر وباد ﴿ حال ﴾ أي مقيم أو حلال لك ما لم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدعي أنه لا قدرة لأحد عليه ﴿ بهذا البلد ﴾ فتحل قتل ابن خطل وغيره وإن كان متعلقاً بأستار الكعبة ، وتحرم قتل من دخل دار أبي سفيان وغير ذلك مما فعله الله لك بعد الهجرة بعد نزول هذه السورة المكية بمدة طويله علماً من أعلام النبوة ، أو معنى : يستحل أهله منك وأنت أشرف الخلق ما لا يستحلونه من صيد ولا شجر ، وكرر إظهاره ولم يضمره زيادة في تعظيمه تقبيحاً لما يستحلونه من أذى المؤمنين فيه ، وإشارة إلى أنه يتلذذ بذكره ، فقد وقع القسم بسيد البلاد وسيد العباد ، ولكل جنس سيد ، وهو انتهاؤه في الشرف ، فأشرف الجماد الياقوت وهو سيده ، ولو ارتفع عن هذا الشرف لصار نباتاً ينمو كما في الجنة ، وأشرف جنس النبات النخل ولو ارتفع صار حيواناً يتحرك بالإرادة ، فالحيوان سيد الأكوان ، وسيده الإنسان ، لما له من النطق والبيان ، وسيد الإنسان الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام ، لما لهم من عظيم الوصلة بالملك الديان ، وسيدهم أشرف الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي ختموا به لما فاق به من الفضائل التي أعلاها هذا القرآن ، فسيد الخلق محمد بن عبد الله رسول الله أشرف الممكنات وسيدها لأنه وصل إلى أعلى مقام يمكن أن يكون

لها ، ولو بقي فوق ذلك مقام يمكن للممكن لنقل إليه ، ولكونه أشرف كانت مكابدته أعلى المكابدات ، يصبر على أذى قومه بالكلام الذي هو أنفذ من السهام ، ووضع السلاء من الجزور على ظهره الشريف – نفديه بحر وجوهنا ومصون جباهنا وخدودنا – وهو ساجد ، ووضع الشوك في طريقه ، والإجماع على قصده بجميع أنواع الأذى من الحبس والنفي والقتل بحيث قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ

" ما أوذي أحد في الله ما أوذيت " .

(56/816)

ولما أفهمت هذه الحال أن القسم إنما هو في الحقيقة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كرر الإقسام به على وجه يشمل غيره فقال : ﴿ ووالد ﴾ ولما كان المراد التعجيب من ابتداء الخلق بالتوليد من كل حيوان في جميع أمر التوليد ومما عليه الإنسان من النطق والبيان وغريب الفهم وكان السياق لذم أولي الأنفس الأمارة ، وكانوا هم أكثر الناس ، حسن التعبير بأداة ما لا يعقل لأنها من أدوات التعجيب فقال : ﴿ وما ولد ﴾ أي من ذكر أو أنثى كائناً من كان ، فدخل كما مضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصار مقسماً به مراراً ، وكذا دخل أبواه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وما صنعا وما صنع الله لهما بذلك البلد ،

ومعلوم أن ذكر الصنعة تنبيه على صانعها ، فالمقصود القسم بمن جعل البلد على ما هو عليه من الجلال ، وخص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما خصه به من الإرسال ، وفاوت بين المتوالدين في الخصال ، من النقص والكمال وسائر الأحوال ، تنبيهاً على ما له من الكمال بالجلال والجمال ، ولعله خص هذه الأشياء بالإقسام تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتثبيتاً له على احتمال الأذى ، إشارة إلى أن من كان قد حكم عليه بأنه لا يزال في نكد ، كان الذي ينبغي له أن يختار أن يكون ذلك النكد فيما يرضي الله سبحانه وتعالى ، وذلك لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في مكة المشرفة في أعظم شدة مما يعانيه من أذى الكفار في نفسه وأصحابه ـ رضى الله عنه ـ م لعلو مقامه ، فإن شدة البلاء للأمثل فالأمثل كما مضى مع أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر والصفح ، وكل والد ومولود في شدة بالوالدية والمولودية ، وغير ذلك مما لا يحصى من الأنكاد البشرية ، من حين هو نطفة في ظلمات ثلاث في ضيق ممر ومقر ثم ولادة وربط في تابوت وفطام عن الإلف والأهل ؟ من المؤدب والمعلم وتوبيخ من المشايخ ومعاندة من الأقران ، ومن يتسلط عليه من النسوان ، مع أنه عرضة للأمراض ، وسائر ما

يكره من الأعراض والأغراض ، والفاقات والنوائب والآفات ، والمطالب والحاجات ، لا يحظى بهواه ، ولا يبلغ مناه ، ولا يدرك ما اجتباه ، ولا ينجو غالباً مما يخشاه ، وتفاصيل هذا الإجمال لا تحصى ، ولا حد لها فتستقصى ، إلى الموت وما بعده ، فلذلك كان المقسم عليه قوله : ﴿ لقد خلقنا ﴾ أي بما لنا من القدرة التامة والعظمة التي لا تضاهى ﴿ الإنسان ﴾ أي هذا النوع ﴿ في كبد ﴾ أي شدة شديدة ومشقة عظيمة محيطة به إحاطة الظرف بالمظروف ، لو وكله سبحانه وتعالى في شيء منها إلى نفسه هلك ، ولولا هذه البلايا لادعى ما لا يليق به من عظيم المزايا ، وقد ادعى بعضهم مع ذلك الإلهية وبعضهم الاتحاد برب العباد – تعالى الله عن قولهم الواضح الفساد ، بما قرنه به سبحانه وتعالى من الموت والمرض وسائر الأنكاد ، فعل سبحانه ذلك ليظهر بما للعبد من الضعف والعجز – مع ما منحه به من القوى الظاهرة والباطنة في القول والفعل والبطش والعقل – ما له سبحانه من تمام العلم وشمول القدرة ، وليظهر من خلقه له على هذه الصفة ، علم جميع ما في السورة ، فعلم قطعاً إنكار ظنه لتناهي قدرته وتعالي عظمته ، وفساد هذا الظن بشاهد العقل من حيث كونه مصنوعاً ، وبشاهد الوجود من أجل أنه يسلك طريق الشر ولا يقدر على طريق الخير إلا بالتوفيق ، فعلم قطعاً إعجاز السورة لأنه لا قدرة لمخلوق على أن يأتي بجملة واحدة تجمع جميع ما وراءها من الجمل – هذا إلى ما لها من فنون الإيجاز التي وصلت إلى حد الإعجاز ، هذا إلى ما لبقية الجمل من الإعجاز في حسن الرصف وإحكام التركيب والربط

والمراعاة بالألفاظ للمعاني إلى غير ذلك مما لا يبلغ كنهه إلى منزله سبحانه وعز شأنه ، وعلم أن الإكرام والإهانة ليستا دائرتين على التنعيم في الدنيا والتضييق كما تقدم شرحه في سورة الفجر ، ولأجل ما علم من كون الإنسان لا يزال في نكد وشدة ونصب من حث احتياجه أولاً إلى مطلق الحركة والسكون ، وثانياً إلى المأكل والمشرب

(58/816)

، وثالثاً إلى ما يترتب عليهما إلى غير ذلك مما يعيي عده ويجهل حده ، توجه الإنكار في قوله تعالى بياناً للأسباب الموقعة له في النكد ، وهي شهوتان : نفسية وحسية ، والنفسية منحصرة في أربع : الأولى أنه يشتهي أن يكون كل من في الوجود في قبضته فأشار إليها ﴿أيحسب﴾ أي هذا الإنسان لضعف عقله مع ما هو فيه من أنواع الشدائد ﴿أن لن يقدر﴾ ولما أكد بالفعلية وخصوص هذا النافي قدم الجار تأكيداً بما يفيد من الاهتمام بالإنسان فقال : ﴿عليه﴾ أي خاصة ﴿أحد﴾ أي من أهل الأرض أو السماء فيغلبه حتى أنه يعاند خالقه مع ما ينظر من اقتداره على أمثاله بنفسه وبمن شاء من جنوده فيعادي رسله عليهم الصلاة والسلام ويجحد آياته .

(59/816)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما أوضح سبحانه وتعالى حال من تقدم ذكره في السورتين في عظيم حيرتهم وسوء غفلتهم وما أعقبهم ذلك من التذكر تحسراً حين لا ينفع التندم ، ولات حين مطمع ، أتبع ذلك بتعريف نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام بأن وقوع ذلك منهم إنما جرى على حكم السابقة التي شاءها والحكمة التي قدرها كما جاء في الموضع الآخر ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة : 13] فأشار تعالى إلى هذا بقوله ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ أي أنا خلقناه لذلك ابتلاء ليكون ذلك قاطعاً لمن سبق له الشقاء عن التفكر والاعتبار ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ [الكهف : 57] فأعماهم بما خلقهم فيه من الكبد وأغفل قلوبهم فحسبوا أنهم لا يقدر عليهم أحد ، وقد بين سبحانه وتعالى فعله هذا بهم في قوله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ [الكهف : 28] ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ [يونس : 99] فأنت تشاهدهم يا محمد ذوي أبصار وآلات يعتبر بها النظار ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ﴾ فهلا أخذ في خلاص نفسه ، واعتبر بحاله وأمسه ، ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ ولكن إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له – انتهى .

ولما كان الإنسان لا يفتخر بالإنفاق إلا إذا أفضى إلى الإملاق ، فعلم أن مراد الإشارة إلى أن معه أضعاف ما أنفق من حيث إنه حقره بلفظ الإهلاك ، إشارة إلى الثانية والثالثة من شهواته النفسية وهما إرادته أن يكون له الفخار والامتنان على جميع الموجودات ، وإرادته أن يكون عنده من الأموال ما لا تحيط به الأفكار ولا تحويه الأقطار - كما يشير إليه حديث " " لو أن لابن آدم واد من ذهب " و " لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب " " علل سبحانه وتعالى جهله في حسابه ذلك وما تبعه بقوله : ﴿ يقول ﴾ أي مفتخراً بقدرته وشدته : ﴿ أهلكت مالاً لبدا ﴾ ولقصد المبالغة في كثرته جاءت قراءة أبي جعفر بالتشديد على أنه جمع لا بد كركع وراكع فأفهمت أنه بحيث لا يحصى ، بل لو جمع لم تسعه الأرض إلا بأن يكون بعضه على بعض فلا يعد ولا يحد ، أي وذلك قليل من الكثير الذي معي ، قلدت به أعناق الرجال المنن ، واستعبدت به الأحرار في كل زمن ، فصرت بحيث إذا دعوت كثر الملبي ، وإذا ناديت كثر المجيب ، وإذا أمرت عظم الممتثل ، وفاء لصنائعي الماضية ورغبة في نعمي الباقية ، فمن يستعصي عليّ ومن يخالف أمري ، فضلاً عن أن يريد إخمال ذكري أو نقص قدري .

ولما كان الشيء لا يعني إلا إذا كان مجهولاً ولو من بعض الجهات ، أنكر عليه هذا الظن على تقدير وقوعه فإنه لا يوصل إلى ما ظنه إلا به ، بقوله مشيراً إلى شهوته النفسية الرابعة ، وهي أن تكون أموره مستورة فلا يظهر على غيه أحد أصلاً : ﴿ أيحسب ﴾ أي هذا الإنسان العنيد بقلة عقله ﴿ أن لم يره ﴾ أي بالبصر ولا بالبصيرة في الزمن الماضي ﴿ أحد ﴾ أي في عمله هذا سره وجهره وجميع أمره ، فينقص جميع ما عمل إذا أراد ، وكل ما فاته من آثار هذه الشهوات الأربع ، وهو لا يزال فائتاً له ، كان من إرادة تحصيله في نكد ومعاناة وكبد بحيث يرمي نفسه لتحصيله في المهالك ، ولا يحصل منه على ما يرضيه أبداً ، وهذا كناية عن أنه يعمل من المساوىء أعمال من يظن أنه لا يطلع عليه ، فلذلك نبهه الله تعالى بأنواع التنبيه ليأخذ حذره ويحرز عمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 425 . 429 ﴾

(62/816)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات ﴿ لبداً ﴾ بالتشديد : يزيد ﴿ فك رقبة أو إطعام ﴾ على صيغة الفعلين ونصب ﴿ رقبة ﴾ ابن كثير وأبو عمرو وعليّ . الباقون : على المصدرين فأضافوا الأول ونونوا الثاني أي هي الفك أو الإطعام ﴿ مؤصدة ﴾ بالهمز : أبو عمرو ويعقوب وحمزة وخلف وحفص والمفضل .

الوقوف : ﴿ البلد ﴾ ه لا ﴿ البلد ﴾ ه ك ﴿ ولد ﴾ ه ك ﴿ كبد ﴾ ه ط ﴿ أحد ﴾ م ه لئلا يوهم أن ما بعده صفة ﴿ لبداً ﴾ ط ﴿ أحد ﴾ ه ك ﴿ عينين ﴾ ه لا ﴿ وشفتين ﴾ ه ك ﴿ النجدين ﴾ ج ه للنفي مع الفاء ﴿ العقبة ﴾ ه ز ﴿ العقبة ﴾ ه ط ﴿ رقبة ﴾ ه لا ﴿ مسغبة ﴾ ه ط ﴿ مقربة ﴾ ه ك ﴿ متربة ﴾ ه ط لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ بالمرحمة ﴾ ه ك ﴿ الميمنة ﴾ ه ط ﴿ المشأمة ﴾ ه ط ﴿ مؤصدة ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 501 ﴾

(63/816)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

أجمع المفسرون على أن ذلك البلد هي مكة ، واعلم أن فضل مكة معروف ، فإن الله تعالى جعلها حرما آمناً ، فقال في المسجد الذي فيها ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً ﴾ [آل عمران : 97] وجعل ذلك المسجد قبلة لأهل المشرق والمغرب ، فقال : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : 144] وشرف مقام إبراهيم بقوله : ﴿ واتخذوا مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى ﴾ [البقرة : 125] وأمر الناس بحج ذلك البيت فقال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [آل عمران : 97] وقال في البيت : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لّلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ [البقرة 125] وقال : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ البيت يت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِى شَيْئاً ﴾ [الحج : 26] وقال : ﴿ وعلى كُلّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلّ فَجّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : 27] وحرم فيه الصيد ، وجعل البيت المعمور بإزائه ، ودحيت الدنيا من تحته ، فهذه الفضائل وأكثر منها لما اجتمعت في مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها ، فأما قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ فالمراد منه أمور أحدها : وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حال به ، كأنه تعالى عظم مكة من جهة أنه عليه الصلاة والسلام مقيم بها وثانيها : الحل بمعنى الحلال ، أي أن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات ، ثم إنهم مع ذلك ومع إكرام الله

تعالى إياك بالنبوة يستحلون إيذاءك ولو تمكنوا منك لقتلوك ، فأنت حل لهم في اعتقادهم لا يرون لك من الحرمة ما يرونه لغيرك ، عن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً أو يعضوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك ، وفيه تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب له من حالهم في عدوانهم له وثالثها : قال قتادة : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ ﴾ أي لست بآثم ، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت ، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له ، وما فتحت على أحد

(65/816)

قبله ، فأحل ما شاء وحرم ما شاء وفعل ما شاء ، فقتل عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرم دار أبي سفيان ، ثم قال : " إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل إلا ساعة من نهار ، فلا يعضد شجرها ، ولا يختلي خلالها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد .

" فقال العباس : إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لبيوتنا وقبورنا ، فقال " إلا الإذخر " .

فإن قيل : هذه السورة مكية ، وقوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ ﴾ إخبار عن الحال ، والواقعة التي

ذكرتم إنما حدثت في آخر مدة هجرته إلى المدينة ، فكيف الجمع بين الأمرين ؟ قلنا : قد يكون اللفظ للحال والمعنى مستقبلاً ، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر : 30] وكما إذا قلت لمن تعده الإكرام والحباء : أنت مكرم محبو ، وهذا من الله أحسن ، لأن المستقبل عنده كالحاضر بسبب أنه لا يمنعه عن وعده مانع

ورابعها : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ أي وأنت غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه تعظيماً منك لهذا البيت ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر بالله ، وتكذيب الرسل وخامسها : أنه تعالى لما أقسم بهذا البلد دل ذلك على غاية فضل هذا البلد ، ثم قال : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ أي وأنت من حل هذه البلدة المعظمة المكرمة ، وأهل هذا البلد يعرفون أصلك ونسبك وطهارتك وبراءتك طول عمرك من الأفعال القبيحة ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الاميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : 2] وقال : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] وقوله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ﴾ [يونس : 16] فيكون الغرض شرح منصب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه من هذا البلد .

(66/816)

أما قوله : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ فاعلم أن هذا معطوف على قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ معترض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وللمفسرين فيه وجوه أحدها : الولد آدم وما ولد ذريته ، أقسم بهم إذ هم من أعجب خلق الله على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه ، وكل ما في الأرض مخلوق لهم وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الأسماء كلها ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] فيكون القسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم ، لما ذكرنا من ظهور العجائب في هذه البنية والتركيب ، وقيل : هو قسم بآدم والصالحين من أولاده ، بناء على أن الطالحين كأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم بهائم .

كما قال : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 44] ، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : 18] وثانيها : أن الولد إبراهيم وإسماعيل وما ولد محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لأنه أقسم بمكة وإبراهيم بانيها وإسماعيل ومحمد عليهما السلام سكانها ، وفائدة التنكير الإبهام المستقل بالمدح والتعجب ، وإنما قال : ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ ولم يقل ومن ولد ، للفائدة الموجودة في قوله : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران : 36] أي بأي شيء وضعت يعني موضوعاً عجيب الشأن وثالثها : الولد إبراهيم وما ولد جميع ولد إبراهيم بحيث يحتمل العرب والعجم .

فإن جملة ولد إبراهيم هم سكان البقاع الفاضلة من أرض الشام ومصر ، وبيت المقدس وأرض العرب ومنهم الروم لأنهم ولد عيصو بن إسحق ، ومنهم من خص ذلك بولد إبراهيم من العرب ومنهم من خص ذلك بالعرب المسلمين ، وإنما قلنا : إن هذا القسم واقع بولد إبراهيم المؤمنين لأنه قد شرع في التشهد أن يقال : "كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم" وهم المؤمنين ورابعها : روي عن ابن عباس أنه قال : الولد الذي يلد ، وما ولد الذي لا يلد ، فما ههنا يكون للنفي ، وعلى هذا لا بد عن إضمار الموصول أي ووالد ، والذي ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين وخامسها : يعني كل والد ومولود ، وهذا مناسب ، لأن حرمة الخلق كلهم داخل في هذا الكلام .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الكبد وجوه أحدها : قال صاحب "الكشاف" : إن الكبد أصله من قولك كبد الرجل كبداً فهو كبد إذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة ، ومنه اشتقت المكابدة وأصله كبده إذا أصاب كبده ، وقال آخرون : الكبد شدة الأمر

ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد ، ومنه الكبد لأنه دم يغلظ ويشتد ، والفرق بين القولين أن الأول جعل اسم الكبد موضوعاً للكبد ، ثم اشتقت منه الشدة .

وفي الثاني جعل اللفظ موضوعاً للشدة والغلظ ، ثم اشتق منه اسم العضو الوجه الثاني : أن الكبد هو الاستواء والاستقامة الوجه الثالث : أن الكبد شدة الخلق والقوة ، إذا عرفت هذا فنقول أما على الوجه الأول فيحتمل أن يكون المراد شدائد الدنيا فقط ، وأن يكون المراد شدائد التكاليف فقط ، وأن يكون المراد شدائد الآخرة فقط ، وأن يكون المراد كل ذلك .

أما الأول : فقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ أي خلقناه أطواراً كلها شدة ومشقة ، تارة في بطن الأم ، ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ ففي الكد في تحصيل المعاش ، ثم بعد ذلك الموت .

(68/816)

وأما الثاني : وهو الكبد في الدين ، فقال الحسن : يكابد الشكر على السراء ، والصبر على الضراء ، ويكابد المحن في أداء العبادات .

وأما الثالث : وهو الآخرة ، فالموت ومساءلة الملك وظلمة القبر ، ثم البعث والعرض على

الله إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة وإما في النار .

وأما الرابع : وهو يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق ، وعندي فيه وجه آخر ، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة ألبتة ، بل ذاك يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم ، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عند ألم الجوع ، وما يتخيل من اللذات عند اللبس فهو خلاص عن ألم الحر والبرد ، فليس للإنسان ، إلا ألم أو خلاص عن ألم وانتقال إلى آخر ، فهذا معنى قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ ويظهر منه أنه لا بد للإنسان من البعث والقيامة ، لأن الحكيم الذي دبر خلقة الإنسان إن كان مطلوبه منه أن يتألم ، فهذا لا يليق بالرحمة ، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ ، ففي تركه على العدم كفاية في هذا المطلوب ، وإن كان مطلوبه أن يلتذ ، فقد بينا أنه ليس في هذه الحياة لذة ، وأنه خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة ، فإذا لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى ، لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرمات .

وأما على الوجه الثاني : وهو أن يفسر الكبد بالاستواء ، فقال ابن عباس : في كبد ، أي قائماً منتصباً ، والحيوانات الآخر تمشي منكسة ، فهذا امتنان عليه بهذه الخلقة .

وأما على الوجه الثالث : وهو أن يفسر الكبد بشدة الخلقة ، فقد قال الكلبي : نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يكنى أبا الأشد ، وكان يجعل تحت قدميه الأديم العكاظي ، فيجتذبونه من تحت قدميه فيتمزق الأديم ولم تزل قدماه ، واعلم أن اللائق بالآية هو الوجه

الأول .

المسألة الثانية :

(69/816)

حرف في واللام متقاربان ، تقول : إنما أنت للعناء والنصب ، وإنما أنت في العناء والنصب ، وفيه وجه آخر وهو أن قوله : ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، وفيه إشارة إلى ما ذكرنا أنه ليس في الدنيا إلا الكد والمحنة .

المسألة الثالثة :

منهم من قال : المراد بالإنسان إنسان معين ، وهو الذي وصفناه بالقوة ، والأكثرون على أنه عام يدخل فيه كل أحد وإن كنا لا نمنع من أن يكون ورد عند فعل فعله ذلك الرجل .

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5)

اعلم أنا إن فسرنا الكبد بالشدة في القوة ، فالمعنى أيحسب ذلك الإنسان الشديد أنه لشدته لا يقدر عليه أحد ، وإن فسرنا المحنة والبلاء كان المعنى تسهيل ذلك على القلب ، كأنه يقول : وهب أن الإنسان كان في النعمة والقدرة ، أفيظن أنه في تلك الحالة لا يقدر عليه أحد ؟ ثم اختلفوا فقال : بعضهم لن يقدر على بعثه ومجازاته فكأنه خطاب مع من أنكر

البعث ، وقال آخرون : المراد لن يقدر على تغيير أحواله ظناً منه أنه قوي على الأمور لا يدافع عن مراده ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار .

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6)

قال أبو عبيدة : لبد ، فعل من التلبيد وهو المال الكثير بعضه على بعض ، قال الزجاج : فعل للكثرة يقال رجل حطم إذا كان كثير الحطم ، قال الفراء : واحدته لبدة ولبد جمع وجعله بعضهم واحداً ، ونظيره قسم وحطم وهو في الوجهين جميعاً الكثير ، قال الليث : مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته .

وقد ذكرنا تفسير هذا الحرف عند قوله : ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن : 19] والمعنى أن هذا الكافر يقول : أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيراً ، والمراد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم ، ويدعونه معالي ومفاخر .

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)

(70/816)

فيه وجهان الأول : قال قتادة : أيظن أن الله لم يره ولم يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه الثاني : قال الكلبي : كان كاذباً لم ينفق شيئاً ، فقال الله تعالى : أيظن أن الله تعالى ما

رآى ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق ، بل رآه وعلم منه خلاف ما قال . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 163.166 ﴾

(71/816)

وقال القرطبى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

يجوز أن تكون "لا" زائدة ؛ كما تقدّم في ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] ؛ قاله الأخفش .

أي أقسم ؛ لأنه قال : ﴿ بهذا البلد ﴾ وقد أقسم به في قوله : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : 3] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به .

قال الشاعر :

تَذَكَّرتُ ليلى فاعترتني صَبابة . . .

وكاد صمِيم القلبِ لا يتَقطَّع

أي يتقطع ، ودخل حرف "لا" صلة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] بدليل قوله تعالى في (ص) : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص :

75] .

وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير "لأُقْسِم" من غير ألف بعد اللام إثباتاً .

وأجاز الأخفش أيضاً أن تكون بمعنى "أَلاَ" .

وقيل : ليست بنفي القسم ، وإنما هو كقول العرب : لا والله لا فعلت كذا ، ولا والله ما كان كذا ، ولا والله لأَفْعَلَنّ كذا .

وقيل : هي نفي صحيح ؛ والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه ، بعد خروجك منه .

حكاه مكيّ .

ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : "لا" ردٌّ عليهم .

وهذا اختيار ابن العربيّ ؛ لأنه قال : "وأما من قال إنها ردّ ، فهو قول ليس له ردّ ؛ لأنه يصح به المعنى ، ويتمكن اللفظ والمراد" .

فهو ردّ لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم .

وقال القشيريّ : قوله "لا" : ردّ لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة ، المغرور بالدنيا .

أي ليس الأمر كما يحسبه ، من أنه لن يقدر عليه أحد ، ثم ابتدأ القسم .

و"البلد" : هي مكة ، أجمعوا عليه .

أي أُقسِم بالبلد الحرام الذي أنت فيه ، لكرامتك عليّ وحبي لك .

وقال الواسطيّ أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً ، وبركتك ميتاً ؛ يعني المدينة .

والأوّل أصح ؛ لأن السورة نزلت بمكة باتفاق .

وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2)

(72/816)

يعني في المستقبل ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

ومثله واسع في كلام العرب .

تقول لمن تَعِدُه الإكرامَ والحِباء : أنت مُكرَمٌ مَحْبُو .

وهو في كلام الله واسع ، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ؛ وكفاك دليلاً قاطعا على أنَّه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة باتفاق مكية قبلَ الفتح .

فروى منصور عن مجاهد : "وأَنتَ حِلٌّ" قال : ما صنعت فيه من شيء فأنت في حِلّ .

وكذا قال ابن عباس : أُحِلّ له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ، فقتل ابن خَطَل ومِقْيس بن صُبَابة وغيرهما .

ولم يَحِلَّ لأحد من الناس أن يقتل بها أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى السُّدّي قال : أنت في حِلٍّ ممن قاتلك أن تقتله .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أُحِلّت له ساعة من نهار ، ثم أُطبِقت وحرّمت إلى يوم القيامة ، وذلك يوم فتح مكة .

وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله حرم مكة يوم خَلَق السمواتِ والأرضَ ، فهي حَرام إلى أن تقوم الساعة ، فلم تَحِلّ لأحد قبلي ، ولا تَحِلّ لأحد بعدي ، ولم تَحِلَّ لي إلاّ ساعةً من نهار " الحديث .

وقد تقدم في سورة "المائدة" .

ابن زيد : لم يكن بها أحد حَلالاً غيرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : وأنت مُقِيم فيه وهو محلك .

وقيل : وأنت فيه محْسن ، وأنا عنك فيه راضٍ .

وذكر أهل اللغة أنه يقال : رجل حِلٌّ وحَلال ومُحِلّ ، ورجل حَرامٌ ومُحِل ، ورجل حَرَام ومُحْرِم .

وقال قتادة : أنت حِلٌّ به : لست بآثم .

وقيل : هو ثناء على النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يَحرُم عليك ارتكابه ، معرفة منك بحق هذا البيت ؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه .

أي أقسِم بهذا البيت المعظم الذي قد عَرفتَ حرمته ، فأنت مقيم فيه معظم له ، غير مرتكب فيه ما يحرُم عليك .

(73/816)

وقال شُرَحْبيل بن سعد : "وأنت حِل بِهذا البلد " أي حلال ؛ أي هم يحرّمُون مكة أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا بها شجرة ، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك .

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح : ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ آدم : عليه السلام .

﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ أي وما نَسَل من ولده .

أقسم بهم لأنهم أَعجبُ ما خلق الله تعالى على وجه الأرض ؛ لما فيهم من التِّبيان والنطق والتدبير ، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى .

وقيل : هو إقسام بآدم والصالحين من ذُرِّيته ، وأما غير الصالحين فكأنهم بهائم .

وقيل : الوالد إبراهيم .

وما ولد : ذرِّيته ؛ قاله أبو عمران الجَوْنِيّ : ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته .

ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته .

قال الفرّاء : وصَلحَتْ "ما" للناس ؛ كقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 3] وكقوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 3] وهو الخالق للذكر والأنثى ، وقيل : "ما" مع ما بعدها في موضع المصدر ؛ أي ووالد وولادته ؛ كقوله تعالى : ﴿ والسمآء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] وقال عكرمة وسعيد بن جُبير : ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ يعني الذي يولد له .

﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ يعني العاقر الذي لا يُولَد له ؛ وقاله ابن عباس .

و"ما" على هذا نفي .

وهو بعيد ، ولا يصح إلا بإضمار الموصول ؛ أي ووالد والذي ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين .

وقيل : هو عموم في كل والد وكل مولود ؛ قاله عطية العَوفي .

ورُوِي معناه عن ابن عباس أيضاً .

وهو اختيار الطبريّ .

قال الماورديّ : ويحتمل أن الوالد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لتقدّم ذكره ، وما ولد أمّته : لقوله عليه السلام : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم " فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغة في تشريفه عليه السلام .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

إلى هنا انتهى القَسَم ؛ وهذا جوابه .

ولله أن يُقْسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها ، كما تقدم .

والإنسان هنا ابن آدم .

﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ أي في شدّة وعناء من مكابدة الدنيا .

وأصل الكَبَد الشدّة .

ومنه تَكَبَّد اللبن : غلُظ وخَثُر واشتدّ .

ومنه الكَبِد ؛ لأنه دم تغلّظ واشتدّ .

ويقال : كابدت هذا الأَمر : قاسيت شدّته .

قال لَبيد :

يا عينُ هلاَّ بكيتِ أربدَ إذْ . . .

قُمْنا وقام الخصومُ في كَبَدِ

قال ابن عباس والحسن : "في كَبَد " أي في شدّة ونَصَب .

وعن ابن عباس أيضاً : في شدّة من حمله وولادته ورضاعه ونَبْت أسنانه ، وغير ذلك من أحواله .

وروى عكرمة عنه قال : منتصباً في بطن أمّه .

والكَبَد : الاستواء والاستقامة .

فهذا امتنان عليه في الخلقة .

ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة في بطن أمها إلا منكَبة على وجْهها إلا ابن آدم ، فإنه منتصِب انتصاباً ؛ وهو قول النَخعِيّ ومجاهد وغيرهما .

ابن كيسان : منتصباً رأسُه في بطن أمه ؛ فإذا أَذِن الله أن يخرج من بطن أمه قَلَبَ رأسَه إلى رجلي أمّه .

وقال الحسن : يُكابِد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .

وعنه أيضاً : يكابد الشكر على السَّرَّاء ويكابد الصبرَ على الضَّرَّاء ؛ لأنه لا يخلو من أحدهما .

ورواه ابن عمر .

وقال يَمانٌ : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق .

(75/816)

قال عُلماؤنا : أوّل ما يكابد قطع سُرَّته ، ثم إذا قُمِط قِماطاً ، وشَدَّ رِباطاً ، يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ، ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه ، وتحرّك لسانه ، ثم يكابد الفِطام ، الذي هو أشدّ من اللِّطام ، ثم يكابد الختان ، والأوجاع والأحزان ، ثم يكابد المُعَلِّم وصَولَته ، والمؤدّب وسياسته ، والأستاذ وهَيبته ، ثم يكابد شغل التَّزْويج والتعجيل فيه ، ثم يكابد شُغْل الأولاد ، والخدم والأجناد ، ثم يكابد شغل الدور ، وبناء القصور ، ثم الكِبَرَ والهَرَم ، وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادُها ، ونوائب يطول إيرادُها ، من صُداع الرأس ، ووجع الأضراس ، ورمد العين ، وغَمّ الدَّين ، ووجع السنّ ، وألم الأذن . ويكابِد مِحَناً في المال والنفس ، مثل الضرب والحبس ، ولا يمضي عليه يوم إلاّ يقاسي فيه شدّة ، ولا يكابد إلا مشقة ، ثم الموت بعد ذلك كله ، ثم مساءلة المَلَك ، وضَغْطة القبر وظلمته ، ثم البعث والعرض على الله ، إلى أن يستقرّ به القرار ، إما في الجنة وإما في النار ؛ قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ﴾ ، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد .

ودلّ هذا على أن له خالقاً دَبَّره ، وقضى عليه بهذه الأَحوال ؛ فليمتثل أمره .

وقال ابن زيد : الإنسان هنا آدم .

وقوله : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ أي في وسط السماء .

وقال الكَلْبِيّ : إن هذا نزل في رجل من بني جُمَحَ ؛ كان يقال له أَبو الأشدين ، وكان يأخذ

الأديم العُكاظِيّ فيجعله تحت قدميه ، فيقول : من أزالني عنه فله كذا .

فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ؛ وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه نزل ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يعني : لقوّته .

ورُوي عن ابن عباس .

"فِي كَبَدٍ" أي شديداً ، يعني شديد الخَلق ؛ وكان من أشدّ رجال قريش .

(76/816)

وكذلك رُكانة بن هاشم بن عبد المطلب ، وكان مثلاً في البأس والشدّة .

وقيل : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ أي جريء القلب ، غليظ الكَبِد ، مع ضعف خِلقته ، ومهانة مادّته .

ابن عطاء : في ظلمة وجهل .

الترمِذِيّ : مُضِيعاً ما يَعْنِيه ، مشتغِلاً بما لا يعنيه .

قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾

أي أيظنّ ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ ﴾ أي أنفقت .

﴿ مَالاًّ لُّبَداً ﴾ أي كثيراً مجتمعاً .

﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ أي أيظنّ .

﴿ أَن لَّمْ يَرَهُ ﴾ أي أن لم يعاينه ﴿ أَحَدٌ ﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه ، فكان كاذباً في قوله : أهلكت ولم يكن أنفقه .

وروى أبو هريرة قال : يوقف العبد ، فيقال ماذا عملت في المال الذي رزقتك ؟ فيقول : أنفقته وزكَّيته .

فيقال : كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سَخِيّ ، فقد قيل ذلك .

ثم يؤمر به إلى النار .

وعن سعيد عن قتادة : إنك مسؤول عن مالِكَ من أينَ جمعت ؟ وكيف أنفقت ؟ وعن ابن عباس قال : كان أبو الأَشدَّين يقول : أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيراً وهو في ذلك كاذب .

وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب فاستفتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يُكَفِّر .

فقال : لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات ، منذ دخلت في دين محمد .

وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق ، فيكون طغياناً منه ، أو أسفاً عليه ، فيكون ندماً منه .

وقرأ أبو جعفر "مالاًّ لُّبَّداً" بتشديد الباء مفتوحة ، على جمع لابد ؛ مثل راكع وركَّع ،

وساجد وسُجّد ، وشاهد وشُهَّد ، ونحوه .

وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمّ الباء واللام مخففاً ، جمع لُبود .

الباقون بضمّ اللام وكسرها وفتح الباء مخففاً ، جمع لَبْدَة ولبدة ، وهو ما تلبد ؛ يريد الكثرة .

وقد مضى في سورة "الجن" القول فيه .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ "أَيَحْسُب" بضم السين في الموضعين .

(77/816)

وقال الحسن : يقول أتلفت مالاً كثيراً ، فمن يحاسبني به ؛ دعني أَحْسُبه .

ألم يعلم أن الله قادر على مُحاسبته ، وأن الله عز وجل يرى صنيعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(78/816)

وقال الآلوسى :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾

أقسم سبحانه بالبلد الحرام أعني مكة فإنه المراد بالمشار إليه بالإجماع وما عطف عليه على الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق ومعاناة الشدائد وقوله تعالى :

﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ على ما اختاره في "الكشاف" اعتراض بين القسم وجوابه وفيه تحقيق مضمونه بذكر بعض المكابدة على نهج براعة الاستهلال وإدماج لسوء صنيع المشركين ليصرح بذمهم على أن الحل بمعنى المستحل بزنة المفعول الذي لا يحترم فكأنه قيل ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمته يستحل بهذا البلد الحرام ولا يحترم كما يستحل الصيد في غير الحرم عن شرحبيل بن سعد يحرمون أن يقتلوا به صيداً ويعضدوا شجره ويستحلون إخراجك وقتلك وفي تأكيد كون الإنسان في كبد بالقسم تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث على أن يطأ من نفسه الكريمة على احتماله فإن ذلك قدر محتوم وجوز أن يكون الحل بمعنى الحلال ضد الحرام قال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير وغيره وأنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به وأما غيرك فلا وقال مجاهد أحله لله تعالى له عليه الصلاة والسلام ساعة من نهار وقال سبحانه له ما صنعت فيه من شيء فأنت في حل لا تؤاخذ به وروى نحو ذلك عن أبي صالح وقتادة وعطية وابن زيد والحسن والضحاك ولفظه يقول سبحانه أنت حل بالحرم فاقتل إن شئت أودع وذلك يوم الفتح وقد قتل صلى الله عليه وسلم يومئذ عبد الله بن خطل وهو الذي كانت قريش تسميه ذا القلبين قدمه أبو برزة سعد بن حرب الأسلمي فضرب بأمره صلى الله عليه وسلم عنقه وهو متعلق بأستاذ

الكعبة وكان قد أظهر الإسلام وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من الوحي فارتد وشنع على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما يمليه من القرآن منه عليه الصلاة والسلام لا من الله تعالى وقتل غيره أيضاً كما هو مذكور في كتب السير ثم قال عليه الصلاة والسلام " إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لا تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد فقال العباد يا رسول الله إلا الأذخر فإنه

(79/816)

لقيوننا وقبورنا وبيوتنا فقال عليه الصلاة والسلام إلا الأذخر " وتقديم المسند إليه على هذا للاختصاص كما أشير إليه في خبر ابن عباس وحل على معنى الاستقبال بناء على أن نزول السورة قبل الهجرة التي هي قبل الفتح بكثير وفي خبر رواه عبد بن حميد عن ابن جبير ما هو ظاهر في أن الآية نزلت بعد أن ضرب أبو برزة عنق ابن خطل يوم الفتح فإن صح لا يكون في معنى الاستقبال لكن الجمهور على الأول وفي تعظيم المقسم به وتوكيد المقسم عليه بالاقسام توكيد لما سيق له الكلام وهو على ما ذكر أن عاقبة الاحتمال والمكابدة إلى الفتح

والظفر والغرض تسليته صلى الله عليه وسلم ثم ترشيحها بالتصريح بما سيكون من الغلبة وتعظيم البلد يدل على تعظيم من أهل له وفي الاقسام به توطئة للتسلية لأن تعظيم البلد تعظيم للساكن فيه وجوز أن يكون الحل على نحو ما ذكر في هذا الوجه لكن المعنى وأنت حل بهذا البلد مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء منها والمعنى في الأقسام بالبلد تعظيمه وفي الاعتراض ترشيح التعظيم والتشريف بكون مثله صلى الله عليه وسلم في جلالة القدر ومنصب النبوة ساكناً فيه مبايناً لما عليه الغاغة والهمج والفائدة فيه تأكيد المقسم عليه بأنهم من أهل الطبع فلا ينفعهم شرف مكان والمتمكن فيه كأنه قيل أقسم بهذا البلد الطيب بنفسه وبمن سكن فيه أن أهلهل لفي مرض قلب وشك لا يقادر قدره وقيل الحل صفة أو مصدر بمعنى الحال يقال حل أي نزل يحل حلاً وحلولاً ويقال أيضاً هو حل بموضع كذا كما يقال حال به والقول بأن الصفة من الحلول حال لا حل ومصدر حل بمعنى نزل الحلول والحل بفتح الحاء والحلل فقط ناشيء من قلة التتبع والاعتراض لتشريفه صلى الله عليه وسلم بجعل حلوله عليه الصلاة والسلام مناطاً لإعظام البلد بالاقسام به وجعل بعض الأجلة الجملة على هذا الوجه حالاً من هذا البلد وكذا جعلها بعضهم حالية على الوجهين قبل إلا أن الحال على ثانيهما مقارنة وعلى أولهما مقدرة

(80/816)

أو مقارنة إن قيل أن النزول ساعة احلت مكة وجعلها ابن عطية حالاً على الوجه الأول أيضاً أعني كون الحل بمعنى المستحل لكن قيده بكون لا نافية غير زائدة فتأمل وأياً ما كان ففي الإشارة وإقامة الظاهر مقام الضمير من تعظيم البلد ما فيهما .

(81/816)

﴿ وَوَالِدٍ ﴾ عطف على ﴿ هذا البلد ﴾ [البلد : 1] المقسم به وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ والمراد بالأول آدم عليه السلام وبالثاني جميع ولده على ما أخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ورواه جماعة أيضاً عن مجاهد وقتادة وابن جبير وقيل المراد آدم عليه السلام والصالحون من ذريته وقيل نوح عليه السلام وذريته وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عمران أنهما إبراهيم عليه السلام وجميع ولده وقيل إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم ادعى أنه ينبىء عن ذلك المعطوف عليه فإنه حرم ابراهيم ومنشأ اسمعيل ومسقط رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين وقال الطبري والماوردي يحتمل أن يكون الوالد النبي صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره وما ولد أمته لقوله عليه الصلاة والسلام " إنما أنا لكم بمنزلة

الوالد " ولقراءة عبد الله ﴿ وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم ﴾ [الأحزاب : 6] وفي القسم بذلك مبالغة في شرفه عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى وقيل المراد كل والد وولده من العقلاء وغيرهم ونسب ذلك لابن عباس وأخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق عكرمة عنه أنه قال ﴿ الصمد لَمْ يَلِدْ ﴾ وما ولد العاقر الذي لا يلد من الرجال والنساء ونسب إلى ابن جبير أيضاً فما عليه نافية فحيتاج إلى تقدير موصول يصح به المعنى الذي أريد كأنه قيل ووالد والذي ما ورد وإضمار الموصول في مثله لا يجوز عند البصريين ومع هذا هو خلاف الظاهر ولعل ظاهر اللفظ عدم التعيين في المعطوفين وظاهر العطف على هذا البلد إرادة من له دخل فيه وشهرة بنسبة البلد إليه والمشهور في ذلك ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وتنكير والد على ما اختاره غير واحد للتعظيم وإيثار ما على من بناء على أن المراد بما ولد العاقل لإرادة الوصف فتفيد التعظيم في مقام المدح وأنه مما لا يكتنه كنهه لشدة إبهامها ولذا أفادت التعجب أو التعجيب وإن لم تكن

(82/816)

استفهامية كما في قوله تعالى : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران : 36] أي أي مولود عظيم الشأن وضعته والتعظيم والتعجيب على تقدير أن يراد بما ولد ذرية آدم عليه

السلام مثلاً قيل باعتبار التغليب وقيل باعتبار الكثرة وما خص به الإنسان من خواص البشر كالعقل وحسن الصورة ومن تأمل في شؤون الإنسان من حيث هو إنسان يعلم أنه من تلك الحيثية معظم يتعجب منه .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ أي في تعب ومشكقة فإنه لا يزال يقاسي فنون الشداد من وقت نفخ لروح إلى حين نزعها وما وراءه يقال كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا وجعته كبده وانفتخت فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة لمقاساة الشداد كما قيل كبته بمعنى أهلكه وأصله كبده إذا أصاب كبده قال لبيد يرثي أخاه

.

يا عين هل بكيت أربد إذ . . .

قمنا وقام الخضوم في كبد

(83/816)

أي في شدة الأمر وصعوبة الخطب وعن ابن عمر يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء وعن ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبي صالح والضحاك ومجاهد أنهم قالوا

أي خلقناه منتصب القامة واقفاً ولم نجعله منكباً على وجهه وقال ابن كيسان أي منتصباً رأسه في بطن أمه فإذا أذن له في الخروج قلب رأسه إلى قدمي أمه وهذه الأقوال كلها ضعيفة لا يعول عليها بخلاف الأول وقد رواه الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس وروى عن غير واحد من السلف نعم جوز أن يكون المعنى لقد خلقناه في مرض شاق وهو مرض القلب وفساد الباطن وهذا بناء على الوجه الثالث من الأوجه الأربعة السابقة في قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ [البلد : 1 ، 2] المراد بالإنسان عليه الذين علم الله تعالى منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات والظاهر أن المراد على ما عداه جنس الإنسان مطلقاً وقال ابن زيد المراد بالإنسان آدم عليه السلام وبالكبد السماء وشاع في وسط السماء كالكبيداء والكبيداة والكبداء والكبد بفتح فسكون وليس بشيء أصلاً والضمير في قوله تعالى :

(84/816)

﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ على ما عدا ذلك راجع إلى ما دل عليه السياق ممن يكابد منه صلى الله عليه وسلم ما يكابد من كفار قريش وينتهك حرمة البيت وحرمته عليه الصلاة والسلام وعليه للإنسان والتهديد مصروف لمن يستحقه وقيل على إرادة البعض هو أبو الأشد

أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد القوة مغتراً بقوته وكان يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول من أزالني عنه فله كذا فيجذ به عشرة فينقطع قطعاً ويبقى موضع قدميه وقيل عمرو بن عبدود وقيل الوليد بن المغيرة وقيل أبو جعل بن هشام وقيل الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ويجوز أن يكون كل من هؤلاء سبب النزول فلا تغفل وجعل عصام الدين الاستفهام للتعجيب على معنى أيظن ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي على الانتقام منه ومكافأته بما هو عليه ﴿ أَحَدٌ ﴾ مع أنه لا يتخلص من المكابدة ومقاساة الشدائد وإن مخففة من الثقيلة ولعل في ذلك إدماج عدم الايمان بالقيامة .

(85/816)

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ أي كثيراً من تلبد الشيء إذا اجتمع أي يقول ذلك وقت الاغترار فخراً ومباهاة وتعظماً على المؤمنين وأراد بذلك ما أنفقه رياء وسمعة وعبر عن الانفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفه فكأنه جعل المال الكثيرة ضائعاً وقيل يقول ذلك إظهاراً لشدة عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم مريداً بالمال ما أنفقه في معاداته عليه الصلاة والسلام وقيل يقول ذلك إيذاء له عليه الصلاة والسلام فعن مقاتل أن الحرث بن نوفل كان إذا أذنب استفتى الرسول صلى الله عليه وسلم فيأمره عليه

الصلاة والسلام بالكفارة فقال لقد أهلكت مالاً لبداً في الكفارات والتبعات منذ أطعت محمداً صلى الله عليه وسلم وقيل المراد ما تقدم أولاً إلا أن هذا القول وقت الانتقام منه وذلك يوم القيامة والتعبير عن الانفاق بالإهلاك لما أنه لم ينفعه يومئذ وقرأ أبو جعفر لبداً بشد الباء وعنه وعن زيد بن علي لبداً بسكون الباء وقرأ مجاهد وابن أبي الزنا لبداً بضم اللام والباء .

(86/816)

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أي حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس أو حرصاً على معاداته صلى الله عليه وسلم يعني أن الله تعالى كان يراه وكان سبحانه عليه رقيباً فهو عز وجل يسأله عنه ويجازيه عليه وفي الحديث " لا تزل قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن ماله مم جمعه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به " وجوز أن يكون المعنى أن لم يجده أحد على المراد بالرؤية الوجدان اللازم له ولم بمعنى لن وعبر بها لتحقق الوقوع يعني أنه تعالى يجده يوم القيامة فيحاسبه على ذلك وعن الكلبي أن هذا القائل كان كاذبا لم ينفق شيئاً فقال تعالى : أيظن أن الله تعالى ما رأى ذلك منه فعل أو لم يفعل أنفق أو لم ينفق بل رآه عز وجل وعلم منه خلاف ما قال وقرر سبحانه القدرة على مجازاته

ومحاسبته والإطلاع على حاله بقوله جل وعلا : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(87/816)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(90) سورة البلد

نزولها : مكية . . بإجماع . . نزلت بعد سورة « ق » .

عدد آياتها : عشرون آية .

عدد كلماتها : اثنتان وثمانون . كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وواحد وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

الإنسان الذي ابتلاه اللّه فأكرمه ونعمه ، فلم يحمد اللّه ، ولم يشكر له فضله وإحسانه ،

والإنسان الذي قدر اللّه عليه رزقه ، فساء ظنّه باللّه ، وغيّر موقفه منه . هذا الإنسان . فى

حاليه اللذين عرضتهما سورة « الفجر » . يرى فى أوضح صورة فى إنسان هذا البلد ،

وهو مكة ، البلد الحرام الذي رفع اللّه قدره ، وجعله حرما آمنا ، يجبى إليه ثمرات كل شىء ، وجعله موضعا

(88/816)

لأول بيت يعبد فيه على هذه الأرض. هذا الإنسان الذي يعيش فى هذا البلد الأمين ، كان جديرا به أن يكون أعرف الناس بربه ، وأرضاهم لحكمه ، ولكنه لم يرع حرمة هذا البلد ، فلم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المسكين ، وأكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جمّا ، أعماه عن طريق الحق ، وأضله عن سبيل الرشاد . . فهل هو بعد هذه النّذر عائد إلى ربه ، داخل فى عباده ؟ ذلك ما ستكشف عنه الأيام منه ، مع دعوة الحق التي يحملها رسول اللّه إليه . . فالمناسبة بين السورتين قريبة دانية .

(89/816)

التفسير [لا أقسم بهذا البلد . . ما تأويله ؟] قوله تعالى : « لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ » قلنا - فى غير موضع - إن القسم المنفي فيما ورد فى القرآن الكريم ، هو تعريض بالقسم ، وتلويح به ،

دون إبقاعه ، إذ كان الأمر الواقع فى حيزّ القسم ، أوضح وأظهر من أن يقسم عليه ، توكيدا ، أو تقريرا . . ونفى القسم هنا هو لعلة فى المقسم به ، لا بالمقسم عليه ، كما سنرى . .

والبلد ، هو البلد الحرام ، مكة المكرمة ، وقد أقسم اللّه به فى غير هذا الموضع ، فى قوله تعالى : « وَالتِّينِ . وَالزَّيْتُونِ ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » .

وقوله تعالى : « وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ » الواو هنا للحال ، والجملة حال من فاعل لا أقسم ، وهو اللّه سبحانه وتعالى . . أي لا أقسم بهذا البلد فى تلك الحال التي أنت حلّ به ، فالضمير « أنت » خطاب للنبى صلوات اللّه وسلامه عليه . والحلّ : الحلال ، المستباح . .

والمراد بالحلّ ، هنا هو النبىّ - صلوات اللّه وسلامه عليه - وأنّ المشركين لم يرعوا فيه حرمة القرابة ، ولا حرمة البلد الحرام الذي يأوى إليه ، بل أباحوا سبّه وشتمه ، وأطلقوا ألسنتهم بكل قالة سوء فيه ، بل وتجاوزوا هذا إلى التعرض له بالأذى المادي ، حتى لكادوا يرجمونه . .

وهنا ندرك بعض السر فى نفى القسم بالبلد الحرام . . لقد جعله المشركون بلدا غير حرام ، وغيّروا صفته التي له ، حتى لقد صار هذا البلد غير أهل لأن

يقسم به من اللّه سبحانه ، لأن القسم من اللّه هو تشريف وتكريم لما يقسم به سبحانه ، وإن اللّه سبحانه لن يقسم بهذا البلد ما دام النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - لا ترعى له حرمة فى البلد الحرام . . فإن حرمة هذا البلد من حرمة النبي ، وأنه إنما أقيم من أول وجود للمجتمع الإنسانى ، ليستقبل دين اللّه وقد كمل ، وليكون مطلعا لخاتم المرسلين وقد ظهر . وفى نفى القسم بالبلد الحرام ، تجريم للمشركين ، وتشنيع على جنايتهم الغليظة التي اقترفوها فى حق رسول اللّه ، وفى حق البلد الأمين ، وأن تلك الجناية الشنعاء قد امتدت آثارها إلى البلد الحرام ، فسلبته حرمته ، وأن اللّه سبحانه وتعالى رافع عنه هذه الحرمة ، حتى ينتقم لنبيه الكريم من هؤلاء المجرمين ، ويردّ إليه اعتباره من التوقير والتكريم فى رحاب البلد الحرام . وعندئذ تعود للبلد حرمته ! ! وإنا لنذهب إلى أبعد من هذا ، فنقول إن رفع الحرمة عن البلد الحرام قد ظلّ معلقا هكذا إلى أن خرج منه النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - مهاجرا ثم عاد إليه فاتحا فى السنة الثامنة من الهجرة ، وأنه قد أبيح له من هذا البلد يوم الفتح ، ما كان حراما ، فأمر صلوات اللّه وسلامه عليه بقتل بعض المشركين ، وهم متعلقون بأستار الكعبة ، يومئذ ، وهم ابن خطل ، وميّس بن صبابة ، وغيرهم وفى هذا يقول الرسول الكريم عن هذا البلد يوم الفتح : « إن اللّه حرم مكة ، يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ، فلم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد من بعدي ،

ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » وإنه ما إن يفرغ النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - من حساب هؤلاء المتاكيد الذين أمر بقتلهم فى المسجد الحرام ، بالبلد الحرام ، حتى تعود للبلد الحرام حرمته ويطّهر من الشرك والرجس ، ومن الأصنام وعبّاد الأصنام .

هذا ، ولا يفهم مما قلناه : من أن البلد الحرام ، قد رفعت عنه حرمته منذ

(91/816)

أحل المشركون من النبي ما أحلّوا - لا يفهم من هذا ، أن ذلك بالذي ينقص من قدر هذا البلد ، أو يجور على شىء من مكانته ، وعلو مقامه . . فهو هو على ما شرفه اللّه به ، ورفع قدره ، ولكن رفع الحرمة عن هذا البلد ، هو عقاب لهؤلاء المشركين الذين آواهم هذا البلد ، وجعله حرما لهم . . فلما استباحوا حرمته ، باستباحة حرمة النبي ، عرّاهم اللّه من هذه الخلية الكريمة التي خلعها عليهم البلد الحرام . . ! ولهذا أقسم اللّه سبحانه بهذا البلد الذي أبيحت حرمته من المشركين ، ووصفه بالبلد الأمين فى قوله تعالى : « وَالتِّينِ ، وَالزَّيْتُونِ ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » .

قوله تعالى : « وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ » - معطوف على قوله تعالى : « لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ » . .

والمراد بالوالد وما ولد - واللّه أعلم - هو هذا التوالد الذي يقع بين الناس . .

فكل والد ، هو مولود ، وكل مولود ، سيكون والدا ، وبهذا ، يتصل النسل ، وتكثرا المخلوقات ، وتعمر الأرض . .

وفى عملية التوالد ، تتجلى قدرة الخالق جل وعلا ، وعلى مسرح هذه العملية مراد فسيح للدراسة ، والتأمل ، والبحث ، وجامعة علم غزير للعلماء والدارسين ، ومعلم من معالم الهدى واليقين للمؤمنين والمتوسمين . .

وفى نفس القسم بالوالد ، وما ولد (وهو الإنسان) ـ إشارة إلى أن الإنسان الذي كرمه اللّه سبحانه وتعالى ، ورفع قدره على كثير من المخلوقات ، كما رفع قدر هذا البلد الأمين على سائر البلدان ـ هذا الإنسان ، قد خلع هذا الثوب الكريم الذي ألبسه اللّه إياه ، وتخلّى عن المعاني الإنسانية الشريفة التي

(92/816)

أودعها الخالق جل وعلا فيه ، فأحلّ حرمات اللّه ، واعتدى على حدوده ، وبهذا لم يصبح أهلا لأن يقسم اللّه به ، وأن يعرضه فى معرض التشريف والتكريم .

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» (4 ـ 6 : التين) ومن هنا ندرك بعض السر فى نفى

القسم بالوالد وما ولد . . فإن اللّه سبحانه أقسم بكثير من مخلوقاته ، من سماء وأرض ، وما فى السماء ، من شمس وقمر ، ونجوم ، وما فى الأرض من تين وزيتون ، وخيل عادية ، ورياح عاصفة ، وغير هذا ، مما أقسم اللّه سبحانه وتعالى به ، من عوالم الجماد ، والنبات ، والحيوان .

فهذه المخلوقات قائمة على ما خلقها اللّه سبحانه وتعالى عليه ، لم تخرج عن طبيعتها ، ولم تحد عن طريقها المرسوم لها ، على خلاف الإنسان ، الذي غير وبدل ، وانحرف عن سواء السبيل . .

وأما حين أقسم اللّه سبحانه وتعالى بالإنسان ، فإنما أقسم به فى فطرته التي أودعها اللّه سبحانه فيه ، تلك الفطرة التي جعلها اللّه تعالى أمانة بين يدى الإنسان ، فلم يرعها ، ولم يحفظها . وفى هذا يقول سبحانه : « وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها » .

. فهذه النفس ، هى الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها « فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها » . .

والصورة الكاملة للإنسانية ، التي احتفظت بهذه الفطرة ، وزكتها التزكية المطلوبة لها ، هو رسول اللّه - صلوات اللّه وسلامه عليه - وقد ألبسه اللّه سبحانه الشرف كله ، وتوجه بتاج العظمة على المخلوقات جميعها ، إذ أقسم به الحق جل وعلا ، مضافا إلى ذاته الكريمة ، فقال تعالى :

« فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (92.93 : الحجر) . .

وقد وزنه اللّه سبحانه وتعالى بهذا القسم ، فرجح ميزانه ميزان السموات والأرض ، إذ أقسم بهما الحق جل وعلا مضافين إلى ذاته العلية فى قوله جل شأنه : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ » (23 : الذاريات) . .

ولكن شتان بين قسم اللّه سبحانه وتعالى بذاته مضيفا إليها الرسول الكريم ، فى مقام الخطاب ، وبين قسمه سبحانه بالسماء والأرض ، مضافتين إلى ذاته - جل وعلا - فى مقام الغيبة . . ! فصلوات اللّه وسلامه عليك يا رسول اللّه ، صلاة تنال بها شفاعتك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم .

قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » . .

هو جواب للقسم المطوىّ ، فى كيان القسم المنفي . .

والإنسان هو ثمرة من ثمرات التوالد بين الأحياء ، سواء فى هذا ، الوالد ، والولد . .

والكبد : المعاناة والشدة . .

والظرف : « فى » هو المحتوى الذي يضم الإنسان ، وما يلاقى فيه من كبد . .

فحياة الإنسان - كل إنسان - فى هذه الدنيا ، هى شدائد ، ومعاناة .

فما يسلم إنسان أبدا من هموم الحياة وآلامها ، النفسية ، أو الجسدية ، فكم يفقد الإنسان من صديق وحبيب ؟ وكم يتداعى على جسده من أمراض وعلل ؟ وكم ؟

وكم ؟ مما يطرق الناس من أحداث على مر الأيام ، وكر الليالى ؟ فالشباب يذبل

(94/816)

ويولّى ، والقوة تتبدد وتصبح وهنا وضعفا ، وهذا الجسد الذي ملأ الدنيا حياة وحركة سيعصف به الموت يوما ، ويلقى به فى باطن الأرض ، جثة هامدة متعفنة ، لا تلبث أن تصير ترابا ! .

فالإنسان وحده من بين المخلوقات - فيما نعلم - هو الذي تستبدّ به هذه المخاوف ، وتطرقه هذه التصورات ، على خلاف سائر الأحياء التي تقطع مسيرتها فى الحياة ، فى غير قلق أو إزعاج من المستقبل الذي ينتظرها . . إنها لا تنظر إليه ، ولا تتصوره ، ولا تعيش فيه قبل أن يصبح واقعا . .

أما الإنسان ، فإنه يعيش فى المستقبل أكثر مما يعيش فى الواقع ، حتى إنه ليرى بعين الغيب فى يوم مولده ، ما هو مقبل عليه من آلام ومكابدات فى مستقبل حياته . . يقول ابن

الرومي .

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلّا فما يبكيه منها ، وإنها لأرحب مما كان فيه وأرغد

هذا هو الإنسان ، وتلك هى مسيرته فى الحياة ، فلا يفترنّ جاهل بقوته ، ولا يركننّ مغرور

إلى ما بين يديه من مال وسلطان . . فكل زائل وقبض الريح ! . .

قوله تعالى : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » ؟

هو إلفات لهذا المغرور بقوته ، المعتزّ بسلطانه وجاهه ، المفتون بنفسه ، المتشامخ بذاته ،

حتى ليحسب أن أحدا لن يقدر عليه ، ولن يسلبه شيئا مما معه . .

إنه أضعف من أن يثبت لنخسة من نخسات الحياة ، كما يقول سبحانه :

(95/816)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً » (54 : الروم) ويقول سبحانه : « وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً » (28 : النساء) وإن بعوضة تلسعه لتحرق جسده بالحمى ، وإن جرثومة تتدسس إلى كيانه لتهدّ بنيانه ، وتقوض أركانه ! ! ثم ما قوة هذا الإنسان ؟ أهو أقوى من خالقه الذي خلقه من نطفة ثم

سواه رجلا ؟

فما أضعف الإنسان ، وما أخف وزنه ، إذا كان معياره قائما مع هذا الجسد ، دون أن يكون لروحه حساب ، أو لنفسه اعتبار ! وقوله تعالى : « يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا » هكذا يقول الإنسان مباهيا مفاخرا بما أنفق من مال . .

واللبد : الكثير ، الذي جمع بعضه إلى بعض ، فكان أكداسا مكدسة . .

وفيم أهلك هذا السفيه المغرور هذا المال الكثير ؟ أفي ابتناء محمدة ، أو اكتساب مكرمة ؟ أو إغاثة ملهوف ؟ أو إطعام جائع ؟ كلّا . . إنه لا يعرف وجها من هذه الوجوه ولا تنضح يده لها بدرهم ، من هذا المال الكثير الذي أهلكه . . إنه أهلكه فى مباذله ، وفى استرضاء شهواته ، وإشباع نزواته . . ولهذا فهو مال هالك ، ومهلك لمن أنفقه وهذا بعض السرّ فى قوله تعالى : « أهلكت » الذي يدل على أن هذا المال ذهب فى طريق الضياع والفساد .

وقوله تعالى : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟ » أي أيحسب هذا السفيه المفتون ، أن عين اللّه لا تراه ، ولا تكشف عن هذه الوجوه المنكرة التي يهلك فيها هذا المال اللبد ؟ وكلّا ، فإنه محاسب على هذا المال الذي أهلكه فى وجوه الضلال ، والبغي والعدوان . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1564 . 1572 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

ابتدئت بالقسم تشويقاً لما يرد بعده وأطيلت جملة القسم زيادة في التشويق .

و﴿ لا أقسم ﴾ معناه : أقسم .

وقد تقدم ذلك غير مرة منها ما في سورة الحاقة .

وتقدم القول في : هل حرف النفي مزيد أو هو مستعمل في معناه كناية عن تعظيم أمر المقسم به .

والإِشارة ب"هذا" مع بيانه بالبلد ، إشارة إلى حاضر في أذهان السامعين كأنهم يرونه لأن رؤيته متكررة لهم وهو بلد مكة ، ومثله ما في قوله : ﴿ إنما أُمرت أن أعبد ربَّ هذه البلدة ﴾ [النمل : 91] .

وفائدة الإِتيان باسم الإِشارة تمييز المقسم به أَكْمَلَ تمييز لقصد التنويه به .

والبلد : جانب من متسع من أرض عامرةً كانتْ كما هو الشائع أم غامرة كقول رؤبة بن العجاج :

بلْ بَلَدٍ ملءُ الفجاج قَتَمُه

وأطلق هنا على جانب من الأرض مجعولة فيه بيوت من بناء وهو بلدة مكة والقسم بالبلدة

مع أنها لا تدل على صفة من صفات الذات الإلهية ولا من صفات أفعاله كنايةٌ عن تعظيم الله تعالى إياه وتفضيله .

"

وجملة : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ معترضة بين المتعاطفات المقسم بها والواو اعتراضية .

والمقصود من الاعتراض يختلف باختلاف محمل معنى ﴿ وأنت حل ﴾ فيجوز أن يكون ﴿ حل ﴾ اسم مصدرِ أحَلّ ، أي أباح ، فالمعنى وقد جعلَك أهلُ مكة حلالاً بهذا البلد الذي يحرم أذى صيده وعَضْدُ شجره ، وهم مع ذلك يُحلون قتلك وإخراجَك ، قال هذا شُرَحْبيل بن سعد فيكون المقصود من هذا الاعتراض التعجيب من مضمون الجملة وعليه فالإِخبار عن ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف ﴿ حِلّ ﴾ يقدر فيه مضاف يعيِّنه ما يصلح للمقام ، أي وأنت حلال منك ما حُرِّم من حقِّ ساكن هذا البلد من الحُرمة والأمن .

والمعنى التعريض بالمشركين في عدوانهم وظلمهم الرسول صلى الله عليه وسلم في بلد لا يظلمون فيه أحداً .

والمناسبة ابتداء القسم بمكة الذي هو إشعار بحرمتها المقتضية حرمة من يحل بها ، أي فهم يحرِّمون أن يتعرضوا بأذى للدواب ، ويعتدون على رسول جاءهم برسالة من الله .

ويجوز أن يكون ﴿ حِل ﴾ اسماً مشتقاً من الحِلّ وهو ضد المنع ، أي الذي لا تَبعة عليه فيما يفعله .

قال مجاهد والسدي ، أي ما صنعت فيه من شيء فأنت في حلّ أو أنت في حِل مِمن قَاتلك أن تقاتله .

وقريب منه عن ابن عباس ، أي مهما تمكنتَ من ذلك .

فيصدق بالحال والاستقبال .

وقال في "الكشاف" : "يعني وأنت حل به في المستقبل ونظيره في الاستقبال قوله عز وجل : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] ، تقول لمن تَعِدُه بالإِكرام والحباء أنت مكرم محبُوّاً أ هـ .

فهذا الاعتراض تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم قُدمت له قبل ذكر إعراض المشركين عن الإِسلام ، ووعد بأنه سيمكنه منهم .

وعلى كلا الوجهين في محمل صفة ﴿ حِل ﴾ هو خصوصية للنبيء صلى الله عليه وسلم وقد خصصه النبي صلى الله عليه وسلم بيوم الفتح فقال : " وإنما أحلت لي ساعة من نهار

" الحديث ، وفي "الموطإ" : "قال مالك : ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ (أي يوم الفتح) مُحْرِماً" .

ويُثار من هذه الآية على اختلاف المحامل النظرُ في جواز دخول مكة بغير إحرام لغير مريد الحج أو العمرة .

قال الباجي في "المنتقى" وابنُ العربي في "الأحكام" : الداخل مكة غيرَ مريد النسك ، لحاجة تتكرر كالحَطّابينَ وأصحاب الفواكهِ والمعاش هؤلاء يجوز دخولهم غيرَ محرمين لأنهم لو كلفوا الإِحرام لَحِقتهم مشقة .

وإن كان دخولها لحاجة لا تتكرر فالمشهور عن مالك : أنه لا بد من الإِحرام ، وروي عنه تركُه والصحيح وجوبه ، فإن تركه قال الباجي : فالظاهر من المذهب أنه لا شيء عليه وقد أساء ولم يُفصِّل أهل المذهب بين من كان من أهل داخل الميقاتِ أو مِن خارجه .

(98/816)

والخلاف في ذلك أيضاً بين فقهاء الأمصار فذهب أبو حنيفة أن من كان من أهل داخل المواقيت يجوز له دخول مكة بغير إحرام إن لم يُرِد نسكاً من حج أو عمرة ، وأما من كان مِن أهل خارج المواقيت فالواجب عليه الإِحرام لدخول مكة دون تفصيل بين الاحتياج إلى

تكرر الدخول أو عدم الاحتياج.

وذهب الشافعي إلى سقوط الإِحرام عن غير قاصد النسك ، ومذهب أحمد موافق مذهب مالك .

وحكى ابن عطية عن بعض المتأولين : أن معنى ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ أنه حَال ، أي ساكن بهذا البلد أ هـ .

وجعله ابن العربي قولاً ولم يَعزُه إلى قائل ، وحكاه القرطبي والبيضاوي كذلك وهو يقتضي أن تكون جملة ﴿ وأنت حلّ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ أقسم ﴾ فيكون القسم بالبلد مقيداً باعتبار كونه بلَد محمد صلى الله عليه وسلم وهو تأويل جميل لو ساعد عليه ثبوت استعمال ﴿ حِلّ ﴾ بمعنى : حَالّ ، أي مقيم في مكانٍ فإن هذا لم يرد في كتب اللغة : "الصَحاحِ" و"اللسانِ" و"القاموسِ" و"مفرداتِ الراغب" .

ولم يعرج عليه صاحب "الكشاف" ، ولا أحسب إعراضه عنه إلا لعدم ثقته بصحة استعماله ، وقال الخفاجِي : والحِلّ : صفة أو مصدر بمعنى الحَال هنا على هذا الوجه ولا عبرة بمن أنكرهِ لعدم ثبوته في كتب اللغة" انتهى انتهى . ا هـ وكيف يقال : لا عبرة بعدم ثبوته في كتب اللغة ، وهل المَرجع في إثبات اللغة إلاّ كتب أيمتها .

وتكرير لفظ ﴿ بهذا البلد ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لقصد تجديد التعجيب .

ولقصد تأكيد فتح ذلك البلد العزيز عليه والشديد على المشركين أن يَخْرُج عن حوزتهم .

و﴿ والد ﴾ وقع منكراً فهو تنكيرَ تعظيم إذ لا يحتمل غير ذلك في سياق القسم .

فتعين أن يكون المرادَ والداً عظيماً ، والراجح عمل والد على المعنى الحقيقي بقرينة قوله ﴿ وما ولد ﴾ .

(99/816)

والذي يناسب القسم بهذا البلد أن يكون المراد بـ ﴿ والد ﴾ إبراهيمَ عليه السلام فإنه الذي اتخذ ذلك البلد لإقامة ولده إسماعيل وزوجه هاجَر قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] ثم قال : ﴿ ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ [إبراهيم : 37] . وإبراهيم والد سُكان ذلك البلد الأصليين قال تعالى : ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ [الحج : 78] ، ولأنه والد محمد صلى الله عليه وسلم

و﴿ ما وَلد ﴾ موصول وصلة والضمير المستتر في ﴿ ولد ﴾ عائد إلى ﴿ والد ﴾ .

والمقصود : وما ولده إبراهيم من الأبناء والذرية .

وذلك مخصوص بالذين اقتفوا هديه فيشمل محمداً صلى الله عليه وسلم

وفي هذا تعريض بالتنبيه للمشركين من ذرية إبراهيم بأنهم حادُوا عن طريقة أبيهم من

التوحيد والصلاح والدعوة إلى الحق وعِمارَةِ المسجد الحرام قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ﴾ [آل عمران : 68] .

وجيء باسم الموصول ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ وما ولد ﴾ دون (مَن) مع أن (مَن) أكثرُ استعمالاً في إرادة العاقل وهو مراد هنا ، فعُدل عن (مَن) لأن ﴿ ما ﴾ أشدُّ إبهاماً ، فأريد تفخيم أصحاب هذه الصلة فجيء لهم بالموصول الشديد الإبهام لإرادة التفخيم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ [آل عمران : 36] يعني مولوداً عجيبَ الشأن .

ويوضِّح هذا أن ﴿ ما ﴾ تستعمل نَكرة تامة باتفاق ، و (مَن) لا تستعمل نكرة تامة إلا عند الفارسي .

ولان قوة الإبهام في ﴿ ما ﴾ أنسب بإرادة الجماعة دون واحِدٍ معين ، ألا ترى إلى قول الحَكَم الأصم الفَزاري :

اللُّؤْم أكرم من وَبْرٍ ووالدهِ

واللؤْمُ أكرمُ من وَبْر ومَا ولَدَا . . .

يريد ومِن أولاده لا ولداً معيّناً .

وجملة : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ جواب القسم وهو الغرض من السورة .

والإِنسان يجوز أن يراد به الجنس وهو الأظهر وقولُ جمهور المفسرين ، فالتعريف فيه تعريف الجنس ، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك لأن قوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 5] إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين ، فالعموم عموم عرفي ، أي الإنسان في عُرف الناس يومئذ ، ولم يكن المسلمون إلا نفراً قليلاً ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإِنسان مراداً به الكافرون من الناس .

ويجوز أن يراد به إنسان معيّن ، فالتعريف تعريف العهد ، فعن الكلبي أنه أبو الأشدّ ويقال : أبو الأشَدّين واسمه أُسَيْد بن كَلْدَةَ الجُمَحِي كان معروفاً بالقوّة والشدة يجعل الأديم العُكَاظي تحت قدميه فيقول : من أزالني فله كذا .

فيجذبه عشرةُ رجال حتى يمزّق الأديم ولا تزول قدماه ، وكان شديد الكفر والعداوة للنبيء صلى الله عليه وسلم فنزل فيه : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 5] وقيل : هو الوليد بن المغيرة ، وقيل : هو أبو جهل .

وعن مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل ، زعم أنه أنفق مالاً على إفساد أمر النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : هو عمرو بن عبد ودّ الذي اقتحم الخندق في يوم الأحزاب ليدخل المدينة فقتله علي بن أبي طالب خلْف الخندق .

وليس لهذه الأقوال شاهد من النقل الصحيح ولا يلائمها القَسَم ولا السياق .

والخلق : إيجاد ما لم يكن موجوداً ، ويطلق على إيجاد حالة لها أثر قويّ في الذات كقوله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ [الزمر : 6] وقوله : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ [المائدة : 110] .

فهو جعل يغير ذات الشيء .

(101/816)

والكَبَد بفتحتين : التعب والشدة ، وقد تعددت أقوال المفسرين في تقرير المراد بالكَبَد ، ولم يعرج واحد منهم على ربط المناسبة بين ما يفسّر به الكَبَد وبين السياق المسوق له الكلام وافتتاحِه بالقسم المشعر بالتأكيد وتوقع الإنكار ، حتى كأنَّهم بصدد تفسير كلمة مفردة ليست واقعة في كلام يجب التِئامُه ، ويَحِق وِءَامُه .

وقد غضُّوا النظر عن موقع فِعل ﴿ خلقنا ﴾ على تفسيرهم الكبد إذ يكون فعل ﴿ خلقنا ﴾ كمعذرة للإنسان الكافر في ملازمة الكَبَد له إذ هو مخلوق فيه .

وذلك يحط من شدة التوبيخ والذم ، فالذي يلتئم مع السياق ويناسب القسم أن الكبد التعب الذي يلازم أصحاب الشرك من اعتقادهم تعدد الآلهة .

واضطرابُ رأيهم في الجمع بين ادعاء الشركاء لله تعالى وبين توجّههم إلى الله بطلب الرزق

وبطلب النجاة إذا أصابهم ضر .

ومن إحالتهم البعث بعد الموت مع اعترافهم بالخلق الأول فقوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ دليل مقصوداً وحده بل هو توطئة لقوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 5] .

والمقصود إثبات إعادة خلق الإِنسان بعد الموت للبعثِ والجزاء الذي أنكروه وابتدأهم القرآن بإثباته في سُور كثيرة من السور الأولى .

فوزان هذا التمهيد وزان التمهيد بقوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : 4 ، 5] بعد القسم بقوله : ﴿ التين والزيتون ﴾ [التين : 1] الخ .

فمعنى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه ﴾ [البلد : 5] : أيحسب أن لن نقدر عليه بعد اضمحلال جسده فنعيده خلقاً آخر ، فهو في طريقة القسم والمُقسم عليه بقوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ إلى قوله : ﴿ أيحسب الإنسان أَلَّن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامة : 41] .

أي كما خلقناه أول مرة في نَصَب من أطوار الحياة كذلك نخلقه خلقاً ثانياً في كَبدٍ من العذاب في الآخرة لكفره .

وبذلك يظهر موقع إدماج قوله ﴿ في كبد ﴾ لأن المقصود التنظير بين الخَلْقين الأول والثاني في أنهما من مقدور الله تعالى .

والظرفية من قوله : ﴿ في كبد ﴾ مستعملة مجازاً في الملازمة فكأنه مظروف في الكَبَد ، ونظيره قوله : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ [سبأ : 8 ، 9] الآية .

فالمراد : عذاب الدنيا ، وهو مشقة اضطراب البال في التكذيب واختلاقِ المعاذير والحيرة من الأمر على أحد التفسيرين لتلك الآية .

فالمعنى : أن الكَبَد ملازم للمشرك من حين اتصافه بالإِشراك وهو حين تقوُّم العقل وكمالِ الإدراك .

ومن الجائز أن يجعل قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ من قبيل القلب المقبول لتضمنه اعتباراً لطيفاً وهو شدة تلبّس الكَبَد بالإِنسان المشرك حتى كأنه خُلِق في الكَبَد .

والمعنى : لقد خلقنا الكَبَد في الإنسان الكافر .

وللمفسرين تأويلات أخرى في معنى الآية لا يساعد عليها السياق .

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5)

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [البلد : 4] .

والاستفهام مستعمل في التوبيخ والتخْطئة .

وضمير ﴿ أَيحْسِبُ ﴾ راجع إلى الإِنسان لا محالة ، ومن آثار الحيرة في معنى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [البلد : 4] أن بعض المفسرين جعل ضمير ﴿ أَيَحْسِبُ ﴾ راجعاً إلى بعض مما يعمه لفظ الإِنسان مثل أبي الأشد الجمحي ، وهو ضغث على إبّالة .

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6)

أعقبت مساوي نفسه بمذام أقواله ، وهو التفخر الكاذب والتمدح بإتلاف المال في غير صلاح .

وقد كان أهل الجاهلية يتبجحون بإتلاف المال ويعدونه منقبة لإيذانه بقلة اكتراث صاحبه به ، قال عنترة:

وإذَا سَكِرْتُ فإنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ . . .

مالي وعِرضي وافرٌ لم يُكْلَمِ

وَإذَا صَحَوْتُ فَما أُقَصِّر عن نَدى . . .

وكَما عَلِمْتَ شمائلي وتكَرُّمِي

(103/816)

وجملة : ﴿ يقول أهلكت مالاً ﴾ في موضع الحال من ﴿ الإنسان ﴾ [البلد : 4] .

وذلك من الكبد .

وجملة : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ يقول أهلكت مالاً ﴾ لأن قوله ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ يصدر منه وهو يحسب أنه راجَ كذبُه ، على جميع الناس وهو لا يخلو من ناس يطلعون على كذبه قال زهير :

ومهْما تكنْ عند امرىء مِن خليقة

وإنْ خالها تَخفى على الناسِ تُعْلَمِ

والاستفهام إنكار وتوبيخ وهو كناية عن علم الله تعالى بدخيلته وأن افتخاره بالكرم باطل .

و ﴿ لبداً ﴾ بضم اللام وفتح الموحدة في قراءة الجمهور وهو جمع لُبدة بضم اللام وهي ما تلبد من صوف أو شعر ، أي تجمع والتصق بعضه ببعض وقرأه أبو جعفر ﴿ لبَّداً ﴾ بضم اللام وتشديد الباء على أنه جمع لابِدٍ بمعنى مجتمع بعضُه إلى بعض مثل : صُيَّم وقُوَّم ، أو على أنه اسم على زنة فُعَّل مثل زُمَّل للجَبان وجُبَّإ للضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(104/816)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البلد)

وقد ورد فى القرآن على خمسة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى مَكَّة ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهذا الْبَلَدِ ﴾ ، ﴿ وَهذا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ ﴿ اجْعَلْ هذا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ ﴾ .

الثانى : بمعنى مدينة سبأ : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

الثالث : كناية عن جُمْلة المدُن : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ ﴾ .

الرّابع : بمعنى الأَرض لا نبات فيها : ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً ﴾ ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ .

الخامس : بمعنى الأَرض الَّتى بها نبات : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ .

وقيل : هو كناية عن النفوس الطَّاهرة ، وبالذى خبث عن النفوس الخبيثة .

والبلد لغة : المكان المحدود ، المتأَثِّر باجتماع قُطَّانِهِ ، وإِقامتهم فيه .

وجمعه بلاد ، وبُلْدان .

وسمّيت المفازة بلداً ؛ لكونها موضع الوحشيّات ، والمقبرةُ بلداً ؛ لكونها موطن الأَموات

(والبلدة منزل من منازل القمر) والبلد : البُلْجَةُ ما بين الحاجبين ؛ تشبيها بالبلد ؛ لتحدّدِهِ .

وسمّيت الكِرْكرة بَلْدة لذلك .

وربّما استعير ذلك لصدر الإنسان .

ولاعتبار الأَثر قيل : بجلده بَلْدة : أَى أَثر .

وجمعه أَبلاد ، قال :

وفى النُّحورِ كلومٌ ذاتُ أَبلادِ

وأَبلد : صار ذا بلد ؛ كأَنجد وأَتْهم ، وبَلد : لزم البلد .

ولمّا كان اللاّزم لوطنه كثيراً ما يتحيّر إذا حصل فى غير وطنه ، قيل للمتحيّر : بَلَدَ فى أَمره وأَبلَدَ ، وتبلَّدَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 272 . 273 ﴾

(105/816)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .

هذه الآية الكريمة يتبادر من ظاهرها أنه تعالى أخبر بأنه لا يقسم بهذا البلد الذي هو مكة المكرمة مع أنه تعالى أقسم به في قوله: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .

والجواب عن هذا من أوجه:

الأول: وعليه الجمهور: أن ﴿ لاَ ﴾ هنا صلة على عادة العرب فإنها ربما لفظت بلفظة (لا) من غير قصد معناها الأصل بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده لقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ، أَلاَ تَتَّبِعَنِ ﴾ يعني أن تتبعني وقوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَ تَسْجُدَ ﴾ أي أن تسجد على أحد القولين .

ويدل له قوله في سورة ص ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ الآية .

وقوله: ﴿ لِئَلاَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي ليعلم أهل الكتاب ، وقوله: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي فوربك ، وقوله: ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ﴾ أي والسيئة ، وقوله: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ على أحد القولين ، وقوله: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ على أحد القولين ، وقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَ تُشْرِكُوا ﴾ على أحد الأقوال الماضية وكقول أبي النجم:

فما ألوم البيض ألا تسخرا

...لما رأين الشمط القفندرا

يعني أن تسخر وكقول الشاعر:

وتلحينني في اللهو أن لا أحبه

...وللهو داع دائب غير غافل

يعني أن أحبه و (لا) زائدة .

وقول الآخر:

أبى جوده لا البخل واستعجلت به

...نعم من فتى لا يمنع الجود قاتله

يعني أبى جوده البخل و (لا) زائدة على خلاف في زيادتها في هذا البيت الأخير ولاسيما على رواية البخل بالجر لأن (لا) عليها مضاف بمعنى لفظة لا فليست زائدة على رواية الجر

وقول امرئ القيس:

فلا وأبيك ابنة العامري

...لا يدعي القوم أني أفر

يعني وأبيك .

(106/816)

وأنشد الفراء لزيادة (لا) في الكلام الذي فيه معنى الجحد .

قول الشاعر:

ما كان يرضى رسول الله دينهم

وإلا طيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر و (لا) صلة وأنشد الجوهري لزيادتها قول العجاج:

في بئر لاحور سرى وما شعر

...بافكه حتى رأى الصبح جشر

فالحور الهلكة يعني في بئر هلكة و (لا) صلة قاله أبو عبيدة وغيره.

وأنشد الأصمعي لزيادتها قول ساعدة الهذلي:

أفعنك لا برق كأن وميضه

...غاب تسنمه ضرام مثقب

ويروي أفمنك، وتشيمه بدل أفعنك وتسمنه.

يعني أعنك برق و (لا) صلة.

ومن شواهد زيادتها قول الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة

...وكاد صميم القلب لا يتقطع

يعني كاد يتقطع.

وأما استدلال أبي عبيدة لزيادتها بقول الشماخ:

أعائش ما لقومك لا أراهم

...يضيعون الهجان مع المضيع

فغلط منه لأن (لا) في بيت الشماخ هذا نافية لا زائدة ومقصودة أنها تنهاه عن حفظ ماله مع أن أهلها يحفظون ما لهم أي لا أرى قومك يضيعون مالهم وأنت تعاتبيني في حفظ مالي وما ذكره الفراء من أن لفظة (لا) لا تكون صلة إلا في الكلام الذي فيه معنى الجحد فهو أغلبه لا يصح على الإطلاق بدليل بعض الأمثلة المتقدمة التي لا جحد فيها كهذه الآية على القول بأن (لا) فيها صلة وكبيت ساعدة الهذلي وما ذكره الزمخشري من زيادة (لا) في أول الكلام دون غيره فلا دليل عليه.

الوجه الثاني: أن ﴿ لا ﴾ نفي لكلام المشركين المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله: ﴿ أقسم ﴾ إثبات مستأنف وهذا القول وإن قال به كثير من العلماء فليس بوجيه عندي لقوله تعالى في سورة القيامة ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ لأن قوله تعالى ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ يدل على أنه لم يرد الإثبات المؤتنف بعد النفي بقوله أقسم والله تعالى أعلم.

(107/816)

الوجه الثالث : أنها حرف نفي أيضا ووجهه أن إنشاء القسم يتضمن الإخبار عن تعظيم المقسم به فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية والمراد أنه لا يعظم بالقسم بل هو في نفسه عظيم أقسم به أولا وهذا القول ذكره صاحب الكشاف وصاحب روح المعاني ولا يخلو عندي من بعد .

الوجه الرابع: أن اللام لام الابتداء أشبعت فتحتها والعرب ربما أشبعت الفتحة بألف والكسرة بياء والضمة بواو فمثاله في الفتحة قول عبد يغوث ابن وقاص الحارثي:

وتضحك مني شيخة عبشمية

...كأن لم تر قبلي أسيرا يمانيا

فالأصل كأن لم تر ولكن الفتحة أشبعت – وقول الراجز:

إذا العجوز غضبت فطلق

...ولا ترضاها ولا تملقي

فالأصل ترضها لأن الفعل مجزوم بلا الناهية – وقول عنترة في معلقته:

ينباع من ذفري غضوب جسرة

زيافة مثل الفنيق المكدم

فالأصل ينبع يعني أن العرق ينبع من عظم الذفرى من ناقته فأشبع الفتحة فصار ينباع على الصحيح وقول الراجز:

قلت وقد خرت على الكلكال

...يا ناقتي ما جلت من مجالي

فقوله الكلكال يعني الكلكل ، وليس إشباع الفتحة في هذه الشواهد من ضرورة الشعر لتصريح علماء العربية بأن إشباع الحركة بحرف يناسبها أسلوب من أساليب اللغة العربية ولأنه مسموع في النثر كقولهم كلكال وخاتام ودااناق يعنون كلكلا وخاتما ودانقا .

ومثله في إشباع الضمة بالواو ، وقولهم: برقوع ومعلوق يعنون برقعا ومعلقا .

ومثال إشباع الكسرة بالياء قول قيس بن زهير:

ألم يأتك والأنباء تنمى

بما لاقت لبون بني زياد

فالأصل يأتك لمكان الجازم – وأنشد له الفراء:

لا عهد لي بنيضال

أصبحت كالشن البال

ومنه قول امرئ القيس:

كأني بفتحاء الجناحين لقوة

على عجل مني أطأطئ شيمالي

ويروى: صيود من العقبان طأطأن شيمالي .

ويروى دفوف من العقبان الخ .

ويروى شملال بدل شيمال وعليه فلا شاهد في البيت إلا أن رواية الياء مشورة .

ومثال إشباع الضمة بالواو قول الشاعر :

هجوت زبان ثم جئت معتذرا

من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

وقول الآخر :

(108/816)

الله أعلم أنا في تلفتنا . . .

يوم الفراق إلى إخواننا صور

وإنني حيثما يثني الهوى بصري

من حيثما ما سلكوا أدنوا فأنظور

يعني فانظر ، وقول الراجز :

لو أن عمرا عم أن يرقودا

فانهض فشد المئزر المعقودا

يعني يرقد ، ويدل لهذا الوجه قراءة قنبل: (لأقسم بهذا البلد) بلام الابتداء وهو مروي عن البزي والحسن والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 327.321 ﴾

(109/816)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أنكر عليه سبحانه وتعالى هذه النقائص قرره على ما أوجب شهوته الحسية المتفرعة إلى أنواع بما يستلزم أن يكون فاعله له المانّ عليه به من بعض فيضه ، عالماً بجميع أمره قادراً على نفعه وضره بنفسه وبمن أراد من جنده ، فقال مشيراً إلى ما يترتب على نظر العين الباصرة الجائلة في العالم الحسي ونظر عين البصيرة الجائلة في العالم المعنوي من شهوته أن يحصل على كل ما يراه بعين باصرته ويعلمه بعين بصيرته من مليح ، ويخلص من كل ما يراه من

قبيح ، ومذكراً له بما كان يجب عليه من الشكر باستعمال هذه المشاعر فيما شرع له وكفها عما منع الله منه : ﴿ ألم نجعل ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يمكن أحداً أن يضاهيها ولا يقرب منها ﴿ له عينين ﴾ يبصر بهما وإلا لتعطل عليه أكثر ما يريد ، شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاثة على مقدار مناسب لا يزيد إحداهما على الأخرى شيئاً وقدرنا البياض والسواد أو الزرقة أو الشهلة أو غير ذلك على ما ترون ، وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها .

ولما قدره سبحانه على ما ينشأ عنه شهوتا تحصيل المليح ونفي القبيح ، اتبع ذلك ما ينشأ عنه شهوتا الأمر والنهي وأنواع الكمالات الكمالية فقال : ﴿ ولساناً ﴾ أي يترجم به عما في ضميره ﴿ وشفتين ﴾ أي يستران فاه ويعينانه على الأكل والشرب وعلى النطق بفصاحة وبلاغة على حد معلوم لا يبلغه غيره ، فيجتمع له أمره ويصل إلى مقاصد جمة وأهوال مهمة ، ولم يذكر السمع لأن الكلام يستلزمه ، والمعنى : ألسنا قادرين بالقدرة التي جعلنا له بها ما ذكر على أن نجعل لغيره مثل ما جعلنا له وأكثر فيقاومه ويغلبه .

(110/816)

ولما كان لله تعالى على كل أحد في كل لمحة منة جديدة في إبقاء هذه الآلات الثلاث ، عبر فيها بالمضارع ، ولما كانت النعمة في العقل إنما هي بهبته أولاً ثم بحمله به على الخير ثانياً ، وكان أمره خفياً ، وكان من المعلوم أن كل أحد غير مهدي في كل حركاته وسكناته إلى ما يسعده ، بل كان هذا المنكر عليه لم يؤهل لطريق الخير ، اختير له لفظ الماضي لذلك تحقيقاً لكونه وجعله غريزة لا تتحول وطبيعة لا تتبدل ، بل هي غالبة على صاحبها ، قائدة إلى مضارة أو محابة ومسارة وإن كره ، وهو السبب الذي يكون به الخلاص من شر تلك الأنكاد في دار الإسعاد فقال تعالى : ﴿ وهديناه ﴾ أي بما آتيناه من العقل ﴿ النجدين ﴾ أي طريقي الخير والشر ، وصار بما جعلناه له من ذلك سميعاً بصيراً عالماً فصار موضعاً للتكليف ، روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" يا أيها الناس ! هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، يا أيها الناس إنما هما نجدان : نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير " قال المنذري : النجد هنا الطريق – انتهى .

(111/816)

وهو طريق في ارتفاع ، عبر عن الخير والشر به لإعلائهما الإنسان عن رتبة باقي الحيوان ، ولأن الإنسان لا يختار واحدة منهما إلا بمعاناة وتكلف كمعاناة من يصعد في عقبة ، والنجد لغة الموضع العالي ، والله تعالى يعلي من أراد على ما شاء منهما بخلاف ما كان يقتضيه ظاهر حاله من أنه لا يحب تكلف شيء أصلاً ، ولا يريد الأشياء تأتيه إلا عفواً ، وذلك لأجل إظهار قدرته سبحانه وتعالى ، أما صعوبة طريق الخير فبما حفه به من المكاره حتى صار العمل به ، مع أن كل أحد يعشق اسمه ومعناه ، أشد شيء وأصعبه ، وأشقه وأتعبه ، وأما صعوبة طريق الشر فواضحة جداً مع أن الله يلزمه لمن أراد بتسهيله وتحبيبه وتخفيفه وتقريبه مع أن كل أحد يكره اسمه وينفر من معناه ، وجعل الله تعالى الفطرة الأولى السليمة التي فطر الناس عليها من الاستقامة بحيث تدرك الشر وتنهى عنه ، وتدرك الخير وتأمر به ، غير أن الشهوات والحظوظ تعالجها ، والغالب من أعانه الله ، وإلى ذلك يشير حديث " إذا لم تستحي فاصنع ما شئت " وحديث " البر ما اطمأنت إليه النفس وانشرح له الصدر ، والإثم ما حاك في الصدر وتردد في القلب وإن أفتاك الناس وأفتوك " .

ولما كان معنى ما مضى أن هذا الإنسان عاجز وإن تناهت قوته ، وبلغت الذروة قدرته ، لسبق قوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ [النساء : 28] وأنه معلوم جميع أمره مفضوح في سره كما هو مفضوح في جهره ، كما أشار إليه حديث جندب رضي الله تعالى عنه عند الطبراني " ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها "

وحديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عند أحمد وأبي يعلى " لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة يخرج عمله للناس " فهو موصول إليه مقدور عليه ، وأنه كان يجب عليه الشكر على ما جعل له سبحانه وتعالى من القوى التي جعلها لسوء كسبه آلات للكفر ، سبب سبحانه وتعالى عنه قوله تفصيلاً للأشياء الموصلة إلى الراحة في العقبى نافياً لفعلها عنه على سبيل الحقيقة دلالة على عجزه : ﴿ فلا اقتحم ﴾ أي وثب ورمى بنفسه بسرعة وضغط وشدة حتى كان من شدة المحبة لما يراه فيما دخل فيه من الخير .

كأنه أتاه من غير فكر ولا روية بل هجماً ﴿ العقبة ﴾ وهي طريق النجاة ، والمقرر في اللغة أنها الطريق الصاعد في الجبل المستعار اسمها لأفعال البر المقرر في النفوس مريحة لا متعب ، مع كونها أعظم فخراً وأعلى منقبة ، لأنا حجبناه عنها بأيدينا وعظيم قوتنا وعجيب قدرتنا ، وذلك أن الخير لما كان محبباً إلى القلوب معشوقاً للنفوس مرغوباً فيه لا يعدل عنه أحد ، جعلناه في بادىء الأمر كريهاً وعلى النفوس مستصعباً ثقيلاً حتى صار لمخالفته الهوى كأنه عقبة كؤود ، لا ينال ما فيه من مشقة الصعود ، إلا بعزم شديد وهمة ماضية ،

ونية جازمة ، ورياضة وتدريب ، وتأديب وتهذيب ، وشديد مجاهدة وعظيم مكابدة للنفس والهوى والشيطان ، بحيث يكون متعاطيه في فعله له كالرامي بنفسه فيه بلا روية رمي العاشق له المتهالك عليه ، فكان هذا سبباً لأن هذا الجاهل بنفسه المتعدي لطوره لم يختر لنفسه الخير بما أوتي من البصر الذي يبصر به صنائع الله ، والبصيرة التي يعرف بها ما يضره وما ينفعه شكراً لربه سبحانه وتعالى ويكون ذلك لإحسانه إليه ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وهل جزاء النعمة إلا الشكر ، بل اختار الشر وارتكب الضر مع أنا هيأناه لكل منهما فبانت لنا القدرة .

(113/816)

واتضحت في صفاتنا العظمة ، وتحقق له الضعف وظهر منه النقص والعجز ، فوجب عليه لعزتنا الخضوع ، وإجراء مصون الدموع وإظهار الافتقار والذل والصغار ، لنقحمه سبيل الجنة وننجيه من طريق النار ، ومن اقتحم هذه العقبة التي هي للأعمال الصالحة اقتحم عقبة الصراط ، فكانت سهولتها عليه بقدر مكابدته لهذه ، واستراح من تلك المكابدات والأحزان والهموم وصار إلى حياة طيبة كما قال الله تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [النحل : 97] الآية ، واقتحامها بأن يرتحل من

عالمه السافل إلى العالم العالي الكامل الذي ليس فيه إلا اللذة ، وذلك هو الاعتراف بحق العبودية ، وتلك هي الحرية لأن الحر من خرج من رق الشهوات إلى خدمة المولى ، فصار طوع أمره في سره وجهره لا حظ لشهوة فيه ولا وصول لحظ إليه ، وذلك يكون بشيئين :

أحدهما جذب والآخر كسب ، فالمجذوب محمول .

والكاسب في تعب المجاهدات بسيف الهمة العالية مصول .

(114/816)

ولما بين أنه لا خلاص من النكد إلا بهذا الاقتحام ، شرع في تفسير العقبة بادئاً بتهويل أمرها لعظيم قدرها ، فقال معبراً بالماضي الذي جرت عادة القرآن بأنه إذا عبر به شرح المستفهم عنه : ﴿ وما أدراك ﴾ أي أيها السامع لكلامنا ، الراغب فيما عندنا ﴿ ما العقبة ﴾ أي إنك لم تعرف كنه صعوبتها وعظمة ثوابها ، فلما تفرغ القلب بالاستفهام عما لا يعرفه ، وكان الإنسان أشهى ما إليه تعرف ما أشكل عليه ، فتشوفت النفوس إلى علمها ، قال مشيراً إلى الأولى التي هي العفة التي ثمرتها السخاء وإصلاح قوة الشهوة معبراً بالفك الذي هو أدنى ما يكون من العتق لأنه الإعانة فيه ولو بما قل كما ورد في حديث البراء ـ رضى الله عنه ـ " أعتق النسمة وفك الرقبة " وعتقها أن تفرد بها ، وفكها أن تعين في ثمنها ، وفسر المراد بهذه العقبة

بما دل على معادل لا كما يأتي تعيين تقديره فإنها لا تستعمل إلا مكررة قال : ﴿ فك ﴾ أي الإنسان ﴿ رقبة ﴾ أي من الأسر أو الظلم أو الغرم أو السقم شكراً لمن أولاه الخير وتنفيساً للكربة حباً للمعالي والمكارم لا رياء وسمعة كما فعل هذا الظان الضال ولا لطمع في جزاء ولا لخوف من عناء ﴿ أو إطعام ﴾ أي أوقع الإطعام لشيء له قابلية ذلك ﴿ في يوم ذي مسغبة ﴾ أي جوع عام في مكان جوع وزمان جوع - بما أفهمه الوصف والصيغة ، فكان لذلك يحمل على الضنة بالموجود خوفاً من مثل ما فيه المطعم فخالف النفس وآثر عليها اعتماداً على الله ﴿ يتيماً ﴾ أي إنساناً صغيراً لا أب له يرجى أو يخاف ﴿ ذا مقربة ﴾ لا يرجى بإطعامه إلا التودد لأقاربه للتكثير بهم مع أنه يجمع بذلك بين صدقة وصلة وإن كان غنياً ﴿ أو مسكيناً ﴾ أي شخصاً لا كفاية له ﴿ ذا متربة ﴾ أي حاجة مقعدة له على التراب ، لا يقدر على سواه ، فالآية من الاحتباك : ذكر القرب أولاً يدل على ضده ثانياً ، وذكر المتربة ثانياً يدل على ضدها أولاً ، وسر ذلك أنه ذكر في اليتيم القرب المعطف ، وفي المسكين الوصف المرقق الملطف ،

(115/816)

فهو لا يقصد بإطعامه إلا سد فاقته ، ودخل فيه اليتيم البعيد والفقير من باب الأولى وإن كان أجنبياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 429. 433 ﴾

(116/816)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الكافر قوله ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 5] أقام الدلالة على كمال قدرته فقال تعالى :

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8)

وعجائب هذه الأعضاء مذكورة في كتب التشريح ، قال أهل العربية : النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار ، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر ، وعن أبي هريرة أنه عليه السلام قال : " إنما هما النجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، ولا يكون نجد الشر ، أحب إلى أحدكم من نجد الخير " وهذه الآية كالآية في : ﴿ هَلْ أَتى عَلَى الإنسان ﴾ إلى قوله : ﴿ فجعلناه * سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا

هديناه السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 1-3] وقال الحسن : قال : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ فمن الذي يحاسبني عليه ؟ فقيل : الذي قدر على أن يخلق لك هذه الأعضاء قادر على محاسبتك ، وروي عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ، أنهما الثديان ، ومن قال ذلك ذهب إلى أنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والله تعالى هدى الطفل الصغير حتى ارتضعها ، قال القفال : والتأويل هو الأول ، ثم قرر وجه الاستدلال به ، فقال : إن من قدر على أن يخلق من الماء المهين قلباً عقولاً ولساناً قولاً ، فهو على إهلاك ما خلق قادر ، وبما يخفيه المخلوق عالم ، فما العذر في الذهاب عن هذا مع وضوحه وما الحجة في الكفر بالله من تظاهر نعمه ، وما العلة في التعزيز على الله وعلى أنصار دينه بالمال وهو المعطي له ، وهو الممكن من الانتفاع به .

ثم إنه سبحانه وتعالى دل عباده على الوجوه الفاضلة التي تنفق فيها الأموال ، وعرف هذا الكافر أن إنفاقه كان فاسداً وغير مفيد ، فقال تعالى :

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الاقتحام الدخول في الأمر الشديد يقال : قحم يقحم قحوماً ، واقتحم اقتحاماً وتقحم تقحماً إذا ركب القحم ، وهي المهالك والأمور العظام والعقبة طريق في الجبل ، وَعْرٌ ، الجمع العقب والعقاب ، ثم ذكر المفسرون في العقبة ههنا وجهين الأول : أنها في الآخرة وقال عطاء : يريد عقبة جهنم ، وقال الكلبي : هي عقبة بين الجنة والنار ، وقال ابن عمر هي : جبل زلال في جهنم وقال مجاهد والضحاك : هي الصراط يضرب على جهنم ، وهو معنى قول الكلبي : إنها عقبة الجنة والنار ، قال الواحدي : وهذا تفسير فيه نظر لأن من المعلوم أن (بني) هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنم ولا جاوزوها فحمل الآية عليه يكون إيضاحاً للواضحات ، ويدل عليه أنه لما قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ [البلد : 12] فسره بفك الرقبة وبالإطعام الوجه الثاني : في تفسير العقبة هو أن ذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر ، وهو قول الحسن ومقاتل : قال الحسن عقبة الله شديدة وهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه من شياطين الإنس والجن ، وأقول هذا التفسير هو الحق لأن الإنسان يريد أن يترقى من عالم الحس والخيال إلى يفاع عالم الأنوار الإلهية ولا شك أن بينه وبينها عقبات سامية دونها صواعق حامية ، ومجاوزتها صعبة والترقي إليها شديد .

المسألة الثانية :

أن في الآية إشكالاً وهو أنه قلما توجد لا الداخلة على المضي إلا مكررة، تقول: لا جنبني ولا بعدني قال تعالى: ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ [القيامة: 31] وفي هذه الآية ما جاء التكرير فما السبب فيه؟ أجيب عنه من وجوه الأول: قال الزجاج: إنها متكررة في المعنى لأن معنى ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك، وقوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد: 17] يدل أيضاً على معنى ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ ولا آمن الثاني: قال أبو علي الفارسي: معنى ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ لم يقتحمها، وإذا كانت لا بمعنى لم كان التكرير غير واجب كما لا يجب التكرير مع لم، فإن تكررت في موضع نحو ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ فهو كتكرر ولم: نحو ﴿ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾ [الفرقان: 67].

المسألة الثالثة:

قال القفال: قوله: ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ أي هلا أنفق ماله فيما فيه اقتحام العقبة؟ وأما الباقون فإنهم أجروا اللفظ على ظاهره وهو الإخبار بأنه ما اقتحم العقبة.

ثم قال تعالى:

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)

فلا بد من تقدير محذوف ، لأن العقبة لا تكون فك رقبة ، فالمراد وما أدراك ما اقتحام العقبة ، وهذا تعظيم لأمر التزام الدين .

ثم قال تعالى :

فَكُّ رَقَبَةٍ (13)

والمعنى أن اقتحام العقبة هو الفك أو الإطعام ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الفك فرق يزيل المنع كفك القيد والغل ، وفك الرقبة فرق بينها وبين صفة الرق بإيجاب الحرية وإبطال العبودية ، ومنه فك الرهن وهو إزالة غلق الرهن ، وكل شيء أطلقته فقد فككته ، ومنه فك الكتاب ، قال الفراء : في " المصادر " فكها يفكها فكاكاً بفتح الفاء في المصدر ولا تقل بكسرها ، ويقال : كانت عادة العرب في الأسارى شد رقابهم وأيديهم فجرى ذلك فيهم وإن لم يشدد ، ثم سمي إطلاق الأسير فكاكاً ، قال الأخطل :

أبنى كليب إن عمى اللذا . . قتلا الملوك وفككا الأغلال

المسألة الثانية :

فك الرقبة قد يكون بأن يعتق الرجل رقبة من الرق ، وقد يكون بأن يعطي مكاتباً ما يصرفه إلى جهة فكاك نفسه ، روى البراء بن عازب ، قال : " جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : عتق النسمة وفك الرقبة قال : يا رسول الله أوليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة ، أن تعين في ثمنها " وفيه وجه آخر وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يتكلفه من العبادة التي يصير بها إلى الجنة فهي الحرية الكبرى ، ويتخلص بها من النار .

المسألة الثالثة :

قرىء : ﴿ فك رقبة * أو إطعام ﴾ ، والتقدير هي فك رقبة أو إطعام وقرىء : (فك رقبة أو أطعم) على الإبدال من اقتحم العقبة ، وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ اعتراض ، قال الفراء : وهو أشبه الوجهين بصحيح العربية لقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ [البلد : 16] لأن فك وأطعم فعل ، وقوله : ﴿ كان ﴾ فعل ، وينبغي أن يكون الذي يعطف عليه الفعل فعلاً ، أما لو قيل : ثم إن كان (1) كان ذلك مناسباً لقوله : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ بالرفع لأنه يكون عطفاً للاسم على الاسم .

المسألة الرابعة :

عند أبي حنيفة العتق أفضل أنواع الصدقات ، وعند صاحبية الصدقة أفضل ، والآية أدل على قول أبي حنيفة : لتقدم العتق على الصدقة فيها .

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

يقال : سغب سغباً إذا جاع فهو ساغب وسغبان ، قال صاحب "الكشاف" : المسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب ، يقال : فلان ذو قرابتي وذو مقربتي وترب إذا افتقر ومعناه التصق بالتراب ، وأما أترب فاستغنى ، أي صار ذا مال كالتراب في الكثرة .

قال الواحدي : المتربة مصدر من قولهم ترب يترب تربا ومتربة مثل مسغبة إذا افتقر حتى لصق بالتراب .

---

(1) أي يكون المعطوف (إن كان) وهي جملة اسمية شرطية .

المسألة الثانية :

حاصل القول في تفسير : ﴿ يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ ما قاله الحسن : وهو نائم يوم محروص فيه على الطعام ، قال أبو علي : ومعناه ما يقول النحويون في قولهم : ليل نائم ونهار صائم أي ذو نوم وصوم .

واعلم أن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس وأوجب للأجر ، وهو كقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ [البقرة : 177] وقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً ﴾ [الإنسان : 8] وقرأ الحسن : (ذا مسغبة) نصبه بإطعام ومعناه أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة .

أما قوله تعالى :

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15)

قال الزجاج : ذا قرابة تقول زيد ذو قرابتي وذو مقربتي ، وزيد قرابتي قبيح لأن القرابة مصدر ، قال مقاتل : يعني يتيماً بينه وبينه قرابة ، فقد اجتمع فيه حقان يتم وقرابة ، فاطعامه أفضل ، وقيل : يدخل فيه القرب بالجوار ، كما يدخل فيه القرب بالنسب .

أما قوله تعالى :

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16)

أي مسكيناً قد لصق بالتراب من فقره وضره ، فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه ،

روى أن ابن عباس مر بمسكين لاصق بالتراب فقال : هذا الذي قال الله تعالى (فيه) : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ واحتج الشافعي بهذه الآية على أن المسكين قد يكون بحيث يملك شيئاً ، لأنه لو كان لفظ المسكين دليلاً على أنه لا يملك شيئاً ألبتة ، لكان تقييده بقوله : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ تكريراً وهو غير جائز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 169.166 ﴾

(121/816)

وقال القرطبى :

ثم عَدّد عليه نعمه فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ وَلِسَاناً ﴾ ينطق به . ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستُر بهما ثغره .

والمعنى : نحن فعلنا ذلك ، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحصِيَ عليه ما عمله .

وقال أبو حازم : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى قال : يا ابن آدم ، إن نازعك لسانك فيما حرّمتُ عليك ، فقد أَعنْتُكَ عليه بطبقين ، فأَطبِق ؛ وإن نازعك بصرك فيما حرّمت عليك ، فقد أعنتك عليه بطبقين ، فأَطْبِق ؛ وإن نازعك فرجك إلى ما حرّمتُ عليك ، فقد أعنتك عليه بطبقَين ، فأطبق " والشَّفَة : أصلها شَفْهة ، حذفت منها الهاء ،

وتصغيرها : شُفيهة ، والجمع : شِفاهٌ .

ويقال : شَفَهات وشَفَوات ؛ والهاء أقيس ، والواو أعمّ ، تشبيهاً بالسنوات .

وقال الأزهريّ : يقال هذه شَفَة في الوصل وشَفَةٌ ، بالتاء والهاء .

وقال قتادة : نِعَم الله ظاهرة ، يقرّرك بها حتى تشكر .

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)

يعني الطريقين : طريق الخير وطريق الشر .

أي بيناهما له بما أرسلناه من الرسُل .

والنجد .

الطريق في ارتفاع .

وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما .

وروى قتادة قال : ذُكِر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : " يا أيُّها الناسُ ، إنَّما هما النَّجْدان : نجد الخير ، ونجد الشر ، فلِم نجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير " ورُوي عن عكرمة قال : النَّجدان : الثديان .

وهو قول سعيد بن المسيّب والضحاك ، وروِي عن ابن عباس وعليّ رضي الله عنهما ؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه .

فالنجد : العُلُوّ ، وجمعه نُجُود ؛ ومنه سُمِّيَتْ "نجد" ، لارتفاعها عن انخفاض تِهامة .

فالنجدان : الطريقان العاليان .

قال امرؤ القيس :

فريقان منهمْ جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ . . .

وآخرُ منهم قاطِعٌ نجدَ كَبْكَبِ

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

(122/816)

أي فهلا أنفق ماله الذي أنفقه في عداوة محمد ، هلا أنفقه لاقتحام العَقَبة فيأمن ! والاقتحام : الرّمْيُ بالنفس في شيء من غير رَوِية ؛ يقال منه : قَحَم في الأَمْر قُحوماً : أي رمى بنفسه فيه من غير روِية .

وقَحَّم الفَرَس فارسَه تقحيماً على وجهه : إذا رماه .

وتقحيم النفسِ في الشيء : إدخالها فيه من غير روِية .

والقُحْمة (بالضم) المَهْلَكة ، والسنة الشديدة .

يقال : أصابت الأعراب القُحْمة : إذا أصابهم قحط ، فدخلوا الريف .

والقُحَم : صِعاب الطريق .

وقال الفرّاء والزجاج: وذكر "لا" مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد "لا" مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ [القيامة: 31] ﴿ ولا خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة: 62] وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله: "ثم كان من الذِين آمنوا" قائماً مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا اقتحم العقبة ولا آمن.

وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء؛ كقوله: لا نجا ولا سلِم.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾؟ قال سفيان بن عُيينة: كل شيء قال فيه "وما أدراك"؟ فإنه أَخْبَر به، وكل شيء قال فيه "وما يدريك"؟ فإنه لم يخبر به.

وقال: معنى ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ أي فلم يقتحم العقبة؛ كقول زُهَير:

وكانَ طَوَى كَشْحاً على مُسْتَكِنَّةٍ . . .

فلا هُوَ أَبداها ولم يَتَقدّمِ

أي فلم يبدها ولم يتقدّم.

وكذا قال المبرّد وأبو عليّ "لا": بمعنى لم.

وذكره البخاريّ عن مجاهد.

أي فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير.

ثم فَسَّر العقبة وركوبها فقال: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ وكذا وكذا؛ فبين وجوهاً من القُرَب

المالية .

وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار ؛ تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة .

(123/816)

يقول : هلا أنفق ماله في فكّ الرقاب ، وإطعام السَّغْبان ، ليجاوز به العقبة ؛ فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قيل : اقتحام العقبة ها هنا ضرب مَثَل ، أي هل تَحَمَّل عِظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه ، والإيمان به .

وهذا إنما يليق بقول من حمل ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ على الدعاء ؛ أي فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا .

وقيل : شبه عِظم الذنوب وثِقلها وشدّتها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وعمِل صالحاً ، كان مثله كمثل من اقتحم العقبة ، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله .

قال ابن عمر : هذه العقبة جبل في جهنم .

وعن أبي رجاء قال : بلغنا أن العقبة مَصْعَدُها سبعة آلاف سنة ، ومهبِطها سبعة آلاف

سنة وقال الحسن وقتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجِسر ، فاقتحِمُوها بطاعة الله .

وقال مجاهد والضحاك والكلبِي : هي الصراط يُضْرب على جهنم كحدّ السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلاً وصُعوداً وهُبوطاً .

واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء .

وقيل : اقتحامه عليه قدرُ ما يصلي صلاة المكتوبة .

وروي عن أبي الدرداء أنه قال : إن وراءنا عقبة ، أَنْجَى الناسِ منها أخفهم حِمْلاً .

وقيل : النار نفسها هي العقبة .

فروى أبو رجاء عن الحسن قال : بلغنا أنه ما من مسلم يُعْتق رقبة إلا كانت فداءه من النار .

وعن عبد الله بن عمر قال : من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضواً منه .

(124/816)

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار ، حتى فرجَه بفرجه " وفي الترمذي عن أبي أُمامة وغيره من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أيُّما امرىءٍ

مُسْلِمٍ أعتقَ امْرأً مُسْلِماً ، كان فَكَاكَهُ من النار ، يَجْزِي كل عضو منه عضواً منه ، وأيُّما امرأة مسلمة أعتقتْ امرأة مُسلمة ، كانت فَكاكَها من النار ، يجزي كل عضو منها عضواً منها " قال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وقيل : العقبة خلاصه من هول العَرْض .

وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر .

وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان .

وأنشد بعضهم :

إني بُليتُ بأربعٍ يَرْمينَني . . .
بالنَّبْل قد نَصَبوا عليّ شِراكا

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوَى . . .
من أين أرجو بينهن فَكاكا

يا ربِّ ساعدني بعفوٍ إنني . . .
أصبحت لا أرجو لهن سِواكا

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)

فيه حذف ؛ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة .

وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين ؛ والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ليعلمه اقتحام

العقبة .

قال القشيريّ : وحمل العقبة على عَقَبة جَهنم بعيد ؛ إذ أحد في الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم ؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلاَّ صَيَّر نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غداً .

واختار البخاريّ قول مجاهد : إنه لم يقتحم العقبة في الدنيا .

قال ابن العربيّ : "وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ ؟ ثم قال في الآية الثالثة : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ ، وفي الآية الرابعة ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ، ثم قال في الآية الخامسة : ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ ، ثم قال في الآية السادسة : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ؛ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا .

(125/816)

المعنى : فلم يأت في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوك العقبة في الآخرة" .

فَكُّ رَقَبَةٍ (13)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ فكها : خلاصها من الأسر .

وقيل : من الرّق .

وفي الحديث : " وفك الرقبةِ أن تُعِين في ثَمَنها " من حديث البرَاء ، وقد تقدم في سورة "براءة" .

والفكّ : هو حلّ القيد ؛ والرِّق قيد .

وسمى المرقوق رَقبة ؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته .

وسُمِّي عنقها فَكًّا كفك الأسير من الأَسْر .

قال حسان :

كَمْ من أسيرٍ فَكَكناه بلا ثَمَنٍ . . .

وجَزّ ناصيةٍ كنا مَوَاليها

وروى عُقبة بن عامر الجهنيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار " قال الماوردِيّ : ويحتمِل ثانياً أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه ، باجتناب المعاصي ، وفعل الطاعات ؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل ، وهو أشبه بالصواب .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ رَقَبَةٍ ﴾ قال أصْبَغُ : الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العِتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن ؛ لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم وقد " سُئل أيّ الرقاب أفضل ؟ قال : "أغلاها ثمناً ، وأنفسها عند أهلها" " ابن العربيّ : "والمراد في هذا الحديث : (من المسلمين) ؛ بدليل قوله عليه السلام : " مَنْ أَعْتَقَ امْرأً مسْلماً " و " مَنْ أَعتقَ رقبةً

مُؤْمِنة " وما ذكره أصبغ وَهْلَة ، وإنما نظر إلى تنقيص المال ، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة ، وتفريغه للتوحيد ، أولى" .

الثالثة : العِتق والصدقة من أفضل الأعمال .

وعن أبي حنيفة : أن العتق أفضل من الصدقة .

وعند صاحبيه الصدقة أفضل .

والآية أدل على قول أبي حنيفة ؛ لتقديم العتق على الصدقة .

وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة : أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة ؟ قال : الرقبة أفضل ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً من النار "

(126/816)

قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾

أي مجَاعة .

والسَّغَب : الجوع .

والساغب : الجائع وقرأ الحسن "أو إِطعامٌ فِي يومٍ ذا مَسْغَبةٍ" بالألف في "ذا" وأنشد أبو

عبيدة :

فلَوْ كنتُ جاراً يا بن قَيْسٍ بن عاصمٍ . . .

لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبا

وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السَّغَب الذي هو الجوع أفضل .

وقال النَّخَعِيّ في قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ قال : في يوم عزيز فيه الطعام .

ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من موجِباتِ الرحمةِ إطعامُ المُسْلِم السَّغْبانَ " ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي قرابة .

يقال : فلان ذو قرابتي وذو مَقْرَبتي .

يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يَكْفله .

وأهل اللغة يقولون : سُمِّي يتيماً لضعفه .

يقال : يَتُمَ الرجل يُتْماً : إذا ضعف .

وذكروا أن اليَتيم في الناس من قِبل الأب ، وفي البهائم من قِبل الأمهات .

وقد مضى في سورة "البقرة" مُسْتوفًى ، وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذي يموت أبواه .

وقال قيس بن الملَّوح :

إِلَى اللهِ أشكو فقد لَيْلَى كما شَكا . . .

إِلَى اللهِ فقد الوالِدَيْنِ يَتِيمُ

قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي لا شيء له ، حتى كأنه قد لصِق بالتّراب من الفقر ، ليس له مَأْوًى إلا التراب .

قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق ، الذي لا بيت له .

مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لِباس ولا غيره .

وقال قتادة : إنه ذو العيال .

عكرمة : المديون .

أبو سنان : ذُو الزَّمَانَةِ .

ابن جبير : الذي ليس له أحد .

وروى عكرمة عن ابن عباس : ذو المَتْرَبَة البعيد التربة ؛ يعني الغريب البعيد عن وطنه .

وقال أبو حامد الخارَزَنْجِيّ : المَتْربة هنا : من التَّرِيب ؛ وهي شدة الحال .

يقال ترِب : إذا افتقر .

(127/816)

قال الهُذَلِيّ :

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا . . .

سَفَكْنا دِماءَ البُدْنِ في تُرْبَةِ الحالِ

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيّ : "فَكَّ" بفتح الكاف ، على الفعل الماضي .

"رقبةً" نصباً لكونها مفعولاً "أو أَطْعَمَ" بفتح الهمزة ونصب الميم ، من غير ألف ، على الفعل الماضي أيضاً ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ فهذا أشكل ب"فكَّ وأَطعمَ" .

وقرأ الباقون : "فَكُّ" رفعاً ، على أنه مصدر فككت .

"رقبةٍ" خفض بالإضافة .

"أو إِطعامٌ" بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضاً .

واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ؛ لأنه تفسير لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ ؟ ثم أخبره فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ .

المعنى : اقتحام العقبة : فكّ رقبة أو إطعام .

ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى ؛ أي ولا فَكَّ رقبةً ، ولا أطعمَ في يومٍ ذا مَسْغبة ؛ فكيف يجاوز العَقَبة .

وقرأ الحسن وأبو رَجاء : "ذا مسغبة" بالنصب على أنه مفعول "إطعام" أي يطعمون ذا مَسْغَبة و"يَتيماً" بدل منه .

الباقون "ذِي مَسْغَبة" فهو صفة ل"يوم" .

ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور ؛ لأن قوله : "في يوم" ظرف منصوب الموضع ، فيكون وصفاً له على المعنى دون اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(128/816)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما .

﴿ وَلِسَاناً ﴾ يفصح به عما في ضميره ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك والمفرد شفة وأصلها شفهة حذفت منها الهاء ويدل عليه شفيهة وشفاه وشافهت وهي مما لا يجوز جمعه بالألف والتاء وإن كان فيه تاء التأنيث على ما في "البحر" .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي طريقي الخير والشر كما أخرجه الحاكم وصححه والطبراني وغيرهما عن ابن مسعود وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس وروى عن عكرمة والضحاك وآخرين وأخرجه الطبراني عن أبي إمامة مرفوعاً والنجد مشهور في

الطريق المرتفع قال امرؤ القيس

فريقان منهم جازع بطن نخلة . . .

وآخر منهم قاطع نجد كبكب

وسميت نجد به لارتفاعها عن انخفاض تهامة والامتنان المحدث عنه بأن هداه سبحانه وبين له تعالى شأنه ما إن سلكه نجا وما أن سلكه هلك ولا يتوقف الامتنان على سلوك طريق الخير وقد جعل الإمام هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هديناه السبيل ﴾ [الإنسان : 3] إما شاكراً وإما كفوراً ووصف سبيل الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف سبيل الشر فإن فيه هبوطاً من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقاوة فهو على التغليب أو على توهم المتخيلة له صعوداً ولذا استعمل الترقي في الوصول إلى كل شيء وتكميله كذا قيل وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس أنهما الثديان وروى ذلك عن ابن المسيب أي ثديي الأم لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه والارتفاع فيهما ظاهر والبطن تحتهما كالغور والعرب تقسم بثديي الأم فتقول أما ونجديها ما فعلت ونسب هذا التفسير لعلي كرم الله تعالى وجهه أيضاً والمذكور في "الدر المنثور" من رواية الفريابي وعبد بن حميد وكذا في مجمع البيان أنه كرم الله تعالى وجهه إن أناساً يقولون أن النجدين الثديان فقال لا هما الخير والشر ولعل القائل بذلك رأى أن للفظ يحتمله مع ظهور الامتنان عليه جداً .

﴿ فَلَا اقتحم العقبة ﴾ الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة ويقال قحم في الأمر قحوماً رمى نفسه فيه من غير روية والعقبة الطريق الوعر في الجبل وفي البحر هي ما صعب منه وكان صعوداً والجمع عقب وعقاب وهي هنا استعارة لما فسرت به من الأعمال الشاقة المرتفعة القدر عند الله تعالى والقرينة ظاهرة وإثبات الاقتحام والمراد به الفعل والكسب ترشيح ويجوز أن يكون قد جعل فعل ما ذكر اقتحاماً وصعوداً شاقاً وذكره بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة والمراد ذم المحدث عنه بأنه مقصدر مع ما أنعم الله تعالى به عليه من النعم العظام والأيادي الجليلة الجسام كأنه قيل فقصر ولم يشكر تلك النعم العظيمة والأيادي الجسيمة بفعل الأعمال الصالحة بل غمط النعمة وكفر بالمنعم واتبع هوى نفسه وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ أي أي شيء أعلمك ما هي تعظيم تعظيم لشأن العقبة المفسرة بقوله سبحانه :

(130/816)

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ الخ وتفسيرها بذلك بناء على الادعاء والمجاز وهو مما لا شبهة في صحته وإن لم يتحد العقبة والفك حقيقة فلا حاجة إلى تقدير مضاف كما زعمه الإمام ليصح التفسير أي وما أدراك ما اقتحام العقبة ﴿ فَكُّ ﴾ الخ وقال بعضهم يحتمل أن يراد بالعقبة نفس الشكر عبر بها عنه لصعوبته ولا يأباه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ ما الشكر ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ وهو كما ترى وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن أبي شيبة عن ابن عمر أن العقبة جبل زلال في جهنم وأخرج ابن جرير عن الحسن نحوه وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنها النار وفي راية عبد بن حميد عنه أنها عقبة بين الجنة والنار وعن مجاهد والضحاك والكلبي أنها الصراط وقد جاء في صفته ما جاء ولعل المراد بعقبة بين الجنة والنار هذا وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي رجاء أنه قال بلغني أن العقبة التي ذكر الله تعالى في القرآن مطلعها سبعة آلاف سنة ومهبطها سبعة آلاف سنة وهذه الأقوال إن صحت يتعين عليها أن يراد بالاقتحام المرور والجواز بسرعة وأن يقدر المضاف أي وما أدراك ما اقتحام العقبة ﴿ فَكُّ ﴾ وجعل الفك وما عطف عليه نفس الاقتحام على سبيل المبالغة في سببيته له حتى كأنه نفسه ومآل المعنى فلا فعل ما ينجو به ويجوز بسبب العقبة الكؤود يوم القيامة وبهذا يندفع ما نقله الإمام عن الواحدي بعد نقله تفسيرها بجبل زلال في جهنم وبالصراط ونحو ذلك وهو قوله وفي هذا التفسير نظر لأن من المعلوم أن هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا عقبة جهنم ولا جاوزوها فحمل الآية عليه يكون إيضاحاً للواضحات ثم قال ويدل عليه

أنه لما قال سبحانه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ فحمل الآية عليه يكون إيضاحاً للواضحات ثم قال ويدل عليه أنه لما قال سبحانه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ فسرها جل شأنه بفك الرقبة والإطعام انتهى نعم إنا لا أقول بشيء من ذلك حتى تصح فيه تفسيراً للآية رواية مرفوعة والفك تخليص شيء من شيء قال

(131/816)

الشاعر

: فيا رب مكروب كررت وراءه . . .

وعان فككت الغل منه ففداني

وهو مصدر فك وكذا الفكاك بفتح الفاء كما نص عليه الفراء والمشهور أن المراد به هنا تخليص رقبة الرقيق من وصف القرقية بالاعتاق وأخرج أحمد وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن البراء رضي الله تعالى عنه أن اعرابياً قال يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة قال أعتق النسمة وفك الرقبة قال أو ليسا بواحد قال لا إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في عتقها الحديث وعليه يكون نفي العتق عن المحدث عنه متحققاً من باب أولى ومن الفك بهذا المعنى إعطاء المكاتب ما يصرفه في جهة فكاك نفسه

وجاء في فضل الاعتاق أخبار كثيرة منها ما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى الفرج بالفرج "

وهو أفضل من الصدقة عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وعند صاحبيه الصدقة أفضل والآية على ما قيل أدل على قول الإمام لمكان تقديم الفك على الإطعام وعن الشعبي تفضيل العتق أيضاً على الصدقة على ذي القرابة فضلاً عن غيره وقال الإمام في الآية وجه آخر حسن وهو أن يكون المراد أن يفك المرء رقبة نفسه بما يكلفه من العبادة التي يصير بها إلى الجنة فهي الحرية الكبرى وعليه قيل يكون ما بعد من قبيل التخصيص بعد التعميم وفيه بعد كما لا يخفى .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ مصدر ميمي بمعنى السغب قال أبو حيان وهو الجوع العام وقد يقال سغب الرجل إذا جاع وقال الراغب هو الجوع مع التعب وربما قيل في العطش مع التعب وفسره ابن عباس هنا بالجوع من غير قيد وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن إبراهيم أنه قال في يوم فيه الطعام عزيز وليس بتفسير بالمعنى الموضوع له .

ووصف اليوم بذي مسغبة نحو ما يقول النحويون في قولهم هم ناصب ذو نصب وليل نائم ذو نوم ونهار صائم ذو صوم .

﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي قرابة فهو مصدر ميمي أيضاً من قرب في النسب يقال فلان ذو قرابتي وذو مقربتي بمعنى قال الزجاج وفلان قرابتي قبيح لأن القرابة مصدر قال :

يبكي الغريب عليه ليس يعرفه . . .

وذو قرابته في الحي مسرور

وفيه بحث وفي إطعام هذا جمع بين الصدقة والصلة وفهيما من الأجر ما فيهما وقيل إنه لا يخص القريب نسباً بل يشمل من له قرب بالجوار .

﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي افتقار وهو مصدر ميمي كما تقدم من ترب إذا افتقر ومعناه التصق بالتراب وأما أترب فاستغنى أي صار ذا مال كالتراث في الكثرة كما قيل أقرى وعن ابن عباس أنه فسره هنا بالذي لا يقيه من التراب شيء وفي رواية أخرى هو المطروح على ظهر الطريق قاعداً على التراب لا بيت له وهو قريب مما أخرجه ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً هو الذي مأواه المزابل فإن صح لا يعدل عنه وفي رواية أخرى عن ابن عباس هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال في ذلك يعني بعيد التربة أي بعيداً من وطنه وهو بعيد والصفة على بعض هذه التفاسير صفة كاشفة وبعض آخر مخصصة واو على ما في البحر للتنويع وقد استشكل عدم تكرار لا هنا مع أنها دخلت على الماضي وهم

قالوا يلزم تكرارها حينئذ كما في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ [القيامة : 31] وقول الحطيئة :

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها . . .

وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

وشذ قوله :

لا هم أن الحرث بن جبلة . . .

جنى على أبيه ثم قتله

وكان في جاراته لا عهد له . . .

فأي أمر سيىء لا فعله

وأجيب بأن اللازم تكرارها لفظاً أو معنى وهي هنا مكررة معنى لأن تفسير العقبة بما فسرت به من الأمور المتعددة يلزم منه تفسير الاقتحام فيكون ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ [البلد : 11] في معنى فلا فك رقبة ﴿ وَلاَ مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ﴾ الخ

(133/816)

وقد يقال في البيت نحو ذلك بأن يقال إن العموم فيه قائم مقام التكرار ويلزمه على ما قيل جواز لا جاءني زيد وعمر ولأنه في معنى لا جاءني زيد ولا جاءني عمرو ومنعه بعضهم وقال الزجاج والفراء يجوز أن يكون منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(134/816)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ؟ »

هو تعقيب على موقف هذا الجهول المفتون ، الذي ظن أن قدرته لا تغلب ، وأن ماله لا ينفد ، وأنه لا يحاسب على ما يفعل ، ولا يراجع فيما يقول ، وأنه عند نفسه أكبر من أن يحاسب ، وأعظم من أن يراجع ! ! وإذا سلّم لهذا الغبىّ الجهول ، أن جاهه وسلطانه من كسب يده ، وأن المال الذي ينفق منه بغير حساب على شهواته وأهوائه ، هو من ثمرة عمله . إذا سلّم له بهذا ، فهل يجرؤ على أن يدّعى . ولو تجرد من كل حياء . أنه هو الذي أوجد وجوده ، وأودع فيه هذه القوى التي يعمل بها ؟ أيجرؤ على أن يقول إنه هو الذي خلق هاتين العينين اللتين يبصر بهما ، أو هو الذي خلق جهاز النطق الذي ينطق به ، من لسان وشفتين ؟ فإذا كان لا يملك تلك القوى المودعة فيه ، فهل يملك ما تحصّله له تلك القوى من جاه ، ومال ،

وسلطان ؟ إنه يستطيع - ولو جدلا وسفها - أن يقول مشيرا إلى نفسه : هذا مالى قد جمعته ، وهذا جاهى وسلطانى قد أقمته ولكن لا يستطيع أبدا أن يقول ها هو ذا أنا الذي أو جدته ! ! [وهديناه النجدين . ما تأويله] ؟

قوله تعالى « وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ » النجد : ما ارتفع من الأرض ، أشبه بالنّهد البارز على الصدر ، وجمعه نجود ، وبه سمى الصّقع المعروف من بلاد العرب ، بنجد ، لأنه عال بارز على ما حوله من الأماكن ، مثل تهامة وغيرها . .

والنجدان هنا ، هما جانبا الخير والشر فى الإنسان . . وسميا نجدين لأنهما أمران بارزان بين ما يتقلب فيه الإنسان من أمور . فالخير واضح الملامح ،

(135/816)

بيّن السّمات ، وكذلك الشر ، أمره ظاهر لا يخفى ، . . ولن يخطىء أحد التفرقة بين ما هو خير وما هو شر ، كما لا يخطىء أحد التفرقة بين النور والظلام ، والنهار والليل ، والحلو والمر . . اللهم إلا من فسد عقله ، واختل تفكيره ، فيرى الأمور على غير وجهها ، تماما ، كمن تعطلت حاسة من حواسه ، من سمع أو بصر ، أو شم ، أو ذوق ، فلا يميز بين المسموعات أو المبصرات ، أو المشمومات أو المذوقات . . وهذا ما يشير إليه الرسول

الكريم بقوله : « إن الحلال بين وإنّ الحرام بيّن . . وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » .

والإنسان السوىّ ، يعرف الخير والشر ، والهدى والضلال ، والنافع والضار ، ويهتدى إلى ذلك بنفسه ، كما يتهدّى الحيوان إلى مسالكه فى الحياة ، وإلى ما يحفظ وجوده بين الأحياء . .

ومن هنا كانت دعوة الإسلام - كما كانت دعوة الشرائع السماوية كلها - هى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . . والمعروف هو ما عرف الناس بفطرتهم أنه ملائم لهم ، فاتجهوا إليه ، وتجاوبوا معه ، وأخذوا وأعطوا به . .

والمنكر ، ما أنكره الناس بفطرتهم ، واستوحشوه ، ونفروا منه ، ونأوا بأنفسهم عنه . .

ومن هنا أيضا كان الإجماع فى الشريعة الإسلامية أصلا من أصول هذه الشريعة ، يقوم إلى جانب أصليها : الكتاب والسنة . . وليس الإجماع فى حقيقته إلا توارد العقول وتلاقى الفطر على أمر ليس فى كتاب اللّه ولا فى سنة رسوله نصّ فيه . .

وهذا يعنى أن الرأى العام حكم يقضى بين الناس ، وفيصل فيما لم يجدوا له حكما فى الكتاب أو السنة . .

وأكثر من هذا ، فإن أحكام الكتاب والسنة ، إنما هى موزونة بميزان الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح ، أو قل إن أحكام الكتاب والسنة ضابطة

لمسيرة الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح . ومن هنا لا تجد النفوس السوّية حرجا ، ولا ضيقا ، فى التزامها حدود الشريعة والوفاء بها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (78 : الحج) فمعنى قوله تعالى : « وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ » أي عرّفناه وجهى الخير والشر ، وأعطيناه الميزان الذي يزنهما به ، ويضع كلّا منهما موضعه الذي هو له . . وكما يشير النجدان إلى أن كلّا من الخير والشر بالمكان البارز الذي لا يخفى وجهه ولا تخطىء الأنظار الاستدلال عليه . كذلك يشيران إلى أن الاتجاه إلى أي منهما ، وأخذ الطريق إليه ، هو مرتقى صعب ، يحتاج إلى جهد ومعاناة ! فالذى يتجه إلى الخير ، ويحمل نفسه على معايشته ، إنما يغالب أهواء جامحة ، ويدافع شهوات معربدة . . وفى الحديث : « حفّت الجنة بالمكاره » .

. ولهذا كان الصبر من عدّة المؤمنين ، ومن زادهم على طريق الحق والخير . . فمن لم يرزق الصبر ، لم يقو على السير فى طريق الهدى والإيمان . . « إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ » (2 ـ 3 : العصر) . . « وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (35 : فصلت) والشرّ ، وإن

بدا فى ظاهر الأمر أنه أخفّ محملا ، وأيسر سبيلا ، لأن مسيرته متجهة مع أهواء النفس ، مندفعة مع تيار الشهوات . إلا أنه فى واقع الأمر على خلاف الظاهر ، فليس محمل الشر خفيفا ، ولا طريقه سهلا معبّدا . .

فما أكثر المزالق والعثرات التي يلقاها الأشرار فى طريقهم ، وما أكثر الآلام التي تتولد من اقتراف الآثام ، وإشباع الشهوات . . وإن اللذة العارضة لشهوة من الشهوات ، أو إثم من الآثام ، لتعقبها دائما آلام مبرّحة ، وأوجاع قاتلة ، إن لم يكن ذلك فى يومها ، ففى غد قريب أو بعيد . . فما أكثر العلل

(137/816)

الجسدية التي تخلّفها الآثام ، وما أكثر العلل والأوجاع التي يرثها أولئك الذين يزرعون الشر ، ويستكثرون منه ! هذا ، وللإنسان . كل إنسان ، حتى أكثر الناس جرأة على الشر ومقارفة له . لحظات يصحو فيها من غفلته ، ويفيق فيها من سكرته ، ويتنبه من ذهوله ، وعندها يجد بين يديه هذا الحصاد المشئوم ، الذي تنبعث منه روائح كريهة عفنة ، حتى لتكاد تخنق أنفاسه ، وتزهق روحه ! وكم لأهل الضلال ، ومقترفى الآثام من ساعات ، يحترقون فيها بنار الندم والحسرة ، ويتقلبون فيها على جحيم التقريع واللوم ، ولكن بعد فوات الأوان ،

وإفلات الفرصة . . وأىّ عزاء يعزّى به نفسه رجل كأبى نواس مثلا ، حين يذهب شبابه ، وتموت نوازعه وشهواته ، ثم يتلفت فيجد بين يديه أشباح آثامه وفجوره ، تتراقص من حوله ، بوجوهها الكالحة ، وأنيابها المكثرة ، ومخالبها الحادة ، وكأنها الحيات تطل من أجحارها ، وتهجم عليه من كل جانب ؟

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام !

هكذا يلقى أبو نواس نفسه فى صحوة الموت ، وقد بلغت الروح الحلقوم ! ! وأي حسرة وأي ألم فاضت بهما نفس رجل كالحجاج ، وقد قام على منبر سلطانه فى العراق ، يرمى الناس بالصواعق من كلماته ، فتنخلع منها القلوب ، وتضطرب النفوس ، ويشهر سيفه بيد هذا السلطان المطلق ، ويقول : « إنى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . . » ثم ينفذ هذا الوعيد ، فيقطع رءوسا بريئة ، وبريق

دماء طاهرة . . ثم تختم صفحته الملطخة بالدماء ، بدم « سعيد بن جبير » بقية السلف الصالح ، والنبتة الكريمة الباقية من رياض التابعين ؟

والذين شهدوا الحجاج وهو على فراش الموت ، يعانى سكراته ، وينظر نظرات الفزع والرعب إلى ماضيه الذي حضر كلّه بين يديه . الذين شهدوا الحجاج وهو فى تلك الحال ، فاضت نفوسهم أسّى عليه ، ورحمة به ، حتى أولئك الذين كانوا أشد الناس بغضا له ، واستعجالا ليومه هذا ! فكم يساوى سلطان الحجاج ، وجبروته ، وما أرضى به نفسه من هذا السلطان ، وذلك الجبروت . كم يساوى كل هذا من آلام ساعة من ساعاته الأخيرة ، وهو يرى حصاد هذا السلطان ، وثمر هذا الجبروت ؟

هذا حساب الإنسان مع نفسه ، فكيفّ حسابه مع اللّه ، إذا كان قد أخذ طريقا غير طريق اللّه ؟ .

وقوله تعالى : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ »

العقبة ، هى الطريق الوعر فى الجبل ، تحف بسالكها المخاوف والمهالك . .

والاقتحام ، هو الإقدام من المرء على الأمر فى قوة وعزم ، دون مبالاة بما يعترضه من صعاب . . والمخاطب باقتحام العقبة هنا ، هو هذا الإنسان الذي هداه اللّه النجدين ، وعرّفه . بما أودع فيه من عقل ، وما غرس فيه من فطرة . التهدّى إلى طريق الخير أو الشر ، ثم لم يقتحم العقبة إلى موارد الخير ، ومواقع الإحسان ، وآثر أن يأخذ طريق الشر ، ويتقحّم

عقبته تحت غواشي ضلاله ، وغمرة شهواته . . ومطوة نزواته . .

وقوله تعالى .

«وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ» سؤال يثير العقل ، ويحرك الفكر ، نحو هذا المجهول الذي يسأل عنه .

(139/816)

وقوله تعالى : « فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ » : المسغبة : المجاعة ، والمتربة : التراب ، ويراد بها الفقر الشديد ، كأن المتصف بها لا يملك غير التراب ! هذه هي العقبة التي كانت موضوع السؤال : « وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ » ؟

إنها عقبة ، تقوم بين يدي من يريد اجتيازها إلى مواقع الخير ـ عقبات :

منها : « فك رقبة » أي عتق رقبة ، وفكها وإطلاقها من أسر العبودية ، والرق ، وتحريرها من البهيمية التي اغتالت معالم الإنسانية فيها . .

إن الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ له حرمته عند اللّه ، وإن الاستخفاف بهذه الحرمة عدوان على حمى اللّه . . ولهذا كان من أعظم القربات عند اللّه سبحانه وتعالى ، هو رد اعتبار

هذا الإنسان ، وتصحيح وجوده بين الناس . .

إنه خليفة اللّه فى الأرض ! ومن العقبات التي يقتحمها من يأخذ طريقه إلى اللّه : « إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ » أي بذل الطعام فى المجاعات ، وفى أيام الجدب والقحط ، للجياع والمحرومين . . وأولى هؤلاء الجياع بالإطعام ، الأيتام الفقراء ، لضعفهم ، وعجزهم عن الكسب . . وأحق الأيتام بهذا الإحسان ، ذوو القربى ، إذ كان للقرابة حق يجب أن يرعى ، فمن قصّر فى حق ذوى قرابته ، فهو مع غيرهم أكثر ضنّا ، وأشد تقصيرا . . والمسكين الفقير ، هو أشبه باليتيم ، فى ضعفه ، وقلة حيلته ، وإطعامه - حين لا يجد الطعام - أولى من غيره ! وفرق بين الفقير ، والمسكين . . فقد يكون المسكين فقيرا ، وقد يكون

الفقير غير مسكين . . والمسكين هو الذليل ، المهين . . سواء أكان فقيرا أم غير فقير ، ومن هنا لم يكن فى المؤمنين مسكين . إذ لا يجتمع الإيمان ، وذلة المسكين ومهانته . .

وعلى هذا يكون المسكين ، هو الّذي ، الذي يعيش فى دار الإسلام ، ويكون من حقه على المسلمين إذا كان فقيرا أن تسدّ مفاقره ، وأن يكون له نصيب من البر والإحسان . كما يشير

إلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ . . . » أما الفقير على إطلاقه ، فهو من كان من المؤمنين ، ولا مال معه ، وهذا الفقر لن يلبسه لباس المسكنة أبدا . . وكيف ، وهو العزيز بإيمانه ، القوى بالثقة فى ربه ؟

وسميت هذه الأمور عقبة ، لأن الذي يتخطاها ، إنما يغالب نوازع نفسه ، من الأثرة ، وحب المال ، وإنه ليس من السهل على الإنسان أن ينزع من نفسه الأنانية والأثرة ، وحبّ المال ، وإن ذلك ليحتاج إلى معاناة وجهاد ومغالبة ، حتى يقهر المرء هذه القوى التي تحول بينه وبين البذل والسخاء . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1573.1579 ﴾

(141/816)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) ﴾

تعليل للإِنكار والتوبيخ في قوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 5] أو قوله : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ [البلد : 7] أي هو غافل عن قدرة الله تعالى وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدال عليهما أنه خَلَق مشاعر الإِدراك التي منها العينان ، وخَلَق

آلات الإِبانة وهي اللسان والشفتان ، فكيف يكون مفيض العلم على الناس غير قادر وغير عالم بأحوالهم قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] .

والاستفهام يجوز أن يكون تقريرياً وأن يكون إنكارياً .

والاقتصار على العينين لأنهما أنفع المشاعر ولأن المعلَّل إنكار ظنه إن لم يره أحد .

وذِكْر الشفتين مع اللسان لأن الإِبانة تحصل بهما معاً فلا ينطق اللسان بدون الشّفتين ولا تنطق الشفتان بدون اللسان .

ومن دقائق القرآن أنه لم يقتصر على اللسان ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه يقولون : ينطق بلسانٍ فصيح ، ويقولون : لم ينطق ببنت شفة ، أو لم ينبس ببنت شفة ، لأن المقام مقام استدلال فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق .

وأعقب ما به اكتساب العلم وما به الإِبانة عن المعلومات ، بما يرشد الفكرَ إلى النظر والبحث وذلك قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ .

فاستكمل الكلامُ أصول التعلُّم والتعليم فإن الإِنسان خُلق محباً للمعرفة محباً للتعريف فبمشاعر الإِدراك يكتسب المشاهدات وهي أصول المعلومات اليقينية ، وبالنطق يفيد ما يَعْلَمه لغيره ، وبالهدي إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها .

والشفتان هما الجِلدتان اللتان تستران الفم وأسنانه وبهما يُمتص الماء ، ومن انفتاحهما وانغلاقهما تتكيف أصوات الحروف التي بها النطق وهو المقصود هنا .

وأصل شفة شَفَو نقص منه الواو وعوض عنه هاء فيجمع على شفوات ، وقيل : أصله شفه بهاء هي لام الكلمة فعُوضَ عنها هاء التأنيث فيجمع على شفهات وشِفاه .

(142/816)

والذي يظهر أن الأصل شفه بهاء أصلية ثم عوملت الهاء معاملة هاء التأنيث تخفيفاً في حالة الوصل فقالوا : شفة ، وتنوسي بكثرة الاستعمال فعومل معاملة هاء التأنيث في التثنية كما في الآية وهو الذي تقضيه تثنيته على شفتين دون أن يقولوا : شفوين ، فإنهم اتفقوا على أن التثنية تردّ الاسم إلى أصله .

والهداية : الدلالة على الطريق المبلِّغة إلى المكان المقصود السير إليه .

والنجد : الأرض المرتفعة ارتفاعاً دون الجبل .

فالمراد هنا طريقان نجدان مرتفعان ، والطريق قد يكون مُنجداً مصعداً ، وقد يكون غوراً منخفضاً .

وقد استعيرت الهداية هنا للإلهام الذي جعله الله في الإنسان يدرك به الضارّ والنافع وهو أصل التمدن الإنساني وأصل العلوم والهداية بدين الإسلام إلى ما فيه الفوز .

واستعير النجدان للخير والشر ، وجعلا نجدين لصعوبة اتباع أحدهما وهو الخير فغلِّب

على الطريقين ، أو لأن كل واحد صعب باعتبار ، فطريق الخير صعوبته في سلوكه ، وطريق الشر صعوبته في عواقبه ، ولذلك عبر عنه بعدَ هذا ب

﴿ العَقَبة ﴾ [البلد : 11] .

ويتضمن ذلك تشبيه إعمال الفكر لنوال المطلوب بالسير في الطريق الموصل إلى المكان المرغوب كما قال تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الإنسان : 3]

وتشبيه الإِقبال على تلقّي دعوة الإِسلام إذ شقّت على نفوسهم كذلك .

وأدمج في هذا الاستدلال امتنانٌ على الإِنسان بما وُهبه من وسائل العيش المستقيم .

ويجوز أن تكون الهداية هداية العقل للتفكير في دلائل وجود الله ووحدانيته بحيث لو تأمل لعَرف وحدانية الله تعالى فيكون هذا دليلاً على سبب مؤاخذة أهل الشرك والتعطيل بكفرهم في أزمان الخلو عن إرسال الرسل على أحد القولين في ذلك بين الأشاعرة من جهة ، وبين الماتريدية والمعتزلة من جهة أخرى .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

(143/816)

يجوز أن يكون ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ تفريع إدماج بمناسبة قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] أي هديناه الطريقين فلمْ يسلك النجْد الموصِّل إلى الخير .

ويجوز أن يكون تفريعاً على جملة ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً ﴾ [البلد : 6] وما بينهما اعتراضاً ، وتكون "لا اقتحم العقبة" استفهاماً حذف منه أداته .

وهو استفهام إنكار ، والمعنى : أنه يدعي إهلاك مَال كثيرٍ في الفساد من ميسر وخمر ونحو ذلك أفَلا أهلكه في القُرَب والفضائل بفكّ الرقاب وإطعام المساكين في زمن المجاعة فإن الإنفاق في ذلك لا يخفى على الناس خلافاً لما يدعيه من إنفاقٍ .

وعلى هذا الوجه لا يعرِض الإشكال بعدم تكرُّر (لا) فإن شأن (لا) النافية إذا دخلت على فعل المضي ولم تتكرر أن تكون للدّعاء إلاّ إذا تكررت معها مثلُها معطوفةٌ عليها نحو قوله : ﴿ فلاَ صَدَّق ولا صلَّى ﴾ [القيامة : 31] أو كانت (لا) معطوفة على نفي نحو : ما خرجتُ ولا ركبتُ .

فهو في حكم تكرير (لا) .

وقد جاءت هنا نافية في غير دعاء ، ولم تتكرر استغناء عن تكريرها بكون ما بعدها وهو ﴿ اقتَحَم العقبة ﴾ يتضمن شيئين جاء بيانهما في قوله : ﴿ فكُّ رقبة أو إطعام ﴾ فكأنه قال : فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعم يتيماً أو مسكيناً .

ويجوز أن يكون عدم تكرير (لا) هنا استغناء بقوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ فكأنه

قيل : فلا اقتحم العقبة ولا آمن .

ويظهر أن كل ما يصرف عن التباس الكلام كافٍ عن تكرير (لا) كالاستثناء في قول الحريري في "المقامة الثلاثين" : "لا عقد هذا العقد المبجل في هذا اليوم الأغر المحجّل إلا الذي جال وجاب" الخ وأُطلق ﴿ العقبةُ ﴾ على العمل الموصل للخير لأن عقبة النجد أعلى موضع فيه .

ولكل نجد عقبة ينتهي بها .

وفي العقبات تظهر مقدرة السابرة .

(144/816)

والاقتحام : الدخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين يقال : اقتحم الصَفَّ ، وهو افتعال للدلالة على التكلف مثل اكتسب ، فشبه تكلف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدته على النفس ومشقته قال تعالى : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ [فصلت : 35] .

والاقتحام : ترشيح لاستعارة العقبةِ لطريق الخير ، وهو مع ذلك استعارة لأن تزاحم الناس إنما يكون في طلب المنافع كما قال :

والمورد العذب كثير الزحام

وأفاد نفي الاقتحام أنه عدل على الاهتداء إيثاراً للعاجل على الآجل ولو عزم وصَبر لاقْتحم العقبة .

وقد تتابعت الاستعارات الثلاث : النجدين ، والعقبة ، والاقتحام ، وبُني بعضها على بعض وذلك من أحسن الاستعارة وهي مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس .

والكلام مسوق مساق التوبيخ على عدم اهتداء هؤلاء للأعمال الصالحة مع قيام أسباب الاهتداء من الإدراك والنطق .

وقوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ حال من العقبة في قوله : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ للتنويه بها وأنها لأهميتها يَسأل عنها المخاطب هل أعلَمَهُ مُعْلِم ما هي ، أي لم يقتحم العقبة في حال جَدارتها بأن تُقتحم .

وهذا التنويه يفيد التشويق إلى معرفة المراد من العقبة .

و﴿ ما ﴾ الأولى استفهام .

و﴿ ما ﴾ الثانية مثلها .

والتقدير : أيُّ شيء أعلمك ما هي العقبة ، أي أعْلَمك جواب هذا الاستفهام ، كناية عن كونه أمراً عزيزاً يحتاج إلى من يُعلمك به .

والخطاب في ﴿ ما أدراك ﴾ لغير معين لأن هذا بمنزلة المثل .

وفِعل ﴿ أدراك ﴾ معلق عن العمل في المفعولين لوقوع الاستفهام بعده وقد تقدم نظيره في سورة الحاقة .

وقرأ نافع وابنُ عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخَلف ، ﴿ فك رقبة ﴾ برفع ﴿ فكُّ ﴾ وإضافتِه إلى ﴿ رقبة ﴾ ورفعِ ﴿ إطعام ﴾ عطفاً على ﴿ فكّ ﴾ .

وجملة : ﴿ فك رقبة ﴾ بيان للعقبة والتقدير : هي فكّ رقبة ، فحذف المسند إليه حذفاً لمتابعة الاستعمال .

(145/816)

وتبيين العقبة بأنها : ﴿ فك رقبة أو إطعام ﴾ مبني على استعارة العقبة للأعمال الصالحة الشاقة على النفس .

وقد علمت أن ذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس ، فلا وجه لتقدير من قدَّر مضافاً فقال : أي وما أدراك ما اقتحام العقبة .

وقرأه ابن كثير وأبو عَمرو والكسائي ﴿ فَكَّ ﴾ بفتح الكاف على صيغة فعل المضي ، وبنصب ﴿ رقبةً ﴾ على المفعول ل ﴿ فكَّ ﴾ أو "أطعم" بدون ألف بعد عين ﴿ إطعام ﴾ على أنه فعل مضي عطفاً على ﴿ فَكَّ ﴾ ، فتكون جملة : ﴿ فكَّ رقبةً ﴾

بياناً لجملة ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ وما بينهما اعتراضاً ، أو تكون بدلاً من جملة ﴿ اقتحم العقبة ﴾ أي فلا اقتحم العقبة ولا فكَّ رقبةً أو أطعم .

وما بينهما اعتراض كما تقرر آنفاً .

والفك : أخذ الشيء من يد من احتاز به .

والرقبة مراد بها الإنسان ، من إطلاق اسم الجزء على كله مثل إطلاق رأس وعينٍ ووجهٍ ، وإيثار لفظ الرقبة هنا لأن المراد ذات الأسير أو العبد وأول ما يخطر بذهن الناظر لواحد من هؤلاء .

هو رقبته لأنه في الغالب يوثَق من رقبته .

وأطلق الفك على تخليص المأخوذ في أسْرٍ أو مِلْك ، لمشابهة تخليص الأمر العسير بالنزع من يد القابض الممتنع .

وهذه الآية أصل من أصول التشريع الإِسلامي وهو تشوُّف الشارع إلى الحرية وقد بسطنا القول في ذلك في كتاب "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" .

والمسغبة : الجوع وهي مصدر على وزن المَفْعَلَة مثل المَحْمَدة والمَرْحَمَة مِن سَغِبَ كفَرِح سَغَباً إذا جاع .

والمراد بـ ﴿ يوم ذي مسغبة ﴾ زمانٌ لا النهار المعروف .

وإضافة ﴿ ذي ﴾ إلى ﴿ مسغبة ﴾ تفيد اختصاص ذلك اليوم بالمسغبة ، أي يوم مجاعة

، وذلك زمن البَرد وزمنُ القَحط .

ووجه تخصيص اليوم ذي المسغبة بالإِطعام فيه أن الناس في زمن المجاعة يشتد شحهم بالمال خشية امتدادِ زمن المجاعة والاحتياج إلى الأقوات .

فالإِطعام في ذلك الزمن أفضل ، وهو العقبة ودون العقبة مصاعد متفاوتة .

(146/816)

وانتصب ﴿ يتيماً ﴾ على المفعول به ل ﴿ إطعام ﴾ الذي هو مصدر عامل عمل فعله وإعمالُ المصدر غيرِ المضاف ولا المعرّفِ باللام أقيس وإن كان إعمال المضاف أكثرَ ، ومنع الكوفيون إعمالَ المصدر غير المضاف .

ومَا ورد بعدَه مرفوع أو منصوب حملوه على إضمار فعل من لفظ المصدر ، فيقدر في مثل هذه الآية عندهم "يطعم يتيماً" .

واليتيم : الشخص الذي ليس له أب ، وهو دون البلوغ .

ووجه تخصيصه بالإِطعام أنه مظنة قلة الشبع لصغر سنه وضعف عمله وفقد من يعوله ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه .

فلذلك رغب في إطعامه وإن لم يصل حد المسكنة والفقر ووصف بكونه ﴿ ذا مقربة ﴾

أي مقربة من المطعِم لأن هذا الوصف يؤكد إطعامه لأن في كونه يتيماً إغاثة له بالإِطعام ، وفي كونه ذَا مقربة صلة للرحم .

والمَقْرَبَة : قرابة النسب وهو مصدر بوزن مَفْعَلة مثل ما تقدم في ﴿ مسغبة ﴾ .

والمسكين : الفقير ، وتقدم في سورة البقرة (184) عند قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين وذا متربة ﴾ صفة لمسكين جعلت المتربة علامة على الاحتياج بحسب العرف .

والمَتربة مصدر بوزن مفْعَلة أيضاً وفِعله تَرِب يقال : ترب ، إذا نام على التراب أي لم يكن له ما يفترشه على الأرض ، وهو في الأصل كناية عن العُروّ من الثياب التي تحول بين الجسد والأرض عند الجلوس والاضطجاع وقريب منه قولهم في الدعاء : تَرِبت يمينك : وتربَت يداك .

و﴿ أو ﴾ للتقسيم وهو معنى من معاني (أو) جاء من إفادة التخيير .

(147/816)

واعلم أنه إن كان المراد بالإنسان الجنس المخصوص ، أي المشركين كان نفي فكّ الرقاب والإِطعام كنايةً عن انتفاء تحلّيهم بشرائع الإِسلام لأن فكّ الرقاب وإطعام الجياع من القُربات

التي جاء بها الإِسلام من إطعام الجياع والمحاويج وفيه تعريض بتعيير المشركين بأنهم إنما يحبون التفاخر والسمعة وإرضاء أنفسهم بذلك ، أو لمؤانسة الأخلاّء وذلك غالب أحوالهم ، أي لم يطعموا يتيماً ولا مسكيناً في يوم مسغبة ، أي هو الطعام الذي يرضاه الله لأن فيه نفع المحتاجين من عباده .

وليس مثل إطعامكم في المآدب والولائم والمنادمة التي لا تعود بالنفع على المطعَمين لأن تلك المطاعم كانوا يدْعُون لها أمثالهم من أهل الجِدّة دون حاجة إلى الطعام وإنما يريدون المؤانسة أو المفاخرة .

وفي حديث مسلم " شر الطعام طعامُ الوليمة يُمْنَعْها من يأتيها ويُدعى إليها من يأباها "

وروى الطبراني : " شرّ الطعام طعام الوليمة يُدعى إليه الشَّبْعان ويُحبس عنه الجائع " .

وإن كان المراد من الإِنسان واحداً معيناً جاز أن يكون المعنى على نحو ما تقدم ، وجاز أن يكون ذَمّاً له باللّؤْم والتفاخرِ الكاذب ، وفضحاً له بأنه لم يسبق منه عمل نافع لقومه قبل الإِسلام فلم يغرم غرامة في فَكاك أسير أو مأخوذٍ بدم أو مَنّ بحُرية على عبدٍ .

وأيّاً مّا كان فليس في الآية دلالة على أن الله كلف المشركين بهذه القرب ولا أنه عاقبهم على تركهم هذه القربات ، حتى تفرض فيه مسألة خطاب الكفار بفروع الشريعة وهي مسألة قليلة الجدوى وفرضها هنا أقل إجداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ

﴿

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ يدل ظاهره على أن المسكين لاصق بالتراب ليس عنده شيء فهو أشد فقرا من مطلق الفقير كما ذهب إليه مالك وكثير من العلماء وقوله تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ ﴾ الآية .

يدل على خلاف ذلك لأنه سماهم مساكين مع أن لهم سفينة عاملة للإيجار .

والجواب عن هذا محتاج إليه على كلا القولين – أما على قول من قال إن المسكين من عنده مالا يكفيه كالشافعي فالذي يظهر لي أن الجواب أنه يقول: المسكين عند الإطلاق ينصرف إلى من عنده شيء لا يكفيه فإذا قيد بما يقتضي أنه لا شيء عنده فذلك يعلم من القيد الزائد لا من مطلق لفظ المسكين وعليه فالله في هذه الآية قيد المسكين بكونه ذا متربة فلو لم يقيده لانصرف إلى من عنده ما لا يكفيه فمدلول اللفظ حالة الإطلاق لا يعارض بمدلوله حالة التقيد وأما على قول من قال بأن المسكين أحوج من مطلق الفقير وأنه لا شيء عنده فيجاب عن آية الكهف بأجوبة منها : أن المراد بقوله مسكين أنهم قوم ضعاف لا يقدرون

على مدافعة الظلمة ويزعمون أنهم عشرة خمسة منهم زمني ، ومنها أن السفينة لم تكن ملكا لهم بل كانوا أجراء فيها أو أنها عارية واللام للاختصاص ، ومنها أن اسم المساكين أطلق عليهم ترحما لضعفهم .

والذي يظهر لمقيده عفا الله عنه أن هذه الأجوبة لا دليل على شيء منها فليس فيها حجة يجب الرجوع إليها .

وما احتج به بعضهم من قراءة علي رضى الله عنه لمساكين بتشديد السين جمع تصحيح لمساك بمعنى الملاح أو دابغ المسوك التي هي الجلود فلا يخفى سقوطه لضعف هذه القراءة وشذوذها .

(149/816)

والذي يتبادر إلى ذهن المصنف أن مجموع الآيتين دل على أن لفظ المسكين مشكك تتفاوت أفراده فيصدق بمن عنده ما لا يكفيه بدليل آية الكهف ، ومن هو لاصق بالتراب لا شيء عنده بدليل آية البلد كاشتراك الشمس والسراج في النور مع تفاوتهما ، واشتراك الثلج والعاج في البياض مع تفاوتهما .

والمشكك إذا أطلق ولم يقيد بوصف الأشدية انصرف إلى مطلقه هذا ما ظهر والعلم عند

الله تعالى .

والفقير أيضا قد تطلقه العرب على من عنده بعض المال كقول مالك ومن شواهده قول

راعي نمير :

أما الفقير الذي كانت حلوبته

وفق العيال فلم يترك له سبد

فسماه فقيرا مع أن عنده حلوبة قدر عياله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 329.327 ﴾

(150/816)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت هذه الأفعال خيراً في نفسها تدل على جودة الطبع وعلو الهمة وكرم العنصر وإباء

النفس إشارة إلى شدة حسنها لأنه لا يوفق لها إلا مخلص وإن كان غير مستند إلى شرع وإلى ما يفيده من سلالة الطبع وسهولة الانقياد وإلى عظمة الإيمان بالتعبير بأداة التراخي في قوله مشيراً إلى العقبة الثانية وهي الحكمة المزكية للقوة النطقية : ﴿ ثم كان ﴾ أي بعد التخلق بهذه الأخلاق الزاكية العالية النفيسة الغالية في حال كفره أو مبادىء إسلامه للدلالة على صفار جبلته وجودة عنصره من الراسخين في الإيمان المعبر عنه بقوله : ﴿ من الذين آمنوا ﴾ أي عند ما دعاه إليه الهادي ، ولم تحمله حمية الأنف وشماخة النفس على الإباء عن أن يكون تابعاً بعد ما كان متبوعاً ، وسافلاً في زعمه إثر ما كان رفيعاً ، بل سدد النظر وقوم الفكر فأيقن أنه يعلي نفسه من الحضيض إلى ما فوق السهى ، يرقيها في درج المعالي إلى ما ليس له انتهاء ، ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ [طه : 54 ، 128] فحينئذ يعلم استقامة طبعه وكرم غريزته وعليَّ همته وحسن نيته وجميل طويته وغزارة عقله وجلالة نبله وفضله واستحقاقه التقدم على الأعلام في الجاهلية والإسلام ، ولذلك كان الصديق رضي الله تعالى عنه أعلى الناس درجة بعد النبيين عليهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام ، لأن هذه كانت أفعاله رضي الله تعالى عنه قبل الإسلام كما قال ابن الدغنة حين وجده قد خرج من مكة المشرفة يريد الهجرة حين آذاه الكفار : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكلَّ وتعين على نوائب الحق – كما قالت خديجة ـ رضى الله عنه ـ ا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رجع إليها ترجف

بوادره من تجلي جبريل عليه الصلاة والسلام له سواء ، فلما سرب في رحيب مسربه ، وشرب من صافي مشربه توفيقاً من الله تعالى لم يتلعثم حين دعاه إلى الدين ولا كانت عنده كبوة ولا تردد ، ثم ترقى في درجات

(151/816)

الإسلام إلى أعلى مرام بحيث قال يوم الحديبية لعمر ـ رضى الله عنهما ـ حين أظهر الكراهة للصلح ما قال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء حرفاً بحرف من غير أن يكون حاضره أو ينقل إليه كلامه ، فسار حينئذ حائزاً قصب السبق ، لا مطمع في مداناته ، فكيف بلحاقه ومساواته ، ولكماله وعظمته وجلاله لم يشرب قط خمراً ، وكان إذا ليم على ذلك في الجاهلية قال لعشراء : والله لو وجدت شيئاً يزيد في عقلي لاشتريته بجميع مالي فكيف أشتري بمالي ما يزيل عقلي .

وتلك الأعمال لا تصح وإن كانت ممدوحة في كل حال إلا بالإيمان ، أما إن كانت بعده فواضح ، وأما إن كانت قبله فبانعطافه عليها كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" أسلمت على ما سلف منك من خير " .

ولما كان الإيمان معلياً للإنسان عن درك الهوان إلى عظم الشأن ، حاملاً له على محاسن

الأعمال ومكارم الأفعال ، وذلك أنه يقود إلى جميع شرائع الدين العظيمة الشأن ، وكانت موجبة للجهاد الأكبر من حيث مخالفتها للطبع ، وكان ذلك غير مقدور عليه إلا بالشجاعة وهي القوة الثالثة التي إذا هدئت أراحت ، وكانت لا تكون إلا بعظيم الصبر ، وكان الصبر لمرارته لا يدوم إلا بالتعاون قال تعالى : ﴿ وتواصوا ﴾ أي صبروا وأوصى بعضهم بعضاً ﴿ بالصبر ﴾ في اقتحام عقبات الأعمال التي لا يجوزها إلا أبطال الرجال من الأمر بالمعروف إلى ما دونه وإن كان فيه الحتوف ، فإن الشجاعة كما قيل صبر ساعة .

(152/816)

ولما كان الإنسان لا بد أن يعرض له من غيره من الخلاف ما يوجب قسوته عليه ، فكانت الرحمة من ثمرات الاصطبار المثمر للعدالة ، وهي التوسط بين مذمتي الإفراط والتفريط في الفسق والبله وهي العقبة الرابعة ، قال مؤكداً بإعادة العامل إشارة إلى قلة العاملين بها : ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي الرحمة العظيمة بحسب زمانها ومكانها بأن يوطنوا أنفسهم على كل ما يحمل على الرحمة العظيمة التي توجب لهم الحب في الله والبغض فيه لأنهم كانوا قبل الإيمان خالصين عن الرياء والإعجاب متهيئين للتزكية فزكاهم الإيمان ، فصاروا في غاية النورانية والعرفان .

ولما كان ذلك من معالي الأخلاق ، وموجبات الفواق والوفاق ، كانت نتيجته لا محالة :

﴿ أولئك ﴾ أي العظماء الكبراء العالو المنزلة ، ولم يأت بضمير الفصل كما يأتي

لأضدادهم ليخلص الفعل له سبحانه وتعالى من غير نظر إلى ضمائرهم الدالة على

جبلاتهم لأنه هو الذي جبلها ، وأغنى عنه بالإشارة الدالة على علو مقامهم وبعد مرامهم

﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أي الجانب الذي فيه اليمن والبركة والنجاة من كل هلكة بقسميهم

من السابقين المقربين وأصحاب اليمين الأبرار ، كما مضى شرحه في سورة الواقعة .

وهذا تعريض بذلك الذي أتلف ماله في المنافسة .

والمشاققة والمعاكسة .

ولما أرشد السياق لمعادلة ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ إلى أن التقدير : ولا أحجم عن المعطبة

التي هي الأفعال الموجبة للمعتبة مع كونها متعبة ، بل قطع من يستحق الوصل ووصل من

يستأهل القطع ، ثم كان من الذين كفروا وتواصوا بالملأمة واكتسبوا السيئات واتبعوا

الشهوات وعاملوا بالقسوة ، عطف عليه قوله : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي ستروا ما تظهر لهم

مرائي بصائرهم من العلم .

(153/816)

ولما كان الكفر بالآيات من أسوأ أنواع الكفر لأنه كفر بما جعله الله علماً على غيب عهده ، وهي جميع ما تدركه الحواس من الأقوال والأفعال الدالة على ذي الجلال لأنها دالة على الصفات الدالة على الموصوف بها الذي ظهر بأفعاله وبطن بعظيم جلاله ، قال :

﴿ بآياتنا ﴾ أي ما لها من العظمة بالإضافة إلينا والظهور الذي لا يمكن خفاؤه ﴿ هم ﴾ أي خاصة لسوء ضمائرهم ولفساد جبلاتهم ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ أي الخصلة المكسبة للشؤم والحرمان والهلكة فهؤلاء مشائيم على أنفسهم ، وكفرهم دال على فساد جبلاتهم فهو يشير إلى أن من كان كفره أخف لم يكن جبلياً ، فيوشك أن يهدى فيكون من أصحاب الميمنة .

ولما كان معنى هذا أنهم في الجانب الذي فيه الشؤم والهلكة ، والبعد من كل بركة ، أنتج قوله : ﴿ عليهم ﴾ أي خاصة دون غيرهم ﴿ نار مؤصدة ﴾ أي مطبقة الباب مع إحاطتها بهم من جميع الجوانب - بما أفهمته أداة الاستعلاء ومع الضيق والوعورة ، وهذا لعمري أشد الضيق والكبد ، والنصب والنكد فالملجأ منه إلى الله الأحد ، الواحد الصمد ، وقد علم أن أوله هو هذا الآخر ، فكان التقاطر فيها مما تشد به الأيدي وتعقد عليه الخناصر - والله تعالى هو المرجو للهداية إلى خير السرائر ، وهو الهادي للصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 433.436 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾

أي كان مقتحم العقبة من الذين آمنوا ، فإنه إن لم يكن منهم لم ينتفع بشيء من هذه الطاعات ، ولا مقتحماً للعقبة فإن قيل : لما كان الإيمان شرطاً للانتفاع بهذه الطاعات وجب كونه مقدماً عليها ، فما السبب في أن الله تعالى أخره عنها بقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ ؟ والجواب : من وجوه أحدها : أن هذا التراخي في الذكر لا في الوجود ، كقوله :

إن من ساد ثم ساد أبوه . . ثم قد ساد قبل ذلك جده

لم يرد بقوله : ثم ساد أبوه التأخر في الوجود ، وإنما المعنى ، ثم اذكر أنه ساد أبوه .

كذلك في الآية وثانيها : أن يكون المراد ، ثم كان في عاقبة أمره من الذين آمنوا وهو أن يموت على الإيمان فإن الموافاة شرط الانتفاع بالطاعات وثالثها : أن من أتى بهذه القرب تقربا إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم آمن بعد ذلك بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فعند بعضهم أنه يثاب على تلك الطاعات ، قالوا : ويدل عليه ما روي : أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنا كنا نأتي بأعمال الخير في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام : " أسلمت على ما قدمت من

الخير" ورابعها : أن المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ تراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لأن درجة ثواب الإيمان أعظم بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال .

(155/816)

أما قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ فالمعنى أنه كان يوصي بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه أو الصبر على المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلي بها المؤمن ثم ضم إليه التواصي بالمرحمة وهو أن يحث بعضهم بعضاً على أن يرحم المظلوم أو الفقير ، أو يرحم المقدم على منكر فيمنعه منه لأن كل ذلك داخل في الرحمة ، وهذا يدل على أنه يجب على المرء أن يدل غيره على طريق الحق ويمنعه من سلوك طريق الشر والباطل ما أمكنه ، واعلم أن قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ يعني يكون مقتحم العقبة من هذه الزمرة والطائفة ، وهذه الطائفة هم أكابر الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم ، فإنهم كانوا مبالغين في الصبر على شدائد الدين والرحمة على الخلق ، وبالجملة فقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، ومدار أمر الطاعات

ليس إلا على هذين الأصلين وهو الذي قاله بعض المحققين ، إن الأصل في التوصف أمران :

صدق مع الحق ؟ وخلق مع الخلق .

ثم إنه سبحانه لما وصف هؤلاء المؤمنين بين أنهم من هم في القيامة فقال :

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18)

وإنما ذكر ذلك لأنه تعالى بين حالهم في سورة الواقعة وأنهم ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة : 28 29] قال صاحب "الكشاف" : الميمنة والمشأمة ، اليمين والشمال ، أو اليمين والشؤم ، أي الميامين على أنفسهم والمشائيم عليها .

ثم قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19)

فقيل : المراد من يؤتي كتابه بشماله أو وراء ظهره ، وقد تقدم وصف الله لهم بأنهم : ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 42] إلى غير ذلك .

ثم قال تعالى :

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (20)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الفراء والزجاج والمبرد : يقال آصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته ، فمن قرأ مؤصدة بالهمزة أخذها من آصدت فهمز اسم المفعول ، ويجوز أن يكون من أوصدت ولكنه همز على لغة من يهمز الواو وإذا كان قبلها ضمة نحو مؤسي ، ومن لم يهمز احتمل أيضاً أمرين : أحدهما : أن يكون من لغة من قال : أوصدت فلم يهمز اسم المفعول كما يقال : من أوعدت موعد .

الآخر : أن يكون من آصد مثل آمن ولكنه خفف كما في تخفيف جؤنة وبؤس جونة وبوس فيقلبها في التخفيف واواً ، قال الفراء : ويقال من هذا الأصيد والوصيد وهو الباب المطبق ، إذا عرفت هذا فنقول : قال مقاتل ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ يعني أبوابها مطبقة فلا يفتح لهم باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح أبد الآباد ، وقيل : المراد إحاطة النيران بهم ، كقوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : 29] .

المسألة الثانية :

﴿ المؤصدة ﴾ هي الأبواب ، وقد جرت صفة للنار على تقدير : عليهم نار مؤصدة الأبواب ، فكلما تركت الإضافة عاد التنوين لأنهما يتعاقبان ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 169.170 ﴾

(157/816)

وقال ابن عطية في الآيات السابقة :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

قرأ الحسن بن أبي الحسن " لأقسم " دون ألف ، وقرأ الجمهور : " لا أقسم " ، واختلفوا فقال الزجاج وبغره : " لا " صلة زائدة مؤكدة ، واستأنف قوله ﴿ أقسم ﴾ ، وقال مجاهد ﴿ لا ﴾ رد للكلام متقدم للكفار ، ثم استأنف قوله ﴿ أقسم ﴾ ، وقال بعض المتأولين ﴿ لا ﴾ نفي للقسم بالبلد ، أخبر الله تعالى أنه لا يقسم به ، ولا خلاف بين المفسرين أن ﴿ البلد ﴾ المذكور هو مكة ، واختلف في معنى قوله ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ فقال ابن عباس وجماعة : معناه وأنت حلال بهذا البلد يحل لك فيه قتل من شئت ، وكان هذا يوم فتح مكة ، وعلى هذا يتركب قول من قال السورة مدنية نزلت عام الفتح ، ويتركب على التأويل قول من قال : ﴿ لا ﴾ نافية أي إن هذا البلد لا يقسم الله به ، وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمته ، ويتجه أيضاً أن تكون ﴿ لا ﴾ غير نافية . وقال بعض

المتأولين : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ معناه : حال ساكن بهذا البلد ، وعلى هذا يجيء قول من قال هي مكية ، والمعنى على إيجاب القسم بين وعلى نفيه أيضاً يتجه على معنى القسم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء القوم وكفرهم ، وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أن معنى ﴿ وأنت حل ﴾ أي قد جعلوك حلالاً مستحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا ، وإعراب ﴿ البلد ﴾ عطف بيان ، وقوله تعالى : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قسم مستأنف على قول من قال ﴿ لا ﴾ نافية ، ومعطوف على قول من رأى ﴿ لا ﴾ غير نافية ، واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ ، فقال مجاهد : هو آدم وجميع ولده ، وقال بعض رواة التفسير : هو نوح وجميع ولده ، وقال أبو عمران الجوني : هو إبراهيم وجميع ولده ، وقال ابن عباس ما معناه : أن الوالد والولد هنا على العموم فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان ، وقال ابن عباس وابن جبير وعكرمة : ﴿ ووالد ﴾ معناه : كل من ولد وأنسل ، وقوله ﴿ وما ولد ﴾ " لم يبق تحته إلا العاقر الذي ليس بوالد البتة ، والقسم واقع على قوله : ﴿

لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ ، واختلف الناس في " الكَبد " فقال جمهور الناس : ﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس كله ، و" الكبد " المشقة والمكابدة ، أي يكابد أمر الدنيا والآخرة ، ومن ذلك قول لبيد : [المنسرح]

يا عين هلا بكيت أربد إذ . . . قمنا وقام الخصوم في كبد

وقول ذي الإصبع : [البسيط]

لي ابن عم لو أن الناس في كبد . . . لظل محتجراً بالنبل يرميني

وبالمشقة في أنواع أحوال الإنسان فسره الجمهور ، وقال الحسن : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ، وقال ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبو صالح ومجاهد ﴿ في كبد ﴾ معناه : منتصف القامة واقفاً ، وقال ابن زيد : ﴿ الإنسان ﴾ : آدم عليه السلام ، و﴿ في كبد ﴾ معناه : في السماء سماها كبداً ، وهذان قولان قد ضعفا والقول الأول هو الصحيح ، وروي أن سبب الآية وما بعدها هو أبو الأشدين رجل من قريش شديد القوة ، اسمه أسيد بن كلدة الجمحي ، كان يحسب أن أحداً لا يقدر عليه ، ويقال بل نزلت في عمرو بن ود ، ذكره النقاش ، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة وقتله علي بن أبي طالب خلف الخندق ، وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب فاستفتى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره بالكفارة فقال : لقد ﴿ أهلكت مالاً ﴾ في الكفارات والنفقات مذ تبعت محمداً ، وكان كل واحد منهم قد ادعى أنه أنفق مالاً كثيراً على إفساد

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أو في الكفارات على ما تقدم ، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور ، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

(159/816)

في هذه الآية على عرف كلام العرب ، استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال تشبيه بعقبة الجبل ، وهي ما صعب منه وكان صعوداً ، و ﴿ اقتحم ﴾ معناه : دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة ، وأما المفسرون فرأوا أن ﴿ العقبة ﴾ يراد بها جبل في جهنم ، لا ينجي منه إلا هذه الأعمال ونحوها ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقال الحسن : ﴿ العقبة ﴾ جهنم ، قال هو وقتادة فاقتحموها بطاعة الله ، وفي الحديث : " إن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء " واختلف الناس في قوله ﴿ فلا ﴾ فقال جمهور المتأولين : هو تحضيض بمعنى " فألا " ، وقال آخرون وهو دعاء بمعنى أنه ممن يستحق أن يدعى عليه بأن لا يفعل خيراً ، وقيل هي نفي ، أي " فما اقتحم " ، وقال أبو عبيدة والزجاج وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : 31] فهو نفي محض كأنه قال : وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً ، ثم عظم الله

تعالى أمر العقبة في النفوس بقوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ ؟ ثم فسر اقتحام العقبة بقوله ﴿ فك رقبة ﴾ وذلك أن التقدير وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ هذا على قراءة من قرأ " فكُّ رقبة " بالرفع على المصدر ، وأما من قرأ " فكّ " على الفعل الماضي ونصب الرقبة ، فليس يحتاج أن يقدر ﴿ وما أدراك ﴾ ما اقتحام ، بل يكون التعظيم للعقبة نفسها ، ويجيء " فكّ " بدلاً من ﴿ اقتحم ﴾ ومبيناً . وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة " فك رقبة أو إطعام " وقرأ أبو عمرو " فك رقبةً " بالنصب " أو أطعم " ، وقرأ بعض التابعين " فكِّ رقبة " بالخفض ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أيضاً والكسائي " فكِّ رقبة " بالنصب " أو إطعام " . وترتيب هذه القراءات ووجوهها بينة ، وفك الرقبة معناه : بالعتق من ربقة الأسر أو الرق ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من أعتق نسمة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار " . وقال أعرابي للنبي صلى الله عليه

(160/816)

وسلم : دلني على عمل أنجو به ، فقال : " لئن قصرت القول لقد عرضت المسألة فك رقبة ، وأعتق النسمة " ، فقال الأعرابي : أليس هما واحداً ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها " .

قال القاضي أبو محمد : وكذلك فك الأسير إن شاء الله ، وفداؤه أن ينفرد الفادي به ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم للأعرابي : " وأبق على ذي الرحم الظالم ، فإن لم تطق هذا كله ، فكف لسانك إلا من خير " .

و (المسبغة) المجاعة

والساغب الجائع

البلد : (14) أو إطعام في . . . . . وقرا جمهور الناس (ذي مسغبة) على نعت " يوم " وقرا علي بن أبي طالب والحسن وأبو رجاء (ذا مسغبة) على ان يعمل فيها (أطعم) أو (إطعام) على القراءتين المذكورتين وفي هذا حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه لأن التقدير انسانا ذا مسغبة ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف وأشبهت الأسماء و (المسغبة) الجوع العام وقد

(161/816)

يقال في الخاص سغب الرجل إذا جاع

البلد : (15) يتيما ذا مقربة وقوله تعالى " ذا مقربة " معناه ذا مقربة لتجتمع الصدقة والصلة وهذا نحو ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب امراة عبد الله بن مسعود (

تصدقي على زوجك فهي صدقة لك وصلة) و " او " في قوله " او مسكينا ذا متربة " فيها معنى الاباحة ومعنى التخيير لأن الكلام يتضمن معنى الحض والأمر فيها أيضا معنى التفضيل المجرد لأن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون " او " فيه الا منفصلة واما معنى الشك او الإبهام فلا مدخل لها في هذه الآية والإبهام نحو قوله تعالى " وإنا او إياكم " سبأ 24 وقول أبي الأسود

(أحب محمدا حبا شديدا

وعباسا وحمزة أوعليا) (1)

البلد : (16) أو مسكينا ذا . . . . .

" وذا متربة " معناه مذقعا قد لصق بالتراب وهذا مما ينحو الى ان المسكين أشد فاقة من الفقير قال سفيان هم المطروحون على ظهر الطريق قعودا على التراب لا بيوت لهم وقال ابن عباس هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه الى بيته مستيقنا انه ليس فيه الا التراب وقوله تعالى " ثم كان " معطوف على قوله " اقتحم " وتوجه فيه معاني " فلا اقتحم " المذكورة من النفي والتحضيض والدعاء ورجح أبو عمرو بن العلاء قراءته " فك " بقوله " ثم كان " ومعنى قوله " ثم كان " أي كان وقت اقتحامه العقبة " من الذين آمنوا " وليس المعنى انه يقتحم ثم يكون بعد ذلك لأن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن وذلك غير نافع

البلد : (17 – 20) ثم كان من . . . . . وقوله تعالى " وتواصوا بالصبر " معناه على

طاعة الله وبلائه وقضائه وعن الشهوات والمعاصي

و" بالرحمة " قال ابن عباس كل ما يؤدي الى رحمة الله تعالى

(162/816)

وقال آخرون هو التراحم وعطف بعض من الناس على بعض وفي ذلك قوام الناس ولو لم يتراحموا جملة هلكوا و " الميمنة " مفعلة وهي فيما روي عن يمين العرش وهو موضع الجنة ومكان المرحومين من الناس و " المشامة " الجانب الأشأم وهو الأيسر وفيه جهنم وهو طريق المعذبين يؤخذ بهم ذات الشمال وهذا ماخوذ من اليمن والشام للواقف بباب الكعبة متوجها الى مطلع الشمس واليد الشؤمى هي اليسرى وذهب الزجاج وقوم الى ذلك من اليمن والشؤم وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم (موصدة) على وزن موعدة وكذلك في سورة الهمزة وقرا أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم (مؤصدة) بهمز الواو في السورتين ومعناهما جميعا مطبقة معلقة

يقال أوصدت وآصدت بمعنى أطبقت وأغلقت فهي (موصدة) دون همز من أوصدت وقد يحتمل ان يهمز من يراها من اوصدت من حيث قبل الواو حرف مضموم على لغة من قرأ بالسوق ومنه قول الشاعر جرير

(أحب المؤقدان الي مؤسى

)

بالهمز فيهما و (مؤصدة) من آصدت ويحتمل ان تسهل الهمزة فتجيء موصدة من

أصدت ومن اللفظة الوصيد

وقال الشاعر الأعشى

(قوما يعالج قملا أبناؤهم

وسلاسلا حلقا وبابا موصدا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(163/816)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾

يعني : أنه لا يقتحم العقبَة من فكّ رقبة ، أو أطعمَ في يوم ذا مَسْغَبة ، حتى يكون من الذين آمنوا ؛ أي صدّقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله .

فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع ، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان ، قال الله تعالى في المنافقين : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ [

التوبة : 54] .

" وقالت عائشة : يا رسول الله ، إن ابن جُدْعَانَ كان في الجاهلية يصِل الرحِم ، ويُطعم الطعام ، ويَفُكُّ العاني ، ويُعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : "لا ، إنه لم يقل يوماً ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين" " وقيل : "ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنُوا" أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة ؛ نظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهتدى ﴾ [طه : 82] .

وقيل : المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى .

وقيل : أتى بهذه القُرَب لوجه الله ، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وقد " قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم : يا رسول الله ، إنا كنا نَتَحَنث بأعمالٍ في الجاهلية ، فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام : "أسلمت على ما أسلفت من الخير" " وقيل : إن "ثم" بمعنى الواو ؛ أي وكان هذا المعتِق الرقبة ، والمطعم في المسغبة ، من الذين آمنوا .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً .

﴿ بالصبر ﴾ على طاعة الله ، وعن معاصيه ؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ أي بالرَّحمة على الخلق ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيم والمسكين .

﴿ أولئك أَصْحَابُ الميمنة ﴾ أي الذين يُوْتَون كتبهم بأيمانهم ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيّ وغيره .

(164/816)

وقال يحيى بن سلام : لأنهم مَيامينُ على أنفسهم .

ابن زيد : لأنهم أُخِذوا من شِقّ آدم الأيمن .

وقيل : لأن منزلتهم عن اليمين ؛ قاله مَيمون بن مِهْران .

﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ أي القرآن .

﴿ هُمْ أَصْحَابُ المشأمة ﴾ أي يأخذون كتبهم بشمائلهم ؛ قاله محمد بن كعب .

يحيى بن سلام : لأنهم مَشائيم على أنفسهم .

ابن زيد : لأنهم أُخِذوا من شِق آدم الأيسر .

ميمون : لأن منزلتهم عن اليسار .

قلت : ويجمع هذه الأقوال أن يُقال : إن أصحاب الميمنة أصحابُ الجنة ، وأصحاب المَشأَمة أصحابُ النار ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : 27 28] ، وقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَآ أَصْحَابُ

الشمال ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ [الواقعة : 41 42] .

وما كان مثله .

ومعنى ﴿ مُؤْصَدَة ﴾ أي مطبَقة مُغْلَقة .

قال :

تَحِنُّ إلى أجبال مكة ناقَتِي . . .

ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ

وقيل : مُبْهمة ، لا يُدْرَى ما داخلُها .

وأهل اللغة يقولون : أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُهُ ؛ أي أغلقته .

فمن قال أوصدت ، فالاسم "الوِصاد" ، ومن قال آصدته ، فالاسم الإصاد .

وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشَّيْزَرِيُّ عن الكسائيّ ﴿ مُؤْصَدَة ﴾ بالهمز هنا ، وفي "الهمزة" .

الباقون بلا همز .

وهما لُغتان .

وعن أبي بكر بن عياش قال : لنا إمام يهمز ﴿ مُؤْصَدَة ﴾ ، فأشتهي أن أسُدّ أذنيّ إذا سمعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾

أقسمَ سبحانَهُ بالبلدِ الحرامِ وبَما عُطفَ عليهِ عَلى أنَّ الإنسانَ خُلقَ ممنوّاً بمقاساةِ الشدائدِ ومعاناةِ المشاقِّ واعترضَ بينَ القسمِ وجوابِه بقولِه تعالَى : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ إمَّا لتشريفِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بجعلِ حلولِه بهِ مناطاً لإعظامِه بالإقسامِ بهِ أو التنبيهِ منْ أولِ الأمرِ عَلى تحققِ مضمونِ الجوابِ بذكرِ بعضِ موادِّ المكابدةِ على نهجِ براعةِ الاستهلالِ وبيانِ أنَّه عليهِ الصلاةُ والسلامُ معَ جلالةِ قدرةِ وعظمِ حُرمتِه قد استحلُّوه في هَذا البلدِ الحرامِ وتعرضُوا لَهُ بما لاَ خيرَ فيهِ وهمُّوا بما لَمْ ينالُوا عن شُرَحْبيلَ يحرمونَ أن يقتلُوا بَها صيداً ويعضدُوا بَها شجرةً ويستحلُّونَ إخراجَكَ وقتلكَ أو لتسليتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالوعدِ بفتحِه عَلى مَعْنى وأنتَ حلٌّ بهِ في المستقبلِ كَما في قولِه تعالَى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ تصنعُ فيهِ ما تريدُ من القتلِ والأسرِ وقد كانَ كذلكَ حيثُ أحلَّ له عليهِ الصلاةُ والسلامُ مكةَ وفتحَها عليهِ وما فتحتْ عَلى أحدٍ قَبْله ولاَ أحلتْ لهُ فأحلَّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيهَا ما شاءَ وحرَّمَ ما شاءَ قتلَ ابْنَ خطلٍ وهو متعلقٌ بأستارِ الكعبةِ ومقيسَ بْنَ ضبابةَ وغيرَهُما وحرَّمَ دارَ أبي سفيانَ ثمَّ قالَ : " إنَّ اللهَ حرَّمَ مكةَ يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ فهَى حرامٌ إلى أنْ تقومَ الساعةُ لم تحلَّ لأحدٍ قَبْلي ولنْ تحلَّ لأحدٍ بعدي ولم تحلَّ لي إلا ساعةً

من نهارٍ فَلا يُعضدُ شجرُهَا ولا يُختلى خَلاها ولا ينفرُ صيدُهَا ولا تحلُّ لُقطتُها إلا لمنشدٍ فقالَ العباسُ يا رسولَ الله إلا الإذْخِرَ فإنَّه لقيونِنا وقبورِنا وبيوتِنا فقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ إلاَّ الإذخرَ" ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ عطفٌ على هَذا البلدِ والمرادُ بهِ إبراهيمُ وبقولِه تعالَى ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ إسماعيلُ والنبيُّ صلواتُ الله

(166/816)

عليهمْ أجمعينَ حسبَما ينبىءُ عنْهُ المعطوفُ عليهِ فإنُه حرمُ إبراهيمَ ومنشأُ إسماعيلَ ومسقطُ رأسِ رسولِ الله عليهمُ الصلاةُ والسلامُ والتعبيرُ عنهمَا بَما دُونَ مَنْ للتفخيمِ والتعظيمِ كتنكيرِ والدٍ ، وإيرادُهم بعنوانِ الولادِ ترشيحٌ لمضمونِ الجوابِ وإيماءٌ إلى أنَّه متحققٌ في حَالتَي الوالديةِ والولديةِ وقيلَ : آدمُ عليهِ السلامُ ونسلُه وهُو أنسبُ لمضمونِ الجوابِ من حيثُ شمولُه للكُلِّ إلا أنَّ التفخيمَ المستفادَ من كلمةِ مَا لا بُدَّ فيهِ من اعتبارِ التغليبِ وقيلَ : وكُلُّ والدٍ وولدهُ .

(167/816)

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ أي تعبٌ ومشقةٌ فإنَّه لا يزالُ يُقاسِي فنونَ الشدائدِ منْ وقتِ نفخِ الروحِ إلى حينِ نَزْعِها وما وراءَهُ يقالُ كُبدَ الرجلُ كَذا إذَا وجعتْ كبدُه وأصلُه كبدَهُ إذَا أصابَ كبدَهُ ثم اتسعَ فيهِ حتَّى استعملَ في كلِّ نصبٍ ومشقةٍ ، ومنهُ اشتقتْ المكابدةُ كما قيلَ : كبتَهُ بمعنى أهلَكَه وهو تسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم مما كانَ يكابدُه من كفارِ قريشٍ والضميرُ في قولِه تعالَى : ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ لبعضِهم الذي كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يكابدُ منهمْ ما يكابدُ كالوليدِ بنِ المغيرةِ وأضرابِه وقيلَ : هُوَ أبو الأشدّ بنُ كَلَدةٍ الجُمَحيُّ وكان شديدَ القوةِ مغتراً بقوتِه وكان يبسطُ له الأديمُ العكاظيُّ فيقومُ عليهِ ويقولُ منْ أزالَني عنْهُ فلَهُ كَذا فيجذبُهُ عشرةٌ فينقطعُ قطعاً ولا تزلُّ قدماهُ أيْ أيظنُّ هَذا القويُّ الماردُ المتضعفُ للمؤمنينَ ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أنْ مخففةٌ منْ أنَّ واسمُهَا الذي هُو ضميرُ الشأنِ محذوفٌ أيْ أيحسبُ أنَّه لنْ يقدرَ عَلى الانتقامِ منهُ أحدٌ ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ يريدُ كثرةَ ما أنفقَهُ فيَما كانَ أهلُ الجاهليةِ يسمونَها مكارمَ ويدعونَها معاليَ ومفاخرَ ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ حينَ كانَ ينفقُ وأنه تعالَى لا يسألُه عنْهُ ولا يجازيه عليهِ ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصرُ بهمَا ﴿ وَلِسَاناً ﴾ يترجمُ بهِ عنْ ضمائرِه ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يسترُ بهمَا فاهُ ويستعينُ بهَما على النطقِ والأكلِ والشربِ وغيرِها ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أيْ طريقي الخيرِ والشرِّ أو الثديينِ وأصلُ النجدِ المكانُ المرتفعُ ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ أيْ فلَمْ يشكرْ تلكَ النعمَ الجليلةَ بالأعمالِ الصالحةِ وعبرَ عنْهَا بالعقبةِ التي هيَ

الطريقُ في الجبل لصعوبة سلوكِها .

وقولُه تعالَى :

(168/816)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ أعلمكَ ما اقتحامُ العقبةِ لزيادةِ تقريرِها وكونِها عندَ الله تعالَى بمكانةٍ رفيعةٍ ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أيْ هُو إعتاقُ رقبةٍ ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ أيْ مجاعةٌ ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أيْ قَرابةٌ ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي افتقارٌ وحيثُ كانَ المرادُ باقتحامِ العقبةِ هذهِ الأمورَ حسُنَ دخولُ لاَ عَلى الماضِي فإنَّها لا تكادُ تقعُ إلا مكررةً إذِ المَعْنى فلا فكَّ رقبةً ولا أطعَم يتيماً أو مسكيناً والمسغبةُ والمقربةُ والمتربةُ مفعلاتٌ من سغِبَ إذا جاعَ وقرُبَ منْ النسبِ وتربَ إذا افتقرَ وقُرِىءَ فكَّ رقبةٍ أوْ أطعمَ على الإبدالِ من اقتحمَ ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ عطفٌ عَلى المنفيِّ بلا وثمَّ للدلالة عَلى تراخي رتبة الإيمانِ ورفعةِ محلّه لاشتراط جميعِ الأعمالِ الصالحةِ بهِ ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ عطفٌ على آمنُوا أيْ أوصَى بعضُهم بعضاً بالصبر على طاعة الله ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ بالرحمةِ عَلى عبادِهِ أو بموجباتِ رحمتِه من الخيراتِ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبار اتصافِه بَما في حيز صلتِه ، وما فيهِ من مَعْنى البعد معَ قُربِ

العهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ ببعدِ درجتِهم في الشرفِ والفضلِ أيْ أولئكَ الموصوفونَ بالنعوتِ الجليلةِ المذكورةِ ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أي اليمينُ أو اليمنُ ﴿ والذين كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ بما نصبنَاهُ دليلاً على الحقّ من كتابٍ وحجة أو بالقرآنِ ﴿ هُمْ أصحاب المشئمة ﴾ أي الشمالِ أو الشؤمِ ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقةٌ من آصدتُ البابَ إذا أطبقتهُ وأغلقتَهُ وقُرِىءَ مُوصدةٌ بغيرِ همزةٍ منْ أوصدتُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(169/816)

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾

فإن عطف على المنفي أعني اقتحم فكأنه قيل فلا ﴿ أقتحم ﴾ ولا آمن ولا يلزم منه كون الايمان غير داخل في مفهوم العقبة لأنه يكفي في صحة العطف والتكرار كونه جزءاً أشرف خص بالذكر عطفاً فجاءت صورة التكرار ضرورة إذ الحمل على غير ذلك مفسد للمعنى ويلزمه جواز لا أكل زيد وشرب على العطف على المنفي والبعض المتقدم يمنعه وقيل إن لا للدعاء والكلام دعاء على ذلك الكافر أن لا يرزقه الله تعالى ذلك الخير وقيل لا مخفف ألا

للتحضيض كهلا فكأنه قيل فهلا أقتحم أو الاستفهام محذوف والتقدير أفلا أقتحم ونقل ذلك عن ابن زيد والجبائي وأبي مسلم وفيه أنه لم يعرف تخفيف ألا التحضيضية وأنه كما قال المرتضى يقبح حذف حرف الاستفهام في مثل هذا الموضع وقد عيب على عمر بن أبي ربيعة قوله

: ثم قالوا تحبها قلت بهرا . . .

عدد الرمل والحصى والتراب

وقولهم لو أريد النفي لم يتصل الكلام ليس بشيء لظهور كان تحت النفي واتصال الكلام عليه قيل الكلام إخبار عن المستقبل فليس مما يلزم فيه التكرير أي فلا يقتحم العقبة لأن ماضيه معلوم بالمشاهدة فالأهم الإخبار عن حاله في الاستقبال لكن لتحقق الوقوع عبر بالماضي ونقل الطيبي عن أبي علي الفارسي عدم وجوب تكريرها راداً على الزجاج في زعمه ذلك وقال هي كلم والتكرر في نحو ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : 31] لا يدل على الوجوب كما في لم يسرفوا ولم يقتروا وعلى عدم التكرر جاء قول أمية السابق

: أن تغفر اللهم تغفر جما . . .

وأي عبد لك لا ألما

والمتيقن عندي أكثرية التكرر وأما وجوبه فليس بمتيقن والله تعالى أعلم وقرأ ابن كثير والنحويان فك فعلاً ماضياً رقبة بالنصب أو أطعم فعلاً ماضياً أيضاً وعلى هذه القراءة ففك مبدلة من اقتحم وما بينهما اعتراض ومعناه أنك لم تدر كنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله عز وجل وقرأ أبو رجاء كذلك إلا أنه قرأ ذا مسغبة بالألف على أن ذا منصوب على المفعولية بأطعم أي أطعم في يوم من الأيام إنساناً ذا مسغبة ويكون يتيماً بدلاً منه أو صفة له وقرأ هو أيضاً والحسن أو إطعام في يوم ذا بالألف أيضاً على أنه مفعول به للمصدر وقرأ بعض التابعين فك رقبة بالإضافة أو أطعم فعلاً ماضياً وهو معطوف على المصدر لتأويله به والتراخي المفهوم من ثم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ الخ رتبي فالإيمان فوق جميع ما قبله لأنه يستقل بكونه سبباً للنجاة وشكراً بدون الأعمال كما فيمن آمن بشرطه ومات في يومه قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال فإن ذلك ينفعه ويخلصه بخلاف ما عداه فإنه لا يعتد به بدونه وقوله سبحانه : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ عطف على آمنوا أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات عليه أو بذلك والصبر على الطاعات أو به والصبر عن المعاصي وعلى المحن التي يبتلي بها الإنسان ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ أي بالرحمة على عباده عز وجل ومن ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تواصوا بأسباب رحمة الله تعالى وما يؤدي إليها من الخيرات على أن المرحمة مجاز عن سببها أو

الكلام على تقدير مضاف وذكر أن تواصوا بالصبر إشارة إلى تعظيم أمر الله تعالى وتواصوا بالمرحمة إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى وهما أصلان عليهما مدار الطاعة وهو الذي قاله بعض المحققين الأصل في التصوف أمران صدق مع الحق وخلق مع الخلق .

(171/816)

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه لما مر غير مرة أي أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ الميمنة مَا ﴾ أي جهة اليمين التي فيها السعداء أو اليمن لكونهم ميامين على أنفسهم وعلى غيرهم .

﴿ والذين كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن ﴿ هُمْ أصحاب المشئمة ﴾ أي جهة الشمال التي فيها الأشقياء أو الشؤم على أنفسهم وعلى غيرهم .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ ﴾ عظيمة ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقة من آصدت الباب إذا غلقته وأطبقته وهي لغة قريش على ما روي عن مجاهد وظاهر كلام ابن عباس عدم الاختصاص بهم ومن ذلك قول الشاعر

: تحن إلى أجبال مكة ناقتي . . .

ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

ويجوز أن يكون من أوصدت بمعنى غلقت أيضاً وهمز على حد من قرأ ﴿ بالسؤق ﴾ [ص : 33] مهموزاً وقرأ غير واحد من السبعة موصدة بغير همز فيظهر أنه من أوصدت وقيل يجوز أن يكون من آصدت وسهلت الهمزة وقال الشاعر

: قوماً يعالج قملا أبناؤهم . . .

وسلاسلاً ملساً وباباً موصداً

والمراد مغلقة أبوابها وإنما أغلقت لتشديد العذاب والعياذ بالله تعالى عليهم وصرح بوعيدهم ولم يصرح بوعد المؤمنين لأنه الأنسب بما سيق له الكلام والأوفق بالغرض والمرام ولذا جيء بضمير الفصل معهم لإفادة الحصر واعتبروا غيباً كأنهم بحيث لا يصلحون بوجه من الوجوه لأن يكونوا مشاراً إليهم ولم يسلك نحو هذا المسلك في الجملة الأولى التي في شأن المؤمنين ونقل عن الشمني أنه قال الحكمة في ترك ضمير الفصل في الأولين والإتيان بدله باسم الإشارة أن اسم الإشارة يؤتى به لتمييز ما أريد به أكمل تمييز كقوله

: هذا أبو الصقر فردا في محاسنه . . .

من نسل شيبان بين الضال والسلم

ولا كذلك الضمير فإن اسم الإشارة البعيد يفيد التعظيم لتنزيل رفعة محل المشار به إليه منزلة بعد درجته فاسم الإشارة للتعظيم والإشارة إلى تمييزهم واستحقاقهم كمال الشهرة بخلاف أصحاب المشأمة والضمير لا يفيد ذلك انتهى وفيه أن اسم الإشارة كما يفيد التعظيم يفيد التحقير كما في قوله تعالى ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ [الماعون : 2] وكمال الشهرة كما يكون في الخير يكون في الشر فأي مانع من اعتبار استحقاقهم كمال الشهرة في الشر وبالجملة لما ذكره ليس بشيء ولعل ما ذكرناه هو الأولى فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(173/816)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

قوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ "لا" زائدة ، والمعنى : أقسم ﴿ بهذا البلد ﴾ .

وقد تقدّم الكلام على هذا في تفسير ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] ومن زيادة "لا" في الكلام في غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتصدّع

أي : يتصدّع .

ومن ذلك قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن لاَ تَسْجُدُ ﴾ [الأعراف : 12] ، أي : أن تسجد .

قال الواحدي : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة .

قرأ الجمهور : ﴿ لا أقسم ﴾ وقرأ الحسن ، والأعمش : (لأقسم) من غير ألف .

وقيل : هو نفي للقسم .

والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه .

وقال مجاهد : إن " لا " رد على من أنكر البعث ، ثم ابتدأ ، فقال أقسم ، والمعنى : ليس الأمر كما تحسبون ، والأوّل أولى .

والمعنى : أقسم بالبلد الحرام الذي أنت حلّ فيه .

وقال الواسطي : إن المراد بالبلد المدينة ، وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية .

وجملة قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ معترضة .

والمعنى : أقسم بهذا البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ واعترض بينهما بهذه الجملة .

والمعنى : ومن المكابد أن مثلك عليّ عظيم حرمته يستحل بهذا البلد ، كما يستحلّ الصيد في غير الحرم .

(174/816)

وقال الواحدي : الحلّ والحلال والمحل واحد ، وهو ضدّ المحرّم ، أحلّ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح حتى قاتل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لم تحلّ لأحد قبلي ، ولا تحلّ لأحد بعدي ، ولم تحلّ لي إلاّ ساعة من نهار " قال : والمعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة دلّ ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً ، فوعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده ، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً .

انتهى .

فالمعنى : وأنت حلّ بهذا البلد في المستقبل ، كما في قوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] قال مجاهد : المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حلّ .

قال قتادة أنت حلّ به لست بآثم ، يعني : أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي .

وقيل المعنى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حالّ به ، ومقيم فيه ، وهو محلك ، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة ، يكون المعنى : لا أقسم به وأنت حالّ به ، فأنت أحقّ بالإقسام بك ، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك ؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم ، ولكن هذا إذا تقرّر في لغة العرب أن لفظ حل يجيء بمعنى حالّ ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ عطف على البلد .

قال قتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وأبو صالح ، ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ أي : آدم ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ أي : وما تناسل من ولده أقسم بهم ؛ لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون .

وقال أبو عمران الجوني : الوالد إبراهيم ، وما ولد : ذريته .

(175/816)

قال الفرّاء : إن : "ما" عبارة عن الناس كقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 3] .

وقيل : الوالد إبراهيم ، والولد إسماعيل ، ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وقال عكرمة ، وسعيد بن جبير : ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ يعني : الذي يولد له ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ يعني : العاقر الذي لا يولد له ، وكأنهما جعلا ما نافية ، وهو بعيد ، ولا يصح ذلك إلاّ بإضمار الموصول ، أي : ووالد والذي ما ولد ، ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين ، وقال عطية العوفي : هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات ، واختار هذا ابن جرير .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ هذا جواب القسم ، والإنسان هو هذا النوع الإنساني ، والكبد : الشدّة والمشقة ، يقال كابدت الأمر : قاسيت شدّته ، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ، ومقاساة شدائدها حتى يموت ، وأصل الكبد الشدّة ، ومنه تكبد اللبن : إذا غلظ واشتد ، ويقال كبد الرجل : إذا وجعت كبده ، ثم استعمل في كل شدّة ومشقة ، ومنه قول أبي الاصبغ :

لي ابن عم لو أن الناس في كبد . . . لظلّ محتجراً بالنبل يرميني

قال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .

وقال أيضاً : يكابد الشكر على السرّاء ، ويكابد الصبر على الضرّاء ، لا يخلو عن أحدهما .

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين ، وكان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجليه ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة حتى يتمزّق ، ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه نزل .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يعني : لقوّته .

ويكون معنى ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ على هذا : في شدّة خلق .

وقيل معنى : ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ أنه جريء القلب غليظ الكبد .

(176/816)

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أي : يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد ، أو يظنّ أبو الأشدّين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدّر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاًّ لُّبَداً ﴾ أي : كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض .

قال الليث : مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته .

قال الكلبي ، ومقاتل : يقول أهلكت في عداوة محمد مالاً كثيراً .

وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل : أذنب ، فاستفتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يكفر ، فقال : لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد .

قرأ الجمهور : ﴿ لبداً ﴾ بضم اللام ، وفتح الباء مخففاً .

وقرأ مجاهد ، وحميد بضم اللام والباء مخففاً .

وقرأ أبو جعفر بضم اللام ، وفتح الباء مشدّداً .

قال أبو عبيدة : لبد فعل من التلبيد ، وهو المال الكثير بعضه على بعض .

قال الزجاج : فعل للكثرة ، يقال رجل حطم : إذا كان كثير الحطم .

قال الفرّاء : واحدته لبدة ، والجمع لبد .

وقد تقدّم بيان هذا في سورة الجنّ .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أي : أيظنّ أنه لم يعاينه أحد .

قال قتادة : أيظنّ أن الله سبحانه لم يره ، ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟ وقال الكلبي : كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال الله : أيظنّ أن الله لم ير ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ وَلِسَاناً ﴾ ينطق به ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما ثغره .

قال الزجاج : المعنى ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام ، وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة ﴿ وهديناه النجدين ﴾ النجد :

الطريق في ارتفاع.

قال المفسرون: بينا له طريق الخير وطريق الشرّ.

(177/816)

قال الزجاج: المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشرّ، مبينتين كتبين الطريقين العاليتين.

وقال عكرمة، وسعيد بن المسيب، والضحاك: النجدان: الثديان؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد، ورزقه، والأوّل أولى.

وأصل النجد المكان المرتفع، وجمعه نجود، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة، فالنجدان الطريقان العاليان، ومنه قول امرىء القيس:

فريقان منهم قاطع بطن نخلة... وآخر منهم قاطع نجد كبكب

﴿ فَلَا اقتحم العقبة ﴾ الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه: قحم في الأمر قحوماً، أي: رمى بنفسه فيه من غير روية، وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية، والقحمة بالضم المهلكة.

والعقبة في الأصل الطريق التي في الجبل، سميت بذلك لصعوبة سلوكها، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود

العقبة .

قال الفرّاء ، والزجاج : ذكر سبحانه هنا : "لا" مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر كقوله : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ [القيامة : 31] وإنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ قائماً مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن .

قال المبرد ، وأبو علي الفارسي : إن "لا" هنا بمعنى لم ، أي : فلم يقتحم العقبة ، وروي نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، ومنه قول زهير :

وكان طوى كشحا على مستكنة . . . فلا هو أبداها ولم يتقدّم

أي : فلم يبدها ، ولم يتقدم .

وقيل : هو جار مجرى الدعاء كقولهم : لا نجاء .

قال أبو زيد ، وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار .

تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة .

ثم بيّن سبحانه العقبة فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ أي : أيّ شيء أعلمك ما اقتحامها .

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي : هي إعتاق رقبة ، وتخليصها من أسار الرق .

وكل شيء أطلقته فقد فككته ، ومنه : فك الرهن ، وفك الكتاب ، فقد بيّن سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المذكورة التي تكون بها النجاة من النار .

قال الحسن ، وقتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر ، فاقتحموها بطاعة الله .

وقال مجاهد ، والضحاك ، والكلبي : هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف .

وقال كعب : هي نار دون الجسر .

قيل : وفي الكلام حذف أي : وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، والكسائي (فكّ رقبة) على أنه فعل ماض ، ونصب رقبة على المفعولية ، وهكذا قرآ ، أو اطعم : على أنه فعل ماض .

وقرأ الباقون (فك ، أو إطعام) على أنهما مصدران ، وجرّ رقبة بإضافة المصدر إليها ، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم ، أو بياناً له كأنه قيل : فلا فك ولا أطعم ، والفكّ في الأصل : حلّ القيد ، سمي العتق فكاً ؛ لأن الرق كالقيد ، وسمي المرقوق رقبة ؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ المسغبة المجاعة ، والسغب الجوع ، والساغب الجائع .

قال الراغب : يقال منه سغب الرجل سغباً ، وسغوباً فهو ساغب ، وسغبان ، والمسغبة مفعلة منه ، وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت حرّاً يا بن قيس بن عاصم . . . لما بتّ شبعاناً وجارك ساغبا

قال النخعي : ﴿ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ أي : عزيز فيه الطعام .

﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي : قرابة .

يقال : فلان ذو قرابتي ، وذو مقربتي : واليتيم في الأصل : الضعيف .

يقال : يتم الرجل : إذا ضعف .

واليتيم عند أهل اللغة : من لا أب له .

وقيل : هو من لا أب له ولا أمّ ، ومنه قول قيس بن الملوّح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا . . . إلى الله فقد الوالدين يتيم

(179/816)

﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي : لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره ، وليس له مأوى إلاّ التراب ، يقال : ترب الرجل يترب تربا ومتربة : إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرّاً .

قال مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره .

وقال قتادة : هو ذو العيال .

وقال عكرمة : هو المديون .

وقال أبو سنان : هو ذو الزمانة .

وقال ابن جبير : هو الذي ليس له أحد .

وقال عكرمة : هو البعيد التربة الغريب عن وطنه ، والأوّل أولى ، ومنه قول الهذلي :

وكنا إذا ما الضيف حلّ بأرضنا . . . سفكنا دماء البدن في تربة الحال

قرأ الجمهور : ﴿ ذي مسغبة ﴾ على أنه صفة ليوم ، و " يتيماً " هو مفعول إطعام .

وقرأ الحسن : " ذا مسغبة " بالنصب على أنه مفعول إطعام ، أي : يطعمون ذا مسغبة ، ويتيماً بدل منه .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ عطف على المنفيّ بلا .

وجاء بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله .

وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان .

وقيل المعنى : ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم .

وقيل المعنى : أنه أتى بهذه القرب لوجه الله .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ أي : أوصى بعضهم بعضاً بالصبر

على طاعة الله ، وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا ، والمصائب .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ أي : بالرحمة على عباد الله .

فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة هم ﴿ الميمنة مَا ﴾ أي : أصحاب جهة اليمين ، أو أصحاب اليمن ، أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم .

وقيل : غير ذلك مما قد قدّمنا ذكره في سورة الواقعة .

(180/816)

﴿ والذين كَفَرُواْ بئاياتنا ﴾ أي : بالقرآن ، أو بما هو أعمّ منه ، فتدخل الآيات التنزيلية ، والآيات التكوينية التي تدل على الصانع سبحانه ﴿ هُمْ أصحاب المشئمة ﴾ أي : أصحاب الشمال ، أو أصحاب الشؤم .

أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم ، أو غير ذلك مما تقدّم .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي : مطبقة مغلقة ، يقال : أصدت الباب ، وأوصدته إذا أغلقته ، وأطبقته ، ومنه قول الشاعر :

تحنّ إلى أجبال مكة ناقتي . . . ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

قرأ الجمهور : (موصدة) بالواو .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وحفص بالهمزة مكان الواو ، وهما : لغتان ، والمعنى واحد .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ يعني : بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ، ويستحيي من شاء .

فقتل له يومئذ ابن خطل صبراً ، وهو آخذ بأستار الكعبة ، فلم يحلّ لأحد من الناس بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفعل فيها حراماً حرّمه الله ، فأحلّ الله له ما صنع بأهل مكة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ قال : مكة .

﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ قال : أنت يا محمد يحلّ لك أن تقاتل فيه .

وأما غيرك فلا .

وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : نزلت هذه الآية : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد * وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ فيّ ، خرجت ، فوجدت عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، فضربت عنقه بين الركن والمقام .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ قال : أحلّ له أن يصنع فيه ما شاء .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ قال : يعني : بالوالد آدم ، وما ولد ولده .

(181/816)

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : الوالد الذي يلد ، ﴿ وما ولد ﴾ : العاقر لا يلد من الرجال والنساء .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني عنه أيضاً : ﴿ ووالد ﴾ قال : آدم .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال : في اعتدال وانتصاب .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال : في نصب .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال : في شدّة .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال : في شدة خلق ولادته ، ونبت أسنانه ، ومعيشته ، وختانه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان

فِى كَبَدٍ ﴾ قال : خلق الله كل شيء يمشي على أربعة إلاّ الإنسان فإنه خلق منتصباً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال : منتصباً في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأمّ أو أضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لغرق في الدم .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ مَالاً لُّبَداً ﴾ قال : كثيراً .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : سبيل الخير والشرّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الهدى والضلالة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عنه قال : سبيل الخير والشرّ .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هما نجدان ، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير " تفرّد به سنان بن سعد ، ويقال سعد بن سنان .

وقد وثقه يحيى بن معين .

وقال الإمام أحمد ، والنسائي ، والجوزجاني : منكر الحديث .

وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه ، قد روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث الحسن البصري ، لا يشبه حديث أنس .

وأخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه من طرق عن الحسن قال : ذكر لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول .

. .

فذكره .

وهذا مرسل ، وكذا رواه قتادة مرسلاً .

أخرجه عنه ابن جرير ، ويشهد له ما أخرج الطبراني عن أبي أمامة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يا أيها الناس إنهما نجدان : نجد خير ، ونجد شرّ ، فما جعل نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير " ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما هما نجدان ، نجد الخير ، ونجد الشرّ ، فلا يكن نجد الشرّ أحب إليكم من نجد الخير " وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الثديين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ قال : جبل زلال في جهنم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : العقبة النار .

وأخرج عبد بن حميد عنه قال : العقبة بين الجنة والنار .

(183/816)

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عائشة قالت : لما نزل : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ قيل : يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعتق إلاّ أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه ، فلو أمرناهنّ بالزنا ، فجئن بالأولاد ، فأعتقناهم ، فقال رسول الله : " لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحبّ إليّ من أن آمر بالزنا ، ثم أعتق الولد " وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ : " لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا " وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة : منها في الصحيحين ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى الفرج بالفرج " وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ قال : مجاعة .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه : ﴿ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ قال : جوع .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ قال : ذا قرابة ، وفي قوله : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ قال : بعيد التربة ، أي : غريباً عن وطنه ، وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضاً : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ قال : هو المطروح الذي ليس له بيت .

وفي لفظ للحاكم : هو الذي لا يقيه من التراب شيء .

وفي لفظ : هو اللازق بالتراب من شدّة الفقر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ قال : " الذي مأواه المزابل " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ يعني : بذلك رحمة الناس كلهم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ قال : مغلقة الأبواب .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ قال مطبقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 442 . 447 ﴾

(185/816)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾

عطف على جملة ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي فتدل على أن مضمون الجملة المعطوفة بها أرقى رتبة في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوفة عليه ، فيصير تقدير الكلام : فلا اقتحم العقبة بفكّ رقبة أو إطعامٍ بعد كونه مؤمناً .

وفي فعل ﴿ كان ﴾ إشعار بأن إيمانه سابق على اقتحام العقبة المطلوبة فيه بطريقة التوبيخ على انتفائها عنه .

فعطفُ ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ على الجمل المسوقة للتوبيخ والذم يفيد أن هذا الصنف من الناس أو هذا الإِنسان المعين لم يكن من المؤمنين ، وأنه ملوم على ما فَرَّط فيه

لانتفاء إيمانه ، وأنه لو فعل شيئاً من هذه الأعمال الحسنة ولم يكن من الذين آمنوا ما نفعه عملُه شيئاً لأنه قد انتفى عنه الحظ الأعظم من الصالحات كما دلت عليه ﴿ ثم ﴾ من التراخي الرتبي فهو مؤذن بأنه شرط في الاعتداد بالأعمال .

وعن عائشة : أنها قالت : "يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ويحمل على إبله لله (أي يريد التقرب) فهل ينفعه ذلك شيئاً قال : " لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " .

ويفهم من الآية بمفهوم صفة الذين آمنوا أنه لو عمل هذه القرب في الجاهلية وآمن بالله حين جاء الإسلام لكان عمله ذلك محموداً .

ومن يجعل ﴿ ثُم ﴾ مفيدة للتراخي في الزمان يجعل المعنى : لا اقتحم العقبة واتبعها بالإِيمان .

أي اقتحم العقبة في الجاهلية وأسلمَ لمّا جاء الاسلام .

وقد جاء ذلك صريحاً في حديث حكيم بن حزام في الصحيح : "قال : قلت : يا رسول الله أرأيتَ أشياء كنتُ أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم فهل فيها من أجر فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم " أسلمت على ما سلف من خير " والتحنّث : التعبد يعني أن دخوله في الإِسلام أفاده إعطاء ثواب على أعماله كأنه عملها في الإِسلام .

وقال : ﴿ من الذين آمنوا ﴾ دون أن يقول : ثم كان مؤمناً ، لأن كونه من الذين آمنوا أدل على ثبوت الإِيمان من الوصف بمؤمن لأن صفة الجماعة أقوى من أجل كثرة الموصوفين بها فإن كثرة الخير خير ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ باللَّه أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) ، ثم في هذه الآية تقوية أخرى للوصف ، وهو جعله بالموصول المشعرِ بأنهم عُرفوا بالإِيمان بَيْن الفرق .

وحُذِف متعلّق آمنوا ﴾ للعلم به أي آمنوا بالله وحده وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ودين الإِسلام .

فجُعل الفعل كالمستغني عن المتعلق .

وأيضاً ليتأتى من ذكر الذين آمنوا تخلص إلى الثناء عليهم بقوله : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ ولبشارتهم بأنهم أصحاب الميمنة .

وخص بالذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر وتواصيهم بالمرحمة لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإِيمان ، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها لأنها لا تخلو من كبح الشّهوة النفسانية وذلك من الصبر .

والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية قال تعالى : ﴿ رحماء بينهم ﴾ [الفتح : 29] .

والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة ، وهو أيضاً كناية عن اتصافهم بالمرحمة لأن من يوصي

بالمرحمة هو الذي عَرَف قدرَها وفضلها ، فهو يفعلها قبل أن يُوصي بها ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ [الفجر : 18] .

وفيه تعريض بأن أهل الشرك ليسوا من أهل الصبر ولا من أهل المرحمة ، وقد صُرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللَّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين إلى قوله : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ [فصلت : 33 35] وقوله : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ [الفجر : 17 ، 18] .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18)

(187/816)

لَمَّا نوه بالذين آمنوا أعقب التنويه بالثناء عليهم وبشارتهم مفتَتحاً باسم الإِشارة لتمييزهم أكمل تمييز لإِحضارهم بصفاتهم في ذهن السامع ، مع ما في اسم الإِشارة من إرادة التنويه والتعظيم .

و ﴿ الميمنة ﴾ جهة اليمين ، فهي مَفْعَلة للمكان مأخوذة من فعل يَمَنَه (فعلاً ماضياً) إذا كان على يمينه ، أي على جهة يده اليمنى ، أو مأخوذة من يَمَنَه اللَّهُ يُمْناً ، إذا بَاركه ، وإحدى المادتين مأخوذة من الأخرى ، قيل : سميت اليد اليمنى يميناً ويُمنى لأنها أعود

نفعاً على صاحبها في يسرْ أعماله ، ولذلك سمي بلاد اليمن يَمَناً لأنها عن جهة يمين الواقف مستقبلاً الكعبة من بابها لأن باب الكعبة شرقي ، فالجهة التي على يمين الداخل إلى الكعبة هي الجنوب وهي جهة بلاد اليمن .

وكانت بلاد اليمن مشهورة بالخيرات فهي ميمونة .

وكان جغرافيو اليونان يصفونها بالعربية السعيدة ، وتفرع على ذلك اعتبارهم ما جاء عن اليمين من الوحش والطير مبشراً بالخير في عقيدة أهل الزجر والعيافة فالأيامن الميمونة قال المرقش يفند ذلك :

فإذا الأشائِم كالأيا

مِننِ والأيامِنُ كالأشائِمْ . . .

ونشأ على اعتبار عكس ذلك تسمية بلاد الشام شأماً بالهمز مشتقة من الشؤم لأن بلاد الشام من جهة شِمال الداخل إلى الكعبة وقد أبطل الإِسلام ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم بارك لنا في شأمِنا وفي يَمَنِنَا " وما تسميتهم ضد اليد اليمنى يساراً إلا لإِبطال ما يُتوهم من الشؤم فيها .

ولما كانت جهة اليمين جهة مكرمة تعارفوا الجلوس على اليمين في المجامع كرامةً للجالس ، وجعلوا ضدهم بعكس ذلك .

وقد أبطله الاسلام فكان الناس يجلسون حين انتهى بهم المجلس .

وسمّي أهل الجنة ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ و ﴿ أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 27] وسمي أهل النار ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ و ﴿ أصحاب الشمال ﴾ في سورة الواقعة (41) ، فقوله : أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي أصحاب الكرامة عند الله .

(188/816)

وقوله : ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أي هم محقرون .

وذلك كناية مبنية على عرف العرب يومئذ في مجالسهم .

ولا ميمنة ولا مشأمة على الحقيقة لأن حقيقة الميمنة والمشأمة تقتضيان حَيِّزاً لمن تُنسَب إليه الجهةُ .

وجملة : ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ تتميمٌ لما سيق من ذم الإِنسان المذكور آنفاً إذ لم يعقّبْ ذمُّه هنالك بوعيده عِناية بالأهم وهو ذكر حالة أضداده ووعدِهم ، فلما قُضي حق ذلك ثُني العنان إلى ذلك الإِنسان فحصل من هذا النظم البديع محسّن ردّ العجز على الصدر ، ومحسن الطباق بين الميمنة والمشأمة .

وقد عرف آنفاً أن المشأمة منزلة الإِهانة والغضب ، ولذلك أتبع بقوله : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ .

وضمير الفصل في قوله : ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ لتقوية الحكم وليس للقصر ، إذ قد استفيد القصر من ذكر الجملة المضادة للتي قبلها وهي ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ .

و ﴿ مؤصدة ﴾ اسم مفعول من أوصد الباب بالواو .

ويقال : أأصد بالهمز وهما لغتان ، قيل : الهمز لغة قريش وقيل : معناه جعله وصيدة .

والوصيدة : بيت يتخذ من الحجارة في الجبال لحفظ الإبل .

فقرأ الجمهور : ﴿ مُوصَدة ﴾ بواو ساكنة بعد الميم من أوصد بالواو ، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم من ءَاصد الباب ، بهمزتين بمعنى وصَده .

وجملة : ﴿ عليهم نار موصدة ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أو استئناف بياني ناشىء عن الإِخبار عنهم بأنهم أصحاب المشأمة .

و ﴿ عليهم ﴾ متعلق بـ ﴿ مؤصدة ﴾ ، وقدم على عامله للاهتمام بتعلق الغلق عليهم تعجيلاً للترهيب .

وقد استتب بهذا التقديم رعاية الفواصل بالهاء ابتداء من قوله : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ [البلد : 11] .

وإسناد المُوصَدِّيَة إلى النار مجاز عقلي ، والموصد هو موضع النار ، أي جهنم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ يعني بهذا النبي صلى الله عليه وسلم ، أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيي من شاء ، فقتل يومئذ ابن خطل صبراً ، وهو آخذ بأستار الكعبة ، فلم يحل لأحد من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل فيها حراماً بحرمة الله ، فأحل الله له ما صنع بأهل مكة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به ، وأما غيرك فلا .

وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : فيَّ نزلت هذه الآية ﴿ لا

أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ خرجت فوجدت عبد الله بن خطل متعلقاً بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام .

(190/816)

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : " لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة أخذ أبو برزة الأسلمي وهو سعيد بن حرب عبد الله بن خطل وهو الذي كانت قريش تسميه ذا القلبين ، فأنزل الله ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [الأحزاب : 4] ، فقدمه أبو برزة فضربت عنقه وهو متعلق بأستار الكعبة ، فأنزل الله فيها ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ وإنما كان ذلك لأنه قال لقريش : أنا أعلم لكم علم محمد فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أحب أن تستكتبني قال : فاكتب فكان إذا أملى عليه من القرآن ، وكان الله عليماً حكيماً كتب ، وكان الله حكيماً عليماً ، وإذا أملى عليه وكان الله غفوراً رحيماً كتب وكان الله رحيماً غفوراً . ثم يقول : يا رسول الله اقرأ عليك ما كتبت . فيقول : نعم ، فإذا قرأ عليه وكان الله عليماً حكيماً أو رحيماً غفوراً قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما هكذا أمليت عليك ، وإن الله لكذلك إنه لغفور رحيم ، وإنه لرحيم غفور . فرجع إلى قريش فقال : ليس آمره

بشيء كنت آخذ به ، فينصرف فلم يؤمنه ، فكان أحد الأربعة الذين لم يؤمنهم النبي صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ لا أقسم ﴾ قال : لا رداً عليهم ﴿ أقسم بهذا البلد ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ يعني مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول : أنت في حل مما صنعت فيه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ يقول : لا تؤاخذ بما عملت فيه وليس عليك فيه ما على الناس .

(191/816)

وأخرج عبد بن حميد عن منصور قال : سأل رجل مجاهداً عن هذه الآية ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : لا أدري ، ثم فسرها لي فقال : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ الحرام ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ الحرام ، أحل الله له ساعة من النهار قيل له ما صنعت فيه من شيء فأنت في حل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال : مكة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أحلت له ساعة من نهار .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت به غير حرج ولا آثم .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أحلت مكة للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ثم حرمت إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أحلها الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار يوم الفتح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : أنت حل بالحرم فاقتل إن شئت أو دع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى أن

تقوم الساعة ، لم تحل لبشر إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار ، ولا يختلي خلاها ، ولا يعضد عضاهها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمعرف .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : لم يكن بها أحد حلاً غير النبي صلى الله عليه وسلم كل من كان بها حرام لم يحل لهم أن يقاتلوا فيها ، ولا يستحلوا حرمه .

(192/816)

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن شرحبيل بن سعد ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : يحرمون أن يقتلوا بها الصيد ويعضدوا بها شجرة ويستحلون اخراجك وقتلك .

وأخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أحل له أن يصنع فيه ما شاء ﴿ ووالد وما ولد ﴾ يعني بالوالد آدم ﴿ وما ولد ﴾ ولده .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال : الوالد الذي يلد ﴿ وما ولد ﴾ العاقر الذي لا يلد من الرجال والنساء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال : إبراهيم وما ولد .

وأخرج ابن جرير والطبراني عن ابن عباس في قوله ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : مكة ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال : آدم ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : في اعتدال وانتصاب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال : آدم وما ولد ﴿ لقد خلقنا الإِنسان ﴾ قال : وقع ههنا القسم ﴿ في كبد ﴾ قال : في مشقة يكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً ﴾ قال : كثيراً .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال : الوالد آدم ﴿ وما ولد ﴾ ولده ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : في شدة ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً ﴾ قال : كثيراً ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ قال : لم يقدر عليه أحد .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال : آدم ﴿ وما ولد ﴾ ، ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ في نصب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : في شدة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق عطاء عن ابن عباس ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : في شدة خلق في ولادته ونبت أسنانه وسوره ومعيشته وختانه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقسم عن ابن عباس ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : خلق الله الإِنسان منتصباً ، وخلق كل شيء يمشي على أربع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : منتصب في بطن أمه .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : منتصباً في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأمر أو اضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لغرق في الدم .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : في اعتدال واستقامة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول لبيد بن ربيعة :

يا عين هلاّ بكيت اربد إذ . . . قمنا وقام الخصوم في كبد

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم رضي الله عنه ، أحسبه عن عبد الله ﴿ في كبد ﴾ قال : منتصباً .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة .

وأخرج ابن المبارك عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد هذا الإِنسان .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في كبد ﴾ قال : يكابد أمور الدنيا وأمور الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ في كبد ﴾ قال : شدة وطول .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم رضي الله عنه ﴿ في كبد ﴾ قال : في السماء خلق آدم .

(194/816)

وأخرج أبو يعلى والبغوي وابن مردويه عن رجل من بني عامر رضي الله عنه قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمعته يقرأ ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد أيحسب أن لم يره أحد ﴾ يعني بفتح السين من يحسب .

وأخرج ابن المنذر عن السدي رضي الله عنه ﴿ أيحسب أن لن يقدر ﴾ الآية ، قال : الكافر يحسب أن لن يقدر الله عليه ولم يره .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مالاً لبداً ﴾ قال : كثيراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ قال : أنفقت مالاً في الصد عن سبيل الله ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ قال : الأحد : الله عز وجل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله : ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً ﴾ قال : أيمن علينا فما فضلناه أفضل ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ وكذا وكذا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ قال : نعم من الله متظاهرة يقررنا بها كيما نشكر .

وأخرج ابن عساكر عن مكحول رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يقول الله يا ابن آدم قد أنعمت عليك نعماً عظاماً لا تحصي عدها ، ولا تطيق شكرها ، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما ، وجعلت لهما غطاء فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك ، فإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما ، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً فانطق بما أمرتك وأحللت لك ، فإن عرض لك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك ، وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً فأصب بفرجك ما أحللت لك ، فإن عرض لك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك . ابن آدم إنك لا تحمل سخطي

ولا تستطيع انتقامي " .

أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : سبيل الخير والشر .

(195/816)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : عرفناه سبيل الخير والشر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الهدى والضلالة .

وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب رضي الله عنه مثله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن علي رضي الله عنه أنه قيل له : إن ناساً يقولون : إن النجدين الثديين . قال : الخير والشر .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والضحاك رضي الله عنهما مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سنان بن سعيد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : " هما نجدان فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " أيها الناس إنما هما نجدان نجد الخير ونجد الشر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير " . وأخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب من نجد الخير " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : فذكر مثله .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما هما نجدان نجد الخير ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب إلى أحدكم من نجد الخير " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الثديين .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنه ﴿ فلا اقتحم

العقبة ﴾ قال : جبل في جهنم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه مثله .

(196/816)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : العقبة النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : للناس عقبة دون الجنة واقتحامها فك رقبة الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي رجاء رضي الله عنه قال : بلغني أن العقبة التي ذكر الله في كتابه مطلعها سبعة آلاف سنة ومهبطها سبعة آلاف سنة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قال : عقبة بين الجنة والنار .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قال : عقبة بين الجنة والنار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب الأحبار قال : العقبة سبعون درجة في جهنم .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قال : ألا أسلك الطريق التي فيها النجاة والخير .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قال : جهنم وما أدراك ما العقبة ؟ قال : ذكر لنا أنه ليس من رجل مسلم يعتق رقبة مسلمة إلا كانت فداءه من النار .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه : وما أدراك ما العقبة ؟ ثم أخبر عن اقتحامها فقال : فك رقبة " ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الرقاب أيها أعظم أجراً ؟ قال : أكثر ثمناً " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أمامكم عقبة كوداً لا يجوزها المثقلون فأنا أريد أن أتخفف لتلك العقبة " .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت : " لما نزلت ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قيل يا رسول الله : ما عند أحدنا ما يعتق إلا عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه وتنوء عليه ، فلو أمرناهن بالزنا فزنين ، فجئن بالأولاد فاعتقناهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن آمر بالزنا ، ثم أعتق الولد " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنه بلغها قول أبي هريرة رضي الله عنه : " علاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من عتق ولد زنية ، فقالت عائشة رضي الله عنها : يرحم الله أبا هريرة إنما كان هذا أن الله لما أنزل ﴿ فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة ﴾ قال : بعض المسلمين ، يا رسول الله : إنه ليس لنا رقبة نعتقها فإنما يكون لبعضنا الخويدم التي لا بد منها فنأمرهن يبغين ، فإذا بغين فولدن ، أعتقنا أولادهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تأمروهن بالبغاء لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي نجيح السلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق رقبة فإنه يجزى مكان كل عظم من عظامها عظم من عظامه من النار " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق نسمة مسلمة أو مؤمنة وقى الله بكل عضو منها عضواً منه من النار "

وأخرج أحمد عن أبي أمامة قال : قلت يا نبي الله : أي الرقاب أفضل ؟ قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار ، حتى الفرج بالفرج " .

وأخرج أحمد وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن البراء " أن أعرابياً قال لرسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة ؟ قال : أعتق النسمة وفك الرقبة . قال : أوليستا بواحدة ؟ قال : لا إن عتق الرقبة أن تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها ، والمنحة الركوب والفيء على ذي الرحم ، فإن لم تطق ذلك فاطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير " .

(198/816)

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ يوم ذي مسغبة ﴾ قال : مجاعة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ في يوم ذي مسغبة ﴾ قال : مجاعة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ في يوم ذي مسغبة

﴿ قال : جوع .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن إبراهيم رضي الله عنه ﴿ في يوم ذي مسغبة ﴾ قال : يوم فيه الطعام عزيز .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وأبي رجاء العطاردي رضي الله عنه أنهما قرآ : " أو أطعم في يوم ذا مسغبة " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً : " من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ذا مقربة ﴾ أي ذا قرابة ، وفي قوله : ﴿ ذا متربة ﴾ يعني بعيد التربة أي غريباً من وطنه .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ قال : هو المطروح الذي ليس له بيت ، وفي لفظ الحاكم : هو الترب الذي لا يقيه من التراب شيء ، وفي لفظ : هو اللازق بالتراب من شدة الفقر .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾

يقول : شديد الحاجة .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ يقول : مسكين ذو بنين وعيال ليس بينك وبينه قرابة .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ ذا متربة ﴾ قال : ذا جهد وحاجة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر :

تربت يداك ثم قل نوالها . . . وترفعت عنك السماء سحابها

(199/816)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مسكيناً ذا متربة ﴾ قال : " الذي مأواه المزابل " " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ذا متربة ﴾ قال : كنا نحدث أن المترب ذو العيال الذي لا شيء له .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك رضي الله عنه : ما عمل الناس بعد الفريضة أحب إلى الله من إطعام مسكين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن هشام بن حسان رضي الله عنه في قوله : ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ قال : على ما افترض الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ يعني بذلك رحمة الناس كلهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ مؤصدة ﴾ قال : مغلقة الأبواب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﴿ مؤصدة ﴾ قال : مطبقة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير من طرق عن ابن عباس مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة وعطية والضحاك وسعيد بن جبير والحسن وقتادة مثله .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ مؤصدة ﴾ قال : مطبقة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول الشاعر :

تحن إلى أجبال مكة ناقتي . . . ومن دوننا أبواب صنعا مؤصدة

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ مؤصدة ﴾ قال : هي بلغة قريش أوصد الباب أغلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 516 . 526 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾

يعني : أقسم بهذا البلد ، ولا صلة في الكلام ، ومعناه أقسم برب هذا البلد الذي ولد فيه يعني : مكة ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ يحلها يوم فتح مكة ، معناه فسيحل لك هذا البلد ، يعني : القتال فيه ساعة من النهار ، ولم يحل لك أكثر من ذلك .

وروى عبد الملك ، عن عطاء في قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ وقال : إن الله تعالى حرم مكة ، فجعلها حراماً يوم خلق السموات والأرض ، وهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، ولم تحل إلا للنبي صلى الله عليه وسلم ساعة من النهار .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه دخل بالبيت يوم الفتح ، ووضع يده على باب الكعبة ، فقال : " لاَ إله إلاَّ الله وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلاَ إِنَّ الله تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السموات والأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ لِي ، بِحَرَامِ الله تَعَالَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِي ، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ

".

ثم قال عز وجل : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ يعني : آدم ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ ، يعني : ذريته .

ويقال : كل والد وكل مولود .

وقال عكرمة ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ الذي يلد ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ التي لم تلد من النساء والرجال ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسان فِى كَبَدٍ ﴾ يعني : معتدل الخلق والقامة ، فأقسم بمكة وبآدم وذريته ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسان ﴾ منتصباً قائماً على رجلين .

وقال مقاتل : نزلت الآية في حارث بن عامر بن نوفل .

(201/816)

وروى مقسم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال : خلق كل شيء يمشي على أربع ، إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً ، وهذا كقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسان فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ويقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسان فِى كَبَدٍ ﴾ يعني : في مشقة وتعب .

وروي عن ابن رفاعة ، عن سعيد بن الحسن ، عن الحسن البصري في قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا

الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ قال سعيد : يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة .

وقال الحسن : لم يخلق الله تعالى خليقة ، يكابد مكابدة ما يكابد ابن آدم .

وروي عن عطاء ، عن ابن عباس يقول : خلق في شدة ، يعني : مولده ونبات أسنانه وغير ذلك .

ويقال : معناه : ولقد خلقنا الإنسان في كبد وهي المضغة ، مثل الكبد دماً غليظاً ، ثم يصير مضغة .

وقال عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يعني : أيحسب الكافر ، أن لن يقدر عليه الله تعالى ، يعني : على أخذه وعقوبته .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ يعني : أبا جهل بن هشام يقول : أنفقت مالاً كثيراً في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم ينفعني ذلك ، وهو أنه ضمن مالاً لمن يقتل محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويقال : أنفق مالاً يوم بدر .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ يعني : أيظن ﴿ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ يعني : إن لم ير الله تعالى صنيعه فلا يعاقبه بما فعل .

ثم ذكر ما أنعم عليه ليعتبر به ويوحد فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يعني : ألم نخلق له عينين .

يبصر بهما ﴿ وَلِسَاناً ﴾ ينطق به ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ فيضمهما .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال الثعلبي ومقاتل يعني : عرّفناه طريق الخير والشر .

وقال قتادة : يعني : طريق الهدى والضلالة ، وهكذا قال ابن مسعود ، رضي الله عنه ، ويقال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ يعني : هديناه في الصغر لأحد الثديين ، يعني : خلق له شفتين ، ليأخذ بهما ثدي أمه .

(202/816)

ويقال : بينا له طريقين ، طريق الدنيا ، وطريق الآخرة .

وقال مجاهد : يعني : طريق السعادة ، وطريق الشقاوة .

ويقال : الطاعة والمعصية ، ويقال : طريق الصواب ، وطريق الخطأ .

ومعناه ألم نجعل له ما يستدل به ، على أن الله تعالى قادر على أن يبعثه ، ويحصي عليه ما عمله .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ يعني : فلا هو اقتحم العقبة ، ويقال : فلم يقتحم العقبة ، ويقال : معناه فهل تجاوز العقبة ، الذي يزعم أنه أنفق مالاً كثيراً في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما أراد بالعقبة ، الصراط .

كما روي عن أبي ذر الغفاري أنه قال : إنه بين أيدينا عقبة كؤود ، لا ينجو منها إلاَّ كل مخف .

وكما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه بكى حين حضرته الوفاة ، قيل له : وما يبكيك ؟ قال : بُعْدَ المفازة ، وقلة الزاد ، وضعف النفس ، وعقبة كؤد ، والهبوط منها إلى الجنة أو إلى النار .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ يعني : ما أدراك بماذا يكون مجاوزة الصراط .

ثم قال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ يعني : اقتحام العقبة ، هو فك الرقبة يعني : إنما يجاوز الصراط .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ يعني : يجاوز الصراط بإحكام في يوم ذي مجاعة .

قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، والكسائي ﴿ فَكَّ رَقَبَةٍ ﴾ ، بنصب الكاف والهاء ، وأطعم بنصب الهمزة بغير الألف ، والباقون ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ بضم الكاف ، وكسر الهاء ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ بكسر الهمزة ، وإثبات الألف .

فمن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى ، معناه فلا فَكَّ رَقَبَةً ، ولا أطعمَ في يوم ذي مسغبة ، فكيف يجاوز العقبة ، ومن قرأ بالضم فمعناه اقتحامُ العقبة ، فكُّ رقبة يعني : مجاوزة العقبة بعتق رقبة ، وبإطعام في يوم ذي مسغبة ، أي : مجاعة .

(203/816)

ثم بين لهم لمن يُطْعَم الطعام فقال : ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ يعني : يتيماً بينك وبينه قرابة ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ يعني : مسكيناً لا شيء له لاصق في التراب من الجهد ، فهذا الإحسان مجاوزة العقبة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : من صنع هذا الإحسان ، يكون مؤمناً ، لأنه لا يتقبل عملاً من الأعمال بغير إيمان .

ويقال : معناه ثم يثبت على إيمانه .

ثم قال : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ يعني : تحاشوا أنفسهم بالصبر ، وتحاشوا بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله تعالى ، وبالصبر على المكروهات ، لأنه روي في الخبر ، أن الجنة حقت بالكاره .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ يعني : تحاشوا بالتراحم بعضهم على بعض ، يعني : بالمرحمة على أنفسهم ، على غيرهم .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " مَنْ يَرْحَمِ النَّاسَ ، يَرْحَمُهُ اللهُ تَعَالَى " .

ثم قال : ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ يعني : أهل التراحم والتواصل ، هم أصحاب الميمنة ، الذين يُعْطَوْن كتابهم بأيمانهم ﴿ والذين كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، ويقال : كفروا بدلائل الله تعالى .

﴿ هُمْ أصحاب المشئمة ﴾ يعني : يعطون كتابهم بشمالهم ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ يعني : أُدْخِلُوا في النار ، وأُطْبِقَتْ عليهم ، لا يخرج منها غم ، ولا يدخل فيها روح آخر

الأبد .

قرأ أبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص ، وحمزة ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ ﴾ بالهمزة ، والباقون بغير همزة ، وهما لغتان .

يقال : أصدت وأوصدت الباب ، وأوصدته إذا أطبقته والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 560 . 561 ﴾

(204/816)

وقال الثعلبى :

سورة البلد

﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ يعني أقسم ﴿ بهذا البلد ﴾ يعني مكّة ﴿ وَأَنتَ ﴾ يا محمّد ﴿ حِلٌّ ﴾ حلال ﴿ بهذا البلد ﴾ تصنع ما تريد من القتل والأسر ، وذلك أنّ الله سبحانه أحلّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم مكّة يوم الفتح حتّى قاتل وقتل ، وأحلّ ما شاء وحرم ما شاء ، وقتل ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة ، ومقيّس بن صبابة وغيرهما ثمّ قال : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن " فأحلّ دم ابن خطل وأصحابه وحرّم دار أبي سفيان ، ثمّ قال صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والأرض ، فهي حرام إلى أن تقوم

الساعة ، لم تحلّ لأحد قبلي ولا يحلّ لأحد بعدي ولم يحلّ لي إلاّ ساعة من نهار ، فلا يعضد شجرها ولا نختلي خلالها ولا نفر صيدها ولا يحلّ لقطتها إلاّ المنشد " .

فقال العبّاس : يا رسول الله إلاّ الأذخر فإنّه لقيوتنا وقتورنا وبيوتنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إلاّ الأذخر " .

وقال شرحبيل بن سعد : معنى قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ قال : يحرّمون أن تقتلوا بها صيداً أو يعضدوا بها شجرة ، ويستحلّون إخراجك وقتلك . ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ قال عكرمة وسعيد ابن جبير : (الوالد) الذي يولد له (وما ولد) العاقر الذي لا يولد له ، ورويا ه عن ابن عبّاس وعلي ، هذا القول تكون ما بقيا ، وهو يُعبد ولا تصحّ إلاّ بإضمار . عطية عنه : الوالد وولده . مجاهد وقتادة والضحّاك وأبو صالح : ووالد آدم وما ولد ولده .

(205/816)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا برهان بن علي قال : حدّثنا عبد الله بن الوليد العكبري قال : حدّثنا محمد بن موسى الحرشي قال : حدّثنا جعفر بن سليمان قال : سمعت أبا عمران الخولي قرأ " وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدَ " قال إبراهيم وما ولد . ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ

﴿ أي نصّب . عن الوالبي عن ابن عبّاس الحسن : يكابد مصايب الدنيا وشدائد الآخرة . قتادة : في مشقّة فلا يلقاه إلاّ يكابد أمر الدنيا والآخرة . سعيد بن جبير : في شدّة ، وعن الحسن أيضاً : يكابد الشكر على السراء ، والصبر على الضرّاء فلا يخلو منهما . عطية عن ابن عبّاس : في شدّة خلق حمله وولادته ورضاعه وفصاله ومعاشه وحياته وموته . عمرو بن دينار عنه : نبات أسنانه . يمان : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق ، وعن سعيد بن جبير أيضاً في ضيق معيشته . ابن كيسان : المكابدة مقاساة الأمر وركوب معظمه ، وأصله الشدّة وهو من الكبد . قال لبيد :

عين هلا بكيت اربد . . . إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

وقال مجاهد وإبراهيم وعكرمة وعبد الله بن شدّاد وعطية والضحّاك : يعني منتصباً قائماً معتدل القامة ، وهي رواية مقسم عن ابن عبّاس قال : خلق كلّ شيء يمشي على الأرض على أربعة إلاّ الإنسان ، فإنّه خُلق منتصباً قائماً على رجلين .

(206/816)

مقاتل : في قوّة نزلت في ابن الاسدين واسمه أسيد بن كلده بن أسيد بن خلف ، وكان شديداً قويّاً يضع الادم العكاظي تحت قدميه ، فيقول : من أزالني عنه فله كذا وكذا ، فلا

يطاق أن تنزع من تحت قدميه إلاّ قطعاً ويبقى موضع قدمه ، ويقال : هو شدّة الأمر والنهي والثواب والعقاب ، وقال ابن زيد : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ يعني آدم في كبد أي وسط السماء وذلك حين رفع إلى الجنّة . أبو بكر الوراق : يعني لا يدرك هواه ولا يبلغ مناه . خصيف في معناه ومقاساة وانتقال أحوال نطفة ثمّ علقة إلى آخر تمام الخلق . ابن كيسان : منتصباً رأسه فإذا أذن الله سبحانه في إخراجه انقلب رأسه إلى رجلي أُمّه ، وقيل : جريء القلب غليظ الكبد مع ضعف خلقته ومهانة مادّته . جعفر : أي في بلاء ومحنة . ابن عطاء : في ظلمة وجهل .

محمد بن علي الترمذي : مضيّعاً لما يعنيه مشتغلاً بما لا يعنيه .

﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ يعني بالأشدين من قوّته . ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يعني الله سبحانه وتعالى ، وقيل : هو الوليد بن المغيرة . أخبرني أبو الضحى عن ابن عبّاس . ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ ﴾ أنفقت ﴿ مَالاً لُّبَداً ﴾ بعضه على بعض ، وهو من التلبّد في عداوة محمّد . وقال مقاتل : نزلت في الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وذلك أنّه أذنب ذنباً فاستفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن يكفّر وقال : لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات منذ دخلت في دين محمّد .

واختلف القرّاء في قوله ﴿ لُّبَداً ﴾ فقرأ أبو جعفر بتشديد الباء على جمع لابد وراكع ، وقرأ مجاهد بضمّ اللام والباء مخفّفاً كقولك : أمر بكر ورجل جنب ، وقرأ الباقون بضمّ اللام

وفتح الباء مخفّفين ، ولها وجهان : أحدهما جمع لبدة ، والثاني على الواحد ، مثل قُثم وحُطم وليس بمعدول .

(207/816)

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ يعني الله سبحانه وقيل : محمّد (عليه السلام) فيعلم مقدار نفقته ، وكان كاذباً لم ينفق جميع ما قال ، وقال سعيد بن جبير وقتادة : أيظنّ أن لم يره أحد فيسأله عن هذا المال من أين اكتسبه وأين أنفقه ؟

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي قال : حدّثني الهيثم بن خلف الدوري قال : حدّثني محمد بن يزيد بن سليمان مولى بني هاشم قال : حدّثنا حسين بن الحسين يعني الأشقر قال : حدّثنا هشام بن شبر عن أبي هاشم عن مخالد عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتّى يُسئل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه وعن حبّنا أهل البيت " .

قال ابن خرجة : ما سمعت هذا الحديث إلاّ من الهيثم .

وأخبرنا الحسين قال : أخبرنا أبو الحسن علي بن هارون بن محمد قال : حدّثنا موسى بن

هارون بن عبد الله قال : حدّثنا أبو الربيع الزهراني قال : حدّثنا نعيم بن ميسرة ، قال : أخبرني عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : أخبرني رجل من بني عامر عن أبيه قال : صلّيت خلف النبيّ صلّى الله عليه فسمعته يقول : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ يعني بكسر السين .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ قال قتادة : نعم والله متظاهرة لقهرك بها كتماً لشكر .

(208/816)

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن عامر السمرقندي قال : حدّثنا عمر بن يحيى قال : حدّثنا جيغويه قال : حدّثنا صالح بن محمد قال : حدّثنا عبد الحميد المدني عن أبي حازم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ابن آدم إنْ نازعك لسانك فيما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق ، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق ، وإن نازعك فرجك إلى ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق " .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ قال أكثر المفسّرين : يعني بيّنا له طريق الخير والشرّ والحقّ

والباطل والهدى والضلالة كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] .

ودليل هذا التأويل ما أخبرني عبد الله بن حامد إجازة قال : أخبرني أحمد بن يحيى قال : حدّثنا محمّد بن يحيى قال : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن قرّة بن خالد عن الحسن قال : قال رسول الله صلّى الله عليه : " إنّما هما نجدان نجد الخير ونجد الشرّ ، فما يجعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير " .

وأخبرنا محمّد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا مكّي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشر قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : حدّثنا أبي عن عمرو بن أبي بكر القرشي عن محمّد بن كعب عن ابن عبّاس في قوله سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ قال : الثديين ، وإليه ذهب سعيد بن المسيب والضحّاك ، والنجد الطريق في ارتفاع . قال الشاعر :

غداة غدوا فسالك بطن نخلة . . . وآخر منهم جازع نجد كبكب

(209/816)

﴿ فَلَا اقتحم العقبة ﴾ يعني فلم يجاوز بهذا الإنسان العقبة فيأمر . قال الفراء أفرد قوله : ﴿ فَلَا اقتحم العقبة ﴾ بذكر لا مرّة واحدة ، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي ،

وفي مثل هذا الموضع حتّى يعيدوها عليه في كلام آخر ، كما قال : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ﴾ [القيامة : 31] ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] ، وانّما فعل ذلك كذلك في هذا الموضع استغناء بدلالة آخر الكلام على معناه من إعادتها مرّة واحدة ، وذلك أنّه فسّر اقتحام العقبة بأشياء فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ الآية ، فكأنه قال في أوّل الكلام فلا فعل ذا ولا ذا ولا ذا .

وقال بعضهم : معنى الكلام الاستفهام ، تقديره أفلا اقتحم العقبة ، وإليه ذهب ابن زيد وجماعة من المفسّرين ، يقول : فهلاّ أنفق ماله في فك الرقاب وإطعام السغبان ليتجاوز بها العقبة ويكون خيراً له من إنفاقه على عداوة محمّد ، ويقال : إنّه شبّه عظم الذنب وثقلها على مرتكبها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحاً كان مثله مثل من اقتحم تلك العقبة ، وهي الذنوب حتّى تذهب وتذوب ، كمن يقتحم عقبة فيستوي عليها ونحوها .

وذكر عن ابن عمران : أنّ هذه العقبة جبل في جهنّم ، وقال كعب : هي سبعون دركة في جهنّم ، وقال الحسن وقتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله سبحانه ، وقال مجاهد والضحّاك والكلبي : هي الصراط يضرب على جهنّم كحدّ السيف مسيرة ثلاثة آلاف سهلاً وصعوداً وهبوطاً ، وأنّ لجنبتيه كلاليب وخطاطيف كأنّها شوك السعدان ، فناج مسلم وناج مخدوس ومكردس في النار منكوس ، فمن الناس من يمرّ عليه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمرّ عليه كالريح العاصف ، ومنهم من يمرّ عليه

كالفارس ، ومنهم من يمرّ عليه كالرجل يسير ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم الزالّون والزالاّت ، ومنهم من يكردس في النار ، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء .

(210/816)

وقال قتادة : هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه يقول : إنّ المعتق والمطعم تقاحم نفسه وشيطانه مثل من يتلكّف صعود العقبة ، وقال ابن زيد يقول : فهلاّ سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثمّ بيّن ما هي فقال :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ قال سفيان بن عيينة : كلّ شيء قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ فإنّه أخبره به ، وما قال : (وما يدريك) فإنّه لم يخبر به .

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ فمن أعتق رقبة كان فداه من النار ، قرأ أبو رجاء والحسن وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بنصب الكاف والميم على الفعل كقوله : ثمّ كان ، وقرأ غيرهم بالإضافة على الاسم واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لأنّه تفسير لقوله (وما أدراك) ، ثم أخبر ما هي فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ . ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ مجاعة .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبيد الله بن أبي سمرة قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله

المستعيني قال : حدّثنا علي بن الحسين البصري قال : حدّثنا حجّاج قال : حدّثنا جرير بن حازم قال : سمعت الحسن وأبا رجاء يقرآن : ﴿ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ قد لصق بالتراب من الفقر فليس له مأوى إلاّ التراب .

وسمعت أبا القاسم الحلبي يقول : سمعت أبا حامد الخازرجي يقول : المتربة ها هنا من التربة وهي شدّة الحال ، وأنشد الهذلي :

وكنّا إذا ما الضيف حلّ بأرضنا . . . سفكنا دماء البدْن في تربة المال

(211/816)

أخبرني الحسن قال : حدّثنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي قال : حدّثنا موسى بن إسحاق الأنصاري قال : حدّثنا عبد الحميد بن صالح قال : حدّثنا عيسى بن عبد الرحمن عن طلحة بن مصرف عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب قال : " جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله علّمني عملاً يدخلني الجنّة فقال : " لئن اقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة اعتق النسمة وفكّ الرقبة " ، قال : أوليسا واحداً ؟

قال : " لا ، عتق النسمة أن تفرد بعتقها ، وفكّ الرقبة أن تعين في ثمنها ، والمنحة الوكوف

والفيء على ذي الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذاك فاطعم الجائع واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذاك فكفّ لسانك إلاّ من خير " .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ قيل : ثمّ بمعنى الواو ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ أوصى بعضهم بعضاً ﴿ بالصبر وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ برحمة الناس . ﴿ أولئك أَصْحَابُ الميمنة * والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المشأمة * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ قرأ أبو عمرو وعيسى وحمزة ويعقوب بالهمزة ههنا ، وفي سورة الهُمزة وغيرهم بلا همزة ، وهما لغتان . المطبقة ، قال الفراء وأبو عبيدة يقال : أصدت وأوصدت إذا أطبقت وقيل : معنى الهمزة المطبقة وغير الهمزة المغلقة ، ومنه قيل للباب : وصيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 206. 211 ﴾

(212/816)

وقال الزمخشرى :

سورة البلد

مكية ، وآياتها 20 [نزلت بعد ق] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البلد (90) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (2) وَوالِدٍ وَما وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (4)

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغمورا في مكابدة المشاق والشدائد ، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ يعنى : ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم .

عن شرحبيل : يحرّمون أن يقتلوا بها صيدا ويعضدوا بها شجرة ، ويستحلون إخراجك وقتلك وفيه تثبيت من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم في عداوته . أو سلى رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم بالقسم

ببلده ، على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عنه . فقال : وأنت حل بهذا البلد ، يعنى : وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر . وذلك أنّ اللّه فتح عليه مكة وأحلها له ، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ما شاء وحرّم ما شاء . قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة . ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرّم دار أبى سفيان «1» ، ثم قال : إنّ اللّه حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ، فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . فقال العباس : يا رسول اللّه ، إلا الإذخر فإنه لقيوننا «2» وقبورنا وبيوتنا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «إلا الإذخر «3»» . فإن قلت : أين نظير قوله وَأَنْتَ حِلٌّ في معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله عز وجل إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ومثله واسع في كلام العباد ، تقول لمن تعده الإكرام والحباء : أنت مكرم محبو ، وهو في كلام اللّه أوسع ، لأنّ الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة . وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة عن وقت نزولها ، فما بال الفتح ؟ فإن قلت : ما المراد بوالد وما ولد ؟ قلت : رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ومن ولده ، أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه ابراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل ، وبمن ولده وبه . فإن قلت : لم

نكر ؟ قلت : للإبهام المستقل بالمدح والتعجب . فإن قلت : هلا قيل ومن ولد ؟ قلت : فيه ما في قوله وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ أى بأى شيء وضعت ، يعنى موضوعا عجيب الشأن .

وقيل : هما آدم وولده . وقيل :

كل والد وولد .

والكبد : أصله من قولك : كبد الرجل كبدا ، فهو أكبد : إذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة . ومنه اشتقت المكابدة ، كما قيل : كبته بمعنى أهلكه .

وأصله : كبده ، إذا أصاب كبده . قال لبيد :

يا عين هلّا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد «4»

---

(1) . تقدم . وقتل ابن خطل : متفق عليه ، وقتل مقيس بن صبابة عند أبى داود والنسائي من رواية مصعب ابن سعد عن أبيه وقتل غيرهما تقدم أيضا . ومنهم الحويرث بن نفيل . رواه الواقدي في المغازي . والمراد بقوله «حرم دار أبى سفيان قوله صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» وقد رواه إسحاق وغيره

(2) . قوله «فانه لقيوننا» القيون : جمع قين ، وهو الحداد . كذا في الصحاح . (ع)

(3) . متفق عليه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة وله طرق وألفاظ .

(4) . للبيد يرثى أخاه أربد . وكبد كبدا كتعب : وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه

حتى صار كتعب في المعنى أيضا . يقول : يا عين هلا بكيت أخي وقت قيامنا للحرب وقيام الخصوم معنا فيه . والعاملان تنازعا قوله فِي كَبَدٍ ونزل عينه منزلة من يعقل ، فخاطبها . وهلا : حرف تحضيض .

(214/816)

أي : في شدة الأمر وصعوبة الخطب .

والضمير في أَيَحْسَبُ لبعض صناديد قريش الذي كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكابد منهم ما يكابد . والمعنى : أيظن هذا الصنديد القوي في قومه المتضعف للمؤمنين : أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه ، ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم ، وأنه يقول أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ، ويدعونها معالي ومفاخر أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخارا بينهم ، يعني : أن اللّه كان يراه وكان عليه رقيبا . ويجوز أن يكون الضمير للإنسان ، على أن يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الشريف ، ومن شرفه أنك حل به مما يقترفه أهله من المآثم متحرج بريء ، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ أي في مرض : وهو مرض القلب وفساد الباطن ، يريد : الذين علم اللّه منهم حين

خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات . وقيل : الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد : هو أبو الأشد ، وكان قويا يبسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فلا ينزع إلا قطعا ويبقى موضع قدميه . وقيل : الوليد بن المغيرة لُبَداً قرئ بالضم والكسر :

جمع لبدة ولبدة ، وهو ما تلبد يريد الكثرة : وقرئ : لبدا بضمتين : جمع لبود . ولبدا : بالتشديد جمع لا بد .

[سورة البلد (90) : الآيات 8 إلى 16]

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)

فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (16)

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ يبصر بهما المرئيات وَلِساناً يترجم به عن ضمائره وَشَفَتَيْنِ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ أى طريقى الخير والشر . وقيل : الثديين فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ يعنى : فلم يشكر تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة : من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين ، ثم بالإيمان

الذي هو أصل كل طاعة ، وأساس كل خير ، بل غمط النعم « 1 » وكفر بالمنعم . والمعنى : أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضى النافع عند اللّه ، لا أن يهلك مالا لبدا في الرياء والفخار ، فيكون مثله مَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ . . .

الآية . فإن قلت : قلما تقع «إلا» الداخلة على الماضي إلا مكررة ، ونحو قوله :

فأىّ أمر سيّئ لأفعله

لا يكاد يقع ، فما لها لم تكرر في الكلام الأفصح ؟ قلت : هي متكررة في المعنى ، لأن معنى فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ فلا فك رقبة ، ولا أطعم مسكينا . ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . وقال الزجاج قوله : ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يدل على معنى : فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، ولا آمن . والاقتحام : الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . والقحمة : الشدة ، وجعل الصالحة : عقبة ، وعملها : اقتحاما لها ، لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس . وعن الحسن : عقبة واللّه شديدة . مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان . وفك الرقة : تخليصها من رق أو غيره .

وفي الحديث : أن رجلا قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : دلني على عمل يدخلني الجنة . فقال :

تعتق النسمة وتفك الرقبة . قال : أو ليسا سواء ؟ قال : لا ، إعتاقها أن تنفرد بعتقها .

وفكها :

أن تعين في تخليصها من قود أو غرم «2» . والعتق والصدقة : من أفاضل الأعمال . وعن أبى حنيفة رضى اللّه عنه : أن العتق أفضل من الصدقة . وعند صاحبيه : الصدقة أفضل ، والآية أدل على قول أبى حنيفة ، لتقديم العتق على الصدقة . وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة : أيضعه في ذى قرابة ، أو يعتق رقبة ؟ قال : الرقبة أفضل ، لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «من فك رقبة فك اللّه بكل عضو منها عضوا منه من النار «3» . قرئ : فك رقبة ، أو إطعام على : هي فك رقبة ، أو إطعام . وقرئ : فك رقبة ، أو أطعم ، على الإبدال من اقتحم العقبة . وقوله وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ اعتراض ، ومعناه : أنك لم تدركنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند اللّه . والمسغبة ، والمقربة ، والمتربة : مفعلات من سغب : إذا جاع . وقرب في النسب ، يقال : فلان ذو قرابتي .

وذو مقربتى . وترب : إذا افتقر ، ومعناه . التصق بالتراب . وأما أترب فاستغنى ، أى : صار

---

(1) . قوله «بل غمط النعم» أى : استحقرها . (ع)

(2) . أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والبخاري في الأدب المفرد ، والبيهقي في الشعب ، والثعلبي وابن مردويه والواحدي من رواية عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب وليس عند أحد منهم قوله «من قود أو غرم» وكأنه من كلام

الزمخشري.

(3) . أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر بلفظ «من أعتق رقبة» .

(216/816)

ذا مال كالتراب في الكثرة، كما قيل: أثرى. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله ذا مَتْرَبَةٍ الذي مأواه المزابل «1» ، ووصف اليوم بذي مسعبة نحو ما يقول النحويون في قولهم: هم ناصب:

ذو نصب. وقرأ الحسن: ذا مسغبة نصبه بإطعام. ومعناه: أو إطعام في يوم من الأيام ذا مسغبة.

[سورة البلد (90) : الآيات 17 إلى 20]

ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت، لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به. والمرحمة: الرحمة، أى: أوصى بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان والثبات عليه. أو

بالصبر عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن ، وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين . أو بما يؤدى إلى رحمة اللّه . الميمنة والمشأمة : اليمين والشمال . أو اليمن والشؤم ، أى : الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهنّ . قرئ : موصدة ، بالواو والهمزة ، من وصدت الباب وآصدته : إذا أطبقته وأغلقته . وعن أبى بكر بن عياش : لنا إمام يهمز مؤصدة ، فأشتهى أن أسدّ أذنى إذا سمعته .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه اللّه الأمان من غضبه يوم القيامة» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 753. 757﴾

---

(1) . أخرجه ابن مردويه من رواية مجاهد عن عبد اللّه بن عمر بهذا . وعند الحاكم عن ابن عباس : قال «هو الذي لا يقيه من التراب شيء» موقوف .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ لا أُقْسِمُ بهذا البَلَد ﴾

ومعناه على أصح الوجوه :

أُقْسِم بهذا البلد ، وفي " البلد " قولان :

أحدهما : مكة ، قاله ابن عباس .

الثاني : الحرم كله ، قاله مجاهد .

﴿ وأنتَ حلٌّ بهذا البَلَدِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : حل لك ما صنعته في هذا البلد من قتال أو غيره ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : أنت مُحِل في هذا البد غير مُحْرِم في دخولك عام الفتح ، قاله الحسن وعطاء .

الثالث : أن يستحل المشركون فيه حرمتك وحرمة من اتبعك توبيخاً للمشركين . ويحتمل رابعاً : وأنت حالٌّ أي نازل في هذا البلد ، لأنها نزلت عليه وهو بمكة لم يفرض عليه الإحرام ولم يؤْذن له في القتال ، وكانت حرمة مكة فيها أعظم ، والقسم بها أفخم .

﴿ ووالدٍ وما وَلَدَ ﴾ فيه أربعة أوجه .

أحدها : آدم وما ولد ، قاله مجاهد وقتادة والحسن والضحاك .

الثاني : أن الوالد إبراهيم وما ولد ، قاله ابو عمران الجوني .

الثالث : أن الوالد هو الذي يلد ، وما ولد هو العاقر الذي لا يلد ، قاله ابن عباس .

الرابع : أن الوالد العاقر ، وما ولد التي تلد ، قاله عكرمة .

ويحتمل خامساً : أن الوالد النبي صلى الله عليه وسلم ، لتقدم ذكره ، وما ولد أُمّته ، لقوله عليه السلام إنما أنا لكم مثل الوالد أعلّمكم ، فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده مبالغة في

تشريفه .

﴿ لقد خَلقنا الإنسانَ في كَبَدٍ ﴾ إلى ها هنا انتهى القسم وهذا جوابه . وفي قوله " في كَبَد " سبعة أقاويل :

أحدها : في انتصاب في بطن أُمّه وبعد ولادته ، خص الإنسان بذلك تشريفاً ، ولم يخلق غيره من الحيوان منتصباً ، قاله ابن عباس وعكرمة .

الثاني : في اعتدال ، لما بيّنه بعد من قوله ﴿ ألم نَجْعَلْ له عَيْنَين ﴾ الآيات ، حكاه ابن شجرة .

الثالث : يعني من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، يتكبد في الخلق مأخوذ من تكبد الدم وهو غلظه ، ومنه أخذ أسم الكبد لأنه دم قد غلظ ، وهو معنى قول مجاهد .

(218/816)

الرابع : في شدة لأنها حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، مأخوذ من المكابدة ، ومنه قول لبيد :

يا عين هلاّ بكيْتِ أَرْبَدَ إذ . . . قُمْنا وقامَ الخصومُ في كَبَدِ .

رواه ابن أبي نجيح .

الخامس : لأنه يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة ، قاله الحسن .

السادس : لأنه خلق آدم في كبد السماء ، قاله ابن زيد .

السابع : لأنه يكابد الشكر على السّراء والصبر على الضّراء ، لأنه لا يخلو من أحدهما ، رواه ابن عمر .

ويحتمل ثامناً : يريد به أنه ذو نفور وحميّة ، مأخوذ من قولهم لفلان كبَد ، إذا كان شديد النفور والحمية .

وفيمن اريد بالإنسان ها هنا قولان :

أحدهما : جميع الناس .

الثاني : الكافر يكابد شبهات .

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عليه أَحَدٌ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أيحسب الإنسان أن لن يقدر عليه الله أن يبعثه بعد الموت ، قاله السدي .

الثاني : أيحسب الإنسان أن لن يقدر عليه أحد بأخذ ماله ، قاله الحسن .

الثالث : أيحسب أن لن يذله أحد ، لأن القدرة عليه ذل له .

﴿ يقول أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني كثيراً .

الثاني : مجتمعاً بعضه على بعض ، ومنه سمي اللّبْد لاجتماعه وتلبيد بعضه على بعض .

ويحتمل ثالثاً : يعني مالاً قديماً ، لاشتقاقه من الأبد ، أو للمبالغة في قدمه من عهد لَبِد ، لأن

العرب تضرب المثل في القدم بلبد ، وذكر قدمه لطول بقائه وشدة ضَنِّه به .

وقيل إن هذا القائل أبو الشد الجمحي ، أنفق مالا كثيراً في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيل الله ، وقيل بل هو النضر بن الحارث .

وهذا القول يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون استطالة بما أنفق فيكون طغياناً منه .

الثاني : أن يكون أسفاً عليه ، فيكون ندماً منه .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن لم يره الله ، قاله مجاهد .

الثاني : أن لم يره أحد من الناس فيما أنفقه ، قاله ابن شجرة .

(219/816)

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أيحسب أن لم يظهر ما فعله أن لا يؤاخذ به ، على وجه التهديد ، كما يقول الإنسان لمن ينكر عليه فعله ، قد رأيت ما صنعت ، تهديداً له فيكون الكلام على هذا الوجه وعيداً ، وعلى ما تقدم تكذيباً .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ فيهما أربعة تأويلات :

أحدها : سبيل الخير والشر ، قاله علي رضي الله عنه والحسن .

الثاني : سبيل الهدى والضلالة ، قاله ابن عباس .

الثالث : سبيل الشقاء والسعادة ، قاله مجاهد .

الرابع : الثديين ليتغذى بهما ، قاله قتادة والربيع بن خثيم .

قال قطرب : والنجد هو الطريق المرتفع ، فأرض نجد هي المرتفعة ، وأرض تهامة هي المنخفضة .

ويحتمل على هذا الاشتقاق خامساً : أنهما الجنة والنار ، لارتفاعهما عن الأرض .

﴿ فلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ﴾ فيها خمسة أقاويل :

أحدها : أنها طريق النجاة ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنها جبل في جهنم ، قاله ابن عمر .

الثالث : أنها نار دون الحشر ، قاله قتادة .

الرابع : أنها الصراط يضرب على جهنم كحد السيف ، قاله الضحاك ، قال الكلبي : صعوداً وهبوطاً .

الخامس : أن يحاسب نفسه وهواه وعدوّه الشيطان ، قاله الحسن .

قال الحسن : عقبة والله شديدة .

ويحتمل سادساً : اقتحام العقبة خالصة من الغرض .

وفي معنى الكلام وجهان :

أحدهما : اقتحام العقبة فك رقبة ، قاله الزجاج .

الثاني : معناه فلم يقتحم العقبة إلا مَنْ فكَّ رقبة أو أطعم ، قاله الأخفش .

ثم قال : ﴿ وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ ﴾ وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليعلمه اقتحام العقبة .

ثم بين تعالى ما تقتحم به العقبة .

فقال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إخلاصها من الأسر .

الثاني : عتقها من الرق ، وسمي المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط من رقبته ، وسمي عتقاً فكها لأنه كفك الأسير من الأسر ، قال حسان بن ثابت :

كم مِن أسيرٍ فككناه بلا ثَمنٍ . . . وجَزّ ناصية كُنّأ مَواليها

(220/816)

وروى عقبة بن عامر الجهني أن النبي عليه السلام قال : من أعتق مؤمنة فهي فداؤه من النار .

ويحتمل ثالثاً : أنه أرد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصي وفعل الطاعات ، لا يمنع الخبر من هذا التأويل ، وهو أشبه الصواب .

ثم قال تعالى : ﴿ أو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ ﴾ أي مجاعة ، لقحط أو غلاء .

﴿ يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ ﴾ ويحتمل أن يريد ذا جوار .

﴿ أو مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ﴾ فيه سبعة أوجه :

أحدها : أن ذا المتربة هو المطروح على الطريق لا بيت له ، قاله ابن عباس ، الثاني : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه ذو العيال ، قاله قتادة .

الرابع : أنه المديون ، قاله عكرمة .

الخامس : أنه ذو زمانة ، قاله ابو سنان .

السادس : أنه الذي ليس له أحد ، قاله ابن جبير .

السابع : أن ذا المتربة : البعيد التربة ، يعني الغريب البعيد عن وطنه ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

﴿ ثُمَّ كانَ مِنَ الذين آمَنوا وَتَوَاصَوْا بالصَّبْر ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بالصبر على طاعة الله ، قاله الحسن .

الثاني : بالصبر على ما افترض الله عليه ، قاله هشام بن حسان .

الثالث : بالصبر على ما أصابهم ، قاله سفيان .

ويحتمل رابعاً : بالصبر على الدنيا وعن شهواتها .

﴿ وتَواصَوْا بالمَرْحَمَةِ ﴾ أي بالتراحم فيما بينهم ، فرحموا الناس كلهم ويحتمل ثانياً :

وتواصوا بالآخرة لأنها دار الرحمة ، فيتواصوا بترك الدنيا وطلب الآخرة .

﴿ أولئك أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ يعني الجنة ، وفي تسميتهم أصحاب الميمنة أربعة أوجه :

أحدها : لأنهم أُخذوا من شق آدم الأيمن ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : لأنهم أوتوا كتابهم بأيمانهم ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : لأنهم ميامين على أنفسهم ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : لأنه منزلهم على اليمين ، قاله ميمون .

﴿ والّذِين كَفَروا بآياتِنا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالقرآن ، قاله ابن جبير .

(221/816)

الثاني : هي جميع دلائل الله وحُججه ، قاله ابن كامل .

﴿ هُمْ أصحابُ المشْأَمةِ ﴾ يعني جهنم ، وفي تسميتهم بذلك أربعة أوجه :

أحدها : لأنهم أُخذوا من شق آدم الأيسر ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : لأنهم أُوتوا كتابهم بشمالهم ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : لأنهم مشائيم على أنفسهم ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : لأن منزلهم عن اليسار ، وهو مقتضى قول ميمون .

﴿ عليهم نارٌ مُّؤصَدَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : المؤصدة المطبقة ، قاله ابن عباس وأبو هريرة وقتادة .

الثاني : مسدودة ، قاله مجاهد .

الثالث : لها حائط لا باب له ، قاله الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 280.274 ﴾

(222/816)

وقال ابن الجوزى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا أقسم ﴾ قال الزجاج : المعنى : أقسم .

و"لا" دخلت توكيداً ، كقوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : 29] وقرأ

عكرمة ، ومجاهد ، وأبو عمران ، وأبو العالية ، "لأُقْسِمُ" قال الزجاج : وهذه القراءة بعيدة في العربية ، وقد شرحنا هذا في أول "القيامة" .

قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

و﴿ البلد ﴾ هاهنا : مكة .

أحدها : حل لك ما صنعت في هذا البلد من قَتْلٍ أو غيره ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

قال الزجاج : يقال : رجل حِلٌّ ، وحَلاَل ، ومُحِلٌّ .

قال المفسرون : والمعنى : إن الله تعالى وعد نبيَّه أن يفتح مكة على يديه بأن يُحلَّها له ، فيكون فيها حِلاًّ .

والثاني : فأنت مُحِلٌّ بهذا البلد غير مُحْرِم في دخوله ، يعني : عام الفتح ، قاله الحسن ، وعطاء .

والثالث : أن المشركين بهذا البلد يستحلون إخراجك وقتلك ، ويحرِّمون قتل الصيد ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ ووالدٍ وما ولد ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه آدم وما ولد ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة .

والثاني : أولاد إبراهيم ، وما ولد : ذريته ، قاله أبو عمران الجوني .

والثالث : أنه عامٌّ في كل والدٍ وما ولد ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان ﴾ هذا جواب القسم .

وفيمن عنى بالإنسان خمسة أقوال .

أحدهما : أنه اسم جنس ، وهو معنى قول ابن عباس .

والثاني : أنه أبو الأشدين الجمحي ، وقد سبق ذكره ، [المدثر : 29 ، والانفطار : 5] قاله الحسن .

والثالث : أنه الحارث بن عامر بن نوفل ، وذلك أنه أذنب ذنباً ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالكفارة ، فقال : لقد ذهب مالي في الكفارات ، والنفقات منذ دخلت في دين محمد ، قاله مقاتل .

والرابع : آدم عليه السلام ، قاله ابن زيد .

والخامس : الوليد بن المغيرة ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ في كَبَدٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

(223/816)

أحدها : في نَصَبٍ ، رواه الوالبي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو عبيدة ، فإنهم قالوا : في شدة .

قال الحسن : يكابد الشكر على السَّرَّاء والصبر على الضَّرَّاء ، لأنه لا يخلو من أحدهما ويكابد مصائب الدنيا ، وشدائد الآخرة .

قال ابن قتيبة : في شدة غلبةٍ ومكابدةٍ لأمور الدنيا والآخرة ، فعلى هذا يكون من مكابدة الأمر ، وهي معاناته .

والثاني : أن المعنى : خلق منتصباً يمشي على رجلين ، وسائر الحيوان غير منتصب ، رواه مقسم عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، والضحاك ، وعطية ، والفراء ، فعلى هذا يكون معنى الكبد : الاستواء والاستقامة .

والثالث : في وسط السماء ، قال ابن زيد : "لقد خلقنا الإنسان" يعني : آدم "في كبد" أي : في وسط السماء .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ يعني اللهَ عز وجل أي : [أيحسب أن] لن نقدر على بعثه ، ومعاقبته ؟ ! ﴿ يقول أهلكت مالا لُبَداً ﴾ أي : كثيراً ، قال أبو عبيدة : هو فعل من التلبُّد ، وهو المال الكثير بعضه على بعض .

قال ابن قتيبة : وهو المال المتلبد ، كأنَّ بعضَه على بعض .

قال الزجاج : وهو فعل للكثرة ، كما يقال : رجل حُطَم : إذا كان كثير الحطم ، وقرأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وعائشة ، وأبو عبد الرحمن ، وقتادة ، وأبو العالية ، وأبو جعفر "لُبَّدا" بضم اللام ، وتشديد الباء مفتوحة ، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأبو

المتوكل ، وأبو عمران "لَبْدا" بفتح اللام وتسكين الباء خفيفة .

وقرأ عثمان بن عفان ، والحسن ، ومجاهد ، "لُبُداً" برفع اللام والباء وتخفيفهما .

وقرأ علي وابن أبي الجوزاء "لِبَدَاً" بكسر اللام ، وفتح الباء مخففة .

وفيما قال لأجله ذلك قولان .

أحدهما : أنه أراد : أهلكت مالاً كثيراً في عداوة محمد ، قاله ابن السائب ، فكأنه استطال بما أنفق .

والثاني : أنفقت في سبيل الله وفي الكفارات مالاً كثيراً ، قاله مقاتل .

فكأنه ندم على ما أنفق .

(224/816)

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لم يَرَهُ أحد ﴾ يعني اللهَ عز وجل : والمعنى : أيظن أن الله لم ير نفقته ، ولم يُحْصِها ؟ ! وكان قد ادعى ما لم ينفق .

قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ والمعنى : ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على بعثه ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ وهديناه النَّجدين ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : سبيل الخير والشر ، قاله علي ، والحسن ، والفراء .

وقال ابن قتيبة : يريد طريق الخير والشر .

وقال الزجاج : النجدان : الطريقان الواضحان .

والنجد : المرتفع من الأرض ، فالمعنى : ألم نُعرِّفه طريق الخير والشر كَتَبَيُّن الطريقين العاليين .

والثاني : سبيل الهدى والضلال ، قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : هو سبيل الشقاوة والسعادة .

والثالث : الثديانِ ليتغذى بلبنهما ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال ابن المسيب ، والضحاك ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قال أبو عبيدة : فلم يقتحم العقبة [في الدنيا] .

وقال ابن قتيبة : فلا هو اقتحم العقبة .

قال الفراء : لم يضم إلى قوله تعالى : فلا اقتحم العقبة كلاماً آخر فيه "لا" ، والعرب لا تكاد تفرد "لا" في الكلام حتى يعيدوها عليه في كلام آخر ، كقوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : 31] ، ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : 62] . ومعنى "لا" مأخوذ من آخر هذا الكلام ، فاكتفى بواحدة من الأخرى ، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة ، فقال : فكُّ رقبة .

﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ ففسرها بثلاثة أشياء .

فكأنه كان في أول الكلام : فلا فعل ذا ، ولا ذا .

وذهب ابن زيد في آخرين إلى أن المعنى : أفلا اقتحم العقبة ؟ على وجه الاستفهام ،

والمعنى : فهلاَّ أنفق ماله في فَكِّ الرِّقاب والإطعام ليجاوز بذلك العقبة ؟ !

فأما الاقتحام فقد بَيَّناه في [ص : 59] .

وفي العقبة سبعة أقوال .

أحدها : أنه جبل في جهنم ، قاله ابن عمر .

والثاني : عقبة دون الجسر ، قاله الحسن .

(225/816)

والثالث : سبعون دركة في جهنم ، قاله كعب .

والرابع : الصراط ، قاله مجاهد ، والضحاك .

والخامس : نار دون الجسر ، قاله قتادة .

والسادس : طريق النجاة ، قاله ابن زيد .

والسابع : أن ذكر العقبة ها هنا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البِرِّ ، فجعله كالذي يتكلَّف صعود العقبة .

يقول : لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والإطعام ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري في آخرين .

قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ قال سفيان بن عيينة : كلُّ ما فيه "وما أدراك" فقد أخبره به ، وكلُّ ما فيه "وما يدريك" فإنه لم يخبره به .

قال المفسرون : المعنى : وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ ثم بيَّنه فقال تعالى : ﴿ فَكُّ رقبة ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، إلا عبد الوارث ، والكسائي ، والداجوني عن ابن ذكوان "فَكَّ" بفتح الكاف "رَقَبَةَ" بالنصب "أو أطعم" بفتح الهمزة والميم وسكون الطاء من غير ألف .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، ونافع ، وحمزة "فَكُّ" بالرفع "رقبةٍ" بالخفض "أو إطعامٌ" بالألف .

ومعنى فك الرقبة : تخليصها من أسر الرق ، وكل شيء أطلقته فقد فككْتَه .

ومن قرأ "فَكَّ رقبَةَ" على الفعل ، فهو تفسير اقتحام العقبة بالفعل ، واختاره الفراء ، لقوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ قال ابن قتيبة : والمسغبة : المجاعة ، يقال : سَغِبَ يَسْغَبُ سُغُوباً : إذا جاع ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي : ذا قرابة ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي : ذا فقر كأنه لَصِق بالتراب .

وقال ابن عباس : هو المطروح في التراب لا يقيه شيء .

ثم بين أن هذه القُرَبَ إنما تنفع مع الإيمان بقوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ و "ثم" هاهنا بمعنى الواو ، كقوله تعالى : ﴿ ثم الله شهيد ﴾ [يونس : 46] .

قوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ على فرائض الله وأمره ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي : بالتراحم بينهم .

(226/816)

وقد ذكرنا أصحاب الميمنة والمشأمة في [الواقعة : 7 ، 8] قال الفراء : و "المؤصدة" المطبقة .

قال مقاتل : يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ، ولا يخرج منها غم ، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد .

وقال ابن قتيبة : يقال : أَوْصَدْتُ الباب وآصدته : إذا أطبقته .

وقال الزجاج : المعنى : أن العذاب مطبق عليهم .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم "موصدة" بغير همز هاهنا وفي [الهمزة : 8] وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، وحفص عن عاصم بالهمز في الموضعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 126.136 ﴾

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾

تقدم الكلام على قوله لا أقسم في أول سورة القيامة ، والبلد هي مكة في قول جميع المفسرين .

﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ أي مقيم به ، نازل فيه ، فكأنه عظّم حرمة مكة من أجل أنه (صلى الله عليه وسلم) مقيم بها وقيل حل أي حلال ، والمعنى أحلت لك تصنع فيها ما تريد من القتل ، والأسر ، ليس عليك ما على الناس من الإثم في استحلالها ، أحل الله عزّ وجلّ له مكة يوم الفتح حتى قاتل ، وأمر بقتل ابن خطل ، وهو متعلق بأستار الكعبة ، ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وأحل دماء قوم ، وحرم دماء قوم آخرين ، فقال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم قال بعد ذلك إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، ولم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، والمعنى أن الله تعالى لما أقسم بمكة دل ذلك على عظم قدرها ، وشرفها ، وحرمتها ، ومع ذلك فقد وعد

نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، أنه يحلها له حتى يقاتل فيها ، وأن يفتحها على يده ، فهذا وعد من الله تعالى في الماضي ، وهو مقيم بمكة أن يفتحها عليه في المستقبل بعد الهجرة ، وخروجه منها ، فكان كما وعده ، وقيل في معنى قوله ﴿ وأنت حلّ بهذا البلد ﴾ ، أي أنهم يحرمون أن يقتلوا به صيداً ، ويستحلون قتلك فيه ، وإخراجك منه .

(228/816)

﴿ ووالد وما ولد ﴾ يعني آدم وذريته أقسم الله تعالى بمكة لشرفها ، وحرمتها ، وبآدم ، وبالأنبياء والصالحين من ذريته ، لأن الكافر وإن كان من ذريته فلا حرمة له حتى يقسم به ، وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال ابن عباس : في نصب ، وقيل يكابد مصائب الدنيا ، وشدائد الآخرة ، وعنه أيضاً قال : في شدة من حمله ، وولادته ، ورضاعه ، وفطامه ، وفصاله ، ومعاشه ، وحياته ، وموته وأصل الكبد الشدة ، وقيل لم يخلق الله خلقاً يكابد ، ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك أضعف الخلق ، وعن ابن عباس أيضاً قال : الكبد الاستواء ، والاستقامة ، فعلى هذا يكون المعنى ، خلقنا الإنسان منتصباً معتدل القامة ، وكل شيء من الحيوان يمشي منكباً ، وقيل منتصباً ، رأسه في بطن أمه فإذا أذن الله في خروجه انقلب رأسه إلى أسفل ، وقيل في كبد أي في قوة نزلت في

أبي الأشد أسيد بن كلدة بن جمح ، وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه ، ويقول من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يطاق أن ينزع من تحت قدميه إلا قطعاً ، ويبقى من ذلك الأديم بقدر موضع قدميه .

﴿ أيحسب ﴾ أبو الأشد من قوته ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ يعني أيظن لشدته في نفسه ، أنه لا يقدر عليه الله ، وقيل هو الوليد بن المغيرة المخزومي .

﴿ يقول ﴾ يعني هذا الكافر ﴿ أهلكت ﴾ أي أنفقت ﴿ مالاً لبداً ﴾ أي كثيراً من التلبيد الذي يكون بعضه فوق بعض .

يعني في عداوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ يعني أيظن أن الله لم يره ، ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وقيل كان كاذباً في قوله ، إنه أنفق ولم ينفق جميع ما قال والمعنى أيظن أن الله لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته .

(229/816)

ثم ذكره نعمه عليه ليعتبر فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ﴾ يعني أن نعم الله على عبده متظاهرة ، يقروه بها كي يشكره ، وجاء في الحديث " إن الله عزّ وجلّ يقول : ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عليه ،

وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عليه ، وإن نازعك فرجك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عليه " ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال أكثر المفسرين طريق الخير والشر والحق ، والباطل ، والهدى ، والضلالة ، وقال ابن عباس : الثديين ﴿ فلا أقتحم العقبة ﴾ أي فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام المساكين يكون ذلك خيراً له من إنفاقه في عداوة من أرسله الله إليه ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل معناه لم يقتحمها ولا جاوزها والاقتحام الدّخول في الأمر الشّديد ، وذكر العقبة مثل ضربه الله تعالى : لمجاهدة النّفس ، والهوى ، والشّيطان في أعمال الخير ، والبر ، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة يقول الله عزّ وجلّ : لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرّقبة ، والإطعام ، وقيل إنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بالعقبة ، فإذا أعتق رقبة وأطعم المساكين .

(230/816)

كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها ، وروي عن ابن عمر أن هذه العقبة جبل في جهنم ، وقيل هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله ومجاهدة النفس ، وقيل هي الصّراط يضرب على متن جهنم كحد السّيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة سهلاً وصعوداً

وهبوطاً ، وأن بجنبيه كلاليب وخطاطيف ، كأنها شوك السّعدان فناج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكردس في الناس منكوس ، فمن الناس من يمر كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمر كالريح العاصف ، ومنهم من يمر كالفارس ، ومنهم من يمر كالرّجل يعدو ، ومنهم من يمر كالرجل يسير ، ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم الزّالون ومنهم من يكردس في النار ، وقيل معنى الآية : فهلا سلك طريق النجاة ثم بين ما هي .

(231/816)

﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة ﴿ فك رقبة ﴾ يعني عتق الرقبة وهو إيجاب الحرية لها ، وإبطال الرق ، والعبودية عنها ، وذلك بأن يعتق الرجل الرّقبة التي في ملكه ، أو يعطي مكاتباً ما يصرفه في فكاك رقبته ومن أعتق رقبة كانت فداءه من النار (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه " وروى البغوي بسنده عن البراء بن عازب قال : " جاء أعرابي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة قال لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسالة أعتق النّسمة ، وفك الرّقبة قال أوليسا واحداً قال لا عتق النسمة أن

تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها والمنحة الوكوف والفيء على ذي الرحم الظّالم ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظّمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير " وقيل في معنى الآية وفك رقبة من رق الذّنوب بالتّوبة وبما يتكلفه من العبادات ، والطاعات التي يصير بها إلى رضوان الله ، والجنة فهي الحرية الكبرى ويتخلص بها من النار ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي في يوم ذي مجاعة والسغب الجوع ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي ذا قرابة يريد يتيماً بينك وبينه قرابة ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ يعني قد لصق بالتراب من فقره وضره وقال ابن عباس : هو المطروح في التّراب لا يقيه شيء والمتربة الفقر ، ثم بين أن هذه القرب لا تنفع إلا مع الإيمان بقوله ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ والمعنى أنه كان مؤمناً تنفعه هذه القرب ، وكان مقتحماً العقبة ، وإن لم يكن مؤمناً لا تنفعه هذه القرب ولا يقتحم العقبة ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ يعني وصى بعضهم بعضاً على الصبر على أداء الفرائض ، وجميع أوامر الله ونواهيه .

(232/816)

﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي برحمة الناس وفيه الإشارة إلى تعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله .

﴿ أولئك ﴾ يعني أهل هذه الخصال ﴿ أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ﴾ يعني مطبقة عليهم أبوابها لا يدخل فيها روح ولا يخرج منها غم.

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 248. 251 ﴾

(233/816)

وقال النسفى :

سورة البلد

﴿ لآ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق.

واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ أي ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد يعني مكة كما يستحل الصيد في غير الحرم.

عن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويستحلون إخراجك وقتلك ، وفيه تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ،

وتعجيب من حالهم في عداوته .

أو سلى رسول الله بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ .

أي وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له ، فأحل ما شاء وحرم ما شاء ، قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرم دار أبي سفيان ونظير قوله ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ ﴾ في الاستقبال قوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

وكفاك دليلاً على أنه للاستقبال أن السورة مكية بالاتفاق ، وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح ؟

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ هما آدم وولده ، أو كل والد وولده ، أو إبراهيم وولده ، و "ما" بمعنى "من" أو بمعنى "الذي" ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ جواب القسم ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ مشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .

وعن ذي النون : لم يزل مربوطاً بحبل القضاء مدعواً إلى الائتمار والانتهاء .

والضمير في ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ لبعض صناديد قريش الذين كان رسول

الله صلى الله عليه وسلم يكابد منهم ما يكابد ، ثم قيل هو أبو الأشد .

وقيل : الوليد بن المغيرة .

(234/816)

والمعنى أيظن هذا الصنديد القوي في قومه المتصعب للمؤمنين أن لن تقوم قيامه ولن يقدر على الانتقام منه ، ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم وأنه ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاًّ لُّبَداً ﴾ أي كثيراً جمع لبدة وهو ما تلبد أي كثر واجتمع ، يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ومعالي ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياء وافتخاراً يعني أن الله تعالى كان يراه وكان عليه رقيباً .

ثم ذكر نعمه عليه فقال ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما المرئيات ﴿ وَلِسَاناً ﴾ يعبر عما في ضميره ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما ثغره ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ ﴿ وهديناه النجدين ﴾ طريقي الخير والشر المفضيين إلى الجنة والنار وقيل الثديين .

﴿ فَلاَ اقتحم العقبة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني فلم يشكر

تلك الآيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب أو إطعام اليتامى والمساكين ، ثم بالإيمان الذي هو أصل كل طاعة وأساس كل خير ، بل غمط النعم وكفر بالمنعم .

والمعنى أن الإنفاق على هذا الوجه مرضي نافع عند الله لا أن يهلك ماله لبداً في الرياء والفخار .

وقلما تستعمل "لا" مع الماضي إلا مكررة ، وإنما لم تكرر في الكلام الأفصح لأنه لما فسر اقتحام القبة بثلاثة أشياء صار كأنه أعاد "لا" ثلاث مرات وتقديره : فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ولا آمن .

والاقتحام الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة ، والقُحمة الشدة فجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحاماً لها في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس .

وعن الحسن : عقبة والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان .

(235/816)

والمراد بقوله ﴿ مَا العقبة ﴾ ما اقتحامها ومعناه أنك لم تدركنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله .

وفك الرقبة تخليصها من الرق والإعانة في مال الكتابة .

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ مكي وأبو عمرو وعلي على الإبدال من اقتحم العقبة ، وقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ اعتراض .

غيرهم ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ على : اقتحامها فك رقبة أو إطعام .

والمسغبة المجاعة ، والمقربة القرابة ، والمتربة الفقر ، مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب .

يقال : فلان ذو قرابتي وذو مقربتي .

وترب إذا افتقر ومعناه التصق بالتراب فيكون مأواه المزابل ووصف اليوم بذي مسغبة كقولهم همٌّ ناصب أي ذو نصب .

ومعنى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ أي داوم على الإيمان .

وقيل : "ثم" بمعنى الواو .

وقيل : إنما جاء ب "ثم" لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت ، إذ الإيمان هو السابق على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات والمحن التي يبتلى بها المؤمن ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ بالتراحم فيما بينهم ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي المصوفون بهذه الصفات من أصحاب الميمنة ﴿ والذين كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ بالقرآن أو بدلائلنا ﴿ هُمْ أصحاب المشئمة ﴾ أصحاب الشمال والميمنة والمشأمة اليمين والشمال ، أو اليمن والشؤم أي الميامين على

أنفسهم والمشائيم عليهن ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ وبالهمز : أبو عمرو وحمزة وحفص أي مطبقة من أوصدت الباب وآصدته إذا أطبقته وأغلقته والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 357.359 ﴾

(236/816)

وقال ابن جزى :

سورة البلد

﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾

(237/816)

أراد مكة باتفاق ، وأقسم بها تشريفاً لها ولا زائدة ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ هذه جملة اعتراض بين القسم وما بعده وفي معناها ثلاثة أقوال : أحدها أن المعنى أنت حال بهذا البلد أي ساكن ، لأن السورة نزلت والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، والآخر أن معنى حِلّ تستحل حرمتك ويؤذيك الكفار مع أن مكة لا يحل فيها قتل صيد ولا بشر ولا قطع

شجر ، وعلى هذا قيل : لا أقسم يعني لا أقسم بهذا البلد وأنت تحلقك فيه إذاية . الثالث أن معنى حل حلال يجوز لك في هذا البلد ما شئت من قتالك الكفار وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك ، وهذا هو الأظهر لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا البلد حرام حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، لم يحل لأحد قبلي ولا يحل لأحد بعدي ، وإنما أحل لي ساعة من نهار يعني يوم فتح مكة ، وفي ذلك اليوم أمر عليه الصلاة والسلام بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة " ، فإن قيل : إن السورة مكية وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة ؟ فالجواب : أن هذا وعد بفتح مكة كما تقول لمن تعده بالكرامة : أنت مكرم يعني فيما يستقبل ، وقيل : إن السورة على هذا مدنية نزلت يوم الفتح ، وهذا ضعيف ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها : أنه أراد آدم وجميع ولده ، الثاني : نوح وولده ، الثالث إبراهيم وولده ، الرابع سيدنا محمد عليه الصلاة السلام وولده ، الخامس جنس كل والد ومولود وإما قال : وما ولد ولم يقل ومن ولد : إشارة إلى تعظيم المولود كقوله : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران : 36] قاله الزمخشري ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ﴾ أي يكابد المشقات من هموم الدنيا والآخرة ، قال بعضهم : لا يكابد أحد من المخلوقات ما يكابد ابن آدم ، وأصل الكبد من قولك كبد الرجل فهو أكبد إذا وجعت كبده وقيل : معنى في كبد واقفاً منتصب القامة . وهذا ضعيف . والإنسان على هذين القولين جنس ، وقيل : الإنسان آدم عليه السلام ،

ومعنى في كبد على هذا في السماء وهذا ضعيف والأول هو الصحيح .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ فيه قولان : أحدهما أن معناه أيظن أن لن يقدر أحد على بعثه وجزائه ، والآخر : أيظن أن لن يقدر أحد أن يغلبه ، فعلى الأول : نزلت في جنس الإنسان الكافر ، وعلى الثاني : نزلت في رجل معين وهو أبو الأشد رجل من قريش ، كان شديد القوة ، عمرو بن عبد ودّ وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة وقتله علي بن أبي طالب ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ أي كثيراً ، وقرئ لُبدا بضم اللام وكسرها ، وهو جمع لبدة بالضم والكسر بمعنى الكثرة : ونزلت الآية عند قوم في الوليد بن المغيرة ، فإنه أنفق مالاً في إفساد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل في الحرث بن عامر بن نوفل وكان قد أسلم وأنفق في الصدقات والكفارات ، فقال لقد أهلكت مالي منذ تبعت محمداً ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ يحتمل أن يكون هذا تكذيباً له في قوله : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ ، أو إشارة إلى أنه أنفقه رياء .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ أي طريقي الخير والشر فهو كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] ، وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد وقيل : يعني ثديي الأم ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ الاقتحام الدخول بشدّة ومشقة ، والعقبة عبارة عن الأعمال ، الصالحة المذكورة بعد ، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس ، وقيل : هو جبل في جهنم له عقبة لا يجاوزها إلا من عمل هذه الأعمال ولا هنا تخصيص بمعنى هلا وقيل : هي دعاء ، وقيل : هي نافية واعترض هذا القول بأن لا النافية إذا دخلت على الفعل الماضي لزم تكرارها ، وأجاب الزمخشري بأنها مكررة في المعنى ، والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً . وقال الزجاج قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ [البلد : 17] يدل على التكرار لأن التقدير فلا اقتحم العقبة ولا آمن ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ للعقبة ثم فسرها بفك الرقبة وهو إعتاقها بالإطعام وقرئ فك رقبة بضم الكاف وخفض الرقبة ، وهو على هذا تفسير للعقبة وبفتح الكاف ونصب الرقبة وهو تفسير لاقتحم وفك الرقبة : هو عتقها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار " وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " دلني على عمل أنجو به فقال : فك الرقبة وأعتق النسمة ، فقال الأعرابي : أليس هذا واحداً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ، إعتاق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها " ، وأما فك

أسارى المسلمين من أيدي الكافرين فإنه أعظم أجراً من العتق لأنه واجب ، ولو استغرقت فيه أموال المسلمين ولكنه لا يجري في الكفارات عن عتق رقبة ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ من قرأ فكُ بالرفع قرأ إطعام بالعطف مصدر على مصدر ومن قرأ فكَ بالفتح قرأ أَطْعَمَ بفتح الهمزة والميم فعطف فعلاً على

(240/816)

فعل ﴿ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أي مجاعة يقال سغب الرجل إذا جاع ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي ذا قرابة ففيه أجر إطعام اليتيم وصلة الرحم ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي ذا حاجة ، يقال : تَرِبَ الرجل إذا افتقر ، وهو مأخوذ من الصدقة بالتراب وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه الذي مأواه المزابل .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ ثم هنا للتراخي في الرتبة لا في الزمان ، وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام ، ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق . والإطعام ولا يقبل عمل إلا من مؤمن ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ وصّى بعضهم بعضاً بالصبر على قضاء الله ، وكأن هذا إشارة إلى صبر المسلمين بمكة على إذاية الكفار ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ أي وصى بعضهم بعضاً برحمة المساكين وغيرهم ، وقيل

: الرحمة كل ما يؤدي إلى رحمة الله ﴿ الميمنة ﴾ جهة اليمين ﴿ المشأمة ﴾ جهة الشمال ، وروي أن الميمنة عن يمين العرش ويحتمل أن يكونا من اليمين والشؤم ﴿ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطقبة مغلقة يقال : أوصدت الباب إذا أغلقته وفيه لغتان الهمزة وترك الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 199 . 201 ﴾

(241/816)

وقال البيضاوى :

سورة البلد

مكية وآيها عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلول الرسول عليه الصلاة والسلام فيه إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله . وقيل ﴿ حِلٌّ ﴾ مستحل تعرضك فيه كما يستحل تعرض الصيد في غيره ، أو حلال لك أن تفعل فيه ما تريد ساعة من النهار فهو وعد بما أحل له عام الفتح .

﴿ وَوَالِدٍ ﴾ عطف على ﴿ هذا البلد ﴾ والوالد آدم أو إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ ذريته أو محمد عليه الصلاة والسلام، والتنكير للتعظيم وإيثار ما على من لمعنى التعجب كما في قوله ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى كَبَدٍ ﴾ تعب ومشقة من كبد الرجل كبداً إذا وجعت كبده ومنه المكابدة، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقه ومنتهاها الموت وما بعده، وهو تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام مما كان يكابده من قريش والضمير في ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ لبعضهم الذي كان يكابد من أكثر، أو يفتر بقوته كأبي الأشد بن كلدة فإنه كان يبسط تحت قدميه أديم عكاظي ويجذبه عشرة فينقطع ولا تزال قدماه، أو لكل أحد منهم أو للإنسان. ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ فينتقم منه.

﴿ يقُولُ ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ كثيراً، من تلبد الشيء إذا اجتمع، والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة، أو معاداة للرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ حين كان ينفق أو بعد ذلك فيسأله عنه، يعني أن الله سبحانه وتعالى يراه فيجازيه، أو يجده فيحاسبه عليه ثم بين ذلك بقوله:

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما.

﴿ وَلِسَاناً ﴾ يترجم به عن ضميره. ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها.

﴿ وهديناه النجدين ﴾ طريقي الخير والشر ، أو الثديين وأصله المكان المرتفع .

﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد ، و﴿ العقبة ﴾ الطريق في الجبل استعارها بما فسرها عزَّ وجلّ به من الفك والإطعام في قوله :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ لما فيهما من مجاهدة النفس ولتعدد المراد بها حسن وقوع لا موقع لم فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة ، إذ المعنى : فَلاَ فَكَ رَقَبَةً ولا أَطْعَمَ يَتِيماً أو مسكيناً . والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب وترب إذا افتقر ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي " فَكُّ رَقَبَةٍ أو أطعم" على الإبدال من ﴿ اقتحم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ اعتراض معناه إنك لم تدر كنه صعوبتها وثوابها .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ عطفه على ﴿ اقتحم ﴾ ، أو ﴿ فَكُّ ﴾ ب ﴿ ثُمَّ ﴾ لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام في الرتبة لاستقلاله واشتراط سائر الطاعات به . ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ وأوصى بعضهم بعضاً . ﴿ بالصبر ﴾ على طاعة الله تعالى . ﴿ وَتَوَاصَوْاْ

بالمرحمة ﴾ بالرحمة على عباده ، أو بموجبات رحمة الله تعالى .

﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ اليمين أو اليمن .

﴿ والذين كَفَرُواْ بآياتنا ﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن . ﴿ هُمْ أصحاب المشئمة ﴾ الشمال أو الشؤم ، ولتكرير ذكر المؤمنين باسم الإِشارة والكفار بالضمير شأن لا يخفى .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقته . وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص بالهمزة من آصدته .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمان من غضبه يوم القيامة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 494.492 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة البلد

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

﴿ وأنت حل ﴾ : جملة حالية تفيد تعظيم المقسم به ، أي فأنت مقيم به ، وهذا هو الظاهر .

وقال ابن عباس وجماعة : معناه : وأنت حلال بهذا البلد ، يحل لك فيه قتل من شئت ، وكان هذا يوم فتح مكة .

وقال ابن عطية : وهذا يتركب على قول من قال لا نافية ، أي إن هذا البلد لا يقسم الله به ، وقد جاء أهله بأعمال توجب الإحلال ، إحلال حرمته .

وقال شرحبيل بن سعد : يعني ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ ، جعلوك حلالاً مستحل الأذى والقتل والإخراج ، وهذا القول بدأ به الزمخشري ، وقال : وفيه بعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجب من حالهم في عداوته ، أو سلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه ، فقال : وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريده من القتل والأسر .

ثم قال الزمخشري : بعد كلام طويل : فإن قلت : أين نظير قوله : ﴿ وأنت حل ﴾ في معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله عز وجل : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ واسع في كلام العباد ، تقول لمن تعده الإكرام والحبا : وأنت مكرم محبو ، وهو في كلام الله أوسع ، لأن الأحوال

المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ، وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال .

إن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها ؟ فما بال الفتح ؟ انتهى .

وحمله على أن الجملة اعتراضية لا يتعين ، وقد ذكرنا أولاً أنها جملة حالية ، وبينا حسن موقعها ، وهي حال مقارنة ، لا مقدرة ولا محكية ؛ فليست من الإخبار بالمستقبل .

(244/816)

وأما سؤاله والجواب ، فهذا لا يسأله من له أدنى تعلق بالنحو ، لأن الأخبار قد تكون بالمستقبلات ، وإن اسم الفاعل وما يجري مجراه حالة إسناده أو الوصف به لا يتعين حمله على الحال ، بل يكون للماضي تارة ، وللحال أخرى ، وللمستقبل أخرى ؛ وهذا من مبادىء علم النحو .

وأما قوله : وكفاك دليلاً قاطعاً الخ ، فليس بشيء ، لأنا لم نحمل ﴿ وأنت حل ﴾ على أنه يحل لك ما تصنع في مكة من الأسر والقتل في وقت نزولها بمكة فتنافيا ، بل حملناه على أنه مقيم بها خاصة ، وهو وقت النزول كان مقيماً بها ضرورة .

وأيضاً فما حكاه من الاتفاق على أنها نزلت بمكة فليس بصحيح ، وقد حكى الخلاف

فيها عن قول ابن عطية ، ولا يدل قوله : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ على ما ذكروه من أن المعنى يستحل إذ ذاك ، ولا على أنك تستحل فيه أشياء ، بل الظاهر ما ذكرناه أولاً من أنه تعالى أقسم بها لما جمعت من الشرفين ، شرفها بإضافتها إلى الله تعالى ، وشرفها بحضور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإقامته فيها ، فصارت أهلاً لأن يقسم بها .

والظاهر أن قوله : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ ، لا يراد به معين ، بل ينطلق على كل والد .

وقال ابن عباس ذلك ، قال : هو على العموم يدخل فيه جميع الحيوان .

وقال مجاهد : آدم وجميع ولده .

وقيل : والصالحين من ذريته .

وقيل : نوح وذريته .

وقال أبو عمران الحوفي : إبراهيم عليه السلام وجميع ولده .

وقيل : ووالد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما ولد إبراهيم عليه السلام .

وقال الطبري والماوردي : يحتمل أن يكون الوالد النبي (صلى الله عليه وسلم) لتقدم ذكره ، وما ولد أمته ، لقوله (صلى الله عليه وسلم) : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد " ولقراءة عبد الله : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ وهو أب لهم ، فأقسم تعالى به وبأمته بعد أن أقسم ببلده ، مبالغة في شرفه عليه الصلاة والسلام .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما المراد بوالد وما ولد ؟ قلت : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن ولده .

أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه ، وحرم أبيه إبراهيم ، ومنشأ أبيه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وبمن ولده وبه .

فإن قلت : لم نكر ؟ قلت : للإبهام المستقل بالمدح والتعجب .

فإن قلت : هلا قيل : ومن ولد ؟ قلت : فيه ما في قوله : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ أي بأي شيء وضعت ، يعني موضوعاً عجيب الشأن . انتهى .

وقال الفراء : وصلح ما للناس ، كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ وهو الخالق للذكر والأنثى . انتهى .

وقال ابن عباس وعكرمة وابن جبير : المراد بالوالد الذي يولد له ، وبما ولد العاقر الذي لا يولد له .

جعلوا ما نافية ، فتحتاج إلى تقدير موصول يصح به هذا المعنى ، كأنه قال : ووالد والذي ما ولد ، وإضمار الموصول لا يجوز عند البصريين .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ : هذه الجملة المقسم عليها .

والجمهور : على أن الإنسان اسم جنس ، وفي كبد : يكابد مشاق الدنيا والآخرة ،

ومشاقه لا تكاد تنحصر من أول قطع سرته إلى أن يستقر قراره ، إما في جنة فتزول عنه المشقات ؛ وإما في نار فتتضاعف مشقاته وشدائده .

وقال ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبو صالح والضحاك ومجاهد : ﴿ في كبد ﴾ معناه : منتصب القامة واقفاً ، ولم يخلق منكباً على وجهه ، وهذا امتنان عليه .

وقال ابن كيسان : منتصباً رأسه في بطن أمه ، فإذا أذن له بالخروج ، قلب رأسه إلى قدمي أمه .

وعن ابن عمر : يكابد الشكر على السرّاء ، ويكابد الصبر على الضراء .

وقال ابن زيد : ﴿ الإنسان ﴾ : آدم ، ﴿ في كبد ﴾ : في السماء ، سماها كبداً ، وهذه الأقوال ضعيفة ، والأول هو الظاهر .

والظاهر أن الضمير في ﴿ أيحسب ﴾ عائد على ﴿ الإنسان ﴾ ، أي هو لشدة شكيمته وعزته وقوته يحسب أن لا يقاومه أحد ، ولا يقدر عليه أحد لاستعصامه بعدده وعدده .

يقول على سبيل الفخر : ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ : أي في المكارم وما يحصل به الثناء ، أيحسب أن أعماله تخفى ، وأنه لا يراه أحد ، ولا يطلع عليه في إنفاقه ومقصد ما يبتغيه مما ليس لوجه الله منه شيء ؟ بل عليه حفظة يكتبون ما يصدر منه من عمل في حياته ويحصونه إلى يوم الجزاء .

وقيل : الضمير في ﴿ أيحسب ﴾ لبعض صناديد قريش .

وقيل : هو أبو الأسد أسيد بن كلدة ، كان يبسط له الأديم العكاظي ، فيقوم عليه ويقول : من أزالني عنه فله كذا ، فلا ينزع إلا قطعاً ، ويبقى موضع قدميه .

وقيل : الوليد بن المغيرة .

وقيل : الحرث بن عامر بن نوفل ، وكان إذا أذنب استفتى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فيأمره بالكفارة ، فقال : لقد أهلكت مالاً لبداً في الكفارات والتبعات منذ تبعت محمداً (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ الجمهور : لبداً ، بضم اللام وفتح الباء ؛ وأبو جعفر : بشدّ الباء ؛ وعنه وعن زيد بن علي : لبداً بسكون الباء ، ومجاهد وابن أبي الزناد : بضمهما .

ثم عدّد تعالى على الإنسان نعمه فقال : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بهما ، ﴿ ولساناً ﴾ يفصح عما في باطنه ، ﴿ وشفتين ﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك .

﴿ وهديناه النجدين ﴾ ، قال ابن مسعود وابن عباس والجمهور : طريق الخير والشر .

وقال ابن عباس أيضاً ، وعليّ وابن المسيب والضحاك : الثديين ، لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ : أي لم يشكر تلك النعم السابقة ، والعقبة استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال ، تشبيه بعقبة الجبل ، وهو ما صعب منه ، وكان صعوداً ، فإنه يلحقه مشقة في سلوكها .

واقتحمها : دخلها بسرعة وضغط وشدّة ، والقحمة : الشدّة والسنة الشديدة .

ويقال : قحم في الأمر قحوماً : رمى نفسه فيه من غير روية .

(247/816)

والظاهر أن لا للنفي ، وهو قول أبي عبيدة والفرّاء والزجاج ، كأنه قال : وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل ، فما فعل خيراً ، أي فلم يقتحم .

قال الفرّاء والزجاج : ذكر لا مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيد ، كقوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ وإنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ ، قائماً مقام التكرير ، كأنه قال

: فلا اقتحم العقبة ولا آمن .

وقيل : هو جار مجرى الدعاء ، كقوله : لا نجا ولا سلم ، دعاء عليه أن لا يفعل خيراً .

وقيل : هو تحضيض بألا ، ولا نعرف أن لا وحدها تكون للتحضيض ، وليس معها الهمزة .

وقيل : العقبة : جهنم ، لا ينجي منها إلا هذه الأعمال ، قاله الحسن .

وقال ابن عباس ومجاهد وكعب : جبل في جهنم .

وقال الزمخشري ، بعد أن تنحل مقالة الفرّاء والزجاج : هي بمعنى لا متكررة في المعنى ، لأن معنى ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ : فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً .

ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك ؟ انتهى ، ولا يتم له هذا إلا على قراءة من قرأ فك فعلاً ماضياً .

وقرأ ابن كثير والنحويان : فك فعلاً ماضياً ، رقبة نصب ، أو أطعم فعلاً ماضياً ؛ وباقي السبعة : فك مرفوعاً ، رقبة مجروراً ، وإطعام مصدر منون معطوف على فك .

وقرأ عليّ وأبو رجاء كقراءة ابن كثير ، إلا أنهما قرآ : ذا مسغبة بالألف .

وقرأ الحسن وأبو رجاء أيضاً : أو إطعام في يوم ذا بالألف ، ونصب ذا على المفعول ، أي إنساناً ذا مسغبة ، ويتيماً بدل منه أو صفة .

وقرأ بعض التابعين : فك رقبة بالإضافة ، أو أطعم فعلاً ماضياً .

ومن قرأ فك بالرفع ، فهو تفسير لاقتحام العقبة ، والتقدير : وما أدراك ما اقتحام العقبة .

ومن قرأ فعلاً ماضياً ، فلا يحتاج إلى تقدير مضاف ، بل يكون التعظيم للعقبة نفسها ، ويجيء فك بدلاً من اقتحم ، قاله ابن عطية .

وفك الرقبة : تخليصها من الأسر والرق .

(248/816)

﴿ ذا مقربة ﴾ : ليجتمع صدقة وصلة ، وأو هنا للتنويع ، ووصف يوم بذي مسغبة على الاتساع .

﴿ ذا متربة ﴾ ، قال : هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب ، لا بيوت لهم .

وقال ابن عباس : هو الذي يخرج من بيته ، ثم يقلب وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب .

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ : هذا معطوف على قوله : ﴿ فلا اقتحم ﴾ ؛ ودخلت ثم لتراخي الإيمان والفضيلة ، لا للتراخي في الزمان ، لأنه لا بد أن يسبق تلك الأعمال الحسنة الإيمان ، إذ هو شرط في صحة وقوعها من الطائع ، أو يكون المعنى : ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان ، إذ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات ، أو يكون

التراخي في الذكر كأنه قيل : ثم اذكر أنه كان من الذين آمنوا .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ : أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والطاعات وعن المعاصي ، ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ : أي بالتعاطف والتراحم ، أو بما يؤدي إلى رحمة الله .

والميمنة والمشأمة تقدّم القول فيهما في الواقعة .

وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص : ﴿ مؤصدة ﴾ بالهمز هنا وفي الهمزة ، فيظهر أنه من آصدت قيل : ويجوز أن يكون من أوصدت ، وهمز على حد من قرأ بالسؤق مهموزاً .

وقرأ باقي السبعة بغير همز ، فيظهر أنه من أوصدت .

وقيل : يجوز أن يكون من آصدت ، وسهل الهمزة ، وقال الشاعر :

قوماً تعالج قملاً أبناءهم . . .

وسلاسلاً حلقاً وباباً مؤصداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(249/816)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) ﴾

التفسير : إنه سبحانه قرر في هذه السورة وفي أكثر ما يتلوها من السور مراتب النفوس الإنسانية وأحوالها في السعادة وضدّها ، فأكد ذلك بالإقسام بالبلد الحرام وهو مكة التي جعلها الله تعالى منشأ كل بركة وخير . وقوله ﴿ وأنت حلّ بهذا البلد ﴾ اعتراض بين القسمين كأنه تعالى عظم مكة من جهة أنه صلى الله عليه وسلم حلّ بها وأقام فيها . وقيل : الحل بمعنى الحلال كأنه سبحانه عجب من اعتقاد أهل مكة كيف يؤذون أشراف الخلق في موضع محرم . عن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك . وقال قتادة : أنت حلّ أي لست بأثيم وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت كما في الحديث " ولم تحل لي إلا ساعة من نهار " فأن كانت السورة مكية أو مدنية قبل الفتح فقوله ﴿ حل ﴾ بمعنى الاستقبال نحو ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] وكثيراً ما تبرز الأفعال المستقبلة في القرآن في صيغ الماضي لتحقق الوقوع ، وإن كان حال الفتح أو بعده فظاهر . وعلى الأول يكون فيه إخبار بالغيب وقد يسر الله له فتح مكة كما وعد فيكون معجزاً . أما الوالد والولد فقيل : آدم وذرّيته لكرامتهم على الله ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ [الإسراء : 70] وقيل كل والد ومولود . وقد يخص الإقسام بالصالحين

لأن غير الصالحين لا حرمة لهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الأعراف : 179] والأكثرون على أن الوالد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والولد محمد صلى الله عليه وسلم كأنه أقسم ببلده ثم بوالده ثم به والتنكير للتعظيم . وإنما لم يقل ومن ولد للفائدة المذكورة في قوله ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ [آل عمران : 36] أي بشيء وضعته وهو مولود عجيب الشأن . والكبد المشقة والتعب كقوله ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ [الإنشقاق : 6] وأصله من كبد الرجل بالكسر كبداً بالفتح فهو كبد إذا وجعت كبده وانتفخت . ولا تخفى الشدائد الواردة على الإنسان من وقت احتباسه في الرحم إلى انفصاله ثم إلى

(251/816)

زمان رضاعه ثم إلى بلوغه ثم ورود طوارق السراء وبوارق الضراء وعلائق التكاليف وعوائق التمدن والتعيش عليه إلى الموت .

(252/816)

ثم إلى البعث من المساءلة وظلمة القبر ووحشته ، ثم إلى الاستقرار في الجنة والنار من الحساب والعتاب والحيرة والحسرة والوقوف بين يدي الجبار ، اللهم سهل علينا هذه الشدائد بفضلك يا كريم ووفقنا للعمل بما يستعقب الخلاص منها إلى النعيم المقيم . وقيل : الكبد مرض القلب وفساد العقيدة والمراد به الذين علم الله من حالهم أنهم لا يؤمنون . وقيل : الكبد هو الاستواء والاستقامة أي خلقناه منتصب القامة . وقيل : الكبد الشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم العضو لأنه دم غليظ . وقد يخص الإنسان على هذا التفسير بشخص واحد من جمح يكنى أبا الأشدين ، كان يجعل تحت قدميه الأديم ثم يمدّ من تحت قدميه فيتمزق الأديم ولم تزل قدماه ويعضد هذا التفسير قوله ﴿ أيحسب ﴾ يعني ذلك الإنسان الشديد . وعلى الأول معناه لن يقدر على بعثه ومجازاته أو على تغيير أحواله وأطواره ﴿ يقول أهلكت ما لا لبداً ﴾ أي كثيراً بعضه فوق بعض وهو جمع لبدة بالضم لما يلبد قاله الفراء . وعن الزجاج أنه مفرد والبناء للمبالغة والكثرة . يقال : رجل حطم إذا كان كثير الحطم . ومن قرأ بالتشديد فهو جمع لا بد يريده كثرة ما أنفقه في الجاهلية فوبخه على ذلك بقوله ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ يعنى أنه تعالى كان عالماً بقصده حين ينفق ما ينفق رياء وافتخاراً وحباً للانتساب إلى المكارم والمعالي أو معاداة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة : أيظن أن الله لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وفي أي شيء أنفقه ؟ وقال الكلبي : كان كاذباً ولم ينفق شيئاً فقال الله : أيزعم أن الله ما رأى ذلك منه ولو

كان قد أنفق لعلم الله . ثم دل على كمال قدرته مع إشارة إلى الاستعداد الفطري بقوله ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بهما المصنوعات ﴿ ولساناً ﴾ يعبر به عما في ضميره ﴿ وشفتين ﴾ يستعين بهما على الإفصاح بالنطق ﴿ وهديناه النجدين ﴾ سبيلي الخير والشر كقوله ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً أو كفوراً ﴾ [الدهر :

(253/816)

3] هذا قول عامة المفسرين . والنجد في اللغة المكان المرتفع جعل الدلائل لارتفاع شأنها وعلو مكانها كالطرق المرتفعة العالية التي لا تخفى على ذوي الأبصار . وقال الحسن ﴿ يقول أهلكت ما لا لبداً ﴾ فمن الذي يحاسبني عليه ؟ فقيل الذي قدر على أن خلق لك الأعضاء قادر على محاسبتك . وعن ابن عباس وسعيد بن المسيب : هما الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه هدى الله الطفل الصغير حتى ارتضعهما ، قال القفال : والتفسير هو الأول . ثم قرر وجه الاستدلال به فقال : إن من قدر على أن خلق من الماء المنتن قلباً عقولاً ولساناً فؤولاً فهو على إهلاك ما خلق أقدر ، فام الحجة في الكفر بالله مع تظاهر نعمه ؟ وما العلة في التعزز على الله وأوليائه بالمال وإنفاقه وهو المعطي والممكن من

الانتفاع؟ ثم عرف عباده وجوه الإنفاق الفاضلة تعريضاً بأن ذلك الكافر لم يكن إنفاقه في وجه مرضيّ معتدّ به لابتناء قبول الطاعات على الإيمان الذي هو أصل الخيرات.

(254/816)

والاقتحام الدخول بشدّة ولهذا يستعمل في الأخطار والأهوال. والعقبة طريق الجبل؛ فعن ابن عمر: هي جبل زلال في جهنم. وعن مجاهد والضحاك: هي الصراط يضرب على متن جهنم، وهو معنى قول الكلبي: عقبة بين الجنة والنار. وزيف الواحدي وغيره هاتين الروايتين بأنه من المعلوم أن هذا الإنسان وغيره لم يقتحموا العقبة بهذا المعنى، وبأن تفسير الله سبحانه العقبة عيبه ينافيه. وعن الحسن: عقب والله شديدة إن هذا مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان. قال النحويون: قلما توجد لا الداخلة على الماضي إلا مكررة كقوله ﴿ فلا صدّق ولا صلّى ﴾ [القيامة: 31] وتقول: لا خيبني ولا رزقني. والقرآن أفصح الكلام فهو أولى برعاية هذه القاعدة. والجواب أن القرآن حجة كافية ولو سلم فهي متكررة في المعنى. قال الزجاج: ألا ترى أنه فسر العقبة بفك الرقبة والإطعام؟ فكأنه قيل: فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ولا سيما فيمن قرأ ﴿ فك ﴾ و ﴿ أطعم ﴾ على الإبدال من ﴿ اقتحم ﴾ وجعل ما بينهما اعتراضاً. ويجوز أن يراد

فلا اقتحم العقبة ولا آمن يدل عليه قوله ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ ومن قرأ ﴿ فك ﴾ ﴿ أو إطعام ﴾ على المصدرين فالفاعل محذوف وهو من خواص المصدر لا يجوز حذف الفاعل من غيره والتقدير : فك فاك رقبة أو إطعام مطعم يتيماً . والمسغبة مصدر على " مفعلة " من سغب إذا جاع ، وكذا المقربة من قرب في النسب . والمترية من ترب إذا افتقر والتصق بالتراب فليس فوقه ما يستره ولا تحته ما يوطئه . عن النبي صلى الله عليه وسلم : هو الذي مأواه المزابل . ووصف اليوم بذي مسغبة مجاز باعتبار صاحبه نحو " نهاره صائم " . وفك الرقبة تخليصها من رق أو غيره . وفي الحديث " إن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دلني على عمل يدخلني الجنة . فقال : " تعتق النسمة وتفك الرقبة . فقال : أوليسا سواء ؟ قال : لا إعتاقها أن تتفرد بعتقها وفكها تخليصها من قود أو غرم " وقد استدل أبو حنيفة

من تقدم العتق على أنه أفضل من الصدقة . وعند بعضهم بالعكس لأن في الصدقة تخليص النفس من الإشراف على الهلاك فإن قوام البدن بالغذاء ، وفي الفك تخليصها من القيد في الأغلب . وأيضاً لعل الأمر في الأول أضيق . ولا شك إن إطعام اليتيم القريب أفضل من

اليتيم الأجنبي . وقد يستدل للشافعي أن المسكين أحسن حالاً من الفقير وأنه قد يكون بحيث يملك شيئاً وإلا وقع قوله ﴿ ذا متربة ﴾ تكراراً .

وقال بعض أهل التأويل : فك الرقبة أن يعين المرء نفسه على إقامة الوظائف الشرعية ليتخلص بها عن النار . وعندي هو أن يفك رقبته عن الكونين ليلزم عنه زوال الحرص المستتبع لمواساة النفس على الطعام والإيثار . وفي قوله ﴿ ثم كان ﴾ وجوه أحدها : أن هذا التراخي في الذكر لا في وجود فإن الإيمان مقدّم على جميع الخصال المعتدّ بها شرعاً كقوله :

إن من ساد ثم ساد أبوه . . . ثم قد ساد قبل ذلك جده

(256/816)

أي ثم إنه أذكر ساد أبوه : وثانيها التأويل بالعاقبة أي ثم كان في عاقبة أمره ممن يموت على الإيمان . وثالثها أن الآية نزلت فيمن أتى بهذه الخصال قبل إيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم آمن به بعد مبعثه . فعند بعضهم يثاب على تلك الطاعات يدل عليه ما روي أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نأتي بأعمال الخير في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم " أسلمت على ما قدّمت

من الخير " ورابعها وهو أولى الوجوه عند أصحاب المعاني أن المراد تراخي الرتبة والفضيلة لأن ثواب الإيمان أكثر من ثواب العتق والصدقة . وقد يوجه البيت المذكور على هذا بأن المراد ثم ساد أبوه مع ذلك ثم ساد جده مع ما ذكر ، ولا ريب أن مجموع الأمرين أو الأمور أشرف من أن ساد هو بنفسه فقط . وحين ذكر خصال الكمال عقبه بما يدل على التكميل قائلاً ﴿ تواصوا ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً ﴿ بالصبر ﴾ على التكاليف الشرعية وعلى البلايا والمحن التي قلما يخلوا المؤمن عنها ﴿ وتواصوا ﴾ ﴿ بالمرحمة ﴾ أي التعاطف والتراحم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا أخواناً متعاضدين " وفي الآية نكتة لطيفة وهي أنه سبحانه ذكر في باب الكمال أمرين : فك الرقبة والإطعام ثم الإيمان ، وذكر في باب التكميل شيئين : التواصي بالصبر على الوظائف الدينية والتواصي بالتراحم ، وكل من النوعين مشتمل على التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله إلا أنه في الأول قدّم جانب الخلق ، وفي الثاني قدم جانب الحق . ففي الأول إشارة إلى كامل رحمته ونهاية عنايته بالمخلوقات فإن رعاية مصالحهم عنده أهمّ ، وفي الآخر رمز إلى حسن الأدب وتعليم للمكلفين أن يعرفوا ما هو الأقدم الأهمّ في نفس الأمر زادنا الله اطلاعاً على دقائق هذا الكتاب الكريم . قوله ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ و ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ مر في أول الواقعة تفسيرهما . قال أهل

اللغة : أوصدت الباب وآصدته بالواو وبالهمز أي أطبقته وأغلقته . قال مقاتل : فلا يخرج أحد منهما ولا يدخل روح فيها . والإيصاد بالحقيقة صفة أبواب النار أي مؤصدة أبوابها فهو من الإسناد المجازي . وقيل : أراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب نعوذ بالله منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 501.505 ﴾

(258/816)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة البلد

مكية وهي عشرون آية واثنان وثمانون كلمة وثلاثمائة وعشرون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الذي لا راد لأمره ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم سائر خلقه بفضله ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل طاعته بجنته .

واختلف في لا في قوله تعالى : ﴿ لا أقسم ﴾ فقال الأخفش : إنها مزيدة ، أي : أقسم كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ (القيامة :)

وقد أقسم به سبحانه وتعالى . قال الشاعر :

*تذكرت ليلى فاعترتني صبابة ** وكاد صميم القلب لا يتقطع*

أي : يتقطع ، ودخل حرف لا صلة ، وكقوله تعالى : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ (الأعراف :)

وقد قال تعالى في ص : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ وأجاز الأخفش أيضاً أن تكون بمعنى إلا . وقيل : هي نفي صحيح ، والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه ، حكاه مكي . وأجمعوا على أن المراد بالبلد في قوله تعالى : ﴿ بهذا البلد ﴾ ، أي : الحرام وهو مكة ، وفضلها معروف فإنه تعالى جعلها حرماً آمناً . وقال تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ (آل عمران :)

وجعل مسجده قبلة لأهل المشرق والمغرب . فقال تعالى : ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (البقرة :)

وأمر الناس بحج البيت فقال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع ﴾ (آل عمران :)

وقال تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ (البقرة :)

وقال تعالى : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ (الحج : و)

وقال تعالى : ﴿ وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ (الحج :)

وشرف مقام إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (البقرة

:)

وحرم صيده وجعل البيت المعمور بإزائه ، ودحيت الأرض من تحته ، فهذه الفضائل وأكثر منها إنما اجتمعت في مكة لا جرم أقسم الله تعالى بها .

﴿ وأنت ﴾ ، أي : يا أشرف الخلق ﴿ حل ﴾ ، أي : حلال لك ما لم يحل لغيرك من قتل من تريد ممن يدعي أنه لا قدرة لأحد عليه ﴿ بهذا البلد ﴾ بأن يحل لك فتقاتل فيه .

(259/816)

وقد أنجز الله له هذا الوعد يوم الفتح وأحلها له ، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ما شاء وحرم ما شاء قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرم دار أبي سفيان ثم قال : "إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها ولا يختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشدها . فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم إلا الإذخر" . ونظير ﴿ وأنت حل ﴾ في معنى الاستقبال قوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (الزمر :)

ومثله واسع في كلام العرب ، تقول لمن تعده الإكرام والحباء لأنت مكرم محبوّ ، وهو في كلام الله تعالى واسع لأنّ الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة ، وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وأنّ تفسيره بالحال محال أنّ السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها ، فما بال الفتح والجملة اعتراض بين المقسم به وما عطف عليه .

واختلف في قوله تعالى : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ فقال الزمخشري : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ولده أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه ، وحرم أبيه إبراهيم ، ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه . وقال البغويّ : هما آدم وذريّته ، وقيل : كلُّ والد وولده . فإن قيل : هلا قيل : ومن ولد ؟

أجيب : بأنّ فيه ما في قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ (آل عمران :)

(260/816)

أي : بأي شيء وضعت يعني ، أي : بأي شيء وضعت يعني موضوعاً عجيب الشأن ، أو أن ما بمعنى من . والذي عليه أكثر المفسرين هما آدم وذريّته ؛ لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم ، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الأسماء

كلها . ولقد قال الله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ (الإسراء :)

وقيل : هما آدم والصالحون من ذريته ، وأما الطالحون فكأنهم بهائم كما قال تعالى : ﴿ إن هم كالأنعام بل هم إلا أضلّ ﴾ (الفرقان :)

﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ (البقرة :)

والمقسم عليه قوله تعالى:

﴿ لقد خلقنا الإنسان ﴾ ، أي : الجنس ﴿ في كبد ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أي : شدّة ونصب ، وعنه أيضاً في شدّة من حمله وولادته ورضاعه ونبت أسنانه وسائر أحواله . وعن عكرمة منتصباً في بطن أمّه ، والكبد الاستواء والاستقامة ، فهذا امتنان عليه في الحقيقة ، ولم يخلق الله تعالى دابة في بطنها أمّها إلا منكبة على وجهها إلا ابن آدم فإنه منتصب انتصاباً .

وقال ابن كيسان : منتصباً في بطن أمه فإذا أراد الله تعالى أن يخرجه من بطن أمه قلب رأسه إلى رجلي أمه . وقال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة . وقال يمان : لم يخلق الله تعالى خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك أضعف الخلق .

قال بعض العلماء أوّل ما يكابد قطع سرته ثم إذا قمط قماطاً وشدّ رباطاً ، يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ، ولو فاته ضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه ، ثم يكابد الفطام الذي هو أشدّ من اللطام ، ثم يكابد الختان والأوجاع ، ثم المعلم وصولته ، والمؤدب وسياسته ، والأستاذ وهيبته ، ثم يكابد شغل التزويج ، وشغل الأولاد والخدم ، وشغل المسكن والجيران ، ثم الكبر والهرم ، وضعف الركب والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها من صداع الرأس ووجع الأضراس ، ورمد العين ، وهمّ الدين ، ووجع السنّ ، وألم الأذن ، ويكابد محناً في المال والنفس من الضرب والحبس ، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدّة ، ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت ، ثم بعده سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ، ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقرّ به القرار ، إما في الجنة وإما في النار ، فدل هذا على أنّ له خالقاً دبره وقضى عليه بهذه الأحوال ، ولو كان الأمر إليه ما أختار هذه الشدائد فليتمثل أمر خالقه . وقال ابن زيد : المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ في كبد ﴾ ، أي : في وسط السماء . وقال مقاتل : في كبد ، أي : في قوّة نزلت في أبي الأشدين ، واسمه أسيد بن كلدة بن جمح ، وكان شديداً قوياً ، يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول : من أزالني عنه فله كذا وكذا ، فيجذبه عشرة فيتمزق الأديم من تحت قدميه ، ولا تزول قدماه ويبقى موضع قدميه ، وكان من أعداء النبيّ صلى الله عليه وسلم وفيه نزل .

﴿ أيحسب ﴾ ، أي : أيظنّ الإنسان قويّ قريش ، وهو أبو الأشدين بقوّته ، قوله أبي الأشدين هكذا في النسخ بصيغة التثنية ، وفي حاشية الجمل ، والأشد هكذا بالإفراد في كثير من نسخ هذا الشرح ، وكثير من عبارات المفسرين ، وفي بعض نسخ هذا الشرح وكثير من من التفاسير الأشدين بصيغة التثنية فليحرّر اه . ﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ، أي : أنه ﴿ لن يقدر عليه ﴾ ، أي : خاصة ﴿ أحد ﴾ ، أي : من أهل الأرض أو السماء فيغلبه حتى أنه يعاند خالقه ، والله تعالى قادر عليه في كل وقت . وقيل : نزلت في المغيرة بن الوليد المخزومي .

﴿ يقول ﴾ ، أي : يفتخر بقوّته وشدّته ﴿ أهلكت ﴾ ، أي : على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مالاً لبداً ﴾ ، أي : كثيراً بعضه على بعض .

﴿ أيحسب ﴾ ، أي : هذا الإنسان العنيد بقلة عقله ﴿ أن ﴾ ، أي : أنه ﴿ لم يره أحد ﴾ قال سعيد بن جبير : ، أي : أظنّ أن الله تعالى لم يره ولا يسأله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وقال الكلبي : إنه كان كاذباً في قوله أنه أنفقه ولم ينفق جميع ما قال ، والمعنى : أيظنّ أن الله تعالى لم ير ذلك منه فيعلم مقدار نفقته .

وقرأ ﴿ أيحسب ﴾ في الموضعين ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بكسرها

ثم ذكره نعمه عليه ليعتبر بقوله تعالى:

أي : بما لنا من القدرة التامّة ﴿ له عينين ﴾ يبصر بهما المرئيات وإلا تعطل عليه أكثر ما يريد ، شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب لا تزيد إحداهما على الأخرى شيئاً ، وقدرنا البياض والسواد والشهلة والزرقة وغير ذلك على ما ترون ، وأودعناهما البصر على كيفيةٍ يعجز الخلق عن إدراكهما .

(263/816)

﴿ ولساناً ﴾ يترجم به عن ضمائره ﴿ وشفتين ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك . قال قتادة : نِعَمُ الله تعالى عليه متظاهرة فيقررّه بها كي يشكره . قال البغوي : وجاء في الحديث أن الله تعالى يقول : "يا ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق ، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق ، وإن نازعك فرجك إلى بعض ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق" .

﴿ وهديناه ﴾ ، أي : أتيناه من العقل ﴿ النجدين ﴾ قال أكثر المفسرين : بيّنا له طريق

الخير والشر والهدى والضلال والحق والباطل كقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإمّا كفوراً ﴾ (الإنسان :)

وصار بما جعلناه له من ذلك سميعاً بصيراً عالماً ، فصار موضعاً للتكليف . روى الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإنّ ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شرّ فلم جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير" . قال المنذري : النجد هنا الطريق . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بيّنا له الثديين ، وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك ، وأصله المكان المرتفع .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ ، أي : فهلا أنفق ماله فيما يجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام المساكين والأيتام بل غمط النعم وكفر بالمنعم .

والمعنى : أن الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله تعالى ، لا أن يهلك مالاً لبداً في الرياء والفخر وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم فيكون على هذا الوجه ﴿ كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ﴾ (آل عمران :)

الآية . وقيل : معناه لم يقتحمها و لاجاوزها و الاقتحام الدخول في الأمر الشديد ، وذكر العقبة مثل ضربة الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البرّ فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة يقول الله تعالى لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة والإطعام ، وهذا معنى قول قتادة وقيل : إنه شبه ثقل الذنوب على مرتكبها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وأطعم المساكين كان كمن اقتحم العقبة وجاوزها وروى عن ابن عمر أنّ هذه العقبة جبل في جهنم ، وقال الحسن : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله تعالى ومجاهدة النفس .

وقال مجاهد : هي الصراط يضرب على متن جهنم كحد السيف مسيرة ثلاثة آلاف سنة صعوداً وهبوطاً واستواء ، وإنّ بجنبيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السعدان ، فناجٍ مسلم وناجٍ مخدوش ، ومكردس في النار منكوس ، وفي الناس من يمرّ كالريح العاصف ، ومنهم من يمرّ كالرجل يعدو ، ومنهم من يمرّ كالرجل يسير ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم الزالون ، ومنهم من يكردس في النار . وقال ابن زيد : فهلا سلك طريق النجاة .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ﴾ ، أي : أعلمك أيها السامع لكلامنا الراغب فيما عندنا ﴿ ما العقبة ﴾ تعظيم لشأنها والجملة اعتراض قال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه ﴿ وما أدراك ﴾ فإنه أخبر به وما كان ، قال : ﴿ وما يدريك ﴾ فإنه لم يخبر به ، ثم بين سبب جوازها بقوله تعالى:

﴿ فك ﴾ ، أي : الإنسان ﴿ رقبة ﴾ ، أي : خلصها من الرق وذلك بأن يعتق رقبة في ملكه أو يعطي مكاتباً ما يصرفه في فك رقبته . روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه" . قال الزمخشري : وفي الحديث : "أنّ رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلني على عمل يدخلني الجنة . قال : تعتق النسمة وتفك الرقبة . قال : أو ليسا سواء ؟ قال : لا إعتاقها أن تنفرد بعتقها ، وفكها أن تعين في تخليصها من قود أو غرم ، والعتق والصدقة من أفضل الأعمال" .

وعن أبي حنيفة أن العتق أفضل من الصدقة ، وعن صاحبيه : الصدقة أفضل . قال الزمخشري : والآية أدل على قول أبي حنيفة لتقديم العتق . وقال عكرمة : يعني فك رقبته من الذنوب . وقال الماوردي : ويحتمل أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه باجتناب المعاصي وفعل الطاعات ، ولا يمنع الخبر من هذا التأويل وهو أشبه بالصواب .

﴿ أو إطعام ﴾ ، أي : دفع الإطعام لشيء له قابلية ذلك . ﴿ في يوم ذي مسغبة ﴾ ، أي : مجاعة ، والسغب : الجوع .

﴿ يتيماً ﴾ ، أي : إنساناً صغيراً لا أب له ﴿ ذا مقربة ﴾ ، أي : ذا قرابة لك بأن كان بينك وبينه قرابة ، يقال : فلان ذو قرابتي ، وذو مقربتي .

(266/816)

﴿ أو مسكيناً ﴾ وهو من له مال أو كسب يقع موقعاً من كفايته ، ولا يكفيه . ﴿ ذا متربة ﴾ ، أي : لصوق بالتراب لفقره . يقال : ترب إذا افتقر ، ومعناه : التصق بالتراب وأما أترب فاستغنى ، أي : صار ذا مال كالتراب في الكثرة كما قيل : أثرى . وعنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ ذا متربة ﴾ : "الذي مأواه المزابل" قال ابن عباس رضي الله عنهما : "هو المطروح على الطرق الذي لا بيت له" . وقال مجاهد : وهو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : أنه ذو العيال . واحتج بهذه الآية على أنّ المسكين يملك شيئاً لأنه لو كان لا يملك شيئاً لكان تقييده بقوله تعالى : ﴿ ذا متربة ﴾ تكريراً . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة برفع الكاف وجرّ رقبة وكسر همزة إطعام وفتح العين وبعدها ألف ورفع الميم منوّنة ، والباقون فك بنصب الكاف رقبة بالنصب أطعم بفتح الهمزة والعين والميم بغير تنوين ، ولا ألف بين العين والميم .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ إلى آخره ذكر لا مرّة واحدة . قال الفرّاء

والزجاج : والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيد لا كقوله تعالى : ﴿ فلا صدّق ولا صلى ﴾ (القيامة :)

؟ .

أجيب : بأنه إنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ قائماً مقام التكرير فكأنه قال : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ ولا آمن . وقال الزمخشري : هي متكرّرة في المعنى : لأنّ معنى فلا اقتحم العقبة فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . قال أبو حيان : ولا يتيم له هذا إلا على قراءة فك فعلاً ماضياً . وعن مجاهد : أنّ قوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ يدل على أن : لا بمعنى لم ولا يلزم التكرير مع لم فإن كرّرت لا كقوله تعالى ﴿ فلا صدّق ولا صلى ﴾ فهو كقوله تعالى : ﴿ لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ (الفرقان :)

(267/816)

تنبيه : ثم كان معطوف على اقتحم وثم للترتيب ، والمعنى : كان وقت الاقتحام من الذين آمنوا . وقال الزمخشري : جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت ، لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره ، ولا يثبت عمل صالح إلا

به . ﴿ وتواصوا ﴾ ، أي : وصبروا وأوصى بعضهم بعضاً ﴿ بالصبر ﴾ ، أي : على الطاعة وعن المعصية والمحن التي يبتلى بها المؤمن .

﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ ، أي : بالرحمة على عباده بأن يكونوا متراحمين متعاطفين ، أي : بما يؤدّي إلى رحمة الله تعالى .

﴿ أولئك ﴾ ، أي : الموصوفون بهذه الصفات ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ ، أي : الجانب الذي فيه اليمن والبركة والنجاة من كل هلكة . وقال محمد بن كعب: ، أي : الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم . وقال يحيى بن سلام : لأنهم ميامين على أنفسهم . وقال ابن زيد : لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن . وقال ميمون بن مهران : لأنّ منزلتهم عن اليمين . وقال الزمخشري : الميمنة اليمين أو اليمن .

﴿ والذين كفروا ﴾ ، أي : ستروا ما تظهر لهم مرائي بصائرهم من العلم ﴿ بآياتنا ﴾ ، أي : على ما لها من العظمة بالإضافة إلينا ، والظهور الذي لا يمكن خفاؤه من القرآن وغيره ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ ، أي : الخصلة المكسبة للشؤم والحرمان قال محمد بن كعب: ، أي : الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم . وقال يحيى بن سلام : لأنهم مشائيم على أنفسهم . وقال ابن زيد : لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر عليه السلام . وقال ميمون : لأنّ منزلتهم عن اليسار . وقال الزمخشري : المشأمة الشمال أو الشؤم .

قال القرطبي : ويجمع هذه الأقوال أصحاب الميمنة هم أصحاب الجنة وأصحاب المشأمة هم أصحاب النار .

(268/816)

﴿ عليهم ﴾ ، أي : خاصة ﴿ نار مؤصدة ﴾ ، أي : مطبقة وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة بالهمزة ، والباقون بغير همزة ، أي : بواو ساكنة ، وهما لغتان . يقال : أصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته ، وقيل : معنى المهموز المطبقة ، وغير المهموز المغلقة . وإذا وقف حمزة أبدل على أصله . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 341 . 348 ﴾

(269/816)

وقال القاسمي :

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾

تقدم في مواضع متعددة من التنزيل الكريم تفسير ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ و ﴿ البلد ﴾ هو مكة .

وقيد القسم بقوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ عناية بالنبي صلوات الله عليه ، فكأنه إقسام به لأجله ، مع تعريض بعدم شرف أهل مكة ، وأنهم جهلوا جهلاً عظيماً ، لهمهم بإخراج من هو حقيق به ، وبه يتم شرفه .

قال الشهاب : والحِل صفة مصدر بمعنى الحالّ على هذا الوجه . ولا عبرة بمن أنكره لعدم ثبوته في كتب اللغة . وقيل : معناه وأنت يستحل فيه حرمتك ، وتعرض لأذيتك . ففيه تعجيب من حالهم في عداوته ، وتعريض بتجميعهم وتفريقهم بأنه لا يستحل فيه الحَمام ، فكيف يستحل فيه دم مرشد الأنام ، عليه الصلاة والسلام ؟

وقيل : معناهُ وأنت حل به في المستقبل ، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، إشارة إلى ما سيقع من فتح مكة وإحلالها له ساعة من نهار ، يقتل ويأسر ، مع أنها ما فتحت على أحد قبلهُ ، ولا أحلت له ؛ ففيه تسلية له ، ووعد بنصره ، وإهلاك عدوه . والحل على هذين الوجهين ضد الحرمة ، وفيهما – كما قالوا – بعدٌ ، لاسيما إرادة الاستقبال في الوجه الأخير ، فإنه غير متبادر منه . وإنما كان الأول أولى لتشريفه عليه السلام ، بجعل حلوله به مناطاً لإعظامه ، مع التنبيه من أول الأمر على تحقق مضمون الجواب ، بذكر بعض موادّ المكايدة ،

على نهج براعة الاستهلال ، وإنه كابد المشاق ، ولاقى من الشدائد ، في سبيل الدعوة إلى الله ، ما لم يكابده داع قبله ، صلوات الله عليه وسلامه .

(270/816)

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ عطف على هذا البلد ، داخل في المقسم به . قيل : عني بذلك آدم وولده ، وقيل : إبراهيم وولدهُ . والصواب – كما قال ابن جرير – أن المعني به كل والد وما ولد . قال : وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل ، ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان ، يجب التسليم له بخصوصه . فهو على عمومه كما عمهُ . وإيثار ﴿ ما ﴾ على من ؛ لإرادة الوصف . فيفيد التعظيم في مقام المدح ، وأنه مما لا يكتنه كنهه لشدة إبهامها . ولذا أفادت التعجب أو التعجيب ، وإن لم يكن استفهاماً كما في قوله تعالى :

﴿ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران : 36] أي : أي : مولود عظيم الشأن وضعتهُ . وهذا على كون المراد إبراهيم والنبيّ عليهما الصلاة والسلام ، ظاهر ، أما على أن المراد به آدم وذريته ، فالتعجب من كثرتهم ، أو مما خص به الْإِنْسَانْ من خواص البشر ، كالنطق والعقل وحسن الصورة . حكاه الشهاب .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾

أي : في شدة ، يكابد الأمور يعالجها في أطواره كلها ، من حمله إلى أن يستقر به القرار : إما في الجنة وإما في النار .

قال الزمخشري : الكبد أصله من قولك : كبد الرجل كبداً ، فهو أكبد ، إذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة ، ومنه اشتقت المكابدة . كما قيل : كبته بمعنى أهلكه . وأصله كبدهُ إذا أصاب كبدهُ . قال لبيد :

يَا عينُ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبدَ إذ قُمْنا وَقَامَ الخُصُومُ في كَبَدِ

أي : في شدة الأمر وصعوبة الخطب . انتهى .

وفيه تسلية للنبيّ صلوات الله عليه ، مما يكابدهُ من قريش ، من جهة أن الْإِنْسَانْ لم يخلق للراحة في الدنيا ، وأن كل من كان أعظم فهو أشد نصباً . هذا خلاصة ما قالوه .

(271/816)

وقال القاشاني : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ أي : مكابدة ومشقة من نفسه وهواه ، أو مرض باطن وفساد قلب وغلظ حجاب ؛ إذ الكبد في اللغة غلظ الكبد الذي هو مبدأ القوة الطبيعية وفسادهُ وحجاب القلب وفسادهُ من هذه القوة ؛ فاستعير غلظ الكبد لغلظ حجاب

القلب ومرض الجهل .

﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ أي : لغلظ حجابه ومرض قلبه لاحتجابه بالطبيعة ﴿ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أي : أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على مجازاته وقهره وغلبته ، مع أن ما هو فيه من المكابدة يكفي لإيقاظه من غفلته واعترافه بعجزه .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ أي : كثيراً ، من : تلبد الشيء ، إذا اجتمع . والمراد ما أنفقه للافتخار والمباهاة والرياء . كقولهم : خسرت عليه كذا وكذا ، إذا أنفق عليه ، يتفضل على الناس بالتبذير والإسراف ، ويحسبه فضيلة لاحتجابه عن الفضيلة وجهله . ولهذا قال :

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أي : أيحسب أن لم يطلع الله تعالى على باطنه ونيته ، حين ينفق ماله في السمعة والرياء والمباهاة ، لا على ما ينبغي في مراضي الله ، وهي رذيلة على رذيلة فكيف تكون فضيلة ؟

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ قال القاشاني : أي : ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال ، ليبصر ما يعتبر به ، ويسأل عما لا يعلم ، ويتكلم فيه ؟

وقال السيد المرتضى : هذا تذكير بنعم الله عليهم ، وما أزاح به علتهم في تكاليفهم ، وما تفضل به عليهم من الآلات التي يتوصلون بها إلى منافعهم ، ويدفعون بها المضار عنهم ؛ لأن

الحاجة إلى أكثر المنافع الدينية والدنيوية ماسة ، فالحاجة إلى العينين للرؤية ، واللسان للنطق ، والشفتين لحبس الطعام والشراب وإمساكهما في الفم ، والنطق أيضاً .

(272/816)

وقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي : طريقي الخير والشر ، قال الإمام : النجد مشهور في الطريق المرتفعة ، والمراد بها طريقي الخير والشر ؛ وإنما سماهما نجدين ، ليشير إلى أن في كل منهما وعورة وصعوبة مسلك فليس الشر بأهون من الخير كما يُظَن ، وإلى أنهما واضحان جليان لا يخفى واحد منهما على سالك ، أي : أودعنا في فطرته التمييز بين الخير والشر ، وأقمنا له من وجدانه وعقله أعلاماً تدلهُ عليهما ، ثم وهبناهُ الاختيار ، فإليه أن يختار أي : الطريقين شاء . فالذي وهب الْإِنْسَانْ هذه الآلات ، وأودع باطنه تلك القوى ، لا يمكن للإنسان أن يفلت من قدرته ، ولا يجوز أن يخفى عليه شيء من سريرته .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ أي : فلم يشكر تلك النعم الجليلة باقتحام العقبة . و الاقتحام الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . و ﴿ الْعَقَبَةَ ﴾ الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها . استعارها لما يأتي ، لما فيه من معاناة المشقة ومجاهدة النفس .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ أي : شيء أعلمك ما اقتحام العقبة ؟ وفي الاستفهام زيادة

تقريرها وكونها عند الله بمكانة رفيعة .

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي : عتقها ، أو المعاونة عليه وتخليصها من الرق وأسر العبودية ، رجوعاً به إلى ما فطرت عليه من الحرية .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ أي : مجاعة .

﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي : قرابة . قال السيد المرتضى : وهذا حضٌّ على تقديم ذوي النسب والقربى المحتاجين ، على الأجانب في الإفضال .

قال : وقد يمكن في ﴿ مَقْرَبَةٍ ﴾ أن يكون غير مأخوذ من القرابة والقربى ، بل من القرب الذي هو من الخاصرة ، فكأن المعنى أنه يطعم من خاصرته لصقت من شدة الجوع والضر ، وهذا أشبه بقوله تعالى :

﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ لأن كل ذلك مبالغة في وصفه بالضر . وليس من المبالغة في الوصف بالضر أن يكون قريب النسب . انتهى . وقوله تعالى :

﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي : فقر شديد لا يواريه إلا التراب . يقال : ترب ، كأنه لصق بالتراب . ويقال : فقر مدقع ، و : فقير مدقع ، بمعنى لاصق بالدقعاء ، وهي التراب .

لطيفة :

ذهب الأكثرون إلى أن لا من قوله ﴿ فَلَا ﴾ نافية . وإنما لم تكرر ، مع أن العرب لا تكاد تفردها ، كما جاء في آية ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴾ [القيامة : 31] ، ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] ، استغناء بدلالة بقية الكلام على تكرارها . لأن لا اقتحم لما فسر بما بعده كان في قوة : لافك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، وفي الآية أجوبة أخرى : منها أنه لما عطف عليه ، كان وهو منفي أيضاً ، فكأنها كررت . وقيل : لا للدعاء . كقولهم : لا نجا ولا سلم ، وقيل : مخففة من ألا التي للتحضيض . وقيل : إنها للنفي فيما يستقبل . وقال الإمام : أما ما قيل من أن لا إذا دخلت على الماضي وجب تكرارها ، ولم تكرر في الآية ، فذلك لا يلتفت إليه ؛ لأن الكتاب نفسه حجة في الفصاحة . وقد ورد في كلامهم عدم تكرارها . وقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

أي : بالحق الذي جاءهم . عطف على المنفي بـ : لا وهو ﴿ اقْتَحَمَ ﴾ أو على ﴿ فَكُّ ﴾

﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أي : أوصى بعضهم بعضاً ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ أي : على ما نابهم في سبيل الدعوة إلى الحق ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أي : بالرحمة على بعضهم . كقوله : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] ، أو بموجبات رحمته تعالى من القيام بالحق والصدع

به وعمل الصالحات ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أي : اليمين ، أو جهة اليمين التي فيها السعداء .

تنبيه :

قال القاشاني : يشير قوله تعالى :

(274/816)

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ الآيات ، إلى قهر النفس بتكلف الفضائل والتزام سلوك طريقها واكتسابها ، حتى يصير التطبع طبعاً ، ثم قال : فإن الإطعام ، خصوصاً وقت شدة الاحتياج للمستحق ، الذي هو وضع في موضعه ، من باب فضيلة العفة بل أفضل أنواعها ، والإيمان من فضيلة الحكمة وأشرف أنواعها وأجلها ، وهو الإيمان العلمي اليقيني ، والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة ؛ وأخّره عن الإيمان لامتناع حصول فضيلة الشجاعة بدون اليقين . و المرحمة أي : التراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة ، فانظر كيف عدَّدَ أجناس الفضائل الأربع التي يحصل بها كمال النفس . بدأ بالعفة التي هي أولى الفضائل ، وعبّر عنها بمعظم أنواعها . وأخص خصالها الذي هو السخاء ، ثم أورد الإيمان الذي هو الأصل والأساس . وجاء بلفظة ﴿ ثُمَّ ﴾ لبعد مرتبته عن الأولى في الارتفاع

والعلوّ ، وعبر عن الحكمة به لكونه أُمّ سائر مراتبها وأنوعها .

ثم رتب عليه الصبر لامتناعه بدون اليقين . وأخر العدالة التي هي نهايتها . واستغنى بذكر المرحمة ، التي هي صفة الرحمن ، عن سائر أنواعها ، كما استغنى بذكر الصبر عن سائر أنواع الشجاعة .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بأدلتنا وأعلامنا من الكتب والرسل وغير ذلك من آيات الأنفس والآفاق ، التي بها يرتقي إلى معرفة الصراط التي تجب الاستقامة عليه في الاعتقاد والعمل ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي : الشؤم على أنفسهم ، أو جهة الشمال التي فيها الأشقياء . وقال الإمام : أهل اليمين ، في لسان الدين الإسلامي ، عنوان السعداء . وأهل الشمال عنوان الأشقياء .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي : مطبقة أبوابها ، كناية عن حبسهم المخلد فيها ، وسد سبل الخلاص منها ، أجارنا الله بفضله وكرمه منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 402. 407 ﴾

(275/816)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة البلد

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2)

سورة البلد

تعريف بسورة البلد الدرس الأول: 1 – 4 القسم بمكة والرسول والتوالد على كبد وتعب الإنسان

تضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم , وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة . .

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم , على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة:

(لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان في كبد) .

والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس في الأرض . ليكون مثابة لهم وأمنا . يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم , ويلتقون فيه مسالمين , حراما بعضهم على بعض , كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم

والد إسماعيل أبي العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه محمدا (صلى الله عليه وسلم) فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته , بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة , وتزيده شرفا , وتزيده عظمة . وهي إيماءة ذات دلالة عميقة في هذا المقام . والمشركون يستحلون

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

حرمة البيت , فيؤذون النبي والمسلمين فيه , والبيت كريم , يزيده كرما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) حل فيه مقيم . وحين يقسم الله – سبحانه – بالبلد والمقيم فيه , فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته , فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء إسماعيل وعلى ملة إبراهيم , موقفا منكرا قبيحا من جميع الوجوه .

(276/816)

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار :(ووالد وما ولد) . . إشارة خاصة إلى إبراهيم , أو إلى إسماعيل – عليهما السلام – وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبي المقيم به , وبانيه الأول وما ولد . . وإن كان هذا الاعتبار لا ينفي أن يكون المقصود هو:والد وما ولد إطلاقا . وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية , واعتمادها على التوالد . تمهيدا

للحديث عن حقيقة الإنسان التي هي مادة السورة الأساسية .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذا الموضع من تفسيره للسورة في "جزء عم" لفتة لطيفة تتسق في روحها مع روح هذه "الظلال" فنستعيرها منه هنا . . قال رحمه الله:

"ثم أقسم بوالد وما ولد , ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود – وهو طور التوالد – وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع , وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ , وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

"فإذا تصورت في النبات كم تعاني البذرة في أطوار النمو: من مقاومة فواعل الجو , ومحاولة إمتصاص الغذاء مما حولها من العناصر , إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان , وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذورا أخرى تعمل عملها , وتزين الوجود بجمال منظرها – إذا أحضرت ذلك في ذهنك , والتفت إلى ما فوق النبات من الحيوان والإنسان , حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم , ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع , واستبقاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم" . . انتهى .

.

يقسم هذا القسم على حقيقة ثابتة في حياة الكائن الإنساني:

(لقد خلقنا الإنسان في كبد) . .

في مكابدة ومشقة , وجهد وكد , وكفاح وكدح . . كما قال في السورة الأخرى:(يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) . .

(277/816)

الخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء – بإذن ربها – وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج , فتذوق من المخاض – إلى جانب ما تذوقه الوالدة – ما تذوق . وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم !

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر . يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به , ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية !

وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة ! ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ! وكل خطوة بعد ذلك كبد , وكل حركة بعد ذلك كبد . والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد . وعند انتصاب القامة كبد . وعند الخطو الثابت كبد . وعند

التعلم كبد . وعند التفكر كبد . وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء ! ثم تفترق الطرق , وتتنوع المشاق ; هذا يكدح بعضلاته . وهذا يكدح بفكره . وهذا يكدح بروحه . وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء . وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف . . . وهذا يكدح لملك أو جاه ,

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً (6) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)

وهذا يكدح في سبيل الله . وهذا يكدح لشهوة ونزوة . وهذا يكدح لعقيدة ودعوة . وهذا يكدح إلى النار . وهذا يكدح إلى الجنة . . والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء . وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

(278/816)

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا . تختلف أشكاله وأسبابه . ولكنه هو الكبد في النهاية . فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمر في الأخرى . وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة , وتنتهي

به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله .

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء . إن الذي يكدح للأمر الجليل ليس كالذي يكدح للأمر الحقير . ليس مثله طمأنينة بال وارتياحا للبذل , واسترواحا بالتضحية , فالذي يكدح وهو طليق من أثقال الطين , أو للانطلاق من هذه الأثقال , ليس كالذي يكدح ليغوص في الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان ! والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة . . ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه .

الدرس الثاني: 5 – 7 الإنكار على بعض تصرفات الإنسان المالية

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى "الإنسان" وتصوراته التي تشي بها تصرفاته:

(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول: أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ؟) .

إن هذا "الإنسان" المخلوق في كبد , الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد , لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع , فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله , ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه . . فيطغى ويبطش ويسلب وينهب , ويجمع ويكثر , ويفسق ويفجر , دون أن يخشى ودون أن يتحرج . . وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان .

ثم إنه إذا دعي للخير والبذل [في مثل المواضع التي ورد ذكرها في السورة](يقول:أهلكت مالا لبدا) . . وأنفقت شيئا كثيرا فحسبي ماأنفقت وما بذلت !(أيحسب أن لم يره أحد)؟ وينسى أن عين الله عليه , وأن علمه محيط به , فهو يرى ما أنفق , ولماذا أنفق ؟ ولكن هذا "الإنسان" كأنما ينسى هذه الحقيقة , ويحسب أنه في خفاء عن عين الله !

الدرس الثالث:8 – 10 تذكير الإنسان ببعض نعم الله عليه

وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة , وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير , يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه في خاصة نفسه , وفي صميم تكوينه , وفي خصائص طبيعته واستعداداته تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده:

(ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين ؟) . .

إن الإنسان يغتر بقوته , والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة . ويضن بالمال . والله هو المنعم عليه بهذا المال . ولا يهتدي ولا يشكر , وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات:جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار . وميزه بالنطق , وأعطاه أداته المحكمة:(ولسانا وشفتين) . . ثم أودع نفسه

خصائص القدرة على إدراك الخير والشر , والهدى والضلال , والحق والباطل:(وهديناه النجدين)

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (16)

. . ليختار أيهما شاء , ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين .

والنجد الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء , وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله في الخلق , وإعطاء كل شيء خلقه , وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

(280/816)

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ; كما أنها تمثل قاعدة "النظرية النفسية الإسلامية " هي والآيات الأخرى في سورة الشمس:(ونفس وما سواها , فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)[وسنرجئ عرضها بشيء من التفصيل إلى الموضع الآخر في سورة الشمس لأنه أوسع مجالا] .

الدرس الرابع: 11 – 18 دعوة الناس لاقتحام العقبة وتوجيههم إلى البذل والنفقة والصبر والرحمة

(281/816)

هذه الآلاء التي أفاضها الله على جنس الإنسان في خاصة نفسه , وفي صميم تكوينه , والتي من شأنها أن تعينه على الهدى: عيناه بما تريان في صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ; وهي معروضة في صفحات الكون مبثوثة في حناياه . ولسانه وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ; وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير . والكلمة أحيانا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ; وأحيانا تهوي بصاحبها في النار كما ترفعه أو تخفضه . في هذه النار . . " عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في سفر , فأصبحت يوما قريبا منه , ونحن نسير , فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة , ويباعدني عن النار . قال: سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا , وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير ? قلت: بلى يا رسول الله . قال: الصوم جنة . والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار , وصلاة الرجل في جوف الليل شعار

الصالحين , ثم تلا قوله تعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . . .) ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت: بلى يا رسول الله . قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت: بلى يا رسول الله . قال: كف عليك هذا , وأشار إلى لسانه . قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال: ثكلتك أمك ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم ؟ " رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر , ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار , وإعانته على الخير بهذه الهداية . .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا "الإنسان" إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة . هذه العقبة التي يبينها الله له في هذه الآيات:

(282/816)

فلا اقتحم العقبة . . وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة , يتيما ذا مقربة , أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة . .

هذه هي العقبة التي يقتحمها الإنسان – إلا من استعان بالإيمان – هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة . لو تخطاها لوصل ! وتصويرها كذلك حافز قوي , واستجاشة للقلب البشري , وتحريك له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم . . (فلا اقتحم العقبة) ! ففيه تحضيض ودفع وترغيب !

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم: (وما أدراك ما العقبة !) . . إنه ليس تضخيم العقبة , ولكنه تعظيم شأنها عند الله , ليحفز به "الإنسان" إلى اقتحامها وتخطيها ; مهما تتطلب من جهد ومن كبد . فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده , ولا يذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال !

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18)

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمس الحاجة إليه: فك الرقاب العانية ; وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة , وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص , والذي تواجهه النفوس جميعا , وهي تتخطى العقبة إلى النجاة: (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) . . .

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها , وأن العتق هو الاستقلال بهذا . . وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

(283/816)

وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر ; وليست له دولة تقوم على شريعته . وكان الرق عاما في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها . وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الإطلاق . فلما أن أسلم بعضهم كعمار بن ياسر وأسرته , وبلال بن رباح , وصهيب . . وغيرهم - رضي الله عنهم جميعا - اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة , وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق . وبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة , فكان أبو بكر - رضي الله عنه - هو السابق كعادته دائما إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة . .

قال ابن اسحاق: "وكان بلال مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعض بني جمح مولدا من مولديهم وكان صادق الإسلام , طاهر القلب , وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ; ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره , ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد

اللات والعزى . فيقول وهو في ذلك البلاء :أحد أحد . . .

"حتى مر به أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – يوما وهم يصنعون ذلك به – وكانت دار أبي بكر في بني جمح . فقال لأمية بن خلف , ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال:أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر:أفعل . عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى , على دينك" أعطيكه به . قال:قد قبلت . قال:هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

(284/816)

"ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب . بلال سابعهم:عامر بن فهيرة [شهد بدرا وقتل يوم بئر معونة شهيدا] وأم عبيس , وزنيرة . [وأصيب بصرها حين أعتقها , فقالت قريش:ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ! فقالت:كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان . فرد الله بصرها] وأعتق النهدية وابنتها , وكانتا لامرأة من بني عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول:والله لا أعتقكما أبدا . فقال أبو بكر – رضي الله عنه – حل يا أم فلان [أي تحللي من يمينك] فقالت:حل ! أنت أفسدتهما فأعتقهما . قال فبكم هما ؟ قالت:بكذا وكذا . قال:قد أخذتهما

وهما حرتان . أرجعا إليها طحينها . قالتا :أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال:ذلك إن شئتما .

"ومر بجارية بني مؤمل – هي من بني عدي – وكانت مسلمة , وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام – وهو يومئذ مشرك – وهو يضربها , حتى إذا مل قال:إني أعتذر إليك , إني لم أتركك إلا ملالة ! فتقول:كذلك فعل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها" .

قال ابن إسحاق:وحدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق , عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن بعض أهله , قال:قال أبو قحافة لأبي بكر:يا بني إني أراك تعتق رقابا ضعافا . فلو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك ! قال:فقال أبو بكر رضي الله عنه:يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله . . . " . .

لقد كان – رضي الله عنه – يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية . . لله . .

وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله .

(أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة) . .

والمسغبة: المجاعة , ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان . وقد كان اليتيم يجد في البيئة الجاهلية الجاحدة المتكالبة الخسف والغبن . ولو كان ذا قربى . وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم . مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى . وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى في السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج . وقد مر منها الكثير في سورة النساء خاصة . . وفي سورة البقرة وغيرهما . وكذلك إطعام المسكين ذي المترية – أي اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله – في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة , لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار , ومراقبة لله في عياله , في يوم الشدة والمجاعة والحاجة . وهاتان الخطوتان: فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة , وإن كانت لهما صفة العموم , ومن ثم قدمها في الذكر . ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة:

(ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر , وتواصوا بالمرحمة) . . .

و(ثم) هنا ليست للتراخي الزمني , إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقا والأعلى أفقا . وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان . فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام . وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنا في ميزان الله . لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب , أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال:فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة , يتيما ذا مقربة , أو مسكينا ذا متربة . . وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

(286/816)

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة , ولاقتحام العقبة بصفة خاصة .

والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة , وتواصيها على معنى الصبر , وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس . تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه , فيوصي بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك ; ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ; ويقوي بعضها بعضا فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . وإن يكن قائما على الصبر الفردي . وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت , ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ; ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة . فهو أمر زائد على المرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب

التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به , والتحاض عليه , واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته , يتعارف عليه الجميع , ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه . وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين . فهو دين جماعة , ومنهج أمة , مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحا كاملا . .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة – كما وصفها القرآن وحددها –(أولئك أصحاب الميمنة) . . وهم أصحاب

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (20)

اليمين كما جاء في مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة . . وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

الدرس الخامس: 19 – 20 الكفار أصحاب المشأمة في النار الموقدة

(والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة) . .

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول: (والذين كفروا بآياتنا) .

. لأن صفة الكفر تنهي الموقف . فلا حسنة مع الكفر . ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطي عليها . فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام , ثم هم الذين كفروا بآياتنا . . فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه !

وهم أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . .

وكلاهما كذلك قريب في المفهوم الإيماني . وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها !

(عليهم نار مؤصدة) . . أي مغلقة . . إما على المعنى القريب . أي أبوابها مغلقة عليهم وهم في العذاب محبوسون . وإما على لازم هذا المعنى القريب ; وهو أنهم لا يخرجون منها . فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها . . وهذان المعنيان متلازمان . .

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني , وفي التصور الإيماني . تعرض في هذا الحيز الصغير . بهذه القوة وبهذا الوضوح . . وهذه خاصية التعبير القرآني الفريد . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3908 . 3914 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

سُورَةُ الْبَلَدِ

قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ .

تقدم الكلام على هذه اللام ، وهل هي لنفي القسم أو لتأكيده ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ [القيامة : 1] ، إلاَّ أنها هنا ليست للنفي ، لأن الله تعالى قد أقسم بهذا البلد في موضع آخر ، وهو في قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : 1-3] ، لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعاً لقوله تعالى بعده : ﴿ وَأَنتَ ﴾ -أي الرسول صلى الله عليه وسلم- ﴿ حِلٌّ ﴾ ، أي حال أو حلال ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ [البلد : 2] ، أي مكة ، على ما سيأتي إن شاء الله .

وقد ذكر القرطبي وغيره نظائرها من القرآن ، والشعر العربي مما لا يدل على نفي ، كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف : 12] ، مع أن المراد ما منعك من السجود ، وكقول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتقطع

أي وكاد صميم القلب يتقطع .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثاً مطولاً في دفع إيهام الاضطراب .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ ، حل : بمعنى حال ، والفعل المضعف يأتي

مضارعه من باب ، نصر ، وضرب ، فإن كان متعدياً كان من باب نصر .

تقول : حل العقدة يحلها بالضم ، وتقول : حل بالمكان يحل بالكسر إذا أقام فيه ، والإحلال دون الإحرام .

وقد اختلف في المراد بحل هل هو من الإحلال بالمكان ، أو هو من التحلل ضد الإحرام ؟

فأكثر المفسرين أنه من الإحلال ضد الإحرام ، واختلفوا في المراد بالإحلال هذا .

فقيل : هو إحلال مكة له في عام الفتح ، ولم تحل لأحد قبله ولا بعده .

وقيل : حل : أي حلال له ما يفعل بمكة غير آثم ، بينما هم آثمون بفعلهم .

وقيل : حل : أي من المشركين معظمون هذا البلد وحرمته في نفوسهم ، ولكنهم مستحلون إيذاءك وإخراجك .

(289/816)

وذكر أبو حيان : أنه من الحلول والبقاء والسكن ، أي وأنت حال بها . 1ه .

وعلى الأول يكون إخباراً عن المستقبل ووعداً بالفتح ، وأنها تحل له بعد أن كانت حراماً ، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له ، وأن الله عالم بما يفعلون به ، وسينصره عليهم .

وعلى الثاني : يكون تأكيداً لشرف مكة ، إذ هي أولاً فيها بيت الله وهو شرف عظيم ، ثم

فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حال فيها بين أهلها .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا الثاني هو الراجح ، وإن كان أقل قائلاً ، وذلك لقرائن من نفس السورة ومن غيرها من القرآن الكريم .

منها : أن حلوله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد له شأن عظيم فعلاً ، وأهمه الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال33] ، فكأنه تعالى يقول : وهذا البلد الأمين من العذاب ، وهؤلاء الآمنون من العذاب بفضل وجودك فيهم .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم بحلوله فيها بين أظهرهم ، يلاقي من المشاق ويصبر عليها . وفيه أروع المثل للصبر على المشاق في الدعوة ، فقد آذوه كل الإيذاء ، حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلي عند الكعبة . وهو يصبر عليهم ، وآذوه في عودته من الطائف ، وجاء ملك الجبال نصرة له ، فأبى وصبر ودعا لهم ، ومنعوه الدخول إلى بلده مسقط رأسه فصبر ، ولم يدع عليهم ، ورضى الدخول في جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب لقوله بعده ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : 4] ، وهذا من أعظمه .

فإذا كان كل إنسان يكابد في حياته ، أياً كان هو ، ولأي غرض كان ، فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام ، حتى يقسم بها . والله تعالى أعلم .

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)

قيل : الوالد هو آدم ، ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ ، قيل : ما نافية . وقيل : مصدرية .

فعلى أنها نافية : أي وكل عظيم لم يولد له .

(290/816)

وعلى المصدرية : أي بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس ، وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل ونمو الجنين وتفصيله وتخليقه وتسهيل ولادته .

وقيل : ووالد وما ولد : كل والد مولود من حيوان وإنسان .

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم ، وما ولد من ذريته ، بأنه المناسب مع هذا البلد لأنها أم القرى ، وهو أبو البشر ، فكأنه أقسم بأصول الموجودات وفروعها .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ﴾ [الانشقاق : 6] .

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)

لم يبين أيراه أحد ؟ ومن الذي يراه ؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ، ولكن جاء الجواب مقروناً بالدليل والإحصاء في قوله تعالى

بعده ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 8-10] ، لأن من جعل للإنسان عينين يبصر بهما ويعلم منه خائنة الأعين ، ولساناً ينطق به ويحصى عليه ما يلفظ من قول إلاَّ لديه رقيب عتيد ، وهداه الطريق ، طريق البذل وطريق الإمساك ، وإذا كان الأمر كذلك فلن ينفق درهماً إلاَّ وهو سبحانه يعلمه ويراه .

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)

النجد : الطريق ، وهو كما تقدم في سورة الإنسان بعد تفصيل خلق الإنسان ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 2-3] ، أي الطريق على كلا الأمرين بدليل ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] . وتقدم المعنى هناك ، ويأتي في السورة بعدها عند قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] . زيادة إيضاح له ، إن شاء الله تعالى .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العقبة ﴾ [البلد : 12] ، ثم ذكر تفصيلها .

وقد ذكر أن كل ما جاء بصيغة وما أدراك ، فقد جاء تفصيله بعد كقوله تعالى : ﴿ القارعة مَا القارعة وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 1-4] ، وما بعدها .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ الحاقة مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1-2] .

وفي تفسير العقبة بالمذكورات ، فك الرقبة ، وإطعام اليتيم والمسكين توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقاً لا ما لا يدعيه الإنسان بدون حقيقة في قوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاًّ لُّبَداً ﴾ [البلد : 6] .

أما فك الرقبة : فإنك الإسهام في عتق الرقيق والاستقلال في عتقها يعبر عنه بفك النسمة .

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية ، حيث قدم في سلم الاقتحام لتلك العقبة .

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقيق أو فك النسمة ، يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو ، وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير ، وفي هذا إشعار بحقيقة موقف الإسلام من الرق ، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب .

فها هو هنا يجعل عتق الرقبة ، سلم اقتحام العقبة ، وجعله عتقاً للمعتق من النار كل عضو بعضو . ومعلوم أن كل مسلم يسعى لذلك وجعله كفارة لكل يمين وللظهار بين الزوجين ، وكفارة القتل الخطأ ، كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب في الوقت الذي لم يفتح للاستراق إلى باب واحد ، هو الأسر في القتال مع المشركين لا غير ، وهما مما سبق تنبيهاً

عليه رداً على المستشرقين ومن تأثر بهم . في ادعائهم على الإسلام أنه متعطش لاسترقاق الأحرار .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكرم على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] في سورة الإسراء .

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14)

(292/816)

أي شدة وجوع . والساغب : الجائع . قال القرطبي : وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت جَاراً يا بن قيس لعاصمٍ . . . لما بتَّ شَعابنا وجَارك ساغبا

أي لو كنت جاراً بحق تعني بحق الجار ، لما حدث لجارك هذا .

وهذا القيد لحال الإطعام دليل على قوة الإيمان بالجزاء ما عند الله على ما في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان : 8] ، على ما تقدم من أن الضمير في حبه أنه للطعام ، وهذا غالب في حالات الشدة والمسغبة ، وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] ، فهي أعلى منازل الفضيلة في الإطعام .

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15)

وقوله : ﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [15] ، فاليتيم من حرم أبويه أو أحدهما ، وقد خصوا في اللغة يتيم الحيوان ، من فقد الأم ، وفي الطيور من فقد الأبوين ، وفي الإنسان من فقد الأب .

وذا مقربة : أي قرابة ، وخص به ، لأن الإطعام في حقه أفضل وأولى من غيره ، وفيه الحديث " أن الصدقة على الغريب صدقة وصلة ، وعلى البعيد صدقة فقط " .

والأحاديث في الإحسان إلى اليتيم متضافرة ، ويكفي قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين " أي السبابة والتي تليها .

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16)

قيل : المسكين من السكون وقلة الحركة ، والمتربة : اللصوق بالتراب .

وقد اختلف في التفريق بين المسكين والفقير أيهما أِد احتياجاً وما حد كل منهما ، فاتفقوا أولاً على أنه إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا ، وإذا ذكر أحدهما فقط ، فيشمل الثاني معه ، ويكون الحكم جامعاً لهما كما هو هنا ، فالإطعام يشمل الإثنين معاً ، وإذا اجتمعا فرق بينهما بالتعريف .

فالمسكين كما تقدم والفقير ، قالوا : مأخوذ من الفقرة وهي الحفرة تحفر للنخلة ونحوها للغرس ، فكأنه نزل إلى حفرة لم يخرج منها .

وقيل : من فقار الظهر ، وإذا أخذت فقار منها عجز عن الحركة ، فقيل : على هذا الفقير أشد حاجة ، ويرجحه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾ [الكهف : 79] فسماهم مساكين مع وجود سفينة لهم يتسببون عليها للمعيشة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً " الحديث . مع قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم إني أعوذ بك من الفقر " ، وهذا الذي عليه الجمهور ، خلافاً لمالك .

وقد قالوا في تعريف كل منهما : المسكين من يجد أقل ما يكفيه ، والفقير : من لا يجد شيئاً ، والله تعالى أعلم .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ .

هذا قيد في اقتحام العقبة ، بتلك الأعمال من عتق أو إطعام ، لأن عمل غير المؤمن لا يجعله يقتحم العقبة يوم القيامة لإحباط عمله ولاستيفائه إياه في الدنيا ، وثم هنا للترتيب الذكري لا الزمني ، لأن الإيمان مشروط وجوده عند العمل .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شروط قبول العمل وصحته في سورة الإسراء عند قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [طه : 112] ،

وكقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل : 97] ، لأن الإيمان هو العمل الأساسي في حمل العبد على علم الخير يبتغي به الثواب ، وخاصة الإنفاق في سبيل الله ، لأن بذل بدون عوض عاجل .

وقد بحث العلماء موضوع عمل الكافر الذي عمله حالة كفره ثم أسلم ، هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟

(294/816)

والراجح : أنه ينتفع به ، كما ذكر القرطبي أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال : يا رسول الله إنا كنّا نتحنث بأعمال في الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام " أسلمت على ما أسلفت من الخير " ، وحديث عائشة قالت : " يا رسول الله يا إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العاني ويعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : " لا ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " .

ومفهومه أنه لو قالها ، أي لو أسلم فقالها كان ينفعه ، والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ .

تتمة لصفاتهم ، والصبر عام على الطاعة وعن المعصية ، والمرحمة زيادة في الرحمة ،

والحديث " الراحمون يرحمهم الرحمن " .

وذكر المرحمة هنا يتناسب مع العطف الرقيق والمسكين واليتيم ، والله تعالى أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(295/816)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْبَلَدِ

قَوْله تَعَالَى ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قَالَ لَهُ رَجُلٌ : عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؛ قَالَ : أَعْتِقْ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ قَالَ : أَلَيْسَا سَوَاءً يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : لَا ، عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ جَوَازَ إعْطَاءِ الْمُكَاتَبِ مِنْ الصَّدَقَاتِ ؛ لِأَنَّهُ مَعُونَةٌ فِي ثَمَنِهِ ، وَهُوَ نَحْوَ قَوْلِهِ فِي شَأْنِ الصَّدَقَاتِ ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ذِي مَجَاعَةٍ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " الْمَتْرَبَةُ بُقْعَةُ التُّرَابِ ، أَيْ هُوَ مَطْرُوحٌ فِي التُّرَابِ لَا يُوَارِيهِ عَنْ الْأَرْضِ شَيْءٌ " ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا رِوَايَةٌ : " الْمَتْرَبَةُ شِدَّةُ الْحَاجَةِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ تَرِبَ الرَّجُلُ إذَا افْتَقَرَ " .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مَعْنَاهُ : وَكَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا ، فَصَارَتْ " ثُمَّ " هَهُنَا بِمَعْنَى " الْوَاوِ " .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(296/816)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْبَلَدِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ :

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي قِرَاءَتِهَا : قَرَأَ الْحَسَنُ ، وَالْأَعْمَشُ ، وَابْنُ كَثِيرٍ : لَأُقْسِمُ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ زَائِدَةٍ عَلَى اللَّامِ إثْبَاتًا .

وَقَرَأَهَا النَّاسُ بِالْأَلِفِ نَفْيًا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ اخْتَلَفَ النَّاسُ إذَا كَانَ حَرْفُ " لَا " مَخْطُوطًا بِأَلِفٍ عَلَى صُورَةِ النَّفْيِ ، هَلْ يَكُونُ الْمَعْنَى نَفْيًا كَالصُّورَةِ أَمْ لَا ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : تَكُونُ صِلَةً فِي اللَّفْظِ ، كَمَا تَكُونُ " مَا " صِلَةً فِيهِ ؛ وَذَلِكَ فِي حَرْفِ " مَا " كَثِيرٌ ؛ فَأَمَّا حَرْفُ لَا فَقَدْ جَاءَتْ [كَذَلِكَ] فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ : تَذَكَّرْت لَيْلَى فَاعْتَرَتْنِي صَبَابَةٌ وَكَادَ ضَمِيرُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ أَيْ يَتَقَطَّعُ ، وَدَخَلَ حَرْفُ " لَا " صِلَةً .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : [يَكُونُ] تَوْكِيدًا ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ : لَا وَاَللَّهِ ، وَكَقَوْلِ أَبِي كَبْشَةَ [امْرِئِ الْقَيْسِ] : فَلَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرُّ قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ : وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهَا رَدٌّ لِكَلَامِ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ الْقَسَمَ ؛ فَقَالَ : أُقْسِمُ ، لِيَكُونَ فَرْقًا بَيْنَ الْيَمِينِ الْمُبْتَدَأَةِ وَبَيْنَ الْيَمِينِ الَّتِي تَكُونُ رَدًّا ؛ قَالَهُ الْفَرَّاءُ .

(297/816)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ أَمَّا كَوْنُهَا صِلَةً فَقَدْ ذَكَرُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُك ﴾ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهُ صِلَةٌ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي ص : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْت بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْت ﴾ وَالنَّازِلَةُ وَاحِدَةٌ ، وَالْمَقْصُودُ وَاحِدٌ ، وَالْمَعْنَى سَوَاءٌ ؛ فَالِاخْتِلَافُ إنَّمَا يَعُودُ إلَى اللَّفْظِ خَاصَّةً .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ تَوْكِيدٌ فَلَا مَعْنَى لَهُ هَاهُنَا ؛ لِأَنَّ التَّوْكِيدَ إنَّمَا يَكُونُ إذَا ظَهَرَ الْمُؤَكَّدُ ؛ كَقَوْلِهِ : لَا وَاَللَّهِ لَا أَقُومُ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُؤَكَّدٌ فَلَا وَجْهَ لِلتَّأْكِيدِ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ : فَلَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرُّ [كَيْفَ] أَكَّدَ النَّفْيَ وَهُوَ لَا يَدَّعِي بِمِثْلِهِ .

وَمِنْ أَغْرَبِ هَذَا أَنَّهُ قَدْ تُضْمَرُ وَيُنْفَى مَعْنَاهَا ، كَمَا قَالَ أَبُو كَبْشَةَ : فَقُلْت يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْك وَأَوْصَالِي فِي قَوْلٍ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي رِسَالَةِ الْإِلْجَاءِ لِلْفُقَهَاءِ إلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ الْأُدَبَاءِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا رَدٌّ فَهُوَ قَوْلٌ لَيْسَ لَهُ رَدٌّ ؛ لِأَنَّهُ يَصِحُّ بِهِ الْمَعْنَى ، وَيَتَمَكَّنُ اللَّفْظُ وَالْمُرَادُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَأَمَّا مَنْ قَرَأَهَا : لَأُقْسِمُ فَاخْتَلَفُوا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ حَذَفَهَا فِي الْخَطِّ كَمَا حَذَفَهَا فِي اللَّفْظِ ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ ؛ فَإِنَّ خَطَّ الْمُصْحَفِ أَصْلٌ ثَبَتَ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : أَكْتُبُهَا وَلَا أَلْفِظُ بِهَا ، كَمَا كَتَبُوا " لَا إلَى الْجَحِيمِ " .

(298/816)

و " لَا إلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ " بِأَلِفٍ ، وَلَمْ يَلْفِظُوا بِهَا ، وَهَذَا يَلْزَمُهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ وَشِبْهِهِ ، وَلَمْ يَقُولُوا بِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّمَا تَكُونُ صِلَةً فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك ﴾ وَنَحْوِهِ ؛ فَأَمَّا فِي ابْتِدَاءِ الْكَلَامِ فَلَا يُوصَلُ بِهَا إلَّا مَقْرُونَةً بِأَلِفٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

فَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنْ قَالُوا : إنَّ الْقُرْآنَ كَكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ وُصِلَ بِهَا مَا قَبْلَهَا لَكَانَتْ : أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَهَذَا لَا يَجُوزُ ، حَتَّى إنَّ قَوْمًا كَرِهُوا فِي الْقِرَاءَةِ أَنْ يَصِلُوهَا بِهَا ، وَوَقَفُوا حَتَّى يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا بِبَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، لِيَقْطَعُوا الْوَصْلَ الْمُتَوَهَّمَ .

وَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ أَنْ نَقُولَ : إنَّ الصِّلَةَ بِهَا فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ كَصِلَةِ آخِرِهِ

(299/816)

بِهَا ، كَذِكْرِهَا فِي أَثْنَائِهِ ؛ بَلْ ذِكْرُهَا فِي أَثْنَائِهِ أَبْلَغُ فِي الْإِشْكَالِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَا مَنَعَك أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وَلَوْ كَانَ هَذَا كُلُّهُ خَارِجًا عَنْ أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ ، قَادِحًا فِي زَيْنِ الْفَصَاحَةِ ، مُثَبِّجًا قَوَانِينَ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي طَالَ الْقُرْآنُ بِهَا أَنْوَاعَ الْكَلَامِ ، وَلَا عْتَرَضَ عَلَيْهِ بِهِ الْفُصَحَاءُ الْبُلَّغُ ، وَالْعَرَبُ الْعُرْبُ ، وَالْخُصَمَاءُ اللُّدُّ ، فَلَمَّا سَلَّمُوا فِيهِ تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَلَى أُسْلُوبِهِمْ جَارٍ ، وَفِي رَأْسِ فَصَاحَتِهِمْ مَنْظُومٌ ، وَعَلَى قُطْبِ عَرَبِيَّتِهِمْ دَائِرٌ ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ

مُحَقِّقِي الْمُفَسِّرِينَ ، فَقَالُوا : قَوْلُهُ : ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ قَسَمٌ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ أَقْسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِغَيْرِهِ .

قُلْنَا : هَذَا قَدْ بَيَّنَّا الْجَوَابَ عَنْهُ عَلَى الْبَلَاغِ فِي كِتَابِ قَانُونِ التَّأْوِيلِ ، وَقُلْنَا : لِلْبَارِي تَعَالَى أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَعْظِيمًا لَهَا .

فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَ مَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْقَسَمِ بِغَيْرِ اللَّهِ ؟ قُلْنَا : لَا تُعَلَّلُ الْعِبَادَاتُ .

وَلِلَّهِ أَنْ يُشَرِّعَ مَا شَاءَ ، وَيَمْنَعَ مَا شَاءَ [وَيُبِيحَ مَا شَاءَ] ، وَيُنَوِّعَ الْمُبَاحَ وَالْمُبَاحَ لَهُ ، وَيُغَايِرَ بَيْنَ الْمُشْتَرِكِينَ ، وَيُمَاثِلَ بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ ، وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فِيمَا كَلَّفَ مِنْ ذَلِكَ ، وَحَمَّلَ فَإِنَّهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .

فَإِنْ قِيلَ .

(300/816)

فَلِمَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَصَّ عَلَيْهِ دَعَائِمَ الْإِسْلَامِ وَفَرَائِضَ الْإِيمَانِ ، فَقَالَ : وَاَللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ : أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إنْ صَدَقَ .

[قُلْت : قَدْ رَأَيْته فِي نُسْخَةٍ مَشْرِقِيَّةٍ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ : أَفْلَحَ وَاَللَّهِ إنْ صَدَقَ ، وَيُمْكِنُ] أَنْ

يَتَصَحَّفَ قَوْلُهُ : وَاللَّهِ بِقَوْلِهِ : وَأَبِيهِ .

جَوَابٌ آخَرُ بِأَنَّ هَذَا مَنْسُوخٌ

بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ﴾ .

جَوَابٌ آخَرُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا نَهَى عَنْهُ عِبَادَةً ، فَإِذَا جَرَى ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسُنِ عَادَةً فَلَا يُمْنَعُ ، فَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ تُقْسِمُ فِي ذَلِكَ بِمَنْ تَكْرَهُ ، فَكَيْفَ بِمَنْ تُعَظِّمُ ؛ قَالَ ابْنُ مَيَّادَةَ : أَظَنَّتْ سِفَاهًا مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهَا لَأَهْجُوهَا لَمَا هَجَتْنِي مُحَارِبُ فَلَا وَأَبِيهَا إِنَّنِي بِعَشِيرَتِي وَنَفْسِي عَنْ هَذَا الْمُقَامِ لَرَاغِبُ وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَحَدُ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ السَّبْعَةِ : لَعَمْرُ أَبِي الْوَاشِينَ أَيَّانَ نَلْتَقِي لَمَا لَا تُلَاقِيهَا مِنْ الدَّهْرِ أَكْثَرُ يَعُدُّونَ يَوْمًا وَاحِدًا إِنْ لَقِيتَهَا وَيَنْسَوْنَ أَيَّامًا عَلَى النَّأْيِ تَهْجُرُ وَقَالَ آخَرُ : لَعَمْرُ أَبِي الْوَاشِينَ لَا عَمْرَ غَيْرُهُمْ لَقَدْ كَلَّفَتْنِي خُطَّةً لَا أُرِيدُهَا وَقَالَ آخَرُ : فَلَا وَأَبِي أَعْدَائِهَا لَا أَزُورُهَا وَإِذَا كَانَ هَذَا شَائِعًا كَانَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ سَائِغًا .

(301/816)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : فِيهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا وَأَنْتَ سَاكِنٌ ، تَقْدِيرُ

الْكَلَامِ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي أَنْتَ [فِيهِ لِكَرَامَتِك عَلَيَّ ، وَحُبِّي لَك ؛ وَتَكُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى نَحْوِ الْحَالِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ] فِيهِ .

الثَّانِي : وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ يَحِلُّ لَك فِيهِ الْقَتْلُ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، وَإِنَّمَا حُلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ﴾ .

الثَّالِثُ : وَيَرْجِعُ إلَى الثَّانِي أَنَّهُ يَحِلُّ لَك دُخُولُهُ بِغَيْرِ إحْرَامٍ ؛ ﴿ دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ ، وَلَمْ يَكُنْ مُحْرِمًا ﴾ .

الرَّابِعُ قَالَ مُجَاهِدٌ : وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ لَيْسَ عَلَيْك مَا عَلَى النَّاسِ فِيهِ مِنْ الْإِثْمِ : يُرِيدُ أَنَّ اللَّهَ عَصَمَك .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ أَيْ سَاكِنٌ فِيهِ ؛ فَيُحْتَمَلُ اللَّفْظُ ، وَتَقْتَضِيهِ الْكَرَامَةُ ، وَيَشْهَدُ لَهُ عِظَمُ الْمَنْزِلَةِ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّانِي فَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي جَوَازِ الْقَتْلِ بِمَكَّةَ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِيهَا فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا ؛ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ .

وَأَمَّا دُخُولُهُ مَكَّةَ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ .

وَأَمَّا دُخُولُ النَّاسِ مَكَّةَ فَعَلَى قِسْمَيْنِ : إِمَّا لِتَرَدُّدِ الْمَعَاشِ ، وَإِمَّا لِحَاجَةٍ عَرَضَتْ ؛ فَإِنْ كَانَ لِتَرَدُّدِ الْمَعَاشِ فَيَدْخُلُهَا حَلَالًا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كُلِّفَ الْإِحْرَامَ فِي كُلِّ وَقْتٍ لَمْ يُطِقْهُ ، وَقَدْ رُفِعَ تَكْلِيفُ هَذَا عَنَّا .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ لِحَاجَةٍ عَرَضَتْ فَلَا يَخْلُو ؛ إِمَّا أَنْ تَكُونَ حَجَّةً أَوْ عُمْرَةً أَوْ غَيْرَهُمَا ؛ فَإِنْ كَانَ حَجَّةً أَوْ عُمْرَةً فَلَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ الْإِحْرَامِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَهُمَا فَاخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ فِيهِ ؛ فَفِي الْمَشْهُورِ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْإِحْرَامِ ، وَرُوِيَ عَنْهُ تَرْكُهُ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ مِثْلَ هَذَا الِاخْتِلَافِ .

وَالصَّحِيحُ وُجُوبُ الْإِحْرَامِ ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَا تُحَلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ .

وَهَذَا عَامٌّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ مَكَّةَ بِاتِّفَاقٍ مِنْ الْأُمَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَقَدْ أَشَارَ لَهُ رَبُّهُ بِهَذَا ، وَذَكَرَ لَهُ الْبَلَدَ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ ؛ فَاقْتَضَى ذَلِكَ [ضَرُورَةً] التَّعْرِيفَ

الْمَعْهُودَ .

وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَكَّةُ .

وَالثَّانِي أَنَّهُ الْحَرَمُ كُلُّهُ .

(303/816)

وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّ الْبَلَدَ بِحَرِيمِهِ ، كَمَا أَنَّ الدَّارَ بِحَرِيمِهَا ، فَحَرِيمُ الدَّارِ مَا أَحَاطَ بِجُدْرَانِهَا ، وَاتَّصَلَ بِحُدُودِهَا ، وَحَرِيمُ بَابِهَا مَا كَانَ لِلْمَدْخَلِ وَالْمَخْرَجِ ، وَحَرِيمُ الْبِئْرِ فِي الْحَدِيثِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا ، وَعِنْدَ عُلَمَائِنَا يَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَرَاضِي فِي الصَّلَابَةِ وَالرَّخَاوَةِ ، وَلَهَا حَرِيمُ السَّقْيِ بِحَيْثُ لَا تَخْتَلِطُ الْمَاشِيَةُ بِالْمَاشِيَةِ مِنْ الْبِئْرِ الْأُخْرَى فِي الْمَسْقَى وَالْمَبْرَكِ ، وَمَنْ حَازَ حَرِيمًا أَوْ مُنَاخًا قَبْلَ صَاحِبِهِ فَهُوَ لَهُ .

وَحَرِيمُ الشَّجَرَةِ مَا عَمُرَتْ بِهِ فِي الْعَادَةِ وَفِي كِتَابِ أَبِي دَاوُد ؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : ﴿ اخْتَصَمَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ فِي حَرِيمِ نَخْلَةٍ ، فَأَمَرَ بِهَا ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ : ﴿ فَأَمَرَ بِجَرِيدَةٍ مِنْ جَرَائِدِهَا فَذُرِعَتْ ، فَوُجِدَتْ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ أَيْضًا : ﴿ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ فَقَضَى بِذَلِكَ ﴾ .

وَالَّذِي يَقْضِي بِهِ مَا قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ يَأْخُذُ حَقَّهُ فِي الْعِمَارَةِ التَّامَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَرْضِ ، وَيَأْخُذُ

دَوْحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ ، إلَّا أَنْ تَسْتَرْسِلَ أَغْصَانُهَا عَلَى أَرْضِ رَجُلٍ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ مِنْهَا مَا أَضَرَّ بِهِ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ : فِيهَا ثَمَانِ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْعَقَبَةُ : فِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا طَرِيقُ النَّجَاةِ ؛ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ .

الثَّانِي جَبَلٌ فِي جَهَنَّمَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ .

(304/816)

الثَّالِثُ : عَقَبَةٌ فِي جَهَنَّمَ هِيَ سَبْعُونَ دَرَجَةً ، قَالَهُ كَعْبٌ .

الرَّابِعُ أَنَّهَا نَارٌ دُونَ الْحَشْرِ .

الْخَامِسُ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ وَعَدُوَّهُ الشَّيْطَانَ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ : عَقَبَةٌ وَاَللَّهِ شَدِيدَةٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْعَقَبَةُ فِي اللُّغَةِ هِيَ الْأَمْرُ الشَّاقُّ ، وَهُوَ فِي الدُّنْيَا بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَالطَّاعَةِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمُقَاسَاةِ لِلْأَهْوَالِ وَتَعْيِينُ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِخَبَرِ الصَّادِقِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ " اقْتَحَمَ " مَعْنَاهُ قَطَعَ الْوَادِيَ بِسُلُوكِهِ فِيهِ .

وَقَالَ اللَّيْثُ : هُوَ رَمْيُهُ فِي وَهْدَةٍ بِنَفْسِهِ .

وَقَالَ عَلِيٌّ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْتَحِمَ جَرَاثِيمَ جَهَنَّمَ فَلْيَقْضِ بَيْنَ الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ .

وَإِنَّمَا فَسَّرْنَاهُ بَعْدَ الْعَقَبَةِ لِأَنَّ الْمَوْصُوفَ تَقَدَّمَ فِي الشَّرْحِ عَلَى الصِّفَةِ بِحُكْمِ النَّظَرِ الْحَقِيقِيِّ

حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ اخْتَارَ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا التَّقْسِيمِ قَوْلَ مُجَاهِدٍ : إنَّهُ لَمْ يَقْتَحِمْ الْعَقَبَةَ فِي الدُّنْيَا ؛ وَإِنَّمَا اخْتَارَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ .

وَفِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ : ﴿ أَوْ إطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ، فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ إنَّمَا تَكُونُ فِي الدُّنْيَا .

(305/816)

الْمَعْنَى فَلَمْ يَأْتِ فِي الدُّنْيَا بِمَا يُسَهِّلُ لَهُ سُلُوكَ الْعَقَبَةِ فِي الْآخِرَةِ .

تَحْقِيقُهُ : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؛ أَيُّ شَيْءٍ يَقْتَحِمُ بِهِ الْعَقَبَةَ ؛ لِأَنَّ الِاقْتِحَامَ يَدُلُّ عَلَى مُقْتَحَمٍ بِهِ ، وَهُوَ مَا فَسَّرَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ : أَوَّلُهَا فَكُّ رَقَبَةٍ .

وَالْفَكُّ هُوَ حَلُّ الْقَيْدِ ، وَالرِّقُّ قَيْدٌ ، وَسُمِّيَ الْمَرْقُوقُ رَقَبَةً لِأَنَّهُ كَالْأَسِيرِ الَّذِي يُرْبَطُ بِالْقَيْدِ فِي عُنُقِهِ قَالَ حَسَّانُ : كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلَا ثَمَنٍ وَجَزِّ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا وَفَكُّ الْأَسِيرِ مِنْ الْعَدُوِّ مِثْلُهُ ؛ بَلْ أَوْلَى مِنْهُ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِيمَا قَبْلُ .

وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا كَانَ فِكَاكَهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْهُ مِنْ النَّارِ حَتَّى الْفَرْجَ بِالْفَرْجِ ﴾ .

وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَظِيمٌ فِي تَكْفِيرِ الزِّنَا بِالْعِتْقِ .

وَفِي كُتُبِ الْمَالِكِيَّةِ ﴿ أَنَّ وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ سَأَلَ أَنْ يُحَدِّثَ بِحَدِيثٍ لَا وَهْمَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ ، فَغَضِبَ وَاثِلَةُ ، وَقَالَ : الْمَصَاحِفُ تُجَدِّدُونَ فِيهَا النَّظَرَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً وَأَنْتُمْ تَهُمُّونَ تَزِيدُونَ وَتَنْقِصُونَ ، ثُمَّ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صَاحِبُنَا

هَذَا قَدْ أَوْجَبَ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مُرُوهُ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً ؛ فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْ الْمُعْتَقِ عُضْوًا مِنْهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

(306/816)

وَرَوَى الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي عُلَيَّةَ ، حَدَّثَهُمْ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الدَّيْلِيِّ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ بِنَحْوِ مِثْلِهِ الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَالَ أَصْبَغُ : الرَّقَبَةُ الْكَافِرَةُ

ذَاتُ الثَّمَنِ أَفْضَلُ فِي الْعِتْقِ مِنْ الرَّقَبَةِ الْمُؤْمِنَةِ الْقَلِيلَةِ الثَّمَنِ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ سُئِلَ أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : ﴿ أَغْلَاهَا ثَمَنًا ، وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ﴾ .

وَالْمُرَادُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ مَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً ﴾ ، وَمَا ذَكَرَهُ أَصْبَغُ وَهْلَةً .

وَإِنَّمَا نُظِرَ إلَى تَنْقِيصِ الْمَالِ ، وَالنَّظَرُ إلَى تَجْرِيدِ الْمُعْتَقِ لِلْعِبَادَةِ ؛ وَتَفْرِيغِهِ لِلتَّوْحِيدِ أَوْلَى .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الصَّرِيحِ مِنْ مُخْتَصَرِ النَّيِّرَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ إطْعَامُ الطَّعَامِ قَدْ بَيَّنَّا فَضْلَهُ ، وَهُوَ مَعَ السَّغَبِ الَّذِي هُوَ الْجُوعُ أَفْضَلُ مِنْ إطْعَامِهِ لِمُجَرَّدِ الْحَاجَةِ ، أَوْ عَلَى مُقْتَضَى الشَّهْوَةِ .

وَإِطْعَامُ الْيَتِيمِ الَّذِي لَا كَافِلَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْ إطْعَامِ ذِي الْأَبَوَيْنِ لِوُجُودِ الْكَافِلِ وَقِيَامِ النَّاصِرِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ .

(307/816)

وَالْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ يُفِيدُ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْقَرِيبِ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَى الْبَعِيدِ ؛ وَلِذَلِكَ بَدَأَ بِهِ قَبْلَ الْمِسْكِينِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ مَالِكٍ فِي النَّفْلِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ وَالْمَتْرَبَةُ : الْفَقْرُ الْبَالِغُ الَّذِي لَا يَجِدُ

صَاحِبُهُ طَعَامًا إلَّا التُّرَابَ وَلَا فِرَاشًا سِوَاهُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(308/816)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة البلد

وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2)

قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ الجملةَ اعتراضيةٌ على أحد معنَيَيْن : إمَّا على معنى أنه تعالى أَقْسَمَ بهذا البلدِ وما بعدَه على أنَّ الإنسانَ خُلِقَ في كَبَدٍ واعتُرِض بينهما بهذه الجملةِ ، يعني ومن المكابَدَةِ أنَّ مثلَكَ على عِظَمِ حُرْمَتِك يُسْتَحَلُّ بهذا البلدِ كما يُسْتَحَلُّ الصَّيْدُ في غير الحَرَمِ ، وإمَّا على معنى أنَّه أَقْسَم ببلدِه على أنَّ الإنسان لا يَخْلُوا مِنْ مَقاساةِ الشدائِد . واعْتُرِض بأَنْ وَعَدَه فتحَ مكة تَتْميماً للتسلية ، فقال : وأنت حِلٌّ به فيما تَسْتَقْبِلُ تصنعُ فيه ما تريدُ من القَتْلِ والأَسْرِ ، ف " حِلٌّ " بمعنى حَلال ، قال معنى ذلك الزمخشري . ثم قال : " فإنْ قلتَ أين نظيرُ قولِه " وأنت حِلٌّ " في

معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] ومثلُه واسعٌ في كلامِ العبادِ تقول لمن تَعِدُهُ الإكرامَ والحِباء : أنت مُكَرَّمٌ مَحْبُوٌّ ، وهو في كلامِ اللَّهِ تعالى أوسعُ ؛ لأنَّ الأحوال المُسْتَقْبَلَةَ عنده كالحاضرةِ المشاهَدَةِ ، وكفاك دليلاً قاطِعاً على أنه للاستقبالِ ، وأنَّ تفسيرَه بالحالِ مُحالٌ ، أنَّ السورةَ بالاتفاقِ مكيةٌ ، وأين الهجرةُ عن وقتِ نزولِها فما بالُ الفتحِ ؟ وقد ناقشه الشيخ بما لا يَتَّجِهُ ، ورَدَّ عليه قولَه الإجماعَ على نزولِها بمَكةَ بخلافٍ حكاه ابنُ عطية .

(309/816)

الثاني من الوجهَيْنِ الأوَّلَيْن . أنَّ الجملةَ حاليةٌ ، أي : لا أُقْسِمُ بهذا البلدِ وأنت حالٌّ بها لِعظَمِ قَدْرِك ، أي : لا يُقْسِمُ بشيءٍ وأنت أحَقُّ بالإقسام بك منه . وقيل : المعنى لا أُقْسِم به وأنت مُسْتَحَلٌّ فيه ، أي : مُسْتَحَلٌّ أذاك . وتقدَّم الكلام في مثلِ " لا " هذه المتقدِّمةِ فِعْلَ القسمِ .

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3)

قوله : ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ : قيل : " ما " بمعنى " مَنْ " وقيل : مصدريةٌ . أَقْسَم بالشخص وفِعْلِه . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : هَلاَّ قيل : ومَنْ وَلَدَ . قلت : فيه ما في قولِه ﴿

واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران : 36] ، أي : بايِّ شيءٍ وَضَعَتْ ، أي : موضوعاً عجيبَ الشأن " وقيل : " ما " نافيةٌ فتحتاج إلى إضمارِ موصولٍ ، به يَصِحُّ الكلامُ تقديره : والذي ما وَلَدَ ؛ إذ المرادُ بالوالد مَنْ يُوْلَدُ له ، وبالذي لم يَلِدْ العاقرُ ، قال : معناه ابنُ عباس وتلميذُه ابنُ جُبير وعكرمة .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4)

قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ﴾ : هذا هو المُقْسَمُ عليه والكَبَدُ : المَشقةُ . قال الزمخشري : " وأصلُه مِنْ كَبِدَ الرجل كَبَداً فهو أكبدُ ، إذا وَجِعَتْ كَبِدُه وانتفخَتْ ، فاتُّسِعَ فيه حتى اسْتُعْمِلَ في كلِّ نَصَبٍ ومشقةٍ ، ومنه اشْتُقَّت المكابَدَةُ ، كما قيل : كَبَته ، بمعنى أهلكه ، وأصلُه كَبَدَه ، أي : أصاب كَبِدَه . قال لبيد :

4573 يا عَيْنُ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إذ . . . قُمْنا وقام الخُصومُ في كَبَدِ

أي : في شِدَّةِ الأمرِ وصعوبةِ الخَطْبِ وقال ذو الإصبَع :

4574 لِيَ ابنُ عَمٍّ لَوَانَّ الناسَ في كَبَدٍ . . . لظلَّ مُحْتَجِراً بالنَّبْلِ يَرْمِيْني

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6)

قوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ مستأنفةً ، وأنْ تكونَ حالاً . وقرأ العامَّةُ " لُبَداً " بضمِّ اللامِ وفتحِ الباءِ . وشَدَّد أبو جعفر الباءَ ، وعنه أيضاً سكونُها . ومجاهد وابن أبي الزناد بضمتين ، وقد تقدَّم الكلامُ على هذه اللفظةِ والاختلافُ فيها في الجنِّ .

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)

قوله : ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ : الشَّفَةُ محذوفةُ اللامِ ، والأصلُ شَفَهة ، بدليل تصغيرِها على شُفَيْهَة ، وجَمْعِها على شِفاه ، ونظيرُه سَنَة في إحدى اللغتين . وشافَهْتُه ، أي : كلَّمْتُه من غير واسطةٍ ، ولا يُجمع بالألفِ والتاءِ ، استغناءً بتكسيرِها عن تَصْحيحِها .

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)

قوله : ﴿ النجدين ﴾ : إمَّا ظرفٌ ، وإمَّا على حَذْفِ الجارِّ إنْ أُريد بهما الثَّدْيان ، والنَّجْدُ في الأصل : " العُنُقُ لارتفاعِه . وقيل : الطريقُ العالي ، كقولِ امرئِ القيس :

4575 فريقانِ منهمْ قاطعٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ . . . وآخرُ منهمْ جازعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

ومنه " نَجْدٌ " لارتفاعِها عن تِهامةَ .

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)

قوله : ﴿ فَلَا اقتحم ﴾ قال الفراء والزجَّاج : " ذَكَر " لا " مرةً واحدةً ، والعربُ لا تكادُ تُفْرِدُ " لا " مع الفعل الماضي حتى تُعِيْدَ ، كقولِه تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صلى ﴾ [القيامة : 31] ، وإنما أفردَها لدلالةِ آخرِ الكلامِ على معناه فيجوزُ أَنْ يكونَ قولُه : ﴿ ثُمَّ

كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ [البلد : 17] قائماً مقام التكرير، كأنه قال: فلا اقتحم العقبةَ ولا آمَنَ" وقال: الزمخشري: "هي متكررةٌ في المعنى؛ لأنَّ معنى "فلا اقتحمَ العقبةَ" فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعمَ مِسْكيناً، ألا ترى أنه فَسَّر اقتحامَ العقبةِ بذلك" قال الشيخ: "ولا يَتِمُّ له هذا إلاَّ على قراءةِ "فَكَّ" فعلاً ماضياً".

فَكُّ رَقَبَةٍ (13)

(311/816)

وقرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائيُّ "فَكَّ" فعلاً ماضياً، "ورقبةً" نصباً "أو أَطْعم" فعلاً ماضياً أيضاً. والباقون "فَكُّ" برفع الكاف اسماً، "رقبةٍ" خَفْضٌ بالإضافة، "أو إطعامٌ" اسمٌ مرفوعٌ أيضاً. فالقراءةُ الأولى الفعلُ فيها بَدَلٌ مِنْ قولِه "اقتحمَ" فهو بيانٌ له، كأنَّه قيل: فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعَمَ، والثانيةُ يرتفع فيها "فَكُّ" على إضمار مبتدأ، أي: هو فَكُّ رقبة أو إطعامٌ، على معنى الإباحة. وفي الكلامِ حَذْفُ مضافٍ دلَّ عليه "فلا اقتحمَ" تقديرُه: وما أدراك ما اقتحامُ العقبة؟ فالتقدير: اقتحامُ العقبة فكُّ رَقَبَةٍ أو إطعامٌ، وإنما احْتيج إلى تقديرِ هذا المضافِ ليتطابقَ المفسِّر والمفسَّر. ألا ترى أنَّ المفسِّر - بكسرِ السين - مصدرٌ، والمفسَّر - بفتحِ السينِ - وهو العقبةُ غيرُ مصدر، فلو لم نُقَدِّرْ مضافاً لكان المصدرُ وهو"

فَكُّ " مُفَسِّراً للعين ، وهو العقبةُ .

وقرأ أميرُ المؤمنين وأبو رجاء " فَكَّ أو أطعمَ " فعلَيْن كما تقدَّم ، إلاَّ أنهما نصبا " ذا " بالألف . وقرأ الحسن " إطعامٌ " و " ذا " بالألفِ أيضاً وهو على هاتَيْنِ القراءتَيْن مفعولُ " أَطْعم " أو " إطعامٌ " و " يتيماً " حينئذٍ بدلٌ منه أو نعتٌ له . وهو في قراءةِ العامَّةِ " ذي " بالياء نعتاً ل " يوم " على سبيل المجاز ، وُصِفَ اليومُ بالجوع مبالغةً كقولهم : " ليلُك قائمٌ ونهارُك صائمٌ " والفاعلُ لإطعام محذوفٌ ، وهذا أحدُ المواضعِ التي يَطَّرِدُ فيها حَذْفُ الفاعلِ وحدَه عند البصريين ، وقد بَيَّنْتُها مُسْتوفاةً ولله الحمدُ .

(312/816)

والمَسْغَبَةُ : الجوعُ مع التعب ، وربما قيل في العطش مع التعب ، قال الراغب . يُقال منه : سَغِبَ الرجل يَسْغَبُ سَغْباً وسُغُوباً فهو ساغِبٌ وسَغْبانُ والمَسْغَبَةُ مَفْعَلَة منه ، وكذلك المَتْرَبَةُ من التراب . يقال تَرِب ، أي : افتقر حتى لَصِقَ جِلْدُه بالتراب . فأمَّا أَتْرَبَ بالألف فبمعنى استغنى نحو : أَثْرى ، أي : صار مالُه كالتراب وكالثرى والمَقْرَبَةُ أيضاً : مَفْعَلَة من القَرابة . وللزمخشري هنا عبارةٌ حلوة قال : " والمَسْغَبَةُ والمَقْرَبَةُ والمَتْرَبَةُ مَفْعَلات مِنْ سَغِبَ إذا جاع وقَرُبَ في النَّسَب وتَرِبَ إذا افتقر " .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17)

قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ : لتراخي الإيمان وتباعُدِه في الرتبةِ والفضيلةِ عن العِتْقِ والصدقةِ ، لا في الوقتِ ، لأنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ ولا يَثْبُتُ عَمَلٌ إلاَّ به ، قاله الزمخشري . وقيل : المعنى على : ثم كان في عاقبةِ أَمْرِه من الذين وافَوْا الموتَ على الإيمان لأنَّ الموافاةَ عليه شرطٌ في الانتفاعِ بالطاعاتِ . وقيل : التراخي في الذِّكْرِ وتقدَّم تفسيرُه .

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

(313/816)

قوله : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ : قرأ أبو عمرو وحمزة وحفص بالهمز ، والباقون بالواو ، وكذا في " الهُمَزة " فالقراءةُ الأولى من آصَدْتُ البابَ ، أي : أَغْلَقْتُه أُوْصِدُه فهو مُؤْصَدٌ . قيل : ويُحتمل أَنْ يكونَ مِنْ أَوْصَدْتُ ، ولكنه هَمَزَ الواوَ الساكنةَ لضمةِ ما قبلَها كما هَمَزَ ﴿ بالسوق والأعناق ﴾ [ص : 33] كما تقدَّم . والقراءةُ الثانيةُ أيضاً تحتمل المادتَيْن ، ويكون قد خُفِّفَتِ الهمزةُ لسكونها بعد ضمة . وقد نَقَل الفراء عن السوسيِّ الذي قاعدتُه إبدالُ مثلِ هذه الهمزةِ أنه لا يُبْدِلُ هذه بعد ضمةٍ ، وعَلَّلوا ذلك بالالتباسِ . واتفق أنه قد قَرَأَ " مُوْصَدة " بالواوِ مَنْ قاعدتُه تحقيقُ الهمزةِ ، والظاهر أنَّ القراءتَين من مادتين : الأولى

مِنْ آصَدَ يُؤْصِد كأَكْرَمَ يُكْرِم ، والثانية مِنْ أَوْصَدَ يُوصِدُ ، مثل أَوْصَلَ يُوْصِلُ . قال الشاعر :

4576 تَحِنُّ إلى أجْبالِ مكةَ ناقتي . . . ومِنْ دونِها أبوابُ صنعاءَ مُوْصَدَهْ

أي : مُغْلَقة وقال آخر :

4577 قوماً يُعالِجُ قُمَّلاً أبناؤُهمْ . . . وسلاسِلاً حِلَقاً وباباً مُؤْصَدا

وكان أبو بكرٍ راوي عاصمٍ يكره الهمزةَ في هذا الحرفِ ، وقال رحمه الله : " لنا إمامٌ يَهْمز " مؤصدة " فأشتهي أن أَسُدَّ أذُني إذا سمعتُه " قلت : وكأنه لم يَحْفَظْ عن شيخِه إلاَّ تَرْكَ الهمزِ مع حِفْظ حفصٍ إياه عنه ، وهو أَضْبَطُ لحرفه من أبي بكر على ما نقله القُراء ، وإن كان أبو بكرٍ أكبرَ وأتقنَ وأوثقَ عند أهل الحديث .

وقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ جملةً مستأنفةً ، وأَنْ تكونَ خبراً ثانياً ، وأن يكونَ الخبرُ وحده " عليهم " و " نار " فاعلٌ به ، وهو الأحسنُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 12.5 ﴾

(314/816)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة البلد

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة تخبر عن جلال أزلي ، وجمال سرمدي جلال ليس لا بأغيار وأمثال ، جمال لا بصورة ومثال ، وجلال وهو استحقاقه لجبروته وجمال وهو استجابة لملكوته ، جلال من كاشفه به فأوصافه فناء في فناء ، وجمال من لاطفه به فأحواله بقاء في بقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .

أي : أُقْسِم بهذا البلد ، وهو مكة .

﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةً واحدةً .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

كلِّ والدٍ وكلِّ مولود . وقيل : آدم وأولاده .

وجواب القسم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ .

ويقال : أُقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به . . وبَلَدُ الحبيبِ حبيبٌ .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ .

أي : في مشقة ؛ فهو يقاسي شدائد الدنيا والآخرة .

ويقال : خَلَقه في بطن أمه (منتصباً رأسُه) فإذا أذِنَ الله أن يخرج من بطن أمّه تنكَّس رأسُه عند خروجه ، ثم في القِماط وشدّ الربّاط . . ثم إلى الصّراط هو في الهِياط والمِياط .

قوله جل ذكره : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ .

أي : لقوَّته وشجاعته عند نَفْسِه يقول :

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ﴾ .

﴿ لبداً ﴾ كثيراً ، في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .

أليس يعلم أنَّ الله يراه ، وأنه مُطَّلِعٌ عليه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ .

أي : ألم نخلقه سميعاً بصيراً متكلّماً .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

الهمناه طريق الخيرِ والشّرِ .

(315/816)

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْبَغَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .

أي : فهلاَّ اقتحم العقبة ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ استفهام على التفخيم لشأنها .

ويقال : هي عَقَبَةٌ بين الجنة والنار يجاوزها مَنْ فَعَلَ ما قاله : وهو فكُّ رقبة ؛ أي : إعتاقُ مملوك ، والفكُّ الإزالة . وأطعم في يومٍ ذي مجاعةٍ وقحطٍ وشدَّةٍ يتيماً ذا قربة ، أو ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ : لا شيء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وتواصوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ .

أي : من الذين يرحم بعضُهم بعضاً .

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .

أي : أصحاب اليُمْن والبركة .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ عَلَيْهِم نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .

هم المشائيمُ على أنفسهم ، عليهم نارٌ مُطْبَقَة ؛ يعني أبواب النيران (عليهم مغلقة) .

والعقبة التي يجب على الإنسان اقتحامها : نَفْسُه وهواه ، وما لم يَجُزْ تلك العقبة لا يفلح و ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ هو إعتاقُ نَفْسِه من رِقِّ الأغراض والأشخاص .

ويكون فك الرقبة بأن يهدي مَنْ يفكُّه – من رق هواه ونفسه – إلى سلامته من شُحِّ نفسه ، ويرجعه إليه ، ويخرجه من ذلِّه .

ويكون فكُّ الرقبة بالتَّحرُّزِ من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة الرضاء .

ويقال : يطعم من كان في متربة ويكون هو في مسبغة .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي تكون خاتمته على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 729 . 731 ﴾

(316/816)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (4)

الإعراب :

(لا) زائدة " 1 " ، (بهذا) متعلّق بـ (أقسم) (الواو) اعتراضيّة (بهذا) متعلّق بـ (حلّ) ، (والد) معطوف على (هذا) الأول مجرور (ما) موصول في محلّ جرّ معطوف على (والد) ، (اللام) لام القسم (قد) حرف تحقيق (في كبد) متعلّق بحال من المفعول . .

جملة: "لا أقسم . . . "لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: "أنت حلّ . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "ولد . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

---

(1) قيل هي نافية و(الواو) بعدها حاليّة، والجملة حال أي: لا أقسم بهذا البلد وأنت مقيم فيه لعظم قدرك - أو مستحلّ فيه . . - بل أقسم بك.

(317/816)

وجملة: "خلقنا . . . "لا محلّ لها جواب القسم.

الصرف:

(4) كبد: اسم بمعنى المشقّة، أو مصدر الثلاثيّ كبد الرجل إذا وجعه كبده، باب فرح، ثم استعمل في كلّ تعب، وزنه فعل بفتحتين.

[سورة البلد (90): آية 5]

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التهديديّ (أن) مخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير محذوف يعود على

الإنسان أي أنه . . (عليه) متعلّق بـ (يقدر) والمصدر المؤوّل (أن لن يقدر . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسب .

جملة : " يحسب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لن يقدر عليه أحد . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة .

[سورة البلد (90) : آية 6]

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (6)

الإعراب :

الضمير الفاعل في (يقول) يعود على شخص بعينه " 1 " .

جملة : " يقول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أهلكت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(لبدا) ، جمع لبدة ، اسم بمعنى الكثرة ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، والجمع فعل بضمّ ففتح " 2 " .

---

(1) هو أبو الأشدّ بن كلدة - بضمّ الشين - أو أسيد بن كلدة .

(2) وانظر الآية (19) من سورة الجنّ .

[سورة البلد (90) : آية 7]

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7)

الإعراب :

مرّ إعراب نظيرها " 1 " مفردات وجملا ، والاستفهام فيها إنكاريّ .

[سورة البلد (90) : الآيات 8 إلى 17]

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)

فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (له) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان " 2 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة .

جملة : " نجعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هديناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

10 - 11 (الفاء) عاطفة (لا) نافية " 3 " ، (الواو) اعتراضيّة (ما) اسم استفهام في

---

(1) في الآية (5) من هذه السورة .

(2) أو متعلّق بـ (نجعل) بتضمينه معنى نخلق .

(3) جاءت الآيات غير مكرّر فيها (لا) لدلالة آخر الكلام على تكرارها أي : فلا اقتحم العقبة ولا آمن . . وهي عند أبي زيد بمعنى هلا للتحضيض .

محلّ رفع مبتدأ في الموضعين ، خبر الأول جملة أدراك ، وخبر الثاني (العقبة) بحذف مضاف أي : اقتحام العقبة . .

وجملة : " لا اقتحم العقبة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هديناه .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " ما العقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لـ (أدراك) .

11 - 17 (فكّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي (أو) حرف عطف في الموضعين

(إطعام) معطوف على فكّ مرفوع " 1 " (في يوم) متعلّق بالمصدر إطعام (يتيما) مفعول به للمصدر إطعام (مسكينا) معطوف على (يتيما) منصوب (ثمّ) حرف عطف (من الذين) متعلّق بخبر كان (بالصبر) متعلّق بـ (تواصوا) الأول (بالرحمة) متعلّق بـ (تواصوا) الثاني .

وجملة : " (هي) فكّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "كان من الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا اقتحم " 2 " .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تواصوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " تواصوا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة تواصوا (الأولى) .

الصرف :

(9) شفتين : مثنّى شفة ، اسم ذات للعضو المعروف في الوجه ، وفي (شفة) حذف اللام ، والأصل شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة ، وجمعها على شفاه . . ولا تجمع جمعا سالما فوزن شفة فعة بفتحتين .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف والجملة معطوفة على جملة (هي) فكّ بالعاطف أو .

(2) داخلة تحت معنى النفي أو هي مثبتة إن لم يكن ثمّة نفي في الجملة الأولى .

---

(10) النجدين : مثنّى نجد ، اسم بمعنى الطريق المرتفع وقصد به هنا طريق الخير والشرّ ، وقيل هما الثديان . . ووزن نجد فعل بفتح فسكون .

(11) العقبة : اسم للطريق الصعب في الجبل ، وأستعير هنا لمجاهدة النفس في فعل الطاعات وترك المحرّمات ، أو هو ترشيح لاستعارة النجدين للخير والشر ، وزنه فعلة بثلاث فتحات .

(13) فكّ : مصدر سماعيّ للثلاثيّ فكّ باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(14) مسغبة : مصدر ميميّ من الثلاثيّ سغب باب فرح بزيادة التاء للمبالغة أو باب نصر ، وزنه مفعلة بفتح الميم والعين .

(15) مقربة : مثل مسغبة من باب كرم .

(16) متربة : مثل مسغبة من باب فرح أي أصابه التراب بمعنى افتقر .

(17) المرحمة : مثل مسغبة من باب فرح .

البلاغة

1 – الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ " .

أي طريقي الخير والشر ، حيث استعار النجدين للخير والشر ، وحذف المشبه وأبقى المشبه به وقد وصف سبيل الخير بالرفعة والنجدية ، بخلاف سبيل الشر ، فإن فيه هبوطا من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقاوة ، فهو على التغليب أو على توهم المتخيلة .

2 – الاستعارة : في قوله تعالى " فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ " .

العقبة الطريق الوهر في الجبل وفي البحر ، هي ما صعب منه وكان صعودا . وهي هنا استعارة لما فسرت به من الأعمال الشاقة المرتفعة القدر عند اللّه تعالى ، والقرينة ظاهرة ، وإثبات الاقتحام المراد به الفعل ، والكسب ترشيح .

الفوائد :

– عمل المصدر عمل فعله :

في هاتين الآيتين عمل المصدر عمل فعله ، في قوله تعالى (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ) فالمصدر إطعام عمل عمل فعله فنصب مفعولا وهو (يتيما) .

وسنوضح فيما يلي ما يتعلق بعمل المصدر عمل فعله .

يعمل المصدر الصريح عمل فعله في موضعين اثنين :

1 – إذ صح أن يحل محله (أن والفعل) كما في الآية الكريمة ، بتأويل (أو أن تطعم يتيما) أو (ما والفعل) كقوله تعالى (تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) والتقدير : (كما تخافون أنفسكم) . ويعمل المصدر بهذه الحال ، سواء أكان مضافا كقوله تعالى : (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ

النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) أم منونا ، كما في الآية الكريمة أم محلّى بـ (آل) وهذا قليل جدا في اللغة ، وذلك كقول الشاعر :

(321/816)

ضعيف النكاية أعداءه يخال الفرار يراخي الأجل

الشاهد فيه المصدر (النكاية) نصب أعداءه على المفعولية .

2 - إذا كان نائبا عن الفعل : مثل (أداء الواجب) (حفظا الحقّ) فهذان مصدران نابا عن فعلهما . والتقدير أدّ الواجب ، احفظ الحق . والمصدر يعرب في هذه الحال مفعولا مطلقا لفعل محذوف . وهذا المصدر النائب عن الفعل يكون منصوبا دائما ويلزم حالة واحدة أينما وقع .

[سورة البلد (90) : الآيات 18 إلى 20]

أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (بآياتنا) متعلّق بـ (كفروا) ، (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره

(أصحاب) ، (عليهم) متعلّق بخبر مقدّم

للمبتدأ المؤخّر (نار) .

جملة : " أولئك أصحاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هم أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " عليهم نار . . . " في محلّ رفع خبر ثان " 1 " .

الصرف :

(20) مؤصدة : اسم مفعول من الرباعيّ آصد بمعنى أطبق وزنه مفعلة بضمّ الميم وفتح العين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 331. 337 ﴾

---

(1) أو هي استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

(322/816)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(90) سورة البلد

مكيّة وآياتها عشرون

[سورة البلد (90) : الآيات 1 إلى 20]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1)

اللغة :

(الْبَلَدِ) في القاموس : " البلد والبلدة مكة شرّفها اللّه تعالى وكل قطعة من الأرض مستحيزة عامرة أو غامرة والتراب ، والبلد القبر والمقبرة والدار والأثر وأدحي النعام " إلى أن يقول : وبلد بالمكان بلودا أقام ولزمه أو اتخذه بلدا " .

(حِلٌّ) يقال : حلّ وحلال وحرم وحرام بمعنى واحد ، وحلّ في المكان إذا نزل فيه يحل بضم الحاء حلولا فهو حال والمكان محلول فيه ، وسيأتي المزيد من معناه في باب الإعراب .

(323/816)

(كَبَدٍ) نصب ومشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وفي المصباح : " والكبد بفتحتين المشقة من المكابدة للشيء وهو تحمّل المشاق في فعله " وعبارة الزمخشري : " وأصله من كبد الرجل كبد من باب طرب فهو أكبد إذا وجعته كبده وانتفخت فاتسع فيه

حتى استعمل في كل تعب ومشقّة ومنه اشتقت المكابدة كما قيل كبته اللّه بمعنى أهلكه وأصله كبده أي أصاب كبده قال لبيد يرثي أخاه رابد :

يا عين هلّا بكيت اربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

أي في شدّة الأمر وصعوبة الخطب " هذا ومن غريب أمر الكاف والباء أنهما إذا وقعتا فاء وعينا للكلمة دلّتا على الشدّة والمعاناة والقهر ، يقال كببته في الهوّة وكبكبته وكببته وكذلك إذا رمى به من رأس جبل أو حائط والفارس يكبّ الوحوش وهم يكبون العشار قال :

يكبّون العشار لمن أتاهم إذا لم تسكت المائة الوليدا

ومن المجاز أكبّ على عمله وهو مكب عليه لازم له لا يفارقه قال لبيد :

جنوح الهالكيّ على يديه مكبّا يجتلي نقب النصال

وكبت اللّه عدوّك كبه وأهلكه وتقول : لا زال خصمك مكبوتا وعدوّك مكبوتا . وكبح فرسه جذب عنانه حتى يصير منتصب الرأس ولهذا قيل أيضا : " في كبد أي منتصبا ولم يجعله يمشي على أربع فيتناول الشيء بفيه ولا على بطنه لأن اللّه تبارك وتعالى كرّم بني آدم بأشياء هذه إحداها " وقال أعرابي آخر : ما للصقر يحبّ الأرنب ما لا يحب الخرب ؟ قال لأنه يكبح سبلته ويردّه أي يصيب سبلته بذرقه فيلثقه . وكبر الأمر وخطب كبير وكبر علي ذلك إذا شق عليك " كبر على المشركين ما تدعوهم إليه " وكبر الرجل في قدر وكبر في سنّه وشيخ كبير وذو كبر وكبر ، وعلة الكبرة والمكبرة : علو السن وما تقتضيه من معاناة وجهد

قال :

عجوز عليها كبرة في ملاحة أقاتلتي يا للرجال عجوز

(324/816)

وكبس الحفرة طمها وكبس رأسه في جيب قميصه أدخله فيه وهو عابس كابس ووقع عليه الكابوس . وانتطحت الكباش وهو كبش كتيبة وهم كباش الكتائب قال :

وإنّا لما نضرب الكبش ضربة على رأسه تلقي اللسان من الفم

وفلان مكلّب مكبل مأسور بالكلب وهو القدّ مقيّد بالكبل وهو القيد وكبلت الأسير وكبّلته واكتبلته وفي ساقيه كبل وكبول قال جرير :

ومكتبلا في القدّ ليس بنازع له من مراس القدّ رجلا ولا يدا

وكبا لوجهه وتقول : الحدّ ينبو والجدّ يكبو ، إلى آخر هذه المادة العجيبة في لغتنا الحبيبة .

(لُبَداً) كثيرا تكدس بعضه على بعض ولا يخاف فناؤه من كثرته

وما له سبد ولا لبد وهو المراد هنا ولبد أيضا آخر نسور لقمان قيل : بعثته عاد إلى الحرم يستسقي لها فلما أهلكوا خيّر لقمان بين بقاء سبع بعرات من أظب عفر في جبل وعر لا يمسّها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر فاختار النسور وكان

آخرها لبدا فلما مات مات لقمان وذلك في عصر الحارث الرائش أحد ملوك اليمن ، وقد ذكره الشعراء فقال النابغة :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

(النَّجْدَيْنِ) الطريقين يعني طريق الخير وطريق الشر والنجد الطريق في ارتفاع وقيل الثديين ، روي عن ابن عباس وعلي : لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه فالنجد العلو وجمعه نجود ومنه سمّيت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة وفي القاموس " النجد : ما أشرف من الأرض وجمعه أنجد وأنجاد ونجاد ونجود ونجد وجمع النجود أنجدة والطريق الواضح المرتفع وما خالف الغور أي تهامة وتضم جيمه مذكر أعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام وأوله من جهة الحجاز ذات عرق ، وما ينجّد به البيت من بسط وفرش ووسائد والجمع نجود ونجاد والدليل الماهر والمكان لا شجر فيه " إلى أن يقول " والثدي " .

(325/816)

(الْعَقَبَةَ) الطريق الصعب في الجبل ، واقتحامها مجاوزتها ، وسيأتي المزيد من هذا البحث في باب البلاغة .

(مَسْغَبَةٍ) مصدر ميمي من سغب يسغب سغبا من باب فرح : جاع وفي القاموس " سغب

كفرح ونصر سغبا وسغبا وسغابة وسغوبة ومسغبة جاع فهو ساغب وسغبان وسغب

وهي سغبى وجمعها سغاب والسغب العطش وليس بمستعمل " .

(مَتْرَبَةٍ) في المختار : " وترب الشيء أصابه التراب وبابه طرب

ومنه ترب الرجل أي افتقر كأنه لصق بالتراب وتربت يداه دعاء عليه أي لا أصاب خيرا

وتربه تتريبا فتترّب أي لطخه بالتراب فتلطخ وأتربه :

جعل عليه التراب وفي الحديث " أتربوا الكتاب فإنه أنجح للحاجة " وأترب الرجل :

استغنى كأنه صار له من المال بقدر التراب والمتربة المسكنة والفاقة ومسكين ذو متربة أي

لاصق بالتراب " وقال ابن خالويه :

" أخبرنا أبو عبد اللّه نفطويه عن ثعلب قال : يقال : ترب الرجل إذا افتقر وأترب إذا استغنى

ومعناه صار ماله كالتراب كثرة فإن سأله سائل فقال :

إذا كان الأمر كما زعمت فما وجه قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم للرجل الذي

استشاره في التزويج فقال له : " عليك بذات الدين تربت يداك " والنبي لا يدعو على أحد

من المؤمنين ؟ ففي ذلك أجوبة والمختار منها جوابان : أحدهما أن يكون أراد عليه السلام

الدعاء الذي لا يراد به الوقوع كقولهم للرجل إذا مدحوه : قاتله اللّه ما أشعره وأخزاه اللّه ما

أعلمه قال الشاعر في امرأة يهواها وهو جميل بثينة :

رمى اللّه في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

وفي وجهها الصافي المليح بقتمة وفي قلبها القاسي بودّ مماتح

والجواب الثاني أن هذا الكلام مخرجه من الرسول صلّى اللّه عليه وسلم مخرج الشرط كأنه قال : عليك بذات البين تربت يداك إن لم تفعل ما أمرتك به وهذا حسن وهو اختيار ثعلب والمبرد " .

(326/816)

(مُؤْصَدَةٌ) مطبقة بالهمز وهي قراءة حفص وأبي عمرو وحمزة وبالواو الساكنة وهي قراءة الباقين وهما لغتان يقال : أصدت الباب وآصدته وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته وقيل معنى المهموز المطبقة ومعنى غير المهموز المغلقة ولم يفرق بينهما في القاموس .

الإعراب :

(327/816)

(لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ) تقدم إعراب لا أقسم والقول بزيادتها كثيرا فجدد به عهدا وبهذا متعلقان بأقسم والبلد بدل من هذا والواو حالية أو اعتراضية وأنت

مبتدأ وحلّ خبر وبهذا متعلقان بحل والبلد بدل واختار الزمخشري أن تكون الواو اعتراضية والجملة معترضة وردّه أبو حيان وفيما يلي عبارة الزمخشري وردّ أبي حيان :

قال الزمخشري : " أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغمورا في مكابدة المشاق والشدائد واعتراض بين القسم والمقسم عليه بقوله : وأنت حلّ بهذا البلد يعني ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحلّ بهذا البلد الحرام كما يستحلّ الصيد في غير الحرم " إلى أن يقول : " أو سلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعترض بأن وعده بفتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عنه فقال : وأنت حل بهذا البلد يعني وأنت حلّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر " إلى أن يقول : " فإن قلت : أين نظير قوله وأنت حلّ في معنى الاستقبال ؟ قلت قوله عزّ وجلّ : إنك ميت وإنهم ميّتون ومثله واسع في كلام العباد تقول لمن تعده بالإكرام والحباء : أنت مكرم محبو وهو في كلام العرب أوسع لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكيّة وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح ؟ " . وقال أبو حيان : " وحمله على أن الجملة اعتراضية لا يتعين وقد ذكرنا أولا أنها جملة حالية وبيّنا حسن موقعها وهو إفادة تعظيم المقسم به وهي حال مقارنة لا مقدرة ولا محكية فليست من

الإخبار بالمستقبل وأما سؤاله والجواب فهذا لا يسأله من له أدنى تعلق بعلم النحو لأن الإخبار قد يكون بالمستقبلات وأن

(328/816)

اسم الفاعل وما جرى مجراه حالة إسناده أو الوصف به لا يتعين حمله على الحال بل يكون للماضي تارة وللحال أخرى وللمستقبل أخرى وهذا من مبادئ علم النحو وأما قوله وكفاك دليلا قاطعا إلخ فليس بشيء لأنّا لم نحمل وأنت حل على أنه يحلّ لك ما تصنع في مكة من الأسر والقتل وقت نزولها بمكة فتنافيا بل حملناه على أنه مقيم بها خاصة وهو وقت النزول كان مقيما بها ضرورة وأيضا فما حكاه من الاتفاق على أنها نزلت بمكة ليس بصحيح وقد يحكى الخلاف فيها عن قوم " وإنما أوردنا هذا النقاش وقوة الحجة لدى المتناقشين مما حدا بالمفسرين جميعا على وجه التقريب التزام الحياء في هذا النزاع ولهذا لم نشأ نحن الترجيح أيضا ، على أن الكرخي أيد وجهة نظر الزمخشري إذ قال : " أقسم اللّه بالبلد الحرام على أنه خلق الإنسان في كبد واعترض بينهما بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية لقوله وأنت حلّ أي به في المستقبل تصنع ما تريد من القتل والأسر " وكذلك أيد الجلال في تفسيره الزمخشري فقال " فالجملة اعتراض بين المقسم والمقسم عليه " وتعقبه

السمين فأورد كلامه وقال : " وقيل إنها حالية ولا نافية أي لا أقسم بهذا البلد وأنت حال مقيم به لعظيم قدرك أي لا أقسم بشيء وأنت أحقّ بالإقسام بك منه " وأيد ابن خالويه أبا حيان (وَوالِدٍ وَما وَلَدَ) عطف على القسم السابق والمراد بالوالد آدم وما عطف على والد وجملة ولد صلة أي ذريته ، وأحسن من ذلك ما قاله أبو حيان : " والظاهر أن قوله ووالد وما ولد لا يراد به معين بل ينطلق على كل والد " أما الزمخشري فقد جنح إلى رأي آخر فقال : " فإن قلت : ما المراد بوالد وما ولد ؟ قلت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ومن ولده أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل عليهما السلام وبمن ولده وبه فإن قلت لم نكر ؟ قلت للإبهام المستقل بالمدح والتعجب فإن قلت فهلّا قيل ومن ولد ؟ قلت فيه ما

في قوله : واللّه أعلم بما وضعت يعني

موضوعا عجيب الشأن " وقال الفراء وما للناس كقوله : ما طاب لكم " وما خلق الذكر والأنثى وهو الخالق للذكر والأنثى " (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ) الجملة جواب القسم واللام واقعة في الجواب وقد حرف تحقيق وخلقنا فعل وفاعل والإنسان مفعول به وأل فيه

للجنس لأنه أراد جنس الإنسان وفي كبد متعلقان بمحذوف على أنها حال من الإنسان أي مكابدا للمشاق منتصبا على قدميه يؤدي دوره في بناء مجتمعه لا كالحيوان الذي يتناول طعامه بفمه (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) الهمزة للإنكار والتوبيخ ويحسب فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر يعود على الإنسان أو على بعض صناديد قريش الذين كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يكابد منهم ما يكابد ، وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويقدر فعل مضارع منصوب بلن وعليه متعلقان بيقدر وأحد فاعل يقدر ، ومن العجيب أن يقول ابن خالويه ما نصّه : " أن حرف ناصب ولن حرف نصب ويقدر منصوب بلن والعرب إذا جمعت بين حرفين عاملين ألغت أحدهما " فهذا هو الهراء الذي ما بعده هراء وهذا هو الخرق الفاضح لإجماع النحاة على استشهادهم بالآية المذكورة لأنه يشترط في أن المفتوحة إذا خفّفت أن يكون اسمها ضميرا للشأن ولم يسمع ذكره إلا في ضرورة الشعر كقول جنوب أخت عمرو ذي الكلب :

وقد علم الضيف والمرملون إذا اغبرّ أفق وهبت شمالا

بأنك ربيع وغيث مريع وأنك هناك تكون الثمالا

فقد أتى اسمها ضميرا مذكورا وليس للشأن وأما خبرها فيجب أن يكون جملة ، ثم إن كانت الجملة اسمية أو فعلية فعلها جامد أو دعاء لم تحتج إلى فاصل فالاسمية نحو وآخر

دعواهم أن الحمد للّه رب العالمين والفعلية التي فعلها جامد نحو وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والفعلية

(330/816)

التي فعلها دعاء نحو والخامسة أن غضب اللّه عليها ، ويجب الفصل في غيرهنّ ليكون عوضا مما حذفوا من أنه وهو أحد النونين والاسم أو لئلا يلتبس بأن المصدرية والفصل إما بقد لأنها تقرّب الماضي من الحال نحو ونعلم أن قد صدقتنا ، أو تنفيس نحو علم أن سيكون ، أو نفي بلا أو لن أو لم ، فمثال لن أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، فإن قيل قد أوجبوا أن تكون مخفّفة بعد فعل العلم أما بعد فعل الظن فقد أجازوا أن تكون مخففة ومصدرية قلت : ما كان أرفع أسلوب القرآن عن إقحام عاملين بمعنى واحد واضطرارنا إلى إلغاء أحدهما وهذا ما يترفع عنه أسلوب القرآن العظيم (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً) الجملة حالية أو استئنافية والقول على سبيل الفخر والمباهاة وجملة أهلكت مقول القول ومالا مفعول به ولبدا نعت (أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ) الاستفهام للإنكار والتوبيخ أيضا وإعرابها كإعراب سابقتها (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ونجعل فعل مضارع مجزوم بلم وله متعلقان بنجعل لأنها بمعنى

نخلق وعينين مفعول به ولسانا وشفتين عطف على عينين والشفة محذوفة اللام والأصل شفهة بدليل تصغيرها على شفيهه وجمعها على شفاه ونظيره سنة ولا تجمع بالألف والتاء استغناء بتكسيرها على شفاه ، وهديناه فعل ماض وفاعل ومفعول به والنجدين مفعول به ثان أو منصوب بنزع الخافض كما تقدم (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ) الفاء عاطفة ولا نافية وهو قول أبي عبيدة والفراء والزجّاج كأنه قال :

(331/816)

و وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيرا أي فلم يقتحم ، وقال الفراء والزجّاج : ذكر لا مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيدها كقوله تعالى فلا صدق ولا صلّى وإنما أفردها لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله الآتي ثم كان إلخ قائما مقام التكرير كأنه قال اقتحم العقبة ولا آمن وقيل هو جار مجرى الدعاء كقوله لا نجا ولا سلم دعاء عليه أن لا يفعل خيرا ، وقال الزمخشري بعد أن تنحل مقالة الفراء والزجّاج وأبي عبيدة " هي بمعنى لا متكررة في المعنى لأن معنى فلا اقتحم العقبة فلا فكّ رقبة ولا أطعم مسكينا ، ألا ترى أنه فسّر اقتحام العقبة بذلك " ولا يتمّ له هذا إلا على قراءة من قرأ فكّ فعلا ماضيا ، على أن أغرب ما قرأناه هو قول الشيخ الجلال

أن لا بمعنى هلّا أي حرف تحضيض وقد ارتكن الجلال على رواية لأبي زيد ولكننا لم نسمع أن لا وحدها تكون للتحضيض وليس معها الهمزة ، وعبارة ابن هشام في المغني : " وأما قوله سبحانه وتعالى :

فلا اقتحم العقبة فإن لا فيه مكررة في المعنى لأن المعنى فلا فكّ رقبة ولا أطعم مسكينا لأن ذلك تفسير للعقبة قاله الزمخشري ، وقال الزجّاج :

(332/816)

إنما جاز لأن ثم كان من الذين آمنوا معطوف عليه وداخل في النفي فكأنه قيل : فلا اقتحم ولا آمن . ولو صحّ لجاز لا أكل زيد وشرب ، وقال بعضهم لا دعائية دعا عليه أن لا يفعل خيرا ، وقال آخر : تحضيض والأصل فألّا اقتحم ثم حذفت الهمزة وهو ضعيف " . ومن مراجعة هذه الأقوال يتبين أن جعلها دعائية هو الأرجح والأمثل بأسلوب القرآن الكريم ، قال الدماميني : " هذا وجه ظاهر الحسن لا غبار عليه فكان الأولى تقديمه على غيره من الأقوال " . واقتحم العقبة فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو أي القائل ومفعول به وسيأتي المزيد من معنى اقتحام العقبة في باب البلاغة والواو اعتراضية وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة أدراك خبر ما وما اسم استفهام مبتدأ والعقبة خبر والجملة الاسمية

المعلقة بالاستفهام في محل نصب سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني والجملة معترضة مقحمة لبيان العقبة مقررة لمعنى الإبهام ، والتفسير : فإن قوله وما أدراك ما العقبة عين تلك العقبة لأن المعرّف بالألف واللام إذا أعيد كان الثاني عين الأول (فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ) فكّ رقبة خبر لمبتدأ مضمر

(333/816)

أي هو فكّ والتقدير وما هو اقتحام العقبة هو فك رقبة أو إطعام إلخ وإنما احتيج إلى تقدير هذا المضاف ليتطابق المفسّر والمفسّر ، ألا ترى أن المفسر بكسر السين مصدر والمفسر بفتح السين وهو العقبة غير مصدر فلو لم يقدّر المضاف لكان المصدر وهو فكّ مفسّرا للعين وهي العقبة وقرىء فكّ رقبة على أنه فعل ماض وفاعله هو ورقبة مفعول والجملة الفعلية عندئذ بدل من قوله اقتحم العقبة المنفي بلا فكأنه قيل فلا فكّ رقبة ولا أطعم وهذا يؤيد ما ذهب إليه الزمخشري . أو إطعام عطف على فكّ رقبة على القراءة الأولى وفي يوم متعلقان بإطعام وذي مسغبة نعت يوم ويتيما مفعول لإطعام على أنه مصدر استوفى شروط النصب أو مفعول أطعم على القراءة وذا مقربة نعت ليتيما وأو حرف عطف ومسكينا عطف على يتيما وذا متربة نعت لمسكينا (ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ

وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) ثم حرف عطف يفيد التراخي في الرتبة لأن الإيمان هو الأصل والأسبق ولا يتم عمل إلا به ، وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر يعود عليه ومن الذين خبرها وجملة آمنوا صلة وتواصوا عطف على الصلة داخل في حيّزها وبالصبر متعلقان بتواصوا وتواصوا بالمرحمة عطف أيضا (أُولَئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ) أولئك مبتدأ وأصحاب الميمنة خبر والذين مبتدأ وجملة كفروا صلة وبآياتنا متعلقان بكفروا وهم مبتدأ وأصحاب المشأمة خبره والجملة خبر الذين ، وسيأتي بحث قيّم عن اختلاف صيغ التعبير في باب البلاغة وعليهم خبر مقدّم ونار مبتدأ مؤخر ومؤصدة صفة لنار والجملة خبر ثان ولك أن تجعلها استئنافية .

البلاغة :

1- في قوله " وهديناه النجدين " استعارة تصريحية فقد استعار

النجدين للخير والشر وحذف المشبه وهو الخير والشر وأبقى المشبه به فإن قلت أما تشبيه الخير بالنجد وهو المرتفع من الطريق فلا غبار عليه لأنه ظاهر بخلاف الشر فإنه هبوط وارتكاس من ذروة الفطرة إلى حضيض الابتذال قلنا : إنه جمع بينهما إما على سبيل

التغليب وإما على توهم المخيلة أن فيه صعودا وارتكاسا وإسفافا وهذا من أبلغ الكلام وأروعه .

2- وفي قوله " فلا اقتحم العقبة " ترشيح للاستعارة بذكر ما يلائم المشبه وقد مرّت أمثلتها ونضيف هنا أن مبنى الترشيح تناسي التشبيه وتقوّله الادّعاء والمبالغة ولهذا كان الترشيح أبلغ من التجريد وهو ذكر ما يلائم المشبه دون المشبّه به لأن فيه اعترافا بالتشبيه حتى يبنى على علو القدر المشبه بالعلو المكاني ما يبنى على العلو المكاني كما قال أبو تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

استعار الصعود لعلو القدر ثم بنى عليه ما يبنى على علو المكان فلولا أن قصده أن يتناسى التشبيه ويصرّ على إنكاره فيجعله صاعدا في السماء لما كان لهذا الكلام وجه ثم إنهم يفعلون ذلك التناسي مع التصريح بالتشبيه والاعتراف بالأصل فمع جحد الأصل والإصرار عليه كما في الاستعارة أولى فأولى كقول العباس بن الأحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاء طويلا

فلن تستطيع إليها الطلوع ولن تستطيع إليك النزولا

ولا يخفى أن هذا التناسي وقع مع الاعتراف بالأصل وهو : هي في قوله هي الشمس لأنها راجعة إلى الحبيبة وهذا واضح وجعله ضمير القصة كما توهمه بعضهم تكلف .

ومن أمثلة الاستعارة المجردة أيضا قول الشاعر :

فإن يهلك فكل عمود قوم من الدنيا إلى هلك يصير

(335/816)

ففي قوله عمود استعارة تصريحية أصلية شبّه رئيس القوم بالعمود بجامع أن كلاهما يحمل والقرينة يهلك وفي إلى هلك يصير تجريد وقد يجتمع الترشيح مع التجريد لجواز أن يتناسى التشبيه في بعض الصفات دون بعض ، ومن أمثلته قول أبي الطيب :

سقاك وحيّانا بك اللّه إنما على العيس نور والخدور كمائمه

فالنور الزهر أو الأبيض منه والمراد به هنا النساء والجامع الحسن فالاستعارة تصريحية أصلية وفي ذكر الخدور تجريد وفي ذكر الكمائم ترشيح وتسمى الاستعارة عندئذ مطلقة .

3- وفي قوله " أولئك أصحاب الميمنة والذين كفروا هم أصحاب المشأمة " خولف في التعبير ، فقد أشار إلى المؤمنين تكريما لهم وأنهم حاضرون عنده تعالى في مقام كرامته وبمثابة الجالسين أمامه لا يعدو الأمر أكثر من الإشارة إليهم بالبنان ثم استعمل لفظ الإشارة الدّال على البعد فلم يقل هؤلاء إيذانا ببعد منزلتهم عنده ونيلهم شرف الحظوة والقرب منه أما الكافرون فقد ذكرهم بضمير الغيبة إشارة إلى أنهم غائبون عن مقام تجلياته وسبحات

فيوضاته وأنهم لا يستأهلون أن يمتّوا إليه ولو بأوهن الأسباب ، وهذا من العجب العجاب فتدبره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 480.492 ﴾

(336/816)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْبَلَدِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ الْهِدَايَةُ مَحِلُّهَا الْقَلْبُ وَهَذِهِ الْأَعْضَاءُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي هِيَ دَائِمَةُ الْحَرَكَةِ وَالْكَسْبِ إمَّا لِلْإِنْسَانِ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِخِلَافِ مَا يَتَحَرَّكُ مِنْ دَاخِلٍ فَإِنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ وَبِخِلَافِ بَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ فَإِنَّ السُّكُونَ أَغْلَبُ وَحَرَكَتُهَا قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى هَذِهِ وَهَذِهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي يُرْوَى ﴿ عَنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ كَانَ صَمْتُهُ فِكْرًا وَنُطْقُهُ ذِكْرًا وَنَظَرُهُ عِبْرَةً ﴾ . وَفِي حَدِيثٍ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الصَّمْتِ دَائِمَ الْفِكْرِ مُتَوَاصِلَ الْأَحْزَانِ فَالصَّمْتُ وَالْفِكْرُ لِلسَّانِ وَالْقَلْبِ وَأَمَّا الْحُزْنُ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْحُزْنَ الَّذِي هُوَ الْأَلَمُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مَنْهِيٌّ

عَنْهُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ حَالِهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الِاهْتِمَامَ وَالتَّيَقُّظَ لِمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْ الْأُمُورِ وَهَذَا مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْعَيْنِ .

(337/816)

وَفِيهِ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَنَّهُ كَانَ إذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يُصَلِّي يَنْظُرُ إلَى السَّمَاءِ وَيَقْرَأُ الْآيَاتِ الْعَشْرَ مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴾ فَيَجْمَعُ بَيْنَ الذِّكْرِ وَالنَّظَرِ وَالْفِكْرِ فَالنَّظَرُ أَيْ نَظَرُ الْقَلْبِ وَنَظَرُ الْعَيْنِ وَالذِّكْرُ أَيْضًا لَا بُدَّ مَعَ ذِكْرِ اللِّسَانِ مِنْ ذِكْرِ الْقَلْبِ . وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ مَبْدَأً وَالذِّكْرُ مُنْتَهًى لِأَنَّ النَّظَرَ يَتَقَدَّمُ الْإِدْرَاكَ وَالْعِلْمَ وَالذِّكْرَ يَتَأَخَّرُ عَنْ الْإِدْرَاكِ وَالْعِلْمِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمَةُ فِي النَّظَرِ الْمُقْتَضِي لِلْعِلْمِ وَكَانَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِي الذِّكْرِ الْمُقَرِّرِ لِلْعِلْمِ قَدَّمَ آلَةَ النَّظَرِ عَلَى آلَةِ الذِّكْرِ وَخَتَمَ بِهِدَايَةِ الْمَلِكِ الْجَامِعِ الَّذِي هُوَ النَّاظِرُ الذَّاكِرُ .

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ اللِّسَانَ وَالشَّفَتَيْنِ لِأَنَّهُمَا الْعُضْوَانِ النَّاطِقَانِ . فَأَمَّا الْهَوَاءُ وَالْحَلْقُ وَالنِّطْعُ وَاللَّهَوَاتُ وَالْأَسْنَانُ فَمُتَّصِلَةٌ حَرَكَةُ بَعْضِهَا مُرْتَبِطَةٌ بِحَرَكَةِ الْبَعْضِ بِمَنْزِلَةِ غَيْرِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْحَنَكِ فَأَمَّا اللِّسَانُ وَالشَّفَتَانِ فَمُنْفَصِلَةٌ . ثُمَّ الشَّفَتَانِ لَمَّا كَانَا النِّهَايَةَ حَمَلَا الْحُرُوفَ الْجَوَامِعَ : الْبَاءَ وَالْفَاءَ وَالْمِيمَ وَالْوَاوَ . فَأَمَّا الْبَاءُ وَالْفَاءُ فَهُمَا الْحَرْفَانِ السَّبَبِيَّانِ فَإِنَّ الْبَاءَ

أَبَدًا تُفِيدُ الْإِلْصَاقَ وَالسَّبَبُ وَكَذَلِكَ الْفَاءُ تُفِيدُ التَّعْقِيبَ وَالسَّبَبَ ؛ وَبِالْأَسْبَابِ تَجْتَمِعُ الْأُمُورُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ .

(338/816)

وَأَمَّا الْمِيمُ وَالْوَاوُ فَلَهُمَا الْجَمْعُ وَالْإِحَاطَةُ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمِيمَ ضَمِيرٌ لِجَمْعِ الْمُخَاطَبِينَ فِي الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ : ضَمِيرَيْ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ الْمُتَّصِلَيْنِ والمنفصلين وَضَمِيرُ الْخَفْضِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (أَنْتُمْ) و (عَلِمْتُمْ) و (إيَّاكُمْ) و (عِلْمُكُمْ) و (بِكُمْ) وَضَمِيرٌ لِجَمْعِ الْغَائِبِينَ فِي الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ أَيْضًا وَالْمُضْمَرُ أَيًّا كَانَ إمَّا مُتَكَلِّمٌ أَوْ مُخَاطَبٌ أَوْ غَائِبٌ وَاحِدٌ أَوْ اثْنَانِ أَوْ جَمْعٌ مَرْفُوعٌ أَوْ مَنْصُوبٌ أَوْ مَجْرُورٌ . فَقَدْ أَحَاطَتْ بِالْجَمِيعِ مُطْلَقًا . أَمَّا الْجَمْعُ الْمُطْلَقُ فَبِنَفْسِهَا وَأَمَّا الْجَمْعُ الْمُقَدَّرُ بِاثْنَيْنِ فَبِزِيَادَةِ عَلَمِ التَّثْنِيَةِ وَهُوَ الْأَلِفُ فِي مِثْلِ أَنْتُمَا وَعَلِمْتُمَا وَكَذَلِكَ الْبَاقِي . وَلِهَذَا زِيدَتْ الْوَاوُ فِي الْجَمْعِ الْمُطْلَقِ فَقِيلَ عليهموا وأنتموا كَمَا زِيدَتْ الْأَلِفُ فِي التَّثْنِيَةِ وَمَنْ حَذَفَهَا حَذَفَهَا تَخْفِيفًا ؛ وَلِأَنَّ تَرْكَ الْعَلَامَةِ عَلَامَةٌ فَصَارَتْ الْمِيمُ مُشْتَرَكَةً ثُمَّ الْفَارِقُ الْأَلِفُ أَوْ عَدَمُهَا مَعَ الْوَاوِ . وَأَمَّا الْوَاوُ فَلَهَا جُمُوعُ الضَّمَائِرِ الْغَائِبَةِ فِي مِثْلِ قَالُوا وَنَحْوِهَا وَأَمَّا الْمُتَّصِلَةُ مِثْلُ إيَّاكُمْ وَهُمْ فَعَلَى اللُّغَتَيْنِ ؛ فَلَمَّا صَارَتْ الْوَاوُ تَمَامَ الْمُضْمَرِ الْمَرْفُوعِ الْمُنْفَصِلِ وَالْيَاءُ تَمَامَ الْمُؤَنَّثِ : صَارَتْ لِلْمُؤَنَّثِ مُطْلَقًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ؛ لِأَنَّهُ تلو الْمُذَكَّرِ

وَالْمُفْرَدُ مُذَكَّرُهُ وَمُؤَنَّثُهُ قَبْلَ الْمُثَنَّى وَالْمَجْمُوعِ فَإِنَّ الْمُفْرَدَ قَبْلَ الْمُرَكَّبِ ثُمَّ الْأَلِفُ صَارَتْ عَلَمَ التَّثْنِيَةِ

(339/816)

مُطْلَقًا فِي الْمُظْهَرِ وَالْمُضْمَرِ كَمَا أَنَّ الْوَاوَ عَلَمٌ لِجَمْعِ الْمُذَكَّرِ وَجَعْلُ الْيَاءِ عَلَمَيْ النَّصْبِ وَالْجَرِّ

(340/816)

فِي الْمُظْهَرِ مِنْ الْمُثَنَّى وَالْمَجْمُوعِ ؛ لِأَنَّ الْمُظْهَرَ قَبْلَ الْمُضْمَرِ وَأَقْوَى مِنْهُ فَكَانَتْ أَحَقَّ أَنْ تَكُونَ فِيهِ مِنْ الْأَلِفِ فَحِينَ مَا كَانَ أَقْوَى كَانَتْ الْوَاوَ وَحِينَ مَا كَانَ أَوْسَطَ كَانَ الْيَاءَ . وَأَمَّا الْجُمُوعُ الظَّاهِرَةُ فَالْوَاوُ هِيَ عَلَمُ الْجَمْعِ الْمُذَكَّرِ الصَّحِيحِ كَمَا أَنَّ الْأَلِفَ عَلَمُ التَّثْنِيَةِ ؛ وَلِهَذَا يُنْطَقُ بِهَا حَيْثُ لَا إعْرَابَ لَكِنْ فِي حَالِ النَّصْبِ وَالْخَفْضِ قُلِبَتَا يَاءَيْنِ لِأَجْلِ الْفَرْقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَسْمَاءَ الظَّاهِرَةَ لَهَا الْغَيْبَةُ دُونَ الْخِطَابِ فِي جَمِيعِ الْعَرَبِيَّةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَاوَ أَقْوَى حُرُوفِ الْعِلَّةِ وَالضَّمَّةُ بَعْضُهَا وَهِيَ أَقْوَى الْحَرَكَاتِ لِمَا فِيهَا مِنْ الْجَمْعِ وَكَوْنِهَا آخِرًا فَجُعِلَتْ لِلْجَمْعِ

وَالْأَلِفُ أَخَفُّ حُرُوفِ الْعِلَّةِ فَجُعِلَتْ لِلِاثْنَيْنِ لِأَنَّ الْيَاءَ كَانَتْ قَدْ صَارَتْ لِلْمُؤَنَّثِ فِي الْمُفْرَدِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ فِي قَوْلِك . . . (1) ، وَجَاءَتْ الْمِيمُ فِي مِثْلِ اللَّهُمَّ إشْعَارٌ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ حَرْفَ الشَّفَةِ لَمَّا كَانَ جَامِعًا لِلْقُوَّةِ مِنْ مَبْدَإِ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ إلَى مُنْتَهَاهَا بِمَنْزِلَةِ الْخَاتَمِ الْآخَرِ الَّذِي حَوَى مَا فِي الْمُتَقَدِّمِ وَزِيَادَةٍ كَانَ جَامِعًا لِقَوِيِّ الْحُرُوفِ فَجُعِلَ جَامِعًا لِلْأَسْمَاءِ مُظْهَرِهَا وَمُضْمَرِهَا وَجَامِعًا بَيْنَ الْمُفْرَدَاتِ وَالْجُمَلِ فَالْوَاوُ وَالْفَاءُ عَاطِفَانِ وَالْفَاءُ رَابِطَةُ جُمْلَةٍ بِجُمْلَةٍ . وَلَمَّا كَانَتْ النُّونُ قَرِيبَةً مِنْ الْفِيهَةِ فَهِيَ أَنْفِيَّةٌ جُعِلَتْ لِجَمْعِ الْمُؤَنَّثِ

(341/816)

لِأَنَّهُ دُونَ جَمْعِ الْمُذَكَّرِ وَثَنَّى الْعَيْنَيْنِ وَالشَّفَتَيْنِ لِأَنَّ الْعَيْنَيْنِ هُمَا رَبِيئَةُ الْقَلْبِ وَلَيْسَ مِنْ الْأَعْضَاءِ أَشَدُّ ارْتِبَاطًا بِالْقَلْبِ مِنْ الْعَيْنَيْنِ ؛ وَلِهَذَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ وَلِأَنَّ كِلَيْهِمَا لَهُ النَّظَرُ ؛ فَنَظَرُ الْقَلْبِ الظَّاهِرُ بِالْعَيْنَيْنِ وَالْبَاطِنُ بِهِ وَحْدَهُ وَكَذَلِكَ اللِّسَانُ هُوَ الذَّكَرُ وَالشَّفَتَانِ أُنْثَاهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 221 . 225 ﴾

(342/816)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/817)

الجزء السابع عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشمس)

(4/817)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشمس)

(5/817)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الشمس

مقصودها إثبات تصرفه سبحانه وتعالى في النفوس التي هي سرج الأبدان ، تقودها إلى سعادة أو كيد وهوان ونكد ، كما أن الشمس سراج الفلك ، يتصرف سبحانه في النفوس

بالاختيار إضلالا وهداية نعيما وشقاوة

تصرفه سبحانه في الشمس بمثل ذلك من صحة واعتلال ، وانتظام واختلال ، وكذا في جميع الأكوان ، بما له من عظيم الشأن ، واسمها الشمس واضح الدلالة على ذلك بتأمل القسم والمقسم عليه بما أعلم به وأشار إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 437 ﴾

(6/817)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والشمس وضحاها)

السّورية مكّيّة .

وآياتها خمس عشرة عند القرّاءِ .

وعند المكّى ستَّ عشرة .

وكلماتها أَربع وخمسون .

وحروفها مائتان وأَربعون .

المختلف فيها آية ﴿ فَعَقَرُوْهَا ﴾ .

فواصل آياتها على الأَلِف ؛ سمّيت سورة (والشمس) ؛ لمفتتحها .

مقصود السّورة : أَنواع القَسَم المترادفة ، على إِلهام الخَلْق فى الطَّاعة والمعصيّة ، والفلاح والخَيْبَة ، والخبرُ من إِهلاك ثمود ، وتخويف لأَهل مكَّة فى قوله : ﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ .

السّورة محكمة .

[المتشابه] :

قوله : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ قيل هما رجلان : قُدار ، ومصدع ، فوَحَد لرَوِىّ الآية .

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ المردودُ : مَن قرأَها فكأَنَّما تصدّق بكلّ شىء طلعت عليه الشمس والقمر ، وحديث على : يا علىّ مَن قرأَ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ فكأَنَّما قرأَ الزَّبور ، وله بكلّ آية قرأَها ثواب مَن صلَّى بين الرّكن والمقام أَلفَ ركعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 522 ﴾

(7/817)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الشمس

سميت هذه السورة في المصاحف وفي معظم كتب التفسير (سورة الشمس) بدون واو وكذلك عنونها الترمذي في جامعه بدون واو في نسخ صحيحه من (جامع الترمذي) ومن (عارضة الأحوذي) لابن العربي .

وعنونها البخاري سورة (والشمس وضحاها) بحكاية لفظ الآية ، وكذلك سميت في بعض التفاسير وهو أولى أسمائها لئلا تلتبس على القارىء بسورة إذا الشمس كوّرت المسمّاة سورة التكوير .

ولم يذكرها في (الإِتقان) مع السور التي لها أكثر من اسم .

وهي مكية بالاتفاق .

وعدّت السادسة والعشرين في عدد نزول السور نزلت بعد سورة القَدْر ، وقبل سورة البروج .

وآياتها خمس عشرة آية في عدد جمهور الأمصار ، وعدَّها أهل مكة ست عشرة آية .

أغراضها

تهديدُ المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد (صلى

الله عليه وسلم) كما أصاب ثمودا بإشراكهم وعتوِّهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي دعاهم إلى التوحيد .

وقُدِّم لذلك تأكيد الخبر بالقَسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل

(8/817)

على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره فهو دليل على أنه المنفرد بالإلاهية والذي لا يستحق غيره الإِلاهية وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 365 . 366 ﴾

(9/817)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الشمس

مكية وآياتها خمس عشرة آية .

بين يدي السورة

وقد تناولت موضوعين إثنين وهما :

1-موضوع النفس الإنسانية ، وما جبلها الله من الخير والشر ، والهدى والضلال .

2-وموضوع الطغيان ممثلا في قصة [ثمود] الذين عقروا الناقة ، فأهلكهم الله ودمرهم ، وأبادهم عن آخرهم .

* إبتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله جل وعلا ، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه ، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض الذي بسطها على ماء جمد ، وبالنفس البشرية التي كملها الله ، وزينها بالفضائل والكمالات ، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد ، وفسق وفجر .

* ثم ذكر تعالى قصة [ثمود] قوم صالح حين كذبوا رسولهم ، وطغوا وبغوا في الأرض وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر أصم معجزة لرسوله صالح عليه السلام ، وما كان من أمر هلاكهم الفظيع الذي بقى عبرة لمن يعتبر ، وهو نموذج لكل كافر فاجر ، مكذب لرسل الله [كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . .] الآيات .

* وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم وتدميرهم ، لأنه [لا يسأل عما يفعل وهم يسألون] ولهذا قال سبحانه : [فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 564 . 565 ﴾

(10/817)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الشمس

ضحى الشمس : ضوؤها ، تلاها : أي تبعها ، يقال تلا فلان فلانا يتلوه إذا تبعه ، وجلاها : أي كشف الشمس وأتمّ وضوحها ، يغشاها : أي يزيل ضوءها ويحجبه ، والسماء : كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذي فوقك وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التي تجرى فى مجاريها ، بناها : أي رفعها ، وجعل كل كوكب من الكواكب بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة تحيط بك ، وطحا الأرض بسطها وجعلها فراشا ، سوّاها : أي ركب فيها القوى الظاهرة والباطنة ، وجعل لكل منها وظيفة تؤديها ، ألهمها : عرّفها ومكّنها ، والفجور : ما يكون سببا فى الخسران والهلكة ، والتقوى : إتيان ما يحفظ النفس

من سوء العاقبة ، أفلح : أي أصاب الفلاح ، وهو إدراك المطلوب ، وزكاها : أي طهرها من أدناس الذنوب ، وخاب :

أي خسر ، ودسّاها : أي أنقصها وأخفاها بالذنوب والمعاصي قال :

ودسست عمرا فى التراب فأصبحت حلائله منه أرامل ضيّعا

الطّغوى والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، انبعث : أي قام بعقر الناقة ، أشقاها :

أي أشقى ثمود وهو قدار بن سالف ، رسول اللّه : هو صالح عليه السلام ، ناقة اللّه ، أي احذروا التعرض لناقة اللّه ، وسقياها : أي شربها الذي اختصها به فى يومها ، فعقروها : أي فنحروها ، فدمدم : أي فأطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدم عليه القبر : أي أطبقه عليه ، فسواها : أي فسوى القبيلة فى العقوبة فلم يفلت منها أحد ، عقباها : أي عاقبة الدمدمة وتبعتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 165 . 169 ﴾ . باختصار .

(11/817)

وقال الفراء :

سورة (الشمس)

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . . . ﴾ ضحاها: نهارها ، وكذلك قوله: ﴿ والضُّحى ﴾ هو النهار بكسر الضحى: من ضحاها ، وكل الآيات التى تشاكلها ، وإن كان أصل بعضها بالواو .

من ذلك: تلاها ، وطحاها ، ودحاها لما ابتدئت السورة بحروف الياء والكسر اتّبعَها ما هو من الواو ، ولو كان الابتداء للواو لجاز فتح ذلك كله . وكان حمزة يفتح ما كان من الواو ، ويكسر ما كان من الياء ، وذلك من قلة البصر بمجارى كلام العرب ، فإذا انفرد جنس الواو فتحته ، وإذا انفرد جنس الياء ، فأنت فيه بالخيار إن فتحت وإن كسرت فصواب .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا . . . ﴾ قال الفراء: أنا أكسر كلاَّ [/1] ، يريد اتبعها يعنى اتبع الشمس ، ويقال: إذا تلاها فأخذ من ضوئها ، وأنت قائل فى الكلام: اتبعت قول أبى حنيفة ، وأخذت بقول أبى حنيفة ، والاتباع والتلوُّ سواء .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا . . . ﴾ :

جلّى الظلمة ، فجاز الكناية عن الظلمة ولم تُذْكر لأنّ معناها معروف ، ألا ترى أنك تقول: أصبَحت باردةً ، وأمست باردة ، وَهبت شَمالا ، فكنى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر ؛ لأن

معناها معروف .

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . . . ﴾ .

عرفها سبيل الخير ، وسبيل الشر ، وهو مثل قوله: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . . . ﴾ .

(12/817)

يقول: قد أفلحت نفس زكَّاها الله ، وقد خابت نفس دسّاها ، ويقال: قد أفلح من زكّى نفسَه بالطاعة والصدقة ، وقد خاب من دسَّى نفسه ، فأخملها بترك الصدقة والطاعة ، ونرى ـ والله أعلم ـ أنّ دساها من: دسّسْت ، بُدّلَت بعض سيناتها ياء ، كما قالوا: تظينت من: الظن ، وتقضيت يريدون: تقضضتُ من: تقضُّض البازى ، وخرجت أتلعّى: ألتمس اللُّعاع أرعاه . والعرب تبدل فى المشدد الحرف منه بالياء والواو من ذلك ما ذكرنا لك ، وسمعت بعض بنى عقيل ينشد :

* يشبو بها نشجانه [من النشيج] *

هذا آخر بيت ، يريد : يَشُب: يظهر ، يقال: الخمار الأسود يشب لون البيضاء فجعلها واوا ، وقد سمعته فى غير ذلك ، ويقال: دويّه وداويّه ، ويقال: أما فلان فصالح وأيما ، ومن ذلك قولهم: دينار أصله دِنّار ، يدل على ذلك جمعهم إياه دنانير ، ولم يقولوا: ديانير ، وديوان كان أصله: دِوّان لجمعهم إياه: دواوين [/ب] ، وديباج: ديابيج ، وقيراط ، قراريط ، كأنه كان قِرّاط ، ونرى أن دسّاها دسسها ؛ لأن البخيل يخفى منزله وماله ، وأن الآخر يبرز منزله على الأشراف والروابى ، لئلا يستتر عن الضيفان ، ومن أراده ، وكل صواب .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾

وقوله: ﴿ بِطَغْوَاهَآ . . . ﴾ .

أراد بطغيانها إلاّ أن الطغوى أَشكل بُرءوس الآيات ؛ فاختير لذلك . ألا ترى أنه قال: ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ ﴾ ومعناه آخر دعائهم ، وكذلك ﴿ دَعْوَاهُمْ فيها سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ودعاؤهم فيها هذا .

﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . . . ﴾ .

يقال: إنهما كانا اثنين فلان ابن دهر ، والآخر قدار ، ولم يقل: أشقَيَاها ، وذلك جائز لو أتى ؛ لأن العرب إذا [أضافت] أفعل التى يمدحون بها وتدخل فيها (من) إلى أسماء وحدوها

فى موضع الاثنين والمؤنث والجمع ، فيقولون للاثنين: هذا أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، ويثنون أيضا ، أنشدنى فى تثنيته أبو القمقام الأسَدى:

(13/817)

ألا بكرَ النَّاعِى بِخيرَىْ بنى أسد * بعمرِو بن مسعودٍ ، وبالسّيّدِ الصَّمَدْ

فإِنْ تَسَلُونى بالبيانِ فإِنَّه * أبو مَعْقِل لا حىَّ عنْه ، ولاَ حَدَدْ

قال الفراء: أى لا يكفى عنه حيٌّ ، أى لا يقال: حىَّ على فلان سواه ، ولا حدد: أى لا يَحدُ عنه لا يحرم ، وأنشدنى آخر فى التوحيد ، وهو يلوم ابنين له:

يا أخبثَ الناسِ كل الناس قد علموا * لو تستطيعانِ كُنَّا مِثْل مِعْضاد

فوحَّد ، ولم يقل: يا أخبثى ، وكل صواب ، ومن وحَّد فى الإثنين قال فى الأنثى أيضا: هى أشقى القوم ، ومن ثنى قال: هى شُقْيا النسوة على فُعْلَى .

وأنشدنى المفضل الضبى:

غَبَقْتُك عُظْمَاها سَنَاماً أو انبرى * برزقك براق المتون أريب

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ . . . ﴾

نصبت الناقة على التحذير حذرهم إياها ، وكل تحذير فهو نصب [/ا] ولو رفع على ضمير: هذه ناقة الله ، فإن العرب قد ترفعه ، وفيه معنى التحذير ، ألا ترى أن العرب تقول: هذا العدوُّ هذا العدوُّ فاهربوا ، وفيه تحذير ، وهذا الليلُ فارتحلوا ، فلو قرأ قارىء بالرفع كان مصيباً

أنشدني بعضهم:

إن قوماً منهم عميرٌ وأشباهُ * عُمَيْرٍ ومنهُم السَّفَّاحُ

لجديرون بالوفاءِ إذا قا * ل أَخو النجدة: السلاحُ السلاح

فرفع ، وفيه الأمر بلباس السلاح.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا . . . ﴾ .

(14/817)

يقول القائل: كيف كذبوه فعقروها ؟ ونرى أن الكلام أن يقال: فعقروها فكذبوه ، فيكون التكذيب بعد العقر . وقد يكون على ما ظنّ ، لأنك تقول: قتلوا رسولهم فكذبوه ، أي: كفى بالقتل تكذيبا ، فهذا وجه ، ويكون فكذبوه كلمة مكتفى بها ، ويكون قوله:

﴿ فعقروها ﴾ جوابا لقوله: ﴿ إذ انْبَعَث أَشْقَاها ﴾ ، فعقروها . وكذلك جاء التفسير . ويكون مقدما ومؤخرا ؛ لأن العقر وقع بالتكذيب ، وإذا وقع الفعلان معا جاز تقديم أيهما شئت . من ذلك: أعطيتَ فأحْسنت ، وإن قلت: أحسنت فأعطيت كان بذلك المعنى ؛ لأن الإعطاء هو الإحسان ، والإحسان هو الاعطاء ، كذلك العقر: هو التكذيب . فقدمتَ ما شئتَ وأخرت الآخر .

ويقول القائل: كيف قال: فكذبوه ولم يكذبوه قبل ذلك إذ رضوا بأن يكون للناقة شِربٌ ولهم شِرب فجاء فى التفسير: أنهم كانوا أقرُّوا بهذا غير مصدقين له:

وقوله عز وجل: ﴿ فَدَمْدَمَ . . ﴾ .

أرجف بهم . ﴿ فَسَوَّاهَا . . . ﴾ عليهم .

ويقال: فسوَّاها : سوّى الأمة ، أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوَّى بينهم .

﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا . . . ﴾ .

أهل المدينة يقرءون: "فلا يخاف عقباها" بالفاء ، وكذلك هى فى مصاحفهم ، وأهل الكوفة والبصرة: "ولا يخاف عقباها" بالواو فى التفسير أجود ؛ [/ب] لأنه جاء: عقرها ولم يخف عاقبة عقرها ، فالواو ها هنا أجود ، ويقال: لا يخاف عقباها . لا يخاف الله أن

ترجع وتعقب بعد إهلاكه ، فالفاء بهذا المعنى أجود من الواو وكل صواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 266.270 ﴾

(15/817)

وقال الأخفش :

سورة (الشمس)

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾

قال ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [185] يقول "وَالَّذِي سَوَّاهَا" فأقسم الله تبارك وتعالى بنفسه وأنه رب النفس التي سوّاها . ووقع القسم على ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [9] .

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾

وقال ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ أي: ناقةَ اللهِ فاحذَرُوا أَذَاها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 580 ﴾

(16/817)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الشمس «1»

1 - ضُحاها : نهارها كلّه .

2 - وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها أي تبع الشمس .

3 - وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها يعني : جلّي الظّلمة ، او الدنيا .

6 - وَالْأَرْضِ وَما طَحاها أي بسطها . يقال : حيّ طاح ، أي كثير متسع .

8 - فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها أي عرّفها في الفطرة .

9 - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها أي من زكي نفسه بعمل [البر] ، واصطناع المعروف .

10 - وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أي دسّ نفسه - أي أخفاها - بالفجور والمعصية .

والأصل من «دسّست» ، فقلبت السين ياء . كما قالوا : قصّيت أظفاري ، أي قصّصتها .

11 - كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها أي كذبت الرسول إليها بطغيانها .

---

(1) هي مكية .

12 - إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها أي الشقيّ منها ، [أي نهض] لعقر الناقة .

13 - فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ : ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها ، أي احذروا ناقة اللّه وشربها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 456. 457 ﴾

(18/817)

وقال الغزنوى :

[سورة الشمس]

2 وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها : ليلة إبداره «1» .

3 جَلَّاها : أبداها «2» ، أي : الظّلمة «3» . جلّى الشّيء فتجلّى ، وجلّى ببصره :

رمى به ، وجلا لي الخبر : وضح «4» .

4 يَغْشاها : يسترها «5» ، أي : الشّمس .

5 وَما بَناها بمعنى المصدر ، أي : وبنائها «6» ، أو ما بمعنى

---

(14) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 462 ، وتفسير البغوي : 4/ 491 ، وزاد المسير :

9/ 138 ، والبحر المحيط : 8/ 478 .

(2) في «ج» : كشفها .

(3) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 266 ، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 529 ، وتفسير الطبري : 30/ 208 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 332 .

(4) اللسان : 14/ 150 (جلا) .

(5) تفسير الماوردي : 4/ 463 .

(6) هذا قول الزجاج في معانيه : 5/ 332 ، وانظر تفسير الماوردي : 4/ 463 ، وتفسير القرطبي : 20/ 74 ، والبحر المحيط : 8/ 478 .

(19/817)

«الذي» أي : وبانيها «1» .

[207/أ] 7 وَما سَوَّاها : أي : وربّ تسويتها «2» ، وكان من دعاء النّبي «3» صلى اللّه عليه وسلم/ :

«اعط قلوبنا تقواها ، زكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليّها ومولاها» .

10 دَسَّاها : أهلكها بالذنوب «4» ، أو دسّ نفسه في الصّالحين وليس منهم «5» .

أو أخفاها وأخملها من «الدّسيس» فكان «دسّسها» ، والعرب تقلب المضعّف إلى الياء تحسينا «6» للفظ .

14 فَدَمْدَمَ : أهلك واستأصل «7» ، و«الدمدمة» : تحريك البناء حتى ينقلب «8» .

فَسَوَّاها : سوّى بلادهم بالأرض .

15 وَلا يَخافُ عُقْباها : تبعة إهلاكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 879.880 ﴾

---

(1) اختاره الطبري في تفسيره : 30/ 209 .

(2) ينظر تفسير الطبري : 30/ 210 ، وتفسير القرطبي : 20/ 75 .

(3) أخرجه الإمام مسلم - رحمه اللّه تعالى - في صحيحه : 4/ 2088 ، حديث رقم (2723) كتاب الذكر والدعاء ، باب «التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل» عن زيد بن أرقم رضي اللّه عنه مرفوعا .

(4) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 492 .

(5) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 195 دون عزو ، ونقله القرطبي في تفسيره : 20/ 77 عن ابن الأعرابي . [. . . . .]

(6) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 267 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 300 ، وتفسير الطبري :

30/ 212 ، ومعاني الزجاج : 5/ 332 ، واللسان : 6/ 82 (دسس) .

(7) تفسير البغوي : 4/ 494 ، وزاد المسير : 9/ 143 ، وتفسير القرطبي : 20/

.79

(8) اللسان : 12/ 209 (دمم) .

(20/817)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة والشمس

91 - 26

نزلت بمكة بعد القدر ، وهي خمس عشرة آية ، وأربع وخمسون كلمة ، ومائتان وسبعة وأربعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "وَالشَّمْسِ" القرص المعهود "وَضُحاها 1" الوقت المعلوم لأن فيه زيادة ضوئها وقيام سلطانها "وَالْقَمَرِ" المستفاد نوره منها بدليل قوله "إِذا تَلاها 2" تبعها لأنه دائما يكون بمقابلتها تخلفه ويخلفها أنظر رعاك اللّه أي فلكي أخبر محمدا صلّى اللّه عليه وسلم أن أول شيء تكون من الأجرام هو الشمس حتى أقسم اللّه بها ، ثم أقسم بما يكون بعدها لأن هذه الأمور لم تعرف إلا بعد نزول هذا القرآن ولم يسبق أي نقل فيها عن أحد قبله فهو الذي نور قلوب الناس وعقولهم ، فيجب علينا نحن المؤمنين أن نتمسك به ونجيل النظر في معانيه وما

يرمي اليه بإمعان لا نظرا سطحيا وأن نلازمه ونجول حول حرمه ليمنّ اللّه علينا بالوقوف على بعض مغازيه النافعة لنا دينا وأخرى قال تعالى "وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها 3" أي الشمس فإنها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار وتنجلي فيه ظلمة الليل حيث يغشاه ضياؤه بظهور الشمس "وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها 4" أي الشمس إذ بغيابها يظلم الأفق ويبسط الظلام سلطانه "وَالسَّماءِ وَما بَناها 5" قال بعض المفسرين آثر ما ، على من ، في هذه الآية لارادة الوصفية تفخيما أي والقادر العظيم الذي بناها "وَالْأَرْضِ .

وَما طَحاها 6" دحاها وبسطها من كل جانب ودحاها ومهدها لمنافع الخلق والإنس أن يقال جيء بما في هاتين الآيتين بدل من لتفيد المصدرية ويكون المعنى والسماء وبنائها ومعنى البناء هنا الخلق .

مطلب كون السماء مبنية والقوى البشرية :

(21/817)

وظاهر لفظ البناء يدل على أن للسماء جرما وهذا كاف للرد على من يقول أن السماء خلاء تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، كيف وقد قال اللّه (لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) الآية 57 من سورة غافر من ج 2 .

فإذا كانت خلاء كما يزعمون فليست بأعظم من خلق الناس إذ لا أعظم من خلقه إلا خلقها ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية المذكورة والآية 47 من سورة الذاريات من ج 2 أيضا فراجعها ، قال تعالى "وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها 7" أبدعها وأنشأها وعدل أعضائها وسوى خلقها على غير مثال سابق في أحسن صورة هذا على جعل ما مصدريه ، لا وصفيه ، وهو الصواب ويجوز أن تجعل ما ، بمعنى من ، وعليه فتقول والذي سواها والذي بناها والذي طحاها وهكذا ، ونكّر لفظ النفس للتكثير ولتشمل آدم ومن بعده إذا أريد بالنفس الجسد ، وإذا أريد بها المعنى القائم بالجسد فيكون معنى سوّاها أعطاها القوى الكثيرة كالناطقة والسامعة والشامة واللامسة والذائقة والمخيلة والمفكرة والمدبرة والحافظة والباصرة وغيرها من القوى التي أودعها اللّه فيها ليفكر الإنسان في آلاء اللّه ويتدبر في مصنوعاته ويعقل كيفية مخلوقاته ، هذا ومعنى قوله تعالى "فَأَلْهَمَها" أي فهم أو علم تلك النفس ما يضرها وينفعها وبين لها الحالتين اللتين يؤول الإنسان إلى أحدهما "فُجُورَها" وما يؤول اليه من العذاب وثانيتها "وَتَقْواها 8" وما يوصل اليه من الثواب بحيث عرّفها ما تأتي وما تذر وما تأخذ وما تتقي وعاقبة كل من ذلك روى مسلم عن جابر قال جاء سراحة بن مالك بن خثعم فقال يا رسول اللّه بيّن لنا ربنا أمر ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أو فيما يستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، قال ففيم العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

راجع تفسير الآية الأولى من سورة القلم المارة فيما يتعلق بها .

وروى مسلم عن جابر بمعناه من طريق آخر هذا وقد أقسم اللّه تعالى في هذه الأشياء لعظم شرفها وجريان منافعها للخلق وما فيها لمصالحهم وجواب القسم "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها 9" أي فاز وسعد من طهّر نفسه وأصلحها من درن الذنوب ووسخ العيوب "وَقَدْ خابَ" خسر "مَنْ دَسَّاها 10" دنسها بالمعاصي وأفسدها بالكفر وأغواها بالملاهي فأهلكها وأتلفها ، روى مسلم عن زيد بن أرقم قال كان رسول اللّه يقول اللهم أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها زكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن دعوة لا تستجاب ثم طفق على شأنه يقص على بنيه شيئا من أخبار

الأمم الماضية ليعظ قومه ويحذرهم من مخالفته ويرغبهم بطاعته ، فقال "كَذَّبَتْ ثَمُودُ" قوم صالح عليه السلام "بِطَغْواها 11" عليه وتكذيبهم له بعد أن أظهر لهم الناقة التي طلبوها منه معجزة على صدقه "إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها 12" قام مسرعا لعقر الناقة أشقى قومه وهو قدار بن سالف ، روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه ابن أبى زمعة أنه سمع رسول اللّه

يخطب وذكر الناقة والذي عقرها فقال : انبعث لها رجل عزيز منيع في أهله مثل أبي زمعة ولفظ البخاري عارم أي شديد ممتنع (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ) صالح عليه السلام احذروا "ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها 13" لا تعقروها ولا تتعرضوا لها بسوء ولا لمائها في نوبتها ولا تقربوه .

(23/817)

وذلك ان اللّه أمر صالحا أن يجعل الماء الموجود في قريتهم يوما لهم ويوما لها ، وأضافها لجلالته تشريفا كبيت اللّه (فَكَذَّبُوهُ) بما أخبرهم عن ربه من قسمة الماء ولم يكتفوا بمنعها حتى عمدوا إلى الناقة (فَعَقَرُوها) نسب العقر لهم مع أن العاقر واحد لموافقتهم على عقرها قال تعالى (فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ) الآية 29 من سورة القمر الآتية ولما لم يلتفتوا إلى نهي نبيهم استأصلهم بعذابه المنوه به بقوله (فَدَمْدَمَ) دمر وأطبق العذاب (عَلَيْهِمْ) جميعهم لرضاهم بفعل العاقر والراضي بالشيء كفاعله فأهلكم كلهم (رَبُّهُمْ) لمخالفته امره وتكذيبهم لنبيه (بِذَنْبِهِمْ) الذي اقترفوه عمدا وعدوانا وقصدا "فَسَوَّاها 14" سوى قراهم بالأرض وعمهم بالدمدمة فلم يفلت منهم أحد "وَلا يَخافُ عُقْباها 15" ولا تبعتها كما يخاف الملوك عاقبة أفعالهم لأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وستأتي القصة مفصلة في الآية 72 من الأعراف الآتية هذا ولا يوجد في القرآن سورة

مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به هذه السورة من الألفاظ.

وأستغفر اللّه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وصحبه وسلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿بيان المعاني حـ 1 صـ 221. 223﴾

(24/817)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة:

قال شيخ الإسلام/ زكريا الأنصاري

سورة والشمس

مكية

قد أفلح إلى قوله من دساها جواب القسم وهو تام أشقاها كاف وكذا فسواها وقال أبو عمرو انهما تامان آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ﴾

(25/817)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والشمس

مكية لا وقف من أوّلها إلى قد أفلح جواب القسم لاتساق الكلام واتصال الجواب بالقسم والتمام دساها وحذفت اللام من قد لطول المعاطيف على المقسم به الأوّل وقيل الجواب محذوف تقديره قد سعد من عمل بالطاعة وشقي من عمل بالمعاصي وقيل لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليهم أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم نبيَّ الله صالحاً عليه السلام وقيل لتبعثن وعلى أنه محذوف يحسن الوقف على رأس كل آية

أشقاها وسقياها و فسوّاها وقف لمن قرأ ولا يخاف بالواو وليس بوقف لمن قرأ فلا يخاف بالفاء وهو نافع وابن عامر والباقون بالواو ورسمت في مصاحف أهل المدينة والشام بالفاء وفي غيرها بالواو فقد قرأ كل بما يوافق رسم مصحفه

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(26/817)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الشمس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "بِطَغْوَاهَا" – الحسن .

قال أبو الفتح : هذا مصدر على فعلى ، كأخواته من : الرجعى ، والحسنى ، والبؤسى والنعمى . وعليه ما حكاه أبو الحسن من قراءة بعضهم : "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنى 1" كقولك : عرفا 2 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 363 ﴾

---

1 سورة البقرة : 83 ، وتنسب هذه القراءة إلى الحسن ، كما في الاتحاف : 86 .

2 عرفا أي معروفا تفسير لحسنى ، وليست موازنة لها كما لا يخفى ، فوزنها فعلى كالعقبى والبشرى . وهي على هذه القراءة صفة لمحذوف ، أي : كلمة أو مقالة حسنى . وتكون حينئذ أما اسم تفضيل نكرة استعمل استعمال المعرفة شذوذا ، والقراءة من الشواذ .

وقد ورد اسم التفضيل المنكر كذلك في الشعر ، كقول بشامة بن حزن النهشلي :

وإن دعوت إلى جلى ومكرمة يوما سراة كرام الناس فادعينا

وأما أنها فارقت معنى التفضيل فصارت بمعنى حسنة . وانظر البحر : 1 : 285 ، 286 ، والحماسة : 34 ، واللسان "بها" .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الشمس

مكية وآيها خمس عشرة في غير مدني أول قيل ومكي وست عشرة فيهما خلافها ثنتان فعقروها مدني أول وحمصي فسواها غيره القراآت أمال رؤوس الآي سوى تلاها وطحاها حمزة والكسائي وخلف أما تلاها و طحاها فأمالهما الكسائي وحده وقلل الجميع الأزرق وابو عمرو بخلفهما معا كما مر إيضاحه في محله فاقتصار الأصل هنا على التقليل للأزرق مع اتصاله بهاء المؤنث لعله سهو قلم وأما عقروها فلا تمال بحال وعن الحسن بطغواها بضم الطاء مصدر كالرجعى والحسنى وأدغم تاء كذبت ثمود أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الأخفش وحمزة والكسائي

واختلف في ( ) ولا يخاف ( ) الآية 15 فنافع وابن عامر وأبو جعفر بالفاء للمساواة بينه وبين ما قبله من قوله فقال لهم فكذبوه والباقون بالواو ما للحال أو لاستئناف الإخبار المرسوم ولايخاف بالفاء في المدني والشامي وبالواو في المكي والعراقي واتفقوا على كتابة تليها وطحيها بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(28/817)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والشمس "

" عليهم " جلي .

" ولا يخاف " قرأ المدنيان والشامي بالفاء في مكان الواو وغيرهم بالواو . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 352 ﴾

(29/817)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سوة الشمس

ما كان في اواخر آيات هذه السورة يقرأ بالامالة والتفخيم وبينهما الا ما تفرد به حمزة من

امالة ذوات الياء وتفخيم ذوات الواو ولم يفرق الباقون بينهما لمجاورة ذوات الواو ذوات الياء

ها هنا وفيما شاكله من امثاله وقد ذكرت الحجة فيه

قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود ﴾ يقرأ بالادغام والاظهار وقد ذكرت علل ذلك فيما مضى

قوله تعالى ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ يقرأ بالواو والفاء فالحجة لمن قرأه بالواو انه انتهى بالكلام عند قوله ﴿ فسواها ﴾ الى التمام ثم استأنف بالواو لانه ليس من فعلهم ولا متصلا بما تقدم لهم والحجة لمن قرأه بالفاء انه اتبع الكلام بعضه بعضا وعطف آخره على اوله شيئا فشيئا فكانت الفاء بذلك اولى لانها تأتي بالكلام مرتبا ويجعل الآخر بعد الاول ومعنى قوله فدمدم أي فهدم ومعنى فسواها أي سوى بيوتهم قبورهم وعقباها يريد عاقبة امرها يريد بالهاء والالف يخاف عقبى من أهلك فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 372 ﴾

(30/817)

وقال ابن زنجلة :

91 - سورة الشمس

ولا يخاف عقباها 15

قرأ نافع و ابن عامر فلا يخاف بالفاء معناه فدمدم عليهم ربهم فلا يخاف قباها أي لا يخاف

الله لأن رب العز لا يخاف شيئا

وقرأ الباقون ولا يخاف بالواو والمعنى إذ انبعث أشقاها لعقر لناقة وهو لا يخاف عقباها أي لا يخاف ما يكون من عاقبة فعله ففاعل يخاف العاقبة الضمير العائد على أشقاها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 766 ﴾

(31/817)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة والشمس وضحاها 91

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدني الأول ولا نظير لها في غيره

وكلمها أربع وخمسون كلمة

وحروفها مئتان وستة وأربعون حرفا

وهي ست عشرة آية في المدني الأول ويقال في المكي كذلك وخمس عشرة في عدد الباقين اختلافها آية (﴿ فعقروها ﴾) عدها المدني الأول والمكي بخلاف عنه ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

وضحاها

1 تلاها

2 جلاها

3 يغشاها

4 بناها

5 طحاها

6 سواها

7 وتقواها

8 زكاها

9 دساها

10 بطغواها

11 أشقاها

12 وسقياها

13 فسواها

14 عقباها

15 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 275﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الواو الأولى للقسم ، وما بعدها عطف ، و (إذ) معمول للقسم ، وجواب القسم (قد أفلح) وحذف اللام لطول الكلام ، و " ما " في المواضع الثلاثة بمعنى من ، وقيل مصدرية ، و (دساها) أصله دسسها فأبدلت السين الأخيرة ألفا لكثرة الأمثال .

والطغوى فعلى من الطغيان ، والواو مبدلة من ياء مثل التقوى ، ومن قال طغوت كانت الواو أصلا عنده ، و (إذ) ظرف لكذبت أو لطغوى ، و (ناقة الله) منصوب بمعنى احذروا (ولا يخاف) بالواو والجملة حال: أي فعلى ذلك وهو لا يخاف ، وقرئ بالفاء على أنها للعطف من غير مهلة ، والضمير في سواها وعقباها للعقوبة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الشمس

[سورة الشمس (91) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحاها (1)

"وَالشَّمْسِ" جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "وَضُحاها" معطوف على الشمس .

[سورة الشمس (91) : آية 2]

وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها (2)

"وَالْقَمَرِ" معطوف على ما قبله "إِذا" ظرف زمان "تَلاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الشمس (91) : آية 3]

وَالنَّهارِ إِذا جَلاَّها (3)

معطوفة على ما قبلها والإعراب مماثل .

[سورة الشمس (91) : آية 4]

وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (4)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشمس (91) : آية 5]

وَالسَّماءِ وَما بَناها (5)

معطوفة على ما قبلها "وَما" مصدرية والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر معطوف على ما قبله .

[سورة الشمس (91) : آية 6]

وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشمس (91) : آية 7]

وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7)

معطوفة على ما قبلها أيضا .

[سورة الشمس (91) : آية 8]

فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8)

"فَأَلْهَمَها" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "فُجُورَها" مفعول به ثان "وَتَقْواها" معطوف على فجورها والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشمس (91) : آية 9]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9)

"قَدْ" حرف تحقيق "أَفْلَحَ مَنْ" ماض وفاعله والجملة جواب القسم "زَكَّاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة.

[سورة الشمس (91) : آية 10]

وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10)

معطوفة على ما قبلها.

[سورة الشمس (91) : آية 11]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (11)

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ" ماض وفاعله "بِطَغْواها" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة.

[سورة الشمس (91) : آية 12]

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (12)

"إِذِ" ظرف زمان "انْبَعَثَ أَشْقاها" ماض وفاعله. والجملة في محل جر بالإضافة.

(34/817)

[سورة الشمس (91) : آية 13]

فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها (13)

"فَقالَ" ماض مبني على الفتح "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "رَسُولُ اللَّهِ" فاعل مضاف إلى لفظ الجلالة والجملة معطوفة على ما قبلها . "ناقَةَ" منصوب على التحذير بفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَسُقْياها" معطوفة على ناقة .

[سورة الشمس (91) : آية 14]

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (14)

"فَكَذَّبُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَعَقَرُوها" عطف على كذبوه بالفاء .

"فَدَمْدَمَ" ماض مبني على الفتح "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "رَبُّهُمْ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "بِذَنْبِهِمْ" متعلقان بالفعل "فَسَوَّاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الشمس (91) : آية 15]

وَلا يَخافُ عُقْباها (15)

"وَلا" الواو حالية "لا" نافية "يَخافُ" مضارع فاعله مستتر "عُقْباها" مفعول به والجملة حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 450. 451﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة وَالشَّمْس

حَدِيث وَاحِد

1497 - عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الشَّمْس فَكَأَنَّمَا تصدق بِكُل شَيْء طلعت عَلَيْهِ الشَّمْس وَالْقَمَر

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَخْبرنِي أَبو الْحسن مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْفَارِسِي ثَنَا أَبو مُحَمَّد ابْن أبي حَامِد ثَنَا أَبو جَعْفَر مُحَمَّد بن الْحسن الْأَصْبَهَانِيّ ثَنَا المؤمل بن إِسْمَاعِيل ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثَنَا أسلم الْمنْقري عَن عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 218.219 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة والشّمس وضحاها» (91)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَالسَّماءِ وَما بَناها وَالْأَرْضِ وَما طَحاها» (5 - 6) ومن طحاها ومن بناها بسطها يمينا وشمالا ومن كل جانب . .

«خابَ مَنْ دَسَّاها» (10) هى من دسست والعرب تقلّب حروف المضاعف إلى الياء

قال العجّاج :

تقضّى البازي إذا البازي كسر

«1» [943] وإنما هو القضاض . وتظنّيت إنما هو تظننت ورجل ملبّ وإنما هو من ألببت أي قد أقمت بالمكان وقد ألبّ الرجل قال المضرّب بن كعب :

فقلت لها فيئى إليك فإننى حرام وإنى بعد ذاك لبيب

(172) أي مقيم أي مع ذاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 300 ﴾

---

(1) . - 943 : ديوانه ص 17 والطبري 30/ 117 والاقتضاب ص 413 وشواهد الكشاف 149 .

(37/817)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الشمس

" والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها " عندما أنظر إلى الشمس فى كبد السماء أحسبها تزيد قليلا عن شبر فى شبر ! ثم أذكر أقوال العلماء أنها تكبر أرضنا " مليونا ونصف مليون مرة " ، وأن المسافة التى تباعدنا عنها "150 مليون كيلومتر " ، وأن الكواكب التى تتبعها تسعة كواكب من بينها أرضنا التى تحمل ستة مليارات من البشر وحدهم ! وأن هذه الشمس وتوابعها تجرى بين شموس أخرى لا تحصى فى مجرة مديدة الآفاق ، وأن هذه المجرات على كثرتها المذهلة تدور فى زاوية محدودة من الكون الفسيح الذى لا تعرف آماده ولا تدرك أبعاده ! قلت وأنا مبهور ما أوسع الكون ! واستتليت وأنا حائر : وما أوسع خالقه ! وقرأت " ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله

واسع عليم" فى هذا الكوكب المحقور ، يعيش بنو آدم الذين منحوا حرية الاختيار ، فآمن من آمن وكفر من كفر . إن حملة العرش وسكان السماوات يستغفرون لهم " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا . . . " . " تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض "

وسورة الشمس وأمثالها من قصار السور تتضمن معانى وجيزة وتوجيهات سريعة ، ولكنها كافية شافية . ولذلك يكثر تكرارها فى الصلوات الخمس لتكون زادا روحيا نافعا . وقد أقسم الله سبع مرات فى صدر السورة على أن الفلاح لمن زكى نفسه والخيبة لمن تبع هواه وأخلد إلى الأرض وهل . يهلك الناس إلا بالإسفاف والغفلة ؟ وقد فجرت ثمود وطغت ، فماذا كانت عقباها ؟ أمست هشيما تدوسه الأقدام . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 522 ﴾

(38/817)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(39/817)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الشمس والليل والضحى

أقول: هذه الثلاثة حسنة التناسق جداً ، لما في مطالعها من المناسبة ، لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة ، ومنها سورة الفجر ، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم ، كما فصل بين الانفطار والانشقاق وبين المسبحات ، لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول ، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد في المناسبة ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد ، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفذلكة فقوله في الشمس (قَد أَفلحَ مَن زكاها) هم أصحاب الميمنة في سورة البلد ، وقوله: (وقد خابَ من دساها) في الشمس ، هم أصحاب المشأمة في سورة البلد ، فكانت هذه السورة فذلكة تفصيل تلك السورة: ولهذا قال الإمام: المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات ، والتحذير من المعاصي ونزيد في سورة الليل: أنها تفصيل إجمال سورة الشمس ، فقوله (فأَمّا مَن أَعطى واتقى) وما بعدها ، تفصيل (قَد أَفلحَ مَن زكاها) وقوله: (وأَما مَن بَخِلَ واستغنى) ، تفصيل قوله (وقَد خابَ مَن دساها) ونزيد في سورة الضحى: أنها متصلة بسورة الليل من

وجهين فإن فيها (وإِنَّ لنا للآخرةُ والأُولى) وفي الضحى: (وللآخرةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأُولى) وفي الليل (ولسوفَ يَرضى) وفي الضحى (ولسوفَ يُعطيكَ ربُكَ فترضى)

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه صلى الله عليه وسلم، افتتحت بالضحى، الذي هو نور ولما كانت سورة الليل سورة أبي بكر، يعني: ما عدا قصة البخيل، وكانت سورة الضحى سورة محمد، عقب بها، ولم يجعل بينهما واسطة، ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبي بكر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 151.152 ﴾

(40/817)

قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

(بسم الله) الذي هو الملك الأعظم فله التصرف العام (الرحمن) الذي وسعت رحمته كل

شيء فإليه الإنعام (الرحيم) اللذي خص من شاء بالتوفيق فبنى إنعامه عليهمن على التمام .

لما أثبت في سورة البلد أن الإنسان في كبد ، وختمها بأن من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد ، وهو النار المؤصدة ، أقسم أول هذه على أن الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه لأنه يحول بين المرء وقلبه وبين القلب ولبه ، فقال مقسماً بما يدل على تمام علمه وشمول قدرته في الآفاق علويها وسفليها ، والأنفس سعيدها وشقيها وبدأ بالعالم العلوي ، فأفاد ذلك قطعاً العلم بأنه الفاعل المختار ، وعلى العلم بوجوب ذاته وكمال صفاته ، وذلك أقصى درجات القوى النظرية ، تذكيراً بعظائم آلائه ، ليحمل على الاستغراق في شكر نعمائه ، الذي هو منتهى كمالات القوى العملية ، مع أن أول المقسم به مذكر بما ختم به آخر تلك من النار : ﴿ والشمس ﴾ أي الجامعة بين النفع والضر بالنور والحر ، كما أن العقول كذلك لا أنور منها إذا نارت ، ولا أظلم منها إذا بارت ﴿ وضحاها ﴾ أي وضوئها الناشىء عن جرمها العظيم الشأن البديع التكوين المذكر بالنيران إذا أشرقت وقام سلطانها كإشراق أنوار العقول ، والضحى - بالضم والقصر : صدر النهار حين ارتفاعه ، وبالفتح والمد : شدة الحر بعد امتداد النهار ، وشيء ضاح - إذا ظهر للشمس والحر .

(41/817)

ولما افتتح بذكر آية النهار ، أتبعه ذكر آية الليل فقال : ﴿ والقمر ﴾ أي المكتسب من نورها كما أن أنوار النفوس من أنوار العقول ﴿ إذا تلاها ﴾ أي تبعها في الاستدارة والنور بما دل على أن نوره من نورها من القرب الماحق لنوره والبعد المكتسب له في مقدار ما يقابلها من جرمه ، ولا يزال يكثر إلى أن تتم المقابلة فيتم النور ليلة الإبدار عند تقابلهما في أفق الشرق والغرب ، ومن ثم يأخذ في المقاربة فينقص بقدر ما ينحرف عن المقابلة ، ونسبة التبع إليه مجازية أطلقت بالنسبة إلى ما ينظر منه كذلك .

ولما ذكر الآيتين ، ذكر ما هما آيتاه ، وبدا بهما لأنه لا صلاح له إلا بهما كما أنه لا صلاح للبدن إلا بالنفس والعقل فقال : ﴿ والنهار ﴾ أي الذي هو محل الانتشار فيما جرت به الأقدار ﴿ إذا جلاها ﴾ أي جلى الشمس بجلية عظيمة بعضها أعظم من بعض باعتبار الطول والقصر والصحو والغيم والضباب والصفاء والكدر كما أن الأبدان تارة تزكي القلوب والنفوس والعقول وتارة تدنسها ، لأن العقل يكون في غاية الصفاء والدعاء إلى الخير في حال الصغر ثم لا يزال يزيد وينقص بحسب زكاء البدن في حسن الجبلة ، أو نجاسته بسوء الجبلة ، حتى يصير الشخص نوراً محضاً ملكاً ناطقاً إذا طابق البدن العقل فتعاونا على الخير ، أو يصير ظلاماً بحتاً شيطاناً رجيماً إذ خالف البدن العقل بسوء الجبلة وشرارة الطبع .

ولما ذكر معدن الضياء ، ذكر محل الظلام فقال : ﴿ والليل ﴾ أي الذي هو ضد النهار فهو محل السكون والانقباض والكمون ﴿ إذا يغشاها ﴾ أي يغطي الشمس فيذهب ضوءها حين تغيب فتمتد ظلال الأرض على وجهها المماس لنا ، فيأخذ الأفق الشرقي في الإظلام ، ويمتد ذلك الظلام بحسب طول الليل وقصره كما يغطي البدن نور العقل بواسطة طبعه بخبثه ورداءة عنصره ، وذلك كله بمقادير معلومة ، وموازين قسط محتومة ، ليس فيها اختلال ، ولا يعتريها انحلال ، حتى يريد ذو الجلال ، ولم يعبر بالماضي كما في النهار لأن الليل لا يذهب الضياء بمرة بل شيئاً فشيئاً ، ولا ينفك عن نور بخلاف النهار ، فإنه إذا أبدى الشمس ولم يكن غيم ولا كدر جلى الشمس في آن واحد ، فلم يبق معه ظلام بوجه .

ولما ذكر الآيتين ومحل أثرهما ، ذكر محل الكل فقال تعالى : ﴿ والسماء ﴾ أي التي هي محل ذلك كله ومجلاه كما أن الأبدان محل النفوس ، والنفوس مركب العقول ، ولما رقى الأفكار من أعظم المحسوسات المماسة إلى ما هو دونه في الحس وفوقه في الاحتياج إلى إعمال فكر ، رقي إلى الباطن الأعلى المقصود بالذات وهو المبدع لذلك كله معبراً عنه بأداة ما لا يعقل ، مع الدلالة بنفس الإقسام ، على أن له العلم التام ، والإحاطة الكبرى بالحكمة البالغة ، تنبيهاً

على أنهم وصفوه بالإشراك وإنكار الحشر بتلك المنزلة السفلى والمساواة بالجمادات التي عبدوها مع ما له من صفات الكمال التي ليس لغيره ما يداني شيئاً منها ، زجراً لهم بالإشارة والإيماء عن ذلك ومشيراً إلى شدة التعجيب منهم لكونها أداة التعجب فقال : ﴿ وما بناها ﴾ أي هذا البناء المحكم الذي ركب فيه ما ذكره إشارة إلى ما وراءه مما يعجز الوصف .

(43/817)

ولما ذكر البناء ذكر المهاد فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي التي هي فراشكم بمنزلة محال تصرفاتكم بالعقل في المعاني المقصودة ﴿ وما طحاها ﴾ أي بسطها على وجه هي فيه محيطة بالحيوان كله ومحاط بها في مقعر الأفلاك ، وهي مع كونها ممسكة بالقدرة كأنها طائحة في تيار بحارها ، وهي موضع البعد والهلاك ومحل الجمع - كل هذا بما يشير إليه التعبير بهذا اللفظ إشارة إلى ما في سعي الإنسان من أمثال هذا ، قال أهل البصائر : وليس في العالم الآفاقي شيء إلا وفي العالم النفساني نظيره ، وانشدوا في ذلك :

دواؤك فيك وما تشعر . . .

وداؤك منك وتستنكر

وتحسب أنك جزء صغير . . .

وفيك انطوى العالم الأكبر

(44/817)

فالسماوات سبع كطباق الرأس التي تتعلق بالقوى المعنوية والحسية كالذاكرة والحافظة والواهمة والمخيلة والمفكرة والحس المشترك وما هو لمقاسم البصر في العين ، ونظير الشمس الروح في إشراقه وحسنه ، ونظير الليل الطبع فإن ما به من نور فإنما هو من الروح كما أن الليل كذلك لا يكون نوره إلا من الشمس بواسطة إفادتها للقمر المنير له والكواكب ، ونظير النهار – الذي هو نير في أصله ومتكدر بما يخيل له من السحب ونحوه – القلب وسحبه الشكوك والأوهام النفسية ، ونظير القمر في ظلمته بأصله وإنارته بالشمس النفس ، فإذا أكسبها القلب المستفيد من الروح النور أنار جميع البدن ، وإذا أظلمت أظلم كله ، والأعضاء الباطنة كالكواكب يقوم بها البدن فينير له الوجود بواسطة الروح والنفس ، والأمطار كالدمع ، والحر كالحزن ، والبرد كالسرور ، والرعد كالنطق ، والبرق كالملح ، والرياح كالنفس – إلى غير ذلك من البدائع لمن تأمل ، والعالم السفلي سبع طباق أيضاً ، قال الملوي : " ونظيرها طبقة الجلد " وهي ثلاث ، وطبقة اللحم وطبقة الشحم وطبقة العروق

وطبقة العصب ، والجبال كالعظام والمعادن منها المياه وفيها العذب كالريق والملح كالدمع والمر كما في الأذن والمنتن منه كما في الأنف ، ومنه ما هو جار كالبول ، ومنه ما هو كالعيون وهو الدم ، والسيل كالعرق ، والمعادن المنطبعة كالحديد والرصاص هي وسخ الأرض وهي كالعذرة وما يخرج من الجلد من خبث ، والنبات كالشعور تارة تحلق كالحصاد وتارة تقلع كالنتف ، والحيوانات التي فيها كالقمل ، وطيورها كالبراغيث ، وعامر البدن ما أقبل منه ، وخرابه ما أدبر .

ولما أتم الإشارة إلى النفوس لأهل البصائر ، صرح بالعبارة لمن دونهم فقال تعالى :

﴿ ونفس ﴾ أي أيّ نفس جمع فيها سبحانه العالم بأسره .

(45/817)

ولما كانت النفوس أعجب ما في الكون وأجمع ، عبر فيها بالتسوية حثاً على تدبر أمرها للاستدلال على مبدعها للسعي في إصلاح شأنها فقال تعالى : ﴿ وما سواها ﴾ أي عدلها على هذا القانون الأحكم في أعضائها وما فيها من الجواهر والأعراض والمعاني وعجائب المزاج من الأخلاط المتنافرة التي لاءم بينها بالتسوية والتعديل فجعلها متمازجة وقد أرشد السياق والسباق واللحاق إلى أن جواب القسم مقدر تقديره : لقد طبع

سبحانه وتعالى نفوسكم على طبائع متباينة هيأها بها لما يريد من القلوب من تزكية وتدسية بما جعل لكم من القدرة والاختيار ، وأبلغ في التقدم إليكم في تزكية نفوسكم وتطهير قلوبكم لاعتقاد الحشر بما هو أوضح من الشمس لا شبهة فيه ولا لبس لتنجو من عذاب الدنيا والآخرة بالاتصاف بالتقوى ، والانخلاع من الفجور والطغوى .

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم في سورة البلد تعريفه تعالى بما خلق فيه الإنسان من الكبد مع ما جعل له سبحانه من آلات النظر ، وبسط له من الدلائل والعبر ، وأظهر في صورة من ملك قياده ، وميز رشده وعناده ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ [الإنسان : 3] وذلك بما جعل له من القدرة الكسبية التي حقيقتها اهتمام أو لم ؟ وأنى بالاستبداد والاستقلال ، ثم ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [الصافات : 96] أقسم سبحانه وتعالى في هذه السورة على فلاح من اختار رشده واستعمل جهده وأنفق وجده ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وخيبة من غاب هداه فاتبع هواه ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ فبين حال الفريقين وسلوك الطريقين - انتهى .

(46/817)

ولما كان أعجب أمورها الفجور لما غلب سبحانه عليها من الحظوظ والشهوات ، وهي تعلم بما لها من زاجر العقل بصحيح النقل أن الفجور أقبح القبيح ، والتقوى لما أقام عليها من ملك العقل الملكي وغريزة العلم النوراني أحسن الحسن ، وتذوق أن الفجور أشهى شهي ، وأن التقوى أمرّ شيء وأصعبه ، وأثقله وأتعبه ، قال معلماً أن هذا لا يقدر عليه سواه لأنه أعجب من جميع ما مضى لأن البهيمة لا تقدم على ما يضرها وهي تبصر ولو قطعت ، والآدمي يقدم على ما يضره وهو يعلم ويقاتل من منعه منه ، فقال مسبباً عما حذف من جواب القسم : ﴿ فألهمها ﴾ أي النفس إلهام الفطرة السابقة الأولى قبل ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] ﴿ فجورها ﴾ أي انبعاثها في الميل مع دواعي الشهوات وعدم الخوف الحامل على خرق سياج الشريعة بسبب ذلك الطبع الذي عدل فيه ذاتها وصفاتها في قسر المتنافرات على التمازج غاية التعديل ﴿ وتقواها ﴾ أي خوفها الذي أوجب سكونها وتحرزها بوقايات الشريعة ، فالآية من الاحتباك : ذكر الفجور أولاً دالّ على السكون الذي هو ضده ثانياً ، وذكر التقوى ثانياً دالّ على ضده ، وهو عدم الخوف أولاً ، وإلهامها للأمرين هو جعله لها عارفة بالخير والشر مستعدة ومتهيئة لكل منهما ؛ ثم زاد ذلك بالبيان التام بحيث لم يبق لبس ، فزالت الشبه عقلاً بالغريزة والإلهام ونقلاً بالرسالة والإعلام .

ودل بالإضافة على أن ذلك كله منسوب إليها ومكتوب عليها وإن كان بخلقه وتقديره لأنه

أودعها قوة وجعل لها اختياراً صالحاً لكل من النجدين ، وأوضح أمر النجدين في الكتب وعلى ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بعد ما وهبه لها من الفطرة القويمة وأخفى عنها سر القضاء والقدرة وعلم العاقبة ، فأقام بذلك عليها الحجة وأوضح المحجة .

(47/817)

ولما كان من المعلوم أن من سمع هذا الكلام يعلم أن التقوى لا يكون إلا مأموراً بها ، والفجور لا يكون إلا منهياً عنه ، فيتوقع ما يقال فيهما مما يتأثر عنهما ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح ﴾ أي ظفر بجميع المرادات ﴿ من زكاها ﴾ أي نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذامّ الأخلاق لأن كلاًّ ميسر لما خلق له ، والدين بني على التحلية والتخلية و " زكى " صالح للمعنيين ﴿ وقد خاب ﴾ أي حرم مراده مما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر وكان سعيه باطلاً ﴿ من دساها ﴾ أي أغواها إغواء عظيماً وأفسدها ودنس محياها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوىء الأعمال ، وقبائح النيات والأحوال ، وأخفاها بالجهالة والفسوق ، والجلافة والعقوق ، وأصل " دسى " دسس ، فالتزكية أن يحرص الإنسان على شمسه أن لا تكسف ، وقمره أن لا يخسف ، ونهاره أن لا يتكدر ، وليله ألا

يطفى ، والتدسيس أقله إهمال الأمر حتى تكسف شمسه ، ويخسف قمره ، ويتكدر نهاره ، ويدوم ليله ، وطرق ذلك اعتبار نظائر المذكورات من الروحانيات وإعطاء كل ذي حق حقه ، فنظير الشمس هي النبوة لأنها كلها ضياء باهر وصفاء قاهر ، وضحاها الرسالة وقمرها الولاية ، والنهار هو العرفان ، والليل عدم طمأنينة النفس بذكر الله وما جاء من عنده ، وإعراضها عن الانقياد لقبول ما جاء من النبوة أو الولاية ، والعلماء العاملون هم أولياء الله ، قال الإمامان أبو حنيفة والشافعي - رضى الله عنهما - : إن لم تكن العلماء أولياء الله فليس الله ولي – رواه عنهما الحافظ أبو بكر الخطيب ، وهو مذكور في التبيان وغيره من مصنفات النووي ، ونظير السماء العزة والترفع عن الشهوات وعن خطوات الشياطين من الإنس والجن ، والأرض نظيرها التواضع لحق الله ولرسوله وللمؤمنين فيكون بإخراجه المنافع لهم كالأرض المخرجة لنباتها ، والتدسية خلاف ذلك ، من عمل بالسوء

(48/817)

فقد هضم نفسه وحقرها فأخفاها كما أن اللئام ينزلون بطون الأودية ومقاطعها بحيث تخفى أماكنهم على الطارقين ، والأجواد ينزلون الروابي ، ويوقدون النيران للطارقين ، ويشهرون أماكنهم للمضيفين منازل الأشراف في الأطراف كما قيل :

قوم على المحتاج سهل وصلهم . . .

ومقامهم وعر على الفرسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 437 .

442 ﴾

(49/817)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ تلاها ﴾ و ﴿ طحاها ﴾ مثل ﴿ دحاها ﴾ مثل ﴿ دحاها ﴾ [الآية : 30] في " النازعات " ﴿ فلا يخاف ﴾ بالفاء وضم الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير بناء على أن ﴿ قد أفلح ﴾ جواب القسم واللام محذوف أي لقد أفلح .

الوقوف : ﴿ وضحاها ﴾ ه لا ﴿ تلاها ﴾ ه ك ﴿ جلاها ﴾ ه ك ﴿ يغشاها ﴾ ه ك ﴿ بناها ﴾ ه ك ﴿ طحاها ﴾ ه ك ﴿ سوّاها ﴾ ه لا ص ﴿ وتقواها ﴾ ه لا ﴿ زكاها ﴾ ه ك ﴿ دساها ﴾ ه ط ﴿ بطغواها ﴾ ه ط لأن الظرف يتعلق ب ﴿ كذب ﴾ أو بالطغوى ﴿ أشقاها ﴾ ه ﴿ وسقياها ﴾ ه ﴿ فعقروها ﴾ م ط ﴿ فسوّاها ﴾ ه ط ﴿ عقباها ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 506 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

قبل الخوض في التفسير لا بد من مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي .

واعلم أنه تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأن الذي يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب ، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى .

المسألة الثانية :

قد عرفت أن جماعة من أهل الأصول قالوا : التقدير ورب الشمس ورب سائر ما ذكره إلى تمام القسم ، واحتج قوم على بطلان هذا المذهب ، فقالوا : إن في جملة هذا القسم قوله : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] وذلك هو الله تعالى فيلزم أن يكون المراد ، ورب

السماء وربها وذلك كالمتناقض ، أجاب القاضي عنه بأن قوله : ﴿ وَمَا بناها ﴾ لا يجوز أن يكون المراد منه هو الله تعالى ، لأن (ما) لا تستعمل في خالق السماء إلا على ضرب من المجاز ، ولأنه لا يجوز منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه ، ولأنه تعالى لا يكاد يذكر مع غيره على هذا الوجه ، فإذاً لا بد من التأويل وهو أن ﴿ مَا ﴾ مع ما بعده في حكم المصدر فيكون التقدير : والسماء وبنائها ، اعترض صاحب "الكشاف" عليه فقال : لو كان الأمر على هذا الوجه لزم من عطف قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ [الشمس : 8] عليه فساد النظم .

المسألة الثالثة :

القراء مختلفون في فواصل هذه السورة وما أشبهها نحو : ﴿ والليلِ إذَا يغشى ﴾ ، ﴿ والضحى والليلِ إذَا سجى ﴾ فقرءوها تارة بالإمالة وتارة بالتفخيم وتارة بعضها بالإمالة وبعضها بالتفخيم ، قال الفراء : بكسر ضحاها ، والآيات التي بعدها وإن كان أصل بعضها الواو نحو : تلاها ، وطحاها ودحاها ، فكذلك أيضاً .

(51/817)

فإنه لما بتدئت السورة بحرف الياء أتبعها بما هو من الواو لأن الألف المنقلبة عن الواو قد توافق المنقلبة عن الياء ، ألا ترى أن تلوت وطحوت ونحوهما قد يجوز في أفعالها أن تنقلب إلى الياء نحو : تلى ودحى ، فلما حصلت هذه الموافقة استجازوا إمالته كما استجازوا إمالة ما كان من الياء ، وأما وجه من ترك الإمالة مطلقاً فهو أن كثيراً من العرب لا يميلون هذه الألفات ولا ينحون فيها نحو الياء ، ويقوى ترك الإمالة للألف أن الواو في موسر منقلبة عن الياء ، والياء في ميقات وميزان منقلبة عن الواو ولم يلزم من ذلك أن يحصل فيه ما يدل على ذلك الانقلاب ، فكذا ههنا ينبغي أن تترك الألف غير ممالة ولا ينحى بها نحو الياء ، وأما إمالة البعض وترك إمال البعض ، كما فعله حمزة فحسن أيضاً ، وذلك لأن الألف إنما تمال نحو الياء لتدل على الياء إذا كان انقلابها عن الياء ولم يكن في تلاها وطحاها ودحاها ألف منقلبة عن الياء إنما هي منقلبة عن الواو بدلالة تلوت ودحوت .

المسألة الرابعة :

أن الله تعالى قد أقسم بسبعة أشياء إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ [الشمس : 9] وهو جواب القسم ، قال الزجاج : المعنى لقد أفلح ، لكن اللام حذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضاً منها .

قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ذكر المفسرون في ضحاها ثلاثة أقوال قال مجاهد والكلبي : ضوؤها ، وقال قتادة : هو النهار كله ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة ، وقال

مقاتل : هو حر الشمس ، وتقرير ذلك بحسب اللغة أن نقول : قال الليث : الضحو ارتفاع النهار ، والضحى فويق ذلك ، والضحاء ممدوداً امتد النهار ، وقرب أن ينتصف .

(52/817)

وقال أبو الهيثم : الضح نقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض وأصله الضحى ، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء فقلبوها وقال : ضح ، فالضحى هو ضوء الشمس ونورها ثم سمى به الوقت الذي تشرق فيه الشمس على ما في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضحاها ﴾ [النازعات : 46] فمن قال من المفسرين : في ضحاها ضوؤها فهو على الأصل ، وكذا من قال : هو النهار كله ، لأن جميع النهار هو من نور الشمس ، ومن قال : في الضحى إنه حر الشمس فلأن حرها ونورها متلازمان ، فمتى اشتد حرها فقد اشتد ضؤوها وبالعكس ، وهذا أضعف الأقوال ، واعلم أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح ، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل ، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة ، فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل ، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة ، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها ، وقوله : ﴿ والقمر إِذَا

تلاها ﴾ قال الليل : تلا يتلو إذا تبع شيئاً وفي كون القمر تالياً وجوه أحدها : بقاء القمر طالعاً عند غروب الشمس ، وذلك إنما يكون في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس ، فإذا القمر يتبعها في الإضاءة ، وهو قول عطاء عن ابن عباس وثانيها : أن الشمس إذا غربت فالقمر يتبعها ليلة الهلال في الغروب ، وهو قول قتادة والكلبي وثالثها : قال الفراء : المراد من هذا التلو هو أن القمر يأخذ الضوء من الشمس يقال : فلان يتبع فلاناً في كذا أي يأخذ منه ورابعها : قال الزجاج : تلاها حين استدار وكمل ، فكأنه يتلو الشمس في الضياء والنور يعني إذا كمل ضوؤه فصار كالقائم مقام الشمس في الإنارة ، وذلك في الليالي البيض وخامسها : أنه يتلوها في كبر الجرم بحسب الحس ، وفي ارتباط مصالح هذا العالم بحركته ، ولقد ظهر في علم النجوم أن بينهما من المناسبة ما ليس بين

(53/817)

الشمس وبين غيرها .

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)

معنى التجلية الإظهار ، والكشف والضمير في جلاها إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان أحدهما : وهو قول الزجاج : أنه عائد إلى الشمس وذلك لأن النهار عبارة عن نور

الشمس .

فكلما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أجلى ظهوراً ، لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر ، فكان النهار يبرز الشمس ويظهرها ، كقوله تعالى : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا يخرجها الثاني : وهو قول الجمهور أنه عائد إلى الظلمة ، أو إلى الدنيا ، أو إلى الأرض . وإن لم يجر لها ذكر ، يقولون : أصبحت باردة يريدون الغداة ، وأرسلت يريدون السماء .

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)

يعني يغشى الليل الشمس فيزيل ضوءها ، وهذه الآية تقوي القول الأول في الآية التي قبلها من وجهين الأول : إنه لما جعل الليل يغشى الشمس ويزيل ضوءها حسن أن يقال : النهار يجليها ، على ضد ما ذكر في الليل والثاني : أن الضمير في يغشاها للشمس بلا خلاف ، فكذا في جلاها يجب أن يكون للشمس حتى يكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى ههنا للشمس ، قال القفال : وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا بالشمس في الحقيقة لكن بحسب أوصاف أربعة أولها : الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار .

وذلك هو الوقت الذي يكمل فيه انتشار الحيوان واضطراب الناس للمعاش ، ومنها تلو القمر لها وأخذه الضوء عنها ، ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار ، ومنها وجود خلاف ذلك بمجيء الليل ، ومن تأمل قليلاً في عظمة الشمس ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهي ، والتركب من الأجزاء انتقل منه إلى عظمة

خالقها ، فسبحانه ما أعظم شأنه .

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)

فيه سؤالات :

(54/817)

السؤال الأول : أن الذي ذكره صاحب "الكشاف" من أن ﴿ مَا ﴾ ههنا لو كانت مصدرية لكان عطف ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ عليه يوجب فساد النظم حق ، والذي ذكره القاضي من أنه لو كان هذا قسماً بخالق السماء ، لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس ، فهو إشكال جيد ، والذي يخطر ببالي في الجواب عنه : أن أعظم المحسوسات هو الشمس ، فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها ، ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ووصفها بصفات ثلاثة وهي تدبيره سبحانه للسماء والأرض وللمركبات ، ونبه على المركبات بذكر أشرفها وهي النفس ، والغرض من هذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشمس ثم يحتج العقل الساذج بالشمس ، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات على إثبات مبدىء لها ، فحينئذ يحظى العقل ههنا بإدراك جلال الله وعظمته على ما يليق به ، والحس لا ينازعه فيه .

فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء كبرياء الصمدية ، فسبحان من عظمت حكمته وكملت كلمته .

السؤال الثاني : ما الفائدة في قوله : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ ؟ الجواب : أنه سبحانه لما وصف الشمس بالصفات الأربعة الدالة على عظمتها ، أتبعه ببيان ما يدل على حدوثها وحدوث جميع الأجرام السماوية ، فنبه بهذه الآية على تلك الدلالة ، وذلك لأن الشمس والسماء متناهية ، وكل متناه فإنه مختص بمقدار معين .

مع أنه كان يجوز في العقل وجود ما هو أعظم منه ، وما هو أصغر منه ، فاختصاص الشمس وسائر السماويات بالمقدار المعين ، لا بد وأن يكون لتقدير مقدر وتدبير مدبر ، وكما أن باني البيت يبنيه بحسب مشيئته ، فكذا مدبر الشمس وسائر السماويات قدرها بحسب مشيئته ، فقوله : ﴿ وَمَا بناها ﴾ كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة على حدوث الشمس وسائر السماويات .

(55/817)

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ وَمَا بناها ﴾ ولم يقل : ومن بناها ؟ الجواب : من وجهين الأول : أن المراد هو الإشارة إلى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء وذلك الشيء العظيم القادر الذي

بناها ، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها والثاني : أن ما تستعمل في موضع من كقوله : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِّنَ النساء ﴾ [النساء : 22] والاعتماد على الأول .

السؤال الرابع : لم ذكر في تعريف ذات الله تعالى هذه الأشياء الثلاثة وهي السماء والأرض والنفس ؟ والجواب : لأن الاستدلال على الغائب لا يمكن إلا بالشاهد ، والشاهد ليس إلا العالم الجسماني وهو قسمان بسيط ومركب ، والبسيط قسمان : العلوية وإليه الإشارة بقوله : ﴿ والسماء ﴾ والسفلية وإليه الإشارة بقوله : ﴿ والأرض ﴾ [الشمس : 6] والمركب هو أقسام ، وأشرفها ذوات الأنفس وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] .

أما قوله تعالى :

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)

ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

إنما أخر هذا عن قوله : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ لقوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ [النازعات : 30] .

المسألة الثانية :

قال الليث : الطحو كالدحوا وهو البسط ، وإبدال الطاء من الدال جائز ، والمعنى وسعها .

قال عطاء والكلبي : بسطها على الماء .

أما قوله تعالى :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)

(56/817)

إن حملنا النفس على الجسد ، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح ، وإن حملناها على القوة المدبرة ، فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة ، على ما يشهد به علم النفس (1)

فإن قيل : لم نكرت النفس ؟ قلنا : فيه وجهان أحدهما : أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس ، وهي النفس القدسية النبوية ، وذلك لأن كل كثرة ، فلا بد فيها من واحد يكون هو الرئيس ، فالمركبات جنس تحته أنواع ورئيسها الحيوان ، والحيوان جنس تحته أنواع ورئيسها الإنسان ، والإنسان أنواع وأصناف ورائيسها النبي .

والأنبياء كانوا كثيرين ، فلا بد وأن يكون هناك واحد يكون هو الرئيس المطلق ، فقوله :

﴿ وَنَفْسٍ ﴾ إشارة إلى تلك النفس التي هي رئيسة لعالم المركبات رياسة بالذات الثاني : أن يريد كل نفس ، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور في قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ وذلك لأن الحيوان أنواع لا يحصى عددها إلا الله على ما قال بعد ذكر بعض الحيوانات : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] ولكل نوع نفس مخصوصة متميزة عن سائرها بالفضل المقوم لماهيته ، والخواص اللازمة لذلك الفصل ، فمن الذي يحيط عقله بالقليل من خواص نفس البق والبعوض ، فضلاً عن التوغل في بحار أسرار الله سبحانه .

---

(1) يريد بعلم النفس ها هنا : علم التشريح ، لا علم النفس بالمعنى الذي نعرفه الآن وإن كان يتناول ما ذكره .

(57/817)

أما قوله تعالى :

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)

فالمعنى المحصل فيه وجهان الأول : أن إلهام الفجور والتقوى ، إفهامها وإعقالهما ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ما شاء منهما ، وهو كقوله : ﴿ وهديناه

النجدين ﴾ [البلد : 10] وهذا تأويل مطابق لمذاهب المعتزلة ، قالوا : ويدل عليه قوله بعد ذلك : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها * وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ [الشمس : 9 10] وهذا الوجه مروى عن ابن عباس وعن جمع من أكابر المفسرين والوجه الثاني : أنه تعالى ألهم المؤمن المتقي تقواه وألهم الكافر فجوره ، قال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها ، وقال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها بالفجور ، واختار الزجاج والواحدي ذلك ، قال الواحدي : التعليم والتعريف والتبيين ، غير والإلهام غير ، فإن الإلهام هو أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً ، وإذا أوقع في قلبه شيئاً فقد ألزمه إياه . وأصل معنى الإلهام من قولهم : لهم الشيء ، والتهمه إذا ابتلعه ، وألهمته ذلك الشيء أي أبلغته ، وهذا هو الأصل ثم استعمل ذلك فيما يقذفه الله تعالى في قلب العبد ، لأنه كالإبلاغ ، فالتفسير الموافق لهذا الأصل قول ابن زيد ، وهو صريح في أن الله تعالى خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره ، وأما التمسك بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ فضعيف لأن المروي عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي أن المعنى قد أفلحت وسعدت نفس زكاها الله تعالى وأصلحها وطهرها ، والمعنى وفقها للطاعة ، هذا آخر كلام الواحدي وهو تام .

وأقول قد ذكرنا أن الآيات الثلاثة ذكرت للدلالة على كونه سبحانه مدبراً للأجسام العلوية والسفلية البسيطة والمركبة ، فههنا لم يبق شيء مما في عالم المحسوسات إلا وقد ثبت بمقتضى ذلك التنبيه أنه واقع بتخليقه وتدبيره ، بقي شيء واحد يختلج في القلب أنه هل هو بقضائه وقدره وهو الأفعال الحيوانية الاختيارية ، فنبه سبحانه بقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على أن ذلك أيضاً منه وبه وبقضائه وقدره ، وحينئذ ثبت أن كل ما سوى الله فهو واقع بقضائه وقدره .

وداخل تحت إيجاده وتصرفه .

ثم الذي يدل عقلاً على أن المراد من قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ هو الخذلان والتوفيق ما ذكرنا مراراً أن الأفعال الاختيارية موقوفة على حصول الاختيارات ، فحصولها إن كان لا عن فاعل فقد استغنى المحدث عن الفاعل ، وفيه نفي الصانع ، وإن كان عن فاعل هو العبد لزم التسلسل ، وإن كان عن الله فهو المقصود ، وأيضاً فليجرب العاقل نفسه .

فإنه ربما كان الإنسان غافلاً عن شيء فتقع صورته في قلبه دفعة ، ويترتب على وقوع تلك الصورة في القلب ميل إليه ، ويترتب على ذلك الميل حركة الأعضاء وصدور الفعل ، وذلك يفيد القطع بأن المراد من قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ ما ذكرناه لا ما ذكره المعتزلة .

أما قوله تعالى :

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)

فاعلم أن التزكية عبارة عن التطهير أو عن الإنماء ، وفي الآية قولان أحدهما : أنه قد أدرك مطلوبه من زكى نفسه بأن طهرها من الذنوب بفعل الطاعة ومجانبة المعصية والثاني : قد أفلح من زكاها الله ، وقبل القاضي هذا التأويل ، وقال المراد منه أن الله حكم بتزكيتها وسماها بذلك ، كما يقال في العرف : إن فلاناً يزكي فلاناً ، ثم قال : والأول أقرب ، لأن ذكر النفس قد تقدم ظاهراً ، فرد الضمير عليه أولى من رده على ما هو في حكم المذكور لا أنه مذكور .

(59/817)

واعلم أنا قد دللنا بالبرهان القاطع أن المراد ، بألهمها ما ذكرناه فوجب حمل اللفظ عليه .

وأما قوله بأن هذا محمول على الحكم والتسمية فهو ضعيف ، لأن بناء التفعيلات على التكوين ، ثم إن سلمنا ذلك لكن ما حكم الله به يمتنع تغيره ، لأن تغير المحكوم به يستلزم تغير الحكم من الصدق إلى الكذب ، وتغير العلم إلى الجهل وذلك محال ، والمفضي إلى المحال محال .

أما قوله ذكر النفس قد تقدم ، قلنا : هذا بالعكس أولى ، فإن أهل اللغة اتفقوا على أن عود الضمير إلى الأقرب أولى من عوده إلى الأبعد ، وقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ أقرب إلى قوله : ﴿ مَا ﴾ منه إلى قوله : ﴿ وَنَفْسٍ ﴾ فكان الترجيح لما ذكرناه ، ومما يؤكد هذا التأويل ما رواه الواحدي في البسيط عن سعيد بن أبي هلال أنه عليه السلام كان إذا قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ وقف وقال : " اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها وأنت مولاها ، وزكها أنت خير من زكاها " أما قوله تعالى :

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)

فقالوا : ﴿ دساها ﴾ أصله دسسها من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فأبدلت إحدى السينات ياء ، فأصل دسى دسس ، كما أن أصل تقضى البازي تقضض البازي ، وكما قالوا : البيت والأصل لبيت ، وملبي والأصل ملبب ، ثم نقول : أما المعتزلة فذكروا وجوهاً توافق قولهم : أحدها : أن أهل الصلاح يظهرون أنفسهم ، وأهل الفسق يخفون أنفسهم ويدسونها في المواضع الخفية ، كما أن أجواد العرب ينزلون الربا حتى تشتهر أماكنهم ويقصدهم المحتاجون ، ويوقدون النيران بالليل للطارقين .

(60/817)

وأما اللئام فإنهم يخفون أماكنهم عن الطالبين وثانيها : ﴿ خَابَ مَن دساها ﴾ أي دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم وثالثها : ﴿ مَن دساها ﴾ في المعاصي حتى انغمس فيها ورابعها : ﴿ مَن دساها ﴾ من دس في نفسه الفجور ، وذلك بسبب مواظبته عليها ومجالسته مع أهلها وخامسها : أن من أعرض عن الطاعات واشتغل بالمعاصي صار خاملاً متروكاً منسياً ، فصار كالشيء المدسوس في الاختفاء والخمول .

وأما أصحابنا فقالوا : المعنى خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى وأغواها وأفجرها وأبطلها وأهلكها ، هذه ألفاظهم في تفسير ﴿ دساها ﴾ قال الواحدي رحمه الله : فكأنه سبحانه أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره وخسار من خذله حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 171.176 ﴾

(61/817)

وقال القرطبى :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

قال مجاهد : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾ أي ضوؤها وإشراقها .

وهو قَسَم ثان .

وأضاف الضحى إلى الشمس ، لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس .

وقال قتادة : بهاؤها .

السُّدّي : حرّها .

وروى الضحاك عن ابن عباس : "وضحاها" قال : جعل فيها الضوء وجعلها حارة .

وقال اليزيديّ : هو انبساطها .

وقيل : ما ظهر بها من كل مخلوق ؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض كلها .

حكاه الماوردِيّ .

والضُّحَا : مؤنثة .

يقال : ارتفعت الضُّحا ، (وهي) فوق الضَّحْو .

وقد تُذَكَّر .

فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوَة .

ومن ذكّر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل ، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ .

وهو ظرف غير متمكن مثل سَحَر .

تقول : لقِيتُه ضُحاً وضُحَا ؛ إذا أردت به ضُحا يومِك لم تنوّنه .

وقال الفرّاء : الضُّحا هو النهار ؛ كقول قتادة .

والمعروف عند العرب أن الضحا : إذا طلعت الشمس وبُعَيْد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضَّحاء بالمد .

ومن قال : الضُّحا : النهار كله ، فذلك لدوام نور الشمس .

ومن قال : إنه نور الشمس أو حرها ، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس .

وقد استدل من قال : إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى : "ولا تَضْحَى" أي لا يؤذيك الحرّ .

وقال المبرد : أصل الضُّحَا من الضُّحّ ، وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانية .

تقول : ضَحْوَة وضَحَوَات ، وضَحَوَاتٌ وضُحَا ، فالواو من (ضَحْوَة) مقلوبة عن الحاء الثانية ، والألف في (ضُحَا) مقلوبة عن الواو .

وقال أبو الهيثم : الضِّح : نقيض الظّل ، وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضُّحَا ، فاستثقلوا الياء مع سكون الحاء ، فقلبوها ألفا .

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)

أي تَبعها : وذلك إذا سقطت رِيءَ الهلال .

يقال : تَلَوْت فلانا : إذا تَبِعته .

قال قتادة : إنما ذلك ليلة الهلال ، إذا سَقطت الشمس رِيءَ الهلال .

وقال ابن زيد : إذا غَرَبت الشمس في النصف الأول من الشهر ، تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلُوها بالغروب .

الفراء : "تلاها" : أخذ منها ؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس .

وقال قوم : ﴿ والقمرِ إذَا تَلاَهَا ﴾ حين استوى واستدار ، فكان مِثلَها في الضياء والنور ؛ وقاله الزجاج .

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)

كشفها .

فقال قوم : جلَّى الظلمة ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ كما تقول : أضحت باردة ؛ تريد أضحت غَداتُنا باردة .

وهذا قول الفرّاء والكلبيّ وغيرهما .

وقال قوم : الضمير في "جَلاَّها" للشمس ؛ والمعنى : أنه يبين بضوئه جِرْمها .

ومنه قول قيس بن الخَطِيم :

تَجَلَّت لنا كالشمسِ تحتَ غَمامةٍ . . .

بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ

وقيل : جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر ، لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً .

وقيل : جَلَّى الدنيا .

وقيل : جَلَّى الأرض ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] على ما تقدّم آنفاً .

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)

أي يغشى الشمس ، فَيذْهَب بضوئها عند سقوطها ؛ قاله مجاهد وغيره .

وقيل : يغشى الدنيا بالظُّلَم ، فتُظلم الآفاق .

فالكناية ترجع إلى غير مذكور .

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)

أي وبنيانها .

فما مصدرية ؛ كما قال : ﴿ بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي ﴾ [ياس : 27] أي بغفران ربي ؛ قاله قتادة ، واختاره المبرد .

وقيل : المعنى ومَن بناها ؛ قاله الحسن ومجاهد ؛ وهو اختيار الطبرِيّ .

أي ومن خلقها ورفعها ، وهو الله تعالى .

وحُكِي عن أهل الحجاز : سُبحانَ ما سَبَّحَتْ له ؛ أي سبحان مَنْ سَبَّحت له .

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6)

أي وطحوها .

وقيل : ومَنْ طحاها ؛ على ما ذكرناه آنفاً .

أي بسطها ؛ كذا قال عامة المفسرين ؛ مثل دحاها .

قال الحسن ومجاهد وغيرهما : طحاها ودحاها : واحد ؛ أي بسطها من كل جانب .

(63/817)

والطَّحْو : البسط ؛ طَحا يطحُو طحْوا ، وطَحَى يَطْحِي طَحْياً ، وطَحَيت : اضطجعت ؛ عن أبي عمرو .

وعن ابن عباس : طحاها : قَسَمها .

وقيل : خلقها ؛ قال الشاعر :

وما تَدْرِي جَذِيمة من طَحَاها . . .

ولا مَنْ ساكِنُ العرشِ الرَّفيعِ

الماروديّ : ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز ؛ لأنه حياة لما خُلِق عليها .

ويقال في بعض أيمان العرب : لا ، والقمر الطَّاحِي ؛ أي المُشْرِف المشرق المرتفع .

قال أبو عمرو : طحا الرجل : إذا ذهب في الأرض .

يقال : ما أدري أين طَحَا ! ويقال : طحا به قلبه : إذا ذهب به في كل شيء .

قال علقمة :

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَروبُ . . .

بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)

قيل : المعنى وتسويتها .

"فما" : بمعنى المصدر .

وقيل : المعنى ومن سَوّاها ، وهو الله عز وجل .

وفي النفس قولان : أحدهما : آدم .

الثاني : كل نفس منفوسة .

وسوّى : بمعنى هيأ .

وقال مجاهد : سوّاها : سَوَّى خَلْقها وعَدَّل .

هذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم .

أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾

أي عَرَّفها ؛ كذا رَوَى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد .

أي عرفها طريق الفجور والتقوى ؛ وقاله ابن عباس .

وعن مجاهد أيضاً : عَرَّفها الطاعة والمعصية .

وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله عز وجل بعبده خيراً ، ألهمه الخيرَ فعمِل به ، وإذا أراد به السوء ، ألهمه الشر فعمِل به .

وقال الفَراء : "فأَلهمها" قال : عَرّفها طريق الخير وطريق الشر ؛ كما قال : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أَلْهَمَ المؤمن المتقي تقواه ، وألهم الفاجر فجوره .

وعن سعيد عن قتادة قال : بَيَّن لها فجورها وتقواها .

والمعنى متقارب .

(64/817)

ورُوِي عن أبي هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال : "اللَّهُمَّ آتِ نَفسي تقواها ، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها ، أنت وليُّها ومولَاها" " ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ رفع صوته بها ، وقال : "اللهم آتِ نفسِي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وأنت خيرُ من زَكَّاها" " وفي صحيح مسلم : عن أبي الأسود

الدُّؤَلِيّ قال : قال لي عِمران بن حصين : أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم ، ويَكْدَحون فيه ، أشيء قُضِي ومَضَى عليهم من قَدَرٍ سبق ، أو فيما يَسْتقبلون مما أتاهم به نبيُّهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قُضِي عليهم ، ومَضى عليهم .

قال فقال : أفلا يكون ظُلْماً ؟ قال : ففزِعت من ذلك فَزَعاً شديداً ، وقلت : كل شيء خَلْقُ الله ومِلْك يده ، فلا يُسْأَل عما يفعل وَهُمْ يُسْأَلون .

فقال لي : يرحمك الله ! إني لم أرِد بما سألتك إلا لأَحزِر عقلَك ، " إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ، أرأيت ما يعملُ الناس اليوم ويَكْدَحون فيه : أشيء قُضِيَ عليهم ومضى فيهمْ من قَدَرٍ قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيُّهم .

وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : "لا بل شيء قُضِي عليهم ومضى فيهم .

وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ " " والفجور والتقوى : مصدران في موضع المفعول به .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾

هذا جواب القسم ، بمعنى : لقد أفلح .

قال الزجاج : اللام حذفت ، لأن الكلام طال ، فصار طوله عِوضاً منها .

وقيل : الجواب محذوف ؛ أي والشمس وكذا وكذا لَتُبْعثن .

الزمخشريّ : تقديره لَيُدَمْدِمنّ الله عليهم ؛ أي على أهل مكة ، لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دَمْدَم على ثمود ؛ لأنهم كذبوا صالحاً .

وأما "قد أفلح من زكَّاها" فكلام تابع لأوّله ؛ لقوله : "فألْهمها فجورها وتقواها" ، على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء .

وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ؛ والمعنى : قد أفلح من زَكّاها ، وقد خاب من دَسّاها ، والشمس وضحاها .

﴿ أَفْلَحَ ﴾ فاز .

﴿ مَن زَكَّاهَا ﴾ أي من زكى الله نفسه بالطاعة .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أي خسِرت نفسٌ دَسَّها الله عز وجل بالمعصية .

وقال ابن عباس : خابت نفس أضلها وأغواها .

وقيل : أفلح من زكى نفسه بطاعة الله ، وصالح الأعمال ، وخاب من دسّ نفسه في المعاصي ؛ قاله قتادة وغيره .

وأصل الزكاة : النموّ والزيادة ، ومنه زكا الزرع : إذا كثر رِيْعُه ، ومنه تزكية القاضي للشاهد

؛ لأنه يرفعه بالتعديل ، وذكر الجميل .

وقد تقدم هذا المعنى في أوّل سورة "البقرة" مستوفًى .

فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البِر ، شَهَر نفسه ورفعها .

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وارتفاعَ الأرض ، ليشتهر مكانُها للمُعْتِفِين ، وتوقد النار في الليل للطارقين .

وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج والأطراف والأهضام ، ليخفى مكانها عن الطالبين .

فأولئك عَلَّوا أنفسهم وزَكَّوها ، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها .

وكذا الفاجر أبدا خَفِيّ المكان ، زَمِرُ المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس بركوب المعاصي .

وقيل : دساها : أغواها .

قال :

وأَنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْرا فأصبحت . . .

حلائلُه منه أرامِلَ ضُيَّعا

قال أهل اللغة : والأصل : دسَّسهَا ، من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فأبدلت سينه ياء ؛ كما يقال : قَصَّيْت أظفاري ؛ وأصله قَصَّصْت أظفاري .

ومثله قولهم في تَقَضَّضَ : تقضى .

(66/817)

وقال ابن الأعرابي : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أي دس نفس في جملة الصالحين وليس منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(67/817)

وقال الآلوسى :

﴿ والشمس وضحاها ﴾

أي ضوئها كما أخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس والمراد إذا أشرقت وقام سلطانها وقال بعض المحققين حقيقة الضحى تباعد الشمس عن الأفق الشرقي المرئي وبروزها للناظرين ثم صار حقيقة في وقته ثم إنه قيل لأول الوقت ضحوة ولما يليه ضحى ولما بعده إلى قريب الزوال ضحاء بالفتح والمد فإذا أضيف إلى الشمس فهو مجاز عن إشراقها كما هنا ونقل عن المبرد أن الضحى مشتق من الضح وهو نور الشمس والألف مقلوبة من الحاء الثانية وكذلك الواو من ضحوة مقلوبة منها وتعقبه أبو حيان بقوله لعله مختلق عليه لأن المبرد

أجل من أن يذهب إلى هذا وهذان مادتان مختلفتان لا تشتق إحداهما من الأخرى وأجيب بأنه لم يرد الاشتقاق الصغير ولا يخفى حاله على الصغير والكبير وعن مقاتل أن ضحاها حرها وهو تفسير باللازم وعن مقاتل المراد به النهار كله وفيه أنه تعالى أقسم به بعيد ذلك .

(68/817)

﴿ والقمرِ إذَا تلاها ﴾ أي تبعها فقيل باعتبار طلوعه وطلوعها أي إذا تلا طلوعه طلوعها بأن طلع من الأفق الشرقي بعد طلوعها وذلك أول الشهر فإن الشمس إذا طلعت من الأفق الشرقي أول النهار يطلع بعدها القمر لكن لا سلطان له فيرى بعد غروبها هلالاً ومناسبة ذلك للقسم به لأنه وصف له بابتداء أمره فكما أن الضحى كشباب النهار فكذا غرة الشهر كولادته وقيل باعتبار طلوعه وغروبها أي إذا تلا طلوعه غروبها وذلك في ليلة البدر رابع عشر الشهر فإنه حينئذٍ في مقابلة الشمس والبعد بينهما نصف دور الفلك فإذا كانت في النصف الفوقاني منه أعني ما يلي رؤوسنا كان القمر في التحتاني منه أعني ما يلي اقدامنا فإذا غربت طلع من الأفق الشرقي وهو المروى عن قتادة وقولهم سمي بدراً لأنه يسبق طلوعه غروب الشمس فكأنه بدرها بالطلوع لا ينافيه لأنه مبني على التقريب ومناسبة

ذلك للقسم به لأنه وقت ظهور سلطانه فيناسب تعظيم شأنه وقال ابن زيد تبعها في الشهر كله ففي النصف الأول تبعها بالطلوع وفي الآخر بالغروب ومراده ما ذكر في القولين وقيل المراد تبعها في الإضاءة بأن طلع وظهر مضيئاً عند غروبها آخذاً من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر فإنه فيه يأخذ كل ليلة منه قدراً من النور بخلافه في النصف الثاني وهو مروى عن ابن سلام واختاره الزمخشري وقال الحسن والفراء كما في "البحر" أي تبعها في كل وقت لأنه يستضىء منها فهو يتلوها لذلك وأنكر بعض الناس ذهاب أحد من السلف إلى أن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس وزعم أنه رأى المنجمين لا غير وما ذكر حجة عليه والحجة عن أصل المسألة أظهر من الشمس وهي اختلاف تشكلاته النورية قرباً وبعداً منها مع ذهاب نوره عند حيلولة الأرض بينه وبينها وكون الاختلاف لاحتمال أن يكون أحد نصفيه مضيئاً والنصف الآخر غير مضىء وأنه يتحرك على محوره حركة وضعية حتى يرى كل نصف منهما تدريجاً وكون ذهاب النور عند الحيلولة لاحتمال حيلولة جسم كثيف

(69/817)

بيننا وبينه لا نراه أضعف من حبال القمر كما لا يخفى وقال الزجاج وغيره تلاها معناه امتلأ واستدار فكان تابعاً لها في الاستدارة وكمال النور .

﴿ والنهارِ إذَا جلاها ﴾ أي جلى النهار الشمس أي أظهرها فإنها تنجلي وتظهر إذا انبسط النهار ومضى منه مدة فالإسناد مجازي كالإسناد في نحو صام نهاره وقيل الضمير المنصوب يعود على الأرض وقيل على الدنيا والمراد بها وجه الأرض وما عليه وقيل يعود على الظلمة وجلاها حينئذٍ بمعنى أزالها وعدم ذكر المرجع على هذه الأقوال للعلم به والأول أولى لذكر المرجع واتساق الضمائر وجوز بعضهم أن يكون الضمير المرفوع المستتر في جلاها عليه عائداً على الله عز وجل كأنه قيل والنهار إذا جلى الله تعالى الشمس فيكون قد أقسم سبحانه بالنهار في أكمل حالاته وهو كما ترى .

(70/817)

﴿ والليلِ إذَا يغشاها ﴾ أي الشمس فيغطي ضوءها والإسناد كما مر وقيل أي الأرض وقيل أي الدنيا وجيء بالمضارع هنا دون الماضي كما في السابق بأن يقال إذا غشيها قال أبو حيان رعاية للفاصلة ولم يقل غشاها لأنه يحتاج إلى حذف أحد المفعولين لتعديه إليهما فإنه يقال غشيته كذا كما قال الراغب كذا قيل وقال بعض الأجلة جيء بالمضارع للتنبيه

على استواء الأزمنة عنده تعالى شأنه وقال الخفاجي الأولى أن يقال المراد بالليل الظلمة الحادثة بعدم الضوء لا العدم الأصلي والظلمة الأصلية فإن هذه أظهر في الدلالة على القدرة وهي مستقبلة بالنسبة لما قبلها فلا بد من تغيير التعبير ليدل على المراد واستصعب الزمخشري الأمر في نصب إذا بأن ما سوى الواو الأولى أن كانت عاطفة لزم العطف على معمولي عاملين مختلفين كعطف النهار مثلاً على الشمس المعمول لحرف القسم وعطف الظرف أعني إذا في ﴿ إذا جلاها ﴾ [الشمس : 3] على نظيرتها في ﴿ إذا تلاها ﴾ [الشمس : 2] المعمولة لفعل القسم وإن كانت قسمية لزم اجتماع المقسمات المتعددة على جواب واحد وقد استكرهه الخليل وسيبويه وأجاب باختيار الشق الأول ونفى ما لزمه فقال إن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل اطراحاً كلياً فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل تارة وأضمر أخرى فكانت الواو قائمة مقام فعل القسم وباؤه سادة مسدهما معاً والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو فهي عاملة الجر وعاملة النصب فالعطف من قبيل العطف على معمولي عامل واحد وهذا كما تقول ضرب زيد عمراً وبكر خالداً فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها انتهى وأنت تعلم أن أول الواوات العواطف ههنا ليس معها ما تعمل فيه النصب فلعله أراد أنها تعمل ذلك إن كان هناك منصوب أو هي عاملة باعتبار أن معنى ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس

: 1] والشمس وضوئها إذا أشرقت وفيه أيضاً أنه لم يقل أحد بأن الحروف العواطف عوامل وأيضاً الإشكال مبني على

(71/817)

امتناع العطف على معمولي عاملين مطلقاً حتى لو جوز مطلقاً أو بشرط كون المعطوف مجروراً على ما ذهب إليه جمع كما في قولك في الدار زيد والحجرة عمرو لم يكن إشكال وأيضاً هو مبني على قبول هذا الاستكراه وعدم إمكان التخلص من الاجتماع بتقدير جواب لكل من المقسمات حتى إذا لم يقبل أو قبل وقدر لكل جواب لم يبق أشكال وأيضاً هو مبني على أن إذا ظرفية وهو ممنوع لجواز أن تكون قد تجردت عن الظرفية وحينئذٍ تكون بدلاً مما بعد الواو كما قيل في قوله

: وبعد غد يا لهف نفسي من غد . . .

إذا راح أصحابي ولست برائح

إن إذا بدل من غد وعلى تسليم أنها ظرفية يجوز أن يقدر مع كل مضاف تتعلق به كان يقدر وتلو القمر إذا تلاها وتجلية النهار إذا جلاها وغشيان الليل إذا يغشاها أو تجعل متعلقة بمحذوف وقع حالاً مقدرة مما تليه أي أقسم بالقمر كائناً إذا تلاها وبالليل كائناً إذا جلاها

كما زعمه بعضهم وفيه بحث وأيضاً يرد على الزمخشري مثل قوله تعالى : ﴿ والليل إذَا عَسْعَسَ والصبح إذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير : 17 ، 18] لأن الواو هنالك عاطفة وقد تقدم صريح فعل القسم كما ذكره الشيخ ابن الحاجب على أن التحقيق كما قال بعض المحققين أن الظرف ليس معمولاً لفعل القسم لفساد المعنى إذا التقييد بالزمان غير مراد حالاً كان أو استقبالاً وإنما هو معمول مضاف مقدر من نحو العظمة لأن الإقسام بالشيء إعظام له فكأنه أقسم بعظمة زمان كذا وما قيل عليه من أن إقسامه تعالى بشيء مستعار لإظهار عظمته وإبانة شرفه فيجوز تقييده باعتبار جزء المعنى المراد يعني الإظهار وأيضاً إذا كان الإقسام إعظاماً لغا تقديره فلو سلم فالاستعارة إما تبعية أو تمثيلية وعلى كل حال فليس ثمت ما يكون متعلقاً بحسب الصناعة والتقدير ليتعلق به وليظهر ما أريد منه مؤكداً فلا لغوية .

(72/817)

﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ أي ومن بناها وإيثار ما على من لإرادة الوصفية تفخيماً على ما تقدم في ﴿ وما ولد ﴾ [البلد : 3] كأنه قيل والقادر العظيم الشأن الذي بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤهما والمراد به إيجادها بحيث تدل على ذلك ويستدل بها

عليه وهو أولى من تفسيره بيانيها لإشعاره بالمراد من البناء وكذا الكلام في قوله تعالى :

﴿ والأرض وَمَا طحاها ﴾ أي بسطها من كل جانب ووطأها كدحاها ويكون طحا

بمعنى ذهب كقول علقمة

: طحا بك قلب في الحسان طروب . . .

بعيد الشباب عصر حان مشيب

وبمعنى أشرف وارتفع ومن أيمانهم لا والقمر الطاحي ويقال طحا يطحو طحوا وطحى

يطحي طحياً وقوله سبحانه :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالها وذلك بتعديل أعضائها

وقواها الظاهرة والباطنة والتنكير للتكثير وقيل للتفخيم على أن المراد بالنفس آدم عليه

السلام والأول أنسب بجواب القسم الآتي ومن ذهب إلى ذلك جعله من الاستخدام

وذهب الفراء والزجاج والمبرد وقتادة وغيرهم إلى أن ما في المواضع الثلاث مصدرية أي

وبنائها وطحوها وتسويتها وتعقبه الزمخشري بأنه ليس بالوجه لقوله تعالى :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وما يؤدي إليه من فساد النظم وذلك على ما في "الحواشي" لما يلزم من عطف الفعل على الاسم وأنه لا يكون له فاعل لا ظاهر وهو ظاهر ولا مضمر لعدم مرجعه واعترض بأن الأخير منتقض بالأفعال السابقة أعني بناها طحاها سواها على أن دلالة السياق كافية في صحة الإضمار وأما الأول ففيه أن عطف الفعل على الاسم ليس بفاسد وإن كان خلاف الظاهر على أنه عطف على ما بعد ما كانه قيل ونفس وتسويتها فالهامها فجورها وتقواها واعترض هذا بأن الفاء يدل على الترتيب من غير مهملة والتسوية قبل نفخ الروح والإلهام بعد البلوغ وأجيب بأن التشوية تعديل الأعضاء والقوى ومنها المفكرة والإلهام عبارة عن بيان كيفية استعمالها في النجدين في هذا المحل وهو غير مفارق عنه منذ سوى نعم يزداد بحسب ازدياد القوى كيفية لا وجوداً على أن المهلة في نحوها عرفي وقد يعد متعقباً دون تراخ ثم أنه مشترك الإلزام ولا معنى لقول الطيبي النظم السري يوجب موافقة القرائن فلا يجوز ونفس وتسويتها فألهمها الله فهي حاصلة وإنما ذلك بناءً على توهم أن قوله تعالى : ﴿ فألهما ﴾ جملة وبالجملة لا يلوح فساد هذا الوجه وأبى القاضي عبد الجبار إلا المصدرية دون الموصولية قال لما يلزم منها تقديم الإقسام بغير الله تعالى على إقسامه سبحانه بنفسه عز وجل وأجاب عنه الإمام بأن أعظم المحسوسات الشمس فذكرها الله تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة ووصفها جل وعلا بصفات ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته

سبحانه كما يليق به جل جلاله ولا ينازعه الحس فكان ذلك طريقاً إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بيداء أوج كبريائه جل شأنه وجوز أن تكون ما عبارة عن الأمر الذي له بنيت السماء وطحيت الأرض وسويت النفس من الحكم والمصالح التي لا تحصى ويكون إسناد الأفعال إليها مجازاً وفاعل ألهمها يجوز أن يكون ذلك أمر ويكون

(74/817)

الإسناد مجازاً أيضاً وهو كما ترى والفجور والتقوى على ما أخرج عبد بن حميد وغيره عن الضحاك المعصية والطاعة مطلقاً قلبيين كانا أو قالبيين وإلهامهما النفس على ما أخرج هو وابن جرير وجماعة عن مجاهد تعريفهما إياها بحيث تميز رشدها من ضلالها وروي ذلك عن ابن عباس كما في "البحر" وقريب منه قول ابن زيد ألهمها فجورها وتقواها بينهما لها وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهما نحوه عن قتادة والآية على ذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] وقدم الفجور على التقوى لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادىء تجنبه وهو تخلية والتخلية مقدمة على التحلية وقيل قدم مراعاة للفواصل وأضيفا إلى ضمير النفس قيل إشارة إلى أن الملهم للنفس فجور وتقوى قد استعدت لهما فهماً لها بحكم الاستعداد وقيل رعاية للفواصل أيضاً وقوله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ جواب القسم على ما أخرجه الجماعة عن قتادة وإليه ذهب الزجاج وغيره وحذف اللام كثير لا سيما عند طول الكلام المقتضي للتخفيف أو لسده مسدها وفاعل زكاها ضمير من والضمير المنصوب للنفس وكذا في قوله تعالى :

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ وتكرير قد فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذان بتعلق القسم به أصالة والتزكية التنمية والتدسية الإخفاء وأصل دسى دسس فأبدل من ثالث التماثلات ياء ثم أبدلت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها وأطلق بعضهم فقال ابدل من ذلك حرف علة كما قالوا في تقضض تقضي ودسس مبالغة في دس بمعنى أخفى قال الشاعر

: ودسست عمراً في التراب فأصبحت . . .

حلائله منه أرامل ضيعا

(75/817)

وفي "الكشاف" التزكية الإنماء والإعلاء والتدسية النقص والإخفاء أي لقد فاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه من أنمى نفسه وأعلاها بالتقوى علماً وعملاً ولقد خسر من نقصها وأخفاها بالفجور جهلاً وفسوقاً وجوز أن تفسر التزكية بالتطهير من دنس الهيولى

والتدسية بالإخفاء فيه والتلوث به وأياً ما كان ففي الوعد والوعيد المذكورين مع إقسامه تعالى عليهما بما أقسم به مما يدل على العلم بوجوده تعالى ووجوب ذاته سبحانه وكمال صفاته عز وجل ويذكر عظائم آلائه وجلائله نعمائه جل وعلا من اللطف بعباده ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(76/817)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

القسم لتأكيد الخبر ، والمقصود بالتأكيد هو ما في سَوق الخبر من التعريض بالتهديد والوعيد بالاستئصال .

والواوات الواقعة بعد الفواصل واوات قَسَم .

وكل من الشمس ، والقمر والسماء والأرض ، ونفس الإِنسان ، من أعظم مخلوقات الله ذاتاً ومعنىً الدالة على بديع حكمته وقويّ قدرته .

وكذلك كل من الضحى ، وتُلو القمر الشمس والنهار ، والليل من أدق النظام الذي جعله الله تعالى .

والضحى : وقتُ ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها ، وظهور شعاعها ، وهو الوقت الذي ترتفع فيه الشمس متجاوزة مشرقها بمقدار ما يخيل للناظر أنه طول رُمح .

ومهد لذلك بالتنبيه على أن تزكية النفس سبب الفلاح ، وأن التقصير في إصلاحها سبب الفجور والخسران .

والتلُوّ : التبع وأريد به خَلف ضوئه في الليل ضوءَ الشمس ، أي إذا ظهر بعد مغيبها فكأنه يتبعها في مكانها ، وهذا تلو مجازي .

والقمر يتبع الشمس في أحوال كثيرة منها استهلاله ، فالهلال يظهر للناظرين عقب غروب الشمس ثم يبقى كذلك ثلاث ليال ، وهو أيضاً يَتلو الشمس حين يقارب الابتدارَ وحين يصير بدراً فإذا صار بدراً صار تُلوّه الشمسَ حقيقة لأنه يظهر عندما تغرب الشمس ، وقريباً من غروبها قبله أو بعده ، وهو أيضاً يضيء في أكثر ليالي الشهر جعله الله عوضاً عن الشمس في عدة ليال في الإِنارة ، ولذلك قُيِّد القسم بحين تلوه لأن تلوه للشمس حينئذ تظهر منه مظاهر التلوّ للناظرين ، فهذا الزمان مثل زمان الضحى في القسم به ، فكان بمنزلة قَسَم بوقت تُلوه الشمس ، فحصل القسم بذات القمر وبتلوه الشمس .

وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس ، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر ، وليس نيّراً بذاته ، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن وهو مما أشرت إليه في المقدمة العاشرة .

وابتدىء بالشمس لمناسبة المقام إيماء للتنويه بالإِسلام لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكاً ، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق ، واتبع بالقمر لأنه ينير في الظلام كما أنار الإِسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك ، ثم ذكر النهار والليل معه لأنهما مثل لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك وذلك عكس ما في سورة الليل لما يأتي .

ومناسبة استحضار السماء عقب ذكر الشمس والقمر ، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل ، واضحة ، ثم ذكرت النفس الإنسانية لأنها مظهر الهدى والضلال وهو المقصود .

والضمير المؤنث في قوله : ﴿ جلاها ﴾ ظاهره أنه عائد إلى الشمس فمعنى تجلية النهار بالشمس وقت ظهور الشمس .

فإسناد التجلية إلى النهار مجاز عقلي والقَسَم إنما هو بالنهار لأنه حالة دالة على دقيق نظام العالم الأرضي .

وقيل : الضمير عائد إلى الأرض ، أي أضاء الأرض فتجلت للناظرين لظهور المقصود كما

يقال عند نزول المطر "أرسلت" يعنون أرسلت السماء ماءَها .

وقُيد القَسَم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجاً للمنة في القسم .

وابتدىء القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأصلية والمنعكسة لأن الشمس أعظم النيرات التي يصل نور شديد منها للأرض ، ولما في حالها وحال أضوائها من الإيماء إلى أنها مثل لظهور الإيمان بعد الكفر وبث التقوى بعد الفجور فإن الكفر والمعاصي تُمثَّل بالظلمة والإيمانَ والطاعاتِ تُمثَّل بالضياء قال تعالى : ﴿ ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ﴾ [المائدة : 16] .

وأعقب القسَمُ بالنهار بالقسم بالليل لأن الليل مقابل وقتَ النهار فهو وقت الإظلام .

والغشي : التغطية وليس الليل بمغطٍّ للشمس على الحقيقة ولكنه مسبَّب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب وهو زمن لذلك الغشي .

فإسناد الغشي إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمَنه أو إلى مسببه (بفتح الباء) .

(78/817)

والغاشي في الحقيقة هو تكوير الأرض ودورانها تُجاه مظهر الشمس وهي الدورة اليومية ، وقيل : ضمير المؤنث في ﴿ يغشاها ﴾ عائد إلى الأرض على نحو ما قيل في ﴿ والنهار إذا

جلاها ﴾ .

و﴿ إذا ﴾ في قوله : ﴿ إذا تلاها ﴾ وقوله : ﴿ إذا جلاها ﴾ وقوله : ﴿ إذا يغشاها ﴾ في محل نصب على الظرفية متعلقة بكَون هو حال من القمر ومن النهار ومن الليل فهو ظرف مستقر ، أي مقسماً بكل واحد من هذه الثلاثة في الحالة الدالة على أعظم أحواله وأشدِها دلالة على عظيم صنع الله تعالى .

وبناء السماء تشبيهٌ لرفعها فوق الأرض بالبناء .

والسماء آفاق الكواكب قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا فوقكم سبعَ طرائق ﴾ [المؤمنون : 17] وتقييد القسم بالليل بوقت تغشيته تذكيراً بالعبرة بحدوث حالة الظلمة بعد حالة النور .

وطَحْوُ الأرض : بسطها وتوطئتها للسير والجلوس والاضطجاع ، يقال : طحا يَطحو ويطحي طحواً وطَحْياً وهو مرادف "دحَا" في سورة النازعات (30) .

و"النفس" : ذات الإِنسان كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] وتنكير "نفس" للنوعية أي جنس النفس فيعم كل نفس عموماً بالقرينة على نحو قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ [الانفطار : 5] .

وتسوية النفس : خلقها سواء ، أي غير متفاوتة الخَلْق ، وتقدم في سورة الانفطار (7) عند قوله تعالى : ﴿ الذي خلقك فسواك .

﴿ ومَا ﴾ في المواضع الثلاثة من قوله : ﴿ وما بناها ﴾ ، أو ﴿ ما طحاها ﴾ ، ﴿ وما سواها ﴾ ، إمّا مصدرية يؤوَّلُ الفعل بعدها بمصدر فالقسم بأمور من آثار قدرة الله تعالى وهي صفات الفعل الإلهية وهي رفعةُ السماء وطَحْوُهُ الأرض وتسويته الإِنسان .

(79/817)

وعطف ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على ﴿ سواها ﴾ ، فهو مقسم به ، وفعل "ألهمها" في تأويل مصدر لأنه معطوف على صلة ﴿ ما ﴾ المصدرية ، وعطف بالفاء لأن الإلهام ناشىء عن التسوية ، فضمير الرفع في "ألهمها" عائد إلى التسوية وهي المصدر المأخوذ من ﴿ سواها ﴾ ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ موصولة صادقة على فعل الله تعالى ، وجملة ﴿ بناها ﴾ صلة الموصول ، أي والبناءِ الذي بنَى السماء ، والطحو الذي طحا الأرض والتسوية التي سوت النفس .

فالتسوية حاصلة من وقت تمام خلقة الجنين من أول أطوار الصبا إذ التسوية تعديل الخلقة وإيجاد القوى الجسدية والعقلية ثم تزداد كيفية القوى فيحصل الإِلهام .

والإِلهام : مصدر ألهم ، وهو فعل متعد بالهمزة ولكن المجردَ منه مُمات والإِلهام اسم قليل الورود في كلام العرب ولم يذكر أهل اللغة شاهداً له من كلام العرب .

ويطلق الإِلهام إطلاقاً خاصاً على حدوث علم في النفس بدون تعليم ولا تجربة ولا تفكير فهو علم يحصل من غير دليل سواء ما كان منه وجدانياً كالانسياق إلى المعلومات الضرورية والوجدانية ، وما كان منه عن دليل كالتجريبيات والأمور الفكرية والنظرية .

وإيثار هذا الفعل هنا ليشمل جميع علوم الإِنسان ، قال الراغب : الإِلهام : إيقاع الشيء في الرُوع ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وَجهة الملأ الأعلى ا ه .

ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن يكن مما أحياه القرآن لأنه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية وقليل رواجُ أمثال ذلك في اللغة قبل الإِسلام لقلة خطور مثل تلك المعاني في مخاطبات عامة العرب ، وهو مشتق من اللّهْم وهو البلْع دَفعةً ، يقال : لَهِم كفرح ، وأما إطلاق الإِلهام على علم يحصل للنفس بدون مستند فهو إطلاق اصطلاحي للصوفية .

(80/817)

والمعنى هنا : أن من آثار تسوية النفس إدراك العلوم الأولية والإِدراك الضروري المدرَّج ابتداء من الانسياق الجِبلي نحو الأمور النافعة كطلب الرضيع الثدي أول مرة ، ومنه اتقاء الضار كالفرار مما يُكره ، إلى أن يبلغ ذلك إلى أول مراتب الاكتساب بالنظر العقلي ، وكل

ذلك إلهام .

وتعدية الإِلهام إلى الفجور والتقوى في هذه الآية مع أن الله أعلم الناس بما هو فجور وما هو تقوى بواسطة الرسل باعتبار أنه لولا ما أودع الله في النفوس من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها لما فهموا ما تدعوهم إليه الشرائع الإلهية ، فلولا العقول لما تيسّر إفهامُ الإِنسان الفجور والتقوى ، والعقابَ والثواب .

وتقديم الفجور على التقوى مراعىً فيه أحوال المخاطبين بهذه السورة وهم المشركون ، وأكثر أعمالهم فجور ولا تقوى لهم ، والتقوى صفة أعمال المسلمين وهم قليل يومئذ .

ومجيء فعل : "ألهمها" بصيغة الإِسناد إلى ضمير مذكر باعتبار أن تأنيث مصدر التسوية تأنيث غير حقيقي أو لمراعاة لفظ ﴿ ما ﴾ إن جعلتَها موصولة .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)

يجوز أن تكون الجملة جواب القسم ، وإن المعنى تحقيق فلاح المؤمنين وخَيبة المشركين كما جُعل في سورة الليل (4 ، 5) جوابَ القسم قولُه : ﴿ إن سعيكم لشتى فأما من أعطى ﴾ الخ .

ويجوز أن تكون جملةً معترضة بين القَسم والجواب لمناسبة ذكر إلهام الفجور والتقوى ، أي أفلح من زكّى نفسه واتّبع ما ألهمه الله من التقوى ، وخاب من اختار الفجور بعد أن ألهم التمييز بين الأمرين بالإِدراك والإِرشاد الإلهي .

وهذه الجملة توطئة لجملة : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس : 11] فإن ما أصاب ثمودا كان من خيبتهم لأنهم دَسَّوا أنفسهم بالطغوى .

وقدم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى ، وأردف بخيبة من دسى نفسه لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التدسية .

(81/817)

و ﴿ مَن ﴾ صادقة على الإِنسان ، أي الذي زكى نفسه بأن اختار لها ما به كمالها ودفع الرذائل عنها ، فالإِنسان والنفس شيء واحد ، ونزلا منزلة شيئين باختلاف الإِرادة والاكتساب .

والتزكية : الزيادة من الخير .

ومعنى : ﴿ دساها ﴾ حال بينها وبين فعل الخير .

وأصل فعل دسّى : دسّ ، إذا أدخل شيئاً تحت شيء فأخفاه ، فأبدلوا الحرف المضاعف ياء طلباً للتخفيف كما قالوا : تقضّى البازي أو تقضض ، وقالوا : تظنيت ، أي من الظن .

وإن كانت جملة ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ جواب القسم فجملة ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس : 11] في موقع الدليل لمضمون جملة ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي

خاب كخيبة ثمود .

والفلاح : النجاح بحصول المطلوب ، والخيبة ضده ، أي أن يُحرم الطالب مما طلبه .

فالإِنسان يرغب في الملائم النافع ، فمن الناس من يطلب ما به النفع والكمال الدائمان ، ومن الناس من يطلب ما فيه عاجل النفع والكمال الزائف ، فالأول قد نجح فيما طلبه فهو مفلح ، والثاني يحصِّل نفعاً عارضاً زائلاً وكمالاً موقتاً ينقلب انحطاطاً فذلك لم ينجح فيما طلبه فهو خائب ، وقد عبر عن ذلك هنا بالفلاح والخيبة كما عبر عنه في مواضع أخر بالربح والخسارة .

والمقصود هنا الفلاح في الآخرة والخيبة فيها .

وفي هذه الآيات مُحسّن الطباق غير مرّة فقد ذكرت أشياء متقابلة متضادة مثل الشمس والقمر لاختلاف وقت ظهورهما ، ومثل النهار والليل ، والتجلية والغشي ، والسماء والأرض ، والبناء والطحو ، والفجور والتقوى ، والفلاح والخيبة ، والتزكية والتدسية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(82/817)

فائدة

قال ابن القيم :

سورة الشمس

قال تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾

والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء منه قوله تعالى يدسه في التراب فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاء وأعلاه ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله فصل

(83/817)

ومن عقوباتها أن العاصي دائما في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حال من أسير من أسير أسره أعدى عدوله ولا سجن

أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب ماسور مسجون مقيد وكيف يخطو خطوة واحدة وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده ومثل القلب الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات وفي الحديث الشيطان ذئب الانسان وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب الى الهلاك فاحمي ما تكون الشاة إذا قربت من الراعى وإنما يأخذ الذئب القاصي من الغنم وهي أبعدهن من الراعي وأصل هذا كله إن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض فالغفلة تبعد العبد عن الله وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله

أهـ ﴿ الجواب الكافى صـ 92.91 ﴾

(84/817)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾

يدل على أن الله هو الذي يجعل الفجور والتقوى في القلب وقد جاءت آيات كثيرة تدل على أن فجور العبد وتقواه باختياره ومشيئته كقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ وقوله تعالى: ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ ونحو ذلك .

وهذه المسألة هي التي ضل فيها القدرية والجبرية .

وأما القدرية: فضلوا بالتفريط حيث زعموا أن العبد يخلق عمل نفسه استقلالا عن غير تأثير لقدرة الله فيه .

وأما الجبرية فضلوا بالإفراط حيث زعموا أن العبد لا عمل له أصلا حتى يؤاخذ به .

وأما أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا ولم يفرطوا فأثبتوا للعبد أفعالا اختيارية ومن الضروري عند جميع العقلاء أن الحركة الارتعاشية ليست كالحركة الاختيارية وأثبتوا أن الله خالق كل شيء فهو خالق العبد وخالق قدرته وإرادته وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى .

فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله تعالى مع أن العبد يفعل اختيارا بالقدرة والإرادة اللتين

خلقهما الله فيه فعلا اختياريا يثاب عليه ويعاقب .

ولو فرضنا أن جبريا ناظر سنيا فقال الجبري: حجتي لربي أن أقول إني لست مستقلا بعمل وإني لا بد أن تنفذ في مشيئته وإرادته على وفق العلم الأزلي فأنا مجبور فكيف يعاقبني على أمر لا قدرة لي أن أحيد عنه ؟ فإن السني يقول له كل الأسباب التي أعطاها للمهتدين أعطاها لك جعل لك سمعا تسمع به وبصراً تبصر به وعقلا تعقل به وأرسل لك رسولا وجعل لك اختيارا وقدرة ولم يبق بعد ذلك إلا التوفيق وهو ملكه المحض إن أعطاه ففضل وإن منعه فعدل كما أشار له تعالى بقوله: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

بمعنى أن ملكه للتوفيق حجة بالغة على الخلق فمن أعطيه ففضل ومن منعه فعدل .

(85/817)

ولما تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي ؛ قال عبد الجبار سبحان من تنزه عن الفحشاء وقصده أن المعاصي كالسرقة والزنى بمشيئة العبد دون مشيئة الله لأن الله أعلى وأجل من أن يشاء القبائح في زعمهم ، فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويعاقبني عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبرا عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى على بالردى أتراه أحسن إلي أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك منه ملكا لك فقد أساء وإن كان له فإن أعطاك ففضل وإن منعك فعدل فبهت عبد الجبار وقال الحاضرون والله ما لهذا جواب.

وجاء أعرابي إلى عمرو ابن عبيد وقال له ادع الله لي أن يرد على حمارة لي سرقت مني فقال اللهم إن حمارته سرقت ولم ترد سرقتها فارددها عليه فقال له الأعرابي: يا هذا كف عني من دعائك الخبيث إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد.

وقد رفع الله إشكال هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فأثبت للعبد مشيئة وصرح بأنه لا مشيئته للعبد إلا بمشيئة الله جل وعلا.

فكل شيء صادر من قدرته ومشيئته جلا وعلا.

وقوله: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وأما على قول من فسر الآية الكريمة بأن معنى فألهمها فجورها وتقواها أنه بين لها طريق الخير وطريق الشر، فلا إشكال في الآية وبهذا المعنى فسرها جماعة من العلماء.

والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 330. 332 ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(59) والقمر إذا تلاها

بقلم : زغلول النجار

هذه هي الآية الثانية من سورة الشمس , وهي سورة مكية , آياتها 15 بدون البسملة , وقد سميت بهذا الاسم لاستهلالها بالقسم بالشمس في الآيات الأربع الأولي منها ضمن قسم مطول بتسع من آيات الله في الكون علي فلاح الإنسان في الدنيا والآخرة إذا زكي نفسه بتقوي الله , وعلي خيبته فيهما إذا لم يلزمها بتقوي الله , ولم يزكها , وتركها علي هواها تغرق في ظلمات الضلال , وتهوي في دياجير الفجور ومتاهاته , وتندس في وحل الرذيلة ودنسه فلا تري النور أبدا . . ! !

والمحور الرئيسي لهذه السورة القصيرة يدور حول طبيعة النفس الإنسانية , واستعداداتها الفطرية لكل من الخير والشر , لأن الله تعالي قد خلق الانسان , وجعل له إرادة حرة , يختار

بها بين الإيمان والكفر , وبين الإصلاح في الأرض أو الإفساد فيها . وعلي أساس من اختياره يكون فلاحه في الدنيا والآخرة أوخيبته فيهما , وهذه هي مسئولية الإنسان صاحب الإرادة الحرة عن نفسه , وتبعته عن مصيرها , فهو إما معتقها من العذاب أو موبقها فيه , وهي حقيقة يقسم عليها ربنا تبارك وتعالي (وهو الغني عن القسم) , بتسع من آياته الكونية الكبري في الآفاق والأنفس فيقول (عز من قائل) :

والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وماسواها * فألهمها فجورها وتقواها *

(الشمس : 1.10)

قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها *

(الشمس : 9,10)

وكنموذج للخيبة البشرية في الدنيا والآخرة تضمنت الآيات الخمس الأخيرة من تلك السورة المباركة قصة ثمود قوم نبي

(87/817)

الله صالح (علي نبينا وعليه من الله السلام وعلي كل أنبياء الله أجمعين) , وكيف أنهم بظلمهم وطغيانهم قد كذبوا رسول الله إليهم , وخالفوا نصحه لهم , وانبعث شقي من أشقيائهم ليتزعم إعلان المعصية علي الله ورسوله , وتابعه قومه في ذلك فعقروا الناقة التي جعلها الله (تعالي) لهم آية فاستحقوا بذلك غضب الله عليهم , وعقابه المدمر لهم الذي نزل عليهم فأهلكهم , ولا يخشي ربنا (تبارك وتعالي) عاقبة ما يفعل لأنه (سبحانه وتعالي) رب هذا الكون ومليكه , لا شريك له في ملكه , ولا منازع له في سلطانه , وهو (سبحانه)

لا يسأل عما يفعل وهم يسألون *

(الأنبياء :23) .

وقد سبق وأن ناقشنا الآية الأولي من هذه السورة المباركة , ونناقش اليوم الآية الثانية منها , والتي يقسم فيها ربنا تبارك وتعالي ـ وهو الغني عن القسم ـ بقوله العزيز : والقمر إذا تلاها , لنبين جانبا من جوانب القدرة الإلهية في إبداع خلق القمر , وفي قيمة هذا التابع الصغير للأرض في إنارتها بمجرد غياب الشمس , والسبق القرآني بالإشارة إلي موالاة القمر للشمس في غروبه وشروقه , وقبل الدخول في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذا القسم العظيم .

من أقول المفسرين

في تفسير القسم الثاني من سورة الشمس والذي يقول فيه ربنا (تبارك وتعالي) :

والقمر إذا تلاها * .

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : . . قال مجاهد : تبعها , وقال ابن عباس : . . يتلو النهار , وقال قتادة : إذا تلاها ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رئي الهلال , وقال ابن زيد : هو يتلوها في النصف الأول من الشهر , ثم هي تتلوه وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر , . .

وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) ما نصه : تبعها طالعا عند غروبها (فنور القمر لا يظهر إلا إذا غربت الشمس) .

(88/817)

وجاء في الظلال (علي كاتبه من الله الرضوان) ما نصه : . . . إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي . . وبين القمر والقلب البشري ود قديم موغل في السرائر والأعماق , غائر في شعاب الضمير , يترقرق ويستيقظ كلما التقي به القلب في أي حال . وللقمر همسات وإيحاءات للقلب , وسبحات وتسبيحات للخالق , يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب . . وإن القلب ليشعر أحيانا أنه يسبح في فيض النور الغامر في

الليلة القمراء , ويغسل أدرانه , ويرتوي , ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه :(والقمر إذا تلاها) أي : تبعها وخلفها في الإضاءة (والصحيح هو : في الإنارة) , بأن يطلع مضيئًا (والصحيح هو : منيرا) بعد غروبها , آخذا من نورها (والصحيح : من ضوئها) , سواء كان ذلك من غير تراخ , وهو في النصف الأول من الشهر , أو بعد مدة وهو في النصف الثاني منه .

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) مانصه : وبالقمر إذا تبعها وخلفها في الإضاءة (والصحيح هو : في الإنارة) بعد غزوبها .

وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبه خيرا) مانصه :

(والقمر إذا تلاها) أي وأقسم بالقمر إذا

سطع مضيئًا (والصواب هو : منيرا) , وتبع الشمس طالعا بعد غروبها , قال المفسرون : وذلك في النصف الأول من الشهر , إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة (والصحيح هو : في الإنارة) وخلفها في النور (والصحيح هو : بنوره) . . . . والشمس والقمر مخلوقان لمصالح البشر , والقسم بهما للتنبيه علي مافيهما من المنافع العظيمة .

القمر في القرآن الكريم

جاء ذكر القمر في القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة في ست وعشرين آية لتكرر ذكره مرتين

في آية منها هي الآية رقم 37 من سورة فصلت , كما جاء ذكر القمر بالاشارة إلي مراحله تحت مسمي الأهلة مرة واحدة

(89/817)

وهذه الآيات يمكن تصنيفها في ثماني مجموعات كمايلي :

(ا) آيتان تصفان القمر في رؤيتين من رؤي أثنين من رسل الله أحدهما ابراهيم والآخر يوسف علي نبينا وعليهما من الله السلام , وإحدي هاتين الرؤيتين كان في حال اليقظة والأخري في حالة المنام علي النحو التالي :

(1) فلما رأي القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين *

(الأنعام :77) .

(2) إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين *

(يوسف :4) .

(ب) آيتان تصفان الشمس والقمر مرة بأنهما حسبانا (أي وسيلة لحساب الزمن)

والأخري بأنهما بحسبان (أي يجريان بحساب دقيق مقدر معلوم) علي النحو التالي :

(1) فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم

*

(الأنعام :96) .

(2) الشمس والقمر بحسبان *

(الرحمن :5) .

(جـ) إحدي عشرة آية تتحدث عن خلق كل من الشمس والقمر وسجودهما لله تعالي وتسخيرهما بأمر الله (سبحانه وتعالي) ليكونا في خدمة خلق الله إلي أجل مسمي واعتبارهما آيتين من آيات الله أو تنهي عن السجود لهما وتأمر بالسجود لخالقهما وحده , وذلك علي النحو التالي :

(1) . . . والشمس

والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين *

(الأعراف :54) .

(2) . . وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون *

(الرعد :2) .

(3) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار *

(ابراهيم :33) .

(4) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون *

(النحل :12) .

(5) وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون *

(الأنبياء :33) .

(6) ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس . . . . *

(90/817)

(الحج :18) .

(7) ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأني يؤفكون *)

(العنكبوت :61)

(8) ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلي أجل مسمي وأن الله بما تعملون خبير *

(لقمان :29) .

(9) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير *

(فاطر :13)

(10) . . . وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ألا هو العزيز الغفار *

(الزمر :5)

(11) ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون *

(فصلت :37)

(د) آيتان تؤكدان طبيعة كل من الشمس والقمر وتفرق بينهما بأن الشمس ضياء أو سراج , والقمر نور , وهو سبق علمي لم يدركه الإنسان إلا بعد تنزل القرآن الكريم بقرون طويلة , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

(1) هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم

يعلمون *

(يونس :5)

(2) ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا * وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا *

(نوح :16,15) .

(هـ) ثلاث آيات تتحدث عن منازل القمر وأطواره (أي مراحله المتتالية من الهلال , إلي التربيع الأول , إلي الأحد ب الأول , إلي البدر الكامل , إلي الأحد ب الثاني , إلي التربيع الثاني , ثم الهلال الثاني , ثم المحاق) أو عن أحد هذه الأطوار وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي):

(1) والقمر قدرناه منازل حتي عاد كالعرجون القديم *

(يس :39) .

(2) يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج . . *

(البقرة :189)

(3) والقمر إذا اتسق *

(الانشقاق :18)

(و) آية واحدة تشير إلي دوران كل من الشمس والقمر في مدار محدد له وفيها يقول ربنا (تبارك وتعالي) :

(91/817)

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون *

(يس :40)

(ز) آية واحدة تثبت معجزة حدثت لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) ألا وهي معجزة انشقاق القمر وفيها يقول الحق (تبارك اسمه) :

اقتربت الساعة وانشق القمر *(القمر : 1) .

(جـ) آيتان كريمتان يقسم فيهما ربنا (تبارك وتعالي) بالقمر , وربنا غني عن القسم لعباده , ولكن تعظيما لشأن القمر جاء القسم به علي النحو التالي :

(1) كلا والقمر *(المدثر :32)

(2) والقمر إذا تلاها *(الشمس :2)

(ط) آيتان تتحدثان عن نهاية القمر في يوم القيامة يقول فيهما ربنا (تبارك اسمه) :

(1),(2) فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر *(القيامة :7 .

9) .

القمر في علوم الفلك

القمر تابع صغير للأرض يبعد عنها بمسافة تقدر في المتوسط بحوالي 384,400 كيلمتر , وهو علي هيئة شبه كرة من الصخر غير كاملة الاستدارة إذ لها شكل البيضة التي تتجه بنهايتها الصغيرة تجاه الأرض , وتقدر كتلة القمر

بحوالي 735 مليون مليون مليون طن (أي حوالي 1/81 من كتلة الأرض) , ويقدر حجمه بحوالي 22 مليون مليون كيلو متر مكعب (أي حوالي 1/50) من حجم الأرض) , ويقدر متوسط كثافته بحوالي 3,34 جرام للسنتيمتر المكعب (أي حوالي ثلثي متوسط كثافة الأرض) , ويقدر قطره بحوالي 3474 كيلو مترا (أي حوالي ربع قطر الأرض تقريبا) وتقدر مساحة سطحه بحوالي 38 مليون كيلو متر مربع (أي حوالي 13,42 من مساحة سطح الأرض) وتقدر جاذبيته بحوالي سدس جاذبية الأرض .

(92/817)

ويدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يقدر بحوالي 2,4 مليون كيلو متر بسرعة متوسطة تقدر بحوالي كيلومتر واحد في الثانية , ويدور حول محوره الذي يميل علي مستوي

مداره بزاوية تتراوح بين (18,3 و 28,6) درجة بنفس السرعة ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في حوالي 29,5 يوم من أيام الأرض , ولا يظهر لسكان الأرض من القمر إلا وجه واحد (ولكن نظرا لترنح القمر فإننا نستطيع رؤية حوالي 59

من مساحة سطحه تقريبا) لأنه يدور حول الأرض في نفس الزمن الذي يكمل فيه دورته حول محوره , وبذلك يطول كل من الليل والنهار علي سطح القمر إلي حوالي 14,5 يوم من أيام الأرض : ويصعب إدراك الغلاف الغازي للقمر لقلة كثافته . . حيث تقدر كثافة غلافه الغازي بحوالي الواحد من ألف (0,001) من كثافة الغلاف الغازي للأرض . وتتراوح درجة حرارة سطح القمر في نصفه المواجه للشمس بين 110 درجات مئوية نهارا و 120 درجة مئوية تحت الصفر ليلا .

وسطح القمر معتم بصفة عامة , وعلي الرغم من ذلك فإن الله (تعالي) قد جعل له القدرة علي عكس ماقيمته 7,3

من أشعة الشمس الساقطة عليه , وبذلك ينير القمر سماء الأرض بمجرد غياب الشمس بمراحله المتتالية من الهلال إلي التربيع الأول , إلي الأحدب الأول , إلي البدر الكامل , إلي الأحدب الثاني , إلي التربيع الثاني ثم إلي الهلال الثاني , ومن بعده

إلي الاختفاء الكامل في فترة المحاق .

ونظرا إلي قلة كثافة الغلاف الغازي للقمر فقد أصبح عرضة للرجم المستمر بواسطة كل من النيازك والتيارات الترابية وموجات الطاقة التي تصاحب الانفجارات الشمسية , ولذلك أصبح سطح القمر مليئا بالحفر الدائرية العميقة والتي يصل قطر الواحدة منها الي خمسة كيلو مترات والناتجة عن اصطدام النيازك الضخمة بسطحه كان يظن قديما أنها فوهات براكين , ولكن ثبت بعد ذلك أنها نشأت بواسطة تكرار اصطدام النيازك بنفس النقاط علي سطح القمر مما أدي إلي تعميق بعضها إلي ما يقرب من عشرين كيلو مترا . ولا ينفي ذلك وجود فوهات بركانية علي سطح القمر يعتقد أن بعضها لايزال نشيطا نظرا لاكتشاف عدة نقاط ساخنة في بعض ما يعتقد بأنه فوهات بركانية علي سطح القمر .

منازل القمر

لوحظ من القدم أن القمر في دورته حول الأرض يتحرك في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بين ثوابت من النجوم التي يسمي كل منها منزلا من منازل القمر , وعلي ذلك فإن عدد منازل القمر هو 28 بعدد الليالي التي يري فيها القمر , ولما كان القمر في جريه مع الأرض حول الشمس يمر عبر البروج السماوية الإثني عشر التي تمر بها الأرض : فإن كل منزل من منازل القمر يحتل مكانا معينا في كل برج من هذه البروج , والقمر يقطع في كل ليلة 13 درجة تقريبا من دائرة البروج تلك (360 درجة /28 يوما من أيام الأرض =12.86 درجة) وعلي

ذلك فإن البرج الواحد يقع فيه أكثر من منزل من منازل القمر , ويعتمد ذلك علي مساحة البرج في السماء .

وقد تعرف العرب علي منازل القمر من قبل البعثة المحمدية المباركة (علي صاحبها أفضل الصلاة وأزكي التسليم) , وعرفوا أهميتها في تحديد الزمن , وفي إعداد التقاويم الزراعية , وسموا الشمالية منها باسم المنازل الشامية , والجنوبية منها باسم المنازل اليمانية .

ويشير القرآن الكريم إلي منازل القمر بقول الحق (تبارك

وتعالي) :

والقمر قدرناه منازل حتي عاد كالعرجون القديم (يس :39) .

(94/817)

ويتضح من تلك الآية الكريمة مدي تداخل مراحل نمو مساحة الانارة علي وجه القمر المقابل للأرض (مراحل تطور شكل القمر بالنسبة لأهل الأرض) مع منازل القمر حتي ليمكن التعبير بأحدها عن الآخر .

مراحل شكل القمر بالنسبة للأرض

يدور القمر حول الأرض في مدار شبه دائري يبلغ متوسط نصف قطره 384.400 كيلو

متر , وفي أثناء هذه الدورة يقع القمر علي خط واحد بين الأرض والشمس فيواجه الأرض بوجه مظلم تماما , وتسمي هذه المرحلة مرحلة المحاق

(Wane),

وتستغرق ليلة واحدة إلي ليلتين تقريبا , ثم يبدأ القمر في التحرك ليخرج من هذا الوضع الواصل بين مراكز تلك الأجرام الثلاثة فيولد الهلال الأول أو الهلال الوليد

(TheNascentCrescent)

الذي يحدد بمولده بدء الشهر القمري , ويقع هذا الهلال في أول منازل القمر , وتمكن رؤيته بعد ميلاده إذا أمكن مكثه لمدة لا تقل عن عشر دقائق بعد غروب الشمس , وكان الجو علي قدر من الصفاء يسمح بتلك الرؤية , وباستمرار تحرك القمر في دورته حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من وجهه المقابل للأرض بالتدريج حتي يصل الي التربيع الأول

(TheFirstQuarter)

في ليلة السابع من الشهر القمري , ثم الأحدب الأول

(TheFirstGibbous)

في ليلة الحادي عشر , ثم البدر الكامل

(TheFullMoonorThewax)

في حدود ليلة الرابع عشر من الشهر القمري وفيه تكون الأرض بين الشمس من جهة والقمر

من الجهة الأخري علي استقامة واحدة , وبخروج القمر عن هذا الخط المستقيم في دورته حول الأرض تبدأ مساحة الجزئ المنير من وجهه المقابل للأرض في التناقص بالتدريج فيمر بمرحلة الأحدب الثاني

(TheSecondGibbous)

في حدود ليلة الثامن عشر من الشهر القمري , ثم التربيع الثاني

(TheSecondQuarter)

في ليلة الثالث والعشرين , ثم الهلال الثاني

(TheSecondCrescent)

في ليلة السادس

(95/817)

والعشرين من الشهر القمري والذي يستمر لمدة يومين أو ثلاثة حتي المحاق في آخر ليلة من الشهر القمري حين يعود القمر إلي وضع الاقتران بين الأرض والشمس .

من الظواهر المصاحبة لحركة القمر

من الظواهر المصاحبة لدوران القمر في مداره حول الأرض ظاهرتان فلكيتان مهمتان هما

ظاهرة كسوف الشمس , وظاهرة خسوف القمر , وينتج كسوف الشمس من توسط القمر بين الأرض والشمس مما يحجب الشمس لفترة زمنية محددة , أما خسوف القمر فينتج من توسط الأرض بين القمر والشمس مما ينتج عنه إظلام القمر لوقوعه في منطقة ظل الأرض .

وكسوف الشمس يتكرر في السنة من مرتين إلي ثلاث مرات , بينما يتكرر خسوف القمر لأكثر من أربع مرات في السنة نظرا لكبر حجم منطقتي ظل وشبه ظل الأرض بالنسبة لحجم القمر , وصغر حجم هاتين المنطقتين للقمر بالنسبة إلي حجم الأرض , ولذلك يري خسوف القمر من جميع بقاع الأرض التي يكون فيها فوق الأفق , ويبتدئ علي الجانب الشرقي من القمر لأن القمر يدور حول الأرض من الغرب إلي الشرق , بينما يري كسوف الشمس من نقاط محددة علي سطح الأرض .

وقد يكون خسوف القمر كليا إذا دخل في منطقة ظل الأرض , وقد يكون خسوفا جزئيا إذا دخل في منطقة شبه الظل للأرض ويسمي هذا الخسوف الجزئي باسم الاحتراق , لأن القمر يبدو فيه أحمر نحاسي اللون .

كذلك فإن كسوف الشمس قد يكون كسوفا كليا اذا غطي ظل القمر كل قرص الشمس بالكامل , وقد يكون كسوفا جزئيا حين يغطي ظل القمر جزءا من قرص الشمس , وقد يكون كسوفا حلقيا عندما يكون القمر في أبعد مواضعه عن الأرض فلا يستطيع ظله أن يغطي قرص الشمس بالكامل , بل يغطي جزءا من وسطها ويترك الجزء الباقي من الشمس

ظاهرا علي هيئة حلقة مضيئة .

ويبتديء الكسوف علي جانب الشمس الغربي وذلك بسبب دوران القمر حول الأرض من الغرب إلي الشرق .

ولا تتجاوز مدة الكسوف الكلي للشمس فترة (7 دقائق ,48 ثانية) بينما قد يصل الكسوف

(96/817)

الحلقي إلي (12 دقيقة ,24 ثانية) , والكسوف الكلي نادر الحدوث , وعند وقوعه تصطبغ السماء باللون القرمزي قبل بدئها في الاظلام الذي قد يصاحبه شيء من الانخفاض في درجة الحرارة .

البناء الداخلي للقمر

يغطي سطح القمر بطبقة من الفتات الصخري يتراوح سمكها بين المتر والعشرين مترا , وتعرف هذه الطبقة باسم (التربة القمرية) , ويعتقد بأنها قد تكونت نتيجة لارتطام النيازك وجسيمات التراب الكوني القادمة مع الرياح الشمسية علي سطح القمر , والعمر المطلق لهذه التربة القمرية يقدر بنحو 4.6 بليون سنة .

ويمتلىء سطح القمر بمناطق منخفضة عديدة تعرف باسم (بحار القمر) وإن كانت خالية تماما من وجود الماء , وهذه المنخفضات عبارة عن أعداد لا حصر لها من الفوهات الدائرية العميقة التي يصل قطر الواحدة منها إلي أكثر من خمسة كيلو مترات , وتصل أعماقها إلي عدة كيلو مترات . وكان يعتقد قديما بأنها فوهات بركانية , ولكن دراسة الصخور التي أحضرت من عدد منها أثبتت أنها نشأت عن اصطدام النيازك بنفس النقطة من سطح القمر لمرات متتالية حتي وصل عمق بعضها إلي عشرين كيلو مترا . وبجوار هذه الحفر العميقة توجد سلاسل جبلية تتراوح ارتفاعاتها بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات .

وتمتلىء بحار القمر بطفوح من الحمم البازلتية .

وتتكون الصخور القمرية وهي صخور قاعدية في غالبيتها من مثل (الجابرو ـ النورايت) من العناصر نفسها التي تتكون منها صخور الأرض باستثناء أن صخور القمر خالية تماما من الماء , بينما تتراوح نسبة الماء في صخور الأرض بين 1

و 2

علي الأقل , وأن صخور القمر تتميز بتركيز أكثر في عدد من العناصر من مثل التيتانيوم والحديد والألومنيوم والكالسيوم , ويفقر في عدد آخر من العناصر من مثل الصوديوم والكربون والأوكسجين , ويقدر عمر صخور القمر بنحو 3.7 بليون سنة .

ويتشابه كبير مع البناء الداخلي للأرض تشير الدراسات القمرية

الي تكون القمر من عدة نطق من الصخور متمركزة حول نواة غنية في عنصر الحديد علي النحر التالي :

(ا) الغلاف الصخري للقمر : وهو نطاق خارجي يتكون من الصخور القاعدية من مثل البازلت والجابرو , ويبلغ سمكه حوالي 68 كيلو متر وينقسم إلي قسمين مما يزين علي النحو التالي :

(1) قشرة القمر المهشمة : ويبلغ سمكها نحو 28 كيلو مترا وهي مهشمة بفعل الارتطامات المتكررة بالنيازك , وتيارات التراب الكوني المصاحبة للرياح الشمسية .

(2) ماتحت القشرة القمرية

وهي قشرة قاعدية يبلغ سمكها نحو 40 كيلو مترا , ويغلب علي تكوينها معادن الأنورثوزايت .

(ب) وشاح القمر : ويمتد من عمق 68 كيلو مترا تحت سطح القمر الي عمق 1238 كيلو متر , وعلي ذلك يقدر سمكه بنحو 1170 كيلو مترا , ويتكون من صخور قاعدية غنية بمعادن البيروكسين .

(جـ) لب القمر : ويمتد من عمق 1238 كيلو مترا تحت مستوي سطح القمر تقريبا الي مركز القمر الموجود علي عمق 1738 كيلو مترا , وعلي ذلك يقدر سمكه بنحو 500 كيلو متر , وتشير الدراسات إلي إمكانية أن تكون المائة كيلو متر العليا منه في حالة منصهرة أو شبه منصهرة مما يعين علي تقسيمه الي :

(1) لب القمر الخارجي المنصهر : وهو في حالة مائعة (سائلة أو شبه سائلة) ويغلب علي تركيبه مركبات السيليكون (السيليكات) ويبلغ سمكه نحو المائة كيلو متر (من عمق 1238 كيلو مترا الي عمق 1338 كيلو مترا) .

(2) لب القمر الداخلي الصلب :

ويقدر نصف قطره بحوالي 400 كيلو متر (من عمق 1338 كيلو مترا إلي مركز القمر علي عمق 1738 كيلو مترا) ويغلب علي تركيبه عنصر الحديد .

ويعتقد غالبية الفلكيين بأن القمر قد تكون كجزء منفصل من النظام الشمسي , وإن كان بعضهم يقترح فكرة انفصاله عن الأرض بسبب تباعده الحالي عنها بمعدل ثلاثة سنتيمترات في السنة , ويري البعض الآخر احتمال تكونه بعيدا عن

الأرض ثم أسره إلي موضعه الحالي بفعل جاذبية الأرض له .

القسم بالقمر إذ يتلو الشمس

نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلي الشرق دورة كاملة كل 24 ساعة فإن الشمس تبدو طالعة في كل يوم من جهة الشرق , وغائبة في جهة الغرب .

ونتيجة لميل مستوي مدار القمر حول الأرض علي مستوي مدار الأرض حول الشمس بمقدار (5 درجات , و 8 دقائق) فإن المسار الظاهري لكل من الشمس والقمر علي صفحة السماء من نقطة الشروق إلي نقطة الغروب يبدو متقاربا .

وبصرف النظر عن دوران الأرض حول محورها فإننا نجد أن القمر يسير في اتجاه الشرق درجة واحدة كل ساعتين تقريبا (360 درجة /30 يوما =12 درجة في اليوم /24 ساعة = نصف درجة في الساعة) وأن الشمس تسير درجة واحدة تقريبا كل يوم (أي كل 24 ساعة)(360 درجة /365.25 يوما تقريبا) , ولذلك يبقي القمر في سباق دائم مع الشمس , ويلحق بها مرة كل شهر , فيولد الهلال الجديد في الأفق الغربي بعد غروب الشمس بقليل وبالقرب من المكان الذي تغرب فيه الشمس , وبعد ذلك يأخذ ظهور القمر في التأخر عن وقت غروب الشمس فيري في طور التربيع الأول في وسط السماء بعد غروب الشمس , ويتأخر ظهوره لفترة أطول بعد الغروب في مرحلة الأحدب الأول ويري وهو أقرب للأفق الشرقي , وفي مرحلة البدر يتفق شروق القمر من الأفق الشرقي مع

غروب الشمس في الأفق الغربي لوجودهما علي استقامة واحدة , وبعد ذلك يتأخر القمر في الشروق يوميا بمعدل خمسين دقيقة في المتوسط حتي يصل مجموع هذا التأخير إلي حوالي خمسة ساعات بعد غروب الشمس في طور التربيع الثاني , ويستمر هذا التأخير في ظهور القمر حتي يري الهلال الثاني في وضح النهار ; وفي طور المحاق يغيب القمر مع غروب الشمس تماما لوقوعهما علي استقامة واحدة .

ولعل هذا هو المقصود من قول الحق (تبارك وتعالي) : والقمر إذا تلاها .

ويتم القمر دورته حول الأرض في (27 يوم ,7

(99/817)

ساعات ,43 دقيقة ,11.6 ثانية) , ولكن نظرا لدوران الأرض حول محورها , ولجريها في مدارها حول الشمس , فإن القمر يحتاج إلي نحو يومين آخرين زيادة علي هذه الفترة ليعود الي نفس النقطة التي بدأ منها ولذلك فإن الشهر الاقتراني يطول إلي (29 يوما ,12 ساعة ,44 دقيقة ,2.9 ثانية في المتوسط) , وحيث إن الشهر القمري يعد بالأيام الكاملة بدءا من غروب الشمس اليوم الذي يري فيه الهلال بعد غروب شمس , فإن الشهر القمري إما أن يكون 29 يوما أو 30 يوما , ولأن حركة القمر هي من الغرب إلي الشرق فإنه يتأخر كل يوم

في غروبه من 40 إلي 50 دقيقة عن اليوم السابق تبعا لاختلاف كل من خطوط الطول والعرض . وفي اليوم التاسع والعشرين قد يأتي غروبه قبل غروب الشمس ولذا تستحيل رؤيته , وقد يأتي غروبه بعد غروب الشمس فيمكن رؤيته تبعا لمدة مكثه وللظروف الجوية المصاحبة لمكان التماس رؤية الهلال .

وللقمر عدد من الحركات الحقيقية والظاهرية والتي يمكن إيجازها فيما يلي :

أولا : الحركات الحقيقية للقمر :

1 . دورة القمر حول محوره وتتم في كل شهر عربي دورة واحدة ينتصفه ليل لمدة أسبوعين ونهار لمدة أسبوعين

2 . دورة القمر حول الأرض وتتم في 29.5 يوم بالنسبة للأرض (وفي 27.3 يوم بالنسبة للنجوم) .

3 . دورة القمر مع الأرض حول الشمس بسرعة تقدر بنحو 30 كيلو مترا في الثانية وتتم في سنة شمسية مدتها اثنا عشر شهرا ينزل القمر فيها منازل الشمس الاثني عشر (شهرا بعد شهر) .

4 . دورة القمر مع المجموعة الشمسية حول مركز مجرتنا (سكة التباتة أو درب اللبانة) وتتم في حدود 250 مليون سنة أرضية .

5 . دورة القمر مع المجرة ومع التجمعات الأكبر من ذلك بالتدريج حول مراكز متدرجة في

الكون الفسيح إلي نهاية لا يعلمها الا الله .

ثانيا : الحركات الظاهرية للقمر :

1 ـ دورة القمر الظاهرية حول الأرض مرة في كل يوم , نتيجة ,

لدوران الأرض حول محورها .

(100/817)

---

2 ـ دورة القمر الظاهرية في منازله التي بالسماء مرة كل شهر .

3 ـ دورة القمر السنوية ووقوعه في برج من بروج السماء واحدا بعد الآخر .

وقد شاءت ارادة الله وحكمته البالغة ألا تظلم سماء الأرض إظلاما تاما بمجرد غياب الشمس الظاهري عن الأرض فأبقي لنا القمر والنجوم تنير ظلمة ليل الأرض , فبمجرد غياب الشمس عنا يصلنا ضؤوها المنعكس من فوق سطح القمر نورا لا حرارة فيه ويري نور القمر في مراحله المتتالية , من الميلاد الي المحاق , ونظرا لقربه من الأرض فإن أثره في إنارة ظلمة ليل الأرض أبلغ من أثر النجوم حتي وهو مغطي بأقل مساحة من النور وتصف هذه الآية الكريمة متابعة القمر للشمس في حركاتهما الظاهرية حول الأرض وهي حقيقة لم تدرك إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة فسبحان الذي خلق القمر , وأنزل في محكم كتابه

هذا القسم الإلهي بموالاة القمر لغروب الشمس فقال عز من قائل : والقمر اذا تلاها وهي موالاة في أمور عديدة وليس فقط في حركاته الحقيقية والظاهرية , وورد ذلك في القرآن الكريم في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك أن مصدر النور المنبعث من القمر هو من آيات الاعجاز العلمي في كتاب الله , فسبحان الذي أنزل القرآن بعلمه , علي خاتم أنبيائه ورسله , وحفظه لنا في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) علي مدي أربعة عشر قرنا أو يزيد وإلي أن يرث الله (تعالي) الأرض ومن عليها , فالحمد لله علي نعمة القرآن والحمد لله علي نعمة الاسلام , والحمد لله في الآخرة والأولي , وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية . بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(101/817)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق للترهيب بما دلت عليه سورة البلد وتقديم الفجور هنا ، وكان الترهيب أحث على الزكاء ، قال دالاًّ على خيبة المدسي ليعتبر به من سمع خبره لا سيما إن كان يعرف أثره : ﴿ كذبت ثمود ﴾ أنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم وقبيح غايتهم ، وما لهم بسفول الهمم وقباحة الشيم ، وخصهم لأن آيتهم مع أنها كانت أوضح الآيات في نفسها هي أدلها على الساعة ، وقريش وسائر العرب عارفون بهم لما يرون من آثارهم ، ويتناقلون من أخبارهم ﴿ بطغواها ﴾ أي أوقعت التكذيب لرسولها بكل ما أتى به عن الله تعالى بسبب ما كان لنفوسهم من وصف الطغيان ، وهو مجاوزة القدر وارتفاعه والغلو في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم ، أو بما توعدوا به من العذاب العاجل وهي الطاغية التي أهلكوا بها ، وطغى – واوي يائي يقال : طغى كدعا يطغو طغوى وطغواناً – بضمها كطغى يطغى ، وطغي كرضي طغياً وطغياناً – بالكسر والضم ، فالطغوى – بالفتح اسم ، وبالضم مصدر ، فقلبت الياء – على تقدير كونه يائياً – واواً للتفرقة بين الاسم والصفة ، واختير التعبير به دون اليائي لقوة الواو ، فأفهم أنهم بلغوا النهاية في تكذيبهم ، فكانوا على الغاية من سوء تعذيبهم .

(102/817)

ولما ذكر تكذيبهم ، دل عليه بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين ﴿ انبعث أشقاها ﴾ أي أشد ثمود شقاء وهو عاقر الناقة للمشاركة في الكفر والزيادة بمباشرة العقر ، وهو قدار بن سالف ، أو هو ومن مالاه على عقرها ، فإن أفعل التفضيل إذا أضيف صلح للواحد والجمع ﴿ فقال لهم ﴾ أي بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى ، وأظهر ولم يضمر وعين الإظهار بالجلالة إشارة إلى عظيم آيتهم وبديع بدايتهم ونهايتهم فقال : ﴿ رسول الله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ، فتعظميه من تعظيم مرسله وهو صالح عليه الصلاة والسلام وكذا الناقة ، وعبر بالرسول لأن وظيفته الإبلاغ والتحذير الذي ذكر هنا ، ولذا قال مشيراً بحذف العامل إلى ضيق الحال عن ذكره لعظيم الهول وسرعة التعذيب عند مسها بالأذى ، وزاد في التعظيم بإعادة الجلالة : ﴿ ناقة الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الجبروت كله فلا يقر من انتهك حرمته واجترأ على ما أضافه إليه ، ولهذا أعاد الإظهار دون الإضمار ، والعامل : دعوا أو احذروا – أو نحو ذلك أي احذروا أذاها بكل اعتبار ﴿ وسقياها ﴾ أي الماء الذي جعله الله تعالى لها لسقيها وهو بئرها ، فلا تذودوها عن بئرها في اليوم الذي تكون فيه نوبتها في الشرب ولا تمسوها بسوء ، وكأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم عنهم بعد مدة أنهم يريدون عقرها فكرر عليهم التحذير ﴿ فكذبوه ﴾ أي أوقعوا تكذيبه بسبب طغيانهم وعقب أمره هذا الأخير

فيما حذر من حلول العذاب ، أو تكون الفاء هي الفصيحة أي قال لهم ذلك فكانت بعده بينه وبينهم في أمرها أمور ، فأوقعوا تكذيبه فيها كلها ﴿ فعقروها ﴾ أي بسبب ذلك التكذيب بعضهم بالفعل وبعضهم بالرضا به ﴿ فدمدم ﴾ أي عذب عذاباً تاماً مجلّلاً مغطياً مطبقاً مستأصلاً شدخ به رؤوسهم وأسرع في الإجهاز وطحنهم طحناً مع الغضب الشديد ؛ قال الرازي : والدمدمة : تحريك البناء حتى ينقلب ، ودل بأداة الاستعلاء على شدته وإحاطته فقال : ﴿ عليهم ﴾

(103/817)

ودل على شدة العذاب لشدة الغضب بلفت القول بذكر صفة الإحسان التي كفروها لأنه لا أشد غضباً ممن كفر إحسانه فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي الذي أحسن إليهم فغرّهم إحسانه فقطعه عنهم فعادوا كأمس الدابر ﴿ بذنبهم ﴾ أي بسببه .

(104/817)

ولما استووا في الظلم والكفر بسبب عقر الناقة بعضهم بالفعل وبعضهم بالرضا والحث ، قال مسبباً عن ذلك ومعقباً : ﴿ فسواها ﴾ أي الدمدمة عليهم فجعلها كأنها أرض بولغ في تعديلها فلم يكن فيها شيء خارج عن شيء كما سوى الشمس المقسم بها وسوى بين الناس فيها ، وكذا ما أقسم به بعدها ، فكانت الدمدمة على قويهم كما كانت على ضعيفهم ، فلم تدع منهم أحداً ولم يتقدم هلاك أحد منهم على أحد ، بل كانوا كلهم كنفس واحدة من قوة الصعقة وشدة الرجفة كما أنهم استووا في الكفر والرضا بعقر الناقة وكل نفس هي عند صاحبها كالناقة قد أوصى الله صاحبها أن يرعى نعمته سبحانه فيها فيزكيها ولا يدسيها ، فإن الناقة عبارة عن مطية يقطع عليها السير حساً أو معنى ، وذلك صالح لأن يراد به النفس التي تقطع بها عقبات الأعمال ، والسقيا ما يعيش المسقيّ به ، وهو صالح لأن يراد به الذكر والعبادة ، فمن لم يرع النعمة ويشكر المنعم فقد عقرها ، فاستحق الدمدمة منه ، وكما أنه سوى بينهم في الدمدمة سوى بين المهتدين في النجاة ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنه لا ﴿ يخاف ﴾ في وقت من الأوقات أي ربهم ، روي ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ويؤيده قراءة أهل المدينة والشام بالفاء المسببة عن الدمدمة والتسوية وكذلك هي في مصاحفهم ﴿ عقباها ﴾ أي عاقبة هذه الدمدمة وتبعتها فإنه الملك الأعلى الذي كل شيء في قبضته لا كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء فعلم أنه سبحانه وتعالى يعلي أولياءه لأنهم على الحق ، ويسفل أعداءه لأنهم على الباطل ، فلا يضل بعد

ذلك إلا هالك ، بصيرته أشد ظلاماً من الليل الحالك ، وقد رجع آخرها على أولها بالقسم وجوابه المحذوف الذي هو طبع النفوس على طبائع مختلفة والتقدم إليهم بالإنذار من الهلاك ، ونفس القسم أيضاً فإن من له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها وهذا التدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة – والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 442 . 444 ﴾

(105/817)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) ﴾

قال الفراء : الطغيان والطغوى مصدران إلا أن الطغوى أشبه برؤوس الآيات فاختير لذلك وهو كالدعوى من الدعاء وفي التفسير وجهان : أحدهما : أنها فعلت التكذيب بطغيانها ، كما تقول : ظلمني بجراءته على الله تعالى ، والمعنى أن طغيانهم حملهم على التكذيب به هذا هو القول المشهور والثاني : أن الطغوى اسم لعذابهم الذي أهلكوا به ، والمعنى كذبت بعذابها أي لم يصدقوا رسولهم فيما أنذرهم به من العذاب ، وهذا لا يبعد لأن معنى

الطغيان في اللغة مجاوزة القدر المعتاد فيجوز أن يسمى العذاب الذي جاءهم طغوى لأنه كان صيحة مجاوزة للقدر المعتاد أو يكون التقدير كذبت بما أوعدت به من العذاب ذي الطغوى ويدل على هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة ﴾ [الحاقة : 4] أي بالعذاب الذي حل بها ، ثم قال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] فسمى ما أهلكوا به من العذاب طاغية .

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12)

انبعث مطاوع بعث يقال : بعثت فلاناً على الأمر فانبعث له ، والمعنى أنه كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث أشقاها وهو عاقر الناقة وفيه قولان : أحدهما : أنه شخص معين واسمه قدار بن سالف ويضرب به المثل يقال : أشأم من قدار ، وهو أشقى الأولين بفتوى رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني : يجوز أن يكونوا جماعة ، وإنما جاء على لفظ الوحدان لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث تقول : هذان أفضل الناس وهؤلاء أفضلهم ، وهذا يتأكد بقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس : 14] وكان يجوز أن يقال أشقوها كما يقال أفاضلهم .

أما قوله تعالى :

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(106/817)

المراد من الرسول صالح عليه السلام ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ أي أنه أشار إليه لما هموا بعقرها وبلغه ما عزموا عليه ، وقال لهم هي : ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ وآيته الدالة على توحيده وعلى نبوتي ، فاحذروا أن تقوموا عليها بسوء ، واحذروا أيضاً أن تمنعوها من سقياها ، وقد بينا في مواضع من هذا الكتاب أنه كان لها شرب يوم ولهم ولمواشيهم شرب يوم ، وكانوا يستضرون بذلك في أمر مواشيهم ، فهموا بعقرها ، وكان صالح عليه السلام يحذرهم حالاً بعد حال من عذاب ينزل بهم إن أقدموا على ذلك ، وكانت هذه الحالة متصورة في نفوسهم ، فاقتصر على أن قال لهم : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وسقياها ﴾ لأن هذه الإشارة كافية مع الأمور المتقدمة التي ذكرناها .

المسألة الثانية :

﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ نصب على التحذير ، كقولك الأسد الأسد ، والصبي الصبي بإضمار ذروا عقرها واحذروا سقياها ، فلا تمنعوها عنها ، ولا تستأثروا بها عليها .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14)

ثم بين تعالى أن القوم لم يمتنعوا عن تكذيب صالح ، وعن عقر الناقة بسبب العذاب الذي أنذرهم الله تعالى به وهو المراد بقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ ثم يجوز أن يكون المباشر للعقر واحداً وهو قدار ، فيضاف الفعل إليه بالمباشرة ، كما قال : فتعاطى فعقر ويضاف الفعل إلى الجماعة لرضاهم بما فعل ذلك الواحد .

قال قتادة : ذكر لنا أنه أبى أن يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، وهو قول أكثر المفسرين .

وقال الفراء : قيل إنهما كانا إثنين .

أما قوله تعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ فاعلم أن في الدمدمة وجوهاً

أحدها : قال الزجاج : معنى دمدم أطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدمت على الشيء إذا أطبقت عليه ، ويقال : ناقة مدمومة ، أي قد ألبسها الشحم ، فإذا كررت الإطباق قلت دمدمت عليه .

(107/817)

قال الواحدي : الدم في اللغة اللطخ ، ويقال للشيء السمين : كأنما دم بالشحم دماً ، فجعل الزجاج دمدم من هذا الحرف على التضعيف نحو كبكبوا وبابه ، فعلى هذا معنى دمدم عليهم ، أطبق عليهم العذاب وعمهم كالشيء الذي يلطخ به من جميع الجوانب الوجه الثاني : تقول للشيء : يدفن دمدمت عليه ، أي سويت عليه ، فيجوز أن يكون معنى فدمدم عليهم ، فسوى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب الوجه الثالث : قال ابن الأنباري : دمدم غضب ، والدمدمة الكلام الذي يزعج الرجل ورابعها : دمدم عليهم أرجف الأرض بهم رواه ثعلب عن ابن الأعرابي ، وهو قول الفراء ، أما قوله :

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ يحتمل وجهين ، وذلك لأنا إن فسرنا الدمدمة بالإطباق والعموم ، كان معنى ﴿ فسوى ﴾ الدمدمة عليهم وعمهم بها ، وذلك أن هلاكهم كان بصيحة جبريل عليه السلام ، وتلك الصيحة أهلكتهم جميعاً ، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم ، وإن فسرناها بالتسوية ، كان المراد فسوى عليهم الأرض .

أما قوله تعالى :

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

ففيه وجوه أولها : أنه كناية عن الرب تعالى إذ هو أقرب المذكورات ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : لا يخاف تبعة في العاقبة إذ العقبى والعاقبة سواء ، كأنه بين أنه تعالى يفعل ذلك

بحق .

وكل ما فعل ما يكون حكمة وحقاً فإنه لا يخاف عاقبة فعله .

(108/817)

وقال بعضهم : ذكر ذلك لا على وجه التحقيق لكن على وجه التحقير لهذا الفعل ، أي هو أهون من أن تخشى فيه عاقبة ، والله تعالى يجل أن يوصف بذلك ، ومنهم من قال : المراد منه التنبيه على أنه بالغ في التعذيب ، فإن كل ملك يخشى عاقبة ، فإنه يتقي بعض الاتقاء ، والله تعالى لما لم يخف شيئاً من العواقب ، لا جرم ما اتقى شيئاً وثانيها : أنه كناية عن صالح الذي هو الرسول أي ولا يخاف صالح عقبى هذا العذاب الذي ينزل بهم وذلك كالوعد لنصرته ودفع المكاره عنه لو حاول محاول أن يؤذيه لأجل ذلك وثالثها : المراد أن ذلك الأشقى الذي هو أحيمر ثمود فيما أقدم من عقر الناقة ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ وهذه الآية وإن كانت متأخرة لكنها على هذا التفسير في حكم المتقدم ، كأنه قال : إذ انبعث أشقاها ، ولا يخاف عقباها والمراد بذلك أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف ألبتة ، فنسب في ذلك إلى الجهل والحمق ، وفي قراءة النبي عليه السلام : (ولم يخف) وفي مصاحف أهل المدينة والشام

﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ والله أعلم ، روي أن صالحاً لما وعدهم العذاب بعد ثلاث ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلموا فلنقتل صالحاً ، فإن كان صادقاً فأعجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته .

(109/817)

فأتوه ليبيتوه فدمغتهم الملائكة بالحجار ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه لبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه قد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقاً زدتم ربكم عليكم غضباً ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنه تلك الليلة فأصبحوا وجوههم مصفرة فأيقنوا بالعذاب فطلبوا صالحاً ليقتلوه فهرب صالح والتجأ إلى سيد بعض بطون ثمود وكان مشركاً فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه ثم شغلهم عنه ما نزل بهم من العذاب ، فهذا هو قوله : ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 176.178 ﴾

(110/817)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

أقسم الله تعالى ب ﴿ الشمس ﴾ إما على التنبيه منها وإما على تقدير ورب الشمس ، و" الضُّحى " بضم الضاد والقصر : ارتفاع الضوء وكماله ، وبهذا فسر مجاهد . وقال قتادة : هو النهار كله ، وقال مقاتل : ﴿ ضحاها ﴾ حرها كقوله تعالى في سورة (طه) ﴿ ولا تضحى ﴾ [طه : 119] ، و" الضَّحاء " بفتح الضاد والمد ما فوق ذلك إلى الزوال ، ﴿ والقمر ﴾ يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو ويتلوها في النصف الآخر بنحو وآخر وهي أن تغرب هي فيطلع هو ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ﴿ تلاها ﴾ معناه : تبعها دأباً في كل وقت لأنه يستضيء منه فهو يتلوها لذلك .

قال القاضي أبو محمد : فهذا اتباع لا يختص بنسف أول من الشهر ولا بآخره ، وقاله الفراء أيضاً ، وقال الزجاج وغيره : ﴿ تلاها ﴾ : معناه امتلأ واستدار ، فكان لها تابعاً في المنزلة والضياء والقدر ، لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر ، قال قتادة : وإنما ذلك ليلة البدر تغيب هي فيطلع هو .

﴿ والنهار ﴾ ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس ، وكذلك قال الزجاج في كتاب " الأنواء " وغيره : واليوم من طلوع الفجر ، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس ، والضمير في ﴿ جلاها ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿ الشمس ﴾ ويحتمل أن يعود على الأرض أو على الظلمة وإن كان لم يجر له ذكر فالمعنى يقتضيه ، قاله الزجاج . و" جلى " معناه كشف وضوى ، والفاعل بجلَّى على هذا التأويلات ﴿ النهار ﴾ ، ويحتمل أن يكون الفاعل الله تعالى كأنه قال : والنهار إذا جلى الله الشمس ، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته ، ويغشى معناه : يغطي : والضمير للشمس على تجوز في المعنى أو للأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وما بناها ﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة ، يحتمل أن يكون ما فيه بمعنى الذي قال أبو عبيدة : أي تعالى ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ في جميع ذلك مصدرية ، قال قتادة والمبرد والزجاج كأنه قال والسماء وبنيانها ، و" طحا " بمعنى " دحا " و" طحا " أيضاً في اللغة بمعنى ذهب كل مذهب ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [الطويل]

طحا بك قلب في الحسان وطروب . . . بعيد الشباب عمر حان مشيب

(112/817)

والنفس التي أقسم بها ، اسم الجنس ، وتسويتها إكمال عقلها ونظرها ، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالى : ﴿ فألهمها ﴾ الآية ، فالفاء تعطي أن التسوية هي هذا الإلهام ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ فجورها وتقواها ﴾ أي عرفها طرق ذلك وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور أو اكتساب التقوى ، وجواب القسم في قوله ﴿ قد أفلح ﴾ ، التقدير : لقد أفلح ، والفاعل ب " زكى " يحتمل أن يكون الله تعالى ، وقاله ابن عباس وغيره كأنه قال : قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زكاها الله تعالى ، و ﴿ من ﴾ : تقع على جمع وإفراد ، ويحتمل أن يكون الفاعل ب " زكى " الإنسان ، وعليه تقع ﴿ من ﴾ وقاله الحسن وغيره ، كأنه قال : ﴿ قد أفلح ﴾ من زكى نفسه أي اكتسب الزكاء الذي قد خلقه الله ، و ﴿ زكاها ﴾ معناه : طهرها ونماها بالخيرات ، و ﴿ دساها ﴾ معناه : أخفاها وحقرها أي وصغر قدرها بالمعاصي والبخل بما يجب ، يقال دسا يدسو ودسّى بشد السين يدسي وأصله دسس ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

ودسست عمراً في التراب فأصبحت . . . حلائله يبكين للفقد ضعفا

(113/817)

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : " اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " هذا الحديث يقوي أن المزكي هو الله تعالى ، وقال ثعلب معنى الآية ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ في أهل الخير بالرياء وليس منهم في حقيقته ، ولما ذكر تعالى خيبة من دسى نفسه ، ذكر فرقة فعلت ذلك يعتبر بهم وينتهى عن مثل فعلهم ، و" الطغوى " مصدر ، وقرأ الحسن وحماد بن سليمان " بطُغواها " بضم الطاء مصدر كالعقبى والرجعى ، وقال ابن عباس : " الطغوى " هنا العذاب كذبوا به حتى نزل بهم ، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] ، وقال جمهور المتأولين الباء سببية ، والمعنى كذبت ثمود بنبيها بسبب طغيانها وكفرها ، و﴿ انبعث ﴾ عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص و﴿ أشقاها ﴾ هو قد أربى سالف وهو أحد التسعة الرهط المفسدين ، ويحتمل أن يقع ﴿ أشقاها ﴾ على جماعة حاولت العقر ، ويروى أنه لم يفعل فعله بالناقة حتى مالأه عليه جميع الحي ، فلذلك قال تعالى : ﴿ فعقروها ﴾ لكونهم متفقين على ذلك ورسول الله صالح عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره احفظوا أو ذروا أو احذروا على معنى : احذروا الإخلال بحق ذلك ، وقد تقدم أمر الناقة والسقيا في غير هذه السورة بما أغنى عن إعادتها ، وقدم تعالى التكذيب على العقر لأنه كان سبب العقر ، ويروى أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً مدة ثم كذبوا وعثروا ، والجمهور من

المفسرين على أنهم كانوا على كفرهم ، ﴿ دمدم ﴾ معناه : أنزل العقاب مقلقاً لهم مكرراً ذلك وهي الدمدمة ، وفي بعض المصاحف " فدهدم " وهي قراءة ابن الزبير بالهاء بين الدالين ، وفي بعضهم " فدمر " ، وفي مصحف ابن مسعود " فدماها عليهم " وقوله تعالى : ﴿ بذنبهم ﴾ أي بسبب ذنبهم ، وقوله تعالى : ﴿ فسواها ﴾ ، معناه : فسوى القبيلة في الهلاك

(114/817)

لم ينج منهم أحد ، وقرأ نافع وابن عامر والأعرج وأهل الحجاز وأبي بن كعب : " فلا يخاف " بالفاء وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، وقرأ الباقون " ولا " بالواو وكذلك في مصاحفهم ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه " ولم يخف عقباها " ، والفاعل ب ﴿ يخاف ﴾ على قراءة من قرأ بالفاء يحتمل أن يكون الله تعالى ، والمعنى فلا درك على الله في فعله بهم لا يسأل عما يفعل ، وهذا قول ابن عباس والحسن ، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأثرهم ، ويحتمل أن يكون صالحاً عليه السلام ، أي لا يخاف عقبى هذه الفعلة بهم إذا كان قد أنذرهم وحذرهم ، ومن قرأ " ولا يخاف " بالواو فيحتمل الوجهين اللذين ذكرنا ، ويحتمل أن يكون الفاعل ب ﴿ يخاف ﴾ ﴿ أشقاها ﴾ المنبعث ، قاله الزجاج

وأبو علي ، وهو قول السدي والضحاك ومقاتل ، وتكون الواو واو الحال كأنه قال انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه ، والعقبى : جزاء المسيء وخاتمته وما يجيء من الأمور بعقبه ، واختلف القراء في ألفات هذه السورة والتي بعدها ففتحها ابن كثير وعاصم وابن عامر ، وقرأ الحسائي ذلك كله بالإضجاع ، وقرأ نافع ذلك كله بين الفتح والإمالة ، وقرأ حمزة " ضحاها " مكسورة و" تليها وضحاها " مفتوحتين وكسر سائر ذلك ، واختلف عن أبي عمرو فمرة كسر الجميع ومرة كقراءة نافع ، قال الزجاج سمى الناس الإمالة كسراً وليس بكسر صحيح ، والخليل وأبو عمرو يقولان إمالة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(115/817)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾

أي بطغيانها ، وهو خروجها عن الحدّ في العصيان ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما .

وعن ابن عباس "بِطغواها" أي بعذابها الذي وُعِدَتْ به .

قال : وكان اسم العذاب الذي جاءها الطَّغْوى ؛ لأنه طَغَى عليهم .

وقال محمد بن كعب : "بِطغواها" بأجمعها .

وقيل : هو مصدر ، وخرج على هذا المخرج ، لأنه أَشْكَلُ برؤوس الآي .

وقيل : الأصل بطَغْياها ، إلا أن "فَعْلَى" إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واواً ، لِيُفصَل بين الاسم والوصف .

وقراءة العامة بفتح الطاء .

وقرأ الحسن والجَحْدرِي وحماد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر ؛ كالرُّجْعَى والحُسْنى وشبههما في المصادر .

وقيل : هما لغتان .

﴿ إِذِ انبعث ﴾ أي نهض .

﴿ أَشْقَاهَا ﴾ لعَقْر الناقة .

واسمه قُدَار بن سالِف .

وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا ، وهل كان واحداً أو جماعة .

وفي البخارِيّ عن عبد الله بن زَمَعة : أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطُب ، وذكر الناقة والذي عَقَرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا انبعَثَ أَشْقاهَا ، انبعث لها رجل عزيز عارِم ، منيع في رهطه ، مثل أبي زَمَعة " وذكر الحديث .

خرّجه مسلم أيضاً .

وروى الضحاك " عن عليّ : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له : "أتدري من أشقى الأوّلين" قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : "عاقر الناقة قال أتدري من أشقى الآخرين" قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : "قاتلك" " ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعني صالحا .

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ "ناقةَ" منصوب على التحذير ؛ كقولك : الأسد الأسد ، والصبِيَّ الصبِيَّ ، والحِذار الحِذارَ .

أي احذروا ناقة الله ؛ أي عَقْرها .

وقيل : ذروا ناقة الله ، كما قال : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 73] .

(116/817)

﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ أي ذروها وشِربَها .

وقد مضى في سورة "الشعراء" بيانه والحمد لله .

وأيضاً في سورة ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر : 1] .

فإنهم لما اقترحوا الناقة ، وأخرجها لهم من الصخرة ، جعل لهم شِربَ يوم من بئرهم ، ولها

شِربُ يوم مكان ذلك ، فشقَّ ذلك عليهم .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي كذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم : إنكُمْ تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي عقرها الأشقى .

وأضيف إلى الكل ، لأنهم رَضُوا بفعله .

وقال قتادة : ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم .

وقال الفرّاء : عقرها اثنان : والعرب تقول : هذان أفضلُ الناس ، وهذان خير الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ؛ فلهذا لم يقل : أَشْقيَاها .

قوله تعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : دَمْدم عليهم قال : دَمَّرَ عَلَيْهم ربُّهم بذنبهم ؛ أي بجُرمهم .

وقال الفرّاء : دَمْدم أي أرجف .

وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده .

ويقال : دَمَّمْت على الشيء : أي أطبقت عليه ، ودمم عليه القبرَ : أطبقه .

وناقة مدمومة : أُلْبَسها الشحم .

فإذا كرّرت الإطباق قلت : دَمْدَمْت .

والدمدمة : إهلاك باستئصال ؛ قاله المؤرّج .

وفي الصحاح : ودَمْدَمْت الشيء : إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه .

ودمدم الله عليهم : أي أهلكهم .

القُشَيرِي : وقيل دَمْدَمت على الميت الترابَ : أي سَوَّيتُ عليه .

فقوله : "فدمدم عليهم" أي أهلكهم ، فجعلهم تحت التراب .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي سَوّى عليهم الأرض .

وعلى الأول "فسوّاها" أي فسوّى الدَّمدمة والإهلاك عليهم .

وذلك أن الصيحة أهلكتهم ، فأتت على صغيرهم وكبيرهم .

وقال ابن الأنباريّ : دمدمَ أي غضِب .

والدمدمة : الكلام الذي يزعج الرجل .

(117/817)

وقال بعض اللغويين : الدمدمة : الإدامة ؛ تقول العرب : ناقة مدمدَمة أي سمينة .

وقيل : "فسوّاها" أي فسوّى الأمة في إنزال العذاب بهم ، صغيرهم وكبيرهم ، وضِيعهم وشريفهم ، ذكرهم وأنثاهم ، وقرأ ابن الزُّبير "فَدهْدَم" وهما ، لغتان ؛ كما يقال ؛ امتُقِع لونُه

وانْتُقِع .

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تَبِعة الدَّمدمة من أحد ؛ قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد .

والهاء في "عُقْباها" ترجع إلى الفَعْلة ؛ كقوله : " من اغتسل يوم الجمعة فبِها ونِعمتْ " أي بالفعلة والخصلة .

قال السديّ والضحاك والكلبيّ : ترجع إلى العاقر ؛ أي لم يخف الذي عقرها عُقْبى ما صنع .

وقاله ابن عباس أيضاً .

وفي الكلام تقديم وتأخير ، مجازه : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقْباها .

وقيل : لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه قد أنذرهم ، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم .

وقرأ نافع وابن عامر "فلا" بالفاء ، وهو الأجود ؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول ؛ أي فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم .

والباقون بالواو ، وهي أشبه بالمعنى الثاني ؛ أي ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع .

ورَوَى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا : أخرج إلينا مالك مصحفاً لجدّه ، وزعم أنه

كتبه في أيام عُثمان بن عفان حين كتب المصاحف ، وفيه : "ولا يخاف" بالواو .

وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو ، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم ، اتباعاً لمصحفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(118/817)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والشمس وضحاها ﴾

أي ضوئِها إذَا أشرقتْ وقام سلطانُها ، وقيل : الضَّحوةُ ارتفاعُ النهارِ والضُّحى فوقَ ذلكَ والضحاءُ بالفتحِ والمدِّ إذا امتدَّ النهارُ وكادَ ينتصفُ ﴿ والقمرِ إذَا تلاها ﴾ بأنْ طلعَ بعد غروبِها وقيل : إذا تلا طلوعُه طلوعَها وقيلَ : إذا تلاهَا في الاستدارةِ وكمال النُّورِ ﴿ والنهارِ إذَا جلاها ﴾ أي جَلَّى الشمسَ فإنها تتجلَّى عند انبساطِ النهارِ فكأنه جلاَّها مع أنَّها التي تبسطُه أو جلَّى الظلمةَ أو الدُّنيا أو الأرضَ وإن لم يجرِ لها ذِكْرٌ للعلمِ بها ﴿ والليلِ إذَا يغشاها ﴾ أي الشمسَ فيُغطِّي ضوءَها أو الآفاقَ أو الأرضَ وحيثُ كانت الواواتُ العاطفةُ نوائبَ للواو الأُولى القسميةِ القائمةِ مقامَ الفعلِ والباءُ سادَّةً مسدَّهما معاً في قولكَ أقسمُ باللهِ حققْن أن يعمَلن عملَ الفعلِ والجارّ جميعاً كما تقول ضرب زيد عَمراً وبكرٌ خالداً

﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ أيْ ومَنْ بنَاها وإيثارُ مَا على مَنْ لإرادةِ الوصفيةِ تفخيماً كأنَّه قيلَ : والقادرِ العظيمِ الشأنِ الذي بناهَا وجعلَها مصدريةً مخلٌّ بالنظمِ الكريمِ وكذا الكلامُ في قولِه تعالَى : ﴿ والأرض وَمَا طحاها ﴾ أي بسطَها من كلِّ جانبٍ كدحَاهَا .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي أنشأَها وأبدعَها مستعدةً لكمالاتِها والتنكيرُ للتفخيمِ على أنَّ المرادَ نفسُ آدمٍ عليه السلامُ أو للتكثيرِ وهو الأنسبُ للجوابِ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي أفهمَها إيَّاهُمَا وعرَّفَها حالَها من الحُسْنِ والقُبحِ وما تؤدي إليه كلٌّ منهُمَا ومكَّنها من اختيارِ أيِّهما شاءتْ وتقديمُ الفجورِ لمراعاةِ الفواصلِ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ أيْ فازَ بكلِّ مطلوبٍ ونجَا من كلِّ مكروهٍ مَنْ أنماهَا وأعلاها بالتقوى وهو جوابُ القسمِ وحذفُ اللامِ لطولِ الكلامِ وتكريرُ قَدْ في قولِه تعالَى :

(119/817)

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مضمونِه والإيذانِ بتعلقِ القسمِ بهِ أيضاً أصالةً أيْ خسرَ مَنْ نقصَها وأخفَاها بالفجورِ وأصلُ دَسَّى دَسَّسَ كتقضَّى وتَقَضَّضَ وقيلَ : هو كلامٌ تابعٌ لقولِه تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ بطريقِ الاستطرادِ وإنما الجوابُ ما حذفَ تعويلاً على دلالةِ قولِه تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا

﴿ عليه كأنَّه قيلَ : ليُدَمدِمنّ الله تعالى على كفارِ مكةَ لتكذيبِهم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كما دمدمَ على ثمودَ لتكذيبِهم صالحاً عليهِ السلامُ وهو على الأولِ استئنافٌ واردٌ لتقريرِ مضمونِ قولِه تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ والطَّغوى بالفتحِ الطُّغيانُ والباءُ للسببيةِ أيْ فعلتِ التكذيبَ بسببِ طُغيانِها كما تقولُ ظلمنِي بجراءتِه على الله تعالى أو صلةٌ للتكذيبِ أيْ كذَّبتْ بمَا أُوعدتْ بِهِ منَ العذابِ ذي الطَّغوى كقولِه تعالَى : ﴿ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ وقُرِىءَ بطُغواهَا بضم الطاء وهو أيضاً مصدرٌ كالرُّجعى ﴿ إِذِ انبعث أشقاها ﴾ منصوبٌ بكذبتْ أو بالطَّغوى أيْ حينَ قامَ أَشْقى ثمودٍ وهُو قُدارُ بنُ سالفٍ أو هُو ومَنْ تصدَّى معه لعقرِ الناقةِ من الأشقياءِ فإنَّ أفعلَ التفضيلِ إذا أضيفَ يصلُح للواحدِ والمتعددِ والمذكرِ والمؤنثِ وفضلُ شقاوتِهم على مَنْ عداهُم لمباشرتِهم العقرَ معَ اشتراكِ الكلِّ في الرِّضا بِهِ ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ﴾ أي لثمودَ ﴿ رَسُولُ الله ﴾ أي صالحٌ عليه السلامُ عبرَ عنه بعنوانِ الرسالةِ إيذاناً بوجوبِ طاعتِه وبياناً لغايةِ عتوِّهم تمادِيهم في الطغيانِ وهو السرُّ في إضافةِ الناقةِ إلى الله تعالَى في قولِه تعالَى : ﴿ نَاقَةُ الله ﴾ أي ذرُوا ناقةَ الله ﴿ وسقياها ﴾ ولا تذودُوها عنها في نوبتِها .

(120/817)

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي في وعيدِه بقولِه تعالَى : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد جُوّز أنْ يكونَ ضميرُ لهُم للأشقينِ ولا يلائمهُ ذكرُ سقياهَا .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي الأشقى والجمعُ على تقديرِ وحدتِه لرِضا الكلِّ بفعلِه وقال قَتَادةُ بلغنا أنَّه لم يعقرْها حتى تابعَه صغيرُهم وكبيرُهم وذكرُهم وأنثاهُم وقال الفرَّاءُ : عقرَها اثنانِ والعربُ تقولُ : هذانِ أفضلُ الناسِ ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ فأطبقَ عليهم العذابَ وهو من تكريرِ قولِهم ناقةٌ مدمومةٌ إذا ألبسَها الشحمُ ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ بسببِ ذنبِهم المحكيِّ والتصريحُ بذلكَ مع دلالةِ الفاءِ عليهِ للإنذارِ بعاقبةِ الذنبِ ليعتبرَ به كلُّ مذنبٍ ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي الدمدمةَ بينهُم لم يفلتْ منهُم أحدٌ من صغيرٍ وكبيرٍ أو فسوَّى ثمودَ بالأرضِ أو سوَّاها في الهلاكِ ﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أي عاقبتَها وتبعتَها كما يخافُ سائرُ المعاقبينَ من الملوكِ فيبقِي بعضَ الإبقاءِ وذلك أنَّه تعالَى لا يفعلُ فعلاً إلى بحقَ وكلُّ من فعلَ فإنه بحقَ لا يخافُ عاقبةَ فعلِه وإنْ كانَ من شأنِه الخوفُ والواوُ للحالِ أو للاستئنافِ وقُرِىءَ فَلاَ يخافُ وقُرِىءَ وَلَمْ يخفْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(121/817)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾

استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ [الشمس : 10] وجعل الزمخشري قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ الخ تابعاً لقوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ الخ على سبيل الاستطراد وأبى أن يكون جواب القسم وجعل الجواب محذوفاً مدلولاً عليه بهذا كأنه قيل ليدمدمن الله تعالى على كفار مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه السلام فقيل إن ذلك لما يلزم من حذف اللام وأنه لا يليق بالنظم المعجز أن يجعل أدنى الكمالين أعني التزكية لاختصاصها بالقوة العملية المقصود بالإقسام ويعرض عن أعلاهما أعني التحلية بالعقائد اليقينية التي هي لب الألباب وزبدة ما مخضته الأحقاب ولو سلم عدم الاختصاص فهي مقدمة التحلية في البابين وأما حذف المقسم عليه فكثير شائع لا سيما في الكتاب العزيز وتعقب بأن حذف اللام كثير لا سيما مع الطول وهو أسهل من حذف الجملة بتمامها وقد ذكره في ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المرمنون : 1] فما حدا مما بدأ وأن التزكية مراداً بها الإنماء لا اختصاص لها وليست مقدمة بل مقصودة بالذات ولو سلم فلا مانع من الاعتناء ببعض المقدمات أحياناً لتوقف المقاصد عليها فتدبر وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال في فألهما ألزمها وأخرجه الديلمي عن أنس مرفوعاً وعلى ذلك قال الواحدي

وصاحب المطلع الإلهام أن يوقع في القلب التوفيق والخذلان فإذا أوقع سبحانه في قلب عبد شيئاً منهما فقد ألزمه سبحانه ذلك الشيء ويزيد ذلك قوة ما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن عمران بن حصين أن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال عليه الصلاة والسلام لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب

(122/817)

الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 ، 8] ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لقدرة العبد واختياره مدخل في الفجور والتقوى بالكلية وإن قيل أن مآله إلى خلق الله تعالى إياهما ليقال يأباه حينئذٍ قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ [الشمس : 9] الخ حيث جعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى والتدسية بالفجور لأن الإسناد يقتضي قيام المسند ويكفي فيه المدخلية المذكورة ولا يتوقف صحة الإسناد حقيقة إلى العبد على كون فعله الإيجاد فالاستدلال بهذا الإسناد على كونه متمكناً من اختيار ما شاء من الفجور والتقوى وإيجاده إياه بقدرة مستقلة فيه على خلاف ما يقوله

الجماعة ليس بشيء على أن الضمير المستتر في زكاها وكذا في دساها الله عز وجل والبارز لمن بتأويل النفس فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك يقول الله تعالى : قد أفلح من زكى الله تعالى نفسه فهداه وقد خاب من دسى الله تعالى نفسه فأضله بل أخرج عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ الآية أفلحت نفس زكاها الله تعالى وخابت نفس خيبها الله تعالى من كل خير وأخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة ومسلم والنسائي عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(123/817)

" اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها " وفي رواية الطبراني وغيره عن ابن عباس أنه عليه الصلاة والسلام إذا تلا هذه الآية وقف وقال ذلك ولهذه الأخبار ونحوها قال بعضهم : إن ذلك هو المرجح ورجحه صاحب الانتصاف بأن الضمائر في ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس : 5] الخ تكون عليه متسقة عائدة كلها إلى الله تعالى وبأن قوله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ [الأعلى : 14] أوفق به لأن تزكي

مطاوع زكي فيكون المعنى قد أفلح من زكاه الله تعالى فتزكى ومع هذا كله لا ينبغي أن ينكر أن المعنى السابق هو السابق إلى الذهن وما ذكر من الأخبار ليس نصاً في تعيين المعنى الآخر نعم هو نص في تكذيب الزمخشري في زعمه أنه من تعكيس القدرية يعني بهم أهل السنة والجماعة فتأمل .

والطغوي مصدر من الطغيان بمعنى تجاوز الحد في العصيان فصلوا بين الاسم والصفة في فعلي من بنات الياء بأن قلبوا الياء واواً في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا في الصفة امرأة صديا وخزيا وفي الاسم تقوى وطغوى كذا في "الكشاف" وغيره وكلام الراغب يدل على أن طغى واوي ويائي حيث قال يقال : طغوت وطغيت طغواناً وطغياناً فلا تغفل .

والباء عند الجمهور للسببية أي فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلمني الخبيث بجرائته على الله تعالى وجعلها الزمخشري للاستعانة والأمر سهل وجوز أن تكون صلة للتكذيب على معنى كذبت بما أوعدت به في لسان نبيها من العذاب ذي الطغوى أي التجاوز عن الحد والزيادة ويوصف العذاب بالطغيان بهذا المعنى كما في وقوله تعالى : ﴿ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] وقد يوصف بالطغوى مبالغة كما يوصف بسائر المصادر لذلك فلا يكون هناك مضاف محذوف .

وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة طغواها بضم الطاء وهو مصدر أيضاً كالرجعى والحسنى في المصادر إلا أنه قيل كان القياس الطغيا كالسقيا لأن فعلى بالضم لا يفرق فيه بين الاسم والصفة كأنهم شذوا فيه فقلبوا الياء واواً وأنت تعلم أن الواو عند من يقول طغوت أصلية .

﴿ إِذِ انبعث ﴾ متعلق بكذبت أو بطغوى وانبعث مطاوع بعثه بمعنى أرسله والمراد إذ ذهب لعقر الناقة ﴿ أشقاها ﴾ أي أشقى ثمود وهو قدار بن سالف أو هو ومن تصدى معه لعقرها من الأشقياء اثنان على ما قال الفراء أو أكثر فإن أفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة يصلح للواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وفضل شقاوتهم على من عداهم لمباشرتهم العقر مع اشتراك الكل في الرضا به ولخبائث غير ذلك يعلمها الله تعالى فيهم هي فوق خبائث من عداهم .

﴿ فَقَالَ لَهُمُ ﴾ أي لثمود أو لأشقاها على ما قيل بناءً أن المراد به جمع ولا يأباه وسقياها كما لا يخفى ﴿ رَسُولِ الله ﴾ هو صالح عليه السلام وعبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان وهو السر في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله سبحانه : ﴿ نَاقَةَ الله ﴾ وهو نصب على التحذير وشرطه ليس تكرير المحذر منه أو كونه محذراً بما بعده فقط ليقال هو منصوب بتقدير ذروا أو احذروا لا على التحذير بل

شرطه ذاك أو العطف عليه كما هنا على ما نص عليه مكي والكلام على حذف مضاف أي احذروا عقر ناقة الله أو المعنى على ذلك وإن لم يقدر في نظم الكلام وجوز أن يكون التقدير عظموا أو الزموا ناقة الله وليس بشيء ﴿ وسقياها ﴾ أي واحذروا سقياها فلا تتعرضوا بمنعها عنها في نوبتها ولا تستأثروا بها عليها وقيل الواو للمعية والمراد ذروا ناقة الله مع سقياها ولا تحولوا بينهما وهو كما ترى وقرأ زيد بن علي ناقة الله بالرفع فقيل أي همكم ناقة الله وسقياها فلا تعقروها ولا تستأثروا بالسقيا عليها .

(125/817)

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي في وعيده إياهم كما حكي عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 73] فالتكذيب لخبر مقدر ويجوز أن يكون لخبر تضمنه الأمر التحذيري السابق وهو الخبر بحلول العذاب أن فعلوا ما حذرهم منه وقيل إن ما قاله لهم من الأمر قاله ناقلاً له عن الله تعالى كما يؤذن بذلك التعبير عنه عليه السلام بعنوان الرسالة ومآل ذلك أنه قال لهم : إنه قال الله تعالى ناقة الله وسقياها فالتكذيب لذلك وهو وجه لا بأس به ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي فنحروها أو فقتلوها وضمير الجمع للأشقى وجمعه على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله قال قتادة بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه

صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ فأطبق عليهم العذاب وقالوا دمدم عليه القبر أي أطبقه وهو مما تكرر فيه الفاء فوزنه فعفل لا فعلل من قولهم ناقة مدمومة إذا لبسها الشحم وغطاها وقال في "القاموس" معناه أتم العذاب عليهم وقال مؤرج الدمدمة إهلاك باستئصال وفي الصحاح دمدمت الشيء ألزقته بالأرض وطحطحته وقرأ ابن الزبير فدهدم بهاء بين الدالين والمعنى كما تقدم ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ بسبب ذنبهم المحكي والتصريح بذلك مع دلالة الفاء عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبر به كل مذنب ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ الضمير للدمدمة المفهومة من دمدم أي فجعل الدمدمة سواء بينهم أو جعلها عليهم سواء فلم يفلت سبحانه منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً أو هو لثمود والتأنيث باعتبار القبيلة كما في طغواها وأشقاها والمعنى ما ذكر أيضاً أو فسواها بالأرض.

(126/817)

﴿ وَلاَ يَخَافُ ﴾ أي الرب عز وجل ﴿ عقباها ﴾ أي عاقبتها وتبعتها كما يخاف المعاقبون من الملوك عاقبة ما يفعلونه وتبعته وهو استعارة تمثيلية لأهانتهم وأنهم أذلاء عند الله جل جلاله والواو للحال أو للاستئناف وجوز أن يكون ضمير لا يخاف للرسول والواو للاستئناف لا غير على ما هو الظاهر أي ولا يخاف الرسول عقبى هذه الفعلة بهم إذ كان

قد أنذرهم وحذرهم وقال السدي والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي الواو للحال والضمير عائد على أشقاها أي انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه وهو أبعد مما قبله بكثير وقرأ أبي والأعرج ونافع وابن عامر فلا يخاف بالفاء وقرىء ولم يخف بواو وفعل مجزوم بلم هذا واختلف في هؤلاء القوم هل آمنوا ثم كفروا أو لم يؤمنوا أصلاً فالجمهور على الثاني وذهب بعض إلى أنهم آمنوا وبايعوا صالحاً مدة ثم كذبوه وكفروا فأهلكوا بما فصل في موضع آخر وقال الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره في فصوصه أنهم وقوم لوط عليه السلام لا نجاة لهم يوم القيامة بوجه من الوجوه ولم يسا و غيرهم من الأمم المكذبة المهلكة في الدنيا كقوم نوح عليه السلام بهم ولكلامه قدس سره أهل يفهمونه فارجع إليهم في فهمه إن وجدتهم .

(127/817)

وذكر بعض أهل التأويل أن الشمس إشارة إلى ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى وضحاها إشارة إلى الحقيقة المحمدية والقمر إشارة إلى ماهية الممكن المستفيدة للوجود من شمس الذات والنهار إشارة إلى العالم بسائر أنواعه الذي ظهرت به صفات جمال الذات وجلاله وكماله والليل إشارة إلى وجود ما يشاهد من أنواع الممكنات الساتر في أعين

المحجوبين للوجود الحق والسماء إشارة إلى عالم العقل والأرض إشارة إلى عالم الجسم والنفس معلومة وناقة الله إشارة إلى راحلة الشوق الموصلة إليه سبحانه وسقياها إشارة إلى مشربها من عين الذكر والفكر وقال بعض آخر الشمس إشارة إلى الوجود الحق الذي هو عين الواجب تعالى فهو أظهر من الشمس ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ [النور : 35] وقال شيخ مشايخنا البندنيجي قدس سره .

ظاهر أنت ولكن لا ترى . . .

لعيون حجبتها النقط

وضحاها إشارة إلى أول التعينات بأي اسم سميته والقمر إشارة إلى الأعيان الثابتة المفاضة بالفيض الأقدس أو الشمس إشارة إلى الذات وضحاها إشارة إلى وجودها والإضافة للتغاير الاعتباري والقمر إشارة إلى أول التعينات والنهار إشارة إلى الممكنات المفاضة بالفيض المقدس والليل إشارة إليها أيضاً باعتبار نظر المحجوبين أو النهار إشارة إلى صفة الجمال والليل إشارة إلى صفة القهر والجلال والسماء إشارة إلى عالم اللطافة وذكر النفس بعد مع دخولها في هذا العالم للاعتناء بشأنها والأرض إشارة إلى عالم الكثافة وناقة الله إشارة إلى الطريقة وسقياها مشربها من عين الشريعة وقيل غير ذلك والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته .

وقال قوم : إن القسم بهذه الأمور ، ونحوها مما تقدّم ، ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي : الشمس وربّ القمر ، وهكذا سائرها ، ولا ملجىء إلى هذا ، ولا موجب له .

وقوله : ﴿ وضحاها ﴾ هو : قسم ثان قال مجاهد : وضحاها ، أي : ضوئها وإشراقها .

وأضاف الضحى إلى الشمس ؛ لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي .

وقال قتادة : ﴿ ضحاها ﴾ نهارها كله .

قال الفراء : الضحى هو النهار .

وقال المبرد : أصل الضحى الصبح ، وهو نور الشمس .

قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظلّ ، وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى ، فاستثقلوا الياء ، فقلبوها ألفاً .

قيل : والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمدّ .

قال المبرد : الضحى ، والضحوة مشتقان من الضحّ ، وهو النور ، فأبدلت الألف ، والواو من الحاء .

واختلف في جواب القسم ماذا هو ؟ فقيل : هو قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ .

قاله الزجاج وغيره .

قال الزجاج وحذفت اللام ؛ لأن الكلام قد طال ، فصار طوله عوضاً منها .

وقيل : الجواب محذوف ، أي : والشمس ، وكذا لتبعثنّ .

وقيل تقديره : ليدمدمنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دمدم على ثمود ؛ لأنهم كذبوا صالحاً ، وأما : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء .

وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ، والشمس وضحاها .

والأوّل أولى .

﴿ والقمر إِذَا تلاها ﴾ أي : تبعها ، وذلك بأن طلع بعد غروبها ، يقال تلا يتلو تلواً : إذا تبع .

قال المفسرون : وذلك في النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة ، وخلفها في النور .

قال الزجاج : تلاها حين استدار ، فكان يتلو الشمس في الضياء والنور ، يعني : إذا كمل ضوءه ، فصار تابعاً للشمس في الإنارة ، يعني : كان مثلها في الإضاءة ، وذلك في الليالي البيض .

وقيل : إذا تلا طلوعه طلوعها .

قال قتادة : إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤي الهلال .

قال ابن زيد : إذا غربت الشمس في النصف الأوّل من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخرها يتلوها بالغروب ، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني : أن القمر يأخذ من ضوء الشمس .

﴿ والنهارِ إذَا جلاها ﴾ أي : جلى الشمس ، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء ، فكأنه جلاها مع أنها الذي تبسطه .

وقيل : الضمير عائد إلى الظلمة ، أي : جلى الظلمة ، وإن لم يجر للظلمة ذكر ؛ لأن المعنى معروف .

قال الفراء : كما تقول أصبحت باردة أي : أصبحت غداتنا باردة ، والأوّل أولى .

ومنه قول قيس بن الحطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة . . . بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل المعنى : جلى ما في الأرض من الحيوانات ، وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل .

وقيل : جلى الدنيا .

وقيل : جلى الأرض .

﴿ والليلِ إذَا يغشاها ﴾ أي : يغشي الشمس ، فيذهب بضوئها ، فتغيب ، وتظلم الآفاق ، وقيل : يغشى الآفاق .

وقيل : الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر ؛ لأن ذلك معروف .

والأوّل أولى .

﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية ، أي : والسماء وبنيانها ، ويجوز أن تكون موصولة ، أي : والذي بناها ، وإيثار "ما" على من لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذي بناها .

ورجح الأوّل الفراء ، والزجاج ، ولا وجه لقول من قال : إن جعلها مصدرية مخلّ بالنظم .

ورجح الثاني ابن جرير .

﴿ والأرض وَمَا طحاها ﴾ الكلام في "ما" هذه كالكلام في التي قبلها ، ومعنى طحاها بسطها .

كذا قال عامة المفسرين ، كما في قوله : ﴿ دحاها ﴾ قالوا : طحاها ودحاها واحد ، أي : بسطها من كل جانب ، والطحو : البسط .

وقيل : معنى ﴿ طحاها ﴾ قسمها .

وقيل : خلقها ، ومنه قول الشاعر :

وما يدري جذيمة من طحاها . . . ولا من ساكن العرش الرفيع

والأوّل أولى .

والطحو أيضاً : الذهاب .

قال أبو عمرو بن العلاء : طحا الرجل : إذا ذهب في الأرض .

يقال : ما أدري أين طحا ؟ ويقال : طحا به قلبه : إذا ذهب به ، ومنه قول الشاعر :

طحا بك قلب في الحسان طروب . . . بعيد الشباب عصر حان مشيب

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ الكلام في "ما" هذه ، كما تقدّم ، ومعنى ﴿ سوّاها ﴾ خلقها وأنشأها ، وسوّى أعضاءها .

قال عطاء : يريد جميع ما خلق من الجنّ والإنس ، والتنكير للتفخيم .

وقيل : المراد نفس آدم .

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي : عرّفها وأفهمها حالهما ، وما فيهما من الحسن والقبح .

قال مجاهد : عرّفها طريق الفجور ، والتقوى ، والطاعة ، والمعصية .

قال الفراء : فألهمها عرّفها طريق الخير ، وطريق الشرّ ، كما قال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] .

قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به الشرّ ألهمه الشرّ فعمل به .

قال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور ، واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان .

قال الواحدي : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام ، فإن التبيين والتعليم ، والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع في قلبه ، ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئًا ألزمه ذلك الشيء .

قال : وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ أي : قد فاز من زكى نفسه وأنماها ، وأعلاها بالتقوى بكلّ مطلوب ، وظفر بكلّ محبوب ، وقد قدّمنا أن هذا جواب القسم على الراجح ، وأصل الزكاة : النموّ والزيادة ، ومنه زكا الزرع : إذا كثر .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ أي : خسر من أضلها وأغواها .

قال أهل اللغة : دساها أصله دسسها ، من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فمعنى دساها في الآية : أخفاها وأخملها ، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح ، وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها ، فيقصدها الضيوف ، وكانت لئام العرب تنزل الهضاب ، والأمكنة المنخفضة ؛ ليخفى مكانها عن الوافدين .

وقيل : معنى ﴿ دساها ﴾ أغواها ، ومنه قول الشاعر :

وأنت الذي دسيت عمرا فأصبحت . . . حلائله منه أرامل ضيعا

وقال ابن الأعرابي : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ أي : دسّ نفسه في جملة الصالحين ، وليس منهم : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ الطغوى : اسم من الطغيان كالدعوى من الدعاء .

قال الواحدي : قال المفسرون : كذبت ثمود بطغيانها ، أي : الطغيان حملتهم على التكذيب ، والطغيان مجاوزة الحدّ في المعاصي ، والباء للسببية .

وقيل : كذبت ثمود بطغواها ، أي : بعذابها الذي وعدت به ، وسمي العذاب طغوى لأنه طغى عليهم ، فتكون الباء على هذا للتعدية .

وقال محمد بن كعب : بطغواها ، أي : بأجمعها .

قرأ الجمهور : ﴿ بطغواها ﴾ بفتح الطاء .

وقرأ الحسن ، والجحدري ، ومحمد بن كعب ، وحماد بن سلمة بضم الطاء ؛ فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما قلبت الياء والواو للفرق بين الاسم والصفة ؛ لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو تقوى ، وسروى ، وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ، ونحوهما ، وقيل : هما لغتان .

(132/817)

﴿ إِذِ انبعث أشقاها ﴾ العامل في الظرف ﴿ كذبت ﴾ ، أو ﴿ بطغواها ﴾ ، أي : حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف ، فعقر الناقة ، ومعنى انبعث : انتدب لذلك وقام به ، يقال بعثته على الأمر ، فانبعث له ، وقد تقدّم بيان هذا في الأعراف .

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﴾ يعني : صالحاً ﴿ نَاقَةَ اللهِ ﴾ .

قال الزجاج : ﴿ ناقة الله ﴾ منصوبة على معنى : ذروا ناقة الله .

قال الفراء : حذرهم إياها ، وكل تحذير فهو نصب ﴿ وسقياها ﴾ معطوف على ناقة ، وهو شربها من الماء .

قال الكلبي ، ومقاتل : قال لهم صالح : ذروا ناقة الله ، فلا تعقروها ، وذروا سقياها ، وهو شربها من النهر ، فلا تعرّضوا له يوم شربها ، فكذبوا بتحذيره إياهم .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي : عقرها الأشقى ، وإنما أسند العقر إلى الجميع ؛ لأنهم رضوا بما فعله .

قال قتادة : إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم .

قال الفراء : عقرها اثنان ، والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، فلهذا لم يقل أشقياها .

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : أهلكهم ، وأطبق عليهم العذاب ، وحقيقة الدمدمة : تضعيف العذاب ، وترديده ، يقال دمدمت على الشيء ، أي : أطبقت عليه ، ودمدم عليه القبر ، أي : أطبقه ، وناقة مدمومة : إذا لبسها الشحم ، والدمدمة : إهلاك باستئصال ، كذا قال المؤرج .

قال في الصحاح : دمدمت الشيء : إذا ألزقته بالأرض ، وطحطحته ، ودمدم الله عليهم ، أي : أهلكهم .

وقال ابن الأعرابي : دمدم إذا عذّب عذاباً تاماً .

والضمير في ﴿ فسوّاها ﴾ يعود إلى الدمدمة ، أي : فسوّى الدمدمة عليهم ، وعمهم بها ، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم .

وقيل : يعود إلى الأرض ، أي : فسوّى الأرض عليهم ، فجعلهم تحت التراب .

وقيل : يعود إلى الأمة ، أي : ثمود .

قال الفراء : سوّى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوّى بينهم .

(133/817)

قرأ الجمهور : (فدمدم) بميم بين الدالين ، وقرأ ابن الزبير : (فدهدم) بهاء بين الدالين .

قال القرطبي : وهما لغتان ، كما يقال : امتقع لونه ، واهتقع لونه .

﴿ فَلاَيَخَافُ عقباها ﴾ أي : فعل الله ذلك بهم غير خائف من عاقبة ، ولا تبعة .

والضمير في ﴿ عقباها ﴾ يرجع إلى الفعلة ، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم .

وقال السديّ ، والضحاك ، والكلبي : إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه ، أي : لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع .

وقيل : لا يخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه قد أنذرهم ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ ولا يخاف ﴾ بالواو ، وقرأ نافع ، وابن عامر بالفاء .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿ وضحاها ﴾ قال : ضوئها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : تبعها .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال : أضاءها .

﴿ والسماء وما بناها ﴾ قال : الله بنى السماء ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال : دحاها .

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : علمها الطاعة ، والمعصية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ يقول : قسمها .

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : من الخير والشرّ .

وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً : ﴿ فألهمها ﴾ قال : ألزمها فجورها وتقواها .

(134/817)

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه

، شيء قد قضي عليهم ، ومضى في قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم ، واتخذت عليهم به الحجة ، قال : " بل شيء قد قضي عليهم " قال : فلم يعملون إذن ؟ قال : " من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها ، وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ " وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والنسائي عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللَّهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها " وأخرجه ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وزاد : "كان إذا تلا هذه الآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال : فذكره .

وزاد أيضاً : "وهو في الصلاة" .

وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً .

وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ يقول : قد أفلح من زكى الله نفسه : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ يقول : قد خاب من دسّ الله نفسه فأضله .

﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ قال : لا يخاف من أحد تبعة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ يعني : مكر بها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ الآية " أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير " وجويبر ضعيف .

(135/817)

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ بِطَغْوَاهَا ﴾ قال : اسم العذاب الذي جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعذابها .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة ، وذكر الذي عقرها ، فقال : ﴿ إِذِ انبعث أشقاها ﴾ قال : " انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة " وأخرج أحمد ، وابن أبي حاتم ، والبغوي ، والطبراني ، وابن مردويه ، والحاكم ، وأبو نعيم في الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : " ألا أحدّثك بأشقى الناس ؟ " قال : بلى .

قال " رجلان : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك على هذا – "يعني قرنه" – حتى تبتل منه هذه – يعني : لحيته " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 447 . 451 ﴾

(136/817)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) ﴾

إن كانت جملة ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ [الشمس : 9] الخ معترضة كانت هذه جواباً للقسم باعتبار ما فرع عليها بقوله : ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أي حقاً لقد كان ذلكِ لذلك ، ولام الجواب محذوف تخفيفاً لاستطالة القسم ، وقد مثلوا لحذف اللام بهذه الآية وهو نظير قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ إلى قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ [البروج : 41] .

والمقصود : التعريض بتهديد المشركين الذين كذّبوا الرسول طغياناً هم يعلمونه من أنفسهم كما كذبت ثمود رسولهم طغياناً ، وذلك هو المحتاج إلى التأكيد بالقَسَم لأن المشركين لم يهتدوا إلى أن ما حل بثمود من الاستئصال كان لأجل تكذيبهم رسول الله إليهم ، فنبههم الله

بهذا ليتدبروا أو لتنزيل علم من علم ذلك منهم منزلة الإِنكار لعدم جَرْي أمرهم على موجَب العلم ، فكأنه قيل : أقسم لَيصيبكم عذابٌ كما أصاب ثمود ، ولقد أصاب المشركين عذاب السيف بأيدي الذين عادَوْهم وآذوهم وأخرجوهم ، وذلك أقسى عليهم وأنكى .

فمفعول ﴿ كذبت ﴾ محذوف لدلالة قوله بعده : ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ والتقدير : كذبوا رسول الله .

وتقدم ذكْر ثمود ورسولهم صالح عليه السلام في سورة الأعراف .

وباء ﴿ بطغواها ﴾ للسببية ، أي كانت طغواها سبب تكذيبهم رسول الله إليهم .

والطغوى : اسم مصدر يقال : طغا طَغْوا وطُغياناً ، والطغيان : فرط الكِبر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة البقرة (15) ، وفيه تعريض بتنظير مشركي قريش في تكذيبهم بثمود في أن سبب تكذيبهم هو الطغيان والتكبر عن اتباع من لا يرون له فضلاً عليهم : ﴿ وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] .

(137/817)

و ﴿ إذْ ﴾ ظرف للزمن الماضي يتعلق بـ ﴿ طغواها ﴾ لأن وقت انبعاث أشقاها لعقر الناقة هو الوقت الذي بدت فيه شدة طغواها فبعثوا أشقاهم لعقر الناقة التي جُعلت لهم آية وذلك منتهى الجُرأة .

و ﴿ انبعث ﴾ : مطاوع بَعَث ، فالمعنى : إذ بعثوا أشقاهم فانبعث وانتدب لذلك .

و ﴿ إذ ﴾ مضاف إلى جملة : ﴿ انبعث أشقاها ﴾ .

وقدم ذكر هذا الظرف عن موقعه بعد قوله : ﴿ فقال لهم رسول الله ناقة الله ﴾ لأن انبعاث أشقاها لعقر الناقة جُزئي من جزئيات طغواهم فهو أشد تعلقاً بالتكذيب المسبب عن الطغوى ففي تقديمه قضاء لحق هذا الاتصال ، ولإفادة أن انبعاث أشقاهم لعقر الناقة كان عن إغراء منهم إياه ، ولا يفوت مع ذلك أنه وقع بعد أن قال لهم رسول الله ناقة الله ، ويستفاد أيضاً من قوله : ﴿ فعقروها ﴾ .

و ﴿ أشقاها ﴾ : أشدها شِقوة ، وعني به رجل منهم سماه المفسرون قُدار (بضم القاف وتخفيف الدال المهملة) بن سالف ، وزيادته عليهم في الشقاوة بأنه الذي باشر الجريمة وإن كان عن ملإ منهم وإغراء .

والفاء من قوله : ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ عاطفة على ﴿ كذبت ﴾ فتفيد الترتيب والتعقيب كما هو الغالب فيها ، ويَكون معنى الكلام : كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحداهم بآية الناقة وحذَّرهم من التعرض لها بسوء ومِن منعهم شربها في نوبتها من

السُّقيا ، وعطف على ﴿ فكذبوه ﴾ ، أي فيما أنذرهم به فعقروها بالتكذيب المذكور أول مرة غير التكذيب المذكور ثانياً .

وهذا يقتضي أن آية الناقة أرسلت لهم بعد أن كذبوا وهو الشأن في آيات الرسل ، وهو ظاهر ما جاء في سورة هود .

ويجوز أن تكون الفاء للترتيب الذكري المجرد وهي تفيد عطف مفصل على مجمل مثل قوله تعالى : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ [البقرة : 36] فإن إزلالهما إبعادهما وهو يحصل بعد الإِخراج لا قبله .

(138/817)

وقوله : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ [الأعراف : 4] ، فيكون المعنى : كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها .

ثم فُصل ذلك بقوله : ﴿ فقال لهم رسول اللَّه ﴾ إلى قوله : ﴿ فعقروها ﴾ ، والعقر عند انبعاث أشقاها ، وعليه فلا ضرورة إلى اعتبار الظرف وهو : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ مقدَّماً من تأخير .

وأعيدت عليهم ضمائر الجمع باعتبار أنهم جمع وإن كانت الضمائر قبله مراعىً فيها أن ثمود

اسم قبيلة .

وانتصب ﴿ ناقة اللَّه ﴾ على التحذير ، والتقدير : احذروا ناقة الله .

والمراد : التحذير من أن يؤذوها ، فالكلام من تعليق الحكم بالذوات ، والمرادُ : أحوالها .

وإضافة ﴿ ناقة ﴾ إلى اسم الجلالة لأنها آية جعلها الله على صدق رسالة صالح عليه السلام ولأن خروجها لهم كان خارقاً للعادة .

والسقيا : اسم مصدر سَقى ، وهو معطوف على التحذير ، أي احذروا سقيها ، أي احذروا غصب سقيها ، فالكلام على حذف مضاف ، أو أطلق السقيا على الماء الذي تسقى منه إطلاقاً للمصدر على المفعول فيرجع إلى إضافة الحكم إلى الذات .

والمراد : حالة تعرف من المقام ، فإن مادة سقيا تؤذن بأن المراد التحذير من أن يسقوا إبلهم من الماء الذي في يوم نوبتها .

والتكذيب المعقب به تحذيره إياهم بقوله : ﴿ ناقة اللَّه ﴾ ، تكذيب ثانٍ وهو تكذيبهم بما اقتضاه التحذير من الوعيد .

والإِنذار بالعذاب إن لم يحذروا الاعتداء على تلك الناقة ، وهو المصرح به في آية سورة الأعراف (73) في قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .

﴾ وبهذا الاعتبار استقام التعبير عن مقابلة التحذير بالتكذيب مع أن التحذير إنشاء ، فالتكذيب إنما يتوجه إلى ما في التحذير من الإِنذار بالعذاب .

والعَقْر : جرح البعير في يديه ليبرك على الأرض من الألم فينحَر في لبته ، فالعقر كناية مشهورة عن النحر لتلازمهما .

فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴿ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ .

(139/817)

أي صاح عليهم ربهم صيحة غضب .

والمراد بهذه الدمدمة صوت الصاعقة والرجفة التي أهلكوا بها قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ [الحجر : 73] ، وإسناد ذلك إلى الله مجاز عقلي لأن الله هو خالق الصيحة وكيفياتها .

فوزن دَمْدَمَ فَعْلَل ، وقال أكثر المفسرين : دمدم عليهم أطبق عليهم الأرض ، يقال : دَمَّمَ عليه القبر ، إذا أطبقه ودَمْدَمَ مكرر دَمَّمَ للمبالغة مثل كَبْكَب ، وعليه فوزن دَمْدَمَ فَعْلَلَ .

وفرع على "دمدم عليهم" ﴿ فسواها ﴾ أي فاستَووا في إصابتها لهم ، فضمير النصب عائد إلى الدمدمة المأخوذة من "دمدم عليهم" .

ومن فسروا "دمدم" بمعنى : أطبق عليهم الأرض قالوا معنَى "سوَّاها" : جعل الأرض مستوية عليهم لا تظهر فيها أجسادهم ولا بلادهم ، وجَعَلوا ضمير المؤنث عائداً إلى

الأرض المفهومة من فعل "دمدم" فيكون كقوله تعالى : ﴿ لو تسوى بهم الأرض ﴾ [النساء : 42] .

وبين ﴿ فسواها ﴾ هنا وقوله : ﴿ وما سواها ﴾ [الشمس : 7] قبله محسن الجناس التام .

والعقبى : ما يحصل عقِب فعل من الأفعال مِن تبعة لفاعِله أو مَثوبة ، ولما كان المذكور عقاباً وغلبة وكان العرف أن المغلوب يكنّى في نفسه الأخذ بالثأر من غالبه فلا يهدأ له بال حتى يثأر لنفسه ، ولذلك يقولون : الثَّأْر المُنِيم ، أي الذي يزيل النوم عن صاحبه ، فكان الذي يغلب غيره يتقي حذراً من أن يتمكن مغلوبُه من الثأر ، أخْبَرَ الله أنه الغالب الذي لا يقدر مغلوبُه على أخذ الثأر منه ، وهذا كناية عن تمكن الله من عقاب المشركين ، وأن تأخير العذاب عنهم إمهال لهم وليس عن عجز فجملة ﴿ فلا يخاف عقباها ﴾ تذييل للكلام وإيذان بالختام .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ فلا يخاف عقباها ﴾ تمثيلاً لحالهم في الاستئصال بحال من لم يترك مَن يثأر له فيكون المثَل كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم لم يبق منهم أحد .

(140/817)

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ﴿ فلا يخاف عقباها ﴾ بفاء العطف تفريعاً على ﴿ فدمدم عليهم ربهم ﴾ وهو مكتوب بالفاء في مصاحف المدينة ومصحف الشام . . .

ومعنى التفريع بالفاء على هذه القراءة تفريع العلم بانتفاء خوف الله منهم مع قوّتهم ليرتدع بهذا العلم أمثالهم من المشركين .

وقرأ الباقون من العشرة : ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ بواو العطف أو الحال ، وهي كذلك في مصاحف أهل مكة وأهل البصرة والكوفة ، وهي رواية قُرائها .

وقال ابن القاسم وابن وهب : أخرج لنا مالك مصحفاً لجدّه وزعم أنه كتبه في أيام عثمان بن عفان حين كَتَب المصاحف وفيه ﴿ ولا يخاف ﴾ بالواو ، وهذا يقتضي أن بعض مصاحف المدينة بالواو ولكنهم لم يقرأوا بذلك لمخالفته روايتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(141/817)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

أخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ قال : ضوءها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : تبعها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال : أضاءها ﴿ والسماء وما بناها ﴾ قال : الله بنى السماء ﴿ وما طحاها ﴾ قال : دحاها ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : عرفها شقاءها وسعادتها ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ قال : أغواها .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : يتلو النهار ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ يقول : ما خلق الله فيها ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : علمها الطاعة والمعصية .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : تبعها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن ذي حمامة قال : إذا جاء الليل قال الرب غشي عبادي في خلقي العظيم ولليل مهابة والذي خلقه أحق أن يهاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال : قسمها ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : بين الخير والشر .

وأخرج الحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ فألهمها ﴾ قال : علمها ﴿ فجورها وتقواها ﴾ .

وأخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين : " أن رجلاً قال يا رسول الله : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قد قضي عليهم ومضى عليهم في قدر قد سبق ، أو فيهما يستقبلون ما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم به الحجة ؟ قال : بل شيء قضي عليهم . قال : فلم يعملون إذا ؟ قال : من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين هيأه لعملها ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ " .

(142/817)

وأخرج الطبراني وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا هذه الآية ﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقف ثم قال : اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : " اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . قال وهو في الصلاة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والنسائي عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول : " اللهم آت نفسي تقواها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ، ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] فقال له أبيّ بن كعب : يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء قال : لا ولكني أردت أن أوقت لكم " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والشمس وضحاها ﴾ قال : ضوؤها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : تبعها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال : أضاء ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ قال : يغشاها الليل ﴿ والسماء وما بناها ﴾ قال : الله بني السماء والأرض ﴿ وما طحاها ﴾ قال : دحاها ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : عرفها شقاءها ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قال : أصلحها ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ قال : أغواها ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ قال : بمعصيتها ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال : الله لا يخاف عقباها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والشمس وضحاها ﴾ قال : إشراقها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : يتلوها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال : حين ينجلي ﴿ ونفس وما سواها ﴾ قال : سوى خلقها ولم ينقص منه شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ والشمس وضحاها ﴾ قال: هذا النهار ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال: يتلو صبيحة الهلال إذا سقطت رؤي عند سقوطها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال: إذا غشيها النهار ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ قال إذا غشيها الليل ﴿ والسماء وما بناها ﴾ قال وما خلقها ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال: بسطها ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال: بين لها الفجور من التقوى ﴿ قد أفلح ﴾ قال: وقع القسم ههنا ﴿ من زكاها ﴾ قال: من عمل خيراً فزكاها بطاعة الله ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ قال: من إثمها وفجرها ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ قال: بالطغيان ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ قال: أحيمر ثمود. ﴿ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ قال: يقول الله: خلوا بينها وبين قسم الله الذي قسم لها من هذا الماء ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ قال: ذكر لنا أنه أبى أن يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها ﴾ يقول: لا يخاف تبعتها.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال: إذا تبعها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال: إذا تبع الشمس.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال: بسطها.

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ونفس وما سواها ﴾ قال : سوى خلقها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ فألهمها ﴾ قال : ألزمها ﴿ فجورها وتقواها ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : الطاعة والمعصية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : الفاجرة ألهمها الفجور ، والتقية ألهمها التقوى .

(144/817)

وأخرج ابن مردويه في قوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ يقول : بين للعباد الرشد من الغيّ وألهم كل نفس ما خلقها له وكتب عليها .

وأخرج عبد بن حميد عن الكلبي ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ الآية ، قال : أفلح من زكاه الله وخاب من دساه الله .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية : قد أفلح من زكى نفسه وأصلحها ، وخاب من

أهلكها وأضلها .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع في الآية ، يقول : أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح ، وخاب من دس نفسه بالعمل السيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة من ﴿ دساها ﴾ قال : من خسرها .

وأخرج حسين في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ يقول : قد أفلح من زكى الله نفسه ، ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ يقول : قد خاب من دس الله نفسه فأضله ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال : لا يخاف من أحد تابعه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ يعني : مكر بها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ الآية ، قال : " أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس خيبها الله من كل خير " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ قال : اسم العذاب الذي جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعذابها .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي

وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن زمعة قال : " خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر الناقة ، وذكر الذي عقرها ، فقال : ﴿ إذا انبعث أشقاها ﴾ قال : " انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة " " .

(145/817)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبغوي وأبو نعيم في الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " ألا أحدثك بأشقى الناس " ؟ قال : بلى . قال : " رجلان : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا ، يعني ترقوته حتى تبتل منه هذه ، يعني لحيته " " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم مثله من حديث صهيب وجابر بن سمرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال : ذاك ربنا لا يخاف منهم تبعة بما صنع بهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال : لم يخف الذي عقرها عقباها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 527 . 531 ﴾

(146/817)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾

أقسم الله تعالى بالشمس ، وضوئها حرها .

ويقال : بخالق الشمس وضحاها ، يعني : ارتفاع النهار .

ويقال : حر الشمس يسمى ضحى .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر وعاصم ﴿ وضحاها ﴾ بالتفخيم ، وكذلك تلاها إلى آخر السورة .

وقرأ حمزة والكسائي كلها بالإمالة ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو بين ذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ والقمر إِذَا تلاها ﴾ يعني : يتبع الشمس والهاء ، كناية عن الشمس .

وقال قتادة : والشمس هو النهار ، و ﴿ القمر إِذَا تلاها ﴾ قال : يتلوها صبيحة الهلال ،

وإذا سقطت الشمس ، رأيت الهلال عند سقوطها .

ثم قال عز وجل : ﴿ والنهارِ إذَا جلاها ﴾ يعني : إذا أضاء واستنار ، فقال القتبي : هذا من الاختصار ﴿ والنهارِ إذَا جلاها ﴾ ويعني : والأرض أو الدنيا ، يعني : النهار أذا أضاء الدنيا .

وقال الكلبي : معناه إذا جلى النهار ظلمة الليل .

ثم قال عز وجل : ﴿ واليلِ إذَا يغشاها ﴾ يعني : غطى ضوء النهار ، ويقال : ﴿ واليل إذَا يغشاها ﴾ يعني : غطى الأرض وسترها .

ثم قال : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ يعني : خلقها .

ويقال : ﴿ السماء وَمَا بناها ﴾ يعني : الله تعالى بناها ، فأقسم بنفسه ، ويقال : ما للصلة ، ومعناه والسماء وبنائها .

ثم قال عز وجل : ﴿ والأرض وَمَا طحاها ﴾ يعني : والذي بسطها على الماء من تحت الكعبة .

ثم قال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ يعني : ونفس والذي سوى خلقها ، ويقال : ونفس وما خلقها ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ يعني : ألهمها الطاعة والمعصية ، ويقال : عرفها ، وبين لها ما تأتى وما تذر .

ثم قال عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ يعني : أصلحها الله ، وعرفها وهذا جواب

القسم لقد أفلح ، ولكن اللام حذفت لثقلها ، لأن الكلام طال .

ثم قال ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ يعني : خسر من أغفلها وأغواها ، وخذلها وأضلها .

(147/817)

وقال القتبي : معناه قد أفلح من زكى نفسه ، أي : أنماها وأعلاها ، بالطاعة والبر والصدقة ، وقد خاب من دساها ، يعني : نقصها وأخفاها بترك عمل البر ، وبركوب عمل المعاصي . وأصله دسس ، فجعل مكان إحدى السينين ياء ، كما يقال : قصيت أظفاري ، وأصله قصصت .

قال وأصل هذا ؟ أن أجواد العرب ، كانوا ينزلون في أرفع المواضع ، ويوقدون من النار للطارقين ، لتكون أنفسهم أشهر ، واللئام ينزلون الأطراف والأهضام ، لتخفي أماكنهم على الطارقين ، فأخفوا أنفسهم .

والبار أيضاً أظهر نفسه بأعمال البر ، والفاجر دساها .

ويقال : إن الله تعالى ، يطلب من عباده المؤمنين يوم القيامة ستة أشياء بمكان النعمة ، الشكر : وبمكان الشدة وبمكان الصحة العمل بالطاعة ، وبمكان الذنوب التوبة ، وبمكان العمل الإخلاص ، فمن يجيء بهذه الأشياء ، فقد أفلح ونما ، ومن لم يجيء بهذه الأشياء ،

فقد خسر وغبن .

ثم قال عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ يعني : بطغيانهم ، حملهم على ذلك التكذيب ﴿ إِذِ انبعث أشقاها ﴾ يعني : إذا قام أشقى ثمود ، وكلهم أشقياء في علم الله تعالى ، وأشقاهم عاقر الناقة ، وهو قدار بن سالف ، ومصدع بن دهر ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﴾ صلى الله عليه وسلم يعني : صالحاً ﴿ نَاقَةُ الله ﴾ يعني : احذروا ناقة الله ﴿ وسقياها ﴾ يعني : لا تأخذوا سقياها ، ومعناه ولا تعقروا ناقة الله ، وذروا شربها .

وقد ذكرناه في سورة الأعراف ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني : صالحاً بالعذاب ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ يعني : فعقروا الناقة ، ويقال : في الآية تقديم فعقروها ، فخوفهم صالح عليه السلام بالعذاب ، فكذبوه .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ يعني : أنزل عليهم ربهم عقوبة ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ والدَّمْدَمَة ، المبالغة في العقوبة والنكال .

(148/817)

ثم قال : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ يعني : فسواها في الهلاك يعني : الصغير والكبير ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر فلا يخاف بالفاء ، والباقون بالواو .

فمن قرأ بالفاء ، وصل الذي بعدها بالذي قبلها ، وهو قوله ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ يعني : أطبق عليهم العذاب بذنبهم ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ يعني : فسوى الأرض عليهم ، ولا يخاف عقبى هلكهم ، ولا يقدر أن يرجعوا إلى السلامة .

ومن قرأ بالواو ، فمعناه التقديم والتأخير ، يعني : الذي عقرها ، وهو لا يخاف عقبى عقرها .

ويقال : إن الله تعالى أهلكهم ، ولم يخف ثأرها وعاقبتها على غير وجه التقديم .

وروى الضحاك ، عن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي رضي الله عنه : " أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الأَوَّلِينَ " قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قال : " عَاقِرُ النَّاقَةِ " فقال : " أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الآخِرِينَ " قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " قَاتِلُكَ " . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 562 . 563 ﴾

(149/817)

وقال الثعلبي :

سورة الشمس

﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾

قال مجاهد : ضوؤها . قتادة : هو النهار كلّه . مقاتل : حرّها كقوله سبحانه في طه : ﴿ وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 119] يعني ولا يؤذيك الحرّ .

﴿ والقمر إِذَا تَلاَهَا ﴾ تبعها فأخذ من ضوئها وسار خلفها ، وذلك في النصف الأوّل من الشهر إذا أغربت الشمس تلاها القمر طالعاً .

﴿ والنهار إِذَا جَلاَّهَا ﴾ جلّى الشمس وكشفها بإضائتها ، وقال الفراء وجماعة من العلماء : يعني والنهار إذا جلى الظلمة ، فجازت الكناية عن الظلمة ولم [تذكر في أوله] ؛ لأنّ معناها معروف وهو ألا ترى أنّك تقول : أصبحت باردة وأمست عرية وهبّت شمالاً فكنّي عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر ؛ لأنّ معناهنّ معروف .

﴿ والليل إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ أي يخشى الشمس حتّى تغيب فتظلم الآفاق .

﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ أي ومن خلقها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، كقوله : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 3] ، ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ﴾ [النساء : 22] ، وقيل : هو ما المصدر أي وبنائها كقوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ [يس : 27] .

﴿ والأرض وَمَا طَحَاهَا ﴾ خلق ما فيها ، عن عطية عن ابن عبّاس والوالبي عنه : قسمها . غيره بسطها . ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ عدل خلقها ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ قال ابن عبّاس برواية الوالبي : يبيّن لها الخير والشرّ .

وقال العوفي عنه : علّمها الطاعة والمعصية . الكلبي : أعلمها ما يأتي وما ينبغي ، وقال ابن زيد وابن الفضل : جعل فيها ذلك يعني بتوفيقه إيّاها للتقوى وخذلانه إيّاها للفجور .

(150/817)

أخبرني الحسن قال : حدّثنا موسى قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن سنان قال : حدّثنا مسلم بن إبراهيم قال : حدّثنا عزرة بن ثابت الأنصاري قال : حدّثنا يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر عن أبي الأسود الدؤلي قال ب قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ؟ أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون ممّا آتاهم به نبيّهم صلّى الله عليه وأكّدت عليهم الحجّة ؟ قلت : كلّ شيء قد قضى عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً وقلت : إنّه ليس شيء إلاّ وهو خلقه وملك يده ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] . فقال لي : سدّدك الله ، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه ؟ أشيء قضى عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون ممّا آتاهم به نبيّهم صلى الله عليه وسلم وأكّدت به عليهم الحجّة ؟

فقال : في شيء قد قضى عليهم . قال : فقلت فيتمّ العمل إذا قال من كان الله سبحانه

خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه الله لها وتصديق ذلك في كتاب الله عزّوجلّ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ سعِد وفاز ، وهاهنا موضع القسم . ﴿ مَن زَكَّاهَا ﴾ أي أفلحت نفس زكّاها الله أي أصلحها وطهّرها من الذنوب ووفّقها للتقوى ، وقد : ﴿ خَابَ ﴾ خسرت نفس ﴿ مَن دَسَّاهَا ﴾ دسسها الله فأهملها وخذلها ووضع منها وأخفى محلّها حين عمل بالفجور وركب المعاصي ، والعرب تفعل هذا كثيراً فيبدّل في الحرف المشدّد بعض حروفه ياء أو واو كالتقضي والتظنّي وبابهما .

أخبرنا أبو بكر بن عيلوس قال : أخبرنا أبو الحسن المحفوظي قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ قال : أحدها أصلحها ، وقال الآخر : طهّرها .

(151/817)

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ قال أحدهما : أغواها ، وقال الآخر : أضلّها ، وقال قتادة : دسّها آثمها وأفجرها ، وقال ابن عبّاس : أبطلها وأهلكها ، وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أبو محمد المزني قال : حدّثنا الحضرمي قال : حدّثنا عثمان قال : حدّثنا أبو

الأحوص عن محمد بن السائب عن أبي صالح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ قد أفلحت نفس زكّاها الله ، وخابت نفس أفسدها الله عزّوجلّ .

وقال الحسن : معناه قد أفلح من زكّى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله عزّوجلّ ، وقد خاب من دسّاها قال : من أهلكها وأضلّها وحملها على معصية الله عزّوجلّ ، فجعل الفعل للنفس .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا اليقطني قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي قال : حدّثنا صفوان بن صالح قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : حدّثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ وقف ثمّ قال : " اللّهمّ آتِ نفسي تقواها أنت وليّها ومولاها وزكّها أنت خير من زكّاها " .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ بطغيانها وعداوتها .

وروى عطاء الخراساني عن ابن عبّاس قال : اسم العذاب الذي جاءهم الطغوى ، فقال : كذّبت ثمود بعذابها .

وقرأه العامّة بفتح الطاء ، وقرأ الحسن وحمّاد بن سلمة بطغواها بضمّ الطاء ، وهي لغة كالفتوى والفتُوى والفتيا ﴿ إِذِ انبعث ﴾ قام ﴿ أَشْقَاهَا ﴾ وهو قدار بن سالف عاقر الناقة وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً ملتزق الخلق واسم أُمّه قديرة . أخبرنا محمد بن

حمدون قال : أخبرنا مكّي قال : حدّثنا عبد الرحمن قال : حدّثنا سفيان قال : حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عاقر الناقة وقال : " انتدب لها رجل ذو عزّ ومنعة في قومه كأبي زمعة " وذكر الحديث .

(152/817)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ إغراء وتحذير ، أي احذروا عقر ناقة الله ، كقولك : الأسد الأسد .

﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾ شربها وسقيها من الماء ، فلا تزاحموها فيه ، كما قال الله سبحانه : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني صالحاً (عليه السلام) ، ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ يعني الناقة ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾ دمّر ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ وأهلكهم ﴿ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ بتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فسوّى الدمدمة عليهم جميعاً ، عمّهم بها ، فلم يفلت منهم أحد . وقال المروج : الدمدمة : إهلاك باستئصال ، وقال بعض أهل اللغة : الدمدمة : الإدامة . تقول العرب : ناقة مدمومة أي سمينة مملوءة ، وقرأ عبد الله بن الزبير (فدهدم عليهم) بالهاء ، وهما لغتان ، كقولك امتقع لونه واهتقع إذا تغير .

﴿ وَلاَ يَخَافُ ﴾ قرأ أهل الحجاز والشام فلا بالفاء وكذلك هو في مصاحفهم ، الباقون بالواو ، وهكذا في مصاحفهم ﴿ عُقْبَاهَا ﴾ عاقبتها .

واختلف العلماء في معنى ذلك ، فقال الحسن : يعني ولا يخاف الله من أحد تبعة في إهلاكهم ، وهي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقال الضحّاك والسدي والكلبي : هو راجع إلى العاقر ، وفي الكلام تقديم وتأخير معناه : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقباها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 212.215 ﴾

(153/817)

وقال الزمخشرى :

سورة الشمس

مكية ، وآياتها 15 [نزلت بعد القدر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشمس (91) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحاها (1) وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها (2) وَالنَّهارِ إِذا جَلاَّها (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (4)

وَالسَّماءِ وَما بَناها (5) وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6) وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9)

وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10)

ضحاها : ضوؤها إذا أشرقت وقام سلطانها ، ولذلك قيل : وقت الضحى ، وكأن وجهه شمس الضحى . وقيل : الضحوة ارتفاع النهار . والضحى فوق ذلك . والضحاء بالفتح والمد : إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف إذا تَلاها طالعا عند غروبها آخذا من نورها ، وذلك في النصف الأوّل من الشهر . وقيل : إذا استدار فتلاها في الضياء والنور إذا جَلَّاها عند انتفاخ النهار «1» وانبساطه ، لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وقيل : الضمير للظلمة ، أو للدنيا ، أو للأرض ، وإن لم يجر لها ذكر ، كقولهم : أصبحت باردة : يريدون الغداة ، وأرسلت : يريدون السماء إذا يغشاها ، فتغيب وتظلم الآفاق ، فإن قلت : الأمر في نصب «إذا» معضل ، لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر ، فتقع في العطف على عاملين في نحو قولك : مررت أمس بزيد ، واليوم عمرو . وإما أن تجعلهن للقسم ، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه . قلت : الجواب فيه أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطراحا كليا ، فكان لها شأن خلاف شأن الباء ، حيث أبرز معها الفعل وأضمر ، فكانت الواو قائمة مقام الفعل والباء سادّة مسدهما معا ، والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو ، فحققن أن يكون عوامل على

الفعل «2» والجار جميعا ، كما تقول : ضرب زيد عمرا ،

---

(1) . قوله «عند انتفاخ النهار» في الصحاح : انتفخ النهار ، أى : علا . (ع)

(2) . قوله «عوامل على الفعل» لعله : عمل الفعل . (ع)

وبكر خالدا ، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما . جعلت «ما» مصدرية في قوله وَما بَناها وَما طَحاها وَما سَوَّاها وليس بالوجه لقوله فَأَلْهَمَها وما يؤدى إليه من فساد النظم . والوجه أن تكون موصولة ، وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذي بناها ، ونفس ، والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم : سبحان ما سخركن لنا . فإن قلت : لم نكرت النفس ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما :

أن يريد نفسا خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم ، كأنه قال : وواحدة من النفوس .

والثاني : أن يريد كل نفس وينكر للتكثير على الطريقة المذكورة في قوله عَلِمَتْ نَفْسٌ .

ومعنى إلهام الفجور والتقوى : إفهامهما وإعقالهما ، وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما «1» بدليل قوله قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ

دَسَّاها فجعله فاعل التزكية «2»

---

(1) . قال محمود : «معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه . . . الخ» قال أحمد : بين في هذا الكلام نوعين من الباطل ، أحدهما في قوله : معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يكنه في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله : إعقالهما ، أى خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما اغتنم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فانه ربما يظن أن إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد ، والذي يقطع دابر هذه النزغة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التي ليست عندنا بصفات الأفعال ، فانا لا نلغى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لا بد في علم كل حكم شرعي من المقدمتين : عقلية ، وهي الموصلة إلى العقيدة . وسمعية مفرعة عليها ، وهي الدالة على خصوص الحكم . على أن تعلقه بظاهر لو سلم ظهوره في قاعدة قطعية بمعزل عن الصواب . النزغة الثانية : وهي التي كشف القناع في إبرازها أن التزكية وقسيمها ليس مخلوقين لله تعالى ، بل لشركائه المعتزلة ، وإنما نعارضه في الظاهر من فحوى الآية ، على أنه لم يذكر وجها في الرد على من قال : إن الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهته على أهل السنة ، فنقول : لا مراء في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى

النفس ، لكن عوده إلى اللّه تعالى أولى لوجهين ، أحدهما : أن الجمل سيقت سياقة واحدة من قوله وَالسَّماءِ وَما بَناها وهلم جرا ، والضمائر فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى اللّه تعالى بالاتفاق ، ولم يجر لغير اللّه تعالى ذكر . وإن قيل بعود الضمير إلى غيره : فإنما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمنا واستلزاما ، لا ذكرا ونطقا ، وما جرى ذكره أولى أن يعود الضمير عليه .

الثاني : أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى «تفعل» ، ولا شك أن «تفعل» مطاوع «فعل» فهذا بأن يدل لنا ، أولى من أن يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن : قد أفلح من زكاه اللّه فتزكى ، وعنده الفاعل في الاثنين واحد ، أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج في تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجهه ، ونحن عنه في غنية ، على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد ، على طريقة أنه الفاعل ، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا اختيارا وقدرة مقارنة ، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية اللّه تعالى ونفى الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقة ، فهذا جوابنا على الآية تنزلا ، وإلا فلم يذكر وجها من الرد ، فيلزمنا الجواب عنه ، وأما جوابنا عن سفاهته على أهل السنة ، فالسكوت ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(2) . قوله «فجعله فاعل التزكية» مبنى على مذهب المعتزلة : من أن العبد هو الفاعل

لأفعاله الاختيارية . وذهب أهل السنة إلى أن الفاعل لها في الحقيقة هو اللّه تعالى ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(155/817)

والتدسية ومتوليهما والتزكية : الإنماء والإعلاء بالتقوى . والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور . وأصل دسى : دسس ، كما قيل في تقضض : تقضى . وسئل ابن عباس عنه فقال : أتقرأ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً . وأما قول من زعم أنّ الضمير في زكى ودسى للّه تعالى ، وأنّ تأنيث الراجع إلى من ، لأنه في معنى النفس : فمن تعكيس القدرية الذين يورّكون «1» على اللّه قدرا هو بريء منه ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه . فإن قلت : فأين جواب القسم ؟ قلت : هو محذوف تقديره : ليدمدمنّ اللّه عليهم ، أى : على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا . وأما قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها فكلام تابع لقوله فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء .

[سورة الشمس (91) : الآيات 11 إلى 15]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (12) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ

وَسُقْيَاها (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (14) وَلا يَخافُ عُقْباها (15)

الباء في بِطَغْواها مثلها في : كتبت بالقلم . والطغوى من الطغيان : فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء ، بأن قلبوا الياء واوا في الاسم ، وتركوا القلب في الصفة ، فقالوا : امرأة خزيي وصديى ، يعنى : فعلت التكذيب بطغيانها ، كما تقول : ظلمني بجرأته على اللّه . وقيل :

كذبت بما أوعدت به من عذابها ذى الطغوىّ كقوله ، فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ، وقرأ الحسن : بطغواها ، بضم الطاء كالحسنى والرجعى في المصادر إِذِ انْبَعَثَ منصوب بكذبت . أو بالطغوى . وأَشْقاها قدار بن سالف . ويجوز أن يكونوا جماعة ، والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وكان يجوز أن يقال : أشقوها ، كما تقول : أفاضلهم . والضمير في لَهُمْ يجوز أن يكون للأشقين والتفضيل في الشقاوة ، لأنّ من تولى الفقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ . وناقَةَ اللَّهِ نصب على التحذير ، كقولك الأسد الأسد ، والصبى الصبى ، بإضمار : ذروا أو احذروا عقرها وَسُقْياها فلا تزووها عنها ، ولا

---

(1) . قوله «الذين يوركون على اللّه قدرا» في الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، إذا قرفه به اه ، أى :

اتهمه . ومراده بالقدرية : أهل السنة ، حيث قالوا : كل ما وقع في الكون هو بقضائه تعالى وقدره خيرا كان أو شرا ، وبخلقه تعالى وإرادته ، قبيحا كان أو حسنا ، من أفعال العباد أو من غيرها ، كما تقرر في التوحيد . (ع)

(156/817)

تستأثروا بها عليها فَكَذَّبُوهُ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ فأطلق عليهم العذاب ، وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمومة : إذا ألبسها الشحم بِذَنْبِهِمْ بسبب ذنبهم . وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب ، فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر فَسَوَّاهَا الضمير للدمدمة ، أي : فسوّاها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا أي عاقبتها وتبعتها ، كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء . ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى : فسواها بالأرض . أو في الهلاك ، ولا يخاف عقبى هلاكها . وفي مصاحف أهل المدينة والشأم : فلا يخاف . وفي قراءة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم : ولم يخف .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الشمس ، فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر» «1» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 758 .

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(157/817)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ والشّمْسِ وضُحاها ﴾

هذان قسمان :

قَسَمٌ بالشمس ، وقَسَم بضحاها ، وفي ضحاها أربعة أوجه :

أحدها : هو إشراقها ، قاله مجاهد .

الثاني : هو إنبساطها ، قاله اليزيدي .

الثالث : حرها ، قاله السدي .

الرابع : هذا النهار ، قاله قتادة .

ويحتمل خامساً : أنه ما ظهر بها من كل مخلوق ، فيكون القسم بها وبالمخلوقات كلها .

﴿ والقَمَرِ إذا تَلاها ﴾ ففيه وجهان :

أحدهما : إذا ساواها ، قاله مجاهد .

الثاني : إذا تبعها ، قاله ابن عباس .

وفي اتباعه لها ثلاثة أوجه :

أحدها : أول ليلة من الشهر إذا سقطت الشمس يرى القمر عند سقوطها ، قاله قتادة .

الثاني : الخامس عشر من الشهر يطلع القمر مع غروب الشمس ، قاله الطبري .

الثالث : في الشهر كله فهو في النصف الأول يتلوها ، وتكون أمامه وهو وراءها ، وإذا كان في النصف الأخير كان هو أمامها وهي وراءه ، قاله ابن زيد .

ويحتمل رابعاً : أنه خلفها في الليل ، فكان له مثل ما لها في النهار لأن تأثير كل واحد منهما في زمانه ، فللشمس النهار . وللقمر الليل .

﴿ والنّهارِ إذا جَلاَها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أضاءها ، يعني الشمس لأن ضوءها بالنهار يجلي ظلمة الليل ، قاله مجاهد .

الثاني : أظهرها ، لأن ظهور الشمس بالنهار ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

تجلب لنا كالشمس بين غمامةٍ . . . بدا حاجبٌ منها وضنّتْ بحاجب

ويحتمل ثالثاً : أن النهار جلّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر لاستتاره ليلاً وانتشاره نهاراً .

﴿ والليل إذا يَغْشاها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أظلمها ، يعني الشمس ، وهو مقتضى قول مجاهد .

الثاني : يسترها ، ومنه قول الخنساء :

أرْعَى النجومَ وما كُلِّفْتُ رِعْيَتَها . . . وتارةً أتغشى فَضْلَ أطْماري

﴿ والسّماءِ وما بَناها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : والسماء وبنائها ، قاله قتادة .

الثاني : معناه ومن بناها وهو الله تعالى ، قاله مجاهد والحسن .

(158/817)

ويحتمل ثالثاً : والسماء وما في بنائها ، يعني من الملائكة والنجوم ، فيكون هذا قسَماً بما في السماءِ ، ويكون ما تقدمه قسَماً بما في الأرض .

﴿ والأرْضِ وما طَحَاهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه بَسطها ، قاله سفيان وأبو صالح .

الثاني : معناه قسَمها ، قاله ابن عباس .

الثالث : يعني ما خلق فيها ، قاله عطية العوفي ، ويكون طحاها بمعنى خلقها ، قال الشاعر :

وما تَدري جذيمةُ مَنْ طحاها . . . ولا من ساكنُ العَرْشِ الرّفيع

ويحتمل رابعاً : أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز ، لأنه حياة لما خلق عليها .

﴿ ونَفْسٍ وما سَوَّاها ﴾ في النفس قولان :

أحدهما : آدم ، ومن سواها : الله تعالى ، قاله الحسن .

الثاني : أنها كل نفس .

وفي معنى سواها على هذا القول وجهان :

أحدهما : سوى بينهم في الصحة ، وسوى بينهم في العذاب جميعاً ، قاله ابن جريج .

الثاني : سوى خلقها وعدل خلقها ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : سوّاها بالعقل الذي فضّلها به على جميع الحيوانات .

﴿ فأَلْهَمَهَا فجُورَها وتَقْواها ﴾ في " ألهمها " تأويلان :

أحدهما : أعلمها ، قاله مجاهد .

الثاني : ألزمها ، قاله ابن جبير .

وفي " فجورها وتقواها " ثلاثة تأويلات :

أحدها : الشقاء والسعادة ، قاله مجاهد .

الثاني : الشر والخير ، قاله ابن عباس .

الثالث : الطاعة والمعصية ، قاله الضحاك .

ويحتمل رابعاً : الرهبة والرغبة لأنهما داعيا الفجور والتقوى .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي عليه السلام كان إذا قرأ هذه الآية " فألهمها فجورها وتقواها " رفع صوته : اللهم آتِ نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وأنت خير من زكّاها .

﴿ قد أَفْلَحَ مَن زكّاها ﴾ على هذا وقع القسم ، قال ابن عباس : فيها أحد عشر قسماً .

وفيه وجهان : أحدهما : قد افلح من زكى الله نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال .

الثاني : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال .

وفي زكاها وجهان :

(159/817)

أحدهما : طهّرها ، وهو قول مجاهد .

الثاني : أصلحها ، وهو قول سعيد بن جبير .

﴿ وقد خابَ من دَسّاها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على ما قضى وقد خاب من دسّى الله نفسه .

الثاني : من دسّى نفسه .

وفي " دسّاها " سبعة تأويلات :

أحدها : أغواها وأضلها ، قاله مجاهد وسعيد بن جبير ، لأنه دسّى نفسه في المعاصي ،

ومنه قول الشاعر :

وأنت الذي دَسْيت عَمْراً فأصْبَحَتْ . . . حلائلهم فيهم أرامل ضَيّعاً

الثاني : إثمنها وفجورها ، قاله قتادة .

الثالث : خسرها ، قاله عكرمة .

الرابع : كذبها ، قاله ابن عباس .

الخامس : أشقاها ، قاله ابن سلام .

السادس : جنبها في الخير ، وهذا قول الضحاك .

السابع : أخفاها وأخملها بالبخل ، حكاه ابن عيسى .

﴿ كذّبَتْ ثمودُ بِطَغْواها ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بطغيانها ومعصيتها ، قاله مجاهد وقتادة .

الثاني : بأجمعها ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : بعذابها ، قاله ابن عباس .

قالوا كان اسم العذاب الذي جاءها الطّغوى .

﴿ فدمْدم عليهم ربهم بذنْبِهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه فغضب عليهم .

الثاني : معناه فأطبق عليهم .

الثالث : معناه فدمّر عليهم ، وهو مثل دمدم ، كلمة بالحبشية نطقت بها العرب .

﴿ فسوّاها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فسوى بينهم في الهلاك ، قاله السدي ويحيى بن سلام .

الثاني : فسوّى بهم الأرض ، ذكره ابن شجرة .

ويحتمل ثالثاً : فسوّى مَن بعدهم مِنَ الأمم .

﴿ ولا يخافُ عُقباها ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ولا يخاف الله عقبى ما صنع بهم من الهلاك ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا يخاف الذي عقرها عقبى ما صنع من عقرها ، قاله الحسن .

ويحتمل ثالثاً : ولا يخاف صالح عقبى عقرها ، لأنه قد أنذرهم ونجاه الله تعالى حين أهلكهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 281 . 285 ﴾

(160/817)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ في المراد "بضحاها" ثلاثة أقوال .

أحدها : ضوؤها ، قاله مجاهد ، والزجاج .

والضحى : حين يصفو ضَوْءُ الشمس بعد طلوعها .

والثاني : النهار كلُّه ، قاله قتادة ، وابن قتيبة .

والثالث : حَرُّها ، قاله السدي ، ومقاتل : ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : إذا تَبِعهَا ، قاله ابن عباس في آخرين .

ثم في وقت اتباعه لها ثلاثة أقوال .

أحدهما : أنه في أول ليلة من الشهر يرى القمر إذا سقطت الشمس ، قاله قتادة .

والثاني : أنه في الخامس عشر يطلع القمر مع غروب الشمس ، حكاه الماوردي .

والثالث : أنه في النصف الأول من الشهر إذا غربت تلاها القمر في الإضاءة ، وخَلَفها في النور ، حكاه علي بن أحمد النيسابوري .

والقول الثاني : إذا ساواها ، قاله مجاهد .

وقال غيره : إذا استدار ، فتلا الشمس في الضياء والنور ، وذلك في الليالي البيض .

قوله تعالى : ﴿ والنهار إذا جَلاَّها ﴾ في المكنى عنها قولان .

أحدهما : أنها الشمس ، قاله مجاهد ، فيكون المعنى : والنهار إذا بَيَّن الشمس ، لأنها تتبيَّن إذا انبسط النهار .

والثاني : أنها الظلمة ، فيكون كناية عن غير مذكور ، لأن المعنى معروف ، كما تقول : أصبحت باردة ، وهبت شمالاً ، وهذا قول الفراء ، واللغويين .

﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أي : يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق .

قوله تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ في "ما" قولان .

أحدهما : بمعنى "مَن" تقديره "ومن بناها" قاله الحسن ، ومجاهد ، وأبو عبيدة ، وبعضهم يجعلها بمعنى الذي .

والثاني : أنها بمعنى المصدر ، تقديره : وبنائها ، وهذا مذهب قتادة ، والزجاج .

وكذلك القول في "وما طحاها" "وما سَّواها" وقد قرأ أبو عمران الجوني في آخرين "ومن بناها" "ومن طحاها" "ومن سوَّاها" كله بالنون .

قال أبو عبيدة : ومعنى "طحاها" : بسطها يميناً وشمالاً ، ومن كل جانب .

(161/817)

قال ابن قتيبة : يقال : خَيْرٌ طَاحٍ ، أي كثير متّسع .

وفي المراد "بالنفس" ها هنا قولان :

أحدهما : آدم ، قاله الحسن .

والثاني : جميع النفوس ، قاله عطاء .

وقد ذكرنا معنى "سوّاها" في قوله تعالى : ﴿ فسوّاك فعدلك ﴾ [الانفطار : 7] ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ الإلهام : إيقاع الشيء في النفس .

قال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها .

وقال ابن زيد : جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قال الزجاج : هذا جواب القسم .

والمعنى : لقد أفلح ، ولكن اللام حذفت لأن الكلام طال ، فصار طوله عوضاً منها .

قال ابن الأنباري : جوابه محذوف .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : قد أفلحت نفس زكاها الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، ومقاتل ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : قد أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال ، قاله قتادة ، وابن قتيبة .

ومعنى "زكاها" : أصلحها وطهرها من الذنوب ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ فيه قولان كالذي قبله .

فإن قلنا : إن الفعل لله ، فمعنى "دساها" خذلها ، وأخملها ، وأخفى محلها ، [بالكفر والمعصية] ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح .

وإن قلنا : الفعل للإنسان ، فمعنى "دساها" أخفاها بالفجور .

قال الفراء : ويروى أن "دَسَّاها" دَسَّسَهَا لأن البخيل يخفي منزله وماله .

وقال ابن قتيبة : المعنى : دسى نفسه ، أي : أخفاها بالفجور والمعصية .

والأصل من دَسَّسَتُ ، فقلبت السين ياءً ، كما قالوا : قصَّيت أظفاري ، أي : قصصتها .

فكأن النَّطِفَ بارتكاب الفواحش دس نفسه ، وقمعها ، ومُصْطَنِعُ المعروف شهر نفسه ورفعها ، وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا للشهرة .

واللئام تنزل الأطراف لتخفي أماكنها .

وقال الزجاج : معنى "دساها" جعلها قليلة خسيسة .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ أي : كذبت رسولها بطغيانها .

والمعنى : أن الطغيان حملهم على التكذيب .

(162/817)

قال الفراء : أراد بطغواها : طغيانها ، وهما مصدران ، إلا أن الطغوى أشكل برؤوس الآيات ، فاختير لذلك .

وقيل : كذبوا العذاب ﴿ إذ انبعث ﴾ أي : انْتَدَبَ ﴿ أشقاها ﴾ وهو : عاقر الناقة

لعقرها ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ وهو صالح ﴿ ناقة الله ﴾ قال الفراء : نصب الناقة على التحذير ، وكل تحذير فهو نصب .

قال ابن قتيبة : المعنى : احذروا ناقة الله وشربها .

وقال الزجاج : المعنى : ذَرُوا ناقة الله ﴿ و ﴾ ذَرُوا ﴿ سقياها ﴾ .

قال المفسرون : سقياها : شربها من الماء .

والمعنى : لا تتعرَّضوا ليوم شربها ﴿ فكذَّبوه ﴾ في تحذيره إياهم العذاب بعقرها ﴿ فعقروها ﴾ وقد بيَّنا معنى "العقر" في [الأعراف : 77] ﴿ فدمدمَ عليهم ربهم ﴾ قال الزجاج : أي : أطبق عليهم العذاب .

يقال : دمدمت على الشيء : إذا أطبقت فكرَّرت الإطباق .

وقال المؤرِّج : الدمدمة : إهلاك باستئصال .

وفي قوله تعالى : ﴿ فَسوَّاها ﴾ قولان .

أحدهما : سوَّى بينهم في الإهلاك ، قاله السدي ، ويحيى بن سلام .

وقيل : سوَّى الدمدمة عليهم .

والمعنى : أنه أهلك صغيرهم ، وكبيرهم .

والثاني : سوَّى الأرض عليهم .

قال مقاتل : سوَّى بيوتهم على قبورهم .

وكانوا قد حفروا قبوراً فاضطجعوا فيها ، فلما صِيْحَ بهم فهلكوا زلُزلت بيوتهم فوقعت على قبورهم .

قوله تعالى : ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وابن عامر ، "فلا يخاف" بالفاء ، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام .

وقرأ الباقون بالواو ، وكذلك هي في مصاحف مكة ، والكوفة ، والبصرة .

وفي المشار إليه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل ، فالمعنى : لا يخاف الله من أحد تَبِعَةً في إهلاكهم ، ولا يخشى عقبى ما صنع ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : أنه الذي عقرها ، فالمعنى : أنه لم يخف عقبَى ما صنع ، وهذا مذهب الضحاك والسدي ، وابن السائب .

فعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : إذ انبعث أشقاها وهو لا يخاف عقباها .

والثالث : أنه نبي الله صالح لم يخف عقباها ، حكاه الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 137.144 ﴾

(163/817)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ والشّمس وضحاها ﴾

أي إذا بدا ضوءها والضّحى حين ترتفع الشّمس ، ويصفو ضوءها ، وقيل الضّحى النهار كله لأن الضحى هو نور الشمس ، وهو حاصل في النهار كله ، وقيل الضحى هو حر الشمس لأن حرها ونورها متلازمان ، فإذا اشتد نورها قوى حرها وهذا أضعف الأقوال .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أي تبعها وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور ، وقيل تلاها في الاستدارة وذلك حين يكمل ضوءه ، ويستدير وذلك في اللّيالي البيض ، وقيل تلاها تبعها في الطلوع ، وذلك في أول ليلة من الشّهر إذا غربت الشمس ظهر الهلال فكأنه تبعها .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ يعني جلا ظلمة الليل بضيائه وكشفها بنوره ، وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أي يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق وحاصل هذه الأقسام الأربعة ترجع إلى الشمس في الحقيقة .

لأن بوجودها يكون النهار ويشتد الضحى ، وبغروبها يكون الليل ويتبعها القمر .

(164/817)

﴿ والسماء وما بناها ﴾ أي ومن بناها ، وقيل والذي بناها فعلى هذا كأنه أقسم به وبأعظم مخلوقاته ، ومعنى بناها خلقها ، وقيل ما بمعنى المصدر أي والسماء وبنائها ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ أي بسطها وسطحها على الماء ﴿ ونفس وما سواها ﴾ أي عدل خلقها وسوى أعضاءها هذا إن أريد بالنّفس الجسد وإن أريد بها المعنى القائم بالجسد فيكون معنى سواها أعطاها القوى الكثيرة كالقوة الناطقة ، والسامعة والباصرة ، والمفكرة ، والمخيلة وغير ذلك من العلم ، والفهم ، وقيل إنما نكرها لأنه أراد بها النّفس الشّريفة المكلفة التي تفهم عنه خطابه ، وهي نفس جميع من خلق من الإنس والجن ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال ابن عباس : بين لها الخير والشّر وعنه علمها الطّاعة والمعصية ، وعنه عرفها ما تأتي وما تتقي ، وقيل ألزمها فجورها ، وتقواها ، وقيل وجعل فيها ذلك بتوفيقه إيّاها للتّقوى ، وخذلانه إياها للفجور ، وذلك لأن الله تعالى خلق في المؤمن التّقوى ، وفي الكافر الفجور (م) عن أبي الأسود الديلي قال : قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ، ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم (صلى الله عليه وسلم) وثبتت الحجة عليهم ، فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم ، فقال أفلا يكون ظلماً قال ففزعت من ذلك فزعاً شديداً ، وقلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون فقال

لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأختبر عقلك " إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ، ومضى عليهم ، من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم (صلى الله عليه وسلم) وثبتت الحجة عليهم فقال لا بل شيء قضى عليهم ، ومضى فيهم ، وتصديق ذلك في كتاب الله ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها " (م) عن

(165/817)

جابر قال : " جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير أو فيما يستقبل قال : لا بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير قال : ففيم العمل ؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له " وهذه أقسام أقسم الله تعالى بالشمس وضحاها وما بعدها لشرفها ومصالح العالم بها ، وقيل فيه إضمار تقديره ورب الشمس وما بعدها .

وأورد على هذا القول أنه قد دخل في جملة هذا القسم قوله ، ﴿ والسّماء وما بناها ﴾ وذلك هو الله تعالى ، فيكون التقدير رب السماء ، ورب من بناها ، وهذا خطأ لا يجوز وأجيب عنه بأن ما إن فسرت بالمصدرية فلا إشكال وإن فسرت بمعنى من فيكون التقدير

ورب السّماء الذي بناها .

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ المعنى لقد أفلح من زكاها أي فازت وسعدت نفس زكاها الله أي أصلحها وطهرها من الذّنوب ، ووفقها للطاعة .

﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي خابت وخسرت نفس أضلها الله تعالى ، وأفسدها ، وأصله من دس الشّيء إذا أخفاه فكأنه سبحانه وتعالى أقسم بأشرف مخلوقاته على فلاح من طهره ، وزكاه ، وخسارة من خذله ، وأضله حتى لا يظن أحد أنه يتولى تطهير نفسه ، أو إهلاكها بالمعصية من غير قدر متقدم وقضاء سابق (م) عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " اللّهم إني أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والبخل ، والهرم وعذاب القبر ، اللّهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ، ومولاها ، اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها " .

(166/817)

قوله ﴿ كذبت ثمود ﴾ وهم قوم صالح عليه الصّلاة والسّلام ﴿ بطغواها ﴾ أي بطغيانها وعدوانها ، والمعنى أن الطغيان حملهم على التكذيب حتى كذبوا ﴿ إذا انبعث أشقاها

﴿ أي قام وأسرع وذلك أنهم لما كذبوا بالعذاب ، وكذبوا صالحاً انبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف ، وكان رجلاً أشقر أزرق العين قصيراً فعقر الناقة (ق) عن عبد الله بن زمعة " أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يخطب وذكر الناقة ، والذي عقرها فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في أهله مثل أبي زمعة " لفظ البخاري قوله عارم أي شديد ممتنع .

قوله تعالى : ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً عليه الصّلاة والسّلام ﴿ ناقة الله ﴾ أي ذروا ناقة الله وإنما قال لهم ذلك لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقرها وإنما أضافها إلى الله تعالى لشرفها كبيت الله .

﴿ وسقياها ﴾ أي وشربها ولا تتعرضوا للماء يوم شربها ﴿ فكذبوه ﴾ يعني صالحاً ﴿ فعقروها ﴾ يعني الناقة ﴿ فدمدم عليهم ربهم ﴾ أي فدمر عليهم ربهم وأهلكهم والدمدمة هلاك استئصال ، وقيل دمدم أي أطبق عليهم العذاب طبقاً حتى لم ينفلت منهم أحد ﴿ بذنبهم ﴾ أي فعلنا ذلك بهم بسبب ذنبهم ، وهو تكذيبهم صالحاً عليه الصّلاة والسّلام وعقرهم الناقة ﴿ فسواها ﴾ أي فسوى الدّمدمة عليهم جميعاً وعمهم بها ، وقيل معناه فسوى بين الأمة وأنزل بصغيرهم ، وكبيرهم ، وغنيهم وفقيرهم العذاب ، ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي لا يخاف الله تبعة من أحد في هلاكهم كذا قال ابن عباس : وقيل هو راجع إلى العاقر والمعنى لا يخاف العاقر عقبى ما قدم عليه من عقر الناقة ، وقيل هو

راجع إلى صالح عليه الصّلاة والسّلام والمعنى لا يخاف صالح عاقبة ما أنزل الله بهم من العذاب أن يؤذيه أحد بسبب ذلك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 251.253 ﴾

(167/817)

وقال النسفى :

سورة الشَّمْسِ

﴿ والشمس وضحاها ﴾

وضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها ﴿ والقمر إِذَا تلاها ﴾ تبعها في الضياء والنور وذلك في النصف الأول من الشهر يخلف القمر الشمس في النور ﴿ والنهار إِذَا جلاها ﴾ جلى الشمس وأظهرها للرائين وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه ، لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء .

وقيل : الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر كقوله : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] ﴿ والليل إِذَا يغشاها ﴾ يستر الشمس فتظلم الآفاق .

والواو الأولى في نحو هذا للقسم بالاتفاق ، وكذا الثانية عند البعض .

وعند الخليل : الثانية للعطف لأن إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز ، ألا ترى أنك لو جعلت موضعها كلمة الفاء أو "ثم" لكان المعنى على حاله ؟ وهما حرفاً عطف فكذا الواو .

ومن قال : إنها للقسم احتج بأنها لو كانت للعطف لكان عطفاً على عاملين ، لأن قوله ﴿ والليل ﴾ مثلاً مجرور بواو القسم و ﴿ إِذَا يغشى ﴾ منصوب بالفعل المقدر الذي هو أقسم فلو جعلت الواو في ﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جراً ، و ﴿ إِذَا تجلى ﴾ معطوفاً على ﴿ إِذَا يغشى ﴾ نصباً فصار كقولك : إن في الدار زيداً أو في الحجرة عمراً .

وأجيب بأن واو القسم تنزل منزلة الباء والفعل حتى لم يجز إبراز الفعل معها فصارت كأنها العاملة نصباً وجراً ، وصارت كعامل واحد له عملان ، وكل عامل له عملان يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق نحو : ضرب زيد عمراً وبكر خالداً ، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما ، فكذا هنا .

(168/817)

و "ما" مصدرية في ﴿ والسماء وَمَا بناها * والأرض وَمَا طحاها * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي وبنائها وطحوها أي بسطها وتسوية خلقها في أحسن صورة عند البعض وليس بالوجه لقوله ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ لما فيه من فساد النظم ، والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على "من" لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذي بناها ، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها .

وإنما نكرت النفس لأنه أراد نفساً خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم كأنه قال : وواحدة من النفوس ، أو أراد كل نفس ، والتنكير للتكثير كما في ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ [الانفطار : 5] ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فأعلمها طاعتها ومعصيتها أفهمها أن أحدهما حسن والآخر قبيح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ جواب القسم والتقدير : لقد أفلح ، قال الزجاج : صار طول الكلام عوضاً عن اللام .

وقيل : الجواب محذوف وهو الأظهر تقديره ليدمدمن الله عليهم أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً ، وأما ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ فكلام تابع لقوله ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء ﴿ مَن زكاها ﴾ طهرها الله وأصلحها وجعلها زاكية ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ أغواها الله ، قال عكرمة : أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس أغواها الله .

ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد ، والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور وأصل دسّى دسس ، والياء بدل من السين المكررة .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ بطغيانها إذ الحامل لهم على التكذيب طغيانهم ﴿ إِذِ انبعث ﴾ حين قام بعقر الناقة ﴿ أشقاها ﴾ أشقى ثمود قدار بن سالف وكان أشقر أزرق قصيراً .

(169/817)

و "إذ" منصوب ب ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ أو بالطغوى ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﴾ صالح عليه السلام ﴿ نَاقَةُ الله ﴾ نصب على التحذير أي احذروا عقرها ﴿ وسقياها ﴾ كقولك : الأسد الأسد ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي الناقة أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً لقوله : ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] .

لرضاهم به ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ بسبب ذنبهم وهو تكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فسوى الدمدمة عليهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة أي

فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعة من أحد كما يخاف من يعاقب من الملوك ، لأنه فعل في ملكه وملكه ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] ، ﴿ فَلاَ يَخَافُ ﴾ مدني وشامي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 360 . 361 ﴾

(170/817)

وقال ابن جزى :

سورة الشَّمْسِ

﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾

(171/817)

الضحى ارتفاع الضوء وكماله ، والضحاء بالفتح والمد بعد ذلك إلى الزوال ، وقيل : الضحى النهار كله ، والأول هو المعروف في اللغة ﴿ والقمر إِذَا تَلاَهَا ﴾ أي تبعها وفي اتباعه لها ثلاثة أقوال : أحدها : أنه يتبعها في كثرة الضوء ، لأنه أضوء الكواكب بعد الشمس ، ولا سيما ليلة البدر : والآخر : أنه يتبعها في طلوعه لأنه يطلع بعد غروبها ، وذلك

في النصف الاول من الشهر والضمير الفاعل للنهار ، لأن الشمس تنجلي بالنهار فكأنه هو الذي جلاّها ، وقيل : الضمير الفاعل لله ، وقيل : الضمير المفعول للظلمة أو الأرض أو الدنيا ، وهذا كله بعيد لأنه لم يتقدم ما يعود الضمير عليه ﴿ والليل إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ أي يغطيها وضمير المفعول للشمس وضمير الفاعل لليل على الأصح ﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ قيل : إن ما في قوله وما بناها وما طحاها وما سوّاها موصولة بمعنى من والمراد الله تعالى ، وقيل : إنها مصدرية كأنه قال : والسماء وبنيانها ، وضعف الزمخشري ذلك بقوله : فألهمها فإن المراد الله باتفاق ، وهذا القول يؤدي إلى فساد النظم ، وضعّف بعضهم كونها موصولة بتقديم ذكر المخلوقات على الخالق . فإن قيل : لم عدل عن من إلى قوله ما في قول من جعلها موصولة ؟ فالجواب : أنه فعل ذلك لإرادة الوصفية كأنه قال والقادر الذي بناها ﴿ طَحَاهَا ﴾ أي مدها ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ تسوية النفس إكمال عقلها وفهمها ، فإن قيل : لم نكّر النفس ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما : أنه أراد الجنس كقوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] والآخر أنه أراد نفس آدم والأول هو المختار ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي عرّفها طريق الفجور والتقوى ، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين ، ويحتمل أن تكون الواو بمعنى أو ، كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾

هذا جواب القسم عند الجمهور ، وقال الزمخشري : الجواب محذوف تقديره : ليدمدمَنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، كما دَمْدم على قوم ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام ، قال : وأما قد فلح فكلام تابع لقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطراد ، وهذا بعيد ، والفاعل بزكاها ضمير يعود على من ، والمعنى : قد أفلح من زكى نفسه أي طهّرها من الذنوب والعيوب ، وقيل : الفاعل ضمير الله تعالى ، والأول أظهر ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أي حقرها بالكفر والمعاصي ، وأصله دسس بمعنى : أخفى فكأنه أخفى نفسه لما حقرها ، وأبدل من السين الأخيرة حرف علة كقولهم : قصيّت أظفاري وأصله قصَصْتُ ﴿ بِطَغْوَاهَآ ﴾ هو مصدر بمعنى الطغيان قلبت فيه الياء واواً على لغة من يقول : طغيت ، والباء الخافضة كقولك كتبت بالقلم أو سببية ، والمعنى بسبب طغيانها وقال ابن عباس : معناه ثمود بعذابها ويؤيده قوله : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] ﴿ إِذِ انبعث أَشْقَاهَا ﴾ العامل في إذ كذبت أو طغوها ومعنى انبعث : خرج لعقر الناقة بسرعة ونشاط ، وأشقاها : هو الذي عقر الناقة وهو أحيمر ثمود واسمه قدار بن سالف ، ويحتمل أن يكون أشقاها واقعاً على جماعة ، لأن أفعل التي للتفضيل إذا أظفته يستوي فيه الواحد والجمع والأول أظهر وأشهر .

(173/817)

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره احفظوا ناقة الله ، أو احذروا ناقة الله وسقياها ، شربها من الماء ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ نسب العقر إلى جماعة لأنهم اتفقوا عليه وباشره واحد منهم ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾ عبارة عن إنزال العذاب بهم وفيه تهويل ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي بسبب ذنبهم وهو التكذيب أو عقر الناقة ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ قال ابن عطية : معناه فسوّى القبيلة في الهلاك لم يفلت أحد منهم وقال الزمخشري : الضمير للدمدمة أي سواها بينهم ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ ضمير الفاعل لله تعالى والضمير في عقباها للدمدمة والتسوية وهو الهلاك : أي لا يخاف عقابة إهلاكهم ، ولا دَرْكَ عليه في ذلك كما يخاف الملوك من عاقبة أعمالهم ، وفي ذلك احتقار لهم وقيل : إن ضمير الفاعل لصالح وهذا بعيد وقرأ أشقاها فلا يخاف بالفاء وبالواو وقيل : في القراءة بالواو الفاعل أشقاها . والجملة في موضع الحال أي انبعث ولم يخف عقبى فعلته وهذا بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 201.202 ﴾

(174/817)

وقال البيضاوى :

سورة الشَّمْسِ

مكية وآيها خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والشمس وضحاها ﴾

وضوئها إذا أشرقت ، وقيل الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك ، والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف .

﴿ والقمر إِذَا تلاها ﴾ تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر ، أو في الاستدارة وكمال النور .

﴿ والنهار إِذَا جلاها ﴾ جلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار أو الظلمة ، أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر ذكرها للعلم بها .

﴿ والليل إِذَا يغشاها ﴾ يغشى الشمس فيغطي ضوءها أو الآفاق ، أو الأرض . ولما كانت واوات العطف نوائب للواو الأولى القسيمة الجارة بنفسها النائبة مناب فعل القسم من حيث استلزمت طرحه معها ، ربطن المجرورات والظرف بالمجرور والظرف المتقدمين ربط الواو لما بعدها في قولك : ضرب زيد عمراً وبكر خالداً على الفاعل والمفعول من غير عطف على عاملين مختلفين .

﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ ومن بناها وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والشيء القادر الذي بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها ، ولذلك أفرد ذكره وكذا الكلام في قوله :

﴿ والأرض وَمَا طحاها وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ وجعل الماءات مصدرية يجرد الفعل عن الفاعل ويخل بنظم قوله :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ بقوله ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ إلا أن يضمر فيه اسم الله للعلم به وتنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ للتكثير كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ أو للتعظيم والمراد نفس آدم وإلهام الفجور والتقوى إفهامهما وتعريف حالهما أو التمكين من الإتيان بهما .

(175/817)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زكاها ﴾ أنماها بالعلم والعمل جواب القسم ، وحذف اللام للطول كأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية ، ويذكرهم عظائم آلائه ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمالات القوة العملية . وقيل هو استطراد بذكر بعض أحوال النفس ، والجواب محذوف تقديره لَيُدَمْدِمَنَّ

الله ، على كفار مكة لتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق ، وأصل دسى دسس كتقضي وتقضض .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ بسبب طغيانها ، أو بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى كقوله تعالى : ﴿ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ وأصله طغياها وإنما قلبت ياؤه واواً تفرقة بين الإسم والصفة ، وقرىء بالضم كا "الرجعى" .

﴿ إِذِ انبعث ﴾ حين قام ظرف ل ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ أو طغوى . ﴿ أشقاها ﴾ أشقى ثمود وهو قدار بن سالف ، أو هو ومن مالأه على قتل الناقة فإن أفعل التفضيل إذا أضفته صلح للواحد والجمع وفضل شقاوتهم لتوليهم العقر .

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ الله ﴾ أي ذروا ناقة الله واحذروا عقرها . ﴿ وسقياها ﴾ وسقيها فلا تذودوها عنها . ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا . ﴿ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم . ﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ بسببه . ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ فسوى الدمدمة بينهم أو عليهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير ، أو ثمود بالإهلاك .

﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ أي عاقبة الدمدمة أو عاقبة هلاك ثمود وتبعتها فيبقي بعض

الإِبقاء ، والواو للحال وقرأ نافع وابن عامر " فَلا" على العطف .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والشمس فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 494 .

497 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(176/817)

وقال أبو حيان :

سورة الشَّمْسِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

ولما تقدّم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها ، أقسم هنا بشيء من العالم العلوي والعالم والسفلي ، وبما هو آلة التفكر في ذلك ، وهو النفس .

وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة ، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا ، وفي ذلك بمآلهم في الآخرة إلى النار ، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل .

وتقدم الكلام على ضحى في سورة طه عند قوله : ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ وقال

مجاهد : هو ارتفاع الضوء وكماله .

وقال مقاتل : حرها لقوله ﴿ ولا تضحى ﴾ وقال قتادة : هو النهار كله ، وهذا ليس بجيد ، لأنه قد أقسم بالنهار .

والمعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء ، بالمد وفتح الضاد إلى الزوال ، وقول مقاتل تفسير باللازم .

وما نقل عن المبرد من أن الضحى مشتق من الضح ، وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانية ؛ وكذلك الواو في ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية ، لعله مختلق عليه ، لأن المبرد أجل من أن يذهب إلى هذا ، وهذان مادتان مختلفتان لا تشتق إحداهما من الأخرى .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ ، قال الحسن والفراء : تلاها معناه تبعها دأباً في كل وقت ، لأنه يستضيء منها ، فهو يتلوها لذلك .

وقال ابن زيد : يتلوها في الشهر كله ، يتلوها في النصف الأول من الشهر بالطلوع ، وفي الآخر بالغروب .

وقال ابن سلام : في النصف الأول من الشهر ، وذلك لأنه يأخذ موضعها ويسير خلفها ، إذا غابت يتبعها القمر طالعاً .

وقال قتادة : إنما ذلك البدر ، تغيب هي فيطلع هو .

وقال الزجاج وغيره : تلاها معناه : امتلأ واستدار ، وكان لها تابعاً للمنزل من الضياء

والقدر ، لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر .

وقيل : من أول الشهر إلى نصفه ، في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو ؛ وفي النصف الآخر يتحاوران ، وهو أن تغرب هي فيطلع هو .

(177/817)

وقال الزمخشري : تلاها طالعاً عند غروبها أخذاً من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ : الظاهر أن مفعول جلاها هو الضمير عائد على الشمس ، لأنه عند انبساط النهار تنجلي الشمس في ذلك الوقت تمام الإنجلاء .

وقيل : يعود على الظلمة .

وقيل : على الأرض .

وقيل : على الدنيا ، والذي يجلي الظلمة هو الشمس أو النهار ، فإنه وإن لم تطلع الشمس لا تبقى الظلمة ، والفاعل بجلاها ضمير النهار .

قيل : ويحتمل أن يكون عائداً على الله تعالى ، كأنه قال : والنهار إذا جلى الله الشمس ، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته .

﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ : أي يغشى الشمس ، فبدخوله تغيب وتظلم الآفاق ، ونسبة ذلك إلى الليل مجاز .

وقيل : الضمير عائد على الأرض ، والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها إلى قوله : ﴿ يغشاها ﴾ عائدة على الشمس .

وكما أن النهار جلاها ، كان النهار هو الذي يغشاها .

ولما كانت الفواصل ترتبت على ألف وهاء المؤنث ، أتى ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ بالمضارع ، لأنه الذي ترتب فيه .

ولو أتى بالماضي ، كالذي قبله وبعده ، كان يكون التركيب إذا غشيها ، فتفوت الفاصلة ، وهي مقصودة .

وقال القفال ما ملخصه : هذه الأقسام بالشمس في الحقيقة بحسب أوصاف أربعة :

ضوءها عند ارتفاع النهار وقت انتشار الحيوان ، وطلب المعاش ، وتلو القمر لها بأخذه الضوء ، وتكامل طلوعها وبروزها وغيبوبتها بمجيء الليل .

وما في قوله : ﴿ وما بناها . . .

وما طحاها . . .

وما سواها ﴾ ، بمعنى الذي ، قاله الحسن ومجاهد وأبو عبيدة ، واختاره الطبري ، قالوا : لأن ما تقع على أولي العلم وغيرهم .

وقيل : مصدرية ، قاله قتادة والمبرد والزجاج ، وهذا قول من ذهب إلى أن ما لا تقع على آحاد أولي العلم .

(178/817)

وقال الزمخشري : جعلت مصدرية ، وليس بالوجه لقوله : ﴿ فألهمها ﴾ ، وما يؤدي إليه من فساد النظم والوجه أن تكون موصولة ، وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذي بناها ، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم سبحان من سخركن لنا ، انتهى .

أما قوله : وليس بالوجه لقوله : ﴿ فألهمها ﴾ ، يعني من عود الضمير في ﴿ فألهمها ﴾ على الله تعالى ، فيكون قد عاد على مذكور ، وهو ما المراد به الذي ، ولا يلزم ذلك لأنا إذا جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام ؛ ففي بناها ضمير عائد على الله تعالى ، أي وبناها هو ، أي الله تعالى ، كما إذا رأيت زيداً قد ضرب عمراً فقلت : عجبت مما ضرب عمراً تقديره : من ضرب عمر ؟ وهو كان حسناً فصيحاً جائزاً ، وعود الضمير على ما يفهم من سياق الكلام كثير ، وقوله : وما يؤدي إليه من فساد النظم ليس كذلك ، ولا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ذكر ، وقوله إنما أوثرت إلخ لا يراد بما ولا بمن

الموصولتين معنى الوصفية ، لأنهما لا يوصف بهما ، بخلاف الذي ، فاشتراكهما في أنهما لا يؤديان معنى الوصفية موجود فيهما ، فلا ينفرد به ما دون من ، وقوله : وفي كلامهم إلخ .

تأوله أصحابنا على أن سبحان علم وما مصدرية ظرفية .

وقال الزمخشري : فإن قلت : الأمر في نصب إذا معضل ، لأنك إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر ، فتقع في العطف على عاملين ، وفي نحو قولك : مررت أمس بزيد واليوم عمرو ؛ وأما أن تجعلهن للقسم ، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه .

(179/817)

قلت : الجواب فيه أن واو القسم مطرح معه إبراز الفعل إطراحاً كلياً ، فكان لها شأن خلاف شأن الباء ، حيث أبرز معها الفعل وأضمر ، فكانت الواو قائمة مقام الفعل ، والباء سادة مسدهما معاً ، والواوات العواطف نوائب عن هذه ، فحقهن أن يكن عوامل على الفعل والجار جميعاً ، كما تقول ؛ ضرب زيد عمراً وبكر خالداً ، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما ، انتهى .

أما قوله في واوات العطف فتنصب بها وتجر فليس هذا بالمختار ، أعني أن يكون حرف العطف عاملاً لقيامه مقام العامل ، بل المختار أن العمل إنما هو للعامل في المعطوف عليه ،

تم إنا لإنشاء حجة في ذلك .

وقوله : فتقع في العطف على عاملين ، ليس ما في الآية من العطف على عاملين ، وإنما هو من باب عطف اسمين مجرور ومنصوب على اسمين مجرور ومنصوب ، فحرف العطف لم ينب مناب عاملين ، وذلك نحو قولك : امرر بزيد قائماً وعمرو جالساً ؟ وقد أنشد سيبويه في كتابه :

فليس بمعروف لنا أن نردها . . .

صحاحاً ولا مستنكران تعقرا

فهذا من عطف مجرور ، ومرفوع على مجرور ومرفوع ، والعطف على عاملين فيه أربع مذاهب ، وقد نسب الجواز إلى سيبويه وقوله في نحو قولك : مررت أمس بزيد واليوم عمرو ، وهذا المثال مخالف لما في الآية ، بل وزان ما في الآية : مررت بزيد أمس وعمرو اليوم ، ونحن نجيز هذا .

وأما قوله على استكراه فليس كما ذكر ، بل كلام الخليل يدل على المنع .

قال الخليل : في قوله عز وجل : ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى ﴾ الواوان الأخيرتان ليستا بمنزلة الأولى ، ولكنهما الواوان اللتان يضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك : مررت بزيد وعمرو ، والأولى بمنزلة الباء والتاء ، انتهى .

وأما قوله : إن واو القسم مطرح معه إبراز الفعل إطراحاً كلياً ، فليس هذا الحكم مجمعاً

عليه ، بل قد أجاز ابن كيسان التصريح بفعل القسم مع الواو ، فتقول : أقسم أو أحلف والله لزيد قائم .

(180/817)

وأما قوله : والواوات العواطف نوائب عن هذه الخ ، فمبني على أن حرف العطف عامل لنيابته مناب العامل ، وليس هذا بالمختار .

والذي نقوله : إن المعضل هو تقرير العامل في إذا بعد الاقسام ، كقوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ﴿ والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر ﴾ ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ ، ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ وما أشبهها .

فإذا ظرف مستقبل ، لا جائز أن يكون العامل فيه فعل القسم المحذوف ، لأنه فعل إنشائي . فهو في الحال ينافي أن يعمل في المستقبل لإطلاق زمان العامل زمان المعمول ، ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف أقيم المقسم به مقامه ، أي : وطلوع النجم ، ومجيء الليل ، لأنه معمول لذلك الفعل .

فالطلوع حال ، ولا يعمل فيه المستقبل ضرورة أن زمان المعمول زمان العامل ، ولا جائز أن يعمل فيه نفس المقسم به لأنه ليس من قبيل ما يعمل ، سيما إن كان جزماً ، ولا جائز أن

يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه ، ويكون ذلك العامل في موضع الحال وتقديره : والنجم كائناً إذا هوى ، والليل كائناً إذا يغشى ، لأنه لا يلزم كائناً أن يكون منصوباً بالعامل ، ولا يصح أن يكون معمولاً لشيء مما فرضناه أن يكون عاملاً .

وأيضاً فقد يكون القسم به جثة ، وظروف الزمان لا تكون أحوالاً عن الجثث ، كما لا تكون أخباراً .

﴿ ونفس وما سواها ﴾ : اسم جنس ، ويدل على ذلك ما بعده من قوله : ﴿ فألهمها ﴾ وما بعده ، وتسويتها : إكمال عقلها ونظرها ، ولذلك ارتبط به ﴿ فألهمها ﴾ ، لأن الفاء تقتضي الترتيب على ما قبلها من التسوية التي هي لا تكون إلا بالعقل .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم نكرت النفس ؟ قلت : فيه وجهان : أحدها : أن يريد نفساً خاصة من النفوس ، وهي نفس آدم ، كأنه قال : وواحدة من النفوس ، انتهى .

وهذا فيه بعد للأوصاف المذكورة بعدها ، فلا تكون إلا للجنس .

(181/817)

ألا ترى إلى قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ، كيف تقتضي التغاير في المزكى وفي المدسى ؟ ﴿ فألهمها ﴾ ، قال ابن جبير : ألزمها .

وقال ابن عباس : عرفها .

وقال ابن زيد : بين لها .

وقال الزجاج : وفقها للتقوى ، وألهمها فجورها : أي خذلها ، وقيل : عرفها وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى .

وقال الزمخشري : ومعنى إلهام الفجور والتقوى : إفهامها وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما بدليل قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ، فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما .

والتزكية : الإنماء ، والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ، قال الزجاج وغيره : هذا جواب القسم ، وحذفت اللام لطول الكلام ، والتقدير : لقد أفلح .

وقيل : الجواب محذوف تقديره لتبعثن .

وقال الزمخشري : تقديره ليدمدمن الله عليهم ، أي على أهل مكة ، لتكذيبهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً .

وأما ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء ، انتهى .

وزكاؤها : ظهورها ونماؤها بالعمل الصالح ، ودساها : أخفاها وحقرها بعمل المعاصي .

والظاهر أن فاعل زكى ودسى ضمير يعود على من ، وقاله الحسن وغيره .

ويجوز أن يكون ضمير الله تعالى ، وعاد الضمير مؤنثاً باعتبار المعنى من مراعاة التأنيث .

(182/817)

وفي الحديث ما يشهد لهذا التأويل ، كان عليه السلام إذا قرأ هذه الآية قال : " اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها " وقال الزمخشري : وأما قول من زعم أن الضمير في زكى ودسى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى من لأنه في معنى النفس ، فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدراً هو بريء منه ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه تعالى ، انتهى .

فجرى على عادته في سب أهل السنة .

هذا ، وقائل ذلك هو بحر العلم عبد الله بن عباس ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : " وزكها أنت خير من زكاها "

وقال تعالى : ﴿ دساها ﴾ في أهل الخير بالرياء وليس منهم ؛ وحين قال : ﴿ وتقواها ﴾ أعقبه بقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ .

ولما قال : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ ، أعقبه بأهل الجنة .

ولما ذكر تعالى خيبة من دسى نفسه ، ذكر فرقة فعلت ذلك ليعتبر بهم .

﴿ بطغواها ﴾ : الباء عند الجمهور سببية ، أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها .

وقال ابن عباس : الطغوى هنا العذاب ، كذبوا به حتى نزل بهم لقوله : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ بطغواها ﴾ بفتح الطاء ، وهو مصدر من الطغيان ، قلبت فيه الياء واواً فصلاً بين الاسم وبين الصفة ، قالوا فيها صرنا وحدنا ، وقالوا في الاسم تقوى وشروي .

وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بن سلمة : بضم الطاء ، وهو مصدر كالرجعى ، وكان قياسها الطغيا بالياء كالسقيا ، لكنهم شذوا فيه .

﴿ إذ انبعث ﴾ : أي خرج لعقر الناقة بنشاط وحرص ، والناصب لإذ ﴿ كذبت ﴾ ، و ﴿ أشقاها ﴾ : قدار بن سالف ، وقد يراد به الجماعة ، لأن أفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة جاز إفراده وإن عنى به جمع .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكونوا جماعة ، والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وكان يجوز أن يقال : أشقوها ، انتهى .

فأطلق الإضافة ، وكان ينبغي أن يقول : إلى معرفة ، لأن إضافته إلى نكرة لا يجوز فيه إذ ذاك إلا أن يكون مفرداً مذكراً ، كحاله إذا كان بمن .

والظاهر أن الضمير في ﴿ لهم ﴾ عائد على أقرب مذكور وهو ﴿ أشقاها ﴾ إذا أريد به الجماعة ، ويجوز أن يعود على ﴿ ثمود ﴾ .

﴿ رسول ﴾ : هو صالح عليه السلام .

وقرأ الجمهور : ﴿ ناقة الله ﴾ بنصب التاء ، وهو منصوب على التحذير مما يجب إضمار عامله ، لأنه قد عطف عليه ، فصار حكمه بالعطف حكم المكرر ، كقولك : الأسد الأسد ، أي احذروا ناقة الله وسقياها فلا تفعلوا ذلك .

﴿ فكذبوه ﴾ ، الجمهور على أنهم كانوا كافرين ، وروي أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً بمدة ، ثم كذبوا وعقروا ، وأسند العقر للجماعة لكونهم راضين به ومتمالئين عليه .

وقرأ الجمهور : ﴿ فدمدم ﴾ بميم بعد دالين ؛ وابن الزبير : قد هدم بهاء بينهما ، أي أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم ، ﴿ بذنبهم ﴾ : فيه تخويف من عاقبة الذنوب ، ﴿ فسواها ﴾ ، قيل : فسوى القبيلة في الهلاك ، عاد عليها بالتأنيث كما عاد في ﴿ بطغواها ﴾ .

وقيل : سوى الدمدمة ، أي سواها بينهم ، فلم يفلت منهم صغيراً ولا كبيراً .

وقرأ أبيّ والأعرج ونافع وابن عامر : فلا يخاف بالفاء ؛ وباقي السبعة ولا بالواو ؛ والضمير في يخاف الظاهر عوده إلى أقرب مذكور وهو ربهم ، أي لأدرك عليه تعالى في فعله بهم لا يسئل عما يفعل ، قاله ابن عباس والحسن ، وفيه ذم لهم وتعقبه لآثارهم .

وقيل : يحتمل أن يعود على صالح ، أي لا يخاف عقبى هذه الفعلة بهم ، إذ كان قد أنذرهم وحذرهم .

ومن قرأ : ولا يحتمل الضمير الوجهين .

(184/817)

وقال السدي والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي : الواو واو الحال ، والضمير في يخاف عائد على ﴿ أشقاها ﴾ ، أي انبعث لعقرها ، وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه ، والعقبى : خاتمة الشيء وما يجيء من الأمور بعقبه ، وهذا فيه بعد لطول الفصل بين الحال وصاحبها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(185/817)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾

التفسير : قال النحويون : إن في ناصب ﴿ إذا تلاها ﴾ وما بعده إشكالاً لأن " ما " سوى الواو الأولى إن كن للقسم لزم اجتماع أقسام كثيرة على مقسم به واحد وهو مستنكر عند الخليل وسيبويه ، لأن استئناف قسم آخر دليل على أن القسم الأول قد استوفى حقه من الجواب فيلزم التغليظ ، وإن كن عاطفة لزم العطف على عاملين بحرف واحد وذلك أن حرف العطف ناب عن واو القسم المقتضي للجر وعن الفعل الذي يقتضي انتصاب الظرف . والجواب أنا نختار الثاني ولزوم العطف على عاملين ممنوع لأن حرف العطف ناب عن واو القسم النائب عن الفعل المتعدّي بالباء ، وكما أن واو القسم تعمل الجر في القسم والنصب في الظرف إذا قلت مثلاً ابتداء ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] لقيامه مقام قولك " اقسم بالليل إذا يغشى " فكذا حرف العطف النائب منابه نظيره قولك " ضرب زيد عمراً وبكر خالداً " فترفع بالواو وتنصب لقيامه مقام ضرب . قال بعض المتكلمين : المضاف في هذه الأقسام محذوف تقديره ورب الشمس إلى آخرها . وزيف بلزوم التكرار في قوله ﴿ وما بناها ﴾ وما بعده . وأجيب بأن " ما " في ﴿ وما بناها ﴾ وما بعده مصدرية . واعترض عليه في الكشاف بأنه يلزم من عطف قوله ﴿ فألهمها ﴾ على قوله

﴿ وما سوّاها ﴾ فساد النظم فالوجه أن تكون " ما " موصولة . وإنما أوثرت على " من " لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذي بناها ، ونفس والحكيم الذي سوّاها ، على أنه قد جاء " ما " مستعملاً في " من " كقولهم " سبحان ما سخركن لنا " . أما الذين لم يقدروا المضاف فأورد عليهم أنه يلزم تأخير القسم برب السماء وبانيها عن القسم بالسماء . والجواب أن الله عز قائلاً أراد أن تتدرج من المحسوسات إلى المعقولات ومن المصنوعات إلى الصانع ، ولا يخفى أن المحسوسات أظهرها هو الشمس فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها . فأول أعظم الأوصاف الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار ، وثانيها

(186/817)

تلو القمر لها غاية في منتصف الشهر أو تلوه لها في أخذ الضور عنها أو في غروبه ليلة الهلال بعدها قاله قتادة والكلبي .

(187/817)

وقيل : في كبر الجرم بحسب الحس وفي ارتباط مصالح هذا العالم بحركته . والثالث والرابع بروزها لمجيء النهار واختفاؤها لمجيء الليل . ثم ذكر ذاته المقدسة وعقبه بأنواع تدابيره في السماء والأرض وفي البسائط وما يتركب منها وأشرفها النفس . ولنشتغل بتفسير بعض الألفاظ . قال الليث : الضحو ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك . والضحاء بالمد إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف . وتلاها تبعها بإحدى المعانى المذكورة ، والتجلية الكشف والعيان . والضمير في ﴿ جلاها ﴾ للشمس في الظاهر على ما قال الزجاج وغيره ، لأن النهار كلما كان أصدق نوراً كانت الشمس أجلى ظهوراً فإن الكشف والعيان يدل على قوة المؤثر وكماله لا قوة الأثر وكماله ، فكان النهار يبرز الشمس ويظهرها . وذهب جم غفير إلى أن الضمير يعود إلى الظلمة أو الدنيا أو الأرض بدلالة قرائن الأحوال وسياق الكلام ، ولعل الوجه الأول أولى لأن عود الضمير إلى المذكور أقرب منه إلى المقدر ، ولأنه يلزم تفريق الضمائر في ﴿ يغشاها ﴾ للشمس بالاتفاق وكذا في ﴿ ضحاها ﴾ و ﴿ تلاها ﴾ ولأن غشيان الليل الشمس عبارة عن ذهاب الضوء وحصول الظلمة بسبب غيبة الشمس في الأفق ، فكذا تجلية النهار إياها يجب أن تكون إشارة إلى كمال الضوء وظهوره للحس بواسطة ظهور الشمس فوق الأفق . والحاصل أن الذهن كما ينتقل من عدم الأثر إلى عدم المؤثر فجعل كأن لعدم الأثر تأثيراً في عدم المؤثر ، فكذلك ينتقل من وجود الأثر إلى وجود المؤثر فيصح أن يقال : إن وجود الأثر علة لوجود المؤثر وهذا معنى كون النهار مجلياً

للشمس . والطحو مثل الدحو وقد مر في " النازعات " أي بسطها على الماء . وتنكير النفس إما للتنويع أي نفس خاصة من بين النفوس وهي النفس القدسية النبوية التي تصلح لرياسة ما سواها من النفوس ، وإما للتكثير على الوجه المذكور في قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] وتسويتها إعطاء قواها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن وهي الحواس الظاهرة

(188/817)

والباطنة والقوى الطبيعية المخدومة والخادمة وغيرها ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قالت المعتزلة : هو كقول ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] أي علمناه وعرفناه سلوك طريقي الخير والشر ويعضده ما بعده ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ والتدسية ضد التزكية . وأصل دسي دسس قلب أحد حرفي التضعيف ياء كما في " قضيت " . والتدسيس مبالغة الدس وهو الإخفاء في التراب قال عز من قائل ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ [النحل : 59] والضمير في " زكى " و " دس " ل " من " وقال أهل السنة : الضمير أن لله تعالى و " من " عبارة عن النفس والمعنى : قد سعدت نفس زكاها الله تعال وخلقها طاهرة ، وخابت نفس دساها الله وخلقها كافرة فاجرة .

وقد يروى هذا الوجه عن سعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومقاتل والكلبي قالوا : أصل الإلهام من قولهم " لهم الشيء والتهمة " إذا ابتلعه و " ألهمته إياه " أي أبلعته ذلك . فالإلهام الإبلاع أي وضع الإيمان في قلب المؤمن والكفر في قلب الكافر . ثم وعظهم بقصة ثمود لقربها من ديارهم . ولأهل التأويل أن يقولوا : إنما خص هذه القصة لأن ناقة الله هي البدن وعبر بصالح عن الروح ، ولما كانت قصة ثمود مناسبة لأحوال النفس الإنسانية كما مرت في التأويلات ، وكانت هذه السورة مسوقة لبيان مراتب النفس في السعادة والشقاوة ، وخصت القصة بالذكر لذلك ، وعلى هذا التأويل قد يراد بالشمس تجلي النفس الناطقة على البدن بالتدبير الكامل ، وبالقمر الروح الحيواني . أو شمس المعرفة ، وقمر المكاشفة ، ونهار وليل المحو ، وسماء الروح وأرض القلب كما مر مراراً . والطغوى اسم من الطغيان كالتقوى من الوقاية قلبت ياؤه واواً فرقاً بين ما هي اسم وبين ما هي صفة كقولهم " امرأة خزياً وصدياً " والباء للآلة أي فعلت التكذيب بواسطة طغيانها . وقيل : المضاف محذوف والمجموع صفة للعذاب والباء للإلصاق أي كذبت ثمود بما أوعدت من العذاب ذي الطغوى كقوله ﴿ فأهلكوا بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] والأول أوضح لئلا يكون قوله ﴿

فكذبوه ﴾ تكراراً . ومعنى ﴿ انبعث ﴾ تحركت داعيته وقوي عزمه على العقر . ﴿ وأشقاها ﴾ عاقر الناقة قدار بن سالف ، أو هو مع من ساعده على ذلك فإن أفعل التفضيل يجوز أن لا يفرق فيه بين الواحد . والجمع وعلى هذا يجوز أن يكون الضمير في ﴿ لهم ﴾ عائداً إلى الجماعة الأشقياء ، وعلى الأول يكون عائداً إلى قوم صالح . و ﴿ ناقة الله ﴾ نصب على التحذير أي احذروا عقرها ﴿ وسقياها ﴾ فلا تعتدوا بها فإن لها شرباً ولكم شرب يوم ﴿ فكذبوه ﴾ فيام أوعدهم به من نزول العذاب إن فعلوا فعقروا الناقة ﴿ فدمدم ﴾ أي فأطبق ﴿ عليهم ﴾ العذاب . قالوا : هو مضعف من قولهم " ناقة مدمدمة " إذا ألبست الشحم .

(190/817)

والباء في ﴿ بذنبهم ﴾ للسببية فسوى الدمدمة بينهم بحيث لم يهرب منها أحد ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ كما يخاف ملوك الدنيا فينزجر عن استيفاء العقوبة . وجوز أن يكون الضمير لثمود أي فسوّاها بالأرض ، أو في الهلاك ولا يخاف تبعه بهلاكها وهو تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 506.509 ﴾

(191/817)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة الشمس

مكية وهي خمس عشرة آية وأربع وخمسون كلمة ومائتان وسبعة وأربعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الأسماء الحسنى ﴿ الرحمن ﴾ الذي يعلم السرّ وأخفى

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص خواصه بالفردوس الأعلى .

وقوله تعالى : ﴿ والشمس ﴾ ، أي : الجامعة بين النفع والضرّ ، بالنور والحرّ

﴿ وضحاها ﴾ قسم وقد تقدّم الكلام على أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وقيل : التقدير ورب الشمس إلى تمام القسم . واختلف في قوله تعالى : ﴿ وضحاها ﴾ فقال مجاهد والكلبي : ضوءها وقال قتادة : هو النهار كله . وقال مقاتل : هو حرّها ، وقال لقوله تعالى في طه : ﴿ ولا تضحى ﴾ (طه :) ، أي : لا يؤذيك الحرّ . وقال البريدي : انبساطها . قال الرازي : إنما أقسم بالشمس لكثرة ما يتعلق بها من المصالح ، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل ، فلما ظهر الصبح في المشرق صار ذلك الضوء كالروح الذي تنفخ فيه الحياة فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة في القوّة والزيادة إلى غاية كمالها وقت الضحوة ، وذلك يشبه استقرار أهل الجنة .

﴿ والقمر ﴾ ، أي : المكتسب من نورها كما أن أنوار النفوس من أنوار العقول ﴿ إذا

تلاها ﴾ ، أي : تبعها ، وذلك إذا سقطت رؤى الهلال . قال الليث : يقال تلوت فلاناً إذا اتبعته . وقال ابن زيد : إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب . وقال الفرّاء : تلاها ، أي : أخذ منها يعني أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . وقال الزجاج : تلاها ، أي : حين استوى ودار وكان مثلها في الضياء والنور وذلك في الليالي البيض .

﴿ والنهار ﴾ ، أي : الذي هو محل الانتشار فيما جرت به الأقدار ﴿ إذا جلاها ﴾ ، أي : الشمس بارتفاعه لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء وقيل : الضمير للظلمة أو للدنيا أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر ، كقولهم : أصبحت باردة يريدون الغداة ، وأرسلت يريدون السماء .

(192/817)

﴿ والليل ﴾ ، أي : الذي هو ضدّ النهار فهو محل السكون والانقباض ﴿ إذا يغشاها ﴾ ، أي : يغطيها بظلمته فتغيب وتظلم الآفاق وقيل : الكناية للأرض ، أي : يغشى الدنيا بالظلمة فتظلم الآفاق فالكناية ترجع إلى غير مذكور ، وجيء يغشاها مضارعاً دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل ؛ إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيب إذا غشيها فتفوت

المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع .

تنبيه : إذا في الثلاثة لمجرّد الظرفية والعامل فيها فعل القسم .

﴿ والسماء وما ﴾ ، أي : ومن ﴿ بناها ﴾ ، أي : خلقها على هذا السقف المحكم .

أقسم تعالى بنفسه وبأعظم مخلوقاته .

وقوله تعالى : ﴿ والأرض ﴾ ، أي : التي هي فراشكم ﴿ وما ﴾ ، أي : ومن

﴿ طحاها ﴾ ، أي : بسطها وسطحها على الماء كذلك .

وكذا قوله تعالى : ﴿ ونفس ﴾ ، أي : أي نفس جمع فيها سبحانه العالم بأسره ﴿ وما ﴾ ،

أي : ومن ﴿ سوّاها ﴾ ، أي : عدلها على هذا القانون الأحكم في أعضائها ، وما فيها من

الجواهر والأعراض والمعاني وغير ذلك . فإن قيل : لم نُكرت النفس ؟

أجيب : بوجهين:

أحدهما : أنه يريد نفساً خاصة من بين النفوس ، وهي نفس آدم عليه السلام ، كأنه قال

تعالى : وواحدة من النفوس .

ثانيهما : أنه يريد كل نفسٍ ، ونكره للتكثير على الطريقة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ علمت

نفس ﴾ (التكوير :)

وإنما أوثرت ما على من فيما ذكر لإرادة الوصفية بما ضمنا وإن لم يوصف بلفظها ؛ إذ المراد

أنها تقع على نوع من يعقل وعلى صفته ، ولذلك مثلوا بقوله تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب

لكم ﴾ (النساء :)

وقدّروها بأنكحوا الطيب ، وهذا تنفرد به ما دون من . وهذه الأسماء كلها مجرورة على القسم .

أقسم الله تعالى بأنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمّل المكلف فيها ويشكر عليها ، لأنّ الذي يقسم الله تعالى به يحصل به روح في القلب فتكون الدواعي إلى تأمّله أقرب .

(193/817)

﴿ فألهمها ﴾ ، أي : النفس ﴿ فجورها وتقواها ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : بين لها الخير والشرّ ، وعنه : علمها الطاعة والمعصية . وعن أبي صالح : عرّفها ما تأتي وما تتقي . وقال سعيد بن جبير : ألزمها فجورها وتقواها . وقال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها للفجور . واختار الزجاج هذا وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان .

قال البغوي : وهذا بين أنّ الله تعالى خلق في المؤمن التقوى وفي الكافر الفجور وعن أبي الأسود الدؤلي قال : قال لي عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ،

أشيء قضى عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلونه مما أتاهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم وثبتت الحجة عليهم ؟ قلت : بل شيء قضى عليهم ، ومضى عليهم ، فقال : أفلا يكون ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً وقلت : إنه ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (الأنبياء :)

فقال لي سدّدك الله إنما سألتك لأختبر عقلك . إنّ رجلاً من جهينة أو مزينة أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويكادحون فيه أشيء قضى الله عليهم من قدر سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وأكدت به الحجة ، فقال : في شيء قد مضى عليهم ، قال فقلت : ففيم العمل الآن ؟ قال : من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه الله لها .

وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى : ﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ " .

وعن جابر قال : "جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أو فيما يستقبل ؟ قال : "بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال : ففيم العمل ؟ قال : اعملوا وكل ميسر لما خلق له" . واختلف في جواب القسم فأكثر المفسرين على أنه:

﴿ قد أفلح ﴾ ، أي : ظفر بجميع المرادات ، والأصل : لقد وإنما حذفت لطول الكلام .

وقيل : إنه ليس بجواب وإنما جيء به تابعاً لقوله تعالى : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء ، والجواب محذوف تقديره : ليدمدمن الله عليهم ، أي : أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود ؛ لأنهم قد كذبوا صالحاً أو لتبعثن وقيل : هو على التقديم والتأخير من غير حذف .

والمعنى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ، أي : طهرها من الذنوب ونماها وأصلحها ، وصفاها تصفية عظيمة مما يسره الله تعالى له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة ﴿ وقد خاب ﴾ ، أي : خسر ﴿ من دساها ﴾ ، أي : أغواها إغواءً عظيماً أو أفسدها وأهلكها بخبائث الاعتقادات ، ومساوئ الأعمال وقبائح السيئات . ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وفاعل زكاها ودساها ضمير من ، وقيل : ضمير الباري سبحانه ، أي : قد أفلح من زكاها بالطاعة ، ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ ، أي : خسرت نفسٌ دساها الله تعالى بالمعصية .

وأنكر الزمخشري على صاحب هذا القول لمنافرته مذهبه ، ولكن قال بعض المفسرين : الحق أنه خلاف الظاهر لا كما قاله الزمخشري . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : خابت نفس أضلها الله تعالى وأغواها ، وأصل الزكاة النموّ والزيادة ، ومنه زكى الزرع إذا كثر ريعه

، ومنه تزكية القاضي الشاهد ؛ لأنه يرفعه بالتعديل . وأصل دساها دسسها من التدسيس ، وهو إخفاء الشيء فأبدل من السين الثانية ياء ، والمعنى : أخملها وأخفى محلها بالكفر والمعصية ، وعن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "اللهمّ إني أعوذ بك من العجز والكسل والبخل والجبن والهمّ" . وفي رواية : "والهرم وعذاب القبر اللهمّ آت نفسي تقواها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهمّ إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن دعوة لا يستجاب لها" .

(195/817)

﴿ كذبت ثمود ﴾ وهم قوم صالح ، كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام وأنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم ؛ لأنّ كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم ﴿ بطغواها ﴾ ، أي : أوقعت التكذيب لرسولها بكل ما أتى به عن الله تعالى ، أي : طغيانها . وقيل : إن الباء للاستعانة . قال الزمخشري : مثلها في كتبت بالقلم . والطغوى من الطغيان فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء واواً في الاسم ، وتركوا القلب في الصفة ، فقالوا : امرأة خزياً وصدياً ، يعني : فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول : ظلمني بجراءته

على الله تعالى . وقيل : كذبت بما أوعدت به من عذاب ذي الطغوى كقوله تعالى :

﴿ فأهلكوا بالطاغية ﴾ (الحاقة :)

﴿ إذ ﴾ ، أي : تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين ﴿ انبعث أشقاها ﴾ ، أي : قام وأسرع وذلك أنهم لما كذبوا بالعذاب ، وكذبوا صالحاً عليه السلام انبعث أشقى القوم وهو قدار بن سالف وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً فعقر الناقة ، وعن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطب فذكر الناقة والذي عقرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم متبع في أهله مثل أبي زمعة" . وقوله : عارم ، أي : شديد ممتنع . قال الزمخشري : ويجوز أن يكونوا جماعة . والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

تنبيه : إذ منصوب بكذبت أو بطغواها .

(196/817)

﴿ فقال لهم ﴾ ، أي : بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى ﴿ رسول الله ﴾ ، أي : صالح عليه السلام ، وعبر بالرسول لأنّ وظيفته الإبلاغ والتحذير الذي ذكر هنا ، ولذلك قال تعالى مشيراً بحذف العامل إلى ضيق الحال عن ذكره لعظم

الهول وسرعة التعذيب عند مسها بالأذى . وزاد في التعظيم بإعادة الجلالة ﴿ ناقة الله ﴾ ، أي : الملك الأعظم الذي له الأمر كله ، وهي منصوبة على التحذير كقولك : الأسد الأسد ، والصبي الصبي بإضمار اتقوا أو احذروا ناقة الله . ﴿ وسقياها ﴾ ، أي : وشربها في يومها ، وكان لها يوم ولهم يوم ؛ لأنهم لما اقترحوا الناقة فأخرجها لهم من الصخرة جعل لهم شرب يوم من بئرهم ، ولها شرب يوم فشق عليهم . وإضافة الناقة إلى الله تعالى إضافة تشريف كبيت الله .

﴿ فكذبوه ﴾ ، أي : صالحاً عليه السلام بطغيانهم في وعيدهم بالعذاب ﴿ فعقروها ﴾ ، أي : عقرها الأشقى بسبب ذلك التكذيب ، وأضيف إلى الكل ؛ لأنهم رضوا بفعله ، وإن كان العاقر جماعة فواضح . وقال قتادة : بلغنا إنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . وقال الفرّاء : عقرها اثنان ، والعرب تقول : هذان أفضل الناس وهذان خير الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ولهذا لم يقل أشقياها .

﴿ فدمدم ﴾ أي فأطبق ﴿ عليهم ربهم ﴾ ، أي : الذي أحسن إليهم فغمرهم إحسانه فقطعه عنهم بسبب تكذيبهم فأهلكهم وأطبق عليهم العذاب ، يقال : دمدمت عليه القبر أطبقته عليه ﴿ بذنبهم ﴾ ، أي : بسبب كفرهم وتكذيبهم وعقرهم الناقة . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ دمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ ، أي : بجرمهم . وقال القشيري : وقيل : دمدمت على الميت التراب ، أي : سوّيته عليه . فالمعنى على هذا : فجعلهم

تحت التراب ، ﴿ فسوّاها ﴾ ، أي : فسوّى عليهم الأرض فجعلهم تحت التراب وعلى الأوّل فسوّى الدمدمة عليهم ، أي : عمهم بها فلم يفلت منهم أحداً .

(197/817)

وقرأ ﴿ ولا يخاف ﴾ نافع وابن عامر بالفاء ، والباقون بالواو فالفاء تقتضي التعقيب ، والواو يجوز أن تكون للحال ، وأن تكون للاستئناف الإخباري . وضمير الفاعل في يخاف الأظهر عوده على الله تعالى ؛ لأنه أقرب مذكور ، وهو قول ابن عباس ، ويؤيده قراءة الفاء المسببة عن الدمدمة والتسوية والهاء في قوله تعالى : ﴿ عقباها ﴾ ترجع إلى الفعلة ، وذلك لأنه تعالى يفعل ذلك بحقَ . وكل من فعل فعلاً يحق فإنه لا يخاف عاقبة فعله .

وقيل : المراد تحقيق ذلك الفعل والله تعالى أجل من أن يوصف بذلك . وقيل : المعنى أنه تعالى بالغ في الإنذار إليهم مبالغة كمن لا يخاف عاقبة عذابهم . وقيل : يرجع ذلك إلى رسولهم صالح عليه السلام ، أي : لا يخاف عقبى هذه العقوبة لإنذاره إياهم ونجاه الله وأهلكهم . وقال السدّي : يرجع الضمير إلى أشقاها ، أي : انبعث لعقرها والحال أنه غير خائف عاقبة هذه الفعلة الشنعاء .

وقرأ الكسائي جميع رؤوس آي هذه السورة بالإمالة محضة ، وقرأها أبو عمرو بين بين ، وقرأ

ورش بالفتح وبين اللفظين ، وأمال حمزة مثل الكسائي إلا تلاها وضحاها ففتحهما ، والباقون بالفتح واتفقوا على فتح فعقروها . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة والشمس فكأنما تصدّق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 349 . 354 ﴾

(198/817)

وقال القاسمي :

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾

أي : ضوئها إذا أشرقت . قال الراغب : الضحى انبساط الشمس وامتداد النهار ، وبه سمي الوقت . وحقيقته - كما قال الشهاب - تباعد الشمس عن الأفق المرئي وبروزها للناظرين ، ثم صار حقيقة في وقته . وقال الإمام : يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم ؛ ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية في عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حياً أو تبصر نامياً ، أو هل كنت تجد نفسك ، لولا ضياء الشمس ، جلَّ مبدعهُ

؟

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ أي : تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك في الليالي البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربه مع الامتلاء ؛ إذ يضيء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم في الحقيقة بالضياء في طور آخر من أطواره ، وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه ؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء .

وفي هذه الأقسام كلها – كما قاله الإمام – إشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ولفت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى ، وفي قوله :

﴿ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ بيان للحالة التي ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة ، وهي حالة الصحو ، أما يوم الغيم الذي لا تظهر فيه الشمس ، فحاله أشبه بحال الليل الذي يقسم به في قوله :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ أي : يغشى الشمس ويعرض دون ضوئها فيحجبه عن الأبصار . وذلك في ليالي الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله في الآية المتقدمة : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر : 2] ، على القول الأخير .

قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة عبَّر في جانبها بالمضارع لا مفيد للحاق الشيء وعروضه متأخراً عما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلي الشمس دائماً من أوله إلى آخره ؛ وذلك شأن له في ذاته ، ولا ينفك عنه إلا لعارض كالغيم أو الكسوف قليل العروض . .

ولهذا عبَّر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله ، بدون إفادة أنه مما ينفك عنهُ .

﴿ وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا ﴾ أي : ومن رفعها ، وصيّرها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحكمة الزينة المحيطة بنا . فـ ﴿ مَا ﴾ موصولة بمعنى من أوثرت لإرادة الوصفية ، أي : والقادر الذي أبدع خلقها .

قالوا : وذكر ﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ مع أن في ذكر ﴿ السَّمَاء ﴾ غنية عنهُ ، للدلالة على إيجادها وموجدها صراحة .

﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ أي : بسطها من كل جانب ، لافتراشها وازدراعها والضرب في أكنافها .

قال الإمام : وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين ، أي : بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أي : خلقها فعدل خلقها ومزاجها ، وأعدها لقبول الكمال :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أي : أفهمها إياهما ، وأشعرها بهما ، بالإلقاء الملكي

والتمكين من معرفتهما ، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيولاني .

لطيفة :

جوز في ﴿ مَا ﴾ كونها مصدرية في الكل ، ولا يضرهُ خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفي لصحة الإضمار دلالة السياق وهي موجودة هنا ، وأن العطف على صلة ﴿ مَا ﴾ لا عليها مع صلتها . فكأنه قيل : ونفس تسويتها ، فإلهامها إلخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم في الوجه الأول توافق القرائن وهو أسدّ . وأما الثاني فوجه يتسع النظم الكريم لهُ . وأما تنكير ﴿ نَفْسٍ ﴾ فللتكثير أو التعظيم .

(200/817)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [9 - 12]

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ أي : زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام ، أو نمّاها بالعلم والعمل والوصول إلى الكمال وبلوغ الفطرة الأولى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ أي : أخملها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله تعالى

. هذا ما قاله ابن جرير : وقال غيره : أي : نقص تزكيتها وأخفى استعدادها وفطرتها التي خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من : دسّ الشيء في التراب ، أي : أدخله فيه وأخفاه . وأصل دسَّى دسَّسَ . كتقضّى البازي . وجملة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ إلخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

قال القاضي : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظائم الإله ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمالات القوة العملية .

وذهب الزمخشري إلى أن هذه الجملة كلام تابع لقوله :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : لَيُدَمْدِمَنّ الله عليهم ، أي : على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام .

وقد دل عليه قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أي : بسبب طغيانها ومجاوزتها الحدّ في الفجور . فالطغوى مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه ، على حذف مضاف أو بدونه مبالغة كما يوصف بغيره من المصادر ، أي : كذبت بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى ، كقوله :

﴿ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحدّ والزيادة في العذاب . والباء صلة ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ ظرف لـ ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ أو طغوى ، أي : حين قام وأشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسّها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعني صالحاً عليه السلام لقومه .

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ أي : احذروا واتقوا ناقة الله التي جعلها آية بينة وشربَها ، الذي اختصه الله به في يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر ، غير يوم الناقة ، كما بينته آية الشعراء قال :

﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 155 - 156] ، أي : لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها في شربها ويوم شربها ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي : فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي : قتلوها .

قال في "النهاية" : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى

استعمل في القتل والهلاك ، وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها ؛ ولذلك نسب التكذيب والعقر على جميعهم ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته ، استهانةً به واستخفافاً بما بعث به . وقيل : دمدم أطبق عليهم العذاب . وقيل : الدمدمة حكاية صوت الهدة ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : فسوى الدمدمة عليهم جميعاً ، فلم يفلت منهم أحد .

(202/817)

بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود ، أي : جعلها عليهم سواء ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أي : لا يخشى تبعة إهلاكهم لأنه العزيز الذي لا يغالب .

قال الشهاب : أي : لا يخاف عاقبتها كما يخاف الملوك عاقبة ما تفعله ؛ فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير في ﴿ يَخَافُ ﴾ لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول صلى الله عليه وسلم أي : أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل : الضمير للأشقى ، أي : أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو الحال أو الاستئناف .

تنبيه :

قال ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين ؛ ولهذا – والله أعلم – ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية . وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع . فقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] ، فهذا قدره وقضاؤه ثم قال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] ، فهذا أمره ودينه . وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 408.412 ﴾

(203/817)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الشمس

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)

سورة الشمس

تعريف بسورة الشمس الدرس الأول: 1 – 6 القسم بمشاهد كونية على طبيعة النفس الإنسانية

هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة , والإيقاع الموسيقي الواحد , تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية , واستعداداتها الفطرية , ودور الإنسان في شأن نفسه , وتبعته في مصيرها . . هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود , وتكذيبها بإنذار رسولها , وعقرها للناقة , ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه , فيدعها للفجور , ولا يلزمها تقواها : كما جاء في الفقرة الأولى في السورة: (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) . .

(والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) . .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية , كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها

. ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ; وأن يوجه إليها القلوب تتملاها , وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا (5)

بها من دلالة , حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

(204/817)

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقا بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية ! متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر . وبينها وبين الروح الإنساني تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت , وهي تنطق للقلب , وتوحي للروح , وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي , حيثما التقى بها وهو مقبل عليها , متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب , في شتى المواضع . تارة بالتوجيهات المباشرة , وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الحقائق والمشاهد , ووضعها إطارا لما يليها من الحقائق . وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة . فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق

إلى هذا الكون , يطلب عنده التجاوب والإيحاء . ويتلقى عنه – بلغة السر المتبادل – ما ينطق به من دلائل وما يبثه من مناجاة !

وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها . . بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة . وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى . في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش . وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها . فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها . وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله , ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

(205/817)

وبالقمر إذا تلاها . . إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي . . وبين القمر والقلب البشري ود قديم موغل في السرائر والأعماق , غائر في شعاب الضمير , يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في اية حال . وللقمر همسات وإيحاءات للقلب , وسبحات وتسبيحات للخالق , يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب . . وإن القلب ليشعر أحيانا أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء , ويغسل أدرانه , ويرتوي ,

ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله .

ويقسم بالنهار إذا جلاها . . مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار . والضمير في (جلاها) . . الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكورة في السياق . . ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة . وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري , يستدعيها التعبير استدعاء خفيا . فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها . وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها . وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره . فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى .

ومثله: (والليل إذا يغشاها) . . والتغشية هي مقابل التجلية . والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه . وهو مشهد له في النفس وقع . وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

(206/817)

ثم يقسم بالسماء وبنائها: (والسماء وما بناها) . . (وما) هنا مصدرية . ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا , تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها . فأما حقيقة السماء فلا ندريها . وهذا الذي

نراه فوقنا متماسكا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه . أما كيف هو مبني , وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولا ولا آخرا . . فذلك ما لا ندريه . وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل . ولا قرار لها ولا ثبات . .

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)

إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله هي تمسك هذا البناء : (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) . . وهذا هو العلم المستيقن الوحيد !

كذلك يقسم بالأرض وطحوها : (والأرض وما طحاها) . . والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة . وهي حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية . وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره . وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه . . وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى: والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها . وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات . ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر . فحين يذكر هنا بطحو الأرض , فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه . ويلمس القلب البشري هذه

ثم تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم , مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره . وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق: (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها , وقد خاب من دساها) . .

وهذه الآيات الأربع , بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة: (وهديناه النجدين) . . وآية سورة الإنسان: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) . . تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام . . وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان , كقوله تعالى في سورة "ص": (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . . كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية: كقوله تعالى في سورة المدثر: (كل نفس بما كسبت رهينة) . . والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان , كقوله تعالى في سورة الرعد: إن الله لا

يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها . .

(208/817)

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة , مزدوج الاستعداد , مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه [من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه] مزود باستعدادات متساوية للخير والشر , والهدى والضلال . فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر . كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هذه القدرة كامنة في كيانه , يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة:(ونفس وما سواها , فألهمها فجورها وتقواها) . . ويعبر عنها بالهداية تارة:(وهديناه النجدين) . . فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد . . والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك . ولكنها لا تخلقها خلقا . لأنها مخلوقة فطرة , وكائنة طبعا , وكامنة إلهاما .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان . هي التي تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها

وتنمية استعداد الخير فيها , وتغليبه على استعداد

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13)

الشر . . فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب:(قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) . .

وهناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء . فهي حرية تقابلها تبعة , وقدرة يقابلها تكليف , ومنحة يقابلها واجب . .

(209/817)

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي , ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف , فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة , وتكشف له عن موحيات الإيمان , ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله , وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة . . وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره

وتسير فيه . وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان . وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي: فهي أولا ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني , حين تجعله أهلا لاحتمال تبعة اتجاهه , وتمنحه حرية الاختيار [في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار] فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم , ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده , وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانيا تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره , وتجعل أمره بين يديه [في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا] فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى . وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . . وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو !

وهي ثالثا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة , ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه , ولم يضلله , كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة , ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه . وبذلك يظل قريبا من الله , يهتدي بهديه , ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق !

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها , وهو يغتسل في نور الله الفائض , ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود . .

بعد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه , فيحجبها عن الهدى ويدنسها . ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك:

(كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها) . .

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح - عليه السلام - في مواضع شتى من القرآن . وسبق الحديث عنها في كل موضع . وأقربها ما جاء في هذا الجزء في سورة "الفجر" فيرجع إلى تفصيلات القصة هناك .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

(211/817)

فأما في هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها , فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب . وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها . وهو الذي عقر

الناقة . وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوما ولهم يوم كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية – ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته , لأن الله لم يقل لنا عنه شيئا – فكذبوا النذير فعقروا الناقة . والذي عقرها هو هذا الأشقى . ولكنهم جميعا حملوا التبعة وعدوا أنهم عقروها , لأنهم لم يضربوا على يده , بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الإجتماعية في الحياة الدنيا . لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر .

عندئذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى: (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) .

.

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل . واللفظ ذاته . . (دمدم) يوحي بما وراءه , ويصور معناه بجرسه , ويكاد يرسم مشهدا مروعا مخيفا ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها , وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد . .

(ولا يخاف عقباها) . . سبحانه وتعالى . . ومن ذا يخاف ? وماذا يخاف ? وأنى يخاف ? إنما يراد من هذا التعبير لازمة المفهوم منه . فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل , يبلغ غاية

البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان:إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس . .

(212/817)

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة , ومشاهده الثابتة , كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله في أخذ المكذبين والطغاة , في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلا , ولكل حادث موعدا , ولكل أمر غاية , ولكل قدر حكمة , وهو رب النفس والكون والقدر جميعا . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3915 . 3919 ﴾

(213/817)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الشَّمْسِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)

في تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى سبع مرات بسبع آيات كونية ، هي الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ، والنفس البشرية ، مع حالة لكل مقسم به ، وذلك على شيء واحد ، وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها ، ومع كل آية جاء القسم بها توجيهاً إلى أثرها العظيم المشاهد الملموس ، الدال على القدرة الباهرة .

وذلك كالآتي أولاً : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها ، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل تقدير ، وهي على الزمان بدون انتقاص ، فهي في ذاتها آية .

ثم جاء وصف أثرها وهو : ضحاها ، وهو انتشار ضوئها ضحوة النهار ، وهذا وحده آية ، لأن نتيجة لحركتها ، وحركتها آية من آيات الله كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [يس : 37-38] ، وهي الآية التي حاج بها إبراهيم عليه السلام نمروذ في قوله : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ ﴾ [البقرة : 258] .

ففي هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية ، وضحاها : نتيجة لهذا السير ، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله ، من انتشار في الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها .

وقد قالوا : لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشيء ، لأنها تحرق باقترابها ، ويتجمد العالم من بعدها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

فالضحى وحده آية وهو حرها كقوله : ﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تضحى ﴾ [طه : 119] ، أي بحرّ الشمس ، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده في قوله تعالى : ﴿ والضحى والليل إِذَا سجى ﴾ [الضحى : 1-2] .

(214/817)

وقوله : ﴿ والقمر إِذَا تَلاَهَا ﴾ [الشمس : 2] ، فهو كذلك القمر وحده آية ، وكذلك تلوه للشمس ونظام مسيره بهذه الدقة ، وهذا النظام فلا يسبقها ولا تفوته : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَا أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِذَا تَلاَهَا ﴾ أي تلا الشمس ، دلالة على سير الجميع ، وأنها سابقته وهو تاليها .

فقيل : تاليها عند أول الشهر تغرب ، ويظهر من مكان غروبها .

وقد قال بعض أهل الهيأة : تاليها في منزلة الحجم ، أي كبرى وهو كبير بعدها في الحجم ، وفيه نظر .

ولا يخفى ما في القمر من فوائد للخليقة ، من تخفيف ظلمة الليل ، وكذلك بعض الخصائص على الزرع ، وأهم خصائصه بين الشهور بتقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم ، وحج

، وزكاة ، وعدد السناء ، وكفارات بصوم ، وحلول الديون ، وشروط المعاملات ، وفي كل ما له صلة بالحساب في عبادة أو معاملة .

وقد جاء القسم بالقمر في المدثر في قوله : ﴿ كَلاَّ والقمر والليل إِذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 32-33] الآية ، وقوله ﴿ والقمر إِذَا اتسق ﴾ [الانشقاق : 18] ، ما يدل على عظمة آيته ودقة دلالته .

وقوله : ﴿ والنهار إِذَا جَلاَّهَا ﴾ [الشمس : 3] ، والنهار هو أثر من آثار ضوء الشمس .

وجلالها . قيل : الضمير فيه راجع للشمس كما في الذي قبله ، ولكن اختار ابن كثير أن يكون راجعاً للأرض ، أي كشفها وأوضح كل ما فيها ليتيسر طلب المعاش والسعي ، كقوله : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [يونس : 67] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 47] .

(215/817)

وقد أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى : أي ظهر ووضح بدون ضمير إلى غيره في قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ﴾ [الليل : 1-2] ، أي في مقابلة غشاوة الليل يكون يتجلي النهار .

وقد بين تعالى عظم آية النهار وعظم آية الليل ، وأنه لا يقدر على الإتيان بهما إلا الله ، كما في قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 71 : 72] .

وقوله : ﴿ والليل إذا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : 4] ، قالوا يغشى الشمس فينحجب ضياؤها ، والكلام على الليل ، كالكلام على النهار ، من حيث الآية . والدلالة على قدرته تعالى .

وتقدمت النصوص الكافية وسيتي الإقسام بالليل في قوله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] ، أي يغشى الكون كله ، كما في قوله : ﴿ والليل وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق : 17] ، أي جمع واشتمل بظلامه .

والضمير في يغشاها : راجع إلى الشمس ، وعليه ، قيل : إن الإقسام في هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس في حالات مختلفة في ضحاها ثم تجليها ، ثم تلو القمر لها ، ثم يغشيان الليل إياها ، وهنا سؤال : كيف يغشى الليل الشمس ، مع أن الليل وهو الظلمة نتيجة لغروب

الشمس عن الجهة التي فيها الليل ؟

فقيل : إن الليل يغطي ضوء الشمس ، فتتكون الظلمة ، والواقع خلاف ذلك . وهو أن الشمس ظاهرة وضوؤها منتشر ، ولكن في قسم الأرض المقابل للظلمة الموجودة ، كما أن الظلمة تكون في القسم المقابل للنهار ، وهكذا .

ولذا قال ابن كثير : إن الضمير في يغشاها وجلاها راجع إلى الأرض ، إلا أن فيه مغايرة في مرجع الضمير ، والله تعالى أعلم .

(216/817)

قووله : ﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5] ، قيل : ما ، بمعنى الذي ، وجيء بها بدلاً عن من ، التي لأولى العلم ، لإشعارها معنى الوصفية ، أي والسماء والقادر الذي بناها ، وكذلك ما بعدها في الأرض ، وما طحاها ونفس ، والحكيم العليم الذي سواها ، وما مشترك بين العالم وغيره ، كقوله : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا آَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] ، ومثله ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] .

وتقدم مراراً أحوال السماء في بنائها ورفعها ، وجعلها سبعاً طباقاً ، وقد بين في تلك النصوص كيفية بنائها ، وأنه سبحانه وتعالى بناها بقوة ، كما في قوله تعالى : ﴿ والسمآء

بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] ، أي بقوة ، وقوله تعالى : ﴿ والأرض وَمَا طَحَاهَا ﴾ [الشمس : 6] مثل دحاها .

وقالوا : إبدال الدال طاء مشهور ، وطحا تأتي بمعنى خلق ، وبمعنى ذهب في كل شيء ، فمن الأول :

وما تدري جذيمة من طحاها . . . ولا من ساكن العرش الرَّفيع

ومن الثاني قول علقمة :

طحا بك قلب في الحسان طروب . . . يعيد الشباب عصر حان مشيب

ولا منافاة في ذلك بأنه تعالى خلقها ومدها ، وذهب بأطرافها كل مذهب ، أي في مدها .

تنبيه

قالوا : ذكر السماء وما بناها ، للدلالة على حدوثها ، وبالتالي على حدوث الشمس والقمر ، وأن تدبيرهما لله .

وقوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7-8] ، قالوا : النفس تحمل كامل خلقة الإنسان بجسمه وروحه وقواه الإنسانية ، من تفكير وسلوك . . . إلخ .

وقيل : النفس هنا بمعنى القوى المفكرة المدركة مناط الرغبة والاختيار ، وعليه فذكر النفس بالمعنى الأول ، تكون تسويتها في استواء خلقتها وتركيب أعضائها ، وهي غاية في الدلالة على القدرة والكمال والعلم ، كما في قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ، وقال : ﴿ وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ، أي من أعضاء وأجزاء وتراكيب وعدة أجهزة تبهر العقول في السمع ، وفي البصر ، وفي الشم ، وفي الذوق ، وفي الحس ، ومن داخل الجسم ما هو أعظم ، فحق أن يقسم بها .

وما سواها : اي بالقدرة الباهرة ، والعلم الشاملز وذكرها بالمعنى الثاني ، فإنه في نظري أعظم من المعنى الأول ، وذلك أن القوى المدركة والمفكرة والمقدرة للأمور التي لها الاختيار ، ومنها القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع ، فإنها عالم مستقل .

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم ، لأن الجانب الخلقي قال تعالى فيه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [غافر : 57] ، ولكن في هذا الجانب قال : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] .

ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق واداها بوفاء ، ونال رضى الله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه .

فهذه النفس في تسويتها لتلقى معني الخير والشر ، واستقبال الإلهام الإلهي للفجور ، والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد ، والتي لا تمسك سلباً ولا إيجاباً .

وهنا مثال بسيط فيما استحدث من آلات حفظ وحساب ، كالآلة الحاسبة والعقل الألكتروني ، فإنها لا تخطئ كما يقولون ، وقد بهرت العقول في صفتها ، ولكن بنظرة بسية نجدها أمام النفس الإنسانية كقطرة من بحر .

(218/817)

فنقول : إنها أولاً من صنع هذه النفس ذات الإدراك النامي والاستنتاج الباهر .

ثانياً : هي لا تخطئ لأنها لا تقدر أن تخطئ ، لأن الخطأ ناشئ عن اجتهاد فكري ، وهي لا اجتهاد لهما ، إنما تشير وفق ما رسم لها كالمادة المسجلة في شريط ، فإن المسجل مع دقة حفظه لها فإنه لا يقدر أن يزيد ولا ينقص حرفاً واحداً .

أما الإنسان فإنه يغير ويبدل ، وعندما يبدل كلمة مكان كلمة ، فلقدرته على إيجاد الكلمة الأخرى ، أو لاختياره ترك الكلمة الأولى .

وهكذا هنا ، فالله تعال هنا خلق تلك النفس أولاً ، ثم سواها على حال تقبل تلقي الإلهام

بقسيمة : الفجور والتقوى ، ثم تسلك أحد الطريقين ، فكأن مجيء القسم بها بعد تلك المسميات دلالة على عظم ذاتها وقوة دلالتها على قدرة خالقها ، وما سواها مستعدة قابلة لتلقي إلهام الله إياها .

تنبيه

وفي مجيئها بعد الآيات الكونية . من شمس وقمر وليل ونهار ، وسماء وأرض ، لفت إلى وجوي التأمل في كل المخلوقات ، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها والاستدلال على تغير الأزمان ، وحركة الأفلاك ، وإحداث السماء بالبناء أنه لا بد لهذا العالم من صانع ، ولا بد للمحدث المتجدد من فناء وعدم .

كما عرض إبراهيم عليه السلام على النمروذ نماذج الاستدلال على الربوبية والألوهية ، فأشار إلى الشمس أولاً ، ثم إلى القمر ، ثم انتقل به إلى الله سبحانه .

وقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] ، إن كان ألهمها بمعنى هداها وبين لها ، فهو كما في قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [البلد : 10] ، وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 3] ، وهذا على الهداية العامة ، التي بمعنى الدلالة والبيان .

وإن مان بمعنى التيسير والإلزام ، ففيه إشكال القدر في الخير والاختيار .

وقد بحث هذا المعنى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب بحثاً وافياً .

(219/817)

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 9-10] .

هذا هو جواب القسم فيما تقدم ، فالواو قد حذفت منه اللام لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه .

وقد نوه عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] ، من سورة ص ، وأنهم استدلوا لهذه الآية عليه .

والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام لطول الفصل ، وزكاها بمعنى طهّرها ، وأول ما يطهرها منه دنس الشرك ورجسه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] ، وتطهيرها منه بالإيمان ثم من المعاصي بالتقوى ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ [النجم : 32] ، ثم بعمل الطاعات ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 14-15] .

واختلف في مرجع الضمير في زكاها ودساها ، وهو يرجع إلى اختلافهم في ﴿ فَأَلْهَمَهَا

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 8] ، فهل يعود إلى الله تعالى ، كما في ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] ، أم يعود على العبد .

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص . فمما يستدل به للقول الأولى قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : 49] ، وقوله : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [النور : 21] ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية : " اللَّهم أئت نفسي تقواها وزكها ، أنت خير من زكاها ، وانت وليها ومولاها " .

ومما استدل به للقول الثاني فكقوله :

(220/817)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 14-15] ، وقوله : ﴿ وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله المصير ﴾ [فاطر : 18] ، وقوله : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فتخشى ﴾ [النازعات : 18-19] ، وقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [عبس : 3] ، وكلها كما ترى محتملة ، والإشكال فيها كالإشكال فيما قبلها .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن الجمع بين تلك النصوص كالجمع في التي قبلها ، وأن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل في طاعة وترك لمعصية ، فإنه بفضل من الله ، كما في قوله تعالى المصرح بذلك ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ﴾ [النور : 21] .

وكل النصوص التي فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى العبد ، فإنها بفضل من الله ورحمة ، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للإيمان ، فهو الذي يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح . وترك المعاصي ، كما في قولك " لا حول ولا قوة إلا بالله " وقوله : ﴿ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] ، وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء : 49] ، إنما هو بمعنى المدح والثناء ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] ، بل إن في قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : 49] ، الجمع بين الأمرين ، القدري والشرعي ، ﴿ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ بفضله ، ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ بعدله . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ إِذِ انبعث أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

ثمود اسم للقبيلة أسند إليها التكذيب ، أي بنبي الله صالح ، واشقاها هو عاقر الناقة أسند الانبعاث له وحه بين ما جاء بعده ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس : 14] ، فأسند العقر لهم .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الجمع بين ذلك في سورة الزخرف ، ومضمونه أنهم متواطئون معه كما في قوله : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] ، فكانوا شركاء له في عقرها كما قال الشاعر :

والسامع الذم شريك لقائه . . . ومطعم المأكول شريك للآكل

وفي قصة أبي طلحة في صيد الحمار الوحشي ، سالهم النَّبي صلى الله عليه وسلم وهم محرومون للعمرة " هل دله عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ، قال : هل عاونه عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ، قال : فكلوا إذاً " ، لأن مفهومه : لو عاونوا أو دلوا لكانوا شركاء في صيده ، فيحرم عليهم لقوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ [المائدة : 95] ، وبعدم اشتراكهم حل لهم ، فلو عاونوا أو شاركوا لحرّم عليهم ، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سواء عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فعقرها وحده ، كان هذا باسم الجميع ، فكانت العقوبة باسم الجميع ، ويؤخذ من هذا قتل الجماعة بالواحد ، وعقوبة الربيئة مع الجاني ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الشَّمْسِ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ :

رَوَى ابْنُ وَهْبٍ وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَا : أَخْرَجَ إلَيْنَا مَالِكٌ مُصْحَفًا لِجَدِّهِ زَعَمَ أَنَّهُ كَتَبَهُ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، حِينَ كَتَبَ الْمَصَاحِفَ ، مِمَّا فِيهِ : وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا بِالْوَاوِ ، وَهَكَذَا قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو مِنْ الْقُرَّاءِ السَّبْعَةِ وَغَيْرُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : لَمْ يَقْرَأْ بِهِ نَافِعٌ ، وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : السُّنَّةُ قِرَاءَةُ نَافِعٍ .

قُلْنَا : لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَلَا كُلُّ سَامِعٍ يَفْهَمُ عَنْهُ فِي قِرَاءَةِ نَافِعٍ الْهَمْزَ وَحَذْفَهُ ، وَالْمَدَّ وَتَرْكَهُ ، وَالتَّفْخِيمَ وَالتَّرْقِيقَ ، وَالْإِدْغَامَ وَالْإِظْهَارَ ، فِي نَظَائِرَ لَهُ مِنْ الْخِلَافِ فِي الْقِرَاءَاتِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ السُّنَّةَ فِي تَوَسُّعِ الْخَلْقِ فِي الْقِرَاءَةِ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ مِنْ غَيْرِ ارْتِبَاطٍ إلَى شَيْءٍ مَخْصُوصٍ مِنْهَا .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ﴾ ، وَقَدْ ثَبَتَ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاذٍ : لَا تَكُنْ فَتَّانًا ، اقْرَأْ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ وَنَحْوَهُمَا ﴾ ، فَخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(223/817)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الشمس

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1)

قوله : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾ : قد تقدَّم في " طه " الكلامُ على هذه المادةِ وقال المبرد : " إن الضُّحى والضَّحْوَة مشتقان من الضَّحِّ وهو النورُ ، فأُبْدلت الألفُ والواوُ من الحاءِ " هذا يكادُ يكونُ اختلاقاً على مثلِ أبي العباس لجلالتِه .

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3)

قوله : ﴿ جَلَّاهَا ﴾ : الفاعلُ ضميرُ النهارِ ، وقيل : عائدٌ على الله تعالى . والضميرُ

المنصوبُ : إمَّا للشمسِ ، وإمَّا للظُّلمةِ ، وإمَّا للدنيا ، وإمَّا للأرضِ .

قوله : ﴿ إِذَا تَلاَهَا ﴾ وما بعدَه فيه إشكالٌ ؛ لأنه إنْ جُعِل شرطاً اقتضى جواباً ، ولا جوابَ لفظاً ، وتقديرُه غيرُ صالحٍ ، وإنْ جُعِلَ ظرفاً مَحْضاً استدعى عاملاً ، وليس هنا عاملٌ إلاَّ فعلُ القسم ، وإعمالُه مُشْكِلٌ ؛ لأنَّ فعلَ القسمِ حالٌ لأنه إنشاءٌ ، و " إذا " ظرفٌ مستقبلٌ ، والحال لا يعملُ في المستقبلِ . وسيأتي جوابُ هذا وتحقيقُه عند ذِكْري سَبْرَه وتقسيمَه قريباً إن شاء الله تعالى .

(224/817)

ويَخُصُّ " إذا " الثانيةَ وما بعدها إشكالٌ آخرُ ذكره الزمخشري فيه غموضٌ فتنبَّهْ له قال : " فإن قلتَ : الأمرُ في نصبِ " إذا " مُعْضِلٌ ؛ لأنك لا تخلو : إمَّا أَنْ تجعلَ الواواتِ عاطفةً فتنصِبَ بها وتَجُرَّ فتقعَ في العطفِ على عاملَيْن ، وفي نحو قولك : " مررتُ أمسِ بزيدٍ واليومَ عمروٍ " وإمَّا أَنْ تجعلَهُنَّ للقسم فتقعَ فيما اتَّفق الخليلُ وسيبويه على استكراهِه . قلت : الجوابُ فيه أن واوَ القسم مُطَّرَحٌ معها إبرازُ الفعلِ أَطِّراحاً كلياً ، فكان لها شأنٌ خلافَ شأنِ الباء حيث أُبْرِزَ معَها الفعلُ وأُضْمِرَ ، فكانت الواوُ قائمةً مَقامَ الفعلِ ، والباءُ سادَّةٌ مَسَدَّهما معاً ، والواواتُ العواطفُ نوائبُ عن هذه الواوِ فحققن أَنْ يَكُنَّ عواملَ عملَ الفعلِ

والجارِّ جميعاً كما تقول : " ضربَ زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً " فترفعُ بالواوِ وتنصِبُ ، لقيامِها مَقامَ " ضرب " الذي هو عامِلُهما " انتهى .

قال الشيخ : " إمَّا قولُه : " في واوات العطف : فتَنْصِبَ بها وتجرَّ " فليس هذا بالمختار ، أعني أَنْ يكونَ حرفُ العطفِ عاملاً لقيامِه مَقامَ العاملِ ، بل المختارُ أنَّ العملَ إنما هو للعاملِ في المعطوفِ عليه ، ثم إنا لا نُشاحُّه في ذلك . وقوله : " فتقع / في العطفِ على عاملَيْن " ليس ما في الآيةِ من العطفِ على عاملَيْن ، وإنما هو مِنْ بابِ عطفِ اسمَيْن : مجرورٍ ومنصوبٍ على اسمَيْن : مجرورٍ ومنصوبٍ ، فحرفُ العطفِ لم يَنُبْ مَنابَ عامِلَيْنِ ، وذلك نحوُ قولِك : " امرُرْ بزيدٍ قائماً وعمروٍ جالساً " وأنشدَ سيبويهِ في كتابه :

4578 وليس بمعروفٍ لنا أَنْ نَرُدَّها . . . صِحاحاً ولا مُسْتَنْكرٍ أن تُعَقَّرا

(225/817)

فهذا مِنْ عَطْفِ مجرورٍ ومرفوعٍ ، على مجرورٍ ومرفوعٍ ، والعطفُ على عاملَيْن فيه أربعةُ مذاهبَ ، ونُسِب الجوازُ إلى سيبويهِ . وقوله : وفي قولِك : " مررْتُ أمسِ بزيدٍ واليومَ عمروٍ " هذا المثالُ مُخالِفٌ لما في الآيةِ ، بل وزانُ ما في الآية : " مررْتُ بزيدٍ أمسٍ وعمروٍ اليومَ "

ونحن نُجيز هذا وأمَّا قولُه " على استكراه " فليس كما ذَكَر ، بل كلامُ الخليلِ يَدُلُّ على المَنْعِ قال الخليلُ في قولِه عزَّ وجلّ :

(226/817)

﴿ والليلِ إذَا يغشى والنهارِ إذَا تجلى وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 13] . الواوان الأخيرتان ليستا بمنزلةِ الأولى ، ولكنهما الواوانِ اللتان تَضُمَّان الأسماءَ إلى الأسماء في قولِك : " مررتُ بزيدٍ وعمرو " والأولى بمنزلةِ التاء والباء . وأمَّا قولُه : إنَّ واوَ القسم مُطَّرَحٌ معها إبرازُ الفعلِ اطِّراحاً كلياً " فليس هذا الحكمُ مُجْمَعاً عليه ؛ بل أجازَ ابنُ كَيْسانَ التصريحَ بفعلِ القسمِ مع الواوِ ، فتقول : أُقْسِم – أو أَحْلِفُ – واللَّهِ لَزيدٌ قائمٌ ، وأمَّا قَولُه : " والواوات العواطفُ نوائبُ عن هذه " إلى أخره فمبنيٌّ على أَنْ حرفَ العطفِ عاملٌ لنيابتِه منابَ العاملِ وليس هذا بالمختار " قال : " والذي نقوله : إنَّ المُعْضِلَ هو تقديرُ العاملِ في " إذا " بعد الأقسام ، كقوله : ﴿ والنجمِ إذَا هوى ﴾ [النجم : 1] ﴿ والليلِ إذْ أَدْبَرَ ﴾ [المدثر : 33] ﴿ والصبحِ إذَآ أَسْفَرَ ﴾ [المدثر : 34] ﴿ والقمرِ إذَا تَلاَهَا ﴾ ﴿ والليلِ إذَا يغشى ﴾ [الليل : 1] وما أَشْبهها ، فإذا ظرفٌ مستقبلٌ ، لا جائزٌ أَنْ يكونَ العاملُ فيه فعلَ القسمِ المحذوفِ لأنه فعل إنشائيٌّ فهو في الحال ينافي أَنْ يَعْمَلَ في المستقبلِ

لاختلافِ زمانِ العاملِ وزمانِ المعمولِ . ولا جائزٌ أَنْ يكونَ ثمَّ مضافٌ محذوفٌ ، أُقيم المُقْسَمُ به مُقامه ، أي : وطلوعِ النجمِ ومجيءِ الليلِ ، لأنه معمولٌ لذلك الفعلِ ، فالطلوعُ حالٌ ولا يعملُ في المستقبل ضرورةَ أنَّ زمانَ العاملِ زمانُ المعمول . ولا جائزٌ أَنْ يعملَ فيه نفسُ المُقْسَمِ به ؛ لأَنه ليس من قبيلِ ما يَعْمل ، لا سيما إنْ كان جُرْماً . ولا جائزٌ أنْ يُقدَّرَ محذوفٌ قبل الظرفِ فيكونُ قد عملَ فيه ، ويكون ذلك العاملُ في موضعِ الحال وتقديرُه : والنجمِ كائناً إذا هوى ، والليلِ كائناً إذا يَغْشى ؛ لأنه يَلْزَمُ "كائناً " أنْ لا يكونَ منصوباً بعاملٍ ، ولا

(227/817)

يَصِحُّ أَنْ يكونَ معمولاً لشيءٍ مِمَّا فَرَضْناه أن يكونَ عاملاً . وأيضاً فقد يكونُ المُقْسَمُ به جثةً وظروفُ الزمانِ لا تكون أحوالاً عن الجثثِ ، كما لا تكونُ أخباراً " انتهى ما رَدَّ به الشيخُ وما استشكلَه مِنْ أمرِ العاملِ في " إذا " وأنا بحمدِ اللَّهِ أتتبَّعُ قولَه وأبيِّنُ ما فيه .

فقوله : " إن المختارَ أن حرفَ العطفِ لا يعملُ لقيامِه مَقامَ العاملِ فلا يَلْزَمُ أبا القاسم ، لأنه يختارُ القولَ الآخَرَ . وقوله : " ليس ما في هذه الآيةِ مِنْ العطفِ على عاملَيْن "ممنوعٌ بل فيه العطفُ على عاملَيْن ولكنْ فيه غموضٌ ، وبيانُ أنه مِنْ العطفِ على عاملَيْن : أنَّ قولَه : ﴿ والنهارِ إذا جَلاَّهَا ﴾ هنا معمولان أحدُهما مجرورٌ وهو " النهار " والآخرُ منصوبٌ وهو

الظرفُ ، عطفاً على معمولَيْ عاملَيْن ، والعاملان هما : فعلُ القسمِ الناصبُ ل " إذا " الأولى ، وواوُ القسمِ الجارَّةُ ، فقد تحقَّق معك عاملانِ لهما معمولان ، فإذا عَطَفْتَ مجروراً على مجرور ، وظرفاً على ظرف ، معمولَيْن لعاملَين لَزِم ما قاله أبو القاسم . وكيف يُجْهَلُ هذا ما التأمُّلِ والتحقيق ؟

وأمَّا قولُه : " وأنشد سيبويهِ إلى آخره " فهو اعترافٌ منه بأنَّه من العطفِ على عاملَيْن ، غايةُ ما في الباب أنه استندَ إلى جاهِ سيبويهِ .

وأمَّا قولُه " أجازَ ابنُ كَيْسان / فلا يَلْزَمُه مذهبُه . وأمَّا قولُه : " فالمثالُ كالآيةِ ، بل وزانها إلى آخره " فصحيحٌ لما فيه مِنْ تقديمِ الظرفِ الثاني على المجرورِ المعطوفِ ، والآيةُ الظرفُ فيها متأخرٌ ، وإنما مرادُ الزمخشريِّ وجودُ معمولَيْ عاملَيْنِ ، وهو موجودٌ في المثالِ المذكورِ ، إلاَّ أنَّ فيه إشكالاً آخر : وهو أنَّه كالتكريرِ للمسألةِ .

(228/817)

وأمَّا قولُه " بل كلامُ الخليلِ يَدُلُّ على المنعِ إلى آخره " فليس فيه رَدٌّ عليه بالنسبةِ إلى ما قصدَه ، بل فيه تقويةٌ لِما قالَه . غايةُ ما في البابِ أنه عَبَّر بالاستكراهِ عن المنعِ ، أو لم يَفْهَمِ المَنْعَ .

وقوله : " ولا جائزٌ أَنْ يكونَ ثَمَّ مضافٌ محذوفٌ " إلى آخره ، فأقول : بل يجوزُ تقديرُه : وهو

العاملُ ، ولا يَلْزَمُ ما قال مِنْ اختلاف الزمانَيْن ؛ لأنه يجوز أَنْ يُقْسِمَ الآن بطلوع النجمِ في المستقبل ، فالقَسَمُ في الحالِ والطُّلوعُ في المستقبلِ ، ويجوز أَنْ يُقْسِمَ بالشيء الذي سيوجَدُ . وقوله : " ولا جائزٌ أَنْ يُقدَّرَ محذوفٌ قبل الظرفِ ، فيكون قد عَمِل فيه " إلى آخره ليس بممنوع بل يجوز ذلك ، وتكون حالاً مقدرةً . قوله : "يَلْزَم أَنْ لا يكونَ له عاملٌ " ليس كذلك بل له عاملٌ وهو فعلُ القسم ، ولا يَضرُّ كونُه إنشائياً ؛ لأنَّ الحالَ مقدرةٌ كما تقدَّم . قوله : " وقد يكونُ المُقْسَمُ به جثةً " جوابُه : يُقَدَّرُ حينئذٍ حَدَثٌ يكون الظرفُ الزمانيُّ حالاً عنه ، وهذه المسألةُ سُئِلَ عنها الشيخُ أبو عمرو ابنُ الحاجبِ ونَقَّحَ فيها السؤالَ وأجابَ بنحوِ ما ذَكَرْتُه واللَّهُ أعلمُ ، ولا يخلُو الكلامُ فيها مِنْ نزاعٍ وبحثٍ طويلٍ معه .

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)

قوله : ﴿ يَغْشَاهَا ﴾ المفعولُ للشمسِ . وقيل : للأرض ، وجيء ب "يَغْشاها " مضارعاً دونَ ما قبلَه وما بعدَه مراعاةً للفواصلِ ؛ إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيبُ " إذا غَشِيَها " فتفوتُ المناسبةُ اللفظيةُ بين الفواصلِ والمقاطع .

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5)

قوله : ﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ : وما بعدَه ، فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ " ما " موصولةٌ بمعنى الذي ، وبه استشهد مَنْ يُجَوِّزُ وقوعَها على آحادِ أولي العلم ؛ لأنَّ المرادَ به الباري تعالى ، وإليه ذهب الحسنُ ومجاهدٌ وأبو عبيدةَ ، واختاره ابن جرير . والثاني : أنها مصدريةٌ ، أي : وبناءِ السماء ، وإليه ذهبَ الزجَّاج والمبرد ، وهذا بناءً منهما على أنها مختصةٌ بغيرِ العقلاءِ ، واعْتُرِضَ على هذا القولِ : بأنَّه يَلْزَمُ أَنْ يكونَ القَسَمُ بنفسِ المصادر : بناءِ السماء وطَحْوِ الأرضِ وتَسْوِيةِ النفس ، وليس المقصودُ إلاَّ القَسَمَ بفاعلِ هذه الأشياءِ وهو الرَّبُّ تبارك وتعالى . وأُجيب عنه بوجهَيْن ، أحدُهما : يكونُ على حَذْفِ مضافٍ ، أي : وربِّ - أو باني - بناءِ السماء ونحوه . والثاني : أنه لا غَرْوَ في الإقسام بهذه الأشياء كما أَقْسم تعالى بالصبح ونحوه .

وقال الزمخشري : " جُعِلَتْ مصدريةً وليس بالوجهِ لقولِه " فأَلْهمها " وما يؤدي إليه مِنْ فسادِ النظم . والوجهُ أَنْ تكونَ موصولةً ، وإنما أُوْثِرَتْ على " مَنْ " لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسماءِ والقادرِ العظيم الذي بناها ، ونفس والحكيمِ الباهرِ الحكمةِ الذي سَوَّاها . وفي كلامهم : " سبحانَ ما سَخَّرَكُنَّ لنا " انتهى . يعني أنَّ الفاعلَ في " فألهمها " عائدٌ على اللَّهِ تعالى فليكُنْ في " بناها " كذلك ، وحينئذٍ يَلْزَمُ عَوْدُه على شيءٍ وليس هنا ما يمكنُ عَوْدُه عليه غيرُ " ما " فتعيَّنَ أَنْ تكونَ موصولةً .

وقال الشيخ : " أمَّا قولُه : " وليس بالوجهِ لقولِه " فَأَلْهمها " يعني مِنْ عَوْدِ الضميرِ في " فَأَلْهمها " على الله تعالى ، فيكونُ قد عاد على مذكورٍ وهو " ما " المرادُ به الذي . قال : " ولا يَلْزَمُ ذلك ؛ لأنَّا إذا جَعَلْناها مصدريةً عاد الضميرُ على ما يُفْهَمُ مِنْ سياقِ الكلامِ ، ففي " بناها " ضميرٌ عائدٌ على الله تعالى ، أي : وبناها هو ، أي : الله تعالى ، كما إذا رأيتَ زيداً قد ضرب عَمْراً فتقول : " عجبتُ مِمَّا ضَرَبَ عمراً " تقديره : مِنْ ضَرْبِ عمروٍ هو ، كان حسناً فصيحاً جائزاً ، وعَوْدُ الضمير على ما يُفْهَمُ مِنْ سياقِ الكلامِ كثيرٌ وقوله : " وما يُؤدِّي إليه مِنْ فسادِ النظم " ليس كذلك ، ولا يُؤدِّي جَعْلُها مصدريةً إلى ما ذُكِرَ ، وقوله : " وإنما أُوْثِرَتْ " إلى آخره لا يُراد بما ولا بمَنْ الموصولتين معنى الوصفيةِ ؛ لأنهما لا يُوْصفُ بهما بخلاف " الذي " فاشتراكُهما في أنَّهما لا يُؤَدِّيان معنى الوصفيةِ موجودٌ بينهما فلا تنفردُ به " ما " دون " مَنْ " وقوله : : وفي كلامِهم " إلى آخره تَأَوَّله أصحابُنا على أنَّ " سبحان " عَلَم و " ما " مصدريةٌ ظرفيةٌ " انتهى .

(231/817)

أمَّا ما رَدَّ به عليه مِنْ كونِه يعود على ما يُفْهَمُ من السِّياق فليس يَصْلُح رَدّاً ، لأنه إذا دار الأمرُ بين عَوْدِه على ملفوظٍ به وبينَ غيرِ ملفوظٍ به فعَوْدُه على الملفوظِ به أولى لأنَّه الأصلُ . وأمَّا قولُه : فلا تنفرد به " ما " دونَ " مَنْ " فليس مرادُ الزمخشري أنها تُوْصَفُ بها وصْفاً صريحاً ، بل مُرادُه أنها تقعُ على نوعِ مَنْ يَعْقل ، وعلى صفتِه ، ولذلك مَثَّل النَّحْويون ذلك بقوله : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ ﴾ [النساء : 3] ، وقالوا : تقديره : فانْكِحُوا الطيِّبَ مِنْ النساءِ ، ولا شكَّ أن هذا الحكمَ تَنْفَرِدُ به " ما " دون مَنْ . والتنكيرُ في " نفس " : إمَّا لتعظيمِها ، أي ، نفس عظيمة ، وهي نفسُ آدمَ ، وإمَّا للتكثيرِ كقولِه : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ [الانفطار : 5]

.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)

قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه جوابُ القسم ، والأصل : لقد ، وإنما حُذِفَتْ لطولِ الكلامِ . والثاني : أنه ليس بجوابٍ وإنما جيْءَ به تابعاً لقولِه ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطرادِ ، وليس مِنْ جوابِ القسم في شيءٍ ، فالجوابُ محذوفٌ تقديرُه : لَيُدَمْدِمَنَّ اللَّهُ عليهم ، أي : على أهلِ مكةَ لتكذيبِهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، كما دَمْدَمَ على ثمودَ لتكذيبِهم صالحاً صلَّى الله عليه وسلم ، قال معناه الزمخشري ، وقدَّره غيرُه : لتُبْعَثُنَّ .

وقوله : ﴿ طَحَاهَا ﴾ [الشمس : 3] ، أي : دَحاها ، وقد تقدَّم معناه . وفيه لغتان ،

يقال : طحا يَطْحوا وطحى يَطْحي . ويجيءُ طحا بمعنى ذهب ، قال علقمة :

4579 طحا بك قَلْبٌ في الحِسانِ طَروبُ . . . بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشيبُ

(232/817)

ويقال : طحا بمعنى ارتفعَ . وفي أقسامِهم : " ولا والقمرِ الطَّاحي " ، أي : المرتفعُ . وفاعلُ " زكَّاها " و " دَسَّاها " الظاهرُ أنه ضميرُ " مَنْ " وقيل : ضميرُ الباري تعالى ، أي : مَنْ زكاهَا اللَّهُ ، ومَنْ دَسَّاها اللَّهُ ، أي : مَنْ زكَّى اللَّهُ نفسَه . وأنحى الزمخشريُّ على صاحبِ هذا القولِ لمنافرتِه مذهبَه ، والحقُّ أنَّه خلافُ الظاهرِ ، لا لما قال الزمخشريُّ ، بل لمنافرةِ نظمِه للاحتياجِ إلى عَوْدِ الضميرِ على النفسِ مقيدةً بإضافتِها إلى ضمير " مَنْ "

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)

قوله : ﴿ دَسَّاهَا ﴾ : أصلُه دسَّسَهَا فكَثُرَتْ الأمثالُ فأُبْدِلَ مِنْ ثالِثها حرفَ علةٍ كما قالوا : قَصَّيْتُ [أَظْفاري] و [قولِه] :

4580 تَقَضِّيَ البازِي . . . . . والتَّدْسِيَةُ : الإِخفاءُ بمعنى أخفاها بالفجورِ ، وقد نَطَق بالأصل مَنْ قال :

4581 وأنت الذي دَسَّسْتَ عمراً فأصبحَتْ . . . حَلائلُه منه أراملَ ضُيَّعاً

ومن قال :

4582 ودَسَّسْت عَمْراً في التراب فأصبحَتْ . . . . . .

. . . . . .

البيت .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11)

قوله : ﴿ بِطَغْوَاهَآ ﴾ : في هذه الباء ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها للاستعانةِ مجازاً ، كقولِه : "كتبتُ بالقلمِ " وبه بدأ الزمخشري ويعني فَعَلَتِ التكذيبَ بطُغْيانها ، كقولك : " ظلمَني بجُرْأتِه على الله تعالى " الثاني : أنها للتعدية ، أي : كَذَبَتْ بما أُوْعِدَتْ به مِنْ عذابها ذي الطُّغيان ، كقولِه تعالى ﴿ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] . والثالث : أنها للسببية ، أي : بسبب طُغْيانِها .

(233/817)

وقرأ العامَّةُ " طَغْواها " بفتح الطاءِ وهو مصدرٌ بمعنى الطُّغيان ، وإنما قُلِبَتْ الياءُ واواً فَرْقاً بين الاسمِ والصفةِ ، يعني ، أنهم يُقِرُّون ياءَ فَعْلى بالفتح صفةً نحو : خَزْيا وصَدْيا ، ويَقْلبونها في الاسم نحو : تَقْوى وشَرْوى ، وكان الإقرارُ في الوصفِ لأنه أثقلُ مِنْ الاسمِ ، والياءُ أخفُّ

من الواوِ ، فلذلك جُعِلت في الأثقل .

وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماد بضم الطاء ، وهو أيضاً مصدرٌ كالرُّجْعى والحُسْنى ، إلاَّ أنَّ هذا شاذ إذ كان مِنْ حَقّه بقاءُ الياءِ على حالِها كالسُّقْيا وبابها ، هذا كلُّه عند مَنْ يقول : طَغَيْتُ طُغْياناً بالياءِ ، فأمَّا مَنْ يقول : طَغَوْت بالواو فالواوُ أصلٌ عنده ، قاله ابو البقاء ، وقد تقدَّم الكلامُ على اللغتين في البقرة والله الحمدُ .

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12)

قوله : ﴿ إِذِ انبعث ﴾ : "إذِ" يجوزُ فيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونَ ظرفاً ل "كذَّبَتْ" والثاني : أَنْ يكونَ ظرفاً للطَّغْوى .

و"أشْقاها" فاعلُ "انبعَث" وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يُراد به شخصٌ واحد بعينه . وفي التفسيرِ أنه رجل يُسَمَّى قُدار بن سالف . والثاني : أن يُراد به جماعةٌ ، قال الزمخشري : "ويجوز أن يكونوا جماعةً [والتوحيد] / لتَسْوِيَتك في أفعلِ التفضيل إذا اضفْتَه ، بين الواحدِ والجمع والمذكرِ والمؤنثِ ، وكان يجوز أَنْ يقول : أشْقَوْها " انتهى . وكان ينْبغي أَنْ يُقَيِّد فيقول : إذا أضَفْتَه إلى معرفةٍ ؛ لأن المضافَ إلى النكرةِ حُكْمُه الإفرادُ والتذكيرُ مطلقاً كالمقترنِ ب "مِنْ" .

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13)

قوله : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ ﴾ : إنْ كان المرادُ ب " أَشْقاها " جماعةً فعَوْدُ الضميرِ مِنْ " لهم " عليهم واضحٌ ، وإنْ كان المرادُ به عَلَماً بعينِه فالضميرُ مِنْ " لهم " يعودُ على ثمود .

(234/817)

قوله : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ منصوبٌ على التحذير ، أي : احْذَروا ناقةَ اللَّهِ فلا تَقْرَبُوها ، وإضمارُ الناصبِ هنا واجبٌ لمكانِ العطف ، فإنَّ إضمارَ الناصبِ يجبُ في ثلاثةِ مواضعَ ، أحدُها : أن يكونَ المحذَّرُ نحو : " إياك " وبابه . الثاني : أن يُوجدَ فيه عطفٌ . الثالث : أَنْ يوجَدَ فيه تَكْرارٌ نحو : " الأسدَ الأسدَ " وقرأ زيد بن علي " ناقةُ اللَّهِ " رفعاً على خبرِ ابتداء مضمرٍ ، أي : هذه ناقةُ اللَّهِ فلا تتعرَّضوا لها .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14)

قوله : ﴿ فَدَمْدَمَ ﴾ : الدَّمْدَمَةُ . قيل : الإطباقُ يُقال : دَمْدَمْتُ عليه القبرَ ، أي : أَطْبَقْتُه عليه . وقيل : الإلزاقُ بالأرض . وقيل : الإهلاكُ باستئصال . وقيل : الدَّمْدَمَةُ حكايةُ صوتِ الهَدَّة ومنه : دَمْدَمَ في كلامه . ودَمْدَمْتُ الثوبَ : طَلَيْتُه بالصَّبْغ . والباءُ في " بذنْبهم " للسببية .

قوله : ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ الضميرُ المنصوبُ يجوزُ عَوْدُه على ثمودَ باعتبار القبيلةِ كما أعادَه في

قولِه "بَطَغْواها " ويجوزُ عَوْدُه على الدَّمْدَمَة والعقوبةِ ، أي : سَوَّاها بينهم ، فلم يَفْلَتْ منهم أحدٌ . وقرأ ابن الزبير " فَدَهْدَمَ " بهاءٍ بين الدالَيْن بدلَ الميم ، وهي بمعنى القراءةِ المشهورةِ .

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

(235/817)

قوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ ﴾ : قرأ نافعٌ وابنُ عامر " فلا " بالفاء ، والباقون بالواو ، ورُسِمَتْ في مصاحفِ المدينة والشام بالفاء وفي غيرِها بالواوِ ، فقد قرأ كلٌّ بما يوافقُ رَسْمَ مُصْحَفِه . ورُوِيَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأُ " ولم يَخَفْ " وهي مُؤَيِّدَةٌ لقراءةِ الواوِ ، ذكره الزمخشري ، فالفاءُ تقتضي التعقيبَ ، وهو ظاهرٌ . والواوُ يجوزُ أَنْ تكونَ للحالِ ، وأنْ تكونَ لاستئنافِ الأخبارِ ، وضميرُ الفاعل في "يَخاف " يحتملُ عَوْدُه على الرَّبِّ ، وهو الأظهرُ ، لكونِه أقربَ مذكورٍ . والثاني : أنه يعودُ على رسولِ الله ، أي : ولا يخاف عقبى هذه العقوبةِ لإنذاره إياهم . والثالث : أنه يعودُ على " أشقاها " أي : انبعَثَ لعَقْرها ، والحالُ أنه غيرُ خائفٍ عاقبةَ هذه الفَعْلَةِ الشنعاءِ . وعقبى الشيء خاتمتُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 13.25 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الشمس

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " إخبار عن وجود الحق بنعت القدم ، " الرحمن الرحيم " إخبار بقائه بوصف العلاء والكرم .

كاشف الأرواح بقوله : " بسم الله " فهيمها ، وكاشف النفوس بقوله : " الرحمن الرحيم " فتيمها ، فالأرواح دهشى في كشف جلاله ، والنفوس عطشى إلى لطف جماله .

قوله جل ذكره : ﴿ والشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ .

ضَحَا الشمسِ صَدْرُ وقت طلوعها .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ﴾ .

أي : تَبِعَها ؛ وذلك في النصف الأول من الشهر .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ .

إذا جلَّى الشمسَ وكَشَفَها .

﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ .

أي : يَغْشَى الشمس (فيذهب بضوئها) .

﴿ وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ .

أي : وبنائها . ويقال : ومَنْ بناها .

﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ .

أي : وطَحْوها . ويقال : ومَنْ طحاها (أي بسطها أو قسمها أو خلقها) .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ .

ومن سوَّى أجزاءها وأعضاءها .

﴿ فَأَلْهَمَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .

أي : بأن خَذَلَها ووَفَّقَها .

ويقال : فجورها : حركتها في طلب الرزق ، وتقواها : سكونها بِحُكْمِ القدير .

وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ .

هذا جواب القَسَم . أي " لقد أفلح من زكاها " .

ويقال : مَنْ زكَّاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دساها ﴾ .

أي : دسَّها الله . وقيل : دسَّها في جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خاب مَنْ دسَّ نَفْسَه بمعصية الله . وقيل دسَّاها : جعل خسيسةً حقيرةً . وأصل الكلمة دسسها .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ .

﴿ بِطَغْوَاهَآ ﴾ : لطغيانها ، وقيل : إن صالحاً قد مات ، فكَفَر قومُه ، فأحياه اللَّهُ ، فدعاهم إلى الإيمان ، فكذَّبوه ، وسألوه علامةً وهي الناقة ، فأتاهم صالح بما سألوا .

﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ .

(237/817)

" أشقاها " عاقِرُها .

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ .

أي : احذروا ناقةَ اللَّهِ ، واحذروا سقياها : أي لا تتعرَّضوا لها .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

أي كذَّبوا صالحاً ، فعقروا الناقة .

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِم فَسَوَّاهَا ﴾ .

أي : أهلكهم بجُرْمِهم " فسوَّاها " : أي أَطبق عليهم العذاب .

ويقال : سَوَّى بينهم ربُّهم في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ .

أي : أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة .

ويقال : قد أفلح مَنْ دَاوَمَ على العبادة ، وخابَ مَنْ قصَّرَ فيها .

وفائدة السورة : أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَه عن الذنوب والعيوبِ ، ثم عن الأطماع في الأعواض والأغراض ، ثم أَبْعَدَ نَفْسَه عن الاعتراض على الأقسام ، وعن ارتكاب الحرام . وقد خابَ من خانَ نَفْسَه ، وأهملها عن المراعاة ، ودَنَّسَهَا بالمخالفات ، فلم يرضَ بعَدَمِ المعاني حتى ضمَّ إلى فَقْرِها منها الدعاوى المظلمة . . فغرقت في بحرِ الشقاء سفينَتُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 732 . 734 ﴾

(238/817)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحاها (1) وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها (2) وَالنَّهارِ إِذا جَلاَّها (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (4)

وَالسَّماءِ وَما بَناها (5) وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6) وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8)

الإعراب :

(والشمس) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إذا) ظرف مجرّد من الشرط في محلّ نصب متعلّق بفعل أقسم المقدّر ، وكذلك في الموضعين التاليين (ما) حرف مصدريّ " 1 " في المواضع الثلاثة (الفاء) عاطفة . . .

---

(1) إذا جاز استعمال (ما) لمن يعقل أو لآحاد أولي العلم فهو اسم موصول في محلّ جرّ معطوف على السماء ، وكذلك في الموضعين التاليين .

و المصدر المؤوّل (ما بناها . .) في محلّ جرّ معطوف على السماء .

والمصدر المؤوّل (ما طحاها . .) في محلّ جرّ معطوف على الأرض .

والمصدر المؤوّل (ما سوّاها) في محلّ جرّ معطوف على نفس .

جملة : " (أقسم) بالشمس . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " تلاها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " جلّاها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يغشاها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " بناها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الأول .

وجملة : " طحاها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

وجملة : " سوّاها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثالث .

وجملة : " ألهمها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سوّاها . . وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثنّ " 1 " .

الصرف :

(2) تلاها : فيه إعلال بالقلب أصله تلوها – مضارعه يتلو – بفتح الواو ، فلمّا تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا .

---

(1) أو ليد مدمنّ الله على كفّار مكّة – كما جاء في الكشّاف – ويجوز أن يكون جواب القسم جملة قد أفلح . . . – في الآية (9) من هذه السورة – بحذف اللام لطول الكلام .

---

(3) جلّاها : فيه إعلال بالقلب ، أصله جلّيها - بتحريك الياء بالفتح - قلبت الياء ألفا لأنها تحرّكت بعد فتح .

(6) طحاها : أي بسطها . . فيه إعلال بالقلب قيل أصله طحوها وقيل طحيها . . جاء في القاموس طحا كسعى بمعنى بسط ، وطحا يطحو بعد وهلك وألقى إنسانا على وجهه ، والطحا المنبسط من الأرض .

(8) فجور : مصدر سماعيّ للثلاثيّ فجر ، وزنه فعول بضمّ الفاء والعين .

[سورة الشمس (91) : الآيات 9 إلى 10]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9) وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق في الموضعين (من) موصول في محلّ نصب مفعول به في الموضعين . .

جملة : " قد أفلح من . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " زكّاها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " قد خاب من . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " دسّاها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثانيّ .

الصرف :

(9) زكّاها : فيه إعلال بالقلب ، عين الفعل في المجرد واو تحرّكت بعد فتح قلبت ألفا .

(10) خاب : فيه إعلال بالقلب ، أصله خيب - مضارعه يخيب - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(دسّاها) قيل الألف منقلبة عن سين والأصل دسّسها - بثلاث سينات - فلمّا توالت الأمثال قلبت السين ياء ، ثمّ جرى فيه إعلال بالقلب . . قال أهل اللغة : والأصل دسّسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء فأبدلت سينه ياء .

[سورة الشمس (91) : الآيات 11 إلى 14]

---

(1) أو هي جواب القسم ، واللام فيها محذوفة لطول الكلام .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (12) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (14)

الإعراب :

(بطغواها) متعلّق بـ (كذّبت) ، و(الباء) للسببيّة ، أو للاستعانة المجازيّة (إذ) ظرف في محلّ نصب متعلّق بـ (كذّبت) ، (الفاء) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (قال) ، (ناقة) مفعول به لفعل محذوف على التحذير أي : ذروا ناقة اللّه ، أي : احذروا عقرها (سقياها) معطوف على ناقة منصوب . .

جملة : "كذّبت ثمود " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " انبعث أشقاها " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال لهم رسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " (ذروا) ناقة اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

14 – (الفاء) عاطفة في المواضع الأربعة (عليهم) متعلّق بـ (دمدم) بمعنى أطبق (بذنبهم) متعلّق بـ (دمدم) و(الباء) للسببيّة .

وجملة : "كذّبوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال لهم .

وجملة : " عقروها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوه .

وجملة : " دمدم عليهم ربّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عقروها .

وجملة : " سوّاها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دمدم .

الصرف :

(11) طغواها : مصدر سماعيّ للثلاثيّ طغا يطغو باب نصر ، وطغى يطغى باب فتح ،

وزنه فعلى .

(13) سقياها : الاسم من السقي أو ما يسقى به ، وزنه فعلى بضمّ فسكون ، والألف في (السقيا) ترسم طويلة لمجيء الياء قبلها . .

الفوائد :

- الإغراء والتحذير :

1 - التحذير أسلوب في الكلام يراد منه تنبيه المخاطب إلى أمر مكروه ليجتنبه .

(242/817)

---

2 - الإغراء : أسلوب في الكلام يراد منه ترغيب المخاطب بأمر محمود ليقوم به .

3 - يشترك أسلوبا التحذير والإغراء بالصور الآتية :

أ - أن يذكر المحذر منه والمغرى به مفردا منصوبا بفعل محذوف جوازا ، مثل :

(الكذب فإنه طريق الشر) أي احذر الكذب ، (الصدق فإنه طريق البرّ) أي الزم الصدق .

وهنا حذف الفعل جائز ، أي أن ذكره غير خطأ .

ب - أن يرد كل منهما مكررا ، مثل (الكذب الكذب فإنه طريق الفجور) ، (الصدق الصدق فإنه طريق البر) .

ج – أن يرد كل منهما معطوفا عليه ، مثل (الأمانة والإحسان فإنهما من خلق المؤمن) (الكذب والغشّ فإنهما طريق الهلاك) وفي الحالتين الأخيرتين : (ب ، ج) يجب حذف الفعل . ونعرب الاسم : منصوبا على الإغراء والتحذير ، فإن تكرر نعرب المكرر توكيدا لفظيا لا محلّ له من الإعراب ، أما المعطوف فهو اسم معطوف على المغرى به أو المحذر منه .

وينفرد التحذير بصورة ، وهي تصديره بضمير النصب (إيّاك) وفروعه : إياكما – إياكم – إياكن – . . . إلخ) ويأتي بعده المحذر منه معطوفا عليه ، أو مجرورا بمن ، مثل : (إياك والكذب) أو (إياك من الكذب) . ونعرب إياك : في محلّ نصب على التحذير ، والكذب : الواو حرف عطف . الكذب مفعول به لفعل محذوف تقديره اجتنب أي (احذر إياك واجتنب الكذب) .

[سورة الشمس (91) : آية 15]

وَلا يَخافُ عُقْباها (15)

الإعراب :

(الواو) حالية – أو استئنافيّة – (لا) نافية ، وفاعل (يخاف) ضمير يعود على فاعل سوّاها أي اللّه " 1 " .

---

(1) يجوز أن يكون عائدا على الرسول المنذر . . أو يعود على عاقر الناقة . [. . . . .]

جملة : " لا يخاف . . . " في محلّ نصب حال من فاعل سوّاها " 1 " .

الصرف :

(يخاف) ، فيه إعلال بالقلب أصله يخوف – بفتح الواو – مصدره الخوف ، نقلت حركة الواو إلى الخاء ثمّ قلبت الواو ألفا لفتح ما قبلها . .

(عقباها) ، اسم بمعنى جزاء الأمر أو عاقبته ، وزنه فعلى بضمّ الفاء وسكون العين .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَلَا يَخافُ عُقْباها " .

أي عاقبتها وتبعتها كما يخاف المعاقبون من الملوك عاقبة ما يفعلونه وتبعته ، فهو استعارة تمثيلية ، لإهانتهم وأنهم أذلاء عند اللّه جل جلاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 339.344 ﴾

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة لا محلّ لها .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(91) سورة الشّمس

مكيّة وآياتها خمس عشرة

[سورة الشمس (91) : الآيات 1 إلى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحاها (1) وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها (2) وَالنَّهارِ إِذا جَلاَّها (3) وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (4)

وَالسَّماءِ وَما بَناها (5) وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6) وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (9)

وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (12) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (14)

وَلا يَخافُ عُقْباها (15)

اللغة :

(وَضُحاها) قال القرطبي : " الضحى مؤنثة يقال ارتفعت الضحى فوق الضحو وقد تذكر

فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضحوة ومن ذكر

ذهب إلى أنها اسم على فعل نحو صرد " وقال ابن خالويه : " الضحى مقصور مثل هدى والضحى مؤنثة تصغيرها ضحية والأجود أن تقول في تصغيرها ضحيّ بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة والضحى وجه النهار ويقال ليلة اضحيان إذا كان القمر فيها مضيئا من أولها إلى آخرها وقد أضحى النهار إذا ارتفع ويقال : ضحي فلان للشمس يضحى إذا برز لها وظهر قال اللّه تعالى : وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، ورأى ابن عمر رجلا يلبي وقد أخفى صوته فقال له أضح لمن لبّيت له أي اظهر وقال عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت فيضحى وأيما بالعشيّ فيخصر "

وفي القاموس : " الضّحو والضحوة والضّحية كعشيّة ارتفاع النهار والضحى فويقة ويذكر ويصغر ضحيّا بلا هاء والضحاء بالمدّ إذا قرب انتصاف النهار وبالضم والقصر وأتيتك ضحوة وضحى وأضحى صار فيها والشيء أظهره وضاحاه أتاه فيها " .

(245/817)

(جَلَّاها) أظهرها وكشفها .

(طَحاها) بسطها لأن ما يظهر للرائي فيها يكون كالبساط فلا ينافي كرويتها وفي المختار "

طحاه : بسطه مثل دحاه وبابه عدا " وفي القاموس " وطحا يطحو بعد وهلك وألقى إنسانا على وجهه والطحا المنبسط من الأرض وطحى كسعى وبسط وانبسط واضطجع وذهب في الأرض وطحا به قلبه ذهب به في كل شيء " .

(دَسَّاها) التدسية : النقص والإخفاء بالفجور وأصل دسى دسس كما قيل في تقضض تقضى وكما قيل قصيت أظفاري وأصله قصصت أظفاري .

(فَدَمْدَمَ) أطبق عليهم العذاب بذنبهم فأهلكهم قال الفراء :

" وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده ويقال دمدمت على الشيء أطبقت عليه " وفي الصحاح " ودمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض ودمدم اللّه عليهم أي أهلكهم ويقال : دمدمت على الميت التراب أي سوّيته عليه " وقال ابن الأنباري : " دمدم أي غضب والدمدمة الكلام الذي يزعج الرجل " وفي القاموس : " ودمم الأرض سواها وفلانا عذبه عذابا تاما والقوم أهلكهم كدهدم ودمدم عليهم " .

(عُقْباها) تبعتها وعاقبتها ، وفي القاموس : " وأعقبه اللّه بطاعته جازاه والعقبى جزاء الأمر " .

الإعراب :

(وَالشَّمْسِ وَضُحاها وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها) الواو حرف قسم وجر والشمس مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف وضحاها عطف على الشمس والقمر عطف أيضا وإذا لمجرد الظرفية متعلقة بفعل القسم المحذوف وقد استشكل بأن فعل القسم إنشاء وزمانه الحال فلا يعمل في إذا لأنها للاستقبال والإلزام اختلاف العامل والمعمول في الزمان وهو محال وأجيب بأنه يجوز أن يقسم الآن بطلوع النجم في المستقبل فالقسم في الحال والطلوع في المستقبل ويجوز أن يقسم بالشيء المستقبل كما تقول : أقسم باللّه إذا طلعت الشمس فالقسم متحتّم عند طلوع الشمس وإنما يكون فعل القسم للحال إذا لم يكن معتمدا على شرط ، هذا وقد بسطنا القول بسطا مفيدا ووافيا عند الكلام على سورة التكوير وجملة تلاها في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَالنَّهارِ إِذا جَلَّاها وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها) الجملتان منسوقتان على ما تقدم مما ثلثان له في الإعراب (وَالسَّماءِ وَما بَناها وَالْأَرْضِ وَما طَحاها) عطف أيضا و" ما " في الجمل الثلاث مصدرية أو بمعنى من وعلى كل حال فهي معطوفة على الاسم قبلها أو المصدر المنسبك منها ومن الفعل معطوف عليه ، وشجب الزمخشري كونها مصدرية . (وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها) منسوق أيضا على ما تقدم والتنكير في نفس لإرادة الجنس كأنه قال وواحدة من النفوس (فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) الفاء عاطفة وألهمها فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وفجورها مفعول به ثان

وتقواها عطف على فجورها ، وقد اختلفوا في معنى الإلهام قال ابن جبير ألزمها ، وقال ابن عباس عرفها ، وقال ابن زيد : بين لها ، وقال الزجّاج وفّقها للتقوى وألهمها فجورها أي خذلها وقيل عرفها وجعل لها قوة يصحّ معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى ، وقال الزمخشري :

(247/817)

" و معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ما شاء منهما " وفيه تلميح إلى مذهب المعتزلة القائل بالتحسين والتقبيح العقليين أي إن الحسن والقبح مدركان بالعقل ، أما أهل السنّة فيقولون بالتحسين والتقبيح الشرعيين أي إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية مع عدم إلغاء خط العقل من إدراك الأحكام الشرعية وعندهم أنه لا بدّ في علم كل حكم شرعي من مقدمتين عقلية وهي الموصلة إلى العقيدة وسمعية مفرغة عليها وهي الدالّة على خصوص الحكم .

هذا والإلهام في اللغة إلقاء الشيء في الروع ، قال الراغب : ويختص بما يكون من جهته تعالى وجهة الملأ الأعلى ، قال تعالى : فألهمها فجورها وتقواها ، فعلم أنه غير مختص بالخير بل

يعمّه والشر ، وفي الاصطلاح إلقاء معنى في القلب بطريق الفيض من غير كسب فيختصّ بالخير لعدم إطلاق الفيض في الشرّ بل يطلق فيه الوسوسة (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها) الجملة جواب القسم وحذفت اللام لطول الكلام وقيل الجواب محذوف تقديره لتبعثنّ وقال الزمخشري : " تقديره ليدمدمنّ اللّه عليهم أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا وأما قد أفلح فكلام تابع لقوله فألهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء " وقد حرف تحقيق وأفلح فعل ماض ومن موصول فاعل وجملة زكّاها صلة وفاعل زكاها ضمير يعود على من وقيل ضمير اللّه تعالى أي قد أفلح من زكّاها اللّه تعالى بالطاعة وقد خاب من دسّاها عطف على الجملة السابقة مماثلة لها (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما ذكر من فلاح من زكى نفسه أو زكّاها اللّه ومن دسى نفسه أو دساها اللّه .

(248/817)

و كذبت ثمود فعل ماض وفاعل وبطغواها متعلقان بكذبت ومعنى الباء السببية أي بسبب طغيانهم وجعلها في الكشاف للاستعانة مجازا كقولك كتبت بالقلم يعني فعلت التكذيب بطغيانها ، وكل من الطغوى والطغيان مصدر لكن اختير التعبير بالطغوى لأنه أشبه برءوس الآي ، قال في المختار : " طغى يطغى بفتح الغين فيهما ويطغو طغيانا وطغوانا أي جاوز الحدّ وطغي بالكسر مثله والطغوى بالفتح مثل الطغيان " أما الزمخشري فقال " والطغوى من الطغيان فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى من بنات الياء بأن قلبوا الياء واوا في الاسم وتركوا القلب في الصفة فقالوا : امرأة خزيا وصديا " وإذا ظرف لما مضى من الزمن متعلق بكذبت أو بالطغوى وجملة انبعث في محل جر بإضافة الظرف إليها ، وأشقاها فاعل انبعث والمراد به قدار بن سالف بضم القاف ويضرب به المثل في الشؤم فيقال أشأم من قدار ويلقب بأحمر ثمود ويجوز أن يكونوا جماعة والإفراد لتسويتك في التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وعبارة ابن خالويه وقد خلط بها خلطا عجيبا : " فإذا كان المذكر أشقى فالمرأة شقواء لأنه من ذوات الواو كقوله : " ربنا غلبت علينا شقوتنا " وشقاوتنا و" ها " جرّ بالإضافة وجمع أشقى شقو مثل حمر وصفر فإن جمعت جمع سلامة قلت في المذكر أشقون وفي المؤنث شقواوات مثل حمراوات "

قال ابن هشام معقّبا : " قوله : إذا كان المذكر أشقى فالمؤنث شقواء والجمع شقو ليس بجيد إذ لم يفرّق بين أفعل الذي يكون نعتا للنكرة وبين أفعل الذي يجري مجرى الأسماء ولا يكون نعتا للنكرة إلا بمن وإنما يكون مضافا أو مقرونا بأل وإنما الأنثى في هذا الشقيا وجمع المذكر الأشقون والأشاقي في القياس جائز وكما تقول الأكبر والأكبرون والأكابر وجمع الأنثى الشّقى والشقييات كما تقول الكبرى والكبر والكبريات " (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَسُقْياها) الفاء عاطفة وقال فعل ماض مبني على الفتح ولهم متعلقان بقال ورسول اللّه فاعل وناقة اللّه منصوب على التحذير على حذف مضاف أي ذروا عقرها واحذروا سقياها ، وسيأتي بحث عن التحذير في باب الفوائد ، وسقياها عطف على ناقة اللّه أي وشربها (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها وَلا يَخافُ عُقْباها) الفاء عاطفة وكذبوه فعل وفاعل ومفعول به ، فعقروها عطف على فكذبوه أي عقرها قدار في رجليها فأوقعها فذبحوها وتقاسموا لحمها ، فدمدم عطف أيضا وعليهم متعلقان بدمدم وربهم فاعل وبذنبهم متعلقان بدمدم أيضا والباء للسببية أي بسبب ذنبهم ، فسوّاها عطف على دمدم والواو حرف عطف ولا نافية ويخاف عقباها فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإنما جعلنا الواو عاطفة لتلائم قراءة الفاء وهي سبعية أيضا ، على أن المعربين والمفسرين يقولون إن الواو حالية أو استئنافية وممّن قال بأنها عاطفة ابن خالويه .

البلاغة :

في قوله " ولا يخاف عقباها " استعارة تمثيلية على اعتبار أن الضمير في يخاف للّه عزّ وجلّ وهو الظاهر أي أنه سبحانه لا يخاف عاقبتها كما تخاف الملوك عاقبة أفعالها ، والمقصود من الاستعارة

(250/817)

إهانتهم وإذلالهم ، ويجوز أن يعود الضمير على الرسول أي أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وتبقى الاستعارة ، وقال السدّي ومقاتل والزجّاج وأبو علي : الواو واو الحال والضمير في يخاف عائد على أشقاها أي انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبى فعله لكفره وطغيانه والعقبى خاتمة الشيء وما يجيء من الأمور بعقبه ، وهذا فيه بعد لطول الفصل بين الحال وصاحبها .

الفوائد :

التحذير : هو نصب الاسم بفعل محذوف يفيد التنبيه والتحذير ويقدّر بحسب ما يناسب المقام كاحذر وباعد وتجنب وق وتوق ونحوها ، ويكون التحذير :

1 - تارة بلفظ إياك وفروعه ، نحو إياك والكذب فإياك ضمير بارز منفصل في محل نصب

مفعول لفعل محذوف تقديره باعد أو ق أو احذر والكذب معطوف على إياك أو مفعول به لفعل محذوف أيضا كما تقدم ، ولك أن تجعل الواو للمعية والكذب مفعولا معه .

2- وتارة بدون إياك وفروعه نحو نفسك والشر والأسد الأسد وإعرابها كما تقدم .

3- وتارة بلفظ إياه وإياي وفروعهما إذا عطف على المحذّر كقوله :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه

والعامل في التحذير يضمر وجوبا في ثلاثة مواضع :

1- أن يكون المحذّر به نفس إياك وفروعه .

2- أن يكون هناك عطف .

3- أن يكون هناك تكرار كقولك : الأسد الأسد .

ومن العجيب أن النسفي ذكر في تفسيره أن قوله تعالى : ناقة اللّه وسقياها ، إغراء ، ولا شك في إشكاله بحسب الظاهر لأن الإغراء لا يصدق عليه بحسب الظاهر بل الصادق عليه إنما هو التحذير . انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 493 .

500 ﴾

(251/817)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الشَّمْسِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَد بْنُ تَيْمِيَّة - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - :

فَصْلٌ :

فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ وَالْقَمَرِ إذَا تَلَاهَا ﴾ ﴿ وَالنَّهَارِ إذَا جَلَّاهَا ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَاهَا ﴾ . وَضَمِيرُ التَّأْنِيثِ فِي ﴿ جَلَّاهَا ﴾ و ﴿ يَغْشَاهَا ﴾ لَمْ يَتَقَدَّمْ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ إلَّا الشَّمْسُ فَيَقْتَضِي أَنَّ النَّهَارَ يُجَلِّي الشَّمْسَ وَأَنَّ اللَّيْلَ يَغْشَاهَا و " التَّجْلِيَةُ " الْكَشْفُ وَالْإِظْهَارُ و " الْغَشَيَانُ " التَّغْطِيَةُ وَاللَّبْسُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ظَرْفَا الزَّمَانِ وَالْفِعْلُ إذَا أُضِيفَ إلَى الزَّمَانِ فَقِيلَ هَذَا الزَّمَانُ أَوْ هَذَا الْيَوْمُ يَبْرُدُ أَوْ يُبَرِّدُ أَوْ يُنْبِتُ الْأَرْضَ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَالْمَقْصُودُ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِيهِ كَمَا يُوصَفُ الزَّمَانُ بِأَنَّهُ عَصِيبٌ وَشَدِيدٌ وَنَحْسٌ وَبَارِدٌ وَحَارٌّ وَطَيِّبٌ وَمَكْرُوهٌ وَالْمُرَادُ وَصْفُ مَا فِيهِ . فَكَوْنُ الشَّيْءِ فَاعِلًا وَمَوْصُوفًا هُوَ بِحَسَبِ مَا يَلِيقُ بِهِ كُلُّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ .

(252/817)

فَالنَّهَارُ يُجَلِّي الشَّمْسَ وَاللَّيْلُ يَغْشَاهَا وَإِنْ كَانَ ظُهُورُ الشَّمْسِ هُوَ سَبَبُ النَّهَارِ وَمَغِيبُهَا سَبَبُ اللَّيْلِ . وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ فَأَضَافَ الضُّحَى إلَيْهَا . وَالضُّحَى يَعُمُّ النَّهَارَ كُلَّهُ كَمَا قَالَ ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ وَقَالَ ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إذَا سَجَى ﴾ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فَقَدْ قِيلَ : إنَّ " مَا " مَصْدَرِيَّةٌ وَالتَّقْدِيرُ : وَالسَّمَاءِ وَبِنَاءِ اللَّهِ إيَّاهَا وَالْأَرْضِ وَطَحْوِ اللَّهِ إيَّاهَا وَنَفْسٍ وَتَسْوِيَةِ اللَّهِ إيَّاهَا . لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ الْفَاعِلِ فِي الْجُمْلَةِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَدَّرَ الْمَصْدَرُ هُنَا مُضَافًا إلَى الْفِعْلِ فَقَطْ فَيُقَالُ " وَبِنَائِهَا " لِأَنَّ الْفَاعِلَ مَذْكُورٌ فِي الْجُمْلَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ﴿ وَمَا طَحَاهَا ﴾ فَإِنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَاعِلٍ فِي الْجُمْلَةِ وَمَفْعُولٍ أَيْضًا . فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي التَّقْدِيرِ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ . لَكِنْ إذَا كَانَتْ مَصْدَرِيَّةً كَانَتْ " مَا " حَرْفًا لَيْسَ فِيهَا ضَمِيرٌ فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْفَاعِلِ فِي " بَنَاهَا " عَائِدًا عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ بَلْ إلَى مَعْلُومٍ وَالتَّقْدِيرُ : وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا اللَّهُ وَهَذَا خِلَافُ الْأَصْلِ ؛ وَخِلَافُ الظَّاهِرِ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهَا مَوْصُولَةٌ وَالتَّقْدِيرُ : الَّذِي بَنَاهَا وَالَّذِي طَحَاهَا . و " مَا " فِيهَا عُمُومٌ وَإِجْمَالٌ يَصْلُحُ لِمَا لَا يُعْلَمُ وَلِصِفَاتِ مَنْ يَعْلَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . وَهَذَا الْمَعْنَى يَجِيءُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ . وَهَذَا الْمَعْنَى كَمَا أَنَّهُ ظَاهِرُ الْكَلَامِ وَأَصْلُهُ هُوَ أَكْمَلُ فِي الْمَعْنَى أَيْضًا . فَإِنَّ الْقَسَمَ بِالْفَاعِلِ يَتَضَمَّنُ الْإِقْسَامَ بِفِعْلِهِ بِخِلَافِ الْإِقْسَامِ بِمُجَرَّدِ الْفِعْلِ . وَأَيْضًا فَالْأَقْسَامُ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ عَامَّتُهَا بِالذَّوَاتِ الْفَاعِلَةِ وَغَيْرِ الْفَاعِلَةِ . يُقْسِمُ بِنَفْسِ الْفِعْلِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ تَارَةً يُقْسِمُ بِنَفْسِ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ وَتَارَةً بِرَبِّهَا وَخَالِقِهَا كَقَوْلِهِ ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَكَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وَتَارَةً يُقْسِمُ بِهَا وَبِرَبِّهَا . وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ أَقْسَمَ بِمَخْلُوقٍ وَبِفِعْلِهِ ؛ وَأَقْسَمَ بِمَخْلُوقٍ دُونَ فِعْلِهِ فَأَقْسَمَ بِفَاعِلِهِ .

(254/817)

فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴾ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ . فَأَقْسَمَ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآثَارِهَا وَأَفْعَالِهَا كَمَا

فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فَإِنَّهُ بِأَفْعَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَآثَارِهَا تَقُومُ مَصَالِحُ بَنِي آدَمَ وَسَائِرُ الْحَيَوَانِ . وَقَالَ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : " وَنَهَارِهَا " وَلَا " ضِيَائِهَا " لِأَنَّ " الضُّحَى " يَدُلُّ عَلَى النُّورِ وَالْحَرَارَةِ جَمِيعًا وَبِالْأَنْوَارِ وَالْحَرَارَةِ تَقُومُ مَصَالِحُ الْعِبَادِ . ثُمَّ أَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَبِالنَّفْسِ وَلَمْ يَذْكُرْ مَعَهَا فِعْلًا فَذَكَرَ فَاعِلَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ﴿ وَمَا طَحَاهَا ﴾ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ . فَلَمْ يَصْلُحْ أَنْ يُقْسِمَ بِفِعْلِ النَّفْسِ لِأَنَّهَا تَفْعَلُ الْبِرَّ وَالْفُجُورَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُقْسِمُ إلَّا بِمَا هُوَ مُعَظَّمٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ . لَكِنْ ذَكَرَ فِي ضَمِيرِ الْقَسَمِ أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . فَإِذَا كَانَ قَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ خَالِقُ فِعْلِ الْعَبْدِ الَّذِي هُوَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ فِعْلًا وَاخْتِيَارًا وَقُدْرَةً فَلَأَنْ يَكُونَ خَالِقَ فِعْلِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

(255/817)

وَأَمَّا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ فَلَيْسَ لَهُمَا فِعْلٌ ظَاهِرٌ يُعَظَّمُ فِي النُّفُوسِ حَتَّى يُقْسِمَ بِهَا إلَّا مَا يَظْهَرُ مِنْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وَالسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أَعْظَمُ مِنْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالنَّفْسُ أَشْرَفُ الْحَيَوَانِ الْمَخْلُوقِ . فَكَانَ الْقَسَمُ بِصَانِعِ هَذِهِ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ مُنَاسِبًا وَكَانَ

إقْسَامُهُ بِصَانِعِهَا تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ صَانِعٌ مَا فِيهَا مِنْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . فَتَضَمَّنَ الْكَلَامُ الْإِقْسَامَ بِصَانِعِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَبِأَعْيَانِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ الْآثَارِ وَالْمَنَافِعِ لِبَنِي آدَمَ . وَخَتَمَ الْقَسَمَ بِالنَّفْسِ الَّتِي هِيَ آخِرُ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْمَخْلُوقَاتِ . وَبَيَّنَ أَنَّهُ خَالِقٌ جَمِيعَ أَفْعَالِهَا وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ خَالِقٌ جَمِيعَ أَفْعَالِ مَا سِوَاهَا . وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَ مَا ذَكَرَ مِنْ عُمُومِ خَلْقِهِ لِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى مَرَاتِبِهَا حَتَّى أَفْعَالِ الْعَبْدِ الْمُنْقَسِمَةِ إلَى التَّقْوَى وَالْفُجُورِ وَبَيْنَ انْقِسَامِ الْأَفْعَالِ إلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَانْقِسَامِ الْفَاعِلِينَ إلَى مُفْلِحٍ وَخَائِبٍ سَعِيدٍ وَشَقِيٍّ . وَهَذَا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ . فَكَانَ فِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ الَّذِينَ يُخْرِجُونَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ عَنْ خَلْقِهِ وَإِلْهَامِهِ وَعَلَى الْقَدَرِيَّةِ المشركية الَّذِينَ يُبْطِلُونَ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ . احْتِجَاجًا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ .

(256/817)

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ إنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إلَى " اللَّهِ " أَيْ " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا اللَّهُ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا اللَّهُ " . وَهَذَا مُخَالِفٌ لِلظَّاهِرِ بَعِيدٌ عَنْ نَهْجِ الْبَيَانِ الَّذِي أَلِفَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ إذْ كَانَ الْأَحْسَنُ " قَدْ أَفْلَحَتْ مَنْ زَكَّاهَا اللَّهُ وَقَدْ خَابَتْ مَنْ دَسَّاهَا " وَهَذَا ضَعِيفٌ . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا

﴿ بَيَانٌ لِلْقَدَرِ فَلَا حَاجَةَ إلَى ذِكْرِهِ . مَرَّةً ثَانِيَةً عَقِبَ ذَلِكَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السُّورَةِ الْقَصِيرَةِ . وَلِهَذَا لَمْ يُذْكَرْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إثْبَاتِ الْقَدَرِ إلَّا هَذِهِ الْآيَةُ دُونَ الثَّانِيَةِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدؤلي قَالَ قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ : أَرَأَيْت مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟ فَقُلْت : بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ . قَالَ فَقَالَ : أَفَلَا يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا ؟ قَالَ : فَفَزِعْت مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْت : كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ وَمِلْكُ يَدِهِ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . فَقَالَ لِي : يَرْحَمُك اللَّهُ : إنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُك إلَّا لِأُحْرِزَ عَقْلَك . فَإِنَّ ﴿ رَجُلَيْنِ مِنْ مزينة أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْت مَا يَعْمَلُ النَّاسُ

(257/817)

الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ

(258/817)

قَدْ سُبِقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ : لَا بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ ﴾ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ تَصْدِيقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الْقَضَاءِ قَوْلُهُ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وَالَّذِي فِي الْحَدِيثِ هُوَ الْقَدَرُ السَّابِقُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَكَلَامِهِ ؛ وَهَذَا إنَّمَا تُنْكِرُهُ غَالِيَةُ الْقَدَرِيَّةِ . وَأَمَّا الَّذِي فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ خَلْقُ اللَّهِ أَفْعَالَ الْعِبَادِ وَهَذَا أَبْلَغُ . فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ الْمَجُوسِيَّةَ تُنْكِرُهُ . فَالَّذِي فِي الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الْحَدِيثِ وَزِيَادَةٌ وَلِهَذَا جَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَدِّقًا لَهُ . وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ . أَحَدُهَا : أَنَّهُ إذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُلْهِمُ لِلْفُجُورِ وَالتَّقْوَى وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ ظُلْمٌ كَمَا تَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ الإبليسية وَلَا مُخَالَفَةٌ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ كَمَا تَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ المشركية فَالْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ ذَلِكَ وَقَدَّرَهُ قَبْلَ وُجُودِهِ مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَةِ الْقَدَرِ . وَلِهَذَا قَدْ أَقَرَّ بِالْقَدَرِ السَّابِقِ جُمْهُورُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ خَلْقَ الْأَفْعَالِ . وَلَمْ يُثْبِتْ أَحَدٌ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَيُنْكِرُهُ مِنْ جِهَةِ الْقَدَرِ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ

(259/817)

ذَلِكَ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ إذَا ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ فِعْلِ الْعَبْدِ وَأَنَّهُ الْمُلْهِمُ الْفُجُورَ وَالتَّقْوَى كَانَ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ مَصْنُوعَاتِهِ وَالشُّبْهَةُ الَّتِي عَرَضَتْ لِلْقَدَرِيَّةِ الَّتِي سَأَلَ المزنيان النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا هِيَ فِي أَعْمَالِ الْعِبَادِ الَّتِي عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ خَاصَّةً وَلَمْ يُنْكِرُوا مِنْ جِهَةِ الْقَدَرِ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَا يَخْلُقُهُ هُوَ قَبْلَ وُجُودِهِ . وَإِنَّمَا أَنْكَرَ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ إذَا اشْتَبَهَ أَمْرُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ الْأُمُورَ قَبْلَ وُجُودِهَا إلَّا أَفْعَالَ الْعِبَادِ وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ . فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهُ حَتَّى يَكُونَ لِأَنَّ أَمْرَ الْأَمِيرِ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمُكَلَّفَ لَا يُطِيعُهُ فِيهِ بَلْ يَكُونُ ضَرَرًا عَلَيْهِ مُسْتَقْبَحٌ عِنْدَهُمْ . وَقَدْ حَكَى طَوَائِفُ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَغَيْرِهِمْ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ عَنْ الْمُعْتَزِلَةِ . وَقَالُوا : يَجُوزُ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ الْعَبْدَ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ . لِأَنَّ فِي جِنْسِ الْمُعْتَزِلَةِ مَنْ يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِيهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . فَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ قَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ الْمُلْهِمُ لِلنَّفْسِ فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ مَفْعُولَاتِهِ . فَلَا تَبْقَى شُبْهَةُ الْقَدَرِيَّةِ أَنَّهُ قَدَّرَ ذَلِكَ قَبْلَ وُجُودِهِ كَمَا لَا شُبْهَةَ عِنْدَهُمْ فِي تَقْدِيرِهِ لِمَا يَخْلُقُهُ مِنْ الْأَعْيَانِ وَالصِّفَاتِ .

وَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ تَقْدِيرَهُ الْعِلْمَ مِنْ مُنْكِرَةِ الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ مَأْخَذٌ آخَرُ لَيْسَ مَأْخَذُهُمْ أَمْرَ الصِّفَاتِ . الْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَلْهَمَ الْفُجُورَ وَالتَّقْوَى وَهُوَ خَالِقُ فِعْلِ الْعَبْدِ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا خَلَقَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ كَمَا قَالَ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ لِأَنَّ الْفَاعِلَ الْمُخْتَارَ يُرِيدُ مَا يَفْعَلُهُ وَالْإِرَادَةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِتَصَوُّرِ الْمُرَادِ . وَذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُرَادِ الْمَفْعُولِ . وَإِذَا كَانَ خُلُقُهُ لِلشَّيْءِ مُسْتَلْزِمًا لِعِلْمِهِ بِهِ فَذَلِكَ أَصْلُ الْقَدَرِ السَّابِقِ وَمَا عَلِمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ وَبِكُتُبِهِ فَلَا نِزَاعَ فِيهِ . وَهَذَا بَيِّنٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ . فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إذَا أَلْهَمَ الْفُجُورَ وَالتَّقْوَى فَالْمُلْهَمُ إنْ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى وَيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ هَذَا فُجُورٌ وَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ هَذَا تَقْوَى لَمْ يَصِحَّ مِنْهُ إلْهَامُ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى . فَظَهَرَ بِهَذَا حُسْنُ مَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَصْدِيقِ الْآيَةِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْقَدَرِ السَّابِقِ . وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ كَمَا يَدُلُّ عَلَى الْقَدَرِ فَيَدُلُّ عَلَى الشَّرْعِ . فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ " فَأَلْهَمَهَا أَفْعَالَهَا " كَمَا يَقُولُ النَّاسُ

" خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ " لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَمْيِيزٌ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْمَأْمُورِ بِهِ وَالْمَنْهِيِّ عَنْهُ . بَلْ كَانَ فِيهِ حُجَّةٌ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ الْمُبَاحِيَةِ وَالْجَبْرِيَّةِ الَّذِينَ يَدْفَعُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْحُسْنَ وَالْقُبْحَ ؛ فَإِنَّهُ خَلَقَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ . فَلَمَّا قَالَ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ كَانَ الْكَلَامُ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْحَسَنِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَالْقَبِيحِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَأَنَّ الْأَفْعَالَ مُنْقَسِمَةٌ إلَى حَسَنٍ وَسَيِّئٍ مَعَ كَوْنِهِ تَعَالَى خَالِقَ الصِّنْفَيْنِ . وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ يَذْكُرُ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ وَأَفْعَالَهُمَا الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ ؛ وَيَذْكُرُ أَنَّهُ خَالِقُ الصِّنْفَيْنِ كَقَوْلِهِ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَهَذَا الْأَصْلُ ضَلَّتْ فِيهِ الْجَبْرِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ : فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ الْمَجُوسِيَّةَ قَالُوا : إنَّ الْأَفْعَالَ تَنْقَسِمُ إلَى حَسَنٍ وَقَبِيحٍ لِصِفَاتٍ قَائِمَةٍ بِهَا وَالْعَبْدُ هُوَ الْمُحْدِثُ لَهَا بِدُونِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَبِدُونِ خَلْقِهِ . فَقَالَتْ الْجَبْرِيَّةُ : بَلْ الْعَبْدُ مَجْبُورٌ عَلَى فِعْلِهِ وَالْجَبْرُ حَقٌّ يُوجِبُ وُجُودَ أَفْعَالِهِ عِنْدَ وُجُودِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللَّهُ وَامْتِنَاعُ وُجُودِهَا عِنْدَ عَدَمِ شَيْءٍ مِنْ الْأَسْبَابِ . وَإِذَا كَانَ مَجْبُورًا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ حَسَنًا أَوْ قَبِيحًا لِمَعْنًى يَقُومُ بِهِ .

(263/817)

وَهَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي وَنَحْوِهِ مِنْ الْجَبْرِيَّةِ النَّافِينَ لِانْقِسَامِ الْفِعْلِ فِي نَفْسِهِ إلَى حَسَنٍ وَقَبِيحٍ . وَالْأُولَى طَرِيقَةُ أَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ وَنَحْوِهِ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ لَمْ يُحْدِثْهُ إلَّا هُوَ وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِيٌّ أَوْ نَظَرِيٌّ ؛ وَأَنَّ الْفِعْلَ يَنْقَسِمُ فِي نَفْسِهِ إلَى حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَالْعِلْمُ بِذَلِكَ ضَرُورِيٌّ . وَأَبُو الْحُسَيْنِ هُوَ إمَامُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَلَهُ مِنْ الْعَقْلِ وَالْفَضْلِ مَا لَيْسَ لِأَكْثَرِ نُظَرَائِهِ . لَكِنْ هُوَ قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِالسُّنَنِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ وَطَرِيقَةِ السَّلَفِ . وَهُوَ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي فِي هَذَا الْبَابِ فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ وَمَعَ كُلٍّ مِنْهُمَا مِنْ الْحَقِّ مَا لَيْسَ مَعَ الْآخَرِ . فَأَبُو الْحُسَيْنِ يَدَّعِي أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْعَبْدَ يُحْدِثُ فِعْلَهُ ضَرُورِيٌّ وَالرَّازِي يَدَّعِي أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ افْتِقَارَ الْفِعْلِ الْمُحْدَثِ الْمُمْكِنِ إلَى مُرَجِّحٍ يَجِبُ وُجُودُهُ عِنْدَهُ وَيَمْتَنِعُ عِنْدَ عَدَمِهِ ضَرُورِيٌّ كَذَلِكَ . بَلْ كِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنْ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ . ثُمَّ يَعْتَقِدُ كُلُّ فَرِيقٍ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ يُبْطِلُ مَا ادَّعَاهُ الْآخَرُ مِنْ الضَّرُورَةِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . بَلْ كِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنْ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ وَمُصِيبٌ فِي ذَلِكَ وَإِنَّمَا وَقَعَ غَلَطُهُ فِي إنْكَارِهِ مَا مَعَ الْآخَرِ مِنْ الْحَقِّ . فَإِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِ الْعَبْدِ مُحْدِثًا لِفِعْلِهِ وَكَوْنِ

هَذَا الْإِحْدَاثِ مُمْكِنُ الْوُجُودِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمَحْضَةِ أَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً كَمَا ادَّعَاهُ أَبُو الْحُسَيْنِ مِنْ الضَّرُورَةِ ؛ لَا يَقُولُونَ : لَيْسَ بِفَاعِلٍ حَقِيقَةً أَوْ لَيْسَ بِفَاعِلٍ كَمَا يَقُولُهُ الْمَائِلُونَ إلَى الْجَبْرِ مِثْلُ طَائِفَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي . يَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ : إنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ لِهَذَا الْفَاعِلِ وَلِفِعْلِهِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ فَاعِلًا حَقِيقَةً وَهُوَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ طَائِفَةِ الرَّازِي وَغَيْرِهِمْ ؛ لَا كَمَا يَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ مِثْلُ أَبِي الْحُسَيْنِ وَطَائِفَتِهِ : إنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ . وَلِهَذَا نَصَّ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَمَنْ قَبْلَهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ كَالْأَوزَاعِي وَغَيْرِهِ عَلَى إنْكَارِ إطْلَاقِ الْقَوْلِ بِالْجَبْرِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا فَلَا يُقَالُ " إنَّ اللَّهَ جَبَرَ الْعِبَادَ " وَلَا يُقَالُ " لَمْ يَجْبُرْهُمْ " . فَإِنَّ لَفْظَ " الْجَبْرِ " فِيهِ اشْتِرَاكٌ وَإِجْمَالٌ . فَإِذَا قِيلَ " جَبَرَهُمْ " أَشْعَرَ بِأَنَّ اللَّهَ يُجْبِرُهُمْ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ وَإِذَا قِيلَ " لَمْ يُجْبِرْهُمْ " أَشْعَرَ بِأَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ مَا يَشَاءُونَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَكِلَاهُمَا خَطَأٌ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ اعْتَقَدُوا تَنَافِي الْقَدَرِ وَالشَّرْعِ كَمَا اعْتَقَدَ ذَلِكَ الْمَجُوسُ وَالْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا : إذَا كَانَ خَالِقًا لِلْفِعْلِ

امْتَنَعَ

أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ فِي نَفْسِهِ حَسَنًا لَهُ ثَوَابٌ أَوْ قَبِيحًا عَلَيْهِ عِقَابٌ . ثُمَّ قَالَتْ الْقَدَرِيَّةُ : لَكِنَّ الْفِعْلَ مُنْقَسِمٌ فَلَيْسَ خَالِقًا لِلْفِعْلِ . وَقَالَتْ الْجَبْرِيَّةُ : لَكِنَّهُ خَالِقٌ فَلَيْسَ الْفِعْلُ مُنْقَسِمًا . وَلَكِنَّ الْجَبْرِيَّةَ الْمُقِرُّونَ بِالرُّسُلِ يُقِرُّونَ بِالِانْقِسَامِ مِنْ جِهَةِ أَمْرِ الشَّارِعِ وَنَهْيِهِ فَقَطْ وَيَقُولُونَ : لَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا شَاءَ لَا لِمَعْنًى فِيهِ وَيَنْهَى عَمَّا يَشَاءُ لَا لِأَجْلِ مَعْنًى فِيهِ وَيَقُولُونَ فِي خَلْقِهِ وَفِي أَمْرِهِ جَمِيعًا : يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . وَأَمَّا مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ رَأْيٌ أَوْ هَوًى فَإِنَّهُ يَنْحَلُّ عَنْ رِبْقَةِ الشَّارِعِ إذَا عَايَنَ الْجَبْرَ وَيَقُولُونَ مَا يَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ وَمَنْ أَقَرَّ بِالشَّرْعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ دُونَ الْقَدَرِ وَخَلْقِ الْأَفْعَالِ كَمَا عَلَيْهِ الْمُعْتَزِلَةُ فَهُوَ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ الَّذِينَ شَابَهُوا الْمَجُوسَ . وَلِلْمُعْتَزِلَةِ مِنْ مُشَابَهَةِ الْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ نَصِيبٌ وَافِرٌ . وَمَنْ أَقَرَّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَخَلْقِ الْأَفْعَالِ وَعُمُومِ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَنْكَرَ الْمَعْرُوفَ وَالْمُنْكَرَ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ وَالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئَةِ .

وَكَانَ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ كَذَلِكَ لَمَّا نَاظَرَ أَهْلَ الْهِنْدِ كَمَا كَانَ الْمُعْتَزِلَةُ كَذَلِكَ لَمَّا نَاظَرُوا الْمَجُوسَ الْفُرْسَ وَالْمَجُوسُ أَرْجَحُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ . فَإِنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ أَوْ لَمْ يُقِرَّ بِذَلِكَ فَهُوَ مُشْرِكٌ صَرِيحٌ كَافِرٌ أَكْفَرُ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ كَمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ أَهْلِ الْإِبَاحَةِ وَنَحْوِهِمْ . وَلِهَذَا لَمْ يَظْهَرْ هَؤُلَاءِ وَنَحْوُهُمْ فِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالنُّبُوَّةِ . وَإِنَّمَا ظَهَرَ أُولَئِكَ الْقَدَرِيَّةُ الْمَجُوسِيَّةُ لِأَنَّ مَذْهَبَهُمْ فِيهِ تَعْظِيمٌ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . فَهُمْ أَقْرَبُ إلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالرَّسُولِ وَالدِّينِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُعَطِّلَةِ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ . وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ الإبليسية فَهَمّ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِوُجُودِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ اللَّهِ وَيُقِرُّونَ مَعَ ذَلِكَ بِوُجُودِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مِنْهُ لَكِنْ يَقُولُونَ : هَذَا فِيهِ جَهْلٌ وَظُلْمٌ . فَإِنَّهُ بِتَنَاقُضِهِ يَكُونُ جَهْلًا وَسَفَهًا وَبِمَا فِيهِ مِنْ عُقُوبَةِ الْعَبْدِ بِمَا خَلَقَ فِيهِ يَكُونُ ظُلْمًا . وَهَذَا حَالُ إبْلِيسَ . فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

(267/817)

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . فَأَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ أَغْوَاهُ ثُمَّ جَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَهُ دَاعِيًا يَقْتَضِي أَنْ يُغْوِيَ هُوَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ . وَإِبْلِيسُ هُوَ أَوَّلُ مَنْ عَادَى اللَّهَ وَطَغَى فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَعَارَضَ النَّصَّ بِالْقِيَاسِ .

وَلِهَذَا يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ : أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إبْلِيسُ . فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَاعْتَرَضَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ بِأَنِّي خَيْرٌ مِنْهُ وَامْتَنَعَ مِنْ السُّجُودِ . فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَادَى اللَّهَ وَهُوَ الْجَاهِلُ الظَّالِمُ الْجَاهِلُ بِمَا فِي أَمْرِ اللَّهِ مِنْ الْحِكْمَةِ الظَّالِمُ بِاسْتِكْبَارِهِ الَّذِي جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ بَطَرِ الْحَقِّ وَغَمْطِ النَّاسِ . ثُمَّ قَوْلُهُ لِرَبِّهِ " فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَفْعَلَنَّ " جَعَلَ فِعْلَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ إغْوَاؤُهُ لَهُ حُجَّةً لَهُ وَدَاعِيًا إلَى أَنْ يُغْوِيَ ابْنَ آدَمَ . وَهَذَا طَعْنٌ مِنْهُ فِي فِعْلِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَزَعْمٌ مِنْهُ أَنَّهُ قَبِيحٌ فَأَنَا أَفْعَلُ الْقَبِيحَ أَيْضًا . فَقَاسَ نَفْسَهُ عَلَى رَبِّهِ وَمَثَّلَ نَفْسَهُ بِرَبِّهِ . وَلِهَذَا كَانَ مُضَاهِيًا لِلرُّبُوبِيَّةِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : إنَّ إبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْبَحْرِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً أَقْرَبُهُمْ إلَيْهِ مَنْزِلَةً . فَيَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ : مَا زِلْت بِهِ حَتَّى فَعَلَ كَذَا . ثُمَّ يَجِيءُ الْآخَرُ فَيَقُولُ : مَا زِلْت بِهِ حَتَّى فَرَّقْت بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ فَيَلْتَزِمُهُ وَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ : أَنْتَ أَنْتَ ﴾ .

(268/817)

وَالْقَدَرِيَّةُ قَصَدُوا تَنْزِيهَ اللَّهِ عَنْ السَّفَهِ وَأَحْسَنُوا فِي هَذَا الْقَصْدِ . فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ مِنْ إبْلِيسَ وَجُنُودِهِ عُلُوًّا كَبِيرًا حَكَمٌ عَدْلٌ . لَكِنْ ضَاقَ ذَرْعُهُمْ وَحَصَلَ عِنْدَهُمْ نَوْعُ جَهْلٍ اعْتَقَدُوا مَعَهُ أَنَّ هَذَا التَّنْزِيهَ لَا يَتِمُّ إلَّا بِأَنْ يَسْلُبُوهُ قُدْرَتَهُ عَلَى أَفْعَالِ الْعِبَادِ

وَخَلْقِهِ لَهَا وَشُمُولِ إرَادَتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ . فَنَاظَرُوا إبْلِيسَ وَحِزْبَهُ فِي شَيْءٍ وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ آفَاتِ الْجِدَالِ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَوْ بِغَيْرِ الْحَقِّ . وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَرُدُّ بَاطِلًا بِبَاطِلٍ وَبِدْعَةً بِبِدْعَةٍ . فَجَاءَ طَوَائِفُ مِمَّنْ نَاظَرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ لِيُقَرِّرُوا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . فَضَاقَ ذَرْعُهُمْ وَعِلْمُهُمْ وَاعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا لَا يَتِمُّ إنْ لَمْ نُنْكِرْ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرِضَاهُ وَمَا خَصَّ بِهِ بَعْضَ الْأَفْعَالِ دُونَ بَعْضٍ مِنْ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ؛ وَنُنْكِرُ حِكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ كُلُّ فِعْلٍ لَا يُنَزَّهُ عَنْ ظُلْمٍ وَلَا غَيْرِهِ مِنْ الْأَفْعَالِ . وَزَادَ قَوْمٌ فِي ذَلِكَ حَتَّى عَطَّلُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ رَأْسًا . وَمَالَ هَؤُلَاءِ إلَى الْإِرْجَاءِ كَمَا مَالَ الْأَوَّلُونَ إلَى الْوَعِيدِ . فَقَالَتْ الوعيدية :

(269/817)

كُلُّ فَاسِقٍ خَالِدٌ فِي النَّارِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ؛ وَقَالَتْ الْخَوَارِجُ : هُوَ كَافِرٌ . وَغَالِيَةُ الْمُرْجِئَةِ أَنْكَرَتْ عِقَابَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ . وَمَنْ صَرَّحَ بِالْكُفْرِ أَنْكَرَ الْوَعِيدَ فِي الْآخِرَةِ رَأْسًا كَمَا يَفْعَلُهُ طَوَائِفُ مِنْ الِاتِّحَادِيَّةِ والمتفلسفة وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةُ الْمُرْجِئَةُ أَكْفَرُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ الوعيدية الْقَدَرِيَّةِ . وَأَمَّا مُقْتَصِدَةُ

الْمُرْجِئَةِ الْجَبْرِيَّةِ الَّذِينَ يُقِرُّونَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ فَهَؤُلَاءِ أَقْرَبُ النَّاسِ إلَى أَهْلِ السُّنَّةِ . وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : لُعِنَتْ الْقَدَرِيَّةُ وَالْمُرْجِئَةُ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا أَنَا آخِرُهُمْ ﴾ . لَكِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ أَصْلَحُ مِنْ الْجَبْرِيَّةِ وَالْمُرْجِئَةِ وَنَحْوِهِمْ فِي الشَّرِيعَةِ عِلْمَهَا وَعَمَلَهَا . فَكَلَامُهُمْ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَفِي اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ خَيْرٌ مِنْ كَلَامِ الْمُرْجِئَةِ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . فَإِنَّ كَلَامَ هَؤُلَاءِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ قَاصِرٌ جِدًّا وَكَذَلِكَ هُمْ مُقَصِّرُونَ فِي تَعْظِيمِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي . وَلَكِنْ هُمْ فِي أُصُولِ الدِّينِ أَصْلَحُ مِنْ أُولَئِكَ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَخَلْقِهِ بِمَا لَا يُؤْمِنُ بِهِ أُولَئِكَ . وَهَذَا الصِّنْفُ أَعْلَى .

(270/817)

فَلِهَذَا كَانَتْ الْمُرْجِئَةُ فِي الْجُمْلَةِ خَيْرًا مِنْ الْقَدَرِيَّةِ حَتَّى إنَّ الْإِرْجَاءَ دَخَلَ فِيهِ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَغَيْرِهِمْ بِخِلَافِ الِاعْتِزَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ فُقَهَاءِ السَّلَفِ وَأَئِمَّتِهِمْ .

فَصْلٌ :

فَإِذَا كَانَ الضَّلَالُ فِي الْقَدَرِ حَصَلَ تَارَةً بِالتَّكْذِيبِ بِالْقَدَرِ وَالْخَلْقِ . وَتَارَةً بِالتَّكْذِيبِ بِالشَّرْعِ وَالْوَعِيدِ وَتَارَةً بِتَظْلِيمِ الرَّبِّ كَانَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَى هَذِهِ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ إثْبَاتٌ لِلْقَدَرِ بِقَوْلِهِ " فَأَلْهَمَهَا " ؛ وَإِثْبَاتٌ لِفِعْلِ الْعَبْدِ بِإِضَافَةِ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى إلَى نَفْسِهِ لِيَعْلَمَ أَنَّهَا هِيَ الْفَاجِرَةُ وَالْمُتَّقِيَةُ ؛ وَإِثْبَاتٌ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِقَوْلِهِ ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . وَقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ إثْبَاتٌ لِفِعْلِ الْعَبْدِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِفَلَاحِ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ وَخَيْبَةِ مَنْ دَسَّاهَا . وَهَذَا صَرِيحٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ وَعَلَى الْجَبْرِيَّةِ لِلشَّرْعِ أَوْ لِفِعْلِ الْعَبْدِ وَهُمْ الْمُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ .

(271/817)

وَأَمَّا الْمُظْلِمُونَ لِلْخَالِقِ فَإِنَّهُ قَدْ دَلَّ عَلَى عَدْلِهِ بِقَوْلِهِ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ وَالتَّسْوِيَةُ : التَّعْدِيلُ . فَبَيَّنَ أَنَّهُ عَادِلٌ فِي تَسْوِيَةِ النَّفْسِ الَّتِي أَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . وَذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ عُقُوبَةَ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ وَطَغَى وَأَنَّهُ لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ انْتِقَامِهِ مِمَّنْ خَالَفَ رُسُلَهُ لِيُبَيِّنَ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِهَذَا أَوْ بِهَذَا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ وَلَا يَخَافُ عَاقِبَةَ انْتِقَامِهِ كَمَا انْتَقَمَ مِنْ إبْلِيسَ وَجُنُودِهِ وَأَنَّ تَظَلُّمَهُ مِنْ رَبِّهِ وَتَسْفِيهَهُ لَهُ إنَّمَا يُهْلِكُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا . " فَإِنَّ الْعِبَادَ لَنْ يَبْلُغُوا ضُرَّ اللَّهِ فَيَضُرُّوهُ وَلَنْ يَبْلُغُوا نَفْعَهُ فَيَنْفَعُوهُ وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ وَإِنْسَهُمْ وَجِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ وَإِنْسَهُمْ وَجِنَّهُمْ

كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا " . وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أَبَا الْأَسْوَدِ الدؤلي عَنْ ذَلِكَ لِيَحْزِرَ عَقْلَهُ " هَلْ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا ؟ " فَذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْهُ ظُلْمًا وَخَافَ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وَذَكَرَ حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتِشْهَادَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ الْخَائِضِينَ بِالْبَاطِلِ إمَّا أَنْ يَكُونُوا مُكَذِّبِينَ لِمَا

(272/817)

أَخْبَرَ بِهِ الرَّبُّ مِنْ خَلْقِهِ أَوْ أَمْرِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا مُظْلِمِينَ لَهُ فِي حُكْمِهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ الصَّادِقُ الْعَدْلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . فَإِنَّ الْكَلَامَ إمَّا إنْشَاءٌ وَإِمَّا إخْبَارٌ . فَالْإِخْبَارُ صِدْقٌ لَا كَذِبٌ ؛ وَالْإِنْشَاءُ أَمْرُ التَّكْوِينِ وَأَمْرُ التَّشْرِيعِ عَدْلٌ لَا ظُلْمٌ . وَالْقَدَرِيَّةُ الْمَجُوسِيَّةُ كَذَّبُوا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ وَشَرْعِهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالإبليسية جَعَلُوهُ ظَالِمًا فِي مَجْمُوعِهِمَا أَوْ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا . وَقَدْ ظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّ الْمُفْتَرِقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ الْأُمَّةِ إنَّمَا ذَلِكَ بِتَرْكِهِمْ بَعْضَ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ وَأَخْذِهِمْ بَاطِلًا يُخَالِفُهُ وَاشْتِرَاكِهِمْ فِي بَاطِلٍ يُخَالِفُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ . وَهُوَ مِنْ جِنْسِ مُخَالَفَةِ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

إلى قوله ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ . فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسل نسوا حظا مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء واختلفوا فيما بينهم في حق آخر جاء به الرسول فآمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء . وهنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة .

(273/817)

وهذا شأن عامة

الافتراق والاختلاف في هذه الأمة وغيرها . وهذا من ذلك . فإنهم اشتركوا في أن كون الرب خالقا لفعل العبد ينافي كون فعله منقسما إلى حسن وقبيح . وهذه المقدمة اشتركوا فيها جدلا من غير أن تكون حقا في نفسها أو عليها حجة مستقيمة . وهي إحدى المقدمتين التي يعتمدها الرازي في مسألة التحسين والتقبيح . فإنه اعتقد في " محصوله " وغيره على أن العبد مجبور على فعله والمجبور لا يكون فعله قبيحا فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحا . وهذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للرسل الذين قالوا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ فإنهم نفوا

قُبْحَ الشِّرْكِ وَتَحْرِيمَ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ مِنْ الطَّيِّبَاتِ بِإِثْبَاتِ الْقَدَرِ . لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ بِالْجَبْرِ عَلَى نَفْيِ الْأَحْكَامِ إذَا أَقَرُّوا بِالشَّرْعِ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُقِرُّونَ بِالشَّرِيعَةِ كَالْمُشْرِكِينَ وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ جُزْءٌ مِنْ بَاطِلِ الْمُشْرِكِينَ . لَكِنْ يُوجَدُ فِي الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْمُتَصَوِّفَةِ طَوَائِفُ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ الْجَبْرُ حَتَّى

(274/817)

يَكْفُرُوا حِينَئِذٍ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ إمَّا قَوْلًا وَإِمَّا حَالًا وَعَمَلًا . وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذَلِكَ فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي تُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ إسْقَاطَ اللَّوْمِ وَالْعِقَابِ عَنْهُمْ وَلَا يَزِيدُهُمْ ذَلِكَ إلَّا ذَمًّا وَعِقَابًا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنْ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ . فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يُطَّرَدُ الْعَمَلُ بِهِ لِأَحَدٍ إذْ لَا غِنَى لِبَنِي آدَمَ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ إرَادَةِ شَيْءٍ وَالْأَمْرِ بِهِ وَبُغْضِ شَيْءٍ وَالنَّهْيِ عَنْهُ . فَمَنْ طَلَبَ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْمَرْضِيِّ وَالْمَسْخُوطِ وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَالْهُدَى وَالرُّشْدِ وَالْغَيِّ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَمِرُّ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا . بَلْ إذَا حَصَلَ لَهُ مَا يَكْرَهُهُ وَيُؤْذِيهِ فَرَّ إلَى دَفْعِ ذَلِكَ وَعُقُوبَةِ فَاعِلِهِ بِمَا قَدَرَ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْتَدِيَ فِي ذَلِكَ . فَهُمْ مِنْ أَظْلَمِ الْخَلْقِ فِي تَفْرِيقِهِمْ بَيْنَ الْقَبِيحِ مِنْ الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ وَمِمَّنْ يَهْوُونَهُ وَمَنْ لَا يَهْوُونَهُ وَاحْتِجَاجُهُمْ بِالْقَدَرِ لِأَنْفُسِهِمْ دُونَ خُصُومِهِمْ . وَتَجِدُ أَحَدَهُمْ

عِنْدَ فِعْلِ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ يَغْلِبُ عَلَى قَلْبِهِ حَالُ أَهْلِ الْقَدَرِ فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ هُوَ الْمُحْدِثُ لِذَلِكَ دُونَ اللَّهِ وَيَنْسَى نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ

(275/817)

فِي إلْهَامِهِ إيَّاهُ تَقْوَاهُ . وَهَذَا مِنْ أَظْلَمِ الْخَلْقِ كَمَا قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِيٌّ وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ تَمَذْهَبْتَ بِهِ . وَأَهْلُ الْعَدْلِ ضِدُّ ذَلِكَ . إذَا فَعَلُوا حَسَنَةً شَكَرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي حَبَّبَ إلَيْهِمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَرَّهَ إلَيْهِمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ؛ ﴿ وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . فَاتَّبَعُوا أَبَاهُمْ حَيْثُ أَذْنَبَ : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَقَالَ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ " أَبُوءُ لَك بِنِعْمَتِك عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي " كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ . خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُك وَأَنَا عَلَى عَهْدِك وَوَعْدِك مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِك مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ

. أَبوءُ لَك بِنعْمَتِك عَلَيَّ ؛ وَأَبوءُ بِذَنْبِي . فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ . وَكَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ

(276/817)

عَلَيْكُمْ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ شَرًّا فَلَا يَلُومَنْ إلَّا نَفْسَهُ ﴾ . وَيَقُولُونَ بِمُوجَبِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – :

ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ثَمُودَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ فَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ :

هَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى . فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ أَخَفُّ ذَنْبًا وَعَذَابًا مِنْهُمْ (*) إذْ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُمْ مِنْ الذُّنُوبِ مَا ذَكَرَ عَنْ عَادٍ وَمَدْيَنَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَغَيْرِهِمْ . وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَهُمْ وَعَادًا قَالَ ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ وَكَذَلِكَ إذَا

ذَكَرَهُمْ مَعَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُمْ مَا يَذْكُرُ عَنْ أُولَئِكَ مِنْ التَّجَبُّرِ وَالتَّكَبُّرِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ كَاللِّوَاطِ وَبَخْسِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ كَمَا فِي سُورَةِ هُودٍ وَالشُّعَرَاءِ وَغَيْرِهِمَا . فَكَانَ فِي قَوْمِ لُوطٍ مَعَ الشِّرْكِ إتْيَانُ الْفَوَاحِشِ الَّتِي

(277/817)

لَمْ يُسْبَقُوا إلَيْهَا ؛ وَفِي عَادٍ مَعَ الشِّرْكِ التَّجَبُّرُ وَالتَّكَبُّرُ وَالتَّوَسُّعُ فِي الدُّنْيَا وَشِدَّةُ الْبَطْشِ وَقَوْلُهُمْ ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وَفِي أَصْحَابِ مَدْيَنَ مَعَ الشِّرْكِ الظُّلْمُ فِي الْأَمْوَالِ ؛ وَفِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ وَالْعُلُوُّ .

وَكَانَ عَذَابُ كُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِ ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ . فَعُذِّبَ قَوْمُ عَادٍ بِالرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْعَاتِيَةِ الَّتِي لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ ؛ وَعُذِّبَ قَوْمُ لُوطٍ بِأَنْوَاعٍ مِنْ الْعَذَابِ لَمْ يُعَذَّبْ بِهَا أُمَّةٌ غَيْرُهُمْ . فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالرَّجْمِ بِالْحِجَارَةِ مِنْ السَّمَاءِ وَطَمْسِ الْأَبْصَارِ وَقَلْبِ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ بِأَنْ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَالْخَسْفِ بِهِمْ إلَى أَسْفَلَ سَافِلِينَ . وَعَذَّبَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بِالنَّارِ الَّتِي أَحْرَقَتْهُمْ وَأَحْرَقَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ . وَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكَهُمْ بِالصَّيْحَةِ فَمَاتُوا فِي الْحَالِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا عَذَابَهُ لِهَؤُلَاءِ وَذَنْبُهُمْ مَعَ الشِّرْكِ عَقْرُ النَّاقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ آيَةً لَهُمْ فَمَنْ انْتَهَكَ مَحَارِمَ اللَّهِ وَاسْتَخَفَّ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَعَقَرَ عِبَادَهُ وَسَفَكَ

دِمَاءَهُمْ كَانَ أَشَدَّ عَذَابًا . وَمَنْ اعْتَبَرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمَا يُعَاقَبُ بِهِ مَنْ يَسْعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَأَقَامَ الْفِتَنَ وَاسْتَهَانَ بِحُرُمَاتِ اللَّهِ عَلِمَ أَنَّ النَّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16صـ 250.226 ﴾

(278/817)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

40